الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الثلاثون

الاجزاء من ٥٧٠ الى ٥٩٤

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
570	سورة الشعراء	الآية 90 الى الآية 122	2
571	=	الآية 123 الى الآية 191	345
572	=	الآية 192 الى الآية 217	794
573	=	الآية 218 الى الآية 227	1040
574	سورة النمل	فصول مهمة	1732
575	=	الآية 1 الى الآية 14	2139
576	=	الآية 15 الى الآية 19	2430
577	=	الآية 20 الى الآية 26	2648
578	=	الآية 27 الى الآية 44	3443
579	=	الآية 45 الى الآية 58	3896
580	=	الآية 59 الى الآية 66	4231
581	=	الآية 67 الى الآية 86	4543
582	=	الآية 87 الى الآية 93	4843
583	سورة القصص	فصول مهمة	5516
584	=	الآية 1 الى الآية 13	5947
585	=	الآية 14 الى الآية 24	6214
586	=	الآية 25 الى الآية 32	6480
587	=	الآية 33 الى الآية 47	6955
588	=	الآية 48 الى الآية 50	7292
589	=	الآية 51 الى الآية 67	7652
590	=	الآية 68 الى الآية 75	7946
591	=	الآية 76 الى الآية 83	8251
592	=	الآية 84 الى الآية 88	8550
593	سورة العنكبوت	فصول مهمة	8946
594	=	الآية 1 الى الآية 9	9250

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/570)

الجزء السبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 90 ﴾ من سورة الشعراء

وحتى الآية ﴿ 122 ﴾ من نفس السورة

(4/570)

قوله تعالى ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

والظاهر أن قوله ﴿ وأزلفت ﴾ أي قربت بأيسر وجه حال من واو " يبعثون " ﴿ الجنة

للمتقين ﴾ وعرف أهل الموقف أنها لهم خاصة تعجيلاً لسرورهم وزيادة في شرفهم ﴿ وبرزت ﴾ أي كشفت كشفاً عظيماً سهلاً ﴿ الجحيم ﴾ أي النار الشديدة التأجج ، وأصلها نار عظيمة في مهواة بعضها فوق بعض ﴿ للغاوين ﴾ أي الضالين الهالكين بحيث عرف أهل الموقف أنها لهم ﴿ وقيل لهم ﴾ تبكيتاً وتنديماً وتوبيخاً ، وأبهم القائل ليصلح لكل أحد ، تحقيراً لهم ، ولأن المنكىء نفس القول لا كونه من معين : ﴿ أين ما كنتم ﴾ بتسلك الأخلاق التي هي كالجبلات ﴿ تعبدون ﴾ أي في الدنيا على سبيل التجديد والاستمرار .

وحقر معبوداتهم بقوله : ﴿ من دون ﴾ أي من أدنى رتبة من رتب ﴿ الله ﴾ أي الملك الذي لا كفوء له ، وكنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم ويقونكم شر هذا اليوم ﴿ هل ينصرونكم ﴾ فيمنعون عنكم ما برز لكم ﴿ أو ينتصرون ﴾ أي هم بالدفع عن أنفسهم .

(5/570)

ولما تسبب عن هذا التبريز والقول إظهار قدرته تعالى وعجزهم بقذفهم فيها قال : ﴿ فكبكبوا ﴾ أي الأصنام ونحوها ، قلبوا وصرعوا ورموا ، قلباً عظيماً مكرراً سريعاً من كل من أمره الله بقلبهم بعد هذا السؤال ، إظهاراً لعجزهم بالفعل حتى عن الجواب قبل

الجواب ﴿ فيها ﴾ أي في مهواة الجحيم قلباً عنيفاً مضاعفاً كثيراً بعضهم في أثر بعض ﴿ هم ﴾ أي الأصنام وما شابهها مما عبد من الشاطين ونحوهم ﴿ والغاوون ﴾ أي الذي ضلوا بهم ﴿ وجنود إبليس ﴾ من شياطين الإنس والجن ﴿ أجمعون ﴾ .

ولما علم بهذا أنهم لم يتمكنوا من قول في جواب استفامهم توبيخاً ، وكان من المعلوم أن الإنسان مطبوع على أن يقول في كل شيء ينوبه ما يثيره له إدراكه مما يرى أنه يبرد من غلته ، وينفع من علته ، تشوف السامع إلى معرفة قولهم بعد الكبكبة ، فأشير إلى ذلك بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي العبدة ﴿ وهم فيها ﴾ أي الجحيم ﴿ يختصمون ﴾ أي مع المعبودات : ﴿ تالله ﴾ أي الذي له جميع الكمال ﴿ إن كنا لفي ضلال مبين ﴾ أي ظاهر جداً لمن كان له قلب ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ نسويكم ﴾ في الرتبة ﴿ برب العالمين ﴾ أي الذين فطرهم ودبرهم حتى عبدناكم ﴿ وما أضلنا ﴾ أي ذلك الضلال المبين عن الطريق البين ﴿ إلا المجرمون ﴾ أي العريقون في صفة الإجرام ، المقتضي لقطع كل ما ينبغي أن يوصل ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه ما ﴿ لنا ﴾ اليوم ؛ وزادوا في تعميم النفي بزيادة الجارّ فقالوا : ﴿ من شافعين ﴾ يكونون سبباً لإدخالنا الجنة ، لأنا صرفنا ما كان يجب علينا لذي الأمر إلى من لا أمر له ؛ ولعله لم يفرد الشافع لأنهم دخلوا في الشفاعة العظمى .

ولما كان الصديق قد لا يكون أهلاً لأن يشفع ، قالوا تأسفاً على أقل ما يمكن : ﴿ ولا صديق ﴾ أي يصدق في ودنا ليفعل ما ينفعنا .

ولما كان أصدق الصداقة ما كان من القريب قال : ﴿ حميم ﴾ أي قريب ، وأصله المصافي الذي يحرقه ما يحرقك ، لأنا قاطعنا بذلك كل من له أمر في هذا اليوم ؛ وأفرد تعميماً للنفي وإشارة إلى قلته في حد ذاته أو عدمه .

ولما وقعوا في هذا الهلاك ، وانتفى عنهم الخلاص ، تسبب عنه تمنيهم المحال فقالوا : ﴿ فلو أن لنا كرة ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ أي الذين صار الإيمان لهم وصفاً لازماً ، فأزلفت لهم الجنة .

ولما كان في هذه القصة أعظم زاجر عن الشرك ، وآمر بالإيمان ، نبه على ذلك بقوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي هذا الأمر العظيم الذي قصصته ن قول إبراهيم عليه السلام في إقامة البرهان على إبطال الأوثان ، ونصب الدليل على أنه لا حق إلا الملك الجليل الديان ، وترغيبه وترهيبه وإرشاده إلى التزود في أيام المهلة ﴿ لآية ﴾ أي عظيمة على بطلان الباطل وحقوق الحق ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ كان أكثرهم ﴾ أي الذين شهدوا منه هذا الأمر العظيم والذين سمعوه عنه ﴿ مؤمنين ﴾ أي بحيث صار الإيمان صفة لهم ثابتة ، وفي ذلك أعظم تسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأعظم آبائه عليهم الصلاة والسلام ﴿ وإن

ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك وهداية الأمة بك ﴿ لهو العزيز ﴾ أي القادر على إيقاع النقمة بكل من خالفه حين يخالفه ﴿ الرحيم ﴾ أي الفاعل فعل الراحم في إمهاله العصاة مع إدرار النعم ، ودفع النقم ، وإرسال الرسل ، ونصب الشرائع ، لبيان ما يرضاه ليتبع ، وما يسخطه ليتجنب ، فلا يهلك إلا بعد إقامة الحجة بإيضاح المحجة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 371 . 373 ﴾

(7/570)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) ﴾

اعلم أن إبراهيم عليه السلام ذكر في وصف هذا اليوم أموراً : أحدها : قوله : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ والمعنى أن الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويفرحون بأنهم المحشورون إليها والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها قال الله تعالى في صفة أهل الثواب ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : 31] وقال في صفة أهل العقاب : ﴿ فَلَمَّا

رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ [الملك : 27] وإنما يفعل الله تعالى ذلك ليكون سروراً معجلاً للمؤمنين وغماً عظيماً للكافرين ثانيها : قوله : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ والمعنى أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون ﴾ أي الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم ، والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ متبعوه من عصاة الإنس والجن وثالثها : قوله : ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تالله إِن كُنَّا لَفِى ضلال مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ .

واعلم أن ظاهر ذلك أن من عبد خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام ، فليس يخلو حال الأصنام من وجهين إما أن يخلقها الله تعالى في الآخرة جماداً يعذب بها أهل النار فحينئذ لا يصح أن تخاطب ويجب حمل قولهم : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ على أنه ليس بخطاب لهم أو يقال إنه تعالى يحييها في النار ، وذلك أيضاً غير جائز لأنه لا ذنب لها بأن عبدها غيرها .

فالأقرب أنهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة ، والذي يحمل على أنه خطاب في الحقيقة قولهم : ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ المجرمون ﴾ وأرادوا بذلك من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس وهو كقولهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] فأما قولهم : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين ﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ﴿ وَلاَ صَدِيقٍ ﴾ كما نرى لهم أصدقاء لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون ، وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] أو ﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100 ، 101] من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى ، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس ، أو أرادوا أنهم إن وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم ، فقصدوا بنفيهم نفي ما تعلق بهم من النفع ، لأن ما لا ينفع فحكمه حكم المعدوم ، والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك ، أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص ، وإنما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، فإن الرجل الممتحن بإرهاق الظالم قد ينهض جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له ، وأما الصديق وهو

الصادق في ودادك ، فأعز من بيض الأنوق ، ويجوز أن يريد بالصديق الجمع ثم حكى تعالى عنهم قولهم : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ وأنهم تمنوا الرجعة إلى الدنيا ، ولو في مثل هذا الوضع في معنى التمني كأنه قيل فليت لنا كرة ، وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير ، ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف

(9/570)

الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت .

قال الجبائي : إن قولهم ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ ليس بخبر عن إيمانهم لكنه خبر عن عزمهم لأنه لو كان خبراً عن إيمانهم لوجب أن يكون صدقاً ، لأن الكذب لا يقع من أهل الآخرة ، وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك في قوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] وقد تقدم في سورة الأنعام بيان فساد هذا الكلام .

ثم بين سبحانه أن فيما ذكره من قصة إبراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ والأكثرون من المفسرين حملوه على قوم إبراهيم ثم بين تعالى أن مع كل هذه الدلائل فأكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما يجده من تكذيب قومه .

فأما قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالإمهال لكي يؤمنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 131 . 132 ﴾

(10/570)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُم وَالْغَاوُونَ ﴾

فيها أربعة أوجه

: أحدها : معناه جمعوا فيها النار ، قاله ابن عباس .

الثاني : طرحوا فيها على وجوههم ، قاله ابن زيد ، وقطرب .

الثالث : نكسوا فيها على رؤوسهم ، قاله السدي ، وابن قتيبة .

الرابع : قلب بعضهم على بعض ، قاله اليزيدي ، قال الشاعر :

يقول لهم رسول الله لما . . . قذفناهم كباكب في القَليب

﴿ هُم وَالْغَاوُونَ ﴾ يعني الآلهة التي يعبدون

. وفي الغاوين قولان :

أحدهما : المشركون ، قاله ابن عباس .

الثاني : الشياطين ، قاله قتادة .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ فيهم قولان

: أحدهما : أنهم أعوانه من الجن .

الثاني : أتباعه من الإنس .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : الملائكة .

الثاني : من الناس .

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أنه الشقيق : قاله مجاهد .

الثاني : القريب النسيب ، يقال حم الشيء إذا قرب ومنه الحمى لأنها تقرب الأجل ، قال قيس بن ذريح :

لعل لبنى اليوم حُمّ لقاؤها . . . وببعض بلاء إنَّ ما حُمَّ واقِعُ

وقال ابن عيسى : إنما سمي القريب حميماً لأنه يحمى بغضب صاحبه ، فجعله مأخوذاً من الحمية ، وقال قتادة : يذهب الله يومئذٍ مودة الصديق ، ورقة الحميم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وأزلفت ﴾ معناه قربت ، و" الغاوون " التي برزت لهم الجحيم هم المشركون بدلالة أنهم خوطبوا في أمر الأصنام ، والقول لهم ﴿ أي ما كنتم تعبدون من دون الله ﴾ هو على جهة التقريع والتوبيخ والتوقيف على عدم نصرتهم نحوه ، وقرأ الأعمش " فبرزت " بالفاء والجمهور بالواو ، وقرأ مالك بن دينار " وبرَزَت " بفتح الراء والزاي ورفع " الجحيمُ " ، ثم أخبر عن حال يوم القيامة من أن الأصنام تكبكب في النار أي تلقى كبة واحدة ووصل بها ضمير من يعقل من حيث ذكرت بعبادة ، وكانت يسند إليها فعل من يعقل ، وقيل الضمير في قوله ﴿ هم ﴾ للكفار ، و﴿ الغاوون ﴾ الشياطين ، و"كبكب " مضاعف من كب هذا قول الجمهور وهو الصحيح لأن معناها واحد ، والتضعيف في الفعل بين مثل صر وصرصر وغير ذلك ، و﴿ الغاوون ﴾ الكفرة الذين شملتهم الغواية ، و﴿ جنود إبليس ﴾ نسله وكل وكل من يتبعه لأنهم جند له وأعوان .

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) ﴾

ثم وصف تعالى أن أهل النار ﴿ يختصمون ﴾ فيها ويتلاومون ويأخذون في شأنهم بجدال

، ومن جملة قولهم لأصنامهم على جهة الإقرار وقول الحق قسم ﴿ تالله إن كنا ﴾ إلا ضالين في أن نعبدكم ونجعلكم سواء مع الله تعالى الذي هو رب العالمين وخالقهم ومالكهم ، ثم عطفوا يردون الملامة على غيرهم أي ما أضلنا إلا كبراؤنا وأهل الجرم والجرأة والمكانة ، ثم قالوا على جهة التلهف والتأسف حين رأوا شفاعة الملائكة والأنبياء والعلماء نافعة في أهل الإيمان عموماً ، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وفي هذه اللفظة منبهة على محل الصديق من المرء ، قال ابن جريج ﴿ شافعين ﴾ من الملائكة و﴿ صديق ﴾ من الناس .

(12/570)

قال القاضي أبو محمد : ولفظة " الشفيع " تقتضي رفعة مكانه ، ولفظ " الصديق " يقتضي شدة مساهمة ونصرة ، وهو فعيل من صدق الود ، و" الحميم " الولي والقريب الذي يخصك أمره ويخصه أمرك وحامة الرجل خاصته وباقي الآية بين قد مضى .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الآيات من قوله تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ [الشعراء : 88] هي عندي منقطعة من كلام إبراهيم عليه السلام وهي إخبار من الله عز

وجل ، تعلق بصفة ذلك اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه أن لا يخزى فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(13/570)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأُزْلِفَت الجَنَّة للمُتَّقِينَ ﴾

أي : قُرِّبَتْ إليهم حتى نظروا إليها ، ﴿ وبُرِّزَت الجَحِيمُ ﴾ أي : أُظهرتْ ﴿ للغاوين ﴾ وهم الضالُّون ، ﴿ وقيل لهم ﴾ على وجه التوبيخ ﴿ أين ما كنتم تعبُدون من دون الله هل ينصُرونكم ﴾ أي : يمنعونكم من العذاب ، أو يمتنعون منه .

قوله تعالى : ﴿ فكُبْكِبوا ﴾ قال السّدي : هم المشركون .

قال ابن قتيبة : أُلْقُوا على رؤوسهم ، وأصل الحرف "كُبِّبوا" من قولك : كَبَبْتُ الإناء ، فأبدَلَ من الباء الوسطى كافاً ، استثقالاً لاجتماع ثلاث باءات ، كما قالوا : "كُمْكِمُوا" من "الكُمَّة" ، والأصل : "كُمِّمُوا" .

وقال الزجاج : معناه : طُرح بعضُهم على بعض ؛ وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب ، كأنه إذا أُلقي يَنْكَبُّ مَرَّةً بعد مَرَّة حتى يَسْتَقِرَّ فيها .

وفي الغاوين ثلاثة اقوال .

أحدها : المشركون ، قاله ابن عباس .

والثاني : الشياطين ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والثالث : الآلهة ، قاله السدي .

﴿ وجنود إِبليسَ ﴾ أتباعه من الجنّ والإِنس .

﴿ قالوا وهم فيها يَخْتَصِمُونَ ﴾ يعني : هم وآلهتهم ، ﴿ تالله إِنْ كُنَّا ﴾ قال الفراء : لقد كُنَّا .

وقال الزجاج : ما كُنَّا إِلا في ضلال .

قوله تعالى : ﴿ إِذ نُسَوِّيكم ﴾ أي : نعدِلكُم بالله في العبادة ، ﴿ وما أَضلَّنا إِلا المُجْرِمُون ﴾ فيهم قولان .

أحدهما : الشياطين .

والثاني : أولَّوهم الذين اقتَدَوا بهم ، قال عكرمة : إِبليسُ وابنُ آدم القاتل .

قوله تعالى : ﴿ فما لنا من شافِعِين ﴾ هذا قولهم إِذا شفع الأنبياء والملائكة والمؤمنون .

وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِن الرجل يقول في الجنة : ما فعل صديقي فلان ؟ وصديقه في الجحيم ، فيقول الله عز وجل : أخرجوا له صديقه إِلى الجنة ، فيقول من بقي [في النار] : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم " ؟ .

(14/570)

والحميم : القريب الذي تَوَدُّه ويَوَدُّك والمعنى : مالنا من ذي قرابة يُهِمُّه أمرنا ، ﴿ فلو أنَّ لنا كَرَّةً ﴾ أي : رجعة إلى الدنيا ﴿ فنكونَ مِنَ المؤمِنين ﴾ .

لَتَحِلَّ لنا الشفاعة كما حَلَّت للموحِّدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(15/570)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

أي قربت وأدنيت ليدخلوها .

وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها .

﴿ وبُرِّزَتِ ﴾ أي أظهرت ﴿ الجحيم ﴾ يعني جهنم .

﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي الكافرين الذين ضلوا عن الهدى .

أي تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن ، كما يستشعر أهل

الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ من عذاب الله ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ لأنفسهم .

وهذا كله توبيخ .

﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ أي قلبوا على رؤوسهم .

وقيل : دهوروا وألقي بعضهم على بعض .

وقيل : جمعوا .

مأخوذ من الكَبْكَبَة وهي الجماعة ؛ قاله الهرويّ .

وقال النحاس : هو مشتق من كَوْكَبِ الشيءِ أي معظمه .

والجماعة من الخيل كَوْكَبٌ وكَبْكَبَة .

وقال ابن عباس : جمعوا فطرحوا في النار .

وقال مجاهد : دهوروا .

وقال مقاتل : قذفوا .

والمعنى واحد .

تقول : دهورت الشيء إذا جمعته ثم قذفته في مَهْوَاة .

يقال : هو يدهور اللقم إذا كبرها .

ويقال : في الدعاء كَبَّ الله عدوّ المسلمين ولا يقال أكبه .

وكبكبه ، أي كبه وقلبه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ والأصل كُبِّبوا فأبدل من الباء الوسطى كاف استثقالاً لاجتماع الباءات .

قال السدي : الضمير في ﴿ كُبْكِبُوا ﴾ لمشركي العرب ﴿ والغاوون ﴾ الآلهة .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ من كان من ذريته .

وقيل : كل من دعاه إلى عبادة الأصنام فاتبعه .

وقال قتادة والكلبي ومقاتل : ﴿ الْغَاوُونَ ﴾ هم الشياطين وقيل : إنما تلقى الأصنام في النار وهي حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم .

﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ يعني الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذٍ .

(16/570)

﴿ تالله ﴾ حلفوا بالله ﴿ إِن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة إذا اتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد ؛ وهذا معنى قوله : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ

العالمين ﴾ أي في العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم.

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام.

وقيل: أسلافنا الذين قلدناهم.

قال أبو العالية وعكرمة: ﴿ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ إبليس وابن آدم القاتل هما أوّل من سنّ الكفر والقتل وأنواع المعاصي.

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴾ أي شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين.

﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أي صديق مشفق؛ وكان عليّ رضي الله عنه يقول: عليكم بالإخوان فإنهم عدّة الدنيا وعدّة الآخرة؛ ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾.

الزمخشري: وجمع الشافع لكثرة الشافعين ووحد الصديق لقلته؛ ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم مضت جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته؛ رحمة له وحسبة وإن لم تسبق له بأكثرهم معرفة؛ وأما الصديق فهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما يهمك فأعز من بيض الأُنوق؛ وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال: اسم لا معنى له.

ويجوز أن يريد بالصديق الجمع والحميم القريب والخاص؛ ومنه حامّة الرجل أي أقرباؤه. وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار؛ ومنه الحَمّام والحُمّى؛ فحامّة الرجل الذين يحرقهم ما أحرقه؛ يقال: هم حُزانته أي يحزنهم ما يحزنه.

ويقال : حَمّ الشيُء وأَحَمَّ إذا قرب ، ومنه الحُمّى ؛ لأنها تقرب من الأجل .

وقال علي بن عيسى : إنما سمي القريب حميماً ؛ لأنه يَحْمَى لغضب صاحبه ، فجعله مأخوذاً من الحميّة .

وقال قتادة : يذهب الله عز وجل يوم القيامة مودّة الصديق ورقة الحميم .

(17/570)

ويجوز "وَلاَ صَدِيقٌ حَمِيمٌ" بالرفع على موضع ﴿ مِن شَافِعِينَ ﴾ ؛ لأن ﴿ مِن شَافِعِينَ ﴾ في موضع رفع .

وجمع صديق أصدِقاء وصُدَقاء وصِداق .

ولا يقال صُدُق للفرق بين النعت وغيره .

وحكى الكوفيون : أنه يقال في جمعه صُدْقان .

النحاس : وهذا بعيد ؛ لأن هذا جمع ما ليس بنعت نحو رغِيف ورُغفان .

وحكوا أيضاً صديق وأصادِق .

وأفاعل إنما هو جمع أَفْعَل إذا لم يكن نعتاً نحو أشجع وأشاجع .

ويقال : صديق للواحد والجماعة وللمرأة ؛ قال الشاعر :

نَصَبْنَ الهوَى ثم ارتمين قلوبَنا . . .

بأعْيُنِ أعْدَاءٍ وهُنّ صَدِيق

ويقال : فلان صُدَيّقِي أي أخص أصدقائي ، وإما يُصَغّر على جهة المدح ؛ كقول حُباب ابن المنذر : "أنا جُذَيْلُها المحكَّك ، وعُذَيْقُها المرَجَّب) ذكره الجوهري .

النحاس : وجمع حميم أحِمَّاء وأَحِمَّة وكرهوا أفعِلاء للتضعيف .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ ﴿ أنّ ﴾ في موضع رفع ، المعنى ولو وقع لنا رجوع إلى الدنيا لآمنا حتى يكون لنا شفعاء .

تمنوا حين لا ينفعهم التمني .

وإنما قالوا ذلك حين شفع الملائكة والمؤمنون .

قال جابر بن عبد الله قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الرجل ليقول في الجنة ما فعل فلان وصديقه في الجحيم فلا يزال يشفع له حتى يشفعه الله فيه فإذا نجا قال المشركون : ﴿ مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ " وقال الحسن : ما اجتمع ملأ على ذكر الله ، فيهم عبدٌ من أهل الجنة إلا شفعه الله فيهم ، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم في بعض وهم عند الله شافعون مشفَّعون .

وقال كعب : إن الرجلين كانا صديقين في الدنيا ، فيمُرّ أحدهما بصاحبه وهو يُجر إلى النار ، فيقول له أخوه : والله ما بقي لي إلا حسنة واحدة أنجو بها ، خذها أنت يا أخي فتنجو بها

مما أرى ، وأبقى أنا وإياك من أصحاب الأعراف .

قال : فيأمر الله بهما جميعاً فيدخلان الجنة .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ تقدّم والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(18/570)

وقال أبو حيان :

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ :

قربت لينظروا إليها ويغتبطوا بحشرهم إليها .

﴿ وبرزت الجحيم ﴾ : أظهرت وكشفت بحيث كانت بمرأى منهم كقوله : ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ﴾ وذلك على سبيل التوبيخ .

هل ينفعونكم بنصرهم إياكم ، أو ينتصرون هم فينفعون أنفسهم بحمايتها ، إذ هم وأنتم وقود النار ؟ وقرأ الأعمش : فبرزت بالفاء ، جعل تبريز الجحيم بعد تقريب الجنة يعقبه ، وذلك لأن الواو للجمع ، فيمكن أن يكون كل واحد منهما ظهوره قبل الآخر ، وهو من تقديم

الرحمة على العذاب ، وهو حسن ، لولا أن رسم المصحف بالواو .

وقرأ مالك بن دينار : ﴿ وبرزت ﴾ بالفتح والتخفيف ؛ ﴿ الجحيم ﴾ بالرفع ، بإسناد الفعل إليها اتساعاً .

ولما وبخهم وقرعهم ، أخبر عن حال يوم القيامة ، وجيء في ذلك كله بلفظ الماضي في أتى وأزلفت وبرزت .

وقيل : ﴿ فكبكبوا ﴾ ، لتحقق وقوع ذلك ، وإن كان لم يقع .

والضمير في : فكبكبوا عائد على الأصنام ، أجريت مجرى من يعقل .

قال الكرماني : فكبكبوا : قذفوا فيها .

وقيل : جمعوا .

وقيل : هدروا .

وقيل : نكسوا على رؤوسهم يموج بعضهم في بعض .

وقيل : ألقوا في جهنم ينكبون مرة بعد مرة حتى يستقروا في قعرها .

﴿ والغاوون ﴾ : هم الكفرة الذين شملتهم الغواية .

وقيل : الضمير يعود على الكفار ، والغاوون : الشياطين .

﴿ وجنود إبليس ﴾ : قبيلة ، وكل من تبعه فهو جند له وعون .

وقال السدّي : هم مشركو العرب ، والغاوون : سائر المشركين .

وقيل : هم القادة والسفلة ، قالوا : أي عباد الأصنام ، والجملة بعده حال ، والمقول جملة القسم ومتعلقه ، والخطاب في ﴿ نسويكم ﴾ للأصنام على جهة الإقرار والاعتراف بالحق .

قال ابن عطية : أقسموا بالله إن كنا إلا ضالين في أن نعبدكم ونجعلكم سواء مع الله تعالى ، الذي هو رب العالمين وخالقهم ومالكهم . انتهى .

(19/570)

وقوله : إن كنا إلا ضالين ، إن أراد تفسير المعنى فهو صحيح ، وإن أراد أن إن هنا نافية ، واللام في لفي بمعنى إلا ، فليس مذهب البصريين ، وإنما هو مذهب الكوفيين .

ومذهب البصريين في مثل هذا أن إن هي المخففة من الثقيلة ، وأن اللام هي الداخلة للفرق بين إن النافية وإن التي هي لتأكيد مضمون الجملة .

﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ : أي أصحاب الجرائم والمعاصي العظام والجرأة ، وهم ساداتهم ذوو المكانة في الدنيا والاستتباع كقولهم : ﴿ أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ وقال السدي : هم الأولون الذين اقتدوا بهم .

وقيل : المجرمون : الشياطين ، وقيل : من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس .

وقال ابن جريج : إبليس وابن آدم القاتل ، لأنه أول من سن القتل وأنواع المعاصي .

وحين رأوا شفاعة الملائكة والأنبياء والعلماء نافعة في أهل الإيمان ، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة ، قالوا على جهة التلهف والتأسف ، ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ .

وقال ابن جريج : شافعين من الملائكة وصديق من الناس .

ولفظة الشفيع تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده ، ولفظة الصديق تقتضي شدة مساهمة ونصرة ، وهو فعيل من صدق الود من أبنية المبالغة ونفي الشفعاء .

والصديق يحتمل أن يكون نفياً لوجودهم إذ ذاك ، وهم موجودون للمؤمنين ، إذ تشفع الملائكة وتتصادق المؤمنون ، كما قال : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلا المتقين ، أو ذلك على حسب اعتقادهم في معبوداتهم أنهم شفعاؤهم عند الله ، وأن لهم أصدقاء من الإنس والشياطين ، فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع ، لأن ما لا ينفع ، حكمه حكم المعدوم ، فصار المعنى : فما لنا من نفع من كنا نعتقد أنهم شفعاء وأصدقاء ، وجمع الشفعاء لكثرتهم في العادة .

ألا ترى أنه يشفع فيمن وقع في ورطة من لا يعرفه ، وأفرد الصديق لقلته ، وأريد به الجمع ؟ إذ يقال : هم صديق ، أي أصدقاء ، كما يقال : هم عدو ، أي أعداء .

والظاهر أن لو هنا أشربت معنى التمني ، وفنكون الجواب ، كأنه قيل : يا ليت لنا كرة فنكون .

وقيل : هي الخالصة للدلالة لما كان سيقع لوقوع غيره ، فيكون قوله : ﴿ فنكون ﴾ معطوفاً على كرة ، أي فكونا من المؤمنين ، وجواب لو محذوف ، أي لكان لنا شفعاء وأصدقاء ، أو لخلصنا من العذاب .

والظاهر أن هذه الجمل كلها متعلقة بقول إبراهيم ، أخبر بما أعلمه الله من أحوال يوم القيامة ، وما يكون فيها من حال قومه .

وقال ابن عطية : وهذه الآيات من قوله : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ هي عندي منقطعة من كلام إبراهيم عليه السلام ، وهي إخبار من الله عز وجل ، تعلق بصفة ذلك اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه أن لا يخزي فيه .

انتهى .

وكان ابن عطية قد أعرب ﴿ يوم لا ينفع ﴾ بدلاً من ﴿ يوم يبعثون ﴾ ، وعلى هذا لا يتأتى هذا الذي ذكره من تفكيك الكلام ، وجعل بعضه من كلام إبراهيم ، وبعضه من كلام الله ، لأن العامل في البدل على مذهب الجمهور فعل آخر من لفظ الأول ، أو الأول .

وعلى كلا التقديرين ، لا يصح أن يكون من كلام الله ، إذ يصير التقدير : ولا تخزني يوم لا ينفع

مال ولا بنون .

والإشارة بقوله ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ إلى قصة إبراهيم عليه السلام ومحاورته لقومه .

﴿ وما كان أكثرهم ﴾ : أي أكثر قوم إبراهيم .

بين تعالى أن أكثر قومه لم يؤمنوا مع ظهور هذه الدلائل التي استدل بها إبراهيم عليه السلام ، وفي ذلك مسلاة للرسول (صلى الله عليه وسلم) في تكذيب قومه إياه عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(21/570)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

عطف على لا ينفع . وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعدَهُ من الجُمل المنتظمةِ معه في سلك العطف للدّلالة على تحقُّق الوقوعِ وتقرُّره كما أنَّ صيغةَ المضارعِ في المعطوفِ عليه للدّلالة على استمرار انتفاءِ النَّفع ودوامِه حسبما يقتضيهِ مقامُ التَّهويل والتَّفظيعِ أي قُربتِ الجنَّةُ للمتَّقين عن الكفر والمَعاصي بحيثُ يُشاهدونها من الموقفِ ويقفُون على ما فيها من فنُون المحاسنِ فيبتهجُون بأنَّهم المحشورون إليها .

﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ للْغَاوِينَ ﴾ الضَّالِّين عن طريق الحقِّ الذي هو الإيمانُ والتَّقوى أي جُعلت بارزةً لهم بحيث يَرَونها مع ما فيها من أنواع الأحوالِ الهائلةِ ويُوقنون بأنَّهم مواقعوها ولا يجدُون عنها مَصْرفاً ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ في الدُّنيا ﴿ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتُم تزعمون في الدُّنيا أنَّهم شفعاؤكم في هذا الموقفِ ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ بدفعِ العذابِ عنكم ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ بدفعه عن أنفسهم ، وهذا سؤالُ تقريعٍ وتبكيتٍ لا يُتوقَّع له جوابٌ ولذلك قيل : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ أي أُلقوا في الجحيمِ على وجوهِهم مرَّةً بعد أُخرى إلى أنْ يستقرُّوا في قعرها ﴿ هُمْ ﴾ أي آلهتُهم ﴿ والغاوون ﴾ الذين كانُوا يعبدونهم ، وفي تأخير ذكرِهم عن ذكر آلهتكم رمزٌ إلى أنَّهم يؤخَّرون عنها في الكبكبةِ ليُشاهدوا سوءَ حالِها فيزدادوا غمّاً إلى غمِّهم .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ أي شياطينُه الذين كانوا يُغوونهم ويُوسوسون إليهم ويسوِّلون لهم ما هم عليه من عبادةِ الأصنام وسائر فنون الكُفر والمعاصي ليجتمعُوا في العذاب حسبما كانُوا مجتمعين فيما يُوجبه وقيل : متبعوه من عصاة الثَّقلينِ والأوَّلُ هو الوجهُ ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ ما عُطف عليه وقوله تعالى :

﴿ قَالُواْ ﴾ الخ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأَ من حكاية حالِهم كأَنَّه قيل ماذا قالوا حينَ فُعل بهم ما فُعل فقيل قال العَبَدةُ ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي قالوا معترفين بخطئِهم في انهماكِهم في الضَّلالةِ متحسَّرين معيِّرين لأنفسهم والحال أنَّهم في الجحيم بصددِ الاختصام مع من معهم من المذكورينَ مخاطبين لمعبودِيهم على أنَّ الله تعالى يجعلُ الأصنامَ صالحةً للاختصام بأنْ يُعطيها القدرةَ على الفهم والنُّطقِ .

﴿ تالله إِن كُنَّا لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ إنْ مخفَّفةٌ من الثَّقيلةِ قد حُذف اسمها الذي هو ضمير الشَّأنِ واللام فارقةٌ بينهما وبين النَّافيةِ أي إنَّ الشَّأنَ كُنَّا في ضلال واضح لا خفاءَ فيه ووصفهم له بالوضوح للإشباع في إظهار ندمهم وتحسُّرهم وبيان عِظَمِ خطئهم في رأيهم مع وضوح الحقِّ كما ينبىءُ عنه تصديرُ قَسَمهم بحرف التَّاءِ المُشعرة بالتَّعجُّبِ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ ظرفٌ لكونهم في ضلال مبين وقيل لما دل عليه الكلام أي ضللنا وقيل للضَّلال المذكورِ وإن كان فيه ضعفٌ صناعيٌّ من حيث إنَّ المصدرَ الموصوفَ لا يعمل بعد الوصف ، وقيل : ظرفٌ لمبين . وصيغةُ المضارعِ لاستحضار الصُّورةِ الماضية أي تالله لقد كُنَّا في غاية الضَّلالِ الفاحش وقت تسويتنا إيَّاكُم أيُّها الأصنامُ في استحقاقِ العبادة بربِّ العالمين الذي أنتمُ أدنى مخلوقاتِه وأذلُّهم وأعجزُهم .

(23/570)

وقولهم ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ المجرمون ﴾ بيتٌ لسبب ضلالهم بعد اعترافِهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصرِ الإضلال على المُجرمين دونَ منَ عداهم بل على مَعنى قصر ضلالِهم على كونه بسببِ إضلالِم من غير أنْ يستقلُّوا في تحقُّقهِ أو يكون بسبب إضلال الغيرِ كأنَّه قيل : وما صدرَ عنَّا ذلك الضَّلالُ الفاحش إلا بسبب إضلالِهم . والمرادُ بالمجرمين الذين أضلُّوهم رُؤساؤُهم وكُبراؤُهم ، كما في قولِه تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ وعن السُّدّيِّ رحمه الله : الأَوَّلُون الذين اقتدَوا بهم . وأيًّا ما كان ففيه أوفرُ نصيب من التَّعريضِ للذين قالُوا بل وجدنا آباءَنا كذلك يفعلون وعن ابنِ جُريجٍ : إبليسُ وابنُ آدمَ القاتلُ لأنَّه أوَّلُ من سَنَّ القتلَ وأنواعَ المعاصِي .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين ﴾ كما للمؤمنينَ من الملائكةِ والأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ .

(24/570)

﴿ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ كما نرى لهم أصدقاءَ أو فما لنا من شافعين ولا صديقٍ حميمٍ من الذين كنَّا نعدُّهم شفعاءَ وأصدقاءَ على أنَّ عدمَهما كنايةٌ عن عداوتِهما كما أنَّ عدمَ المحبَّةِ في مثل قوله تعالى : ﴿ والله لاَ يُحِبُّ الفساد ﴾ كنايةٌ عن البُغضِ حسبما ينبىءُ عنه

قوله تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ أو وقعنا في مهلكة لا يخلّصنا منها شافعٌ ولا صديقٌ على أنَّ المرادَ بعدمهما عدمُ أثرِهما . وجمعُ الشَّافعِ لكثرة الشُّفعاءِ عادةً كما أنَّ إفرادَ الصَّديقِ لقلَّتِه أو لصحَّةِ إطلاقِه على الجمعِ كالعدوِّ تشبيهاً لهما بالمصادرِ كالحنينِ والقَبولِ وكلمةُ لو في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ للتَّمنّي كليتَ لما أنَّ بينَ معنييهما تلاقياً في معنى الفرضِ والتَّقديرِ كأنَّه قيل فليتَ لنا كرَّةً أي رجعةً إلى الدُّنيا وقيل : هي علي أصلِها من الشَّرطِ وجوابُه محذوفٌ كأنَّه قيل فلو أنَّ لنا كرةً لفعلنا من الخيراتِ كيتَ وكيتَ ويأَّباهُ قوله تعالى : ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ لتحتُّم كونِه جواباً للتَّمنّي مُفيداً لترتُّبِ إيمانهم على وقوعِ الكَرَّةِ ألبتةَ بلا تخلفٍ كم هو مقتضى حالِهم ، وعطفه على كرَّةً على طريقة

للُبسُ عباءةٍ وتقرَّ عيني . . . كما يستدعيه كون لو على أصلها إنَّما يفيد تحقُّقَ مضمون الجوابِ على تقدير تحقُّقِ كرَّتهم وإيمانهم معاً من غير دلالة على استلزامِ الكرَّةِ للإيمانِ أصلاً مع أنَّه المقصودُ حتماً .

(25/570)

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيما ذُكر من نبأ إبراهيمَ عليه السَّلامُ المشتملِ على بيان بُطلانِ ما كان عليه أهلُ مكَّةَ من عبادةِ الأصنامِ ، وتفصيلِ ما يؤول إليه أمرُ عَبَدتها يومَ القيامةِ من اعترافِهم بخطئِهم الفاحشِ وندمِهم وتحسُّرهم على ما فاتهم من الإيمان وتمنّيهم الرَّجعةَ إلى الدُّنيا ليكونُوا من المؤمنين عند مشاهدتِهم لما أزلفت لهم جنَّاتُ النَّعيمِ وبُرِّزتْ لأنفسهم الجحيم وغشيهم ما غشيهم من ألوانِ العذابِ وأنواعِ العقابِ ﴿ لَآيَةً ﴾ أي آية عظيمة لا يُقادرُ قَدرُها موجبةً على عبدة الأصنامِ كافَّةً لا سيَّما على أهلِ مكَّةَ الذين يدَّعُون أنَّهم على ملَّةِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يجتنبُوا كلَّ الاجتنابِ ما كانُوا عليه من عبادتها خوفاً أنْ يحيقَ بهم مثلُ العذابِ بحكم الاشتراكِ فيما يُوجبه أو أن في ذكر نبئِهِ وتلاوته عليهم على ما هُو عليه من غير أنْ تسمعه من أحدٍ لآيةً عظيمة دالَّة على أنَّ ما تتلوه عليهم وحيٌ صادقٌ نازلٌ من جهةِ الله تعالى موجبة للإيمان به قطعاً ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أكثرُ هؤلاء الذين تتلُو عليهم النبأَ مؤمنين بل هم مُصرُّون على ما كانُوا عليه من الكُفرِ والضَّلالِ ، وأمَّا أنَّ ضمير أكثرُهم لقومِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كما توهَّمُوا فمما لا سبيل إليه أصلاً لظهور أنَّهم ما ازدادوا بما سمعُوا منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلا طُغياناً وكفراً حتَّى اجترأوا على تلك العظيمةِ التي فعلُوها به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فكيف يعبَّر عنهم بعدم إيمان أكثرِهم وإنما آمنَ له لوطٌ فنجَّاهُما الله عزَّ وجلَّ إلى الشَّامِ وقد مرَّ بقيَّةُ الكلام في آخرِ قصَّةِ موسى عليه

السَّلامُ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾

(26/570)

أي هو القادرُ على تعجيلِ العُقوبةِ لقومِك ولكنَّه يُمهلهم بحكمِ رحمتِهِ الواسعةِ ليؤمن بعضٌ منهم أو من ذريَّاتِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(27/570)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ ﴾

عطف على ﴿ لاَّ ينفَعُ ﴾ [الشعراء : 88] وصيغة الماضي فيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه في سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع في المعطوف عليه للدلالة على الاستمرار وهو متوجه إلى النفع فيدل الكلام على استمرار انتفاء النفع واستمراره حسبما يقتضيه مقام التهويل أي قربت الجنة للمتقين عن الكفر ،

وقيل : عنه وعن سائر المعاصي بحيث يشاهدونه من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم المحشرون إليها .

(28/570)

﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ الضالين عن طريق الحق وهو التقوى والايمان أي جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها ، وفي اختلاف الفعلين على ما ذكره بعض المحققين ترجيح لجانب الوعد لأن التعبير بالأزلاف وهو غاية التقريب يشير إلى قرب الدخول وتحققه ولذا قدم لسبق رحمته تعالى بخلاف الإبراز وهو الإراءة ولو من بعد فإنه مطمع في النجاة كما قيل من العمود إلى العمود فرج ، وقال ابن كمال : في اختلاف الفعلين دلالة على أن أرض الحشر قريبة من الجحيم ، وحاصله أن الجنة بعيدة من أرض المحشر بعداً مكانياً والنار قريبة منها قرباً مكانياً فلذا أسند الازلاف أي التقريب إلى الجنة دون الجحيم ، قيل : ولعله مبني على أن الجنة في السماء وأن النار تحت الأرض وأن تبديل الأرض يوم القيامة بمدها واذهاب كريتها إذ حينئذ يظهر أمر البعد والقرب لكن لا يخفى أن كون الجنة في السماء مما يعتقده أهل السنة وليس في ذلك خلاف بينهم يعتد به وأما كون النار تحت الأرض ففيه توقف ، وقال الجلال

السيوطي في "إتمام الدراية" : نعتقد أن الجنة في السماء ونقف عن النار ونقول : محلها حيث لا يعلمه إلا الله تعالى فلم يثبت عندي حديث اعتمده في ذلك ، وقيل : تحت الأرض انتهى ، وكون تبديل الأرض بمدها وإذهاب كريتها قول لبعضهم ، واختار الإمام القرطبي بعد أن نقل في التذكرة أحاديث كثيرة أن تبديل الأرض بمعنى أن الله سبحانه يخلق أرضاً أخرى بيضاء من فضة لم يسفك عليها دم حرام ولا جرى فيها ظلم قط ، والأولى أن يقال في بعد الجنة وقرب النار من أرض المحشر : إن الوصول إلى الجنة بالعبور على الصراط وهو منصوب على متن جهنم كما نطقت به الأخبار فالوصول إلى جهنم أولاً وإلى الجنة آخراً بواسطة العبور وهو ظاهر في القرب والبعد ، ثم أن ظاهر الآية يقتضي أن الجنة تنقل عن مكانها اليوم يوم القيامة إذ التقريب يستدعي النقل

(29/570)

وليس في الأحاديث على ما نعلم ما يدل على ذلك نعم جاء فيها ما يدل على نقل النار . ففي "التذكرة" أخرج مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك " ، والظاهر أن معنى يؤتى بها يجاء بها من المحل الذي خلقها الله تعالى فيه وقد صرح بذلك في التذكرة ،

وقال أبو بكر الرازي في أسئلته فإن قيل : قال الله تعالى ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : 90] أي قربت والجنة لا تنتقل عن مكانها ولا تحول قلنا : معناه وأزلفت المتقون إلى الجنة وهذا كما يقال الحاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا ، وقيل : معناه أنها كانت محجوبة عنهم فلما رفعت الحجب بينها وبينهم كان ذلك تقريباً انتهى ، ويرد على الأخير أنه يمكن أن يقال مثله في الجحيم وحينئذ يسئل عن وجه اختلاف الفعلين .

ويرد على القول بأن الجنة لا تنتقل عن مكانها أنه خلاف ظاهر الآية ولا يلزم لصحة القول به نقل حديث يدل على نقلها يومئذ فلا مانع من القول به وتفويض الكيفية إلى علم من لا يعجزه شيء وهو بكل شيء عليم وإذا أريد التأويل فليكن ذلك يحمل التقريب على التقريب بحسب الرؤية وإن لم يكن هناك نقل فقد يرى الشيء قريباً وإن كان في نفس الأمر في غاية البعد كما يشاهد ذلك في النجوم ، وقد يقرب البعيد في الرؤية بواسطة المناظر والآلات الموضوعة لذلك وقد ينعكس الحال بواسطتها أيضاً فيرى القريب بعيداً ومتى جاز وقوع ذلك بواسطة الآلات في هذه النشأة جاز أن يقع في النشأة الأخرى بما لا يعلمه إلا اللطيف الخبير فتأمل والله تعالى أعلم .

وقرأ الأعمش ﴿ فبرزت ﴾ بالفاء ، وقرأ مالك بن دينار ﴿ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ ﴾ بالفتح والتخفيف ﴿ والجحيم ﴾ بالرفع على الفاعلية .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ تَعْبُدُونَ ﴾ تستمرون على عبادته .

﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ بدفع ما تشاهدون من الجحيم وما فيها من العذاب ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ بدفع ذلك عن أنفسهم ، وهذا سؤال تقريع لا يتوقع له جواب ولذلك قيل :

﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ أي ألقوا في الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا في قعرها فالكبكبة تكرير الكب وهو مما ضوعف فيه الفاء كما قال الزجاج .

وجمهور البصريين ، وذهب الكوفيون إلى أن الثالث بدل من مثل الثاني فاصل كبكب عندهم كبب فأبدل من الباء الثانية كاف وضمير الجمع لما يعبودن من دون الله وهم الأصنام وأكد بالضمير المنفصل أعني ﴿ هُمْ ﴾ وكلا الضميرين للعقلاء واستعملا في الأصنام تهكماً أو بناء على إعطائها الفهم والنطق أي كبكب فيها الأصنام ﴿ والغاوون ﴾ الذين عبدوها .

والتعبير عنهم بهذا العنوان دون العابدون للتسجيل عليهم بوصف الغواية ، وفي تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون في الكبكبة عنها ليشاهدوا سوء حالهم فينقطع رجاؤهم قبل دخول الجحيم .

وعن السدي أن ضمير ﴿ كبكبوا ﴾ ومؤكده لمشركي العرب والغاوون سائر المشركين

وقيل : الضمير للمشركين مطلقاً ويراد بهم التبعة والغاوون هم القادة المتبعون ، وقيل :

الضمير لمشركين الإنس مطلقاً ويراد بهم التبعة والغاوون هم القادة المتبعون ، وقيل :

الضمير لمشركين الإنس مطلقاً و ﴿ يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ الشياطين والكل كما ترى ويبعد

الأخير قوله تعالى :

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ فإن الظاهر أن المراد منه الشياطين وإنه عطف على ما قبله

والعطف يقتضي المغايرة بالذات في الأغلب ولا حاجة إلى تخريجه على الأقل وجعله من

باب :

إلى الملك الندب وابن الهمام . . .

(31/570)

وقيل : المراد بجنود إبليس متبعوه من عصاة الثقلين ، واختار بعض الأجلة الأولى وادعى أنه

الوجه لأن السياق والسباق في بيان سوء حال المشركين في الجحيم وقد قال ذلك إبراهيم

عليه السلام لقومه المشركين فلا وجاهة لذكر حال قوم آخرين في هذا الحال بل لا وجود لهم

في القصة وذكر الشياطين مع المشركين لكونهم المسولين لهم عبادة الأصنام ، ولا يخفى أن

للتعيم وجهاً أيضاً من حيث أن فيه مزيد تهويل لذلك اليوم ، وقوله تعالى : ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تأكيد للضمير وما عطف عليه .

﴿ قَالُواْ ﴾ الخ استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ عما قبله كأنه لما قيل كبكب الآلهة والغاوون عبدتها والشياطين الداعون إليها قيل : فما وقع ؟ فقيل : قالوا أي العبدة الغاوون ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الغاوون ﴿ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين ، والجملة في موضع الحال ، والمراد قالوا معترفين بخطئهم وانهماكهم في الضلالة متحسرين معيرين لأنفسهم والحال أنهم بصدد مخاصمة من معهم مخاطبين لآلهتهم حيث يجعلها الله تعالى أهلاً للخطاب .

تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97)

﴿ إن ﴾ مخففة من المثقلة واسمها على ما قيل ضمير الشأن محذوف واللام فارقة بينها وبين النافية كما ذهب إليه البصريون أي إنه أي الشأن كنا في ضلال مبين ، وذهب الكوفيون إلى أن إن نافية واللام بمعنى إلا أي ما كنا إلا في ضلال واضح لا خفاء فيه ، ووصفهم له بالوضوح للمبالغة في إظهار ندمهم وتحسرهم وبيان خطئهم في رأيهم مع وضوح الحق كما ينبىء عنه تصديرهم قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب على ما قيل .

(32/570)

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ ظرف لكونهم في ضلال مبين ، وقيل : لمحذوف دل عليه الكلام أي ضللنا ، وقيل : للضلال المذكور وإن كان فيه ضعف صناعي من حيث أن المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف ، ويهون أمر ذلك كون المعمول ظرفاً ، وقيل : ظرف لمبين ، وجوز أن تكون ﴿ إِذْ ﴾ تعليلية كما قيل به في قوله تعالى : ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى العذاب مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف : 39] .

وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أي تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أو لأنا سوينا كم أيها الأصنام في استحقاق العبادة برب العالمين الذي أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم .

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ المجرمون ﴾ الظاهر بناء على ما تقدم من أن الاختصام مع الأصنام والشياطين أن يكون المراد بالمجرمين الشياطين ليكون ذلك من الاختصام معهم وإن لم يورد على وجه الخطاب كما أن ما تقدم من الاختصام مع الأصنام ، وكون المراد بهم ذلك مروي عن مقاتل ، وفي "إرشاد العقل السليم" أنه بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم ، والمراد بالمجرمين رؤساؤهم وكبراؤهم ، وفي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ﴾ [الأحزاب : 67] .

وعن السدي هم الأولون الذين اقتدوا بهم ، وقيل : من دعاهم إلى عبادة اوصنام من الجن والإنس .

(33/570)

وعن ابن جريج أنهم إبليس وابن آدم القاتل لأنه أول من سن القتل والمعاصي ، والقصر قيل بالنسبة إلى الأصنام ، ولعلهم أرادوا بنفي الإضلال عنها إهانتها بأنها لا قدرة لها ؛ وفيه تأكيد لكونهم في ضلال مبين ، ولعل الأولى كونه قصراً حقيقياً بإدعاء أنهم الأحديون في سببية الإضلال حتى أن سببية غيرهم له كلا سببية ، وهذا واضح في الشياطين لأن إضلال غيرهم من الكبراء ونحوهم بواسطة إضلالهم لأنهم الذين يزينون الباطل للمتبوع والتابع ، ويمكن أن يعتبر في غيرهم بضرب من التأويل وذلك إذا أريد بالمجرمين غيرهم ، ثم إن المشركين لا يزالون في حيرة يوم القيامة لا يدرون بم يتشبثون فلا يضر إسنادهم الإضلال تارة إلى شيء وأخرى إلى غيره على أن الإسناد إلى كل باعتبار هذا .

وجوز أن يكون الاختصام بين العبدة بعضهم مع بعض ، والخطاب في ﴿ نُسَوِّيكُمْ ﴾ [الشعراء : 98] للأصنام من غير التزام القول بجعلهم أهلاً له بل هو كخطاب المضطر للحجر والشجر ، وفيه مبالغة في التحسر والندامة ، والمعنى أن العبدة مع تخاصم بعضهم

مع بعض بأن يقول أحدهم للآخر : أنت مبدأ ضلالي ولولا أنت لكنت مؤمناً اعترفوا بجرمهم وتعجبوا وبينوا سببه ، وجوز أيضاً أن يكون من الأصنام ينطقهم الله تعالى فيخاصمون العبدة فضمير ﴿ هُمْ ﴾ عائد عليهم ، والمعنى قال العبدة معترفين بضلالهم متعجبين منه مبينين سببه : ﴿ إن كنا ﴾ [الشعراء : 97] الخ والحال إن الأصنام يخاصمونهم قائلين : نحن جمادات متبرئون عن جميع المعاصي وأنتم اتخذتمونا آلهة فالقيتمونا في هذه الورطة .

وهذا كله على تقدير كون جملة ﴿ قَالُواْ ﴾ [الشعراء : 96] مستأنفة كما هو الظاهر .

وجوز أن يكون ﴿ جُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ [الشعراء : 95] مبتدأ وجملة ﴿ قَالُواْ ﴾ الخ خبره وضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ وكذا ما بعده عائد عليه .

(34/570)

وأنت تعلم أنه مع كونه خلاف الظاهر لا يتسنى على تقدير أن يراد بجنود إبليس الياطين لما أن المقول المذكور لا يصح أن يكون منهم وإذا أريد بهم متبعوه من عصاة الثقلين عبدة الأصنام وغيرهم يرد أن المقول المذكور قول فرقة منهم وهي العبدة فإسناده إلى الجميع خلاف الظاهر ؛ ويبعد كل البعد بل لو قيل بفساده لم يبعد احتمال كون كل شخص سواء

كان من عبدة الأصنام أو غيره يخاصم مع كل من يصادفه من غير صلاحية الآخر للاختصام ويقول ما ذكر للأصنام لغاية الحيرة والضجرة ، نعم لو أريد بجنود إبليس على تقدير كونه مبتدأ ورجوع الضمائر إليه الغاوون بعينهم وتكون الإضافة للعهد ، والتعبير عنهم بهذا العنوان بعد التعبير عنهم بالعنوان السابق لتذليلهم لم يبعد جداً .

ومن الناس من جوز الابتدائية والخبرية المذكورتين وفسر الجنود بالعصاة مطلقاً .

وجعل ضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ للغاوون وضمير ﴿ هُمْ - و - يختصمون ﴾ [الشعراء : 96] للجنود أو للأصنام وفيه مع خروج الآية عليه عن حسن الانتظام ما لا يخفى على ذوي الأفهام .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾

مرتب على ما اعترفوا به من عظم الجناية وظهور الضلالة .

والمراد التلهف والتأسف على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه أو صديق شفيق يهمه ذلك وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم في التأسف حيث نفوا أولاً أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته ونفوا ثانياً أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشف عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم وأتى بالشافع في سياق النفي جمعاً وإن كان حكم هذا الجمع في

الاستغراق لمكان من الزائدة حكم المفرد بلا خلاف إنما الخلاف فيما إذا لم تزد من بعد النفي داخلة على الجمع رعاية لما كانوا يأتون به في الإثبات من الجمع .

(35/570)

وقال في "الكشاف" : جمع الشافعي لكثرة الشفعاء ووحد الصديق لقلته ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده رحمة له وحسبة إن لم تسبق له بأكثرهم معرفة وأما الصديق الصادق في ودادك الذي يهمه ما يهمك فهو أعز من بيض الأنوق ، ويجوز أن يريد بالصديق الجمع أي فإنه يطلق عليه لما أنه على زنة المصدر بخلاف الشافع . وذكر البيضاوي في توحيد الصديق وجهاً آخر أيضاً ، وهو أن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ، وحاصله أن الواحد في معنى الجمع بحسب العادة فلذا اكتفى به لما فيه من المطابقة المعنوية كما قيل :

الناس ألف منهمو كواحد . . .

وواحد كالألف إن أمر عنا

وقال بعض الكملة : إن إيراد الشافعين بصيغة الجمع لمجرد مصلحة الفاصلة ، وأما إيراد الصديق مفرداً فلأن المقام مقام المفرد ومصلحة الفاصلة حصلت قبله وهو كما ترى ، وقال

سعد أفندي : لا يبعد أن يكون جمع الأول وإفراد الثاني إشارة إلى أنه لا فرق بين الاستغراقين ، وفيه أن إيثار صيغة لإفادة مسألة عربية ليس من دأب القرآن المجيد ، والذي أميل إليه أن الإفراد على الأصل والجمع وإن أدى مؤداه على سسن ما كانوا يقولونه ويزعمونه في الدنيا من تعدد الشفعاء ولا يضر في ذلك كون المنفي هنا أعم من المثبت هناك من حيث شموله للأصنام .

والكبراء .

والملائكة .

والأنبياء عليهم السلام كما هو المتبادر إلى الفهم ، وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر عن عكرمة عن ابن جرير أن المعنى فما لنا من شافعين من أهل السماء ولا صديق حميم من أهل الأرض .

(36/570)

وزعم بعضهم أنهم عنوا بالشافعين هنا ما عنوا بالمجرمين من كبرائهم وساداتهم وفرعوا النفي على قولهم : ﴿ مَا أَضَلَّنَا إِلَّا المجرمون ﴾ [الشعراء : 99] فكأنهم قالوا : سادتنا وكبراؤنا الذين أضلونا مجرمون معذبون مثلنا فلم يقدروا على السعي في نفعنا والشفاعة لنا

، وفي "الكشاف" فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما نرى لهم أصدقاء فإنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون قال تعالى :

﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدم شفعاء وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم الأصدقاء من شياطين الانس أو أرادوا أنهم وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما يتعلق بهم من النفع لأن ما لا ينفع حكمه حكم المعدوم انتهى .

والظاهر على هذا الأخير أن الكلام كناية عن شدة الأمر بحيث لا ينفع فيه أحد ولو أدنى نفع وهو وجه وجيه ، والوجه الأول لا يكاد يتسنى على مذهب المعتزلة الذين لا يجوزون الشفاعة في الخلاص من النار بعد دخولها أو قبله لأن الظاهر من قولهم فما لنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين فما لنا من شافعين يخصلونا من النار كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين يخلصونهم منها فارتضاء الزمخشري لهذا الوجه غريب اللهم إلا أن يقال : المراد التشبيه باعتبار مطلق الشفاعة والمعتزلة يجوزون بعض أصنافها كالشافعة في زيادة الدرجات في الجنة لكن لا يخلو عن بعد والله تعالى أعلم ،

و ﴿ لَوْ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ مستعملة في التمني بدليل نصب قوله سبحانه : ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ في جوابها وأصلها لو الامتناعية وحيث أن التمني يكون لما يمتنع أريد بها ذلك مجازاً مرسلاً أو استعارة تبعية ثم شاع حتى صارت كالحقيقة في ذلك ، وقيل : هي حقيقة فيما ذكر ؛ وقيل : أصلها المصدرية وليس بشيء .

والمعنى فليت لنا رجعة إلى الدنيا فإن نكون من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبعثنا مثل ما نحن فيه من العذاب الذي لا ينفع فيه أحد ، وجوز كون لو شرطية وجوابها محذوف والتقدير لفعلنا من الخيرات كيت وكيت أو لخلصنا من العذاب أو لكان لنا شفعاء وأصدقاء أو ما أضلنا المجرمون ، والتقدير الأول أجزل ، ويقدر المحذوف بعد ﴿ فَنَكُونَ ﴾ الخ لأن المصدر المتحصل منه معطوف على ﴿ كَرَّةً ﴾ أي فلو أن لنا كرة فنكونا من المؤمنين لفعلنا الخ .

وتعقب شيخ الإسلام ذلك بأنه إنما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم وإيمانهم معاً من غير دلالة على استلزام الكرة للإيمان أصلاً مع أنه المقصود حتماً ، وفي قوله : من غير دلالة الخ بحث على ما قيل حيث يمكن أن يقال : حاصل الآية إن تيسر لنا الرجعة والإيمان المتعقب إياها لفعلنا من عبادات أهل الإيمان ما يقصر عنه العبارة ، والتزام ثمرات

الإيمان التزام للإيمان أولاً ، ومقصودهم بيان استلزام الرجعة لفعل الخيرات كلها ، وأما نفس الإيمان بعد هذه المشاهدة فلا يحتاج إلى البيان .

(38/570)

وقال بعض الناس : إن قولهم ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ بمعنى فنكون من المقبول إيمانهم وقبول الله تعالى إيمانهم لا يترتب على رجعتهم البتة بل يجوز أن يتخلف فلا بد أن يكون مرادهم إن تيسر لنا الرجعة وإن قبل إيماننا لفعلنا الخ فليس المقصود الدلالة على استلزام الكرة للإيمان كما زعم شيخ الإسلام ، ونوقش فيه بأن تيسر الرجعة إنما يكون لرحمة الله تعالى وعفوه وهي تستلزم قبول إيمانهم ، والحق أنه لا ينبغي الالتفات إلى احتمال شرطية لو والتكلف له مع جزالة المعنى الظاهر المتبادر ، والكلام في قوله تعالى .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

قد تقدم آنفاً فلا حاجة إلى إعادته وقد علمت مختارنا في ذلك فتذكر فما في العهد من قدم ، ولشيخ الإسلام كلام في هذه الآية لا يخفى ما فيه على المتأمل فتأمل . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(39/570)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

قوله ﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾ معطوف على العامل في قوله : ﴿ وَإِذَا نادى رَبُّكَ موسى ﴾ [الشعراء : 10] ، وقد تقدّم ، والمراد بنبأ إبراهيم خبره أي اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم وحديثه ، و ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ منصوب بنبأ إبراهيم أي : وقت قوله ﴿ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ، وقيل : " إذ " بدل من نبأ بدل اشتمال ، فيكون العامل فيه : اتل ، والأوّل أولى .

(40/570)

ومعنى ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ : أيّ شيء تعبدون ؟ وهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام ، ولكنه أراد إلزامهم الحجة ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عاكفين ﴾ أي فنقيم على عبادتها مستمراً لا في وقت معين ، يقال : ظلّ يفعل كذا : إذا فعله نهاراً ، وبات يفعل كذا : إذا فعله

ليلاً ، فظاهره : أنهم يستمرّون على عبادتها نهاراً لا ليلاً ، والمراد من العكوف لها الإقامة على عبادتها ، وإنما قال : ﴿ لها ﴾ لإفادة أن ذلك العكوف لأجلها ، فلما قالوا هذه المقالة قال إبراهيم منبهاً على فساد مذهبهم ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ قال الأخفش : فيه حذف ، والمعنى : هل يسمعون منكم ؟ أو هل يسمعون دعاءكم ؟ وقرأ قتادة : " هل يسمعونكم " بضم الياء أي هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ بوجه من وجوه النفع ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أي : يضرّونكم إذا تركتم عبادتهم ، وهذا الاستفهام للتقرير ، فإنها إذا كانت لا تسمع ، ولا تنفع ، ولا تضرّ ، فلا وجه لعبادتها ، فإذا قالوا : نعم هي كذلك ، أقرّوا بأن عبادتهم لها من باب اللعب والعبث ، وعند ذلك تقوم الحجة عليهم ، فلما أورد عليهم الخليل هذه الحجة الباهرة لم يجدوا لها جواباً إلاّ رجوعهم إلى التقليد البحت ، وهو أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون أي : يفعلون لهذه العبادة لهذه الأصنام مع كونها بهذه الصفة التي هي سلب السمع والنفع والضر عنها .

(41/570)

وهذا الجواب هو العصى التي يتوكأ عليها كلّ عاجز ، ويمشي بها كلّ أعرج ، ويغترّ بها كل مغرور ، وينخدع لها كل مخدوع ؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت

الأرض بطولها والعرض ، وقلت لهم : ما الحجة لهم على تقليد فرد من أفراد العلماء ، والأخذ بكل ما يقوله في الدين ، ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب ، ولا فاهوا بسواه ، وأخذوا يعدّدون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم ، واقتداء بأقواله وأفعاله ، وهم قد ملؤوا صدورهم هيبة ، وضاقت أذهانهم عن تصوّرهم ، وظنوا أنهم خير أهل الأرض ، وأعلمهم ، وأورعهم ، فلم يسمعوا لناصح نصحاً ، ولا لداع إلى الحق دعاء ، ولو فطنوا لوجدوا أنفسهم في غرور عظيم وجهل شنيع وإنهم كالبهيمة العمياء ، وأولئك الأسلاف كالعمي الذين يقودون البهائم العمي ، كما قال الشاعر :

كبهيمة عمياء قاد زمامها . . . أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك أيها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب والتعسف : أن تورد عليهم حجج الله ، وتقيم عليهم براهينه ، فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه ، وأما من قد استحكم في قلبه هذا الداء ، فلو أوردت عليه كلّ حجة ، وأقمت عليه كلّ برهان لما أعارك إلاّ أذنا صماء ، وعيناً عمياء ، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن ، والهداية بيد الخلاق العليم ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : 56] .

ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة ﴿ قَالَ ﴾ الخليل ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ

وَءَابَاؤُكُمُ الأقدمون ﴾ أي : فهل أبصرتم ، وتفكرتم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام التي لا تسمع ، ولا تنفع ، ولا تضرّ حتى تعلموا أنكم على ضلالة وجهالة ؟ ثم أخبرهم بالبراءة من هذه الأصنام التي يعبدونها .

(42/570)

فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ ، ومعنى كونهم عدوًّا له مع كونهم جماداً : أنه إن عبدهم كانوا له عدوًّا يوم القيامة .

قال الفراء : هذا من المقلوب أي : فإني عدوّ لهم ؛ لأن من عاديته عاداك ، والعدوّ كالصديق يطلق على الواحد والمثنى والجماعة والمذكر والمؤنث كذا قال الفراء .

قال عليّ بن سليمان : من قال : عدوّة الله ، فأثبت الهاء ، قال : هي بمعنى المعادية ، ومن قال : عدوّ للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى ﴾ آباؤهم الأقدمون لأجل عبادتهم الأصنام ، وردّ بأن الكلام مسوق فيما عبدوه لا في العابدين ، والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ منقطع أي لكن ربّ العالمين ليس كذلك ، بل هو وليي في الدنيا والآخرة .

قال الزجاج : قال النحويون : هو استثناء ليس من الأوّل ، وأجاز الزجاج أيضاً أن يكون من

الأوّل على أنهم كانوا يعبدون الله عزّ وجلّ ، ويعبدون معه الأصنام ، فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلاّ الله .

قال الجرجاني : تقديره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلاّ رب العالمين ، فإنهم عدوّ لي ، فجعله من باب التقديم والتأخير ، وجعل إلاّ بمعنى دون وسوى كقوله : ﴿ لاَيَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ [الدخان : 56] أي دون الموتة الأولى .

وقال الحسن بن الفضل : إن المعنى : إلاّ من عبد ربّ العالمين .

ثم وصف ربّ العالمين بقوله : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أي : فهو يرشدني إلى مصالح الدين والدنيا .

وقيل : إن الموصول مبتدأ ، وما بعده خبره ، والأوّل أولى .

(43/570)

ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من ربّ ، وأن يكون عطف بيان له ، وأن يكون منصوباً على المدح بتقدير : أعني ، أو أمدح ، وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لأجله ، فإن الخلق ، والهداية ، والرزق يدلّ عليه قوله : ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ، ودفع ضرّ المرض ، وجلب نفع الشفاء ، والإماتة ، والإحياء ، والمغفرة للذنب ، كلها نعم يجب على

المنعم عليه ببعضها فضلاً عن كلها أن يشكر المنعم بجميع أنواع الشكر التي أعلاها ، وأولاها العبادة ، ودخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل للدلالة على أنه الفاعل لذلك دون غيره ، وأسند المرض إلى نفسه دون غيره من هذه الأفعال المذكورة رعاية للأدب مع الربّ ، وإلاّ فالمرض وغيره من الله سبحانه ، ومراده بقوله : ﴿ ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ البعث ، وحذف الياء من هذه الأفعال لكونها رؤوس الآي .

وقرأ ابن أبي إسحاق هذه الأفعال كلها بإثبات الياء ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام : ﴿ والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ هضماً لنفسه ، وقيل : إن الطمع هنا بمعنى اليقين في حقه ، وبمعنى الرجاء في حق سواه .

وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحاق " خطاياي " قالا : ليست خطيئته واحدة .

قال النحاس : خطيئة بمعنى خطايا في كلام العرب .

قال مجاهد : يعني بخطيئته قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ [الأنبياء : 63] ، وقوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] ، وقوله : إن سارة أخته ، زاد الحسن : وقوله للكوكب : ﴿ هذا رَبِّي ﴾ [الأنعام : 86] ، وحكى الواحدي عن المفسرين : أنهم فسروا الخطايا بما فسرها به مجاهد .

قال الزجاج : الأنبياء بشر ، ويجوز أن تقع عليهم الخطيئة إلاّ أنهم لا تكون منهم الكبيرة ؛ لأنهم معصومون ، والمراد بيوم الدين : يوم الجزاء للعباد بأعمالهم ، ولا يخفى أن تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد ، ومن معه ضعيف ، فإن تلك معاريض ، وهي أيضاً إنما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه .

ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه ، والاعتراف بنعمه عقبه بالدعاء ليقتدي به غيره في ذلك ، فقال : ﴿ رَبّ هَبْ لِي حُكْماً ﴾ ، والمراد بالحكم العلم والفهم ، وقيل : النبوّة والرسالة ، وقيل : المعرفة بحدود الله ، وأحكامه إلى آخره ﴿ وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ يعني : بالنبيين من قبلي .

وقيل : بأهل الجنة ﴿ واجعل لّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ أي : اجعل لي ثناء حسناً في الآخرين الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة .

قال القتيبي : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، لأن القول يكون به ، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة ، ومنه قول الأعشى :

إني أتتني لسان لا أسرّ بها . . . وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ﴾ [الصافات : 108] فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه .

وقال مكي : قيل : معنى سؤاله : أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق ، فأجيبت دعوته في محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا وجه لهذا التخصيص .

(45/570)

وقال القشيري : أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ، ولا وجه لهذا أيضاً ، فإن لسان الصدق أعم من ذلك ﴿ واجعلني مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ : ﴿ من ورثة ﴾ يحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً ، وأن يكون صفة لمحذوف هو المفعول الثاني أي وارثاً من ورثة جنة النعيم ، لما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة ، وهي جنة النعيم ، وجعلها مما يورث تشبيهاً لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا ، وقد تقدّم تفسير معنى الوراثة في سورة مريم : ﴿ واغفر لأِبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ كان أبوه قد وعده أنه يؤمن به ، فاستغفر له ، فلما تبين له أنه عدوّ الله تبرأ منه ، وقد تقدّم تفسير هذا مستوفى في سورة التوبة وسورة مريم ، ومعنى ﴿ مِنَ الضالين ﴾ : من المشركين الضالين عن طريق الهداية .

و ﴿ كان ﴾ زائدة على مذهب سيبويه كما تقدّم في غير موضع .

﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : لا تفضحني على رؤوس الأشهاد بمعاتبتي ، أو لا تعذبني

يوم القيامة ، أو لا تخزني بتعذيب أبي أو ببعثه في جملة الضالين ، والإخزاء يطلق على الخزي ، وهو الهوان ، وعلى الخزاية وهي الحياء ، و ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ بدل من يبعثون ، أي يوم لا ينفع فيه المال والبنون أحداً من الناس ، والابن هو أخصّ القرابة ، وأولاهم بالحماية ، والدفع ، والنفع ، فإذا لم ينفع ، فغيره من القرابة ، والأعوان بالأولى .

وقال ابن عطية : إن هذا وما بعده من كلام الله ، وهو ضعيف ، والاستثناء بقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قيل : هو منقطع ، أي : لكن من أتى الله بقلب سليم .

قال في الكشاف : إلا حال من أتى الله بقلب سليم ، فقدّر مضافاً محذوفاً .

قال أبو حيان : ولا ضرورة تدعو إلى ذلك .

(46/570)

وقيل : إن هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف ، أو مستثنى منه ، إذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحداً من الناس إلاّ من كانت هذه صفته ، ويحتمل أن يكون بدلاً من فاعل ﴿ ينفع ﴾ ، فيكون مرفوعاً .

قال أبو البقاء : فيكون التقدير : إلاّ مال من أو بنو من ، فإنه ينفع .

واختلف في معنى القلب السليم ، فقيل : السليم من الشرك ، فأما الذنوب ، فليس يسلم

منها أحد ، قاله أكثر المفسرين .

وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم الصحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، وقيل : هو القلب الخالي عن البدعة المطمئن إلى السنة ، وقيل : السالم من آفة المال والبنين .

وقال الضحاك : السليم الخالص .

وقال الجنيد : السليم في اللغة : اللديغ ، فمعناه : أنه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى ، وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن .

قال الرازي : أصح الأقوال أن المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : قربت ، وأدنيت لهم ؛ ليدخلوها .

وقال الزجاج : قرب دخولهم إياها ، ونظرهم إليها ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ أي جعلت بارزة لهم ، والمراد بالغاوين : الكافرون ، والمعنى : أنها أظهرت قبل أن يدخلها المؤمنون ، ليشتدّ حزن الكافرين ، ويكثر سرور المؤمنين ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ فيدفعون عنكم العذاب ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ بدفعه عن أنفسهم .

وهذا كله توبيخ وتقريع لهم ، وقرأ مالك بن دينار : " وبرّزت " بفتح الباء والراء مبنياً للفاعل .

﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون ﴾ أي ألقوا في جهنم " هم " يعني : المعبودين ، و ﴿ الغاوون ﴾ يعني : العابدين لهم .

وقيل : معنى كبكبوا : قلبوا على رؤوسهم ، وقيل : ألقى بعضهم على بعض ، وقيل : جمعوا ، مأخذوا من الكبكبة ، وهي الجماعة قاله الهروي .

(47/570)

وقال النحاس : هو مشتق من كوكب الشيء أي معظمه ، والجماعة من الخيل كوكب ، وكبكبة ، وقيل : دهدهوا ، وهذه المعاني متقاربة ، وأصله كببوا بباءين الأولى مشدّدة من حرفين ، فأبدل من الباء الوسطى الكاف .

وقد رجح الزجاج أن المعنى : طرح بعضهم على بعض .

ورجح ابن قتيبة أن المعنى : ألقوا على رؤوسهم .

وقيل : الضمير في كبكبوا لقريش ، والغاوون الآلهة ، والمراد بجنود إبليس : شياطينه الذين يغوون العباد ، وقيل : ذريته ، وقيل : كل من يدعو إلى عبادة الأصنام ، و ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تأكيد للضمير في كبكبوا ، وما عطف عليه .

وجملة : ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ماذا

قالوا حين فعل بهم ما فعل ؟ ومقول القول : ﴿ تالله إِن كُنَّا لَفِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ وجملة : ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ في محل نصب على الحال أي قالوا هذه المقالة حال كونهم في جهنم مختصمين ، و"إن" في ﴿ إِن كُنَّا ﴾ هي المخففة من الثقيلة ، واللام فارقة بينها وبين النافية أي قالوا تالله إن الشأن كوننا في ضلال واضح ظاهر ، والمراد بالضلال هنا : الخسار ، والتبار ، والحيرة عن الحق ، والعامل في الظرف ، أعني : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ هو كونهم في الضلال المبين .

وقيل : العامل هو الضلال ، وقيل : ما يدل عليه الكلام ، كأنه قيل : ضللنا وقت تسويتنا لكم بربّ العالمين .

وقال الكوفيون : إنّ "إن" في ﴿ أَن كُنَّا ﴾ نافية ، واللام بمعنى إلاّ أي ما كنا إلا في ضلال مبين .

والأوّل أولى ، وهو مذهب البصريين .

(48/570)

﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين ﴾ يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين ﴿ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أي : ذي قرابة ، والحميم القريب الذي تودّه ، ويودّك ، ووحد الصديق لما تقدّم غير مرة أنه

يطلق على الواحد والإثنين والجماعة والمذكر والمؤنث ، والحميم مأخوذ من حامة الرجل أي : أقربائه ، ويقال : حمّ الشيء وأحمّ إذا قرب منه ، ومنه الحمى ؛ لأنه يقرّب من الأجل .

وقال علي بن عيسى : إنما سمي القريب حميماً ؛ لأنه يحمى لغضب صاحبه ، فجعله مأخوذاً من الحمية .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ هذا منهم على طريق التمني الدالّ على كمال التحسر كأنهم قالوا : فليت لنا كرّة أي رجعة إلى الدنيا ، وجواب التمني : ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ أي نصير من جملتهم ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من نبأ إبراهيم ، والآية : العبرة والعلامة ، والتنوين يدل على التعظيم والتفخيم ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي أكثر هؤلاء الذين يتلو عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم نبأ إبراهيم ، وهم قريش ومن دان بدينهم .

وقيل : وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين ، وهو ضعيف ؛ لأنهم كلهم غير مؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ أي هو القاهر لأعدائه الرحيم بأوليائه ، أو الرحيم للأعداء بتأخير عقوبتهم وترك معاجلتهم .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ يعني : بأهل الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ واجعل لّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ قال :

اجتماع أهل الملل على إبراهيم .

وأخرج عنه أيضاً : ﴿ واغفر لأَبِى ﴾ قال : امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك .

(49/570)

وأخرج البخاري ، وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ، فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : ربّ إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، فأيّ خزي أخزى من أبي ؟ الأبعد فيقول الله : إني حرّمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار " ، والذيخ هو الذكر من الضباع ، فكأنه حوّل آزر إلى صورة ذيخ .

وقد أخرجه النسائي بأطول من هذا .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلاّ الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ قال : جمعوا فيها ﴿ هُمْ والغاوون ﴾ قال : مشركو العرب والآلهة .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ قال : رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ حتى تحلّ لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(50/570)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) ﴾

الظاهر أن الواو في قوله : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ واوُ الحال ، والعامل فيها ﴿ لا ينفع مال ﴾ [الشعراء : 88] ، أي يوم عدم نفع من عدا من أتى الله بقلب سليم وقد أزلفت الجنة للمتقين .

والخروج إلى تصوير هذه الأحوال شيء اقتضاه مقام الدعوة إلى الإيمان بالرغبة والرهبة لأنه ابتدأ الدعوة بإلقاء السؤال على قومه فيما يعبدون إيقاظاً لبصائرهم ، ثم أعقب ذلك بإبطال إلهية أصنامهم .

والاستدلال على عدم استئهالها الإلهية بدليل التأمل ، وهو أنها فاقدة السمع والبصر وعاجزة عن النفع والضر ، ثم طال دليل التقليد الذي نحا إليه قومه لما عجزوا عن تأييد

دينهم بالنظر .

فلما نهضت الحجة على بطلان إلهية أصنامهم انتصب لبيان الإله الحق رب العالمين ، الذي له صفات التصرف في الأجسام والأرواح ، تصرف المنعم المتوحّد بشتّى التصرف إلى أن يأتي تصرفه بالإحياء المؤبد وأنه الذي نطمع في تجاوزه عنه يوم البعث فليعلموا أنهم إن استغفروا الله عما سلف منهم مِن كُفْر فإن الله يغفر لهم ، وأنهم إن لم يقلعوا عن الشرك لا ينفعهم شيء يوم البعث ، ثم صور لهم عاقبة حَالَي التقوى والغواية بذكر دار إجزاء الخير ودار إجزاء الشر .

ولما كان قومه مستمرين على الشرك ولم يكن يومئذ أحد مؤمناً غيره وغير زوجه وغير لوط ابن أخيه كان المقام بذكر الترهيب أجدر ، فلذلك أطنب في وصف حال الضالّين يوم البعث وسوءِ مصيرهم حيث يندمون على ما فرطوا في الدنيا من الإيمان والطاعة ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليتداركوا الإيمان ولات ساعة مَندم .

والإزلاف : التقريب .

وقد تقدم في قوله : ﴿ وأزلفنا ثَمّ الآخرين ﴾ في هذه السورة (64) .

والمعنى : أن المتقين يجدون الجنة حاضرة فلا يتجشمون مشقة السوْق إليها .

واللام في ﴿ للمتقين ﴾ لام التعدية .

و ﴿ برزت ﴾ مبالغة في أُبرزت لأن التضعيف فيه مبالغة ليست في التعدية بالهمزة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وبُرّزت الجحيم لمن يرى ﴾ في سورة النازعات (36) .

والمراد بـ ﴿ الغاوين ﴾ الموصوفون بالغواية ، أي ضلال الرأي .

وذكْر ما يقال للغاوين للإنحاء عليهم وإظهار حقارة أصنامهم ، فقيل لهم ﴿ أين ما كنتم تعبدون ﴾ وفي الاقتصار على ذكر هذا دون غيره مما يخاطبون به يومئذ مناسبة لمقام طلب الإقلاع عن عبادة تلك الأصنام .

وأسند فعل القول إلى غير معلوم لأن الغرض تعلق بمعرفة القول لا بمعرفة القائل ، فالقائل الملائكة بإذن من الله تعالى لأن المشركين أحقر من أن يوجه الله إليهم خطابه مباشرة .

والاستفهام في قوله : ﴿ أين ما كنتم تعبدون ﴾ استفهام عن تعيين مكان الأصنام إن لم تكن حاضرة ، أو عن عملها إن كانت حاضرة في ذلك الموقف ، تنزيلاً لعدم جدواها فيما كانوا يأملونه منها منزلةَ العدم تهكّماً وتوبيخاً وتوقيفاً على الخطأ .

والاستفهام في ﴿ هل ينصرونكم ﴾ كذلك مع الإنكار أن تكون الأصنام نصراء .

والانتصار طلب النصير .

وكتب ﴿ أينما ﴾ في المصاحف موصولة نون (أين) بميم (ما) والمتعارف في الرسم القياسي أن مثله يكتب مفصولاً لأن (ما) هنا اسم موصول وليست المزيدة بعد (أين)

التي تصير (أين) بزيادتها اسم شرط لعموم الأمكنة ، ورسم المصحف سنة متبعة .

و﴿ أو ﴾ للتخيير في التوبيخ والتخطئة ، أي هل أخطأتم في رجاء نصرها إياكم ، أو في الأقل هل تستطيع نَصر أنفسها وذلك حين يلقى بالأصنام في النار بمرأى من عبدتها ولذلك قال : ﴿ فكبكبوا فيها ﴾ ، أي كبكبت الأصنام في جهنم .

(52/570)

ومعنى ﴿ كُبكِبوا ﴾ كُبُّوا فيها كَباً بعد كَبَ فإنَّ ﴿ كبكبوا ﴾ مضاعف كُبُّوا بالتكرير وتكرير اللفظ مفيد تكرير المعنى مثل : كفكَف الدمعَ ، ونظيره في الأسماء : جيش لَمْلَم ، أي كثير ، مبالغة في اللَّم ، وذلك لأن له فعلاً مرادفاً له مشتملاً على حروفه ولا تضعيف فيه فكان التضعيف في مرادفه لأجل الدلالة على الزيادة في معنى الفعل .

وضمائر ﴿ ينصرونكم وينتصرون وكُبكبوا ﴾ عائدة إلى ﴿ ما كنتم تعبدون ﴾ بتنزيلها منزلة العقلاء .

وجنود إبليس : هم أولياؤه وأصناف أهل الضلالات التي هي من وسوسة إبليس .

وتقدم الكلام على إبليس في سورة البقرة .

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) ﴾

يجوز أن يكون هذا من حكاية كلام إبراهيم عليه السلام أطنب به الموعظة لتصوير هول ذلك اليوم فتكون الجملة حالاً ، أو تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً كما سيأتي .

ويجوز أن يكون حكاية كلام إبراهيم انتهت عند قوله : ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ [الشعراء : 95] أو عند قوله تعالى : ﴿ يوم يبعثون ﴾ [الشعراء : 87] على ما استظهر ابن عطية .

ويكون هذا الكلام موعظة من الله للسامعين من المشركين وتعليماً منه للمؤمنين فتكون الجملة استئنافاً معترضاً بين ذكر القصة والتي بعدها وهو استئناف بياني ناشىء عن قوله : ﴿ فكبكبوا فيها ﴾ [الشعراء : 94] لأن السامع بحيث يسأل عن فائدة إيقاع الأصنام في النار مع أنها لا تفقه ولا تُحِسّ فبيّن له ذلك ، فحكاية مخاصمة عبدتها بينهم لأن رؤيتهم أصنامهم هو مثار الخصومة بينهم إذ رأى الأتباعُ كذب مضلّليهم معاينة ولا يجد المضلّلون تنصّلاً ولا تفصّياً ، فإن مذلة الأصنام وحضورها معهم وهم في ذلك العذاب أقوى شاهد على أنها لا تملك شيئاً لهم ولا لأنفسها .

4

وأما جملة : ﴿ وهم فيها يختصمون ﴾ فهي في موضع الحال ، وجملة ﴿ تالله ﴾ مقول القول ، وجملة : ﴿ إن كنا لفي ضلال مبين ﴾ جواب القسم .

و ﴿ إنْ ﴾ مخففة من (إنَّ) الثقيلة وقد أهملت عن العمل بسبب التخفيف فإنه مُجوز للإهمال .

والجملة بعدها سادّة مسد اسمها وخبرها .

واقتران خبر (كان) باللام في الجملة التي بعدها للفرق بين ﴿ إنْ ﴾ المخففة المؤكدة وبين (إنْ) النافية ، والغالب أن لا تخلو الجملة التي بعد ﴿ إنْ ﴾ المخففة عن فعل من باب (كان) .

وجيء في القسم بالتاء دون الواو والباء لأن التاء تختص بالقسم في شيء متعجب منه كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنَا لنُفسد في الأرض ﴾ في سورة يوسف (73) ، وقوله : ﴿ وتالله لأكيدَنّ أصنامكم ﴾ في سورة الأنبياء (57) ، فهم يعجبون من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم المعونة والنصر بحجارة لا تغني عنهم شيئاً .

ولذلك أفادوا تمكن الضلال منهم باجتلاب حرف الظرفية المستعار لمعنى الملابسة لأن المظروف شديد الملابسة لظرفه ، وأكدوا ذلك بوصفهم الضلالَ بالمبين ، أي الواضح البيّن .

وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشّى عليها هذا الضلال الذي ما كان له أن يروج على ذي مُسكة من عقل .

و﴿ إذ نسويكم ﴾ ظرف متعلق بـ ﴿ كنّا ﴾ أي كنا في ضلال في وقت إنا نسوّيكم برب العالمين .

وليست ﴿ إذ ﴾ بموضوعة للتعليل كما توهمه الشيخ أحمد بن عَلوان التونسي الشهير بالمِصري فيما حكاه عنه المقري في "نفح الطيب" في ترجمة أبي جعفر اللَّبْلي في الباب الخامس من القسم الأول ، وإنما غشي عليه حاصل المعنى المجازي فتوهمه معنى من معاني ﴿ إذ ﴾ ومنه قول النابغة:

فعدِّ عما ترى إذْ . . .

لا ارتجاع له

أي حين لا ارتجاع له .

والتسوية : المعادَلة والمماثلة ، أي إذ نجعلكم مثل ربّ العالمين ، فالظاهر أنهم جعلوهم مثله مع الاعتراف بالإلهية وهو ظاهر حال إشراكهم كما تقدم في قوله:

﴿ فإنهم عدوٌّ لي إلا ربَّ العالمين ﴾ [الشعراء : 77] ، ويحتمل أنهم جعلوه مثله فيما تبين لهم من إلهيته يومئذ إذ كانوا لا يؤمنون بالله أصلاً في الدنيا فهي تسوية بالمآل وقد آبوا إلى

الاعتراف بما تضمنته كلمة إبراهيم لهم في الدنيا إذ قال لهم ﴿ فإنهم عدوٌّ لي إلا رب العالمين ﴾ [الشعراء : 77] .

وضمير الخطاب في ﴿ نسويكم ﴾ موجه إلى الأصنام ، وهو من توجيه المتندم الخطابَ إلى الشيء الذي لا يعقل وكان سبباً في الأمر الذي جرّ إليه الندامة بتنزيله منزلة من يعقل ويسمع .

والمقصود من ذلك المبالغة في توبيخ نفسه .

ومنه ما روى الغزالي في "الإحياء" : أن عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق فوجده ممسكاً بلسانه بأصبعيه وهو يقول : أنتَ أوردتَني الموارد .

وعن ابن مسعود أنه وقف على الصفا يلبّي ويقول : يا لسانُ قل خيراً تغْنَم واسكت عن شر تسلمَ .

وهذا أسلوب متّبع في الكلام نثراً ونظماً قال أبو تمام:

فيا دمعُ أنجدْني على سَاكني نجد . . .

وصيغ ﴿ نسويكم ﴾ في صيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة حين يتوجهون إلى الأصنام بالدعاء والنعوت الإلهية .

وقولهم : ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ خطاب بعض العامة لبعض .

وعنَوا بالمجرمين أئمة الكفر الذين ابتدعوا لهم الشرك واختلقوا لهم ديناً .

والمناسب أن يكون التعريف في ﴿ المجرمون ﴾ مستعملاً في كَمال الإجرام فإن من معاني اللام أن تدل على معنى الكمال .

ورتبوا بالفاء انتفاء الشافعين على جملة : ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ حيث أطمعوهم بشفاعة الأصنام لهم عند الله مثل المشركين من العرب ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] فتبيّن لهم أن لا شفاعة لها ، وهذا الخبر مستعمل في التحسر والتوجع .

والشافع : الذي يكون واسطةَ جلب نفع لغيره أو دفع ضر عنه .

وتقدم ذكر الشفاعة في قوله : ﴿ ولا تنفعها شفاعة ﴾ في البقرة (123) ، والشفيع في أول سورة يونس .

(55/570)

وأما قولهم : ﴿ ولا صديق حميم ﴾ فهو تتميم أثارهُ ما يلقونه من سوء المعاملة من كل من يمرون به أو يتصلون ، ومن الحرمان الذي يعاملهم كل من يسألونه الرفق بهم حتى علموا أن جميع الخلق تتبرأ منهم كما قال تعالى : ﴿ ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب ﴾ فإن الصديق هو الذي يواسيك أو يسليك أو يتوجع ويومئذ حقّت كلمة الله ﴿ الأخِلاّء يومئذ

بعضهُم لبعض عدوّ إلا المتقين ﴾ [الزخرف : 67] وتقدم الكلام على الصديق في قوله تعالى : ﴿ أو صديقكم ﴾ في سورة النور (61) .

والحميم : القريب ، فعيل من حَمَّ (بفتح الحاء) إذا دنا وقرُب فهو أخص من الصديق .

والمراد نفي جنس الشفيع وجنس الصديق لوقوع الاسمين في سياق النفي المؤكَّد بـ ﴿ من ﴾ الزائدة ، وفي ذلك السياق يستوي المفرد والجمع في الدلالة على الجنس .

وإنما خولف بين اسمي هذين الجنسين في حكاية كلامهم إذ جيء بـ ﴿ شافعين ﴾ جمعاً ، وبـ ﴿ صديق ﴾ مفرداً ، لأنهم أرادوا بالشافعين الآلهة الباطلة وكانوا يعهدونهم عديدين فجرى على كلامهم ما هو مرتسم في تصورهم .

وأما الصديق فإنه مفروض جنسُه دون عدد أفراده إذ لم يَعنُوا عدداً معيّناً فبقي على أصل نفي الجنس ، وعلى الأصل في الألفاظ إذْ لم يكن داع لغير الإفراد .

والذي يبدو لي أنه أوثر جمع ﴿ شافعين ﴾ لأنه أنسب بصورة ما في أذهانهم كما تقدم .

وأما إفراد ﴿ صديق ﴾ فلأنه أريد أن يُجرى عليه وصف ﴿ حميم ﴾ فلو جيء بالموصوف جمعاً لاقتضى جمع وصفه ، وجمعُ ﴿ حميم ﴾ فيه ثقل لا يناسب منتهى الفصاحة ولا يليق بصورة الفاصلة مع ما حصل في ذلك من التفنن الذي هو من مقاصد البلغاء .

ثم فرعوا على هذا التحسر والندامة تمنِّي أن يعادوا إلى الدنيا ليتداركوا أمرهم في الإيمان

بالله وحده .

و(لو) هذه للتمنّي ، وأصلها (لو) الشرطية لكنها تُنُوسي منها معنى الشرط .

(56/570)

وأصلها : لو أرجعنا إلى الدنيا لآمنّا ، لكنه إذا لم يقصد تعليق الامتناع على امتناع تمحّضت (لو) للتمنّي لما بين الشيء الممتنع وبين كونه متمنّى من المناسبة .

والكرة : مرة من الكرّ وهو الرجوع .

وانتصب ﴿ فنكون ﴾ في جواب التمنّي .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103)

تكرير ثالث لهاته الجملة تعداداً على المشركين وتسجيلاً لتصميمهم .

واسم الإشارة إشارة إلى كلام إبراهيم عليه السلام فإن فيه دليلاً بيّناً على الوحدانية لله تعالى وبطلان إلهية الأصنام ، فكما لم يهتد بها قوم إبراهيم فما كان أكثر المشركين بمكة بمؤمنين بها بعد سماعها ، ولكن التبليغ حق على الرسول صلى الله عليه وسلم وقد تقدم الكلام على نظير هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(57/570)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ [الشعراء : 90]

يعني : قرِّبت ، لكن كيف تقرب منهم وهم بداخلها ؟ قالوا : تُقرَّب منهم قبل أن يدخلوها ، وهم ما زالوا في شدة الموقف وهو القيامة والحساب ، فتُقرَّب منهم الجنة ليطمئنوا بها ، ويهون عليهم هذا الموقف الصعب .

وفي آية أخرى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق : 31] يعني : يروْنها عياناً ، ويعرفون أنها النعيم الذي ينتظرهم ، وسوف يباشرونه عن قريب ، كما لو دُعِيْتَ إلى مائدة أحد العظماء ، وقد أُعدَّتْ على أتمَّ وجه ، فإن من النعيم أن تمر بها وتشاهد ما عليها من أطايب الطعام قبل أن يحين وقت الاجتماع عليه .

وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91)

وهذه لمن أتى الله بقلب غير سليم ، قلب خالطه شرك أو نفاق أو رياء ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] .

والورود لا يعني دخول النار ، إنما رؤيتها والمرور بها ؛ لأن الصراط مضروب على مَتْن جهنم ، فالورود شيء والدخول شيء آخر ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ ﴾ [القصص : 23] مع أن

موسى عليه السلام ورد الماء يعني : مكان الماء ، ولم يشرب منه .

والحكمة من ورود النار بهذا المعنى أنْ يعرف المؤمن فَضْل الإيمان عليه ، وأنه سبب نجاته من هذه النار التي يراها ، وهذه أعظم نعمة عليه ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : 185] .

ومعنى ﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء : 91] جمع غَاوٍ ، وهو إما أنْ يكون غاوياً في نفسه ، أو أغوى غيره ، فتطلق على الغاوي ، وعلى الذي يُغوي غيره .

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93)

(58/570)

قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء : 92] أرونا مَنْ أشركتموهم مع الله ، أين هم الآن ؟

وفي موضع آخر : ﴿ احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم * وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات : 2225] .

لقد ضلوا عنكم ، وتركوكم ، بل وتبرأوا منكم : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا

وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ﴾ [البقرة : 166] .

ثم يأتي الذين اتبعوا فيقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [فصلت : 29] .

نعم ، إنها معركة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء : 93] يعني : لا يستطيعون نصركم ، أو الدفاع عنكم ، ولا حتى نَصْر أنفسهم ، فإنْ كان نصرهم لأنفسهم ممنوعاً فلغيرهم من باب أَوْلَى ، ففي الآية تقريع لهم ولمن عبدوهم من دون الله ، وتحقير لشأنهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ ﴾

الفعل كَبْكب ، يعني : كبّوا مرة بعد أخرى على وجوههم ، فهي تعني تكرار الكَبِّ ، فكلما قام كُبَّ على وجهه مرة أخرى ، وهي على وزن فعللة الدال على التكرار كما تقول : زقزقة العصافير ، ونقنقة الضفادع . والمراد هنا الأصنام تكبّ على وجوهها ، وتسبق مَنْ عبدها إلى النار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : 98] .

وقال : ﴿ هُمْ والغاوون ﴾ [الشعراء : 94] فالغاوون يسبقون مَنْ أغْوَوْهم وأضلوهم ؛ ليقطع أمل التابعين لهم في النجاة ، فلو دخل التابعون أولاً لقالوا : سيأتي منْ عبدناهم لينقذونا ، لكن يجدونهم أمامهم قد سبقوهم ، كما قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [هود : 98] .

وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95)

ولإبليس جنودٌ من الجن ، وجنود من الإنس ، سيجتمعون جمعياً في النار .

قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96)

هذه لقطة من ساحة القيامة ، حيث يختصم أهل الضلال مع مَنْ أضلوهم ، ويُلْقِي كل منهم بالتبعة على الآخر .

وهذه الخصومة وردتْ في قوله تعالى على لسان الشيطان : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] والمعنى : لم يكُنْ لي عليكم سلطانُ قَهْر أحملكم به على طاعتي ، ولا سلطان حجة أقنعكم به .

ثم يعترف أهل الضلال بضلالهم ويقسمون ﴿ تالله ﴾ [الشعراء : 97] يعني : والله ﴿ إِن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 97] يعني : ظاهر ومحيط بنا من كل ناحية ، فأين

كانت عقولنا ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : 98] أي : في الحب ، وفي الطاعة ، وفي العبادة .

كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 165] .

وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99)

يعني : يا رب أرنا هؤلاء المجرمين ، ومَكِّنا منهم لننتقم لأنفسنا ، ونجعلهم تحت أقدامنا ، وهكذا أخرجوا كل سُمِّهم في هؤلاء المجرمين ، وألقوا عليهم بتبعة ما هم فيه .

فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101)

(60/570)

الشافع من الشَّفْع أي : الاثنين ، والشافع هو الذي يضمُّ صوته إلى صوتك في أمر لا تستطيع أن تناله بذاتك ، فيتوسط لك عند مَنْ لديه هذا الأمر ، والشفاعة في الآخرة لا تكون إلا لمن أَذِن الله له ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : 28] .

ويقول سبحانه :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : 255] .

إذن : ليس كل أحد صالحاً للشفاعة مُعداً لها ، وكذلك في الشفاعة في الدنيا فلا يشفع لك إلا صاحب منزلة ومكانة ، وله عند الناس أيادٍ تحملهم على احترامه وقبول وساطته ، فهي شفاعة مدفوعة الثمن ، فللشافع رصيد من الجميل وسوابق الخير تزيد عما يطلب للمشفوع له .

لذلك نرى في الريف مثلاً رجلاً له جاه ومنزلة بين الناس ، فيحكم في النزاعات ويفصل في الدم ، فحين يتدخّل بين خصميْن ترى الجميع ينصاع له ويذعن لحكومته .

ومن ذلك ما عرفناه في الشرع من شركة الوجوه ، ومعلوم أن الشركة تحتاج إلى مال أو عمل ، لكن قد يوجد شخص ليس لديه مال ولا يستطيع العمل ، لكن يتمتع بوجاهة ومنزلة بين الناس ، فنأخذه شريكاً معنا بما لديه من هذه الميزة .

والحقيقة أن وجاهته ومنزلته بين الناس قُوِّمت بالمال ؛ لأنه ما نالها من فراغ ، إنما جاءت نتيجة جَهْد وعمل ومجاملات للناس ، احترموه لأجلها ، فلما زال عنه المال وأنفقه في الخير بَقِي له رصيد من الحب والمكانة بين الناس . . ومن ذلك أيضاً شراء العلامة التجارية .

ومعنى ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 101] فرْق بين الشافع والصديق ، فالشافع لا بُدَّ أن تطلب منه أن يشفع لك ، أما الصديق وخاصة الحميم لا ينتظر أن تطلب منه ، إنما يبادرك بالمساعدة ، ووصف الصديق بأنه حميم ؛ لأن الصداقة وحدها في هذا الموقف لا تنفع حيث كل إنسان مشغول بنفسه .

فإذا لم تكُنْ الصداقة داخلة في الحميمية ، فلن يسأل صديق عن صديقه ، كما قالت تعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 3437] .

وقد أثارت مسألة الشفاعة لغطاً كثيراً من المستشرقين الذين يريدون تصيّد المآخذ على القرآن الكريم ، فجاء أحدهم يقول : تقولون إن القرآن معجزة في البلاغة ، ونحن نرى فيه المعنى الواحد يأتي في أسلوبين ، فإنْ كان الأول بليغاً فالآخر غير بليغ ، وإنْ كان الثاني بليغاً فالأول غير بليغ ، ثم يقول عن مثل هذه الآيات : إنها تكرار لا فائدة منه .

ونقول له : أنت تنظر إلى المعنى في إجماله ، وليس لديك الملَكة العربية التي تستقبل بها كلام الله ، ولو كانت عندك هذه الملَكة لما اتهمتَ القرآن ، فكل آية مما تظنه تكراراً إنما هي تأسيس في مكانها لا تصلح إلا له .

والآيتان محل الكلام عن الشفاعة في سورة البقرة ، هما متفقتان في الصدر مختلفتان في العَجْز ، أحدهما :

﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ [البقرة : 48] .

والأخرى :

﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ [البقرة : 123] .

إذن : فصدْر الآيتين متفق ، أما عَجُز الأولى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة : 48] .

وعَجُز الأخرى : ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [البقرة : 123] فهما مختلفتان .

(62/570)

وحين تتأمل صَدْرَيْ الآيتين الذي تظنه واحداً في الآيتين تجد أنه مختلف أيضاً ، نعم هو مُتحد في ظاهره ، لكن حين تتأمله تجد أن الضمير فيهما : إما يعود على الشافع ، وإما يعود على المشفوع له ، فإنْ عاد الضمير على المشفوع له نقول له : لا نأخذ منك عدلاً ، ولا تنفعك شفاعة ، وإنْ عاد الضمير على الشافع نقول له : لا نقبل منك شفاعة ونُقدِّم الشفاعة أولاً ولا نأخذ منك عدلاً .

إذن : ليس في الآيتين تكرار كما تظنون ، فكلٌّ منهما يحمل معنى لا تؤديه الآية الأخرى .

وقد أوضحنا هذه المسألة أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ [

الإسراء : 31] .

والأخرى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ [الأنعام : 151] .

فصدْرا الآيتين مختلف ، وكذلك العَجْز مختلف ، فعَجُز الأولى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ [الإسراء : 31] .

وعَجُز الأخرى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام : 151] .

وحين نتأمل الآيتين نجد أن لكل منهما معناها الخاص بها ، وليس فيهما تكرار كما يظن البعض .

ففي الآية الأولى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ [الإسراء : 31] إذن : فالفقر غير موجود ، والأب يخاف أن يأتي الفقر بسبب الأولاد ، فهو مشغول برزق الولد ، لا برزقه هو ؛ لأنه غني غير محتاج ؛ لذلك قدَّم الأولاد في عَجُز الآية ، كأنه يقول للأب : اطمئن فسوف نرزق هؤلاء الأولاد أولاً ، وسوف تُرزَق أنت أيضاً معهم .

أما الآية الأخرى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ [الأنعام : 151] فالفقر في هذه الحالة موجود فعلاً ، وشُغل الأب برزق نفسه أوْلى من شغله برزق ولده ؛ لذلك قال في عَجُز الآية : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام : 151] فقدَّمهم على الأولاد .

إذن : لكل آية معناها الذي لا تؤديه عنها الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾

معنى : ﴿ كَرَّةً ﴾ [الشعراء : 102] أي : عودة إلى الدنيا ورجعة ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 102] أي : نستأنف حياة جديدة ، فنؤمن بالله ونطيعه ، ونستقيم على منهجه ، ولا نقف هذا الموقف .

وفي آيات أخرى شرحت هذه المسألة ، يقول تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 99100] .

يعني : ﴿ كَلاَّ ﴾ [المؤمنون : 100] لن يعودوا مرة أخرى ، وما هي إلا كلمة يقولونها بألسنتهم يريدون النجاة بها ، لكن هيهات فبينهم وبين الدنيا برزخٌ يعزلهم عنها ، ويمنعهم العودة إليها ، وسوف يظل هذا البرزخ إلى يوم يُبعثون .

وفي أية أخرى حول هذا المعنى يُرقّي الحق تبارك وتعالى المسألة من موقف الموت إلى موقف القيامة ، فيقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنعام : 27] .

وهذا كَذِب منهم وقَوْل باللسان لا يوافقه العمل ؛ لذلك ردَّ الحق تبارك وتعالى عليهم بقوله : ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [

الأنعام : 28] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾

الآية : هي الأمر العجيب الملفت للنظر ، وما كان ينبغي أنْ يمرَّ على العقول بدون تأمّل واعتبار ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 103] رغم أن هذه الآيات ظاهرة واضحة ، ومع ذلك كان أكثرهم غير مؤمنين .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

(64/570)

أي : مع كونهم لم يؤمن أكثرهم ، فالله تعالى هو العزيز الذي لا يُغلَب ، إنما يغلِب ، ومع عِزّته تعالى فهو رحيم بعباده يفتح باب التوبة لمن تاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(65/570)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ تالله أن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾

وهذه التسوية إنما كانت في الحب والتأله لا في الخلق والقدرة والربوبية وهي العدل الذي أخبر به عن الكفار بقوله والحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون وأصح القولين أن المعنى ثم الذين كفروا بربهم يعدلون فيجعلون له عدلا يحبونه ويعبدونه ويعبدونه كما يحبون الله ويعبدونه ويعظمون أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 120 ﴾

(66/570)

وقال أيضا :

وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه في أفعاله وصفاته وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها أن يتيقظ لهذه المسألة علما وعملا وحالا وتكون أهم الأشياء

عنده وأجل علومه وأعماله فإن الشأن كله فيها والمدار عليها والسؤال يوم القيامة عنها قال تعالى فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون قال غير واحد من السلف هو عن قول لا إله إلا الله وهذا حق فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها قال أبو العالية كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون ماذا كنتم تعبدون ماذا أجبتم المرسلين فالسؤال عماذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها والسؤال عماذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إليها هل سلكوها وأجابوا لما دعوهم إليها فعاد الأمر كله إليها وأمر هذا شأنه حقيق بأن تنعقد عليه الخناصر ويعض عليه بالنواجذ ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ بأطراف الأنامل ولا بطلب على فضله بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يطلب على الفضلة والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ طريق الهجرتين صـ 240 . 279 ﴾ . باختصار

(67/570)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ قال : قربت لأهلها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن نبيح ابن امرأة كعب قال : تزلف الجنة ، ثم تزخرف ، ثم ينظر إليها من خلق الله ؛ من مسلم أو يهودي أو نصراني إلا رجلان : رجلاً قتل مؤمناً متعمداً ، أو رجلاً قتل معاهداً متعمداً .

فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فكبكبوا فيها ﴾ قال : جمعوا فيها ﴿ هم والغاوون ﴾ قال : مشركو العرب والآلهة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ فكبكبوا ﴾ قال : رموا .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن السدي ﴿ فكبكبوا فيها ﴾ قال : في النار ﴿ هم ﴾ قال : الآلهة ﴿ والغاوون ﴾ قال : مشركو قريش ﴿ وجنود إبليس ﴾ قال : ذرية إبليس ومن ولد .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ والغاوون ﴾ قال : الشياطين .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الناس يمرون يوم القيامة على الصراط : والصراط دحض مزلة يتكفأ بأهله . والنار تأخذ منهم ، وإن

جهنم لتنطف عليهم مثل الثلج إذا وقع لها زفير وشهيق . فبينما هم كذلك إذ جاءهم نداء من الرحمن : عبادي من كنتم تعبدون في دار الدنيا ؟ فيقولون : رب أنت تعلم انا إياك كنا نعبد . فيجيبهم بصوت لم يسمع الخلائق مثله قط : عبادي حق عليّ أن لا أُكِلَكُمُ اليوم إلى أحد غيري فقد عفوت عنكم ، ورضيت عنكم . فتقوم الملائكة عند ذلك بالشفاعة ، فينحون من ذلك المكان فيقول الذين تحتهم في النار ﴿ فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾ [إبراهيم : 43] قال الله ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾ قال ابن عباس : ادخروا فيها إلى آخر الدهر " .

(68/570)

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أمتي ستحشر يوم القيامة ، فبينما هم وقوف إذ جاءهم مناد من الله : ليعتزل سفاكو الدماء بغير حقها . فيميزون على حدة ، فيسيل عندهم سيل من دم ، ثم يقول لهم الداعي : اعيدوا هذه الدماء في أجسادها . فيقولون : كيف نعيدها في أجسادها ؟ فيقول : احشروهم إلى النار . فبينما هم يجرون إلى النار إذ نادى مناد فقال : إن القوم قد كانوا يهللون . فيوقفون منها مكاناً يجدون وهجها حتى يفرغ من حساب أمة محمد صلى الله

عليه وسلم ثم يكبكبون في النار ﴿ هم والغاوون ﴾ ، ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة أن عائشة قالت : يا رسول الله يكون يوم لا يغنى عنا فيه من الله شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نعم . في ثلاث مواطن : عند الميزان ، وعند النور والظلمة ، وعند الصراط . من شاء الله سلمه وأجازه ، ومن شاء كبكبه في النار قالت : يا رسول الله وما الصراط ؟ قال : طريق بين الجنة والنار يجوز الناس عليه مثل حد الموسى ، والملائكة صافون يميناً وشمالاً يخطفونهم بالكلاليب مثل شوك السعدان وهم يقولون : سلم سلم ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ فمن شاء الله سلمه ومن شاء كبكبه في النار " .

وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99)

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ يقول : الأوّلون الذين كانوا قبلنا اقتدينا بهم فضللنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ قال : إبليس وابن آدم القاتل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ فما لنا من شافعين ﴾ قال : من أهل السماء ﴿ ولا صديق حميم ﴾ قال : من أهل الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ولا صديق حميم ﴾ قال : شفيق .

(69/570)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فلو أن لنا كرة ﴾ قال : رجعة إلى الدنيا ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ قال : حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(70/570)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾ :

قرأ مالك بن دينار " وَبَرَزَتْ " بفتح الباء والراء خفيفةً ، مبنياً للفاعل ، مسنداً للجحيم فلذلك رُفِعَ .

قوله : ﴿ فَكُبْكِبُواْ ﴾ : أي : أُلْقُوا ، وقُلِبَ بعضُهم/ على بعض . قال الزمخشري : " الكَبْكَبَةُ تكريرُ الكَبِّ . جَعَلَ التكريرَ في اللفظِ دليلاً على التكريرِ في المعنى " . وقال ابن

عطية نحواً منه ، قال : " وهو الصحيحُ لأنَّ تكريرَ الفعلِ بَيِّنٌ نحو : صَرَّ وصَرصَرَ " وهذا هو مذهب الزجاج . وفي مثل هذا البناءِ ثلاثةُ مذاهبَ ، أحدها : هذا . والثاني : وهو مذهبُ البصريين أنَّ الحروفَ كلَّها أصولٌ . والثالث وهو قول الكوفيين أنَّ الثالثَ مُبْدَلٌ من مثلِ الثاني ، فأصل كَبْكَبَ : كَبَّبَ بثلاثِ باءات . ومثلُه : لَمْلَمَ وكَفْكَفَ . هذا إذا صَحَّ المعنى بسقوطِ الثالث . فأمَّا إذا لم يَصِحَّ المعنى بسقوطِه كانَتْ كلُّها أصولاً من غيرِ خلافٍ نحو : سِمسِم وخِمْخِم .

وواو "كُبْكِبوا " قيل : للأصنام ؛ إجراءً لها مُجْرى العقلاءِ . وقيل : لعابديها .

قوله : ﴿ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ معترضةٌ بين القولِ ومعمولِه ، ومعمولُه الجملةُ القسميةُ .

تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97)

قوله : ﴿ إِن كُنَّا لَفِي ﴾ مذهبُ البَصْريين : أنَّ " إنْ " مخففة واللامَ فارقةٌ ، ومذهبُ الكوفيين : أنَّ " إنْ " نافية ، واللامَ بمعنى " إلاَّ " .

قوله : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ ﴾ : " إذ " منصوبٌ : إمَّا ب " مُبين " ، وإمَّا بمحذوفٍ أي : ضَلَلْنا في وقتِ تَسْويتنا لكم بالله في العبادةِ . ويجوز على ضَعْفٍ أَنْ يكونَ معمولاً ل " ضلال " ، والمعنى عليه . إلاَّ أنَّ ضعفَه صناعيٌّ : وهو أنَّ المصدرَ الموصوفَ لا يَعْمَلُ بعد وصفِه .

وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101)

قوله : ﴿ حَمِيمٍ ﴾ : الحميمُ : القريبُ مِنْ قولِهم : " حامَّةُ فلانٍ " أي : خاصَّتُه . وقال الزمخشري : " الحميمُ مِنَ الاحتمامِ ، وهو من الاهتمام ، أو من الحامَّةِ وهي الخاصَّةُ ، وهو الصديقُ الخالص " والنفي هنا يَحْتمل نفيَ الصديقِ من أصلِه ، أو نفيَ صفتِه فقط فهو من باب :

3522 على لاحِبٍ لا يهتدى بمنارِه . . . . . .

والصديقُ : يحتمل أَنْ يكونَ مفرداً ، وأَنْ يكونَ مُسْتَعملاً للجمع ، كما يُسْتعمل العدوُّ له يقال : هم صديق وهم عدو .

فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102)

قوله : ﴿ فَلَوْ أَنَّ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ المُشْرَبَةَ معنى التمني ، فلا جوابَ لها على المشهورِ . ويكون نصبُ " فنكونَ " جواباً للتمني الذي أَفْهَمَتْه " لو " ويجوز أَنْ تكونَ على بابِها ، وجوابُها محذوفٌ أي : لَوَجَدْنا شُفَعاءَ وأصدقاءَ أو لَعَمِلْنا صالحاً . وعلى هذا فنَصْبُ الفعلِ ب " أَنْ " مضمرةً عطفاً على " كَرَّةً " أي : لو أَنَّ لنا كَرَّةً فكوناً ، كقولها :

3523 لَلُبْسُ عَباءةٍ وتَقَرَّ عيني . . . . . .

. . . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 534.536 ﴾

(72/570)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) ﴾

﴿ أزلفت ﴾ : أي قُرِّبَتْ وأُدْنِيَتْ في الوقت ، فإنَّ ما هو آتٍ قريبٌ ، وبالعين أُحْضِرَتْ .

وكما تُجَرُّ النارُ إلى المحشر بالسلاسل فلا يَبْعُد إدناءُ الجنة من المتقين .

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أُظْهِرَتْ ؛ فتؤكَّدُ الحُجَّةُ على أرباب الجحود ، ويُعْرَضُونَ على النار ، وتُعْرَضُ عليهم منازلُ الأشرار ، فَيُكَبْكَبُونَ فيها أجميعن ، ويأخذون يُقِرُّونَ بذنوبهم ، ومن جملتها ما أخبر أنهم يقولون : –

تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98)

ولا فضيحةَ أقبحُ ولا عيبَ فيهم أشنعُ مما يعترفون به على أنفسهم بقولهم : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فإنَّ أقبحَ أبوابِ الشِّرْكِ وأشنعَ أنواعِ الكُفْرِ وأقبحَ أحوالِهم – التشبيهُ في

صفة المعبود .

فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101)

في بعض الأخبار : يجيء – يومَ القيامة – عَبْدٌ يُحتَسَبُ فتستوي حسناتُه وسيئاته ويحتاج إلى حسنة واحدة يَرْضَى عنها خصومُ ، فيقول الله – سبحانه : عبدي . . . بقيت لك حسنةٌ واحدة ، إن كانت أدْخَلَتْكَ الجنةَ . . أُنظُرْ . . وتَطَلَّبْ من الناس لعلَّ واحداً يهب لَكَ حسنةً واحدةً . فيأتي العبدُ في الصفين ، ويطلب من أبيه ثم من أمه ثم من أصحابه ، ويقول لكلِّ واحدٍ في بابه فلا يجيبه أحدٌ ، فالكلُّ يقول له : انا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدةٍ ، فيرجع إلى مكانه ، فيسأله الحقُّ – سبحانه : ماذا جئتَ به ؟

فيقول : يا ربِّ . . . لم يُعْطِني أحدٌ حسنةً من حسناته .

فيقول الله – سبحانه : عبدي . . ألم يكن لك صديق (فيَّ) .

فيتذكر العبدُ ويقول : فلان كان صديقاً لي .

(73/570)

فيدله الحقُّ عليه ، فيأتيه ويكلِّمه في بابه ، فيقول : بلى ، لي عباداتٌ كثيرة قَبِلَها اليومَ فقد وهبتُك منها ، فيسير هذا العبدُ ويجيء إلى موضعه ، ويخبر ربَّه بذلك ، فيقول الله –

سبحانه : قد قَبِلْتُها منه ، ولن أنقص من حقّه شيئاً ، وقد غفرت لكَ وله ، وهذا معنى قوله .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 17.16 ﴾

(74/570)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إ ﴾

مضت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ؛ وانتهت بتلك النهاية ، وفيها البشرى للمؤمنين المستضعفين المضطهدين كما كانت القلة المؤمنة يومذاك في مكة وفيه الدمار للظالمين المتجبرين الذين يشبه موقفهم موقف المشركين .

فالآن تتبعها قصة إبراهيم عليه السلام وقومه . ويؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتلوها على المشركين . ذلك أنهم يزعمون أنهم ورثة إبراهيم ، وأنهم على دينه القديم ؛ وهم يشركون بالله ، ويقيمون الأصنام لعبادتها في بيته الحرام ، الذي بناه إبراهيم خالصاً لله . .

فاتل عليهم نبأ إبراهيم ليتبينوا منه حقيقة ما يزعمون .

والقصص في هذه السورة لا يتبع الخط التاريخي ، لأن العبرة وحدها هي المقصودة . فأما في سورة الأعراف مثلاً فقد كان الخط التاريخي مقصوداً ، لعرض خط وراثة الأرض ، وتتابع الرسل من عهد آدم عليه السلام فمضى القصص فيها يتبع خط التاريخ ، منذ الهبوط من الجنة ، وبدء الحياة البشرية .

والحلقة التي تعرض هنا من قصة إبراهيم عليه السلام هي حلقة الرسالة إلى قومه ، وحواره معهم حول العقيدة ، وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله . والتذكير باليوم الآخر . يعقب هذا مشهد كامل من مشاهد القيامة ، يتنكر فيه العباد للآلهة ، ويندمون على الشرك الذي انتهى بهم إلى ما هم فيه . كأنهم قد صاروا فعلاً إلى ما هم فيه ! وهنا عبرة القصة للمشركين . . ومن ثم يتوسع في الحديث عن مقومات عقيدة التوحيد ، وفساد عقيدة الشرك ؛ ومصير المشركين في يوم الدين . لأن التركيز متجه إليها . ويختصر ما عدا ذلك مما يفصله في سور أخرى .

وقد وردت حلقات من قصة إبراهيم عليه السلام في البقرة ، والأنعام ، وهود ، وإبراهيم ، والحجر ، ومريم ، والأنبياء ، والحج . وكانت في كل سورة مناسبة لسياقها العام . وعرض منها ما يتفق مع موضوع السورة وجوها وظلها .

عرضت في سورة البقرة حلقة بنائه للبيت هو وإسماعيل ، ودعائه أن يجعل الله البلد الحرام آمناً ، وإعلانه أن وراثة البيت ووراثة بانية إنما هي للمسلمين ، الذين يتبعون ملته ، لا لمن يدعون بالنسب وراثته . وكان هذا بصدد مخالفات بني إسرائيل ، وطردهم ولعنهم ، وتوريث دين إبراهيم وبيته للمسلمين . .

وعرضت كذلك حلقة محاجته للملك الكافر في صفة الله الذي يحيي ويميت ، والذي يأتي بالشمس من المشرق ، وتحديه للملك أن يأتي بها من المغرب . فبهت الذي كفر .

كما عرضت حلقة طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ، وأمره بذبح أربعة من الطير ، وتوزيع أشلائهن على الجبال ، ثم إحياؤها بين يديه ، فجاءت تسعى إليه .

وهذا وذلك في معرض الحديث في السورة ، عن آيات الله وقدرته على الإماتة والإحياء .

وعرضت في الأنعام حلقة بحثه عن ربه ، واهتدائه إليه ، بعد تأمل في النجوم والقمر والشمس ، وتتبع مشاهد الكون .

وكان ذلك في السورة التي تدور حول العقيدة ، وآيات الله في الكون ، ودلالتها على الصانع المبدع الذي لا شريك له .

وعرضت في سورة هود حلقة تبشيره بإسحاق ، وكان ذلك في سياق قصة لوط ، ومرور الملائكة المكلفين تدمير قريته في طريقهم بإبراهيم . وفيها تبدو رعاية الله للمختارين من

عباده وتدمير الفاسقين .

وعرضت في سورة إبراهيم حلقة دعائه بجوار البيت المحرم لمن أسكنه من ذريته بواد غير زرع ؛ وحمده على أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحاق ؛ وطلبه إلى ربه أن يجعله مقيم الصلاة هو وذريته ، وأن يقبل دعاءه ، ويغفر له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الحساب . . وكان سياق السورة كله هو عرض أمة الرسل ؛ برسالة واحدة ، هي التوحيد ؛ وعرض المكذبين بأمة الرسل صفاً واحداً كذلك ؛ وكأنما الرسالة شجرة ظليلة في هجير الكفر وصحراء الجحود !

وعرضت في سورة الحجر الحلقة التي عرضت في سورة هود مع شيء من التفصيل ، في صدد ذكر رحمة الله بعباده المؤمنين ، وعذابه للعصاة المذنبين .

(76/570)

وعرضت في سورة مريم حلقة دعوته في رفق لأبيه ، وغلظة أبيه عليه ، واعتزاله لأبيه وقومه ، وهبة إسماعيل وإسحاق له . وذلك في السورة التي تعرض رعاية الله للمصطفين من عباده . وجوها كله تظلله الرحمة والود واللين .

وعرضت في سورة الأنبياء حلقة دعوته لأبيه وقومه ، وزرايته على أصنامهم . وتحطيم

هذه الأصنام ، وإلقائه في النار التي كانت برداً وسلاماً عليه بأمر الله ، ونجاته هو وابن أخيه لوط إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين . وذلك في صدد استعراض أمة الرسل ، ورعاية الله لهذه الأمة واتجاهها إلى عبادة الله الواحد الذي ليس له شريك .

ووردت في سورة الحج إشارة إلى أمر بتطهير البيت للطائفين والعاكفين . .

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ ﴾ . .

اتل عليهم نبأ إبراهيم الذي يزعمون أنهم ورثته ، وأنهم يتبعون ديانته . اتله عليهم وهو يستنكر ما كان يعبده أبوه وقومه من أصنام كهذه الأصنام التي يعبدها المشركون في مكة ؛ وهو يخالف أباه وقومه في شركهم ، وينكر عليهم ما هم عليه من ضلال ، ويسألهم في عجب واستنكار : ﴿ ما تعبدون ؟ ﴾ .

﴿ قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ !

وهم كانوا يسمون أصنامهم آلهة . فحكاية قولهم : إنها أصنام . تنبئ بأنهم لم يكونوا يملكون إنكار أنها أصنام منحوتة من الحجر ، وأنهم مع ذلك يعكفون لها ، ويدأبون على عبادتها . وهذه نهاية السخف . ولكن العقيدة متى زاغت لم يفطن أصحابها إلى ما تنحط إليه عبادتهم وتصوراتهم ومقولاتهم !

ويأخذ إبراهيم عليه السلام يوقظ قلوبهم الغافية ، وينبه عقولهم المتبلدة ، إلى هذا السخف الذي يزاولونه دون وعي ولا تفكير :

﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم أو يضرون ﴾

فأقل ما يتوفر لإله يعبد أن يكون له سمع كعابده الذي يتوجه إليه بالعبادة والابتهال ! وهذه الأصنام لا تسمع عبادها وهم يتوجهون إليها بالعبادة ، ويدعونها للنفع والضر .

(77/570)

فإن كانت صماء لا تسمع فهل هي تملك النفع والضر ؟ لا هذا ولا ذاك يمكن أن يدعوه ! ولم يجب القوم بشيء عن هذا فهم لا يشكون في أن إبراهيم إنما يتهكم ويستنكر ؛ وهم لا يملكون حجة لدفع ما يقول . فإذا تكلموا كشفوا عن التحجر الذي يصيب المقلدين بلا وعي ولا تفكير :

﴿ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ . .

إن هذه الأصنام لا تسمع ولا تضر ولا تنفع . ولكنا وجدنا آباءنا يعكفون عليها ، فعكفنا عليها وعبدناها !

وهو جواب مخجل . ولكن المشركين لم يخجلوا أن يقولوه ، كما لم يخجل المشركون في مكة أن يفعلوه . فقد كان فعل الآباء لأمر كفيلاً باعتباره دون بحث ؛ بل لقد كان من العوائق دون الإسلام أن يرجع المشركون عن دين آبائهم ، فيخلوا باعتبار أولئك الآباء ، ويقروا أنهم كانوا

على ضلال . وهذا ما لا يجوز في حق الذاهبين ! وهكذا تقوم مثل هذه الاعتبارات الجوفاء في وجه الحق ، فيؤثرونها على الحق ، في فترات التحجر العقلي والنفسي والانحراف التي تصيب الناس ، فيحتاجون معها إلى هزة قوية تردهم إلى التحرر والانطلاق والتفكير .

وأمام ذلك التحجر لم يجد إبراهيم على حلمه وأناته إلا أن يهزهم بعنف ، ويعلن عداوته للأصنام ، وللعقيدة الفاسدة التي تسمح بعبادتها لمثل تلك الاعتبارات !

﴿ قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ . .

وهكذا لم يمنعه أن أباه وأن قومه يعبدون ما يعبدون ، أن يفارقهم بعقيدته ، وأن يجاهر بعدائه لآلهتهم وعقيدتهم ، هم وآباؤهم وهم آباؤه الأقدمون !

وكذلك يعلم القرآن المؤمنين أن لا مجاملة في العقيدة لوالد ولا لقوم ؛ وأن الرابطة الأولى هي رابطة العقيدة ، وأن القيمة الأولى هي قيمة الإيمان . وأن ما عداه تبع له يكون حيث يكون .

واستثنى إبراهيم ﴿ رب العالمين ﴾ من عدائه لما يعبدون هم وأباؤهم الأقدمون : ﴿ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ . .

فقد يكون من آبائهم الأقدمين من عبد الله ، قبل أن تفسد عقيدة القوم وتنحرف ؛ وقد يكون من عبد الله ولكن أشرك معه آلهة أخرى مدعاة . فهو الاحتياط إذن في القول ، والدقة الواعية في التعبير ، الجديران بإبراهيم عليه السلام في مجال التحدث عن العقيدة وموضوعها الدقيق .

ثم يأخذ إبراهيم عليه السلام في صفة ربه . رب العالمين . وصلته به في كل حال وفي كل حين . فنحس القربى الوثيقة ، والصلة الندية ، والشعور بيد الله في كل حركة ونأمة ، وفي كل حاجة وغاية .

﴿ الذي خلقني فهو يهدين . والذي يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين .

والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ . .

ونستشعر من صفة إبراهيم لربه ، واسترساله في تصوير صلته به ، أنه يعيش بكيانه كله مع ربه . وأنه يتطلع إليه في ثقة ، ويتوجه إليه في حب ؛ وأنه يصفه كأنه يراه ، ويحس وقع إنعامه وإفضاله عليه بقلبه ومشاعره وجوارحه . . والنغمة الرخية في حكاية قوله في القرآن تساعد على إشاعة هذا الجو وإلقاء هذا الظل ، بالإيقاع العذب الرخي اللين المديد . .

﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ . . الذي أنشأني من حيث يعلم ولا أعلم ؛ فهو أعلم بماهيتي

وتكويني ، ووظائفي ومشاعري ، وحالي ومآلي : ﴿ فهو يهدين ﴾ إليه ، وإلى طريقي الذي أسلكه ، وإلى نهجي الذي أسير عليه . وكأنما يحس إبراهيم عليه السلام أنه عجينة طيعة في يد الصانع المبدع ، يصوغها كيف شاء ، على أي صورة أراد . إنه الاستسلام المطلق في طمأنينة وراحة وثقة ويقين .

﴿ والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ . . فهي الكفالة المباشرة الحانية الراعية ، الرفيقة الودود ، يحس بها إبراهيم في الصحة والمرض . ويتأدب بأدب النبوة الرفيع ، فلا ينسب مرضه إلى ربه وهو يعلم أنه بمشيئة ربه يمرض ويصح إنما يذكر ربه في مقام الإنعام والإفضال إذ يطعمه ويسقيه . . ويشفيه . . ولا يذكره في مقام الابتلاء حين يبتليه .

(79/570)

﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾ . . فهو الإيمان بأن الله هو الذي يقضي الموت ، وهو الإيمان بالبعث والنشور في استسلام ورضى عميق .

﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ . . فأقصى ما يطمع فيه إبراهيم عليه السلام النبي الرسول ، الذي يعرف ربه هذه المعرفة ، ويشعر بربه هذا الشعور ، ويحس في

قرارة نفسه هذه القربى . . أقصى ما يطمع فيه أن يغفر له ربه خطيئته يوم الدين . فهو لا يبرئ نفسه ، وهو يخشى أن تكون له خطيئة ، وهو لا يعتمد على عمله ، ولا يرى أنه يستحق بعمله شيئاً ، إلا أنه يطمع في فضل ربه ، ويرجو في رحمته ، وهذا وحده هو الذي يطمعه في العفو والمغفرة .

إنه شعور التقوى ، وشعور الأدب ، وشعور التحرج ؛ وهو الشعور الصحيح بقيمة نعمة الله وهي عظيمة عظيمة ، وقيمة عمل العبد وهو ضئيل ضئيل .

وهكذا يجمع إبراهيم في صفة ربه عناصر العقيدة الصحيحة : توحيد الله رب العالمين . والإقرار بتصريفه للبشر في أدق شؤون حياتهم على الأرض . والبعث والحساب بعد الموت وفضل الله وتقصير العبد . وهي العناصر التي ينكرها قومه ، وينكرها المشركون .

ثم يأخذ إبراهيم الأواه المنيب في دعاء رخي مديد ، يتوجه به إلى ربه في إيمان وخشوع ؛ ﴿ رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

.

والدعاء كله ليس فيه طلب لعرض من أعراض هذه الأرض ؛ ولا حتى صحة البدن . إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى ؛ تحركه مشاعر أصفى . ودعاء القلب الذي عرف الله فأصبح

يحتقر ما عداه . والذي ذاق فهو يطلب المزيد ؛ والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد .

﴿ رب هب لي حكماً ﴾ . . أعطني الحكمة التي أعرف بها القيم الصحيحة والقيم الزائفة ، فأبقى على الدرب يصلني بما هو أبقى .

(80/570)

﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ . . يقولها إبراهيم النبي الكريم الأواه الحليم . فيا للتواضع ! ويا للتحرج ! ويا للإشفاق من التقصير ! ويا للخوف من تقلب القلوب ! ويا للحرص على مجرد اللحاق بالصالحين ! بتوفيق من ربه إلى العمل الصالح الذي يلحقه بالصالحين !

﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ . . دعوة تدفعه إليها الرغبة في الامتداد ، لا بالنسب ولكن بالعقيدة ؛ فهو يطلب إلى ربه أن يجعل له فيمن يأتون أخيراً لسان صدق يدعوهم إلى الحق ، ويردهم إلى الحنيفية السمحاء دين إبراهيم . ولعلها هي دعوته في موضع آخر . إذ يرفع قواعد البيت الحرام هو وابنه إسماعيل ثم يقول : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك . ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ،

ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وقد استجاب الله له ، وحقق دعوته ، وجعل له لسان صدق في الآخرين ، وبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . . وكانت الاستجابة بعد آلاف من السنين . هي في عرف الناس أمد طويل ، وهي عند الله أجل معلوم ، تقتضي حكمته أن تتحقق الدعوة المستجابة فيه .

﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ . . وقد دعا ربه من قبل أن يلحقه بالصالحين ، بتوفيقه إلى العمل الصالح ، الذي يسلكه في صفوفهم . وجنة النعيم يرثها عباد الله الصالحون .

(81/570)

﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ . . ذلك على الرغم مما لقيه إبراهيم عليه السلام من أبيه من غليظ القول وبالغ التهديد . ولكنه كان قد وعده أن يستغفر له ، فوفى بوعده . وقد بين القرآن فيما بعد أنه لا يجوز الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى ؛ وقرر أن إبراهيم استغفر لأبيه بناء على موعدة وعدها إياه ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ وعرف أن القرابة ليست قرابة النسب ، إنما هي قرابة العقيدة . . وهذه إحدى مقومات التربية الإسلامية الواضحة . فالرابطة الأولى هي رابطة العقيدة في الله ، ولا تقوم صلة بين فردين

من بني البشر إلا على أساسها . فإذا قطعت هذه الصلة انبتت سائر الوشائج ؛ وكانت البعدى التي لا تبقى معها صلة ولا وشيجة .

﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . .

ونستشف من قولة إبراهيم عليه السلام : ﴿ ولا تخزني يوم يبعثون ﴾ مدى شعوره بهول اليوم الآخر ؛ ومدى حيائه من ربه ، وخشيته من الخزي أمامه ، وخوفه من تقصيره .

وهو النبي الكريم . كما نستشف من قوله : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . مدى إدراكه لحقيقة ذلك اليوم . وإدراكه كذلك لحقيقة القيم . فليست هنالك من قيمة في يوم الحساب إلا قيمة الإخلاص . إخلاص القلب كله لله ، وتجرده من كل شائبة ، ومن كل مرض ، ومن كل غرض ، وصفائه من الشهوات والانحرافات . وخلوه من التعلق بغير الله . فهذه سلامته التي تجعل له قيمة ووزناً ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ ؛ ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائلة الباطلة ، التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض ؛ وهي لا تزن شيئاً في الميزان الأخير !

وهنا يرد مشهد من مشاهد القيامة يرسم ذلك اليوم الذي يتقيه إبراهيم ؛ فكأنما هو حاضر ، ينظر إليه ويراه ، وهو يتوجه لربه بذلك الدعاء الخاشع المنيب :

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم : أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ! ﴾ .

لقد قربت الجنة وعرضت للمتقين ، الذين كانوا من عذاب ربهم مشفقين . ولقد كشفت الجحيم وأبرزت للغاوين ، الذين ضلوا الطريق وكذبوا بيوم الدين ، وإنهم لعلى مشهد من الجحيم يقفون . حيث يسمعون التقريع والتأنيب ، قبل أن يكبكبوا في الجحيم . . إنهم يسألون عما كانوا يعبدون من دون الله وذلك تساوق مع قصة إبراهيم وقومه وما كان بينه وبينهم من حوار عما كانوا يعبدون إنهم ليسألون اليوم : ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ ﴾ أين هم ﴿ هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ ثم لا يسمع منهم جواب ، ولا ينتظر منهم جواب . إنما هو سؤال لمجرد التقريع والتأنيب ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون ﴾ . . كبكبوا . . وإننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام ، وصوت الكركبة الناشئ من الكبكبة ، كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف . فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه . وإنهم لغاوون ضالون ، وقد

كبكب معهم جميع الغاوون . هم ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ . والجميع جنود إبليس . فهو تعميم شامل بعد تخصيص .

(83/570)

ثم نستمع إليهم في الجحيم . . إنهم يقولون لآلهتهم من الأصنام : ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ فنعبدكم عبادته . إما معه وإما من دونه . الآن يقولونها بعد فوات الأوان ! وهم يلقون التبعة على المجرمين منهم ، الذين أضلوهم وصدوهم عن الهدى . ثم يفيقون فيعلمون أن الأوان قد فات ، وأنه لا جدوى من توزيع التبعات : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ فلا آلهة تشفع ، ولا صداقات تنفع .

وإذا لم تكن شفاعة فيما مضى أفلا رجعة إلى الدنيا لنصلح ما فاتنا فيها ؟ «فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» ! وما هو إلا التمني . فلا رجعة ولا شفاعة فهذا يوم الدين ! ثم يجيء التعقيب المعهود : «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» . .

وهو نفس التعقيب الذي جاء في السورة بعد عرض مصارع عاد وثمود وقوم لوط . كما جاء تعقيبا على كل آية من آيات الله وقعت للمكذبين . فهذا المشهد من مشاهد القيامة

عوض في سياق السورة عن مصارع المكذبين في الدنيا . إذ يصور نهاية قوم إبراهيم . ونهاية الشرك كافة . وهو موضع العبرة في قصص السورة جميعا . ومشاهد القيامة في القرآن تعرض كأنها واقعة ، وكأنما تشهدها الأبصار حين تتلى ، وتتملاها المشاعر ، وتهتز بها الوجدانات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2600 . 2605 ﴾

(84/570)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه قصة الأب الأعظم الأقرب ، أتبعها – دلالة على وصفي العزة والرحمة – قصة الأب الثاني ، مقدماً لها على غيرها ، لما له من القدم في الزمان ، إعلاماً بأن البلاء قديم ، ولأنها أدل على صفتي الرحمة والنقمة التي هي أثر العزة بطول الإملاء لهم على طول مدتهم ، ثم تعميم النقمة مع كونهم جميع أهل الأرض فقال : ﴿ كذبت ﴾ بإثبات التاء اختياراً للتأنيث – وأن كان تذكير القوم أشهر – للتنبيه على أن فعلهم أخس الأفعال ، أو إلى أنهم مع عتوهم وكثرتهم كانوا عليه سبحانه أهون شيء وأضعفه بحيث جعلهم هباء منثوراً وكذا من بعدهم ﴿ قوم نوح ﴾ وهو أهل الأرض كلهم من الآدميين قبل اختلاف الأمم بتفرق اللغات ﴿ المرسلين ﴾ أي بتكذيبهم نوحاً عليه السلام ، لأنه أقام الدليل على نبوته بالمعجزة ، ومن كذب بمعجزة واحدة فقد كذب بجميع المعجزات لتساوي أقدامها في الدلالة على صدق الرسول ، وقد سئل الحسن البصري رحمه الله تعالى عن ذلك فقال : من كذب واحداً من الرسل فقد كذب الكل لأن الآخر جاء بما جاء به الأول – حكاه عنه البغوي .

ولقصد التسلية عبر بالتكذيب في كل قصة ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قال لهم ﴾ لم يتأنوا بطلب دليل ، ولا ابتغاء وجه جميل ؛ وأشار إلى نسبه فيهم بقوله : ﴿ أخوهم ﴾ زيادة في تسلية

هذا النبي الكريم ﴿ نوح ﴾ وأشار إلى حسن أدبه ، واستجلابهم برفقه ولينه ، بقوله : ﴿ ألا تتقون ﴾ أي تكون لكم تقوى ، وهي خوف يحملكم على أن تجعلوا بينكم وبين سخطه وقاية بطاعته بالتوحيد وترك الالتفات إلى غيره ؛ ثم علل أهليته للأمر عليهم بقوله : ﴿ إني لكم ﴾ أي مع كوني أخاكم يسوءني ما يسوءكم ويسرني ما يسركم ﴿ رسول ﴾ أي من عند خالقكم ، فلا مندوحة لي عند إبلاغ ما أمرت به ﴿ أمين ﴾ أي لا غش عندي كما تعلمون ذلك مني على طول خبرتكم بي ، ولا خيانة في شيء من الأمانة ، فلذلك لا بد لي من إبلاغ جميع الرسالة .

(85/570)

ولما عرض عليهم التقوى بالرفق ، وعلل ذلك بما ثبت به أمرها ، تسبب عنه الجزم بالأمر فقال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي أوجدوا الخوف والحذر والتحرز من الذي اختص بالجلال والجمال ، مبادرين إلى ذلك بتوحيده لتحرزوا أصل السعادة فتكونوا من أهل الجنة ﴿ وأطيعون ﴾ أي في كل ما آمركم لتحرزوا رتبة الكمال في ذلك ، فلا يمسكم عذاب .

ولما أثبت أمانته ، نفى تهمته فقال : ﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أي على هذا الحال الذي أتيتكم به ؛ وأشار إلى الإعراق في النفي بقوله : ﴿ من أجر ﴾ أي ليظن ظان أني جعلت

الدعاء سبباً له ؛ ثم أكد هذا النفي بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أجري ﴾ أي في دعائي لكم ﴿ إلا على رب العالمين ﴾ أي الذي دبر جميع الخلائق ورباهم .

ولما انتفت التهمة ، تسبب عن انتفائها أيضاً ما قدمه ، فأعاده إعلاماً بالاهتمام بذلك زيادة في الشفقة عليهم وتأكيداً له في قلوبهم تنبيهاً على أن الأمر في غاية العظمة لما يعلم من قلوبهم من شدة الجلافة فقال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي الذي حاز جميع صفات العظمة ﴿ وأطيعون ﴾ .

(86/570)

ولما قام الدليل على نصحه وأمانته ، أجابوا بما ينظر إلى محض الدنيا كما أجاب من قال من أشراف العرب ﴿ ما لهذا الرسول ﴾ الآيات ، وقال : لو طردت هؤلاء الضعفاء لرجونا أن نتبعك حتى نزل في ذلك ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ [الأنعام : 52] ونحوها من الآيات ، بأن ﴿ قالوا ﴾ أي قومه ، منكرين لاتباعه استناداً إلى داء الكبر الذي ينشأ منه بطر الحق وغمط الناس – أي احتقارهم : ﴿ أنؤمن لك ﴾ أي لأجل قولك هذا وما أثبته أوصافك ﴿ و ﴾ الحال أنه قد ﴿ اتبعك الأرذلون ﴾ أي المؤخرون في الحال والمآل ، والأحوال والأفعال ، فيكون إيماننا بك سبباً لاستوائنا معهم ، فلو طردتهم لم يكن لنا عذر

في التخلف عنك ، ولا مانع من اتباعك ، فكان ما متعوا به من العرض الفاني مانعاً لهم عن السعادة الباقية ، وأما الضعفاء فانكسار قلوبهم وخلوّها عن شاغل موجبٌ لإقبالها على الخير وقبولها له ، لأن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم ، وهكذا قالت قريش في أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وما زالت أتباع الرسل كذلك حتى صارت من سماتهم وأماراتهم كما قال هرقل في سؤاله عن أتباع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكان مثال المستكبرين مثال شخص كان آخر دونه بدرجة ، فأصبح فوقه بدرجة ، فأنف من أن يرتقي إلى درجته لئلا يساويه ، ورضي لنفسه أن يكون دونه ، فما اسخف عقله ! وما أكثر جهله ! فلا شيء أبين من هذا في أن التقدم في الأمور الدنيوية داء لا دواء له إلا إماتة النفس بالتبرؤ منه والبعد عنه .

(87/570)

ولما كانت الجواهر متساوية في أنها مخلوقات الله ، وإنما تتشرف بآثارها ، فالآدمي إنما يشرف أو يرذل بحاله من قاله وفعاله ، أشار إلى أنه يعتبر ما هم عليه الآن من الأحوال الرفيعة ، والأوصاف البديعة ، فلذلك ﴿ قال ﴾ نافياً لعلمه بما قالوه في صورة استفهام إنكاري : ﴿ وما ﴾ أي وأيّ شيء ﴿ علمي بما كانوا يعملون ﴾ أي قبل أن يتبعوني ، أي

وما لي وللبحث عن ذلك ، إنما لي ظاهرهم الآن وهو خير ظاهر ، فهم الأشرفون وإن كانوا أفقر الناس وأخسّهم نسباً ، فإن الغني غني الدين ، والنسب نسب التقوى ؛ ثم أكد أنه لا يبحث عن بواطنهم بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ حسابهم ﴾ أي في الماضي والآتي ﴿ إلا على ربي ﴾ المحسن إليّ باتباعهم لي ليكون لي مثل أجرهم ، المخفف عني أن يكلفني بحاسبهم وتعرف بواطنهم ، لأنه المختص بضبط جميع الأعمال والحساب عليها ﴿ لو تشعرون ﴾ أي لو كان لكم نوع شعور لعلمتم ذلك فلم تقولوا ما قلتم مما هو دائر على أمور الدنيا فقط ، ولا نظر له إلى يوم الحساب .

ولما أفهم قوله رد ما أفهمه قولهم من طردهم ، صرح به في قوله : ﴿ وما ﴾ أي ولست ﴿ أنا بطارد المؤمنين ﴾ أي الذين صار الإيمان لهم وصفاً راسخاً فلم يرتدوا عنه للطمع في إيمانكم ولا لغيره من اتباع شهواتكم ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أنا إلا نذير ﴾ أي محذر ، لا وكيل مناقش على البواطن ، ولا متعنت على الاتباع ﴿ مبين ﴾ أوضح ما أرسلت به فلا أدع فيه لبساً .

ولما أياسهم مما أرادوا من طرد أتباعه لما أوهموا من اتباعه لو طردهم خداعاً ، أقبلوا على التهديد ، فاستأنف سبحانه الإخبار عن ذلك بقوله : ﴿ قالوا لئن لم تنته ﴾ ثم سموه باسمه جفاء وقلة أدب فقالوا : ﴿ يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ أي المقتولين ، ولا ينفعك أتباعك هؤلاء الضعفاء .

ولما أيس منهم بما سمع من المبالغة بالتأكيد في قولهم ، ورأى بما يصدقه من فعلهم ، قال تعالى مخبراً عنه جواباً لسؤال من يريد تعرف حاله بعد ذلك : ﴿ قال ﴾ شاكياً إلى الله تعالى ما هو أعلم به منه توطئة للدعاء عليهم وإلهاباً إليه وتهييجاً ، معرضاً عن تهديدهم له صبراً واحتساباً ، لأنه من لازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واكتفاء عنه بسببه :

﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ .

ولما كان الحال مقتضياً لأن يصدقوه لما له في نفسه من الأمانة ، وبهم من القرابة ، ولما أقام على ما دعاهم إليه من الأدلة مع ما له في نفسه من الوضوح ، أكد الإخبار بتكذيبهم ، إعلاماً بوجوده ، وبإنه تحققه منهم من غير شك فقال : ﴿ إن قومي كذبون ﴾ أي فلانية لهم في اتباعي ﴿ فافتح ﴾ أي احكم ﴿ بيني وبينهم فتحاً ﴾ أي حكماً يكون لي فيه فرج ، وبه من الضيق مخرج ، فأهلك المبطلين وأنجز حتفهم ﴿ ونجني ومن معي ﴾ أي في الدين ﴿ من المؤمنين ﴾ مما تعذب به الكافرين .

ولما كان في إهلاكهم وإنجائه من بديع الصنع ما يجل عن الوصف ، أبرزه في مظهر العظمة فقال : ﴿ فأنجيناه ومن معه ﴾ أي ممن لا يخالفه في الدين على ضعفهم وقتلهم ﴿ في

الفلك ﴾ ولما كانت سلامة المملوء جداً أغرب قال : ﴿ المشحون ﴾ أي المملوء بمن حمل فيه من الناس والطير وسائر الحيوان وما حمل من زادهم وما يصلحهم .

ولما كان إغراقهم كلهم من الغرائب عظمه بأداة البعد - ومظهر العظمة فقال : ﴿ ثم أغرقنا بعد ﴾ أي بعد حمله الذي هو سبب إنجائه ﴿ الباقين ﴾ أي من بقي على الأرض ولم يركب معه في السفينة على قوتهم وكثرتهم ، وكان ذلك علينا يسيراً .

(89/570)

ولما كان ذلك أمراً باهراً ، عظمه بقوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من الدعاء والإمهال ثم الإنجاء والإهلاك ﴿ لآية ﴾ أي عظيمة لمن شاهد ذلك أو سمع به ، على أنا ننتقم ممن عصانا ، وننجي من أطاعنا ، وأنه لا أمر لأحد معنا فيهديه إلى الإيمان ، ويحمله على الاستسلام والإذعان ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ كان أكثرهم ﴾ أي أكثر العالمين بذلك ﴿ مؤمنين ﴾ وقد ينبغي لهم إذ فاتهم الإيمان لمحض الدليل أن يبادروا إليه ويركبوا معه حين رأوا أوائل العذاب أو بعد أن ألجمهم الغرق ﴿ وإن ربك ﴾ المحسن إليك بإرسالك ، وتكثير أتباعك ، وتعظيم أشياعك ﴿ لهو العزيز ﴾ أي القادر بعزته على كل من قسرهم على الطاعة ، وإهلاكهم في أول أوقات المعصية ﴿ الرحيم ﴾ أي الذي يخص

من يشاء من عباده بخالص وداده ، ويرسل إلى الضالين عن محجة العقل القويمة الرسل لبيان ما يجب وما يكره ، فلا يهلك إلا بعد البيان الشافي ، والإبلاغ الوافي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 373 . 377 ﴾

(90/570)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

القصة الثالثة قصة نوح عليه السلام

اعلم أنه تعالى لما قص على محمد صلى الله عليه وسلم خبر موسى وإبراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضاً نبأ نوح عليه السلام ، فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره ، لأنه كان يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع ذلك كذبه قومه فقال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ وإنما قال (كذبت) لأن القوم مؤنث وتصغيرها قويمة ، وإنما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين : أحدهما : أنهم وإن كذبوا نوحاً لكن تكذيبه في المعنى يتضمن تكذيب غيره ، لأن طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم أنهم كذبوا

المرسلين وثانيهما : أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى ، إما لأنهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة .

وأما قوله : ﴿ أَخُوهُمْ ﴾ فلأنه كان منهم ، من قول العرب يا أخا بني تميم يريدون يا واحداً منهم ، ثم إنه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام أنه أولاً خوفهم ، وثانياً أنه وصف نفسه ، أما التخويف فهو قوله : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

واعلم أن القوم إنما قبلوا تلك الأديان للتقليد والمقلد إذا خوف خاف ، وما لم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال ، فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ .

(91/570)

وأما وصفه نفسه فذاك بأمرين : أحدهما : قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ وذلك لأنه كان فيهم مشهوراً بالأمانة كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش فكأنه قال كنت أميناً من قبل ، فكيف تتهموني اليوم ؟ وثانيهما : قوله : ﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي على ما أنا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة ، فإن قيل : ولماذا كرر الأمر بالتقوى ؟ جوابه : لأنه في الأول أراد ألا تتقون مخالفتي وأنا رسول الله ، وفي الثاني : ألا تتقون مخالفتي

ولست آخذ منكم أجراً فهو في المعنى مختلف ولا تكرار فيه ، وقد يقول الرجل لغيره : ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً ! ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً ، وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بطاعته ، لأن تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول ، ثم إن نوحاً عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ .

قال صاحب "الكشاف" : وقرى ﴿ وأتباعك الأرذلون ﴾ جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال والواو للحال وحقها أن يضمر بعدها قد في ﴿ واتبعك ﴾ وقد جمع أرذال على الصحة وعلى التكسير في قولهم : ﴿ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : 27] والرذالة الخسة ، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا ، وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة .

(92/570)

واعلم أن هذه الشبهة في نهاية الركاكة ، لأن نوحاً عليه السلام بعث إلى الخلق كافة ، فلا يختلف الحال في ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها ، فأجابهم نوع عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله : ﴿ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وهذا الكلام يدل على

أنهم نسبوهم مع ذلك إلى أنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ، وإنما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأى ﴾ [هود : 27] ثم قال : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على ربّى ﴾ معناه لا نعتبر إلا الظاهر من أمرهم دون ما يخفى ، ولما قال : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على ربّى ﴾ وكانوا لا يصدقون بذلك أردفه بقوله : ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ وذلك كالدلالة على أن القوم سألوه إبعادهم لكي يتبعوه أو ليكونوا أقرب إلى ذلك ، فبين أن الذي يمنعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بين أن غرضه بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله : ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ والمراد إني أخوف من كذبني ولم يقبل مني ، فمن قبل فهو القريب ، ومن رد فهو البعيد ، ثم إن نوحاً عليه السلام لما تمم هذا الجواب لم يكن منهم إلا التهديد ، فقالوا : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا نوح لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ والمعنى أنهم خوفوه بأن يقتل بالحجارة ، فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم ، وقال : ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ فافتح بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ وليس الغرض منه إخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ، ولكنه أراد إني لا أدعوك عليهم لما آذوني ، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك ﴿ فافتح بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ ﴾ أي فاحكم بيني وبينهم والفتاحة الحكومة ، والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق ، والمراد من هذا الحكم إنزال العقوبة عليهم لأنه قال عقبه :

﴿ وَنَجِّنِى ﴾ ولولا أن المراد إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى ، وقد تقدم القول في قصته مشروحاً في سورة الأعراف وسورة هود .

ثم قال تعالى : ﴿ فأنجيناه وَمَن مَّعَهُ فِى الفلك المشحون ﴾ قال صاحب "الكشاف" : الفلك السفينة وجمعه فلك قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾ [فاطر : 12] فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد (1) والمشحون المملوء يقال شحنها عليهم خيلاً ورجالاً ، فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة ، وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم ، وبين تعالى أنه بعد أن أنجاهم أغرق الباقين وأن إغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 133.134 ﴾

---

(1) عبارة المفسر توهم خلاف الصحيح . فإن كلمة (فلك) بضم فائها وإسكان عينها يقع على المفرد والجمع ويفرق بينهما بالقرائن فقوله تعالى : فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ المراد به الواحد لأن سفينة نوح كانت واحدة وقوله تعالى : مَواخِرَ أريد به سفن كثيرة .

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾

فيه خمسة أقاويل

: أحدها : أنهم الذين يسألون ولا يقنعون .

الثاني : أنهم المتكبرون .

الثالث : سفلة الناس وأراذلهم ، قاله قتادة .

الرابع : أنهم الحائكون ، قاله مجاهد .

الخامس : أنهم الأساكفة ، قاله ابن بحر .

ويحتمل سادساً : أنهم أصحاب المهن الرذلة كلها .

قوله تعالى : ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُرْجُومِينَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : بالحجارة ، قاله قتادة .

الثاني : بالقتل ، قاله محمد بن الحسن .

الثالث : بالشتيمة ، قاله السدي . قال أبو داود :

صدّت غواة معدّ أن تراجمنى . . . كما يصدون عن لب كجفان

قوله تعالى : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ قال قتادة والسدي : معنا واقض بيني وبينهم قضاء ، وهو أن ينجيه ومن معه من المؤمنين ويفرق الكافرين ، ولم يدعُ نوح ربه عليه إلا بعد

أن أعلمه ، ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود : 36] فحينئذ دعا عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(95/570)

وقال ابن عطية :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

أسند ﴿ كذبت ﴾ إلى " القوم " وفيه علامة التأنيث من حيث القوم في معنى الأمة والجماعة ، وقوله ﴿ المرسلين ﴾ من حيث من كذب نبياً واحداً ، كذب جميع الأنبياء إذ قولهم واحد ودعوتهم سواء ، وقوله ﴿ أخوهم ﴾ يريد في النسب والمنشأ لا في الدين ، و ﴿ أمين ﴾ معناه على وحي الله ورسالته ، وقرأ ابن كثير وعاصم " أجري " ساكنة الياء ، وقرأ نافع وأبو جعفر وشيبة بفتح الياء في كل القرآن ، ثم رد عليهم الأمر بالتقوى والدعاء إلى طاعته تحذيراً ونذارة وحرصاً عليهم فذهب أشرافهم إلى استنقاص أتباعه بسبب صغار الناس الذين اتبعوه وضعفائهم ، وهذا كفعل قريش في شأن عمار بن ياسر وصهيب وغيرهما ، وقال بعض الناس ﴿ الأرذلون ﴾ الحاكة ، والحجامون والأساكفة ، وفي هذا عندي على جهة المثال أي أهل الصنائع الخسيسة لا أن هذه الصنائع المذكورة

خصت بهذا ، و﴿ الأرذلون ﴾ جمع الأرذل ولا يستعمل إلا معرفاً أو مضافاً أو ب " من " .

(96/570)

قال القاضي أبو محمد : ويظهر من الآية أن مراد ﴿ قوم نوح ﴾ بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجين أفعالهم لا النظر في صنائعهم ، يدل على ذلك قول نوح ﴿ ما علمي ﴾ الآية ، لأن معنى كلامه ليس في نظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة إنما أقنع بظاهرهم وأجتزىء به ، ثم حسابهم على الله تعالى ، وهذا نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس " الحديث بجملته ، وقرأ جمهور الناس " واتبعك " على الفعل الماضي ، وقرأ ابن السميفع اليماني وسعيد بن أسعد الأنصاري " وأتباعك " على الجمع ، ونسبها أبو الفتح إلى ابن مسعود والضحاك وطلحة ، قال أبو عمرو وهي قراءة ابن عباس والأعمش وأبي حيوة ، وقرأ عيسى بن عمر الهمذاني " لو يشعرون " بالياء من تحت ، وإعراب قوله " وأتباعك " إما جملة في موضع الحال وإما عطف على الضمير المرفوع وحسن لك الفصل بقوله ﴿ لك ﴾ ، وقولهم ﴿ من المرجومين ﴾ ، يحتمل أن يريدوا بالحجارة ، ويحتمل أن يريدوا بالقول والشتم ونحوه ، وهو شبيه برجم الحجارة ، وهو من

الرجم بالغيب والظن ونحو ذلك ، وقوله ﴿ افتح ﴾ معناه احكم ، والفتاح القاضي بلغة يمنية ، و﴿ الفلك ﴾ السفينة وجمعها فلك أيضاً ، وقد تقدم بسط القول في هذا الجمع في سورة الأعراف ، و﴿ المشحون ﴾ معناه المملوء بما ينبغي له من قدر ما يحمل ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(97/570)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾

قال الزجاج : القوم مذكَّرون ؛ والمعنى : كذَّبت جماعةُ قوم نوح .

قوله تعالى : ﴿ إِذ قال لهم أخوهم نُوحٌ ﴾ كانت الأُخوَّة من جهة النَّسَب بينهم ، لا من جهة الدِّين ، ﴿ ألا تتقون ﴾ عذاب الله بتوحيده وطاعته ، ﴿ إِنِّي لكم رسول أمين ﴾ على الرسالة فيما بيني وبين ربِّكم .

﴿ وما أسألُكم عليه من أَجْر ﴾ أي : على الدعاء إلى التوحيد .

قوله تعالى : ﴿ واتَّبعكَ الأرذلون ﴾ وقرأ يعقوب بفتح الهمزة وتسكين التاء وضم العين : ﴿ وأَتْبَاعُكَ الأرذلون ﴾ ، وفيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : الحاكَة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : الحاكَة والأساكفة ؛ قاله عكرمة .

والثالث : المساكين الذين ليس لهم مال ولا عزٌّ ، قاله عطاء .

وهذا جهل منهم ، لأن الصناعات لا تضرُّ في باب الدِّيانات .

قوله تعالى : ﴿ وما عِلْمِي بما كانوا يعملون ﴾ أي : لم أعلم أعمالهم وصنائعهم ، ولم أُكَلَّف ذلك ، إنما كلِّفتُ أن أدعوَهم ، ﴿ إنْ حِسَابُهم ﴾ فيما يعملون ﴿ إلا على ربِّي لو تشعُرون ﴾ بذلك ما عبتموهم في صنائعهم ، ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ أي : ما أنا بالذي لا أقبل إيمانهم لزعمكم أنهم الأرذلون .

وفي قوله : ﴿ لَتكونَنَّ من المرجومين ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : من المشتومين ، قاله الضحاك .

والثاني : من المضروبين بالحجارة ، قاله قتادة .

والثالث : من المقتولين بالرَّجم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فافتح بيني وبينهم ﴾ أي : اقض بيني وبينهم قضاء ، يعني : بالعذاب ﴿ ونَجِّني ومَنْ معيَ ﴾ من ذلك العذاب .

والفُلْك قد تقدم بيانه .

[البقرة : 164] .

والمشحون : المملوء ، يقال : شحنتُ الإناء ، إذا مَلأْتَه ؛ وكانت سفينة نوح قد ملئت من الناس والطير والحيوان كُلِّه ، ﴿ ثم أغْرقنا بعدُ ﴾ بعد نجاة نوح ومن معه ﴿ الباقين ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(98/570)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾

قال "كذبت" والقوم مذكر ؛ لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح ، وقال : ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل ؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل .

وقيل : كذبوا نوحاً في النبوّة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده .

وقيل : ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام .

وقد مضى هذا في "الفرقان" .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أي ابن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين .

وقيل : هي أخوة المجانسة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم : 4] وقد مضى

هذا في "الأعراف" .

وقيل : هو من قول العرب يا أخا بني تميم .

يريدون يا واحداً منهم .

الزمخشري : ومنه بيت الحماسة :

لا يَسْألون أخاهم حِينَ يَنْدُبُهم . . .

في النَّائباتِ على ما قال بُرْهَانَا

﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تتقون الله في عبادة الأصنام .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى .

وقيل : ﴿ أَمِينٌ ﴾ فيما بينكم ؛ فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل ؛ كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش .

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه .

﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من الإيمان .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي لا طمع لي في مالكم .

﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ أي ما جزائي ﴿ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ كرر تأكيداً .

قوله تعالى : ﴿ قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ أي نصدق قولك .

﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ الواو للحال وفيه إضمار قد ، أي وقد اتبعك .

﴿ الأَرْذَلُونَ ﴾ جمع الأرذل ، المكسر الأراذل والأنثى الرُّذْلَى والجمع الرُّذَّل .

(99/570)

قال النحاس : ولا يجوز حذف الألف واللام في شيء من هذا عند أحد من النحويين علمناه .

وقرأ ابن مسعود والضحاك ويعقوب الحضرمي وغيرهم ، ﴿ وَأَتْبَاعُكَ الأَرْذَلُون ﴾ .

النحاس : وهي قراءة حسنة ؛ وهذه الواو أكثرها تتبعها الأسماء والأفعال بقد .

وأتباع جمع تبع وتبيع يكون للواحد والجمع .

قال الشاعر :

له تَبَعٌ قد يعلمُ الناسُ أنّه . . .

على من يُدانِي صَيِّف ورَبِيعُ

ارتفاع ﴿ أَتْبَاعُكَ ﴾ يجوز أن يكون بالابتداء و ﴿ الأَرْذَلُونَ ﴾ الخبر ؛ التقدير أنؤمن لك وإنما أتباعك الأرذلون .

ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في قوله : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ والتقدير : أنؤمن لك نحن وأتباعك الأرذلون فنعدّ منهم ؛ وحسن ذلك الفصل بقوله : ﴿ لَكَ ﴾ وقد مضى القول في الأراذل في سورة "هود" مستوفًى .

ونزيده هنا بياناً وهي المسألة :

الثانية : فقيل : إن الذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكناته وبنو بنيه .

واختلف هل كان معهم غيرهم أم لا .

وعلى أي الوجهين كان فالكل صالحون ؛ وقد قال نوح : ﴿ وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ والذين معه هم الذين اتبعوه ، ولا يلحقهم من قول الكفرة شين ولا ذمّ ، بل الأرذلون هم المكذبون لهم .

قال السهيلي : وقد أغرى كثير من العوام بمقالة رويت في تفسير هذه الآية : هم الحاكَة والحجّامون .

ولو كانوا حاكة كما زعموا لكان إيمانهم بنبيّ الله واتباعهم له مشرِّفاً كما تشرَّف بِلالٌ وسَلْمَان بسبقهما للإسلام ؛ فهما من وجوه أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ومن أكابرهم ، فلا ذرية نوح كانوا حاكة ولا حجّامين ، ولا قول الكفرة في الحاكة والحجامين إن كانوا آمنوا بهم أرذلون ما يلحق اليوم بحاكتنا ذمّاً ولا نقصاً ؛ لأن هذه حكاية عن قول الكفرة

إلا أن يجعل الكفرة حجة ومقالتهم أصلاً ؛ وهذا جهل عظيم وقد أعلم الله تعالى أن الصناعات ليست بضائرة في الدين .

(100/570)

قوله تعالى : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ كان ﴾ زائدة ؛ والمعنى : وما علمي بما يعملون ؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحِرَف والصّنائع ؛ وكأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال .

فقال : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم .

وقيل : المعنى إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويرشدهم ويغويكم ويوفقهم ويخذلكم .

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أي في أعمالهم وإيمانهم ﴿ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف ؛ أي لو شعرتم أن حسابهم على ربهم لما عبتموهم بصنائعهم .

وقراءة العامّة : ﴿ تَشْعُرُونَ ﴾ بالتاء على المخاطبة للكفار وهو الظاهر .

وقرأ ابن أبي عَبْلَة ومحمد بن السَّمَيْقَع : ﴿ لو يشعرون ﴾ بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم ؛ نحو قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] .

وروي أن رجلاً سأل سفيان عن امرأة زنت وقتلت ولدها وهي مسلمة هل يقطع لها بالنار ؟ فقال : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ أي لخساسة أحوالهم وأشغالهم .

وكأنهم طلبوا منه طرد الضعفاء كما طلبته قريش .

﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : إن الله ما أرسلني أخص ذوي الغنى دون الفقراء ، إنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله وإن كان فقيراً .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يا نوح ﴾ أي عن سبّ آلهتنا وعيب ديننا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أي بالحجارة ؛ قاله قتادة .

وقال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين .

قال الثُّمَالِيّ : كل مرجومين في القرآن فهو القتل إلا في "مريم" : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [مريم : 46] أي لأسبنك .

(101/570)

وقيل : ﴿ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ من المشتومين ؛ قاله السدي .

ومنه قول أبي دؤاد .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ المؤمنين ﴾

قال ذلك لما يئس من إيمانهم .

والفتح الحكم وقد تقدم .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك المشحون ﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها .

والمشحون المملوء ، والشحن ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم .

ولم يؤنث الفلك ها هنا ؛ لأن الفلك ها هنا واحد لا جمع ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقين ﴾ أي بعد إنجائنا نوحاً ومن آمن .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(102/570)

وقال أبو حيان :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

المشحون : المملوء بما ينبغي له من قدر ما يحمل ، يقال : شحنها عليهم خيلاً ورجالاً ، الريع : بكسر الراء وفتحها : جمع ريعة ، وهو المكان المرتفع .

قال ذو الرمة :

طراق الخوافي مشرق فوق ريعه . . .

بذي ليلة في ريشه يترقرق

وقال أبو عبيدة : الريع : الطريق .

قال ابن المسيب بن علس يصف ظعناً :

في الآل يخفضها ويرفعها . . .

ريع يلوح كأنه سحل

الطلع : الكفري ، وهو عنقود التمر قبل أن يخرج من الكم في أول نباته .

وقال الزمخشري : الطلعة : هي التي تطلع من النخلة ، كنصل السيف في جوفه .

شماريخ القنو ، والقنو : اسم للخارج من الجذع ، كما هو بعرجونه .

الفراهة : جودة منظر الشيء وقوته وكماله في نوعه .

وقيل : الكيس والنشاط .

القالي : المبغض ، قلى يقلي ويقلى ، ومجيئه على يفعل بفتح العين شاذ .

الجبلة : الخلق المتجسد الغليظ ، مأخوذ من الجبل .

قال الشاعر :

والموت أعظم حادث . . .

مما يمر على الجبله

ويقال : بسكون الباء مثلث الجيم .

وقال الهروي : الجبل والجبل والجبل ، لغات ، وهو الجمع الكثير العدد من الناس . انتهى .

هام : ذهب على وجهه ، قاله الكسائي .

وقال أبو عبيدة : حاد عن القصد .

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ، قال وما علمي بما كانوا يعملون ، إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين ، إن أنا إلا نذير مبين ، قالوا لئن لم تنته ينوح لتكونن من المرجومين ، قال رب إن قومي كذبون ، فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين ، فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين ، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

(103/570)

القوم : مؤنث مجازي التأنيث ، ويصغر قويمة ، فلذلك جاء : ﴿ كذبت قوم نوح ﴾ .

ولما كان مدلوله أفراداً ذكوراً عقلاء ، عاد الضمير عليه ، كما يعود على جمع المذكر العاقل .

وقيل : قوم مذكر ، وأنث لأنه في معنى الأمة والجماعة ، وتقدم معنى تكذيب قوم نوح المرسلين ، وإن كان المرسل إليهم واحداً في الفرقان في قوله : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ﴾ وإخوة نوح قيل : في النسب .

وقيل : في المجانسة ، كقوله :

يا أخا تميم تريد يا واحد أمته . . .

وقال الشاعر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم . . .

في النائبات على ما قال برهانا

ومتعلق التقوى محذوف ، فقيل : ألا تتقون عذاب الله وعقابه على شرككم ؟ وقيل : ألا تتقون مخالفة أمر الله فتتركوا عبادتكم للأصنام وأمانته ، كونه مشهوراً في قومه بذلك ، أو مؤتمناً على أداء رسالة الله ؟ ولما عرض عليهم برفق تقوى الله فقال : ﴿ ألا تتقون ﴾ ، انتقل من العرض إلى الأمر فقال : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ في نصحي لكم ، وفيما دعوتكم إليه من توحيد الله وإفراده بالعبادة .

﴿ وما أسئلكم عليه ﴾ : أي على دعائي إلى الله والأمر بتقواه .

وقيل : الضمير في عليه يعود على النصح ، أو على التبليغ ، والمعنى : لا أسئلكم عليه شيئاً من أموالكم .

وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته ، لأن تقوى الله سبب لطاعة نوح عليه السلام .

ثم كرر الأمر بالتقوى والطاعة ، ليؤكد عليهم ويقرر ذلك في نفوسهم ، وإن اختلف التعليل ، جعل الأول معلولاً لأمانته ، والثاني لانتفاء أخذ الأجر .

ثم لم ينظروا في أمر رسالته ، ولا تفكروا فيما أمرهم به ، لما جبلوا عليه ونشؤوا من حب الرئاسة ، وهي التي تطبع على قلوبهم .

فشرع أشرافهم في تنقيص متبعيه ، وأن الحامل على انتفاء إيمانهم له ، كونه اتبعه الأرذلون .

وقوله : ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ ، جملة حالية ، أي كيف نؤمن وقد اتبعك أراذلنا ، فنتساوى معهم في اتباعك ؟ وكذا فعلت قريش في شأن عمار وصهيب .

(104/570)

والضعفاء أكثر استجابة من الرؤساء ، لأن أذهانهم ليست مملوءة بزخارف الدنيا ، فهم أدرك للحق وأقبل له من الرؤساء .

وقرأ الجمهور : واتبعك فعلاً ماضياً .

وقرأ عبد الله ، وابن عباس ، والأعمش ، وأبو حيوة ، والضحاك ، وابن السميفع ، وسعيد بن أبي سعد الأنصاري ، وطلحة ، ويعقوب : واتباعك جمع تابع ، كصاحب وأصحاب .

وقيل : جمع تبيع ، كشريف وأشراف .

وقيل : جمع تبع ، كبرم وإبرام ، والواو في هذه القراءة للحال .

وقيل : للعطف على الضمير الذي في قوله : ﴿ أنؤمن لك ﴾ ، وحسن ذلك للفصل بلك ، قاله أبو الفضل الرازي وابن عطية وأبو البقاء .

وعن اليماني : واتباعك بالجر عطفاً على الضمير في لك ، وهو قليل ، وقاسه الكوفيون .

والأرذلون : رفع بإضمارهم .

قيل : والذين آمنوا به بنوه ونساؤه وكنانة وبنو بنيه ، فعلى هذا لا تكون الرذالة دناءة المكاسب ؛ وتقدم الكلام في الرذالة في هود في قوله : ﴿ إلا الذين هم أراذلنا ﴾ وأرادوا بذلك تنقيص نوح عليه السلام ، إذ لم يعلموا أن ضعفاء الناس هم أتباع الرسل ، كما ورد في حديث هرقل .

وهذا الذي أجابوا به في غاية السخافة ، إذ هو مبعوث إلى الخلق كافة ، فلا يختلف الحال بسبب الفقر والغنى ، ولا شرف المكاسب ودناءتها .

وقال ابن عطية : ويظهر من الآية أن مراد قوم نوح نسبة الرذيلة إلى المؤمنين ، بتهجين أفعالهم

لا النظر إلى صنائعهم ، يدل على ذلك قول نوح : ﴿ وما علمي ﴾ الآية ، لأن معنى كلامه ليس في نظري ، وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة ، فإنما أقنع بظاهرهم وأجتزىء به ، ثم حسابهم على الله تعالى ، وهذا نحو ما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله " ، الحديث بجملته انتهى .

وقال الكرماني : لا أطلب العلم بما عملوه ، إنما على أن أدعوهم .

(105/570)

وقال الزمخشري : وما علمي ، وأي شيء علمي ، والمراد انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم واطلاعه على سرائرهم ؛ وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا في استرذالهم في إيمانهم ، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة ، وإنما آمنوا هوى وبديهة ، كما حكى الله عنهم في قوله : ﴿ الذين هم أراذلنا ﴾ بادىء الرأي .

ويجوز أن يتعالى لهم نوح عليه السلام ، فيفسر قولهم : الأرذلون ، بما هو الرذالة عنده من سوء الأعمال وفساد العقائد ، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم .

ثم بنى جوابه على ذلك فيقول : ما عليّ إلا اعتبار الظواهر ، دون التفتيش على أسرارهم والشق عن قلوبهم ، وإن كان لهم شيء ، فالله محاسبهم ومجازيهم ، وما أنا إلا منذر لا

محاسب ، ولا مجاز ، لو تشعرون ذلك ، ولكنكم تجهلون ، فتنساقون مع الجهل حيث سيركم .

وقصد بذلك رد اعتقادكم ، وإنكار أن يسمى المؤمن رذلاً ، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً .

فإن الغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى . انتهى .

وهو تكثير .

وقال الحوفي : وما علمي ما نافيه ، والباء متعلقة بعلمي . انتهى .

وهذا التخريج يحتاج فيه إلى إضمار خبر حتى تصير جملة ولما كانوا لا يصدقون بالحساب ولا بالبعث ، أردفه بقوله : ﴿ لو تشعرون ﴾ ، أي بأن المعاد حق ، والحساب حق .

وقرأ الجمهور : تشعرون بتاء الخطاب .

وقرأ الأعرج ، وأبو زرعة ، وعيسى بن عمر الهمداني : بياء الغيبة .

﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ : هذا مشعر بأنهم طلبوا منه ذلك فأجابهم بذلك ، كما طلب رؤساء قريش من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يطرد من آمن من الضعفاء ، فنزلت : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ الآية ، أي لا أطردهم عني لاتباع شهواتكم والطمع في إيمانكم .

﴿ إن أنا إلا نذير مبين ﴾ ، ما جئت به بالبرهان الصحيح الذي يميز به الحق من الباطل .

ولما اعتلوا في ترك إيمانهم بإيمان من هو دونهم ، دل ذلك على أنهم لم تثلج صدورهم للإيمان ، إذ اتباع الحق لا يأنف منه أحد لوجود الشركة فيه ، أخذوا في التهديد والوعيد .

﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح ﴾ عن تقبيح ما نحن عليه ، وادعائك الرسالة من الله ، ﴿ لتكونن من المرجومين ﴾ ، أي بالحجارة ، وقيل : بالشتم .

وأيس إذ ذاك من فلاحهم ، فنادى ربه وهو أعلم بحاله : ﴿ إن قومي كذبون ﴾ ، فدعائي ليس لأجل أنهم آذوني ، ولكن لأجل دينك .

﴿ فافتح ﴾ ، أي فاحكم .

ودعا لنفسه ولمن آمن به بالنجاة ، وفي ذلك إشعار بحلول العذاب بقومه ، أي : ﴿ ونجني ﴾ مما يحل بهم .

وقيل : ونجني من عملهم لأنه سبب العقوبة .

والفلك واحد وجمع ، وغالب استعماله جمعاً لقوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ ﴿ والفلك التي تجري في البحر ﴾ فحيث أتى في غير فاصلة ، استعمل جمعاً ، وحيث كان فاصلة ، استعمل مفرداً لمراعاة الفواصل ، كهذا الموضع .

والذي في سورة يس ، وتقدّم الخلاف إذا كان مدلوله جمعاً ، أهو جمع تكسير ، أم اسم جمع ؟ والمشحون ، قال ابن عباس : الموقر ، وقال عطاء : المثقل .

﴿ ثم أغرقنا بعد ﴾ : أي بعد نجاة نوح والمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(107/570)

وقال أبو السعود :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾

القوم مؤَنّثٌ ولذلك يُصغَّر على قُويمةٍ ، وقيل القومُ بمعنى الأُمَّةِ وتكذيبهم للمرسلين إما باعتبارِ إجماع الكلِّ على التَّوحيد وأصولِ الشَّرائعِ التي لا تختلفُ باختلاف الأزمنةِ والأعصارِ ، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالجمعِ الواحدُ كما يقال فلانٌ يركب الدَّوابَّ ويلبس البُرود وما له إلا دَبَّةٌ وبرودة وإذ في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ ظرفٌ للتَّكذيبِ على أنَّه عبارةٌ عن زمانٍ مديدٍ وقعَ فيه ما وقعَ من الجانبينِ إلى تمام الأمر كما أنَّ تكذيبَهم عبارةٌ عمَّا صدرَ عنهم من حينِ ابتداءِ دعوتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى انتهائها ﴿ أَخُوهُمْ ﴾ أي نسيبُهم ﴿ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ الله حيث تعبدُون غيرَه .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من جهته تعالى ﴿ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانةِ فيما بينكم .

﴿ فاتقوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركُم به من التَّوحيدِ والطَّاعةِ للهِ تعالى .

﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على ما أنا متصدَ له من الدُّعاءِ والنُّصحِ ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أصلاً ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ فيما أتولاَّهُ ﴿ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ والفاء في قوله تعالى : ﴿ فاتقوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها من تنزُّهه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الطَّمعِ كما أن نظيرتَها السَّابقةَ لترتيب ما بعدها على أمانتِه والتَّكريرُ للتَّأكيدِ والتَّنبيهِ على أن كلاًّ منهما مستقلٌّ في إيجاب التَّقوى والطَّاعةِ فكيف إذا اجتمَعا . وقُرىء إن أَجْرِيْ بسكون الياء .

(108/570)

﴿ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ أي الأقلُّون جاهاً ومالاً جمع الأرذلِ على الصِّحَّةِ فإنَّه بالغلبة صار جارياً مجرى الاسمِ كالأكبرِ والأكابرِ وقيل : جمع أرذُل جمعُ رَذْلٍ كأكالبَ وأكلُب وكَلْبٍ وقُرىء وأتباعُك وهو جمع تابعٍ كشاهدٍ وأشهادٍ أو جمع تَبَع كبطلٍ وأبطالٍ يعنُون أنَّه لا عبرةَ باتّباعِهم لك إذْ ليس لهم رزانةُ عقلٍ ولا إصابةَ رأيٍ وقد كان ذلك منهم في بادىءِ الرَّأي كما ذُكر في موضعٍ آخرَ ، وهذا من كمال سخافةِ عقولِهم وقصرهم أنظارَهم

على حُطامِ الدُّنيا وكونِ الأشرف عندهم مَن هو أكثرُ منها حظّاً ، والأرذلُ مَن حُرمها ، وجهلِهم بأنَّها لا تزنُ عند الله تعالى جناحَ بعوضةٍ وأنَّ النعيم هو نعيمُ الآخرةِ والأشرفَ من فازَ به والأرذلَ من حُرمه .

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ جواب عَّما أُشير إليه من قولهم إنَّهم لم يُؤمنوا عن نظرٍ وبصيرةٍ أي وما وظيفتي إلاَّ اعتبارُ الظَّواهرِ وبناءُ الأحكامِ عليها دون التَّفتيشِ عن بواطنهم والشَّقِّ عن قلوبهم .

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أي ما محاسبةُ أعمالِهم والتَّنقيرُ عن كيفيَّاتِها البارزةِ والكامنةِ . ﴿ إِلاَّ على ربّى ﴾ فإنَّه المُطَّلعُ على السَّرائرِ والضَّمائرِ ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أي بشيءٍ من الأشياءِ أو لو كنتُم من أهلِ الشُّعور لعلمتم ذلك ولكنَّكم لستُم كذلك فتقولون ما تقولُون .

﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ جواب عمَّا أوهمُه كلامُهم من استدعاءِ طردِهم وتعليقِ إيمانِهم بذلك حيثُ جعلوا اتِّباعَهم مانعاً عنه .

(109/570)

وقوله : ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كالعلَّةِ أي ما أنَا رسولٌ مبعوثٌ لإنذار المكلَّفين وزجرِهم عن الكفر والمعاصي سواءً كانُوا من الأعزَّاء أو الأذِلاَّء فكيف يتسنَّى لي طرد الفُقراء

لاستتباع الأغنياءِ ، أو ما عليَّ إلاَّ إنذاركم بالبرهان الواضحِ وقد فعلتُه وما عليَّ استرضاءُ بعضِكم بطردِ الآخرين .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا نوح ﴾ عمَّا تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ من المشتُومين أو المرميين بالحجارةِ قالوه قاتلهم الله تعالى في أواخرِ الأمر .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾ تمُّوا على تكذيبي وأصرُّوا على ذلك بعد ما دعوتُهم هذه الأزمنةَ المُتطاولة ولم يزدهم دعائي إلا فراراً كما يُعرب عنه دُعاؤُه بقولِه ﴿ فافتح بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ أي أحكُم بيننا بما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منَّا وهذه حكايةٌ إجماليةٌ لدعائِه المفصَّل في سورة نوحٍ عليه السَّلامُ ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِى مِنَ المؤمنين ﴾ أي من قصدِهم أو من شؤمِ أعمالِهم .

﴿ فأنجيناه وَمَن مَّعَهُ ﴾ حسب دعائِه ﴿ فِى الفلك المشحون ﴾ أي المملوءِ بهم وبما لا بُدَّ لهم منه .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ أي بعد إنجائِهم ﴿ الباقين ﴾ أي من قومِه .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ الكلامُ فيه كالذي مرَّ خلا أنَّ حمل : (أكثرهم) على قومِ نوحٍ أبعدُ من السَّدادِ وأبعدُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(110/570)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾

القوم كما في "المصباح" يذكر ويؤنث وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر ولذا يصغر على قويمة ، وقيل : هو مذكر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة والجماعة منه وتكذيبهم المرسلين باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار ، وجوز أن يراد بالمرسلين نوح عليه السلام بجعل اللام للجنس فهو نظير قولك : فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله إلا دابة واحدة وبرد واحد ، و﴿ إِذْ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ ظرف للتكذيب على أنه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين إلى تمام الأمر كما أن تكذيبهم عبارة عما صدر منهم من حين ابتداء دعوته عليه السلام إلى انتهائها ، وزعم بعضهم أن ﴿ إِذْ ﴾ للتعليل أي كذبت لأجل أن قال لهم : ﴿ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أي نسيبهم كما يقال : يا أخا العرب ويا أخا تميم ، وعلى ذلك قوله :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم . . .

في النائبات على ما قال برهانا

والضمير لقوم نوح ، وقيل : هو للمرسلين والأخوة المجانسة وهو خلاف الظاهر ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ

﴿ الله عز وجل حيث تعبدون غيره .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ من الله تعالى أرسلني لمصلحتكم ﴿ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيما بينكم ، وقيل : أمين على أداء رسالته جل شأنه .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى ، وقدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر بالطاعة لأن تقوى الله تعالى سبب لطاعته عليه السلام .

﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على ما أنا متصد له من الدعاء والنصح ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي ما أطلب منكم على ذلك أجراً أصلاً لا مالاً ولا غيره ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ فيما أتولاه ﴿ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾ فهو سبحانه الذي يؤجرني في ذلك تفضلاً منه لا غيره ، والفاء في قوله تعالى :

(111/570)

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه السلام من الطمع كما أن نظيرتها السابقة لترتيب ما بعدها على كونه رسولاً من الله تعالى بما فيه نفع الدارين مع أمانته ، والتكرير للتأكيد والتنبيه على أن كلاً منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة فكيف إذا اجتمعا ، وقرىء ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ بسكون الياء وهو والفتح لغتان مشهورتان

في مثل ذلك اختلف النحاة في أيتهما الأصل .

﴿ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الارذلون ﴾ أي وقد اتبعك على أن الجملة في موضع الحال وقد لازمه فيها إذا كان فعلها ماضياً وكثير من الأجلة لا يوجب ذلك ، وقرأ عبد الله .

وابن عباس .

والأعمش .

وأبو حيوة .

والضحاك .

وابن السميقع .

وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري .

وطلحة .

ويعقوب .

﴿ وأتباعك ﴾ جمع تابع كصاحب وأصحاب ، وقيل : جمع تبيع كشريف وأشراف ، وقيل : جمع تبع كبطل وأبطال ، وهو مرفوع على الابتداء و ﴿ واتبعك الارذلون ﴾ خبره ، والجملة في موضع الحال أيضاً ، وقيل : معطوف على الضمير المستتر في ﴿ نُؤْمِنُ ﴾ وحسن ذلك للفصل بلك و ﴿ الارذلون ﴾ صفته ، ولا يخفى أنه ركيك معنى ، وعن اليماني ﴿ واتباعك ﴾ بالجر عطفاً على الضمير في ﴿ أَحْلَلْنَا لَكَ ﴾ وهو قليل وقاسه

الكوفيون و﴿ الارذلون ﴾ رفع بإضمارهم ، وهو جمع الأرذل على الصحة والرذالة الخسة والدناءة ، والظاهر أنهم إنما استرذلوا المؤمنين به عليه السلام لسوء أعمالهم يدل عليه قوله في الجواب :

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر وبناء الأحكام عليها دون التجسس والتفتيش عن البواطن ، وما استفهامية ، وقال الحوفي .

والطبرسي : نافية ، وعليه يكون في الكلام حذف أي وما علمي بما كانوا يعملون ثابت .

(112/570)

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ ﴾ أي محا محاسبتهم على ما يعملون ﴿ إِلاَّ على ربّى ﴾ فاعتبار البواطن من شؤون عز وجل وهو المطلع عليها ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أي بشيء من الأشياء أو لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك لكنكم لستم كذلك فلذا قلتم ما قلتم ، وأل على هذا الوجه للجنس ، وقال جمع : إن استرذالهم إياهم لقلة نصيبهم من الدنيا ، وقيل : لكونهم من أهل الصناعات الدنيئة ، وقد كانوا كما روي عن عكرمة حاكة وأساكفة ، وقيل : لا تضاع نسبهم ، ومنشأ ذلك على الجميع سخافة عقولهم وقصور أنظارهم لأن الفقر ليس من الرذالة في شيء .

قد يدرك المجد الفتى ورداؤه . . .

خلق وجيب قميصه مرقوع

وكذا خسة الصناعة لا تزري بالشرف الأخروي ولا تلحق التقي نقيصة عند الله عز وجل ، وقد أنشد أبو العتاهية :

وليس على عبد تقي نقيصة . . .

إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

ومثلها صفة النسب فقد قيل :

أبي الإسلام لا أب لي سواه . . .

إذا افتخروا بقيس أو تميم

وما ذكره الفقهاء في باب الكفاءة مبني على عرف العامة لانتظام أمر المعاش ونحوه على أنه روي عن الإمام مالك عدم اعتبار شيء من ذلك أصلاً وأن المسلمين كيفما كانوا أكفاء بعضهم لبعض ، وأل على هذه الأقوال للعهد .

(113/570)

والجواب بما ذكر عما أشاروا إليه بقولهم ذلك من أن إيمانهم لم يكن عن نظر وبصيرة وإنما كان لحيظ نفساني كحصول شوكة بالاجتماع ينتظمون بها في سلك ذوي الشرف ويعدون بها في عدادهم ، وحاصله وما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر دون الشق عن القلوب والتفتيش عما في السرائر فما يضرني عدم إخلاصهم في إيمانهم كما تزعمون ؛ وجوز أن يقال : إنهم لما قالوا : ﴿ واتبعك الارذلون ﴾ [الشعراء : 111] وعنوا الذين لا نصيب لهم من الدنيا أو الذين اتضعت أنسابهم أو كانوا من أهل الصنائع الدنيئة تغابى عليه السلام عن مرادهم وخيل لهم أنهم عنوا بالأرذلين من لا إخلاص له في العمل ولم يؤمن عن نظر وبصيرة فأجابهم بما ذكر كأنه ما عرف من الأرذلين إلا ذلك ، ولو جعل هذا نوعاً من الأسلوب الحكيم لم يبعد عندي ، وفيه من لطف الرد عليهم وتقبيح ما هم عليه ما لا يخفى ، وزعم بعضهم أنهم عنوا بالأرذلين نساءه عليه السلام وبنيه وكناته وبنى بنيه واسترذالهم لعضة النسب لا يتصور في جميعهم حقيقة كما لا يخفى فلا بد عليه من اعتبار التغليب ونحوه ، وقرأ الأعرج.

وأبو زرعة.

وعيسى بن عمر الهمداني ﴿ يَشْعُرُونَ ﴾ بياء الغيبة وقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانا عنه ، وقد نزلوا لذلك منزلة من يدعي أنه عليه

السلام ممن يطرد المؤمنين وأنه ممن يشترك معه فيه فقدم المسند إليه وأولي حرف النفي لإفادة أن ذلك ليس شأنه بل شأن المخاطبين .

وجوز أن يكون التقديم للتقوى وهو أقل مؤنة كما لا يخفى ، وقيل : إنهم طلبوا منه عليه السلام طردهم فأجابهم بذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم طرد من آمن به من الضعفاء فنزلت ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ [الأنعام : 52] الآية ، وقوله تعالى :

(114/570)

﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين وزجرهم عما لا يرضيه سبحانه وتعالى سواء كانوا من الأشرفين أو الأرذلين فكيف يتسنى لي طرد من زعمتم أنهم أرذلون .

وحاصله أنا مقصور على إنذار المكلفين لا أتعداه إلى طرد الأرذلين منهم أو ما علي إلا إنذاركم بالبرهان الواضح وقد فعلته وما علي استرضاء بعضكم بطرد الآخرين ،

وحاصله أنا مقصور على إنذاركم لا أتعداه إلى استرضائكم .

وقيل : إن مجموع الجملتين جواب وإن إيلاء الضمير حرف النفي يدل على أنهم زعموا أنه

عليه السلام موصوف بصفتين ، إحداهما : اتباع أهوائهم بطرد المؤمنين لأجل أن يؤمنوا ، وثانيتهما : أنه نذير مبين فقصر الحكم على الثاني دون الأول ولا يخلو عن بحث .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا لوط نُوحٌ ﴾ عما أنت عليه ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ أي المرميين بالحجارة كما روي عن قتادة ، وهو توعد بالقتل كما روي عن الحسن ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن المعنى من المشتومين على أن الرجم مستعار للشتم كالطعن ، وفي إرشاد العقل السليم أنهم قاتلهم الله تعالى قالوا ذلك في أواخر الأمر ، ومعنى قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾ استمروا على تكذيبي وأصروا عليه بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائي إلا فراراً .

وهذا ليس بإخبار بالاستمرار على التكذيب لعلمه عليه السلام أن عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد إظهار ما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له واستخفافهم به في قولهم : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا لوط نُوحٌ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] تلطفاً في فتح باب الإجابة ، وقيل : لدفع توهم الخلق فيه المتجاوز أو الحدة ، وقيل : إنه خبر لم يقصد منه الإعلام أصلاً وإنما أورد لغرض التحزن والتفجع كما في قوله :

قومي هم قتلوا أميم أخي . . .

فلئن رميت يصيبني سهمي

ويبعد ذلك في الجملة تفريع الدعاء عليهم بقوله تعالى :

﴿ فافتح بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ على ذلك أي أحكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا من الفتاحة بمعنى الحكومة ، و﴿ فَتْحاً ﴾ مصدر ، وجوز أن يكون مفعولاً به على أنه بمعنى مفتوحاً وهذه حكاية إجمالية لدعائه عليه السلام المفصل في سورة نوح ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِى مِنَ المؤمنين ﴾ أي من قصدهم أو شؤم أعمالهم ، وفيه إشعار بحلول العذاب بهم .

﴿ فأنجيناه وَمَن مَّعَهُ ﴾ على حسب دعائه عليه السلام ﴿ فِى الفلك المشحون ﴾ أي المملوء بهم وبما يحتاجون إليه حالاً كالطعام أو مالاً كالحيوان .

والملك يستعمل واحداً وجمعاً ، وحيث أتى في القرآن الكريم فاصلة استعمل مفرداً أو غير فاصلة استعمل جمعاً كما في "البحر" .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ أي بعد إنجائهم ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتفاوت الرتبي ، ولذا قال سبحانه بعد بعد ﴿ الباقين ﴾ أي من قومه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(116/570)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

كما رجع السياق القهقرى في التاريخ من قصة موسى إلى قصة إبراهيم ، كذلك يرجع القهقرى من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . إن الخط التاريخي ليس هو المقصود هنا ، بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب .

وقصة نوح ، كقصة موسى وقصة إبراهيم ، تعرض في سور شتى من القرآن . وقد عرضت من قبل في سورة " الأعراف " في الخط التاريخي للرسل والرسالات بعد هبوط آدم من الجنة عرضاً مختصراً ، يتلخص في دعوته قومه إلى التوحيد ، وإنذارهم عذاب يوم عظيم ، واتهام قومه له بالضلال ، وعجبهم من أن يبعث الله إليهم رجلاً منهم ، وتكذيبهم له . ومن ثم إغراقهم ونجاته هو ومن معه بدون تفصيل .

وعرضت في سورة يونس باختصار كذلك في نهاية رسالته ، إذ تحدى قومه فكذبوه . . ثم كانت نجاته ومن معه في الفلك ، وإغراق الآخرين .

وعرضت في سورة " هود " بتفصيل في قصة الطوفان والفلك وما بعد الطوفان كذلك من دعائه لربه في أمر ابنه الذي أغرق مع المغرقين . وما كان بينه وبين قومه قبل ذلك من جدال حول عقيدة التوحيد .

وعرضت في سورة " المؤمنون " فذكر منها دعوته لقومه إلى عبادة الله الواحد ،

واعتراضهم عليه بأنه بشر منهم يريد أن يتفضل عليهم ؛ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ، واتهامه بالجنون . ثم توجهه إلى ربه يطلب نصرته . وإشارة سريعة إلى الفلك والطوفان .

وهي تعرض في الغالب في سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين وكذلك هي في هذه السورة وأظهر ما في الحلقة المعروضة هنا دعوته لقومه إلى تقوى الله ، وإعلانه أنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى ، وإباؤه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء وهذا ما كان يواجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة سواء بسواء ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه . واستجابة الله له بإغراق المكذبين وتنجية المؤمنين .

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ . .

(117/570)

تلك هي النهاية . نهاية القصة . يبدأ بها لإبرازها منذ البداية . ثم يأخذ في التفصيل .

وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحاً . ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين . فالرسالة في أصلها واحدة ، وهي دعوة إلى توحيد الله ، وإخلاص العبودية له . فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين ، فهذه دعوتهم أجمعين . والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره في مواضع كثيرة ، بصيغ متعددة ، لأنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية ، تحتضن بها الدعوات جميعاً ؛ وتقسم بها

البشرية كلها إلى صفين : صف المؤمنين وصف الكافرين ، على مدار الرسالات ومدار القرون . وينظر المسلم فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هي أمته ، منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير .

وإذا الصف الآخر هم الكفار في كل ملة وفي كل دين . وإذا المؤمن يؤمن بالرسل جميعاً ، ويحترم الرسل جميعاً ، لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد .

إن البشرية لا تنقسم في تقدير المسلم إلى أجناس وألوان وأوطان . إنما تنقسم إلى أهل الحق وأهل الباطل . وهو مع أهل الحق ضد أهل الباطل . في كل زمان وفي كل مكان . وهكذا يتوحد الميزان في يد المسلم على مدار التاريخ كله ؛ وترتفع القيم في شعوره عن عصبية الجنس واللون واللغة والوطن ، والقرابات الحاضرة أو الموغلة في بطن التاريخ . ترتفع فتصبح قيمة واحدة . هي قيمة الإيمان يحاسب بها الجميع ، ويقوّم بها الجميع .

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾ .

(118/570)

هذه هي دعوة نوح التي كذبه فيها قومه وهو أخوهم وكان الأليق بالأخوة أن تقود إلى المسالمة والاطمئنان والإيمان والتصديق . ولكن قومه لم يأبهوا لهذه الصلة ، ولم تلن قلوبهم لدعوة أخيهم نوح إذ قال لهم : ﴿ ألا تتقون ؟ ﴾ وتخافون عاقبة ما أنتم فيه ؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته ؟

وهذا التوجيه إلى التقوى مطرد في هذه السورة . فهكذا قال الله عن فرعون وقومه لموسى وهو يكلفه التوجه إليهم . وهكذا قال نوح لقومه . وهكذا قال كل رسول لقومه من بعد نوح :

﴿ إِني لكم رسول أمين ﴾ . . لا يخون ولا يخدع ولا يغش ، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئاً مما كلفه من التبليغ .

﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ . . وهكذا يعود إلى تذكيرهم بتقوى الله ، ويحددها في هذه المرة ، وينسبها إلى الله تعالى ، ويستجيش بها قلوبهم إلى الطاعة والتسليم .

ثم يطمئنهم من ناحية الدنيا وأعراضها ، فما له فيها من أرب بدعوتهم إلى الله ، وما يطلب منهم أجراً جزاء هدايتهم إليه ، فهو يطلب أجره من رب الناس الذي كلفه دعوة الناس .

وهذا التنبيه على عدم طلب الأجر يبدو أنه كان دائماً ضرورياً للدعوة الصحيحة ، تمييزاً لها مما عهده الناس في الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد . وقد كان الكهنة ورجال الدين المنحرفون دائماً مصدر ابتزاز للأموال بشتى الأساليب . فأما

دعوة الله الحقة فكان دعاتها دائماً متجردين ، لا يطلبون أجراً على الهدى . فأجرهم على رب العالمين .

وهنا يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة ، بعد اطئمنانهم من ناحية الأجر والاستغلال :

﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ . . ولكن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب . وهو اعتراض مكرور في البشرية مع كل رسول :

﴿ قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟ ﴾ . .

وهم يعنون بالأرذلين الفقراء . وهم السابقون إلى الرسل والرسالات ، وإلى الإيمان والاستسلام . لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة ، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة .

(119/570)

ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة . ومن ثم فهم الملبون السابقون . فأما الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم ، وتقعد بهم مصالحهم ، القائمة على الأوضاع المزيفة ، المستمدة من الأوهام

(120/570)

والأساطير ، التي تلبس ثوب الدين . ثم هم في النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس ، حيث تسقط القيم الزائفة كلها ، وترتفع قيمة واحدة . قيمة الإيمان والعمل الصالح . قيمة واحدة ترفع قوما وتخفض آخرين . بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم .

ومن ثم يجيبهم نوح الجواب الذي يقرر القيم الثابتة ويحدد اختصاص الرسول ، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على ما يعملون .

«قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» .

والكبراء يقولون دائما عن الفقراء : إن عاداتهم وأخلاقهم لا ترضي العلية ، ولا تطاق في أوساط الطبقة الراقية ذات الحس المرهف والذوق اللطيف ! فنوح يقول لهم : إنه لا يطلب إلى الناس شيئا سوى الإيمان . وقد آمنوا . فأما عملهم قبله فموكول إلى الله ، وهو الذي يزنه ويقدره . ويجزيهم على الحسنات والسيئات . وتقدير الله هو الصحيح «لَوْ تَشْعُرُونَ» بالقيم الحقة التي ترجح في ميزان الله . وما وظيفتي إلا الإنذار والإفصاح :

«إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» .

فلما أن واجههم نوح – عليه السّلام – بحجته الواضحة ومنطقة المستقيم وعجزوا عن

المضي في الجدل بالحجة والبرهان ، لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان . لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان ، عند ما تعوزهم الحجة ، ويعجزهم البرهان :

«قالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» . .

وأسفر الطغيان عن وجهه الكالح ، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة ، وعرف نوح أن القلوب الجاسية لن تلين هنا توجه نوح إلى الولي الوحيد ، والناصر الفريد ، الذي لا ملجأ سواه للمؤمنين :

(121/570)

«قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ، وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» .

وربه يعلم أن قومه كذبوه . ولكنه البث والشكوى إلى الناصر المعين ، وطلب النصفة ، ورد الأمر إلى صاحب الأمر : «فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً» يضع الحد الأخير للبغي والتكذيب : «وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» . .

واستجاب الله لنبيه الذي يتهدده الطغيان بالرجم ، لأنه يدعو الناس إلى تقوى الله ، وطاعة رسوله ، لا يطلب على ذلك أجرا ، ولا يبتغي جاها ولا مالا :

«فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ» . .

هكذا في إجمال سريع . يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان في فجر البشرية . ويقرر مصير كل معركة تالية في تاريخ البشرية الطويل .

ثم يجيء التعقيب المكرور في السورة عقب كل آية من آيات اللّه العزيز الرحيم :

«إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً . وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» . . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2606 . 2608 ﴾

(122/570)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

استئناف لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ناشئٌ عن قوله : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ [الشعراء : 103] أي لا تأسَ عليهم ولا يعظُمْ عليك أنهم كذّبوك فقد كذبت قوم نوح المرسلين ؛ وقد علم العرب رسالةَ نوح ، وكذلك شأن أهل العقول الضالّة أنهم يعرفون الأحوال وينسون أسبابها .

وأنث الفعل المسند إلى قوم نوح لتأويل ﴿ قوم ﴾ بمعنى الأمة أو الجماعة كما يقال : قالت

قريش ، وقالت بنو عامر ، وذلك قياس في كل اسم جَمع لا واحد له من لفظه إذا كان للآدمي مثل نَفَر ورهْط ، فأما إذا كان لغير الآدميين نحو إبل فمؤنث لا غير .

قاله الجوهري وتبعه صاحب "اللسان" و"المصباح" .

ووقع في "الكشاف" هذه العبارة "القومُ مؤنثة وتصغيرُها قُويمة" فظاهر عبارته أن هذا اللفظ مؤنث المعنى في الاستعمال لا غير ، وهذا لم يقله غيره وسكت شراحه عليه ولم يعرج الزمخشري عليه في "الأساس" فإن حمل على ظاهر العبارة فهو مخالف لكلام الجوهري وابن سيده .

ويحتمل أنه أراد جواز تأنيث (قوم) وأنه يجوز أن يصغر على قويمة فيُجمع بين كلامه وكلام الجوهري وابن سيده ، وهو احتمال بعيد من ظاهر كلامه الموكَّد بقوله : وتصغيره قُويمة ، لما هو مقرر من أن التصغير يرد الأسماء إلى أصولها .

وأيّاً مّا كان فهو صريح في أن تأنيثه ليس بتأويله بمعنى الأمة لأن التأويل اعتبار للمتكلم فلا يكون له أثر في إجراء الصيغ مثل التصغير ، فإن الصيغ من آثار الوضع دون الاستعمال ، ألا ترى أنه لا تجعل للمعاني المجازية صيغ خاصة بالمجاز .

(123/570)

وجُمع ﴿ المرسلين ﴾ وإنما كذَّبوا رسولاً واحداً أولَ الرسل ولم يكن قبله رسول وهم أول المكذّبين ، فإنما جُمع لأن تكذيبهم لم يكن لأجل ذاته ولكنه كان لإحالتهم أن يرسل الله بشراً ، وأن تكون عبادة أصنامهم ضلالاً فكان تكذيبهم إياه مقتضياً تكذيب كل رسول لأن كل رسول يقول مثل ما قاله نوح عليه السلام ، ولذلك تكرر في قوله : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] وما بعده .

وقد حكي تكذيبهم أن يكون الرسول بشراً في قوله : ﴿ أَوَعَجِبْتم أن جاءكم ذِكْر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ في [الأعراف : 63] .

وسيأتي حكاية تكذيب عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب لَيْكة على هذا النمط فيما تكرر من قوله : كذبت ﴾ وقوله : ﴿ المرسلين ﴾ .

و﴿ إذ قال ﴾ ظرف ، أي كذبوه حين قال لهم ﴿ ألا تتقون ﴾ فقالوا : ﴿ أنؤمن لك ﴾ [الشعراء : 111] .

ويظهر أن قوله : ﴿ ألا تتقون ﴾ صدر بعد أن دعاهم من قبل وكرّر دعوتهم إذ رآهم مُصرِّين على الكفر ويدل لذلك قولهم في مجاوبته ﴿ واتَّبَعَك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] .

وخص بالذكر في هذه السورة هذا الموقف من مواقفه لأنه أنسب بغرض السورة في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر مماثل حاله مع قومه .

والأخ مستعمل في معنى القريب من القبيلة .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ في سورة [الأعراف : 65] .

وقوله : ﴿ ألا تتقون ﴾ يجوز أن يكون لفظ ﴿ أَلاَ ﴾ مركباً من حرفين همزة استفهام دخلت على (لاَ) النافية ، فهو استفهام عن انتفاء تقواهم مستعمل في الإنكار وهو يقتضي امتناعهم من الامتثال لدعوته .

ويجوز أن يكون ﴿ أَلاَ ﴾ حرفاً واحداً هو حرف التحْضيض مثل قوله تعالى : ﴿ ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ﴾ [التوبة : 13] وهو يقتضي تباطؤهم عن تصديقه .

والمراد بالتقوى : خشية الله من عقابه إياهم على أن جعلوا معه شركاء .

(124/570)

وجملة : ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ تعليل للإنكار أو للتحضيض ، أي كيف تستمرون على الشرك وقد نهيتكم عنه وأنا رسول لكم أمينٌ عندكم .

وكان نوح موسوماً بالأمانة لا يتهم في قومه كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يلقب الأمين في قريش .

قال النابغة:

كذلك كانَ نوحٌ لا يخون . . .

وتأكيده بحرف التأكيد مع عدم سبق إنكارهم أمانته لأنه توقَّع حدوث الإنكار فاستدل عليهم بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة ، فإن الأمانة دليل على صدقه فيما بلَّغهم من رسالة الله ، كما قال هرقل لأبي سفيان وقد سأله : هل جربتم عليه (يعني النبي صلى الله عليه وسلم كَذِباً ، فقال أبو سفيان : لاَ ونَحْن منه في مدة لا ندري ما فعل فيها .

فقال له هرقل بعد ذلك : فقد عَلِمتُ أنه ما كان ليترك الكذب على الناس ويكذب على الله .

ففي حكاية استدلال نوح بأمانته بين قومه في هذه القصة المسوقة مثلاً للمشركين في تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم تعريض بهم إذ كذبوه بعد أن كانوا يدْعونه الأمين ، ويحتمل أن يراد به أمين من جانب الله على الأمة التي أرسل إليها .

والتأكيد أيضاً لتوقع الإنكار منهم .

وجملة : ﴿ وما أسئلكم عليه من أجر ﴾ عطف على جملة : ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي علمتم أني أمين لكم وتعلمون أني لا أطلب من دعوتكم إلى الإيمان نفعاً لنفسي .

وضمير ﴿ عليه ﴾ عائد إلى معلوم من مقام الدعوة .

وقوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ تأكيد لقوله : ﴿ ألا تتقون ﴾ وهو اعتراض بين الجملتين المتعاطفتين .

وكرر جملة : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ لزيادة التأكيد فيكون قد افتتح دعوته بالنهي عن ترك التقوى ثم علل ذلك ثم أعاد ما تقتضيه جملة الاستفتاح ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ وما أسئلكم عليه من أجر ﴾ ، ثم أعاد جملة الدعوة في آخر كلامه إذ قال : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ مرة ثانية بمنزلة النتيجة للدعوة ولتعليلها .

(125/570)

وحذفت الياء من ﴿ أطيعون ﴾ في الموضعين كما حذفت في قوله : ﴿ فأخاف أن يَقتلونِ ﴾ [الشعراء : 14] في أوائل السورة .

وفي قوله : ﴿ إنْ أجري إلاّ على رب العالمين ﴾ إشارة إلى يوم الجزاء وكانوا ينكرون البعث كما دل عليه قوله في سورة [نوح : 17 - 18] ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويُخرجكم إخراجاً ﴾ وتقدم ذكر نوح عند قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ﴾ في [آل عمران : 33] .

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111)

جملة : ﴿ قالوا ﴾ استئناف بياني لما يثيره قوله : ﴿ كذبت قوم نوح ﴾ [الشعراء : 105] من استشراف السامع لمعرفة ما دار بينهم وبين نوح من حوار ، ولذلك حكيت

مجادلتهم بطريقة : قالوا ، وقال .

والقائلون : هم كبراء القوم الذين تصدّوا لمحاورة نوح .

والاستفهام في ﴿ أنؤمن ﴾ استفهام إنكاري ، أي لا نؤمن لك وقد اتّبعك الأرذلون فجملة : ﴿ واتبعك ﴾ حالية .

و ﴿ الأرذلون ﴾ : سَقَط القوم موصوفون بالرذالة وهي الخِسّة والحقارة ، أرادوا بهم ضعفاء القوم وفقراءهم فتكبروا وتعاظموا أن يكونوا والضعفاءَ سواء في اتّباع نوح .

وهذا كما قال عظماء المشركين للنبيء صلى الله عليه وسلم لما كان من المؤمنين عمَّار وبلال وزيدُ بن حارثة : أنحن نكون تبعاً لهؤلاء أطرِدْهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك .

فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تَطْرُد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ الآيات من سورة الأنعام (52) .

وقرأ الجمهور : ﴿ واتَّبعَك ﴾ بهمزة وصل وتشديد التاء الفوقية على أنه فعل مضي من صيغة الافتعال .

والمعنى : أنهم كانوا من أتباعه أو كانوا أكثر أتباعه .

وقرأ يعقوب ﴿ وأتْبَاعُك ﴾ بهمزة قطع وسكون الفوقية وألف بعد الموحدة على أنه جمع تابع .

والمعنى : أنهم أتباعه لا غيرهم فالصيغة صيغةُ قصر .

وجواب نوح عن كلام قومه يحتاج إلى تدقيق في لفظه ومعناه .

(126/570)

فأما لفظه فاقتران أوله بالواو يجعله في حكم المعطوف على كلام قومه تنبيهاً على اتصاله بكلامهم .

وذلك كناية عن مبادرته بالجواب كما في قوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ [البقرة : 124] بعد قوله : ﴿ قال إني جاعلك للناس إماماً ﴾ [البقرة : 124] .

ويسمى عطفَ تلقين مراعاةً لوقوعه في تلك الآية والأَوْلى أن يسمى عطف تكميل .

وأما معناه فهو استفهام مؤذن بأن قومه فصَّلوا إجمال وصفهم أتباعَه بالأرذلين بأن بينوا أوصافاً من أحوال أهل الحاجة الذين لا يعبأ الناس بهم فأتى بالاستفهام عن علمه استفهاماً مستعملاً في قلة الاعتناء بالمستفهَم عنه ، وهو كناية عن قلة جدواه لأن الاستفهام عن الشيء يؤذن بالجهل به ، والجهل تُلازمه قلة العناية بالمجهول وضعفُ شأنه ، كما يقال لك : يهدّدك فلان ، فتقول : وما فُلان ، أي لا يُعبأ به .

وفي خبر وهب بن كيسان عن جابر ابن عبد الله أن أبا عبيدة كان يقُوتنا كلَّ يوم تمرةً فقال وهب : قلتُ وما تغني عنكم تمرة .

والمعنى : أي شيء علمي بما كانوا يعملون حتى اشتغلَ بتحصيل علم ما كانوا يعملون وأعمالهم بما يناسب مراتبهم فأنا لا أهتم بما قبلَ إيمانهم .

وضُمن ﴿ علمي ﴾ معنى اشتغالي واهتمامي فعُدّي بالباء .

و ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ موصول مَا صدقه الحالة لأن الحالة لا تخلو من عمل .

فالمعنى : وما علمي بأعمالهم .

وهذا كما يقال في السؤال عن أحد : ماذا فعل فلان ؟ أي ما خبره وما حاله ؟ ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم للصبي الأنصاري : "يا أبا عمير ما فعل النغير" لطائر يسمى النُغَر (بوزن صُرد) وهو من نوع البلبل كان عند الصبي يلعب به ، ومنه قوله لمن سأله عن الذين ماتوا من صبيان المشركين : "الله أعلم بما كانوا عاملين" أي الله أعلم بحالهم ، فهو إمساك عن الجواب .

وقريب منه قول العرب : ما بَالُه ، أي ما حاله ؟ .

(127/570)

وفعل ﴿ كانوا ﴾ مزيد بين (مَا) الموصولة وصلتِها لإفادة التأكيد ، أي تأكيد مدلول "ما علمي بما يعملون" .

والمعنى : أي شيء علمي بما يعملون .

وليس المراد بما كانُوا عملوه من قبل .

والواو في قوله : ﴿ بما كانوا ﴾ فاعل وليست اسماً ل (كان) لأن (كان) الزائدة لا تنصب الخبر .

وشمل قوله : ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ جميع أحوالهم في دينهم ودنياهم في الماضي والحال والمستقبل والظاهر والباطن .

والحساب حقيقته : العَدّ ، واستعمل في معنى تمحيض الأعمال وتحقيق ظواهرها وبواطنها بحيث لا يفوت منها شيء أو يشتبه .

والمعنى : أن الله هو الذي يتولّى معاملتهم بما أسلفوا وما يعملون وبحقائق أعمالهم .

وهذا المقال اقتضاه قوله : ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ من شموله جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة التي منها ما يحاسبون عليه وهو الأهم عند الرسول المشرّع ، فلذلك لما قال : ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ أتبعه بقوله : ﴿ إن حسابهم إلا على ربي ﴾ على عادة أهل الإرشاد في عدم إهمال فُرصته .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم " فإذا قالوها (أي لا إله إلا الله) عصموا منّي

دماءَهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " ، أي تحقيق مطابقة باطنهم لظاهرهم على الله .

وزاد نوح قوله بياناً بقوله : ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين ﴾ وبيَّن هذا المعنى قوله في الآية الأخرى ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ في سورة هود (31) .

والقصر في قوله : ﴿ إن حسابهم إلا على ربي ﴾ قصر موصوف على الصفة ، والموصوف هو ﴿ حسابهم ﴾ والصفة هي ﴿ على ربّي ﴾ ، لأن المجرور الخبرَ في قوة الوصف ، فإن المجرورات والظروف الواقعة أخباراً تتضمن معنى يتصف به المبتدأ وهو الحصول والثبوت المقدر في الكلام بكائن أو مستقِر كما بيّنه علماء النحو .

والتقدير : حسابهم مقصور على الاتصاف بمدلول ﴿ على ربّي ﴾ .

(128/570)

وكذلك قدّره السكاكي في "المفتاح" ، وهو قصر إفراد إضافي ، أي لا يتجاوز الكون على ربي إلى الاتصاف بكونه عليَّ .

وهو رد لما تضمنه كلام قومه من مطالبته بإبعاد الذين آمنوا لأنهم لا يستحقون أن يكونوا مساوين لهم في الإيمان الذي طلبه نوح من قومه .

وقوله : ﴿ لو تشعرون ﴾ تجهيل لهم ورغمٌ لغرورهم وإعجابهم الباطل .

وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف دل عليه ما قبلَه .

والتقدير : لو تشعرون لشَعَرْتُم بأن حسابهم على الله لا عليَّ فَلَمَا سألتمونيه .

ودَل على أنه جهَّلَهم قولُه في سورة هود (29) ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾

هذا هو التفسير الذي يطابق نظم الآية ومعناها من غير احتياج إلى زيادات وفروض .

والمفسرون نحَوْا منحى تأويل الأرذلون ﴾ أنهم الموصوفون بالرذالة الدنية ، أي الطعن في صدق إيمان من آمن به ، وجعلوا قوله : ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ تبرُّؤاً من الكشف على ضمائرهم وصحة إيمانهم .

ولعل الذي حملهم على ذلك هو لفظ الحساب في قوله : ﴿ إن حسابهم إلا على ربي ﴾ ، فحملوه على الحساب الذي يقع يوم الجزاء وذلك لا يثلج له الصدر .

وعطف قوله : ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ على قوله : ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ فبعد أن أبطَل مقتضى طردِهم صرح بأنه لا يفعله .

وجملة : ﴿ إن أنا إلا نذير مبين ﴾ استئناف في معنى التعليل ، أي لأن وصفي يصرفني عن موافقتكم .

والمُبِين : من أبان المتعدي بمعنى بَيَّن ووضَّح .

والقصر إضافي وهو قصر موصوف على صفة .

وقد تقدم في سورة هود حكاية موقف لنوح عليه السلام مع قومه شبيه بما حكي هنا وبين الحكايتين اختلاف مَّا ، فلعلهما موقفان أو هما كلامان في موقف واحد حكي أحدُهما هنالك والآخر هنا على عادة قصص القرآن ، فما في إحدى الآيتين من زيادة يحمل على أنه مكمل لما في الأخرى .

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116)

(129/570)

لما أعياهم الاستدلال صاروا إلى سلاح المبطلين وهو المناضلة بالأذى .

والرجم : الرمي بالحجارة ، وقد غلب استعماله في القتل به ، و ﴿ من المرجومين ﴾ يفيد من بين الذين يعاقبون بالرجم ، أي من فئة الدعّار الذين يستحقون الرجم ، كما تقدم في قوله : ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ في سورة الأنعام (56) .

وقوله : ﴿ إن قومي كذبون ﴾ تمهيد للدعاء عليهم وهو خبر مستعمل في إنشاء التحسر واليأس من إقلاعهم عن التكذيب .

والفَتح : الحُكم ، وتأكيده بـ ﴿ فَتْحاً ﴾ لإرادة حكم شديد ، وهو الاستئصال ولذلك أعقبه بالاحتراس بقوله : ﴿ ونجني ومن معي من المؤمنين ﴾ .

و﴿ المشحون ﴾ : المملوء .

و﴿ ثُم ﴾ للتراخي الرتبي في الإخبار لأن إغراق أمة كاملة أعظم دلالة على عظيم القدرة من إنجاء طائفة من الناس .

وحذف الياء من قوله : ﴿ كذبون ﴾ للفاصلة كما تقدم في قوله : ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ [الشعراء : 14] .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (121)

الآية في قصة نوح دلالتُها على أن الله لا يقرّ الذين يكذّبون رسله ، ففي هذه القصة آية للمشركين من قريش وهم يعلمون قصة نوح والطوفان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(130/570)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

القوم : هم الرجال خاصة ، وسُمُّوا قوماً ؛ لأنهم هم الذين يقومون بأهم الأشياء ، ويقابل القوم النساء ، كما جاء شرح هذا المعنى في قوله سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ

قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات : 11] .

فالرجال هم القوم ؛ لأنهم يقومون بأهم الأمور ، وعليهم مدار حركة الحياة ، والنساء يستقبلْنَ ثمار هذه الحركة ، فينقونها بأمانة ويُوجِّهونها التوجيه السليم .

والشاعر العربي أوضح هذا المعنى بقوله :

وَمَا أَدْرِي ولسْتُ إخَالُ أدْرِي . . . أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

ونفهم أيضاً هذه القِوامة للرجل من قَوْل الله تعالى حينما وعظ آدم وحذَّره من الشيطان :

﴿ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة ﴾ [طه : 117] وحسب القاعدة نقول : فتشقيا .

لكن الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ فتشقى ﴾ [طه : 117] أنت يا آدم وحدك في حركة الحياة ، فالرجل يتحمل هذه المشقة ويكرم المرأة أن تُهَان أو تشقى ، لكن ماذا نفعل وهي تريد أن تُشقِي نفسها ؟ !

ونلحظ أن الآية تقول : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] كيف وهم ما كذّبوا إلا رسلهم نوحاً عليه السلام ؟ وكانوا مؤمنين قبله بآدم وإبراهيم مثلاً .

قالوا : لأن الرسل عن الله إنما جاءوا في أصول ثابتة في العقيدة وفي الأخلاق لا تتغير في أي

دين ؛ لذلك فمن كذَّب رسوله فكأنه كذَّب كل الرسل ، ألاَ ترى أن من أقوال المؤمنين أن يقولوا :

(131/570)

﴿ قُلْ آمَنَّا بالله وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ على إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَا أُوتِيَ موسى وعيسى والنبيون مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : 84] .

وقال تعالى : ﴿ آمَنَ الرسول بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ والمؤمنون كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة : 285] .

فإِنْ قُلْتَ : فماذا عن اختلاف المناهج والشرائع من نبي لآخر ؟ نقول : هذه اختلافات في مسائل تقتضيها تطورات المجتمات ، وهي فرعيات لا تتصل بأصل العقائد والأخلاق الكريمة .

لذلك نجد هذه لازمة في كُلِّ مواكب الرسالات ، يقول : المرسِلين ، المرسَلين ؛ لأن الذي يُكذِّب رسوله فيما اتفق فيه الأجيال من عقائد وأخلاق ، فكأنه كذّب جميع المرسلين .

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ (106)

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 106] يريد أن يُحنّن قلوبهم عليه بكلمة ﴿ أَخُوهُمْ ﴾ [الشعراء : 106] التي تعني أنه منهم وقريب الصِّلة بهم ، ليس أجنبياً عنهم ، فهم يعرفون أصله ونشأته . ويعلمون صفاته وأخلاقه .

لذلك لما بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم وأبلغ الناس برسالته بادر إلى الإيمان به أقرب الناس إليه ، وهي السيدة خديجة دون أنْ تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل ، لماذا ؟

لأنهم بَنَوْا على تاريخه السابق ، واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذي لا يكذب على الناس مستحيل أن يكذب على رب الناس .

(132/570)

والسيدة خديجة رضوان الله عليها تعتبر أول فقيهة ، وأول عالمة أصول في الإسلام ، حينما جاءها رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو ما يعاني ، ويخشى أن يكون ما يأتيه من الوحي رئياً من الجن أو توهمات تفسد عليه عقله وتفكيره ، قالت له انظر إلى العظمة " والله إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضيف ، وتحمل الكَلَّ ، وتُعين على نوائب الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً " .

ولما علم الصِّدِّيق بحادثة الإسراء والمعراج بادر بالتصديق ، ولم يتردد ، ولما سُئل عن ذلك قال : إننا نصدقه في الأمر يأتي من السماء فكيف لا نصدقه في هذه ، فإنْ كان قال فقد صدق .

إذن : فمقياس الصدق لديه أن يقول رسول الله ؛ لذلك استحق الصِّديق هذا اللقب عن جدارة ، حتى " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول في حقه : "كنتُ أنا وأبو بكر في الجاهلية كفرسي رهان يعني : في خصال الخير فسبقتُه إلى النبوة فاتبعني ، ولو سبقني لاتبعته " .

هذه كلها معانٍ نفهمها من قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ [الشعراء : 106] .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] فهذه من حكمة الله في الرسل ، وعجيب أن يقول أهل العناد من القوم : نريد ملكاً رسولاً ، وأن يقفوا من رسول الله موقف العداء ، وكان يجب عليهم على الأقل أن يُمكِّنوه من دعوته ، ويُمكِّنوا عقولهم من أنْ تفهم لا أن تدخل في الأمر على هوى سابق .

فالذي يتعب الناس في استقبال الحق أن تكون قلوبهم مشغولة بباطل ، والحق لا يجتمع مع الباطل ولا يضمهما محلٌّ واحد ؛ لذلك إذا أردت أن تبحث في مسألة ، فعليك أنْ تُخرِج من قلبك الباطل أولاً ، ثم حكِّم عقلك في الأمر ، واستفتِ قلبك فما سمح به فأدخله .

وهذه نراها حتى في الماديات ، فالحيز الواحد لا يسع شيئين أبداً ، يقولون : عدم تداخل ، كما لو ملأت قارورة بالماء مثلاً ، فقبل أن يدخل الماء لا بُدَّ أنْ يخرج الهواء ، فنراه على شكل فقاعات .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض ﴾ [المؤمنون : 71] .

ولك أن تلاحظ مثلاً زجاجة (الكولونيا) ذات الثُّقْب الضيق إذا وضعْتها في الماء ، لا يمكن أن يدخلها الماء ، لماذا ؟ لأن ثقبها ضيق ، لا يسمح بخروج الهواء أو دخول الماء .

ولأمر ما سُمِّي الهوى من الهواء ، فكما أن الهواء الذي نُحِسُّه لو أتى من ناحية واحدة لمبنى أو جبل مثلاً لانهدم إلى الناحية الأخرى ، لماذا ؟ لأن الهواء هو الذي يتولّى حِفْظ توازن هذه المباني العالية وناطحات السحاب التي نراها ، يحفظ توازنها حين يحيط بها من كل جهاتها ، فإنْ فرّغتَ الهواء من أحدى الجهات انهدم المبنى في نفس هذه الجهة .

والهواء من القوى العظيمة التي يستخدمها الإنسان ويُحولِّها إلى طاقة ، وانظر مثلاً إلى قوة تفريغ الهواء وما تُحدِثه من هزة عنيفة ، أو إلى الحاويات والشاحنات العملاقة التي تسير

على الهواء في عجلاتها ، وكذلك الهوى إنْ كان في الباطل كان قوياً ومدمراً ، ومن هذا المعنى سُمِّي السقوط هويّا ، تقول : هَوَى الشيء يعني : سقط .

وقوله : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 106] هذه الكلمة جاءت على لسان كل الرسل أو يقولها الرسول أوّلَ ما يبعث ، ومعناها : اتقوا الله و (أَلَا) أداة للحضِّ ، والحثِّ على الفعل . كما تقول للولد المهمل : أَلَا تذاكر أو هَلاَّ تذاكر .

وحين نحلل أسلوب الحضِّ أو الحثِّ نجد أنه يأتي على صورة التعجب من نفي الفعل ، كما تقول للولد الذي لا يصلي وتريد أن تحثَّه على الصلاة : ألا تصلي ؟ استفهام بالنفي وعندها يستحي الولد أن يقولها ، لكن حين تستفهم بالإثبات : أتصلي ؟ يقولها بفخر : نعم .

(134/570)

إذن : معنى الحثّ : تعجُّب من ترْك الفعل وإنكار يحمل معنى الأمر .

فمعنى : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 106] أُنكِر عليكم ألاَّ تكونوا متقين ، والمراد : أطلب منكم أن تكونوا متقين ، وما دُمْت قد أنكرت النفي فلابُدَّ أنك تريد الإثبات .

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107)

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء : 107] فإنْ كانت عندكم غفلة

فقد رَحِم الله غفلتكم ، ونبّهكم برسول أمين يَعِظكم ويعلّمكم ويُبلّغكم منهج الله ، وهو أمين لن يغشّكم في شيء حتى لا تقولوا : إنَّا كنَّا غافلين .

وما دُمْت أنا مرسلاً من الله إليكم ، وأميناً عليكم وعلى دعوتي ، فاسمعوا مني ؛ لذلك كرَّر الأمر بالتقوى : ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾

وكأنه يتصالح معهم ، فيُخفف من أسلوب التُّصْح ، ويأتي بالأمر صريحاً بعد أن أتى به في صورة إنكار ألاَّ يكونوا متقين . وثمرة التقوى طاعة الأوامر واجتناب النواهي ، وهذه لا نعرفها إلا من الرسول حامل المنهج ومُبلِّغ الدعوة والأمين عليها .

وقد ترددتْ هذه الآية على ألسنة كثير من رسل الله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : 107108] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾

هذه العبارة ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الشعراء : 109] لم نسمعها على لسان إبراهيم عليه السلام ، ولا على لسان موسى عليه السلام ، فأول مَنْ قالها نوح عليه السلام ، وكوْنك تقول لآخر : أنا لا أسألك أَجْراً على هذا العمل ، فهذا يعني أنك تستحق أجراً على هذا العمل ، وأنت غير زاهد في الأجر ، إنما إنْ أخذته من المنتفع بعملك ، فسوف يُقوِّمه لك بمقاييسه البشرية ؛ لذلك من الأفضل أن تأخذ أجرك من الله .

فكأن نوحاً عليه السلام يقول : أنتم أيها البشر لا تستطيعون أن تُقوِّموا ما أقوم به من أجلكم ؛ لأنني جئتكم بمنهج هداية يُسعِدكم في الدنيا ، ويُنجيكم في الآخرة ، وأنتم لن تُقوِّموا هذا العمل ، وأجري فيه على الله ؛ لأنكم تُعطون على قَدْر إمكاناتكم وعلمكم .

وسبق إنْ حكيْنَا لكم قصة الرجل الذي قابلناه في الجزائر ، وكان رجلاً تبدو عليه علامات الصلاح ، وقد أشار لنا لنقف بسيارتنا ونحمله معنا ، فلما توقفنا ليركب معنا مالَ إلى السائق ، وقال (على كم) يعني : الأجرة فقال له الرجل ، وكان المحافظ : نُوصلك لله ، فقال (غَلِّتها يا شيخ) . نعم ، إنْ كان الأجر على الله فهو غَال .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ [الطور : 40] .

ثم يقول : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 109] إنْ هنا بمعنى ما النافية ؛ لأنه تعالى القادر على أن يُكافئني على دعوتي ، فهو الذي أرسلني بها ، وهو سبحانه رب العالمين الذي تبرع بالخَلْق من عدم ، وبالإمداد من عدم ، وخلق لي ولكم الأرزاق ، وهذا كله لصالحكم ؛ لأنه سبحانه لا ينتفع من هذا بشيء .

والربوبية تقتضي عناية ، وتقتضي نفقة وخلقاً وإمداداً ، فصاحب كل هذه الأفضال والنعم هو الذي يعطيني أجري .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110)

بعد أن بيَّن لهم كرم الربوبية في مسألة الأجر على الدعوة وأعطاهم ما يشجعهم على التقوى وعلى الطاعة ؛ لأنهم سينتفعون برسالة الرسول دون أجر منهم . ومعنى ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : 110] أي : ليست لي طاعة ذاتية ، إنما أطيعوني ؛ لأني رسول من قِبَل الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه حاكياً ردَّهم على نوح عليه السلام : ﴿ قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾

(136/570)

الأَرْذَلُونَ : جمع أرذل ، وهو الردىء من الشيء ، ورُذَال الفاكهة : المعطوب منها وما نسميه (نقاضة) والاستفهام هنا للتعجب : كيف نؤمن لك ونحن السادة ، والمؤمنون بك هم الأرذلون ؟

يقصدون الفقراء وأصحاب الحِرَف والذين لا يُؤْبَه بهم ، وهؤلاء عادة هم جنود الرسالة ؛ لأنهم هم المطحونون من المجتمع الفاسد ، وطبيعي أن يتلقفوا مَنْ يعدل ميزان المجتمع .

وفي آية أخرى : ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [هود : 27] .

وقولهم : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ [الشعراء : 111] دليل على عدم فهمهم لحقيقة الإيمان ؛ لأنه

لم يقُلْ لهم : آمنوا بي ، إنما آمنوا بالله .

أو : أن المعنى ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ [الشعراء : 111] أي : نُصدّقك فمن معاني آمن أي : صدَّق ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ [يونس : 83] أي : صَدَّق به ، وآمن تكون بمعنى صَدَّق إذا جاءت بعدها اللام ، فإنْ جاء بعدها الباء فهي بمعنى الإيمان .

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113)

يعني : ما دام الحساب على ربي وهم يريدون الإيمان ، فلا بُدَّ أنْ يأخذوا جزاءهم وافياً ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [الشعراء : 113] .

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114)

وقد طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين من مجلسه ليُجلِسهم هم ، وفي آية أخرى قال سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ [الأنعام : 52] .

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115)

فمَنْ يسمع إنذاري ، ويسمع بشارتي ، ويأتي مجلسي ، فعلى عيني أرافقه . فالله ما أرسلني لأخص ذوي الغنى دون الفقراء بمجلسي ، إنما أرسلني لأبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعني فذلك السعيد عند الله ، وإن كان فقيراً .

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116)

وهكذا أعلنوا الحرب على نبي الله نوح ، يقولون : لا فائدةَ من تحذيرك ، وما زِلْتَ مُصِراً على دعوتك ﴿ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ ﴾ [الشعراء : 116] عما تدعيه من الرسالة ، وما تقول به من تقوى الله وطاعته ، وما تفعله من تقريب الأرذلين إلى مجلسك ، لتكوِّن جمهوراً من صغار الناس .

﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] أي : إذا لم تنتهِ فسوف نرجمك ، إنه تهديد صريح للرسول الذي جاءهم من عند الله يدعوهم إلى الخير في الدنيا والآخرة .

كما قال سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] .

وهذا التهديد منهم لرسول الله يدلُّ على أنهم كانوا أقوياء ، وأصحابَ جاه وبطْش .

قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118)

تأمل هنا أدب نوح عليه السلام حين يشكو قومه إلى الله ويرفع إليه ما حدث منهم ، كل ما قاله : ﴿ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ [الشعراء : 117] ولم يذكر شيئاً عن التهديد له بالرجم ، وإعلان الحرب على دعوته ، لماذا ؟ لأن ما يهمه في المقام الأول أن يُصدّقه قومه ، فهذا هو الأصل في دعوته .

وقوله : ﴿ فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ [الشعراء : 118] الفتح في الشيء إما : حسياً وإما معنوياً ، فمثلاً الباب المغلَق بقُفْل نقول : نفتح الباب : أي نزيل أغلاقه .

فإنْ كان الشيء مربوطاً نزيل الأشكال ونفكّ الأربطة .

(138/570)

ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ [يوسف : 65] أي : أزالوا الرباط عن متاعهم ، هذا هو الفتح الحسّيّ .

أما الفتح المعنوي فنُزيل الأغلاق والأشكال المعنوية ليأتي الخير وتأتي البركة ، كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [الأعراف : 96] .

وفي آية أخرى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن

بَعْدِهِ ﴾ [فاطر: 2] .

والخير الذي يفتح الله به على الناس قد يكون خيراً مادياً ، وقد يكون عِلْماً ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: 76] .

أي: من العلم في التوراة ، يخافون أن يأخذه المؤمنون ، ويجعلوه حجة على أهل التوراة إذا ما كان لهم الفتح والغَلَبة ، فمعنى: ﴿ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: 76] أي: بما علَّمكم من علم لم يعلموه هم .

وقد يكون الفتح بمعنى الحكم ، مثل قوله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ﴾ [الأعراف: 89] .

ويكون الفتح بمعنى النصر ، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ [النصر: 1] .

ثم يقول نوح عليه السلام: ﴿ وَنَجِّنِي ﴾ [الشعراء: 118] من كيدهم وما يُهدِّدونني به من الرَّجْم ﴿ وَمَن مَّعِي مِنَ المؤمنين ﴾ [الشعراء: 118] لأن الإيذاء قد يتعدّاه إلى المؤمنين معه ، وتأتي الإجابة سريعة: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ ﴾

وقد وردتْ قصة السفينة في الأعراف ، وفي هود ، ولنوح عليه السلام سورة خاصة هي سورة نوح مثل سورة محمد ؛ ذلك لأن له في تاريخ الرسالات ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ويستحق أنْ يخصَّه الله تعالى بسورة بأسمه .

لذلك عندما يكرر أحد الناس لك الكلام ، ويُعيده عليك ، تقول له (هيَّه سورة) ، فكلام العامة والأُميين له أَصْلٌ من استعمال اللغة .

وفي موضع آخر ذكر الحق تبارك وتعالى قصة صُنْع السفينة في قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الفلك وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴾ [هود : 38] وهذا دليل على أنها كانت أول سفينة يصنعها الإنسان ، وقد صنع نوح سفينته بأمر الله ووحيه وتحت عينه تعالى ، وفي رعايته : ﴿ واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود : 37] .

وما كان الله تعالى ليُكلِّفه بصُنْع السفينة ثم يتركه ، إنما تابعه ، حتى إذا ما حدث خطأ نبَّهه إليه من البداية ، كما قال تعالى لسيدنا موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ على عيني ﴾ [طه : 39] .

وبمثل هذه الآيات نردُّ على الذين يقولون : إن الله تعالى زاول سلطانه في مُلْكه مرة واحدة فخلق الخَلْق ، ثم ترك القوانين تسيره ، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا العالم كله يسير بحركة (ميكانيكية) ، لكن ظواهر الكون وما فيه من معجزات تدلُّ على قيوميته تعالى على خَلْقه

.

لذلك يقول لهم : ناموا ملء جفونكم ، فإن لكم رباً لا ينام ، كيف لا وأنت إذا استأجرتَ

حارساً لمنزلك مثلاً تنام مطمئناً اعتماداً على أنه يَقِظ ؟ وكيف إذا حرسك ربُّك عز وجل الذي لا تأخذه سِنَة ولا نَوْمٌ ؟ وألَا يدلُّ ذلك على قيوميته تعَالى ؟

(140/570)

هذه القيومية التي تنقضُ العزائم ، وتفسَح القوانين ، قيومية تقول للنار كوني برداً وسلاماً فتكون ، وتقول للماء : تجمَّد حتى تكون جبلاً فيتجمد ، تقول للحجر : انفلق فينفلق . . ولو كان الأمر (ميكانيكياً) كما يقولون لما حدث هذا ، ولما تخلَّف قانون واحد من قوانين الكون .

والمشحون : الذي امتلأ ، ولم يَبْقَ به مكان خَالٍ ، فكانت السفينة مشحونة بما حمل فيها ، لأنها صُنِعَتْ بحساب دقيق ، لا يتسع إلا لمن كُلِّف نوح بحملهم في سفينته ، وكانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة ومن كل حيوان زوجين اثنين .

والفلك المشحون يُطلَق ويُراد به الواحدة ، ويُطلَق ويراد به الجماعة كما في قوله سبحانه :

﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] .

ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120)

وهم الكافرون الذين لم يركبوا معه ، و ﴿ بَعْدُ ﴾ [الشعراء : 120] أي : بعد ما ركب

من ركب ، وبعد ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : 1112] .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (121)

والآية : الأمر العجيب الذي يجب الالتفات إليه والاعتبار به ، لكن مَنْ سيعتبر بعد أنْ غرق الباقون ؟ سيعتبر بهذه الآية المؤمنون الذين ركبوا السفينة حين يروْنَ نتيجة التكذيب ، ومصير المكذّبين الكافرين .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

أي : ورغم كُفْرهم وتكذيبهم ، ورغم أنه ما كان أكثرهم مؤمنين ، فالله تعالى هو العزيز الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب ، وهو سبحانه الرحيم بعباده الذي يتوب على مَنْ تاب منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(141/570)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

هذه الآية تدل على أن قوم نوح كذبوا جماعة من المرسلين ؛ بدليل صيغة الجمع في قوله المرسلين ، ثم بين ذلك بما يدل على خلاف ذلك وأنهم إنما كذبوا رسولاً واحداً وهو نوح – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ . . . إلى قوله ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ .

والجواب عن هذا : أن الرسل –عليهم صلوات الله وسلامه– لما كانت دعوتهم واحدة وهي: (لا إله إلا الله) صار مكذب واحد منهم مكذباً لجميعهم ؛ كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ .

وقد بين تعالى أن مكذب بعضهم مكذب للجميع بقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ .

ويأتي مثل هذا الإشكال والجواب في قوله: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ إلى أخره .

وقوله: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾ .

وكذلك في قصة لوط ، وشعيب على الجميع وعلى نبينا الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 225 . 226 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ قالوا أنؤمن لك ﴾ قالوا : أنصدقك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ قال : الحوّاكون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ قال : سفلة الناس وأراذلهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ قال : الحوّاكون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ إن حسابهم إلا على ربي ﴾ قال : هو أعلم بما في أنفسهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ لتكونن من المرجومين ﴾ قال : بالحجارة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ لتكونن من المرجومين ﴾ قال : بالشتيمة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فافتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ قال : اقض بيني وبينهم قضاء .

وأخرج ابن المنذر عن أبي صالح . مثله . وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ الفلك المشحون ﴾ قال : السفينة الموقورة الممتلئة . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول عبيد بن الأبرص :

شحنا أرضهم بالخيل حتى . . . تركناهم أذل من الصراط

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : تدرون ما المشحون ؟ قلنا : لا . قال هو الموقر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ الفلك المشحون ﴾ قال : الممتلئ .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ الفلك المشحون ﴾ قال : المملوء المفروغ منه تحميلاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ في الفلك المشحون ﴾ قال : المحمل .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ في الفلك المشحون ﴾ كنا نحدث : إنه الموقر .

(143/570)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن الشعبي ﴿ في الفلك المشحون ﴾ قال : المثقل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ، مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح ﴿ في الفلك المشحون ﴾ قال : سفينة نوح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(144/570)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ ﴾ :

إنَّما أَنَّثَ فعلَ القومِ ؛ لأنه مؤنثٌ بدليلِ تصغيره على قُوَيْمَة . وقيل : لأَنَّه بمعنى " أُمَّة " ولمَّا كانَتْ آحادُه عقلاءَ ذكوراً وإناثاً عاد الضميرُ عليه باعتبارِ تغليبِ الذكورِ فقيل : " لهم أخوهم " . وحَذَفَ مفعولَ " تتَّقون " أي : ألا تتَّقون عقابَ الله .

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111)

قوله : ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ : جملةٌ حاليةٌ مِنْ كاف " لك " . وقرأ عبد الله وابن عباس

وأبو حيوة " وأَتْباعُك " مرفوعاً ، جمعَ تابع كصاحِب وأَصْحاب ، أو تَبِيْع كشَرِيف وأشراف ، أو تَبع كبَرَم وأَبْرام . وفي رفعه وجهان ، أحدهما : أنَّه مبتدأٌ ، و " الأَرْذَلُون " خبرُه . والجملةُ حاليةٌ أيضاً . والثاني : أنه عطفٌ على الضميرِ المرفوعِ في " نُؤْمِنُ " وحَسَّن ذلك الفصلُ بالجارِّ . و " الأرذلون " صفتُه .

وقرأ اليماني : " وأتباعِك " بالجرِّ عطفاً على الكاف في " لك " . وهو ضعيفٌ أو ممنوعٌ عند البصريين . وعلى هذا فيرتفع " الأَرْذَلُون " على خبر ابتداء مضمر أي : هم الأرذلون . وقد تقدَّم مادة " الأَرْذَل " في هود .

قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112)

قوله : ﴿ وَمَا عِلْمِي ﴾ : يجوز في " ما " وجهان ، أحدهما : وهو الظاهر أنها استفهامية في محل رفع بالابتداء . و " علمي " خبرها . والباء متعلقة به . والثاني : أنها نافيةٌ . والباءُ متعلقةٌ ب " عِلْمي " أيضاً . قاله الحوفي ، ويحتاج إلى إضمار خبر ليصير الكلامُ به جملةً .

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113)

قوله : ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ : جوابُها محذوفٌ ، ومفعولُ " تَشْعُرون " أيضاً .

وقرأ الأعْرج وأبو زرعة " لو يَشْعُرون " بياء الغَيْبة ، وهو التفاتٌ . ولا يَحْسُنُ عَوْدُه على المؤمنين .

فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118)

قوله : ﴿ فَتْحاً ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً به ، بمعنى المفتوحِ/ ، وأَنْ يكونَ مصدراً مؤكِّداً .

قوله : ﴿ وَنَجِّنِي ﴾ المنجى منه محذوفٌ لفهمِ المعنى أي : ممَّا يَحُلُّ بقومي . و ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ بيانٌ لقولِه ﴿ مَنْ مَّعِي ﴾ .

فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119)

قوله : ﴿ المشحون ﴾ : أي المَمْلوءُ المُؤْقَرُ . يقال : شَحَنَها عليهم خَيْلاً ورِجالاً . والشَّحْناء : العَداوةُ ؛ لأنها تملأ الصدورَ إحَناً . والفُلْكُ هنا مفردٌ بدليلِ وَصْفِه بالمفردِ . وقد تقدَّم الكلامُ عليه في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 536. 638 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

ذكر قصة نوحٍ وما لَقِيَ من قومه ، وأنهم قالوا :

﴿ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ .

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111)

إنَّ أتباعَ كلِّ رسولٍ إنما هم الأضعفون ، لكنهم – في حكم الله – هم المتقدّمون الأكرمون .

قال عليه السلام : " نُصِرْت بضعفائكم " .

وإنَّ اللَّهَ أغرق قومه لمَّا أصرُّوا واستكبروا .

وكذلك فَعَلَ بمن ذَكَرَتْهم الآياتُ في هذه السورة من عادٍ وثمودٍ وقوم لوطٍ وأصحاب مدين . .

كلٌّ منهم قابلوا رُسُلَهم بالتكذيب ، فَدَمّر اللَّهُ عليهم أجمعين ، ونَصَرَ رسولَه على مقتضى سُنَّتِه الحميدة فيهم . وقد ذَكَرَ الله قصةَ كل واحدٍ منهم ثم أعقبها قوله : –

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ الْعِزِيزُ ﴾ : القادر على استئصالهم ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الذي أخَّرَ العقوبة عنهم بإمهالهم ، ولم يقطع الرزقَ مع قُبْحِ فِعالِهم .

وهو ﴿ عزيز ﴾ لم يُسْتَضَرّ بقبيح أعمالهم ، ولو كانوا أجمعوا على طاعته لَمَّا تَجَمَّلَ بأفعالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 17.18 ﴾

(147/570)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾

يعني : ببني إسرائيل ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ﴾ يعني : يتبعكم فرعون وقومه ويقال أسرى يسري إسراء إذا سار ليلاً ، يعني اذهبْ بهم بالليل ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِى المدائن حاشرين ﴾ يحشرون الناس لقتال موسى عليه السلام وخرج في طلبه .

وقال : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ يعني : طائفة وعصبة وجماعة قليلون .

وقال الزجاج الشرذمة في كلام العرب القليل .

ويروى أنهم كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ يعني : لمبغضين ويقال : إنا لغائظون بخلافهم لنا ، وذهابهم بحيلتنا .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذرون ﴾ أي : مودون شاكون في السلاح .

قرأ ابن كثير ونافع ﴿ حاذرون ﴾ بغير ألف ، والباقون بالألف ، ﴿ حاذرون ﴾ ، والحاذر المستعد ، والحذر المستيقظ .

ويقال : الحاذر الذي يحذر في الفور ، والحذر الذي لا تلقاه إلا حذراً .

وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : ﴿ حاذرون ﴾ بالألف ، وكان يقول : يعني ذا أداة من السلاح .

ومعناه : إنا قد أخذنا حذرنا من عدونا بسلاحنا قال الله تعالى : ﴿ فأخرجناهم ﴾ يعني : فرعون وقومه ﴿ مّن جنات ﴾ يعني : البساتين ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ يعني : الأنهار الجارية ﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ يعني : من الأموال الكثيرة ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني : المنازل الحسنة .

ويقال : المنابر التي يعظم عليها فرعون .

قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وعيون بضم العين في جميع القرآن ، والباقون بالكسر ، وهما لغتان ، وكلاهما جائز .

وقال بعضهم : ﴿ فأخرجناهم مّن جنات وَعُيُونٍ ﴾ كلام فرعون إنا أخرجنا بني إسرائيل من أرض مصر والطريق الأول أشبه كما قال في آية أخرى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جنات وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان : 25] الآية .

ثم قال : ﴿ كذلك ﴾ يعني : هكذا أفعل بمن عصاني .

ثم استأنف فقال عز وجل : ﴿ وأورثناها ﴾ ويقال لك : أورثناها يعني : هكذا أنزلنا في مساكن فرعون ﴿ بَنِى إسراءيل ﴾ بعد ما غرق فرعون ، ثم قال : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ يعني : طلوع الشمس .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءا الجمعان ﴾ يعني : تقاربا ورأى بعضهم بعضاً ، وذلك أن فرعون أرسل في المدائن حاشرين ليحشروا الناس ، فركب وركب معه ألف ألف ومائتا ألف فارس سوى الرحالة ، أي المشاة ، فلما دنوا من عسكر موسى ﴿ قَالَ أصحاب موسى ﴾ لموسى عليه السلام ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ يعني : يدركنا فرعون ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ كَلاَّ ﴾ لا يدرككم ﴿ إِنَّ مَعِىَ رَبّى سَيَهْدِينِ ﴾ يعني : سينجيني ويهديني إلى طريق النجاة .

قوله عز وجل : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ يعني : وفي الآية مضمر ، ومعناه فضربه بالعصا فانفلق البحر ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ يعني : كالجبل العظيم ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الاخرين ﴾ يعني : قربنا قوم فرعون إلى البحر ، وأدنيناهم إلى الغرق ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : 90] أي أدنيت وقربت .

وروي عن الحسن قال : وأزلفنا .

يعني : أهلكنا .

وقال غيره : وأزلفنا ، أي جمعناهم في البحر حتى غرقوا ، ومنه قوله قبل الجمع المزدلفة .

﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ يعني : من البحر ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الاخرين ﴾ يعني : فرعون وقومه ، وقد ذكرنا القصة في موضع آخر ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ يعني : فيما صنع لآية ، يعني : لعبرة لمن بعدهم ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : مصدقين يعني : لو كان أكثرهم مؤمنين لم يهلكهم الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ بالنعمة ﴿ الرحيم ﴾ لمن تاب .

(149/570)

قوله عز وجل : ﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبراهيم ﴾ يعني : أخبر أهل مكة خبر إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي : كيف قال لقومه ثم أخبرهم عن ذلك وذلك أن إبراهيم عليه السلام ، لما ولدته أمه في الغار ، فلما كبر وخرج دخل المصر ، فأراد أن يعلم على أي مذهب هم وهكذا ينبغي للعاقل إذا دخل بلدة أن يسألهم عن مذهبهم ، فإن وجدهم على الاستقامة ، دخل معهم ، وإن وجدهم على غير الاستقامة ، أنكر عليهم .

فقال لهم إبراهيم : ما تعبدون ؟ ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عاكفين ﴾ أي : نقوم

عليها عابدين ، فأراد أن يبين عيب فعلهم فقال : ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ يعني : هل تجيبكم الآلهة ، سمَّى الإجابة سمعاً ، لأن السمع سبب الإجابة ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ يعني : هل يجيبوكم إذا دعوتموهم ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ إذا عبدتموهم ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ يعني : يضرونكم إن لم تعبدوهم ﴿ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَا ءابَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : وجدنا آباءنا يعبدونهم ، هكذا فنحن نعبدهم .

قال لهم إبراهيم عليه السلام ﴿ قَالَ أَفَرَءيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الإعلام ، يعني : اعلموا أن الذي كنتم تعبدون ﴿ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمُ ﴾ وَأَجْدَادُكُمْ يعني : معبودكم ومعبود آبائكم وأجدادكم ﴿ الاقدمون ﴾ يعني : الماضين ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِى ﴾ يعني : إنهم أعدائي ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ يقال معناه : إلا من يعبد رب العالمين .

ويقال : كانوا يعبدون مع الله الآلهة .

فقال لهم : جميع ما تعبدون من الآلهة ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ، فإنه ليس لي .

(150/570)

ويقال : معناه أتبرأ من أفعالكم وأقوالكم ، إلا الذي تقولون : رب العالمين وهو قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : 87] ويقال : إلا بمعنى لكن ،

ومعناه : فإنهم عدو لي ، لكن رب العالمين ، يعني : لكن أعبد رب العالمين .

ثم وصف لهم رب العالمين فقال : ﴿ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ يعني : يحفظني ويثبتني على الهدى ﴿ والذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ يعني : هو الذي يرزقني ويرحمني .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ فقد أضاف سائر الأنبياء إلى الله تعالى ، وأضاف المرض إلى نفسه ، لأن المرض كسب يده كقوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أصابكم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] وفيه كفارة وإذا كان أصله من كسب نفسه أضافه إلى نفسه ثم قال : ﴿ والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ يعني : يميتني في الدنيا ، ويحييني في المبعث ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ يعني : أرجو أن يغفر خطيئتي ، وهو قوله : ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] ويقال وقوله : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 63] وقوله لسارة : هذه أختي .

(151/570)

ويقال : يعني : ما كان مني الزلل ويقال : هو قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّى هاذا أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّى برىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 78] ويقال ما كان

نبي من الأنبياء إلا وقد همّ بزلة ، ثم قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ يعني : النبوة ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ يعني : بالمرسلين في الجنة ﴿ واجعل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الاخرين ﴾ يعني : الثناء الحسن في الباقين ، وإنما أراد بالثناء الحسن ، لكي يفيدوا به ، فيكون له مثل أجر من اقتدى به ﴿ واجعلنى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ يعني : اجعلني ممن ينزل فيها .

ثم قال : ﴿ واغفر لاِبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ يعني : اهده إلى الحق من الضلالة والشرك .

يعني : إنه كان من المشركين في الحال كقوله عز وجل : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى المهد صَبِيّاً ﴾ [مريم : 29] يعني : من هو في الحال صبي .

ويقال : إنه كان من الضالين حين فارقته كقوله : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين يَعْمَلُونَ فِى البحر فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف : 79] وهذا الاستغفار حين كان وعده بالإسلام .

وقال مقاتل : إن إبراهيم عليه السلام قد كذب ثلاث كذبات ، وأخطأ ثلاث خطيئات ، وابتلي بثلاث بليات ، وسقط سقطة ، فأما الكذبات فقال : ﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] وقوله : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 63] وقوله لسارة حين قال هي أختي .

والخطايا قوله للنجم والشمس والقمر : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّى هاذآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّى برىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : 78] وأما البليات : حين قذف في النار ، والختان والأمر بذبح الولد ، وسقط سقطة حين دعا لأبيه ، وهو مشرك . وقال غيره لم يكذب ولم يخطىء ، ولم يسقط ، لأنه قال : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ يعني : سأسقم ، لأن كل آدمي سيصيبه السقم .

وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ قد قرنه بالشرط ، وهو قوله : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : 63] وقوله لسارة : هي أخته ، فكانت أخته في الدين وقوله : ﴿ هذا رَبِّى ﴾ كان على وجه الاسترشاد لا للتحقيق .

ويقال : كان ذلك القول على سبيل الإنكار والزجر .

يعني : أمثل هذا ربي ، وأما دعاؤه لأبيه ، فعن وعدة وعدها إياه ، وقد بيّن الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] الآية .

يعني : أن أباه وعده أنه سيؤمن ، فما دام حياً يرجو أو يدعو ، وإذا مات ضالاً ترك الاستغفار .

ويقال : إن إبراهيم كان وعده أن يستغفر له حيث قال : ﴿ قَالَ سلام عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ

ربي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 47] ، فَاستغفر له ليكون منجزاً لوعده ثم قال : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ يعني : لا تعذبني يوم يبعثون من قبورهم إلى ها هنا كلام إبراهيم ، وقد انقطع كلامه .

(153/570)

ثم إن الله تبارك وتعالى وصف ذلك اليوم ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ يعني : يوم القيامة لا ينفع المال الذي خلفوه في الدنيا ، وأما المال الذي أنفقوا في الخير ، فليس ينفعهم ، ﴿ وَلاَ بَنُونَ ﴾ يعني : الكفار لأنهم كانوا يقولون : ﴿ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أموالا وأولادا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ : 35] ، فأخبر الله تعالى أنه لا ينفعهم في ذلك اليوم المال ولا البنون ، وأما المسلمون ينفعهم المال والبنون ، لأن المسلم إذا مات ابنه قبله يكون له ذخراً وأجراً في الجنة ، وإن تخلف بعده ، فإنه يذكره بصالح دعائه ، فينفعه ذلك ثم قال : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ يعني : من جاء بقلب سليم يوم القيامة ينفعه المال والبنون .

ويقال : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، فذلك ينفعه ، والقلب السليم هو القلب المخلص .

وقال ابن عباس : يعني : بقلب خالص من الشرك .

وروى أبو أسامة بن عوف قال : قلت لابن سيرين ، ما القلب السليم قال : أن تعلم أن الله عز وجل حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، ويقال : سليم من اعتقاد الباطل .

ويقال : سليم من النفاق والهوى والبدعة .

وسئل أبو القاسم الحكيم عن القلب السليم ، قال له ثلاث علامات ، أولها أن لا يؤذي أحداً ، والثاني أن لا يتأذى من أحد ، والثالث إذا اصطنع مع أحد معروفاً لم يتوقع منه المكافأة ، فإذا هو لم يؤذ أحداً ، فقد جاء بالورع ، وإذا لم يتأذ من أحد ، فقد جاء بالوفاء ، وإذا لم يتوقع المكافأة بالاصطناع ، فقد جاء بالإخلاص .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني : قربت الجنة للمتقين الذين يتقون الشرك والفواحش ، يعني : أن المتقين قربوا من الجنة ثم قال : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ يعني : أظهرت الجحيم ، وكشفت غطاءها للكافرين .

(154/570)

ويقال : يؤتى بها في سبعين ألف زمام ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي يقال للكفار : أين معبودكم الذين كنتم تعبدون من دون الله ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ يعني :

هل يمنعونكم من العذاب ؟ ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ يعني : هل يمتنعون من العذاب ؟ فاعترفوا أنهم لا ينصرونهم ، ولا ينتصرون ، فأمر بهم إلى النار .

ويقال : ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يعني الشياطين ، لأنهم أطاعوها في المعصية ، فكأنهم عبدوها .

قوله عز وجل : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون ﴾ يعني : جمعوا فيها هم والغاوون .

ويقال : فكبكبوا فيها فقدموا من النار هم ، والغاوون يعني : الكفار والآلهة ، والشياطين الذين أغووا بني آدم ، وهذا قول مقاتل ويقال : فكبكبوا فيها يعني : ألقي بعضهم على بعض .

وقال القتبي : الأصل كببوا ، أي ألقوا على رؤوسهم فيها ، فأبدل مكان إحدى الباءين كاف .

وقال الزجاج : هو تكرير الانكباب ، لأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها .

ويقال : جمعوا فيها ومنه حديث جبريل عليه السلام أنه ينزل في كبكبة من الملائكة .

يعني : جماعة من الملائكة عليهم السلام .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ يعني : جمعوا فيها جميعاً ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ يعني : الكفار والأصنام .

ويقال : الكفار والشياطين ويقال : الرؤساء والأتباع .

ومعناه : قالوا وهم يختصمون فيها على ما معنى التقديم ﴿ تالله ﴾ يعني : والله ﴿ إِن كُنَّا لَفِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يعني : في خطأ بين ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ يعني : نطيعكم كما يطيع المؤمنون أمر الله عز وجل : ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ المجرمون ﴾ يعني : ما صرفنا عن الإيمان إلا الشياطين .

(155/570)

ويقال : رؤساؤنا ويقال : آباؤنا المشركون ﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين ﴾ يعني : حيث يرون الأنبياء عليهم السلام يشفعون للمؤمنين والملائكة عليهم السلام يشفعون ولا يشفع أحد للكفار .

فيقولون : ليس أحد يشفع لنا ﴿ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ يعني : قريب يهمه أمرنا .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ يعني : رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ يعني : من المصدقين على دين الإسلام ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ يعني : لعبرة لمن يعبد غير الله ، ليعلم أنه يتبرأ منه في الآخرة ، ولا ينفعه ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : الذين جمعوا في النار ، ولم يكونوا مؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ بالنقمة لمن عبد غيره ﴿ الرحيم ﴾ بالمؤمنين قوله عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ يعني : نوحاً عليه السلام وحده .

ويقال : جميع الأنبياء عليهم السلام ، لأن نوحاً عليه السلام ، دعاهم إلى الإيمان بجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام ، فلما كذبوه ، فقد كذبوا جميع الرسل ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ يعني : نبيهم سماه أخوهم ، لأنه كان منهم وابن أبيهم ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ يعني : ألا تخافون الله تعالى فتوحدوه ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فيما بينكم وبين ربكم ، وجعلني الله عز وجل أميناً في أداء الرسالة إليكم .

ويقال : إنه كان أميناً فيهم قبل أن يبعث ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ أي : خافوا الله واتبعوني فيما أمركم به ﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ يعني : على الإيمان مِنْ أَجْرٍ أي أجر ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ يعني : ما ثوابي ﴿ إِلاَّ على رَبِّ العالمين فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ وقد ذكرناه .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ يعني : أنصدقك واتبعك سفلتنا ويقال : الضعفاء .

(156/570)

قرأ يعقوب الحضرمي وأتباعك الأرذلون ، وهو جمع تابع ومعناه : وأتباعك الأرذلون ، وقراءة العامة ﴿ واتبعك الارذلون ﴾ بلفظ الماضي .

فيقال : من اتبع قال لهم نوح ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : ما كنت أعلم أن الله تعالى يهديهم من بينكم ويدعكم ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على ربّى ﴾ يعني : ما حسابهم إلا على ربي .

ويقال : ما سرائرهم إلا عند ربي ﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أن الله تعالى علام الغيوب قالوا لنوح : اطردهم حتى نؤمن لك .

(157/570)

قال لهم نوح : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعني : ما أنا إلا منذر لكم بلغة تعرفونها ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ أي من المقتولين ويقال من المرجومين بالحجارة قوله عز وجل : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾ بالعذاب والتوحيد ﴿ فافتح بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ يعني : اقض بيني وبينهم قضاء ويقال للقاضي فتاح ، وهذه لغة أهل اليمن ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِى مِنَ المؤمنين ﴾ من العذاب ومن أذى الكفار ﴿ فأنجيناه وَمَن مَّعَهُ فِى الفلك المشحون ﴾ يعني : السفينة المملوءة الموقرة من الناس ، والأنعام ، وغير ذلك ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقين ﴾ يعني : من بقي ممن لم يركب السفينة ، ولفظ البعد والقبل إذا كان بغير إضافة يكون بالرفع مثل قوله : ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ

لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون ﴾ [الروم : 4] وكقوله : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقين ﴾ وإذا كانت بالإضافة يكون نصباً في موضع النصب كقوله : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظالمة وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنبياء : 11] ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ يعني : لعبرة لمن استخف بفقراء المسلمين واستكبر عن قول الحق ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ فلم يؤمن من قومه إلاَّ ثمانون من الرجال والنساء ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ بالنقمة لمن تعظم عن الإيمان ، واستخف بضعفاء المسلمين ، واستهزأ بهم ﴿ الرحيم ﴾ لمن تاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 555 . 561 ﴾

(158/570)

وقال الثعلبى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ﴾

يتبعكم فرعون وقومه .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن لؤلؤ قال : أخبرنا الهيثم بن خلف قال : حدّثنا الدورقي عن حجاج بن جريج في هذه الآية قال : أوحى الله سبحانه الى موسى أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أهل أبيات في بيت ، ثم اذبحوا أولاد الضّأن فاضربوا بدمائها على

أموالكم فإنّي سآمر الملائكة فلا تدخل بيتاً على بابه دم ، وسآمرها فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وأموالهم ، ثم اخبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ، ثم أسرِ بعبادي حتى ينتهي إلى البحر فيأتيك أمري ففعل ذلك ، فلمّا اصبحوا قال فرعون : هذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا من أنفسنا وأموالنا ، فأرسل في أمره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر مع كل ملك ألف ، وخرج فرعون في الكرسي العظيم .

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ يعني الشرط ليجمعوا السحرة وقال لهم : إن هؤلاء ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾ عصبة ، وشرذمة كل شيء بقيّته القليلة ، ومنه قول الراجز :

جاء الشتاء وقميصي أخلاق . . . شراذم يضحك منه التواق

قال ابن مسعود : كان هؤلاء الشرذمة ستّمائة وسبعون ألفاً .

وأخبرنا أبو بكر الخرمي قال : أخبرنا أبو حامد الأعمش قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن عبد الله بن المبارك المخرمي قال : حدّثنا يحيى بن آدم قال : حدّثنا إسحاق عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي في هذه الآية قال : كان أصحاب موسى ستّمائة ألف .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ يعني أعداء ، لمخالفتهم ديننا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها ، وخروجهم من أرضنا بغير اذن منّا .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ قرأ النخعي والأسود بن يزيد وعبيد بن عمر وسائر قرّاء

الكوفة وابن عامر والضحاك حاذرون بالألف وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس واختيار أبي عبيد ، وقرأ الآخرون حذرون بغير ألف وهما لغتان .

(159/570)

وقال قوم : حاذرون : مؤدّون مقرّون ، شاكون في السلاح ، ذوو أرادة قوّة وكراع وحذرون : فَرِقون متيقظون ، وقال الفرّاء : كأن الحاذر الذي يحذرك ، والحذِر المخلوق حذر ألاّ يلقاه إلاّ حذراً ، والحذر اجتنابُ الشيء خوفاً منه .

وقرأ شميط بن عجلان : حادرون بالدال غير معجمة ، قال الفرّاء : يعني عظاماً من كثرة الأسلحة ، ومنه قيل للعين العظيمة : حدرة وللمتورّم : حادر . قال امرؤ القيس :

وعين لها حدرة بدرة . . . وسقت ماآقيها من أُخر

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ ﴾ قال مجاهد : سمّاها كنوزاً لأنها لم تنفق في طاعة الله سبحانه ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ومجلس حسن ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما وصفنا ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ بهلاكهم ﴿ بني إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ فلحقوهم في وقت إشراق الشمس وهو إضاءتها ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان ﴾ أي تقابلا بحيث يرى كل فريق منهما صاحبه ، وكسر يحيى والأعمش وحمزة وخلف الراء تراءى الباقون بالفتح .

﴿ قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ لملحقون ، وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير لمدّركون بتشديد الدال والاختيار قراءة العامة كقوله ﴿ حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ [يونس : 90] .

﴿ قَالَ ﴾ موسى ثقة بوعد الله ﴿ كَلاَّ ﴾ لا يدركونكم ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ طريق النجاة ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾ .

(160/570)

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين الضنجوي قال : أخبرنا محمد بن الحسين بن علي اليقطيني قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله العقيلي قال : حدّثنا صفوان بن صالح قال : حدّثنا الوليد قال : حدّثني محمد بن حمزة وعبد الله بن سلام أنّ موسى لمّا انتهى الى البحر قال : يا مَن قبل كلّ شيء ، والمكوّن لكلّ شيء ، والكائن بعد كلّ شيء ، اجعل لنا مخرجاً ، فأوحى الله سبحانه أن اضرب بعصاك البحر ﴿ فانفلق ﴾ فانشقّ ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ فرقة أي قطعة من الماء ﴿ كالطود العظيم ﴾ كالجبل الضخم .

قال ابن جريج وغيره : لما انتهى موسى الى البحر هاجت الريح ، والبحر يرمي موجاً مثل الجبال فقال له يوشع : يا مكلّم الله أين أُمرت فقد غشينا فرعون ، والبحر أمامنا ؟ قال

موسى : ههنا فخاض يوشع الماء وحار البحر يتوارى حتى أقرّ دابته الماء ، وقال الذي يكتم إيمانه : يا مكلّم الله أين أُمرت ؟ قال : ههنا فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقته ، ثم أقحمه البحر فارتسب الماء ، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدرو ، فجعل موسى لا يدري كيف يصنع فأوحى الله سبحانه أن اضرب بعصاك البحر فضربه بعصاه فانفلق ، فإذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل لبده ولا سرجه .

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين ﴾ يعني قوم فرعون يقول قرّبناهم الى الهلاك وقدّمناهم الى البحر .

﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ فرعون وقومه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

قال مقاتل : لم يؤمن من أهل مصر غير آسية امرأة فرعون وخربيل المؤمن ومريم بنت موساء التي دلّت على عظام يوسف .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ .

﴿ واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ .

قال بعض العلماء : إنّما قالوا : فنظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل .

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ قراءة العامة بفتح الياء أي : هل يَسمعون دعاءكم ، وقرأ قتادة يُسمعونكم بضم الياء ﴿ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وفي هذه الآية بيان أنَّ الدين إنما يثبت بالحجة وبطلان التقليد فيه .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأقدمون ﴾ الأولون ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ وأنا منهم بريء ، وإنما وحّد العدو لأن معنى الكلام : فإنّ كل معبود لكم عدوّ لي لو عبدتهم يوم القيامة ، كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] .

وقال الفرّاء : هو من المقلوب أراد فإنّي عدو لهم لأنّ مَن عاديَته عاداك .

ثم قال ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ نصب بالاستثناء يعني فإنهم عدو لي وغير معبود لي إلاّ ربّ العالمين فإنّي أعبده ، قاله الفرّاء ، وقيل : هو بمعنى لكن ، وقال الحسن بن الفضل : يعني الأمر عند رب العالمين .

ثم وصفه فقال ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أخبر أن الهادي على الحقيقة هو الخالق لا هادي غيره .

قال أهل اللسان : الذي خلقني في الدنيا على فطرته فهو يهديني في الآخرة إلى جنته .

﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ يعني يرزقني ويربيني .

وقال أبو العباس بن عطاء : يعني يطعمني أيّ طعام شاء ، ويسقيني أيّ شراب شاء .

قال محمد بن كثير العبدي : صحبت سفيان الثوري بمكة دهراً فكان يستف من السبت الى السبت كفّاً من رمل .

(162/570)

وسمعت أبا القاسم بن حبيب يقول : سمعت أبا الحسن محمد بن علي بن الشاه يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن علي بن حمدان يقول : سمعت الحجاج بن عبد الكريم يقول : خرجت من بلخ في طلب إبراهيم بن أدهم فرأيته بحمص في أتون يسجّرها فسلّمت عليه وسألته عن حاله ، فردّ عليَّ السلام وسألني عن حالي وحال أقربائه ، فكنت معه يومه ذلك فقال : لعلّ نفسك تنازعك الى شيء من طعام ؟ فقلت : نعم فأخذ رماداً وتراباً فخلطهما وأكلهما ثمّ أقبل بوجهه عليَّ وانشأ يقول :

اخلط الترب بالرماد وكُلْه . . . وازجر النفس عن مقام السؤالِ

فإذا شئت ان تقبّع بالذلّ . . . فرم ما حوته أيدي الرجال

فخرجت من عنده فمكثت أياماً لم أدخل عليه فاشتدّ شوقي إليه ، فدخلت عليه وكنت

عنده فلم يتكلّم بشيء فقلت له : لِمَ لا تكلّم ؟ فقال :

مُنع الخطاب لأنه سبب الردى . . . والنطق فيه معادن الآفاتِ

فإذا نطقتَ فكن لربّك ذاكراً . . . وإذا سكتَّ فعدّ جسمك مات

قال أبو بكر الوراق : يطعمني بلا طعام ويسقيني بلا شراب ، ومجازها : يشبعني ويرويني من غير علاقة ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم :

" إنّي أبيت يطعمني ربّي ويسقيني " . يدلّ عليه حديث السقاء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حيث سمع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام يقرأ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرض إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ فرمى بقربته ، فأتاه آت في منامه بقدح من شراب الجنّة فسقاه .

قال أنس : فعاش بعد ذلك نيّفاً وعشرين سنة لم يأكل ولم يشرب على شهوته .

وقال علي بن قادم : كان عبد الرَّحْمن بن أبي نعم لا يأكل في الشهر إلاّ مرّة ، فبلغ ذلك الحجاج فدعاه وأدخله بيتاً وأغلق عليه بابه ثم فتحه بعد خمسة عشر يوماً ولم يشكّ أنّه مات فوجده قائماً يصلّي فقال : يا فاسق تُصلّي بغير وضوء فقال : إنّما يحتاج الى الوضوء مَن يأكل ويشرب ، وأنا على الطهارة التي أدخلتني عليها هذا البيت .

(163/570)

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد النيسابوري يقول : سمعت أبا نصر منصور بن عبد الله الاصبهاني يقول : سمعت أبا سعيد الخزاز بمكة يقول : كنت بطرسوس جائعاً ، فاشتدَّ بي الجوع فجلست على شاطئ النهر ووضعت رجلي في الماء فنوديت : أضجرت من جوعك ؟ هاك شبع الأبد .

قال : فعاش بعده سنين لم يشته طعاماً ولا شراباً ، وكان مع ذاك إذا أراد الأكل والشرب أمكنه .

وبلغني أنّ امرأة اسرت من حلب الى الروم في أيام سيف الدولة علي بن حمدان ، فهربت منهم ومشت مائتي فرسخ لم تطعم شيئاً ، فقدمت الى سيف الدولة فقال لها : كيف قويت على المشي وكيف عشت بلا طعام ؟

فقالت : كنتُ كلّما جعت أو أعييت أقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] ثلاث مرّات فأشبع وأروى وأقوى .

وسمعت أبا القاسم ؟ يقول : سمعت أبا القاسم النصرآبادي يقول : سمعت أبا بكر الشبلي يقول : في الخبز لطيفة تشبعك لا الخبز ، ولو شاء لأبقى فيك تلك اللطيفة حتى لا تحتاج الى الخبز .

وقال ذو النون المصري : يطعمني طعام المحبّة ويسقيني شراب المحبّة . ثم أنشأ يقول :

شراب المحبّة خير الشراب . . . وكلّ شراب سواه سراب

وسمعت ابن حبيب يقول : سمعت أبا عبد الله محمد بن عبيد الله الجرجاني يقول : سمعت الحسن بن علوية الدامغاني يقول : سمعت عمّي يقول : سمعت أبا يزيد البسطامي يقول : إنَّ لله شراباً يقال له شراب المحبّة ادّخرهُ لأفاضل عباده ، فإذا شربوا سكروا ، فإذا سكروا طاشوا ، فإذا طاشوا طاروا ، فإذا طاروا وصلوا ، فإذا وصلوا اتصلوا ، فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقال الجنيد : يُحشر الناس كلّهم عراة إلاّ من لبس لباس التقوى ، وغراثاً إلاّ من أكل طعام المعرفة ، وعطاشى إلاّ من شرب شراب المحبّة .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ أضاف إبراهيم (عليه السلام) المرض الى نفسه وإن كان من الله سبحانه ؛ لأنّ قومه كانوا يعدّونه عيباً فاستعمل حسن الأدب ، نظيرها قصة الخضر حيث قال

(164/570)

﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف : 79] وقال ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ [الكهف : 82] .

﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ يبرئني

يحكى أنّ أبا بكر الورّاق مرّ بطبيب يعطي الناس الأدوية فوقف عليه وقال : أيفعل دواؤك هذا أمرين ؟

قال : وما هما ؟

فقال : ردّ قضاء قاض وجرّ شفاء شاف ؟

فقال : لا

قال : فليس [ذلك بشيء] .

وقال جعفر الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفاني بالتوبة .

سامر بن عبد الله : إذا أمرضتني مقاساة الخلق شفاني بذكره والأُنس به . ﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أدخل ههنا ﴿ ثُمَّ ﴾ للقطع والتراخي .

قال أهل اللسان والاشارة : يميتني بالعدل ويحييني بالفضل ، يميتني بالمعصية ويحييني بالطاعة ، يميتني بالفراق ويحييني بالتلاقي ، يميتني بالخذلان ويحييني بالتوفيق ، يميتني غنىً ويحييني به ، يميتني بالجهل ويحييني بالعلم .

﴿ والذي أَطْمَعُ ﴾ أرجو ﴿ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ قراءة العامّة بالتوحيد .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش قال : حدّثنا أبا القاسم بن الفضل قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا أحمد بن يزيد قال : حدّثنا روح عن أبي اليقظان قال : حدّثنا الحكم السلمي قال : سمعت الحسن يقرأ " والذي أطمع أن يغفر لي خطاياي يوم الدين " .

قال : إنّها لم تكن خطيئة ولكن كانت خطايا .

قال مجاهد ومقاتل : هي قوله ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] وقوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 63] وقوله لسارة (هي أُختي) زاد الحسن ، وقوله للكواكب ﴿ هذا رَبِّي ﴾ [الأنعام : 76-78] .

(165/570)

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين قال : حدّثنا أحمد بن إبراهيم بن شاذان قال : حدّثنا عبيد الله بن ثابت الحريري قال : حدّثنا أبو سعيد الأشج قال : حدّثنا أبو خالد عن داود عن الشعبي " عن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله إنّ عبد الله بن جدعان كان يقري الضيف ويصل الرحم ويفكّ العاني ، فهل ينفعه ذلك ؟

قال : لا ، لأنّه لم يقل يوماً قطّ : اغفر لي خطيئتي يوم الدين . "

وهذا الكلام من إبراهيم (عليه السلام) احتجاج على قومه وإخبار أنّه لا يصلح للإلهية إلاّ من فعل هذه الأفعال .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ﴾ وهو البيان على الشيء على ما توجبه الحكمة ، وقال مقاتل : فهماً وعلماً ، والكلبي : النبوّة .

﴿ وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ بمن قبلي من النبيين في الدرجة والمنزلة . وقال ابن عباس : بأهل الجنة .

﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ أي ذكراً جميلاً وثناءً حسناً وقبولاً عاماً في الأُمم التي تجيء بعدي ، فأعطاه الله سبحانه وتعالى ذلك ، فكلّ أهل الأديان يتولّونه ويبنون عليه .

قال القتيبي : ووضع اللسان موضع القول على الاستعارة ؛ لأن القول يكنى بها ، والعرب تسمّي اللغة لساناً . وقال أعشى باهله :

إنّي أتتني لسان لا أُسرُّ بها . . . من علو لا عجب منها ولا سخر

﴿ واجعلني مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم * واغفر لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالّين ﴾ وقد بيّنا المعنى الذي من أجله استغفر إبراهيم (عليه السلام) لأبيه في سورة التوبة بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع .

﴿ وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ خالص من الشرك والشك ، فأمّا الذنوب فليس يسلم منها أحد هذا قول أكثر المفسّرين .

وقال سعيد بن المسيّب : القلب السليم هو الصحيح ، وهو قلب المؤمن لأنّ قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله سبحانه ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : 10] .

وقال أبو عثمان النيسابوري : هو القلب الخالي من البدعة ، المطمئن على السنّة .

وقال الحسين بن الفضل : سليم من آفة المال والبنين .

وقال الجنيد : السليم في اللغة اللديغ فمعناه : كاللّديغ من خوف الله .

﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾ وقُرّبت ﴿ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرِّزَتِ ﴾ وأُظهرت ﴿ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ للكافرين ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ لأنفسهم ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ .

قال ابن عباس : جمعوا ، مجاهد : ذهبوا ، مقاتل : قذفوا ، وأصله كببوا فكررت الكاف فيه مثل قولك : تهنهني وريح صرصر ونحوهما .

﴿ هُمْ والغاوون ﴾ يعني الشياطين ، عن قتادة ومقاتل ، الكلبي : كَفَرة الجن .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ وهم أتباعه ومن أطاعهُ من الجن والإنس قالوا للشياطين والمعبودين ﴿ تاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم ﴾ نعدلكم ﴿ بِرَبِّ العالمين ﴾ فنعبدكم من دونه ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ ﴾ أي دعانا إلى الضلال وأمرنا به ﴿ إِلَّا المجرمون ﴾ يعني الشياطين ، عن مقاتل ، والكلبي : أوّلونا الذين اقتدينا بهم ، أبو العاليه وعكرمة : يعني

إبليس وابن آدم القاتل ؛ لأنه أوّل مَن سنَّ القتال وأنواع المعاصي .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ قريب ينفعنا ويشفع لنا ، وذلك حين يشفع الملائكة والنبيّون والمؤمنون .

(167/570)

أخبرني الحسين بن محمد الفنجوي قال : حدّثنا محمد بن الحسين بن علي اليقطيني قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله بن يزيد العقيلي قال : حدّثنا صفوان بن صالح قال : حدّثنا الوليد بن مسلم قال : حدّثنا من سمع أبا الزبير يقول : أشهد لسمعت جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنَّ الرجل ليقول في الجنة : ربّ ما فعل صديقي فلان وصديقه في الحميم ؟ فيقول الله سبحانه : أخرجوا له صديقه الى الجنة فيقول مَنْ بقي ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا سمعان بن أبي مسعود قال : حدّثنا المضّاء بن الجارود قال : حدّثنا صالح المرّي عن الحسن قال : ما اجتمع ملأ على ذكر الله تعالى فيهم عبد من أهل الجنة إلاّ شفّعه الله فيهم وإنّ أهل الإيمان شفعاء بعضهم في بعض ، وهم عند الله شافعون مشفّعون .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ رجعة الى الدنيا تمنّوا حين لم ينفعهم ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ادخلت ألتاء للجماعة كقوله ﴿ قَالَتِ الأعراب ﴾ [الحجرات : 14] .

﴿ المرسلين ﴾ يعني نوحاً وحده كقوله ﴿ يا أيها الرسل ﴾ [المؤمنون : 51] .

وأخبرني أبو عبد الله الدينوري قال : حدّثنا أبو عليّ المقري قال : حدّثنا أبو عبيد علي بن الحسين بن حرب قال : حدّثنا الحسن بن محمد الصباح قال : حدّثنا عبد الوهاب عن إسماعيل عن الحسين قال : قيل له : يا أبا سعيد أرأيت قوله عزّ وجل ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ و ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] و ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾ [الشعراء : 141] وانّما أرسل إليهم رسولاً واحداً ؟

(168/570)

قال : انّ الآخر جاء بما جاء به الأوّل ، فإذا كذّبوا واحداً فقد كذّبوهم أجمعين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ ﴾ في النسبة لا في الدين ﴿ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على الوحي ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ

العالمين * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك ﴾ قراءة العامة ، وقرأ يعقوب : وأتباعك ﴿ الأرذلون ﴾ يعني السفلة عن مقاتل وقتادة والكلبي . ابن عباس : الحاكة .

وأخبرني الحسين بن محمد الفنجوي قال : حدّثنا محمد بن الحسين الكعبي قال : حدّثنا حسين بن مزاحم عن ابن عباس في قول الله سبحانه ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ قال : الحاكة ، عكرمة : الحاكة والأسالفة .

﴿ قَالَ ﴾ نوح ﴿ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ إنما لي منهم ظاهر أمرهم ، وعليَّ أن أدعوهم وليس عليّ من خساسة أحوالهم ودناءة مكاسبهم شيء ، ولم أُكلّف ذلك إنّما كُلّفت أن أدعوهم .

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ وقيل : معناه أي لم أعلم أنّ اللّه يهديهم ويضلكم ، ويوفّقهم ويخذلكم .

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ المؤمنين * إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يا نوح ﴾ عمّا تقول وتدعو إليه ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ يعني المشؤومين عن الضحّاك ، قتادة : المضروبين بالحجارة .

قال ابن عباس ومقاتل : من المقتولين .

الثمالي : كلّ شيء في القرآن من ذكر المرجومين فإنّه يعني بذلك القتل إلاّ التي في سورة مريم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ ﴾ [مريم : 46] فإنّه يعني لاشتمنّك .

(169/570)

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فافتح ﴾ فاحكم ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ المؤمنين * فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك المشحون ﴾ يعني الموقّر المجهّز عن ابن عباس . مجاهد : المملوء ، المفروغ منه ، عطاء : المُثقل ، قتادة : المُحمل .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقين * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 164.174 ﴾

(170/570)

وقال الزمخشري :

﴿ وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52) ﴾

قرئ : أسر ، بقطع الهمزة ووصلها . وسر إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم . والمعنى : أني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدّموا ويتبعوكم ، حتى يدخلوا مدخلكم ، ويسلكوا مسلككم من طريق البحر ، فأطبقه عليهم فأهلكهم .

وروى :

أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد ، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه .

وروى : أنّ اللّه أوحى إلى موسى : أن اجمع بنى إسرائيل ، كل أربعة أبيات في بيت ، ثم اذبحوا الجداء «1» واضربوا بدمائها على أبوابكم ، فإنى سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتا على بابه دم ، وسآمرهم بقتل أبكار القبط ، واخبزوا خبزا فطيرا «2» فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمرى ، فأرسل فرعون في أثره ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسوّر ، مع كل ملك ألف ، وخرج فرعون في جمع عظيم ، وكانت مقدّمته سبعمائة ألف : كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث ، فلذلك استقل قوم موسى عليه السلام وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفا ، وسماهم شرذمة قليلين إِنَّ هؤُلاءِ محكي بعد قول مضمر . والشرذمة : الطائفة القليلة . ومنها قولهم :

ثوب شراذم ، للذي يلي وتقطع قطعا ، ذكرهم بالاسم الدال على القلة . ثم جعلهم قليلا بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا ، واختار جمع السلامة الذي هو للقلة «3» ، وقد يجمع

---

(1) . قوله «ثم اذبحوا الجداء» في الصحاح «الجدى» من ولد المعز . وثلاثة أجد . فإذا

كثرت فهي الجداء . (ع)

(2) . قوله «و اخبزوا خبزا فطيرا» في الصحاح «الفطير» : خلاف الخمير ، وكل شيء أعجلته عن إدراكه فهو فطير . (ع)

(3) . قال محمود : «و قللهم من أربعة أوجه : عبر عنهم بالشرذمة وهي تفيد القلة ، ثم وصفهم بالقلة ، وجمع وصفهم ليعلم أن كل ضرب منهم قليل ، واختار جمع السلامة ليفيد القلة» قال أحمد : ووجه آخر في تقليلهم يكون خامسا :

وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد ، قد يكون مبالغة في لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به ، كقولهم : معا زيد جياع ، مبالغة في وصفه بالجوع ، فكذلك ها هنا جمع قليلا ، وكان الأصل إفراده فيقال : لشرذمة قليلة ، كما أفرد في قوله كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة ، لكن يبقى النظر في أن هذا السر يبقى الوجوه المذكورة على ما هي عليه ، أو يسقط منها شيئا ويخلفه ، فتأمله والله الموفق .

(171/570)

القليل على أقلة وقلل «1» . ويجوز أن يريد بالقلة : الذلة والقماءة ، ولا يريد قلة العدد .

والمعنى :

أنهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور ، فإذا خرج علينا خارج ، سارعنا إلى حسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن ، لئلا يظنّ به ما يكسر من قهره وسلطانه . وقرئ : حذرون وحاذرون وحادرون «2» ، بالدال غير المعجمة . فالحذر :

اليقظ ، والحاذر : الذي يجدّد حذره . وقيل : المؤدى في السلاح ، وإنما يفعل ذلك حذرا واحتياطا لنفسه . والحادر : السمين القوى . قال :

أحبّ الصّبىّ السوء من أجل أمّه وأبغضه من بغضها وهو حادر «3»

أراد أنهم أقوياء أشداء . وقيل مدججون في السلاح ، قد كسبهم ذلك حدارة في أجسامهم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 57 إلى 60]

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (58) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60)

وعن مجاهد : سماها كنوزا لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة اللّه . والمقام : المكان ، يريد : المنازل الحسنة والمجالس البهية . وعن الضحاك : المنابر . وقيل السر في الحجال «4» كَذلِكَ يحتمل ثلاثة أوجه : النصب على أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه .

والجر على أنه وصف لمقام، أى: مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم. والرفع على أنه خبر لمبتدإ محذوف، أى: الأمر كذلك. فَأَتْبَعُوهُمْ فلحقوهم. وقرئ: فاتبعوهم مُشْرِقِينَ داخلين في وقت الشروق، من شرقت الشمس شروقا إذا طلعت.

[سورة الشعراء (26): الآيات 61 إلى 68]

فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

---

(1). قوله «و قد يجمع القليل على أقلة وقلل» في الصحاح: مثل سرير وسرر. (ع)

[.....]

(2). قوله «و قرئ حذرون وحاذرون وحادرون» في الصحاح: وقرئ: وإنا لجميع حاذرون. وحذرون. وحذرون، أيضا بضم الذال، حكاه الأخفش. ومعنى «حاذرون» متأهبون. وفيه: آد الرجل، أى قوى، من الأداة، فهو مؤد بالهمز، أى: شاك في السلاح. وفيه آديت السفر فأنا مؤد له، إذا كنت متهيئا له. (ع)

(3). الحادر: القوى الشديد، أو الشجاع الباسل، أى: إن مدار حب الولد على حب

أمه ، لا على حسن أوصافه وضمير «أبغضه» عائد على الصبى بدون وصفه ، لكن هذه شيمة المنهمك في حب النساء .

(4) . قوله «و قيل السر في الحجال» السر : الجماع ، والحجال : جمع حجلة وهي بيت العروس يزين بالثياب والأسرة والستور ، كذا في الصحاح . (ع)

(172/570)

سَيَهْدِينِ طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم . وقرئ ، فلما تراءت الفئتان . إنا لمدّركون : بتشديد الدال وكسر الراء ، من ادّرك الشيء إذا تتابع ففنى . ومنه قوله تعالى بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ قال الحسن : جهلوا علم الاخرة . وفي معناه بيت الحماسة :

أبعد بنى أمّى الّذين تتابعوا أرجّى الحياة أم من الموت أجزع «1»

والمعنى : إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم ، حتى لا يبقى منا أحد . الفرق : الجزء المتفرّق منه .

وقرئ : كل فلق . والمعنى واحد . والطود : الجبل العظيم «2» المنطاد في السماء وَأَزْلَفْنا ثَمَّ حيث انفلق البحر الْآخَرِينَ قوم فرعون ، أى : قربناهم من بنى إسرائيل : أو أدنينا بعضهم من بعض ، وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد ، أو قدمناهم إلى البحر . وقرئ :

وأزلقنا ، بالقاف ، أى : أزللنا أقدامهم . والمعنى : أذهبنا عزهم ، كقوله :

تداركتما عبسا وقد ثلّ عرشها وذبيان إذ زلّت بأقدامها النّعل «3»

---

(1) أبعد بى أمى الذين تتابعوا أرجى حياة أم من الموت أجزع

ثمانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع

أولئك إخوان الصفاء رزئتهم وما الكف إلا أصبع ثم أصبع

لأبى الحناك البراء ربعي الفقعسي ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والمراد التحسر والتحزن ، وتتابعوا أى انقرضوا واحدا بعد واحد . أرحى : أى أرتجى حياة أم أجزع من الموت ، أى : لا أفعل ذلك بعدهم وقال : بى أمى ، لأن المقام مقام رقة ورحمة ، فهم ثمانية كانوا رؤساء قومهم ، كالذؤابة الرأس ، وهي شعرها الذي يتحرك حولها ، فهو تشبيه بليغ ، ثم قال : كنت بهم أفعل ما أريد من الإعطاء والمنع . ويجوز بناء الفعلين للمجهول ، فالمعنى : كنت بهم أنال ما أشاء وأكفى شر ما أشاء ، ورزأته أصبته في ماله . ورزأته ماله . ورزأتهم : مبنى للمجهول ، أى : نقصني الدهر إياهم وأخذهم منى ، فلا قوة لي بعدهم ، كما أن الكف إذا فقدت أصابعها بطلت قوتها ، لأن بطشها ليس إلا بالأصابع منتظمة مرتبة ، فهم لي كالأصابع للكف .

(2) . قوله «و الطود الجبل العظيم المنطاد في السماء» في الصحاح «طود في الجبال» : مثل طوف وطوح . والمطاود مثال المطاوح . (ع)

(3) . لزهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف . وعبس وذبيان كلاهما اسم قبيلة .

يقول : تداركتما هاتين القبيلتين بالصلح بينهما ودفع ديات قتلاهم ، وقد ثل : أى هدم عرشها . وهذا تمثيل لذهاب عزهم وفناء دولتهم .

وزلت النعل بالقدم : زلقت عن مقرها ، وهذا أيضا تمثيل لاختلال أمرهم وفساد رأيهم .

وفي البيت شبه الطباق ، حيث أن الأولى أتاها العذاب من فوق رءوسها ، والثانية : أتاها من تحت أرجلها

(173/570)

ويحتمل أن يجعل اللّه طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبنى إسرائيل يبسا فيزلقهم فيه . عن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون ، فكان يقول لبنى إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم . ويستقبل القبط فيقول : رويدكم يلحق آخركم . فلما انتهى موسى إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون – وكان بين يدي موسى : أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون ؟ قال : أمرت بالبحر ولا يدرى موسى ما يصنع ، فأوحى اللّه تعالى إليه : أن اضرب بعصاك البحر . فضربه فصار فيه اثنا عشر طريقا : لكل سبط طريق .

وروى أنّ يوشع قال : يا كليم اللّه ، أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا ؟ قال موسى :

هاهنا . فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا . وروى أنّ موسى قال عند ذلك :

يا من كان قبل كل شيء ، والمكوّن لكل شيء ، والكائن بعد كل شيء . ويقال : هذا البحر هو بحر القلزم . وقيل : هو بحر من وراء مصر ، يقال له : أساف إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً أية آية ، وآية لا توصف ، وقد عاينها الناس وشاع أمرها فيهم ، وما تنبه عليها أكثرهم ، ولا آمن باللّه . وبنو إسرائيل : الذين كانوا أصحاب موسى المخصوصين بالإنجاء قد سألوه بقرة يعبدونها ، واتخذوا العجل ، وطلبوا رؤية اللّه جهرة وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ المنتقم من أعدائه الرَّحِيمُ بأوليائه .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 69 إلى 71]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (70) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (71)

كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم أنّ ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء ، كما تقول للتاجر : ما مالك ؟ وأنت تعلم أنّ ماله الرقيق ، ثم تقول له : الرقيق جمال وليس بمال . فإن قلت : ما تَعْبُدُونَ سؤال عن المعبود فحسب ،

فكان القياس أن يقولوا : أصناما ، كقوله تعالى وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ ، ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً . قلت : هؤلاء قد جاءوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب إبراهيم ، وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار . ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم نعبد فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده . ومثاله أن تقول لبعض الشطار : ما تلبس في بلادك ؟ فيقول :

(174/570)

ألبس البرد الأتحمى «1» ، فأجرّ ذيله بين جواري الحي . وإنما قالوا : نظل ، لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 72 إلى 73]

قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)

لا بد في يَسْمَعُونَكُمْ من تقدير حذف المضاف ، معناه : هل يسمعون دعاءكم . وقرأ قتادة : يسمعونكم ، أى : هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم ؟ وهل يقدرون على ذلك ؟ وجاء مضارعا مع إيقاعه في إذ على حكاية الحال الماضية . ومعناه : استحضروا الأحوال

الماضية التي كنتم تدعونها فيها ، وقولوا هل سمعوا أو أسمعوا قط . وهذا أبلغ في التبكيت .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 74 إلى 82]

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82)

لما أجابوه بجواب المقلدين لآبائهم قال لهم : رقوا أمر تقليدكم هذا إلى أقصى غاياته وهي عبادة الأقدمين الأوّلين من آبائكم ، فإن التقدّم والأوّلية لا يكون برهانا على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقا بالقدم ، وما عبادة من عبد هذه الأصنام إلا عبادة أعداء له ، ومعنى العداوة قوله تعالى كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ولأنّ المغرى على عبادتها أعدى أعداء الإنسان وهو الشيطان ، وإنما قال عَدُوٌّ لِي تصويرا للمسألة في نفسه ، على معنى :

أنى فكرت في أمرى فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ ، فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسه أوّلا وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا :

ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ، ليكون أدعى لهم

إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه . ولو قال : فإنه عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل في باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمّل فيه ،

---

(1) . قوله «البرد الأتحمى» في الصحاح «الأتحمي» : ضرب من البرود . (ع)

فربما قادة التأمّل إلى التقبل . ومنه ما يحكى عن الشافعيّ رضى اللّه تعالى عنه أنّ رجلا واجهه بشيء فقال : لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى أدب ، وسمع رجل ناسا يتحدثون في الحجر فقال : ما هو ببيتى ولا بيتكم . والعدوّ والصديق : يجيئان في معنى الوحدة والجماعة . قال :

وقوم عليّ ذوى مرّة أراهم عدوّا وكانوا صديقا «1»

ومنه قوله تعالى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ شبها بالمصادر للموازنة ، كالقبول والولوع ، والحنين والصهيل إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ استثناء منقطع ، كأنه قال : ولكن رب العالمين فَهُوَ يَهْدِينِ يريد أنه حين أتمّ خلقه ونفخ فيه الروح ، عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كلّ ما يصلحه ويعنيه ، وإلا فمن هداه إلى أن يغتذى بالدم في البطن امتصاصا ، ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة ، وإلى معرفة مكانه ، ومن هداه لكيفية الارتضاع ، إلى غير ذلك من هدايات المعاش

والمعاد ، وإنما قال مَرِضْتُ دون «أمرضني» لأنّ كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه «2» وغير ذلك . ومن ثم قالت الحكماء : لو قيل لأكثر الموتى : ما سبب آجالكم ؟ لقالوا : التخم . وقرئ : خطاياي ، والمراد : ما يندر منه من بعض الصغائر ، لأنّ الأنبياء معصومون مختارون على العالمين . وقيل : هي قوله إِنِّي سَقِيمٌ وقوله بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ وقوله لسارّة : هي أختي . وما هي إلا معاريض كلام ، وتخييلات للكفرة ، وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار . فإن قلت : إذا لم يندر منهم إلا الصغائر وهي

---

(1) . المرة : القوة ، وشدة الجدال ، ويروى : ذوى مبرة ، أى : عداوة أو فخر أو شدة . والعدو والصديق يجيئان للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع . يقول : ورب قوم أصحاب قوة على ، أراهم اليوم أعداء وكانوا أصدقاء .

(2) . قال محمود : «إنما أضاف المرض إلى نفسه لأن كثيرا منه بتفريط الإنسان في مطعمه ومشربه» قال أحمد :

والذي ذكره غير الزمخشري أن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع اللّه تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى ، ولعل الزمخشري إنما عدل عن هذا لأن إبراهيم عليه السلام قد أضاف الإماتة إلى اللّه تعالى وهي أشد من المرض ، فلم يثبت عنده المعنى المذكور ، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضا في المرض ينكسر

بالموت ، فان المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه ، كذلك الموت الناشئ عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان وقد أضافه إلى اللّه تعالى . ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب :

بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من اللّه تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص ، ولا كذلك المرض .

فكم من معافى منه قد بغتة الموت ، فالتأسى بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء فيسوغ في الأدب نسبته إلى اللّه تعالى . وأما المرض فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض ، كان بلاء محققا فاقتضى العلو في الأدب مع اللّه تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه ، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتا وجزما ، لأنه أمر لا بد منه . وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقرونا بشرط إذا ، فقال وَإِذا مَرِضْتُ وكان ممكنا أن يقول : والذي يمرضنى فيشفينى كما قال في غيره ، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك ، واللّه أعلم .

(176/570)

تقع مكفرة ، فما له أثبت لنفسه خطيئة أو خطايا وطمع أن تغفر له ؟ قلت : الجواب ما سبق لي : أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم ، وهضم لأنفسهم ، ويدل عليه قوله أَطْمَعُ ولم يجزم القول بالمغفرة . وفيه تعليم لأممهم ، وليكون لطفا لهم في اجتناب المعاصي والحذر منها ، وطلب المغفرة مما يفرط منهم . فإن قلت : لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين ، وإنما تغفر في الدنيا ؟ قلت : لأنّ أثرها يتبين يومئذ ، وهو الآن خفى لا يعلم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 83 إلى 89]

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87)

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)

الحكم : الحكمة ، أو الحكم بين الناس بالحق . وقيل : النبوّة ، لأنّ النبي ذو حكمة وذو حكم بين عباد اللّه . والإلحاق بالصالحين : أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم ، أو يجمع بينه وبينهم في الجنة . ولقد أجابه حيث قال وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . والإخزاء : من الخزي وهو الهوان . ومن الخزاية «1» وهي الحياء . وهذا أيضا من نحو استغفارهم مما علموا أنه مغفور وفي يُبْعَثُونَ ضمير العباد ، لأنه معلوم . أو ضمير الضالين . وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه «2» ، يعنى : ولا تخزني يوم يبعث الضالون وأبى فيهم إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ

إلا حال من أتى اللّه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وهو من قولهم :

تحيّة بينهم ضرب وجيع «3»

وما ثوابه إلا السيف . وبيانه أن يقال لك : هل لزيد مال وبنون ؟ فتقول : ماله وبنوه : سلامة قلبه ، تريد نفى المال والبنين عنه ، وإثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك . وإن شئت حملت الكلام على المعنى وجعلت المال والبنين في معنى الغنى ، كأنه قيل : يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى اللّه بقلب سليم ، لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه ، كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه .

---

(1) . قوله «و من الخزاية» لعله : أو من . (ع)

(2) . قوله «أو ضمير الضالين ، وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه» لعله عطف على المعنى ، كأنه قال : ويحتمل أنه ضمير الضالين . . . الخ . (ع)

(3) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 60 فراجعه إن شئت اه مصححه .

ولك أن تجعل الاستثناء منقطعا ، ولا بدّ لك مع ذلك من تقدير المضاف وهو الحال ، والمراد بها سلامة القلب ، وليست هي من جنس المال والبنين ، حتى يؤوّل المعنى إلى أن المال

والبنين لا ينفعان ، وإنما ينفع سلامة القلب . ولو لم يقدر المضاف ، لم يتحصل للاستثناء معنى . وقد جعل مَنْ مفعولا لينفع ، أى : لا ينفع مال ولا بنون ، إلا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة اللّه ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع . ويجوز على هذا إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من فتنة المال والبنين . ومعنى سلامة القلب : سلامته من آفات الكفر والمعاصي ، ومما أكرم اللّه تعالى به خليله ونبه على جلالة محله في الإخلاص : أن حكى استثناءه هذا حكاية راض بإصابته فيه ، ثم جعله صفة له في قوله وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ ، إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ومن بدع التفاسير : تفسير بعضهم السليم باللديغ من خشية اللّه . وقول آخر : هو الذي سلم وسلم وأسلم وسالم واستسلم . وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين ، حين سألهم أوّلا عما يعبدون سؤال مقرّر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليدهم آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا أن يكون حجة ، ثم صوّر المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر اللّه عز وعلا ، فعظم شأنه وعدّد نعمته ، من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل اليه ابتهال الأوّابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب اللّه وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 90 إلى 95]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95)

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بأنهم المحشورون إليها ،

والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها :

قال اللّه تعالى وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ وقال فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا :

يجمع عليهم الغموم كلها والحسرات ، فتجعل النار بمرأى منهم ، فيهلكون غما في كل لحظة ،

(178/570)

ويوبخون على إشراكهم ، فيقال لهم : أين آلهتكم ؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم . أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم : لأنهم وآلهتهم وقود النار ، وهو قوله فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ أى الآلهة وَالْغاوُونَ وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم . والكبكبة : تكرير الكب ، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة

حتى يستقرّ في قعرها ، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار وَجُنُودُ إِبْلِيسَ شياطينه ، أو متبعوه من عصاة الجن والإنس .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 96 إلى 104]

قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (98) وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (100) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

يجوز أن ينطق اللّه الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم . ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين . والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم : رؤساؤهم وكبراؤهم ، كقوله رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا وعن السدّى : الأوّلون الذين اقتدينا بهم . وعن ابن جريج : إبليس ، وابن آدم القاتل ، لأنه أوّل من سنّ القتل وأنواع المعاصي ، فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين وَلا صَدِيقٍ كما نرى لهم أصدقاء ، لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون . وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض ، قال اللّه تعالى الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ أو : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء ، لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند اللّه ، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . أو أرادوا أنهم وقعوا في

مهلكة علموا أنّ الشفعاء والأصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم ، فقصدوا بنفيهم نفى ما يتعلق بهم من النفع ، لأنّ ما لا ينفع : حكمه حكم المعدوم .

والحميم من الاحتمام ، وهو الاهتمام ، وهو الذي يهمه ما يهمك . أو من الحامة بمعنى الخاصة ، وهو الصديق الخاص . فإن قلت : لم جمع الشافع ووحد الصديق ؟ قلت : لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق «1» . ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بإرهاق ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده

---

(1) . قال محمود : «إنما جمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة إذا نزل بإنسان خطب ممن يعرفه وممن لا يعرفه وأما الصديق فقليل» قال أحمد : العجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع ، فما الدليل على إرادة الافراد ؟

ثم لو كان المراد الافراد لكان أعم ، لأنه في سياق النفي ، فينفى الواحد فما زاد عليه إلى ما لا نهاية له ، والله أعلم

(179/570)

لشفاعته ، رحمة له وحسبة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة . وأما الصديق – وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك – فأعز من بيض الأنوق «1» . وعن بعض

الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال : اسم لا معنى له . ويجوز أن يريد بالصديق : الجمع .

الكرّة : الرجعة إلى الدنيا .

ولو في مثل هذا الموضع في معنى التمني ، كأنه قيل : فليت لنا كرة . وذلك لما بين معنى «لو» و«ليت» من التلاقي في التقدير . ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب ، وهو : لفعلنا كيت وكيت .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 105 إلى 110]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (109)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110)

القوم : مؤنثة ، وتصغيرها قويمة . ونظير قوله الْمُرْسَلِينَ والمراد نوح عليه السلام : قولك : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبرد «2» . قيل : أخوهم ، لأنه كان منهم ، من قول العرب : يا أخا بنى تميم ، يريدون : يا واحدا منهم . ومنه بيت الحماسة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النّائبات على ما قال برهانا «3»

كان أمينا فيهم مشهورا بالأمانة ، كمحمد صلى اللّه عليه وسلم في قريش وَأَطِيعُونِ في نصحى

(1) . قوله «فأعز من بيض الأنوق» في الصحاح : الأنوق – على فعول – : طائر وهو الرخمة . (ع) [. . . . .]

(2) . قال محمود : «المراد نوح ، كما تقول : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبرد» قال أحمد : لا حاجة إلى تأويل الجمع بالواحد هاهنا مع القطع بأن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل لأنه ما من نبى إلا ومستند صدقه المعجزة الدالة على الصدق فقد كذبوا كل من استند صدقه إلى دليل المعجزة ، وكذلك الاشارة بقوله تعالى لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ لأن التفرقة بينهم توجب تكذيب الكل وتصديق واحد يوجب تصديق الكل والله أعلم .

(3) قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

لقريط بن أنيق من قبيلة بلعنبر ، أغار عليه ناس من بنى شيبان فأخذوا منه ثلاثين بعيرا ، فاستنجد قومه فلم ينجدوه ، فاستغاث ببني مازن فركبوا معه وأطردوا له مائة بعير من بنى شيبان ، وحرسوه إلى قومه ، فمدحهم ووبخ قومه .

والناجذ : السن بين الضرس والناب . وقيل : ضرس العقل . وقيل : الضرس مطلقا .

والزرافة – بالفتح والضم – :

الجماعة من الناس ، وبها سميت الدابة المعروفة . والوحدان – بالضم – : جمع واحد .

وشبه الشر بأسد يكشر عن أنيابه على طريق المكنية فأثبت له الناجذين تخييلا . يقول : بنو مازن شجعان : إذا ظهر الشر واشتد فزعوا إليه جماعات ومنفردين ، فاستعار الطيران لذلك على طريق التصريحية . أو شبههم بالطيور في السرعة والانتشار على طريق الكناية والطريق تخييل ، لا يسألون صاحبهم دليلا على ما قاله حين يناديهم برفع صوته في الملمات .

(180/570)

لكم وفيما أدعوكم إليه من الحق عَلَيْهِ على هذا الأمر ، وعلى ما أنا فيه ، يعنى : دعاءه ونصحه ومعنى فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ : فاتقوا اللّه في طاعتي ، وكرره ليؤكده عليهم ويقرّره في نفوسهم ، مع تعليق كل واحدة منهما بعلة ، جعل علة الأوّل كونه أمينا فيما بينهم ، وفي الثاني حسم طمعه عنهم .

[سورة الشعراء (26) : آية 111]

قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111)

وقرئ : وأتباعك ، جمع تابع ، كشاهد وأشهاد . أو جمع تبع ، كبطل وأبطال . والواو للحال . وحقها أن يضمر بعدها «قد» في : واتبعك . وقد جمع الأرذل على الصحة وعلى

التكسير في قوله الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا والرذالة والنذالة: الخسة والدناءة. وإنما استرذلوهم لا تضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا. وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية «1» كالحياكة والحجامة. والصناعة لا تزري بالديانة، وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم. ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فلما قال: ضعفاء الناس وأراذلهم قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك «2».

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما: هم الغاغة «3». وعن عكرمة: الحاكة والأساكفة. وعن مقاتل: السفلة.

[سورة الشعراء (26): الآيات 112 إلى 115]

قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (115)

وَما عِلْمِي وأى شيء علمى؟ والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم للّه واطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا - مع استرذالهم - في إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما آمنوا هوى وبديهة، كما حكى اللّه عنهم في قوله الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ ويجوز أن يتغابى لهم نوح عليه السلام. فيفسر قولهم الأرذلين، بما هو الرذالة عنده، من سوء الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم، ثم

يبنى جوابه على ذلك فيقول : ما عليّ إلا اعتبار الظواهر ، دون التفتيش عن أسرارهم والشق عن قلوبهم ، وإن كان لهم عمل سيئ ، فاللّه محاسبهم ومجازيهم عليه ، وما أنا إلا منذر لا محاسب ولا مجاز لَوْ تَشْعُرُونَ ذلك ، ولكنكم تجهلون فتنساقون مع الجهل حيث سيركم ، وقصد بذلك ردّ اعتقادهم وإنكار

---

(1) . قوله «الصناعات الدنية» لعله : الدنيئة . كعبارة النسفي . (ع)

(2) . متفق عليه من حديث ابن عباس عن أبى سفيان بلفظ : وسألتك ضعفاء الناس اتبعوه أم أشرافهم ؟ فقلت :

بل ضعفاؤهم وكذلك أتباع الرسل . قلت : رواه بلفظ «أراذلهم» .

(3) . قوله «هم الغاغة» لعله الصاغة . وفي الخازن : قال ابن عباس : يعنى القافة . (ع)

أن يسمى المؤمن رذلا ، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا ، فإن الغنى غنى الدين ، والنسب نسب التقوى وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ يريد ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صح إيمانهم طمعا في إيمانكم وما عليّ إلا أن أنذركم إنذارا بينا بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ، ثم أنتم أعلم بشأنكم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 116 إلى 122]

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (120)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

ليس هذا بإخبار بالتكذيب ، لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم ، ولكنه أراد أنى لا أدعوك عليهم لما غاظونى وآذوني ، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك ، فاحكم بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ والفتاحة : الحكومة . والفتاح : الحاكم ، لأنه يفتح المستغلق كما سمى فيصلا ، لأنه يفصل بين الخصومات . الفلك : السفينة ، وجمعه فلك : قال اللّه تعالى : وترى الفلك فيه مواخر : فالواحد بوزن قفل ، والجمع بوزن أسد ، كسروا فعلا على فعل ، كما كسروا فعلا على فعل ، لأنهما أخوان في قولك : العرب والعرب ، والرشد والرشد . فقالوا : أسد وأسد ، وفلك وفلك . ونظيره : بعير هجان ، وإبل هجان . ودرع دلاص . ودروع دلاص ، فالواحد بوزن كناز ، والجمع بوزن كرام . والمشحون : المملوء . يقال : شحنها عليهم خيلا ورجالا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 314. 325﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون ﴾

أي يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج ، قيل : أوحى الله إلى موسى أن اجمع بني إسرائيل ، كل أهل أربعة أبيات في بيت ثم اذبحوا أولاد الضأن فاضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة فتقتل أبكار آل فرعون من أنفسهم وآمرهم أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم ، ثم اخبزوا فطيراً فإنه أسرع لكم ثم اسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر ، فيأتيك أمري ففعل ذلك موسى ، ثم إن قوم موسى قالوا لقوم فرعون إن لنا في هذه الليلة عيداً فاستعاروا منهم حليهم ، ثم خرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جهة البحر فلما سمع فرعون ذلك ، قال : هذا عمل موسى وقومه قتلوا أبكارنا في أنفسنا وأخذوا أموالنا ﴿ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ﴾ يعني الشرط يحشرون الجيش قيل : كانت المدائن ألف مدينة واثني عشر ألف قرية ، فأرسل فرعون في أثر موسى وقومه ألف ألف وخمسمائة ألف ، وخرج فرعون في الكرسي العظيم في مائتي ألف ملك مسورين مع كل ملك ألف فلذلك قال ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ قال أهل التفسير كانت الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف مقاتل ، لم يعدوا دون العشرين وفوق الستين سنة وقال ابن مسعود كانت ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، ولا يحصى عدد أصحاب فرعون .

﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ الغيظ الغضب يعني أنهم أغضبونا بمخالفتهم فينا وقتلهم أبكارنا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها ، وخروجهم من أرضنا بغير إذن منا ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ أي خائفون من شرهم وقرىء حذرون ، أي ذوو قوة وأداة شاكوا السلاح وقيل الحاذر الذي يحذرك الآن بالتحقيق من المتلبس بحمل السلاح ، والحذر الذي لا تلقاه إلا خائفاً ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون ﴾ قيل : كانت البساتين ممتدة في حافتي النيل فيها عيون وأنهار جارية ﴿ وكنوز ﴾ يعني الأموال الظاهرة من الذهب والفضة ، وسماها كنوزاً لأنه لم يؤد حق الله منها وكل مال لم يعط ، ولم يؤد حق الله منه فهو كنز وإن كان ظاهراً قيل كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق ، في عنق كل فرس طوق من ذهب قال الله تعالى ﴿ ومقام كريم ﴾ أي مجلس حسن قيل : أراد مجالس الأمراء والرؤساء التي كانت لهم وقيل إنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف من قومه والأمراء وعليهم أقبية الديباج مخوصة بالذهب والمعنى أنا أخرجناهم من بساتينهم التي فيها العيون وأموالهم ومجالسهم الحسنة ﴿ كذلك ﴾ أي كما وصفنا ﴿ وأورثناها بني إسرائيل ﴾ وذلك أن الله رد بني إسرائيل إلى مصر

بعد هلاك فرعون ، وقومه فأعطاهم جميع ما كان لفرعون ، وقومه من الأموال والأماكن الحسنة ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي لحق فرعون وقومه موسى ، وأصحابه وقت شروق الشمس وهو إضاءتها ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ يعني تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ أي سيدركنا فرعون وقومه ولا طاقة لنا بهم .

(184/570)

﴿ قال ﴾ أي موسى لثقته وعد الله تعالى إياه ﴿ كلا ﴾ أي لن يدركونا ﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ يعني يدلني على طريق النجاة ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ﴾ أي فضربه فانشق ﴿ فكان كل فرق ﴾ أي قطعة من الماء ﴿ كالطود ﴾ أي الجبل ﴿ العظيم ﴾ قيل لما انتهى موسى ومن معه إلى البحر هاجت الرياح فصار البحر يرمي بموج كالجبال ، قال يوشع : يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون من خلفنا ، والبحر أمامنا قال موسى ، ها هنا فخاض يوشع الماء لا يواري حافر دابته ، وقال : الذي يكتم إيمانه يا كليم الله أين أمرت قال : ها هنا فكبح فرسه فصكه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه ، ثم أقحمه البحر فارتسب في الماء وذهب القوم يصنعون مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدري كيف يصنع فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق

، فإذا الرجل واقف على فرسه لم يبتل سرجه ولا لبده ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ يعني قربنا فرعون وجنوده إلى البحر وقدمناهم إلى الهلاك وقيل إن جبريل كان بين بني إسرائيل ، وبين قوم فرعون يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم أولكم ، ويقول للقبط رويداً ليلحق آخركم أولكم ، فكان بنو إسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياقة من هذا الرجل ، وكان قوم فرعون يقولون ما رأينا أحسن دعة من هذا الرجل ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ يعني أنه تعالى جعل البحر يبساً حتى خرج موسى وقومه ، منه وأغرق فرعون وقومه ، وذلك أنهم لما تكاملوا في البحر انطبق عليهم فأغرقهم ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ يعني ما حدث في البحر من انفلاقه آية من الآيات العظام الدالة على قدرته ومعجزة لموسى عليه السلام ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ يعني أهل مصر قيل : لم يؤمن منهم إلا آسية امرأة فرعون ، وحزقيل مؤمن آل فرعون ، ومريم ابنة ماموبا التي دلت على قبر يوسف حين أخرجه موسى من البحر ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ قوله تعالى ﴿ واتل عليه نبأ إبراهيم إذ قال

لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ يعني أي شيء تعبدون وإنما قال إبراهيم ذلك مع علمه بأنهم عبدة لأصنام ، ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء ﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ يعني نقيم على عبادتها وإنما قالوا : نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ﴿ قال هل يسمعونكم ﴾ يعني يسمعون دعاءكم ﴿ إذ تدعون أو ينفعونكم ﴾ يعني بالرزق ﴿ أو يضرون ﴾ يعني إن تركتم عبادتهم وإذا كان كذلك ، فكيف يستحقون العبادة ؟ فلما لزمتهم الحجة القاطعة ﴿ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ المعنى أنها لا تسمع قولاً ولا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ولكن أقتدينا بآبائنا في ذلك ، وفي الآية دليل على إبطال التقليد في الدين وذمه ومدح الأخذ بالاستدلال ﴿ قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ أي الأولون ﴿ فإنهم عدو لي ﴾ أي أعداء لي وإنما وحده على إرادة الجنس .

فإن قلت : كيف وصف الأصنام بالعداوة ؟ وهي جمادات لا تعقل .

قلت : معناه فإنهم عدو لي يوم القيامة لو عبدتهم في الدنيا وقيل : إن الكفار لما عبدوها ونزلوها منزلة الأحياء العقلاء أطلق إبراهيم لفظ العداوة عليها وقيل : هو من المقلوب أراد فإني عدو لهم لأن من عاديته فقد عاداك ﴿ إلا رب العالمين ﴾ أي ولكن رب العالمين ، فإنه ربي ووليي وقيل إنهم كانوا يبعدون الأصنام مع الله تعالى فقال إبراهيم كل ما تعبدون أعداء لي إلا رب العالمين ثم وصف معبوده الذي يستحق العبادة فقال ﴿ الذي خلقني فهو

يهدين ﴾ إلى طريق النجاة ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين ﴾ أي يرزقني ويغذيني بالطعام والشراب ﴿ وإذا مرضت ﴾ أصابني مرض أضاف المرض إلى نفسه استعمالاً للأدب وإن كان المرض والشفاء من الله ﴿ فهو يشفين ﴾ أي يبرئني ويعافيني من المرض ﴿ والذي يميتني ثم يحيين ﴾ أي يميتني في الدنيا ثم يحييني في الآخرة.

(186/570)

﴿ والذي أطمع ﴾ أي أرجو ﴿ أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ أي يوم الجزاء والحساب قيل: خطيئته كذباته الثلاث وتقدم الكلام عليها (م) عن عائشة ا قالت: قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين أكان ذلك نافعا له؟ قال "لا ينفعه إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه، أنه لا يصلح للإلهية إلا من يفعل هذه الأفعال ﴿ رب هب لي حكماً ﴾ قال ابن عباس: معرفة حدود الله وأحكامه وقيل: العلم والفهم ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي بمن سلف قبلي من الأنبياء في المنزلة والدرجة العالية ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ أي ثناءً حسناً وذكراً جميلاً وقبولاً عاماً في الأمم التي تجيء بعدي، فأعطاه الله ذلك وجعل كل الأديان يتولونه، ويثنون عليه ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ أي ممن تعطيه

جنة النعيم لأنها السعادة الكبرى ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ قيل دعا لأبيه على رجاء أن يسلم فيغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴿ ولا تخزني ﴾ ولا تفضحني ﴿ يوم يبعثون ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من آتى الله بقلب سليم ﴾ أي خالص من الشرك والشك فأما الذنوب فلا يسلم منها أحد قال سعيد بن المسيب القلب السليم هو الصحيح وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمنافق مريض وقيل : القلب السليم هو الخالي من البدعة المطمئن إلى السنة ﴿ وأزلفت الجنة ﴾ أي قربت ﴿ للمتقين وبرزت الجحيم ﴾ أي أظهرت ﴿ للغاوين ﴾ أي للكافرين ﴿ وقيل لهم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم ﴾ أي يمنعونكم من عذاب الله ﴿ أو ينتصرون ﴾ لأنفسهم ﴿ فكبكبوا ﴾ قال ابن عباس جمعوا وقيل قذفوا وطرحوا بعضهم على بعض وقيل : ألقوا على رؤوسهم ﴿ فيها ﴾ أي في جهنم ﴿ هم والغاوون ﴾ يعني الآلهة والعابدين وقيل : الجن والكافرين ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ يعني أتابعه ومن

أطاعه من الإنس والجن وقيل ذريته ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون ﴾ يعني العابدين والمعبودين ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم ﴾ أي نعدلكم ﴿ برب العالمين ﴾ فنعبدكم ﴿ وما أضلنا ﴾ يعني دعانا إلى الضلال ﴿ إلا المجرمون ﴾ يعني من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس ، وقيل : الأولون الذي اقتدينا بهم وقيل يعني إبليس وابن آدم من دعاهم إلى عبادة الأصنام من الجن والإنس ، وقيل : الأولون الذي اقتدينا بهم وقيل يعني إبليس وابن آدم الأول وهو قابيل ، وهو أو من سن القتل وأنواع المعاصي ﴿ فما لنا من شافعين ﴾ يعني من يشفع لنا يعني كما أن للمؤمنين شافعين من الملائكة والأنبياء ﴿ ولا صديق حميم ﴾ أي قريب يشفع لنا ، يقول ذلك الكفار حين يشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، والصديق هو الصادق في المودة مع موافقة الدين عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول :

" إن الرجل يقول في الجنة ما فعل بصديقي فلان وصديقه في الجحيم ، فيقول الله أخرجوا له صديقه إلى الجنة ، فيقول من بقي فما لنا من شافعين ولا صديق حميم " رواه البغوي بإسناد الثعلبي .

وقال الحسن : استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإن لهم شفاعة يوم القيامة ﴿ فلو أن لنا كرة ﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ أي أنهم تمنوا الرجعة حين لا رجعة لهم .

﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أي مع هذه الدلائل والآيات ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أي المنتقم الذي لا يغالب وهو في وصف عزته رحيم .

قوله ﴿ كذب قوم نوح المرسلين ﴾ اي كذبت جماعة قوم نوح ، قيل : القوم مؤنثة وتصغيرها قويمة .

فإن قلت : كيف قال المرسلين وإنما هو رسول واحد وكذلك باقي القصص .

(188/570)

قلت : لأن دين الرسل واحد وإن الآخر منهم جاء بما جاء به الأول فمن كذب واحد من الأنبياء فقد كذب جميعهم ﴿ إذ قال لهم أخوهم نوح ﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين ﴿ ألا تتقون ﴾ أي ألا تخافون فتتركوا الكفر والمعاصي ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي على الوحي ، وكان معروفاً عندهم بالأمانة ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي بطاعته وعبادته ﴿ وأطيعون ﴾ أي فيما أمرتكم به من الإيمان والتوحيد ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ أي من جعل وجزاء ﴿ إن أجري ﴾ أي ثوابي ﴿ إلا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون ﴾ قيل : كرره ليؤكده عليهم ويقرره في نفوسهم وقيل ليس فيه تكرار معنى الأول ألا تتقون الله في مخالفتي وأنا رسول الله ومعنى الثاني ألا تتقون الله في مخالفتي وإني لست

آخذ منكم أجراً ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ أي السفلة قال ابن عباس : يعني القافة وقيل هم الحاكة والأساكفة ﴿ قال ﴾ يعني نوحاً ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ أي وما أعلم أعمالهم وصنائعهم ، وليس علي من دناءة مكاسبهم وأحوالهم شيء إنما كلفت أن أدعوهم إلى الله تعالى ، وما لي إلا ظواهر أمرهم وقال الزجاج الصناعات لا تضر في الديانات وقيل : معناه إني لم أعلم أن الله يهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلهم ﴿ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴾ أي لو تعلمون ذلك ما عيرتموهم بصنائعهم ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ أي عني وقد آمنوا ﴿ إن أنا إلا نذير مبين ﴾ معناه أخوف من كذبني فمن آمن فهو القريب مني ومن لم يؤمن فهو البعيد عني ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح ﴾ أي عما تقول ﴿ لتكونن من المرجومين ﴾ أي من المقتولين بالحجارة وهو أسوأ القتل وقيل من المشتومين ﴿ قال رب إن قومي كذبون فافتح ﴾ أي احكم ﴿ بيني وبينهم فتحاً ﴾ أي حكماً ﴿ ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ﴾ أي الموقر المملوء من الناس والطير والحيوان ﴿ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾ أي بعد إنجاء نوح ومن معه ﴿ إن في ذلك لآية

وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 117.122 ﴾

وقال ابن جزى :

﴿ أَسْرِ بعبادي ﴾ يعني بين إسرائيل ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ إخبار باتباع فرعون ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ الشرذمة الطائفة من الناس ، وفي هذا احتقار لهم على أنه روي أنهم كانوا ستمائة ألف ، ولكن جنود فرعون أكثر منهم بكثير ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ يعني التي بمصر ، والعيون الخلجان الخارجة من النيل ، وكانت ثم عيون في ذلك الزمان ، وقيل يعني الذهب والفضة وهو بعيد ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ مجالس الأمراء والحكام ، وقيل : المنابر ، وقيل : المساكن الحسان ﴿ كَذَلِكَ ﴾ في موضع خفض صفة لمقام أو في موضع نصب على تقدير : أخرجناهم مثل ذلك الإخراج ، أو في موضع رفع أنه خبر ابتداء تقديره : الأمر كذلك ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ﴾ أي أورثهم الله مواضع فرعون بمصر ، على أن التواريخ لم يذكر فيها ملك بني إسرائيل لمصر ، وإنما المعروف أنهم ملكوا الشام ، فتأويله على هذا أورثهم مثل ذلك بالشام ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ أي لحقوهم ، وضمير الفاعل لفرعون وقومه ، وضمير المفعول لبني إسرائيل ﴿ مُّشْرِقِينَ ﴾ معناه داخلين في وقت الشروق وهو طلوع الشمس ، وقيل : معناه نحو المشرق وانتصابه على الحال .

﴿ تَرَاءَى الجمعان ﴾ وزن تراء تفاعل ، وهو منصوب من [الرؤية] ، والجمعان جمع موسى وجمع فرعون ، أي رأى بعضهم بعضاً ﴿ فانفلق ﴾ تقدير الكلام فضرب موسى البحر فانفلق ﴿ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ أي كل جزء منه والطود الجبل ، ورُوي أنه صار في البحر اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط من بني إسرائيل طريق ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين ﴾ يعني بالآخرين فرعون وقومه ، ومعنى ﴿ أَزْلَفْنَا ﴾ : قربناهم من البحر ليغرقوا ، وثم هنا ظرف يراد به حيث انفلق البحر وهو بحر القلزم [الأحمر] ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ إنما سألهم مع علمه بأنهم يعبدن الأصنام ليبين لهم أن ما يعبدونه ليس بشيء ، ويقيم عليهم الحجة ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً ﴾ إن قيل : لم صرحوا بقولهم نعبد ، مع أن السؤال وهو قوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يغني عن التصريح بذلك ، وقياس مثل هذا الاستغناء بدلالة السؤال كقوله : ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ [النحل : 30] ؟ قالوا : ﴿ خَيْراً ﴾ [النحل : 30] ، فالجواب أنهم صرحوا بذلك على وجه الافتخار والابتهاج بعبادة الأصنام ، ثم زادوا قولهم : ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ مبالغة في ذلك ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا ﴾ اعتراف بالتقليد المحض ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ استثناء منقطع وقيل : متصل لأن في آبائهم من عبد الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه وأسند الشفاء إلى الله تأدباً مع الله .

﴿ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي ﴾ قيل أراد كذباته الثلاثة الواردة في الحديث وهي قوله في سارة زوجته : هي أختي ، وقوله : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 63] أراد الجنس على الإطلاق ؛ لأن هذه الثلاثة من المعاريض فلا إثم فيها ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ ثناء جميلاً ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ ﴾ وما بعده منقطع عن كلام إبراهيم ، وهو من كلام الله تعالى ، ويحتمل أن يكون أيضاً من كلام إبراهيم ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ، قيل : سليم من الشرك والمعاصي وقيل : الذي يلقى ربه وليس في قلبه شيء غيره وقيل : بقلب لديغ من خشية الله ، والسليم هو اللديغ : لغة ، وقال الزمخشري : هذا من بدع التفاسير ، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون متصلاً فيكون : ﴿ مَنْ أَتَى الله ﴾ مفعولاً ، بقوله : ﴿ لاَ يَنفَعُ ﴾ والمعنى على هذا أن المال لا ينفع إلا من أنفقه في طاعة الله وأن النبيين لا ينفعون إلا من علمهم الدين وأوصاهم بالحق ويحتمل أيضا أن يكون متصلاً ويكون قوله : ﴿ مَنْ أَتَى الله ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ على حذف مضاف تقديره : إلا مال من أتى الله وبنوه ويحتمل أن يكون منقطعاً بمعنى لكن ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة ﴾ أي قربت .

﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ يعني المشركين بدلالة ما بعده ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا ﴾ كبكبوا : مضاعف من كب كررت حروفه دلالة على تكرير معناه : أي كبهم الله في النار مرة بعد مرة ، والضمير للأصنام ، والغاوون هم المشركون ، وقيل : الضمير للمشركين ، والغاوون هم الشياطين ﴿ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ أي نجعلكم سواء معه ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلاَّ المجرمون ﴾ يعني كبراءهم ، وأهل الجرم والجراءة منهم ﴿ حَمِيمٍ ﴾ أي خالص الودّ ، قال الزمخشري : جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة ، وقلة الأصدقاء ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ أسند الفعل إلى القوم ، وفيه علامة التأنيث ، لأن القوم في معنى الجماعة والأمة ، فإن قيل : كيف قال المرسلين بالجمع وإنما كذبوا نوحاً وحده ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما أنه أراد الجنس كقولك : فلان يركب الخيل وإنما لم يركب إلى فرساً واحداً والآخر أن من كذب نبياً واحداً فقد كذب جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأن قولهم واحد ودعوتهم سواء ، وكذلك الجواب في : كذبت عاد المرسلين وغيره ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ جمع أرذل ، وقد تقدّم الكلام عليه في قوله ﴿ أَرَاذِلُنَا ﴾ في [هود : 27] ﴿ وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ يعني الذين سموهم أرذلين ، فإنّ الكفار أرادوا من نوح

أن يطردهم ، كما أرادت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد عمار بن ياسر وصهيباً وبلالاً وأشباههم من الضعفاء ﴿ المرجومين ﴾ يحتمل أن يريدوا الرجم بالحجارة ، أو بالقول وهو الشتم .

﴿ فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ﴾ أي احكم بيننا ﴿ فِي الفلك المشحون ﴾ أي المملوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 85.88 ﴾

(193/570)

وقال النسفى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ ﴾

وبوصل الهمزة : حجازي ﴿ بِعِبَادِى ﴾ بني إسرائيل سماهم عباده لإيمانهم بنبيه أي سر بهم ليلاً وهذا بعد سنين من إيمان السحرة ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وقومه علل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم يعني إني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم من طريق البحر فأهلكهم .

وروي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه .

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن اجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات في بيت ثم اذبح الجداء واضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم وسآمرهم بقتل أبكار القبط ، واخبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري .

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِى المدائن حاشرين ﴾ أي جامعين للناس بعنف ، فلما اجتمعوا قال : ﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ والشرذمة الطائفة القليلة ذكرهم بالاسم الدال على القلة ، ثم جعلهم قليلاً بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً .

واختار جمع السلامة الذي هو للقلة أو أراد بالقلة الذلة لا قلة العدد أي أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا تتوقع غلبتهم .

وإنما استقل قوم موسى وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً لكثرة من معه .

فعن الضحاك : كانوا سبعة الآف ألف ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ أي أنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا وهي خروجهم من مصرنا وحملهم حلينا وقتلهم أبكارنا ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذرون ﴾ شامي وكوفي وغيرهم ﴿ حذرون ﴾ فالحذر المتيقظ والحاذر الذي يجدد حذره .

وقيل : المؤدي في السلاح وإنما يفعل ذلك حذراً واحتياطاً لنفسه يعني ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به العجز والفتور .

﴿ فأخرجناهم مّن جنات ﴾ بساتين ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ وأنهار جارية ﴿ وَكُنُوزٍ ﴾ وأموال ظاهرة من الذهب والفضة وسماها كنوزاً لأنهم لا ينفقون منها في طاعة الله تعالى ﴿ وَمَقَامٍ ﴾ ومنزل ﴿ كَرِيمٍ ﴾ بهي بهيج .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : المنابر ﴿ كذلك ﴾ يحتمل النصب على ﴿ أخرجناهم ﴾ مثل ذلك الآخراج الذي وصفنا ، والرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر كذلك ﴿ وأورثناها بَنِى إسراءيل ﴾ عن الحسن : لما عبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وأموالهم ﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ فلحقوهم ﴿ فاتبعوهم ﴾ يزيد ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ حال أي داخلين في وقت شروق الشمس وهو طلوعها أدرك قوم فرعون موسى وقومه وقت طلوع الشمس

﴿ فَلَمَّا تَرَاءا الجمعان ﴾ أي تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه والمراد بنو إسرائيل والقبط ﴿ قَالَ أصحاب موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ أي قرب أي يلحقنا عدونا وأمامنا البحر ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام ثقة بوعد الله إياه ﴿ كَلاَّ ﴾ ارتدعوا عن سوء الظن بالله فلن يدركوكم ﴿ إِنَّ مَعِيَ ﴾ ﴿ مَعِيَ ﴾ حفص ﴿ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ أي سيهديني طريق النجاة من إدراكهم وإدرارهم ﴿ سيهديني ﴾ بالياء : يعقوب ﴿ فَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ﴾ أي القلزم أو النيل ﴿ فانفلق ﴾ أي فضرب فانفلق وانشق فصار اثني عشر فرقاً على عدد الأسباط ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ﴾ أي جزء تفرق منه ﴿ كالطود العظيم ﴾ كالجبل المنطاد في السماء ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ﴾ حيث انفلق البحر ﴿ الآخرين ﴾ قوم فرعون أي قربناهم من بني إسرائيل أو من البحر ﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ من الغرق ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ فرعون وقومه ، وفيه إبطال القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث فإنهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعهم .

روي أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون فكان يقول لبني إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم .

ويستقبل القبط فيقول : رويدكم يلحق آخركم بأولكم .

فلما انتهى موسى إلى البحر قال يوشع لموسى : أين أمرت فهذا البحر أمامك وغشيك آل

فرعون ؟ قال موسى : ههنا .

فخاض يوشع الماء وضرب موسى بعصاه البحر فدخلوا .

وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام قال عند ذلك : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء

(196/570)

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي فيما فعلنا بموسى وفرعون ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرة عجيبة لا توصف ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي المغرقين ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ قالوا : لم يؤمن منهم إلا آسية وحزقيل مؤمن آل فرعون ومريم التي دلت موسى على قبر يوسف ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ بالانتقام من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ بالإنعام على أوليائه .

﴿ واتل عَلَيْهِمْ ﴾ على مشركي قريش ﴿ نَبَأَ إبراهيم ﴾ خبره ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴾ قوم إبراهيم أو قوم الأب ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي أي شيء تعبدون ؟ وإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة الأصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس بمستحق للعبادة ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً ﴾ وجواب مَا تَعْبُدُونَ أَصْنَاماً ك .

﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ﴾ [البقرة : 219] ﴿ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ الحق ﴾

[سبأ : 23] لأنه سؤال عن المعبود لا عن العبادة .

وإنما زادوا ﴿ نعبد ﴾ في الجواب افتخاراً ومباهاة بعبادتها ولذا عطفوا على ﴿ نعبد ﴾ ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عاكفين ﴾ فنقيم على عبادتها طول النهار .

وإنما قالوا ﴿ فنظل ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل أو معناه الدوام ﴿ قَالَ ﴾ أي إبراهيم ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف لدلالة ﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ عليه ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ إن عبدتموها ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ إن تركتم عبادتها ﴿ قَالُواْ بَلْ ﴾ إضراب أي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ولا نعبدها لشيء من ذلك ولكن ﴿ وَجَدْنَا ءابَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فقلدناهم ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءابَاؤُكُمُ الأقدمون ﴾ الأولون

(197/570)

﴿ فَإِنَّهُمْ ﴾ أي الأصنام ﴿ عَدُوٌّ لِى ﴾ العدو والصديق يجيئان في معنى الوحدة والجماعة يعني لو عبدتهم لكانوا أعداء لي في يوم القيامة كقوله ﴿ سَيَكْفُرُونَ بعبادتهم وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [مريم : 82] وقال الفراء : هو من المقلوب أي فإني عدوهم .

وفي قوله ﴿ عدو لي ﴾ دون "لكم" زيادة نصح ليكون أدعى لهم إلى القبول ، ولو قال

"فإنهم عدو لكم" لم يكن بتلك المثابة ﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ استثناء منقطع لأنه لم يدخل تحت الأعداء كأنه قال : لكن رب العالمين .

﴿ الذى خَلَقَنِى ﴾ بالتكوين في القرار المكين ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ لمناهج الدنيا ولمصالح الدين والاستقبال في يهديني مع سبق العناية لأنه يحتمل يهديني للأهم الأفضل والأتم الأكمل ، أو الذي خلقني لأسباب خدمته فهو يهديني إلى آداب خلته ﴿ والذى هُوَ يُطْعِمُنِى ﴾ أضاف الإطعام إلى ولي الإنعام لأن الركون إلى الأسباب عادة الأنعام ﴿ وَيَسْقِينِ ﴾ قال ابن عطاء : هو الذي يحييني بطعامه ويرويني بشرابه ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ وإنما لم يقل أمرضني لأنه قصد الذكر بلسان الشكر فلم يضف إليه ما يقتضي الضر .

قال ابن عطاء : وإذا مرضت برؤية الخلق ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ بمشاهدة الحق .

قال الصادق : إذا مرضت برؤية الأفعال فهو يشفين بكشف منة الإفضال ﴿ والذى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ ولم يقل إذا مت لأنه الخروج من حبس البلاء ودار الفناء إلى روض البقاء لوعد اللقاء .

وأدخل "ثم" في الإحياء لتراخيه عن الإفناء ، وأدخل الفاء في الهداية والشفاء لأنهما يعقبان الخلق والمرض لا معاً معاً .

﴿ والذى أَطْمَعُ ﴾ طمع العبيد في الموالي بالإفضال لا على الاستحقاق بالسؤال ﴿ أَن يَغْفِرَلى خَطِيئَتِى ﴾ قيل : هو قوله ﴿ إِنّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : 89] ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ [الأنبياء : 63] ﴿ هذا رَبّى ﴾ [الأنعام : 67] للبازغ هي أختي لسارة ، وما هي إلا معاريض جائزة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار ، واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم وتعليم للأمم في طلب المغفرة ، ﴿ يَوْمَ الدين ﴾ يوم الجزاء .

﴿ رَبّ هَبْ لِى حُكْماً ﴾ حكمة أو حكماً بين الناس بالحق أو نبوة لأن النبي عليه السلام ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ أي الأنبياء ولقد أجابه حيث قال ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [البقرة : 30] ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الآخرين ﴾ أي ثناء حسناً وذكراً جميلاً في الأمم التي تجيء بعدي فأعطي ذلك فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه ، ووضع اللسان موضع القول لأن القول يكون به .

(199/570)

﴿ واجعلنى مِن ﴾ يتعلق بمحذوف أي وارثاً من ﴿ وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ أي من الباقين فيها ﴿ واغفر لأبى ﴾ اجعله أهل المغفرة بإعطاء الإسلام وكان وعده الإسلام يوم فارقه ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ الكافرين ﴿ وَلاَ تُخْزِنى ﴾ الإخزاء من الخزي وهو الهوان أو من الخزاية وهو الحياء وهذا نحو الاستغفار كما بينا ﴿ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ الضمير فيه للعباد لأنه معلوم ، أو للضالين وأن يجعل من جملة الاستغفار لأبيه أي ولا تخزني في يوم يبعث الضالون وأبي فيهم ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ ﴾ هو بدل من يوم الأول ﴿ وَلاَ بَنُونَ ﴾ أحداً ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ عن الكفر والنفاق وقلب الكافر والمنافق مريض لقوله تعالى : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : 10] أي إن المال إذا صرف في وجوه البر وبنوه صالحون فإنه ينتفع به وبهم سليم القلب ، أو جعل المال والبنون في معنى الغني كأنه قيل : يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه .

وقد جعل ﴿ من ﴾ مفعولاً ل ﴿ ينفع ﴾ أي لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه في طاعة الله ، ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع .

ويجوز على هذا إلا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين .

وقد صوب الجليل استثناء الخليل إكراماً له ثم جعله صفة له في قوله : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإبراهيم إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : 84] وما أحسن ما رتب عليه السلام كلامه مع المشركين حيث سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلّص منها إلى ذكر الله تعالى فعظم شأنه وعدد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته مع ما يرجّي في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي قربت عطف جملة على جملة أي تزلف من موقف السعداء فينظرون إليها

﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم ﴾ أي أظهرت حتى يكاد يأخذهم لهبها ﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾ للكافرين ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ يوبخون على إشراكهم فيقال لهم أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم ، أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار

﴿ فَكُبْكِبُواْ ﴾ أنكسوا أو طرح بعضهم على بعض ﴿ فِيهَا ﴾ في الجحيم ﴿ هُمْ ﴾ أي الآلهة ﴿ والغاوون ﴾ وعبدتهم الذين برزت لهم .

(201/570)

والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة إثر مرة حتى يستقر في قعرها نعوذ بالله منها ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ شياطينه أو متبعوه من عصاة الإنس والجن ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴾ يجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم ، ويجوز أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين ﴿ تالله إِن كُنَّا لَفِى ضلال مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ ﴾ نعدلكم أيها الأصنام ﴿ بِرَبِّ العالمين ﴾ في العبادة ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ المجرمون ﴾ أي رؤساؤهم الذين أضلوهم أو إبليس وجنوده ومن سن الشرك .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين ﴾ كما للمؤمنين من الأنبياء والأولياء والملائكة ﴿ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ كما نرى لهم أصدقاء إذ لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادي : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] أو ﴿ فَمَا لَنَا مِن شافعين وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 100] من الذين كنا نعدهم شفعاء

وأصدقاء لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس .

والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام الذي يهمه ما يهمك ، أو من الحامّة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخاص .

وجمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة ، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك فقليل .

وسئل حكيم عن الصديق فقال : اسم لا معنى له .

وجاز أن يراد بالصديق الجمع

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ وجواب "لو" محذوف وهو لفعلنا كيت وكيت ، أو لو في مثل هذا بمعنى التمني كأنه قيل : فليت لنا كرة .

(202/570)

لما بين معنى "لو" و "ليت" من التلاقي ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ فيما ذكر من الأنباء ﴿ لآيَةً ﴾ أي لعبرة لمن اعتبر ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ فيه أن فريقاً منهم آمنوا ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ المنتقم ممن كذب إبراهيم بنار الجحيم ﴿ الرحيم ﴾ المسلم كل ذي قلب سليم

إلى جنة النعيم .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ القوم يذكر ويؤنث .

قيل : ولد نوح في زمن آدم عليه السلام ونظير قوله المرسلين والمراد نوح عليه السلام قولك "فلان يركب الدواب ويلبس البرود" وماله إلا دابة أو برد ، أو كانوا ينكرون بعث الرسل أصلاً فلذا جمع ، أو لأن من كذب واحداً منهم فقد كذب الكل لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل وكذا جميع ما في هذه السورة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ ﴾ نسباً لا ديناً ﴿ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ خالق الأنام فتتركوا عبادة الأصنام ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ كان مشهوراً بالأمانة فيهم كمحمد عليه الصلاة والسلام في قريش .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الحق ﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على هذا الأمر ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ جزاء ﴿ إِنْ أَجْرِىَ ﴾ بالفتح مدني وشامي وأبو عمرو وحفص ﴿ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾ فلذلك أريده ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ كرره ليقرره في نفوسهم مع تعليق كل واحد منهما بعلة ، فعلة الأول كونه أميناً فيهما بينهم ، وعلة الثاني حسم طمعه منهم كأنه قال : إذا عرفتم رسالتي وأمانتي فاتقوا الله ، ثم إذا عرفتم احترازي من الأجر فاتقوا الله .

﴿ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك ﴾ الواو للحال و "قد" مضمرة بعدها دليله قراءة يعقوب ﴿ وأتباعك ﴾ جمع تابع كشاهد وأشهاد أو تبع كبطل وأبطال ﴿ الأرذلون ﴾ السّفلة

والرذالة الخسة والدناءة .

وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا .

(203/570)

وقيل : كانوا من أهل الصناعات الدنيئة والصناعة لا تزري بالديانة فالغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى ، ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلاً وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً وما زالت أتباع الأنبياء كذلك ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى ﴾ وأي شيء أعلم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من الصناعات إنما أطلب منهم الايمان .

وقيل : إنهم طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم وقالوا : إن الذين آمنوا بك ليس في قلوبهم ما يظهرونه فقال : ما علي إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن السرائر ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على ربّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أن الله يحاسبهم على ما في قلوبهم ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ أي ليس من شأني أن أتبع شهواتكم بطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ما علي إلا أن أنذركم إنذاراً بيناً بالبرهان الصحيح الذي يتميز به الحق من الباطل ثم أنتم أعلم بشأنكم ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا نُوحُ ﴾ عما تقول ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ من المقتولين بالحجارة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴾ ليس هذا إخباراً بالتكذيب لعلمه أن

عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد أنهم كذبوني في وحيك ورسالتك

﴿ فافتح بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ أي أي فاحكم بيني وبينهم حكماً ، والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لأنه يفتح المستغلق كما سمي فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات ﴿ وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِى ﴾ ﴿ معي ﴾ حفص ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ من عذاب عملهم .

(204/570)

﴿ فأنجيناه وَمَن مَّعَهُ فِى الفلك ﴾ الفلك السفينة وجمعه فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد ﴿ المشحون ﴾ المملوء ومنه شحنة البلد أي الذي يملؤه كفاية ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ أي بعد إنجاء نوح ومن آمن ﴿ الباقين ﴾ من قومه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ المنتقم بإهانة من جحد وأصر ﴿ الرحيم ﴾ المنعم بإعانة من وحد وأقر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 184 . 191 ﴾

(205/570)

وقال البيضاوى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾

وذلك بعد سنين أقامها بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتواً وفساداً ، وقرأ ابن كثير ونافع "أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي" بكسر النون ووصل الألف من سرى وقرىء "أن سر" من السير . ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يتبعكم فرعون وجنوده وهو علة الأمر بالإِسراء أي أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم .

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ ﴾ حين أخبر بسراهم . ﴿ فِي المدائن حاشرين ﴾ العساكر ليتبعوهم .

﴿ إِنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ على إرادة القول وإنما استقلهم وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً بالإِضافة إلى جنوده ، إذ روي أنه خرج وكانت مقدمته سبعمائة ألف والشرذمة الطائفة القليلة ، ومنها ثوب شراذم لما بلي وتقطع ، و﴿ قَلِيلُونَ ﴾ باعتبار أنهم أسباط كل سبط منهم قليل .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ لفاعلون ما يغيظنا .

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذرون ﴾ وإنا لجميع من عادتنا الحذر واستعمال الحزم في الأمور ، أشار

أولاً إلى عدم ما يمنع اتباعهم من شوكتهم ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثاً عليه ، أو اعتذر بذلك إلى أهل المدائن كي لا يظن به ما يكسر سلطانه ، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان والكوفيون ﴿ حاذرون ﴾ والأول للثبات والثاني للتجدد ، وقيل الحاذر المؤدي في السلاح وهو أيضاً من الحذر لأن ذلك إنما يفعل حذراً ، وقرىء "حادرون" بالدال المهملة أي أقوياء قال :

أُحِبُّ الصَّبِيَ السُّوءَ مِنْ أَجْلِ أُمِّهِ . . . وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرُ

أو تاموا السلاح فإن ذلك يوجب حدارة في أجسامهم .

﴿ فأخرجناهم ﴾ بأن خلقنا داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه . ﴿ مّن جنات وَعُيُونٍ ﴾ .

(206/570)

﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني المنازل الحسنة والمجالس البهية .

﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الإخراج أخرجنا فهو مصدر ، أو مثل ذلك المقام الذي كان لهم على أنه صفة مقام ، أو الأمر كذلك فيكون خبر المحذوف . ﴿ وأورثناها بَنِي إسراءيل ﴾ .

﴿ فَأَتْبَعُوهُم ﴾ وقرىء "فَأَتْبَعُوهُم" . ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس .

﴿ فَلَمَّا تَرَآءَ الجمعان ﴾ تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر ، وقرىء "تراءت الفئتان" ﴿ قَالَ أصحاب موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ لملحقون ، وقرىء "لَمُدْرَكُونَ" من أدرك الشيء إذا تتابع ففني ، أي : لمتتابعون في الهلاك على أيديهم .

﴿ قَالَ كَلاَّ ﴾ لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم . ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي ﴾ بالحفظ والنصرة . ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ طريق النجاة منهم ، روي أن مؤمن آل فرعون كان بين يدي موسى فقال : أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون ، فقال : أمرت بالبحر ولعلي أومر بما أصنع .

﴿ فَأَوْحَينَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضرب بّعَصَاكَ البحر ﴾ بحر القلزم أو النيل . ﴿ فانفلق ﴾ أي فضرب فانفلق وصار اثني عشر فرقاً بينها مسالك . ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾ كالجبل المنيف الثابت في مقره فدخلوا في شعابها كل سبط في شعب .

﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ وقربنا . ﴿ ثَمَّ الآخرين ﴾ فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم .

﴿ وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ﴾ بإطباقه عليهم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ وأية آية . ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وما تنبه عليها أكثرهم إذ لم يؤمن بها أحد ممن بقي في مصر من القبط ، وبنو إسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ المنتقم من أعدائه . ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بأوليائه .

(207/570)

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ على مشركي العرب . ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ سألهم ليريهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ فأطالوا جوابهم بشرح حالهم معه تبجحاً به وافتخاراً ، و"نظل" ها هنا بمعنى ندوم . وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل .

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ ﴾ أيسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة .

﴿ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ عليه وقرئ "يَسْمَعُونَكُمْ" أي يسمعونكم الجواب عن دعائكم ومجيئه مضارعاً مع ﴿ إِذْ ﴾ على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها .

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ ﴾ على عبادتكم لها . ﴿ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ من أعرض عنها .

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو يتوقع منهم

ضر أو نفع ، والتجأوا إلى التقليد .

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمُ الأقدمون ﴾ فإن التقدم لا يدل على الصحة ولا ينقلب به الباطل حقاً .

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ يريد أنهم أعداء لعابديهم من حيث إنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه ، أو إن المغري بعبادتهم أعدى أعدائهم وهو الشيطان ، لكنه صور الأمر في نفسه تعريضاً لهم فإنه أنفع في النصح من التصريح ، وإشعاراً بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول ، وإفراد العدو لأنه في الأصل مصدر أو بمعنى النسب .

﴿ إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ استثناء منقطع أو متصل على أن الضمير لكل معبود عبدوه وكان من آبائهم من عبد الله .

(208/570)

﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له من أمور المعاش والمعاد كما قال تعالى ﴿ والذى قَدَّرَ فهدى ﴾ هداية مدرجة من مبدأ إيجاده إلى منتهى أجله يتمكن بها من جلب المنافع ودفع المضار ، مبدؤها بالنسبة إلى الإِنسان هداية الجنين إلى امتصاص

دم الطمث من الرحم ، ومنتها ها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بلذائذها ، والفاء للسببية إن جعل الموصول مبتدأ وللعطف إن جعل صفة رب العالمين فيكون اختلاف النظم لتقدم الخلق واستمرار الهداية وقوله :

﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ على الأول مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه وكذا اللذان بعده ، وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على أن كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ عطف على ﴿ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ لأنه من روادفهما من حيث إن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب ، وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى لأن المقصود تعديد النعم ، ولا ينتقض بإسناد الإِماتة إليه فإن الموت من حيث إنه لا يحسن به لا ضرر فيه وإنما الضرر في مقدماته وهي المرض ، ثم إنه لأهل الكمال وصلة إلى نيل المحاب التي تستحقر دونها الحياة الدنيوية وخلاص من أنواع المحن والبليات ، ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريط من الإِنسان في مطاعمه ومشاربه وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر ، والصحة إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص عليها قهراً وذلك بقدرة الله العزيز العليم .

﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ في الآخرة .

﴿ والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ ذكر ذلك هضماً لنفسه وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر ، وطلب لأن يغفر لهم ما يفرط منهم واستغفاراً لما عسى يندر منه من الصغائر ، وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ﴾ ، وقوله "هي أختي" ، ضعيف لأنها معاريض وليست خطايا .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ﴾ كما في العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق . ﴿ وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ ووفقني للكمال في العمل لأنتظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره .

﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الاخرين ﴾ جاهاً وحسن صيت في الدنيا يبقى أثره إلى يوم الدين ، ولذلك ما من أمة إلا وهم محبون له مثنون عليه ، أو صادقاً من ذريتي يجدد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ واجعلني مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ﴾ في الآخرة وقد مر معنى الوراثة فيها .

﴿ واغفر لأَبِي ﴾ بالهداية والتوفيق للإيمان . ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ طريق الحق وإن كان هذا الدعاء بعد موته فلعله كان لظنه أنه كان يخفي الإيمان تقية من نمرود ولذلك وعده به ، أو لأنه لم يمنع بعد من الاستغفار للكفار .

﴿ وَلاَ تُخْزِنِى ﴾ بمعاتبتي على ما فرطت ، أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الوراث ، أو

بتعذيبي لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً ، أو بتعذيب والدي ، أو يبعثه في عداد الضالين وهو من الخزي بمعنى الهوان ، أو من الخزاية بمعنى الحياء . ﴿ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ الضمير للعباد لأنهم معلومون أول ﴿ الضالين ﴾ .

(210/570)

﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي لا ينفعان أحداً إلا مخلصاً سليم القلب عن الكفر وميل المعاصي وسائر آفاته ، أو لا ينفعان إلا مال من هذا شأنه وبنوه حيث أنفق ماله في سبيل البر ، وأرشد بنيه إلى الحق وحثهم على الخير وقصد بهم أن يكونوا عباد الله مطيعين شفعاء له يوم القيامة . وقيل الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أي لا ينفع غنى إلاَّ غناه . وقيل منقطع والمعنى لكن سلامة ﴿ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ تنفعه .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ بحيث يرونها من الموقف فيتبجحون بأنهم المحشورون إليها .

﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيمِ لِلْغَاوِينَ ﴾ فيرونها مكشوفة ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها ، وفي اختلاف الفعلين ترجيح لجانب الوعد .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أين آلهتكم الذين تزعمون أنهم

شفعاؤكم . ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾ بدفع العذاب عنكم . ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ بدفعه عن أنفسهم لأنهم وآلهتهم يدخلون النار كما قال : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون ﴾ أي الآلهة وعبدتهم ، والكبكبة تكرير الكب لتكرير معناه كأن من ألقي في النار ينكب مرة بعد أخرى حتى يستقر في قعرها .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾ متبعوه من عصاة الثقلين ، أو شياطينه . ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ تأكيد لل ﴿ جُنُودُ ﴾ إن جعل مبتدأ خبره ما بعده أو للضمير و ﴿ مَا ﴾ عطف عليه وكذا الضمير المنفصل وما يعود إليه في قوله :

﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تالله إِن كُنَّا لَفِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ على أن الله ينطق الأصنام فتخاصم العبدة ويؤيده الخطاب في قوله :

(211/570)

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ﴾ أي في استحقاق للعبادة ، ويجوز أن تكون الضمائر للعبد كما في ﴿ قَالُواْ ﴾ والخطاب للمبالغة في التحسر والندامة ، والمعنى أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضلالة متحسرون عليها .

﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ المجرمون فَمَا لَنَا مِن شافعين ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء .

﴿ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ إذِ الأَخِلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاَّ المتقين ، أو فما لنا من شافعين ولا صديق ممن نعدهم شفعاء وأصدقاء ، أو وقعنا في مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق ، وجمع الشافع وحده قال ﴿ صَدِيقٍ ﴾ لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، أو لأن ال ﴿ صَدِيقٍ ﴾ الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء ، أو لإطلاق ال ﴿ صَدِيقٍ ﴾ على الجمع كالعدو لأنه في الأصل مصدر كالحنين والصهيل .

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ تمن للرجعة أقيم فيه "لو" مقام ليت لتلاقيهما في معنى التقدير ، أو شرط حذف جوابه . ﴿ فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ جواب التمني أو عطف على ﴿ كَرَّةً ﴾ أي : لو أن لنا أن نكر فنكون من المؤمنين .

﴿ إِنَّ فِي ذَلك ﴾ أي فيما ذكر من قصة إبراهيم . ﴿ لآيَةً ﴾ لحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر ، فإنها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير ، يتفطن المتأمل فيها لغزارة علمه لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالفته معهم وكمال إشفاقه عليهم وتصور الأمر في نفسه ، وإطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضاً وإيقاظاً لهم ليكون أدعى لهم إلى الاستماع والقبول .

﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أكثر قومه . ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ به .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ القادر على تعجيل الانتقام . ﴿ الرحيم ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا هم أو أحد من ذريتهم .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ ال ﴿ قَوْمُ ﴾ مؤنثة ولذلك تصغر على قويمة وقد مر الكلام في تكذيبهم المرسلين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ لأنه كان منهم . ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله فتتركوا عبادة غيره .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ مشهور بالأمانة فيكم .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله سبحانه .

﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على ما أنا عليه من الدعاء والنصح . ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾ .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ كرره للتأكيد والتنبيه على دلالة كل واحد من أمانته وحسم طمعه على وجوب طاعته فيما يدعوهم إليه فكيف إذا اجتمعا ، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص بفتح الياء في ﴿ أَجْرِيَ ﴾ في الكلمات الخمس .

﴿ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ الأقلون جاهاً ومالاً جمع الأرذل على الصحة ، وقرأ يعقوب "وأتباعك" وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو تبع كبطل وأبطال ، وهذا من سخافة عقلهم وقصور رأيهم على الحطام الدنيوية ، حتى جعلوا اتباع المقلين فيها مانعاً عن

اتباعهم وإيمانهم بما يدعوهم إليه ودليلاً على بطلانه ، وأشاروا بذلك إلى أن اتباعهم ليس عن نظر وبصيرة وإنما هو لتوقع مال ورفعة فلذلك :

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إنهم عملوه إخلاصاً أو طمعاً في طعمة وما عليَّ إلا اعتبار الظاهر .

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبِّي ﴾ ما حسابهم على بواطنهم إلا على الله فإنه المطلع عليها .

﴿ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ لعلمتم ذلك ولكنكم تجهلون فتقولون ما لا تعلمون .

﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ جواب لما أوهم قولهم من استدعاه طردهم وتوقيف إيمانهم عليه حيث جعلوا اتباعهم المانع عنه وقوله :

(213/570)

﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ كالعلة له أي ما أنا إلا رجل مبعوث لإنذار المكلفين عن الكفر والمعاصي سواء كانوا أعزاء أو أذلاء فكيف يليق بي في طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء ، أو ما عليَّ إلا إنذاركم إنذاراً بيناً بالبرهان الواضح فلا عليَّ أن أطردهم لاسترضائكم .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا نُوحُ ﴾ عما تقول . ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ من المشتومين أو المضروبين بالحجارة .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ إظهاراً لما يدعو عليهم لأجله وهو تكذيب الحق لا تخويفهم له واستخفافهم عليه .

﴿ فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ فاحكم بيني وبينهم من الفتاحة . ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ المؤمنين ﴾ من قصدهم أو شؤم عملهم .

﴿ فأنجيناه وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك المشحون ﴾ المملوء .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ﴾ بعد إنجائه . ﴿ الباقين ﴾ من قومه .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ شاعت وتواترت . ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 247.239 ﴾

(214/570)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) ﴾

التفسير : القصة الثانية قصة إبراهيم عليه السلام وكان يعلم عبدة أصنام ولكنه سألهم للإلزام والتبكيت . ومثله أهل المعاني بأن يقول أحد للتاجر : ما مالك ؟ وهو يعلم أن ماله

الرقيق ثم يقول له الرقيق : جمال وليس بمال . وإنما قال في سورة الصافات ﴿ ماذا تعبدون ﴾ [الصافات : 85] بزيادة " ذا " لأنه أراد هناك مزيد التوبيخ ولذلك بنى الكلام على الزيادة ثم اردفه بقوله ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون ﴾ [الصافات : 86] وحين صرح هنالك بالتوبيخ لم يجيبوه وههنا ظنوا أنه يريد الاستفهام حقيقة فأجابوه ولكنهم بسطوا الكلام بسطاً ولم يقتصروا على ﴿ أصناماً ﴾ بل زادوا ناصبه وعقبوه بقولهم ﴿ فنظل لها عاكفين ﴾ إظهاراً للابتهاج والافتخار . قال في الكشاف : وإنما قالوا ﴿ فنظل ﴾ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل . قلت : وهذا مبني على النقل الصحيح والظن به حسن . قال : لا بد في ﴿ يسمعونكم ﴾ من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم ؟ قلت : ويحتمل أن يكون المحذوف مفعولاً ثانياً أي هل يسمعونكم تدعون إذ تدعون وهو حكاية حال ماضية لأن " إذ " للمضي ومعناه استحضار الأحوال الماضية التي كانوا يدعونها فيها .

(215/570)

وحين تمسكوا في الجواب بطريقة التقليد قائلين على سبيل الإضراب ﴿ بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ نبههم إبراهيم بقوله ﴿ أفرأيتم ﴾ على أن الباطل لا يتغير بأن يكون قديماً

أو حديثاً ولا بأن يكون في مرتكبيه كثرة أو قلة ، وصرح بأن معبوديه أعداء لقوله تعالى ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ [مريم : 82] أو لأن الذي يغري على عبادتها هو الشيطان وهو أعدى عدو للإنسان ، وإنما لم يقل عدوّ لكم لأنه أراد تصوير المسألة في نفسه ليكون أدل على النصح وأقرب إلى القبول كأنه قال : إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدوّ . ويحكى عن الشافعي أن رجلاً واجهه بشيء فقال : لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب . وقوله ﴿ إلا رب العالمين ﴾ استثناء منقطع أي لكن رب العالمين حبيب لي . ثم وصف لهم الرب بأنه ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ أي خلق بدني على كماله الممكن له ثم يهدين في الاستقبال إلى ضروب مصالح الدين والدنيا كامتصاص الدم في البطن والثدي بعد الولادة نظيره ما مر في " طه " ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ [طه : 50] . ثم نبه بقوله ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين ﴾ أن الذي يتعلق به قوام البدن من الاغتذاء بالطعام والإساغة بالشراب هو من جملة إنعام الله تعالى لأنه خلق هناك قوى جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها ، ولولاها لما تم أمر الانتفاع بالغذاء بل نفس الغذاء من جملة نعمه الشاملة ، ثم قال ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ وذلك أن البدن ليس دائماً على النهج الطبيعي بحيث تصدر عنه الأفعال الموضوع هو لها سليمة فاسترداد الصحة بعد زوالها ليس إلا بإذن الله وبما خلق لكل داء دواء وإنما لم يقل أمرضني لأن كثيراً من اسباب المرض يحدث بإسراف الإنسان في المطعم والمشرب .

وأيضاً الصحة تحتاج إلى سبب قاهر يقسر الأخلاط والقوى على النسبة المطلوبة ، أما المرض فإنه بسبب تنافر الأخلاط وطلب كل منها مركزه الصلي . وأيضاً فيه رعاية الأدب في مقام المدح

(216/570)

وتعداد النعم وإنما لم يراع هذه النكتة في قوله ﴿ والذي يميتني ﴾ لأن الإماتة ليست بضر كالمرض . إما بعدم الإحساس وقتئذ ، وإما لأنها مقدمة الوصول إلى عالم الخير والراحة . وإنما زاد لفظة " هو " في الإطعام والشفاء لأنهما قد ينسبان إلى الإنسان فيقال : زيد يطعم وعمرو يداوي . فأكد إعلاماً بأن ذلك في الحقيقة من الله ، واما الإماتة والإحياء فلا يدعيهما مدع فأطلق : ثم اشار إلى ما بعد الإحياء من المجازاة بقوله ﴿ والذي أطمع ﴾ فحمل الأشاعرة الطمع على مجرد الظن والرجاء بناء على أنه لا يجب لأحد على الله شيء . وحمله المعتزلة على اليقين تارة وعلى هضم النفس والتواضع وتعليم الأمة أخرى ، كما أنه أضاف الخطيئة إلى نفسه لمثل ذلك .

وقد تحمل الخطيئة على المعاريض المنسوبة إليه من قوله ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : 89] وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ [الأنبياء : 63] وقوله لسارة " هي أختي " وإنما علق

المغفرة بيوم الدين لأن أثرها يتبين يومئذ وهو في الدنيا خفي . قال بعضهم : فائدة زيادة " لي " هي أن يعلم أن المغفرة فائدتها تعود إليه والله سبحانه لا يستفيد بذلك كمالاً لم يكن له . والمراد : أطمع أن يغفر لي لمجرد عبوديتي له واحتياجي إليه لا بواسطة شفيع كما قال لجبرائيل : أما إليك فلا .

(217/570)

وحين قدم الثناء شرع في الدعاء تعليماً لأمته إذا أرادوا مسألة فقال ﴿ رب هب لي حكماً ﴾ وهو إشارة إلى كمال القوة النظرية ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ وهو إشارة إلى كمال القوة العملية . ولقد اجابه حيث قال ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ وقيل : الحكم النبوة إذ النبي ذو حكمة وذو حكم . بين عباد الله تعالى وزيف بأنه كان حاصلاً فكيف يطلبه ؟ والظاهر أنه اراد بالحكم النسب الذهنية المطابقة للخارجية أعني العلوم النظرية كما بينا . قالت الأشاعرة : في الآية دلالة على مسألة خلق الأعمال ، إنه طلب العلم من الله فلولا أن العلم بخلقه وإلا كان السؤال عبثاً . وحمله المعتزلة على منح الألطاف . قيل : الحكم المطلوب بالدعاء إن كان هو العلم بغير الله لزم أن يكون سائلاً لما يشغله عن الله وهو باطل ، وإن كان العلم بالله بقدر ما هو شرط صحة الإيمان لزم طلب ما هو حاصل

لأدنى المؤمنين فضلاً عن إبراهيم ، فإذن هو العلم الزائد على ما هو ضروري في الإيمان وهو الوقوف على حقيقة الذات والصفات ، ثم لا يكشف المقال عنها غير الخيال وبه يصير المؤمن من الواصلين إلى العين دون السامعين إلى الأثر . ثم طلب الذكر الجميل بقوله ﴿ واجعل لي لسان صدق ﴾ والإضافة فيه كقوله ﴿ قدم صدق ﴾ [يونس : 2] وقال ابن عباس : وقد أعطاه الله ذلك لقوله ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ [الصافات : 78] ولهذا اتفق أهل الأديان قاطبة على حبه وادعاء متابعته . ومدح الكافر ليس مقصوداً لذاته من حيث هو كافر وإنما المقصود أن يكون ممدوح كل إنسان ومحموداً بكل لسان . وفائدة الثناء على الشخص بعد وفاته هو انصراف الهمم إلى ما به يحصل له عند الله زلفى وقد يصبر ذلك المدح داعياً للمادح أو لمن يسمعه إلى اكتساب مثل تلك الفضائل . وقيل : سأل ربه أن يجعل من ذريته في آخر الزمان من يكون داعياً إلى ملته وهو محمد صلى الله عليه وسلم . ثم سأل ما هو غاية كل سعادة فقال ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ وقد

مر معنى هذه الوراثة في قوله ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها ﴾ [الأعراف : 43]
وكذلك في سورة مريم ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا ﴾

(219/570)

[مريم : 63] ثم طلب السعادة الحقيقية لأشد الناس التصاقاً به وهو ابوه قائلاً ﴿ واغفر لأبي ﴾ وقد سبق في آخر التوبة وفي مريم " ما يتعلق به من المباحث . وههنا سؤال : وهو أنه متى حصلت الجنة بدعائه امتنع حصول الخزي فكيف قال بعده ﴿ ولا تخزني ﴾ وايضاً قال تعالى ﴿ إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ [النحل : 27] وما كان نصيب الكافر كيف يستجير منه المعصوم ؟ أجاب عنه في التفسير الكبير كما أن حسنات الأبرار سيئات المقربين فكذلك درجات الأبرار دركات المقربين ، وخزي كل واحد ما يليق بحاله فكأنه سأل الشركة أوّلاً ثم الخصوصية ثانياً . وأقول : يحتمل أن يكون هذا الدعاء من تتمة دعائه لأبيه أي لا تخزني ولا تفضحني بسبب تعذيب ابي يوم يبعث الضالون أو العباد كلهم ، ومثل هذا الضمير مما يعلم عوده بالقرينة . ويجوز أن يكون سأل الجنة بشرط التعظيم والإجلال ، ويجوز أن يكون أخر هذا الدعاء لما يعقبه من حديث يوم القيامة وأهوالها وأحوالها فاراد أن لا ينقطع نظم الكلام . وفي قوله ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ إشارة

إلى ما وصفه الله به في قوله تعالى ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ [الصافات : 84] وفي هذا الاستثناء وجوه منها : أنه منقطع والمضاف محذوف أي إلا حال من أتى الله بقلب سليم والمراد بالحال سلامة القلب والمعنى : أن المال والبنين لا ينفعان وإنما ينفع سلامة القلب عن الأمراض الروحانية كالجهل وسائر الأخلاق الذميمة ، ويندرج في سلامة القلب سلامة سائر الجوارح لأنه رئيسها . ولا شك أن المال والبنين ليسا من جنس سلامة القلب فيكون الاستثناء منقطعاً . ومنها أنه متصل وذلك على وجهين : أحدهما لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه . وثانيهما أن يجعل من باب قولهم :

(220/570)

تحية بينهم ضرب وجيع . . . والمضاف المحذوف الحال أو السلامة نظيره أن يقال لك : هل لزيد مال وبنون ؟ فتقول : ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه وإثبات سلامة القلب له بدلاً عن ذلك . ومنها أن يكون الموصول مفعولاً لينفع والاستثناء مفرغ أي لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا رجلاً سلم قلبه مع ماله وبنيه حيث أنفقه في طاعة الله وما قصر في باب تأديبهم وإرشادهم ، أو سلم قلبه من فتنة المال والبنين فلم يكفر ولم يعص . وقد يفسر

السليم بالذائب من خشية الله تعالى .

وحين أنجرّ الكلام إلى ذكر يوم القيامة وصف الله تعالى أو إبراهيم أحواله وأهواله فقال ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ قال المفسرون : الجنة تقرب من موقف السعداء ليكون لهم فرجاً معجلاً ، وتجعل النار بارزة مكشوفة للأشقياء ليزدادوا غماً وحسرة ، ولمثل هذا اليوم وبخهم بقوله ﴿ إينما كنتم تعبدون ﴾ يعني الآلهة التي كنتم تعبدونها ﴿ من دون الله هل ينصرونكم ﴾ بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنهم وآلهتهم وقود النار وذلك قوله ﴿ فكبكبوا فيها هم ﴾ أي الآلهة ﴿ والغاوون ﴾ الذين عبدوهم قال جار الله : الكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقى في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها أعاذنا الله منها .

(221/570)

والمراد بجنود إبليس شياطينهم أو متبعوه من عصاة الجن والإنس . ﴿ قالوا ﴾ يعني الغاوين وجنود إبليس ﴿ وهم ﴾ يعني والحال أن الأصنام وعبدتهم ﴿ فيها يختصمون ﴾ قال أكثر المفسرين : يجوز أن ينطق الله الأصنام بحيث يصح منها التخاصم . وقيل : إن هذا التخاطب بين العصاة والشياطين إذ سووهم برب العالمين . والمراد بالمجرمين على

التفسيرين الرؤساء والكبراء . وعن السدي : الأولون الذين سنوا الشرك . وعن ابن جريج : إبليس وقابيل لأنه سن القتل وأنواع المعاصي : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ خالص يهمه ما يهمنا وفيه نفي الشفعاء والصديق راساً أو نفي للذين كانوا عدّوهم شفعاء واصدقاء من الأصنام والرؤساء ، أو نفي للانتفاع بهم قصدوا بنفيهم ما يتعلق بهم من الفائدة ، فكل عديم النفع حكمه حكم المعدوم . قال جار الله : إنما جمع الشافع ووحد الصديق لكثرة الشفعاء لأجل الخشية عادة ، ولكن الصديق الصادق أعز من الكبريت الأحمر حتى زعم بعض الحكماء أنه اسم لا معنى له . وجوز أن يكون الصديق في معنى الجمع والكرة الرجعة إلى الدنيا " ولو " في معنى التمني . وقوله ﴿ فنكون ﴾ جواب التمني أو عطف في المعنى على ﴿ كرة ﴾ أي ليت لنا كرة فإن نكون ، وعلى هذا جاز أن تكون " لو " على أصل الشرط والجواب محذوف وهو لفعلنا كيت وكيت . ثم بين أن فيما كره من قصة إبراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين .

(222/570)

القصة الثالثة قصة نوح : ولا ريب أن نبأه عظيم فقد كان يدعوهم الف سنة غلا خمسين عاماً ، ومع ذلك لم يزد قومه إلا التكذيب . والقوم مؤنث بدليل قوله ﴿ كذبت ﴾ وكان

أميناً فيهم مشهوراً كمحمد صلى الله عليه وسلم في قريش . وكرر قوله ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ تأكيداً وتقريراً في النفوس مع أنه علق كل واحد بسبب وهو الأمانة في الأول وقطع الطمع في الثاني نظيره قول الرجل لغيره : ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً ؟ ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً ؟ وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته لأن تقوى الله علة طاعته . قوله ﴿ وما علمي ﴾ يريد ايّ شيء علمي ومعناه انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله عز وجل واطلاعه على باطنهم ومكنون ضميرهم كأنهم طعنوا في إيمانهم ايضاً فذكر أن حسابهم على الله وأنه لم يبعث إلا للنذارة .

ويجوز أن يكون فسر لهم الرذالة بما هو الرذالة عنده من سوء الأعمال وفساد العقائد فبنى جوابه على ذلك وقال : ما علمي إلا اعتبار الظاهر والله يتولى السرائر . وفي قوله ﴿ لو تشعرون ﴾ إشارة إلى أنهم لا يصدقون بالحساب والجزاء ، وفيه إنكار أن يسمى المؤمن رذلاً وإن كان أفقر الناس وأوضعهم فالغني غني الدين والنسب نسب التقوى . ﴿ رب أن قومي كذبون ﴾ ليس إخباراً لأنه علام الغيوب وإنما هو تمهيد مقدمة لطلب الفتح والحكومة . والفلك المشحون المملوء من كل زوجين اثنين مع نوح وأهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 273 . 277 ﴾

وقال الخطيب الشربيني :

﴿ وأوحينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة حين أردنا فصل الأمر وإنجاز الموعود ﴿ إلى موسى أن أسر ﴾ ليلاً ﴿ بعبادي ﴾ وذلك بعد سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوّاً وفساداً ، وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون ووصل الهمزة بعدها من سرى ، وقرأ الباقون بسكون النون وقطع الهمزة بعدها ، ثم علل أمره له بالسير في الليل بقوله تعالى : ﴿ إنكم متبعون ﴾ أي : لا تظنّ أنهم لكثرة ما رأوا من الآيات يكفون عن اتباعكم فأسرع بالخروج لتبعدوا عنهم إلى الموضع الذي قدرت في الأزل أن يظهر بحري ، والمراد : يوافقهم عند البحر ، ولم يكتم إتباعهم عن موسى لعدم تأثره به ، والمعنى : أني بنيت تدبير أمركم وأمرهم على أن تتقدّموا ويتبعوكم حتى يدخلوا مدخلكم ويسلكوا مسلككم من طريق البحر فأطبقه عليهم .

روي : أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوتهم ولد فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه . وروي أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى أن أجمع بني إسرائيل كل أربعة أبيات في بيت ثم اذبحوا الجداء واضربوا بدمائها أبوابكم فإني سآمر الملائكة أن لا يدخلوا بيتاً على بابه دم وآمرهم بقتل أبكار القبط واختبزوا خبزاً فطيراً فإنه أسرع لكم ، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري ، وروي أنّ قوم موسى قالوا لقوم فرعون إن لنا في هذه الليلة

عيداً ثم استعاروا منهم حليهم بهذا السبب ثم خرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جانب البحر ، فلما سمع فرعون ذلك جمع قومه وتبعهم كما قال تعالى:

﴿ فأرسل فرعون ﴾ أي : لما أصبح وعلم بهم ﴿ في المدائن حاشرين ﴾ أي : رجالاً يجمعون الجنود بقوة وسطوة وإن كرهوا ويقولون تقوية لقلوبهم وتحريكاً لهممهم .

(224/570)

﴿ إن هؤلاء ﴾ إشارة بأداة القرب تحقيراً لهم إلى أنهم في القبضة وإن بعدوا لما بهم من العجز وبآل فرعون من القوّة فليسوا بحيث يخاف قوتهم ﴿ لشرذمة ﴾ أي : طائفة وقطعة من الناس ﴿ قليلون ﴾ أي : بالنسبة إلى مالنا من الجنود التي لا تحصى فذكرهم أولاً بالاسم الدال على القلة بالشرذمة وهي الطائفة القليلة ، ومنها قولهم : ثوب شرذم للذي بلي وتقطع قطعاً ، ثم جعلهم قليلاً بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلاً واختار جمع السلامة الذي هو للقلة مع أنهم كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً وسماهم بشرذمة قليلين وذلك بالنسبة لما أرسله خلفهم ، فإنّ الذي أرسله فرعون في أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور ومع كل ملك ألف ، وخرج فرعون في جمع عظيم وكان مقدمته سبعمائة ألف كل رجل على حصان وعلى رأسه بيضة ، وعن ابن عباس خرج فرعون في ألف ألف

حصان سوى الإناث فلذلك استقل قوم موسى ، قال الزمخشري ويجوز أن يريد بالقلة الذلة والقماءة ولا يريد قلة العدد ، والمعنى : أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع عليهم غلبتهم وعلوّهم ولكنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ، كما قال تعالى عنهم .

﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ أي : بما فجعونا به من أنفسهم وبما استعاروه من الزينة من الأواني الذهب والفضة وفاخر الكسوة فلا رحمة في قلوبهم بجمعهم .

﴿ وإنا لجميعٌ حذرون ﴾ أي : من عادتنا الحذر والتيقظ واستعمال الحزم في الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه ، وقرأ ابن ذكوان والكوفيون بألف بعد الحاء ، والباقون بغير ألف ، قال أبو عبيدة والزجاج : هما بمعنى واحد يقال رجل حذر وحذور وحاذر بمعنى ، وقيل بل بينهما فرق فالحذر المتيقظ والحاذر الخائف .

(225/570)

قيل : الأول للتجدّد لأنه اسم فاعل ، والثاني : للثبات لأنه صفة مشبهة وقيل : الحاذر المتبلج الذي له شوكة ، السلاح وهو أيضاً من الحذر لأنّ ذلك إنما يفعل حذراً ، يحكى أنه كان يتصرف في خراج مصر وأنه يجزئه أربعة أجزاء : أحدها : لوزرائه وكتابه وجنده

والثاني : لحفر الأنهار وعمل الجسور والثالث : له ولولده والرابع : يفرّق في المدن ، فإن لحقهم ظلم أو ظمأ أو اشتجار أو فساد غلة أو موت عوامل قوّاهم به ، ويروى أنه قصده قوم فقالوا نحتاج إلى أن نحفر خليجاً لنعمر ضياعنا فأذن في ذلك واستعمل عليهم عاملاً فاستكثر ما حمل من خراج تلك الناحية إلى بيت المال فسأل عن مبلغ ما أنفقوه في خليجهم فإذا هو مائة ألف دينار ، فأمر بحملها إليهم فامتنعوا من قبولها ، فقال : اطرحوها عليهم فإنّ الملك إذا استغنى بمال الرعية يعني رعيته افتقر ، وإن الرعية إذا استغنت بمال ملكهم استغنى واستغنوا ، ولما كان التقدير فأطاعوا أمره ونفروا على كل صعب وذلوا ، عطف عليه قوله تعالى بما آل إليه أمرهم .

﴿ فأخرجناهم ﴾ أي : فرعون وجنوده بما لنا من القدرة من مصر ليلحقوا بموسى وقومه إخراجاً حثيثاً مما لا يسمع أحد بالخروج منه ﴿ من جنات ﴾ أي : بساتين كانت على جانبي النيل يحق لها أن تذكر ﴿ وعيون ﴾ أي : أنهار جارية في الدور من النيل ، وقيل : عيون تخرج من الأرض لا يحتاج معها إلى نيل ولا مطر .

﴿ وكنوز ﴾ أي : أموال ظاهرة من الذهب والفضة وسميت كنوز لأنها لم يعط حق الله منها وما لم يعط حق الله تعالى منه فهو كنز وإن كان ظاهراً ، قيل : كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام على فرس عتيق في عنق كل فرس طوق من ذهب ﴿ ومقام ﴾ من المنازل ﴿ كريم ﴾ أي : مجلس حسن للأمراء والوزراء بحقه اتباعهم ، وعن الضحاك : المنابر

وقيل : السرر في الحجال ، وذكر بعضهم أنه كان إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف عليهم الأقبية من الديباج مخوصة بالذهب .

(226/570)

﴿ كذلك ﴾ أي : أخرجنا كما وصفنا ﴿ وأورثناها ﴾ أي : تلك النعم السنية بمجرّد خروجهم بالقوّة وبعد إغراق فرعون وجنوده بالفعل ﴿ بني إسرائيل ﴾ أي : جعلناهم بحيث يرثونها لأنا لم نبق لهم مانعاً يمنعهم منها بعد أن كانوا مستعبدين بين أيدي أربابها ، واستشكل إرثهم لها بالفعل لقوله تعالى في الدخان ﴿ قوماً آخرين ﴾ (الدخان ،) وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى في ذلك المحل . بل قيل : إنّ بني إسرائيل لم يرجعوا إلى مصر بعد ذلك ولما وصف تعالى الإخراج وصف أثره بقوله تعالى : مرتباً عليه بالفعل وعلى الإيراث بالقوّة .

﴿ فأتبعوهم ﴾ أي : جعلوا أنفسهم تابعة لهم ﴿ مشرقين ﴾ أي : داخلين في وقت شروق الشمس بطلوعها صبيحة الليلة التي سار فيها بنو إسرائيل ، ولولا تقدير العزيز العليم بخرق ذلك للعادة لم يكن ذلك على حكم العادة في أقل من عشرة أيام فإنه تعجز الملوك عن مثله ، واستمرّوا إلى أن لحقوهم عند بحر القلزم .

﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي : رأى كل منهما الآخر ﴿ قال أصحاب موسى ﴾ ضعفاً وعجزاً استصحاباً لما كانوا فيه عندهم من الذل ، ولأنهم أقل منهم بكثير بحيث يقال إن طليعة آل فرعون كانت على عدد بني إسرائيل وذلك محقق لتقليل فرعون لهم ، وكأنه عبر عنهم بأصحاب دون بني إسرائيل ؛ لأنه كان قد آمن كثير من غيرهم ﴿ إنا لمدركون ﴾ أي : يدركنا فرعون وقومه وقد صرنا بين سدّين العدّو وراءنا والبحر أمامنا ولا طاقة لنا بذلك .

﴿ قال ﴾ أي : موسى عليه السلام وثوقاً بوعد الله تعالى ﴿ كلا ﴾ أي : لا يدركونكم أصلاً ، ثم علل ذلك تسكيناً لهم بقوله ﴿ إن معي ربي ﴾ أي : بنصره فكأنهم قالوا وما عساه يفعل وقد وصلونا قال ﴿ سيهدين ﴾ أي : يدلني على طريق النجاة ، روي : أن مؤمن آل فرعون كان بين يدي موسى عليه السلام فقال أين تذهب فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال : أمرت بالبحر ولعلي أؤمر بما أصنع .

(227/570)

﴿ فأوحينا ﴾ أي : فتسبب عن كلامه الدال على المراقبة أنا أوحينا ونوّه باسم الكليم جزاء له على ثقته به سبحانه وتعالى ، فقال تعالى : ﴿ إلى موسى ﴾ وفسر الوحي الذي

فيه معنى القول بقوله تعالى : ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ أي : الذي أمامكم وهو بحر القلزم الذي يتوصل أهل مصر منه إلى الطور وإلى مكة المشرّفة وما والاها ، وقيل : النيل ، فضربه ﴿ فانفلق ﴾ بسبب ضربه لما ضربه امتثالاً لأمر ربه وصار اثني عشر فرقاً على عدد أسباطهم ﴿ فكان كل فرق ﴾ أي : جزء وقسم عظيم منه ﴿ كالطود ﴾ أي : الجبل في إشرافه وطوله وصلابته بعدم السيلان ﴿ العظيم ﴾ المتطاول في السماء الثابت في قعره لا يتزلزل لأنّ الماء كان منبسطاً في أرض البحر فلما انفلق وانكشف فيه الطريق انضم بعضه إلى بعض فاستطال وارتفع في السماء بين تلك الأجزاء مسالك سلكوها لم يبتل منها سرج الراكب .

قال الزجاج : لما انتهى موسى إلى البحر هاجت الريح والبحر يرمي بموج كالجبال ، فقال يوشع : يا كليم الله يا ابن امرأة عمران قد غشينا فرعون والبحر أمامنا ، فقال موسى : ههنا فخاض يوشع الماء وجاز البحر ما يواري حافر دابته الماء ، وقال الذي يكتم إيمانه يا كليم الله أين أمرت قال ههنا ، فكبح فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقيه ، ثم أقحمه البحر فارتسب في الماء ، وصنع القوم مثل ذلك فلم يقدروا فجعل موسى لا يدري كيف يصنع ، فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه ، فانفلق فصار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبط طريق فإنّ الرجل على فرسه لم يبتلّ سرجه ولا لبده .

روي : أنّ موسى قال عند ذلك يا من كان قبل كل شيء والمكوّن لكل شيء والكائن بعد كل شيء ، وهذا معجز عظيم من وجوه : أحدهما : أن تفرّق ذلك الماء معجز وثانيها : أنّ اجتماع ذلك الماء فوق كل فرق منه حتى صار كالجبل معجز أيضاً ، وثالثها : أنه ثبت في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذي تكامل معه عدد بني إسرائيل وهذا معجز ثالث ، ورابعها : أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر بعضهم إلى بعض وهذا معجز رابع ، وخامسها : أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب آل فرعون فطمعوا أن يتخصلوا من البحر كما تخلص موسى عليه السلام وهذا معجز خامس .

فائدة : لكل من جميع القراء في الراء من فرق الترقيق والتفخيم . ولما كان التقدير : وأدخلنا كل شعب منهم في طريق من تلك الطرق عطف عليه .

﴿ وأزلفنا ﴾ أي : قربنا بعظمتنا ﴿ ثم ﴾ أي : هناك ﴿ الآخرين ﴾ أي : فرعون وقومه حتى سلكوا مسالكهم وقال أبو عبيدة : وأزلفنا أخلفنا ، ومنه ليلة المزدلفة أي : ليلة الجمع ، عن عطاء بن السائب : أنّ جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وقوم فرعون وكان يسوق بني إسرائيل ويقول ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط ويقول رويدكم ليلحق آخركم أولكم .

﴿ وأنجينا موسى ومن معه ﴾ وهم من تبعوه من قومه وغيرهم ﴿ أجمعين ﴾ أي : لم نقدّر على أحد منهم الهلاك بل أخرجناهم من البحر على هيئته المذكورة .

﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي : فرعون وقومه أجمعين بانطباق البحر عليهم لما تم دخولهم البحر وخروج بني إسرائيل منه ، ويقال هذا البحر بحر القلزم ، وقيل : هو بحر من وراء مصر يقال له أساف .

(229/570)

﴿ إنّ في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم العالي الرتبة من قصة موسى وفرعون وما فيها من العظات ﴿ لآية ﴾ أي : علامة عظيمة دالة على قدرة الله تعالى لأنّ أحداً من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته وكون وقوعه مصلحة في الدين والدنيا أو على صدق موسى لكونه معجزة له وعلى التحذير عن مخالفة أمر الله تعالى ورسوله عليه السلام ، وفي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه قد بغتم بتكذيب قومه معه ظهور المعجزات عليه فنبه الله تعالى بهذا الذكر على أنّ له أسوة بموسى وغيره ﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أي : أهل مصر الذين شاهدوها والذين وعظوا بسماعها ﴿ مؤمنين ﴾ أي : متصفين بالإيمان الثابت ، أما القبط فما آمن منهم إلا السحرة ومؤمن آل فرعون وامرأة فرعون والمرأة التي

دلتهم على عظام يوسف عليه السلام ، وأما بنو إسرائيل فكان كثير منهم متزلزلاً يتعنت كل قليل ويقول ويفعل ما هو كفر حتى تداركهم الله تعالى على يدي موسى عليه السلام ومن بعده ، وأول ما كان من ذلك سؤالهم إثر مجاوزة البحر أن يجعل لهم إلهاً كالأصنام التي مرّوا عليها ، وأمّا غيرهم ممن تأخر عنهم فحالهم معروف وأمرهم مشاهد مكشوف فقد سألوه بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وطلبوا رؤية الله جهرة .

﴿ وإن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإعلاء أمرك واستنقاذ الناس من ظلام الجهل على يدك ﴿ لهو العزيز ﴾ أي : القادر على الانتقام من كل فاجر ﴿ الرحيم ﴾ بعباده لأنه تعالى أفاض عليهم نعمه وكان قادراً على أن يهلكهم ، فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله . ولما أتم سبحانه وتعالى ما أراد من قصة موسى عليه السلام ليعرف محمداً صلى الله عليه وسلم أن تلك المحن التي أصابته كانت حاصلة لموسى ، أتبعه دلالة على رحمته وزيادة في تسلية نبيه قصة إبراهيم عليه السلام وهي القصة الثانية بقوله تعالى:

(230/570)

﴿ واتل ﴾ أي : اقرأ قراءة متتابعة يا أشرف الخلق ﴿ عليهم ﴾ أي : كفار مكة وقوله تعالى : ﴿ نبأ ﴾ أي : خبر ﴿ إبراهيم ﴾ قراءة نافع وابن كثر وأبو عمرو في الوصل بتسهيل

الهمزة الثانية ، وحققها الباقون ، وفي الابتداء بالثانية الجميع يحققون ويبدل منه .

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قال لأبيه وقومه ﴾ منبهاً لهم على ضلالهم لا مستعلماً لأنه كان عالماً بحقيقة حالهم ولكنه سألهم بقوله : ﴿ ما ﴾ أي : أي شيء ﴿ تعبدون ﴾ أي : تواطئون على عبادته ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شيء كما تقول للتاجر ما مالك وأنت تعلم أن ماله الرقيق ، ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال .

﴿ قالوا ﴾ في جوابه ﴿ نعبد أصناماً ﴾ ، فإن قيل : قوله عليه السلام ما تبعدون سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا أصناماً كقوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ (البقرة :)

وكذا قوله تعالى : ﴿ ماذا قال ربكم قالوا الحق ﴾ (سبأ :)

وكقوله تعالى : ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾ ؟ (النحل :)

أجيب : بأنّ هؤلاء قد أجابوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين فاشتملت على جواب إبراهيم عليه السلام وعلى ما قصدوه من إظهار ما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار ، ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم : نعبد ﴿ فنظل لها عاكفين ﴾ ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده ، ومثاله أن تقول لبعض الشطار ما تلبس في بلادك فيقول : ألبس البرد إلا تحمى فأجر ذيله بين جواري الحيّ ، وإنما قالوا نظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون

الليل ، يقال ظلّ يفعل كذا إذا فعل بالنهار ، والعكوف : الإقامة على الشيء ، ثم إن إبراهيم عليه السلام .

(231/570)

﴿ قال ﴾ منبهاً على فساد مذهبهم ﴿ هل يسمعونكم ﴾ أي : يسمعون دعاءكم أو يسمعونكم تدعون فحذف ذلك لدلالة ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ تدعون ﴾ عليه ، فعلى الأول : هي متعدّية لواحد اتفاقاً ، وعلى الثاني : هي متعدية لاثنين قامت الجملة المقدرة مقام الثاني وهو قول الفارسيّ ، وعند غيره الجملة المقدرة حال ، وقرأ نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم بإظهار الذال عند التاء ، والباقون بالإدغام .

﴿ أو ينفعونكم ﴾ إن عبدتموهم ﴿ أو يضرّون ﴾ أي : يضرونكم إن لم تعبدوهم ، ولما أقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام عليهم هذه الحجة الباهرة وهو أنّ الذي يعبدونه لا يسمع دعاءهم حتى يعرف مقصودهم ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرّ فكيف يعبد ما هذه صفته ولم يجدوا ما يدفعون به حجته إلا التقليد .

﴿ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك ﴾ أي : مثل فعلنا هذا الفعل العالي الشأن ولو لم يكن عند من نعبدهم شيء من ذلك ، ثم صوّر إحالة آبائهم في نفوسهم تعظيماً لأمرهم بقولهم :

﴿ يفعلون ﴾ أي : فنحن نفعل كما فعلوا فإنهم حقيقيون منا بأن لا نخالفهم مع سبقهم لنا إلى الوجود فهم أرصن منا عقولاً وأعظم تجربة فلولا أنهم رأوا ذلك حسناً ما واظبوا عليه ، وهذا تقليد محض خال عن أدنى نظر كما تفعل البهائم والطير في تبعها لأولها ، ثم إنّ إبراهيم عليه السلام .

﴿ قال ﴾ معرضاً عن جواب كلامهم لما رآه ساقطاً لا يرتضيه عاقل ﴿ أفرأيتم ﴾ أي : تسبب عن قولكم هذا أني أقول لكم أرأيتم ، أي : إن لم تكونوا رأيتموهم رؤية موجبة لتحقق أمرهم فانظروهم نظراً شافياً ﴿ ما كنتم تعبدون ﴾ أي : مواظبين على عبادتهم .

﴿ أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴾ أي : الذين هم أقدم ما يكون فإنّ التقدم والأولية لا يكون برهاناً على الصحة ، والباطل لا ينقلب حقاً بالقدم .

﴿ فإنهم عدوّ لي ﴾ أي : أعداء لي ، وإنما وحده على إرادة الجنس ويجيء العدوّ والصديق في معنى الواحد والجماعة ، قال القائل:

*وقوم على ذوي مثرة ** أراهم عدوّاً وكانوا صديقاً *

(232/570)

ومنه قوله تعالى : ﴿ وهم لكم عدوّ ﴾ (الكهف :)

تشبهاً بالمصادر كالحنين والصهيل ، وقيل : هو من المقلوب أراد أني عدوّ لهم فإنّ من عاديته فقد عاداك ، وقرأ نافع أفرايتم بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ، ولورش أيضاً إبدالها ألفاً ، وأسقطها الكسائي ، وحققها الباقون .

فإن قيل : لم قال فإنهم عدوّ لي ولم يقل فإنها عدوّ لكم ؟

أجيب : بأنه عليه السلام صور المسألة في نفسه بمعنى أني فكرت في أمري فرأيت عبادتي ولها عبادة للعدوّة فاجتنبتها وأراهم أنها نصيحة نصح بها نفسه فإذا تفكروا قالوا ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى إلى القبول وأبعث إلى الاستماع منه ، ولو قال فإنهم عدوّ لكم لم يكن بتلك المثابة ولأنه دخل في باب من التعريض وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمّل إلى التقبل ، ومنه ما يحكى عن الشافعيّ رضي الله عنه أن رجلاً واجهه بشيء فقال : لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب ، وسمع رجل ناساً يتحدثون في الحجر فقال : ما هو ببيتي ولا ببيتكم ، وقوله ﴿ إلا رب العالمين ﴾ أي : مدبر هذه الأكوان كلها يصح أن يكون استثناء منقطعاً بمعنى أنهم عدوّ لي لا أعبدهم لكن رب العالمين فإني أعبده ، وأن يكون متصلاً على أن الضمير لكل معبود عبدوه وكان من آبائهم من عبد الله تعالى فكأنه قال إلا رب العالمين فإنه

ليس بعدوّي بل هو ولي ومعبودي ، ثم شرع يصفه بما هم به عالمون من أنه على الضدّ الأقصى من كل ما عليه أصنامهم بقوله:

(233/570)

﴿ الذي خلقني ﴾ أي : أوجدني على هيئة التقدير والتصوير ﴿ فهو ﴾ أي : فتسبب عن تفرده بخلقي أنه هو لا غيره ﴿ يهدين ﴾ أي : إلى الرشاد ولا يعلم باطن المخلوق ويقدر على التصرف فيه غير خالقه ولا يكون خالقه إلا سميعاً بصيراً ضاراً نافعاً له الكمال كله وذكر الخلق بالماضي لأنه لا يتجدد في الدنيا ، والهداية بالمضارعة لتجددها وتكرّرها ، لأنه تعالى لما أتم خلقه ونفخ فيه الروح عقب ذلك هدايته المتصلة التي لا تنقطع إلى كل ما يصلحه ويعينه وإلا فمن هداه إلى أن يتغذى بالدم في البطن امتصاصاً ؟ ومن هداه إلى معرفة الثدي عند الولادة وإلى معرفة مكانه ؟ ومن هداه لكيفية الارتضاع إلى غير ذلك ديناً ودنياً .

﴿ والذي ﴾ أي : ﴿ هو ﴾ لا غيره ﴿ يطعمني ويسقين ﴾ أي : يرزقني ويغذيني بالطعام والشراب ولو أراد أعدم ما آكل وما أشرب أو أصابني بآفة لا أستطيع معها أكلاً ولا شرباً ، ونبه بذكر الطعام والشراب على ما عداهما .

تنبيه : يجوز في والذي يطعمني ويسقين أن يكون مبتدأ وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه وكذا الذي بعده ، ويجوز أن تكون أوصافاً للذي خلقني ودخول الواو جائز كقوله:

*إلى الملك القرم وابن الهمام **وليث الكتيبة في المزدحم*

وتكرير الموصول على الوجهين للدلالة على أن كل واحدة من الصلات مستقلة باقتضاء الحكم .

﴿ وإذا مرضت ﴾ أي : باستيلاء بعض الأخلاط على بعض لما بينهما من التنافر الطبيعي ﴿ فهو ﴾ أي : وحده ﴿ يشفين ﴾ أي : بسبب تعديل المزاج بتعديل الأخلاط وقسرها عن الاجتماع لا بطبيب ولا غيره .

فإن قيل : لم أضاف المرض إلى نفسه مع أنّ المرض والشفاء من الله تعالى ؟

أجيب : بأنه قال ذلك استعمالاً لحسن الأدب كما قال الخضر عليه السلام ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ (الكهف :)

(234/570)

وقال ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ﴾ (الكهف ،) ، وأجاب الرازي بأنّ أكثر أسباب المرض محدث بتفريط الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ، ومن ثم قال الحكماء لو

قيل لأكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا التخم ، وبأنّ الشفاء محبوب وهو من أصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم ، وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إلى الله تعالى ولا ينتقض ذلك بإسناد الإماتة إليه كما سيأتي ، فإنّ الموت ليس بضرّ لأنّ شرط كونه ضرّاً وقوع الإحساس به وحال الموت لا يحصل الإحساس به إنما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض ، ولأنّ الأرواح إذا كملت في العلوم والأخلاق كان بقاؤها في هذه الأجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض .

﴿ والذي يميتني ﴾ يقبض روحي في الدنيا ليخلصني من آفاتها ﴿ ثم يحيين ﴾ للمجازاة في الآخرة كما شفاني من المرض ، ولهذا التراخي بين الموت والإحياء أتى بثم هنا لأنّ الإماتة في الدنيا والإحياء في الآخرة ، ولما ذكر البعث ذكر ما يترتب عليه بقوله:

﴿ والذي أطمع ﴾ هضماً لنفسه وإطراحاً لأعماله ﴿ أن يغفر ﴾ أي : يمحو أو يستر ﴿ لي خطيئتي ﴾ أي : تقصيري عن أن أقدره حق قدره ﴿ يوم الدين ﴾ أي : الجزاء .

روي أنّ عائشة قالت قلت يا رسول الله : إنّ ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه ؟ قال : "لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين" وهذا كله احتجاج من إبراهيم على قومه أنه لا يصلح للإلهية إلا من يفعل هذه الأفعال .

فإن قيل : لم قال والذي أطمع والطمع عبارة عن الظنّ والرجاء وهو عليه السلام كان قاطعاً بذلك ؟ .

أجيب : بأنّ في ذلك إشارة إلى أن الله تعالى لا يجب عليه لأحد شيء ، فإنه يحسن منه تعالى كل شيء ولا اعتراض لأحد عليه في فعله .

فإن قيل : لم أسند لنفسه الخطيئة مع أنّ الأنبياء معصومون ؟

(235/570)

أجيب : بأنّ مجاهداً قال هي قوله : إني سقيم وقوله : بل فعله كبيرهم هذا وقوله : لسارة هي أختي ، ورد بأن هذه معاريض كلام وتخيلات للكفرة وليست بخطايا يطلب لها الاستغفار ، والأولى في الجواب أن استغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم وهضم لأنفسهم ، ويدل عليه قوله : أطمع ولم يجزم القول بالمغفرة ، وفيه تعليم لأممهم وليكون لطفاً لهم باجتنابهم المعاصي والحذر منها وطلب المغفرة مما يفرط منهم ، فإن قيل : لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وإنما المغفرة في الدنيا ؟

أجيب : بأنّ أثرها يتبين يومئذ وهو الآن خفي لا يعلم ، ولما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ثناء عليه ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته بقوله .

﴿ رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ هب لي حكماً ﴾ أي : عملاً متقناً بالعلم ، وقال ابن عباس : معرفة حدود الله وأحكامه ، وقال الكلبيّ : النبوّة لأنّ النبيّ ذو حكمة وذو حكم بين عباد الله ، ثم بين أنّ الاعتماد إنما هو على محض الكرم فإن من نوقش الحساب عذب بقوله ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي : الذين جعلتهم أئمة للمتقين في الدنيا والآخرة وهم الأنبياء والمرسلون ، وقد أجابه الله تعالى حيث قال ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ (البقرة :)

وفي ذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات ، فإن قيل : لم لم يقتصر إبراهيم عليه السلام على الثناء ولا سيما يروى عنه أنه قال حسبي من سؤالي علمه بحالي ؟ .

أجيب : بأنه عليه السلام إنما ذكر ذلك حين اشتغاله بدعوة الخلق إلى الحق لأنه قال فإنهم عدوّ لي إلا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لما أنّ الشارع لا بد له من تعليم الشرع فأمّا حين خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع اقتصر على قوله حسبي من سؤالي علمه بحالي .

تنبيه : الإلحاق بالصالحين أن يوفقه لعمل ينتظم به في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في المنزلة والدرجة في الجنة ، ثم إنه عليه السلام طلب زيادة في الآخرة بقوله:

﴿ واجعل لي لسان صدق ﴾ أي : ذكراً جميلاً وقبولاً عاماً وثناءً حسناً بما أظهرت من خصال الخير ﴿ في الآخرين ﴾ أي : من الناس الذين يوجدون بعدي إلى يوم الدين لأكون للمتقين إماماً ، فيكون لي مثل أجورهم ، فإنّ من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، قال ابن عباس : أعطاه الله تعالى بقوله : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ (الصافات :)

أنّ أهل الإيمان يتولونه ويثنون عليه وقد جعله الله شجرة مباركة فرع منها الأنبياء الذين أحيا الله تعالى بهم ذكره الذي من أعظمه ما كان على لسان أعظمهم النبيّ الأميّ صلى الله عليه وسلم من قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إلى آخره ، ولما طلب عليه السلام سعادة الدنيا وكان لا نفع لها إلا باتصالها بسعادة الآخرة التي هي الجنة طلبها بقوله:

d

﴿ واجعلني ﴾ أي : مع ذلك كله بفضلك ورحمتك ﴿ من ورثة جنة النعيم ﴾ لأنّ فيها النظر إلى وجه الله الكريم وهو السعادة الكبرى ، شبهها بالأرض الذي يحصل بغير اكتساب إشارة إلى أنها لا تنال إلا بمنه وكرمه لا بشيء من ذلك ، ولما دعا لنفسه ثنى بأحق الخلق ببره بقوله:

﴿ واغفر لأبي ﴾ بالهداية والتوفيق إلى الإيمان لأنّ المغفرة مشروطة بالإيمان وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط ، فقوله : ﴿ واغفر لأبي ﴾ كأنه دعاء له بالإيمان ، وقيل : إنّ أباه وعده بالإسلام لقوله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ (التوبة :)

فدعا له قيل : أن يتبين له أنه عدوّ لله كما سبق في سورة التوبة ، وقيل : إنّ أباه قال له أنه على دينه باطناً وعلى دين نمروذ ظاهراً وتقيةً وخوفاً فدعا له لاعتقاده أنّ الأمر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ، ولذلك قال في دعائه ﴿ إنه كان من الضالين ﴾ فلولا اعتقاده فيه أنه في الحال ليس بضالّ لما قال ذلك ، وقيل : إن الاستغفار للكفار لم يكن ممنوعاً إذ ذاك .

(237/570)

﴿ ولا تخزني ﴾ أي : تفضحني ﴿ يوم يبعثون ﴾ أي : العباد ، فإن قيل : كان قوله : ﴿ واجعلني من ورثة جنة النعيم ﴾ كافياً عن هذا وأيضاً قال تعالى : ﴿ إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ (النحل :)

فما كان نصيب الكفار فقط كيف يخافه المعصوم ؟

أجيب : بأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فكذا درجات الأبرار خزي المقرّبين وخزي كل واحد بما يليق به ، ولما نبه عليه السلام على أنّ المقصود هو الآخرة صرح بالتنزيه في الدنيا بقوله:

﴿ يوم لا ينفع ﴾ أي : أحداً ﴿ مال ﴾ أي : يفتدى به أو يبذله لشافع أو ناصر وقاهر ﴿ ولا بنون ﴾ ينتصر بهم أو يعتضد فكيف بغيرهم ، وفي استثناء قوله:

﴿ إلا من ﴾ أوجه : أحدها : أنه منقطع وجرى عليه الجلال المحلي أي : لكن من ﴿ أتى الله بقلب سليم ﴾ فإنه ينفعه ذلك ، الثاني : أنه مفعول به لقوله تعالى : لا ينفع أي : لا ينفع المال والبنون إلا هذا الشخص فإنه ينفعه ماله المصروف في وجوه البرّ وبنوه الصلحاء لأنه علمهم وأحسن إليهم ، الثالث : أنه بدل من المفعول المحذوف ومستثنى منه إذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحداً من الناس إلا من كانت هذه صفته .

واختلف في القلب السليم على أوجه : قال الرازي أصحها : أنّ المراد منه سلامة النفس عن الجهل والأخلاق الرذيلة ، الثاني : أنه الخالص من الشرك والنفاق وهو قلب المؤمن وجرى على هذا الجلال المحلي وأكثر المفسرين ، فإنّ الذنوب قل أن يسلم منها أحد ، وهذا معنى قول سعيد بن المسيب . السليم : هو الصحيح وهو قلب المؤمن فإن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ (البقرة :)

الثالث : أنه الذي سلم وسلّم وأسلم وسالم واستسلم ، الرابع : أنه هو اللديغ أي : القلق

المنزعج من خشية الله ، لكن قال الزمخشريّ : أنّ القولين الأخيرين من بدع التفاسير ، وقوله تعالى:

(238/570)

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ حال من واو يبعثون ، ومعنى أزلفت قربت أي : قربت الجنة ﴿ للمتقين ﴾ فتكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويفرحون بأنهم المحشورون إليها زيادة إلى شرفهم .

﴿ وبرّزت الجحيم ﴾ أي : كشفت وظهرت النار الشديدة ﴿ للغاوين ﴾ أي : الكافرين فيرونها مكشوفة ويحشرون على أنهم المسوقون إليها زيادة في هوانهم .

تنبيه : في اختلاف الفعلين بترجيح لجانب الوعد على الوعيد حيث قال في حق المتقين وأزلفت أي : قربت وفي حق الغاوين وبرّزت أي : أظهرت ولا يلزم من الظهور القرب .

﴿ وقيل لهم ﴾ تبكيتاً وتنديماً وتوبيخاً ، وأبهم القائل ليصلح لكل أحد تحقيراً لهم ، ولأنّ المراد نفس القول لا كونه من معين ﴿ أينما ﴾ أي : أين الذي ﴿ كنتم تعبدون ﴾ في الدنيا ، ثم حقر معبوداتهم بقوله تعالى:

﴿ من دون ﴾ أي : من أدنى رتبة من رتب ﴿ الله ﴾ أي : الملك الذي لا كفء له ، وكنتم

تزعمون أنهم يشفعون لكم ويقونكم شرّ هذا اليوم ﴿ هل ينصرونكم ﴾ بدفع العذاب عنكم ﴿ أو ينتصرون ﴾ بدفعه عن أنفسهم .

﴿ فكبكبوا ﴾ أي : فتسبب عن عجزهم أن ألقوا ﴿ فيها ﴾ أي : في مهواة الجحيم ﴿ هم ﴾ أي : الأصنام وما شابهها من الشياطين ونحوهم ﴿ والغاوون ﴾ أي : الذين ضلوا بهم ، والكبكبة : تكرار الكب لتكرير معناه كأنّ من ألقى في النار ينكب مرّة بعد أخرى حتى يستقرّ في قعرها ، وقال الزجاج : طرح بعضهم فوق بعض ، وقال القتيبي : ألقوا على رؤوسهم .

﴿ وجنود إبليس ﴾ وهم اتباعه ومن أطاعه من الإنس والجنّ ، وقيل ذريته ﴿ أجمعون ﴾ ولما لم يتمكنوا من قول في جواب استفهامهم قبل إلقائهم .

﴿ قالوا ﴾ أي : العبدة ﴿ وهم فيها ﴾ أي : الجحيم ﴿ يختصمون ﴾ أي : مع المعبودات وقولهم:

﴿ تالله ﴾ أي : الذي له جميع الكمال ﴿ إن كنا لفي ضلال مبين ﴾ أي : ظاهر جدّاً لمن كان له قلب سليم معمول قولهم وما بينهما ، وهو وهم فيها يختصمون جملةً حاليةً معترضةً بين القول ومعموله وقيل : إنّ الأصنام تنطق وتخاصم العبدة ، ويؤيده الخطاب في قولهم:

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ نسويكم برب العالمين ﴾ في استحقاق العبادة .

تنبيه : إذ منصوب إما بمبين أو بمحذوف أي : ضللنا في وقت تسويتنا لكم بالله في العبادة .

﴿ وما أضلنا ﴾ أي : ذلك الضلال المبين عن الطريق البين ﴿ إلا المجرمون ﴾ أي : الأولون الذين اقتدينا بهم من رؤسائنا وكبرائنا كما في آية أخرى ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً ﴾ (الأحزاب :)

وعن ابن جريج : إبليس وابن آدم الأوّل وهو قابيل وهو أوّل من سنّ القتل وأنواع المعاصي .

﴿ فما ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنه ما ﴿ لنا ﴾ اليوم وزادوا في تعميم النفي بزيادة الجار فقالوا ﴿ من شافعين ﴾ يكونون سبباً لإدخالنا الجنة كالمؤمنين تشفع لهم الملائكة والنبيون .

﴿ ولا صديق حميم ﴾ أي : قريب يشفع لنا يقول ذلك الكفار حين تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، والصديق : هو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك مع موافقة الدين ، وعن جابر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنّ الرجل ليقول في الجنة ما فعل صديقي فلان وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار فما لنا من شافعين ولا صديق حميم" قال الحسن : استكثروا من الأصدقاء المؤمنين فإنّ لهم شفاعة يوم القيامة ، فإن قيل : لم جمع الشافع ووحد الصديق ؟

أجيب : بأنّ الشفعاء كثيرون في العادة رحمة له وحسبة وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة ، وأما الصديق وهو الصادق في ودادك الذي يهمه ما أهمك ، قال الزمخشري : فأعز من بيض الأنوق انتهى . قال الجوهريّ : الأنوق على فعول طير وهو الرخمة وفي المثل أعز من بيض الأنوق لأنها محرزة فلا يكاد يظفر بها لأنّ أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة ، وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقال اسم لا معنى له : أي : لا يوجد ولما وقعوا في هذا الهلاك وانتفى عنهم الخلاص تسبب عنه تمنيهم المحال فقالوا .

(240/570)

﴿ فلو أن لنا كرّة ﴾ أي : رجعة إلى الدنيا ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾ أي : الذين صار الإيمان لهم وصفاً لازماً فأزلفت لهم الجنة .

تنبيه : انظر ما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أوّلاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليدهم آباؤهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وجل فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في

الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله تعالى وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي : المذكور من قصة إبراهيم وقومه ﴿ لآية ﴾ أي : عظة على بطلان الباطل وحقوق الحق ﴿ وما ﴾ أي : والحال أنه ما ﴿ كان أكثرهم ﴾ أي : الذين شهدوا منهم هذا الأمر العظيم الذي سمعوه عنه ﴿ مؤمنين ﴾ أي : بحيث صار الإيمان صفة لهم ثابتة وفي ذلك أعظم تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم

(241/570)

﴿ وإن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك وهداية الأمة بك ﴿ لهو العزيز ﴾ أي : القادر على إيقاع النقمة بكل من خالفه حين يخالفه ﴿ الرحيم ﴾ أي : الفاعل فعل الراحم في إمهاله العصاة مع إدرار النعم ودفع النقم وإرسال الرسل ونصب الشرائع لكي يؤمنوا أو أحد من ذرّيتهم ، ولما أتم سبحانه وتعالى قصة الأب الأعظم الأقرب إبراهيم عليه السلام أتبعها بقصة الأب الثاني وهو نوح عليه السلام وهي القصة الثالثة مقدمها لها على غيرها لما له من القدم في الزمان إعلاماً بأنّ البلاء قديم ولأنها أدل على صفتي الرحمة والنعمة اللتين هما أثراً

لغرة بطول الإملاء لهم على طول مدتهم ثم تعميم النعمة مع كونهم جميع أهل الأرض فقال: ﴿كذبت قوم نوح﴾ وهم أهل الأرض كلها من الآدميين قبل اختلاف الأمم بتفرّق اللغات ﴿المرسلين﴾ أي: بتكذيبهم نوحاً عليه السلام لأنه أقام الدليل على نبوته بالمعجزة ومن كذب بالمعجزة فقد كذب بجميع المعجزات لتساوي أقدامها في الدلائل على صدق الرسول ، وقد سئل الحسن البصري عن ذلك فقال: من كذب واحداً من الرسل فقد كذب الكل لأنّ الأخير جاء بما جاء به الأوّل.

تنبيه: القوم يؤنث باعتبار معناه ولذا يصغر على قويمة ، ويذكر باعتبار لفظه وتذكيره أشهر ، واختير التأنيث ههنا للتنبيه على أن فعلهم أخس الأفعال وإلى أنهم مع عتوّهم وكثرتهم كانوا عليه سبحانه وتعالى أهون شيء وأضعفه بحيث جعلهم هباءً منثوراً وكذا من بعدهم ولأجل التسلية عبر بالتكذيب في كل قصة.

﴿إذ﴾ أي: حين ﴿قال لهم أخوهم﴾ أي: في النسب لا في الدين ﴿نوح﴾ وذكر الأخوة زيادة في تسلية النبيّ صلى الله عليه وسلم وأشار تعالى إلى حسن أدب نوح عليه السلام مع قومه واستجلابهم برفقه ولينه بقوله لهم ﴿ألا تتقون﴾ الله بأن تجعلوا بينكم وبينه وبين الحفظة وقاية بطاعته بالتوحيد وترك الالتفات إلى غيره ثم علل أهليته للأمر عليهم بقوله:

﴿ إني لكم ﴾ أي : مع كوني أخاكم يسرّني ما يسرّكم ويسوءني ما يسوءكم ﴿ رسول ﴾ أي : من عند خالقكم فلا مندوحة لي عما أمرت به ﴿ أمين ﴾ أي : مشهور بالأمانة بينكم لا غش عندي كما تعلمون ذلك مني على طول خبرتكم لي ثم تسبب عن ذلك الرفق الجزم بالأمر فقال:

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : أوجدوا الخوف والحذر والتحرز الذي اختص بالجلال والجمال لتحوزوا أصل السعادة فتكونوا من أهل الجنة ﴿ وأطيعون ﴾ فيما آمركم به من توحيد الله وطاعته ثم نفى عن نفسه التهمة بعد أن أثبت أمانته بقوله .

﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أي : على هذا الحال الذي أتيتكم به وأشار إلى الإغراق في النفي بقوله ﴿ من أجر ﴾ لتظنوا أني جعلت الدعاء سبباً لذلك ، ثم أكد النفي بقوله ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أجري ﴾ أي : ثوابي في دعائي لكم ﴿ إلا على رب العالمين ﴾ أي : الذي دبر جميع الخلائق ورباهم ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص بفتح الياء في أجري في المواضع الخمسة في هذه السورة ، والباقون بالسكون ولما انتفت التهمة تسبب عن انتفائها إعادة ما قدمه إعلاماً بالاهتمام به زيادة في الشفقة عليهم فقال:

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : الذي حاز جميع صفات العظمة ﴿ وأطيعون ﴾ ولما أقام الدليل على نصحه وأمانته .

﴿ قالوا ﴾ أي : قومه منكرين عليه ومنكرين لاتباعه استناداً إلى الكبر الذي ينشأ عنه بطر الحق وغمص الناس أي : احتقارهم ﴿ أنؤمن لك ﴾ أي : لأجل قولك هذا وما أوتيته من أوصافك ﴿ و ﴾ الحال أنه قد ﴿ اتبعك الأرذلون ﴾ أي : فيكون إيماننا بك سبباً لاستوائنا معهم ، والرذالة : الخسة والذلة ، وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا ، قيل : كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة والصناعة لا تزري بالديانة وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما زالت أتباع الأنبياء كذلك حتى كادت من سماتهم وأماراتهم ، ألا ترى إلى هرقل حيث سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ضعفاء الناس وأراذلهم قال : مازالت أتباع الأنبياء كذلك ، وعن ابن عباس هم الفاتحة ، وعن عكرمة الحاكة والإساكفة ، وعن مقاتل السفلة ولما كانت هذه الشبهة في غاية الركاكة لأنّ نوحاً بعث إلى جميع قومه فلا يختلف الحال بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب وخستها أجابهم بقوله:

﴿ قال وما ﴾ أي : أي شيء ﴿ علمي بما كانوا يعملون ﴾ قبل أن يتبعوني أي : مالي

وللبحث عن سرائرهم ، وإنما قال هذا لأنهم قد طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم وأنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة وإنما آمنوا هوى وبديهة كما حكى الله عنهم في قوله : ﴿ الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ (هود :)

ثم أكد أنه لا يبحث عن بواطنهم بقوله:

﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ حسابهم ﴾ أي : في الماضي والآتي ﴿ إلا على ربي ﴾ أي : المحسن إليّ فهو محاسبهم ومجازيهم ، وأمّا أنا فلست بمحاسب ولا مجاز ﴿ لو تشعرون ﴾ أي : لو كان لكم نوع شعور لعلمتم ذلك فلم تقولوا ما قلتم ما هو دائر على أمور الدنيا فقط ولا نظر له إلى يوم الحساب ، فإنّ الغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى ، ولما أوهم قولهم : هذا استدعاء طرد هؤلاء الذين آمنوا معه وتوقيف إيمانهم عليه حيث جعلوا أتباعهم المانع عنه أجابهم بقوله عليه السلام .

(244/570)

﴿ وما ﴾ أي : ولست ﴿ أنا بطارد المؤمنين ﴾ أي : الذين صار الإيمان لهم وصفاً راسخاً فلم يرتدوا عنه للطمع في إيمانكم ولا لغيره من أتباع شهواتكم ، ثم علل ذلك بقوله: ﴿ إن أنا إلا نذير ﴾ أي : محذر لا وكيل فاتش على البواطن ولا متنعت عن الاتباع

﴿ مبين ﴾ أوضح ما أرسلت به فلا أدع فيه لبساً ، وقرأ قالون بمدّ أنا في الوصل بخلاف عنه ، والباقون بالقصر ، ولما أجابهم بهذا الجواب وقد أيسوا مما راموه لم يكن منهم إلا التهديد بأن .

﴿ قالوا لئن لم تنته ﴾ ثم سموه باسمه جفاء وقلة أدب بقولهم : ﴿ يا نوح ﴾ عما تقوله ﴿ لتكونن من المرجومين ﴾ قال مقاتل والكلبي : من المقتولين بالحجارة ، وقال الضحاك : من المشتومين فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم فلذلك .

﴿ قال ﴾ شاكياً إلى الله ما هو أعلم به منه توطئة للدّعاء عليهم ومعرضاً عن تهديدهم له صبراً واحتساباً لأنه من لازم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ إنّ قومي كذبون ﴾ أي : فيما جئت به فليس الغرض من هذا إخبار الله بالتكذيب لعلمه بأنه عالم الغيب والشهادة ولكنه أراد لا أدعوك عليهم لما آذوني وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوك في وحيك ورسالتك .

﴿ فافتح ﴾ أي : احكم ﴿ بيني وبينهم فتحاً ﴾ أي : حكماً يكون لي فيه فرج وبه من المضيق مخرج فأهلك المبطلين ﴿ ونجني ومن معي ﴾ أي : في الدين ﴿ من المؤمنين ﴾ مما تعذب به الكافرين ، ثم لما كان في إهلاكهم وإنجائه من بديع الصنع ما يجل عن الوصف أظهره في مظهر العظمة بقوله تعالى:

﴿ فأنجيناه ومن معه ﴾ أي : الذين اتبعوه في الدين على ضعفهم وقلتهم ﴿ في الفلك ﴾ أي

: السفينة وجمعه فُلك قال الله تعالى : ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ (فاطر :)

قالوا حد بوزن قفل والجمع بوزن أسد ، وقال تعالى ﴿ المشحون ﴾ أي : الموقور المملوء من الناس والطير والحيوان لأنّ سلامة المملوء جداً أغرب ، ولما كان إغراقهم كلهم من الغرائب عظمه بأداة البعد فقال تعالى:

(245/570)

﴿ ثم أغرقنا بعد ﴾ أي : بعد إنجاء نوح ومن معه ﴿ الباقين ﴾ أي : من بقي على الأرض ولم يركب معه في السفينة على قوّتهم وكثرتهم .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم من الدعاء والإمهال ثم الإنجاء والإهلاك ﴿ لأية ﴾ أي : عظة لمن شاهد ذلك أو سمع به ﴿ وما ﴾ أي : والحال أنه ما ﴿ كان أكثرهم ﴾ أي : العالمين بذلك ﴿ مؤمنين ﴾ وقد كان ينبغي لهم إذ فاتهم الإيمان بمحض الدليل أن يبادروا بالإيمان حين رأوا أوائل العذاب .

﴿ وإن ربك ﴾ المحسن إليك بإرسالك وتكثير أتباعك وتعظيم أشياعك ﴿ لهو العزيز ﴾ أي : القادر بعزته على كل من قسرهم على الطاعة وإهلاكهم في أوّل أوقات المعصية

﴿ الرحيم ﴾ أي : الذي يخص من شاء من عباده بخالص وداده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 21 . 38 ﴾

(246/570)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ القلب ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ وهو الروح وما يتولد منه ﴿ نعبد أصناماً ﴾ وهو ما سوى الله ﴿ فنظل لها عاكفين ﴾ إلا أن أدركتنا العناية فنعرض عنها : ﴿ بل وجدنا آباءنا ﴾ وهم الأرواح والآباء العلوية كذلك يتعلق بعضهم ببعض ﴿ فإنهم عدوّ لي ﴾ إن تعلقت فصرت محجوباً بهم عن الله ﴿ خلقني فهو يهدين ﴾ إلى حضرته و ﴿ يطعمني ﴾ من طعام العبودية الذي يعيش القلوب ، ويسقيني من شراب طهور التجلي ﴿ وإذا مرضت ﴾ بتعلقات الكونين ﴿ فهو يشفين ﴾ بالجذبة الإلهية ﴿ والذي يميتني ﴾ عن أوصاف البشرية ﴿ ثم يحيين ﴾ بأوصاف الروحانية

(247/570)

ويميتني عن أوصاف الروحانية ثم يحيين بالأوصاف الربانية ثم يميتني عن أنانيتي ثم يحيين بهويته ﴿ والذي أطمع أن ﴾ يستر ظلمة خطيئة وجودي بطلوع شمس نهار الدين ﴿ رب هب لي ﴾ من ربوبيتك ﴿ حكماً ﴾ على بذل وجودي فيهويتك ﴿ وألحقني ﴾ بالذين صلحوا لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة . ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ من النفس وصفاتها ليعرضوا عما سوى الله ﴿ واغفر لأبي ﴾ الروح ﴿ إنه كان من الضالين ﴾ حين رد من العالم العلوي إلى السفلي من قولهم " ضل الماء في اللبن " ﴿ ولا تخزني ﴾ بتعلقات الكونين ﴿ قال نوح ﴾ القلب ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ يعني أراذل الجسد والأعضاء لأنهم عملة عالم الشهادة وأنا من عملة عالم الغيب ﴿ إن حسابهم إلا على ربي ﴾ فيما يعملون من الأعمال الحيوانية لحاجة ضرورية يعفو عنها والشهوة حيوانية يؤاخذهم بها ﴿ لو تشعرون ﴾ الفرق بينهما ﴿ قالوا ﴾ أي النفس وصفاتها ﴿ لئن لم تنته يا نوح ﴾ القلب عما تدعونا إليه على خلاف إرادتنا ﴿ لنكونن من المرجومين ﴾ بأحجار الوساوس والهواجس ﴿ في الفلك المشحون ﴾ أي في فلك الشريعة المملوء بالأوامر والنواهي والحكم والمواعظ والأسرار والحقائق ﴿ ثم أغرقنا الباقين ﴾ بطوفان استيلاء الأخلاق الذميمة وآفات الدنيا الدنية ، وباقي القصص

إشارات إلى رسول القلب المسلم من الله وقومه النفس وصفاتها وإليه المرجع والمآب لما قررناه. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 277. 278﴾

(248/570)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/571)

الجزء الحادى والسبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 123 ﴾ من سورة الشعراء

وحتى الآية ﴿ 191 ﴾ من نفس السورة

(4/571)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124)
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
(131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ
أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

(138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : إن هذا لأمر هائل ، في مثله موعظة ، فما فعل من جاء بعدهم ؟ هل اتعظ ؟ أجيب بقوله دلالة على الوصفين معاً : ﴿ كذبت عاد ﴾ أي تلك القبيلة التي مكن الله لها في الأرض بعد قوم نوح ﴿ المرسلين ﴾ بالإعراض عن معجزة هود عليه الصلاة والسلام ؛ ثم سلى هذا النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قال لهم أخوهم هود ﴾ لم يتوقفوا في تكذيبه ولم يتأخروا عن وقت دعائه لتأمل ولا غيره ، وقد عرفوا صدق إخائه ، وعظيم نصحه ووفائه ﴿ ألا ﴾ بصيغة العرض تأدباً معهم وتلطفاً بهم ولينا لهم ﴿ تتقون ﴾ أي تكون منكم تقوى لربكم الذي خلقكم فتعبدوه وحده ولا تشركوا به ما لا يضر ولا ينفع ؛ ثم علل بقوله : ﴿ إني لكم رسول ﴾ أي فهو الذي حملني على أن أقول لكم ذلك ﴿ أمين ﴾ أي لا أكتم عنكم شيئاً مما أمرت به ولا أخالف شيئاً منه ﴿ فاتقوا ﴾ أي فتسبب عن ذلك أني أقول لكم : اتقوا ﴿ الله ﴾ الذي هو أعظم من كل شيء ﴿ وأطيعون ﴾ أي في كل ما آمركم به من دوام تعظيمه ﴿ وما ﴾ أي أنا رسول داع والحال أني ما ﴿ أسئلكم عليه ﴾ أي الدعاء ﴿ من أجر ﴾ فتتهموني به ﴿ إن ﴾ أي ما

﴿ أجري إلا على رب العالمين ﴾ .

ولما فرغ من الدعاء إلى الأصل ، وهو الإيمان بالرسول والمرسل ، أتبعه إنكار بعض ما هم عليه مما أوجبه الكفر ، وأوجب الاشتغال به الثبات على الغي ، واعظاً لهم بما كان لمن قبلهم من الهلاك ، مقدمة على زيادة التأكيد في التقوى والطاعة لأن حالهم حال الناسي لذلك الطوفان ، الذي أهلك الحيوان ، وهدم البنيان فقال : ﴿ أتبنون بكل ريع ﴾ أي مكان مرتفع ؛ قال أبو حيان : وقال أبو عبيدة : الريع الطريق .

وقال مجاهد : الفج بين الجبلين ، وقيل : السبيل سلك أم لم يسلك .

وأصله في اللغة الزيادة ﴿ آية ﴾ أي علامة على شدتكم لأنه لو كان لهداية أو نحوها لكفى بعض الأرباع دون كلها .

(5/571)

ولما كان إقامة الدليل على قوتهم بمثل ذلك قليل الجدوى عند التأمل ، قال : ﴿ تعبثون ﴾ والعاقل ينبغي له أن يصون أوقاته النفيسة عن العبث الذي لا يكون سبب نجاته ، وكيف يليق ذلك بمن الموت من ورائه .

ولما كان من يموت لا ينبغي له إنكار الموت بفعل ولا قول قال : ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ أي

أشياء بأخذ الماء ، أو قصوراً مشيدة وحصوناً تصنعونها ، هي في إحكامها بحيث تأكل الدهر قوة وثباتاً ، فلا يبنيها إلا من حاله حال الراجي للخلود ، ولذلك قال : ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ وهو معنى ما في البخاري عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ من تفسيرها بكأنكم .

ولما بين أن عملهم عمل من لا يخاف الموت ، أتبعه ما يدل على أنهم لا يظنون الجزاء فقال : ﴿ وإذا بطشتم ﴾ أي بأحد ، أخذتموه أخذ سطوة في عقوبة ﴿ بطشتم جبارين ﴾ أي غير مبالين بشيء من قتل أو غيره ؛ قال البغوي : والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب .

ولما خوفهم لهذا الإنكار عقاب الجبار ، تسبب عنه أن قال : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الجلال والإكرام ﴿ وأطيعون ﴾ .

ولما كان ادكار الإحسان موجباً للإذعان ، قال مرغباً في الزيادة ومرهباً من الحرمان : ﴿ واتقوا الذي أمدكم ﴾ أي جعل لكم مدداً ، وهو إتباع الشيء بما يقويه على الانتظام ﴿ بما تعلمون ﴾ أي ليس فيه نوع خفاء حتى تعذروا في الغفلة عن تقييده بالشكر .

ولما أجمل ، فصل ليكون أكمل ، فقال : ﴿ أمدكم بأنعام ﴾ أي تعينكم على الأعمال وتأكلون منها وتبيعون .

ولما قدم ما يقيم الأود ، أتبعه قوله : ﴿ وبنين ﴾ أي يعينونكم على ما تريدون عند العجز .

ثم أتبعه ما يحصل كمال العيش فقال : ﴿ وجنات ﴾ أي بساتين ملتفة الأشجار بحيث تستر داخلها ، وأشار إلى دوام الريّ بقوله : ﴿ وعيون ﴾ .

(6/571)

ولما كانوا في إعراضهم كأنهم يقولون : ما الذي تبقيه منه ؟ قال : ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ أي لأنكم قومي يسوءني ما يسوءكم - إن تماديتم على المعصية ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وتعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب ﴿ قالوا ﴾ راضين بما عندهم من داء الإعجاب ، الموقع في كل ما عاب ، ﴿ سواء علينا أوعظت ﴾ أي خوفت وحذرت وكنت علامة زمانك في ذلك بأن تقول منه ما لم يقدر أحد على مثله ، دل على ذلك قوله : ﴿ أم لم تكن من الواعظين ﴾ أي متأهلاً لشيء من رتبة الراسخين في الوعظ ، معدوداً في عدادهم ، مذكوراً فيما بينهم ، فهو أبلغ من " أم لم تعظ " أو " تكن واعظاً ، والوعظ - كما قال البغوي : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد .

والمعنى أن الأمر مستوٍ في الحالتين في أنا لا نطيعك في شيء ؛ ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا ﴾ أي الذي جئتنا به ﴿ إلا خلق ﴾ بفتح الخاء وإسكان اللام في قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ﴿ الأولين ﴾ أي كذبهم ، أو ما هذا الذي نحن فيه إلا

عادة الأولين في حياة ناس وموت آخرين ، وعافية قوم وبلاء آخرين ، وعليه تدل قراءة الباقين بضم الخاء واللام ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ لأنا أهل قوة وشجاعة ونجدة وبراعة .

(7/571)

ولما تضمن هذا التكذيب ، سبب عنه قوله : ﴿ فكذبوه ﴾ ثم سبب عنه قوله : ﴿ فأهلكناهم ﴾ أي بالريح بما لنا من العظمة التي لا تذكر عندها عظمتهم ، والقوة التي بها كانت قوتهم ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الإهلاك في كل قرن للعاصين والإنجاء للطائعين ﴿ لآية ﴾ أي عظيمة لمن بعدهم على أنه سبحانه فاعل ذلك وحده بسبب أنه يحق الحق ويبطل الباطل ، وأنه مع أوليائه ومن كان معه لا يذل وعلى أعدائه ومن كان عليه لا يعز ﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أي أكثر من كان بعدهم ﴿ مؤمنين ﴾ فلا تحزن أنت على من أعرض عن الإيمان ﴿ وإن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك وغيره من النعم ﴿ لهو العزيز ﴾ في انتقامه ﴿ الرحيم ﴾ في إنعامه وإكرامه وإحسانه ، مع عصيانه وكفرانه ، وإرسال المنذرين وتأييدهم بالآيات المعجزة لبيان الطريق الأقوم ، والمنهج الأسلم ، فلا يهلك إلا بعد الإعذار بأبلغ الإنذار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 377 . 379 ﴾

(8/571)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ أوعظت ﴾ مدغماً : عباس ونصير ﴿ خلق الأولين ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب ويزيد وعليّ ﴿ كذبت ثمود ﴾ مثل ﴿ بعدت ثمود ﴾ [هود : 95] ﴿ فارهين ﴾ بالألف : ابن عامر وعاصم وحمزة وعليّ وخلف .

الوقوف : ﴿ المرسلين ﴾ 5 ﴿ تتقون ﴾ 5 ﴿ أمين ﴾ 5 ﴿ وأطيعون ﴾ 5 ﴿ أجر ﴾ 5 ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ تعبثون ﴾ 5 لا ﴿ تخلدون ﴾ 5ج ﴿ جبارين ﴾ 5 ﴿ وأطيعون ﴾ 5ج ﴿ تعلمون ﴾ 5ج ﴿ وبنين ﴾ 5لا ﴿ وعيون ﴾ 5ج ﴿ عظيم ﴾ 5 ط ﴿ الواعظين ﴾ 5 لا للحتراز عن الابتداء بمقولهم ﴿ الأولين ﴾ 5 لا لذلك ﴿ بمعذبين ﴾ 5ج ﴿ فأهلكناهم ﴾ ط ﴿ لآية ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5 ط ﴿ تتقون ﴾ 5 ﴿ أمين ﴾ 5 لا ﴿ وأطيعون ﴾ 5 ﴿ أجر ﴾ 5 ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ آمنين ﴾ 5 لا لتعلق الظرف ﴿ وعيون ﴾ 5 لا ﴿ هضيم ﴾ 5 ﴿ فارهين ﴾ 5ج للآية مع العطف ﴿ وأطيعون ﴾ 5ج لذلك ﴿ المسرفين ﴾ 5 لا لأن ﴿ الذين ﴾ صفتهم ﴿ ولا يصلحون ﴾ 5 ﴿ المسحرين ﴾

5ج لانقطاع النظم مع اتحاد المقول ﴿ مثلنا ﴾ ز ﴿ من الصادقين ﴾ 5 ﴿ معلوم ﴾ 5ج ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ نادمين ﴾ 5لا ﴿ العذاب ﴾ ط ﴿ لآية ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5لا ﴿ ألا تتقون ﴾ 5ج ﴿ أمين ﴾ 5لا ﴿ وأطيعون ﴾ 5ج ﴿ أجر ﴾ ج ﴿ العالمين ﴾ 5ط ﴿ من العالمين ﴾ 5لا للعطف ﴿ من أزواجكم ﴾ 5 ﴿ عادون ﴾ ط ﴿ المخرجين ﴾ 5 ﴿ القالين ﴾ 5 ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ أجمعين ﴾ 5 ﴿ الغابرين ﴾ 5 ﴿ الآخرين ﴾ 5ج ﴿ مطر المنذرين ﴾ 5 ﴿ لآية ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 279.280 ﴾

(9/571)

فصل

قال الفخر:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

القصة الرابعة قصة هود عليه السلام

اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة في إعادة التفسير

ثم إنه تعالى ذكر الأمور التي تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهي ثلاثة : فأولها : قوله : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ قرىء ﴿ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع ، ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها ، والآية العلم ، ثم فيه وجوه : أحدها : عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علماً يعبثون فيه بمن يمر في الطريق إلى هود عليه السلام والثاني : أنهم كانوا يبنون في الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخراً فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث والثالث : أنهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طريقهم أعلاماً طوالاً فكان ذلك عبثاً لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم الرابع : بنوا بكل ريع بروج الحمام وثانيها : قوله : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ المصانع مآخذ الماء ، وقيل القصور المشيدة والحصون ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد ، وفي مصحف أبي : (كأنكم) ، وقرىء (تخلدون) بضم التاء مخففاً ومشدداً ، واعلم أن الأول إنما صار مذموماً لدلالته إما على السرف ، أو على الخيلاء ، والثاني : إنما صار مذموماً لدلالته على الأمل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر وثالثها : قوله : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ بين أنهم مع ذلك السرف والحرص فإن معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين ، وقد بينا في غير هذا الموضع أن هذا الوصف في العباد ذم وإن كان في وصف الله تعالى مدحاً فكأن من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بأن بطشه بطش جبار ، وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة أن

اتخاذ الأبنية العالية ، يدل على حب العلو ، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء ، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو ، فيرجع

(10/571)

الحاصل إلى أنهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الإلهية ، وهي ممتنعة الحصول للعبد ، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية ، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية ، ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الأشياء قال : ﴿ فاتقوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ زيادة في دعائهم إلى الآخرة وزجراً لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر ، ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالإجمال أولاً ثم التفصيل ثانياً فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ ثم فصلها من بعد بقوله : ﴿ أَمَدَّكُمْ بأنعام وَبَنِينَ وجنات وَعُيُونٍ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فبلغ في دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم ﴿ سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه ، واستخفافهم بما أورده فإن قيل لو قال أوعظت

أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد جوابه : ليس المعنى بواحد (وبينهما فرق) لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله (ومباشرته) ، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ ، ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ فمن قرأ ﴿ خُلُقُ الأولين ﴾ بالفتح فمعناه أن ما جئت به اختلاق الأولين ، وتخرصهم كما قالوا

(11/571)

﴿ أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية نحيا كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب ، ومن قرأ ﴿ خُلِقَ ﴾ بضمتين وبواحدة ، فمعناه ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر ، أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه ، ثم قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكار المعاد ، فعند هذا بين الله تعالى أنه أهلكهم ، وقد سبق شرح كيفية الهلاك في سائر السور ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 135.136 ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾

فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ : فِي نُزُولِهَا خَبَرٌ عَمَّنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْأُمَمِ ، وَوَعْظٌ مِنْ اللَّهِ لَنَا فِي مُجَانَبَةِ ذَلِكَ الْفِعْلِ الَّذِي ذَمَّهُمْ بِهِ ، وَأَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : قَالَ نَافِعٌ : قَالَ ابْنُ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ قَالَ : يَعْنِي بِهِ السَّوْطَ وَقَالَ غَيْرُهُ بِالْقَتْلِ ؛ وَيُؤَيِّدُ مَا قَالَ مَالِكٌ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ مُوسَى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَسُلَّ عَلَيْهِ سَيْفًا ، وَلَا طَعَنَهُ بِرُمْحٍ ؛ وَإِنَّمَا وَكَزَهُ ، فَكَانَتْ مَيْتَتُهُ فِي وَكْزَتِهِ .

وَالْبَطْشُ يَكُونُ بِالْيَدِ ، وَأَقَلُّهُ الْوَكْزُ وَالدَّفْعُ ، وَيَلِيهِ السَّوْطُ وَالْعَصَا ، وَيَلِيهِ الْحَدِيدُ ؛ وَالْكُلُّ مَذْمُومٌ إِلَّا بِحَقٍّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾

فيه ستة تأويلات

: أحدها : أن الريع الطريق ، قاله السدي ، ومنه قول المسيب بن علي :

في الآل يخفضها ويرفعها . . . ريع يلوح كأنه سحل

السحل : الثوب الأبيض ، شبه الطريق به

. الثاني : أنه الثنية الصغيرة ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه السوق ، حكاه الكلبي .

الرابع : أنه الفج بين الجبلين ، قاله مجاهد .

الخامس : أنه الجبال ، قاله أبو صخر .

السادس : أنه المكان المشرف من الأرض ، قاله ابن عباس ، قال ذو الرمة :

طِراق الخوافي مشرق فوق ريعهِ . . . ندى ليله في ريشه يترقرق

﴿ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ في آية ثلاثة أوجه

: أحدها : البنيان ، قاله مجاهد .

الثاني : الأعلام ، قاله ابن عباس .

الثالث : أبراج الحمام ، حكاه ابن أبي نجيح .

وفي العبث قولان :

أحدها : اللهو واللعب ، قاله عطية .

الثاني : أنه عبث العشّارين بأموال من يمر بهم ، قاله الكلبي .

قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : القصور المشيدة ، قاله مجاهد ، ومنه قول الشاعر :

تركنا ديارهم منهم قفاراً . . . وهَدّمنا المصانع والبُروجا

الثاني : أنها مآجل الماء تحت الأرض ، قاله قتادة ، ومنه قول لبيد

:

بَلينا وما تبلى النجوم الطوالع . . . وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

الثالث : أنها بروج الحمام ، قاله السدي

. ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي كأنكم تخلدون باتخاذكم هذه الأبينة ، وحكى قتادة

: أنها في بعض القراءات : كأنكم خالدون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أقوياء ، قاله ابن عباس .

الثاني : هو ضرب السياط ، قاله مجاهد .

الثالث : هو القتل بالسيف في غير حق ، حكاه يحيى بن سلام .

وقال الكبي : هو القتل على الغضب .

ويحتمل رابعاً : أنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء .

قوله تعالى ﴿ إِنْ هَذا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ فيه أربعة تأويلات

(14/571)

: أحدها : دين الأولين ، قاله ابن عباس .

الثاني : كدأب الأولين ، قاله مجاهد .

الثالث : عادة الأولين ، قاله الفراء .

الرابع : يعني أن الأولين قبلنا كانوا يموتون فلا يبعثون ولا يحاسبون ، قاله قتاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(15/571)

وقال ابن عطية :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

﴿ عاد ﴾ قبيلة ، وانصرف للخفية ، وقيل هو اسم أبيهم وخاطبهم ﴿ هود ﴾ عليه السلام بمثل مخاطبة سائر الرسل ، ثم كلمهم فيما انفردوا به من الأفعال التي اقتضتها أحوالهم فقال ﴿ أتبنون ﴾ على جهة التوبيخ ، " والريع " المرتفع من الأرض ، ومنه قول المسيب ابن عباس يصف ظعناً : [الكامل]

في الآل يخفضها ويرفعها . . . ريع يلوح كأنَّه سحل

والسحل الثوب الأبيض ومنه قول ذي الرمة : [الطويل]

طراق الخوافي مشرق فوق ريعة . . . ندى ليله في ريشه يترقرق

ومنه قول الأعشى : [المتقارب]

وبهماء قفر تجاوزتها . . . إذا خب في ريعها آلها

ويقال " رِيع " بكسر الراء ويقال " رَيع " بفتحها ، وبها قرأ ابن أبي عبلة وعبر بعض المفسرين عن الريع بالطريق وبعضهم بالفج وبعضهم بالثنية الصغيرة .

قال القاضي أبو محمد : وجملة ذلك أنه المكان المشرف وهو الذي يتنافس البشر في مبانيه ، و" الآية " ، البنيان ، قال ابن عباس آية علم ، قال مجاهد أبراج الحمام ، قال النقاش وغيره القصور الطوال ، و" المصانع " جمع مصنع وهو ما صنع وأتقن في بنائه من قصر مشيد ونحوه

، قال قتادة هي ما خد للماء ، وقوله ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ إما أن يريد على أملكم ورجائكم ، وإما أن يريد الاستفهام على معنى التوبيخ والهزء بهم ، وقرأ الجمهور " تَخلُدون " بفتح التاء وضم اللام ، وقرأ قتادة " تُخلَدون " بضم التاء وفتح اللام يقال خلد الشيء وأخلده غيره وقرأ أبي وعلقمة " لعلكم تُخلَّدون " بضم التاء وفتح الخاء وفتح اللام وشدّها ، وروي عن أبي ، " كأنكم تخلدون " وروي عن ابن مسعود " كي تخلدون " ، و" البطش " الأخذ بسرعة وقوة ، و" الجبال " المتكبر ، ومنه قولهم نخلة جبارة إذا كانت لا تدرك علواً .

(16/571)

ومنه قوله عليه السلام في المرأة التي أبت أن تتنحى عن طريقه " إنها جبارة " ، ومنه الجبروت فالمعنى أنكم كفار الغضب ، لكم السطوات المفرطة ، والبوادر من غير تثبت ، ثم ذكرهم عليه السلام بأيادي الله قبلهم فيما منحهم من الأنعام والذرية والجنات والمياه المطردة فيها ، ثم خوفهم عذاب الله تعالى في الدنيا فكانت مراجعتهم أن سووا بين وعظه وتركه الوعظ ، وقرأ ابن محيصن " أوعت " بإدغام الظاء في التاء ، ثم قالوا ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ ، واختلفت القراءة في ذلك ، فقرأ نافع وعاصم وحمزة وابن عامر " خلُق "

بضم اللام فالإشارة بهذا إلى دينهم وعبادتهم وتخرقهم في المصانع ، أي هذا الذي نحن عليه خلق الناس وعادتهم وما بعد ذلك بعث ولا تعذيب كما تزعم أنت ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو قلابة " خُلْق الأولين " بضم الخاء وسكون اللام ورواها الأصمعي عن نافع ، وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو " وخَلْق الأولين " بفتح الخاء وسكون اللام وهي قراءة ابن مسعود وعلقمة والحسن ، وهذا يحتمل وجهين : أحدهما وما هذا الذي تزعمه إلا اختلاق الأولين من الكذبة قبلك وكذبهم فأنت على منهاجهم ، والثاني أن يريدوا وما هذه البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأولون حياة وموت وما ثم بعث ولا تعذيب ، وكل معنى مما ذكرته تحتمله كل قراءة ، وروى علقمة عن ابن مسعود " إلا اختلاق الأولين " وباقي الآية قد مضى تفسيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(17/571)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أتبنون بكُلِّ رِيعٍ ﴾

وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة : ﴿ بكُلِّ رَيْعٍ ﴾ بفتح الراء .

قال الفراء : هما لغتان .

ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه المكان المرتفع ؛ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : بكل شَرَف .

قال الزجاج : هو في اللغة : الموضع المرتفع من الأرض .

والثاني : أنه الطريق ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثالث : الفجُّ بين الجبلين ، قاله مجاهد .

والآية : العلامة .

وفيما أراد بهذا البناء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أراد : تبنون مالا تسكنون ، رواه عطاء عن ابن عباس ؛ والمعنى أنه جعل بناءهم ما يستغنون عنه عبثاً .

والثاني : بروج الحمام ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد .

والثالث : أنهم كانوا يبنون في المواضع المرتفعة ليُشرفوا على المارَّة ، فيَسْخَروا منهم ويَعْبَثوا بهم ، وهو معنى قول الضحاك .

قوله تعالى : ﴿ وتَتَّخِذون مَصَانع ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : قصور مشيَّدة ، قاله مجاهد .

والثاني : مصانع الماء تحت الارض ، قاله قتادة .

والثالث : بروج الحمام ، قاله السدي .

وفي قوله : ﴿ لعلَّكم تَخْلُدون ﴾ قولان .

أحدهما : كأنَّكم تخلُدون ؛ قاله ابن عباس ، وأبو مالك .

والثاني : كَيْما تَخْلُدوا ، قاله الفراء ، وابن قتيبة .

وقرأ عكرمة ، والنخعي ، وقتادة ، وابن يعمر : ﴿ تُخْلَدون ﴾ برفع التاء [وتسكين الخاء وفتح اللام مخففة .

وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو حصين] : ﴿ تُخَلَّدون ﴾ بفتح الخاء وتشديد اللام .

قوله تعالى : ﴿ وإِذا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جبَّارِين ﴾ المعنى : إِذا ضربتم ضربتم بالسياط ضرب الجبَّارين ، وإِذا عاقبتم قَتَلتم ؛ وإِنما أنكر عليهم ذلك ، لأنه صدر عن ظلم ، إِذ لو ضَربوا بالسيف أو بالسوط في حَقٍّ ماليموا .

وفي قوله : ﴿ عذابَ يوم عظيم ﴾ قولان .

أحدهما : ما عذِّبوا به في الدنيا .

والثاني : عذاب جهنم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هذا إِلا خُلُق الأوَّلين ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : ﴿ خَلْق ﴾ بفتح الخاء وتسكين اللام ؛ قال ابن قتيبة : أرادوا اختلاقهم وكذبهم ، يقال : خَلَقتُ الحديثَ واختلقتُه ، أي : افتعلته ، قال الفراء : والعرب تقول للخُرافات : أحاديثُ الخَلْق .

وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، [وخلف ، ونافع] : ﴿ خُلُق الأولين ﴾ بضم الخاء واللام .

وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، وعاصم الجحدري : ﴿ خُلْق ﴾ برفع الخاء وتسكين اللام ؛ والمعنى : عادتهم وشأنهم .

قال قتادة : قالوا [له] : هكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا ، ثم يموتون ، ولا بعث لهم ولا حساب .

قوله تعالى : ﴿ وما نحن بمعذَّبين ﴾ أي : على ما نفعله في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(19/571)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾

التأنيث بمعنى القبيلة والجماعة .

وتكذيبهم المرسلين كما تقدّم .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ بيّن المعنى وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ الرّيع ما ارتفع من الأرض في قول ابن عباس وغيره ، جمع رِيعة .

وكم ريع أرضك أي كم ارتفاعها .

وقال قتادة : الرّيع الطريق .

وهو قول الضحاك والكلبي ومقاتل والسدي .

وقاله ابن عباس أيضاً .

ومنه قول المسيب بن عَلَس :

في الآلِ يَخفِضُها ويَرفَعُها . . .

رِيعٌ يَلُوحُ كأنَّه سَحْلُ

شبّه الطريق بثوب أبيض .

النحاس : ومعروف في اللغة أن يقال لما ارتفع من الأرض ريعٌ وللطريق ريعٌ .

قال الشاعر :

طراقُ الخَوَافِي مشرق فَوْقَ رِيعَةٍ . . .

نَدَى ليلِهِ في ريشه يَتَرَقرقُ

وقال عمارة : الريع الجبل الواحد رِيعة والجمع رِياع .

وقال مجاهد : هو الفجّ بين الجبلين .

وعنه الثّنية الصغيرة .

وعنه : المنظرة .

وقال عكرمة ومقاتل : كانوا يهتدون بالنجوم إذا سافروا ، فبنوا على الطريق أمثالاً طوالاً ليهتدوا بها : يدل عليه قوله تعالى : ﴿ آيَةً ﴾ أي علامة .

وعن مجاهد : الريع بنيان الحَمَام دليله ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي تلعبون ؛ أي تبنون بكل مكان مرتفع آية علَما تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها .

وقيل : تعبثون بمن يمرّ في الطريق .

أي تبنون بكل موضع مرتفع لتشرفوا على السابلة فتسخروا منهم .

وقال الكلبي : إنه عبث العشّارين بأموال من يمر بهم ؛ ذكره الماوردي .

وقال ابن الأعرابي : الريع الصومعة ، والرّيع البرج من الحمام يكون في الصحراء .

والرّيع التلُّ العالي .

وفي الرّيع لغتان ؛ كسر الراء وفتحها وجمعها أرياع ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أي منازل ؛ قاله الكلبي .

وقيل : حُصُونا مشيدة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد .

ومنه قول الشاعر :

تَرَكْنَا دِيارَهُم مِنهم قِفَاراً . . .

وهَدَّمْنا المصانعَ وَالْبُرُوجَا

وقيل : قصوراً مشيدة ؛ وقاله مجاهد أيضاً .

وعنه ؛ بروج الحمام ؛ وقاله السدي .

قلت : وفيه بعدٌ عن مجاهد ؛ لأنه تقدّم عنه في الريع أنه بنيان الحمام فيكون تكراراً في الكلام .

وقال قتادة : مآجِل للماء تحت الأرض .

وكذا قال الزجاج : إنها مصانع الماء ، واحدتها مُصْنَعَةٌ ومَصْنَعٌ .

ومنه قول لَبِيد :

بَلِينا وما تَبْلَى النجومُ الطوالعُ . . .

وتبقَى الجبالُ بَعْدَنا والمصَانِعُ

الجوهري : المصنَعة كالحوض يجتمع فيها ماء المطر ، وكذلك المصنُعة بضم النون .

والمصانع الحصون .

وقال أبو عبيدة : يقال لكل بناء مصنعة .

حكاه المهدوي .

وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العادية .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي كي تخلدوا .

وقيل : لعل استفهام بمعنى التوبيخ أي فهل ﴿ تَخْلُدُونَ ﴾ كقولك : لعلك تشتمني أي هل تشتمني .

روي معناه عن ابن زيد .

وقال الفراء : كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت .

وقال ابن عباس وقتادة : كأنكم خالدون باقون فيها .

وفي بعض القراءات "كَأَنَّكُمْ تُخَلَّدُون" ذكره النحاس .

وحكى قتادة : أنها كانت في بعض القراءات ﴿ كأنكم خالدِون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ البطش السطوة والأخذ بالعنف .

وقد بَطَش به يبطُش ويبطِش بطشاً .

وباطشه مباطشة .

وقال ابن عباس ومجاهد : البطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط .

ومعنى ذلك فعلتم ذلك ظلماً .

وقال مجاهد أيضاً : هو ضرب بالسياط ؛ ورواه مالك ابن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي .

وقيل : هو القتل بالسيف في غير حق .

حكاه يحيى بن سَلاّم .

وقال الكلبي والحسن : هو القتل على الغضب من غير تثبت .

وكله يرجع إلى قول ابن عباس .

(21/571)

وقيل : إنه المؤاخذة على العمد والخطأ من غير عفو ولا إبقاء .

قال ابن العربي : ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض ﴾ [القصص : 19] وذلك أن موسى عليه السلام لم يسل عليه

سيفاً ولا طعنه برمح ، وإنما وكزه وكانت منيّته في وكزته .

والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع ، ويليه السوط والعصا ، ويليه الحديد ، والكل مذموم إلا بحق .

والآية نزلت خبراً عمن تقدّم من الأمم ، ووعظاً من الله عز وجل لنا في مجانبة ذلك الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم .

قلت : وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة ، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية ؛ فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن ذلك يكون .

كما في "صحيح مسلم" عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صِنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سِياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مَميلاتٌ مائلاتٌ رؤوسهُنّ كأَسْنِمة البُخْت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحَها وإنّ ريحها ليُوجَد من مسيرة كذا وكذا " وخرج أبو داود من حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا تبايعتم بالعِينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلاّ لا ينزِعه حتى ترجعوا إلى دينكم " ﴿ جَبَّارِينَ ﴾ قتّالين .

والجبار القتال في غير حق .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص : 19] قاله الهروي .

وقيل : الجبار المتسلّط العاتي ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ [ق : 45] أي بمسلَّط .

وقال الشاعر :

(22/571)

سَلَبْنَا من الجَبَّار بالسّيف مُلْكَهُ . . .

عَشِيًّا وأطرافُ الرِّمَاحِ شَوَارِعُ

قوله تعالى : ﴿ فاتقوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ تقدّم .

﴿ واتقوا الذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي من الخيرات ؛ ثم فسرها بقوله : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي سخر ذلك لكم وتفضل بها عليكم ، فهو الذي يجب أن يعبد ويشكر ولا يكفر .

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن كفرتم به وأصررتم على ذلك .

﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الواعظين ﴾ كل ذلك عندنا سواء لا نسمع

منك ولا نلوي على ما تقوله .

وروى العباس عن أبي عمرو وبِشْر عن الكسائي : "أَوَعَظتَّ" مدغمة الظاء في التاء وهو بعيد ؛ لأن الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جداً وكان مثلَه ومخرجَه .

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ أي دينهم ؛ عن ابن عباس وغيره .

وقال الفرّاء : عادة الأوّلين .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي : ﴿ خَلْقُ الأَوّلِينَ ﴾ .

الباقون ﴿ خُلُقُ ﴾ .

قال الهروي : وقوله عز وجل : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ أي اختلاقهم وكذبهم ، ومن قرأ : ﴿ خُلُقُ الأَوّلِينَ ﴾ فمعناه عادتهم ، والعرب تقول : حدّثنا فلان بأحاديث الخَلْق أي بالخرافات والأحاديث المفتعلة .

وقال ابن الأعرابي : الخلقُ الدين والخلقُ الطبع والخلقُ المروءة .

قال النحاس : ﴿ خُلُقُ الأَوّلِينَ ﴾ عند الفراء يعني عادة الأولين .

(23/571)

وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال : ﴿ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ مذهبهم وما جرى عليه أمرهم ؛ قال أبو جعفر : والقولان متقاربان ، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً " أي أحسنهم مذهباً وعادة وما يجري عليه الأمر في طاعة الله عز وجل ، ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجراً فاضلاً ، ولا أن يكون أكمل إيماناً من السيّىء الخلق الذي ليس بفاجر .

قال أبو جعفر : حكي لنا عن محمد بن يزيد أن معنى ﴿ خَلْقُ الأَوّلِينَ ﴾ تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى ؛ لأن فيها مدح آبائهم ، وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم ، وقولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : 23] .

وعن أبي قِلاَبَة : أنه قرأ ﴿ خُلْق ﴾ بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف ﴿ خُلُقُ ﴾ .

ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع .

وقد قيل : إن معنى ﴿ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ دين الأولين .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله ﴾ [النساء : 119] أي دين الله .

و "خُلُقُ الأَوّلِينَ" عادة الأولين : حياة ثم موت ولا بعث .

وقيل : ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدي بهم ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نفعل .

وقيل ؛ المعنى خلق أجسام الأوّلين ؛ أي ما خلقنا إلا كخلق الأوّلين الذين خلقوا قبلنا وماتوا

، ولم ينزل بهم شيء مما تحذرنا به من العذاب .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي بريح صرصر عاتية على ما يأتي في "الحاقة" .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قال بعضهم : أسلم معه ثلثمائة ألف ومؤون وهلك باقيهم .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(24/571)

وقال أبو حيان :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

كان أخاهم من النسب ، وكان تاجراً جميلاً ، أشبه الخلق بآدم عليه السلام ، عاش أربعمائة سنة وأربعاً وستين سنة ، وبينه وبين ثمود مائة سنة .

وكانت منازل عاد ما بين عمان إلى حضرموت .

أمرع البلاد ، فجعلها الله مفاوز ورمالاً .

أمرهم أولاً أمر به نوح قومه ، ثم نعى عليهم من سوء أعمالهم مع كفرهم فقال : ﴿ أتبنون بكل ريع ﴾ ؟ قال ابن عباس : هو رأس الزقاق .

وقال مجاهد : فج بين جبلين .

وقال عطاء : عيون فيها الماء .

وقال ابن بحر : جبل .

وقيل : الثنية الصغيرة .

وقرأ الجمهور : ريع بكسر الراء ، وابن أبي عبلة : بفتحها .

قال ابن عباس : ﴿ آية ﴾ : علماً .

وقال مجاهد : أبراج الحمام .

وقال النقاش وغيره : القصور الطوال .

وقيل : بيت عشار .

وقيل : نادياً للتصلف .

وقيل : أعلاماً طوالاً ليهتدوا بها في أسفارهم ، عبثوا بها لأنهم كانوا يهتدون بالنجوم .

وقيل : علامة يجتمع إليها من يعبث بالمار في الطريق .

وفي قوله إنكار للبناء على صورة العبث ، كما يفعل المترفون في الدنيا .

والمصانع : جمع مصنعة .

قيل : وهي البناء على الماء .

وقيل : القصور المشيدة المحكمة .

وقيل : الحصون .

وقال قتادة : برك الماء .

وقيل : بروج الحمام .

وقيل : المنازل .

واتخذ هنا بمعنى عمل ، أي ويعملون مصانع ، أي تبنون .

وقال لبيد :

وتبقى جبال بعدنا ومصانع . . .

﴿ لعلكم تخلدون ﴾ : الظاهر أن لعل على بابها من الرجاء ، وكأنه تعليل للبناء والاتخاذ ، أي الحامل لكم على ذلك هو الرجاء للخلود ولا خلود .

وفي قراءة عبد الله : كي تخلدون ، أو يكون المعنى يشبه حالكم حال من يخلد ، فلذلك بنيتم واتخذتم .

وقال ابن زيد : معناه الاستفهام على سبيل التوبيخ والهزء بهم ، أي هل أنتم تخلدون : وكون لعل للاستفهام مذهب كوفي .

وقال ابن عباس : المعنى كأنكم خالدون ، وفي حرف أبي : كأنكم تخلدون .

وقرىء : كأنكم خالدون .

وقرأ الجمهور : تخلدون ، مبنياً للفاعل ؛ وقتادة : مبنياً للمفعول .

ويقال : خلد الشيء وأخلده : غيره .

وقرأ أبيّ ، وعلقمة ، وأبو العالية ، مبنياً للمفعول مشدداً ، كما قال الشاعر :

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد . . .

قليل الهموم ما يبيت بأوجال

﴿ وإذا بطشتم ﴾ : أي أردتم البطش ، وحمل على الإرادة لئلا يتحد الشرط وجوابه ، كقوله :

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة . . .

أي متى أردتم بعثها .

قال الحسن : بادروا تعذيب الناس من غير تثبت ولا فكر في العواقب .

وقيل : المعنى أنكم كفار الغضب ، لكم السطوات المفرطة والبوادر .

فبناء الأبنية العالية تدل على حب العلو ، واتخاذ المصانع رجاء الخلود يدل على البقاء ، والجبارية تدل على التفرد بالعلو ، وهذه صفات الإلهية ، وهي ممتنعة الحصول للعبد .

ودل ذلك على استيلاء حب الدنيا عليهم بحيث خرجوا عن حد العبودية ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة .

ولما نبههم ووبخهم على أفعالهم القبيحة ، أمرهم ثانياً بتقوى الله وطاعة نبيه .

ثم أمرهم ثالثاً بالتقوى تنبيهاً لهم على إحسانه تعالى إليهم ، وسبوغ نعمته عليهم .

وأبرز صلة ﴿ الذي ﴾ متعلقة بعلمهم ، تنبيهاً لهم وتحريضاً على الطاعة والتقوى ، إذ شكر المحسن واجب ، وطاعته متعينة ، ومشيراً إليهم بأن من أمد بالإحسان هو قادر على سلبه ، وعلى تعذيب من لم يتقه ، إذ هذا الإمداد ليس من جهتكم ، وإنما هو من تفضله تعالى عليكم بحيث أتبعكم إحسانه شيئاً بعد شيء .

ولما أتى بذكر ما أمدهم به مجملاً محالاً على علمهم ، أتى به مفصلاً .

فبدأ بالأنعام ، وهي التي تحصل بها الرئاسة في الدنيا ، والقوة على من عاداهم ، والغنى هو السبب في حصول الذرية غالباً لوجده .

وبحصول القوة أيضاً بالبنين ، فلذلك قرنهم بالأنعام ، ولأنهم يستعينون بهم في حفظها والقيام عليها .

واتبع ذلك بالبساتين والمياه المطردة ، إذ الإمداد بذلك من إتمام النعمة .

(26/571)

﴿ وبأنعام ﴾ : ذهب بعض النحويين إلى أنه بدل من قوله : ﴿ بما تعلمون ﴾ ، وأعيد العامل كقوله : ﴿ اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم ﴾ والأكثرون لا يجعلون مثل هذا بدلاً وإنما هو عندهم من تكرار الجمل ، وإن كان المعنى واحداً ، ويسمى التتبيع ، وإنما يجوز أن يعاد عندهم العامل إذا كان حرف جر دون ما يتعلق به ، نحو : مررت بزيد بأخيك ، ثم حذرهم عذاب الله ، وأبرز ذلك في صورة الخوف لا على سبيل الجزم ، إذ كان راجياً لإيمانهم ، فكان من جوابهم أن قالوا : ﴿ سواء علينا ﴾ وعظك وعدمه ، وجعلوا قوله وعظاً ، إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به ، وأنه كاذب فيما ادعاه ، وقولهم ذلك على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به .

وقرأ الجمهور : وعظت ، بإظهار الظاء .

وروي عن أبي عمرو ، والكسائي ، وعاصم : إدغام الظاء في التاء .

وبالإدغام ، قرأ ابن محيصن ، والأعمش ؛ إلا أن الأعمش زاد ضمير المفعول فقرأ : أوعظتنا .

وينبغي أن يكون إخفاء ، لأن الظاء مجهورة مطبقة ، والتاء مهموسة منفتحة ، فالظاء أقوى من التاء ، والإدغام إنما يحسن في المتماثلين ، أو في المتقاربين ، إذا كان الأول أنقص من الثاني .

وأما إدغام الأقوى في الأضعف ، فلا يحسن .

على أنه قد جاء من ذلك أشياء في القرآن بنقل الثقات ، فوجب قبولها ، وإن كان غيرها هو أفصح وأقيس .

وعادل ﴿ أوعظت ﴾ بقوله : ﴿ أم لم تكن من الواعظين ﴾ ، وإن كان قد يعادله : أم لم تعظ .

كما قال : ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ لأجل الفاصلة ، كما عادلت في قوله : ﴿ سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ ولم يأت التركيب أم صمتم ، وكثيراً ما يحسن مع الفواصل ما لا يحسن دونه .

وقال الزمخشري : بينهما فرق ، يعني بين ما جاء في الآية وهي : أم لم تعظ ، قال : لأن المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته ، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظ من قولك : أم لم تعظ .

(27/571)

ولما لم يبالوا بما أمرهم به ، وبما ذكرهم من نعم الله وتخويفه الانتقام منهم ، أجابوه بأن قالوا : ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ .

وقرأ عبد الله ، وعلقمة ، والحسن ، وأبو جعفر ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، والكسائي :

خلق ، بفتح الخاء وسكون اللام ، فهو يحتمل أن يكون المعنى : إن هذا الذي تقوله وتدعيه إلا اختلاق الأولين من الكذبة قبلك ، فأنت على مناهجهم .

وروى علقمة عن عبد الله : أن هذا إلا اختلاق الأولين .

ويحتمل أن يكون المعنى : ما هي البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأولون ، حياة وموت ولا بعث ولا تعذيب .

وقرأ باقي السبعة : خلق ، بضمتين ؛ وأبو قلابة ، والأصمعي عن نافع : بضم الخاء وسكون اللام ؛ وتحتمل هذه القراءة ذينك الاحتمالين اللذين في خلق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(28/571)

وقال أبو السعود :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾

أُنِّثَ عادٌ باعتبار القبيلةِ وهو اسمُ أبيهم الأقصى .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ الكلام في أنَّ المرادَ بتكذيبهم وبما وقعَ فيه من الزَّمانِ ماذا كما مرَّ في صدر قصَّة نوحٍ عليه السَّلامُ أي لا تتقون الله تعالى فتفعلون ما

تفعلونَ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ ، وتَصديرُ القصص به للتنبيه على أنَّ مبنى البعثةِ هو الدُّعاءِ إلى معرفةِ الحقِّ والطَّاعةِ فيما يُقرب المدعوَّ إلى الثَّوابِ ويُبعده من العقابِ وأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مُجمعون على ذلك وإن اختلفُوا في بعض فروعِ الشَّرائعِ المختلفة باختلاف الأزمنةِ والأعصارِ وأنَّهم متنزِّهون عن المطامعِ الدنيةِ والأعراضِ الدُّنيويةِ بالكُلِّية .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أي مكانٍ مرتفعٍ ومنه رِيعُ الأرض لارتفاعِها ﴿ ءايَةً ﴾ عَلَماً للمارة ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي ببنائها إذْ كانُوا يهتدون بالنُّجومِ في أسفارِهم فلا يحتاجُون إليها أو بروج الحمام أو بُنياناً يجتمعون إليه ليعبثُوا بمن مرَّ عليهم أو قُصوراً عاليةً يفتخرونَ بها .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ أي مآخذَ الماءِ وقيل : قُصوراً مشيَّدة وحصوناً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي راجين أنْ تُخلدوا في الدُّنيا أي عاملين عملَ مَنْ يرجُو ذلك فلذلك تحكمُون بنيانها .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ بسوطٍ أو سيفٍ ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ متسلِّطين غاشمينَ بلا رأفةٍ ولا قصدِ تأديبٍ ولا نظرٍ في العاقبةِ .

﴿ فاتقوا اللهَ ﴾ واتركُوا هذه الأفعالَ ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فميا أدعُوكم إليه فإنَّه أنفعُ لكم .

﴿ واتقوا الذى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ من أنواع النّعماء وأصنافِ الآلاءِ ، أجملَها أوّلاً ثم فصّلَها بقوله ﴿ أَمَدَّكُمْ بأنعام وَبَنِينَ ﴾ بإعادة الفعل لزيادةِ التَّقريرِ فإنَّ التَّفصيلَ بعد الإجمال والتَّفسيرَ إثر الإبهامِ أدخلُ في ذلك .

﴿ وجنات وَعُيُونٍ * إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إنْ لم تقوموا بشكرِ هذهِ النّعم ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ فإنَّ كُفران النّعمةِ مستتبعٌ للعذاب كما أنَّ شكرَها مستلزمٌ لزيادتِها قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لازِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ . ﴾ ﴿ قَالُواْ سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ فإنَّا لنْ نرعويَ عمَّا نحن عليه ، وتغييرُ الشّقِّ الثّاني عن مقابله للمبالغة في بيان قلَّةِ اعتدادِهم بوعظه كأنَّهم قالُوا أم لم تكُن من أهلِ الوعظ ومباشريهِ أصلاً .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ ما هذا الذي جئتنا به ﴿ إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ أي عاداتُهم كانوا يلفّقون مثلَه ويسطرونَه أو ما هذا الذي نحنُ عليه من الدّين إلَّا خُلُق الأولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليه من الموتِ والحياةِ إلا عادةٌ قديمةٌ لم يزل النَّاسُ عليها . وقُرِىء خَلْق الأوّلين بفتح الخاء أي اختلافُ الأوّلينَ كما قالوا أساطيرُ الأوّلينَ أو ما خلقُنا هذا إلا خلقُهم

نحيا كما حيُوا ونموت كما ماتُوا ولا بعثَ ولا حسابَ .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نحنُ عليه من الأعمالِ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي أصرُّوا على ذلك ﴿ فأهلكناهم ﴾ بسببه بريحٍ صرصرٍ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(30/571)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾

تأنيث الفعل هنا باعتبار أن المراد بعاد القبيلة وهو اسم أبيهم الأقصى ، وكثيراً ما يعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة بالأب وقد يعبر عنها ببني أو بآل مضافاً إليه فيقال : بنو فلان أو آل فلان ، وكذا الكلام في قوله سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ وحكاية الأمر بالتقوى والإطاعة ونفي سؤال الأجر في القصص الخمس وتصديرها بذلك للتنبيه على أن مبني البعثة هو الدعاء

إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار وإنهم عليهم السلام منزهون عن المطامع الدنيوية بالكلية .

ولعله لم يسلك هذا المسلك في قصتي موسى .

وإبراهيم عليهما السلام تفنناً مع ذكر ما يشعر بذلك ، وقيل : إن ما ذكر ثمة أهم وكانت منازل عاد بين عمان .

وحضرموت وكانت أخصب البلاد وأعمرها فجعلها الله تعالى مفاوز ورمالاً ، ويشير إلى عمارتها قوله تعالى :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ أي طريق كما روي عن ابن عباس .

وقتادة .

وأخرج ابن جرير .

وجماعة عن مجاهد أن الريع الفج بين الجبلين .

وعن أبي صخر أنه الجبل والمكان المرتفع عن الأرض .

وعن عطاء أنه عين الماء .

والأكثرون على أنه المكان المرتفع وهو رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ومنه ريع النبات وهو ارتفاعه بالزيادة والنماء .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ رِيعٍ ﴾ بفتح الراء ﴿ ءايَةً ﴾ أي علماً كما روي عن الحبر رضي الله تعالى عنه ، وقيل : قصراً عالياً مشيداً كأنه علم وإليه ذهب النقاش .

(31/571)

وغيره واستظهره ابن المنير ؛ ويمكن حمل ما روي عن الحبر عليه وحينئذٍ فقوله تعالى : ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ على معنى تعبثون ببنائها لما أنهم لم يكونوا محتاجين إليها وإنما بنوها للفخر بها . والعبث ما لا فائدة فيه حقيقة أو حكماً ، وقد ذم رفع البناء لغير غرض شرعي في شريعتنا أيضاً ، وقيل : إن عبثهم في ذلك من حيث أنهم بنوها ليهتدوا بها في أسفارهم والنجوم تغني عنها .

واعترض بأن الحاجة تدعو لذلك لغيم مطبق أو ما يجري مجراه .

وأجيب بأن الغيم نادر لا سيما في ديار العرب مع أنه لو احتيج إليها لم يحتج إلى أن تجعل في كل ريع فيكون بناؤها كذلك عبثاً .

وقال الفاضل اليمني : إن أماكنها المرتفعة تغني عنها فهي عبث ، وقيل : كانوا يبنون ذلك ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم : وروي ذلك عن الكلبي .

والضحاك ، وعن مجاهد .

وابن جبير أن الآية برج الحمام كانوا يبنون البروج في كل ربع ليلعبوا بالحمام ويلهوا به ، وقيل : بيت العشار يبنونه بكل رأس طريق فيجلسون فيه ليعشروا مال من يمر بهم .

وله نظير في بلادنا اليوم ، ولا مستعان إلا بالله العلي العظيم .

والجملة في موضع الحال وهي حال مقدرة على بعض الأقوال .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ ﴾ أي تعملون ﴿ مَصَانِعَ ﴾ أي مآخذ للماء ومجاري تحت الأرض كما روي عن قتادة ، وفي رواية أخرى عنه أنها برك الماء .

وعن مجاهد أنها القصور المشيدة ، وقيل : الحصون المحكمة .

وأنشدوا قول لبيد :

وتبقى جبال بعدنا ومصانع . . .

وليس بنص في المدعى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي راجين أن تخلدوا في الدنيا أو عاملين عمل من يرجو الخلود فيها فلعل على بابها من الرجاء ، وقيل : هي للتعليل وفي قراءة عبد الله ﴿ كَى تَخْلُدُونَ ﴾ .

(32/571)

وقال ابن زيد : هي للاستفهام على سبيل التوبيخ والهزء بهم أي هل أنتم تخلدون ، وكون لعل للاستفهام مذهب كوفي ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : المعنى كأنكم خالدون وقرىء بذلك كما روي عن قتادة ، وفي حرف أبي ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ وظاهر ما ذكر أن لعل هنا للتشبيه ، وحكى ذلك صريحاً الواقدي عن البغوي .

وفي البرهان هو معنى غريب لم يذكره النحاة .

ووقع في "صحيح البخاري" أن لعل في الآية للتشبيه انتهى .

وقرأ قتادة ﴿ تَخْلُدُونَ ﴾ مبنياً للمفعول مخففاً ويقال : خلد الشيء وأخلده غيره ، وقرأ أبي .

وعلقمة ﴿ تَخْلُدُونَ ﴾ مبنياً للمفعول مشدداً كما قال الشاعر :

وهل يعمن إلا سعيد مخلد . . .

قليل هموم ما يبيت بأوجال

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ أي أردتم البطش بسوط أو سيف ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ مسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر في العاقبة .

وأول الشرط بما ذكر ليصح التسبب وتقييد الجزاء بالحال لا يصححه لأن المطلق ليس سبباً للمقيد ، وقيل : لا يضر الاتحاد لقصد المبالغة ، وقيل : الجزائية باعتبار الإعلام والإخبار وهو كما ترى .

ونظير الآية قوله :

متى تبعثوها تبعثوها دميمة . . .

ودل توبيخه عليه السلام إياهم بما ذكر على استيلاء حب الدنيا والكبر على قلوبهم حتى أخرجهم ذلك عن حد العبودية .

﴿ فاتقوا الله ﴾ واتركوا هذه الأفعال ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم .

﴿ واتقوا الذى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي بالذي تعرفونه من النعم فما موصولة والعائد محذوف والعلم بمعنى المعرفة ، وقوله تعالى :

(33/571)

﴿ أَمَدَّكُمْ بأنعام وَبَنِينَ ﴾ منزلة منزلة بدل البعض كما ذكره غير واحد من أهل المعاني ، ووجهه عندهم أن المراد التنبيه على نعم الله تعالى والمقام يقتضي اعتناء بشأنه لكونه مطلوباً في نفسه أو ذريعة إلى غيره من الشكر بالتقوى ، وقوله سبحانه : ﴿ أَمَدَّكُمْ بأنعام ﴾ الخ أوفى بتأدية ذلك المراد لدلالته على النعم بالتفصيل من غير إحالة على علم المخاطبين المعاندين فوزانه وزان وجهه في أعجبني زيد وجهه لدخول الثاني في الأول لأن ﴿ مَا تَعْلَمُونَ ﴾ يشمل الأنعام وما بعدها من المعطوفات ، ولا يخفى ما في التفصيل بعد

الإجمال من المبالغة ، وفي "البحر" أن قوله تعالى : ﴿ بأنعام ﴾ على مذهب بعض النحويين بدل من قوله سبحانه : ﴿ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء : 132] وأعيد العامل كقوله تعالى : ﴿ اتبعوا المرسلين اتبعوا مَن لاَّ يَسْئَلُكُمْ أَجْراً ﴾ [يس : 20 ، 21] والأكثرون لا يجعلون مثل هذا إبدالاً وإنما هو عندهم من تكرار الجمل وإن كان المعنى واحداً ويسمى التتبيع ، وإنما يجوز أن يعاد العامل عندهم إذا كان حرف جر دون ما يتعلق به نحو مررت بزيد بأخيك انتهى .

ونقل نحوه عن السفاقسي ، وقال أبو حيان : الجملة مفسرة لما قبلها ولا موضع لها ، وبدأ بذكر الأنعام لأنها تحصل بها الرياسة والقوة على العدو والغنى الذي لا تكمل اللذة بالبنين وغيرهم في الأغلب إلا به وهي أحب الأموال إلى العرب ثم بالبنين لأنهم معينوهم على الحفظ والقيام عليها ومن ذلك يعم وجه قرنهما ، ووجه قرن الجنات والعيون في قوله تعالى : ﴿ وجنات وَعُيُونٍ ﴾ ظاهر وكذا وجه قرنهما مع الأنعام ، وقوله سبحانه :

(34/571)

﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ الخ في موضع التعليل أي إني أخاف عليكم إن لم تتقوا وتقوموا بشكر هذه النعم : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ في الدنيا والآخرة فإن كفران النعمة مستتبع

للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 7] وعلل بما ذكر دون استلزام التقوى للزيادة لأن زوال النعمة يحزن فوق ما تسر زيادتها ودرء المضار مقدم على جلب المنافع :

﴿ قَالُواْ سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الواعظين ﴾ فإنا لا نرعوي عما نحن عليه قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به عليه السلام ، وعدلوا عن أم لم تعظ الذي يقتضيه الظاهر للمبالغة في بيان قلة اعتدادهم بوعظه عليه السلام لما في كلامهم على ما في "النظم الجليل" من استواء وعظه والعدم الصرف البليغ وهو عدم كونه من عداد الواعظين وجنسهم ، وقيل : في وجه المبالغة إفادة كان الاستمرار و ﴿ الواعظين ﴾ الكمال واعتبارهما بقرينة المقام بعد النفي أي سواء علينا أوعظت أم استمر انتفاء كونك من زمرة من يعظ انتفاء كاملاً بحيث لا يرجى منك نقيضه ، وقال في "البحر" : إن المقابلة بما ذكر لأجل الفاصلة كما في قوله تعالى : ﴿ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صامتون ﴾ [الأعراف : 193] وكثيراً ما يحسن مع الفواصل ما لا يحسن دونه وليس بشيء كما لا يخفى .

وروي عن أبي عمرو .

والكسائي ادغام الظاء في التاء في ﴿ وعظت ﴾ وبالإدغام قرأ ابن محيصن .

والأعمش إلا أن الأعمش زاد ضمير المفعول فقرأ ﴿ أوعظتنا ﴾ وينبغي أن يكون إخفاء

لأن الظاء مجهورة مطبقة والتاء مهموسة منفتحة فالظاء أقوى منها والإدغام إنما يحسن في المتماثلين أو في المتقاربين إذا كان الأول أنقص من الثاني .

(35/571)

وأما إدغام الأقوى في الأضعف فلا يحسن ، وإذا جاء شيء من ذلك في القرآن بنقل الثقات وجب قبوله وإن كان غيره أفصح وأقيس .

وقوله تعالى :

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ تعليل لما أدعوه من المساواة أي ما هذا الذي جئتنا به الإعادة الأولين يلفقون مثله ويدعون إليه أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا عادة الأولين الذين تقدمونا من الآباء وغيرهم ونحن بهم مقتدون ، وقرأ أبو قلابة .

والأصمعي عن نافع ﴿ خُلِقَ ﴾ بضم الخاء وسكون اللام ، والمعنى عليه كما تقدم .

وقرأ عبد الله .

وعلقمة .

والحسن .

وأبو جعفر .

وأبو عمرو .

وابن كثير .

والكسائي ﴿ خُلِقَ ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام أي ما هذا إلا اختلاق الأولين وكذبهم ، ويؤيد هذا المعنى ما روى علقمة عن عبد الله أنه قرأ ﴿ إِلاَّ اختلاق الاولين ﴾ ويكون هذا كقول سائر الكفرة ﴿ أساطير الاولين ﴾ [الأنعام : 25] أو ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيي كما حيوا ونموت كما ماتوا ، ومرادهم إنكار البعث والحساب المفهوم من تهديدهم بالعذاب ، ولعل قولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي على ما نحن عليه من الأعمال أصرح في ذلك .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي أصروا على تكذيبه عليه السلام ﴿ فأهلكناهم ﴾ بسببه بريح صرصر .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

(36/571)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

وقوم هود كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن .

وقد جاءوا بعد قوم نوح ، وكانوا ممن زاغت قلوبهم بعد فترة من الطوفان الذي طهر وجه الأرض من العصاة .

وقد وردت هذه القصة في الأعراف مفصلة وفي هود ، كما وردت في سورة " المؤمنون " بدون ذكر اسم هود وعاد . وهي تعرض هنا مختصرة بين طرفيها : طرف دعوة هود لقومه ، وطرف العاقبة التي انتهى إليها المكذبون منهم . وتبدأ كما بدأت قصة قوم نوح :

﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ . .

فهي الكلمة الواحدة يقولها كل رسول : دعوة إلى تقوى الله وطاعة رسوله . وإعلان للزهد فيما لدى القوم من عرض الحياة ، وترفع قيم الأرض الزائلة ، وتطلع إلى ما عند الله من أجر كريم .

ثم يزيد ما هو خاص بحال القوم وتصرفاتهم ، فينكر عليهم الترف في البنيان لمجرد التباهي بالمقدرة ، والإعلان عن الثراء ، والتكاثر والاستطالة في البناء ؛ كما ينكر غرورهم بما يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا ، وما يسخرونه فيها من القوى ، وغفلتهم عن تقوى الله

ورقابته :

﴿ أتبنون بكل ريع آلهة تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ؟ ﴾ . .

والريع المرتفع من الأرض . والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنياناً يبدو للناظر من بعد كأنه علامة . وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة . ومن ثم سماه عبثاً . ولو كان لهداية المارة ، ومعرفة الاتجاه ما قال لهم : ﴿ تعبثون ﴾ . . فهو توجيه إلى أن ينفق الجهد ، وتنفق البراعة ، وينفق المال فيما هو ضروري ونافع ، لا في الترف والزينة ومجرد إظهار البراعة والمهارة .

(37/571)

ويبدو كذلك من قوله : ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ أن عاداً كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً يذكر ؛ حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور ، وتشييد العلامات على المرتفعات ؛ وحتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بوساطتها من البيان كافية لحمايتهم من الموت ، ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء .

ويمضي هود في استنكار ما عليه قومه :

﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ . .

فهم عتاة غلاظ ، يتجبرون حين يبطشون ؛ ولا يتحرجون من القسوة في البطش . شأن المتجبرين المعتزين بالقوة المادية التي يملكون .

وهنا يردهم إلى تقوى الله وطاعة رسوله ، لينهنه من هذه الغلظة الباطشة المتجبرة :

﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ . .

ويذكرهم نعمة الله عليهم بما يستمتعون به ويتطاولون ويتجبرون ، وكان الأجدر بهم أن يتذركوا فيشكروا ، ويخشوا أن يسلبهم ما أعطاهم ، وأن يعاقبهم على ما أسرفوا في العبث والبطش والبطر الذميم !

(38/571)

«وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» . .

وهكذا يذكرهم بالمنعم والنعمة على وجه الإجمال أولا : «أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ» . وهو حاضر بين أيديهم ، يعلمونه ويعرفونه ويعيشون فيه ، ثم يفصل بعض التفصيل : «أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» وهي النعم المعهودة في ذلك العهد وهي نعمة في كل عهد . .

ثم يخوفهم عذاب يوم عظيم . في صورة الإشفاق عليهم من ذلك العذاب . فهو أخوهم ، وهو واحد منهم ، وهو حريص ألا يحل بهم عذاب ذلك اليوم الذي لا شك فيه .

ولكن هذه التذكرة وهذا التخويف ، لا يصلان إلى تلك القلوب الجاسية الفظة الغليظة .

فإذا الإصرار والعناد والاستهتار .

«قالُوا : سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ» . .

فما يعنينا أن تعظ أو ألا تكون أصلا من الواعظين ! وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة . يتبعه ما يشي بالجمود والتحجر والاعتماد على التقليد ! «إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . . وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» . .

فحجتهم فيما هم عليه ، وفيما يستنكره عليهم هود ، أنه خلق الأولين ونهجهم . وهم يسيرون على نهج الأولين ! ثم إنهم لينفون احتمال العذاب على خلق الأولين ! «وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» ! ولا يستطرد السياق هنا في تفصيل ما ثار بينهم وبين رسولهم من جدل فيمضي قدما إلى النهاية :

«فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ» . .

(39/571)

وفي كلمتين اثنتين ينتهي الأمر ويطوى قوم عاد الجبارون وتطوى مصانعهم التي يتخذون ويطوى ما كانوا فيه من نعيم ، من أنعام وبنين وجنات وعيون ! وكم من أمة بعد عاد ظلت تفكر على هذا النحو ، وتغتر هذا الغرور ، وتبعد عن اللّه كلما تقدمت في الحضارة وتحسب أن الإنسان قد أصبح في غنية عن اللّه ! وهي تنتج من أسباب الدمار لغيرها ، والوقاية لنفسها ، ما تحسبه واقيا لها من أعدائها . . ثم تصبح وتمسي فإذا العذاب يصب عليها من فوقها ومن تحتها .

عن أي طريق .

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2609 . 2610 ﴾

(40/571)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

جملة مستأنفة استئناف تعداد لأخبار التسلية للرسول وتكرير الموعظة للمكذبين بعد جملة : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] .

والقول في هذه الآيات كالقول في نظيرتها في أول قصة نوح سواء ، سِوى أن قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ يفيد أنهم كذبوا رسولهم هوداً وكذبوا رسالة نوح لأن هوداً وعظهم بمصير قوم نوح في آية : ﴿ واذكروا إذ جعَلَكم خلفاءَ من بعد قوم نوح ﴾ في سورة الأعراف (69) .

واقتران فعل ﴿ كذبت ﴾ بتاء التأنيث لان اسم عاد علَم على أمة فهو مُؤَوّل بمعنى الأمة .

والقول في ﴿ ألاَ تتقون ﴾ مثل القول في نظيره المتقدم في قصة قوم نوح .

وقوله : ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ هو كقول نوح لقومه ، فإن الرسول لا يبعث إلا وقد كان معروفاً بالأمانة وحسن الخلق قبل الرسالة .

ويدل لكون هود قد كان كذلك في قومه قولُ قومه له ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ في سورة هود (54) الدال على أنهم زعموا أن تغير حاله عما كان معروفاً به من قبل بسبب سوء اعتقاده في آلهتهم .

وتفريع فاتقوا الله وأطيعون ﴾ عليه كما تقدم في قصة نوح .

وحذف ياء ﴿ وأطيعون ﴾ للفاصلة كحذفها في قصة نوح وإبراهيم آنفاً .

وتقدم ذكر عاد وهود عند قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ في سورة الأعراف (65) .

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128)

رأى من قومه تمحّضاً للشغل بأمور دنياهم ، وإعراضاً عن الفكر في الآخرة والعمل لها والنظرِ في العاقبة ، وإشراكاً مع الله في إلهيته ، وانصرافاً عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأَعْمَرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم ، فانصرفت همّاتهم إلى التعاظم والتفاخر واللهو واللعب .

(41/571)

وكانت عاد قد بلغوا مبلغاً عظيماً من البَأس وعظم السلطان والتغلب على البلاد مما أثار قولهم : ﴿ مَن أشدُّ منَّا قوةً ﴾ [فصلت : 15] فقد كانت قبائل العرب تصِف الشيء العظيم في نوعه بأنه "عَادي" وكانوا أهل رأي سديد ورجاحة أحلام ، قال ودَّاك بن ثُمَيْل المازني:

وأحلامُ عاد لا يخاف جلِيسهم . . .

ولو نطقَ العُوَّار غَرْبَ لِسان

وقال النابغة يمدح غسان:

أحلامُ عاد وأجساد مطهرة . . .

من المَعَقَّة والآفات والأَثَم

فطال عليهم الأمد ، وتفننوا في إرضاء الهوى ، وأقبلوا على الملذّات واشتد الغرور بأنفسهم فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس ، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونية إرضاء الله على أعمالهم لحب الرئاسة والسمعة ، فعبدوا الأصنام ، واستخفوا بجانب الله تعالى ، واستحمقوا الناصحين ، وأرسل الله إليهم هوداً ففاتحهم بالتوبيخ على ما فُتِنوا بالإعجاب به وبذمه إذ ألهاهم التنافس فيه عن معرفة الله فنبذُوا اتّباع الشرائع وكذَّبوا الرسول .

فمِن سابِق أعمال عاد أنهم كانوا بَنوا في طرق أسفارهم أعلاماً ومنارات تدل على الطريق كيلا يضِلّ السائرون في تلك الرمال المتنقلة التي لا تبقى فيها آثار السائرين واحتفروا وشيّدوا مصانع للمياه وهي الصهاريج تَجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار ، وبنوْا حصوناً وقصوراً على أشراف من الأرض ، وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأن فيها حفظ الناس من الهلاك في الفيافي بِضلال الطرق ، ومن الهلكة عطشاً إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه ، فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده كانت جديرةً بالثناء عاجلاً والثواب آجلاً .

(42/571)

فأما إذا أهمل إرضاء الله تعالى بها واتُّخِذت للرياء والغرور بالعظمة وكانوا مُعرضين عن التوحيد وعن عبادة الله انقلبت عظمة دنيويةً محْضة لا ينظر فيها إلى جانب النفع ولا تحث الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها وقصاراها التمدح بما وجدوه منها .

فصار وجودها شبيهاً بالعبث لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها لأن الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته .

وكانوا أيضاً في الإعراض عن الآخرة والاقتصار على التزود للحياة الدنيا بمنزلة من يحسبون أنفسهم خالدين في الدنيا .

والأعمال إذا خلت عن مراعاة المقاصد التي ترضي الله تعالى اختلفت مشارب عامليها طرائق قِدَداً على اختلاف الهمم واجتلاب المصالح الخاصة ، فلذلك أنكرها عليهم رسولهم بالاستفهام الإنكاري على سنة المواعظ فإنها تُبنَى على مراعاة ما في الأعمال من الضر الراجح على النفع ، فلا يلفت الواعظ إلى ما عسى أن يكون في الأعمال من مرجوح إذا كان ذلك النفع مرغوباً للناس ، فإن باعث الرغبة المنْبَثّ في الناس مغنٍ عن ترغيبهم فيه ، وتصدي الواعظ لذلك فضول وخروج عن المقصد بتحذيرهم أو تحريضهم فيما عدا ذلك ، إذا كان الباعث على الخير مفقوداً أو ضئيلاً .

وقد كان هذا المقام مقام موعظة كما دلّ عليه قوله تعالى عنهم ﴿ قالوا سواءٌ علينا أوعَظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ [الشعراء : 136] .

ومقام الموعظة أوسع من مقام تغيير المنكر ، فموعظة هود عليه السلام متوجهة إلى ما في نفوسهم من الأدواء الروحية ، وليس في موعظته أمر بتغيير ما بنَوه من العلامات ولا ما اتخذوه من المصانع .

(43/571)

ولما صار أثر البناء شاغلاً عن المقصد النافع للحياة في الآخرة نُزّل فعلهم المفضي إلى العبث منزلة الفعل الذي أريد منه العبث عند الشروع فيه فأنكر عليهم البناءُ بإدخال همزة الإنكار على فعل ﴿ تبنون ﴾ ، وقُيّد بجملة : ﴿ تعبثون ﴾ التي هي في موضع الحال من فاعل ﴿ تبنون ﴾ ، مع أنهم لما بنوا ذلك ما أرادوا بفعلهم عبثاً ، فمناط الإنكار من الاستفهام الإنكاري هو البناء المقيّد بالعبث ، لأن الحكم إذا دخل على مقيّد بقيْد انصرف إلى ذلك القيد .

وكذلك المعطوف على الفعل المستفهَم عنه وهو جملة : ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ هو داخل في حيّز الإنكار ومقيَّد بجملة الحال المقيَّد بها المعطوفُ عليه بناءً على أن الحال المتوسطة بين الجملتين ترجع إلى كلتيهما على رأي كثير من علماء أصول الفقه لا سيما إذا قامت القرينة على ذلك .

وقد اختلفت أقوال المفسّرين في تعيين البناء والآيات والمصانع كما سيأتي .

وفي بعض ما قالوه ما هو متمحّض للّهو والعبث والفساد ، وفي بعضه ما الأصل فيه الإباحة ، وفي بعضه ما هو صلاح ونفع كما سيأتي .

وموقع جملة : ﴿ أتبنون ﴾ في موضع بدل الاشتمال لجملة : ﴿ ألا تتقون ﴾ [الشعراء : 124] فإن مضمونها مما يشتمل عليه عدم التقوى الذي تسلط عليه الإنكار وهو في معنى النفي .

والرِّيع بكسر الراء : الشَّرف ، أي المكان المرتفع ، كذا عن ابن عباس ، والطريقُ والفج بين الجبلين ، كذا قال مجاهد وقتادة .

والآية : العلامة الدالة على الطريق ، وتطلق الآية على المصنوع المعجِب لأنه يكون علامة على إتقان صانعه أو عظمة صاحبه .

و(كل) مستعمل في الكثرة ، أي في الأرباع المشرفة على الطرق المسلوكة ، والعبث : العمل الذي لا فائدة نفع فيه .

والمصانع : جمع مَصنع وأصله مَفعَل مشتق من صَنَع فهو مصدر ميمي وُصف به للمبالغة ، فقيل : هو الجابية المحفورة في الأرض .

وروي عن قتادة : مبنية بالجير يخزن بها الماء ويُسمّى صهريجاً وماجِلاً ، وقيل : قصور وهو عن مجاهد .

وكانت بلاد عاد ما بين عُمان وحضرموت شرقاً وغَرباً ومتغلغلة في الشمال إلى الرمال وهي الأحقاق .

وجملة : ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ مستأنفة .

و(لعل) للترجي ، وهو طلب المتكلم شيئاً مستقْرب الحصول ، والكلام تهكّم بهم ، أي أرجو لكم الخلود بسبب تلك المصانع .

وقيل : جعلت عاد بنايات على المرتفعات على الطرق يعبثون فيها ويسخرون بالمارة .

وقد يفسر هذا القول بأن الأمة في حال انحطاطها حولت ما كان موضوعاً للمصالح إلى مفاسد فعمدوا إلى ما كان مبنياً لقصد تيسير السير والأمن على السابلة من الضلال في الفيافي المهلكة فجعلوه مكامن لَهو وسخرية ، كما اتخذت بعض أديرة النصارى في بلاد العرب مجالس خمر ، وكما أدركنا الصهاريج التي في قرطاجنة كانت خَزّاناً لمياه زغوان المنسابة إليها على الحنايا فرأيناها مكامِن للّصوص ومخازن للدواب إلى أول هذا القرن سنة 1303 ه .

وقيل : إن المصانع قصور عظيمة اتّخذوها فيكون الإنكار عليهم متوجهاً إلى الإسراف في

الإنفاق على أبنية راسخة مكينة كأنها تمنعهم من الموت ، فيكون الكلام مسوقاً مساق الموعظة من التوغّل في الترف والتعاظم .

هذا ما استخلصناه من كلمات انتثرت في أقوال عن المفسرين وهي تدل على حيرة من خلال كلامهم في توجيه إنكار هود على قومه عملَيْن كانا معدودين في النافع من أعمال الأمم ، وأحسب أن قد أزلنا تلك الحيرة .

وقوله : ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ أعقب به موعظتهم على اللهو واللعب والحرص على الدنيا بأن وعظهم على الشدة على الخلق في العقوبة ، وهذا من عدم التوازن في العقول فهم يبنون العلامات لإرشاد السابلة ويصطنعون المصانع لإغاثة العطاش فكيف يُلاقي هذا التفكير تفكيراً بالإفراط في الشدة على الناس في البطش بهم ، أي عقوبتهم .

(45/571)

والبطش : الضرب عند الغضب بسوط أو سيف ، وتقدم في قوله : ﴿ أم لهم أيدٍ يبطِشون بها ﴾ في آخر الأعراف (195) .

و﴿ جبارين ﴾ حال من ضمير ﴿ بطشتم ﴾ وهو جمع جبّار ، والجبار : الشديد في غير الحق ، فالمعنى : إذا بطشتم كان بطشكم في حالة التجبر ، أي الإفراط في الأذى وهو

ظلم ، قال تعالى : ﴿ إن تريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ [القصص : 19] .

وشأن العقاب أن يكون له حَد مناسب للذنب المعاقب عليه بلا إفراط ولا تفريط ، فالإفراط في البطش استخفاف بحقوق الخلق .

وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صنفان من أهل النار لم أرهما : قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات . . .

.

" الحديث .

ووقع فعل ﴿ بطشتم ﴾ الثاني جواباً ل ﴿ إذا ﴾ وهو مرادف لفعل شرطها ، لحصول الاختلاف بين فعل الشرط وفعل الجواب بالعموم والخصوص كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً ﴾ في سورة الفرقان (72) وإنما يقصد مثل هذا النظم لإفادة الاهتمام بالفعل إذ يحصل من تكريره تأكيد مدلوله .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131)

لما أفاد الاستفهام في قوله : ﴿ أتبنون بكل ريع آية ﴾ [الشعراء : 128] معنى الإنكار على ما قارن بناءهم الآيات واتخاذهم المصانع وعلى شدتهم على الناس عند الغضب

فرع عليه أمرُهم باتقاء الله ، وحصل مع ذلك التفريع تكرير جملة الأمر بالتقوى والطاعة .

وحذفُ ياء المتكلم من ﴿ أطيعون ﴾ كحذفها في نظيرها المتقدم .

(46/571)

وأعيد فعل ﴿ واتقوا ﴾ وهو مستغنى عنه لو اقتصر على الموصول وصفاً لاسم الجلالة لأن ظاهر النظم أن يقال : فاتقوا الله الذي أمّدكم بما تعلمون ، فعُدل عن مقتضى الظاهر وبني الكلام على عطف الأمر بالتقوى على الأمر الذي قبله تأكيداً له واهتماماً بالأمر بالتقوى مع أن ما عرض من الفصل بين الصفة والموصوف بجملة ﴿ وأطيعون ﴾ قضى بأن يعاد اتصال النظم بإعادة فعل ﴿ اتقوا ﴾ .

وإنما أتي بفعل ﴿ اتقوا ﴾ معطوفاً ولم يؤت به مفصولاً لما في الجملة الثانية من الزيادة على ما في الجملة الأولى من التذكير بإنعام الله عليهم ، فعلق بفعل التقوى في الجملة الأولى اسمُ الذات المقدسة للإشارة إلى استحقاقه التقوى لذاته ، ثم علق بفعل التقوى في الجملة الثانية اسمُ الموصول بصلته الدالة على إنعامه للإشارة إلى استحقاقه التقوى لاستحقاقه الشكر على ما أنعم به .

وقد جاء في ذكر النعمة بالإجمال الذي يُهَيِّىء السامعين لتلقّي ما يرد بعده فقال : ﴿ الذي

أمدكم بما تعلمون ﴾ ثم فُصِّل بقوله : ﴿ أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ﴾ وأعيد فعل ﴿ أمدّكم ﴾ في جملة التفصيل لزيادة الاهتمام بذلك الإمداد فهو للتوكيد اللفظي .

وهذه الجملة بمنزلة بدل البعض من جملة ﴿ أمدكم بما تعلمون ﴾ فإن فعل ﴿ أمدّكم ﴾ الثاني وإن كان مساوياً ل ﴿ أمدكم ﴾ الأول فإنما صار بدلاً منه باعتبار ما تعلق به من قوله : ﴿ بأنعام وبنين ﴾ إلخ الذي هو بعض ممّا تعلمون .

وكلا الاعتبارين التوكيد والبدل يقتضي الفصل ، فلأجله لم تعطف الجملة .

وابتدأ في تعداد النعم بذكر الأنعام لأنها أجلّ نعمة على أهل ذلك البلد ، لأن منها أقواتَهم ولباسهم وعليها أسفارهم وكانوا أهلَ نُجعة فهي سبب بقائهم ، وعطف عليها البنين لأنهم نعمة عظيمة بأنها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم وكثرة أمتهم ، وعطف الجنات والعيون لأنها بها رفاهية حالهم واتساع رزقهم وعيش أنعامهم .

(47/571)

وجملة : ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ تعليل لإنكار عدم تقواهم وللأمر بالتقوى ، أي أخاف عليكم عذاباً إن لم تتقوا ، فإن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده .

والعذاب يجوز أن يريد به عذاباً في الدنيا توعدهم الله به على لسانه ، ويجوز أن يريد به

عذاب يوم القيامة .

ووصف ﴿ يوم ﴾ بـ ﴿ عظيم ﴾ على طريقة المجاز العقلي ، أي عظيم ما يحصل فيه من الأهوال .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136)

أجابوا بتأييسه من أن يقبلوا إرشادَه فجعلوا وعظهُ وعدمه سواء ، أي هما سواء في انتفاء ما قصده من وعظه وهو امتثالهم .

والهمزة للتسوية .

وتقدم بيانها عند قوله : ﴿ سواءٌ عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ في سورة البقرة (6) .

والوعظ : التخويف والتحذير من شيء فيه ضر ، والاسم الموعظة .

وتقدم في قوله : ﴿ وهدى وموعظة للمتقين ﴾ في سورة العقود (46) .

ومعنى : ﴿ أم لم تكن من الواعظين ﴾ أم لم تكن في عداد الموصوفين بالواعظين ، أي لم تكن من أهل هذا الوصف في شيء ، وهو أشدّ في نفي الصفة عنه من أن لو قيل : أم لم تَعظ ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة (67) ، وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ في سورة الأنعام (56) ، وتقدم آنفاً قوله في قصة نوح ﴿ لتكونَنَّ من المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] .

وجملة : ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ تعليل لمضمون جملة : ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ ، أي كان سواءً علينا فلا نتَّبع وعظَك لأن هذا خلق الأولين .

والإشارة بـ ﴿ هذا ﴾ إلى شيء معلوم للفريقين حاصل في مقام دعوة هود إياهم ، وسيأتي بيانه .

وقوله : ﴿ خلق الأولين ﴾ قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة وعاصم وخلَف بضم الخاء وضم اللام .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوبُ بفتح الخاء وسكون اللام .

(48/571)

فعلى قراءة الفريق الأول ﴿ خُلُقُ ﴾ بضمتين ، فهو السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر وقد فُسّر بالقوى النفسية ، وهو تفسير قاصر فيشمل طبائع الخير وطبائع الشر ، ولذلك لا يُعرَف أحدُ النوعين من اللفظ إلا بقيد يضم إليه فيقال : خُلُق حسَن ، ويقال في ضده : سوء خُلُق ، أو خُلُق ذميم ، قال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خُلُق عظيم ﴾ [القلم : 4] .

وفي الحديث : " وخَالِقِ الناسَ بخُلُق حسن "

فإذا أطلق عن التقييد انصرف إلى الخُلُق الحسن ، كما قال الحريري في "المقامة التاسعة" "وخُلُقي نعم العَون ، وبيني وبينَ جاراتي بَوْن" أي في حسن الخلق .

والخلق في اصطلاح الحكماء : ملكة (أي كيفية راسخة في النفس أي متمكنة من الفكر) تصدر بها عن النفس أفعال صاحبها بدون تأمل .

فخلق المرء مجموع غرائز (أي طبائع نفسية) مؤتلفة من انطباع فكري : إما جبليّ في أصل خلقته ، وإما كسبي ناشىء عن تمرّن الفكر عليه وتقلُّده إياه لاستحسانه إياه عن تجربة نفعه أو عن تقليد ما يشاهده من بواعث محبة ما شاهد .

وينبغي أن يسمى اختياراً من قول أو عمل لذاته ، أو لكونه مِن سيرة من يُحبه ويقتدي به ويسمى تقليداً ، ومحاولته تسمى تخلقاً .

قال سالم بن وابصة:

عليك بالقصيد فيما أنتَ فاعله . . .

إن التخلُّق يأتي دونَه الخُلُق

فإذا استقر وتمكن من النفس صار سجية له يجري أعماله على ما تمليه عليه وتأمره به نفسه بحيث لا يستطيع ترك العمل بمقتضاها ، ولو رام حملَ نفسه على عدم العمل بما تمليه سجيته لاستصغر نفسه وإرادته وحقر رأيه .

وقد يتغير الخلق تغييراً تدريجياً بسبب تجربة انجرار مضرة من داعيه ، أو بسبب خوف

عاقبة سيئة من جرّائه بتحذيرِ مَن هو قدوة عنده لاعتقاد نصحه أو لخوف عقابه .

وأول ذلك هو المواعظ الدينية .

(49/571)

ومعنى الآية على هذا يجوز أن يكون المحكيُّ عنهم أرادوا مدحاً لما هم عليه من الأحوال التي أصروا على عدم تغييرها فيكون أرادوا أنها خُلُق أسلافهم وأسوتهم فلا يقبلوا فيه عذلاً ولا ملاماً ، كما قال تعالى عن أمثالهم ﴿ تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ [إبراهيم : 10] .

فالإشارة تنصرف إلى ما هم عليه الذي نهاهم عنه رسولُهم .

ويجوز أن يكونوا أرادوا ما يَدعو إليه رسولهم : أي ما هو إلا من خلُق أناس قبله ، أي من عقائدهم وما راضوا عليه أنفسهم وأنه عبر عليها وانتحلها ، أي ما هو بإذن من الله تعالى كما قال مشركو قريش ﴿ إنْ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] والإشارة إلى ما يدعوهم إليه .

وأما على قراءة الفريق الثاني فالخَلْق بفتح الخاء وسكون اللام مصدر هو الإنشاء والتكوين ، والخلق أيضاً مصدر خلق ، إذا كذب في خبره ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتخلُقون إفكاً ﴾ [

العنكبوت : 17] .

وتقول العرب : حدثنا فلان بأحاديث الخَلْق وهي الخرافات المفتعلة ، ويقال له : اختلاق بصيغة الافتعال الدالة على التكلف والاختراع ، قال تعالى : ﴿ إن هذا إلاّ اختلاق ﴾ [ص : 7] وذلك أن الكاذب يخلُق خبراً لم يقع .

فيجوز أن يكون المعنى أن ما تزعمه من الرسالة عن الله كذب وما تخبرنا من البعث اختلاق ، فالإشارة إلى ما جاء به صالح .

ويجوز أن يكون المعنى أنَّ حياتنا كحياة الأولين نحيا ثم نموت ، فالكلام على التشبيه البليغ وهو كناية عن التكذيب بالبعث الذي حذرهم جزاءَه في قوله : ﴿ إني أخاف عليكم عَذابَ يوم عظيم ﴾ [الشعراء : 135] يقولون : كما مات الأولون ولم يبعث أحد منهم قط فكذلك نحيا نحن ثم نموت ولا نبعث .

وهذا كقول المشركين ﴿ ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ [الجاثية : 25] فالإشارة في قوله : ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ إلى الخَلق الذي هم عليه كما دل عليه المستثنى .

فهذه أربعة معان واحد منها مدح ، واثنان ذم ، وواحد ادعاء .

(50/571)

وجملة : ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ على المعاني الأولِ والثاني والثالِث عطف على جملة ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ عطف مغاير .

وعلى المعنى الرابع عطفُ تفسير لقولهم ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ تصريحاً بعد الكناية .

والقصر قصْر إضافي على المعاني كلها .

ولا شك أن قوم صالح نطقوا بلغتهم جملاً كثيرة تنحل إلى هذه المعاني فجمعها القرآن في قوله : ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ باحتمال اسم الإشارة واختلاف النطق بكلمة خُلق فللَّه إيجازه وإعجازه .

والفاء في ﴿ فكذبوه ﴾ فصيحة ، أي فتبيّن أنهم بقولهم : سواء علينا ذلك أوعظت الخ قد كذبوه فأهلكناهم .

وقوله : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ إلى آخره هو مثل نظيره في قصة نوح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(51/571)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

وقال هنا أيضاً ﴿ المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] لأن تكذيب رسول واحد تكذيبٌ لكل الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بقواعد وأصول واحدة في العقائد وفي الأخلاق .

وعاد : اسم للقبيلة ، وكانت القبائل تُنسَب إلى الأب الأكبر فيها ، ولصاحب الشهرة والنباهة بين قومه ، فعاد هو أبو هذه القبيلة ، وقد يُطلَق عليهم بنو فلان أو آل فلان ، ثم يذكر لنا قصتهم ، ومتى كان منهم هذا التكذيب : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾

قلنا : إن (أَلاَ) للحثّ والحضّ ، وحين يُنكّر النفي ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 124] فإنه يريد الإثبات فكأنه قال : اتقوا . وقال ﴿ أَخُوهُمْ ﴾ [الشعراء : 124] ليرقق قلوبهم ويُحنّنهم إليه ، وليعرفوا أنه واحد منهم ليس غريباً عنهم ، فهو أخوهم ، والأخ من دَأبه النُّصْح والشفقة والرحمة ، وهذا إيناس للخَلْق .

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126)

وهذه المقولة لازمة من لوازم الرسُل في دعوتهم ، سبق أنْ قالها نوح عليه السلام .

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127)

قلنا : إن هذه العبارة أول مَنْ قالها نوح عليه السلام ثم سيقولها الأنبياء من بعده . لكن : لماذا لم يقل هذه العبارة إبراهيم ؟ ولم يقُلْها موسى ؟

قالوا : لأن إبراهيم عليه السلام أول ما دعا دعا عمه آزر ، فكيف يطلب منه أَجْراً ؟

وكذلك موسى عليه السلام أول دعوته دعا فرعون الذي ربَّاه في بيته ، وله عليه فضل وجميل ، فكيف يطلب منه أجراً ، وقد قال له : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18] .

لذلك لم تأْت هذه المقولة على لسان أحد منهما .

(52/571)

وقال : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 127] لأن الربَّ هو الذي يتولَّى الخَلْق بالبذْل والعطايا والإمداد . وقلنا : إن عدم أخذ الأجر ليس زُهْداً فيه ، إنما طمعاً في أنْ يأخذ أجره من الله ، لا من الناس .

ثم يتوجّه إليهم ليُصحّح بعض المسائل الخاصة بهم : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128)

وهذه خصوصية من خصوصيات قوم هود ، والرِّيع : هو المكان المرتفع ، لذلك بعض الناس يقولون : كم رِيع بنائك ؟ يعني : ارتفاعه كم متراً ، فكأن الارتفاع يُثمِّن البقعة ، ويُطلق الريع على الارتفاع في كل شيء .

وكلمة ﴿ آيَةً ﴾ [الشعراء : 128] بعد ﴿ أَتَبْنُونَ ﴾ [الشعراء : 128] تعني : القصور العالية التي تعتبر آيةً في الإبداع وجمال العمارة والزخرفة والفخامة والاتساع والرِّفْعة في العُلُو .

وقال ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء : 128] لأنهم لن يخلُدوا في هذه القصور ، ومع ذلك يُشيِّدونها لتبقى أجيالاً من بعدهم ، فعدّ هذا بعثاً منهم ؛ لأن الإنسان يكفيه أقلّ بناء ليأويه فترة حياته .

أو ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء : 128] لأنهم كانوا يجلسون في شُرفات هذه القصور يصدُّون الناس ، ويصرفونهم عن هود وسماع كلامه ودعوته التي تَلْفِتهم إلى منهج الحق .

ونحن لم نَرَ حضارة عاد ، ولم نَرَ آثارهم ، كما رأينا مثلاً آثار الفراعنة في مصر ؛ لأن حضارة عاد طمرتْها الرمال ، وكانوا بالجزيرة العربية في منطقة تُسمَّى الآن بالرَّبْع الخالي ؛ لأنها منطقة من الرمال الناعمة التي يصعب السير أو المعيشة بها ، لكن لكي نعرف هذه الحضارة نقرأ قوله تعالى في سورة الفجر :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ [الفجر : 68] .

وما دامت لم يُخلَق مثلها في البلاد ، فهي أعظم من حضارة الفراعنة التي نشاهدها الآن ، ويفد إليها الناس من كل أنحاء العالم ليشاهدوا الأهرام مثلاً ، وقد بنيت لتكون مجرد مقابر ، ومع تقدُّم العلم في عصر الحضارة والتكنولوجيا ، ما زال هذا البناء مُحيّراً للعلماء ، لم يستطيعوا حتى الآن معرفةَ الكثير من أسراره .

ومن هذه الأسرار التي اهتدَوْا إليها حديثاً كيفية بناء أحجار الأهرام دون ملاط مع ضخامتها ، وقد توصّلوا إلى أنها بُنيَتْ بطريقة تفريغ الهواء مما بين الأحجار ، وهذه النظرية تستطيع ملاحظتها حين تضع كوباً مُبلّلاً بالماء على المنضدة مثلاً ، ثم تتركه فترةً حتى يتبخر الماء من تحته ، فإذا أردتَ أن ترفعه من مكانه تجده قد لصق بالمنضدة .

وليس عجيباً أنْ تختفي حضارةٌ ، كانت أعظم حضارات الدنيا تحت طبقات الرمال ، فالرمال حين تثور تبتلع كل ما أمامها ، حتى إنها طمرتْ قبيلة كاملة بجِمالها ورجالها ، وهذه هبة واحدة ، فما بالك بثورة الرمال ، وما تسفوه الريح طوال آلاف السنين ؟

وأنا واثق من أنهم إذا ما نبشوا هذه الرمال وأزاحوها لوجدوا تحتها أرضاً خصبة وآثاراً عظيمة ، كما نرى الاكتشافات الأثرية الآن كلها تحت الأرض ، وفي فيينا أثناء حفر أحد خطوط المجاري هناك وجدوا آثاراً لقصور ملوك سابقين .

وطالما أن الله تعالى قال عن عاد : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء : 128]

فلا بُدَّ أن هناك قصوراً ومبانيَ مطمورة تحت هذه الرمال .

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

المصانع تُطلَق على موارد الماء ، وتطلق على الحصون ، لماذا .

قالوا : لأن الحصون لا تُبنَى للإيواء فقط ؛ لأن الإيواء يمنع الإنسان من هوام الحياة العادية ، أمّا الحصون فمتنعه أيضاً من الأعداء الشرسين الذي يتربصون به ، فكأنهم جعلوها صنعة مثمرة ، لماذا ؟

(54/571)

﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : 129] يعني : أتبنون هذه الحصون هذا البناء القوي المسلح تريدون الخلود ؟ وهل أنتم مُخلَّدون في الحياة ؟ إن فترة مُكْث الإنسان في الدنيا يسيرة لا تحتاج كل هذا التحصين ، فهي كظلِّ شجرة ، سرعان ما يزول .

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130)

والبَطْش : الأَخْذُ بشدة وبعنف ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيد ﴾ [البروج : 12] ويقول : ﴿ أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 42] .

لأن الأَخْذ يأخذ صُوراً متعددة : تأخذه بلين وبعطف وشفقة ، أو تأخذه بعنف .

ثم يزيدهم صفة أخرى تؤكد بَطْشهم ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : 130] .

لأنك قد تأخذ عدوك بعنف ، لكن بعد ذلك يرقُّ له قلبك ، فترحم ذِلَّته لك ، فتُهوِّن عليه وترحمه ، لكن هؤلاء جبارون لا ترقّ قلوبهم .

وهذه الصفات الثلاثة السابقة لقوم هود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : 128130] .

هذه الصفات تخدم صفة التعالي ، وتسعى إلى الوصول إليه وكأنهم يريدون صفة العُلو التي تُقرِّبهم من الألوهية ؛ لأنه لا أحدَ أعلى من الحق سبحانه ، ثم يريدون أيضاً استدامة هذه الصفة واستبقاء الألوهية : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : 129] .

وفي صفة البَطش الشديد والجبارية يريدون التفرُّد على الغير ، والقرآن يقول : ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلاَ فَسَاداً ﴾ [القصص : 83] .

(55/571)

فإنْ كنتَ تريد أداء الخدمة المنوطة بك في الحياة ، فعليك أنْ تؤديها ، لا للتّعالي ؛ لأن حينئذ ستأخذ حظك من العُلو والغَلَبة في دار الدنيا وتنتهي المسألة ، أمّا إنْ فعلتَ وفي بالك ربُّك ، وفي بالك أنْ تُيسِّر للناس مصالح الحياة ، فإنك تُرقِّي عملك وتُثمِّره ، ويظل لك أجره ،

طالما وجد العمل ينتفع الناس به إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا أعظم تصعيد لعمل الإنسان .

ولم يفعل قوم عاد شيئاً من هذا ، إنما طلبوا العُلو في الأرض ، وبطشوا فيها جبارين ، لكن أيتركهم ربهم عز وجل يستمرون على هذه الحال ؟

إن من رحمة الله تعالى بعباده أنْ يُذكِّرهم كلما نَسُوا ، ويُوقظهم كلما غفلوا ، فيرسل لهم الرسل المتوالين ؛ لأن الناس كثيراً ما تغفل عن العهد القديم الذي أخذوه على أنفسهم : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ [الأعراف : 172173] .

وقلنا : إن الحق تبارك وتعالى يضع المناعة في خليفته في الأرض ، ويعطيه المنهج الذي يصلحه ، لكنه قد يغفل عن هذا المنهج أو تغلبه نفسه ، فينحرف عنه ، والإنسان بطبيعته يحمل مناعةً من الحق ضد الباطل وضد الشر ، فإنْ فسدَتْ فيه هذه المناعة فعلى الآخر أن يُذكِّره ويُوقظ فيه دواعي الخير . ومن هنا كان قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 3] .

فإنْ وجدتَ أخاك على باطل فخُذْ بيده إلى الحق .

ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ [العصر : 3] أي : تبادلوا التوصية ، فكل منكم عُرْضة للغفلة ، وعُرْضة للانحراف عن المنهج ، فإنْ غفلتُ أنا توصيني ، وإنْ غفلتَ أنت أوصيك ، وهذه المناعة ليست في الذات الآن ، إنما في المجتمع المؤمن ، فمنْ رأى فيه اعوجاجاً قوَّمه .

لكن ما الحال إنْ فسدت المناعة في الفرد وفسدَتْ في المجتمع ، فصار الناس لا يعرفون معروفاً ، ولا يُنكِرون منكراً ، كما قال تعالى عن بني إسرائيل :

﴿ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة : 79] .

وعندها لا بد أن يرسل رب العزة سبحانه برسول جديد ، ومعجزة جديدة تُوقِظ الناس ، وتعيدهم إلى جادة ربهم .

ومن شرف أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى جعل المناعة في ذات نفوسها ، فجعلهم الله توابين ، إنْ فعل أحدهم الذنب تاب ورجع ، وإنْ لم يرجع وتمادى رَدَّه المجتمع الإيماني وذكَّره .

وهذه الصفة ملازمة لهذه الأمة إلى قيام الساعة ، كما ورد في الحديث : " الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة " .

لذلك لن يأتي فيها رسول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن المناعة ملازمة لها في الذات ، وفي النفس اللوامة ، وفي المجتمع الإيماني الذي لا يُعدم فيه الخير أبداً .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله ﴾ [آل عمران : 110] .

وهذه صفة تفردتْ بها هذه الأمة عن باقي الأمم ؛ لذلك يقول هود عليه السلام مُذكّراً لقومه ومُوقِظاً لهم : ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾

(57/571)

أي : أن ربكم عز وجل لم يترككم على ما أنتم عليه من الضلال تعبثون بالآيات ، وتتخذون مصانع تطلبون الخلود ، وأنكم بطشتم جبارين ، وها هو يدعوكم : ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : 131] فتقوى الله تعالى وطاعته كفيلة أنْ تُذهب ماضيكم وتمحو ذنوبكم ، بل وتُبدّله خيراً وصلاحاً ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [هود : 114]

.

وأنا حين أُوصيكم بتقوى الله وطاعته ، لا أوصيكم بهذا لصالحي أنا ، فلا أقول لكم ، اتقوني أو أطيعوني ولن أنتفع من طاعتكم بشيء . كذلك الحق تبارك وتعالى غني عنكم وعن طاعتكم ؛ لأن له سبحانه صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق ، فهو سبحانه متصف بالخَلْق قبل أن يخلق ، وبالقدرة قبل أن يُوجَد المقدور عليه . . إلخ .

إذن : فوجودكم لم يَزِدْ شيئاً في صفاته تعالى ، وما كانت الرسالات إلا لمصلحتكم أنتم ، فإذا لم تطيعوا أوامر الله ، وتأخذوا منهجه ، لأنه يفيدكم فأطيعوه جزاءَ ما أنعم عليكم من نِعَم لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، فالإنسان طرأ على كون أُعِدَّ لاستقباله وهُيِّىء لمعيشته ، وخلق له الكون كله : سماءً ، فيها الشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر ، وأرضاً فيها الخصب والماء والهواء . هذا كله قبل أن تُوجَد أنت ، فطاعتك لله إذن ليست تفضُّلاً منك ، إنما جزاء ما قدَّم لك من نِعَم .

وعجيب أن ترى هذه المخلوقات التي جُعِلَتْ لخدمتك أطول عمراً منك ، فالإنسان قد يموت يوم مولده ، وقد يعيش عدة أيام أو عدة سنوات ، أمّا الشمس مثلاً فعمرها ملايين السنين ، وهي تخدمك دون سلطان لك عليها ، ودون أن تتدخل أنت في حركتها .

ثم يقول تعالى : ﴿ واتقوا الذي أَمَدَّكُمْ ﴾

(58/571)

لم تعدد الآية ما أمدنا الله به ، وتركتْ لنا أن نُعدّده نحن ؛ لأننا نعرفه جيداً ونعيشه ، وندركه بكل حواسِّنا ومداركنا ، فما من آلة عندك إلا وتحت إدراكها نعمة لله ، بل عدةِ نِعَم ، فالعين ترى المناظر ، والأذن تسمع الأصوات ، والأنف يشم الروائح ، واليد تبطش . . إلخ

.

﴿ أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الشعراء : 132] فقولوا أنتم واشهدوا على أنفسكم وعَدِّدوا نِعَم ربكم عليكم .

أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133)

المراد الأنعام : الضأن والماعز والإبل والبقر ، ثمانية أزواج .

وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134)

فإنْ قلت : فنحن نمرُّ بديارهم ، فلا نرى إلا خلاءً تسْفُو فيه الرياح ، نعم لقد كانت لهم جنات وعيون هي الآن تحت أطباق التراب ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ [مريم : 98] .

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135)

أي : أن تقوى الله وطاعته لا تعَدُّ شكراً على نعمه فحسب ، إنما أيضاً تكون لكم وقاية من عذاب الآخرة ، فلا تظنوا أنكم أخذتُم نِعَم الله ، ثم بإمكانكم الانفلات منه أو الهرب من لقائه ، فالقاؤه حق لا مفرَّ منه ، ولا مهرب ، فإنْ لم تَخَفْ السابق من النعم ، فخَفِ اللاحق من النِّقَم .

فماذا كان ردّهم على مقالة نبيِّهم وموعظته لهم ؟ ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ ﴾ وقولهم ﴿ أَوَعَظْتَ ﴾ [الشعراء : 136] دليل على أن الحق لا بُدَّ أن يظهر ، ولو على

ألسنة المكابرين ، ولا يكون الوعظ إلا لمَنْ علم حكماً ، ثم تركه ، فيأتي الواعظ ليُذكِّره به ، فهو إذن مرحلة ثانية بعد التعليم ، فهذا القول منهم اعتراف ودليل أنهم علموا المطلوب منهم ، ثم غفلوا عنه .

(59/571)

وهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ [الشعراء : 136] يعني : أرح نفسك ، فسواء علينا وعظُك وعدم وعظِك ، ونلحظ أنهم قالوا : ﴿ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ [الشعراء : 136] ولم يقولوا مثلاً : سواء علينا أوعظتَ أم لم تَعِظْ ؛ لأن نفي الوَعْظ يُثبت له القدرة عليه .

إنما ﴿ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ [الشعراء : 136] يعني : امتنع منك الوعظ نهائياً ، وكأنهم لا يريدون مسألة الوعظ هذه أبداً ، حتى في المستقبل لن يسمعوا له .

إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137)

إنْ : بمعنى ما النافية ، يعني : ما هذا الذي جئتَ به إلا ﴿ خُلُقُ ﴾ [الشعراء : 137] الأولين يعني : عادة مَنْ سبقوك واختلاقهم ، يقصدون الرسل السابقين ، كما قالوا : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [النمل : 68] .

وقالوا : ﴿ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾ [يس : 15] .

فوصفوا نبيهم ، ومَنْ سبقوه من الرسل بالكذب والاختلاق وإيجاد شيء لم يكن موجوداً .

والخُلُق : صفة ترسخ في النفس تصدر عنها الأفعال بيُسْر وسهولة ، والصفات التي يكتسبها الإنسان لا تعطي مهارة من أول الأمر ، بل تعطي مهارة بعد الدُّرْبة عليها ، فتصير عند صاحبها كالحركة الآلية لا تحتاج منه إلى مجهود أو معاناة .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالصبي الذي يتعلم مثلاً الحياكة ، وكم يعاني ويضربه معلمه في سبيل تعلُّم لضم الخيط في الإبرة ، حتى إذا ما تعلمها الصبي وأجادها تراه فعل ذلك تلقائياً ، ودون مجهود وربما وهو مُغْمض العينين .

(60/571)

وأنت حينما تتعلم قيادة السيارة مثلاً لأول مرة ، كم تعاني وتقع في أخطاء وأخطار ؟ لكن بعد التدريب والدُّرْبة تستطيع قيادتها بمهارة ، وكأنها مسألة آلية ، وكذلك الخُلُق المعنوي ، مثل هذه الدُّرْبة والآلية في الماديات .

إذن : ﴿ خُلُقُ الأولين ﴾ [الشعراء : 137] يعني : دعوى ادعوْهَا جميعاً أي : الرسل

.

وفي قراءة أخرى تُوجه للمرسل إليهم بفتح الخاء وسكون اللام (خُلْق) أي : اختلاق والمعنى : نحن كمن سبقونا من الأمم لا نختلف عنهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : 23] .

وهؤلاء السابقون قالوا : ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدهر ﴾ [الجاثية : 24] .

فهذه الصفة أصبحت عندنا ثابتة متأصِّلة في النفس ، فلا تحاول زحزحتنا عنها ، فالمراد : نحن مثل السابقين لا نؤمن بمسألة البعث ، فأرِح نفسك ، فلن يجديَ معنا وعْظُك .

وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138)

يقولونها صريحة ردّاً على قوله : ﴿ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 135] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾

وكانت السماء قبل محمد صلى الله عليه وسلم تجعل الرسول يُدلِي بمعجزته ، أو يقول بمنهجه ، لكن لا تطلب منه أن يُؤدِّب المعاندين والمعارضين له إنما تتولّى السماء عنه هذه المهمة فتُوقِع بالمكذبين عذابَ الاستئصال .

وقد أُمِنَتْ أمة محمد صلى الله عليه وسلم من عذاب الاستئصال ، فمَنْ كفر برسالة محمد

صلى الله عليه وسلم لا يأخذه الله كما أخذ المكذّبين من الأمم السابقة ، إنما يقول سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 14] .

(61/571)

وكلمة ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ [الشعراء : 139] كلمة صادقة ، لها دليل في الوجود نراه شاخصاً ، كما يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ [الفجر : 68] .

نعم ، كانت لهم حضارة بلغتْ القمة ، ولم يكُنْ لها مثيل ، ومع هذا كله ما استطاعت أنْ تصون نفسها ، وأخذها الله أَخْذ عزيز مقتدر .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : 137138] .

وقال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا ﴾ [النمل : 52] .

أي : أنها شاخصة أمامكم تروْنها وتمرُّون عليها ، وأنتم لم تبلغوا مبلغَ هذه الحضارة ، فإذا كانت حضارتهم لم تمنعهم من أَخْذ الله العزيز المقتدر ، فينبغي عليكم أنْ تتنبهوا إلى أنكم أضعف منهم ، وأن ما حاق بالكافرين وما نزل بالمكذّبين ليس ببعيد عن أمثالهم من الأمم

الأخرى .

لذلك تجد الحضارات التي تُتوَارث في الكون كلها آلتْ إلى زوال ، ولم نجد منها حضارة بقيتْ من البداية إلى النهاية ، ولو بُنِيَتْ هذه الحضارات على قيم ثابتة لكان فيها المناعة ضد الزوال .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ [الشعراء : 139] أي : في إهلاك هذه الحضارة لأمر عظيم ، يُلفِت الأنظار ، ويدعو للتأمل : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 139] .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

قال ﴿ رَبَّكَ ﴾ [الشعراء : 140] ولم يقُلْ ربهم ؛ لأن منزلة المربِّي تعظم في التربية بمقدار كمال المربِّي ، فكأنه تعالى يقول : أنا ربُّك الذي أكملت تربيتك على أحسن حال ، فَمنْ أراد أنْ يرى قدرة الربوبية فليرها في تربيتك أنت ، والمربَّى يبلغ القمة في التربية إنْ كان مَنْ ربَّاه عظيماً .

لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : " أدَّبني ربي فأحسن تأديبي " .

(62/571)

إذن : فمن عظمة الحق تبارك وتعالى أنْ يُعطي نموذجاً لدقّة تربيته تعالى ولعظمة تكوينه ، ولما يصنعه على عَيْنه تعالى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فكأنه صلى الله عليه وسلم أكرمُ مخلوق مُربَّى في الأرض ؛ لذلك قال ﴿ رَبَّكَ ﴾ [الشعراء : 140] ولم يقل : ربهم مع أن الكلام ما يزال مُتعلقاً بهم .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : 140] العزيز قلنا : هو الذي يَغْلِب ولا يُغْلَب ، لكن لا تظن أن في هذه الصفة جبروتاً ؛ لأنه تعالى أيضاً رحيم ، ومن عظمة الأسلوب القرآني أن يجمع بين هاتين الصفتين : عزيز ورحيم وكأنه يشير لنا إلى مبدأ إسلامي يُربِّي الإسلام عليه أتباعه ، ألا وهو الاعتدال فلا تطغى عليك خصلة أو طبْع أو خُلُق ، والزم الوسط ؛ لأن كل طبْع في الإنسان له مهمة .

وتأمل قول الله تعالى في صفات المؤمنين :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] .

فالمسلم ليس مجبولاً على الذلّة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذي يجعله ذليلاً ، أو يجعله عزيزاً ، فالمؤمن يتصف بالذلّة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بالعزّة على الكافرين .

ومن ذلك أيضاً : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : 29] .

ومعلوم أن الرحمة في غير موضعها ضَعْف وخَوَر ، فمثلاً الوالد الذي يرفض أن يُجري لولده

جراحة خطرة فيها نجاته وسلامته خوفاً عليه ، نقول له : إنها رحمة حمقاء وعطف في غير محلّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(63/571)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ أتبنون بكل ريع ﴾ قال : طريق ﴿ آية ﴾ قال : علماً ﴿ تعبثون ﴾ قال : تلعبون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أتبنون بكل ريع ﴾ قال : شرف .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ أتبنون بكل ريع ﴾ قال : طريق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صخر قال ﴿ الريع ﴾ ما استقبل الطريق بين الجبال والظراب .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ أتبنون بكل ريع ﴾ قال : بكل فج بين جبلين ﴿ آية ﴾ قال : بنيانا ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قال : بروج الحمام .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله ﴿ تعبثون ﴾ قال : تلعبون .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قال : قصوراً مشيدة وبنياناً مخلداً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قال : مآخذ للماء قال : وكان في بعض القراءة ﴿ وتتخذون مصانع كأنكم خالدون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ قال : كأنكم تخلدون .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ قال : بالسوط والسيف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ بطشتم جبارين ﴾ قال : أقوياء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ بطشتم جبارين ﴾ قال : أقوياء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ قال : دين الأولين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ قال : أساطير الأولين .

(64/571)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن وابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود أنه كان يقرأ ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ يقول شيء اختلقوه وفي لفظ يقول ﴿ اختلاق الأولين ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ إن هذا إلا خلق الأوّلين ﴾ قال : كذبهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن علقمة ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ قال : اختلاقهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ مرفوعة الخاء مثقلة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ قال : قالوا : هكذا خلقت الأولون ، وهكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا ، ثم يموتون ولا بعث عليهم ولا حساب ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ أي إنما نحن مثل الأولين نعيش كما عاشوا ثم نموت لا حساب ولا عذاب علينا ولا بعث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(65/571)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) ﴾

قوله : ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ : جملةٌ حاليةٌ من فاعلِ " تَبْنُون " . والرِّيع بكسر الراء وفتحها : جمع رِيْعة . وهو في اللغةِ المكانُ المرتفعُ . قال ذو الرمة :

3524 طِراقُ الخَوافي مُشْرِفٌ فوقَ رِيْعَةٍ . . . ندى لِيلِه في رِيْشه يَتَرَقْرَقُ

وقال أبو عبيدة : " هو الطريقُ " وأنشد للمسيَّب بن عَلَس يصفُ ظُعُناً :

3525 في الآلِ يَخْفِضُها ويَرْفَعُها . . . رِيْعٌ يَلُوْحُ كأنه سَحْلُ

واختلفَ المفسّرون في العبارة عنه على أقوالٍ كثيرةٍ . والرَّيْعُ بالفتح : ما يَحْصُل مِنَ الخَراج

.

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129)

قوله : ﴿ تَخْلُدُونَ ﴾ : العامَّةُ على تخفيفِه مبنياً للفاعلِ . وقتادةُ بالتشديدِ مبنياً للمفعول

. ومنه قولُ امرِىء القيس :

3526 وهَلْ يَنْعَمَنْ إلاَّ سَعِيْدٌ مُخَلَّدٌ . . . قليلُ الهُمومِ ما يَبِيْتُ بأَوْجالِ

و" لَعَلَّ " هنا على بابِها . وقيل : للتعليل . ويؤيِّده قراءةُ عبدِ الله "كي تَخْلُدون " فقيل :

للاستفهام ، قال زيد بن علي . وبه قال الكوفيون . وقيل : معناها التشبيهُ أي : كأنكم

تَخْلُدُون . ويؤيِّدُه ما في حرفِ أُبَيّ "كأنكم تَخْلُدون " . وقُرِىء "كأَنَّكم خالِدُون " .

وكم مَنْ نَصَّ عليها أنَّها تكونُ للتشبيهِ .

والمصانِعُ : جمعُ مَصْنَعَة ، وهي بِرَكُ الماء . وقيل : القصور . وقيل : بُروجُ الحَمام .

قوله : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ : أي : وإذا أَرَدْتُمْ . وإنما احْتَجْنا إلى تقديرِ الإرادة لئلا يَتَّحدَ

الشرطُ والجزاءُ . و " جَبَّارِين " حالٌ .

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133)

قوله : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنَّ الجملةَ الثانيةَ بيانٌ للأولى ، وتفسيرٌ لها . والثاني : أَنَّ " بأنْعامٍ " بدلٌ مِنْ قولِه : ﴿ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ بإعادةِ العاملِ كقولِه ﴿ اتبعوا المرسلين اتبعوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ [يس : 20 – 21] قال الشيخ : " والأكثرون لا يَجْعَلُون هذا بدلاً ، وإنما يَجْعلونه تكريراً وإما يَجْعلون بدلاً بإعادةِ العاملِ إذا كانَ حرفَ جرّ مِنْ غيرِ إعادةِ متعلّقِه نحو : " مَرَرْتُ بزيدٍ بأخيكَ " ولا يقولون : " مَرَرْت بزيدٍ ، مررتُ بأخيك " على البدل " .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136)

قوله : ﴿ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ : معادِلٌ لقولِه : ﴿ أَوَعَظْتَ ﴾ ، وإنما أتى المعادِلِ كذا ، دونَ قولِه : " أم لم تَعِظْ " لتواخي القوافي ، وأبدى له الزمخشريُّ معنىً فقال : وبينهما فرقٌ ، لأنَّ المعنى : سَواءٌ علينا أَفَعَلْتَ هذا الفعلَ الذي هو الوعظُ أم لم تَكُنْ أصلاً مِنْ أهلِه ومباشرَته ، فهو أبلغُ في قِلَّةِ اعْتِدادِهم بوَعْظِه . مِنْ قولِك : أَمْ لم تَعِظْ " .

وقرأ العامَّةُ " أَوَعَظْتَ " باظهارِ الظاءِ قبل التاءِ ، ورُوِيَ عن أبي عمرٍو والكسائيِّ وعاصمٍ ، وبها قرأ الأعمشُ وابن محيصن بالإدْغامِ ، وهي ضعيفةٌ ؛ لأنَّ الظاءَ أقوى ولا يُدْغَمُ الأقوى في الأضعفِ ، على أنَّه قد جاء من هذا في القرآنِ العزيزِ أشياءُ متواترةٌ يجبُ قَبولُها

نحو : ﴿ زُحْزِحَ عَنِ ﴾ [آل عمران : 185] و ﴿ لَئِن بَسَطتَ ﴾ [المائدة : 28] .

إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137)

(67/571)

قوله : ﴿ إِلَّا خُلُقُ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بفتحِ الخاءِ وسكونِ اللامِ . والباقون بضمَّتين فقيل : معناهما الاختلاقُ وهو الكَذِبُ . وكذا قرأ ابنُ مسعودٍ . وقيل : ما نحن فيه من البِنْية حياةٌ وموتٌ هو خُلُقُ الأوَّلينَ وعادَتُهم . وروى الأصمعيُّ عن نافعٍ ، وبها قرأ أبو قلابة ، بضمِّ الخاءِ وسكونِ اللام وهي تخفيفُ المضمومَةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 538. 541 ﴾

(68/571)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) ﴾

أخبر عن كل واحدٍ من الأنبياء أنه قال : ﴿ لا أسألكم عليه أجر ﴾ ليَعْلَمَ الكافةُ أنّ من عَمِلَ لله فلا ينبغي ان يَطْلُبَ الأجْرَ من غير الله . وفي هذا تنبيهٌ للعلماء – الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء – أن يتأدَّبوا بأنبيائهم ، وألاّ يطلبوا من الناس شيئاً في بَثِّ علومهم ، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم ، والتذكير لهم أنه مَنْ ارتفق في بثّ ما يُذَكِّرُ به من الدّين وما يَعِظُ به المسلمين فلا يبارِكُ اللَّهُ للناس فيما منه يَسْمَعون ، ولا للعلماء أيضاً بركةٌ فيما من الناس يَأخُذُون ، إنهم يبيعون دينَهم بَعَرَضٍ يسيرٍ ثم بَرَكَة لهم فيها إذلا يبتغون به الله ، وسيَحْصُلُون على سُخْطِ الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 18 ﴾

(69/571)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ

مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم دل على ذلك لمن قد ينسى إذ كان الإنسان مجبولاً على النسيان بقوله : ﴿ كذبت ثمود ﴾ وهو أهل الحجر ﴿ المرسلين ﴾ وأشار إلى زيادة التسلية بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تأمل ولا توقف بقوله : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قال لهم أخوهم ﴾ أي الذي يعرفون صدقه وأمانته ، وشفقته وصيانته ﴿ صالح ﴾ وأشار إلى تلطفه بهم بقوله على سبيل العرض ﴿ ألا تتقون ﴾ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إني لكم رسول ﴾ أي من الله ، فلذلك عرضت عليكم هذا لأني مأمور بذلك ، وإلا لم أعرضه عليكم ﴿ أمين ﴾ لا شيء من الخيانة عندي ، بل أنصح لكم في إبلاغ جميع ما أرسلت به إليكم من خالقكم ، الذي لا أحد أرحم بكم منه .

ولما قدم ذكر الرسالة فصار له عذر في المواجهة بالأمر ، سبب عنه قوله ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الغنى المطلق .

ولما ذكر الأمانة قال : ﴿ وأطيعون ﴾ .

ولما أثبت ما يوجب الإقبال عليه ، نفى ما يستلزم عادة الإدبار عنه فقال : ﴿ وما ﴾ أي إني لكم كذا والحال أني ما ﴿ أسئلكم عليه ﴾ وأعرق في النفي بقوله : ﴿ من أجر ﴾ ثم زاد في تأكيد هذا النفي بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أجري ﴾ على أحد ﴿ إلا على رب العالمين ﴾ أي المحسن إليهم أجمعين ، منه أطلب أن يعطيني كما أعطاهم .

ولما ثبتت الأمانة ، وانتفى موجب الخيانة ، شرع ينكر عليهم أكل خيره وعبادة غيره ، فقال مخوفاً لهم من سطواته ، ومرغباً في المزيد من خيراته .

منكراً عليهم إخلادهم إلى شهوة البطن ، واستنادهم إلى الرفاهية والرضى بالفاني : ﴿ أتتركون ﴾ أي من ايدي النوائب التي لا يقدر عليها إلا الله ﴿ في ما هاهنا ﴾ أي في بلادكم هذه من النعم حال كونكم ﴿ آمنين ﴾ أي أنتم تبارزون الملك القهار بالعظائم .

ولما كان للتفسير بعد الإجمال شأن .

(70/571)

بين ما أجمل بقوله مذكراً لهم بنعمة الله ليشكروها : ﴿ في جنات ﴾ أي بساتين تستر الداخل فيها وتخفيه لكثرة أشجارها ﴿ وعيون ﴾ تسقيها مع ما لها من البهجة وغير ذلك

من المنافع ﴿ وزروع ﴾ وأشار إلى عظم النخيل ولا سيما ما كان عندهم بتخصيصها بالذكر بعد دخولها في الجنات بقوله : ﴿ ونخل طلعها ﴾ أي ما يطلع منها من الثمر ؛ قال الزمخشري : كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو ، والقنو اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه .

﴿ هضيم ﴾ أي جواد كريم من قولهم : يد هضوم – إذا كانت تجود بما لديها ، وتفسيره بذلك يجمع أقوال العلماء ، وإليه يرجع ما قال أبو عبد الله القزاز معناه أنه قد هضم – أي ضغط – بعضه بعضاً لتراكمه ، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كثير متقارب النضد ، لا فرج بينه ، ولطيف لين هش طيب الرائحة ، من الهضم بالتحريك ، وهو خمس البطن ولطف الكشح ؛ والهاضم وهو ما فيه رخاوة ، والهضم : البخور ، والمهضومة : طيب يخلط بالمسك واللبان ؛ قال الرازي في اللوامع : أو يانع نضيج لين رخو ومتهشم متفتت إذا مس ، أو يهضم الطعام ، وكل هذا يرجع إلى لطافته .

ولما ذكر اللطيف من أحوالهم ، أتبعه الكثيف من أفعالهم ، فقال عطفاً على ﴿ أتتركون ﴾ أو مبيناً لحال الفاعل في ﴿ آمنين ﴾ : ﴿ وتنحتون ﴾ أي والحال أنكم تنحتون إظهاراً للقدرة ﴿ من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ أي مظهرين النشاط والقوة ، تعظيماً بذلك وبطراً ، لا لحاجتكم إلى شيء من ذلك ﴿ فاتقوا ﴾ أي فتسبب عن ذلك أني أقول لكم : اتقوا ﴿ الله ﴾ الذي له جميع العظمة بأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية باتباع أوامره ؛

واجتناب زواجره ﴿ وأطيعون ﴾ أي في كل ما آمركم به وأنهاكم عنه .

فإني لا آمركم إلا بما يصلحكم فيكون سبباً لحفظ ما أنتم فيه وتزدادون ﴿ ولا تطيعوا ﴾ .

(71/571)

ولما كان لانقياد للآمر إنما هو بواسطة ما ظهر من أمره قال : ﴿ أمر المسرفين ﴾ اي المتجاوزين للحدود الذي صار لهم ذلك خلقاً : ثم وصفهم بما بين إسرافهم ، وهو ارتكاب الفساد الخالص المصمت الذي لا صلاح معه فقال : ﴿ الذين يفسدون في الأرض ﴾ أي يعملون ما يؤدي إلى الفساد لكونه غير محكم باستناده إلى الله .

ولما كان ربما ادعى في بعض الفساد أن فيه صلاحاً ، نفى ذلك بقوله : ﴿ ولا يصلحون ﴾ أي لأنهم أسسوا أمرهم على الشرط فصاروا بحيث لا يصلح لهم عمل وإن تراءى غير ذلك ، أو أن المعنى أن المسرف من كان عريقاً في الإسراف بجمع هذين الأمرين .

(72/571)

ولما دعا إلى الله تعالى بما لا خلل فيه ، فعلموا أنهم عاجزون عن الطعن في شيء منه ، عدلوا إلى التخييل على عقول الضعفاء بأن ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أي الذين بولغ في سحرهم مرة بعد مرة مع كونهم آدميين ذمي سحور ، وهي الرئات ، فأثر فيك السحر حتى غلب عليك ؛ ونقل البغوي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن معناه : من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب ، يقال : سحره أي علله بالطعام والشراب .

ويؤيده تفسيره بقولهم إشارة إلى أنه لا يصلح للرسالة : ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ أي فما وجه خصوصيتك عنا بالرسالة ، وهل يكون الرسول من البشر ، وإتباعهم الوصف الوصف من غير عطف عليه يدل على أنهم غير جازمين بتكذيبه .

فالوصفان عندهم بمنزلة شيء واحد كما إذا قيل : الزمان حلو حامض ، أي مر ، ويؤيد كونهم في رتبة الشك لم يتجاوزوها إلى الجزم أو الظن بالتكذيب قولهم : ﴿ فأت بآية ﴾ أي علامة تدلنا على صدقك ﴿ إن كنت ﴾ أي كوناً هو غاية الرسوخ ﴿ من الصادقين ﴾ أي العريقين في الصدق بخلاف ما يأتي قريباً في قصة شعيب عليه السلام .

ولما أسرع الله تعالى في إجابته حين دعا أن يعطيهم ما اقترحوا ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ قال ﴾ أي جواباً لاقتراحهم : تعالوا نظروا ما آتيكم به آية على صدقي ، فأتوا فأخرج الله له من الصخرة ناقة عشراء كما اقترحوا ، فقال مشيراً إليها بأداة القرب إشارة إلى سهولة إخراجها وسرعته : ﴿ هذه ناقة ﴾ أي أخرجها ربي من الصخرة كما اقترحتم ؛

ثم أشار إلى أن في هذه الآية آية أخرى بكونها تشرب ماء البئر كله في يوم وردها وتكف عنه في اليوم الثاني لأجلهم، بقوله: ﴿ لها شرب ﴾ أي نصيب من الماء في يوم معلوم ﴿ ولكم شرب يوم ﴾ أي نصيب من الماء في يوم ﴿ معلوم ﴾ لازحام بينكم وبينها في شيء من ذلك.

ولما أرشد السياق إرشاداً بَيِّناً إلى أن المعنى: فخذوا شربكم واتركوا لها شربها، عطف عليه قوله: ﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ أي كائناً ما كان وإن قل، لأن ما كان من عند الله يجب إكرامه، ورعايته واحترامه؛ ثم خوفهم بما يتسبب عن عصيانهم فقال: ﴿ فيأخذكم ﴾ أي يهلككم ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ بسبب ما حل فيه من العذاب، فهو أبلغ من وصف العذاب بالعظم، وأشار إلى سرعة عصيانهم بفاء التعقيب في قوله: ﴿ فعقروها ﴾ أي قتلوها بضرب ساقها بالسيف.

ولما تسبب عن عقرها حلول مخايل العذاب، أخبر عن ندمهم على قتلها من حيث إنه يفضي إلى الهلاك، لا من حيث إنه معصية لله ورسوله.

(73/571)

فقال : ﴿ فأصبحوا نادمين ﴾ أي على عقرها لتحقق العذاب ؛ وأشار إلى أن ذلك الندم لا على وجه التوبة أو أنه عند رؤية البأس فلم ينفع ، أو أن ذلك كناية عن أن حالهم صار حال النادم ، لا أنه وجد منهم ندم على شيء ما ، فإنه نقل عنهم أنه أتاهم العذاب العذاب وهو يحاولون أن يقتلوا صالحاً عليه السلام ، بقوله : ﴿ فأخذهم العذاب ﴾ أي المتوعد به .

ولما كان في الناقة وفي حلول المخايل كما تقدم أعظم دليل على صدق الرسول الداعي إلى الله قال : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة عظيمة على صحة ما أمروا به عن الله ، ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه مع ذلك ما ﴿ كان أكثرهم مؤمنين ﴾ .

ولما كان ربما توهم أنه سبحانه غير متصف بالعزة لعدم قسرهم على الإيمان ، أو بالرحمة لإهلاكهم ، قال : ﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ أي فلا يخرج شيء من قبضته وإرادته ، وهو الذي أراد لهم الكفر ﴿ الرحيم ﴾ في كونه لم يهلك أحداً حتى أرسل إليهم رسولاً فبين لهم ما يرضاه سبحانه وما يسخطه ، وأبلغ في إنذارهم حتى أقام الحجة بذلك ، ثم هو سبحانه يضل من يشاء لما تعلم من طبعه على ما يقتضي الشقاوة ، ويوفق من علم منه الخير لما يرضيه ، فيتسبب عن ذلك سعادته ، وفي تكريره سبحانه هذه الآية آخر كل قصة على وجه التأكيد وإتباعها ما دلت عليه من كفر من أتى بعد أصحابها .

من غير اتعاظ بحالهم ، ولا نكوب عن مثل ضلالهم ، خوفاً من نظير نكالهم ، أعظم تسلية

لهذا النبي الكريم ، وتخويف لكل عليم حليم ، واستعطاف لكل ذي قلب سيلم ، ولذلك قال واصلاً بالقصة : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 379.383 ﴾

(74/571)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) ﴾

القصة الخامسة قصة صالح عليه السلام

اعلم أن صالحاً عليه السلام خاطب قومه بأمور : أحدها : قوله : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هاهنا ءامِنِينَ ﴾ أي أتظنون أنكم تتركون في دياركم آمنين وتطمعون في ذلك وأن لا دار للمجازاة . وقوله : ﴿ فِيمَا هاهنا ءامِنِينَ ﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ، ثم فسره بقوله : ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل ، فإن قيل : لم قال ﴿ وَنَخْلٍ ﴾ بعد قوله : ﴿ فِي جنات ﴾ والجنة تتناول النخل جوابه من وجهين : الأول : أنه خص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على فضله على سائر الأشجار والثاني :

أن يراد بالجنات غيرها من الشجر ، لأن اللفظ يصلح لذلك ، ثم يعطف عليها النخل ، والطلع هو الذي يطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ ، والهضيم اللطيف أيضاً من قولهم : كشح هضيم ، وقيل الهضيم اللين النضيج كأنه قال : ونخل قد أرطب ثمره وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فارهين ﴾ قرأ الحسن ﴿ وَتَنْحِتُونَ ﴾ بفتح الحاء ، وقرىء ﴿ فارهين ﴾ و ﴿ فَرِهِينَ ﴾ والفراهة الكيس والنشاط ، فقوله : ﴿ فارهين ﴾ حال من الناحيتين .

(75/571)

واعلم أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية ، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر ، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية ، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المسرفين ﴾ وهذا إشارة إلى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ، ولا يجوز التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها ، فإن قيل ما فائدة قوله : ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ جوابه : فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح ، كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح ، ثم إن القوم أجابوه من وجهين :

أحدهما : قولهم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ وفيه وجوه : أحدها : المسحر هو الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله وثانيها : ﴿ مِنَ المسحرين ﴾ أي من له سحر ، وكل دابة تأكل فهي مسحرة ، والسحر أعلى البطن ، وعن الفراء المسحر من له جوف ، أراد أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب وثالثها : عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة وثانيهما : قولهم : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ وهذا يحتمل أمرين : الأول : أنك بشر مثلنا فكيف تكون نبياً ؟ وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون في الأنبياء أنهم لو كانوا صادقين ، لكانوا من جنس الملائكة الثاني : أن يكون مرادهم إنك بشر مثلنا ، فلا بد لنا في إثبات نبوتك من الدليل ، فقال صالح عليه السلام : ﴿ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ وقرىء بالضم ، روي أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقباً ، فقعد صالح يتفكر ، فقال له جبريل عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك الناقة ، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها في العظم ، ووصاهم صالح عليه السلام بأمرين : الأول : قوله : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ قال قتادة : إذا كان يوم شربها شربت

ماءهم كله ، وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي والثاني : قوله : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ أي بضرب أو عقر أو غيرهما ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عظم اليوم لحلول العذاب فيه ، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد ، ثم إن الله تعالى حكى عنهم أنهم عقروها .

روي أن (مصدعاً) ألجأها إلى مضيق (في شعب) فرماها بسهم (فأصاب رجلها) فسقطت ، ثم ضربها قدار ، فإن قيل لم أخذهم العذاب وقد ندموا جوابه من وجهين : الأول : أنه لم يكن ندمهم ندم التائبين ، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل الثاني : أن الندم وإن كان ندم التائبين ، ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة ، بل عند معاينة العذاب ، وقال تعالى :

﴿ وَلَيْسَتِ التوبةِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ [النساء : 18] الآية .

واللام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 137.138 ﴾

(77/571)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾

فيه عشرة تأويلات

: أحدها : أنه الرطب اللين ، قاله عكرمة .

الثاني : المذنب من الرطب ، قاله ابن جبير .

الثالث : أنه الذي ليس فيه نوى ، قاله الحسن .

الرابع : أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتّت ، قاله مجاهد .

الخامس : المتلاصق بعضه ببعض ، قاله أبو صخر .

السادس : أنه الطلع حين يتفرق ويخضر ، قاله الضحاك .

السابع : اليانع النضيج ، قاله ابن عباس .

الثامن : أنه المتنكر قبل أن ينشق عنه القشر ، حكاه ابن شجرة ، قال الشاعر :

كأن حمولة تجلى عليه . . . هضيم ما يحس له شقوقُ

التاسع : أنه الرخو ، قال الحسن

. العاشر : أنه اللطيف ، قاله الكلبي .

ويحتمل أن يكون الهضيم هو الهاضم المريء .

والطلع اسم مشتق من الطلوع وهو الظهور ، ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات .

قوله تعالى : ﴿ فَرِهِينَ ﴾ قرأ بذلك أبو عمرو ، وابن كثير ، ونافع ، وقرأ الباقون ﴿ فَارِهِينَ ﴾ بالألف فمن قرأ ﴿ فَرِهِينَ ﴾ ففي تأويله ستة أوجه

: أحدها : شرهين ، قاله مجاهد .

الثاني : معجبين ، قاله خصيف .

الثالث : آمنين ، قاله قتادة .

الرابع : فرحين ، حكاه ابن شجرة .

الخامس : بطرين أشرين ، قاله ابن عباس .

السادس : متخيرين ، قاله الكلبي . ومنه قول الشاعر :

إلى فره يماجدُ كلَّ أمْرٍ . . . قصدت له لأختبر الطّباعَا

ومن قرأ : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ ففي تأويله أربعة أوجه

: أحدها : معناه كيّسين قاله ال .

الثاني : حاذقين : قاله أبو صالح ، مأخوذ من فراهة الصنعة ، وهو قول ابن عباس .

الثالث : قادرين ، قاله ابن بحر .

الرابع : أنه جمع فارِه ، والفاره المرح ، قاله أبو عبيدة ، وأنشد لعدي بن الرقاع الغنوي :

لا أستكين إذا ما أزمة أزمت . . . ولن تراني بخير فاره اللبب

أي من اللبب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾

فيه سبعة تأويلات

: أحدها : من المسحورين ، قاله مجاهد .

الثاني : من السكرانين ، قاله قتادة .

(78/571)

الثالث : من المخلوقين ، قاله ابن عباس .

الرابع : من المخدوعين ، قاله سهل بن عبد الله .

الخامس : أن المسحر الذي ليس له شيء ولا يملك ، وهو المقل ، أي لست بملك فيبقى ، وهذا معنى قول الكلبي .

السادس : ممن له سحر أي رقية ، حكاه ابن عيسى .

السابع : ممن يأكل ويشرب ، حكاه ابن شجرة ، ومنه قول لبيد :

إن تسألينا فيم نحن فإننا . . . عصافير من هذا الأنام المسحر

أي المعلل بالطعام والشراب ، قال امرؤ القيس :

أرانا موضعين لأمر غيب . . . ونسحر بالطعام وبالشراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(79/571)

وقال ابن عطية :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) ﴾

﴿ ثمود ﴾ قبيلة عربية وتصرف على مقصد الحي أو القبيلة ، وقرأ بالوجهين ، الجمهور بغير صرف وابن وثاب وغيره بالصرف ، و ﴿ صالح ﴾ أخوهم في النسب والأنبياء من العرب أربعة هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم السلام ، وإسماعيل عليه السلام عربي اللسان سرياني النسب وهو أبو العرب الموجودين اليوم ، وقوله ﴿ أتتركون في ما ها هنا ﴾ تخويف لهم بمعنى أتطمعون أن تقروا في النعم على معاصيكم ، و " الهضيم " معناه اللين الرطب و " الطلع " الكفرى وهو عنقود التمر قبل أن يخرج من الكم في أول نباته فكأن الإشارة إلى أن طلعها يثمر ويرطب ، قال ابن عباس إذا أينع وبلغ فهو ﴿ هضيم ﴾ وقال الزهري " الهضيم " الرخص اللطيف أول ما يخرج ، وقال الزجاج هو فيما قيل الذي رطبه بغير نوى ، وقال الضحاك " الهضيم " معناه المنضد بعضه على بعض .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقرأ الجمهور " تنحِتون " بكسر الحاء ، وقرأ عيسى بفتحها ، وذكر أنها لغة قال أبو عمرو وهي قراءة الحسن وأبي حيوة ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم وابن عامر " فارهين " وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو " فرهين " ، وقرأ مجاهد " متفرهين " على وزن متفعلين ، واللفظة مأخوذة من الفراهة وهي جودة منظر الشيء وخبرته وقوته وكماله في نوعه فمعنى الآية كيسين متهممين قاله ابن عباس ، وقال مجاهد شرهين . وقال ابن زيد أقوياء وقال أبو عمرو بن العلاء آشرين بطرين ، وذهب عبد الله بن شداد إلى أنه بمعنى مستفرهين أي مبالغين في استجادة الفاره من كل ما تصنعونه وتشتهونه ، وقوله ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ خاطب به جمهور قومه وعنى ، ب ﴿ المسرفين ﴾ كبراءهم وأعلام الكفر والإضلال فيهم ، وقولهم ﴿ من المسحرين ﴾ فيه تأويلان : أحدهما مأخوذ من السَّحر بكسر السين أي قد سحرت فأنت لذلك مخبول لا تنطق بقويم ، والثاني أنه مأخوذ من السِّحر بفتح السين وهي الرئة وبسببها يقال انفتح سحره . وقيل السحر قصبة الرئة بما يتعلق بها من كبد وغيره ، أي أنت ابن آدم لا يصح أن تكون رسولاً عن الله ، وما بعده في الآية يقوي هذا التأويل ومن

اللفظة قول لبيد : [الطويل]

فإن تسألينا فيم نحن فإننا . . . عصافير من هذا الأنام المسحر

ويقال للاغتداء التسحير ومنه قول امرىء القيس :

(81/571)

" ونسحر بالطعام وبالشراب " . . . ثم اقترحوا عليه " آية " وروي أنهم اقترحوا خروج ناقة من جبل من جبالهم ، وقصتها في هذه الآية وجيزة وقد مضت مستوعبة ، فلما خرجت الناقة ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ هذه ناقة لها شرب ﴾ ، وهو الحظ من الماء ، وقرأ ابن أبي عبلة " لها شُرب ولكم شُرب " بضم الشين فيهما ، وقد تقدم قصص ورود الناقة ، و" السوء " عقرها ، وتوعدهم عليه بعذاب ظاهر أمره أنه أراد في الدنيا وكذلك استمر الوجود ، ونسب " عقرها " إلى جميعهم مع اختصاص قدار الأحمر بعقرها من حيث اتفقوا على ذلك رأياً وتدبيراً ، وقوله ﴿ فأصبحوا نادمين ﴾ لما ظهر لهم تغيير ألوانهم حسبما كان صالح أخبرهم ندموا ، ورأوا أن الأمر على ما أخبر به حتى نزل بهم العذاب ، وكانت صيحة خمدت لها أبدانهم وانشقت قلوبهم وماتوا عن آخرهم وصبت عليهم حجارة خلال ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فيما هاهنا ﴾

أي : فيما أعطاكم الله في الدنيا ﴿ آمنين ﴾ من الموت والعذاب .

قوله تعالى : ﴿ طَلْعُها هَضِيم ﴾ الطَّلْع : الثمر .

وفي الهضيم سبعة أقوال .

أحدها : أنه الذي قد اينع وبلغ ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنه الذي يتهشَّم تهشُّماً ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه الذي ليس له نوى ، قاله الحسن .

والرابع : أنه المذنَّب من الرُّطَب ، قاله سعيد بن جبير .

والخامس : اللَّيِّن ، قاله قتادة ، والفراء .

والسادس : أنه الحَمْل الكثير الذي يركب بعضه بعضاً ، قاله الضحاك .

والسابع : أنه الطَّلْع قبل أن ينشقَّ عنه [القشر] وينفتح ، يريد أنه منضمٌّ مكتَنِزٌ ، ومنه قيل : رجل أهضَمُ الكَشْحَيْن ، إذا كان مُنْضَمَّها ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : ﴿ وتَنْحِتُون من الجبال بيوتاً فَرِهِين ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿ فَرِهين ﴾ .

وقرأ الباقون : ﴿ فارِهِين ﴾ بألف .

قال ابن قتيبة : ﴿ فَرِهِينَ ﴾ أَشِرِين بَطِرِين ، ويقال : الهاءُ فيه مبدَلَةٌ من حاء ، أي : فَرِحِين ، و ﴿ الفرحُ ﴾ قد يكون السرورَ ، وقد يكون الأَشَرَ ، ومنه قوله : ﴿ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ ﴾ [القصص : 76] أي : الأشِرِين ، ومن قرأ : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ فهي لغة أخرى ، يقال : فَرِهٌ وفارِهٌ ، كما يقال : فَرِحٌ وفارِحٌ ، ويقال : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ أي حاذِقِين ؛ قال عكرمة : حاذِقِين بنحتها .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُطيعوا أمر المسرِفِين ﴾ قال ابن عباس : يعني : المشركين .

وقال مقاتل : هم التسعة الذين عقروا الناقة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّما أنتَ مِنَ المُسَحَّرِين ﴾

قال الزجاج : أي : ممن له سَحْر ، والسَّحْر : الرِّئة ، والمعنى : أنت بشر مثلنا .

وجائز أن يكون من المفعَّلين من السِّحر ؛ والمعنى : ممن قد سُحِر مَرَّة بعد مَرَّة .

قوله تعالى : ﴿ لها شِرْبٌ ﴾ أي : حظٌّ من الماء .

قال ابن عباس : لها شِرب معروف لا تحضروه معها ، ولكم شِرْب ، لا تحضر معكم ، فكانت إِذا كان يومهم حضروا الماء فاقتسموه ، وإِذا كان يومها شَربتِ الماءَ كُلَّه .

وقال قتادة : كانت إِذا كان يوم شربها ، شربت ماءهم أول النهار ، وسقتهم اللبن آخر النهار .

وقرأ أُبيٌّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي عبلة : ﴿ لها شُرْبٌ ﴾ بضم الشين .

قوله تعالى : ﴿ فأَصبحوا نادِمِين ﴾ قال ابن عباس : ندموا حين رأوا العذاب على عَقْرها ، وعذابهم كان بالصَّيحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(84/571)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾

ذكر قصة صالح وقومه وهم ثمود ؛ وكانوا يسكنون الحِجْر كما تقدّم في "الحجر" وهي ذوات نخل وزروع ومياه .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴾ يعني في الدنيا آمنين من الموت والعذاب .

قال ابن عباس : كانوا معمَّرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم .

ودلّ على هذا قوله : ﴿ واستعمركم فِيهَا ﴾ [هود : 61] فقرّعهم صالح ووبّخهم وقال : أتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ .

الزمخشري : فإن قلت لم قال : ﴿ وَنَخْلٍ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ والجنات تتناول النخل أوّل شيء كما يتناول النَّعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخل كما يذكرون النَّعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير :

كَأَنَّ عَيْنَيَّ فِي غَرْبَي مُقَتَّلَةٍ . . .

من النَّواضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقاً

يعني النخل ؛ والنخلة السَّحُوق البعيدة الطول .

قلت : فيه وجهان ؛ أحدهما : أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عنها .

والثاني : أن يريد بالجنات غيرها من الشجر ؛ لأن اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل .

والطلعة هي التي تطلع من النخلة كنصل السيف ؛ في جوفه شماريخ القِنوِ ، والقِنو اسم

للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه .

و﴿ هَضِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : لطيف ما دام في كُفُرّاه .

والهضيم اللطيف الدقيق ؛ ومنه قول امرىء القيس :

عَليَّ هَضيمَ الكَشْحِ رِيَّا المُخَلْخَلِ . . .

الجوهري : ويقال للطلع هَضيم ما لم يخرج من كُفُرّاه ؛ لدخول بعضه في بعض .

والهضيم من النساء اللطيفة الكشحين .

ونحوه حكى الهروي ؛ قال : هو المنضم في وعائه قبل أن يظهر ؛ ومنه رجل هضيم الجنبين أي منضمهما ؛ هذا قول أهل اللغة .

(85/571)

وحكى الماوردي وغيره في ذلك اثنى عشر قولاً : أحدها : أنه الرطب اللين ؛ قاله عكرمة .

الثاني : هو المذنِّب من الرطب ؛ قاله سعيد بن جبير .

قال النحاس : وروى أبو إسحاق عن يزيد هو ابن أبي زياد كوفي ويزيد بن أبي مريم شامي ﴿ وَنَخْلٌ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : منه ما قد أرطب ومنه مذنِّب .

الثالث : أنه الذي ليس فيه نوى ؛ قاله الحسن .

الرابع : أنه المتهشم المتفتت إذا مس تفتت ؛ قاله مجاهد .

وقال أبو العالية : يتهشم في الفم .

الخامس : هو الذي قد ضمر بركوب بعضه بعضاً ؛ قاله الضحاك ومقاتل .

السادس : أنه المتلاصق بعضه ببعض ؛ قاله أبو صخر .

السابع : أنه الطلع حين يتفرق ويخضر ؛ قاله الضحاك أيضاً .

الثامن : أنه اليانع النضيج ؛ قاله ابن عباس .

التاسع : أنه المكتنز قبل أن ينشق عنه القشر ؛ حكاه ابن شجرة ؛ قال :

كأنّ حَمولةً تُجْلَى عليهِ . . .

هَضِيمٌ ما يُحسُّ له شُقُوقُ

العاشر : أنه الرخو ؛ قاله الحسن .

الحادي عشر : أنه الرخص اللطيف أوّل ما يخرج وهو الطلع النَّضِيدُ ؛ قاله الهروي .

الثاني عشر : أنه البَرْنِيّ ؛ قاله ابن الأعرابي ؛ فعيل بمعنى فاعل أي هنيء مريء من انهضام الطعام .

والطلع اسم مشتق من الطلوع وهو الظهور ؛ ومنه طلوع الشمس والقمر والنبات .

قوله تعالى : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾ النَّحت النَّجر والبَرْي ؛ نحته ينحِته (

بالكسر) نحتاً إذا براه والنُّحَاتة البُرَاية .

والمِنْحَت ما ينحت به .

وفي (وَالصَّافَاتِ) قال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات : 95] .

وكانوا ينحتونها من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدّم بناؤهم من المدر .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع : ﴿ فَرِهِينَ ﴾ بغير ألف .

الباقون : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ بألف وهما بمعنى واحد في قول أبي عبيدة وغيره ؛ مثل : ﴿ عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ [النازعات : 11] و ﴿ نَاخِرَةً ﴾ .

وحكاه قطرب .

(86/571)

وحكى فَرُهَ يفرُه فهو فاره وفَرِهَ يفرَه فرِهٌ وفاره إذا كان نشيطاً .

وهو نصب على الحال .

وفرق بينهما قوم فقالوا : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ حاذقين بنحتها ؛ قاله أبو عبيدة ؛ وروي عن ابن عباس وأبي صالح وغيرهما .

وقال عبد الله بن شدّاد : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ متجبرين .

وروي عن ابن عباس أيضاً أن معنى : ﴿ فَرِهِينَ ﴾ بغير ألف أشرين بطرين ؛ وقاله مجاهد .

وروي عنه شرهين .

الضحاك : كيِّسين .

قتادة : معجبين ؛ قاله الكلبي ؛ وعنه : ناعمين .

وعنه أيضاً آمنين ؛ وهو قول الحسن .

وقيل : متخيرين ؛ قاله الكلبي والسدي .

ومنه قول الشاعر :

إلى فَرِهٍ يماجد كلَّ أمرٍ . . .

قصدتُ له لأختبر الطِّباعَا

وقيل : متعجبين ؛ قاله خُصيف .

وقال ابن زيد : أقوياء .

وقيل : فرهين فرحين ؛ قاله الأخفش .

والعرب تعاقب بين الهاء والحاء ؛ تقول : مدهته ومدحته ؛ فالفرِه الأشِر الفرِح ثم الفرح بمعنى المَرح مذموم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرض مَرَحاً ﴾ [الإسراء : 37] وقال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ [القصص : 76] .

﴿ فاتقوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تطيعوا أَمْرَ المسرفين ﴾ قيل : المراد الذين عقروا الناقة .

وقيل : التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون .

قال السّدي وغيره : أوحى الله تعالى إلى صالح : إن قومك سيعقرون ناقتك ؛ فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل .

فقال لهم صالح : إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ؛ فقالوا : لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه .

فولد لتسعة منهم من ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ، ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه وكان لم يولد له قبل ذلك .

وكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتاً سريعاً ؛ وكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا .

وغضب التسعة على صالح ؛ لأنه كان سبب قتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا بالله لنبيتنه وأهله .

(87/571)

قالوا : نخرج إلى سفر فترى الناس سفرنا فنكون في غار ، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ، ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ؛ فيصدّقوننا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر .

وكان صالح لا ينام معهم في القرية وكان يأوي إلى مسجده ، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم ، فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم ، فرأى ذلك ناس ممن كان قد اطلع على ذلك ، فصاحوا في القرية : يا عباد الله أما رضي صالح أن أمر بقتل أولادهم حتى قتلهم ؛ فأجمع أهل القرية على قتل الناقة .

وقال ابن إسحاق : إنما اجتمع التسعة على سبّ صالح بعد عقرهم الناقة وإنذارهم بالعذاب على ما يأتي بيانه في سورة "النمل" إن شاء الله تعالى .

﴿ قالوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ هو من السحر في قول مجاهد وقتادة على ما قال المهدوي .

أي أصبت بالسحر فبطل عقلك ؛ لأنك بشر مثلنا فلم تدّع الرسالة دوننا .

وقيل : من المعلَّلين بالطعام والشراب ؛ قاله ابن عباس والكلبي وقتادة ومجاهد أيضاً فيما ذكر الثعلبي .

وهو على هذا القول من السَّحر وهو الرئة أي بشر لك سَحْر أي رئة تأكل وتشرب مثلنا كما قال (لبيد) :

فإن تسألينا فِيمَ نحن فإنَّنَا . . .

عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

وقال (امرؤ القيس) :

ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشَّرَابِ . . .

﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في قولك .

﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ قال ابن عباس : قالوا إن كنت صادقاً فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء فتضع ونحن ننظر ، وترد هذا الماء فتشرب وتغدو علينا بمثله لبنا .

(88/571)

فدعا الله وفعل الله ذلك ف ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ أي حظ (من الماء) ؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم ؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أوّل النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار ، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئاً ، ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئاً .

قال الفراء : الشِّرب الحظ من الماء .

قال النحاس : فأما المصدر فيقال فيه شرِب شَرْباً وشُرباً وشِرباً وأكثرها المضمومة ؛ لأن المكسورة والمفتوحة يشتركان مع شيء آخر فيكون الشِّرْب الحظ من الماء ، ويكون الشَّرْب جمع شارب كما قال :

فقلتُ للشَّرْب في دُرْنَا وقد ثَمِلُوا . . .

إلا أن أبا عمرو بن العلاء والكسائي يختاران الشَّرب بالفتح في المصدر ، ويحتجان برواية بعض العلماء أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إنها أيام أكل وشَرْب " ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء ﴾ لا يجوز إظهار التضعيف هاهنا ؛ لأنهما حرفان متحرّكان من جنس واحد .

﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهي ، ولا يجوز حذف الفاء منه ، والجزم كما جاء في الأمر إلا شيئاً روي عن الكسائي أنه يجيزه .

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ ﴾ أي على عقرها لما أيقنوا بالعذاب .

وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً فظهرت عليهم العلامة في كل يوم ، وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب .

وقيل : لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا ، بل طلبوا صالحاً عليه السلام ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب .

وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها .

وهو بعيد .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ إلى آخره تقدّم .

ويقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانمائة رجل وامرأة .

وقيل : كانوا أربعة آلاف .

وقال كعب : كان قوم صالح اثنى عشر ألف قبيل كل قبيل نحو اثنى عشر ألفا من سوى النساء والذرّية ، ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(89/571)

وقال أبو حيان :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) ﴾

﴿ أتتركون ﴾ : يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزولون عنه ، وأن يكون تذكيراً بالنعمة في تخلية الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات ، وغير ذلك مع الأمن والدعة ، قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : تخويف لهم ، بمعنى : أتطمعون إن كفرتم في النعم على معاصيكم ؟ وقيل : أتتركون ؟ استفهام في معنى التوبيخ ، أي أيترككم ربكم ؟ ﴿ فيما ههنا ﴾ : أي فيما أنتم

عليه في الدنيا ﴿ آمنين ﴾ : لا تخافون بطشه . انتهى .

وما موصولة ، وههنا إشارة إلى المكان الحاضر القريب ، أي في الذي استقر في مكانكم هذا من النعيم .

وفي جنات : بدل من ما ههنا أجمل ، ثم فصل ، كما أجمل هود عليه السلام في قوله : ﴿ أمدكم بما تعلمون ﴾ ، ثم فصل في قوله : ﴿ أمدكم بأنعام وبنين ﴾ ، وكانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل .

والهضيم ، قال ابن عباس : إذا أينع وبلغ .

وقال الزهري : الرخص اللطيف أول ما يخرج .

وقال الزجاج : الذي رطبه بغير نوى .

وقال الضحاك : المنضد بعضه على بعض .

وقيل : الرطب المذنب .

وقيل : النضيج من الرطب .

وقيل : الرطب المتفتت .

وقيل : الحماض الطلع ، ويقارب قشرته من الجانبين من قولهم : خصر هضيم .

وقيل : العذق المتدلي .

وقيل : الجمار الرخو .

وجاء قوله : ﴿ ونخل ﴾ بعد قوله : ﴿ في جنات ﴾ ، وإن كانت الجنة تتناول النخل أول شيء ، ويطلقون الجنة ، ولا يريدون بها إلا النخل ، كما قال الشاعر :

كأن عيني في غربي مقتلة . . .

من النواضح تسقي جنة سحقا

أراد هنا النخل .

والسحق جمع سحوق ، وهي التي ذهبت بجردتها صعداً فطالت .

فأفرد ﴿ ونخل ﴾ بالذكر بعد اندراجه في لفظ جنات ، تنبيهاً على انفراده عن شجر الجنة بفضله .

(90/571)

أو أراد بجنات غير النخل من الشجر ، لأن اللفظ صالح لهذه الإرادة ، ثم عطف عليه ونخل ، ذكرهم تعالى في أن وهب لهم أجود النخل وأينعه ، لأن الإناث ولادة التمر ، وطلعها فيه لطف ، والهضيم : اللطيف الضامر ، والبرني ألطف من طلع اللون .

ويحتمل اللطف في الطلع أن يكون بسبب كثرة الحمل ، فإنه متى كثر لطف فكان هضيماً ، وإذا قل الحمل جاء التمر فاخراً .

ولما كانت منابت النخل جيدة ، وكان السقي لها كثيراً ، وسلمت من العاهة ، كبر الحمل بلطف الحب .

وقرأ الجمهور : ﴿ وتنحتون ﴾ ، بالتاء للخطاب وكسر الحاء ؛ وأبو حيوة ، وعيسى ، والحسن : بفتحها ، وتقدم ذكره ، وعنه بألف بعد الحاء إشباعاً .

وعن عبد الرحمن بن محمد ، عن أبيه : بالياء من أسفل وكسر الحاء .

وعن أبي حيوة ، والحسن أيضاً : بالياء من أسفل وفتح الحاء .

وقرأ عبد الله ، وابن عباس ، وزيد بن علي ، والكوفيون ، وابن عامر : فارهين بألف ، وباقي السبعة : بغير ألف ؛ ومجاهد : متفرهين ، اسم فاعل من تفره ، والمعنى : نشطين مهتمين ، قاله ابن عباس .

وقال مجاهد : شرهين .

وقال ابن زيد : أقوياء .

وقال ابن عباس أيضاً ، وأبو عمرو بن العلاء : أشرين بطرين .

وقال عبد الله بن شداد : بمعنى مستفرهين ، أي مبالغين في استجادة المغارات ليحفظوا أموالهم فيها .

وقال قتادة : آمنين .

وقال الكلبي : متجبرين .

وقال خصيف : معجبين .

وقال عكرمة : ناعمين .

وقال الضحاك : كيسين .

وقال أبو صالح : حاذقين .

وقال ابن بحر : قادرين .

وقال أبو عبيدة : مرحين .

وظاهر هذه الآيات أن الغالب على قوم هود : اللذات الخيالية من طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر ، وعلى قوم صالح : اللذات الحسية من المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة .

﴿ ولا تطيعوا ﴾ : خطاب الجمهور قومه .

والمسرفون : هم كبراؤهم وأعلامهم في الكفر والإضلال ، وكانوا تسعة رهط .

﴿ يفسدون في الأرض ﴾ : أي أرض ثمود .

وقيل : في الأرض كلها ، لأن بمعاصيهم امتناع الغيث .

(91/571)

ولما كانوا يفسدون دلالته دلالة المطلق ، أتى بقوله : ﴿ ولا يصلحون ﴾ ، فنفى عنهم الصلاح ، وهو نفي لمطلق الصلاح ، فيلزم منه نفي الصلاح كائناً ما كان ، فلا يحصل منهم صلاح ألبتة .

والمسحر : الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله .

وقيل : من السحر ، وهو الرئة ، أي أنت بشر لا تصلح للرسالة .

ويضعف هذا القول قولهم بعد : ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ ، إذ تكون هذه الجملة توكيداً لما قبلها ، والأصل التأسيس .

ومثلنا : أي في الأكل والشرب وغير ذلك من صفات البشر ، فلا اختصاص لك بالرسالة .

﴿ فأت بآية ﴾ : أي بعلامة على صحة دعواك ، وفي الكلام حذف تقديره : قال آتي بها ، قالوا : ما هي ؟ ﴿ قال هذه ناقة ﴾ روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة تلد سقباً .

فقعد صالح يتفكر ، فقال له جبريل عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك الناقة ، ففعل ؛ فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ، ونتجت سقباً مثلها في العظم .

وتقدم في الأعراف طرف من قصة ثمود والناقة ، والشرب النصيب المشروب من الماء نحو السقي .

وقرأ ابن أبي عبلة : شرب ، بضم الشين فيهما ، وظاهر هذا العذب أنه في الدنيا ، وكذا

وقع ووصف بالعظم لحلول العذاب فيه ، ووصفه به أبلغ من وصف العذاب به ، لأن الوقت إذا عظم بسبب العذاب ، كان موقع العذاب من العظم أشد .

ونسب العقر إلى جميعهم ، لكونهم راضين بذلك ، حتى روي أنهم استرضوا المرأة في خدرها والصبيان ، فرضوا جميعاً .

﴿ فأصبحوا ﴾ ، لا ندم توبة ، بل ندم خوف أن يحل بهم العذاب عاجلاً ، وذلك عند معاينة العذاب في غير وقت التوبة .

أصبحوا وقد تغيرت ألوانهم حسبما كان أخبرهم به صالح عليه السلام ، وكان العذاب صيحة خمدت لها أبدانهم ، وانشقت قلوبهم ، وماتوا عن آخرهم ، وصب عليهم حجارة خلال ذلك .

وقيل : كانت ندامتهم على ترك عقر الولد ، وهو قول بعيد .

وأل في : ﴿ فأخذهم العذاب ﴾ للعهد في العذاب السابق ، عذاب ذلك اليوم العظيم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(92/571)

وقال أبو السعود :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالح أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله تعالى

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ ﴾ إنكارٌ ونفيٌ لأن يتركوا فيما هُم فيه من النّعمة أو تذكير للنّعمة في تخليته تعالى إيّاهم وأسباب تنعمِهم آمنين وقوله تعالى : ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ تفسير لما قبلَه من المُبهم ، والهضيمُ اللَّطيفُ اللّيِّنُ للطف الثمر أو لأنَّ النخل أُنثى وطلع الإناث ألطفُ وهو ما يطلع منها كنصل السَّيفِ في جوفه شماريخُ القنوِ أو متدلٍ متكسرٌ من كثرةِ الحملِ ، وإفرادُ النَّخل لفصله على سائر أشجارِ الجنّاتِ أو لأن المرادَ بها غيرُها من الأشجارِ .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فارهين ﴾ بطرينَ أو حاذقينَ من الفراهةِ وهي النَّشاطُ فإنَّ الحاذقَ يعملُ بنشاطٍ وطيبِ قلبٍ . وقُرِىء فَرِهين وهو أبلغ .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المسرفين ﴾

استعير الطَّاعة التي هي انقيادُ الأمرِ لامتثالِ الأمر وارتسامِه أو نُسب حكم الأمر إلى أمرِه مجازاً .

﴿ الذين يُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ وصف موضّحٌ لإسرافهم ولذلك عطف ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ على يُفسدون لبيان خلوصِ إفسادِهم عن مخالطةِ الإصلاحِ .

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ أي الذين سُحروا حتَّى غُلب على عقولِهم أو من ذوي السَّحْر أي الرِّئةِ أي من الإنسِ فيكون قولُه تعالى : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ تأكيداً له ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أي في دعواكَ .

(93/571)

﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ ﴾ أي بعدما أخرجَها الله تعالى من الصَّخرةِ بدعائه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حسبما مرَّ تفصيلُه في سورةِ الأعرافِ وسورة هودٍ ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ أي نصيبٌ من الماء كالسِّقي والقِيت للحظِّ من السِّقي والقُوت وقُرىء بالضَّمِّ ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاقتنعُوا بشربكم ولا تزاحمُوا على شِربها .

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وصف اليوم بالعظمِ لعظم ما يحلُّ فيه وهو أبلغُ من تعظيم العذابِ .

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أسند العقرَ إلى كلِّهم لما أنَّ عاقرَها عقرَها برأيهم ولذلك عمَّهم العذابُ ﴿ فَأَصْبَحُواْ نادمين ﴾ خوفاً من حُلول العذابِ لا توبةً أو عند معاينتهم لمباديه ولذلك لَمْ ينفعْهم النَّدمُ وإن كان بطريق التَّوبةِ .

﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ أي العذابُ الموعودُ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ

* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ قيل : في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماءً إلى أنَّه لو آمن أكثرُهم أو شطرُهم لما أُخذوا بالعذاب وأنَّ قُريشاً إنَّما عُصموا من مثله ببركةِ مَن آمنَ منهم وأنتَ خبيرٌ بأن قُريشاً هم المشهورونَ بعدمِ إيمانِ أكثرِهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(94/571)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾

هو اسم عجمي عند بعض والأكثرون على أنه عربي وترك صرفه لأنه اسم قبيلة ، وهو فعول من الثمد وهو الماء القليل الذي لا مادة له ومنه قيل فلان مثمود ثمدته النساء أي قطعن مادة مائة لكثرة غشيانه لهن ومثمود إذا كثر عليه السؤال حتى نفد مادة ماله أو ما يبقى في الجلد أو ما يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف .

وفي "القاموس" ثمود قبيلة ويصرف وتضم الثاء وقرىء به أيضاً .

وفي سبائك الذهب أنه في الأصل اسم لأبي القبيلة ثم نقل وجعل اسماً لها ، ووجه تأنيث الفعل هنا نظير ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ [الشعراء : 123] وكذا

الكلام في قوله سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالح أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ كالكلام فيما تقدم وقوله تعالى :

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هاهنا ءَامِنِينَ ﴾ إنكار لأن يتكروا فيما هم فيه من النعمة آمنين عن عذاب يوم عظيم فالاستفهام مثله في قوله تعالى السابق : ﴿ أَتَبْنُونَ ﴾ [الشعراء : 128] وقوله تعالى اللاحق : ﴿ أَتَأْتُونَ ﴾ [الشعراء : 165] وكأن القوم اعتقدوا ذلك فأنكره عليه السلام عليهم ، وجوز أن يكون الاستفهام للتقرير تذكيراً للنعمة في تخليته تعالى إياهم وأسباب نفعهم آمنين من العدو ونحوه واستدعاء لشكر ذلك بالإيمان .

وفي "الكشف" أن هذا أوفق في هذا المقام ، وما موصولة و﴿ هاهنا ﴾ إشارة إلى المكان الحاضر القريب أي أتتركون في الذي استقر في مكانكم هذا من النعمة ، وقوله تعالى :

﴿ فِي جنات وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ بدل من ما ههنا بإعادة الجار كما قال أبو البقاء .

وغيره ، وفي الكلام إجمال وتفصيل نحو ما تقدم في قصة عاد .

وجوز أن يكون ظرفاً لآمنين الواقع حالاً وليس بذاك ، والهضيم الداخل بعضه في بعض كأنه هضم أي شدخ .

وسأل عنه نافع بن الأزرق ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال له : المنضم بعضه إلى بعض فقال : وهل تعرف العرب ذلك ، قال : نعم أما ما سمعت قول امرىء القيس :

دار لبيضاء العوارض طفلة . . .

مهضومة الكشحين ريا المعصم

وقال الزهري : هو اللطيف أول ما يخرج ، وقال الزجاج : هو الذي رطبه بغير نوى وروي عن الحسن .

وقيل : هو المتدلى لكثرة ثمره ، وقيل : هو النضيج من الرطب وروي عن عكرمة ، وقيل : الرطب المذنب وروي عن يزيد بن أبي زياد ، فوصف الطلع بالهضيم إما حقيقة أو مجاز وهو حقيقة وصف لثمره ، وجعل بعضهم على بعض الأقوال الطلع مجازاً عن الثمر لأوله إليه ، والنخل اسم جنس جمعي يذكر كما في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] ويؤنث كما هنا ، وليس ذلك لأن المراد به الاناث فإنه معلوم بقرينة المقام ولو ذكر الضمير .

وإفراده بالذكر مع دخوله في الجنات لفضله على سائر أشجارها أو لأن المراد بها غيره من

الأشجار .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فارهين ﴾ أي أشرين بطرين كما روي عن ابن عباس .

ومحمد بن العلاء ، وجاء في رواية أخرى عن ابن عباس تفسيره بنشطين مهتمين ، وقال أبو صالح : أي حاذقين وبذلك فسره الراغب .

وقال ابن زيد : أي أقوياء ، وأنت تعلم أن هذه الجملة داخلة في حيز الاستفهام السابق والأوفق به على القول الأول القول الأول وعلى القول الثاني كل من الأقوال الباقية وكلها سواء في ذلك إلا أنه يفهم من كلام بعضهم أن الفراهة حقيقة في النشاط مجاز في غيره وعليه يترجح تفسيره بنشطين إذا أريد التذكير .

وقرأ أبو حيوة .

وعيسى .

والحسن ﴿ تَنْحِتُونَ ﴾ بفتح الحاء .

(96/571)

وقرىء ﴿ تنحاتون ﴾ بألف بعد الحاء إشباعاً ، وعن عبد الرحمن بن محمد عن أبيه أنه قرأ ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ ﴾ بالياء آخر الحروف وكسر الحاء ، وعن أبي حيوة .

والحسن أيضاً أنهما قرآ بالياء التحتية وفتح الحاء .

وقرأ عبد الله .

وابن عباس .

وزيد بن علي .

والكوفيون .

وابن عامر ﴿ فارهين ﴾ بالف بعد الفاء ، وقراءة الجمهور أبلغ لما ذكروا في حاذر وحذر .

وقرأ مجاهد ﴿ متفرهين ﴾ .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المسرفين ﴾ كأنه عني بالخطاب جمهور قومه وبالمسرفين كبراءهم وأعلامهم في الكفر والاضلال وكانوا تسعة رهط .

ونسبة الاطاعة إلى الأمر مجاز وهي للآمر حقيقة وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفى وكونه لا يناسب المقام فيه بحث .

ويجوز أن تكون الإطاعة مستعارة للامتثال لما بينهما من الشبه في الافضاء إلى فعل ما أمر به أو مجازاً مرسلاً عنه للزومه له .

ويحتمل أن يكون هناك استعارة مكنية وتخييلية ، وجوز عليه أن يكون الأمر واحد الأمور وفيه من البعد ما فيه والإسراف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في

الإنفاق أشهر ، والمراد به هنا زيادة الفساد وقد أوضح ذلك على ما قيل بقوله تعالى :

﴿ الذين يُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ ولعل المراد ذمهم بالضلال في أنفسهم بالكفر والمعاصي وإضلالهم غيرهم بالدعوة لذلك ، وللإيماء إلى عدم اختصاص شؤم فعلهم بهم حثاً على امتثال النهي قيل ﴿ فِى الأرض ﴾ والمراد بها أرض قمود ، وقيل : الأررض كلها ولما كان ﴿ يُفْسِدُونَ ﴾ لا ينافي إصلاحهم أحياناً أردف بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ لبيان كمال إفسادهم وأنه لم يخالطه إطلاح أصلا .

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ أي الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقولهم ، وقيل : أي من ذوي السحر أي الرئة فهو كناية عن كونه من الأناسي فقوله تعالى :

(97/571)

﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ على هذا تأكيد له وعلى الأول هو مستأنف للتعليل أي أنت مسحور لأنك بشر مثلنا لا تميز لك علينا فدعواك إنما هي لخلل في عقلك ﴿ مَا أَنتَ ﴾ أي بعلامة على صحه دعواك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ فيها .

﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ ﴾ أي بعد ما أخرجها الله تعالى بدعائه .

روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عشراء تخرج من صخرة عينوها ثم تلد سقبا فقعد عليه

السلام يتذكر فقال له : جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقباً مثلها في العظم فعند ذلك قال لهم : هذه ناقة ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ أي نصيب مشروب من الماء كالسقى والقيت للنصيب من السقى والوقت وكان هذا الشرب من عين عندهم .

وفي مجمع البيان عن علي كرم الله تعالى وجهه أن تلك العين أول عين نبعت في الأرض وقد فجرها الله عز وجل لصالح عليه السلام ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموها على شربها .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ شُرْبَ ﴾ بضم الشين فيهما ، واستدل بالآية على جواز قسمة ماء نحو الآبار على هذا الوجه .

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من عظم العذاب وهذا من المجاز في النسبة ، وجعل ﴿ عظِيمٌ ﴾ صفة ﴿ عَذَابِ ﴾ والجر للمجاورة نحو هذا جحر ضب خرب ليس بشيء .

(98/571)

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ نسب العقر إليهم كلهم مع أن عاقرها واحد منهم وهو قدار بن سالف وكان نساجاً على ما ذكره غير واحد ، وجاء في رواية أن مسطعاً ألجأها إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار لما روي أن عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقول : أترضين ؟ فتقول : نعم وكذلك الصبيان فرضوا جميعاً ، وقيل : لأن العقر كان بأمرهم ومعاونتهم جميعاً كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْاْ صاحبهم فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [القمر : 29] وفيه بحث ﴿ فَأَصْبَحُواْ نادمين ﴾ خوفاً من حلول العذاب كما قال جمع ، وتعقب بأنه مردود بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي بعد ما عقروها : ﴿ وَقَالُواْ ياصاح ائتنا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ [الأعراف : 77] ، وأجيب بأن قوله بعد ما عقروها في حيز المنع إذ الواو لا تدل على الترتيب فيجوز أن يريدوا بما تعدنا من المعجزة أو الواو حالية أي والحال أنهم طلبوها من صالح ووعدوه الإيمان بها عند ظهورها مع أنه يجوز ندم بعض وقول بعض آخر ذلك بإسناد ما صدر من البعض إلى الكل لعدم نهيهم عنه أو نحو ذلك أو ندموا كلهم أو لا خوفاً ثم قست قلوبهم وزال خوفهم أو على العكس ، وجوز أن يقال : إنهم ندموا على عقرها ندم توبة لكنه كان عند معاينة العذاب وعند ذلك لا ينفع الندم ، وقيل : لم ينفعهم ذلك لأنهم لم يتلافوا ما فعلوا بالإيمان المطلوب منهم .

وقيل : ندموا على ترك سقبها ولا يخفى بعده ، ومثله ما قيل : إنهم ندموا على عقرها لما

فاتهم به من لبنها ، فقد روي أنه إذا كان يومها أصدرتهم لنا ما شاؤوا .

﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ الموعود وكان صيحة خمدت لها أبدانهم وانشقت قلوبهم وماتوا عن آخرهم وصب عليهم حجارة خلال ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(99/571)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) ﴾

قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ﴾ أنث الفعل لكونه مسنداً إلى قوم ، وهو في معنى الجماعة ، أو الأمة ، أو القبيلة ، وأوقع التكذيب على المرسلين ، وهم لم يكذبوا إلاّ الرسول المرسل إليهم ، لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل ، لأن كلّ رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل .

وقيل : كذبوا نوحاً في الرسالة ، وكذبوه فيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ أي : أخوهم من أبيهم ، لا أخوهم في الدين .

وقيل : هي أخوة المجانسة ، وقيل : هو من قول العرب : يا أخا بني تميم ، يريدون واحداً

منهم ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي : ألا تتقون الله بترك عبادة الأصنام ، وتجيبون رسوله الذي أرسله إليكم ؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي إني لكم رسول من الله أمين فيما أبلغكم عنه ، وقيل : أمين فيما بينكم ، فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ أي اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه ، وأطيعون فيما آمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك ، والقيام بفرائض الدين ﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي ما أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة ، ولا أطمع في ذلك منكم ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ الذي أطلبه وأريده ﴿ إِلَّا على رَبّ العالمين ﴾ أي ما أجري إلاّ عليه ، وكرّر قوله : ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ للتأكيد والتقرير في النفوس مع كونه علق كل واحد منهم بسبب ، وهو الأمانة في الأوّل ، وقطع الطمع في الثاني ، ونظيره قولك : ألاّ تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً ؟ ألاّ تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً ؟ وقدّم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته ؛ لأن تقوى الله علة لطاعته .

(100/571)

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ الاستفهام للإنكار أي كيف نتبعك ونؤمن لك ، والحال أن قد اتبعك الأرذلون ؟ وهم جمع أرذل ، وجمع التكسير أرذال ، والأنثى : رذلى ،

وهم الأقلون جاهاً ومالا ، والرذالة الخسة والذلة ، استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم ، أو لاتضاع أنسابهم .

وقيل : كانوا من أهل الصناعات الخسيسة ، وقد تقدم تفسير هذه الآيات في هود .

وقرأ ابن مسعود ، والضحاك ، ويعقوب الحضرمي : " وأتباعك الأرذلون " قال النحاس : وهي قراءة حسنة ، لأن هذه الواو تتبعها الأسماء كثيراً ، وأتباع جمع تابع ، فأجابهم نوح بقوله : ﴿ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ كان زائدة ، والمعنى : وما علمي بعملهم أي لم أكلف العلم بأعمالهم .

إنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان والإعتبار به ، لا بالحرف والصنائع والفقر والغنى ، وكأنهم أشاروا بقولهم : ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ إلى أن إيمانهم لم يكن عن نظر صحيح ، فأجابهم بهذا .

وقيل : المعنى : إني لم أعلم أن الله سيهديهم ويضلكم .

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أي ما حسابهم ، والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم إلاّ على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم ، قرأ الجمهور : ﴿ تشعرون ﴾ بالفوقية ، وقرأ ابن أبي عبلة وابن السميفع والأعرج وأبو زرعة بالتحتية ، كأنه ترك الخطاب للكفار ، والتفت إلى الإخبار عنهم .

قال الزجاج : والصناعات لا تضرّ في باب الديانات ، وما أحسن ما قال : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ

المؤمنين ﴾ هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم : ﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما أنا إلا نذير موضح لما أمرني الله سبحانه بإبلاغه إليكم ، وهذه الجملة كالعلة لما قبلها .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا نوح لَتَكُونَنَّ مِنَ المرجومين ﴾ أي إن لم تترك عيب ديننا وسبّ آلهتنا لتكونن من المرجومين بالحجارة .

(101/571)

وقيل : من المشتومين ، وقيل : من المقتولين ، فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح إلى التجبر والتوعد ، فلما سمع نوح قولهم هذا ، قال ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ أي أصرّوا على تكذيبي ، ولم يسمعوا قولي ، ولا أجابوا دعائي ﴿ فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ الفتح : الحكم أي احكم بيني وبينهم حكماً ، وقد تقدّم تحقيق معنى الفتح ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ المؤمنين ﴾ .

فلما دعا ربه بهذا الدعاء استجاب له ، فقال : ﴿ فأنجيناه وَمَن مَّعَهُ فِي الفلك المشحون ﴾ أي السفينة المملوءة ، والشحن ملء السفينة بالناس ، والدوابّ ، والمتاع ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقين ﴾ أي ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ أي :

علامة وعبرة عظيمة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ كان زائدة عند سيبويه ، وغيره على ما تقدّم تحقيقه ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ أي القاهر لأعدائه ، الرحيم بأوليائه .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾ أنث الفعل باعتبار إسناده إلى القبيلة ، لأن عاداً اسم أبيهم الأعلى .

ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكذبوا إلا رسولاً واحداً قد تقدّم وجهه في قصة نوح قريباً ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ الكلام فيه كالكلام في قول نوح المتقدم قريباً ، وكذا قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾ الكلام فيه كالذي قبله سواء ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ الريع : المكان المرتفع من الأرض جمع ريعة ، يقال : كم ريع أرضك ؟ أي كم ارتفاعها .

قال أبو عبيدة : الريع : الارتفاع جمع ريعة .

وقال قتادة ، والضحاك ، والكلبي : الريع الطريق ، وبه قال مقاتل والسديّ .

(102/571)

وإطلاق الريع على ما ارتفع من الأرض معروف عند أهل اللغة ، ومنه قول ذي الرمة :

طراق الخوافِي مشرف فوق ريعة . . . بذي ليله في ريشه يترقرقُ

وقيل : الريع الجبل ، واحده ريعة ، والجمع أرياع .

وقال مجاهد : هو الفجّ بين الجبلين ، وروي عنه أنه الثنية الصغيرة ، وروي عنه : أيضاً أنه المنظرة .

ومعنى الآية : أنكم تبنون بكل مكان مرتفع علماً تعبثون ببنيانه ، وتلعبون بالمارة ، وتسخرون منهم ، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق ، فتؤذون المارة ، وتسخرون منهم .

وقال الكلبي : إنه عبث العشارين بأموال من يمرّ بهم حكاه الماوردي .

قال ابن الأعرابي : الريع الصومعة ، والريع : البرج يكون في الصحراء ، والريع : التلّ العالي ، وفي الريع لغتان كسر الراء وفتحها .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ المصانع : هي الأبنية التي يتخذها الناس منازل .

قال أبو عبيدة : كل بناء مصنعة منه ، وبه قال الكلبي وغيره ، ومنه قول الشاعر :

تركن دارهم منهم قفارا . . . وهدّمنا المصانع والبروجا

وقيل : هي الحصون المشيدة ، قاله مجاهد ، وغيره ، وقال الزجاج : إنها مصانع الماء التي تجعل تحت الأرض واحدتها : مصنعة ومصنع ، ومنه قول لبيد :

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع . . . وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وليس في هذا البيت ما يدلّ صريحاً على ما قاله الزجاج ، ولكنه قال الجوهري : المصنعة بضم النون : الحوض يجمع فيه ماء المطر ، والمصانع : الحصون .

وقال عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية .

ومعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ : راجين أن تخلدوا ، وقيل : إن لعل هنا للاستفهام التوبيخي أي هل تخلدون ، كقولهم : لعلك تشتمني أي هل تشتمني ؟ وقال الفراء : كي تخلدوا ، لا تتفكرون في الموت .

وقيل : المعنى : كأنكم باقون مخلدون .

قرأ الجمهور : ﴿ تخلدون ﴾ مخففاً .

وقرأ قتادة بالتشديد .

(103/571)

وحكى النحاس أن في بعض القراءات : ﴿ كأنكم مخلدون ﴾ ، وقرأ ابن مسعود : "كي تخلدوا " .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ البطش : السطوة والأخذ بالعنف .

قال مجاهد وغيره : البطش العسف قتلاً بالسيف ، وضرباً بالسوط .

والمعنى : فعلتم ذلك ظلماً ، وقيل : هو القتل على الغضب قاله الحسن ، والكلبي .

قيل : والتقدير : وإذا أردتم البطش ، لئلا يتحد الشرط ، والجزاء ، وانتصاب ﴿ جبارين ﴾ على الحال .

قال الزجاج : إنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم ، وأما في الحق ، فالبطش بالسوط والسيف جائز .

ثم لما وصفهم بهذه الأوصاف القبيحة الدالة على الظلم والعتوّ والتمرّد والتجبر أمرهم بالتقوى ، فقال : ﴿ فاتقوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أجمل التقوى ثم فصلها بقوله : ﴿ واتقوا الذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بأنعام وَبَنِينَ ﴾ ، وأعاد الفعل للتقرير والتأكيد ﴿ وجنات وَعُيُونٍ ﴾ أي بساتين ، وأنهار وأبيار .

ثم وعظهم وحذرهم فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن كفرتم ، وأصررتم على ما أنتم فيه ولم تشكروا هذه النعم ، والمراد بالعذاب العظيم : الدنيوي والأخروي .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ أي : أنصدّقك ؟ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ قال : الحوّاكون .

وأخرج أيضاً عن قتادة قال : سفلة الناس ، وأراذلهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ الفلك المشحون ﴾ قال : الممتلىء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ، أنه قال : "أتدرون ما المشحون ؟ قلنا : لا ، قال : هو الموقر" .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : هو المثقل .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ قال : طريق ﴿ ءَايَةً ﴾ قال : علماً ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ قال : تلعبون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ قال : شرف .

(104/571)

وأخرجوا أيضاً عنه : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ قال : كأنكم تخلدون .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ جَبَّارِينَ ﴾ قال : أقوياء .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (136) ﴾

أي وعظك ، وعدمه ﴿ سَوَآء ﴾ عندنا لا نبالي بشيء منه ، ولا نلتفت إلى ما تقوله .

وقد روى العباس عن أبي عمرو ، وروى بشر عن الكسائي ﴿ أَوَعَظْتَ ﴾ بإدغام الظاء في التاء ، وهو بعيد ، لأن حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جدًّا ، وروى

ذلك عن عاصم والأعمش وابن محيصن .

وقرأ الباقون بإظهار الظاء ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ أي : ما هذا الذي جئتنا به ، ودعوتنا إليه من الدين إلاّ خلق الأوّلين أي عادتهم التي كانوا عليها .

وقيل : المعنى : ما هذا الذي نحن عليه إلاّ خلق الأوّلين وعادتهم ، وهذا بناء على ما قاله الفراء ، وغيره : إن معنى : ﴿ خُلُقُ الأولين ﴾ : عادة الأوّلين .

قال النحاس : خلق الأوّلين عند الفراء بمعنى عادة الأوّلين .

وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال ﴿ خُلُقُ الأولين ﴾ : مذهبهم ، وما جرى عليه أمرهم .

والقولان متقاربان .

قال : وحكى لنا محمد بن يزيد أن معنى ﴿ خُلُقُ الأولين ﴾ : تكذيبهم .

قال مقاتل : قالوا : ما هذا الذي تدعونا إليه إلاّ كذب الأوّلين .

قال الواحدي : وهو قول ابن مسعود ومجاهد .

قال : والخلق والاختلاق الكذب ، ومنه قوله : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [العنكبوت : 17] .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب : " خلق الأوّلين " بفتح الخاء ، وسكون اللام .

وقرأ الباقون بضم الخاء ، واللام .

قال الهروي : معناه على القراءة الأولى : اختلاقهم ، وكذبهم .

وعلى القراءة الثانية : عادتهم ، وهذا التفصيل لا بدّ منه .

قال ابن الأعرابي : الخلق : الدين ، والخلق : الطبع ، والخلق : المروءة .

(105/571)

وقرأ أبو قلابة بضم الخاء ، وسكون اللام ، وهي تخفيف لقراءة الضم لهما ، والظاهر : أن المراد بالآية هو قول من قال : ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة الأوّلين وفعلهم ، ويؤيده قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أي على ما نفعل من البطش ، ونحوه مما نحن عليه الآن .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فأهلكناهم ﴾ أي بالريح كما صرح القرآن في غير هذا الموضع بذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ تقدّم تفسير هذا قريباً في هذه السورة .

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه ، ذكر قصة صالح وقومه ، وكانوا يسكنون الحجر ، فقال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾ قد تقدّم تفسيره في قصة هود المذكورة قبل هذه القصة .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءامِنِينَ ﴾ الاستفهام للإنكار .

أي : أتتركون في هذه النعم التي أعطاكم الله آمنين من الموت والعذاب باقين في الدنيا .

ولما أبهم النعم في هذا فسرها بقوله : ﴿ فِي جنات وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ ، والهضيم : النضيح الرخص اللين اللطيف ، والطلع : ما يطلع من الثمر ، وذكر النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار ، وكثيراً ما يذكرون الشيء الواحد بلفظ يعمه وغيره كما يذكرون النعم ولا يقصدون إلاّ الإبل ، وهكذا يذكرون الجنة ، ولا يريدون إلاّ النخل .

قال زهير :

كأن عيني في غربي مقبلة . . . من النواضح تسقي جنة سحقاً

وسحقاً جمع سحوق ، ولا يوصف به إلاّ النخل .

وقيل : المراد بالجنات غير النخل من الشجر ، والأوّل أولى .

وحكى الماوردي في معنى ﴿ هضيم ﴾ اثني عشر قولاً ، أحسنها وأوفقها للغة ما ذكرناه .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فارهين ﴾ النحت : النجر ، والبري ، نحته ينحته بالكسر : براه .

والنحاتة : البراية ، وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدّم بناؤهم من المدر .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن ذكوان : ﴿ فرهين ﴾ بغير ألف .

وقرأ الباقون : ﴿ فارهين ﴾ بالألف .

قال أبو عبيدة وغيره : وهما بمعنى واحد .

والفره : النشاط ، وفرّق بينهما أبو عبيد وغيره فقالوا : ﴿ فارهين ﴾ حاذقين بنحتها ، وقيل : متجبرين ، و " فرهين " بطرين أشرين ، وبه قال مجاهد ، وغيره .

وقيل : شرهين .

وقال الضحاك : كيسين .

وقال قتادة : معجبين ناعمين آمنين ، وبه قال الحسن .

وقيل : فرحين ، قاله الأخفش .

وقال ابن زيد : أقوياء ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المسرفين ﴾ أي المشركين ، وقيل : الذين عقروا الناقة ، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله .

﴿ الذين يُفْسِدُونَ فِى الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ أي ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض ، ولا يصدر منهم الصلاح ألبتة ﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ أي الذين أصيبوا بالسحر

قاله مجاهد ، وقتادة .

وقيل : المسحر هو : المعلل بالطعام والشراب قاله الكلبي ، وغيره ، فيكون المسحر الذي له سحر ، وهو الرئة ، فكأنهم قالوا : إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب .

قال الفراء : أي : إنك تأكل الطعام والشراب ، وتسحر به ، ومنه قول امرىء القيس أو لبيد :

فإن تسألينا : فيم نحن ؟ فإننا . . . عصافير من هذا الأنام المسحر

وقال امرؤ القيس أيضاً :

أرانا موضعين لحتم غيب . . . ونسحر بالطعام وبالشراب

قال المؤرّج : المسحر المخلوق بلغة ربيعة .

﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في قولك ، ودعواك ﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ ﴾ الله ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أي لها نصيب من الماء ، ولكم نصيب منه معلوم ، ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها ، ولا هي تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم .

قال الفراء : الشرب الحظ من الماء .

قال النحاس : فأما المصدر ، فيقال : فيه شرب شِرباً ، وشُرباً ، وأكثرها المضموم ، والشرب بفتح الشين جمع شارب ، والمراد هنا : الشرب بالكسر ، وبه قرأ الجمهور فيهما ، وقرأ ابن أبي عبلة بالضم فيهما ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي لا تمسوها بعقر ، أو ضرب ، أو شيء مما يسوؤها ، وجواب النهي فيأخذكم ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نادمين ﴾ على عقرها ، لما عرفوا أن العذاب نازل بهم ، وذلك أنه أنظرهم ثلاثاً ، فظهرت عليهم العلامة في كلّ يوم ، وندموا حيث لا ينفع الندم ، لأن ذلك لا يجدي عند معاينة العذاب وظهور آثاره .

﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ الذي وعدهم به .

وقد تقدّم تفسير قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ في هذه السورة ، وتقدّم أيضاً تفسير قصة صالح وقومه في غير هذه السورة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : معشب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال : أينع وبلغ .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : أرطب واسترخى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ فَرِهِينَ ﴾ قال :

حاذقين .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه قال ﴿ فَرِهِينَ ﴾ أشرين .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : شرهين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ قال : من المخلوقين ، وأنشد قول لبيد بن ربيعة :

فإن تسألينا فيم نحن . . . . . البيت

وأخرج عبد بن حميد عنه أيضاً في قوله : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ قال : إذا كان يومها أصدر لها لبناً ما شاؤوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(108/571)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) ﴾

إنها ذات الدعوة بألفاظها يدعوها كل رسول . ويوحد القرآن عن قصد حكاية العبارة التي

يلقيها كل رسول على قومه للدلالة على وحدة الرسالة جوهراً ومنهجاً ، في أصلها الواحد الذي تقوم عليه ، وهو الإيمان بالله وتقواه ، وطاعة الرسول الآتي من عند الله .

ثم يزيد ما هو من شأن ثمود خاصة ، وما تقتضيه طبيعة الموقف وطبيعة الظروف . إذ يذكرهم أخوهم صالح بما هم فيه من نعمة (وقد كانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم بدورهم المدمرة مع صحابته في غزوة تبوك) ويخوفهم سلب هذه النعمة ، كما يخوفهم ما بعد المتاع من حساب على ما كان من تصرفهم فيه :

﴿ أتتركون فيما ها هنا آمنين . في جنات وعيون . وزورع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ؟ ﴾ .

وإنهم ليعيشون بين هذا المتاع الذي يصوره لهم أخوهم صالح . ولكنهم يعيشون في غفلة عنه لا يفكرون فيمن وهبهم إياه ؛ ولا يتدبرون منشأه ومأتاه ، ولا يشكرون المنعم الذي أعطاهم هذا النعيم . فيأخذ رسولهم في تصوير هذا المتاع لهم ليتدبروه ويعرفوا قيمته ، ويخافوا زواله .

وفيما قاله لهم لمسات توقظ القلوب الغافية ، وتنبه فيها الحرص والخوف : ﴿ أتتركون فيما ها هنا آمنين ؟ ﴾ أتظنون أنكم متروكون لهذا الذي أنتم فيه من دعة ورخاء ومتعة ونعمة . . وسائر ما يتضمنه هذا الإجمال من تفخيم وتضخيم . . أتتركون في هذا كله آمنين لا يروعكم فوت ، ولا يزعجكم سلب ، ولا يفزعكم تغيير ؟

أتتركون في هذا كله من جنات وعيون ، وزروع متنوعات ، ونخل جيدة الطلع ، سهلة الهضم حتى كأن جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون ! وتتركون في البيوت تنحتونها في الصخور بمهارة وبراعة ، وفي أناقة وفراهة ؟

(109/571)

وبعد أن يلمس قلوبهم هذه اللمسات الموقظة يناديهم إلى التقوى ، وإلى الطاعة ، وإلى مخالفة الملأ الجائرين البعيدين عن الحق والقصد ، الميالين إلى الفساد والشر .

﴿ فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ . .

ولكن هذه اللمسات وهذه النداءات لا تصل إلى تلك القلوب الجاسية الجافية ، فلا تصغي لها ولا تلين :

﴿ قالوا : إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ . .

إنما أنت ممن سحرت عقولهم فهو يهرفون بما لا يعرفون ! كأنما الدعوة إلى الله لا يدعوها إلا مجنون !

﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ . . وتلك هي الشبهة التي ظلت تخايل للبشرية كلما جاءها رسول . فقد كان تصور البشرية القاصر للرسول عجيباً دائماً ؛ وما كانت تدرك حكمة الله في أن يكون الرسول بشراً ، وما كانت تدرك كذلك تكريم هذا الجنس البشري باختيار الرسل منه ليكونوا رواد البشرية المتصلين بمصدر الهدى والنور .

(110/571)

وكانت البشرية تتصور الرسول خلقا آخر غير البشر . أو هكذا ينبغي أن يكون ما دام يأتي إليها بخبر السماء ، وخبر الغيب ، وخبر العالم المحجوب عن البشر . . ذلك أنها ما كانت تدرك سر هذا الإنسان الذي كرمه الله به ، وهو أنه موهوب القدرة على الاتصال بالملأ الأعلى وهو على هذه الأرض مقيم . يأكل وينام ويتزوج ويمشي في الأسواق . ويعالج ما يعالجه سائر البشر من المشاعر والنوازع ، وهو متصل بذلك السر العظيم .

وكانت البشرية جيلا بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول تدل على أنه حقا مرسل من الله : «فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» . . وهكذا طلبت ثمود تلك الخارقة ، فاستجاب الله لعبده صالح ، وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة لا نخوض في وصفها كما خاض المفسرون القدامى ، لأنه ليس لدينا سند صحيح نعتمد عليه في هذا الوصف .

فنكتفي بأنها كانت خارقة كما طلبت ثمود .

«قالَ : هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ» . .

لقد جاءهم بالناقة ، على شرط أن يكون الماء الذي يستقون منه يوما للناقة ويوما لهم ، لا يجورون عليها في يومها ، ولا تجور عليهم في يومهم ، ولا يختلط شرابها بشرابهم ، كما لا يختلط يومها بيومهم . ولقد حذرهم أن ينالوها بسوء على الإطلاق ، وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم .

فماذا فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين ؟ إنها لم تسكب الإيمان في القلوب الجافة ولم تطلع النور في الأرواح المظلمة . على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها . وإنهم لم يحفظوا عهدهم ، ولم يوفوا بشرطهم :

«فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ» .

والعقر : النحر . والذين عقروها منهم هم الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون . ولقد حذرهم منهم صالح وأنذرهم فلم يخشوا النذير . ومن ثم كتبت خطيئتها على الجميع ، وكان الجميع مؤاخذين بهذا الإثم العظيم .

ولقد ندم القوم على الفعلة ، ولكن بعد فوات الأوان وتصديق النذير :

«فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ» . . ولا يفصل نوعه هنا للمسارعة والتعجيل ! ثم يجيء التعقيب :

«إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2610.2612 ﴾

(112/571)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) ﴾

موقع هذه الجملة استئناف تَعداد وتكرير كما تقدم في قوله : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] .

والكلام على هذه الآيات مثل الكلام على نظيرها في قصة قوم نوح ، وثمود قد كذّبوا المرسلين لأنهم كذبوا صالحاً وكذبوا هوداً لأن صالحاً وعظهم بعاد في قوله : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد اد ﴾ في سورة الأعراف (74) وبتكذيبهم كذبوا بنوح أيضاً ، لأن أن هوداً ذَكَّر قومه بمصير قوم نوح في آية ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ [

الأعراف : 69] .

وتقدم ذكر ثمود وصالح عند قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ في سورة الأعراف (73) ، وكان صالح معروفاً بالأمانة لأنه لا يرسل رسول إلا وهو معروف بالفضائل ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] وقد دل على هذا المعنى قولهم ﴿ إنما أنت من المسحَّرين ﴾ [الشعراء : 153] المقتضي تغيير حاله عما كان عليه وهو ما حكاه الله عن قومه ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ في سورة هود (62) .

وحذف ياء المتكلم من أطيعون ﴾ هو مثل نظائره المتقدمة آنفاً .

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146)

كانوا قد أعرضوا عن عبادة الله تعالى ، وأنكروا البعث وغرّهم أئمة كفرهم في ذلك فجاءهم صالح عليه السلام رسولاً يذكّرهم بنعمة الله عليهم بما مكن لهم من خيرات ، وما سخر لهم من أعمال عظيمة ، ونُزل حالهم منزلة من يظن الخلود ودوام النعمة فخاطبهم بالاستفهام الإنكاري التوبيخي وهو في المعنى إنكار على ظنهم ذلك ، وسلط الإنكار على فعل الترك لأن تركهم على تلك النعم لا يكون .

فكان إنكار حصوله مستلزماً إنكار اعتقاده .

وهذا الكلام تعليل للإنكار الذي في قوله : ﴿ ألا تتقون ﴾ [الشعراء : 142] لأن الإنكار عليهم دوامَ حالهم يقتضي أنهم مفارقون هذه الحياة وصائرون إلى الله .

(113/571)

وفيه حثّ على العمل لاستبقاء تلك النعم بأن يشكروا الله عليها كما قال صاحب "الحِكم" "من لم يشكر النعم فقد تعرَّض لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها" .

و﴿ هاهنا ﴾ إشارة إلى بلادهم ، أي في جميع ما تشاهدونه ، وهذا إيجاز بديع .

و﴿ آمنين ﴾ حال مبينة لبعض ما أجملهُ قوله : ﴿ فيما هاهنا ﴾ .

وذلك تنبيه على نعمة عظيمة لا يدل عليها اسم الإشارة لأنها لا يشار إليها وهي نعمة الأمن التي هي من أعظم النعم ولا يُتذوَّق طعمُ النعم الأخرى إلا بها .

وقوله : ﴿ في جنات ﴾ ينبغي أن يعلَّق بـ ﴿ آمنين ﴾ ليكون مجموع ذلك تفصيلاً لإجمال اسم الإشارة ، أي اجتمع لهم الأمن ورَفاهية العيش .

والجنات : الحوائط التي تشجر بالنخيل والأعناب .

والطَّلْع : وعاء يطلع من النخل فيه ثمر النخلة في أول أطواره يخرج كنصل السيف في باطنه شماريخ القِنْو ، ويسمى هذا الطلع الكِمَّ (بكسر الكاف) وبعد خروجه بأيام ينفلق ذلك

الوعاء عن الشماريخ وهي الأغصان التي فيها الثمر كحَب صغير ، ثم يغلظ ويصير بُسراً ثم تَمْراً .

والهضيم : بمعنى المهضوم ، وأصل الهضم شدخ الشيء حتى يلين ، واستعير هنا للدقيق الضامر ، كما يقال : امرأة هضيم الكَشح .

وتلك علامة على أنه يخرج تمراً جيّداً .

والنخل الذي يثمر تمراً جيداً يقال له : النخل الإناث وضده فَحاحِيل ، وهي جمع فُحَّال (بضم الفاء وتشديد الحاء المهملة) أي ذكر ، وطلعه غليظ وتمره كذلك .

وخُصّ النخل بالذكر مع أنه مما تشمله الجنات لقصد بيان جودته بأن طلعه هضيم .

و﴿ تنحتون ﴾ عطف على ﴿ آمنين ﴾ ، أي وناحتين ، عبر عنه بصيغة المضارع لاستحضار الحالة في نحتهم بيوتاً من الجبال .

وتقدم ذلك في سورة الأعراف .

و﴿ فَرِهِين ﴾ صيغة مبالغة في قراءة الجمهور بدون ألف بعد الفاء ، مشتق من الفراهة وهي الحذق والكياسة ، أي عارفين حذقين بنحت البيوت من الجبال بحيث تصير بالنحت كأنها مبنية .

وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿ فارهين ﴾ بصيغة اسم الفاعل .

وقوله : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ مفرع مثل نظيره في قصة عاد .

والمراد بـ ﴿ المسرفين ﴾ أئمة القوم وكبراؤهم الذين يُغْرَونهم بعبادة الأصنام ويبقونهم في الضلالة استغلالاً لجهلهم وليسخروهم لفائدتهم .

والإسراف : الإفراط في شيء ، والمراد به هنا الإسراف المذموم كله في المال وفي الكفر ، ووصفهم بأنهم ﴿ يفسدون في الأرض ﴾ ، فالإسراف منوط بالفساد .

وعطف ﴿ ولا يصلحون ﴾ على جملة : ﴿ يفسدون في الأرض ﴾ تأكيد لوقوع الشيء بنفي ضده مثل قوله تعالى : ﴿ وأضلّ فرعون قومَه وما هدَى ﴾ [طه : 79] وقول عَمرو بن مرة الجُهني :

النسبُ المعروفُ غيرُ المنكَرِ . . .

يفيد أن فسادهم لا يشوبه صلاح ؛ فكأنه قيل : الذين إنما هم مفسدون في الأرض ، فعدل عن صيغة القصر لئلا يحتمل أنه قصر مبالغة لأن نفي الإصلاح عنهم يؤكد إثبات الإفساد لهم ، فيتقرر ذلك في الذهن ، ويتأكد معنى إفسادهم بنفي ضده كقول السموأل أو الحارثي :

تسيل على حدّ الظبات نفوسنا . . .

وليستْ على غير الظبات تسيل

والتعريف في ﴿ الأرض ﴾ تعريف العهد .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154)

أجابوا موعظته بالبهتان فزعموه فقد رُشده وتغير حاله واختلقوا أن ذلك من أثر سِحر شديد .

فالمسحَّر : اسم مفعول سَحَّره إذا سَحَره سحراً متمكناً منه ، و ﴿ من المسحَّرين ﴾ أبلغ في الاتصاف بالتسحير من أن يقال : إنما أنت مسحَّر كما تقدم في قوله : ﴿ لتكونَنَّ من المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] .

ولّما تضمن قولهم : ﴿ إنما أنت من المسحّرين ﴾ تكذيبهم إياه أيدوا تكذيبه بأنه بشر مثلهم .

وذلك في زعمهم ينافي أن يكون رسولاً من الله لأن الرسول في زعمهم لا يكون إلا مخلوقاً خارقاً للعادة كأن يكون ملَكاً أو جِنّياً .

(115/571)

فجملة : ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ في حكم التأكيد بجملة : ﴿ إنما أنت من المسحّرين ﴾ باعتبار مضمون الجملتين .

وفرعوا على تكذيبه المطالبةَ بأن يأتي بآية على صدقه ، أي أن يأتي بخارق عادة يدل على أن الله صدقه في دعوى الرسالة عنه .

وفرضوا صدقه بحرف ﴿ إنْ ﴾ الشرطية الغالب استعمالها في الشّك .

ومعنى ﴿ من الصادقين ﴾ من الفئة المعروفين بالصدق يعنون بذلك الرسل الصادقين لدلالته على تمكن الصدق منه ، كما تقدم في قوله : ﴿ من المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] .

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155)

اسم الإشارة إلى ناقة جعلها لهم آية .

وتقدم خبر هذه الناقة في سورة هود ، وذكر أن صالحاً جعل لها شِرباً ، وهو بكسر الشين وسكون الراء : النوبة في الماء ، للناقة يوماً تشرب فيه لا يزاحمونها فيه بأنعامهم .

والكلام على ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ نظير الكلام على نظيره في قصة عاد ورسولهم .

وأصبحوا نادمين لما رأوا أشراط العذاب الذي توعدهم به صالحٌ ولذلك لم ينفعهم الندم لأن العذاب قد حلّ بهم سريعاً ، فلذلك عطف بفاء التعقيب على ﴿ نادمين فأخذهم العذاب ﴾ .

وتقدم نظير قوله : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(116/571)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) ﴾

بعد أن ذكر طرفاً من قصة إبراهيم وموسى ونوح وهود عليهم السلام ذكر قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ، وقد تكررتْ هذه اللقطات في عدة مواضع من كتاب الله ؛ ذلك لأن القرآن في علاجه لا يعالج أمةً واحدة في بيئة واحدة بخُلق واحد ، إنما يعالج عالماً مختلف البيئات ومختلف الداءات ومختلف المواهب والميول .

فلا بُدَّ أن يجمع الله له الرسل كلهم ، ليأخذ من كل واحد منهم لقطة ؛ لأنه سيكون منهجاً للناس جميعاً في كُلِّ زمان وفي كُلِّ مكان ، أمّا هؤلاء الرسل الذين جمعهم الله في سياق واحد فلم يكونوا للناس كافة ، إنما كل واحد منهم لأمة بعينها ، ولقابل واحد في زمن مخصوص ، ومكان مخصوص .

لقد بُعث محمد صلى الله عليه وسلم ليكون رسولاً يجمع الدنيا كلها على نظام واحد ،

وخَلْق واحد ، ومنهج واحد ، مع تباين بيئاتهم ، وتباين داءاتهم ومواهبهم . إذن : لابُدَّ أن يذكر الحق تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم طرفاً من سيرة كل نبي سبقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكُنْ في حاجة لأن يُثبِّت الله فؤاده مرة واحدة ، إنما كلّما تعرّض لمواقف احتاج إلى تثبيت ، فيُثّبته الله ، يقول له : تذكّر ما كان من أمر إبراهيم ، وما كان من أمر نوح وهود . . . إلخ فكان تكرار القصص لتكرار التثبيت ، فالقصة في القرآن وإنْ كانت في مجموعها مكررة ، إنما لقطاتها مختلفة تؤدي كُلٌّ منها معنى لا تؤديه الأخرى .

(117/571)

وهنا يقول سبحانه كما قال عن الأمم السابقة : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾ [الشعراء : 141] لأن الرسل جميعاً إنما جاءوا بعقيدة واحدة ، لا يختلف فيها رسول عن الآخر ، وصدروا من مصدر واحد ، هو الحق تبارك وتعالى ، ولا يختلف الرسل إلا في المسائل الاجتماعية والبيئية التي تناسب كلاً منهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وعيسى ﴾ [النساء : 163] .

وقال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى : 13] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾

قال هنا أيضاً : ﴿ أَخُوهُمْ ﴾ [الشعراء : 142] ليرقّق قلوبهم ويُحنّنها على نبيهم ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 142] قلنا : إنها استفهام إنكاري . تعني : اتقوا الله ، ففيها حَثٌّ وحَضّ على التقوى ، فحين تُنكر النفي ، فإنك تريد الإثبات .

ولما كانت التقوى تقتضي وجود منهج تتقي الله به ، قال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء : 143] وما دُمْتُ أنا رسول أمين لن أغشّكم ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : 144] وكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى ، وقرنها بالطاعة .

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145)

فكأن العمل الذي أقدمه من أجلكم في عُرْف العقلاء يستحق أجراً ، فالعامل الذي يعمل لكم شيئاً جزئياً من مسائل الدنيا يزول وينتهي يأخذ أجراً عليه ، أما أنا فأقدّم لكم عملاً يتعدَّى الدنيا إلى الآخرة ، ويمدّ حياتك بالسعادة في الدنيا والآخرة ، فأجْري إذن كبير ؛ لذلك لا أطلبه منكم إنما من الله .

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146)

يريد أن يُوبِّخهم : أتظنون أنكم ستخلّدون في هذا النعيم ، وأنتم آمنون ، أو أنكم تأخذون نِعَم الله ، ثم تفرُّون من حسابه ، كما قال سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : 115] .

فمَنْ ظن ذلك فهو مخطيء قاصر الفهم ؛ لأن الأشياء التي تخدمك في الحياة لا تخدمك بقدرة منك عليها ، فأنت لا تقدر على الشمس فتأمرها أنْ تشرق كل يوم ، ولا تقدر على السحاب أن ينزل المطر ، ولا تقدر على الأرض أن تعطيها الخصوبة لتنبت ، ولا تقدر على الهواء الذي تتنفسه . . إلخ وهذه من مُقوِّمات حياتك التي لا تستطيع البقاء بدونها .

وكان من الواجب عليك أن تتأمل وتفكر : مَن الذي سخرَّها لك ، وأقدرك عليها ؟

كالرجل الذي انقطع في الصحراء وفقد دابته وعليها طعامه وشرابه حتى أشرف على الهلاك ، ثم أخذته سِنَة أفاق منها على مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ، أليس عليه قبل أنْ تمتد يده إليها إنْ يسأل نفسه : مَنْ أعدّ لي هذه المائدة في هذا المكان .

كذلك أنت طرأتَ على هذا الكون وقد أُعِدَّ لك فيه كل هذا الخير ، فكان عليك أن تنظر فيه ، وفيمَنْ أعدّه لك . فإذا جاءك رسول من عند الله ليحلَّ لك هذا اللغز ، ويخبرك بأن الذي فعل كل هذا هو الله ، وأن من صفات كماله كذا وكذا ، فعليك أن تُصدِّقه .

(119/571)

لأنه إما أن يكون صادقاً يهديك إلى حَلِّ لغز حار فيه عقلك ، وإما هو كاذب والعياذ بالله وحاشا لله أن يكذب رسول الله على الله فإن صاحب هذا الخلق عليه أن يقوم ويدافع عن خَلْقه .

ويقول : هذا الرسول مُدَّعٍ وكاذب ، وهذا الخَلْق لي : فإذا لم يقُمْ للخَلْق مُدَّعٍ فقد ثبتتْ القضية لله تعالى إلى أنْ يظهر مَنْ يدَّعيها لنفسه .

فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147)

وقوله تعالى : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء : 147] امتداد للآية السابقة ، يعني : لا تظنوا أن هذا يدوم لكم . و (جنات) : جمع جنة ، وهي المكان المليء بالخيرات ، وكل ما يحتاجه الإنسان ، أو هي المكان الذي إنْ سار فيه الإنسان سترتْه الأشجار ؛ لأن جنَّ يعني ستر . كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ [الأنعام : 76] أي : ستره .

ومنه الجنون . ويعني : سَتْر العقل . وكذلك الجنة ، فهي تستر عن الوجود كله ، وتُغنيك عن الخروج منها إلى غيرها ، ففيها كل ما تتطلبه نفسك ، وكل ما تحتاجه في حياتك .

ومن ذلك ما نسميه الآن (قصراً) لأن فيه كل ما تحتاجه بحيث يقصرك عن المجتمع البعيد .

وقال بعدها : ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء : 147] لأن الجنة تحتاج دائماً إلى الماء ، فقال ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ [الشعراء : 147] ليضمن بقاءها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا ﴾

النخل من الزروع ، لكن خصَّ النخل بالذِّكْر ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتم به ، وشبَّهه بالمؤمن في الحديث : " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها " قال الراوي : فوقع الناس في شجر البوادي ، ولم يهتدوا إليها ، فلما خرج عمر وابنه عبد الله قال : يا أبي ، لقد وقع في ظني أنها النخلة ؛ لأنها مثل المؤمن كل ما فيه خير .

(120/571)

نعم لو تأملتَ النخلة لوجدتَ أن كل شيء فيها نافع ، وله مهمة ، وينتفع الزارع به ، ولا يُلْقَى منها شيء منهما كان بسيطاً . فالجذوع تُصنع منها السواري والأعمدة ، وتُسقف بها

البيوت قبل ظهور الخرسانة ، ومن الجريد يصنعون الأقفاص ، والجزء المفلطح من الجريدة ويسمى (القحف) والذي لا يصلح للأقفاص كانوا يجعلونه على شكل معين ، فيصير (مقشّة) يكنسون بها المنازل .

ومن الليف يصنعون الحبال ، ويجعلونه في تنجيد الكراسي وغيرها ، حتى الأشواك التي تراها في جريد النخل خلقه الله لحكمة وبقدَرٍ ؛ لأنها تحمي النخلة من الفئران أثناء إثمارها ، والليف الذي يمنو بين أصول الجريد جعله الله حماية للنخلة ، وهي في طور النمو ، وما تزال غَضَّة طرية ، فلا يحمي بعضها على بعض .

إذن : هي شجرة خيِّرة كالمؤمن ، وقد تم أخيراً في أحد البحوث أن أخذوا الجزء الذي يسمى بالقحف ، وجعلوه في تربة مناسبة ، فأنبتوا منه نخلة جديدة .

لذلك " لما قال ابن عمر : إنها النخلة . ذهب عمر إلى رسول الله ، وحكى له مقالة ولده ، فقال صلى الله عليه وسلم : " صدق ولدك " فقال عمر : (فوالله ما يسرني أن فَطِن ولدي إليها أن لي حمر النعم) " .

والذين يزرعون النخيل يروْنَ فيه آيات وعجائب دالّة على قدرة الله تعالى .

ومعنى ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء : 148] الطَّلْع : هو الكوز الذي تخرج منه الشماريخ في الأُنْثى ويخرج منه المادة المخصبة في الذكر ، والتي قال الله عنها : ﴿ قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ [الأنعام : 99] .

وفي الذَّكر يخرج من الكوز المادة المخصّبة للنخلة ، وللقِنْوان أو الشماريخ أطوار في النمو يُسمُّونه (الخلا) ، فيظل ينمو ويكبر إلى أنْ يصل إلى نهايته حَدّاً حيث يجمد على هذه الحالة ، ويكتمل نموه الحجمي ، ثم تبدأ مرحلة اللون .

(121/571)

يقولون (عفَّر) النخل : يعني شاب خضرته حمرة أو صفرة . فإذا اكتمل احمرار الأحمر واصفرار الأصفر ، يسمى (بُسْر) ثم يتحول البُسْر إلى (الرطب) حيث تلين ثمرته وتنفصل قِشْرته ، فإنْ كان الجو جافاً فإنَّ الرُّطَب يَيْبس ، ويتحول إلى (التمر) حيث تتبخَّر مائيته ، وتتماسك قِشْرته ، وتلتصق به .

ومعنى ﴿ هَضِيمٌ ﴾ [الشعراء : 148] يعني : غَضٌّ ورَطْب طريٌّ ، وهذا يدل على خصوبة الأرض ، ومنه هضم الطعام حتى يصبر ليّناً مُسْتساغاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال ﴾

وحين تذهب إلى مدائن صالح تجد البيوت منحوتة في الجبال كما ينحتون الآن الأنفاق مثلاً ، لا يبنونها كما نبني بيوتنا ، ومعنى ﴿ فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء : 149] الفاره : النشط القوي ظاهر الموهبة ، يقولون : فلان فاره في كذا يعني ؛ ماهر فيه ، نشط في ممارسته .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151)

المسرف : هو الذي يتجاوز الحدّ ؛ وتجاوز الحدّ له مراحل ؛ لأن الله تعالى أحلَّ أشياء ، وحرّم أشياء ، وجعل لكل منهما حدوداً مرسومة ، فالسَّرَف فيما شرع الله أن تتجاوز الحلال ، فتُدخل فيه الحرام .

أو : يأتي الإسراف في الكَسْب فيدخل في كَسْبه الحرام . وقد يُلزم الإنسان نفسه بالحلال في الكسب ، لكن يأتي الإسراف في الإنفاق فينفق فيما حرَّمه الله . إذن : يأتي الإسراف في صور ثلاثة : إما في الأصل ، وإما في الكسب ، وإما في الإنفاق .

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى حينما يكلمنا عن الحلال ، يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة : 229] .

(122/571)

أما في المحرمات فيقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة : 187] أي : ابتعد عنها ؛ لأنك لا تأمن الوقوع فيها ، ومَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فلم يقل الحق سبحانه مثلاً : لا تُصَلُّوا وأنتم سكارى . إنما قال : ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ [النساء : 43] .

والمعنى : خُذِ الحلال كله ، لكن لا تتعداه إلى المحرَّم ، أما المحرَّم فاحذر مجرد الاقتراب منه ؛ لأن له دواعي ستجذبك إليه .

ونقف عند قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تطيعوا أَمْرَ المسرفين ﴾ [الشعراء : 151] حيث لم يقل : ولا تسرفوا ، وكأن ربنا عزّ وجلّ يريد أن يُوقِظ غفلتنا ويُنبِّهنا ويُحذِّرنا من دعاة الباطل الذين يُزيِّنون لنا الإسراف في أمور حياتنا ، ويُهوِّنون علينا الحرام يقولون : لا بأس في هذا ، ولا مانع من هذا ، وهذا ليس حرام . ربنا يعطينا المناعة اللازمة ضد هؤلاء حتى لا ننساق لضلالاتهم .

لذلك جاء في الحديث الشريف : " استفت قلبك ، واستفتِ نفسك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك " .

وفي هذا دليل على أنه سيأتي أناس يُفتون بغير علم ، ويُزيِّنون للناس الباطل ، ويُقنعونهم به .

والفتوى من الفُتوة القوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء : 60] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : 13] .

كذلك الفتوى تعني : القوة في أمر الدين والتمكُّن من مسائله وقضاياه ، وإنْ كانت القوة المادية في أمر الدنيا لها حَدٌّ تنتهي عنده فإنْ القوة في أمر الدين لا تنتهي إلى حَدٍّ ، لأن الدين أمدُه

واسع ، وبحره لا ساحلَ له . والقوة نعرفها في أي ناحية من النواحي ، لكن قوة القوى هي القوة في أمر الدين .

(123/571)

نقول : فلان فتيٌّ يعني : قويٌّ بذاته ، وأفتاه فلان أي : أعطاه القوة ، كأنه كان ضعيفاً في حُكم من أحكام الشرع ، فذهب إلى المفتي فأفتاه يعني : أعطاه فتوة في أمر الدين . مثل قولنا : غَنيَ فلان أي : بذاته ، وأغناه أي : غيره ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : 74] .

إذن : فمهمة المفتي أن يُقوّي عقيدتي ، لا أن يسرف لي في أمر من أمور الدين ، أو يُهوّن عليَّ ما حرّم الله فيُجرِّئني عليه ، وعلى المفتي أن يتحرَّى الدقة في فتواه خاصة في المسائل الخلافية التي يقول البعض بحلِّها ، والبعض بحرمتها ، يقف عند هذه المسائل وينظر فيها رأي الإسلام المتمثل في الحديث الشريف :

" الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مُشْتبهات ، فمن ترك ما شُبِّه له لا من فعل ما شُبِّه له يعني على الأقل نترك ما فيه شبهة فقد استبرأ لدينه إن كان متديناً وعِرْضه إن لم يكُنْ متديناً " .

إذن : مَنْ لم يقف هذا الموقف ويترك ما فيه شبهة لم يستبرىء لدينه ولا لعِرْضه . ومَنْ لم يُفْتِ على هذا الأساس من العلماء فإنما يُضعِف أمر الدين لا يُقوِّيه ، وبدل أن نقول : أفتاه . نقول : أضعفه .

الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152)

فوصف المسرفين بأنهم مفسدون في الأرض غير مصلحين ، كأن الأرض خلقها الخالق عز وجل على هيئة الصلاح في كل شيء ، لكن يفسدها الإنسان بتدخلّه في أمورها ؛ لذلك سبق أن قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الكون من حولك لوجدته على أحسن حال ، وفي منتهى الاستقامة ، طالما لا تتناوله يد الإنسان ، فإنْ تدخّل الإنسان في شيء ظهرتْ فيه علامات الفساد .

ولا يعني هذا ألاَّ يتدخل الإنسان في الكون ، لا إنما يتدخل على منهج مَنْ خَلقَ فيزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل يتركه على صلاحه لا يفسده ، فإن تدخَّل على غير هذا المنهج فلا بُدَّ له أن يفسد .

(124/571)

فحين تمر مثلاً ببئر ماء يشرب منه الناس ، فإما أنْ تُصلح من حاله وتزيده ميزة وتُيسّر استخدامه على الناس ، كأن تبني له حافّة ، أو تجعل عليه آلة رَفْع تساعد الناس ، أو على الأقل تتركه على حاله لا تفسده ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحرث والنسل والله لاَ يُحِبُّ الفساد ﴾ [البقرة : 205] .

أما هؤلاء القوم فلم يكتَفِ القرآن بوصفهم بالفساد وحسب ، إنما أيضاً هم ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : 152] ذلك لأن الإنسان قد يُفسِد في شيء ، ويُصلح في شيء ، إنما هؤلاء دأبهم الفساد ، ولا يأتي منهم الصلاح أبداً .

ونكبة الوجود من الذين يصنعون أشياء يروْنها في ظاهرها صلاحاً ، وهي عَيْن الفساد ؛ لأنهم لم يأخذوها بكل تقنيناتها القيمية ، وانظر مثلاً إلى المبيدات الحشرية التي ابتكروها وقالوا : إنها فتح علمي ، وسيكون لها دور كبير في القضاء على دودة القطن وآفات الزرع ، وبمرور الزمن أصبحت هذه المبيدات وبالاً على البشرية كلها ، كيث تسمِّم الزرع وتسمِّم الحيوان ، وبالتالي الإنسان ، حتى الماء والتُّرْبة والطيور ، لدرجة أنك تستطيع القول أنها أفسدت الطبيعة التي خلقها الله .

وفي هؤلاء قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103104] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قالوا إِنَّمَآ أَنتَ ﴾

﴿ المسحرين ﴾ [الشعراء : 153] جمع مُسحَّر ، وهي صيغة مبالغة تدلُّ على وقوع السحر عليه أكثر من مرة ، نقول : مسحور يعني : مرة واحدة ومُسَحَّر يعني عدة مرات ، ومن ذلك قوله تعالى عن ملأ فرعون أنهم قالوا له : ﴿ وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : 3637] .

(125/571)

ولم يقل : بكل ساحر ، إنما سحَّار يعني : هذه مهنته ، وكما تقول : ناجر ونجار ، وخائط وخياط .

وإنْ كان بعضهم قال عن نبيهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء : 47] فهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ [الشعراء : 153] وعجيب أمر أهل الباطل ؛ لأنهم يتخبطون في هجومهم على الأنبياء ، فمرَّة يقولون : ساحر . ومرة يقولون : مسحور ، كيف والساحر لا يكون مسحوراً ؛ لأنه على الأقل يستطيع أن يحمي نفسه من السحر . قالوا : بل المراد بالمسحور اختلاط عقله ، حتى إنه لا يدري ما يقول . ثم إن نبيكم صالحاً عليه السلام إنْ كان مسحوراً فمَنْ سحره ؟ أنتم أم أتباعه ؟ إنْ كان

سحره منكم فأنتم تقدرون على كَفِّ سحركم عنه ، حتى يعود إلى طبيعته ، وترونه على حقيقته ، وإنْ كان من أتباعه ، لا بُدَّ أنهم سيحاولون أنْ يعينوه على مهمته ، لا أن يُقعدوه عنها .

إذن : فقولهم لنبيهم : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ [الشعراء : 153] يريدون أن يخلُصُوا إلى عدم اتباعه هو بالذات ، فهم يريدون تديُّناً على حسب أهوائهم ، يريدون عبادة إله لا تكليفَ له ولا منهج . كالذين يعبدون الأصنام وهم سعداء بهذه العبادة ، لماذا ؟

لأن آلهتهم لا تأمرهم بشيء ولا تنهاهم عن شيء . لذلك ، فكل الدجالين ومُدَّعُو النبوة رأيناهم يُخفِّفون التكاليف عن أتباعهم ، فقديماً أسقطوا عن الناس الزكاة ، وحديثاً أباحوا لهم الاختلاط ، فلا مانع لديهم من الالتقاء بالمرأة والجلوس معها ومخاطبتها والخُلْوة بها والرقص معها ، وماذا في ذلك ونحن في القرن الحادي والعشرين ؟

فإنْ قالوا : ساحر ، نردُّ عليهم نعم هو ساحر ، قد سحر مَنْ آمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهي هذه المسألة ؟ إذن : هذه تُهَم لا تستقيم ، لا هو ساحر ، ولا هو مسحور ، إنه مجرد كذب وافتراء على أنبياء الله ، وعلى دعاة الخير في كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾

وقولهم : ﴿ مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الشعراء : 154]

إذن : فوجه اعتراضهم أن يكون النبي بَشَراً ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94]

.

ولو بعث الله لهم مَلَكاً لجاءهم على صورة بشر ، وستظل الشُّبْهة قائمة ، فمن يدريكم أن هذا البشر أصله مَلَك ؟ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9] .

فالمعنى : ما دام أن الرسول بشر ، لا يمتاز علينا في شيء فنريد منه أنْ يأتينا بآية يعني : معجزة تُثبِت لنا صِدْقه في البلاغ عن ربه ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الشعراء : 154] .

ونلحظ أن الحق تبارك وتعالى ينتهز فرصة طلَبهم لآية ومعجزة ، فأسرع إليهم بما طلبوا ، ليقيم عليهم الحُجة ، فقال بعدها : ﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ ﴾

هذا إجابة لهم ؛ لأنهم طلبوا من نبيهم أنْ يُخرِج لهم من الصخرة ناقة تلد سَقْباً لا يكون صغيراً كولد الناقة ، إنما تلد سَقْباً في نفس حجمها ، فأجابهم ﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ

﴿ [الشعراء : 155] يعني : يوم تشرب فيه ، لا يشاركها في شُرْبها شيء من مواشيكم

.

﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : 155] أي : تشربون فيه أنتم ، وكانت الناقة تشرب من الماء في يومها ما تشربه كلّ مواشيهم في يومهم ، وهذه معجزة في حَدِّ ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ ﴾

(127/571)

يخبر الحق سبحانه رسوله بما سيكون ، وأن القوم لن يتركوا هذه الآية ، إنما سيتعرضون لها بالإيذاء ، فقال : ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء ﴾ [الشعراء : 156] لكنهم تعدَّوْا مجرد الإيذاء والإساءة فعقروها .

ثم يتوعدهم : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 156] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ ﴾

قال (عقروها) بصيغة الجمع ، فهل اشتركتْ كل القبيلة في عَقْرها ؟ لا بل عقرها واحد منهم ، هو قدار بن سالف ، لكن وافقه الجميع على ذلك ، وساعدوه ، وارتضوا هذا الفعل ، فكأنهم فعلوا جميعاً ؛ لأنه استشارهم فوافقوا .

﴿ فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ ﴾ [الشعراء : 157] وقال العلماء : الندم مقدمة التوبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾

فإنْ قُلْتَ : كيف يأخذهم العذاب وقد ندموا ، والندم من مقدمات التوبة ؟

نعم ، الندم من مقدمات التوبة ، لكن توبة هؤلاء من التوبة التي قال الله عنها : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن ﴾ [النساء : 18] .

إذن : ندموا وتابوا في غير أوان التوبة ، أو : أنهم أصبحوا نادمين لا ندمَ توبة من الذنب ، إنما نادمون ؛ لأنهم يخافون العذاب الذي هددهم الله به إنْ فعلوا .

ثم تُختم هذه القصة بهذا التذييل الذي عرفناه من قبل مع أمم أخرى مُكذِّبة : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾

عزيز : يَغلِب ولا يُغْلَب ، ومع ذلك هو رحيم في غَلَبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(128/571)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى في قصة صالح ، عليه السلام : (مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (الشعراء : 154) ، وفي قصة شعيب ، عليه السلام : (وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) (الشعراء : 186) ، يسأل عن زيادة الواو العاطفة هنا ولم تثبت في قصة صالح ؟

والجواب عنه - والله أعلم - أن ذلك لرعي المناسبة ، بيان ذلك ما ثبت قبل الآية الثانية من قوله تعالى حكاية لما عد شعيب في أمره قومه وذكر من مرتكباتهم في قوله : (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) (الشعراء : 181 - 184) ، فهذه خمس معطوفات من مأمور به ومنهي عنه ، طابقها العطف في حوابهم من

قوله تعالى : حكاية عنهم : (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) (الشعراء : 185 - 186) ، فهذه مناسبة واضحة ، ولما تقدم في قصة صالح ، عليه السلام ، قوله : (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) (الشعراء : 146 - 152) ، فلم يقع في هذه القصة من المعطوفات أمراً أو نهياً سوى قوله : (وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) (الشعراء : 150 - 151) ، فناسب ذلك ورود جوابهم في دعوى المماثلة في الشرية بغير حرف النسق فقالوا : (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) بخلاف الآية الثانية ، وجاء كل على ما يجب ويناسب ، ولا يناسب عكس الوارد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 377.378 ﴾

(130/571)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ قال : معشب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ طلعها هضيم ﴾ قال : منضم بعضه إلى بعض قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول امرئ القيس :

دار لبيضاء العوارض طفلة . . . مهضومة الكشحين ريا المعصم

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن يزيد بن أبي زياد ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ قال : هو الرطب وفي لفظ قال : المذنب الذي قد رطب بعضه .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ طلعها هضيم ﴾ قال : لين .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ طلعها هضيم ﴾ قال : الرخو .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الضحاك قال ال ﴿ هضيم ﴾ إذا بلغ البسر في عذوقه فعظم . فذلك الهضم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ طلعها هضيم ﴾ قال : يتهشم تهشماً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ طلعها هضيم ﴾ قال : الطلعة إذا مسستها تناثرت .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ طلعها هضيم ﴾ قال : ليس فيه نوى .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة قال ال ﴿ هضيم ﴾ الرطب اللين .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وتنحتون ﴾ بكسر الحاء ﴿ الجبال بيوتاً فارهين ﴾ بالألف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فرهين ﴾ قال : حاذقين .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله ﴿ فرهين ﴾ قال : حاذقين بنحتها .

وأخرج عبد بن حميد عن معاوية بن قرة ﴿ فرهين ﴾ قال : حاذقين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فرهين ﴾ قال : أشرين .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فرهين ﴾ قال : شرهين .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية في قوله ﴿ فارهين ﴾ قال : متجبرين .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن عبد الله بن شداد في قوله ﴿ فارهين ﴾ قال : يتجبرون .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فرهين ﴾ قال : معجبين بصنعكم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ قال : هم المشركون وفي قوله ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ قال : هم الساحرون .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ قال : المسحورين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والخطيب وابن عساكر من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ قال : من المخلوقين ثم أنشد قول لبيد بن ربيعة :

إن تسألينا فيم نحن فإننا . . . عصافير من هذا الأنام المسحر

وأخرج ابن الأنباري في الوقف والابتداء عن أبي صالح ومجاهد في قوله ﴿ من المسحرين ﴾ قالا : من المخدوعين .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ مثقلة وقال : المسحر : السوقة الذي ليس بملك .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ؛ أن صالحاً بعثه الله إلى قومه فآمنوا به ، ثم إنه لما مات كفر قومه ورجعوا عن الإِسلام ، فاحيا الله لهم صالحاً وبعثه إليهم فقال : أنا صالح فقالوا : قد مات صالح ، إن كنت صالحاً ﴿ فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ فبعث الله الناقة فعقروها وكفروا فاهلكوا ، وعاقرها رجل نساج يقال له قدار بن سالف .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قال ﴿ هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ قال : كانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، فإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إذا كان يومها أصدرتهم لبناً ما شاؤوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(132/571)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) ﴾

قوله : ﴿ فِي جَنَّاتٍ ﴾ : بدلٌ مِنْ " فيما ههنا " بإعادةِ العاملِ ؛ فَصَّل بعدما أَجْمَلَ كما في الآيةِ قبلَها . و " ما " موصولةٌ ، وظرفُ المكان صلتُها .

وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148)

قوله : ﴿ وَنَخْلٍ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ من بابِ ذِكْرِ الخاص بعد العامّ ؛ لأنَّ الجناتِ تشمَل النخلَ ، ويجوزُ أَنْ يكونَ تكريراً للشيءِ الواحدِ بلفظٍ آخَرَ ، فإنَّهم يُطْلِقُوْن الجنةَ ولا يريدونَ إلاَّ النخلَ . قال زهير :

3527 كأنَّ عَيْنَيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلةٍ . . . من النَّواضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقا

/ وسُحُقاً : جمعُ " سَحُوْق " ولا يُوْصَفُ به إلاَّ النخلُ والطَّلْعُ الكفرى ، وهو عُنقودُ التَّمْرِ قبل خروجِهِ من الكُمِّ . قال الزمخشري : " الطَّلْعَةُ : هي التي تَطْلُع من النخلةِ كنَصْلِ السيفِ ، في جَوْفه شماريخُ القِنْو . والقِنْو هو اسمٌ للخارج من الجِذْعِ كما هو بعُرْجُوْنه " . والهَضِيْمُ : اللطيفُ ، مِنْ قولهم : "كَشْحٌ هضيمٌ " . وقيل المتراكِبُ .

وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149)

قوله : ﴿ وَتَنْحِتُونَ ﴾ العامَّةُ على الخطابِ وكسرِ الحاءِ . والحسنُ وعيسى وأبو حيوة

بفتحها ، وعن الحسن أيضاً " تَنْحاتون " بألفٍ للإشباعِ ، وعنه وعن أبي حيوة "يَنْحِتُون" بالياء مِنْ تحتُ . وقد تَقَدَّم ذلك كلُّه في الأعراف .

قوله : ﴿ فَارِهِينَ ﴾ قرأ الكوفيون وابنُ عامر " فارِهِيْنَ " بالألف كما قرؤوا " حاذِرون " بها والباقونَ " فَرِهين " بدون ألف ، كما قرؤوا " حَذِرُون " بدونِها . والفَراهَةُ : النشاطُ والقوةُ . وقيل : الحِذْقُ . يقال : دابَّة فارِهٌ ، ولا يقال : فارِهَة ، وقد فَرُهَ يَفْرُهُ فَراهة .

قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155)

(133/571)

قوله : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ : صفةٌ لـ " ناقَةٌ " . ويجوز أَنْ يكونَ الوصفُ وحدَه الجارَّ والمجرورَ و " شِرْبٌ " فاعلٌ به لاعتمادِه . وقرأ ابن أبي عبلة " شُرْبٌ " بالضمِّ فيهما . والشِّرْبُ : بالكسرِ النصيبُ كالسِّقْيِ ، وبالضمِّ المصدرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 541.542 ﴾

(134/571)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ كَذَّبَتْ ﴾ أي دأب من تقدم كأنهم تواصوا به ﴿ قوم لوط المرسلين ﴾ لأن من كذب رسولاً - كما مضى - فقد كذب الكل ، لتساوي المعجزات في الدلالة على الصدق .

وقد صرحت هذه الآية بكفرهم بالتكذيب .

وبين إسراعهم في الضلال بقوله : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قال لهم أخوهم ﴾ أي في السكنى في البلد لا في النسب لأنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام ، وهما من بلاد الشرق من بلاد بابل - وكأنه عبر بالأخوة لاختياره لمجاورتهم ، ومناسبتهم بمصاهرتهم ، وإقامته بينهم في مدينتهم

مدة مديدة ، وسنين عديدة ، وإتيانه بالأولاد من نسائهم ، مع موافقته لهم في أنه قروي ، ثم بينه بقوله : ﴿ لوط ألا تتقون ﴾ أي تخافون الله فتجعلوا بينكم وبين سخطه وقاية .

(135/571)

ولما كان مضمون هذا الدعاء لهم والإنكار عليهم في عدم التقوى علل ذلك بقوله : ﴿ إني لكم ﴾ أي خاصة ﴿ رسول أمين ﴾ أي لا شيء من غش ولا خيانة عندي ، ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي لقدرته على إهلاك من يريد وتعاليه في عظمته ﴿ وأطيعون ﴾ أي لأن طاعتي سبب نجاتكم ، لأني لا آمركم إلا بما يرتضيه .

ولا أنهاكم إلا عما يغضبه .

ولما أثبت الداعي إلى طاعته ، نفى الناهي عنها فقال : ﴿ وما أسئلكم عليه ﴾ أي الدعاء إلى الله ﴿ من أجر ﴾ أي فتتهموني بسببه ؛ ونفى سؤاله لغيرهم من الخلائق بتخصيصه بالخالق فقال : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أجري إلا على رب العالمين ﴾ أي المحسن إليهم بإيجادهم ثم تربيتهم .

فلما وجدوا المقتضى لاتباعه وانتفى المانع ، أنكر عليهم ما يوجب عذابهم من إيثارهم شهوة الفرج المخرج لهم إلى ما صاروا به سبة في الخلق فقال موبخاً مقرعاً بياناً لتفاحش

فعلهم وعظمه : ﴿ أتأتون ﴾ أي إتيان المعصية ﴿ الذكران ﴾ ولعلهم كانوا يفعلون بالذكور من غير الآدميين توغلاً في الشر وتجاهراً بالتهتك لقوله : ﴿ من العالمين ﴾ أي كلهم ، أو يكون المعنى : من بين الخلائق ، أي أنكم اختصصتم بإتيان الذكران ، لم يفعل هذا الفعل غيركم من الناكحين من الخلق ﴿ وتذرون ﴾ أي تتركون لهذا الغرض ﴿ ما خلق لكم ﴾ أي النكاح ﴿ ربكم ﴾ المحسن إليكم ﴿ من أزواجكم ﴾ أي وهن الإناث ، على أن " من " للبيان ، ويجوز أن تكون مبعضة ، ويكون المخلوق كذلك هو القبل .

(136/571)

ولما كانوا كأنهم قالوا : نحن لم نترك أزواجنا ، حملاً لقوله على الترك أصلاً ورأساً وإن كانوا قد فهموا أن مراده تركهن حال الفعل في الذكور ، قال مضرباً عن مقالهم هذا المعلوم تقديره لما أرادوه به ، حيدة عن الحق ، وتمادياً في الفجور : ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ أي تركتم الأزواج بتعدي الفعل بهن وتجاوزه إلى الفعل بالذكران ، وليس ذلك ببدع من أمركم ، فإن العدوان – الذي هو مجاوزة الحد في الشر – وصف لكم أنتم عريقون فيه ، فلذلك لا تقفون عند حد حده الله تعالى .

فلما اتضح الحق ، وعرف المراد ، وكان غريباً عندهم ، وتشوف السامع إلى جوابهم ،

استؤنف الإخبار عنه ، فقيل إعلاماً بانقطاعهم وأنهم عارفون أنه لا وجه لهم في ذلك أصلاً لعدولهم إلى الفحش : ﴿ قالوا ﴾ مقسمين : ﴿ لئن لم تنته ﴾ وسموه باسمه جفاء وغلظة فقالوا : ﴿ يا لوط ﴾ عن مثل إنكارك هذا علينا .

ولما كان لما له من العظمة بالنبوة والأفعال الشريفة التي توجب إجلاله وإنكار كل من يسمعهم أن يخرج مثله ، زادوا في التأكيد فقالوا : ﴿ لتكونن من المخرجين ﴾ أي ممن أخرجناه من بلدنا على وجه فظيع تصير مشهوراً به بينهم .

إشارة إلى أنه غريب عندهم ، وأن عادتهم المستمرة نفي من اعترض عليهم ، وكان قصدهم بذلك أن يكونوا هم المتولين لإخراجه إهانة له للاستراحة منه ، فكان إخراجه ، لكن إخراج إكرام للاستراحة منهم والنجاة من عذابهم بتولي الملائكة الكرام ﴿ قال ﴾ أي جواباً لهم : ﴿ إني ﴾ مؤكداً لمضمون ما يأتي به ﴿ لعملكم ﴾ ولم يقل : قال بل زاد في التأكيد بقوله : ﴿ من القالين ﴾ أي المشهورين ببغض هذا العمل الفاحش ، العريقين في هذا الوصف ، المذكورين بين الناس بمنابذة من يفعله ، لا يردني عن إنكاره تهديدكم لي بإخراج ولا غيره ، والقلاء : بغض شديد كأنه يقلي الفؤاد .

(137/571)

ولما بادأهم بمثل هذا الذي من شأنه الإفضاء إلى الشر ، أقبل على من يفعل ذلك لأجله ، وهو القادر على كل شيء العالم بكل شيء ، فقال : ﴿ رب نجني وأهلي مما ﴾ أي من الجزاء الذي يلحقهم لما ﴿ يعملون ﴾ .

ولما قبل سبحانه وتعالى دعاءه ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ فنجيناه وأهله ﴾ مما عذبناهم به بإخراجنا له من بلدهم حين ستخفافهم له ، ولم يؤخره عنهم إلى حين خروجه إلا لأجله ، وعين سبحانه المراد مبيناً أن أهله كثير بقوله : ﴿ أجمعين ﴾ أي أهل بيته والمتبعين له على دينه ﴿ إلا عجوزاً ﴾ وهي امرأته ، كائنة ﴿ في ﴾ حكم ﴿ الغابرين ﴾ أي الماكثين الذي تلحقهم الغبرة بما يكون من الداهية فإننا لن ننجها لقضائنا بذلك في الأزل ، لكونها لم تتابعه في الدين ، وكان هواها مع قومها .

ولما ذكر نجاته المفهمة لهلاكهم ، صرح به على وجه هوله بأداة التراخي لما علم غير مرة أنه كان عقب خروجه ، لم يتخلل بينهما مهلة فقال : ﴿ ثم دمرنا ﴾ أي أهلكنا هلاكاً بغتة صلباً أصمّ في غاية النكد ، وما أحسن التعبير عنهم بلفظ ﴿ الآخرين ﴾ لإفهام تأخرهم من كل وجه .

ولما كان معنى ﴿ دمرنا ﴾ : حكمنا بتدميرهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وأمطرنا ﴾ ودل على العذاب بتعديته ب " على " فقال : ﴿ عليهم مطراً ﴾ أي وأي مطر ، ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ أي ما أسوأ مطر الذين خوفهم لوط عليه السلام بما

أشار إليه إنكاره وتعبيره بالتقوى والعدوان .

ولما كان في جري المكذبين والمصدقين على نظام واحد من الهلاك والنجاة أعظم عبرة وأكبر موعظة ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة عظيمة على صدق الرسل في جميع ترغيبهم وترهيبهم وتبشيرهم وتحذيرهم .

ولما كان من أتى بعد هذه الأمم كقريش ومن تقدمهم قد علموا أخبارهم ، وضموا إلى بعض الأخبار نظر الديار ، والتوسم في الآثار قال معجباً من حالهم في ضلالهم : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ كان أكثرهم مؤمنين ﴾ .

(138/571)

ولما كان في ذلك إشارة إلى الإنذار بمثل ما حل بهم من الدمار ، أتبعه التصريح بالتخويف والإطماع فقال : ﴿ وإن ربك لهو ﴾ أي وحده ﴿ العزيز ﴾ أي في بطشه بأعدائه ﴿ الرحيم ﴾ في لطفه بأوليائه ، ورفقه بأعدائه بإرسال الرسل ، وبيان كل مشكل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 383.386 ﴾

(139/571)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) ﴾

القصة السادسة قصة لوط عليه السلام

أما قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾ فيحتمل عوده إلى الآتي : أي أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة ، وهي إتيان الذكران ، ويحتمل عوده إلى المأتي ، أي أنتم اخترتم الذكران من العالمين لا الإناث منهم .

(140/571)

وأما قوله تعالى : ﴿ مّنْ أزواجكم ﴾ فيصلح أن يكون تبييناً لما خلق وأن يكون للتبعيض ، ويراد بما خلق العضو المباح منهن ، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم ، والعادي هو المتعدي في ظلمه ، ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي فهذا من جملة ذاك ، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة ، فقالوا له عليه السلام : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾

أي لتكونن من جملة من أخرجناه من بلدنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوإ الأحوال ، فقال لهم لوط عليه السلام : ﴿ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين ﴾ القلي البغض الشديد ، كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد ، وقوله : ﴿ مِّنَ القالين ﴾ أبلغ من أن يقول إني لعملكم قال ، كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم ، ويجوز أن يراد من الكاملين في قلاكم ، ثم قال تعالى : ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ والمراد : فنجيناه وأهله من عقوبة عملهم ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً فِى الغابرين ﴾ فإن قيل : ﴿ فِى الغابرين ﴾ صفة لها كأنه قيل إلا عجوزاً غابرة ، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم جوابه : معناه إلا عجوزاً مقدراً غبورها ، قيل إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة ، قال القاضي عبد الجبار في "تفسيره" في قوله تعالى : ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أزواجكم ﴾ دلالة على بطلان الجبر من جهات أحدها : أنه لا يقال تذرون إلا مع القدرة على خلافه ، ولذلك لا يقال للمرء لم تذر الصعود إلى السماء ، كما يقال له لم تذر الدخول والخروج وثانيها : أنه قال : ﴿ مَا خَلَقَ لَكُمْ ﴾ ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذي خلق لهم ما خلقه فيهم وأوجبه لا ما لم يفعلوه وثالثها : قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ فإن كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون إلى أنهم تعدوا ، وهل يقال

للأسود إنك متعد في لونك ؟ فنقول حاصل هذه الوجوه يرجع إلى أن العبد لو لم يكن موجداً الأفعال نفسه لما توجه المدح والذم والأمر والنهي عليه ، ولهذه الآية في هذا المعنى خاصية أزيد مما ورد من الأمر والنهي والمدح والذم في قصة موسى عليه السلام وإبراهيم ونوح وسائر القصص ، فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص ، وإذا ثبت بطلان هذه الوجوه بقي ذلك الوجه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين الأول : أن الله تعالى لما علم وقوع هذه الأشياء فعدمها محال لأن عدمها يستلزم انقلاب العلم جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال ، وإذا كان عدمها محالاً كان التكليف بالترك تكليفاً بالمحال الثاني : أن القادر لما كان قادراً على الضدين امتنع أن يترجح أحد المقدورين على الآخر إلا لمرجح وهو الداعي أو الإرادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر إن كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وإن كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك ، فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 138.139 ﴾

(142/571)

وقال ابن عطية :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) ﴾

قال النقاش إن في مصحف ابن مسعود وأبي وحفصة " إذ قال لهم لوط " وسقط " أخوهم " ، واختصرت الياء في الخط واللفظ من قوله ﴿ وأطيعون ﴾ مراعاة لرؤوس الآي أن تتناسب ، ثم وقفهم على معصيتهم البشعة في إتيان ﴿ الذكران ﴾ وترك فروج الأزواج والمعنى ويذر ذلك العاصي في حين معصيته لا أن معناه تركوا النساء جملة ، وفي قراءة ابن مسعود " ما أصلح لكم ربكم " و ﴿ عادون ﴾ ، معناه ظالمون مرتكبون للحظر .

فتوعدون بالإخراج من أرضه وداره فلا يتهم عند ذلك واقتصر على الإخبار بأنه قال لعملهم ، و" القلى " بغض الشيء وتركه ، ثم دعا في النجاة فنجاه الله بأن أمره بالرحلة ليلاً ، وكانت امرأته كافرة تعين عليه قومه فأصابها حجر فهلكت فيمن هلك ، وقوله ﴿ في الغابرين ﴾ معناه في الباقين ، فإما أن يريد في الباقين من لداتها وأهل سنها وهذا تأويل أبي عبيدة ، وإما أن يريد في الباقين في العذاب النازل بهم غابر وهذا تأويل قتادة ، والمشهور في غبرانها بمعنى بقي ، وغابر الزمان مستقبله ، ولكن الأعشى قد استعمل غابر الزمان بمعنى ماضيه في شعر المنافرة المشهور ، وقال الزهراوي يقال للذاهب غابر واللباقي غابر ، و" التدمير " الإهلاك بإمطار الحجارة وبذلك جرت السنين في رجم اللوطي وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أتأتون الذُّكْران ﴾

وهو جمع ذَكَر ﴿ مِنَ العالَمِينَ ﴾ أي : من بني آدم ، ﴿ وتَذَرونَ ما خَلَقَ لكم ربُّكم مِنْ أزواجكم ﴾ [قال الزجاج : وقرأ ابن مسعود : ﴿ ما أَصلح لكم ربُّكم من أزواجكم ﴾] يعني به الفروج .

وقال مجاهد : تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال .

قوله تعالى : ﴿ بل أنتم قوم عادُون ﴾ أي : ظالمون معتدون ﴿ قالوا لئن لم تَنْته يالوط ﴾ أي : لئن لم تسكت عن نهينا ﴿ لتكونَنَّ مِنَ المُخْرَجِين ﴾ من بلدنا .

﴿ قال إنِّي لعملكم ﴾ يعني : إتيان الرجال ﴿ من القالِين ﴾ قال ابن قتيبة : أي من المُبْغِضِين ، يقال : قَلَيْتُ الرجلَ : إذا أبغضتَه .

قوله تعالى : ﴿ ربِّ نجِّني وأهلي مما يعملون ﴾ أي : من عقوبة عملهم ، ﴿ فنجَّيناه وأهلَه ﴾ وقد ذكرناهم في [هود : 80] ، ﴿ إلا عجوزاً ﴾ يعني : امرأته ﴿ في الغابرِين ﴾ أي : الباقين في العذاب .

﴿ ثم دمَّرْنا الآخَرِين ﴾ أهلكناهم بالخَسْف والحَصْب ، وهو قوله : ﴿ وأَمْطَرْنا عليهم مطراً ﴾ يعني الحجارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(144/571)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين ﴾

مضى معناه وقصته في "الأعراف" و"هود" مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم "في الأعراف" .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ يعني فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح .

قال إبراهيم بن مهاجر : قال لي مجاهد كيف يقرأ عبد الله ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ قلت : "وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجِكم" قال : الفرج ؛ كما قال : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله ﴾ [البقرة : 222] .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أي متجاوزون لحدود الله .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط ﴾ عن قولك هذا .

﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ أي من بلدنا وقريتنا .

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ ﴾ يعني اللواط ﴿ مِّنَ القالين ﴾ أي المبغضين والقلي البغض ؛ قليته أقليه قِلىً وقَلاء .

قال :

فلستُ بمقلّي الخِلالِ ولا قَالِي . . .

وقال آخر :

عليك السلامُ لا مُلِلتِ قريبةً . . .

ومَا لَكِ عندي إن نأيتِ قَلاَءُ

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من عذاب عملهم .

دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم .

قال تعالى : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدّم في "هود" .

﴿ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ روى سعيد عن قتادة قال : غبرت في عذاب الله عز وجل أي بقيت .

وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى من الباقين في الهَرَم أي بقيت حتى هَرِمت .

قال النحاس : يقال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال :

لا تَكْسَعِ الشَّوَلَ بأَغْبَارِهَا . . .

إنّكَ لا تَدْرِي مَنِ النَّاتِجُ

وكما قال :

فما وَنَى محمدٌ مذ انْ غَفَرْ . . .

له الإلهُ ما مَضَى وما غَبَرْ

أي ما بقي .

(145/571)

والأغبار بقيات الألبان .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم بالخسف والحصب ؛ قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً ﴾ يعني الحجارة ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ .

وقيل : إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها ، ثم أتبعها الله بالحجارة .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) ﴾

﴿ أتأتون ﴾ : استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ؛ ﴿ والذكران ﴾ : جمع ذكر ، مقابل الأنثى .

والإتيان : كناية عن وطء الرجال ، وقد سماه تعالى بالفاحشة فقال : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ هو مخصوص بذكران بني آدم .

وقيل : مخصوص بالغرباء .

﴿ وتذرون ما خلق ﴾ : ظاهر في كونهم لا يأتون النساء ، إما البتة ، وإما غلبة .

﴿ ما خلق لكم ربكم ﴾ : يدل على الإباحة بشرطها .

﴿ من أزواجكم ﴾ : أي من الإناث .

ومن إما للتبيين لقوله : ﴿ ما خلق ﴾ ، وإما للتبعيض : أي العضو المخلوق للوطء ، وهو الفرج ، وهو على حذف مضاف ، أي وتذرون إتيان .

فإن كان ما خلق لا يراد به العضو ، فلا بد من تقدير مضاف آخر ، أي وتذرون إتيان فروج

ما خلق .

﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ : أي متجاوزون الحد في الظلم ، وهو إضراب بمعنى الانتقال من شيء إلى شيء ، لا أنه إبطال لما سبق من الإنكار عليهم وتقبيح أفعالهم واعتداؤهم ؛ إما في المعاصي التي هذه المعصية من جملتها ، أو من حيث ارتكاب هذه الفعلة الشنيعة .

وجاء تصدير الجملة بضمير الخطاب تعظيماً لقبح فعلهم وتنبيهاً على أنهم هم مختصون بذلك ، كما تقول : أنت فعلت كذا ، أي لا غيرك .

ولما نهاهم عن هذا الفعل القبيح توعدوه بالإخراج ، وهو النفي من بلده الذي نشأ فيه ، أي : ﴿ لئن لم تنته ﴾ عن دعواك النبوة ، وعن الإنكار علينا فيما نأتيه من الذكران ، لننفينك كما نفينا من نهانا قبلك .

ودل قوله : ﴿ من المخرجين ﴾ على أنه سبق من نهاهم عن ذلك ، فنفوه بسبب النهي ، أو من المخرجين بسبب غير هذا السبب ، كأنه من خالفهم في شيء نفوه ، سواء كان الخلاف في هذا الفعل الخاص ، أم في غيره .

﴿ قال إني لعملكم ﴾ : أي للفاحشة التي أنتم تعملونها .

(147/571)

ولعملكم يتعلق إما بالقالين ، وإن كان فيه أل ، لأنه يسوغ في المجرورات والظروف ما لا يسوغ في غيرها ، لاتساع العرب في تقديمها ، حيث لا يتقدم غيرها ؛ وإما بمحذوف دل عليه القالين تقديره : إني قال لعملكم ؛ وإما أن تكون للتبيين ، أي لعملكم ، أعني من القالين .

وكونه بعض القالين يدل على أنه يبغض هذا الفعل ناس غيره هو بعضهم ، ونبه ذلك على أن هذا الفعل موجب للبغض حتى يبغضه الناس .

ومن القالين أبلغ من قال لما ذكرنا من أن الناس يبغضونه ، ولتضمنه أنه معدود ممن يبغضه .

ألا ترى إن قولك : زيد من العلماء ، أبلغ من : زيد عالم ، لأن في ذلك شهادة بأنه معدود في زمرتهم .

وقال أبو عبد الله الرازي : القلى : البغض الشديد ، كأنه بغض فقلي الفؤاد والكبد .

انتهى .

ولا يكون قلى بمعنى أبغض .

وقلا من الطبخ ؛ والشيء من مادّة واحدة لاختلاف التركيب .

فمادة قلا من الشيّ من ذوات الواو ، وتقول : قلوت اللحم فهو مقلو .

ومادّة قلى من البغض من ذوات الياء ، قليت الرجل ، فهو مقلي .

قال الشاعر :

ولست بمقلي الخلال ولا قال . . .

ولما توعدوه بالإخراج، أخبرهم ببغض عملهم، ثم دعا ربه فقال: ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾: أي من عقوبة ما يعملون من المعاصي.

ويحتمل أن يكون دعاء لأهله بالعصمة من أن يقع واحد منهم في مثل فعل قومه.

ودل دعاؤه بالتنجية لأهله على أنهم كانوا مؤمنين.

ولما كانت زوجته مندرجة في الأهل، وكان ظاهر دعائه دخولها في التنجية، وكانت كافرة استثنيت في قوله: ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ﴾، ودل قوله: عجوزاً، على أنها قد عسيت في الكفر ودامت فيه إلى أن صارت عجوزاً.

ومن الغابرين صفة، أي من الباقين من لداتها وأهل بيتها، قاله أبو عبيدة.

وقال قتادة: من الباقين في العذاب النازل بهم.

وتقدّم القول في غبر، وأنه يستعمل بمعنى بقي، وهو المشهور، وبمعنى مضى.

(148/571)

ونجاته عليه السلام أن أمره تعالى بالرّحلة ليلاً، وكانت امرأته كافرة تعين عليه قومه، فأصابها حجر، فهلكت فيمن هلك.

قال قتادة: أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم.

وقال قتادة : أتبع الائتفاك مطراً من الحجارة .

وساء : بمعنى بئس ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي مطرهم .

وقال مقاتل : خسف الله بقوم لوط ، وأرسل الحجارة إلى من كان خارجاً من القرية ، ولم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(149/571)

وقال أبو السعود :

﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾

أي أتأتون من بينِ منَ عداكم من العالمين الذاكرانَ لا يشارككم فيه غيرُكم أو أتأتون الذكران من أولادِ آدمَ مع كثرتهم وغلبة النَّساءِ فيهم مع كونهنَّ أليقَ بالاستمتاعِ . فالمرادُ بالعالمين على الأوَّل كلُّ ما يُنكح من الحيوانِ وعلى الثَّاني الناسُ ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ لأجل استمتاعِكم ، وكلمة مِن في قوله تعالى : ﴿ مّنْ أزواجكم ﴾ للبيان إنْ أُريد بها جنسُ الإناثِ وهو الظَّاهرُ وللتبعيضِ إنْ أُريد بها العُضو المباحُ منهنَّ تعريضاً بأنَّهم كانُوا يفعلون ذلك بنسائِهم أيضاً ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ متعدُّون متجاوزونَ الحدَّ في جميعِ المعاصي وهذا من جُملتها وقيل متجاوزونَ عن حدِّ الشَّهوةِ حيث زادُوا على سائرِ النَّاسِ بل الحيواناتِ .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط ﴾ أي عن تقبيح أمرِنا أو نهينا عنه أو عن دَعْوى النُّبوة التي من جُملةِ أحكامِها التَّعرضُ لنا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ أي من المنفيينَ من قريتنا وكأنَّهم كانوا يخرجون منَ أخرجوه من بينهم على عنفٍ وسوءِ حالٍ .

﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين ﴾ أي من المُبغضين غايةَ البغضِ كأنه يقْلى الفؤادَ والكبدَ لشدَّتِه وهو أبلغُ من أنْ يُقال إنِّي لعملِكم قال لدلالتِه على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من زُمرةِ الرَّاسخين في بغضِه المشهورينَ في قِلاه ، ولعلَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أراد إظهارَ الكراهة في مُساكنتِهم والرَّغبةِ في الخلاصِ من سوءِ جوارهم ولذلك أعرضَ عن محاورتِهم وتوجَّه إلى الله تعالى قائلاً ﴿ رَبِّ نَجِنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤمِ عملهم وغائلتِه .

﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أهلَ بيتِه ومَن اتبعه في الدِّين بإخراجِهم من بينهم عند مشارفةِ حُلولِ العذابِ بهم .

(150/571)

﴿ إِلاَّ عَجُوزاً ﴾ هي امرأةُ لوطٍ استُثنيت من أهله فلا يضرُّه كونُها كافرةً لأنَّ لها شركةً في الأهلية بحقِّ الزَّواجِ ﴿ فِى الغابرين ﴾ أي مقدَّر كونُها من الباقين في العذابِ لأنَّها كانت مائلةً إلى القوم راضيةً بفعلهم وقد أصابها الحجرُ في الطَّريقِ فأهلكها كما مرَّ في سُورة الحجرِ

وسُورة هودٍ ، وقيل : كانت فيمن بقيَ في القريةِ ولم تخرجْ مع لوطٍ عليه السلام .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين ﴾ أهلكناهم أشدَّ إهلاكٍ وأفظَعه .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ أي مطراً غيرَ معهودٍ قيل : أمطر الله تعالى على شُذّاذ القوم حجارةً فأهلكتهم ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ اللام فيه للجنسِ وبه يتسنَّى وقوعُ المضاف إليه فاعلَ ساءَ والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ وهو مطرهم . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(151/571)

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾

وكانوا من أصهاره عليه السلام .

﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾ إنكار وتوبيخ .

والاتيان كناية عن الوطء .

و﴿ الذكران ﴾ جمع ذكر مقابل الأنثى .

والظاهر أن ﴿ مّن العالمين ﴾ متصل به أي أتأتون الذكران من أولاد بني آدم على قرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكرانهم كأن الإناث قد أعوزتكم فالمراد بالعالمين الناس لأن المأتى الذكور منهم خاصة والقرينة إيقاع الفعل والجمع بالواو والنون من غير نظر إلى تغليب .

وأما خروج الملك والجن فمن الضرورة العقلية .

ويجوز أن يكون متصلاً بتأتون أي أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكر أن لا يشارككم غبه غيركم فالمراد بالعالمين كل من يتأتى منه الاتيان .

والعالم على هذا ما يعلم به الخالق سبحانه .

والجمع للغليب وخروج غيره لما مر .

ولا يضر كون الحمار .

والخنزير يأتيان الذكور في أمر الاختصاص للندرة أو لاسقاطهما عن حيز الاعتبار ، وجوز أن يراد بالعالمين على الوجه الثاني الناس أيضاً ، وإذا قيل بشمولهم لمن تقدم من العالمين تفيد الآية أنهم أول من سن هذه السنة السيئة كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مّن العالمين ﴾ [الأعراف : 80] .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ لأجل استمتاعكم ، وكلمة ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ مّنْ أزواجكم ﴾ للبيان إن أريد بما جنس الإناث ، ولعل في الكلام حينئذ مضافين محذوفين أي وتذرون إتيان فروج ما خلق لكم أو للتبعيض إن أريد بما العضو المباح من الأزواج.

(152/571)

ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ مَا إصلاح لَكُمْ رَبُّكُمْ مّنْ أزواجكم ﴾ وحينئذ يكتفي بتقدير مضاف واحد أي وتذرون اتيان ما خلق .

ويكون في الكلام على ما قيل تعريض بأنهم كانوا يأتون نساءهم أيضاً في محاشهن ولم يصرح بإنكاره كما صرح بإنكار اتيان الذكران لأنه دونه في الإثم .

وهو على المشهور عند أهل السنة حرام بل كبيرة .

وقيل : هو مباح ، وقد تقدم الكلام في ذلك مبسوطاً عند الكلام في قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ [البقرة : 223] وقيل : ليس في الكلام مضاف محذوف أصلاً ، والمراد ذمهم بترك ما خلق لهم وعدم الالتفات إليه بوجه من الوجوه فضلاً عن الإتيان ، وأنت تعلم أن المعنى ظاهر على التقدير ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ اضراب انتقالي والعادي المتعدى في جميع المعاصي وهذا من جملتها أو متجاوزون عن

حد الشهوة حيث زدتم على سائر الناس بل أكثر الحيوانات .

وقيل : متجاوزون الحد في الظلم حيث ظلمتم باتيان ما لم يخلق للاتيان وترك اتيان ما خلق له ، وفي البحر أن تصدير الجملة بضمير الخطاب تعظيماً لفعلهم وتنبيهاً على أنهم مختصون بذلك كأنه قيل : بل أنتم قوم عادون لا غيركم .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا لوط لُوطٍ ﴾ عن توبيخنا وتقبيح أمرنا أو عما أنت عليه من دعوى الرسالة ودعوتنا إلى الإيمان وإنكار ما أنكرته من أمرنا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ أي من المنفيين من قريتنا المعهودين ، وكأنهم كانوا يخرجون من غضبوا عليه بسبب من الأسباب ، وقيل : بسبب إنكار تلك الفاحشة من بينهم على عنف وسوء حال ، ولهذا هددوه عليه السلام بذلك ، وعدلوا عن لنخرجنك الأخصر إلى ما ذكر ؛ ولا يخفى ما في الكلام من التأكيد .

(153/571)

﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين ﴾ أي من المبغضين غاية البغض ، قال الراغب : يقال قلاه ويقليه فمن جعله من الواو فهو من القلو أي الرمى من قولهم : قلت الناقة براكبها قلوا وقلوت بالقلة إذا رميتها فكأن المقلو يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله .

ومن جعله من الياء فهو من قليت السويق على المقلاة فكأن شدة البغض تقلى الفؤاد والكبد وتشويهما ، فقول أبي حيان : أن قلى بمعنى أبغض يائي ، والذي بمعنى طبح وسوى واوى ناش من قلة الاطلاع ، والعدول عن قالى إلى ما في النظم الجليل لأنه أبلغ فإنه إذا قيل : قالي لم يفد أكثر من تلبسه بالفعل بخلاف قوله : ﴿ مّنَ القالين ﴾ إذ يفيد أنه مع تلبسه من قوم عرفوا واشتهروا به فيكون راسخ القدم عريق العرف فيه ، وقد صرح بذلك ابن جنى . وغيره ، واللام في "لعملكم" قيل للتبيين كما في سقيا لك فهو متعلق بمحذوف أعني أعني ، وقيل : هي للتقوية ومتعلقها عند من يرى تعلق حرف التقوية محذوف أي إني من القالين لعملكم من القالين .

وقيل : هي متعلقة بالقالين المذكور ويتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها فتقدم حيث لا يقدم غيرها ، والمراد بعملهم إما ما أنكره عليه السلام عليهم من اتيان الذكرتن وترك ما خلق ربهم سبحانه لهم وإما ما يشمل ذلك وسائر ما نهاهم عنه وأمرهم بضده من الأعمال القلبية والقالبية ، وقابل عليه السلام تهديدهم ذلك بما ذكر تنبيهاً على عدم الاكتراث به وأنه راغب في الخلاص من سوء جوارهم لشدة بغضه لعملهم ولذلك أعرض عن محاورتهم وتوجه إلى الله تعالى قائلاً :

﴿ رَبِّ نَجِنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤم عملهم أو الذي يعملونه وعذابه الدنيوي .

وقيل : يحتمل أن يكون دعاء بالنجاة من التلبس بمثل عملهم وهو بالنسبة إلى الأهل دونه

عليه السلام إذ لا يخشى تلبسه بذلك لمكان العصمة .

واعتراض بأن العذاب كذلك إذ لا يعذب من لم يجن وفيه منع ظاهر .

(154/571)

كيف وقد قال سبحانه : ﴿ واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : 25] .

وقيل : قد يدعو المعصوم بالحفظ عن الوقوع فيما عصم عنه كما يدل عليه قوله تعالى : حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الاصنام ﴾ [إبراهيم : 35] وهو مسلم إلا أن الظاهر أن المراد النجاة مما ينالهم بسبب عملهم من العذاب الدنيوي .

ويؤيده ظاهر قوله تعالى :

﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِى الغابرين ﴾ .

والظاهر أن المراد بأهل بيته .

وجوز أن يكون المراد بهم من تبع دينه مجازاً فيشمل أهل بيته المؤمنين وسائر من آمن به .

وقيل : لا حاجة إلى هذا التعميم إذ لم يؤمن به عليه السلام إلا أهل بيته .

والمراد بهذه العجوز امرأته عليه السلام وكانت كافرة مائلة إلى القوم راضية بفعلهم .

والتعبير عنها بالعجوز للإيماء إلى أنه مما لا يشق أمر هلاكها على لوط عليه السلام وسائر أهله بمقتضى الطبيعة البشرية .

وقيل : للإيماء إلى أنها قد عسيت في الكفر ودامت فيه إلى أن صارت عجوزاً ، والغابر الباقي بعد مضي من معه .

وأنشد ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فيذلك قول عبيد بن الأبرص :

ذهبوا وخلفني المخلف فيهم . . .

فكأنني في الغابرين غريب

والمراد فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلاً عند مشارفة حلوله بهم إلا عجوزاً مقدرة في الباقين في العذاب بعد سلامة من خرج .

وإنما اعتبر البقاء في العذاب دون البقاء في الدار لما روي أنها خرجت مع لوط عليه السلام فأصابها حجر في الطريق فهلكت ، وقيل : المراد من الباقين في الدار بناء على أنها لهلاكها كأنها ممن بقي فيها أو أنها خرجت ثم رجعت فهلكت كما في بعض الروايات أو أنها لم تخرج مع لوط عليه السلام أصلاً كما في البعض الآخر منها .

وقيل : الغابر طويل العمر وكأنه إنما أطلق عليه ذلك لبقائه مع مضي من كان معه .

والمراد وصف العجوز بأنها طاعنة في السن .

وقرأ عبد الله كما روي عنه مجاهد ﴿ وواعدنا أن نؤتيه أهله أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين .

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172)

أهلكناهم أشدا هلاك وأفظعه وكان ذلك الائتفاك .

والظاهر العطف على ﴿ نَجَّيْنَا ﴾ [الشعراء : 170] والتدمير متراخ عن التنجية من مطلق العذاب فلا حاجة إلى القول بأن المراد أردنا تنجيته أو حكمنا بها أو معنى ﴿ فنجيناه ﴾ فاستجبنا دعاءه في تنجيته وكل ذلك خلاف الظاهر .

وجوز الطيبي كون ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي في الرتبة .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173)

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ أي نوعا من المطر غير معهود فقد كان حجارة من سجيل كما صرح به في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عاليها سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [هود : 82] .

وجمع الأمران لهم زيادة في اهانتهم .

وقيل : كان الائتفاك لطائفة والأمطار لأخرى منهم .

وكانت هذه على ما روي عن مقاتل للذين كانوا خارجين من القرية لبعض حوائجهم ولعله مراد قتادة بالشذاذ فيما روي عنه ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ اللام فيه للجنس وبه يتسنى وقوع المضاف إليه فاعل ساء بناء على أنها بمعنى بئس .

والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم وإذا لم تكن ساء كذلك جاز كونها للعهد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(156/571)

وقال القاسمى :

﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً ﴾ وهي امرأته . كما بينت في آيات : ﴿ فِي الْغَابِرِينَ ﴾ أي : مقدّراً كونها من الباقين في العذاب . لأنها كانت راضية بعمل قومها .

لطيفة :

قال الناصر في " الانتصاف " : كثيراً ما ورد في القرآن ، خصوصاً في هذه السورة ، العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة . ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمعٍ . كقول فرعون : ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [29] ، وقولهم : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ [136] ، وقولهم : ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [

116] ، وقوله : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ [168] ، وقوله تعالى في غيرها : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ [التوبة : 87] ، وكذلك : ﴿ ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ [التوبة : 86] وأمثاله كثيرة والسر في ذلك ، والله أعلم ، أن التعبير بالفعل ، إنما يفهم وقوعه خاصة . وأما التعبير بالصفة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فإنه يُفهم أمراً زائداً على وقوعه . وهو أن الصفة المذكورة ، كالسمة للموصوف ثابتة العلوق به . كأنها لقب . وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر ذلك لو قلت : رضوا بأن يتخلفوا , لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير . وانظر إلى المساق وهو قوله : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ كيف ألحقهم لقباً رديئاً ، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت لقباً لاحقاً به . وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك . فتأمله واقدره قدره : ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي : أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

(157/571)

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً ﴾ أي : عظيماً غير معهود ، هلكوا به : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ

الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهم أهل مدين . ووهمَ من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام : فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون مدين أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ما حوتها من الأيكة ، وهي الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة في مكان واحد .

قال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا في كل مقام بشيء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما في قصة مدين سواء بسواء . فدل ذلك على أنهما أمة واحدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 492.

493 ﴾

(158/571)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) ﴾

تجيء قصة لوط هنا . ومكانها التاريخي كان مع قصة إبراهيم . ولكن السياق التاريخي ليس ملحوظاً في هذه السورة كما أسلفنا إنما الملحوظ وحدة الرسالة والمنهج ، وعاقبة التكذيب : من نجاة للمؤمنين وهلاك للمكذبين .

ويبدأ لوط مع قومه بما بدأ به نوح وهود وصالح . يستنكر استهتارهم ؛ ويستجيش في

قلوبهم وجدان التقوى ، ويدعوهم إلى الإيمان والطاعة ، ويطمئنهم إلى أنه لن يفجعهم في شيء من أموالهم مقابل الهدى . ثم يواجههم باستنكار خطيئتهم الشاذة التي عرفوا بها في التاريخ :

﴿ أتأتون الذكران من العالمين ؟ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ؟ بل أنتم قوم عادون ﴾ .

والخطيئة المنكرة التي عرف بها قوم لوط (وقد كانوا يسكنون عدة قرى في وادي الأردن) هي الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور ، وترك النساء . وهو انحراف في الفطرة شنيع . فقد برأ الله الذكر والأنثى ؛ وفطر كلاً منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته في امتداد الحياة عن طريق النسل ، الذي يتم باجتماع الذكر والأنثى . فكان هذا الميل طرفاً من الناموس الكوني العام ، الذي يجعل كل من في الكون وكل ما في الكون في حالة تناسق وتعاون على إنفاذ المشيئة المدبرة لهذا الوجود . فأما إتيان الذكور الذكور فلا يرمي إلى هدف ، ولا يحقق غاية ، ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه . وعجيب أن يجد فيه أحد لذة . واللذة التي يجدها الذكر والأنثى في التقائهما إن هي إلا وسيلة الفطرة لتحقيق المشيئة . فالانحراف عن ناموس الكون واضح في فعل قوم لوط . ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا الانحراف أو أن يهلكوا ، لخروجهم من ركب الحياة ، ومن موكب الفطرة ، ولتعريهم من حكمة وجودهم ، وهي امتداد الحياة بهم عن طريق التزاوج والتوالد .

فلما دعاهم لوط إلى ترك هذا الشذوذ ، واستنكر ما هم فيه من ترك ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ، والعدوان على الفطرة وتجاوز الحكمة المكنونة فيها . . تبين أنهم غير مستعدين للعودة إلى ركب الحياة ، وإلى سنة الفطرة :

﴿ قالوا : لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ .

وقد كان فيهم غريباً . وفد عليهم مع عمه إبراهيم حين اعتزل أباه وقومه ، وترك وطنه وأرضه ، وعبر الأردن مع إبراهيم والقلة التي آمنت معه . ثم عاش وحده مع هؤلاء القوم حتى أرسله الله إليهم ، ليردهم عما هم فيه ، فإذا بهم يهددونه بالإخراج من بينهم ، إذا لم ينته عن دعوتهم إلى سواء الفطرة القويم !

عندئذ لم يبق إلا أن يعالنهم بكراهة ما هم عليه من شذوذ ، في تقزز واستبشاع :

﴿ قال : إني لعملكم من القالين ﴾ . .

والقلى : الكره البالغ . يقذف به لوط في وجوههم في اشمئزاز . ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء أن ينجيه من هذا البلاء هو وأهله :

«رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ» . .

وهو لا يعمل عملهم ولكنه يحس بفطرته الصادقة أنه عمل مرد مهلك . وهو فيهم . فهو يتوجه إلى ربه أن ينجيه وأهله مما سيأخذ به قومه من التدمير .

واستجاب اللّه دعوة نبيه :

«فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ» . .

هذه العجوز هي امرأته – كما يذكر في سور أخرى – وقد كانت عجوز سوء تقر القوم على فعلتهم المنكرة ، وتعينهم عليها ! «ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً ، فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ» . .

قيل خسفت قراهم وغطاها الماء . ومنها قرية سدوم . ويظن أنها ثاوية تحت البحر الميت في الأردن .

وبعض علماء طبقات الأرض يؤكدون أن البحر الميت يغمر مدنا كانت آهلة بالسكان .

وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر ، وبجواره المذبح الذي تقدم عليه القرابين .

وعلى أية حال فقد قص القرآن نبأ قرى لوط – على هذا النحو – وقوله الفصل في الموضوع .

ثم يعقب على مصرعهم بالتعقيب المكرور :

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً : وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» . . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2613.2614 ﴾

(160/571)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) ﴾

القول في موقعها كالقول في سابقتها ، والقول في تفسيرها كالقول في نظيرتها .

وجُعل لوط أخاً لقومه ولم يكن من نسبهم وإنما كان نزيلاً فيهم ، إذ كان قوم لوط من أهل فلسْطين من الكنعانيين ، وكان لوط عبرانياً وهو ابن أخي إبراهيم ولكنه لما استوطن بلادهم وعاشر فيهم وحالفهم وظاهرهم جعل أخاً لهم كقول سحيم عبد بني الحسحاس:

أخوكم ومولى خيركم وحليفكم . . .

ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا

يعني نفسه يخاطب مَواليه بني الحسحاس .

وقال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وإخوانُ لوط ﴾ [ق : 13] .

وهذا من إطلاق الأُخوّة على ملازمة الشيء وممارسته كما قال:

أخور الحرب لباساً إليها جِلاَلها . . .

إذا عَدِموا زاداً فإنك عاقر

وقوله تعالى : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين ﴾ [الإسراء : 27] .

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165)

هو في الاستئناف كقوله ﴿ أتتركون ﴾ [الشعراء : 146] في قصة ثمود .

والإتيان : كناية .

والذكران : جمع ذَكر وهو ضد الأنثى .

وقوله : ﴿ من العالمين ﴾ الأظهر فيه أنه في موضع الحال من الواو في ﴿ أتأتون ﴾ .

و ﴿ مِن ﴾ فَصْلية ، أي تفيد معنى الفصل بين متخالفَين بحيث لا يماثل أحدهما الآخر .

فالمعنى : مفصولين من العَالمين لا يماثلكم في ذلك صنف من العالمين .

وهذا المعنى جوزه في "الكشاف" ثانياً وهو أوفق بمعنى : ﴿ العالمين ﴾ الذي المختار فيه أنه جمع (عالَم) بمعنى النوع من المخلوقات كما تقدم في سورة الفاتحة .

وإثبات معنى الفصل لحرف ﴿ مِن ﴾ قاله ابن مالك ، ومثَّل بقوله تعالى : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ [البقرة : 220] ، وقوله : ﴿ لِيَمِيزَ الله الخبيثَ من الطيب ﴾ [الأنفال : 37] .

ونظر فيه ابن هشام في "مغني اللبيب" وهو معنى رشيق متوسط بين معنى الابتداء ومعنى البدلية وليس أحدهما .

(161/571)

وقد تقدم بيانه عند قوله تعالى ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ في سورة البقرة (220) .

والمعنى : أتأتون الذكران مخالفين جميع العالمين من الأنواع التي فيها ذكور وإناث فإنها لا يوجد فيها ما يأتي الذكور .

فهذا تنبيه على أن هذا الفعل الفظيع مخالف للفطرة لا يقع من الحيوان العُجْم فهو عمل ابتدعوه ما فعله غيرهم ، ونحوه قوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ [العنكبوت : 28] .

والمراد بالأزواج : الإناث من نوع ، وإطلاق اسم الأزواج عليهن مجاز مرسل بعلاقة الأول ، ففي هذا المجاز تعريض بأنه يرجو ارعِوَاءهم .

وفي قوله : ﴿ ما خلق لكم ربكم ﴾ إيماء إلى الاستدلال بالصلاحية الفطرية لعمَلٍ على بطلان عمل يضاده ، لأنه مناف للفطرة .

فهو من تغيير الشيطان وإفساده لسنة الخلق والتكوين ، قال تعالى حكاية عنه ﴿ ولآمُرَنَّهم فَلَيُغَيِّرُن خَلْق الله ﴾ [النساء : 119] .

و﴿ بل ﴾ لإضراب الانتقال من مقام الموعظة والاستدلال إلى مقام الذم تغليظاً للإنكار بعد لينه لأن شرف الرسالة يقتضي الإعلان بتغيير المنكر والأخذ بأصرح مراتب الإعلان فإنه إن استطاع بلسانه غليظ الإنكار لا ينزل منه إلى لَيِّنه وأنه يبتدىء باللين فإن لم ينفع انتقل منه إلى ما هو أشد ولذلك انتقل لوط من قوله : ﴿ أتأتون الذكران ﴾ إلى قوله : ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ .

وفي الإتيان بالجملة الاسمية في قوله : ﴿ أنتم قوم عادون ﴾ دون أن يقول : بل كنتم عادين ، مبالغة في تحقيق نسبة العدوان إليهم .

وفي جعل الخبر ﴿ قوم عادون ﴾ دون اقتصار على ﴿ عَادون ﴾ تنبيه على أن العدوان سجية فيهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

(162/571)

والعادي : هو الذي تجاوز حدّ الحق إلى الباطل ، يقال : عدا عليه ، أي ظلمه ، وعدوانهم خروجهم عن الحد الموضوع بوضع الفطرة إلى ما هو مناف لها محفوف بمفاسد التغيير للطبع .

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167)

قولهم كقول قوم نوح لنوح إلا أن هؤلاء قالوا : ﴿ لتكونَنّ من المخرَجين ﴾ فهدّدوه بالإخراج من مدينتهم لأنه كان من غير أهل المدينة بل كان مهاجراً بينهم وله صهر فيهم .

وصيغة ﴿ من المخرجين ﴾ أبلغ من : لنُخرجنك ، كما تقدم في قوله : ﴿ لتكونن من المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] .

وكان جواب لوط على وعيدهم جواب مستخفّ بوعيدهم إذ أعاد الإنكار قال : ﴿ إني لعملكم من القالين ﴾ أي من المبغضين .

وقوله : ﴿ من القالين ﴾ أبلغ في الوصف من أن يقول : إني لعَمَلكم قالٍ ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة البقرة (67) .

وذلك أكمل في الجناس لأنه يكون جناساً تامّاً فقد حصل بين ﴿ قال ﴾ وبين ﴿ القالين ﴾ جناس مذيَّل ويسمَّى مطرَّفاً .

وأقبل على الدعاء إلى الله أن ينجيه وأهله مما يعمَل قومُه ، أي من عذاب ما يعملونه فلا بدّ من تقدير مضاف كما دل عليه قوله : ﴿ فنجيناه ﴾ .

ولا يحسن جعل المعنى : نجّني من أن أعمل عملهم ، لأنه يفوت معه التعريض بعذاب سيحل بهم .

والقصة تقدمت في الأعراف وفي هود والحِجْر .

والفاء في قوله : ﴿ فنجيناه ﴾ للتعقيب ، أي كانت نجاته عقب دعائه حسبما يقتضي ذلك من أسرع مدةٍ بين الدعاء وأمرِ الله إياه بالخروج بأهله إلى قرية "صوغر" .

والعجوز : المرأة المسنة وهي زوج لوط ، وقوله : ﴿ في الغابرين ﴾ صفة ﴿ عجوزاً ﴾ .

والغابر : المتصف بالغبور وهو البقاء بعد ذهاب الأصحاب أو أهل الخيل ، أي باقية في العذاب بعد نجاة زوجها وأهله وهي مستثناة من ﴿ وأهله أجمعين ﴾ .

وذلك أنها لحقها العذاب من دون أهلها فكان صفة لها .

(163/571)

وقد تقدم ذلك في قصتهم في سورة هود .

و﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لأن إهلاك المكذبين أجدَر بأن يذكر في مقام الموعظة من ذكر إنجاء لوط المؤمنين .

والتدمير : الإصابة بالدمار وهو الهلاك ، وذلك أنهم استؤصلوا بالخسف وإمطار الحجارة عليهم .

والمطر : الماء الذي يسقط من السحاب على الأرض .

والإمطار : إنزال المطر ، يقال : أمطرت السماء .

وسمي ما أصابهم من الحجارة مطراً لأن نزل عليهم من الجو .

وقيل هو من مقذوفات براكين في بلادهم أثارتها زلازل الخسف فهو تشبيه بليغ .

و(سَاء) فعل ذمَ بمعنى بئس .

وفي قوله : ﴿ المنذرين ﴾ تسجيل عليهم بأنهم أُنذروا فلم ينتذروا .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174)

أي في قصتهم المعلومة للمشركين آية ، قال تعالى : ﴿ وإنكم لَتَمُرُّون عليهم مُصْبِحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : 137 ، 138] وتقدم القول في نظيره آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(164/571)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) ﴾

فقال هنا أيضاً ﴿ أَخُوهُمْ ﴾ [الشعراء : 161] لأنه منهم ليس غريباً عنهم ، وليُحنّن قلوبهم عليه ﴿ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 161] إنكار لعدم التقوى ، وإنكار النفي يطلب الإثبات فكأنه قال : اتقوا الله .

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162)

وهكذا كانت مقالة لوط عليه السلام كما قال إخوانه السابقون من الرسل ؛ لأنهم يصدُرون جميعاً عن مصدر واحد .

ثم يخصُّ الحق سبحانه قوم لوط لما اشتُهروا به وكان سبباً في إهلاكهم : ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾

فكأنها مسألة وخصلة تفردوا بها دون العالم كله .

لذلك قال في موضع آخر : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ [الأعراف : 80] .

أي : أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتي الرجل في محل القذارة ، ولكنهم فعلوها ، فوَصْفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166)

يعني : كان عندكم مندوحة عن هذه الفِعْلة النكراء بما خلق الله لكم من أزواجكم من النساء ، فتصرفون هذه الغريزة في محلها ، ولا تنقلونها إلى الغير .

أو ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ﴾ [الشعراء : 166] أي : أنهم كانوا يباشرون هذه المسألة أيضاً مع النساء في غير محلِّ الاستنبات ، فقوله تعالى : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : 223] .

البعض يظنها على عمومها وأن ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : 223] تعطيهم الحرية في هذه المسألة ، إنما الآية محددة بمكان الحَرْث واستنبات الولد ، وهذا محله الأمام لا الخلف .

(165/571)

لذلك قال بعدها : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : 166] والعادي هو الذي شُرِع له شيء يقضي فيه إربته ، فتجاوزه إلى شيء آخر حرَّمه الشرع .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾

أي : إن لم تنته عن ملامنا ومعارضتنا فيما نفعله من هذه العملية ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ [الشعراء : 167] كما قالوا في آية أخرى : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ [

النمل : 56] أي : لا مكان لهم بيننا ، لكن لماذا ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56] سبحان الله جريمتهم أنهم يتطهرون ، ولا مكان للطُّهْر بين هؤلاء القوم الأراذل .

ثم يقول الحق سبحانه عن لوط : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ ﴾

وفرْقٌ بين كوني لا أعمل العمل ، وكوْني أكره مَنْ يعمله ، فالمعنى : أنا لا أعمل هذا العمل ، إنما أيضاً أكره مَنْ يعمله ، وهذا مبالغة في إنكاره عليهم .

ثم يقول لوط : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي ﴾

لم يملك لوط عليه السلام أمام عناد قومه وإصرارهم على هذه الفاحشة إلا أنْ يدعو ربَّه بالنجاة له ولأهله ، فأجابه الله تعالى ﴿ إِلَّا عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ [الشعراء : 171]

.

والمراد : امرأته التي قال الله في حقها : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ ﴾ [التحريم : 10] .

فجعلها الله عز وجل مثالاً للكفر والعياذ بالله ؛ لذلك لم تكُنْ من الناجين ، ولم تشملها دعوة لوط عليه السلام ، وكانت من الغابرين . يعني : الهالكين .

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173)

﴿ الآخرين ﴾ [الشعراء : 172] أي : الذين لم يؤمنوا بدعوته ، ولم ينتهوا عن هذه الفاحشة ، ثم بيَّن نوعية هذا التدمير ، فقال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ [الشعراء : 173] ولما كان المطر من أسباب الخير وعلامات الرحمة ، حيث ينزل الماء من السماء ، فيُحيي الأرض بعد موتها ، وصف الله هذا المطر بأنه ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ [الشعراء : 173] فهو ليس مطرَ خَيْر ورحمة ، إنما مطر عذاب ونقمة .

كماء جاء في آية أخرى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف : 2425] .

وهذا يُسمُّونه (يأس بعد إطماع) ، وهو أبلغ من العذاب والإيلام ، حين تستشرف للخير فيُفاجئك الشر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالسجين الذي يطلب من الحارس شَرْبة ماء ، ليروي بها عطشه ، فلو حرمه الحارس من البداية لَكانَ الأمر هيّناً لكنه يحضر له كوب الماء ، حتى إذا جعله على فيه أراقه على الأرض ، فهذا أشد وأنكَى ؛ لأنه حرمه بعد أن أطمعه ، وهذا عذاب آخر فوق عذاب العطش .

وفي لقطة أخرى بينَّ ما هية هذا المطر ، فقال : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : 8283] .

فالحجارة من ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ [هود : 82] أي : طين حُرِق حتى تحجَّر وهي ﴿ مُّسَوَّمَةً ﴾ [هود : 83] يعني : مُعلَّمة بأسماء أصحابها ، تنزل عليهم بانتظام ، كل حجر منها على صاحبه .

وبجمع اللقطات المتفرقة تتبين معالم القصة كاملة .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (174)

وتُختم القصة بنفس الآيات التي خُتِمتْ بها القصص السابقة من قصص المكذِّبين المعاندين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(167/571)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) ﴾

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن

مجاهد في قوله ﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ قال : تركتم اقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ قال : ما أصلح لكم يعني القبل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة ﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ يقول : ترك اقبال النساء إلى ادبار الرجال .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ قال : متعدون .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن مجاهد قال : في قراءة عبد الله ﴿ وواعدناه أن نؤمنه أجمعين إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ قال : هي امرأة لوط غبرت في عذاب .

وأخرج الطستي عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ في الغابرين ﴾ قال : في الباقين قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول عبيد بن الأبرص ؟ :

ذهبوا وخلفني المخلف فيهم . . . فكأنني في الغابرين غريب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168) ﴾

قوله : ﴿ لِعَمَلِكُمْ ﴾ : كقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ﴾ [الأعراف : 21] وقد تقدَّم . وقيل : " من القالِيْن " صفةٌ لخبرٍ محذوفٍ . وهذا الجارُّ متعلِّقٌ به . أي : إنِّي قالٍ لِعملكم من القالِيْنَ .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173)

قوله : ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ : المخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ أي : مَطَرهم . والقالي : المُبْغِضُ . يقال : قَلاه يَقْليه قِلًى ويَقْلاه ، وهي شاذَّة . قال :

3528 وتَرْمِيْنَنِيْ بالطَّرْفِ أي : أنتَ مُذْنِبٌ . . . وتَقْلِينني لكنَّ إياكِ لا أَقْلي

وقال آخر :

3529 واللهِ ما فارَقْتُكم عَنْ قِلًى لكمْ . . . ولكنَّ ما يقضى فسوفَ يكونُ

واسمُ المفعولِ منه : مَقْلِيّ . والأصل مَقْلُوْي . فأُدْغِمَ كـ مَرْمِيّ قال :

3530 . . . . . وَلسْتُ بمَقْلِيِّ الخِلالِ

ولا قالِ

أي : لا يَبْغُضُني غيري ولا أَبْغَضُه . وغَلِط بعضُهم فَجَعَلَ ذلك مِنْ قولهم قلا اللحمَ أي : شواه ، فكأنه : قلا كَبِدَه بالبُغْض . ووَجْهُ الغَلَطِ : أنَّ هذا من ذواتِ الياءِ ، وذَلك من ذواتِ الواوِ . ويُقال : قلا اللحمَ يَقْلُوه قَلْواً فهو قالٍ كغازٍ ، ومَقْلُوٌّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 543.544 ﴾

(169/571)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

التفسير : القصة الرابعة قصة هود ولنذكر من تفسيرها ما هو غير مكرر . الريع بالكسر وقرئ بالفتح المكان المرتفع ومنه الغلة لارتفاعها . والآية العلم وفي هذا البناء وجوه : فعن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل موضع مرتفع علماً يعبثون فيه بمن يمر بالطريق إلى هود . وقيل : كانوا يبنون ذلك ليعرف به فخرهم وغناهم فنهوا عنه ونسبوا إلى العبث وقيل :

كانوا يقتنون الحمام قاله مجاهد . والمصانع مآخذ الماء . وقيل : القصور المشيدة والحصون . ومعنى ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ ترجون الخلود في الدنيا أو ظلماً وعلواً فوصفوا بكونهم إذ ذاك جبارين . وقيل : الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب . وعن الحسن : اراد أنهم يبادرون العذاب من غير تفكر في العواقب . والحاصل أن اتخاذ الأبنية الرفيعة يدل على حب العلوّ ، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء ، والبطش الشديد يدل على حب التفرد بالعلوّ فكأنهم أحبوا العلوّ وبقاء العلوّ والتفرد بالعلوّ وكل هذه لمن له الصفات الإلهية لا العبدية . ثم بالغ في تنبيههم على نعم الله حيث أجملها بقوله ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ﴾ إيقاظاً لهم عن سنة الغفلة مستشهداً بعلمهم ثم فصلها بقوله ﴿ أمدكم بأنعام ﴾ عليها تدور معايشكم ﴿ وبنين ﴾ بهم يتم أمر حفظها والقيام بها ﴿ وجنات ﴾ يحصل بها التفكه والتنزه ﴿ وعيون ﴾ بمائها يكمل النماء .

(170/571)

ثم ختم الكلام بتخويفهم تنبيهاً على أنه كما قدر أن يتفضل عليهم بهذه النعم الجسام فهو قادر على العذاب فيكون فيه مزيد حث على التقوى وكمال تنفر عن العصيان . ثم شرع في حكاية جواب القوم وأنهم قالوا : إن وعظه وعدم وعظه بالنسبة إليهم سيان . وإنما لم يقل

" أوعظت أم لم تعظ " مع كونه أخصر لأن المراد سواء علينا افعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أو لم تكن من مباشريه وذويه راساً وهذا أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه . منقرأ ﴿ خلق الأولين ﴾ بفتح الخاء فمعناه أن هذا إلا اختلاق الأولين وأكاذيبهم ، أو ما هذا إلا خلق الأقدمين نحيا ونموت ولا بعث ولا جزاء . والقراءة الأخرى معناها لسنا نحن إلا على دين الأولين من آبائنا ، أو ليس ما نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة جارية لا خرق لها ، أو ما هذا الذي جئت به من تلفيق الأكاذيب . إلا عادة مستمرة من المتنبين . ثم أكدوا إنكارهم المعاد بقولهم ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ فأظهروا بذلك جلادتهم وقوة نفوسهم فأخبر الله تعالى عن إهلاكهم وقد سبقت كيفية ذلك مراراً .

(171/571)

القصة الخامسة قصة صالح . قال جار الله : الهمزة في ﴿ أتتركون ﴾ يجوز أن تكون للإنكار اي لا تتركون مخلدين في الأمن والراحة ولكل نعمة زوال ، ويجوز أن تكون للتقرير أي قد تركتم في أسباب الأمن والفراغ ، أجمل أولاً بقوله ﴿ فيما ههنا ﴾ أي في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ، ثم فسره بقوله ﴿ في جنات وعيون ﴾ وذكر النخل بعد ذكر الجنات إما تخصيص للجنات بغير النخل ، وإما تخصيص للنخل بالذكر تنبيهاً على فضله

ومزيته . وطلع النخلة ما يبدو منها كنصل السيف وقد مر في " الأنعام " . والهضيم اللطيف الضامر من قولهم "كشح هضيم " أراد أنه وهب لهم أجود النخل وألطفه كالبرني مثلاً . وقيل : وصف نخيلهم بالحمل الكثير فإنه إذا كثر الحمل هضم أي لطف . وقيل : الهضيم اللين النضيج كأنه قال : ونخل قد ارطب ثمره . والفراهة الكيس والنشاط ومنه " خيل فرهة " و ﴿ فارهين ﴾ حال من الناحتين . قال علماء المعاني : جعل الأمر مطاعاً مجاز حكمي وإنما المطاع بالحقيقة هو الآمر . وفي قوله ﴿ ولا يصلحون ﴾ إشارة إلى أن إفسادهم في الأرض غير مقترن بالإصلاح راساً . والمسحر الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله . وقيل : هو من السحر الرئة . أرادوا أنه بشر ذو سحر وهو ضعيف لأنه يلزم التكرار بقوله : ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ إلا أن يقال : إنه بيان . والشرب النصيب من الماء كالسقي للحظ من السقي . وقرئ بالضم عن قتادة إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء .

سؤال : لم أخذهم العذاب وقد ندموا والندم توبة ؟ جوابه كان ندمهم ندم خوف من العقاب العاجل أو ندموا ندم توبة في غير أوانها وذلك عند عيان العذاب . وقيل : ندموا على ترك عقر ولدها وفيه بعد . واللام في العذاب إشارة إلى عذاب يوم عظيم .

القصة السادسة : قصة لوط : أنكر على قومه إتيانهم الذكور من الناس لا الإناث على كثرتهن ، أو أنكر عليهم كونهم مختصين من العالمين بهذه الفاحشة . فقوله : ﴿ من العالمين ﴾ يعود على الأول إلى المأتي ، وعلى الثاني إلى الآتي . والعالمون على هذا كل ما ينكح من الحيوان ولا شيء من الحيوان يرتكب هذه الفعلة إلا الإنسان . قوله ﴿ من أزواجكم ﴾ إما بيان لما خلق وإما للتبعيض فيراد بما خلق العضو المباح منهن فلعلهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم . والعادي المتجاوز الحد في ظلم اي ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ في جميع المعاصي وهذه واحدة منها ، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن تنسبوا إلى العدوان حيث فعلتم هذه الجريمة العظيمة . ﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط ﴾ عن نهينا ﴿ لتكونن ﴾ من جملة من أخرجناه من بلدنا ولعلهم كانوا يطردون من خالف أراد أنه كامل في قلاهم عصبية للدين ، أو أنه معدود في زمرة مبغضيهم كما تقول : فلان من العلماء . فيكون أبلغ من قولك " هو عالم " . ثم طلب النجاة من عقوبة عملهم أو سأل العصمة عن مثل عملهم ولقد عصمهم الله ﴿ إلا عجوزاً ﴾ رضيت بفعلهم وأعانت على ذلك وكانت من أهله بحث الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان . ومعنى ﴿ في الغابرين ﴾ إلا عجوزاص مقدراً غبورها أي بقاؤها في الهلاك . واللام في ﴿ المنذرين ﴾ للجنس لتصلح الفاء علة فعل الذم والمخصوص

محذوف أي ساء مطر جنس المنذرين مطر أولئك المعهودين والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 280.282 ﴾

(173/571)

قوله تعالى ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم وصل بذلك دليله ، فقال مذكراً الفعل لشدة كفرهم بدليل ما يأتي من إثبات الواو في ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ : ﴿ كذب أصحاب لئيكة ﴾ أي الغيضة ذات الأرض الجيدة التي تبتلع الماء فتنبت الشجر الكثير الملتف ﴿ المرسلين ﴾ لتكذيبهم شعيباً عليه السلام فيما أتى به من المعجزة السماوية في خرق العادة وعجز المتحدّين بها عن مقاومتها - لبقية المعجزات الآتي بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ إذ قال لهم ﴾ .

ولما كانوا أهل بدو وكان هو عليه السلام قروياً ، قال : ﴿ شعيب ﴾ ولم يقل : أخوهم ، إشارة إلى أنه لم يرسل نبياً إلا من أهل القرى ، تشريفاً لهم لأن البركة والحكمة في الاجتماع ، ولذلك نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن التعرب بعد الهجرة ، وقال : " من يرد الله به خيراً ينقله من البادية إلى الحاضرة " ﴿ ألا تتقون ﴾ أي تكونون من أهل التقوى ، وهو مخافة من الله سبحانه وتعالى .

ولما كان كأنه قيل : ما لك ولهذا ؟ قال : ﴿ إني ﴾ وأشار إلى تبشيرهم إن أطاعوه بقوله : ﴿ لكم رسول ﴾ أي من الله ، فهو أمرني أن أقول لكم ذلك ﴿ أمين ﴾ أي لا غش عندي ولا خداع ولا خيانه ، فلذلك أبلغ جميع ما أرسلت به ، ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي المستحق لجميع العظمة ، وهو المحسن إليكم بهذه الغيضة وغيرها

﴿ وأطيعون ﴾ أي لما ثبت من نصحي .

ولا قدم ما هو المقصود بالذات .

عطف على خبر ﴿إن﴾ قوله: ﴿وما أسئلكم عليه من أجر﴾ نفياً لما ينفر عنه؛ ثم زاد في البراءة مما يوكس من الطمع في أحد من الخلق فقال: ﴿إن﴾ أي ما ﴿أجري إلا على رب العالمين﴾ أي المحسن إلى الخلائق كلهم، فأنا لا أرجو أبداً أحداً يحتاج إلى الإحسان إليه، وإنما أعلق أملي بالمحسن الذي لا يحتاج إلى أحد، وكل أحد سائل من رفده، وآخذ من عنده ولقد اتضح أن الرسل متطابقون في الدعوة في الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة، مع النصح والعفة، والأمانة والخشية والمحسبة.

(174/571)

ولما كان كأنه قيل: ما الذي تنعى فيه؟ قال: مبيناً أن داءهم حب المال، المفضي لهم إلى سوء الحال، ﴿أوفوا الكيل﴾ أي أتموه إتماماً لا شبهة فيه إذا كلتم كما توفونه إذا اكتلتم لأنفسكم.

ولما أمرهم بالإيفاء نهاهم عن النقص على وجه أعم فقال: ﴿ولا تكونوا﴾ أي كوناً هو كالجبلة، ولعله إشارة إلى ما يعرض من نحو ذلك من الخواطر أو الهيئات التي يغلب الإنسان فيها الطبع ثم يرجع عنها رجوعاً يمحوها، ولذلك قال: ﴿من المخسرين﴾ أي الذين يخسرون - أي ينقصون - أنفسهم أديانها بإخسار الناس دنياهم بنقص الكيل أو غيره من

أنواع النقص من كل ما يوجب الغبن ، فتكونوا مشهورين بذلك بين من يفعله .

ولما أمر بوفاء الكيل ، أتبعه بمثل ذلك في الوزن ، ولم يجمعهما لما للتفريق من التعريف بمزيد الاهتمام فقال : ﴿ وزنوا ﴾ أي لأنفسكم وغيركم ﴿ بالقسطاس ﴾ أي الميزان الأقوم ؛ وأكد معناه بقوله : ﴿ المستقيم ﴾ .

ولما أمر بالوفاء في الوزن ، أتبعه نهياً عن تركه عاماً كما فعل في الكيل ليكون آكد فقال : ﴿ ولا تبخسوا ﴾ أي تنقصوا ﴿ الناس أشياءهم ﴾ أي في كيل أو وزن أو غيرهما نقصاً يكون كالسبخة لا فائدة فيه .

ثم أتبع ذلك بما هو أعم منه فقال : ﴿ ولا تعثوا ﴾ أي تتصرفوا ﴿ في الأرض ﴾ عن غير تأمل حال كونكم ﴿ مفسدين ﴾ أي في المال أو غيره ، قاصدين بذلك الإفساد - كما تقدم بيانه في سورة هود عليه السلام .

(175/571)

ولما وعظهم فابلغ في وعظهم بما ختمه بالنهي عن الفساد ، خوفهم من سطوات الله تعالى ما أحل بمن هو أعظم منهم فقال : ﴿ واتقوا الذي خلقكم ﴾ أي فإعدامكم أهون شيء عليه ، وأشار إلى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله : ﴿ والجبلة ﴾ أي الجماعة والأمة

﴿ الأولين ﴾ الذين كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة كأنها الجبال قوة وصلابة لا سيما قوم هود عليه السلام الذين هم عرب مثلكم ، وقد بلغت بهم الشدة في أبدانهم ، والصلابة في جميع أركانهم ، إلى أن قالوا ﴿ من أشد منا قوة ﴾ [فصلت : 15] وقد بلغكم ما أنزل بهم سبحانه من بأسه ، لأن العرب أعلم الناس بأخبارهم .

(176/571)

ولما كان الحاصل ما مضى الإعلام بالرسالة ، والتحذير من المخالفة ، لأنها تؤدي إلى الضلالة إلى أن ختم ذلك بالإشارة بالتعبير بالجبلة إلى أن عذابه تعالى عظيم ، لا يستعصي عليه صغير ولا كبير ، أجابوه بالقدح في الرسالة أولاً ، وباستصغار الوعيد ثانياً ، بأن ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أي الذين كرر سحرهم مرة بعد أخرى حتى اختبلوا ، فصار كلامهم على غير نظام ، أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى في صالح عليه السلام ، أي فأنت بعيد من الصلاحية للرسالة : ثم أشاروا إلى عدم صلاحية البشر مطلقاً لها ولو كانوا أعقل الناس وأبعدهم عن الآفة بقولهم ، عاطفين بالواو إشارة إلى عراقته فيما وصفوه به من جهة السحر والسحر ، وأنه لا فرق بينه وبينهم : ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ أي فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك ، والدليل على أن عطف ذلك أبلغ من إتباعه

من غير عطف جزمهم بظن كذبه في قولهم ؛ ﴿ وإن ﴾ أي وإنّا ﴿ نظنك لمن الكاذبين ﴾ أي العريقين في الكذب – هذا مذهب البصريين في أن ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة ، والذي يقتضيه السياق ترجح مذهب الكوفيين هنا في أن ﴿ إن ﴾ نافية ، فإنهم أرادوا بإثبات الواو في ﴿ وما ﴾ المبالغة في نفي إرساله بتعداد ما ينافيه ، فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظن يتوجه إلى غير الكذب ، وهو أبلغ من إثبات الظن به ، ويؤيده تسبيبهم عنه سؤاله استهزاء به وتعجيزاً له إنزال العذاب بخلاف ما تقدم عن قوم صالح عليه السلام ، فقالوا :

﴿ فأسقط علينا كسفاً ﴾ بإسكان السين على قراءة الجماعة وفتحها في رواية حفص ، وكلاهما جمع كسفة ، أي قطعاً ﴿ من السماء ﴾ أي السحاب ، أو الحقيقة ، وهذا الطلب لتصميمهم على التكذيب ، ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلاً عن طلبه ولا سيما كونه على وجه التهكم ، ولذلك قالوا : ﴿ إن كنت ﴾ أي كوناً هو لك كالجبلة ﴿ من الصادقين ﴾ أي العريقين في الصدق ، المشهورين فيما بين أهله ، لنصدقك فيما لزم من أمرك لنا

(177/571)

باتخاذ الوقاية من العذاب من التهديد بالعذاب ، وما أحسن نظره إلى تهديده لهم بما لله عليهم من القدرة في خلقهم وخلق من كانوا أشد منهم قوة وإهلاكهم بأنواع العذاب لما عصوه بتكذيب رسله .

ولما كان عذاب العاصي يتوقف على العلم المحيط بأعماله ، والقدرة على نكاله ، استأنف تعالى الحكاية عنه في تنبيهه لهم على ذلك بقوله : ﴿ قال ﴾ مشيراً إلى أنه لا شيء من ذلك إلا إلى من أرسله ، وهو متصف بكلا الوصفين ، وأما هو فإنه وإن كان عالماً فهو قاصر العلم فهو غير قادر : ﴿ ربي أعلم ﴾ أي مني ﴿ بما تعملون ﴾ لأنه محيط العلم فهو شامل القدرة ، فهو يعلم استحقاقكم للعذاب ، ومقدار ما تستحقون منه ووقت إنزاله ، فإن شاء عذبكم ، وأما أنا فليس عليّ إلا البلاغ وأنا مأمور به ، فلم أخوفكم من نفسي ولا ادعيت قدرة على عذابكم ، فطلبكم ذلك مني ظلم منكم مضموم إلى ظلمكم بالتكذيب .

ولما كان محط كلامهم كله على تكذيبهم له من غير قدح في قدرة الخالق ، سبب العذاب عن تكذيبهم فقال : ﴿ فكذبوه ﴾ أي استمروا على تكذيبه ﴿ فأخذهم ﴾ أي أخذ ملاك ﴿ عذاب يوم الظلة ﴾ وهي سحابة على نحو ما طلبوا من قطع السماء ، أتتهم بعد حر شديد نالهم حتى من الأسراب في داخل الأرض أشد مما نالهم من خارجها ليعلم أن لا فاعل إلا الله ، وأنه يتصرف كيف شاء على مقتضى العادة وغير مقتضاها فوجدوا من تلك الظلة نسيماً بارداً ، وروحاً طيباً ، فاجتمعوا تحتها استرواحاً إليها واستظلالاً بها ،

فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا بنحو مما اقترحوا وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، فنفذت فيهم سهام القدرة .

ولم يجدوا من دونها وقاية ولا سترة من غير أن تدعو حاجة إلى سقوط شيء من جرم السماء ، ولا بما دونها من العماء .

(178/571)

ولما كان الحال موجباً للسؤال عن يوم الظلة ، قال تعالى مهوّلاً لأمره ومعظماً لقدره : ﴿ إنه كان ﴾ فأكد ب "إن" وعظم ب "كان" ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ وزاده عظماً بنسبته إلى اليوم فصار له من الهول ، ببديع هذا القول ، ما تجب له القلوب وتعظم الكروب .

ولما كان لتوالي الإخبار بإهلاك هذه القرون ، وإبادة من ذكر من تلك الأمم ، من الرعب ما لا يبلغ وصفه ، ولا يمكن لغيره سبحانه شرحه ، قال تعالى مشيراً إليه تحذيراً من مثله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر العظيم من الإنجاء المطرد لكل رسول ومن أطاعه ، والأخذ المطرد لمن عصاه في كل عصر بكل قطر ، بحث لا يشذ من الفريقين إنسان قاص ولا دان ﴿ لآية ﴾ أي لدلالة واضحة عظيمة على صدق الرسل وأن يكونوا جديرين بتصديق العباد لهم في جميع ما قالوا من البشائر والنذائر بأن الله تعالى يهلك من عصاه ، وينجي من

والاه ، لأنه الفاعل المختار ، لا مانع له ، ولا سيما أنت وأنت أعظمهم منزلة ، وأكرمهم رتبة ، ولا سيما وقد أتيت قومك بما لا يكون معه شك لو لم يكن لهم بك معرفة قبل ذلك ، فكيف وهم عارفون بأنك كنت قبل الرسالة أصدقهم لهجة ، وأعظمهم أمانة ، وأغزرهم عقلاً ، وأوضحهم نبلاً ، وأعلاهم همة ، وأبعدهم عن كل دنس - وإن قل - ساحة ؛ ثم عجب من توقفهم في الإيمان مع ما عرفوا من صدق نبيهم وطهارة أخلاقه ، ووفور شفقته عليهم ، ولم يخافوا من مثل ما تحققوه من إهلاك هذه الأمم فقال : ﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أي أكثر قومك كما كان من قبلهم مع رؤية هذه الآيات ، وإحلال المثلات حتى لكأنهم تواصوا بذلك ﴿ مؤمنين ﴾ أي عريقين في الإيمان ، بل ما يؤمنون إلا وهو مشركون .

(179/571)

ولما كان هذا كله تأسية للداعي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتهديداً لمن تمادى على تكذيبه ، وترجية لمن رجع عن ذنوبه ، أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ وإن ربك ﴾ أي المحسن إليك بكل ما يعلي شأنك ، ويوضح برهانك ﴿ لهو العزيز ﴾ فلا يعجزه أحد ، ولا ينسب في إمهال عاص إلى إهمال ولا عجز ﴿ الرحيم ﴾ فلا يأخذ إلا بعد تجاوز الحد ، واليأس عن الرد ، مع البيان الشافي ، في الإبلاغ الوافي ، والتلطف الكافي ، وكرر الختام بهذا الكلام في هذه

السورة ثماني مرات فلعل من أسراره الإشارة إلى سبق الرحمة للغضب ، لأن من السورة – المفتتحة بالكتاب القيم والعبد الكامل بالإضافة إلى الملك الأعظم اللذين هما رحمة الخالق للخلائق ، وذكر فيها مع تقديمها في الترهيب أهل الرحمة من أهل الكهف الذين قالوا ﴿ هب لنا من لدنك رحمة ﴾ وموسى والخضر عليهما السلام اللذين آتى كلا منهما من لدنه رحمة ، وذا القرنين الذي آتاه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً وقال ﴿ هذا رحمة من ربي ﴾ – إلى سورة الرحمة بإنزال الفرقان على عبده المضاف إليه للإنذار المؤذن بصفة العزة – ثماني سور ، فكل منهما ثامنة الأخرى ، وافتتحت السورة الوالية للفرقان تفصيلاً لما في أول الكهف بقوله : ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ وبذكر ما على الأرض من زينة ﴿ ألم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ كل ذلك تذكيراً بما في تلك من الكتاب الجامع بالرحمة ، وتحذيراً مما في القرآن من الإنذار الفارق بالعزة ، فلما كان ذلك كررت صفتا العز التي أذنت بها الفرقان ، والرحمة التي صرحت بها الكهف ثماني مرات بحسب ذلك العدد ، تذكيراً بهذا المعنى البديع ، وترغيباً وترهيباً وتذكيراً بأبواب الرحمة الثمانية مع ما لختم القصص بذلك من الروعة في النفس ، والهيبة في القلب ، والأنس البالغ للروح ، وقدمت هنا صفة العزة الناظرة للإنذار بالفرقان على طريق النشر المشوش مع ما اقتضى ذلك من الحال هنا وجعلت القصص سبعاً تحذيراً من أبواب النقمة

السبعة – إلى غير ذلك من الأسرار التي لا تسعها الأفكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 386. 390 ﴾

(180/571)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ليكة ﴾ بلام مفتوحة بعدها ياء ساكنة وبفتح التاء على أنها ممتنعة من الصرف للعلمية والتأنيث ، وكذلك في " صاد " : اي جعفر ونافع وابن كثير وابن عامر . الآخرون ﴿ الأيكة ﴾ معرفاً مجروراً . ﴿ كسفاً ﴾ بفتح السين : حفص غير الخزاز . الآخرون بسكونها ﴿ ربي أعلم ﴾ بفتح الياء : نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ﴿ ونزل به ﴾ مخففاً ﴿ الروح الأمين ﴾ مرفوعين : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وابو زيد عن المفضل وزيد عن يعقوب . الباقون ﴿ نزل ﴾ مشدداً ﴿ الروح الأمين ﴾ منصوبين ﴿ أو لم تكن ﴾ بتاء التأنيث ﴿ آية ﴾ بالرفع : ابن عامر . الباقون بالياء التحتانية ﴿ آية ﴾ بالنصب : ﴿ فتوكل ﴾ بالفاء : أبو جعفر ونافع وابن عامر . الباقون بالواو ﴿ من تنزل الشياطين ﴾ بتشديد التاء وكذلك ﴿ تنزل ﴾ البزي وابن

فليح ﴿ يتبعهم ﴾ بالتخفيف : نافع ﴿ وادي ﴾ بالياء في الوقف : يعقوب والسرنديبي عن قنبل وقرأ قتيبة بالإمالة .

(181/571)

الوقوف : ﴿ المرسلين ﴾ ج5 ﴿ تتقون ﴾ 5 ﴿ أمين ﴾ 5 لا ﴿ وأطيعون ﴾ 5ج ﴿ أجر ﴾ ج ﴿ العالمين ﴾ 5 ط ﴿ المخسرين ﴾ ج5 ﴿ المستقيم ﴾ ج5 ﴿ مفسدين ﴾ ج5 ﴿ الأوّلين ﴾ 5 ط ﴿ المسحرين ﴾ 5 لا ﴿ الكاذبين ﴾ 5ج ﴿ نصف آي القرآن ﴾ ﴿ الصادقين ﴾ 5 ط ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ الظلة ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ لآية ﴾ ط ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ الأمين ﴾ 5 لا ﴿ المنذرين ﴾ 5 لا ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ الأولين ﴾ 5 ﴿ إسرائيل ﴾ ط5 ﴿ الأعجمين ﴾ 5لا ﴿ مؤمنين ﴾ 5 ط ﴿ المجرمين ﴾ 5 ط بناء على أن ﴿ لا يؤمنون ﴾ مستأنف للبيان ولو جعل حالاً فلا وقف ﴿ الأليم ﴾ 5 لا ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 لا ﴿ منظرون ﴾ 5ط ﴿ يستعجلون ﴾ 5 ﴿ سنين ﴾ 5 لا للعطف ﴿ يوعدون ﴾ 5 لا لأن قوله ﴿ ما أغنى ﴾ جملة نفي أو استفهام قامت مقام الشرط ﴿ يمتعون ﴾ 5ط ﴿ منذرون ﴾ 5 وقد يوقف عليها بناء على أن ﴿ ذكرى ﴾ ليس

بمفعول له والمراد ذكرناهم والوقف على ﴿ ذكرى ﴾ جائز ﴿ ظالمين ﴾ 5 ﴿ الشياطين ﴾ 5 ﴿ يستطيعون ﴾ 5 ط ﴿ المعزولون ﴾ 5ط ﴿ المعذبين ﴾ ج5 ﴿ الأقربين ﴾ ج5 للعطف ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ تعملون ﴾ 5ج ﴿ الرحيم ﴾ 5 لا ﴿ تقوم ﴾ 5 لا ﴿ الساجدين ﴾ 5 ﴿ العليم ﴾ 5 ﴿ الشياطين ﴾ 5 ط لانتهاء الاستفهام إلى الأخبار ﴿ أثيم ﴾ ج5 بناء على أن ﴿ يلقون ﴾ حال من ضمير ﴿ الشياطين ﴾ اي تنزل ملقين السمع أو صفة ﴿ لكل افاك ﴾ وإن جعل مستأنفاً كأن قائلاً قال : لم تنزل ؟ فقيل : يفعلون كيت وكيت فلك الوقف . ﴿ كاذبون ﴾ 5ط ﴿ الغاوون ﴾ 5 ط ﴿ يهيمون ﴾ 5 لا ﴿ لا يفعلون ﴾ 5 ﴿ ظلموا ﴾ ط ﴿ ينقلبون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 283.284 ﴾

(182/571)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

القصة السابعة قصة شعيب عليه السلام

قرىء ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الإضافة وهو الوجه ، ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف لكن قد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن ليكة اسم لا يعرف ، روي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هي التي حملها المقل ، فإن قيل هلا قال أخوهم شعيب كما في سائر المواضع جوابه : أن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة ، وفي الحديث : " إن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة " ثم إن شعيباً عليه السلام أمرهم بأشياء أحدها : قوله : ﴿ أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ وذلك لأن الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء بقوله : ﴿ أَوْفُواْ الكيل ﴾ ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف بقوله : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ ولم يذكر الزائد لأنه بحيث إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا إثم عليه ، ثم إنه لما أمر بالإيفاء بين أنه كيف يفعل فقال : ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ قرىء ﴿ بالقسطاس ﴾ مضموماً ومكسوراً وهو الميزان ، وقيل القرسطون وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ يقال بخسه حقه إذا نقصه إياه وهذا عام في كل حق يثبت لأحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن لا يغصب (علية) مالكه (ولا يتحيف منه) ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ يقال عثا في

الأرض وعثى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك الزرع ، وكانوا يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك ورابعها : قوله تعالى : ﴿ واتقوا الذى خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ وقرىء (الجبلة) بوزن الأبلة وقرىء (الجبلة) بوزن الخلقة ومعناهن واحد أي ذوي الجبلة ، والمراد أنه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا

(183/571)

خلقهم لما كانوا مخلوقين ، فلم يكن للقوم جواب إلا ما لو تركوه لكان أولى بهم وهو من وجهين : الأول : قولهم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فإن قيل : هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود ؟ جوابه : إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم السحر والبشرية وإذا تركت الواو فلم يقصدوا إلا معنى واحداً وهو كونه مسحراً ثم قرره بكونه بشراً مثلهم الثاني : قولهم : ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ ومعناه ظاهر ، ثم إن شعيباً عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب إن استمروا على التكذيب فقالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السماء ﴾ قرىء ﴿ كِسَفًا ﴾ بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهي القطعة والسماء السحاب أو الظلة ، وهم إنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه فعنده قال

شعيب عليه السلام : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فلم يدع عليهم بل فوض الأمر فيه إلى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على ما اقترحوا من عذاب يوم الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب ، وإن أرادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى أنه حبس عنهم الريح سبعاً وسلط عليهم الرمل فأخذ بأنفاسهم ، لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ، وروي أن شعيباً بعث إلى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة ، وههنا آخر الكلام في هذه القصص السبع التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما ناله من الغم الشديد ، بقي ههنا سؤالان :

(184/571)

السؤال الأول : لم لا يجوز أن يقال : إن العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم ، بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم ؟ وإذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص ، لأن الاعتبار إنما يحصل أن لو علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم .

الثاني : أن الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ما قال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين ﴾ [محمد : 31] ولأنه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم في مواضع كثيرة وإذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين والجواب : أن الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد صلى الله عليه وسلم تسلية وإزالة للحزن عن قلبه ، فلما أخبر الله تعالى محمداً أنه هو الذي أنزل العذاب عليهم ، وأنه إنما أنزله عليهم جزاء على كفرهم ، على محمد صلى الله عليه وسلم أن الأمر كذلك ، فحينئذ يحصل به التسلية والفرح له عليه السلام ، واحتج بعض الناس على القدح في علم الأحكام بأن قال المؤثر في هذه الأشياء ، إما الكواكب أو البروج أو كون الكوكب في البرج المعين ، والأول باطل ، وإلا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب والثاني أيضاً باطل ، وإلا لزم دوام الأثر بدوام البرج والثالث أيضاً باطل ، لأن الفلك على قولهم بسيط لا مركب فيكون طبع كل برج مساوياً لطبع البرج الآخر في تمام الماهية ، فيكون حال الكوكب وهو في برجه كحاله وهو في برج آخر ، فيلزم أن يدوم ذلك الأثر بدوام الكوكب ، وللقوم أن يقولوا لم لا يجوز أن يكون صدور الأثر عن الكوكب المعين موقوفاً على كونه مسامتاً مسامتة مخصوصة

لكوكب آخر ، فإذا فقدت تلك المسامتة فقد شرط التأثير فلا يحصل التأثير ؟ ولهم أن يقولوا هذه الدلالة ، إنما تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها ، ولكنها لا تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب جري العادة ، فإذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تأثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وأدوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بأن الله تعالى إنما خلقها لأجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها تكريراً لتلك العادات ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 140.142 ﴾

(186/571)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾

فيه خمسة تأويلات

: أحدها : أنه القبان ، قاله الحسن .

الثاني : الحديد ، رواه ابن المبارك .

الثالث : أنه المعيار ، قاله الضحاك .

الرابع : الميزان ، قاله الأخفش والكلبي .

الخامس : العدل .

واختلف قائلو هذا التأويل فيه هل هو عربي أو رومي ؟ فقال مجاهد والشعبي : هو العدل بالرومية ، وقال أبو عبيدة وابن شجرة : هو عربي وأصله القسط وهو العدل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : 18] أي بالعدل .

قوله تعالى : ﴿ . . . وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدها : معناه ولا تمشوا فيها بالمعاصي ، قاله أبو مالك .

الثاني : لا تمشوا فيها بالظلم بعد إصلاحها بالعدل ، قاله ابن المسيب .

ويحتمل ثالثاً : أن عبث المفسد ما ضر غيره ولم ينفع نفسه .

قوله تعالى : ﴿ وَالجِبِلَّةِ ﴾ يعني الخليقة ، قال امرؤ القيس :

والموت أعظم حادثٍ . . . فيما يمر على الجبلة

﴿ الأَوَّلِينَ ﴾ يعني الأمم الخالية ، والعرب تكسر الجيم والباء من الجبلة ، وقد تضمها وربما أسقطت الهاء كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [يس : 62] . قال أبو ذؤيب :

صناتا يقربن الحتوف لأهلها . . . جهازاً ويستمتعن بالأنس الجبل

قوله تعالى : ﴿ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : جانباً من السماء ، قاله الضحاك .

الثاني : قطعاً ، قاله قتادة .

الثالث : عذاباً ، قاله السدي ، قال الشاعر :

وُدّي لها خالص في القلب مجتمع . . . وودها فاعلمي كسف لما فوق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(187/571)

وقال ابن عطية :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

(188/571)

قال النقاش في مصحف ابن مسعود وأبي وحفصة " إذ قال لهم أخوهم شعيب " ، قالوا ولا وجه لمراعاة النسب وإنما هو أخوهم من حيث هو رسولهم وآدمي مثلهم ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر " أصحاب ليكة " على وزن فعلة هنا وفي ص ، وقرأ الباقون " الأيكة "

وهي الدوحة الملتفة من الشجر على الإطلاق ، وقيل من شجر معروف له غضارة تألفه الحمام والقماري ونحوها ، وقال قتادة كان شجرهم هذا دوماً ، و﴿ ليكة ﴾ اسم البلد في قراءة من قرأ ذلك قاله بعض المفسرين ، ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام ، وذهب قوم إلى أنها مسهلة من " الأيكة " وأنها وقعت في المصحف هنا وفي سورة ص بغير ألف ، وقال أبو علي سقوط ذلك من المصحف لا يرجح النطق بها هكذا ، لأن المصحف اتبع فيه تسهيل اللفظ ، فكما سقطت الألف من اللفظ سقطت من الخط نحو سقوط الواو من قوله ﴿ سندع الزبانية ﴾ [العلق : 18] ، لما سقطت من اللفظ ، وأما ترجيح القراءة في " ليكةَ " بفتح التاء في موضع الجر فلا يقتضيه ما في المصحف وهي قراءة ضعيفة ، ويدل على ضعفها أن سائر القرآن غير هذين الموضعين مجمع فيه على " الأيكة " بالهمزة والألف والخفض ، وكانت مدن القوم سبعة فيما روي ولم يكن شعيب منهم ، فلذلك لم يذكر هنا بأنه أخ لهم وإنما كان من بني مدين ولذلك ذكر بأخوتهم ، وجاءت الألفاظ في دعاء كل واحد من هؤلاء الأنبياء واحدة بعينها إذ كان الإيمان المدعو إليه معنى واحداً بعينه ، وفي قولهم عليهم السلام ﴿ ألا تتقون ﴾ عرض رقيق وتلطف كما قال تعالى : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ [النازعات : 18] . وكانت معصيتهم المضافة إلى كفرهم بخس الموازين وتنقص أموال الناس بذلك . و" القسطاس " المعتدل من الموازين هو بناء مبالغة من القسط ، وذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن معنى قوله ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ عدلوا أموركم

بميزان العدل الذي جعله الله لعباده ، وقرأ الجمهور " بالقُسطاس " بضم القاف من " القُسطاس " وقرأ عيسى وأهل الكوفة

(189/571)

بكسرها ، و﴿ تعثوا ﴾ معناه تفسدون يقال عثا إذا أفسد ، و﴿ الجبلة ﴾ القرون ، والخليقة الماضية وقال الشاعر :

[الكامل]

والموت أعظم حادث . . . مما يمر على الجبلَّه

وقرأ جمهور الناس " والجِبِلة " بكسر الجيم والباء ، وقرأ ابن محيصن والحسن بخلاف " والجُبُلة " بضمها ، و" الكسف " القطع واحدها كسفة كتمرة وتمر ، و﴿ يوم الظلمة ﴾ هو يوم عذابهم وصورته فيما روي أن الله امتحنهم بحر شديد ، فلما كان في ذلك اليوم غشي بعض قطرهم سحاب فجاء بعضه إلى ظله فأحس فيه برداً وروحاً فتداعوا إليه ، حتى تكاملوا فيه فاضطرمت عليهم تلك السحاب ناراً فأحرقتهم من عند آخرهم ، وللناس في حديث ﴿ يوم الظلة ﴾ تطويلات لا تثبت ، والحق أنه عذاب جعله الله ظلة عليهم ، وذكر

الطبري عن ابن عباس أنه قال من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب ، وباقي الآية بين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(190/571)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ كذَّب أصحابُ الأيكة ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : ﴿ أصحابُ لَيْكَةَ ﴾ هاهنا ، وفي [ص : 13] بغير همز والتاء مفتوحة ؛ وقرأ الباقون : ﴿ الأيكَةِ ﴾ بالهمز فيهما والألف .

وقد سبق هذا الحرف [الحجر : 78] .

﴿ إذ قال لهم شُعَيب ﴾ إن قيل : لِمَ لم يقل : أخوهم ، كما قال في [الأعراف : 85] ؟

فالجواب : أن شعيباً لم يكن من نسل أصحاب الأيكة ، فلذلك لم يقل : أخوهم ، وإنما أُرسل إليهم بعد أن أُرسِلَ إلى مَدْيَن ، وهو من نسل مَدْيَن ، فلذلك قال هناك : أخوهم ، هذا قول مقاتل بن سليمان .

وقد ذكرنا في سورة [هود : 94] عن محمد بن كعب القرظي ، أن أهل مَدْيَن عذِّبوا بعذاب الظُّلَّة ، فإن كانوا غير أصحاب الأيكة كما زعم مقاتل ، فقد تساوَوا في العذاب ،

وإن كان أصحاب مَدْين هم أصحاب الأيكة ، وهو مذهب ابن جرير الطبري كان حذف ذكر الأخ تخفيفاً ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا من المُخْسِرين ﴾

أي : من الناقِصِين للكَيْل ، يقال : أخسرتُ الكَيْل والوزن : إذا نقصته .

وقد ذكرنا القسطاس في [بني إسرائيل : 35] .

قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا الذي خلَقكم والجِبِلَّةَ ﴾ أي : وخَلَق الجِبِلَّة .

وقيل : المعنى : واذكروا ما نزل بالجِبِلَّة ﴿ الأوَّلين ﴾ .

وقرأ الحسن ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : ﴿ والجُبُلَّةَ ﴾ برفع الجيم والباء جميعاً مشددة اللام .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والضحاك ، وعاصم الجحدري : بكسر الجيم وتسكين الباء وتخفيف اللام .

قال ابن قتيبة : الجِبِلَّة : الخَلْق ، يقال : جُبِل فلان على كذا ، أي خُلق .

قال الشاعر :

والموتُ أعظمُ حادثٍ . . .

مِمَّا يَمُرُّ على الجِبِلَّهْ

قوله تعالى : ﴿ فأسْقِط علينا كِسْفاً ﴾

قال ابن قتيبة : أي قطعةً ﴿ من السماء ﴾ ، و"كِسَفٌ" جمع "كِسْفَة" ، [كما] يقال : قِطَعٌ وقِطْعَة .

(191/571)

قوله تعالى : ﴿ ربِّي أعلمُ بما تعلمون ﴾ أي : من نقصان الكيل والميزان ؛ والمعنى : إنه يُجازيكم إن شاء ، وليس عذابكم بيدي ، ﴿ فكذَّبوه فأخذهم عذابُ يومِ الظُّلَّة ﴾ قال المفسرون : بعث الله عليهم حرّاً شديداً ، فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرِّيَة ، فبعث الله عليهم سحابة أظلَّتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ، ونادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أرسل الله عليهم ناراً ، فكان ذلك من أعظم العذاب . والظُّلَّة : السحابة التي أظلَّتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(192/571)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة المرسلين ﴾

الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة .

ومن قرأ : ﴿ أَصْحَابُ الأَيكَةِ ﴾ فهي الغيضة .

ومن قرأ ﴿ لَيْكَةَ ﴾ فهو اسم القرية .

ويقال : هما مثل بكة ومكة ؛ قاله الجوهري .

وقال النحاس : وقرأ أبو جعفر ونافع : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وكذا قرأ في "صا" .

وأجمع القراء على الخفض في التي في سورة "الحِجرِ" والتي في سورة "قا" فيجب أن يرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه إذ كان المعنى واحداً .

وأما ما حكاه أبو عبيد من أن ﴿ ليكة ﴾ هي اسم القرية التي كانوا فيها وأن ﴿ الأيكة ﴾ اسم البلد فشيء لا يثبت ولا يعرف من قاله فيثبت علمه ، ولو عرف من قاله لكان فيه نظر ؛ لأن أهل العلم جميعاً من أهل التفسير والعلم بكلام العرب على خلافه .

وروى عبد الله بن وهب عن جرير بن حازم عن قتادة قال : أرسل شعيبٌ عليه السلام إلى أمتين : إلى قومه من أهل مدين ، وإلى أصحاب الأيكة ؛ قال : والأيكة غيضة من شجر ملتف .

وروى سعيد عن قتادة قال : كان أصحاب الأيكة أهل غيضة وشجر وكانت عامّة شجرهم الدوم وهو شجر الْمُقل .

وروى ابن جبير عن الضحاك قال : خرج أصحاب الأيكة يعني حين أصابهم الحرّ فانضموا إلى الغيضة والشجر ، فأرسل الله عليهم سحابة فاستظلوا تحتها ، فلما تكاملوا تحتها أُحرقوا .

ولو لم يكن هذا إلا ما روي عن ابن عباس قال : و"الأيكة" الشجر .

(193/571)

ولا نعلم بين أهل اللغة اختلافاً أن الأيكة الشجر الملتف ، فأما احتجاج بعض من احتج بقراءة من قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنه في السواد ﴿ ليكة ﴾ فلا حجة له ؛ والقول فيه : إن أصله الأيكة ثم خففت الهمزة فألقيت حركتها على اللام فسقطت واستغنت عن ألف الوصل ؛ لأن اللام قد تحركت فلا يجوز على هذا إلا الخفض ؛ كما تقول بالأحمر تحقق الهمزة ثم تخففها فنقول بِلَحْمرِ ؛ فإن شئت كتبته في الخط على ما كتبته أوّلاً ، وإن شئت كتبته بالحذف ؛ ولم يجز إلا الخفض ؛ قال سيبويه : واعلم أن ما لا ينصرف إذا دخلت عليه الألف واللام أو أضيف انصرف ؛ ولا نعلم أحداً خالف سيبويه في هذا .

وقال الخليل : ﴿ الأيكة ﴾ غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب ؛ لأنه لم يكن أخاً لأصحاب الأيكة في

النسب، فلما ذكر مدين قال: ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾؛ لأنه كان منهم.

وقد مضى في "الأعراف" القول في نسبه.

قال ابن زيد: أرسل الله شعيباً رسولاً إلى قومه أهل مدين، وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة؛ وقاله قتادة.

وقد ذكرناه.

﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ تخافون الله ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ الآية.

وإنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة.

﴿ أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ الناقصين للكيل والوزن.

﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ أي اعطوا الحق.

وقد مضى في ﴿ سبحان ﴾ وغيرها ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ تقدّم في "هود" وغيرها.

﴿ واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ قال مجاهد: الجِبِلة هي الخليقة.

وجُبِل فلان على كذا أي خُلق ؛ فالخُلُق جِبِلَّة وجُبُلَّة وجِبْلَة وجُبْلَة وجَبْلَة ذكره النحاس في "معاني القرآن" .

﴿ والجِبِلَّة ﴾ عطف على الكاف والميم .

قال الهروي : الجِبِلّة والجُبُلّة والجِبِلُّ والجُبُلُّ والجَبْلُ لغات ؛ وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [ياس : 62] .

قال النحاس في كتاب "إعراب القرآن" له : ويقال جُبُلَّةٌ والجمع فيهما جَبَّالٌ ، وتحذف الضمة والكسرة من الباء ، وكذلك التشديد من اللام ؛ فيقال : جُبْلَةٌ وجُبَلٌ ، ويقال : جِبْلَةٌ وجِبَالٌ ؛ وتحذف الهاء من هذا كله .

وقرأ الحسن باختلاف عنه : ﴿ وَالْجُبُلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾ بضم الجيم والباء ؛ وروي عن شيبة والأعرج .

الباقون بالكسر .

قال :

والموتُ أعظمُ حادثٍ . . .

فيما يَمرُّ على الجِبِلَّه

﴿ قالوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدّم .

﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ أي ما نظنك إلا من الكاذبين في أنك رسول الله تعالى .

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ أي جانباً من السماء وقطعة منه ، فننظر إليه ؛ كما قال : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السمآء سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ [الطور : 44] .

وقيل : أرادوا أنزل علينا العذاب .

وهو مبالغة في التكذيب .

قال أبو عبيدة : الكِسْف جمع كِسْفةٍ مثل سِدْر وسِدْرةٍ .

وقرأ السلمي وحفص : "كِسَفاً" جمع كِسْفَة أيضاً وهي القطعة والجانب تقديره كِسْرة وكسَر .

قال الجوهري : الكِسْفة القِطعة من الشيء ؛ يقال أعطني كِسفة من ثوبك والجمع كِسَفٌ وكِسْفٌ .

ويقال : الكِسْف والكِسْفَة واحد .

وقال الأخفش : من قرأ ﴿ كِسْفاً ﴾ جعله واحداً ومن قرأ ﴿ كِسَفاً ﴾ جعله جمعاً .

وقد مضى هذا في سورة "سبحان" .

(195/571)

وقال الهروي : ومن قرأ : ﴿ كِسْفاً ﴾ على التوحيد فجمعه أكساف وكسوف ؛ كأنه قال أو تسقطه علينا طبقاً واحداً ، وهو من كسفت الشيء كسفاً إذا غطيته .

﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين قَالَ ربي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ؛ أي إنما عليّ التبليغ وليس العذاب الذي سألتم إليّ وهو يجازيكم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ قال ابن عباس : أصابهم حر شديد ، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلّوا بها ، فلما صاروا تحتها صيح بهم فهلكوا .

وقيل : أقامها الله فوق رؤوسهم ، وألهبها حرّاً حتى ماتوا من الرَّمْدِ .

وكان من أعظم يوم في الدنيا عذاباً .

وقيل : بعث الله عليهم سَموماً فخرجوا إلى الأيكة يستظلون بها فأضرمها الله عليهم ناراً فاحترقوا .

وعن ابن عباس أيضاً وغيره : إن الله تعالى فتح عليهم باباً من أبواب جهنم ، وأرسل عليهم هَدَّة وحرّاً شديداً فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظِلٌّ ولا ماء فأنضجهم الحر ، فخرجوا هرباً إلى البرية ، فبعث الله عز وجل سحابة فأظلتهم فوجدوا لها برداً وروحاً وريحاً طيبة ، فنادى بعضهم بعضاً ، فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله تعالى عليهم ناراً ، ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى ، فصاروا رماداً ؛ فذلك قوله : ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ [هود : 94 95] وقوله :

﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقيل : إن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ، وسلّط عليهم الحرّ حتى أخذ بأنفاسهم ، ولم ينفعهم ظلّ ولا ماء فكانوا يدخلون الأسراب ، ليتبردوا فيها فيجدوها أشدّ حرّاً من الظاهر .

فهربوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة وهي الظّلّة ، فوجدوا لها برداً ونسيماً ، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا .

(196/571)

وقال يزيد الجُرَيْريّ : سلّط الله عليهم الحرّ سبعة أيام ولياليهن ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون وشجر وماء بارد ، فاجتمعوا كلهم تحته ، فوقع عليهم الجبل وهو الظّلّة .

وقال قتادة : بعث الله شعيباً إلى أُمتين : أصحاب مدين وأصحاب الأيكة فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظُّلَّة ، وأما أصحاب مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ قيل : آمن بشعيب من الفئتين تسعمائة نفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

قرأ الحرميان وابن عامر : ليكة هنا ، وفي ﴿ ص ﴾ بغير لام ممنوع الصرف .

وقرأ باقي السبعة الأيكة ، بلام التعريف .

فأما قراءة الفتح ، فقال أبو عبيد : وجدنا في بعض التفسيران : ليكة : اسم للقرية ، والأيكة : البلاد كلها ، كمكة وبكة ، ورأيتها في الإمام مصحف عثمان في الحجر و ﴿ ق ﴾ : الأيكة ، وفي الشعراء و ﴿ ص ﴾ : ليكة ، واجتمعت مصاحف الأمصار كلها بعد على ذلك ولم تختلف . انتهى .

وقد طعن في هذه القراءة المبرد وابن قتيبة والزجاج وأبو عليّ الفارسي والنحاس ، وتبعهم الزمخشري ؛ ووهموا القراء وقالوا : حملهم على ذلك كون الذي كتب في هذين الموضعين على اللفظ في من نقل حركة الهمزة إلى اللام وأسقط الهمزة ، فتوهم أن اللام من بنية الكلمة ففتح الياء ، وكان الصواب أن يجيز ، ثم مادّة ل ي ك لم يوجد منها تركيب ، فهي مادّة مهملة .

كما أهملوا مادّة خ ذ ج منقوطاً ، وهذه نزغة اعتزالية ، يعتقدون أن بعض القراءة بالرأي لا بالرواية ، وهذه قراءة متواترة لا يمكن الطعن فيها ، ويقرب إنكارها من الردّة ، والعياذ بالله .

أما نافع ، فقرأ على سبعين من التابعين ، وهم عرب فصحاء ، ثم هي قراءة أهل المدينة قاطبة .

وأما ابن كثير ، فقرأ على سادة التابعين ممن كان بمكة ، كمجاهد وغيره ، وقد قرأ عليه إمام البصرة أبو عمرو بن العلاء ، وسأله بعض العلماء : أقرأت على ابن كثير ؟ قال : نعم ، ختمت على ابن كثير بعد ما ختمت على مجاهد ، وكان ابن كثير أعلم من مجاهد باللغة .

قال أبو عمرو : ولم يكن بين القراءتين كبير يعني خلافاً .

وأما ابن عامر فهو إمام أهل الشام ، وهو عربي قح ، قد سبق اللحن ، أخذ عن عثمان ، وعن أبي الدرداء وغيرهما .

(198/571)

فهذه أمصار ثلاثة اجتمعت على هذه القراءة الحرمان مكة والمدينة والشام ، وأما كون هذه المادّة مفقودة في لسان العرب ، فإن صح ذلك كانت الكلمة عجمية ، ومواد كلام

العجم مخالفة في كثير مواد كلام العرب ، فيكون قد اجتمع على منع صرفها العلمية والعجمة والتأنيث .

وتقدم مدلول الأيكة في الحجر ، وكان شعيب عليه السلام من أهل مدين ، فلذلك جاء : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ ولم يكن من أهل الأيكة ، فلذلك قال هنا : ﴿ إذ قال لهم شعيب ﴾ .

ومن غريب النقل ما روي عن ابن عباس ، أن ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ هم أصحاب مدين ، وعن غيره ، أن ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ هم أهل البادية ، وأصحاب مدين هم الحاضرة . وروي في الحديث : " أن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة ، أمرهم بإيفاء الكيل ، وهو الواجب ، ونهاهم عن الإخسار ، وهو التطفيف ، ولم يذكر الزيادة على الواجب ، لأن النفوس قد تشح بذلك فمن فعله فقد أحسن ، ومن تركه فلا حرج "

وتقدم تفسير القسطاس في سورة الإسراء .

وقال الزمخشري : إن كان من القسط ، وهو العدل ، وجعلت العين مكررة ، فوزنه فعلاء ، وإلا فهو رباعي . انتهى .

ولو تكرر ما يماثل العين في النطق ، لم يكن عند البصريين إلا رباعياً .

وقال ابن عطية : هو مبالغة من القسط . انتهى .

والظاهر أن قوله : ﴿ وزنوا ﴾ ، هو أمر بالوزن ، إذ عادل قوله : ﴿ أوفوا الكيل ﴾ ،

فشمل ما يكال وما يوزن مما هو معتاد فيه ذلك .

وقال ابن عباس ومجاهد : معناه عدلوا أموركم كلها بميزان العدل الذي جعله الله لعباده .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ : الجملة والتي تليها تقدم الكلام عليهما .

ولما تقدم أمره عليه السلام إياهم بتقوى الله ، أمرهم ثانياً بتقوى من أوجدهم وأوجد من قبلهم ، تنبيهاً على أن من أوجدهم قادر على أن يعذبهم ويهلكهم .

وعطف عليهم ﴿ والجبلة ﴾ إيذاناً بذلك ، فكأنه قيل : يصيركم إلى ما صار إليه أولوكم ، فاتقوا الله الذي تصيرون إليه .

(199/571)

وقرأ الجمهور : والجبلة بكسر الجيم والباء وشد اللام .

وقرأ أبو حصين ، والأعمش ، والحسن : بخلاف عنه ، بضمها والشد للام .

وقرأ السلمي : والجبلة ، بكسر الجيم وسكون الباء ، وفي نسخة عنه : فتح الجيم وسكون الباء ، وهي من جبلوا على كذا ، أي خلقوا .

قيل : وتشديد اللام في القراءتين في بناءين للمبالغة .

وعن ابن عباس : الجبلة : عشرة آلاف .

﴿ وما أنت ﴾ : جاء هنا بالواو ، وفي قصة هود : ﴿ ما أنت ﴾ ، بغير واو .

فقال الزمخشري : إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان ، كلاهما مخالف للرسالة عندهم ، التسحير والبشرية ، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ، ولا يجوز أن يكون بشراً ، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد ، وهو كونه مسحراً ، ثم قرر بكونه بشراً . انتهى .

﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ : إن هي المخففة من الثقيلة ، واللام في لمن هي الفارقة ، خلافاً للكوفيين ، فإن عندهم نافية واللام بمعنى إلا ، وتقدم الخلاف في نحو ذلك في قوله : ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ في البقرة .

ثم طلبوا منه إسقاط كسف ، من السماء عليهم ، وليس له ذلك ، فالمعنى : إن كنت صادقاً ، فادع الذي أرسلك أن يسقط علينا كسفاً ، أي قطعة ، أو قطعاً على حسب التسكين والتحريك .

وقال الزمخشري : وكلاهما جمع كسفة ، نحو : قطع وشذر .

وقيل : الكسف والكسفة ، كالريع والريعة ، وهي القطعة وكسفة : قطعة ، والسماء : السحاب أو المظلة .

ودل طلبهم ذلك على التصميم على الجحود والتكذيب .

ولما طلبوا منه ما طلبوا ، أحال علم ذلك إلى الله تعالى ، وأنه هو العالم بأعمالكم ، وبما تستوجبون عليها من العقاب ، فهو يعاقبكم بما شاء .

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ ، وهو نحو مما اقترحوا .

ولم يذكر الله كيفية عذاب يوم الظلة ، حتى أن ابن عباس قال : من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب ، وذكر في حديثها تطويلات .

(200/571)

فروى أنه حبس عنهم الريح سبعاً ، فابتلوا بحرّ عظيم يأخذ بأنفاسهم ، لا ينفعهم ظل ولا ماء ، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً ، فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم ناراً فأحرقتهم .

وكرر ما كرر في أوائل هذه القصص ، تنبيهاً على أن طريقة الأنبياء واحدة لا اختلاف فيها ، وهي الدعاء إلى توحيد الله وعبادته ورفض ما سواه ، وأنهم ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) مشتركون في ذلك ، وأن ما جاء به (صلى الله عليه وسلم) هو ما جاءت به الرسل قبله ، وتلك عادة الأنبياء .

قال ابن عطية : وجاءت الألفاظ في دعاء كل واحد من هؤلاء الأنبياء واحدة بعينها ، إذ كان الإيمان المدعو إليه معنى واحداً بعينه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر ؟

قلت : كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها .

فكانت كل واحدة منها تدلى بحق ، إلى أن يفتتح بمثل ما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بمثل ذلك مما اختتمت به ، ولأن التكرير تقرير للمعاني في النفوس ، وتثبيت لها في الصدور ، ولأن هذه القصص طرقت بهذا آذان ، وقرعن الأنصات للحق ، وقلوب غلف عن تدبره ، فأوثرت بالوعظ والتذكير ، وروجعت بالترديد والتكرير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(201/571)

وقال أبو السعود :

﴿ كَذَّبَ أصحاب لْئَيْكَةِ المرسلين ﴾

الأيكةُ الغَيضةُ التي تُنبتُ ناعمَ الشَّجر وهي غَيضةٌ بقرب مَدْيَن يسكنها طائفة وكانُوا ممَّن بُعثَ إليهم شعيب عليه السَّلامُ وكان أجنبيَّاً منهم ولذلك قيل : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ ولم يقُل أخُوهم ، وقيل : الأيكةُ الشَّجرُ الملتفُّ وكان شجرُهم الدَّومَ وهو المَقْلُ . وقُرىء بحذف الهمزةِ وإلقاءِ حركتِها على اللامِ وقُرئت كذلك مفتوحةً على أنَّها لَيْكةُ وهي اسمُ بلدهم وإنَّما كُتبت ههنا وفي ص بغيرِ ألفٍ إتباعاً للفظِ اللافظ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين * أَوْفُواْ الكيل ﴾ أي أتمُّوه ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ أي حقوقَ النَّاس بالتّطفيف .

﴿ وَزِنُواْ ﴾ أي الموزوناتِ ﴿ بالقسطاس المستقيم ﴾ بالميزانِ السَّويِّ وهو إن كانَ عربيّاً فإنْ كان من القسطِ فِفعلاسٌ بتكرير العينِ وإلا ففعلالٌ وقُرِىء بضمِّ القاف .

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ أي لا تُنقصوا شيئاً من حقوقِهم أي حقَ كان وهذا تعميمٌ بعد تخصيص بعضِ الموادِّ بالذكر لغاية انهماكِهم فيها ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ بالقتل والغارة وقطعِ الطَّريقِ .

﴿ واتقوا الذى خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ أي وذوي الجُبْلَّةِ الأوّلينَ وهم مَن تقدمهم من الخلائق . وقُرِىء بضمِّ الجيمِ والباءِ وبكسرِ الجيمِ وسكون الباءِ كالخِلْقة .

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين * وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ إدخالُ الواو بين الجملتينِ للدّلالة على أنّ كلاًّ من التَّسحيرِ والبشريةِ منافٍ للرِّسالةِ مبالغةً في التَّكذيبِ ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ أي فيما تدَّعيه من النُّبوة .

(202/571)

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السماء ﴾ أي قِطعاً . وقُرِىء بسكون السِّينِ وهو أيضاً جمعُ كِسفةٍ وقيل : الكِسفُ والكِسفةُ كالرِّيعِ والرِّيعةِ وهي القطعةُ . والمرادُ بالسَّماءِ إمَّا السَّحابُ أو المظلة ، ولعلَّه جوابٌ لما أشعر به الأمرُ بالتَّقوى من التَّهديد ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواكَ ولم يكُن طلبُهم ذلك إلا لتصميمهم على الجُحود والتَّكذيبِ وإلاَّ لما أخطرُوه ببالهم فضلاً أنْ يطلبُوه .

﴿ قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الكُفر والمعاصي وبما تستحقُّون بسببه من العذابِ فسينزله عليكم في وقته المقدَّرِ له لا محالة .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي فتمُّوا على تكذيبه وأصرُّوا عليه ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ حسبما اقترحُوا . أمَّا إن أرادُوا بالسَّماءِ السَّحابُ فظاهرٌ وأما إنْ أرادُوا الظلة فلأنَّ نزولَ العذابِ من جهتها ، وفي إضافة العذابِ إلى يومِ الظُّلَّةِ دون نفسها إيذانٌ بأنَّ لهم يومئذٍ عذاباً آخرَ غيرَ عذاب الظُّلة وذلك بأنْ سلَّط الله عليهم الحرَّ سبعةَ أيام ولياليَها فأخذَ بأنفُسِهم لا ينفعهم طلٌّ ولا ماءٌ ولا سَرَبٌ فاضطرُّوا إلى أنْ خرجُوا إلى البرِّيَّةِ فأظلتُهم سحابةٌ وجدوا لها بَرْداً ونَسيماً فاجتمعُوا تحتها فأمطرتْ عليهم ناراً فاحترقُوا جميعاً . رُوي أنَّ شُعيباً عليه السَّلامُ بُعث إلى أمَّتينِ أصحابِ مَدْينَ وأصحابِ الأَيكةِ فأُهلكتْ مَدْينُ بالصَّيحةِ والرَّجفةِ وأصحابُ الأيكةِ بعذابِ يوم الظُّلَّةِ ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي في الشِّدَّةِ

والهَوْلِ وفظاعةِ ما وقع فيه من الطَّامةِ والدَّاهيةِ التَّامةِ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾

(203/571)

هذا آخرُ القِصصِ السَّبعِ التي أُوحيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الحرصِ على إسلام قومِه وقطعِ رجائه عنه ودفع تحسُّره على فواتِه تحقيقاً لمضمونِ ما مرَّ في مطلع السُّورةِ الكريمةِ من قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُواْ ﴾ الآيةَ فإنَّ كلَّ واحدةٍ من هذه القصص ذكرٌ مستقلٌّ متجدّدِ النُّزولِ قد أتاهم من جهتِه تعالى بموجب رحمتِه الواسعة وما كان أكثرُهم مؤمنين بعد ما سمعُوها على التَّفصيلِ قصَّةً بعد قصَّةٍ لا بأنْ يتدَّبروا فيها ويعتبروا بما في كلِّ واحدة منها من الدَّواعي إلى الإيمان والزَّواجرِ عن الكفر والطُّغيان ولا بأنْ يتأمَّلوا في شأن الآياتِ الكريمةِ النَّاطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع علمِهم بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يسمعْ شيئاً منها من أحدٍ أصلاً واستمرُّوا على ما كانُوا عليه من الكفرِ والضَّلالِ كأنْ لم يسمعوا شيئاً يزجرهم عن ذلكَ قطعاً كما حُقِّقَ في خاتمة قصَّةِ موسى عليه السلام .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ كَذَّبَ أَصحاب لْئَيْكَةِ المرسلين ﴾

الأيكة الغيضة التي تنبت ناعم الشجر وهي غيضة من ساحل البحر إلى مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام وكان أجنبياً منهم ولذلك قيل .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ولم يقل أخوهم ، وقيل : ﴿ لْئَيْكَةِ ﴾ الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل ، وعلى القولين ﴿ كَذَّبَ أَصحاب ﴾ غير أهل مدين ، ومن غريب النقل عن ابن عباس أنهم هم أهل مدين .

وقرأ الحرميان .

وابن عامر ﴿ ليكة ﴾ بلام مفتوحة بعدها ياء بغير ألف ممنوع الصرف هنا ، وفي ص ؛ قال أبو عبيدة : وجدنا في بعض كتب التفسير أن ﴿ ليكة ﴾ اسم للقرية و ﴿ أَصحاب لْئَيْكَةِ ﴾ البلاد كلها كمكة .

وبكة .

ورأيتها في الإمام مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه في الحجر و ﴿ ق ﴾ ﴿ لْئَيْكَةِ ﴾

وفي ﴿ الشعراء وص ﴾ ﴿ ليكة ﴾ واجتمعت مصاحب الأمصار كلها بعد ذلك ولم تختلف ، وفي الكشاف من قرأ بالنصب ، وزعم أن ﴿ ليكة ﴾ بوزن ليلة اسم بلد فتوهم قاد أليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة هنا وفي ﴿ العالمين ص ﴾ بغير ألف ، وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف الخط المصطلح عليه وإنما كتبت في ها تين السورتين عل حكم لفظ اللافظ كما يكتب أصحاب النحو الآن لأن والأولى لولى لبيا ن لفظ المخفف .

وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل والقصة واحدة على أن ﴿ ليكة ﴾ اسم لا يعرف انتهى ، وتعقب بأنه دعوى من غير ثبت وكفى ثبتاً للمخالف ثبوت القراءة في السبعة وهي متواترة كيف وقد انضم إليه ما سمعت عن بعض كتبت التفسير .

(205/571)

وإن لم تعول عليه فما روي البخاري في صحيحه ﴿ أصحاب لْئَيْكَةِ ﴾ وليكة الغيضة ، هذا وان الأسماء المرتجلة لا منع منها ، وفي البحر أن كون مادة ل ى ك مفقودة في لسان العرب كما تشبث به من أنكر هذه القراءة المتواترة إن صح لا يضر وتكون التكلمة عجمية ومواد كلام العجم مخالفة في كثر مواد كلام العرب فيكون قد اجتمع على منع صرفها العلمية

والعجمة والتأنيث ، وبالجملة إنكار الزمخشري صحة هذه القراءة يقرب من الردة والعياذ بالله تعالى .

وقد سبقه في ذلك المبرد .

وابن قتيبة .

والزجاج .

والفارسي .

والنحاس ، وقرىء ﴿ ليكة ﴾ بحذف الهمة والقاء حركتها على اللام والجر بالكسرة وتكتب على حكم لفظ اللافظ بدون همزة وعلى الأصل بالهمزة وكذا نظائرها .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَوْفُواْ الكيل ﴾ أي أتموه .

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181)

﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ أي حقوق الناس بالتطفيف ولعل المبالغة المستفادة من التركيب متوجهة إلى النهي أو أنه لا يعتبر المفهوم لنحو ما قيل في قوله تعالى : ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ الربا أضعافا مضاعفة ﴾ [آل عمران : 130] وأياً ما كان ففي النهي المذكور تأكيد للأمر السابق .

﴿ وَزِنُواْ ﴾ الموزونات .

بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أي بالميزان السوى ، وقيل : القسطاس القبان وروي ذلك عن الحسن ، وهو عند بعض معرب رومي الأصل ومعناه العدل وروي ذلك عن مجاهد .

وعند آخرين عربي فقيل : هو من القسط ووزنه فعلاع بتكرير العين شذوذاً إذ هي لا تكرر وحدها مع الفصل باللام ، وقيل .

(206/571)

من قسطس وهو رباعي ووزنه فعلال ، والمراد الأمر بوفاء الوزن وإتمامه والنهي عن النقص دون انلهي عن الزيادة ، والظاهر أنه لم ينه عنها ولم يؤمر بها في الكيل والوزن ، وكأن ذلك دليل على أن من فعلها فقد أحسن ومن لم يفعلها فلا عليه .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى ﴿ ﴾ أي بالميزان السوى ، وقيل : القسطاس القبان وروي ذلك عن الحسن ، وهو عند بعض معرب رومي الأصل ومعناه العدل وروي ذلك عن مجاهد .

وعند آخرين عربي فقيل : هو من القسط ووزنه فعلاع بتكرير العين شذوذاً إذ هي لا تكرر وحدها مع الفصل باللام ، وقيل .

من قسطس وهو رباعي ووزنه فعلال ، والمراد الأمر بوفاء الوزن وإتمامه والنهي عن النقص

دون النهي عن الزيادة ، والظاهر أنه لم ينه عنها ولم يؤمر بها في الكيل والوزن ، وكأن ذلك دليل على أن من فعلها فقد أحسن ومن لم يفعلها فلا عليه .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن معنى ﴿ وَزِنُواْ ﴾ الخ وعدلوا أموركم كلها بميزان العدل الذي جعله الله تعالى لعباده ، والظاهر إذ عادل سبحانه به ﴿ أَوْفُواْ الكيل ﴾ ما تقدم .

وقرأ أكر السبعة ﴿ بالقسطاس ﴾ بضم القاف .

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ أي لا تنقصوهم شيئاً من حقوقهم أي حق كان فإضافة أشياء جنسية ويجوز أن تكون للاستغراق ، والمراد مقابلة الجمع بالجمع فيكون المعنى لا تبخسوا أحداً شيئاً ، وجوز أن يكون الجمع للإشارة إلى الأنواع فإنهم كانوا يبخسون كل شيء جليلاً كان أو حقيراً ، وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المراد بالذكر لغاية إنهماكهم فيه ، وقيل : المراد بأشيائهم الدراهم والدنانير وبخسها بالقط من أطرافها ولولاه لم يجمع .

وبخس مما يتعدى إلى اثنين فالمنصوبان مفعولاه ، وقيل هو متعد لواحد فالثاني بدل استعمال ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق ونحو ذلك .

والعثو الفساد أو أشده و"مفسدين" حال مؤكدة ، وجوز أن يكون المراد مفسدين آخرتكم فتكون حالا مؤسسة .

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184)

أي وذوي الجبلة أي الخلقة والطبيعة أو والمجبولين على أحوالهم التي بنوا عليها وسبلهم التي قيضوا لسلوكها المتقدمين عليكم من الأمم ، وجاء في رواية عن ابن عباس أن الجبلة الجماعة إذا كانت عشرة آلاف كأنها شبهت على ما قيل بالقطعة العطيمة من الجبل ، وقيل : هي الجماعة الكثيرة مطلقاً كأنها شبهت بما ذكر أيضاً .

وقرأ أبو حصين .

والأعمش .

والحسن بخلاف عنه ﴿ الجبلة ﴾ بضم الجيم والباء وشد اللام .

وقرأ السلمي ﴿ الجبلة ﴾ بكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة ، وفي نسخة عنه بفتح الجيم وسكون الباء قيل وتشديد اللام في القراءتين للمبالغة .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ الكلام فيه نظير ما تقدم في قصة ثمود بيد أنه أدخل الواو بين الجملتين هنا للدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة فيكف إذا اجتمعا وأرادوا بذلك المبالغة في التكذيب ، ولم تدخل هناك حيث لم

يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشراً مثلهم كذا في الكشاف ، وفي الكشف أن فيه ما يلوح إلى اختصاص كل بموضعه وإن الكلام هنالك في كونه مثلهم غير ممتاز بما يوجب الفضيلة ولهذا عقبوه بقولهم : ﴿ فأت بآيَةَ ﴾ [الشعراء : 154] فدل على أنهم لم يجعلوا البشرية منافية للنبوة وإنما جعلوا الوصف تمهيداً للاشتراك وأنه أبدع في دعواه ، وههنا ساقوا ذلك مساق ما ينافي النبوة فجعلوا كل واحد صفة مستقلة في المنافاة ليكون أبلغ .

(208/571)

وجعلوا إنكار النبوة أمراً مفروغاً ولذا عقبوه بقولهم : ﴿ وَإِنَّ نَظُنُّكَ ﴾ الخ ، وقال النيسابوري في وجه الاختصاص إن صالحاً عليه السلام قلل في الخطاب فقللوا في الجواب وأكثر شعيب عليه السلام في الخطاب ولهذا قيل له : خطيب الإنبياء فأكثروا في الجواب ، ولعله أراد أن شعيباً عليه السلام في الخطاب ولهذا قيل له : خطيب الأنبياء فأكثروا في الجواب ، ولعله أراد أن شعيباً عليه السلام بالغ في زجرهم فبالغوا في تكذيبه ولا كذلك صالح عليه السلام مع قومه فتأمل ، و ﴿ إن ﴾ في قوله سبحانه ﴿ وَإِنَّ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام في ﴿ لِمَنْ ﴾ هي الفارقة ، وقال الكوفيون : إن

نافية واللام بمعنى إلا وهو خلاف مشهور أي وإن الشأن نظنك من الكاذبين في الدعوى أو ما نظنك إلا من الكاذبين فيها ، ومرادهم أنه عليه السلام وحاشاه راسخ القدم في الكذب في دعواه الرسالة أو فيها وفي دعوى نزول العذاب الذي يشعر به الأمر بالتقوى من التهديد .

وظاهر حالهم إنهم عنوا بالظن الإدراك الجازم ، وقوله عز وجل .

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السماء إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ من الاقتراح الذي تحته كل الإنكار على نحو ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء ﴾ [الأنفال : 32] ولعلهم قابلوا به ما أشعر به الأمر بالتقوى مما ذكرنا ، و"كسفا" أي قطعا كما روي عن ابن عباس .

وقتادة جمع كسفة كقطعة .

وقرأ الأكثرون "كسفا" بكسر الكاف وسكون السين وهو أيضاً جمع كسفة مثل سدرة وسدر ، وقيل : الكسف والكسفة كالربع والربعة وهي القطعة ، والمراد بالسماء اما المظلمة وهو الظاهر وإما السحاب ، والظاهر أن الجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لما قبله وتعلقه بأسقط في غاية السقوط ، وجوز عليه أن يراد بالسماء جهة العلو ، وجواب أن محذوف دل عليه فأسقط ، ومن جوز تقدم الجواب جعله الجواب .

﴿ قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي هو تعالى أعلم بأعمالكم من الكفر والمعاصي وبما تستوجبون عليها من العذاب فسينزله عليكم حسبما تستوجبون في وقته المقدر له لا محالة .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فاستمروا على تكذيبه وكذبوه تكذيباً بعد تكذيب ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ وذلك على ما أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن املنذر .

، وابن أبي حاتم .

والحاكم عن ابن عباس أن الله تعالى بعث عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواب البيوت فدخل عليهم فخرجوا منها هراباً إلى البرية فبعث الله تعالى عليهم سحابة فاظلتهم من الشمس وهي الظلة فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عز وجل عليهم ناراً فأكلتهم جميعاً .

وجاء في كثير من الروايات أن الله عز وجل سلط عليهم الحر سبعة أيام ولياليهن ثم كان ما كان من الخروج إلى البرية وما بعده وكان ذلك على نحو ما اقترحوه لا سيما على القول أنهم عنوا بالسماء السحاب ، وفي إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها إيذان بأن لهم عذاباً

آخر غير عذاب الظلة وفي ترك بيانه تعظيم لأمره .

وقد أخرج ابن جرير .

والحاكم .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : من حدثك من العلماء ما عذاب يوم الظلة فكذبه ، وكأنه أراد بذلك مجموع عذاب الظلة الذي ذكر في الخبر السابق والعذاب الآخر الذي آذنت به الإضافة إلى اليوم ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي في الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ هذا آخر القصص السبع التي سيقت لما علمته سابقاً ، ولعل الاقتصار على هذا العدد على ما قيل لأنه عدد تام وأنا أفوض العلم بسر ذلك وكذا العلم بسر ترتيب القصص على هذا الوجه لحضرة علام الغيوب جل شأنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(210/571)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) ﴾

ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الأنبياء مع قومهم ، وهي قصة لوط .

وقد تقدّم تفسير قوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ على ربّ العالمين ﴾ في هذه السورة ، وتقدّم أيضاً تفسير قصة لوط مستوفى في الأعراف قوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾ الذكران : جمع الذكر ضدّ الأنثى ، ومعنى ﴿ تأتون ﴾ : تنكحون الذكران من العالمين ، وهم بنو آدم ، أو كل حيوان ، وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدّم في الأعراف .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أزواجكم ﴾ أي : وتتركون ما خلقه الله لأجل استمتاعكم به من النساء ، وأراد بالأزواج : جنس الإناث ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ أي مجاوزون للحدّ في جميع المعاصي ، ومن جملتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الذكران ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط ﴾ عن الإنكار علينا ، وتقبيح أمرنا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ من بلدنا المنفيين عنها ﴿ قَالَ إِنِّي لعَمَلِكُمْ ﴾ ، وهو ما أنتم فيه من إتيان الذكران ﴿ مِّنَ القالين ﴾ المبغضين له ، والقلي : البغض ، قليته أقليه قلا ، وقلاء ، ومنه قول الشاعر :

فلست بمقلي الخلال ولا قالي . . . وقال الآخر :

ومالك عندي إن نأيت قلاء . . . ثم رغب عليه الصلاة والسلام عن محاورتهم ، وطلب من الله عزّ وجلّ أن ينجيه ، فقال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من عملهم الخبيث ، أو من عقوبته التي ستصيبهم ، فأجاب الله سبحانه دعاءه ، وقال : ﴿ فنجيناه

وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أي أهل بيته ، ومن تابعه على دينه ، وأجاب دعوته ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ هي امرأة لوط ، ومعنى ﴿ فِي الغابرين ﴾ : من الباقين في العذاب .

وقال أبو عبيدة : من الباقين في الهرم أي بقيت حتى هرمت .

قال النحاس : يقال للذاهب غابر ، وللباقي غابر .

(211/571)

قال الشاعر :

لا تكسع الشول بأغبارها . . . إنك لا تدري من الناتج

والأغبار : بقية الألبان ، وتقول العرب : ما مضى ، وما غبر أي : ما مضى ، وما بقي ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم بالخسف ، والحصب .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ يعني : الحجارة ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف ، والتقدير : مطرهم ، وقد تقدّم تفسير : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ في هذه السورة .

﴿ كَذَّبَ أصحاب لْئَيْكَةِ المرسلين ﴾ قرأ نافع وابن كثير وابن عامر " ليكة " بلام واحدة وفتح التاء جعلوه اسماً غير معرّف بأل مضافاً إليه أصحاب ، وقرأ الباقون .

﴿ الأيكة ﴾ معرفاً ، و ﴿ الأيكة ﴾ : الشجر الملتف ، وهي الغيضة ، وليكة اسم للقرية ، وقيل : هما بمعنى واحد اسم للغيضة .

قال القرطبي : فأما ما حكاه أبو عبيد من : أن ليكة اسم القرية التي كانوا فيها ، وأن الأيكة اسم البلد كله ، فشيء لا يثبت ، ولا يعرف من قاله ولو عرف لكان فيه نظر ؛ لأن أهل العلم جميعاً على خلافه .

قال أبو عليّ الفارسي : الأيكة تعريف أيكة ، فإذا حذفت الهمزة تخفيفاً ألقيت حركتها على اللام .

قال الخليل : الأيكة غيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ لم يقل : أخوهم كما قال في الأنبياء قبله ؛ لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب ، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيباً ؛ لأنه كان منهم ، وقد مضى تحقيق نسبه في الأعراف ، وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ في هذه السورة .

(212/571)

قوله : ﴿ أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ أي أتموا الكيل لمن أراده ، وعامل به ، ولا تكونوا من المخسرين : الناقصين للكيل والوزن ، يقال : أخسرت الكيل والوزن : أي نقصته ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : 3] ، ثم زاد سبحانه في البيان ، فقال ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ أي أعطوا الحقّ بالميزان السويّ ، وقد مرّ بيان تفسير هذا في سورة سبحان ، وقد قرىء : ﴿ بالقسطاس ﴾ مضموماً ، ومكسوراً ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ البخس النقص ، يقال : بخسه حقه : إذا نقصه ، أي لا تنقصوا الناس حقوقهم التي لهم ، وهذا تعميم بعد التخصيص ، وقد تقدّم تفسيره في سورة هود ، وتقدّم أيضاً تفسير ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ فيها ، وفي غيرها ﴿ واتقوا الذى خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وقرأ أبو حصين والأعمش والحسن والأعرج وشيبة بضمهما وتشديد اللام ، وقرأ السلمي بفتح الجيم مع سكون الباء .

والجبلة : الخليقة قاله مجاهد ، وغيره يعني : الأمم المتقدّمة ، يقال : جبل فلان على كذا أي خلق .

قال النحاس : الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الأوّلين وبضمهما مع تشديد اللام فيهما ، وبضم الجيم وفتحها وسكون الباء ، قال الهروي : الجِبِلَّة والجُبْلَة والجِبِلّ والجُبُلّ لغات ، وهو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [ياس : 62]

أي : خلقاً كثيراً ، ومن ذلك قول الشاعر :

والموت أعظم حادث . . . فيما يمرّ على الجبلة

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين * وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ قد تقدّم تفسيره مستوفى في هذه السورة .

(213/571)

﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ : " إن " هي المخففة من الثقيلة عملت في ضمير شأن مقدّر ، واللام هي الفارقة أي فيما تدّعيه علينا من الرسالة ، وقيل : هي النافية ، واللام بمعنى إلاّ أي ما نظنك إلاّ من الكاذبين ، والأوّل أولى .

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السماء ﴾ كان شعيب يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا ، فقالوا له هذا القول نعتاً واستبعاداً وتعجيزاً .

والكسف : القطعة .

قال أبو عبيدة : الكسف : جمع كسفة مثل سدر وسدرة .

قال الجوهري : الكسفة القطعة من الشيء ، يقال : أعطني كسفة من ثوبك ، والجمع كسف ، وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان .

﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواك ﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الشرك ، والمعاصي ، فهو مجازيكم على ذلك إن شاء ، وفي هذا تهديد شديد ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ ، فاستمروا على تكذيبه ، وأصرّوا على ذلك ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ ، والظلة : السحاب ، أقامها الله فوق رؤوسهم ، فأمطرت عليهم ناراً ، فهلكوا ، وقد أصابهم الله بما اقترحوا ؛ لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر ، وإن أرادوا بها القطعة من السماء ، فقد نزل عليهم العذاب من جهتها ، وأضاف العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيهاً على أن لهم في ذلك اليوم عذاباً غير عذاب الظلة ، كذا قيل .

ثم وصف سبحانه هذا العذاب الذي أصابهم بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لما فيه من الشدّة عليهم التي لا يقادر قدرها ، وقد تقدّم تفسير قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ في هذه السورة مستوفى ، فلا نعيده ، وفي هذا التكرير لهذه الكلمات في آخر هذه القصص من التهديد والزجر والتقرير والتأكيد ما لا يخفى على من يفهم مواقع الكلام ويعرف أساليبه .

وقد أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم ﴾ قال : تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال وأدبار النساء .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة نحوه .

وأخرجا أيضاً عن قتادة : ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ قال : هي امرأة لوط غبرت في عذاب الله .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد " ليكة " قال : هي الأيكة .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ كَذَّبَ أَصحاب لْئَيْكَةِ المرسلين ﴾ قال : كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر إلى مدين ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ، ولم يقل : أخوهم شعيب .

لأنه لم يكن من جنسهم ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ : كيف لا تتقون وقد علمتم أني رسول أمين ، لا تعتبرون من هلاك مدين ، وقد أهلكوا فيما يأتون ؟ وكان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرك استنوا بسنة أصحاب مدين ، فقال لهم شعيب : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْئَلُكُمْ ﴾ على ما أدعوكم إليه ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ في العاجل من أموالكم إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبّ العالمين .

﴿ واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ يعني : القرون الأوّلين الذي أهلكوا بالمعاصي ،

ولا تهلكوا مثلهم .

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ يعني من المخلوقين .

(215/571)

﴿ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السماء ﴾ يعني : قطعاً من السماء ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ أرسل الله إليهم سموماً من جهنم ، فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر ، فحميت بيوتهم ، وغلت مياههم في الآبار ، والعيون ، فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين ، والسموم معهم ، فسلّط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم ، فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم ، وسلّط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء ، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعاً أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيباً والذين آمنوا معه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : ﴿ والجبلة الأولين ﴾ : الخلق الأوّلين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عنه أيضاً أنه سئل عن

قوله : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ قال : بعث الله عليهم حرًّا شديداً ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم أجوافها فأخذ بأنفسهم ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة ، فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً ، فذلك عذاب يوم الظلة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عنه أيضاً قال : من حدّثك من العلماء عذاب يوم الظلة ، فكذبه .

(216/571)

أقول : فما نقول له رضي الله عنه فيما حدّثنا به من ذلك مما نقلناه عنه ها هنا ؟ ويمكن أن يقال : إنه لما كان هو البحر الذي علّمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم كان مختصاً بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم ، فمن حدّث بحديث عذاب الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدّثنا به ، فقد وصانا بتكذيبه ، لأنه قد علمه ، ولم يعلمه غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(217/571)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

وهذه قصة شعيب ومكانها التاريخي قبل قصة موسى تجيء هنا في مساق العبرة كبقية القصص في هذه السورة . وأصحاب الأيكة هم غالباً أهل مدين . والأيكة الشجر الكثيف الملتف . ويبدو أن مدين كانت تجاورها هذه الغيضة الوريفة من الأشجار . وموقع مدين بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة .

وقد بدأهم شعيب بما بدأ به كل رسول قومه من أصل العقيدة والتعفف عن الأجر ، ثم أخذ يواجههم بما هو من خاصة شأنهم :

﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

وقد كان شأنهم كما ذكر في سورتي الأعراف وهود أن يطففوا في الميزان والمكيال ، وأن يأخذوا بالقسر والغصب زائداً عن حقهم ، ويعطوا أقل من حق الناس ، ويشتروا بثمن بخس ويبيعوا بثمن مرتفع . ويبدو أنهم كانوا في ممر قوافل التجارة ، فكانوا يتحكمون فيها . وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط في هذا كله ، لأن العقيدة الصحيحة يتبعها حسن المعاملة . ولا تستطيع أن تغضي عن الحق والعدل في معاملات الناس .

ثم استجاش شعيب مشاعر التقوى في نفوسهم ، وهو يذكرهم بخالقهم الواحد . خالق الأجيال كلها والسابقين جميعاً :

﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴾ .

فما كان منهم إلا أن يطلقوا عليه الاتهام بأنه مسحور ، فهو يخلط ويهذي بما يقول :

﴿ قالوا : إنما أنت من المسحرين ﴾ . .

وإلا أن يستنكروا رسالته . فهو بشر مثلهم ، وما هكذا في زعمهم يكون الرسول . ويرمونه بالكذب فيما يقول :

﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا . وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ .

وإلا أن يتحدوه أن يأتيهم بما يخوفهم به من العذاب إن كان صادقاً فيما يدعيه ؛ وأن يسقط عليهم رجوماً من السماء ، أو يحطمها عليهم ويسقطها قطعاً :

﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ . .

(218/571)

وهو تحدي المستهتر الهازئ المستهين ! وهو شبيه بتحدي المشركين للرسول الكريم . .

﴿ قال : ربي أعلم بما تعملون ﴾ . .

ويعجل السياق بالنهاية دون تفصيل ولا تطويل .

﴿ فكذبوه . فأخذهم عذاب يوم الظلة . إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ . .

قيل : أخذهم حر خانق شديد يكتم الأنفاس ويثقل الصدور . ثم تراءت لهم سحابة ، فاستظلوا بها ؛ فوجدوا لها برداً ، ثم إذا هي الصاعقة المجلجلة المدوية تفزعهم وتدمرهم تدميراً .

وكان ذلك ﴿ يوم الظلة ﴾ فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم !

ثم يجيء التعقيب المكرور :

﴿ إِن في ذلك لآية . وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

ويختم القصص في السورة ليجيء على إثره التعقيب الأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2615.2616 ﴾

(219/571)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

استئنافُ تعدادٍ وتكرير كما تقدم في جملة : ﴿ كذبت عادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء :

123] .

ولم يقرن فعل ﴿ كذب ﴾ هذا بعلامة التأنيث لأن ﴿ أصحاب ﴾ جمعُ صاحب وهو مذكر معنىً ولفظاً بخلاف قوله : ﴿ كذبت قوم لوط ﴾ [الشعراء : 160] فإن (قوم) في معنى الجماعة والأمة كما تقدم في قوله : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ﴿ لَيْكَةَ ﴾ بلام مفتوحة بعدها ياء تحتية ساكنة ممنوعاً من الصرف للعلمية والتأنيث .

وقرأه الباقون ﴿ الأيكة ﴾ بحرف التعريف بعده همزة مفتوحة وبجر آخره على أنه تعريف عهد لأَيكةٍ معروفة .

والأيكة : الشجر الملتف وهي الغيضة .

وعن أبي عبيد : رأيتها في الإمام مصحف عثمان رضي الله عنه في الحِجر وق ﴿ الأيكة ﴾ وفي الشعراء وص ﴿ لَيكة ﴾ واجتمعت مصاحف الأمصار كلها بعد ذلك ولم تختلف .

وأصحاب لَيكة : هم قوم شعيب أو قبيلة منهم .

قالوا : وكانت غيضتهم من شجر المُقْل (بضم الميم وسكون القاف وهو النبق) ويقال له الدَّوم (بفتح الدال المهملة وسكون الواو) .

وإفرادها بتاء الوحدة على إرادة البقعة واسم الجمع : أيك ، واشتهرت بالأيكة فصارت علماً بالغلبة معرفاً باللام مثل العَقبة .

ثم وقع فيه تغيير ليكون علماً شخصياً فحذفت الهمزة وألقيت حركتها على لام التعريف وتنوسي معنى التعريف باللام .

وعن الزجاج : جاء في التفسير أن اسم المدينة التي أرسل إليها شعيب كان ليكة .

وعن أبي عبيد : وجدنا في بعض كتب التفسير أن لَيْكة اسم القرية والأيكة البلاد كلها كمكة وبَكة .

وهذا من التغيير لأجل التسمية ، كما سموا شُمْساً بضم الشين ليكون علماً وأصله الشمس علماً بالغلبة .

والتغيير لأجل النقل إلى العلمية وارد بكثرة ، ذكره ابن جنّي في "شرح مشكل الحماسة" عند قول تأبط شراً :

إني لمُهْدٍ من ثنائي فقاصد . . .

(220/571)

به لابن عم الصدق شُمْس بن مالك

وذكره في "الكشاف" في سورة أبي لهب .

وقد تقدم بيانه عند الكلام على البسملة قبل سورة الفاتحة ، فلما صار اسم ليكة علماً على البلاد جاز منعه من الصرف لذلك ، وليس ذلك لمجرد نقل حركة الهمزة على اللام كما توهمه النحّاس ، ولا لأن القراءة اغترار بخط المصحف كما تعسّفه صاحب "الكشاف" على عادته في الاستخفاف بتوهيم القراء ، وقد علمتم أن الاعتماد في القراءات على الرواية قبل نسخ المصاحف كما بيناه في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير فلا تتبعوا الأوهام المخطئة .

وقد اختلف في أن أصحاب ليكة هم مدين أو هم قوم آخرون ساكنون في ليكة جوار مدين أرسل شعيب إليهم وإلى أهل مدين .

وإلى هذا مال كثير من المفسرين .

روى عبد الله بن وهب عن جبير بن حازم عن قتادة قال : أُرسل شعيب إلى أمتين : إلى قومه من أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة .

وقال جابر بن زيد : أرسل شعيب إلى قومه أهل مدين وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة .

وفي "تفسير ابن كثير" : روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شعيب عليه السلام من طريق

محمد بن عثمان بن أبي شيبة بسنده إلى عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي " ، وقال ابن كثير : هذا غريب ، وفي رفعه نظر ، والأشبه أنه موقوف .

وروى ابن جريج عن ابن عباس أن أصحاب الأيكة هم أهل مدين .

والأظهر أن أهل الأيكة قبيلة غير مدين فإن مدين هم أهل نسب شعيب وهم ذرية مَدين بن إبراهيم من زوجه "قطورة" سكَن مدينُ في شرق بلد الخليل كما في التوراة ، فاقتضى ذلك أنه وجده بلَداً مأهولاً بقوم فهم إذن أصحاب الأيكة فبنى مدين وبنُوه المدينةَ وتركوا البادية لأهلها وهم سكان الغيضة .

(221/571)

والذي يشهد لذلك ويرجحه أن القرآن لمَّا ذكرَ هذه القصةَ لأهل مدين وصف شعيباً بأنه أخوهم ، ولما ذكرها لأصحاب ليكة لم يصف شعيباً بأنه أخوهم إذ لم يكن شعيب نسيباً ولا صهراً لأصحاب ليكة ، وهذا إيماء دقيق إلى هذه النكتة .

ومما يرجح ذلك قوله تعالى في سورة الحجر (78 ، 79) ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾ ، فجعل ضميرهم مثنى باعتبار أنهم مجموع

قبيلتين : مدين وأصحاب ليكة .

وقد بيّنّا ذلك في سورة الحجر .

وإنما تُرسل الرسل من أهل المدائن قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يُوحَى إليهم من أهل القرى ﴾ [يوسف : 109] وتكون الرسالة شاملة لمن حول القرية .

وافتتح شعيب دعوته بمثل دعوات الرسل من قبله للوجه الذي قدمناه .

وشمل قوله : ﴿ ألا تتقون ﴾ النهي عن الإشراك فقد كانوا مشركين كما في آية سورة هود .

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181)

استئناف من كلامه انتقل به من غرض الدعوة الأصلية بقوله : ﴿ ألا تَتّقون ﴾ [الشعراء : 177] إلى آخره إلى الدعوة التفصيلية بوضع قوانين المعاملة بينهم ، فقد كانوا مع شركهم بالله يطفّفون المكيال والميزان ويبخسون أشياء الناس إذا ابتاعوها منهم ، ويفسدون في الأرض .

فأما تطفيف الكيل والميزان فظلمٌ وأكل مال بالباطل ، ولما كان تجارهم قد تمالؤوا عليه اضطر الناس إلى التبايع بالتطفيف .

و﴿ أوفوا ﴾ أمر بالإيفاء ، أي جعل الشيء وافياً ، أي تاماً ، أي اجعلوا الكيل غير ناقص .

والمُخْسِر : فاعل الخسارة لغيره ، أي المُنقص ، فمعنى ﴿ ولا تكونوا من المخسرين ﴾ لا

تكونوا من المطفّفين .

وصوغ ﴿ من المخسرين ﴾ أبلغ من : لا تكونوا مُخسرين .

لأنه يدل على الأمر بالتبرُّؤ من أهل هذا الصنيع ، كما تقدم آنفاً في عدة آيات منها قوله : ﴿ لتكونَنَّ من المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] في قصة نوح .

(222/571)

والقُسطاس : بضم القاف وبكسرها من أسماء العدل ، ومن أسماء الميزان ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وزِنُوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴾ في سورة الإسراء (35) ، حمل على المعنيين هنا كما هنالك وإن كان الوصف بـ ﴿ المستقيم ﴾ يرجح أن المقصود به الميزان ، وتقدم تفصيل ما يرجع إليه هذا التشريع في قصته في الأعراف .

وقرأ الجمهور : ﴿ بالقُسطاس ﴾ بضم القاف .

وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخَلَفٌ بكسر القاف .

وبخس أشياء الناس : غبن منافعها وذمُّها بغير ما فيها ليضطروهم إلى بيعها بغبن .

وأما الفساد فيقع على جميع المعاملات الضارة .

والبخس : النقص والذم .

وتقدم في قوله : ﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ في سورة البقرة (282) ونظيره في سورة الأعراف .

وقد تقدم نظير بقية الآية في سورة هود .

٧ ومن بخس الأشياء أن يقولوا للذي يعرض سلعة سليمة للبيع : إن سلعتك رديئة ، ليصرف عنها الراغبين فيشتريها برُخص .

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184)

أكد قوله في صدر خطابه ﴿ فاتقوا الله ﴾ [الشعراء : 179] بقوله هنا : ﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴾ وزاد فيه دليل استحقاقه التقوى بأن الله خلقهم وخلق الأمم من قبلهم ، وباعتبار هذه الزيادة أُدخل حرف العطف على فعل ﴿ اتقوا ﴾ ولو كان مجرد تأكيدٍ لم يصح عطفه .

وفي قوله : ﴿ الذي خلقكم ﴾ إيماء إلى نبذ اتقاء غيره من شركائهم .

و﴿ الجبلة ﴾ : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام : الخلقة ، وأريد به المخلوقات لأن الجبلة اسم كالمصدر ولهذا وصف بـ ﴿ الأولين ﴾ .

وقيل : أطلق الجبلة على أهلها ، أي وذوي الجبلة الأولين .

والمعنى : الذي خلقكم وخلق الأمم قبلكم .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185)

نفوا رسالته عن الله كناية وتصريحاً فزعموه مسحوراً ، أي مختل الإدراك والتصورات من جرّاء سحر سُلط عليه .

وذلك كناية عن بطلان أن يكون ما جاء به رسالة عن الله .

(223/571)

وفي صيغة ﴿ من المسحّرين ﴾ من المبالغة ما تقدم في قوله : ﴿ من المرجومين ﴾ [الشعراء : 116] ﴿ من المسحَّرين ﴾ [الشعراء : 153] ﴿ من المخرجين ﴾ [الشعراء : 167] .

والإتيانُ بواو العطف في قوله : ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ يجعل كونه بشراً إبطالاً ثانياً لرسالته .

وترك العطف في قصة ثمود يجعل كونه بشراً حجة على أن ما يصدر منه ليس وحياً على الله بل هو من تأثير كونه مسحوراً .

فمآل معنيي الآيتين متّحد ولكن طريق إفادته مختلف وذلك على حسب أسلوب الحكايتين .

وأطلق الظن على اليقين في ﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ وهو إطلاق شائع كقوله : ﴿

الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ [البقرة : 46] ، وقرينته هنا دخول اللام على المفعول الثاني ل (ظَنَّ) لأن أصلها لام قسم .

و ﴿ إنْ ﴾ مخففة من الثقيلة ، واللام في ﴿ لَمِن الكاذبين ﴾ اللامُ الفارقة ، وحقها أن تدخل على ما أصله الخبر فيقال هنا مثلاً : وإن أنت لَمن الكاذبين ، لكن العرب توسعوا في المخففة فكثيراً ما يدخلونها على الفعل الناسخ لشدة اختصاصه بالمبتدأ والخَبَر فيجتمع في الجملة حينئذ ناسخان مثل قوله تعالى : ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ [البقرة : 143] وكان أصل التركيب في مثله : ونظنّ أنك لمن الكاذبين ، فوقع تقديم وتأخير لأجل تصدير حرف التوكيد لأن (إنّ) وأخواتها لها صدر الكلام ما عدا (أنّ) المفتوحة .

وأحسب أنهم ما يخفّفون (إنّ) إلا عند إرادة الجمع بينها وبين فعل من النواسخ على طريقة التنازع ، فالذي يقول : إنْ أظنك لخائفاً ، أراد أن يقول : أظن إنَّك لخائف ، فقدم (إنَّ) وخففها وصيّر خبرها مفعولاً لفعل الظن ، فصار : إنْ أظنّك لخائفاً ، والكوفيون يجعلون ﴿ إنْ ﴾ في مثل هذا الموقع حرف نفي ويجعلون اللام بمعنى (إلاَّ) .

والآمر في ﴿ فأسقط ﴾ أمر تعجيز .

والكِسْف بكسر الكاف وسكون السين في قراءة من عدا حفصاً : القطعة من الشيء .

وقال في "الكشاف" : هو جمع كِسْفة مثل قِطْع وسِدْر .

والأول أظهر ، قال تعالى : ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً ﴾ [الطور : 44] .

وقرأ حفص ﴿ كِسَفاً ﴾ بكسر الكاف وفتح السين على أنه جمع كسف كما في قوله : ﴿ أو تُسْقِطَ السماء كما زعمت علينا كِسَفاً ﴾ ، وقد تقدم في سورة الإسراء (92) .

وقولهم : إن كنتَ من الصادقين ﴾ كقول ثمود : ﴿ فأتِ بآية إنْ كنتَ من الصادقين ﴾ [الشعراء : 154] إلا أنّ هؤلاء عينوا الآية فيحتمل أن تعيينها اقتراح منهم ، ويحتمل أن شعيباً أنذرهم بكِسف يأتي فيه عذاب .

وذلك هو يوم الظّلّة المذكور في هذه الآية ، فكان جواب شعيب بإسناد العلم إلى الله فهو العالم بما يستحقونه من العذاب ومقداره .

و ﴿ أعلم ﴾ هنا مبالغة في العالم وليس هو بتفضيل .

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189)

﴿ الظُّلة ﴾ : السحابة ، كانت فيها صواعق متتابعة أصابتهم فأهلكتهم كما تقدم في سورة الأعراف .

وقد كان العذاب من جنس ما سألوه ، ومن إسقاط شيء من السماء .

وقوله : ﴿ فكذبوه ﴾ الفاء فصيحة ، أي فتبين من قولهم : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾

[الشعراء : 185] أنهم كذبوه ، أي تبين التكذيب والثبات عليه بما دلّ عليه ما قصدوه من تعجيزه إذ قالوا : ﴿ فأسْقط علينا كِسْفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ [الشعراء : 187] .

وفي إعادة فعل التكذيب إيقاظ للمشركين بأن حالهم كحال أصحاب شعيب فيوشك أن يكون عقابهم كذلك .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190)

أي في ذلك آية لكفار قريش إذ كان حالهم كحال أصحاب لَيْكة فقد كانوا من المطففين مع الإشراك قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ إلى قوله : ﴿ ليوم عظيم ﴾ [المطففين : 1 5] .

وقد تقدم القول في نظائره .

وقد ذكرنا في طالعة هذه السورة (8) وجه تكرير آية ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(225/571)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

قال أكثر أهل العلم : إن أصحاب الأيكة هم مدين . قال ابن كثير : وهو الصحيح ، وعليه فتكون هذه الآية بينتها الآيات الموضحة قصة شعيب مع مدين ، ومما استدل به أهل هذا القول أنه قال هنا لأصحاب الأيكة ﴿ أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء : 181183] وهذا الكلام ذكر الله عنه أنه قاله لمدين في مواضع متعددة كقوله في هود ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ويا قوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [هود : 8486] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد قدمنا في سورة الأعراف قولنا : فإن قيل الهلاك الذي أصاب قوم شعيب ذكر الله جل وعلا في الأعراف أنه رجفة ، وذكر في هود أنه صيحة ، وذكر في الشعراء أنه عذاب يوم الظلة .

فالجواب ما قاله ابن كثير رحمه الله في تفسيره قال : وقد اجتمع عليهم ذلك كله ؛ أصابهم عذاب ويوم الظلة ، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ، ووهج عظيم ، ثم

جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام . انتهى ، وعلى القول بأن شعيباً أرسل إلى أمتين : دين وأصحاب الأيكة ، وأن مدين ليسوا هم أصحاب الأيكة فلا إشكال . وقد جاء ذلك في حديث ضعيف عن عبد الله بن عمرو ، وممن روى عنه هذا القول قتادة وعكرمة ، وإسحاق بن بشر .

(226/571)

وقد قدمنا بعض الآيات الموضحة لهذا في سورة الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأيكة لَظَالِمِينَ فانتقمنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 7879] وأوضحنا هنالك أن نافعاً ، وابن عامر ، وابن كثير قرأوا ليكة في سورة الشعراء ، وسورة (ص) بلا مفتوحة أول الكلمة ، وتاء مفتوحة آخرها من غير همز : ولا تعريف على أنه اسم للقرية غير منصرف ، وأن الباقين قرأوا : الأيكة بالتعريف ، والهمز وكسر التاء وأن الجميع اتفقوا على ذلك في (ق والحجر) . وأوضحنا هانلك توجيه القراءتين في الشعراء و (ص) ومعنى الأيكة في اللغة مع بعض الشواهد العربية .

(227/571)

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184)

الجبلة الخلق ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [يس : 62] وقد استدل بآية (يس) المذكورة على آية الشعراء هذه ابن زيد نقله عنه ابن كثير ، ومن ذلك قول الشاعر :

والموت أعظم حادث . . . مما يمر على الجبلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(228/571)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

الأيكة : هي المكان الخِصْب الذي بلغ من خصوبته أنْ تلتفّ أشجاره ، وتتشابك أغصانها ، وقال هنا أيضاً ﴿ المرسلين ﴾ [الشعراء : 76] مع أنهم ما كذَّبوا إلا رسولهم ؛ لأن تكذيب رسول واحد كتكذيب كُلِّ الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بمنهج واحد في العقيدة والأخلاق .

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177)

نلحظ اختلاف الأسلوب هنا ، مما يدل على دِقَّة الأداء القرآني ، فلم يقل : أخوهم شعيب ، كما قال في نوح وهود وصالح ولوط ، ذلك لأن شعيباً عليه السلام لم يكن من أصحاب الأيكة ، إنما كان غريباً عنهم .

وباقي الآيات متفقة تماماً مع مَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لأن الوحدة في المنهج العقدي أنتجتْ الوحدة في علاج المنهج ؛ لذلك قرأنا هذه الآيات عند كل الرسل الذين سبق ذكرهم .

ثم يأخذ في تفصيل الأمر الخاص بهم ؛ لأن كل أمة من الأمم التي جاءها رسول من عند الله إنما جاء ليعالج داءً خاصاً تفشَّى بها ، وكانت الأمم من قبل منعزلةً ، بعضها عن بعض ، ولا يوجد بينها وسائل اتصال تنقل هذه الداءات من أمة لأخرى .

فهؤلاء قوم عاد ، وكان داءَهم التفاخُرُ بالبناء والتعالي على الناس ، فجاء هود عليه السلام ليقول لهم :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : 128130] .

وثمود كان داءهم الغفلةُ والانصراف بالنعمة عن المُنْعم ، فجاء صالح عليه السلام يقول لهم

: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾ [الشعراء : 146149] .

(229/571)

أما قوم لوط عليه السلام فقد تفرَّدوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وهي إتيان الذكْران ، فجاء لوط عليه السلام ليمنعهم ويدعوهم إلى التوبة والإقلاع :

﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : 165166] .

أما أصحاب الأيكة ، فكان داءهم أنْ يُطفِّفوا المكيال والميزان ، فجاء شعيب عليه السلام ليقول لهم : ﴿ أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ ﴾

الكيل : آلة تُقدّر بها الأشياء التي تُكال ، ووحدته : كَيْلة أو قَدح أو أردب . والميزان كذلك : آلة يُقدَّر بها ما يُوزَن .

ومعنى ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ [الشعراء : 181] المخسِر : هو الذي يتسبب في خسارة الطرف الآخر في مسألة الكيل ، بأن يأخذ بالزيادة ، وإنْ أعطى يُعطِي بالنقصان . وفي الوزن قال ﴿ بالقسطاس المستقيم ﴾ [الشعراء : 182] .

والقسطاس : يعني العدل المطلق في قدرة البشر وإمكاناتهم في تحرِّي الدّقّة في الوزن ، مع مراعاة اختلاف الموزونات ، فوزن الذهب غير وزن التفاح مثلاً ، غير وزن العدس أو السمسم ، فعليك أنْ تتحرّى الدقة قَدْر إمكانك ، لتحقق هذا القسطاس المستقيم .

لكن ، لماذا خصَّ الكيل والوزن من وسائل التقدير والتقييم ، ولم يذكر مثلاً القياس في المساحات والمسافات بالمتر أو بالذراع ؟

قالوا : لأن الناس قديماً وكانت أمماً بدائية لا تتعامل فيما يُقاس ، فلا يشترون القماش مثلاً : لأنه يُغزل ، تغزله النساء ويغزله الرجال ، ولم يكُنْ أحد يغزل لأحد أو يبيع له ، فهذه صورة حضارية رأيناها فيما بعد .

(230/571)

وقديماً ، كان الناس يتعاملون بالتبادل والمقايضة ، وفي هذه الحالة لا يوجد بائع على حِدَة ولا مُشْترٍ على حِدَة ، فلا يتفرد البائع بالبيع ، والمشتري بالشراء ، إلا في حالة مبادلة السلعة بثمن ، كما قال تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ [يوسف : 20] أي : باعوه .

أما في حالة المقايضة ، فأنت تأخذ القمح تأكله ، وأنا آخذ التمر آكله ، فالانتفاع هنا انتفاع

مباشر بالسلعة ، فإنْ قدَّرْتَ أن كل واحد في الصفقة بائع ومشترْ . تقول : شَرَى وباع .

وإنْ قدَّرْت الأثمان التي لا ينتفع بها انتفاعاً مباشراً كالذهب والفضة ، أو أي معدن آخر ، وهذه الأشياء لا تؤكل فهي ثمن ، أمّا الأشياء الأخرى فصالحة أنْ تكون سلعة ، وصالحة لأنْ تكون ثمناً .

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصوصة لمسألة الكيل والميزان هي " سورة المطففين " ، يقول سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين : 13] .

نقول : كال له يعني : أعطاه ، واكتال عليه يعني : أخذ منه . فإن أخذ أخذ وافياً ، وإنْ أعطى أعطى بالنقص والخسارة . والقرآن لا ينعى عليه أن يستوفى حقّه ، لكن ينعى عليه أن ينقص من حَقِّ الآخرين ، ولو شيئاً يسيراً .

فمعنى (المطففين) من الشيء الطفيف اليسير ، فإذا كان الويل لمن يظلم في الشيء الطفيف ، فما بال مَنْ يظلم من الكل ؟

فاللوم هنا لمَنْ يجمع بين هذين الأمرين : يأخذ بالزيادة ويُعطي بالنقص ، أما مَنْ يعطي بالزيادة فلا بأس ، وجزاؤه على الله ، وهو من المحسنين ، الذين قال الله فيهم : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة : 91] .

ومع تطور المجتمعات بدأ الناس يهتمُّون بقياس دقة آلات الكيل والوزن والقياس ، فَوُجِدت هيئات متخصصة في معايرتها والتفتيش عليها ومتابعة دِقّتها ؛ لأنها مع مرور الزمن عُرْضة للنقص أو الزيادة ، فمثلاً سنجة الحديد التي نزن بها قد تزيد إنْ كانت في مكان بحث تتراكم عليها الزيوت والتراب ، وقد تنقص بالحركة مع مرور الوقت ، كما تنقص مثلاً أكرة الباب من كثرة الاستعمال ، فتراها لامعة ، ولمعانها دليل النقص ، وإنْ كان يسيراً .

وفي فرنسا ، نموذج لليارده وللمتر من معدن لا يتآكل ، جُعِلَتْ كمرجعٍ يُقاس عليه ، وتُضبط عليه آلات القياس .

ورأينا الآن آلاتٍ دقيقة جداً للوزن وللقياس ، تضمن لك منتهى الدقة ، خاصة في وزن الأشياء الثمينة ؛ لذلك نراهم يضعون الميزان الدقيق في صندوق من الزجاج ، حتى لا تُؤَثِّر فيه حركة الهواء من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾

البخس : النقص ، ومعنى ﴿ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الشعراء : 183] حقوقهم إذن : فالنقص من حَقِّ الغير ذنب ، وقد يكون البخس بأخْذ الشيء كله غَصْباً ، أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

وهذا كله داخل في ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾ [الشعراء : 183] كل ما ينقص

الحق بأخذه بإنقاص . أو غَصْب أو تصرّف على غير إرادة صاحبه فهو بَخْسٌ للشيء .

فكل ما ثبت أنه حق لغيرك إياك أنْ تعتدي عليه ، فالزكاة مثلاً حينما يقول ربك عَزَّ وجَلَّ :

﴿ والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [المعارج : 2425]

فما دام قد قيَّده الشرع ، فلا تبخس أنت حَقَّ الفقير ، لأنك حين تتأمل هذا الحق المعلوم الذي جعله الله من مالك للفقير ، تجهد أنه وُضِع بحكمة تُراعِي مدى حركة المموِّل ، وما بذل من جهد ونفقات في سبيل تنمية ماله ، حتى وجبتْ فيه الزكاة .

(232/571)

فكلما زادتْ حركتك قَلَّ مقدار الزكاة في مالك ، فمثلاً الأرض التي تُسْقى بماء المطر فيها العُشْر ، والتي تُسْقى بآلة ونفقات فيها نصف العشر ، وفي عروض التجارة وتحتاج إلى حركة أكثر قال رُبْع العُشْر ، ذلك لأن الشارع الحكيم يريد للناس الحركة والسعي وتثمير الأموال ، حتى لا يأتي مَنْ يقول : كيف أسعى ويأخذ غيري ثمرة سعيي ؟

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء ، فإنما يحمي به الفقراء والأغنياء على حَدٍّ سواء .

وقد حدَّد الشارع هذا الحق ، حتى لا تزهد في العطاء ، خاصة في الزكاة .

إن منهج الله يريد أنْ يُصوِّب حركة الحياة من الأحياء ، يريد ألاَّ يجري دم في جسد إلا بخروج

عَرق من هذا الجسد ، وألا يدخل دم في جسد من عرق سواه ، وإلاَّ فسد المجتمع ، وضَنَّ كل قادر على الحركة بحركته ؛ لأنه لا يطمئن إلى ثمار حركته أنها لا تعود عليه ، أو أن غيره سيغتصبها منه بأيِّ لون من ألوان الاغتصاب .

عندما يفسد المجتمع ؛ لأن القوي القادر سيزهد في الحركة فيقعد ، والآخذ سيتعوَّد البطالة والكسل والخمول ، ولماذا يعمل وما يجري في عروقه من دماء من عمل غيره ، وبمرور الوقت يصعب عليه العمل ، وتثقُل عليه الحركة ، فيركَنُ إلى ما نُسمِّيه (بلطجي) في الحياة ، يعيش عالة على غيره .

إذن : الحق تبارك وتعالى يريد أن يُطمِئن كل إنسان على حركته في الحياة وثمرة سَعْيه ، فلا يتلصص أحد على ثمرة حياة الآخر ؛ لأنه إنْ كان عاجزاً عن الحركة فقد ضمن له ربُّه حقاً في حركة الآخرين تأتيه إلى باب بيته ، سواء أكانت زكاةً أم كانت صدقة ؛ وبذلك تسْلَم حركة الحياة للجميع .

لذلك أراد سبحانه وتعالى أن يُعطينا الموازين الدقيقة التي تحفظ سلامة التعامل بين الناس : فإنْ كِلْتَ لغيرك فوفِّ الكيل ، وإنْ وزنتَ فوَفِّ الميزان ، واجعله بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخس الناس حقوقهم بأي صورة من الصور .

ولا يقتصر الأمر على هذه المسائل فحسب ، إنما هي نماذج للتعامل ، تستطيع القياس عليها في كل أمور الحياة فيما يُقَاس وفيما يُعَدُّ ، في الأعمال وفي الصناعات . . إلخ .

إذن : فاحذر أنْ تتلصَّص على حقوق الآخرين ، أو أن تبخسها ، بأيِّ نوع من أنواع التسلُّط : غَصْباً أو اختطافاً أو سرقةً أو اختلاساً أو رِشْوة . . إلخ .

وقلنا : إن السرقة أن تأخذ شيئاً من حِرْزه في غير وجود صاحبه ، والخطف يكون صاحب الشيء موجوداً ، لكنك تأخذه خَطْفاً وتفرّ به قبل أن يُمسك بك ، فإنْ أمسك بك فغالبْتَه وأخذتها رَغماً عنه فهي غَصْب ، أما الاختلاس فأنْ تأخذ من مالٍ أنت مؤتَمَنٌ عليه ، ما لا يحقّ لك أخْذه .

فإذا علم كُلُّ متحرك في الحياة أن ثمرة حركته تعود عليه ، وعلم كل غير متحرك أنه يموت جوعاً إنْ لم يعمل وهو قادر دبَّتْ الحركة في كل الأحياء ، وهذا ما يريده الله تعالى لخليفته في الأرض خاصة ، وقد خلق لنا سبحانه العقل الذي نفكر به ، والطاقة التي نعمل بها ، والمادة التي نستعين بها ، فكلُّ ما علينا أن نُوظّف هذه الإمكانات التي خلقها الله توظيفاً مثمراً .

ثم إنْ كانت الزكاة كحقّ معلومة محددة ، فهناك حَقٌّ آخر غير مُحَّدد ، في قوله سبحانه : ﴿ وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] ولم يقل (معلوم) ؛ لأن المراد

هنا الصدقة المطلقة ، وقد تركها الحق تبارك وتعالى ولم يُقيّدها ليترك الباب مفتوحاً أمام أريحية المعطي ، ومدى كرمه وإحسانه ؛ لذلك جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن صفات المحسنين :

﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن اليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 1519] .

(234/571)

ولأن الحق هنا تفضُّل وزيادة تركه الشارع الحكيم دون تحديد .

وعجيب أن نرى أصحاب الأموال حين يُخرِج أحدهم رُبْع الشعر مثلاً من ماله ، لا ينظر إلى ما تبقّى له من رأس المال ، وهي نسبة 97 . 5% ، وينظر إلى حَقّ الفقير وهو يسير 2 . 5% .

فنراه يحتال عليه فيُؤثِر به أقاربه أو معارفه ، أو يضعه بحيث يعفيه من حق آخر ، كالذي يعطي زكاته للخادمة مثلاً ، ليُرضِي أمها حتى لا تأخذها من يده ، ومنهم مَنْ يضع أموال الزكاة في بناء مسجد أو مدرسة أو مستشفى ؛ وهذا كله لا يجوز ؛ لأن مال الزكاة حَقٌّ

للمستحقين المعروفين نصاً في كتاب الله ، ولا يصح أنْ يُوجّه مال الزكاة لشيء ينتفع به الغني أبداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء : 183] عثا : أي أفسد . فالمعنى : لا تُفسِدوا في الأرض ، فلماذا كرَّر الإفساد مرة أخرى فقال ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء : 183] ؟ قالوا : المراد : لا تعثَوْا في الأرض حالةَ كونِكم مفسدين ، أو في نيتكم الإفساد .

وليس في الآية تكرار ؛ لأنه فرَّق بين إفساد شيء وأنت لا تقصد إفساده ، إنما حركتك في الحياة أفسدتْه ، وبين أنْ تُفسد عن قصد وعَمْد للإفساد ، حتى لا نمنع العقول أن تفكر وتُجرِّبَ لتصلَ إلى الأفضل ، وتُثري حركة الحياة ، فما دُمْتَ قد قصدتَ الصلاح ، فلا عليك إنْ أخطأتَ ؛ لأن ربك عَزَّ وجَلَّ يتولى تصحيح هذا الخطأ ، بل ويُعوِّضك عنه ، فمَنِ اجتهد فأخطأ فله أجر ، ومَنِ اجتهد فأصاب فله أجران .

إذن : المعنى : لا تُفسِدوا في الأرض وأنتم تقصدون الإفساد ، لكن فكيف نُفسِد الأرض ؟ إن إفساد الأرض يعني إفسادَ المتحرك عليها ؛ لأن الأرض خُلقَتْ للإنسان ﴿ والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ [الرحمن : 10] .

وقد خلقها الله تعالى على هيئة الصلاح ، والإنسان هو الذي يُفسِدها ، بدليل أنك لا تجد الفساد إلا فيما للإنسان دَخْل فيه ، أما مَا لا تطوله يده ، فيظل على صلاحه ، وعلى استقامته وسلامته .

والإنسان الذي خلقه الله وجعله خليفة له في أرضه طُلب منه عمارة هذه الأرض وزيادة صلاحها ، تحقيقاً لقول ربه عَزَّ وجَلَّ : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا ﴾ [هود : 61] .

ولا يصلح أن نستعمر الأرض وهي خراب ، فإذا ما كَثُر النسل لا يقابل زيادة في استثمار الأرض ، فتحدث الأزمات ، ولو أن استثمار الأرض وإصلاحها سار مع زيادة النسل في خطين متوازيين لما شعر الناس بالحاجة والضيق ، ولما أحاطت بهم الأزمات .

والآن حين تسير في الطريق الصحراوي مثلاً تجد المزارع في الصحراء ، وتجد القرى الجديدة تحولت فيها الأرض الجرداء إلى خضرة ونماء ، فأين كانت هذه الثورة ؟ لقد كنا كُسالى وفي غفلة حتى عَضَّنا الجوع ، وضاقت بنا الأرض الخضراء في الوادي والدلتا .

وإذا لم يُصلِح الإنسان في الأرض فلا أقلَّ من أنْ يتركها على حالها الذي خلقها الله عليه .

لكن رأينا الإنسان يُفسد الماء ويُلوثه حين يصرف فيه مُخلَّفاته ويُفسد الهواء بعادم السيارات والمصانع ، ويُفسِد التربة بالكيماويات والمبيدات ، وكل هذا الإفساد خروج

عن الطبيعة الصافية التي خلقها الله لنا ؛ ذلك لأننا نظرنا إلى النفع العاجل ، وأغفلنا الضرر الآجل .

لقد خلق الله لنا وسائل الركوب والانتقال ، وجعلها آمنة لا ضررَ منها : ﴿ والخيل والبغال والحميرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] .

وقال : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفس ﴾ [النحل : 7] نعم ، وسائل النقل الحديث أسرع ، وأراحتْ هذه المواشي ، لكنها أتعبتْ الإنسان الذي خلق الله الكون كله لراحته .

(236/571)

فترى الرجل يركب سيارته وكل هَمّه أنْ يُسرع بها دون أنْ يهتم بضبطها وصيانتها ، فينطلق بها مُخلِّفاً سحابة من الدخان السَّام الذي يؤذي الناس ، أما هو فغير مكترث بشيء ؛ لأن الدخان خلفه لا يشعر به .

لكن ، احذر جيداً ، إن ربك عز وجل قيوم لا يغفل ولا ينام ، وكما تدين تُدان في نفسك ، أو في أولادك .

كذلك قبل أن نركب السيارات ونُسرِع بها يجب أنْ نُمهِّد لها الطرق حتى لا تثير الغبار في

وجوه الناس ، وتؤذي تنفسهم ، بل وتؤذي الزرع أيضاً ، كل هذه وُجوه للإفساد في الأرض ؛ لأننا ندرس عاجلَ النفع ولا ندرس آجل الضرر .

وعليك حين تجتهد أنْ تجتهد بمقدّمات سليمة ، لتصل إلى النتائج السليمة ، ولا تكُنْ من المفسدين في الأرض .

ومن الإفساد في الأرض قَطْع الطريق ، وهو أن المتلصّص يقيم في مكانه يرصُد ضحيته إلى أن تمر به ، والإغارة وهي أنْ يذهب المغير إلى المغَار عليه في مَأْمنه ، فيسلبه ماله .

ومن الإفساد في الأرض الرِّشْوة ، وهي من أنكَى النكبات التي بُلي بها المجتمع ، وهي تُولِّد التسيّب وعدم الانضباط ، فحين ترى غيرك يستغلك ، ويستحلّ مالك دون حق ، تعامله وتعامل غيره نفس المعاملة ، فتصير الأمور في الأجهزة والمصالح إلى فوضى لايعلم مداها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ واتقوا الذي خَلَقَكُمْ ﴾

فإياك أن تظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو يتركنا هملاً ، إنما خلقنا لمهمة في الكون ، وجعلنا جميعاً عبيداً بالنسبة له سواء ، فلم يُحَابِ من أحداً على أحد ، وليس عنده سبحانه مراكز قوى ؛ لذلك لم يتخذ صاحبه ولا ولداً .

ولأننا جميعاً أمامه سبحانه سواء وهو خالقنا ، فقد تكفّل لنا بالرزق ورعاية المصالح ، فَمنِ

ابتلاه الله بالعجز عن الحركة فتحركْتَ أنت لقضاء مصالحه ، لا بُدَّ ان ينظر الله إليك بعين البركة والمضاعفة .

(237/571)

فالمعوَّق والفقير بحقٍّ لا الذي يتخذها مهنة وحرفة يرتزق بها هذا الفقير وهذا المعوَّق هم خَلْق الله وأهل بلائه ، فحين تعطيه من ثمرة حركتك أنت ، وتذهب إليه وهو مطمئن في بيته ، أنت بهذا العمل إنما تستر على الله بلاءه ، وتكون يد الله التي يرزق بها هؤلاء ، وعندها لا بُدَّ أن يحبك الفقير ، وأنْ يدعو لك بالخير والبركة والزيادة والأَجْر والعافية والثواب ، ويعلم أن الله خلقه ولم يُسلمه .

أمّا إنْ ضَنَّ الغنيُّ الواجد على الفقير المعدَم ، وتخلى عن أهل البلاء ، فلا بُدَّ أنْ يسخط الفقير على الغني ، بل يسخط على الله والعياذ بالله لأنه ما ذنبه أن يكون فقيراً ، وغيره غنيٌّ في مجتمع لا يرحم .

وعجيب أن نرى مُبتلياً يُظهر بلواه للناس ، بل ويستغلها في ابتزازهم ، فيُظهِر لهم إعاقته ، كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ولو أنه ستر على الله بلاءه وعَلِم أنه نعمة أنعم الله بها عليه لَسخَّر الله له عافية غير المبتلى ، ولجاءه رزقه على باب بيته ، فلو رَضِي أهل البلاء لأعطاهم الله

على قَدْر ما ابتلاهم .

فمعنى : ﴿ واتقوا الذي خَلَقَكُمْ ﴾ [الشعراء : 184] أي : احذروا جبروته ؛ لأنه خلقكم ، وضمن لكم الأرزاق ، وضمن لكم قضاء الحاجات ، حتى العاجز عن الحركة سخَّر له القادر ، وجعل للغنى شرطاً في إيمانه أنْ يُعطى جزءاً من سَعْيه للفقير ، ويُوصّله إليه وهو مطمئن .

ومعنى : ﴿ والجبلة الأولين ﴾ [الشعراء : 184] الجبلة من الجَبَل ، وكان له دور في حياة العربي ، وعليه تدور الكثير من تعبيراتهم ، ففيه صفات الفخامة والعظمة والرسوخ والثبات ، فاشتقوا من الجبل (الجبلّة) وتعني الملازمة والثبات على الشيء .

ومن ذلك نقول : فلان مجبول على الخير يعني : ملازم له لا يفارقه ، وفلان كالجبل لا تزحزحه الأحداث ، والعامة تقول : فلان جِبلَّة يعني : ثقيل على النفس ، وقد يزيد فيقول : (مال جبلّتك وارمة) مبالغة في الوصف .

(238/571)

حتى أن بعض الشعراء يمدح ممدوحه بأنه ثابت كالجبل ، حتى بعد موته ، فيقول عن ممدوحه وقد حملوه في نعشه :

مَا كنتُ أَحْسَبُ قَبْل نَعْشِكَ أنْ أَرَى . . . رَضْوى عَلَى أيدي الرجَالِ يَسِير

ورَضْوى جبل اشْتُهر بين العرب بضخامته .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ [يس : 62] .

ومعنى : ﴿ والجبلة الأولين ﴾ [الشعراء : 184] أي : الناس السابقين الذين جُبِلوا على العناد وتكذيب الرسُل ، فالله خالقكم وخلقهم ، وقد رأيتُم ما فعل الله بهم لما كذَّبوا رسُله ، لقد كتب الله النصر لرسله والهزيمة لمن كذّبهم ، فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبِلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يُزحزحهم عن التكذيب شيء ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم . فماذا كان ردّهم ؟

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185)

قلنا : إن مُسحَّر : أي سحَره غيره ، وهي صغية مبالغة للدلالة على حدوث السحر ووقوعه عليه أكثر من مرة ، فلو سُحِر مرة واحدة لقُلْنا : مسحور والمعنى : أنك مُخْتَلُّ العقل والتفكير ، مجنون ، لن نسمع لك .

وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186)

وما دُمْت أنت بشراً مثلنا ، ولم تتميز عنَّا بشيء ، فكيف تكون رسولاً ؟ ثم ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ [الشعراء : 186] أي : وما ظنك إلا كذاباً ، كالذين سبقوك .

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187)

أي : إنْ كنتَ صادقاً ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ [الشعراء : 187] يطلبون العذاب ويستعجلونه ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأحقاف : 22] .

(239/571)

ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب يقولون انظرنا ، كيف وأنتم الذين استعجلتم العذاب ؟

ومعنى ﴿ كِسَفاً ﴾ [الشعراء : 187] مفردها كِسْفة ، مثل قِطَع وقطعة ، وقد وردتْ هذه الكلمة على ألسنة كثير من المكذّبين ، وقالها الكفار للنبي محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 9092] .

وقالوا ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] .

وكان عليهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدِنا إليه ، وهذا يدلُّك على حُمْقهم وعنادهم .

قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188)

فهو سبحانه العليم بكم : إنْ كنتم أهلاً للتوبة والندم والأمل ، أنْ تتوبوا فلن يصيبكم العذاب ، أو كنتم مُصرِّين على العصيان والتكذيب ، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك والاستئصال ، فأنا لن أحكمَ عليكم بشيء ؛ لأنني بشر مثلكم لا أعرف ما في نياتكم ؛ لذلك سأكلُ أمركم إلى ربكم عز وجل الذي يعلم أمري وأمركم ، وسِرِّي وسرَّكم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ ﴾

فكيف يُكذّبونه ، وهو لم ينسب الأمر لنفسه ، ووكلهم إلى ربهم إذن : فهم لا يُكذِّبونه إنما يُكذِّبون الله ؛ لذلك يأتي الجزاء : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ [الشعراء : 189]

.

(240/571)

وهو عذاب يوم مشهود ، حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، عاشوها في قيظ شديد ، وقد حجز الله عنهم الريح إلا بمقدار ما يُبقي رَمَق الحياة فيهم ، حتى اشتد عليهم الأمر وحميَتْ من تحتهم الرمال ، فراحوا يلتمسون شيئاً يُروِّح عنهم ، فرأوا غمامة قادمة في جو السماء فاستشرفوا لها وظنوها تخفف عنهم حرارة الشمس ، وتُروِّح عن

نفوسهم ، فلما استظلُّوا بها ينتظرون الراحة والطمأنينة عاجلتهم بالنار تسقط عليهم كالمطر .

على حَدّ قوْل الشاعر :

كَمَا أمطَرتْ يَوْماً ظماءً غمامةٌ . . . فلمَّا رَأَوْهَا أقشعَتْ وتجلَّتِ

ويا ليت هذه السحابة أقشعت وتركتهم على حالهم ، إنما قذفتهم بالنار والحُمَم من فوقهم ، فزادتهم عذاباً على عذابهم .

كما قال سبحانه في آية أخرى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأُصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : 2425] .

لذلك وصف الله عذاب هذا اليوم بأنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : 189] فما وَجْه عظمته وهو عذاب ؟ قالوا : لأنه جاء بعد استبشار واسترواح وأمل في الراحة ، ففاجأهم ما زادهم عذاباً ، وهذا ما نسميه " يأس بعد إطماع " وهو أنكى في التعذيب وأشقّ على النفوس .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (190)

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ [الشعراء : 190] أي : فما حدثتكم به ﴿ لآيَةً ﴾

[الشعراء : 190] يعني : عبرة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعبر بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذبا آمن وصدق ، وإن كان معاندا لانَ للحق وأطاع .

(241/571)

وما قصصتُه عليكم من مواكب الرسل وأقوامهم ، وهذا الموكب يضم سبعة من رسل الله مع أممهم : موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا السلام ، وقد مضى هذا الموكب على سنة لله ثابتة لا تتخلف ، هي : أن ينصر الله عز وجل رسله والمؤمنين معهم ، ويخذل الكافرين المكذّبين .

فلتأخذوا يا آل محمد من هذا الموكب عبرة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ [الشعراء : 190] يعني عبرةً لكم ، وسُمِّيتْ عبرة ؛ لأنها تعبر بصاحبها من حال إلى حال ، فإن كان مُكذّباً آمن وصدّق ، وإنْ كان معاندا لانَ للحق وأطاع ، وقد رأيتم أننا لم نُسْلِم رسولاً من رسلنا للمكذبين به ، وكانت سنتنا من الرسل أن ننصرهم .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ﴾ [الصافات : 171172] .

وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173] .

ومن العبرة نقول : عبر الطريق يعني : انتقل من جانب إلى جانب ، والعبرة هنا أن ننتقل من التكذيب واللدَد والجحود والكبرياء إلى الإيمان والتصديق والطاعة ، حتى العَبرة (الدَّمْعة) مأخوذة من هذا المعنى .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 190] حماية واحتراس حتى لا نهضم حق القِلَّة التي آمنت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ﴾

ربك : الرب هو المتولِّي الرعاية والتربية . وبهذه الخاتمة خُتمتْ جميع القصص السابقة ، ومع ما حدث منهم من تكذيب تُختم بهذه الخاتمة الدَّالة على العزة والرحمة . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(242/571)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن مجاهد ليكة قال ﴿ الأيكة ﴾ .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس في قوله ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ قال : كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر إلى مدين ، وقد أهلكوا فيما يأتون . وكان أصحاب الأيكة مع ما كانوا فيه من الشرك استنوا سنة أصحاب مدين . فقال لهم شعيب ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ ، ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ ، ﴿ وما أسألكم ﴾ على ما أدعوكم عليه أجراً في العاجل في أموالكم ﴿ إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ ، ﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلة ﴾ يعني وخلق الجبلة ﴿ الأولين ﴾ يعني القرون الأولين الذين أهلكوا بالمعاصي ولا تهلكوا مثلهم ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ يعني من المخلوقين ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ ، ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ يعني قطعاً من السماء ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ أرسل الله عليهم سموماً من جهنم ، فأطاف بهم سبعة أيام حتى انضجهم الحر ، فحميت بيوتهم ، وغلت مياههم في الآبار والعيون ، فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين والسموم معهم ، فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤوسهم فتغشتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم ، وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ، ثم أنشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء ، فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا تحتها جميعاً ؛ أطبقت عليهم فهلكوا ونجَّى الله شعيباً والذين آمنوا به .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والجبلة الأولين ﴾

قال : الخلق الأولين .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والجبلة الأولين ﴾ قال : الخليقة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ قال : قطعاً من السماء .

(243/571)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : إن أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب : أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها ، فلما خرجوا منها ، أصابهم فزع شديد ففرقوا أن يدخلوا البيوت أن تسقط عليهم . فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل قال : ما رأيت كاليوم ظلاً أطيب ولا ابرد هلموا أيها الناس ، فدخلوا جميعاً تحت الظلة ، فصاح فيهم صيحة واحدة ، فماتوا جميعاً .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ أصحاب شجر وهم قوم شعيب ، وأصحاب الرس : أصحاب آبار وهم قوم شعيب .

وأخرج ابن المنذر عن السدي قال : بعث شعيباً إلى أصحاب الأيكة - والايكة غيضة -

فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة .

قال : فتح الله عليهم باباً من أبواب جهنم ، فغشيهم من حره ما لم يطيقوه ، فتبردوا بالماء وبما قدروا عليه ، فبينما هم كذلك إذ رفعت لهم سحابة فيها ريح باردة طيبة ، فلما وجدوا بردها ساروا نحو الظلة ، فاتوها يتبردون بها فخرجوا من كل شيء كانوا فيه ، فلما تكاملوا تحتها طبقت عليهم بالعذاب .

فذلك قوله ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : سلط الله الحر على قوم شعيب سبعة أيام ولياليهن حتى كانوا لا ينتفعون بظل بيت ولا ببرد ماء ، ثم رفعت لهم سحابة في البرية فوجدوا تحتها الروح ، فجعلوا يدعوا بعضهم بعضاً . حتى إذا اجتمعوا تحتها أشعلها الله عليهم ناراً . فذلك قوله ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ فقال : بعث الله عليهم وهدة وحراً شديداً ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم أجواف البيوت ، فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هراباً إلى البرية .

فبعث الله عليهم سحابة فاظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقطها الله عليهم ناراً . فذلك قوله ﴿ عذاب يوم الظلة ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ قال : ذكر لنا أنه سلط الله عليهم الحر سبعة أيام لا يظلهم ظل ولا ينفعهم منه شيء ، فبعث الله عليهم سحابة ، فلحقوا إليها يلتمسون الروح في ظلها . فجعلها الله عليهم عذاباً فأحرقتهم . بعثت عليهم ناراً فاضطرمت فاكلتهم . فذلك عذاب يوم الظلة .

وأخرج عبد بن حميد عن علقمة ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ قال : أصابهم الحر حتى أقلقهم من بيوتهم فخرجوا ، ورفعت لهم سحابة فانطلقوا إليها ، فلما استظلوا بها ، أرسلت إليهم فلم ينفلت منهم أحد .

وأخرج الحاكم عن زيد بن أسلم قال : كان ينهاهم عن قطع الدراهم ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة ، وأحمى عليهم الشمس ، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن مجاهد في قوله ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾ قال : ظلل من العذاب اتاهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال : من حدثك من العلماء : ما عذاب يوم الظلة . فكذبه .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال : من حدثك من العلماء ما عذاب يوم الظلة قال : أخذهم حر أقلقهم من بيوتهم ، فانشئت لهم سحابة فأتوها فصيح بهم فيها والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(245/571)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

قوله : ﴿ الأيكة ﴾ :

قرأ نافعٌ وابنُ كثير وابن عامر " لَيْكَة " بلامٍ واحدةٍ وفتح التاء . جعلوه اسماً غيرَ مُعَرَّفٍ بأل مضافاً إليه " أصحاب " هنا ، وفي ص خاصة . والباقون " الأَيْكَةِ " مُعَرَّفاً بأل موافقةً لِما أُجْمِعَ عليه في الحجر وفي ق .

وقد اضْطَرَبَتْ أقوالُ الناسِ في القراءةِ الأُولى . وتجرَّأَ بعضُهم على قارئها ، وسأذكر لك من

ذلك طرفاً . فَوَجْهُها على ما قال أبو عُبيد : " أَنَّ لَيْكَةَ اسمٌ للقريةِ التي كانوا فيها ، والأَيكَةَ اسمٌ للبلدِ كله . قال أبو عبيد : " لا أُحِبُّ مفارقةَ الخَطِّ في شيءٍ من القرآنِ إلاَّ ما يَخْرُجُ من كلامِ العربِ ، وهذا ليسَ بخارجٍ من كلامِها مع صحةِ المعنى في هذه الحروفِ ؛ وذلك أنَّا وَجَدْنا في بعضِ التفسيرِ الفرقَ بين لَيْكة والأَيكة فقيل : لَيْكة هي اسمُ القرية التي كانوا فيها ، والأَيكَةُ : البلادُ كلُّها فصار الفرقُ بينهما شبيهاً بما بين بَكَّة ومَكَّة ، ورَأَيْتُهُنَّ مع هذا في الذي يقال : إنه الإمامُ مصحفُ عثمانَ مفترِقاتٍ ، فوجَدْتُ التي في الحجر والتي في ق " الأَيكَة " ، ووَجَدْتُ التي في الشعراءِ والتي في ص " لَيْكَة " ، ثم اجْتَمَعَتْ عليها مصاحفُ الأمصارِ بعدُ ، فلا نَعْلَمُها اختلفَتْ فيها . وقرأ أهلُ المدينةِ على هذا اللفظِ الذي قَصَصْنا يعني بغيرِ ألفٍ ولامٍ ولا إجراءٍ " . انتهى ما قاله أبو عبيد . قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة بعد ما نَقَلْتُه عنه : " هذه عبارتُه وليسَتْ سديدةَ ؛ فإن اللامَ موجودةٌ في " لَيْكة " وصوابُه بغير ألفٍ وهمزةٍ " . قلت : بل هي سديدةٌ . فإنه يعني بغيرِ ألفٍ ولامِ معرفةٍ لا مُطْلَقَ لامٍ في الجملة .

(246/571)

وقد تُعُقِّبَ قولُ أبي عبيدٍ ، وأنكروا عليه ، فقال أبو جعفر : " أَجْمع القرَّاءُ على خفضِ التي في الحجر وق فيجبُ أَنْ يُرَدَّ ما اخْتُلِفَ/ فيه إلى ما اتُّفِقَ عليه إذا كان المعنى واحداً . فأمَّا ما حكاه أبو عبيدٍ مِنْ أَنَّ " ليكَةَ " اسمُ القرية ، وأن الأَيكَةَ اسمُ البلدِ كلِّه فشيْءٌ لا يَثْبُتُ ولا يُعْرَفُ مَنْ قاله ، ولو عُرِفَ لكان في نظرٌ ؛ لأنَّ أهلَ العلمِ جميعاً من المفسِّرين والعالِمين بكلامِ العرب على خلافِه . ولا نَعْلم خلافاً بين أهلِ اللغة أنَّ الأَيكَة الشجرُ الملتفُّ . فأمَّا احتجاجُ بعضِ من احتجَّ لقراءة مَنْ قرأ في هذين الموضعين بالفتح أنَّه في السَّوادِ " لَيْكة " فلا حجَّةَ فيه . والقولُ فيه : أنَّ أصلَه : الأَيكَة ، ثم خُفِّفَتِ الهمزةُ فأُلْقِيَتْ حركتُها على اللامِ فسَقَطَتْ واستَغْنَيْتَ عن ألفِ الوصلِ ؛ لأنَّ اللامَ قد تحرَّكَتْ ، فلا يجوزُ على هذا إلاَّ الخفضُ ، كما تقول : مررتُ بالأَحْمَرِ على تحقيق الهمزة ، ثم تُخَفِّفُها فتقول : بلَحْمَرِ فإنْ شِئْتَ كَتَبْتَه في الخَطِّ على ما كتبتَه أولاً ، وإن شِئْتَ كَتَبْتَه بالحَذْفِ ولم يَجُزْ إلاَّ الخفضُ ، فلذلك لا يجوزُ في " الأَيكَةِ " إلاَّ الخفضُ .

قال سيبويه : " واعلَمْ أنَّ كلَّ ما لم يَنْصَرِفْ إذا دَخَلَتْه الألفُ واللامُ أو أُضِفْتَه انصرفَ " ، ولا نعلمُ أحداً خالَفَ سيبويه في هذا " .

(247/571)

وقال المبردُ في كتاب " الخط " "كَتَبُوا في بعضِ المواضعِ "كَذَّبَ أصحابُ لَيْكَة" بغير ألفٍ ؛ لأن الألفَ تذهبُ في الوصلِ ، ولذلك غَلِطَ القارئُ بالفتحِ فتَوَهَّم أنَّ "لَيْكَة" اسمُ شيءٍ ، وأنَّ اللامَ أصلٌ فقَرأ : أصحابُ ليكةَ" . وقال الفراء : "نرى والله أعلم أنها كُتِبَتْ في هذين الموضعين بتركِ الهمزِ فسَقَطَتِ الألفُ لتحريكِ اللام" . قال مكي : تَعَقَّب ابنُ قتيبَة على أبي عبيد فاختار "الأَيكَةِ" بالألفِ والهمزةِ والخفضِ قال : "إنما كُتِبَتْ بغيرِ ألفٍ على تخفيفِ الهمزِ" . قال : "وقد أجمعَ الناسُ على ذلك ، يعني في الحجر وق ، فوَجَبَ أَنْ يُلْحَقَ ما في الشعراء وص بما أَجْمَعوا عليه ، فما أَجْمَعُوا عليه شاهِدٌ لما اخْتَلفوا فيه" .

وقال أبو إسحاق : "القراءة بجَرِّ قوله : "ليكةِ" وأنت تريد "الأيكة" أجودُ مِنْ أَنْ تجعلَها "لَيْكَةَ" ، وتفتَحها ؛ لأنَّها لا تنصرفُ ؛ لأنَّ لَيْكَة لا تُعَرَّفُ ، وإنما هي أَيكة للواحدِ ، وأَيك للجمعِ مثل : أَجَمَة وأَجَم . والأَيكُ : الشجرُ الملتفُّ فأجودُ القراءةِ فيها الكسرُ ، وإسقاطُ الهمزة ، لموافقة المصحف ولا أعلمه إلاَّ قد قُرِىء به" .

وقال الفارسيُّ : "قولُ مَنْ قال "ليكةَ" ففتحَ التاءَ مُشْكِلٌ ، لأنه فَتَحَ مع لَحاقِ اللامِ الكلمةَ . وهذا في الامتناعِ كقولِ مَنْ قال : "مَرَرْتُ بِلَحْمَرَ" ففتحَ الأخِرَ مع لَحاقِ لامِ المعرفةِ ، وإنما كُتِبَتْ "لَيْكَةَ" على تخفيفِ الهمزِ ، والفتحُ لا يَصِحُّ في العربيةِ ؛ لأنه فَتْحُ حرفِ الإعرابِ في موضع الجرِّ مع لامِ المعرفةِ ، فهو على قياسِ قَوْلِ مَنْ قال "مررتُ بلَحْمَرَ" . ويَبْعُدُ أَنْ يفتحَ نافعٌ ذلك مع ما قال عنه ورش" .

قلت : يعني أنَّ وَرْشاً نَقَلَ عن نافعٍ نَقْلَ حركةِ الهمزةِ إلى الساكنِ قبلَها ، حيث وُجِد بشروطٍ مذكورةٍ ، ومن جملةِ ذلك : ما في سورةِ الحجر وق مِنْ لفظِ " الأيكة " فقرأَ على قاعدتِه في السورتين بنَقْلِ الحركةِ وطَرْحِ الهمزةِ وخَفْضِ الياءِ ، فكذلك ينبغي أَنْ يكونَ الحكمُ في هذين الموضعينِ أيضاً .

وقال الزمخشري : " قُرِئَ " أصحابُ الأَيكة " بالهمزة وتخفيفها وبالجرّ على الإضافةِ ، وهو الوجهُ . ومَنْ قرأَ بالنصبِ وزعَمَ أنَّ لَيْكَة بوزنِ لَيْلة اسمُ بلد ، فَتَوَهُّمٌ قاد إليه خطُّ المصحفِ ، وإنما كُتبت على حكمِ لفظِ اللافظ كما يكتب أَصحاب [النحو] ، لأن . . على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف ، وقد كُتِبَتْ في سائرِ القرآنِ على الأصلِ ، والقصة واحدةٌ . على أنَّ لَيْكَة اسمٌ لا يُعْرَفُ . ورُوي أنَّ أصحابَ الأَيكة كانوا أصحابَ شجرٍ مُلْتَفٍّ وكان شجرُهم الدَّوْمَ ، يعني أنَّ مادةَ لام ي ك مفقودةٌ في لسانِ العرب كذا قال النُّقَّابُ مِمَّنْ تَتَبَّعَ ذلك قال : " وهذا كما نَصُّوا على أن الخاء والذال المعجمتين لم يُجامعا الجيمَ في لغةِ العربِ " ولذلك لم يَذْكرها صاحب " الصحاح " مع ذكرِه التفرقةَ المتقدمةَ عن أبي عبيد ، ولو كانت موجودةً في اللغةِ لذكرها مع ذكرِه التفرقةَ المتقدمةَ لشدة الاحتياجِ

إليها .

وقال الزجاج أيضاً : " أهلُ المدينة يفتحون على ما جاء في التفسيرِ : أن اسمَ المدينة التي كان فيها شعيبٌ لَيْكة " قال أبو علي : " لو صَحَّ هذا فلِمَ/ أجمعَ القرّاءُ على الهمزِ في قوله : ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأيكة ﴾ [الآية : 78] في الحجر . والأَيكة التي ذُكِرَتْ ههنا هي الأَيكَةُ التي ذُكِرَتْ هناك . وقد قال ابن عباس : " الأَيكَةُ : الغَيْضَةُ " ولم يُفَسِّرْها بالمدينةِ ولا البلدِ " .

(249/571)

قلت : وهؤلاء كلُّهم كأنَّهم زعموا أن هؤلاء الأئمةَ الأثباتَ إنما أَخَذوا هذه القراءةَ مِنْ خَط المصاحفِ دونَ أفواهِ الرجالِ ، وكيف يُظَنُّ بمثلِ أَسَنِّ القراءِ وأعلاهُمْ إسناداً ، الآخذِ للقرآن عن جملةٍ من جُلَّة الصحابةِ أبي الدرداء وعثمان بن عفان وغيرهما ، وبمثل إمامِ مكةَ شَرَّفها الله تعالى وبمثل إمامِ المدينةِ ؟ وكيف يُنْكَرُ على أبي عبيدٍ قولُه ، أو يُتَّهَمُ في نَقْلِه ؟ ومَنْ حَفِظَ حجةٌ على مَنْ لم يَحْفَظْ ، والتواتُرُ قَطْعِيٌّ فلا يُعارَضُ بالظنّي .

وأمَّا اختلافُ القراءةِ مع اتحادِ القصةِ فلا يَضُرُّ ذلك ، عَبَّر عنها تارةً بالقريةِ خاصةً ، وتارةً بالمصرِ الجامعِ للقرى كلِّها ، الشاملِ هو لها . وأمَّا تفسيرُ ابنِ عباس فلا ينافي ذلك ، لأنَّه

عَبَّر عنها كَثُر فيها . ومَنْ رأى ما ذكرْتُه من مناقبِ هؤلاء الأئمةِ في شَرْحِ " حرز الأماني " اطَّرَحَ ما طُعِنَ به عليهم ، وعَرَفَ قَدْرهم ومكانتَهم . وقال أبو البقاء في هذه القراءةِ : " وهذا لا يَسْتقيمُ ؛ إذ ليس في الكلامِ " لَيْكة " حتى يُجْعَلَ عَلَماً . فإن ادُّعِي قَلْبُ الهمزة لاماً فهو في غايةِ البُعْدِ " . قلت :

3531 وابنُ اللَّبونِ إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ . . . لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَناعيسِ

" أطرقْ كرا إنَّ النّعامِ بالقرى " " مَنْ أنت وزيداً " .

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184)

قوله : ﴿ الجبلة ﴾ العامَّةُ على كسرِ الجيمِ والباءِ وشَدِّ اللامِ . وأبو حُصَيْن والأعمشُ والحسن بضمِّهما وشدِّ اللام . والسُّلمي بفتحِ الجيمِ أو كسرها مع سكون الباء . وهذه لغاتٌ في هذا الحرفِ ومعناه : الخَلْقُ المتَّحِدُ الغليظُ مأخوذٌ من الجَبَل . قال الشاعر :

3532 والمَوْتُ أعظمُ حادِثٍ . . . فيما يَمُرُّ على الجِبِلَّهْ

(250/571)

وقال المهدَوِيُّ : " الجِبْلُ والجَبْلُ والجُبْلُ لغاتٌ ، وهو الجمعُ الكثيرُ العددِ من الناس . وقيل : الجِبِلَّةُ مِنْ قولِهم : جُبِل على كذا أي : خُلِق وطُبِع عليه . وسيأتي في يس إنْ شاء الله تعالى

تمامُ الكلامِ على ذلك عند قولِه : ﴿ جبلاً كَثِيراً ﴾ [يس : 62] واختلافُ القراء فيه .

وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186)

قوله : ﴿ وَمَا أَنتَ ﴾ : جاء في قصةِ هود " ما أنت " بغير واو وهنا " وما أنت " بالواو ، فقال الزمخشري : " إذا دَخَلَتْ الواوُ فقد قُصِدَ مَعْنيان كلاهما مخالِفٌ للرسالةِ عندهم : التسخيرُ والبَشَرِيَّةُ ، وأنَّ الرسولَ لا يجوز أَنْ يكونَ مُسَخَّراً ولا بَشَراً . وإذا تُرِكَتِ الواوُ فلم يُقْصَدْ إلاَّ معنىً واحدٌ وهو كونُه مُسَخَّرا ، ثم قَرَّر بكونِه بشراً " . وتقدَّم الخلافُ في "كِسَفاً " واشتقاقُه في الإِسراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 544.550 ﴾

(251/571)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾

يعني : كذبوا هوداً عليه السلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي : نبيهم هود وقد ذكرناه ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ وقد تقدم ذكره ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءايَةً ﴾ يعني : بكل طريق علامة

ويقال : بكل شرف علماً ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ يعني : تلعبون ويقال : تضربون ، فتأخذون المال ممن مر بكم .

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ ﴾ يعني : تبنون ما لا تسكنون .

وقال أهل اللغة : كل لعب لا لذة فيه ، فهو عبث .

واللعب ما كان فيه لذة ، فهم إذا بنوا بناء ، ولا منفعة لهم فيه ، فكأنهم يعبثون ثم قال عز وجل : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ يعني : القصور وقال مجاهد : المصانع قصور وحصون .

وقال القتبي : المصانع البناء واحدها مصنعة ويقال : الربع الارتفاع من الأرض .

ومعناه : أنكم تبنون البناء والقصور ، وتظنون أن ذلك يحصنكم مِنْ أقدار الله تعالى .

ويقال : وتتخذون مصانع يعني : الحياض ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ يعني : كأنكم تخلدون في الدنيا .

(252/571)

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ يعني : عاقبتم ويقال : يعني : ضربتم بالسوط وقتلتم بالسيف ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ يعني : فعلتم كفعل الجبارين لأن الجبارين ، يضربون ويقتلون بغير حق ، وأصل البطش في اللغة هو الأخذ بالقهر والغلبة ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ

﴿ فيما آمركم به ﴿ واتقوا الذى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : أعطاكم ما تعلمون من الخير ، ثم بيّن فقال ﴿ أَمَدَّكُمْ بأنعام وَبَنِينَ ﴾ يعني : أعطاكم الأموال والبنين ﴿ وجنات وَعُيُونٍ ﴾ يعني : البساتين والأنهار الجارية ، فاعرفوا رب هذه النعمة ، واشكروه ليديم عليكم النعمة ، فإنكم إن لم تشكروه ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عظِيمٌ ﴾ يعني : أعلم أنه يصيبكم العذاب في الدنيا والآخرة .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ ﴾ يعني : أنهيتنا وخوفتنا من العذاب ﴿ أَمْ لَمْ تَكُنْ مّنَ الواعظين ﴾ يعني : من الناهين .

روي عن ابن عباس أنه قال : هو الوعظ بعينه ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الاولين ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي وابن كثير : إن هذا إلا خلق ، بنصب الخاء ، وقرأ الباقون بالضم ، فمن قرأ بالنصب ، فمعناه : ما هذا العذاب الذي تذكره إلا أحاديث الأولين .

ويقال : الإحياء بعد الموت لا يكون ، وإنما هذا خلق الأولين أنهم يعيشون ، ثم يموتون ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ قال القتبي : الخلق الكذب كقوله : ﴿ مَا سَمِعْنَا بهذا فِى الملة الآخرة إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ [ص : 7] وكقوله : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الاولين ﴾ [الشعراء : 137] أي : خوضهم للكذب .

والعرب تقول للخرافات أحاديث الخلق قال : وأعمل الخلق التقدير ، وها هنا أراد بهم

اختلافهم ، وكذبهم ، وأما من قرأ بضم الخاء ، فمعناه : إن هذا إلا عادة الأولين ، والعادة أيضاً تحتمل المعنيين ، مثل الأول .

(253/571)

ثم قال عز وجل : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فأهلكناهم ﴾ يعني : كذبوا هوداً فأهلكناهم ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ يعني : لعبرة لمن يعمل عمل الجبارين ، ولا يقبل الموعظة ، وهو تخويف لهذه الأمة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : قوم عاد ولو كان أكثرهم لم يهلكهم الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ يعني : المنيع بالنقمة لمن يعمل عمل الجبارين ، ولا يقبل الموعظة ، وهو تخويف لهذه الأمة لكيلا يسلكوا مسالكهم ﴿ الرحيم ﴾ لمن تاب .

قوله عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين ﴾ يعني : صالحاً ومن قبله من المرسلين عليهم السلام ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ ﴾ يعني : نبيهم ﴿ صالح أَلا تَتَّقُونَ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾ وقد ذكرناه ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا ها هنا ءامِنِينَ ﴾ يعني : في هذا الخير والسعة آمنين من الموت ﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ يعني : البساتين والأنهار .

ويقال : العيون ها هنا الآثار ، لأن قوم صالح لم يكن لهم أنهار جارية .

ويقال : كانت لهم بالشتاء آبار ، وكانوا يسكنون في الجبال ، وفي أيام الصيف كانوا يخرجون إلى القصور والكروم والأنهار .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال مقاتل : يعني : متراكباً بعضه على بعض .

وقال القتبي : الهضيم الطلع قبل أن تنشق عنه القشر يريد أنه ينضم متكثر يقال : رجل أهضم الكشحين إذا كان منضماً .

(254/571)

ويقال : هضيم أي طري لين ويقال : هضيم متهشهش في الفم ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فارهين ﴾ قرأ أبو عمرو وابن كثير ونافع : ﴿ فارهين ﴾ بغير ألف ، وقرأ الباقون ﴿ فارهين ﴾ بالألف ، فمن قرأ ﴿ فارهين ﴾ ، فهو بمعنى أشرين بطرين ، وهو الطغيان في النعمة ، وإنما صار نصباً على الحال ، ومن قرأ ﴿ فارهين ﴾ ، أي حاذقين ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم .

قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المسرفين ﴾ يعني : قول المشركين وهم التسعة رهط ﴿ الذين ﴾ كانوا ﴿ يُفْسِدُونَ فِى الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ يعني : لا يأمرون بالصلاح ، ولا

يجيبونه ، ولا يطيعونه فأجابوه قوله : ﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ يعني : من المخلوقين .

ويقال : ذو سحر ، والسحر هو الدية ، يعني : إنك مثلنا .

وروي عن ابن عباس أنه قال : من المسحرين ، أي من المخلوقين .

وقال : أما سمعت قول لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا .

. . عصافير من هذا الأنام المسحر

ويقال إنما أنت من المسحرين .

يعني : سوقة مثلنا ، والسوق إذا كان دون السلوك .

(255/571)

ثم قال عز وجل : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعني : آدمي مثلنا ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ ﴾ أنك رسول الله تعالى : ﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ والشرب في اللغة النصيب من الماء والشُرب بضم الشين المصدر ، والشَرب بنصب الشين جماعة الشراب ، فكان للناقة شرب يوم ، ولهم شرب يوم ، فذلك قوله : ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلاَ تَمَسُّوهَا

بِسُوءٍ ﴾ يعني : لا تصيبوها بعقر يعني : لا تقتلوها ، فإنكم إن قتلتموها ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني : صيحة جبريل عليه السلام ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ يعني : قتلوا الناقة ﴿ فَأَصْبَحُواْ نادمين ﴾ يعني : فصاروا نادمين على عقرها قوله عز وجل : ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ يعني : عاقبهم الله تعالى بالعذاب ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ يعني : لعبرة لمن يعظم آيات الله تعالى ، وكانت النَّاقة علامة لنبوة صالح عليه السلام ، فلما أهلكوها ولم يعظموها صاروا نادمين ، والقرآن علامة لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن رفضه ، ولم يعمل بما فيه ، ولم يعظمه يصير نادماً غداً ، ويصيبه العذاب ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : قوم صالح عليه السلام ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ يعني : المنيع بالنقمة لمن لم يعظم آيات الله تعالى ، الرحيم لمن تاب ورجع .

(256/571)

قوله عز وجل : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين ﴾ يعني : لوطاً وغيره ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ وقد ذكرناه ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ وقد ذكرناه ﴿ أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾ يعني : أتجامعون الرجال من بين العالمين ﴿ وَتَذَرُونَ ﴾ يعني : وتتركون ﴿ مَا خَلَقَ

لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم ﴾ يعني : من نسائكم ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ يعني : معتدين من الحلال إلى الحرام ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يا لوط لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ من قريتنا ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ القالين ﴾ يعني : من المبغضين ويقال : قلت الرجل إذا بغضته ومنه قوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3]

قوله عز وجل : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ من الفواحش ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ يعني : الباقين في العذاب .

يعني : وامرأته ويقال : إن هذا من أسماء الأضداد .

يقال : غبر الشيء إذا مضى ، وغبر الشيء إذا بقي : وقال بعض أهل اللغة : القالي التارك للشيء ، الكاره له غاية الكراهية ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الاخرين ﴾ يعني : أهلكنا الباقين ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ يعني : الحجارة ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ يعني : بئس مطر من أنذر ، فلم يؤمن ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ يعني : لعبرة لمن عمل الفواحش ، أي وارتكب الحرام ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ يعني : المنيع بالنقمة لمن ارتكب الفواحش ، وعمل الحرام رحيم لمن تاب ، وقد ذكرناه .

قوله عز وجل : ﴿ كَذَّبَ أصحاب لْئَيْكَةِ ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿ لْئَيْكَةِ ﴾ بكسر الهاء والألف ، والباقون ﴿ ليكة ﴾ بغير ألف ونصب الهاء اسم بلد ، ولا ينصرف .

من قرأ الأيكة فلأنها عرفت بالألف واللام ، فيصير خفضاً بالإضافة في الشاذ ليكة بكسر الهاء بغير ألف ، لأن الأصحاب مضاف إلى ليكة ، فصار اسماً واحداً .

ويقال : الأيكة هي الشجرة الملتفة يقال : أيك وأيكة ، مثل أجم وأجمة ، ويقال : شجرة الدوم ، وهو شجر المقل .

ثم قال عز وجل : ﴿ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ولم يقل أخوهم قال بعضهم : كان شعيب بعث إلى قومين أحدهما مدين ، وكان شعيب منهم ، فسماه أخاهم حيث قال : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يا قوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إنى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإنى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود : 84] ، والآخر أصحاب الأيكة ، ولم يكن شعيب عليه السلام منهم ، فلم يقل أخوهم وقال بعضهم : كان مدين ، والأيكة واحداً ، وهو الغيضة بقرب مدين ، فذكره في موضع أخوهم ، ولم يذكره في الآخر .

ثم قال : ﴿ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ يعني : ألا تخافون الله تعالى فتوحدوه ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾ وقد ذكرناه.

(258/571)

ثم قال عز وجل: ﴿ أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ يعني: من الناقصين في الكيل والوزن، وفي هذا دليل على أنه أراد بهذا أهل مدين، لأنه ذكر في تلك الآية ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتى هِيَ أَحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ ذلكم وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 152] كما ذكرها هنا ثم قال: ﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ يعني: بميزان العدل بلغة الروم.

ويقال: هو القبان ﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءهُمْ ﴾ يعني: لا تنقصوا الناس حقوقهم قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ بالقسطاس ﴾ بكسر القاف، والباقون بالضم، وهما لغتان.

ثم قال: ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ يعني: لا تسعوا فيها بالمعاصي.

يقال: عثى يعثو وعاث يعيث، وعثى يعثي إذا ظهر الفساد.

ثم قال عز وجل : ﴿ واتقوا الذى خَلَقَكُمْ والجبلة الاولين ﴾ يعني : الخليقة الأولى ﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ وقد ذكرنا ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ يعني : ما نظنك إلا من الكاذبين ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السماء ﴾ أي جانباً من السماء ، وقرىء ﴿ كِسَفًا ﴾ بنصب السين ، أي قطعاً ، وهو جمع كسفة ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين قَالَ ﴾ لهم شعيب عليه السلام : ﴿ رَّبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من نقصان الكيل ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ في العذاب ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ لأنه أصابهم حر شديد ، فخرجوا إلى غيضة ، فاستظلوا بها ، فأرسل عليهم ناراً ، فأحرقت الغيضة ، فاحترقوا كلهم ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ صار العذاب نصباً ، لأنه خبر كان ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ يعني : لعبرة لمن نقص في الكيل والوزن ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني : قوم شعيب ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز ﴾ بالنقمة لمن نقص الكيل والوزن ﴿ الرحيم ﴾ لمن تاب ورجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 561.566 ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على الرسالة ، وقال الكلبي : أمين فيكم قبل الرسالة فكيف تتّهموني اليوم ؟ ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ .

قال الوالبي عن ابن عباس : بكل شرف .

قتادة والضحّاك ومقاتل والكلبي : طريق ، هي رواية العوفي عن ابن عباس .

ابن جريج عن مجاهد : هو الفجّ بين الجبلين .

ابن أبي نجيح عنه : هو الثقبة الصغيرة وعنه أيضاً عكرمة : واد .

مقاتل بن سليمان : كانوا يسافرون ولا يهتدون إلاّ بالنجوم فبنوا على الطرق أميالاً طوالاً عبثاً ليهتدوا بها ، يدلّ عليه قوله ﴿ آيَةً ﴾ أي علامة .

وروي عن مجاهد أيضاً قال : الريع بنيان الحمام ، دليلهُ وقوله ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ أي تلعبون ، أبو عبيد : هو المكان المرتفع ، وأنشد لذي الرمّة :

طراق الخوافي مشرف فوق ريعه . . . ندى ليلة في ريشه يترقرق

وفيه لغتان رِيع ورَيع بكسر الراء وفتحها وجمعهُ أرياع وريعه .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : قصور مشيّدة معمر عنه : الحصون .

ابن أبي نجيح عنه : بروج الحمام ، قتادة : مآخذ للماء ، الكلبي : منازل ، عبد الرزاق : المصانع عندنا بلغة اليمن : القصور العاديّة واحدتها مصنع .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعني كأنكّم تبقون فيها خالدين ، ابن زيد : لعلّ استفهام ، يعني فهل تخلدون حين تبنون هذه الأشياء ؟ الفرّاء : كيما تخلدون .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ أي سطوتم وأخذتم ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ قتّالين من غير حقّ .

قال مجاهد : قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط ، والجبّار : الذي يقتل ويضرب على الغضب .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * واتقوا الذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

(261/571)

ثمّ ذكر ما أعطاهم فقال ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ ﴾ .

روى العباس عن ابن عمير ، وواقد عن الكسائي بإدغام الطاء في التاء ، الباقون : بالإظهار وهو الاختيار .

﴿ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الواعظين * إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ قرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو

عمرو ويعقوب وأيوب وأبي عبيد وأبي حاتم بفتح الخاء ، لقوله ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾ [العنكبوت : 17] وقوله ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ﴾ [ص : 7] ومعناه : إن هذا إلاّ دأب الأوّلين وأساطيرهم وأحاديثهم ، وقرأ الباقون : بضم الخاء واللام أي عبادة الأوّلين من قبلنا ، يعيشون ما عاشوا ثمّ يموتون ولا بعث ولا حساب ، وهذا تأويل قتادة .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ ﴾ أي في الدنيا ﴿ آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا ﴾ ثمرها ﴿ هَضِيمٌ ﴾ . قال ابن عباس : لطيف ما دام في كفراه ، ومنه قيل : هضيم الكشح إذا كان لطيفاً ، وهضمَ الطعام إذا لطف واستحال على شكله ، عطيّة عنه : يانع نضيج ، قتادة وعكرمة : الرطب اللّين ، الحسن : رخو .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شبنة قال : حدّثنا ابن ماهان قال : حدّثنا الطنافسي قال : حدّثنا وكيع عن سلام عن أبي إسحاق عن أبي العلاء ، طلعها هضيم قال : مذنّب ، مجاهد : متهشم متفتت وذلك حين يطلع يفيض عليه فيهضمه ، وهو ما دام رطباً فهو هضيم فإذا يبس فهو هشيم ، أبو العالية : يهشهش في الفم . الضحاك ومقاتل : متراكم ركب بعضه بعضاً حتى هضم بعضه بعضاً ، وأصله من الكسر .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ ﴾ قرأ أهل الشام والكوفة فارهين بالألف ، وهي قراءة أصحاب عبد الله واختيار أبي عبيد أي حاذقين بتخيّرها .

وقال عطيّة وعبد الله بن شداد : متخيرين لمواضع نحتها ، وقرأ الباقون : فرهين بغير ألف وهو اختيار أبي حاتم . واختلفوا في معناه فقال ابن عباس : أشرين ، الضحّاك : كيّسين ، قتادة : معجبين بصنعكم ، مجاهد : شرهين ، عكرمة : ناعمين ، السدّي : متحيرين ، ابن زيد : أقوياء ، الكسائي : بطرين ، أبو عبيدة : فرحين ، الأخفش : فرحين ، والعرب تعاقب بين الحاء والهاء مثل : مدحته ومدهته ، ويجوز أن يكون فرهين وفارهين بمعنى واحد مثل قوله ﴿ عِظَاماً نَّخِرَةً ﴾ [النازعات : 11] وناخرة ، ونحوها .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تطيعوا أَمْرَ المسرفين ﴾ المشركين ﴿ الذين يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ * قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ أي المسحورين المخدوعين عن مجاهد وقتادة .

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : من المعلّلين بالطعام والشراب ، وأنشد الكلبي قول لبيد :

فإنْ تسألينا فيم نحن فإنّنا . . . عصافير من هذا الأنام المسحّر

وقال آخر :

ويسحر بالطعام وبالشراب . . . أي يعلّل ويخدع ، وهو على هذين القولين من السِّحر بكسر السين .

(263/571)

وقال بعضهم : من السَّحر بفتح السين أي أصحاب الرؤية ، يدلّ عليه قوله ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ ﴾ على صحة ما يقول ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ حظ ونصيب من الماء ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء ﴾ بعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ ﴾ على عقرها حين رأوا العذاب .

﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ العالمين * أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾

مجاوزون الحلال إلى الحرام .

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ من بلدنا ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ ﴾ يعني اللواط ﴿ مِّنَ القالين ﴾ المبغضين .

ثمَّ دعا فقال ﴿ رَبِّ نَجِنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ عند نزول العذاب ﴿ إِلَّا عَجُوزاً فِي الغابرين ﴾ وهي امرأة لوط بقيت في العذاب والهلاك .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ فقال : سمعت وهب بن منبه يقول : الكبريت والنار .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة ﴾ الغيضة وهم قوم شعيب والليكة والأيكة لغتان قرئتا جميعاً ﴿ المرسلين ﴾ .

قال أبو زيد : بعث الله سبحانه شعيباً إلى قومه وأهل مدين وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب لأنّه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب ، فلمّا ذكر مدين قال : ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ [الأعراف : 85] [هود : 84] [العنكبوت : 36] لأنه كان منهم .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ وإنّما دعوة هؤلاء الأنبياء كلّهم فيما حكى الله سبحانه عنهم على صيغة واحدة للإخبار بأنّ الحقّ الذي يدعون إليه واحد ، وأنّهم متّفقون على الأمر بالتقوى والطاعة والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة .

﴿ أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ الناقصين للكيل والوزن .

﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم * وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ * واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة ﴾ الخليقة ﴿ الأولين ﴾ . والجبلّ : الخلق ، قال الشاعر :

والموت أعظم حادث . . . مما يمرّ على الجبلّة

﴿ قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين * وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين *

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء إِن كُنتَ مِنَ الصادقين * قَالَ ربي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وهو مُجازيكم به وما عليَّ إلاّ الدعوة .

(265/571)

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ وذلك أنّ الله سبحانه حبس عنهم الريح سبعة أيام وسلّط عليهم الحرّ حتى أخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظلّ ولا ماء ، وكانوا يدخلون الأسراب ليتبرّدوا فيها فإذا دخلوها وجدوها أشدّ حراً من الظاهر ، فخرجوا هرابا الى البرية فأظلّتهم سحابة وهي الظلّة ، فوجدوا لها برداً ونسيماً فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أمطرت عليهم ناراً فاحترقوا .

قال قتادة : بعث الله سبحانه شعيباً إلى أُمّتين : أصحاب الأيكة وأهل مدين ، فأمّا أصحاب الأيكة فأُهلكوا بالظّلة وأمّا أهل مدين فأخذتهم الصيحة ، صاح بهم جبرئيل صيحة فهلكوا جميعاً .

أخبرني الحسين بن محمد قال : حدّثنا موسى بن محمد قال : حدّثنا الحسن بن علويه قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا المسيّب عن برد الجريري قال : سلّط الحرّ عليهم سبعة أيام ولياليهن ، ثم رفع لهم جبل من بعيد ، فأتاه رجل منهم فإذا تحته أنهار وعيون

وماء بارد فتمكّن تحته وأخذ ما يكفيه ثم جاء إلى أهل بيته فآذنهم فجاؤوا فأخذوا ما يكفيهم وتمكّنوا ، ثم آذن بقيّة الناس فاجتمعوا تحته كلّهم فلم يغادر منهم أحداً ، فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك قوله سبحانه ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 174.179 ﴾

(266/571)

وقال الزمخشري :

﴿ كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) ﴾

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131)

قرئ : بكل ريع ، بالكسر والفتح : وهو المكان المرتفع . قال المسيب بن علس :

(267/571)

في الآل يرفعها ويخفضها ريع يلوح كأنّه سحل «1»

ومنه قولهم: كم ريع أرضك؟ وهو ارتفاعها. والآية: العلم وكانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم. فاتخذوا في طرقهم أعلاما طوالا فعبثوا بذلك، لأنهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم.

وعن مجاهد: بنوا بكل ريع بروج الحمام «2». والمصانع: مآخذ الماء. وقيل: القصور المشيدة والحصون لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ترجون الخلود في الدنيا. أو تشبه حالكم حال من يخلد. وفي حرف أبيّ: كأنكم. وقرئ تخلدون بضم التاء مخففا ومشددا وَإِذا بَطَشْتُمْ بسوط أو سيف كان ذلك ظلما وعلوا، وقيل: الجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب. وعن الحسن: تبادرون تعجيل العذاب، لا تتثبتون متفكرين في العواقب.

[سورة الشعراء (26): الآيات 132 إلى 135]

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135)

بالغ في تنبيههم على نعم اللّه، حيث أجملها ثم فصلها مستشهدا بعلمهم، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال «3» أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ ثم عدّدها عليهم وعرّفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة، فهو قادر على الثواب والعقاب، فاتقوه.

ونحوه قوله تعالى وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ . فإن قلت : كيف قرن البنين بالأنعام ؟ قلت : هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 136 إلى 140]

قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

---

(1) . للمسيب بن علس ، والآل : هو السراب . وقيل : الآل : ما في طرفى النهار وما في وسطه السراب .

والريع بالكسر : الطريق والمرتفع من الأرض . والسحل : نوع أبيض من ثياب اليمن ، ولعل الضمير للظعائن ، أى : هي في الآل . أو في وقته : برفعها تارة وبخفضها أخرى ، ريع : أى طريق مرتفع تارة ، ومنخفض أخرى .

أو مكان عال ترتفع بصعوده وتنخفض بالهبوط منه ، يلوح : أى يظهر من بعد ، كأنه ثياب بيض .

(2) . قال محمود : «كانوا يهتدون في أسفارهم بالنجوم ، فاتخذوا في طرقهم أعلاما فعبثوا بذلك ، إذ النجوم فيها غنية عنها . وقيل : المراد القصور المشيدة ، وقيل : بروج الحمام» قال أحمد : وتأويلها على القصور أظهر ، وقد ورد ذم ذلك على لسان نبينا صلى اللّه عليه

وسلم ، حيث وصف الكائنين آخر الزمان بأنهم يتطاولون في البنيان ، وما أحسن قول مالك رضى اللّه عنه : ولا يصلى الامام على شيء أرفع مما عليه أصحابه ، كالدكاك تكون مرتفعة في المحراب ارتفاعا كبيرا ، لأنهم يعبثون ، فعبر عن ترفعهم إلى المحراب على سبيل التكبر ومطاولتهم المأمومين بالعبث ، كتعبير هود صلوات اللّه عليه وسلامه عن ترفع قومه في البنيان بالعبث . وأما تأويل الآية على اتخاذهم الأعلام في الطرقات وقد كانت لهم بالنجوم كفاية ، ففيه بعد ، من حيث أن الحاجة تدعو إلى ذلك لغيم مطبق وما يجرى مجراه .

ولو وضع هذا في زماننا اليوم لهذا المقصد لم يكن عبثا ، واللّه أعلم .

(3) . قوله «حين قال» لعله : حيث قال . (ع)

(268/571)

فإن قلت : لو قيل أَوَعَظْتَ أو لم تعظ ، كان أخصر . والمعنى واحد . قلت : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق ، لأنّ المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه ، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه ، من قولك : أم لم تعظ . من قرأ : خلق الأوّلين بالفتح ، فمعناه : أنّ ما جئت به اختلاق الأوّلين وتخرّصهم ، كما قالوا :

أساطير الأوّلين . أو ما خلقنا هذا إلا خلق القرون الخالية ، نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا حساب . ومن قرأ : خلق ، بضمتين ، وبواحدة ، فمعناه . ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم ، كانوا يدينونه ويعتقدونه ، ونحن بهم مقتدون . أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت الإعادة لم يزل عليها الناس في قديم الدهر أو ما هذا الذي جئت به من الكذب إلا عادة الأولين ، كانوا يلفقون مثله ويسطرونه .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 141 إلى 152]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (145)

أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (152)

أَتُتْرَكُونَ يجوز أن يكون إنكارا لأن يتركوا مخلدين في نعيمهم لا يزالون عنه ، وأن يكون تذكيرا بالنعمة في تخلية اللّه إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن والدّعة فِي ما هاهُنا في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ، ثم فسره بقوله فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وهذا أيضا إجمال ثم تفصيل . فإن قلت : لم قال وَنَخْلٍ بعد قوله : في جنات ، والجنة تتناول النخل

أوّل شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج، حتى أنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخيل، كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل. قال زهير:

(269/571)

. . . . . تسقى جنّة سحقا «1»

قلت: فيه وجهان: أن يخص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر، تنبيها على انفراده عنها بفضله عليها، وأن يريد بالجنات: غيرها من الشجر، لأنّ اللفظ يصلح لذلك، ثم يعطف عليها النخل. الطلعة: هي التي تطلع من النخلة، كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو. والقنو:

اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه وشماريخه. والهضيم: اللطيف الضامر، من قولهم:

كشح هضيم، وطلع إناث النخل فيه لطف، وفي طلع الفحاحيل جفاء، وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون «2»، فذكرهم نعمة اللّه في أن وهب لهم أجود النخل وأنفعه: لأنّ الإناث ولادة التمر، والبرني: أجود التمر وأطيبه ويجوز أن يريد أن نخيلهم أصابت جودة المنابت وسعة الماء، وسلمت من العاهات، فحملت الحمل الكثير، وإذا كثر الحمل

هضم ، وإذا قل جاء فاخرا .

وقيل : الهضيم : اللين النضيج ، كأنه قال : ونخل قد أرطب ثمره . قرأ الحسن : وتنحتون ، بفتح الحاء . وقرئ : فرهين ، وفارهين . والفراهة : الكيس والنشاط . ومنه : خيل فرهة ، استعير لامتثال الأمر ، وارتسامه طاعة الآمر المطاع . أو جعل الأمر مطاعا على المجاز الحكمي ، والمراد الآمر . ومنه قولهم : لك عليّ إمرة مطاعة . وقوله تعالى وَأَطِيعُوا أَمْرِي . فإن قلت : ما فائدة قوله وَلا يُصْلِحُونَ ؟ قلت : فائدته أنّ فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 153 إلى 154]

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154)

المسحر : الذي سحر كثيرا حتى غلب على عقله . وقيل : هو من السحر الرئة ، «3» وأنه بشر .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 155 إلى 156]

قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156)

الشرب : النصيب من الماء ، نحو السقي والقيت ، للحظ من السقي والقوت ، وقرئ

بالضم.

روى أنهم قالوا: نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة، فتلد سقبا «4»، فقعد صالح يتفكر،

---

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 105 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2). قوله «وكذلك طلع البرني ألطف من طلع اللون» البرني: ضرب من التمر. واللون: الدقل، والدقل:

أردا التمر، كذا في الصحاح. (ع)

(3). قوله «الرئة» لعله: بمعنى الرئة. (ع)

(4). قوله «فتلد سقبا» في الصحاح «السقب»: الذكر من ولد الناقة. (ع)

فقال له جبريل عليه السلام: صل ركعتين وسل ربك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقبا مثلها في العظم. وعن أبي موسى: رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعا.

وعن قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء بِسُوءٍ بضرب أو عقر أو غير ذلك . عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 157 إلى 159]

فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

وروى أن مسطعا ألجأها إلى مضيق في شعب ، فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت : ثم ضربها قدار . وروى أنّ عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين ، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون : أترضين ؟ فتقول : نعم ، وكذلك صبيانهم . فإن قلت : لم أخذهم العذاب وقد ندموا ؟ قلت : لم يكن ندمهم ندم تائبين ، ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقر عقابا عاجلا ، كمن يرى في بعض الأمور رأيا فاسدا ويبنى عليه ، ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعىّ «1» أو ندموا ندم تائبين ولكن في غير وقت التوبة ، وذلك عند معاينة العذاب . وقال اللّه تعالى وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ . . . الآية . وقيل : كانت ندامتهم على ترك الولد ، وهو بعيد . واللام في العذاب : إشارة إلى عذاب يوم عظيم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 160 إلى 166]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164)

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166)

أراد بالعالمين : الناس ، أى : أتأتون من بين أولاد آدم عليه السلام - على فرط كثرتهم وتفاوت أجناسهم وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة - ذكرانهم ، كأن الإناث قد أعوزتكم .

---

(1) . قوله «كندامة الكسعي» الكسع : حي من اليمن . والكسعي : رجل منهم ربى تبعة حتى أخذ منها قوسا فرمي عنها الوحش ليلا وظن أنه أخطأ ، فكسر القوس ، فلما أصبح رأى ما أصابه من الصيد فندم ، وضرب به المثل من قال :

ندمت ندامة الكسعي لما رأت عيناه ما صنعت يداه

كذا في الصحاح . (ع)

أو أتأتون أنتم – من بين من عداكم من العالمين – الذكران ، يعنى أنكم يا قوم لوط وحدكم مختصون بهذه الفاحشة . والعالمون على هذا القول : كل ما ينكح من الحيوان مِنْ أَزْواجِكُمْ يصلح أن يكون تبيينا لما خلق «1» ، وأن يكون للتبعيض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منهنّ .

وفي قراءة ابن مسعود : ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم ، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم . العادي : المتعدّى في ظلمه ، المتجاوز فيه الحدّ ، ومعناه : أترتكبون هذه المعصية على عظمها ، بل أنتم قوم عادون في جميع المعاصي ، فهذا من جملة ذاك ، أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان ، حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة .

[سورة الشعراء (26) : آية 167]

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167)

لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ عن نهينا وتقبيح أمرنا لَتَكُونَنَّ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوإ حال : من تعنيف به ، واحتباس لأملاكه «2» . وكما يكون حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه ، وكما كان يفعل أهل مكة بمن يريد المهاجرة .

---

(1) . قال محمود : «يحتمل أن يكون من أزواجكم بيانا لما خلق ، وأن يكون للتبعيض ويراد به العضو المباح منهن . وفي قراءة ابن مسعود : ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم ،

فكأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم» قال أحمد :

وقد أشار الزمخشري بهذه الاشارة للاستدلال بهذه الآية على حظر إتيان المرأة في غير المأتى ، وبيانه أن «من» لو كانت بيانا لكان العنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج ، ولا شك أن ترك الأزواج مضموم إلى إتيان الذكران» وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران ، لا أن ترك الأزواج وحده منكر ، ولو كان الأمر كذلك لكان النصب في الثاني متوجها على الجمع ، وكان إما الأفصح أو المتعين ، وقد اجتمعت العامة على القراءة به مرفوعا ، ولا يتفقون على ترك الأفصح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة أو في الجواز أصلا ، فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد ، فيتعين حمل «من» على البعضية ، فيكون المنكر عليهم أمرين كل واحد منهما مستقل بالإنكار ، أحدهما : إتيان الذكران . والثاني : مجانبة إتيان النساء في المأتى رغبة في إتيانهن في غيره ، وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول ، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير ، والله الموفق . [. . . . .]

(2) . قال محمود : «أى من جملة من أخرجناه ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال من تعنيف به واحتباس لأملاكه وأشباه ذلك» قال أحمد : وكثيرا ما ورد في القرآن خصوصا في هذه الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة ، ثم جعل الموصوف بها واحدا من جمع ، كقول فرعون لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ وقولهم سَوَاءٌ

عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ وقولهم لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ وقوله إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ وقوله تعالى في غيرها رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وكذلك ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ وأمثاله كثيرة ، والسر في ذلك والله أعلم : أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة ، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحدا من جمع ، فانه يفهم أمرا زائدا على وقوعه ، وهو أن الصفة المذكورة كالسمة لموصوف ثابتة العلوق به ، كأنها لقب ، وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة ، واعتبر ذلك لو قلت : رضوا بأن يتخلفوا ، لما كان في ذلك مزيد على الاخبار بوقوع التخلف منهم لا غير . وانظر إلى المساق وهو قوله رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ كيف ألحقهم لقبا رديئا ، وصيرهم من بوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقبا لاصقا به ، وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك ، فتأمله واقدره قدره ، والله الموفق للصواب .

(272/571)

[سورة الشعراء (26) : الآيات 168 إلى 175]

قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172)

وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)

ومِنَ الْقالِينَ أبلغ من أن يقول : إنى لعملكم قال ، كما تقول : فلان من العلماء ، فيكون أبلغ من قولك : فلان عالم ، لأنك تشهد له بكونه معدودا في زمرتهم ، ومعروفة مساهمته لهم في العلم . ويجوز أن يريد : من الكاملين في قلاكم . والقلى : البغض الشديد ، كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد . وفي هذا دليل على عظم المعصية ، والمراد : القلى من حيث الدين والتقوى ، وقد تقوى همة الدّين في دين اللّه حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبلية مِمَّا يَعْمَلُونَ من عقوبة عملهم وهو الظاهر . ويحتمل أن يريد بالتنجية : العصمة . فإن قلت : فما معنى قوله فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً ؟ قلت : معناه أنه عصمه وأهله من ذلك إلا العجوز ، فإنها كانت غير معصومة منه ، لكونها راضية به ومعينة عليه ومحرشة ، والراضي بالمعصية في حكم العاصي . فإن قلت : كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة ، فكيف استثنيت الكافرة منهم :

قلت الاستثناء إنما وقع من الأهل وفي هذا الاسم لها معهم شركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان .

فإن قلت : فِي الْغابِرِينَ صفة لها ، كأنه قيل : إلا عجوزا غابرة ، ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم «1» قلت : معناه إلا عجوزا مقدّرا غبورها . ومعنى الغابرين في العذاب

والهلاك : غير الناجين .

قيل : إنها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة . والمراد بتدميرهم : الائتفاك بهم ، وأمّا الإمطار : فعن قتادة : أمطر اللّه على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم . وعن ابن زيد : لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطرا من حجارة . وفاعل فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ولم يرد

---

(1) . قال محمود : «المجرور صفة لها ، كأنه قيل : إلا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم . قلت :

معناه إلا عجوزا مقدرا غبورها ، أى : في الهلاك والعذاب» قال أحمد : وإن تعجلت برفع القاعدة الممهدة آنفا ، فاعلم أن السر الذي اقتضى العدول عن أن يقول مثلا : إلا عجوزا غابرة إلى ما ذكر في المتلوّ : هو أن المذكور في التلاوة يقتضى الاسجال عليها بأنها من أمة موسومين بهذه السمة من الهلاك كما قدمته الآن ، فهو أبلغ من مجرد وصفها بالغبور ، واللّه أعلم .

بالمنذرين قوما بأعيانهم ، إنما هو للجنس ، والمخصوص بالذّم محذوف ، وهو مطرهم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 176 إلى 180]

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (180)

قرئ أصحاب الأيكة بالهمزة وبتخفيفها ، وبالجرّ على الإضافة وهو الوجه . ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة : اسم بلد ، فتوهم قاد إليه خط المصحف ، حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف . وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه ، وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ ، كما يكتب أصحاب النحو لان ، ولولى : على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف ، وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل ، والقصة واحدة ، على أن ليكة اسم لا يعرف . وروى أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف ، وكان شجرهم الدوم . فإن قلت : هلا قيل : أخوهم شعيب ، كما في سائر المواضع ؟ قلت :

قالوا : إن شعيبا لم يكن من أصحاب الأيكة . وفي الحديث : إن شعيبا أخا مدين ، أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 181 إلى 184]

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184)

الكيل على ثلاثة أضرب : واف ، وطفيف ، وزائد . فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء ، ونهى عن المحرّم الذي هو التطفيف ، ولم يذكر الزائد ، وكأن تركه عن الأمر والنهى : دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه . قرئ : بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان وقيل : القرسطون ، فإن كان من القسط وهو العدل - وجعلت العين مكررة - فوزنه فعلاس ، وإلا فهو رباعي . وقيل : وهو بالرومية العدل . يقال : بخسته حقه ، إذا نقصته إياه . ومنه قيل للمكس : البخس ، وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم ، وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفا شرعيا . يقال : عثا في الأرض وعثى وعاث ، وذلك نحو قطع الطريق ، والغارة ، وإهلاك الزروع ، وكانوا يفعلون ذلك مع

توليهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك. وقرئ: الجبلة، بوزن الأبلة. والجبلة «1»، بوزن الخلقة.

ومعناهنّ واحد، أى: ذوى الجبلة، وهو كقولك: والخلق الأوّلين.

[سورة الشعراء (26): الآيات 185 إلى 186]

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186)

فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو هاهنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان: كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا ولا يجوز أن يكون بشرا، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا، ثم قرر بكونه بشرا مثلهم. فإن قلت: إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقتا على فعل الظنّ وثانى مفعوليه؟ قلت: أصلهما أن يتفرقا على المبتدإ والخبر، كقولك: إن زيد لمنطلق، فلما كان البابان - أعنى باب كان وباب ظننت - من جنس باب المبتدإ والخبر، فعل ذلك في البابين فقيل: إن كان زيد لمنطلقا، وإن ظننته لمنطلقا.

[سورة الشعراء (26): آية 187]

فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187)

قرئ: كسفا بالسكون والحركة، وكلاهما جمع كسفة، نحو: قطع وسدر. وقيل: الكسف والكسفة، كالريع والريعة، وهي القطعة. وكسفه: قطعه. والسماء: السحاب، أو المظلة.

وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب. ولو كان فيهم أدنى ميل إلى التصديق لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه. والمعنى: إن كنت صادقا أنك نبيّ، فادع اللّه أن يسقط علينا كسفا من السماء.

[سورة الشعراء (26): آية 188]

قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (188)

رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ يريد: أنّ اللّه أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل، وإن أراد عقابا آخر فإليه الحكم والمشيئة

[سورة الشعراء (26): آية 189]

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189)

---

(1). قوله «الأبلة والجبلة» في الصحاح «الأبلة» بالضم وتشديد اللام: الغدرة من التمر. وفيه «الغدرة»:

القطعة من اللحم إذا كانت مجتمعة . وفيه أيضا : الجبلة الخلقة . ومنه قوله تعالى وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ وقرأها الحسن بالضم اه (ع)

(275/571)

فَأَخَذَهُمْ اللّه بنحو ما اقترحوا من عذاب الظلة إن أرادوا بالسماء السحاب ، وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم . يروى أنه حبس عنهم الريح سبعا ، وسلط عليهم الومد «1» فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلّ ولا ماء ولا سرب ، فاضطرّوا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما ، فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا . وروى أنّ شعيبا بعث إلى أمتين : أصحاب مدين ، وأصحاب الأيكة ، فأهلكت مدين بصيحة جبريل ، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة . فإن قلت : كيف كرّر في هذه السورة في أوّل كل قصة وآخرها ما كرّر ؟ قلت : كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به ، ولأنّ في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس ، وتثبيتا لها في الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد

من النسيان ، ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق ، وقلوب غلف عن تدبره ، فكوثرت بالوعظ والتذكير ، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفتق ذهنا ، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل ، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 325.334 ﴾

---

(1) . قوله «الومد» شدة حر الليل ، كما في الصحاح . (ع)

(276/571)

وقال الخازن :

قوله تعالى ﴿ كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون إني لكم رسول أمين ﴾

أي أمين على الرسالة فكيف تتهمونني اليوم ﴿ فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتبنون بكل ريع ﴾ قال ابن عباس : أي بكل شرف وفي رواية عنه بكل طريق ، وقيل : هو الفج بين الجبلين وقيل : المكان المرتفع ﴿ آية ﴾ أي علامة وهي العلم ﴿ تعبثون ﴾ يعني بمن مر بالطريق والمعنى ، أنهم كانوا : يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم ، وقيل إنهم بنوا بروج

الحمام فأنكر عليهم هو باتخاذها ، ومعنى تعبثون تلعبون بالحمام ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قال ابن عباس أبنية وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً مانعة ، وقيل مآخذ الماء يعني الحياض ﴿ لعلكم تخلدون ﴾ أي كأنكم تبقون فيها خالدين لا تموتون .

(277/571)

﴿ وإذا بطشتم ﴾ أي وإذا أخذتم وسطوتم ﴿ بطشتم جبارين ﴾ أي قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط والجبار الذي يضرب ويقتل على الغضب ، وهو مذموم في وصف البشر ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فيه زيادة زجر عن حب الدنيا والشرف والتفاخر ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون ﴾ أي أعطاكم من الخير ما تعلمون ثم ذكر ما أعطاهم فقال ﴿ أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ﴾ فيه التنبيه على نعمة الله تعالى عليهم ﴿ إني أخاف عليكم ﴾ قال ابن عباس إن عصيتموني ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ فكان جوابهم أن ﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ أي أنهم أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه ، واستخفافهم بما أورده من المواعظ والوعظ كلام يلين القلب يذكر الوعد والوعيد ﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ قرىء بفتح الخاء أي اختلاق الأولين وكذبهم وقرىء خلق بضم الخاء ، واللام أي عادة الأولين من قبلنا أنهم يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا

حساب وقولهم ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ أين أنهم أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من إنكارهم المعاد ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتتركون فيما ها هنا آمنين ﴾ أي في الدنيا من العذاب ﴿ في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها ﴾ أي ثمرها الذي يطلع منها ﴿ هضيم ﴾ قال ابن عباس : لطيف وعنه يانع نضيج وقيل : هو اللين الرخو .

وقيل : متهشم يتفتت إذا مس .

(278/571)

وقيل : الهضيم هو الذي دخل بعضه في بعض من النضج أو النعومة وقيل هو المدرك ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ وقرىء فرهين قيل : الفاره الحاذق بنحتها والفره قال ابن عباس : الأشر والبطر وقيل : معناه متجبرين فرحين معجبين بصنعكم ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ قال ابن عباس : أي المشركين وقيل يعني التسعة الذين عقروا الناقة ﴿ الذين يفسدون في الأرض ﴾ أي بالمعاصي ﴿ ولا يصلحون ﴾

أي لا يطعيون الله فيما أمرهم ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أي المسحورين المخدوعين وقال ابن عباس : من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ والمعنى أنت بشر مثلنا ولست بملك ﴿ فأت بآية ﴾ يعني على صحة ما تقول ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ يعني أنك رسول إلينا ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ﴾ أي حظ من الماء ﴿ ولكم شرب يوم معلوم ﴾ .

(279/571)

﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ أي بعقر ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين ﴾ أي على عقرها لما رأوا العذاب ﴿ فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ قوله ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلى على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين ﴾ يعني نكاح الرجال من بني آدم ﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ يعني أتتركون العضو المباح من النساء وتميلون إلى أدبار الرجال ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ أي معتدون مجاوزون الحلال إلى الحرام ﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ أي من قريتنا ﴿ قال إني لعملكم من القالين ﴾

أي من التاركين المبغضين ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ أي من العمل الخبيث قال الله تعالى ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً ﴾ أي امرأته ﴿ في الغابرين ﴾ أي بقيت في المهلكين ﴿ ثم دمرنا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ يعني الكبريت والنار ﴿ فساء مطر المنذرين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ قوله ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ أي الغيضة الملتفة من الشجر وقيل هو اسم البلد ﴿ إذ قال لهم شعيب ﴾ لم يقل لهم أخوهم لأنه لم يكن منهم وإنما كان من مدين وأرسل إليهم ﴿ ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴾ إنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء فيما حكي عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته ، والإخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة ، ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أي الناقصين لحقوق الناس في الكيل والوزن ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ أي بالميزان العدل ﴿ المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجبلة

(280/571)

الأولين ﴾ يعني الخليقة والأمم المتقدمة ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فاسقط علينا كسفاً ﴾ يعني قطعاً ﴿ من السماء إن كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون ﴾ يعني من نقصان الكيل والوزن وهو مجازيكم بأعمالكم ، وليس العذاب إلي وما علي إلا الدعوة والتبليغ .

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وذلك أنهم أصابهم حر شديد فكانوا يدخلون الأسراب ، فيجدونها أحر من ذلك فيخرجون فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ وقد تقدم الكلام على هذه القصص في سورة الأعراف وهود فأغنى عن الإعادة هنا والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 122 . 125 ﴾

(281/571)

وقال ابن جزى :

﴿ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ الريع المكان المرتفع وقيل الطريق ﴿ آيَةً ﴾ يعني المباني الطوال وقيل أبراج الحمام ﴿ مَصَانِعَ ﴾ جمع مصنع وهو ما أتقن صنعه من المباني ، وقيل : مأخذ الماء ﴿

أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ ﴾ الآية تفسير لقوله أمدكم بما تعلمون فأبْهَمَ أولاً ثم فسره ﴿ خُلُقُ الأولين ﴾ بضم الخاء واللام أي عادتهم والمعنى أنهم قالوا : ما هذا الذي عليه من ديننا إلا عادة الناس الأولين ، وقرأ [ابن كثير والكسائي وأبو عمرو] بفتح الخاء وإسكان اللام ، ويحتمل على هذا وجهين : أحدهما أنه بمعنى الخلقة والمعنى ما هذه الخلقة التي نحن عليها إلا خلقة الأولين ، والآخر أنها من الاختلاق بمعنى الكذب ، والمعنى ما هذا الذي جئت به إلا كذب الأولين ﴿ أَتُتْرَكُونَ ﴾ تخويف لهم معناه : أتطمعون أن تتركوا في النعم على كفركم ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ الطلع عنقود التمر في أول نباته قبل أن يخرج من الكم ، والهضيم : اللين الرطب ، فالمعنى طلعها يتم ويرطب ، وقيل : هو الرَّخْص أول ما يخرج ، وقيل : الذي ليس فيه نوى ، فإن قيل : لم ذكر النخل بعد ذكر الجنات ، والجنات تحتوي على النخل ؟ فالجواب : أن ذلك تجريد كقوله : ﴿ فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : 68] ، ويحتمل أنه أراد الجنات التي ليس فيها نخل ثم عطف عليها النخل .

(282/571)

﴿ وَتَنْحِتُونَ ﴾ ذكر في [الأعراف : 74] ﴿ فَارِهِينَ ﴾ قرىء بألف وبغير ألف وهو منصوب على الحال في الفاعل من تنحتون ، وهو مشتق من الفراهة وهي النشاط والكيس

، وقيل : معناه أقوياء وقيل : أشرين بطرين ﴿ مِنَ المسحرين ﴾ مبالغة في المسحورين ، وهو من السحر بكسر السين ، وقيل : من السحر بفتح السين وهي الرؤية ، والمعنى على هذا إنما أنت بشر ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ أي حظ من الماء ﴿ فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ ﴾ لما تغيرت ألوانهم حسبما أخبرهم صالح عليه السلام ندموا حين لا تنفعهم الندامة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ [الحجر : 73 ، 83 ، المؤمنون : 41] التي ماتوا منها وهي العذاب المذكور هنا ﴿ مِّنَ القالين ﴾ أي من المبغضين ، وفي قوله : (قال ومن القالين) : ضرب من ضروب التجنيس ﴿ مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي تجّني من عقوبة عملهم أو اعصمني من عملهم ، والأول أرجح ﴿ إِلاَّ عَجُوزاً ﴾ يعني امرأة لوط ﴿ فِي الغابرين ﴾ ذكر في [الأعراف : 83] وكذلك ﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ [الأعراف : 84] ﴿ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ﴾ قرىء بالهمز وخفض التاء مثل الذي في الحجر وق ، ومعناه الغيضة من الشجر ، وقرىء هنا وفي ص : بفتح اللام والتاء ، فقيل : إنه مسهل من الهمز ، وقيل : اسم بلدهم ، ويقوي هذا : القول بأنه على هذه القراءة بفتح التاء غير منصرف ، يدل على ذلك أنه اسم علم ، وضعّف ذلك الزمخشري ، وقال : إن الأيكة اسم لا يعرف ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ لم يقل هنا أخوهم كما قال في قصة نوح وغيره ، وقيل : إن شعيباً بعث إلى مدين ، وكان من قبيلتهم ، فلذلك قال : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ [الأعراف : 85 ، هود : 84 ، العنكبوت : 36] ، وبعث أيضاً إلى أصحاب الأيكة ولم يكن منهم ، فلذلك لم يقل أخوهم ، فكان شعيباً على هذا

مبعوثاً إلى القبلتين وقيل : إن أصحاب الأيكة مدين ، ولكنه قال أخوهم حين ذكرهم باسم قبيلتهم ، ولم يقل أخوهم حين نسبهم إلى

(283/571)

الأيكة التي هلكوا فيها تنزيهاً لشعيب عن النسبة إليها ﴿ مِنَ المخسرين ﴾ أي من الناقصين للكيل والوزن ﴿ بالقسطاس ﴾ الميزان المعتدل ﴿ والجبلة ﴾ يعني القرون المتقدمة ﴿ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ هي سحابة من نار أحرقتهم ، فأهلك الله مدين بالصيحة ، وأهل أصحاب الأيكة بالظلة ، فإن قيل : لم كرر قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ مع كل قصة ؟

فالجواب : أن ذلك أبلغ من الاعتبار ، وأشدّ تنبيهاً للقلوب وأيضاً فإن كل قصة منها كأنها كلام قائم مستقل بنفسه ، فختمت بما ختمت به صاحبتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 88.90 ﴾

(284/571)

وقال النسفى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾

هي قبيلة وفي الأصل اسم رجل هو أبو القبيلة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله ﴾ في تكذيب الرسول الأمين ﴿ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ مكان مرتفع ﴿ ءايَةً ﴾ برج حمام أو بناء يكون لارتفاعه كالعلامة يسخرون بمن مر بهم ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ تلعبون ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ مآخذ الماء أو قصوراً مشيدة أو حصوناً ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ ترجون الخلود في الدنيا ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ أخذتم أحداً بعقوبة ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط والجبار الذي يقتل ويضرب على الغضب

﴿ فاتقوا الله ﴾ في البطش ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿ واتقوا الذى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ من النعم .

ثم عددها عليهم فقال ﴿ أَمَدَّكُمْ بأنعام وَبَنِينَ ﴾ قرن البنين بالأنعام لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام عليها ﴿ وجنات وَعُيُونٍ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن عصيتموني ﴿ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ أي لا نقبل كلامك ودعوتك وعظت أم سكت .

ولم يقل أم لم تعظ لرؤوس الآي ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ ما هذا الذي نحن عليه من

الحياة والموت واتخاذ الابتناء إلا عادة الأولين ، أو ما نحن عليه دين الأولين .

﴿ إلا خلق الأولين ﴾ مكي وبصري ويزيد وعلي أي ما جئت به اختلاق الأولين وكذب المتنبئين قبلك كقولك ﴿ أساطير الأولين ﴾ [الأنعام : 25] أو خلقنا كخلق الأولين نموت ونحيا كما حيوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ في الدنيا ولا بعث ولا حساب .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي هوداً ﴿ فأهلكناهم ﴾ بريح صرصر عاتية .

(285/571)

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالح أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَتُتْرَكُونَ ﴾ إنكار لأن يتركوا خالدين في نعيمهم لا يزالون عنه ﴿ فِى مَا هَاهُنَا ﴾ في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ﴿ ءامِنِينَ ﴾ من العذاب والزوال والموت .

ثم فسره بقوله

﴿ فِى جنات وَعُيُونٍ ﴾ وهذا أيضاً إجمال ثم تفصيل ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ ﴾ وعطف ﴿ نخل ﴾ على ﴿ جنات ﴾ مع أن الجنة تتناول النخل أول شيء تفضيلاً للنخل على سائر

الشجر ﴿ طَلْعِهَا ﴾ هو ما يخرج من النخل كنصل السيف ﴿ هَضِيمٌ ﴾ لين نضيج كأنه قال : ونخل قد أرطب ثمره ﴿ وَتَنْحِتُونَ ﴾ تنقبون ﴿ مِنَ الجبال بُيُوتاً فارهين ﴾ شامي وكوفي حاذقين حال وغيرهم ﴿ فرهين ﴾ أشرين ، والفراهة الكيس والنشاط ﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المسرفين ﴾ الكافرين أو التسعة الذين عقروا الناقة جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي والمراد الامر وهو كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول كقولهم "أنبت الربيع البقل" ﴿ الذين يُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ بالظلم والكفر ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ بالإيمان والعدل والمعنى أن فسادهم مصمت ليس معه شيء من الصلاح كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ المسحر الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله . وقيل : هو من السرح الرئة وأنه بشر ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعوى الرسالة

﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء فلا تزاحموها فيه ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ لا تزاحمكم هي فيه ، روي أنهم قالوا : نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقباً ، فجعل صالح يتفكر فقال له جبريل : صل ركعتين واسأل ربك الناقة ، ففعل فخرجت الناقة ونتجت سقباً مثلها في العظم وصدرها ستون ذراعاً ، وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه الماء ، وهذا دليل على جواز المهاياة لأن قولهم : ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ من المهاياة

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ بضرب أو عقر أو غير ذلك ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عظم اليوم لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب ، لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ عقرها قدار ولكنهم راضون به فأضيف إليهم ، روي أن عاقرها قال : لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون : أترضين ؟ فتقول : نعم ، وكذلك صبيانهم ﴿ فَأَصْبَحُواْ نادمين ﴾ على عقرها خوفاً من نزول العذاب بهم لا ندم توبة أو ندموا حين لا ينفع الندم وذلك عند معاينة العذاب أو على ترك الولد ﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ المقدم ذكره .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ

العالمين ﴾ أراد بالعالمين الناس ، أتطئون الذكور من الناس مع كثرة الإناث ، أو أتطئون أنتم من بين من عداكم من العالمين الذكران أي أنتم مختصون بهذه الفاحشة والعالمين على هذا كل ما ينكح من الحيوان

(287/571)

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم ﴾ "من" تبيين لما خلق ، أو تبعيض والمراد بما خلق العضو المباح منهن وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم ، وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات ومن أجازه فقد أخطأ خطأ عظيماً ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ العادي المتعدي في ظلمه المتجاوز فيه الحد أي بل أنتم قوم أحق بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط ﴾ عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا وطردناه من بلدنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال ﴿ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين ﴾ هو أبلغ من أن يقول قال ، فقول "فلان من العلماء" أبلغ من قولك "فلان عالم" لأنك تشهد بأنه مساهم لهم في العلم .

والقلى البغض يقلي الفؤاد والكبد ، وفيه دليل على عظم المعصية لأن قلاه من حيث الدين

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ من عقوبة عملهم ﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ يعني بناته ومن آمن معه ﴿ إِلَّا عَجُوزاً ﴾ هي امرأة لوط وكانت راضية بذلك والراضي بالمعصية في حكم العاصي ، واستثناء الكافرة من الأهل وهم مؤمنون للاشتراك في هذا الاسم وإن لم تشاركهم في الإيمان ﴿ فِي الغابرين ﴾ صفة لها في الباقين في العذاب فلم تنج منه ، والغابر في اللغة الباقي كأنه قيل : إلا عجوزاً غابرة أي مقدراً غبورها إذ الغبور لم يكن صفتها وقت تنجيتهم .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين ﴾ والمراد بتدميرهم الائتفاك بهم ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ عن قتادة : أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم الله .

(288/571)

وقيل : لم يرض بالائتفاك حتى أتبعه مطراً من حجارة ﴿ فَسَاء ﴾ فاعله ﴿ مَطَرُ المنذرين ﴾ والمخصوص بالذم وهو مطرهم محذوف ولم يرد بالمنذرين قوماً بأعيانهم بل المراد جنس الكافرين ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم كَذَّبَ أصحاب لْئَيْكَةِ ﴾ بالهمزة والجر هي غيضة تنبت ناعم الشجر عن الخليل ﴿ ليكة ﴾ حجازي وشامي وكذا في "ص" علم لبلد .

قيل : أصحاب الأيكة هم أهل مدين التجئوا إلى غيضة إذ ألح عليهم الوهج .

والأصح أنهم غيرهم نزلوا غيضة بعينها بالبادية وأكثر شجرهم المقل بدليل أنه لم يقل هنا "أخوهم شعيب" لأنه لم يكن من نسبهم بل كان من نسب أهل مدين ففي الحديث أن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة ﴿ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَوْفُواْ الكيل ﴾ أتموه ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم فالكيل وافٍ وهو مأمور به ، وطفيف وهو منهي عنه ، وزائد وهو مسكوت عنه ، فتركه دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعل فلا شيء عليه

﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ وبكسر القاف كوفي غير أبي بكر وهو الميزان أو القبان ، فإن كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس ﴾ يقال بخسته حقه إذا نقصته إياه ﴿ أَشْيَاءهُمْ ﴾ دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافهما ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ ولا تبالغوا فيها في الإفساد نحو : قطع الطريق والغارة وإهلاك الزروع .

وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه .

يقال : عثا في الأرض إذا أفسد وعثي في الأرض لغة في عثا .

﴿ واتقوا الذى خَلَقَكُمْ والجبلة ﴾ ﴿ الجبلة ﴾ عطف على "كم" أي اتقوا الذي خلقكم وخلق الجبلة ﴿ الأولين ﴾ الماضين ﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ إدخال الواو هنا ليفيد معنيين كلاهما مناف الرسالة عندهم : التسحير والبشرية .

وتركها في قصة ثمود ليفيد معنى واحداً وهو كونه مسحراً ، ثم كرر بكونه بشراً مثلهم ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ "إن" مخففة من الثقيلة واللام دخلت للفرق بينهما وبين النافية . وإنما تفرقتا على فعل الظن وثاني مفعوليه لأن أصلهما أن يتفرقا على المبتدأ والخبر كقولك "إن زيداً لمنطلق" فلما كان بابا "كان" و"ظننت" من جنس باب المبتدأ والخبر فعل ذلك في البابين فقيل : إن كان زيد لمنطلقاً وإن ظننته لمنطلقاً ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ ﴿ كِسَفا ﴾ حفص وهما جمعا كسفة وهي القطعة وكسفه قطعه ﴿ مِّنَ السماء ﴾ أي السحاب أو الظلة ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ أي إن كنت صادقاً أنك نبي فادع الله أن يسقط علينا كسفاً من السماء أي قطعاً من السماء عقوبة

﴿ قَالَ رَبِّى ﴾ بفتح الياء : حجازي وأبو عمرو ، وبسكونها : غيرهم ﴿ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن الله أعلم بأعمالكم وبما تستحقون عليها من العذاب ، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كسف من السماء فعل ، وإن أراد عقابا آخر فإليه الحكم والمشيئة ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ هي سحابة أظلتهم بعد ما حبست عنهم الريح وعذبوا بالحر سبعة أيام فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من الحر فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ وقد كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريرا لمعانيها في الصدور ليكون أبلغ في الوعظ والزجر ، ولأن كل قصة منها كتنزيل برأسه ، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت جديرة بأن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختتم بما اختتمت به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 191.195 ﴾

(291/571)

وقال البيضاوى :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ المرسلين ﴾

أنثه باعتبار القبيلة وهو في الأصل اسم أبيهم .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ .

﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ تصدير القصص بها دلالة على أن البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه ويبعده عن عقابه ، وكان الأنبياء متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع مبرئين عن المطامع الدنيئة والأغراض الدنيوية .

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴾ بكل مكان مرتفع ، ومنه ريع الأرض لارتفاعها . ﴿ ءايَةً ﴾ علماً للمارة . ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ ببنائها إذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها أو بروج الحمام ، أو بنياناً يجتمعون إليه للعبث بمن يمر عليهم ، أو قصوراً يفتخرون بها .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ مآخذ الماء وقيل قصوراً مشيدة وحصوناً . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ فتحكمون بنيانها .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ ﴾ بسيف أو سوط . ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ونظر في العاقبة .

﴿ فاتقوا الله ﴾ بترك هذه الأشياء . ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم .

﴿ واتقوا الذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ كرره مرتباً على إمداد الله تعالى إياهم بما يعرفونه من أنواع النعم تعليلاً وتنبيهاً على الوعد عليه بدوام الإمداد والوعيد على تركه بالإنقطاع ، ثم فصل بعض تلك النعم كما فصل بعض مساويهم المدلول عليها إجمالاً بالإنكار في ﴿ أَلَا

تَتَّقُونَ ﴾ مبالغة في الإيقاظ والحث على التقوى فقال :

﴿ أَمَدَّكُمْ بأنعام وَبَنِينَ وجنات وَعُيُونٍ ﴾ ثم أوعدهم فقال :

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ في الدنيا والآخرة ، فإنه كما قدر على الإنعام قدر على الإنتقام .

(292/571)

﴿ قَالُواْ سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ﴾ فإنا لا نرعوي عما نحن عليه ، وتغيير شق النفي عما تقتضيه المقابلة للمبالغة في قلة اعتدادهم بوعظه .

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ﴾ ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأولين ، أو ما خلقنا هذا إلا خلقهم نحيا ونموت مثلهم ولا بعث ولا حساب ، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة "خُلُقُ الاولين" بضمتين أي ما هذا الذي جئت به إلا عادة الأولين كانوا يلفقون مثله ، أو ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم ونحن بهم مقتدون ، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم تزل الناس عليها .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نحن عليه .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فأهلكناهم ﴾ بسبب التكذيب بريح صرصر . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ

أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالح أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ .

﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَا هُنَا ءَامِنِينَ ﴾ إنكار لأن يتركوا كذلك أو تذكير للنعمة في تخلية الله إياهم وأسباب تنعمهم آمنين ثم فسره بقوله :

﴿ فِي جنات وَعُيُونٍ ﴾ .

﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ لطيف لين للطف الثمر ، أو لأن النخل أنثى وطلع وإناث النخل ألطف وهو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو ، أو متدل منكسر من كثرة الحمل ، وإفراد ال ﴿ نَخْلٍ ﴾ لفضله على سائر أشجار الجنات أو لأن المراد بها غيرها من الأشجار .

(293/571)

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فارهين ﴾ بطرين أو حاذقين من الفراهة وهي النشاط ، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو "فرهين" وهو أبلغ من

"فارهين" .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُواْ أَمْرَ المسرفين ﴾ استعير الطاعة التي هي انقياد الأمر لامتثال الأمر ، أو نسب حكم الآمر إلى أمره مجازاً .

﴿ الذين يُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ وصف موضح لإِسرافهم ولذلك عطف : ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ على يفسدون دلالة على خلوص فسادهم .

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين ﴾ الذين سحروا كثيراً حتى غلب على عقلهم ، أو من ذوي السحر وهي الرئة أي من الأناسي فيكون :

﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ تأكيداً له . ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك .

﴿ قَالَ هذه نَاقَةٌ ﴾ أي بعد ما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها . ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ نصيب من الماء كالسقي والقيت للحظ من السقي والقوت وقرىء بالضم . ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فاقتصروا على شربكم ولا تزاحموها في شربها .

﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ كضرب وعقر . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ عظم اليوم لعظم ما يحل فيه ، وهو أبلغ من تعظيم العذاب .

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أسند العقر إلى كلهم لأن عاقرها إنما عقرها برضاهم ولذلك أخذوا جميعاً . ﴿ فَأَصْبَحُواْ نادمين ﴾ على عقرها خوفاً من حلول العذاب لا توبة ، أو عند

معاينة العذاب ولذلك لم ينفعهم .

﴿ فَأَخَذَهُمُ العذاب ﴾ أي العذاب الموعود . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ في نفي الإيمان عن أكثرهم في هذا المعرض إيماء بأنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب ، وإن قريشاً إنما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم .

(294/571)

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ .

﴿ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين ﴾ أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشارككم فيه غيركم ، أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم وغلبة الإناث فيهم كأنهن قد أعوزنكم ، فالمراد ب ﴿ العالمين ﴾ على الأول كل من ينكح وعلى الثاني الناس .

﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ ﴾ لأجل استمتاعكم . ﴿ رَبُّكُمْ مِّنْ أزواجكم ﴾ للبيان إن أريد به جنس الإناث ، أو للتبعيض إن أريد به العضو المباح منهن فيكون تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم أيضاً . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ متجاوزون عن حد الشهوة

حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات ، أو مفرطون في المعاصي وهذا من جملة ذاك ، أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان لارتكابكم هذه الجريمة .

﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط ﴾ عما تدعيه أو عن نهينا وتقبيح أمرنا . ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ﴾ من المنفيين من بين أظهرنا ، ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على عنف وسوء حال .

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين ﴾ من المبغضين غاية البعض لا أقف عن الإنكار عليه بالإبعاد ، وهو أبلغ من أن يقول "إِنِّي لِعَمَلِكُمْ" قال لدلالته على أنه معدود في زمرتهم مشهور بأنه من جملتهم .

﴿ رَبِّ نَجِنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ أي من شؤمه وعذابه .

﴿ فنجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أهل بيته والمتبعين له على دينه بإخراجهم من بينهم وقت حلول العذاب بهم .

﴿ إِلاَّ عَجُوزاً ﴾ هي امرأة لوط . ﴿ فِى الغابرين ﴾ مقدرة في الباقين في العذاب إذ أصابها حجر في الطريق فأهلكها لأنها كانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم .

وقيل كائنة فيمن بقي في القرية فإنها لم تخرج مع لوط .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين ﴾ أهلكناهم .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ وقيل أمطر الله على شذاذ القوم حجارة فأهلكهم . ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ اللام فيه للجنس حتى يصح وقوع المضاف إليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أصحاب لْئَيْكَةِ المرسلين ﴾ الأيكة غيضة تنبت ناعم الشجر يريد غيضة بقرب مدين تسكنها طائفة فبعث الله إليهن شعيباً كما بعثه إلى مدين وكان أجنبياً منهم فلذلك قال :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب . وقيل الأيكة شجرة ملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر "ليكة" بحذف الهمزة وإبقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهي اسم بلدتهم ، وإنما كتبت ها هنا وفي ص بغير ألف اتباعاً للفظ .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ﴾ .

﴿ أَوْفُواْ الكيل ﴾ أتموه . ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ﴾ الناقصين حقوق الناس

بالتطفيف .

﴿ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ﴾ بالميزان السوي ، وهو وإن كان عربياً فإن كان من القسط ففعلاس بتكرير العين وإلا ففعلال . وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف .

﴿ وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ ﴾ ولا تنقصوا شيئاً من حقوقهم . ﴿ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى الأرض مُفْسِدِينَ ﴾ بالقتل والغارة وقطع الطريق .

﴿ واتقوا الذى خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ﴾ وذوي الجبلة الأولين يعني من تقدمهم من الخلائق .

(296/571)

﴿ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ المسحرين وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أتوا بالواو للدلالة على أنه جامع بين وصفين متنافين للرسالة مبالغة في تكذيبه . ﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ﴾ في دعواك .

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السماء ﴾ قطعة منها ، ولعله جواب لما أشعر به الأمر بالتقوى من التهديد . وقرأ حفص بفتح السين . ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ في دعواك .

﴿ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وبعذابه منزل عليكم ما أوجبه لكم عليه في وقته المقدر له لا محالة .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ﴾ على نحو ما اقترحوا بأن سلط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت أنهارهم وأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا . ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ هذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديداً للمكذبين به ، وإطراد نزول العذاب على تكذيب الأمم بعد إنذار الرسل به ، واقتراحهم له استهزاء وعدم مبالاة به يدفع أن يقال إنه كان بسبب اتصالات فلكية أو كان إبتلاء لهم لا مؤاخدة على تكذيبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 247 . 252 ﴾

(297/571)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما فرغ من ذكر قصة نوح عليه السلام شرع في قصة هود عليه السلام وهي القصة الرابعة فقال تعالى :

﴿ كذبت عاد ﴾ أي : تلك القبيلة التي مكن الله تعالى لها في الأرض بعد قوم نوح ﴿ المرسلين ﴾ بالأعراض عن معجزة هود عليه السلام ، ثم سلى محمداً صلى الله عليه

وسلم بقوله تعالى:

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قال لهم أخوهم ﴾ أي : في النسب لا في الدين ﴿ هود ﴾ بصيغة العرض تأدباً معهم وتلطفاً بهم ﴿ ألا تتقون ﴾ أي : يكون منكم تقوى لربكم الذي خلقكم فتعبدونه ولا تشركون به ما لا يضرّكم ولا ينفعكم ، ثم علل ذلك بقوله:

﴿ إني لكم رسول ﴾ أي : فهو الذي حملني على أن أقول لكم ذلك ﴿ أمين ﴾ أي : لا أكتم عنكم شيئاً مما أمرت به ولا أخالف شيئاً منه .

﴿ فاتقوا ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أن أقول لكم اتقوا ﴿ الله ﴾ أي : الذي هو أعظم من كل شيء ﴿ وأطيعون ﴾ أي : في كل ما آمركم به من طاعة الله وترك معاصيه ومخالفته ثم نفى عن نفسه التهمة في دعائه لهم بقوله:

﴿ وما ﴾ أي : والحال أني ما ﴿ أسألكم عليه ﴾ أي : دعائي لكم ﴿ من أجر ﴾ فتتهموني به وإنما أنا رسول داع ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أجري ﴾ أي : ثوابي ﴿ إلا على رب العالمين ﴾ فهو الذي يثيب العبد على عمله ، ولما فرغ من دعائهم إلى الإيمان أتبعه إنكار بعض ما هم عليه لأنّ حالهم حال الناسي لذلك الطوفان الذي أهلك الحيوان وأهدم البنيان بقوله لهم:

﴿ أتبنون بكل ريع ﴾ جمع ريعة وهو في اللغة المكان المرتفع ، ومنه قولهم : كم ريع أرضك وهو ارتفاعها ، وقال ابن عباس : الريع كل شرف ، وقال مجاهد : هو الفج بين الجبلين ، وقال الضحاك : هو كل طريق ﴿ آية ﴾ أي : علامة على شدتكم لأنه لو كان لهداية أو نحوها لكفى بعض ذلك ولكنكم ﴿ تعبثون ﴾ بمن يمرّ في الطريق إلى هود عليه السلام وتسخرون منه ، والجملة حال من ضمير تبنون ، وقيل : كانوا يبنون الأماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم فنهوا عن ذلك ونسبوا إلى العبث ، وقال سعيد بن جبير : هي بروج الحمام لأنهم كانوا يلعبون بالحمام ، ثم ذكرهم بزوال الدنيا بقوله .

﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قال مجاهد : قصوراً مشيدة ، وقال الكلبي هي الحصون ، وقال قتادة : هي مأخذ الماء يعني الحياض واحدها مصنعة ، ولما كان هذا الفعل حال الراجي للخلود قال لهم ﴿ لعلكم ﴾ أي : كأنكم ﴿ تخلدون ﴾ فيها فلا تموتون ، ثم بين لهم أفعالهم الخبيثة بقوله:

﴿ وإذا بطشتم ﴾ أي : أردتم البطش بأحد بضرب أو قتل ﴿ بطشتم جبارين ﴾ أي : من غير رأفة ، قال البغويّ : والجبار : الذي يضرب ويقتل على الغضب .

تنبيه : إنما قدّرنا الإرادة لئلا يتحد الشرط والجزاء ، وجبارين حال ، ولما خوّفهم هود عليه السلام بهذا الإنكار وهو أنّ اتخاذ الأبنية العالية يدل على حب الدنيا واتخاذ المصانع

يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلوّ وهي ممتنعة الحصول للعبد وخوّفهم بهذا الإنكار عقاب الجبار تسبب عن ذلك قوله:

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي: الذي له صفات الجلال والإكرام ﴿ وأطيعون ﴾ زيادة في دعائهم إلى الآخرة وزجراً لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالشرف والتجبر، ثم وصل هذا الوعظ بما يؤكد القبول بأن نبههم على نعم الله تعالى عليهم بقوله:

﴿ واتقوا الذي أمدّكم ﴾ أي: جعل لكم مدداً وهو اتباع الشيء ما يقوّيه على الانتظام ﴿ بما تعلمون ﴾ أي: ليس فيه نوع خفاء حتى تغفلوا عن تقييد بالشكر، ثم فصل ذلك المجمل بقوله:

﴿ أمدّكم بأنعام ﴾ تعينكم على الأعمال وتأكلون منها وتبيعون ﴿ وبنين ﴾ .

يعينونكم على ما تريدون عند العجز.

﴿ وجنات ﴾ أي: بساتين ملتفة الأشجار بحيث تستر داخلها ﴿ وعيون ﴾ أي: أنهار تشربون منها وتسقون أنعامكم وبساتينكم ثم خوّفهم بقوله:

﴿ إني أخاف عليكم ﴾ قال ابن عباس: إن عصيتموني أي: فإنكم قومي يسوءني ما

يسوءكم ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ في الدنيا والآخرة فإنه كما قدر على الإنعام فهو قادر على الانتقام وتعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب ، ولما بالغ عليه السلام في وعظهم وتنبيههم على نعم الله تعالى حيث أجملها ثم فصلها مستشهد بعلمهم وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال : ﴿ أمدّكم بما تعلمون ﴾ ثم عدّدها عليهم وعرّفهم المنعم بتعديد ما يعلمون من نعمته وأنه كما قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة قادر على الانتقام منكم ولم يقدّر الله تعالى هدايتهم .

﴿ قالوا ﴾ له راضين بما هم عليه ﴿ سواء علينا أوعظت ﴾ أي : خوفت وحذرت ﴿ أم لم تكمن من الواعظين ﴾ فإنا لا نرعوي عما نحن فيه ، فإن قيل : لو قيل أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد ؟

أجيب : بأنّ ذلك لتواخي القوافي ، أو لأنّ المعنى ليس واحداً بل بينهما فرق لأنّ المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشريه فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ ، وقرأ قوله تعالى:

أي : ما ﴿ هذا ﴾ أي : الذي جئتنا به ﴿ إلا خلق الأولين ﴾ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الخاء واللام أي : ما هذا الذي نحن فيه إلا عادة الأولين في حياة ناس وموت آخرين وعافية قوم وبلاء آخرين ، وقرأ الباقون بضم الخاء وسكون اللام أي : ما هذا إلا كذب الأولين .

﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ أي : على ما نحن عليه لأنا أهل قوة وشجاعة ونجدة وبلاغة وبراعة ، لما تضمن هذا التكذيب تسبب عنه قوله تعالى:

(300/571)

﴿ فكذبوه ﴾ ثم تسبب عن تكذيبهم قوله تعالى : ﴿ فأهلكناهم ﴾ أي : في الدنيا بريح صرصر ، وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في سورة الحاقة ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الإهلاك في كل قرن للمكذبين والإنجاء للمصدقين ﴿ لآية ﴾ أي : عظيمة لمن بعدهم على أنه تعالى فاعل ذلك وحده وأنه مع أوليائه ومن كان معه لا يذلّ وأنه على أعدائه ومن كان عليه لا يعز ﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أي : أكثر من كان بعدهم ﴿ مؤمنين ﴾ أي : فلا تحزن أنت يا أشرف الرسل على من أعرض عن الإيمان .

﴿ وإن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بإرسالك وغيره من النعم ﴿ لهو العزيز ﴾ في انتقامه ممن عصاه ﴿ الرحيم ﴾ في إنعامه وإكرامه وإحسانه مع عصيانه وكفرانه وإرسال المرسلين وتأييدهم بالآيات المعجزة .

ثم أتبع قصة هود عليه السلام قصة صالح عليه السلام وهي القصة الخامسة بقوله تعالى: ﴿ كذبت ثمود ﴾ وهم أهل الحجر ﴿ المرسلين ﴾ وقرأ نافع وابن كثير وعاصم بإظهار

المثناة عند المثلثة ، والباقون بالإدغام وأشار تعالى إلى زيادة التسلية بمفاجأتهم بالتكذيب من غير تأمل ولا توقف بقوله تعالى:

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قال لهم أخوهم ﴾ أي : في النسب لا في الدين ﴿ صالح ﴾ بصيغة العرض تأدباً معهم وتلطفاً بهم كقول من تقدم قبله ﴿ ألا تتقون ﴾ الله ، ثم علل ذلك بقوله:

﴿ إني لكم رسول ﴾ من رب العالمين فلذلك عرضت عليكم هذا لأني مأمور بذلك

﴿ أمين ﴾ في جميع ما أرسلت به إليكم من خالقكم الذي لا أحد أرحم منه بكم ، ثم تسبب عن قوله : ﴿ إني لكم رسول ﴾ قوله:

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : الذي له الغنى المطلق ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أتيت به من عند الله ، ثم نفى عنه ما فديتموهم ممن لا عقل له بقوله:

﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أي : ما جئتكم به ، وأغرق في النفي بقوله ﴿ من أجر ﴾ ثم زاد في تأكيد هذا النفي بقوله : ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أجري ﴾ على أحد ﴿ إلا على رب العالمين ﴾ فهو المتفضل المنعم على خلقه ، ثم شرع ينكر عليهم أكل خيره وعبادة غيره بقوله:

﴿ أتتركون ﴾ أي : من أيدى النوائب التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى ﴿ في ما ههنا ﴾ أي : في بلادكم هذه من النعم حالة كونكم ﴿ آمنين ﴾ لا تخافون وأنتم تبارزون الملك القهار بالعظائم .

فائدة : تكتب في ما ههنا في مقطوعة عن ما ، ثم فسر ما أجمله بقوله:

﴿ في جنات ﴾ أي : بساتين تستر الداخل فيها وتخفيه لكثرة أشجارها ﴿ وعيون ﴾ تسقيها من مالها من البهجة وغير ذلك من المنافع .

﴿ وزروع ﴾ أي : من سائر الأنواع ﴿ ونخل طلعها ﴾ أي : ما يطلع منها من الثمر ﴿ هضيم ﴾ قال ابن عباس : هو اللطيف ، ومنه قوله : كشح هضيم ، وقيل : هو الجواد الكريم من قولهم : يد هضوم إذا كانت تجود بما لديها ، وقال أهل المعاني هو المنضم بعضه إلى بعض في وعائه قبل أن يظهر ، والطلع : عنقود الثمر قبل خروجه من الكمّ ، وقال الزمخشري : الطلع هو الذي يطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو والقنوهر اسم للخارج من الجذع كما هو بعرجونه .

فإن قيل : لم قال ونخل بعد قوله : ﴿ في جنات ﴾ والجنة تتناول النخل أول شيء كما يتناول النعم الإبل كذلك من بين الأزواج حتى إنهم ليذكرون الجنة ولا يقصدون إلا النخيل كما يذكرون النعم ولا يريدون إلا الإبل قال زهير:

تسقى جنة سحقاً

وسحقاً : جمع سحوق ، ولا يوصف به إلا النخل ؟

أجيب : بوجهين : أحدهما : أنه خص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيهاً على انفراده عنها بفضله عليها ، الثاني : أن يريد بالجنات غيرها من الشجر لأنّ اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل ، ولما ذكر ما أنعم الله تعالى به عليهم أتبعه أفعالهم الخبيثة بقوله:

﴿ وتنحتون ﴾ أي : والحال أنكم تنحتون إظهاراً للقدرة ﴿ من الجبال ﴾ وقرأ ﴿ بيوتاً ﴾ ورش وأبو عمرو وحفص بضم الباء ، والباقون بكسرها ، وقرأ ﴿ فرهين ﴾ ابن عامر والكوفيون بألف بعد الفاء ، أي : حاذقين ، وقرأ الباقون بغير ألف ، أي : بطرين لا لحاجتكم إلى شيء من ذلك .

(302/571)

﴿ فاتقوا ﴾ أي : فتسبب عن ذلك . أني أقول لكم اتقوا ﴿ الله ﴾ الذي له جميع العظمة بأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية باتباع أوامره واجتناب زواجره ﴿ وأطيعون ﴾ أي : في كل ما أمرتكم به عنه فإني لا آمركم إلا بما يصلحكم .

﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ أي : المجاوزين للحدود ، وقال ابن عباس : المشركين ،

وقال مقاتل : هم التسعة الذين عقروا الناقة .

تنبيه : استعير الطاعة التي هي انقياد للآمر لامتثال الأمر ، أو جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي والمراد الآمر ، ومنه قولهم : لك على أمرة مطاعة وقوله تعالى : ﴿ وأطيعوا أمري ﴾ (طه :)

ثم وصف المسرفين بما بين سرفهم بقوله .

﴿ الذين يفسدون في الأرض ﴾ بالمعاصي ﴿ ولا يصلحون ﴾ أي : ولا يطيعون الله في أمرهم به ، فإن قيل : فما فائدة ولا يصلحون بعد قوله : يفسدون ؟

أجيب : بأنّ في ذلك دلالة على خلوص فسادهم فليس فيه شيء من الصلاح كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطاً ببعض الصلاح ، ولما عجزوا عن الطعن في شيء مما دعاهم إليه عدلوا إلى التخييل على عقول الضعفاء بأن .

﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ قال مجاهد وقتادة : من المسحورين المخدوعين ، أي : ممن سحر مرة بعد مرة ، أي : حتى غلب على عقله ، وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أي : من المخلوقين المعللين بالطعام والشراب ولست بملك وعلى هذا يكون قولهم: ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ تأكيداً له ، قيل المسحور : هو المخلوق بلغة بجيلة أي : فما وجه خصوصيتك عنا بالرسالة ﴿ فأت بآية ﴾ أي : علامة تدل على صدقك ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ أي : الراسخين في الصدق فقال لهم صالح : ما تريدون قالوا نريد ناقة

عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقباً فأخذ صالح يتفكر فقال له جبريل صلّ ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم ونتجت سقباً مثلها في العظم ، وعن أبي موسى رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعاً فلما رآها .

(303/571)

﴿ قال ﴾ لهم صالح ﴿ هذه ناقة ﴾ أخرجها ربي من الصخرة كما اقترحتم ﴿ لها شرب ﴾ أي : نصيب من الماء في يوم معلوم ﴿ ولكم شرب يوم ﴾ أي : نصيب من الماء في يوم ﴿ معلوم ﴾ لا زحام بينكم وبينها ، وعن قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم ولا تشرب في يومهم ماء .

﴿ ولا تمسوها بسوء ﴾ كضرب وعقر ، ثم خوّفهم بما تسبب عن عصيانهم بقوله : ﴿ فيأخذكم ﴾ أي : يهلككم ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ بسبب ما حل فيه من العذاب فهو أبلغ من وصف العذاب بالعظيم ، وأشار إلى سرعة عصيانهم بفاء التعقيب في قوله .

﴿ فعقروها ﴾ أي : فقتلوها بضرب ساقها بالسيف وأسند العقر إلى كلهم لأنّ عاقرها إنما عقر برضاهم فكأنهم فعلوا ذلك ﴿ فأصبحوا ﴾ أي : فتسبب عن عقرهم لها أنهم أصبحوا حين رأوا مخايل العذاب ﴿ نادمين ﴾ على عقرها من حيث إنه يفضي إلى

العقاب والهلاك لا من حيث إنه معصية الله ورسوله وليس على وجه التوبة ، أو كان ذاك عند رؤية البأس فلم ينفعهم .

﴿ فأخذهم العذاب ﴾ أي : العذاب الموعود على عقرها ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : ما تقدم في هذه القصة من الغرائب ﴿ لآية ﴾ أي : دلالة عظيمة على صحة ما أمروا به عن الله ﴿ وما ﴾ أي : والحال أنه مع ذلك ما ﴿ كان أكثرهم مؤمنين ﴾ بل استمرّوا على ما هم عليه .

﴿ وإنّ ربك ﴾ أي : المحسن إليك بأحسن الأخلاق ﴿ لهو العزيز ﴾ أي : فلا يخرج شيء عن قبضته وإرادته ﴿ الرحيم ﴾ أي : في كونه لم يهلك أحداً حتى يرسل إليهم رسولاً يبين لهم ما يرتضيه الله تعالى وما يسخطه .

ثم أتبع قصة صالح عليه السلام قصة لوط عليه السلام وهي القصة السادسة فقال:

أي : كتكذيب من تقدم كأنهم تواصوا به ﴿ قوم لوط المرسلين ﴾ لأنّ من كذب رسولاً كما مضى فقد كذب الكل ثم بين إسراعهم في الضلال بقوله تعالى:

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قال لهم أخوهم ﴾ أي : في البلد لا في الدين ولا في النسب لأنه ابن أخي إبراهيم عليهما السلام وهما من بلاد الشرق من أرض بابل ، وكأنه عبر بالأخوة لاختياره لمجاورتهم ومناسبتهم بمصاهرتهم وإقامته بينهم في مدينتهم مدة مديدة وسنين عديدة وإتيانه بالأولاد من نساءهم مع موافقته لهم في أنه قروي ثم بينه بقوله تعالى :

﴿ لوط ﴾ بصيغة العرض كغيره ممن تقدم ﴿ ألا تتقون ﴾ الله فتجعلون بينكم وبين سخطه وقاية ، ثم علل ذلك بقوله:

﴿ إني لكم ﴾ أي : خاصة ﴿ رسول ﴾ فلا تسعني المخالفة ﴿ أمين ﴾ لا غش عندي ولا خيانة ، ثم تسبب عن ذلك قوله:

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : الملك العظيم فإنه قادر على ما يريد فلا تعصوه ﴿ وأطيعون ﴾ أي : لأنّ طاعتي سبب نجاتكم لأني لا آمركم إلا بما يرضيه ولا أنهاكم إلا عما يغضبه ثم نفى عن نفسه ما يتوهم كما تقدم لغيره بقوله:

﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أي : الدعاء إلى الله تعالى ﴿ من أجر ﴾ أي : فتتهموني بسببه ﴿ إن أجري إلى على رب العالمين ﴾ أي : المحسن إليّ بإيجادكم ثم بتربيتكم ، ثم وبخهم ووعظهم بقوله:

﴿ أتأتون الذكران ﴾ وقوله ﴿ من العالمين ﴾ يحتمل عوده إلى الآتي ، أي : أنتم من جملة العالمين مخصوصون بهذه الصفة وهي إتيان الذكور ولم يفعل هذا الفعل غيركم من الناكحين

من الخلق ، ويحتمل عوده إلى المأتي : أي : أنتم اخترتم الذكران من العالمين كالإناث منهم وعلى هذا يحتمل أن يراد الذكران من الآدميين ومن غيرهم توغلاً في الشرّ وتجاهراً بالتهتك ، قال البقاعي : وإن يراد الآدميون وجرى عليه البغوي وأكثر المفسرين أي : تريدون الذكران من أولاد آدم مع كثرة الإناث وغلبتهنّ .

(305/571)

﴿ وتذرون ﴾ أي : تتركون لهذا الغرض ﴿ ما خلق لكم ﴾ أي : للنكاح ﴿ ربكم ﴾ أي : المحسن إليكم وقوله ﴿ من أزواجكم ﴾ يصلح أن يكون تبييناً أي : وهن الإناث وأن يكون للتبعيض ويكون المخلوق لذلك هو القبل ، وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم ، ثم كأنهم قالوا نحن لم نترك نساءنا أصلاً ورأساً وإن كانوا قد فهموا أنّ مراده تركهن حال الفعل في الذكور ، فقال مضرباً عن مقالهم لما أرادوا به حيدة عن الحق وتمادياً في الفجور ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ أي : متجاوزون عن حدّ الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل والحيوانات أي : مفرطون في المعاصي ، وهذا من جملة ذلك ، أو أحقاء بأن توصفوا بالعدوان بارتكابكم هذه الجريمة ، ولما اتضح الحق عندهم وعرفوا أن لا وجه لهم في ذلك وانقطعت حجتهم .

﴿ قالوا ﴾ مقسمين ﴿ لئن لم تنته ﴾ وسموه باسمه جفاء وغلظة بقولهم : ﴿ يا لوط ﴾ أي : عن مثل إنكارك هذا علينا ﴿ لتكونن من المخرجين ﴾ أي : ممن أخرجناه من بلدنا على وجه فظيع من تعنيف واحتباس أملاك كما هو حال الظلمة إذا أجلوا بعض من يغضبون عليه وكما كان يفعل بعض أهل مكة بمن يريد المهاجرة ، وفي هذا إشارة إلى أنه غريب عندهم وأنّ عادتهم المستمّرة نفي من اعترض عليهم .

﴿ قال ﴾ مجيباً لهم ﴿ إني ﴾ مؤكداً المضمون ما يأتي به ﴿ لعملكم من القالين ﴾ أي : المبغضين غاية البغض لا أقف عن الإنكار عليه بالإبعاد .

تنبيه : قوله من القالين : أبلغ من أن يقول إني لعملكم قالٍ كما تقول فلان من العلماء فيكون أبلغ من قولك فلان عالم لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم ، والقلي : البغض الشديد كأنّ البغض يقلي الفؤاد والكبد والقالي المبغض كما قال القائل:

*ووالله ما فارقتكم قالياً لكم ** ولكن ما يقضى عليّ يكون*

ثم إنه عليه السلام دعا إلى الله تعالى بقوله:

﴿ رب نجني وأهلي ﴾ وقوله : ﴿ مما يعملون ﴾ يحتمل أن يريد من عقوبة عملهم ، قال الزمخشري : وهو الظاهر ، ويحتمل أن يريد بالتنجية العصمة ، ثم إنّ الله تعالى قبل دعاءه كما قال تعالى:

﴿ فنجيناه وأهله ﴾ مما عذبناهم به بإخراجنا له من بلدهم حين استخفافهم له ولم نؤخره عنهم إلى حين خروجهم إلا لأجله ، وأكد بقوله تعالى : ﴿ أجمعين ﴾ إشارة إلى أنه نجى أهل بيته ومن تبعه على دينه ، ثم استثنى تعالى من أهل بيته قوله تعالى:

﴿ إلا عجوزاً ﴾ وهي امرأته كائنة ﴿ في ﴾ حكم ﴿ الغابرين ﴾ أي : الماكثين الذين تلحقهم الغبرة بما يكون من الداهية فإننا لم ننجها لقضائنا بذلك في الأزل لكونها لم تتابعه في الدين ولم تخرج معه وكانت مائلة إلى القوم راضية بفعلهم ، وقيل : أنها خرجت فأصابها حجر في الطريق فأهلكها .

فإن قيل : كان أهله مؤمنين ولولا ذلك لما طلب لهم النجاة فكيف استثنيت الكافرة منهم ؟

أجيب : بأنّ الاستثناء إنما وقع من أهل بيته كما مرّت الإشارة إليه وفي هذا الاسم لها معهم مشركة بحق الزواج وإن لم تشاركهم في الإيمان ، فإن قيل : في الغابرين صفة لها كأنه قيل إلا عجوزاً في الغابرين غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم ؟

أجيب : بأنّ معناه إلا عجوزاً مقدّراً غبورها ، أو في حكمهم كما مرت الإشارة إليه .

﴿ ثم دمرنا ﴾ أي : أهلكنا ﴿ الآخرين ﴾ أي : المؤخرين عن اتباع لوط وفي التعبير بلفظ الآخرين إشارة إلى تأخرهم من كل وجه ، ثم لما كان المراد بقوله تعالى : دمرنا حكمنا بتدميرهم عطف عليه قوله:

(307/571)

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ قال وهب بن منبه : الكبريت والنار ، وقال قتادة : أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكتهم ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ اللام فيه للجنس حتى يصح وقوع المضاف إلى المنذرين فاعل ساء وذلك لأنّ فاعل فعل الذمّ أو المدح يجب أن يكون معرفاً بلام الجنس ، أو مضافاً إلى المعرف بلام الجنس ليحصل الإبهام المقصود ثم التفصيل ولا يأتي ذلك في لام العهد ، والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم . ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : إنجاء لوط ومن معه وإهلاك هؤلاء الكفار الفجار ﴿ لآية ﴾ أي : دلالة عظيمة على ما يصدق الرسل في جميع ترغيبهم وترهيبهم ، ولما كان من أتى بعد هذه الأمم كقريش ومن بعدهم قد علموا أخبارهم وضموا إلى تلك الأخبار نظر الديار والتوسم في الآثار ، قال تعجباً من حالهم في ضلالهم ﴿ وما ﴾ أي : والحال أنه ما ﴿ كان أكثرهم مؤمنين ﴾ بما وقع لهؤلاء .

﴿ وإن ربك ﴾ وحده ﴿ لهو العزيز ﴾ أي : في بطشه لأعدائه ﴿ الرحيم ﴾ في لطفه بأوليائه .

ثم أتبع قصة لوط عليه السلام بقصة شعيب عليه السلام وهي القصة السابعة قال تعالى: ﴿ كذب أصحاب الأيكة ﴾ أي : الغيضة ذات الأرض الجيدة التي تبتلع الماء فتنبت الشجر الكثير الملتف ﴿ المرسلين ﴾ لتكذيبهم شعيباً عليه السلام فيما أتى به من المعجزة المساوية في خرق العادة وعجز المتحدين بها عن مقاومتها لبقية المعجزات الآتي بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر لَيكة بلام مفتوحة من غير ألف وصل وياء ساكنة ولا همزة قبلها وفتح تاء التأنيث ، والباقون بإسكان اللام وقبلها وصل وبعد اللام همزة مفتوحة بعدها ياء ساكنة وخفض تاء التأنيث ، قال أبو عبيدة : وجدنا في بعض التفاسير الفرق بين ليكة والأيكة فقيل : ليكة هو اسم للقرية التي كانوا فيها ، والأيكة : البلاد كلها فصار الفرق بينهما شبيهاً لما بين مكة وبكة ، ثم بين تعالى وقت تكذيبهم بقوله تعالى:

(308/571)

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قال لهم شعيب ﴾ برفق ولطف ﴿ ألا تتقون ﴾ الله الذي تفضل عليكم بنعمه ولم يقل أخوهم شعيب لأنه لم يكن من أهل الأيكة في النسب لأنهم كانوا أهل بدو وكان عليه السلام قروياً ، لأنّ الله تعالى لم يرسل نبياً إلا من أهل القرى تشريفاً لهم ، لأنّ البركة والحكمة في الاجتماع ، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التعرب بعد الهجرة وقال : "من يرد الله به خيراً ينقله من البادية إلى الحاضرة ولما ذكر مدين قال أخاهم شعيباً لأنه كان منهم وكان الله تعالى بعثه إلى قومه أهل مدين وأصحاب الأيكة ، ثم أكد ما قاله بقوله:

﴿ إني ﴾ وأشار إلى تبشيرهم إن أطاعوه بقوله ﴿ لكم رسول ﴾ أي : من عند الله فهو أمرني أن أقول لكم ذلك ﴿ أمين ﴾ أي : لا خيانة عندي ولا غش فلذلك أبلغ جميع ما أرسلت به ولذلك تسبب عنه قوله:

﴿ فاتقوا الله ﴾ أي : المحسن إليكم بهذه الغيضة وغيرها ﴿ وأطيعون ﴾ لما ثبت من نصحي لكم ، ثم ذكر ما ذكر من تقدّمه من الأنبياء من نفي ما يتوهم أنّ لهم رغبة في أجرة على دعائهم فقال:

﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أي : دعائي لكم إلى الإيمان بالله تعالى ﴿ من أجر ﴾ ثم زاد في البراءة من الطمع في أحد من الخلق بقوله ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ أجري إلا على رب العالمين ﴾ أي : المحسن إلى الخلائق كلهم فأنا لا أرجو أحداً سواه ، ثم نصحهم بقوله:

﴿ أوفوا الكيل ﴾ أي : أتموه إتماماً لا شبهة فيه إذا كلتم كما توفونه إذا اكتلتم ﴿ ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أي : الناقصين لحقوق الناس في الكيل والوزن كما قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ (المطففين : ،) أي : الكيل ﴿ وإذا كالوهم ﴾ (المطففين :)

أي : كالوا لهم ﴿ أو وزنوهم ﴾ أي : وزنوا لهم ﴿ يخسرون ﴾ (المطففين :)

ينقصون الكيل أو الوزن .

﴿ وزنوا ﴾ أي : لأنفسكم ولغيركم ﴿ بالقسطاس ﴾ أي : الميزان الأقوم وأكد معناه بقوله ﴿ المستقيم ﴾ وقيل : هو بالرومية العدل ، وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف ، والباقون بالضمّ .

(309/571)

تنبيه : الكيل على ثلاثة أضرب : واف ، وطفيف ، وزائد ، فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء بقوله تعالى : ﴿ أوفوا الكيل ﴾ ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف بقوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا من المخسرين ﴾

ولم يذكر الزائد لأنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا إثم عليه ، والوزن في ذلك كالكيل ،

ولهذا عمم في النهي عن النقص بقوله:

﴿ ولا تبخسوا ﴾ أي : تنقصوا ﴿ الناس أشياءهم ﴾ أي : في كيل أو وزن أو غير ذلك ، ثم أتبع ذلك بما هو أعم بقوله ﴿ ولا تعثوا ﴾ أي : لا تنصرفوا ﴿ في الأرض ﴾ من غير تأمل حال كونكم ﴿ مفسدين ﴾ أي : في المال أو غير ذلك كقطع الطريق والقتل ، ثم خوفهم بعد أن وعظهم ونهاهم عن الفساد من سطوة الجبار ما حل بمن هو أعظم منهم بقوله:

﴿ واتقوا الذي خلقكم ﴾ أي : من نطفة فإعدامكم أهون شيء عليه وأشار إلى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله ﴿ والجبلة ﴾ أي : الجماعة والأمم ﴿ الأولين ﴾ الذين كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة كأنها الجبال قوة وصلابة لا سيما قوم هود الذين بلغت بهم الشدة حتى قالوا من أشدّ منا قوّة ، وقد أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، ثم إنهم أجابوه بالقدح في الرسالة أولاً : باستصغار الوعيد ثانياً : بأن .

﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أي : الذين كرّر سحرهم مرّة بعد أخرى حتى اختلفوا فصار كلامهم على غير نظام ، أو من المعللين بالطعام والشراب كما مضى في صالح عليه السلام أي : فأنت بعيد عن الصلاحية للرسالة ، ثم أشاروا إلى عدم صلاحية البشر لها مطلقاً ولو كان أعقل الناس بقولهم:

﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ أي : فلا وجه لتخصيصك عنا بذلك وأتوا بالواو للدلالة على

أنه جامع بين وصفين مناقضين منافيين للرسالة مبالغة في تكذيبه ، ولهذا قالوا ﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ أي : في دعواك .

(310/571)

تنبيه : مذهب البصريين أنّ ﴿ إن ﴾ هذه هي المخففة من الثقيلة ، أي : وإنا نظنك ، والذي يقتضيه السياق ترجيح مذهب الكوفيين هنا في أنّ ﴿ إن ﴾ نافية ، فإنهم أرادوا بإثبات الواو في وما أنت المبالغة في نفي إرساله بتعداد ما ينافيه ، فيكون مرادهم أنه ليس لنا ظنّ يتوجه إلى غير الكذب ، وهو أبلغ من إثبات الظنّ به ، ثم إنّ شعيباً عليه السلام كان توعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا فقالوا .

﴿ فأسقط علينا كسفا ﴾ أي : قطعاً ﴿ من السماء ﴾ أي : السحاب أو الحقيقة ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ أي : العريقين في الصدق المشهورين فيما بين أهله لنصدّقك فيما لزم من أمرك لنا باتخاذ الوقاية من العذاب .

تنبيه : انظر إلى حسن نظر شعيب عليه السلام كيف هدّدهم بما لله عليهم من القدرة في خلقهم وخلق من كانوا أشدّ منهم قوة وإهلاكهم بأنواع العذاب لما عصوه بتكذيب رسلهم ، وقرأ حفص بفتح السين ، والباقون بالسكون وهنا همزتان مكسور ، فقالون والبزي يسهل

الهمزة الأولى من المدّ والقصر ، وأسقطها أبو عمرو مع المدّ ، والباقون بتحقيق الأولى .

﴿ قال ﴾ لهم شعيب في جوابهم ﴿ ربي أعلم بما تعلمون ﴾ فيجازيكم به فإن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره إلى أجل معلوم ، وأمّا أنا فليس عليّ إلا البلاغ ، وأنا مأمور به فلم أخوّفكم من نفسي ولا ادعيت قدرة على عذابكم فطلبكم ذلك مني مضموم إلى ظلمكم بالتكذيب .

(311/571)

﴿ فكذبوه ﴾ أي : استمرّوا على تكذيبه ﴿ فأخذهم ﴾ أي : فتسبب عن تكذيبهم أن أخذهم ﴿ عذاب يوم الظلة ﴾ وهي سحابة على نحو ما طلبوا من قطع السماء ، روي أنّ الله تعالى حبس عنهم الريح سبعاً وتسلط عليهم الرمض : وهو شدّة الحرّ مع سكون الريح فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا شراب ، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا ، وروي أن شعيباً بعث إلى أمّتين أصحاب مدين وأصحاب الأيكة ، فأهلكت مدين بصيحة جبريل ، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة ﴿ إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وقدمنا أن تعظيم اليوم أبلغ من تعظيم العذاب .

﴿ إن في ذلك ﴾ أي : الأمر العظيم من الإنجاء المطرد لكلّ رسول ومن أطاعه والأخذ المطرد لمن عصاه في كل عصر بكل قطر بحيث لا يشذ من الفريقين إنسان قاصٍ ولا دان ﴿ لآية ﴾ أي : دلالة واضحة عظيمة على صدق الرسل وأن يكونوا جديرين بتصديق العباد لهم في جميع ما قالوه من البشائر والنذائر ، بأن الله تعالى يهلك من عصاه وينجي من والاه لأنه الفاعل المختار لما يريد ﴿ وما كان أكثرهم ﴾ أي : أكثر قومك كما كان من قبلهم ﴿ مؤمنين ﴾ مع أنك قد أتيت قومك بما لا يكون معه شك لو لم يكن لهم بك معرفة قبل ذلك ، فكيف وهم عارفون بأنك كنت قبل الرسالة أصدقهم لهجة وأعظمهم أمانة وأغزرهم عقلاً وأعلاهم همة وأبعدهم عن كل ذي دنس .

﴿ وإنّ ربك ﴾ أي : المحسن إليك بكل ما يعلي شأنك ويوضح برهانك ﴿ لهو العزيز ﴾ فلا يعجزه أحد ﴿ الرحيم ﴾ بالإمهال لكي يؤمنوا أو أحد من ذرّيتهم : وهذا آخر القصص السبع المذكورة على سبيل الاختصار تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تهديداً للمكذبين له .

فإن قيل : كيف كرّر في هذا السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرّر ؟ .

(312/571)

أجيب : بأنّ كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق على أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وأن تختم بما ختمت به ، ولأنّ في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وتثبيتاً لها في الصدور ، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا بترديد ما يراد حفظه منها ، وكلما زاد ترديده كان أمكن في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان ، ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقرعن الإنصات للحق وقلوب غلف عن تدبره فكوثرت بالوعظ والتذكير وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يشق ذهناً أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل ، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدا وفي ذلك دلالة على أنّ البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرّب المدعو إلى ثوابه ويبعده عن عقابه ، وأنّ الأنبياء متفقون على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع ، مبرؤون عن المطامع الدينية والأغراض الدنيوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 38 . 52 ﴾

(313/571)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والسبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 192 ﴾ من سورة الشعراء

وحتى الآية ﴿ 217 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت آثار هذه القصص آيات مرئيات ، والإخبار بها آيات مسموعات ، وكان في اطراد إهلاك العاصي وإنجاء الطائع في كل منهما ، على تباعد الأعصار ، وتناهي الأقطار ، واختلاف الديار ، أعظم دليل على صدق الرسل ، وتقرير الرسالات لتوافقهم في الدعوة إلى الله ، وتواردهم على التوحيد ، والعدل مع العزوف عن الدنيا التي هي شر محض ، والإقبال على الآخرة التي هي خير صرف ، والتحلي بما أطبق العباد على أنه معالي

الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، والتخلي عن جميع الدنايا ، والتنزه عن كل نقص ، عطف على قوله أول السورة ﴿ وما يأتيهم من ذكر ﴾ – الآية الإخبار برسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إشارة إلى ما في الإخبار عن آثار هذه القصص بالآيات المسموعات من عظيم الدلالات على رسالته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما فيها من الإعجاز من جهة التركيب والترتيب وغير ذلك من عجيب الأساليب الذي لم تؤته أمة من الأمم السالفات ، ومن جهة أن الآتي بتلك القصص الغريبة ، والأنباء البديعة العجيبة ، أمي لم يخالط عالماً مع شدة ملاءمة القرآن لخصوص ما في قصة شعيب عليه السلام من العدل في الكيل والوزن الذي هو مدار القرآن ، ومن أنه الظلة الجامعة للخير ، والفسطاط الدافع لكل ضير ، فقال رداً للمقطع على المطلع : ﴿ وإنه ﴾ أي الذكر الذي أتاهم بهذه الأخبار وهم عنه معرضون وله تاركون ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ أي الذي رباهم بشمول علمه ، وعظيم قدرته ، بما يعجز عن أقل شيء منه غيره لكونه أتاهم بالحق منها على لسان من لم يخالط عالماً قط ، ومع أنه سبحانه غذاهم بنعمته ، ودبرهم بحكمته ، فاقتضت حكمته أن يكون هذا الذكر جامعاً لكونه ختاماً ، وأن يكون معجزاً لكونه تماماً ، ونزله على حسب التدريج شيئاً فشيئاً .

مكرراً فيه ذكر القصص سابقاً في كل سورة منها ما يناسب المقصود من تلك السورة ، معبراً عما يسوقه منها بما يلائم الغرض من ذلك السياق مع مراعاة الواقع ، ومطابقة الكائن .

ولما كان الحال مقتضياً لأن يقال : من أتى بهذا المقال ، عن ذي الجلال ؟ قال : ﴿ نزل به ﴾ أي نجوماً على سبيل التدريج من الأفق الأعلى الذي هو محل البركات ، وعبر عن جبرائيل عليه السلام بقوله : ﴿ الروح ﴾ دلالة على أنه مادة خير ، وأن الأرواح تجيء بما ينزله من ا لهدى ، وقال : ﴿ الأمين ﴾ إشارة إلى كونه معصوماً من كل دنس ، فلا يمكن منه خيانة ﴿ على قلبك ﴾ أي يا محمداً الذي هو أشرف القلوب وأعلاها ، وأضبطها وأوعاها ، فلا زيغ فيه ولا عوج ، حتى صار خلقاً له ، وفي إسقاط الواسطة إشارة إلى أنه – لشدة إلقائه السمع وإحضاره الحس – يصير في تمكنه منه بحيث يحفظه فلا ينسى ، ويفهمه حق فهمه فلا يخفى ، فدخوله إلى القلب في غاية السهولة حتى كأنه وصل إليه بغير واسطة السمع عكس ما يأتي عن المجرمين ، وهكذا كل من وعى شيئاً غاية الوعي حفظه كل الحفظ ، انظر إلى قوله تعالى ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً ﴾ [طه : 114] ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ [القيامة : 16] .

ولما كان السياق في هذه السورة للتحذير ، قال معللاً للجملة التي قبله : ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ أي المخوفين المحذرين لمن أعرض عن الإيمان ، وفعل ما نهى عنه من العصيان .

ولما كان القصد من السورة التسلية عن عدم إيمانهم بأنه لسفول شأنهم ، لا لخلل في بيانه ، ولا لنقص في شأنه ، قال تعالى موضحاً لتمكنه من قبله : ﴿ بلسان عربي ﴾ .

(6/572)

ولما كان في العربي ما هو حوشي لفظاً أو تركيباً ، مشكل على كثير من العرب ، قال : ﴿ مبين ﴾ أي بين في نفسه كاشف لما يراد منه غير تارك لبساً عند من تدبره حق تدبره على ما يتعارفه العرب في مخاطباتها ، من سائر لغاتها ، بحقائقها ومجازاتها على اتساع إراداتها ، وتباعد مراميها في محاوراتها ، وحسن مقاصدها في كناياتها واستعاراتها ، ومن يحيط بذلك حق الإحاطة غير العليم الحكيم الخبير البصير ، وإنما كانت عربيته وإبانته موضحة لسبقه قلبه ، لأن من تكلم بلغته – فكيف بالبين منها – تسبق المعاني الألفاظ إلى قلبه ، فلو كان أعجمياً لكان نازلاً على السمع ، لأنه يسمع أجراس حروف لا يفهم معانيها ؛ قال الكشاف : وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات ، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها لم يكن قلبه إلا إلى المعاني ، ولا يكاد يفطن للألفاظ ، وإن كلم بغيرها وإن كان ماهراً فيها كان نظره أولاً في ألفاظها ثم في معانيها – انتهى .

ففيه تقريع عظيم لمن يعرف لسان العرب ولا يؤمن به .

ولما كان الاستكثار من الأدلة مما يسكن النفوس ، وتطمئن به القلوب ، قال تعالى :

﴿ وإنه ﴾ أي هذا القرآن أصوله وكثير من قصصه وأمهات فروعه ﴿ لفي زبر ﴾ أي كتب ﴿ الأولين ﴾ المضبوطة الظاهرة في كونها أتت من السماء إلى أهلها الذين سكنت النفوس إلى أنه أتتهم رسل ، وشرعت لهم شرائع نزلت عليهم بها كتب من غير أن يخالط هذا الذي جاء به أحداً منهم أو من غيرهم في علم ما ، وكان ذلك دليلاً قاطعاً على أنه ما أتاه به إلا الله تعالى .

ولما كان التقدير : ألم يكن لهم أمارة على صدق ذلك أن يطلبوا تلك الزبر فينظروا فيذوقوا ذلك منها ليضلوا إلى حق اليقين ؟ عطف عليه قوله : ﴿ أولم يكن لهم ﴾ .

(7/572)

ولما كان هذا الأسلوب الاستدلال ، اقتضى تقديم الخبر على الاسم في قراءة الجمهور بالتذكير والنصب ، فقال بعد تقديم لما اقتضاه من الحال : ﴿ آية ﴾ أي علامة على النسبة إلينا ؛ ثم اتبع ذلك الاسم محلولاً إلى أن والفعل لأنه أخص وأعرف وأوضح من ذكر المصدر ، فقال : ﴿ أن يعلمه ﴾ أي هذا الذي أتى به نبينا من عندنا ؛ وأنث ابن عامر الفعل ورفع ﴿ آية ﴾ اسماً وأخبر عنها بأن والفعل ﴿ علماء بني إسرائيل ﴾ فيقروا به ولا ينكروه ،

ليؤمنوا به ولا يهجروه ، فإن قريشاً كانوا كثيراً ما يرجعون إليهم ويعولون في الأخبار الإلهية عليهم ، فإن كثيراً منهم أسلم وذكر تصديق التوارة والإنجيل والزبور وغيرها من أسفار الأنبياء عليهم السلام للقرآن في صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفي ذلك ما يؤيد صدقه ، ويحقق أمره ، وقد عربت الكتب المذكورة بعد ذلك ، وأخرج منها علماء الإسلام كثيراً مما أهملوه حجة عليهم ، ولا فرق في ذلك بين من أسلم منهم وبين غيرهم ، فإنها حين نزول القرآن كان التبديل قد وقع فيها بإخبار الله تعالى ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن أهل مكة بعثوا إلى اليهود يسألونهم عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : هذا زمانه ، وإنا لنجد في التوراة صفته ، فكان ذلك ملزماً لهم بإخبار الله تعالى ، وكذلك كل ما استخرج من الكتب يكون حجة على أهلها .

(8/572)

ولما كان التقدير : لم يروا شيئاً من ذلك آية ولا آمنوا ، عطف عليه أو على قوله تعالى أول سورة ﴿ فقد كذبوا ﴾ الآية : ﴿ ولو نزلناه ﴾ أي على ما هو عليه من الحكمة والإعجاز بما لنا من العظمة ﴿ على بعض الأعجمين ﴾ الذين لا يعرفون شيئاً من لسان العرب من البهائم أو الآدميين ، جمع أعجم ، وهو من لا يفصح وفي لسانه عجمة ، والأعجمي مثله

بزيادة تأكيد ياء النسبة ﴿ فقرأه عليهم ﴾ أي ذلك الذي نزلناه عليه على ما هو عليه من الفصاحة والإعجاز مع علمهم القطعي أنه لا يعرف شيئاً من اللسان ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ أي راسخين ولتمحلوا لكفرهم عذراً في تسميته سحراً أو غير ذلك من تعنتهم ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهو مشركون ﴾ من فرط عنادهم ، وتهيئهم للشر واستعدادهم له ، بل لا يسمعونه حق السماع ، ولا يعونه حق الوعي ، بل سماعاً وفهماً على غير وجهه .

ولما كان ذلك محل عجب ، وكان ربما ظن له أن الأمر على غير حقيقته ، قرر مضمونه وحققه بقوله : ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا السلك العجيب - الذي هو سماع وفهم ظاهري - في صعوبة مدخله وضيق مدرجه .

ولما لم يكن السياق مقتضياً لما اقتضاه سياق الحجر من التأكيد ، اكتفى بمجرد الحدوث فقال : ﴿ سلكناه ﴾ أي كلامنا والحق الذي أرسلنا به رسلنا بما لنا من العظمة ، في قلوبهم - هكذا كان الأصل ، ولكنه علق الحكم بالوصف ، وعم كل زمن وكل من اتصف به فقال : ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ أي الذين طبعناهم على الإجرام ، وهو القطيعة لما ينبغي وصله ، كما ينظم السهم إذا رمي به ، أو الرمح إذا طعن به في القلب ، لا يتسع له ، ولا ينشرح به ، بل تراه ضيقاً حرجاً .

ولما كان هذا المعنى خفياً ، بينه بقوله : ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي من أجل ما جبلوا عليه من

الإجرام ، وجعل على قلوبهم من الطبع والختام ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ فحينئذ يؤمنون حيث لا ينفعهم الإيمان ويطلبون الأمان حيث لا أمان .

ولما كان إتيان الشر فجاءة أشد .

(9/572)

وكان أخذه لهم عقب رؤيتهم له من غير مهلة يحصل فيها نوع استعداد أصلاً ، دل على ذلك مصوراً لحاله بقوله دالاًّ بالفاء على الأشدية والتعقيب : ﴿ فيأتيهم بغتة ﴾ .

ولما كان البغت الإتيان على غفلة ، حقق ذلك نافياً للتجوز بقوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ودل على تطاوله في محالهم ، وجوسه لخلالهم ، وتردده في حلالهم ، بقوله دالاًّ على ما هو أشد عليهم من المفاجأة بالإهلاك : ﴿ فيقولوا ﴾ أي تأسفاً واستسلاماً وتلهفاً في تلك الحالة لعلمهم بأنه لا طاقة به بوجه : ﴿ هل نحن منظرون ﴾ أي مفسوح لنا في آجالنا لنسمع ونطيع .

ولما حقق أن حالهم عند الأخذ الجؤار بالذل والصفار به ، تسبب عنه ما يستحقون باستعجاله من الإنكار في قوله ، منبهاً على أن قدره يفوق الوصف بنون العظمة :

﴿ أفبعذابنا ﴾ أي وقد تبين لهم كيف كان أخذه للأمم الماضية ، والقرون الخالية ،

والأقوام العاتية ! ﴿ يستعجلون ﴾ أي بقولهم : أمطر علينا حجارة من السماء ، أسقط السماء علينا كسفاً ، ائت بالله والملائكة قبيلاً ، كما قال هؤلاء الذين قصصنا أمرهم ، وتلونا ذكرهم ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ ونحو ذلك .

ولما تصورت حالة مآبهم ، في أخذهم بعذابهم ، وكان استعجالهم به يتضمن الاستخفاف والتكذيب والوثوق بأنهم ممتعون ، وتعلق آمالهم بأن تمتيعهم بطول زمانه ، وكان من يؤذونه يتمنى لو عجل لهم ، سبب عن ذلك سبحانه سؤال داعيهم مسلياً ومؤسياً ومعزياً فقال : ﴿ أفرأيت ﴾ أي هب أن الأمر كما يعتقدون من طول عيشهم في النعيم فأخبرني ﴿ إن متعناهم ﴾ أي في الدنيا برغد العيش وصافي الحياة .

(10/572)

ولما كانت حياة الكافر في غاية الضيق والنكد وإن كان في أصفى رغد ، عبر بما يدل على القحط بصيغة القلة وإن كان السياق يدل على أنها للكثرة فقال : ﴿ سنين ثم جاءهم ﴾ أي بعد تلك السنين المتطاولة ، والدهور المتواصلة ﴿ ما كانوا يوعدون ﴾ أي مما طال إنذارك إياهم به وتحذيرك لهم منه على غاية التقريب لهم والتمكين في إسماعهم ، أخبرني ﴿ ما ﴾ أي أيّ شيء ﴿ أغنى عنهم ﴾ أي فيما أخذهم من العذاب ﴿ ما كانوا ﴾ أي

كوناً هو في غاية المكنة وطول الزمان ﴿ يمتعون ﴾ تمتيعاً هو في غاية السهولة عندنا ، وصوره بصورة الكائن تنديماً عليه ، والمعنى أنه ما أغنى عنهم شيئاً لأن عاقبته الهلاك ، وزادهم بعداً من الله وعذابه بزيادة الآثام الموجبة لشديد الانتقام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 390 . 395 ﴾

(11/572)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

القول فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام

اعلم أن الله تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الأنبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته صلى الله عليه وسلم وهو من وجهين : الأول : قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ وذلك لأنه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين ، أو لأنه إخبار عن القصص الماضية من غير تعليم ألبتة ، فلا يكون ذلك إلا بوحي من الله تعالى ، وقوله بعده : ﴿ وإنه لَفِى زُبُرِ الأولين ﴾ كأنه مؤكد لهذا الاحتمال ، وذلك لأنه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هي

موجودة في زبر الأولين من غير تفاوت أصلاً مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد ، دل ذلك على أنه ليس إلا من عند الله تعالى ، فهذا هو المقصود من الآية .

فأما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ فالمراد بالتنزيل المنزل ، ثم قد كان يجوز في القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلاً من الله تعالى إلى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ والباء في قوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح ﴾ و ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح ﴾ على القراءتين للتعدية ، ومعنى ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح ﴾ جعل الله الروح نازلاً به ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ أي (حفظكه و) فهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] والروح الأمين جبريل عليه السلام وسماه روحاً من حيث خلق من الروح ، وقيل لأنه نجاة الخلق في باب الدين فهو كالروح الذي تثبت معه الحياة ، وقيل لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح وسماه أميناً لأنه مؤتمن على ما يؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام ، وإلى غيرهم .

(12/572)

وأما قوله : ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ ففيه قولان : الأول : أنه إنما قال : ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ وإن كان إنما أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيير

فيوثق بالإنذار الواقع منه الذي بين الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ الثاني : أن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختبار ، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول ، أما القرآن فآيات إحداها قوله تعالى في سورة البقرة (97) : ﴿ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : 37] ، وثانيها : أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب من المساعي فقال : ﴿ لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو فِى أيمانكم ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : 225] وقال : ﴿ لَن يَنَالَ الله لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ [الحج : 37] والتقوى في القلب لأنه تعالى قال : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى ﴾ [الحجرات : 3] وقال تعالى : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصدور ﴾ [العاديات : 10] .

(13/572)

وثالثها : قوله حكاية عن أهل النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أصحاب السعير ﴾ [الملك : 10] ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه ، وقال : ﴿ إِنَّ السمع والبصر

والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب ، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالاً عن القلب وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِى الصدور ﴾ [غافر : 19] ، ولم تخف الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها ورابعها : قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : 9] فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها ، وقد قلنا لا طائل في السمع والأبصار إلا بما يؤديان إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والمتحكم عليه ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مكناهم فِيمَا إِن مكناكم فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وأبصارا وَأَفْئِدَةً فَمَا أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أبصارهم وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ من شيء ﴾ [الأحقاف : 26] فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته ، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر وخامسها : قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارهم ﴾ [البقرة : 7] فجعل العذاب لازماً على هذه الثلاثة وقال : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 179] وجه الدلالة أنه قصد إلى نفي العلم عنهم رأساً ، فلو ثبت العلم في غير القلب كثباته في القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات ومشاكلها ناطقة بأجمعها أن القلب هو المقصود بإلزام الحجة ، وقد بينا أن ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لأنهما آلتان للقلب في تأدية صور المحسوسات والمسموعات .

(14/572)

وأما الحديث فما روى النعمان بن بشير قال سمعته عليه السلام يقول : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب "

وأما المعقول فوجوه : أحدها : أن القلب إذا غشي عليه فلو قطع سائر الأعضاء لم يحصل الشعور به وإذا أفاق القلب فإنه يشعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الأعضاء تبع للقلب ولذلك فإن القلب إذا فرح أو حزن فإنه يتغير حال الأعضاء عند ذلك ، وكذا القول في سائر الأعراض النفسانية وثانيها : أن القلب منبع المشاق الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء وإذا كانت المشاق مبادىء للأفعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب وثالثها : أن معدن العقل هو القلب وإذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب .

(15/572)

أما المقدمة الأولى : ففيها النزاع فإن طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو الدماغ والذي يدل على قولنا وجوه : الأول : قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : 46] وقوله : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 179] وقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلك لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : 37] أي عقل ، أطلق عليه اسم القلب لما أنه معدنه الثاني : أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب ، وقال : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : 10] ، ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] وقولهم : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : 155] ، ﴿ يَحْذَرُ المنافقين أن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ [التوبة : 64] ، ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح : 11] ، ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ [المطففين : 14] ، ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرءان أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : 24] ، ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ [الحج : 46] فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضاً هو القلب الثالث : وهو أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب ، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقاً وضجراً حتى كأنه يتألم بذلك ، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب ، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم الرابع : وهو أن القلب أول الأعضاء تكوناً ، وآخرها موتاً

، وقد ثبت ذلك بالتشريح ولأنه متمكن في الصدر الذي هو أوسط الجسد ، ومن شأن الملوك المحتاجين إلى الخدم أن يكونوا في وسط المملكة لتكتنفهم

(16/572)

الحواشي من الجوانب فيكونوا أبعد من الآفات ، واحتج من قال العقل في الدماغ بأمور : أحدها : أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب وثانيها : أن الأعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب وثالثها : أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل ورابعها : أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل إنه خفيف الدماغ خفيف الرأس وخامسها : أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف ، والأعلى هو الأشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ والجواب عن الأول : لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ ، ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب ، فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ ، ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه أنا ندرك من أنفسنا أنا إذا عقلنا أن الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه ، فإن الأعضاء تتحرك عند ذلك ، ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ وعن الثاني : أنه لا يبعد أن يتأدى الأثر من القلب إلى الدماغ ، ثم

الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه ، وعن الثالث : لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطاً لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء ، وعن الرابع : أن ذلك العرف إنما كان لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته ، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضاً ، إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حراراته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل وعن الخامس : أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم .

(17/572)

فرع : اعلم أن المعاني التي بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف إلى الصدر تارة وإلى الفؤاد أخرى ، أما الصدر فلقوله تعالى : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصدور ﴾ [العاديات : 10] وقوله : ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ الله مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [آل عمران : 154] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] ، ﴿ وإِنْ تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾ [آل عمران : 29] وأما الفؤاد فقوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ [الأنعام : 110] ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد فقال : القلب هو العلقة السوداء في جوف الفؤاد دون ما

يكتنفها من اللحم والشحم ، ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان ، وكيف كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمى قلباً وفؤاداً موضعاً هو الموضع في الحقيقة للعقل والاختيار ، وأن معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع ، كما أن سائر الأعضاء مسخرة للقلب ، فإن العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعاني المنسوبة إليه أعني العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان في تلك المعاني ، فيشبه أن يكون اسم القلب اسماً للأجزاء التي تحل فيها هذه المعاني بالحقيقة ، واسم الفؤاد يكون اسماً لمجموع العضو ، فهذا هو الكلام في هذا الباب والله الموفق للصواب .

وأما قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ فيدخل تحت الإنذار الدعاء إلى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح لأن في الوجهين جميعاً يدخل الخوف من العقاب .

(18/572)

وأما قوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ فالباء إما أن تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان ، وهم خمسة هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم السلام ، وإما أن تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربي لينذر به لأنه لو نزله باللسان الأعجمي (لتجافوا عنه أهلاً و) لقالوا له ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به ،

وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه ويفهمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين ﴾ فيحتمل هذه الأخبار خاصة ، ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن ، ويحتمل صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف ، لأن ذكر هذه الأشياء بأسرها قد تقدم .

﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) ﴾

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِى إسرائيل ﴾ المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه ، وتقريره أن جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته ، وقد كان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر ، وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لأن تطابق الكتب الإلهية على نعته ووصفه يدل قطعاً على نبوته ، واعلم أنه قرىء ﴿ يَكُنِ ﴾ بالتذكير ، وآية النصب على أنها خبره و (أن يعلمه) هو الاسم ، وقرىء ﴿ تَكُنْ ﴾ بالتأنيث وجعلت (آية) اسماً و (أن يعلمه) خبراً ، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً ، ويجوز مع نصب الآية تأنيث (يكن) كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [الأنعام : 23] .

وأما قوله : ﴿ وَلَوْ نزلناه على بَعْضِ الأعجمين ﴾ فاعلم أنه تعالى لما بين بالدليلين المذكورين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق لهجته بين بعد ذلك أن هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين ، فقال : ﴿ وَلَوْ نزلناه على بَعْضِ الأعجمين ﴾ يعني إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين ، فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته ، وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله ، وانضم إلى ذلك بشارة كتب الله السالفة به ، فلم يؤمنوا به وجحدوه ، وسموه شعراً تارة وسحراً أخرى ، فلو نزلناه على بعض الأعجمين الذي لا يحسن العربية لكفروا به أيضاً ولتمحلوا لجحودهم عذراً ، ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم ، وهكذا مكناه وقررناه فيها وكيفما فعل بهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الجحود والإنكار ، وهذا أيضاً مما يفيد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه إذا عرف رسول الله إصرارهم على الكفر ، وأنه قد جرى القضاء الأزلي بذلك حصل اليأس ، وفي المثل : اليأس إحدى الراحتين .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ يدل على أن الكل بقضاء الله وخلقه ، قال

صاحب "الكشاف" : أراد به أنه صار ذلك التكذيب متكمناً في قلوبهم أشد التمكن فصار ذلك كالشيء الجبلي والجواب : أنه إما أن يكون قد فعل الله فيهم ما يقتضي رجحان التكذيب على التصديق أو ما فعل ذلك فيهم ، فإن كان الأول فقد دللنا في سورة الأنعام على أن الترجيح لا يتحقق ما لم ينته إلى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود ، فإن لم يفعل فيهم ما يقتضي الترجيح ألبتة ، امتنع قوله : ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ كما أن طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم ، امتنع إسناد الكفر إلى ذلك الطيران .

المسألة الخامسة :

(20/572)

قال صاحب "الكشاف" : فإن قلت : ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ من قوله ﴿سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ؟ قلت موقعه منه موقع الموضح (والمبين) ، لأنه مسوق (لبيانه مؤكد للجحود) في قلوبهم ، فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد .

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أنهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، وأنه يأتيهم العذاب بغتة

أتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة فقال : ﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص ، لأنهم يعلمون في الآخرة أن لا ملجأ ، لكنهم يذكرون ذلك استرواحاً .

فأما قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فالمراد أنه تعالى بين أنهم كانوا في الدنيا يستعجلون العذاب ، مع أن حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به ، ثم بين تعالى أن استعجال العذاب على وجه التكذيب إنما يقع منهم ليتمتعوا في الدنيا ، إلا أن ذلك جهل ، وذلك لأن مدة التمتع في الدنيا متناهية قليلة ، ومدة العذاب الذي يحصل بعد ذلك غير متناهية ، وليس في العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية ، وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف ، فقال له عظني ، فلم يزد على تلاوة هذه الآية ، فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت ، وقرىء ﴿ يُمَتَّعُونَ ﴾ بالتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 142 . 147 ﴾

(21/572)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾

أَخْبَرَ عَنْ الْقُرْآنِ بِأَنَّهُ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ؛ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ بِهَذِهِ اللُّغَةِ فَهَذَا مِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ فِي أَنَّ نَقْلَهُ إلَى لُغَةٍ أُخْرَى لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ قُرْآنًا لِإِطْلَاقِ اللَّهِ اللَّفْظَ بِأَنَّهُ فِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ مَعَ كَوْنِهِ فِيهَا بِغَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(22/572)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ يعني القرآن

. ﴿ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ يعني جبريل

. ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ يعني محمد صلى الله عليه وسلم

. ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ يعني لأمتك

. ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ يعني أن لسان القرآن عربي مبين لأن المنزل عليه عربي ، والمخاطبون به عرب ولأنه تحدى بفصاحته فصحاء العرب .

وفي اللسان العربي قولان :

أحدهما : لسان جرهم ، قاله أبو برزة .

الثاني : لسان قريش ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴾

يعني كتب الأولين من التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب .

وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن المراد به ذكر القرآن في زبر الأولين ، قاله قتادة .

الثاني : بعث محمد صلى الله عليه وسلم في زبر الأولين ، قاله السدي .

الثالث : ذكر دينك وصفة أمتك في زبر الأولين ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : كذلك أدخلنا الشرك ، قاله أنس بن مالك .

الثاني : التكذيب ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : القسوة ، قاله عكرمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(23/572)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

الضمير في ﴿ إنه ﴾ للقرآن ، أي إنه ليس بكهانة ولا سحر وإنما هو من عند الله تعالى ، و ﴿ الروح الأمين ﴾ ، جبريل عليه السلام بإجماع ، ونزل باللفظ العربي والمعاني الثابتة في الصدور والمصاحف ، وعلى ذلك كله يعود الضمير في ﴿ به ﴾ و" اللسان " ، عبارة عن اللغة ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم في رواية حفص " نزَل " خفيفة الزاي " الروحُ " رفع ، وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي بشد الزاي " الروحَ " نصباً ورجحها أبو حاتم بقوله تعالى : ﴿ فإنه نزله على قلبك ﴾ [البقرة : 97] . وبقوله ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ . وقوله ، ﴿ به ﴾ في موضع الحال كقوله تعالى : ﴿ وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ﴾ [المائدة : 61] ، وقوله : ﴿ على قلبك ﴾ إشارة إلى حفظه إياه ، وعلل النزول على قلبه بكونه ﴿ من المنذرين ﴾ لأنه لا يمكن أن ينذر به إلا بعد حفظه ، وقوله : ﴿ بلسان ﴾ يمكن أن تتعلق الباء ب ﴿ نزل به ﴾ وهذا على أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان يسمع من جبريل حروفاً عربية وهو القول الصحيح ، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت وتداخل حروفه وعجلة مورده وإغلاظه ، ويمكن أن يتعلق بقوله ﴿ لتكون ﴾ وتمسك بهذا من رأى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع مثل صلصلة الجرس يتفهم له منه القرآن .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ضعيف مقتضاه أن بعض ألفاظ القرآن من لدن النبي عليه السلام وهذا مردود ، وقوله ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ ، أي في كتبهم يريد القرآن أنه مذكور في الكتب المنزلة القديمة منبه عليه مشار إليه ، وقرأ الجمهور " زُبُر " بضم الباء ، وقرأ الأعمش بسكونها ثم احتج عليهم بأنهم كان ينبغي أن يصحح عندهم أمره كون علماء بني إسرائيل يعلمونه كعبد الله بن سلام ونحوه قاله ابن عباس ومجاهد ، وقال ابن عباس أيضاً فيما حكى عنه الثعلبي أن أهل مكة بعثوا إلى الأحبار بيثرب يسألونهم عن النبي عليه السلام فقالوا هذا زمانه ووصفوا نعته ثم خلطوا في أمر محمد عليه السلام فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد : ويؤيد هذا كون الآية مكية ، وقال مقاتل هذه الآية مدنية ، فمن قال إنها مكية ذهب إلى أن علماء بني إسرائيل ذكروا في التوراة صفة النبي الأمي فهذه الإشارة إلى ذلك وكلهم قرأ ﴿ يكن ﴾ بالياء ﴿ آيةً ﴾ نصباً غير ابن عامر فإنه قرأ " تكن " بالتاء من فوق " آيةٌ " رفعاً وهي قراءة عاصم الجحدري ، وقرأ جمهور الناس " أن يعلمه " بالياء من تحت ، وقرأ الجحدري " تعلمه " بالتاء من فوق ، ثم سلى محمداً صلى الله عليه وسلم

عن صدود قومه عن الشرع بأن أخبر أن هذا القرآن العربي لو سمعوه من أعجمي أي من حيوان غير ناطق أو من جماد ، و" الأعجم "كل ما لا يفصح ، ما كانوا يؤمنون أي قد ختم الكفر عليهم فلا سبيل إلى إيمانهم ، والأعجمون جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وإن كان عربي النسب يقال له أعجم ، وكذلك يقال للحيونات والجمادات ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " جرح العجماء جبار " ، وأسند الطبري عن عبد الله بن مطيع أنه قال حين قرأ هذه الآية وهو واقف بعرفة : جملي هذا أعجم فلو أنزل عليه ما كانوا يؤمنون ، والعجمي هو الذي نسبه في العجم وإن كان أفصح الناس ، وقرأ الحسن " الأعجميين " .

(25/572)

قال أبو حاتم أراد جمع الأعجمي المنسوب ، وقال بعض النحويين " الأعجمون " جمع أعجم أضيف فقويت بالإضافة رتبته في الأسماء فجمع وليس بأعجمي النسبة إلى العجم ، وقرأ جمهور الناس " أو لم يكن " بالياء " لهم آيةً " بالنصب ، وقرأ " أو ليس لم يكن آية " ابن مسعود ، والأعمش ، وفي مصحف أبي " أليس " بغير واو ، وقرأت فرقة " تكن " بالتاء من فوق " آيةٌ " رفعاً ، وقرأ بعض من قرأ بالياء ﴿ آيةً ﴾ بالنصب وسائرهم بالرفع ، وقد مضى ذكرها في السبع وذكر الطبري أن الضمير في قوله ﴿ وإنه لتنزيل ﴾ عائد على الذكر في قوله

﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم ﴾ [الأنبياء : 2] .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) ﴾

(26/572)

الإشارة بذلك إلى يتحصل لسامع الآية المتقدمة من الحتم عليهم بأنهم لا يؤمنون وهي قوله تعالى : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ﴾ [الشعراء : 198] ، و﴿ سلكناه ﴾ معناه أدخلناه ، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ [الشعراء : 198] قاله الحسن . قال الرماني لا وجه لهذا لأنه لم يجر ذكره وإنما الضمير للقرآن وإحضاره بالبال ، وحكى الزهراوي أن الضمير للتكذيب المفهوم وحكاه الثعلبي ، وقرأ ابن مسعود "كذلك جعلناه في قلوب" ، وروي عنه "نجعله" ، و"المجرمون" أراد بهم مجرمي كل أمة ، أي إن هذه عادة الله تعالى فيهم ، أنهم لا يؤمنون ﴿ حتى يروا العذاب ﴾ فلا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم وهذا على جهة المثال لقريش أي هؤلاء كذلك ، وكشف الغيب ما تضمنته هذه الآية يوم بدر ، وقرأ الجمهور "فيأتيهم" بالياء أي العذاب ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن "فتأتيهم" بالتاء من فوق يعني الساعة ، وفي قراءة أبي بن كعب "فيروه بغتة" ومن قول كل أمة معذبة ﴿ هل نحن منظرون ﴾ أي مؤخرون ، وهذا على

جهة التمني منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة ، ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله تعالى في طلبهم سقوط السماء كسفاً وغير ذلك وقولهم لمحمد صلى الله عليه وسلم أين ما تعدنا أي إنه لا ينبغي لهم ذلك لأن عذابنا بالمرصاد إذا حان أجله ، ثم خاطب محمداً صلى الله عليه وسلم بإقامة الحجة عليهم في أن مدة الإرجاء والإمهال والإملاء لا تغني مع نزول العذاب بعدها ووقوع النقمة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أفرأيت إن متعناهم ﴾ الآية ، قال عكرمة ﴿ سنين ﴾ يريد عمر الدنيا ، ولأبي جعفر المنصور ، قصة في هذه الآية ، ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية من القرى إلا بعد إرسال من ينذرهم ، عذاب الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(27/572)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّه ﴾

يعني القرآن ﴿ لَتَنْزِيلُ ربِّ العالَمِين .

نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : ﴿ نَزَلَ به ﴾ خفيفاً ﴿ الرُّوحُ الأمينُ ﴾ بالرفع .

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ نَزَّلَ ﴾ مشددة الزاي ﴿ الرُّوحَ الأمينَ ﴾ بالنصب.

والمراد بالرُّوح الأمين جبريل، وهو أمين على وحي الله تعالى إلى أنبيائه، ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ قال الزجاج: معناه: نزل عليك فوعاه قلبك، فثبت، فلا تنساه أبداً.

قوله تعالى: ﴿ لِتَكونَ من المُنْذِرِينَ ﴾ أي: ممن أَنذر بآيات الله المكذِّبين، ﴿ بلسان عربيّ مُبِين ﴾ قال ابن عباس: بلسان قريش ليفْهموا ما فيه.

قوله تعالى: ﴿ وإنه لفي زُبُرِ الأوَّلين ﴾ وقرأ الاعمش: ﴿ زُبْرِ ﴾ بتسكين الباء.

وفي هاء الكناية قولان.

أحدهما: أنها ترجع إلى القرآن؛ والمعنى: وإنَّ ذِكْر القرآن وخبره، هذا قول الأكثرين.

والثاني: أنها تعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله مقاتل.

والزُّبُر: الكُتُب.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لهم آيةً أن يَعْلَمه عُلماء بني إسرائيل ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿ أولم يكن لهم ﴾ بالياء ﴿ آيةً ﴾ بالنصب.

وقرأ ابن عامر.

وابن أبي عبلة: ﴿ تكن ﴾ بالتاء ﴿ آيةٌ ﴾ بالرفع.

وقرأ أبو عمران الجوني، وقتادة ﴿ تكن ﴾ بالتاء ﴿ آيةً ﴾ بالنصب قال الزجاج: إذا

قلت : ﴿ يكن ﴾ بالياء ، فالاختيار نصب ﴿ آيةً ﴾ ويكون "أنْ" اسم كان ، ويكون "آية" خبر كان ، المعنى : أَوَلَم يكن لهم عِلْم علماء بني إِسرائيل أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم حقٌّ ، وأن نبوَّته حق ؟ ! ﴿ آية ﴾ أي : علامة موضحة ، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إِسرائيل وجدوا ذِكْر النبي صلى الله عليه وسلم مكتوباً عندهم في التوراة والإِنجيل .

(28/572)

ومن قرأ : ﴿ أَوَلَم تكن ﴾ بالتاء ﴿ آيةٌ ﴾ جعل "آية" هي الاسم ، و "أن يعلمه" خبر "تكن" .

ويجوز أيضاً ﴿ أوَلم تكن ﴾ بالتاء ﴿ آيةً ﴾ بالنصب ، كقوله ﴿ ثم لم تكن فِتْنَتُهم ﴾ [الأنعام : 23] وقرأ الشعبي ، والضحاك ، وعاصم الجحدري : ﴿ أن تَعْلَمَهُ ﴾ بالتاء .

قال ابن عباس : بعث أهل مكة إِلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إِنّ هذا لَزمانُه ، وإِنّا لنجد في التوراة صفته ، فكان ذلك آية لهم على صِدقه .

قوله تعالى : ﴿ على بعض الأعجمِين ﴾ قال الزجاج : هو جمع أعجم ، والأنثى عجماء ،

والأعجم : الذي لا يُفْصِح ، وكذلك الأعجمي ؛ فأما العجمي : فالذي من جنس العجم ، أفصح أو لم يُفْصِح .

قوله تعالى : ﴿ ما كانوا به مؤمِنين ﴾ أي : لو قرأه عليهم أعجميّ لقالوا : لأنفقه هذا ، فلم يؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ كذلك سلكناه ﴾ قد شرحناه في [الحجر : 12] .

والمجرمون هاهنا المشركون .

قوله تعالى : ﴿ لا يؤمِنون به ﴾ قال الفراء : المعنى : كي لا يؤمنوا .

فأما العذاب الأليم ، فهو عند الموت .

﴿ فيقولوا ﴾ عند نزول العذاب ﴿ هل نحن مُنْظَرُون ﴾ أي : مُؤَخَّرون لنؤمِن ونصدِّق .

قال مقاتل : فلمّا أوعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعذاب ، قالوا : فمتى هو ؟ تكذيباً به ، فقال الله تعالى : ﴿ أَفَبعذابنا يَسْتعجلون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أفرأيتَ إنْ متَّعناهم سِنِينَ ﴾ قال عكرمة : عُمُرَ الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدون ﴾ أي : من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾

عاد إلى ما تقدّم بيانه في أوّل السورة من إعراض المشركين عن القرآن .

﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ ﴾ ﴿ نَزَلَ ﴾ مخفَّفاً قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو .

الباقون : "نَزَّلَ" مشدّداً "بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ" نصباً وهو اختيار أبي حاتم وأبي عبيد لقوله :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ ﴾ وهو مصدر نزل .

والحجة لمن قرأ بالتخفيف أن يقول ليس هذا بمقدّر ؛ لأن المعنى وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك ؛ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾ [البقرة : 97] أي يتلوه عليك فيعيه قلبك .

وقيل : ليثبت قلبك .

﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أي لئلا يقولوا لسنا نفهم ما تقول .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين ﴾ أي وإن ذكر نزوله لفي كتب الأوّلين يعني الأنبياء .

وقيل : أي إن ذكر محمد عليه السلام في كتب الأوّلين .

كما قال تعالى : ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : 157]

والزُّبُر الكتب الواحد زَبُور كرسول ورسل ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

قال مجاهد : يعني عبد الله بن سَلاَم وسلمان وغيرهما ممن أسلم .

وقال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد عليه السلام ، فقالوا : إن هذا لزمانه ، وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته .

فيرجع لفظ العلماء إلى كل من كان له علم بكتبهم أسلم أو لم يسلم على هذا القول .

وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ؛ لأنهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب ؛ لأنهم مظنون بهم علمٌ .

وقرأ ابن عامر ؛ ﴿ أَوَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ ﴾ .

(30/572)

الباقون ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً ﴾ بالنصب على الخبر واسم يكن ﴿ أَنْ يَعْلَمَهُ ﴾ والتقدير أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل الذين أسلموا آية واضحة .

وعلى القراءة الأولى اسم كان "آيةٌ" والخبر ﴿ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

وقرأ عاصم الجحدري ﴿ أَنْ تَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ على بَعْضِ الأعجمين ﴾ أي على رجل ليس بعربيّ اللسان ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم

﴿ بغير لغة العرب لما آمنوا ولقالوا لا نفقه .

نظيره ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً ﴾ [فصلت : 44] الآية .

وقيل : معناه ولو نزلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة وكبرا .

يقال : رجل أعجم وأعجميّ إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً ، ورجل عجميّ وإن كان فصيحاً ينسب إلى أصله ؛ إلا أن الفرّاء أجاز أن يقال رجل عجميّ بمعنى أعجميّ .

وقرأ الحسن "عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِيِّينَ" مشدّدة بياءين جعله نسبة .

ومن قرأ ﴿ الأَعْجَمِينَ ﴾ فقيل : إنه جمع أعجم .

وفيه بعد ؛ لأن ما كان من الصفات الذي مؤنثه فعلاء لا يجمع بالواو والنون ، ولا بالألف والتاء ؛ لا يقال أحمرون ولا حمراوات .

وقيل : إن أصله الأعجمين كقراءة الجحدري ثم حذفت ياء النسب ، وجعل جمعه بالياء والنون دليلاً عليها .

قاله أبو الفتح عثمان بن جِنّي .

وهو مذهب سيبويه .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ يعني القرآن أي الكفر به ﴿ فِي قُلُوبِ المجرمين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

وقيل : سلكنا التكذيب في قلوبهم ؛ فذلك الذي منعهم من الإيمان ؛ قاله يحيى بن سلاّم .

وقال عكرمة : القسوة .

والمعنى متقارب وقد مضى في "الحجر" .

وأجاز الفرّاء الجزم في ﴿ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ ؛ لأن فيه معنى الشرط والمجازاة .

(31/572)

وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت لا موضع كي لا في مثل هذا ربما جزمت ما بعدها وربما رفعت ؛ فتقول : ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم ؛ لأن معناه إن لم أربطه ينفلت ، والرفع بمعنى كيلا ينفلت .

وأنشد لبعض بني عُقيل :

وحتى رأينا أحسَنَ الفعلِ بيننا . . .

مُسَاكَنَةً لا يقرِفُ الشرَّ قارِفُ

بالرفع لما حذف كي .

ومن الجزم قول الآخر :

لَطَالَمَا حَلاتُمَاها لا تَرِدْ . . .

فخلِّياها والسِّجال تَبْتَرِدْ

قال النحاس : وهذا كله في ﴿ يُوْمِنُونَ ﴾ خطأ عند البصريين ، ولا يجوز الجزم بلا جازم ، ولا يكون شيء يعمل عملاً فإذا حذف عمل عملاً أقوى من عمله وهو موجود ؛ فهذا احتجاج بيّن .

﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي العذاب .

وقرأ الحسن ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ ﴾ بالتاء ؛ والمعنى : فتأتيهم الساعة بغتة فأضمرت لدلالة العذاب الواقع فيها ، ولكثرة ما في القرآن من ذكرها .

وقال رجل للحسن وقد قرأ ﴿ فَتَأْتِيَهُم ﴾ : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة . فانتهره وقال : إنما هي الساعة تأتيهم بغتة أي فجأة .

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانها .

﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أي مؤخَّرون وممهلون .

يطلبون الرجعة هنالك فلا يجابون إليها .

قال القشيري : وقوله ﴿ فَيَأْتِيَهُمْ ﴾ ليس عطفاً على قوله : ﴿ حَتَّى يَرَوُا ﴾ بل هو جواب قوله : ﴿ لاَ يُوْمِنُونَ ﴾ فلما كان جواباً للنفي انتصب ؛ وكذلك قوله : ﴿ فَيَقُولُوا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾

قال مقاتل : قال المشركون للنبيّ صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى تعدنا بالعذاب ولا

تأتي بها فنزلت : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ يعني في الدنيا والمراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره .

(32/572)

﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب والهلاك ﴿ مَآ أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ .

﴿ مَا ﴾ الأولى استفهام معناه التقرير ، وهو في موضع نصب ب ﴿ أَغْنَى ﴾ و ﴿ ما ﴾ الثانية في موضع رفع ، ويجوز أن تكون الثانية نفياً لا موضع لها .

وقيل : ﴿ ما ﴾ الأولى حرف نفي ، و ﴿ ما ﴾ الثانية في موضع رفع ب ﴿ أغنى ﴾ والهاء العائدة محذوفة .

والتقدير : ما أغنى عنهم الزمان الذي كانوا يمتعونه .

وعن الزهري : إن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ ثم يبكي ويقول :

نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ . . .

وليلُك نومٌ والرَّدَى لك لازمُ

فلا أنتَ في الأَيقاظ يقظانُ حازمٌ . . .

ولا أنتَ في النُّوَّام ناجٍ فسالمُ

تُسَرُّ بما يَفْنَى وتفرحُ بالمنى . . .

كما سُرّ باللذات في النوم حالمُ

وتَسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ . . .

كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(33/572)

وقال أبو حيان :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

الضمير في : ﴿ وإنه ﴾ عائد على القرآن ، أي إنه ليس بكهانة ولا سحر ، بل هو من عند الله ، وكأنه عاد أيضاً إلى ما افتتح به السورة من إعراض المشركين عما يأتيهم من الذكر ، ليتناسب المفتتح والمختتم .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو ، وحفص : ﴿ نزل ﴾ مخففاً ، و ﴿ الروح الأمين ﴾ :

مرفوعان ؛ وباقي السبعة : بالتشديد ونصبهما .

والروح هنا : جبريل عليه السلام ، وقد تقدم في سورة مريم لم أطلق عليه الروح ، وبه قال ابن عطية : في موضع الحال كقوله : ﴿ وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ﴾ انتهى .

والظاهر تعلق ﴿ على قلبك ﴾ و ﴿ لتكون ﴾ بنزل ، وخص القلب والمعنى عليك ، لأنه محل الوعي والتثبيت ، وليعلم أن المنزل على قلبه عليه السلام محفوظ ، لا يجوز عليه التبديل ولا التغيير ، وليكون علة في التنزيل أو النزول اقتصر عليها ، لأن ذلك أزجر للسامع ، وإن كان القرآن نزل للإنذار والتبشير .

والظاهر تعلق ﴿ بلسان ﴾ بنزل ، فكان يسمع من جبريل حروفاً عربية .

قال ابن عطية ، وهو القول الصحيح : وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت وتداخل حروفه وعجلة مورده وإغلاظه .

ويمكن أن يتعلق بقوله : ﴿ لتكون ﴾ ، وتمسك بهذا من رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، كان يسمع أحياناً مثل صلصلة الجرس ، يتفهم له منه القرآن ، وهو مردود . انتهى .

وقال الزمخشري : ﴿ بلسان ﴾ ، إما أن يتعلق بالمنذرين ، فيكون المعنى : لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان ، وهم خمسة : هود ، وصالح ، وشعيب ، وإسماعيل ، ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وعليهم ؛ وإما أن يتعلق بنزل ، فيكون المعنى : نزله باللسان العربي

المبين لتنذر به ، لأنه لو نزله باللسان الأعجمي ، لتجافوا عنه أصلاً وقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه ؟ فيتعذر الإنذار به .

(34/572)

وفي هذا الوجه ، إن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك ، تنزيل له على قلبك ، لأنك تفهمه ويفهمه قومك .

ولو كان أعجمياً ، لكان نازلاً على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات ، فإذا كلم بلغتها التي لقنها أولاً ونشأ عليها وتطبع بها ، لم يكن قلبه إلا إلى معاني تلك الكلم يتلقاها بقلبه ، ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت .

وإن كلم بغير تلك اللغة ، وإن كان ماهراً بمعرفتها ، كان نظره أولاً في ألفاظها ، ثم في معانيها .

فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين . انتهى .

وفيه تطويل .

﴿ وإنه ﴾ ، أي القرآن ، ﴿ لفي زبر الأولين ﴾ : أي مذكور في الكتب المنزلة القديمة ، منبه عليه مشار إليه .

وقيل : إن معانيه فيها ، وبه يحتج لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة ، على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية ، حيث قيل : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ ، لكون معانيه فيها .

وقيل : الضمير عائد على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، أي إن ذكره ورسالته في الكتب الإلهية المتقدمة يكون التفاتاً ، إذ خرج من ضمير الخطاب في قوله : ﴿ على قلبك لتكون ﴾ إلى ضمير الغيبة ، وكذلك قبل في أن يعلمه ، أي أن يعلم محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، وتناسق الضمائر لشيء واحد أوضح .

وقرأ الأعمش : لفي زبر ، بسكون الباء ، والأصل الضم ، ثم احتج عليهم بأنهم كان ينبغي أن يصحح عندهم أمره ، كون علماء بني إسرائيل يعلمونه ، أي أو لم يكن لهم علامة على صحة علم بني إسرائيل به ؟ إذ كانت قريش ترجع في كثير من الأمور النقلية إلى بني إسرائيل ، ويسألونهم عنها ويقولون : هم أصحاب الكتب الإلهية .

وقد تهود كثير من العرب وتنصر كثير ، لاعتقادهم في صحة دينهم .

(35/572)

وذكر الثعلبي ، عن ابن عباس ، أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقالوا : هذا زمانه ، ووصفوا نعته ، وخلطوا في أمر محمد عليه السلام ، فنزلت الآية في ذلك ، ويؤيد هذا كون الآية مكية .

وقال مقاتل : هي مدنية .

﴿ وعلماء بني إسرائيل ﴾ : عبد الله بن سلام ونحوه ، قاله ابن عباس ومجاهد ، وذلك أن جماعة منهم أسلموا ونصوا على مواضع من التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ﴾ الآية .

وقيل : علماؤهم من أسلم منهم ومن لم يسلم .

وقيل : أنبياؤهم ، حيث نبهوا عليه وأخبروا بصفته وزمانه ومكانه .

وقرأ الجمهور : ﴿ أو لم يكن ﴾ بالياء من تحت ، ﴿ آية ﴾ : بالنصب ، وهي قراءة واضحة الإعراب توسط خبر يكن ، و ﴿ أن يعلمه ﴾ : هو الاسم .

وقرأ ابن عامر ، والجحدري : تكن بالتاء من فوق ، آية : بالرفع .

قال الزمخشري : جعلت آية اسماً ، وأن يعلمه خبراً ، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً ، وقد خرج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك فقيل : في تكن ضمير القصة ، وآية أن يعلمه جملة واقعة موقع الخبر ، ويجوز على هذا أن يكون لهم آية جملة الشأن ، وأن يعلمه بدلاً من آية . انتهى .

وقرأ ابن عباس : تكن بالتاء من فوق ، آية بالنصب ، كقراءة من قرأ : ﴿ لم ثم تكن ﴾ ، بتاء التأنيث ، ﴿ فتنتهم ﴾ بالنصب ، ﴿ إلا أن قالوا ﴾ وكقول لبيد :

فمضى وقدمها وكانت عادة . . .

منه إذا هي عردت أقدامها

ودل ذلك إما على تأنيث الاسم لتأنيث الخبر ، وإما لتأويل أن يعلمه بالمعرفة ، وتأويل ﴿ إلا أن قالوا ﴾ بالمقالة ، وتأويل الإقدام بالإقدامة .

وقرأ الجحدري : أن تعلمه بتاء التأنيث ، كما قال الشاعر :

قالت بنو عامر خالوا بني أسد . . .

يا بؤس للجهل ضراراً لأقوام

وكتب في المصحف : علموا بواو بين الميم والألف .

(36/572)

قيل : على لغة من يميل ألف علموا إلى الواو ، كما كتبوا الصلوة والزكوة والربوا على تلك اللغة .

قال الزمخشري : الأعجمي الذي لا يفصح ، وفي لسانه عجمة واستعجام ، والأعجمي

مثله إلا أن فيه لزيادة ياء بالنسبة زيادة توكيد .

وقال ابن عطية : الأعجمون جمع أعجم ، وهو الذي لا يفصح ، وإن كان عربي النسب يقال له أعجم ، وذلك يقال للحيوانات والجمادات ، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " جرح العجماء جبار " وأسند الطبري ، عن عبد الله بن مطيع أنه قال ، حين قرأ هذه الآية وهو واقف بعرفة : " جملي هذا أعجم ، فلو أنزل عليه ما كانوا يؤمنون " والعجمي هو الذي نسبته في العجم ، وإن كان أفصح الناس . انتهى .

وفي التحرير : ﴿ الأعجمين ﴾ : جمع أعجم على التخفيف ، ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع سلامة .

قيل : والمعنى ولو نزلناه بلغة العجم على رجل أعجمي فقرأه على العرب ، لم يؤمنوا به ، حيث لم يفهموه ، واستنكفوا من اتباعه .

وقيل : ولو نزلنا القرآن على بعض العجم من الدواب فقرأه عليهم ، لم يؤمنوا ، لعنادهم لقوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾ الآية ، وجمع جمع السلامة ، لأنه وصف بالإنزال عليه والقراءة ، وهو فعل العقلاء .

وقيل : ولو نزل على بعض البهائم ، فقرأه عليهم محمد (صلى الله عليه وسلم) ، لم تؤمن البهائم ، كذلك هؤلاء لأنهم : ﴿ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ انتهى .

ولما بين بما تقدم ، من أن هذا القرآن في كتب الأولين ، وأن علماء بني إسرائيل يعلمون ذلك ،

وكان في ذلك دليلين على صدق نبوّة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، بين أن هؤلاء الكفار لا تجدي فيهم الدلائل .

ألا ترى نزوله على رجل عربي بلسان عربي ، وسمعوه وفهموه وأدركوا إعجازه وتصديق كتب الله القديمة له ، ومع ذلك جحدوا وسموه تارة شعراً وتارة سحراً ؟ ولو نزل على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية ، لكفروا به وتمحلوا بجحوده .

(37/572)

وقال الفراء : الأعجمين جمع أعجم وأعجمي ، على حذف ياء النسب ، كما قالوا : الأشعرين ، وواحدهم أشعري .

وقال ابن الجهم : قال الكميت :

ولو جهزت قافية شروداً . . .

لقد دخلت بيوت الأشعرينا

انتهى .

وقرأ الحسن ، وابن مقسم : الأعجمين ، بياء النسب : جمع أعجمي .

والضمير في ﴿ سلكناه ﴾ ، الظاهر أنه عائد على ما عادت عليه الضمائر .

قيل : وهو القرآن ، وقاله الرماني .

والمعنى : مثل ذلك السلك ، وهو الإدخال والتمكين والتفهيم لمعانيه .

﴿ سلكناه ﴾ : أدخلناه ومكناه في ﴿ قلوب المجرمين ﴾ .

والمعنى : ما ترتب على ذلك السلك من كونهم فهموه وأدركوه ، ولم يزدهم ذلك إلا عناداً وجحوداً وكفراً به ، أي على مثل هذه الحالة وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له ، كما وضعناه فيها .

فكيف ما يرام إيمانهم به لم يتغير ؟ وأعماهم عليه من الإنكار والجحود ، كما قال : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾ الآية .

وقال الكرماني : أدخلناه فيها ، فعرفوا معانيه ، وعجزهم عن الأتيان الإيمان بمثله ، ولم يؤمنوا به .

وقال يحيى بن سلام : الضمير في سلكناه يعود على التكذيب ، فذلك الذي منعهم من الإيمان .

انتهى .

ويقويه قوله : ﴿ فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ .

وقال الحسن : الضمير يعود على الكفر الذي يتضمنه قوله : ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ .

انتهى .

وهو قريب من القول الذي قبله .

وقال عكرمة : سلكناه ، أي القسوة ، وأسند السلك تعالى إليه ، لأنه هو موجد الأشياء حقيقة ، وهو الهادي وخالق الضلال .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته ؟ قلت : أراد به الدلالة على تمكنه مكذباً في قلوبهم أشد التمكين وأثبته ، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه .

ألا ترى إلى قولهم : هو مجبول على الشح ؟ يريدون تمكن الشح فيه ، لأن الأمور الخلقية أثبت من العارضة ، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه ، وهو قوله : ﴿ لا يؤمنون به ﴾ . انتهى .

(38/572)

وهو على طريقة الاعتزال والتشبيه بين السلكين ، يقتضي تغاير من حل به .

والمعنى : مثل ذلك السلك في قلوب قريش ، سلكناه في قلوب من أجرم ، لاشتراكهما في علة السلك وهو الإجرام .

قال ابن عطية : أراد بهم مجرمي كل أمّة ، أي إن هذه عادة الله فيهم ، أنهم لا يؤمنون حتى

يروا العذاب ، فلا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم ، وهذا على جهة المثال لقريش ، أي هؤلاء كذلك ، وكشف الغيب بما تضمنته الآية يوم بدر .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما موقع ﴿ لا يؤمنون به ﴾ من قوله : ﴿ سلكناه في قلوب المجرمين ﴾ ؟ قلت : موقعه منه موقع الموضح والملخص ، لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم ، فاتبع بما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ، ويجوز أن يكون حالاً ، أي سلكناه فيها غير مؤمن به . انتهى .

ورؤيتهم العذاب ، قيل : في الدنيا ، وقيل : يوم القيامة .

وقرأ الجمهور : ﴿ فيأتيهم ﴾ ، بياء ، أي العذاب .

وقرأ الحسن ، وعيسى : بتاء التأنيث ، أنث على معنى العذاب لأنه العقوبة ، أي فتأتيهم العقوبة يوم القيامة ، كما قال : أتته كتابي ، فلما سئل قال : أو ليس بصحيفة ؟ قال الزمخشري : فتأتيهم بالتاء ، يعني الساعة .

وقال أبو الفضل الرازي : أنث العذاب لاشتماله على الساعة ، فاكتسى منها التأنيث ، وذلك لأنهم كانوا يسألون عذاب القيامة تكذيباً بها ، فلذلك أنث .

ولا يكتسى المذكر من المؤنث تأنيثاً إلا إن كان مضافاً إليه نحو : اجتمعت أهل اليمامة ، وقطعت بعض أصابعه ، وشرقت صدر القناة ، وليس كذلك .

وقرأ الحسن : بغتة ، بفتح الغين ، فتأتيهم بالتاء من فوق ، يعني الساعة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى التعقيب في قوله : ﴿ فتأتيهم بغتة ﴾ قلت : ليس المعنى يراد برؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه الوجود ، وإنما المعنى ترتبها في الشدة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم العذاب مما هو أشد منها ، وهو لحوقه بهم مفاجأة مما هو أشد منه ، وهو سؤالهم النظرة .

ومثل ذلك أن تقول : إن أسأت مقتك الصالحون ، فمقتك الله ، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين .

فما هو أشد من مقتهم ؟ وهو مقت الله .

ويرى ، ثم يقع هذا في هذا الأسلوب ، فيحل موقعه . انتهى .

﴿ فيقولوا ﴾ ، أي كل أمّة معذبة : ﴿ هل نحن منظرون ﴾ : أي مؤخرون ، وهذا على جهة التمني منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة .

ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله في طلبهم سقوط السماء كسفاً وغير ذلك ، وقولهم للرسول : أين ما تعدنا به ؟

وقال الزمخشري : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ ، تبكيت لهم بإنكاره وتهكم ، ومعناه : كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من جنس ، ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال ؟ طرفة عين فلا يجاب إليها .

ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ ، يوبخون به عند استنظارهم يومئذ ، ويستعجلون هذا على الوجه ، حكاية حال ماضية ووجه آخر متصل بما بعده ، وذلك أن استعجالهم بالعذاب إما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم ، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن .

فقال عز وعلا : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ ؟ أشراً وبطراً واستهزاء واتكالاً على الأمل الطويل ؟ ثم قال : وهب أن الأمر كما يعتقدون من تمتعهم وتعميرهم ، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ، ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم ؟ انتهى .

وقيل : اتبع قوله : فتأتيهم بغتة بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة .

(40/572)

﴿ فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ ، كما يستغيث إليه المرء عند تعذر الخلاص ، لأنهم يعلمون في الآخرة أن لا ملجأ ، لكنهم يقولون ذلك استرواحاً .

وقيل : يطلبون الرجعة حين يبغتهم عذاب الساعة ، فلا يجابون إليها .

﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ﴾ : خطاب للرسول عليه السلام بإقامة الحجة عليهم ، في أن مدة الإرجاء والإمهال والإملاء لا تغني إذا نزل العذاب بعدها .

وقال عكرمة : سنين ، عمر الدنيا . انتهى .

وتقرر في علم العربية أن أرأيت إذا كانت بمعنى أخبرني ، تعدت إلى مفعولين ، أحدهما منصوب والآخر جملة استفهامية .

في الغالب تقول العرب : أرأيت زيداً ما صنع ؟ وما جاء مما ظاهره خلاف ذلك أول ، وتقدم الكلام على ذلك مشبعاً في أوائل سورة الأنعام .

وتقول هنا مفعول أرأيت محذوف ، لأنه تنازع على ما يوعدون أرأيت وجاءهم ، فأعمل الثاني فهو مرفوع بجاءهم .

ويجوز أن يكون منصوباً بأرأيت على إعمال الأول ، وأضمر الفاعل في جاءهم .

والمفعول الثاني هو قوله : ﴿ ما أغنى عنهم ﴾ ، وما استفهامية ، أي : أيّ شيء أغنى عنهم تمتعهم في تلك السنين التي متعوها ؟ وفي الكلام محذوف يتضمن الضمير العائد على المفعول الأول ، أي : أيّ شيء أغنى عنهم تمتعهم حين حل ، أي الموعود به ، وهو العذاب ؟ وظاهر ما فسر به المفسرون ما أغنى : أن تكون ما نافية ، والاستفهام قد يأتي مضمناً معنى النفي كقوله :

﴿ هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ بعد قوله : ﴿ أرأيتكم ﴾ في سورة الأنعام ، أي ما يهلك إلا القوم الظالمون .

وجوز أبو البقاء في ما أن تكون استفهاماً ونافية .

وقرىء : يمتعون ، بإسكان الميم وتخفيف التاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(41/572)

وقال أبو السعود :

﴿ وإنَّهُ ﴾ أي ما ذُكر من الآيات الكريمة النَّاطقةِ بالقصص المحكيَّة أو القُرآن الذي هي مِن جُملته ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ أي منزَّل من جهتِه تعالى سمّي به مبالغةً ووصفه تعالى بربوبيَّةِ العالمين للإيذانِ بأنَّ تنزيلَه من أحكامِ تربيتِه تعالى ورأفتِه للكُلِّ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناك إلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾

﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ أي أنزلَه ﴿ الروح الأمين ﴾ أي جبريلُ عليه السَّلامُ فإنَّه أمينُ وحيهِ تعالى وموصِلُه إلى أنبيائِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ . وقُرىء بتشديدِ الزَّاي ونصبِ الرُّوحِ والأمينِ ، أي جعل الله تعالى الرُّوحَ الأمينَ نازلاً به .

﴿ على قَلْبِكَ ﴾ أي رُوحك وإن أُريد به العُضو فتخصيصه به لأنَّ المعانيَ الرُّوحانيَّةَ تنزل أولاً على الرُّوحِ ثمَّ تنتقلُ منه إلى القلبِ لما بينَهما من التَّعلُّق ثم تتصعدُ إلى الدّماغِ فينتقش بها لوحُ المتخيلةِ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ متعلّق بنزلَ به أي أنزله لتنذرَهم بما في تضاعيفِه من العقوباتِ الهائلةِ وإيثارُ ما عليه النَّظمُ الكريمُ للدّلالة على انتظامهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في سلكِ أولئك المنذرينَ المشهورينَ في حقّيةِ الرّسالةِ وتقرُّرِ وقوعِ العذابِ المُنذَر .

(42/572)

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ واضحِ المعنى ظاهرِ المدلولِ لئلاَّ يبقى لهم عذرٌ ما وهُو أيضاً متعلّق بنزل به ، وتأخيره للاعتناءِ بأمر الإنذارِ وللإيماء إلى أنَّ مدارَ كونِه من جُملة المنذرين المذكورينَ عليهم السَّلامُ مجرَّدُ إنزالهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا إنزالُه باللّسان العربيّ . وجعلُه متعلّقاً بالمنذرين كما جوّزه الجمهورُ يؤدّي إلى أنَّ غاية الإنزال كونُه عليه الصَّلاة والسَّلامُ من جملة المنذرينَ باللغة العربية فقط من هود وصالحٍ وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فسادُه ، كيف لا والطَّامةُ الكُبرى في باب الإنذارِ ما أنذره نوح وموسى عليهما الصَّلاة والسَّلامُ وأشدُّ الزَّواجرِ تأثيراً في قلوب المشركينَ ما أنذرَه إبراهيمُ عليه السلام لانتمائِهم وادّعائِهم أنهم على ملَّته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأولين ﴾ أي وإنَّ ذكره أو معناه لفي الكتبِ المتقدّمةِ فإن أحكامه التي لا تحتملُ النَّسخَ والتَّبديلَ بحسب تبدُّلِ الأعصار من التَّوحيد وسائر ما يتعلَّق بالذَّات والصِّفاتِ مسطورة فيها وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصصِ ، وقيل : الضَّميرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بواضحٍ .

(43/572)

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءايَةً ﴾ الهمزة للإنكار والنَّفي ، والواو للعطف على مقدَّرٍ يقتضيه المقامُ كأنَّه قيل : أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آيةٌ دالَّةٌ على أنَّه تنزيلٌ من ربِّ العالمينَ وأنه في زُبُر الأوَّلينَ على أن لهم متعلق بالكون قُدِّم على اسمه وخبرِه للإهتمام به أو بمحذوف هو حالٌ من آيةً قُدِّمت عليها لكونها نكرةً وآية خبر للكون قُدِّم على اسمِه الذي هو قوله تعالى ﴿ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِى إسراءيل ﴾ لما مرَّ مراراً من الاعتناءِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ أي أن يعرفوه بنعوتِه المذكورة في كُتبهم ويعرفُوا من أنزل عليه . وقرىء تكن بالتَّأنيثِ وجعلت آيةٌ اسماً وأن يعلمه خبراً وفيه ضعفٌ حيث وقع النَّكرةُ اسماً والمعرفة خبراً وقد قيل : في تكن ضمير القصَّةِ وآية أنْ يعلمَه جملة واقعة موقعَ الخبرِ ويجوزُ أن يكون لهم آيةٌ هي جملة الشَّأنِ وأن يعلمه بدلاً من آية ويجوز مع نصبِ آية تأنيث تكُن كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ

فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ وقُرِىء تعلمُه بالتَّاءِ .

﴿ وَلَوْ نزلناه ﴾ كما هو بنظمه الرَّائقِ المعجز ﴿ على بَعْضِ الأعجمين ﴾ الذين لا يقدرُون على التَّكلُّمِ بالعربيةِ وهو جمع أعجمِي على التَّخفيفِ ولذلك جُمع جمعَ السَّلامةِ وقُرِىء الأعجميينَ وفي لفظ البعضِ إشارةٌ إلى كونِ ذلك واحداً من عرض تلك الطَّائفةِ كائناً من كان .

﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ﴾ قراءةً صحيحة خارقة للعادات ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع انضمامِ إعجازَ القراءة إلى إعجازِ المقروءِ لفرطِ عنادِهم وشدَّةِ شكيمتهم في المكابرة . وقيل : المعنى ولو نزَّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجمِ فقرأَهُ عليهم ما كانُوا به مؤمنين لعدم فهمِهم واستنكافِهم من اتِّباع العجمِ وليس بذاكَ فإنَّه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تمادِيهم في المكابرةِ والعنادِ .

(44/572)

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ أي مثل ذلك السَّلكِ البديعِ المذكورِ سلكناهُ أي أدخلنا القرآنَ ﴿ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ ففهمُوا معانيه وعرَفوا فصاحتَه وأنه خارجٌ عن القُوى البشرِيَّة من حيث النَّظمُ المُعجزُ ومن حيثُ الإخبارُ عن الغيبِ وقد انضمَّ إليه اتِّفاقُ علماء أهل

الكتبِ المنزلة قبله على تضمنها للبشارةِ بإنزالِه وبعثةِ مَن أنزل عليه بأوصافِه فقوله تعالى ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ جملةٌ مستأنفة مسوقة لبيانِ أنَّهم لا يتأثَّرون بأمثال تلك الأمورِ الدّاعية إلى الإيمانِ به بل يستمرُّون على ما هم عليه ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ الملجىءَ إلى الإيمانِ به حين لا ينفعُهم الإيمانُ .

﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ أي فجأةً في الدّنيا والآخرةِ ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانِه ﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ تحسُّراً على ما فاتَ من الإيمانِ وتمنيّاً للإمهالِ لتلافِي ما فرَّطُوه وقيل : معنى كذلك سلكناهُ مثل تلك الحالِ وتلك الصِّفةِ من الكفرِ به والتَّكذيبِ له وضعناه في قلوبِهم . وقوله تعالى : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ في موقعِ الإيضاحِ والتَّلخيص له أو في موقعِ الحال أي سلكناهُ فيها غير مؤمنٍ به والأول هو الأنسبُ بمقام بيان غايةِ عنادِهم ومكابرتهم مع تعاضدِ أدلَّة الإيمانِ وتآخذِ مبادىء الهدايةِ والإرشادِ وانقطاعِ أعذارِهم بالكلّية وقيل ضمير سلكناهُ للكُفر المدلولِ عليه بما قبله من قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ونُقل عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما والحسنِ ومجاهدٍ رحمهما الله تعالى أدخلنَا الشّركَ والتَّكذيبَ في قلوب المجرمين .

(45/572)

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ بقولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وقولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ ونحوهما وحالهم عند نزولِ العذابِ كما وصف . من طلبِ الإنذارِ فالفاءُ للعطفِ على مقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أيكونُ حالُهم كما ذُكر من الاستنظارِ عند نزول العذابِ الأليمِ فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التَّنافي ما لا يَخفى على أحدٍ أو أيغفلون عن ذلك مع تحقُّقِه وتقرُّرِه فيستعجلونَ الخ . وإنَّما قُدمِّ الجارُّ والمجرورُ للإيذانِ بأنَّ مصبَّ الإنكارِ والتَّوبيخِ كونُ السمتعجلِ به عذابَه تعالى مع ما فيهِ من رعايةِ الفواصلِ .

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ لمَّا كانت الرُّؤيةُ من أقوى أسبابِ الإخبارِ بالشَّيء وأَشهرِها شاعَ استعمالُ أرأيتَ في معنى أخبرني والخطابُ لكلِّ من يصلح له كائناً من كانَ والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظورون وما بينَهما اعتراض للتَّوبيخِ والتَّبكيتِ وهي متقدِّمةٌ في المعنى على الهمزةِ ، وتأخيرها عنها صورةً لاقتضاءِ الهمزةِ الصَّدارةَ كما هو رأي الجمهور أي فاخبرِني ﴿ إِن متعناهم سِنِينَ ﴾ متطاولةً بطول الأعمار وطيبِ المعايشِ .

(46/572)

﴿ ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ مَا أغنى عَنْهُمْ ﴾ أيُّ شيءٍ أو أيُّ إغناء أغنى عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ أي كونُهم ممتَّعينَ ذلك التمتيعَ المديدَ على أن ما مصدريةٌ أو ما كانُوا يمتَّعون به من متاعِ الحياة الدُّنيا على أنَّها موصولةٌ حذف عائدها ، وأيّاً ما كان فالاستفهامُ للإنكارِ والنَّفي . وقيل : ما نافيةٌ أي لم يُغن عنهم تمتعهم المتطاولُ في دفعِ العذابِ وتخفيفِه والأول هو الأَولى لكونِه أوفقَ لصورة الاستخبارِ وأدلَّ على انتفاءِ الإغناءِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه كأن كلَّ مَن مِن شأنِه الخطابُ قد كلِّف أنْ يخبر بأنَّ تمتيعهم ماذا أفادَهم وأي شيء أغنى عنهم فلم يقدرْ أحدٌ على أنْ يخبر بشيءٍ من ذلك أصلاً . وقُرِىء يمتعون من الإمتاعِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(47/572)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ الخ

عود لما في مطلع السورة الكريمة من التنويه بشأن القرآن ، العظيم ، ورد ما قال المشركون فيه فالضمير راجع إلى القررن ، وقيل : هو تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الأخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحيا من الله

عز وجل ، فالضمير لما ذكر من الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص المحكية ، وجوز أن يكون للقرآن الذي هي من جملته والأخبار عن ذلك بتنزيل للمبالغة .

والمراد أنه لمنزل من الله تعالى ووصفه سبحانه بربوبية العالمين للإيذان بأن تنزيله من أحكام تربيته عز وجل ورأفته بالكل .

﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ أي أنزله على أن الباء للتعدية .

وقال أبو حيان : وابن عطية : هي للمصاحبة والجار والمجرور في مضوع الحال كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ دَّخَلُواْ بالكفر ﴾ [المائدة : 61] أي نزل مصاحباً له ﴿ الروح الامين ﴾ يعني جبرائيل عليه السلام ، وعبر عنه بالروح لأنه يحيى به الخلق في باب الدين أو لأنه روح كله لا كالناس الذين في أبدانهم روح ، ووصف عليه السلام بالأمين لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده جل شأنه من غير تغيير وتحريف أصلاً .

وقرأ حمزة .

والكسائي .

وأبو بكر .

وابن عامر ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الامين ﴾ بتشديد الزاي ونصب ﴿ الروح ﴾ أي جعل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به .

﴿ على قَلْبِكَ ﴾ متعلق بنزل لا بالأمين .

والمراد بالقلب إما الروح وهو أحد اطلاقاته كما قال الراغب .

وكون الانزال عليه على ما قال غير واحد لأنه المدرك والمكلف دون الجسد .

وقد يقال : لما كان له صلى الله عليه وسلم جهتان جهة ملكية يستفيض بها وجهة بشرية يفيض بها جعل الإنزال على روحه صلى الله عليه وسلم لأنها المتصفة بالصفات الملكية التي يستفيض بها من الروح الأمين .

وللإشارة إلى ذلك قيل ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ دون عليك الأخصر .

(48/572)

وقيل : إن هذا لأن القرآن لم ينزل في الصحف كغيره من الكتب ، وإما العضو المخصوص وهو الإطلاق المشهور .

وتخصيصه بالإنزال عليه قيل للإشارة إلى كمال تعلقه صلى الله عليه وسلم وفهمه ذلك المنزل حيث لم تعتبر واسطة في وصوله إلى القلب الذي هو محل العقل كما يقتضيه ظاهر كثير من الآيات والأحاديث ويشهد له العقل على ما لا يخفي على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وقد أطال في الانتصار لذلك الإمام في تفسيره .

ورد على من ذهب إلى أن الدماغ محل العقل ، وقيل : للإشارة إلى صلاح قلبه عليه الصلاة والسلام وتقدسه حيث كان منزلاً لكلامه تعالى ليعلم منه حال سائر أجزائه صلى الله عليه وسلم فإن القلب رئيس جميع الأعضاء وملكها ومتى صلح الملك صلحت الرعية وفي الحديث : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " ، وقد يقال : يجوز أن يكون التخصيص لأن الله تعالى جعل لقلب رسوله صلى الله عليه وسلم سمعاً مخصوصاً يسمع به ما ينزل عليه من القرآن تمييزاً لشأنه على سائر ما يسمعه ويعيه على حد ما قيل وذكره النووي في "شرح صحيح مسلم" في قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ [النجم : 11] من أن الله عز وجل جعل لفؤاده عليه الصلاة والسلام بصراً فرآه به سبحانه ليلة المعراج .

وهذا كله على القول بأن جبرائيل عليه السلام ينزل بالألفاظ القرآنية المحفوظة له بعد أن نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة أو التي يحفظها من اللوح عند الأمر بالإنزال أو التي يوحي بها إليه أو التي يسمعها منه سبحانه على ما قاله بعض أجلة السلف عنده فيلقيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم على ما هي عليه من غير تغيير أصلاً .

وكذا على القول بأن جبرائيل عليه السلام ألقى عليه المعاني القرآني وأنه عبر عنها بهذه الألفاظ العربية ثم نزل بها كذلك فألقاها إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما على القول بأنه عليه السلام إنما نزل بالمعاني خاصة إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما على القول بأنه عليه السلام إنما نزل بالمعاني خاصة إلى النبي صلى الله عليه وسلم

عليه الصلاة والسلام وأنه عليه الصلاة والسلام علم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب فقيل : إن القلب بمعنى العضو المخصوص لا غير وتخصيصه لأن المعاني إنما تدرك بالقوة المودعة فيه ، وقيل : يجوز أن يراد به الروح وروحه عليه الصلاة والسلام لغاية تقدسها وكمالها في نفسها تدرك المعاني من غير توسط آلة .

ومن الناس من ذهب إلى هذه الآية دليلاً له وهو قول مرجوح .

ومثله القول بأن جبرائيل عليه السلام ألقى عليه المعاني فعبر عنها بألفاظ فنزل بما عبر هو به .

والقول الراجح أن الألفاظ منه عز وجل كالمعاني لا مدخل لجبرائيل عليه السلام فيها أصلاً .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمعها ويعيها بقوى إلهية قدسية لا كسماع البشر إياها منه عليه الصلاة والسلام وتنفعل عنه ذلك قواه البشرية ، ولهذا يظهر على جسده الشريف صلى الله عليه وسلم ما يظهر ويقال لذلك : برحاء الوحى حتى يظن في بعض الأحايين أنه

أغمي عليه عليه الصلاة والسلام .

وقد يظن أنه صلى الله عليه وسلم أغفى .

(50/572)

وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم عن أنس قال : "بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : أنزل على آنفاً سورة فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الابتر ﴾ [الكوثر : 1 3] ولا يحتاج من قال : إن الأشبه أن القرآن كله نزل في اليقظة إلى تأويل هذا الخبر عليه الصلاة والسلام خطر له في تلك الإغفاءة سورة الكوثر التي نزلت قبلها في اليقظة أو عرض عليه الكوثر الذي أنزلت فيه السورة فقرأها عليهم ، ثم إنه على ما قيل من أن بعض القرآن نزل عليه عليه الصلاة والسلام وهو نائم استدلالاً بهذا الخبر يبقى ما قلناه من سماعه عليه الصلاة والسلام ما ينزل إليه صلى الله عليه وسلم ووعيه إياه بقوى إلهية قدسية ونومه عليه الصلاة والسلام لا يمنع من ذلك كيف وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تنام عيني ولا ينام قلبي "

(51/572)

وقد ذكر بعض المتصدرين في محافل الحكمة من المتأخرين في بيان كيفية نزول الكلام وهبوط الوحي من عند الله تعالى بواسطة الملك على قلب النبي صلى الله عليه وسلم أن الروح الإنساني إذا تجرد عن البدن ، وخرج عن وثاقه من بيت قالبه وموطن طبعه مهاجراً إلى ربه سبحانه لمشاهدة آياته الكبرى وتطهر عن درن المعاصي واللذات والشهوات والوساوس العادية والمتعلقات لاح له نور المعرفة والايمان بالله تعالى وملكوته الأعلى وهذا النور إذا تأكد وتجوهر كان جوهراً قدسياً يسمى في لسان الحكمة النظرية بالعقل الفعال وفي لسان الشريعة النبوية بالروح القدسي وبهذا النور الشديد العقلي يتلألأ فيه أسرار ما في الأرض والسماء ويتراءى منه حقائق الأشياء كما يتراءى بالنور الحسي البصري الأشباح المثالية في قوة البصر إذا لم يمنع حجاب ، والحجاب ههنا هو آثار الطبيعة وشواغل هذه الأولى فإذا عريت النفس عن دواعي الطبيعة والاشتغال بما تحتها من الشهوة والغضب والحس والتخيل وتوجهت بوجهها شطر الحق وتلقاء عالم الملكوت الأعلى اتصلت بالسعادة القصوى فلاح لها سر الملكوت وانعكس عليها قدس اللاهوت ورأت عجائب آيات الله تعالى الكبرى ، ثم إن هذه الروح إذا كانت قدسية شديدة القوى قوية الآثار لقوة اتصالها بما فوقها فلا يشغلها شأن عن شأن ولا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها فتضبط الطرفين وتسع قوتها الجانبين لشدة تمكنها في الحد المشترك بين الملك والملكوت كالأرواح

الضعيفة التي إذا مالت إلى جانب غاب عنها الجانب الآخر وإذا ركنت إلى مشعر من المشاعر ذهلت عن المشعر الآخر وإذا توجهت هذه الروح القدسية التي لا يشغلها شأن عن شأن ولا تصرفها نشأة عن نشأة وتلقت المعارف الإلهية بلا تعلم بشري بل من الله تعالى يتعدى تأثيرها إلى قواها ويتمثل لروحه البشري صورة ما شاهده بروحه القدسي وتبرز منها إلى ظاهر الكون فتتمثل للحواس الظاهرة سيما السمع والبصر لكونهما أشرف الحواس الظاهرة

(52/572)

فيرى ببصره شخصاً محسوساً في غاية الحسن والصباحة ويسمع بسمعه كلاماً منظوماً في غاية الجودة والفصاحة ، فالشخص هو الملك النازل بإذن الله تعالى الحامل للوحي الإلهي ، والكلام هو كلام الله تعالى وبيده لوح فيه كتاب هو كتاب الله تعالى ، وهذا الأمر المتمثل بما معه أو فيه ليس مجرد صورة خيالية لا وجود لها في خارج الذهن والتخيل كما يقوله من لاحظ له من علم الباطن ولا قدم له في أسرار الوحي والكتاب كبعض أتباع المشائين معاذ الله تعالى عن هذه العقيدة الناشئة عن الجهل بكيفية الإنزال والتنزيل ثم قال : إنارة قلبية وإشارة عقلية عليك أن تعلم أن للملائكة ذوات حقيقة وذوات إضافية مضافة إلى ما

دونها إضافة النفس إلى البدن الكائن في النشأة الآخرة فأما ذواتها الحقيقية فإنما هي أمرية قضائية قولية وأما ذواتها الإضافية فإنما هي خلقية قدرية تنشأ منها الملائكة اللوحية وأعظمهم إسرافيل عليه السلام وهؤلاء الملائكة اللوحية يأخذون الكلام الإلهي والعلوم اللدنية من الملائكة القلمية ويثبتونها في صحائف ألواحهم القدرية الكتابية ، وإنما كان يلاقي النبي صلى الله عليه وسلم في معراجه الصنف الأول من الملائكة ويشاهد روح القدس في اليقظة فإذا اتصلت الروح النبوية بعالمهم عالم الوحي الرباني يسمع كلام الله تعالى وهو إعلام الحقائق بالمكالمة الحقيقية وهي الإفاضة والاستفاضة في مقام قاب قوسين أو أدنى وهو مقام القرب ومقعد الصدق ومعدن الوحي والإلهام ، وكذا إذا عاشر النبي الملائكة الأعلين يسمع صريف أقلامهم وإلقاء كلامهم وهو كلام الله تعالى النازل في محل معرفتهم وهي ذواتهم وعقولهم لكونهم في مقام القرب ، ثم إذا نزل عليه الصلاة والسلام إلى ساحة الملكوت السماوي يتمثل له صورة ما عقله وشاهده في لوح نفسه الواقعة في عالم الأرواح القدرية السماوية ثم يتعدى منه الأثر إلى الظاهر ، وحينئذ يقع للحواس شبه دهش ونوم لما أن الروح القدسية لضبطها

(53/572)

الجانبين تستعمل المشاعر الحسية لكن لا في الأغراض الحيوانية بل في سبيل السلوك إلى الرب سبحانه فهي تشائع الروح في سبيل معرفته تعالى وطاعته فلا جرم إذا خاطبه الله تعالى خطاباً من غير حجاب خارجي سواء كان الخطاب بلا واسطة أو بواسطة الملك واطلع على الغيب فانطبع في فص نفسه النبوية نقش الملكوت وصورة الجبروت تنجذب قوة الحس الظاهر إلى فوق ويتمثل لها صورة غير منفكرة عن معناها وروحها الحقيقي لا كصورة الأحلام والخيالات العاطلة عن المعنى فيتمثل لها حقيقة الملك بصورته المحسوسة بحسب ما يحتملها فيرى ملكاً على غير صورته التي كانت له في عالم الأمر لأن الأمر إذا نزل صار خلقاً مقدراً فيرى صورته الخلقية القدرية ويسمع كلاماً مسموعاً بعد ما كان وحياً معقولاً أو يرى لوحاً بيده مكتوباً فالموحى إليه يتصل بالملك أولاً بروحه العقلي ويتلقى منه المعارف الإلهية ويشاهد ببصره العقلي آيات ربه الكبرى ويسمع بسمعه العقلي كلام رب العالمين من الروح الأعظم ، ثم إذا نزل عن هذا المقام الشامخ الإلهي يتمثل له الملك بصورة محسوسة بحسبه ثم ينحدر إلى حسه الظاهر ثم إلى الهواء وهكذا الكلام في كلامه فيسمع أصواتاً وحروفاً منظومة مسموعة يختص هو بسماعها دون غيره فيكون كل من الملك وكلامه وكتابه قد تأدى من غيبه إلى شهادته ومن باطن سره إلى مشاعره ، وهذه التادية ليست من قبيل الانتقال والحركة للملك الموحى من موطنه ومقامه إذ كل له مقام معلوم لا يتعداه ولا ينتقل عنه بل مرجع ذلك إلى انبعاث نفسي النبي عليه الصلاة والسلام من نشأة الغيب إلى

نشأة الظهور ، ولهذا كان يعرض له شبه الدهش والغشي ثم يرى ويسمع ثم يقع منه الأنباء والأخبار فهذا معنى تنزيل الكتاب وإنزال الكلام من رب العالمين انتهى .

وفيه ما تأباه الأصول الإسلامية مما لا يخفى عليك .

(54/572)

وقد صرح غير واحد من المحدثين والمفسرين وغيرهم بانتقال الملك وهو جسم عندهم ولم يؤول أحد منهم نزوله فيما نعلم ، نعم أولوا نزول القرآن وإنزاله .

قال الأصفهاني في "أوائل تفسيره" : اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله تعالى منزل واختلفوا في معنى الإنزال ، فمنهم من قال : إظهار القراءة ، ومنهم من قال : إن الله تعالى ألهم كلامه جبريل عليه السلام ، وهو في السماء وعلمه قراءته ثم جبريل أداه في الأرض وهو يهبط في المكان وفي ذلك طريقتان ، أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه جبريل عليه السلام ، وثانيهما : أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه النبي صلى الله عليه وسلم منه ، والأولى أصعب الحالين انتهى ؛ وقال الطيبي : لعل نزول القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتلقفه الملك تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول ويلقيه عليه .

وقال القطب في "حواشي الكشاف" : الإنزال في اللغة الإيواء وبمعنى تحريك الشيء من علو إلى سفل وكلاهما لا يتحققان في الكلام فهو مستعمل بمعنى مجازي فمن قال : القرآن معنى قائم بذات الله تعالى فإنزاله أن توجد الكلمات والحروف الدالة على ذلك المعنى ويثبتها في اللوح المحفوظ .

ومن قال : القرآن هو الألفاظ الدالة على المعنى القائم بذاته تعالى فإنزاله مجرد إثباته في اللوح المحفوظ ، وهذا المعنى مناسب لكونه مجازاً عن أول المعنيين اللغويين .

(55/572)

ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته في السماء الدنيا بعد الإثبات في اللوح المحفوظ وهذا مناسب للمعنى الثاني ، والمراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها فيلقيها عليهم انتهى وفهي بحث لا يخفى ، وعندي أن إنزاله إظهاره في عالم الشهادة بعد أن كان في عالم الغيب ، ثم إن ظاهر الآية يقتضي أن جميع القرآن نزل به الروح الأمين على قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم وهذا ينافي ما قيل : إن آخر سورة البقرة كلمه الله تعالى بها ليلة المعراج حيث لا واسطة احتجاجاً بما أخرجه مسلم عن ابن مسعود "لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم

انتهى إلى سدرة المنتهى" الحديث وفيه : "فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك من أمته بالله تعالى شيئاً المقحمات" ، وأجيب بعد تسليم أن يكون ما ذكر دليلاً لذلك يجوز أن يكون قد نزل جبريل عليه السلام بما ذكر أيضاً تأكيداً وتقريراً أو نحو ذلك ، وقد ثبت نزوله عليه السلاة بالآية الواحدة مرتين لما ذكر ، وجوز أن تكون الآية باعتبار الأغلب ، واعتبر بعضهم كونها كذلك لأمر آخر وهو أن من القرآن ما نزل به إسرافيل عليه السلام وهو ما كان في أول النبوة وفيه أن ذلك لم يثبت أصلاً .

(56/572)

وفي الإتقان أخرج الإمام أحمد في تاريخه من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي قال : أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم النبوة وهو ابن أربعين سنة فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين فكان يعلمه الكلمة والشيء ولم ينزل عليه القرآن على لسانه فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل عليه فنزل عليه القرآن على لسانه عشر سنين انتهى ، وو صريح في خاف ذلك وإن كان فيه ما يخالف الصحيح المشهور من أن جبريل عليه السلام هو الذي نزل عليه عليه الصلاة والسلام بالوحي من أول الأمر إلا أنه نزل عليه صلى الله

عليه وسلم غيره عليه السلام من الملائكة أيضاً ببعض الأمور ، وكثيراً ما ينزلون لتشييع الآيات القرآنية مع جبريل عليه وعليهم السلام .

ومن الناس من اعتبر كونها باعتبار الأغلب لأن إنزال جبريل عليه السلام قد لا يكون على القلب بناءاً على ما ذكره الشيخ محيى الدين قدس سره في الباب الرابع عشر من الفتوحات من قوله : إعلم أن الملك يأتي النبي عليه الصلاة والسلام بالوحي على حالين تارة ينزل بالوحي على قلبه وتارة يأتيه في صورة جسدية من خارج فيلقى ما جاء به إلى ذلك النبي على أذنه فيسمعه أو يلقيه على بصره فيبصره فيحصل له من النظر ما يحصل من السمع سواء .

(57/572)

وتعقب بأنه لا حاجة إلى ما ذكر ، وما نقل عن محيي الدين قدس سره لا يدل على أن نزول الوحي إلى كل نبي يكون على هذين الحالين فيجوز أن يكون نزول الوحي إلى نبينا عليه الصلاة والسلام قد يكون بتمثل الملك بناء على بعض الأخبار الصحيحة في ذلك لكن لا نسلم أنه يدل على أن نزول الوحي إذا كان الموحى قرآناً يكون على الحال الثانية سلمنا دلالته على ذلك لكن لا نسلم صحة جعله مبني لتأويل الآية ، وكيف يؤول كلام الله تعالى

لكلام مناف لظاهره صدر من غير معصوم ، ويكون محيى الدين قدس سره من علماء الشرعية أن يؤولوا كلامه ليوافق كلام الله عز وجل فيسلم من الطعن ، ولعل من يؤول في مثل ذلك يحسن الظن بمحيي الدين قدس سره ويقول : إنه لم يقل ذلك إلا لدليل شرعي فقد قال قدس سره في الكلام على الإذن من الفتوحات : اعلم أني لم أقرر بحمد الله تعالى في كتابي هذا ولا غيره قد أمراً غير مشروع وما خرجت عن الكتاب والسنة في شيء من تصانيفي ، وقال في الباب السادس والستين وثلاثمائة من الكتاب المذكور جميع ما أتكلم به في مجالسي وتأليفي إنما هو من حضرة القرآن العظيم فإني أعطيت مفاتيم العلم فيه فلا أستمد قط في علم من العلوم إلا منه كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى في مناجاته بكلامه أو بما تضمنه كلامه سبحانه إلى غير ذلك فالداعي للتأويل في الحقيقة ذلك الدليل لا نفس كلامه قدس سره العزيز وهو اللائق بالمسلمين الكاملين .

وقوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ متعلق بنزل أي نزل به لتنذرهم بما في تضاعيفه من العقوبات الهائلة .

وإيثار ما في النظم الكريم للدلالة على انتظامه صلى الله عليه وسلم في سلك أولئك المنذرين المشهورين في حقية الرسالة وتقرر العذاب المنذر به ، وكذا قوله سبحانه :

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

متعلق بنزل عند جمع من الأجلة ويكون حينئذ على ما قال الشهاب بدلاً من ﴿ بِهِ ﴾ [الشعراء : 193] بإعادة العامل ، وتقديم ﴿ لِتَكُونَ ﴾ [الشعراء : 194] الخ للاعتناء بأمر الإنذار ولئلا يتوهم أن كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين المذكورين متوقف على كونه الإنزال بلسان عربي مبين ، واستحسن كون الباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير ﴿ بِهِ ﴾ أي نزل به ملتبساً بلغة عربية واضحة المعنى ظاهرة المدلول لئلا يبقى لهم عذر ، وقيل : بلغة مبينة لهم ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم على أن ﴿ مُّبِينٌ ﴾ من أبان المتعدي ، والأول أظهر .

وجوز أن تعلق الجار والمجرور بالمنذرين أي لتكون من الذين أنذروا بلغة العرب وهم هود .

وصالح .

وإسمعيل .

وشعيب .

ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وزاد بعضهم خالد بن سنان .

وصفوان بن حنظلة عليهما السلام .

وتعقب بأنه يؤدي إلى أن غاية الإنذار كونه عليه السلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط من هود .

وصالح .

وشعيب عليهم السلام ، ولا يخفى فساده كيف لا ، والطامة الكبرى في باب الإنذار ما أنذره نوح .

وموسى عليهما السلام ، وأشد الزواجر تأثيراً في قلوب المشركين ما أنذره إبراهيم عليه السلام لانتمائهم إليه وادعائهم أنهم على ملته عليه السلام ، وذكر بعضهم أن المراد على هذا الوجه أنك أنذرتهم كما أنذر آباؤهم الأولون وأنك لست بمبتدع بهذا فكيف كذبوك ، والحق أن الوجه المذكور دون الوجه السابق ، وأما أنه فاسد معنى كما يقتضيه كلام المتعقب فلا .

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

أي وإن ذكر القرآن لفي الكتاب المتقدمة على أن الضمير للقرآن والكلام على حذف مضاف وهذا كما يقال : إن فلاناً في دفتر الأمير .

(59/572)

وقيل : المراد وإن معناه لفي الكتب المتقدمة وهو باعتبار الأغلب فإن التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات وكثيراً من المواعظ والقصص مسطور في الكتب السابقة فلا

يضران منه ما ليس في ذلك بحسب الظن الغالب كقصة الإفك وما كان في نكاح امرأة زيد وما تضمنه صدر سورة التحريم وغير ذلك .

واشتهر عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه جوز قراءة القرآن بالفارسية والتركية والهندية وغير ذلك من اللغات مطلقاً استدلالاً بهذه الآية .

وفي رواية تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية لخبر لسان أهل الجنة العربي والفارسي الدري .

وفي رواية أخرى أنها إنما تجوز بالفارسية إذا كان ثناء كسورة الإخلاص أما إذا كان غيره فلا تجوز .

وفي أخرى أنها إنما تجوز بالفارسية في الصلاة إذا كان المصلي عاجزاً عن العربية وكان المقروء ذكراً وتنزيهاً أما القراءة بها في غير الصلاة أو في الصلاة وكان القاريء يحسن العربية أو في الصلاة وكان القارىء عاجزاً عن العربية لكن كان المقروء من القصص والأوامر والنواهي فإنها لا تجوز ، وذكر أن هذا قول صاحبيه .

وكان رضي الله تعالى عنه قد ذهب إلى خلافه ثم رجع عنه إليه .

وقد صحح رجوعه عن القول بجواز القراءة بغير العربية مطلقاً جمع من الثقات المحققين .

وللعلامة حسن الشرنبلالي رسالة في تحقيق هذه المسألة سماها النفحة القدسية في أحكام قراءة القرآن وكتابته بالفارسية فمن أراد التحقيق فليرجع إليها .

وكان رجوع الإمام عليه الرحمة عما اشتهر عنه لضعف الاستدلال بهذه الآية عليه كما لا يخفى على المتأمل .

(60/572)

وفي "الكشف" أن القرآن كان هو المنزل للإعجاز إلى آخر ما يذكر في معناه فلا شك أن الترجمة ليست بقرآن وإن كان هو المعنى القائم بصاحبه فلا شك أنه غير ممكن القراءة ، فإن قيل : هو المعنى المعبر عنه بأي لغة كان قلنا لا شك في اختلاف الأسامي باختلاف اللغات وكما لا يسمى القرآن بالتوراة لا يسمى التوراة بالقرآن فالأسماء لخصوص العبارات فيها مدخل لا أنها لمجرد المعنى المشترك اه ، وفيه بحث فإن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءاناً أعْجَمِيّاً ﴾ [فصلت : 44] يستلزم تسميته قرآناً أيضاً لو كان أعجمياً فليس لخصوص العبارة العربية مدخل في تسميته قرآناً ، والحق أن قرآناً المنكر لم يعهد فيه نقل عن المعنى اللغوي فيتناول كل مقروء ، أما القرآن باللام فالمفهوم منه العربي في عرف الشرع فلخصوص العبارة مدخل في التسمية نظراً إليه ، وقد جاء كذلك في الآية الدالة على وجوب القراءة أعني قوله سبحانه : ﴿ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرءان ﴾ [المزمل : 20] وبذلك تم المقصود ، وجعل من فيه للتبعيض وإرادة المعنى من هذا البعض لا يخفى ما فيه ، وقيل :

ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ عائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بواضح .

وقرأ الأعمش ﴿ زُبُرِ ﴾ بسكون الباء .

(61/572)

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً ﴾ الهمزة للتقرير أو للإنكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل : اغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين وإنه لفي زبر الأولين على أن ﴿ لَهُمْ ﴾ متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام أو بمحذوف هو حال من ﴿ ءَايَةً ﴾ قدمت عليها لكونها نكرة و ﴿ ءَايَةً ﴾ خبر للكون قدم على اسمه الذي هو قوله تعالى : ﴿ أَن يَعْلَمَهُ مَعِىَ بَنِى إسرائيل ﴾ لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، والعلم بمعنى المعرفة والضمير للقرآن أي ألم يكن لهم آية معرفة علماء بني إسرائيل القرآن بنعوته المذكورة في كتبهم ، وعن قتادة أن الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : العلم على معناه المشهور والضمير للحكم السابق في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين نَزَلَ بِهِ الروح الامين على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 192 194] الخ وفيه بعد كما لا يخفى ، وذكر الثعلبي عن ابن عباس أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي فقالوا : هذا زمانه وذكروا نعته وخلطوا في أمر محمد صلى

الله عليه وسلم فنزلت الآية في ذلك ، وهو ظاهر في أن الضمير له عليه الصلاة والسلام ويؤيده كون الآية مكية .

وقال مقاتل : هي مدنية ، وعلماء بني إسرائيل عبد الله بن سلام ونحوه كما روى عن ابن عباس .

ومجاهد ، وذلك أن جماعة منهم أسلموا ونصوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل : علماؤهم من أسلم منهم ومن لم يسلم ، وقيل : أنبياؤهم فإنهم نبهوا على ذلك وهو خلاف الظاهر ، ولعل أظهر الأقوال كون المراد به معاصريه صلى الله عليه وسلم من علماء أهل الكتابين الملسمين وغيرهم .

وقرأ ابن عامر .

والجحدري ﴿ تَكُنْ ﴾ بالتأنيث و ﴿ ءايَةً ﴾ بالرفع وجعلت اسم تكن و ﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ خبرها .

(62/572)

وضعف بأن فيه الاخبار عن النكرة بالمعرفة ، ولا يدفعه كون النكرة ذات حال بناء على أحد الاحتمالين في ﴿ لَهُمْ ﴾ ، وجوز أن يكون ﴿ ءايَةً ﴾ الاسم و ﴿ لَهُمْ ﴾ متعلقاً

بمحذوف هو الخبر و﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ بدلاً من الاسم أو خبر مبتدأ محذوف ، وأن يكون الاسم ضمير القصة و﴿ لَّهُمْ ءايَةً ﴾ مبتدأ وخبر والجملة خبر تكن ﴿ وَأَنْ يَعْلَمْهُ ﴾ بدلاً أو خبر مبتدأ محذوف .

وأن يكون الاسم ضمير القصة و﴿ ءايَةً ﴾ خبر ﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ والجملة خبر تكن وأن تكون تكن تامة و﴿ ءايَةً ﴾ فاعلاً و﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ بدلاً أو خبراً لمحذوف و﴿ لَهُمْ ﴾ إما حالاً أو متعلقاً بتكن .

وقرأ ابن عباس ﴿ تَكُنْ ﴾ بالتأنيث و﴿ ءايَةً ﴾ بالنصب كقراءة من قراءة ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ ﴾ بالتأنيث فتنتهم بالنصب ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [الأنعام : 23] وكقول لبيد يصف العير والاتان :

فمضى وقدمها وكانت عادة . . .

منه إذا هي عردت أقدامها

وذلك إما على تأنيث الاسم لتأنيث الخبر ، وإما لتأويل ﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ بالمعرفة وتأويل أن قالوا بالمقالة وتأويل الإقدام بالمقدمة ، ودعوى اكتساب التأنيث فيه من المضاف إليه ليس بشيء لفظ شرطه المشهور .

وقرأ الجحدري تعلمه بالتأنيث على أن المراد جماعة علماء بني إسرائيل وكتب في المصحف ﴿ علمؤا ﴾ بواو بين الميم والألف .

ووجه ذلك بأنه على لغة من يميل ألف علماء إلى الواو كما كتبوا الصلوة والزكوة والربو بالواو على تلك اللغة .

﴿ وَلَوْ نزلناه ﴾ أي القرآن كما هو بمنظمه الرائق المعجز ﴿ على بَعْضِ الاعجمين ﴾ الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية ، وهو جمع أعجمي كما في التحرير وغيره إلا أنه حذف ياء النسب منه تخفيفاً .

مثله الأشعرين جمع أشعري في قول الكميت :

ولو جهزت قافية شرودا . . .

لقد دخلت بيوت الأشعرينا

وقد قرأه الحسن .

(63/572)

وابن مقسم بياء النسب على الأصل ، وقال ابن عطية : هو جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وإن كان عربي النسب والعجمي هو الذي نسبته في العجم خلاف العرب وإن كان أفصح الناس انتهى .

واعترض بأن أعجم مؤنثه عجماء وأفعل فعلاء لا يجمع جمع سلامة ، وأجيب بأن الأعجم

في الأصل البهيمة العجماء لعدم نطقها ثم نقل أو تجوز به عما ذكر وهو بذلك المعنى ليس له مؤنث على فعلاء فلذلك جمع جمع السلامة ، وتعقب بأنه قد صرح العلامة محمد بن أبي بكر الرازي في كتابه "غرائب القرآن" بأن الأعجم هو الذي لا يفصح والأنثى العجماء ولو سلم أنه ليس له بذلك المعنى منؤنث فالأصل مراعاة أصله .

وفيه أن كون ارتفاع المانع لعارض مجوزاً مما صرح به النحاة .

ثم إن كون أفعل فعلاء لا يجمع جمع سلامة مذهب البصريين .

والقراء .

وغيره من الكوفيين يجوزونه فلعل من قال : إنه جمع أعجم قاله بناء على ذلك .

وظاهر الجمع المذكور يقتضي أن يكون المراد به العقلاء ، وعن بعضهم أنه جمع أعجم مراداً به ما لا يعقل من الدواب العجم وجمع جمع العقلاء لأنه وصف بالتنزيل عليه وبالقراءة في قوله تعالى :

﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ﴾ فإن الظاهر رجوع ضمير الفاعل إلى بعض الأعجمين وهما من صفات العقلاء ، والمراد بيان فرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة كأنه قيل : ولو نزلناه بهذا النظم الرائق المعجز على من لا يقدر على التكلم بالعربية أو على ما ليس من شأنه التكلم أصلاً من الحيوانات العجم ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ﴾ قراءة صحيحة خارقة للعادة ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء ، وقيل : المراد بالأعجمين جمع

أعجم أعم من أن يكون عاقلاً أو غيره ، ونقل ذلك الطبرسي عن عبد الله بن مطعي ، وذكر أنه روى عن ابن مسعود أنه سئل عن هذه الآية وهو على بعير فأشار إليه وقال : هذا من الأعجمين .

(64/572)

والطبري على ما في البحر يروي نحو هذا عن ابن مطيع ، والمراد أيضاً بيان فرط عنادهم ، وقيل : هو جمع أعجم مراداً به ما لا يعقل وضمير الفاعل في ﴿ قرأه ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم وضمير ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ ﴾ لبعض الأعجمين وكذا ضمير ﴿ كَانُواْ ﴾ والمعنى لو نزلنا هذا القرآن على بعض البهائم فقرأه محمد صلى الله عليه وسلم على أولئك البهائم ما كانوا أي أولئك البهائم مؤمنين به فكذلك هؤلاء لأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ، ولا يخفى ما فيه ، وقيل : المراد ولو نزلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم ما فيه ، وأخرج ذلك عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن جرير عن قتادة وهو بعيد عما يقتضيه مقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد واستند بعضهم بالآية عليه في منع أخذ العربية في مفهوم القرآن إذ لا يتصور على تقدير أخذها فيه

تنزيله بلغة العجم إذ يستلزم ذلك كون الشيء الواحد عربياً وعجمياً وهو محال .

وأجيب بأن ضمير ﴿ نزلناه ﴾ [الشعراء : 198] ليس راجعاً إلى القرآن المخصوص المأخوذ في مفهومه العربية بل إلى مطلق القرآن ويراد منه ما يقرأ أعم من أن يكون عربياً أو غيره ، وهذا نحو رجوع الضمير للعام في ضمن الخاص في قوله تعالى : ﴿ مَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ [فاطر : 11] الآية فإن ضمير عمره راجع إلى شخص بدون وصفه بمعمر إذ لا يتصور نقص عمر المعمر كما لا يخفى .

وقال بعضهم في الجواب : إن الكلام على حذف مضاف ، والمراد ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا ﴾ معناه بلغة العجم على بعض الأعجمين فتدبر ؛ وفي لفظ ﴿ بَعْضُ ﴾ على كل الأقوال إشارة إلى كون ذلك المفروض تنزيله عليه واحداً من عرض تلك الطائفة كائناً من كان و ﴿ بِهِ ﴾ متعلق بمؤمنين ، ولعل تقديمه عليه للاهتمام وتوافق رؤس الآي .

والضمير في قوله تعالى :

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ على ما يقتضيه انتظام الضمائر السابقة واللاحقة في سلك واحد للقرآن وإليه ذهب الرماني .

وغيره ، والمعنى على ما قيل مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه أي أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية وقد انضم إليه علم أهل الكتابين بشأنه وبشارة الكتب المنزلة بإنزاله فقوله تعالى :

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201)

﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ الملجىء إلى الايمان به وحينئذ لا ينفعهم ذلك .

والمراد بالمجرمين المشركون الذين عادت عليهم الضمائر من ﴿ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ وَكَانُواْ ﴾ وعدل عن ضميرهم إلى ما ذكر تأكيداً لذمهم ، وقال الزمخشري في معنى ذلك : أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها فكيف ما فعل بهم وصنع ، وعلى أي وجه دبر أرهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره كما قال سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : 7] موقع قوله تعالى : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ الخ مما قبله موقع الموضح والملخص لأنه مسوق لثباته مكذباً مجحوداً في قلوبهم فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد .

ويجوز أن يكون حالاً أي سلكناه فيها غير مؤمن به اه .

وتعقب بأن الأول هو الأنسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الإيمان وتناجد مبادىء الهداية والإرشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية ، وقد يقال : إن هذا التفسير أوفق بتسليته صلى الله عليه وسلم التي هي كالمبنى لهذه السورة الكريمة وبها صدرت حيث قال سبحانه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَن لاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] كأنه جل وعلا بعد أن ذكر فرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة وهو تفسير واضح في نفسه فهو عندي أولى مما تقدم .

وفي المطلع أن الضمير للتكذيب والكفر المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 199] وبه قال يحيى بن سلام ، وروي عن ابن عباس .

والحسن ، والمعنى كذلك سلكنا التكذيب بالقرآن والكفر به في قلوب مشركي مكة ومكناه فيها ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ الخ واقع موقع الإيضاح لذلك ولا يظهر على هذا الوجه كونه حالاً ولا أرى لهذا المعنى كثرة بعد عن قول من قال أي على مثل هذا السلك سلكنا القرآن وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه في قلوبهم ، وحاصل الأول كذلك سلكنا التكذيب القرآن في قلوبهم .

وحاصل هذا وكذلك سلكنا القرآن بصفة التكذيب به في قلوبهم فتأمل ، وجوز جعل الضمير للبرهان الدال عليه قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسرائيل ﴾ [الشعراء : 197] وهو بعيد لفظاً ومعنى ، هذا وذهب بعضهم إلى أن المراد بالمجرمين غير الكفرة المتقدمين الذين عادت عليهم الضمائر وهم مشركو مكة من المعاصرين لهم وممن يأتي بعدهم وذلك إشارة إلى السلك في قلوب أولئك المشركين أي مثل ذلك السلك في قلوب مشركي مكة سلكناه في قلوب المجرمين غيرهم لاشتراكهم في الوصف ، وقوله سبحانه : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ الخ بيان لحال المشركين المتقدمين الذين اعتبروا في جانب المشبه به أو إيضاح لحال المجرمين وبيان لما يقتضيه التشبيه وهو كما ترى ؛ ونقل في "البحر" عن ابن عطية أنه أريد مجرمي كل أمة أي إن سنة الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب فلا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم ، وهذا على جهة المثال لقريش أي هؤلاء كذلك ، وكشف الغيب بما تضمنته الآية يوم بدر انتهى ، وكأنه جعل ضمير ﴿ سَلَكْنَاهُ ﴾ [الشعراء : 200] لمطلق الكفر لا للكفر بالقرآن ، وضمير ﴿ بِهِ ﴾ لله تعالى أو لما أمروا بالإيمان به للقرآن وإلا فلا يكاد يتسنى ذلك ، وعلى كل حال لا ينبغي أن يعول عليه .

﴿ فَيَأْتِيَهُم ﴾ أي العذاب ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي بإتيانه .

﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ أي تحسراً على ما فات من الإيمان وتمنياً للإمهال لتلافي ما فرطوه ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أي مؤخرون ، والفاء في الموضعين عاطفة وهي كما يدل عليه كلام الكشاف للتعقيب الرتبي دون الوجودي كأنه قيل : حتى يكون رؤيتهم للعذاب الأليم فما هو أشد منها وهو مفاجأته فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة نظير ما في قولك إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله تعالى ، فلا يرد أن البغث من غير شعور لا يصح تعقبه للرؤية في الوجود ، وقال سربى الدين المصري عليه الرحمة في توجيه ما تدل عليه الفاء من التعقيب : إن رؤية العذاب تكون تارة بعد تقدم أماراته وظهور مقدماته ومشاهدة علاماته وأخرى بغتة لا يتقدمها شيء من ذلك فكانت رؤيتهم العذاب محتاجة إلى التفسير فعطف عليها بالفاء التفسيرية قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ [الشعراء : 202] وصح بينهما معنى التعقيب لأن مرتبة المفسر في الذكر أن يقع بعد المفسر كما فعل في التفصيل بالقياس إلى الإجمال كما يستفاد من تحقيقات الشريف في "شرح المفتاح" .

ويمكن أن تكون الآية من باب القلب كما هو أحد الوجوه في قوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أهلكناها فَجَاءهَا بَأْسُنَا ﴾ [الأعراف : 4] للمبالغة في مفاجأة رؤيتهم العذاب حتى

كأنهم رأوه قبل المفاجأة .

والمعنى حتى يأتيهم العذاب الأليم بغتة فيروه انتهى .

وجعلها بعضهم للتفصيل ، واعترض على ما قال صاحب الكشاف بأن العذاب الأليم منطو على شدة البغت فلا يصح الترتيب والتعقيب الرتبي وهو وهم كما لا يخفى .

والظاهر أن جملة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ [الشعراء : 202] حال مؤكدة لما يفيده (بغتة) فإنها كما قال الراغب مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب .

ثم إن هذه الرؤية وما بعدها إن كانت في الدنيا كما قيل فإتيان العذاب الأليم فيها بغتة مما لا خفاء فيه لأنه قد يفاجئهم فيها ما لم يكن يمر بخاطرهم على حين غفلة .

(69/572)

وإن كانت في الآخرة فوجه إتيانه فيها بغتة على ما زعمه بعضهم أن المراد به أن يأتيهم من غير استعداد له وانتظار فافهم ، واختار بعضهم أن ذلك أعم من أن يكون في الدنيا أو في الآخرة .

وقرأ الحسن .

وعيسى ﴿ تَأْتِيَهُمْ ﴾ بتاء التأنيث ، وخرج ذلك الزمخشري على أن الضمير للساعة وأبو

حيان عن أنه للعذاب بتأويل العقوبة ، وقال أبو الفضل الرازي : للعذاب وأنث لاشتماله على الساعة فاكتسى منها التأنيث وذلك لأنهم كانوا يسألون عذاب القيامة تكذيباً بها انتهى وهو في غاية الغرابة وكأنه اعتبر إضافة العذاب إلى الساعة معنى بناءً على أن المراد بزعمه حتى يروا عذاب الساعة الأليم ، وقال : باكتسائه التأنيث منها بسبب إضافته إليها لأن الإضافة إلى المؤنث قد تكسي المضاف المذكر التأنيث كما في قوله :

كما شرقت صدر القناة من الدم . . .

ولم أر أحداً سبقه إلى ذلك .

وقرأ الحسن ﴿ بَغْتَةً ﴾ بالتحريك ، وفي حرف أبي رضي الله تعالى عنه ﴿ اللهَ بَغْتَةً ﴾ .

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي يطلبونه قبل أوانه وذلك قولهم : ﴿ أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] .

وقولهم : ﴿ فائتنا بما تعدنا ﴾ [الأعراف : 70] ونحوهما .

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أي فأخبر ﴿ إِن متعناهم سِنِينَ ﴾ أي مدة من الزمان بطول الأعمار وطيب المعاش أو عمر الدنيا على ما روي عن عكرمة .

وعبر عن ذلك بما ذكر إشارة إلى قلته .

﴿ ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ أي الذين كانوا يوعدونه من العذاب .

﴿ مَا أغنى عَنْهُمْ ﴾ أي أي شيء أو أي غناء أغنى عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ أي كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن ما مصدرية كما هو الأولى أو الذي كانوا يمتعونه من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها .

وأياً ما كان فالاستفهام للنفي والإنكار .

(70/572)

وقيل : ما نافية أي لم يغن عنهم ذلك في دفع العذاب أو تخفيفه ، والأول أولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الإغناء على أبلغ وجه وآكده وفي ربط النظم الكريم ثلاثة أوجه كما في "الكشاف" ، الأول : أن قوله سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ [الشعراء : 205] الخ متصل بقوله تعالى : ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ [الشعراء : 203] وقوله جل وعلا : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الشعراء : 204] معترض للتبكيت وإنكار أن يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها ، والمعنى على هذا كما في "الكشف" أنه لما ذكر أنهم لا يؤمنون دون مشاهدة العذاب قال سبحانه : إن هذا العذاب الموعود وإن تأخر أياماً قلائل فهو لاحق بهم لا محالة وهنالك لا ينفعهم ما كانوا فيه من الاغترار المثمر لعدم الإيمان ، وأصل النظم الكريم لا يؤمنون حتى يروا

العذاب وكيت وكيت فإن متعناهم سنين ثم جاءهم هذا العذاب الموعود فأي شيء أو فأي غناء يغني عنهم تمتيعهم تلك الأيام القلائل فجيء بفعل الرؤية والاستفهام ليكون في معنى أخبر إفادة لمعنى التعجب والإنكار وأن من حق هذه القصة أن يخبر بها كل أحد حتى يتعجب .

ووسط ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الشعراء : 204] للتبكيت والهمزة فيه للإنكار ، وجيء بالفاء دلالة على ترتبه على السابق كأنه لما وصف العذاب قيل : أيستعجل هذا العذاب عاقل .

(71/572)

وفي "الإرشاد" اختيار أن قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ [الشعراء : 105] متصل بقوله سبحانه : ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ [الشعراء : 203] وجعل الفاء لترتيب الاستخبار على ذلك القول وهي متقدمة على الهمزة معنى وتأخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة وإن ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الشعراء : 204] معترض للتوبيخ والتبكيت وجعل الفاء فيه للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الأليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافي ما لا يخفى على

أحد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ ، وصاحب الكشف بعد أن قرر كما ذكرنا قال : إن العطف على مقدر في هذا الوجه لا وجه له ، ولعل المنصف يقول : لكل وجهة .

والثاني : أن قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ كلام يوبخون به يوم القيامة عند قولهم فيه ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ حكى لنا لطفاً ﴿ ويستعجلون ﴾ عليه في معنى استعجلتم إذ كذلك يقال لهم ذلك اليوم ، وكأن أمر الترتيب أو العطف على مقدر ، وارتباط ﴿ اتقى أَفَرَأَيْتَ ﴾ الخ بقولهم : ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ على نحو ما تقدم في الوجه السابق .

والثالث : أن قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ متصل بما بعده غير مترتب على ما قبله وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة .

وأمن فقال عز وجل : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أشراً وبطراً واستهزاءً واتكالاً على الأمل الطويل ثم قال سبحانه : هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينعهم حينئذٍ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم .

وعلى هذا يكون ﴿ فبعذابنا ﴾ الخ عطفاً على مقدر بلا خلاف نحو أيستهزؤن ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ الخ تعجباً من حالهم مترتباً على الاستهزاء والاستعجال ، والكلام نظير ما تقول لمخاطبك : هل تغتر بكثرة العشائر والأموال فأحسب أنها بلغت فوق ما تؤمل أليس بعده الموت وتركهما على حسرة .

وهذا الوجه أظهر من الوجه الذي قبله ، وأياً ما كان فقوله سبحانه : ﴿ بعذابنا ﴾ متعلق بيستعجلون قدم عليه للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه جل جلاله مع ما فيه على ما قيل من رعاية الفواصل .

وقرىء ﴿ كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ من الإمتاع وفي الآية موعظة عظيمة لمن له قلب .

روي عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له : عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 19 صـ ﴾

(73/572)

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : إذا تطهر القلب من الأكدار والأغيار ، وملئ بالمعارف والأسرار ، كان مَهْبِطاً لوحي الإلهام ووحي الإعلام ، ومحلاً لتنزل الملائكة الكرام ، إذ كل ما أعطى للرسول كان لوارثه الحقيق منه شِرْبٌ ونصيب ؛ ليكون من الواعظين بلسان عربي مبين ، يُفصح عن جواهر الحقائق ، ويواقيت العلوم ، وما ينطق به من العلوم يكون موافقاً لما في زُبُر الأولين ، وإن كان أمياً ؛ لأن علوم الأذواق لا تختلف . أو لم يكن لهم آية على ولايته أن يعلمه علماء أهل فنه من المحققين .

وقال الورتجبي على هذه الآية : أخبر الله سبحانه أن قلب محمد صلى الله عليه وسلم محل نزول كلامه الأزلي ؛ لأنه مصفى من جميع الحدثان ، بتجلي مشاهدة الرحمن ، فكان قلبه عليه الصلاة والسلام صَدَف لآلِئَ خطابِ الحق ، يسْبَح في بحار الكرم ، فيتلقف كلام الحق من الحق بلا واسطة ، وذلك سر عجيب وعلم غريب ؛ لأنه يجمع كلام الحق وما اتصل به ، وكلامه لم ينفصل عنه ، وكيف تفارق الصفات الذات ، لكن أبقى في قلبه ظاهره وعلمه وسره ، فجبريل عليه السلام في البين : واسطة لجهة الحرمة ، وذكر ذلك بقوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك . . . ﴾ ؛ لأن القلب معدن الإلهام والوحي والكلام والرؤية والعرفان ، به يحفظ الكلام . وفائدة ذلك : الإعلام بسر وجود الإنسان ، وأنه ليس شيء يليق بالخطاب ونزول الأنباء إلا قلبه ، وكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق ، ولا يرى جمال الحق . قال أبو بكر بن طاهر : ما أنزله على جبريل جعله محلاً للإنذار ،

لا التحقيق ، والحقيقة هو ما تلقفه من الحق ، فلم يخبر عنه ، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة ؛ لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه . وما أنزل جبريل جعله للخلق ، فقال : ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ بما نزل به جبريل على قلبك المتحقق ، فإنك متحقق بما كافحناك به ، وخاطبناك على مقامٍ لو شاهدك فيه جبريل لاحترق . انتهى انتهى . ا هـ على تصحيف في النسخة . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 4 صـ 164.163 ﴾

(74/572)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

عود إلى ما افتتحت به السورة من التنويه بالقرآن وكونه الآية العظمى بما اقتضاه قوله : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ [الشعراء : 2] كما تقدم لتختتم السورة بإطناب التنويه بالقرآن كما ابتُدئت بإجمال التنويه به ، والتنبيه على أنه أعظم آية اختارها الله أن تكون معجزةً أفضل المرسلين .

فضمير ﴿ وإنه ﴾ عائد إلى معلوم من المقام بعد ذكر آيات الرسل الأولين .

فبواو العطف اتصلت الجملة بالجمل التي قبلها ، وبضمير القرآن اتصل غرضها بغرض صدر السورة .

فجملة : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ معطوفة على الجمل التي قبلها المحكية فيها أخبار الرسل المماثلة أحوال أُقوامهم لحال قوم محمد صلى الله عليه وسلم وما أيدهم الله به من الآيات ليعلم أن القرآن هو آية الله لهذه الأمة ، فعطفها على الجمل التي مثلها عطف القصة على القصة لتلك المناسبة .

ولكن هذه الجملة متصلة في المعنى بجملة : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ [الشعراء : 2] بحيث لولا ما فصل بينها وبين الأخرى من طول الكلام لكانت معطوفة عليها .

ووُجه الخطابُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأن في التنويه بالقرآن تسلية له على ما يلاقيه من إعراض الكافرين عن قبوله وطاعتهم فيه .

والتأكيد بـ (إنَّ) ولامَ الابتداء لرد إنكار المنكرين .

والتنزيل مصدر بمعنى المفعول للمبالغة في الوصف حتى كأنَّ المنزَّلَ نفسُ التنزيل .

وجملة : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ بيان ل ﴿ تنزيل رب العالمين ﴾ ، أي كان تنزيله على هذه الكيفية .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر بتخفيف زاي ﴿ نزل ﴾ ورفع ﴿ الروحُ ﴾ .

وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف ﴿ نَزَّلَ ﴾ بتشديد الزاي ونصب ﴿ الروحَ الأمينَ ﴾ ، أي نزّله الله به .

و ﴿ الروح الأمين ﴾ جبريل وهو لقبه في القرآن ، سمّي رُوحاً لأن الملائكة من عالم الروحانيات وهي المجردات .

(75/572)

وتقدم الكلام على الروح في سورة الإسراء ، وتقدم ﴿ روح القدس ﴾ في البقرة (87) .

ونزول جبريل إذنُ الله تعالى ، فنزولُه تنزيل من رب العالمين .

والأمين ﴾ صفة جبريل لأن الله أمنه على وحيه .

والباء في قوله : ﴿ نزل به ﴾ للمصاحبة .

والقلب : يطلق على ما به قبول المعلومات كما قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ ﴾ [ق : 37] أي إدراك وعقل .

وقوله : ﴿ على قلبك ﴾ يتعلق بفعل ﴿ نزل ﴾ ، و ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي لأن النزول وصول من مكان عال فهو مقتض استقرار النازل على مكان .

ومعنى نزول جبريل على قلب النبي عليهما السلام : اتصاله بقوة إدراك النبي لإلقاء الوحي

الإلهي في قوّته المتلقّية للكلام الموحى بألفاظه ، ففعل (نزل) حقيقة .

وحرف ﴿ على ﴾ مستعار للدلالة على التمكن مما سمي بقلب النبي مثل استعارته في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

وقد وصَف النبي صلى الله عليه وسلم ذلك كما في حديث "الصحيحين" عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

" أحياناً يأتيني مثلَ صَلْصَلَة الجَرَس فيَفْصِمُ عني وقد وَعَيتُ عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً فيكلمني فأعِي ما يقول "

وهذان الوصفان خاصّان بوحي نزول القرآن .

وثمة وحي من قبيل إبلاغ المعنى وسمّاه النبي صلى الله عليه وسلم في حديث آخر نفْثاً . فقال : " إن روح القدس نَفَث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي أجلها " فهذا اللفظ ليس من القرآن فهو وحي بالمعنى [والروع : العقل] وقد يكون الوحي في رؤيا النوم فإن النبي لا ينام قلبه ، ويكون أيضاً بسماع كلام الله من وراء حجاب ، وقد بيّنا في شرح الحديث النكتة في اختصاص إحدى الحالتين ببعض الأوقات .

وأشعر قوله : ﴿ على قلبك ﴾ أن القرآن أُلقيَ في قلبه بألفاظه ، قال تعالى : ﴿ وما كنت تتْلُو مِن قبله من كتاب ﴾ [العنكبوت : 48] .

ومعنى : ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ لتكون من الرسل .

واختير من أفعاله النذارة لأنها أخص بغرض السورة فإنها افتتحت بذكر إعراضهم وبإنذارهم .

وفي : ﴿ من المنذرين ﴾ من المبالغة في تمكن وصف الرسالة منه ما تقدم غيرَ مرة في مثل هذه الصيغة في هذه القصص وغيرها .

و﴿ بلسان ﴾ حال من الضمير المجرور في ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ .

والباء للملابسة .

واللسان : اللغة ، أي نزل بالقرآن ملابساً للغة عربية مبينة أي كائناً القرآن بلغة عربية .

والمبين : الموضِّح الدلالة على المعاني التي يعنيها المتكلم ، فإن لغة العرب أفصح اللغات وأوسعها لاحتمال المعاني الدقيقة الشريفة مع الاختصار ، فإن ما في أساليب نظم كلام العرب من علامات الإعراب ، والتقديم والتأخير ، وغير ذلك ، والحقيقة والمجاز والكناية ، وما في سعة اللغة من الترادف ، وأسماء المعاني المقيّدة ، وما فيها من المحسنات ، ما يلج بالمعاني إلى العقول سهلةً متمكنة ، فقدّر الله تعالى هذه اللغة أن تكون هي لغة كتابه الذي

خاطب به كافة الناس ، فأنزل بادىء ذي بدء بين العرب أهل ذلك اللسان ومقاويل البيان ثم جعل منهم حَمَلَتَه إلى الأمم تترجم معانيَه فصاحتُهم وبيانُهم ، ويتلقى أساليبَه الشادون منهم وولدانُهم ، حين أصبحوا أمة واحدة يقوم باتحاد الدين واللغة كيانهم .

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

عطف على ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ [الشعراء : 192] ، والضمير للقرآن كضمير ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ .

وهذا تنويه آخر بالقرآن بأنه تصدقه كتب الأنبياء الأولين بموافقتها لما فيه وخاصة في أخباره عن الأمم وأنبيائها .

(77/572)

وقوله : ﴿ في زبر الأولين ﴾ أي كتب الرسل السالفين ، أي أن القرآن كائن في كتب الأنبياء السالفين مثل التوراة والإنجيل والزبور ، وكتب الأنبياء التي نعلمها إجمالاً .

ومعلوم أن ضمير القرآن لا يراد به ذات القرآن ، أي ألفاظه المنزلة على النبي صلى الله عليه وسلم إذ ليست سور القرآن وآياته مسطورة في زبر الأولين بلفظها كله فتعين أن يكون الضمير للقرآن باعتبار اسمه ووصفه الخاص أو باعتبار معانيه .

فأما الاعتبار الأوّل فالضمير مؤول بالعَود إلى اسم القرآن كقوله تعالى : ﴿ الرسول النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : 157] ، أي يجدون اسمه ووصفه الذي يُعيِّنه .

فالمعنى أن ذكر القرآن وارد في كتب الأولين ، أي جاءت بشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول يجيء بكتاب .

ففي سفر التثنية من كتب موسى عليه السلام في الإصحاح الثامن عشر قول موسى : "قال لي الرب : أقيم لهم نبيئاً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به" إذ لا شك أن إخوة بني إسرائيل هم العرب كما ورد في سفر التكوين في الإصحاح السادس عشر عند ذكر الحمل بإسماعيل "وأمام جميع إخوته يسكن" أي لا يسكن معهم ولكن قُبالتهم .

ولم يأت نبيء بوحي مثل موسى بشرع كشرع موسى غير محمد صلى الله عليه وسلم وكلام الله المجعول في فمه هو القرآن الموحَى به إليه وهو يتلوه .

وفي إنجيل متَّى الإصحاح الرابع والعشرين قال عيسى عليه السلام : "ويقومُ أنبياء كذَبةٌ كثيرون ويُضلون كثيراً . . .

.

ولكن الذي يَصبر إلى المنتهَى (أي يدوم إلى آخر الدهر أي دينه إذ لا خلود للأشخاص)

فهذا يخلص ويكْرَز (أي يدعو) ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة (أي الأرض المأهولة) شهادةً لجميع الأمم (رسالة عامة) ثم يأتي المنتهى (أي نهاية العالم) " .

(78/572)

فالبشارة هي الوحي وهو القرآن وهو الكتاب الذي دعا جميع الأمم ، قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ﴾ [إبراهيم : 1] وقال : ﴿ ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ [الإسراء : 89] .

وفي إنجيل يوحنا قول المسيح الإصحاح الرابع عشر : "وأنا أطلب من الأب فيعطيكم مُعَزياً (أي رسولاً) آخرَ ليمكث معكم إلى الأبد (هذا هو دوام الشريعة) روحُ الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله (إشارة إلى تكذيب المكذبين) لأنه لا يراه ولا يعرفه" .

ثم قال : "وأما المعزي الروحُ القدس الذي سيُرسله الأبُ باسمي (أي بوصف الرسالة) فهو يُعلمكم كلَّ شيء ويذكركم بكل ما قلتُه لكم (وهذا التعليم لكل شيء هو القرآن ما فرطنا في الكتاب من شيء) " .

وأما الاعتبار الثاني فالضمير مؤوّل بمعنى مسماه كقولهم : عندي درهم ونصفه ، أي نصف مسمى درهم فكما يطلق اسم الشيء على معناه نحو ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب

﴾ [فاطر : 10] وقوله : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم ﴾ [مريم : 41] أي أحواله ، كذلك يطلق ضمير الاسم على معناه ، فالمعنَى : أن ما جاء به القرآن موجود في كتب الأولين .

وهذا كقول الإنجيل آنفاً "ويذكّركم بكل ما قلته لكم" ، ولا تجد شيئاً من كلام المسيح عليه السلام المسطور في الأناجيل غير المحرف عنه إلا وهو مذكور في القرآن ، فيكون الضمير باعتبار بعضه كقوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً ﴾ [الشورى : 13] الآية .

والمقصود : أن ذلك آية على صدق أنه من عند الله .

وهذا معنى كون القرآن مصدّقاً لما بين يديه .

(79/572)

وقوله : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ تنويه ثالث بالقرآن وحجة على التنويه الثاني به الذي هو شهادة كتب الأنبياء له بالصدق ، بأن علماء بني إسرائيل يعلمون ما في القرآن مما يختص بعلمهم ، فباعتبار كون هذه الجملة تنويهاً آخر بالقرآن عطفت على الجملة التي قبلها ولولا ذلك لكان مقتضى كونها حجة على صدق القرآن أن لا تعطف .

وفعل : ﴿ يعلمه ﴾ شامل للعلم بصفة القرآن ، أي تحقق صدق الصفات الموصوف بها من جاء به ، وشامل للعلم بما يتضمنه ما في كتبهم .

وضمير ﴿ أن يعلمه ﴾ عائد إلى القرآن على تقدير : أن يعلم ذكره .

ويجوز أن يعود على الحكم المذكور في قوله : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ .

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198)

كان من جملة مطاعن المشركين في القرآن أنه ليس من عند الله ، ويقولون : تقوله محمد من عند نفسه ، وقالوا ﴿ أساطير الأولين اكتتبها ﴾ [الفرقان : 5] فدمغهم الله بأن تحدّاهم بالإتيان بمثله فعجزوا .

وقد أظهر الله بهتانهم في هذه الآية بأنهم إنما قالوا ذلك حيث جاءهم بالقرآن رسول عربي ، وأنه لو جاءهم بهذا القرآن رسول أعجمي لا يعرف العربية بأن أوحى الله بهذه الألفاظ إلى رسول لا يفهمها ولا يحسن تأليفها فقرأه عليهم ، وفي قراءته وهو لا يحسن اللغة أيضاً خارق عادة ؛ لو كان ذلك لما آمنوا بأنه رسول مع أن ذلك خارق للعادة فزيادة قوله : ﴿ عليهم ﴾ زيادة بيان في خرق العادة .

يعني أن المشركين لا يريدون مما يلقونه من المطاعن البحث عن الحق ولكنهم أصروا على التكذيب وطفقوا يتحملون أعذاراً لتكذيبهم جحوداً للحق وتستراً من اللائمين .

وجملة : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك إلى قوله : ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء : 193 195] لأن قوله : ﴿ على قلبك ﴾ أفاد أنه أوتيه من عند الله وأنه ليس من قول النبي لا كما يقول المشركون : تَقَوَّله ، كما أشرنا إليه آنفاً .

فلما فرغ من الاستدلال بتعجيزهم فضح نياتهم بأنهم لا يؤمنون به في كل حال ، قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ [يونس : 96 ، 97] .

و ﴿ الأعجمين ﴾ جمع أعجم .

والأعجم : الشديد العُجمة ، أي لا يحسن كلمة بالعربية ، وهو هنا مرادف أعجمي بياء النسب فيصح في جمعه على أعجمين اعتبارُ أنه لا حذف فيه باعتبار جمع أعجم كما قال حميد بن ثور يصف حمامة:

ولم أر مثلي شاقه لفظ مثلها . . .

ولا عربياً شاقه لفظُ أعجما

ويصح اعتبار حذف ياء النسب للتخفيف .

وأصله : الأعجميين كما في الشعر المنسوب إلى أبي طالب:

وحيثُ ينيخ الأشْعَرُون رِحالهم . . .

بملقَى السيول بين سَاففٍ ونائل

أي الأشعريون ، وعلى هذين الاعتبارين يحمل قول النابغة:

فعودا له غسان يرجون أَوْبَهُ . . .

وترك ورهط الأعْجمين وكابُل

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200)

تقدم نظير أول هذه الآية في سورة الحجر (12) ، إلاّ أن آية الحجر قيل فيها : ﴿ كذلك نسلكه ﴾ وفي هذه الآية قيل سلكناه ﴾ ، والمعنى في الآيتين واحد ، والمقصود منهما واحد ، فوجه اختيار المضارع في آية الحِجر أنه دال على التجدد لئلا يتوهم أن المقصود إبلاغٌ مضى وهو الذي أبلغ لشيع الأولين لتقدم ذكرهم فيتوَهَّم أنهم المراد بالمجرمين مع أن المراد كفار قريش .

وأما هذه الآية فلم يتقدم فيها ذكر لغير كفار قريش فناسبها حكاية وقوع هذا الإبلاغ منذ زمن مضَى .

وهم مستمرون على عدم الإيمان .

وجملة : ﴿ كذلك سلكناه ﴾ إلخ مستأنفة بيانيَّة ، أي إن سألت عن استمرار تكذيبهم بالقرآن في حين أنه نزل بلسان عربي مبين فلا تعجَب فكذلك السلوكِ سلكناه في قلوب المشركين ؛ فهو تشبيه للسلوك المأخوذ من ﴿ سلكناه ﴾ بنفسه لغرابته .

وهذا نظير ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ في سورة البقرة (143) ، أي هو سلوك لا يشبهه سلوك وهو أنه دخل قلوبهم بإبانته وعَرفوا دلائل صدقه من أخبار علماء بني إسرائيل ومع ذلك لم يؤمنوا به .

ومعنى : ﴿ سلكناه ﴾ أدخلناه ، قال الأعشى:

كما سَلَكَ السِّكِّيَّ في الباب فَيْتَقُ . . .

وعبّر عن المشركين بـ ﴿ المجرمين ﴾ لأن كفرهم بعد نزول القرآن إجرام .

وجملة : ﴿ لا يؤمنون به ﴾ في موضع الحال من ﴿ المجرمين ﴾ .

والغاية في ﴿ حتى يروا العذاب ﴾ تهديد بعذاب سيحلّ بهم ، وحث على المبادرة بالإيمان قبل أن يحل بهم العذاب .

والعذاب صادق بعذاب الآخرة لمن هلكوا قبل حلول عذاب الدنيا ، وصادق بعذاب السيف يومَ بدر ، ومعلوم أنه ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ [الأنعام : 158] .

وقوله : ﴿ فيأتيهم بغتة ﴾ صالح للعذابين : عذاب الآخرة يأتي عقب الموت والموت يحصل بغتة ، وعذابِ الدنيا بالسيف يحصل بغتة حين الضرب بالسيف .

والفاء في قوله : ﴿ فيأتيهم ﴾ عاطفة لفعل ﴿ يأتيهم ﴾ على فعل ﴿ يروا ﴾ كما دل عليه نصب ﴿ يأتيهَم ﴾ وذلك ما يستلزمه معنى العطف من إفادة التعقيب فيثير إشكالاً بأن إتيان العذاب لا يكون بعد رؤيتهم إياه بل هما حاصلان مقترنين فتعيّن تأويل معنى الآية .

وقد حاول صاحب "الكشاف" والكاتبون عليه تأويلها بما لا تطمئن له النفس .

والوجه عندي في تأويلها أن تكون جملة : ﴿ فيأتيهم بغتة ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ يروا العذاب الأليم ﴾ وأدخلت الفاء فيها لبيان صورة الاشتمال ، أي أن رؤية العذاب مشتملة على حصوله بغتة ، أي يرونه دفعة دون سبق أشراطٍ له .

(82/572)

أما الفاء في قوله : ﴿ فيقولوا ﴾ فهي لإفادة التعقيب في الوجود وهو صادق بأسرع تعذيب فتكون خطرة في نفوسهم قبل أن يهلكوا في الدنيا ، أو يقولون ذلك ويرددونه يوم القيامة حين يرون العذاب وحين يُلقون فيه .

و﴿ هل ﴾ مستعملة في استفهام مراد به التمني مجازاً .

وجيء بعدها بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ، أي تمنوا إنظاراً طويلاً يتمكنون فيه من الإيمان والعمل الصالح .

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204)

(204 207) ﴿ لله لله لله للهمُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِن متعناهم سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا ﴾ .

نشأ عن قوله : ﴿ فيأتيهم بغتةً وهم لا يشعرون ﴾ [الشعراء : 202] تقدير جواب عن تكرر سؤالهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : 48] ، حيث جعلوا تأخر حصول العذاب دليلاً على انتفاء وقوعه ، فأُعقب ذلك بقوله : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ .

فالفاء في قوله : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ تفيد تعقيب الاستفهام عقب تكرر قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [يونس : 48] ونحوِه .

والاستفهام مستعمل في التعجيب من غرورهم .

والمعنى : أيستعجلون بعذابنا فما تأخيره إلا تمتيع لهم .

وكانوا يستهزئون فيقولون : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ ، ويستعجلون بالعذاب ﴿ وقالوا ربنا عجّل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ [ص : 16] .

قال مقاتل : قال المشركون للنبيء صلى الله عليه وسلم يا محمد إلى متى تعِدُنا بالعذاب ولا

تأتي به ، فنزلت ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ .

وتقديم "بعذابنا" للرعاية على الفاصلة وللاهتمام به في مقام الإنذار ، أي ليس شأن مثله أن يستعجل لفظاعته .

ولما كان استعجالهم بالعذاب مقتضياً أنهم في مُهلة منه ومتعة بالسلامة وأن ذلك يغرهم بأنهم في منجاة من الوعيد الذي جاءهم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم جابههم بجملة : ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ﴾ .

(83/572)

والاستفهام في ﴿ أفرأيت إن متعناهم ﴾ للتقرير .

و﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما أغنى عنهم ﴾ استفهامية وهو استفهام مستعمل في الإنكار ، أي لم يغن عنهم شيئاً .

والرؤية في ﴿ أفرأيت ﴾ قلبية ، أي أفعلمت .

والخطاب لغير معين يعمّ كل مخاطب حتى المجرمين .

وجملة : ﴿ إن متّعناهم سنين ﴾ معترضة وجواب الشرط محذوف دل عليه ما سدّ مسدّ مفعولي (رأيت) .

و﴿ ثم جاءهم ﴾ معطوف على جملة الشرط المعترضة ، و ﴿ ثم ﴾ فيه للترتيب والمهلة ، أي جاءهم بعد سنين .

وفيه رمز إلى أن العذاب جائيهم وحالّ بهم لا محالة .

و﴿ ما كانوا يوعدون ﴾ موصول وصلته .

والعائد محذوف تقديره : يوعدونه .

وجملة : ﴿ ما أغنى عنهم ﴾ سادة مسدّ مفعولي (رأيتَ) لأنه معلَّق عن العمل بسبب الاستفهام بعده .

و﴿ ما كانوا يمتعون ﴾ موصول وصلتُه .

والعائد محذوف تقديره : يمتعونه .

والمعنى : أعلمتَ أن تمتيعهم بالسلامة وتأخير العذاب إن فرض امتدادُه سنين عديدة غير مغن عنهم شيئاً إن جاءهم العذاب بعد ذلك .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولئن أخَّرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولُنّ ما يحبسه ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ﴾ [هود : 8] ، وذلك أن الأمور بالخواتيم .

في "تفسير القرطبي" : روى ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ : ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما

كانوا يُمَتّعون ﴾ ثم يبكي ويقول:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة . . .

وليلك نوم والردى لك لازم

فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم . . .

ولا أنت في النّوّام ناج فسالم

تُسرّ بما يفنى وتفرح بالمنى . . .

كما سُرّ باللذات في النوم حالم

وتسعى إلى ما سوف تكره غبّه . . .

كذلك في الدنيا تعيش البهائم

ولم أقف على صاحب هذه الأبيات قال ابن عطية : ولأبي جعفر المنصور قصة في هذه الآية .

ولعل ما روُي عن عمر بن عبد العزيز رُوي مثيله عن المنصور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(84/572)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

أكد جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن هذا القرآن العظيم تنزيل رب العالمين ، وأنه نزل به الروح الأمين الذي هو جبريل على قلب نبينا صلى الله عليهما وسلم ، ليكون من المنذرين به ، وأنه نزل عليه بلسان عربي مبين ، وما ذكره جل وعلا هنا أوضحه في غير هذا الموضع ، أما كون هذا القرآن تنزيل رب العالمين فقد أوضحه جل وعلا في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمطهرون تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الواقعة : 7780] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ﴾ [الحاقة : 4143] وقوله تعالى : ﴿ طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ﴾ [طه : 14] وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ﴾ [الزمر : 1] وقوله : ﴿ حمتَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [فصلت : 13] الآية . وقوله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ العزيز الرحيم لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : 16] والآيات بمثل ذلك كثيرة ، وقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ بينه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة : 97] الآية ، وقوله : ﴿

لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ أي نزل به عليك لأجل أن تكون من المنذرين به ، جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ [الأعراف : 12] الآية ، أي

(85/572)

أنزل إليك لتنذر به ، وقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلَ العزيز الرحيم لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ [يس : 56] الآية وقوله ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ ذكره أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] وقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ [فصلت : 3] الآية .

وقد بينا معنى اللسان العربي بشواهده في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى ﴿ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِين ﴾ وقد أوضحنا معنى إنزال جبريل القرآن على قلبه صلى الله عليه وسلم بالآيات القرآنية في سورة البقرة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله ﴾ [البقرة : 103] الآية .

(86/572)

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199)

قد قدمنا هذه الآية الكريمة ، مع ما يوضحها من الآيات في النحل في الكلام على قوله تعالى :

﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103]

الآية .

واعلم أن كل صوت غير عربي تسميه العرب أعجم ، ولو من غير عاقل ومنه قول حميد بن

ثور يذكر صوت حمامة :

فلم أر مثلي شاقه صوت مثلها . . . ولا عربياً شاقه صوت أعجما

(87/572)

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201)

قوله : سلكناه : أي أدخلناه كما قدمنا إيضاحه بالآيات القرآنية والشواهد العربية في سورة

هود ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ﴾ [هود : 40

] الآية ، والضمير في سلكناه قيل : للقرآن ، وهو الأظهر ، وقيل : للتكذيب والكفر المذكور

في قوله : ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 199] ، وهؤلاء الكفار

الذين ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم : هم الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، وسبق في علم الله : أنهم أشقياء كما يدل لذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 9697] وقد أوضحنا شدة تعنت هؤلاء ، وأنهم لا يؤمنون بالآيات في سورة الفرقان وفي سورة بني إسرائيل وغيرهما . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ نعت لمصدر محذوف أي كذلك السلك أي الإدخال . سلكناه : أي أدخلناه في قلوب المجرمين ، وإيضاحه على أنه القرآن أن الله أنزله على رجل عربي فصيح بلسان عربي مبين ، فسمعوه وفهموه لأنه بلغتهم ، ودخلت معانيه في قلوبهم ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، لأن كلمة العذاب حقت عليهم ، وعلى أن الضمير في سلكناه للكفر والتكذيب فقوله عنهم ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 199] يدل على إدخال الكفر والتكذيب في قلوبهم ، أي كذلك السلك سلكناه إلخ .

(88/572)

فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203)

لفظة هل هنا يراد بها التمني ، والآية تدل على أنهم تمنوا التأخير والإنظار أي الإمهال ، وقد دلت آيات أخر على طلبهم ذلك صريحاً ، وأنهم لم يجابوا إلى ما طلبوا ، كقوله تعالى : ﴿

وَأَنذِرِ الناس يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب فَيَقُولُ الذين ظلموا رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : 44] وأوضح أنهم لا ينظرون في آيات من كتابه كقوله تعالى : ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء : 40] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر : 8] إلى غير ذلك من الآيات .

(89/572)

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (204)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ [الرعد : 6] الآية ، وذكرنا طرفاً منه في سورة (يونس) في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [يونس : 5051] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(90/572)

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم ينتقل السياق إلى خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد أنْ قدَّم لنا العبرة والعِظة في موكب الرسل السابقين ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ [الشعراء : 192] على أيِّ شيء يعود هذا الضمير ؟ المفروض أن يسبقه مرجع يرجع إليه هذا الضمير وهو لم يُسبَق بشيء . تقول : جاءني رجل فأكرمتُه فيعود ضمير الغائب في أكرمته على (رجل) .

وكما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فالضمير هنا يعود على لفظ الجلالة ، مع أنه متأخر عنه ، ذلك لاستحضار عظمته تعالى في النفس فلا تغيب .

كذلك ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ [الشعراء : 192] أي : القرآن الكريم وعرفناه من قوله سبحانه ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 192] وقُدِّم الضمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذِّهْن إلا إليه ، فحين تقول : ﴿ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] لا ينصرف إلا إلى الله ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 192] لا ينصرف إلا إلى القرآن الكريم .

وقال : ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 192] .

أي : أنه كلام الله لم أقلْهُ من عندي ، خاصة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسبق له

أنْ وقف خطيباً في قومه ، ولمْ يُعرف عنه قبل الرسالة أنه خطيب أو صاحب قَوْل .

إذن : فهو بمقاييس الدنيا دونكم في هذه المسألة ، فإذا كان ما جاء به من عنده فلماذا لم تأْتُوا بمثله ؟ وأنتم أصحاب تجربة في القول والخطابة في عكاظ وذي المجاز وذي المجنة ، فإن كان محمد قد افترى القرآن فأنتم أقدر على الافتراء ؛ لأنكم أهل دُرْبة في هذه المسألة .

و﴿ العالمين ﴾ [الشعراء : 190] : كل ما سوى الله عزَّ وجلَّ ؛ لذلك كان صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين للإنس وللجن وللملائكة وغيرها من العوالم .

(91/572)

لذلك لما نزلت : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] " سأل سيدنا رسول الله جبريل عليه السلام : " أما لك من هذه الرحمة شيء يا أخي جبريل ؟ " فقال : نعم ، كنت أخشى سوء العاقبة كإبليس ، فلما أنزل الله عليك قوله : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ﴾ [التكوير : 20] أمنْتُ العاقبة ، فتلك هي الرحمة التي نالتني " .

وليس القرآن وحده تنزيلَ رب العالمين ، إما كل الكتب السابقة السماوية كانت تنزيلَ رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتي بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة في أمر آخر تثبت صِدْقه في البلاغ عن الله .

فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إبراء الأكمة والأبرص بإذن الله ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فكان كتابه ومنهجه القرآن ومعجزته أيضاً ، فالمعجزة هي عَيْن المنهج . فلماذا ؟

قالوا : لأن القرآن جاء منهجاً للناس كافّةً في الزمان وفي المكان فلا بد إذن أن يكون المنهج هو عَيْن المعجزة ، والمعجزة هي عَيْن المنهج ، وما دام الأمر كذلك فلا يصنع هذه المعجزة إلا الله ، فهو تنزيل رب العالمين .

أما الكتب السابقة فقد كانت لأمة بعينها في فترة محددة من الزمن ، وقد نزلتْ هذه الكتب بمعناها لا بنصّها ؛ لذلك عيسى عليه السلام يقول : " سأجعل كلامي في فمه " أي : أن كلام الله سكيون في فم الرسول بنصِّه ومعناه من عند الله ، ما دام بنصِّه من عند الله فهو تنزيل رب العالمين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح ﴾

كان من الممكن أن يكون الوحي من عند الله إلهاماً أو نَفْثاً في الرَّوْع ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193] إذن : الأمر ليس نَفْثاً في رَوْع رسول الله بحكم ما ، إنما يأتيه روح القُدُس وأمين الوحي يقول له : قال الله كذا وكذا .

لذلك لم يثبت القرآن إلا بطريق الوحي ، بواسطة جبريل عليه السلام ، فيأتيه المَلَك ؛ ولذلك علامات يعرفها ويحسّها ، ويتفصّد جبينه منه عرقاً ، ثم يُسرِّي عنه ، وهذه كلها علامات حضور المَلَك ومباشرته لرسول الله ، هذا هو الوحي ، أمَّا مجرد الإلهام أو النَّفْث في الرَّوْع فلا يثبت به وَحْي .

لذلك كان جلساء رسول الله يعرفونه ساعة يأتيه الوحي ، وكانوا يسمعون فوق رأسه صلى الله عليه وسلم كدويّ النحل أثناء نزول القرآن عليه ، وكان الأمر يثقل على رسول الله ، حتى إنه إنْ أسند فَخِذه على أحد الصحابة أثناء الوحي يشعر الصحابي بثقلها كأنها جبل ، وإذا نزل الوحي ورسول الله على دابته يثقل عليها حتى تنخّ به ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل : 5] .

ولم تهدأ مشقَّة الوحي على رسول الله إلا بعد أنْ فتَر عنه الوحي ، وانقطع فترة حتى تشوَّق له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتظره ، وبعدها نزل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : 14] .

ونزلت عليه : ﴿ والضحى * والليل إذا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ [الضحى : 14] .

يعني : سيعاودك الوحي في سهولة ودون مشقَّة ، ولن تتعب في تلقيه ، كما كنتَ تعاني من قبل .

وقوله : ﴿ نَزَلَ ﴾ [الشعراء : 193] تفيد العلو ، وأن القرآن نزل من أعلى من عند الله ، ليس من وضع بشر يخطىء ويصيب ويجهل المصحلة ، كما نرى في القوانين الوضعية التي تُعدّلِ كل يوم ، ولا تتناسب ومقتضيات التطور ، والتي يظهر عُوَارها يوماً بعد يوم .

(93/572)

ولأن القرآن نزل من أعلى فيجب علينا أن نستقبله استقبالَ الواثقِ فيه المطمئن به ، لا نعانده ، ولا تتكبر عليه ؛ لأنك تتكبر على مساوٍ لك ، أمّا ما جاءك من أعلى فيلزمك الانقياد له ، عن اقتناع .

وفي الريف نسمعهم يقولون (اللي الشرع يقطع صباعه ميخرش دم) لماذا ؟ لأنه قُطِع بأمر الأعلى منك ، بأمر الله لا بأمر واحد مثلك .

وحين نتأمل قوله تعالى في التشريع لحكم من الأحكام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 151] .

كلمة (تعالوا) تعني : اتركوا حضيض تشريع الأرض ، وأَقْبلوا على رِفْعة تشريع السماء ،

فتعالوا أيْ : تعلَّوا وارتفعوا ، لا تهبطوا إلى مستوى الأرض ، وإلا تعبتُم وعضَّتكم الأحداث ؛ لأن الذي يُشرِّع لكم بشر أمثالكم وإنْ كانوا حتى حَسَنِي النية ، فهم لا يعلمون حقائق الأمور ، فإنْ أصابوا في شيء أخطأوا في أشياء ، وسوف تُضطرون لتغيير هذه التشريعات وتعديلها .

إذن : فالأسلم لكم أنْ تأخذوا من الأعلى ؛ لأنه سبحانه العليم بما يُصلحكم .

إذنك ﴿ نَزَلَ ﴾ [الشعراء : 193] تفيد أنه من الأعلى من مصدر الخير حتى الحديد وهو من نِعَم الله ، لما تكلم عنه قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب ﴾ [الحديد : 25] .

ولم يَقُلْ مثلاً : أنزلناه الألماظ أو الألماس ، أو غيره من المعادن النفيسة ، لماذا ؟ لأن الحديد أداة من أدوات نُصْرة الدعوة وإعلاء كلمة الله .

وسُمِّي جبريل عليه السلام الروح ؛ لأن الروح بها الحياة ، والملائكة أحياء لكن ليس لهم مادة ، فكأنهم أرواح مطلقة ، أما البشر فمادة فيها روح .

(94/572)

كما أن كلمة الروح استُعملَتْ عدة استعمالات منها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : 85] والمراد الروح التي نحيا بها .

وسُمِّي القرآن روحاً : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52]

إذن : فالقرآن روح ، والملَك الذي نزل به روح ، فإنْ قلتَ : فما حاجتي إلى الروح وفيَّ روح ؟

نقول لك : هذه الروح التي تحيا بها مادتك ، والتي تفارقك حين تموت وتنتهي المسألة ، أمّا الروح التي تأتيك في القرآن فهي روح باقية خالدة ، إنها منهج الله الذي يعطيك الحياة الأبدية التي لا تنتهي .

لذلك ، فالروح التي تحيا بها المادة للمؤمن وللكافر على حَدٍّ سواء ، أمّا الروح التي تأتيك من كتاب الله وفي منهجه ، فهي للمؤمن خاصة ، وهي باقية ، وبها تستأنف حياة جديدة خالدة بعد حياة المادة الفانية .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : 24] .

كيف وها نحن أحياء ؟ نعم ، نحن أحياء بالروح الأولى روح المادة الفانية ، أمَّا رسول الله فهو يدعونا للحياة الباقية ، وكأنه عز وجل يشير إلى أن هذه الحياة التي نحياها ليست هي الحياة الحقيقية ؛ لأنها ستنتهي ، وهناك حياة أخرى باقية دائمة .

حتى مجرد قولنا نحن أحياء فيه تجاوز ؛ لأن الأحياء هم الذين لا يموتون ، وهذه الحياة لا

تأتي إلا بمنهج الله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] فالحيوان مبالغة في الحياة ، أي : الحياة الحقيقية ، أما حياة المادة فأيّ حياة هذه التي يموت فيها المرء يوم مولده ، أو حتى بعد مائة عام ؟ !

(95/572)

ثم يَصِف الحق سبحانه وتعالى الروح بأنه ﴿ الأمين ﴾ [الشعراء : 193] أي : على الوحي ، القرآن إذن مَصُون عند الله ، مصون عند الروح الأمين الذي نزل به ، مَصُون عند النبي الأمين الذي نزل عليه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين * فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 4447] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴾ [التكوير : 2425] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ على قَلْبِكَ لِتَكُونَ ﴾

نزل القرآن على أذن رسول الله ، أم على قبله ؟ الأذن هي : أداة السمع ، لكن قال تعالى ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : 194] لأن الأذن وسيلة عبور للقلب ، لأنه محلُّ التلقّي ، وهو

(ديناموِ) الحركة في جسم الإنسان ، فبالدم الذي يضخُه في أعضاء الجسم وأجهزته تتولَّد الطاقات والقدرة على الحركة وأداء الوظائف .

لذلك نرى المريض مثلاً يأخذ الدواء عن طريق الفم ، فيدور الدواء دروة الطعام ، ويُمتصُّ ببطء ، فإنْ أردتَ سرعة وصول الدواء للجسم تعطيه حقنة في العضل ، لكن الأسرع من هذا أن تعطيه حقنة في الوريد ، فتختلط بالدم مباشرة ، وتُحدِث أثرها في الجسم بسرعة ، فالدم هو وسيلة الحياة في النفس البشرية .

إذن : فالقلب هو محلُّ الاعتبار والتأمل ، وليس لسماع الأذن قيمة إذا لم يَعِ القلب ما تسمع الأذن ؛ لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾ [البقرة : 97] .

(96/572)

فالمعنى : نزَّله على قلبك مباشرة ، كأنه لم يمرّ بالأذن ؛ لأن الله الله تعالى اصطفى لذلك رسولاً صنعه على عينه ، وأزال عنه العقبات البشرية التي تعوق هذه المباشرة ، فكأن قلبه صلى الله عليه وسلم منتبهاً لتلقّي كلام الله ؛ لأنه مصنوع على عَيْن الله ، أما الذين سمعوا كلام الله بآذانهم فلم يتجاوبوا معه ، فكانت قلوبهم قاسية فلم تفهم .

والقلب محل التكاليف ، ومُستقرّ العقائد ، وإليه تنتهي مُحِصّلة وسائل الإدراك كلها ، فالعيْن ترى ، والأذن تسمع ، والأنف يشمّ ، والأيدي تلمس . . ثم يُعرض هذا كله على العقل ليختار بين البدائل ، فإذا اختار العقل واطمأن إلى قضية ينقلها إلى القلب لتستقر به ؛ لذلك نسميها عقيدة يعني : أمْر عقد القلب عليه ، فلم يَعُدْ يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، لقد ترسَّخ في القلب ، وأصبح عقيدة ثابتة .

وفي آيات كثيرة نجد المعوّل والنظر إلى القلب ، يقول تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى مِنكُمْ ﴾ [الحج : 37] .

وفي آية أخرى يُبيِّن أن التقوى محلُّها القلب : ﴿ ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب ﴾ [الحج : 32] .

وفي الشهادة يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشهادة وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : 283] من أن الشهادة باللسان ، لا بالقلب .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير : " ألا إن في الجسد مُضْغة ، إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب " .

ويُحدّثنا صحابة النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ينزل عليه الوحي بآيات كثيرة بما يوازي رُبْعين أو ثلاثة أرباع مرة واحدة ، فإذا ما سُرِّي عنه صلى الله عليه وسلم قال : اكتبوا ، ثم يقرؤها عليهم مع وَضْع كل آية في مكانها من سورتها ، ثم يقرؤها صلى الله عليه وسلم في الصلاة ، فتكون هي هي كما أملاها عليهم ؛ ذلك لأن القرآن باشر قلبه لا أذنه .

وكان صلى الله عليه وسلم لِحِرْصه على حفظ القرآن يُردّده خلف جبريل ويكرره حتى لا ينساه ، فأنزل الله عليه : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [طه : 114] .

وقال تعالى : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : 1619] .

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يُلقي كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها نَصّاً ، أمّا النبي صلى الله عليه وسلم فكانت تُلْقَى عليه السورة ، فيعيدها كما هي ، ذلك من قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] .

وقوله سبحانه : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ [الشعراء : 194] المنذر : الذي يُحذِّر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامع فلا يقع في دواعي الشر ، ولا يكون الإنذار ساعةَ وقوع

الشر ، لأنه في هذه الحالة لا يُجْدي ، وكذلك البشارة بالخير تكون قبل حدوثه لتحثَّ السامع على الخير ، وتحفزه إليه .

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ ﴾ [يس : 6] .

فكما أنذر الرسلُ السابقون أقوامهم ، أُنْذِر أنت قومك ، وانضمّ إلى موكب الرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

(98/572)

وقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 195] فإنْ كان القرآن قد نزل على قلبك ، فكيف يسمعونه ؟ وكيف يكتبونه ؟ ويحفظونه ؟ يأتي هنا دَوْر اللسان العربي الذي يُخرِج القرآن إلى الناس . إذن : فمنطق رسول الله بعد نزوله على القلب ، ويُؤخِّر اللسان ؛ لأنه وسيلة الحفظ والصيانة والقراءة .

ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : 195] أي : واضح ظاهر ، محيط بكل أقضية الحياة ، لكن يأتي مَنْ يقول : إنْ كان القرآن نزل بلسان عربي ، فما بال الكلمات غير العربية التي نطق بها ؟ فكلمة قسطاس رومية ، وآمين حبشية ، وسجيل فارسية .

ونقول : معنى اللسان العربي ما نطق به العرب ، ودار على ألسنتهم ؛ لأنه أصبح من لغتهم

وصار عربياً ، وإنْ كان من لغات أخرى ، والمراد أنه لم يَأْتِ بكلام جديد لم تعرفه العرب ، فقبل أنْ ينزل القرآن كانت هذه الكلمات شائعة في اللسان العربي .

ونزل القرآن باللسان العربي خاصةً ؛ لأن العرب هم أمة استقبال الدعوة وحاملوها إلى باقي الأمم ، فلا بُدَّ أنْ يفهموا عن القرآن . فإنْ قُلْتَ : فالأمم الأخرى غير العربية مخاطبةٌ أيضاً بهذا القرآن العربي ، فكيف يستقبلونه ويفهمون عنه ؟ نقول : مَنْ سمعه من العرب عليه أن يُبلغه بلسان القوم الذين يدعوهم ، وهذه مهمتنا نحن العرب تجاه كتاب الله .

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

الضمير في ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ [الشعراء : 196] يصح أنْ يعود على القرآن كسابقه ، ويصح أنْ يعود على رسول الله ، ومعنى ﴿ زُبُرِ ﴾ [الشعراء : 196] جمع زبور يعني : مكتوب مسطور ، ولو أن العقول التي عارضتْ رسول الله ، وأنكرتْ عليه رسالته ، وأنكرتْ عليه معجزته فَطنوا إلى الرسالات السابقة عليه مباشرة ، وهي : اليهودية والنَصرانية في التوراة والإنجيل لوجبَ عليهم أنْ يُصدّقوه ؛ لأنه مذكور في كتب الأولين .

(99/572)

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ [الأعلى : 1819] .

فالمبادىء العامة من العقائد والأخلاق والعدل الإلهي وقصص الانبياء كلها أمور ثابتة في كل الكتب وعند جميع الأنبياء ، ولا يتغير إلا الأحكام من كتاب لآخر ، لتناسب العصر والأوان الذي جاءتْ فيه .

وحين تقرأ قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى : 13]

.

تقول : ولماذا إذن نزل القرآن ؟ ولماذا لم يَقُل وصَّينا به محمداً ؟

قالوا : لأن الأحكام ستتغير ؛ لتناسب كل العصور التي نزل القرآن لهدايتها ، ولكل الأماكن ، ولتناسب عمومية الإسلام .

لذلك رُوي عن عبد الله بن سلام وآخر اسمه ابن يامين ، وكانوا من أهل الكتاب ، وشهد كلاهما أنه رأى ذكر محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة ، وفي الإنجيل . والقرآن يقول عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : 146] .

ولما سمعها ابن سلام قال : ربنا تساهل معنا في هذه المسألة ، فوالله إني لأعرفه كمعرفتي لولدي ، ومعرفتي لمحمد أشد .

ويقول تعالى في هذا المعنى : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف : 157] .

ويقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام حين يقف خطيباً في قومه : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ [الصف : 6] .

إذن : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين ﴾ [الشعراء : 196] أي : محمد صلى الله عليه وسلم أو هو القرآن الكريم ، فكلاهما صحيح ؛ لأن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودة في هذه الكتب ، أو القرآن في عموم مبادئه في العقائد والأخلاق والبعث وسير الأنبياء .

(100/572)

فكان الواجب على الذين جاءهم القرآن أنْ يؤمنوا به ، خاصة وأن رسول الله كان أمياً لم يجلس إلى معلم ، وتاريخه في ذلك معروف لهم ، حيث لم يسبق له أن قرأ أو كتب شيئاً .

والقرآن يؤكد هذه المسألة ، فيقول تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] .

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص : 45]

.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَا آإلى مُوسَى الأمر ﴾ [القصص : 44] .

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : 44] .

فكل هذه الآيات وغيرها دليل على أنه صلى الله عليه وسلم لا عِلْمَ له بها إلا بواسطة الوَحْي المباشر في القرآن الكريم ، وكان على القوم أن يؤمنوا به أول ما سمعوه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ﴾

آية : أي دليلاً وعلامةً على أن القرآن من عند الله ؛ لأن علماء بني إسرائيل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، أو لم يقولوا للأوْس والخزرج في المدينة : لقد أَطلَّ زمان نبيٍّ يأتي سنتبعه ونقتلكم به أيها المشركون قَتْل عاد وإرم ، ومع ذلك لما بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم أنكروه وكفروا به ، وهم يعرفون أنه حق ، لماذا ؟

قالوا : لأنهم تنبَّهوا إلى أنه سيسلبهم القيادة ، وكانوا في المدينة أهل علم ، وأهل كتاب ، وأهل بصر ، وأهل حروب . . ألخ . وليلةَ هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كانوا يستعدون لتتويج عبد الله بن أُبيٍّ مِلكاً عليها ، فلما جاءها النبي صلى الله عليه وسلم أفسد عليهم هذه المسألة ؛ لذلك حسدوه على هذه المكانة ، فقد أخذ منهم السُّلْطة الزمنية والتي كانت لهم .

وقال ﴿ عُلَمَاءُ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 197] لأنهم كانوا يعرفون صِدْق رسول الله ، ولأنه صلى الله عليه وسلم جاء بأشياء لا يعرفها إلا هم ، وقد اشتهر منهم خمسة ، هم : عبد الله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ، وثعلبة ، وابن يامين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ على بَعْضِ ﴾

لقد أنزلنا القرآن بلسان عربي على أمة عربية ، ولو أنزلناه على الأعاجم ما فهموه .

وقال الحق وسبحانه وتعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : 44] .

لماذا ؟ لأن المستقبل مقفول ، فإنْ أردتَ استقبال أيِّ قضية فعليك أنْ تُخرِج من قبلك أيّ قضية أخرى معارضة لها ، ثم بعد ذلك لك أنْ تدرس القضيتين ، فما وافق الحق فأدخِلْه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : 4] فهو قلب واحد ، لذلك أخرج منه كل قضية سابقة ، وها هو القرآن واحد ، وقائله واحد ، ومُبلِّغه واحد ، ولسانه عربي .

يقول تعالى في وصفهم حال سماع القرآن : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ

يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصرفوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : 127] أي : يريدون التسلُّل والخروج .

ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ [التوبة : 124] أي : ماذا أفادتكم ؟ وماذا زادتْ في إيمانكم .

(102/572)

ويقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً أولئك الذين طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد : 16] يعني : ما الجديد الذي جاء به ؟

ويقول عن الذين آمنوا : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

و ﴿ الأعجمين ﴾ [الشعراء : 198] جمع : أعجمي ، والأعجم هو الذي لا يُحسِن الكلام العربي ، وإنْ كان ينطق به ، والعجميّ ضد العربيّ والعجم غير العرب . فالمعنى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ﴾ [الشعراء : 198] أي : القرآن العربي على بعض الأعجمين ما فهمه ، وقال ﴿ بَعْضِ ﴾ [الشعراء : 198] لمراعاة الاحتمال ، فمن العجم مَنْ تعلَّم العربية

وأجادها ويستطيع فَهْم القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 199] لأنهم لم يفهموا منه شيئاً ، فكذلك أنتم مثل هؤلاء العجم في تلقِّي واستقبال كلام الله ، لم تفهموا منه شيئاً .

ذلك لأنهم أحبوا الكفر والعناد وأصرُّوا عليه ، واستراحتْ إليه قلوبهم حتى عَشقوه ، فأعانهم الله عليه ، وختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمانٌ ، ولاَ يخرج منها كفر .

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200)

معنى ﴿ سَلَكْنَاهُ ﴾ [الشعراء : 200] أدخلناه في قلوب المجرمين ، كأنهم عجم لا يفهمون منه شيئاً ، لذلك ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [الشعراء : 201] وما داموا لن يؤمنوا به حتى يروا العذاب الأليم فلن يُقبلَ منهم إيمان .

ومعنى ﴿ بَغْتَةً ﴾ [الشعراء : 202] أي : فجأة ، ومن حيث لا يشعرون .

(103/572)

لذلك لما نزل القرآن وآمن برسول الله بعض الصحابة اضْطهد رسول الله وصحابته ، وأوذوا حتى صاروا لا يأمنون على أنفسهم من بَطْش الكفار ، حتى كانوا يبيتون في السلاح ، ويستيقظون في السلاح ، لا يجدون مَنْ يحميه .

وفي هذه الحالة نزل قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] فتعجب عمر رضي الله عنه : أيُّ جمع هذا الذي سيُهزم ، والمسلمون على هذه الحال ؟ فلما شهد بدراً وما كان فيها من قتْل المشركين ونُصْرة دين الله ، قال : نعم صدق الله ، سيُهزم الجمع ويُولُّون الدبر .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾

أي : انظرونا وتمهَّلوا علينا ، وأخِّروا عنَّا العذاب ، سبحان الله ألم تستعجلوه ؟ وهذه طبيعة أهل العناد والكفر إنْ تركناهم طلبوا أنْ ينزل عليهم ، وإنْ نزل بهم العذاب قالوا : انظرونا وتمهَّلوا علينا .

ثم يقول رب العزة سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ [الشعراء : 205] يعني : أخبرني ﴿ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الشعراء : 205206] ومع طول المدة ، إلا أن الغاية واحدة ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : 207] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(104/572)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ ﴾ :

الهاءُ تعودُ على القرآنِ ، وإن لم يَجْرِ له ذِكْرٌ للعِلْمِ به . وتنزيل بمعنى مُنَزَّل ، أو على حَذْفِ مضافٍ أي : ذو تنزيل .

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193)

قوله : ﴿ نَزَلَ ﴾ : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص " نَزَل " مخففاً . و ﴿ الروح الأمين ﴾ مرفوعان على إسنادِ الفعلِ للروحِ ، والأمينُ نعتُه ، والمرادُ به جبريل . وباقي السبعة بالتشديدِ مبنياً للفاعل ، وهو اللهُ تعالى . " الروحَ الأمينَ " منصوبان على المفعولِ . و " الروحُ الأمينُ " مرفوعان على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه . و " به " إمَّا متعلِّقٌ ب " نَزَلَ " أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ .

قوله : ﴿ على قَلْبِكَ لِتَكُونَ ﴾ : قال الشيخ : الظاهرُ تعلُّقُ " على قلبك " و " لتكون " ب " نَزَل " ولم يَذْكُرْ ما يقابلُ هذا الظاهرَ . وأكثرُ ما يُتَخيل أنَّه يجوز أن يتعلقا ب " تنزيل " أي : وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين على قلبك لتكون . ولكنْ فيه ضَعْفٌ من حيث الفصلُ بين المصدرِ ومعموله بجملة " نَزَلَ به الروحُ " . وقد يُجاب عنه بوجهين ، أحدُهما : أنَّ هذه الجملةَ اعتراضيةٌ وفيها تأكيدٌ وتسديدٌ ، فليسَتْ بأجنبية . والثاني : الاغتفارُ في الظرفِ

وعديله . وعلى هذا فلا يَبْعُدُ أن يجيءَ في المسألةِ بابُ الإعمالِ ؛ فإنّ كُلاًّ من/ " تنزيل " و " نَزَل " يطلبُ هذين الجارَّين .

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)

(105/572)

قوله : ﴿ بِلِسَانٍ ﴾ : يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ ب المُنْذِرين أي : ليكونَ من الذين أُنْذِرُوا بهذا اللسانِ العربيِّ وهم : هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ وإسماعيلُ ومحمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم . ويجوز أن يتعلَّقَ ب " نَزَلَ " أي : نَزَلَ باللسانِ العربيِ لتنذرَ به ؛ لأنه لو نَزَلَ بالأعجمي لقالوا : لِمَ نَزَل علينا ما لا نفهمُه ؟ وجَوَّز أبو البقاء أن يكون بدلاً من " به " بإعادةِ العاملِ قال : " أي : نَزَلَ بلسانٍ عربيّ أي : برسالة أو لغة " .

قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ﴾ : أي : وإن القرآنَ . وقيل : وإن محمداً . وفيه التفاتٌ ؛ إذ لو جرى على ما تقدَّم لقيل : وإنَّك لفي زُبُر . وقرأ الأعمش " زُبْرِ " بسكون الباء ، وهي مخففةٌ من المشهورةِ .

قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً ﴾ : قرأ ابن عامر " تكن " بالتاء مِنْ فوقُ " آيةٌ " بالرفع . والباقون " يكنْ " بالياء مِنْ تحتُ " آيةً " بالنصب . وابن عباس " تكن " بالتاء مِنْ فوقُ و "

آيةً" بالنصبِ . فأمَّا قراءةُ ابن عامرٍ ف" تكون" تُحتمل أَنْ تكونَ تامةً ، وأَنْ تكونَ ناقصةً . فإن كانَتْ تامةً جاز أن يكونَ "لهم" متعلقاً بها ، و"آيةٌ" فاعلاً بها . و"أَنْ يعلَمَه" : إمَّا بدلٌ مِنْ آية ، وإمَّا خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : أو لم يَحْدُثْ لهم علامَةُ عِلْمِ علماءِ بني إسرائيل .

(106/572)

وإنْ كانَتْ ناقصةً جاز فيها أربعةُ أوجهٍ ، أحدها : أَنْ يكونَ اسمُها مضمراً فيها بمعنى القصةِ ، و"آيةٌ أَنْ يَعْلَمَه" جملةٌ قُدِّم فيها الخبرُ واقعةٌ موقعَ خبر "تكن" . الثاني : أن يكونَ اسمُها ضميرَ القصةِ أيضاً ، و"لهم" خبرٌ مقدمٌ ، و"آيةٌ" مبتدأٌ مؤخر ، والجملةُ خبر "تكن" و"أَنْ يعلَمَه" : إمَّا بدلٌ من "آيةٌ" ، وإمَّا خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هي أَنْ يعلَمه . الثالث : أَنْ يكونَ "لهم" خبرَ "تكنْ" مقدَّماً على اسمها ، و"آيةٌ" اسمُها و"أَنْ يعلَمَه" على الوجهين المتقدِّمين : البدليةِ وخبرِ ابتداءٍ مضمرٍ . الرابع : أَنْ يكونَ "آيةٌ" اسمَها و"أَنْ يعلمَه" خبرُها . وقد اعتُرِضَ هذا : بأنه يَلْزَمُ جَعْلُ الاسمِ نكرةً ، والخبرِ معرفةً . وقد نصَّ بعضُهم على أنه ضرورةٌ كقوله :

3533 . . . . . ولا يَكُ مَوْقِفٌ

منكِ الوَداعا

وقوله :

3534 . . . . . يكون

مزاجَها عَسَلٌ وماءُ

وقد اعتُذِر عن ذلك : بأنَّ " آية " قد تخصَّصَتْ بقوله : " لهم " فإنه حالٌ منها ، والحال صفة ، وبأن تعريفَ الجنسِ ضعيفٌ لعمومه . وهو اعتذارٌ باطلٌ ولا ضرورةَ تَدْعُو إلى هذا التخريجِ ، بل التخريجُ ما تقدم .

وأمَّا قراءةُ الباقينَ فواضحةٌ جداً ف " آيةً " خبرٌ مقدمٌ ، و " أَنْ يَعْلَمه " اسمُها مؤخرٌ ، و " لهم " متعلِّقٌ بآية حالاً مِنْ " آية " .

وأمَّا قراءةُ ابنِ عباس فكقراءةِ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهم إلاَّ أَنْ قَالوا ﴾ [الأنعام : 23] وكقول لبيد :

3535 فمضَى وقدَّمها وكانت عادةً . . . منه إذا هي عَرَّدَتْ إقدامُها

(107/572)

إمَّا لتأنيثِ الاسمِ لتأنيث [الخبر] ، وإمَّا لأنه بمعنى المؤنث . ألا ترى أنَّ " أَنْ يعلَمَه " في قوةِ " المعرفةِ " و " إلاَّ أَنْ قالوا " في قوة " مقالتهم " وإقدامها " بإقدامتها " .

وقرأ الجحدريُّ : " أَنْ تعلمَه " بالتاء من فوق . شَبَّه البنين بجمع التكسير في تغيُّر واحدِه صورةً ، فعامَلَ فعلَه المسندَ إليه معاملةَ فعلِه في لَحاقِ علامةِ التأنيثِ . وهذا كقوله :

3536 قالَتْ بنو عامرٍ خالُوا بني أَسَدٍ . . . يا بؤسَ للجَهْلِ ضَرَّاراً لأَقْوامِ

وكتبوا في الرسم الكريم " عُلَمؤا " بواو الميمِ والألف . قيل : هو على لغة مَنْ يُميل الألفَ نحو الواوِ ، وهذا كما فُعِلَ في الصلاةِ والزكاةِ .

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198)

قوله : ﴿ الأعجمين ﴾ : قال صاحب " التحرير " : " الأعْجَمين جمع أعجمي بالتخفيف . ولولا هذا التقديرُ لم يَجُزْ أَنْ يُجمعَ جَمْعَ سلامةٍ " قلت : وكان سببُ مَنْعِ جمعِهِ : أنه من بابِ أَفْعَل فَعْلاء كأَحْمر حَمْراء . والبصريون لا يُجيزون جَمْعَه جمعَ سلامة إلاَّ ضرورةً كقوله :

3537 . . . . . حلائلَ أَسْوَدِيْنَ وأَحْمَرينا

فلذلك قَدَّره منسوباً فخففَ الياء . وقد جعله ابنُ عطية جمعَ أَعْجَم فقال : ألأَعْجَمون جمعُ أَعْجَمُ/ وهو الذي لا يُفْصِحُ ، وإن كان عربيَّ النسبِ يقال له " أعجمُ " وذلك يقال

للحيوانات . ومنه قوله صلَّى الله عليه وسلَّم : " جُرْحُ العجماء جُبار " وأسند الطبريُّ عن عبدِ الله بن مطيع : أنه كان واقفاً بعرفةَ وتحته جَمَلٌ فقال : جملي هذا أعجمُ ، ولو أنه أُنْزِل عليه ما كانوا يُؤْمِنون . والعَجَمِيُّ : هو الذي نِسْبَتُه في العَجَمِ ، وإن كان أفصحَ الناسِ " .

(108/572)

وقال الزمخشريُّ : " الأعجمُ : الذي لا يُفْصِحُ ، وفي لسانِه عُجْمَةٌ أو استعجامٌ . والأعجميُّ مثلُه ، إلاَّ أنَّ فيه زيادةَ النسَبِ توكيداً " قلت : وقد تقدَّم نحوٌ مِنْ هذا في سورة النحلِ . وقد صرَّح أبو البقاء بمَنْع أن يكون " الأعجمين " جمعَ " أَعْجم " وإنما هو جمعُ أعجمي مخففاً مِنْ أعجميّ ك " الأَشْعرون " في الأشعري قال : " الأعجمين [أي] : الأعجميين فحذف ياءَ النسب كما قالوا : الأشعرون أي : الأشعريُّون ، وواحدُه أعجمي ، ولا يجوز أن يكونَ جمعَ أعجم لأنَّ مؤنثَه عَجْماء . ومثلُ هذا لا يُجْمَعُ جَمْعَ التصحيح " . قلت : وقد تقدَّم ذلك . ففيما قال ابنُ عطية نظرٌ . وأمَّا الزمخشري فليس في كلامِه أنه جمع أَعْجم مخففاً أو غيرَ مخففٍ ، وإنْ كان ظاهرُه أنَّه جمع أعجم مِنْ غيرِ تخفيفٍ . ولكن الذي قاله ابن عطية تَبِعَ فيه الفراء فإنه قال : " الأعجمين جمعَ أَعْجم أو أعجمي على حَذْفِ ياءِ

النِّسَبِ كما قالوا : الأشعرين وواحدهم أشعري . وأنشد للكميت :

3538 ولو جَهَّزْتَ قافيةً شَرُوْدا . . . لقد دَخَلَتْ بيوتَ الأَشْعَرِيْنا

لكنَّ الفراء لا يَضُرُّه ذلك فإنه من الكوفيين . وقد قَدَّمْتُ عنهم أنهم يُجيزون جمع أَفْعَل فَعْلاء .

و[قرأ] الحسن وابن مقسم " الأَعْجميِّين " بياءَي النسب ، وهي مؤيدةٌ لتخفيفِه منه في قراءةِ العامَّة .

قوله : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ : أي : مثلَ ذلك ، أو الامر كذلك . والضمير في " سَلَكْناه " عائدٌ على القرآن وهو الظاهرُ أي : سلكناه في قلوبِ المجرمين ، كما سَلَكْناه في قلوبِ المؤمنين . ومع ذلك لم ينجَعْ فيهم . وقيل : عائدٌ على التكذيبِ أو الكفر .

(109/572)

قوله : ﴿ لاَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ : في الجملةِ وجهان ، أحدُهما : الاستئنافُ على جهةِ البيانِ والإِيضاحِ لما قبله . والثاني : أنها حالٌ من الضمير في " سَلَكْناه " أي : سَلَكْناه غيرَ مُؤْمَنٍ به . ويجوز أن يكونَ حالاً من " المجرمين " لأنَّ المضافَ جزءٌ من المضافِ إليه .

قوله : ﴿ فَيَأْتِيَهُم ﴾ : و " فيقولوا " عطفٌ على " يَرَوْا " . وقرأ العامة بالياءِ مِنْ تحتُ .

والحسن وعيسى بالتاء مِنْ فوقُ . أَنَّث ضميرَ العذابِ لأَنَّه في معنى العقوبة . وقال الزمخشري : " أَنَّثَ على أن الفاعل ضميرُ الساعة " . وقال الزمخشري : " فإن قلتَ : ما معنى التعقيب في قوله : " فَيَأْتِيَهم " ؟ قلت : ليس المعنى التعقيبَ في الوجود ، بل المعنى تَرَتُّبُها في الشدَّة . كأَنَّه قيل : لا يُؤْمِنُون بالقرآنِ حتى تكونَ رُؤْيَتُهم العذابَ [فما هو] أشدُّ منها . ومثالُ ذلك أن تقول : " إنْ أَسَأْتَ مَقَتَكَ الصالحون فَمَقَتَكَ اللهُ " ، فإنَّك لا تَقْصِدُ [بهذا الترتيب] أنَّ مَقْتَ اللهِ بعد مَقْتِ الصالحين ، وإنما قَصْدُكَ إلى ترتيبِ شدَّةِ الأمرِ على المسيء " .

وقرأ الحسن " بَغَتَةً " بفتحِ الغين .

(110/572)

قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ : قد تقدَّمَ تحقيقُه . وقد تنازَعَ " أفرأيت " و " جاءهم " في قوله : " ما كانوا يُمَتَّعون " فإن أَعْمَلْتَ الثاني وهو " جاءهم " رَفَعْتَ به " ما كانوا " فاعلاً به ، ومفعولُ " أرأَيْتَ " الأولُ ضميرُه ، ولكنه حُذِفَ ، والمفعولُ الثاني هو الجملةُ الاستفهاميةُ في قوله : " ما أَغْنَى عنهم " . ولا بُدَّ مِنْ رابطٍ بين هذه الجملةِ وبين المفعولِ الأولِ المحذوفِ ، وهو مقدَّرٌ ، تقديره : أفرأيتَ ما كانوا يُوْعَدُون ما أغنى عنهم تَمَتُّعُهم ، حين حَلَّ أي :

الموعودُ به . ودَلَّ على ذلك قوةُ الكلامِ . وإنْ أَعْمَلَتْ الأولَ نصبْتَ به " ما كانوا يُوْعَدُون " وأَضْمَرْتَ في " جاءهم " ضميرَه فاعلاً به . والجملةُ الاستفهاميةُ مفعولٌ ثانٍ أيضاً .

والعائدُ مقدرٌ على ما تقرَّرَ في الوجهِ قبلَه ، والشرطُ معترضٌ ، وجوابُه محذوفٌ . وهذا كلُّه مفهومٌ مما تقدَّمَ في سورةِ الأنعامِ ، وإنما ذكرْتُه هنا لأنه تقديرٌ عَسِرٌ يحتاج إلى تأمُّلٍ وحسنِ صناعةٍ ، وهذا كلُّه إنَّما يتأتى على قولِنا : إنَّ " ما " استفهاميةٌ ، ولا يَضُرُّنا تفسيرُهم لها بالنفي ، فإن الاستفهامَ قد يَرِدُ بمعنى النفي . وأمَّا إذا جَعَلْتَها نافيةً حرفاً ، كما قال أبو البقاء ، فلا يتأتى ذلك ؛ لأنَّ مفعولَ " أرأيت " الثاني لا يكونُ إلاَّ جملةً استفهاميةً كما تقرَّر غيرَ مرة .

قوله : ﴿ مَا أَغنى ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ " ما " استفهاميةً في محلِّ نصبٍ مفعولاً مقدَّماً ، و " ما كانوا " هو الفاعلُ ، و " ما " مصدريةٌ بمعنى : أيُّ شيءٍ أغنى عنهم كونَهم متمتِّعين . وأَنْ تكونَ نافيةً والمفعولُ محذوفٌ أي : لم يُغْنِ عنهم تمتُّعُهم شيئاً .

وقرىء "يُمْتَعُون " بإسكانِ الميم وتخفيف التاءِ ، مِنْ أَمْتَعَ اللهُ زيداً بكذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 550.559 ﴾

(111/572)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

كلامُ اللهِ العزيز مُنَزّلٌ على قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الحقيقة بسفارة جبريل عليه السلام . والكلامُ من الله غيرُ منفصل ، وبغير الله غير متصل . . وهو – على الحقيقة لا على المجاز – مُنَزّلٌ . ومعناه أن جبريل – عليه السلام – كان على السماء . فَسمِعَ من الربِّ ، وحَفِظَ ونَزَلَ ، وبَلَّغَ الرسولَ . فَمَرَّةً كان يُدْخِلُ عليه حالةً تأخذه عنه عند نزول الوحي عليه . ثم يُورِدُ جبريلُ ذلك على قلبه . ومرةً كان يتمثل له المَلَكُ فيُسْمِعهُ . والرسولُ – صلى الله عليه وسلم – يحفظه يُؤدّيه . والله – سبحانه ضَمِنَ له أنه سيُقْرِؤُه حتى لا ينساه . فكان يجمع اللَّهُ الحِفْظَ في قلبه . ويُسَهِّلُ له القراءةَ عند لفظه . ولمَّا عَجَزَ الناسُ بأجمعهم عن معارضته مع تحدّيه إياهم بالإتيان بمثله . . عُلِمَ صِدْقُه في أنَّه مِنْ قِبَلِ الله .

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)

جميعُ ما في هذا الكتاب من الأخبار والقصص ، وما في صفةِ الله من استحقاق جلاله – موافِقٌ لِما في الكتب المُنَزّلة من قِبَلِ الله قَبْلَه ، فمهما عارضوه فإنه كما قال جلَّ شأنه : ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : 42] .

ثم أخبر أنه لو نَزَّل هذا الكتابَ بغير لسانهم وبلغةٍ غير لغتهم لم يهتدوا إلى ذلك ، ولَقَالوا : لو

كان بلساننا لعرفناه ولآمَنَّا به ، فازاح عنهم العِلَّةَ ، وأكّد عليهم الحُجَّة .

ثم أخبر عن صادق عِلْمِه بهم ، وسابِق حَكْمِه بالشقاوة عليهم ، وهو أنهم لا يؤمنون به حتى يَرَوْا العذابَ في القيامة ، حين لا ينفعهم الإيمانُ ولا الندامةُ .

(112/572)

أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207)

إن أرخينا المُدَّةَ ، وأمهلناهم أزمنةً كثيرة – وهم بوصف الغفلة – فما الذي كان ينفعهم إذا أخَذَهُم العذابُ بغتةً ؟ !

ثم أخبر أنه لم يُهْلِكَ أهلَ قريةٍ إلاّ بعد أن جاءهم النذيرُ وأظهر لهم البيناتِ ، فإذا أصَرُّوا على كُفْرِهم عَذّبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 18 . 19 ﴾

(113/572)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : لم يغن عنهم شيئاً لأنهم ما أخذوا إلا بعد إنذار المنذرين ، لمشافهتك إياهم به ، وسماعهم لمثل ذلك عمن مضى قبلهم من الرسل ، عطف عليه قوله : ﴿ وما أهلكنا ﴾ أي بعظمتنا ، واعلم بالاستغراق بقوله : ﴿ من قرية ﴾ أي من القرى السالفة ، بعذاب الاستئصال ﴿ إلا لها منذرون ﴾ رسولهم ومن تبعه من أمته ومن سمعوا من الرسل بأخبارهم مع أممهم من قبل ، وأعراها من الواو لأن الحال لم يقتض التأكيد كما في الحجر ، لأن المنذرين مشاهدون .

وإذا تأملت آيات الموضعين ظهر لك ذلك ؛ ثم علل الإنذار بقوله : ﴿ ذكرى ﴾ أي تنبيهاً عظيماً على ما فيه من النجاة ، وتذكيراً بأشياء يعرفونها بما أدت إليه فطر عقولهم ، وقادت إليه بصائر قلوبهم ، وجعل المنذرين نفس الذكرى كما قال تعالى ﴿ قد أنزل الله

إليكم ذكراً رسولاً ﴾ [الطلاق : 10] وذلك إشارة إلى إمعانهم في التذكير حتى صاروا إياه .

ولما كان التقدير : فما أهلكنا قرية منها إلا بالحق ، عطف عليه قوله : ﴿ وما كنا ﴾ أو الواو للحال من نون ﴿ أهلكنا ﴾ ﴿ ظالمين ﴾ أي في إهلاك شيء منها لأنهم كفروا نعمتنا ، وعبدوا غيرنا ، بعد الإعذار إليهم ، ومتابعة الحجج ، ومواصلة الوعيد .

ولما أخبر سبحانه أن غاية إنزال هذا القرآن كونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المنذرين ، وأتبع ذلك ما لاءمه حتى ختم بإهلاك من كذب المنذرين ، عطف على قوله : ﴿ نزل به الروح ﴾ قوله إعلاماً بأن العناية شديدة في هذا السياق بالقرآن لتقرير أنه من عند الله ونفى اللبس عنه بقوله : ﴿ وما تنزلت به ﴾ أي القرآن ﴿ الشياطين ﴾ أي ليكون سحراً أو كهانة أو شعراً أو أضغاث أحلام كما يقولون .

ولما كان لا يلزم من عدم التلبس بالفعل عدم الصلاحية له قال : ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ أي ما يصح وما يتصور منهم النزول بشيء منه لأنه خير كله وبركة ، وهم مادة الشر والهلكة ، فبينهما تمام التباين ، وأنت سكينة ونور ، وهم زلزلة وثبور ، فلا إقبال لهم عليك ، ولا سبيل بوجه إليك .

ولما كان عدم الانتفاء لا يلزم منهم عدم القدرة قال : ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي النزول به وإن اشتدت معالجتهم على تقدير أن يكون لهم قابلية لذلك ؛ ثم علل هذا بقوله : ﴿ إنهم عن السمع ﴾ أي الكامل الحق ، من الملأ الأعلى ﴿ لمعزولون ﴾ أي بما حفظت به السماء من الشهب وبما باينوا به الملائكة في الحقيقة لأنهم خير صرف ، ونور خالص ، وهؤلاء شر بحت وظلمة محضة ، فلا يسمعون إلا خطفاً ، فيصير - بما يسبق إلى أفهامهم ، ويتصور من باب الخيال في أوهامهم - خلطاً لا حقيقة لأكثره ، فلا وثوق بأغلبه ، ولا يبعد أن يكون ذلك عاماً حتى يشمل السماع من المؤمنين لما شاركوا به الملائكة من النور والخير ، انظر ما ورد في آية الكرسي من أنها لا تقرأ في بيت فيقربه شيطان ، وفي رواية : إلا خرج منه الشيطان ، وورد نحوه في الآيتين من آخر سورة البقرة ، وكذا ما كان من أشكال ذلك ، وأعظم منه قوله عليه الصلاة والسلام لعمر - رضى الله عنه - : " إنه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك " وترك تعليل الانبغاء لظهوره .

(115/572)

ولما كان تقديره أنهم إلى الطواغيت الباطلة يدعون ، والقرآن داع إلى الله الحق المبين ، سبب عنه قوله : ﴿ فلا تدع ﴾ وخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام وهو أكرم الخلق لديه ، وأعزهم عليه ، ليكون لطفاً لغيره فيما يأتيه من الإنذار ، فيكون الوعيد أزجر له ، ويكون هو له أقبل ﴿ مع الله ﴾ أي الحائز لكل كمال الداعي إليه هذا القرآن الذي نزل به عليك الروح الأمين ، لما بينك وبينهما من تمام النسبة بالنورانية والخير ﴿ إلهاً ﴾ وتقدم في آخر الفرقان حكمة الإتيان بقوله : ﴿ آخر فتكون ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أن تكون ﴿ من المعذبين ﴾ من القادر على ما يريد بأيسر أمر وأسهله ، وهذا الكلام لكل من سمع القرآن في الحث على تدبره معناه ، ومقصده ومغزاه ، ليعلم أنه في غاية المباينة للشياطين وضلالهم ، والملاءمة للمقربين وأحوالهم ، لعله خاطب به المعصوم ، زيادة في الحث على اتباع الهدى ، وتجنب الردى ، وليعطف عليه قوله : ﴿ وأنذر ﴾ أي بهذا القرآن ﴿ عشيرتك ﴾ أي قبيلتك ﴿ الأقربين ﴾ أي الأدنين في النسب ، ولا تحاب أحداً ، فإن المقصود الأعظم به النذارة لكف الخلائق عما يثمر الهلاك من اتباع الشياطين الذين اجتالوهم عن دينهم بعد أن كانوا حنفاء كلهم ، وإنذار الأقربين يفهم الإنذار لغيرهم من باب الأولى ، ويكسر من أنفة الأبعد للمواجهة بما يكره ، لأنه سلك به مسلك الأقرب ، ولقد قام ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهذه الآية حق القيام ؛ روى البخاري

" عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما نزلت صعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر يا بني عدي لبطون – قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا : نعم ! ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ " وفي رواية أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " يا معشر قريش ! اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف ! لا أغني عنكم من الله شيئاً ! يا عباس بن عبد المطلب ! لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله ! لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد ! سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئاً " وروى القصة أبو يعلى عن الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ أن قريشاً جاءته فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آيات سليمان في الريح وداود في الجبال وموسى في البحر وعيسى في إحياء الموت ، وأن يسير الجبال ، ويفجر الأنهار ، ويجعل الصخر ذهباً ، فأوحى الله إليه وهم عنده ، فلما سُرِّيَ عنه أخبرهم أنه أعطي ما سألوه ، ولكنه أن أراهم فكفروا عوجلوا .

فاختار ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصبر عليهم ليدخلهم الله باب الرحمة .

ولما كانت النذارة إنما هي للمتولين ، أمر بضدها لأضدادهم فقال : ﴿ واخفض جناحك ﴾ أي لن غاية اللين ، وذلك لأن الطائر إذا أراد أن يرتفع رفع جناحيه ، فإذا أراد أن ينحط كسرهما وخفضهما ، فجعل ذلك مثلاً في التواضع ﴿ لمن اتبعك ﴾ ولعله احترز بالتعبير بصيغة الافتعال عن مثل أبي طالب ممن لم يؤمن أو آمن ظاهراً وكان منافقاً أو ضعيفاً بالإيمان فاسقاً ؛ وحقق المراد بقوله : ﴿ من المؤمنين ﴾ أي الذين صار الإيمان لهم صفة راسخة سواء كانوا من الأقربين أو الأبعدين .

ولما أفهم ذلك أن هذا الحكم عام في جميع أحوالهم ، فصل بقوله : ﴿ فإن عصوك ﴾ أي هم فغيرهم من باب الأولى ﴿ فقل ﴾ أي تاركاً لما كنت تعاملهم به حال الإيمان من اللين : ﴿ إني بريء ﴾ أي منفصل غاية الانفصال ﴿ مما تعملون ﴾ أي من العصيان الذي أنذر منه القرآن ، وخص المؤمنين إعلاء لمقامهم ، بالزيادة في إكرامهم ، ليؤذن ذلك المزلزل بالعلم بحاله فيحثه ذلك على اللحاق بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 395 . 398 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم بين أنه لم يهلك قرية إلا وهناك نذير يقيم عليهم الحجة .

أما قوله تعالى : ﴿ ذِكْرِى ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة ، إما لأن أنذر وذكر متقاربان ، فكأنه قيل مذكرون تذكرة ، وإما لأنها حال من الضمير في ﴿ مُنذِرُونَ ﴾ ، أي ينذرونهم ذوي تذكرة ، وإما لأنها مفعول له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة ، أو مرفوعة عل أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى ، والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى ، وجعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها ، ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له ، والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية قوم ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ، ﴿ وَمَا كُنَّا ظالمين ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين ، وهذا الوجه عليه المعول ، فإن قلت كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا ، ولم تعزل عنه في قوله : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كتاب مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : 4] قلت : الأصل عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية ، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) ﴾

اعلم أنه تعالى لما احتج على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بكون القرآن تنزيل رب العالمين ، وإنما يعرف ذلك لوقوعه من الفصاحة في النهاية القصوى ، ولأنه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت ، مع أنه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة ، فكان الكفار يقولون لم لا يجوز أن يكون هذا من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة ؟ ، فأجاب الله تعالى عنه بأن ذلك لا يتسهل للشياطين لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء ، ولقائل أن يقول العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يحصل إلا بواسطة خبر النبي الصادق ، فإذا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقاً بفصاحة القرآن وإخباره عن الغيب ، ولا يمكن إثبات كون الفصاحة والإخبار عن الغيب معجزاً إلا إذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن ذلك ، لزم الدور وهو باطل وجوابه : لا نسلم أن العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد إلا من قول النبي ، وذلك لأنا نعلم بالضرورة أن الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدو ، ونعلم بالضرورة أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم ، فلو كان هذا الغيب إنما حصل من إلقاء الشياطين ، لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم ، فكان

يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى ، فلما لم يكن كذلك علمنا أن الشياطين ممنوعون عن ذلك ، وأنهم معزولون عن تعرف الغيوب ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلها ءاخَرَ ﴾ وذلك في الحقيقة خطاب لغيره ، لأن من شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه إلى الرؤساء في الظاهر ، وأن كان المقصود بذلك هم الأتباع ، ولأنه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك ، فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) ﴾

(120/572)

اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تسلية رسوله أولاً ، ثم أقام الحجة على نبوته ، ثانياً ثم أورد سؤال المنكرين ، وأجاب عنه ثالثاً ، أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو ههنا أمور ثلاثة : الأول : قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ وذلك لأنه تعالى بدأ بالرسول فتوعده إن دعا مع الله إلهاً آخر ، ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب ، وذلك لأنه إذا تشدد على نفسه أولاً ، ثم بالأقرب فالأقرب ثانياً ، لم يكن لأحد فيه طعن ألبتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع ، وروي " أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الأقرب فالأقرب وقال

: يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ، يا عباس عم محمد ، يا صفية عمة محمد ؛ إني لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من المال ما شئتم " وروي " أنه جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً على رجل شاة وقعب من لبن ، وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس ، فأكلوا وشربوا ، ثم قال يا بني عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً ، أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم فقال : إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " الثاني : قوله : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ ﴾ واعلم أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب ، فإن قيل المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال : ﴿ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ ؟ جوابه : لا نسلم أن المتبعين للرسول هم المؤمنون فإن كثيراً منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين .

(121/572)

فأما قوله : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فمعناه ظاهر ، قال الجبائي هذا يدل على أنه عليه السلام كان بريئاً من معاصيهم ، وذلك يوجب أن الله تعالى أيضاً بريء من عملهم كالرسول وإلا كان مخالفاً لله ، كما لو رضي عمن سخط الله عليه لكان كذلك ، وإذا

كان تعالى بريئاً من عملهم فكيف يكون فاعلاً له ومريداً له ؟ الجواب : أنه تعالى بريء من المعاصي بمعنى أنه ما أمر بها بل نهى عنها ، فأما بمعنى أنه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه أنه علم وقوعها ، وعلم أن ما هو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع وإلا لانقلب علمه جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال ، وعلم أن ما هو واجب الوقوع فإنه لا يراد عدم وقوعه فثبت ما قلناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 147 . 148 ﴾

(122/572)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَك الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي نُزُولِهَا : وَذَاكَ أَنَّهَا نَزَلَتْ بِسَحَرٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَعِدَ الصَّفَا ، ثُمَّ نَادَى : يَا صَبَاحَاهُ وَكَانَتْ دَعْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ إذَا دَعَاهَا الرَّجُلُ اجْتَمَعَتْ إلَيْهِ عَشِيرَتُهُ ، فَاجْتَمَعَتْ إلَيْهِ قُرَيْشٌ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهَا ، فَعَمَّ وَخَصَّ ، فَقَالَ : ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْك كَذِبًا .

قَالَ : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

قَالَ : ﴿ يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ : يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ لُؤَيٍّ : يَا آلَ قُصَيٍّ ، يَا آلَ عَبْدِ شَمْسٍ ؛ يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ ، يَا آلَ هَاشِمٍ ؛ يَا آلَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا صَفِيَّةُ أُمَّ الزُّبَيْرِ ؛ يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ؛ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ ؛ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا .

يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، يَا صَفِيَّةُ ، يَا فَاطِمَةُ ؛ سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَوْلِيَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُتَّقُونَ ، فَإِنْ تَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَرَابَتِكُمْ فَذَلِكَ ، وَإِيَّايَ لَا يَأْتِي النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ ، وَتَأْتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى أَعْنَاقِكُمْ ؛ فَأَصُدُّ بِوَجْهِي عَنْكُمْ ، فَتَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ ، فَأَقُولُ : هَكَذَا وَصَرَفَ وَجْهَهُ إِلَى الشِّقِّ الْآخَرِ ؛ غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلَالِهَا ﴾ .

(123/572)

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ، تَبًّا لَك سَائِرَ الْيَوْمِ .

فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [الْمَسَدُ :] .

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ آلَ أَبِي طَالِبٍ لَيْسُوا إلَيَّ بِأَوْلِيَاءَ ، وَإِنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قَالَ الْبُخَارِيُّ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ شُعْبَةَ ، قَالَ : وَكَانَ

فِي كِتَابِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ بَيَاضٌ يَعْنِي بَعْدَ قَوْلِهِ " إلَيَّ " وَقَدْ بَيَّنَهُ أَبُو دَاوُد فِي جَمْعِ الصَّحِيحَيْنِ عَنْ شُعْبَةَ بِالسَّنَدِ الصَّحِيحِ ، فَقَالَ : ﴿ آلُ أَبِي طَالِبٍ لَيْسُوا إلَيَّ بِأَوْلِيَاءٍ ، إنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ : ﴿ لَا يَتَّكِلُ النَّاسُ عَلَيَّ بِشَيْءٍ ؛ لَا أُحِلُّ إلَّا مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، وَلَا أُحَرِّمُ إلَّا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، اعْمَلَا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(124/572)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أنهم لمصروفون عن السمع للقرآن .

الثاني : أنهم مصروفون عن فهمه وإن سمعوه .

الثالث : أنهم مصروفون عن العمل به وإن سمعوه وفهموه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(125/572)

وقال ابن عطية :

﴿ ذكرى ﴾ له وتبصرة وإقامة حجة لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، و ﴿ ذكرى ﴾ عند الكسائي نصب على الحال ، ويصح أن يكون في موضع نصب على المصدر ، وهو قول الزجاج ، ويصح أن يكون في موضع رفع على خبر الابتداء تقديره ذلك ذكرى ، ثم نفى عن جهته عز وجل الظلم إذ هو مما لا يليق به .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) ﴾

(126/572)

لما كان بعض ما قال الكفار إن هذا القرآن كهانة نزلت هذه الآية مكذبة لذلك أي ﴿ ما تنزلت به الشياطين ﴾ لأنها قد عزلت عن السمع الذي كانت تأخذ له مقاعدها ، وقوله ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ أي ما يمكنهم ، وقد تجيء هذه اللفظة عبارة عما لا يمكن وعبارة عما لا يليق وإن كان ممكناً ، ولما جاء الله بالإسلام حرس السماء بالشهب الجارية إثر الشياطين فلم يخلص شيطان بشيء يلقيه كما كان يتفق لهم في الجاهلية ، وقرأ الجمهور " الشياطين " ، وروي عن الحسن أنه قرأ " الشياطون " وهي قراءة مردودة ، قال أبو حاتم هي غلط منه أو عليه وحكاها الثعلبي أيضاً عن ابن السميفع ، وذكر عن يونس بن حبيب أنه قال سمعت أعرابياً يقول دخلت بساتين من ورائها بساتون قال يونس فقلت ما أشبه هذه بقراءة الحسن ، ثم وصى عز وجل نبيه عليه السلام بالثبوت على توحيد الله تعالى وأمره بنذارة عشيرته تخصيصاً لهم إذ العشيرة مظنة المقاربة والطواعية . وإذ يمكنه معهم من الإغلاظ عليهم ما لا يحتمله غيره فإن البر بهم في مثل هذا الحمل عليهم والإنسان غير متهم على عشيرته . وكان هذا التخصيص مع الأمر العام بنذارة العالم ، وروي عن ابن جريج أن المؤمنين من غير عشيرته في ذلك الوقت نالهم من هذا التخصيص وخروجهم منه فنزلت ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ ، ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه النذارة عظم موقع الأمر عليه وصعب ولكنه تلقاه بالجلد ، وصنع أشياء مختلفة كلها بحسب الأمر ، فمن ذلك أنه أمر علياً رضي الله عنه بأن يصنع طعاماً وجمع

عليه بني جده عبد المطلب وأراد نذارتهم ودعوتهم في ذلك الجمع وظهر منه عليه السلام بركة في الطعام ، قال علي وهم يومئذ أربعون رجلاً ينقصون رجلاً أو يزيدونه ، فرماه أبو لهب بالسحر فوجم رسول الله صلى الله عليه وسلم وافترق جمعهم من غير شيء ، ثم جمعهم كذلك ثانية وأنذرهم ووعظهم فتضاحكوا ولم يجيبوا ، ومن ذلك أنه نادى عمه العباس وصفية عمته

(127/572)

وفاطمة ابنته وقال لهم : " لا أغنى عنكم من الله شيئاً إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد " في حديث مشهور ، ومن ذلك أنه صعد على الصفا أو أبي قبيس ونادى " يا بني عبد مناف واصباحاه " فاجتمع إليه الناس من أهل مكة فقال يا بني فلان حتى أتى ، على بطون قريش جميعاً ، فلما تكامل خلق كثير من كل بطن . قال لهم " رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد الغارة عليكم أكنتم مصدقي " قالوا نعم ، فإنا لم نجرب عليك كذباً ، فقال لهم " فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد " ، فقال له أبو لهب ألهذا جمعتنا تباً لك سائر اليوم فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ [المسد : 1] السورة ، و" العشيرة " قرابة الرجل وهي في الرتبة تحت الفخذ وفوق الفصيلة ، وخفض الجناح استعارة معناه لين

الكلمة وبسط الوجه والبر ، والضمير في ﴿ عصوك ﴾ عائد على عشيرته من حيث جمعت رجالاً فأمره الله بالتبري منهم وفي هذه الآية موادعة نسختها آية السيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(128/572)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وما أهلكْنا مِنْ قرية ﴾

بالعذاب في الدنيا ﴿ إلا لها مُنْذِرونَ ﴾

يعني : رسُلاً تنذرهم العذابَ ﴿ ذِكْرى ﴾ أي : موعظة وتذكيراً .

قوله تعالى : ﴿ وما تنزَّلَتْ به الشياطين ﴾ سبب نزولها أن قريشاً قالت : إنما تجىء بالقرآن الشياطين فتُلقيه على [لسان] محمد ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ أي : أن ينزلوا بالقرآن ، ﴿ وما يستطيعون ﴾ أن يأتوا به من السماء ، لأنهم قد حِيل بينهم وبين السَّمع بالملائكة والشُّهُب .

﴿ إنَّهم عن السَّمْع ﴾ أي : عن الاستماع للوحي من السماء ﴿ لمعزولون ﴾ فكيف ينزلون به ؟ ! وقال عطاء : عن سماع القرآن لمحجوبون ، لأنهم يُرْجَمون بالنجوم .

قوله تعالى : ﴿ فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر ﴾ قال ابن عباس : يحذِّر به غيره ، يقول : أنت أكرمُ الخَلْق عليَّ ، ولو اتَّخذتَ من دوني إلهاً لعذَّبتُك .

قوله تعالى : ﴿ وأَنْذِر عشيرتك الأقربين ﴾ روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : " قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله ﴿ وأنذر عشيرتك الاقربين ﴾ فقال : "يا مَعْشَرَ قريش : اشْتَرُوا أنفُسَكم من الله ، لا أُغْني عنكم من الله شيئاً ، يا بَني عَبْدِ مَنافٍ لا أُغْني عنكم من الله شيئاً ، يا عبّاسُ بنَ عبد المُطَّلِب لا أُغْني عنكَ من الله شيئاً ، يا صفيةُ عَمَّةَ رسولِ الله لا أُغْني عنكِ من الله شيئاً ، يا فاطمةُ بنتَ محمد سَلِيني ما شئتِ ما أُغْني عنكِ من الله شيئاً" " وفي بعض الألفاظ : " سَلُوني مِنْ مالي ما شئتم " وفي لفظ : " غير أنَّ لكم رَحِماً سأَبُلُّها بِبلالها " ومعنى قوله : ﴿ عشيرتَكَ الأقربين ﴾ : رهطك الأدنَيْن .

﴿ فإن عَصَوْك ﴾ يعني : العشيرة ﴿ فقُلْ إنِّي بَريء مِمّا تَعْمَلون ﴾ من الكُفْر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(129/572)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾

﴿ مِن ﴾ صلة ؛ المعنى : وَمَا أَهْلَكْنَا قرية .

﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ أي رسل .

﴿ ذكرى ﴾ .

قال الكسائي : ﴿ ذِكْرَى ﴾ في موضع نصب على الحال .

النحاس ؛ وهذا لا يحصل ، والقول فيه قول الفراء وأبي إسحاق أنها في موضع نصب على المصدر ؛ قال الفراء : أي يذكّرون ذكْرَى ؛ وهذا قول صحيح ؛ لأن معنى ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ إلا لها مذكّرون .

و ﴿ ذِكْرَى ﴾ لا يتبين فيه الإعراب ؛ لأن فيها ألفاً مقصورة .

ويجوز ﴿ ذِكْرًى ﴾ بالتنوين ، ويجوز أن يكون ﴿ ذِكرى ﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدأ .

قال أبو إسحاق : أي إنذارنا ذكرى .

وقال الفراء : أي ذلك ذكرى ، وتلك ذكرى .

وقال ابن الأنباري قال بعض المفسرين : ليس في "الشعراء" وقف تام إلا قوله ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ وهذا عندنا وقف حسن ؛ ثم يبتدىء ﴿ ذِكْرَى ﴾ على معنى هي ذكرى

أي يذكرهم ذكرى ، والوقف على ﴿ ذِكْرَى ﴾ أجود .

﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾

يعني القرآن بل ينزل به الروح الأمين .

﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ أي برمي الشهب كما مضى في سورة "الحِجرِ" بيانه .

وقرأ الحسن ومحمد بن السَّمَيْقَع : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُونُ ﴾ قال المهدي : وهو غير جائز في العربية ومخالف للخط .

(130/572)

وقال النحاس : وهذا غلط عند جميع النحويين ؛ وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا غلط عند العلماء ، إنما يكون بدخول شبهة ؛ لما رأى الحسن في آخره ياء ونوناً وهو في موضع رفع اشتبه عليه بالجمع المسلّم فغلط ، وفي الحديث : " احذروا زلّة العالم" وقد قرأ هو مع الناس ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ ﴾ [البقرة : 14] ولو كان هذا بالواو في موضع رفع لوجب حذف النون للإضافة .

وقال الثعلبي قال الفراء : غلط الشيخ يعني الحسن فقيل ذلك للنضر بن شُمَيل فقال : إن جاز أن يحتج بقول رؤبة والعجاج وذويهما ، جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه .

مع أنا نعلم أنهما لم يقرأا بذلك إلا وقد سمعا في ذلك شيئاً ؛ وقال المؤرّج : إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه .

وقال يونس ابن حبيب : سمعت أعرابياً يقول دخلنا بساتين من ورائها بساتون ؛ فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين ﴾ قيل : المعنى قل لمن كفر هذا .

وقيل : هو مخاطبة له عليه السلام وإن كان لا يفعل هذا ؛ لأنه معصوم مختار ولكنه خوطب بهذا والمقصود غيره .

ودلّ على هذا قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ أي لا يتكلون على نسبهم وقرابتهم فيدعون ما يجب عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ خصّ عشيرته الأقربين بالإنذار لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشِّرك .

وعشيرته الأقربون قريش .

وقيل : بنو عبد مناف .

ووقع في "صحيح مسلم" : "وأنذِر عشيرتك الأقرِبين ورهطك مِنهم المخلَصِين" .

وظاهر هذا أنه كان قرآناً يتلى وأنه نسخ ؛ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر .

(131/572)

ويلزم على ثبوته إشكال ؛ وهو أنه كان يلزم عليه ألاّ ينذر إلاّ من آمن من عشيرته ؛ فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حبّ النبي صلى الله عليه وسلم لا المشركون ؛ لأنهم ليسوا على شيء من ذلك ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يثبت ذلك نقلاً ولا معنى .

وروى مسلم من حديث أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فعمّ وخصّ فقال : "يا بني كعب بن لؤيّ أنقذوا أنفسكم من النار يا بني مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم

أنقذوا أنفسكم من النار يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً غير أن لكم رحِماً سأَبُلُّها ببِلالها " .

الثانية : في هذا الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب ، ودليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته ؛ لقوله : " إن لكم رحِماً سَأَبُلُّها ببِلالها " وقوله عز وجل : ﴿ لاَّ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين ﴾ [الممتحنة : 8] الآية ، على ما يأتي بيانه هناك .

قوله تعالى : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ تقدم في سورة "الحِجرِ" و"سبحان" يقال : خفض جناحه إذا لان .

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أي خالفوا أمرك .

﴿ فَقُلْ إِنِّي بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي بريء من معصيتكم إياي ؛ لأن عصيانهم إياه عصيان لله عز وجل ، لأنه عليه السلام لا يأمر إلا بما يرضاه ، ومن تبرأ منه فقد تبرأ الله منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(132/572)

وقال أبو حيان :

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية من القرى إلا وقد أرسل إليها من ينذرها عذاب الله ، إن هي عصت ولم تؤمن ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ وجمع منذرون ، لأن ﴿ من قرية ﴾ عام في القرى الظالمة ، كأنه قيل : وما أهلكنا القرى الظالمة .

والجملة من قوله : ﴿ لها منذرون ﴾ ، في موضع الحال ﴿ من قرية ﴾ ، والإعراب أن تكون لها في موضع الحال ، وارتفع منذرون بالمجرور إلا كائناً لها منذرون ، فيكون من مجيء الحال مفرداً لا جملة ، ومجيء الحال من المنفي كقول : ما مررت بأحد إلا قائماً ، فصيح .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا ، ولم تعزل عنها في قوله : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ قلت : الأصل عزل الواو ، لأن الجملة صفة لقرية ، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف ، كما في قوله : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ انتهى .

ولو قدرنا لها منذرون جملة ، لم يجز أن تجيء صفة بعد إلا .

ومذهب الجمهور ، أنه لا تجيء الصفة بعد إلا معتمدة على أداة الاستثناء نحو : ما جاءني أحد إلا راكب .

وإذا سمع مثل هذا ، خرجوه على البدل ، أي : إلا رجل راكب .

ويدل على صحة هذا المذهب أن العرب تقول : ما مررت بأحد إلا قائماً ، ولا يحفظ من

كلامها : ما مررت بأحد إلا قائم .

فلو كانت الجملة في موضع الصفة للنكرة ، لورد المفرد بعد إلا صفة لها .

فإن كانت الصفة غير معتمدة على أداة ، جاءت الصفة بعد إلا نحو : ما جاءني أحد إلا زيد خير من عمرو ، التقدير : ما جاءني أحد خير من عمرو إلا زيد .

وأمّا كون الواو تزاد لتأكيد وصل الصفة بالموصوف ، فغير معهود في كلام النحويين .

لو قلت : جاءني رجل وعاقل ، على أن يكون وعاقل صفة لرجل ، لم يجز ، وإنما تدخل الواو في الصفات جوازاً إذا عطف بعضها على بعض ، وتغاير مدلولها نحو : مررت بزيد الكريم والشجاع والشاعر .

وأما ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ فتقدم الكلام عليه في موضعه .

(133/572)

﴿ وذكرى ﴾ : منصوب على الحال عند الكسائي ، وعلى المصدر عند الزجاج .

فعلى الحال ، إما أن يقدر ذوي ذكرى ، أو مذكرين .

وعلى المصدر ، فالعامل منذرون ، لأنه في معنى مذكرون ذكرى ، أي تذكرة .

وأجاز الزمخشري في ذكرى أن يكون مفعولاً له ، قال : على معنى أنهم ينذرون لأجل

الموعظة والتذكرة ، وأن تكون مرفوعة صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى ، أو جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها .

وأجاز هو وابن عطية أن تكون مرفوعة على خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى ، والجملة اعتراضية .

قال الزمخشري : ووجه آخر ، وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولاً له ، والمعنى : وما أهلكنا من قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ، لتكون تذكرة وعبرة لغيرهم ، فلا يعصوا مثل عصيانهم .

﴿ وما كنا ظالمين ﴾ ، فنهلك قوماً غير ظالمين ، وهذا الوجه عليه المعول . انتهى .

وهذا لا معوّل عليه ، لأن مذهب الجمهور أن ما قبل إلا لا يعمل فيما بعدها إلا أن يكون مستثنى ، أو مستثنى منه ، أو تابعاً له غير معتمد على الأداة نحو : ما مررت بأحد إلا زيد خير من عمرو .

والمفعول له ليس واحداً من هذه الثلاثة ، فلا يجوز أن يتعلق بأهلكنا .

ويتخرج جواز ذلك على مذهب الكسائي والأخفش ، وإن كانا لم ينصا على المفعول له بخصوصيته .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) ﴾

كان مشركو قريش يقولون : إن لمحمد تابعاً من الجن يخبره كما يخبر الكهنة ، فنزلت ،

والضمير في ﴿ به ﴾ يعود على القرآن ، بل ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ .

وقرأ الحسن : الشياطون ، وتقدمت في البقرة ، وقد ردها أبو حاتم والقراء ؛ قال أبو حاتم : هي غلط منه أو عليه .

وقال النحاس : هو غلط عند جميع النحويين .

وقال المهدوي : هو غير جائز في العربية .

وقال الفراء : غلط الشيخ ، ظن أنها النون التي على هجائن .

(134/572)

فقال النضر بن شميل : إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة ، فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه ، يريد محمد بن السميفع ، مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ بها إلا وقد سمعا فيه ؟

وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابياً يقول : دخلت بساتين من ورائها بساتون ، فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن . انتهى .

ووجهت هذه القراءة بأنه لما كان آخره كآخر يبرين وفلسطين ، فكما أجرى إعراب هذا على النون تارة وعلى ما قبله تارة فقالوا : يبرين ويبرون وفلسطين وفلسطون ؛ أجرى ذلك في الشياطين تشبيهاً به فقالوا : الشياطين والشياطون .

وقال أبو فيد مؤرج السدوسي : إن كان اشتقاقه من شاط ، أي احترق ، يشيط شوطة ، كان لقراءتهما وجه .

قيل : ووجهها أن بناء المبالغة منه شياط ، وجمعه الشياطون ، فخففا الياء ، وقد روي عنهما التشديد ، وقرأ به غيرهما . انتهى .

وقرأ الأعمش : الشياطون ، كما قرأه الحسن وابن السميفع .

فهؤلاء الثلاثة من نقلة القرآن ، قرأوا ذلك ، ولا يمكن أن يقال غلطوا ، لأنهم من العلم ونقل القرآن بمكان .

وما أحسن ما ترتب نفي هذه الجمل ؛ نفى أولاً تنزيل الشياطين به ، والنفي في الغالب يكون في الممكن ، وإن كان هنا لا يمكن من الشياطين التنزل بالقرآن ، ثم نفى انبغاء ذلك والصلاحية ، أي ولو فرض الإمكان لم يكونوا أهلاً له ، ثم نفى قدرتهم على ذلك وأنه مستحيل في حقهم التنزل به ، فارتقى من نفي الإمكان إلى نفي الصلاحية إلى نفي القدرة والاستطاعة ، وذلك مبالغة مترتبة في نفي تنزيلهم به ، ثم علل انتفاء ذلك عن استماع كلام أهل السماء مرجومون بالشهب .

ثم قال تعالى : ﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر ﴾ : والخطاب في الحقيقة للسامع ، لأنه تعالى قد علم أن ذلك لا يمكن أن يكون من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولذلك قال المفسرون : المعنى قل يا محمد لمن كفر : لا تدع مع الله إلهاً آخر .

ثم أمره تعالى بإنذار عشيرته ، والعشيرة تحت الفخذ وفوق الفصيلة ، ونبه على العشيرة ، وإن كان مأموراً بإنذار الناس كافة .

كما قال : ﴿ أن أنذر الناس ﴾ لأن في إنذارهم ، وهم عشيرته ، عدم محاباة ولطف بهم ، وأنهم والناس في ذلك شرع واحد في التخويف والإنذار .

فإذا كانت القرابة قد خوفوا وأنذروا مع ما يلحق الإنسان في حقهم من الرأفة ، كان غيرهم في ذلك أوكد وأدخل ، أو لأن البداءة تكون بمن يليه ثم من بعده ، كما قال :

﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام حين دخل مكة : " كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين ، فأول ما أضعه ربا العباس ، إذ العشيرة مظنة الطواعية ، ويمكنه من الغلظة عليهم ما لا يمكنه مع غيرهم ، وهم له أشد احتمالاً " وامتثل (صلى الله عليه وسلم) ما أمره به ربه من إنذار عشيرته ، فنادى الأقرب فالأقرب فخذاً .

وروي عنه في ذلك أحاديث .

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ : تقدم الكلام على هذه الجمل في آخر

الحجر ، وهو كناية عن التواضع .

وقال بعض الشعراء :

وأنت الشهير بخفض الجناح . . .

فلا تك في رفعه أجدلا

نهاه عن التكبر بعد التواضع .

والأجدل : الصقر ، ومن المؤمنين عام في عشيرته وغيرهم .

ولما كان الإنذار يترتب عليه إما الطاعة وإما العصيان ، جاء التقسيم عليهما ، فكان المعنى : أن من اتبعك مؤمناً ، فتواضع له ؛ فلذلك جاء قسيمه : ﴿ فإن عصوك ﴾ فتبرأ منهم ومن أعمالهم .

وفي هذا موادعة نسختها آية السيف .

والظاهر عود الضمير المرفوع في عصوك ، على أن من أمر بإنذارهم ، وهم العشيرة ، والذي برىء منه هو عبادتهم الأصنام واتخاذهم إلهاً آخر .

وقيل : الضمير يعود على من اتبعه من المؤمنين ، أي فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإسلام ، بعد تصديقك والإيمان بك ، ﴿ فقل إني بريء مما تعملون ﴾ ، لا منكم ، أي أظهر عدم رضاك بعملهم وإنكارك عليهم .

ولو أمره بالبراءة منهم ، ما بقي بعد هذا شفيعاً للعصاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(136/572)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾

من القُرى المهلكة ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ قد أنذروا أهلَها إلزاماً للحجَّةِ .

﴿ ذِكْرِى ﴾ أي تذكرةً ومحلُّها النصب على العلَّةِ أو المصدر لأنَّها في معنى الإنذارِ كأنَّه قيل مذكرون ذكرى أو على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ لفعل هو صفةٌ لمنذرون أي إلا لها منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرَّفع على أنَّها صفةُ منذرون بإضمار ذوو أو بجعلِهم ذكرى لإمعانِهم في التَّذكرةِ أو خبر مبتدأ محذوفٍ والجملةُ اعتراضيةٌ وضميرُ لها للقُرى المدلولِ عليها بمفردِها الواقع في حيّزِ النَّفي على أنَّ معنى أن الكل منذرين أعمُّ من أن يكونَ لكلِّ قريةٍ منها منذر واحد أو أكثر ﴿ وَمَا كُنَّا ظالمين ﴾ فنهلك غيرَ الظَّالمينَ وقيل : الإنذارُ والتَّعبيرُ عن ذلك بنفي الظَّالميةِ مع أنَّ إهلاكَهم قبل الإنذارِ ليس بظلمٍ أصلاً على ما تقرَّر من قاعدةِ أهلِ السُّنَّةِ لبيانِ كمال نزاهتِه تعالى عن ذلك بتصويرِه بصورةِ ما يستحيلُ صدورُه عنه تعالى من

الظلم وقد مرَّ في سورةِ آلِ عمرانَ عند قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بظلامٍ للْعَبيدِ ﴾

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾

ردٌّ لما زعمه الكفرةُ في حقِّ القرآنِ الكريمِ من أنه من قبيلِ ما يُلقيه الشَّيطانُ على الكَهنةِ بعد تحقيقِ الحقِّ ببيان أنه نزل به الرُّوحُ الأمينُ .

﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ ﴾ أي وما يصحُّ وما يستقيمُ لهم ذلك ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ذلك أصلاً .

(137/572)

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع ﴾ لكلامِ الملائكةِ ﴿ لَمَعْزُولُونَ ﴾ لانتفاءِ المشاركةِ بينهم وبين الملائكةِ في صفاء الذَّواتِ والاستعداد لقبولِ فيضان أنوار الحقِّ والانتقاش بصور العلومِ الرَّبانيةِ والمعارف النُّورانيةِ ، كيف لا ونفوسُهم خبيثةٌ ظلمانية شريرةٌ بالذَّاتِ غير مستعدة إلا لقبولِ ما لا خيرَ فيه أصلاً من فنُون الشُّرورِ فمن أين لهم أنْ يحومُوا حولَ القرآن الكريم المنطوي على الحقائقِ الرَّائقةِ الغيبيَّةِ التي لا يمكن تلقِّيها إلا من الملائكةِ عليهم الصَّلاة والسَّلام .

﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين ﴾ خُوطب به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

تهييجاً وحثاً على ازديادِ الإخلاصِ ولطفاً لسائرِ المكلَّفين ببيانِ أنَّ الإشراكَ من القُبح والسُّوء بحيث يُنهى عنه مَن لا يمكن صدورُه عنه فكيفَ بمن عداهُ.

﴿ وَأَنذِرِ ﴾ العذابَ الذي يستتبعهُ الشّركُ والمُعاصي ﴿ عَشِيرَتَكَ الأَقرِبِينَ ﴾ الأقربَ منهم فالأقربَ فإنَّ الإهتمامَ بشأنِهم أهمُّ.

(138/572)

رُوي أنَّه لمَّا نزلتْ صعدَ الصَّفا وناداهم فَخِذاً فَخِذاً حتى اجتمعُوا إليه فقال: "لو أخبرتُكم أنَّ بسفح هذا الجبلِ خيلاً أكنتُم مُصدِّقيّ" قالوا: نعمَ، قال: "فإنيّ نذيرٌ لكم بين يَديَّ عذابٍ شديدٍ" ورُوي أنَّه قال: "يا بني عبدِ المطَّلبِ يا بني هاشمِ يا بني عبدِ منافٍ افتدُوا أنفسَكم من النَّارِ فإنّي لا أُغني عنكم شيئاً" ثم قال: "يا عائشةُ بنت أبي بكرٍ ويا حفصةُ بنتَ عمرَ ويا فاطمةُ بنتَ محمَّدٍ ويا صفيَّةُ عمَّةَ محمَّدٍ اشترينَ أنفسكنَّ من النَّارِ فإنّي لا أُغني عنكُنَّ شيئاً". ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ أي ليّن جانبك لهم. مستعارٌ من حال الطَّائرِ فإنَّه إذا أرادَ أنْ ينحطَّ خفضَ جناحَه، ومن للتَّبيين لأنَّ من اتبَع أعمّ ممَّن اتبع لدينٍ أو غيره أو للتَّبعيض على أن المراد بالمؤمنينَ المشارفون للإيمانِ أو المصدّقون باللّسانِ فحسب.

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ ولم يتَّبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي مِمَّا تعملُون أو من أعمالكم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(139/572)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾

من القرى المهلكة ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ قد أنذروا أهلها إلزاماً للحجة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع خبراً مقدماً و ﴿ مُنذِرُونَ ﴾ مبتدأ ، والجملة في موضع الحال من ﴿ قَرْيَةٌ ﴾ قاله أبو حيان ثم قال : الأعراب أن يكون ﴿ لَهَا ﴾ في موضع الحال وارتفع ﴿ مُنذِرُونَ ﴾ بالجار والمجرور أي إلا كائناً لها منذرون فيكون من مجىء الحال مفرداً لا جملة ، ومجىء الحال من المنفي كقولك ما مررت بأحد إلا قائماً فصيح انتهى ، وفي الوجهين مجىء الحال من النكرة .

وحسن ذلك على ما قيل عمومها لوقوعها في حيز النفي مع زيادة من قبلها ، وكأن هذا القائل جعل العموم مسوغاً لمجىء الحال قياساً على جعلهم إياه مسوغاً للابتداء بالنكرة لاشتراك العلة .

وذهب الزمخشري إلى أن ﴿ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ جملة في موضع الصفة لقرية ولم يجوز أبو حيان كون الجملة الواقعة بعد إلا صفة ثم قال : مذهب الجمهور إنه لا تجيء الصفة بعد إلا معتمدة على أداة الاستثناء نحو ما جاءني أحد إلا راكب وإذا سمع خرج على البدل أي إلا رجل راكب .

ويدل على صحة هذا المذهب أن العرب تقول : ما مررت بأحد إلا قائماً ولا يحفظ من كلامها ما مررت بأحد إلا قائم فلو كانت الجملة في موضع الصفة للنكرة لورد المفرد بعد إلا صفة لها فإن كانت الصفة غير معتمدة على الأداة جاءت الصفة بعد إلا نحو ما جاءني أحد إلا زيد خير من عمرو فإن التقدير ما جاءني أحد خير من عمرو إلا زيد انتهى فتذكر .

وأياً ما كان فضمير ﴿ لَهَا ﴾ للقرية التي هي لما سمعت في معنى الجمع فكأنه قيل وما أهلكنا القرى إلا لها منذرون على معنى أن للكل منذرين أعم من أن يكون لكل قرية منها منذر واحد أو أكثر .

وقوله تعالى :

﴿ ذِكْرِى ﴾ منصوب على الحال من الضمير في ﴿ مُنذِرُونَ ﴾ [الشعراء : 208] عند الكسائي وعلى المصدر عند الزجاج فعلى الحال إما أن يقدر ذوي ذكرى أو يقدر مذكرين أو يبقى على ظاهره اعتباراً للمبالغة .

وعلى المصدر فالعامل ﴿ مُنذِرُونَ ﴾ لأنه في معنى مذكرون فكأنه قيل : مذكرون ذكرى أي تذكرة .

وأجاز الزمخشري أن يكون مفعولاً له على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة .

وأن يكون مرفوعاً على أنه خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى ، والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى أو مذكرين أو جعلوا نفس الذكرى مبالغة لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها ، وجوز أيضاً أن يكون متعلقاً بأهلكنا على أنه مفعول له .

والمعنى ما أهلكنا من قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ثم قال : وهذا هو الوجه المعول عليه .

وبين ذلك في "الكشف" بقوله : لأنه وعيد للمستهزئين وبأنهم يستحقون أن يجعلوا نكالاً وعبرة لغيرهم كالأمم السوالف حيث فعلوا مثل فعلهم من الاستهزاء والتكذيب فجوزوا بما جوزوا وحينئذٍ يتلائم الكلام انتهى ، وتعقب بأن مذهب الجمهور أن ما قبل إلا لا يعمل فيما بعدها إلا أن يكون مستثنى أو مستثنى منه أو تابعاً له غير معتمد على الأداة والمفعول له

ليس واحداً من هذه الثلاثة فلا يجوز أن يتعلق بأهلكنا .

ويتخرج جواز ذلك على مذهب الكسائي .

والأخفش وإن كانا لم ينصبا على المفعول له هنا وكان ذلك لما في نصبه عليه من التكلف وأمر الالتئام سهل كما لا يخفى ﴿ وَمَا كُنَّا ظالمين ﴾ أي ليس شأننا أن يصدر عنا بمقتضى الحكمة ما هو في صورة الظلم لو صدر من غيرنا بأن نهلك أحداً قبل إنذاره أو بأن نعاقب من لم يظلم .

ولإرادة نفي أن يكون ذلك من شأنه عز شأنه قال : ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ دون وما نظلم .

(141/572)

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 192] الخ وهو رد لقول مشركي قريش إن لمحمد صلى الله عليه وسلم تابعاً من الجن يخبره كما تخبر الكهنة وأن القرآن مما ألقاه إليه عليه الصلاة والسلام .

والتعبير بالتفعيل لأن النزول لو وقع لكان بالاستراق التدريجي ، وقرأ الحسن .

وابن السميقع ﴿ الشياطون ﴾ فقال أبو حاتم : هو غلط من الحسن أو عليه ، وقال النحاس : هو غلط عند جميع النحويين .

وقال المهدوي : هو غير جائز في العربية ، وقال الفراء : غلط الشيخ ظن أنها النون التي على هجائين ، وقال النضر بن شميل : إن جاز أن يحتج بقول العجاج .

ورؤبة فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ به إلا وقد سمعا فيه ، وقال يونس بن حبيب .

سمعت أعرابياً يقول دخلت بساتين من ورائها بساتون فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن انتهى .

ووجهت هذه القراءة بأنه لما كان آخره كرخر يبرين وفلسطين وقد قيل فيهما يبرون وفلسطون أجرى فيه نحو ما أجرى فيهما فقيل الشياطون .

وحقه على هذا على ما في "الكشاف" أن يشتق من الشيطوطة وهي الهلاك ، وفي "البحر" نقلاً عن بعضهم إن كان اشتقاقه من شاط أي احترق يشيط شوطة كان لقراءتهما وجه .

قيل : ووجهها أن بناء المبالغة منه شياط وجمعه الشياطون فخففا الياء وقد روي عنهما التشديد وقرأ به غيرهما ، وقال بعض : إنه جمع شياط مصدر شاط كخاط خياطاً كأنهما ردا الوصف إلى المصدر بمعناه مبالغة ثم جمعا والكل كما ترى ، وقال صاحب الكشف .

لا وجه لتصحيح هذه القراءة البتة .

وقد أطنب ابن جني في تصحيحها ثم قال : وعلى كل حال فالشياطون غلط .

وأبو حيان لا يرضى بكونه غلطاً ويقول : قرأ به الحسن .

وابن السميقع .

والأعمش ولا يمكن أن يقال : غلطوا لأنهم من العلم ونقل القرآن بمكان والله تعالى أعلم .

(142/572)

والذي أراه أنه متى صح رفع هذه القراءة إلى هؤلاء الأجلة لزم توجيهها فإنهم لا يقرؤون إلا عن رواية كغيرهم من القراء في جميع ما يقرؤونه عندنا ، وزعم المعتزلة أن بعض القراءات بالرأي .

﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ ﴾ أي وما يصح وما يستقيم لهم ذلك ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي وما يقدرون على ذلك أصلاً .

﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي الشياطين ﴿ عَنِ السمع ﴾ لما يتكلم به الملائكة عليهم السلام في السماء ﴿ لَمَعْزُولُونَ ﴾ أي ممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء فوجدناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مقاعد لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الان يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [الجن : 8 ، 9] والمراد تعليل ما تقدم

على أبلغ وجه لأنهم إذا كانوا ممنوعين عن سماع ما تتكلم به الملائكة في السماء كانوا ممنوعين من أخذ القرآن المجيد من اللوح المحفوظ أو من بيت العزة أو من سماعه إذ يظهره الله عز وجل لمن شاء في سمائه من باب أولى ، وقيل : المعنى أنهم لمعزولون عن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام لأنه مشروط بالمشاركة في صفات الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات لا تقبل ذلك والقرآن الكريم مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة عليهم السلام ، وتعقب بأنه إن أراد أن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام مطلقاً مشروط بصفات هم متصفون بنقائضها فهو غير مسلم كيف وقد ثبت أن الشياطين كانوا يسترقون السمع وظاهر الآيات أنهم إلى اليوم يسترقونه ويخطفون الخطفة فيتبعهم شهاب ثاقب .

وأيضاً لو كان ما ذكر شرطاً للسمع وهو منتف فيهم فأي فائدة للحرس ومنعهم عن السمع بالرجوم .

(143/572)

وأيضاً لو صح ما ذكر لم يتأت لهم سماع القرآن العظيم من الملائكة عليهم السلام سواء كان مشتملاً على الحقائق والمغيبات أم لا فما فائدة في قوله : والقرآن مشتمل الخ إلى غير ذلك .

وإن أراد أن السمع لكلام الملائكة عليهم السلام إذا كان وحياً منزلاً على الأنبياء عليهم السلام مشروط بما ذكر فهو مع كونه خلاف ظاهر الكلام غير مسلم أيضاً كيف وقد ثبت أن جبريل عليه السلام حين ينزل بالقرآن ينزل معه رصد حفظاً للوحي من الشيطان وقد قال عز وجل : ﴿ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رسالات رَبِّهِمْ ﴾ [الجن : 26 28] وأيضاً ظاهر العزل عن السمع يقتضي أنهم كانوا ممكنين منه قبل ثم منعوا عنه فيلزم على ما ذكر أنهم كانوا يسمعون الوحي من قبل مع أن نفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة بالذات فيبطل كون المشاركة المذكورة شرطاً للسمع ، فإن ادعى أن الشرط كان موجوداً إذ ذاك ثم فقد والتزم القول بجواز تغير ما بالذات فهو مما لم يقم عليه دليل وقياس جميع الشياطين على إبليس عليه اللعنة مما لا يخفى حاله فتدبر .

وبالجملة الذي أميل إليه في معنى الآية ما ذكرته أولاف .

وسيأتي قريباً إن شاء الله تعالى ما يتعلق بذلك ، وجوز كون ضمير ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ للمشركين .

والمراد أنهم لا يصغون للحق لعنادهم ، وفي الآية شمة من قوله تعالى : ﴿ والذين كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُم مّنَ النور إِلَى الظلمات ﴾ [البقرة : 257] وهو بعيد جداً .

﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين ﴾ خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم مع استحالة صدور المنهي عنه عليه الصلاة والسلام تهييجاً وحثاً لازدياد الإخلاص فهو كناية عن أخلص في التوحيد حتى لا ترى معه عز وجل سواه .

(144/572)

وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لم يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه .

وكأن الفاء فصيحة أي إذا علمت ما ذكر فلا تدع مع الله إلهاً آخر .

﴿ وَأَنذِرِ ﴾ العذاب الذي يستتبعه الشرك والمعاصي ﴿ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ أي ذوي القرابة القريبة أو الذين هم أكثر قرباً إليك من غيرهم .

والعشيرة على ما قال الجوهري : رهط الرجل الأدنون .

وقال الراغب هم أهل الرجل الذين يتكثر بهم أي يصيرون له بمنزلة العدد الكامل وهو العشرة .

واشتهر أن طبقات الأنساب ست ، الأولى : الشعب بفتح الشين وهو النسب الأبعد كعدنان ، الثانية : القبيلة وهي ما انقسم فيه الشعب كربيعة ومضر .

الثالثة : العمارة بكسر العين وهي ما انقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة .

الرابعة : البطن وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة كبني عبد مناف وبني مخزوم .

الخامسة : الفخذ وهو ما انقسم فيه أنساب البطن كبني هاشم .

وبني أمية .

السادسة : الفصيلة وهي ما انقسم فيه أنساب الفخذ كبني العباس .

وبني عبد المطلب وليس دون الفصيلة إلا الرجل وولده .

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه تقديم الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم الفخذ فأقام الفصيلة مقام العمارة في ذكرها بعد القبيلة والعمارة مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ ولم يحك ما يخالفه ولم يذكر في الترتيبين العشيرة ، وفي "البحر" أنها تحت الفخذ فوق الفصيلة ، والظاهر أن ذلك على الترتيب الأول .

وحكى بعضهم بعد أن نقل الترتيب المذكور عن النووي عليه الرحمة أنه قال في تحرير التنبيه : وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة .

ويفهم من كلام البعض أن العشيرة إذا وصفت بالأقرب اتحدت مع الفصيلة التي هي سادسة الطبقات ، وأنت تعلم أن الأقربية إذا كانت مأخوذة في مفهومها كما يفهم من كلام الجوهري تستغني دعوى الاتحاد عن الوصف المذكور .

وفي كليات أبي البقاء كل جماعة كثيرة من الناس يرجعون إلى أب مشهور بأمر زائد فهو شعب كعدنان ودونه القبيلة وهي ما انقسمت فيها أنساب الشعب كربيعة .

ومضر ، ثم العمارة وهي ما انقسمت فيها أنساب القبيلة كقريش .

وكنانة ، ثم البطن وهي ما انقسمت فيها أنساب العمارة كبني عبد مناف .

وبني مخزوم ، ثم الفخذ وهي ما انقسمت فيها أنساب البطن كبني هاشم .

وبني أمية ، ثم العشيرة وهي ما انقسمت فيها أنساب الفخذ كبني العباس .

وبني أبي طالب .

والحي يصدق على الكل لأنه للجماعة المتنازلين بمربع منهم انتهى .

ولم يذكر فيه الفصيلة وكأنه يذهب إلى اتحادها بالعشيرة .

ووجه تخصيص عشيرته صلى الله عليه وسلم الأقربين بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام دفع توهم المحاباة وأن الاهتمام بشأنهم أهم وأن البداءة تكون بمن يلي ثم من بعده كما قال سبحانه : ﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مّنَ الكفار ﴾ [التوبة : 123] وفي كيفية الإنذار أخبار كثيرة ، منها ما أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : "لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي يا بني فهو يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع

أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ [المسد : 1 ، 2] "ومنها ما أخرجه أحمد .

(146/572)

وجماعة عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً وعم وخص فقال : "يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا معشر بني كعب ابن لؤي انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا معشر بني قصي انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا معشر بني عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا معشر بني عبد المطلب انقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً إلا أن لكم رحماً وسأبلها

ببلالها "

وجاء في بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية جمع عليه الصلاة والسلام بني هاشم فأجلسهم على الباب وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت ثم أطلع عليهم فأنذرهم ، وجاء في بعض آخر منها أنه عليه الصلاة والسلام أمر علياً كرم الله تعالى وجهه أن يصنع طعاماً ويجمع له بني عبد المطلب ففعل وجمعهم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً فبعد أن أكلوا أراد صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لبه إلى الكلام فقال : لقد سحركم صاحبكم فتفرقوا ثم دعاهم من الغد إلى مثل ذلك ثم بدرهم بالكلام فقال : يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله تعالى والبشير قد جئتكم بما لم يجيء به أحد جئتكم بالدنيا والآخرة فأسلموا تسلموا وأطيعوا تهتدوا إلى غير ذلك من الأخبار والروايات وإذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار .

ومن الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعونه في أمر الخلافة وهو مؤول أو ضعيف أو موضوع ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ ورهطك منهم المخلصين .

(147/572)

﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم بالتواضع على سبيل الاستعارة التبعية أو التمثيلية أو المجاز المرسل وعلاقته اللزوم ، ويستعمل في التكبر رفع الجناح وعلى ذلك جاء قول الشاعر :

وأنت الشهير بخفض الجناح . . .

فلا تك في رفعه أجدلاً

و ﴿ مِنْ ﴾ قيل : بيانية لأن من اتبع في أصل معناه أعم ممن اتبع لدين أو غيره ففيه إبهام وبذكر المؤمنين المراد بهم المتبعون للدين زال ذلك ، وقيل : للتبعيض بناءً على شيوع من اتبع فيمن اتبع للدين وحمل المؤمنين على من صدق باللسان ولو نفاقاً ولا شك أن المتبعين للدين بعض المؤمنين بهذا المعنى ، وجوز أن يحمل على من شارف وإن لم يؤمن .

ولا شك أيضاً أن المتبعين المذكورين بعضهم وفي الآية على القولين أمر بالتواضع لمن اتبع للدين .

وقال بعضهم : على تقدير كونها بيانية أن المؤمنين يراد بهم الذين لم يؤمنوا بعد وشارفوا لأن يؤمنوا كالمؤلفة مجاز باعتبار الأول وكان من اتبعك شائعاً في من آمن حقيقة .

ومن آمن مجازاً فبين بقوله تعالى : ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ أن المراد بهم المشارفون أي تواضع للمشارفين استمالة وتأليفاً ، وعلى تقدير كونها تبعيضية يراد بالمؤمنين الذين قالوا آمنا وهم صنفان .

صنف صدق واتبع .

وصنف ما وجد منهم إلا التصديق فقيل : من المؤمنين وأريد بعض الذين صدقوا واتبعوا أي تواضع لبعض المؤمنين وهم الذين اتبعوك محبة ومودة .

وعلى هذا يكون الذين أمر صلى الله عليه وسلم بالتواضع لهم على تقدير البيان غير الذي أمر عليه الصلاة والسلام بالتواضع لهم على تقدير التبعيض .

(148/572)

وقال بعض الأجلة الاتباع والإيمان توأمان إذ المتبادر من أتباعه عليه الصلاة والسلام اتباعه الديني وكذا المتبادر من الإيمان الإيمان الحقيقي ، وذكر ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ لإفادة التعميم كذكر ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] بعد طائر في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ وتفيد الآية الأمر بالتواضع لكل من آمن من عشيرته صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

وقال الطيبي : الإجراء على أفانين البلاغة أن يحمل الكلام على أسلوب وضع المظهر موضع المضمر وأن الأصل وأنذر عشيرتك الأقربين .

واخفض جناحك لمن اتبعك منهم فعدل إلى المؤمنين ليعم ويؤذن أن صفة الإيمان هي التي

يستحق أن يكرم صاحبها ويتواضع لأجلها من اتصف بها سواء كان من عشيرتك أو غيرهم وليس هذا بالبعيد لكني أختار كون من بيانية وأن عموم من اتبعك باعتبار أصل معناه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ [الشعراء : 214] بدأ صلى الله عليه وسلم بأهل بيته وفصيلته فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله تعالى : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ .

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ الظاهر أن الضمير المرفوع في ﴿ عَصَوْكَ ﴾ عائد على من أنذر صلى الله عليه وسلم بإنذارهم وهم العشيرة أي فإن عصوك ولم يتبعوك بعد إنذارهم فقل : إني بريء من عملكم أو الذي تعملونه من دعائكم مع الله تعالى إلهاً آخر ، وجوز أن يكون عائداً على الكفار المفهوم من السياق ، وقيل : هو عائد على من اتبع من المؤمنين أي فإن عصوك يا محمد في الأحكام وفروع الإسلام بعد تصديقك والإيمان بك وتواضعك لهم فقل : إني بريء مما تعملون من المعاصي أي أظهر عدم رضاك بذلك وإنكاره عليهم .

وذكر على هذا أنه صلى الله عليه وسلم لو أمر بالبراءة منهم ما بقي شفيعاً للعصاة يوم القيامة ، والآية على غير هذا القول منسوخة .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قال : أمره سبحانه بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم ، وفي "البحر" هذه موادعة نسختها آية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(150/572)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ﴾

تذكير لقريش بأن القرى التي أهلكها الله والتي تقدم ذكرها في هذه السورة قد كان لها رسل ينذرونها عذاب الله ليقيسوا حالتهم على أحوال الأمم التي قبلهم .

والاستثناء من أحوال محذوفة .

والتقدير : وما أهلكنا من قرية في حال من الأحوال إلا في حال لها منذرون .

وعُرّيت جملة الحال عن الواو استغناء عن الواو بحرف الاستثناء ، ولو ذكرت الواو لجاز كقوله في سورة الحجر (4) ﴿ إلا ولها كتاب معلوم ﴾ وعبّر عن الرسل بصفة الإنذار لأنه المناسب للتهديد بالإهلاك .

ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209)

أي هذه ذكرى ، فذكرى في موضع رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف دلت عليه قرينة السياق كقوله تعالى في سورة الأحقاف (35) ﴿ بَلاَغ ﴾ أي هذا بلاغ ، وفي سورة إبراهيم (52) ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ وفي سورة ص (49) ﴿ هَذا ذِكْر ﴾ والمعنى : هذه ذكرى لكم يا معشر قريش .

وهذا المعنى هو أحسن الوجوه في موقع قوله : ﴿ ذكرى ﴾ وهو قول أبي إسحاق الزجاج والفراء وإن اختلفا في تقدير المحذوف قال ابن الأنباري : قال بعض المفسرين : ليس في الشعراء وقف تام إلاّ قوله : ﴿ إلا لها منذرون ﴾ [الشعراء : 208] .

وقد تردد الزمخشري في موقع قوله : ﴿ ذكرى ﴾ بوجوه جعلها جميعاً على اعتبار قوله : ﴿ ذكرى ﴾ تكملة للكلام السابق وهي غير خلية عن تكلف .

والذكرى : اسم مصدر ذَكَّر .

وجملة : ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على ﴿ ذكرى ﴾ أي نذكّركم ولا نظلم ، وأن تكون حالاً من الضمير المستتر في ﴿ ذكرى ﴾ لأنه كالمصدر يقتضي مسنداً إليه ، وعلى الوجهين فمفاد ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ الإعذار لكفار قريش والإنذار بأنهم سيحلّ بهم هلاك .

وحذف مفعول ﴿ ظالمين ﴾ لقصد تعميمه كقوله تعالى : ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ [

الكهف : 49] .

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210)

(151/572)

عطف على جملة : ﴿ وإنه لتنزيل ربّ العالمين ﴾ [الشعراء : 192] وما بينهما اعتراض استدعاه تناسب المعاني وأخذُ بعضها بحُجز بعض تفنناً في الغرض .

وهذا رد على قولهم في النبي صلى الله عليه وسلم هو كاهن قال تعالى : ﴿ فذكّر فما أنت بنعمت ربّك بكاهن ولا مجنون ﴾ [الطور : 29] ، وزعمهم أن الذي يأتيه شيطان ؛ فقد قالت العوراء بنت حرب امرأةُ أبي لهب لما تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قيام الليل ليلتين لمرض : أرجو أن يكون شيطانك قد تركك .

ولذلك كان من جملة ما راجعهم به الوليد بن المغيرة حين شاوره المشركون فيما يصفون النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : نقول : كلامه كلام كاهن ، فقال : والله ما هو بزمزمته .

وكلام الكهان في مزاعمهم من إلقاء الجن إليهم وإنما هي خواطر نفوسهم ينسبونها إلى شياطينهم المزعومة .

نُفي عن القرآن أن يكون من ذلك القبيل ، أي الكهان لا يجيش في نفوسهم كلام مثل القرآن فما

كان لشياطين الكهان أن يفيضوا على نفوس أوليائهم مثلَ هذا القرآن .

فالكهانة من كذب الكهان وتمويههم ، وأخبار الكهان كلها أقاصيص وسَّعها الناقلون .

فالتعريف في ﴿ السمع ﴾ للعهد وهو ما يعتقده العرب من أن الشياطين تسترق السمع ، أي تتحيّل على الاتصال بعلم ما يجري في الملإ الأعلى .

ذلك أن الكهان كانوا يزعمون أن الجن تأتيهم بأخبار ما يقدّر في الملأ الأعلى مما سيظهر حدوثه في العالم الأرضي ، فلذلك نُفي هنا تنزُّلُ الشياطين بكلام القرآن بناء على أن المشركين يزعمون أن الشياطين تنزل من السماء بأخبار ما سيكون .

وبيان ذلك تقدم في سورة الحجر ويأتي في سورة الصافات .

(152/572)

ومعنى : ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ ما يستقيم وما يصح ، أي لا يستقيم لهم تلقي كلام الله تعالى الذي الشأن أن يتلقاه الروح الأمين ، وما يستطيعون تلقيه لأن النفوس الشيطانية ظلمانية خبيثة بالذات فلا تقبل الانتقاش بصورِ ما يجري في عالم الغيب ، فإن قبول فيضان الحق مشروط بالمناسبة بين المبدأ والقابل .

فضمير ﴿ ينبغي ﴾ عائد إلى ما عاد عليه ضمير ﴿ به ﴾ ، أي ما ينبغي القرآن لهم ،

أي ما ينبغي أن ينزلوا به كما زعم المشركون .

ومفعول ﴿ يستطيعون ﴾ محذوف ، أي ما يستطيعونه .

وأعيدت الضمائر بصيغة العقلاء بعد أن أضمر لهم بضمير غير العقلاء في قوله : ﴿ وما تنزلت ﴾ اعتباراً بملابسة ذلك للكهان .

وقد تقدم في سورة الحجر أن صنفاً من الشياطين يتهيّأ للتلقي بما يسمَّى استراق السمع وأنه يصرف عنه بالشُّهب .

واستؤنف بـ ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ فكان ذلك كالفذلكة لما قبله وهو بعمومه يتنزل منزلة التذييل .

والمعزول : المبعد عن أمر فهو في عُزلة عنه .

وفي هذا إبطال للكهانة من أصلها وهي وإن كانت فيها شيء من الاتصال بالقوى الروحية في سالف الزمان فقد زال ذلك منذ ظهور الإسلام .

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)

لما وجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قوله : ﴿ نَزَل به الروح الأمين على قلبك ﴾ [الشعراء : 193 ، 194] إلى هنا ، في آيات أشادت بنزول القرآن من عند الله تعالى وحققت صدقه بأنه مذكور في كتب الأنبياء السالفين وشهد به علماء بني إسرائيل ، وأنحى على المشركين بإبطال ما ألصقوه بالقرآن من بهتانهم ، لا جرم اقتضى ذلك ثبوت ما

جاء به القرآن .

وأصل ذلك هو إبطال دين الشرك الذي تقلدته قريش وغيرها وناضلت عليه بالأكاذيب ؛ فناسب أن يتفرع عليه النهي عن الإشراك بالله والتحذير منه .

(153/572)

فقوله : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر ﴾ خطاب لغير معيّن فيعمّ كل من يسمع هذا الكلام ، ويجوز أن يكون الخطاب موجهاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه المبلغ عن الله تعالى فللاهتمام بهذا النهي وقع توجيهه إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع تحقق أنه منته عن ذلك ، فتعين أن يكون النهي للذين هم متلبسون بالإشراك ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت لَيَحْبَطَنَّ عملُك ولتكونَنّ من الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] .

والمقصود من مثل ذلك الخطاب غيره ممن يبلغه الخطاب .

فالمعنى : فلا تدعوا مع الله إلهاً آخر فتكونوا من المعذبين .

وفي هذا تعريض بالمشركين أنهم سيعذبون للعلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه غير مشركين .

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

عطف على قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ [الشعراء : 193 - 194] ، فهو تخصيص بعد تعميم للاهتمام بهذا الخاص .

ووجه الاهتمام أنهم أولى الناس بقبول نصحه وتعزيز جانبه ولئلا يسبق إلى أذهانهم أن ما يلقيه الرسول من الغلظة في الإنذار وأهوال الوعيد لا يقع عليهم لأنهم قرابة هذا المنذر وخاصته .

ويدل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم في ندائه لهم : " لا أغني عنكم من الله شيئاً " ، وأن فيه تعريضاً بقلة رعي كثير منهم حق القرابة إذ آذاه كثير منهم وعصَوْه مثل أبي لهب فلا يحسبوا أنهم ناجون في الحالتين وأن يعلموا أنهم لا يكتفَى من مؤمنهم بإيمانه حتى يضم إليه العمل الصالح ؛ فهذا مما يدخل في النذارة ، ولذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول هذه الآية قرابتَه مؤمنين وكافرين .

(154/572)

ففي حديث عائشة وابن عباس وأبي هريرة في "صحيحي البخاري ومسلم" يجمعها قولهم : "لمّا نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله على الصَّفا فدعا قريشاً فجعل

ينادي : يا بني فهر يا بني عديّ ، لبطون قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فقال : يا معشر قريش ، فعَمَّ وخص ، يا بني كعب بنِ لؤي أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، اشتروا أنفسكم من الله لا أُغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفيةُ عمةَ رسول الله لا أغني عنكِ من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت رسول الله سليني من مالي ما شئتِ لا أُغني عنك من الله شيئاً ، غيرَ أنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها ببلاَلها" وكانت صفية وفاطمة من المؤمنين وكان إنذارهما إعمالاً لفعل الأمر في معانيه كلها من الدعوة إلى الإيمان وإلى صالح الأعمال ؛ فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الإنذار من الشرك والإنذار من المعاصي لأنه أنذر صفية وفاطمة وكانتا مسلمتين .

وفي "صحيح البخاري" عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد النبي (صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي : يا بني فهر يا بني عديّ ، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكُم لو أخبرتُكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدِّقِيَّ ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تبّاً لك سائرَ اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تبت يَدا أبي لهب وتبَّ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ [المسد : 1 - 2] .

(155/572)

وهذا الحديث يقتضي أن سورة الشعراء نزلت قبل سورة أبي لهب مع أن سورة أبي لهب عُدّت السادسة في عداد نزول السور ، وسورة الشعراء عُدّت السابعة والأربعين .

فالظاهر أن قوله : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ نزل قبل سورة الشعراء مفرداً ، فقد جاء في بعض الروايات عن ابن عباس في "صحيح مسلم" : لمّا نزلت "وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطَك منهم المخلصين" وأن ذلك نسخ .

فلعل الآية نزلت أول مرة ثم نسخت تلاوتها ثم أعيد نزول بعضها في جملة بسورة الشعراء .

والعشيرة : الأدْنَوْن من القبيلة ، فوصف ﴿ الأقربين ﴾ تأكيد لمعنى العشيرة واجتلاب لقلوبهم إلى إجابة ما دعاهم إليه وتعريض بأهل الإدانة منهم .

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد .

وإلى هذا يشير قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم في آخر الدعوة المتقدمة "غير أن لكم

رحماً سأُبلُّها ببلالها" أي ذلك منتهى ما أملك لكم حين لا أملك لكم من الله شيئاً ، فيحق عليكم أن تبُلُّوا لي رحمي مما تملكون ، فإنكم تملكون أن تستجيبوا لي .

وتقدم ذكر العشيرة في قوله تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ﴾ في سورة [براءة : 24] .

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215)

معترض بين الجملتين ابتداراً لكرامة المؤمنين قبل الأمر بالتبرؤ من الذين لا يؤمنون ، وبعد الأمر بالإنذار الذي لا يخلو من وقع أليم في النفوس .

وخفض الجناح : مثَل للمعاملة باللِّين والتواضع .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ في سورة الحجر (88) ، وقوله : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ في سورة الإسراء (24) .

والجَناح للطائر بمنزلة اليدين للدواب ، وبالجناحين يكون الطيران .

و﴿ من المؤمنين ﴾ بيان ﴿ لمن اتبعك ﴾ فإن المراد المتابعة في الدين وهي الإيمان .

(156/572)

والغرض من هذا البيان التنويه بشأن الإيمان كأنه قيل : واخفض جناحك لهم لأجل إيمانهم كقوله تعالى : ﴿ ولا طائرٍ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : 38] وجبر لخاطر المؤمنين من قرابته .

ولذلك لما نادى في دعائه صفيةَ قال : "عمة رسول الله" ولما نادى فاطمة قال : "بنت رسول الله" تأنيساً لهما ، فهذا من خفض الجناح ، ولم يقل مثل ذلك للعباس لأنه كان يومئذ مشركاً .

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)

تفريع على جملة : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] أي فإن عصوا أمرك المستفاد من الأمر بالإنذار ، أي فإن عصاك عشيرتك فما عليك إلا أن تتبرأ من عملهم ، وهذا هو مثار قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم في دعوته : " غيرَ أن لكم رحماً سأبُلّها ببلالها " فالتبرؤ إنما هو من كفرهم وذلك لا يمنع من صلتهم لأجل الرحم وإعادة النصح لهم كما قال : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ [الشورى : 23] .

وإنما أمر بأن يقول لهم ذلك لإظهار أنهم أهل للتبرؤ من أعمالهم فلا يقتصر على إضمار ذلك في نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) ﴾

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة المائدة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] وفي الحجر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 88] وقد وعدنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً ﴾ [الإسراء : 23] بأنا نوضح معنى خفض الجناح ، وإضافته إلى الذل في سورة الشعراء في هذا الموضع ، وهذا وفاؤنا بذلك الوعد ، ويكفينا في الوفاء به أن ننقل كلامنا في رسالتنا المسماة : منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز .

فقد قلنا فيها ما نصه : والجواب عن قاله تعالى : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل ﴾ [الإسراء : 24] أن الجناح هنا مستعمل في حقيقته ، لأن الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الإنسان وعضده وإبطه . قال تعالى : ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ﴾ [القصص : 32] ، والخفض مستعمل في معناه الحقيقي ، الذي هو ضد الرفع ، لأن مريد البطش يرفع جناحيه ، ومظهر الذل ، والتواضع بخفض جناحيه ، فالأمر بخفض الجناح للوالدين كناية عن لين الجانب لهما ، والتواضع لهما كما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ واخفض

جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ وإطلاق العرب خفض الجناح كناية عن التواضع ، ولين الجانب . أسلوب معروف ومنه قول الشاعر :

وأنت الشهير بخفض الجناح . . . فلا تك في رفعه أجدلا

وأما إضافة الجناح إلى الذل ، فلا تستلزم المجاز كما يظنه كثير ، لأن الإضافة فيه كالإضافة في قولك : حاتم الجود .

فيكون المعنى : واخفض لهما الجناح الذليل من الرحمة ، أو الذلول على قراءة الذل بالكسر ، وما يذكر عن أبي تمام من أنه لما قال :

(158/572)

لا تسقني ماء الملام فإنني . . . صب قد استعذبت ماء بكائي

جاءه رجل فقال له : صب لي في هذا الإناء شيئاً من ماء الملام ، فقال له : إن أتيتني بريشة من جناح الذل صببت لك شيئاً من ماء اللمام فلا حجة فيه ، لأن الآية لا يراد بها أن للذل جناحاً ، وإنما يراد بها خفض الجناح المتصف بالذل للوالدين من الرحمة بهما ، وغاية ما في ذلك إضافة الموصوف إلى صفته كحاتم الجود ، ونظيره في القرآن الإضافة في قوله : ﴿ مَطَرَ السوء ﴾ [الفرقان : 40] و ﴿ عَذَابَ الهون ﴾ [الأنعام : 93] أي مطر حجراة

السجيل الموصوف بسوئه من وقع عليه ، وعذاب أهل النار الموصوف بهون من وقع عليه .

والمسوغ لإضافة خصوص الجناح إلى الذل مع أن الذل من صفة الإنسان لا من صفة خصوص الجناح ، أن خفض الجناح كنى به عن ذل الإنسان ، وتواضعه ولين جانبه لوالديه رحمة بهما ، وإسناد صفات الذات لبعض أجزائها من أساليب اللغة العربية كإسناد الكذب ، والخطيئة إلى الناصية في قوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق : 16] ، وكإسناد الخشوع ، والعمل والنصب إلى الوجوه في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية : 23] ، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن ، وفي كلام العرب .

(159/572)

وهذا هو الظاهر في معنى الآية ، ويدل عليه كلام السلف من المفسرين .

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله في الصواعق : إن معنى إضافة الجناح إلى الذل أن للذل جناحاً معنوياً يناسبه لا جناح ريش والله تعالى أعلم . انتهى . وفيه إيضاح معنى خفض الجناح .

والتحقيق : أن إضافة الجناح إلى الذل من إضافة الموصوف إلى صفته كما أوضحنا .

والعلم عند الله تعالى . وقال الزمخشري في الكشاف في تفسير قوله تعالى : ﴿ لِمَنِ اتبعك

مِنَ المؤمنين ﴾ ، فإن قلت : المتبعون للرسول هم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون للرسول فما قوله : ﴿ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ ؟

قلت : فيه وجهان ؛ أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين ، لمشارفتهم ذلك ، وأن يريد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم وهم صنفان : صنف صدق واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ، وصنف لم يوجد منهم إلا التصديق فحسب ، ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق ، لا يخفض لهما الجناح.

والمعنى : المؤمنين من عشيرتك وغيرهم ، أي أنذر قومك فإن أتبعوك ، وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره .

انتهى منه .

والأظهر عندي في قوله : ﴿ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ أنه نوع من التوكيد يكثر مثله في القرآن العظيم كقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ [آل عمران : 167] الآية . ومعلوم أنهم إنما يقولون بأفواههم وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 79] ومعلوم أنهم إنما يكتبونه بأيديهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : 38] ، وقوله تعالى : ﴿ حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [البقرة : 109] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ﴾

كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ [الأنعام : 131] ، فقد جاءهم رسول يُعلِّمهم وينذرهم ؛ ليقيم عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15] .

هذا كله ﴿ ذكرى ﴾ [الشعراء : 209] تعني : نذكره لنُوقِظ غفلتكم ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء : 209] فأنتم الذين فعلتم هذا بأنفسكم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [النحل : 118] .

ثم يقول الحق سبحانه عن القرآن : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾

لأنهم قالوا : إنما تنزَّلت الشياطين على محمد بالقرآن ، وكانوا يقولون ذلك لكل شاعر ماهر بشعره عندهم ، فلكل شاعر شيطان يُمليه الشِّعْر ، وعندهم وادٍ يُسمَّى وادي " عبقر " هو وادي الجن ، فيقولون : فلان عبقري أي : موصول بالجن في هذا الوادي .

لكن ، كيف والكتاب نزل على محمد عدو للشياطين ، يلعنهم في كل مناسبة ، ويُحذِّر أتباعه منهم : ﴿ الشيطان يَعِدُكُمُ الفقر وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء ﴾ [البقرة : 268] ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ

أَصْحَابِ السعير ﴾ [فاطر : 6] .

فكيف إذن يمده الشيطان ويُمليه عليه ، وهو عدوه ؟ ولماذا لم يأتكم وأنتم أحباءه ؟ هذه واحدة .

الاخرى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء : 211] إن الله جعل القرآن مُعْجزاً ومنهجاً ، والمعجزة لا يتسلَّط عليها إنس ولا جن فيفسدها ، لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

(161/572)

أما الكتب السابقة فقد طلبتْ من المؤمنين بها أنْ يحفظوها ، وفَرْق بين الحفظ مني ، وطلب الحفظ منكم ؛ لأن الطلب تكليف وهو عُرْضة لأنْ يُطاع ولأنْ يُعصَى ، وقد جربنا حفظ البشر فلم يحافظوا على كتبهم السابقة ؛ لذلك تولّى الحق سبحانه وتعالى حِفْظ قرآنه بنفسه ، ولم يكِلْه إلى أحد من خَلْقه .

لذلك تجد في هذا المجال كثيراً من العجائب والمفارقات ، فمع تقدُّم الزمن وطغيان الحضارات المعادية للإسلام ، والتي تُمطرنا كل يوم بوابل من الانحرافات والخروج عن تعاليم الدين ، ومِنّا مَنْ ينساق خلفهم ، وهذا كله ينقص من الأحكام المطبّقة من الإسلام .

لكن مع هذا كله تجد القرآن يزداد توثيقاً ، ويزداد حفظاً ، ويتبارى حتى غير المسلمين في حِفْظ كتاب الله وتوثيقه ، والتجديد في طباعته ، حتى رأينا مصحفاً في ورقة واحدة ، ومصحفاً في حجم عقلة الإصبع ، ويفخر بعضهم الآن بأنه يملك أصغر مصحف في العالم .

. إلخ بصرف النظر عن دوافعهم مِنْ وراء هذا .

المهم أن الله تعالى يُسخِّر حتى أعداء القرآن لِحِفْظ القرآن ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : 31] .

أليس من وسائل نَشْر القرآن والمحافظة عليه آلات التسجيل وآلات تكبير الصوت التي تنشر كلام الله في كل مكان ؟ ولم يَلْق شيءٌ من الكتب السابقة مثل هذه العناية .

إذن : فالعناية بالقرآن كنصٍّ لا تتناسب مع النقص في أحكامه وانصراف أهله عنها ، وكأن الله عز وجل يقول لنا : سأحفظ هذا النصّ بغير المؤمنين به ، وسأجعلهم يُوثِّقونه ويهتمون به ؛ ليكون ذلك حجة عليكم .

لذلك كان عند الألمان قبل الحرب العالمية خزانة بها أدراج ، في كل درج منها أية من القرآن ، يُحفظ به كل ما كُتب عن هذه الآية بدايةً من تفسير ابن عباس إلى وقتها ، وهذا دليل على أنهم مُسخَّرون بقوة خفية لا يقدر عليها إلا الله عز وجل

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] .

وسبق أن قلنا : إن بعض النساء يَسِرْنَ في الشوارع كاشفات عن صدورهن ، ومع ذلك تتحلّى بمصحف على صدرها ، وليتها تستر صدرها ولا تُعلّق المصحف .

فكيف تقولون تنزلت به الشياطين ، وقد جاء القرآن ليعلن لأهله عداءه لهم والحذر منهم ؟ كيف والشياطين لا تتنزل إلا على كفَّار أثيم ، وأنتم أوْلَى بأن تتنزَّل عليكم ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : 121] .

ومعنى : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء : 211] أن هذه المسألة فوق قدراتهم ؛ لأن الحق تبارك وتعالى قال : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾

وقد شرح الحق سبحانه هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً ﴾ [الجن : 89] .

وبعد ذلك يتكلم عن استقبال المنهج من الرسول ومن آله وأتباعه ، ومن المؤمنين جميعاً :

﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ الله ﴾

خاطب الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها آخَرَ ﴾ [الشعراء : 213] فهل كان صلى الله عليه وسلم مظنة أن يدعو مع الله إلهاً

آخر ؟ قالوا : لا ، إنما المراد ابتداء توجيه ، وابتداء تكليف ، كأنه يقول له : اجعل عندك مبدءًا ، أنك لا تتخذ مع الله إلهاً آخر ، لا أن الرسول اتخذ إلهاً ، فجاء الوحي لينهاه ، إنما هو بداية تشريع وتكليف ، وإذا كان العظيم المرسَل صلى الله عليه وسلم يتوعده الله إنْ أراد أن يتخذ إلهاً آخر ، فما بالك بمَنْ هو دونه ؟

(163/572)

فساعَة يسمع الناس هذا الخطاب مُوجّهاً إلى النبي المرسَل إليهم ، فلا بُدَّ أنْ يصغوا إليه ، ويحذروا ما فيه من تحذير ، كما لو وجَّه رئيس الدولة أمراً إلى رئيس الوزراء مثلاً ولله المثل الأعلى وحذَّره من عاقبة مخالفته ، فلا شكَّ أن مَنْ دونه من الموظفين سيكون أطوع منه لهذا الأمر .

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

وهكذا نقل الأمر من رسول الله إلى أهله وعشيرته الأقربين ، ذلك ليطمئن الآخرون من قومه ، فهو يأمرهم بأمر ليس بنجْوة عنه ، فأول ما ألزم به ألزم نفسه ثم عشيرته ، وهذا أدْعى للطاعة وللقبول ، فأنت تردُّ أمري إذا كنتُ آمرك به ولا أفعله ، لكني آمرك وأسبقك إلى الفعل .

لذلك سيدنا عمر رضي الله عنه وكان على المنبر يخطب في الناس ، ويقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقام أعرابي وقال : لا سمعَ لك ولا طاعة ، انظر إلى هذه الجرأة على مَنْ ؟ على عمر وهو على المنبر فقال له عمر : ولِمَ ؟

قال : لأن ثيابك أطول من ثيابنا وكان القماش يُوزَّع بين المسلمين بالتساوي لا فَرْق بين طويل وقصير فقال عمر لابنه عبد الله : قُم يا عبد الله لتُرِي الناس ، فقام عبد الله فقال : إن أبي رجل طِوَال مبالغة في الطول وثوبه في المسلمين لم يكْفِه ، فأعطيته ثوبي فوصَله بثوبه ، وها أنذا بمُرقَّعتي بينكم ، عندها قال الأعرابي : إذنْ نسمع ونطيع .

(164/572)

لكن أين القدوة في دوائرنا ومصالحنا الحكومية الآن ؟ وأين هو رئيس المصلحة الذي يحضر ، ويجلس على مكتبه في الثامنة صباحاً ليكون قدوة لمرؤوسيه ؟ وإن من أشد ما ابتُلينا به أن نفقد القدوة في الرؤساء والمسئولين . لذلك أول ما وُجِّه التشريع والتكليف وُجِّه إلى رسول الله ، وإلى أقرب الناس إليه وهم عشيرته الأقربون ؛ لأن الفساد يأتي أول ما يأتي من دوائر القُرْبى والحاشية التي تحيط بالإنسان ، وقد يكون الرئيس أو الحاكم بخير ، لكن حاشيته هي سبب الفساد ، حيث تستغل اسمه في فسادها أو تُضلِّله وتُعمِّي عليه

الحقائق . . إلخ .

لذلك كان سيدنا عمر رضي الله عنه ساعة يريد أن يُقرِّر شيئاً للأمة ، ويعلم أنه قاسٍ عليهم يجمع أهله أولاً ويقول لهم : لقد شاء الله أن أقرر كذا وكذا ، فمَنْ خالفني منكم في شيء من هذا جعلته نكالاً لعامة المسلمين ، وهكذا يضمن أهله وأقاربه أولاً ، ويبدأ بهم تنفيذ ما أرادوه للمسلمين .

وتأمل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقربين ﴾ [الشعراء : 214] والإنذار كما ذكرنا التحذير من الشرِّ قبل أوانه ، فلم يقُلْ : بشِّر عشيرتك ، كأنه يقول له : إياك أنْ يأخذك به لين ورأْفة ، أو عطف لقرابتهم لك ، بل بهم فابدأ .

وقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا التوجيه ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول لقرابته : " يا عباس يا عم رسول الله ، يا صفية عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ولا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم " .

وفي الوقت الذي يدعوه إلى إنذار عشيرته الأقربين يقول في مقابلها : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك ﴾

بعد أن أمره بالشدة على أهله وقرابته يأمره باللين ، وخَفْض الجناح لباقي المؤمنين به ،

وخَفْض الجناح كناية عن اللُّطْف واللين في المعاملة ، وقَد أُخِذ هذا المعنى من الطائر حين يحنو على فراخه ، ويضمهم بجناحه .

(165/572)

وخَفْض الجناح دليل الحنان ، لا الذلّة والانكسار ، وفي المقابل نقول (فلان فارد أجنحته) إذا تكبَّر وتجبَّر ، وتقول (فلان مجنح لي) إذا عصا أوامرك .

وفي موضع أخر : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 88] .

وقال في حَقِّ الوالدين : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ [الإسراء : 24] فلا نقول : كُنْ ذليلاً لهم ، إنما كُنْ رحيماً بهم ، حَنُوناً عليهم ، ففي هذا عِزّك ونجاتك .

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)

فإنْ عصاك الأقارب فلا تتردد في أنْ تعلنها ﴿ إِنِّي بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : 216] وعندها لا تراعي فيهم حَقَّ الرحم ، ولا حَقّ القُرْبى ، لأنه لا حَقَّ لهم ؛ لذلك قال ﴿ فَقُلْ ﴾ [الشعراء : 216] ولم يقل تبرأ منهم ؛ لأنه قد يتبرأ منهم فيما بينه وبينهم .

لكن الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يعلنها رسول الله على الملأ ليعلمها الجميع ، وربنا يُعلِّمنا هنا درساً حتى لا نحابي أحداً ، أو نجامله لقرابته ، أو لمكانته حتى تستقيم أمور الحياة .

والذي يُفسِد حياتنا وينشر فيها الفوضى واللامبالاة أنْ ننافق ونجامل الرؤساء والمسئولين ، ونُغطِّي على تجاوزاتهم ، ونأخذهم بالهوادة والرحمة ، وهذا كله يهدم معنويات المجتمع ، ويدعو للفوضى والتهاون .

لذلك يعلمنا الإسلام أنْ نعلنها صراحة ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : 216] وليأخذ القانون مجراه ، وليتساوى أمامه الجميع ، ولو عرف المخالف أنه سيكون عبرة لغيره لارتدع .

لذلك يُقال عن عمر رضي الله عنه أنه حكم الدنيا كلها ، والحقيقة أنه حكم نفسه أولاً ، فحكمتْ له الدنيا ، وكذلك مَنْ أراد أنْ يحكم الدنيا في كل زمان ومكان عليه أنْ يحكم نفسه ، فلا يجرؤ أحد من أتباعه أن يخالفه ، وساعة أن يراه الناس قدوة ينصاعون له بالسمع والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(166/572)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ قال : هذا القرآن ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ قال : جبريل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ قال : الروح الأمين : جبريل رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فهم مثل ريش الطواويس .

وأخرج ابن مردويه عن الحسن أظنه عن سعد قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " الأوان الروح الأمين نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها ".

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أيها الناس إنه ليس من شيء يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به ، وإنه ليس شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه ، وأن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله واجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله ، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ".

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ قال : بلسان قريش . ولو كان غير عربي ما فهموه .

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن ابن عباس والبيهقي في شعب الإيمان عن بريدة في قوله ﴿

بلسان عربي مبين ﴾ قال : بلسان جرهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن بريدة ، مثله .

(167/572)

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : كان نفر من قريش من أهل مكة قدموا على قوم من يهود من بني قريظة لبعض حوائجهم ، فوجدوهم يقرأون التوراة فقال القرشيون : ماذا نلقى ممن يقرأ توراتكم هذه ؟ لهؤلاء أشد علينا من محمد وأصحابه . فقال اليهود : نحن من أولئك برآء . أولئك يكذبون على التوراة وما أنزل الله في الكتب إنما أرادوا عرض الدنيا . فقال القرشيون : فإذا لقيتموهم فسوِّدوا وجوههم وقال المنافقون : وما يعلمه إلا بشر مثله . وأنزل الله ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ إلى قوله ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وصفته ، ونعته ، وأمره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ يقول : في الكتب التي أنزلها على الأولين .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ قال : كتب الأولين ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ قال :

يعني بذلك اليهود والنصارى ، كانوا يعلمون أنهم يجدون محمداً مكتوباً عندهم في التوراة والإِنجيل أنه رسول الله .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ " أو لم يكن لهم آية " بالياء .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ قال : عبد الله بن سلام بشر بن عبيد القرشي في قوله ﴿ أو لم يكن لهم آية ﴾ يقول : أو لم يكن لهم القرآن آية .

وأخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية العوفي في قوله ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ قال : كانوا خمسة ؛ أسد ، وأسيد ، وابن يامين ، وثعلبة ، وعبد الله بن سلام .

(168/572)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ﴾ قال : يقول لو نزلنا هذا القرآن على بعض الأعجمين لكانت العرب أشر الناس فيه ، لا يفهمونه ولا يدرون ما هو .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ ولو نزلناه على بعض

الأعجمين ﴾ قال : لو أنزله الله عجمياً لكانوا أخسر الناس به لأنهم لا يعرفون العجمية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ﴾ قال : الفرس .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن في قوله ﴿ كذلك سلكناه ﴾ قال : الشرك جعلناه ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال " رؤي النبي صلى الله عليه وسلم كأنه متحير فسألوه عن ذلك فقال : ولم . . . ! ورأيت عدوّي يلون أمر أمتي من بعدي . فنزلت ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ﴾ ، ﴿ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴾ ، ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ فطابت نفسه " .

وأخرج عبد بن حميد عن سليمان بن عبد الملك ؛ أنه كان لا يدع أن يقول في خطبته كل جمعة : إنما أهل الدنيا فيها على وجل لم تمض لهم نية ، ولم تطمئن لهم دار حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجعاتها ، ولا يبقى فيها شيء ، ثم يتلو ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ﴾ ، ﴿ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴾ ، ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ﴾ قال : الرسل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ﴾ قال : ما أهلك الله من قرية إلا من بعد ما جاءتهم الرسل ، والحجة ، والبيان من الله . ولله الحجة على طلقة ﴿ ذكرى ﴾ قال : تذكرة لهم ، وموعظة وحجة لله ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ يقول : ما كنا لنعذبهم إلا من بعد البينة والحجة والعذر . حتى نرسل الرسل ، وننزل الكتب ، وفي قوله ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ يعني القرآن ﴿ وما ينبغي لهم أن ينزلوا به وما يستطيعون ﴾ يقول لا يقدرون على ذلك ، ولا يستطيعونه ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ قال : عن سمع السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ قال : زعموا أن الشياطين تنزلت به على محمد ؛ فأخبرهم الله أنها لا تقدر على ذلك ولا تستطيعه ، وما ينبغي لهم أن ينزلوا بهذا وهو محجور عليهم .

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن

مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وفي الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً وعم وخص فقال " يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا فاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً ، ألا إن لكم رحماً وسابلها ببلاها " .

(170/572)

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال " يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن عروة مرسلاً ، مثله .

وأخرج مسدد ومسلم والنسائي وابن جرير والبغوي في معجمه والباوردي والطحاوي وأبو عوانة وابن قانع والطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن قبيصة بن مخارق وزفير بن عمرو قالا : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربوة من جبل ، فعلا أعلاها حجراً ثم قال " يا بني عبد مناف أني نذير لكم إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه إلى أهله ، فجعل يهتف : يا صباحاه . . يا صباحاه . . أتيتم . أتيتم " .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إصبعيه في أذنيه ورفع صوته وقال " يا بني عبد مناف ، يا صباحاه . . . " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جمع أهله فقال " يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار . ثم التفت إلى فاطمة فقال : يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سابلها ببلالها " .

وأخرج ابن مردويه عن البراء قال : لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد النبي صلى الله عليه وسلم ربوة من جبل فنادى " يا صباحاه . . فاجتمعوا فحذرهم وأنذرهم ثم قال : لا أملك لكم من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك من الله شيئاً " .

وأخرج ابن مردويه عن الزبير بن العوّام قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صاح على أبي قبيس " يا آل عبد مناف إني نذير . فجاءته قريش فحذرهم . . . وأنذرهم " .

وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر قريشاً فقال " ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ يعني : قومي " .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ جعل يدعوهم قبائل قبائل .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن مردويه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ورهطك منهم المخلصين خرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى صعد على الصفا فنادى " يا صباحاه . . فقالوا من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد . فاجتمعوا إليه ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو

أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقاً قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ! فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ [المسد : 1-2] " .

(172/572)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم نادى على الصفا بأفخاذ عشيرته . فخذا فخذاً يدعوهم إلى الله . فقال في ذلك المشركون : لقد بات هذا الرجل يهوّت منذ الليلة قال : وقال الحسن رضي الله عنه : جمع نبي الله صلى الله عليه وسلم أهل بيته قبل موته فقال " ألا إن لي عملي ولكم عملكم ، ألا إني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ألا إن أوليائي منكم المتقون ، ألا لا أعرفنكم يوم القيامة تأتون بالدنيا تحملونها على قرابكم ، ويأتي الناس يحملون الآخرة . يا صفية بنت عبد المطلب ، يا فاطمة بنت محمد ، اعملا فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً " .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

" يا بني هاشم ، ويا صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إني لا أغني عنكم من الله

شيئاً . إياكم أن يأتي الناس يحملون الآخرة ، وتأتون أنتم تحملون الدنيا ، وأنكم تردون عليّ الحوض ذات الشمال وذات اليمين فيقول القائل منكم : يا رسول الله أنا فلان بن فلان . فاعرف الحسب وانكر الوصف ، فاياكم أن يأتي أحدكم يوم القيامة وهو يحمل على ظهره فرساً ذات جمعة ، أو بعيراً له رغاء ، أو شاة لها ثغاء ، أو يحمل قشعاً من أدم فيختلجون من دوني ، ويقال لي : أنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فاطيبوا نفساً وإياكم أن ترجعوا القهقرى من بعدي " قال عكرمة رضي الله عنه : إنما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول حيث أنزل الله عليه ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ " .

(173/572)

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني هاشم ، فاجلسهم على الباب ، وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت ، ثم اطلع عليهم فقال " يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار ، واسعوا في فكاك رقابكم أو افتكوها بأنفسكم من الله فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، ثم أقبل على أهل بيته فقال : يا عائشة بنت أبي بكر ، ويا حفصة بنت عمر ، ويا أم سلمة ، ويا فاطمة بنت محمد ، ويا أم الزبير عمة رسول الله ، اشتروا أنفسكم من

الله ، واسعوا في فكاك رقابكم فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ولا أغني ، فبكت عائشة رضي الله عنها وقالت : وهل يكون ذلك يوم لا تغني عنا شيئاً ؟ قال : نعم . في ثلاثة مواطن .

يقول الله ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة . . . ﴾ [الأنبياء : 47] فعند ذلك لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ولا أملك لكم من الله شيئاً ، وعند النور من شاء الله أتم له نوره ومن شاء أكبه في الظلمات يغمه فيها فلا أملك لكم من الله شيئاً ، ولا أغني عنكم من الله شيئاً ، وعند الصراط من شاء الله سلمه ، ومن شاء أجازه ، ومن شاء كبكبه في النار . قالت : عائشة قد علمنا الموازين : هي الكفتان . فيوضع في هذه اليسرى ، فترجح احداهما وتخف الأخرى ، وقد علمنا النور والظلمة ، فما الصراط ؟ قال : طريق بين الجنة والنار يجوز الناس عليها ، وهو مثل حد الموس ، والملائكة حفافه يميناً وشمالاً يخطفونهم بالكلاليب مثل شوك السعدان وهم يقولون : رب سلم سلم ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ فمن شاء الله سلمه ، ومن شاء كبكبه فيها " .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال

" يا علي ان الله أمرني أن أنذر عشيرتي الاقربين فضقت ذرعاً ، وعرفت أني مهما أبادؤهم بهذا الامر أرى منهم ما أكره .

فصمت عليها حتى جاء جبريل فقال : يا محمد إنك إن لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك ، فاصنع لي صاعاً من طعام ، واجعل عليه رجل شاة ، واجعل لنا عسا من لبن ، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغ ما أمرت به ، ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه ، فيهم أعمامه أبو طالب ، وحمزة ، والعباس ، وأبو لهب .

فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به ، فلما وضعته تناول النبي صلى الله عليه وسلم بضعة من اللحم فشقها باسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال : كلوا بسم الله . فأكل القوم حتى تهلوا عنه ما ترى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم . ثم قال : اسق القوم يا علي ، فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً . وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله . فلما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال : لقد سحركم صاحبكم . فتفرق القوم ولم يكلمهم النبي صلى الله عليه وسلم .

فلما كان الغد قال : يا علي ان هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول ، فتفرق القوم

قبل أن أكلمهم ، فعد لنا بمثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثم اجمعهم لي .

ففعلت ، ثم جمعتهم ، ثم دعاني بالطعام فقربته ، ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا حتى نهلوا ، ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أحداً في العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله ان أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على أمري هذا فقلت وأنا احدثهم سناً : إنه أنا . فقام القوم يضحكون " .

(175/572)

وأخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ " جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً ، منهم العشرة يأكلون المسنة ، ويشربون العس ، وامر علياً برجل شاة صنعها لهم ثم قربها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ منها بضعة فاكل منها ، ثم تتبع بها جوانب القصعة ثم قال " ادنوا بسم الله " . فدنا القوم عشرة . . عشرة . فأكلوا حتى صدروا ، ثم دعا بقعب من لبن فجرع جرعة فناولهم فقال : اشربوا بسم الله . فشربوا حتى رووا عن آخرهم ، فقطع كلامهم رجل فقال لهم : ما سحركم مثل هذا الرجل ،

فاسكت النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ فلم يتكلم .

ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ، ثم بدرهم بالكلام فقال : يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله والبشير ، قد جئتكم بما لم يجيء به أحد . جئتكم بالدنيا والآخرة فاسلموا تسلموا ، وأطيعوا تهتدوا " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال : أمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه ويبدأ بأهل بيته وفصيلته قال : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ [الأنعام : 66] .

وأخرج ابن جرير عن عمرو بن مرة أنه كان يقرأ ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين ﴾ .

(176/572)

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر والديلمي عن عبد الواحد الدمشقي قال : رأيت أبا الدرداء يحدث الناس ويفتيهم ؛ وولده وأهل بيته جلوس في جانب الدار يتحدثون فقيل له : يا أبا الدرداء ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم ، وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : إني سمعت نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول " أن ازهد الناس في الأنبياء ، واشدهم

عليهم . الاقربون وذلك فيما أنزل الله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ إلى آخر الآية . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أزهد الناس في العالم أهله حتى يفارقهم ، وأنه يشفع في أهله وجيرانه ، فإذا مات خلا عنهم من مردة الشياطين أكثر من عدد ربيعة ومضر قد كانوا مشتغلين به ، فأكثروا التعوذ بالله منهم " .

وأخرج ابن عساكر عن محمد بن جحادة ؛ أن كعباً لقي أبا مسلم الخولاني فقال : كيف كرامتك على قومك ؟ قال : إني عليهم لكريم . قال : إني أجد في التوراة غير ما تقول قال : وما هو ؟ قال : وجدت في التوراة أنه لم يكن حكيم في قوم إلا كان أزهدهم فيه قومه ، ثم الأقرب فالأقرب ، وإن كان في حبسه شيء عيروه به ، وإن كان عمل برهة من دهره ذنباً عيروه به .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن كعب أنه قال لأبي مسلم : كيف تجد قومك لك ؟ قال : مكرمين مطيعين . قال : ما صدقتني التوراة إذن ما كان رجل حكيم في قوم إلا بغوا عليه وحسدوه .

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215)

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ بدأ بأهل بيته وفصيلته ، فشق ذلك على المسلمين ، فأنزل الله ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك ﴾ يقول ذلك لهم . وفي قوله ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ وقال : أمره بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(177/572)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ﴾

قوله : ﴿ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ الجملةُ صفةً ل " قريةٍ " ، وأَنْ تكونَ حالاً منها . وسَوَّغَ ذلك سَبْقُ النفيِ . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : كيف عَزَلْتَ الواوَ عن الجملةِ بعدَ " إلاَّ " ولم تَعْزِلْ عنها في قولِه : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : 4] قلت : الأصلُ عَزْلُ الواوِ ؛ لأنَّ الجملةَ صفةٌ ل " قريةٍ " . وإذا زِيْدَتْ فلتأكيدِ وَصْلِ الصفةِ بالموصوفِ كما في قوله : ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] . قال الشيخ : " ولو قدَّرنا " لها مُنْذِرُون " جملةً لم يَجُزْ أن تجيءَ صفةً بعد " إلاَّ " .

ومذهبُ الجمهورِ أنه لا تجيءُ الصفةُ بعد " إلاَّ " معتمدةً على أداةِ الاستثناءِ نحو : ما

جاءَني أحدٌ إلاَّ راكبٌ . وإذا سُمِع مثلُ هذا خرَّجوه على البدلِ ، أي : إلاَّ رجلٌ راكبٌ . ويَدُلُّ على صحةِ هذا المذهبِ أنَّ العربَ تقولُ : " ما مررتُ بأحدٍ إلاَّ قائماً " ولا يُحْفَظُ عنهم " إلاَّ قائمٍ " بالجرِّ . فلو كانت الجملةُ صفةً بعد " إلاَّ لَسُمِعَ الجرُّ في هذا . [وأيضاً فلو كانَتْ الجملةُ صفةً للنكرة لجاز أَنْ تقعَ صفةُ المعرفةِ بعد " إلاَّ " يعني نحو : " ما مررتُ بزيدٍ إلاَّ العاقلِ "] .

(178/572)

ثم قال : " فإنْ كانَتِ الصفةُ غيرَ معتمدةٍ على الأداةِ جاءَتِ الصفةُ بعد " إلاَّ " نحو : " ما جاءني أحدٌ إلاَّ زيدٌ خيرٌ من عمروٍ " . التقدير : ما جاءني أحدٌ خيرٌ من عمروٍ إلاَّ زيدٌ . وأمَّا كونُ الواوِ تُزاد لتأكيد وَصْلِ الصفةِ بالموصوفِ فغيرُ معهودٍ في عبارةِ النَّحْويين . لو قلتَ : " جاءني رجلٌ وعاقلٌ " أي : " رجلٌ عاقلٌ " لم يَجُزْ . وإنما تدخل الواوُ في الصفاتِ جوازاً إذا عُطِفَ بعضُها على بعضٍ ، وتَغَايَرَ مدلُولها نحو : مررت بزيدٍ الشجاعِ والشاعرِ . وأمَّا ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] فتقدَّم الكلامُ عليه " .

قلت : أمَّا كونُ الصفةِ لا تقعُ بعد " إلاَّ " معتمدةً ، فالزمخشريُّ يختارُ غيرَ هذا ، فإنَّها مسألةٌ خلافيةٌ . وأمَّا كونه لم يُقَلْ " إلاَّ قائماً " بالنصبِ دونَ " قائمٍ " بالجرِّ فذلك على أحدِ الجائزين

وليس فيه دليلٌ على المَنْعِ مِنْ قَسيمِه . وأمَّا قولُه " فغيرُ معهودٍ من كلامِ النحويين " فمَمنوعٌ . هذا ابنُ جني نَصَّ عليه في بعضِ كتبه . وأمَّا إلزامُه أنها لو كانَتِ الجملةُ صفةً بعد " إلاَّ " للنكرةِ لجاز أَنْ تقعَ صفةُ المعرفة بعد " إلاَّ " فغيرُ لازمٍ ؛ لأنَّ ذلك مختصٌّ بكونِ الصفةِ جملةً . وإذا كانت جملةً تعذَّر كونُها صفةً للمعرفةِ . وإنما اختصَّ ذلك بكونِ الصفةِ جملةً ؛ لأنها لتأكيدِ وَصْلِ الصفةِ ، والتأكيد لائقٌ بالجملةِ . وأمَّا قولُه : " لو قلتَ : جاءني رجلٌ وعاقلٌ لم يَجُزْ " فمُسَلَّمٌ ، ولكن إنما امتنع ذلك في جملةً ، فإنَّ اللَّبْسَ مُنْتَفٍ . وقد تقدَّم ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ ﴾ فَلْيُلْتَفَتْ إليه ثَمَّة .

(179/572)

قوله : ﴿ ذكرى ﴾ : يجوزُ فيها أوجهٌ ، أحدُها : أنها مفعولٌ مِنْ أجله . وإذا كانَتْ مفعولاً مِنْ أجلِه ففي العاملِ فيه وجهان ، أحدهما : " مُنْذِرُوْن " ، على أنَّ المعنى : مُنْذِرون لأجلِ الموعظةِ والتذكرةِ . الثاني : " أَهْلَكْنا " . قال الزمخشري : " والمعنى : وما أهلَكْنا مِنْ أهلِ قريةٍ ظالمين إلاَّ بعدَما ألزَمْناهم الحُجَّةَ بإرسالِ المُنْذَرِين إليهم ليكون [إهلاكُهم] تذكرةً وعبرةً لغيرِهم فلا يَعْصُوا مثلَ عصيانِهم " ثم قال : " وهذا الوجهُ عليه المُعَوَّل " .

قال الشيخ " وهذا لا مُعَوَّلَ عليه ؛ فإنَّ مذهبَ الجمهورِ أنَّ ما قبل " إلاَّ " لا يعمل فيما بعدها ، إلاَّ أَنْ يكونَ مستثنى ، أو مستثنى منه ، أو تابعاً له غيرَ معتمدٍ على الأداة نحو : " ما مررت بأحدٍ إلاَّ زيدٌ من عمروٍ " ، والمفعولُ له ليس واحداً من هذه . ويتخرَّج مذهبُه على مذهبِ الكسائي والأخفشِ ، وإن كانا لم يَنُصَّا على المفعولِ له بخصوصيَّته " . قلت : والجواب ما تقدَّم قبلَ ذلك مِنْ أنَّه يختارُ مذهبَ الأخفش .

الثاني : من الأوجهِ الأُوَلِ : أنَّها في محلِّ رفع خبراً لمبتدأ محذوفٍ أي : هذه ذكرى . وتكونُ الجملةُ اعتراضيةً . الثالث : أنها صفةٌ لـ مُنْذِرُوْن : إمَّا على المبالغةِ ، وإمَّا على الحذفِ أي : مُنْذرونْ ذوو ذكرى ، أو على وقوعِ المصدرِ وقوعَ اسمِ الفاعلِ أي : مُنْذِرون مُذكِّرون . وقد تقدَّم تقريرُ ذلك . الرابع : أنها في محلِّ نصبٍ على الحال أي : مُذَكِّرين ، أو ذوي ذكرى ، أو جُعِلوا نفسَ الذكرى مبالغةً . الخامس : أنها منصوبةٌ على المصدرِ المؤكِّد . وفي العاملِ فيها حينئذٍ وجهان ، أحدُهما : لفظُ " مُنْذِرُون " لأنَّه مِنْ معناها فهما كـ " قَعَدْتُ جلوساً " . والثاني : أنه محذوفٌ مِنْ لفظِها أي : تَذْكُرون ذِكْرى . وذلك المحذوفُ صفةٌ لـ " مُنْذِرون " .

قوله : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ :

العامَّةُ على الياء/ ورفعِ النونِ ، وهو جمعُ تكسيرٍ . وقرأ الحسن البصري وابن السَّمَيْفع والأعمش بالواوِ مكانَ الياءِ ، والنونُ مفتوحةٌ إجراءً له مُجْرى جمعِ السلامة . وهذه القراءةُ قد رَدَّها جمعٌ كثيرٌ من النحويين . قال الفراء : " غَلِطَ الشيخُ ظنَّ أنها النونُ التي على هِجاءَيْن " . وقال النضر بن شميل : " إنْ جاز أن يُحْتَجَّ بقولِ العَجَّاجِ ورؤبةَ فهلا جازَ أَنْ يُحْتَجَّ بقولِ الحسنِ وصاحبِه يعني محمد بن السميفع ، مع أَنَّا نعلُم أَنَّهما لم يُقْرآ به إلاَّ وقد سَمِعا فيه " . وقال النحاس : " هو غَلَطٌ عند جميعِ النَّحْويين " . وقال المهدويُّ : " هو غيرُ جائزٍ في العربيةِ " . وقال أبو حاتم : " هي غلطٌ منه أو عليه " .

وقد أَثْبَتَ هذه القراءةَ جماعةٌ من أهلِ العلمِ ، ودفعوا عنها الغَلَطَ ، فإنَّ القارىءَ بها من العلمِ بمكانٍ مَكينٍ ، وأجابوا عنها بأجوبةٍ صالحةٍ . فقال : النضر بن شميل : " قال يونس بن حبيب : سمعتُ أعرابياً يقول : " دَخلتُ بساتينَ من ورائِها بساتُون " فقلت : ما أشبَه هذا بقراءةِ الحسنِ " وخرَّجها بعضُهم على أنها جمعُ شَيَّاط بالتشديد مِثالَ مبالغةٍ ، مثلَ " ضَرَّاب " و " قتَّال " ، على أَنْ يكونَ مشتقاً من شاط يَشِيْط أي : أَحْرَقَ ، ثم جُمِع جَمْعَ سلامةٍ مع تخفيفِ الياءِ فوزنُه فَعالُون مخففاً مِنْ فعَّالين بتشديد العين . ويَدُلُّ على ذلك أَنَّهما وغيرَهما قرؤُوا بذلك أعني بتشديدِ الياءِ . وهذا منقولٌ عن مؤرج السدوسي ووجَّهها آخرون : بأنَّ أخِرَه لَمَّا كان يُشْبِهُ آخرَ يَبْرِين وفِلَسْطين أُجْري إعرابُه تارةً على النونِ ، وتارةً

بالحرفِ كما قالوا : هذه يَبْرِينُ وفِلَسْطِينُ ويبرونَ وفلسطونَ . وقد تقدَّم القولُ في ذلك في البقرة .

والهاء في " به " تعود على القرآن .

(181/572)

وجاءت هذه الجمل الثلاث منفيةً على أحسنِ ترتيبٍ نفى أولاً تنزيلَ الشياطين به ؛ لأنَّ النفيَ في الغالبِ يكونُ في الممكنِ ، وإنْ كان الإمكانُ هنا منتفياً . ثم نفى ثانياً انْبغاءَ ذلك أي : ولو فُرِضَ الإمكانُ لم يكونوا أهلاً له ، ثم نفى ثالثاً الاستطاعةَ والقُدْرَةَ ، ثم ذكر علةَ ذلك ، وهي انعزالُهم عن السَّماع من الملأِ الأعلى ؛ لأنهم يُرْجَمُون بالشُّهُبِ لو تَسَمَّعوا .

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)

قوله : ﴿ فَتَكُونَ ﴾ : منصوبٌ في جوابِ النهي .

قوله : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ : في هذه الواوِ وجهان ، أحدُهما : أنَّها ضميرُ الكفارِ أي : فإنْ عَصاك الكفارُ في أَمْرِك لهم بالتوحيدِ . الثاني : أنها ضميرُ المؤمنين أي : فإنْ عَصاك المؤمنون في فروعِ الإسلام وبعضَ الأحكامِ بعد تصديقِك والإيمان برسالتِك . وهذا في غاية البعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 559.563 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) ﴾

وَجَدُوا السمع – الذي هو الإدراك – ولكن عَدِمُوا الفَهْمَ ، فلم يستجيبوا لِمَا دُعُوا إليه .

فعند ذلك استوجبوا من الله سوء العاقبة .

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

وذلك تعريفٌ له أنهم لا تنفعهم قَرَابَتُهُم منه ، ولا تُقْبَلُ شفاعتُه – إنْ لم يؤمِنوا – فيهم . فليس هذا الأمر من حيث النّسب ، فهذا نوحٌ لَمَّا كَفَرَ ابنُه لم تنفعه بُنُوَّتُه ، وهذا الخليلُ إبراهيم عليه السلام لما كَفَرَ أبوه لم تنفع أُبُوَّتُه ، وهذا محمدٌ – عليه الصلاة والسلام – كثيرٌ من أقاربه كانوا أشدَّ الناسِ عليه في العداوةِ فلم تنفعهم قرابتُهم .

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215)

أَلِنْ جَانِبَكَ وقارِبْهم في الصحبة ، واسحبْ ذيلَ التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير ، واحتمِلْ منهم سوءَ الأحوال ، وعاشِرْهم بجميلِ الأخلاق ، وتحمَّلْ عنهم كلَّهم ، وارْحَمْهُم

كُلِّهم ، فإِنْ مرضوا فعُدْهم ، وإِنْ حرموك فأَعْطِهم ، وإِنْ ظلموك فتجاوَزْ عنهم ، وإِنْ قصّرُوا في حقي فاعفُ عنهم ، واشفَعْ لهم ، واستغفِرْ لهم .

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)

لا تفعلْ مثلَ فِعْلِهم ، وكل حسابَهم إلينا إلا فيما أمرناك بأن تقيم فيه عليهم حَدًّا ، فعند ذلك لا تأخذْكَ رأفةٌ تمنعكَ من إقامة حدِّنا عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 20 ﴾

(183/572)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/573)

الجزء الثالث والسبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 217 ﴾ من سورة الشعراء

وحتى الآية ﴿ 227 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/573)

قوله تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أعلمت هذه الآية بمنابذة من عصى كائناً من كان ولو كان ممن ظهر منه الرسوخ في الإيمان ، لما يرى منه من عظيم الإذعان ، أتبعه قوله : ﴿ وتوكل ﴾ أي في عصمتك ونجاتك والإقبال بالمنذرين إلى الطاعة ، وقراءة أهل المدينة والشام بالفاء السببية أدل على ذلك ﴿ على العزيز ﴾ أي القادر على الدفع عنكم والانتقام منهم ﴿ الرحيم ﴾ أي المرجو لإكرام الجميع برفع المخالفة والشحناء ، والإسعاد بالاستعمال فيما يرضيه ؛ ثم أتبع الأمر بالتوكل الوصف بما يقتضي الكفاية في كل ما ينوب من دفع الضر وجلب النفع ، وذلك هو العلم المحيط المقتضي لجميع أوصاف الكمال ، فقال : ﴿ الذي يراك ﴾ أي بصراً وعلماً ﴿ حين تقوم ﴾ من نومك من فرشك تاركاً لحبك ، لأجل رضا ربك ﴿ و ﴾ يرى ﴿ تقلبك ﴾ في الصلاة ساجداً وقائماً ﴿ في الساجدين ﴾ أي المصلين من أتباعك المؤمنين ، لكم دوي بالقرآن كدوي النحل ، وتضرع من خوف الله ، ودعاء وزفرات تصاعد وبكاء ، أي فهو جدير لإقبالكم عليه ، وخضوعكم بين يديه ، بأن يحبوكم بكل ما

يسركم.

ولما كانت هذه الأحوال مشتملة على الأقوال، وكان قد قدم الرؤية المتضمنة للعلم، علل ذلك بالتصريح به مقروناً بالسمع فقال: ﴿إنه هو﴾ أي وحده ﴿السميع﴾ أي لجميع أقوالكم ﴿العليم﴾ أي بجميع ما تسرونه وتعلنونه من أعمالكم، وقد تقدم غير مرة أن شمول العلم يستلزم تمام القدرة، فصار كأنه قال: إنه السميع العليم البصير القدير، تثبيتاً للمتوكل عليه.

(5/573)

ولما بين سبحانه أن القرآن مناف لأقوال الشياطين، وبين أن حال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحال أتباعه منافية لأحوالهم وأحوال من يأتونه من الكهان بما ذكره سبحانه من فعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفعل أشياعه ـ رضى الله عنه ـ م من الإقبال على الله، والإعراض عما سواه، فعلم أن بينهم وبينهم بوناً بعيداً، وفرقاً كبيراً شديداً، وأن حال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ موافق لحال الروح الأمين، النازل عليه بالذكر الحكيم، تشوفت النفس إلى معرفة أحوال إخوان الشياطين، مقال محركاً لمن يريد ذلك، متمماً لدفع اللبس عن كون القرآن من عند الله، وفرق بين الآيات المتكلفة بذلك تطرية لذكرها وتنبيهاً

على تأكيد أمرها : ﴿ هل أنبئكم ﴾ أي أخبركم خبراً جليلاً نافعاً في الدين ، عظيم الجدوى في الفرقان بين أولياء الرحمن وإخوان الشيطان ﴿ على من تنزل ﴾ وتردد ﴿ الشياطين ﴾ حين تسترق السمع على ضرب من الخفاء بما آذن به حذف التاء ، ودخل حرف الجر على الاسم المتضمن للاستفهام ، لأن معنى التضمن أنه كان أصله : أمن ، فحذفت منه الهمزة حذفاً مستمراً كما فعل في " هل " لأن أصله " أهل " كما قال :

سائل فوارس يربوع بشدتنا . . .

أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

فالاستفهام مقدر قبل الجار - أفاده الزمخشري .

(6/573)

ولما كان كأنه قيل : نعم أنبئنا ! قال : ﴿ تنزل ﴾ على سبيل التدريج والتردد ﴿ على كل أفاك ﴾ أي صراف - على جهة الكثرة والمبالغة - للأمور عن وجوهها بالكذب والبهتان ، والخداع والعدوان ، من جملة الكهان وأخذان الجان ﴿ أثيم ﴾ فعال الآثام بغاية جهده ، وهؤلاء الأثمة ﴿ يلقون السمع ﴾ إلى الشياطين ، ويصغون إليهم غاية الإصغاء ، لما بينهما من التعاشق بجامع إلقاء الكذب من غير اكتراث ولا تحاش ، أو يلقي الشياطين ما يسمعونه

مما يسترقون استماعه من الملائكة إلى أوليائهم ، فهم بما سمعوا منهم يحدثون ، وبما زينت لهم نفوسهم يخلطون ﴿ وأكثرهم ﴾ أي الفريقين ﴿ كاذبون ﴾ فيما ينقلونه عما يسمعونه من الإخبار بما حصل فيما وصل إليهم من التخليط ، وما زادوه من الافتراء والتخبيط انهماكاً في شهوة علم المغيبات ، الموقع في الإفك والضلالات ؛ قال الرازي في اللوامع ما معناه أنه حيثما كان استقامة في حال الخيال – أي القوة المتخيلة – كانت منزلة الملائكة ، وحيثما كان اعوجاج في حال الخيال كان منزل الشياطين ، فمن ناسب الروحانيين من الملائكة كان مهبطهم عليه ، وظهورهم له ، وتأثيرهم فيه ، وتمثلهم به ، حتى إذا ظهروا عليه تكلم بكلامهم وتكلموا بلسانه ، ورأى بأبصارهم وأبصروا بعينيه ، فهم ملائكة يمشون على الأرض مطمئنين

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ﴾ [فصلت : 30] ومن ناسب الشياطين من الأبالسة كان مهبطهم عليه ، وظهورهم له ، وتأثيرهم فيه ، وتمثلهم به ، حتى إذا ظهروا عليه تكلم بكلامهم وتكلموا بلسانه ، ورأى بأبصارهم وابصروا بعينيه ، هم شياطين الإنس يمشون في الأرض مفسدين – انتهى .

(7/573)

ولما بطل – بإبعاده عن دركات الشياطين ، وإصعاده إلى درجات الروحانيين ، من الملائكة المقربين ، الآتين عن رب العالمين – كونه سحراً ، وكونه أضغاثاً ومفترى ، نفى سبحانه كونه شعراً بقوله : ﴿ والشعراء يتبعهم ﴾ أي بغاية الجهد ، في قراءة غير نافع بالتشديد ، لاستحسان مقالهم وفعالهم ، فيتعلمون منهم وينقلون عنهم ﴿ الغاوون ﴾ أي الضالون المائلون عن السنن الأقوم إلى الزنى والفحش وكل فساد يجر إلى الهلاك ، وهم كما ترى بعيدون من أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي عنهم الساجدين الباكين الزاهدين .

ولما قرر حال أتباعهم ، فعلم منه أنهم هم أغوى منهم ، لتهتكهم في شهوة اللقلقة باللسان ، حتى حسن لهم الزور والبهتان ، دل على ذلك بقوله : ﴿ ألم تر أنهم ﴾ أي الشعراء .

ومثل حالهم بقوله : ﴿ في كل واد ﴾ أي من أودية القول من المدح والهجو والنسيب والرثاء الحماسة والمجون وغير ذلك ﴿ يهيمون ﴾ أي يسيرون سير الهائم حائرين وعن طريق الحق جائرين ، كيفما جرهم القول انجروا من القدح في الأنساب ، والتشبيب بالحرم ، والهجو . ومدح من لا يستحق المدح ونحو ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ أي لأنهم لم يقصدوه .

وإنما ألجأهم إليه الفن الذي سلكوه فأكثر أقوالهم لا حقائق لها ، انظر إلى مقامات الحريري وما اصطنع فيها من الحكايات ، وابتدع بها من الأمور المعجبات .

التي لا حقائق لها ، وقد جعلها أهل الاتحاد أصلاً لبدعتهم الكافرة ، وقاعدة لصفقتهم الخاسرة ، فما أظهر حالهم ، وأوضح ضلالهم ! وهذا بخلاف القرآن فإنه معان جليلة محققة ، في ألفاظ متينة جميلة منسقة ، وأساليب معجزة مفحمة ، ونظوم معجبة محكمة ، لا كلفة في شيء منها ، فلا رغبة لذي طبع سليم عنها ، فأنتج ذلك أنه لا يتبعهم على أمرهم إلا غاو مثلهم ، ولا يزهد في هذا القرآن إلا من طبعه جاف ، وقلبه مظلم مدلهم .

(8/573)

ولما كان من الشعر – كما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ – حكمة ، وكان – كما قالت عائشة رضي الله تعالى عنها – بمنزلة الكلام منه حسن ومنه قبيح ، وكان من الشعراء من يمدح الإسلام والمسلمين ، ويهجو الشرك والمشركين ، ويزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة ، ويحث على مكارم الأخلاق ، وينفر عن مساوئها ، وكان الفيصل بين قبيلي حسنة وقبيحة كثرة ذكر الله ، قال تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ أي بالله ورسوله ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ أي التي شرعها الله ورسوله لهم ﴿ وذكروا الله ﴾ مستحضرين ما له من الكمال ﴿ كثيراً ﴾ لم يشغلهم الشعر عن الذكر ، بل بنوا شعرهم على أمر الدين والانتصار للشرع ، فصار لذلك كله ذكر الله ، ويكفي مثالاً لذلك قصيدة عزيت لأبي بكر

الصديق رضي الله تعالى عنه وجوابها لابن الزبعرى ، وكان إذ ذاك على شركه ، وذلك في أول سرية كانت في الإسلام .

وروى البغوي بسنده من طريق عبد الرزاق من حديث كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده ! لكأنما ترمونهم به نضح النبل " وقد كان ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ينشد الشعر ويستنشده في المسجد ، وروى الإمام أحمد حديث كعب هذا ، وروى النسائي برجال احتج بهم مسلم عن أنس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " قال البغوي : وروي أنه – أي ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ دعا عمر بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشهده القصيدة التي قالها :

أمن آل نعمى أنت غاد فمبكر . . .

غداة غد أم رائح فمهجر

(9/573)

وهي قريب من تسعين بيتاً ، فلما فرغها أعادها ابن عباس وكان حفظها بمرة واحدة ، ويكفي الشاعر في التفصي عن ذم هذه الآية له أن لا يغلب عليه الشعر فيشغله عن الذكر حتى يكون من الغاوين ، وليس من شرطه أن لا يكون في شعره هزل أصلاً ، فقد كان حسان رضي الله تعالى عنه ينشد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل قوله في قصيدة طويلة مدحه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها :

كأن سبيئة من بيت رأس . . .

يكون مزاجها عسل وماء

إذا ما الأشربات ذكرن يوماً . . .

فهن لطيب الراح الفداء

نوليها الملامة إن ألمنا . . .

إذا ما كان مغث أو لحاء

ونشربها فتتركنا ملوكاً . . .

وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

وقد كان تحريم الخمر سنة ثلاث من الهجرة أو سنة أربع ، وهذه القصيدة قالها حسان رضي الله تعالى عنه في الفتح سنة ثمان أو في عمرة القضاء سنة سبع ، فهي مما يقول الشاعر ما لا يفعل .

ولما عرف سبحانه بحال المستثنين في الذكر الذي هو أساس كل أمر ، أتبعه ما حملهم على الشعر من الظلم الذي رجاهم النصر فقال : ﴿ وانتصروا ﴾ أي كلفوا أنفسهم أسباب النصر بشعرهم فيمن آذاهم ﴿ من بعد ما ظلموا ﴾ أي وقع ظلم الظالم لهم بهجو ونحوه .

(10/573)

ولما أباح سبحانه الانتصار من الظالم ، وكان البادىء - إذا اقتصر المجيب على جوابه - أظلم ، كان - إذا تجاوز - جديراً بأن يعتدي فيندم ، حذر الله الاثنين مؤكداً للوعيد بالسين في قوله الذي كان السلف الصالح يتواعظون به لأنك لا تجد أهيب منه ، ولا أهول ولا أوجع لقلوب المتأملين ، ولا أصدع لأكباد المتدبرين : ﴿ وسيعلم ﴾ وبالتعميم في قوله : ﴿ الذين ظلموا ﴾ أي كلهم من كانوا ، وبالتهويل بالإبهام في قوله : ﴿ أي منقلب ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ ينقلبون ﴾ وقد انعطف آخرها - كما ترى بوصف الكتاب المبين بما وصف به الجلالة والعظم بأنه من عند الله متنزلاً به خير مليكته ، على أشرف خليقته ، مزيلاً لكل لبس ، منفياً عنه كل باطل ، وبالختام بالوعيد على الظلم - على أولها في تعظيم الكتاب المبين ، وتسلية النبي الكريم ، - صلى الله عليه وسلم - ووعيد الكافرين الذين هم أظلم الظالمين ، واتصل بعدها في وصف القرآن المبين ، وبشرى المؤمنين ووعيد الكافرين ،

فسبحان من أنزله على النبي الأمي الأمين ، هدى للعالمين ، وآية بينة بإعجازه للخلائق أجمعين ، باقية إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 398 . 404 ﴾

(11/573)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾

والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره ، وقوله : ﴿ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ أي على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو كالسبب لتلك الرحمة ، وهو قيامه وتقلبه في الساجدين وفيه وجوه : أحدها : المراد ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال (المجتهدين) ليطلع على أسرارهم ، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من الطاعات ، فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين وثانيها : المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين تصرفه

فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذ كان إماماً لهم وثالثها : أنه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين ورابعها : المراد تقلب بصره فيمن (يصلي) خلفه من قوله صلى الله عليه وسلم :

" أتموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من خلفي " ثم قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ أي لما تقوله ﴿ العليم ﴾ أي بما تنويه وتعمله ، وهذا يدل عى أن كونه سميعاً أمر مغاير لعلمه بالمسموعات وإلا لكان لفظ العليم مفيداً فائدته .

واعلم أنه قرىء ﴿ ونقلبك ﴾ .

(12/573)

واعلم أن الرافضة ذهبوا إلى أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين وتمسكوا في ذلك بهذه الآية وبالخبر ، أما هذه الآية فقالوا قوله تعالى : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى الساجدين ﴾ يحتمل الوجوه التي ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد كما نقوله نحن ، وإذا احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة أنه لا منافاة ولا رجحان ، وأما الخبر فقوله عليه السلام : " لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات " وكل من كان كافراً فهو نجس لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [

التوبة : 28] قالوا : فإن تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ [الأنعام : 74] قلنا الجواب عنه أن لفظ الأب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له : ﴿ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ [البقرة : 133] فسموا إسماعيل أباً له مع أنه كان عماً له ، وقال عليه السلام : " ردوا على أبي " يعني العباس ، ويحتمل أيضاً أن يكون متخذاً لأصنام أب أمه فإن هذا قد يقال له الأب قال تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودُ وسليمان ﴾ [الأنعام : 84] إلى قوله : ﴿ وَعِيسَى ﴾ [الأنعام : 85] فجعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أن إبراهيم كان جده من قبل الأم .

واعلم أنا نتمسك بقوله تعالى : ﴿ لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ وما ذكروه صرف للفظ عن ظاهره ، وأما حمل قوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى الساجدين ﴾ على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز ، وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) ﴾

(13/573)

اعلم أن الله تعالى أعاد الشبهة المتقدمة وأجاب عنها من وجهين : الأول : قوله : ﴿ تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ وذلك هو الذي قررناه فيما تقدم أن الكفار يدعون إلى طاعة

الشيطان ، ومحمداً عليه السلام كان يدعو إلى لعن الشيطان والبراءة عنه والثاني : قوله : ﴿ يُلْقُونَ السمع وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ والمراد أنهم كان يقيسون حال النبي صلى الله عليه وسلم على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم إن كان الأمر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك أيضاً ، فلما لم يظهر في إخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغيبات إلا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة ، ثم إن المفسرين ذكروا في الآية وجوهاً : أحدها : أنهم الشياطين روي أنهم كانوا قبل أن حجبوا بالرجم يسمعون إلى الملأ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ فيما (يوحى) به إليهم ، لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا وثانيها : يلقون إلى أوليائهم السمع أي المسموع من الملائكة وثالثها : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيلقون وحيهم إليهم ورابعها : يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس ، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم ، فإن قلت ﴿ يُلْقُون ﴾ ما محله ؟ قلت يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أي تنزل ملقين السمع ، وفي محل الجر صفة لكل أفاك لأنه في معنى الجمع ، وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلاً قال : لم ننزل على الأفاكين ؟ فقيل يفعلون كيت وكيت ، فإن قلت كيف قال : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك ؟ قلت : الأفاكون هم الذين يكثرون الكذب ، لا أنهم الذين لا ينطقون إلا

بالكذب ، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن وأكثرهم يفتري عليهم .

(14/573)

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) ﴾

اعلم أن الكفار لما قالوا : لم لا يجوز أن يقال إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ؟ ثم إنه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهنة ، فذكر ههنا ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء ، وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون ، أي الضالون ، ثم بين تلك الغواية بأمرين : الأول : ﴿ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ والمراد منه الطرق المختلفة كقولك أنا في واد وأنت في واد ، وذلك لأنهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس ، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس ، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه من أول أمره إلى آخره بقي على طريق واحد وهو الدعوة إلى الله تعالى والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا الثاني : ﴿ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ وذلك أيضاً من علامات الغواة ، فإنهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه ، وينفرون عن البخل

ويصرون عليه ، ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم ، ثم إنهم لا يرتكبون إلا الفواحش ، وذلك يدل على الغواية والضلالة .

(15/573)

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فإنه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له : ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين ﴾ [الشعراء : 213] ثم بالأقرب فالأقرب حيث قال الله تعالى له : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء ، فقد ظهر بهذا الذي بيناه أن حال محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يشبه حال الشعراء ، ثم إن الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بياناً لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة : أحدها : الإيمان وهو قوله : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ ، وثانيها : العمل الصالح وهو قوله : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ ، وثالثها : أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق ، وهو قوله : ﴿ وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيراً ﴾ ، ورابعها : أن لا يذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ، وهو قوله : ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللهُ الجهر بالسوء مِنَ القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : 148] ثم إن الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ

اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 194] وقيل المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير لأنهم كانوا يهجون قريشاً ، وعن كعب بن مالك : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أهجهم ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل "

وكان يقول لحسان بن ثابت " قل وروح القدس معك "

(16/573)

فأما قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُواْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ فالذي عندي فيه والله اعلم أنه تعالى لما ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من الدلائل العقلية ، ومن أخبار الأنبياء المتقدمين ، ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ، ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمداً صلى الله عليه وسلم تارة بالكاهن ، وتارة بالشاعر ، ثم إنه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن أولاً ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانياً ختم السورة بهذا التهديد العظيم ، يعني إن الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات ، والتأمل في هذه البينات فإنهم سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون وقال الجمهور : المراد منه الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء ، والأول أقرب إلى نظم

السورة من أولها إلى آخرها ، والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 148 . 151 ﴾

(17/573)

وقال الجصاص :

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾

رَوَى سُفْيَانُ عَنْ سَلَمَةَ بْن كُهَيْلٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾ قَالَ : (عُصَاةُ الْجِنِّ) .

وَرَوَى خُصَيْفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾ قَالَ : (الشَّاعِرَانِ يَتَهَاجَيَانِ فَيَكُونُ لِهَذَا أَتْبَاعٌ وَلِهَذَا أَتْبَاعٌ مِنْ الْغُوَاةِ ، فَذَمَّ اللَّهُ الشُّعَرَاءَ الَّذِينَ صِفَتُهُمْ مَا ذُكِرَ وَهُمْ الَّذِينَ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَشَبَّهَهُ بِالْهَائِمِ عَلَى وَجْهِهِ فِي كُلِّ وَادٍ يَعِنُّ لَهُ لِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْهَوَى غَيْرَ مُفَكِّرٍ فِي صِحَّةِ مَا يَقُولُ وَلَا فَسَادِهِ وَلَا فِي عَاقِبَةِ أَمْرِهِ) .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ : ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ (فِي كُلِّ لَغْوٍ يَخُوضُونَ ، يَمْدَحُونَ وَيَذُمُّونَ ، يَعْنُونَ الْأَبَاطِيلَ) .

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا .

(18/573)

حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا ﴾ وَمَعْنَاهُ الشِّعْرُ الْمَذْمُومُ الَّذِي ذَمَّ اللَّهُ قَائِلَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَثْنَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِحَسَّانٍ : (اُهْجُهُمْ وَمَعَك رُوحُ الْقُدُسِ) ، وَذَلِكَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنْ الْقَوْلِ إلَّا مَنْ ظُلِمَ ﴾ وَرَوَى أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ مِنْ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً ﴾ آخِرُ سُورَةِ الشُّعَرَاءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(19/573)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

فِيهَا ثَمَانِي مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ ﴾ الشِّعْرُ نَوْعٌ مِنْ الْكَلَامِ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ : حَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِهِ يَعْنِي أَنَّ الشِّعْرَ لَيْس يُكْرَهُ لِذَاتِهِ ، وَإِنَّمَا يُكْرَهُ لِمُتَضَمَّنَاتِهِ .

وَقَدْ كَانَ عِنْدَ الْعَرَبِ عَظِيمَ الْمَوْقِعِ حَتَّى قَالَ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ : وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشِّعْرِ الَّذِي كَانَ يُرَدُّ بِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ : ﴿ إِنَّهُ لَأَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ النَّبْلِ ﴾ .

وَقَدْ أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ ، أَنْبَأَنَا الْبَرْمَكِيُّ وَالْقَزْوِينِيُّ الزَّاهِدُ ، أَنْبَأَنَا ابْنُ حَيْوَةَ ، أَنْبَأَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ السُّكَّرِيُّ ، أَنْبَأَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الدِّينَوَرِيُّ ، حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ عَمْرٍو الْغَنَوِيُّ ، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بْنُ يَحْيَى ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ زَحْرِ بْنِ حِصْنٍ عَنْ جَدِّهِ حُمَيْدِ بْنِ مُنْهِبٍ قَالَ : ﴿ سَمِعْت جَدِّي خُرَيْمَ بْنَ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ يَقُولُ : هَاجَرْت إِلَى رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ مُنْصَرَفِهِ مِنْ تَبُوكَ ، فَسَمِعْت الْعَبَّاسَ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إنِّي أُرِيدُ أَنْ أَمْتَدِحَك .

(20/573)

فَقَالَ : قُلْ ، لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاك .

فَقَالَ الْعَبَّاسُ مُمْتَدِحًا : مِنْ قَبْلِهَا طِبْت فِي الظِّلَالِ وَفِي مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ ثُمَّ هَبَطْت الْبِلَادَ لَا بَشَرٌ أَنْتَ وَلَا مُضْغَةٌ وَلَا عَلَقُ بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ أُلْجِمَ نَسْرًا وَأَهْلَهُ الْغَرَقُ تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إلَى رَحِمٍ إذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ حَتَّى اسْتَوَى بَيْنَك الْمُهَيْمِنُ مِنْ خِنْدِفٍ عَلْيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ وَأَنْتَ لَمَّا بُعِثْت أَشْرَقَتْ الْأَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِك الْأُفُقُ فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النُّورِ وَسُبُلِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاك ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾ : يَعْنِي الْجَاهِلُونَ ، مِنْ الْغَيِّ ، وَقَدْ يَكُونُ الْجَهْلُ فِي الْعَقِيدَةِ ، فَيَكُونُ شِرْكًا ، وَيُرَادُ بِهِ الْكُفَّارُ وَالشَّيَاطِينُ .

وَقَدْ يَكُونُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ ، فَيَكُونُ سَفَاهَةً .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ : يَعْنِي يَمْشُونَ بِغَيْرِ قَصْدٍ وَلَا

تَحْصِيلٍ ، وَضَرَبَ الْأَوْدِيَةَ فِي السَّيْرِ مَثَلًا لِصُنُوفِ الْكَلَامِ فِي الشِّعْرِ ، لِجَرَيَانِ تِلْكَ سَيْلًا ، وَسَيْرِ هَؤُلَاءِ قَوْلًا ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ : فَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ وَهَبَّ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(21/573)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ : يَعْنِي مَا يَذْكُرُونَهُ فِي شِعْرِهِمْ مِنْ الْكَذِبِ فِي الْمَدْحِ وَالتَّفَاخُرِ ، وَالْغَزَلِ وَالشَّجَاعَةِ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ فِي صِفَةِ السَّيْفِ : تَظَلُّ تَحْفِرُ عَنْهُ إنْ ضَرَبْت بِهِ بَعْدَ الذِّرَاعَيْنِ وَالسَّاقَيْنِ وَالْهَادِي فَهَذَا تَجَاوُزُ بَارِدٍ وَتَحَامُقُ جَاهِلٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : رُوِيَ أَنَّ ﴿ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ ، وَكَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ، وَحَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَ : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ ﴾ وَقَالُوا : هَلَكْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ يَعْنِي ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا فِي كَلَامِهِمْ ، وَانْتَصَرُوا فِي رَدِّ الْمُشْرِكِينَ عَنْ هِجَائِهِمْ ، ﴾ .

كَقَوْلِ حَسَّانَ فِي أَبِي سُفْيَانَ : وَإِنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ وَوَالِدُك

الْعَبْدُ وَمَا وَلَدَتْ أَفْنَاءُ زُهْرَةَ مِنْكُمْ كَرِيمًا وَلَا يَقْرُبُ عَجَائِزَكَ الْمَجْدُ وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ وَلَا كَابْنِ أُمِّهِ وَلَكِنْ هَجِينٌ لَيْسَ يُورَى لَهُ زَنْدٌ وَإِنَّ امْرَأً كَانَتْ سُمَيَّةُ أُمَّهُ وَسَمْرَاءُ مَغْلُوبٌ إِذَا بَلَغَ الْجَهْدُ وَأَنْتَ امْرُؤٌ قَدْ نِيطَ فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نِيطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ أَنَسٍ .

(22/573)

﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ مَكَّةَ فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَمْشِي بَيْنَ يَدَيْهِ يَقُولُ : خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ الْيَوْمَ نَضْرِبُكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ ضَرْبًا يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ مَقِيلِهِ وَيُذْهِلُ الْخَلِيلَ عَنْ خَلِيلِهِ فَقَالَ عُمَرُ : يَا بْنَ رَوَاحَةَ ؛ فِي حَرَمِ اللَّهِ وَبَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقُولُ الشِّعْرَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : خَلِّ عَنْهُ يَا عُمَرُ ، فَإِنَّهُ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ نَضْحِ النَّبْلِ ﴾ ، وَفِي رِوَايَةٍ : نَحْنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَأْوِيلِهِ كَمَا ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تَنْزِيلِهِ الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : مِنْ الْمَذْمُومِ فِي الشِّعْرِ التَّكَلُّمُ مِنْ الْبَاطِلِ بِمَا لَمْ يَفْعَلْهُ الْمَرْءُ ؛ رَغْبَةً فِي تَسْلِيَةِ النَّفْسِ ، وَتَحْسِينِ الْقَوْلِ .

رُوِيَ أَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ نَضْلَةَ

كَانَ عَامِلًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ : أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي

زُجَاجٍ وَحَنْتَمٍ إذَا شِئْت غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ وَرَقَّاصَةٌ تَجْذُو عَلَى كُلِّ مَنْسِمِ فَإِنْ كُنْت نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُتَثَلِّمِ لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوءُهُ تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ ، فَأَرْسَلَ إلَيْهِ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : إنِّي وَاَللَّهِ يَسُوءُنِي ذَلِكَ .

(23/573)

فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا فَعَلْت شَيْئًا مِمَّا قُلْت ، وَإِنَّمَا كَانَتْ فَضْلَةً مِنْ الْقَوْلِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمْ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَمَّا عُذْرُك فَقَدْ دَرَأَ عَنْك الْحَدَّ ، وَلَكِنْ لَا تَعْمَلْ لِي عَمَلًا أَبَدًا .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : وَقَدْ كَشَفَ الْخَلِيفَةُ الْعَدْلُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ حَقِيقَةَ أَحْوَالِ الشُّعَرَاءِ ، وَكَشَفَ سَرَائِرَهُمْ ، وَانْتَحَى مَعَايِبَهُمْ فِي أَشْعَارِهِمْ ، فَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا اسْتُخْلِفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَفَدَتْ إلَيْهِ الشُّعَرَاءُ ، كَمَا كَانَتْ تَفِدُ إلَى الْخُلَفَاءِ قَبْلَهُ ، فَأَقَامُوا بِبَابِهِ أَيَّامًا لَا يَأْذَنُ لَهُمْ بِالدُّخُولِ ، حَتَّى قَدِمَ عُدَيُّ بْنُ أَرْطَاةَ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَكَانَتْ لَهُ مَكَانَةٌ فَتَعَرَّضَ لَهُ جَرِيرٌ ، فَقَالَ : يَأَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ هَذَا زَمَانُك إنِّي قَدْ خَلَا زَمَنِي أَبْلِغْ خَلِيفَتَنَا إنْ كُنْت لَاقِيَهُ أَنِّي لَدَى الْبَابِ كَالْمَصْفُودِ فِي قَرَنٍ وَحْشُ الْمَكَانَةِ مِنْ أَهْلِي وَمِنْ

وَلَدِي نَائِي الْمَحَلَّةِ عَنْ دَارِي وَعَنْ وَطَنِي فَقَالَ : نَعَمْ ، أَبَا حَزْرَةَ وَنُعْمَى عَيْنٍ .

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى عُمَرَ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ الشُّعَرَاءَ بِبَابِك ، وَأَقْوَالُهُمْ بَاقِيَةٌ ، وَسِهَامُهُمْ مَسْمُومَةٌ .

فَقَالَ عُمَرُ : مَا لِي

(24/573)

وَلِلشُّعَرَاءِ ، قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مُدِحَ وَأَعْطَى ، وَفِيهِ أُسْوَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ .

قَالَ : وَمَنْ مَدَحَهُ ؟ قَالَ : عَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ فَكَسَاهُ حُلَّةً قَطَعَ بِهَا لِسَانَهُ .

قَالَ : نَعَمْ ، فَأَنْشَدَهُ : رَأَيْتُك يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا نَشَرْتَ كِتَابًا جَاءَ بِالْحَقِّ مُعْلِمَا سَنَنْتَ لَنَا فِيهِ الْهُدَى بَعْدَ جَوْرِنَا عَنْ الْحَقِّ لَمَّا أَصْبَحَ الْحَقُّ مُظْلِمَا فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي النَّبِيَّ مُحَمَّدًا وَكُلُّ امْرِئٍ يُجْزَى بِمَا قَدْ تَكَلَّمَا تَعَالَى عُلُوًّا فَوْقَ عَرْشِ إِلَهِنَا وَكَانَ مَكَانُ اللَّهِ أَعْلَى وَأَعْظَمَا قَالَ : صَدَقْت ، فَمَنْ بِالْبَابِ مِنْهُمْ ؟ قَالَ : ابْنُ عَمِّك عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْقُرَشِيُّ .

قَالَ : لَا قَرَّبَ اللَّهُ قَرَابَتَهُ ، وَلَا حَيَّا وَجْهَهُ ، أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ : أَلَا لَيْتَ أَنِّي يَوْمَ بَانُوا بِمَيْتَتِي شَمَمْتُ الَّذِي مَا بَيْنَ عَيْنَيْك وَالْفَمِ وَلَيْتَ طَهُورِي كَانَ رِيقَك كُلَّهُ وَلَيْتَ حَنُوطِي مِنْ

مُشَاشِك وَالدَّمِ وَيَا لَيْتَ سَلْمَى فِي الْقُبُورِ ضَجِيعَتِي هُنَالِكَ أَوْ فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمِ فَلَيْتَ عَدُوَّ اللَّهِ تَمَنَّى لِقَاءَهَا فِي الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا ؛ وَاللَّهِ لَا دَخَلَ عَلَيَّ أَبَدًا .

فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرُ مَنْ ذَكَرْت ؟ قَالَ : جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ الْعُذْرِيُّ .

(25/573)

قَالَ : هُوَ الَّذِي يَقُولُ : أَلَا لَيْتَنَا نَحْيَا جَمِيعًا وَإِنْ نَمُتْ يُوَافِي لَدَى الْمَوْتَى ضَرِيحِي ضَرِيحُهَا فَمَا أَنَا فِي طُولِ الْحَيَاةِ بِرَاغِبٍ إذَا قِيلَ قَدْ سُوِّيَ عَلَيْهَا صَفِيحُهَا أَظَلُّ نَهَارِي لَا أَرَاهَا وَيَلْتَقِي مَعَ اللَّيْلِ رُوحِي فِي الْمَنَامِ وَرُوحُهَا أُعْزُبْ بِهِ ، فَلَا يَدْخُلُ عَلَيَّ أَبَدًا .

فَمَنْ غَيْرُ مَنْ ذَكَرْت ؟ قَالَ : كُثَيِّرُ عَزَّةَ .

قَالَ : هُوَ الَّذِي يَقُولُ : رُهْبَانُ مَدْيَنَ وَالَّذِينَ عَهِدْتهمْ يَبْكُونَ مِنْ حَذَرِ الْعَذَابِ قُعُودَا لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْت كَلَامَهَا خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وَسُجُودَا أُعْزُبْ بِهِ .

فَمَنْ

بِالْبَابِ غَيْرُ مَنْ ذَكَرْت ؟ قَالَ : الْأَحْوَصُ الْأَنْصَارِيُّ .

قَالَ : أَبْعَدَهُ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُ ، أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلَ وَقَدْ أَفْسَدَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ جَارِيَةً لَهُ حَتَّى هَرَبَتْ مِنْهُ قَالَ : اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ سَيِّدِهَا يَفِرُّ مِنِّي بِهَا وَأَتَّبِعُ أُعْزُبْ بِهِ .

فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرُ مَنْ ذَكَرْت ؟ قَالَ : هَمَّامُ بْنُ غَالِبٍ الْفَرَزْدَقُ .

قَالَ : أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلَ يَفْخَرُ بِالزِّنَا : هُمَا دَلَّيَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً كَمَا انْقَضَّ بَازٍ أَقْتَمُ الرِّيشِ كَاسِرُهْ فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ قَالَتَا أَحَيٌّ يُرَجَّى أَمْ قَتِيلٌ نُحَاذِرُهْ فَقُلْت ارْفَعُوا الْأَمْرَاسَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا وَوَلَّيْت فِي أَعْقَابِ لَيْلٍ أُبَادِرُهْ اُعْزُبْ بِهِ .

فَوَاَللَّهِ لَا يَدْخُلُ عَلَيَّ أَبَدًا .

فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرُ مَنْ ذَكَرْت ؟ قُلْت : الْأَخْطَلُ التَّغْلِبِيُّ .

(26/573)

قَالَ : هُوَ الْقَائِلُ : فَلَسْت بِصَائِمٍ رَمَضَانَ عُمْرِي وَلَسْت بِآكِلٍ لَحْمَ الْأَضَاحِيِّ وَلَسْت بِزَاجِرٍ عِيسًا رُكُوبًا إلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ لِلنَّجَاحِ وَلَسْت بِقَائِمٍ كَالْعِيرِ يَدْعُو قُبَيْلَ الصُّبْحِ حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ وَلَكِنِّي سَأَشْرَبُهَا شَمُولًا وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلَجِ الصَّبَاحِ اُعْزُبْ بِهِ ، فَوَاَللَّهِ لَا وَطِئَ بِسَاطِي .

فَمَنْ بِالْبَابِ غَيْرُ مَنْ ذَكَرْت ؟ قُلْت : جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةَ الْخَطَفِيُّ قَالَ : أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلَ : لَوْلَا مُرَاقَبَةُ الْعُيُونِ أَرَيْتَنَا مُقَلَ الْمَهَا وَسَوَالِفَ الْآرَامِ ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوَى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الْأَيَّامِ طَرَقَتْك صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا حِينَ الزِّيَارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ

فَهَذَا ، فَأْذَنْ لَهُ فَخَرَجْت إلَيْهِ ، فَقُلْت : ادْخُلْ أَبَا حَزْرَةَ ، فَدَخَلَ وَهُوَ يَقُولُ : إنَّ الَّذِي بَعَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا جَعَلَ الْخِلَافَةَ لِلْإِمَامِ الْعَادِلِ وَسِعَ الْبَرِيَّةَ عَدْلُهُ وَوَفَاؤُهُ حَتَّى ارْعَوَى وَأَقَامَ مَيْلَ الْمَائِلِ إنِّي لَأَرْجُو مِنْك خَيْرًا عَاجِلًا وَالنَّفْسُ مُولَعَةٌ بِحُبِّ

(27/573)

الْعَاجِلِ فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ : اتَّقِ اللَّهَ يَا جَرِيرُ ، وَلَا تَقُلْ إلَّا حَقًّا ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ : كَمْ بِالْيَمَامَةِ مِنْ شَعْثَاءَ أَرْمَلَةٍ وَمِنْ يَتِيمٍ ضَعِيفِ الصَّوْتِ وَالنَّظَرِ مِمَّنْ يَعُدُّك تَكْفِي فَقْدَ وَالِدِهِ كَالْفَرْخِ فِي الْعُشِّ لَمْ يَدْرُجْ وَلَمْ يَطِرْ إنَّا لَنَرْجُو إذَا مَا الْغَيْثُ أَخْلَفَنَا مِنْ الْخَلِيفَةِ مَا نَرْجُو مِنْ الْمَطَرِ أَتَى الْخِلَافَةَ إذْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ النَّطْرُونِيُّ الْأَرَامِلُ قَدْ قَضَّيْت حَاجَتَهَا فَمَنْ لِحَاجَةِ هَذَا الْأَرْمَلِ الذَّكَرِ فَقَالَ : يَا جَرِيرُ لَقَدْ وُلِّيت هَذَا الْأَمْرَ ، وَمَا أَمْلِكُ إلَّا ثَلَاثَمِائَةِ دِرْهَمٍ ، فَمِائَةٌ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ ، وَمِائَةٌ أَخَذَتْهَا أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ ، يَا غُلَامُ ، أَعْطِهِ الْمِائَةَ الثَّالِثَةَ فَقَالَ : وَاَللَّهِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إنَّهَا لَأَحَبُّ مَالٍ كَسَبْتُهُ إلَيَّ .

(28/573)

ثُمَّ خَرَجَ ، فَقَالَ لَهُ الشُّعَرَاءُ : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : مَا يَسُوءُكُمْ ، خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِ أَمِيرٍ يُعْطِي الْفُقَرَاءَ ، وَيَمْنَعُ الشُّعَرَاءَ ، وَإِنِّي عَنْهُ لَرَاضٍ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ : رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفِزُّهُ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنْ الْجِنِّ رَاقِيَا وَلَمَّا وَلِيَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَفَدَ إِلَيْهِ نَابِغَةُ بَنِي جَعْدَةَ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، ثُمَّ أَنْشَدَهُ : حَكَيْتَ لَنَا الْفَارُوقَ لَمَّا وَلِيتَنَا وَعُثْمَانَ وَالصِّدِّيقَ فَارْتَاحَ مُعْدِمُ وَسَوَّيْتَ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَقِّ فَاسْتَوَوْا فَعَادَ صَبَاحًا حَالِكُ اللَّوْنِ مُظْلِمُ أَتَاكَ أَبُو لَيْلَى يَجُوبُ بِهِ الدُّجَى دُجَى اللَّيْلِ جَوَّابُ الْفَلَاةِ عَثَمْثَمُ لِتَجْبُرَ مِنَّا جَانِبًا دَعْدَعَتْ بِهِ صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالزَّمَانُ الْمُصَمِّمُ فَقَالَ لَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ : هَوِّنْ عَلَيْكَ أَبَا لَيْلَى ، فَالشِّعْرُ أَدْنَى وَسَائِلُكَ عِنْدَنَا ، أَمَّا صَفْوَةُ مَالِنَا فَلِآلِ الزُّبَيْرِ ، وَأَمَّا عَفْوَتُهُ فَإِنَّ بَنِي أَسَدٍ وَتَمِيمًا شَغَلَاهَا عَنْكَ ، وَلَكِنْ لَكَ فِي مَالِ اللَّهِ سَهْمَانِ

: سَهْمٌ بِرُؤْيَتِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَهْمٌ بِشَرِكَتِكَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ فِي فَيْئِهِمْ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ ، وَدَخَلَ دَارَ الْمَغْنَمِ فَأَعْطَاهُ قَلَائِصَ سَبْعًا ، وَجَمَلًا رَحِيلًا ، وَأَوْقَرَ لَهُ الرِّكَابَ بُرًّا وَتَمْرًا ، فَجَعَلَ النَّابِغَةُ يَسْتَعْجِلُ ، وَيَأْكُلُ الْحَبَّ صِرْفًا .

(29/573)

فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : وَيْحَ أَبِي لَيْلَى ، لَقَدْ بَلَغَ بِهِ الْجَهْدُ ، فَقَالَ النَّابِغَةُ : أَشْهَدُ ، لَسَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ﴿ : مَا وَلِيَتْ ؟ ؟ قُرَيْشٌ فَعَدَلَتْ ، وَلَا اسْتُرْحِمَتْ فَرَحِمَتْ ، وَحَدَّثَتْ فَصَدَقَتْ ، وَوَعَدَتْ فَأَنْجَزَتْ ، فَأَنَا وَالنَّبِيُّونَ فُرَّاطُ الْقَاصِفِينَ ﴾ .

قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ : فَكَأَنَّ الْفَارِطَ الَّذِي يَتَقَدَّمُ إلَى الْمَاءِ يُصْلِحُ الرِّشَاءَ وَالدِّلَاءَ .

وَالْقَاصِفُ : الَّذِي يَتَقَدَّمُ لِشِرَاءِ الطَّعَامِ الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : فِي تَحْقِيقِ الْقَوْلِ فِيهِ : أَمَّا الِاسْتِعَارَاتُ وَالتَّشْبِيهَاتُ فَمَأْذُونٌ فِيهَا وَإِنْ اسْتَغْرَقَتْ الْحَدَّ ، وَتَجَاوَزَتْ الْمُعْتَادَ ، فَبِذَلِكَ يَضْرِبُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِالرُّؤْيَا الْمَثَلَ ، وَقَدْ أَنْشَدَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ وَمَا سُعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إذْ رَحَلُوا إلَّا أَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ

فَجَاءَ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مِنْ الِاسْتِعَارَاتِ وَالتَّشْبِيهَاتِ بِكُلِّ بَدِيعٍ .

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْمَعُ وَلَا يُنْكِرُ ، حَتَّى فِي تَشْبِيهِ رِيقَهَا بِالرَّاحِ .

(30/573)

وَقَدْ كَانَتْ حَرُمَتْ قَبْلَ إنْشَادِهِ لِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ ، وَلَكِنَّ تَحْرِيمَهَا لَمْ يَمْنَعْ عِنْدَهُمْ طِيبَهَا ؛ بَلْ تَرَكُوهَا عَلَى الرَّغْبَةِ فِيهَا وَالِاسْتِحْسَانِ لَهَا ؛ فَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأُجُورِهِمْ ، وَمِنْ النَّاسِ قَلِيلٌ

مَنْ يَتْرُكُهَا اسْتِقْذَارًا لَهَا ، وَإِنَّهَا

لَأَهْلٌ لِذَلِكَ عِنْدِي ، وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ النَّاسِ فِي تَلَذُّذِهِمْ بِهَا وَاسْتِطَابَتِهِمْ لَهَا ، وَوَاَللَّهِ مَا

هِيَ إلَّا قَذِرَةٌ بَشِعَةٌ كَرِيهَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، وَاَللَّهُ يَعْصِمُ مِنْ الْمَعَاصِي بِعِزَّتِهِ .

وَبِالْجُمْلَةِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْغَالِبُ عَلَى الْعَبْدِ الشِّعْرُ حَتَّى يَسْتَغْرِقَ قَوْلَهُ وَزَمَانَهُ ، فَذَلِكَ

مَذْمُومٌ شَرْعًا .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ

أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا ﴾ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ إلَّا إيَّاهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ

3 صـ ﴾

(31/573)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾

فيه أربعة أوجه

: أحدها : حين تقوم في الصلاة ، قاله ابن عباس .

الثاني : حين تقوم من فراشك ومجلسك ، قاله الضحاك .

الثالث : يعني قائماً وجالساً وعلى حالاتك كلها ، قاله قتادة .

الرابع : يعني حين تخلو ، قاله الحسن ، ويكون القيام عبارة عن الخلوة لوصوله إليها بالقيام عن ضدها .

قوله تعالى : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً ، قاله ابن عباس .

الثاني : يرى تقلبك في صلاتك وركوعك وسجودك ، حكاه ابن جرير .

الثالث : أنك ترى تقلبك في صلاتك من خلفك كما ترى بعينك من قدامك ، قاله مجاهد .

الرابع : معناه وتصرفك في الناس ، قاله الحسن لتقلبه في أحواله وفي أفعاله .

الخامس : تقلب ذكرك وصفتك على ألسنة الأنبياء من قبلك .

السادس : أن معنى قوله ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إذا صليت منفرداً ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ إذا صليت في الجماعة ، قاله قتادة .

ويحتمل سابعاً : الذي يراك حين تقوم لجهاد المشركين ، ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ فيما تريد به المسلمين وتشرعه من أحكام الدين .

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾

يعني إذا غضبوا سبوا ، وفيهم أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم الشياطين ، قاله مجاهد .

الثاني : المشركون ، قاله ابن زيد .

الثالث : السفهاء ، قاله الضحاك .

الرابع : الرواة ، قاله ابن عباس .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : في كل فن من الكلام يأخذون ، قاله ابن عباس .

الثاني : في كل لغو يخوضون ، قاله قطرب ، ومنه قول الشاعر :

إني لمعتذر إليك من الذي . . . أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

الثالث : هو أن يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل ، قاله قتادة

. وفي الهائم وجهان :

أحدهما : أنه المخالف في القصد ، قاله أبو عبيدة .

(32/573)

الثاني : أنه المجاوز للحد .

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ يعني ما يذكرونه في شعرهم من الكذب بمدح أو ذم أو

تشبيه أو تشبيب .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ تقديره فإنهم لا يتبعهم الغاوون ولا يقولون ما لا يفعلون .

روي أن عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزل ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فبكوا عنده وقالوا : هلكنا يا رسول الله : فأنزل الله ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ فقرأها عليهم حتى بلغ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ فقال : أنتم

. ﴿ وَذَكَرُواْ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : في شعرهم .

الثاني : في كلامهم .

﴿ وَانتَصَرُواْ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ أي ردّوا على المشركين ما كانوا يهجون به المؤمنين فقاتلوهم عليه نصرة للمؤمنين وانتقاماً من المشركين .

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ وهذا وعيد يراد به من هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء لكل كافر من شاعر وغير شاعر سيعلمون يوم القيامة أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون ، لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العذاب وهو شر مرجع .

والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها ، فصار إلى مرجع منقلباً وليس كل منقلب مرجعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(33/573)

وقال ابن عطية :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) ﴾

قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر وشيبة " فتوكل " بالفاء وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام ، والجمهور بالواو وكذلك في سائر المصاحف ، وأمره الله تعالى بالتوكل عليه في كل أمره ، ثم جاء بالصفات التي تؤنس المتوكل وهي العزة والرحمة المذكورتان في أواخر قصص الأمم المذكورة في هذه السورة . وضمنها نصر كل نبي على الكفرة والتهمم بأمره والنظر إليه ، وقوله ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ ، ﴿ يراك ﴾ عبارة عن الإدراك ، وظاهر الآية أراد قيام الصلاة ، ويحتمل أن يريد سائر التصرفات وهو تأويل مجاهد وقتادة ، وقوله ﴿ في الساجدين ﴾ قيل يريد أهل الصلاة أي صلاتك مع المصلين ، قاله ابن عباس وعكرمة .

وغيرهما ، وقال أيضاً مجاهد يريد تقلبك أي تقليبك عينك وأبصارك الساجدين حين تراهم من وراء ظهرك .

(34/573)

قال القاضي أبو محمد : وهذا معنى أجنبي هنا ، وقال ابن عباس أيضاً وقتادة أراد تقلبك في المؤمنين فعبر عنهم ب ﴿ الساجدين ﴾ ، وقال ابن جبير أراد الأنبياء أي تقلبك كما تقلب غيرك من الأنبياء ، وقوله تعالى : ﴿ هل أنبئكم ﴾ معناه قل لهم يا محمد هل أخبركم ﴿ على من تنزل الشياطين ﴾ وهذا استفهام توقيف وتقرير ، و" الأفاك " الكذاب ، و" الأثيم " الآثم . ويريد الكهنة لأنهم كانوا يتلقون من الشياطين الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء ، فيخلطون معها مائة كذبة ، فإذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالة لمن سمعها ، وقوله ﴿ يلقون ﴾ يعني الشياطين ، ويقتضي ذلك أن الشيطان المسترق أيضاً كان يكذب إلى ما سمع هذا في الأكثر ، ويحتمل الضمير في ﴿ يلقون ﴾ أي يكون للكهنة فإفكهم وحالهم التي تقتضي نفي كلامهم عن كلام كتاب الله عقب ذلك بذكر ﴿ الشعراء ﴾ وحالهم لينبه على بعد كلامهم من كلام القرآن ، إذ قال في القرآن بعض الكفرة إنه شعر ، وهذه الكناية هي عن شعراء الجاهلية ، حكى النقاش عن السدي أنها في ابن الزبعرى

وأبي سفيان بن الحارث وهبيرة بن أبي وهب ومسافع الجمحي وأبي عزة وأمية بن أبي الصلت .

(35/573)

قال القاضي أبو محمد : والأولان ممن تاب رضي الله عنهما ، ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو ويمدح شهوة ويقذف المحصنات ويقول الزور ، وقرأ نافع " يتْبعهم " بسكون التاء وهي قراءة أبي عبد الرحمن والحسن بخلاف عنه ، وقرأ الباقون بشد التاء وكسر الباء ، واختلف الناس في قوله ﴿ الغاوون ﴾ ، فقال ابن عباس هم الرواة وقال ابن عباس أيضاً هم المستحسنون لأشعارهم المصاحبون لهم ، وقال عكرمة هم الرعاع الذي يتبعون الشاعر ويتغنمون إنشاده وهذا أرجح الأقوال ، وقال مجاهد وقتادة ﴿ الغاوون ﴾ الشياطين ، وقوله ﴿ في كل واد يهيمون ﴾ عبارة تخليطهم وخوضهم في كل فن من غث الكلام وباطله وتحسينهم القبيح وتقبيحهم الحسن قاله ابن عباس وغيره ، وقوله ، ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ، ذكر لتعاطيهم وتعمقهم في مجاز الكلام حتى يؤول إلى الكذب ، وفي هذا اللفظ عذر لبعضهم أحياناً فإنه يروى أن النعمان بن عدي لما ولاه عمر بن الخطاب ميسان وقال لزوجته الشعر المشهور عزله عمر فاحتج عليه بقوله تعالى : ﴿

وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ فدرأ عنه عمر الحد في الخمر ، وروى جابر ابن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " من مشى سبع خطوات في شعر كتب من الغاوين " ذكره أسد بن موسى وذكره النقاش .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾

(36/573)

هذا الاستثناء هو في شعراء الإسلام كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكل من اتصف بهذه الصفة ، ويروى عن عطاء بن يسار وغيره أن هؤلاء شق عليهم ما ذكر قبل في الشعراء وذكروا ذلك للنبي عليه السلام فنزلت آية الاستثناء بالمدينة ، وقوله ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ يحتمل أن يريد في أشعارهم وهو تأويل ابن زيد ، ويحتمل أن يريد أن ذلك خلق لهم وعبادة وعادة قاله ابن عباس ، وهذا كما قال لبيد حين طلب منه شعره إن الله أبدلني بالشعر القرآن خيراً منه وكل شاعر في الإسلام يهجو ويمدح من غير حق ولا يرتدع عن قول دنيء فهم داخلون في هذه الآية وكل تقي منهم يكثر من الزهد ويمسك عن كل ما يعاب فهو داخل في الاستثناء ، وقوله ﴿ وانتصروا ﴾ إشارة إلى ما قاله من الشعر علي وغيره في قريش قال قتادة وفي بعض القراءة ، " وانتصروا بمثل ما ظلموا " ،

وباقي الآية وعيد للظلمة كفار مكة وتهديد لهم ، وعمل ﴿ ينقلبون ﴾ في ﴿ أي ﴾ لتأخيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(37/573)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وتَوَكَّلْ على العزيز الرَّحيم ﴾

أي : ثِقْ به وفوِّض أمرك إليه ، فهو عزيز في نِقْمته ، رحيم لم يعجِّل بالعقوبة .

وقرا نافع ، وابن عامر : ﴿ فَتَوَكَّل ﴾ بالفاء ، وكذلك [هو] في مصاحف أهل المدينة والشام .

﴿ الذي يراكَ حين تَقُوم ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : حين تقوم إلى الصلاة ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : حين تقوم من مقامك ، قاله أبو الجوزاء .

والثالث : حين تخلو ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وتَقَلُّبَكَ ﴾ أي : ونرى تقلُّبك ﴿ في الساجدين ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : وتقلُّبك في أصلاب الأنبياء حتى أخرجك ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : وتقلُّبك في الركوع والسجود والقيام مع المصلِّين في الجماعة ؛ والمعنى : يراك وحدك ويراك في الجماعة ، وهذا قول الأكثرين منهم قتادة .

والثالث : وتصرُّفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ هل أُنَبِّئُكم على من تَنَزَّلُ الشَّياطين ﴾

هذا ردٌّ عليهم حين قالوا : إنما يأتيه بالقرآن الشياطين .

فأما الأَفَّاك فهو الكذّاب ، والأثيم : الفاجر ؛ قال قتادة : وهم الكهنة .

قوله تعالى : ﴿ يُلْقُون السَّمْع ﴾ أي : يُلْقُون ما سمعوه من السماء إلى الكهنة .

وفي قوله : ﴿ وأكثرُهم كاذبون ﴾ قولان .

أحدهما : أنهم الشياطين .

والثاني : الكهنة .

قوله تعالى : ﴿ والشُّعراء يتَّبعهم الغاوون ﴾

وقرا نافع : ﴿ يَتْبعهم ﴾ بسكون التاء ؛ والوجهان حسنان ، يقال : تَبِعْتُ واتَّبعت ، مثل حقرتُ واحتقرتُ .

وروى العوفي عن ابن عباس ، قال : كان رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تهاجيا ، فكان مع كل واحد منهما غُواة من قومه ، فقال الله : ﴿ والشعراء يتَّبعهم

الغاوون ﴾ .

وفي رواية آخرى عن ابن عباس ، قال : هم شعراء المشركين .

(38/573)

قال مقاتل : منهم عبد الله بن الزِّبَعْرى ، وأبو سفيان بن حرب ، وهبيرة ابن أبي وهب المخزومي في آخرين ، قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وقالوا الشعر ، فاجتمع إِليهم غُواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويَرْوُون عنهم .

وفي الغاوين ثلاثة أقوال .

أحدها : الشياطين ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : السُّفهاء ، قاله الضحاك .

والثالث : المشركون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهم في كُلِّ وادٍ يَهيمون ﴾ هذا مَثَل بمن يَهيم في الأودية ؛ والمعنى أنهم يأخذون في كل فنّ من لغو وكذب وغير ذلك ؛ فيمدحون بباطل ، ويذمُّون بباطل ، ويقولون : فعلنا ، ولم يفعلوا .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الذين آمنوا ﴾ قال ابن عباس : لمّا نزل ذمُّ الشعراء ، جاء كعب بن مالك

، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : يا رسول الله ، أنزل اللّهُ هذا وهو يعلم أنّا شعراء ، فنزلت هذه الآية .

قال المفسرون : وهذا الاستثناء لشعراء المسلمين الذين مدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمّوا من هجاه ، ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ أي : لم يَشْغَلهم الشّعر عن ذِكْر الله ولم يجعلوا الشّعر همَّهم .

وقال ابن زيد : وذكروا الله في شِعرهم .

وقيل : المراد بالذّكْر : الشّعر في طاعة الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وانْتَصَروا ﴾ أي : من المشركين ﴿ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا ﴾ لأن المشركين بدؤوا بالهجاء .

ثم أوعد شعراء المشركين ، فقال : ﴿ وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُوا ﴾ أي : أَشركوا وهَجَوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ﴾ قال الزجاج : ﴿ أيَّ ﴾ منصوبة بقوله : ﴿ ينقلبون ﴾ لا بقوله : ﴿ سيعلم ﴾ ، لأن "أيّاً" وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها .

ومعنى الكلام : إنهم يَنْقلبون إلى نار يخلَّدون فيها .

(39/573)

وقرأ ابن مسعود ، ومجاهد عن ابن عباس ، وأبو المتوكل ، وأبو رجاء : ﴿ أيَّ مُتَقَلَّبٍ يَتَقَلَّبُون ﴾ بتاءين مفتوحتين وبقافين على كل واحدة منهما نقطتان وتشديد اللام فيهما .

وقرأ أُبيّ كعب ، وابن عباس ، وأبو العالية ، وأبو مجلز ، وأبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : ﴿ أيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُون ﴾ بالفاء فيهما وبنونين ساكنين وبتاءين .

وكان شريح يقول : سيعلم الظّالمون حظّ من نقصوا ، إنّ الظّالم يَنْتَظِر العِقاب ، وإنّ المظلوم ينتظر النصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(40/573)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾

أي فوض أمرك إليه فإنه العزيز الذي لا يغالب ، الرحيم الذي لا يخذل أولياءه .

وقرأ العامة : ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ بالواو وكذلك هو في مصاحفهم .

وقرأ نافع وابن عامر "فَتَوَكَّلْ" بالفاء وكذلك هو في مصاحف المدينة والشام .

﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي حين تقوم إلى الصلاة في قول أكثر المفسرين : ابن عباس

وغيره .

وقال مجاهد : يعني حين تقوم حيثما كنت .

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : في المصلّين .

وقال ابن عباس : أي في أصلاب الآباء ، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبيّاً .

وقال عكرمة : يراك قائماً وراكعاً وساجداً ؛ وقاله ابن عباس أيضاً .

وقيل : المعنى ؛ إنك ترى بقلبك في صلاتك مَن خلفك كما ترى بعينك مَن قدامك .

وروي عن مجاهد ؛ ذكره الماورديّ والثعلبيّ .

وكان عليه السلام يرى مَن خلفه كما يرى مَن بين يديه ، وذلك ثابت في الصحيح وفي تأويل الآية بعيد ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ تقدم .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾

إنما قال : ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ لأنها أكثر ما تكون في الهواء ، وأنها تمر من الريح .

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ تقدم في "الحجر" .

ف ﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ صفة الشياطين ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يرجع إلى الكهنة .

وقيل : إلى الشياطين .

قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والشعرآء ﴾ جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء ؛ قال ابن عباس : هم الكفار ﴿ يَتَّبِعُهُمُ ﴾ ضلاّل الجن والإنس .

وقيل : ﴿ الْغَاوُونَ ﴾ الزائلون عن الحق ، ودلّ بهذا أن الشعراء أيضاً غاوون ؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك .

وقد قدمنا في سورة "النور" أن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ويكره ، ويحرم .

(41/573)

روى مسلم من حديث " عمرو بن الشَّرِيد عن أبيه قال : ردِفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : "هل معك من شعر أمية بن أبي الصَّلْت شيء" قلت : نعم .

قال : "هِيه" فأنشدته بيتاً .

فقال : "هِيه" ثم أنشدته بيتاً .

فقال : "هِيه" حتى أنشدته مائة بيت " هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته .

وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم : عن عمرو بن الشَّرِيد عن الشَّرِيد أبيه ؛ وهو وَهَم ؛ لأن الشريد هو الذي أردفه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

واسم أبي الشَّرِيد سُوَيْد .

وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحِكَم والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً ، وإنما استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية ؛ لأنه كان حكيماً ؛ ألا ترى قوله عليه السلام : " وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يسلم " فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه ، كقول القائل :

الحمد لله العليّ المنان . . .

صار الثريد في رؤوس العيدان

أو ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مدحه كقول العباس :

مِن قبلها طِبْتَ في الظِّلال وفي مُس . . .

تودعٍ حيث يُخصَفُ الورقُ

ثم هبطت البلاد لا بشرٌ أن . . .

تَ ولا مُضْغةٌ ولا عَلَقُ

بل نطفة تركب السَّفِينَ وقد أَلْ . . .

جَمَ نَسْراً وأهلَه الغَرَقُ

تنقُل مِن صَالبٍ إلى رَحِمٍ . . .

إذا مَضَى عالَمٌ بَدَا طَبَقُ

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يفَضُضِ الله فاك " أو الذبّ عنه كقول حسان :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه . . .

وعند اللَّهِ في ذاك الجزاءُ

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم .

أو الصلاة عليه ؛ كما روى زيد بن أسلم ؛ خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت ،

وإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول :

على محمدٍ صلاةُ الأبرار . . .

صلى عليه الطيّبون الأخيارْ

قد كنتَ قوّاماً بُكاً بالأسحارْ . . .

يا ليتَ شِعْري والمنايا أطوارْ

هل يَجمعنّي وحبيبي الدارْ . . .

(42/573)

يعني النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فجلس عمر يبكي .

وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم ؛ ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال

:

إِنّي رضيتُ عليّاً للهُدَى عَلَماً . . .

كما رضيتُ عَتيقاً صاحبَ الغارِ

وقد رضيتُ أبا حفصٍ وشيعَتَه . . .

وما رضيتُ بقتل الشيخِ في الدارِ

كلُّ الصحابة عندي قُدوةٌ عَلَمٌ . . .

فهل عليّ بهذا القول من عارِ

إن كنتَ تعلم أَنّي لا أحبُّهُم . . .

إلا من أجلك فاعتقني من النار

وقال آخر فأحسن :

حُبُّ النبيِّ رسول الله مُفْتَرَضٌ . . .

وحُبُّ أصحابِه نورٌ ببرهانِ

من كان يعلم أن الله خالقه . . .

لا يَرمينَّ أبا بكرٍ ببهتانِ

ولا أبا حفصٍ الفاروقَ صاحبَه . . .

ولا الخليفة عثمان بن عفانِ

أمّا عليٌّ فمشهورٌ فضائلُه . . .

والبيت لا يَستوِي إلا بأركانِ

قال ابن العربي : أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد ؛ فبذلك يضرِب الْملك الموكَّل بالرؤيا المثَلَ ، وقد أنشد كعب بن زهير النبي صلى الله عليه وسلم :

بانت سعادُ فقلبي اليوم مَتْبُولُ . . .

مُتَيَّمٌ إِثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ

وما سُعادُ غَداةَ البَيْنِ إذ رَحَلُوا . . .

إلا أَغَنُّ غَضيضُ الطَّرْفِ مَكحولُ

تَجلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ . . .

كأَنَّه مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلولُ

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع ، والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع ولا ينكر في تشبيهه ريقها بالراح .

وأنشد أبو بكر رضي الله عنه :

فَقَدْنا الوحيَ إذ ولَّيتَ عنّا . . .

وودَّعَنَا من الله الكلامُ

سوى ما قد تركتَ لنا رهيناً . . .

تَوارثَه القَرَاطِيسُ الكرامُ

فقد أورثتنا ميراثَ صدقٍ . . .

عليك به التحيةُ والسلامُ

فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعه وأبو بكر ينشده ، فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا .

(43/573)

قال أبو عمر : ولا ينكر الحسنَ من الشعر أحدٌ من أهل العلم ولا من أولي النُّهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً ، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى ، فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحلّ سماعه ولا قوله ؛ وروى أبو هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر يقول : " أصدق كلمة أو أشعر كلمة قالتها العرب قول لبيد : أَلاَ كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلُ " أخرجه مسلم وزاد " وكاد أمية بن أبي الصَّلْت أن يُسلِم " وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعراً فقال له بعض جلسائه : مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر .

فقال : ويلك يا لكعا وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي ، فحسنه حسن وقبيحه قبيح ! قال : وقد كانوا يتذاكرون الشعر .

قال : وسمعت ابن عمر ينشد :

يُحِبُّ الخمرَ من مال النَّدامَى . . .

ويَكرهُ أن يفارقَهُ الغَلُوسُ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعراً مجيداً مقدَّماً فيه .

وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب ، وكانت له زوجة حسنة تسمى عَثْمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها ، وله فيها أشعار كثيرة ؛ منها قوله :

تَغلغَل حُبُّ عَثْمة في فؤادي . . .

فباديه مع الخافي يسيرُ

تَغلغَل حيث لم يبلغ شَرابٌ . . .

ولا حزنٌ ولم يبلغ سرورُ

أكاد إذا ذكرتُ العهد منها . . .

أطير لو أن إنساناً يَطيرُ

وقال ابن شهاب : قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلكا فقال : إن المصدور إذا نفث برأ .

(44/573)

الثانية : وأما الشعر المذموم الذي لا يحلّ سماعه وصاحبه ملوم ، فهو المتكلم بالباطل حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحّهم على حاتم ، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقيّ ، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء ؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول ؛ كما روي عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فبِتْنَ بجانبيَّ مُصَرَّعاتٍ . . .

وبِتُّ أَفُضُّ أغلاقَ الختَامِ

فقال : قد وجب عليك الحد .

فقال : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

وروي أن النعمان بن عدِيّ بن نَضْلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال :

مَنْ مُبْلِغُ الحسناءِ أنّ حليلَها . . .

بمَيْسَانَ يُسقَى في زُجاجٍ وحَنْتَمِ

إذا شئتُ غنتني دَهاقينُ قريةٍ . . .

ورقَّاصةٌ تَجْذو على كلّ مَنْسِمِ

فإن كنت نَدْمانِي فبالأكبر اسقِني . . .

ولا تَسقِني بالأصغر المتثلّمِ

لعلّ أميرَ المؤمنين يَسوءُه . . .

تَنادُمنا بالْجَوْسِق المتهدّمِ

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقُدوم عليه .

وقال : إي والله إني ليسوءني ذلك .

فقال : يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئاً مما قلت ؛ وإنما كانت فضلة من القول ، وقد قال الله تعالى : ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ فقال له عمر : أما عذرك فقد درأ عنك الحد ؛ ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلتَ .

وذكر الزبير بن بكار قال : حدّثني مصعب ابن عثمان أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة لم يكن له هم إلا عمر بن أبي ربيعة والأحوص فكتب إلى عامله على المدينة : إني قد عرفت عمر والأحوص بالشر والخبث فإذا أتاك كتابي هذا فاشدد عليهما واحملهما إليّ .

فلما أتاه الكتاب حملهما إليه ، فأقبل على عمر ؛ فقال : هيه

فلم أَرَ كالتَّجميرِ منظَرَ ناظر . . .

(45/573)

ولا كليالي الحج أَفْلَتْنَ ذَاهَوَى

وكم مالِئٍ عينيه من شيءِ غيرِه . . .

إذا راح نحو الجمرةِ البيضُ كالدُّمَى

أما والله لو اهتممت بحجك لم تنظر إلى شيء غيرك ؛ فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتونا ثم أمر بنفيه .

فقال : يا أمير المؤمنينا أو خير من ذلك ؟ فقال : ما هو ؟ قال : أعاهد الله إني لا أعود إلى مثل هذا الشعر ، ولا أذكر النساء في شعر أبداً .

وأجدّد توبة ؛ فقال : أو تفعل ؟ قال : نعم ؛ فعاهد الله على توبته وخلاه ؛ ثم دعا بالأحوص ، فقال هيه !

الله بيني وبينَ قَيِّمِها . . .

يَفِر منّي بها وأَتَّبِعُ

بل الله بين قيمِها وبينكا ثم أمر بنفيه ؛ فكلمه فيه رجال من الأنصار فأبى ، وقال : والله لا أردّه ما كان لي سلطان ، فإنه فاسق مجاهر .

فهذا حكم الشعر المذموم وحكم صاحبه ، فلا يحلّ سماعه ولا إنشاده في مسجد ولا غيره ، كمنثور الكلام القبيح ونحوه .

وروى إسماعيل بن عَيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حَسنُ الشعر كحسَن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام " رواه إسماعيل عن عبد الله الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام " .

الثالثة : روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأَنْ يمتلىءَ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه خيرٌ من أن يمتلىء شعراً " وفي الصحيح أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال :

بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عرض شاعر يُنشد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأَن يمتلىءَ جوفُ رجلٍ قيحاً خيرٌ له من أن يمتلىءَ شعراً " قال علماؤنا : وإنما فعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله ؛ فلعلّ هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقاً للتكسب ، فيفرط في المدح إذا أعطي ، وفي الهجو والذم إذا مُنع ، فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم .

ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام .

وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ، ولا يحل الإصغاء إليه ، بل يجب الإنكار عليه ؛ فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعاً تعيّن عليه أن يداريه بما استطاع ، ويدافعه بما أمكن ، ولا يحلّ له أن يعطى شيئاً ابتداء ، لأن ذلك عون على المعصية ؛ فإن لم يجد من ذلك بدّاً أعطاه بنية وقاية العِرض ؛ فما وَقَى به المرءُ عرضه كُتب له به صدقة .

قوله : " لأَنْ يَمتلىءَ جوفُ أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه " القيح المِدّة يخالطها دم .

يقال منه : قاح الجُرْح يَقِيح وتَقيّح وقَيَّح .

و "يَرِيه" قال الأصمعي : هو من الوَرْي على مثال الرمي وهو أن يَدْوَى جوفُه ، يقال منه : رجل مَوْريّ مشدّد غير مهموز .

وفي "الصحاح" : ورى القيح جوفه يرِيه وريا إذا أكله .

وأنشد اليزيدي :

قالت له وَرْياً إذا تَنحنحَا . . .

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله : إنه الذي قد غلب عليه الشعر ، وامتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل ، ويسلك به مسالك لا تحمد له ، كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول .

ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية ، لحكم العادة الأدبية .

وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما بوّب على هذا الحديث "باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر" .

(47/573)

وقد قيل في تأويله : إن المراد بذلك الشعر الذي هُجيَ به النبيّ صلى الله عليه وسلم أو غيره .

وهذا ليس بشيء ، لأن القليل من هجو النبيّ صلى الله عليه وسلم وكثيره سواء في أنه كفر ومذموم ، وكذلك هجو غير النبيّ صلى الله عليه وسلم من المسلمين محرّم قليله وكثيره ، وحينئذٍ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى .

الرابعة : قال الشافعي : الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام ، يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمّناته ، وقد كان عند العرب عظيم الموقع .

قال الأوَل منهم :

وجُرح اللسانِ كجُرْحِ اليدِ . . .

" وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين : "إنه لأسرع فيهم من رشق النَّبْل" " أخرجه مسلم .

وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عُمرة القضاء وعبد الله بن رَوَاحة يمشي بين يديه ويقول : "

خَلُّوا بني الكفَّار عن سبِيله . . .

اليومَ نَضربْكُمْ على تنزِيله

ضرباً يزيلُ الهامَ عن مَقِيله . . .

ويُذهِلُ الخليلَ عن خلِيله

" فقال عمر : يا ابن رَوَاحة ! في حرم الله وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خل عنه يا عمر فلهو أسرعُ فيهم من نَضح النَّبْل" " .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ والشعرآءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ لم يختلف القراء في رفع ﴿ وَالشُّعَرَاءُ ﴾ فيما علمت .

ويجوز النصب على إضمار فعل يفسره ﴿ يَتَّبِعُهُمُ ﴾ وبه قرأ عيسى ابن عمر ؛ قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حب النصب ؛ قرأ : ﴿ والسارق والسارقة ﴾ [المائدة : 38] و ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ [المسد : 4] و ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ [النور : 1/] .

وقرأ نافع وشيبة والحسن والسّلَميّ : ﴿ يَتْبَعُهُمْ ﴾ مخففاً .

الباقون ﴿ يَتَّبِعُهُمُ ﴾ .

(48/573)

وقال الضحاك : تهاجى رجلان أحدهما أنصاريّ والآخر مهاجريّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل واحد غواةُ قومه وهم السفهاء فنزلت ؛ وقاله ابن عباس .

وعنه هم الرواة للشعر .

وروى عنه عليّ بن أبي طلحة أنهم هم الكفار يتبعهم ضُلاّل الجن والإنس ؛ وقد ذكرناه .

وروى غُضَيْف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أحدث هجاء في الإسلام فاقطعوا لسانه " وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما افتتح مكة رنّ إبليس رنه وجمع إليه ذريته ؛ فقال ايئسوا أن تريدوا أمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ولكن أفشوا فيهما يعني مكة والمدينة الشِّعْر .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ يقول : في كل لغو يخوضون ، ولا يتبعون سنَنَ الحق ؛ لأن من اتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت ، ولم يكن هائماً يذهب على وجهه لا يبالي ما قال .

نزلت في عبد الله بن الزِّبَعْريّ ومُسافِع بن عبد مناف وأميّة بن أبي الصلت .

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ يقول : أكثرهم يكذبون ؛ أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه .

وقيل : إنها نزلت في أبي عزة الجُمَحيّ حيث قال :

أَلاَ أبلغا عنّي النبيّ محمداً . . .
بأَنَّكَ حَقٌّ والمليكُ حميدُ
ولَكنْ إذا ذُكِّرتُ بَدْراً وأهلَهُ . . .
تَأَوَّهَ منّي أعظمٌ وجلودُ

ثم استثنى شعر المؤمنين : حسان بن ثابت وعبد الله بن رَوَاحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق ؛ فقال : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيراً ﴾ في كلامهم ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ وإنما يكون الانتصار بالحق ، وبما حدّه الله عز وجل ، فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل .

وقال أبو الحسن البرّاد .

" لما نزلت : ﴿ وَالشعَرَاءُ ﴾ جاء حسان وكعب بن مالك وابن رواحة يبكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا نبي اللها أنزل الله تعالى هذه الآية ، وهو تعالى يعلم أنا شعراء ؟ فقال : "اقرؤوا ما بعدها ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ الآية أنتم ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ أنتم" " أي بالرد على المشركين .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " انتصِروا ولا تقولوا إلا حقاً ولا تذكروا الآباء والأمهات "

فقال حسان لأبي سفيان :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه . . .

وعندَ الله في ذاك الجزاءُ

وإنّ أبي ووالدتي وعِرْضي . . .

لِعرضِ محمد منكم وِقاءُ

أتشتمه ولستَ له بكفءٍ . . .

فشركما لخيركما الفِداءُ

لساني صارمٌ لا عيبَ فيهِ . . .

وبحري لا تُكدّره الدّلاءُ

" وقال كعب : يا رسول اللها إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نَضْح النّبل" .

وقال كعب : "

جاءت سَخِينةُ كي تُغالبَ ربَّهَا . . .

وَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ

" فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا" " وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ منسوخ بقوله : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ .

قال المهدوي : وفي "الصحيح" عن ابن عباس أنه استثناء .

﴿ وَسَيَعْلَمْ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ في هذا تهديد لمن انتصر بظلم (أي) سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله عز وجل ؛ فالظالم ينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصرة .

وقرأ ابن عباس : ﴿ أَي مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُونَ ﴾ بالفاء والتاء ومعناهما واحد .

الثعلبي : ومعنى ﴿ أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون ؛ لأن مصيرهم إلى النار ، وهو أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع .

والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضدّ ما هو فيه ، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع منقلباً ، وليس كل منقلب مرجعاً ؛ والله أعلم ؛ ذكره الماوردي .

و﴿ أَيَّ ﴾ منصوب ب ﴿ يَنْقَلِبُونَ ﴾ وهو بمعنى المصدر ، ولا يجوز أن يكون منصوباً ب"سَيَعْلَمُ" لأن أياً وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكر النحويون ؛ قال النحاس : وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(51/573)

وقال أبو حيان :

ثم أمره تعالى بالتوكل .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، وشيبة : فتوكل بالفاء ، وباقي السبعة : بالواو .

وناسب الوصف بالعزيز ، وهو الذي لا يغالب ، وبالرحيم ، وهو الذي يرحمك .

وهاتان الصفتان هما اللتان جاءتا في أواخر قصص هذه السورة .

فالتوكل على من هو بهذين الوصفين كافية شر من بعضه من هؤلاء وغيرهم ، فهو يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته .

والتوكل هو تفويض الأمر إلى من يملك الأمر ويقدر عليه .

ثم وصف بأنه الذي أنت منه بمرأى ، وذلك من رحمته بك أن أهلك لعبادته ، وما تفعله من تهجدك .

وأكثر المفسرين منهم ابن عباس ، على أن المعنى حين تقوم إلى الصلاة .

وقرأ الجمهور : ﴿ وتقلبك ﴾ مصدر تقلب ، وعطف على الكاف في ﴿ يراك ﴾ .

وقرأ جناح بن حبيش : ﴿ وتقلبك ﴾ مضارع قلب مشدداً ، عطفاً على ﴿ يراك ﴾ .

وقال مجاهد وقتادة : ﴿ في الساجدين ﴾ : في المصلين .

وقال ابن عباس : في أصلاب آدم ونوح وإبراهيم حتى خرجت .

وقال عكرمة : يراك قائماً وساجداً .

وقيل : معنى ﴿ تقوم ﴾ : تخلو بنفسك .

وعن مجاهد أيضاً : المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه ، كما قال :

" أتموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من خلفي " وفي الوجيز لابن عطية : ظاهر الآية أنه

يريد قيام الصلاة ، ويحتمل أن يريد سائر التصرفات ، وهو تأويل مجاهد وقتادة .

وفي الساجدين : أي صلاتك مع المصلين ، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما .

وقال ابن عباس أيضاً ، وقتادة : أراد وتقلبك في المؤمنين ، فعبر عنهم بالساجدين .

وقال ابن جبير : أراد الأنبياء ، أي تقلبك كما تقلب غيرك من الأنبياء .

وقال الزمخشري : ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد ، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ويستبطن سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم .

(52/573)

كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل ، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون ، بحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات ، فوجدها كبيوت الزنابير ، لما سمع من دندنتهم بذكر الله والتلاوة .

والمراد بالساجدين : المصلون .

وقيل : معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ، وتقلبه في الساجدين : تصرفه فيما بينهم لقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم .

وعن مقاتل ، أنه سأل أبا حنيفة رضي الله عنه : هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن ؟ فتلا هذه الآية .

ويحتمل أن لا يخفى على حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين . انتهى .

﴿ إنه هو السميع ﴾ لما تقوله ، ﴿ العليم ﴾ بما تنويه وتعمله ، وذهبت الرافضة إلى أن آباء النبي (صلى الله عليه وسلم) كانوا مؤمنين ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قالوا : فاحتمل الوجوه التي ذكرت ، واحتمل أن يكون المراد أنه تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد ، كما نقوله نحن .

فإذا احتمل كل هذه الوجوه ، وجب حمل الآية على الكل ضرورة ، لأنه لا منافاة ولا رجحان .

وبقوله عليه الصلاة والسلام : " لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، وكل من كان كافراً فهو نجس لقوله تعالى : ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ " فأما قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ فلفظ الأب قد يطلق على العم ، كما قالوا أبناء يعقوب له : ﴿ نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ سموا إسماعيل أباً مع أنه كان عماً له .

﴿ قل : هل أنبئكم ﴾ : أي قل يا محمد : هل أخبركم ؟ وهذا استفهام توقيف وتقرير .

وعلى من متعلق بتنزل ، والجملة المتضمنة معنى الاستفهام في موضع نصب لأنبئكم ، لأنه معلق ، لأنه بمعنى أعلمكم ، فإن قدرتها متعدية لاثنين ، كانت سادة مسد المفعول الثاني ؛ وإن قدرتها متعدية لثلاثة ، كانت سادة مسد الاثنين .

(53/573)

والاستفهام إذا علق عنه العامل ، لا يبقى على حقيقة الاستفهام وهو الاستعلام ، بل يؤول معناه إلى الخبر .

ألا ترى أن قولك : علمت أزيد في الدار أم عمرو ، كان المعنى : علمت أحدهما في الدار ؟ فليس المعنى أنه صدر منه علم ، ثم استعلم المخاطب عن تعيين من في الدار من زيد وعمرو ، فالمعنى هنا : هل أعلمكم من تنزل الشياطين عليه ؟ لا أنه استعلم المخاطبين عن الشخص الذي تنزل الشياطين عليه .

ولما كان المعنى هذا ، جاء الإخبار بعده بقوله : ﴿ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ ، كأنه لما قال : هل أخبركم بكذا ؟ قيل له : أخبر ، فقال : ﴿ تنزل على كل أفاك ﴾ ، وهو الكثير الإفك ، وهو الكذب ، أثيم : كثير الإثم .

فأفاك أثيم : صيغتا مبالغة ، والمراد الكهنة .

والضمير في ﴿ يلقون ﴾ يحتمل أن يعود إلى الشياطين ، أي ينصتون ويصغون بأسماعهم ، ليسترقوا شيئاً مما يتكلم به الملائكة ، حتى ينزلوا بها إلى الكهنة ، أو : ﴿ يلقون السمع ﴾ : أي المسموع إلى من يتنزلون عليه .

﴿ وأكثرهم ﴾ : أي وأكثر الشياطين الملقين ﴿ كاذبون ﴾ .

فعلى معنى الإنصات يكون استئناف إخبار ، وعلى إلقاء المسموع إلى الكهنة احتمل الاستئناف ، واحتمل أن يكون حالاً من الشياطين ، أي تنزل على كل أفاك أثيم ملقين ما سمعوا .

ويحتمل أن يعود الضمير في يلقون على كل أفاك أثيم ، وجمع الضمير ، لأن كل أفاك فيه عموم وتحته أفراد .

واحتمل أن يكون المعنى : يلقون سمعهم إلى الشياطين ، لينقلوا عنهم ما يقررونه في أسماعهم ، وأن يكون يلقون السمع ، أي المسموع من الشياطين إلى الناس ؛ وأكثرهم ، أي أكثر الكهنة كاذبون .

كما جاء أنهم يتلقون من الشياطين الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء ، فيخلطون معها مائة كذبة .

فإذا صدقت تلك الكلمة ، كانت سبب ضلالة لمن سمعها .

وعلى كون الضمير عائداً على كل أفاك ، احتمل أن يكون يلقون استئناف إخبار عن الأفاكين ، واحتمل أن يكون صفة لكل أفاك ، ولا تعارض بين قوله : ﴿ كل أفاك ﴾ ، وبين قوله : ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ ، لأن الأفاك هو الذي يكثر الكذب ، ولا يدل ذلك على أنه لا ينطق إلا بالإفك ، فالمعنى : أن الأفاكين من صدق منهم فيما يحكى عن الجني ، فأكثرهم مغتر .

قال الزمخشري : فإن قلت : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، وما تنزلت به الشياطين ، هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ ، لم فرق بينهن وبين إخوان ؟ قلت : أريد التفريق بينهن بآيات ليست في معناهن ، ليرجع إلى المجيء بهن ، ويطريه ذكر ما فيهن كرة بعد كرة ، فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي أسندت كراهة الله لها ، ومثاله : أن يحدث الرجل بحديث ، وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية ، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه . انتهى .

ولما ذكر الكهنة بإفكهم الكثير وحالهم المقتضية ، نفى كلام القرآن ، إذ كان بعض الكفار قال في القرآن : إنه شعر ، كما قالوا في الرسول : إنه كاهن ، وإن ما أتى به هو من باب الكهانة ، كما قال تعالى : ﴿ وما هو بقول كاهن ﴾ وقال : ﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ فقال : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ .

قيل : هي في أمية بن أبي الصلت ، وأبي عزة ، ومسافع الجمحي ، وهبيرة بن أبي وهب ، وأبي سفيان بن الحرث ، وابن الزبعري .

وقد أسلم ابن الزبعري وأبو سفيان .

والشعراء عام يدخل فيه كل شاعر ، والمذموم من يهجو ويمدح شهوة محرمة ، ويقذف المحصنات ، ويقول الزور وما لا يسوغ شرعاً .

وقرأ عيسى : والشعراء : نصباً على الاشتغال ؛ والجمهور : رفعاً على الابتداء والخبر .

وقرأ السلمي ، والحسن بخلاف عنه ، ونافع يتبعهم مخففاً ؛ وباقي السبعة مشدداً ؛ وسكن العين : الحسن ، وعبد الوارث ، عن أبي عمرو .

وروى هارون : نصبها عن بعضهم ، وهو مشكل .

(55/573)

﴿ والغاوون ﴾ ، قال ابن عباس : الرواة ، وقال أيضاً : المستحسنون لأشعارهم ، المصاحبون لهم .

وقال عكرمة : الرعاع الذين يتبعون الشاعر .

وقال مجاهد ، وقتادة : الشياطين .

وقال عطية : السفهاء المشركون يتبعون شعراءهم .

﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ : تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول ، واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ، ومجاوزة حد القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحهم علي حاتم ، ويبهتوا البريء ، ويفسقوا التقي .

وقال ابن عباس : هو تقبيحهم الحسن ، وتحسينهم القبيح .

﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ، وذلك لغلوهم في أفانين الكلام ، ولهجهم بالفصاحة والمعاني اللطيفة ، قد ينسبون لأنفسهم ما لا يقع منهم .

وقد درأ الحد في الخمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النعمان بن عدي ، في شعر قاله لزوجته حين احتج عليه بهذه الآية ، وكان قد ولاه بيسان ، فعزله وأراد أن يحده والفرزدق ، سليمان بن عبد الملك :

فبتن كأنهن مصرعات . . .

وبت أفض أغلاق الختام

فقال له سليمان : لقد وجب عليك الحد ، فقال : لقد درأ الله عني الحدّ بقوله : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ .

أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حالا النبوة ، إذ أمرهم ، كما ذكر ، من اتباع الغواة لهم ، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمه ، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم ،

وذلك بخلاف حال النبوة ، فإنها طريقة واحدة ، لا يتبعها إلا الراشدون .

ودعوة الأنبياء واحدة ، وهي الدعاء إلى توحيد الله وعبادته ، والترغيب في الآخرة والصدق .

وهذا مع أن ما جاءوا به لا يمكن أن يجيء به غيرهم من ظهور المعجز .

(56/573)

ولما كان ما سبق ذماً للشعراء ، واستثنى منهم من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والإكثار من ذكر الله ، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر ؛ وإذا نظموا شعراً كان في توحيد الله والثناء عليه وعلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) وصحبه ، والموعظة والزهد والآداب الحسنة وتسهيل علم ، وكل ما يسوغ القول فيه شرعاً فلا يتلطخون في قوله بذنب ولا منقصة .

والشعر باب من الكلام ، حسنه حسن ، وقبيحه قبيح .

وقال رجل علوي لعمرو بن عبيد : إن صدري ليجيش بالشعر ، فقال : ما يمنعك منه فيما لا بأس به .

وقيل : المراد بالمستثنين : حسان ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكعب بن

زهير ، ومن كان ينافخ عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقال عليه السلام لكعب بن مالك :

" اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل " وقال لحسان : " قل وروح القدس معك " ، وهذا معنى قوله : ﴿ وانتصروا ﴾ : أي بالقول فيمن ظلمهم .

وقال عطاء بن يسار وغيره : لما ذم الشعراء بقوله : ﴿ والشعراء ﴾ الآية ، شق ذلك على حسان وابن رواحة وكعب بن مالك ، وذكروا ذلك للرسول عليه الصلاة والسلام ، فنزلت آية الاستثناء بالمدينة ، وخص ابن زيد قوله : ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ ، فقال : أي في شعرهم .

وقال ابن عباس : صار خلقاً لهم وعادة ، كما قال لبيد ، حين طلب منه شعرة : إن الله أبدلني بالشعر القرآن خيراً منه .

ولما ذكر : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ ، توعد الظالمين هذا التوعد العظيم الهائل الصادع للأكباد وأبهم في قوله : ﴿ أي منقلب ينقلبون ﴾ .

ولما عهد أبو بكر لعمر رضي الله عنهما ، تلا عليه : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ ، وكان السلف الصالح يتواعظون بها .

والمفهوم من الشريعة أن الذين ظلموا هم الكفار .

وقال الزمخشري : وتفسير الظلم بالكفر تعليل ، وكان ذكر قبل أن الذين ظلموا مطلق ، وهذا منه على طريق الاعتزال .

(57/573)

وقرأ ابن عباس ، وابن أرقم ، عن الحسن : أي منفلت ينفلتون ، بفاء وتاءين ، معناه : إن الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله ، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات ، وهو النجاة .

﴿ وسيعلم ﴾ هنا معلقة ، وأي منقلب : استفهام ، والناصب له ينقلبون ، وهو مصدر . والجملة في موضع المفعول لسيعلم .

وقال أبو البقاء : أي منقلب مصدر نعت لمصدر محذوف ، والعامل ينقلبون انقلاباً ، أي منقلب ، ولا يعمل فيه يعلم ، لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . انتهى .

وهذا تخليط ، لأن أياً ، إذا وصف بها ، لم تكن استفهاماً ، بل أي الموصوف بها قسم لأي المستفهم بها ، لا قسم .

برأسه فأي تكون شرطية واستفهامية وموصولة ، ووصفاً على مذهب الأخفش موصوفة بنكرة نحو : مررت بأي معجب لك ، وتكون مناداة وصلة لنداء ما فيه الألف

واللام نحو : يا أيها الرجل .

والأخفش يزعم أن التي في النداء موصولة .

ومذهب الجمهور أنها قسم برأسه ، والصفة تقع حالاً من المعرفة ، فهذه أقسام أي ؛ فإذا قلت : قد علمت أي ضرب تضرب ، فهي استفهامية ، لا صفة لمصدر محذوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(58/573)

وقال الثعالبى :

قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾

أي : قل لهم يا محمد : هل أخبركم ﴿ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين ﴾ ؟ والأَفَّاكُ : الكَذَّابُ ، والأثيم : الكثير الإِثم ، ويريد الكهنة ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَلَقَّوْنَ مِنَ الشَّيَاطِينِ الكَلِمَةَ الوَاحِدَةَ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كِذْبَةٍ ، حَسْبَمَا جاء في الحديثِ ، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع ، والضمير في ﴿ يُلْقُونَ ﴾ يحتمل أنْ يكون للشياطين ، ويحتمل أنْ يكون للكهنة ، ولما ذكر الكهنة بإفكهم وحالهم التي تقتضي نفي كلامهم عن كلام الله تعالى عقب ذلك بذكر الشعراء وحالهم لينبه على بعد كلامهم من كلام القرآن إذ قال بعض الكفرة في

القرآن أنه شعر والمراد شعراء الجاهلية ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو ويمدح شهوة ويقذف المحصنات ويقول الزور .

وقوله : ﴿ الغاوون ﴾ . قال ابن عباس : هم المستحسنون لأشعارهم المصاحبون لهم .

وقال عِكْرَمَةُ : هم الرَّعَاعُ الذين يتبعون الشاعر ويغتنمون إنشاده .

وقوله : في كل واد يهيمون ، عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من غث الكلام وباطله ، قاله ابن عباس وغيره ، وروى جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّه قال « مَنْ مَشَى سَبْعَ خُطْوَاتٍ فِي شِعْرٍ كُتِبَ مِنَ الغاوِينَ » ذكره أسدُ بنَ مُوسَى وذكره النقاش .

(59/573)

وقوله تعالى ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ الآية : هذا الاستثناء هو في شعراء الإسلام كحَسَّان بن ثابت وكَعْبِ بن مالك وعبد الله بن رَوَاحَةَ وكُلِّ مَنِ اتصف بهذه الصفة ويُرْوَى عن عطاءِ بن يَسَارٍ وغيرِهِ أَنَّ هؤلاءِ شَقَّ عليهم ما ذُكِرَ قَبْلُ في الشعراء فذكروا ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فنزلت آيةُ الاستثناء بالمدينة .

وقوله تعالى ﴿ وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً ﴾ يحتمل أَنْ يريد في أشعارهم وهو تأويل ابن زيد ويحتمل أَنَّ ذلك خُلُقٌ لهم وعبادة ؛ قاله ابن عباس فكل شاعر في الإسلام يهجو ويمدَحُ عن غير حَقٍّ

فهو داخل في هذه الآية وكل تقيٍّ منهم يُكْثِرُ من الزُّهْدِ ويمسك عن كل ما يُعَابُ فهو داخل في الاستثناء .

(60/573)

---

* ت * قد كتبنا - والحمد للَّه - في هذا المختصر جملةً صالحة في فضل الأذكار عسى اللَّه أنْ ينفع به من وقع بيده ففي جامع الترمذي عن أبي سعيد الخُدْريّ ، قال سُئِلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أَيُّ العِبَاد أَفْضَل دَرَجَة عِنْدَ اللَّهِ تعالى يَوْمَ القِيَامَةِ ؟ قَال : " الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيراً قُلْتُ : وَمِنَ الْغَازي فِي سَبِيلِ اللَّه عزَّ وجَلَّ ؟ ! قَالَ : لَوْ ضَرَبَ بسَيْفِهِ الكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَنْكَسِرَ وَيَخْتَضِبَ دَماً - لكانَ الذَّاكِرُونَ اللَّهَ تَعَالى أَفْضَلَ مِنْهُ " وروى الترمذيُّ وابن ماجه عن أبي الدَّرْدَاءِ قال : قالَ رَسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم : " أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِن إِنْفَاقِ الذَّهَبِ والوَرَقِ ؛ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ؟ قَالُوا : بلى ، قَالَ : ذِكْرُ اللّهِ تعالى " قَالَ الحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللّهِ فِي كِتَابِهِ «المستَدرَكُ على الصَّحِيحَيْنِ» : هذا حديثٌ صحيحُ الإسْنادِ ، انتهى من «حلية النَّوَوِيِّ» . وقوله : ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ إشارةٌ إلى مَا رَدَّ به حَسَّانُ وَعَلِيٌّ وغيرهُما على

قريش .

قلت : قيل : وَأَنْصَفُ بَيتٍ قَالَتْهُ العَرَبُ : قَوْلُ حَسَّانٍ لأَبي سُفْيَانَ أَو لأَبِي جَهْلٍ : [الوافر]

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ . . . فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

وَبَاقِي الآيَةِ وَعِيدٌ لظلمةِ كُفَّارِ مَكَّةَ وتهديدٌ لَهُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(61/573)

وقال أبو السعود :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾

الذي يقدرُ على قهرِ أعدائِه ونصرِ أوليائِه يكفِك شرَّ من يصيبك منهُم ومن غيرهم وقرىء فتوكل على أنَّه بدلٌ من جواب الشَّرطِ .

﴿ الذى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي إلى التَّهجد ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى الساجدين ﴾ وتردُّدك في تصفُّحِ أحوالِ المتهجدِين كما (روي أنه لما نسخ فرضُ قيام اللَّيلِ طاف عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تلك الليلةَ ببيوت أصحابِه لينظرَ ما يصنعون حرصاً على كثرةِ طاعتِهم فوجدها كبيوتِ الزَّنابيرِ لمَا سمع منها من دندنتِهم بذكر الله تعالى والتِّلاوةِ) أو تصرّفَك فيما بين المصلِّين بالقيامِ

والرُّكوعِ والسُّجودِ والقُعودِ إذا أممتهم . وإنَّما وصفَ الله تعالى ذاتَه بعلمِه بحالِه عليه الصلاة والسلام التي بها يستأهلُ ولايتَه بعد أنْ عبَّر عنه بما يُنبىء عن قهرِ أعدائِه ونصرِ أوليائِه من وصفي العزيزِ الرَّحيمِ تحقيقاً للتَّوكلِ وتوطيناً لقلبه عليه .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لما تقولُ : ﴿ العليم ﴾ بمَا تنويه وتعمله .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين ﴾ أي تتنزلُ بحذف إحدى التَّاءينِ وهو استئناف مسوق لبيان استحالةِ تنزُّلِ الشيَّاطينِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيانِ امتناع تنزُّلهم بالقرآنِ . ودخولُ حرفِ الجرِّ على مَن الاستفهاميةِ لما أنَّها ليستْ موضوعةً للاستفهامِ بل الأصلُ أمن فحذف حرفُ الاستفهامِ واستمر الاستعمالُ على حذفِه كما حُذف من هَلْ والأصل أهَلْ .

وقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ قصرٌ لتنزُّلهم على كل من اتَّصف بالإفكِ الكثيرِ والإثمِ الكبيرِ من الكهنةِ والمتنبِّئة وتخصيصٌ له بهم بحيثُ لا يتخطَّاهم إلى غيرِهم وحيثُ كانت ساحةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم منزَّهةً عن أنْ يحومَ حولَها شائبةُ شيءٍ من تلك الأوصافِ اتَّضح استحالةُ تنزلهم عليه عليه الصَّلاة والسَّلام .

(62/573)

﴿ يُلْقُون ﴾ أي الأفَّاكون ﴿ السمع ﴾ إلى الشَّياطينِ فيتلَّقون منهم أوهاماً وأماراتٍ لنقصان علمهم فيضمُّون إليها بحسبِ تخيلاتِهم الباطلةِ خرافاتٍ لا يُطابق أكثرُها الواقعَ وذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ أي فيما قالُوه من الأقاويلِ وقد ورد في الحديثِ " الكلمة يخطفُها الجنيُّ فيقرُّها في أذنِ وليِّهِ فيزيد فيها أكثرَ من مائةِ كذبةٍ " أو يلقون السَّمعَ أي المسموعَ من الشَّياطينِ إلى النَّاسِ وأكثرُهم كاذبون يفترُون على الشَّياطينِ ما لم يوحوا إليهم وإلا ظهر أنَّ الأكثريةَ باعتبار أقوالهم على معنى أنَّ هؤلاء قلَّما يصدُقون فيما يحكون عن الجنيِّ ، وأما في أكثره فهم كاذبونَ ومالُّه وأكثرُ أقوالِهم كاذبةٌ لا باعتبار ذواتِهم حتى يلزمَ من نسبة الكذبِ إلى أكثرهم كونُ أقلِّهم صادقينَ على الإطلاقِ وليس معنى الأفَّاكِ من لا ينطقُ إلا بالإفكَ حتَّى يمتنعَ منه الصِّدق بل من يكثُر الإفكَ فلا ينافيه أن يصدقَ نادراً في بعض الأحايين وقيل : الضَّميرُ للشَّياطينِ أي يلقون السَّمعَ أي المسموعَ من الملأ الأعلى أنْ رجموا من بعضِ المغيبات إلى أوليائِهم وأكثرُهم كاذبونَ فيما يُوحون به إليهم إذ لا يسمعُونهم على نحو ما تكلَّمت به الملائكةُ لشرارتِهم أو لقصورِ فهمهم أو ضبطهم أو إفهامِهم ولا سبيلَ إلى حملِ إلقاء السَّمعِ على تسمُّعهم وإنصاتِهم إلى الملأ الأعلى قبل الرَّجمِ كما جوَّزه الجمهورُ لما أن يلقون كما صرَّحوا به إما حالٌ من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للإلقاءِ أو استئناف مبيِّنٌ للغرض من التَّنزلِ مبنيٌّ على السَّؤالِ عنه ، ولا ريبَ في أن إلقاء السَّمعِ إلى الملأ الأعلى بمعزلٍ من احتمال أنْ يقارن التَّنزل أو يكون غرضاً منه لتقدُّمِه عليه قطعاً ، وإنَّما المحتملُ

لهما الإلقاء بالمعنى الأول فالمعنى على تقدير كونِه حالاً تنزل الشَّياطينِ على الأفَّاكين ملقين إليهم ما سمعُوه من

(63/573)

الملأ الأعلى ، وعلى تقديرِ كونِه جواباً على سؤالِ من قالِ لِمَ تنزلُ عليهم وماذا يفعلون بهم : يُلقون إليهم ما سمعُوه وحمله على استئناف الأخبارِ كما فعله بعضهم غيرُ سديدٍ لأنَّ ذكرَ حالِهم السَّابقةِ على تنُّزلهم المذكورِ قبله غيرُ خليقٍ بَجزَالةِ التَّنزيل وأمَّا على تقديرِ كونِ ضميرِ يُلقون للأفَّاكين فهو صفةٌ لكلِّ أفَّاكٍ لأنَّه في معنى الجمعِ سواء أُريد بإلقاء السَّمعِ الإصغاءُ إلى الشَّياطينِ أو إلقاء المسموعِ إلى النَّاس ويجوز أنْ يكونَ استئنافُ إخبار بحالِهم على كِلا التَّقديرينِ لما أنَّ كُلاًّ من تلقيهم من الشَّياطينِ وإلقائِهم إلى الناسِ يكون بعد التَّنزيلِ وأنْ يكونَ استئنافاً مبنيَّاً على السُّؤالِ على التَّقديرِ الأوَّلِ فقط كأنَّه قيل : ما يفعلونَ عند تنزلِ الشَّياطينِ عليهم فقيل يُلقون إليهم أَسماعَهم ليحفظُوا ما يُوحون به إليهم .

وقولُه تعالى : وأكثرُهم كاذبونَ على التَّقديرِ الأوَّلِ استئنافٌ فقط وعلى الثَّاني يحتملُ الحاليَّةُ من ضميرِ يُلقون أي يُلقون ما سمِعُوه من الشَّياطين إلى النَّاس ، والحالُ أنهم في أكثرِ أقوالِهم

كاذبونَ فتدبَّرْ .

﴿ والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾

(64/573)

استئنافٌ مسوقٌ لإبطال ما قالُوا في حقِّ القُرآنِ العظيمِ منْ أنَّه من قبيلِ الشِّعرِ ، وأنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام بعد إبطالِ ما قالُوا إنَّه من قبيلِ ما يلقي الشَّياطينُ على الكهنةِ من الأباطيلِ بما مرَّ من بيانِ أحوالِهم المضادة لأحوالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمعنى أنَّ الشُّعراءَ يتَّبعُهم أي يُجاريهم ويسلكُ مسلكَهم ويكونُ من جُملتهم الغاوون الضَّالُّون عن السَّنَنِ الحائرون فيما يأتُون وما يَذرُون لا يستمرُّون على وَتيرةٍ واحدةٍ في الأفعالِ والأقوالِ والأحوالِ لا غيرُهم من أهلِ الرُّشدِ المهتدينَ إلى طريقِ الحقِّ الثَّابتينِ عليهِ .

وقولُه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾

استشهادٌ على أنَّ الشُّعراء إنَّما يتبعُهم الغَاوُون وتقريرٌ له والخطابُ لكلِّ من تتأتَّي منه الرُّؤيةُ للقصدِ إلى أنَّ حالَهم من الجَلاءِ والظُّهورِ بحيثُ لا تختصُّ برؤيةِ راءٍ دونَ راءٍ ، أي ألم تر أنَّ الشُّعراءَ في كلِّ وادٍ من أوديةِ القيلِ والقالِ وفي كلِّ شِعبٍ من شِعابِ الوهمِ والخيالِ وفي كلِّ

مسَلكٍ من مسالك الغَيِّ والضَّلالِ يهيمونَ على وجوهِهم لا يهتدون إلى سبيلٍ مُعيَّنٍ من السُّبلِ بل يتحيرَّون في فيافي الغَوايةِ والسَّفاهةِ ويتيهُون في تيه المجُون والوقاحةِ دينُهم تمزيقُ الأعراضِ المحميَّةِ والقَدحُ في الأنسابِ الطَّاهرةِ السَّنيَّةِ والنَّسيبُ بالحرامِ والغَزلُ والإبتهارُ والتَّرددُ بين طَرَفَيْ الإفراطِ والتَّفريطِ في المدحِ والهجاءِ .

(65/573)

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفاعيلِ غيرَ مُبالين بما يستتبعُه من اللوائمِ فكيف يُتوهَّم أنْ يتبعَهم في مسلكِهم ذلكَ ويلتحقَ بهم وينتظمَ في سلكهم مَن تنزَّهت ساحتُه عن أنْ يحومَ حولها شائبةُ الإتصافِ بشيءٍ من الأمورِ المذكُورةِ واتَّصف بمحاسنِ الصِّفاتِ الجليلةِ وتخلَّق بمكارمِ الأخلاقِ الجميلةِ وحازَ جميعَ الكمالاتِ القدسيَّةِ وفاز بجُملة الملكاتِ الأنسيَّةِ مُستقراً على المنهاجِ القويمِ مستمرّاً على الصِّراطِ المستقيمِ ناطقاً بكلِّ أمرٍ رشيدٍ دَاعياً إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ مؤيَّداً بمعجزاتٍ قاهرةٍ وآياتٍ ظاهرةٍ مشحونةٍ بفنونِ الحكمِ الباهرةِ وصنوفِ المعارفِ الزَّاهرةِ مستقلَّةٍ بنظمٍ رائقٍ أعجزَ كلَّ منطقٍ ماهرٍ وبكَّت كلَّ مُفلقٍ ساحرٍ . هذا وقد قيل : في تنزيهِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن أن يكونَ من الشُّعراءِ أنَّ أتباعَ الشُّعراء الغَاوون وأتباعَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ليسُوا كذلك ولا ريبَ في أنَّ تعليلَ

عدمِ كونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ منهم بكونِ أتباعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غيرَ غاوين بما لا يليقُ بشأنِه العالِي وقيل : الغاوُون الراوُون وقيل : الشَّياطينُ وقيل : هم شُعراء قُريشٍ : عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعرْىَ ، وهُبيرةُ بنُ أبي وَهْبٍ المَخزوميُّ ، ومسافعُ بنُ عبدِ منافٍ ، وأبُو عَزَّةَ الجُمَحيُّ ومن ثقيفٍ أميَّةُ بنُ أبي الصَّلتِ قالوا نحنُ نقولُ مثلَ قولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم . وقُرىء والشُّعراءَ بالنَّصبِ على إضمارِ فعلٍ يُفسِّره الظَّاهرُ . وقُرىء يتْبَعُهم على التَّخفيفِ ويتبعْهم بسكونِ العينِ تشبيهاً لتبع بعضُد .

(66/573)

﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيراً وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ استثناءٌ للشُّعراء المؤمنينَ الصَّالحينَ الذينُ يكثرون ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ويكونُ أكثرُ أشعارِهم في التَّوحيدِ والثَّناءِ على اللهِ تعالى والحثِّ على طاعتِه والحكمةِ والموعظةِ والزُّهدِ في الدُّنيا والتَّرغيبِ عن الركونِ إليها والزَّجرِ عن الاغترارِ بزخارفِها والافتتانِ بملاذِّها القلبيةِ ولو وقع منهم في بعضِ الأوقاتِ هجوٌ وقع ذلك منهم بطريقِ الانتصارِ ممَّن هجاهُم وقيل : المرادُ بالمستثنَينَ عبدُ اللَّه بنُ رَوَاحةَ ، وحسَّانُ بنُ ثابتٍ ، وكعبُ بنُ مالكٍ ، وكعبُ بنُ زُهيرِ بنِ أبي سُلْمى ، والذين كانُوا يُنافحون عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ويكافحون هُجاةَ

قُريشٍ .

وعن كعبِ بنِ مالكٍ رضي الله تعالى عنْهُ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال له : " اهجُهم ، فوالذي نفسِي بيدِه لهُو أشدُّ عليهم من النَّبلِ " وكان يقولُ لحسَّانَ : " قُل ورُوحُ القُدُسِ مَعَك " ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُواْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ تهديدٌ شديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ لما في سيعلمُ من تهويلٍ متعلَّقةِ وفي الذين ظلموا من الإطلاقِ والتعميم وفي أيَّ منقلبٍ ينقلبون من الإبهامِ والتهويلِ وقد قاله أبو بكرٍ لعمرَ رضي الله عنهما حينَ عَهِدَ إليه . وقُرِىء أي مُنفلتٍ ينفلتونَ من الانفلاتِ بمعنى النجاةِ والمعنى أنَّ الظَّالمين يطمعُون أنْ ينفلتُوا من عذابِ الله تعالى وسيعلمُون أنْ ليس لهم وجهٌ من وجوهِ الانفلاتِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(67/573)

وقال الآلوسى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾

فهو سبحانه يقهر من يعصيك منهم ومن غيرهم بعزته وينصرك برحمته ، وتقديم وصف العزة قيل لأنه أوفق بمقام التسلي عن المشاق اللاحقة من القوم إليه صلى الله عليه وسلم ،

وجوز أن يكون ذلك لأن العزة كالعلة المصححة للتوكل والرحمة كالعلة الداعية إليه ، وفسره غير واحد بتفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على أن ينفعه ويضره .

وقالوا : المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله تعالى ، وذكر بعضهم أن هذا من أحط مراتب التوكل وأدناها ، ونقل عن بعض العارفين أنه فيما بين الناس على ثلاث درجات .

الأولى : التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب على نية شغل النفس ونفع الخلق وترك الدعوى ، والثانية : التوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن السبب اجتهاداً في تصحيح التوكل وقمع تشرف النفس تفرغاً إلى حفظ الواجبات .

والثالثة : التوكل مع معرفة التوكل النازعة إلى الخلاص من علة التوكل .

وذلك أن يعلم أن الله تعالى لم يترك أمراً مهملاً بل فرغ من الأشياء كلها وقدرها وشأنه سبحانه سوق المقادير إلى المواقيت ، فالمتوكل من أراح نفسه من كد النظر والمطالعة السبب سكونا إلى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين وهو أن يعلم أن الطلب لا ينفع والتوكل لا يمنع ومتى طالع بتوكله عوضاً كان توكله مدخولاً وقصده معلولاً وإذا خلص من رق الأسباب ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله تعالى كفاه الله تعالى كل مهم .

وبين العلامة الطيبي أن في قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ الخ إشارة إلى المراتب الثلاث بما فيه خفاء .

وفي مصاحف أهل المدينة .

والشام "فتوكل" بالفاء .

وبه قرأ نافع .

وابن عامر .

وأبو جعفر .

وشيبة .

وخرج على الإبدال من جواب الشرط .

وجعل في الكشاف الفاء للعطف وما بعده معطوفاً على ﴿ فَقُلْ ﴾ [الشعراء : 216] أو ﴿ فَلاَ تَدْعُ ﴾ [الشعراء : 213] وما ذكر أولاً أظهر .

(68/573)

﴿ الذى يُرِيكُمُ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي إلى الصلاة .

﴿ وَتَقَلُّبَكَ ﴾ أي ويرى سبحانه تغيرك من حال كالجلوس والسجود إلى آخر كالقيام ﴿ فِى الساجدين ﴾ أي فيما بين المصلين إذا أممتهم ، وعبر عنهم بالساجدين لأن السجود حالة مزيد قرب العبد من ربه عز وجل وهو أفضل الأركان على ما نص عليه جمع من الأئمة

، وتفسير هذه الجملة بما ذكر مروى عن ابن عباس .

وجماعة من المفسرين إلا أن منهم من قال : المراد حين تقوم إلى الصلاة بالناس جماعة ، وقيل : المعنى يراك حين تقوم للتهجد ويرى تقلبك أي ذهابك ومجيئك فيما بين المتهجدين لتتصفح أحوالهم وتطلع عليهم من حيث لا يشعرون وتستبطن سرائرهم وكيف يعملون لآخرتهم كما روي أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم فوجدها كبيوت النحل لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة .

وعن مجاهد أن المراد بقوله سبحانه : "وتقلبك في الساجدين" تقلب بصره عليه الصلاة والسلام فيمن يصلى خلفه فإنه صلى الله عليه وسلم كان يرى من خلفه ، ففي "صحيح البخاري" عن أنس قال : أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال : " أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري "

وفي رواية أبي داود عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : " استووا استووا استووا والذي نفسي بيده إني لاراكم من خلفي كما أراكم من بين يدي " ولا يخفى بعد حمل ما في الآية ما ذكر .

وقيل : المراد بالساجدين المؤمنون ، والمعنى يراك حين تقوم لأداء الرسالة ويرى تقلبك وترددك فيما بين المؤمنين أو معهم فيما فيه إعلان أمر الله تعالى وإعلاء كلمته سبحانه ،

وتفسير الساجدين بالمؤمنين مروى عن ابن عباس .

وقتادة إلا أن كون المعنى ما ذكر لا يخلو عن خفاء .

(69/573)

وعن ابن جبير أن المراد بهم الأنبياء عليهم السلام ، والمعنى ويرى تقلبك كما يتقلب غيرك من الأنبياء عليهم السلام في تبليغ ما أمروا بتبليغه وهو كما ترى ، وتفسير الساجدين بالأنبياء رواه جماعة منهم الطبراني .

والبزار .

وأبو نعم عن ابن عباس أيضاً إلا أنه رضي الله تعالى عنه فسر التقلب فيهم بالتنقل في أصلابهم حتى ولدته أمه عليه الصلاة والسلام ، وجوز على حمل التقلب على التنقل في الأصلاب أن يراد بالساجدين المؤمنون ، واستدل بالآية على إيمان أبويه صلى الله عليه وسلم كما ذهب إليه كثير من أجلة أهل السنة ، وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما رضي الله تعالى عنهما على رغم أنف على القارىء واضرابه بضد ذلك إلا أني لا أقول بحجية الآية على هذا المطلب ، ورؤية الله تعالى انكشاف لائق بشأنه عز شأنه غير الانكشاف العلمي ويتعلق بالموجود والمعدوم الخارجي عند العارفين ، وقالوا : إن رؤية الله

تعالى للمعدوم نظير رؤية الشخص القيامة ونحوها في المنام وكثير من المتكلمين انكروا تعلقها بالمعدوم ، ومنهم من أرجعها إلى صفة العلم وتحقيق ذلك في محله ، وفي وصفه تعالى برأيته حاله صلى الله عليه وسلم التي بها يستأهل ولايته بعد وصفه بما تقدم تحقيق للتوكل وتوطين لقلبه الشريف عليه الصلاة والسلام عليه .

وقرأ جناح بن حبيش ﴿ ويقلبك ﴾ مضارع قلب مشدداً .

وخرج ذلك أبو حيان على العطف على ﴿ يراك ﴾ [الشعراء : 218] وجوز العطف على ﴿ تَقُومُ ﴾ [الشعراء : 218] .

وفي الكلام على هذه القراءة إشارة إلى وقوع تقلبه صلى الله عليه وسلم في الساجدين على وجه الكمال وكمال التقلب في الصلاة كونه بخشوع يغفل معه عما سوى الله تعالى :

(70/573)

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ بكل ما يصح تعلق السمع به ويندرج فيه ما يقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ العليم ﴾ بكل ما يصح تعلق العلم به ويندرج فيه ما يعمله أو ينويه عليه الصلاة والسلام ، وفي الجملة الإسمية إشارة إلى أنه سبحانه متصف بما ذكر أزلاً وأبداً ولا توقف لذلك على وجود المسموعات والمعلومات في الخارج ، والحصر فيها حقيقي أي هو تعالى

كذلك لا غيره سبحانه وتعالى .

وكأن الجملة متعلقة بالجملتين الواقعتين في حيز الجزاء جيء بها للتحريض على القول السابق والتوكل ، وجوز أن تكون متعلقة بما في حيز الصلة المراد منها التحريض على إيقاع الأقوال والأفعال التي في الصلاة على أكمل وجه فتأمل .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين ﴾ الخ مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن ، وهذه الجملة وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 210] الخ وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ [الشعراء : 12] الخ اخوات وفرق بينهن بآيات ليست في معناهن ليرجع إلى المجيء بهن وتطرية ذكر ما فيهن كرة بعد كرة فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت عناية الله تعالى بها ، ومثاله أن يحدث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه ، والاستفهام للتقرير و ﴿ على مَنِ ﴾ متعلق بتنزل قدم عليه لصدارة المجرور وتقديم الجار لا يضر كما بين في النحو ، وقال الزمخشري في ذلك : آن من متضمنة معنى الاستفهام وليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معا معنى الاسم ومعنى الحرف وإنما معناه أن الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستمر الاستعمال على حذفه كما حذف من أهل والأصل أهل كما قال :

سائل فوارس يربوع بشد تنا . . .

أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

(71/573)

فإذا أدخلت حرف الجر على من فقدر الهمزة قبل حرف الجر في ضميرك كأنك تقول :

أعلى من تنزل الشياطين كقولك : أعلى زيد مررت اه .

وتعقبه صاحب الفرائد بقوله : يشكل ما ذكر بقولهم : من أين أنت ومن أين جئت وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَيّ شَيْء خَلَقَهُ ﴾ [عبس : 18] وقوله فيم : وبم ومم وحتام ونحوها .

وأجاب صاحب الكشف بأنه لا إشكال في نحو من أين أنت ؟ لأن التقدير أمن البصرة أم من الكوفة مثلا ولا يخفى أنه لا يحتاج على ما حققه النحاة إلى جميع ذلك ، وجملة ﴿ على مَن تَنَزَّلُ ﴾ الخ في موضع نصب بأنبئكم لأنه معلق بالاستفهام وهي إما سادة مسد المفعول الثاني أن قدرت الفعل متعديا لاثنين ومسد مفعولين إن قدرته متعديا لثلاثة ، والمراد هل أعلمكم جواب هذا الاستفهام أعني على من تنزل الشياطين وأصل تنزل تتنزل فحذفت أحدى التاءين .

والكلام على معنى القول عند أبي حيان كأنه قيل : قل يا محمد هل أنبئكم على من تنزل

الشياطين .

﴿ تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ أي كثير الافك وهو الكذب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الاثم ، و ﴿ كُلٌّ ﴾ للتكثير وجوز أن تكون للإحاطة ولا بعد في تنزلها على كل كامل في الإفك والإثم كالكهنة نحو شق بن رهم بن نذير .

وسطيح بن ربيعة بن عدى .

والمراد بواسطة التخصيص في مرعض البيان أو السياق أو مفهوم املخالفة عند القائل به قصر تنزلهم على كل من اتصف بما ذكر من الصفات وتخصيص له بهم لا يتخطاهم إلى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة عن أن يحوم حولها شائبة شيء من تلك الأوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام .

(72/573)

(يلقون) أي الافاكون ﴿ السَّمْعَ ﴾ أي سمعهم إلى الشياطين ، والقاء السمع مجاز عن شدة الاصغاء للتلقي فكأنه قيل : يضغون أشد إصغاء إلى الشياطين فيتلقون منهم ما يتلقون ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ أي الأفاكين ﴿ كاذبون ﴾ فيما يقولونه من الأقاويل ، والأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون في أقوالهم وإنما هم في أكثرها كاذبون

ومآله وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقين على الاطلاق ويلتزم لذلك كون الأكثر بمعنى الكل .

وليس معنى الأفك من لا ينطق إلا بالإفك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الإفك فلا ينافيه أن يصدق نادراً في بعض الأحايين ، وجوز أن يكون السمع بمعنى المسموع والقاؤه مجاز عن ذكره أن يلقى الأفاكون إلى الناس المسموع من الشياطين وأكثرهم كاذبون فيما يحكون عن الشياطين ولم يرتضه بعضهم لبعده أو لقلة جداوه على ما قيل .

واختلف في سبب كون أكثر أقوالهم كاذبة فقيل : هو بعد البعثة كونهم يتلقون منهم ظنوناً وإمارات إذ ليس لهم من علم الغيب نصيب وهم محجوبون عن خبر السماء ولعدم صفاء نفوسهم قلما تصدق ظنونهم ومع ذلك يضم الأفاكون إليها لعدم وفائها بمرادهم على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها الواقع ، وقبل البعثة إذ كانوا غير محجوبين عن خبر السماء وكانوا يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه من الأخبار الغيبية يحتمل أن يكون كثرة غلط الأفاكين في الفهم لقصور فهمهم عنهم ، ويحتمل أن يكون ضمنهم إلى ما يفهمونه من الحق أشياء من عند أنفسهم لا يطابق أكثرها الواقع ، ويحتمل أن يكون كثرة غلط الشياطين الذين يوحون إليهم في الفهم عن الملائكة عليهم السلام لقصور فهمهم عنهم ، ويحتمل أن يكون ضم الشياطين إلى ما يفهمونه من الحق من الملائكة عليهم السلام أشياء من عند أنفسهم لا يطابق أكثرها الواقع ، ويحتمل أن يكون مجموع ما ذكر .

وقيل : هو قبل البعثة يحتمل أن يكون أحد هذه الأمور وأما بعد البعثة فهو كثرة خلطهم الكذب فيما تخطفه الشياطين عند استراقهم السمه من الملائكة ويلقونه إليهم .

فقد أخرج البخاري .

ومسلم .

وابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : " سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال : إنهم ليسوا بشيء فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً قال تلك الكلمة من الحق يحفظها الجنى فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة " وقيل : هو قبل البعثة وبعدها كثرة خلط الأفاكين الكذب فيما يتلقونه من الشياطين ، أما كثرته قبل البعثة فلظاهر الخبر المذكور ، وأما كثرته بعد البعثة فلما أخرجه عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن قتادة أنه قال في هذه الآية : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتستمع ثم تنزل إلى الكهنة فتخبرهم فتحدث الكهنة بما أنزلت به الشياطين من السمع وتخلط به الكهنة كذباً كثيراً فيحدثون به الناس فأما ما كان من سمع السماء فيكون حقاً وأما ما خلطوه به من الكذب فيكون كذباً ، ولا يخفى أن القول بأن الشياطين بعد البعثة يلقون ما يسترقونه من السمع إلى الكهنة غير مجمع عليه ، ومن القائلين به من يجوز أن يكون ضمير ﴿ يُلْقُون ﴾ في الآية راجعاً إلى الشياطين ، والمعنى يلقى الشياطين المسموع من الملأ الأعلى قبل أن يرجموا من بعض المغيبات إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم ، إذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملائكة عليهم السلام لشرارتهم أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم ، وقيل : المعنى عليه ينصت الشياطين ويستمعون إلى الملأ الأعلى قبل الرجم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إلى أوليائهم بعد لشرارتهم أو لأنهم لا يسمعون في أنفسهم أو لا يسمعون أولياءهم بعد ذلك السمع كلام الملائكة عليهم السلام على وجهه ، وجملة ﴿ يُلْقُون ﴾ على تقدير كون الضمير للأفاكين صفة ﴿ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ [الشعراء : 222] لأنه في معنى الجمع سواء أريد بالقاء السمع الاصغاء إلى الشياطين أو إلقاء

المسموع إلى الناس ، وجوز أن تكون استئنافاً أخباراً بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من الشياطين وإلقائهم إلى الناس يكون بعد التنزل ، واستظهر تقدير المبتدأ على هذا ، وأن تكون استئنافاً مبنياً على السؤال كأنه قيل : ما يفعلون عند تنزل الشياطين أو ما يفعلون بعد تنزلهم ؟ فقيل : يلقون إليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به إليهم أو يلقون ما يسمعونه منهم إلى الناس ، وجوز أن تكون حالاً منتظرة على التقديرين أيضاً .

(75/573)

وهي على تقدير كون الضمير للشياطين ، والمعنى ما سمعت أولاً قيل : تحتمل أن تكون استئنافاً مبيناً للغرض من التنزل مبنياً على السؤال عنه كأنه قيل لم تنزل عليهم ؟ فقيل : يلقون إليهم ما سمعوه ، وأن تكون حالا منتظرة من ضمير الشياطين أي تنزل على كل أفاك أثيم ملقين ما يسمعونه من الملأ الأعلى إليهم ؛ وعلى ذلك التقدير والمعنى ما سمعت ثانياً قيل : لا يجوز أن تكون استئنافاً نظير ما ذكر آنفاً ولا أن تكون حالاً أيضاً لأن القاء السماع بمعنى الانصات مقدم على التنزل المذكور فكيف يكون غرضاً منه أو حالاً مقارنة أو منتظرة ويتعين كونها استئنافاً للأخبار بحالهم .

وتعقب بأنه غير سديد لأن ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة

التنزيل ، ومن هنا قيل : أن جعل الضمير للشياطين وحمل إلقاء السمع على انصاتهم وتسمعهم إلى الملأ الأعلى مما لا سبيل إليه وفيه نظر ، وجملة ﴿ هُمْ كَذِّبُونِ ﴾ استئنافية أو تحتمل الاستئنافية والحالية ، هذا واعلم أن ههنا اشكالاً وارداً على بعض الاحتمالات في الآية لأنها عليه تفيد أن الشياطين يسمعون من الملائكة عليهم السلام ما يسمعونه ويلقونه إلى الأفاكين : وقد تقدم ما يدل على منعهم عن السمع أعني قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : 212] .

وأجيب بأن المراد بالسمع فيما تقدم السمع المعتد به وفيما ههنا السمع في الجملة ويراد به الخطفة المذكورة في قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ﴾ [الصفات : 10] والكلمة المذكورة في خبر الصحيحين .

وابن مردويه السابق آنفا .

واعترض بأن من خطف لا يبقى حياً إلى أن يوصل ما خطفه إلى وليه لظاهر قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : 01] فإن ظاهره أنه يهلك بالشهاب الذي لحقه .

وأجيب بأن نفي بقائه حياً غير مسلم .

ولا نسلم أن الآية ظاهرة فيما ذكر إذ ليس فيها أكثر من اتباع الشهاب الثاقب إياه وهو يحتمل الزجر كما يحتمل الاهلاك فليرد اتباعه للزجر مع بقائه حياً فإن الخبر المذكور يقتضي بقاءه كذلك .

وجاء عن ابن عباس أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها فيلقون إلى الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رمي بشهاب وهو الشعلة من النار فلا يخطىء أبداً فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه ومنهم من يخبله فيصير غولاً يضل الناس في البراري ، وقيل : إن المراد بالسمع فيما تقدم سمع الوحي وفيما هنا سمع المغيبات غيره وهم غير ممنوعين عنه قبل البعثة وبعدها ، وهذا مأخوذ من كلام عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه التي لم ينسج على منوالها وان كان للطعن فيها مجال قال : إن الآيات إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، بل ربما يقال : إن في كلامه بعد إشعاراً ما بأن المنع إنما كان بين يدي النبوة فقط لا قبل ذلك ولا بعده .

ولا يخفى أن الظواهر تشهد بمنعهم مطلقاً إلى يوم القيامة ، بل قد يدعى أن في الآيات ما يدل على أن حفظ السماء بالكواكب لم يحدث وان خلقها لذلك وهو ظاهر في أنهم كانوا

ممنوعين أيضاً قبل ولادته صلى الله عليه وسلم من خبر السماء ، ويشكل هذا على ظاهر العزل إلا أن يدعى أن المنع قبل لم يكن بمثابة المنع بعد فالعزل عما كان يجعل املنع شديداً بالنسبة إليه .

وفي اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر لمولانا عبد الوهاب الشعراني عليه الرحمة الصحيح أن الشياطين ممنوعون من السمع منذ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة وبتقدير استراقهم فلا فلا يتوصلون إلى الأنثى ليخبروهم بما استرقوه بل تحرقهم الشهب وتفنيهم انتهى .

(77/573)

قيل ويلزم القائلين بهذا حمل ما في خبر الصحيحين على كهان كانوا قبل البعثة وقد أدركهم السائلون وهو الذي يقتضيه كلام القاضي أيضاً .

فقد نقل النووي عنه في "شرح صحيح مسلم" أنه قال : كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضر ، أحدها أن يكون للإنسان ولي من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء وهذا القسم بطل من حين بعث نبينا صلى الله عليه وسلم إلى آخر ما قال : وهو ظاهر كلام البوصيري حيث يقول :

بعث الله عند مبعثه الشه . . .

ب حراساً وضاق عنها الفضاء

تطرد الجن عن مقاعد للسم . . .

ع كما يطرد الذئب الرعاء

فمحت آية الكهانة آيا . . .

ت من الوحى ما لهن انمحاء

وقد قيل في الجواب عن الإشكال نحو هذا وهو أن تنزل الشياطين وإلقاءهم ما يسمعونه من السماء إلى أوليائهم حسبما تفيده الآية المذكورة في أحد محاملها إنما كان قبل البعثة حيث لم يكن حينئذ منع أو كان لكنه لم يكن شديداً .

والمنع من السمع الذي يفيده قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : 212] إنما كان بعد البعثة وكان على أتم وجه ، وهذا مشكل عندي بابن الصياد وما كان منه فإنهم عدوه من الكهان ، وقد صح إنه قال للنبي عليه الصلاة والسلام حين سأله عن أمره : يأتيني صادق وكاذب وأن النبي صلى الله عليه وسلم امتحنه فاضمر له آية الدخان وهي قوله تعالى : ﴿ فارتقب يَوْمَ تَأْتِى السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الدخان : 10] وقال صلى الله عليه وسلم : خبأت لك خبأ فقال ابن الصياد : هو الدخ أي الدخان وهي

لغة فيه كما ذهب إليه الجمهور فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "أخسأ فلن تعدو قدرك" .

(78/573)

وقد قال القاضي كما نقل النووي عنه أيضاً : أصح الأقوال أنه لم يهتد من الآية التي أضمرها النبي عليه الصلاة والسلام إلا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان إذا ألقى الشيطان إليهم بقدر ما يخطف قبل أن يدركه الشهاب ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : "أخسأ فلن تعدو قدرك" أي القدر الذي يدركه الكهان من الاهتداء إلى بعض الشيء وما لا يبين منه حقيقته ولا يصل به إلى بيان وتحقيق أمور الغيب ، وقد يقال في دفع هذا الإشكال : إن ابن الصياد كان من الضرب الثاني من الكهان وهم الذين تخبرهم الشياطين بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خفي عنهم مما قرب أو بعد ، والصحيح جواز وجودهم بعد البعثة خلافاً للمعتزلة وبعض المتكلمين حيث قالوا باستحالة وجود هذا الضرب ، وكذا الضرب السابق آنفاً ، وأنه يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أسر إلى بعض أصحابه الذين كانوا معه ما أضمره أو كانت سورة الدخان مكتوبة في يده صلى الله عليه وسلم أو كتب الآية وحدها في يده عليه الصلاة والسلام ، وكلا القولين الأخيرين حكاهما الداودين

بعض العلماء كما في "شرح صحيح مسلم" .

وأياً ما كان يكون ابن الصياد قد أخبر بأمر طارىء تطلع عليه الشياطين بدون اشتراق السمع من السماء وليس ذلك من الاطلاع على ما في القلب في شيء ، ومع ذلك لم يخبر به تاماً بل أخبر به على نحو إخبار الكهان السابقين على زمن البعثة الذين هم من الضرب الأول في النقص .

(79/573)

ولعل مراد القاضي بقوله : إنه لم يهتد من الآية التي أضمرها صلى الله عليه وسلم إلا لهذا اللفظ الناقص على عادة الكهان إذا ألقى الشيطان إليهم بقدر ما يخطف الخ تشبيه حاله مع أنه من الضرب الثاني بحال من تقدمه من الكهان الذين هم من الضرب الأول وإلا لاشكل كلامه هذا مع ما نقلناه عنه أولاً كما لا يخفى ، وكأنه يقول برجم المسترقين للسمع قبل البعثة أيضاً إلا أنه لم يكن بمثابة ما كان بعد البعثة ، وقد ذهب إلى هذا جمع من المحدثين .

ومن الناس من قال : إن الشيطان إذا خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب ألقى ما يخطفه إلى من تحته قبل أن يدركه السهاب ثم أن من تحته يوصل ذلك إلى الكاهن ولا يكاد يصح ذلك ، وقيل : إن ما يلقيه الشياطين إلى الكهنة بعد البعثة هو ما يسمعونه من الملائكة عليهم

السلام في العنان وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ يُلْقُونَ السمع ﴾ [الشعراء : 322] وما هم ممنوعون عنه هو السمع من الملائكة عليهم السلام في السماء وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : 212] واستدل لذلك بما أخرجه البخاري .

(80/573)

وابن المنذر عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر في الأرض فيسمع الشيطان الكلمة فيقرها في أذن الكاهن كما يقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة " ولا يخفى أنه ليس في الخبر تعرض للسمع من الملائكة عليهم السلام في السماء بالمعنى المعروف لا نفياً ولا إثباتاً ، وقد يختار القول بأن الشياطين إنما منعوا بعد البعثة عن سمع ما يعتد به من علم الغيب من ملائكة السماء أو العنان ومن خطف خطفة يعتد بها من ذلك اتبعه الشهاب وأهلكه ولم يدعه يوصلها بوجه من الوجوه إلى الكهنة ، وأما سمع ما لا يعتقد به فقد يقع لهم ويوصلونه إلى الكهنة فيخلطون به من الذكب ما يخلطون ، فيحث حكم عليهم بالعزل عن السمع أريد بالسمع السمع الكامل المعتد به وحيث حكم عليهم بإلقاء السمع أريد بالسمع السمع في الجملة وأدنى ما يصدق عليه أنه سمع ، والظاهر أن ما حصل لابن الصياد كان من هذا

السمع ولا يكاد يعدل عن ذلك ، ويقال : إنه كان من الضرب الثاني للكهانة إلا إن ثبت أحد الشقوق الثلاثة وفي ثبوت ذلك كلام ، نعم قوله صلى الله عليه وسلم "خبأت" ظاهر في أن هناك ما يخبأ في كف أو كم أو نحوهما والآية ما لم تكتب لا تكون كذلك ، ولهذا احتاج القائلون بأنه صلى الله عليه وسلم إنما أضمر له الآية في قلبه إلى تأويل خبأت بأضمرت .

ويمكن أن يقال على بعد : إن الشياطين قد منعوا بعد البعثة عن السمع مطلقاً بالشهب المحرقة لهم ، وارجاع ضمير ﴿ يُلْقُون ﴾ إلى الشياطين ضعيف لأن المقام في بيان من يتنزلون عليه لا بيان حالهم أو إلقاء سمعهم بمعنى إصغائهم إلى الملأ الأعلى و ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ بمعنى كلهم والتعبير به للإشارة إلى أن الأكثرية المذكورة كافية في المقصود .

(81/573)

والمراد يصغون ليسمعوا فلا يسمعون إلا أنه أقيم وأكثرهم كاذبون مقام لا يسمعون أو إلقاء السمع بمعنى إلقاء ما يسمعه الناس من الأفاكين إليهم ولا يلزم من ذلك أن يكونوا سمعوه من الملائكة عليهم السلام إذ يجوز أن يكونوا اخترعوه من عند أنفسهم ظناً وتخميناً وألقوه إلى أوليائهم ولا يبعد صدقهم في بعضه .

والأمر في تسميته مسموعاً هين وما ورد في حديث الصحيحين وابن مردويه محمول على ما

كان قبل البعثة ، ويقال : إنهم كانوا يسمعون في الجملة وقد يحمل ما في الآية على ذلك وإليه ذهب بعضهم ، وحمل خطف الكلمة فيه على حدسها بواسطة بعض الأوضاع الفلكية ونحو ذلك ليجوز اعتبار كونه بعد البعثة مما لا أظن أحداً يرتضيه ، وليس في قصة ابن الصياد ما هو نص في أن ما قاله كان عن سمع من الملائكة عليهم السلام ألقاه الشيطان إليه . وكأني بك تستبعد تحدث الملائكة عليهم السلام في السماء بما أضمره صلى الله عليه وسلم وصعود الشياطين حين السؤال من غير ريث واستراقهم ونزولهم في أسرع وقت بما أجاب به ابن الصياد وما هو الأضرب من ضروب الكهانة .

(82/573)

وتحقيق أمرها على ما ذكره الفاضل عبد الرحمن بن خلدون أن للنفس الإنسانية استعداداً للإنسلاخ عن البشرية إلى الروحانية التي فوقها ويحصل من ذلك لمحة للبشر من صنف الاتقياء بما فطروا عليه من ذلك ولا يحتاجون فيه إلى اكتساب ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور ويعطي التقسيم العقلي إن ههنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة هذا الصنف نقصان الضد عن ضده الكامل وهو صنف من البشر مفطور على أن تتحرك قوته العقلية حركته الفكرية

بالإرادة عندما يتبعها النزوع لذلك وهي ناقصة عنه فيتشبث لأعمال الحليلة بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوان وسجع الكلام وما سنح من طير أو حيوان ويديم ذلك الإحساس والتخيل مستعيناً به في ذلك الإنسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشيع له وهذه القوة التي هي مبدأ في هذا الصنف لذلك الإدراك هي الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها الجزئيات أكثر من إدراكها الكليات وتكون مستغلة بها غافلة عن الكليات ولذلك كثيراً ما تكون المتخيلة فيهم في غاية القوة وتكون الجزئيات عندها حاضرة عتيدة وهي لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ولا يقوى الكاهن على الكمال في إدراك المعقولات لأن نقصانه فطري ووحيه شيطاني ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة لشتغل به عن الحواس ويقوى في الجملة على ذلك الإنسلاخ الناقص فيهجس في قلبه من تلك الحركة والذي يشيعها من ذلك الأجنبي ما يقذف على لسانه وربما صدق ووافق الحق وربما كذب لأنه يتمم أمر نقصه بأجنبي عن ذات المدارك ومباين لها غير ملائم فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ويكون غير موثوق به وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه وتمويهاً على السائلين ، ولما كان انسلاخ النبي عليه الصلاة والسلام عن البشرية واتصاله

بالملأ الأعلى من غير مسيع ولا استعانة بأجنبي كان صادقاً في جميع ما يأتي به وكان الصدق من خواص النبوة ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن الصياد حين سأله كاشفاً عن حاله بقوله عليه الصلاة والسلام :

"كيف يأتيك هذا الأمر ؟ فقال : يأتيني صادق وكاذب : خلط عليك الأمر " يريد عليه الصلاة والسلام نفي النبوة عنه بالإشارة إلى أنها مما لا يعتبر فيه الكذب بحال ، وإنما قيل : أرفع أحوال هذا الصنف السجع لأن معين السجع أخف من سائر المعينات من المرئيات والمسموعات وتدل خفة المعين على قرب ذلك الإنسلاخ والاتصال والبعد فيه عن العجز في الجملة ، ولا انحصار لعلوم الكهان فيما يكون من الشياطين بل كما تكون من الشياطين تكون من أنفسهم بانسلاخها انسلاخاً غير تام واتصالها في الجملة بواسطة بعض الأسباب بعالم لا تحجب عنه الحوادث المستقبلة وغيرها فانقطاع خبر السماء بعد البعثة عن الشياطين بالرجم إن سلم لا يدل على انقطاع الكهانة .

ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته ون لهم بعض الوجدان من أمر النبوة ولا يصدهم عن الإيمان ويدعوهم إلى العناد إلا وساوس المطامع بحصول النبوة لهم كما وقع لامية ابن أبي الصلت فإنه كان يطمع أن يكون نبياً وكذا وقع لابن الصياد .

ومسيلمة .

وغيرهما ، وربما تنقطع تلك الأماني فيؤمنون أحسن إيمان كما وقع لطليحة الأسدي .

(84/573)

وقارب بن الأسود وكان لهما في الفتوحات الإسلامية من الآثار ما يشهد بحسن الإيمان ، وذكر في بيان استعداد بعض الأشخاص أعم من أن يكونوا كهاناً أو غيرهم للأخبار بالأمور الغيبية قبل ظهورها كلاماً طويلاً ، حاصله أن النفس الإنسانية ذات روحانية ولها بذاتها الإدراك من غير واسطة لكنها محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه من الإدراك الجسماني وربما تنغمس عن الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصة التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصة الموجودة في بعض الأشخاص كالكهنة أهل السجع وأهل الطرق بالحصى والنوى والناظرين في الأجسام الشفافة من المرايا والمياه وقلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وقد يلحق بهم المجانين أو بالرياضة الدينية مثل أهل الكشف من الصوفية أو السحرية مثل أهل الكشف من الجوكية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التي فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال في الوجود وتلك الذوات إدراك محض

وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما قرر في محله فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علماف ، وربما وقعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفها في القوالب المتعادة ثم تراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه فتخبر به انتهى ، ولا يخفى أن فيه ذهاباً إلى ما يقوله الفلاسفة في الملأ الأعلى وكثيراً ما يسمونه عالم المجردات وقد يسمونه عالم العقول وهي محصورة في المشهور عنهم في عشرة ولا دليل لهم على هذا الحصر ولذا قال بعض متأخريهم بأنها لا تكاد تحصى ، وللمتكلمين والمحققين من السلف في ذلك كلام لا يتسع هذا الموضع لذكره ، وأنا أقول ولا ينكره إلا جهول : لله عز وجل خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص ولا يبعد بعد انقطاع خبر السماء عن السياطين بالرجم أن يجعل لبعض النفوس الإنسانية خاصية التكلم بما يصدق كلا أو بعضاً مع

(85/573)

اطلاع وكشف يفيد العلم بما أخبر به أو بدون ذلك بأن ينطقه سبحانه بشيء فيتكلم به من غير علم بالمخبر به ويوافق الواقع .

وقد اتفق لي ذلك وعمري نحو خمسن سنين وذلك أني رجعت من الكتاب إلى البيت وشرعت ألعب فيه على عادة الأطفال فنهتني والدتي رحمها الله تعالى عن ذلك وأمرتني

بالنوم لاستيقظ صباحاً فاذهب إلى الكتاب فقلت لها : غداً يقتل الوزير ولا أذهب إلى الكتاب وهو مما لا يكاد يمر بفكر فلم تلتفت إلى ذلك وأنا متني فلما أصبحت تأهبت للذهاب فجاء ابن أخت لها وأسر إليها كلاماً لم أسمعه فتغير حالها ومنعتي عن الذهاب ولا أدري لم ذلك فأردت الخروج إلى الدرب لألعب مع أمثالي فمنعتني أيضاً فقعدت وهي مضطربة البال تطلب أحداً يخبرها عن حال والدي عليه الرحمة حيث ذهب قبيل طلوع الشمس إلى المدرسة فخرجت إلى الدرب على حين غفلت منها فوجدت الناس بين راكض ومسرع يتحدثون بأن الوزير قتله بعض خدمه وهو في صلاة الفجر فرجعت إليها مسرعاً مسروراً بصدق كلامي وكنت قد أنسيته ولم يخطر ببالي حتى سمعت الناس يتحدثون بذلك .

وفي "اليواقيت والجواهر" للشعراني عليه الرحمة في بحث الفرقة بين المعجزة والكهانة أن الكهانة كلمات تجري على لسان الكاهن ربما توافق وربما تخالف وفيه شمة مما ذكرنا هذا والله تعالى أعلم .

والظاهر على ما قيل أن قوله تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ [الشعراء : 221] الخ كلام مسوق منه تعالى لبيان تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون وحاشاه ممن تنزل عليه الشياطين وإبطال لقولهم في القرآن إنه من قبيل ما يلقى إلى الكهنة ، وفي "البحر" ما هو ظاهر في أنه على معنى القول أي قل يا محمد هل أنبئكم الخ وهو مسوق للتنزيه والإبطال المذكورين

﴿ والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾

مسوق لتنزيهه عليه الصلاة والسلام أيضاً عن أن يكون وحاشاه من الشعراء وإبطال زعم الكفرة أن القرآن من قبيل الشعر .

(86/573)

والمتبادر منه الكلام المنظوم المقفى ولذلك قال كثير من المفسرين : إنهم رموه عليه الصلاة والسلام بكونه آتياً بشعر منظوم مقفى حتى تأولوا عليه ما جاء في القرآن مما يكون موزوناً بأدنى تصرف كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التى حَرَّمَ الله ﴾ [الإسراء : 33] ويكون بهذا الاعتبار شطراً من الطويل وكقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾ [القصص : 76] ويكون من المديد ، وكقوله عز وجل : ﴿ فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مساكنهم ﴾ [الأحقاف : 25] ويكون من البسيط ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أَلاَ بُعْدًا لّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود : 60] ويكون من الوافر ، وقوله جل وعلا : ﴿ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلّمُواْ تَسْلِيماً ﴾ [الأحزاب : 56] ويكون من الكامل إلى غير ذلك مما استخرجوه منه من سائر البحور ، وقد استخرجوا منه ما يشبه البيت التام كقوله تعالى : ﴿ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 14] .

وتعقب ذلك بأنهم لم يقصدوا هذا المقصد فيما رموه به صلى الله عليه وسلم إذ لا يخفى على الأغبياء من العجم فضلاً عن بلغاء العرب أن القرآن الذي جاء به صلى الله عليه وسلم ليس على أساليب الشعر وهم ما قالوا فيه عليه الصلاة والسلام شاعر إلا لما جاءهم بالقرآن واستخراج ما ذكر ونحوه منه ليس إلا لمزيد فصاحته وسلاسته ولم يؤت به لقصد النظم.

ولو اعتبر في كون الكلام شعراً إمكان استخراج ما ذكر ونحوه منه ليس إلا لمزيد فصاحته وسلاسته ولم يؤت به لقصد النظم.

(87/573)

وول اعتبر في كون الكلام شعراً إمكان استخراج كلام منظوم منه لكان كثير من الأطفال شعراء فإن كثيراً من كلامهم يمكن فيه ذلك، والظاهر أنهم إنما قصدوا رميه صلى الله عليه وسلم بأنه وحاشاه ثم حاشاه يأتي بكلام مخيل لا حقيقة له، ولما كان ذلك غالباً في الشعراء الذين يأتون بالمنظوم من الكلام عبروا عنه عليه الصلاة والسلام بشاعر وعما جاء بالشعر، ومعنى الآية والشعراء يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون ومايذرون ولا يستمرو على وتيرة واحدة في الأفعال

والأقوال والأحوال لا غيرهم من أهل الرشد المهتدين إلى طريق الحق الثابتين عليه ، والحصر مستفاد من بناء ﴿ يَتَّبِعُهُمُ ﴾ الخ على الشعراء عند الزمخشري كما قرره في تفسير قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِم ﴾ [البقرة : 15] وقوله سبحانه : ﴿ واللهُ يُقَدِّرُ الليل والنهار ﴾ [المزمل : 20] ومن لا يرى الحصر في مثل هذا التركيب يأخذه من الوصف المناسب أعني أن الغواية جعلت علة للاتباع فإذا انتفت انتفى وقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾

استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له .

والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للإشارة إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا يختص برؤيته راء دون راء .

وضمير الجمع للشعراء أي ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال وفي كل شعب من شهاب الوهم والخيال وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال يهيمون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين من السبل بل يتحيرون في سباسب الغواية والسفاهة ويتيهون في تيه الصلف والوقاحة ديدنهم تمزيق الأعراض المحمية والقدح في الأنساب الطاهرة السنية والنسيبة بالحرم والغزل والابتهار والتردد بين طرفي الإفراط والتفريط في المدح والهجاء .

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾

من الأفاعيل غير مكترثين بما يستتبعه من اللوم فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك ويلحق بهم وينتظم في سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجليلة وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات السنية الإنسية مستقراً على أقوم منهاج مستمراً على صراط مستقيم لا يرى له العقل السليم من هاج ناطقاً بكل أمر رشيد داعياً إلى صراط الله تعالى العزيز الحميد مؤيداً بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الباهرة مستقلة بنظم رائق وأسلوب فائق أعجز كل منطيق ماهر كل مفلق ساحر ، هذا وقد قيل في تنزيهه صلى الله عليه وسلم عن أن يكون من الشعراء : إن اتباع الشعراء الغاوون واتباعه عليه الصلاة والسلام ليسوا كذلك .

وتعقب بأنه لا ريب في أن تعليل عدم كونه صلى الله عليه وسلم منهم بكون اتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين مما لا يليق بشأنه العالي ، وقيل : ضمير الجمع للغاوين ، وتعقب بأن المحدث عنهم الشعراء ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الغاوين هم الرواية الذين يحفظون شعر الشعراء ويروونه عنهم مبتهجين به .

وفي رواية أخرى عنه أنهم الذين يستحسنون أشعارهم وإن لم يحفظوها ، وعن مجاهد .

وقتادة أنهم الشياطين .

وروى عن ابن عباس أيضاً أن الآية نزلت في شعراء المشركين عبد الله بن الزبعري .

وهبيرة بن وهب المخزومي .

ومسافع بن عبد مناف .

وأبو عزة الجمحي .

وأمية بن أبي الصلت قالوا : نحن نقول مثل قول محمد وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم وهم الغاوون الذين يتبعونهم .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم .

(89/573)

وابن مردويه عنه أيضاً أنه قال : تهاجي رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله تعالى ﴿ والشعراء ﴾ [الشعراء : 224] الآيات وفي القلب من صحة الخبر شيء ، والظاهر من السياق أنها نزلت للرد على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما

قالوا .

وقرأ عيسى بن عمرو ﴿ الشعراء ﴾ بالنصب على اشتغال .

وقرأ السلمي .

والحسن بخلاف عنه ﴿ والشعراء يَتَّبِعُهُمُ ﴾ مخففاً .

وقرأ الحسن .

وعبد الوارث عن أبي عمرو ﴿ يَتَّبِعُهُمُ ﴾ بالتشديد وتسكين العين تخفيفاً وقد قالوا : عضد بسكون الضاد فغيروا الضمة واقعة بعد الفتحة فلأن يغيروها واقعة بعد الكسرة أولى ، وروى هرون فتح العين عن بعضهم ، واستشكله أبو حيان ، وقيل : إنه للتخفيف أيضاً ، واختياره على السكون لحصول الغرض به مع أن فيه مراعاة الأصل في الجملة لما بين الحركتين من المشاركة الجنسية ولا كذلك ما بين الضم والسكون وهو غريب كما لا يخفى .

﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾

(90/573)

استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عز وجل ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله سبحانه وتعالى والحث على الطاعة والحكمة والموعظة

والزهد في الدنيا والترهيب عن الركون إليها والاغترار بزخارفها والافتتان بملاذها الفانية والترغيب فيما عند الله تعالى ونشر محاسن رسوله صلى الله عليه وسلم ومدحه وذكر معجزاته ليتغلغل حبه في سويداء قلوب السامعين وتزداد رغباتهم في اتباعه ونشر مدائح آله وأصحابه وصلحاء أمته لنحو ذلك ولو وقع منهم في بعض الأوقات هجو وقع بطريق الانتصار ممن هجاهم من غير اعتداء ولا زيادة كما يشير إليه قراءة بعضهم ﴿ وانتصروا بِمِثْلِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ ، وقيل : المراد بالمستثنين شعراء المؤمنين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة المشركين ، واستدل لذلك بما أخرج عبد بن حميد .

وابن أبي حاتم عن قتادة إن هذه الآية نزلت في رهط من الأنصار هاجوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

وحسان بن ثابت .

وعن السدي نحوه ، وبما أخرج جماعة عن أبي حسن سالم البراد أنه قال : لما نزلت ﴿ والشعراء ﴾ [الشعراء : 224] الآية جاء عبد الله بن رواحة .

وحسان بن ثابت .

وكعب بن مالك وهم يبكون فقالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله تعالى هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء هلكنا فأنزل الله تعالى ﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ الخ فدعاهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم فتلاها عليهم .

وأنت تعلم أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، وأخرج ابن مردويه : وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قرأ قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ إلى آخر الصفات فقال : هم أبو بكر .

وعمر وعلي .

(91/573)

وعبد الله بن رواحة ولعله من باب الاقتصار على بعض ما يدل عليه اللفظ فقد جاء عنه في بعض الروايات ما يشعر بالعموم ، هذا واستدل بالآية على ذم الشعر والمبالغة في المدح والهجو وغيرهما من فنونه وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم انتصاراً كذا قيل ، واعلم أن الشعر باب من الكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، وفي الحديث : " إن من الشعر لحكمة " وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الشعر وأجاز عليه وقال عليه الصلاة والسلام لحسان رضي الله تعالى عنه : -اهجهم يعني المشركين فإن روح القدس سيعينك وفي رواية : " اهجهم وجبريل معك " وأخرج ابن سعد عن ابن بريدة أن جبريل عليه السلام أعان حساناً على مدحته النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين بيتاً ،

وأخرج أحمد .

والبخاري في التاريخ .

وأبو يعلى .

وابن مردويه عن كعب بن مالك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه ؟ فقال : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل ، وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وهم في سفر أين حسان بن ثابت فقال : لبيك يا رسول الله وسعديك قال : خذ فجعل ينشده ويصغي إليه حتى فرغ من نشيده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لهذا أشد عليهم من وقع النبل ، ويروى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم بنى لحسان بن ثابت منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر .

(92/573)

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً الشعراء الذين يموتون في الإسلام يأمرهم الله تعالى أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة والذين

ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثبور في النار ، وقد أنشد كل من الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين الشعر ، وكذا كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فمن شعر أبي بكر رضي الله تعالى عنه :

أمن طيف سلمى بالبطائح الدمائث . . .

أرقت وأمر في العشيرة حادث

ترى من لؤى فرقة لا يصدها . . .

عن الكفر تذكير ولا بعث باعث

رسول أتاهم صادق فتكذبوا . . .

عليه وقالوا لست فينا بماكث

ولما دعوناهم إلى الحق أدبروا . . .

وهروا هرير المجحرات اللواهث

فكم قد مثلنا فيهم بقرابة . . .

وترك التقي شيء لهم غير كارث

فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم . . .

فما طيبات الحل مثل الخبائث

وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم . . .

فليس عذاب الله عنهم بلابث

ونحن أناس من ذؤابة غالب . . .

لنا العز منها في الفروع الأثائث

فأولى برب الراقصات عشية . . .

حراجيج تخدي في السريح الرثائث

كأدم ظباء حول مكة عكف . . .

يردن حياض البئر ذات النبائث

لئن لم يفيقوا عاجلاً من ضلالهم . . .

ولست إذا ءاليت يوماً بحانث

لتبتدرنهم غارة ذات مصدق . . .

تحرم أطهار النساء الطوامث

تغادر قتلى يعصب الطير حولهم . . .

ولا ترأف الكفار رأف ابن حارث

فابلغ بني سهم لديك رسالة . . .

وكل كفور يبتغي الشر باحث

فإن تشعثوا عرضي على سوء رأيكم . . .

فإني من أعراضكم غير شاعث

ومن شعر عمر رضي الله تعالى عنه وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة :

توعدني كعب ثلاثاً يعدها . . .

ولا شك أن القول ما قاله كعب

وما بي خوف الموت إني لميت . . .

ولكن خوف الذنب يتبعه الذنب

وقوله يروى للأعور الثنى :

هون عليك فإن الأمور . . .

بكف الإله مقاديرها

فليس بآتيك منهيها . . .

ولا قاصر عنك مأمورها

ومنه وقد لبس برداً جديداً فنظر الناس إليه ، ويروى لورقة بن نوفل من أبيات :

(93/573)

لا شي مما ترى تبقى بشاشته . . .

يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه . . .

والخلد حاوله عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياح له . . .

والإنس والجن فيما بينها ترد

حوض هنا لك مورود بلا كذب . . .

لا بد من ورده يوماً كما وردوا

ومن شعر عثمان رضي الله تعالى عنه :

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها . . .

وإن عضها حتى يضر بها الفقر

ومن شعر علي كرم الله تعالى وجهه وكان مجوداً حتى قيل : إنه أشعر الخلفاء رضي الله تعالى عنهم يذكر همدان ونصرهم إياه في صفين :

ولما رأيت الخيل تزحم بالقنا . . .

نواصيها حمر النحور دوامي

وأعرض نقع في السماء كأنه . . .

عجاجة دجن ملبس بقتام

ونادى ابن هند في الكلاع وحمير . . .

وكندة في لخم وحي جذام

تيممت همدان الذين هم هم . . .

إذا ناب دهر جنتي وسهامي فجاوبني من خيل همدان عصبة

فوارس من همدان غير لئام فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها . . .

وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام

فلو كنت بواباً على باب جنة . . .

لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقد جمعوا ما نسب إليه رضي الله تعالى عنه من الشعر في ديوان كبير ولا يصحح منه إلا اليسير ، ومن شعر ابنه الحسن رضي الله تعالى عنهما وقد خرج على أصحابه مختضباً :

نسود أعلاها وتأبى أصولها . . .

فليت الذي يسود منها هو الأصل

ومن شعر الحسين رضي الله تعالى عنه وقد عاتبه أخوه الحسن رضي الله تعالى عنه في امرأته :

لعمرك إنني لأحب دارا . . .

تحل بها سكينة والرباب

أحبهما وأبذل جل مالي . . .

وليس للأئمي عند عتاب

ومن شعر فاطمة رضي الله تعالى عنها قالته يوم وفاة أبيها عليه الصلاة والسلام :

ماذا على من شم تربة أحمد . . .

أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصائب لو أنها . . .

صبت على الأيام صرن لياليا

ومن شعر العباس رضي الله تعالى عنه يوم حنين يفتخر بثبوته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا هل أتى عرسي مكري وموقفي . . .

بوادي حنين والأسنة تشرع

وقولي إذا ما النفس جاشت لها قرى . . .

(94/573)

وهام تدهدي والسواعد تقطع

وكيف رددت الخيل وهي مغيرة . . .

بزوراء تعطي باليدين وتمنع

نصرنا رسول الله في الحرب سبعة . . .

وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا

ومن شعر ابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهما :

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى . . .

وأعمل فكر الليل والليل عاجر

وباكرني في حاجة لم يجد لها . . .

سواي ولا من نكبة الدهر ناصر

فرجت بمالي همه من مقامه . . .

وزايله هم طروق مسامر

وكان له فضل علي بظنه . . .

بي الخير أني للذي ظن شاكر

وهلم جرا إلى حيث شئت ، وليس من بني عبد المطلب كما قيل رجالاً ولا نساء من لم يقل الشعر حاشا النبي صلى الله عليه وسلم ليكون ذلك أبلغ في أمره عليه الصلاة والسلام ،

ولأجلة التابعين ومن بعدهم من أئمة الدين وفقهاء المسلمين شعر كثير أيضاً ، ومن ذلك قول الشافعي رضي الله تعالى عنه :

ومتعب العيس مرتاح إلى بلد . . .

والموت يطلبه في ذلك البلد

وضاحك والمنايا فوق هامته . . .

لو كان يعلم غيباً مات من كمد

من كان لم يؤت علماً في بقاء غد . . .

فما يفكر في رزق لبعد غد

والاستقصاء في هذا الباب يحتاج إلى إفراده بكتاب وفيما ذكر كفاية ، وقد مدحه أيضاً غير واحد من الأجلة فعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه الشعر ميزان العقول .

وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول : إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله تعالى فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب فإن الشعر ديوان العرب ، وما أخرجه أحمد .

وابن أبي شيبة عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلىء شعراً " حمله الشافعي عليه الرحمة على الشعر المشتمل على الفحش ، وروى نحوه عن عائشة رضي الله تعالى عنها ، فقد أخرج الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن عائشة أنه بلغها أن أبا هريرة يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أيمتلىء جوف أحدكم" الحديث فقالت : رحم الله تعالى أبا هريرة إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً " من الشعر الذي هجيبت به يعني نفسه الشريفة عليه الصلاة والسلام ذكر ذلك المرشدي في فتاواه نقلاً عن كتاب بستان الزاهدين ، ولا يخفى أنه يبعد الحمل المذكور التعبير بيمتلىء فإن الكثير والقليل مما فيه فحش أو هجو لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم سواء ، وما أحسن قول الماوردي : الشعر في كلام العرب مستحب ومباح ومحظور فالمستحب ما حذر من الدنيا ورغب في الآخرة وحث على مكارم الأخلاق والمباح ما سلم من فحش أو كذب والمحظور نوعان كذب وفحش وهما جرح في قائله وأما منشده فإن حكاه اضطراراً لم يكن جرحاً أو اختياراً جرح ، وتبعه على ذلك الروياني وجعل الروياني ما فيه الهجو لمسلم سواء كان بصدق أو كذب من المحظور أيضاً ، ووافقه جماعة

إلا أن إثم الصادق أخف من إثم الكاذب كما قال القمولي .

وإثم الحاكي على ما قال الرافعي دون إثم المنشد ، وقال الأذرعي : ليس هذا على إطلاقه بل إذا استوى الحاكي والمنشد أما إذا أنشده ولم يذعه فأذاعه الحاكي فاثمه أشد بلا شك ، واحترز بقيد المسلم عما فيه الهجو لكافر فإن فيه تفصيلاً .

(96/573)

وفصل بعضهم ما فيه الهجو لمسلم أيضاً وذلك أن كثيراً من العلماء أطلقوا جواز هجو الكافر استلالاً بأمر صلى الله عليه وسلم حساناً ونحوه بهجو المشركين ، وقال بعضهم : محل ذلك الكفار على العموم وكذا المعين الحربي ميتاً كان أو حياً حيث لم يكن له قريب معصوم يتأذى به ، وأما الذمي أو المعاهد أو الحربي الذي له قريب ذمي أو مسلم يتأذى به فلا يجوز هجوه كما قاله الأذرعي .

وابن العماد .

وغيرهما ؛ وقالوا : إن هجو حسان وإن كان في معين لكنه في حربي ، وعلى التنزل فهو ذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون عن القرب فضلاً عن المبحات ، وألحق الغزالي وتبعه جمع المبتدع بالحربي فيجوز هجوه ببدعته لكن لمقصد شرعي كالتحذير من حجهته

، وجوز ابن العماد هجو المرتد دون تارك الصلاة والزاني المحصن ، وما قاله في المرتد واضح لأنه كالحربي بل أقبح وفي الأخيرين محله حيث لم يتجاهر أما المتجاهر بفسقه فيجوز هجوه بما تجاهر به فقط لجواز غيبته بذلك فقط .

وقال البلقيني : الأرجح تحريم هجو المتجاهر المذكور لا لقصد زجره لأنه قد يتوب وتبقى وصمة الشعر السائر عليه ولا كذلك الكافر إذا أسلم .

ورد بأن مجاهرته بالمعصية وعدم مبالاته بالناس وكلامهم فيه صيراه غير محترم ولا مراعى فهو المهدر لحرمة نفسه بالنسبة لما تجاهر به فلم يبال ببقاء تلك الوصمة عليه .

نعم لو قيل بحرمة إنشاده بعد التوبة إذا كان يتأذى به هو أو قريبة المسلم أو الذمي أو بعد موته إذا كان يتأذى به من ذكر لم يبعد ، وذكر جماعة أن من جملة المحظور أيضاً ما فيه تشبيب بغلام ولو غير معين مع ذكر أنه يعشقه أو بامأرة أجنبية معينة وإن لم يذكرها بفحش أو بامرأة مبهمة مع ذكرها بالفحش ولم يفرقوا بين إنشاء ذلك وإنشاده ، واعتبر بعضهم التعيين في الغلام كالمرأة فلا يحرم التشبيب بمبهم .

(97/573)

قال الأذرعي وهو الأقرب والأول ضعيف جداً ، وقال أيضاً : يجب القطع بأنه إذا شبب بحليلته ولم يذكر سوى المحبة والشوق أو ذكر شيئاً من التشبيهات الظاهرة أنه لا يضر وكذا إذا ذكر امرأة مجهولة ولم يذكر سوءاً .

وفي الأحياء في حرمة التشبيب بنحو وصف الخدود والإصداغ وسائر أوصاف النساء نظر ، والصحيح أنه لا يحرم نظمه ولا إنشاده بصوت وغير صوت ، وعلى المستمع أن ينزله على امرأة معينة فإن نزله على حليلته جاز أو على غيرها فهو العاصي بالتنزيل ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع ، وذكر بعض الفضلاء أن ما يحرم إنشاؤه قد لا تحرم روايته فإن المغازي روى فيها قصائد الكفار الذين هاجوا فيها الصحابة رضي الله تعالى عنهم ولم ينكر ذلك أحد ، وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم إذن في الشعر الذي تقاولت به الشعراء في يومي بدر .

وأحد وغيرهما إلا قصيدة ابن أبي الصلت الحائية انتهى ، قال الأذرعي : ولا شك في هذا إذا لم يكن فيه فحش ولا أذى لحي ولا ميت من المسلمين ولم تدع حاجة إليه ، وقد ذم العلماء جريراً .

والفرزدق في تهاجيهما ولم يذموا من استشهد بذلك على إعراب وغيره من علم اللسان ، ويجب حمل كلام الأئمة على غير ذلك مما هو عادة أهل اللعب والبطالة وعلى إنشاد شعر شعراء العصر إذا كان إنشاؤه حراماً إذ ليس فيه إلا أذى أو وقيعة في الأحياء أو إساءة

الأحياء في أمواتهم أو ذكر مساوي الأموات وغير ذلك وليس مما يحتج به في اللغة ولا غيرها فلم يبق إلا اللعب بالأعراض ، وزاد بعض حرمة شعر فيه تعريض وجعل التعريض في الهجو كالتصريح وله وجه وجيه .

(98/573)

وقال آخر : إن ما فيه فخر مذموم وقليله ككثيره ، والحق إن ذلك أن تضمن غرضاً شرعياً فلا بأس به ، وللسلف شعر كثير من ذلك وقد تقدم لك بعض منه ، وحمل الأكثرون الخبر السابق على ما إذا غلب عليه الشعر وملك نفسه حتى اشتغل به عن القرآن والفقه ونحوهما ولذلك ذكر الامتلاء ، والحاصل أن المذموم امتلاء القلب من الشعر بحيث لا يتسع لغيره ولا يلتفت إليه .

وليس في الخبر ذم إنشائه ولا إنشاده لحاجة شرعية وإلا لوقع التعارض بينه وبين الأخبار الصحيحة الدالة على حل ذلك وهي أكثر من أن تحصى وأبعد من أن تقبل التأويل كما لا يخفى .

وما روى عن الإمام الشافعي من قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يزري . . .

لكنت اليوم أشعر من لبيد

محمول على نحو ما حمل الأكثرون الخبر عليه وإلا فما قاله شعر ، وفي معناه قول شيخنا علاء الدين علي أفندي تغمده الله تعالى برحمته مخاطباً خاتمة الوزراء في الزوراء داود باشا من أبيات .

ولو لداعيه يرضي الشعر منقبة . . .

لقمت ما بين منشيه ومنشده

هذا وسيأتي إن شاء الله تعالى كلام يتعلق بهذا البحث أيضاً عند الكلام في قوله تعالى : ﴿ وَمَا علمناه الشعر وَمَا يَنبَغِى له ﴾ [يس : 69] له ومن اللطائف أن سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق :

فبتن بجانبي مصرعات . . .

وبت أفض أغلاق الختام

(99/573)

فقال له قد وجب عليك الحد فقال يا أمير المؤمنين : قد درأ الله تعالى عني الحد بقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 226] ﴿ وَسَيَعْلَمْ الذين ظَلَمُواْ

أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لما في ﴿ سيعلم ﴾ من تهويل متعلقه وفي ﴿ يَرَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ من الإطلاق والتعميم ، وقد كان السلف الصالح يتواعظون بها ، وختم بها أبو بكر رضي الله تعالى عنه وصيته حين عهد لعمر رضي الله تعالى عنه وذلك أنه أمر عثمان رضي الله تعالى عنه أن يكتب في مرض موته حينئذ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر ويصدق فيها الكاذب إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وأن يجر ويبدل فلا عغلم فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُواْ أَيَ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، وتفسير الظلم بالكفر وإن كان شائعاً في عدة مواضع من القرآن الكريم إلا أن الأنسب على ما قيل هنا الإطلاق لمكان قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ وقال الطيبي : سياق الآية بعد ذكر المشركين الذين آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لقى منهم من الشدائد كما مر من أول السورة يؤيد تفير الظلم بالكفر .

وروى محيي السنة الذين ظلموا أشركوا وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقرأ ابن عباس .

وابن أرقم عن الحسن ﴿ أَيُّ ﴾ بالفاء والتاء والتاء الفوقية من الانفلات بعنى النجاة ، والمعنى إن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون أن ليس لهم وجه من

وجوه الانفلات ﴿ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ﴾ هنا معلقة وأي استفهام مضاف إلى ﴿ مُنقَلَبٍ ﴾ والناصب له ﴿ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، والجملة سادة مسد المفعولين كذا في "البحر" .

(100/573)

وقال أبو البقاء : أي منقلب مصدر نعت لمصدر محذوف والعامل ﴿ يَنقَلِبُونَ ﴾ أي ينقلبون انقلاباً أي منقلب ولا يعمل فيه يعلم لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله : وتعقب بأنه تخليط لأن أياً إذا وصف بها لم تكن استفهاماً .

وقد صرحوا بأن الموصوف بها قسيم الاستفهامية ، وتحقيق انقسام أي يطلب من كتب النحو والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(101/573)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ في جميع حالاتك ﴿ عَلَى الْعَزِيزِ ﴾ الذي لا يذل من والاه ولا يعز من عاداه فهو يقدر على قهر أعدائه .

﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الذي يرحم من توكل عليه وفوض أمره إليه بالظفر والنصرة فهو ينصر أولياءه ولا تتوكل على الغير فإن الله تعالى هو الكافي لشر الأعداء لا الغير والتوكل على الله تعالى في جميع الأمور والإعراض عما سواه ليس إلا من خواص الكمل جعلنا الله وإياكم من الملحقين بهم ثم أتبع به قوله :

﴿ الَّذِي يُرِيكُمُ ﴾ إلخ لأنه كالسبب لتلك الرحمة أي توكل على من يراك .

﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي إلى التهجد في جوف الليل فإن المعروف من القيام في العرف الشرعي إحياء الليل بالصلاة فيه .

وفي الحديث : "أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل" .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي عليه السلام "كان لا يدع قيام الليل وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً" .

ومنها "إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة" رواه "مسلم" .

يقول الفقير : هذا أي ما صلى عليه السلام في النهار بدل ما فات منه في الليل من ورد التهجد يدل على أن التهجد ليس كسائر النوافل بل له فضيلة على غيره ولذا يوصي بإتيان بدله إذا فات مع أن النوافل لا تقضي .

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ التقلب أي ويرى ترددك في تصفح أحوال المتهجدين لتطلع

على حقيقة أمرهم كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل عليه وعلى أصحابه بناء على أنه كان واجباً عليه وعلى أمته وهو الأصح .

(102/573)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان واجباً على الأنبياء قبله طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون أي هل تركوا قيام الليل لكونه نسخ وجوبه بالصلوات الخمس ليلة المعراج حرصاً على كثرة طاعاتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع لها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما تقوله ولدعوات عباده ومناجاة الأسرار ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما تنويه وبوجود مصالحهم وارادات الضمائر .

وقال بعضهم : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ أي تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا ائتمهم فقوله في الساجدين معناه مع المصلين في الجماعة فكأن أصل المعنى يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك إذا صليت مع المصلين جماعة .

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي يرى قصدك ونيتك وعزيمتك عند قيامك للأمور كلها وقد اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخلق فإن من علم أنه بمشهد الحق راعى دقائق حالاته وخفايا أحواله مع الحق وبقوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾

هون عليه معاناة مشاق العبادات لاخباره برؤيته له ولا مشقة لمن يعلم أنه بمرأى من مولاه ومحبوبه وأن حمل الجبال الرواسي يهون لمن حملها على شعرة من جفن عينه على مشاهدة ربه .

ويقال كنت بمرأى منا حين تقلبك في عالم الأرواح في الساجدين بأن خلقنا روح كل ساجد من روحك أنه هو السميع في الأزل مقالتك أنا سيد ولد آدم ولا فخر لأن أرواحهم خلقت من روحك العليم باستحقاقك لهذه الكرامة انتهى .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ ﴾ من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً ، أي فمعنى في الساجدين في أصلاب الأنبياء والمرسلين من آدم إلى نوح وإلى إبراهيم وإلى من بعده إلى أن ولدته أمه وهذا لا ينافي وقوع من ليس نبياً في آبائه فالمراد وقوع الأنبياء في نسبه .

(103/573)

واستدل الرافضة على أن آباء النبي عليه السلام كانوا مؤمنين أي لأن الساجد لا يكون إلا مؤمناً فقد عبر عن الإيمان بالسجود وهو استدلال ظاهري وقوله عليه السلام : "لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات" لا يدل على الإيمان بل على صحة أنكحة

الجاهلية كما قال عليه السلام في حديث آخر : "حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط" وقد سبق نبذ من الكلام مما يتعلق بالمرام في أواخر سورة إبراهيم وحق المسلم أن يمسك لسانه عما يخل بشرف نسب نبينا عليه السلام ويصونه عما يتبادر منه النقصان خصوصاً إلى وهم العامة .

فإن قلت : كيف نعتقد في حق آباء النبي عليه السلام ؟ .

(104/573)

قلت : هذه المسألة ليست من الاعتقاديات فلا حظ للقلب منها وأما حظ اللسان فقد ذكرنا وذكر الحافظ السيوطي رحمه الله أن الذي للخلص أن أجداده عليه السلام من آدم إلى مرة بن كعب مصرح بإيمانهم أي في الأحاديث وأقوال السلف وبقي بين مرة وعبد المطلب أربعة أجداد ولم أظفر فيهم بنقل وعبد المطلب الأشبه أنه لم تبلغه الدعوة لأنه مات وسنه عليه السلام ثمان سنين والأشهر أنه كان على ملة إبراهيم عليه السلام أي لم يعبد الأصنام كما سبق في سورة براءة .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ خطاب لكفار مكة وكانوا يقولون : إن الشياطين تتنزل على محمد فرد الله عليهم ببيان استحالة تنزلهم عليه بعد بيان امتناع تنزلهم بالقرآن .

والمعنى هل أخبركم أيها المشركون .

﴿ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾

أي : تتنزل بحذف إحدى التاءين وكلمة من تضمنت الاستفهام ودخل عليها حرف الجر وحق الاستفهام أن يصدر في الكلام فيقال : أعلى زيد مررت ولا يقال : على أزيد مررت ولكن تضمنه ليس بمعنى أنه اسم فيه معنى الحرف بل معناه أن الأصل أمن فحذف حرف الاستفهام واستعمل على بعد حذفه كما يقال في هل أصله أهل ومعناه أقد فإذا أدخلت حرف الجر على من فقدر الهمزة قبل حرف الجر في ضميرك كأنك تقول أعلى من تنزل .

﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كثير الإفك والكذب .

قال الراغب : الإفك كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه .

﴿ أَثِيمٍ ﴾ كثير الإثم وهو اسم للأفعال المبطئة عن الثواب ، أي تتنزل على المتصفين بالإفك والإثم الكثير من الكهنة والمتنبئة كمسيلمة وطليحة لأنهم من جنسهم وبينهم مناسبة بالكذب والافتراء والإضلال وحيث كانت ساحة رسول الله منزهة عن هذه الأوصاف استحال تنزلهم عليه .

(105/573)

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ الجملة في محل الجر على أنها صفة كل أفاك أثيم لكونه في معنى الجمع ، أي يلقي الأفاكون الأذن إلى الشياطين فيتلقون منهم أوهاماً وأمارات لنقصان علمهم فيضمون إليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق أكثرها الواقع .

﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ أي : الأفاكين ﴿ كَاذِبُونَ ﴾ فيما قالوه من الأقاويل وليس محمد كذلك فإنه صادق في جميع ما أخبر من المغيبات والأكثر بمعنى الكل .

كلفظ البعض في قوله : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ (آل عمران : 50) أي كله وذلك كما استعملت القلة في معنى العدم في كثير من المواضع .

وقال بعضهم : إن الأكثرية باعتبار الأقوال لا باعتبار الذوات حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقين وليس معنى الأفاك من لا ينطق إلا بالإفك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الإفك فلا ينافيه أن يصدق نادراً في بعض الأحيان .

وقال في "كشف الأسرار" : استثنى منهم بذكر الأكثر سطحياً وشقاً وسواد بن قارب الذين كانوا يلهجون بذكر رسول الله وتصديقه ويشهدون له بالنبوة ويدعون الناس إليه انتهى .

قال في "حياة الحيوان" : وأما شق وسطيح الكاهنان فكان شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة وكان سطيح ليس له عظم ولا بنان إنما كان يطوى كالحصير لم يدرك أيام بعثة رسول الله عليه السلام وكان في زمن الملك كسرى وهو ساسان .

﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ يعني : ليس القرآن بشعر ولا محمد بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الضالون والسفهاء وأتباع محمد ليسوا كذلك بل هم الراشدون المراجيح الرزان وكان شعراء الكفار يهجون رسول الله وأصحابه ويعيبون الإسلام فيتبعهم سفهاء

(106/573)

العرب حيث كانوا يحفظون هجاءهم وينشدون في المجالس ويضحكون .

ومن لواحق هذا المعنى ما قال ابن الخطيب في "روضته" : ذهب جماعة من الشعراء إلى خليفة وتبعهم طفيلي فلما دخلوا على الخليفة قرأوا قصائدهم واحداً بعد واحد وأخذوا العطاء فبقي الطفيلي متحيراً فقيل له : اقرأ شعرك قال : لست أنا بشاعر وإنما أنا رجل ضال كما قال الله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ فضحك الخليفة كثيراً فأمر له بأنعام .

وقال بعضهم : معنى الآية أن الشعراء تسلك مسلكهم وتكون من جملتهم الضالون عن سنن الحق لا غيرهم من أهل الرشد .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن الشعراء بحسب مقاماتهم ومطرح نظرهم ومنشأ قصدهم ونياتهم إذا سلكوا على أقدام التفكر مفاوز التذكر في طلب المعاني ونظمها

وترتيب عروضها وقوافيها وتدبير تجنيسها وأساليبها تتبعهم الشياطين بالإغواء والإضلال ويوقعونهم في الأباطيل والأكاذيب .

(107/573)

قال في "المفردات" : شعرت أصبت الشعر ومنه استعير شعرت كذا أي علمته في الدقة كإصابة الشعر .

قيل : وسمي الشاعر شاعراً لفطنته ودقة معرفته فالشعر في الأصل اسم للعلم الدقيق في قولهم : ليت شعري وصار في التعارف اسماً للموزون المقفى من الكلام والشاعر المختص بصناعته وقوله تعالى : ﴿ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (الأنبياء : 5) حمله كثير من المفسرين على أنهم رموه بكونه آتياً بشعر منظوم مقفى حتى تأولوا ما جاء في القرآن من كل لفظ يشبه الموزون من نحو وجفان كالجواب وقدور راسيات .

وقال بعض المحصلين : لم يقصدوا هذا المقصد فيما رموه به وذلك أنه ظاهر من هذا الكلام أنه ليس على أساليب الشعر ولا يخفى ذلك على الأغتام من العجم فضلاً عن بلغاء العرب وإنما رموه بالكذب فإن الشعر يعبر به عن الكذب والشاعر الكاذب حتى سمى قوم الأدلة الكاذبة شعراً ولهذا قال تعالى في وصف عامة الشعراء : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾

إلى آخر السورة انتهى .

قال الإمام المرزوقي "شرح الحماسة" : تأخر الشعراء عن البلغاء لتأخر المنظوم عند العرب لأن ملوكهم قبل الإسلام وبعده يتبجحون بالخطابة ويعدونها أكمل أسباب الرياسة ويعدون الشعر دناءة لأن الشعر كان مكسبة وتجارة وفيه وصف اللئيم عند الطمع بصفة الكريم والكريم عند تأخر صلته بوصف اللئيم ومما يدل على شرف النثر أن الإعجاز وقع في النثر دون النظم لأن زمن النبي عليه السلام زمن الفصاحة .

(108/573)

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ يا من شأنه الرؤية أي قد رأيت وعلمت ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي الشعراء ﴿ فِى كُلِّ وَادٍ ﴾ من المدح والذم والهجاء والكذب والفحش والشتم واللعن والافتراء والدعاوى والتكبر والمفاخر والتحاسد والعجب والإراءة وإظهار الفضل والدناءة والخسة والطمع والتكدي والذلة والمهانة وأصناف الأخلاق الرذيلة والطعن في الأنساب والأعراض وغير ذلك من الآفات التي هي من توابع الشعر ﴿ يَهِيمُونَ ﴾ يقال هام على وجهه من باب باع هيماناً بفتحتين ذهب من العشق أو غيره كما في "المختار" أي يذهبون على وجوههم لا يهتدون إلى سبيل معين بل يتحيرون في أودية القيل والقال والوهم والخيال والغي والضلال .

قال الراغب : أصل الوادي الموضع الذي يسيل فيه الماء ومنه سمي المنفرج بين الجبلين وادياً ويستعار للطريقة

كالمذهب والأسلوب فيقال : فلان في واد غير واديك وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ فإنه يعني أساليب الكلام من المدح والهجاء والجدل والغزل وغير ذلك من الأنواع أي في كل نوع من الكلام يغلون .

قال في "الوسيط" : فالوادي مثل لفنون الكلام وهيمانهم فيه قولهم على الجهل بما يقولون من لغو وباطل وغلو في مدح أو ذم .

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ في أشعارهم عند التصلف والدعاوى ﴿ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ من الأفاعيل : يعني (بفسق ناكرده برخود كواهي ميدهند ويغا مهاي ناداده بكسى درسلك نظم ميكشند) ويرغبون في الجود ويرغبون عنه وينفرون عن البخل ويصرون عليه ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عنهم ، ثم إنهم لا يرتكبون إلا الفواحش وذلك تمام الغواية والنبي عليه السلام منزه عن ذلك متصف بمحاسن الأوصاف ومكارم الأخلاق مستقر على المنهاج القويم مستمر على الصراط المستقيم .

﴿ إِلا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين .

﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ ذكراً ﴿ كَثِيرًا ﴾ بأن كان أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة أو بأن لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوه همهم وعادتهم .

قال أبو يزيد قدس سره : الذكر الكثير ليس بالعدد لكنه بالحضور .

﴿ وَانتَصَرُوا ﴾

﴿ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ بالهجو لأن الكفار بدؤوهم بالهجاء يعني لو وقع منهم في بعض الأوقات هجو وقع بطريق الانتصار ممن هجاهم من المشركين كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم فإنهم كانوا يذبون عن عرض النبي عليه السلام ، وكان عليه السلام يضع لحسان منبراً في المسجد فيقوم عليه يهجو من كان يهجو رسول الله .

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه عليه السلام قال : "اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل" وفي الحديث : "جاهدوا المشركون بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم" أي أسمعوهم ما يكرهونه ويشق عليهم سماعه من هجو وكلام غليظ ونحو ذلك .

(110/573)

قال الإمام السهيلي رحمه الله : فهم سبب الاستثناء فلو سماهم بأسمائهم الأعلام كان الاستثناء مقصوراً عليهم والمدح مخصوصاً بهم ولكن ذكرهم بهذه الصفة ليدخل معهم في هذا الاستثناء كل من اقتدى بهم شاعراً كان أو خطيباً أو غير ذلك انتهى .

وفي "التأويلات النجمية" : لأرباب القلوب في الشعر سلوك على إقدام التفكر بنور الإيمان وقوة العمل الصالح وتأييد الذكر الكثير ليصلوا إلى أعلى درجات القرب وتؤيدهم الملائكة بدقائق المعاني بل يوفقهم الله لاستجلاب الحقائق ويلهمهم بألفاظ الدقائق فبالإلهام يهيمون في كل وادٍ من المواعظ الحسنة والحكم البالغة وذم الدنيا وتركها وتزيين الآخرة وطلبها وتشويق العباد وتحبيبهم إلى الله وتحبيب الله إليهم وشرح المعارف وبيان الموصل والحث على السير والتحذير عن الألفاظ القاطعة للسير وذكر الله وثنائه ومدح النبي عليه السلام والصحابة وهجاء الكفار انتصاراً كما قال عليه السلام لحسان : "اهج المشركين فإن جبريل معك" انتهى .

والجمهور على إباحة الشعر ثم المذموم منه ما فيه كذب وقبح وما لم يكن كذلك فإن غلب على صاحبه بحيث يشغله عن الذكر وتلاوة القرآن فمذموم

وإن لم يغلب كذلك فلا ذم فيه وفي الحديث : "إن من الشعر لحكمة" أي : كلاماً نافعاً يمنع عهن الجهل والسفه وكان علي رضى الله عنه أشعر الخلفاء وكانت عائشة رضي الله عنها أبلغ من الكل .

(111/573)

ولما كان الشعر مما لا ينبغي للأنبياء عليهم السلام لم يصدر من النبي عليه السلام بطريق الإنشاء دون الإنشاد إلا ما كان بغير قصد منه وكان كل كمال بشرى تحت علمه الجامع فكان يجيب كل فصيح وبليغ وشاعر وأشعر وكل قبيلة بلغاتهم وعباراتهم وكان يعلم الكتاب علم الخط وأهل الحرف حرفتهم ولذا كان رحمة للعالمين .

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ على أنفسهم بالشعر المنهي عنه وغيره فهو عام لكل ظالم والسين للتأكيد ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ أي : منصوب ينقلبون على المصدر لا بقوله سيعلم لأن أياً وسائر أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها وقدم على عامله لتضمنه معنى الاستفهام وهو متعلق بسيعلم سادا مسد مفعوليه .

والمنقلب بمعنى الانقلاب أي الرجوع .

والمعنى ينقلبون أي الانقلاب ويرجعون إليه بعد مماتهم أي الرجوع أي ينقلبون انقلاباً سوءاً ويرجعون رجوعاً شراً لأن مصيرهم إلى النار .

(112/573)

روي : أنه لما أيس أبو بكر رضي الله عنه من حياته استكتب عثمان رضي الله عنه كتاب العهد وهو هذا ما عهد ابن أبي قحافة إلى المؤمنين في الحال التي يؤمن فيها الكافر ثم قال بعد ما غشى عليه وأفاق : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه عدل فذلك ظني فيه وإن لم يعدل سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

والظلم هو الانحراف عن العدالة والعدول عن الحق الجاري مجرى النقطة من الدائرة .

والظلمة ثلاثة .

الظالم الأعظم وهو الذي لا يدخل تحت شريعة الله وإياه قصد تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان : 13) والأوسط هو الذي لا يلزم حكم السلطان .

والأصغر هو الذي يتعطل عن المكاسب والأعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منفعته ومن فضيلة العدالة أن الجور الذي هو ضدها لا يستتب إلا بها فلو أن لصوصاً تشارطوا فيما بينهم شرطاً فلم يراعوا العدالة فيه لم ينتظم أمرهم .

فعلى العاقل أن يصيخ إلى الوعيد والتهديد الأكيد فيرجع عن الظلم والجور وإن كان عادلاً فنعوذ بالله من الجور بعد الكور والله المعين لكل سالك والمنجي في المسالك من المهالك .

تمت سورة الشعراء يوم الخميس وهو التاسع من ذي القعدة من سنة ثمان ومائة وألف .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 6 صـ 402 . 408 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ الضمير يرجع إلى ما نزله عليه من الأخبار أي وإن هذه الأخبار أو وإن القرآن ، وإن لم يجر له ذكر للعلم به ، قيل : وهو على تقدير مضاف محذوف أي : ذو تنزيل ، وأما إذا كان تنزيل بمعنى منزل فلا حاجة إلى تقدير مضاف قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم : ﴿ نَزَّلَ ﴾ مخففاً ، وقرأه الباقون مشدّداً ، و ﴿ والروح الأمين ﴾ على القراءة الثانية منصوب على أنه مفعول به ، وقد اختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد ، والروح الأمين جبريل ، كما في قوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ﴾ [البقرة : 97] ، ومعنى ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ : أنه تلاه على قلبه ، ووجه تخصيص القلب ، لأنه أوّل مدرك من الحواس الباطنة .

قال أبو حيان : إن ﴿ على قلبك ﴾ ، ولتكون متعلقان بنزل ، وقيل : يجوز أن يتعلقا بتنزيل ، والأوّل أولى ، وقرىء : " نزّل " مشدّداً مبنياً للمفعول ، والفاعل هو الله تعالى ، ويكون الروح على هذه القراءة مرفوعاً على النيابة ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ علة للإنزال أي أنزله لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات والإنذارات والعقوبات .

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ متعلق بالمنذرين أي لتكون من المنذرين بهذا اللسان ، وجوّز أبو

البقاء أن يكون بدلاً من ﴿ به ﴾ ، وقيل : متعلق بنزل ، وإنما أخر للاعتناء بذكر الإنذار ، وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربياً بلسان الرسول العربي لئلا يقول مشركو العرب : لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا فقطع بذلك حجتهم وأزاح علتهم ودفع معذرتهم .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين ﴾ أي إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع في كتب الأوّلين من الأنبياء ، والزبر : الكتب ، الواحد زبور ، وقد تقدّم الكلام على تفسير مثل هذا .

(114/573)

وقيل : الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : المراد بكون القرآن في زبر الأوّلين : أنه مذكور فيها هو نفسه ، لا ما اشتمل عليه من الأحكام ، والأوّل أولى .

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إسراءيل ﴾ الهمزة للإنكار ، والواو للعطف على مقدّر كما تقدّم مراراً ، والآية العلامة والدلالة أي ألم يكن لهؤلاء علامة دالة على أن القرآن حق ، وأنه تنزيل ربّ العالمين .

وأنه في زبر الأوّلين ، ﴿ أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ على العموم ، أو من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين ؛ لأنهم كانوا يرجعون

إليهم ويصدّقونهم .

قرأ ابن عامر " تكن " بالفوقية ، " وآية " بالرفع على أنها اسم كان ، وخبرها أن يعلمه إلخ ، ويجوز أن تكون تامة ، وقرأ الباقون : " يكن " بالتحتية ، و ﴿ آية ﴾ بالنصب على أنها خبر ﴿ يكن ﴾ ، واسمها ﴿ أن يعلمه ﴾ الخ ، قال الزجاج : ﴿ أن يعلمه ﴾ اسم ﴿ يكن ﴾ ، و ﴿ آية ﴾ خبره .

والمعنى : أو لم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمداً نبيّ حقّ علامة ودلالة على نبوّته ؛ لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم ، وكذا قال الفراء ، ووجها قراءة الرفع بما ذكرنا .

وفي قراءة ابن عامر نظر ، لأن جعل النكرة اسماً ، والمعرفة خبراً غير سائغ ، وإن ورد شاذاً في مثل قول الشاعر :

فلا يك موقف منك الوداعا . . . وقول الآخر :

وكان مزاجها عسل وماء . . . ولا وجه لما قيل : إن النكرة قد تخصصت بقولهم : ﴿ لَهُمْ ﴾ لأنه في محل نصب على الحال والحال صفة في المعنى ؛ فأحسن ما يقال في التوجيه : ما قدّمنا ذكره من أن ﴿ يكن ﴾ تامة ﴿ وَلَوْ نزلناه على بَعْضِ الأعجمين ﴾ أي لو نزلنا القرآن على الصفة التي هو عليها على رجل من الأعجمين الذي لا يقدرون على التكلم بالعربية .

﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ﴾ قراءة صحيحة ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة من الرجل الأعجميّ للكلام العربيّ إلى إعجاز القرآن .

وقيل : المعنى : ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم ، فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به ، وقالوا : ما نفقه هذا ، ولا نفهمه ، ومثل هذا قوله : ﴿ وَلَوْ جعلناه قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءاياته ﴾ [فصلت : 44] يقال : رجل أعجم ، وأعجميّ : إذا كان غير فصيح اللسان ، وإن كان عربياً ، ورجل عجمي : إذا كان أصله من العجم ، وإن كان فصيحاً ، إلاّ أن الفراء أجاز أن يقال : رجل عجميّ بمعنى أعجميّ ، وقرأ الحسن : " على بعض الأعجميين " ، وكذلك قرأ الجحدري .

قال أبو الفتح بن جني : أصل الأعجمين : الأعجميين ، ثم حذفت ياء النسب ، وجعل جمعه بالياء والنون دليلاً عليها .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ أي مثل ذلك السلك سلكناه أي أدخلناه في قلوبهم : يعني : القرآن حتى فهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه معجز .

وقال الحسن وغيره : سلكنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين .

وقال عكرمة : سلكنا القسوة ، والأوّل أولى ، لأن السياق في القرآن ، وجملة : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تحتمل وجهين : الأوّل : الاستئناف على جهة البيان والإيضاح لما قبلها .

والثاني : أنها في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿ سلكناه ﴾ ، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ المجرمين ﴾ .

وأجاز الفراء الجزم في ﴿ لا يؤمنون ﴾ ، لأن فيه معنى الشرط ، والمجازاة ، وزعم أن من شأن العرب إذا وضعت " لا " موضع " كيلا " مثل هذا ربما جزمت ما بعدها ، وربما رفعت ، فتقول : ربطت الفرس لا ينفلت بالرفع والجزم ؛ لأن معناه : إن لم أربطه ينفلت ، وأنشد لبعض بني عقيل :

وحتى رأينا أحسن الفعل بيننا . . . مساكنه لا يقرف الشر قارف

بالرفع ، ومن الجزم قول الآخر :

لطال ما حللتماها لا ترد . . . فخلياها والسجال تبترد

(116/573)

قال النحاس : وهذا كله في ﴿ لا يؤمنون ﴾ خطأ عند البصريين ، ولا يجوز الجزم بلا جازم

﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ أي لا يؤمنون إلى هذه الغاية ، وهي مشاهدتهم للعذاب

الأليم : ﴿ فَيَأْتِيَهُم ﴾ العذاب ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة والحال أنهم ﴿ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه ، وقرأ الحسن : " فتأتيهم " بالفوقية : أي الساعة ، وإن لم يتقدّم لها ذكر ، لكنه قد دلّ العذاب عليها .

﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أي مؤخرون ، وممهلون ، قالوا هذا تحسراً على ما فات من الإيمان ، وتمنيا للرجعة إلى الدنيا ، لاستدراك ما فرط منهم .

(117/573)

وقيل : إن المراد بقولهم : ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ : الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ، ولا يخفى ما في هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر ، فإن معنى ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ : طلب النظرة والإمهال ، وأما قوله : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فالمراد به : الردّ عليهم ، والإنكار لما وقع منهم من قولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] ، وقولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ [الأعراف : 70] ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن متعناهم سِنِينَ ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر يناسب المقام كما مرّ في غير موضع ، ومعنى أرأيت : أخبرني ، والخطاب لكل من يصلح له أي أخبرني إن متعناهم سنين في الدنيا متطاولة ، وطوّلنا لهم

الأعمار ﴿ ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ، والهلاك ﴿ مَا أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ : " ما " هي الاستفهامية ، والمعنى أي شيء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتع الطويل ، و "ما" في ﴿ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ يجوز أن تكون المصدرية ، ويجوز أن تكون الموصولة ، والاستفهام للإنكار التقريري ، ويجوز أن تكون " ما " الأولى نافية ، والمفعول محذوف أي لم يغن عنهم تمتيعهم شيئاً ، وقرىء : " يمتعون " بإسكان الميم ، وتخفيف التاء من أمتع الله زيداً بكذا ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ : " من " مزيدة للتأكيد أي وما أهلكنا قرية من القرى إلاّ لها منذرون .

(118/573)

وجملة ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ يجوز أن تكون صفة لقرية ، ويجوز أن تكون حالاً منها ، وسوّغ ذلك سبق النفي ، والمعنى : ما أهلكنا قرية من القرى إلاّ بعد الإنذار إليهم ، والإعذار بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وقوله ﴿ ذِكْرِى ﴾ بمعنى تذكرة ، وهي في محل نصب على العلة أو المصدرية .

وقال الكسائي : ﴿ ذكرى ﴾ في موضع نصب على الحال .

وقال الفراء ، والزجاج : إنها في موضع نصب على المصدرية أي : يذكرون ذكرى .

قال النحاس : وهذا قول صحيح ، لأن معنى ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ : إلا لها مذكرون .

قال الزجاج : ويجوز أن يكون ذكرى في موضع رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف أي إنذارنا ذكرى ، أو ذلك ذكرى .

قال ابن الأنباري : المعنى : هي ذكرى ، أو يذكرهم ذكرى ، وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف ﴿ وَمَا كُنَّا ظالمين ﴾ في تعذيبهم ، فقد قدّمنا الحجة إليهم وأنذرناهم وأعذرنا إليهم .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ أي : بالقرآن ، وهذا ردّ لما زعمه الكفرة في القرآن أنه من قبيل ما يلقيه الشياطين على الكهنة ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ ﴾ ذلك ، ولا يصح منهم ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ما نسبه الكفار إليهم أصلاً ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع ﴾ للقرآن ، أو لكلام الملائكة ﴿ لَمَعْزُولُونَ ﴾ محجوبون مرجومون بالشهب .

وقرأ الحسن وابن السميفع والأعمش : " وما تنزلت به الشياطون " بالواو والنون إجراء له مجرى جمع السلامة .

قال النحاس : وهذا غلط عند جميع النحويين .

قال : وسمعت علي بن سليمان يقول : سمعت محمد بن يزيد يقول : هذا من غلط العلماء ، وإنما يكون بشبهة لما رأى الحسن في آخره ياء ونوناً ، وهو في موضع رفع ؛ اشتبه عليه بالجمع السالم ، فغلط .

قال الفراء : غلط الشيخ يعني : الحسن ، فقيل : ذلك للنضر بن شميل ، فقال : إن جاز أن يحتجّ بقول رؤبة والعجاج وذويهما جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه يعني محمد بن السميفع مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ بذلك إلاّ وقد سمعا فيه شيئاً .

وقال المؤرّج : إن كان الشيطان من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه .

قال يونس بن حبيب : سمعت أعرابياً يقول : دخلنا بساتين من ورائها بساتون .

ثم لما قرّر سبحانه حقية القرآن ، وأنه منزّل من عنده أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بدعاء الله وحده فقال : ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين ﴾ ، وخطاب النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذا مع كونه منزّهاً عنه معصوماً منه لحثّ العباد على التوحيد ، ونهيهم عن شوائب الشرك ، وكأنه قال : أنت أكرم الخلق عليّ ، وأعزّهم عندي ، ولو اتخذت معي إلها لعذبتك ، فكيف بغيرك من العباد ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ خص الأقربين ؛ لأن الاهتمام بشأنهم أولى ، وهدايتهم إلى الحق أقدم .

قيل : هم قريش ، وقيل : بنو عبد مناف ، وقيل : بنو هاشم .

وقد ثبت في الصحيح : أن هذه الآية لما نزلت دعا النبيّ صلى الله عليه وسلم قريشاً ،

فاجتمعوا فعمّ وخص ، فذلك منه صلى الله عليه وسلم بيان للعشيرة الأقربين ، وسيأتي بيان ذلك .

﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ يقال : خفض جناحه إذا ألانه ، وفيه استعارة حسنة .

والمعنى : ألن جناحك وتواضع لمن اتبعك من المؤمنين ، وأظهر لهم المحبة والكرامة وتجاوز عنهم .

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ أي خالفوا أمرك ، ولم يتبعوك ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي من عملكم ، أو من الذي تعملونه ، وهذا يدلّ على أن المراد بالمؤمنين المشارفون للإيمان المصدّقون باللسان ، لأن المؤمنين الخلص لا يعصونه ، ولا يخالفونه .

(120/573)

ثم بيّن له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ أي : فوّض أمورك إليه ، فإنه القادر على قهر الأعداء ، وهو : الرحيم للأولياء ، قرأ نافع ، وابن عامر : " فتوكل " بالفاء .

وقرأ الباقون ﴿ وتوكل ﴾ بالواو ، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجزء مما قبلها

مترتباً عليه ، وعلى القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفاً على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب .

﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي : حين تقوم إلى الصلاة وحدك في قول أكثر المفسرين ، وقال مجاهد : حين تقوم حيثما كنت ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ أي ويراك إن صليت في الجماعة راكعاً وساجداً وقائماً ، كذا قال أكثر المفسرين .

وقيل : يراك في الموحدين من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجك في هذه الأمة .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قيامه إلى التهجد ، وقوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ يريد : تردّدك في تصفح أحوال المجتهدين في العبادة ، وتقلب بصرك فيهم ، كذا قال مجاهد .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لما تقوله ﴿ العليم ﴾ به .

ثم أكّد سبحانه معنى قوله ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ ، وبينه ، فقال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين ﴾ أي على من تتنزّل ، فحذف إحدى التاءين ، وفيه بيان استحالة تنزّل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ .

والأفاك : الكثير الإفك ، والأثيم : كثير الإثم ، والمراد بهم : كل من كان كاهناً ، فإن الشياطين كانت تسترق السمع ، ثم يأتون إليهم ، فيلقونه إليهم ، وهو معنى قوله : ﴿ يُلْقُونَ

السمع ﴾ أي : ما يسمعونه مما يسترقونه ، فتكون جملة : ﴿ يُلْقُونَ السمع ﴾ على هذا راجعة إلى الشياطين في محل نصب على الحال أي : حال كون الشياطين ملقين السمع أي ما يسمعونه من الملأ الأعلى إلى الكهان .

(121/573)

ويجوز أن يكون المعنى : إن الشياطين يلقون السمع أي : ينصتون إلى الملأ الأعلى ؛ ليسترقوا منهم شيئاً ، ويكون المراد بالسمع على الوجه الأوّل المسموع ، وعلى الوجه الثاني : نفس حاسة السمع .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ يُلْقُونَ السمع ﴾ راجعة إلى كل أفاك أثيم على أنها صفة ، أو مستأنفة ، ومعنى الإلقاء : أنهم يسمعون ما تلقيه إليهم الشياطين من الكلمات التي تصدق الواحدة منها ، وتكذب المائة الكلمة كما ورد في الحديث ، وجملة : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ راجعة إلى كل أفاك أثيم أي وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين ، لأنهم يضمون إلى ما يسمعونه كثيراً من أكاذيبهم المختلقة ، أو أكثرهم كاذبون فيما يلقونه من السمع أي المسموع من الشياطين إلى الناس ، ويجوز أن تكون جملة : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ راجعة إلى الشياطين أي : وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى الكهنة مما يسمعونه ؛

فإنهم يضمون إلى ذلك من عند أنفسهم كثيراً من الكذب ، وقد قيل : كيف يصح على الوجه الأوّل وصف الأفاكين بأن أكثرهم كاذبون بعد ما وصفوا جميعاً بالإفك .

وأجيب بأن المراد بالأفاك الذي يكثر الكذب لا الذي لا ينطلق إلاّ بالكذب .

فالمراد بقوله : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ أنه قلّ من يصدق منهم فيما يحكي عن الشياطين ، والغرض الذي سيق لأجله هذا الكلام ردّ ما كان يزعمه المشركون من كون النبيّ صلى الله عليه وسلم من جملة من يلقي إليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب ، ولم يظهر من أحوال محمد صلى الله عليه وسلم إلاّ الصدق ، فكيف يكون كما زعموا ؟ ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين ، وهذا النبيّ المرسل من عند الله برسالته إلى الناس يذمهم ويلعنهم ويأمر بالتعوّذ منهم .

(122/573)

ثم لما كان قد قال قائل من المشركين : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم شاعر ، بيّن سبحانه حال الشعراء ، ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال ﴿ والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ والمعنى : أن الشعراء يتبعهم ، أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون أي الضالون عن الحق ، والشعراء : جمع شاعر ، والغاوون :

جمع غاوٍ ، وهم ضُلال الجن والإنس .

وقيل : الزائلون عن الحق .

وقيل : الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء وما لا يجوز ، وقيل : المراد شعراء الكفار خاصة .

قرأ الجمهور : ﴿ والشعراء ﴾ بالرفع على أنه مبتدأ وخبره ما بعده ، وقرأ عيسى بن عمر : " الشعراء " بالنصب على الاشتغال ، وقرأ نافع وشيبة ، والحسن والسلمي : " يتبعهم " بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد .

(123/573)

ثم بيّن سبحانه قبائح شعراء الباطل ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ ، والجملة مقرّرة لما قبلها ، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية ، يقال : هام يهيم هيماً ، وهيماناً : إذا ذهب على وجهه أي ألم تر أنهم في كل فنّ من فنون الكذب يخوضون ، وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون ؟ فتارة يمزّقون الأعراض بالهجاء ، وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ، ويستقبحه العقل ، وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة ، ويذمون الحق ، ويمدحون الباطل ، ويرغبون في فعل المحرّمات ، ويدعون الناس إلى فعل

المنكرات كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ أي يقولون فعلنا وفعلنا وهم كذبة في ذلك ، فقد يدلون بكلامهم على الكرم والخير ، ولا يفعلونه ، وقد ينسبون إلى أنفسهم من أفعال الشرّ ما لا يقدرون على فعله كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات ، وأنهم فعلوا بهنّ كذا وكذا ، وذلك كذب محض ، وافتراء بحت .

(124/573)

ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحرّي الحق والصدق ، فقال : ﴿ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي دخلوا في حزب المؤمنين ، وعملوا بأعمالهم الصالحة ، ﴿ وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً ﴾ في أشعارهم ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ كمن يهجو منهم من هجاء ، أو ينتصر لعالم أو فاضل كما كان يقع من شعراء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فإنهم كانوا يهجون من يهجوه ، ويحمون عنه ويذبون عن عرضه ، ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم ، ويدخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة وكافح أهل البدعة ، وزيف ما يقوله شعراؤهم من مدح بدعتهم وهجو السنة المطهرة ، كما

يقع ذلك كثيراً من شعراء الرافضة ونحوهم ، فإن الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة ، وفاعله من المجاهدين في سبيل الله ، المنتصرين لدينه ، القائمين بما أمر الله بالقيام به .

واعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام ، فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام ، وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب .

وقد وردت أحاديث في ذمه وذمّ الاستكثار منه ، ووردت أحاديث أخر في إباحته ، وتجويزه ، والكلام في تحقيق ذلك يطول ، وسنذكر في آخر البحث ما ورد في ذلك من الأحاديث .

ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله ، فقال : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، فإن في قوله : ﴿ سيعلم ﴾ تهويلاً عظيماً ، وتهديداً شديداً ، وكذا في إطلاق ﴿ الذين ظلموا ﴾ وإبهام ﴿ أيّ منقلب ينقلبون ﴾ ، وخصص هذه الآية بعضهم بالشعراء ، ولا وجه لذلك ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ ، وقوله : ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٍ ﴾ صفة لمصدر محذوف أي ينقلبون منقلباً أيّ منقلب ، وقدّم لتضمنه معنى الاستفهام ، ولا يعمل فيه ﴿ سيعلم ﴾ ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله ، بل هو معلق عن العمل فيه .

وقرأ ابن عباس والحسن : " أيّ منفلت ينفلتون " بالفاء مكان القاف ، والتاء مكان الباء من الانفلات بالنون والفاء الفوقية ، وقرأ الباقون بالقاف ، والباء من الانقلاب بالنون والقاف والموحدة ، والمعنى على قراءة ابن عباس والحسن : أن الظالمين يطمعون في الانفلات من عذاب الله ، والانفكاك منه ، ولا يقدرون على ذلك .

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ قال : هذا القرآن ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ قال : جبريل .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ قال : جبريل .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ الروح الأمين ﴾ قال : " الروح الأمين : جبريل ، رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فيها مثل ريش الطواويس " وأخرج ابن النجار في تاريخه عن ابن عباس في قوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ قال : بلسان قريش ولو كان غير عربيّ ما فهموه .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقي في الشعب عن بريدة في قوله : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ قال : بلسان جرهم .

وأخرج مثله أيضاً عنه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن سلام من

علماء بني إسرائيل ، وكان من خيارهم فآمن بكتاب محمد ، فقال لهم الله : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إسراءيل ﴾ .

(126/573)

وأخرج البخاري ، مسلم ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً وعمّ وخص فقال : " يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، يا معشر بني كعب بن لؤيّ أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، يا معشر بني كعب بن لؤيّ أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، يا معشر بني قصيّ أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعاً ، يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً ، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، فإني لا أملك لكم ضرّاً ولا نفعاً ، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرًّا ولا نفعاً إلاّ أن لكم رحماً وسأبلها ببلالها " وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قال : للصلاة .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه ﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ يقول : قيامك ، وركوعك ، وسجودك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ قال : يراك وأنت مع الساجدين تقوم وتقعد معهم .

وأخرج ابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه .

(127/573)

ومنه الحديث في الصحيحين ، وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل ترون قبلتي ها هنا ؟ فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ، ولا ركوعكم ، وإني لأراكم من وراء ظهري " وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده والبزار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ قال : من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجت نبياً .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عنه في الآية نحوه .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن عائشة قالت : سأل أناس النبيّ صلى الله عليه

وسلم عن الكهان قال : " إنهم ليسوا بشيء " ، قالوا : يا رسول الله إنهم يحدّثون أحياناً بالشيء يكون حقاً ؟ قال : " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة "

، وفي لفظ للبخاري : " فيزيدون معها مائة كذبة " وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : تهاجى رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كلّ واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء ، فأنزل الله : ﴿ والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ الآيات .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عروة قال : لما نزلت ﴿ والشعراء ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله قد علم الله أني منهم ، فأنزل الله : ﴿ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَنقَلِبُونَ ﴾ ، وروي نحو هذا من طرق .

(128/573)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ قال : هم الكفار يتبعون ضلال الجنّ والإنس ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قال : في كلّ لغو

يخوضون ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ أكثر قولهم يكذبون ، ثم استثنى منهم فقال : ﴿ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ قال : ردّوا على الكفار كانوا يهجون المؤمنين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ والشعراء ﴾ قال : المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ قال : غواة الجنّ في كلّ واد يهيمون في كلّ فنّ من الكلام يأخذون .

ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ الآية ، يعني : حسان بن ثابت وعبد الله ابن رواحة وكعب بن مالك كانوا يذبون عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه بهجاء المشركين .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عنه : ﴿ الغاوون ﴾ قال : هم الرواة .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عنه أيضاً : ﴿ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ ﴾ الآية قال : أبو بكر وعمر وعليّ وعبد الله بن رواحة .

وأخرج أحمد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك ؛ أنه قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه ؟ فقال : " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نضح النبل "

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عرض شاعر ينشد ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً " وأخرج الديلمي عن ابن مسعود مرفوعاً :

(129/573)

" الشعراء الذين يموتون في الإسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعراً يتغنى به الحور العين لأزواجهنّ في الجنة ، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثبور في النار " وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من الشعر لحكمة " قال : وأتاه قريظة بن كعب وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت فقالوا : إنا نقول الشعر ، وقد نزلت هذه الآية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرؤوا " ، فقرؤوا : ﴿ والشعراء ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فقال : " أنتم هم " ﴿ وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً ﴾ فقال : " أنتم هم " ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ فقال : " أنتم هم " وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : " اهج المشركين ، فإن جبريل معك " وأخرج ابن سعد عن البراء بن عازب قال : قيل : يا رسول الله ، إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يهجوك ، فقام

ابن رواحة فقال : يا رسول الله ، ائذن لي فيه ، فقال : " أنت الذي تقول ثبت الله ؟ " فقال : نعم يا رسول ، قلت :

ثبت الله ما أعطاك من حسن . . . تثبيت موسى ونصراً مثل ما نصرا

قال : " وأنت ، ففعل الله بك مثل ذلك " ، ثم وثب كعب فقال : يا رسول الله ائذن لي فيه ؟ فقال : " أنت الذي تقول همت ؟ " قال : نعم يا رسول الله ، قلت :

همت سخينة أن تغالب ربها . . . فلتغلبنّ مغالب الغلاب

(130/573)

فقال : " أما إن الله لم ينس ذلك لك " ، ثم قام حسان ، فقال : يا رسول الله ائذن لي فيه ، وأخرج لساناً له أسود ، فقال : يا رسول الله لو شئت لفريت به المراد ، ائذن لي فيه ، فقال : " اذهب إلى أبي بكر فليحدّثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم واهجهم وجبريل معك "

وأخرج أحمد وابن سعد عن أبي هريرة قال : مرّ عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ إليه فنظر إليه ، فقال : قد كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك ، فسكت ، ثم التفت حسان إلى أبي هريرة فقال : أنشدك بالله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس ؟ " قال : نعم .

وأخرج ابن سعد من حديث جابر مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من الشعر حكماً " وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن من الشعر حكماً ، ومن البيان سحراً "

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً يريه ، خير من أن يمتلىء شعراً " وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً " قال في الصحاح : وروى القيح جوفه يريه ، وريا : إذا أكله ، قال القرطبي : روى إسماعيل بن عَيَّاش عن عبد الله بن عون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حسن الشعر كحسن الكلام ، وقبيح الشعر كقبيح الكلام " قال القرطبي : رواه إسماعيل عن عبد الله بن عون الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح ، فيما قال يحيى بن معين ، وغيره .

(131/573)

قال : وروى عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام " وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت ؟ " قلت : نعم .

قال : " هيه " ، فأنشدته بيتاً ، فقال : " هيه " ، ثم أنشدته بيتاً ، فقال : " هيه " حتى أنشدته مائة بيت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيد في قوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُواْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ قال : هؤلاء الذين يخربون البيت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(132/573)

وقال القاسمى :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾

أي : تتنزل وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله بعد امتناع تنزلهم بالقرآن : ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي : كذاب في قوله ، في الكلام من وجه إلى

آخر ، ولا يبالي بذلك . لأنه أثيم كثير الإثم والفجور في فعله . وحيث كان المقام النبويّ منزهاً عن ذلك ، اتضح استحالة تنزلهم عليه .

قال القاشانيّ : لأن تنزلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها ، بالمناسبة في الخبث والكيد والمكر والقدر والخيانة وسائر الرذائل . فمن تجرد عن صفات النفس ، وترقى إلى جناب القدس ، وتنورت نفسه بالأنوار الروحية ومصابيح الشهب السبوحية ، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى ، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه ، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع . فإنهم معزولون عن استماع كلام الملكوت الأعلى ، مرجومون بشهب الأنوار القدسية . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ تقرير لقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية ، المستمدة من الشياطين بالمناسبة ، المستدعية لإلقائهم وتنزلهم بحسب الجنسية . انتهى .

(133/573)

﴿ يُلْقُونَ ﴾ أي : الأفّاكون : ﴿ السَّمْعَ ﴾ أي : إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما يتكهنون به ، وفيما يحكونه عن الشياطين . وقوله تعالى

: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن الكريم ، من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام . بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة من الأباطيل ، بما مرّ من بيان أحوالهم المضادّة لأحواله عليه الصلاة والسلام .

والمعنى أن الشعراء الذين يركبون المخيلات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة ، سواء كانت موزونة أم لا ، فإنه يتبعهم : أي : يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن ، لا غيرهم من أهل الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الداعين إليه . قاله أبو السعود .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون ، وتقرير له . أي : ألم تر أنهم في كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم ، لا يقفون عند حدّ معيّن ، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب . ديدنهم الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح في الأنساب ، والنسيب بالحرم والغزل والابتهار . ومدح من لا يستحق المدح ، والغلوّ في الثناء والهجاء .

لطيفة :

في ذكر الوادي والهيام ، تمثيل لذهابهم في شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه . قال ابن

الأثير : استعار الأودية للفنون والأغراض من المعاني الشعرية التي يقصدونها . وإنما خص الأودية بالاستعارة ، ولم يستعر الطرق والمسالك ، أو ما جرى مجراها – لأن معاني الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فيهما خفاء وغموض . فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

(134/573)

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، كناية عن أنهم يكذبون غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم . أي : فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك ، ويلتحق بهم وينتظم في سلكهم ، من تنزّهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات الجليلة ، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة ، وحاز جميع الكمالات القدسية ، وفاز بجملة الملكات الأُنسية ، مستقرّاً على المنهاج القويم ، مستمرّاً على الصراط المستقيم ، ناطقاً بكل أمر رشيد ، داعياً إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيداً بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفنون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاهرة ، مستقلة بنظم رائق ، أعجز كل منطيق ماهر , وبكّت كل مفلق ساحر ! قاله أبو السعود .

تنبيه :

قال الحافظ ابن كثير : اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حدّاً . هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون – على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحاق ومحمد بن سعد في " الطبقات " والزبير بن بكار في كتاب " الفكاهة " أن أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عَدِيّ بن نَضْلة على مَيْسَان ، من أرض البصرة . وكان يقول الشعر ، فقال :

~أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسْنَاءَ أَنَّ خَلِيلَهَا بِمَيسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنْتَمِ

~إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَاقِينُ قَرْيَةٍ وَرَقَّاصَةٌ تَحْثُو عَلَى كُلِّ مَبْسَمِ

~فَإِنْ كُنْتَ نَدْمَانِي فَبِالأَكْبَرِ اسْقِنِي وَلَا تَسْقِنِي بِالأَصْغَرِ الْمُتَثَلَّمِ

~لعل أَمِيرَ الْمؤمنين يَسُوؤُهُ تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

(135/573)

فلما بلغ ذلك أميرَ المؤمنين عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : إي والله ! إنه ليسوؤني بذلك . ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته ، وكتب إليه عمر : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ . أما بعد فقد بلغني قولك :

~لعل أَمِيرَ المؤمنين يَسُوؤُهُ تَنَادُمُنَا بِالْجَوْسَقِ الْمُتَهَدِّمِ

وأيم الله ! إنه ليسوؤني ذلك . وقد عزلتك .

فلما قدم على عمر . بكّته بهذا الشعر . وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ! ما شربتها قط وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر : أظن ذلك . ولكن ، والله ! لا تعمل لي عملاً أبداً ، وقد قلتَ ما قلتَ .

فلم يذكر أنه حدّه على الشراب ، وقد ضمنه شعره . لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولكن ذمّه عمر ولامه على ذلك وعزله به .

وحكى الزمخشريّ عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

~فَبِتْنَ بِجَانِبَيَّ مُصَرَّعَاتٍ وَبِتُّ أَفُضُّ أَغْلاقَ الْخِتَامِ

فقال : وقد وجب عليك الحدّ . فقال : يا أمير المؤمنين ! قد درأ الله عني الحدّ بقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين ، بقوله :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً ﴾ أي : في شعرهم ، بأن كان غالبه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والآداب الحسنة : ﴿ وَانْتَصَرُوا ﴾ أي : بشعرهم على عدوّهم بأن هجوه : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ أي : فكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ، جزاءً وفاقاً . قال الله : ﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ ﴾ [النساء : 148] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 194] .

قال ابن كثير : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان : < اهجهم ، أو قال هاجهم ، وجبريل معك > ويروي الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن الله عزّ وجلّ قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : < إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذي نفسي بيده ! لكأن ما ترمونهم به نضح النبل > .

تنبيهات :

الأول : قال في " الإكليل " : في قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ الآية ، ذم الشعر ، والمبالغة في المدح والهجو وغيرهما من فنونه ، وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم ، انتصاراً . انتهى .

وحكى الزمخشريّ عن عَمْرو بن عبيد ، أن رجلاً من العلوية قال له : إن صدري ليجيش

بالشعر . فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، محسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام .

(137/573)

الثاني : ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال : أنتم .

قال ابن كثير : لكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار ؟ وفي ذلك نظر . ولم يرو فيه إلا مرسلات لا يعتمد عليها . والله أعلم . ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً ، في مقابلة ما تقدم من الكلام السيِّء . فإن الحسنات يذهبن السيئات . وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه . كما قال : عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، لما أسلم :

يا رسولَ المليكِ إنّ لساني رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ ، إذْ أنَا بُورُ

~إِذْ أُجاري الشيطانَ في سَنَنِ الغَيّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبيّ صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمّه وأكثرهم له هجواً . فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى . وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أي : مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد ، لما في سيعلم من تهويل متعلقه . وفي الذين ظلموا من إطلاقه وتعميمه . وفي أي : منقلب ينقلبون من إبهامه وتهويله . كأنه لا يمكن معرفته ، وقد رأوا ما حاق بهم في الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 499. 504 ﴾

(138/573)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

أي دع هؤلاء المتأبين عليك من أهلك وعشيرتك ، وما هم فيه من شرك ، وتوكل على الله

وحده ، فهو الذي يشد أزرك ، ويمدك بأمداد القوة والعزة ، فهو « العزيز » الذي من اعتز به عزّ « الرحيم » الذي يلقاك برحمته ، ولا يدعك لأيدى الباغين والسفهاء من قومك . .

وفي قوله تعالى : « الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ »

ـ تأكيد لرعاية اللّه سبحانه وتعالى للنبى ، وإحاطته بعزته ورحمته . . فاللّه سبحانه وتعالى يراه ، ويطلع على كل حال منه ، فى سر وجهر ، وفي نوم ويقظة . . وخصّت الرؤية بحال القيام ، لأنها أشرف الأحوال ، التي يحبّ النبي أن يراه اللّه عليها ، وهو حال قيامه بين يدى ربه للصلاة .

وقوله تعالى : « وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ » ـ معطوف على الكاف في « يراك » أي يراك في قيامك ، ويرى تقلبك في الساجدين . .

وتقلّب النبي في الساجدين ، هو لقاء المؤمنين في الصلاة . وترديد نظره فيهم ، وملاحظة كل منهم ، وإعطاؤه حظّه من عنايته ورعايته . . وخصت حال السجود من أحوال المؤمنين ، لأنها الحال التي تقربهم من الرسول ، هذا القرب ، وتنزلهم منه تلك المنزلة . .

هذا ما نحب أن نفهم الآية الكريمة عليه . . أما ما يذهب إليه كثير من المفسرين من أن المراد بتقلّب النبي في الساجدين ، هو تنقله من الأصلاب الزّاكية إلى الأرحام الطاهرة ، منذ آدم ، إلى مولده ، صلوات اللّه وسلامه عليه . . فهذا لا يزيد من شرف النبي ، إن صحّ ، ولا ينقص من قدره ، إن لم يصح . . فإن شرفه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ في ذاته ، وفيما اختصه اللّه به من فضله وإحسانه .

وقد تحدث القرآن ، عن إبراهيم ، خليل الرحمن ، وأبى الأنبياء ، بما يدمغ أباه بالكفر ، وبعداوته للّه . . كما تحدث عن ابن نوح عليه السلام ، بأنه من الذين حق عليهم العذاب !

وفي هذا ما يقطع بأن الأنساب لا شأن لها فيما يريد اللّه بعباده من خير وإحسان ، أو ما يرميهم به من بلاء وهلاك . . !

وفي قوله تعالى : « إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ـ تأكيد لرعاية اللّه سبحانه وتعالى ، للنبى ، وملاحظته له ، وأنه في ضمان ربّ عزيز رحيم ، سميع عليم . .

الآيات : (221 ـ 227) [سورة الشعراء (26) : الآيات 221 الى 227]

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً

وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

التفسير :

قوله تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ » .

هو توكيد للنفى الوارد في قوله تعالى : « وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ » . .

(140/573)

فهذا النفي كان ردا على التهم التي يرمى بها المشركون النبي صلّى اللّه عليه وآله من مخالطة الشياطين له ، وتآخيهم معه ، وأن معه رئيّا منهم يلقى إليه بهذه المقولات التي يحدثهم بها . . فقد كان من تصورات الجاهليين ، أن الشياطين والجن يخالطون بعض الناس ، ويعيشون معهم ، وأن الشعراء خاصة هم أقرب الناس إلى هذا العالم الخفي ، وأكثرهم اتصالا به ، وأن مع كل شاعر فحل ، شيطانا ، ينظم له الشعر . . وفي تاريخ الأدب العربي كثير من الشعر الذي ينسب إلى الجن ، إذ لم يعلم له قائل . . ومن هذا ما يروى من الشعر في حديث الهجرة وما كان من نزول الرسول - صلى اللّه عليه وآله - وصاحبه أبى بكر ، بأمّ معبد . .

ومما يروى من هذا الشعر ، قولهم :

جزى اللّه ربّ الناس خير جزائه رفيقين حلّا خيمتى أم معبد

هما نزلا بالبرّ ثم ترحلا فأفلح من أمسى رفيق محمد

ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

ومن هذا أيضا ، ذلك الشعر الذي قيل إن الجن رثت به أبا بكر . .

ومثله هذا الشعر الذي ينسب إلى الجن في رثاء عمر . . وغير ذلك كثير ، يمكن أن يجتمع منه ديوان كامل . .

فقوله تعالى : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » هو عزل للقرآن الكريم ، عن أن يكون من تلك المصادر التي يتلقى منها الشعراء شعرهم ، كما يزعم العرب . . ثم إن قوله تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » . هو عزل للرسول الكريم ، عن أن يكون على شاكلة هؤلاء الشعراء الذين يأخذون شعرهم عن الشياطين ، كما يزعمون .

فالقرآن الكريم ، فى علوه الذي لا ينال ، أبعد من أن يدخل في وهم الشياطين أن يتطلعوا إليه ، وأن يطوفوا بحرمه . . ثم على فرض أنهم أرادوا ذلك . تطاولا وسفها . فإنهم لن يبلغوا من هذا مأربا . .

(141/573)

وقد تحدى القرآن الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، فقال تعالى :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » (88 : الإسراء) فما لهم لا يتصلون بالجن ، ويأخذون عنهم مثل ما أخذ النبي ؟

وشأن الرسول في هذا شأن القرآن ، فهو في مقام عال ، وفي حراسة من طهره ، وسموه ، من أن تلمّ به الأرواح الخبيثة ، أو تتعامل معه . . لبعد ما بينها وبينه ، وللاختلاف الشديد الذي بين طبيعتها وطبيعته . .

إن الشياطين ، إنما تتنزل ، وتتعامل مع أقرب الناس شبها بها ، وأكثرهم تجاوبا معها ، فى الاتجاه إلى غايات الشر ، ومواقع الضلال . . « تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ » . . فهذا هو متنزل الشياطين ومهبط وحيهم . . أن يتنزّلوا على أهل الإفك والإثم ، وعلى من يتعامل بالإفك والإثم ، الذي هو كل بضاعتهم . . وفي هذا يقول اللّه تعالى : « وَإِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ » (121 : الأنعام) والأفّاك : كثير الإفك ، وهو افتراء الأحاديث واختلاقها ونسجها من خيوط الباطل والبهتان . .

والأثيم : كثير الإثم ، وهو المقرف للآثام والمنكرات ، دون تحرّج أو تأثّم . .

وإذن ، فالقرآن - فى ذاته - بمعزل عن الشياطين ، لا يدنون منه ، ولا يطوفون بحرمه .

والنبيّ - فى ذاته - على طبيعة من الصفاء والنّقاء والطهر ، لا يقترب منها الشيطان ، الذي

هو طبيعة خبيثة قذرة ، لا تميل إلا إلى الخبث والقذر . .

شأن الذباب الذي يتهافت على الأقذار ، ويتجنب كل نظيف طاهر ! وإذن ، فإن ما يتحدث به الرسول لن يكون من تلقيات الشياطين أبدا ، سواء أكان ما يتحدث به منسوبا إلى السماء ، أو منسوبا إليه .

(142/573)

قوله تعالى : « يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » .

الضمير فى « يلقون » يعود إلى الشياطين . . والمراد بإلقائهم السّمع ، أنهم يتجهون بأسماعهم إلى الملأ الأعلى ، ليسترقوا السّمع ، ويتحسّسوا ما يكون من أنباء عن العالم الأرضى هناك . . حتى إذا وقع لهم شىء من ذلك ألقوا به إلى أوليائهم من الإنس ، ليضلّوهم ، ويجعلوا منهم صنائع لهم . .

وقد كان الشياطين يفعلون ذلك قبل نزول القرآن ، فيقع لهم شىء من بعض أخبار السماء ، فيحدّثون به أولياءهم ، حديثا مختلطا ، يجمع بين الصدق والكذب ، والحق ، والباطل ، وفي هذا يقول اللّه تعالى على لسان الجنّ ، « وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً » (9 : الجن) .

وقوله تعالى : « وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » جملة حالية من الضمير فى « يلقون » أي أن أكثر هؤلاء الشياطين الذين يتسمعون إلى أخبار السماء ، كاذبون فيما يلقون إلى أوليائهم من الناس من أخبار ، فالمستمع إليهم ، والمتلقى عنهم ضالّ ، ومضلّ لغيره ، إذ يقع في يقينه أن ما سمعه هو الصدق كلّه ، فيأخذ به جميعه ، فتسوء العاقبة ، وينكشف الحال عما يجلب الحسرة والندم . .

والسؤال هنا : إذا كان أكثر الذين يتسمعون إلى أخبار السماء كاذبين ، فهل هناك قلّة منهم لا تتصف بهذه الصفة ؟

والجواب : نعم ، فإنّ من الجن ، مؤمنين صادقى الإيمان ، يتحرّون الصّدق ، ويلزمون أنفسهم به ، شأنهم في هذا شأن المؤمنين الصادقين من الناس . .

(143/573)

قوله تعالى : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » .

هو تأكيد لبعد النبيّ صلوات اللّه وسلامه عليه ، عن أن يكون على أية صلة قريبة أو بعيدة من الشياطين ، وما يتنزلون به على أوليائهم . إنهم لا يتنزلون إلا على كل أفّاك أثيم . . وقد

عرفت قريش فى « محمد » ما لم تعرفه في إنسان

قط ، من صدق الحديث ، واستقامة السلوك ، وطهارة النفس ، حتى لقد كانت تلقّبه قبل البعثة بالصادق الأمين .

وإذا كانت قريش ، وكان الجاهليون عموما ، يزعمون أن الشعراء ، يتلقون أشعارهم مما يوحيه إليهم شياطينهم ، فإن محمدا ليس شاعرا ، لا بالقوة ولا بالفعل .

فمحمد لم يقل شعرا في حياته أبدا . . لا قبل البعثة ولا بعدها .

ومحمد ليس من طبيعته أن يكون شاعرا ، كما عرفت قريش من حياته معها ، ومعاشرتها له ، واطلاعها على كل شأن من شئونه . . إذ كان في بيئة عارية ، لا يختفى فيها شىء عن أبصار الناس وسمعهم . .

فمحمد أبعد الناس عن أن يكون شاعرا ، بطبعه ، أو بلسانه . . وهذا الكلام الذي يحدّث الناس به ، ليس من واردات الشعر ، سواء أكانت نسبته إلى السماء . أم إلى محمد نفسه . .

فالقول ، الذي تقوله قريش على محمد بأنه شاعر ، كما يقول اللّه سبحانه وتعالى عنهم : « أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ » (30 : الطور) وكما يقول جلّ شأنه : « بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ . . بَلْ هُوَ شاعِرٌ . . فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » (5 :

الأنبياء) ـ هذا القول الذي تقوله قريش ـ ساقط ، يكذّبه الواقع الذي تعرفه قريش ، وتستيقنه من أمر محمد . .

(144/573)

وفي هذا يقول الحق جلّ وعلا : « وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ ، وَما يَنْبَغِي لَهُ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » (69 : يس) وفي قول تعالى : « وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ » . . إلفات لقريش ، إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمدا وآمنوا به ، وأنهم جميعا كانوا على حال من الاستقامة والقصد ، بحيث لا تميل بهم أنفسهم إلى جانب الشعراء ، ولا تهفو

طباعهم إلى أن يكونوا في موكبهم ، ومن بطانتهم ، أو شيعتهم . . وفي هذا دليل مادى آخر ، على أن محمدا ليس بشاعر ، وأن ما يحدّث به ليس من قبيل الشعر ، وإلا لكان أتباعه من الشعراء . . لسانا ، وطبيعة . . فالشعراء إنما ينضوى إليهم من كان على شاكلتهم ، من أهل الغواية ، والبطالة . .

وقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ » . . هو بيان للصفة الغالبة على الشعراء ، وأنهم لا يلتزمون الواقع ، ولا يتحرّون الصدق ، وذلك لما في طبيعة الشاعر من توفّز الشعور ، وجموح الخيال ، وتقلّب العاطفة . .

فيخرج به ذلك كله عن أن يرى الأمور على حقيقتها ، بل يلونها بخياله ، ويصفيها بمشاعره ، ويتعامل معها كما تقع في وجدانه . . ومن هنا جاء القول المشهور : « أعذب الشعر أكذبه » . . كاشفا عن الصفة الغالبة على الشعر ، وهو الخيال لذى يلوّن الحقيقة ، ويضع عليها من الأصباغ ما يغير وجهها ، فيبدو القبيح جميلا ، والجميل قبيحا ، كما تفعل الأصباغ والألوان التي تلوّن بها وجوه الممثلين ، والثياب التي يلبسونها ، والشّعر المستعار لرءوسهم ، ولحياهم . كما يفعل ذلك كله في إخفاء شخصية الممثل ، وإظهاره في الصورة التي يقتضيها الدور الذي يقوم به على مسرح التمثيل . .

(145/573)

قوله تعالى : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ » . . هو بيان لحال من تلك الأحوال التي تلبس الشعراء التي أشارت التي إليها الآية السابقة :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ » . . إذا أن من مقتضى هيامهم في كل واد ، أنهم لا يستقرون على حال ، ولا يثبتون على رأى ، ولا يتقيدون بأى قيد . .

ومن القيود التي يتقيد بها الناس . غير الشعراء . قيد الكلمة ، وإخراجها من حيّز الكلام إلى عالم الواقع . . أما أن يرسل المرء الكلام هكذا ، من غير أن يكون هذا الكلام صادرا عن

إحساس به ، وتصور له فى صورة عمل يعمله الإنسان ، وسلوك يعيش به في الناس ، فهو من غير الشعراء ، كذب ونفاق ، ثم هو من الشعراء خيال ، هو من مستلزمات هذا الضرب من الكلام ، الذي لا يطلب منه الناس الحقيقة عارية ، وإنما يروقهم أن يروها في هذا الجوّ الشاعريّ الحالم ! ! يروى أن عبد الملك بن مروان سمع الفرزدق الشاعر ، وهو ينشد بين يديه هذه الأبيات ، من قصيدة له :

ثلاث واثنتان فهنّ خمس وواحدة تميل إلى شمام

فبتن بجانبيّ مصرّعات وبتّ أفض أغلاق الختام

فقال عبد الملك ، يا فرزدق ، قد أوجبت عليك حدّ الزنا ، ولا بدّ من رجمك ، فقال وبم أوجبت عليّ الحدّ يا أمير المؤمنين ؟ قال بكتاب اللّه . . قال فإن كتاب اللّه يدرأ عنى الحدّ ! قال وكيف ؟ قال فإن اللّه سبحانه وتعالى يقول في الشعراء : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ » وأنا هنا شاعر ، وقد قلت ما لم أفعله ! هكذا يرى الشاعر نفسه ، وكهذا ينبغى أن يراه الناس !

(146/573)

قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » . هو استثناء من الحكم العام الذي أوقعته الآيات الثلاث السابقة ، على الشعراء . . ووصفتهم بتلك الصفة الغالبة عليهم ، وهي أنهم غواة يتبعهم الغاوون لأنهم يهيمون فى كل واد من أودية الخيال ، والضلال ، وأنهم يقولون ولا يلتزمون بما يقولون .

فهذه هي الصفات الغالبة على أكثر الشعراء ، ولكن من الشعراء من غلبت طبيعتهم شياطين الشعر ، وقهرت النوازع التي تحركها فيهم هذه الشياطين ، فكان لهم من خلقهم ، عاصم يعصمهم من الانزلاق في مهاترات الشعراء ، ولهوهم ومجونهم ، قولا ، وفعلا . . وليس هنا عاصم يعصم الإنسان من المزالق والعثرات ، مثل الإيمان بالله ، والتمسك بآداب الدين وأحكامه . . حيث يجد الإنسان من دينه وازعا يزعه عن الشر ، ويمسك لسانه عن الفحش والهجر . .

فالذين آمنوا بالله ، وذكروا الله كثيرا ، أي استحضروا دائما جلاله وعظمته . . هم - وإن كانوا شعراء - مستثنون من تلك الأوصاف التي وصف بها عامة الشعراء ، لأنهم ليسوا غواة ولا دعاة إلى غواية . ولأنهم لا يقولون إلا ما يفعلون . . فلا كذب . ولا نفاق . . حيث لا يجتمع الإيمان وذكر الله كثيرا ، مع شىء من هذا الضلال . .

وفي قوله تعالى : « وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا » . . إشارة إلى ما يكون من الشعراء المسلمين ، إذا حاربهم المشركون بالشعر ، وسلقوهم منه بألسنة حداد . . فماذا يكون عليه موقف الشعراء المسلمين هنا ؟ أ يسكتون على هؤلاء الذين يرمونهم بهذه الطعنات المسمومة القاتلة من شعر الهجاء ، الذي يشيع على ألسنة الناس ، ويصبح حديث المحافل ، وسمر السمار ، وحداء الحداة ، ونشيد الرعاة والصبيان ؟ وكيف وفي أيديهم السلاح الذي يفلّ هذه الأسلحة ، ويخرس تلك الأفواه التي تنفث هذه السموم ؟ ومن أجل هذا فقد أذن اللّه سبحانه للشعراء المسلمين أن يدفعوا عن أنفسهم هذا الشرّ بالشرّ ، وأن يضربوا الشعر بالشعر . . انتصارا من ظلم ، وردعا للظالمين . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ » (148 : النساء) ويقول سبحانه : « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ ، فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ » (41 : الشورى) .

وفي قوله تعالى : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » . . تهديد لهؤلاء الشعراء من المشركين ، الذين يعتدون بشعرهم الآثم على الناس ، ويمزّقون الحرمات ، ويهتكون الأعراض . . ثم هو من جهة أخرى . تحذير لشعراء المسلمين من أن يعتدوا ويظلموا ، وأن يجاوزوا الحدّ الذي يأخذون فيه بحقّهم ، واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » (190 : البقرة) وقد فهم كثير من الناس - ومن المسلمين - نظرة الإسلام إلى الشعر ، وإلى الفنون عامة ، فهما خاطئا ، إذ أخذوا بظاهر النصّ القرآنى ، ولم ينفذوا إلى شىء من وراء هذا الظاهر ، الأمر الذي يدعونا إلى أن نقف وقفة قصيرة عند هذه القضية ، قضية الشعر ، وموقف الإسلام منه .

(148/573)

(الشعر . . ونظرة الإسلام إليه)

الشعر طبيعة في الإنسان ، وهو فن من الفنون الإنسانية الجميلة ، وليس هناك أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات ، لم يكن الشعر أداة من أدوات التعبير الجارية على لسانها . . والأمة العربية ، بخاصة - كان الشعر إدام حياتها في هذه الحياة القاسية المجدبة ، التي كانت تعيش فيها قبل الإسلام . . . كما سنعرض لذلك بعد قليل - وإذا كان الشعر على تلك الصفة في حياة الناس ، وفي حياة العرب بخاصة ، فإن الإسلام بسماحته وإنسانيته ، لا يمكن أن يقيم حظرا على هذا المتنفّس ، الذي تنطلق منه مشاعر الناس ، وتغرد على أوتار ألسنتهم بلا بله . . !

والذي كان من الإسلام هنا ، فى هذا الوصف الذي وصف به الشعراء ،

هو تخليص هذا الفن الجميل ، مما دخل عليه من تلك الألوان الصارخة من الفحش ، والهذر واللغو ، حتى تصفو موارده ، ويكون للكلمة الصادقة فيه ، وزنها وقدرها ، فى تربية النفوس ، وتقويم الأخلاق ، إذ كان للثوب الذي تلبسه الكلمة فى القالب الشعرى ، تأثير عظيم في كشف مضمونها ، وتجسيد محتواها ، حتى لتكاد تتمثل كائنا حيا ، يعيش في وجدان السامع ، ويتحرك في كيانه . .

(149/573)

ومن هنا كان موقف الإسلام من الشعر ، قائما على تقديره له ، ووزن خطره وأثره في النفوس ، وسلطانه على العقول والقلوب . . فإذا لم يقم على هذا الفن حارس من خلق أو دين ، كان قوة من قوى الشر المدمرة ، التي تأتى على كل صالحة في المجتمع ، الذي تتحرك فيه شياطين هذا الفن ! وهناك كلمة مضلّلة ، وبما أغرت كثيرا من الشعراء - أعنى صغار الرجال من الشعراء - أن يأخذوا بها ، وأن يتلقوا الدرس الأول عنها ، تلك الكلمة ، هى قولهم : « أعذب الشعر أكذبه » يعنون بهذا أن أجمل الشعر وأرقه ، ما اصطاد بشباك الخيال ، الغرائب والعجائب ، وموّه الحق والواقع ، بألوان وأصباغ ، تغير صورته ، وتطمس معالمه ، فيرى على غير ما هو . . ومن هنا كان التعامل بالصور التي يرسمها مثل هذا الشعر

، مزلقة إلى الضلال ، والانحراف عن قصد السبيل ! والحق ، أن الكذب هو الكذب . .

أيا كان الزي الذي يتزيا به . . فى الفنون والعلوم على السواء .

وفي المأثور : « ما كان الصدق فى شىء إلّا زانه ، وما كان الكذب في شىء إلا شانه » .

فكيف يزدان قول أو عمل ، يكون الزور لحمته والباطل سداه ؟

وإذن فأحق ما ينبغى أن يقال في الشعر - من حيث هو فن رفيع من الفنون الجميلة - أن يقال : « أعذب الشعر أصدقه » . . فبقدر ما يحمل الشعر من الصدق ، بقدر ما تكون عذوبته وحلاوته ، وبقدر ما يكون بهاؤه وجلاله . .

إن الحق - فى ذاته - مستغن عن الزيف والبهرج ، وفي غير حاجة إلى هذا الطلاء المموه ، من الزور والبهتان .

إن الفنون الرخيصة المبتذلة ، هى التي يتستر ضعفها وهزالها ، وراء هذا الطلاء الزائف ، من الزور والبهتان . .

(150/573)

أما الفنون الرفيعة العالية ، فهى لا تكون على هذا الوصف من العلوّ والرفعة ، إلا إذا كانت حقا خالصا ، وصدقا مصفّى وفي الأعمال الفنية المصوغة من الكلمة ، أو الحجر ، أو الوتر

، أو اللون ـ شاهد لهذا . . فما لبس ثوب الحقيقة منها ، فهو الخالد الذي يعيش في الإنسانية ، ويطلّ عليها من عليائه ، كما يطل شعاع الشمس في يوم قارس البرد ، لافح الزمهرير ، فينعش النفوس ، ويثير المشاعر ، ويحرك الهمم ، ويشد العزائم . . وعلى عكس هذا ، ما تزيا بالكذب والخداع من الفنون ، فإنما هو سراب خادع ، يلوح في العين ببريقه ، فيحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا .

فصدق الشاعر مع نفسه ، وإلزامها طريق الحق ـ أيا كان وقعه عليه ، وأثره فيه ـ يجعله يصدق مع الناس ، ومع الأشياء . . فإذا قال شعرا جاء شعره ممسكا بالصميم من الحق ، كاشفا عن أسرار هذا الوجود ، فى عوالمه الحية والجامدة ، على السواء . . فيحدّث عن دخائل النفس الإنسانية ، كما يحدث عن أحلام هذا الحجر الملقى في عرض الطريق !

والصدق لا ينزل إلا حيث النفوس العظيمة ، التي ، تتسع له ، وتحتمل تبعاته ، وتقدر على الوفاء به ، على المنشط والمكره . . أمّا صغار النفوس فإنها تضيق بكلمة الصدق ، وتضعف عن أن تحتملها . . إن طريقها لا تستقيم أبدا مع الطريق المستقيم . . تماما كالجبان يتحرك نحو ساحة القتال ، ولقاء الأبطال . . إنه يتقدم ويتأخر ، ويستقيم ويلتوى . . وهيهات أن يكون الثعلب والأسد على سواء . .

فى مواجهة الواقع وتحديه ! وهكذا نجد شاعرا من أصحاب النفوس الكبيرة ، كالمتنبى ، مثلا ، تحمله نفسه الكبيرة على أن يقف موقف النّدّ مع ممدوحه سيف الدولة ، أمير الدولة الحمدانية ، ولا يرضى أن يكون حاشية من حواشيه . . حتى إذا التقى بكافور صاحب مصر ، نظر إليه من سماء عالية ، ولم يستطع أن يكتم ما بنفسه ، من مشاعر العظمة لذاته ، والإحقار لكافور ، فيظهر ذلك في كل شعر قاله فيه . . ومن هنا لم يلتقيا على طريق ، فافترقا من أول لقاء ! وأكثر من هذا . .

فإن المتنبي ، أبى عليه صدقه مع نفسه ، أن يلتزم ما التزمه الشعر العربي من مطالع الغزل في كل قصيدة ، مدحا كانت ، أو ذما ، أو رثاء . . فصرخ من أعماقه تلك الصرخة المدوية ، التي رمى بها في وجه هذا الغزل المصطنع ، وقال :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم ؟ أكل فصيح قال شعرا متيّم ؟

بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا ، فلم يرتض من أسلوب الحياة إلّا ما كان صميم الحياة ذاتها ، ومن واقعها البعيد عن الصنعة والدّخل ، حتى إنه ليعيب المرأة المتجمّلة بغير جمال الفطرة ، الأمر الذي يكاد يكون طبيعة فى بنات حواء . . فيقول :

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

والمتنبي في هذا ، لا يقول ما لا يفعل ، كما هو الشأن الغالب في الشعراء الذين قال اللّه سبحانه وتعالى فيهم : « وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ » . . بل إنه ليأخذ نفسه بالصدق قولا وعملا ، وإنه ليأبى - مثلا - أن يغيّر لون شعره ، حين نسخ الشيب سواده . . فيقول :

ومن هوى الصّدق في قولى وعادته رغبت عن شعر في الرأس مكذوب

(152/573)

وقل مثل هذا ، فى « أبى العلاء المعرّى » الذي وقف أمّة وحده من الناس ، ومن الدهر ، موقف التحدّى ، قولا ، وعملا ، فأعلنها حربا مشبوبة الأوار ، على كل ما لم يقبله عقله ، أو تستسغه نفسه ، من آراء ومعتقدات ، وعادات ، حتى إذا وجد الحياة كلها حربا عليه ، انسحب إلى بيته ، أو محبسه ، وأغلق عليه بابه ، وأخذ يرمى الناس والحياة برجوم وصواعق ، لا تزال منطلقة إلى اليوم ، تدور في كل مدار ، وتصدم أو تصطدم بكل ما يعوقها ، أو يعترض طريقها .

نقول هذا ، لنصحح هذا الخطأ الذي وقع فيه كثير من الدارسين للأدب العربي ، الذين نسبوا إلى الدعوة الإسلامية ، أنها أصابت الشعر العربي في الصميم من حياته ، وأنها دمغت الشعراء بهذا الوصف الذي يخرجهم من دائرة الإسلام ، وينأى بهم بعيدا عن المثل

الفاضلة ، التي يتمثلها الإسلام في أهله . ! أليس القرآن الكريم يقول في الشعراء : « وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ؟ » فأى مسلم حريص على سلامة دينه يرضى لنفسه أن يكون من زمرة الشعراء ؟ وعلى هذا فقد حبس كثير من المسلمين في صدر الإسلام ، ملكة الشعر التي كانت تغرد في صدورهم ، ومن كان منهم شاعرا في الجاهلية ، أمسك عن قول الشعر جملة في الإسلام ، ويضربون لهذا مثلا ، بالشاعر لبيد ، أحد أصحاب المعلقات ، ويحكون أنه لم يقل بيتا من الشعر ، منذ أن دخل في الإسلام . .

هذا وكثير غيره مما يقال ، فى موقف الإسلام من الشعر والشعراء . .

وهو - فى رأينا - قول يخالف الحقيقة ويظلم الإسلام بتلك التهمة ! .

فالقرآن الكريم . بأسلوبه المبين المعجز ، هو الذي رفع قدر الكلمة العربية ، وجعل للبيان العربي هذه المكانة العالية الرفيعة ، حتى ليكاد يكون معجزة ، لا يلقاه في ميدان الإعجاز ، إلا كلمات الله ، متحدية ، قاهرة . .

والشعر العربي ، هو مجلى اللغة العربية ، ومظهر بيانها ، وشاهد بلاغتها . .

فكيف يجيء القرآن الكريم ، ليقتل هذا الشاهد الوحيد ، الذي ينطق بإعجازه ، ويحكى عن وجه الإعجاز فيه ؟ وإذا مات هذا الشعر العربي ، أو اختفى من الميدان ، فمن أين يعرف للقرآن الكريم ، إعجازه ، ومن أين يؤخذ الدليل على مواقع الإعجاز فيه ؟

إن القرآن الكريم ، إذا وقف وحده في الميدان ، فكيف يستدلّ على إعجازه ؟ وبم يبين فضله على غيره من الكلام ، وليس ثمة كلام غيره ؟ .

وندع هذا ، لنقول : إن الإسلام لم يكن له موقف من الشعر العربي ، من حيث هو شعر ، وإنما كان موقفه هذا ، من الشعر الذي غلب عليه الكذب ، والذي اتخذ منه أصحابه أسلحة لنهش الأعراض ، وفضح الحرائر ، وبهت الشرفاء والأمجاد من الناس ، وإلباسهم لباس الخزي والمذلة . . ببيت من الشعر ، يصير . مثلا في الناس . ويصبح المقول فيه أمثولة . . فلا تقوم له بعد ذلك قائمة ! ! فهذا هو الشعر الذي عابه الإسلام ، وأبى على المسلم أن يتخذ منه زادا له ، لأنه زاد خبيث ، تجتمع على مائدته الخبائث . . من كذب ، وبهتان ، وبغى وعدوان . . وكلها أطعمة يحرّمها الدين ، كما تأباها النفوس الطيبة ، التي لا تدين بدين ! .

أما ما طاب من الشعر ، وخلص من هذه الخبائث ، فإن الإسلام حفيّ به ، مكرم له ، احتفاءه بالكلمة الطيبة ، وإكرامه للقول الطيب .

ولقد سجل التاريخ الإسلامى ، للصحابة رضوان اللّه عليهم ، مواقف من الشعر الجاهلى ، تدل على تقديرهم له ، وحرصهم عليه ، بل وتعلقهم به ! .

فعمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ، كان يحفظ كثيرا من الشعر الجاهلى ، ينشره حينا ، ويستمع إليه أحيانا ، ويسأل الوفود القادمة عليه ، من قبائل العرب ، عن شعرائهم ، وعن أحسن ما عندهم من شعرهم . .

(154/573)

بل وأكثر من هذا ، فإن عمر رضى اللّه عنه - كان إذا حضره موقف من المواقف ، وهو يخطب على منبر رسول اللّه - صلى اللّه عليه وآله - واستدعى هذا الموقف شاهدا لمعنى من معانى القرآن الكريم ، فى بيت من الشعر - استمع إليه ، ووعاه ، وأخذ به ! .

روى أنه - رضى اللّه - قرأ . . وهو على المنبر - قول اللّه تعالى :

« أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » (47 : النحل) - فسئل عن معنى التخوف ، فقال ، وقيل له . . فقام رجل من هذيل ، فقال : التخوف عندنا : النقص . .

ثم أنشد :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السّفن « 1 »

فقال عمر : « أيها الناس . . تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم » .

وأمر ابن العباس - رضى الله عنه - فى موقفه من الشعر الجاهلى ، وحفظه له ، وإنشاده إياه في مسجد الرسول - أظهر من أن ينبه عليه ، فلقد كان صدره - رضوان الله عليه - خزانة هذا الشعر ، كما كان قلبه ، مستودع القرآن الكريم ، حفظا ، وعلما .

ونشكّ كثيرا في أن أحدا من الصحابة ، لم يلتفت إلى هذا الشعر ، ويتمثل به في موقف أو أكثر من موقف ! .

وكيف يعقل أن يكون الأمر في شأن الشعر على غير هذا ، وقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يرون الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يلتفت إلى الشعر ، ويلفت إليه ، وإن لم يكن شاعرا ، وما ينبغى له أن يكون ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » (69 : يس) . ذلك لأن في الشعر - كما قلنا - خيالا ، وفيه شطحات بعيدة مغربة عن الواقع . . وهذا ما لا يطوف منه طائف بآيات الله وكلماته . .

ولهذا جاء قوله تعالى تعقيبا على هذه الآية : « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

ولكن - مع هذا ، فإن في الشعر عيونا متخيرة من الحكمة . . ومن أجل هذا ، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه - يلتفت إلى الشعر ، ويلفت إليه

---

(1) هذا الشعر في وصف ناقة ، طالت بها الأسفار ، فنحل وبرها ، وهزل جسمها . .

والتامك : السنام . . والقرد : الذي تجعد شعره من الهزال والضعف والنبع : شجر القسي ، والسفن : أداة تنحت بها العصى ونحوها حتى تسوى وتصقل .

(155/573)

بل وأكثر من هذا ، فإن عمر رضى اللّه عنه ـ كان إذا حضره موقف من المواقف ، وهو يخطب على منبر رسول اللّه ـ صلى اللّه عليه وآله ـ واستدعى هذا الموقف شاهدا لمعنى من معانى القرآن الكريم ، فى بيت من الشعر ـ استمع إليه ، ووعاه ، وأخذ به ! .

روى أنه ـ رضى اللّه ـ قرأ . . وهو على المنبر ـ قول اللّه تعالى :

« أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ » (47 : النحل) ـ فسئل عن معنى التخوف ، فقال ، وقيل له . . فقام رجل من هذيل ، فقال : التخوف عندنا : النقص . .

ثم أنشد :

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السّفن « 1 »

فقال عمر : « أيها الناس . . تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم » .

وأمر ابن العباس ـ رضى اللّه عنه ـ فى موقفه من الشعر الجاهلى ، وحفظه له ، وإنشاده إياه

في مسجد الرسول - أظهر من أن ينبه عليه ، فلقد كان صدره - رضوان اللّه عليه - خزانة هذا الشعر ، كما كان قلبه ، مستودع القرآن الكريم ، حفظا ، وعلما .

ونشكّ كثيرا في أن أحدا من الصحابة ، لم يلتفت إلى هذا الشعر ، ويتمثل به في موقف أو أكثر من موقف ! .

وكيف بعقل أن يكون الأمر في شأن الشعر على غير هذا ، وقد كان الصحابة - رضوان اللّه عليهم - يرون الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - يلتفت إلى الشعر ، ويلفت إليه ، وإن لم يكن شاعرا ، وما ينبغى له أن يكون ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ » (69 : يس) . ذلك لأن في الشعر - كما قلنا - خيالا ، وفيه شطحات بعيدة مغربة عن الواقع . . وهذا ما لا يطوف منه طائف بآيات اللّه وكلماته . .

ولهذا جاء قوله تعالى تعقيبا على هذه الآية : « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

ولكن - مع هذا ، فإن في الشعر عيونا متخيرة من الحكمة . . ومن أجل هذا ، كان الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه - يلتفت إلى الشعر ، ويلفت إليه

---

(1) هذا الشعر في وصف ناقة ، طالت بها الأسفار ، فنحل وبرها ، وهزل جسمها . . والتامك : السنام . . والقرد : الذي تجعد شعره من الهزال والضعف والنبع : شجر القسي ، والسفن : أداة تنحت بها العصى ونحوها حتى تسوى وتصقل .

لغلتقط منه هذه الحكم ، وتؤخذ منه تلك الدرر ، من بين هذا الغثاء الكثير ، الذي كان يحمله هذا السيل المتدفق من الشعر ! يروى عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ أنها كانت تقول : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ، كثيرا ما يقول لى : « أبياتك » ! (أي أنشدى أبياتك المعهودة) .

تقول السيدة عائشة . . فأقول :

ارفع ضعيفك لا يحربنّك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما

يجزيك ، أو يثنى عليك ، وإنّ من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

ففى هذا الشعر الذي كان يستمع إليه الرسول الكريم ، دعوة كريمة من من دعوات البرّ ، التي دعا إليها الإسلام . . فلا غرابة في أن يهش الرسول ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ لسماعه ، والإصغاء إليه .

وروى الزبير بن بكار ، قال : مر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله ، ومعه أبو بكر رضى اللّه عنه ، برجل ، ينشد في بعض طرق مكة ، هذا البيت :

يا أيها الرجل المحول رحله هلّا نزلت بآل عبد الدار ؟

فقال ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ يا أبا بكر . . أ هكذا قال الشاعر ؟

قال لا ، يا رسول اللّه ، ولكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله هلّا نزلت بآل عبد مناف

فقال صلوات اللّه وسلامه عليه : « هكذا كنا نسمعها « 1 » » .

---

(1) أي القصيدة التي فيها هذا البيت ، ورويها حرف الفاء . . وبعد هذا البيت :

ثكلتك أمك لو نزلت بحيهم منعوك من عدم ومن إقراف

وأكثر من هذا ، فقد كان صلوات اللّه وسلامه عليه ، يستمع إلى الشعر ، ويجيز على الطيب العفيف منه ، كما استمع إلى قصيدة كعب بن زهير ، وكان ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ قد أهدر دمه . . فلما جاءه مستخفيا وأنشده قصيدته التي مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيّم إثرها ، لم يفد ، مكبول

والتي يقول فيها :

نبئت أن رسول اللّه أوعدنى والعذر عند رسول اللّه مقبول

هشّ النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ له ، وعفا عنه ، وخلع عليه بردته التي كان يلبسها

. . وأكثر من هذا فقد كان للنبى صلوات اللّه وسلامه عليه شعراء ، على رأسهم حسان ابن ثابت ، يردّون بشعرهم على شعراء المشركين ، ويلقونهم في ميدان القول ، كما كانوا يلقونهم في ميدان الحرب ، وكان ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ يقول لحسان : « اهجهم وروح القدس معك » ! ! فكيف يكون روح القدس (و هو جبريل عليه السلام) مع شاعر يقول هذا الشعر الهجائى ، ويطعن به في وجوه القوم وأعراضهم ؟ أليس ذلك لأنه سلاح من أسلحة الحرب ، وأنه بهذا السلاح إنما يقاتل المشركين بمثل أسلحتهم ؟

ولهذا جاء قوله تعالى معقبا على آية الشعراء . . « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا » .

إن لكل مقام مقالا . . وإذا كان هذا المقام ـ فى حرب المشركين ـ يقتضى أن يكون لشعر الهجاء مكانه ، فإن للشعر في مقام الخير ، والإحسان ، مكانا أوسع وأرحب ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 10 صـ 185 . 204 ﴾

(158/573)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) ﴾

وعطف الأمر بالتوكل بفاء التفريع في قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر فيكون تفريعاً على : ﴿ فقل إني بريء مما تعملون ﴾ [الشعراء : 216] تنبيهاً على المبادرة بالعوذ من شر أولئك الأعداء وتنصيصاً على اتصال التوكل بقوله : ﴿ إني بريء ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ وتَوكل ﴾ بالواو وهو عطف على جواب الشرط ، أي قل : إني بريء وتوكل ، وعطفه على الجواب يقتضي تسببه على الشرط كتسبب الجواب وهو يستلزم البدار به ، فمآل القراءتين واحد وإن اختلف طريق انتزاعه .

والمعنى : فإن عصاك أهل عشيرتك فتبرأ منهم .

ولما كان التبرؤ يؤذن بحدوث مجافاة وعداوة بينه وبينهم ثبّت الله جأش رسوله بأن لا يعبأ بهم وأن يتوكل على ربه فهو كافيه كما قال : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ [الطلاق : 3] .

وعلق التوكل بالاسمين ﴿ العزيز الرحيم ﴾ وما تبعهما من الوصف بالموصول وما ذيل به من الإيماء إلى أنه يُلاحظ قوله ويعلم نيتَه ، إشارة إلى أن التوكل على الله يأتي بما أومأت إليه هذه الصفات ومستتبعاتها بوصف ﴿ العزيز الرحيم ﴾ للإشارة إلى أنه بعزته قادر على تغلبه على عدوّه الذي هو أقوى منه ، وأنه برحمته يعصمه منهم .

وقد لوحظ هذان الاسمان غير مرة في هذه السورة لهذا الاعتبار كما تقدم .

والتوكل : تفويض المرء أمره إلى من يكفيه مهمه ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فإذا

عزمت فتوكّل على الله ﴾ في سورة آل عمران (159) .

ووصفه تعالى : بـ ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ مقصود به لازم معناه .

وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بمحل العناية منه لأنه يعلم توجهه إلى الله ويقبل ذلك منه ، فالمراد من قوله : ﴿ يَراك ﴾ رؤيةٌ خاصة وهي رؤية الإقبال والتقبل كقوله : ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] .

(159/573)

والقيام : الصلاة في جوف الليل ، غلب هذا الاسم عليه في اصطلاح القرآن ، والتقلب في الساجدين هو صلاته في جماعات المسلمين في مسجده .

وهذا يجمع معنى العناية بالمسلمين تبعاً للعناية برسولهم ، فهذا من بركته صلى الله عليه وسلم وقد جمعها هذا التركيب العجيب الإيجاز .

وفي هذه الآية ذكر صلاة الجماعة .

قال مقاتل لأبي حنيفة : هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن ؟ فقال أبو حنيفة : لا يحضرني فتلاَ مقاتل هذه الآية .

وموقع ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ موقع التعليل للأمر بـ ﴿ فقل إني بريء مما تعملون ﴾ [

الشعراء : 216] ، وللأمر بـ ﴿ توكل على العزيز الرحيم ﴾ ، فصفة ﴿ السميع ﴾ مناسبة للقول ، وصفة ﴿ العليم ﴾ مناسبة للتوكل ، أي أنه يسمع قولك ويعلم عزمك .

وضمير الفصل في قوله : ﴿ هو السميع العليم ﴾ للتقوية .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221)

لما سفَّه قولهم في القرآن : إنه قول كاهن ، فرد عليهم بقوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ [الشعراء : 210] وأنه لا ينبغي للشياطين ولا يستطيعون مثله ، وأنهم حيل بينهم وبين أخبار أوليائهم ، عاد الكلام إلى وصف حال كهانهم ليعلم أن الذي رَمَوا به القرآن لا ينبغي أن يلتبس بحال أوليائهم .

فالجملة متصلة في المعنى بجملة : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ [الشعراء : 210] ، أي ما تنزّلت الشياطين بالقرآن على محمد ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ .

وألقي الكلام إليهم في صورة استفهامهم عن أن يُعرِّفهم بمن تتنزل عليه الشياطين ، استفهاماً فيه تعريض بأن المستفهم عنه مما يسوءهم لذلك ويحتاج فيه إلى إذنهم بكشفه .

وهذا الاستفهام صوري مستعمل كناية عن كون الخبر مما يستأذن في الإخبار به .

(160/573)

واختير له حرف الاستفهام الدال على التحقيق وهو ﴿ هل ﴾ لأن هل في الاستفهام بمعنى (قد) والاستفهام مقدّر فيها بهمزة الاستفهام ، فالمعنى : أنبئكم إنباءً ثابتاً محققاً وهو استفهام لا يترقب منه جواب المستفهَم لأنه ليس بحقيقي فلذلك يعقبه الإفضاء بما استفهم عنه قبل الإذن من السامع .

ونظيره في الجواب قوله تعالى : ﴿ عَمّ يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ [النبأ : 1 ، 2] وإن كان بين الاستفهامين فرق .

وفعل ﴿ أنبئكم ﴾ معلق عن العمل بالاستفهام في قوله : ﴿ على من تنزل الشياطين ﴾ .

وهو أيضاً استفهام صوري معناه الخبر كناية عن أهمية الخبر بحيث إنه مما يستفهم عنه المتحسِّسون ويتطلبونه ، فالاستفهام من لوازم الاهتمام .

والمجرور مقدم على عامله للاهتمام بالمتنزَّل عليه ، وأصل التركيب : من تنزَّل عليه الشياطين ، فلما قدم المجرور دخل حرف ﴿ على ﴾ على اسم الاستفهام وهو ﴿ مَن ﴾ لأن ما صُدِّرَ هو المتنزّل عليه ، ولا يعكر عليه أن المتعارف أن يكون الاستفهام في صدر الكلام ، لأن أسماء الاستفهام تضمنت معنى الإسمية وهو أصلها ، وتضمنت معنى همزة الاستفهام كما تضمنته ﴿ هل ﴾ ، فإذا لزم مجيء حرف الجر مع أسماء الاستفهام ترجح فيها جانب الإسمية فدخل الحرف عليها ولم تُقدّم هي عليه ، فلذلك تقول : أعلى زيد مررتَ ؟ ولا تقول : مَن عَلى مررت ؟ وإنما تقول : على من مررت ؟ وكذا في بقية

أسماء الاستفهام نحو ﴿ عمّ يتساءلون ﴾ [النبأ : 1] ، ﴿ مِنْ أي شيء خلقه ﴾ [عبس : 18] ، وقولهم : عَلاَم ، وإلام ، وحتّام ، و ﴿ فيمَ أنت من ذكراها ﴾ [النازعات : 43] .

وأجيب الاستفهام هنا بقوله : ﴿ تنزل على كل أفاكٍ أثيم ﴾ .

و ﴿ كل ﴾ هنا مستعملة في معنى التكثير ، أي على كثير من الأفّاكين وهم الكهان ، قال النابغة:

وكُلِّ صَموت نثلة تُبَّعيَّةٍ . . .

ونَسج سُلَيْم كُلَّ قمصاءَ ذائِل

والأفاك كثير الإفك ، أي الكذب ، والأثيم كثير الإثم .

(161/573)

وإنما كان الكاهن أثيماً لأنه يضم إلى كذبه تضليل الناس بتمويه أنه لا يقول إلا صدقاً ، وأنه يتلقى الخبر من الشياطين التي تأتيه بخبر السماء .

وجُعل للشياطين ﴿ تنزّل ﴾ لأن اتصالها بنفوس الكهان يكون بتسلسل تموجات في الأجواء العليا كما تقدم في سُورة الحجر .

و﴿ يُلقون السمع ﴾ صفة ل ﴿ كلِّ أفاك أثيم ﴾ ، أي يظهرون أنهم يُلقون أسماعهم عند مشاهدة كواكب لتتنزل عليهم شياطينهم بالخبر ، وذلك من إفكهم وإثمهم .

وإلقاء السمع : هو شدة الإصغاء حتى كأنه إلقاءٌ للسمع من موضعه ، شبه توجيه حاسة السمع إلى المسموع الخفي بإلقاء الحجر من اليد إلى الأرض أو في الهواء قال تعالى : ﴿ أو ألقَى السمع وهو شهيد ﴾ [ق : 37] ، أي أبلغ في الإصغاء لِيَعِيَ ما يُقال له .

وهذا كما أطلق عليه إصغاء ، أي إمالة السمع إلى المسموع .

وقوله : ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ أي أكثر هؤلاء الأفاكين كاذبون فيما يزعمون أنهم تلقوه من الشياطين وهم لم يتلقوا منها شيئاً ، أي وبعضهم يتلقى شيئاً قليلاً من الشياطين فيكذب عليه أضعافه .

ففي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكهان فقال : " ليسوُا بشيء " قيل : يا رسول الله فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً .

فقال : " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجِنيّ فَيَقَرُّها في أذُن وليه قَرَّ الدَّجاجة فيخلطون عليها أكثر من مائة كذبة " فهم أفّاكون وهم متفاوتون في الكذب فمنهم أفاكون فيما يزيدونه على خبر الجن ، ومنهم أفّاكون في أصل تلقي شيء من الجن ، ولما كان حال الكهان قد يلتبس على ضعفاء العقول ببعض أحوال النبوءة في الإخبار عن غيب ، وأسجاعهم قد تلتبس بآيات القرآن في بادىء النظر .

أطنَبت الآية في بيان ماهية الكهانة وبينت أن قصاراها الإخبارُ عن أشياء قليلة قد تصدق فأينَ هذا من هدي النبي والقرآن وما فيه من الآداب والإرشاد والتعليم والبلاغة والفصاحة والصراحة والإعجاز ولا تصدي منه للإخبار بالمغيبات .

(162/573)

كما قال : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ [الأنعام : 50] في آيات كثيرة من هذا المعنى .

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224)

كان مما حوته كِنانةُ بهتان المشركين أن قالوا في النبي صلى الله عليه وسلم هو شاعر ، فلما نَثَلَتْ الآيات السابقة سِهام كنانتهم وكسرتها وكان منها قولهم : هو كاهن ، لم يبق إلا إبطالُ قولهم : هو شاعر ، وكان بين الكهانة والشعر جامع في خيال المشركين إذ كانوا يزعمون أن للشاعر شيطاناً يملي عليه الشعر وربما سموه الرَّئِيّ ، فناسب أن يقارَن بين تزييف قولهم في القرآن : هو شعر ، وقولهم في النبي صلى الله عليه وسلم هو شاعر ، وبين قولهم : هو قول كاهن ، كما قرن بينهما في قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعِر قليلاً ما تُؤمنون ولا بقولِ كاهن قليلاً ما تذكّرون ﴾ [الحاقة : 41 ، 42] ؛ فعُطف هنا قوله : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاون ﴾ على جملة : ﴿ تنزل على كل أفّاك أثيم ﴾ [الشعراء : 222] .

ولمّا كان حال الشعراء في نفس الأمر مخالفاً لحال الكهان إذ لم يكن لملكة الشعر اتصال مّا بالنفوس الشيطانية وإنما كان ادعاء ذلك من اختلاق بعض الشعراء أشاعوه بين عامة العرب ، اقتصرت الآية على نفي أن يكون الرسول شاعراً ، وأن يكون القرآنُ شعراً . دون تعرض إلى أنه تنزيل الشياطين كما جاء في ذكر الكهانة .

وقد كان نفر من الشعراء بمكة يهجون النبي صلى الله عليه وسلم وكان المشركون يُعْنَون بمجالسهم وسماعِ أقوالهم ويجتمع إليهم الأعراب خارج مكة يستمعون أشعارهم وأهاجيَهم ، أدمجت الآية حال من يتَّبع الشعراء بحالهم تشويهاً للفريقين وتنفيراً منهما .

(163/573)

ومن هؤلاء : النضْر بن الحارث ، وهبيرة بن أبي وهب ومُسافع بن عبد مناف ، وأبو عَزة الجمحِي ، وابن الزِّبَعْرَى ، وأميةُ بن أبي الصَّلْت ، وأبو سفيان ابن الحارث ، وأمُّ جميل العوراء بنت حرب زوُج أبي لهب التي لَقبها القرآن : ﴿ حمَّالة الحطب ﴾ [المسد : 4] وكانت شاعرة وهي التي قالت:

مُذمَّماً عَصَيْنا . . .

وأمرَه أبينا ودينَه قَلَيْنَا

فكانت هذه الآية نفياً للشعر أن يكون من خُلُق النبي صلى الله عليه وسلم وذماً للشعراء الذين تصدوا لهجائه .

فقوله : ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ ذمّ لأتباعهم وهو يقتضي ذم المتبوعين بالأحرى .

والغاوي : المتصف بالغي والغواية ، وهي الضلالة الشديدة ، أي يتبعهم أهل الضلالة والبطالة الراغبون في الفسق والأذى .

فقوله : ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ خبر ، وفيه كناية عن تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون منهم فإن أتباعه خيرة قومهم وليس فيهم أحد من الغاوين ، فقد اشتملت هذه الجملة على تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم وتنزيه أصحابه وعلى ذم الشعراء وذمّ أتباعهم وتنزيه القرآن عن أن يكون شعراً .

وتقديمُ المسند إليه على المسند الفعلي هنا يظهر أنه لمجرد التقوّي والاهتمام بالمسند إليه للفت السمع إليه والمقام مستغن عن الحصر لأنه إذا كانوا يتبعهم الغاوون فقد انتفى أتباعهم عن الصالحين لأن شأن المجالس أن يتحد أصحابها في النزعة كما قيل:

عن المرء لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قرينه . . .

وجعله في "الكشاف" للحصر ، أي لا يتبعهم إلاّ الغاوون ، لأنه أصرح في نفي اتِّباع الشعراء عن المسلمين .

وهذه طريقتُهُ باطراد في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي أنه يفيد تخصيصه بالخبر ، أي

قصْر مضمون الخبر عليه ، أي فهو قصر إضافي كما تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ في سورة البقرة (15) .

والرؤية في ﴿ ألم تر ﴾ قلبية لأن الهُيام والوادي مستعاران لمعاني اضطراب القول في أغراض الشعر وذلك مما يُعلم لا مما يُرى .

(164/573)

والاستفهام تقريري ، وأجري التقرير على نفي الرؤية لإظهار أن الإقرار لا محيد عنه كما تقدم في قوله : ﴿ قال ألم نُربِّك فينا وليداً ﴾ [الشعراء : 18] ، والخطاب لغير معين .

وضمائر ﴿ إنهم و يهيمون و يقولون و يفعلون عائدة إلى الشعراء .

فجملة : ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ وما عطف عليها مؤكدة لما اقتضته جملة : ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ من ذم الشعراء بطريق فحوى الخطاب .

ومثلت حال الشعراء بحال الهائمين في أودية كثيرة مختلفة لأن الشعراء يقولون في فنون من الشعر من هجاء واعتداء على أعراض الناس ، ومن نسيب وتشبيب بالنساء ، ومدح من يمدحُونه رغبة في عطائه وإن كان لا يستحق المدح ، وذمّ من يمنعهم وإن كان من أهل الفضل ، وربما ذمّوا من كانوا يمدحونه ومدحوا من سَبق لهم ذمه .

والهيام : هو الحيرة والتردد في المرعى .

والوادُ : المنخفض بين عُدوتين .

وإنما ترعى الإبل الأودية إذا أقحلت الرُبى ، والربى أجود كلأ ، فمُثّل حال الشعراء بحال الإبل الراعية في الأودية متحيرة ، لأن الشعراء في حرص على القول لاختلاب النفوس .

و﴿ كل ﴾ مستعمل في الكثرة .

رُوي أنه اندسّ بعض المزّاحين في زمرة الشعراء عند بعض الخلفاء فعرف الحَاجب الشعراء ، وأنكر هذا الذي اندسّ فيهم ، فقال له : هؤلاء الشعراء وأنتَ من الشعراء ؟ قال : بل أنا من الغاوين ، فاستطرفها .

وشفَّع مذمتهم هذه بمذمة الكذب فقال : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ ، والعرب يتمادحون بالصدق ويعيرون بالكذب ، والشاعر يقول ما لا يعتقد وما يخالف الواقع حتى قيل : أحسن الشعر أكذبه ، والكذب مذموم في الدين الإسلامي فإن كان الشعر كذباً لا قرينة على مراد صاحبه فهو قبيح ، وإن كان عليه قرينة كان كذباً معتذَراً عنه فكان غير محمود .

وفي هذا إبداء للبَون الشاسع بين حال الشعراء وحال النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان لا يقول إلا حقاً ولا يصانع ولا يأتي بما يضلّل الأفهام .

ومن اللطائف أن الفرزدق أنشد عند سليمان بن عبد الملك قوله:

فبِتْن بجانبيَّ مصرَّعاتٍ . . .

وبتُّ أفضّ أغلاق الختام

فقال سليمان : قد وجب عليك الحد .

فقال : يا أمير المؤمنين قد دَرَأ الله عَني الحد بقوله : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ .

وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملاً لعمر بن الخطاب فقال شعراً :

مَن مُبلغُ الحسناءِ أن حليلها . . .

بميسان يُسقى في زُجاج وحنتم

إلى أن قال:

لعل أميرَ المؤمنين يسوءه . . .

تنادُمُنا بالجَوْسَقِ المتهدم

فبلغ ذلك عمرَ فأرسل إليه بالقُدوم عليه وقال له : أي والله إني ليسوءني ذلك وقد وجب عليك الحدّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ما فعلتُ شيئاً مما قلتُ وإنما كان فضلةً من القول ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ فقال له عمر : أمّا عذرك فقد درأ عنك الحد ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلتَ ما قلت .

وقد كُني باتباع الغاوين إياهم عن كونهم غاوين ، وأفيد بتفظيع تمثيلهم بالإبل الهائمة تشويه حالتهم ، وأن ذلك من أجل الشعر كما يؤذن به إناطة الخبر بالمشتق ، فاقتضى ذلك أن الشعر منظور إليه في الدين بعين الغضّ منه ، واستثناء ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الخ . . .

من عموم الشعراء ، أي من حكم ذمّهم .

وبهذا الاستثناء تعيّن أن المذمومين هم شعراء المشركين الذين شغلهم الشعر عن سماع القرآن والدخول في الإسلام .

ومعنى : ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ إي كان إقبالهم على القرآن والعبادة أكثر من إقبالهم على الشعر .

﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ وهم مَن أسلموا من الشعراء وقالوا الشعر في هجاء المشركين والانتصارِ للنبيء صلى الله عليه وسلم مثل الذين أسلموا وهاجروا إلى الحبشة ، فقد قالوا شعراً كثيراً في ذم المشركين .

(166/573)

وكذلك من أسلموا من الأنصار كعبد الله بن رَواحة ، وحسانَ بن ثابت ومن أسلم بعدُ من العرب مثل لَبيد ، وكعب بن زهير ، وسُحيم عبد بني الحسحاس ، وليس ذكر المؤمنين من الشعراء بمقتضي كون بعض السُّورة مدنيّاً كما تقدم في الكلام على ذلك أول السورة .

وقد دلت الآية على أن للشعر حالتين : حالة مذمومة ، وحالة مأذونة ، فتعين أن ذمه ليس لكونه شعراً ولكن لما حفّ به من معان وأحوال اقتضت المذمة ، فانفتح بالآية للشعر بابُ قبول ومدح فحقّ على أهل النظر ضبط الأحوال التي تأوي إلى جانب قبوله أو إلى جانب مدحه ، والتي تأوي إلى جانب رفضه .

وقد أومأ إلى الحالة الممدوحة قوله : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ ، وإلى الحالة المأذونة قوله : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ .

وكيف وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على بعض الشعر مما فيه محامد الخصال واستنصتَ أصحابُه لشعر كعب بن زهير مما فيه دقة صفات الرواحل الفارهة ، على أنه أذِن لحسان في مهاجاة المشركين وقال له : "كلامك أشد عليهم من وقع النبل .

.

" وقال له : "قل ومعك روح القدس" .

وسيأتي شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ في سورة يس (69) .

وأجاز عليه كما أجاز كعبَ بن زهير فخلع عليه بردته ، فتلك حالة مقبولة لأنه جاء مؤمناً .

وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله يقول على المنبر : أصدَقُ كلمةٍ ، أو أشْعَر كلمة قالتها العرب كلمةُ لبيد :

ألا كُلُّ شيء ما خلا الله باطل . . .

وكان يستنشد شعر أمية بن أبي الصلت لما فيه من الحكمة وقال : كاد أميةُ أن يُسلم ، وأمر حسّاناً بهجاء المشركين وقال له : قُل ومعك رُوح القدس .

وقال لكعبِ بن مالك : لكلامُك أشد عليهم من وقْع النبْل .

روى أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن ﴾ بسنده إلى خُريم بن أوس بن حارثة أنه قال : هاجرت إلى رسول الله بالمدينة منصرَفَه من تبوك فسمعت العباس قال : يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك .

(167/573)

فقال : قُل لا يفضُض الله فاك .

فقال العباس:

من قبلِها طبتَ في الظلال وفي . . .

مُستَوْدَع حيثُ يخصف الوَرَق

الأبيات السبعة .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " لا يفضض الله فاك "

وروى الترمذي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبدُ الله بن رواحة يمشي بين يديه يقول:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله . . .

اليومَ نضربكم على تنزيله

ضَرباً يُزيل الهامَ عن مقيله . . .

ويُذهل الخليلَ عن خليله

فقال له عُمر : يا ابن رواحة في حرم الله وبين يدي رسول الله تقول الشعر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " خَلِّ عنه يا عمر فإنه أسرع فيهم من نَضْح النبْل "

وعن الزهري أن كعب بن مالك قال : يا رسول الله ما تقول في الشعر ؟ قال : " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل "

ولعلي بن أبي طالب شعر كثير ، وكثير منه غير صحيح النسبة إليه .

وقد بين القرطبي في "تفسيره" في هذه السورة وفي سورة النور القول في التفرقة بين حالي

الشعر .

وكذلك الشيخ عبد القاهر الجرجاني في أول كتاب "دلائل الإعجاز" .

ووجب أن يكون النظر في معاني الشعر وحال الشاعر ، ولم يزل العلماء يعنَون بشعر العَرب ومَن بعدهم ، وفي ذلك الشعر تحبيب لفصاحة العربية وبلاغتها وهو آيل إلى غرض شرعي من إدراك بلاغة القرآن .

ومعنى : ﴿ من بعد ما ظلموا ﴾ أي من بعد ما ظلمهم المشركون بالشتم والهجاء .

﴿ ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ ﴾ .

ناسب ذكر الظلم أن ينتقل منه إلى وعيد الظالمين وهم المشركون الذين ظلموا المسلمين بالأذى والشتم بأقوالهم وأشعارهم .

وجُعلت هذه الآية في موقع التذييل فاقتضت العموم في مسمى الظلم الشامل للكفر وهو ظلم المرء نفسه وللمعاصي القاصرة على النفس كذلك ، وللاعتداء على حقوق الناس .

وقد تلاها أبو بكر في عهده إلى عمر بالخلافة بعده ، والواو اعتراضية للاستئناف .

(168/573)

وهذه الآية تحذير عن غمص الحقوق وحثّ عن استقصاء الجهد في النصح للأمة وهي ناطقة بأهيب موعظة وأهول وعيد لمن تدبرها لما اشتملت عليه من حرف التنفيس المؤذن بالاقتراب ، ومن اسم الموصول المؤذن بأن سوء المنقلب يترقب الظالمين لأجل ظلمهم ، ومن الإبهام في قوله : ﴿ أي منقلب ينقلبون ﴾ إذ ترك تبيينه بعقاب معيّن لتذهل نفوس المُوعَدِين في كل مذهب ممكن من هول المنقلب وهو على الإجمال منقلَب سوء .

والمنقلب : مصدر ميمي من الانقلاب وهو المصير والمآلُ ، لأن الانقلاب هو الرجوع .

وفعل العلم معلق عن العمل بوجود اسم الاستفهام بعده .

واسم الاستفهام في موضع نصب بالنيابة عن المفعول المطلق الذي أضيف هو إليه .

قال في "الكشاف" : وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدتها . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(169/573)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) ﴾

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ، أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض

العلماء في الآية قولاً ، وتكون في الآية قرينة ، تدل على عدم صحته ، وذكرنا أمثلة متعددة لذلك في الترجمة وفيما مضى من الكتاب .

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله هنا : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال فيه بعض أهل العلم المعنى : وتقلبك في أصلاب آبائك الساجدين : أي المؤمنين بالله كآدم ونوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل .

واستدل بعضهم لهذا القول فيمن بعد إبراهيم من آبائه بقوله تعالى عن إبراهيم ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : 28] وممن روى عنه هذا القول ابن عباس نقله عنه القرطبي ، وفي الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول وهي قوله تعالى قبله مقترناً به ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ فإنه لم يقصد به أنه يقوم في أصلاب الآباء إجماعاً ، وأول الآية مرتبطة بآخرها : أي الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك ، وحين تقوم من فراشك ، ومجلسك ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ أي المصلين ، على أظهر الأقوال ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، يتقلب في المصلين قائماً ، وساجداص وراكعاً ، وقال بعضهم : الذي يراك حين تقوم أي إلى الصلاة وحدك وتقلبك في الساجدين : أي المصلين إذا صليت بالناس .

وقوله هنا : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ الآية . يدل على الاعتناء به صلى الله عليه وسلم ، ويوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : 48] الآية .

(170/573)

وقوله : وتوكل قرأه عامة السبعة غير نافع وابن عامر : وتوكل بالواو ، وقرأه نافع وابن عامر فتوكل بالفاء ، وبعض نسخ المصحف العثماني فيها الواو وبعضها فيها الفاء ، وقوله هنا : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الفاتحة في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] ، وبسطنا إيضاحه بالآيات القرآنية مع بيان التوكل في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَآ مُوسَى الكتاب وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : 2] .

(171/573)

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224)

الشعراء : جمع كجاهل وجهلاء ، وعالم وعلماء ، والغاوون : جمع غاو وهو الضال ، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ يدل على أن اتباع الشعراء من أتباع

الشيطان بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : 42] وقرأ هذا الحرف نافع وحده : يتبعهم بسكون التاء المثناة ، وفتح الباء الموحدة ، وقرأه الباقون يتبعهم بتشديد المثناة ، وكسر الموحدة ومعناهما واحد .

وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة في قوله : ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ يدل الله لهم في ذلك ، أما دعواهم أنه صلى الله عليه وسلم شاعر ، لأن الذين يتبعهم الغاوون ، لا يمكن أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم منهم .

(172/573)

ويوضح هذا المعنى ما جاء من الآيات مبيناً أنهم ادعوا عليه صلى الله عليه وسلم أنه شاعر وتكذيب الله لهم في ذلك ، أما دعواهم أنه صلى الله عليه وسلم شاعر ، فقد ذكره تعالى في قوله عنهم : ﴿ بَلْ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افتراه بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء : 5] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لتاركوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 36] وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [الطور : 30] وأما تكذيب الله لهم في ذلك ، فقد ذكره في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة : 41] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ

مُّبِينٌ ﴾ [يس : 69] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَلْ جَآءَ بالحق وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ [الصافات : 3637] ، لأن قوله تعالى : ﴿ بَلْ جَآءَ بالحق ﴾ الآية . تكذيب لهم في قولهم إنه : ﴿ لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ .

مسألتان تتعلقان بهذه الآية الكريمة

المسألة الأولى : اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ثبت عنه أنه قال : « لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلئ شعراً » رواه الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقوله في الحديث ، يريه بفتح المثناة التحتية وكسر الراء بعدها ياء ، مضارع ورى القيح جوفه ، يريه ، وريا إذا أكله وأفسدهن والأظهر أن أصل وراه أصاب رئته بالإفساد .

واعلم أن التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه أن الشعر كلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح .

(173/573)

ومن الأدلة القرآنية على ذلك أنه تعالى لما ذم الشعراء بقوله : ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 224226]

استثنى من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات في قوله : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً ﴾ [الشعراء : 227] الآية .

وبما ذكرنا تعلم أن التحقيق أن الحديث الصحيح المصرح بأن امتلاء الجوف من القيح المفسد له خير من امتلائه من الشعر ، محمول على من أقبل على الشعر ، واشتغل به عن الذكر ، وتلاوة القرآن ، وطاعة الله تعالى ، وعلى الشعر القبيح المتضمن للكذب ، والباطل كذكر الخمر ومحاسن النساء الأجنبيات ونحو ذلك .

(174/573)

المسألة الثانية : اعلم أن العلماء اختلفوا في الشاعر إذا اعترف في شعره بما يستوجب حداً ، هل يقام عليه الحد ؟ على قولين :

أحدهما : أنه يقام عليه لأنه أقر به والإقرار تثبت به الحدود .

والثاني : أنه لا يحد بإقراره في الشعر لأن كذب الشاعر في شعره أمر معروف معتاد واقع لا نزاع فيه .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : أظهر القولين عندي : أن الشاعر إذا أقر في شعره بما يستوجب الحد ، لا يقام عليه الحد ، لأن الله جل وعلا صرح هنا بكذبهم في شعرهم في

قوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 226] فهذه الآية الكريمة تدرأ عنهم الحد ، ولكن الأظهر أنه إن أقر بذلك استوجب بإقراره به الملام والتأديب وإن كان لا يحد به ، كما ذكره جماعة من أهل الأخبار في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهورة مع النعمان بن عدي بن نضلة .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة وقد ذكر محمد بن إسحاق ، ومحمد بن سعد في الطبقات ، والزبير بن بكار في كتاب الفكاهة : أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان من أرض البصرة ، وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها . . . بميسان يسقى في زجاج وحنتم

إذا شئت غنتني دهاقين قرية . . . ورقاصة تجذو على كل منسم

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني . . . ولا تسقني بالأصغر المتثلم

لعل أمير المؤمنين يسوءه . . . تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال : إي والله إنه ليسوءني ذلك ، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته ، وكتب إليه عمر : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمتَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول لاَ إله إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المصير

﴿ [غافر : 13] أما بعد : فقد بلغني قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوءه . . . تنادمنا بالجوسق المتهدم

(175/573)

وأيم الله إنه ليسوءني ، وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذلك الشعر إلا شيء طفح على لساني ، فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن والله لا تعمل لي عملاً أبداً ، وقد قلت ما قلت فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ذمه عرم ولامه على ذلك وعزله به .

انتهى محل الغرض ، من كلام ابن كثير وهذه القصة يستأنس بها لما ذكرنا .

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أن سليمان بن عبد الملك لما سمع قول الفرزدق :

فبتن بجانبي مصرعات . . . وبت أفض أغلاق الختام

قال له : قد وجب عليك الحد ، فقال الفرزدق : يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 226] فلم يحده مع إقراره بموجب الحد .

(176/573)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226)

هذا الذي ذكره هنا عن الشعراء من أنهم يقولون ما لا يفعلون ، بين في آية أخرى أنه من أسباب المقت عنده جل وعلا ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 23] ، والمقت في لغة العرب : البعض الشديد فقول الإنسان ما لا يفعل كما ذكر عن الشعراء يبغضه الله ، وإن كان قوله ما لا يفعل فيه تفاوت ، والعلم عند الله تعالى .

(177/573)

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ [الكهف : 2] الآية . مع شواهد العربية .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيراً ﴾ .

أثنى الله تعالى في هذه الآية الكريمة على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بذكرهم الله كثيراً ، وهذا الذي أثنى عليهم به هنا من كثرة ذكر الله ، أمر به في آيات أخر وبين جزاءه قال تعالى : ﴿ واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : 10] ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب : 4142] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب الذين يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : 190191] الآية . وقال تعالى : ﴿ والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات أَعَدَّ الله لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 35] .

قوله تعالى : ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ .

قد قدمنا الآيات الموضحة له كقوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ ﴾ [الشورى : 4142] في آخر سورة النحل على قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : 126] .

قوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

المنقلب هنا المرجع والمصير . والأظهر أنه هنا مصدر ميمي ، وقد تقرر في فن الصرف أن الفعل إذا زاد على ثلاثة أحرف كان كل من مصدره الميمي ، واسم مكانه واسم زمانه على صيغة اسم المفعول .

والمعنى : وسيعلم الذين ظلموا أي مرجع يرجعون . وأي مصير يصيرون ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة ، من أن الظالمين سيعلمون يوم القيامة المرجع الذي يرجعون : أي يعلمون العاقبة السيئة التي هي مآلهم ، ومصيرهم ومرجعهم ، جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين لَتَرَوُنَّ الجحيم ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ [التكاثر : 37] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : 42] ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ [الرعد : 42] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً ، وقوله : ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٍ ﴾ ما ناب عن المطلق من قوله : ﴿ يَنقَلِبُونَ ﴾ وليس مفعولاً به لقوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ ﴾ ، قال القرطبي رحمه الله : وأي منصوب بينقلبون ، وهو بمعنى المصدر ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بسيعلم لأن أيا أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها فيما ذكره النحويون ، قال النحاس : وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله ، لدخل

بعض المعاني في بعض : انتهى منه . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(179/573)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) ﴾

فقد تقول : إنْ فعلتَ هذا قلَّ أنصاري وتفرَّق الأتباع والحاشية من حولي ، نقول لك : إياك أنْ تظنَّ أنهم يجلبون لك نفعاً ، أو يدفعون عنك ضراً ، فالأمر كله بيده تعالى وبأمره ، فخيرٌ لك أنْ تراعى الله ، وأن تتوكل عليه .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ [الشعراء : 217] العزيز الذي يَغْلِب ولا يُغْلب ، ويَقْهر ولا يُقهر ، ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بك وبهم . وصفة الرحمة هنا تنفي ما يظنه البعض أن العزة هنا تقتضي الجبروت أو القهر أو الظلم ، فهو سبحانه في عِزَّته رحيم ، لأن عزة العزيز على المتكبِّر رحمة بالمتكبَّر عليه .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يُعلِّم خليفته في أرضه خاصة أُولي الأمر منهم ، يُعلِّمه أن يكون أريباً ناصحاً ، يقول له : إياك أنْ تتوكّل على عبد مثلك إذا عجزتَ عن العمل ؛ لأنه عاجز

مثلك ، وما دام الأمر كذلك فتوكَّل على العزيز الرحيم ، فعِزَّته ورحمته لك أنت .

الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219)

أي : توكل على الذي يحبك ، ويُقدِّر عملك وعبادتك حين تقوم ، والمعنى تقوم له سبحانه بالليل والناس نيام ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ [الشعراء : 219] ونفهم من ذلك أنه يصح أن تقوم وحدك بالليل .

وقوله : ﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الشعراء : 218] يرى حالك في هذا القيام ، وما أنت عليه من الفرح ، وسرعة الاستجابة لنداء الله في قوله : الله أكبر ، يراك حين تقوم على حالة انشراح القلب والإقبال على الله والنشاط للعبادة ، لا على حال الكسل والتراخي .

(180/573)

وإنْ أقبلتَ على الله أعطاك من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسب الدنيا وتجارتها ، إنْ تركتها لإجابة النداء ؛ لذلك كان شعار الأذان الذي ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم (الله أكبر) أي : أكبر من أيِّ شيء غيره ، فإنْ كنتَ في نوم ، فالله أكبر من النوم ، وإنْ كنتَ في تجارة ، فالله أكبر من التجارة ، وإنْ كنتَ في عمل فالله أكبر من العمل . . إلخ .

وعجيب أن نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت ، وإمكانية الصلاة بعد

انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ؛ لأن ربك حين يناديك (الله أكبر) يريد أن تستجيب على الفور لا على التراخي ، وإلا كيف تسمى الاستجابة للنداء إذا تأخرت عن وقتها ؟ فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر وبين العشاء والصبح لا يعني أنْ تصلي في طول هذا الوقت ؛ لأن النداء يقتضي الإسراع والاستجابة .

ولنا ملحظ في (الله أكبر) فأكبر أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة ودون أكبر نقول : كبير ، وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعي ليس شيئاً هيناً أو تافهاً ، إنما هو كبير ، ينبغي الاهتمام به ؛ لأنه عَصَب الحياة ، ولا تستقيم الأمور في عمارة الأرض إلا به .

لكن ، إنْ كان العمل كبيراً فالله أكبر ، فربُّك عز وجل لا يُزهِّدك في العمل ، ولا يُزهِّدك في الدنيا ؛ لأنه خالقها على هذه الصورة وجاعل للعمل فيها دوراً ، وإنْ شئتَ فاقرأ : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] .

وقال في موضع آخر : ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ [القصص : 77] لأن حركة الحياة هي التي تُعينك على أداء الصلاة وعلى عبادة الله ، فبها تقتات ، وبها تتقوَّى ، وبها تستر عورتك ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ومع هذا فدعوة الله لك أَوْلَى بالتقديم ، وأَوْلَى بالإجابة ؛ لأن الذي خلقك وخلقها ناداك (الله أكبر) .

و ﴿ وَتَقَلُّبَكَ ﴾ [الشعراء : 119] تعني : القعود والقيام والركوع والسجود ، فربُّك يراك في كل هذه الأحوال ، ويرى سرورك بمقامك بين يديه ، فإذا ما توكلتَ عليه فأنت تستحق أن يكون ربُّك عزيزاً رحيماً من أجلك .

أو : أن المعنى ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : 119] أنه صلى الله عليه وسلم كان يرى صحابته وهم يُصلُّون خلفه ، فيرى مَنْ خلفه ، كما يرى مَنْ أمامه ، وكانت هذه من خصائصه صلى الله عليه وسلم .

لذلك كان يُحذِّرهم أنْ يسبقوه في الصلاة في ركوع أو سجود ، أو قيام أو قعود . ويحذرهم أنْ يفعلوا في الصلاة خلفه ما لا يصح من المصلى اعتماداً على أنه صلى الله عليه وسلم لا يراهم .

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

السميع لما يقال ، العليم بما يجول في الخواطر .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222)

وقد سبق أن قالوا عن القرآن تنزلت به الشياطين ، فيردُّ عليهم : تعالوا أخبركم على مَنْ تتنزل الشياطين ، وأصحح لكم هذه المعلومات الخاطئة : صحيح أن الشياطين تتنزل ، لكن لا تتنزل على محمد ؛ لأنه عدوها ، إنما تتنزل على أوليائها .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام : 121] .

﴿ تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : 222] فهذا الذي يناسب الشياطين ويرضيهم ، والجن قسمان : فمنه الصالح وغير الصالح وهذا الذي يسمونه الشياطين .

وكلمة ﴿ أَفَّاكٍ ﴾ [الشعراء : 222] مبالغة في الإفك أي : قلب الحقائق . وكان هؤلاء يخطفون الأخبار فيقولون شيئاً قد يصادف الصدق ، ثم يجعلون معه كثيراً من الكذب .

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)

(182/573)

السمع مصدر وألته الأذن ، فالمراد يلقون الأذن للسمع ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : 37] .

يعني : ألقى سمعه كي يستمع كمنْ يحرص على السماع من خفيض الصوت ، فيميل نحوه ليسمع منه . وقال ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء : 223] لأن بعضهم والقلة منهم قد يصدق ليُغلِّف كذبه ، ويُغطي عليه ، فأنت تأخذ من صِدْقه هذه المرة دليلاً على أنه صادق ، وهو يخلط الخبر الصادق بأخبار كثيرة كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾

الشعراء : جمع شاعر ، وهو مَنْ يقول الشعر ، وهو الكلام الموزون المُقفَّى ، وقد اتهم الكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر ، وردَّ عليهم القرآن الكريم في عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [الحاقة : 41] .

وعجيب من كفار مكة ، وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان ، وأهل الخبرة في الكلام الموزون المُقفَّى ، بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً في ذي المجاز وذي المجنَّة وعكاظ ، ويعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن الكريم .

إذن : هم يعرفون الفَرْق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ﴾ [الطور : 30] يقصدون بالشعر الكلام العَذْب الذي يستميل النفس ، ويُؤثِّر في الوجدان ، ولو كان نثراً . وهذه ينادى بها الآن أصحاب الشعر الحر ؛ لأنهم يقولون شعراً ، لكنه غير موزون ، وغير مُقفَّىً .

(183/573)

ومعنى ﴿ الغاوون ﴾ [الشعراء : 224] جمع غاوٍ . وهو الضال ، وهؤلاء يتبعون الشعراء . لأنهم يؤيدون مذهبهم في الحياة بما يقولون من أشعار ؛ ولأنهم لا يحكم منطقهم مبدأ ولا خُلُق ، بل هواهم هو الذي يحكم المبدأ والخلق ، فإنْ أحبُّوا مدحوا ، وإنْ كرِهوا ذَمُّوا .

والدليل على ذلك : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ ﴾

الضمير في ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ [الشعراء : 225] يعود على الشعراء ، والوادي : هو المنخفض بين جبلين ، وكان محل السير ومحل نمو الأشجار والبساتين واستقرار المياه .

﴿ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء : 25] تقول : فلان هَامَ على وجهه أي : سار على غير هدى ، وبدون هدف أو مقصد ، فالمعنى ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء : 225] أن هذه حال الشعراء ، لأنهم أهل كلام وخيال يمدحك أحدهم إنْ طمع في خيرك ، فإنْ لم تُعطِه كال لك الذم وتفنَّن في النَّيل منك ، فليس له وادٍ معين يسير فيه ، أو مبدأ يلتزم به ، كالهائم على وجهه في كل وَادٍ .

فالمتنبي وهو من أعظم شعراء العصر العباسي ويُضرب به المثل في الحكمة والبلاغة ، من أشهر شعره قوله :

فَالخَيْل واللَّيْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُني . . . والسَّيْفُ والرُّمح والقِرْطَاسُ والقَلَم

فلما كان في إحدى رحلاته خرج عليه قُطَّاع الطرق ، فلما أراد أن يفرَّ قال له خادمه :

ألست القائل :

فَالخَيْل والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُني . . . والسَّيْفُ والرُّمح والقِرْطَاسُ والقَلَم

فاستحى أنْ يفرَّ ، وثبت أمامهم حتى قتلوه ، فقال قبل أنْ يموت : ما قتلني إلا هذا العبد ، واشتهر هذا البيت في الأدب العربي بأنه البيت الذي قتل صاحبه .

ولما جاء المتنبي إلى مصر مدح حاكمها كافور الإخشيدي طمعاً فيه ، وكان كافور رجلاً أسود ؛ لذلك كَنَّوْه بأبي المِسْك ، ولما مدحه المتنبي حالَ الرضا قال فيه :

أَبا كُلِّ طِيبٍ لاَ أَبَا المِسْك وَحْدَهُ . . . وفي قصيدة أخرى يقول :

(184/573)

قَضَى اللهُ يَا كافُورُ أَنَّكَ أَوَّلٌ . . . ولَيْسَ بقَاضٍ أنْ يُرَى لَكَ ثَانِ

فلما لم يُعْطه كافور طلبه ، وساءتْ العلاقة بينهما ، قال يهجوه :

أُريك الرضا لو أخْفت النفسُ خافيَا . . . ومَا أَنَا عَنْ نفسي ولاَ عَنْكَ رَاضيا

أَمَيْنا وإخْلاَفاً وغَدْراً وخِسَّةً وجُبْنا . . . أشخصاً لُحْتَ لي أَمْ مَخَازِيا

وتُعجبُني رِجْلاكَ في النَّعْلِ إنني . . . رأيتُكَ ذَا نَعْلٍ وإنْ كُنْتَ حَافِيا

ومِثْلُكَ يُؤتَى مِنْ بِلاَدٍ بَعِيدَة . . . لِيُضحِكَ رَبَّاتِ الحِدَادِ البَوَاكِيَا

وَلَوْلاَ فُضُولُ الناسِ جِئْتُك مَادِحاً . . . بما كنتَ في نَفْسِي به لَكَ هَاجِيَا

وقد يكون الشاعر بخيلاً ، ولكنه يمدح الكرم والكريم ، ويرفعه إلى عنان السماء :

متَّى تَأْتِهِ تَعشُو إلى ضَوْءِ نَارِه . . . تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدهَا خَيْرُ موقِدِ

والحطيئة مع ما عُرف عنه من البخل يمدح أحدهم ، ويصفه بالكرم النادر ، لدرجة أنْ جعله يهِمُّ بذبح ولده لضيفه ؛ لأنه لم يدد ما يذبحه ، وينظِم الحطيئة في الكرم هذه القصيدة أو القصة الشعرية التي تُعَدُّ من عيون الشعر العربي ، ومع ذلك لم يأخذ مما يقول عبرةً ، وظلَّ على إمساكه وبُخْله ؟

يقول الحطيئة في وصف الكريم :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصِبِ البَطْنِ مُرْمِل . . . بِبَيْدَاءَ لَم يَعرِف بها ساكِنٌ رَسْما

أخِي جَفْوة فيه مِنَ الأُنْسِ وَحْشةٌ . . . يرى البُؤْسَ فِيها مِنْ شراسَتِه نُعْما

وأَفْرَدَ في شِعْبٍ عَجُوزاً إزَاءَهَا . . . ثلاثَةَ أشْباحٍ تَخَالهوا بُهْما

حُفاةً عُراةً ما اغتذَوْا خُبْزَ مَلَّة . . . ولاَ عَرِفُوا للبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْما

رَأى شَبَحاً وَسْطَ الظَّلام فَرَاعَه . . . فلمَّا رأى ضَيْفا تَشمَّر واهْتَما

فَقالَ ابنُه لما رَآهُ بحَيْرةٍ . . . أيا أبَتِ أذْبحْني ويَسِّر لَهُ طُعْما

ولاَ تعتذر بالعُدْم على الذي طَرا . . . يظنُّ لَنَا مالاً فَيُوسِعُنا ذَمّا

فَبَيْنَا هُما عَنَّتْ على البُعْد عَانَةٌ . . . قَدِ انتظمتْ من خَلْفِ مِسْحلها نَظْما

عِطَاشاً تريد الماءَ فانسابَ نحوها . . . عَلى أَنَّه مِنْها إلى دَمِها أَظْمَا

فَأَمْهلَها حتَّى تروَّتْ عِطَاشُها . . . وأرسلَ فِيهَا مِنْ كِنَانتِه سَهْما

فخرَّتْ نَحْوصٌ ذَات جحش سمينةً . . . قَد اكتنزتْ لَحْماً وقد طبّقَتْ شَحْما

فَيَا بشْرَهُ إذْ جرَّهَا نحو قَومِه . . . ويَا بشْرهُمْ لما رأَوْا كَلْمها يَدْمَا

وَبَاتُوا كِراماً قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ . . . ومَا غَرمُوا غُرْماً وقَدْ غَنموا غُنْما

وَبَاتَ أَبُوهم من بَشَاشتِه أباً . . . لِضَيْفِهِمُ والأم مِنْ بِشرها أُمَّا

وصدق الله العظيم : ﴿ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : 225226] يصفون الكرم وهم بخلاء ، والشجاعة وهو جبناء . . . إلخ .

وفي مرة ، اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم اثنان من الشعراء : الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم فقال أحدهم عبارتين في مدح أحد الحاضرين بأنه سيد القبيلة . فغضب الممدوح ورأى أن هذا قليل في حقّه ، فقال : والله يا رسول الله ، إنه ليعلم مني فوق الذي قال يعني : لم يُوفِّني حقي فقال الشاعر : أما والله وقد قال ما قال ، فإنه لضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال . سبحان الله في أول المجلس كان سيد قبيلته ، والآن هو ضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال ! !

ثم قال : والله يا رسول الله ما كذبتُ في الأولى ، ولقد صدقتُ في الثانية يعني : أنا مصيب في القولين لكني رضيت فقلت أحسنَ ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمتُ .

عندها قال سيدنا رسول الله " إن من البيان لسحراً " .

ثم يستثني الحق سبحانه من هؤلاء الغاوين : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ﴾

(186/573)

كان بعض شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبعري ، ومسافح الجمحي يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذمونه ، فيلتف الضالون الغاوون من حولهم ، يشجعونهم ويستزيدونهم من هجاء رسول الله ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ الشعراء : 224] فأسرع إلى سيدنا رسول الله شعراءُ الإسلام : عبد الله بن رواحة وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : أنحن من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقرأ عليهم رسول الله هذه الآية :

﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [الشعراء : 227] .

فاستثنى الحق تبارك وتعالى من الشعراء مَنْ توفَّرت فيه هذه الخصال الأربع ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ [الشعراء :

227] أي : ذكروا الله في أشعارهم ؛ لينبهوا الناس إلى مواجيد الدين ومواعظ الإيمان ، فيلتفتون إليها ، ثم ينتصرون لرسول الله من الذين هَجَوْه .

وكان هؤلاء الثلاثة ينتصرون للإسلام ولرسول الله ، فكلما هجاه الكفار ردُّوا عليهم ، وأبطلوا حُججهم ، ودافعوا عن رسول الله ، حتى " أنه صلى الله عليه وسلم نَصَب منبراً لحسان بن ثابت ، كان يقول له : " قل وروح القدس معك ، اهجهم وجبريل معك "

وقال لكعب بن مالك : " اهجهم ، فإن كلامك أشدُّ عليهم من رَشْق النِّبال " كما سمح لهم بإلقاء الشعر في المسجد ؛ لأنهم دخلوا في هذا الاستثناء ، فهم من الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وهم الذين ينتصرون للإسلام ويُمجِّدون رسول الله ، ويدافعون عنه ، ويردُّون عنه ألسنة الكفار .

(187/573)

ومعنى : ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ [الشعراء : 227] أنهم لم يكونوا سفهاء ، لم يبدأوا الكفار بالهجاء ، إنما ينتصرون لأنفسهم ، ويدفعون ما وقع على الإسلام من ظلم الكافرين ؛ لذلك لما هجا أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أحدهم رداً عليهم :

أتهْجُوهُ ولَسْتَ لَهُ بكُفْءٍ . . . فَشرُّكما لخيركما الفِدَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدِهِ وعِرْضِي . . . لِعْرضِ مُحمدٍ منكمُ وِقَاءُ

وقوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ [الشعراء : 227] ظُلِموا مِمَّنْ ؟ من الذين وقفوا من الدين ومن الرسول موقفَ العداء ، وتعرَّضوا لرسول الله وللمؤمنين به بالإيذاء والكيد ، ظُلِموا من الذين عزلوا رسول الله ، وآله في الشِّعْب حتى أكلوا أوراق الشجر ، من الذين تآمروا على قتله صلى الله عليه وسلم إلى أنْ هاجر .

ومن رحمته تعالى وحكمته أنْ أباح للمظلوم أنْ ينتصر لنفسه ، وأنْ يُنفِّس عنها ما يعانيه من وطأة الظلم ، حتى لا تُكبتَ بداخله هذه المشاعر ، ولا بُدَّ لها أن تنفجر ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : 126] .

وقال تعالى : ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللهُ الجهر بالسواء مِنَ القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء : 148] . أباح للمظلوم أن يُعبِّر عن نفسه ، وأن يرفض الظلم ، ولا عليه إنْ جهر بكلمة تُخفِّف عنه ما يشعر به من ظلم .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : 227] يعني : غداً سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون ؟ والمنقلب هو المرجع والمآب ، والمصير الذي ينتظرهم .

فالحق تبارك وتعالى يتوعدهم بما يؤذيهم ، وبما يسوؤهم فلن تنتهي المسألة بانتصار المسلمين عليهم ، إنما ينتظرهم جزاء آخر في الآخرة .

(188/573)

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ [الطور : 47] .

لذلك أبهم الله تعالى هذا المنقلب ، وإبهامه للتعظيم والتهويل ، وقد بلغ من العِظَم أنه لا يُوصف ولا تؤدي العبارة مؤداه ، كما أبهم العذاب في قوله تعالى : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : 78] .

يعني : شيء عظيم لا يُقَال ، والإبهام هنا أبلغ ؛ لأن العقل يذهب في تصوّره كل مذهب ، وعلى كل كيفية .

والمنقلب أو المرجع لا يُمدح في ذاته ، ولا يُذمُّ في ذاته ، فإن انتهى إلى السوء فهو مُنقلب سيء ، وإن انتهى إلى خير فهو مُنقلَب حسن ، فالذي نحن بصدده من مُنقلَب الكافرين المعاندين لرسول الله منقلب سيء يُذَم .

أما مُنْقلَب سحرة فرعون مثلاً حين قال لهم : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ

الذي عَلَّمَكُمُ السحر فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ﴾ [طه : 71] .

فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُواْ لاَ ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : 50] فهذا مُنقلَب حَسَن يُمدح ويُحمد .

وقد يظن المرء أن مُنقلَبه مُنقلَب خير ، وأنه سينتهي إلى ما يُفرح وهو واهم مخدوع في عمله ينتظر الخير ، والله تعالى يُعِد له منقلباً آخر ، كالذي أعطاه الله الجنتين من أعناب وخففهما بنخل ، وجعل بينهما زرعاً ، فلما غرَّته نعمة الدنيا ظنَّ أن له مثلها ، أو خيراً منها في الآخرة ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً ﴾ [الكهف : 36] .

(189/573)

والانقلاب والمرجع إلى الله عز وجل إنما يفرح به مَنْ آمن بالله وعمل صالحاً ؛ لأنه يعلم أنه سيصير إلى جزاء من الحق سبحانه وتعالى مؤكد ؛ لذلك الحق تبارك وتعالى يُعلِّمنا حين نركب الدواب التي تحملنا ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ ﴾ [النحل : 7] .

علَّمنا أن نذكره سبحانه : ﴿ والذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُواْ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ

الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : 1214]

.

إذن : فالدوابّ وما يحلّ محلّها الآن من وسائل المواصلات من أعظم نِعَم الله علينا ، ولولا أن الله سخَّرها لنا ما كان لنا قدرة عليها ، ولا طاقة بتسخيرها ؛ لذلك نقول ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 13] .

أي : لا نستطيع ترويضه ، فالصبي الصغير نراه يقود الجمل الضخم ، ويُنيخه ويُحمّله الأثقال وهو طائع منقاد ، لكنه يفزع إنْ رأى ثعباناً صغيراً ، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى سخَّر لنا الجمل وذلَّله ، ولم يُسخِّر لنا الثعبان .

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : 7172] .

ولكن ما علاقة قولنا : ﴿ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف : 13] بقولنا : ﴿ وَإِنَّآ إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : 14] .

(190/573)

قالوا : لأننا سننقلب إلى الله في الآخرة ، وسنُسأل عن هذا النعيم ، فإنْ شكرنا ربنا على هذه النعمة فقد أدَّينا حقها ، ومَنْ شكر الله على نعمة في الدنيا لا يسأل عنها في الآخرة ؛ لأنه أدَّى حقَّها .

وقال سبحانه : ﴿ وَسَيَعْلَمْ ﴾ [الشعراء : 227] بالسين الدالة على الاستقبال ، لكنها لا تعني طول الزمن كما يظن البعض ؛ لأن الله تعالى أخفى الموت ميعاداً ، وأخفاه سبباً ومكاناً ، وهذا الإبهام للموت هو عَيْن البيان ، لأنك في هذه الحالة ستنتظره وتتوقعه في كل وقت ، ولو علم الإنسانُ موعد موته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل أن أموت .

إذن : الوقت الذي تقتضيه السين هنا لا يطول ، فقد يفاجئك الموت ، وليس بعد الموت عمل أو توبة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : 46] .

وقلنا : إن في الآية ﴿ وَسَيَعْلَمْ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : 227] تهديداً ووعيداً ، الحق تبارك وتعالى حين يُضخّم الوعيد إنما يريد الرحمة بخَلْقه ، وهو مُحِبٌّ لهم ، فيهددهم الآن ليَسلموا غداً ، ويُنبِّههم ليعودوا إليه ، فينالوا جزاءه ورحمته . وكأنه تبارك وتعالى يريد من وراء هذا التهديد أن يُوزِّع رحمته لا جبروته ، كما تقسو على ولدك ليذاكر وتهدده ليجتهد . إذن : فالوعد بالخير خير ، والوعيد بالشر أيضاً خير ، فكل ما يأتيك من ربك ، فاعلم أنه خير لك ، حتى وإنْ كان تهديداً ووعيداً .

وهكذا قدمتْ لنا سورة الشعراء نموذجاً من تسلية الحق تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه ما يلاقي من حزن وألم على حال قومه وعدم إيمانهم ، وعرضَتْ عليه صلى الله عليه وسلم موكب الرسل ، وكيف أن الله أيَّدهم ونصرهم وهزم أعداءهم ودحرهم .

(191/573)

ثم سلاَّه ربه بأنْ رَدَّ على الكفار في افتراءاتهم ، وأبطل حججهم ، وأبان زَيْف قضاياهم ، ثم تختم هذه التسلية ببيان أن للظالمين عاقبة سيئة تنتظرهم وأبهم هذه العاقبة ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : 227] ليضخمها .

والشيء إذا حُدِّد إنما يأتي على لَوْن واحد ، وإنْ أُبهِم كان أبلغ ؛ لأن النفس تذهب في تصوُّره كل مذْهب ، كما لو تأخّر مسافر عن موعد عودته فنجلس ننتظره في قلق تسرّح بنا الظنون في سبب تأخره ، وفي احتمالات ما يمكن أنْ يحدث ، وتتوارد على خواطرنا الأوهام ، وكل وهم يَرِد في نفسك بألم ولذعة ، في حين أن الواقع شيء واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(192/573)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ قال : للصلاة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ قال : من فراشك أو من مجلسك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ قال : أينما كنت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد ابن جبير ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ قال : في صلاتك ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : كما كانت تقلب الأنبياء قبلك .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ قال : يراك قائماً وقاعداً وعلى حالاتك ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : قيامه وركوعه

وسجوده وجلوسه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ قال : يراك قائماً وقاعداً وعلى حالاتك ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجميع .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : في المصلين .

وأخرج الفريابي عن مجاهد ، مثله .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين ﴾ يقول : قيامك ، وركوعك ، وسجودك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : يراك وأنت مع الساجدين تقوم وتقعد معهم .

(193/573)

وأخرج سفيان بن عيينة والفريابي والحميدي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجاهد في قوله ﴿

وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى من خلفه في الصلاة كما يرى من بين يديه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رأى من خلفه كما يرى من بين يديه .

وأخرج مالك وسعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم ولا ركوعكم وإني لاراكم من وراء ظهري " .

وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده والبزار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجاهد في قوله ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبياً .

وأخرج سفيان بن عيينة والفريابي والحميدي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجاهد ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى من خلفه في الصلاة كما يرى من بين يديه .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى

ولدته أمه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : بأبى أنت وأمي أين كنت وآدم في الجنة ؟ فتبسم حتى بدت نواجده ثم قال " إني كنت في صلبه ، وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه ، وركبت السفينة في صلب أبي نوح ، وقذفت في النار في صلب أبي إبراهيم ، ولم يلتق أبواي قط على سفاح ، لم يزل الله ينقلني من الإِصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما .

(194/573)

قد أخذ الله بالنبوّة ميثاقي ، وبالإِسلام هداني ، وبين في التوراة والإِنجيل ذكري ، وبين كل شيء من صفتي في شرق الأرض وغربها ، وعلمني كتابه ، ورقي بي في سمائه ، وشق لي من أسمائه فذو العرش محمود وأنا محمد ووعدني أن يحبوني بالحوض ، وأعطاني الكوثر . وأنا أول شافع ، وأول مشفع ، ثم أخرجني في خير قرون أمتي ، وأمتي الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر " " .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن سعيد بن وهب قال : كنت عند عبد الله بن الزبير فقيل له : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه فقال ابن الزبير : صدق ثم تلا ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ على كل أفاك أثيم ﴾ قال : كذاب من الناس ﴿ يلقون السمع ﴾ قال : ما سمعه الشيطان ألقاه ﴿ على كل أفاك ﴾ كذاب من الناس .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ قال : الأفاك : الكذاب . وهم الكهنة تسترق الجن السمع ، ثم يأتون به إلى أوليائهم من الإِنس . وفي قوله ﴿ يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ قال : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتسمع ، ثم تنزل إلى الكهنة فتخبرهم ، فتحدث الكهنة بما أنزلت به الشياطين من السمع ، وتخلط الكهنة كذباً كثيراً ، فيحدثون به الناس . فأما ما كان من سمع السماء فيكون حقاً ، وأما ما خلطوا به من الكذب فيكون كذباً .

(195/573)

وأخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن عائشة قالت : " سأل أناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال : " إنهم ليسوا بشيء فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بالشيء يكون حقاً . قال : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة " " .

وأخرج البخاري وابن المنذر عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الملائكة تحدث في العنان – والعنان : الغمام – بالأمر في الأرض ؛ فيسمع الشيطان الكلمة فيقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة " .

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : تهاجى رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحدهما من الأنصار ؛ والآخر من قوم آخرين ، وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون . . ﴾ الآيات .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : تهاجى شاعران في الجاهلية وكان مع كل واحد منهما فئام من الناس . فأنزل الله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ .

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عروة قال : لما نزلت ﴿

والشعراء ﴾ إلى قوله ﴿ ما لا يفعلون ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله قد علم الله أني منهم . فأنزل الله ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إلى قوله ﴿ ينقلبون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي حسن سالم البراد قال : لما نزلت ﴿ والشعراء . . . ﴾ جاء عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، وهم يبكون فقالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم انا شعراء أهلكنا ؟ فأنزل الله ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاها عليهم .

(196/573)

وأخرج عبد بن حميد والحاكم عن أبي الحسن مولى بني نوفل ؛ أن عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت الشعراء يبكيان وهو يقرأ ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ حتى بلغ ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : أنتم ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ قال : أنتم ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : أنتم ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ قال : الكفار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ يتبعهم الغاوون

﴿ قال : هم الكفار ، يتبعون ضلال الجن والإِنس ﴿ في كل وادٍ يهيمون ﴾ في كل لغو يخوضون ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ أكثر ولهم مكذبون ، ثم استثنى منهم فقال ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ﴾ في كلامهم ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : ردوا على الكفار الذين كانون يهجون المؤمنين .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ والشعراء ﴾ قال : المشركون منهم الذين كانوا يهجون النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ غواة الجن ﴿ في كل واد يهيمون ﴾ في كل فن من الكلام يأخذون ، ثم استثنى فقال ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ يعني حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، كانوا يذبون عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هجاء المشركين .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ قال : هم الرواة .

وأخرج البخاري في الأدب وأبو داود في ناسخه عن ابن عباس قال ﴿ الشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ فنسخ من ذلك واستثنى فقال ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ﴾ قال : أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وعبد الله بن رواحة .

وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه ؟ فقال " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه – والذي نفسي بيده – لكأنما بوجههم مثل نضح النبل " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً " .

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود مرفوعاً : الشعراء الذين يموتون في الإِسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعراً تتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة ، والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثبور في النار .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من الشعر حكمة قال : وأتاه قرظة بن كعب ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت فقالوا : إنا نقول الشعر ، وقد نزلت هذه الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا ﴿ والشعراء ﴾ إلى قوله ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : أنتم هم ﴿ وذكروا

الله كثيراً ﴾ قال : أنتم هم ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : أنتم هم " .

وأخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ قال : كان الشاعران يتقاولان ليكون لهذا تبع ولهذا تبع .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ قال : هم عصاة الجن .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ قال : الشياطين ﴿ ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ﴾ قال : يمدحون قوماً بباطل ، ويشتمون قوماً بباطل .

(198/573)

وأخرج الفريابي وابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ قال : الشياطين ﴿ ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ﴾ قال : في كل فن يفتنون ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . ﴾ قال : عبد الله بن رواحة ، وأصحابه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

﴾ قال : هذه ثنية الله من الشعراء ومن غيرهم ﴿ وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : في بعض القراءة ﴿ وانتصروا بمثل ما ظلموا ﴾ قال : نزلت هذه الآية في رهط من الأنصار هاجوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ﴿ وسيعلم الذين ظلموا ﴾ من الشعراء وغيرهم ﴿ أي منقلب ينقلبون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . ﴾ قال : نزلت في عبد الله بن رواحة ، وفي شعراء الأنصار .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت " اهج المشركين فإن جبريل معك " .

وأخرج ابن سعد عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال " قيل يا رسول الله إن أبا سفيان بن الحرث بن عبد المطلب يهجوك ، فقام ابن رواحة ، فقال : يا رسول الله ائذن لي فيه قال : أنت الذي تقول ثبت الله ؟ قال : نعم . يا رسول الله قلت : "

ثبت الله ما أعطاك من حسن . . . تثبيت موسى ونصراً مثل ما نصرا

" قال : وأنت يفعل الله بك مثل ذلك ، ثم وثب كعب فقال : يا رسول الله ائذن لي فيه فقال : أنت الذي تقول همت ؟ قال : نعم يا رسول الله قلت : "

همت سخينة أن تغالب ربها . . . فليغلبن مغالب الغلاب

" قال : أما إن الله لم ينس لك ذلك ، ثم قام حسان الحسام فقال : يا رسول الله ائذن لي فيه ، وأخرج لساناً له اسود فقال : يا رسول الله ائذن لي فيه فقال : اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم ، وأيامهم ، وأحسابهم واهجهم وجبريل معك " .

وأخرج ابن سعد عن ابن بريدة ، أن جبريل أعان حسان بن ثابت على مدحته النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين بيتاً .

وأخرج ابن سعد وأحمد عن أبي هريرة قال : مر عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ إليه . فنظر إليه فقال : قد كنت أنشد فيه ، وفيه من هو خير منك . فسكت . ثم التفت حسان إلى أبي هريرة فقال : أنشدك بالله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " أجب عني اللهم أيده بروح القدس " ؟ قال : نعم .

وأخرج ابن سعد عن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وهم في سفر " أين حسان بن ثابت ؟ فقال : لبيك يا رسول الله وسعديك قال : أحد . فجعل ينشده ويصغي إليه حتى فرغ من نشيده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا أشد عليهم من وقع النبل " .

وأخرج ابن عساكر عن حسن بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعبد الله بن رواحة : " ما الشعر " ؟ قال : شيء يختلج في صدر الرجل فيخرجه على لسانه شعراً " .

وأخرج ابن سعد عن مدرك بن عمارة قال : " قال عبد الله بن رواحة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تقول الشعر إذا أردت أن تقول – كأنه يتعجب لذاك – ! قلت : انظر في ذاك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين " .

وأخرج ابن سعد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من يحمي أعراض المسلمين فقال عبد الله بن رواحة : أنا . وقال كعب بن مالك : أنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك تحسن الشعر . وقال حسان بن ثابت : أنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أهجهم فإن روح القدس سيعينك " .

(200/573)

وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إذا نصر القوم بسلاحهم أنفسهم فألسنتهم أحق . فقام رجل فقال : يا رسول الله أنا . قال : لست هناك . فجلس فقام آخر فقال : يا رسول الله أنا . فقال بيده معنى اجلس . فقام

حسان فقال : يا رسول الله ما يسرني به مقولاً بين صنعاء وبصرى ، وإنك ما سببت قوماً قط بشيء هو أشد عليهم من شيء يعرفونه ، فمر بي إلى من يعرف أيامهم وبيوتاتهم حتى أضع لساني ، فأمر به إلى أبي بكر " .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن سيرين رضي الله عنه قال : " هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثلاثة من كفار قريش : أبو سفيان بن الحرث ، وعمرو بن العاص ، وابن الزبعري ، قال قائل لعلي : أهج عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا فقال علي : إن أذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت . فقال : الرجل : يا رسول الله ائذن لعلي كيما يهجو عنا هؤلاء القوم الذين هجونا فقال : ليس هناك . ثم قال للأنصار : ما يمنع القوم الذين قد نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلاحهم وأنفسهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان بن ثابت : أنا لها يا رسول الله ، وأخذ بطرف لسانه فقال : والله ما يسرني بهم مقولاً بين بصرى وصنعاء فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وكيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : إني أسُلّكَ منهم كما تسل الشعرة من العجين ، فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار يجيبونهم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع ، والأيام ، والمآثر ، ويعيرونهم بالمناقب ، وكان ابن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إلى الكفر ، ويعلم أنه ليس فيهم شيء شراً من

الكفر . وكانوا في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإِسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة " .

(201/573)

وأخرج ابن أبي شيبة عن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن من الشعر حكماً " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول " إن من الشعر حكماً " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن من الشعر حكماً ، وإن من البيان سحراً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن فضالة بن عبيدة في قوله ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ قال : هؤلاء الذين يخربون البيت .

وأخرج أحمد عن أبي أمامة بن سهل حنيف قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقول : أتركوا الحبشة ما تركوكم ، فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يبايع رجل بين الركن والمقام ، ولن يستحل هذا البيت إلا أهله ، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب ، ثم تجيء الحبشة فتخربه خراباً لا يعمر بعده أبداً ، وهم الذين يستخرجون كنزه " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " اتركوا الحبشة ما تركوكم فإنه لا يستخرج كنز الكعبة إلا ذو السويقتين من الحبشة " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن عمرو قال : من آخر أمر الكعبة أن الحبشة يغزون البيت ، فيتوجه المسلمون نحوهم ، فيبعث الله عليهم ريحاً شرقية فلا تدع لله عبداً في قلبه مثقال ذرة من تقى إلا قبضته حتى إذا فرغوا من خيارهم بقي عجاج من الناس .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن علي بن أبي طالب قال كأني أنظر إلى رجل من الحبش ؛ أصلع ، أجمع ، حمش الساقين ، جالس عليها وهو يهدمها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال : كأني به : أصيلع ، أفيدع ، قائم عليها ، يهدمها بمسحاته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : كتب أبي في وصيته سطرين بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر ، ويتقي الفاجر ، ويصدق الكاذب . إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن رباح قال : كان صفوان بن محرز إذا قرأ هذه الآية بكى ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(203/573)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ :

قرأ نافعٌ وابنُ عامر بالفاءِ . والباقون بالواوِ . فأمَّا قراءةُ الفاءِ جَعَلَ فيها ما بعد الفاءِ

كالجزاءِ لما قبلها مُتَرَتِّباً عليه ، وقراءةُ الواوِ لمجرَّدِ عَطْفِ جملةٍ على أخرى .

قوله : ﴿ الذي يَرَاكَ ﴾ :

يجوزُ أنْ يكونَ مرفوعَ المحلِّ خبراً لمبتدأ محذوفٍ ، أو منصوبَه على المدحِ ، أو مجرورَهُ على النعتِ أو البدلِ أو البيانِ .

قوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ ﴾ :

عطفٌ على مفعول "يَراك" أي : ويرى تَقَلُّبَك . وهذه قراءةُ العامَّةِ . وقرأ جناح بن حبيش بالياء مِنْ تحتُ مضمومةً ، وكسر اللامِ ورفعِ الباء جَعَلَه فعلاً ، ومضارع "قَلَّب" بالتشديد ، وعَطَفَه على المضارعِ قبلَه ، وهو "يراك" أي : الذي يُقَلِّبُك .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221)

قوله : ﴿ على مَن تَنَزَّلُ ﴾ متعلِّقٌ "ب" تَنَزَّلُ" بعده . وإنما قُدِّمَ لأنَّ له صدرَ الكلامِ ، وهو مُعَلِّقٌ لما قبله مِنْ فعلِ التنبئةِ لأنَّها بمعنى العِلْمِ . ويجوزُ أنْ تكونَ هنا متعديةً لاثنين فتسدَّ الجملةُ المشتملةُ على الاستفهام مَسَدَّ الثاني ؛ لأن الأولَ ضميرُ المخاطبين ، وأنْ تكونَ متعدِّيةً لثلاثة فتسدَّ مَسَدَّ اثنين . وقرأ البزي "على مَنْ تَنَزَّلُ" بتشديد التاء [مِنْ تنزَّل] في الموضعين ، والأصل تَتَنَزَّلُ بتاءَيْن ، فأدغم . والإدغامُ في الثاني سَهْلٌ لتحرُّكِ ما قبل المُدْغَمِ ، وفي الأول صعوبةٌ لسكونِ ما قبلَه ، وهو نونُ "مَنْ" وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في

البقرة عند قوله : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ ﴾ [البقرة : 267] .

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223)

(204/573)

قوله : ﴿ يُلْقُونَ ﴾ : يجوز أَنْ يعودَ الضميرُ على " الشياطين " ، فيجوز أَنْ تكونَ الجملةُ مِنْ "يُلْقُون " حالاً ، وأَنْ تكونَ مستأنفةً . ومعنى إلقائِهم السمعَ : إنصاتُهم إلى الملأ الأعلى لِيَسْتَرِقُوا شيئاً ، أو يُلْقُوْن الشيءَ المسموعَ إلى الكهنةِ . ويجوز أَنْ يعودَ على ﴿ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ من حيثُ إنَّه جَمْعٌ في المعنى . فتكونُ الجملة : إمَّا مستأنفةً ، وإمَّا صفةً ل "كلِّ أَفَّاكٍ " ومعنى الإلقاء ما تقدَّم .

وقال الشيخ حالَ عَوْدِ الضميرِ على " الشياطين " ، وبعد ما ذكر المعنيين المتقدِّمين في إلقاءِ السَّمْعِ قال : " فعلى معنى الإِنْصاتِ يكونُ "يُلْقُون " استئنافَ إخبار ، وعلى إلقاءِ المسموع إلى الكَهَنَةِ يُحْتَمَلُ الاستئنافُ ، واحْتُمِلَ الحالُ من " الشياطين " أي : تَنَزَّل على كلِّ أَفَّاكٍ أثيمٍ مُلْقِيْنَ ما سَمِعُوا " . انتهى وفي تخصيصه الاستئنافَ بالمعنى الأولِ ، وتجويزِه الوجهين في المعنى الثاني نظرٌ ؛ لأنَّ جوازَ الوجهين جارٍ في المعنَيَيْن فيُحتاج في ذلك إلى دليلٍ .

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224)

قوله : ﴿ يَتَّبِعُهُمُ ﴾ : قد تقدَّمَ أن نافعاً يقرأ بتخفيف التاء ساكنة وفتح الباء في سورة الأعراف عند قوله : ﴿ لاَيَتَّبِعُوكم ﴾ [الأعراف : 193] والفرقُ بين المخفَّفِ والمثقَّلِ ، فَلْيُنْظَرْ ثَمَّة . وسكَّن الحسنُ العينَ ، ورُوِيَتْ عن أبي عمرٍو ، وليسَتْ ببعيدةٍ عنه كـ ﴿ يَنْصُرْكم ﴾ [آل عمران : 160] وبابه . وروى هارونُ عن بعضِهم نصبَ العينِ وهي غلط . والقولُ بأنَّ الفتحةَ للإتباعِ خطأٌ .

والعامَّةُ على رَفْعِ " الشعُراءُ " بالابتداءِ . والجملةُ بعدَه الخبرُ . وقرأ عيسى بالنصبِ على الاشتغال .

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225)

(205/573)

قوله : ﴿ يَهِيمُونَ ﴾ : يجوزُ أنْ تكون هذه الجملةُ خبرَ " أنَّ " . وهذا هو الظاهرُ ؛ لأنَّه مَحَطُّ الفائدةِ . و " في كل وادٍ " متعلقٌ به . ويجوزُ أنْ يكونَ " في كل وادٍ " هو الخبرَ ، و " يهيمون " حالٌ من الضميرِ في الخبر . والعاملُ ما تَعَلَّق به هذا الخبرُ أو نفسُ الجارِّ ، كما تقدَّم في نظيرِه غيرَ مرة . ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ خبراً بعد خبرٍ عند مَنْ يرى تعدُّدَ الخبرَ مطلقاً وهذا من بابِ الاستعارةِ البليغةِ والتمثيلِ الرائعِ ، شبَّه جَوَلانَهم في أفانينِ القولِ وطرائقِ المدحِ

والذمّ والتشبيهِ وأنواعِ الشعرِ بِهَيْمِ الهائمِ في كلِّ وادٍ وطريقٍ .

والهائِمُ : الذي يَخْبِط في سَيْرِه ولا يَقْصِدُ موضعاً معيَّناً . هام على وجهه : أي ذَهَبَ .

والهائِمُ : العاشِقُ من ذلك . والهيمانُ : العَطْشانُ . الهُيام : داءٌ يأخذُ الإبلَ من العطشِ .

وجمل أَهْيَمُ ، وناقةٌ هَيْماءُ . والجمع فيهما : هِيم . قال تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ﴾ [الواقعة : 55] . والهَيام من الرَّمْلِ : اليابسُ كأنهم تَخَيَّلُوا فيه معنى العطشِ .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

(206/573)

قوله : ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٍ ﴾ : منصوبٌ على المصدرِ . والناصبُ له "يَنْقَلِبُون" وقُدِّمَ لتضمُّنِه معنى الاستفهامِ . وهو مُعَلِّق ل "سَيَعْلَمُ" سادّاً مَسَدَّ مفعولَيْها . وقال أبو البقاء : "أيَّ مُنْقَلَبٍ صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ أَيْ : يَنْقلبون انقلاباً أيَّ مُنْقَلَبٍ . ولا يعملُ فيه "سَيَعْلم" لأنَّ الاستفهامَ لا يعمل فيه ما قبله" . وهذا الذي قاله مردودٌ : بأنَّ أيّاً الواقعةَ صفةً لا تكونُ استفهاميةً وكذلك الاستفهاميةُ لا تكونُ صفةً لشيء ، بل هما قِسْمان ، كلٌّ منهما قِسْمٌ برأسِه . و "أيّ" تنقسمُ إلى أقسامٍ كثيرةٍ وهي : الشرطيةُ ، والاستفهاميةُ ، والموصولةُ ،

والصفةُ والموصوفةُ عند الأخفش خاصة ، والمناداةُ نحو : يا أيُّهذا ، والمُوْصِلَةُ لنداءِ ما فيه أل نحو : يا أيُّها الرجلُ ، عند غير الأخفش . والأخفشُ يجعلُها في النداءِ موصولةً . وقد أَتْقَنْتُ ذلك في " شرح التسهيل " .

وقرأ ابن عباس والحسن " أي مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُون " بالفاءِ والتاءِ من فوقُ . من الانفلاتِ ، ومعناها واضحٌ . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 564. 567 ﴾

(207/573)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) ﴾

انْقَطِعْ إلينا ، واعتصِمْ بنا ، وتوسَّل إلينا بنا ، وكن على الدوام بنا ، فإذا قُلْتَ فَقُلْ بنا ، وإذا صُلْتَ فَصُلْ بنا ، واشهد بقلبك – وهو في قبضتنا – تتحققْ بأنك بنا ولنا .

توكّلْ على ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ تَجِدْ العِزّةَ بتوكلك عليه في الدارين ، فإنّ العزيز مَنْ وثق بالعزيز .

﴿ الرَّحِيمُ ﴾ الذي يقرِّبُ مَنْ تَقَرَّبَ إليه ، ويُجْزِلُ البِرَّ لمَنْ توسَّل به إليه .

الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218)

اقتطعه بهذه الآية عن شهود الخَلْق ، فإنّ مَنْ عَلِمَ أنه بمشهدٍ من الحقِّ رَاعَى دقائقَ أحواله ، وخفايا اموره مع الحقِّ .

وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219)

هَوَّنَ عليه معاناةَ مشاقِّ العبادة بإخباره برؤيته . ولا مشقّةَ لِمَنْ يَعْلَمُ أنّه بمرأىً من مولاه ، وإنّ حَمْلَ الجبالِ الرواسي على شَفْرِ جَفْنِ العينِ لَيَهونُ عند مَنْ يشاهد ربّه .

ويقال ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ ﴾ بين أصحابك ، فهم نجومٌ وأنت بينهم بَدْرٌ ، أو هم بدورٌ وأنت بينهم شَمْسٌ ، أو هم شموسٌ وأنت بينهم شمس الشموس .

ويقال : تقلبك في أصلابِ آبائك من المسلمين الذين عرفوا اللَّهَ ، فسجدوا له دوْن مَنْ لم يعرفوه .

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

﴿ السَّمِيعُ ﴾ لأنين المحبين ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحنين العارفين .

﴿ السَّمِيعُ ﴾ لأنين المُذْنبين ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوال المطيعين .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221)

بيَّن أن الشياطين تتنزَّلُ على الكفار والكهنة فتوحي إليهم بوساوسهم الباطلة .

وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224)

لَمَّا ذَكَرَ الوحيَ وما يأتي به الملائكةُ من قِبَلِ الله ذكر ما يوسوس به الشياطينُ إلى أوليائه ، وأَلْحَقَ بهم الشعراءَ الذين في الباطل يهيمون ، وفي أعراض الناس يقعون ، وفي التشبيهات – عن حدِّ الاستقامة – يخرجون ، ويَعِدُون من أنفسهم بما لا يُوفُون ، وسبيلَ الكذبِ يسلكون .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيراً وَانتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ .

فيكون شِعْرُه خالياً من هذه الوجوه المعلولة المذمومة ، وهذا كما قيل : الشعرُ كلامُ إنسان ؛ فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه .

قوله جلّ ذكره ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ .

سيعلم الذين ظلموا سوءَ ما عملوا ، ويندمون على ما أسلفوا ، ويصدقون بما كَذَّبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 20 . 22 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾

يعني : القرآن ويقال : إنه إشارة إلى ما ذُكر في أول السورة تلك آيات الكتاب المبين ، وأنه يعني : الكتاب لتنزيل رب العالمين ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ نَزَّلَ ﴾ بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف ، فمن قرأ بالتشديد ، فمعناه نَزَّلَ الله تعالى بالقرآن الروح الأمين ، يعني : جبريل عليه السلام نصب الروح لوقوع الفعل عليه ، يعني : أنزل الله تعالى جبريل بالقرآن ، ومن قرأ بالتخفيف ، فمعناه نزل جبريل عليه السلام بالقرآن ، فجعل الروح رفعاً ، لأنه فاعل ثم قال : ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ أي نزله عليك ليثبت به قلبك ويقال أي يحفظ به قلبك .

ويقال : ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ أي نزل على قدر فهمك وحفظك .

ويقال : أي نزله عليك فوعاه قلبك ، وثبت فيه ، فلا تنساه أبداً كما قال : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] ويقال : على قلبك يعني : على موافقة قلبك ومرادك ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ يعني : من المخوفين بالقرآن للكفار من النار .

ثم قال عز وجل : ﴿ لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ يعني : مبين لهم بلغتهم .

ويقال : بلغة قريش وهوازن ، وكان لسانهما أفصح .

(210/573)

قال مقاتل : وذلك أنهم كانوا يقولون : إنه يُعلمه أبو فكيهة ، وكان أعجمياً رومياً ، فأخبر أن القرآن بلغة قريش ﴿ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الاولين ﴾ يعني : أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وصفته في كتب الأولين ، كما قال : ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبى الأمى الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التوراة والإنجيل يَأْمُرُهُم بالمعروف وينهاهم عَنِ المنكر ويُحِلُّ لَهُمُ الطيبات ويُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبائث وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والاغلال التى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فالذين ءَامَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتبعوا النور الذى أُنزِلَ مَعَهُ أولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الأعراف : 157] والزبر الكتب ، واحدها زبور ، مثل رسل ورسول ، ويقال : إنه يعني : القرآن لفي زبر الأولين ، يعني : بعضه كان في كتب الأولين ، ويقال : نعت القرآن ، وخبره كان في كتب الأولين ، ثم قال عز وجل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءايَةً ﴾ بالتاء وضم الهاء ، وقرأ الباقون بالياء بلفظ التذكير ﴿ ءايَةً ﴾ بالنصب ، فمن قرأ بلفظ التذكير والنصب ، جعل ﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ اسم كان ، وجعل ﴿ ءايَةً ﴾ خبر كان ، والمعنى أو لم يكن لهم علم علماء بني

إسرائيل على جهة المعنى .

ومن قرأ بلفظ التأنيث والضم ، جعل ﴿ ءايَةً ﴾ هي الاسم ، ﴿ وَأَنْ يَعْلَمْهُ ﴾ خبر تكن ، ومعنى القراءتين واحد ، وذلك أن كفار مكة بعثوا رسولاً إلى يهود المدينة ، وسألوهم عن بعثته فقالوا : هذا زمان خروجه ونعته كذا ، فنزل : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءايَةً ﴾ يعني : لكفار مكة علامة ﴿ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِى إسراءيل ﴾ يعني : إن هذا علامة لهم ليؤمنوا به .

(211/573)

ثم قال : ﴿ وَلَوْ نزلناه على بَعْضِ الاعجمين ﴾ يعني : القرآن لو نزلناه بالعبرانية على رجل ليس بعربي اللسان من العبرانيين ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم ﴾ يعني : على كفار مكة ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : بالقرآن ، فهذا منة من الله تعالى ، حيث خاطبهم بلغتهم ليعرفوه وليفهموه .

وقال القتبي : في قوله على بعض الأعجمين .

يقال : رجل أعجمي إذا كان في لسانه عجمة ، وإن كان من العرب ، ورجل عجمي بغير ألف إذا كان من العجم وإن كان فصيح اللسان .

ثم قال عز وجل : ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ يعني : جعلنا التكذيب بالقرآن ﴿ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ يعني : المشركين مجازاة لهم أن طبع على قلوبهم ، وسلك فيها التكذيب .

ويقال : جعل حلاوة الكفر في قلوبهم ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعني : بالقرآن ويقال : بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الاليم ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ يعني : يأتيهم العذاب فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ به فيتمنون الرجعة والنظرة ﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ فلما وعدهم العذاب قالوا : فأين العذاب ؟ تكذيباً به يقول الله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعني : أبمثل عذابنا يستهزئون ثم قال ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن متعناهم سِنِينَ ﴾ يعني : سنين الدنيا كلها .

ويقال : سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب .

قوله عز وجل : ﴿ مَا أغنى عَنْهُمْ ﴾ يعني : ما ينفعهم ﴿ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ في الدنيا .

ثم خوفهم فقال : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ يعني : من أهل قرية فيما خلا ﴿ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ يعني : رسلاً ينذرونهم ﴿ ذِكْرِى ﴾ يعني : العذاب تذكرة وتفكراً ، قال بعضهم : إن ﴿ ذِكْرِى ﴾ في موضع النصب .

وقال بعضهم : في موضع رفع ، أما من قال : في موضع النصب ، فيقول لها منذرون يذكرونهم ذكرى ، يعني : يعظونهم عظة .

ومن قال : إنه في موضع رفع فيقول لها منذرونهم ذكرى ﴿ وَمَا كُنَّا ظالمين ﴾ يعني : بإهلاكنا إياهم ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ .

روي عن الحسن أنه قرأ ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ﴾ شبههُ بقوله : كافرون ومسلمون .

قال أبو عبيدة : وهذا وهم ، لأن واحدها شيطان ، والنون فيه أصلية أما مسلمون وكافرون ، فالنون فيهما زائدة في الجمع ، لأن واحدهما مسلم وكافر .

وقال بعضهم : هذا غلط على الحسن ، لأنه كان فصيحاً لا يخفى عليه ، وإنما الغلط من الراوي ، ومعنى الآية أن المشركين كانوا يقولون : إن الشيطان هو الذي يقرأ عليه .

قال الله تعالى رداً لقولهم : ﴿ ظالمين وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ ﴿ وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ ﴾ يعني : وما جاز لهم ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ذلك وقد حيل بينهم وبين السمع .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال لا يستطيعون أن يحملوا القرآن ، ولو فعلوا ذلك لاحترقوا .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ يعني : إنهم عن الاستماع لمحجوبون وممنوعون ثم قال ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ وذلك حين دُعي إلى دين آبائه ، فأخبر الله تعالى أنه لو اتخذ إلها آخر عذبه الله تعالى ، وإن كان كريماً عليه كقوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] فكيف بغيره .

وروي في الخبر : أن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل ، يقال له أرميا ، بأن يخبر قومه بأن يرجعوا عن المعصية ، فإنهم إن لم يرجعوا أهلكتهم ، فقال أرميا : يا رب إنهم أولاد أنبيائك ، وأولاد إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، أفتهلكهم بذنوبهم ؟ فقال الله تعالى : وإنما أكرمت أنبيائي ، لأنهم أطاعوني ، ولو أنهم عصوني لعذبتهم ، وإن كان إبراهيم خليلي ويقال : ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم المراد به غيره ، لأنه علم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتخذ إلها آخر ثم قال ﴿ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين ﴾ إن عبدت غيري ، فتكون من الهالكين .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ يعني : خوف أقرباءك بالنار لكي يؤمنوا ، أو يثبتوا على الإيمان من كان منهم مؤمناً .

وروى هشام عن الحسن قال لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ جمع النبي صلى الله عليه وسلم أهل بيته فقال لهم : "يَا بَنِي هَاشِمٍ يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ، وَأَنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، وَإِنَّما أَوْلِيائِي

مِنْكُمُ الْمُتَّقُونَ ، فَلا أَعْرِفَنَّ مَا جَاءَ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالآخِرَةِ ، وَجِئْتُمْ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ " وذكر السدي هكذا ثم قال : " أَلا فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ " .

(214/573)

وروي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال لما نزل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا ، فصعد عليه ، ثم نادى بأعلى صوته : " يا صباحاه " فاجتمع الناس فقال صلى الله عليه وسلم : " يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي هَاشِمٍ ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِسَفْحِ هذا الجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَصَدَّقْتُمُونِي ؟ " قالوا : نعم .

قال : " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا دعوتنا ؟ فنزل ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] .

ثم قال عز وجل : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ يعني : لين جانبك لمن اتبعك من المؤمنين يعني : من المصدقين ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ ﴾ قال مقاتل : فيها تقديم يعني : الأقربين أي : فإن خالفوك ﴿ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من الشرك ثم قال : ﴿

وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالفاء فتوكل ، لأنه متصل بالكلام الأول ، ودخلت الفاء للجزاء وقرأ الباقون : ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ بالواو على وجه العطف ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ يعني : أي ثق بالله ، وفوض جميع أمورك إلى العزيز الرحيم ﴿ الذى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ في الصلاة وحدك ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى الساجدين ﴾ أي : وحين تصلي في الجماعة .

وقال عكرمة : وتقلبك في الساجدين قال في حال القيام والركوع والسجود يعني : يرى قيامك وركوعك وسجودك ، ويراك مع المصلين ويقال : الذي يراك حين تقوم من مقامك للصلاة بالليل ، ويقال : حين تقوم وتدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، ويقال وتقلبك في الساجدين يعني : تقلبك في أصلاب الآباء ، وأرحام الأمهات من آدم إلى نوح ، وإلى إبراهيم ، وإلى من بعده صلوات الله عليهم .

(215/573)

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾ يعني : بآبائهم وبأعمالهم .

ثم قال ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ يعني : هل أخبركم ﴿ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين ﴾ هذا موصول بقوله : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ ﴿ تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ يعني : كذاب

صاحب الإثم ، فاجر القلب .

الأفاك الكذاب ، والأثيم الفاجر ، يعني به كهنة الكفار ﴿ يُلْقُونَ السمع ﴾ يعني : يلقون بآذانهم إلى السمع من السماء لكلام الملائكة عليهم السلام ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ يعني : حين يخبرون الكهنة .

وروى معمر عن الزهري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : الشياطين تسترق السمع ، فتجيء بكلمة حق ، فتقذفها في أذن وليها ، فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ، وهذا كان قبل أن يحجبوا من السماء ثم قال عز وجل : ﴿ والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ قال قتادة ومجاهد : يتبعهم الشياطين .

وقال في رواية الكلبي : الغاوون هم الرواة الذين كانوا يروون هجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيتبعهم .

ويقال : الغاوون هم الضالون .

ويقال : شعراء الكفار كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ يعني : في كل وجه وفن يذهبون ويخوضون ، يأخذون مرة يذمون ، ومرة يمدحون ، وذكر عن القتبي أنه قال : في كل واد يهيمون من القول ، وفي كل مذهب يذهبون كما تذهب البهائم على وجهها .

وقال غيره : هام الرجل والبعير ، إذا مضى على وجهه ، لا يدري أين يذهب ، فكذلك

الشاعر يأخذ كلامه لا يدري أين ينتهي .

قرأ نافع وحده يتبعهم بجزم التاء ، والتخفيف ، وقرأ الباقون يتبعهم بنصب التاء والتشديد ، وهما بمعنى واحد يتبعهم ويتبعهم ثم قال : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعني : أن الشعراء يقولون : قد فعلنا كذا وكذا .

(216/573)

وقلنا : كذا ، فيمدحون بذلك أنفسهم وهم كذبة ، ثم استثنى شعراء المسلمين حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك رضي الله عنهم ، فقال عز وجل : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً ﴾ يعني : ذكروا الله في أشعارهم .

ويقال : وذكروا الله عز وجل في الأحوال كلها ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ يعني : انتصر شعراء المسلمين من شعراء الكافرين ، فكافؤوهم والبادىء أظلم .

ويقال : انتصروا من أهل مكة من بعد ما أخرجوا ، لأن الحرب تكون بالسيف وباللسان ، فأذن القتال بالشعر ، كما أذن بالسيف ، إذ فيه قهرهم .

ثم أوعد شعراء الكافرين فقال تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُواْ ﴾ يعني : الذين هجوا المسلمين ﴿ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ يعني : أي مرجع يرجعون إليه في الآخرة يعني : إلى

الخسران والنار .

ويقال : هاتان الآيتان مدنيتان ، يذكر أنه لما نزل ﴿ والشعراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ جاء عبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، وهما يبكيان فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ والشعراء ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فقال : عليه السلام " هذا أنتم ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ " .

وروي عن عكرمة قال عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً ، وَإِنَّ مِنَ الشُّعَرَاءِ لَحُكَمَاءَ " وفي رواية أخرى : " وَإِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْراً " والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 567. 571 ﴾

(217/573)

وقال الثعلبي :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾

يعني القرآن ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ قرأ الحجازيّون وأبو عمر بتخفيف الزاي ورفع الحاء والنون يعنون جبرئيل (عليه السلام) بالقرآن ، وقرأ الآخرون بتشديد الزاي وفتح الحاء

والنون أي نزّل الله جبرئيل (عليه السلام) ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم لقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ ﴾ وهو مصدر نزّل ، على قلبك يا محمد حتى وعيته .

﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين * بِلِسَانٍ ﴾ يعني نزل بلسان ﴿ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ ﴾ يعني ذكر القرآن وخبره عن أكثر المفسرين وقال مقاتل : يعني ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ﴿ لَفِي زُبُرِ ﴾ كتب ﴿ الأولين ﴾ وقرأ الأعمش زُبر بجزم الباء ، وغيره بالرفع .

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً ﴾ قرأ ابن عامر تكن بالتاء ﴿ آيَةً ﴾ بالرفع ، غيره تكن بالتاء آيةً بالنصب ، ومعنى الآية أولم يكن لهؤلاء المنكرين دلالة وعلامة ﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ يعني محمداً ﴿ عُلَمَاءُ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ .

عبد الله بن سلام وأصحابه قال ابن عباس : بعث أهل مكة الى اليهود وهم بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن هذا لزمانه وإنّا نجد في التوراة نعته وصفته وكان ذلك آية لهم على صدقه .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ على بَعْضِ الأعجمين ﴾ هو جمع الأعجم ، وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية وإن كان منسوباً الى العرب ، وتأنيثه عجماء ، وجمعه عجم ، ومنه قيل للبهائم عجم أنها لا تتكلم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " العجماء جرحها جُبار " فإذا أردت أنه منسوب إلى العجم قلت : عجمي .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش قال : حدّثنا أبو القاسم بن الفضل قال : حدّثنا سهل بن علي قال : حدّثنا أبو عمر قال : حدّثنا شجاع بن أبي نصر عن عيسى بن عمر عن الحسن أنّه قرأ "ولو نزّلناه على بعض الأعجميين" مشدّدة بيائين ، جعله نسبة ومعنى الآية : ولو نزّلناهُ على رجل ليس بعربي اللسان فقرأهُ عليهم بغير لغة العرب لما كانوا به مؤمنين ، وقالوا : ما نفقه قولك نظيرهُ قوله سبحانه ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ [فصلت : 44] ، وقيل معناه : ولو نزّلناه على رجل ليس من العرب لما آمنوا به أنفة من اتّباعه .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ أي أدخلنا القرآن ﴿ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ لتقوم الحجة عليهم ، وقيل : يعني سلكنا الكفر في قلوب المجرمين ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

قال الفرّاء : من شأن العرب إذا وضعت (لا) موضع (كي) في مثل هذا ربّما جزمت ما بعدها وربّما رفعت فتقول : ربطت الفرس لا ينفلت جزماً ورفعاً ، وأوثقت العبد لا يأبق في الجزم على تأويل إن لم أربطه انفلت ، وإن لم أُوثقه فرَّ ، والرفع على أنّ الجازم غير ظاهر .

أنشد بعض بني عقيل :

وحتى رأينا أحسن الود بيننا . . . مساكنة لا يقرف الشر قارف

ينشد رفعاً وجزماً ، ومن الجزم قول الراجز :

لطال ما حلأتماها لا ترد . . . فخليّاها والسجال تبترد

﴿ حتى يَرَوْاْ العذاب الأليم * فَيَأْتِيَهُم ﴾ قراءة العامة بالياء يعنون العذاب .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش قال : أخبرنا أبو العباس عبد الرَّحْمن بن محمد ابن حماد الطهراني قال : أخبرنا أبو زكريا يحيى بن الفضل الحرمي قال : حدّثنا وهب بن عمرو النمري قال : أخبرنا هارون بن موسى العتكي قال : حدّثنا الحسام عن الحسن أنه قرأ ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ بالتاء فقال له رجل : يا أبا سعيد إنما يأتيهم العذاب بغتة فانتهره الحسن وقال : إنّما هي الساعة .

(219/573)

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ .

قال مقاتل : فقال المشركون : يا محمد إلى متى توعدنا بالعذاب ؟ فأنزل الله عزَّ وجل ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ في الدنيا ولم نهلكهم ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ يعني العذاب ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ * وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن

قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ رُسل ينذرونهم ﴿ ذكرى ﴾ أي ينذرونهم تذكرة محلّها نصب ، وقيل رفع أي تلك ذكرى .

﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ في تعذيبهم حيث قدّمنا الحجّة عليهم وأعذرنا إليهم .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ بل نزل به الروح الامين ، وقراءة العامّة الشياطين بالياء في جميع القرآن لأن نونه سنخية وهجاؤه واحد كالدهاقين والبساتين .

وقرأ الحسن البصري ومحمد بن السميدح اليماني : الشياطون بالواو

وقال الفراء : غلط الشيخ يعني الحسن فقيل : ذلك النضر بن شميل فقيل : إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة ودونهما فهلاّ جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه ؟ مع إنّا نعلم أنهما لم يقرآ ذلك إلاّ وقد سمعا فيه .

وقال المؤرّخ : إن كان اشتقاق الشياطين من شاط يشيط كان لقراءتهما وجه .

وأخبرني عمر بن شبّه قال : سمعت أبا عبيد يقول : لم نعب على الحسن في قراءته إلاّ قوله : وما تنزّلت به الشياطون .

وبإسناده عن عمر بن شبّه قال : حدّثنا أبو حرب البابي من ولد باب قال : جاء أعرابي إلى يونس بن حبيب فقال : أتانا شاب من شبابكم هؤلاء فأتى بنا هذا الغدير فأجلسنا في ذات جناحين من الخشب فأدخلنا بساتين من وراءها بساتون .

قال يونس : ما أشبه هذا بقراءة الحسن .

﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ ﴾ أن ينزلوا القرآن ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ذلك ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع ﴾ أي استراق السمع من السماء ﴿ لَمَعْزُولُونَ ﴾ وبالشهب مرجومون ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين * وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ .

أخبرني الحسين بن محمد بن الحسين قال : حدّثنا موسى بن محمد بن علي بن عبد الله قال : حدّثنا الحسن بن علي بن شبيب المعمر قال : حدّثني عبّاد بن يعقوب قال : حدّثنا علي بن هاشم عن صباح بن يحيى المزني عن زكريا بن ميسرة عن أبي إسحاق عن البراء قال : لمّا نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً ، الرجل منهم يأكل المسنّة ويشرب العس ، فأمر عليّاً برِجْل شاة فأدمها ثم قال : ادنُوا باسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا ، ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ثم قال لهم : اشربوا باسم الله ، فشرب القوم حتى رووا فبدرهم أبو لهب فقال : هذا ما يسحركم به الرجل ، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ فلم يتكلّم .

ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله صلى الله عليه

وسلم فقال : " يا بني عبد المطلب إنّي أنا النذير إليكم من الله سبحانه والبشير لما يجيء به أحد منكم ، جئتكم بالدنيا والآخرة فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ، ومَن يواخيني ويؤازرني ويكون وليّي ووصيي بعدي ، وخليفتي في أهلي ويقضي ديني ؟ فسكت القوم ، وأعاد ذلك ثلاثاً كلّ ذلك يسكت القوم ، ويقول علي : أنا فقال : " أنت " فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد أُمِّر عليك " .

(221/573)

وأخبرنا عبد الله بن حامد الاصفهاني ومحمد بن عبد الله بن حمدون قالا : أخبرنا أحمد ابن محمد بن الحسن قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدّثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني سعيد بن المسيّب وأبو سلمة بن عبد الرَّحْمن أنَّ أبا هريرة قال : " قام النبي صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله سبحانه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ قال : " يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله ، لا أُغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أُغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أُغني عنكم من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد لا أُغني عنكِ من الله شيئاً ، يا صفيّة عمّة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً ، فسلوني من مالي ما شئتم " " .

وأخبرني عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا عبد الله قال : حدّثنا الأعمش عن عبد الله بن مرّة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : " لمّا أنزل الله سبحانه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء وبين رجل يبعث رسولا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟

قالوا : نعم

قال : فإني نذير كم بين يدي عذاب شديد

فقال أبو لهب : تبّاً لك سائر اليوم ، ما دعوتنا إلاّ لهذا ، فأُنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] " .

﴿ واخفض جَنَاحَكَ ﴾ فليّن جانبك ﴿ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من عبادة الأوثان ومعصية الرحمن .

﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ بالفاء أهل المدينة والشام وكذلك هو في مصاحفهم ، وغيرهم بالواو أي وتوكل ﴿ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ ليكفيك كيد أعدائك .

﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى صلاتك عن أكثر المفسّرين .

وقال مجاهد : الذي يراك أينما كنت ﴿ وَتَقَلُّبَكَ ﴾ ويرى تقلّبك في صلوتك في حال قيامك وقعودك وركوعك وسجودك .

قال عكرمة وعطيّة عن ابن عباس ، وقال مجاهد : ويرى تقلّبك في المصلّين أي إبصارك منهم من هو خلفك كما تبصر من هو أمامك .

قال : وكان يرى من خلفه كما يرى من بين يديه .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن قال : حدّثنا السلمي وأحمد بن حفص وعبد الله الفرّاء وقطن قالوا : حدّثنا حفص قال : حدّثنا إبراهيم بن طهمان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اتمّوا الركوع والسجود فوالله إنّي لأراكم من بعد ظهري إذا ركعتم وسجدتم " .

وقال قتادة وابن زيد ومقاتل والكلبي : يعني وتصرّفك مع المصلّين في أركان الصلاة في الجماعة قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً ، وهي رواية عطاء الخراساني عن ابن عباس .

وقال سعيد بن جبير : وتصرّفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك تفعله ، والساجدون في هذا القول : الأنبياء .

وقال الحسن : يعني وتصرّفك وذهابك ومجيئك في أصحابك والمؤمنين .

أخبرني أبو سهل عبد الملك بن محمد بن أحمد بن حبيب المقري قال : حدّثنا أبو بكر أحمد بن موسى ، قال : حدّثنا زنجويه بن محمد ، قال : حدّثنا عليّ بن سعيد النسوي أبو عاصم عن صهيب عن عكرمة عن ابن عباس ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال : من نبي الى نبيّ حتى أخرجك في هذه الأُمة .

وحدّثنا أبو الحسن محمد بن علي بن سهل الماسرخسي الفقيه إملاءً قال : أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد البصري بمكة قال : حدّثنا الحسن بن بشر قال : حدّثنا سعدان بن الوليد عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس في قوله سبحانه ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال : ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أُمّهُ .

(223/573)

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لقراءتك ﴿ العَلِيمُ ﴾ بعملك .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ثمّ بيّن فقال ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ كذّاب ﴿ أَثِيمٍ ﴾ فاجر ، وهم الكهنة .

وقال مقاتل : مثل مسيلمة وطلحة .

﴿ يُلْقُونَ السمع ﴾ يعني يستمعون من الملائكة مسترقين فيلقون إلى الكهنة .

﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ لانّهم يخلطون به كذباً كثيراً ، وهم الآن محجوبون والحمد لله ربّ العالمين .

﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ .

أخبرنا أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الحربي قال : أخبرنا أبو حامد أحمد بن حمدون بن عمارة الأعمش قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن قهزاد المروزي قال : حدّثنا حاتم بن العلاء قال : أخبرنا عبد المؤمن عن بريده عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ قال : هم الشياطين ، يدل عليه قوله سبحانه وتعالى ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾ [الصافات : 32] .

وقال الضحّاك : تهاجى رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، ومع كل واحد منهم غواة من قومه وهم السفهاء ، فنزلت هذه الآية وهي رواية عطيّة عن ابن عباس .

عكرمة عنه : الرواة .

علي بن أبي طلحة عنه : كفّار الجنّ والإنس .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة بن محمد وعبيد الله بن أحمد قالا : حدّثنا أبو

بكر بن مجاهد قال : أخبرني جعفر بن محمد قال : حدّثنا حسين بن محمد بن علي قال : حدّثنا أبي عن عبد الله بن سعيد بن الحر عن أبي عبد الله ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ قال : هم الذين يشعرون قلوب الناس بالباطل ، وأراد بهؤلاء شعراء الكفّار : عبد الله بن الزبعرى المخزومي ، وهبيرة بن أبي وهب ، ومسافع بن عبد مناف ، وعمرو بن عبد الله أبا عزّة الجمحي ، وأُميّة بن أبي الصلت كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتّبعهم الناس .

(224/573)

أخبرني الحسن بن محمد بن الحسين قال : حدّثنا عبيد الله بن محمد بن شنبة قال : حدّثنا محمد بن عمران بن هارون قال : حدّثنا علي بن سعيد النسوي قال : حدّثنا عبد السلام عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن مكحول عن أبي إدريس عن غضيف أو أبي غضيف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " مَن أحدث هجاءً في الإسلام فاقطعوا لسانه " .

وأخبرني الحسين بن محمد قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن إسحاق السُني قال : أخبرنا أبو يعلى قال : حدّثنا إبراهيم بن عرعرة قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن بن مهدي قال : حدّثنا

يعقوب القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لمّا فتح النبي صلى الله عليه وسلم يعني مكة رنّ إبليس رنّةً فاجتمعت إليه ذريّته فقال : "آيسوا أن ترتد أُمة محمد على الشرك بعد يومكم هذا ، ولكن أفشوا فيها يعني مكة الشعر والنوح" .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ ﴾ من أودية الكلام ﴿ يَهِيمُونَ ﴾ حائرين وعن طريق الحق والرشد جائرين .

قال الكسائي : الهائم الذاهب على وجهه .

أبو عبيد : الهائم المخالف للقصد .

قال ابن عباس في هذه الآية : في كل لغو يخوضون ، مجاهد : في كل فن يفتنون ، قتادة : يمدحون قوماً بباطل ، ويشتمون قوماً بباطل .

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ ثمّ استثنى شعراء المؤمنين : حسّان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكعب بن زهير فقال عزّ من قائل ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ يعني ردّوا على المشركين الذين هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد الكسائي قال : حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة قال : حدّثنا يحيى بن واضح عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي الحسن البراد قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ جاء عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وحسّان بن ثابت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون فقالوا : يا رسول الله أنزل الله سبحانه هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء ، فقال : إقرؤوا ما بعدها ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً ﴾ أنتم ﴿ وانتصروا ﴾ أنتم . "

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا أبو اليمان قال : أخبرنا شعيب عن الزهري .

وأخبرنا ابن حمدون قال : أخبرنا ابن الشرقي قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن الزهري قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنّه قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله سبحانه في الشعراء ما أنزل : يا رسول الله إنَّ الله سبحانه وتعالى قد أنزل في الشعراء ما قد علمت فكيف ترى فيه ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأنّ ما ترمونهم به نضح النبل " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عمر بن الخطاب قال : حدّثنا عبد الله بن الفضل قال :

حدّثنا عمرو بن محمد الناقد قال : حدّثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة " أنَّ عمر مرَّ بحسّان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال : قد كنت أُنشد فيه وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة وقال : أُنشدك بالله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أجب عنّي ، اللهم أيده بروح القدس " ؟ قال : اللّهم نعم . "

(226/573)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا محمد بن علي بن سالم الهمداني قال : حدّثنا أحمد بن منيع قال : حدّثنا أبو معاوية قال : حدّثنا الشيباني عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسّان : " اهجُ المشركين فإنَّ جبرئيل معك " .

﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا ﴾ أشركوا ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ أيّ مرجع يرجعون إليه بعد مماتهم .

وروى نوفل بن أبي عقرب عن ابن عباس رضي الله عنه (أيّ منقلب ينفلتون) بالفاء والتاء ومعناهما واحد .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبة قال : حدّثنا الفريابي قال : حدّثنا عبيد الله

بن معاذ قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا ابن عون عن إبراهيم قال : كان شريح يقول : سيعلم الظالمون حظّ من نقصُوا ، إنّ الظالم ينتظر العقاب ، وإنّ المظلوم ينتظر النصر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 179.187 ﴾

(227/573)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (192) ﴾

وَإِنَّهُ وإن هذا التنزيل ، يعنى : ما نزل من هذه القصص والآيات . والمراد بالتنزيل : المنزل . والباء في نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ ونزل به الروح ، على القراءتين للتعدية . ومعنى نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ جعل اللّه الروح نازلا به عَلى قَلْبِكَ أى : حفظكه وفهمك إياه ، وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى ، كقوله تعالى سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ إما أنّ يتعلق بالمنذرين ،

(228/573)

فيكون المعنى : لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة : هود ، وصالح ، وشعيب ، وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وإما أن يتعلق بنزل ، فيكون المعنى : نزله باللسان العربي «1» لتنذر به ، لأنه لو نزله باللسان الأعجمى ، لتجافوا عنه أصلا ، ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به وفي هذا الوجه : أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك ، لأنك تفهمه ويفهمه قومك . ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك ، لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفا بعدّة لغات ، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولا ونشأ عليها وتطبع بها ، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت ، وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهرا بمعرفتها كان نظره أولا في ألفاظها ثم في معانيها ، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربى مبين وَإِنَّهُ وإن القرآن - يعنى ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية . وقيل : إن معانيه فيها . وبه يحتج لأبى حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية حيث قيل وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ لكون معانيه فيها . وقيل : الضمير لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وكذلك في أَنْ يَعْلَمَهُ وليس بواضح .

[سورة الشعراء (26) : آية 197]

أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (197)

وقرئ : يكن ، بالتذكير . وآية ، بالنصب على أنها خبره ، وأَنْ يَعْلَمَهُ هو الاسم . وقرئ . تكن ، بالتأنيث ، وجعلت آيَةً اسماء ، وأَنْ يَعْلَمَهُ خبرا ، وليست كالأولى لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبرا ، وقد خرّج لها وجه آخر ليتخلص من ذلك ، فقيل : في يَكُنْ ضمير القصة ، وآيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ جملة واقعة موقع الخبر . ويجوز على هذا أن يكون لَهُمْ آيَةً هي جملة الشأن ، أَنْ يَعْلَمَهُ بدلا عن آية . ويجوز مع نصب الآية تأنيث يَكُنْ كقوله تعالى ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ومنه بيت لبيد :

---

(1) . عاد كلامه . قال : واعلم أن الآيات الأول كالمقدمات لهذه الآيات ، فان اللّه تعالى أبان أنه منزل بلغتهم التي لا يعرفون غيرها ، وعلى لسان عربى لو أشكل عليهم فهم شيء منه لكان البيان عنده عتيدا ناجزا ، وما نزله على لسان أعجمى قد يعتذرون بأنه لا يفهمهم ما استغلق على أفهامهم من معانيه ، فقد أزاح أعذارهم ودحض حججهم ، وسلكه في قلوبهم ومكنهم من فهمه أشد التمكين ، ولكن لم يوفقهم بل قدر عليهم أنهم لا يؤمنون» قال أحمد : يعنى بقوله قدر عليهم أنهم لا يؤمنون علم أنهم لا يؤمنون ، لأن التقدير عنده العلم . والحق أن اللّه تعالى أراد منهم أنهم لا يؤمنون . وهذا تقرير لجواب عن سؤال مقدر ، وهو أن يقال : قلوبهم نائية عن قبول الحق ، لا يلجها بوجه ولا بسبب ، فكيف يسلك الحق فيها ؟ فيجاب عنه بهذا الجواب ، واللّه أعلم .

فمضى وقدّمها وكانت عادة منه إذا هي عرّدت أقدامها «1»

وقرئ: تعلمه، بالتاء. عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ: عبد اللّه بن سلام وغيره. قال اللّه تعالى وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. فإن قلت: كيف خط في المصحف «علمؤا» بواو قبل الألف؟ قلت: خط على لغة من يميل الألف إلى الواو وعلى هذه اللغة كتبت الصلوة والزكاة والربوا.

[سورة الشعراء (26): الآيات 198 إلى 207]

وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (202)

فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (206) ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (207)

الأعجم: الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجام. والأعجمى مثله، إلا أن فيه لزيادة

ياء النسبة زيادة تأكيد . وقرأ الحسن : الأعجميين . ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه ، قالوا له : أعجم وأعجمى ، شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين ، وقالوا لكل ذى صوت من البهائم والطيور وغيرها : أعجم ، قال حميد :

ولا عربيّا شاقه صوت أعجما «2»

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 13 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) وما هاج هذا الشوق إلا حمامة دعت ساق حر ترحة وتندما

فغنت على غصن عشاء فلم تدع لنائحة في نوحها متندما

عجبت لها أنى يكون غناؤها فصيحا ولم تغفر بمنطقها فما

ولم أر مثلي شاقه صوت مثلها ولا عربيا شاقه صوت أعجما

لحميد بن ثور ، وقد رحلت صاحبته سلمى ، يقول : وما حرك هذا الشوق وبعثه فتوقد بقلبي . إلا حمامة دعت ذكرها وساق حر : مركب إضافى : وهو ذكر القمري ، أو ذكر الحمام مطلقا . والحر - بالضم - : فرخ الحمامة ، والترحة :

الحزن ، ضد الفرحة ، والتندم : التأسف على ما فات . ويروى «ترنما» وهو تحسين الصوت ، وهما نصب على الحالية ، أى : حزينة ومتأسفة . أو ذات ترحة وذات تندم .

وعشا : نصب على الظرف ، فلم تدع : أى تترك لنائحة في غنائها ، متندما : أى تندما أو شيئا يتندم به أو فيه . ويجوز أن ضمير نوحها للنائحة ، وأنى بمعنى : كيف ، أو من أنى .

والاستفهام تعجبي . والفصيح : البين الخالي عن اللكنة والتعقيد . وفغر فاه يفغره ، من باب نفع :

فتحه ، أي : والحال أنها لم تفتح فمها بنطقها ، وإنما يخرج صوتها من صدرها . وشاقه : تسبب له في الشوق ، والعربي : المفصح . والأعجم : الذي لا يفصح من الحيوان ، نقلته العرب لمن لا يفهمون كلامه ولا يفقهون مراده ، وربما ألحقوه ياء النسب للمبالغة في شدة العجمة وبينه وبين عربى طباق التضاد .

(230/573)

سَلَكْناهُ أدخلناه ومكناه . والمعنى : إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين ، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله ، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتحلية المنزل عليه وصفته في كتبهم ، وقد تضمنت معانيه وقصصه ، وصحّ بذلك أنها من عند اللّه وليست بأساطير كما زعموا ، فلم يؤمنوا به وجحدوه ، وسموه شعرا تارة ، وسحرا أخرى ، وقالوا : هو من تلفيق محمد وافترائه وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الأعاجم الذي لا يحسن العربية ، فضلا أن يقدر على نظم مثله فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ هكذا فصيحا معجزا متحدّى به ، لكفروا به كما

كفروا ، ولتمحلوا لجحودهم عذرا ، ولسموه سحرا ، ثم قال كَذٰلِكَ سَلَكْنَاهُ أى مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم ، وهكذا مكناه وقرّرناه فيها ، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها ، فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أى وجه دبر أمرهم ، فلا سبيل أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره ، كما قال وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . فإن قلت : كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته ؟ قلت : أراد به الدلالة على تمكنه مكذبا في قلوبهم أشدّ التمكن ، وأثبته فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه وفطروا . ألا ترى إلى قولهم : هو مجبول على الشح ، يريدون : تمكن الشحّ فيه ، لأنّ الأمور الخلقية أثبت من العارضة ، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه « 1 » ، وهو قوله لا يُؤْمِنُونَ بِهِ . فإن قلت : ما موقع لا يُؤْمِنُونَ بِهِ من قوله سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ؟ قلت : موقعه منه موقع الموضع والملخص ، لأنه مسوق لثباته مكذبا مجحودا في قلوبهم ، فأتبع ما يقرّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد . ويجوز أن يكون حالا ، أى : سلكناه فيها غير مؤمن به . وقرأ الحسن : فتأتيهم ، بالتاء يعنى : الساعة . وبغتة ، بالتحريك . وفي حرف أبىّ : ويروه بغتة . فإن قلت : ما معنى التعقيب في قوله فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً . . . . . فَيَقُولُوا ؟ قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته

---

(1) . قال محمود : «إن قلت : كيف أسند السلك بصيغة التكذيب إلى ذاته ؟ قلت :

المراد الدلالة على تمكنه مكذبا في قلوبهم أشد التمكن ، فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه ، بدليل أنه أسند إليهم ترك الايمان به على عقبه في قوله : لا يؤمنون به» قال أحمد : وما ينقم من بقائه على ظاهره إلا أنه التوحيد المحض والايمان الصرف ، وأن اللّه تعالى خلق قلوبهم نائية عن قبول الحق . والقدرية لا يبلغون في التوحيد إلى هذا الحد ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

(231/573)

وسؤال النظرة فيه في الوجود ، وإنما المعنى ترتبها في الشدّة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشدّ منها وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشدّ منه وهو سؤالهم النظرة . ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه : إن أسات مقتك الصالحون فمقتك اللّه ، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أنّ مقت اللّه يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما قصدك إلى ترتيب شدّة الأمر على المسيء ، وأنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو أشدّ من مقتهم :

وهو مقت اللّه ، وترى ثمّ يقع في هذا الأسلوب فيحل موقعه أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ تبكيت لهم بإنكار وتهكم ، ومعناه : كيف يستعجل العذاب من هو معرض لعذاب يسأل فيه من

جنس ما هو فيه اليوم من النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجاب إليها . ويحتمل أن يكون هذا حكاية توبيخ يوبخون به عند استنظارهم يومئذ ، وَيَسْتَعْجِلُونَ على هذا الوجه حكاية حال ماضية . ووجه آخر متصل بما بعده ، وذلك أنّ استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم ، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن ، فقال تعالى : أفبعذابنا يستعجلون أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل ، ثم قال : هب أنّ الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم ، فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم . وعن ميمون بن مهران : أنه لقى الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له : عظني ، فلم يزده على تلاوة هذه الآية . فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت . وقرئ : يمتعون ، بالتخفيف .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 208 إلى 209]

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (209)

مُنْذِرُونَ رسل ينذرونهم ذِكْرى منصوبة بمعنى تذكرة ، إمّا لأن «أنذر ، وذكر» متقاربان ، فكأنه قيل : مذكرون تذكرة . وإمّا لأنها حال من الضمير في منذرون أى ، ينذرونهم ذوى تذكرة . وإمّا لأنها مفعول له ، على معنى : أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة . أو مرفوعة على أنها خبر مبتدإ محذوف ، بمعنى : هذه ذكرى . والجملة اعتراضية . أو صفة بمعنى : منذرون ذوو ذكرى . أو جعلوا ذكرى لإمعانهم في التذكرة وإطنابهم فيها . ووجه

آخر : وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له . والمعنى : وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ، ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم ، فلا يعصوا مثل عصيانهم وَما كُنَّا ظالِمِينَ فنهلك قوما غير ظالمين . وهذا الوجه عليه المعوّل . فإن قلت : كيف عزلت الواو عن الجملة بعد «إلا» ولم تعزل عنها في قوله وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ ؟

(232/573)

قلت : الأصل : عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية ، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 210 إلى 212]

وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (210) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212)

كانوا يقولون : إنّ محمدا كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنة ، فكذبوا بأنّ ذلك مما لا يتسهل للشياطين ولا يقدرون عليه ، لأنهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء . وقرأ الحسن : الشياطون . ووجهه أنه رأى آخره

كآخر يبرين وفلسطين ، فتخير بين أن يجرى الإعراب على النون ، وبين أن يجريه على ما قبله ، فيقول : الشياطين والشياطون ، كما تخيرت العرب بين أن يقولوا . هذه يبرون ويبرين . وفلسطون وفلسطين . وحقه أن تشتقه من الشيطوطة وهي الهلاك كما قيل له الباطل .

وعن الفرّاء : غلط الشيخ في قراءته «الشياطون» ظنّ أنها النون التي على هجاءين ، فقال النضر بن شميل :

إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤبة ، فهلا جاز أن يحتجّ بقول الحسن وصاحبه - يريد : محمد ابن السميقع - مع أنا نعلم أنهما لم يقرءا به إلا وقد سمعا فيه .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 213 إلى 214]

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214)

قد علم أنّ ذلك لا يكون ، ولكنه أراد أن يحرّك منه لازدياد الإخلاص والتقوى . وفيه لطف لسائر المكلفين ، كما قال وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ ، فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ، فيه وجهان : أحدهما أن يؤمر بإنذار الأقرب فالأقرب من قومه ، ويبدأ في ذلك بمن هو أولى بالبداءة ، ثم بمن يليه . وأن يقدّم إنذارهم على إنذار غيرهم ، كما روى عنه عليه السلام : أنه لما دخل مكة قال : «كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، وأوّل ما أضعه ربا العباس «1»» والثاني : أن يؤمر بأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة ، ولا يحابيهم في الإنذار والتخويف . وروى أنه صعد الصفا - لما نزلت - فنادى الأقرب

فالأقرب فخذا فخذا ، وقال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، يا عباس عمّ النبىّ

---

(1) . أخرجه مسلم من حديث جابر الطويل في صفة الحج وعزاه الطيبي للترمذي من رواية عمرو بن الأحوص وليس هو عنده بتمامه .

يا صفية عمة رسول اللّه ، إنى لا أملك لكم من اللّه شيئا ، سلوني من مالى ما شئتم «1»» . وروى أنه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا : الرجل منهم يأكل الجذعة ، ويشرب العس «2» على رجل شاة وقعب من لبن ، فأكلوا وشربوا حتى صدروا ، ثم أنذرهم فقال :

«يا بنى عبد المطلب ، لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدّقى ؟ قالوا : نعم . قال :

فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، وروى أنه قال «يا بنى عبد المطلب ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد مناف ، افتدوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم شيئا» ثم قال : «يا عائشة بنت أبى بكر ، ويا حفصة بنت عمر ، ويا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية عمة

محمد ، اشترين أنفسكنّ من النار فإنى لا أغنى عنكنّ شيئا «3»» .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 215 إلى 216]

وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216)

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا في التواضع ولين الجانب . ومنه قول بعضهم :

---

(1) . أخرجه ابن حبان من حديث أبى هريرة قال «قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ فقال : يا بنى عبد مناف يا بنى هاشم ، لا أغنى عنكم من اللّه شيئا » وروى مسلم من حديث عائشة «لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الصفا فقال : يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب : لا أملك لكم من اللّه شيئا . سلوني من مالى ما شئتم» وروى ابن مردويه من حديث أبى أمامة قال «لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا بنى هاشم اشتروا أنفسكم من النار . فانى لا أملك لكم من اللّه شيئا ، يا عائشة بنت أبى بكر ويا حفصة بنت عمر ، ويا أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد ، ويا أم الزبير عمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : اشتروا أنفسكم من

النار فانى لا أملك لكم من اللّه شيئا» .

(2) . قوله «و يشرب العس» هو القدح العظيم ، كما في الصحاح . (ع)

(3) . أما أوله فأخرجه ابن إسحاق في المغازي والبيهقي في الدلائل من طريقه من رواية ابن عباس مطولا .

وأخرجه البزار وأبو نعيم في الدلائل من طريق عباد بن عبد اللّه الأسدى عن على قال «لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ قال لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : اصنع لي رجل شاة على صاع من طعام . وأعد قعبا من لبن .

ففعلت . ثم قال لي : اجمع لي بنى عبد المطلب فجمعتهم وهم يومئذ أربعون رجلا .

فوضعت الطعام بينهم ، فأكلوا حتى شبعوا وإن فيهم لمن يأكل الجذعة ويشرب العس ، ثم جئت بالعس فشربوا حتى رووا» وأما بقيته فمتفق عليه من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما قال «لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فنادى : يا صباحاه فاجتمعوا إليه فقال : يا بنى عبد مناف ، يا بنى عبد المطلب ، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونني ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك ؟ ألهذا جمعتنا فنزلت هذه السورة تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» .

وأنت الشّهير بخفض الجناح فلا تك في رفعه أجدلا «1»

ينهاه عن التكبر بعد التواضع. فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول، فما قوله لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قلت: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك، وأن يريد بالمؤمنين المصدّقين بألسنتهم، وهم صنفان: صنف صدّق واتبع رسول اللّه فيما جاء به، وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إمّا أن يكونوا منافقين أو فاسقين، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح. والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، يعنى: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك باللّه وغيره.

[سورة الشعراء (26): الآيات 217 إلى 220]

وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

وَتَوَكَّلْ على اللّه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم. والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره. وقالوا: المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية للّه، فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنة ثم سأل غيره خلاصه، لم يخرج

من حد التوكل ، لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية اللّه . وفي مصاحف أهل المدينة والشام : فتوكل ، وبه قرأ نافع وابن عامر ، وله محملان في العطف : أن يعطف على فَقُلْ . أو فَلا تَدْعُ . عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته . ثم أتبع كونه رحيما على رسوله ما هو من أسباب الرحمة : وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد ، وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، ويستبطن سر أمرهم ، وكيف يعبدون اللّه ، وكيف يعملون لآخرتهم ، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل ، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات ، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر اللّه والتلاوة . والمراد بالساجدين : المصلون . وقيل : معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة . وتقلبه في الساجدين : تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه

---

(1) . شبه بطائر يرق لأفراخه ويخفض إليها جناحه رحمة لها ، فاستعار خفض الجناح لذلك على سبيل التمثيل ، ورشحه بقوله : «فلا تك في رفعه أجدلا» أى شبيها بالأجدل ، وهو الصقر في القسوة والجفوة . أو في التكبر والترفع ويجوز أن خفض الجناح : كناية عما يلزمه من الرقة والرحمة واللين ، ورفعه : كناية عن القسوة والجفوة ، وبين الخفض والرفع طباق التضاد .

وسجوده وقعوده إذا أمّهم . وعن مقاتل : أنه سأل أبا حنيفة رحمه اللّه ، هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن ؟ فقال : لا يحضرني ، فتلا له هذه الآية . ويحتمل أنه : لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لما تقوله الْعَلِيمُ بما تنويه وتعمله . وقيل : هو تقلب بصره فيمن يصلى خلفه ، من قوله صلى اللّه عليه وسلم : «أتموا الركوع والسجود ، فو اللّه إنى لأراكم من خلف ظهري إذا ركعتم وسجدتم» [1] . وقرئ : ويقلبك .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 221 إلى 223]

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223)

كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ هم الكهنة والمتنبئة ، كشقّ ، وسطيح ، ومسيلمة ، وطليحة يُلْقُونَ السَّمْعَ هم الشياطين ، كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يسمعون إلى الملإ الأعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أوليائهم من أولئك وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ فيما يوحون به إليهم ، لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا . وقيل : يلقون إلى أوليائهم السمع أى

المسموع من الملائكة . وقيل : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم . أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس ، وأكثر الأفاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم ، وترى أكثر ما يحكمون به باطلا وزورا . وفي الحديث : «الكلمة يتخطفها الجنىّ فيقرّها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» «2» والقرّ : الصبّ . فإن قلت : كيف دخل حرف الجرّ على «من» المتضمنة لمعنى الاستفهام والاستفهام له صدر الكلام ؟ ألا ترى إلى قولك : أعلى زيد مررت ؟ ولا تقول : على أزيد مررت ؟ قلت : ليس معنى التضمن أن الاسم دل على معنيين معا : معنى الاسم ، ومعنى الحرف ، وإنما معناه : أن الأصل أمن ، فحذف حرف الاستفهام واستمرّ الاستعمال على حذفه ، كما حذف من «هل» والأصل : أهل . قال :

أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم»

---

(1) . متفق عليه من حديث قتادة عن أنس بمعناه . واللفظ المذكور عند النسائي واتفقا عليه من حديث أبى هريرة بلفظ «هل ترون قبلتي ها هنا : فو اللّه ما يخفى على ركوعكم ولا سجودكم ، وإنى لأراكم من وراء ظهري» . [. . . . .]

(2) . متفق عليه من حديث عائشة أتم منه .

(3) سائل فوارس يربوع بشدتنا أهل رأونا بسفح القاع ذى الأكم

لزيد الخيل الذي سماه النبي صلى اللّه عليه وسلم زيد الخير ، وسائل : فعل أمر بمعنى

اسألهم وراجعهم في السؤال ، لتتلقن حقيقة الحال ، ويربوع : أبو حى ، والباء بمعنى عن ، أى : سلهم عن قوتنا ، ويروى :

بشدتنا ، بفتح الشين . يقال : شد على قرنه في الحرب : حمل عليه ، أى سلهم عن صولتنا عليهم ، وجعل البصريون الباء بعد السؤال للسببية ، لا بمعنى عن ، والأصل في الاستفهام الهمزة ، ولذلك كان لها تمام التصدير في الكلام ، وأصل «هل» بمعنى «قد» ، «و من» لمن يفعل ، «و ما» لما لا يفعل . «و متى» للزمان ، وهكذا بقية الأدوات موضوعة لمعان غير الاستفهام ، فليست عريقة فيه ، بل الهمزة مقدرة قبلها ، ولذلك تظهر في بعض الأحيان كما في البيت ، ويدخل عليها حروف الجر ، ويضاف إليها غيرها : لكن لكثرة الاستعمال فيه صارت الهمزة نسيا منسيا في حيز الإهمال ، والاستفهام هنا للتقرير ، «و هل» بمعنى «قد» ، وأنكر ذلك ابن هشام . ونقل عن السيرافي أن الرواية : أم هل ، فأم بمعنى «بل» «و هل» للاستفهام : قال : وعلى صحة الأولى فهل مؤكدة للهمزة شذوذا اه ويروى : فهل رأونا . ويجوز أن معناه : سلهم فقد رأونا . والسفح : السطح أو أصل الجبل المنسطح . والقاع المستوى من الأرض . والأكم - بالفتح - : واحده أكمة ، وجمعه أكم بالضم ، وهي التلول المرتفعة .

فإذا أدخلت حرف الجرّ على «من» فقدّر الهمزة قبل حرف الجرّ في ضميرك ، كأنك تقول :

أعلى من تنزّل الشياطين ، كقولك : أعلى زيد مررت . فإن قلت : يُلْقُونَ ما محله ؟ قلت : يجوز أن يكون في محل النصب على الحال ، أى : تنزل ملقين السمع ، وفي محل الجرّ صفة لكل أفاك ، لأنه في معنى الجمع ، وأن لا يكون له محل بأن يستأنف ، كأن قائلا قال : لم تنزل على الأفاكين ؟ فقيل : يفعلون كيت وكيت . فإن قلت : كيف قيل وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك ؟ قلت : الأفاكون هم الذين يكثرون الإفك ، ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك ، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدق منهم فيما يحكى عن الجنى ، وأكثرهم مفتر عليه . فإن قلت : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ ، وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ ، هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ لم فرق بينهنّ وهنّ أخوات ؟ قلت : أريد التفريق بينهنّ بآيات ليست في معناهنّ ، ليرجع إلى المجيء بهنّ وتطرية ذكر ما فيهنّ كرّة بعد كرّة : فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة اللّه لخلافها . ومثاله : أن يحدّث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية ، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 225 إلى 226]

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (226)

وَالشُّعَراءُ مبتدأ . وَيَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ خبره : ومعناه : أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ، والنسيب بالحرم والغزل «1» والابتهار ، ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم - إلا الغاوون والسفهاء والشطار . وقيل : الغاوون : الراوون . وقيل : الشياطين ،

---

(1) . قوله «و النسيب بالحرم والغزل» النسيب : أى التشبيب . والغزل : محادثة النساء ومراودتهن . والابتهار : ادعاء الشيء كذبا ، كذا في الصحاح في مواضع . (ع)

وقيل : هم شعراء قريش : عبد اللّه بن الزبعرى ، وهبيرة بن أبى وهب المخزومي ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبو عزة الجمحىّ . ومن ثقيف : أمية ابن أبى الصلت . قالوا : نحن نقول مثل قول محمد - وكانوا يهجونه ، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم - وقرأ عيسى بن عمر : والشعراء ، بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر . قال أبو عبيد : كان الغالب عليه حبّ النصب . قرأ : حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ،

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ وسُورَةٌ أَنْزَلْناها «1» وقرئ: يتبعهم، على التخفيف. ويتبعهم، بسكون العين تشبيها «لبعه بعضد».

ذكر الوادي والهيوم: فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلق في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البرئ «2»، ويفسقوا التقى. وعن الفرزدق: أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبتن بجانبيّ مصرّعات وبت أفض أغلاق الختام «3»

فقال: قد وجب عليك الحدّ، فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ اللّه عنى الحدّ بقوله: وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ.

[سورة الشعراء (26): آية 227]

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر اللّه وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعرا قالوه في توحيد اللّه والثناء عليه، والحكمة والموعظة، والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والصحابة وصلحاء الأمة،

(1) . قوله «و سورة أنزلناها» لعل بعدها سقطا تقديره : بالنصب . (ع)

(2) . قوله «و أن يبهتوا البرى» أى يتهموا . (ع)

(3) خرجن إلى لم يطمئن قبلي وهن أصح من بيض النعام

فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

للفرزدق ، يقول : خرج النسوة إلى من خدورهن حال كونهن لم يطمئن ، أى لم يزل بكارتهن أحد قبلي ، وأكد ذلك بقوله : وهن أصح من بيض النعام الذي يصان عادة عن الكسر ، لئلا تذهب زينته ، فبتن مطروحات عن يمينى وشمالي ، وبت أفض : أفتح وأزيل بكارتهن الشبيهة بأغلاق الختام لسدها الفروج ، والأغلاق جمع غلق كسبب ، بمعنى الأقفال . والختام : ما يسد به فم الزجاجة ونحوها ، فاضافتها إليه بيانية . أو من إضافة المسميات إلى الاسم كأعواد السواك . ويجوز أن الختام بمعنى المختوم وهو الفرج ، ويمكن أن يراد بالأغلاق : جوانب البكارة المشتبكة بالفرج وشبه البكارات أو جوانبها بالأغلاق على طريق التصريح ، ولما سمع سليمان بن عبد الملك ذلك ، قال : قد وجب عليك الحمد ، فقال : قد درأه اللّه عنى بقوله : وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ فخلى سبيله .

وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة ، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم . قال اللّه تعالى لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جواب لقوله تعالى فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وعن عمرو بن عبيد : أن رجلا من العلوية قال له : إن صدري ليجيش بالشعر ، فقال : فما يمنعك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، فحسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وقيل : المراد بالمستثنين : عبد اللّه بن رواحة ، وحسان ابن ثابت ، والكعبان : كعب بن مالك ، وكعب بن زهير ، والذين كانوا ينافحون عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش . وعن كعب بن مالك أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم قال له : «اهجهم ، فو الذي نفسي بيده لهو أشدّ عليهم من النبل» «1» وكان يقول لحسان : «قل وروح القدس معك» «2» . ختم السورة بآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول ، ولا أنكى لقلوب المتأمّلين ولا أصدع لأكباد المتدبرين ، وذلك قوله وَسَيَعْلَمُ وما فيه من الوعيد البليغ ، وقوله الَّذِينَ ظَلَمُوا وإطلاقه . وقوله أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ وإبهامه ، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضى اللّه عنهما حين عهد إليه «3» : وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدّتها .

وتفسير الظلم بالكفر تعليل «4» ، ولأن تخاف فتبلغ الأمن : خير من أن تأمن فتبلغ الخوف .

وقرأ ابن عباس : أى منفلت ينفلتون . ومعناها : إن الذين ظلموا يطمعون أن ينفلتوا من عذاب

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن ملك عن أبيه قال «لما نزلت وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، ما ذا ترى في الشعر ؟ فقال :

إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذي نفس محمد بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل» قلت : وأخرجه من هذا الوجه وقال ابن سعد في الطبقات : أخبرنا عبد الوهاب أخبرنا ابن عوف عن ابن سيرين «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن مالك : هيه : فأنشده . فقال : «لهو أشد عليهم من وقع النبل» ولمسلم عن عائشة مرفوعا «اهجوا قريشا فانه أشد عليها من رشق النبل» وللترمذي والنسائي من حديث ثابت عن أنس في أثناء حديث : فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «خل عنهم يا عمر ، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل» .

(2) . متفق عليه من حديث البزار . ولفظ النسائي : قال لحسان : اهج المشركين ، فان روح القدس معك» وللحاكم وابن مردويه من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم . قال يوم الأحزاب : «من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال حسان : أنا . قال : فقم اهجهم ، فان روح القدس سيعينك» .

(3) . أخرجه ابن أبى حاتم من طريق محمد بن عبد الرحمن بن المحسر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت «كتب أبى وصية فذكرها وفي آخرها : وإن تجر وتظلم فانى لا أعلم الغيب . وسيعلم الذين ظلموا - الآية» ورواه ابن سعد في الطبقات في ترجمة أبى بكر عن الواقدي بأسانيد متعددة مطولا .

(4) . قوله «و تفسير الظلم بالكفر تعليل» لعله من علله بالشيء ، أى : لهاء به ، كما يعلل الصبى بشيء من الطعام يجتزأ به عن اللبن ، كما في الصحاح . (ع)

(239/573)

اللّه ، وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو النجاة : اللهم اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها ، وعلم أن من عمل سيئة فهو من الذين ظلموا ، واللّه أعلم بالصواب .

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 334.346﴾

(1) . رواه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب .

(240/573)

وقال الخازن :

قوله ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ يعني أن فيه من أخبار الأمم الماضية ما يدل على أنه من رب العالمين ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ يعني جبريل عليه السلام سماه زوجاً لأنه خلق من الروح وسماه أميناً ، لأنه مؤتمن على وحيه لأنبيائه ﴿ على قلب ﴾ يعني على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه وإنما خص القلب لأنه هو المخاطب في الحقيقة ، وأنه موضع التمييز والعقل والاختيار وسائر الأعضاء مسخرة له ويدل عليه قوله (صلى الله عليه وسلم) " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " أخرجاه في الصحيحين .

ومن المعقول أن موضع الفرح والسرور ، والغم والحزن هو القلب ، فإذا فرح القلب أو حزن تغير حال سائر الأعضاء فكأن القلب كالرئيس لها ، ومنه أن موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين فإذا ثبت ذلك كان القلب هو الأمير المطلق ، وهو المكلف والتكليف مشروط بالعقل والفهم .

قوله تعالى ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ أي المخوفين ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ قال ابن عباس بلسان قريش ليفهموا ما فيه ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن وقيل ذكر محمد (صلى الله عليه وسلم) وصفته ونعته ﴿ لفي زبر الأولين ﴾ أي كتب الأولين ﴿ أولم يكن لهم آية ﴾ يعني أولم يكن لهؤلاء المتكبرين علامة ودلالة على صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ أن يعلمه ﴾ يعني يعلم محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ علماء بني إسرائيل ﴾ .

قال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد (صلى الله عليه وسلم) فقالوا إن هذا لزمانه وإنا نجد في التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه (صلى الله عليه وسلم) قيل كانوا خمسة عبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد .

(241/573)

قوله تعالى ﴿ ولو نزلناه ﴾ يعني القرآن ﴿ على بعض الأعجمين ﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يفصح ولا يحسن العربية ، وإن كان عربياً في النسب ومعنى الآية ، وأنزلنا القرآن على رجل ليس بعربي اللسان ﴿ فقرأه عليهم ﴾ يعني القرآن ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ أي لقالوا لا نفقه قولك وقيل معناه لما آمنوا به أنفه من اتباع من ليس من العرب ﴿ كذلك

سلكناه ﴾ قال ابن عباس : يعني أدخلنا الشرك والتكذيب ﴿ في قلوب المجرمين لا يؤمنون به ﴾ آي القرآن ﴿ حتى يروا العذاب الأليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أي لنؤمن ونصدق وتمنوا الرجعة ولا رجعة لهم ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ قيل لما وعدهم النبيّ (صلى الله عليه وسلم) بالعذاب قالوا إلى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب ، فأنزل الله أفبعذابنا يستعجلون ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ﴾ أي كفار مكة في الدنيا ولم نهلكهم ﴿ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴾ يعني العذاب ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ أي في تلك السنين الكثيرة والمعنى أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا ، فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئاً ويكونوا كأنهم لم يكونوا في نعيم قط ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ﴾ أي رسل ينذرونهم ﴿ ذكرى ﴾ أي تذكره ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ أي في تعذيبهم حيث قدمنا الحجة عليهم ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ يعني أن المشركين كانوا يقولون : إن الشياطين يلقون القرآن على قلب محمد (صلى الله عليه وسلم) ذلك ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ أن ينزلوا بالقرآن ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي ذلك ، ثم إنه تعالى ذكر سبب ذلك فقال ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ أي محجوبون بالرمي بالشهب فلا يصلون إلى استراق السمع ﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمراد به غيره لأنه معصوم من ذلك .

قال ابن عباس : يحذر بهم غيره يقول أنت أكرم الخلق علي ، ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك .

(242/573)

قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ روى محمد بن إسحاق بسنده عن علي بن أبي طالب قال : " لما نزلت هذه الآية على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى أباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جاءني جبريل فقال : يا محمد أن لا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا طعاماً واجعل لنا عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن ثم اجمع لي بن عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ، ففعلت ما أمرني به ، ثم دعوتهم له وكانوا يومئذٍ نحو أربعين رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعت فجئت به ، فتناول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال : خذوا باسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وايم الله أن كان الرجل الواحد ليأكل ، مثل ما قدمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا

جميعاً ، وأيم الله أن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال : سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال الغد يا : علي فإن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أكلمهم ، فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثم أجمعهم ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ، ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه سلم فقال : يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرني على أمري هذا ، ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً ، وأنا أحدثهم سناً فقلت أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ، ثم قال هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم

(243/573)

فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيعه "

(ق) عن ابن عباس : لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين صعد النبيّ (صلى الله عليه وسلم) على الصفا فجعل ينادي : " يا بني فهر يا بني عدي لبطون من قريش ، حتى اجتمعوا

فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا ما جربنا عليك كذباً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ وفي رواية قد تب وفي رواية للبخاري ، " لما نزلت ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾ ورهطك منهم المخلصين خرج سول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه " ، فقالوا من هذا واجتمعوا إليه وذكر نحوه (ق) عن أبي هريرة قال قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين أنزل الله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ وقال يا معشر قريش أو كلمة نحوها " اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً " (م) عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالا لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ انطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى رضمة جبل فعلا أعلاها حجراً ثم نادى " يا بني عبد مناف إني نذير لكم إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه

، فجعل يهتف يا صباحاه " ومعنى الآية أن الإنسان إذا بدأ بنفسه أولاً وبالأقرب فالأقرب من أهله ثانياً لم يكن لأحد عليه طعن البتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع .

(244/573)

﴿ واخفض ﴾ اي ألن ﴿ جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ فإن قلت ما معنى التبعيض في قوله ﴿ من المؤمنين ﴾ وقلت : معناه لمن اتبعك من المؤمنين المصدقين بقلوبهم وألسنتهم دون المؤمنين بألسنتهم وهم المنافقون ﴿ فإن عصوك ﴾ يعني فيما تأمرهم به ﴿ فقل إني بريء مما تعملون ﴾ يعني من الكفر والمخالفة ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ التوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ، ويقدر على نفعه وضره وهو الله تعالى العزيز الذي يقهر أعداءك ، بعزته الرحيم الذي ينصرك عليهم برحمته ﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ إلى صلاتك وقيل يراك أينما كنت وقيل يراك حين تقوم لدعائك ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ قال ابن عباس : ويرى تقلبك في صلاتك في حال قيامك وركوعك وسجودك وقعودك وقيل مع المصلين في الجماعة يقول يراك إذا صليت وحدك ومع الجماعة ، وقيل : معناه يرى تقلب بصرك في المصلين فإنه كان (صلى الله عليه وسلم) يبصر من خلفه كما يبصر من قدامه عن أبي هريرة أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " هل ترون

قبلتي ها هنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري "

وقيل : معناه يرى تصرفك وذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين .

(245/573)

قيل : تصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك وقال ابن عباس أراد وتقلبك في أصلاب الأنبياء من نبي إلى نبي حتى أخرجك في هذه الأمة ﴿ إنه هو السميع ﴾ يعني لقولك ودعائك ﴿ العليم ﴾ يعني بنيتك وعملك قل يا محمد ﴿ هل أنبئكم ﴾ يعني أخبركم ﴿ على من تنزل الشياطين ﴾ هذا جواب لقولهم ينزل عليه شيطان ثم بين على من تنزل الشياطين فقال تعالى ﴿ تنزل على كل أفاك ﴾ يعني كذاب ﴿ أثيم ﴾ يعني فاجر وهم الكهنة وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ، ثم يلقون ذلك إلى أوليائهم من الإنس وهو قوله تعالى ﴿ يلقون السمع ﴾ يعني ما يسمعون من الملائكة فيلقونه إلى الكهنة ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ لأنهم يخلطون به كذباً كثيراً ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ قال أهل التفسير أراد شعراء الكفار والذي كانوا يهدون النبي (صلى الله عليه وسلم) منهم عبد الله بن الزبعرى السهمي ، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عمرو بن عبد الله الجمحي وأمية بن أبي الصلت الثقفي تكلموا بالكذب ، والباطل وقالوا

نحن نقول مثل ما يقول محمد وقالوا الشعر ، واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، وأصحابه وكانوا يروون عنهم قولهم فلذلك قوله ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ فهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين ، وقيل الغاوون هم الشياطين وقيل هم السفهاء الضالون وفي رواية أن الرجلين أحدهما من الأنصار تهاجيا على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومع كل واحد غواة من قومه ، وهم السفهاء فنزلت هذه الآية ﴿ ألم تر أنهم في كل وادٍ ﴾ من أودية الكلام ﴿ يهيمون ﴾ يعني حائرين وعن طريق الحق حائدين ، والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وقال ابن عباس في كل لغو يخوضون ، وقيل يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل وقيل أنهم يمدحون الشيء ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق ، فالوادي مثل لفنون الكلام والغوص في المعاني والقوافي ﴿ وأنهم يقولون ما لا

(246/573)

يفعلون ﴾ أي أنهم يكذبون في شعرهم وقيل إنهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه وهم لا يفعلونه ويذمون البخل ويصرون عليه ويهجون الناس بأدنى شيء صدر منهم (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال

" لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً " ثم استثنى شعراء المسلمين الذي كانوا يجتنبون شعر الكفار ، ويهجون وينافحون عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك فقال تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ روي أن كعب بن مالك قال للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) إن الله أنزل في الشعر ما أنزل فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل " عن أنس بن مالك " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله . . .

اليوم نضربكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله . . .

ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر يا ابن رواحة بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " خل عنه يا عمر فلهي أسرع فيهم من نضح النبل " أخرجه الترمذي والنسائي .

وقال الترمذي : وقد روي في غير هذا الحديث أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) دخل مكة في عمرة القضاء وكعب بن مالك بين يديه ، وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة ، وكانت عمرة القضاء بعد ذلك قلت الصحيح ، هو الأول لأن عمرة القضاء كانت سنة سبع ويوم مؤتة سنة ثمان والله أعلم (ق) عن البراء أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال يوم قريظة لحسان : " أهج المشركين فإن جبريل معك " (خ) عن عائشة قالت " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وينافح ويقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله "

(م) عن عائشة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " اهجوا قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل فأرسل إلى ابن رواحة فقال أهجهم فهجاهم فلم يرضى فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فلما دخل عليه حسان : قال : قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه فجعل يحركه فقال : والذي بعث بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم فقال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها ، وإن لي فيهم نسباً حتى يلخص لك نسبي فأتاه حسان ثم رجع فقال : يا

رسول الله قد لخص لي نسبك والذي بعثك بالحق نبياً لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين " قالت عائشة : فسمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول لحسان : " إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله " قالت وسمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " هجاهم حسان فشفى واشتفى " فقال حسان :

هجوت محمداً فأجبت عنه . . .

وعند الله في ذاك الجزاء

هجوت محمداً براً تقياً . . .

رسول الله شيمته الوفاء

فإن أبي ووالدتي وعرضي . . .

لعرض محمد منكم وقاء

(248/573)

ثكلت بنيتي إن لم تروها . . .

تثير النقع موعدها كداء

يبارين الأعنة مصعدات . . .

على أكنافها الأسل الظماء

تظل جيادها متمطرات . . .

تلطمهن بالخمر النساء

فإن أعرضتم عنا اعتمرنا . . .

وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لضراب يوم . . .

يعز الله فيه من يشاء

وقال الله قد أرسلت عبداً . . .

يقول الحق ليس به خفاء

وقال الله قد سيرت جنداً . . .

هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معد . . .

سباب أو قتال أو هجاء

فمن يهجو رسول الله منكم . . .

ويمدحه وينصره سواء

وجبريل رسول الله فينا . . .

وروح القدس ليس له كفاء

فصل في مدح الشعر

(خ) عن أبي بن كعب أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "إن من الشعر لحكمة" عن ابن عباس قال جاء أعرابي إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فجعل يتكلم بكلام فقال "إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً" أخرجه أبو داود عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: "ردفت وراء النبي (صلى الله عليه وسلم) يوماً فقال هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء، قلت نعم قال: هيه: فأنشدته بيتاً فقال: هيه ثم أنشدته بيتاً قال: هيه حتى أنشدته مائة بيت" زاد في رواية "لقد كان يسلم شعره" عن جابر بن سمره قال: "جالست النبيّ (صلى الله عليه وسلم) أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت وربما تبسم معهم" أخرجه الترمذي.

وقال حديث حسن صحيح.

وقالت عائشة: الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ منه الحسن ودع منه القبيح.

وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان علي أشعر منهما

وروي عن ابن عباس أنه كان ينشد الشعر ويستنشده في المسجد، فيروى أنه دعا عمر بن ربيعة المخزومي، فاستنشده القصيدة التي قالها فقال:

آمن آل نعمٍ أنت غاد فمبكر . . .

غداة غد أم رائح فمهجر

(249/573)

فأنشده القصيدة إلى آخرها ، وهي قريب من تسعين بيتاً ثم إن ابن عباس أعاد القصيدة جميعها ، وكان حفظها بمرة واحدة .

قوله تعالى ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ أي انتصروا من المشركين لأنهم بدؤوا بالهجاء ، ثم أوعد شعراء المشركين فقال تعالى ﴿ وسيعلم الذين ظلموا ﴾ أي أشركوا وهجوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو الطاهر المطهر من الهجاء ﴿ أي منقلب ينقلبون ﴾ أي أيَّ مرجع يرجعون إليه بعد الموت قال ابن عباس : إلى جهنم وبئس المصير والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 125.132 ﴾

(250/573)

وقال ابن جزى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾

(251/573)

الضمير للقرآن ﴿ الروح الأمين ﴾ يعني جبريل عليه السلام ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ إشارة إلى حفظه إياه لأن القلب هو الذي يحفظ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ ﴾ يعني كلام العرب هو متعلق بنزل أو المنذرين ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين ﴾ المعنى أن القرآن مذكور في كتب المتقدّمين ففي ذلك دليل على صحته ثم أقام الحجة على قريش بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بني إِسْرَائِيلَ ﴾ بأنه من عند الله آية لكم وبرهان ، والمراد من أسلم من بني إسرائيل : كعبد الله بن سلام وقيل : الذين كانوا يبشرون بمبعثه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ على بَعْضِ الأعجمين ﴾ الآية جمع أعجم ، وهو الذي لا يتكلم سواء كان إنساناً أو بهيمة أو جماداً والأعجمي : المنسوب إلى [العجم أي غير العرب] وقيل : بمعنى الأعجم ، ومعنى الآية : أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم ، ثم قرأه عليهم لا يؤمنوا لإفراط عنادهم ، ففي ذلك تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم على كفرهم به مع وضوح برهانه ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ معنى ﴿ سَلَكْنَاهُ ﴾ . أدخلناه ، والضمير للتكذيب الذي دل

عليه ما تقدم من الكلام ، أو القرآن أي سلكناه في قلوبهم مكذباً به ، وتقدير قوله : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل هذا السلك سلكناه ، ﴿ المجرمين ﴾ : يحتمل أن يريد به قريشاً أو الكفار المتقدمين و ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ : تفسير للسلك الذي سلكه في قلوبهم ﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ تمنوا أن يؤخروا حين لم ينفعهم التمني ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ توبيخ لقريش على استعجالهم بالعذاب في قولهم : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [النمل : 10] ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [الأنفال : 32] وشبه ذلك ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ المعنى أن مدّة إمهالهم لا تغني مع نزول العذاب بعدها ، وإن طالت مدة سنين ، لأن كل ما هو آت

(252/573)

قريب ، قال بعضهم ﴿ سِنِينَ ﴾ يريد به عمر الدنيا ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ المعنى أن الله لم يهلك قوماً إلا بعد أن أقام الحجة عليهم بأن أرسل إليهم رسولاً فأنذرهم فكذبوه ﴿ ذكرى ﴾ منصوب على المصدر من معنى الإنذار ، أو على الحال من الضمير من منذرون ، أو على المفعول من أجله ، أو مرفوع على أنه خبر ابتداء مضمر ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ الضمير للقرآن ، وهو ردّ على من قال أنه كهانة نزلت به

الشياطين على محمد ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي ما يمكنهم ذلك ولا يقدرون عليه ، ولفظ : ﴿ مَا يَنبَغِي ﴾ تارة يستعمل بمعنى لا يمكن وتارة بمعنى لا يليق ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ تعليل لكون الشياطين لا يستطيعون الكهانة ، لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أمر الكهان كثيراً منتشراً قبل ذلك .

(253/573)

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ عشيرة الرجل هم قرابته الأدنون ، ولما نزلت هذه الآية " أنذر النبي صلى الله عليه وسلم قرابته فقال : يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، ثم نادى كذلك ابنته فاطمة وعمته صفية " ، قال الزمخشري : في معناه قولان : أحدهما أنه أمر أن يبدأ بإنذار أقاربه قبل غيرهم من الناس ، والآخر أنه أمر أن لا يأخذه ما يأخذ القريب من الرأفة بقريبه ، ولا يخافهم بالإنذار ﴿ واخفض جَنَاحَكَ ﴾ عبارة عن لين الجانب والرفق ، وعن التواضع ﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي حين تقوم في الصلاة ، ويحتمل أن يريد سائر التصرفات ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ﴾ معطوف على الضمير المفعول في قوله يراك ، والمعنى أنه يراك حين تقوم وحين

تسجد ، وقيل : معناه يرى صلاتك مع المصلين ، ففي ذلك إشارة إلى الصلاة مع الجماعة ، وقيل : يرى تقلب بصرك في المصلين خلفك لأنه عليه الصلاة والسلام كان يراهم من وراء ظهره ﴿ تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ هذا جواب السؤال المتقدم وهو قوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين ﴾ والأفاك الكذاب ، والأثيم الفاعل للإثم يعني بذلك الكهان ، وفي هذا ردّ على من قال أن الشياطين تنزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالكهانة ، لأنها لا تنزل إلا على أفاك أثيم ، وكان صلى الله عليه وسلم على غاية الصدق والبرّ ﴿ يُلْقُونَ السمع ﴾ معناه يستمعون والضمير يحتمل أن يكون للشياطين بمعنى أنهم يستمعون إلى الملائكة ، أو يكون للكهان بمعنى أنهم يستمعون إلى الشياطين ، وقيل : ﴿ يُلْقُونَ ﴾ بمعنى يلقون المسموع ، والضمير يحتمل أيضاً على هذا أن يكون للشياطين ، لأنهم يلقون الكلام إلى الكهان أو يكون للكهان لأنهم يلقون الكلام إلى الناس ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ يعني الشياطين أو الكهان لأنهم يكذبون فيما يخبرون به عن الشياطين .

(254/573)

﴿ والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ لما ذكر الكهان ذكر الشعراء ليبين أن القرآن ليس بكهانة ولا شعر لتابين أوصافه وما بين أوصاف الشعر والكهانة ، وأراد الشعراء الذين يلقون من

الشعر مالا ينبغي كالهجاء والمدح بالباطل وغير ذلك ، وقيل : أراد شعراء الجاهلية ، وقيل : شعراء كفار قريش الذين كانوا يؤذون المسلمين بأشعارهم ، والغاوون قيل : هم رواه الشعر وقيل : هم سفهاء الناس الذي تعجبهم الأشعار لما فيها من اللغو والباطل ، وقيل : هم الشياطين ﴿ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ استعارة وتمثيل أي يذهبون في كل وجه من الكلام الحق والباطل ، ويفرطون في التجوز حتى يخرجوا إلى الكذب ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ الآية : استثناء من الشعراء يعني بهم شعراء المسلمين كحسان بن ثابت وغيره ممن اتصف بهذه الأوصاف ، وقيل : إن هذه الآية مدنية ﴿ وَذَكَرُواْ الله ﴾ قيل : معناه ذكروا الله في أشعارهم ، وقيل : يعني الذكر على الإطلاق ﴿ وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ إشارة إلى ما قاله حسان بن ثابت وغيره من الشعراء في هجو الكفار بعد أن هجا الكفار النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ وعيد للذين ظلموا والظلم هنا بمعنى الاعتداء على الناس لقوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ وعمل ينقلبون في أيّ لتأخره ، وقيل : إن العامل في أيّ سيعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 90 . 92 ﴾

(255/573)

وقال النسفي :

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي القرآن ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين ﴾ منزل منه ﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ مخفف والفاعل ﴿ الروح الأمين ﴾ أي جبريل لأنه أمين على الوحي الذي فيه الحياة .

حجازي وأبو عمرو وزيد وحفص ، وغيرهم بالتشديد .

ونصب ﴿ الروح ﴾ والفاعل هو الله تعالى أي جعل الله الروح نازلاً به ، والباء على القراءتين للتعدية ﴿ على قَلْبِكَ ﴾ أي حفظك وفهمك إياه وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى كقوله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 5] ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِىّ ﴾ بلغة قريش وجرهم ﴿ مُّبِينٌ ﴾ فصيح ومصحح عما صحفته العامة .

والباء إما أن يتعلق ب ﴿ المنذرين ﴾ أي لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل عليهم السلام ، أو ب ﴿ نزل ﴾ أي نزله بلسان عربي لتنذر به لأنه لو نزله بلسان أعجمي لتجافوا عنه أصلاً ولقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به .

وفي هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لأنك تفهمه وتفهّمه قومك ، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها ، وقد يكون الرجل عارفاً بعدة لغات فإذا كلم بلغته التي نشأ عليها لم يكن قلبه ناظراً إلا إلى معاني الكلام ، وإن كلم بغيرها كان نظره أولاً

في ألفاظها ثم في معانيها ، وإن كان ماهراً بمعرفتها فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين .

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإن القرآن ﴿ لَفِى زُبُرِ الأولين ﴾ يعني ذكره مثبت في سائر الكتب السماوية .

وقيل : إن معانيه فيها ، وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية فيكون دليلاً على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة .

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءايَةً ﴾ ﴿ ولم تكن لهم آيةٌ ﴾ شامي ، جعلت آية اسم "كان" وخبره ﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ أي القرآن لوجود ذكره في التوراة .

(256/573)

وقيل : في ﴿ تكن ﴾ ضمير القصة و ﴿ آية ﴾ خبر مقدم والمبتدأ ﴿ أن يعلمه ﴾ والجملة خبر "كان" .

وقيل : "كان" تامة والفاعل ﴿ آية ﴾ و ﴿ أن يعلمه ﴾ بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف أي أولم تحصل لهم آية .

وغيره ﴿ يكن ﴾ بالتذكير و ﴿ آية ﴾ بالنصب على أنها خبره و ﴿ أن يعلمه ﴾ هو الاسم وتقديره : أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل ﴿ عُلماءُ بَنِى إسراءيل ﴾ كعبد الله

بن سلام وغيره قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص : 53] وخط في المصحف علماؤا بواو قبل الألف ﴿ وَلَوْ نزلناه على بَعْضِ الأعجمين ﴾ جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وكذلك الأعجمي إلا أن فيه لزيادة يا ء النسبة زيادة تأكيد ، ولما كان من يتكلم بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين ، والعجمي الذي من جنس العجم أفصح أولم يفصح .

وقرأ الحسن ﴿ الأعجميين ﴾ وقيل : الأعجمين تخفيف الأعجميين كما قالوا الأشعرون أي الأشعريون بحذف يا ء النسبة ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع السلامة لأن مؤنثه عجماء

﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ والمعنى أنا أنزلنا القرآن على رجل عربي مبين ففهموه وعرفوا فصاحته وأنه معجز ، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على أن البشارة بإنزاله وصفته في كتبهم وقد تضمنت معانيه وقصصه وصح بذلك أنها من عند الله وليست بأساطير كما زعموا ، فلم يؤمنوا به وسموه شعراً تارة وسحراً أخرى وقالوا هذا من افتراء محمد عليه الصلاة والسلام ، ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله فقرأه عليهم هكذا معجزاً لكفروا به كما كفروا ولتمحلوا لجحودهم عذراً ولسموه سحراً .

ثم قال ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ أي أدخلنا التكذيب أو الكفر وهو مدلول قوله ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ ﴿ فِى قُلُوبِ المجرمين ﴾ الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه يعني مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وقررناه فيها فكيفما فعل بهم وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الكفر به والتكذيب له كما قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كتابا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : 7] وهو حجتنا على المعتزلة في خلق أفعال العباد خيرها وشرها .

وموقع قوله ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالقرآن من قوله ﴿ سلكناه في قلوب المجرمين ﴾ موقع الموضح والملخص لأنه مسوق لثبات كونه مكذباً مجحوداً في قلوبهم ، فاتبع ما يقرر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يعاينوا الوعيد ، ويجوز أن يكون حالاً أي سلكناه فيها غير مؤمن به ﴿ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ المراد معاينة العذاب عند الموت ويكون ذلك إيمان يأس فلا ينفعهم

﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه ﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ وفيأتيهم

معطوفان على ﴿ يروا ﴾ ﴿ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ يسألون النظرة والإمهال طرفة عين فلا يجابون إليها ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ توبيخ لهم وإنكار عليهم قولهم : ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32] ونحو ذلك .

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن متعناهم سِنِينَ ﴾ قيل : هي سنو مدة الدنيا ﴿ ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ مَا أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ به في تلك السنين .

(258/573)

والمعنى أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن فقال الله تعالى : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ أشراً وبطراً واستهزاء واتكالاً على الأمل الطويل ، ثم قال : هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم وطيب معايشهم ؟ .

قال يحيى ابن معاذ : أشد الناس غفلة من اغتر بحياته والتذ بمراداته وسكن إلى مألوفاته والله تعالى يقول : ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ ، وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال

: عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية .

فقال ميمون : قد وعظت فأبلغت .

وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ رسل ينذرونهم .

ولم تدخل الواو على الجملة بعد إلا كما في : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الحجر : 4] لأن الأصل عدم الواو إذ الجملة صفة ل ﴿ قرية ﴾ وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف

﴿ ذِكْرَى ﴾ منصوبة بمعنى تذكرة لأن أنذر وأذكر متقاربان فكأنه قيل : مذكرون تذكرة . أو حال من الضمير في ﴿ مُنذِرُونَ ﴾ أي ينذرونهم ذوي تذكرة أو مفعول له أي ينذرون لأجل التذكرة والموعظة ، أو مرفوعة على أنها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية ، أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى ، أو تكون ذكرى متعلقة ب ﴿ أهلكنا ﴾ مفعولاً له ، والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿ وَمَا كُنَّا ظالمين ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين .

ولما قال المشركون : إن الشياطين تلقى القرآن على محمد أنزل ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ﴾ أي القرآن ﴿ الشياطين وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ وما يتسهل لهم ولا يقدرون عليه . ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ لممنوعون بالشهب ﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين ﴾ مورد النهي لغيره على التعريض والتحريك له زيادة الإخلاص ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ خصهم لنفي التهمة إذ الإنسان يساهل قرابته ، أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً وأن النجاة في اتباعه دون قربة .

ولما نزلت صعد الصفا ونادى الأقرب فالأقرب وقال : " " يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عباس عم النبي يا صفية عمة رسول الله إني لا أملك لكم من الله شيئاً " ﴿ واخفض جَنَاحَكَ ﴾ وألن جانبك وتواضع ، وأصله أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب ﴿ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ من عشيرتك وغيرهم ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ يعني أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض جناحك لهم ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ على الذي قهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم ، والتوكل : تفويض الرجل

أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره ، وقالوا : المتوكل من إذا دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله .

وقال الجنيد رضي الله عنه التوكل أن تقبل بالكلية على ربك وتعرض بالكلية عما دونه فإن حاجتك إليه في الدارين .

﴿ فتوكل ﴾ مدني وشامي عطف على ﴿ فقل ﴾ أو ﴿ فلا تدع ﴾ .

(260/573)

﴿ الذى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ متهجداً ﴿ وَتَقَلُّبَكَ ﴾ أي ويرى تقلبك ﴿ فِى الساجدين ﴾ في المصلين .

أتبع كونك رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه في تصفح أحوال المتهجدين من أصحابه ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، وليعلم أنهم كيف يعبدون الله ويعملون لآخرتهم .

وقيل : معناه يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة .

وتقلبه في الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم .

وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة : هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن ؟ فقال : لا يحضرني

فتلا له هذه الآية .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السميع ﴾ لما تقوله ﴿ العليم ﴾ بما تنويه وتعلمه ، هوّن عليه معاناة مشاق العبادات حيث أخبر برؤيته له إذ لا مشقة على من يعلم أنه يعمل بمرأى مولاه وهو كقولك : بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي

نزل جواباً لقول المشركين إن الشياطين تلقى السمع على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي هل أخبركم أيها المشركون ﴿ على مَن تَنَزَّلُ الشياطين ﴾ ثم نبأ فقال ﴿ تَنَزَّلُ على كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ مرتكب للآثام وهم الكهنة والمتنبئة كسطيح وطليحة ومسيلمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يشتم الأفاكين ويذمهم فكيف تنزل الشياطين عليه ﴿ يُلْقُونَ السمع ﴾ هم الشياطين كانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يستمعون إلى الملأ الأعلى فيحفظون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به إلى أوليائهم .

و﴿ يلقون ﴾ حال ، أي تنزل ملقين السمع ، أو صفة ل ﴿ كل أفاك ﴾ لأنه في معنى الجمع فيكون في محل الجزاء ، أو استئناف فلا يكون له محل كأنه قيل : لم تنزل على الأفاكين ؟ فقيل : يفعلون كيت وكيت ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾ فيما يوحون به إليهم لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا .

وقيل : يلقون إلى أوليائهم السمع أي المسموع من الملائكة .

وقيل : الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم ، والأفاك الذي يكثر الإفك ، ولا يدل ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك فأراد أن هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني وأكثرهم مفتر عليه ، وعن الحسن : وكلهم .

وإنما فرق بين ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ ، ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ ، و ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ ، وهن أخوات ، لأنه إذا فرق بينهن بآيات ليست منهن ثم رجع إليهن مرة بعد مرة دل ذلك على شدة العناية بهن كما إذا حدثت حديثاً وفي صدرك اهتمام بشيء فتعيد ذكره ولا تنفك عن الرجوع إليه .

ونزل فيمن كان يقول الشعر ويقول نحن نقول كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم واتبعهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم .

﴿ والشعراء ﴾ مبتدأ خبره ﴿ يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ﴾ أي لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب ومدح من لا يستحق المدح ، ولا يستحسن ذلك منهم إلا الغاوون أي السفهاء أو الراوون أو الشياطين أو المشركون .

قال الزجاج : إذا مدح أو هجا شاعر بما لا يكون وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون ﴿ يتبعهم ﴾ نافع ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ ﴾ من الكلام ﴿ يَهِيمُونَ ﴾ خبر "أن" أي في كل

فن من الكذب يتحدثون أو في كل لغو وباطل يخوضون ، والهائم الذاهب على وجهه لا مقصد له وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأبخلهم على حاتم .

عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله

فبتن بجانبيّ مصرعات . . .

وبت أفض أغلاق الختام

فقال : وجب عليك الحد .

فقال : قد درأ الله عني الحد بقوله

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالاَ يَفْعَلُونَ ﴾ حيث وصفهم بالكذب والخلف في الوعد .

(262/573)

ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن زهير وكعب بن مالك رضي الله عنهم ﴿ وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيراً ﴾ أي كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر وإذ قالوا شعراً قالوه في توحيد الله تعالى والثناء عليه والحكمة والموعظة والزهد والأدب ومدح رسول الله

والصحابة وصلحاء الأمة ونحو ذلك مما ليس فيه ذنب .

وقال أبو يزيد : الذكر الكثير ليس بالعدد والغفلة لكنه بالحضور ﴿ وانتصروا ﴾ وهجوا ﴿ مِنْ بَعْدَمَا ظُلِمُواْ ﴾ هجوا أي ردوا هجاء من هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وأحق الخلق بالهجاء من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجاه .

وعن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له " اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل " وكان يقول لحسان " قل وروح القدس معك " ختم السورة بما يقطع أكباد المتدبرين وهو قوله ﴿ وَسَيَعْلَمْ ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ وقوله ﴿ الذين ظُلِمُواْ ﴾ وإطلاقه ، وقوله ﴿ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ وإبهامه ، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنه حين عهد إليه وكان السلف يتواعظون بها .

قال ابن عطاء : وسيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا .

و﴿ أيّ ﴾ منصوب ب ﴿ ينقلبون ﴾ على المصدر لا ب ﴿ يعلم ﴾ لأن أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها أي ينقلبون أيّ انقلاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 195 . 201 ﴾

(263/573)

وقال البيضاوى :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ .

﴿ على قَلْبِكَ ﴾ تقرير لحقية تلك القصص وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الإخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحياً من الله عز وجل ، والقلب إن أراد به الروح فذاك وإن أراد به العضو فتخصيصه ، لأن المعاني الروحانية إنما تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق ، ثم تتصعد منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة ، و﴿ الروح الأمين ﴾ جبريل عليه الصلاة والسلام فإنه أمين الله على وحيه . وقرأ ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي بتشديد الزاي ونصب ﴿ الروح الامين ﴾ . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ﴾ عما يؤدي إلى عذاب من فعل أو ترك .

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ واضح المعنى لئلا يقولوا ما نصنع بما لا نفهمه فهو متعلق ب ﴿ نَزَّلَ ﴾ ، ويجوز أن يتعلق بالمنذرين أي لتكون ممن أنذروا بلغة العرب وهم هود وصالح وإسمعيل وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين ﴾ وإن ذكره أو معناه لفي الكتب المتقدمة .

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً ﴾ على صحة القرآن أو نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إسراءيل ﴾ أن يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم وهو تقرير لكونه دليلاً . وقرأ ابن عامر تكن بالتاء و﴿ ءايَةً ﴾ بالرفع على أنها الاسم والخبر ﴿ لَهُمْ ﴾ ﴿ وَأَنْ يَعْلَمْهُ

﴿ بدل أو الفاعل و﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ بدل ﴿ وَهُمْ ﴾ حال ، أو أن الاسم ضمير القصة و﴿ ءَايَةً ﴾ خبر ﴿ أَن يَعْلَمَهُ ﴾ والجملة خبر تكن .

﴿ وَلَوْ نزلناه على بَعْضِ الأعجمين ﴾ كما هو زيادة في إعجازه أو بلغة العجم .

(264/573)

﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم ، أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم ، و﴿ الأعجمين ﴾ جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جمع جمع السلامة .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ﴾ أدخلناه . ﴿ فِي قُلُوبِ المجرمين ﴾ والضمير للكفر المدلول عليه بقوله ﴿ مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ فتدل الآية على أنه بخلق الله ، وقيل للقرآن أي أدخلناه فيها فعرفوا معانيه وإعجازه ثم لم يؤمنوا به عناداً .

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ الملجىء إلى الإيمان .

﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ في الدنيا والآخرة . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بإتيانه .

﴿ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ تحسراً وتأسفاً .

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فيقولون أمطر علينا حجارة من السماء ، ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا

﴾ ، وحالهم عند نزول العذاب طلب النظرة .

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن متعناهم سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ مَا أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ

﴾ لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه .

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ أنذروا أهلها إلزاماً للحجة .

﴿ ذِكْرِى ﴾ تذكرة ومحلها النصب على العلة أو المصدر لأنها في معنى الإِنذار ، أو الرفع على أنها صفة ﴿ مُنذِرُونَ ﴾ بإضمار ذوو ، أو بجعلهم ذكرى لإِمعانهم في التذكرة ، أو خبر محذوف والجملة اعتراضية . ﴿ وَمَا كُنَّا ظالمين ﴾ فنهلك غير الظالمين ، أو قبل الإِنذار .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين ﴾ كما زعم المشركون أنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة .

﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ ﴾ وما يصح لهم أن يتنزلوا به . ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ وما يقدرون .

(265/573)

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السمع ﴾ لكلام الملائكة . ﴿ لَمَعْزُولُونَ ﴾ لأنه مشروط بمشاركة في صفاء الذات وقبول فيضان الحق والانتقاش بالصور الملكوتية ، ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة

بالذات لا تقبل ذلك والقرآن مشتمل على حقائق ومغيبات لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة .

﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المعذبين ﴾ تهييج لإزدياد الإخلاص ولطف لسائر المكلفين .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ الأقرب منهم فالأقرب فإن الاهتمام بشأنهم أهم " روي أنه لما نزلت صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا وناداهم فخذاً فخذاً حتى اجتمعوا إليه فقال : "لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي" قالوا نعم قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " .

﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ لين جانبك لهم مستعار من خفض الطائر جناحه إذا أراد أن ينحط ، و﴿ مِنْ ﴾ للتبيين لأن من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو غيره ، أو للتبعيض على أن المراد ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ المشارفون للإيمان أو المصدقون باللسان .

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ ولم يتبعوك . ﴿ فَقُلْ إِنّي بَرِىءٌ مّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بما تعملونه أو من أعمالكم .

﴿ وَتَوكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ﴾ الذي يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم . وقرأ نافع وابن عامر "فتوكل" على الإبدال من جواب الشرط .

﴿ الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ إلى التهجد .

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ وترددك في تصفح أحوال المجتهدين كما روي " أنه عليه الصلاة والسلام لما نسخ قيام فرض الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم ، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن " . أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أممتهم ، وإنما وصفه الله تعالى بعلمه بحاله التي بها يستأهل ولايته بعد وصفه بأن من شأنه قهر أعدائه ونصر أوليائه تحقيقاً للتوكل وتطميناً لقلبه عليه .

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما تقوله . ﴿ العليم ﴾ بما تنويه .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ لما بين أن القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين أكد ذلك بأن بين أن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يصح أن يتنزلوا عليه من وجهين : أحدهما أنه إنما يكون على شرير كذاب كثير الإِثم ، فإن اتصال الإِنسان بالغائبات لما بينهما من التناسب والتواد وحال محمد صلى الله عليه وسلم على خلاف ذلك . وثانيهما قوله :

﴿ يُلْقُونَ السمع وَأَكْثَرُهُمْ كاذبون ﴾

أي الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون منهم ظنوناً وأمارات لنقصان علمهم ، فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها كما جاء في الحديث " الكلمة يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة " ولا كذلك محمد صلى الله عليه وسلم فإنه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وقد طابق كلها ، وقد فسر الأكثر بالكل لقوله تعالى : ﴿ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ . والأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجني . وقيل الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملأ الأعلى قبل أن يرجموا فيختطفون منهم بعض المغيبات ويوحون به إلى أوليائهم أو يلقون مسموعهم منهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون به إليهم إذ يسمعونهم لا على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم ، أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو إفهامهم .

(268/573)

(والشعراء يتبعهم الغاوون) وأتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليسو كذلك وهو استئناف أبطل كونه عليه الصلاة والسلام شاعرا وقرره بقوله

الشعراء : (224) والشعراء يتبعهم الغاوون

(ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) لأن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها وأغلب كلماتهم في النسيب بالحرم والغزل والإبتهار وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والوعد الكاذب والإفتخار الباطل ومدح من لا يستحقه والإطراء فيه وإليه أشار بقوله

الشعراء : (226)

(وأنهم يقولون ما لا يفعلون) وكأنه لما كان إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى وقد قدحوا في المعنى بأنه مما تنزلت به الشياطين وفي اللفظ بأنه من جنس كلام الشعراء تكلم في القسمين وبين منافاة القرآن لهما ومضادة حال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحال أربابهما وقرأ نافع (يتبعهم) على التخفيف و قرىء بالتشديد وتسكين العين تشبيها لبعضه بعضا

الشعراء : (227)

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته ولو قالوا هجوا أرادوا به الانتصار ممن هجاهم ومكافحة هجاة المسلمين كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت والكعبين و كان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان " قل وروح القدس معك " وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة

والسلام يقول لحسان " قل وروح القدس معك " وعن كعب بن مالك أنه عليه الصلاة السلام

قال لله " اهجوا فو الذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل "

(وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

(269/573)

تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ وفي الذين ظلموا من الإطلاق والتعميم وفي أي منقلب ينقلبون أي بعد الموت من الإيهام والتهويل وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما حين عهد إليه وقرىء / أي منفلت ينفلتون / من الانفلات وهو النجاة والمعنى أن الظالمين يطمعون أن ينفلتوا عن عذاب الله وسيعلمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدق بمحمد عليهم الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 257.252 ﴾

(270/573)

وقال الإمام نظام الدين النيسابوري :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) ﴾

التفسير : القصة السابعة قصة شعيب وأنه كان أخاً مدين دون أصحاب الأيكة ولهذا لم يقل " أخوهم شعيب " . يروى أن اصحاب الأيكة كانوا اصحاب شجر ملتف وكان شجرهم الدوم وهي التي حملها المقل . قال في الكشاف : قرئ ﴿ أصحاب ليكة ﴾ بتخفيف الهمزة وبالجر على الإضافة وهو الوجه ، ومن قرأ بالنصب وزعم أن ﴿ ليكة ﴾ بوزن ليلة اسم بلد فتوهم قاد إليه خط المصحف في هذه السورة وفي سورة ص ، ثم اعترض عليه بأن ﴿ ليكة ﴾ اسم لا يعرف .

(271/573)

قلت : إنه لا يلزم من عدم العلم بالشيء عدم ذلك الشيء ، والظن بالمتواتر يجب أن يكون أحسن من ذلك . أمرهم شعيب بإيفاء الكيل ونهاهم عن الإخسار وهو التطفيف وأن يجعل الشخص خاسراً فكأنه أمره بالإيفاء مرتين توكيداً ثم زاد في البيان بقوله ﴿ وزنوا بالقسطاطس المستقيم ﴾ وقد مر في سورة سبحان . قال في الكشاف : إن كان من القسط وهو العدل وجعلت السين مكررة فوزنه " فعلاس " وإلا فهو رباعي . قلت : إن

كان مكرراً فوزنه " فعلال " أيضاً . وقوله ﴿ ولا تبخسوا ﴾ تأكيداً آخر وقد سبق في " هود " . والجبلة الخليقة حذرهم الله الذي تفضل عليهم بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين . قال في الكشاف : الفرق بين إدخال الواو ههنا في قوله ﴿ وما أنت إلا بشر ﴾ وبين تركها في قصة ثمود هو أنه قصد ههنا معنيان منافيان عندهم للرسالة : كونه مسحراً وكونه بشراً وهناك جعل المعنى الثاني مقرراً للأول . قلت : الفرق بين والإشكال في تخصصيص كل من القصتين بما خصت به ، ولعل السبب فيه هو أن صالحاً قلل في الخطاب فقللوا في الجواب ، وأكثر شعيب في الخطاب ولهذا قيل له خطيب الأنبياء فأكثروا في الجواب . " وإن " في قولهم ﴿ وإن نظنك ﴾ هي المخففة من الثقيلة عملت في ضمير شأن مقدر . واللام في قوله ﴿ لمن الكاذبين ﴾ هي الفارقة . والكسف بالسكون والحركة جمع كسفة وهي القطعة وقد مر في سبحان في اقتراحات قريش . والمعنى إن كنت صادقاً في دعوة النبوة فادع الله أن يسقط علينا قطع السماء . وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فأرادوا بذلك إظهار كذبه فحلم عنهم شعيب ولم يدع عليهم بل فوض الأمر إلى الله بقوله : ﴿ ربي أعلم بما تعملون ﴾ يروى أن شعيباً بعث إلى أمتين : اصحاب مدين وأصحاب الأيكة . فأهلكت مدين بصيحة جبرائيل ، وأهلكت اصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة وذلك إنه حبس عنهم الريح سبعاً وسلط عليهم الحرّ فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظلٍ ولا ماء ولا شراب ، فاضطروا إلى أن

(272/573)

خرجوا إلى الصحراء فأظلتهم سحابة وجدوا لها برداً ونسيماً فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا .

وحين سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه القصص المؤكدة بالمكررات المختتمة بالمقررات عاد إلى مخاطبته قائلاً ﴿ وإنه ﴾ اي وإن الذي نزل عليك من الأخبار ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ أي منزله . والباء في ﴿ نزل به ﴾ على لقراءتين للتعدية ولكنها في قراءة التشديد تقتضي مفعولاً آخر هو الروح أي جعل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به على قلبك محفوظاً مفهوماً ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة : هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وسلم .

(273/573)

ويجوز أن يكون قوله ﴿ لسان ﴾ متعلقاً ﴿ بنزل ﴾ أي نزله ﴿ بلسان عربي ﴾ لتنذر به فإنه لو نزله بالأعجمي لقالوا : ما نصنع بما لا نفهمه . ومن هذا الوجه ينشأ فائدة أخرى

لقوله ﴿ على قلبك ﴾ أي نزلناه بحيث تفهمه ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعك دون قلبك . والظاهر من نقل أئمة اللغة أن القلب والفؤاد مترادفان . ونقل الإمام فخر الدين الرازي عن بعضهم أن القلب هو العلقة السوداء في جوف الفؤاد وذكر كلاماً طويلاً في أن محل العقل هو القلب دون الدماغ وهو المخاطب في الحقيقة فلهذا قال ﴿ نزله على قلبك ﴾ ونحن قد تركناه لقلة تعلقه بالمقام ولضعف دلائله مع مخالفته لما عليه معظم أرباب المعقول .

قوله ﴿ وإنه لفي زبر الأولين ﴾ يعني أن ذكر القرآن مثبت في الكتب السماوية للأمم المتقدمة ، وإن معاني القرآن في تلك الزبر . وقد يحتج به لأبي حنيفة في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة . وقيل : الضمير فيه وفي ﴿ أن يعلمه ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم وأنه حجة ثابتة على نبوته قد شهد بها علماء بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وغيره من الذين أسلموا منهم واعترفوا أن نعته وصفته في كتبهم مذكور ، وكان مشركو قريش يذهبون إلى اليهود يتعرفون منهم هذا الخبر . من قرأ ﴿ يكن ﴾ بالتذكير و ﴿ آية ﴾ بالنصب على الخبر والاسم ﴿ أن يعلمه ﴾ فظاهر ، ومن قرأ ﴿ تكن ﴾ بالتأنيث و ﴿ آية ﴾ بالرفع على الاسم والخبر ﴿ أن يعلمه ﴾ فقيل : ليست بقوية لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً . ويمكن أن يجاب بأن الفعل المضارع مع أن ليس من المعارف الصريحة ، وقد توجه هذه القراءة بتقدير ضمير القصة في ﴿ تكن ﴾ وجملته ﴿ آية أن يعلمه ﴾ و ﴿ لهم ﴾ لغواً أو ﴿ لهم آية ﴾ ﴿ وأن يعلمه ﴾ بدل من آية . قال جار الله : إنما كتب علموء بالواو

على لغة من يميل الألف إلى الواو ولذلك كتبت الصلوة والزكوة بالواو . ثم أكد بقوله ﴿ ولو نزلناه ﴾ ما مر من آية لو نزله بالأعجمي فقرأه عليهم بعض الأعجمين لم

(274/573)

يؤمنوا به لأنهم لم يكونوا يفهمونه . وقال جار الله : معناه ولو نزلناه على بعض الأعاجم الذي لا يحسن العربية فضلاً أن يقدر على نظم مثله فقرأه عليهم هكذا فصيحاً معجزاً متحدّى به لكفروا به كما كفروا ولتمحلوا لجحودهم عذراً ولسموه سحراً . ثم قال ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا السلك ﴿ سلكناه ﴾ في قلوبهم وقررناه فيها فعلى أيّ وجه دبر أمرهم فلا سبيل إلى تغييرهم عما هم عليه من الإنكار والإصرار ، وقد سبق مثل هذه الآية في أول " الحجر " . والحاصل أنهم لا يزالون على التكذيب حتى يعاينوا الوعيد ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن اليأس إحدى الراحتين .

(275/573)

قال في الكشاف : ليس الفاء في قوله ﴿ فيأتيهم بغتة فيقولوا ﴾ لأجل ترادف العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة ، وإنما المعنى ترتيبها في الشدة كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم العذاب فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة . فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة . نظيره قولك : : إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله ، لا تريد الترتيب في الوجود ولكن في الشدة . قلت : هذا معنى صحيح ولكن لا مانع من إرادة الترتيب والتعذيب في الوجود يظهر بالتأمل إن شاء الله العزيز . ثم نكرهم بقوله ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ وفيه إنكار وتهكم أي كيف يستعجل العذاب من لا طاقة له به حتى استمهل بعد أن كان من العمر في مهلة ؟ وجوز في الكشاف أن يكون ﴿ يستعجلون ﴾ حكاية حال ماضية يوبخون بها عند استنظارهم ، أو يكون متصلاً بما بعده وذلك أنهم اعتقدوا العذاب غير كائن فلذلك استعجلوه وظنوا أنهم يمتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن ، فأنكر الله عليهم استعجالهم الصادر عن الأشر والبطر والاستهزاء والاتكال على طول الأمل . ثم قال : هب أن الأمر كما ظنوه من التمتع والتعمير فإذا لحقهم الوعيد أو الأجل أو القيامة هل ينفعهم ذلك ؟ . عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له : عظني فتلا عليه هذه الآية فقال له ميمون : لقد وعظت فأبلغت .

ثم بين أنه ما أهلك قرية إلا بعد إلزام الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم ، وعلى هذا يكون ﴿ ذكرى ﴾ متعلقة ﴿ بأهلكنا ﴾ مفعولاً له . ويجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً ﴿ لأنذر ﴾ بمعنى التذكرة فإن ﴿ أنذر ﴾ وذكر متقاربان ، أو حالاً من الضمير في ﴿ منذرون ﴾ أو مفعولاً له متعلقاً به أي ينذرونهم ذوي تذكرة أو لأجل الموعظة والتذكير ، أو التقدير : هذه ذكرى فالجملة اعتراض . ويجوز أن يكون صفة ﴿ لمنذرون ﴾ على حذف المضاف أي ذوو ذكرى ، أو جعلوا ذكرى لبلوغهم في التذكرة أقصى غاياتها . والبحث عن وجود الواو وعدمه في مثل هذا التركيب قد مر في أول الحجر في قوله ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ [الحجر : 4] إلا أنا نذكر ههنا سبب تخصيص تلك الآية بالواو وهذه بعدم الواو فنقول : لا ريب أن الواو تفيد مزيد الربط والاجتماع في الحال وفي الوصف إن جوزتا : فسواء قدرنا الجملتين أعني قوله ﴿ ولها كتاب معلوم ﴾ [الحجر : 4] وقوله ﴿ لها منذرون ﴾ حالاً أو وصفاً فالمقام يقتضي ورود النسق على ما ورد ، وذلك أن قوله ﴿ ولها كتاب ﴾ صفة لازمة للقرية فإن الكتب في اللوح وصف أزلي فناسب أن يكون في اللفظ ما يدل على اللزوم واللصوق وهو الواو ، ثم زيد في التأكيد بقوله ﴿ معلوم ﴾ وبقوله ﴿ ما تسبق ﴾ وهذا بخلاف قوله ﴿

لها منذرون ﴾ فإنها صفة حادثة فأطلقت وجود صدر الجملة عن الواو لذلك والله أعلم .

(277/573)

ثم إنه لما احتج على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بكون القرآن معجزاً منزلاً من رب العالمين مشتملاً على معاني كتب الأولين وكان الكفار يقولون إنه من إلقاء الجن كحال الكهنة أراد أن يزيل شبهتهم بقوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم ﴾ التنزل بالوحي ﴿ وما يستطيعون ﴾ . ثم بين عدم اقتدارهم بقوله ﴿ إنهم عن السمع ﴾ أي عن سماع كلام أهل السماء ﴿ لمعزولون ﴾ وذلك بواسطة رجم الشهب كما أخبر عنه الصادق والمعجزات يتساند بعضها ببعض ، ولو فرض أنهم غير مرجومين بالشهب فالعقل يدل على أن الاهتمام بشأن الصديق أقوى منه بشأن العدو ، وكان محمد صلى الله عليه وسلم يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم فلو كان الغيب بإلقاء الشياطين لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم ذلك . وحين أثبت حقية القرآن أمر نبيه بجوامع مكارم الأخلاق ومحاسن العادات قائلاً ﴿ فلا تدع ﴾ والمراد أمته كما مر في نظائره من قوله ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ [البقرة : 120] وغير ذلك ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ فيه أن الاهتمام بشأن من هو أقرب

إلى المرء أولى . وفيه أنه يجب أن لا يأخذه في باب التبليغ ما يأخذ القريب للقرب من المساهلة ولين الجانب . " يروى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية صعد الصفا فنادى الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً وقال : يا بني عبد المطلب يا بني هاشم يا بني عبد مناف يا عباس عم النبي يا صفية عمة رسول الله : إني لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من المال ما شئتم " . " وروي أنه جمع بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً ، الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس على رجل شاة ، فأكلوا وشربوا حتى شبعوا ثم أنذرهم فقال : يا بني عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " قوله ﴿ واخفض جناحك ﴾ قد مر تفسيره في آخر " الحجر " وفي " سبحان " وزاد ههنا ﴿ لمن اتبعك ﴾ كيلا يذهب الوهم إلى أن خفض

الجناح وهو التواضع ولين الجانب مختص بالمؤمنين من عشيرته . وإنما لم يقتصر على قوله ﴿ لمن اتبعك ﴾ لأن كثيراً منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين . وقال في الكشاف : سبب الجمع بين اللفظين هو أنه سماهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، أو

أراد بالمؤمنين المصدّقين بالألسنة فزاد قوله ﴿ لمن اتبعك ﴾ ليخرج من صدّق باللسان دون الجنان ، أو صدق بهما ولم يتبعه في العمل . وحين أمره بالتواضع لأهل الإخلاص في الإيمان أمره بالتبرئة من ارباب العصيان . فاستدل الجبائي به على أن الله تعالى أيضاً بريء من عملهم فكيف يكون فاعلاً له ؟ ! وأجيب بأنه إن أراد ببراءة الله أنه ما أمر بها فمسلم ، وإن أراد أنه لا يريدها فممنوع لانتهاء جميع الحوادث إلى إرادته ضرورة قوله ﴿ وتوكل ﴾ معطوف على قوله ﴿ فلا تدع ﴾ أو على قوله ﴿ فقل ﴾ أمره بتفويض الأمر في دفع أعاديه إلى العزيز الذي يقهر من ناوأ أولياءه الرحيم الذي لا يخذل من ينصر دينه .

(279/573)

قال بعض العلماء : المتوكل من إن دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما فيه معصية الله عز وجل ، ولو وقع في محنة واستعان في دفعها ببعض المخلوقين لم يخرج من حد المتوكلين ، ثم عدد مواجب الرحمة وهي رؤيته قيامه وتقلبه في الساجدين أي في المصلين . وللمفسرين فيه وجوه منها : ما روي أنه حين نسخ فرض التهجد طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه حرصاً عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات فوجدها كبيوت الزنانير ذكراً وتلاوة . فالمراد بتقلبه في الساجدين تفصح أحوال المتهجدين من اصحابه ليطلع عليهم

كيف يعملون لآخرتهم . ومنها أن المراد تصرفه فما بين المؤمنين به بالقيام والركوع والسجود والقعود . ويروى عن مقاتل أنه استدل به على وجود فضل صلاة الجماعة في القرآن . ومنها أنه إشارة إلى ما جاء في الحديث " أتموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من خلف ظهري " فالتقلب تقلب بصره فيمن يصلي خلفه . وقيل : أراد أنه لا يخفى علينا كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين . وقد احتج بالآية علماء الشيعة على مذهبهم أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم لا يكونون كفاراً . قالوا : أراد تقلب روحه من ساجد إلى ساجد كما في الحديث المعتمد عليه عندهم " لم أزل أنتقل من اصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات " وناقشهم أهل السنة في التأويل المذكور وفي صحة الحديث . والأصوب عندي أن لا نشتغل بمنع أمثال هذه الدعوى ونسرح إلى بقعة الإمكان على أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول .

(280/573)

ثم أكد قوله وما تنزلت به الشياطين بقوله ﴿ هل أنبئكم على من تنزل ﴾ قال في الكشاف : تقديره أعلى من تنزل ؟ ليكون الاستفهام في صدر الكلام كقولك : أعلى زيد مررت ؟ قلت : هذا تكلف بارد لأن لاستفهام في " من " ضمني لا يصرح به قط . والأفاك الكثير

الإفك ، والأثيم مبالغة آثم وهم الكهنة والمتنبئة كسطيح ومسيلمة وأمثالهما . والضمير في ﴿ يلقون ﴾ عائد إلى الشياطين كانوا قبل الرجم بالشهب يختطفون بعض الغيوب من الملأ الأعلى بإلقاء ﴿ السمع ﴾ أي بالإصغاء ثم يرجعون به إلى أوليائهم ﴿ وأكثرهم كاذبون ﴾ لأنهم يخلطون الحق المسموع بكلامهم الباطل كما جاء في الحديث " الكلمة يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة " والقر الصب . وقيل : السمع بمعنى المسموع أي يلقي الشياطين إلى أوليائهم ما يسمعونه من الملائكة .

(281/573)

ويحتمل أن يكون الضمير في : ﴿ يلقون ﴾ للأفاكين والسمع الأذن أو المسموع أي يلقونه السمع إلى لاشياطين فيتلقون وحيهم ، أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس . وإنما لم يقل " وكلهم كاذبون " لأن الكذوب قد يصدق فيصدق عليه انه صادق في الجملة لأن هذه عبارة الفصحاء لا يحكمون حكماً كلياً ما لم تدع إليه ضرورة . والحاصل أنهم كانوا يقيسون حال النبي صلى الله عليه وسلم على حال الكهنة فقيل لهم : إن الأغلب على الكهنة الكذب ولم يظهر من أحوال محمد صلى الله عليه وسلم إلا الصدق ، فكيف يكون كاهناً ؟ ثم بين ما يعرف منه أن النبي ليس بشاعر كما أنه ليس بكاهن فقال ﴿ والشعراء

يتبعهم الغاوون ﴾ قيل : أي الشياطين . والأظهر أنهم الذين يروون أشعارهم وكان شعراء قريش مثل عبد الله بن الزبعري وأمية بن ابي الصلت يهجون النبي صلى الله عليه وسلم ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أهاجيهم فنزلت . ثم بين غوايتهم بقوله ﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ وهو تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول يمدحون إنساناً معيناً تارة ويذمونه أخرى غالين في كلا الطرفين مستعملين التخيل في كل ما يرومونه . وذكر من قبائح خصالهم ﴿ أنهم يقولون ﴾ عند الطلب والدعاوي ﴿ مالا يفعلون ﴾ ولعمري إنها خصلة شنعاء تدل على الدناءة واللؤم .

قالوا وما فعلوا وأين هم . . . من معشر فعلوا وما قلوا

وعن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله

:

فبتن بجانبيّ مصرعات . . . وبت أفض أغلاق الختام

(282/573)

فقال : وجب عليك الحد : قال : قد درأ الله عني الحد يا أمير المؤمنين وتلا الآية . ثم استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم الذكر والفكر فيما لا بأس به من

المواعظ والنصائح ، ومدح الحق وذويه ، ويكون هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم مثل عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن زهير كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . " وعن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من النبل " وكان يقول لحسان : هاجهم وروح القدس معك . والحاصل أن النظر في الشعر إلى المعنى لا على مجرد النظم والروي . فإن كان المعنى صحيحاً مطابقاً للحق والصدق فلا بأس بإدخاله في سلك النظم والقافية بل لعل النظم يروجه ويهيج الطبع على قبوله وهو الذي عناه صلى الله عليه وسلم " إن من الشعر لحكماً " وإن كان المعنى فاسداً والغرض غير صحيح فهو الذي توجه الذم إليه . وللانتصار حد معلوم وهو أن لا يزيد على الجواب لقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ [البقرة : 194] وقال صلى الله عليه وسلم

" المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يتعدى المظلوم " ثم ختم السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال ﴿ وسيعلم الذين ظلموا ﴾ خصصه بعضهم بالشعراء إذا خرجوا عن حد الإنصاف ، ومالوا إلى الجور والاعتساف ، ولعله عام يتناول لكل من ظلم نفسه بالإعراض عن تدبر ما في السورة بل القرآن كله . وقوله ﴿ أيّ منقلب ﴾ صفة لمصدر محذوف والعامل ﴿ ينقلبون ﴾ أي ينقلبون في الدركات السفلى انقلاباً أيّ منقلب ولا

يعمل فيه ﴿ يعلم ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله . وعن ابن عباس أنه قرأه بالفاء والتاء والمراد سيعلمون أنه ليس لهم وجه من وجوه الانفلات وهو النجاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 284. 290 ﴾

(283/573)

وقال الخطيب الشربينى :

ولما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء عليهم السلام أتبعه بما يدلّ على نبوّته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى .

﴿ وإنه ﴾ أي : الذكر الذي أتاهم بهذه الأخبار وهم عنه معرضون وله تاركون ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ أي : الذي ربّاهم بشمول علمه وعظيم قدرته بما يعجز عن أقل شيء منه غيره .

﴿ نزل به ﴾ أي : نجوماً على سبيل التدريج من الأفق الأعلى الذي هو محل البركات ، وعبر عن جبريل عليه السلام بقوله ﴿ الروح ﴾ دلالة على أنه مادّة خير ، وأنّ الأرواح تحيا بما ينزله من الهدى وقال تعالى ﴿ الأمين ﴾ إشارة إلى كونه عليه السلام معصوماً من كل دنس فلا يمكن منه خيانة .

﴿ على قلبك ﴾ يا أشرف الرسل ففي هذا تقرير لحقية تلك القصص .

وتنبيه : على إعجاز القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنّ الإخبار عنها ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحياً من الله تعالى ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص بتخفيف الزاي ، والروح الأمين برفعهما والباقون بتشديد الزاي والروح الأمين بنصبهما .

فإن قيل : قال على قلبك وهو إنما نزل عليه ؟

أجيب : بأنه ذكر ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ والمرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير ولأنّ القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار ، وأمّا سائر الأعضاء فمسخرة له ، ويدلّ على ذلك الكتاب والسنة والمعقول فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ واستحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب قال الله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ (البقرة :)

(284/573)

ومن السنة قوله : صلى الله عليه وسلم "ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" ومن المعقول أنّ القلب إذا غشي عليه وقطع سائر الأعضاء لم يحصل به الشعور وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل

بالأعضاء من الآفات وإذا فرح القلب أو حزن تغير حال الأعضاء عند ذلك ، ولأنّ المعاني الروحانية إنما تنزل أوّلاً على الروح ثم تنتقل منه إلى القلب لما بينهما من التعلق ، ثم تتصعد منه إلى الدماغ فينتقش منه لوح المخيلة .

ولما كان السياق في هذه السورة للتحذير قال تعالى معللاً للجملة التي قبله ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ أي : المخوفين المحذرين لمن أعرض عن الإيمان وفعل ما نهى عنه من المعاصي وقوله تعالى:

﴿ بلسان عربي ﴾ يجوز أن يتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة : هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد صلى الله عليه وسلم ويجوز أن يتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربي لينذر به لأنه لو نزله باللسان الأعجميّ لتجافوا عنه أصلاً ولقالوا ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به ، قال ابن عباس : بلسان قرشيّ ليفهموا ما فيه ، ولما كان في العربيّ ما قد يشكل على بعض العرب قال تعالى :

﴿ مبين ﴾ أي : بين في نفسه كاشف لما يراد منه غير تارك لبساً عند من تدبره على ما يتعارفه العرب في مخاطباتها من سائر لغاتها بحقائقها ومجازاتها على اتساع إرادتها وتباعد مراميها في محاوراتها وحسن مقاصدها في كناياتها واستعاراتها ومن يحيط بذلك حق الإحاطة غير العليم الحكيم الخبير البصير ، ولما كان الاستكثار من الأدلة مما يسكن النفوس وتطمئن به القلوب قال تعالى .

﴿ وإنه ﴾ أي : هذا القرآن أصوله وكثيراً من قصصه وأمّهات فروعه ﴿ لفي زبر ﴾ أي : كتب ﴿ الأولين ﴾ كالتوراة والإنجيل وقيل : وإنه أي : محمداً ونعته لفي كتب الأوّلين .

(285/573)

﴿ أو لم يكن لهم ﴾ أي : لكفار مكة ذلك ﴿ آية ﴾ أي : على صحة القرآن أو نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ ابن عامر بالتاء الفوقية ورفع آية على أنها الاسم والخبر لهم ، والباقون بالياء التحتية ونصب آية على أنها الاسم والخبر لهم ، والباقون بالياء التحتية ونصب آية على أنها خبر وقوله تعالى ﴿ أن يعلمه ﴾ أي : هذا الذي يأتي به نبينا من عندنا هو اسمها ﴿ علماء بني إسرائيل ﴾ أي : يعرفوه بنعته المذكور في كتبهم ، والمعنى أو لم يكن لهؤلاء المنكرين ، علم بني إسرائيل علامة ودلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم لأنّ العلماء الذين كانوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم كعبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ (القصص :)

قال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنّ هذا لزمانه وإنا لنجد في التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدقه .

فائدة : خط في المصحف علماء بواو قبل الألف على لغة من يميل الألف إلى الواو ، وعلى هذه اللغة كتبت الصلاة والزكاة والربا ، قال الله تعالى:

﴿ ولو نزلناه ﴾ أي : القرآن على ما هو عليه من الحكمة والإعجاز ﴿ على بعض الأعجمين ﴾ أي : على رجل ليس بعربيّ اللسان أو بلغة العجم .

﴿ فقرأه عليهم ﴾ أي : كفار مكة ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ لفرط عنادهم واستكبارهم أو لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم ، وقالوا ما نفقه قولك وجعلوه عذراً بجحودهم ، ونظيره ﴿ ولو جعلنا قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ﴾ (فصلت ،) .

تنبيه : الأعجمين جمع أعجميّ بياء النسب على التخفيف بحذفها من الجمع ولكونه جمع أعجميّ جمع جمع سلامة لأنه حينئذ ليس من باب أفعل فعلاء بخلاف ما لو كان جمع أعجم فإنّ مؤنثه عجماء بوزن أفعل فعلاء وهو عند البصريين لا يجمع هذا الجمع إلا لضرورة كقوله:

(286/573)

حلائل أسودين وأحمرين

وقال ابن عطية : جمع أعجم ، يقال الأعجمون جمع أعجم وهو الذي لا يفصح وإن كان

غربيّ النسب يقال له أعجم وذلك يقال للحيوانات ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "جرح العجماء جبار" وأسند الطبريّ عن عبد الله بن مطيع أنه كان واقفاً بعرفة وتحته جمل فقال جملي هذا أعجم ولو أنه أنزل عليهم ما كانوا يؤمنون ، ولما كان ذلك محل تعجب وكأنه ربما ظنّ له أنّ الأمر على خلاف حقيقته قرّر مضمونه وحققه بقوله تعالى:

﴿ كذلك ﴾ أي : مثل إدخالنا التكذيب به بقراءة الأعجم ﴿ سلكناه ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد : أدخلنا الشرك والتكذيب ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ أي : كفار مكة بقراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم وهذا يدل على أنّ الكل بقضاء الله تعالى وقدره ، وقيل : الضمير في سلكناه عائد إلى القرآن ، قال ابن عادل : وهو الظاهر أي : سلكناه في قلوب المجرمين كما سلكناه في قلوب المؤمنين ومع ذلك لم ينجع فيهم ، وفي جملة .

﴿ لا يؤمنون به ﴾ وجهان : أحدهما : الاستئناف على جهة البيان والإيضاح لما قبله ، والثاني : أنها حال من الضمير في سلكناه أي : سلكناه غير مؤمن به أي : من أجل ما جبلوا عليه من الإجرام وجعل على قلوبهم من الطبع والختام ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي : الملجئ للإيمان فحينئذ يؤمنون حيث لا ينفعهم الإيمان ويطلبون الأمان حيث لا أمان ، ولما كان إتيان الشرّ فجأة أشدّ ، قال تعالى:

﴿ فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ بإتيانه .

﴿ فيقولوا ﴾ أي : تأسفاً واستسلاماً وتلهفاً في تلك الحالة لعلمهم بأنه لا طاقة به بوجه

﴿ هل نحن منظرون ﴾ أي : مفسوح لنا في آجالنا فنسمع ونطيع .

فإن قيل : ما معنى التعقيب في فيأتيهم بغتة فيقولوا ؟

(287/573)

أجيب : بأنه ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة في الوجود ، وإنما المعنى ترتبها في الشدّة ، كأنه قيل : لا يؤمنون بالقرآن حتى يكون رؤيتهم للعذاب عما هو أشدّ منها وهو لحوقه بهم مفاجأة عما هو أشدّ منه وهو سؤالهم النظرة ، مثال ذلك : أن تقول لمن تعظه : إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك الله ، فإنه لا يقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقب مقت الصالحين وإنما قصدك إلى ترتيب شدّة الأمر على المسيء ، فإنه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين عما هو أشدّ من مقتهم وهو مقت الله ، ونرى ثم تقع في هذا الأسلوب فيجمل موقعها ، ولما أوعدهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا إلى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب قال الله تعالى:

﴿ أفبعذابنا ﴾ أي : وقد تبين لهم كيف أخذه للأمم الماضية والقرون الخالية والأقوام العاتية ﴿ يستعجلون ﴾ أي : بقولهم : أمطر علينا حجارة أسقط علينا كسفاً من السماء ونحو ذلك .

﴿ أفرأيت ﴾ أي : هب أنّ الأمر كما يعتقدون من طول عيشهم في النعيم فأخبرني ﴿ إن متعناهم ﴾ أي : في الدنيا برغد العيش وصافي الحياة ﴿ سنين ﴾ .

﴿ ثم جاءهم ﴾ أي بعد تلك السنين المتطاولة والدهور المتواصلة ﴿ ما كانوا يودعون ﴾ من العذاب .

﴿ ما ﴾ أي : أيّ شيء ﴿ أغنى عنهم ﴾ أي : فيما أخذهم من العذاب ﴿ ما كانوا يمتعون ﴾ برفع العذاب أو تخفيفه ، أي : لم يغن عنهم طول التمتع شيئاً ويكون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط ، وعن ميمون بن مهران : أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظني فلم يزد على تلاوة هذه الآية ، فقال له ميمون لقد وعظت فأبلغت .

﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ أي : من القرى السالفة بعذاب الاستئصال ﴿ إلا لها منذرون ﴾ أي : رسولهم ومن تبعه من أمّته ومن سمعوا من الرسل بأخبارهم مع أممهم من قبلهم ، ثم علل الإنذار بقوله تعالى:

(288/573)

﴿ ذكرى ﴾ أي : تنبيهاً عظيماً على ما فيه النجاة ، أو جعل المنذرين نفس الذكرى ، كما قال تعالى ﴿ قد أنزلنا إليكم ذكراً رسولاً ﴾ (الطلاق : ـ)

وذلك إشارة إلى إمعانهم في التذكير حتى صاروا إياه ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ أي : في إهلاك شيء منها لأنهم كفروا نعمتنا وعبدوا غيرنا بعد الإعذار إليهم ومتابعة الحجج ومواصلة الوعيد .

تنبيه : الواو في قوله : ﴿ وما كنا ﴾ واو الحال من نون أهلكنا فإن قيل : كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا ولم تعزل عنها في قوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ ؟ (الحجر :)

أجيب : بأنّ الأصل عزل الواو لأنّ الجملة صفة لقرية وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله تعالى : ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ (الكهف :)

ولما كان الكفرة يقولون إنّ محمداً كاهن وما يتنزل عليه من جنس ما تتنزل به الشياطين ، أكذبهم الله سبحانه وتعالى بقوله .

﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ أي : ليكون سحراً أو كهانةً أو شعراً أو أضغاث أحلام كما يقولون .

﴿ وما ينبغي ﴾ أي : وما يصح ﴿ لهم ﴾ أن يتنزلوا به ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي : التنزل به وإن اشتدّت معاجلتهم على تقدير : أن يكون لهم قابلية لذلك ، ثم علل هذا بقوله تعالى: ﴿ إنهم عن السمع ﴾ أي : لكلام الملائكة ﴿ لمعزولون ﴾ أي : محجوبون بالشهب ، ولما كان القرآن داعياً إلى الله تعالى ناهياً عن عبادة غيره تسبب عن ذلك قوله تعالى:

﴿ فلا تدع مع الله ﴾ أي : الحائز لكمال الصفات ﴿ إلهاً آخر فتكون ﴾ أي : فيتسبب عن ذلك أن تكون ﴿ من المعذبين ﴾ من القادر على ما يريد بأيسر أمر وأسهله ، وهذا خطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم والمراد غيره لأنه معصوم من ذلك ، قال ابن عباس : يحذر به غيره يقول أنت أكرم الخلق لديّ وأعزهم عليّ ولئن اتخذت إلهاً غيري لعذبتك فيكون الوعيد أزجر له ويكون هو أقبل ، روى محمد بن إسحاق بسنده عن عليّ رضى الله عنه أنه قال لما نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم

(289/573)

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عليّ إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وضقت بذلك ذرعاً ، وعرفت أني متى أناديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره ، فصمت عليها حتى جاءني جبريل فقال يا محمد إلا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لي صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن ، ثم اجمع بني عبد المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ، ثم دعوتهم إليه وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب ، فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعته فجئت به فلما وضعته تناول صلى

الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصفحة ، ثم قال كلوا بسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة ، وايم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثل ما قدّمت لجميعهم ، ثم قدّمت لجميعهم ثم قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعاً وايم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بادره أبو لهب فقال سحركم محمد صاحبكم فتفرّق القوم ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عليّ إنّ هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرّق القوم قبل أن أكلمهم فأعد لنا الطعام مثل ما صنعت ثم اجمعهم ، ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقدمته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني عبد المطلب إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على أمري ويكون أخي ووصي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً ، فقلت وأنا أحدثهم سناً : أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه قال فأخذ برقبتي ثم قال : إنّ هذا أخي ووصي وخليفتي فيكم فاسمعوا وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لعليّ وتطيع .

(290/573)

وعن ابن عباس : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عديّ لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي قالوا : نعم ما جرّبنا عليك إلا الصدق قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، قال أبو لهب تباً لك ما جمعتنا إلا لهذا ، ثم قام فنزلت ﴿ تبت ﴾ أي : خسرت ﴿ يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ (المسد : ـ)

وفي رواية فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا ؟ فاجتمعوا إليه فقال : أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقي" إلى آخر ما مرّ .

وعن أبي هريرة قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله هذه الآية فقال يا معشر قريش أو كلمة نحوها ، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد سلي ما شئت من مال لا أغني عنك من الله شيئاً" .

وروى أبو يعلى عن الزبير بن العوام : "أنّ قريشاً جاءته فحذرهم وأنذرهم فسألوه آيات

سليمان في الريح وداود في الجبال وعيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك وأن يسير الجبال ويفجر الأنهار ويجعل الصخرة ذهباً فأوحى الله تعالى إليه وهم عنده فلما سري عنه أخبرهم أن أعطي ما سألوه ولكنه إن أراهم فكفروا عوجلوا ، فاختار صلى الله عليه وسلم الصبر عليهم ليدخلهم الله باب الرحمة فلما كانت النذارة إنما هي للمشركين ، أمر بضدّها لأضدادهم" بقوله تعالى:

(291/573)

﴿ واخفض جناحك ﴾ أي : لمن غاية اللين وذلك لأنّ الطائر إذا أراد أن يرتفع رفع جناحيه ، وإذا أراد أن ينحط كسرهما وخفضهما فجعل ذلك مثلاً في التواضع ، ومنه قول بعضهم:

*وأنت الشهير بخفض الجناح** فلأنك في رفعه أجدلا*

ينهاه عن التكبر بعد التواضع ﴿ لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ أي : سواء كانوا من الأقربين أم من الأبعدين ، فإن قيل : المتبعون للرسول هم المؤمنون ؟ .

أجيب : بوجهين : أحدهما : أن تسميتهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، الثاني : أن يريد بالمؤمنين المصدّقين بألسنتهم وهم صنفان صنف : صدّق واتبع رسول الله

صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ، وصنف : ما وجد منه إلا التصديق فقط ، أما أن يكونوا منافقين أو فاسقين والفاسق والمنافق لا يخفض لهما الجناح فمن على هذا للتبعيض ، وإن أريد عموم الإتباع فهي للتبيين واختلف في الواو في قوله تعالى:

﴿ فإن عصوك ﴾ على أوجه : أحدها : أنها ضمير الكفار ، أي : فإن عصاك الكفار في أمرك لهم بالتوحيد ، الثاني : أنها ضمير العشيرة ، وهذا أقرب كما جرى عليه السلف والجلال المحلي ، الثالث : أنها ضمير المؤمنين أي : فإن عصاك المؤمنون في فروع الإسلام وبعض الأحكام بعد تصديقك والإيمان برسالتك ، وهذا كما قال ابن عادل : في غاية البعد ﴿ فقل ﴾ أي : تاركاً لما كنت تعاملهم من اللين ﴿ إني بريء ﴾ أي : منفصل غاية الانفصال ﴿ مما تعملون ﴾ أي : من العصيان الذي أنذر منه القرآن .

﴿ وتوكل ﴾ أي : فوّض في عصمتك ونجاتك وجميع أمورك ﴿ على العزيز ﴾ أي : القادر على الدفع عنك والانتقام منهم ﴿ الرحيم ﴾ أي : الذي نصرك عليهم برحمته ، وقرأ نافع وابن عامر فتوكل بالفاء على الإبدال من جواب الشرط ، والباقون بالواو ، ثم أتبع الأمر بالتوكل الوصف المقتضى لجميع أوصاف الكمال بقوله تعالى:

﴿ الذي يراك ﴾ أي : بصراً وعلماً ﴿ حين تقوم ﴾ من نومك إلى التهجد ، وقال مجاهد : أي : يراك أينما كنت ، وقال أكثر المفسرين كما قال البغويّ حين تقوم إلى الصلاة أي : من نوم أو غيره .

﴿ و ﴾ يرى ﴿ تقلبك ﴾ في الصلاة قائماً وراكعاً وساجداً ﴿ في الساجدين ﴾ قال عكرمة عن ابن عباس أي : في المصلين ، وقال مقاتل : مع المصلين في الجماعة يقول يراك حين تقوم وحدك للصلاة ويراك إذا صليت مع المصلين جماعة ، وقال مجاهد : يرى تقلب بصرك في المصلين فإنه كان يبصر من خلفه كما يبصر أمامه .

وروى أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "هل تدرون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى عليّ خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري" ، وقال عطاء عن ابن عباس : أراد وتقلبك في أصلاب الأنبياء من نبيّ إلى نبيّ حتى أخرجك في هذه الأمة ، وقيل : تردّدك في تصفح الأحوال المتهجدين من أصحابك لتطلع عليهم من حيث لا يشعرون ، وتستبطن سرائرهم وكيف يعبدون الله وكيف يعملون لآخرتهم ، كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه عليهم وعلى ما يوجد منهم من فعل الطاعات وتكثير الحسنات فوجدها كبيوت الزنابير .

﴿ إنه هو ﴾ أي : وحده ﴿ السميع ﴾ أي : لجميع أقوالكم ﴿ العليم ﴾ أي : بجميع ما تسرونه وتعلنونه من أعمالكم وشمول العلم يستلزم تمام القدرة فصار كأنه قال : إنه السميع

البصير العليم القدير تثبيتاً للتوكل عليه ، ولما بين سبحانه وتعالى أنّ القرآن لا يصح أن يكون مما تنزلت به الشياطين ، أكد ذلك بأن بين أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لا يصح أن ينزلوا عليه من وجهين ذكرهما بقوله تعالى:

﴿ هل أنبئكم ﴾ أي : أخبركم خبراً جلياً نافعاً في الدين عظيم الجدوى في الفرقان بين أولياء الرحمن وإخوان الشيطان ﴿ على من تنزل ﴾ وتتردّد ﴿ الشياطين ﴾ حين تسترق السمع ولما كان كأنه قيل : نعم أشار إلى أحد الوجهين بقوله تعالى:

(293/573)

﴿ تنزل ﴾ على سبيل التدريج والتردّد ﴿ على كل أفاك ﴾ أي : كذاب ﴿ أثيم ﴾ أي : فاجر مثل مسيلمة الكذاب وغيره من الكهنة أشار إلى ثاني الوجهين بقوله تعالى:

﴿ يلقون السمع ﴾ أي : الآفكون يلقون السمع إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم أو يلقون المسموع من الشياطين إلى الناس فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها ، كما جاء في الحديث الكلمة يخطفها الجنيّ فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة ، ولا كذلك محمد صلى الله عليه وسلم فإنه أخبر عن مغيبات كثيرة لا تحصى وقد طابق كلها ، ويجوز أن يعود الضمير على الشياطين ، ومعنى إلقائهم السمع إنصاتهم إلى

الملأ الأعلى قبل أن يرجموا فيخطفون منهم بعض المغيبات ويوحونه إلى أوليائهم أو يلقون الشيء المسموع إلى الكهنة ﴿ وأكثرهم ﴾ أي : الفريقين ﴿ كاذبون ﴾ أما الشياطين فإنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا ، وأمّا الآفكون : فإنهم يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم .

فإن قيل : كيف قال وأكثرهم كاذبون بعد ما حكم عليهم أنّ كل واحد منهم أفاك ؟

أجيب : بأنّ الأفاكين هم الذين يكثرون الكذب لأنهم الذين لا ينطقون إلا بالكذب فأراد أنّ هؤلاء الأفاكين قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجنيّ وأكثرهم مفتر عليه ، ولما قال الكفار لم لا يجوز أن يقال الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ، ثم إنه تعالى فرق بين محمد عليه الصلاة والسلام وبين الكهنة ، وذكر ما يدلّ على الفرق بينه وبين الشعراء بقوله تعالى:

(294/573)

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ أي : الضالون المائلون عن سنن الأقوم إلى كل فساد يجرّ إلى الهلاك وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك بل هم الساجدون الباكون الزاهدون رضي الله تعالى عنهم ، وقرأ نافع بسكون التاء الفوقية وفتح الباء الموحدة ، والباقون بتشديد الفوقية وكسر الموحدة ، ولما قرّر حال أتباعهم ، علم منه أنهم هم أغوى

منهم لتهتّكهم في شهوة اللقلقة باللسان حتى حسن لهم الزور والبهتان ، دلّ على ذلك بقوله تعالى:

﴿ ألم تر ﴾ أي : تعلم ﴿ أنهم ﴾ أي : الشعراء ومثل حالهم بقوله تعالى : ﴿ في كل واد ﴾ من أودية القول من المدح والهجو والتشبب والرثاء والمجون وغير ذلك ﴿ يهيمون ﴾ أي : يسيرون سير البهائم حائرين وعن طريق الحق حائدين كيفما جرّهم القول أنجرّوا من القدح في الأنساب والتشبب بالحرم والهجو ومدح من لا يستحق المدح ونحو ذلك ، ولذلك قال تعالى:

﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ أي : لأنهم لا يقصدونه وإنما ألجأهم إليه الفنّ الذي سلكوه فأكثر أقوالهم لا حقائق لها ، وقيل : إنهم يمدحون الجود والكرم ويحثون عليه ولا يفعلونه ويذمّون البخل ويصرّون عليه ويهجون الناس بأدنى شيء صدر منهم .

تنبيه : قال المفسرون : أراد شعراء الكفار كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر مقاتل أسماءهم فقال : منهم عبد الله بن الزبعري السهميّ وهبيرة بن أبي وهب المخزوميّ وشافع بن عبد مناف وأبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحيّ وأمية بن أبي الصلت الثقفي تكلموا بالكذب والباطل وقالوا : نحن نقول كما قال محمد وقالوا الشعر واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين هجوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ويروون

عنهم قولهم : فذلك قوله تعالى : ﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ وهم الرواة الذين يروون هجاء المسلمين ، وقال قتادة : هم الشياطين ، ثم .

(295/573)

إنه تعالى لما وصف شعراء الكفار بهذه الأوصاف ، استثنى شعراء المسلمين الذين كانوا يجتنبون شعر الجاهلية ويهجون الكفار وينافحون عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، منهم : حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ، فقال تعالى:

﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ أي : بالله ورسوله ﴿ وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ أي : التي شرعها الله تعالى ورسوله ﴿ وذكروا الله ﴾ مستحضرين ما له من الكمال ﴿ كثيراً ﴾ أي : لم يشغلهم الشعر عن الذكر ، روي أنّ كعب بن مالك قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم "إنّ الله قد أنزل في الشعر ما أنزل ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم إنّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما ترمونهم به نضح النبل" وعن أنس رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم "دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول:

*خلوا بني الكفار عن سبيله ** اليوم نضربكم على تنزيله*

*ضرباً يزيل الهمام عن مقيله ** ويذهب الخليل عن خليله*

(296/573)

فقال له عمر : يا ابن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول شعراً فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم خل عنه يا عمر فهي أسرع فيهم من نضح النبل" وعن البراء أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم قريظة لحسان : "أهج المشركين فإنّ جبريل معك" وعن عائشة رضي الله عنها قالت أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "اهجوا قريشاً فإنه أشدّ عليهم من رشق النبل فأرسل إلى ابن رواحة فقال اهجهم فلم يرض فأرسل إلى كعب بن مالك ثم أرسل إلى حسان بن ثابت فقال حسان قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد ثم أدلع لسانه فجعل يحرّكه فقال والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لا تعجل فإنّ أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإنّ لي فيهم نسباً حتى يخلص لك نسبي ، فأتاه حسان ثم رجع فقال يا رسول الله لقد أخلص لي نسبك والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما يسلّ الشعر من العجين ، قالت عائشة فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان : إنّ روح القدس لا يزال يؤدّيك ما

نافحت عن الله ورسوله قالت وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "هجاهم حسان فشفى وأشفى" قال حسان:

*هجوت محمداً فأجبت عنه ** وعند الله في ذاك الجزاء*

*هجوت محمداً برّاً حنيفاً ** رسول الله شيمته الوفاء*

*فإنّ أبي ووالدتي وعرضي ** لعرض محمد منكم وفاء*

*فمن يهجو رسول الله منكم ** ويمدحه وينصره سواء*

*وجبريل رسول الله فينا ** وروح القدس ليس له كفاء*

(297/573)

وورد في مدح الشعر عن أبيّ بن كعب أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنّ من الشعر حكمة" وعن ابن عباس قال : جاء أعرابيّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : هل معك من شعر أمية ابن أبي الصلت شيء ؟ قال : نعم قال هيه ، فأنشده بيتاً فقال هيه حتى أنشده مائة بيت" وعن جابر بن سمرة قال : "جالست رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مئة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون شيئاً من أمر الجاهلية فربما تبسم معهم" وعن عائشة : الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع

القبيح ، وعن : الشعبيّ كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان عليّ أشعر الثلاثة ، وعن ابن عباس : أنه كان ينشد الشعر في المسجد ويستنشده فروي أنه دعا عمر بن أبي ربيعة المخزوميّ واستنشده القصيدة التي أوّلها :

*أمن آل نُعْمٍ أنت غاد مبكر ** غداة غد أم رائح فمهجر*

فأنشد ابن ربيعة القصيدة إلى آخرها وهي قريبة من سبعين بيتاً ، ثم إنّ ابن عباس أعاد القصيدة جميعاً وكان حفظها بمرّة واحدة . ثم بين سبحانه وتعالى ما حمل المؤمنين على الشعر وهو انتصارهم من المشركين بقوله تعالى : ﴿ وانتصروا ﴾ أي : بهجوهم الكفار ﴿ من بعد ما ظلموا ﴾ بهجو الكفار لهم لأنهم بدؤا بالهجاء ، ثم أوعد شعراء المشركين وغيرهم من الكفار بقوله تعالى : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا ﴾ بالشرك وهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ أي : منقلب ﴾ أي : مرجع ﴿ ينقلبون ﴾ أي : يرجعون بعد الموت ، قال ابن عباس : إلى جهنم والسعير ، وفي هذا تهديد شديد لما في سيعلم من الوعيد البليغ ، ﴿ وفي الذين ظلموا ﴾ من الإطلاق والتعميم وفي ﴿ أيّ منقلب ينقلبون ﴾ من الإبهام والتهويل ، وقد تلا أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه هذه الآية .

(298/573)

اللهمّ اجعلنا ممن جعل هذه الآية بين عينيه فلم يغفل عنها ، وروى الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "أعطيت السورة التي تذكر فيها البقرة من الذكر الأوّل وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى وأعطيت فواتح القرآن وخواتيم السورة التي تذكر فيها البقرة من تحت العرش وأعطيت المفصل نافلة" وعن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله أعطاني السبع مكان التوراة وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهنّ نبيّ قبلي" ، وما رواه البيضاويّ تبعاً للزمخشريّ من أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم وبعدد من كذب بعيسى وصدّق بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 52 . 64 ﴾

(299/573)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) ﴾

انتهى القصص وكله يعرض قصة الرسل والرسالات . وقصة التكذيب والإعراض . وقصة

التحدي والعقاب .

وقد بدأ هذا القصص بعد مقدمة السورة . والحديث فيها خاص برسول الله صلى الله عليه وسلم ومشركي قريش : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين . إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ . . ثم سيق القصص ، وكله نماذج للقوم يأتيهم أنباء ما كانوا يستهزئون .

فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة الذي تضمنته المقدمة ؛ فجاء هذا التعقيب الأخير ، يتحدث عن القرآن ، فيؤكد أنه تنزيل رب العالمين ومنه هذا القصص الذي مضت به القرون ، فإذا القرآن ينزل به من رب العالمين ، ويشير إلى أن علماء بني إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن ، لأنه مذكور في كتب الأولين . إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ؛ ويزعمون أنه سحر أو شعر ، ولو أن أعجمياً لا يتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين . لأن العناد هو الذي يقعد بهم عن الإيمان لا ضعف الدليل ! وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم كما تتنزل بالأخبار على الكهان . وما هو كذلك بشعر ، فإن له منهجاً ثابتاً والشعراء يهيمون في كل واد وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيراً للمشركين ، قبل أن يأخذهم الله بالعذاب ، وقبل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون

﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ . .

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين ﴾ . .

(300/573)

والروح الأمين جبريل عليه السلام نزل بهذا القرآن من عند الله على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أمين على ما نزل به ، حفيظ عليه ، نزل به على قلبه فتلقاه تلقياً مباشراً ، ووعاه وعياً مباشراً . نزل به على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين . هو لسان قومه الذي يدعوهم به ، ويتلو عليهم القرآن . وهم يعرفون مدى ما يملك البشر أن يقولوا ؛ ويدركون أن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر ، وإن كان بلغتهم ؛ وأنه بنظمه ، وبمعانيه ، وبمنهجه ، وبتناسقه . يشي بأنه آت من مصدر غير بشري بيقين .

وينتقل من هذا الدليل الذاتي إلى دليل آخر خارجي :

﴿ وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ . .

فقد وردت صفة الرسول الذي ينزل عليه القرآن ، كما وردت أصول العقيدة التي جاء بها في كتب الأولين .

ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة ، وينتظرون هذا الرسول ، ويحسون أن زمانه قد أظلهم ؛ ويحدث بعضهم بعضاً بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي ، ولسان عبد الله بن سلام رضي الله عنهما والأخبار في هذا ثابتة كذلك بيقين .

إنما يكابر المشركون ويعاندون لمجرد المكابرة والعناد ، لا لضعف الحجة ولا لقصور الدليل ؛ فلو جاءهم به أعجمي لا ينطق العربية فتلاه عليهم قرآناً عربياً ما آمنوا به ، ولا صدقوه ، ولا اعترفوا أنه موحى به إليه ، حتى مع هذا الدليل الذي يجبه المكابرين :

﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ، فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ . .

وفي هذا تسرية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصوير لعنادهم ومكابرتهم في كل دليل . ثم يعقب على هذا بأن التكذيب مكتوب على القوم ملازم لهم بحكم عنادهم ومكابرتهم . فهكذا قضي الأمر أن يتلقوه بالتكذيب ، كأنه طبع في قلوبهم لا يحول . حتى يأتيهم العذاب وهم في غفلة لا يشعرون :

(301/573)

﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ، فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ . .

والتعبير يرسم صورة حسية لملازمة التكذيب لهم . فيقول : إنه على هذه الهيئة . هيئة عدم الإيمان والتكذيب بالقرآن . على هذه الهيئة نظمناه في قلوبهم وأجريناه . فهو لا يجري فيها إلا مكذباً به . ويظل على هيئته هذه في قلوبهم ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ . . ﴿ فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ . . وقد بقي بعضهم فعلاً على هذا الوضع حتى فارق هذه الأرض بالقتل أو الموت ، ومن ثم إلى العذاب الأليم . . وفي هذه اللحظة فقط يفيقون :

﴿ فيقولوا : هل نحن منظرون ؟ ﴾ . .

هل نحن مؤجلون إلى فرصة أخرى ، نصلح بها ما فات . وهيهات هيهات !

ولقد كانوا يستعجلون عذاب الله ، على سبيل الاستهزاء والاستهتار ، واغتراراً بما هم فيه من متاع ، يبلد حسهم ، ويجعلهم يستبعدون النقلة منه إلى العذاب والنكال . شأنهم شأن ذوي النعمة قلما يخطر ببالهم أن تزول ؛ وقلما يتصورون أن تحول . فهو يوقظهم هنا من هذه الغفلة ، ويرسم لهم صورتهم حين يحل بهم ما يستعجلون :

﴿ أفبعذابنا يستعجلون ؟ أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ . .

فيضع صورة الاستعجال بالعذاب في جانب . وفي الجانب الآخر تحقق الوعيد . وإذا سنون المتاع ساقطة كأنها لم تكن ، لا تغني عنهم شيئاً ، ولا تخفف من عذابهم .

وفي الحديث الصحيح : " يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا ، فيصبغ في الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب "

ثم يخوفهم بأن الإنذار مقدمة الهلاك . وأن رحمة الله ألا يهلك قرية حتى يبعث فيها رسولاً ، يذكرها بدلائل الإيمان :

﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى . وما كنا ظالمين ﴾ . .

(302/573)

ولقد أخذ الله على البشر عهد الفطرة أن يوحدوه ويعبدوه . والفطرة بذاتها تحس بوجود الخالق الواحد ما لم تفسد وتنحرف . وبث دلائل الإيمان في الكون ، كلها يوحي بوجود الخالق الواحد . فإذا نسي الناس عهد الفطرة ؛ وأغفلوا دلائل الإيمان ، جاءهم نذير يذكرهم ما نسوا ، ويوقظهم إلى ما أغفلوا . فالرسالة ذكرى تذكر الناسين وتوقظ الغافلين . زيادة في العدل والرحمة ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ في أخذ القرى بعد ذلك بالعذاب والهلاك . فإنما هو جزاء النكسة عن خط الهدى ومنهج اليقين .

ثم يبدأ معهم جولة جديدة عن القرآن الكريم :

﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ . .

لقد قرر في الجولة الماضية أنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين ؛ واستطرد مع تكذيبهم به ، واستعجالهم ما يتوعدهم من عذاب فيه . . وها هو ذا ينفي دعواهم أنه من وحي الشياطين على طريقة الكهان ، الذين كانوا يزعمون أن الشياطين تأتيهم بخبر الغيب ، وبالسمع الذي يتكهنون فيه بالأخبار .

وما يليق هذا القرآن بالشياطين . وهو يدعو إلى الهدى والصلاح والإيمان . والشياطين تدعو إلى الضلال والفساد والكفر .

وما هم بمستطيعين أن يأتوا به . فهم معزولون عن سماع الوحي به من الله . إنما يتنزل به الروح الأمين ، بإذن من رب العالمين . وليس هذا بميسور للشياطين .

وهنا يلتفت بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذره من الشرك وهو أبعد من يكون عنه ليكون غيره أولى بالحذر . ويكلفه إنذار عشيرته الأقربين . ويأمره بالتوكل على الله ، الذي يلحظه دائماً ويرعاه :

﴿ فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل : إني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم ﴾ . .

وحين يكون الرسول صلى الله عليه وسلم متوعداً بالعذاب مع المعذبين ، لو دعا مع الله إلهاً آخر . وهذا محال ولكنه فرض للتقريب . فكيف يكون غيره ؟ وكيف ينجو من العذاب من يدعو هذه الدعوة من الآخرين ؟ ! وليس هنالك محاباة ، والعذاب لا يتخلف حتى عن الرسول ، لو ارتكب هذا الإثم العظيم !

وبعد إنذار شخصه صلى الله عليه وسلم يكلف إنذار أهله . لتكون لمن سواهم عبرة ، أن هؤلاء يتهددهم العذاب لو بقوا على الشرك لا يؤمنون : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ . . روى البخاري ومسلم أنه " لما نزلت هذه الآية أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صاحباه ! فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا بني عبد المطلب . يا بني فهر . يا بني لؤي . أرأيتم لو أخبرتك أن خيلاً بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ " قالوا : نعم . قال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ! أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب . . . ﴾ " .

وأخرج مسلم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت : " لما نزلت : ﴿ وأنذر عشيرتك

الأقربين ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا فاطمة ابنة محمد . يا صفية ابنة عبد المطلب . يا بني عبد المطلب . لا أملك لكم من الله شيئاً . سلوني من مالي ما شئتم " .

وأخرج مسلم والترمذي بإسناده عن أبي هريرة قال : " لما نزلت هذه الآية . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فعم وخص فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار . فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً . إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها " .

(304/573)

فهذه الأحاديث وغيرها تبين كيف تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر ، وكيف أبلغه لعشيرته الأقربين ، ونفض يده من أمرهم ، ووكلهم إلى ربهم في أمر الآخرة ، وبين لهم أن قرابتهم له لا تنفعهم شيئاً إذا لم ينفعهم عملهم ، وأنه لا يملك لهم من الله شيئاً ، وهو رسول الله . . وهذا هو الإسلام في نصاعته ووضوحه ، ونفي الوساطة بين الله وعباده حتى عن رسوله الكريم .

كذلك يبين الله لرسوله كيف يعامل المؤمنين الذين يستجيبون لدعوة الله على يديه :

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ . .

فهو اللين والتواضع والرفق في صورة حسية مجسمة . صورة خفض الجناح ، كما يخفض الطائر جناحيه حين يهم بالهبوط . وكذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين طوال حياته . فقد كان خلقه القرآن . وكان هو الترجمة الحية الكاملة للقرآن الكريم .

وكذلك بين الله له كيف يعامل العصاة فيكلهم إلى ربهم ، ويبرأ مما يعملون :

﴿ فإن عصوك فقل : إني بريء مما تعملون ﴾ . .

وكان هذا في مكة ، قبل أن يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين .

ثم يتوجه به صلى الله عليه وسلم إلى ربه ، يصله به صلة الرعاية الدائمة القريبة :

﴿ وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك في الساجدين . إنه هو السميع العليم ﴾ .

دعهم وعصيانهم ، متبرئاً من أعمالهم ، وتوجه إلى ربك معتمداً عليه ، مستعيناً في أمرك كله به .

ويصفه سبحانه بالصفتين المكررتين في هذه السورة : العزة والرحمة . ثم يشعر قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بالأنس والقربى . فربه يراه في قيامه وحده للصلاة ، ويراه في صفوف الجماعة الساجدة . يراه في وحدته ويراه في جماعة المصلين يتعهدهم وينظمهم ويؤمهم

ويتنقل بينهم . يرى حركاته وسكناته ، ويسمع خطراته ودعواته : ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ . .

(305/573)

وفي التعبير على هذا النحو إيناس بالرعاية والقرب والملاحظة والعناية . وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر أنه في كنف ربه ، وفي جواره وقربه . وفي جو هذا الأنس العلوي كان يعيش . .

والجولة الأخيرة في السورة حول القرآن أيضاً . ففي المرة الأولى أكد أنه تنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الأمين . وفي المرة الثانية نفى أن تتنزل به الشياطين . أما في هذه المرة فيقرر أن الشياطين لا تتنزل على مثل محمد صلى الله عليه وسلم في أمانته وصدقه وصلاح منهجه ؛ إنما يتنزل على كل كذاب آثم ضال من الكهان الذين يتلقون إيحاءات الشياطين ويذيعونها مع التضخيم والتهويل :

﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ . .

وكان في العرب كهان يزعمون أن الجن تنقل إليهم الأخبار ، وكان الناس يلجأون إليهم

ويركنون إلى نبوءاتهم . وأكثرهم كاذبون . والتصديق بهم جري وراء الأوهام والأكاذيب . وهم على أية حال لا يدعون إلى هدى ، ولا يأمرون بتقوى ، ولا يقودون إلى إيمان . وما هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو الناس بهذا القرآن إلى منهج قويم . ولقد كانوا يقولون عن القرآن أحياناً : إنه شعر ، ويقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه شاعر . وهم في حيرتهم كيف يواجهون هذا القول الذي لا يعرفون له نظيراً ، والذي يدخل إلى قلوب الناس ، ويهز مشاعرهم ، ويغلبهم على إرادتهم من حيث لا يملكون له رداً .

(306/573)

فجاء القرآن يبين لهم في هذه السورة أن منهج محمد صلى الله عليه وسلم ومنهج القرآن غير منهج الشعراء ومنهج الشعر أصلاً . فإن هذا القرآن يستقيم على نهج واضح ، ويدعو إلى غاية محددة ، ويسير في طريق مستقيم إلى هذه الغاية . والرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول اليوم قولاً ينقضه غداً ، ولا يتبع أهواء وانفعالات متقلبة ؛ إنما يصر على دعوة ، ويثبت على عقيدة ، ويدأب على منهج لا عوج فيه . والشعراء ليسوا كذلك . الشعراء أسرى الانفعالات والعواطف المتقلبة . تتحكم فيهم مشاعرهم وتقودهم إلى التعبير عنها كيفما كانت . ويرون الأمر الواحد في لحظة أسود . وفي لحظة أبيض . يرضون فيقولون قولاً ،

ويسخطون فيقولون قولاً آخر . ثم هم أصحاب أمزجة لا تثبت على حال !

هذا إلى أنهم يخلقون عوالم من الوهم يعيشون فيها ، ويتخيلون أفعالاً ونتائج ثم يخالونها حقيقة واقعة يتأثرون بها .

فيقل اهتمامهم بواقع الأشياء ، لأنهم يخلقون هم في خيالهم واقعاً آخر يعيشون عليه !

وليس كذلك صاحب الدعوة المحددة ، الذي يريد تحقيقها في عالم الواقع ودنيا الناس .

فلصاحب الدعوة هدف ، وله منهج ، وله طريق . وهو يمضي في طريقه على منهجه إلى هدفه مفتوح العين ، مفتوح القلب ، يقظ العقل ؛ لا يرضى بالوهم ، ولا يعيش بالرؤى ، ولا يقنع بالأحلام ، حتى تصبح واقعاً في عالم الناس .

فمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهج الشعراء مختلفان ، ولا شبهة هناك ، فالأمر واضح صريح :

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ ! ﴾ .

فهم يتبعون المزاج والهوى ومن ثم يتبعهم الغاوون الهائمون مع الهوى ، الذين لا منهج لهم ولا هدف .

وهم يهيمون في كل واد من وديان الشعور والتصور والقول ، وفق الانفعال الذي يسيطر عليهم في لحظة من اللحظات تحت وقع مؤثر من المؤثرات .

وهم يقولون مالا يفعلون . لأنهم يعيشون في عوالم من صنع خيالهم ومشاعرهم ، يؤثرونها على واقع الحياة الذي لا يعجبهم ! ومن ثم يقولون أشياء كثيرة ولا يفعلونها ، لأنهم عاشوها في تلك العوالم الموهومة ، وليس لها واقع ولا حقيقة في دنيا الناس المنظورة !

إن طبيعة الإسلام وهو منهج حياة كامل معد للتنفيذ في واقع الحياة ، وهو حركة ضخمة في الضمائر المكنونة وفي أوضاع الحياة الظاهرة إن طبيعة الإسلام هذه لا تلائمها طبيعة الشعراء كما عرفتهم البشرية في الغالب لأن الشاعر يخلق حلماً في حسه ويقنع به . فأما الإسلام فيريد تحقيق الحلم ويعمل على تحقيقه ، ويحول المشاعر كلها لتحقق في عالم الواقع ذلك النموذج الرفيع .

والإسلام يحب للناس أن يواجهوا حقائق الواقع ولا يهربوا منها إلى الخيال المهوّم . فإذا كانت هذه الحقائق لا تعجبهم ، ولا تتفق مع منهجه الذي يأخذهم به ، دفعهم إلى تغييرها ، وتحقيق المنهج الذي يريد .

ومن ثم لا تبقى في الطاقة البشرية بقية للأحلام المهوّمة الطائرة . فالإسلام يستغرق هذه الطاقة في تحقيق الأحلام الرفيعة ، وفق منهجه الضخم العظيم .

ومع هذا فالإسلام لا يحارب الشعر والفن لذاته كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ. إنما يحارب المنهج الذي سار عليه الشعر والفن. منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها؛ ومنهج الأحلام المهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها. فأما حين تستقر الروح على منهج الإسلام، وتنضح بتأثراتها الإسلامية شعراً وفناً؛ وتعمل في الوقت ذاته على تحقيق هذه المشاعر النبيلة في دنيا الواقع؛ ولا تكتفي بخلق عوالم وهمية تعيش فيها، وتدع واقع الحياة كما هو مشوهاً متخلفاً قبيحاً!

وأما حين يكون للروح منهج ثابت يهدف إلى غاية إسلامية، وحين تنظر إلى الدنيا فتراها من زاوية الإسلام، في ضوء الإسلام، ثم تعبر عن هذا كله شعراً وفناً.

(308/573)

فأما عند ذلك فالإسلام لا يكره الشعر ولا يحارب الفن، كما قد يفهم من ظاهر الألفاظ.

ولقد وجه القرآن القلوب والعقول إلى بدائع هذا الكون، وإلى خفايا النفس البشرية. وهذه وتلك هي مادة الشعر والفن. وفي القرآن وقفات أمام بدائع الخلق والنفس لم يبلغ إليها شعر قط في الشفافية والنفاذ والاحتفال بتلك البدائع وذلك الجمال.

ومن ثم يستثني القرآن الكريم من ذلك الوصف العام للشعراء:

«إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً ، وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا» . .

فهؤلاء ليسوا داخلين في ذلك الوصف العام . هؤلاء آمنوا فامتلأت قلوبهم بعقيدة ، واستقامت حياتهم على منهج . وعملوا الصالحات فاتجهت طاقاتهم إلى العمل الخير الجميل ، ولم يكتفوا بالتصورات والأحلام .

وانتصروا من بعد ما ظلموا فكان لهم كفاح ينفثون فيه طاقتهم ليصلوا إلى نصرة الحق الذي اعتنقوه .

ومن هؤلاء الشعراء الذين نافحوا عن العقيدة وصاحبها في إبان المعركة مع الشرك والمشركين على عهد رسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلّم – حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وعبد اللّه بن رواحة – رضي اللّه عنهم – من شعراء الأنصار ، ومنهم عبد اللّه بن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وقد كانا يهجوان رسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلّم – في جاهليتهما ، فلما أسلما حسن إسلامهما ومدحا رسول اللّه ونافحا عن الإسلام .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلّم – قال لحسان : «اهجهم – أو قال هاجهم – وجبريل معك» . . وعن عبد الرحمن بن كعب عن أبيه أنه قال للنبي – صلّى اللّه عليه وسلّم – إن اللّه عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل . فقال رسول اللّه –

صلّى اللّه عليه وسلّم – : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل» (رواه الإمام أحمد) .

(309/573)

والصور التي يتحقق بها الشعر الإسلامي والفن الإسلامي كثيرة غير هذه الصورة التي وجدت وفق مقتضياتها .

وحسب الشعر أو الفن أن ينبع من تصور إسلامي للحياة في أي جانب من جوانبها ، ليكون شعرا أو فنا يرضاه الإسلام .

وليس من الضروري أن يكون دفاعا ولا دفعا ولا أن يكون دعوة مباشرة للإسلام ولا تمجيدا له أو لأيام الإسلام ورجاله . . ليس من الضروري أن يكون في هذه الموضوعات ليكون شعرا إسلاميا . وإن نظرة إلى سريان الليل وتنفس الصبح ، ممزوجة بشعور المسلم الذي يربط هذه المشاهد باللّه في حسه لهي الشعر الإسلامي

(310/573)

في صميمه . وإن لحظة إشراق واتصال بالله ، أو بهذا الوجود الذي أبدعه الله ، لكفيلة أن تنشئ شعرا يرضاه الإسلام .

ومفرق الطريق أن للإسلام تصورا خاصا للحياة كلها ، وللعلاقات والروابط فيها . فأيما شعر نشأ من هذا التصور فهو الشعر الذي يرضاه الإسلام .

وتختم السورة بهذا التهديد الخفي المجمل :

«وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» . .

السورة التي اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ، واستهتارهم بالوعيد واستعجالهم بالعذاب .

كما اشتملت على مصارع المكذبين على مدار الرسالات والقرون .

تنتهي بهذا التهديد المخيف . الذي يلخص موضوع السورة . وكأنه الإيقاع الأخير المرهوب يتمثل في صور شتى ، يتمثلها الخيال ويتوقعها . وتزلزل كيان الظالمين زلزالا شديدا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2617 . 2623 ﴾

(311/573)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجميين ﴾

فيه إظهار القدرة من وجهين : الأول جعل الأعجمي بحيث يقرا العربي عليهم كقول القائل : أمسيت كردياً واصبحت عربياً . والثاني أن أهل الإنكار لا يصيرون أهل الإقرار ولو أتاهم مثل هذا الإعجاز البين ، وذلك لأن الله كذلك يسلكه في قلوبهم فيأتيهم عذاب البعد والطرد في الدنيا ﴿ بغتة وهم لا يشعرون ﴾ لأنهم نيام فإذا ماتوا انتبهوا فيقولون هل نحن منظرون . ﴿ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ لأنهم خلقوا من النار والقرآن نور قديم فلا يكون للنار المخلوقة قوة حمل النور القديم ، ولهذا تستغيث النار من نور المؤمن وتقول : جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي . ﴿ فتكون من المعذبين ﴾ لأن كل من طلب مع الله شيئاً آخر حتى الجنة فله عذاب البعد والحرمان من الله . ﴿ وأنذر عشيرتك ﴾ فيه أن النسب نسب النفوس فإن أكل المرء يشبعه ولا يشبع ولده . إلا إذا أكل الطعام كما أكل والده وهذا معنى المتابعة . ﴿ إني بريء مما تعملون ﴾ لم يقل " إني بريء منكم " لأن المراد لا تبرأ منهم وقل لهم قولاً جميلاً بالنصح والموعظة الحسنة حتى يرجعوا ببركة دعوتك إلى القول الحق ، أو ينالوا الجنة بواسطة شفاعتك . ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ بأن خلق روح كل ساجد من روحك . ﴿ إنه هو السميع ﴾ في الأزل مقالتك " أنا سيد ولد آدم ولا

فخر "لأن أرواحهم خلقت من روحك ﴿ العليم ﴾ باستحقاقك لهذه الكرامة الله تعالى حسبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 290 ﴾

(312/573)

وقال الآلوسى :

ومما قيل في بعض الآيات من باب الإشارة :

﴿ طسم ﴾ [الشعراء : 1] قال الجنيد : الطاء طرب التائبين في ميدان الرحمة .

والسين سرور العارفين في ميدان الوصلة .

والميم مقام المحبين في ميدان القربة ، وقيل : الطاء طهارة القدم من الحدثان والسين سناء صفاته تعالى التي تكشف في مرايا البرهان .

والميم مجده سبحانه الذي ظهر بوصف البهاء في قلوب أهل العرفان .

وقيل : الطاء طهارة قلب نبيه صلى الله عليه وسلم عن تعلقات الكونين .

والسين سيادته صلى الله عليه وسلم على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام .

والميم مشاهدته عليه الصلاة والسلام جمال رب العالمين ، وقيل : الطاء شجرة طوبى والسين سدرة المنتهى والميم محمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل غير ذلك ﴿ لَعَلَّكَ باخع

نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] الخ فيه إشارة إلى كمال شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته وأن الحرص على إيمان الكافر لا يمنع سوابق الحكم ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ [الشعراء : 10 ، 11] إلى آخر القصة فيه إشارة إلى حسن التعاضد في المصالح الدينية والتلطف بالضال في إلزامه بالحجج القطعية وأنه لا ينبغي عدم الاحتفال بمن ربيته صغيراً ثم رأيته وقد منحه الله تعالى ما منحه من فضله كبيراً ، وقال بعضهم : إن فيه إشارة إلى ما في الأنفس وجعل موسى إشارة إلى موسى القلب وفرعون إشارة إلى فرعون النفس وقومه إشارة إلى الصفات النفسانية وبني إسرائيل إشارة إلى الصفات الروحانية والفعلة إشارة إلى قتل قبطي الشهوة والعصا إشارة إلى عصا الذكر أعني لا إله إلا الله واليد إشارة إلى يد القدرة وكونها بيضاء إشارة إلى كونها مؤيدة بالتأييد الإلهي والناظرين إشارة إلى أرباب الكشف الذين ينظرون بنور الله تعالى والسحرة إشارة إلى الأوصاف البشرية والأخلاق الردية والناس إشارة إلى الصفات الناسوتية والأجر إشارة إلى الحظوظ الحيوانية والحبال إشارة إلى حبال الحيل والعصي إشارة إلى عصي التمويهات والمخيلات والمدائن إشارة إلى أطوار النفس وهكذا .

وعلى هذا الطريق سلكوا في الإشارة في سائر القصص .

(313/573)

فجعلوا إبراهيم إشارة إلى القلب وأباه وقومه إشارة إلى الروح وما يتولد منها والأصنام إشارة إلى ما يلائم الطباع من العلويات والسفليات وهكذا مما لا يخفى على من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وللشيخ الأكبر قدس سره في هذه القصص كلام عجيب من أراده فليطلبه في كتبه وهو قدس سره ممن ذهب إلى أن خطيئة إبراهيم عليه السلام التي أرادها بقوله : ﴿ والذى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82] كانت إضافة المرض إلى نفسه في قوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 80] وقد ذكر قدس سره إنه اجتمع مع إبراهيم عليه السلام فسأله عن مراده بها فأجابه بما ذكر .

وقال في باب أسرار الزكاة من الفتوحات إن قول الرسول ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ على رَبّ العالمين ﴾

[الشعراء : 109] لا يقدح في كمال عبوديته فإن قوله : ذلك لأن يعلم أن كل عمل خالص يطلب الأجر بذاته وذلك لا يخرج العبد عن أوصاف العبودية فإن العبد في صورة الأجير وليس بأجير حقيقة إذ لا يستأجر السيد عبده بل يستأجر الأجنبي وإنما العمل نفسه يقتضي الأجرة وهو لا يأخذها وإنما يأخذها العامل وهو العبد فهو قابض الأجرة من الله تعالى فأشبه الأجير في قبض الأجرة وخالفه بالاستئجار اه .

وحقق أيضاً ذلك في الباب السادس عشر والثلاثمائة من الفتوحات ، وذكر في الباب السابع عشر والأربعمائة منها أن أجر كل نبي يكون على قدر ما ناله من المشقة الحاصلة له من المخالفين ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء : 210 212] فيه إشارة إلى أنه ليس للشيطان قوة حمل القرآن لأنه خلق من نار وليس لها قوة حمل النور ألا ترى أن نار الجحيم كيف تستغيث عند مرور المؤمن عليها وتقول : جزء يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي ولنحو ذلك ليس له قوة على سمعه ، وهذا بالنسبة إلى أول مراتب ظهوره فلا يرد أنه يلزم على ما ذكر أن الشياطين لا يسمعون آيات القرآن إذا تلوناها ولا يحفظونها وليس كذلك .

نعم ذكر أنهم لا يقدرون أن يسمعوا آية الكرسي .

وآخر البقرة وذلك لخاصية فيهما ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ [الشعراء : 214] فيه إشارة إلى أن النسب إذا لم ينضم إليه الإيمان لا ينفع شيئاً ، ولما كان حجاب القرابة كثيفاً أمر صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته الأقربين ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 215] هم أهل النسب المعنوي الذي هو أقرب من النسب

الصوري كما أشار إليه ابن الفارض قدس سره بقوله :

نسب أقرب في شرع الهوى . . .

بيننا من نسب من أبوي

وأنا أحمد الله تعالى كما هو أهله على أن جعلني من الفائزين بالنسبين حيث وهب لي الإيمان وجعلني من ذرية سيد الكونين صلى الله عليه وسلم فها أنا من جهة أم أبي من ذرية الحسن ومن جهة أبي من ولد الحسين رضي الله تعالى عنهما .

نسب كأن عليه من شمس الضحى . . .

نوراً ومن فلق الصباح عموداً

والله عز وجل هو ولي الإحسان المتفضل بصنوف النعم على نوع الإنسان والصلاة والسلام على سيد العالمين وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(315/573)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الشّعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)

الإعراب :

جملة : تلك آيات . . . "لا محلّ لها ابتدائيّة .

[سورة الشعراء (26) : آية 3]

لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3)

الإعراب :

(نفسك) مفعول به لاسم الفاعل باخع منصوب (لا) نافية .

والمصدر المؤوّل (ألّا يكونوا . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بباخع أي : من عدم إيمانهم .

وجملة : "لعلّك باخع . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يكونوا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أنّ) .

الفوائد

1 - طسم :

تقدم الحديث عن هذه الأحرف التي هي فواتح للسور . وللعودة إلى ما قلناه :

أليست هذه ثلاثة أحرف من أحرف الهجاء ، وهي : ط ، س ، م . أما الغاية من ذكرها ، وخصوصا في أول السور ، فتلك موضع خلاف المفسرين واللغويين ، ولا أزال أقول قد

تكون الغاية من ذكر هذه الأحرف هو التنويه بقيمة هذه اللغة ، سواء أكانت نطقا أم كتابة أم قراءة . وحسب هذه اللغة أنها الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان ، وحسب هذه الأحرف فضلا أنها هي لحمة اللغة وسداها . . . !

2 – باخِعٌ نَفْسَكَ :

أ – باخع " اسم فاعل " واسم الفاعل يعمل عمل فعله ، سواء أكان لازما أم متعديا لمفعول واحد أم متعديا لمفعولين .

ب – اللازم نحو " خالد مجتهد أولاده " .

ج – المتعدي لواحد نحو " هل مكرم سعيد ضيوفه " ملاحظة : لا تجوز إضافة اسم الفاعل إلى فاعله فلا يقال : هل مكرم سعيد ضيوفه ؟

3 – شروط عمله :

أ – إذا كان مقترنا بـ " ال " فلا يحتاج إلى شرط آخر ، ويعمل في الماضي والحال والمستقبل .

ومثاله : جاء المعطي المساكين أمس ، أو الآن ، أو غدا .

(316/573)

ب - إذا لم يكن مقترنا بـ " أل " ، يشترط ليعمل ، أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال ، وأن يكون مسبوقا بنفي أو استفهام أو اسم مخبر عنه ، أو موصوف ، أو اسم يكون هو الأول ،

مثال الأول : ما طالب صديقك رفع الخلاف .

الثاني : هل عارف أخوك قدر الإنصاف .

الثالث : خالد مسافر أبواه .

الرابع : هذا رجل مجتهد أبناؤه .

الخامس : يخطب علي رافعا صوته .

ملاحظة : قد يكون الاستفهام والموصوف مقدرين :

الأول ، نحو : مقيم سعيد أم منصرف ؟

الثاني ، كقول الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ملاحظة هامة : صيغ مبالغة اسم الفاعل تعمل عمله ، وكذلك منه المثنى والجمع ، وبشروطه السابقة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 4 إلى 6]

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (4) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

(6)

الإعراب :

(عليهم) متعلّق بـ (ننزّل) ، (من السماء) متعلّق بـ (ننزّل) " 1 " ، (الفاء) عاطفة (لها) متعلّق بالخبر خاضعين .

جملة : " نشأ . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ .

وجملة : " ننزّل . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " ظلّت أعناقهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب " 2 " .

(5) (الواو) عاطفة (ما) نافية (ذكر) مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل يأتيهم (من الرحمن) متعلّق بنعت لذكر " 3 " (إلّا) أداة حصر (عنه) متعلّق بالخبر معرضين .

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من آية .

(2) يجوز أن تكون مقطوعة على الاستئناف فلا محلّ لها . [. . . . .]

(3) أو متعلّق بمحدث ، ومن فيهما بيانيّة ، أو متعلّق بـ (يأتيهم) ، ومن لابتداء الغاية .

وجملة : " ما يأتيهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن نشأ .

وجملة : " كانوا عنه معرضين . . " في محلّ نصب حال من ضمير الغائب المفعول .

(6) (الفاء) تعليليّة (قد) حرف تحقيق (الفاء) الثانية رابطة لجواب شرط مقدّر (السين) حرف استقبال (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (به) متعلّق بـ (يستهزئون) .

وجملة : " كذّبوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يأتيهم . . . " جواب شرط مقدّر أي إن يكذّبوا فسيأتيهم . . .

وجملة : " كانوا به يستهزئون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(خاضعين) ، جمع خاضع اسم فاعل من الثلاثي خضع وزنه فاعل والجمع فاعلين .

البلاغة

المخالفة في العطف : في قوله تعالى فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ .

قوله تعالى فظلّت معطوف على الجزاء الذي هو ننزل ، لأنه لو قيل : أنزلنا ، لكان صحيحا . ولعله كان مما يقتضيه السياق . ولكنه خولف لأن في عطف الماضي على المستقبل إشعارا بتحقيقه وأنه كائن لا محالة ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا ، وله في القرآن نظائر سترد في مواضعها .

المجاز العقلي : في قوله تعالى أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ .

فقد يقال كيف صح مجي ء خاضعين خبرا عن الأعناق ، والخضوع من خصائص العقلاء ، وقد كان أصل الكلام " فظلوا لها خاضعين " . والسر في ذلك ، أنه لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل خاضعين ، كما تقدم في قوله تعالى لِي ساجِدِينَ

[سورة الشعراء (26) : الآيات 7 إلى 9]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (الواو) عاطفة " 1 " ، (إلى الأرض) متعلّق بـ (يروا) أي ينظروا (كم) خبرية كناية عن عدد مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم (فيها) متعلق بـ (أنبتنا) ، (من كلّ) تمييز كم . .

جملة : " يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أجحدوا ولم يروا . . .

وجملة : " أنبتنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

(8) (في ذلك) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) للابتداء تفيد التوكيد (آية) اسم إنّ منصوب (الواو) اعتراضيّة - أو حاليّة - (ما) نافية.

وجملة: إنّ في ذلك لآية لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "ما كان أكثرهم مؤمنين . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة - أو حال من فاعل يروا.

(9) (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد (الرحيم) خبر ثان مرفوع.

---

(1) تعطف الفعل على استئناف مقدّر، فلا مانع من جعلها استئنافيّة.

(2) أو في محلّ نصب حال من الأرض.

(319/573)

وجملة: "إنّ ربّك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ في ذلك.

وجملة: "هو العزيز . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة الشعراء (26): الآيات 10 إلى 11]

وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (11)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (إذ) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (أن) تفسيريّة "1" . . .

جملة : " نادى ربّك . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ائت . . . " لا محلّ لها تفسيريّة . . .

(11) (قوم) بدل من القوم منصوب مثله (ألا) أداة عرض فيها معنى التعجّب . . .

وجملة : " يتّقون . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 12 إلى 14]

قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14)

الإعراب :

---

(1) سبقت بفعل فيه معنى القول دون حروفه وهو (نادى) . . . ويجوز أن تكون مصدريّة ، والمصدر المؤوّل (أن أئت) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (نادي) ، أي بأن أئت .

(320/573)

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . . والياء المحذوفة مضاف إليه ، والنون المذكورة في (يكذّبون) نون الوقاية ،

جاءت قبل الياء المحذوفة لمناسبة فاصلة الآية .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء . . . في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أخاف " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يكذّبون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل " أن يكذّبون " في محلّ نصب مفعول به عامله أخاف .

(13) (الواو) عاطفة – أو استئنافيّة – ، والثانية عاطفة فقط (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 2 " ، (إلى هارون) متعلّق بـ (أرسل) ، وعلامة الجرّ الفتحة ، ممنوع من الصرف .

وجملة : " يضيق صدري . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة أخاف " 3 " .

وجملة : " لا ينطلق لساني . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يضيق صدري .

وجملة : " أرسل إلى هارون . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أصبح رسولا فأرسل . . .

(14) (الواو) استئنافيّة (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ذنب) ، (عليّ) متعلّق بالخبر

المحذوف (الفاء) عاطفة " 4 " ، (أن يقتلون) مثل أن يكذّبون . . .

---

(1) يجوز أن تكون اعتراضيّة دعائيّة للاسترحام ، وجملة إنّي أخاف تصبح هي مقول القول .

(2) لأن فيها معنى السببيّة .

(3) أو هي استئنافيّة في حيّز القول فلا محلّ لها .

(4) أو رابطة لجواب شرط مقدّر لأن فيها معنى السببيّة .

(321/573)

وجملة : " لهم عليّ ذنب . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " أخاف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لهم عليّ ذنب " 1 " .

وجملة : " يقتلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يقتلون) في محلّ نصب مفعول به عامله أخاف .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 15 إلى 17]

قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (17)

الإعراب :

فاعل (قال) ضمير يعود على اللّه (كلّا) حرف ردع وزجر (الفاء) عاطفة (بآياتنا) متعلّق بحال من فاعل اذهبا أي متلبّسين بآياتنا (معكم) ظرف منصوب متعلّق بـ (مستمعون) ، " 2 " .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . . ومقول القول مقدر دلّ عليه حرف الردع أي ارتدع عن الخوف . . .

وجملة : " اذهبا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول المقدّرة .

وجملة : " إنّا معكم مستمعون . . . " لا محلّ لها تعليليّة . . .

(16) (الفاء) عاطفة في الموضعين ، (رسول) خبر إنّ ، وقد أفرد لأنه من الألفاظ التي يستوي فيها الإفراد والتثنية والجمع كالطفل والضيف " 3 " .

---

(1) أو هي خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنا ، والجملة الاسميّة جواب الشرط المقدّر أي : إن ذهبت إليهم فأنا أخاف أن يقتلون .

(2) سبق الكلام بالجمع للتعظيم .

(3) أو أنّ كلّ واحد منّا رسول إليك .

وجملة : " ائتيا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة اذهبا . .

وجملة : " قولا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ائتيا .

وجملة : " إنّا رسول . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(17) (أن) حرف تفسير " 1 " ، (معنا) ظرف منصوب متعلّق بـ(أرسل) ، (بني) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم .

---

(1) لما في كلمة (رسول) من معنى القول دون حروفه ، ويجوز أن يكون حرفا مصدريّا ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق برسول .

وجملة : " أرسل . . . " لا محلّ لها تفسيريّة . .

الصرف :

(مستمعون) ، جمع مستمع ، اسم فاعل من الخماسيّ استمع ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ الاستماع في حقه عز وجل مجاز عن السمع ، اختير للمبالغة ، لأن فيه تسليما للإدراك ، وهو مما ينزه اللّه تعالى عنه سواء كان بحاسة أم لا .

وقال بعضهم : " إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ " جملة استعارة تمثيلية ، مثل سبحانه حاله عز وجل ، بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجري بينهم ، ليمد أولياءه ويظهرهم على أعدائهم ، مبالغة في الوعد بالإعانة .

الفوائد

- كلّا :

قال سيبويه : " وأما كلّا فردع وزجر " لا معنى لها عندهم غير ذلك .

وأقرب ما يقال فيها كما يقول ابن فارس :

إن كلّا تقع في تصريف الكلام على أربعة أوجه : الرّدّ ، والردع ، وصلة اليمين ، وافتتاح الكلام بها مثل " ألا " . وفي القرآن الكريم أمثلة على هذه الأقسام الأربعة فلا تتعجّل . . . !

- كلمة " رسول " :

يجوز أن تكون صفة للواحد والتثنية والجمع ، مثلها مثل المصادر ، حتى قيل : إنّ " الرسول

" بمعنى الرسالة ، ولذلك اعتبر من المصادر . واللّه أعلم . . . !

[سورة الشعراء (26) : الآيات 18 إلى 19]

قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (19)

الإعراب :

(324/573)

(الهمزة) للاستفهام التقريري " 1 " ، وعلامة الجزم في (نربّك) حذف حرف العلّة (فينا) متعلّق بفعل نربك بحذف مضاف أي في منازلنا (وليدا) حال منصوبة من ضمير الخطاب (الواو) عاطفة (فينا) الثاني متعلّق بـ (لبثت) بحذف مضاف كذلك (من عمرك) متعلّق بحال من سنين - نعت تقدّم على المنعوت - (سنين) ظرف زمان منصوب وعلامة النصب الياء ، ملحق بجمع المذكّر ، متعلّق بـ (لبثت) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نربّك " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لبثت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

(19) (الواو) عاطفة (التي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لفعلتك (الواو) حاليّة (من الكافرين) خبر أنت .

وجملة : " فعلت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

---

(1) أو التقريعيّ .

وجملة : " فعلت (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " أنت من الكافرين " في محلّ نصب حال من فاعل فعلت .

الصرف :

(نربّك) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم وأصله نربيّك ، وزنه نفعّك .

(وليدا) ، صفة مشتقّة من الثلاثي ولد المبني للمجهول ، وزنه فعيل بمعنى مفعول .

(فعلتك) ، مصدر مرّة من فعل وزنه على لفظه بفتح الفاء .

البلاغة

الإبهام : في قوله تعالى وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ .

– عدد نعمته عليه من ذلك ووبخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وفظعه عليه بقوله "

وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ " ومن وجه التفظيع عليه أن في إتيانه به مجملا مبهما ، إيذانا بأنه لفظاعته مما لا ينطق به إلا مكنى عنه ونظيره في التفخيم المستفاد من الإبهام قوله " فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ " . ومثله كثير .

فعلتك " مصدر المرة " أو مصدر العدد ، هو ما يذكر لبيان عدد الفعل .

أ – ويبنى من الثلاثي المجرد على وزن " فعلة " بفتح الفاء وسكون العين . مثل وقفت وقفة ووقفتين ووقفات .

(326/573)

ب – إذا كان الفعل فوق الثلاثي ألحقنا بمصدره التاء ، مثل " أكرمته إكرامة وتدحرج تدحرجة " .

ج – إذا كان مصدره مختوما بتاء فيذكر ما يدل على عدده :

مثل : رحمته رحمة واحدة .

ملاحظة : إذا كان للفعل ما فوقه الثلاثي مصدران ، أحدهما أشهر من الآخر ، جاء بناء المرة على الأشهر من مصدريه ، فتقول : زلزلته زلزلة واحدة وقاتلته مقاتلة واحدة ولا تقول زلزالة ولا قتالة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 20 إلى 22]

قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (22)

الإعراب

- (إذا) - بالتنوين - حرف جواب لا عمل له (الواو) حالية (من الضالّين) خبر المبتدأ أنا .

" 1 "

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " فعلتها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنا من الضالّين " في محلّ نصب حال من فاعل فعلتها .

(21) (الفاء) عاطفة في الموضعين (منكم) متعلّق بـ (فررت) ، (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب المقدّر (لي) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله وهب (من المرسلين) متعلّق بمفعول به ثان لـ (جعلني) .

وجملة : " فررت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة فعلتها .

وجملة : " خفتكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

وجملة : " وهب . . . ربّي " في محلّ نصب معطوفة على جملة فررت .

وجملة : " جعلني . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة وهب .

---

(1) من الضالّين أي من الجاهلين ، قال ابن جرير : العرب تضع الضلال موضع الجهل .

[. . . . .]

(327/573)

---

(22) (الواو) عاطفة (تلك) اسم إشارة مبتدأ " 1 " ، خبره نعمة (عليّ) متعلّق بـ (تمنّها) ، (أن) حرف مصدري .

والمصدر المؤوّل (أن عبّدت . .) في محلّ رفع عطف بيان للمبتدأ (تلك) " 2 " .

(بني) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر السالم .

وجملة : " تلك نعمة . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 3 " .

وجملة : " تمنّها . . . " في محلّ رفع نعت لنعمة .

وجملة : " عبّدت . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

[سورة الشعراء (26) : آية 23]

قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ (23)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره (ربّ) .

جملة : " قال فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما ربّ العالمين " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقدّرة هي مقول القول : أي :

هل ثمة إله غيري وما ربّ . . .

[سورة الشعراء (26) : آية 24]

قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24)

---

(1) ذكر الأخفش أن ثمّة همزة استفهام مقدّرة تفيد التوبيخ أي : أ تلك نعمة . . . لأن

تعبيد بني إسرائيل ليس بنعمة .

(2) أو هو بدل من الهاء في (تمنّها) ، أو هو في محلّ جرّ بباء مقدّرة ، أو هو خبر لمبتدأ

محذوف تقديره هي . . .

(3) أو هي استئناف في حيّز القول .

(328/573)

الإعراب :

(ربّ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (ما) اسم موصول في محلّ جرّ معطوف على

السموات (بينهما) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط . . وتم اسم كان .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هو " ربّ " . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن كنتم موقنين . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول . . . وجواب الشرط محذوف تقديره : فآمنوا به وحده " 1 " .

[سورة الشعراء (26) : آية 25]

---

(1) أو فهذا أولى بالإيقان لظهوره .

قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (25)

الإعراب :

(لمن) متعلّق بـ (قال) ، (حوله) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من (أَلّا) أداة عرض للتعجّب .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تستمعون . . " في محلّ نصب مقول القول .

[سورة الشعراء (26) : آية 26]

قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)

الإعراب :

(ربّكم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (ربّ) معطوف بالواو على ربّكم مرفوع . .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو " ربّكم " في محلّ نصب مقول القول .

البلاغة

العموم والخصوص : في قوله تعالى قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ .

ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها ، ثم ذكرهم وذكر آباءهم بعد ذلك ، وذكر المشرق والمغرب ، فقد عمم أولا ، ثم خصص من العام ، لبيان أنفسهم وآبائهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه ، وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع ، والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ثم خصص المشرق والمغرب ، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين ، وغروبها في الآخر ، على تقدير مستقيم في فصول السنة ، وحساب مستو ، من أظهر ما استدل به ولظهوره انتقل إلى

الاحتجاج به خليل اللّه ، عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن كنعان فبهت الذي كفر .

[سورة الشعراء (26) : آية 27]

قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27)

الإعراب :

(الذي) اسم موصول في محلّ نصب نعت لرسولكم ، ونائب الفاعل لفعل (أرسل) ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (إليكم) متعلّق بـ (أرسل) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد . . .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ رسولكم . . . لمجنون " في محلّ نصب مقول القول .

(330/573)

وجملة : " أرسل إليكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

[سورة الشعراء (26) : آية 28]

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28)

الإعراب :

مرّ إعراب نظيرها - مفردات وجملا - " 1 " .

وجملة : " تعقلون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

---

(1) في الآية (24) من هذه السورة .

[سورة الشعراء (26) : آية 29]

قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)

الإعراب :

(اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (اتّخذت) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (إلها) مفعول به أول منصوب و(غيري) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء . . والياء مضاف إليه (اللام) الثانية لام القسم (أجعلنّك) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . والكاف مفعول به (من المسجونين) متعلّق بمحذوف مفعول ثان عامله أجعلنّك .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن اتّخذت . . . " لا محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أجعلنّك . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

الصرف :

(المسجونين) ، جمع المسجون ، اسم مفعول من (سجن) الثلاثيّ ، وزنه مفعول .

[سورة الشعراء (26) : آية 30]

قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (بشيء) متعلّق بـ

(جئتك) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جئتك . . . " في محلّ نصب حال والعامل مقدّر هو مقول القول أي أ تفعل ذلك

بي في حال مجيئي بشيء يبيّن صدق دعواي . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما تقدّم .

[سورة الشعراء (26) : آية 31]

قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (به) متعلّق بـ (ائت) ، (من الصادقين) خبر كنت .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ائت به . . . " جواب شرط مقدّر أي : في محلّ جزم إن كنت صادقا فأت به . . . وجملة الشرط في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : "كنت من الصادقين . . . " لا محلّ لها تفسيريّة . . .

وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فأت به . .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 32 إلى 33]

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة ، وفاعل (ألقى) ضمير يعود على موسى عليه السّلام (الفاء) عاطفة (إذا) حرف فجاءة (مبين) نعت لثعبان مرفوع .

جملة : " ألقى عصاه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هي ثعبان . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(33) (الواو) عاطفة (للناظرين) متعلّق بمحذوف خبر ثان للمبتدأ هي أي مبهرة " 1 " .

وجملة : " نزع . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هي بيضاء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نزع .

---

(1) جاء الخبر كونا خاصّا لأنه مؤكّد لمعنى الخبر الأول .

الجدول ج 19 ، ص : 68

الفوائد

إذا الفجائية :

مرّ معنا أن " إذا " تكون تفسيرية وظرفية وفجائية .

ونحب هنا أن نؤكّد على إذا الفجائية .

أ – فهي تختص بالجمل الاسمية ، ولا تحتاج إلى جواب ، ولا تقع في ابتداء الكلام ، ومعناها الحال ، والأرجح أنها حرف ، نحو قوله تعالى : فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى .

وقوله في الآية التي نحن بصددها " فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ " " وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ " .

ب – وتكون جوابا للجزاء ، مثلها مثل الفاء . قال اللّه تعالى وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ .

ج- وقد تسد مسدّ الخبر، نحو "جئتك فإذا أخوك" "التقدير جئتك فإذا أخوك موجود".

[سورة الشعراء (26) : الآيات 34 إلى 35]

قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (35)

الإعراب:

(للملأ) متعلّق بـ (قال) (حوله) ظرف مكان منصوب متعلّق بحال من الملأ (اللام) المزحلقة للتوكيد.

جملة: "قال . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّ هذا لساحر . . . "في محلّ نصب مقول القول.

(35) (من أرضكم) متعلّق بـ (يخرجكم)، (بسحره) متعلّق بـ (يخرجكم)، والباء سببيّة (الفاء) عاطفة (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به مقدّم "1".

---

(1) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ (ذا) اسم موصول خبر وجملة (ماذا . . .) استئنافيّة، والعائد للموصول محذوف أي تأمرون به، وجملة تأمرون صلة الموصول.

(334/573)

وجملة: "يريد . . . "في محلّ رفع نعت لساحر" 1 ".

وجملة: يخرجكم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

والمصدر المؤوّل (أن يخرجكم) في محلّ نصب مفعول به عامله يريد.

وجملة: "تأمرون" في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

[سورة الشعراء (26): الآيات 36 إلى 37]

قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37)

الإعراب:

(أرجه) فعل أمر والهاء مفعول به (أخاه) معطوف على الهاء بالواو منصوب وعلامة النصب الألف و(الهاء) مضاف إليه (في المدائن) متعلق بـ (ابعث) بتضمينه معنى انشر.

جملة: "قالوا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة.

وجملة: "أرجه . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " ابعث . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أرجه .

(37) (بكلّ) متعلّق بـ (يأتوك) المجزوم بجواب الطلب ، وعلامة الجزم حذف النون .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من ساحر لأنه وصف .

(335/573)

وجملة : " يأتوك . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 38 إلى 40]

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (40)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لميقات) متعلّق بجمع (معلوم) نعت ليوم مجرور .

جملة : " جمع السحرة " لا محلّ لها معطوفة على مستأنف مقدّر أي : فبعث الحاشرين فجمع السحرة .

(39) (الواو) عاطفة (للناس) متعلّق بـ (قيل) ، (هل) حرف استفهام فيه معنى الحثّ ، والترجيّ في (لعلّنا) لمعنى الرغبة في عدم اتّباع موسى (كانوا) فعل ماض ناقص في محلّ جزم

فعل الشرط (هم) ضمير فصل " 1 " .

وجملة : " قيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جمع السحرة .

وجملة : " هل أنتم مجتمعون " في محلّ رفع نائب الفاعل "

.

وجملة : " لعلّنا نتّبع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نتّبع . . . " في محلّ رفع خبر لعلّنا .

وجملة : " كانوا . . . الغالبين " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

الصرف :

(مجتمعون) ، جمع مجتمع ، اسم فاعل من الخماسيّ اجتمع وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

[سورة الشعراء (26) : آية 41]

فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (41)

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد للضمير المتّصل في (كانوا) .

(2) لأنها في الأصل جملة مقول القول .

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (قالوا) ، (لفرعون) متعلّق بـ (قالوا) (الهمزة) للاستفهام (لنا) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (اللام) لام الابتداء للتوكيد (أجرا) اسم إن منصوب (كنّا) فعل ماض ناقص مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (نحن) ضمير فصل " 1 " ، (الغالبين) خبر كنّا منصوب .

جملة : " جاء السحرة . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّ لنا لأجرا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : إن كنّا . . . الغالبين . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ ، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

[سورة الشعراء (26) : آية 42]

قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)

الإعراب :

(نعم) حرف جواب لا عمل له (الواو) عاطفة (إذا) حرف جواب (اللام) للتوكيد (من المقرّبين) خبر إنّ.

جملة: "قال . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "إنكم لمن المقرّبين . . . "في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول المقدّرة المدلول عليها بحرف الجواب نعم أي: إنّ لكم لأجرا وإنّكم لمن المقرّبين.

[سورة الشعراء (26): آية 43]

قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43)

الإعراب:

(لهم) متعلّق بـ (قال)، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به والعائد محذوف أي ملقونه.

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد للضمير المتّصل في (كنّا).

وجملة: "قال لهم موسى . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ألقوا . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "أنتم ملقون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

[سورة الشعراء (26): الآيات 44 إلى 48]

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة ، وكذلك (الواو) ، (بعزة) متعلّق بفعل محذوف تقديره نقسم (اللام) للتوكيد .

جملة : ألقوا . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة قال لهم موسى " 1 " .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقوا " 2 " .

وجملة : " (نقسم) بعزّة فرعون " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنا لنحن الغالبون " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " نحن الغالبون " في محلّ رفع خبر إنّ .

(45) (الفاء) عاطفة في الموضعين (إذا هي) مر إعرابها " 3 " ، (ما) موصول مفعول به والعائد محذوف أي يأفكونه .

وجملة : " ألقى موسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقوا . . .

وجملة : " هي تلقف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقى .

---

(1) في الآية السابقة .

(2) يجوز أن تكون الجملة حاليّة بتقدير (قد) فهي في محلّ نصب .

(3) في الآية (32) من هذه السورة . [. . . . .]

(338/573)

وجملة : " تلقف . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هي) .

وجملة : " يأفكون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(46) (الفاء) عاطفة (السحرة) نائب الفاعل للفعل (ألقي) (ساجدين) حال منصوبة من السحرة وعلامة النصب الياء .

وجملة : " ألقي السحرة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقى موسى . . .

(47 – 48) (بربّ) متعلّق بـ (آمنّا) . . . (ربّ) بدل من ربّ الأول مجرور " 1 " .

وجملة : " قالوا . . . " في محلّ نصب حال من السحرة بتقدير (قد) " 2 " وجملة : " آمنّا . . . " في محل نصب مقول القول .

البلاغة

الاستعارة التبعية : في قوله تعالى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ .

---

(1) أو عطف بيان لأن لفظ (ربّ موسى) أصرح وأوضح من لفظ (ربّ العالمين) ، لأن فرعون كان قد ادّعى الربوبيّة فلو اقتصر عليه لم يكن ذلك صريحا بالربّ الحقّ سبحانه . . . قاله ابن هشام .

(2) أو هي استئناف بيانيّ لا محلّ لها .

(339/573)

عبّر عن الخرور بالإلقاء ، لأنه ذكر مع الإلقاءات ، فسلك به طريق المشاكلة . وفيه أيضا ، مع مرعاة المشاكلة ، أنهم حين رأوا ما رأوا ، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ، كأنهم أخذوا فطرحوا طرحا . فهناك استعارة تبعية زادت حسنها المشاكلة .

[سورة الشعراء (26) : آية 49]

قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)

الإعراب :

(له) متعلّق بـ (آمنتم) بتضمينه معنى استسلمتم وانقدتم (قبل) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (آمنتم) (لكم) متعلّق بـ (آذن) .

والمصدر المؤوّل (أن آذن) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(اللام) المزحلقة للتوكيد (الذي) اسم موصول في محلّ رفع نعت لكبيركم (الفاء) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (سوف) حرف استقبال (من خلاف) متعلّق بحال من الأيدي والأرجل (أجمعين) حال منصوبة " 1 " .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنتم له . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آذن لكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " إنّه لكبيركم . . . " لا محلّ لها تعليليّة . .

وجملة : " علّمكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " لسوف تعلمون . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . .

وجملة القسم المقدّرة في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أقطّعنّ . . . " لا محلّ لها عطف بيان على جملة تعلمون .

---

(1) أو توكيد لضمير الخطاب المنصوب .

وجملة : " أصلّبنّكم . . . " لا محلّ لها عطف نسق على جملة أقطّعنّ .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 50 إلى 51]

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)

الإعراب :

(لا) نافية للجنس (ضير) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (إلى ربّنا) متعلّق بـ (منقلبون) ، وخبر لا محذوف تقديره :

علينا - أو في ذلك .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا ضير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّا . . . منقلبون " لا محلّ لها تعليليّة .

(51) (أن) حرف مصدريّ ونصب (لنا) متعلّق بـ (يغفر) ، (أن) حرف مصدريّ . . . والمصدر المؤوّل (أن يغفر . . .) في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (نطمع) ، أي بأن يغفر .

والمصدر المؤوّل (أن كنّا . . .) في محلّ جرّ بلام محذوفة متعلّق بـ (يغفر) ، أي لأن كنّا . . .

وجملة : " إنّا نطمع . . . " لا محلّ لها تعليل ثان أو بدل من جملة التعليل .

وجملة : " نطمع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يغفر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " كنّا أوّل المؤمنين " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

الصرف :

(ضير) ، مصدر سماعيّ لفعل ضاره الأمر يضيره باب ضرب أي أضرّ به ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد

- لا ضير " لا النافية للجنس " :

أ- أقسام اسمها وأحكامه :

ينقسم اسمها إلى ثلاثة أقسام : مفرد ، مضاف ، شبيه بالمضاف .

1 - المفرد : كقوله تعالى ذِلكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ . وحكمه : أن يبنى على ما ينصب

به " من فتحة أو ياء أو كسرة " نحو : " لا رجل في الدار ولا رجال فيها ، ولا رجلين عندنا ، ولا مذمومين في المدرسة ، ولا مذمومات محبوبات " ويجوز بناء جمع المؤنث السالم على الفتح أيضا .

2 - المضاف : يكون معربا منصوبا .

3 - الشبيه بالمضاف : حكمه أيضا أن يكون معربا منصوبا .

ملاحظة : ندر حذف اسمها ، نحو " لا عليك " أي لا بأس عليك ، وكثر حذف خبرها إذا علم ، نحو " لا بأس " وقوله تعالى : قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ أي لا ضير علينا ، وكذلك هذه الآية التي بين أيدينا .

[سورة الشعراء (26) : آية 52]

وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (52)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إلى موسى) متعلّق بـ (أوحينا) ، (أن) تفسيريّة " 1 " ، (أسر) فعل أمر مبني على حذف حرف العلّة ، والفاعل أنت (بعبادي) متعلّق بـ (أسر) والباء للمصاحبة .

جملة : " أوحينا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أسر . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " إنّكم متّبعون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(متّبعون) جمع متّبع اسم مفعول من اتّبع الخماسيّ ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 53 إلى 56]

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (53) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (56)

---

(1) أو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل (أن أسر) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (أوحينا) أي بأن أسر .

(342/573)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (في المدائن) متعلّق بـ (أرسل) بتضمينه معنى بثّ أو نشر (حاشرين) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الياء .

جملة : " أرسل فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(54) (اللام) للتوكيد (قليلون) نعت لشرذمة تبعه في معناه .

وجملة : إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ . . . في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر ، والمقدّر في محلّ نصب حال من فرعون : أي : أرسل يقول إنّ هؤلاء . . .

(55) (لنا) متعلّق بـ (غائظون) " 1 " ، (اللام) المزحلقة للتوكيد .

وجملة : " إنّهم لنا لغائظون " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّ هؤلاء . . .

(56) (لجميع) مثل لشرذمة (حاذرون) نعت لجميع مرفوع " 2 " .

وجملة : " إنّا لجميع . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّ هؤلاء . . .

الصرف :

(54) شرذمة : اسم بمعنى الطائفة وزنه فعللة بكسر الفاء واللام الأولى وسكون العين .

(55) غائظون : جمع غائظ اسم فاعل من غاظه أي أغضبه باب ضرب ، وزنه فاعل .

(56) جميع : جاء اللفظ هنا بمعنى الجماعة أو الجمع أو القوم ، اسم جمع لا مفرد له من لفظه ، وزنه فعيل .

(حاذرون) ، جمع حاذر ، اسم فاعل من (حذر) الثلاثيّ باب فرح بمعنى المستعدّ والمتأهّب ، زنة فاعل .

---

(1) أو (اللام) للتقوية زائدة ، وضمير المتكلّم في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل غائظون .

(2) أو خبر إن ثان مرفوع .

الجدول ج 19 ، ص : 78

البلاغة

في قوله تعالى إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ .

الشرذمة هي الطائفة أو الجماعة القليلة . وكان يمكن الاكتفاء بها تعبيرا عن القلة ، ولكنه وصفها بالقلة القليلة ، زيادة في احتقارهم واستصغار شأنهم .

فقد قللهم من أربعة أوجه : عبّر عنهم بالشرذمة وهي تفيد القلة ، ثم وصفهم بالقلة ، وجمع وصفهم ليعلم أن كل ضرب منهم قليل ، واختار جمع السلامة ليفيد القلة وهناك وجه آخر في تقليلهم يكون خامسا : وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد ، قد يكون مبالغة في لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين به ، كقولهم : معا زيد جياع ، مبالغة في وصفه بالجوع ، فكذلك ها هنا جمع قليلا وكان الأصل إفراده فيقال :

(343/573)

لشرذمة قليلة ، كما أفرد في قوله "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ" . ليدل بجمعه على تناهيهم في القلة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 57 إلى 58]

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (58)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (من جنّات) متعلّق بـ (أخرجناهم) . .

وجملة : "أخرجناهم . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 59 إلى 60]

كَذَلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60)

الإعراب :

(كذلك) متعلّق بخبر لمبتدأ مقدّر أي إخراجنا كذلك (الواو) عاطفة (بني) مفعول به ثان منصوب ، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر .

جملة : " (إخراجنا) كذلك . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "أورثناها . . . "لا محلّ لها معطوفة على استئنافيّة .

(60) (الفاء) عاطفة (مشرقين) حال منصوبة من فاعل أتبعوهم .

وجملة : "أتبعوهم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة مستأنفة مقدّرة أي فاجتمعوا فأتبعوهم .

[سورة الشعراء (26) : آية 61]

فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قال (اللام) للتوكيد .

جملة : " تراءى الجمعان . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة : " قال أصحاب . . . " لا محل لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّا لمدركون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(تراءى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله تراءي - بياء في آخره - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا ورسمت برسم الياء غير المنقوطة لأنها فوق الرابعة .

(مدركون) ، جمع مدرك اسم مفعول من أدرك الرباعيّ ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

[سورة الشعراء (26) : آية 62]

قالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر (معي) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر إنّ (ربّي) اسم إنّ ، وعلامة النصب في الكلمتين (معي ، ربّي) الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء (السين) حرف للمستقبل ، و(النون) في (سيهدين) هي نون الوقاية جاءت قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة الفاصلة .

جملة : " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة .

وجملة : " إنّ معي ربّي . . . " لا محلّ لها تعليل لمقول القول المقدّر أي : كلّا لن يدركونا .

وجملة : " سيهدين " في محلّ رفع خبر ثان للمشبّه بالفعل " 1 " .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 63 إلى 68]

فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63)

وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ

(66) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (إلى موسى) متعلّق بـ (أوحينا) ، (أن) تفسيريّة " 2 " ، (بعصاك) متعلّق بفعل اضرب ، و(الباء) للاستعانة (الفاء) عاطفة في الموضعين (كالطود) متعلّق بمحذوف خبر كان .

جملة : "أوحينا . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "اضرب . . . "لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : "انفلق . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدّرة أي فضرب فانفلق .

---

(1) أو هي الخبر فقط ، والظرف قبلها (معي) متعلّق بحال من ربّي . . . يجوز أن تكون الجملة حالا من ربّي ، والعامل في الحال معنى التوكيد في إنّ .

(2) تقدّمها فعل فيه معنى القول دون حروفه وهو أوحينا . . ويجوز أن يكون الحرف مصدريّا ، والمصدر المؤوّل في محلّ جر بحرف جر محذوف متعلّق بـ (أوحينا) ، أي بأن اضرب .

(345/573)

وجملة : "كان كلّ فرق . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة انفلق .

(64) (الواو) عاطفة (ثمّ) ظرف مبنيّ على الفتح في محلّ نصب متعلّق بـ (أزلفنا) .

وجملة : "أزلفنا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أوحينا .

(65) (الواو) عاطفة في الموضعين (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب معطوف على موسى (معه) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من (أجمعين) حال منصوبة من موسى

وقومه " 1 " ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " أنجينا " . . . لا محلّ لها معطوفة على جملة أنجينا .

(66) (ثم) حرف عطف .

وجملة : أغرقنا لا محلّ لها معطوفة على جملة أنجينا .

(67) في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (آية) اسم إنّ مؤخّر منصوب (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية .

وجملة : " إنّ في ذلك لآية . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما كان أكثرهم مؤمنين . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

(68) (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد (الرحيم) خبر ثان للمبتدأ هو .

وجملة : " إنّ ربك لهو . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ في ذلك . . .

وجملة : " هو العزيز . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو توكيد معنوي لموسى وقومه منصوب .

الصرف :

(63) فرق : اسم بمعنى الطائفة أو المنفلق من الشيء ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(الطود) ، اسم جامد ذات للجبل العظيم ، وزنه فعل بفتح فسكون جمعه أطواد .

الفوائد

1 - " زيادة الباء في خبر ليس وكان " : تختص ليس وكان بجواز زيادة الباء في خبر كل منهما ، وتكثر زيادتها في خبر ليس ، وفي خبر ما الحجازية أما كان فلا تزاد في خبرها إلا إذا سبقها نفي أو نهي ، نحو قول الشنفري :

وإن مدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا جشع القوم أعجل

2 - وصف مصر :

لما استقر عمرو بن العاص على ولاية مصر ، كتب إليه عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ، أن صف لي مصر ، فكتب إليه :

(347/573)

" ورد كتاب أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه يسألني عن مصر :

اعلم يا أمير المؤمنين ، أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها

عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخطر وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر . له أوان يدرّ حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمدّه عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اصلخمّ عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن في المخايل ورق الأصائل فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه ، كأول ما بدا في جريته ، وطما في دركه ، فعند ذلك تخرج أهل ملّة محقورة وذمة مخفورة ، يحرثون الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب لغيرهم ما سمعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى وغذاه من تحت الثرى . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي

ديباجة رقشاء ، فتبارك اللّه الخالق لما يشاء " إلى آخر تلك الرسالة الممتعة .

وقد شرح المقريزي ، في خططه ، غوامض هذه الرسالة ، شرحا موفيا ومفيدا . فمن شاء فليعد إليها في مظانها من المطولات .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 69 إلى 70]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (70)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة " 1 " (عليهم) متعلّق بـ (اتل) ، (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ نصب بدل من نبأ بدل اشتمال " 2 " (لأبيه) متعلّق بـ (قال) ، (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب مفعول به مقدّم عامله (تعبدون) .

جملة : " اتل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تعبدون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) المعربون يجعلونها عاطفة تعطف جملة (اتل) على الجملة المقدّرة التي تعلّق بها (إذ) في قوله : إذ نادى ربّك موسى . . . الآية (10) ، وفي هذا ما فيه من التكلّف .

(2) أو متعلّق بالمصدر نبأ .

[سورة الشعراء (26) : آية 71]

قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (71)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لها) متعلّق بالخبر عاكفين .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نعبد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نظل لها عاكفين . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة نعبد .

البلاغة

الإطناب : في قوله تعالى قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ .

قوله تعالى " ما تَعْبُدُونَ " سؤال عن المعبود فحسب ، فكان القياس أن يقولوا : أصناما ، كقوله تعالى وَيَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ، ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ ، ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً ولكنّ هؤلاء قد جاؤوا بقصة أمره كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين ، فاشتملت على جواب إبراهيم ، ألا تراهم كيف عطفوا على قولهم نعبد " فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ " ، ولم يقتصروا على زيادة نعبد وحده .

ومثاله أن تقول لبعض الشطار : ما تلبس في بلدك ؟ فيقول : ألبس البرد الأتحمي (ضرب من البرود) فأجرّ ذيله بين جواري الحي . وإنما قالوا : نظل ، لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ، وهذه هي مزية الإطناب ، تزيد في اللفظ عن المعنى ، لفائدة مقصودة ، أو غاية متوخاة ، فإذا لم تكن ثمة فائدة في زيادة اللفظ فإنه يكون تطويلا مملا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 72 إلى 73]

قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بـ (يسمعونكم) " 1 " ، (أو) عاطفة في الموضعين .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسمعونكم . . . " في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

وجملة : " تدعون . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) الأفعال (يسمعون ، تدعون ، ينفعون ، يضرّون) هي مضارعة لفظا ماضية معنى .

(2) في الكلام تقدير مضاف أي : هل يسمعون دعاءكم ، أوجملة مقدّرة حاليّة أي : هل يسمعنكم تدعون .

وجملة : " ينفعونكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يسمعونكم .

وجملة : " يضرّون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يسمعونكم " 1 " .

[سورة الشعراء (26) : آية 74]

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (74)

الإعراب :

(بل) للإضراب الانتقاليّ (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يفعلون " 2 " .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " وجدنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . ومقول القول مقدّر أي لم نجدها كذلك .

وجملة : " يفعلون . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله وجدنا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 75 إلى 82]

قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (الفاء) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) حذف المفعول من فعل يضرّون للفاصلة أي يضرّونكم . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بـ (يفعلون) .

وجملة : " رأيتم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقدّرة هي مقول القول أي : أتأمّلتم فرأيتم . . .

وجملة : "كنتم تعبدون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تعبدون " في محلّ نصب خبر كنتم .

(76) (أنتم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع توكيد للضمير الفاعل في (تعبدون) ، (الواو) (عاطفة (آباؤكم) معطوف على الضمير الفاعل في (تعبدون) .

(77) (الفاء) استئنافيّة " 1 " ، (لي) متعلّق بنعت لعدو (إلّا) أداة استثناء (ربّ) مستثنى منصوب على الاستثناء المنقطع " 2 " .

وجملة : " إنّهم عدوّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول السابق .

(78) (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب نعت لربّ العالمين " 3 " ، والنون في (خلقني) للوقاية وكذلك في الأفعال (يهدين ، يطعمني ، يسقين ، يشفين ، يميتني ، يحيين) ، (الفاء) عاطفة . . . وحذفت الياء من الأفعال للفواصل .

وجملة : " خلقني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " هو يهدين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يهدين . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

---

(1) أو تعليليّة إذا أوّل فعل الرؤية بمعنى أخبروني أي أخبروني عمّا تعبدون هل هم حقيقي بالعبادة فإنّهم عدوّ . . .

(2) أو المتّصل بحسب تأويل اعتقادهم بالمعبود إن كان اللّه من بين ما يعبدون أو لا .

(3) أو مبتدأ خبره جملة هو يهدين بزيادة الفاء . . . أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو .

(351/573)

---

(79) (الواو) عاطفة (الذي) موصول معطوف على الذي الأول ، كذلك الموصولان الآتيان . .

وجملة : " هو يطعمني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " يطعمني . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة : " يسقين . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يطعمني (80) (الواو) عاطفة (الفاء) رابطة لجواب الشرط . . .

وجملة : " مرضت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " هو يشفين " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يشفين " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) الثاني .

(81) وجملة : " يميتني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثالث .

وجملة : " يحيين " لا محلّ لها معطوفة على جملة يميتني .

(82) (أن) حرف مصدريّ ونصب (لي) متعلّق بـ (يغفر) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يغفر) .

وجملة : " أطمع " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الرابع .

وجملة : " يغفر " . . . لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل " أن يغفر . . . " في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (أطمع) ، أي أطمع بأن يغفر .

البلاغة

1 - التعريض : في قوله تعالى : فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ .

وإنما قال " عَدُوٌّ لِي " تصويرا للمسألة في نفسه ، على معنى : أني فكرت في أمري

الجدول ج 19 ، ص : 88

فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو ، فاجتنبتها ، وآثرت عبادة من الخير كله منه وأراهم بذلك

أنها نصيحة نصح بها نفسه أولا ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، وما أراد لنا إلا ما أراد لروحه ، ليكون أدعى لهم إلى القبول ، وأبعث على الاستماع منه . ولو قال : فإنه عدوّ لكم ، لم يكن بتلك المثابة ولأنه دخل من باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمّل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعي ، رضي اللّه عنه ، أن رجلا واجهه بشي ء فقال :

لو كنت بحيث أنت ، لاحتجت إلى أدب .

2 - أسرار حروف العطف : وهنا موضع دقيق المسلك ، لطيف المرمى ، قلما ينتبه إليه أحد أو يتفطن إليه كاتب ، فإن أكثر الناس يضعون حروف العطف في غير مواضعها ، فيجرون بـ " في " ما ينبغي له أن يجر بـ " على " : كما أنهم يعطفون دون أن يتفطنوا إلى سر الحرف الذي عطف به الكلام ، فقد قال تعالى :

"

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ " فالأول عطفه بالواو التي هي لمطلق الجمع ، وتقديم الإطعام على الإسقاء ، والإسقاء على الإطعام ، جائز لولا مراعاة حسن النظم ، ثم عطف الثاني بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما ، ثم عطف الثالث بثم لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان ولهذا جيء في عطفه بثم التي هي للتراخي .

3 – التنكيت : في قوله تعالى وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ فإن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع اللّه تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى ، إذ أسند إلى اللّه أفعال الخير كلها وأسند فعل الشر إلى نفسه ، وللاشارة إلى أن كثيرا من الأمراض تحدث بتفريط الإنسان في مأكله ومشربه وغير ذلك .

الفوائد

مراعاة الفواصل :

في قوله تعالى : يَهْدِينِ ، وَيَسْقِينِ ، وَيَشْفِينِ ، وَيُحْيِينِ " وجميع هذه الآيات حذفت فيها ياء المتكلم ، مراعاة للنسق اللفظي في سائر آيات السورة . وهذا المقام ليس الوحيد الذي تراعى فيه الفواصل والجرس الموسيقي للنظم القرآني . ففي القرآن مواطن كثيرة ، قد أخذت بهذا الاتجاه الذي ليس له غاية سوى التأثير في أذهان السامعين ، وخصوصا المعاندين من مشركي قريش .

وقد حصل هذا التأثير في مواطن كثيرة كما يروي لنا التاريخ . . . !

[سورة الشعراء (26) : الآيات 83 إلى 89]

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87)

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)

الإعراب :

(353/573)

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و(الياء) مضاف إليه (لي) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله هب (الواو) عاطفة (بالصالحين) متعلّق بـ (ألحقني) .

جملة : " ربّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هب لي . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ألحقني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هب . . .

(84) (الواو) عاطفة (لي) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله اجعل (في الآخرين) متعلّق بنعت للسان – أو بحال منه – .

وجملة : " اجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

(85) (الواو) عاطفة (من ورثة) متعلق بمفعول به ثان لفعل اجعلني . . .

وجملة : " اجعلني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

(86) (الواو) عاطفة (لأبي) متعلّق بـ (اغفر) ، (من الضالّين) متعلّق بخبر كان .

وجملة : " اغفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " إنّه كان من الضالّين . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كان من الضالّين . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(87) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة ، وعلامة الجزم في (تخزني) حذف حرف العلّة . . و(النون) للوقاية (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تخزني) ، و(الواو) في (يبعثون) نائب الفاعل . . .

وجملة : " لا تخزني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب النداء .

(88) (يوم) الثاني بدل من الظرف الأول منصوب (لا) نافية و(لا) الثانية زائدة لتأكيد النفي (بنون) معطوف بالواو على مال مرفوع ، وعلامة الرفع الواو فهو ملحق بجمع المذكّر .

وجملة : " لا ينفع مال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(89) (إلّا) أداة استثناء (من) اسم موصول في محلّ نصب على الاستثناء المتّصل " 1 " ، (بقلب) متعلّق بمحذوف حال من فاعل أتى .

وجملة : " أتى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) المستثنى منه مقدّر في الآية السابقة أي : يوم لا ينفع مال . . . أحدا إلّا من أتى . . . ويجوز أن يكون منقطعا والمستثنى منه مال وبنون . . . وبعض المعربين يجعل (إلّا) بمعنى لكن ، و(من) بعدها مبتدأ خبره محذوف تقديره : ينفعه ذلك . . . هذا وفعل (أتى) جاء ماضيا لفظا ومضارعا معنى ، وكذلك الأفعال أزلفت ، برّزت ، كبكبوا ، قالوا . . . الآتية . . .

(354/573)

الصرف :

(85) ورثة : جمع وارث ، اسم فاعل من الثلاثيّ ورث ، وزنه فاعل ، ووزن ورثة فعلة بفتحتين .

(89) سليم : صفة مشبّهة من الثلاثي سلم باب فرح ، وزنه فعيل .

البلاغة

1 - التقديم : في قوله تعالى رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ .

فقد استوهب الحكم أولا ، ثم طلب الإلحاق بالصالحين ، والسر فيه دقيق جدا ، ذلك أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية ، لأنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعمل به ، وعكسه غير ممكن ، لأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ، وكما أن الروح أشرف من البدن ، كذلك العلم أفضل من الصلاح .

2 - المجاز : في قوله تعالى وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ .

فاللسان مجاز عن الذكر بعلاقة السببية ، واللام للنفع ، ومنه يستفاد الوصف بالجميل .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 90 إلى 93]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة " 1 " ، (الجنّة) نائب الفاعل مرفوع (للمتّقين) متعلّق بـ (أزلفت) .

جملة : " أزلفت الجنّة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(91) (الواو) عاطفة (الجحيم للغاوين) مثل الجنّة للمتّقين .

وجملة : " برّزت الجحيم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أزلفت .

(92) (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (قيل) ، (أين) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب ظرف

مكان متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (ما) ، والعائد محذوف أي تعبدونها . . .

وجملة : " قيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أزلفت .

وجملة : " أين ما كنتم . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " .

وجملة : " كنتم تعبدون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تعبدون . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

(93) (من دون) متعلّق بحال من العائد المقدّر (هل) حرف استفهام للإنكار والاستهزاء (أو) حرف عطف .

وجملة : " ينصرونكم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) أو عاطفة تعطف جملة أزلفت على جملة لا ينفع . . . في محلّ جرّ .

(2) هي في الأصل مقول القول للفعل المبنيّ للمعلوم .

وجملة : " ينتصرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينصرونكم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 94 إلى 95]

فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة ، والواو في (كبكبوا) نائب الفاعل (فيها) متعلّق بـ (كبكبوا) بتضمينه معنى ألقوا على وجوههم (هم) ضمير في محلّ رفع توكيد للضمير المتّصل نائب الفاعل (الغاوون) معطوف على الضمير نائب الفاعل ، مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : "كبكبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(95) (الواو) عاطفة (جنود) معطوف على الضمير المتّصل نائب الفاعل (أجمعون) توكيد للألفاظ المتعاطفة مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

البلاغة

قوة اللفظ لقوة المعنى : في قوله تعالى فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ .

وهذا مما انفرد به ابن جني في كتاب " الخصائص " فإن الكبكبة تكرير الكب .

جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى ، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقرّ في قعرها .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 96 إلى 102]

قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (98) وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (100) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102)

الإعراب :

(الواو) حاليّة (فيها) متعلّق بـ (يختصمون) .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم فيها يختصمون " في محلّ نصب حال من فاعل قالوا .

(97) (التاء) تاء القسم (اللّه) لفظ الجلالة مجرور بـ (التاء) متعلّق بفعل أقسم مقدرا (إن) مخففّة من الثقيلة مهملة ، (اللام) هي الفارقة " 1 " ، (في ضلال) متعلّق بخبر كنّا .

وجملة : " (أقسم) باللّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن كنّا لفي ضلال . . . " لا محلّ لها جواب القسم .

(98) (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به خبر كنّا " 2 " ، (بربّ) متعلّق بـ (نسوّيكم) .

وجملة : " نسوّيكم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(99) (الواو) اعتراضيّة (ما) نافية (إلّا) أداة حصر (المجرمون) فاعل أضلّنا مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " ما أضلّنا إلّا المجرمون " لا محلّ لها اعتراضيّة .

(100) (الفاء) عاطفة (ما) نافية (لنا) متعلّق بخبر مقدّم (شافعين) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخّر .

وجملة : " ما لنا من شافعين " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

---

(1) وهي عوض من لام القسم الواجبة في خبر إنّ .

(2) لم يتعلّق بالمصدر ضلال لأنه وصف قبل أن يعمل . . . وبعضهم يجيز التعليق ، وبعضهم يقدّر فعلا محذوفا أي ضللنا إذ نسوّيكم ، وبعضهم يعلّقه بمبين أي كنّا في غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إيّاكم برب . . .

(101 - 102) (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (صديق) معطوف على شافعين ، مجرور مثله لفظا . (الفاء) استئنافيّة (لو) حرف تمنّ (لنا) متعلّق بخبر أنّ (كرّة) اسم أنّ مؤخّر منصوب (الفاء) فاء السببيّة (نكون) مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، واسم نكون ضمير مستتر تقديره نحن (من المؤمنين) خبر نكون .

والمصدر المؤوّل (أنّ لنا كرّة) في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف أي لو رجوعنا حاصل .

والمصدر المؤوّل (أن نكون . . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر كرّة أي : ليت لنا رجوعا فكوننا مؤمنين .

وجملة : " لو رجوعنا (حاصل) " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " نكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

الصرف :

(شافعين) ، جمع شافع اسم فاعل من (شفع) الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(حميم) ، صفة مشبّهة من حمّ الأمر فلانا بمعنى أهمه باب نصر ، والحميم القريب الذي تهتمّ بأمره أو الصديق ، وزنه فعيل .

البلاغة

الإيضاح : في قوله تعالى وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ .

والإيضاح : هو أن يذكر المتكلم كلاما ، في ظاهره لبس ، ثم يوضحه في بقية كلامه والإشكال الذي يحله الإيضاح يكون في معاني البديع من الألفاظ وفي إعرابها ، ومعاني النفس دون الفنون . وهو هنا في قوله تعالى : وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فإن الصديق الموصوف بصفة حميم هو الذي يفوق القرابة ويربو عليه ، وهو أن

يكون حميما ، فالحميم من الاحتمام ، وهو الاهتمام ، أي يهمه أمرنا ويهمنا أمره . وقيل من الحامة وهي الخاصة من قولهم حامة فلان أي خاصته .

الفوائد

1 – تقدم الكلام على حرفي الجر " الواو والتاء " واختصاصهما بالقسم ، وأن التاء مختصة بلفظ الجلالة ، ونحب الآن أن نشير إلى هاتين الفائدتين :

الأولى أن أحرف الجر تنقسم إلى ثلاثة أقسام : " أصلي ، وزائد ، وشبيه بالزائد " أ – الأصلي : هو ما يحتاج إلى تعليق ولا يستغنى عنه لا معنى ولا إعرابا .

(358/573)

ب – الزائد : ما يستغنى عنه إعرابا ولا يحتاج إلى متعلق .

ج – الشبيه بالزائد : هو ما لا يمكن الاستغناء عنه لفظا ولا معنى إلا أنه لا يحتاج إلى تعليق ، وهو خمسة أحرف : " رب وخلا وعدا وحاشا ولعلّ " .

2 – يجر الاسم في ثلاثة مواضع :

أ – أن يقع بعد حرف جر .

ب – أن يكون مضافا إليه .

ج – أن يكون تابعا لمجرور .

ولكل من هذه المواضع الثلاثة تفصيلات نتعرض لها في مناسباتها .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 103 إلى 104]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

الإعراب :

(في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (آية) اسم إنّ مؤخّر منصوب (وما كان . . .

الرحيم) مرّ إعرابها " 1 " .

---

(1) انظر الآيتين (67 ، 68) من هذه السورة.

جملة : " إنّ في ذلك لآية . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " ما كان أكثرهم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة : " إنّ ربّك لهو . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ في ذلك . . .

وجملة : " هو العزيز . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 105 إلى 110]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى

رَبِّ الْعالَمِينَ (109)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110)

الإعراب :

أنّث الفعل في (كذّبت) باعتبار معنى الفاعل وهو الجماعة أو الأمة لا لفظه بينما روعي لفظ القوم في قوله أخوهم .

جملة : "كذّبت قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(106) (إذ) ظرف للزمن الماضي متعلّق بـ (كذّبت) ، (لهم) متعلّق بـ (قال) ، (نوح) عطف بيان لـ (أخوهم) مرفوع (ألا) أداة عرض .

(360/573)

وجملة : " قال لهم أخوهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ألّا تتّقون . . " في محلّ نصب مقول القول .

(107) (لكم) متعلّق برسول بمعنى مرسل .

وجملة : " إنّي لكم رسول . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(108) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، و(النون) في (أطيعون) هي للوقاية قبل ياء

المتكلّم المحذوفة للفاصلة .

وجملة : " اتّقوا . . . " في محل جزم جواب شرط مقدّر أي إن صدّقتموني فاتّقوا اللّه " 1 "

.

وجملة : " أطيعون . . . " معطوفة على جملة اتّقوا اللّه .

(109) (الواو) عاطفة (ما) نافية (عليه) متعلّق بأجر بحذف مضاف أي على تبليغه (أجر) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به عامله أسألكم (إن) حرف نفي (إلّا) للحصر (على ربّ) متعلّق بخبر المبتدأ أجري .

وجملة : " ما أسألكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " إن أجري إلّا على ربّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(110) (فاتّقوا اللّه وأطيعون) مثل الأولى مفردات وجملا " 2 " .

البلاغة

التكرير : في قوله تعالى فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ التكرر هنا للتأكيد والتنبيه على أن كلا منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة فكيف إذا اجتمعا .

[سورة الشعراء (26) : آية 111]

قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (لك) متعلّق بـ (نؤمن) ، (الواو) واو الحال . . .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أ نؤمن لك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اتّبعك الأرذلون . . . " في محلّ نصب حال .

---

(1) وجملة الشرط المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

(2) في الآية - 108 - من هذه السورة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 112 إلى 115]

قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلاَّ عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113)
وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (115)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبتدأ (علمي) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . و(الياء) مضاف إليه (ما) حرف مصدريّ " 1 " . . .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا يعملون) في محلّ جرّ بـ (الباء) متعلّق بالمصدر علمي .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما علمي . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول المقدّر أي أهم كذلك وما علمي . . . ؟

جملة : " كانوا يعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

(113) (إن) نافية (إلّا) للحصر (على ربّي) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ حسابهم (لو) حرف شرط غير جازم . . .

وجملة : " إن حسابهم إلّا على ربّي " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " تشعرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي لعلمتم أنّ حسابهم على ربّي .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ بالباء متعلّق بالمصدر علمي ، والعائد محذوف أي يعملونه .

(114) (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع اسم ما (طارد) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما (المؤمنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " ما أنا بطارد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن حسابهم . . .

(115) (إن) حرف نفي (أنا) ضمير منفصل مبتدأ (إلّا) للحصر (نذير) خبر المبتدأ مرفوع.

وجملة : " إن أنا إلّا نذير " لا محلّ لها تعليليّة.

[سورة الشعراء (26) : آية 116]

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116)

الإعراب :

(362/573)

(اللام) موّطئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (لم) حرف نفي (تنته) مضارع مجزوم فعل الشرط، (اللام) لام القسم (تكونن) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع (من المرجومين) متعلّق بخبر تكونن.

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " لم تنته . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة النداء : " يا نوح " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة : " تكونّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

الصرف :

(تنته) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم . . .

وزنه تفتع .

(المرجومين) ، جمع المرجوم اسم مفعول من الثلاثيّ رجم ، وزنه مفعول .

الفوائد

في هذه الآية اجتمع القسم والشرط ، والسابق القسم وبما أن القاعدة تقول إذا اجتمع شرط وقسم وكان الجواب واحدا فيعتبر الجواب للأسبق منهما ، ويحذف جواب المتأخر ، ويقدر مفسرا بالأول (إذن لتكونن جوابا للقسم) قال ابن مالك في ألفيته :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

[سورة الشعراء (26) : الآيات 117 إلى 118]

قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118)

الإعراب :

(ربّ) منادى مضاف منصوب ، حذفت منه أداة النداء ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة

على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف . . .

و(الياء) المحذوفة مضاف إليه ، و(النون) في (كذّبون) للوقاية ، جاءت قبل ياء المتكلّم المحذوفة للفاصلة ، و(الياء) مفعول به .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء : " ربّ وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " إنّ قومي كذّبون . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " كذّبون " في محلّ رفع خبر إنّ .

(118) (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب " 2 " ، (بيني) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (افتح) ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المضاف إليه (بينهم) معطوف على بيني بالواو ومتعلّق بما تعلّق به (فتحا)

---

(1) أو هي اعتراضيّة لا محلّ لها سيقت للاسترحام . . . وجملة انّ قومي . . . مقول القول في محلّ نصب . [. . . . .]

(2) أو رابطة لجواب شرط مقدّر .

مفعول مطلق منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين ، و(النون) في (نجّني) للوقاية (من) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على ضمير المتكلّم مفعول نجّني (معي) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من (من المؤمنين) متعلّق بحال من العائد المقدّر في الصلة " 1 " .

وجملة : " افتح . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 2 " .

وجملة : " نجّني . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة افتح .

الصرف :

(نجّني) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، مضارعه ينجّي ، فلمّا انتقل إلى الأمر بني على حذف الياء ، وزنه فعّني .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 119 إلى 120]

فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (120)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة وكذلك (الواو) ، (من) اسم موصول في محلّ نصب معطوف على ضمير الغائب مفعول أنجينا (معه) مثل السابق " 3 " ، (في الفلك) متعلّق بالصلة المحذوفة " 4 " .

جملة : " أنجيناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال ربّ . . . " 5 " .

(120) (ثمّ) حرف عطف (بعد) ظرف مبنيّ على الضمّ في محلّ

(1) أو هو تمييز للموصول (من) .

(2) أو هي جواب شرط مقدّر أي : إن أردت إعانتي فافتح . . .

(3) في الآية السابقة (118) .

(4) أو متعلّق بحال من الضمير المفعول في (أنجيناه) وما عطف عليه .

(5) في الآية (117) من هذه السورة .

(364/573)

نصب متعلّق بـ (أغرقنا) . . .

وجملة : " أغرقنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنجيناه .

الصرف :

(المشحون) ، اسم مفعول من الثلاثيّ شحن ، وزنه مفعول .

(الباقين) ، جمع الباقي ، اسم فاعل من (بقي) الثلاثيّ ، ووزن الباقين الفاعين ، فيه إعلال بالحذف أصله الباقيين - بياءين - التقي ساكنان حذفت إحداهما وهي لام الكلمة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 121 إلى 122]

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

الإعراب:

مرّ إعراب الآيتين مفردات وجملا " 1 " .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 123 إلى 135]

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (127)

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132)

أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135)

---

(1) في الآيتين (67 ، 68) من هذه السورة.

الإعراب:

(كذّبت عاد . . . ربّ العالمين) آيات مرّ إعرابها ، مفردات وجملا " 1 " .

(128) (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (بكلّ) متعلّق بـ (تبنون) .

وجملة : " تبنون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعبثون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تبنون " 2 " .

(129) (الواو) عاطفة ، و(تتّخذون) متعدّ لواحد بمعنى تبنون ، وفي معنى (لعلّكم) خلاف بين المفسّرين .

وجملة : " تتّخذون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تبنون .

وجملة : " لعلّكم تخلدون . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل " 3 " .

وجملة : " تخلدون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(130) (الواو) عاطفة (جبّارين) حال منصوبة من فاعل بطشتم .

وجملة : " بطشتم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " بطشتم (الثانية) " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(131) (فاتّقوا اللّه وأطيعون) مرّ إعرابها " 4 " مفردات وجملا .

(132) (الواو) عاطفة (بما) متعلّق بـ (أمدّكم) ، والعائد محذوف .

وجملة : " اتّقوا الذي . " في محلّ جزم معطوفة على جملة اتّقوا اللّه .

وجملة : " أمدّكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تعلمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) في الآيات (105 - 109) من هذه السورة .

(2) أو في محلّ نصب نعت لآية ، والرابط مقدّر أي تعبثون بها .

(3) يجوز أن تكون الجملة حالا بمعنى راجين الخلود .

(4) في الآية (108) من هذه السورة .

(365/573)

(133 – 134) (بأنعام) متعلّق بـ (أمدّكم) الثاني (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة .

وجملة : " أمدّكم (الثانية) " لا محلّ لها بدل من جملة أمدّكم الأولى (135) (عليكم) متعلّق بـ (أخاف) .

وجملة : " إنّي أخاف . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أخاف . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(128) تبنون : فيه إعلال بالحذف أصله تبنيون – بياء بعد النون – استثقلت الضمّة على الياء فسكنت ونقلت الضمّة إلى النون – إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الفاعل فأصبح تبنون ، وزنه تفعون .

(ريع) ، جمع ريعة وهو المكان المرتفع أو الطريق المنفرج في الجبل ، وزنه فعل بكسر

فسكون .

(129) مصانع : جمع مصنعة وهو الحوض أو البركة ، وزنه مفعلة بفتح الميم أو ضمّها وفتح اللام أو ضمّها وهو من نوع اسم المكان . . .

(366/573)

ووزن مصانع مفاعل بفتح الميم وكسر العين . . . والمصانع أيضا الحصون .

الفوائد

1 - إذ قال لهم أخوهم هود :

في قوله تعالى : أخوهم هود لفتة كريمة ، تشير إلى أن الرسول أو النبي يكون من أوساط القوم المرسل إليهم ، فليس هو جبارا من جبابرتهم ، ولا هو ملك من ملائكة السماء ، وإنما هو عبد من عباد اللّه ، قد اختاره لتأدية رسالته لفئة من خلقه ، فهو يشاركهم في سائر شؤونهم البشرية ، ويختص بالوحي ينزل عليه ويؤمر بتبليغه ، فهو أخوهم على كل حال .

2 - عند ما يكون البدل اسما والمبدل منه اسم استفهام أو اسم شرط ، وجب أن يسبق البدل همزة الاستفهام أو " إن " الشرطية ، نحو : كم رجالك أ عشرون أم ثلاثون .

ويسميه النحاة بدل تفصيل . وهو ينحصر في البدل المطابق ، نحو من جاءك أزيد أم عمرو ،

ونحو :

" من يجتهد إن علي أو خالد فأكرمه " فمن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، والجملة بعده خبره ، وإن حرف شرط لا عمل لها هنا ، لأنه أتي بها لإيضاح المعنى وليس للعمل ، وعلي بدل من الضمير المستتر في يجتهد ، وخالد معطوف على علي ، وجملة فأكرمه في محل جزم جواب الشرط .

ونحو : حيثما تنتظر في المدرسة وإن في الدار أو إفك فتبصّر وأرجو لك الهداية إلى الصواب .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 136 إلى 138]

قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138)

الإعراب :

(سواء) خبر مقدّم مرفوع (علينا) متعلّق بسواء " 1 " ، (الهمزة) حرف مصدريّ للتسوية (أم) حرف عطف معادل للهمزة (من الواعظين) متعلّق بمحذوف خبر تكن .

والمصدر المؤوّل (أ وعظت . . .) في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر أي :

وعظك سواء علينا أم عدم وعظك .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (وعظك) سواء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو بمحذوف نعت لسواء .

(367/573)

وجملة : " وعظت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (الهمزة) .

وجملة : " لم تكن من الواعظين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وعظت .

(137) (إن) حرف نفي (إلّا) أداة حصر (خلق) خبر المبتدأ هذا . . .

لفظا منصوب محلّا خبر ما ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " إن هذا إلّا خلق . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(138) (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (معذّبين) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما ، وعلامة الجّر الياء .

وجملة : " ما نحن بمعذّبين " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

الصرف :

(الواعظين) : جمع الواعظ ، اسم فاعل من الثلاثيّ وعظ باب ضرب ، وزنه فاعل .

(خلق) : اسم بمعنى طبيعة المرء وشيمته ، وزنه فعل بضمّتين .

(معذّبين) : جمع معذّب ، اسم مفعول من الرباعيّ عذّب ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 139 إلى 140]

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة ، والثانية عاطفة (إنّ في ذلك . . .

العزيز الرحيم) مرّ إعرابها " 1 " .

جملة : "كذّبوه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أهلكناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كذبوه .

---

(1) مفردات وجملا ، في الآيتين (67 ، 68) من هذه السورة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 141 إلى 152]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ

رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (145)

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ (152)

الإعراب :

(كذّبت ثمود . . . ربّ العالمين) مرّ إعراب نظيرها " 1 " مفردات وجملا .

(146) (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ ، و(الواو) في (تتركون) نائب الفاعل (في ما) متعلّق بـ (تتركون) ، (هاهنا) اسم إشارة مبنيّ ، مسبوق بحرف التنبيه ، في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بمحذوف صلة ما (آمنين) حال منصوبة من نائب الفاعل .

وجملة : " تتركون . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول السابق .

(147) (في جنّات) متعلّق بما تعلّق به الموصول ما ، لأنه بدل منه بإعادة الجارّ .

(148) وجملة : " طلعها هضيم . . . " في محلّ جرّ نعت لنخل .

---

(1) في الآيات (105 – 109) من هذه السورة . [. . . . .]

الجدول ج 19 ، ص : 109

(149) (من الجبال) متعلّق بـ (تنحتون) بتضمينه معنى تتّخذون " 1 " ، (فارهين) حال

منصوبة من فاعل تنحتون .

وجملة : تنحتون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تتركون .

(150) (فاتّقوا اللّه وأطيعون) مرّ إعرابها " 2 " ، مفردات وجملا . . .

(151) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة ، وعلامة الجزم في (تطيعوا) حذف النون

. . . والواو فاعل .

وجملة : " لا تطيعوا . . . " معطوفة على جملة اتّقوا . . .

(152) (الذين) اسم موصول في محلّ جرّ نعت للمسرفين (في الأرض) متعلّق بـ

(يفسدون) " 3 " ، (لا) نافية .

وجملة : " يفسدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " لا يصلحون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(148) هضيم : صفة مشتقّة من الثلاثّي هضم باب فرح أي رقّ ولان ، وزنه فعيل بمعنى

مفعول .

---

(1) أو (من) بمعنى في .

(2) في الآية (108) من السورة .

(3) أو متعلق بحال من فاعل يفسدون .

---

(149) فارهين : جمع فاره من الثلاثيّ فره بمعنى حذق ومهر باب كرم ، اسم فاعل وزنه فاعل .

البلاغة

1 - المجاز : في قوله تعالى وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ .

نسبة الإطاعة إلى الأمر مجاز ، وهي للأمر حقيقة ، وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفى ويجوز أن تكون الاطاعة مستعارة للامتثال ، لما بينهما من الشبه في الإفضاء إلى فعل ما أمر به ، أو مجازا مرسلا عنه للزومه له .

الإرداف : في قوله تعالى الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ .

لما كان " يفسدون " لا ينافي إصلاحهم أحيانا أردف بقوله تعالى وَلا يُصْلِحُونَ لبيان كمال إفسادهم وأنه لم يخالطه إصلاح أصلا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 153 إلى 154]

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (154)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (من المسحّرين) متعلّق بخبر المبتدأ أنت .

جملة : " قالوا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنت من المسحّرين . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(154) (ما) نافيّة (إلّا) للحصر (مثلنا) نعت لبشر مرفوع " 1 " (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بآية) متعلّق بـ (ائت) (كنت) فعل ماض ناقص - ناسخ - في محلّ جزم فعل الشرط (من الصادقين) متعلّق بخبر كنت .

وجملة : " ما أنت إلّا بشر . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 2 " .

وجملة : " ائت . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كنت صادقا فأت بآية .

وجملة : " إن كنت من الصادقين " لا محلّ لها تفسيريّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

---

(1) (مثلنا) لم يزد بالإضافة تعريفا .

(2) أو بدل من جملة مقول القول .

الصرف :

(المسحّرين) ، جمع المسحّر ، اسم مفعول من الرباعيّ سحّر ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 155 إلى 156]

قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155) وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156)

الإعراب :

(لها) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (شرب) الأول (الواو) عاطفة (لكم) مثل لها والمبتدأ (شرب) الثاني .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هذه ناقة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لها شرب . . . " في محلّ رفع نعت لناقة .

وجملة : " لكم شرب . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لها شرب " 1 " .

(156) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (بسوء) متعلّق بـ (تمسّوها) بمعنى تنالوها (الفاء) فاء السببيّة (يأخذكم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببيّة ، (عذاب) الفاعل . . .

وجملة: "لا تمسّوها . . . "لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر في حيّز القول أي: لا تزاحموها في وقت شربها ولا تمسّوها . . .

الصرف:

(شرب) ، اسم للماء المشروب ، أو لنصيب منه ، وزنه فعل بكسر فسكون.

---

(1) والرابط مقدّر أي لكم شرب من دونها . . . ويجوز أن تكون الجملة استئنافيّة من غير الرابط ، أو اعتراضيّة.

(371/573)

[سورة الشعراء (26) : الآيات 157 إلى 159]

فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة ، والثانية عاطفة.

جملة: "عقروها . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أصبحوا . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

(158 - 159) (الفاء) عاطفة (إنّ في ذلك . . . العزيز الرحيم) مرّ إعرابهما " 1 " مفردات وجملا .

---

(1) في الآيتين (67 ، 68) ، من هذه السورة .

وجملة : " أخذهم العذاب . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الفوائد

- قصة ناقة صالح وعقرها :

ذكر القرطبي ما يلي :

أوحى اللّه إلى صالح ، أن قومك سيعقرون ناقتك ، فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل ، فقال لهم صالح : إنه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ، ويكون هلاككم على يديه ، فقالوا : لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه ، فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر ، فذبحوا أبناءهم ، ثم ولد للعاشر ، فأبى أن يذبح ابنه ، وكان لم يولد له من قبل ، فكان ابن العاشر أزرق أحمر ، فنبت نباتا سريعا ، فكان إذا مرّ بالتسعة قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا قبل هذا . وغضب التسعة على صالح ، لأنه كان سببا لقتلهم أبناءهم ، فتعصبوا ، أو

تقاسموا باللّه لنبيتنه وأهله ، فقالوا : نخرج إلى سفر ، فيرى الناس سفرنا ، فنكون في غار ، حتى إذا كان الليل ، وخرج صالح إلى مسجده ، أتيناه فقتلناه ، ثم قلنا :

ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ، فيصدقوننا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر ، وكان صالح لا ينام معهم في القرية ، بل كان ينام في المسجد ، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم .

فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا ، فسقط عليهم الغار فقتلهم ، فرأى ذلك الناس ممن كان قد اطلع على ذلك ، فصاحوا في القرية : يا عباد اللّه ، أما رضي صالح أن أمر بقتلهم أولادهم حتى قتلهم ، فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة .

وروي أن مسطعا ، ألجأ الناقة إلى مضيق في شعب ، فرماها بسهم ، فأصاب رجلها فسقطت ، ثم ضربها قدار ، وقيل : إنه قال لا أعقرها حتى يرضوا أجمعين ، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون : أ ترضين ؟ فتقول : نعم ، وكذلك صبيانهم .

ولذلك ضرب بـ " قدار " المثل في الشؤم . وفي ذلك يقول زهير :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

(373/573)

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

أي أنها تلدكم أبناء ، كل واحد منهم يضاهي في الشؤم عاقر الناقة قدار بن سالف . وكان من حق زهير أن يقول : كأحمر ثمود ولكنه قال : كأحمر عاد . وبذلك جانبه الصواب ، وجلّ من لا يخطئ .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 160 إلى 166]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (164)

أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (166)

الإعراب :

(كذّبت قوم لوط . . . على ربّ العالمين) مرّ إعراب نظيرها " 1 " مفردات وجملا . . .

(165) (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ التقريعيّ (من العالمين) متعلّق بحال من الذكران

. . .

وجملة : " تأتون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(166) (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (لكم) متعلّق بـ (خلق) ، (من أزواجكم) متعلّق بحال من العائد المقدّر " 2 " ، (بل) للإضراب الانتقاليّ (قوم) خبر مرفوع (عادون) نعت لقوم مرفوع . . .

وجملة : " تذرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة تأتون .

وجملة : " خلق لكم ربّكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " أنتم قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . .

الصرف :

(165) الذكران : جمع الذكر ، اسم لما هو ضدّ الأنثى ، وزنه فعل بفتحتين ، ووزن الذكران فعلان بضمّ فسكون ، وثمّة جموع أخرى هي ذكور بضمّ الذال وذكارة بكسر الذال .

---

(1) في الآيات (105 - 109) ، من هذه السورة .

(2) أو تمييز للموصول (ما) .

(166) عادون : فيه إعلال بالحذف أصله عاديون – بياء قبل الواو – استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت حركتها إلى الدال قبلها . . . ثمّ حذفت لالتقائها ساكنة مع الواو فأصبح عادون زنة فاعون (173 – البقرة) .

البلاغة

الإبهام : في قوله تعالى ما خَلَقَ لَكُمْ .

وقد أراد به أقبالهنّ ، وفي ذلك مراعاة للحشمة والتصون . و " من " تحتمل البيان ، وتحتمل التبعيض .

[سورة الشعراء (26) : آية 167]

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167)

الإعراب :

مرّ إعراب نظيرها مفردات وجملا " 1 " .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 168 إلى 169]

قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169)

الإعراب :

(لعملكم) متعلّق بالقالين " 2 " ، (من القالين) خبر إنّ . . .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي . . . من القالين " في محلّ نصب مقول القول .

(169) (ربّ) منادى مضاف منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و(الياء) المحذوفة مضاف إليه ، و(النون) في (نجّني) نون الوقاية (أهلي) معطوف على الضمير الياء في (نجّني) بالواو ، منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) مضاف إليه (ما) حرف مصدريّ " 3 " .

---

(1) في الآية (116) من هذه السورة .

(2) النحاة يجعلون التعليق في خبر محذوف تقديره قال – بتنوين اللام – و(من القالين) هو نعت للخبر المحذوف ، بدعوى أن صلة (ال) الموصول لا تعمل في ما قبل الموصول . . .

(3) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف .

والمصدر المؤوّل (ما يعملون) في محلّ جرّ بـ (من) متعلّق بـ (نجّني) .

وجملة : " ربّ " . . . لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " نجّني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الصرف :

(القالين) ، جمع القالي ، اسم فاعل من الثلاثيّ قلى - أي أبغض - وفي (القالين) إعلال بالحذف أصله القاليين - بياءين ساكنتين - حذفت إحداهما - لام الكلمة - وبقيت علامة الإعراب ، وزنه الفاعين .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 170 إلى 175]

فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (أهله) معطوف على ضمير الغائب في (نجّيناه) بالواو ، منصوب (أجمعين) توكيد منصوب " 1 " ، وعلامة النصب الياء .

جملة : " نجّيناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(171) (إلّا) أداة استثناء (عجوزا) منصوب على الاستثناء (في الغابرين) متعلق بنعت لـ (عجوزا) .

---

(1) أو مفعول مطلق إن قصد به المصدر .

(172) وجملة : " دمّرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(173) (الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (أمطرنا) ، (مطرا) مفعول به منصوب " 1 " ،

(الفاء) عاطفة (ساء) فعل ماض لإنشاء الذّم (مطر) فاعل فعل الذّم مرفوع . . .

والمخصوص بالذم محذوف تقديره مطرهم .

وجملة : " أمطرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة دمّرنا .

وجملة : " ساء مطر المنذرين " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمطرنا .

(174 - 175) (إنّ في ذلك . . . العزيز الرحيم) مرّ إعرابهما " 2 "

الفوائد

- فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ :

أشرنا فيما سبق إلى أن أفعال المدح ثلاثة : نعم ، وحبّ ، وحبذا .

---

(1) أو مفعول مطلق إن قصد به المصدر . [. . . . .]

(2) في الآيتين (67 ، 68) من هذه السورة .

وأن أفعال الذم ثلاثة أيضا ، وهي :

بئس ، وساء ، ولا حبذا .

ونزيد على ذلك أن جمل هذه الأفعال إنشائية وليست خبرية . وهذه الأفعال لا تتصرف ، لأنها لا تتضمن معنى الحدث الذي يلازم التصرف .

- ملاحظة : حبذا : فعل مركب من " حبّ " و " ذا " اسم إشارة .

- ملاحظة ثانية : يتقدم التمييز على المخصوص بالذم نحو :

ألا حبذا قوما سليم فإنهم وفوا وتواصوا بالإعانة والصبر

ويجوز تأخيره عن نحو :

حبذا الصبر شيمة لامرئ رام مباراة مولع بالمغاني

- ملاحظة ثالثة : " ذا " الكائنة في " حبذا " تلتزم الإفراد والتذكير وإن كان المخصوص غير ذلك ، ويجب أن نراعي في تمييز هذا الباب خمسة أمور : للإيجاز نحيلك على المطولات من كتب النحو .

ويمكن أن نقدر التمييز في الآية التي نحن بصددها فنقول " ساء مطرا مطر المنذرين " ويمكن غير ذلك . فتأمل واختر . . .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 176 إلى 184]

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ

رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180)

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184)

الإعراب :

(كذّب أصحاب . . . على ربّ العالمين) مرّ إعراب نظيرها مفردات وجملا " 1 " .

(181) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (من المخسرين) متعلّق بخبر تكونوا .

وجملة : " أوفوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " لا تكونوا . . . " لا محل لها معطوفة على جملة أوفوا . . .

---

(1) في الآيات (105 - 109) من هذه السورة .

(2) أو استئناف في حيّز القول .

(182) (الواو) عاطفة (بالقسطاس) متعلّق بحال من فاعل زنوا أي متلبسين بالقسطاس .

وجملة : " زنوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوفوا . .

(183) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (أشياءهم) مفعول به ثان منصوب (لا تعثوا) مثل لا تبخسوا (في الأرض) متعلّق بـ (تعثوا) ، (مفسدين) حال منصوبة مؤكّدة لمعنى عاملها .

وجملة : " لا تبخسوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوفوا . . .

وجملة : " لا تعثوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوفوا . . .

(184) (الواو) عاطفة (الذي) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (الجبلّة) معطوف بالواو ، على ضمير الخطاب المفعول منصوب ، (الأولين) نعت للجبلّة منصوب مثله وعلامة النصب الياء .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على أوفوا . . .

وجملة : " خلقكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

الصرف :

(المخسرين) ، جمع المخسر ، اسم فاعل من الرباعيّ أخسر ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر

العين .

(الجبلّة) ، اسم بمعنى الخلائق والأمم مأخوذ من الجبل لشدّتهم ، وزنه فعلّة بكسر الفاء والعين وفتح اللام المشدّدة ، وثمّة لغات أخرى في لفظها .

الفوائد

الأيكة فيها قراءتان :

(378/573)

أ - الأيكة : وهي الشجر الملتف أو الغيضة .

ب - ليكة : وهي اسم القرية التي سكنها قوم شعيب .

وعلى ذلك الأيكة التي هي الغيضة أو الشجر الملتف بعضه على بعض نذكر بعض ما قاله الشعراء : في الأيك وحمامه الصادح على أفنانه . قال أحدهم :

أيبكي حمام الأيك من فقد إلفه وأصبر عنها إنني لصبور

وأنشد الرياشي لأحدهم :

(379/573)

دعوت فوق أفنان من الأيك موهنا مطوقة ورقاء في إثر آلف

فهاجت عقابيل الهوى إذ ترنمت وشبت ضرام الشوق تحت الشراسف

بكت بجفون دمعها غير ذارف وأغرت جفوني بالدموع الذوارف

وقال عوف بن محلّم :

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر وغصنك ميّاد ففيم تنوح

أفق لا تنح من غير شيء فإنني بكيت زمانا والفؤاد صحيح

ولوعا فشطت غربة دار زينب فها أنا أبكي والفؤاد جريح

[سورة الشعراء (26) : الآيات 185 إلى 187]

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185) وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187)

الإعراب :

(قالوا إنّما . . . المسحّرين) مرّ إعرابها مفردات وجملا " 1 " ، (ما أنت . . . مثلنا) مرّ إعرابها " 2 " . (إن) مخففة من الثقيلة مهملة " 3 " ، (اللام) هي الفارقة (من الكاذبين) متعلّق بمحذوف مفعول به

(1) في الآية (153) من هذه السورة.

(2) في الآية (154) من هذه السورة.

(3) إذا دخلت (إن) المخفّفة على جملة فعلية - والفعل ناسخ - وجب إهمالها.

(380/573)

ثان عامله نظنّك.

وجملة: "إن نظنّك لمن الكاذبين" في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

(187) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (علينا) متعلّق بـ (أسقط)، (من السماء) متعلّق بنعت لـ (كسفا)، (إن كنت من الصادقين) مرّ إعرابها "1".

وجملة: "أسقط . . ." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي:

إن كنت صادقا فأسقط.

وجملة: "كنت من الصادقين . . ." لا محلّ لها تفسيريّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله.

[سورة الشعراء (26): آية 188]

قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (188)

الإعراب :

(ما) حرف مصدريّ " 2 " . والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أعلم) .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) في الآية (154) من هذه السورة .

(2) واسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف أي تعملونه .

وجملة : " ربّي أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 189 إلى 191]

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة ، والثانية عاطفة ، واسم (كان) ضمير مستتر يعود على عذاب يوم

الظلّة . . .

وجملة : "كذّبوه . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "أخذهم عذاب . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "إنّه كان عذاب . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(إنّ في ذلك . . . العزيز الرحيم) مرّ إعرابهما مفردات وجملا " 1 " .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 192 إلى 199]

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) هي المزحلقة للتوكيد . . .

والضمير في (إنّه) يعود على القرآن الكريم .

جملة : "إنّه لتنزيل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

(193) (به) متعلّق بحال من الروح أي متلبّسا به ، والعامل فيها نزل . . .

وجملة : "نزل به الروح . . . "في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) " 2 " .

---

(1) في الآيتين (67 ، 68) من هذه السورة .

(2) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(382/573)

(194 - 195) (على قلبك) متعلّق بـ (نزل) ، (اللام) تعليليّة (تكون) مضارع ناقص - ناسخ - منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من المنذرين) متعلّق بخبر

تكون (بلسان) متعلّق بـ (نزل) " 1 " ، (مبين) نعت ثان للسان مجرور .

والمصدر المؤوّل أن تكون في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (نزل) .

وجملة : " تكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(196) (الواو) عاطفة (اللام) مزحلقة للتوكيد (في زبر) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " إنّه لفي زبر . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه لتنزيل . . .

(197) (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ التقريعيّ (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بحال من آية

(آية) خبر يكن منصوب (أن) حرف مصدريّ ونصب . . .

والمصدر المؤوّل (أن يعلمه علماء . . .) في محلّ رفع اسم يكن .

وجملة : " لم يكن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه لفي زبر .

وجملة : " يعلمه علماء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(198) (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم - امتناع لامتناع - (على بعض) متعلّق بـ (نزّلناه) . . .

وجملة : " لو نزّلناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يكن لهم آية .

(199) (الفاء) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (قرأه) ، (ما) نافية (به) متعلّق بمؤمنين الخبر .

---

(1) أو متعلّق بالمنذرين . . . وأجاز العكبري جعله بدلا من (به) بإعادة الجارّ أي ناطقا باللغة العربيّة .

(383/573)

وجملة : " قرأه عليهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نزّلناه .

وجملة : " ما كانوا به مؤمنين " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم (لو) .

الصرف :

(192) تنزيل : مصدر بمعنى اسم المفعول أي المنزل ، وزنه تفعيل .

(195) عربيّ : اسم منسوب إلى عرب - اسم جنس جمعيّ - وزنه فعليّ بفتح الفاء والعين .

(198) الأعجمين : جمع الأعجم وهو مخفّف من الأعجميّ - بياء النسب - اسم لمن لا يتكلّم العربيّة ، فهو وصف على وزن أفعل ومؤنّثه عجماء ، وقياس جمعه عجم بضمّ فسكون ، وجمع جمع السالم نظرا لأصله في النسب ، وهو من عجم يعجم باب كرم ، كان في لسانه لكنة .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 200 إلى 203]

كَذٰلِكَ سَلَكْنٰاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لاٰ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتّٰى يَرَوُا الْعَذٰابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاٰ يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203)

الإعراب :

(كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله سلكناه ، والضمير الغائب في الفعل يعود على القرآن الكريم بحذف مضاف أي : سلكنا تكذيبه (في قلوب) متعلّق بـ (سلكناه) .

جملة : " سلكناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(201) (لا) نافية (به) متعلّق بـ (يؤمنون) ، (حتّى) حرف غاية وجرّ (يروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى .

والمصدر المؤوّل (أن يروا . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق

الجدول ج 19 ، ص : 125

ب (يؤمنون) المنفي .

وجملة : " لا يؤمنون . . . " في محلّ نصب حال من المجرمين أو من الهاء .

وجملة : " يروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(202) (الفاء) عاطفة (يأتيهم) مضارع منصوب معطوف على (يروا) ، (بغتة) مصدر في موضع الحال " 1 " أي : مباغتا (الواو) واو الحال (لا) نافية . . .

وجملة : " يأتيهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يروا .

وجملة : " هم لا يشعرون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يشعرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(203) (الفاء) عاطفة (يقولوا) مضارع منصوب معطوف على يأتيهم ، وعلامة النصب حذف النون . . . و(الواو) فاعل (هل) حرف استفهام بمعنى التحسر أو الطمع في المحال . . .

وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يأتيهم .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في المعنى أي يبغتهم بغتة أو هو نوعه أي إتيان المباغتة .

وجملة : " هل نحن منظرون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الفوائد

- شروط جمع المذكر السالم :

يشترط له ثلاثة شروط :

أ - أن لا تلحقه تاء التأنيث ، فلا يجمع هذا الجمع من الأسماء مثل : طلحة ، ولا من الصفات نحو علّامة ، لئلا يجتمع فيهما علامتا التأنيث والتذكير ، وهما النقيضان . .

ب - أن يكون لمذكر ، فلا يجمع هذا الجمع من الأسماء علم المؤنث ، نحو زينب ، ولا صفة المؤنث نحو حائض .

ج - أن يكون عاقلا لأن هذا الجمع مخصوص بالعقلاء ، فلا يجمع نحو " شوشو " علما لكلب و " سابق " صفة لفرس ، وأن لا يكون مركبا تركيبا مزجيا ولا إسناديا . وفيه بعض التفصيلات تجاوزناها بغية الإيجاز ومراعاة لخطة الكتاب .

[سورة الشعراء (26) : آية 204]

أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (204)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (الفاء) عاطفة (بعذابنا) متعلّق بـ (يستعجلون) .

جملة : " يستعجلون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أيغفلون عن حالهم من طلب الإنظار فيستعجلون بعذابنا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 205 إلى 207]

أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (206) ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (207)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (الفاء) استئنافيّة (متّعناهم) فعل ماض مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (سنين) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (متّعناهم) ، وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر .

جملة : " رأيت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " متّعناهم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه الاستفهام الآتي أي : لم يغن عنهم تمتّعهم . . .

(206) (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل جاءهم " 1 " ، و(الواو)

---

(1) وهو أيضا مفعول رأيت على التنازع .

في (يوعدون) نائب الفاعل .

وجملة : " جاءهم ما كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة متّعناهم .

وجملة : " كانوا يوعدون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يوعدون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا ، والعائد محذوف .

(207) (ما) الأول اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب مفعول به عامله أغنى وهو للإنكار والنفي " 1 " ، (عنهم) متعلّق بـ (أغنى) ، (ما) حرف مصدريّ " 2 " والواو في (يمتّعون) نائب الفاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ رفع فاعل أغنى . . .

وجملة : " أغنى . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل رأيت بمعنى أخبرني .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يمتّعون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 208 إلى 209]

وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (209)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (قرية) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به (إلّا) للحصر (لها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (منذرون) .

جملة : " ما أهلكنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) هذا إذا كان دالّا على شيء ، وهو في محلّ نصب مفعول مطلق إن دلّ على مصدر بمعنى الإغناء . [. . . . .]

(2) أو اسم موصول في محلّ رفع فاعل ، والعائد محذوف أي يمتّعونه .

وجملة : " لها منذرون . . . " في محلّ نصب حال من قرية - أو نعت لها - (209) (ذكرى) مفعول لأجله عامله منذرون " 1 " ، (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (ما) نافية .

وجملة : " ما كنّا ظالمين " معطوفة على جملة لها منذرون أو حاليّة من الضمير في (لها) .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 210 إلى 212]

وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (210) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (به) متعلّق بـ (تنزّلت) " 2 " .

جملة : " ما تنزّلت به الشياطين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

(211) (الواو) عاطفة (ما) نافية ، وفاعل (ينبغي) ضمير مستتر يعود على كتاب اللّه الحكيم أي ليس من مطلبهم ومبتغاهم (لهم) متعلّق بـ (ينبغي) ، (الواو) عاطفة (ما) مثل الأولى .

وجملة : " ما ينبغي . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ما يستطيعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(212) (عن السمع) متعلّق بـ (معزولون) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد .

وجملة : " إنّهم . . . لمعزولون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هذه ذكرى ، والجملة اعتراضيّة .

(2) والضمير في (به) يعود على القرآن الكريم .

الجدول ج 19 ، ص : 129

الصرف :

(معزولون) ، جمع معزول ، اسم مفعول من الثلاثيّ عزل ، وزنه مفعول .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 213 إلى 220]

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217)

الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

الإعراب :

(387/573)

(الفاء) استئنافيّة (لا) ناهية جازمة (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف حال من (إلها) ، ومنع (آخر) من التنوين لأنه صفة على وزن أفعل (الفاء) فاء السببيّة (تكون) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء (من المعذّبين) متعلّق بمحذوف خبر تكون .

والمصدر المؤوّل (أن تكون . . .) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من النهي السابق أي لا يكن منك دعوة لعبادة إله آخر فحصول العذاب لك .

جملة : " لا تدع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(214 - 215) (الواو) عاطفة في الموضعين (لمن) متعلّق بـ (خفض) ، (من المؤمنين) متعلّق بحال من فاعل اتّبعك .

وجملة : " أنذر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تدع .

وجملة : " اخفض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تدع . . .

وجملة : " اتّبعك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

(216) (الفاء) عاطفة (عصوك) فعل ماض مبنيّ على الضم المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين في محلّ جزم فعل الشرط . . . و(الواو) فاعل ، و(الكاف) مفعول به (الفاء) الثانية رابطة لجواب الشرط (ما) حرف مصدريّ " 1 " .

وجملة : " إن عصوك . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " إنّي بريء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون . . .) في محلّ جرّ بـ (من) متعلّق ببريء .

(217) (الواو) عاطفة (على العزيز) متعلّق بـ (توكّل) .

وجملة : " توكّل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنذر . . .

(218) (الذي) اسم موصول في محلّ جرّ نعت ثان للعزيز (حين) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (يراك) .

وجملة : " يراك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تقوم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(219 - 220) (الواو) عاطفة (تقلّبك) معطوف على ضمير المفعول في (يراك) ، منصوب (في الساجدين) متعلق بالمصدر تقلّبك " 2 " ، (هو) ضمير منفصل

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف أي تعملونه .

(2) و(في) بمعنى مع ، أو متعلّق بحال من ضمير الخطاب في (تقلّبك) ، أي ساجدا في الساجدين .

في محلّ نصب توكيد للضمير المتّصل اسم إنّ على سبيل الاستعارة " 1 " .

وجملة : " إنّه هو السميع . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الفوائد

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ :

عند ما نزلت هذه الآية دعا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) أقاربه إلى دار عمه أبي طالب فكانوا أربعين رجلا ، قد يزيدون واحدا وينقصون .

فقال : يا بني عبد المطلب ، لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، أ كنتم مصدقي ؟ " أو كما قال " قالوا : نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد

. . .

و

في رواية أنه قال : يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ، افتدوا أنفسكم من النار ، فإني لا أغني عنكم شيئا . . . !

وتختلف الروايات ولكنها جميعها تخرج من مشكاة واحدة . . . !

[سورة الشعراء (26) : الآيات 221 إلى 223]

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223)

الإعراب :

(هل) حرف استفهام (على من) متعلّق بـ (تنزّل) لأنه اسم استفهام له الصدارة ، وقد حذفت إحدى التاءين من فعل تنزّل .

جملة : " أنبّئكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تنزّل . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي أنبّئكم الثاني والثالث . وقد علّق الفعل بالاستفهام .

(222) (على كلّ) متعلّق بـ (تنزّل) الثاني (أثيم) نعت لأفاك مجرور .

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره (السميع) ، والجملة خبر إنّ .

وجملة : " تنزّل (الثانية) " في محلّ نصب بدل من (تنزّل) الأولى .

(223) والضمير في (يلقون) إمّا أن يعود على الشياطين ، أو على كلّ أفّاك بحسب معناه ، وكذلك الضمير في (أكثرهم) ، (الواو) عاطفة . . .

وجملة : " يلقون . . . " في محلّ نصب حال من الشياطين ، أو في محلّ جرّ نعت لكلّ أفّاك بحسب عودة الضمير " 1 " .

وجملة : " أكثرهم كاذبون . . . " معطوفة على جملة يلقون لها محلّ أو ليس لها .

الصرف :

(أفاك) ، صيغة مبالغة من الثلاثيّ أفك باب ضرب ، وزنه فعّال بفتح الفاء وتشديد العين ، الجمع : أفّاكون .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 224 إلى 227]

وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة ، والجملة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتّبعهم الغاوون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الشعراء) .

(225) (الهمزة) حرف استفهام ، وعلامة الجزم في (تر) حذف حرف العلّة (في كلّ)

متعلّق بـ (يهيمون) " 2 " .

وجملة : " لم تر . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة فلا محلّ لها .

(2) يجوز أن تكون متعلّقا بمحذوف خبر ، وجملة يهيمون حالا من الضمير في الخبر ، أو خبرا ثانيا .

(390/573)

وجملة : " يهيمون . . . " في محلّ رفع خبر أنّ . . .

والمصدر المؤوّل (أنّهم . . . يهيمون) في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي ترى .

(226) (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (لا)

نافية .

وجملة : " يقولون . . . " في محلّ رفع خبر أنّ (الثاني) .

والمصدر المؤول (أنّهم يقولون . . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

وجملة : " لا يفعلون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(227) (إلّا) أداة استثناء (الذين) اسم موصول في محلّ نصب على الاستثناء

(الصالحات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (كثيرا) مفعول مطلق نائب عن

المصدر فهو صفته (من بعد) متعلّق بـ (انتصروا) ، (ما) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (ما ظلموا . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه . . .

و(الواو) في (ظلموا) نائب الفاعل (الواو) عاطفة (السين) حرف استقبال (أيّ) اسم

استفهام منصوب مفعول مطلق عامله ينقلبون .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " ذكروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " انتصروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

---

(1) أو نكرة موصوفة ، والجملة بعدها نعت لها . . . والعائد محذوف على كلّ حال .

وجملة : " سيعلم الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الشعراء يتّبعهم .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " ينقلبون . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي يعلم .

المعلّق بالاستفهام .

الصرف :

(الشعراء) جمع شاعر اسم فاعل من الثلاثي شعر – نظم الشعر – وزنه فاعل والجمع فعلاء .

البلاغة

التمثيل : في قوله تعالى أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ .

ذكر الوادي والهيوم : فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول ، واعتسافهم وقلة مبالاتهم ، بالغلوّ في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحهم على حاتم ، وأن يبهتوا البرّي ، ويفسقوا التقي .

الفوائد

1 – الشعر والإسلام :

كثير من الناس فهم هذه الآية على غير وجهها ، فحسب أن الشعر حرام بجملته ، وأن الشعراء ضالون جميعهم . وهذا فهم قاصر ، ومجانف للحق والحقيقة ، وهل الشعر إلا كلام يرد فيه الجيد المحمود ، ويرد فيه الوسط العادي . فهو مثل الكلام المعتاد الذي لا يوصف بالحسن ولا بالرداءة ، ويرد فيه البذيء المفحش ، أو الشر الصراح ، فهذا سيء ، وقائله مجرم ، ولا نستطيع أن نخرجه من فحوى الآية ومضمونها .

ثم أليس وقد كان للرسول شعراء ينافحون عنه وعن الإسلام ، وكان (صلّى اللّه عليه وسلّم) يحضهم ويحثهم على قول الشعر كفاحا عن الدين ونفاحا عن المؤمنين .

وأليس وقد كان يستمع لحسان وغيره ، ينشدون شعرهم في مسجده وبحضرته (صلّى اللّه عليه وسلّم) .

وأليس وقد استمع إلى كعب بن زهير وهو ينشده قصيدته المشهورة : بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ، فيعفو عنه بعد أن كان قد هدر دمه .

بل ويخلع عليه بردته التي ابتاعها منه معاوية بثلاثين ألف درهم . واتخذها من بعده الخلفاء شعارا يرتدونها في الأعياد وفي المراسم .

وقد عرف عن الخلفاء الراشدين أنهم كانوا يقرضون الشعر ، ولو على قلة . وكان أشعرهم علي . و

كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) يقول إن من الشعر لحكمته . . !

وقد قفز الشعر قفزة عملاقة في ظل الخلافة الاسلامية . وقد أهدت إلينا العهود الاسلامية الزاهرة نخبة من الشعراء ، ما كان لهم أن ينبغوا هذا النبوغ لو كانت الشريعة الاسلامية تقف ضد الشعر وتطارد الشعراء .

وإن ورود الاستثناء في آخر الآية إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا إلخ يجعل ذمّ الشعراء محصورا في شعراء المشركين الذين آذوا الرسول وآذوا الدين .

2 - سطيح الغساني :

(392/573)

أول كاهن في العرب ، وكان جسده يدرج كما يدرج الثوب ، وكان أبدا منسطحا على الأرض ، وقد عمرّ (150) عاما ، ومات في الليلة التي ولد فيها الرسول (صلّى اللّه عليه وسلّم) . لقد أنذر بسيل العرم قبل وقوعه .

وقد أرسل إليه ملك الفرس رسولا يسأله عن رؤيا رآها ، ومعجزات حصلت ليلة مولد الرسول (صلّى اللّه عليه وسلّم) .

فأخبر سطيح بقوله : إذا ظهرت التلاوة ، وفاض وادي السماوة ، وظهر صاحب الهراوة ، فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات بعدد ما سقط من الشرفات ، وكل ما هو آت آت " والله أعلم " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الجدول حـ 19 صـ 135.51﴾

(393/573)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(26) سورة الشّعراء

مكيّة وآياتها سبع وعشرون ومائتان

[سورة الشعراء (26) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (4)

وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (6) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9)

اللغة :

(باخِعٌ) : تقدم تفسير هذه الكلمة ، والبخع أن يبلغ بالذبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد للذابح ، وفي المصباح : " وبخع نفسه بخعا من باب نفع قتلها من وجد أو غيظ وبخع لي بالحق بخوعا انقاد وبذله " .

الاعراب :

(طسم ، تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ) طسم تقدم إعرابها والحديث عن فواتح السور ، وتلك مبتدأ وآيات الكتاب خبر والمبين صفة لكتاب .

(لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) لعل للاشفاق أي فالترجي هنا بمعنى الأمر أي ارحم نفسك وارفق بها ، والكاف اسمها وباخع خبرها ونفسك مفعول به لباخع وأن وما في حيزها مفعول لأجله أي خيفة أن لا يؤمنوا أو لامتناع إيمانهم ، ومؤمنين خبر يكونوا .

)

(394/573)

إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ) كلام مستأنف مسوق لتعليل الأمر بإشفاقه على نفسه من الاسترسال في التحسّر والغم على عدم إيمانهم ، وان

شرطية ونشأ فعل الشرط وفاعله مستتر تقديره نحن ومفعول المشيئة محذوف لأنه مضمون الجواب أي إيمانهم وننزل جواب الشرط وعليهم متعلقان بننزل ومن السماء حال لأنه كان في الأصل صفة لآية والفاء حرف عطف وظلت فعل ماض ناقص معطوف على ننزل فهو مجزوم محلا ويجوز أن تكون الفاء استئنافية وظلت بمعنى المضارع أي تظل تدوم ، وإليه جنح الجلال فيكون قد فسره بالمرفوع ، وأعناقهم اسم ظلت ولها متعلقين بخاضعين وخاضعين خبر ظلت ، وسيأتي سر المخالفة في العطف وسر مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق في باب البلاغة . (وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) الواو عاطفة وما نافية ويأتيهم فعل مضارع ومفعول به ومن حرف جر زائد وذكر مجرور لفظا مرفوع محلا لأنه فاعل يأتيهم ومن الرحمن صفة لذكر ومحدث صفة ثانية أي تجدد انزاله وفق مقتضيات الأحوال وإلا أداة حصر وجملة كانوا

استثناء من أعم الأحوال فهي حالية وكان واسمها وعنه متعلقان بمعرضين ومعرضين خبر كانوا . (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الفاء الفصيحة كأنه قيل إذا شئت أن تعرف ماذا كان موقفهم من الذكر حين أعرضوا عنه وصدفوا عن التأمل فيه فقد كذبوا .

و قد حرف تحقيق وكذبوا فعل ماض وفاعل فسيأتيهم عطف على ما تقدم للوعيد والتهديد ويأتيهم فعل مضارع ومفعول به وأنباء فاعل وما مضاف إليه وجملة كانوا صلة والواو اسم كان وبه متعلقان بيستهزئون وجملة يستهزئون خبر كانوا . (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على مقدر وقد تقدم مثل هذا التعبير كثيرا ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل والرؤية هنا بصرية ولذلك تعدت بإلى والى الأرض متعلقان بيروا وكم خبرية في محل نصب مفعول أنبتنا وأنبتنا فعل ماض وفاعل ومن كل زوج تمييز كم الخبرية ويجوز أن يكون حالا كما ذكر أبو البقاء وكريم صفة لزوج ، وأراد بالزوج الصنف من النبات والنوع وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة .

(إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) إن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآية اسم إن وما الواو حالية وما نافية وكان أكثرهم مؤمنين كان واسمها وخبرها أي سبق ذلك في علم اللّه ، وقال سيبويه كان زائدة وسيأتي مزيد من هذا البحث في باب الفوائد . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الواو استئنافية وان واسمها واللام المزحلقة وهو ضمير فصل أو مبتدأ والعزيز خبر إن أو خبر هو والجملة خبر إن والرحيم خبر ثان .

البلاغة :

انطوت هذه الآيات على الكثير من فنون البلاغة ندرجها فيما يلي :

1- المخالفة في العطف :

فقد خالف في العطف ، فعطف " فظلت " على " ننزل " ولو قيل أنزلنا لكان صحيحا ولعله كان مما يقتضيه السياق ولكنه خولف لأن في عطف الماضي على المستقبل إشعارا بتحقيقه وأنه كائن لا محالة ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا ، وله في القرآن نظائر سترد في مواضعها .

2- المجاز العقلي :

المجاز العقلي في إسناد الخضوع للأعناق ، فقد يقال كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الأعناق والخضوع من خصائص العقلاء ، وقد كان أصل الكلام " فظلوا لها خاضعين " والسر في ذلك انه لما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل خاضعين كما تقدم في قوله " لي ساجدين " وهناك أقوال أخرى أوصلها علماء البيان إلى سبعة نلخصها فيما يلي :

آ- المراد الرؤساء كما قيل لهم وجوه وصدور .

ب- انه على حذف مضاف أي فظل أصحاب الأعناق ، ثم حذف وبقي الخبر على ما

كان عليه قبل الحذف مراعاة للمحذوف .

ج- انه لما أضيف إلى العقلاء اكتسب منهم هذا الحكم كما يكتسب التأنيث بالاضافة .

د- ان الأعناق جمع عنق من الناس وهم الجماعة يقال جاءنا عنق من الناس أي فوج وليس المراد الجارحة المعلومة .

ه- إقحام الأعناق لبيان موضع الخضوع وترك الكلام على أصله .

و- ما ذكره من أنها عوملت معاملة العقلاء لما أسند إليها ما يكون عادة من أفعال العقلاء على طريق المجاز العقلي .

ز- انه لما أضاف الأعناق إلى المذكر وكانت الأعناق متصلة بهم في الخلقة والتكوين أجري عليها حكمهم .

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما : نزلت هذه الآية فينا وفي بني أمية ، قال : ستكون لنا عليهم الدولة فتذل لنا أعناقهم بعد صعوبة ويلحقهم هوان بعد عزة .

3- التتميم :

بقوله " أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم " فقد كان يكفي أن يقال كم أنبتنا فيها من زوج كريم وما معنى الجمع بين كم وكل والجواب أن كلّا إنما دخلت للإحاطة بأزواج النبات وكم دلت على أن هذا المحاط مفرط بالكثرة ، وبذلك تنبيه على تمام القدرة وكمالها ، وهذا هو مقتضى التتميم الذي تقدمت الاشارة إليه ، وتعريفه :

أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته أو في صفاته ولفظه تام كما أن المقصود هنا في الآية آحاد الأزواج ويدل عليه أنه لو أسقطت "كل" فقلت : انظروا إلى الأرض كم أنبت اللّه فيها

من الصنف الفلاني لكنت مكنيا عن آحاد ذلك الصنف المشار اليه ، فإذا أدخلت كلّا فقد أديت بتكريره آحاد كل صنف لا آحاد صنف معين .

4- التتميم أيضا :

وتم كذلك بوصفه الزوج بالكريم وذلك لأمرين :

آ- ان النبات- كما هو معلوم- نوعان نافع وضار فدل بكلمة كريم أنه يقصد النوع النافع فذكر كثرة من أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع وخلى ذكر الضار .

ب- أنه يقصد كلا النوعين النافع والضار ويصفهما جميعا بالكرم تنبيها على أنه ما خلق شيئا إلا لفائدة وربما خفيت عليكم أسرارها وصعب عليكم اكتناهها ولكنه تعالى عالم بما تجهلون .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 10 إلى 17]

وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (11) قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14)

قالَ كَلاَّ فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (17)

الاعراب :

)

(398/573)

وَإِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى : أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) كلام مستأنف مسوق للشروع في سرد سبع قصص هي على التوالي : قصة موسى وقصة ابراهيم وقصة نوح وقصة هود وقصة صالح وقصة لوط وقصة شعيب . والظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر يا محمد لقومك عساهم يتعظون بها ويعتبرون بما آل اليه مصير أولئك الأقوام الذين جنحوا إلى المكابرة والتعنت ولجئوا إلى اللجاج والسفسطة التي لا طائل تحتها ، وجملة نادى في محل جر بإضافة الظرف إليها وربك فاعل نادى وموسى مفعول به وأن ائت يجوز في " أن " أن تكون مفسرة

وأن تكون مصدرية وهي مع مدخولها في موضع نصب بنزع الخافض وائت فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت والقوم مفعول به والظالمين صفة . (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) قوم فرعون بدل من القوم الظالمين أو عطف بيان ولعله أولى لأنهما عبارتان تعتقبان على مدلول واحد ، ولما كان القوم الظالمين يوهم الاشتراك أتى عطف البيان بإزالته ، والهمزة للاستفهام الانكاري ولا نافية ويتقون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة استئنافية والمقصود منها التعجب أي تعجب من عدم تقواهم ، ولا بد من تقدير معنى التعجب لأن الاستفهام الإنكاري معناه النفي ولا نافية ودخول النفي على النفي اثبات فيئول المعنى إلى أنهم اتقوا اللّه وذلك فاسد ، ويحتمل أن تكون الجملة حالية من الضمير الذي تحمله اسم الفاعل وهو الظالمون أي يظلمون غير متقين ، واختار بعض المعربين أن تكون ألا للعرض وآخرون اختاروا أنها للتنبيه . (قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) رب منادى مضاف حذف منه حرف النداء وإني إن واسمها وجملة أخاف خبرها وأن وما في

حيزها مفعول أخاف وحذفت ياء المتكلم من يكذبوني لمراعاة الفواصل (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ) الواو عاطفة ويضيق معطوف على خبر إن أي على أخاف فهو مرفوع مثله ويجوز عطفه على يكذبون فهو منصوب مثله وقد قرئ به والفرق بين المعنيين أن الرفع يفيد فيه ثلاث علل أو معاذير وهي : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وامتناع انطلاق اللسان ، وأما الرفع فيفيد أن خوفه متعلق بهذه الثلاثة ، وصدري فاعل ولا ينطلق لساني عطف على ما قبله لحبسة في لسانه ، فأرسل الفاء الفصيحة وأرسل فعل أمر معناه الالتماس والى هارون متعلقان بأرسل وليس مراد موسى الامتناع من أداء الرسالة أو التلكو فيها بل أراد أن يظهر عجزه عن الاضطلاع بهذا العبء الخطير وطلب المعونة من ربه بأن يعضده بأخيه حتى يتساندا ويتضافرا على تنفيذ الأمر وتبليغ الرسالة . (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) عطف على ما تقدم ولهم خبر مقدم وعلي حال وذنب مبتدأ مؤخر وهو قتله القبطي الذي قيل إنه كان خباز فرعون ، والمعنى لهم علي تبعة ذنب وهي قود ذلك القتيل فأخاف أن يقتلوني به فحذف المضاف أو سمى تبعة الذنب ذنبا كما سمى جزاء السيئة سيئة . (قَالَ : كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) كلا حرف ردع نابت عن الفعل وهو ارتدع يا موسى ولذلك عطف عليها بالفاء من قوله فاذهبا ، واذهبا فعل أمر وألف الاثنين فاعل وبآياتنا متعلقان باذهبا وجملة إنا معكم مستمعون تعليلية للأمر وإن واسمها ومستمعون خبرها والظرف متعلق بمحذوف حال أو

خبر ثان أو بمستمعون نفسها ومفعول مستمعون محذوف أي ما يدور بينكما وبين فرعون وقومه ، وفي هذا الكلام مجاز سيأتي ذكره في باب البلاغة . أْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ)

الفاء عاطفة وأتيا فرعون فعل أمر وفاعل ومفعول به فقولا عطف ، وإنا

(400/573)

ان واسمها أي إن كلا منا ، ليطابق اسم ان خبرها ورسول خبرها ورب العالمين مضاف إليه وسيأتي في باب الفوائد مزيد من هذا التطابق .

(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ) الأرجح أن تكون أن هنا مصدرية لأنها مسبوقة بجملة فيها معنى القول وحروفه والمصدر المؤول في محل نصب بنزع الخافض ، وأصر الزمخشري على أنها تفسيرية بمعنى أي وجعلها غير مسبوقة بقوله فقولا بل بما تضمنه لفظ الرسول من معنى الإرسال ، تقول أرسلت إليك أن أفعل كذا لما في الإرسال من معنى القول كما في المناداة والكتابة ونحوهما ، والظرف متعلق بأرسل وبني إسرائيل مفعول به .

البلاغة :

في قوله تعالى " إنا معكم مستمعون " مجاز معناه : إنا معكم نستمع ما يجري بينكم وبينه وأنا

الناصر لكما عليه ، فالاستماع قرينة للكلام المجازي لأن من سمع محاورة خصمين كان مستطيعا الحكم بينهما ومشايعة أيهما رآه أقرب إلى الحق وأدنى من الصواب ، فإذا اعترض معترض بأن اللّه تعالى مستمع حقيقة وسامع ولا يجوز اجراء المجاز عليه تعالى قلنا إن الاستماع يقتضي الإصغاء بالأذن كما الإبصار يتطلب تقليب الحدقتين من العين ، وكل ذلك من خواص المحدثين .

الفوائد :

يجوز أن يكون الرسول بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه إذ وصف به بين الواحد والتثنية والجمع ، كما يفعل بالصفة بالمصادر نحو صوم وزور قال أبو ذؤيب :

ألكني إليها وخير الرسول أعلمهم بنواحي الخبر

فجعله للجماعة لأن الرسول في الأصل مصدر فجاز افراده مع تعدد معناه ولذلك عاد إليه ضمير الجمع في أعلمهم ، وشبه الخبر بمكان ذي جهات على طريق الاستعارة المكنية ، والنواحي تخييل ، أو شبه توابع الخبر التي يسأل عنها تبعا له بالنواحي على طريق الاستعارة التصريحية ، يعني أنه أعلم من غيره بذلك ، وألكني : أرسلني مصحوبا بالرسالة . ومن مجيء الرسول بمعنى الرسالة قول كثير عزة :

حلفت برب الراقصات إلى منى خلال الملا يمددن كلّ جديل

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

فلا تعجلي يا عزّ أن تتفهمي بنصح أتى الواشون أم بحبول

والراقصات : المطايا السائرات إلى منى في الحج ، وخلال الملا أي في أثناء الناس فيكون مخففا من الملأ أو في الصحراء لأن الملا الصحراء والمتسع من الأرض ، والجديل الرسن في عنقها ، والواشي الذي يحسن الكلام ويموهه ويخلط الصدق بالكذب ويحرف الكلم عن مواضعه ، وما نافية أي ما تفوهت عندهم بسر ، ولا أرسلتهم إلى أحد برسول أي برسالة فهو في الأصل مصدر وقد يطلق على المرسل ، والأصل يا عزة فرخم بحذف التاء ، وأن تتفهمي أي في أن تتفهمي أو لأجل أن تتفهمي ، وبنصح

أي أبنصح أتى الواشون إليك أم بحبول ؟ وهي جمع حبل بالكسر وهي الداهية العظيمة ولا أدهى من الكذب .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 18 إلى 22]

قالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (19) قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (21) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي

إِسْرائِيلَ (22)

الإعراب :

)

قالَ : أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) لا بد من تقدير مقدر محذوف أي فانطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب إن ها هنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين فقال :

(402/573)

ائذن له لعلنا نضحك منه ، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى لأنه نشأ في بيته فقال له : ألم نربك . والهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ونربك فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به وفينا متعلقان بنربك ووليدا حال ولبثت فعل وفاعل وفينا متعلقان بلبثت ومن عمرك حال لأنه كان صفة لسنين وسنين ظرف متعلق بلبثت أيضا .

(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ) الواو عاطفة وفعلت فعل وفاعل وفعلتك

مفعول به أو مفعول مطلق والتي نعت وجملة فعلت صلة والواو حالية وأنت مبتدأ ومن الكافرين خبر أي الجاحدين لنعمتي

(403/573)

و الفعلة التي فعلها موسى هي قتل خبازه القبطي . (قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) قال فعل ماض أي موسى وفعلتها فعل وفاعل ومفعول به أو مفعول مطلق أي فعلت الفعلة وإذن حرف جزاء بمثابة الجواب والواو واو الحال وأنا مبتدأ ومن الضالين خبر أي عما آتاني اللّه بعدها من العلم والرسالة وربأ بمحل النبوة عن تلك الصفة التي أطلقها عليه فروعون وهي قوله له وأنت من الكافرين فقال من الضالين أي المخطئين كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل . (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) الفاء عاطفة وفررت فعل وفاعل ومنكم متعلقان بفررت ولما حينية كما يقول الفارسي ورابطة كما يقول سيبويه ، وجملة خفتكم مضاف إليها الظرف ، فوهب عطف على ففررت ولي متعلقان بوهب وربي فاعل وحكما مفعول به وجعلني من المرسلين عطف على ما تقدم ، دفع قدحه في نبوته بهذا القول أي ان موهبة الحكم والنبوة كانت بعد تلك الحادثة ، ثم كرّ على امتنانه عليه بالتربية فدحضه وأبطله من أصله واجتثه من أساسه بقوله : (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ

تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ) كلام مستأنف مسوق لنسف الاتهام الذي وجهه إليه فرعون ، وتلك مبتدأ ونعمة خبر وجملة تمنها صفة لنعمة وعلي متعلقان بتمنها وأن وما في حيزها عطف بيان لتلك لأن الإشارة إلى خطة شنعاء وخصلة شوهاء لا تكتنه حقيقتها إلا بتفسيرها فجاء عطف البيان مفسرا ما أبهم فاتحا ما أغلق ، ويجوز أن يعرب المصدر المؤول بدلا من نعمة أو يكون في محل نصب على أنه مفعول لأجله ، وتمنها فعل مضارع وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت والهاء منصوب بنزع الخافض لأن منّ فعل لازم يتعدى بالباء أي تمن بها .

وأشار الجلال في تفسيره المختصر إلى أن بعضهم قدر أول الكلام همزة أي قبل وتلك وأصل الكلام أو تلك ؟ أي ليست هذه نعمة حتى

(404/573)

تمن بها علي ، والمقدر هو الأخفش ، وهذه الهمزة للاستفهام الانكاري المتضمن معنى النفي كما شرحنا .

البلاغة :

الإبهام :

في قوله " وفعلت فعلتك التي فعلت " إبهام من غير تفسير وهو قسمان : إبهام مفسر وإبهام من غير تفسير فإن قوله " التي فعلت " يذهب فيها الوهم كل مذهب وتحمل الكثير من المعاني وهو كثير شائع في القرآن الكريم .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 23 إلى 31]

قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ (23) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (25) قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (27)

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (28) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31)

الإعراب :

(قالَ فِرْعَوْنُ : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ) قال فرعون فعل وفاعل والواو عاطفة لتعطف القول على قول موسى " إنا رسول رب العالمين " وما اسم

استفهام مبتدأ ورب العالمين خبره وانما أجاب بما لأنه سأل عن صفاته وأفعاله ولو أراد عينه لقال من ؟ (قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) قال موسى هو رب فرب خبر لمبتدأ محذوف وما عطف على الجنسين فلا يرد اعتراض على التثنية وهي راجعة على الجمع وبينهما ظرف متعلق بمحذوف صلة وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط وكان واسمها وخبرها وجواب إن محذوف أي إن كنتم ممن يرجى منهم النظر الصحيح والاعتبار السليم نفعكم هذا الجواب ، أو تقدره إن كنتم توقنون بشيء فهذا أولى ما توقنون به لسطوعه وإنارة دليله . (قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ) قال فرعون ، ولمن متعلقان بقال وحوله ظرف متعلق بمحذوف هو الصلة وهم أشراف قومه والهمزة للاستفهام ولا نافية وتستمعون فعل مضارع وفاعله ومفعوله محذوف أي جوابه الذي لم يطابق السؤال . (قالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) قال موسى ، وربكم خبر لمبتدأ محذوف أي هو كان داخلا ومنتظما في قوله رب السموات والأرض وما بينهما لإغاظته وتحديه ، وسيأتي سر ذكر الخاص بعد العام في باب البلاغة .

(قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) قال فرعون ، وجملة إن رسولكم مقول القول وان واسمها والذي صفة وجملة أرسل إليكم صلة للموصول واللام المزحلقة ومجنون خبر إن . وهذا شأن المبطلين المتحكمين عند ما يسقط في أيديهم يلجئون إلى نعت صاحب الحق بالجنون أو غيره لأنهم لا يملكون الدليل على معارضته . (قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) قال موسى زيادة في إغاظته والتدليل على إسفافه : هو رب المشرق والمغرب وما بينهما ، وسيأتي سر هذا الطباق في باب البلاغة ، وإن كنتم تعقلون شرط وجوابه محذوفه

(406/573)

أي إن كان لكم مسكة من عقل علمتم أن لا جواب لكم غير المكابرة والسفه والشطط في القول ، قال أولا إن كنتم موقنين لأن المقام مقام تدليل واقناع ثم لما يئس واشتد اللجاج غالظهم وقابل لجاجتهم ونسبتهم إياه إلى الجنون بمثلها فنفى عنهم العقل الذي يمكنهم من التمييز بين الأمور . (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) قال فرعون ، لئن اللام موطئة للقسم وإن شرطية واتخذت فعل ماض وفاعل وهو في محل جزم فعل الشرط وإلها مفعول به وغيري صفة واللام جواب القسم وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم بناء على القاعدة المشهورة وأجعلنك فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا ومن المسجونين في موضع نصب على أنه المفعول الثاني . (قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ) قال موسى ، والهمزة للاستفهام والواو للحال وكل ما كان على هذا التركيب يكون قد سبقه فعل محذوف أي أتفعل ذلك ولو

. . . ،

ولو شرطية وجئتك فعل ماض وفاعل ومفعول به وبشيء متعلقان بجئتك ومبين صفة لشيء أي ببرهان ساطع على نبوتي . (قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) قال فرعون ، فأت الفاء الفصيحة أي إن كنت صادقا في دعواك فأت ، وبه متعلقان بقوله فأت وإن شرطية وكنت فعل الشرط وكان واسمها ومن الصادقين خبر كنت وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

البلاغة :

العموم والخصوص :

بعد أن ذكر العموم بقوله " رب السموات والأرض وما بينهما " إذ استوعب به الخلائق كلها عاد إلى التخصيص بذكرهم وذكر آبائهم

(407/573)

و المطابقة بين المشرق والمغرب ليتأملوا في أنفسهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والناقل من هيئة إلى هيئة ومن حال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، وطابق بين المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس

من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم ونظام ثابت لا خلل فيه في فصول السنة وحساب مستقيم أيضا ، من أظهر ما يمكن الاستدلال به .

وعمم ثانيا بجعله من المسجونين ولم يقل لأسجننك للاشارة إلى أن ذلك ديدنه فقد كان يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في وهدة عميقة الغور وحيدا لا يرى الضوء فيها ولا يسمع الصوت من داخلها فكان ذلك أنكى من القتل ، وهو ديدن المعاند المكابر المحجوج حين تواتيه الأيام ويبتسم له الزمان يعتقد حين يملك قطرا في غفلة من الدهر أن على أهله أن يعبدوه ، فاللام في قوله من المسجونين للعهد أي ممن عرفت شأنهم وعهدت حالهم في سجوني ، فالتعميم هنا أبلغ كما أن التخصيص فيما سبق أبلغ ، ولله أسلوب القرآن إنه يتعالى على الأذهان السطحية البدائية ويدق على البداءة الأولى .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 32 إلى 37]

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (35) قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (36)

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (37)

اللغة :

)

ثُعْبانٌ) : الثعبان الحية يطلق على الذكر والأنثى ويجمع على ثعابين ، واشتقاق الثعبان من ثعب الماء فجره فانثعب ، وقد ظهرت هذه الثعبانية على العصا حين ألقاها . وللثاء مع العين خاصة التلون والتحيل والارهان ، يقال ثعّ يثع من باب ضرب ثعا قاء ما أكله ، وانثعّ الأكل من فمه والدم من أنفه أو جرحه أي انصب ، ومن أقوالهم : سالت الثّعبان كما انساب الثعبان جمع ثعب وهو المسيل ، قال :

وما ثعب باتت تطرّده الصبا بسرّاء واد منجد غيراتهما

ومن المجاز : صاح به فانثعب اليه إذا وثب يجري إليه ، وشدّ أثعوب قال :

لها إذا حرّ الحرار واللوب قوائم " عوج " وشدّ أثعوب

وقال أبو دؤاد :

وكل قائمة تهوي لوجهتها لها أتي كفرغ الدلو أثعوب

وكلاهما من باب الاستعارة إلا أن الطريق مختلف ، وثعب عليهم الغارة : شنّها ، وثعب البعير شقشقته : أخرجها . وثعلت أسنانه تثعل من باب فتح ثعلا تراكبت احداها على الأخرى فهو أثعل وفيه معنى التلوّن والتحيل ، وأثعل الأمر عظم وتفاقم ، والثّعل بضم الثاء

المشددة دويبة تظهر في السقاء إذا خبثت ريحه ، وثعالة علم على أنثى الثعلب لا ينصرف ، وثعلب وتثعلب : راغ أو تشبه بالثعلب في روغانه ، والثعلب حيوان مشهور بالتحيل والرّوغان يتساقط شعره كل سنة ،

ومنه داء الثعلب وهو عملية تساقط الشعر ويقال للأنثى ثعلبة وللذكر ثعلبان وكلمة ثعلب تقع على المذكر والمؤنث ويجمع على ثعالب وثعال ، والثعلب أيضا طرف الرمح الداخل في جبة السنان ، قال بشار :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطي حصر ثعالبه

والثعلبة أيضا العصعص والاست . وبالجملة فهذه المادة ظاهرة الثعلبة والثعبانية .

(أَرْجِهْ) : وأرجئه كما قرئ أيضا بالهمز وبالتخفيف وهما لغتان يقال : أرجأته وأرجيته إذا أخرته ومنه المرجئة .

الاعراب :

)

(409/573)

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ) الفاء عاطفة وألقى فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وعصاه مفعول به فإذا الفاء عاطفة وإذا فجائية وهي ظرف أو حرف وقد تقدم بحثها مفصلا وهي مبتدأ وثعبان خبر ومبين صفة . وقد تقدم بحث المسألة الزنبورية وخلاف سيبويه مع الكسائي في حضرة يحيى البرمكي حولها . (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ) الجملة معطوفة على سابقتها وهي مماثلة لها في اعرابها .

(قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ) قال فرعون ، وللملأ متعلقان بقال وحوله ظرف متعلق بمحذوف حال وللزمخشري تفنن في اعرابها نورده لروعته :

" فإن قلت : ما العامل في حوله ؟ قلت : هو منصوب نصبين نصب في اللفظ ونصب في المحل فالعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال " .

وإن حرف مشبه بالفعل وهذا اسمها واللام المزحلقة وساحر خبر وعليم خبر ثان . (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ) الجملة صفة لساحر ، وهي بيت كامل من مجزوء الرجز وليس شعرا لانتفاء القصد وقد تقدم بحث ذلك مفصلا . وأن وما في حيزها مفعول يريد ومن أرضكم متعلقان بيخرجكم وبسحره متعلقان بيخرجكم أيضا .

)

فَما ذا تَأْمُرُونَ) الفاء عاطفة وماذا اسم استفهام مفعول به لقوله تأمرون أو مفعول مطلق لكونه في معنى المصدر أو ما اسم استفهام وذا اسم موصول خبر وجملة تأمرون صلة ، قال ذلك بعد أن بهره ما شاهد واستولى عليه الدهش والبهر . (قالُوا أَرْجِهْ وَأَخاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ) قالوا فعل وفاعل وأرجه فعل أمر والهاء مفعول به وأخاه مفعول معه أو عطف على الهاء وابعث عطف على أرجه وفي المدائن متعلق بابعث وحاشرين صفة لمفعول به محذوف أي شرطا يحشرون السحرة ويجمعونهم . (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) يأتوك فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر وبكل سحار متعلقان بيأتوك وعليم صفة لسحار .

الفوائد :

الشّرط : واحده شرطي وهم الطائفة من خيار أعوان الولاة ، وفي أيامنا هم رؤساء الضابطة ورجالها سموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها ، وفي الصحاح : " الشرط محركة الحرس سموا بذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعرفون بها " والشرط أيضا أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 38 إلى 44]

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (38) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ

السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (40) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (41) قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42)

قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (43) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (44)

الإعراب :

)

(411/573)

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) الفاء عاطفة على مقدر وجمع فعل ماض مبني للمجهول والسحرة نائب فاعل ولميقات جار ومجرور متعلقان بجمع ويوم مضاف اليه ومعلوم صفة واليوم المعلوم هو يوم الزينة وميقاته هو وقت الضحى ، وقد مر ذكره في طه فجدد به عهدا .

(وَقِيلَ لِلنَّاسِ : هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ؟) وقيل معطوف على ما تقدم وللناس متعلقان به وهل حرف استفهام وأنتم مبتدأ ومجتمعون خبر والجملة مقول القول وفي الاستفهام معنى الأمر كأنهم يستبطئهم ويستحثهم على الاجتماع ومنه قول تأبط شرا :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا عوف بن مخراق

فهل استفهام استبطائي فيه حث على الفعل ودينار اسم رجل ورب كذلك ونصب لأنه معطوف على محل دينار لأنه مفعول معنى وأخا عوف نعت له وقيل منادى وعوف ومخراق اسمان لرجلين ويروى

(412/573)

عون بالنون . (لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ) الجملة في محل نصب حال لأن الترجي باعتبار حالة الغلبة المقتضية للاتباع وان كان مقصودهم الأصلي أن لا تتبعوا موسى ، والمعنى : راجين أن تكون الغلبة لهم فلا تتبع موسى . ولعل واسمها وجملة تتبع خبرها والسحرة مفعول به وإن شرطية وكانوا فعل الشرط وهو كان واسمها وهم ضمير فصل والغالبين خبر كانوا . (فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ) الفاء عاطفة ولما حينية ظرفية أو رابطة وجاء السحرة فعل وفاعل وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ولفرعون متعلقان بقالوا والهمزة للاستفهام وإن حرف مشبه بالفعل ولنا خبرها المقدم وأجرا اسمها المؤخر وإن شرطية وكنا كان واسمها وهو فعل الشرط ونحن ضمير فصل والغالبين خبر كنا وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله لأن قوله أئن لنا لأجرا في معنى جواب الشرط لدلالته عليه . (قالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)

قال فرعون ، ونعم حرف جواب أي لكم الأجر وزادهم بقوله وإنكم فهو عطف وان واسمها وإذن حرف جواب وجزاء واللام المزحلقة ومن المقربين خبر إن ، وعدهم بالأجر وبالقربى والزلفى لديه . (قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ) قال لهم موسى فعل وفاعل ولهم متعلقان بقال وجملة ألقوا مفول القول وما مفعول به وجملة أنتم ملقون صلة وأنتم مبتدأ وملقون خبر .

)

فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ) الفاء عاطفة وألقوا فعل وفاعل وحبالهم مفعول به وعصيهم عطف على حبالهم وقالوا عطف على فألقوا ، وبعزة : الباء حرف قسم وجر وعزة مجرور بالباء والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره نقسم ونحلف بعزة فرعون وإنا إن واسمها وكسرت همزتها وجوبا لوقوعها

(413/573)

بعد القسم كما تقدم واللام المزحلقة ونحن ضمير فصل أو مبتدأ والغالبون خبر إنا أو خبر نحن والجملة خبر إنا .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 45 إلى 51]

فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (45) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (46)

قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسى وَهارُونَ (48) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)

قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (51)

الإعراب :

)

فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ) الفاء عاطفة وألقى موسى عصاه فعل وفاعل ومفعول به فإذا الفاء عاطفة وإذا فجائية وهي مبتدأ وجملة تلقف خبر وما مفعول به وجملة يأفكون صلة ما أي تبتلع ما يقلبونه بتمويههم عن وجهه ويزورونه . (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ) الفاء عاطفة وألقي فعل ماض مبني للمجهول والسحرة نائب فاعل ، والفاعل الذي ناب عنه المفعول به لو صرح به هو اللّه عز وجل بما ألهمهم من التوفيق أو إيمانهم أو ما عاينوه من المعجزة الباهرة التي ضؤل أمر السحر عندها ، وسيأتي مزيد بحث عن الإلقاء في باب البلاغة ، وماجدين حال . (قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ) جملة آمنا من الفعل والفاعل

مقول القول وبرب العالمين متعلقان بآمنا وجملة القول بدل اشتمال من أنقي أو حالية بتقدير قد . (رَبِّ مُوسى وَهارُونَ) رب بدل من رب العالمين أو عطف بيان وموسى وهارون مضاف اليه . (قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ) جملة آمنتم مقول القول وله متعلقان بآمنتم والظرف كذلك وأن وما في حيزها في محل جر بالإضافة ولكم متعلقان بآذن .

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) تعليل لانصياعهم لموسى وهارون وللتلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا على بصيرة وظهور حق . وان واسمها واللام المزحلقة وكبيركم خبر إن والذي صفة وجملة علمكم صلة والكاف مفعول به أول والسحر مفعول به ثان ، فلسوف : الفاء الفصيحة أي إن استمررتم في فعلكم فلسوف تعلمون وبال ما فعلتموه واللام موطئة للقسم وسوف حرف استقبال وتعلمون فعل مضارع وفاعل والمفعول محذوف كما قدرناه .

)

(415/573)

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) اللام موطئة للقسم وأقطعن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا والجملة لا محل لها لأنها مفسرة بمثابة بيان لما أبهمه بقوله فلسوف تعلمون وأيديكم مفعول به وأرجلكم عطف على أيديكم ومن خلاف حال أي مضمومة يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى وقد تقدم القول فيها ، ولأصلبنكم عطف على لأقطعن وأجمعين تأكيد للكاف .

(قالُوا : لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ) لا نافية للجنس وضمير اسمها المبني على الفتح وخبرها محذوف أي لا ضمير علينا ولا بأس وجملة إنا تعليل لعدم الضمير وإن واسمها والى ربنا متعلقان بمنقلبون ومنقلبون خبر إنا . (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) إن واسمها وجملة نطمع خبر والفاعل مستتر تقديره نحن وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي

في غفران خطايانا أو

البلاغة :

في قوله " فأل

اللغة :

(لَشِرْذِمَةٌ) : الشرذمة : الجماعة القليلة من الناس وتجمع على شراذم وشراذيم ، وثياب شراذم ممزقة ، وشرذ الجمع بالتشديد فرّقه .

(حاذِرُونَ) : متيقظون وهي مبالغة اسم الفاعل وقد قرئ حاذرون قال أبو عبيدة : هما بمعنى واحد يقال رجل حذر وحاذر بمعنى وقيل بل بينهما فرق فالحذر المتيقظ والحاذر الخائف وقيل الحذر المخلوق مجبولا على الحذر والحاذر من عرض فيه ذلك ، وفي المصباح :

" حذر حذرا من باب تعب واحتذر واحترز كلها بمعنى واستعد وتأهب فهو حاذر وحذر والاسم منه الحذر مثل حمل ، وحذر الشيء إذا خافه فالشيء محذور أي مخوف ، وحذرته الشيء فحذره " وفي قراءة حادرون بالدال المهملة ، والحادر السمين القوي قال : أحب الصبي السوء من أجل أمه وأبغضه من بغضها وهو حادر

(416/573)

أي أن مدار حب الولد على حب أمه لا على حسن أوصافه ، وضمير أبغضه عائد على الصبي بدون وصفه ولكن هذه شيمة المنهمك في حب النساء .

(مُشْرِقِينَ) : داخلين في وقت الشروق من شرقت الشمس شروقا إذا طلعت .

(فِرْقٍ) : بكسر الفاء أي قطعة .

(الطود) : الجبل أو عظيمه كما في القاموس والجمع أطواد وطاد يطود إذا ثبت .

(وَأَزْلَفْنا) : قربنا .

الاعراب :

(وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة للشروع في الأمر الموجه إلى موسى بأن يسير بقومه إلى جهة البحر ليلا وذلك بعد ثلاثين سنة من الحوادث الآنفة الذكر . وأوحينا فعل وفاعل والى موسى جار ومجرور متعلقان بأوحينا وأن مفسرة لأن في الإيحاء معنى القول دون حروفه وأسر فعل أمر من أسرى أي سار ليلا ، وفي قراءة بكسر النون ووصل همزة أسر من سرى لغة أسرى ، وبعبادي متعلقان بأسر أو حال أي مصحوبا بعبادي وجملة إنكم متبعون تعليل للأمر بالإسراء . (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ) الفاء عاطفة وإن كان في الوقت انقطاع لأنهم كما يروى شغلوا بدفن موتاهم من الوباء الذي اجتاح مصر ، وأرسل فرعون

فعل وفاعل وفي المدائن حال وحاشرين مفعول به . (إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) الجملة مقول قول محذوف منصوب على الحال أي قائلا وإن واسمها واللام المزحلقة وشرذمة خبرها وقليلون صفة لأنهم كانوا أقلية فسئيلة ؟ ؟ ؟ بالنسبة لقوم فرعون وسيأتي في باب البلاغة

سر الجمع بالمذكر السالم لقليل . (وَإِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ) الواو عاطفة أو حالية وإن واسمها ولنا متعلقان بغائظون واللام المزحلقة وغائظون خبر إن أي فاعلون ما يغيظنا . (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ) الواو عاطفة أو حالية وان واسمها واللام المزحلقة وجميع خبر أول وحذرون خبر ثان أي ونحن قوم عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم في الأمور ، أراد فرعون أن يغطي الصدع الذي أصاب هيبته فوصف نفسه ورهطه بأبلغ الأوصاف الدالة على أصالة المنزلة وقوة الشكيمة . (فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) الفاء استئنافية وأخرجناهم فعل وفاعل ومفعول به ومن جنات وعيون متعلقان بأخرجناهم ، وأراد البساتين التي كانت على جانبي النيل والأنهار الصغيرة المتفرعة من النيل والموزعة على الدور ، وسيأتي وصف مسهب لمصر في باب الفوائد . (وَكُنُوزٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ) عطف على جنات وعيون ، وأراد بالكنوز الأموال التي تحت الأرض وخصها لأن ما فوقها انطمست معالمه أو لأنهم لم ينفقوها فيما يجب إنفاقه من خير .

(

كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ) كذلك نعت لمصدر محذوف أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج ويجوز أن تعرب الكاف صفة لمقام كريم أي مقام مثل ذلك المقام الذي كان لهم ويجوز أن تعرب الكاف رفعا على أنها خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك ، وأورثناها الواو عاطفة أو اعتراضية ولعله أرجح وأورثناها فعل وفاعل ومفعول به أول وبني إسرائيل

مفعول به ثان أي بعد إغراق فرعون وقومه . (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ) الفاء عاطفة وأتبعوهم فعل ماض وفاعل ومفعول به ثان أي

(418/573)

لحقوهم ومشرقين حال . (فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) الفاء عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة وتراءى الجمعان فعل ماض وفاعل أي تقابلا ورأى كل واحد منهما الآخر وجملة قال لا محل لها لأنها جواب لما وأصحاب فاعل قال ، وجملة إنا لمدركون مقول القول . (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) قال موسى ، وكلا حرف ردع وزجر وأراد موسى أن ينحي عليهم باللائمة لخور أعصابهم وفتور عزائمهم أي لن يدركونا وإن معي تعليل لهذا الردع وان حرف مشبه بالفعل والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وربي اسمها المؤخر وجملة سيهدين استئنافية وغلط من أعربها حالا وسيأتي التفصيل في باب الفوائد . (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ) الفاء عاطفة وأوحينا فعل وفاعل والى موسى متعلقان بأوحينا وأن مفسرة واضرب بعصاك البحر فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وبعصاك متعلقان باضرب فانفلق الفاء الفصيحة وقد تقدمت كثيرا أي فضرب فانفلق . (فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) الفاء عاطفة وكان واسمها والكاف اسم

بمعنى مثل خبرها أو هو جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر والعظيم صفة للطود .

(وَأَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ) الواو عاطفة وأزلفنا فعل وفاعل وثم ظرف بمعنى هناك والآخرين مفعول به وأراد بهم قوم فرعون أي قربناهم من قوم موسى .

(وَأَنْجَيْنا مُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ) وأنجينا عطف على ما تقدم وهو فعل وفاعل وموسى مفعول به ومن عطف على موسى ومعه ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة من وأجمعين تأكيد لمن . (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ) عطف على ما تقدم . (إِنَّ فِي ذِلكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) تعليل لما تقدم أي إنما جعلنا ذلك وقدرناه ليكون آية وموعظة للناس

ولكن ما تنبه إليها أكثرهم ، وفي ذلك خبر إن المقدم واللام المزحلقة والواو حرف عطف وما نافية وكان واسمها والباء حرف جر زائد ومؤمنين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر كان وستأتي زيادة الباء في خبر كان في باب الفوائد . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) عطف على ما تقدم وان واسمها واللام المزحلقة وهو ضمير فصل أو مبتدأ والعزيز الرحيم خبران لإن أو لهو والجملة خبر إن .

البلاغة :

في قوله تعالى : " إن هؤلاء لشرذمة قليلون " الشرذمة هي الطائفة أو الجماعة القليلة كما ذكرنا في باب اللغة وكان يمكن الاكتفاء بها تعبيرا عن القلة ولكنه وصفها بالقلة القليلة زيادة في احتقارهم واستصغار شأنهم ثم جمع وصفهم ليعلم أن كل ضرب منهم قليل واختار جمع المذكر السالم الذي هو للقلة فهذه أربعة أوجه تتساند لتقليلهم وهناك وجه خامس وهو أن جمع الصفة والموصوف منفرد قد يكون مبالغة في لصوق ذلك الوصف بالموصوف وتناهيه فيه بالنسبة إلى غيره من الموصوفين . فتأمل هذا فإنه من روائع النكت .

الفوائد :

1 – شروط وقوع الحال جملة :

تقع الحال جملة بشروط ثلاثة :

1 – أن تكون الجملة خبرية وهي المحتملة للصدق والكذب ، وهذا الشرط مجمع عليه لأن الحال بمثابة النعت وهو لا يكون بجملة

إنشائية ، وأما ما ورد في الحديث : " لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا هاء هاء " فهو على إضمار القول أي إلا قائلين هاء وهاء من جهة البائع والمشتري .

وفي شرح التسهيل للمرادي أن الخبرية تتناول الشرطية وأنه يجوز وقوعها حالا ، ولكن كلام المغني يخالفه ، والتحقيق أن الكلام في الجملة الشرطية إن كان هو الجزاء والشرط قيد له فالجزاء إن كان خبرا فالجملة الشرطية خبرية وإن كان إنشاء فإنشائية وان كان الكلام

مجموع الشرط والجزاء فليست خبرية لأن الأداة أخرجتها عن ذلك .

هذا وقد غلط من قال في قول أحد المولدين :

(420/573)

أطلب ولا تضجر من مطلب فآفة الطالب أن يضجرا

أما ترى الحبل بتكراره في الصخرة الصمّاء قد أثرا

أن لا ناهية وان الواو للحال ، قال في المغني : وهذا خطأ والصواب في الواو أنها عاطفة ، إما مصدرا يسبك من أن والفعل على مصدر متوهم من الأمر السابق أي ليكن منك طلب وعدم ضجر ، أو جملة على جملة ، وعلى الأول ففتحة تضجر اعراب ولا نافية ، وعلى الثاني فالفتحة بناء للتركيب والأصل ولا تضجرن بنون التوكيد الخفيفة فحذفت للضرورة ولا ناهية ، والعطف مثل : " واعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئا " ثم استأنف ابن هشام في المغني كلامه في النوع الثامن من الجهة السادسة فقال " ثم الأصح أن الفتحة يعني فتحة تضجر اعراب مثلها في لا تأكل السمك وتشرب اللبن لا بناء لأجل نون توكيد محذوفة " .

2- أن تكون الجملة غير مصدرة بدليل استقبال لأن الغرض من الحال تخصيص وقوع مضمون عاملها بوقت حصول مضمون الحال وذلك ينافي الاستقبال ، وغلط من أعرب "

سيهدين " من قوله تعالى :

" إني ذاهب إلى ربي سيهدين " حالا ، وبيان غلطه من جهة الصناعة ظاهر ، وأما من جهة المعنى فلأنه صير معنى الآية سأذهب مهديا ، فصرف التنفيس إلى الذهاب وهو في الآية للهداية ، وأجيب بأن مهديا وقع بعد الذهاب الذي فيه تنفيس ، فيلزم أيضا أن يكون فيه تنفيس كالمقيد .

واما قولهم لأضربنه إن ذهب وإن مكث فإنما جاز وقوع الشرطية فيه حالا وإن كانت مصدرة بدليل استقبال وهو إن لأن المعنى لأضربنه على كل حال إذا لا يصح اشتراط وجود الشيء وعدمه لشيء واحد .

(421/573)

3- أن تكون مرتبطة إما بالواو والضمير معا لتقوية الربط نحو " ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت " فجملة هم ألوف حال من الواو في خرجوا وهي مرتبطة بالواو والضمير وهو هم ، أو بالضمير فقط دون الواو نحو " اهبطوا بعضكم لبعض عدو " فبعضكم مبتدأ وعدو خبره ولبعض متعلقان بعدو أو حال منه والجملة حال من الواو في اهبطوا أي متعادين يضل بعضكم بعضا وهي مرتبطة بالضمير فقط وهو الكاف والميم ، أو

مرتبطة بالواو فقط دون الضمير نحو " لئن أكله الذئب ونحن عصبة " فجملة ونحن عصبة حال من الذئب مرتبطة بالواو فقط ولا دخل لنحن في الربط لأنها لم ترجع لصاحب الحال .

2- وصف مصر لعمرو بن العاص :

ولما استقر عمرو بن العاص على ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : ان صف لي مصر فكتب اليه :

"

(422/573)

ورد كتاب أمير المؤمنين- أطال اللّه بقاءه- يسألني عن مصر ، اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أغفر ، يخطر وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان ، كجري الشمس والقمر ، له أوان يدرّ حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اصلخمّ عجّاجه ، وتعظّمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن في المخايل ورق الاصائل ، فإذا تكامل في زيادته نكص على عقبيه كأول ما

بدا في جريته ، وطما في درّته فعند ذلك تخرج أهل ملّة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون الأرض ، ويبذرون بها الحبّ ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدّهم ، فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك اللّه الخالق لما يشاء " إلى آخر تلك الرسالة الممتعة .

وجاء في خطط المقريزي ما يجلو غوامض هذه الرسالة :

" ووصف بعضهم مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء ، فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر في أشهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابي وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بالمياه من كل وجه فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا بالزوارق ، وأما المسكة السوداء فإن في أشهر بابه وها تور وكيهك

ينكشف الماء عن الأرض فتصير أرضا سوداء وفي هذه الأشهر تقع الزراعات ، وأما الزمردة الخضراء فإن في أشهر طوبة وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض وربيعها فتصير

خضراء كأنها الزمردة ، وأما السبيكة الحمراء فإن في أشهر برمودة وبشنس وبئوئة يتورّد العشب ويبلغ الزرع الحصاد فيكون كالسبيكة التي من الذهب منظرا ومنفعة " .

3- زيادة الباء في خبر كان :

تختص ليس وكان بجواز زيادة الباء في خبريهما وتكثر زيادتها في خبر ليس وما الحجازية ، أما كان فلا تزاد إلا إذا سبقها نفي أو نهي كما في الآية ، وكقول الشنفري :

وإن مدّت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذا أجشع القوم أعجل

[سورة الشعراء (26) : الآيات 69 إلى 89]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (69) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (70) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (71) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73)

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83)

وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ (88)

(424/573)

إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)

الاعراب :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ) الواو عاطفة واتل معطوف على اذكر المقدرة عاملا في قوله : " وإذ نادى ربك موسى " للشروع في القصة الثانية وعليهم متعلقان باتل ونبأ ابراهيم مفعول به . (إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ) إذ ظرف لما مضى من الزمن وهو بدل من نبأ بدل اشتمال فيكون العامل فيه اتل ، وقيل منصوب بنبإ ابراهيم أي وقت قوله لأبيه وقومه : ما تعبدون ، وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها ولأبيه متعلقان بقال ولقومه معطوفة ، وما اسم استفهام في محل نصب مفعول به مقدم لتعبدون وجملة ما تعبدون مقول القول . (قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ) جملة نعبد أصناما في محل نصب مقول القول ، فنظل الفاء عاطفة ونظل فعل مضارع ناقص واسمها ضمير مستتر تقديره نحن ولها متعلقان بعاكفين وعاكفين خبر نظل ، وفي الكلام اطناب سيأتي في باب البلاغة . (قالَ : هَلْ

يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ) هل حرف استفهام ويسمعونكم فعل مضارع وفاعل والكاف مفعول به ولا بد من تقدير محذوف أي يسمعون دعاءكم فتكون متعدية لواحد أو يسمعونكم تدعون فتكون متعدية لاثنين وقد قامت الجملة المقدرة مقام المفعول الثاني ، وإذ ظرف متعلق بيسمعونكم وهو كما يقول الزمخشري ، لحكاية الحال الماضية ومعناه استحضروا الأحوال التي كنتم تدعونها فيها هل سمعوكم إذ دعوتم ، وهو أبلغ في التبكيت ، وجملة تدعون مجرورة بإضافة الظرف إليها .

)

(425/573)

أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) عطف على يسمعونكم . (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) بل إضراب انتقالي تفادوا به الاجابة عن استفهامه وكأنهم وجدوا أنفسهم حقيقة في معزل عن التفكير والمساءلة وانهم لم يرجعوا إلى عقولهم فيناقشوا ما يعبدون ، هل يسمع ؟ هل ينفع ؟ هل يضر ؟ وإنما هو مجرد تقليد درجوا عليه دون التأمل في مغاّبه أو النظر إلى عواقبه ونتائجه . ووجدنا فعل وفاعل وآباءنا مفعول أول لوجدنا وجملة يفعلون هي المفعول الثاني ، وكذلك نعت لمصدر محذوف أي يفعلون فعلا مثل ذلك أو تجعل الكاف مفعولا به مقدما

ليفعلون ولعله أولى . (قال أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري المتضمن معنى الاستهزاء والسخرية ، وقد تقدم أن " رأيتم " في مثل هذا التعبير إما أن تكون بمعنى أخبروني فتكون متعدية لمفعولين أولهما اسم الموصول وثانيهما محذوف وهو جملة تقديرها هل هو جدير بالعبادة ، وإما أن تكون رأى بمعنى عرف وهي تنصب مفعولا واحدا والمعنى هل تأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون ، والفاء عاطفة على محذوف كما قدرناه ، وقد تقدمت نظائر كثيرة له في مثل هذا التركيب ، وجملة كنتم صلة ما وجملة تعبدون خبر كنتم . (أَنْتُمْ وَآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ) أنتم تأكيد للضمير في تعبدون وآباؤكم عطف على أنتم والأقدمون صفة لآباؤكم . (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ) الفاء تعليلية وإن واسمها وعدو خبرها ولي صفة لعدو والعدو والصديق يجيئان في معنى الوحدة والجماعة ، قال :

وقوم عليّ ذوي مئرة أراهم عدوّا وكانوا صديقا

ويروى مرة بالكسر وهي القوه وشدة الجدال والمئرة العداوة .

يقول : رب قوم أصحاب قوة عليّ أراهم اليوم أعداء وكانوا أصدقاء .

وإلا أداة استثناء ورب نصب على الاستثناء والاستثناء منقطع ولذلك تقدر إلا بمعنى لكن ، وفي الآية فن التعريض وسيأتي في باب البلاغة .

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) الذي يجوز فيه النصب على النعت لرب العالمين أو البدل أو عطف البيان ، أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هو الذي خلقني ، وغلط أبو البقاء فأعرب الذي مبتدأ وخبره جملة هو يهدين ولم يتكلم عن الفاء وهذا مردود لأن الموصول معين ليس عاما ولأن الصلة لا يمكن فيها التجدد فلم يشبه الشرط ، والصحيح أنها استئنافية وهو مبتدأ وجملة يهديني خبره وحذفت الياء لمراعاة الفواصل . (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ) عطف على ما سبق وهو مبتدأ وجملة يطعمني خبر . (وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) الواو عاطفة ومرضت فعل وفاعل أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفاء من اللّه تعالى تأدبا ، كما قال الخضر " فأردت أن أعيبها " وقال " فأراد ربك أن يبلغا أشدهما " وسيأتي مزيد بحث في هذا الصدد في باب البلاغة . (وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) عطف على ما تقدم وعطف يحيين على يميتني بثم خلاف ما تقدم لتراخي المدة واتساع الأمرين

الإماتة والإحياء في الآخرة . (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) والذي عطف على ما قبله وجملة أطمع صلة وأن وما في حيزها نصب بنزع الخافض أي في أن يغفر ولي متعلقان بيغفر وخطيئتي مفعول يغفر ويوم الدين ظرف متعلق بيغفر أيضا . (رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) رب منادى مضاف لياء المتكلم حذف منه حرف النداء وهب فعل أمر أراد به الدعاء ولي متعلقان بهب وحكما مفعول به وألحقني عطف على هب وبالصالحين متعلقان بألحقني . (وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) واجعل عطف على ما تقدم ولي مفعول اجعل الثاني ولسان صدق مفعول اجعل الأول والاضافة من اضافة الموصوف إلى صفته وفي الآخرين حال أي الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة .

(وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ) من ورثة مفعول اجعلني الثاني وجنة النعيم مضاف إلى ورثة . (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ) لأبي متعلقان باغفر وجملة إنه تعليل لطلب الغفران له وان واسمها وجملة كان خبرها ومن الضالين خبر كان . (وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ) الظرف متعلق بتخزني وجملة يبعثون في محل جر بإضافة الظرف إليها .

(

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ) يوم ظرف في محل نصب بدل من يوم الأول وهذا يؤكد أنه من كلام ابراهيم ، ويجوز أن يكون من كلام اللّه تعالى في هذا اليوم ولا مانع من إعرابه بدلا أيضا أي متعلق بما تعلق به الظرف الأول وجملة لا ينفع مال في محل جر بإضافة الظرف إليها ولا بنون

عطف على مال . (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) يجوز في هذا الاستثناء أن يكون منقطعا أي من غير الجنس ومعناه لكن من أتى اللّه ، ويجوز أن يكون متصلا وفيه وجهان أحدهما أن يكون بدلا من المحذوف أو استثناء منه فهو في محل نصب على الوجهين والتقدير لا ينفع مال ولا بنون أحدا إلا من أتى ، ويجوز أيضا أن يكون بدلا

(428/573)

من فاعل فهو في محل رفع وغلب من يعقل ويكون التقدير إلا مال من وبنو من فإنه ينفع نفسه أو غيره ، وجعل الزمخشري من مفعول ينفع أي لا ينفع ذلك إلا رجلا أتى اللّه . وبقلب متعلقان بأتى أو بمحذوف حال أي مصحوبا وسليم صفة لقلب .

البلاغة :

في هذه الآيات سمو منقطع النظير من حيث البلاغة البيانية تتقطع دونه الأعناق وتخرس الألسن ، وسنجنح إلى اختصار الكلام لأن فيه متسعا من القول يضيق به صدر هذا الكتاب .

1 - الاطناب :

- في قوله : " قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين " وكان مقتضى جواب السؤال وهو : " ما

تعبدون " أن يقولوا : أصناما ، لأنه سؤال عن المعبود وحسب كقوله تعالى : " ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل العفو " و" ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق " ولكنهم أضافوا إلى الجواب زيادة شرحوا بها قصتهم كاملة لأنهم قصدوا إظهار ابتهاجهم ، وإعلان افتخارهم ، وذلك شائع في الكلام تقول لبعضهم ماذا تلبس ؟ فيقول :

ألبس البرد الأتحمي فأجر أذياله بين جواري الحي الحسان . وقالوا نظل لأنهم كانوا يعكفون على عبادتها في النهار دون الليل ، وهذه هي مزية الاطناب تزيد في اللفظ عن المعنى لفائدة مقصودة أو غاية متوخاة فإذا لم تكن ثمة فائدة في زيادة اللفظ فإنه يكون تطويلا مملا بادي الغثاثة ظاهر الركاكة .

2- التعريض :

وذلك في قوله " فإنهم عدو لي إلا رب العالمين " فإنه صور المسألة في نفسه ، والعداوة مستهدفة شخصه ، كأنه يعرض بهم قائلا :

لقد فكرت في المسألة مليا وأمعنت النظر فيها طويلا فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو الذي يتربص به الدوائر للايقاع ، فاذا بلغ المرء من الاسفاف مدى يحب فيه عدوا ويؤثره بالعبادة

فذلك هو الارتطام في مزالق الغيّ ومهاوي الضلال ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لأنه يلفت انتباهه ويسترعي أنظاره فيتأمل فيه فربما قاده التأمل إلى التقبل ، ومنه ما يحكى عن الشافعي : أن رجلا واجهه بشيء فقال له : لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب .

3- أسرار حروف العطف :

وهنا موضع دقيق المسلك لطيف المرمى قلما ينتبه إليه أحد أو يتفطن إليه كاتب ، فإن أكثر الناس يضعون حروف العطف في غير مواضعها فيجعلون ما ينبغي أن يجر ب " على " ب " في " في حروف الجر ، كما أنهم يعطفون دون أن يتفطنوا إلى سر الحرف الذي عطف به الكلام فقد قال تعالى " والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين " فالأول عطفه بالواو التي هي لمطلق الجمع وتقديم الإطعام على الإسقاء ، والإسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حسن النظم ، ثم عطف الثاني بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما ، ثم عطف الثالث بثم لأن الإحياء يكون بعد الموت بزمان ولهذا جيء في عطفه بثم التي هي للتراخي . وهذا من الأسرار التي يجدر بالكاتب الإلمام بها حتى يقيس عليها ويعطف على كل بما يناسبه ويقع موقع السداد منه .

4- التفويف :

ولم يسبق أن تحدثنا فيما غبر من كتابنا عن هذا الفن وهو إتيان المتكلم بمعان شتى من

المدح والوصف والنسيب وغير ذلك من الفنون ، كل فن في جملة منفصلة من أختها بالسجع غالبا مع تساوى الجمل في الرنّة ، ويكون بالجمل الطويلة والجمل المتوسطة والجمل القصيرة ، فمثال المركب من الجمل الطويلة : " الذي خلقني فهو يهدين " إلى قوله " وألحقني بالصالحين " ففي هذه الآيات فنون شتى منها :

آ- المناسبة :

(430/573)

في قوله : " خلقني " و" يطعمني " .

ب- التنكيت :

في قوله : " وإذا مرضت فهو يشفين " فإن النكتة التي أوجبت على الخليل إسناد فعل المرض إلى نفسه دون بقية الأفعال حسن الأدب مع ربه عز وجل إذ أسند إليه أفعال الخير كلها وأسند فعل الشر إلى نفسه وللاشارة إلى أن كثيرا من الأمراض تحدث بتفريط الإنسان في مأكله ومشربه وغير ذلك .

ج- حسن النسق :

فإنه قدم الخلق الذي يجب تقديم الاعتداد به من الخالق على المخلوق واعتراف المخلوق

بنعمته ، فإنه أول نعمة ، وفي إقرار المخلوق بنعمة الإيجاد من العدم إقراره بقدرة الخالق على الإيجاد والاختراع وحكمته ، ثم ثنى بنعمة الهداية التي هي أولى بالتقديم بعد نعمة الإيجاد من سائر النعم ، ثم ثلّث بالاطعام والاسقاء اللذين هما مادة الحياة وبهما من اللّه استمرار البقاء إلى الأجل المحتوم ، وذكر المرض وأسنده إلى نفسه أدبا ، كما قلنا ، مع ربه ، ثم أعقب ذكر المرض بذكر الشفاء مسندا ذلك إلى ربه ، ثم ذكر الإماتة مسندا فعلها إلى ربه لتكميل المدح بالقدرة المطلقة على كل شيء من الإيجاد والإعدام ، ثم أردف ذكر الموت بذكر الإحياء بعد الموت وفيه مع الإقرار بهذه النعمة والاعتراف بالقدرة والايمان بالبعث ، وكل هذه المعاني جمل ألفاظها معطوف بعضها على بعض بحروف ملائمة لمعاني الجمل المعطوفة كما تقدم .

د – صحة التقسيم :

فقد استوعبت هذه الآيات أقسام النعم الدنيوية والأخروية من الخلق والهداية والإطعام والاسقاء والمرض والشفاء والموت والحياة والايمان بالبعث وغفران الذنب .

5 – التخلص :

وهو فن عجيب يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى غيره آخر وجعل الأول سببا اليه فيكون بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا ، فمما جاء من التخليص هذه الآية التي تسكر العقول وتسحر الألباب ، ألا ترى ما أحسن ما رتب إبراهيم كلامه مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون ، سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم باللائمة فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تعي ولا تسمع ، وعلى تقليد آبائهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ، ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر

(432/573)

الإله الذي لا تجب العبادة إلا له ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلا إليه ، فصور المسألة في نفسه دونهم " فإنهم عدو لي " على معنى : إني فكرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها ، وآثرت عبادة من بيده الخير كله ، وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا : ما نصحنا ابراهيم إلا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى إلى القبول لقوله وأبعث على الاستماع منه ، ولو قال انهم عدو لكم لم يكن بهذه المثابة فتخلص عند تصويره المسألة في نفسه إلى ذكر اللّه تعالى فأجرى عليه تلك الصفات العظام

، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وأنشأه إلى حين يتوفاه مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ليعلم من ذلك أن من هذه صفاته حقيق بالعبادة واجب على الخلق الخضوع له والاستكانة لعظمته ، ثم تخلص من ذلك إلى ما يلائمه ويناسبه فدعا اللّه بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الأوابين لأن الطالب من مولاه إذا قدم قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للاجابة وأنجح لحصول الطلبة ، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ومجازاة اللّه من آمن به واتقاه بالجنة ومن ضل عن عبادته بالنار . . فتدبر هذه التخلصات البديعة المودعة في أثناء هذا الكلام .

6- التقديم :

وفي قوله : " رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين " التقديم فقد استوهب الحكم أولا ثم طلب الإلحاق بالصالحين ، والسر فيه دقيق جدا ، ذلك أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية لأنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعمل به وعكسه غير ممكن لأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن وكما أن الروح أشرف من البدن كذلك العلم أفضل من الإصلاح .

7- المجاز المرسل :

وفي قوله " واجعل لي لسان صدق " مجاز مرسل إذا المراد باللسان هنا الثناء وذكر اللسان مجاز لأنه سببه فالعلاقة هي السببية وقد تقدم ذلك مرارا ، وقيل هو مجاز من اطلاق الجزء على الكل لأن الدعوة باللسان .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 90 إلى 104]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (98) وَما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (100) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)

الاعراب :

)

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) الواو عاطفة والجملة معطوفة على لا ينفع وإنما أورده بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع عند ما تدنو الجنة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتبطون بما ينتظرهم فيها من نعيم وعند ما تدنو النار من موقف الأشقياء ينظرون إليها ويتحسرون على أنهم مسوقون إليها . وأزلفت فعل ماض مبني للمجهول أي قربت والجنة نائب فاعل وللمتقين متعلقان بأزلفت . (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ) عطف على الجملة المتقدمة . (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ؟) الواو عاطفة وقيل فعل ماض مبني للمجهول ولهم متعلقان بقيل أي على سبيل التوبيخ ، وأين اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم وما اسم موصول مبتدأ مؤخر وجملة كنتم صلة وجملة تعبدون خبر كنتم . (مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ) من دون الله حال وهل حرف استفهام وينصرونكم فعل مضارع وفاعل ومفعول به وأو حرف عطف وينتصرون فعل مضارع وفاعل . (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) الفاء حرف عطف وكبكبوا فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وهم ضمير فصل والغاوون عطف على الواو في كبكبوا وسوغه الفصل بالجار والمجرور ضمير الفصل . (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) وجنود عطف على الواو أيضا وإبليس مضاف اليه وأجمعون تأكيد للواو وما عطف عليها . (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) قالوا فعل وفاعل والواو حالية وهم مبتدأ وفيها متعلقان بيختصمون وجملة يختصمون خبرهم ، والتخاصم بين الشياطين ومتبعيهم

فالضمير يعود على الغاوون .

(تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) الجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف

(435/573)

تقديره نقسم وهو متعلق بقالوا وإن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن المحذوف أي إنه وجملة كنا خبر إن وكان واسمها واللام الفارقة وفي ضلال خبر كنا ومبين صفة . (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) إذ ظرف لما مضى من الزمن وهو متعلق بمبين أو بفعل محذوف دل عليه ضلال ولا يجوز أن يتعلق بضلال لأن المصدر الموصوف لا يعمل بعد الوصف وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية والمعنى تالله لقد كنا في غاية الضلال المبين وقت تسويتنا إياكم يا هذه الأصنام برب العالمين في استحقاق العبادة وأنتم أذل المخلوقات وأعجزهم . (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ) الواو عاطفة أو حالية وما نافية وأضلنا فعل ومفعول به مقدم وإلا أداة حصر والمجرمون فاعل أضلنا وهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما قال تعالى " ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا " .

(فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ) الفاء الفصيحة وما نافية ولنا خبر مقدم ومن حرف جر زائد وشافعين مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه خبر مقدم .

(وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) عطف على شافعين وحميم صفة لصديق .

)

فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الفاء استئنافية ولو حرف للتمني في مثل هذا الموضع كأنه قيل فليت لنا كرة لما بين معنى " لو " و" ليت " من التلاقي في التقدير ، ويجوز أن تكون على أصلها للشرط ، والجواب محذوف تقديره لفعلنا كيت وكيت ، وأن حرف مشبه بالفعل وهي وما في حيزها مفعول لفعل محذوف تقديره نتمنى وقد نابت عنه لو ، أو فاعل لفعل محذوف إن كانت لو للشرط ، ولنا خبر أن المقدم وكرة اسم أن المؤخر ، فنكون الفاء للسببية ونكون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء واسم نكون ضمير مستتر تقديره نحن ومن المؤمنين خبر نكون . (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) إن وخبرها المقدم واسمها المؤخر وما نافية وكان واسمها وخبرها .

(436/573)

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الواو استئنافية وان واسمها واللام المزحلقة وهو ضمير فصل أو مبتدأ والعزيز خبر إن أو خبر هو والرحيم خبر ثان .

البلاغة :

1- في قوله " فكبكبوا فيها هم والغاوون " قوة اللفظ لقوة المعنى ، وهذا مما انفرد في التنبيه إليه ابن جني في كتاب " الخصائص " فإن الكبكبة تكرير الكب ، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها وليست الزيادة في اللفظ دالة على قوة المعنى بصورة مطردة بل ان المدار في ذلك على الذوق ، خذ لك مثالا زيادة التصغير فهي زيادة نفص فرجيل أنقص من رجل في المعنى ولكنه أكثر حروفا منه .

2- الإيضاح :

وقد تقدم ذكره كثيرا وهو أن يذكر المتكلم كلاما في ظاهره لبس ثم يوضحه في بقية كلامه ، والاشكال الذي يحله الإيضاح يكون في معاني البديع من الألفاظ وفي إعرابها ومعاني النفس دون الفنون وهو هنا في قوله : " ولا صديق حميم " فإن الصديق الموصوف بصفة حميم هو الذي يفوق القرابة ويربو عليه وهو أن يكون حميما ، فالحميم من الاحتمام وهو الاهتمام أي يهمه أمرنا ويهمنا أمره وقيل من الحامة وهي الخاصة من قولهم حامة فلان أي خاصته .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 105 إلى 122]

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114)

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119)

ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (120) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122)

الإعراب :

)

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) كلام مستأنف مسوق للشروع في حكاية القصة الثالثة وكذبت قوم نوح المرسلين فعل وفاعل ومفعول ، وأنث الفعل باعتبار معنى القوم وهو الأمة والجماعة

وفي المصباح :

" القوم يذكر ويؤنث فيقال قام القوم وقامت القوم وكذا كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر " وفي الزمخشري والبيضاوي :

" القوم مؤنث ولذلك يصغر على قويمة " وهذا محمول على الأغلب فإن قلت : كيف قال كذبت قوم نوح المرسلين وهم لم يكذبوا إلا نوحا وحده قلت هو كقولهم فلان يركب الدواب ويلبس البرود وما له إلا دابة وبرد . (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) الظرف متعلق بكذبت وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها ولهم متعلقان بقال وأخوهم فاعل قال ونوح بدل وانما جعله أخاهم جريا على أسلوبهم في قولهم :

يا أخا العرب ويا أخا تميم يريدون يا واحدا منهم ومنه بيت الحماسة :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

(438/573)

و ألا أداة عرض وتتقون فعل مضارع وفاعل . (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) تعليل لعرضه عليهم الجنوح إلى التقوى وان واسمها ولكم متعلقان بمحذوف حال أو برسول ورسول خبر وأمين صفة . (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) الفاء الفصيحة واتقوا الله فعل أمر وفاعل ومفعول به وأطيعون الفاء عاطفة وأطيعون فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية

والياء المحذوفة لمراعاة الفواصل مفعول به .

)

وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ) الواو عاطفة وما نافية وأسألكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وعليه متعلقان بمحذوف حال ومن حرف جر زائد وأجر مجرور لفظا منصوب محلا لأنه مفعول به وإن نافية وأجري مبتدأ وإلا أداة حصر وعلى رب العالمين خبر . (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) تقدم إعرابها قريبا وقد صدرت القصص الخمس بالأمر بالتقوى للدلالة على اتفاق الأديان السماوية على وجوب معرفة الحق واتباعه وكررت الجملة نفسها تأكيدا لهذه

(439/573)

الغاية السامية . (قالُوا : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ونؤمن فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره نحن ولك متعلقان بنؤمن والواو للحال واتبعك الأرذلون فعل ومفعول به وفاعل ، وحق واو الحال هنا أن يضمر بعدها قد وهذا ضرب من السخافة يقيسون كفاءة الاتباع بمقدار ما يتمتعون به من مال وحطام أو بما يتميزون به من حسب وجاه ولكن الإسلام سوى بين المسلمين كافة . (قالَ وَما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) الواو

استئنافية وما يحتمل أن تكون استفهامية وأن تكون نافية فعلى الأول تكون في محل رفع بالابتداء وعلمي خبرها وبما متعلقان بعلمي على كل حال وعلى جعلها نافية يكون الخبر محذوفا ليصير الكلام به جملة ، وجملة كانوا صلة ما وجملة يعملون خبر كانوا . (إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) إن نافية وحسابهم مبتدأ وإلا أداة حصر وعلى ربي خبر حسابهم ولو امتناعية وتشعرون فعل مضارع مرفوع وجواب لو محذوف كما أن مفعول تشعرون محذوف تقديره ذلك وتقدير الجواب ما عبتموهم وما نسبتم إليهم أي نقص . (وَما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) الواو عاطفة وما حجازية وأنا اسمها والباء حرف جر زائد وطارد مجرور لفظا خبر ما محلا والمؤمنين مضاف إليه . (إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) إن نافية وأنا مبتدأ وإلا أداة حصر ونذير خبر ومبين صفة . (قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) اللام موطئة للقسم وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتنته فعل مضارع مجزوم بلم والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت ولتكونن اللام جواب القسم وجواب الشرط محذوف على حسب القاعدة المشهورة :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

وتكونن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة واسم تكونن ضمير مستتر تقديره أنت ومن المرجومين خبر .

(قالَ : رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ) رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وحرف النداء محذوف وان واسمها وجملة كذبون خبرها وكذبون فعل ماض وفاعل ومفعول به وقد حذفت ياء المتكلم لمراعاة الفواصل . (فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الفاء الفصيحة وافتح فعل أمر معناه الدعاء وفاعله مستتر تقديره أنت وبيني ظرف متعلق بافتح وبينهم عطف على بيني وفتحا يجوز أن يكون مفعولا مطلقا ويجوز أن يكون مفعولا به والفتح هنا من الفتاحة بمعنى الحكومة ، والفتاح الحاكم سمي بذلك لفتحه مغالق الأمور وفي القاموس : " الفتاحة بالضم والكسر ويقال بينهما فتاحات أي خصومات " والمعنى احكم بيننا بما يستحقه كل منا والمراد أنزل العقوبة بهم ولذلك قال ونجني . ونجني الواو عاطفة ونجني عطف على احكم ومن الواو عاطفة أو للمعية ومن عطف على الياء أو مفعول معه ومعي ظرف متعلق بمحذوف صلة من ومن المؤمنين حال . (فَأَنْجَيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) الفاء استئنافية وهو من كلامه تعالى وأنجيناه فعل ماض وفاعل ومفعول به ومن مفعول معه أو عطف على الهاء ومعه ظرف متعلق بمحذوف صلة وفي الفلك متعلقان بالاستقرار الذي تعلق به الظرف والمشحون صفة للفلك والمشحون المملوء .

(ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ) ثم حرف عطف للتراخي وأغرقنا فعل وفاعل وبعد ظرف زمان

مبني على الضم لانقطاعه عن الاضافة لفظا لا معنى والمراد بعد انجائهم ، والباقين مفعول أغرقنا . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) كلام مستأنف لبيان العبرة من هذه القصة وان حرف

(441/573)

مشبه بالفعل وفي ذلك خبر مقدم واللام المزحلقة وآية اسم إن المؤخر والواو عاطفة أو حالية وما نافية وكان واسمها ومؤمنين خبرها يعني أن أكثريتهم الساحقة لم تؤمن ولذلك أخذوا ولو كان نصفهم مؤمنين على الأقل لنجوا . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وهو ضمير فصل أو مبتدأ والعزيز خبر إن أو هو والرحيم خبر ثان وقد تقدم إعراب نظائرها مرارا .

البلاغة :

التكرير في قوله : " فاتقوا اللّه وأطيعون " للتأكيد والتقرير في النفوس مع كونه علق على كل واحد منهما بسبب وهو الأمانة في الأول ، وقطع الطمع في الثاني ، ونظيره قولك : ألا تتقي اللّه في عقوقي وقد ربيتك صغيرا ؟ ألا تتقي اللّه في عقوقي وقد علمتك كبيرا ؟ .

وفيه أيضا التقديم ، قدم الأمر بتقوى اللّه على الأمر بطاعته لأن تقوى اللّه علة لطاعته .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 123 إلى 140]

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (127)

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (132)

أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (136) إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137)

(442/573)

وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

اللغة :

(رِيعٍ) : الريع بكسر الراء وفتحها قال في الأساس واللسان :

" ونزلوا بريع وريع رفيع وريعة وريعة رفيعة وهي المرتفع من الأرض وتقول : يبنون بكل ريعة وملكهم كسراب بقيعة " وقال في القاموس : " والريع بالكسر والفتح المرتفع من الأرض أو كل فج أو كل طريق أو الطريق المنفرج في الجبل والجبل المرتفع الواحدة بهاء . . .

وبالكسر الصومعة وبرج الحمام والتّل العالي . . . وبالفتح فضل كل شيء كريع العجين والدقيق والبذر " قلت واستعمال بمعنى استغلال الريع صحيح يقال طعام كثير الريع ، وأراعت الحنطة وراعت زكت ، وأراعها اللّه تعالى وأراع الناس هذا العام : زكت زروعهم ويقولون كم ريع أرضك وهو ارتفاعها قال المسيب بن علس :

في الآل يرفعها ويخفضها ريع يلوح كأنه سحل

والضمير في البيت للظعائن أي هي في الآل وهو السراب يرفعها تارة ويخفضها أخرى ريع أي طريق مرتفع تارة ومنخفض أخرى أو مكان عال ترتفع بصعوده وتنخفض بالهبوط منه .

ويقال ليس له ريع أي مرجوع وغلة .

(آيَةً) : الآية : العلم يهتدي به المارة وكان بناؤها للعبث واللهو لأنهم كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون إليها وقيل المراد بها القصور المشيدة ترفعون بناءها وتجتمعون فيها فتعبثون بمن يمر بكم .

(تَعْبَثُونَ) : في المصباح : " عبث عبثا من باب تعب لعب وعمل مالا فائدة فيه فهو عابث "

.

)

(443/573)

مَصانِعَ) : جمع مصنعة بفتح الميم مع فتح النون أو ضمها وهي الحوض أو البركة فقوله مصانع أي حيضانا وبركا تجمعون فيها الماء فهي من قبيل الصهاريج ، وفي المختار : " المصنعة بفتح الميم وضم النون أو فتحها كالحوض يجمع فيه ماء المطر والمصانع الحصون " وفي القاموس وشرحه التاج : " المصنعة والمصنعة بفتح الميم وفتح النون وضمها ما يجمع فيه ماء المطر كالحوض والجمع مصانع والمصانع أيضا :

الفري والحصون والقصور والمصنعة أيضا الدعوة للأكل يقال كنا في مصنعة فلان وموضع يعزل للنحل بعيدا عن البيوت " وجميع هذه المعاني صالحة للتفسير .

(بَطَشْتُمْ) : البطش : السطوة والأخذ بعنف وللباء مع الطاء فاء وعينا للكلمة خاصة غريبة فهي تدل على السطوة والقوة وعدم المبالاة بالآخرين يقال : أبطأ علي فلان وبطؤ في مشيته وتباطأ في أمره وتباطأ

عني وفيه بطء وما كنت بطيئا ولقد بطؤت وفرس بطيء من خيل بطاء وما أبطأ بك عنا ؟

وما بطأ بك ؟ وما بطّأك ؟ قال عمر بن ربيعة :

فقمت أمشي فقامت وهي فاترة كشارب الرّاح بطّا مشيه السكر

ولا يخفى ما في ذلك كله من الإدلال بالنفس والزهو بها وعدم المبالاة بالآخرين ، ويقال بطحه على وجهه فانبطح وفيه كل الاذلال والصّغار والمهانة ونظر حويص إلى قبر عامر بن الطفيل فقال : هو في طول بطحتي أراد في طول

كما قال :

قوم إذا اخضرّت نعالهم يتناهقون تناهق الحمر

(444/573)

و امرأة بطيرة شديدة البطر وبيطر الدابة بيطره و" أشهر من راية البيطار " والدنيا قحبة يوما عند عطار ويوما عند بيطار ومن أقولهم أيضا : " وعهدي به وهو لدوابنا مبيطر فهو اليوم علينا مسيطر " ومن حكمهم المأثورة : " لا تبطرنّ صاحبك ذرعه " أي لا تقلق إمكانه ولا تستفزه بأن تكلفه غير المطاق وذرعه من بدل الاشتمال وبطر فلان نعمة اللّه استخفها فكفرها ولم يسترجحها فيشكرها ومنه " بطرت معيشتها " وذهب دمه بطرا أي مبطورا مستخفا حيث لم يقتصّ به وهو بهذا الأمر عالم بيطار ، قال عمر بن أبي ربيعة :

ودعاني ما قال فيها عتيق وهو بالحسن عالم بيطار

والبطش معروف وقد تقدم ومن مجازه : فلان يبطش في العلم بباع بسيط ، وبطشت بهم أهوال الدنيا ، ومن أقوالهم : " وسلكوا أرضا بعيدة المسالك قريبة المهالك ، وقذوا بمباطشها ، وما أنقذوا من معاطشها " وجاءت الركاب تبطش بالأحمال أي ترجف بها ، وبطّ القرحة بالمبط وهو المضع وعنده بطة من السليط والبط والواحدة بطة للمذكر والمؤنث وهو طير مائي قصير العنق والرجلين وهو غير الإوز وجمعه بطوط وبطاط والبطة أيضا إناء كالقارورة أبطح ، وهو باطل بين البطلان وبطّال بيّن البطالة بكسر الباء وقد بطل بفتح الطاء وبطل بيّن

البطالة بفتح الباء وقد بطل بضم الطاء وقد بطل بضم الطاء أيضا يبطل بالضم بطالة وبطولة صار شجاعا فهو بطل وجمعه أبطال ومؤنثه بطلة وجمعها بطلات ، والبطن معروف وألقت الدجاجة ذات بطنها ونثرت المرأة للزوج بطنها إذا أكثرت الولد وبطنه وظهره أي ضربهما منه وقد بطن فلان بالبناء للمجهول إذا اعتل بطنه وهو مبطون وبطين ومبطان ومبطن أي عليل البطن وعظيمه وأبطن البعير شدّ بطانة وباطنت صاحبي شددته معه وبطّن ثوبه بطانة حسنة واستبطن أمره عرف باطنه وتبطّن الكلأ : جوّل فيه وتوسطه ، قالت الخنساء :

فجاء يبشّر أصحابه : تبطّنت يا قوم غيثا خصيبا وتبطّن الجارية جعلها بطانة له ، قال امرؤ القيس :

كأني لم أركب جوادا للذّة ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

ويقال أنت أبطن بهذا الأمر خبره وأطول له عشره ، وهو بطانتي وهم بطانتي وفلان عريض البطان أي غني ، وشأو بطين أي بعيد ، قال زهير :

فبصبص بين أداني الغضى وبين عنيزة شأوا بطينا

الاعراب :

(كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ) فعل وفاعل ومفعول به والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في القصة الرابعة . (إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ) الظرف متعلق بكذبت وقال لهم أخوهم فعل وفاعل وهود بدل من أخوهم وألا أداة عرض وتتقون فعل مضارع وفاعل والجملة مقول

القول . (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) الجملة تعليل لعرضه عليهم الجنوح إلى التقوى وإن واسمها ولكم متعلقان بمحذوف حال أو برسول ورسول خبر إن وأمين صفة لرسول . (فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونِ) تقدم إعرابها كثيرا . (وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ) وهذه تقدم إعرابها بحروفها قريبا . (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ) الاستفهام للتقريع والتوبيخ وتبنون فعل مضارع وفاعل وبكل ريع متعلقان بتبنون وآية مفعول به وجملة تعبثون في محل نصب على الحال . (وَتَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ) وتتخذون عطف على تبنون وتتخذون فعل مضارع وفاعل ومصانع مفعول به ولعلكم تخلدون لعل واسمها والجملة خبرها وجملة الرجاء في محل نصب على الحال أي راجين ومؤملين أن تخلدوا في الدنيا .

(وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) الواو عاطفة وإذا ظرف متعلق بالجواب وهو بطشتم الثانية ، وجملة بطشتم الأولى في محل جر بإضافة إذا إليها وجبارين حال أي غير مبالين بالنتائج والعواقب وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه ظلم وأما في الحق فالبطش بالسيف والسوط جائز

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) الفاء الفصيحة واتقوا اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به وأطيعون عطف على اتقوا .

(وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ) واتقوا فعل أمر وفاعل والذي مفعول به وجملة أمدكم صلة وبما متعلقان بأمدكم وجملة تعلمون صلة .

)

أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) جملة أمدكم الثانية بدل من جملة أمدكم الأولى بدل بعض من كل لأنها أخص من الأولى باعتبار متعلقيهما فتكون داخلة في الأولى لأن ما تعلمون يشمل الانعام وغيرها وقيل هي مفسرة للجملة الأولى فتكون لا محل لها وسيأتي بحث بدل الجملة من الجملة في باب الفوائد . (إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) ان واسمها وجملة أخاف خبرها وعليكم متعلقان بأخاف وعذاب مفعول به

ويوم مضاف إليه وعظيم صفة . (قالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ) سواء خبر مقدم وعلينا متعلقان بسواء والهمزة للاستفهام ووعظت فعل ماض وفاعل وأم لم تكن من الواعظين معادل لقوله أوعظت وهمزة التسوية وما في حيزها في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر أي سواء علينا وعظك ، وأتى بالمعادل هكذا دون قوله أم لم تعظ لتواخي القوافي وقال الزمخشري : " وبينهما فرق لأن المعنى سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ " .

(إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ) إن نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وخلق خبر هذا والأولين مضاف إليه والمعنى ما هذا الذي نحن عليه من الدين إلا خلق الأولين وعادتهم كانوا يدينونه ونحن بهم مقتدون . (وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) الواو عاطفة وما نافية حجازية ونحن اسمها

والباء حرف جر زائد ومعذبين مجرور لفظا بالباء منصوب محلا على أنه خبر ما .

)

(448/573)

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) الفاء الفصيحة وكذبوه فعل ماض وفاعل ومفعول به ، فأهلكناهم عطف على فكذبوه وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبر إن واللام المزحلقة وآية اسم ان والواو حرف عطف وما نافية وكان فعل ماض ناقص وأكثرهم اسمها ومؤمنين خبرها . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) تكرر إعرابها كثيرا .

الفوائد :

تبدل الجملة من الجملة بشرط أن تكون الجملة الثانية أوفى من الأولى بتأدية المراد ولذلك لا يقع البدل المطابق في الجمل وإنما يقع بدل البعض من الكل كما تقدم في الآية أو بدل الاشتمال كقوله :

أقول له ارحل لا تقيمنّ عندنا وإلّا فكن في السرّ والجهر مسلما

فلا تقيمنّ عندنا بدل اشتمال من ارحل لما بينهما من المناسبة اللزومية وليس توكيدا له لاختلاف لفظيهما ، لا بدل بعض من كل لعدم دخوله في الأول ، ولا بدل بدلا مطابقا لعدم

الاعتداد به ، ولم يشترط النحاة الضمير في بدل البعض والاشتمال في الأفعال والجمل لتعذر عود الضمير عليها ، وقد تبدل الجملة من المفرد بدلا مطابقا كقول الفرزدق :

إلى اللّه أشكو بالمدينة حاجة وبالشام أخرى كيف يلتقيان

أبدل جملة كيف يلتقيان من حاجة وأخرى وهما مفردان وانما صح ذلك لرجوع الجملة إلى التقدير بمفرد أي إلى اللّه أشكو هاتين الحاجتين تعذر التقائهما ، فتعذر مصدر مضاف إلى فاعله وهو بدل من هاتين ، ولم يسلم بعض النحاة بذلك لاحتمال أن تكون جملة كيف يلتقيان مستأنفة نبه بها على سبب الشكوى وهو استبعاد اجتماع هاتين الحاجتين .

(449/573)

قال بعضهم : وهل يجوز عكسه ؟ أعني ابدال المفرد من الجملة أو لا ، وصرح أبو حيان في البحر بأن المفرد يبدل من الجملة كقوله تعالى " ولم يجعل له عوجا قيما " فقيما عنده بدل من جملة لم يجعل له عوجا لأنها في معنى المفرد أي جعله مستقيما ، وقال ابن هشام في مغني اللبيب : " ان جملة "كيف خلقت " بدل من الإبل بدل اشتمال والمعنى إلى الإبل كيفية خلقها ومثله " ألم تر إلى ربك كيف مد الظل " وكل جملة فيها كيف من اسم مفرد " .

فائدة هامة :

إذا أبدل اسم من اسم استفهام أو اسم شرط وجب ذكر همزة الاستفهام أو " إن " الشرطية مع البدل ليوافق المبدل منه في المعنى نحو : كم مالك ؟ أعشرون أم ثلاثون فكم اسم استفهام في محل رفع خبر مقدم ومالك مبتدأ مؤخر وعشرون بدل من كم ويسميه النحاة بدل تفصيل وهو ينحصر في المطابق ، ومن جاءك أعلي أم خالد ؟ فمن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة جاءك خبره وعليّ بدل من " من " الاستفهامية بدل تفصيل ، ونحو : من يجتهد إن علي أو خالد فأكرمه : فمن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ والجملة بعده خبره وإن حرف شرط لا عمل له هنا لأنه جيء به لبيان المعنى لا للعمل وعليّ بدل من الضمير المستتر في يجتهد وخالد معطوف على عليّ وجملة فأكرمه في محل جزم جواب الشرط ، ونحو : حيثما تنتظرني في المدرسة وإن في الدار أوافك ، فحيثما اسم شرط جازم في محل نصب مفعول فيه متعلق بتنتظرني وفي المدرسة جار ومجرور في موضع النصب على البدلية من محل حيثما .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 141 إلى 159]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (145)

أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها
هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150)
وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (152) قالُوا
إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (153) ما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
(154) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (155)
وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ
(157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (159)

اللغة :

(نَخْلٍ) : النخل والنخيل شجر التمر المعروف له ساق مستقيم طويل ذو عقد واحدته نخلة ونخيلة وفي المصباح ما ملخصه : النخل اسم جمع الواحدة نخلة وكل اسم جمع كذلك يؤنث ويذكر وأما النخيل بالياء فمؤنثة اتفاقا .

(طَلْعُها هَضِيمٌ) ما يطلع منها كنصل السيف في جوفها شماريخ القنو ، وتشبيهه بنصل السيف من حيث الهيئة والشكل وفي المختار :

" ويقال للطلع هضيم ما لم يخرج لدخول بعضه في بعض " من قولهم كشح هضيم ، وفي

القاموس والتاج : " الطلع : المقدار ، تقول :

الجيش طلع ألف ومن النخل شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود

والطرف محدد أو ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها " والهضيم النضيج الرخص اللين

اللطيف .

(فارِهِينَ) : وقرئ فرهين : بطرين حاذقين في العمل من الفره وهو شدة الفرح ، وقال في

الكشاف : " والفراهة الكيس والنشاط ومنه خيل فرهة " .

)

شِرْبٌ) : بكسر الشين أي نصيب .

(451/573)

(فَعَقَرُوها) : أي ضربها بعضهم بالسيف في ساقيها وكان اسمه قدار وسنورد القصة التي

نسجت حول هذه القصة لتكون حافزا للأقلام على صوغ قصة فنية منها .

الاعراب :

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ) جملة مستأنفة مسوقة للشروع في القصة الخامسة وهي فعل وفاعل

ومفعول وثمود اسم قبيلة صالح سميت باسم أبيها وهو ثمود جد صالح وفي التعبير عن صالح

بالجمع ما تقدم .

(إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ) الظرف متعلق بكذبت والجملة تقدم إعرابها . (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) تقدم إعرابها أيضا .

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) تقدم إعرابها أيضا . (وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ) تقدم إعرابها أيضا . (أَتُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي وتتركون فعل مضارع مبني للمجهول وفيما متعلقان بتتركون وها حرف تنبيه وهنا اسم إشارة في محل نصب ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة للموصول وآمنين حال من الواو في تتركون أي في الذي استقر في هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله : (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ) في جنات بدل من قوله فيما ها هنا بإعادة الجار ، وما بعده

عطف على جنات وطلعها مبتدأ وهضيم خبر والجملة صفة لنخل .

(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ) الواو حرف عطف وتنحتون عطف على تتركون فهو في حيز الاستفهام الانكاري التوبيخي ومحل جملة الاستفهام التوبيخية نصب على الحال ومن الجبال جار ومجرور متعلقان بتنحتون وبيوتا مفعول به وفارهين حال وقد مرت جملة مماثلة فيها النحت الذي هو النحر والبري . (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) تقدم إعرابها .

)

وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ) الواو للحال ولا ناهية وتطيعوا فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعل وأمر المسرفين مفعول وسيأتي معنى إطاعة الأمر في باب البلاغة . (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ) الذين صفة للمسرفين وجملة يفسدون صلة وفي الأرض متعلقان بيفسدون ولا يصلحون عطف على قوله يفسدون وسيأتي سر العطف في باب البلاغة . (قالُوا : إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) إنما كافة ومكفوفة وأنت مبتدأ ومن المسحرين خبر أي الذين سحروا كثيرا حتى غلب السحر على عقولهم والجملة مقول القول . وقيل المسحر هو المعلّل بالطعام والشراب فيكون المسحر الذي له سحر وهو الرئة فكأنهم قالوا : إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب .

(ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ما نافية وأنت مبتدأ وإلا أداة حصر وبشر خبر ومثلنا صفة ، فأت الفاء الفصيحة أي إن كنت صادقا كما تزعم فأت ، وبآية متعلقان بقوله فأت وإن شرطية وكنت كان واسمها وهو في محل جزم فعل الشرط ومن الصادقين خبر كنت وجواب إن محذوف دل عليه ما قبله أي فأت بآية .

(قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ) هذه مبتدأ وناقة خبر والجملة مقول القول

ولها خبر مقدم وشرب مبتدأ مؤخر والجملة صفة

لناقة ولكم خبر مقدم وشرب يوم مبتدأ مؤخر ومعلوم صفة ليوم .

)

(453/573)

وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) الواو عاطفة ولا ناهية وتمسوها فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والهاء مفعول به وبسوء متعلقان بتمسوها فيأخذكم الفاء هي السببية ويأخذكم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء والكاف مفعول به وعذاب فاعل ويوم مضاف اليه وعظيم صفة يوم . (فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ) الفاء عاطفة وعقروها فعل وفاعل ومفعول به ، فأصبحوا الفاء عاطفة وأصبحوا نادمين فعل ماض ناقص والواو اسمها ونادمين خبرها ، ولك أن تجعل أصبحوا تامة والواو فاعل ونادمين حال وسيأتي في قصة صالح ما يرجح أنها تامة . (فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) الفاء عاطفة وأخذهم فعل ماض ومفعول به مقدم والعذاب فاعل مؤخر وجملة إن في ذلك لآية تعليل للأخذ والواو حالية أو عاطفة وما نافية وكان واسمها وخبرها . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) تقدم إعرابها كثيرا .

البلاغة :

1- في قوله " ولا تطيعوا أمر المسرفين " مجاز عقلي لأن الأمر لا يطاع وإنما هو صاحبه أي ولا تطيعوا المسرفين في أمرهم .

2- الارداف :

فقد كان يكفي أن يقول " الذين يفسدون في الأرض " ولكنه لما كان قوله يفسدون لا ينفي صلاحهم أحيانا أردفه بقوله " ولا يصلحون " لبيان كمال افسادهم وإسرافهم فيه .

الفوائد :

قصة صالح :

في القرطبي : " أوحى اللّه إلى صالح أن قومك سيعقرون ناقتك فقال لهم ذلك ، فقالوا : ما كنا لنفعل ، فقال لهم صالح : انه سيولد في شهركم هذا غلام يعقرها ويكون هلاككم على يديه ، فقالوا :

لا يولد في هذا الشهر ذكر إلا قتلناه ، فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ثم للعاشر فأبى أن يذبح أبنه وكان لم يولد له قبل ذلك ، فكان ابن العاشر أزرق أحمر فنبت نباتا

سريعا فكان إذا مر بالتسعة فرأوه قالوا : لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا ، وغضب التسعة على صالح لأنه كان سببا لقتلهم أبناءهم فتعصبوا وتقاسموا باللّه لنبيتنه وأهله فقالوا : نخرج إلى سفر فيرى الناس سفرنا فنكون في غار حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه ثم قلنا ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون فيصدقونا ويعلمون أنا قد خرجنا إلى سفر ، وكان صالح لاينام معهم في القرية بل كان ينام في المسجد فإذا أصبح أتاهم فوعظهم فلما دخلوا الغار أرادوا أن يخرجوا فسقط عليهم الغار فقتلهم فرأى ذلك الناس ممن كان قد اطلع على ذلك فصاحوا في القرية : يا عباد اللّه أما رضي صالح أن أمر بقتلهم أولادهم حتى قتلهم فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة .

رواية عقر الناقة :

وروي أن مسطعا ألجأ الناقة إلى مضيق في شعب فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت ثم ضربها قدار وقيل انه قال لا أعقرها حتى

ترضوا أجمعين فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون :

أترضين ؟ فتقول : نعم وكذلك صبيانهم .

هذا وقد ضرب بقدار المثل في الشؤم فقال زهير مشيرا إليه وقد غلط فجعله أحمر عاد مع أنه أحمر ثمود وذلك في أبيات له يصف الحرب ويحذر قومه من مغابها ونوردها هنا جملة لأهميتها :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضرّيتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافا ثم تنتج فتئثم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

أي أنها تلد لكم أبناء كل واحد منهم يضاهي في الشؤم عاقر الناقة وهو قدار بن سالف .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 160 إلى 175]

(455/573)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ
عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (164)
أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
عادُونَ (166) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ
الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169)
فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ

(172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174)

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (175)

اللغة :

(الذُّكْرَانَ) : أحد جموع الذكر والذكر خلاف الأنثى وفي المختار :

الذكر ضد الأنثى وجمعه ذكور وذكران وذكارة كحجارة " وأورد له في القاموس جموعا عديدة فقال " وجمعه ذكور وذكورة وذكران وذكار وذكارة وذكرة " .

(الْقَالِينَ) : المبغضين والقلى البغض الشديد كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد وفي المصباح : " وقليت الرجل أقليه من باب رمى قلى بالكسر والقصر وقد يمد إذا أبغضته ومن باب تعب لغة " وعبارة القاموس : " قلاه كرماه ورضيه قلى وقلاء ومقلية أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه أو قلاه في الهجر وقليه في البغض " .

(456/573)

)

الْغَابِرِينَ) : قال في الكشاف " ومعنى الغابرين في العذاب والهلاك : غير الناجين " وفي

المصباح : " غبر غبورا من باب قعد بقي وقد يستعمل فيما مضى أيضا فيكون من الأضداد ، وقال الزبيدي :

غبر غبورا مكث وفي لغة بالمهملة للماضي وبالمعجمة للباقي وغبّر الشيء وزان سكر بقيته " وفي القاموس : " غبر غبورا مكث وذهب ضد ، وهو غابر من غبّر كركّع وغبر الشيء بالضم بقيته " .

الاعراب :

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ) جملة مستأنفة مسوقة للشروع في القصة السادسة . (إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ) لم يكن لوط أخاهم في النسب وانما جعله أخاهم جريا على أساليبهم كما تقدم أو باعتبار انه كان ساكنا ومجاورا لهم في قريتهم . (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ) صدّر كل قصة بهذه الآيات وقد تقدم إعرابها فجدد به عهدا . (أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي وتأتون الذكران فعل مضارع وفاعل ومفعول به ومحل جملة الاستفهام التوبيخية النصب على الحال ومن العالمين حال . (وَتَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ) وتذرون عطف على تأتون داخل في حيز الاستفهام التوبيخي وهو فعل مضارع وفاعل وما مفعول به وجملة خلق لكم ربكم صلة ومن أزواجكم حال على أن " من " للتبيين ويجوز أن تكون للتبعيض وسيأتي تفصيل هذا كله في

باب البلاغة ، وبل حرف إضراب انتقالي وأنتم مبتدأ وقوم خبر وعادون صفة أي متجاوزون الحلال إلى الحرام لأن معنى العادي

(457/573)

المتعدي في ظلمه المتجاوز فيه الحد . (قالُوا : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) قالوا فعل ماض وفاعل ولئن اللام موطئة للقسم وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتنته فعل مضارع مجزوم بلم ولتكونن اللام واقعة في جواب القسم وتكونن فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والواو اسم تكونن ومن المخرجين خبر أي من جملة من أخرجناهم وسيأتي تفصيل مسهب عن هذا التعبير في باب البلاغة . (قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ) إن واسمها ولعملكم متعلقان بالقالين ومن القالين خبر إن والجملة مقول القول وتشدد بعضهم فقال في حواشي البيضاوي ما يلي : " من القالين " متعلقان بمحذوف أي لقال من القالين وذلك المحذوف خبر إن ومن القالين صفة ولعملكم متعلقان بالخبر المحذوف ولو جعل من القالين خبر إن لعمل القالين في لعملكم فيفضي إلى تقديم معمول الصلة على الموصول وهو أل مع أنه لا يجوز . قلت : وهذا على دقته وملاءمته للقواعد فيه تكلف شديد يخرجه إلى الإحالة ولا داعي لهذا التشدد مع أن استعمال أل موصولا يكاد يكون نادرا .

)

رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ) رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وقد حذف منه حرف النداء ونجني فعل أمر للدعاء والياء مفعول به وأهلي مفعول معه أو معطوف على الياء ومما متعلقان بنجني وجملة يعملون صلة ما . (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ) الفاء عاطفة على محذوف مقدر لتتساوق القصة ونجيناه فعل ماض وفاعل ومفعول به وأهله مفعول معه أو معطوف على الهاء وأجمعين تأكيد . (إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ) إلا أداة استثناء وعجوزا مستثنى بإلا وهي امرأته وفي الغابرين صفة لعجوزا كأنه قيل إلا عجوزا غابرة . (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ) عطف على ما تقدم . (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)

(458/573)

و أمطرنا عطف على دمرنا وعليهم متعلقان بأمطرنا ومطرا مفعول به ، فساء الفاء حرف عطف وساء فعل للذم ومطر المنذرين فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم والمراد بالمطر الحجارة التي انثالت عليهم . (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) إن وخبرها المقدم واسمها المؤخر والواو حالية وما نافية وكان واسمها وخبرها .

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) تقدم إعرابها كثيرا .

البلاغة :

1- قوله تعالى " وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم " في هذه الآية الإبهام بقوله " ما خلق لكم " وقد أراد به إقبالهنّ ، وفي ذلك مراعاة للحشمة والتصون و" من " تحتمل البيان وتحتمل التبعيض .

2- العدول إلى الصفة :

في قوله " لتكونن من المخرجين " وقوله " من القالين " عدول عن الجملة الفعلية إلى الصفة ، وكثيرا ما ورد في القرآن خصوصا في هذه الصورة العدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة ثم جعل الموصوف بها واحدا من جمع كقول فرعون " لأجعلنك من المسجونين " وأمثاله كثيرة ، والسر في ذلك أن التعبير بالفعل إنما يفهم وقوعه خاصة ، وأما التعبير بالصفة ثم جعل الموصوف بها واحدا من جمع فانه يفهم أمرا زائدا على وقوعه وهو أن الصفة المذكورة كالسمة للموصوف ثابتة العلوق به كأنها لقب وكأنه من طائفة صارت من هذا النوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة ، استمع إلى قوله تعالى " رضوا بأن يكونوا مع الخوالف " كيف ألحقهم لقبا رديئا وصيّرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف حتى صارت له لقبا لاصقا به ، وهذا عام في كل ما يرد عليك وورد فيما

مضى من أمثال ذلك فتدبره واقدره قدره .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 176 إلى 191]

(459/573)

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ
عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (180)
أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلا
تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185)
وَما أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (187) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (188) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ
عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
(190)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191)

اللغة :

(الْأَيْكَةِ) : في اللغة الشجرة الكثيفة وجمعها أيك ، قال في القاموس " أيك يأيك من باب تعب أيكا واستأيك الشجر : التف وصار أيكة والأيك الشجر الكثيف الملتف الواحدة أيكة " فتطان الأيكة على الواحدة من الأيك وعلى غيضة شجر ملتفة قرب مدين ، قالوا : وكان شجرهم الدوم وهي قرية شعيب سميت باسم بانيها مدين بن ابراهيم بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام ، وقد اختلف المفسرون واللغويون فيها وسننقل لك بعض ما قالوه .

قال الزمخشري :

(460/573)

" قرئ أصحاب الأيكة بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الاضافة وهو الوجه ، ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة اسم بلد فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة (ص) بغير ألف ، وفي المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللافظ كما يكتب أصحاب النحو لان ولو لا على هذه الصورة لبيان لفظ المخفّف وقد كتبت في سائر القران على الأصل والقصة واحدة على أن ليكة اسم لا يعرف وروي أن أصحاب

الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف وكان شجرهم الدوم " .

وقال الجلال السيوطي :

" وفي قراءة بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام وفتح الهاء وهي غيضة شجر قرب مدين " وهذا الصنيع يقتضي أن اللام الموجودة

لام التعريف وحينئذ لا يصح قوله وفتح الهاء إذ الاسم المقرون بأل سواء كانت معرفة أو غيرها يجر بالكسرة سواء وقع فيه نقل أم لا ، ووجه بعضهم فتح الهاء بأن الاسم بوزن ليلة فاللام من بنية الكلمة ولا نقل بل حركة اللام أصلية فجره بالفتحة حينئذ ظاهر .

وقال الشهاب الخفاجي :

" وقد استشكل هذه القراءة أبو علي الفارسي وغيره بأنه لا وجه للفتح لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضي تغيير الاعراب من الكسر إلى الفتح وأجيب بأن ليكة على هذه القراءة اسم البلدة وهي غير مصروفة للعلمية والتأنيث واللام فيها جزء من الكلمة لا المعرفة لأنها توجب الصرف فقول القائل انها على النقل غير صحيح وبهذا اندفع ما قاله النحاة فانهم نسبوا هذه القراءة إلى التحريف " .

وقد أطال السمين الحلبي في توجيه هذه القراءة جدا ونصه :

قرأ نافع وابن كثير وابن عامر ليكة بلام واحدة وفتح التاء جعلوه اسما غير معرف بأل مضافا إليه أصحاب هنا وفي " ص " خاصة ، والباقون الأيكة معرفا بأل موافقة لما أجمع عليه في " الحجر " وفي " ق " وقد اضطربت أقوال الناس في القراءة الأولى وتجرأ بعضهم على قارئها وسأذكر لك من ذلك طرفا : فوجهها على ما قال أبو عبيدة أن ليكة اسم للقرية التي كانوا فيها والأيكة اسم للبلاد كلها فصار الفرق بينهما شبيها بما بين مكة وبكة " .

وقال صاحب القاموس :

" ومن قرأ الأيكة فهي الغيضة ومن قرأ ليكة فهي اسم القرية وموضعه اللام ووقع في البخاري اللائكة جمع أيكة وكأنه وهم " .

وقال شارحه في التاج :

" قوله وكأنه وهم لأنه ليس له وجه ولم يتكلم به أحد من الأئمة ولكنه رضي اللّه عنه ثقة فيما ينقل فينبغي أن يحسن الظن به وقد أجاب عنه شراحة وصححوه " .

وقال أبو البقاء :

"

أصحاب الأيكة يقرأ بكسر التاء مع تحقيق الهمزة وتخفيفها بالإلقاء وهو مثل الأنثى والأنثى قرئ ليكة بياء بعد اللام وفتح التاء وهذا لا يستقيم إذ ليس في الكلام ليكة حتى يجعل علما

فإن أدعي قلب الهمزة لا ما فهو في غاية البعد " .

الأيك والحمام في الشعر :

هذا وقد استهوى الأيك وحمامه الشعراء فكثرت أشعارهم فيه ، أنشد أبو حاتم لرجل من بني نهشل :

ألام على فيض الدموع وإنني بفيض الدموع الجاريات جدير

أيبكي حمام الأيك من فقد إلفه وأصبر عنها إنني لصبور

وأنشد الرياشي عن الأصمعي ، قال : أنشدني منتجع بن نبهان لرجل من بني الصيّداء :

دعت فوق أفنان من الأيك موهنا مطوقة ورقاء في إثر آلف

فهاجت عقابيل الهوى إذ ترنمت وشبت ضرام الشوق تحت الشراسف

بكت بجفون دمعها غير ذارف وأغرت جفوني بالدموع الذّوارف

والطريف في هذا الباب قول عوف بن محلّم :

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر وغصنك ميّاد ففيم تنوح

أفق لا تنح من غير شيء فإنني بكيت زمانا والفؤاد صحيح

ولوعا فشطّت غربه دار زينب فها أنا أبكي والفؤاد جريح

(القسطاس) : بكسر القاف وضمها وقد قرئ بهما : الميزان السوي فإن كان من القسط

وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس وإلا فهو رباعي وقيل هو بالرومية العدل .

(وَلا تَعْثَوْا) : ولا تفسدوا يقال عثا في الأرض وعثي وذلك نحو قطع الطريق والغارة وإهلاك

الزروع وفي المختار : " عثا في الأرض

أفسد وبابه سما وعثي بالكسر عثوا أيضا وعثى بفتحتين بوزن فتى قال اللّه تعالى : " ولا

تعثوا في الأرض مفسدين " قلت قال الأزهري :

القراء كلهم متفقون على فتح الثاء دل على أن القرآن نزل باللغة الثانية " .

(

وَالْجِبِلَّةَ) : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام المفتوحة : الخلق المتحد الغليظ وفي القاموس

" الجبلة والجبلة والجبلة والجبلّة وهي التي قرئ بها : الوجه وما استقبلك منه والخلقة

والطبيعة والأصل والقوة وصلابة الأرض " والجبل بفتح الجيم مع سكون الباء مصدر جبله

اللّه على كذا أي طبعه وخلقه واسم الطبيعة جبلة ، ولهذه الكلمة بهذا المعنى ألفاظ كثيرة

وهي الجبلة والخيم والطبع والنحيزة والطبيعة والنبيتة والضريبة والسجية والشنشنة

والخليقة والسليقة والسليقة والشيمة والغريزة والنجار وقد نظم بعضهم معاني الجبل فقال :

قد جبل اللّه الطباع جبلا وسمي المال الكثير جبلا

وعدد الناس الكثير جبلا بالضم إن أردت أو بالكسر

وجه وقوة وغيث جبلة وامرأة غليظة والجبلة

جماعة أو كثرة كالجبله لقدح من خشب ذي كبر

(كِسَفاً) : بكسر الكاف وفتح السين وقرئ كسفا بسكون السين وكلاهما جمع كسفة نحو

قطع وسدر وقال أبو عبيدة :

" الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدرة وقرأ السلمي وحفص كسفا جمع كسفة أيضا

وهي القطعة والجانب مثل كسرة وكسر " وفي الصحاح :

(463/573)

" الكسفة من الشيء يقال أعطني كسفة من ثوبك أي قطعة ويقال الكسف والكسفة

واحد " وقال الأخفش " من قرأ كسفا من السماء جعله واحد ومن قرأ كسفا جعله جمعا

" .

(الظُّلَّةِ) : المظلة الضيقة وما يستظل به من الحر أو البرد وما أظلك كالشجر والجمع ظلل

وظلال ويوم الظلة اشتهر بعذابهم فقد رنقت فوقهم سحابة أظلتهم بعد جر شديد أصابهم

فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا .

الاعراب :

)

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) كلام مستأنف مسوق لذكر القصة السابعة والأخيرة في هذه السورة . (إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ) تقدمت هذه الآية وما بعدها في جميع القصص السبع وسيأتي سر ذلك في باب البلاغة . ولم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب ، فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لأنه كان منهم . (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ) آيات تقدمت في القصص السبع . (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) أوفوا فعل أمر وفاعل والكيل مفعول به والواو حرف عطف ولا ناهية وتكونوا فعل مضارع ناقص مجزوم بلا والواو اسمها ومن المخسرين خبر تكونوا ، قال الزمخشري : " الكيل على ثلاثة أضرب : واف وطفيف وزائد ، فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف ولم يذكر الزائد وكأن تركه عن الأمر والنهي دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه " . (وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ) اعرابها واضح . (وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتبخسوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل والناس مفعول به أول وأشياءهم مفعول به ثان .

وفي أقوالهم " لا تبخس أخاك حقه " . ولا تعثوا عطف على ولا تبخسوا وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بتعثوا ومفسدين حال مؤكدة لمعنى عاملها وأما لفظهما فمختلف .

(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ) الواو عاطفة واتقوا فعل أمر وفاعل والذي مفعول به وجملة خلقكم صلة والجبلة عطف على الذي والأولين صفة للجبلة . (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ) إنما كافة ومكفوفة وأنت مبتدأ ومن المسحرين خبر والجملة مقول القول . (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ) الواو عاطفة وما نافية وأنت مبتدأ وإلا أداة حصر وبشر خبر ومثلنا نعت لبشر والواو حرف عطف وإن مخففة من الثقيلة واسمها محذوف ونظنك فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره نحن والكاف مفعول به واللام الفارقة ومن الكاذبين خبر قال الزمخشري :

"

فإن قلت إن المخففة من الثقيلة ولامها كيف تفرقتا على فعل الظن وثاني مفعوليه ؟ قلت : أصلهما أن تتفرقا على المبتدأ والخبر كقولك إن زيد لمنطلق فلما كان البابان أعني باب كان وباب ظننت من جنس باب المبتدأ والخبر فعل ذلك في البابين فقيل إن كان زيد لمنطلقا وإن ظننته لمنطلقا " . (فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) الفاء الفصيحة وأسقط فعل أمر وعلينا متعلقان بأسقط وكسفا مفعول به ومن السماء صفة لكسفا وإن شرطية وكنت فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها ومن الصادقين خبر كنت وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فأسقط علينا . (قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ) ربي مبتدأ وأعلم خبر والجملة مقول القول وبما متعلقان بأعلم وجملة تعملون لا محل لها لأنها صلة الموصول . (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) الفاء عاطفة وكذبوه فعل وفاعل ومفعول به فأخذهم فعل ومفعول به وعذاب يوم الظلة فاعل وان واسمها

وجملة كان خبرها ، واسم كان ضمير مستتر تقديره هو وعذاب خبر كان ويوم مضاف اليه وعظيم صفة . (إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) تقدم اعرابها .

البلاغة :

فن التكرير :

في هذه القصص السبع كرر في أول كل قصة وفي آخرها ما كرر مما أشرنا اليه لأن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس وترسيخا لها في الصدور مع تعليق كل واحدة بعلة ، وفن التكرير فن دقيق المأخذ وربما اشتبه على أكثر الناس بالاطناب مرة وبالتطويل مرة أخرى ، وهو ينقسم إلى قسمين :

القسم الاول من التكرير :

يوجد في اللفظ والمعنى كقولك لمن تستدعيه : أسرع أسرع ومنه قول أبي الطيب المتنبي :

ولم أر مثل جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقام

القسم الثاني من التكرير :

يوجد في المعنى دون اللفظ كقولك : أطعني ولا تعص أوامري ، فإن الأمر بالطاعة نهي عن المعصية .

وعلى كل حال ليس في القرآن مكرر لا فائدة في تكريره .

وزعم قوم أن أبا الطيب المتنبي أتى بتكرير لا حاجة به إليه في قوله :

العارض الهتن بن العارض الهتن بن العا رض الهتن بن العارض الهتن

وليس في هذا البيت من تكرير فإنه كقولك الموصوف بكذا وكذا ابن الموصوف بكذا وكذا أي انه عريق النسب في هذا الوصف ، وقد ورد في الحديث النبوي مثله كقوله صلى اللّه عليه وسلم في وصف يوسف النبي : " الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن ابراهيم " فالبيت كالحديث النبوي من جهة المعنى لكنه انحط عن الحديث من جهة ألفاظه ، وهي ألفاظ إذا استعملت مفردة كانت حسنة ولكن إيرادها على هذا الوجه المتداخل هو الذي شوه جمالها وأحالها إلى ضرب من المغالطة اللفظية غضت منها وهذا أمر مرده إلى الذوق وحده فهو الفيصل الذي يحكم في هذه الأمور وما أحسن ما قال الفيلسوف الفرنسي فولتير " ذوقك أستاذك " .

التكرير غير المفيد :

أما إذا كان التكرير غير مفيد فهو العي الفاحش ، ومن العجيب أن يتورط شاعر كأبي الطيب المتنبي فيورد البيت الذي أوردناه في مستهل هذا البحث وهو :

ولم أر مثل جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقام

ألا ترى أنه يقول لم أر مثل جيراني في سوء الجوار ولا مثلي في مسايرتهم ومقامي عندهم إلا أنه قد كرر هذا المعنى في البيت مرتين ، ومثله قوله :

وقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا قلاقل دهر كلهن قلاقل

وكذلك قوله :

عظمت فلما لم تكلم مهابة تواضعت وهو العظم عظما على عظم

قال أحد النقاد القدامى فيه : " ولو سمي هذا البيت جبانة لكان لائقا به " والظاهر أن هذا الناقد يكره التكرير وقد صور له كرهه إياه قصيدة ابن الرومي في المرأة التي أولها :

(467/573)

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهنّ نوعان تفّاح ورمان

غير جميلة أو من هذا الضرب فقال : " هذه دار البطيخ فاقرءوا نسيبها تعلموا ذلك " .

ولسنا ننكر أن ابن الرومي قد بالغ في غزلها وأكثر من ذكر العناب والبان والنرجس ولكنه واقع موقعه ولا سبيل إلى النيل منه .

ونعود إلى أبي الطيب فقد أكثر من التكرير حتى أسف في كثير من أبياته مع أنه شاعر العربية الأول فقال :

أسد فرائسها الأسود يقودها أسد تصير له الأسود ثعالبا

قال ابن رشيق : " ما أدري كيف تخلص من هذه الغابة المملوءة أسودا " وقال الاصمعي لمن أنشده قوله :

فما للنوى جذ النوى قطع النوى كذاك النوى قطّاعة لوصال

" لو سلط اللّه على هذا النوى شاة لأكلته كله " .

وأما قول أبي نواس :

أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس

فقال ابن الأثير في المثل السائر : " مراده أنهم أقاموا أربعة أيام ويا عجبا له يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الأبيات العجيبة الحسن وهي :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنيّ ويابس

حبست بها صحبي فجددت عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير

فارس قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدريها بالقسيّ الف

وارس فللرّاح ما زرّت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

وقد أخطأ ابن الأثير وفهم البيت خطأ ولم يمعن النظر فيه فنقده ولو أنه أمعن النظر لما قال فيه هذا القول ، والمعنى الصحيح : ان المقام سبة أيام لأنه قال وثالثا ويوما آخر له اليوم الذي رحلنا فيه خامس .

وأبو نواس أجل قدرا من أن يسف ويأتي بهذه العبارة لغير معنى طائل وله في الخمر أبيات منقطعة النظير وقد تدق على الافهام ، حكي عنه أنه ذكر عند الرشيد قوله :

فاسقني البكر التي اعتجرت بخمار الشيب في الرحم

فقال الرشيد لمن حضر : ما معناه ؟ فقال أحدهم : إن الخمر إذا كانت في دنّها كان عليها شيء مثل الزبد فهو الشيب الذي أراده ، وكان الاصمعي حاضرا فقال : يا أمير المؤمنين إن أبا علي أجل خطرا وان معانيه لخفية فاسألوه عن ذلك فأحضر وسئل فقال : إن الكرم أول ما يخرج العنقود في الزرجون يكون عليه شيء يشبه القطن فقال الأصمعي : ألم أقل لكم إن أبا نواس أدق نظرا مما قلتم .

عود إلى الآيات :

ونعود فنقول إنما كرر القرآن هذه الآيات في أول كل قصة وآخرها لأن هذه القصص قرعت بها آذان أصابها وقر وقلوب غلف ، فلم يكن بد من مراجعتها بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح مغالقها ويجلو ما تحيفها من صدأ . وسيأتي من التكرير في القرآن ما يسكر النفوس ويخلب الألباب .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 192 إلى 203]

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196)
أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ
(198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ
(200) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (201)
فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (203)

اللغة :

(الْأَعْجَمِينَ) : قال الزمخشري : الأعجم الذي لا يفصح وفي نسانه عجمة واستعجام والاعجمي مثله إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد ، وقرأ الحسن : الأعجميين ، ولما كان من يتكلم بلسان غير

لسانهم لا يفقهون كلامه قالوا له أعجم وأعجمي شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين ، وقالوا لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها أعجم قال حميد :

ولا عربيا شاقه صوت أعجما قلت : وهذا عجز بيت وصدره :

" ولم أر مثلي شاقه صوت مثلها " والبيت من أبيات لحميد بن ثور وقد رحلت صاحبته

ومنها :

وما هاج هذا الشوق إلا حمامة دعت ساق حر ترحة وتندما

عجبت لها أنّى يكون غناؤها فصيحا ولم تفغر بسنطقها فما

ولم أر مثلي شاقه صوت مثلها ولا عربيا شاقه صوت أعجما

وساق حر مركب إضافي وهو ذكر الحمام مطلقا يقول : وما حرك هذا الشوق وبعثه فتوقد في قلبي إلا حمامة دعت ذكرها ، والترحة :

الحزن ضد الفرحة ، والتندم : التأسف على ما فات ، ويروى وترنما وهو تحسين الصوت وهما نصب على الحالية أي حزينة ومتأسفة أو ذات ترحة وذات تندم ، وأنى اسم استفهام بمعنى كيف والاستفهام معناه هنا التعجب وفغر فاه يفغره من باب نفع فتحه أي والحال أنها لم تفتح فمها بنطقها وانما يخرج صوتها من صدرها ، وشاقه تسبب له في الشوق ، والعربي المفصح والأعجم الذي لا يفصح من الحيوان نقلته العرب لمن لا يفهمون كلامه ولا يفقهون مراده وربما ألحقوه ياء النسب للمبالغة في شدة العجمة ، وبينه وبين عربي طباق التضاد .

(470/573)

و استشكل كيف يجمع الأعجم جمع المذكر السالم وهو وصف على وزن أفعل في المذكر وعلى وزن فعلاء في المؤنث وشرط الجمع بالياء والنون أو بالواو والنون أن لا يكون الوصف كذلك ، وأجيب بأنه جمع أعجمي بياء النسب وحذفت للتخفيف كأشعرين في أشعري ، والكوفيون يجيزون جمع أفعل فعلاء جمع المذكر السالم وقال صاحب التحرير : " قوله على بعض الأعجمين جمع أعجمي ولولا هذا التقدير لم يجز أن يجمع جمع سلامة " . وعبارة القاموس : " العجم بالضم وبالتحريك خلاف العرب رجل وقوم أعجم والأعجم من لا يفصح كالأعجمي والأخرس وزياد الشاعر والموج لا يتنفس فلا ينضح ماء ولا يسمع له صوت والعجمي من جنسه العجم وان أفصح وجمعه عجم " .

الاعراب :

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير حقيقة تلك القصص وتأكيد نبوة محمد صلى اللّه عليه وسلم فإن إخباره عن الأمم المتقدمة وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب لا يكون إلا عن طريق الوحي والضمير يعود على القرآن لأن هذه القصص جزء منه . وان واسمها واللام المزحلقة وتنزيل رب العالمين خبرها . (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) الجملة صفة لتنزيل وبه في موضع الحال أي ملتبسا به فالباء للملابسة والروح فاعل والأمين صفة وعلى قلبك متعلقان بنزل واللام للتعليل وتكون فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد اللام ومن المؤمنين خبر تكون .

(بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) بلسان جار ومجرور متعلقان بالمنذرين لأنه اسم مفعول أي من الذين أنذروا بهذا اللسان العربي وهم هود وصالح

(471/573)

و شعيب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، أو انه بدل من قوله به بإعادة العامل أي نزل بلسان عربي أي باللغة العربية . (وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ) عطف على ما تقدم وان واسمها واللام المزحلقة وفي زبر الأولين خبر إن يعني أن ذكره مثبت في الكتب السماوية .

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي التقريعي والواو عاطفة على مقدر ولم حرف نفي وقلب وجزم ويكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم ولهم متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لآية وتقدم عليها وآية خبر يكن المقدم وأن يعلمه في تأويل مصدر اسم يكن وعلماء بني إسرائيل فاعل بعلمه . وهؤلاء العلماء هم خمسة قد أخبروا بالقرآن وهم عبد اللّه بن سلام وأسد وأسيد وثعلبة وابن يامين وقد أسلموا وحسن إسلامهم .

)

وَلَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ) الواو عاطفة ولو شرطية امتناعية ونزلناه فعل ماض وفاعل

ومفعول به وعلى بعض الأعجمين متعلقان بنزلناه . (فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) الفاء عاطفة وقرأه فعل ماض وفاعل مستتر يعود على بعض الأعجمين ومفعول به وعليهم متعلقان بقرأه وجملة ما كانوا مؤمنين لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وبه متعلقان بمؤمنين ومؤمنين خبر كانوا . (كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ) الكاف نعت لمصدر محذوف مقدم أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وقررناه فيها وسلكناه فعل وفاعل ومفعول به وفي قلوب المجرمين متعلقان بسلكناه . (لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ) الجملة مستأنفة أو حالية من الهاء في سلكناه أو من المجرمين فعلى الأول تكون الجملة بمثابة الإيضاح والتلخيص لما تقدم وعلى الثاني يكون التقدير سلكناه حالة كونه غير مؤمن به ، ولا نافية ويؤمنون فعل مضارع مرفوع وفاعل وبه متعلقان بيؤمنون وحتى حرف غايه

وجر ويروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو فاعل والعذاب مفعول به والأليم صفة . (فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) الفاء حرف للتعقيب قال الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى التعقيب في قوله فيأتيهم بغتة فيقولوا . . . ؟ قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرة فيه في الوجود ، وانما المعنى ترتبها في الشدة كأنه قيل

لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة مع القطع بامتناعها ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه ، إن أسأت مقتك الصالحون فمقتك اللّه فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت اللّه عقيب مقت الصالحين ، وإنما قصدك إلى ترتيب شدة الأمر على المسيء " وهكذا سبر الزمخشري أغوار القرآن الكريم وألمّ بخفاياه إلمام الخبير بمواقع الأسرار . ويأتيهم معطوف على يروا والفاعل مستتر تقديره هو والهاء مفعول به وبغتة حال والواو واو الحال وهم مبتدأ وجملة لا يشعرون خبر . (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ) الفاء عاطفة كما تقدم والكلام كله مقدم من تأخير ويقولوا عطف على يأتيهم وهل حرف استفهام ونحن مبتدأ ومنظرون خبر والجملة مقول القول ومعنى الاستفهام هنا التحسر والاستبعاد لما هو محال وهو إمهالهم بعد حلول العذاب بهم .

الفوائد :

شروط جمع المذكر السالم :

يشترط في كل ما يجمع جمع المذكر السالم من اسم أو صفة ثلاثة شروط :

آ- الخلو من تاء التأنيث فلا يجمع هذا الجمع من الأسماء نحو طلحة ، ولا من الصفات نحو علّامة بتشديد اللام لئلا يجتمع فيهما علامتا التأنيث والتذكير .

ب- أن يكون لمذكر فلا يجمع هذا الجمع علم المؤنث نحو زينب ولا صفة المؤنث نحو حائض .

(473/573)

ج- أن يكون لعاقل لأن هذا الجمع مخصوص بالعقلاء فلا يجمع نحو وأشق علما لكلب وسابق صفة لفرس ، ثم يشترط أن يكون إما علما غير مركب تركيبا مزجيا ولا استناديا فلا يجمع المركب المزجي نحو معدي كرب وسيبويه ، وقيل إن المختوم بويه يجمع هذا الجمع فيقال سيبويهون ومنهم من يحذف وبه فيقول سيبون ، أما المركب الاضافي فيجمع أول المتضايفين ويضاف للثاني فيقال غلامو زيد وغلامي زيد ، والكوفيون يجمعونهما معا ، وأما صفة تقبل التاء المقصود بها معنى التأنيث فلا يجمع هذا الجمع نحو علامة ونسابة لأن التاء فيهما لتأكيد المبالغة لا لقصد معنى التأنيث ، أو صفة لا تقبل التاء ولكنها تدل على التفضيل فالصفة التي لا تقبل التاء نحو قائم ومذنب تقول قائمة ومذنبة والصفة التي تدل على التفضيل نحو أفضل فهذه الصفات الثلاث تجمع هذا الجمع كما تجمع بالألف والتاء فيقال قائمون ومذنبون وأفضلون كما يقال قائمات ومذنبات وفضليات ، فلا يجمع هذا الجمع نحو جريح بمعنى مجروح وصبور بمعنى صابر وسكران وأحمر وأعجم فإنها لا تقبل

التاء ولا تدل على تفضيل لأن جريحا وصبورا مما يستوي فيه المذكر والمؤنث وسكران مؤنثه سكرى وأحمر مؤنثه حمراء وأعجم مؤنثة عجماء فلا يقال جريحون وصبورون وسكرانون وأحمرون كما

لا يقال جريحات وصبورات وسكرانات وحمراوات وعجماوات فلو جعلت أعلاما جاز الجمعان.

[سورة الشعراء (26) : الآيات 204 إلى 220]

أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (204) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (206) ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (207) وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ (208)

ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ (209) وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (210) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213)

وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ

عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218)

وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220)

الإعراب :

(أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ) الهمزة للاستفهام التوبيخي والتهكمي والإنكاري والفاء عاطفة على مقدر يقتضيه المقام وقد سبق تقريره والتقدير : أيكون حالهم كما ذكر من طلب الإنظار عند نزول العذاب الأليم فيستعجلون ، هكذا قدره بعض المعربين ولكنه لا يخلو من إيهام ،

فالأولى أن يقدر : أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون ، وقدم الجار والمجرور لأمرين : لفظي وهو مراعاة الفواصل ومعنوي وهو الإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ كون المستعجل به العذاب ، والجار والمجرور متعلقان بيستعجلون . (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ) الهمزة للاستفهام والفاء حرف عطف ورأيت معطوف على فيقولوا وما بينهما اعتراض والتاء فاعل رأيت ورأيت بمعنى أخبرني فتتعدى إلى مفعولين أحدهما مفرد والآخر جملة استفهامية غالبا وإن شرطية ومتعناهم فعل ماض وفاعل ومفعول به وسنين ظرف متعلق بمتعناهم .

(ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ) ثم حرف عطف وجاءهم فعل ومفعول به وما فاعل جاءهم وجملة كانوا صلة والواو اسم كان وجملة يوعدون خبرها .

(475/573)

ثم : تنازع أفرأيت وجاءهم في قوله " ما كانوا يوعدون " فإن أعملت الثاني وهو جاءهم كما تقدم في الاعراب رفعت به " ما كانوا " فاعلا به ، ومفعول أرأيت الأول ضميره ولكنه حذف والمفعول الثاني هو الجملة الاستفهامية في قوله " ما أغنى عنهم " ولا بد من رابط بين هذه الجملة وبين المفعول الاول المحذوف وهو مقدر تقديره : أفرأيت ما كانوا يوعدونه ، وإن أعملت الاول نصبت به " ما كانوا " مفعولا به وأضمرت في جاءهم فاعلا به والجملة الاستفهامية مفعول ثان أيضا والعائد مقدر على ما تقرر في للوجه قبله والشرط معترض وجوابه محذوف . وقد تقدم البحث مستوفى في هذا التعبير في سورة الأنعام وهذا كله إنما يتأتى على قولنا إن " ما " استفهامية ولا يضيرنا تفسيرهم لها بالنفي فإن الاستفهام قد يرد للنفي ، وأما إذا جعلتها نافية ، فتكون حرفا ، ولا يتأتى ذلك لأن مفعول أرأيت الثاني

(476/573)

لا يكون إلا جملة استفهامية وقد ذكر هذا مفصلا كما ذكرت أقوال المعربين في سورة الانعام فجدد به عهدا . (ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ) ما استفهامية كما تقدم مفعول مقدم لأغنى وأغنى فعل ماض وعنهم متعلقان بأغنى وما مصدرية أو موصولة وعلى كل حال هي ومدخولها أو هي وحدها فاعل أغنى والتقدير ما أغنى عنهم تمتعهم أو ما كانوا يمتعون به من متاع الحياة الدنيا ، والاستفهام إنكاري بمعنى النفي وقيل ما نافية ولا فرق بينهما كما تقدم . (وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ) الواو عاطفة أو استئنافية وما نافية وأهلكنا فعل وفاعل ومن حرف جر زائد وقرية مجرور بمن لفظا منصوب محلا على أنه مفعول أهلكنا وإلا أداة حصر ولها خبر مقدم ومنذرون مبتدأ مؤخر والجملة صفة لقرية أو حال منه وسوغ ذلك سبق النفي وقد تقدم الزمخشري رأي جميل في مثل هذا التعبير ونعيده هنا قال : " فإن قلت كيف عزلت الواو عن الجملة بعد إلا ولم تعزل عنها في قوله : وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ؟ قلت : الأصل عزل الواو لأن الجملة صفة لقرية وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف كما في قوله : سبعة وثامنهم كلبهم " .

)

ذِكْرى وَما كُنَّا ظالِمِينَ) مفعول لأجله على معنى أنهم ينذرون لأجل الموعظة والتذكرة ، وجوز أبو البقاء أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف أي هذه ذكرى والجملة اعتراضية ، وأعربها

الكسائي حالا أي مذكرين ، وأعربها الزجاج مصدر والعامل منذرون لأنه في معنى مذكرون ذكرى أي هذه ذكرى والجملة اعتراضية ، وأعرابها الكسائي حالا أي مذكرين ، (وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ) الواو عاطفة وما نافية وتنزلت فعل ماض وبه جار ومجرور متعلقان بتنزلت والضمير للقرآن والشياطين فاعل تنزلت (وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ) الواو عاطفة وما نافية وينبغي فعل مضارع وفاعله مستتر يعود على

(477/573)

القرآن ولهم متعلقان بينبغي وما يستطيعون عطف على ما ينبغي ومفعول يستطيعون محذوف تقديره ذلك . (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) الجملة تعليل لعدم استطاعتهم أن يتنزلوا به وان واسمها وعن السمع متعلقان بمعزولون واللام المزحلقة ومعزولون خبر إن . (فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الفاء الفصيحة والخطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلم والمقصود غيره ، ولا ناهية وتدع فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت ومع ظرف متعلق بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لإلها وتقدم عليه وإلها مفعول به وآخر صفة لإلها ، فتكون الفاء فاء السببية وتكون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء واسم تكون مستتر تقديره أنت ومن المعذبين خبر تكون . (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

الواو عاطفة وأنذر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعشيرتك مفعول به والأقربين صفة ، وسيأتي بحث واف عن هذا الانذار في باب الفوائد .

(وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) عطف أيضا واخفض جناحك فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به ولمن متعلقان بأخفض وجملة اتبعك صلة من ومن المؤمنين حال .

(فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) الفاء عاطفة وإن شرطية وعصوك فعل ماض وفاعل ومفعول به وهو في محل جزم فعل الشرط ، فقل الفاء رابطة للجواب وان واسمها وبريء خبرها ومما متعلقان ببريء وجملة تعملون صلة وجملة اني بريء مقول القول ولذلك كسرت همزة إن . (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) عطف على ما تقدم وعلى العزيز متعلقان بتوكل . (الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ)

الذي صفة للعزيز الرحيم وجملة يراك صلة وحين ظرف متعلق بيراك وجملة تقوم مجرورة بإضافة الظرف إليها ومتعلق تقوم

محذوف أي إلى الصلاة (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) عطف على الكاف في يراك وفي الساجدين حال وفي بمعنى مع أي مصليا مع الجماعة ، وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة رضي

اللّه عنه : هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن ؟ فتلا هذه الآية ، وقال بعضهم المراد بالساجدين المؤمنون أي يراك متقلبا في أصلاب وأرحام المؤمنين منذ زمن آدم وحواء إلى عبد اللّه وآمنة (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) ان واسمها وهو ضمير فصل أو مبتدأ والسميع العليم خبران لإن أو للضمير والجملة الاسمية خبر إن .

الفوائد :

أمر اللّه تعالى رسوله صلى اللّه عليه وسلم أن ينذر الأقرب فالأقرب ، فلما أنزل اللّه تعالى " وأنذر عشيرتك الأقربين " دعاهم إلى دار عمه أبي طالب وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصونه وفيهم أعمامه ، فأنذرهم فقال يا بني عبد المطلب : لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . وروي انه قال : يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف افتدوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم شيئا ، ثم قال : يا عائشة بنت أبي بكر ، ويا حفصة بنت عمر ، ويا فاطمة بنت محمد ، ويا صفية عمة محمد اشترين أنفسكن من النار فإني لا أغني عنكن شيئا .

وهناك روايات أخرى لا تخرج عن هذا المعنى نجتزىء بما تقدم منها .

[سورة الشعراء (26) : الآيات 221 إلى 227]

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ

وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223) وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (225)

(479/573)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)

الإعراب :

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ) كلام مستأنف مسوق لإبطال كونه كاهنا يتلقى من الشياطين ، وهل حرف استفهام وأنبئكم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به أول وعلى من جار ومجرور متعلقان بتنزل وقدم للاهتمام به ولأن للاستفهام صدر الكلام ، وهو معلق لفعل التنبئة عن العمل والجملة سدت مسد المفعولين الثاني والثالث وتنزل فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه والأصل تتنزل ، والشياطين فاعل تنزل .

(تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) الجار والمجرور متعلقان بتنزل ، وهو بدل من الجار والمجرور قبله وأفاك مضاف إلى كل وأثيم صفة وهم الكهنة والمتنبئة كشق وسطيح ومسيلمة وطلحة .

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ) يلقون فعل مضارع والواو فاعل وهو يعود على الشياطين

فتكون الجملة حالية أو يعود على كل أفاك أثيم من حيث أنه جمع في المعنى فتكون الجملة مستأنفة أو صفة لكل أفاك أثيم ، ومعنى إلقائهم

(480/573)

السمع إنصاتهم إلى الملأ الأعلى ليسترقو شيئا أو إلقاء الشيء المسموع إلى الكهنة ، والسمع مفعول به والواو حالية وأكثرهم مبتدأ وكاذبون خبر والجملة حالية . (وَالشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ) كلام مستأنف أيضا مسوق لإبطال كونه شاعرا كما زعموا وسيأتي بحث ضاف عن الشعر ومن هم الشعراء الذين يتبعهم الغاوون في باب الفوائد والشعراء مبتدأ وجملة يتبعهم خبر ويتبعهم فعل مضارع ومفعول به مقدم والغاوون فاعل مؤخر . (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ) الجملة مفسرة والهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي تر وفي كل واد متعلقان بيهيمون ويهيمون فعل مضارع وفاعل والجملة خبر أنهم ، ويجوز أن تعلق الجار والمجرور بمحذوف هو الخبر وجملة يهيمون حالية ، وتمثيل ذهابهم في كل شعب من القول بالوادي سيأتي بحثه في باب البلاغة .

(وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ) جملة معطوفة . (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ

كَثِيراً) إلا أداة استثناء والذين مستثنى من الشعراء المذمومين وجملة آمنوا صلة وعملوا الصالحات عطف على آمنوا داخل في حيز الصلة وذكروا اللّه عطف أيضا وكثيرا صفة لمفعول مطلق محذوف أي ذكروا اللّه ذكرا كثيرا أو صفة لظرف زمان محذوف أي وقتا كثيرا .

(وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا) عطف على ما تقدم وما مصدرية أي من بعد ظلمهم من إضافة المصدر لمفعوله . (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) الواو استئنافية والسين حرف استقبال ويعلم فعل مضارع والذين فاعله وجملة ظلموا صلة وأي منقلب منصوب على المفعولية المطلقة لأن أيا تعرب بحسب ما تضاف إليه وقد علقت يعلم

عن العمل ، هذا والعامل في أي هو ينقلبون لا يعلم لأن أسماء الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها ، قال النحاس : " وحقيقة القول في ذلك أن الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه لدخل بعض المعاني في بعض " .

البلاغة :

في قوله تعالى : " ألم تر أنهم في كل واد يهيمون " استعارة تمثيلية لطيفة وليس ثمة واد ولا

شعاب ولا هيام وانما هو تغلغل إلى مناحي القول ، واعتساف في الأوصاف والتغزل والتشبيب والنسيب وقلة مبالاة بما يهتكونه من أعراض ، ويرجفون به من أقوال ، وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام على الشعر في باب الفوائد ، وعن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فبتن بجانبي مصرعات وبت أفض إغلاق الختام

فقال قد وجب عليك الحد ، فقال يا أمير المؤمنين قد درأ اللّه عني الحد بقوله " وأنهم يقولون ما لا يفعلون " .

الفوائد :

1 – فضل الشعر :

واستثناء الشعراء الصالحين الذين ينافحون دون الأوطان ، ويدعون إلى الفضائل والإصلاح ، ويصورون عيوب المجتمع وسيئاته لرأب صدوعه ، يدل على ما للشعر من مكانة سامية ومنزلة عالية ، وقد

روى البخاري عن أبيّ بن كعب أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : إن من الشعر حكمة ، وعن ابن عباس قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فجعل يتكلم بكلام فقال : إن من البيان سحرا وان من الشعر حكمة . أخرجه أبو داود ، وقالت عائشة رضي اللّه عنها :

الشعر كلام منه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح ، وقال الشعبي : كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان علي أشعر من الثلاثة رضي اللّه عنهم أجمعين .

بين النظم والنثر :

(482/573)

و قال صاحب العمدة : " وكلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديئة ، فإذا اتفق الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة ، ألا ترى أن الدر ، وهو أخو اللفظ ونسيبه ، إليه يقاس وبه يشبه ، إذا كان منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب ومن أجله انتخب ، وإن كان أعلى قدرا وأغلى ثمنا ، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ إذا كان منثورا تبدد في الأسماع وتدحرج عن الطباع .

الكذب مذموم إلا من الشعراء :

ومن فضائله أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه ، وحسبك ما حسّن الكذب واغتفر له قبحه ، فقد أوعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كعب بن زهير لما أرسل إلى أخيه بجير ينهاه عن الإسلام

وذكر النبي صلى اللّه عليه وسلم بما أحفظه فأرسل اليه أخوه : ويحك ان النبي أوعدك لما بلغه عنك وقد كان أوعد رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه فقتلهم يعني ابن خطل وابن حبابة وان من بقي من شعراء قريش كابن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول اللّه فإنه لا يقتل من جاء تائبا وإلا فانج إلى نجائك فإنه واللّه قاتلك ، فضاقت به الأرض فجاء إلى رسول اللّه متنكرا فما صلى البني صلاة الفجر وضع كعب يده في يد رسول اللّه ثم قال : يا رسول اللّه إن كعب بن زهير قد أتى مسنأمنا تائبا أفتؤمنه فآتيك به ؟ قال : هو آمن فحسر كعب عن وجهه وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه هذا مكان العائذ بك أنا كعب بن زهير فأمنه رسول اللّه وأنشد كعب قصيدته التي أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يفد مكبول

يقول فيها بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووجله :

أنبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة فلم أذنب وقد كثرت فيّ الأقاويل

فلم ينكر عليه النبي قوله ، وما كان ليوعده على باطل ، بل تجاوز عنه ووهب له بردته فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم وقال العتبي بعشرين ألفا وهي التي توارثها الخلفاء يلبسونها في الجمع والأعياد .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه مرّ بحسّان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم قال : أرغاء كرغاء البعير ، فقال حسان : دعني عنك يا عمر فو اللّه انك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد لمن هو خير منك فما يغير عليّ ذلك فقال عمر : صدقت .

وقال صاحب العمدة : " فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى " والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون " فهو غلط وسوء تأول لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالهجاء ومسّوه بالأذى فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم اللّه عز وجل ونبه عليهم فقال : " إلا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وذكروا اللّه كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا " يريد شعراء النبي الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه كحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد اللّه بن رواحة وقد قال فيهم النبي صلى اللّه عليهم وسلم " هؤلاء النفر أشدّ على قريش من نصح النبل " وقال لحسان بن ثابت : " اهجهم - يعني قريشا - وروح القدس معك فو اللّه لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات " فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبي شعراء يثيبهم على الشعر ويأمرهم بعمله ويسمعه منهم .

(484/573)

و أما قوله صلى اللّه عليه وسلم " لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا " فإنما هو من غلب الشعراء على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فرضه ومنعه من ذكر اللّه تعالى .

وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين والجلّة من الصحابة والتابعين والفقهاء المشهورين :

فمن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه قالوا :

واسمه عبد اللّه بن عثمان ويقال : عتيق لقب له قال في غزوة عبيدة ابن الحارث :

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث أرقت أوامر في العشيرة حادث

ترى من لؤي فرقة لا يصدّها عن الكفر تذكير ولا بعث باعث

رسول أتاهم صادق فتكذّبوا عليه وقالوا : لست فينا بماكث

إذا ما دعوناهم إلى الحق أدبروا وهرّوا هرير المجمرات اللواهث

فكم قد متنا فيهم بقرابة وترك التقى شيء لهم غير كارث

فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم فما طيبات الحلّ مثل الخ

بائث وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم فليس عذاب الله عنهم

بلابث فأولى برب الراقصات عشية حراجيج تخدي في السريح الر

ثائث كأدم ظباء حول مكة عكف يردن حياض البئر ذات الن

بائث لئن لم يفيقوا عاجلا من ضلالهم ولست إذا آليت قولا ب

حانث لتبتدرنهم غارة ذات مصدق تحرم أطهار النساء الط

وامث تغادر قتلى تعصب الطير حولهم ولا يرأف الكفار رأف ابن

حارث فأبلغ بني سهم لديك رسالة وكل كفور يبتغي الشر باحث

فإن شتموا عرضي على سوء رأيهم فإني من أعراضهم غير شاعث

هذا ولا بد من الإلماع إلى أن ابن هشام قال في سيرته : " وأكثر أهل العلم ينكر هذه القصيدة لأبي بكر " .

ومن شعر عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة :

هوّن عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها

فليس يأتيك منهيها ولا قاصر عنك مأمورها

ومن شعره أيضا وقد لبس بردا جديدا فنظر الناس إليه :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تغن عن هرمز يوما خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجري الرياح له والجنّ والإنس فيما بينها ترد

حوض هنالك مورود بلا كذب لا بد من ورده يوما كما وردوا

ومن شعر عثمان بن عفان رضي الله عنه :

غنى النفس يغني النفس حتى يكفّها وإن عضّها حتى يضر بها الفقر

وما عمرة- فاصبر لها إن لقيتها - بكائنة إلا سيتبعها يسر ومن شعر علي بن أبي طالب ما قاله يوم صفين يذكر همدان ونصرهم إياه :

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا نواصيّها حمر النحور دوامي

وأعرض نقع في السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام

ونادى ابن هند في الكلاع وحمير وكندة في لخم وحيّ جذام

تيمّمت همدان الذين هم هم – إذا ناب دهر – جنتي وسهامي

فجاوبني من خيل همدان عصبة فوارس من همدان غير لئام

فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام

فلو كنت بوّابا على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

ومن شعر الحسن بن علي وقد خرج على أصحابه مختضبا ، رواه المبرد :

تسوّد أعلاها وتأبى أصولها فليت الذي يسودّ منها هو الأصل

ومن شعر الحسين بن علي وقد عاتبه أخوه الحسن في امرأته :

لعمرك انني لأحب دارا تحل بها سكينته والرباب

أحبهما وأبذل جلّ مالي وليس للائمي عندي عتاب

ومن الخلفاء كثيرون قالوا الشعر فمن شعر عمر بن عبد العزيز :

أيقظان أنت اليوم أم أنت حالم وكيف يطيق النوم حيران هائم

فلو كنت يقظان الغداة لحرقت جفونا لعينيك الدموع السّ

واجم نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك

لازم وتشغل فيما سوف تكره غبّه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

واشتهر من الفقهاء محمد بن إدريس الشافعي بالشعر فكان من أحسن الناس افتنانا بالشعر ، وهو القائل :

(486/573)

و متعب العيس مرتاحا إلى بلد والموت يطلبه في ذلك البلد

وضاحك والمنايا فوق مفرقه لو كان يعلم غيبا مات من كمد

من كان لم يؤت علما في بقاء غد ماذا تفكره في رزق بعد غد

ومن روائعه المشهورة قوله في الحظ :

الجدّ يدني كلّ شيء شاسع والجدّ يفتح كل باب مغلق

فإذا سمعت بأن مجدورا حوى عودا فأورق في يديه

فصدق وإذا سمعت بأن محروما أتى ماء ليشربه فجفّ

فحقق وأحقّ خلق الله بالهم امرؤ ذو همة يبلى برزق

ضيق ولربّما عرضت لنفسي فكرة فأودّ منها أنني لم أخلق

وحسبنا ما تقدم من الاستشهاد فذلك قد يخرج بنا عن الغرض .

نصائح بوالو للشاعر :

هذا ونختم المبحث بالنصائح القيمة التي أوردها الكاتب الفرنسي بوالو للشاعر

وخلاصتها : انه على الشاعر أن يتنزه عن الإباحية ، صحيح ان تصوير الحب مباح ولكن

بحيث لا يكون في هذا التصوير أي نوع من أنواع التبذّل ، وينبغي أن يتجرد من الغيرة ، إنها

آفة من آفات رجال الأدب وهي رذيلة إن وجدت في أحدهم دلت على ضعف مواهبه .

ثم ينبغي عليه أن يكون طيب الصحبة ممتع الحديث ، ثم إن مما يشين شاعرا من الشعراء أن

يوجه همه إلى كسب المال ، كما يجدر به – على

العكس – أن يسعى لبلوغ المجد ، وعليه أن لا يحطّ من قدر الشعر ذلك الفن الإلهي الذي

هذب فيما مضى النفوس وألهب فيها الوطنية وعلم الحكمة والفضيلة .

2 – من هو سطيح الكاهن :

روى التاريخ أن سطحيا الغساني كان أكهن الناس وقد أنذر بسيل العرم وكان جسده

يدرج كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه وإذا مست باليد أثرت فيه للين عظمها وكان

أبدا منسطحا على الأرض عاش 150 سنة على ما قيل ، ومات في الليلة التي ولد فيها

محمد صلى اللّه عليه وسلم ، ومن كهانته انه لما كان ليلة ولد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ارتج إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرفة فأعظم ذلك أهل المملكة وكتب إلى كسرى صاحب الشام أن وادي السماوة قد انقطع في تلك الليلة وكتب إليه صاحب اليمن أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية وكتب إليه صاحب فارس أن النار خمدت تلك الليلة فلما تواترت عليه الكتب أظهر سريره وبرز إلى أهل مملكته فأخبرهم الخبر فقال الموبذان : أيها الملك إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتني ، رأيت إبلا صعابا تقود خيلا عرابا ، حتى اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا قال فما عندك في تأويلها ؟ قال :

ما عندي شيء ولكن أرسل إلى عاملك في الحيرة يوجه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان فوجه اليه عبد المسيح بن نفيلة الغساني فأخبره كسرى بالخبر فقال : أيها الملك ما عندي فيها من شيء ولكن جهزني إلى خالي سطيح فجهزه فلما قدم عليه وجده قد احتضر فناداه فلم يجبه فقال :

أصمّ أم يسمع غطريف اليمن أتاك شيخ الحيّ من آل سنن

(488/573)

أبيض فضفاض الرداء والرسن فرفع اليه سطيح رأسه وقال : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أقبل إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلا صعابا تقود خيلا عرابا ، حتى اقتحمت الواد وانتشرت في البلاد ، يا عبد المسيح إذا ظهرت التلاوة ، وفاض وادي السماوة ، وظهر صاحب الهراوة ، فليست الشام لسطيح بشام يملك منهم ملوك وملكات ، بعدد ما سقط من الشرفات ، وكل ما هو آت آت ثم قال :

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم فإن ذا الدهر أطوار دهارير

منهم بنو الصرح بهرام وأخوته والهرمزان وسابور وسابور

فربما أصبحوا منهم بمنزلة يهاب صولهم الأسد المهاصير

حثوا المطي وجدوا في رحيلهم فما يقوم لهم سرج ولا كور

والناس أبناء علات فمن علموا أن قد أقل فمحقور وم

هجور والخير والشر مقرونان في قرن والخير متبع والشر محذور

فأتى كسرى فأخبره فغمّه ذلك فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا يدور الزمان فملكوا كلهم في أربعين سنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 7 صـ 52 . 161﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والسبعون بعد الخمسمائة

(سورة النمل)

(4/574)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة النمل)

(5/574)

" فصل فى فضل السّورة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

رُويتْ أَحاديث ضعيفة منها حديث أُبىَّ : مَن قرأَ طس كان له من الأَجر عشرُ حسنات . بعَدَدَ مَن صدَّق سليمان ، وكذَّب به ، وهود ، وشعيب ، وإِبراهيم ، ويخرج من قبره وهو ينادى : لا إِله إِلاَّ الله ؛ وحديث علىّ : يا علىّ مَن قرأَ طس النَّمل أَعطاه الله بكلِّ سجدة

يسجد بها المؤمنون ثواب المؤمنين كلهم ، وله بكلِّ آية ثوابُ المتوكلين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 352 ﴾

(6/574)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها وصف هذا الكتاب بالكفاية لهداية الخلق أجمعين ، بالفصل بين الصراط المستقيم ، وطريق الحائرين ، والجمع لأصول الدين ، لإحاطة علم منزله بالخفي والمبينن وبشارة المؤمنين ، ونذارة الكافرين ، بيوم احتماع الأولين والآخرين ، وكل ذلك يرجع إلى العلم المستلزم للحكمة ، فالمقصود الأعظممنها إظهار العلم والحكمة كما كان مقصود التي قبلها إظهار البطش والنقمة ، وأدل ما فيها على هذا المقصود ما للنمل من حسن التدبير ، وسداد المذاهب في العيش ، ولا سيما ما ذكر عنها سبحانه من صحة القصد في السياسة ، وحسن التعبير عن ذلك القصد ، وبلاغة التأدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 405 ﴾

(7/574)

فصل

قال الآلوسى :

سورة النمل

وتسمى أيضا كما في الدر المنثور سورة سليمان وهي مكية كما روي عن ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم وذهب بعضهم إلى مدنية بعض آياتها كما سيأتي إنشاء الله تعالى وعدد آياتها خمسة وتسعون ءاية حجازي وأربع بصري وشامي وثلاث كوفي ووجه اتصالها بما قبلها أنها كالتتمة لها حيث زاد سبحانه فيها ذكر داود وسليمان وبسط فيها قصة لوط عليه السلام أبسط مما هي قبل وقد وقع فيها إد قال موسى لأهله إني ءانست نارا الخ وذلك كالتفصيل لقوله سبحانه فيما قبل : فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين وقد اشتمل كل من السورتين على ذكر القرآن وكونه من الله تعالى وعلى تسليته صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك وروي عن ابن عباس وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم طس ثم القصص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ 154 ﴾

(8/574)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . طس تلك آيات القرآن)

السّورة مكّية بالاتّفاق ، عدد آياتها خمس وتسعون فى عدّ الحجاز ، وأَربع فى عدّ الشام ، والبصرة ، وثلاث فى عدّ الكوفة ، كلماتها أَلف ومائة وتسع وأَربعون .

وحروفها أَربعة آلاف وسبعمائة وتسع وتسعون .

والآيات المختلف فيها ﴿ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ، ﴿ مِّن قَوَارِيرَا ﴾ ، مجموع فواصل آياتها (من) وسميت سورة النَّمل ؛ لاشتمالها على مناظرة النَّمل سليمان فى قوله : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ ﴾ .

(9/574)

مقصود السّورة ومعظم ما تضمّنته : بيان شرف القرآن ، وما منه نصيب أَهل الإِيمان ، والشكاية من مكر أَهل الشرك والعصيان ، وإِشارة إِلى ذكر الوادى المقدّس وموسى بن عمران ، وذكر خبر داود وسليمان ، وفَضْل الله تعالى عليهما بتعليمهما منطق الطَّير وسائر الحيوان ، وقصّة النَّمل ، وذكر الهدهد وخبر بِلْقِيس ، ورسالة الهدهد إِليها من سليمان ،

ومشاورتها أَركانَ الدّولة ، وبيان أَثر الملوك إذا نزلوا فى مكان ، وإهداء بِلْقيس إلى سليمان ، وتهديده لها ، ودعوة آصَف لإِحضار تخت بِلْقِيس فى أَسرع زمان ، وتغيير حال العرش لتجربتها وإِسلامها على يدى سليمان ، وحديث صالح ومكر قومه فى حقّه ، وطَرَف من حديث قوم لوط أَولى الطغيان ، والبرهان فى الحدائق ، والأَشجار ، والبحار ، والأَنهار ، وإِجابة الحق دعاءَ أَهل التَّضرّع ، والابتهال إلى الرّحمن ، وهداية الله الخَلْقَ فى ظلمات البرّ ، والبحر ، واطلاع الحق تعالى على أَسرار الغيب ، وتسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم فى إِعراض المنكرين من قبول القرآن ، وقبول الإِيمان ، وخروج الدّآبّة ، وظهور علامة القيامة ، والإِخبار عن حال الجبال فى ذلك اليوم ، وبيان جزاء المجرمين ، وإِعراض الرّسول عن المشركين ، وإِقباله على القرآن الكريم ، وأَمر الله له بالحمد على إِظهار الحجة ، أَعنى القرآن فى قوله ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لله سَيُرِيْكُمْ ءَايَاتِهِ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فى هذه السّورة آية واحدة م ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ ن آية السّيف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 348 . 349 ﴾

(10/574)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة النمل

320 - مسألة :

قوله تعالى : (تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ) ، والجان صغار الحيات .

وقال تعالى في الأعراف : (فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107)

والثعبان أكبر الحيات ؟ .

جوابه :

معناه كأنها جان في سرعة حركتها لا في عظمها ، ولذلك قال

تعالى : (تَهْتَزُّ) وحيث قال تعالى : (ثُعْبَانٌ) إشارة إلى

عظمها فكانت في الحركة كالجان ، وفى العظم ثعبان .

321 - مسألة :

قوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ) وفى الزمر : (فَصَعِقَ)

جوابه :

أن آية النمل في نفخة البعث ، ولذلك قال تعالى : (وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ) وآية الزمر في نفخة

الموت ، ولذلك قال

تعالى : (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى) .

322 - مسألة :

قوله تعالى : (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) وقال تعالى : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) ؟ .

جوابه :

أن ذلك باختلاف أحوال :

ففي أول الأمر تسير سير السحاب وترى كالواقفة لعظمها كسير الشمس والقمر في رأى العين ثم بعد ذلك تتضاءل فتكون كالعهن المنفوش ثم تنسف فتكون الأرض قاعا صفافا ، والنسف هو تفريق الريح الغبار فيصير كالهباء . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿كشف المعاني صـ 282.284﴾

(11/574)

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ ﴾ ، وفى القصص وطه ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا ﴾ الآية ، قال فى هذه السّورة ﴿ سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ فكرّر ﴿ آتِيكُمْ ﴾ فاستثقل الجمع بينهما وبين ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا ﴾ فعدل إلى قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا ﴾ بعد أَن كانا بمعنى واحد .

وأَمَّا فى السّورتين فلم يكن ﴿ إِلا سَآتِيكُمْ ﴾ ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا ﴾ .

قوله : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ وفى القصص ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ؛ لأَنَّ فى هذه السّورة ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فحيل بينهما بهذه الجملة فاستُغنى عن إعادة (أَن) ، وفى القصص : ﴿ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فلم يكن بينهما جملة أُخرى عُطِف بها على الأَوّل ، فحسُن إدْخال (أَن) .

قوله : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ ، وفى القصص : ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ خُصّت هذه السّورة بقوله : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ لأَنَّه بُنى على ذكر الخوف كلام يليق به ، وهو قوله : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ، وفى القصص اقتُصِر على قوله : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ ، ولم يُبْن عليه كلام ، فزيد قبله ﴿ أَقْبِلْ ﴾ ؛ ليكون فى مقابلة ﴿ مُدْبِرًا ﴾ أَى أَقبل آمنًا غير مُدْبِر ، ولا تخف ، فخصّت هذه السّورة به .

قوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ ، وفى القصص :

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ خُصّت هذه السّورة بـ (أَدخل) ؛ لأَنه أَبلغ من قوله : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ ﴾ ، لأَن (اسلُكْ) يأْتى لازماً ، ومتعدِّيًا ، وأَدْخِلْ متعدٍّ لا غير ، وكان فى هذه السّورة ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ أَى مع تسع آيات مرسلاً إِلى فرعون .

(12/574)

وخصّت القَصَص بقوله ﴿ اسْلُكْ ﴾ موافقة لقوله ﴿ اضْمُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (وكان) دون الأَوّل فخُصّ بالأَدْوَنِ من اللَّفظين .

قوله ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ ، وفى القصَص : ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ ﴾ ؛ لأَنَّ الملأَ أَشراف القوم ، وكانوا فى هذه السّورة موصوفين بما وصفهم الله به من قولهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ الآية فلم يسمّهم ملأً ، بل سمّاهم قومًا .

وفى القَصَص لم يكونوا موصوفين بتلك الصّفات ، فسمّاهم ملأً وعقبهُ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْملأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ اله غَيْرِي ﴾ .

وما يتعلَّق بقصّة موسى سوى هذه الكلمات قد سبق .

قوله : ﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ وفى حم ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ونجينا

وأَنجينا بمعنى واحد .

وخُصّت هذه السُّورة بأَنجينا ؛ موافقة لما بعده وهو : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ وبعده : ﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا ﴾ كلّه على لفظ أَفعل .

وخصّ حم بنجيّنا ؛ موافقة لما قبله : [وزيّنا] وبعده ﴿ وقَيَّضْنَا لَهُمْ ﴾ وكلَّه على لفظ فعَّل .

قوله : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ سبق .

قوله : ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ فى خمس آيات ، وختم الأُولى بقوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم قال ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثم ﴿ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَى عَدَلوا وأَوّل الذنوب العدول عن الحقّ ، ثم لم يعلموا ولو علموا لَمَا عَدَلوا ثم لم يذكَّروا فيَعْلموا بالنَّظر والاستدلال ، فأَشركوا من غير حُجّة وبرهان .

قُلْ لهم يا محمد : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

(13/574)

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ وفى الزُّمر : ﴿ فَصَعِقَ ﴾ : خُصَّت هذه السورة بقوله ﴿ فَزَعٍ ﴾ موافقة لقوله : ﴿ وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، وخُصّت الزُّمر بقوله : ﴿ فَصَعِقَ ﴾ موافقة لقوله ﴿ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ؛ لأَن معناه : مات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 349.352 ﴾

(14/574)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة النمل

355 - قوله تبارك وتعالى فلما جاءها نودي 8 وفي القصص 30 وطه 11 فلما أتاها نودي لأنه قال في هذه السورة سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس 7 فكرر آتيكم فاستثقل الجمع بينهما وبين فلما أتاها فعدل إلى قوله فلما جاءها بعد أن كانا بمعنى واحد وأما في السورتين فلم يكن إلا لعلي آتيكم فلما أتاها

356 - قوله وألق عصاك 10 وفي القصص وأن ألق عصاك 31 لأن في هذه السورة نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم وألق عصاك 8 9 10 فحيل بينهما بهذه الجملة فاستغنى عن إعادة أن

وفي القصص أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك 30 31 فلم يكن بينهما جملة أخرى عطف بها على الأول فحسن إدخال أن

357 - قوله لا تخف 10 وفي القصص أقبل ولا تخف 31 خصت هذه السورة بقوله لا تخف لأنه بنى على ذكر الخوف كلام يليق به وهو قوله إني لا يخاف لدي المرسلون 10 وفي القصص اقتصر على قوله لا تخف ولم يبن عليه كلام فزيد قبله أقبل ليكون في مقابلة مدبرا 31 أي أقبل آمنا غير مدبر ولا تخف فخصت هذه السورة به

358 - قوله وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء 12 وفي القصص اسلك يدك 32 خصت هذه السورة بأدخل لأنه أبلغ من قوله اسلك لأن اسلك يأتي لازما ومتعديا وأدخل متعد لا غير ولأن في هذه السورة في تسع آيات 12 أي مع تسع آيات مرسلا إلى فرعون

وخصت القصص بقوله اسلك موافقة لقوله اضمم 32 ثم قال فذانك برهانان من ربك 32 فكان دون الأول فخص بالأدنى والأقرب من اللفظين

(15/574)

359 – قوله إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين 12 وفي القصص إلى فرعون وملئه 32 لأن الملأ أشراف القوم وكانوا في هذه السورة موصوفين بما وصفهم الله به من قوله فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها 13 14 الآية فلم يسمهم ملأ بل سماهم قوما وفي القصص لم يكونوا موصوفين بتلك الصفات فسماهم ملأ وعقبه وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري 38 وما يتعلق بقصة موسى سوى هذه الكلمات قد سبق

360 – قوله وأنجينا الذين آمنوا 53 وفي حم فصلت ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون 18 نجينا وأنجينا بمعنى واحد وخصت هذه السورة بأنجينا لموافقته لما بعده وهو فأنجيناه وأهله 57 وبعده وأمطرنا 58 وأنزل فأنبتنا 60 كله على لفظ أفعل

وخص حم فصلت بنجينا لموافقته ما قبله وزينا 12 وبعده قيضنا لهم 25 وكله على لفظ فعلنا

361 – قوله وأنزل لكم 60 قد سبق

362 – قوله أإله مع الله في خمس آيات وختم الأولى بقوله

بل هم قوم يعدلون 60 ثم بل أكثرهم لا يعلمون 61 ثم قال قليلا ما تذكرون 62 ثم تعالى الله عما يشركون 63 ثم إن كنتم صادقين 64 أي عدلوا إلى الذنوب وأول الذنوب العدل عن الحق ثم لم يعلموا ولو علموا ما عدلوا ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال فأشركوا

عن غير حجة وبرهان قل لهم يا محمد هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين 64

363 - قوله ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات 87 وفي الزمر فصعق 68 خصت هذه السورة بقوله ففزع موافقة لقوله وهم من فزع يومئذ آمنون 89 وخصت الزمر بقوله فصعق موافقة لقوله وإنهم ميتون 30 لأن معناه مات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 155.158 ﴾

(16/574)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة النمل

تمهيد

هذه سورة مكية نزلت بمكة . وسميت النمل ؟ لأن قصة سليمان مع النمل أخذت حيزا كبيرا منها ، وعدد آياتها 93 آية .

وقد ابتدأ سبحانه بحروف مفردة هى الطاء والسين ، وقد ذكرنا حكمة ذكرها فى سورة الشعراء وما سبقها ، وقد كانت أول آية تتعلق بالقرآن ، كشأن الأكثر فى السور

المبتدأة بحروف مفردة ، تلك آيات القرآن الكريم ، وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون .

ثم بين سبحانه أحوال الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وأنه تزين لهم أعمالهم ، وأنهم فى أعمالهم يعمهون ، وأنهم هم الذين لهم سوء العذاب ، وأنهم فى الآخرة هم الأخسرون .

وقد بين مقام النبى (صلى الله عليه وسلم) (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك جزءا من قصة موسى فى مدين : إذ ذهب يبحث لأهله عن نار ، (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) ، وكان أن كلمه ربه ، (فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12)

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13)

وإنهم راعتهم المعجزة ، (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14) .

ولقد كان ذلك الجزء الصغير من قصة موسى عليه السلام تمهيدا لقصة داوود وسليمان ، وخصوصا سليمان فإنهما نبيان من أنبياء بنى إسرائيل جاءا لإحياء شريعة التوراة فيمن جاء لذلك من الرسل .

ولقد قال تعالى فى ذلك (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) .

وقد أوتى سليمان ملكا لم يكن لأحد من بعده (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

كما أوتى علم منطق الطير ، فقد أوتى أيضا علم منطق كل شىء

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ

فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21)

(18/574)

ولكنه بعد ذلك أتى بخبر غريب كان له ما يفيد فى سياسة سليمان (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) .

سمع سليمان الملك الحكيم الخبر فلم يصدقه بادئ ذى بدء ولم يكذبه ، بل أخذ يتفحصه قائلا : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، وكلفه أن يذهب بكتابه

إليهم .

ذهب الكتاب إليها ، فجمعت ملأها (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)

فردت قائلة : (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) .

(19/574)

جاء الرد والهدية إلى سليمان الملك العظيم قال : (أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37) .

وقبل أن يذهب إليهم بجنده أراد أن يعرف عرشها وسلطانها ، (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) .

جاءت الملكة إليه : (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ

(42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

وبعد ذلك ذكر سبحانه بعضا من قصة ثمود وصالح ، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده ، ولقد استعجلوا العذاب إذ دعاهم فقال لهم (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون)

(20/574)

وقد تقاسموا مع المفسدين على أن يهلكوه وأهله ، ويقولوا لوليه (ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون .

وقد ذكر سبحانه عاقبة الأمر على ثمود قوم صالح .

ثم ذكر سبحانه قصة لوط ، وذكر لهم لوط ما عندهم من فواحش خرجوا بها عن الفطرة ، قائلا لهم : (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ

مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) .

" بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى الدلائل الكونية الدالة على وحدانية الخالق ، وأنه ليس كمثله شيء ، فقال سبحان : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) .

ثم نبههم سبحانه إلى الأرض ، وما فى خلقها من عجائب ، ووجه الأنظار

إلى عجائبها ، وقرارها وأنهارها وجبالها ، وأنه جعل بين البحرين حاجزا ، ثم استفهم منكرا موبخا أإله مع الله بل اكثرهم هم لا يعلمون .

وذكر بعد ذلك تفضله سبحانه عليهم (إجابة المضطر إذا دعاه وكشفه السوء ، وجعل الإنسان خليفة فى الأرض ، ويسأل سبحانه مستنكرا حالهم من الشرك (أإله مع الله قليلا ما تذكرون)

(21/574)

ويذكرهم سبحانه بهدايته لهم فى ظلمات البر والبحر وإرساله الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، ويسألهم من بعد (أإله مع الله تعالى الله عما يشركون) .

ويذكر سبحانه بذاته العلية ، إذ يبدأ الخلق ثم يعيده ، ويرزقه سبحانه وتعالى من السماء والأرض ، ثم يسألهم مستنكرا حالهم (أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

ويأمر نبيه الكريم بأن ينبههم إلى أنه لا يعلم من فى السماء والأرض غيره ، وشعورهم عندما يبعثون أنهم يتداركون جهلهم عندما يبعثون ، ويعلمون ما لم يكونوا علموه من قبل بالعيان ، لا بالأفهام .

ويأمرهم سبحانه وتعالى أن يسيروا فى الأرض ليعلموا مكانهم فيها ، والعبر من أهلها ، إذ طغوا وأكثروا فيها الفساد . ويذكر لنبيه أنه ليس عليه إيمانهم ، إنما عليه تبليغهم : (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)

وذكر سبحانه بعد ذلك ، استعجالهم لما يوعدون به من عذاب (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73)

ويذكر سبحانه بعد – ذلك عموم علمه فى السماء والأرض ، ويقول عز من قائل : (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75) .

ويذكر من بعد مقام القرآن الكريم ، (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

وبعد ذلك يذكر سبحانه ما يكون قرب البعث ، وما يكون بعده : (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82)

ويبين سبحانه بالإشارة الواضحة حال الناس يوم الحشر وحالهم وهم يقدمون على العذاب .

ثم يذكرهم سبحانه بغفلتهم عن آياته : (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) .

ويذكر سبحانه يوم الهول العظيم يوم البعث ، ثم يذكر الحساب والثواب والعقاب : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90) .

وإن عبادة الله وحده هى الغاية الأولى : (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93) . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 5427.5422 ﴾

---

(1) تنبيه :

شاء الله تعالى أن يقبض الإمام العلامة / محمد أبو زهرة قبل أن يكمل تفسير كتاب الله تعالى ، وقد كانت هذه السورة آخر أعماله الجليلة

وعقد الإمام محمد أبو زهرة فى أواخر عام 1973 وأوائل عام 9741 العديد من الندوات والاجتماعات بجامعة القاهرة والإسكندرية وفى جمعية الشبان المسلمين لمحاربة التعدى على الشريعة الإسلامية ، وكانت له صولات وجولات فى مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بخصوص تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات والطلاق فى مشروع قانون الأحوال الشخصية لوزارة الشئون الاجتماعية ، وقرر فضيلة الإمام رحمه الله إقامة

مؤتمر شعبى لمناقشة هذا الأمر فى سرادق كبير فى شارع العزيز بالله أمام منزله بضاحية الزيتون ، أقامه الإمام رحمه الله على نفقته الخاصة وقام فضيلته بمعاينة المكان هانشاء السرادق مبكرا فى صباح يوم الجمعة 12/ 4/ 1974

ثم عاد إلى حجرة المكتب بالدور العلوى وشرع فى إكمال تفسير سورة النمل حتى أذان الظهر ، وأثناء نزول فضيلته حاملا القلم والمصحف مفتوحا على اخر ما وصل إليه فى التفسير وأيضا الورق الذى به ما كتب من التفسير تعثر رحمة الله عليه وسقط ساجدا على المصحف وعلى أوراق التفسير ، ثم فاضت روحه الكريمة إلى بارئها أثناء أذان المغرب .

وهكذا شاءت إرادة الله العظيم أن يكون هذا السرادق الذى أشرف فضيلته على إقامته لمؤتمر شعبى هو سرادق العزاء للإمام .

رضى الله عن شيخ مشايخ عصره ، الإمام محمد أبو زهرة وأرضاه ، وأسكنه فسيح جناته وأجمل فراديسه ، وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

أسرة الإمام الجليل محمد أبو زهرة .

(24/574)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل

أشهر أسمائها سورة النمل .

وكذلك سميت في صحيح البخاري وجامع الترمذي .

وتسمى أيضا سورة سليمان ، وهذان الاسمان اقتصر عليهما في الإتقان وغيره .

وذكر أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن أنها تسمى سورة الهدهد .

ووجه الأسماء الثلاثة أن لفظ النمل ولفظ الهدهد لم يذكرا في سورة من القرآن غيرها ، وأما تسميتها سورة سليمان فلأن ما ذكر فيها من ملك سليمان مفصلا لم يذكر مثله في غيرها .

وهذه السورة مكية بالاتفاق كما حكاه ابن عطية والقرطبي والسيوطي وغير واحد .

وذكر الخفاجي أن بعضهم ذهب إلى مكية بعض آياتها كذا ولعله سهو صوابه مدنية بعض آياتها ولم أقف على هذا لغير الخفاجي .

وهي السورة الثامنة والأربعون في عداد نزول السور ، نزلت بعد الشعراء وقبل القصص .

كذا روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير .

وقد عدت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة خمسا وتسعين ، وعند أهل الشام والبصرة

والكوفة أربعا وتسعين .

من أغراض هذه السورة

أول أغراض هذه السورة افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه وعلو معانيه ، بما يشير إليه الحرفان المقطعان في أولها .

(25/574)

والتنويه بشأن القرآن وأنه هدى لمن ييسر الله الاهتداء به دون من جحدوا أنه من عند الله .

والتحدي بعلم ما فيه من أخبار الأنبياء .

والاعتبار بملك أعظم ملك أوتيه نبي .

وهو ملك داود وملك سليمان عليهما السلام .

وما بلغه من العلم بأحوال الطير ، وما بلغ إليه ملكه من عظمة الحضارة .

وأشهر أمة في العرب أوتيت قوة وهي أمة ثمود .

والإشارة إلى ملك عظيم من العرب وهو ملك سبأ .

وفي ذلك إيماء إلى أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم رسالة تقارنها سياسة الأمة ثم يعقبها

ملك ، وهو خلافة النبي صلى الله عليه وسلم .

وأن الشريعة المحمدية سيقام بها ملك للأمة عتيد كما أقيم لبني إسرائيل ملك سليمان .

ومحاجة المشركين في بطلان دينهم وتزييف آلهتهم وإبطال أخبار كهانهم وعرافيهم ، وسدنة آلهتهم .

وإثبات البعث وما يتقدمه من أهوال القيامة وأشراطها .

وأن القرآن مهيمن على الكتب السابقة .

ثم موادعة المشركين وإنباؤهم بأن شأن الرسول الاستمرار على إبلاغ القرآن وإنذارهم بأن آيات الصدق سيشاهدونها والله مطلع على أعمالهم .

قال ابن الفرس ليس في هذه السورة إحكام ولا نسخ .

ونفيه أن يكون فيها إحكام ولا نسخ معناه أنها لم تشتمل على تشريع قار ولا على تشريع منسوخ .

وقال القرطبي في تفسير آية ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ [النمل : 91 - 92] الآية نسختها آية القتال اهـ ، يعني الآية النازلة بالقتال في سورة البراءة .

وتسمى آية السيف ، والقرطبي معاصر لابن الفرس إلا أنه كان بمصر وابن الفرس بالأندلس

، وقوله ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ ويؤخذ منهما حكمان كما سيأتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ 216.217 ﴾

(26/574)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة النمل

الوحدة الأولى: 1 – 6 الموضوع:إثبات مصدر القرآن وأهم صفات المؤمنين مقدمة سورة النمل

هذه السورة مكية نزلت بعد الشعراء ; وهي تمضي على نسقها في الأداء :مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذي تعالجه ; وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع , ويؤكده , ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين في مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم , للعبرة والتدبر في سنن الله وسنن الدعوات .

وموضوع السورة الرئيسي – كسائر السور المكية – هو العقيدة:الإيمان بالله , وعبادته وحده , والإيمان بالآخرة , وما فيها من ثواب وعقاب . والإيمان بالوحي وأن الغيب كله لله , لا يعلمه سواه . والإيمان بأن الله هو الخالق الرازق واهب النعم ; وتوجيه القلب إلى شكر

أنعم الله على البشر . والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله , وأن لا حول ولا قوة إلا بالله .

ويأتي القصص لتثبيت هذه المعاني ; وتصوير عاقبة المكذبين بها , وعاقبة المؤمنين .

تأتي حلقة من قصة موسى – عليه السلام – تلي مقدمة السورة . حلقة رؤيته النار وذهابه إليها , وندائه من الملأ الأعلى , وتكليفه الرسالة إلى فرعون وملئه . ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها وعاقبة التكذيب مع اليقين . .(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) .

وكذلك شأن المشركين في مكة كان مع آيات القرآن المبين .

(27/574)

وتليها إشارة إلى نعمة الله على دواد وسليمان – عليهما السلام – ثم قصة سليمان مع النملة , ومع الهدهد ,ومع ملكة سبأ وقومها . وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة . وهي نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان . وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التي يدعو إليها كل رسول . ويبرز بصفة خاصة استقبال ملكة سبأ وقومها لكتاب سليمان – وهو عبد من عباد الله – واستقبال قريش لكتاب الله . هؤلاء يكذبون ويجحدون . وأولئك يؤمنون ويسلمون . والله هو

الذي وهب سليمان ما وهب , وسخر له ما سخر . وهو الذي يملك كل شيء , وهو الذي يعلم كل شيء . وما ملك سليمان وما علمه إلا قطرة من ذلك الفيض الذي لا يغيض .

وتليها قصة صالح مع قومه ثمود . ويبرز فيها تآمر المفسدين منهم عليه وعلى أهله , وتبييتهم قتله ; ثم مكر الله بالقوم , ونجاة صالح والمؤمنين معه , وتدمير ثمود مع المتآمرين : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) . . وقد كانت قريش تتآمر على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتبيت له , كما بيتت ثمود لصالح وللمؤمنين .

ويختم القصص بقصة لوط مع قومه . وهمهم بإخراجه من قريتهم هو والمؤمنون معه , بحجة أنهم أناس يتطهرون ! وما كان من عاقبتهم بعد إذ هاجر لوط من بينهم , وتركهم للدمار : (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) . . ولقد همت قريش بإخراج الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتآمرت في ذلك قبل هجرته من بين ظهرانيهم بقليل .

فإذا انتهى القصص بدأ التعقيب بقوله : (قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أما يشركون ؟) . . ثم أخذ يطوف معهم في مشاهد الكون , وفي أغوار النفس . يريهم يد الصانع المدبر الخالق الرازق , الذي يعلم الغيب وحده , وهم إليه راجعون . ثم عرض عليهم أحد أشراط الساعة وبعض مشاهد القيامة , وما ينتظر المكذبين بالساعة في ذلك اليوم العظيم .

ويختم السورة بإيقاع يناسب موضوعها وجوها: (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء, وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين . وقل: الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها, وما ربك بغافل عما تعملون) . .

والتركيز في هذه السورة على العلم . علم الله المطلق بالظاهر والباطن, وعلمه بالغيب خاصة . وآياته الكونية التي يكشفها للناس . والعلم الذي وهبه لداود وسليمان . وتعليم سليمان منطق الطير وتنويهه بهذا التعليم . . ومن ثم يجيء في مقدمة السورة: (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) . ويجيء في التعقيب (قل: لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادارك علمهم في الآخرة) . . (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) ويجيء في الختام: (سيريكم آياته فتعرفونها) . . ويجيء في قصة سليمان: (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا: الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) . . وفي قول سليمان: (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) . . وفي قول الهدهد: (ألا يسجدوا لله الذي

يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) . وعندما يريد سليمان استحضار عرش الملكة , لا يقدر على إحضاره في غمضة عين عفريت من الجن , إنما يقدر على هذه: (الذي عنده علم من الكتاب) .

وهكذا تبرز صفة العلم في جو السورة تظللها بشتى الظلال في سياقها كله من المطلع إلى الختام . ويمضي سياق السورة كله في هذا الظل , حسب تتابعه الذي أسلفنا . فنأخذ في استعراضها تفصيلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2624 . 2625 ﴾

(29/574)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة النمل

مكية وآياتها ثلاث وتسعون آية

بين يدي السورة

سورة النمل من السور المكية التى تهتم بالحديث عن أصول العقيدة " التوحيد ، والرسالة ، والبعث " وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية ، وهي : (الشعراء ، والنمل ، والقصص) ويكاد يكون منهاجها واحدا ، في سلوك مسلك العظة

والعبرة ، عن طريق قصص الغابرين .

تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم ، معجزة محمد الكبرى ، وحجته البالغة إلى يوم الدين ، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم ، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض وإسهاب في البعض ، فذكرت بالإجمال قصة " موسى " وقصة " صالح " وقصة " لوط " وما نال أقوامهم من العذاب والنكال ، بسبب إعراضهم عن دعوة الله ، وتكذيبهم لرسله الكرام ، بدءا من قصة موسى عليه السلام [إذ قال موسى لأهله إني ءانست نارا سأتيكم منها بخبر أو ءاتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . .] الآيات . ، وتحدثت بالتفصيل عن قصة " داود " وولده " سليمان " وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة ، وما خصهما به من الفضل الكبير ، بالجمع بين النبوة والملك الواسع ، ثم ذكرت قصة (سليمان) مع (بلقيس) ملكة سبأ [ولقد ألينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين] الآيات .

وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان ، والعظماء والملوك ، فقد إتخذ سليمان الملك وسيلة للدعوة إلى الله ، فلم يترك حاكما جائرا ، ولا ملكا كافرا إلا دعاه إلى الله ، وهكذا كان شأنه مع " بلقيس " حتى تركت عبادة الأوثان ، وأتت مع جندها خاضعة مسلمة ، مستجيبة لدعوة الرحمن [قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين] .

وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته ، من آثار مخلوقاته وبدائع صنعه ، وساقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة ، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر ، حيث يفزعون ويرهبون ، وينقسمون إلى قسمين : (السعداء الأبرار) و(الكفار الفجار) الذين يكبون على وجوههم في النار ، ووضحت أن القيامة هو يوم العدالة الإلهية ، الذي يجزى فيه كل إنسان ، على ما عمل في هذه الحياة الدنيا ، من خير أو شر ، جزاء عادلا يناسب عمله [ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين . .] إلى نهاية السورة الكريمة . التسميه : سميت (سورة النمل) لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة ، التي وعظت بني جنسها وذكرت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده ، ففهم نبي الله كلامها ، وتبسم من قولها ، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام ، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان ، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 400 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة النمل

يعمهون : أي يتحيرون ويترددون فى أودية الضلال ، الأخسرون : أي أشد الناس خسرانا ، لحرمانهم الثواب ، واستمرارهم فى العذاب .

لتلقى : أي لتلقّن وتعطى ، آنست : أي أبصرت إبصارا حصل لى به أنس ، بخبر : أي عن الطريق وحاله ، بشهاب : أي بشعلة نار ، قبس : أي قطعة من النار مقبوسة ومأخوذة من أصلها ، تصطلون : أي تستدفئون بها ، قال الشاعر :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتيا فليصطل

جان : أي حية صغيرة سريعة الحركة ، ولّى مدبرا : أي التفت هاربا ، ولم يعقب : أي لم يرجع على عقبه ولم يلتفت إلى ما وراءه من قولهم : عقّب المقاتل إذا كرّ بعد الفرّ ، من غير سوء : أي من غير برص ولا نحوه من الآفات ، آيات : أي معجزات دالة على صدقك ، مبصرة : أي بينة واضحة ، جحدوا بها : أي كذبوا ، واستيقنتها أنفسهم : أي علمت علما يقينيا أنها من عند اللّه ، وعلوا : أي ترفعا واستكبارا .

ورث سليمان داود : أي قام مقامه فى النبوة والملك ، منطق الطير : أي فهم ما يريده كل طائر إذا صوّت ، حشر : أي جمع ، يوزعون : أي يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونون

مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وادي النمل : واد بأرض الشام لا يحطمنكم :

أي لا يكسرنكم ويهشمنكم ، أوزعنى : أي يسر لى .

التفقد : طلب ما فقد ، بسلطان مبين ، أي بحجة واضحة ، والإحاطة بالشيء علما علمه

من جميع جهاته ، وسبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة باليمن ، ونبأ :

أي خبر عظيم ، والعرش : سرير الملك ، عن السبيل : عن سبيل الحق والصواب والخبء :

هو المخبوء من كل شيء كالمطر وغيره من شئون الغيب .

تولّ عنهم : أي تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ، ليكون ما يقولونه بمسمع منك ، فانظر

: أي تأمل وفكّر ، يرجعون : أي يرجع بعضهم إلى بعض من القول ويدور بينهم بشأنه ، والملأ

: أشراف القوم وخاصة الملك ، ألا تعلوا علىّ :

(32/574)

أي ألا تتكبروا ولا تنقادوا للنفس والهوى ، مسلمين : أي منقادين خاضعين .

أفتونى : أي أشيروا علىّ بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث ، قاطعة أمرا :

أىّ باتّة فيه منفذته ، تشهدون : أي تحضروني ، والمراد بالقوة : القوة الحسية وكثرة الآلات ،

والمراد بالبأس : النجدة والثبات فى الحرب .

لا قبل لهم بها : أي لا طاقة لهم بمقاومتها ، صاغرون : أي مهانون محتقرون

العرش : سرير الملك ، مسلمين أي خاضعين منقادين ، العفريت من البشر :

الخبيث الماكر الذي يعفر أقرانه ، ومن الشياطين : المارد ، مقامك : أي مجلسك الذي

تجلس فيه للحكم ، قوى : أي قادر على حمله لا أعجز عنه ، أمين : أي على ما فيه من لآلئ

وجواهر وغيرها ، والكتاب : هو علم الوحى والشرائع ، والذي عنده علم هو سليمان

عليه السلام كما اختاره الرازي وقال إنه أقرب الآراء ، يرتد : أي يرجع ، والطرف : تحريك

الأجفان والمراد بذلك السرعة العظيمة ، مستقرا : أي ساكنا قارا على حاله التي كان

عليها ، الفضل : التفضل والإحسان ، ليبلونى : أي ليعاملنى معاملة المختبر ، أم أكفر أي

أقصر فى أداء واجب الشكر ، كفر أي لم يشكر .

نكروا لها عرشها : أي غيروا هيئته وشكله بحيث لا يعرف بسهولة ، مسلمين :

أي خاضعين منقادين ، صدها : أي منعها ، والصرح : القصر وكل بناء عال ، واللجة الماء

الكثير ، ممرد : أي ذو سطح أملس ومنه الأمرد للشاب الذي لا شعر فى وجهه ، القوارير :

الزجاج واحدها قارورة ، أسلمت : أي خضعت .

فريقان : أي طائفتان طائفة مؤمنة وأخرى كافرة ، يختصمون : أي يجادل بعضهم بعضا

ويحاجه ، السيئة : العقوبة التي تسوء صاحبها ، الحسنة : التوبة ، لولا : أي هلّا ، وهى

كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، اطيرنا : أي تطايرنا وتشاء منا بك ،

طائركم : أي ما يصيبكم من الخير والشر ، وسمى طائرا لأنه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم ، تفتنون : أي تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، والمراد بالمدينة :

الحجر ، والرهط والنفر : من الثلاثة إلى التسعة ، تقاسموا : أي احلفوا ، والبيات :

مباغتة العدو ومفاجأته بالإيقاع به ليلا ، وليه : أي من له حق القصاص من ذوى قرابته إذا قتل ، والمهلك : الهلاك ، والمكر : التدبير الخفي لعمل الشر ، والتدمير : الإهلاك ، خاوية :

أي خالية ، لآية : أي لعبرة وموعظة

يتطهرون : أي ينزهون أنفسهم ، ويتباعدون عما نفعله ، ويزعمون أنه من القاذورات ،

قدّرنا : أي قضينا وحكمنا ، الغابرين : أي الباقين فى العذاب .

العباد المصطفون : هم الأنبياء عليهم السلام ، الحدائق : البساتين واحدها حديقة ،

والبهجة : الحسن والرونق ، يعدلون : من العدول وهو الانحراف ، قرارا : أي مستقرا ،

الخلال : واحدها خلل وهو الوسط ، رواسى : أي ثوابت أي جبالا ثوابت ، الحاجز :

الفاصل بين الشيئين ، والمضطر : الذي أحوجته الشدة وألجأته الضراعة إلى اللّه ،

ويكشف : أي يرفع ، خلفاء : من الخلافة وهى الملك والتسلط ، يهديكم : أي يرشدكم ،

بين يدى رحمته : أي أمام المطر .

أيان : أي متى ، يبعثون : أي يقومون من القبور للحساب والجزاء ، ادّارك :

أي تدارك وتتابع والمراد التتابع فى الاضمحلال والفناء ، فى شك : أي فى حيرة عظيمة ،

عمون : واحدهم عم وهو أعمى القلب والبصيرة .

(34/574)

وقع : حدث وحصل ، والمراد من القول : ما دل من الآيات على مجىء الساعة ، تكلمهم :

أي تنبئهم وتخبرهم ، نحشر : أي نجمع ، فوجا : أي جماعة من الرؤساء ، يوزعون : أي

يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة ، ولم

تحيطوا بها علما : أي ولم تدركوا حقيقة كنهها ، ألم يروا : أي ألم يعلموا ، ليسكنوا فيه : أي

ليستريحوا فيه ويهدءوا ، مبصرا : أي ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب فى أمور

معاشهم ، الصور : البوق ، داخرين : أي أذلاء صاغرين ، جامدة : أي ثابتة فى أماكنها ،

أتقن : أي أحكم ، يقال رجل تقن (بكسر التاء وسكون القاف) أي حاذق بالأشياء ،

الحسنة : الإيمان وعمل الصالحات ، والسيئة : الإشراك بالله والمعاصي ، كبت : أي ألقيت

منكوسة .

البلد : هى مكة ، أتلو القرآن : أي أواظب على تلاوته ، من المنذرين : أي المخوفين قومهم من عذاب اللّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 19 صـ 119 : حـ 20 صـ 26 ﴾ . باختصار .

(35/574)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة النمل

وهي مكية 113 - من ذلك قوله جل وعز طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين آية 1 تلك أي هذه آيات القرآن الذي كنتم توعدون به وكتاب مبين أي وآيات كتاب مبين 2 - وقوله جل وعز إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم آية 4 قال أبو إسحق أي جعلنا جزاءهم على الكفر هذا وقيل أي زينا لهم الطاعة والإيمان لأنهما من أعمال الخلق 3 - ثم قال جل وعز فهم يعمهون آية 4 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال فهم يترددون في الضلالة 4 - ثم قال جل وعز وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم آية 6 أي يلقى عليك فتتلقاه 5 - وقوله جل وعز إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا آية 7 قال أبو عبيدة أي

أبصرت قال أبو جعفر ومنه قيل إنس لأنهم مرئيون 6 - ثم قال جل وعز سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس آية 7

قال أبو عبيدة الشهاب النار قال أبو إسحق يقال لكل ذي نور شهاب قال أحمد بن يحيى أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه والجذوة كذلك إلا أنها أغلظ من الشهاب وسميت جذوة لأنها أصل الشجرة كما هي قال أبو جعفر يقال قبست النار أقبسها قال قبسا والاسم القبس 7 - ثم قال جل وعز لعلكم تصطلون آية 7 روى عكرمة عن ابن عباس قال كانوا شاتين وكانوا قد أخطأوا الطريق 8 - ثم قال جل وعز فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن

حولها آية 8

أي فلما جاءها موسى نودي أن بورك من في النار ومن حولها روى عطاء بن السائب عن سعبد بن جبير عن ابن عباس قال النار نور الله جل وعز نادى موسى صلى الله عليه وسلم وهو في النور ومن حولها الملائكة وروى موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب النار نور الله جل وعز ومن حولها موسى والملائكة صلى الله عليه وسلم وقيل من في النار الملائكة الموكلون بها ومن حولها الملائكة أيضا والمعنى يقولون سبحان الله رب العالمين

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ولم يعقب ولم يرجع 9 - وقوله جل وعز إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم آية 10 في معناه أقوال أ - منها أن في الكلام حذفا والمعنى إني لا يخاف لدي المرسلون إنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلا من ظلم ثم تاب فإنه لا يخاف

ب وقيل المعنى لا يخاف لدي المرسلون لكن من ظلم من المرسلين وغيرهم ثم تاب فليس يخاف ج - وقيل إلا بمعنى الواو وذا ليس بجيد في العربية 10 - وقوله جل وعز وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء آية 12 المعنى وأخرجها تخرج بيضاء وروى مقسم عن ابن عباس من غير سوء من غير برص

11 - ثم قال جل وعز في تسع آيات آية 12 المعنى من تسع آيات وفي بمعنى من لقربها منها كما تقول خذ لي عشرا من الإبل فيها فحلان أي منها وقال الأصمعي في قول امرئ القيس وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهرا في ثلاثة أحوال في بمعنى من ويجوز أن تكون بمعنى مع والمعنى وألق عصاك وأدخل يدك في جيبك آيتان من تسع آيات والتسع الآيات فيما روي كون العصا حية وكون يده بيضاء من غير سوء والجدب الذي أصابهم في بواديهم ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم

12 - ثم قال جل وعز إلى فرعون وقومه آية 12

تخرج بيضاء إلى فرعون وقومه وقيل المعنى إلى فرعون وقومه مبعوث ومرسل وهذا قول

الفراء 13 - وقوله جل وعز فلما جاءتهم آياتنا مبصرة آية 13 أي واضحة ومبصرة أي مبينة 14 - وقوله جل وعز وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا آية 14 أي تكبرا أن ؤمنوا عن بموسى صلى الله عليه وسلم وقد جاءهم بالبراهين والآيات 15 - وقوله جل وعز وورث سليمان داود آية 16 سبيل الولد أن يرث أباه فالفائدة في هذا أنه من وراثة العلم والقيام بأمر الناس ومن هذا العلماء ورثة الأنبياء

(37/574)

ويروى أنه كان لداود عليه السلام تسعة عشر ولدا فورثه سليمان في النبوة والملك دونهم وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير 16 - ثم قال جل وعز وأوتينا من كل شئ آية 16 أي من كل شئ يؤتاه الأنبياء والناس وهذا على التكثير كما يقال ما بقيت أحدا حتى كلمته في

أمرك 17 - وقوله جل وعز فهم يوزعون آية 17 روى معمر عن قتادة قال يرد أولهم على آخرهم قال أبو جعفر أصل وزعته كففته ومنه لا بد للناس من وزعة ومنه لما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن

روى عطاء الخراساني عن ابن عباس فهم يوزعون قال على كل صنف منهم وزعة يرد

أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يصنع الملوك فهذا قول بين ومنه وزع فلان فلانا عن الظلم إذا كفه عنه كما قال النابغة على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألما يصح والشيب وازع 18 - ثم قال جل وعز حتى إذا أتوا على واد النمل آية 18 يروى أنه واد كان بالشام نمله على قدر الذباب وقرأ سليمان التيمي يا أيها النمل ادخلوا مساكنكن لا يحطمنكن من سليمان بجنوده

19 - وقوله جل وعز فتبسم ضاحكا من قولها آية 19 ويقرأ فتبسم ضحكا من قولها ويقال كذلك ضحك الأنبياء 20 - وقوله جل وعز وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك آية 19 قال أهل التفسير أوزعني أألهمني وهو مأخوذ من الأول أي كفني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك أي كفني عما يباعد منك 21 - وقوله جل وعز وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد آية 20 قال أبو مجلز قال ابن عباس لعبد الله بن سلام أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل قال أتسألني وأنت تقرأ القرآن قال نعم ثلاث مرات قال لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير

(38/574)

قال احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه أو قال مسافته وكان الهدهد يعرف ذلك دون الطير فتفقده وفي غير هذا عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له كيف هذا والصبي يصيده فقال له ابن عباس إذا وقع القضاء عمي البصر وقال عطاء حدثنا مجاهد عن ابن عباس قال كان سليمان يجلس وتجعل السرر بين يديه ويأمر الإنس فيجلسون عليها ثم يأمر الجن فيجلسون من ورائهم ثم يأمر الشياطين فيجلسون من ورائهم ثم يظلهم الطير وتقلهم في الريح مسيرة شهر

ورواحها شهر فتفقد الهدهد من الطير فقال لأعذبنه عذابا

شديدا آية 21 وكان تعذيبه إياه نتفه وإلقاءه إياه في الأرض لا يمتنع من نملة ولا هامة قال عبد الله بن شداد كان تعذيبه اياه أن ينتفه ويلقيه في الشمس ثم قال جل وعز أو ليأتيني بسلطان مبين آية 21 أي بحجة بينة 22 - وقوله جل وعز فمكث غير بعيد آية 22 أي غير وقت بعيد والتقدير فمكث سليمان غير طويل من حين سأل عن الهدهد حتى جاء الهدهد فقال أي فقال الهدهد حين سأله سليمان عن تخلفه أحطت بما لم تحط به في الكلام حذف والمعنى ثم جاء فسأله سليمان عن غيبته فقال أحطت بما لم تحط به

ومعنى أحطت بالشئ علمته من جميع جهاته 23 - وقوله جل وعز وجئتك من سبأ بنبأ يقين آية 22 قيل سبأ اسم رجل وقيل هي مدينة قرب اليمن 24 - وقوله جل وعز إني وجدت امرأة تملكهم آية 23 قال قتادة هي امرأة يقال لها بلقيس ابنة شراحيل وكان أحد

أبويها من الجن ومؤخر قدمها كحافر الحمار

25 - ثم قال جل وعز وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم آية 23 أي من كل شئ يؤتاه مثلها ولها عرش عظيم أي سرير كبير عظيم الخطر

(39/574)

---

26 - وقوله جل وعز ألا يسجدوا لله آية 25 هي أن دخلت عليها لا والمعنى لئلا يسجدوا لله ويجوز أن يكون أن بدلا من أعمالهم وقرأ ابن عباس وعبد الرحمن السلمي والحسن وأبو جعفر وحميد الأعرج ألا يا اسجدوا لله والمعنى على هذه القراءة ألا يا هؤلاء اسجدوا لله كما قال الشاعر يا لعنة الله والأقوام كلهم والصالحين على سمعان من جار فالمعنى يا هؤلاء لعنة الله

وعلى هذه القراءة هي سجدة وعلى القراءة الأولى ليست بسجدة لأن المعنى وزين لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله والكلام على القراءة الأولى متسق وعلى القراءة الثانية قد اعترض في الكلام شئ ليس منه 27 - ثم قال جل وعز الذي يخرج الخب ء في السموات والأرض آية 25 روى ابن نجيح عن مجاهد قال الخب ء ما غاب وروى معمر عن قتادة قال الخب ء السر وقيل الخب ء في السموات المطر وفي الأرض النبات والأول أولى أي ما غاب

في السموات والأرض ويدل عليه قوله ويعلم ما يخفون وما يعلنون

وفي قراءة عبد الله يخرج الخب ء من السموات والأرض 28 - وقوله جل وعز إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون آية 28 قيل المعنى فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم وقيل إنما أدبه بأدب الملوك أي فألقه إليهم ولا تقف منتظرا ولكن تول ثم ارجع 29 - وقوله جل وعز قالت يا أيها الملأ آية 29 في الكلام حذف والمعنى فذهب فألقاه إليهم فسمعها تقول يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم قيل قالت كريم لكرم صاحبه وشرفه وقيل لأنه كان مختوما

وقيل قالت كريم من أجل ما فيه

(40/574)

وكان فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله سليمان إلى بلقيس ألا تعلوا علي وائتوني مسلمين وكانت كتب الأنبياء مختصرة واحتذى الناس عليه من عبد الله قال عاصم عن الشعبي قال كتب النبي صلى الله عليه وسلم أربعة كتب كان يكتب باسمك اللهم فلما نزلت بسم الله مجريها ومرساها كتب بسم الله فلما نزلت قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن كتب بسم الله الرحمن فلما نزلت إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم كتب بسم الله

الرحمن الرحيم قال عاصم قلت للشعبي أنا رأيت كتاب النبي صلى الله عليه وسلم فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقال ذاك الكتاب الثالث

30 – وقوله جل وعز ألا تعلوا علي وائتوني مسلمين آية 31 أي أن لا تتكبروا ويجوز أن يكون المعنى بأن لا تعلوا علي أي كتب بترك العلو ويجوز على مذهب الخليل وسيبويه أن تكون أن بمعنى أي مفسرة كما قال وانطلق الملأ منهم أن امشوا ويجوز أن يكون المعنى إني ألقي إلي أن لا تعلوا علي 31 – وقوله جل وعز قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها آية 34 أي إذا دخلوها عنوة

ويقال لكل مدينة يجتمع الناس فيها قرية من قريت الشئ أي جمعته 32 – وقوله جل وعز وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون آية 34

يجوز أن يكون وكذلك يفعلون من قول الله جل وعز ويجوز أن يكون من قولها 33 – وقوله جل وعز وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون آية 35 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال وجهت بغلمان عليهم لبس الجواري وبجوار عليهن لبس الغلمان وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال أرسلت بمائتي وصيف ووصيفة وقالت إن كان نبيا فسيلعم بن الذكور من الإناث فأمرهم فتوضؤوا فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفه قال هو من الإناث ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور قال أبو جعفر وقيل وجهت إليه بلبنة من

ذهب في خرقة حرير فأمر سليمان صلى الله عليه وسلم بلبن من ذهب فألقي تحت الدواب حتى وطأته

(41/574)

وهذا أشبه لقوله أتمدونني بمال ويجوز أن يكون وجهت بهما جميعا ومعنى قوله تعالى لا قبل لهم بها أي لا يطيقونها ولا يثبتون

لها 34 - وقوله عز وجل قال يا أيها الملأ أيكم يأتني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين آية 38 قيل إنما قال سليمان هذا لانهم إذا أسلموا لم يحل لهم أن يأخذ لهم شيئا وقيل إنما أراد أن يظهر بذلك آية معجزة 35 - وقوله جل وعز قال عفريات سنة من الجن أنا آتيك به قبل أن تكون من مقامك آية 39 وقرأ أبو رجاء قال عفرية بتحريك الياء قال قتادة هو الداهية قال أبو جعفر يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عفر وعفرية وعفريت وعفارية وقيل عفريت أي رئيس قال وهب إن العفريت اسمه كوذن عمرو وقوله أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك أي من مجلسك الذي تقضي فيه بين الناس قال أبو جعفر يقال مقام ومقامة للموضع الذي يقام فيه 36 - وقوله جل وعز قال الذي عنده علم من الكتاب آية 40 في معنى هذا اقوال روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال كان يعرف اسم الله جل

وعز الذي إذا دعي به أجاب وهو يا ذا الجلال والإكرام

وقال غيره اسمه آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل فهذا قول وقيل إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه لما قال له الجني أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وادعى شيئا يبعد أن يكون مثله قال له سليمان أنا آتيك به في وقت أقرب من هذا بقدرة الله جل وعز على أن نهلكه وتعيده موضعنا هذا من قبل أن تطرف وقال إبراهيم النخعي هو جبريل صلى الله عليه وسلم

37 - وفي قوله جل وعز قبل أن يرتد إليك طرفك آية 40 فيه قولان أيضا روى إسماعيل بن أبي خالد عن سعيد بن جبير قال فرفع طرفه ثم رده فإذا بالعرش وقال مجاهد من قبل مد الطرف ثم قال مجاهد كما بيننا وبين الحيرة وهو يومئذ بالكوفة في كندة واستدل من قال إن قائل هذا سليمان بقوله قال هذا من فضل ربي إلى آخر الآية

قال عبد الله بن شداد فظهر العرش من نفق تحت

(42/574)

الأرض 38 - وقوله جل وعز قال نكروا لها عرشها تنظر أتهتدي آية 41 أي غيروه قيل جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه وقال قتادة نكروا لها عرشها غيروه بزيادة أو نقصان ننظر

أتهتدي قال مجاهد أي أتعرفه 39 - وقوله جل وعز قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو آية

42 قال قتادة شبهته به لأنها خلفته خلفها وخرجت

40 - ثم قال جل وعز وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين آية 42 قال مجاهد يقوله

سليمان عليه السلام 41 - وقوله جل وعز وصدها ما كانت تعبد من دون الله آية 43

قال مجاهد أي كفرها قال أبو جعفر والمعنى على هذا وصدها اعتيادها ما كانت عليه

من الكفر وبين ذلك بقوله إنها كانت من قوم كافرين وقال يعلى بن مسلم قرأت على سعيد بن

جبير إنها

كانت من قوم كافرين فقال أنها بالفتح وقال إنما وصفها وليس يستأنف وفي معناه قول آخر

وهو أن يكون المعنى وصدها عما كانت تعبد من دون الله ثم حذف عن كما تحذف

حروف الخفض مع ما يتعدى إلى مفعولين أحدهما بحرف

42 - وقوله جل وعز قيل لها ادخلي الصرح آية 44 قال مجاهد هو بركة ماء ألبسها

سليمان زجاجا وقال قتادة كان من قوارير خلفه ماء فلما رأته حسبته لجة أي ماء وقيل

الصرح القصر عن أبي عبيدة كما قال تحسب أعلامهن الصروحا وقيل الصرح الصحن كما

نقل هذه صرحة الدار وقاعتها بمعنى وحكى أبو عبيد في الغريب المصنف أن الصرح كل

بناء عال مرتفع وأن الممرد الطويل

قال أبو جعفر أصل هذا أنه يقال لكل ما عمل عملا واحدا صرح من قولهم لبن صريح إذا لم

يشبه ماء ومن قولهم صرح بالأمر ومنه عربي صريح

وقال الفراء الصرح الممرد هو الأملس أخذ من قول العرب شجرة مرداء إذا سقط ورقها عنها

(43/574)

قال الفراء وتمرد الرجل إذا أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه وقال غيره ومنه رملة مرداء إذا كانت لا تنبت ورجل أمرد وقيل الممرد المطول ومنه قيل لبعض الحصون مارد 43 - وقوله جل وعز فإذا هم فريقان يختصمون آية 45 قال مجاهد أي مؤمن وكافر قال والخصومة قولهم قالوا أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه فهذه الخصومة

وقيل تقول كل فرقة نحن على الحق 44 - وقوله جل وعز قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة آية 46 قال مجاهد أي بالعذاب قبل الرحمة قال أبو جعفر وفي الكلام حذف والمعنى والله أعلم فاستعجلت الفرقة الكافرة بالعذاب فقال لهم صالح لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله أي هلا تستغفرون الله 45 - وقوله جل وعز قالوا اطيرنا بك وبمن معك آية 47 قال مجاهد اطيرنا أي تشاءمنا 46 - وقوله جل وعز قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون آية 47 قال الضحاك أي الأمر الذي أصابكم عند الله

أي الأمر لله أصابكم به بما قدمت أيديكم

وقيل ما تطيرتم به عقوبته عند الله تلحقكم وقيل طائركم ما يطير لكم بل أنتم قوم تفتنون أي تختبرون 47 - وقوله جل وعز وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون آية 48 قال جعفر بن سليمان تلا مالك بن دينار هذه الآية فقال كم في كل حي وقبيلة ممن يفسد وقال عطاء بن أبي رباح بلغني أنهم كانوا يقرضون الدراهم 48 - وقوله جل وعز قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله آية 49

قال قتادة تحالفوا على أن يفتكوا بصالح ليلا فمروا يتعانقون أي يسرعون فأرسل الله عليهم صخرة فأهلكتهم قال مجاهد تقاسموا على أن يأتوا صالحا ليلا فأهلكوا وهلك قومهم أجمعون 49 - وقوله جل وعز ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون آية 54 أي واذكر لوطا أو وأرسلنا لوطا ثم قال أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أي وأنتم تبصرون أي تعلمون أنها فاحشة فذلك أعظم لذنبكم

وقيل يرى بعضكم ذلك من بعض ولا يكتمه منه

(44/574)

قال مجاهد في قوله تعالى إنهم أناس يتطهرون أي عن أدبار الرجال والنساء على الاستهزاء بهم وقال قتادة عابوهم والله بغير عيب فإنهم يتطهرون من أعمال السوء 50 – وقوله جل وعز قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آية 59 وروى الحكم بن ظهير عن السدي ووكيع وأبو عاصم عن سفيان وسلام على عباده الذين اصطفى قالا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اصطفاهم الله لنبيه صلى الله عليه وسلم 51 – وقال جل وعز آلله خير أم ما يشركون آية 59 وليس فيما يشركون خير فالمعنى أثواب الله خير أم ثواب ما يشركون

وجواب آخر أجود من هذا يكون المعنى الخير قبل في هذا أم في هذا الذي يشركون به في العبادة كما قال أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء وحكى سيبويه السعادة أحب إليك أم الشقاء وهو يعلم أن السعادة أحب إليه والمعنى أم ما تشركون بالله خير أم الذي يهديكم في

ظلمات البر والبحر إذا ضللتم الطريق 52 – وقوله جل وعز بل هم قوم يعدلون آية 60 أي يعدلون عن القصد والحق ويجوز أن يكون المعنى يعدلون بالله جل وعز

53 – وقوله جل وعز فأنبتنا به حدائق ذات بهجة آية 60 روى معمر عن قتادة قال النخل الحسان قال أبو جعفر وهو من قولهم حدق به أي أحيط به كما قال وقد حدقت بي المنية واستبطأت أنصاري 54 – وقوله جل وعز بل ادارك علمهم في الآخرة آية 66 ويقال

بل ادرك أي كمل لأنهم عاينوا الحقائق وروى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس أنه قرأ بلى أدارك بفتح الهمزة على الاستفهام وبتشديد الدال علمهم في الآخرة وقال أي لم يدرك وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أي غاب والمعروف من قراءته بلى ادارك أي تتابع يقولون تكون ولا تكون وإلى كذا تكون قال أبو جعفر في آدارك يحيى هذه ألف التوقيف أي أدارك علمهم في الدنيا حقيقة الآخرة أي لم يدرك وربما جاء مثل هذا

(45/574)

بغير ألف استفهام وقرأ ابن محيصن بل أدارك علمهم وأنكر هذا أبو عمرو قال لأن بل لا يقع بعدها إلا ايجاب قال أبو جعفر وهو جائز على أن يكون المعنى بل لم يدرك علمهم وبل يقال لهم هذا

55 - وقوله جل وعز قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعلجون آية 72 قال مجاهد أي أعجلكم الرحمن وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ردف لكم أي اقترب لكم قال أبو جعفر وهو من ردفه إذا اتبعه وجاء في أثره وتكون اللام أدخلت لأن المعنى اقترب لكم ودنا لكم أو تكون متعلقة بمصدر 56 - وقوله جل وعز وإذا وقع القول عليهم آية 82 أي وجب

قال الفراء أي وقع السخط عليهم 57 - وقوله جل وعز أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم آية 82 وقرأ ابن عباس تكلمهم

وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير تكلمهم وقرأ أبي

تنبئهم قال إبراهيم تخرج الدابة من مكة وروى أبو الطفيل عن حذيفة بن اليمان قال تخرج الدابة ثلاث خرجات خرجة بالبوادي ثم تنكمي وخرجة بالقرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء وخرجة من أفضل المساجد وأشرفها وأعظمها حتى ظننا أنه يسمى المسجد الحرام ولم يسمه فيتهارب وكان الناس وتبقى جميعة من المسلمين فتخرج فتجلو وجوههم ثم لا ينجو منها هارب ولا يلحقها طالب وإنها لتأتي الرجل وهو يصلي فتقول له أتمتنع روى بالصلاة فتخطه ولم وتخطم وجه الكافر وتجلو وجه المؤمن

59 - وقوله جل وعز ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون آية 85 روى عطية عن ابن عمر قال ذلك إذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وقوله جل وعز ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله آية 87 حدثنا أحمد بم محمد البراثي قال حدثنا علي بن الجعد عن مقاتل بن حيان في قوله تعالى إلا من شاء الله قال جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وحدثنا الحسين بن عمر الكوفي قال حدثنا هناد بن

السري قال حدثنا وكيع عن شعبة عن عمارة بن أبي حفصة عن حجر الهجري عن سعيد بن جبير في قوله إلا من شاء الله قال هم الشهداء هم ثنية الله جل وعز متقلدوا السيوف حول العرش

60 – ثم قال جل وعز وكل أتوه داخرين آية 87 قال قتادة أي صاغرين 61 – ثم قال جل وعز وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب آية 88 لأنها قد بست وجمعت

62 – وقوله جل وعز من جاء بالحسنة فله خير منها آية 89 قال عبد الله بن مسعود لا إله إلا الله وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس من جاء بالحسنة قال لا إله إلا الله فله خير منها وصل إليه

الخير ومن جاء بالسيئة وهي الشرك فكبت وجوههم في النار وقال الحسن ومجاهد وقيس بن سعد من جاء بالحسنة ب لا إله إلا الله ومن جاء بالسيئة الشرك قال أبو جعفر ولا نعلم أحدا من أهل التفسير قال غير هذا

63 – وقوله جل وعز وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها آية 93 أي في أنفسكم وغيرها .

تمت بعونه تعالى سورة النمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 4 صـ 151.113 ﴾

وقال الفراء :

ومن سورة النمل

تلك آيات القرآن وكتاب مبين . خفض (وَكِتابٍ مُبِينٍ) يريد : وآيات كتاب مبين ، ولو قرىء «1» (وكتاب مبين) بالردّ على الآيات يريد : وذلك كتاب مبين . ولو كان نصبا

---

(1) جواب الشرط محذوف أي لساغ مثلا .

على المدح كما يقال : مررت على رجل جميل وطويلا شرحا «1» ، فهذا وجه ، والمدح مثل قوله :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم «2»

والمدح تنصب معرفته ونكرته .

وقوله : هُدىً وبُشْرى [2] رفع . وإن شئت نصبت . النّصب على القطع «3» ، والرفع

على الاستئناف. ومثله فى البقرة: (هُدىً «4» لِلْمُتَّقِينَ) وفى لقمان: (هدى «5» ورحمة) للمحسنين) مثله.

وقوله: أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ [7] نوّن عاصم «6» والأعمش فى الشهاب والقبس، وأضافه أهل المدينة: (بِشِهابٍ قَبَسٍ) وهو بمنزلة قوله: (وَلَدارُ «7» الْآخِرَةِ) ممّا يضاف إلى اسمه «8» إذا اختلف أسماؤه «9».

وقوله: نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ [8] تجعل (أن) فى موضع نصب إذا أضمرت اسم موسى فى (نُودِيَ) وإن لم تضمر اسم موسى كانت (أن) فى موضع رفع: نودى ذلك «10». وفى حرف أبىّ:

(أن بوركت النار) (وَمَنْ حَوْلَها) يعنى الملائكة. والعرب تقول: باركك اللّه وبارك فيك وبارك عليك.

---

(1) من معانيه القوى والطويل.

(2) انظر ص 105 من الجزء الأول.

(3) يريد النصب على الحال.

(4) الآية 2.

(5) الآية 3.

(6) وكذا حمزة والكسائي وخلف ويعقوب.

(7) الآية 109 سورة يوسف.

(8) ا: «نفسه».

(9) فى الطبري: «أسماه».

(10) ا: «ذاك».

(49/574)

وقوله: إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ [9] هذه الهاء هاء «1» عماد. وهو اسم لا يظهر. وقد فسّر. وقوله: [كَأَنَّها جَانٌّ [10]] الجانّ: الحيّة: التي ليست بالعظيمة ولا الصغيرة. وقوله: (وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ):

لم يلتفت.

وقوله: (إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) ثم استثنى فقال: (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ) ثم بدّل حسنا بعد سوء) [11] فهذا مغفور له. فيقول القائل. كيف صيّر خائفا؟ قلت: فى هذه وجهان:

أحدهما أن تقول:

إن الرّسل معصومة مغفور لها آمنة يوم القيامة. ومن خلط عملا صالحا وآخر سيّئا فهو يخاف ويرجو:

فهذا وجه . والآخر أن تجعل الاستثناء من الذين تركوا فى الكلمة لأنّ المعنى : لا يخاف المرسلون إنما الخوف على غيرهم .

ثم استثنى فقال : إلّا من ظلم فإنّ هذا لا يخاف يقول : كان مشركا فتاب وعمل حسنا فذلك مغفور له ليس بخائف .

وقد قال بعض النحويّين : إن (إلا) فى اللغة بمنزلة الواو ، وإنما معنى هذه الآية : لا يخاف لدىّ المرسلون ولا من ظلم ثم بدّل حسنا . وجعلوا مثله قول «2» اللّه : (لِئَلَّا يَكُونَ «3» لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا) أي ولا الذين ظلموا . ولم أجد العربيّة تحتمل ما قالوا ، لأنى لا أجيز قام الناس إلا عبد اللّه ، وهو قائم إنما الاستثناء أن يخرج الاسم الذي بعد إلّا من معنى الأسماء قبل إلّا . وقد أراه جائزا أن تقول : عليك ألف سوى ألف آخر ، فإن وضعت (إلّا) فى هذا الموضع صلحت وكانت (إلّا) فى تأويل ما قالوا . فأمّا مجرّدة 135 ب قد استثنى قليلها من كثيرها فلا . ولكن مثله ممّا يكون فى معنى إلّا كمعنى الواو وليست بها .

---

(1) هو المعروف عند البصريين بضمير الشأن .

(2) ش : «فى قول» . [. . . . .]

(3) الآية 150 سورة البقرة .

قوله : (خالِدِينَ «1» فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ) هو فى المعنى : إلّا الذي شاء ربّك من الزيادة . فلا تجعل إلا (فى «2» منزلة) الواو ولكن بمنزلة سوى . فإذا كانت سوى فى موضع إلّا صلحت بمعنى الواو لأنك تقول : عندى مال كثير سوى هذا أي وهذا عندى كأنك قلت : عندى مال كثير وهذا . وهو فى سوى أنفذ منه فى إلّا لأنك قد تقول : عندى سوى هذا ، ولا تقول : إلّا هذا .

وقوله : وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ [12] معناه : افعل هذا فهى آية فى تسع . ثم قال (إِلى فِرْعَوْنَ) ولم يقل : مرسل ولا مبعوث لأنّ شأنه معروف أنه مبعوث إلى فرعون . وقد قال الشاعر :

رأتنى بحبليها فصدّت مخافة وفى الحبل روعاء الفؤاد فروق «3»

أراد : رأتنى أقبلت بحبليها : بحبلى النّاقة فأضمر فعلا ، كأنه قال : رأتنى مقبلا .

وقوله (وَإِلى «4» ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً) نصب بإضمار (أرسلنا) .

وقوله : وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً [14] يقول : جحدوا بالآيات التسع بعد ما استيقنتها أنفسهم أنها من عند اللّه ، ظلما وعلوّا . وفى قراءة عبد اللّه (ظلما

وعليّا) مثل قوله:

(وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ «5» عِتِيًّا) و(عتيّا).

وقوله: وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ [16] كان لداوود - فيما ذكروا - تسعة عشر ولدا ذكرا، وإنما خصّ سليمان بالوراثة لأنها وراثة الملك.

وقوله (عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ): معنى كلام الطير، فجعله كمنطق الرجل إذ فهم، وقد قال الشاعر:

---

(1) الآيتان 107، 108 سورة هود.

(2) ا: «بمنزلة».

(3) انظر ص 230 من الجزء الأول.

(4) الآية 73 سورة الأعراف.

(5) الآية 8 سورة مريم.

عجبت لها أنّى يكون غناؤها رفيعا ولم تفتح بمنطقها فما

فجعله الشاعر «1» كالكلام لمّا ذهب به إلى أنها تبكى.

وقوله : وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [17] كانت هذه الأصناف مع سليمان إذا ركب (فَهُمْ يُوزَعُونَ) يردّ أوّلهم على آخرهم حتّى يجتمعوا .

وهى من وزعت الرجل ، تقول : لأزعنّكم عن الظلم فهذا من ذلك .

وأمّا قوله : أَوْزِعْنِي [19] فمعناه : ألهمنى .

وقوله : فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ [22] قرأها الناس بالضمّ ، وقرأها عاصم بالفتح : فمكث .

وهى فى قراءة عبد اللّه (فتمكّث) ومعنى (غَيْرَ بَعِيدٍ) غير طويل من الإقامة . والبعيد والطويل متقاربان .

وقوله (فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ) قال بعض العرب : أحطّ فأدخل الطاء مكان التّاء . والعرب إذا لقيت الطاء التاء فسكنت الطاء قبلها صيّروا الطاء تاء ، فيقولون : أحتّ ، كما يحوّلون الظاء تاء فى قوله (أوعتّ «2» أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ) والذال والدال تاء مثل (أختّم) «3» ورأيتها فى بعض مصاحف عبد اللّه (وأختّم) ومن العرب من يحول التاء إذا كانت بعد الطاء طاء فيقول : أحط .

وقوله (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) القراء على إجراء (سبأ) لأنه – فيما ذكروا – رجل وكذلك فأجره إن كان اسما لجبل . ولم يجره أبو عمرو بن العلاء . وزعم الرؤاسيّ أنه سأل أبا عمرو عنه فقال : لست أدرى ما هو . وقد ذهب مذهبا إذ لم يدر ما هو لأنّ العرب إذا سمّت بالاسم المجهول تركوا إجراءه كما قال الأعشى :

(1) هو حميد بن ثور . وهو فى الحديث عن حمامة تغرد وفى ديوانه 27 : «فصيحا» فى مكان «رفيعا» .

(2) فى الآية 136 سورة الشعراء . وهى فى المصحف : «أ وعظت . . .» .

(3) فى الآية 81 سورة آل عمران . وهى فى المصحف : «وأخذتم» .

(52/574)

وتدفن منه الصّالحات وإن يسىء يكن ما أساء النار فى رأس كبكبا «1»

136 ا فكأنه جهل الكبكب . وسمعت أبا السفّاح السّلولى يقول : هذا أبو صعرور قد جاء ، فلم يجره لأنه ليس من عادتهم فى التسمية .

قال الفرّاء : الصعرور شبيه بالصمغ .

وقال الشاعر فى إجرائه :

الواردون وتيم فى ذرا سبأ قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس

ولو جعلته اسما للقبيلة إن كان رجلا أو جعلته اسما لما حوله إن كان جبلا لم تجره أيضا .

وقوله : أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ [25] تقرأ (أَلّا يسجدوا) ويكون (يَسْجُدُوا) فى موضع نصب ، كذلك قرأها حمزة . وقرأها أبو عبد الرحمن «2» السّلمى والحسن وحميد الأعرج مخفّفة

(ألا يسجدوا) على معنى ألا يا هؤلاء اسجدوا فيضمر هؤلاء ، ويكتفى منها بقوله (يا)

قال : وسمعت بعض العرب يقول : ألا يا ارحمانا ، ألا يا تصدّقا علينا قال : يعنينى وزميلى .

وقال الشاعر – وهو الأخطل –

ألا يا أسلمي يا هند هند بنى بدر وإن كان حيّانا عدى آخر الدهر

حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدثنى بعض المشيخة – وهو الكسائي – عن عيسى الهمداني قال : ما كنت أسمع المشيخة يقرءونها إلّا بالتخفيف على نيّة الأمر . وهى فى قراءة عبد اللّه (هلّا تسجدون للّه) بالتاء فهذه حجّة لمن خفّف . وفى قراءة أبىّ (ألا تسجدون للّه الذي يعلم سرّكم وما تعلنون) وهو وجه الكلام لأنّها سجدة ومن قرأ (ألّا يسجدوا) فشدّد فلا ينبغى لها أن تكون سجدة لأن المعنى : زين لهم الشيطان ألّا يسجدوا واللّه أعلم بذلك .

---

(1) قبله :

ومن يغترب عن قومه لا يزل يرى مصارع مظلوم مجرا ومسحبا

وكبكب : اسم جبل . وانظر اللسان (كبكب)

(2) وقرأ أيضا بالتخفيف الكسائي ورويس وأبو جعفر .

وقوله (يُخْرِجُ الْخَبْءَ) مهموز . وهو الغيب غيب السّموات وغيب الأرض . ويقال : هو الماء الذي ينزل من السّماء والنبت من الأرض وهى فى قراءة عبد اللّه (يخرج الخبء من السّموات) وصلحت (فى) مكان (من) لأنك تقول : لأستخرجنّ العلم الذي فيكم منكم ، ثم تحذف أيّهما شئت أعنى (من) و(فى) فيكون المعنى قائما على حاله .

وقوله : ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ [28] يقول القائل : كيف أمره أن يتولّى عنهم وقد قال (فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ) وذلك فى العربيّة بيّن أنه استحثّه فقال : اذهب بكتابي هذا وعجّل ثم أخّر (فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ) ومعناها التقديم . ويقال : إنه أمر الهدهد أن يلقى الكتاب ثم يتوارى عنها ففعل : ألقى الكتاب وطار إلى كوّة فى مجلسها . واللّه أعلم بصواب ذلك .

وقوله : إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ [29] جعلته كريما لأنه كان مختوما ، كذلك حدّثت . ويقال : وصفت الكتاب بالكرم لقومها لأنّها رأت كتاب ملك عندها فجعلته كريما لكرم صاحبه .

ويقال : إنها قالت (كَرِيمٌ) قبل أن تعلم أنه من سليمان . وما يعجبنى ذلك لأنها كانت قارئة قد قرأت الكتاب قبل أن تخرج إلى ملئها .

وقوله : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ [30] مكسورتان أعنى إنّ وإنّ . ولو فتحتا جميعا كان جائزا ، على قولك : ألقى إلىّ أنه من سليمان وأنّه بسم اللّه الرحمن الرحيم فموضعهما رفع على التكرير على الكتاب : ألقى إلىّ أنه من سليمان وإن شئت كانتا فى موضع نصب لسقوط الخافض منهما . وهى فى قراءة أبىّ (وأن بسم اللّه الرحمن الرحيم) ففى ذلك حجّة لمن فتحهما لأنّ (أن) إذا فتحت ألقها مع الفعل أو ما يحكى لم تكن إلّا مخفّفة النون .

وأما قوله : أَلَّا تَعْلُوا [31] فألفها مفتوحة لا يجوز كسرها . وهى فى موضع رفع إذا كررتها على (أُلْقِيَ) ونصب على : ألقى إلىّ الكتاب بذا ، وألقيت الباء فنصبت . وهى فى قراءة عبد اللّه (وإنه من سليمان وإنه بسم اللّه الرحمن الرحيم) فهذا يدلّ على الكسر لأنها معطوفة على : إنى ألقى

(54/574)

إلىّ وإنه من سليمان . ويكون فى قراءة أبىّ أن تجعل (أن) التي فى بسم اللّه الرحمن الرحيم هى (أن) التي فى قوله (أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى) كأنها فى المعنى . ألقى إلىّ أن لا تعلوا علىّ . فلمّا وضعت فى (بسم اللّه) كرّرت على موضعها فى (أَنْ لا تَعْلُوا) كما قال اللّه (أَيَعِدُكُمْ «1»

أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرابًا وَعِظاماً أَنَّكُمْ) فأنكم مكررة ومعناها واحد والله أعلم. ألا ترى أن المعنى: أيعدكم أنكم مخرجون إذا كنتم ترابا وعظاما.

وقوله: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي [32] جعلت المشورة فتيا. وذلك جائز لسعة العربية.

وقوله (ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً) وفى قراءة عبد الله (ما كنت قاضية أمرا) والمعنى واحد. تقول لا أقطع أمرا دونك، ولا أقضى أمرا دونك.

وقوله: قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً [34] جواب لقولهم (نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ) فقالت: إنهم إن دخلوا بلادكم أذلوكم وأنتم ملوك. فقال الله (وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ).

وقوله: وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ [35] نقصت الألف من قوله (بِمَ) لأنها فى معنى بأيّ شىء يرجع المرسلون وإذا كانت (ما) فى موضع (أىّ) ثم وصلت بحرف خافض نقصت الألف من (ما) ليعرف الاستفهام من الخبر. ومن ذلك قوله: (فِيمَ «2» كُنْتُمْ) و(عَمَّ يَتَساءَلُونَ «3») وإن أتممتها فصواب. وأنشدنى المفضّل:

إنا قتلنا بقتلانا سراتكم أهل اللواء ففيما يكثر القيل «4»

وأنشدنى المفضّل أيضا:

على ما قام يشتمنا لئيم كخنزير تمرّغ فى رماد «5»

---

(1) الآية 35 سورة المؤمنين.

(2) الآية 97 سورة النساء.

(3) الآية 1 سورة النبأ . [. . . . .]

(4) . 2 : «القتل» فى مكان «القيل» ويظهر أنه تحريف عما أثبت .

(5) هو لحسان بن ثابت . وفى شواهد العيني فى مباحث الوقف : «ويروى فى دمان موضع فى رماد ويروى فى دمال .

وكل هذا ليس بشىء فان القصيدة داليه»

(55/574)

وقوله : إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ [35] وهى تعنى سليمان كقوله (عَلى خَوْفٍ «1» مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ) وقالت (بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) وكان رسولها - فيما ذكروا - امرأة «2» واحدة فجمعت وإنما هو رسول ، لذلك قال (فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ) يريد : فلما جاء الرسول سليمان ، وهى فى قراءة عبد اللّه (فلما جاءوا سليمان) لما قال (الْمُرْسَلُونَ) صلح (جاءوا) وصلح (جاء) لأن المرسل كان واحدا .

يدلّ على ذلك قول سليمان (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ) .

وقوله : لا قِبَلَ لَهُمْ بِها [37] وهى فى مصحف عبد اللّه (لهم بهم) وهو سواء .

وقوله : أَتُمِدُّوننى بِمالٍ [36] هى فى قراءة عبد اللّه «3» بنونين وباء مثبتة . وقرأها

حمزة.

(أتمدّونّى بمال) يريد قراءة عبد اللّه فأدغم النون فى النون فشدّدها. وقرأ عاصم بن أبى النّجود (أَتُمِدُّونَنِ بمالٍ) بنونين بغير ياء. وكلّ صواب.

وقوله: (فما آتان اللّه) ولم يقل «4» (فَما آتانِيَ اللَّهُ) لأنها محذوفة الياء من الكتاب. فمن كان ممّن يستجيز الزيادة فى القرآن من الياء والواو اللاتي يحذفن مثل قوله (وَيَدْعُ الْإِنْسانُ «5» بِالشَّرِّ) فيثبت الواو وليست فى المصحف، أو يقول المنادى للمناد «6» جاز له أن يقول فى (أَتُمِدُّونَنِ) بإثبات الياء، وجاز له أن يحرّكها إلى 137 ا النصب كما قيل (وَما لِيَ «7» لا أَعْبُدُ) فكذلك يجوز (فَما آتانِيَ اللَّهُ) ولست أشتهى ذلك ولا آخذ به. اتّباع المصحف إذا وجدت له وجها من كلام العرب وقراءة القرّاء أحبّ إلىّ من خلافه. وقد كان أبو عمرو يقرأ (إنّ هذين «8» لساحران) ولست

---

(1) الآية 83 سورة يونس.

(2) كذا. وفى الطبري: «امرأ واحدا» وهو ظاهر القرآن. ويمكن أن يطلق الرسول على الأنثى باعتبار أنه فى الأصل بمعنى الرسالة ويطلق على حاملها من ذكر أو أنثى.

(3) وهى قراءة نافع وأبى عمرو وأبى جعفر.

(4) قرأ بإثبات الياء مفتوحة نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وحفص.

(5) الآية 11 سورة الاسراء.

(6) فى الآية 41 سورة ق.

(7) الآية 22 سورة يس.

(8) الآية 63 سورة طه.

(56/574)

أجترئ على ذلك وقرأ (فأصّدّق «1» وأكون) فزاد واوا فى الكتاب. ولست أستحبّ ذلك.

قوله: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ [37] هذا من قول سليمان لرسولها، يعنى بلقيس. وفى قراءة عبد اللّه (ارجعوا إليهم) وهو صواب على ما فسّرت لك من قوله (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ) «2» من الذهاب بالواحد إلى الذين معه، فى كثير من الكلام.

وقوله: عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ [39] والعفريت: القوىّ النافذ. ومن العرب من يقول للعفريت: عفرية. فمن قال: عفرية قال فى جمعه: عفار «3». ومن قال: عفريت قال: عفاريت وجاز أن يقول: عفار وفى إحدى القراءتين (وما أهلّ «4» به للطواغى) يريد جمع الطاغوت.

وقوله (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ) يعنى أن يقوم من مجلس القضاء. وكان يجلس إلى

نصف النهار . فقال : أريد أعجل (من ذلك) «5» .

وقوله : قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [40] يقول : قبل أن يأتيك الشيء من مدّ بصرك فقال ابن عباس فى قوله (عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ) (يا حىّ «6» يا قيّوم) فذكر أنّ عرشها غار فى موضعه ثم نبع عند مجلس سليمان .

وأمّا قوله : نَكِّرُوا لَها عَرْشَها [41] فإنه أمرهم بتوسعته ليمتحن عقلها إذا جاءت . وكان «7» الشياطين قد خافت أن يتزوّجها سليمان فقالوا : إن فى عقلها شيئا ، وإن رجلها كرجل الحمار : فأمر سليمان بتغيير العرش لذلك ، وأمر بالماء فأجرى من تحت الصّرح وفيه السمك . فلمّا جاءت قيل لها

---

(1) الآية 10 سورة المنافقين .

(2) الآية 1 سورة الطلاق .

(3) ا : «عفارى» .

(4) ليس فى الكتاب العزيز آية يكون فيها هذا . ولعله يريد : «والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها» فى الزمر . وقد قرأ الحسن «الطواغيت» . [. . . . .]

(5) ا : «منك» .

(6) هذا بيان للعلم عنده .

(7) ا : «كانت»

(أَهكَذا عَرْشُكِ) فعرفت وأنكرت . فلم تقل ، هو هو ، ولا ليس به . فقالت (كَأَنَّهُ هُوَ) ثم رفعت ثوبها عن ساقيها ، وظنّت أنها تسلك لجّة ، واللّجّة : الماء الكثير . فنظر إلى أحسن ساقين ورجلين : وفى قراءة عبد اللّه (وكشفت «1» عن رجليها) .

وقوله : وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ [43] يقول : هى عاقلة وإنما صدها عن عبادة اللّه عبادة الشمس والقمر . وكان عادة من دين آبائها ، معنى الكلام : صدّها من أن تعبد اللّه ما كانت تعبد أي عبادتها الشمس والقمر . و(ما) فى موضع رفع . وقد قيل : (إن صدّها) منعها سليمان ما كانت تعبد . موضع (ما) نصب لأن الفعل لسليمان . وقال بعضهم : الفعل للّه تعالى : صدّها اللّه ما كانت تعبد .

وقوله : (إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ) كسرت الألف على الاستئناف . ولو قرأ قارئ (أَنَّها) يردّه «2» على موضع (ما) فى رفعه : صدّها عن عبادة اللّه أنّها كانت من قوم كافرين . وهو كقولك : منعنى من زيارتك ما كنت فيه من الشغل : أنّى كنت أغدو وأروح . فأنّ مفسّرة لمعنى ما كنت فيه من الشغل .

وقوله : فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ [45] ومعنى (يَخْتَصِمُونَ) مختلفون «3» : مؤمن ومكذّب .

وقوله : قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ [47] يقول : فى اللوح المحفوظ عند اللّه . تشاءمون بي وتطيّرون بي ، وذلك كلّه من عند اللّه . وهو بمنزلة قوله (قالُوا طائِرُكُمْ «4» مَعَكُمْ) أي لازم لكم ما كان من خير أو شرّ فهو فى رقابكم لازم . وقد بيّنه اللّه فى قوله (وَكُلَّ إِنسانٍ «5» أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ) .

---

(1) وهى قراءة شاذة . وقراءة الناس : «وكشفت عن ساقيها»

(2) أي يكون بدلا أو بيانا من (ما كانت تعبد) .

(3) فى الطبري : «يختلفون» .

(4) الآية 19 سورة يس .

(5) الآية 13 سورة الإسراء .

وقوله : قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ [49] وهى فى قراءة عبد اللّه (تَقاسَمُوا بِاللَّهِ) ليس فيها (قالوا) .

وقوله : (لَنُبَيِّتَنَّهُ) التاء والنون والياء كلّ قد قرىء به فمن قال (تَقاسَمُوا) فجعل (تَقاسَمُوا) خبرا فكأنه قال : قالوا متقاسمين : لنبيّتنّه بالنون . ثم يجوز الياء على هذا المعنى فتقول :

قالوا ليبيتنّه بالياء ، كما تقول : قالوا لنقومنّ وليقومنّ . ومن قال : تقاسموا فجعلها فى موضع جزم فكأنه قال : تحالفوا وأقسموا لتبيّتنه بالتاء والنون تجوز من هذا الوجه لأن الذي قال لهم تقاسموا معهم فى الفعل داخل ، وإن كان قد أمرهم ألا ترى أنك تقول : قوموا نذهب إلى فلان ، لأنه أمرهم وهو معهم فى الفعل . فالنون أعجب الوجوه إلىّ ، وإنّ الكسائىّ يقرأ بالتاء ، والعوامّ على النون .

وهى فى قراءة عبد اللّه (تَقَاسَمُوا) (ثم لنقسمنّ ما شهدنا مهلك أهله) وقد قال اللّه (تَعالَوْا «1» نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ) لأنهم دعوهم ليفعلوا جميعا ما دعوا إليه . وقرأها أهل المدينة وعاصم والحسن بالنون ، وأصحاب عبد اللّه بالتّاء . حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال حدّثنى سفيان ابن عيينة عن حميد الأعرج عن مجاهد أنه قرأ (ليبيّتنّه) بالياء .

وقوله : فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ [51] تقرأ بالكسر «2» على الاستئناف مثل قوله : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ «3» إِلى طَعامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ) يستأنف وهو يفسّر به ما قبله وإن ردّه على إعراب ما قبله قال (أَنّا) بالفتح «4» فتكون (أَنّا) فى موضع رفع ، تجعلها تابعة للعاقبة .

وإن شئت جعلتها نصبا من جهتين : إحداهما أن تردّها على موضع (كيف) والأخرى أن تكرّ «5» (كان) كأنّك قلت : كان عاقبة مكرهم تدميرنا إيّاهم . وإن شئت جعلتها كلمة

واحدة فجعلت (أنّا) فى موضع نصب كأنك قلت: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم. وقوله: وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ تعلمون أنها فاحشة.

---

(1) الآية 64 سورة آل عمران.

(2) الفتح لعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وافقهم الأعمش والحسن. والباقون بكسرها.

(3) الآيتان 24، 25 سورة عبس. والكسر لغير عاصم وحمزة والكسائي وخلف أما هؤلاء فقرءوا بالكسر

(4) الآيتان 24، 25 سورة عبس. والكسر لغير عاصم وحمزة والكسائي وخلف أما هؤلاء فقرءوا بالكسر

(5) أي تنوى تكرارها

وقوله: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى [59].

قيل للوط: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) على هلاك من هلك (وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى) (آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تشركون) «1» يقول: أعبادة اللّه خير أم عبادة الأصنام:

وقوله : فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ [60] فقال : (ذات) ولم يقل : ذوات وكلّ صواب .

وإنما جاز أن يقول (ذات) للحدائق وهى جمع لأنك تقول ، هذه حدائق كما تقول : هذه حديقة .

ومثله قول اللّه (وَلِلَّهِ «2» الْأَسْماءُ الْحُسْنى) ولم يقل الحسن و(الْقُرُونِ الْأُولى «3») ولو كانت حدائق ذوات بهجة كان صوابا . وقال الأعشى فى توحيدها :

فسوف يعقبنيه إن ظفرت به ربّ غفور وبيض ذات أطهار

ولم يقل : ذوات أطهار . وإنما يقال : حديقة لكل بستان عليه حائط . فما لم يكن عليه حائط لم يقل له : حديقة .

وقوله : (أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ) مردود على قوله (أَمَّنْ خَلَقَ) كذا وكذا . ثم قال (أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ) خلقه . وإن شئت جعلت رفعه بمع كقولك : أمع اللّه ويلكم إله ! ولو جاء نصبا أإلها مع اللّه على أن تضمر فعلا يكون به النصب كقولك : أتجعلون إلها مع اللّه ، أو أتتّخذون إلها مع اللّه .

والعرب تقول : أثعلبا وتفرّ كأنهم أرادوا : أترى ثعلبا وتفرّ . وقال بعض «4» الشعراء :

أعبدا حلّ فى شعبى غريبا ألؤما لا أبالك واغترابا

يريد : أتجمع اللؤم والاغتراب . وسمعت بعض العرب يقول لأسير أسره ليلا ، فلمّا 138 ا

---

(1) أثبتت قراءة التاء كما جاء فى ش ، ا . وهى قراءة غير عاصم وأبى عمرو ويعقوب . أما هؤلاء فقراءتهم «يشركون» بالياء [. . . . .]

(2) الآية 180 سورة الأعراف

(3) الآية 51 سورة طه

(4) هو جرير . وانظر كتاب سيبويه 1/ 170

(60/574)

أصبح رآه أسود ، فقال أعبدا سائر الليلة ، كأنه قال : ألا أرانى أسرت عبدا منذ ليلتى .

وقال آخر :

أجخفا تميميّا إذا فتنة خبت وجبنا إذا ما المشرفيّة سلّت «1»

فهذا فى كل تعجّب خاطبوا صاحبه ، فإذا كان يتعجّب من شىء ويخاطب غيره أعملوا الفعل فقالوا : أثعلب ورجل يفرّ منه ، لأن هذا خطاب لغير صاحب الثعلب . ولو نصب على قوله أيفر رجل من ثعلب فتجعل العطف كأنه السّابق . يبنى على هذا . وسمعت بعض بنى عقيل ينشد لمجنون بنى عامر :

أألبرق أم نارا لليلى بدت لنا بمنخرق من ساريات الجنائب

وأنشدنى فيها :

بل البرق يبدو فى ذرى دفئيّة يضىء نشاصا مشمخرّ الغوارب

وأنشدنى فيها :

ولو نار ليلى بالشريف بدت لنا لحبّت إلينا نار من لم يصاقب

فنصب كل هذا ومعه فعله على إضمار فعل منه ، كأنه قال أأرى نارا بل أرى البرق . وكأنه قال .

ولو رأيت نار ليلى . وكذلك الآيتان الأخريان فى قوله (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ) .

وقوله : قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ [65] رفعت ما بعد (إلّا) لأن فى الذي قبلها جحدا وهو مرفوع . ولو نصبت كان صوابا . وفى إحدى القراءتين (ما فعلوه «2» إلا قليلا منهم) بالنصب . وفى قراءتنا بالرّفع . وكلّ صواب ، هذا إذا كان الجحد الذي قبل إلا مع أسماء معرفة «3» فإذا كان مع نكرة لم يقولوا إلا الاتباع لما قبل (إلّا) فيقولون : ما ذهب أحد إلّا

---

(1) الجحف أن يفتخر بأكثر مما عنده . والمشرفية : السيوف .

(2) الآية 66 سورة النساء وقراءة النصب لابن عامر

(3) ش : «معروفة»

أبوك ، ولا يقولون : إلا أباك . وذلك أن الأب كأنّه خلف من أحد لأن ذا واحد وذا واحد فآثروا الإتباع ، والمسألة الأولى ما قبل (إلّا) جمع وما بعد (إلّا) واحد منه أو بعضه ، وليس بكلّه .

وقوله : (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ) [66] معناه : لعلّهم تدارك علمهم . يقول : تتابع علمهم فى الآخرة . يريد : بعلم الآخرة أنها تكون أو لا تكون ، لذلك قال (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ) وهى فى قراءة أبىّ (أم تدارك علمهم فى الآخرة) بأم . والعرب تجعل (بل) مكان (أم) و(أم) مكان (بل) إذا كان فى أوّل الكلام استفهام ، مثل قول الشاعر :

فو اللّه ما أدرى أسلمى تغوّلت أم النوم أم كلّ إلى حبيب «1»

فمعناهن : بل . وقد اختلف القراء فى (ادّارك) فقرأ يحيى والحسن وشيبة ونافع «2» (بل ادّارك) وقرأ مجاهد وأبو جعفر المدني (بل أدرك علمهم فى الآخرة) من أدركت ومعناه ، كأنه قال : هل أدرك علمهم علم الآخرة . وبلغني عن ابن عبّاس أنه قرأ (بلى ادّارك) يستفهم ويشدّد الدال ويجعل فى (بلى) ياء . وهو وجه جيّد لأنه أشبه بالاستهزاء بأهل الجحد كقولك للرّجل تكذّبه : بلى لعمرى لقد أدركت السلف فأنت تروى ما لا نروى وأنت تكذّبه .

وقرأ القراء أإنّا لمخرجون [67] و(إنّنا) «3» وهى فى مصاحف أهل الشام (إنّنا) .

وقوله : عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ : [72] جاء فى التفسير : دنا لكم بعض الذي تستعجلون ، فكأن اللام دخلت إذ كان المعنى دنا كما قال الشاعر :

138 ب فقلت لها الحاجات يطرحن بالفتى وهمّ تعنّانى معنّى ركائبه «4»

فأدخل الباء فى الفتى لأن معنى (يطرحن) يرمين ، وأنت تقول : رميت بالشيء وطرحته ،

---

(1) ا : «واللّه» فى مكان «فو اللّه» . و«تغولت» : تلونت

(2) وكذا عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف

(3) هى قراءة ابن عامر والكسائي

(4) ب : «تغشائى» فى مكان : «تعنانى»

وتكون اللام داخلة : والمعنى ردفكم كما قال بعض العرب : نفذت لها مائة وهو يريد : نفذتها مائة .

وقوله : إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [76] وذلك أن بنى إسرائيل اختلفوا حتى لعن بعضهم بعضا ، فقال اللّه : إنّ هذا القرآن ليقصّ عليهم الهدى مما اختلفوا فيه لو أخذوا به :

وقوله : وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ [81] لو قلت بهاد العمى كان صوابا . وقرأ حمزة (وما أنت تهدى العمى عن ضلالتهم) لأنها فى قراءة عبد اللّه (وما إن تهدى العمى) وهما جحدان اجتمعا كما قال الشاعر - وهو دريد بن الصّمّة - :

ما إن رأيت ولا سمعت به كاليوم طالى أينق جرب «1»

وقوله : وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ [82] معناه إذا وجب السّخط عليهم وهو كقوله (حَقَّ «2» عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) فى موضع آخر . وقوله (أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) اجتمع القراء على تشديد (تكلّمهم) وهو من الكلام . وحدثنى بعض المحدّثين أنه قال (تكلّمهم) و(تكلمهم) وقوله (أنّ الناس) «3» تفتح وتكسر . فمن فتحها أوقع عليها الكلام : تكلّمهم بأن الناس ، وموضعها نصب . وفى حرف عبد اللّه (بأن الناس) وفى حرف أبىّ (تنبّئهم أنّ الناس) وهما حجّة لمن فتح وأهل المدينة (تكلّمهم إنّ الناس) فتكون (إنّ) خبرا مستأنفا ولكنه معنى وقوع الكلام . ومثله (فلينظر «4» الإنسان إلى طعامه) من قال (أنّا) جعله مخفوضا مردودا على الطعام إلى أنا صببنا الماء . ومن كسره قال : إنّا أخبر بسبب الطعام كيف قدّره اللّه .

وقوله : (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ) [87] ولم يقل فيفزع ، فجعل فعل مردودة على يفعل .

---

(1) سبق هذا البيت

(2) الآية 63 سورة القصص

(3) الفتح لعاصم وحمزة والكسائي وخلف وافقهم الحسن والأعمش . والكسر للباقين

(4) الآية 24 سورة عبس [. . . . .]

(63/574)

وذلك أنه فى المعنى : وإذا نفخ فى الصّور ففزع ألا ترى أن قولك . أقوم يوم تقوم كقولك : أقوم إذا تقوم ، فأجيبت بفعل ، لأن فعل ويفعل تصلحان مع إذا . فإن قلت فأين جواب قوله (ويوم ينفخ فى الصّور) ؟ قلت : قد يكون فى فعل مضمر مع الواو كأنه قال : وذلك يوم ينفخ فى الصور .

وإن شئت قلت : جوابه متروك كما قال (وَلَوْ تَرى «1» إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ) .

وقوله (وَلَوْ يَرَى «2» الَّذِينَ ظَلَمُوا) [87] قد ترك جوابه . واللّه أعلم .

وقوله (وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ) القرّاء على تطويل الألف يريدون : فاعلوه . وقصرها «3» حمزة حدّثنا أبو العبّاس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء حدثنى عدة منهم المفضل الضبي وقيس وأبو بكر كلهم عن جحش بن زياد الضبىّ عن تميم بن حذلم قال : قرأت على عبد اللّه بن مسعود (وكلّ آتوه داخرين) بتطويل الألف . فقال (وَكُلٌّ أَتَوْهُ) بغير تطويل الألف وهو وجه حسن مردود على قوله (فَفَزِعَ) كما تقول فى الكلام : رآنى ففرّ وعاد وهو صاغر .

فكان ردّ فعل على مثلها أعجب إلىّ مع قراءة عبد اللّه . حدثنا أبو العباس قال حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال وحدثنى عبد اللّه بن إدريس عن الأعمش عن تميم عن عبد اللّه بمثل حديث أبى بكر وأصحابه .

وقوله : وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ [89] قراءة القراء بالإضافة . فقالوا (وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ) و(يَوْمَئِذٍ) وقرأ عبد اللّه بن مسعود فى إسناد بعضهم بعض الذي حدثتك (مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ) قرأها عليهم تميم هكذا (وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ) فأخذها بالتنوين والنصب . والإضافة أعجب إلىّ وإن كنت أقرأ بالنصب لأنه فزع معلوم ، ألا ترى أنه قال (لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) فصيّره 139 ا معرفة . فأن أضيفه فيكون معرفة أعجب إلىّ . وهو صواب .

وقوله : وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ [92] وفى إحدى القراءتين (وأن اتل) بغير واو مجزومة على جهة

---

(1) الآية 51 سورة سبأ .

(2) الآية 165 سورة البقرة .

(3) وكذا حفص وخلف ، وافقهم الأعمش .

الأمر . قد أسقطت منها الواو للجزم على جهة الأمر كما قال (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ) فجعل الواو مردودة بالنهى على حرف قد نصب بأن لأن المعنى يأتى فى (أمرت) بالوجهين جميعا ، ألا ترى أنك تقول : أمرت عبد اللّه أن يقوم ، وأن قم . وقال اللّه (وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ) فهذا مثل قوله (وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 285.302 ﴾

(65/574)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة النمل

(بشهاب قبس) [7] أي: مقبوس ، أو بشهاب ذي قبس . وكلاهما على الصفة للشهاب . وإن كان القبس اسماً للنار ، فيكون على البدل من الشهاب . و(بشهاب قبس) بالإضافة ، على أن يكون الشهاب قطعة من النار ، كقولك: ثوب خز . قال:

881- في كفه صعدة مثقفة فيها سنان كشعلة القبس . (بورك) [8] قدس ، هكذا هو المعنى ، كما قال الكميت -في روضة رسول الله عليه السلام-: 882- فبورك قبر أنت فيه وبوركت به -وله أهل لذلك- [يثرب] 883- لقد غيبوا براً وحزماً ونائلاً عشية

[واراك] الصفيح [المنصب]

(من في النار ومن حولها) قيل: إن من زائدة. وقيل: إنه بمعنى ما، أي: ما [في] النار، ومن حولها. وقيل: إنه [يعود] إلى النور، أي: بورك النور/الذي في النار، أو الشجرة التي في النار، وكانت خضراء، ولا [تزداد] على اشتعال النار إلا اخضراراً. وقيل: (بورك من في النار) أي: الملائكة، (ومن حولها) أي: موسى.

أو بورك من في طلب النار بحذف الطلب، ومن حولها من الملائكة. وقيل: معناه بورك من في النار سلطانه وكلامه، فيكون التقديس لله تعالى عن المكان والزمان.

وفي التوراة: "جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، [واستعلى] من جبال فاران".

أي: من هذه المواضع جاءت آياته، وظهرت رحمته، حيث كلم موسى بسيناء، وبعث عيسى من ساعير، ومحمداً من فاران، جبال مكة. (ولم يعقب) [10] لم يرجع ولم يلتفت، من العقب.

(إلا من ظلم) [11] استثناء منقطع، أي: لكن من ظلم من غيرهم، لأن الأنبياء لا يظلمون، وقيل: إنه تعريض بما كان من قتله القبطي. (مبصرة) [13] مبصرة، من البصيرة.

(علمنا منطق الطير) [16] كان يفهمهم، كما يتفاهم الطير بعضها عن بعض، وأصوات الطير سمي منطقاً، قال حميد بن ثور: 884- وما هاج هذا الشوق إلا حمامة دعت

ساق حر ترحة فترنما 885- عجبت لها أنى يكون غناؤها فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما .

(66/574)

(يوزعون) [17] يدفعون ويحبسون . قال: 886- لسان الفتى سبع عليه شذاته وإلا تزع عن غربه فهو قاتله 887- وما الجهل إلا منطق متسرع سواء عليه حق أمر وباطله .

وينبغي أن يعلم أن معرفة تلك النملة بسليمان ، وحديث [الـ]هدهد لم يجر على الجنس ، ولكن عليهما بعينهما ، فيكون اختصاصهما وحدهما في زمن نبي -بما يكون في حد المعجزة له- بمنزلة كلام الذئب ، وكلام الصبي

في المهد ، /وأما من كل نوع من الحيوان ، أو في كل زمان ، [فلا فضل] في معارف العجم من الحيوانات على خاص مصالحها .

(وتفقد الطير) [20] هذا التفقد منه أدب للملوك والأكابر في تفقد جندهم ، [واستشفاف] أمرهم ، ومقابلة من [أخل] منهم بشرطه من الإنكار بما يستحقه .

(ليأتيني) [21] إن كانت النون ثقيلة ، مشاكلة لقوله: (لأعذبنه) (أو لأذبحنه) فإنه حذفت إحداهما استثقالاً . وإن كانت [نون] التوكيد [الخفيفة] ، فلا حذف ، ولكن

أدغمت في نون الإضافة .

(من سبأ) [22] صرفه ، لأنه في الأصل اسم رجل ، غلب على اسم [بلد] . (ألا يسجدوا) [25] أي: زين لهم الشيطان أعمالهم ، بأن لا يسجدوا ، أو فصدهم عن السبيل بأن لا يسجدوا . (يخرج الخبء) [25] أي: غيب السموات والأرض . وقيل: خبء السموات المطر ، وخبء الأرض النبات . (في السموات)

أي: من السموات ، وجاز ذلك ، لأن ما أخرج من الشيء فهو فيه قبل الإخراج . (قبل أن يرتد إليك طرفك) [40] أي: تديم النظر حتى يرتد الطرف كليلاً . ويقال: لأن الجن كرهت بلقيس ، لئلا يجتمع علمها إلى علمه ، فيزداد كدها ، فذكرتها بقبح رجلها ، ورمتها في عقلها ، فأمر سليمان بتغيير شيء من عرشها ، فقالت: (كأنه هو) بل هو ، على حد قولهم: (أهكذا عرشك) . ورأى قدميها أحسن قدم ، حين ظنت صرح الزجاجة ماء ، فكشفت عن ساقيها .

وصرحة الدار ، وباحتها ، وساحتها واحدة ، وهي ها هنا : بركة من الزجاج . وفي شعر الهذليين ، بناء مرتفع: 888- على طرق كنحور الركاب تحسب أعلامهن

الصروحا/889- بهن نعام بناه [الرجال] تلقي النفائض فيه السريحا .

واللجة: معظم الماء . والممرد: المملس . (تفتنون) [47] [تمتحنون] بطاعة الله ومعصيته . (تقاسموا) [49] [تحالفوا] (إنا دمرناهم) [51] على الاستئناف . ومعناه بيان العاقبة . (حدائق ذات بهجة) [60] ذوات بهجة . كقول الأعشى: 890- وسوف يعقبنيه إن ظفرت به رب كريم وبيض ذات أطهار

891- لا سرهن لدينا ضائع مذق وكاتمات إذا استودعن أسراري . (بل ادارك علمهم في الأخرة) [66] أي: تدارك ، فأدغمت التاء في الدال ، واجتلبت ألف الوصل للابتداء . تقول: أدركت الشيء وتداركته ، [وادارکته] ، وأدركته: إذا لحقته . والمعنى: أحاط علمهم في الآخرة بها عند مشاهدتهم أحوالها وأهوالها ، وكانوا في الشك منها . وقيل: بل هو تلاحق علمهم وتساويه بالآخرة في الدنيا ، مما ذكره الله في العقول من وجوب جزاء الأعمال ، ومما جاءت به الرسل .

(بل هم في شك) [66] من وقت ورودها . (بل هم منها عمون) أي: تاركون مع ذلك التأمل . (ردف لكم) [72] تبعكم ودنا منكم . واللام ينبغي أن يقتضي زيادة تتابع ، واتصال ، مع الدنو . كما قال طلحة ابن عبد الرحمن: 892- تقول سلمى "أراك شبت ولم تبلغ من السن كنهها فلمه ؟" 893- يا سلم إن الخطوب إذ [ردفت] لي شاب رأسي وكان كالحممة . (وإذا وقع القول عليهم) [82]

وجب الغضب . وقيل: حق القول بأنهم لا يؤمنون . وسئل علي رضي الله عنه عن دابة الأرض ؟ فقال: "والله مالها ذنب ، وإن لها للحية" وهذا يدل على أنه من الإنس . وقال ابن عباس: هي دابة ذات/زغب وريش ، لها أربع قوائم ، يخرج من وادي تهامة .

(ففزع من في السموات) [87] أسرع إلى الإجابة ، كقول كلحبة: 894- فقلت لكأس ألجميها فإنما نزلنا الكثيب من زرود لنفزعا . (إلا من شاء الله) من البهائم ، ومن لا ثواب له ولا عقاب . ومن حمله على الفزع المعروف من الخوف ، كان الاستثناء للملائكة والشهداء .

(68/574)

(وترى الجبال تحسبها جامدة) [88] أي: في يوم القيامة ، لأنها تجمع وتسير ، وكل شيء إذا عظم حتى غص به الهواء ، تكون في العين واقفة وهي سائرة . كما قال الجعدي:

895- بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملك .

[تمت سورة النمل] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1049.1066 ﴾

(69/574)

وقال الأخفش :

سورة (النمل)

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

وقال ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ إذا جعل "القَبَسَ" بدلا من "الشّهابِ" وإنْ أضافَ "الشّهابَ" الى "القَبَسِ" لم ينون "الشّهابَ" وكلٌّ حسن .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قال ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ ﴾ أَيْ: نُودِيَ بذلك .

﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقال ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ ﴾ لأن ﴿ إِلاَّ ﴾ تدخل في مثل هذا الكلام كمثل قول العرب: "ما أَشْتَكِي إِلاَّ خَيْراً" فلم يجعل قوله "إِلاَّ خَيْراً" على الشكوى ولكنه علم اذا قال لهم "مَا أَشْتَكِي شَيْئاً" انه يذكر [156 ب] من نفسه خيراً . كأنه قال "ما أَذْكُرُ إِلاّ خَيْراً" .

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

وقال ﴿ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي: إِنَّها تُبَصِّرُهُم حتَّى أَبْصَرُوا . وان شئت قلت ﴿ مُبْصَرَةً ﴾

ففتحت فقد قرأها بعض الناس وهي جيدة يعني مُبْصَرَةً مُبَيَّنَةً .

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

وقال ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ لأنها لما كانت تكلمهم صار كالمنطق . وقال الشاعر: [من الخفيف وهو الشاهد الثالث والثلاثون بعد المئتين]:

* صدّها منطق الدجاج عن القصد *

وقال: [من الرجز وهو الشاهد الخامس والثلاثون بعد المئتين]:

* فَصَبَّحَتْ والطَّيْرُ لَمْ تَكَلَّم *

(70/574)

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

وقال ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾ يقول ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [24] لـ"أَنْ لاّ يَسْجُدُوا" . وقال بعضهم ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا ﴾ فجعله أمْراً كأنه قال لهم "أَلَا اسْجُدُوا" وزاد بينهما "يَا" التي تكون للتنبيه ثم اذهب ألف الوصل التي في "اِسْجُدُوا" وأذهب الألف التي

في "يا" لأنها "ساكنة لقيت السين فصارت ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا ﴾ . وفي الشعر: [من الطويل

وهو الشاهد الثاني والستون بعد المئتين]:

أَلَا يَا سِلْمَى يَا دَارَمَيِّ على البِلَى * [وَلَا زَالَ مُنْهَلاً بِجَرْعَائِكِ القِطْرُ]*

وإنَّما هي: ألا يا اسْلَمِي .

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

قال ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ فـ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ مؤخرة لأن المعنى "فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ" .

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ ﴾

وقال ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ ﴾ على ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ ﴾ [29] ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ و ﴿ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ و"بِسْمِ اللهِ" مقدمة في المعنى .

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

وقال ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أَيْ: لِيَنْظُرَ أَأَشْكُرُ أم أكفر. كقولك: "جِئْتُ لِأَنْظُرَ أَزَيْدٌ أَفْضَلُ أَمْ عَمْرٌو".

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾

و[قال] ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ فادغم التاء في الطاء لأنها من مخرجها واذا استأنفت قلت "اِطَّيَّرْنا".

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾

وقال ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ فجمع وليس لهم واحد من لفظهم مثل "ذَوْدٍ".

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾

وقال ﴿أَمَّنْ خَلَقَ [157] السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [64] حتى ينقضي الكلام ﴿مَنْ﴾ ها هنا ليست باستفهام على قوله ﴿خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [59] انما هي بمنزلة "الّذِي".

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

وقال [قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ] ﴿الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ كما قال ﴿إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وفي حرف ابن مسعود ﴿قَلِيلاً﴾ بدلاً من الأول لأنك نفيته عنه وجعلته للآخر.

﴿ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

وقال ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ ونظنها * "رَدِفَكُمْ" وادخل اللام فأضاف بها الفعل كما قال ﴿ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ و ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ وتقول العرب: "رَدِفَهُ أَمْرٌ" كما يقولون: "تَبِعَه" و "أَتْبَعَهُ" .

(72/574)

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾

وقال ﴿ أَنَّ النَّاسَ ﴾ أي: بأنَّ النَّاسَ ، وبعضهم يقول ﴿ إِنَّ النَّاسَ ﴾ كما قال ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ انما معناه يقولون: "ما نَعْبُدُهُم" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 464.468 ﴾

(73/574)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة النمل

مكية كلها

6 - وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ أي يلقي عليك فتلقّاه أنت ، أي تأخذه .

7 - (الشهاب) : النار . والشهاب : الكوكب ، في موضع آخر . و(القبس) : النار تقبس .

يقال : قبست النار قبسا . واسم ما قبست :

«قبس» .

10 - (الجان) : الحيّة التي ليست بعظيمة .

وَلَمْ يُعَقِّبْ : لم يرجع . ويقال : لم يلتفت . يقال : كرّ على القوم وما عقّب .

ويرى أهل النظر : أنه مأخوذ من «العقب» .

10 - و11 - يا مُوسى لا تَخَفْ ، إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ مفسر في كتاب «تأويل المشكل» .

12 - تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ أي هذه الآية مع تسع آيات .

16 - مَنْطِقَ الطَّيْرِ قال قتادة : النمل من الطير .

17 – فَهُمْ يُوزَعُونَ أي يدفعون . وأصل «الوزع» : الكفّ والمنع . يقال : وزعت الرجل ، إذا كففته . و«وازع الجيش» هو الذي يكفّهم عن التفرّق ، ويردّ من شذّ منهم .

19 – وقوله : رَبِّ أَوْزِعْنِي أي ألهمني . وأصل «الإيزاع» :

الإغراء بالشيء . يقال : أوزعته بكذا ، أي أغريته به . وهو موزع بكذا ، ومولع بكذا .

ومنه قول أبي ذؤيب في الكلاب .

أولي سوابقها قريبا توزع أي تغرى بالصيد .

21 – لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً يقال : نتف الرّيش . أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ أي بعذر بيّن .

23 – وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ أي سرير .

25 – الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي المستتر فيهما .

وهو من «خبأت الشيء» : إذا أخفيته . وقالوا : «خبء السماء : المطر وخبء الأرض : النبات» .

29 – أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ أي شريف : بشرف صاحبه .

ويقال : بالخاتم .

أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ من «العلو» أي : لا تتكبروا .

31 – لا قِبَلَ لَهُمْ بِها أي لا طاقة .

39 – قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أي شديد وثيق . وأصله : «عفر» زيدت التاء فيه . يقال :

عفريت نفريت ، وعفرية ونفرية ، وعفارية ولم يسمع ب «نفارية» .

قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ أي من مجلسك الذي قعدت فيه للحكم .

قال اللّه : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ [سورة الدخان آية : 51] أي في

(75/574)

مجلس . ويقال للمجلس : مقام ومقامة . وقال في موضع آخر : فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ [سورة القمر آية : 55] أي في مجلس .

40 - وقوله : قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، قيل في تفسير أبي صالح : «قبل أن يأتيك الشيء من مدّ البصر» ويقال : بل أراد قبل ان تطرف .

فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ أي رأى العرش .

41 - نَكِّرُوا لَها عَرْشَها أي غيّروه . يقال : نكّرت الشيء فتنكر ، أي غيّرته فتغيّر .

44 - صَرْحَ

: القصر . وجمعه : «صروح» . ومنه قول الهذلي :

تحسب أعلامهنّ الصّروحا ويقال : «الصّرح : بلاط اتّخذ لها من قوارير ، وجعل تحته ماء وسمك» .

و(الممرد) : الأملس . يقال : مرّدت الشيء ، إذا بلّطته وأملسته .

ومن ذلك «الأمرد» : الذي لا شعر على وجهه . ويقال للرملة التي لا تنبت :

«مرداء» .

ويقال : الممرّد المطوّل . ومنه قيل لبعض الحصون : «مارد» . ويقال في مثل . «تمرّد مارد ،

وعزّ الأبلق» . وهما حصنان .

47 – قالُوا : اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ أي تطيّرنا وتشاءمنا بك .

فأدغم التاء في الطاء ، وأثبت الألف : ليسلم السكون لما بعدها .

قالَ : طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أي ليس ذلك مني ، وإنّما هو من اللّه .

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ أي تبتلون .

(76/574)

---

49 – تَقاسَمُوا بِاللَّهِ أي تحالفوا باللّه : لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ أي لنهلكنهم ليلا ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ

: مهلكهم وَإِنَّا لَصادِقُونَ أي لنقولن له [ذلك] وإنا لصادقون .

60 – (الحدائق) : البساتين . واحدها : «حديقة» . سميت بذلك : لأنه يحدق عليها ،

أي يحظر [عليها حائط] . ومنه قيل : حدّقت بالقوم ، إذا أحطت بهم .

ذاتَ بَهْجَةٍ : ذات حسن .

65 - وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ : متى يبعثون .

66 - بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ أي تدارك ظنهم في الآخرة ، وتتابع بالقول والحدس .

بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ أي من علمها .

72 - قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ أي تبعكم . واللام زائدة ، كأنه «ردفكم» .

وقيل في التفسير : «دنا لكم» .

82 - وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أي وجبت الحجّة .

83 - فَهُمْ يُوزَعُونَ أي يحبس أولهم على آخرهم .

88 - وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً أي واقفة : وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ :

تسير سير السَّحابِ هذا إذا نفخ في الصّور . يريد : أنها تجمع وتسيّر ، فهي لكثرتها كأنها جامدة : وهي تسير . وقد بينا هذا في كتاب «تأويل المشكل» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 276 . 279 ﴾

(77/574)

وقال الغزنوى :

ومن سورة النمل

6 لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ : يقال : لقّاني كذا : أعطاني «1» ، فتلقّيته منه : قبلته .

7 بِشِهابٍ قَبَسٍ : مقبوس ، أو ذي قبس على الوصف «2» .

وبالإضافة «3» يكون الشهاب قطعة من القبس «4» ، و«القبس» النار ، كقولك/ : ثوب خزّ «5» .

8 نُودِيَ أَنْ بُورِكَ : نودي موسى أنه قدّس من في النّار .

مَنْ إما صلة «6» ، أو بمعنى «ما» ، أي : ما في النار من النور أو

---

(1) ينظر تفسير الماوردي : 3/ 188 ، والمحرر الوجيز : 11/ 168 ، واللسان : 15/ 255 (لقا) .

(2) أي أن «القبس» صفة ل «شهاب» ، وهي قراءة التنوين لعاصم ، وحمزة ، والكسائي .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 784 ، والتبصرة لمكي : 281 ، والتيسير للداني : 167 ، والكشف لمكي : 2/ 154 .

(3) قراءة نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وابن عامر .

(4) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 322 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/

(5) أخرج الطبريّ هذا القول في تفسيره : 19/ 133 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 189 عن ابن عباس أيضا ، وكذا البغوي في تفسيره : 3/ 407 ، ونقله القرطبي في تفسيره : 13/ 158 عن ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير .

(6) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 155 عن مجاهد .

وقال القرطبي في تفسيره : 13/ 158 : «وحكى أبو حاتم أن في قراءة أبيّ ، وابن عباس ، ومجاهد «أن بوركت النار ومن حولها» .

قال النحاس : «ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ، ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ، ومن حولها إلى الملائكة وموسى» .

(78/574)

الشجرة التي في النار ، وكانت تزداد على اشتعال النار اخضرارا .

وقيل «1» : بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ : أي : الملائكة ، وَمَنْ حَوْلَها : أي : موسى .

أو بورك من في طلب النّار ، وَمَنْ حَوْلَها ، من الملائكة «2» .

أو بورك من في النار سلطانه وكلامه ، فيكون التقديس للّه المتعالي عن المكان والزمان .

وفي التوراة «3» : جاء اللّه من سيناء وأشرق من [ساعير] «4» واستعلن من فاران .

أي : منها جاءت آيته ورحمته حيث كلّم موسى بسيناء ، وبعث عيسى من [ساعير] ومحمدا من فاران جبال مكة «5» .

10 وَلَمْ يُعَقِّبْ : لم يرجع ولم يلتفت ، من «العقب» «6» .

---

(1) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 189 .

(2) ذكره القرطبي في تفسيره : 13/ 159 .

(3) سفر التثنية ، الإصحاح الثالث والثلاثون ، ص 280 ، والنص هناك : «و هذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل اللّه بني إسرائيل قبل موته ، فقال : جاء الربّ من سيناء ، وأشرق من سعير ، وتلألأ من جبل فاران ، وأتى من ربوات القدس . . .» ، وأورد البغوي في تفسيره :

3/ 407 هذا النص عن التوراة ولم يعلق عليه ، وكذا ابن عطية في المحرر الوجيز :

(11/ 173 ، 174) وعزاه إلى الثعلبي .

(4) في الأصل : «ساعين» ، والمثبت في النص من «ك» و«ج» ، وفي معجم البلدان : 3/ 171 :

«ساعير : في التوراة اسم لجبال فلسطين . . . وهو من حدود الروم وهو قرية من الناصرية بين طبرية وعكا» .

(5) قال ياقوت في معجم البلدان : 4/ 225 : «فاران : بعد الألف راء ، وآخره نون ، كلمة عبرانية معربة ، وهي من أسماء مكة ذكرها في التوراة . وقيل : هو اسم لجبال مكة» .

[. . . . .]

(6) وهو مؤخر الرجل .

ينظر هذا المعنى في مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 92 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 322 ، وتفسير الطبري : 19/ 136 ، والمفردات للراغب : 340 ، واللسان : 1/ 614 (عقب) .

(79/574)

---

11 إِلَّا مَنْ ظَلَمَ : استثناء منقطع ، أي : لكن من ظلم من غيرهم لأنّ الأنبياء لا يظلمون .

12 وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ : كان عليه مدرعة «1» صوف بغير كمين «2» .

13 مُبْصِرَةً : مبصّرة من البصيرة ، أبصرته وبصّرته ، مثل : أكذبته وكذبته أو ذوات بصر نحو أمر مبين ، أي : ذو بيان .

16 وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ : أي : ملكه ونبوّته «3» ، وكانت له تسعة عشر ولدا «4» .

عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ : كان يفهمهم «5» كما يتفاهم بعضها عن بعض وكما يفهم بكاء الفرح من بكاء الحزن .

وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ : يؤتاه الأنبياء والناس «6» .

17 وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ : كان معسكره مائة فرسخ

---

(1) أي : القميص .

النهاية : 2/ 114 ، واللسان : 8/ 82 (درع) .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 19/ 138 عن مجاهد ، وكذا ابن أبي حاتم في تفسيره : 86 (سورة النمل) .

(3) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 288 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 19/ 141 عن قتادة ، وكذا ابن أبي حاتم في تفسيره : 111 (سورة النمل) .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 344 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر .

وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره : 6/ 192 ، ثم قال : «وليس المراد وراثة المال إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول

اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه» .

(4) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 288 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 408 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 191 عن الكلبي .

(5) في «ج» : كان يفهم عنهم .

(6) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 4/ 111 ، وانظر تفسير البغوي : 3/ 410 .

(80/574)

[خمسة] «1» وعشرون للإنس ، ومثلها للجن ، ومثلاها للطير والوحش «2» .

فَهُمْ يُوزَعُونَ : يكفّون ويحبسون ، أي : يحبس أولهم على آخرهم «3» .

ومعرفة تلك النّملة لسليمان «4» ، وحديث هدهد ، على اختصاصهما به وحدهما في زمن نبيّ بما يكون معجزة له ، بمنزلة كلام الذئب «5» وكلام الصّبيّ في المهد ، وأمّا من كلّ نوع من الحيوان وفي كل زمن فلا فضل في معارف العجم منها على خاص مصالحها .

19 أَوْزِعْنِي : ألهمني ، وحقيقته : كفّني عن الأشياء إلّا عن شكرك «6» .

20 وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ : هذا التفقد منه أدب/ للملوك والأكابر في

(1) في الأصل : «خمس» ، والمثبت في النص من «ك» .

(2) أخرج نحوه الطبريّ في تفسيره : 19/ 141 عن محمد بن كعب ، وأخرجه الحاكم في المستدرك : 2/ 589 ، كتاب التاريخ ، باب «ذكر نبي اللّه سليمان بن داود وما آتاه اللّه من الملك صلى اللّه عليه وسلم» .

(3) عن معاني القرآن للزجاج : 4/ 112 ، وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 323 :

«وأصل «الوزع» : الكفّ والمنع . يقال : وزعت الرجل : إذا كففته . و«وازع الجيش» هو الذي يكفهم عن التفرق ، ويردّ من شذّ منهم» .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 92 ، وغريب القرآن لليزيدي : 286 ، وتفسير الطبري :

19/ 141 ، والمفردات للراغب : 521 .

(4) يريد قوله تعالى : حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [آية : 18] .

(5) ثبت ذلك في حديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 4/ 149 ، كتاب الأنبياء عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه ، وذلك أن ذئبا اختطف شاة من الغنم أيام مبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فانتزعها الراعي منه ، فقال الذئب : من لها يوم

السّبع.

وأما كلام الصّبي في المهد فمنه معجزة عيسى عليه الصلاة والسلام. قال تعالى: وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ [سورة آل عمران: آية: 46].

(6) نص هذا القول في معاني القرآن للزجاج: (4/ 112، 113)، وانظر معاني القرآن للفراء:

2/ 289، وغريب القرآن لليزيدي: 286، وتفسير الطبري: 19/ 143، والمفردات للراغب: 522.

(81/574)

استشفاف «1» أمر الجند ومقابلة من أخلّ منهم بمكانه من الإمكان بما يستحقه.

21 لَيَأْتِيَنِّي: إن كانت النون ثقيلة مشاكلة لقوله: لَأُعَذِّبَنَّهُ، فحذفت إحداهما استثقالا، وإن كانت الخفيفة فلا حذف، ولكن أدغمت في نون الإضافة «2».

22 مِنْ سَبَإٍ: صرفه لأنّه في الأصل اسم رجل غلب على اسم البلد «3».

25 أَلَّا يَسْجُدُوا: ألا يا، ثم استؤنف وقال: اسجدوا، وليست «يا» للنداء «4» [بل استعملت للتنبيه كقول الشاعر:

ألا يا اسلمي ذات الدماليج والعقد

] «5» .

وقريء : أَلَّا «6» يَسْجُدُوا أي : زيّن الشّيطان أعمالهم لئلا يسجدوا .

---

(1) بمعنى النظر في أمرهم .

اللسان : 9/ 180 (شفف) . [. . . . .]

(2) ينظر هذا المعنى في إعراب القرآن للنحاس : (3/ 202 ، 203) ، والكشف لمكي :

2/ 155 .

وقراءة التشديد لابن كثير ، وقرأ باقي السبعة بالتخفيف .

السبعة لابن مجاهد : 479 ، والتيسير للداني : 167 .

(3) ينظر تفسير الطبري : 19/ 147 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 114 ، والتبيان للعكبري :

2/ 1007 ، والبحر المحيط : 7/ 66 .

(4) ورد هذا التوجيه على قراءة التخفيف ، وهي للكسائي من السبعة ، وهي أيضا قراءة أبي جعفر ، ويعقوب في رواية رويس عنه ، وهما من العشرة .

قال الزجاج في معانيه : 4/ 115 : «من قرأ بالتخفيف ف «ألا» لابتداء الكلام والتنبيه ،

والوقوف عليه «ألايا» ، ثم يستأنف فيقول : اسجدوا للّه» .

وانظر السبعة لابن مجاهد : 480 ، والغاية في القراءات العشر لابن مهران : 226 ، والكشف لمكي : 2/ 156 ، والنشر : 3/ 226 .

(5) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» ، والبيت في البحر : 7/ 68 غير منسوب ، وفي اللسان :

2/ 276 (دمج) : الدملجة تسوية الشيء كما يدملج السوار . دملج الشّيء : إذا سوّاه وأحسن صنعته .

(6) في الأصل : «أن لا» ، وأثبت رسم المصحف ، والتوجيه الذي ذكره المؤلف ورد لقراءة التشديد ، وعلى هذه القراءة القراء السبعة إلا الكسائي .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 480 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 115 ، وحجة القراءات :

527 ، والكشف لمكي : 2/ 157 ، والبحر المحيط : 7/ 68 .

31 أَلَّا «1» تَعْلُوا : موضع «أن» رفع على البدل من [كِتابٌ ، أو نصب ، بمعنى : بأن لا تعلوا «2» .

25 يُخْرِجُ الْخَبْءَ : غيب السّماوات والأرض «3» .

وقيل «4» : خبء السماوات المطر ، وخبء الأرض النبات .

فِي السَّماواتِ : أي : منها ، لأنّ ما أخرج من شيء فهو فيه قبله .

40 الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ : رجل من الإنس عنده علم اسم اللّه الأعظم الذي هو : يا إلهنا وإله الخلق جميعا إلها واحدا لا إله إلّا «5» أنت . وكان يجاب دعوته معجزة لسليمان .

قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ : أي : تديم النّظر حتى يرتدّ الطّرف كليلا «6» .

---

(1) في الأصل : «أن لا» ، والمثبت موافق لرسم المصحف .

(2) إعراب القرآن للنحاس : 3/ 209 ، والبيان لابن الأنباري : (2/ 221 ، 222) ، والتبيان للعكبري : 2/ 1008 .

(3) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 291 .

(4) معاني القرآن للفراء : 2/ 291 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 324 ، وتفسير الطبري :

19/ 150 .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 13/ 163 عن الزهري ، وكذا ابن أبي حاتم في تفسيره : 247 (سورة النمل) ، وفي إسناديهما عثمان بن مطر الشيباني ، وهو ضعيف كما في التقريب :

386 .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 19/ 164 عن مجاهد ، وكذا ابن أبي حاتم بإسناد صحيح ، ينظر تفسيره : 253 (سورة النمل) .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 361 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن مجاهد .

(83/574)

وقيل «1» : هو على المبالغة في السرعة .

و«العفريت» «2» : النافذ في الأمر مع خبث ونكر «3» .

وفي الحديث «4» : «إنّ اللّه يبغض العفرية «5» النّفرية» ، أي : الداهي الخبيث .

43 وَصَدَّهَا ما كانَتْ تَعْبُدُ : عن أن تهتدي للحق «6» . وقيل «7» : صدها سليمان عما كانت تعبد .

47 تُفْتَنُونَ : تمتحنون بطاعة اللّه ومعصيته .

49 تَقَاسَمُوا : تحالفوا .

51 إنا دمرناهم : على الاستئناف «8» ، أو معناه بيان العاقبة ، أي : انظر أيّ شيء كان عاقبة مكرهم ، ثم يفسّره إنا دمرناهم .

ويقرأ أَنَّا «9» بمعنى لأنا دمّرناهم ، أو على البدل من كَيْفَ .

---

(1) تفسير الفخر الرازي : 24/ 198 .

(2) من قوله تعالى : قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ [آية : 39] .

(3) ينظر معاني القرآن للفراء : 2/ 294 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 324 ، وغريب الحديث للخطابي : 1/ 249 ، واللسان : 4/ 586 (عفر) . [. . . . .]

(4) أورده الحافظ ابن حجر في المطالب العالية : 2/ 341 ، كتاب الطب ، باب «كفارات المرض وثواب المريض» بلفظ : «إن اللّه يبغض العفريت النفريت . . .» ، وهو من مسند الحارث بن أبي أسامة ، رواه مرسلا .

والحديث باللفظ الذي أورده المؤلف - رحمه اللّه - في الفائق : 1/ 414 ، وغريب الحديث لابن الجوزي : 2/ 107 ، والنهاية : 3/ 262 .

(5) في «ج» : العفريت النفرية .

(6) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 19/ 167 عن مجاهد ، وذكره الماوردي في

تفسيره :

3/ 203 دون عزو .

(7) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 295 ، والطبري في تفسيره : 19/ 168 ، والماوردي في تفسيره :

3/ 203 .

(8) على قراءة كسر الهمزة ، وهي لنافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وابن عامر .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 484 ، والتبصرة لمكي : 282 ، والتيسير للداني : 168 .

(9) وهي قراءة عاصم ، وحمزة ، والكسائي كما في السبعة : 484 .

وانظر توجيه هذه القراءة في حجة القراءات : 532 ، والكشف لمكي : 2/ 163 ، والبحر المحيط : 7/ 86 .

(84/574)

---

52 خاوِيَةً : خالية ، وهي حال ، أي : انظر إليها خاوية .

وهذه البيوت بواد القرى بين المدينة والشّام «1» .

54 تُبْصِرُونَ : تعلمون أنها فاحشة فهي أعظم لذنوبكم .

وقيل : يرى ذلك بعضهم من بعض / عتوا وتمرّدا .

56 فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا : نصب جَوابَ خبرا ل «كان» لأنّ النفي أحق بالخبر «2» .

يَتَطَهَّرُونَ : قالوه هزءا .

والحاجز بين البحرين «3» : المانع أن يختلطا ، وفيه دليل على إمكان كف النّار عن الحطب حتى لا تحرقه ولا تسخّنه .

66 بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ [تدارك] «4» أدغمت التاء في الدال واجتلبت ألف الوصل «5» ، والمعنى إحاطة علمهم في الآخرة بها عند مشاهدتهم وكانوا في [شك] «6» منها . أو هو تلاحق علمهم وتساويه بالآخرة بما في العقول من وجوب جزاء الأعمال .

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ من وقت ورودها ، بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ : تاركون مع ذلك التأمل .

---

(1) في تاريخ الطبري : 1/ 204 : «وكانت ثمود بالحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله» .

وانظر هذا الموضع في معجم البلدان : 5/ 345 ، والروض المعطار : 602 .

(2) معاني القرآن للزجاج : 4/ 126 .

(3) من قوله تعالى : وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً . . . [آية : 61] .

(4) ما بين معقوفين عن هامش الأصل ، وعن نسخة «ك» و«ج» .

(5) جاء بعده في إعراب القرآن للنحاس : 3/ 218 : «لأنه لا يبتدأ بساكن ، فإذا وصلت سقطت ألف الوصل وكسرت اللّام لالتقاء الساكنين» .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 128 ، والكشف لمكي : 2/ 165 .

(6) في الأصل : «شد» ، والمثبت في النص من «ك» .

(85/574)

---

72 رَدِفَ لَكُمْ : تبعكم ودنا منكم «1» ، واللام تقتضي زيادة تتابع واتصال مع الدنوّ حتى فسّر ب «عجل لكم» «2» .

82 وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ : وجب الغضب [عليهم] «3» - أو حق القول بأنهم لا يؤمنون - أخذوا بمبادئ العقاب بإخراج الدابّة .

وسئل - عليّ رضي اللّه عنه - عن دابّة الأرض فقال : واللّه ما لها ذنب وإنّ لها للحية «4» . وقال ابن عباس «5» - رضي اللّه عنهما - : هي دابّة ذات زغب «6» وريش تخرج من وادي تهامة «7» .

وفي الحديث «8» : «يخرج . . . . . .

---

(1) انظر غريب القرآن لليزيدي : 288 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 326 ، والمفردات للراغب : 193 .

(2) أخرجه الطبري في تفسيره : 20/ 10 عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور :

6/ 375 ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن مجاهد .

وانظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 128 ، وتفسير الماوردي : 3/ 209 . [. . . . .]

(3) المثبت عن «ك» ، وانظر هذا القول في معاني القرآن للفراء : 2/ 300 ، وتفسير الطبري : 20/ 13 .

(4) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره : 397 (تفسير سورة النمل) ، وإسناده ضعيف لأن فيه يونس بن بكير ، وهو صدوق يخطئ ، ولعنعنة ابن إسحاق عمن روى عنه دون تصريحه بالسماع ، وهو معروف بالتدليس .

ينظر ترجمة يونس بن بكير في الجرح والتعديل : 9/ 236 ، والتقريب : 613 .

وترجمة ابن إسحاق في التقريب : 467 .

(5) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره : 404 (تفسير سورة النمل) – بلفظ : «هي دابة ذات زغب وريش لها أربع قوائم ثم تخرج في بعض أودية تهامة» .

وإسناده صحيح ورجاله ثقات .

وأورد السيوطي هذا الأثر في الدر المنثور : 6/ 381 ، وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور ، ونعيم بن حماد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(6) الزّغب : صغار الريش ولينه ، وقيل : هو دقاق الريش الذي لا يطول ولا يجود . النهاية : 2/ 304 ، واللسان : 1/ 450 (زغب) .

(7) تهامة - بالكسر - : سهول ممتدة تساير البحر الأحمر من الجنوب إلى الشمال . انظر معجم ما استعجم : 1/ 13 ، ومعجم البلدان : 2/ 63 ، والروض المعطار : 141 .

(8) هذا جزء من حديث طويل أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره : 396 ، (تفسير سورة النمل) عن علي رضي اللّه عنه واللفظ عنده : «لتخرج حضر الفرس ثلاثا ، وما خرج ثلثاها» .

وفي إسناده الليث بن أبي سليم بن زنيم . قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب : 464 : «صدوق اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك» .

(86/574)

حضر «1» الفرس الجواد ثلاثا وما خرج ثلثها بعد» .

87 فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ : أسرع الإجابة «2» ، إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ :

من البهائم ومن لا ثواب له ولا عقاب .

ومن [حمله] «3» على الفزع بمعنى الخوف كان الاستثناء للملائكة والشهداء .

وفي الحديث «4» : «الشهداء ثنيّة اللّه في الخلق» : أي : استثناؤه فلا يصعقون وهم الأحياء المرزوقون .

89 مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ : أي : قال : لا إله إلّا اللّه «5» ، فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها :

أي : خيره كله منها ، لا أنّ الجنّة خير من كلمة التوحيد .

88 وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً : أي : في يوم القيامة تجمع وتسيّر ، وكلّ شيء عظم حتى غصّ به الهواء يكون في العين [واقفا وهو سائر] «6» .

صُنْعَ اللَّهِ : مصدر ، وعامله معنى وَتَرَى الْجِبالَ : أي : صنع ذلك صنعا «7» . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 628. 637 ﴾

---

(1) في النهاية : 1/ 398 : «الحضر - بالضم - : العدو ، وأحضر يحضر فهو محضر إذا عدا» .

(2) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 212 ، ونقله القرطبي في تفسيره : 13/ 240 عن الماوردي .

(3) في الأصل : «حمل» ، والمثبت في النص عن «ك» و«ج» .

(4) ذكره البغوي في تفسيره : 3/ 431 ، وهو من قول كعب الأحبار كما في غريب الحديث لابن الجوزي : 1/ 130 ، والنهاية لابن الأثير : 1/ 225 .

ونسب أيضا إلى سعيد بن جبير .

(5) تفسير الطبري : 20/ 22 ، وتفسير الماوردي : 3/ 213 ، وتفسير البغوي : 3/ 432 .

(6) في الأصل و«ج» : «واقفة وهي سائرة» ، وأثبت ما أشار إليه الناسخ في نسخة أخرى .

وانظر هذا المعنى في تأويل مشكل القرآن : 4 ، وتفسير البغوي : 3/ 432 ، وتفسير القرطبي : 13/ 242 .

(7) ينظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 130 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 224 ، والبيان لابن الأنباري : 2/ 227 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة النمل

27 - 48

نزلت بمكة بعد الشعراء ، وهي ثلاث وتسعون آية ، وألف وثلاثمائة وسبع عشرة كلمة ، وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وستون حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة بمثل هذين الحرفين الطاء والسين .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

قال تعالى : "طس" اللّه أعلم بمراده فيه ، راجع تفسير طسم قبلها وما ترشدك إليه لندرك تفسيره "تِلْكَ" الآيات العظام المنزلة عليك يا سيد الأنام هي "آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ" 1 أي وآيات اللوح المحفوظ لدينا ، الذي لا خفاء في حكمه وأحكامه وأخباره وأمثاله ، فهو "هُدىً" من الضلال في الدنيا "وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ" 2 العاملين فيه بالآخرة وهم المبينون بقوله عز قوله "الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ" اللتين ستفرض عليهم حتما ، وقيل المراد بالصلاة الركعتان المفروضتان عليه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقلده فيهما من آمن به ، وبالزكاة ما كان متعارفا عندهم من الصدقات ، لأن هاتين العبادتين لم تخل أمة منهما ولو اختلفا في الكم والكيف ، لأن اللّه تعالى تعبد فيهما كافة الأمم ، لأنهما قوام الدين والدنيا ، لما في الأولى من المنافع التي تعود على صاحبها بكل خير وفي الثانية من المنافع المادية التي

تعود على المحتاجين بقضاء حوائجهم ، وعلى المتصدقين برضاء اللّه "وَهُمْ" القائمون بهاتين العبادتين "بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ" 3 يصدقون تصديقا خالصا ، فمن جمع مع الإيمان هذه الخصال فلا خوف عليهم في العاقبة "إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ" لا تنفعهم أعمالهم الحسنة عند اللّه مهما كانت لأنهم من الذين "زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ" الخبيثة في الدنيا ، فرأوها حسنة ،

(88/574)

و ذلك أن اللّه تعالى يخلق لمثل هؤلاء العلم في قلوبهم مما فيه المنافع واللذات الدنيوية ، ولم يخلق فيها خوف المضار والآفات ، لذلك يرون أعمالهم القبيحة حسنة "فَهُمْ يَعْمَهُونَ" 4 يترددون في حيرتهم كما يفعل الضال عن الطريق السوي ، لأن العمه هو عمى القلب لا ينفع البصر "أُولَئِكَ" الذين هذه صفتهم "لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ" في الدنيا قتلا وأسرا وجلاء وإهانة وذلا "وَهُمْ" مع خسارتهم الدنيا "فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ" أيضا على ما فرطوا من دنياهم وأفرطوا في أمر آخرتهم ، فتراهم كثيري الخسارة والحسرة والندم ، لأن الإنسان يعمل في الدنيا ليربح في الآخرة ، فكيف إذا خسر فيهما فيكون من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ولم ينتفعوا بأعمالهم فيساقون إلى جهنم ، وهذا غاية الخسران لا سيما إذا رأوا

نجاة المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا "وَإِنَّكَ" يا سيد الرسل "لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ" بواسطة أميننا جبريل الذي يأتيك به "مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ" وأي حكيم لأن التنوين والتنكير يدلان على التعظيم والتفخيم ، والحكمة هي العلم بالأمور العالية والعلم قد يكون علما وقد يكون نظرا فهو أعم من الفقه "عَلِيمٍ" بما كان لدينا قبل كونه وما يكون فينا قبل أن يكون ، واذكر لقومك يا سيد "إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ" زوجته ومن كان معها من ابنه وخادمه "إِنِّي آنَسْتُ نَاراً" أبصرت ما استانس به لحاجتكم ، لأن الوقت كان ليلا وباردا ولم يعرفوا الطريق أيضا ، فامكثوا مكانكم لأذهب لمكانها ، و"سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ" عن الطريق "أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ" تستدفئون به إن لم أجد من يهدينا الطريق ونبقى هنا حتى يتبين لنا ذلك ، والشهاب الشعلة من النار ، والقبس النار المقبوسة منها ، أو العود الذي في أحد طرفيه نار ، وهو ما تعورف به عندنا الآن ، وقرىء بشهاب قيس على الإضافة وهي قراءة جائزة إذ ليس فيها نقص ولا

(89/574)

زيادة ولا تبديل في المعنى بخلاف ما بيناه في الآية 166 من البقرة المارة "لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ" 7 تستدفئون ، لأن الوقت شتاء ، فأجابوه لما طلب ، فتركهم وذهب ، وكان في إضلالهم

الطريق هداهم راجع الآية 10 من سورة طه المارة .

مطلب بدء نبوة موسى وكيفية تكليمه :

قال تعالى "فَلَمَّا جاءَها" وأبصر تلك النار "نُودِيَ" من جهتها "أَنْ بُورِكَ" أن هنا تفسيرية للنداء ، والمعنى أي بورك لما في النداء من معنى القول دون حروفه ، وضمير بورك يعود على موسى عليه السّلام ، وقيل إنها مخففة من الثقيلة وجاز كونها كذلك من غير حاجة الفصل بينهما وبين الفعل بقد والسين وسوف أو أحرف النفي ، لانها وليت فعل دعاء وهو مستثنى من تلك الفواصل ، خلافا لأبي علي الفارسي القائل إن أن المخففة لما كانت لا يليها إلا الأسماء استقبحوا أن يليها الفعل ليس بشيء يعتدّ به ، لان هذا ليس على إطلاقه ، فقد استثنى من عموم فعل الدعاء "مَنْ فِي النَّارِ" من جاء لأجلها إلى المحل الذي هي فيه "وَمَنْ حَوْلَها" موسى وغيره من الملائكة فيشمل كل من هو في تلك البقعة والبقعة نفسها ، لانها مبعث الأنبياء ومهبط الوحي ، وهي المعينة بقوله تعالى (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ) الآية 19 الآتية من سورة القصص ، وتفيد هذه الآية المفسرة إبداء التحية العظيمة من اللّه عز وجل لموسى عليه السّلام ، وفيها إشارة إلى حصول البركة في أراضي الشام التي هي حول تلك البقعة المقدسة المشار إليها في قوله تعالى حكاية عن حال إبراهيم عليه السّلام :

(وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها) الآية 71 من سورة الأنبياء في ج 2 وبشارة

عظيمة من اللّه إلى موسى أيضا بحدوث أمر ديني فيها ، وهي استنباؤه ، ورسالته ، وتكليمه ، وإظهار المعجزات على يده ، وتجديد دين أبيه إبراهيم عليه السّلام .

(90/574)

ثم اعلم هداك اللّه أن لا مجال للقول هنا بأن السمع من الشجرة أو من جهة النار يدل على حدوث المسموع وهو كلام اللّه تعالى ، لأن اللّه منزّه عن الجهة والمكان ، وكذلك كلامه ، لأن سماع موسى كلامه من إحدى الجهتين المذكورتين يرجع إلى موسى لا إلى اللّه ، وان اللّه تعالى خلق لموسى علما ضروريا علم به أن الذي يسمعه هو كلام اللّه القديم الأزلي من غير صفة ولا صوت ولا جهة ، فقد سمعه وحده من الجهات الست ، وصارت جميع جوارحه كسمعه ، ولو فرض أن هناك أحدا معه لما سمع شيئا البتة ، وهكذا كان محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حينما ينزل عليه الوحي ، يعلمه وحده دون الحاضرين معه ، راجع الآية 195 من سورة الشعراء المارة ،

وسماع كلام اللّه في الآخرة يكون على هذه الصفة ، لأن الكامل الواصل يكون له في الدنيا حكم الآخرة ، وقيل في هذا المعنى :

إذا ذكرت ليلى فكلي مسامع وإن ظهرت ليلى فكلي أعين

أي أنه يرى ويسمع بكل جوارحه وهي مبالغة عن شدّة تلذذه بما يسمعه ويراه منها لتوغله في محبتها ، ولأن حبّها تداخل فيه وجرى في عروقه مجرى الدم منه .

(91/574)

ثم اعلم أيضا أنه لا يجوز السؤال عن الكيفية في ذات اللّه تعالى وصفاته ، إذ لا يقال كيف ذاته من غير جسم ولا جوهر ولا عرض ، ولا كيف علمه من غير كسب وضرورة ، ولا كيف قدرته من غير صلابة ، ولا كيف إرادته من غير شهوة وأمنية ، ولا كيف تكليمه من غير حدة ولا صوت ، لأن هذا كله من نعوت البشر ، ولأن اللّه تعالى سدّ هذا الباب عليهم بقوله جل قوله : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الآية 11 من سورة الشورى في ج2 ، أما كيفية سماع موسى كلامه فقد وضحته لك أعلاه ، فاغتنم هذا ، فإنك لا تجده على هذا التفصيل والتمثيل في كتب كثيرة ، واحمد اللّه على إنعامه "وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ" 8 وهذه الجملة من تتمة ما نودي به موسى ، أي نزه ربك عما لا يليق به ، فقد نزه تعالى شأنه ذاته المقدسة بذاته عن صفات خلقه وعما تتخيله الأوهام من التشبيه والتمثيل ، وفيها تعجب إلى موسى بأنه سيلقى من جلائل الأمور وعظائم الشئون ما يتعجب منه المتعجبون .

وما قاله السدي بأن هذه الجملة من كلام سيدنا موسى ، بعيد عن المقام ويأباه مدلول

الكلام ، لأن موسى لم يتكلم بعد ، كيف وقد اعتراه ما اعتراه من الدهشة وهيبة الربوبية التي ألمعنا إليها في الآية 10 من سورة طه المارة ، ولما رأى اللّه تعالى موسى كما كان مرئيا في الأزل لديه وقد أخذته الرهبة ، أراد أن يعرفه بذاته المقدسة ويزيل عنه ما أهابه ليمهد له ما أراد أن يلقيه عليه ويظهره على يده من الأمور الغريبة ، ناداه "يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" 9 الذي يكلمك هو أنا ، ولفظة الجلال بيان للفظة أنا والعزيز الغالب لما يفعله من العجائب والبدائع بمقتضى الحكمة ، وهي صفتان له جلّت صفاته وفيها إشارة إلى كمال قدرته وقوة عظمته ورمز إلى أنه سيبين له ما يستبعده الوهم المستفاد من قوله "وَأَلْقِ عَصاكَ"

(92/574)

فألقاها حالا دون تردد ، امتثالا لأمره من غير أن يعلم المراد من إلقائها "فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ" تتحرك بشدة "كَأَنَّها جَانٌّ" حية صغيرة لشدة اضطرابها ، وتقدم في الآية 10 من سورة الأعراف والآية 15 من سورة طه والآية 32 من سورة الشعراء فقد بينا فيها التوفيق بين ما جاء فيها هنا وهناك ، فراجعها .

فلما رأى حركة عصاه وما انقلبت إليه هاله شأنها فتأخر عنها ، وهو معنى قوله تعالى

"وَلَّى" ظهره محلها "مُدْبِراً" عنها وهرب خوفا مما رأى وازداد اضطرابه "وَلَمْ يُعَقِّبْ" يرجع ويلتفت عقبه إليها ثم ناداه عز وجل ثانيا "يا مُوسى لا تَخَفْ" مما رأيت ، ارجع لأني أريد أن أجعلك رسولا لي "إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ" 10 لأني آمنتهم مما يخافون .

واعلم أن اللّه تعالى يفعل هذه المقدمات مع خلص خلقه من عباده الذين يختارهم لنبوته ، ويصطفيهم لرسالته ، بداية أمرهم إرهاصا لأقدارهم على تلقي وحيه ، ليتوطنوا عليه ، ويعلموا كيفية نزوله ، وهذا الخوف غير الخوف الذي هو شرط الإيمان ، فإن ذلك لا يفارقهم ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أنا أخشاكم للّه - راجع الآية 27 من سورة فاطر المارة -

(93/574)

ثم استثنى من عموم كلامه قوله "إِلَّا مَنْ ظَلَمَ" منهم بفعل ترك الأفضل وما هو خلاف الأولى أو زل عن غير قصد أو استعجل في أمره كآدم ونوح وداود وسليمان وإبراهيم ويونس عليهم السلام ، وقد سبقت الإشارة إلى ما صدر من كل منهم وتأويله وتفسيره ودواعيه في محله ، وقد سمى اللّه ما حدث منهم ظلما بالنسبة إليهم ، راجع الآية 2 من الأعراف المارة والآية 23 من ص والآيتين 63 و85 من سورة هود في ج 2 ، قال تعالى "ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ

سُوءٍ" تاب وندم على ما صدر منه ، وقد سماه سوء أيضا نظرا لمقامهم وإلا في الحقيقة لا يسمى ظلما ولا سوء بالنسبة لغيرهم ، لأنه على حد حسنات الأبرار وسيئات المقربين "فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ" 11 به أعفو عما صدر منه ثم ناداه ثالثا بقوله "وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ" اجعلها تحت إبطك "تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" برص ، فأدخلها امتثالا لأمره ، من غير أن يعرف الغاية منها ، ثم أخرجها فإذا هي تبرق كالشمس ، وبعد أن توطن لكلام اللّه قال اذهب "فِي تِسْعِ آياتٍ" مع هاتين الآيتين كما بيناها

(94/574)

في الآية 132 من الأعراف المارة ، وهذه كلها قبل خروجه من مصر وعبوره البحر ، أما بعدهما فقد أظهر اللّه له آيات كثيرة ، أولها انفلاق البحر ، ثم تفجير الماء من الصّخرة ، والمن والسلوى ، والغمام والطمس ، وخسف الأرض بقارون ، وإحياء صاحب البقرة ، وإحياء هارون ، وغيرها ، ولبحث آياته عليه السّلام صلة في الآية 100 من الإسراء الآتية ، وقد أرسلناك بهذه الآيات "إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ" 12 متجاوزين الحد في الكفر والعدوان ، خارجين عن الآداب والمروءة ، فذهب وأخذ أهله وتوجه إلى فرعون ، وقد قص اللّه لنا ما وقع بينهما في الآية 113 من سورة الأعراف

فراجعها ، قال تعالى على طريق الإجمال "فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً" على يدي موسى واضحة يشاهدونها بأم أعينهم وتتيقن بها قلوبهم "قالُوا هذا" الذي جاء به موسى "سِحْرٌ مُبِينٌ" 13 مكابرة وعنادا "وَجَحَدُوا بِها" أنكروا تلك الآيات وكفروا بها "وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ" بأنها من اللّه ليست بسحر ولا كهانة ، وأيقنوا أن موسى ليس بساحر ولا كاهن ، وأنه رسول اللّه حقا ، وهذا هو الجحود المركب ، لأن كل ما تيقنته وأنكرته فهو كذلك ، لصدوره عن تعنت وتجبّر وعناد ومكابرة ، أما من هداه اللّه كالسحرة ومؤمن آل فرعون وزوجته آسية ، فإنهم صدقوا وآمنوا حينما تجلت لهم الحقيقة ، وأصرّ فرعون وقومه على الكفر "ظُلْماً" وأي ظلم حيث سموها سحرا وحطوها عن مرتبتها "وَعُلُوًّا" ترفعا واستكبارا عن الإيمان بموسى وربه "فَانْظُرْ" يا سيد الرسل واعجب "كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ" 14 إذ أهلكناهم في دنياهم غرقا على الصورة المبينة في الآية 53 من سورة الشعراء ، المارة ، وستنظر عاقبتهم في الآخرة فهي أشد وأفظع وأقبح ، وهكذا تكون عاقبة من لم يؤمن من قومك .

مطلب أن اللّه تعالى خص الأنبياء بأشياء خاصة لأمور خاصة :

"وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً" عظيما في القضاء والسياسة لأمور نزيد إيقاعها على أيديهم كما قد قصصناه عليك في السور المتقدمة وما سنقصه عليك بعد ، وعلمنا آدم الأسماء لإسجاد الملائكة له راجع الآية 34 من البقرة في ج 3 ، وعلمنا الخضر علم الفراسة ليتلمذ له موسى كما في الآية 41 فما بعدها من سورة الكهف في ج 2 ، وعلمنا يوسف تعبير الرؤيا لنجعله ملكا على مصر راجع الآيتين 37 و 54 من سورة يوسف في ج 2 ، وعلمنا داود صنعة الدروع ليكون ملكا مع النبوة ، راجع الآية 11 من سورة سبأ ، وعلمنا سليمان نطق الطير لتؤمن به بلقيس كما سيأتي بعد ، وعلمنا عيسى الحكمة والتوراة والإنجيل لتدفع عنه التهمة راجع الآية 48 من آل عمران ، وعلمناك يا محمد علم الأولين والآخرين لنعطيك الشفاعة العظمى والرسالة العامة ، وهكذا بقية الرسل أعطيناهم أشياء خاصة لتكون سببا لإنالتهم أشياء خاصة في الدنيا والآخرة "وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا" بالنبوة والرسالة والملك ، ولم تجمع لمن قبلنا من الأنبياء في سبط من أسباط يعقوب ، بل كان الملك في سبط والنبوة في آخر "عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ" 15 بذلك وبما سيأتي من تسخير الجن والإنس والطير والهواء وغيرها راجع الآية 10 فما بعدها من سورة سبأ في ج 2 ، وقالا ما قالا إظهارا لشكر الله على نعمه وتحدثا بها ولم يفضلا أنفسها على الكل تواضعا وهضما لأنفسهما المطهرتين .

مطلب قصة ابن كثير مع جاره وعظمة ملك سليمان وكلام الطيور :

كان ابن كثير رحمه اللّه يجلس على بابه فيطالع ، وكان له جار رثّ الثياب ، وكلما خرج من داره وراآه على حالته يركب عليه فيشم منه رائحة كريهة ، فعنفه يوما على فعله ، وأخبره بأنه يعوقه عن مطالعته ، فقال له وما تطالع ؟ قال في الاقتباس ، قال أنشدني منه شيئا ،

فقال موريا فيه فورا :

كيد حسودي وهنا ولي سرور وهنا

(96/574)

الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزنا

الآية 38 من سورة فاطر ، فأجابه فورا معرضا فيه أيضا :

قلبي إلى الرشد يسير وعنده النظم يسير

الحمد للّه الذي فضلنا على كثير

الآية المارة ، فتعجب منه وقام إليه واحترمه ، واعتذر منه ، فقال له إياك أن تزدري بأحد ، فإن مواهب اللّه في الصدور لا في الثياب .

قال تعالى "وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ" نبوته ورسالته وعلمه وملكه وحده خاصة دون سائر اخوته الثمانية عشر بتخصيص اللّه تعالى إياه وزاده على أبيه تسخير الجن والإنس

والشياطين والريح ونطق الطير وكان يفهم تسبيحها فقط "وَقالَ" سليمان لأشرف قومه "يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا" من قبل الله ربنا "مِنْ كُلِّ شَيْءٍ" أوتيه الأنبياء قبلنا والملوك ، ومما لم يؤتوه من جميع ما تحتاجه الدنيا والآخرة "إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ" 16 الذي لا فوقه فضل ، وقال هذا على سبيل التحدث بالنعمة أيضا على حد قوله صلّى الله عليه وسلم ، أنا سيد ولد آدم ولا فخر .

قالوا وفي زمانه صنعت الأعاجيب من البناء والجنان والهياكل والتصاوير البارزة والمحاريب البديعة وغيرها ، وجاء في تفسير البغوي أن ملكه دام سبعمائة سنة وستة أشهر ، وهو أحد الأربعة الذين ملكوا الدنيا ، قالوا إنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه وذنبه ، فقال لأصحابه أتدرون ما يقول ؟ قالوا الله ونبيه أعلم ، قال يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء ، وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا .

وصاح طاووس فقال يقول كما تدين تدان .

وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبون .

(97/574)

وصاح طيطوى فقال يقول كل حي ميت وكل جديد بال ، وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه ، وصاحت رحمة فقال تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه ، وصاح قمري فقال يقول سبحان ربي الأعلى ، وقال تقول الحدأة كل شيء هالك إلا اللّه ، والقطاة تقول من سكت سلم ، والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه ، والعقاب يقول في البعد عن الناس أنس ، والديك يقول اذكروا اللّه يا غافلون ، والنسر يقول يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت ، والضفدع تقول سبحان ربي القدوس ، والقنبرة تقول اللهم العن مبغض محمد وآل محمد ، والزرزور يقول اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق ، والدراج يقول الرحمن على العرش استوى .

وعدّ الضفدع مع هذه الطيور مع أنه ليس منها ، إشعارا بأنه كما علمه اللّه منطق الطير علمه نطق بعض الحيوان والحيتان .

واللّه أعلم بصحة ذلك ، وإنما نقلناها لما فيها من الحكم البديعة التي تصح أن تكون موعظة وذكرى للمتعظين من البشر ، والغافلين الذين لا يعقلون ما يراد بهم ، إذ

لو عقلوا لما لذّ لهم طعام ولا شراب ، ولأكثروا من البكاء على أنفسهم وتركوا الضحك وتذكروا بمصير هذه الدنيا التي أغرتهم بزخارفها الفانية عن الدار الباقية ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

مطلب الصفات الممدوحة بالملك وحكم وأمثال :

قال تعالى "وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ" 17 يمنع أولهم من سرعة السير ليلحق آخرهم مجتمعون لشدة الازدحام الناشئ عن كثرتهم ، والوزع المنع ، قال عثمان رضي اللّه عنه : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن .

وقال الشاعر :

ومن لم يزعه لبه وحياؤه به فليس له من شيب فوديه وازع وإنما مال إلى حبس أولهم ولم يسق آخرهم ليلحقوا بهم رحمة ورأفة بهم ، كي يستريح الأولون ، ولا يزيد في تعب الآخرين .

(98/574)

وقال محمد بن كعب القرضي : كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمس وعشرون للإنس ، ومثلها للجن ، ومثلها للطير ، ومثلها للوحش .

والفرسخ اثنا عشر ألف باع ، لأنه ربع البريد الذي هو مسافة مرحلة ، قال :

أي بذراع اليد ، وقالوا إن الجن نسجت بساطا لسليمان عليه السّلام من حرير وذهب فرسخا في فرسخ ، وكان يوضع عليه كرسيه في الوسط وتوضع حوله كراسي الذهب والفضة ويجلس عليها العلماء والصلحاء والناس حولهم والجن والشياطين حول الناس ، والوحوش حولهم وتظلّهم الطيور بأجنحتها ، وكان له ألف بيت من قوارير فيها ثلاثمائة

زوجة ، وسبعمائة سرية ، وأن الريح العاصفة ترفعه ، والرّخاء يسير به بأمره ، وأن الريح تخبره بما يتكلم به الخلائق ، قالوا إن حراثا قال لقد أوتي آل داود ملكا عظيما ، فألقته الريح بأذنه ، فنزل بموكبه ومشى إليه وقال له تسبيحة واحدة يقبلها اللّه خير مما أوتي آل داود .

قال عمر رضي اللّه عنه : أخبرني يا رسول اللّه عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب ، وخضعت له الأجساد ، ما هو ؟

فقال صلّى اللّه عليه وسلم ظل اللّه في الأرض ، فإذا أحسن فله الأجر ، وعليكم الشكر ، وإذا

أساء فعليه الوزر ، وعليكم الصبر .

وقيل لكسرى أي الملوك أفضل ؟ فقال الذي إذا حاورته وجدته عالما ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا أغضبته كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما ، وإذا استمنح منح جسيما ، وإذا أوعد عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا شكي إليه كان رحيما .

وقال حكيم ليزدجر : صلاح الملك الرفق بالرعية ، وأخذ الحق منها بغير عنف ، والتودد بالعدل إليها ، وأمن السبيل عليها ، وانصاف المظلوم ، وردع الظالم .

وجاء في الخبر : يوم واحد من سلطان جائر خير من سبعين سنة بلا سلطان ، لأن عدمه يؤدي إلى الفوضى وسفك الدماء ونهب الأموال .

وقال :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

(99/574)

و البيت لا يبتنى ما لم يكن عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

وقال بعض الحكماء : لا ينبغي للإمام أن يكون جائرا ومن عنده يلتمس العدل ولا للعالم أن يكون سفيها ومن عنده يلتمس الحلم .

وقال آخر : المملكة تحب بالسخاء ، وتعمر بالعدل ، وتثبت بالعقل ، وتحرس بالشجاعة ، وتساس بالرياسة .

وقال عليم : على الظالم أن يكون وجلا ، وعلى المظلوم أن يكون جذلا ، وعلى الأمير أن لا يتجاوز الحد فكل ما جاوزه لا يسمى فضلا ، كالشجاع إذا جاوز حد الشجاعة نسب إلى التهور ، والسخي إذا جاوز حد السخاء نسب إلى التبذير ، والأديب إذا زاد حد الأدب نسب إلى الخساسة ، واعلم أن الخوف خوفان :

محمود وهو المقرون بالطاعة وحفظ الحدود مثل خوف الأبرار والأتقياء ، ومذموم وهو المقرون بالمعصية ومخالفة الأوامر الشرعية مثل خوف إبليس وجنوده الذين يعلمون أن لهم

خالقا يعاقبهم على عصيانهم وهم يخافون عقابه ويخالفون أوامره ، والرجاء اثنان : رجاء من اللّه أن يرحمه في الدنيا ويعطف عليه قلوب أوليائه وعباده ويغمره بعفوه وعافيته ، وفي الآخرة أن يشمله برحمته وشفاعة نبيه ويلحقه بعباده الصالحين .

ورجاء من النفس من الآمال الباطلة وما يتخيّله له الشيطان من الأعمال الخسيسة والطمع فيما فيه من المعصية .

هذا وأفضل المعرفة معرفة الرجل نفسه ، وأفضل العلم وقوف العالم عند علمه ، وأفضل المروءة استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال تعالى "حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ" أشرفوا عليه لأن الإتيان غالبا

(100/574)

يكون من فوق ، والوادي كل منخفض يسيل فيه الماء ، وقد اختلف في هذا الوادي الكثير نمله حتى سمي به والمشهور أنه في اليمن وهو يسمى بهذا الاسم حتى الآن وكانت تذكره الناس بأقوالهم وأشعارهم ، وما قيل إنه بالشام أو بالطائف فليس بشيء ، "قالَتْ نَمْلَةٌ" لقومها سكان الوادي قولا فهمه سليمان عليه السّلام بان معناه ما ذكره اللّه بقوله "يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ" سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" 18 لكثرة

غلبتهم ومراعاتهم نظام المشي ، وذلك أن الجند إذا سيرهم قائدهم على جهة كان مشيهم بانتظام نحوها حتى إذا كان أمامهم شيء يدوسونه ولم يحيدوا عنه ، ولهذا تقدمت النملة بالعذر لسليمان عليه السّلام ووصفته وجنوده بالعدل والرحمة والتباعد عن الجور ، إذ علمت بإلهام اللّه إياها أنه نبي لا يجور ولا يتيه ولا يظلم ، قالوا وكان اسمها طافيه وهي عرجاء ذات جناحين "فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها" إعجابا بما آتاها اللّه من معرفة ، وسرورا بما آتاه اللّه من سماع وفهم لقولها ، ولما وصفته وقومه به من الشفقة المستفادة من قولها (وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) والتبسم سمة الأنبياء .

روى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : ما رأيت النبي صلّى اللّه عليه وسلم مستجمعا ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسم .

قال الأبوصيري :

(101/574)

سيد ضحكه التبسم والمشي الهوينا ونومه الإغفاء واللهوات اللحمات المشدقة على الحلق أو التي ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب في أعلى الفم ، مفرده لهاة ، قالوا ثم إن سليمان حبس جنوده أي أوقفهم ومنعهم من مداومة السير ، وأمر بإهباط البساط ،

فنزل على شفير الوادي ، لأنه لو أهبطه فيه لتحطم النمل لعظمه وثقله ، وانتظر حتى دخل النمل كله مساكنه فلم تكسر منه واحدة ، ثم حمد اللّه وأثنى عليه "وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي" كفني عن كل شيء مؤذ وامنعني من كل شيء مضر ، ووفقني "أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ" من قبل "وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ" لأن العمل مهما كان حسنا إذا لم يرضه اللّه لا يعد شيئًا ، والعمل الطيب الخالص لوجهه السالم من الرياء وشوائبه هو المرضي عند اللّه "وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ"

19 من آبائي إبراهيم وإسماعيل ومن قبلهم ، ثم أمر العسكر بالنزول إلى الوادي ، فاصطف كعادته وسار وركب هو البساط وأمر ملأه فركب حوله كهيئته المارة ، ثم نظر إلى الطير المحلق فوقه فرأى كوة بينه "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ" ليعلم الغائب منه ، لأنه إذا حلق فوق البساط لم يترك كوة ينفذ منها شعاع الشمس على من فيه "فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ" إذ عرفه أنه هو الغائب الذي سبب وجود الكوة ونفوذ الشمس ، ربما أن الهدهد له أهمية بالنسبة لغيره عدا سد الكوة لأنه الدليل على الماء إذ يعرف بتعريف اللّه إياه الأرض التي فيها الماء وقربه وبعده فيها بمجرد نظره ، فيرى الماء داخلها كما يرى الناس الماء في الزجاجة وكما يرى القرلي السمك بأرض الأنهار وهو عائم فوقها ، فيسقط ويأخذها .

سبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ولما تحقق عند سليمان غياب الهدهد قال "أَمْ" بل "كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ" 20

ولما كان غيابه بغير إذن منه توعده ، فقال "لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً" قالوا بحبسه مع ضدّه بالشمس أو بنتف ريشه أو يفرق بينه وبين إلفه ، هذا إذا جاء عليه بشيء أوجب غيابه لمجرد عدم الاستئذان ، أما إذا كان تخلفه عن وجوده بمحله دون معذرة فتشدد عقوبته ، ولهذا قال "أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ" 21 حجة واضحة على غيبته بصورة اضطرارية لا يتمكن معها من الاستئذان ، فإنه ينجو من العذابين المذكورين ، قالوا ثم أرسل العقاب يطلبه فذهب "فَمَكَثَ" يتحراه "غَيْرَ بَعِيدٍ" أي مدة يسيرة وانتظره سليمان انتظارا قليلا ، فوجده الغراب وأخبره بما توعده به سليمان ، فقال له أو ما استثنى ؟ قال بلى ، وذكر له كيفية الاستثناء ، قال نجوت إن شاء اللّه ، فسار معه حتى أحضره أمام سليمان ، فرفع الهدهد رأسه وأرخى ذنبه ، وحط جناحيه في الأرض تواضعا وخشوعا وخوفا منه ، ولما سأله عن تخلفه ، قال قبل أن يبدي حجته : يا نبي اللّه اذكر وقوفك بين يدي اللّه عز وجل ، فارتعد سليمان لكلامه هذا ، وعفا عنه قبل إبداء عذره ، هكذا كانت الأنبياء وهم ملوك فتخلقوا أيها الناس بأخلاقهم ، واقتدوا بأفعالهم وأقوالهم ، فلو أن أحدنا

مكانه لضرب به الأرض حالا دون رويّة .

مطلب ما قاله الهدهد لسليمان وعلوم القرآن الأربعة :

(103/574)

قالوا ثم سأله عن تأخره "فَقالَ" بعد أن أمن "أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ" ألهمه اللّه هذا الكلام لينبّه سليمان بأن أدنى خلق اللّه علم ما لم يعلمه وهو بما عليه من النبوة والرسالة والملك ، والإحاطة أبلغ من العلم بالشيء وقد أخفى اللّه مكان بلقيس على سليمان لمصلحة علمها ، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب ثم قال "وَجِئْتُكَ" يا رسول اللّه وملك الزمان "مِنْ سَبَإٍ" اسم لقبيلة جدها سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ، كان له عشرة أولاد سكن ستة منهم اليمن وأربعة الشام ، وجاء أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم سئل عن سبأ فقال : رجل له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة واسم البلد التي هو فيها سبأ مأرب ، ثم اعلم أنه جاء في رسم القرآن خاصة زيادة حروف تكتب ولا تقرأ وهي من معجزات القرآن لأن في اللغات الأجنبية حروفا تكتب ولا تقرأ ولهذا لم يغفل القرآن ذلك مثل الالف في (لَأَذْبَحَنَّهُ) هنا والهمزة في (بِأَيْدٍ) الآية 47 من الذاريات في ج 2 ، والألف في (بشراى) وفي كلمة جزاؤه في الآيتين 19 و 74 من سورة يوسف ج 2 ، والواو في كلمتي الصلوات

والزكاة في كثير من الآيات المكية والمدنية ، والألف في كلمة (السُّواى) الآية 10 من سورة الروم وفي كلمة (لِشَيْءٍ) الآية 14 من سورة الكهف في ج 2 أيضا وهذه لا تكتب في غير القرآن ، إذ كان في رسم قرآن عثمان رضي اللّه عنه هكذا ، وجب التقيد فيها حتى الآن وما بعد ، ومن هنا تعلم أن العلوم المتعلقة بالقرآن أربعة :

(104/574)

الاول ما يتعلق بكتابته ، وهو علم الرسم ، الثاني ما يتعلق بالأداء وهو علم القراءات السبع ، الثالث ما يتعلق بكيفية الأداء وهو علم التجويد ، الرابع ما يتعلق بالألفاظ وهو علم الإعراب والبناء والتصريف والبيان والبديع والمعاني ، وقد المعنا إلى بعض هذا في المقدمة وما بعدها عند كل مناسبة ، وهكذا إلى آخر هذا التفسير المبارك ومن اللّه التوفيق ، ثم قال وسأخبرك "بِنَبَإٍ يَقِينٍ" 22 عما وجدت ورأيت مما لا مرية فيه ، فتشوق سليمان لذلك وقال أخبرني ما هو ؟ قال "إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ" يحتاجه الملك والملك "وَلَها" يا سيدي "عَرْشٌ عَظِيمٌ" 23 فخم كبير لا نظير له ، واستعظمه بالنسبة إليها ، قالوا كان

ثمانين ذراعا في ثمانين ذراعا ، وارتفاعه كذلك ، وهو مصوغ من الذهب ، ومكلل بالدّر

والياقوت ، ومرصع باللآلي الثمينة ، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر وأبيض وزمرد ، وعليه سبع أبيات بعضها داخل بعض ، على كل بيت باب مغلق ، قالوا ثم قال له ومن أعلمك بذلك حتى ذهبت إليه ؟ قال لا أحد ، ولكني يا نبي اللّه لما اشتغلتم بالنزول من أجل قول النملة ، وجدت فرصة لأن أطير بالفضاء في نظر هذا الكون ، فرأيت هدهدا مثلي اسمه يعقير ، وكان اسمه يعفور فسألني ، فأخبرته عنك ، وعن ملكك ، وما سخره اللّه لك ، فقال لي وأنا عند ملكة لا تقل عن ذلك ، واسمها بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان .

مطلب ملك بلقيس وسلاطين آل عثمان :

(105/574)

قالوا كان أبوها يقول لسفراء الملوك لا أحد كفوء لي ، ولم يتزوج منهم ، فتزوج جنية اسمها ريحانه بنت السكن ملك الجن ، وسبب زواجها أنه رأى حيتّين تقتتلان ، فقتل السوداء ورش الماء على البيضاء ، حتى أفاقت وانقلبت شابا ، فعرض عليه المال ، فأبى ، فزوجه ابنته ، وقال له إن الحيّة السوداء عبد تمرد علينا وقتل منا كثيرا ، فأردت قتله كما رأيته ، فلم أستطع ، ولولاك لقتلني ، ولهذا كافأتك بابنتي .

وتوجد روايات أخرى لم نعتمد صحتها ، وأنا في هذه شاك أيضا ، وإنما نقلناها استنادا لما جاء في بعض الأخبار عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أن أحد أبوي بلقيس جنّي .

قالوا وبعد وفاة أبيها ملك قومها عليهم ابن عمها ، فساءت سيرته فيهم وصار يفجر في نساء رعيته ، وقد عجزوا عنه ، فاحتالت عليه وخطبته لنفسها ، فخطبها ، وقال لها ما منعني من خطيتك إلا اليأس منك ، فقالت له لا أرغب عنك ، لأنك كفو كريم ، ولما زفت له بادرته بالخمر حتى سكر ، فقتلته ، ثم جمعت الوزراء وأنبتهم على صبرهم عليه مع انتهاكه حرماتهم ، وقالت ما كان فيكم من يأنف لكريمته أو كرائم عشيرته من هذا الفاجر ؟ وأظهرته لهم مذبوحا ، وقالت اختاروا من تملكونه عليكم ، فقالوا لا نرضى غيرك بعد أن فعلت هذا وصنت كرائمنا منه ، فملكوها عليهم واللّه أعلم .

روى البخاري ومسلم عن أبي بكرة قال :

لما بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى ، قال : لن يفلح قوم ملكوا أمرهم امرأة .

(106/574)

وبمناسبة قول الهدهد لسيدنا سليمان نذكر للقراء أن السلطان عبد الحميد العثماني رحمه اللّه كان إذا خرج إلى المسجد يخرج في موكب عظيم لا بضاهيه ملوك الأرض فيه ، وكان يوقف ثلة على طريقه ، وعند وصوله إليهم يقفون له بالاحترام ويقولون له بصوت عال يسمعه من معه من الملأ والوزراء والعلماء المحيطين به بلغتهم التركية (بادشاهم مغرور وله سندن بيوك اللّه وار) يعني (يا سلطاننا لا تغتر اللّه أكبر منك) وعند ما يسمع كلامهم هذا يحني رأسه خضوعا لما قالوا إذلالا لنفسه ، في عز سلطته المهيبة الباهرة ، وجرى من بعده على هذه الخطة هضما لنفسه أيضا ، مما يدل على أن ما يقوله الناس في ملوك آل عثمان مبالغ فيه واللّه أعلم ، وأنهم كانوا يحترمون العلم والعلماء ويقدمونهم على غيرهم ، من أهل الرتب العالية ويستثنون طلبة العلم من الخدمة الإجبارية ويعظمونهم في التشريفات فيقولون عند استقبالهم تفضّلوا ، رتبة العلم أفضل الرتب .

(107/574)

هذا ، ومن تتمة قول الهدهد "وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ" وذلك لأنهم كانوا مجوسا "وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ" القبيحة ، فرأوها حسنة "فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ" الحق طريق أهل الرشد والهدى الذي هو السجود للّه وحده ، لأن الشيطان لا

يدلهم إلا على الضلال "فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ" 24 إلى الصواب ما داموا متبعيه ، ولذلك زين لهم أعمالهم الخبيثة "أَلَّا" لئلا على قراءة التشديد التي عليها القرآن ، وعلى قراءة التخفيف يكون (ألا) أداة استفتاح تدل على الطلب بلين ورفق ، ويكون المعنى ألا أيها الناس "اسجدوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ" الشيء المخبأ المستور المدخر "فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" كالمطر والبرد والثلج وغيره والماء والنبات والأشجار والمعادن وغيرها مما علم ومما لم يعلم بعد "وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ" في أنفسكم من كل قول أو فعل "وَما تُعْلِنُونَ" 25 بالتاء ، والياء بالخطاب والغيبة ، واعلموا أيها الناس بأن العالم بذلك كله وغيره ، هو "اللّه الذي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" الذي لا أعظم منه ، ولا يضاهيه عرش ، الذي لا يستحق العبادة غيره ، فعرش بلقيس وعرش سليمان وغيرهما لا تكون ذرة في صحراء بالنسبة لعرش الرحمن ، اقرأوا إن شئتم

(108/574)

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ) الآية 256 من البقرة في ج 3 ، والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في فلاة ، وفي هذه الآية ردّ على عبدة الأوثان وغيرهم وكل من يعبد غير اللّه وتنبيه إلى عظم عرش اللّه بالنسبة لجميع مخلوقاته ، وإلى هنا انتهى قول الهدهد

الذي قصه اللّه على رسوله "قالَ" سليمان عليه السّلام بعد أن سمع من الهدهد ما لم يسمعه ، وقد تشوق إلى معرفة ذلك والوقوف عليه "سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ" فيما ذكرته "أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ" 27 فيه لأنه قال وأوتيت من كل شيء ، وهو عليه السّلام ، لم يؤت كل شيء لهذا اشتغل فكره وتاقت نفسه لرؤية ذلك والوقوف عليه ، فكتب كتابا لها وأعطاه إلى الهدهد ، وقال له "اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ" جمع الضمير باعتبار أنه لها ولقومها ، وهو كالجواب لقول الهدهد (وَجَدْتُها وَقَوْمَها) إلخ ، "فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ" 28 لنا من الجواب فأخبرني به قبل أن يصل إليّ لا تروي في الأمر ، فأخذه وطار به ، فدخل عليها والوزراء حولها ، فرفرف بجناحه فنظرت إليه فرمى الكتاب إليها ، ووقف قريبا ليسمع ما يقولون ، ففضّته ، فلما رأت الخاتم ارتعدت ، وجمعت ملأها ، فقرأته عليهم علنا ، وقالوا كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، كل منهم على عشرة آلاف ، وعبارة الكتاب كما قص اللّه بلا زيادة ولا نقص ، وهكذا كان الأنبياء يكتبون جملّا لا يطيلون فيها "قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ" 29 مختوم ، روي عن ابن عباس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : كرامة الكتاب ختمه أي شريف لشرف صاحبه ، لأنها عرفت أنه أعظم منها من فحواه ، وهو "إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ" مكتوب فيه "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ 30

أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ" فتمتنعوا من الإجابة للإيمان تكبرا وتعاظما "وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" 31 منقادين لي طائعين لله فاستعظمت ما أمرت به في الكتاب ، ونظرت إلى ملئها "قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي" هذا الذي نزل بي وأشيروا علي فيه لأني "ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً" يتعلق بالملك ولا أقضيه ، أو أفعله وأمضيه بغيابكم ، بل لا أعمل شيئا من ذلك "حَتَّى تَشْهَدُونِ" 32 بكسر النون أصله تشهدونني ، فحذفت النون

الأولى للنصب وحذفت الياء لدلالة الكسرة عليها .

وقرأ يعقوب بإثبات الياء وقفا ووصلا ، وقراءتها بفتح النون لحن وخطا ، لأن النون تفتح في موضع الرفع لا النصب ، أي حتى تشيروا علي وتشهدوا علي حتى لا ألام فيما بعد ، لأن الاعتداد بالرأي من الجهل والأنفة ، وفي هذه الآية دلالة على استحباب المشاورة والمعاونة بآراء الغير في الأمور المهمة ، لان في تبادل الآراء واحتكاكها تظهر الحقيقة ، كما تظهر النار باحتكاك الزناد بالحصى .

(110/574)

ولهذا البحث صلة في الآية 38 من سورة الشورى في ج 2 وفي الآية 159 من آل عمران في ج 3 ، "قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ" في الأجساد وآلات الحرب "وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ" بالقتال فنصبر على جهده ونصدق عند اللقاء ولا نكلم إلا بالصدور ، وها نحن أولاء متهيئون لأمرك في الحرب والسلم ، وهذا شأن الرعية مع الملك إذ ما عليهم إلا الطاعة "وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ" في قتال هذا الملك وعدمه لأنك أنت صاحبة الرأي الصائب فيما يتعلق بملك ورعيتك الذين نحن من جملتهم "فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ" 33 به نطيعه وننفذه ، ولما فهمت من كلامهم أنهم ميالون للحرب جنحت إلى الصلح وبيّنت خطأهم في استعجالهم للقاء العدو بما قصه اللّه تعالى بقوله "قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها" قتلا وسبيا ونهبا لرجالها وأموالها وتخريبا لبنائها وصنائعها ومعاملها مهما كانت "وَجَعَلُوا" فضلا عن ذلك "أَعِزَّةَ أَهْلِها" من ملوك وأمراء ووزراء وعظماء ووجهاء وعلماء "أَذِلَّةً" لإيقاع الهوان بهم من كل وجه لئلا يثوروا عليها ، لأنهم لا يرضون بالتخلي عن ملكهم إلا قسرا "وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ" 34 في كل بلدة يفتحونها عنوة وقهرا ، بسبب الانكسار والاندحار ، وهذه هي عادتهم بأخذ البلاد حربا [صدقت رحمها اللّه لأنا قد شاهدنا من الافرنسيين ما شاهدنا وهم لم يدخلوا بلادنا حربا فنسأل اللّه أن ينجينا منهم ومن غيرهم] .

مطلب فراسة الملك وهدية بلقيس لسليمان :

ثم قالت لهم إني لا أريد أن أزعجكم في الحرب ، ولو أن قوتكم وعددكم كما ذكرتم خوفا

من سوء عاقبة الحرب ، لأن الكاسب فيها خسران ، فكيف بالخاسر ؟

وأني عليمة بها فاتركوني لأرى لكم رأيا غير هذا ، فأصغوا لكلامها لأنها من بيت

(111/574)

الملك وتعرف عادة الملوك وعواقب الحروب ، وقد عرضت لقومها بذلك ، لأنها لا تعرف العاقبة إذا خاضت الحرب مع سليمان قبل أن تقف على ما عند سليمان من عدد وعدد ، فأخذت الأمر بالسياسة وأحد طرفيها الهدية لانها باطنها خدعة وظاهرها مودة ، والحرب خدعة ونتيجة مجهولة من أن يكون الغلب لها أو عليها فقالت "وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ" جمعت الضمير تعظيما وتبجيلا لذلك الملك المهدى إليه ، لأنها أحست بعظمة وجلالة قدره من كتابه وحامله "بِهَدِيَّةٍ" عظيمة اصانعهم بها على سلامة ملككم وبقاء مجدكم وعزتكم وصيانة دمائكم ، فأختبره بها أملك هو أم نبي ، فإن كان ملكا قبل الهدية ورجع عن رأية وإلا حاربناه ، وإن كان نبيا لم يقبل الهدية ولم يرض منا إلا باتباع دينه ولا قدرة لنا على حرب الأنبياء ، لأنهم يعتمدون على اللّه لا على قوتهم ، واللّه لا غالب له ، قالت هذا وهي مجوسية لا تدين بدين تصديقا لقوله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) الآية 38 من سورة الزمر ، وقال تعالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) الآية

81 من الزخرف في ج 2 ، "فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ" 35 بقبولها أم ردها ، ولنا بعد ذلك نظر نجتمع إليه ثانيا ونتداوله .

وحذفت الألف من (بم) على أنها للاستفهام أي بأي شيء ، ويجوز أن تكون بمعنى الذي ، يرجع به المرسلون .

وكانت لبيبة بمخاطبتهم لأنها عاقلة حنكتها التجاريب ، وقد ساست الملك والملوك وعرفت دواخلهم واحتكت بالعظماء وخبرت بواطنهم وموقع الهدايا منهم ولأنها تأخذ بالقلوب وتزيل ما فيها فتحيل الحرب إلى السلم ، وتجنح إلى الصلح قال صلّى اللّه عليه وسلم الهدية تذهب سخيمة القلب .

وقال تهادوا وتحابوا .

(112/574)

ثم كتبت كتابا إلى سليمان عليه السّلام بينت فيه الهدية ، وهي على ما قالوا خمسمائة غلام بثياب جواري وحليهن على خمسمائة فرس مغشاة بالديباج ، ولجومها وأسرجتها مرصعة بالذهب والجواهر ، وخمسمائة جارية على خمسمائة رمكة بثياب غلمان ، وألف لبنة من ذهب ، ومثلها من الفضة ، وتاج مكلل بالدر والياقوت ، وحق فيه درة عذراء

وجزعة معوجة الثقب ، وأرسلتها مع رسلها ، وأمرت عليهم من قومها المنذر بن عمرو ، وقالت له أنظر إليه حينما يستلم الهدية ، فإن نظر إليك بغضب فلا يهولنّك ، لأنه

(113/574)

ملك ولسنا بسائلين عنه ، وإن ببشاشة ولطف فتواضع إليه ، فإنه نبي ، وذكرت في الكتاب إن كنت نبيا ميز بين الوصائف والوصفاء ، وأخبر بما في الحق (وقالت لرأس الوفد إذا عرف ما فيه قل أمرت بأن أطلب منك أن تثقب الدرة وأن تسلك في الخرزة خيطا) وزودتهم بالنصائح وسيرتهم ، وكان الهدهد يسمع كل هذا وعند ما سار الوفد بالهدايا طار من وكره ، وأخبر سليمان الخبر كله ، فأمر سليمان الجن فضربوا لبن الذهب والفضة ، وفرشوها في ميدان واسع متصلا بعرشه بطول سبعة فراسخ ، وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه ذهب أو فضة ، وأمر بربط أحسن الدواب البرية والبحرية عن يمين الميدان ويساره ، وأمر بإحضار أولاد الجن ، فأقامهم عن اليمين واليسار ، ثم قعد على سريره والكرسي من جانبه وصف الإنس والجن والوحش والهوام صفوفا بين يديه ، محياطين بعضهم ببعض ، وأمر بالطيور فصفت بالسماء ونشرت أجنحتها على المعسكر كله ، فلما دنا القوم ورأوا الدواب تروث على الذهب والفضة ، رموا بما معهم من اللبن ، وقيل إنه ترك

من فراش الميدان بقدر ما عندهم من اللبن ، فلما جاؤا وضعوا ما عندهم بالمحلات الناقصة خوفا من أن يتهموا بأخذه وهو قيل لا مستند ينقضه قولهم الآتي بتسليم الهدايا ثم تقدموا إليه وأدوا له التحية له التحية وسلموه الكتاب والهدايا ، ووقفوا بين يديه وقد هالهم ما رأوا من ذلك المشهد العظيم ، فأخذ ما عندهم وفض الكتاب ، ونظر إليهم بطلاقة وجه وابتسام ، فقال لهم أين الحق ، فأعطوه إياه ، فقال لهم إن فيه درة غير مثقوبة وخرزة معوجة ، قالوا صدقت ، ففتحه ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة بفمها ودخلت في الدرة حتى نفذت منها ، وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها وسلكته في الجزعة ، ولأجل أن يعرفهم الغلمان من الجواري أمر بإحضار قسم منهما ، وأحضر الماء

(114/574)

فأمرهم أن يغسلوا وجوههم ، فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب به الأخرى وتغسل وجهها ، والغلام يأخذ الماء بيديه ويغسل وجهه ، فأخبرهم بأن المرتدين ألبسة الغلمان هم الجواري ، والمرتدين ألبسة الجواري هم الغلمان ، ثم رد الهدية وأمر الرسل بإيصالها ، قال تعالى "فَلَمَّا جاءَ" رسل بلقيس "سُلَيْمانَ" بهديتها كتب إليها ما قاله اللّه تعالى "قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ" نكره على عظمه

تحقيرا لمادته عنده ، لأنه لا يعد ملكه مع عظمته شيئا ، ثقة بما له عند اللّه من الكرامة ، وقال "فَما آتانِيَ اللَّهُ" من النبوة والحكم والحكمة والرسالة والملك الذي لا نظير له "خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ" من الملك والمال والجند لأني لا أفاخر ولا أكاثر في حطام الدنيا ، ولا أفرح بما أوتيت منها "بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ" 36 ولذلك رددتها إليكم مع عظمها ، لتعلموا أن الدنيا بما فيها ليست عندي ببلاغ ، كما أنها لا تساوي عند إلهي جناح بعوضة ، وان ربي أعطاني منها ما لم يعطه أحدا قبلي ويوشك أن لا يعطيه أحدا بعدي وكل ذلك لا يزن عندي مثقال ذرة لأن همّي وهمتي منصرفان إلى الاخرة ولا أفرح إلا بما يقربني من ربي وأنت أيها الوافد على رأس الذين حملوا هذه الهدية "ارْجِعْ إِلَيْهِمْ" إلى ملكتك ووزرائها بهديتهم هذه ، وأخبرهم بما سمعت ورأيت ، وقل لهم ان لم يؤمنوا باللّه ويستسلموا له "فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها" ولا طاقة لهم عليها "وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها" من بلدة مأرب وما حولها من البلاد التي يقطنها جيل سبأ "أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ" 37 مهانون محقرون ، قالوا فلما رجع رسلها حائرين بما رأوا وما سمعوا ووصلوا إليها ، أخبروها الخبر كله ، قالت واللّه لقد عرفت ما

هو بملك وأنه لنبي ولا طاقة لنا به ، ثم أجمعت أمرها وكتبت إلى سليمان أني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك ، وما الذي تدعوا إليه من الدين .

(116/574)

ثم أغلقت على عرشها الأبواب ووكلت به الحرس وأوصتهم بمناظرته ، وان لا يخلص إليه أحد ، أو يقرب منه ، ثم سارت في اثنى عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، تحت كل قيل ألوف كثيرة ، قال ابن عباس كان سليمان عليه السّلام مهيبا لا يبتدىء بشيء حتى يكون هو السائل عنه فجلس يوما على سريره فسمع وهجا ، قال ما هذا ، قالوا بلقيس نزلت على مسيرة فرسخ منا مطلب جلب عرش بلقيس وإيمانها باللّه فأقبل على جنوده وأشراف قومه "قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ" 38 وكان غرضه من ذلك أن يريها قدرة اللّه تعالى معجزة له على نبوته "قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ

مِنْ مَقامِكَ"

(117/574)

مجلس قضائك بين الناس ، وهو من الصبح إلى الظهر ، إذ يتصدر فيه لقضاء حاجات الناس من أحكام وغيرها ، ثم أكد مقعده وهو على ما قالوا مارد قوي يدعى صخرا يضع قدمه عند منتهى طرفه وكان بعظم الجبل "وَإِنِّي عَلَيْهِ" على الإتيان به وحمله من موضعه إلى هنا "لَقَوِيٌّ أَمِينٌ" 39 على ما فيه قال سليمان لملئه : أريد أسرع من ذلك لأن القوم أظلونا وأريد أن يروه أمامهم عندي "قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ" قالوا هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان ووزيره ومعلمه وكاتبه ، وكان يقرأ الكتب الإلهية القديمة ويحفظ اسم اللّه الأعظم "أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ" قال سليمان هات ، قال أنت بن النبي وليس أحد عند اللّه أوجه منك ، فإن دعوت اللّه كان عندك ، قالوا فخر ساجدا للّه تعالى ودعاه بما ألهمه من أسمائه ، فجيء بالعرش في الوقت ، قال ابن عباس : إن آصف قال لسليمان حين صلى : مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك ، فمد سليمان عينيه ونظر نحو اليمن ، ودعا آصف فبعث اللّه الملائكة فحملوا السرير يجرون به تحت الأرض حتى نبع من بين يدي سليمان وقيل أن اللّه تعالى يعدم جميع الأشياء ويوجدها في كل لحظة ، وهكذا إلى انتهاء الدوران بالاستناد لقوله جل قوله (بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) الآية 15 من سورة ق المارة ، وانه أعدم هناك وأوجد أمام سليمان في تلك اللحظة ، وكان الدعاء الذي دعا به آصف على ما روى عن عائشة هو : يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم ، وعلى ما

رواه الزهري هو : يا إلهنا وإله كل شيء لا إله إلا أنت

،

(118/574)

ائتني بعرشها "فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ" بعد أن رفع رأسه من السجود خرّ ساجدا للّه تعالى شكرا على ذلك "قالَ هذا" الفضل الجليل "مِنْ فَضْلِ رَبِّي" العظيم "لِيَبْلُوَنِي" يمنحني ويختبرني "أَأَشْكُرُ" نعمه المترادفة علي "أَمْ أَكْفُرُ" بها وأجحدها "وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ" يعود نفع شكره إليها إذ به دوام النعم ، وهو قيد للنعمة الحاضرة وصيد للنعمة المستقبلة ، "وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ" عن شكره "كَرِيمٌ" 40 بالتفضل عليه لأنه يمهل عبده ولا يعجله بالعقوبة ويكون مسببا لسلبها منه إن لم يشكره عليها ، وهذا

مما يستعظم ويتردد فيه عقل من لا يعرف عظمة اللّه ، على أن الذي يصدق بظهور (التلفزيون) وهو المدياع الذي يرى صورة المذيع وليس صوته وهو في فعل بعض خلقه ، يجدر به ان يصدق بهذا ولا يتردد فيه ، لأنه من فعل ربه الذي لا يعجزه شيء ، وهو الذي يقدر عباده على أشياء لم يقبلها العقل مما ظهر في القرن العشرين هذا ، من البواخر والطائرات كالقلاع والصواريخ والمذياع (الراديو) ومعامل الكهرباء مما يحار فيها العقل ولا

يكاد يصدقها لولا وجودها ، وما ندري ما سيظهر لنا بعد من عجائب مكوناته حتى يتبين للكافر أنه الإله الحق الذي لا رب غيره الموجد لكل شيء ، راجع الآية 53 من سورة فصلت في ج 2 ، فلما أقبلت بلقيس بدبدبها وكبكبها وقبقبها

(119/574)

"قالَ" سليمان لخاصته "نَكِّرُوا لَها عَرْشَها" أي افعلوا به شيئًا تنكره من تغيير وتبديل فيه ، فوضعوا الدر الأحمر مكان الأصفر ، وجعلوا ما في مقدمه في مؤخره وبالعكس ، وما بأعلاه أسفله وبالعكس ، وعرضوا ما فعلوه به على سليمان ، فأعجبه ، وقال نعرضه عليها "نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي" لمعرفته فنستدل بذلك على هدايتها "أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ" 41 لمعرفته ولا للجواب اللائق بذلك "فَلَمَّا جاءَتْ" وتمثلت بين يدي سليمان واستقر بها المكان أطلعها المرافقون لها من قوم سليمان بأمره على المتاحف ومن جملتها عرشها ، إذ وضع بالمتحف "قِيلَ" لها من قبل المرافقين "أَهكَذا عَرْشُكِ" الذي تركتيه في بلادك الذي أخبرنا عنه الهدهد ؟ ولم يقولوا أهذا عرشك ؟ لئلا يكون تلقينا لها فيفوت الأمر المقصود من تنكيره ، فنظرت إليه وتأملته جيّدا ثم "قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ" لم تقل نعم هو ، خوفا من الكذب لأنها تركته محصنا بالأقفال محروسا من عظائم الرجال ، وتقدمته بالمجيء ولم تقل لا ، خوفا

من التكذيب ، لأنها عرفته هو هو ، وان ما أوقع فيه من التغيير لم يبدل هيئته بالجملة ، وكان سليمان قريبا من المرافقين لها يسمع كلامها ، فاستدل به على كمال عقلها وحكمتها ورجاحتها وتؤدتها من جوابها الحسن ، وعدم إظهار ابتهاجها بما رأت ، فقال لها سليمان عليه السّلام انه هو بعينه ، وان إغلاق الأبواب عليه ، وإحاطته بالحرس لم يحولوا دون قدرة اللّه بجلبه معجزة لي ، وطلبا لإسلامك للّه

(120/574)

للّه وإيمانك به وتصديقك نبوتي ، قالت بلقيس : يا نبي اللّه نحن عرفناك نبيا "وَأُوتِينَا الْعِلْمَ" بكمال قدرة ربك وصحة نبوتك "مِنْ قَبْلِها" من قبل هذه المعجزة بما شاهدناه من أمر الهدهد ، وما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالة على رسالتك لهداية الخلق "وَكُنَّا مُسْلِمِينَ" 42 لك مؤمنين بربك ، مصدقين نبوتك من ذلك الوقت ، والا لما جئنا منقادين خاضعين طائعين لأمرك مخبتين لربك لكان لنا معك موقف غير هذا ، ولرأيت منا العجائب ، وان هذه الجيوش التي جئتك بها نزر يسير من شيء كثير ، والهدية شيء حقير من شيء عظيم لا تذكر ولكان الكلام كلاما والهدية زؤاما ، فبش سليمان من قولها هذا على ما هو عليه من التعريض بقوتها وغناها وكثرتها ، لأنه أنتج هدايتها للاسلام "وَصَدَّها" عن "ما

كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ" وهو التمس بدعوته لها ، وحال بينها وبين عبادتها لها "إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ" 43 خارجين عن طاعة اللّه راسخين في الكفر عريقين به متجاوزين حدود اللّه ، لأنها نشأت بين قوم يعبدون الشمس ، ولم تعرف غير عبادتهم لها ، وهذه الجملة تعليل لسبب عبادتها ثم تقدمها سليمان وجلس على سريره وأمر بإدخالها عليه بعد أن أجريت لها مراسيم الاستقبال والاستطلاع على بعض ما خول اللّه به عبده سليمان عليه السّلام ، فجاءت محفوفة بالإكرام والتبجيل قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ" صحن الدار الذي يمر به إلى سرير سليمان ، وكان معمولا من الزجاج يجري فيه الماء وفيه أنواع من دواب البحر فَلَمَّا رَأَتْهُ" واقعا بين السرير ومدخل القصر ولا بد لها من أن تجوزه لتصل إلى سرير سليمان حَسِبَتْهُ لُجَّةً"

(121/574)

من الماء العميق وإنما عمل لها هذا ليختبرها ، كما عملت هي بالغلمان والجواري والدرة لتختبره ، إلا أنه لما كان عمل الصرح محكما جدا ، إذ كان الماء جاريا في الزجاج على قدره ، بحيث لم يترك في المجرى خلاء ما ولذلك ظنته جاريا بنفسه دون زجاج ، والا لعرفته ، وقيل ان الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي اليه أسرار الجن ، لأن أمها منهم ،

فإذا أخذها وولدت له لا ينفكون عن خدمته وذريته من بعده ، فقالوا له إن في عقلها شيئا وان رجليها كحافر الحمار ، وهي شعراء الساقين ، وإنه لما اختبر عقلها وأعجبته أراد أن يختبر بقية أوصافها التي

ذكروها له عند ما تخوض الصرح ، وبالفعل أرادت ذلكَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها "

قالوا فرآها كأحسن النساء قدما وساقا الا أنها شعراء الساقين ، ثم صرف بصره عنها

والَ"

لهاِنَّهُ)

أي ما ترين من الماء هوَرْحٌ مُمَرَّدٌ"

مملس مستو معمولِ نْ قَوارِيرَ"

زجاج – جمع قارورة – فلما عاينت هذا الأمر العظيم الَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي "

قبلا بعبادة الشمس ، والآن بكشف ساقي أمام سليمان بعد أن أخلصت له التوحيد ،

أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ"

44 إلى هنا انتهت هذه القصة .

مطلب جواز النظر إلى المخطوبة والحكم الشرعي فيه :

يستفاد من هذه الآية جواز النظر إلى المخطوبة بوسيلة ما ، لا أن تعرض نفسها على الخاطب أو يعرضها وليها عليه كالسلعة عند البيع والشراء ، ويتركها تعاشره ، أو تسافر معه أو يختلي بها مثل بعض أهل الكتاب مما يخالف أهل المروءة والشهامة الحكم الشرعي جواز النظر إلى المخطوبة لوجهها لمعرفة محاسنها وليديها لمعرفة صحتها فقط ، ولا يجوز ان ينظر لغير ذلك ، ويحرم ان يختلي بها البتة ، أو يخالطها في سفر أو حضر ، لأن الشريعة الإسلامية جعلت هذا كله محظورا وان أمر الرسول برؤية المخطوبة لا يفهم منه ما يقوله بعض الجهلة بأمر الدين الذين لا يعرفون ما هية الغيرة الإسلامية والأنفة العربية من المعاشرة معها والسير معها إلى النزهة وغيرها ، كلا بل المراد أن يترصد الخاطب الجازم للخطبة ، لرؤية من يريد خطبتها من كوة أو مرور أو استطلاع حتى يكون على بصيرة منها ، فإن أعجبته عقد عليها برغبة كاملة والا انسحب بمعروف دون أن يتكلم بشيء ما عنها ، وان سليمان عليه السّلام إذا صح أنه كان مصمما على زواجه بها وقد قيل له فيها ما فيها ، جاز له أن يختبرها بذلك تأديا واحتراما ، لأن الأنبياء لم يخاطبوا أقوامهم الا بما يدل على مراعاة الأدب الكامل ، ولا يقابلون أحدا بما يكره ، أنظر مخاطبة ابراهيم عليه السّلام لأبيه في الآية 42 فما بعدها من سورة مريم ومخاطبة موسى لفرعون في الآية 43 فما بعدها من

سورة طه المارتين ، وكذلك مخاطبة نوح وهود وصالح وشعيب أقوامهم في سورة هود الآية 25 فما بعدها في ج 2 وفي غيرها من السور

(123/574)

المارة ، ومن آدب ممن يعلمون الناس الأدب الذي تلقوه من رب الأرباب والا كان بوسعه ان يكلفها إراءة رجليها لمن يريد أن تراها عنه ، على أن قضية زواجها به لم تثبت بالقرآن إذ انتهت قصتها بإسلامها فقط ، ولا يوجد حديث صحيح بذلك ، أما الأخباريون فقد ذكروا أنه تزوجها ، وان الشياطين عملوا له النورة والحمام لإزالة شعر ساقيها ، ولم تعرف النورة ولا الحمام قبل ذلك ، وانها ولدت له ولدا ، وكان يزورها في محلها كل شهر ثلاثة ايام ، إذ أقرها على ملكها في مأرب وتوابعها ، وبنى لها ثلاثة قصور حصينة سماها سلمين ويلبسون وعمران ، لم ير الرائي ارتفاعها وحسنها وزخرفتها ، وقيل انه زوجها ذا تبع ملك همدان وأمر زوبعة ملك الجن بأن يعمل لذي تبع ما يأمره به ، ويفي الأمر كذلك حتى مر سنة على موت سليمان عليه السّلام ، كما سيأتي بيانه في الآية 13 من سورة سبأ في ج 2 ، والحكمة في إخفاء موته عليه السّلام هذه المدة ليظهر الناس كذب الجن بادعائهم علم الغيب ، إذ لو علموا بموته ما داموا على أعمالهم الشاقة التي كان يكلفهم بها ، قالوا ثم نادى

مناد ان سليمان قد مات ، وانقضى ملكه وملك ذي تبع وملك بلقيس وبقي لصاحبه الواحد القهار ، وجاء في تفسير الخازن بأنه قد ولي الملك عليه السّلام وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين ، فتكون مدة حكمه أربعين سنة ، راجع الآية 16 المارة تجد خلافه والله أعلم .

(124/574)

قال تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً" فقال لهم "أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ" وحده ودعوا ما يعبد آباؤكم من الأوثان "فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ" مؤمن وكافر "يَخْتَصِمُونَ" 45 فيما بينهم كل يرى نفسه محقا في دعواه ، وهنا أطلق الجمع على ما فوق الواحد صراحة ، وقال من لا يجيزه إن جمع ضمير يختصمون مع أنه يعود إلى اثنين ، لأنه في الأصل يعود إلى مجموع الفريقين ، ونظير هذه الآية 78 من الأنبياء في ج 2 ، وهي (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ) مع أن الضمير يعود لداود وسليمان فقط ومن أراد غير هذا قال ان الضمير يعود للحاكمين والمحكومين معا ، وهناك آية أخرى أيضا بيناها في تفسير هذه الآية هناك فراجعها ، وعلى الأولى فيه اشارة على أن الاثنين جمع وعليه المناطقة والألسنة الأجنبية "قالَ" للكافرين منهم "يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ"

وهي طلب إنزال العذاب الذي توعدهم به بنيتهم ان لم يؤمنوا به وهو قولهم في الآية 76 من سورة الأعراف "يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا" به من السيئة "قَبْلَ الْحَسَنَةِ" التوبة التي أرجوها منكم عما سلف من كفركم "لَوْلا" هلا "تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ" من عبادة الأوثان وترجعون إلى عبادة الرحمن وتعملون صالحا "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" 46 بالنجاة من العذاب في الدنيا وبالفوز بنعيم الآخرة

(125/574)

"قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ" من الذين آمنوا بك ، إذ أمسك عنا القطر وأجدبت الأرض وهلك المال فأصابنا الضر والبلاء منذ طفقت تدعونا إلى دينك "قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ" بسبب كفركم به وما أصابكم من الشؤم مقدر عليكم ومقسوم لكم بأزله "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ" 47 تختبرون وتمتحنون بتعاقب الخير والشر ليرى الناس أترجعون اليه فيكشف عنكم ذلك ، أو تصرون على الكفر فيزيدكم عذابا في الدنيا والآخرة "وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ" من أبناء أشرافها كلهم "يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ" فيعملون المنكرات كلها "وَلا يُصْلِحُونَ" 48 أنفسهم ولا غيرهم أبدا دأبهم السعي في الإفساد والإعراض عن الإصلاح ، وقد طبعوا على هذا "قالُوا" هؤلاء التسعة الغواة الذين اتفقوا على عقر النّاقة ورأسهم

قدار بن سالف المتقدم ذكره مع القصة في الآية 72 من الأعراف المارة ، أي تذاكروا بينهم في تدبير الحيلة التي أرادوا بها عقر الناقة "تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ" تحالفوا كلهم على انها "لَنُبَيِّتَنَّهُ" يريدون صالحا بأن يأتوه ليلا فيقتلوه "وَأَهْلَهُ" معه زوجته وولده "ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ" إذا سئلنا عنه بعد القتل "ما شَهِدْنا" ما حضرنا "مَهْلِكَ أَهْلِهِ" محل وزمن إهلاكهم ، أي إذا قال لنا ولي دمه ورئيس عاقلته من قتله ؟ نقول ما حضرنا قتله ولا قتل أهله .

مطلب التحاشي عن الكذب :

هذا وقد اختاروا نفي شهود مهلك أهله على نفي قتلهم له ، قصدا للمبالغة بالإنكار ، أي كأنهم قالوا ما شهدنا ذلك فضلا عن أن نتولى قتلهم ويعلم من ذلك نفي إهلاكهم من قبلهم ، لأن من لم يقتل اتباعه كيف يقتله هو ، وهو الأصل ، وقرىء بضم الميم وفتح اللام من أهلك وبفتحها أيضا ، والقراءة التي عليها المصاحف بفتح الميم وكسر اللام ، ويجوز على هذه أن يكون مصدرا كمرجع ويكون

(126/574)

المعنى ما شهدنا إهلاكهم ، وان اسم مكان أي مكان إهلاكهم أو اسم زمان أي زمانه "وَإِنَّا لَصادِقُونَ" 49 في قولنا هذا ، وهو كقول أولاد يعقوب لأبيهم (وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا

صادِقِينَ) الآية 87 من سورته في ج 2 وأرادوا بهذه الحيلة التمويه لأن حضور الأمر غير مباشرته عرفا ، فلا يقال لمن قتل رجلا انه حضر قتله ، وان كان الحضور لازما للمباشرة ، فهؤلاء القوم الذين كانوا لا يعابون بما هم عليه من الكفر وسوء السيرة قد درأوا عن أنفسهم الكذب الذي هو عار في كل زمان ومكان ودين ، وصموا ان يحلفوا على المعنى العرفي بحسب العادة في الإيمان ، ليوهموا الخصم أنهم أرادوا معناه اللغوي ، فيكونوا صادقين بزعمهم ، لئلا يصموهم بالكذب ، والآن والعياذ بالله تجد الكذب فاشيا عند الكبير والصغير مع أنه محرم دينا ومكروه مروءة ومذموم طبعا وقد ذم الله تعالى الكاذب في آيات متعددة من القرآن وقال صلّى الله عليه وسلم المسلم لا يكذب وقال الكذب مجانب للايمان راجع الآية 105 من سورة النحل في ج 2 اللهم أصلح عبادك ووفقهم للسداد "وَمَكَرُوا مَكْراً" قالوا على قتله ودبروا الكيد والغدر وذهبوا اليه شاهرين سلاحهم لينفذوا ما صموا عليه فرد الله كيدهم في نحرهم وأخزاهم "وَمَكَرْنا مَكْراً" عظيما لا تتصوره عقولهم بان عجلنا لهم العقوبة فأهلكناهم جميعا بالحجارة وحرسنا نبينا صالحا بالملائكة فصاروا يرون الحجارة تأتيهم من حيث لا يرون راميها "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" 50 بشيء من تدبيرنا هذا ، قالوا ان صالحا كان يصلي في مسجد الحجر ، وكان توعدهم بأن يفرغ الله من عذابهم حتى ثلاثة ايام ، فقال هؤلاء التسعة نذهب اليه ونقتله في مسجده قبلها ثم نذهب إلى أهله فنقتلهم أيضا قبل اليوم الثالث ، فخرجوا إلى الشعب الذي فيه مسجده ، فبعث

اللّه عليهم صخرة من الهضب حيالهم بعد رجمهم ، فطبقت عليهم فم الشعب ، فلم يدر قومهم أين

(127/574)

هم ، ولم يدروا ما فعل اللّه بهم وهم لم يعلموا ما فعل اللّه بقومهم وعذب اللّه كلا منهم في مكانه ، وحمى صالحا ومن معه

"فَانْظُرْ" يا سيد الرسل وأخبر قومك "كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ" على نبينا "أَنَّا دَمَّرْناهُمْ" التسعة المذكورين "وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ" 51 لم يقلت

(128/574)

منهم إلا من آمن بصالح "فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ" يرونها قومك حين ذهابهم إلى الشام وإيابهم منها بشاهدونها "خاوِيَةً" ساقطة متهدمة بعضها على بعض ، خالية من السكان ، لأنها لم تسكن بعدهم تشاؤما مما وقع على أهلها المهلكين "بِما ظَلَمُوا" أنفسهم وغيرهم لا لأمر آخر "إِنَّ فِي ذلِكَ" الإهلاك على الصورة المذكورة "لَآيَةً" عظيمة وعظة ناطقة "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"

52 قدرة اللّه فيخشونها ويعتبرون بمن قبلهم فيؤمنون "وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا" مع صالح بمقتضى وعدنا له "وَكَانُوا يَتَّقُونَ" 53 اللّه ولذلك حماهم مما أصاب قومهم ، وفي هذه القصة إشارة إلى أن قريشا سيمكرون بمحمد ويتحالفون عليه ، وأن اللّه تعالى ينجيه منهم ويهلكهم ، وكان في ذلك كما سيأتي في الآية 26 من سورة العنكبوت في ج 2 ، قال تعالى "وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ" إتيان الذكر سماها فاحشة لزيادة قبحها في قانونه الإلهي ، وسماها القانون المدني بالفعل الشنيع ، وهو اسم وفق المسمى بالقبيح والرذيلة والوقاحة "وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ" 54 بعضكم يفعل ببعض وهذا في غاية الشناعة ، أي كيف تفعلون هذا ولا تستترون ولا ينهى بعضكم بعضا ولا تكفون عنه "أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ" أيها السفهاء والخاطئون "شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ" مع أن اللّه تعالى خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى ، فعملكم هذا مضاد لحكمة اللّه "بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" 55 عاقبة أمركم ووخامة مصيركم "فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ" تجاه نصحه هذا ووعظه وإرشاده "إِلَّا أَنْ قالُوا" أولئك الجهلة السفهة "أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ" 56 عن عملنا ويتنزهون من فعلنا ويستقذرون إتيان الرجال ، وهذا مما يغيظنا وقد حق عليهم العذاب بقولهم هذا "فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ

إِلَّا امْرَأَتَهُ" لرضاها بفعلهم وعدم إنكارها عليهم لذلك "قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ" 57 الباقين معهم بالعذاب "وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً" يا له من مطر سوء حجارة مترادفة "فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ" 58 تقدمت القصة مفصلة في الآية 88 من الأعراف المارة ، فيا أكرم الرسل "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ" واسأله العافية لك ولأمتك مما حلّ بهم

"وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى " من اخوانك المرسلين واتباعهم وقل أنت ومن آمن معك "آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ" 59 به ممن لم يؤمن من قومك ، فقولوا لا بل اللّه خير وأعلى وأعز ، وهذا استفهام انكار لا يجاب الا بالنفي ، وهو تبكيت للمشركين والزام الحجة عليهم ، لأن اللّه تعالى لا شكّ خير لمن عبده وأنس به والأصنام شر لمن ركن إليها وعبدها لأنها لا تغني شيئا وتكون عليهم حجة يوم القيمة ثم ذكر اللّه جل ذكره من دلائل قدرته وبراهين وحدانيته وأمارات عظمته أنواعا فقال (أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ) بساتين محاطة "ذاتَ بَهْجَةٍ" حسنة المرأى بديعة المنظر "ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها" أي لا يمكنكم إنباته ، وان مباشرتكم زرعه لا يقتضي الإنبات ، فلو شاء اللّه لم ينبته ، فالمنبت الحقيقي هو اللّه الذي يسقيها بماء واحد فتثمر صنافا متنوعة مختلفة باللون والطعم والرائحة والشكل ، وهو الذي قدركم على زرعه راجع الآية 63 من سورة الواقعة المارة فانظروا أيها الناس "أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ" فعل ذلك أو أعانه

عليه كلا ثم كلا "بَلْ هُمْ" قومك المعاندون "قَوْمٌ يَعْدِلُونَ" 60 عن الحق إلى الباطل ويسارون الأصنام بالملك العلام ، ويقولون نزرع ونحصد ونسقي ، لو شاء اللّه لما أقدرهم على شيء من ذلك أصلا ،

(130/574)

قال تعالى "أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً" لكم أيها الناس تستقرون عليها ليل نهار ولا نحسون بأنها عائمة "وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً" جارية عذبة وملحة ومرّة وباهتة وحريفة وحامضة ، وأودع بعضها معادن وحيوانات متنوعة وحليّا مختلفا باللون والقيمة "وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ" جبالا عظيمة تثقلها كي لا تضرب فتنعدم راحتكم عليها "وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً" حصينا لئلا يختلط الملح بالعذب ، فتنعدم المنفعة المقصودة منهما ، فتفكروا "أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ" فعل شيئا من ذلك كلا "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ" 61 حقائق قدرتنا وعظمة سلطاننا وحقيقة حكمتنا ، فقل لقومك هل الذي يعبدونه خير أم هذا الإله الفعال لكل شيء من نفع وخسر وخير وشر ومنع وإعطاء وعز وذل وغنى وفقر واحياء وإماتة ، فالإله القادر على هذه الأشياء

(131/574)

و غيرها هو المستحق للعبادة لا أصنامكم "أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ" فيجيب دعاءه ويفرج ضيقه "وَيَكْشِفُ السُّوءَ" عن المضرور والمجهود والمكروب والملهوف فيغير حاله من المرض إلى الصحة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العسر إلى اليسر ، ومن الذل إلى العزة "وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ" تسكنونها وتنصرفون بها ، فمنكم الملك والأمير والمتسلط والتابع ، وقد أورثكم إياها عمن كان قبلكم من الأقوام الهالكين بسبب كفرهم نعم اللّه "أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ" يفعل لكم شيئا من ذلك ، كلا ولكنكم "قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ" 62 بآلاء اللّه الذي يسديها لكم وهي جديرة بالذكرى ، فقل يا أكرم الرسل لقومك آلهتكم خير أم هذا الإله القادر على كل شيء "أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" إلى الحال التي تقصدونها ؟ ألإله الذي جعل النجوم والمجرة في السماء والجبال والأنهار في الأرض علامة تسترشدون بها ليل نهار إلى مقاصدكم في أسفاركم ، أم أوثانكم العاطلة الجامدة "وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ" أي أمام المطر مبشرا بقرب نزوله "أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ" يقدر على شيء من ذلك فيفعله لكم كلا "تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" 63 به علوا كبيرا "أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ" من النطفة إلى أن يكمله خلقا سويا وبعد استكمال أجله في الدنيا يميته "ثُمَّ يُعِيدُهُ" بعد الموت حيا كما كان "وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ" من مطر ونبات وحيوان "أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ" يعمل شيئا من ذلك ؟ كلا ، لا يقدر أحد على شيء منه ، وإذا لزمتهم الحجة

ووقعوا في المحجة "قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ" على أن ما تعبدونه يفعل شيئًا واحدا مما ذكر "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 64 أن آلهتكم تقدر على شيء من ذلك ، أو أن مع اللّه إلها آخر كما يزعم البعض ، و

(132/574)

بعد أن عدد هذه الحجج الخمس الدالة على وحدانيته في الإلهية وانفراده في فعل هذه الأشياء وغيرها ، وعجز من سواه عنها وعما يتعلق بالنفع والضرر وغيره ، وإلزامهم السكوت بتلك البراهين القاطعة ، قال المشركون أخبرنا يا محمد عن الساعة التي تهددنا بها إن لم نؤمن بك ، فأنزل اللّه "قُلْ" يا حبيبي لهؤلاء الجهلة الذين لا يميزون بين الممكن والمحال : هذه من الغيب و "لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ" وحده ، فكيف نعطيهم علمها وهو من خصائص الإلهية "وَما يَشْعُرُونَ" هم ولا جميع الجن والإنس والملائكة "أَيَّانَ يُبْعَثُونَ" 65 من قبورهم ومواقعهم مع أنه لا بدّ لهم منه ، وهو من أهم الأمور عندهم لأن اللّه تعالى وحده تفرّد بذلك "بَلِ ادَّارَكَ" اضمحل وفني وانمحق "عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ" وشأنها ، فليس لهم علم بها ولا بوقت إمارتها .

وأصل ادّارك تدارك ، فأبدلت التاء دالا ، وأسكنت للإدغام ، واجتلبت الهمزة الوصلية

للابتداء ، ومعناها تلاحق وتتابع ، وعليه يكون المعنى انتهى علمهم في لحوق الآخرة فجهلوها ، وتابع علمهم فيها ما جهلوه في الدنيا .

(133/574)

وقيل معنى ادّارك تكامل من أدركت الفاكهة إذا تكامل نضجها ، وعليه يكون المعنى إن أسباب استحكام العلم بأن القيامة كائنة قد حصل لهم في الدنيا ، ومكنوا من معرفته ، إلا أنه لا علم عندهم من أمرها ، فقد تتابع علمهم حتى انقطع ، وهذا بيان لجهلهم بوقت البعث ، وأرى أن الأول أولى لموافقته للسياق ، ولقوله تعالى "بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها" بعد أن بلغ علمهم بها وتكاملت أسبابه بحصولها ووجودها "بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ" 66 جمع عم وهو أعمى القلب ، ويقال له أعمه كما يقال لأعمى البصر أعمى ، وقد كرر الإضراب ببل ثلاثا لشدة جهلهم ، إذ وصفهم أولا بعدم الشعور بوقت البعث ، ثم بعدم العلم بكون القيامة ، ثم بالخبط بالشك وعدم إزالته مع قدرتهم عليها بالإيمان والإيقان حتى صاروا لأسوأ حال ، وهو وقوعهم بالحيرة بسبب عمه قلوبهم الناشئ عن كفرهم الذي منعهم من التفكر بالعاقبة ، وهو من جهلهم المركب الذي لا يزول إلا بعناية من اللّه ، وأنى لهم منها وقد انكبوا على الدنيا بكليتهم ؟ وقيل في المعنى :

سقام الحرص ليس له شفاء وداء الجهل ليس له طبيب

وقيل أيضا :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ يحيي بالعلم ميّت وليس له حين النشور نشور

هذا ، وإن قوله تعالى "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ" 67 أحياء من القبور كما كنا ، هو كالبيان لجهلهم بالآخرة وعماهم عنها لأنهم يريدون بهذا عدم التصديق بها والإصرار على جحودها ويؤيده قولهم أيضا "لَقَدْ وُعِدْنا هذا" الإخراج من القبور بعد الموت "نَحْنُ" من قبل محمد ابن عبد اللّه الذي هو في عصرنا "وَآباؤُنا" أيضا وعدوا من قبله "مِنْ قَبْلُ" وجودنا من قبل أنبيائهم ، وإنا نقول كما قال أسلافنا "إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ" 68 وخرافاتهم يتناقلها الواحد بعد الآخر لا حقيقة لها .

(134/574)

ونظير هذه الآية الآية 84 من سورة المؤمنين في ج 2 ، "قُلْ" لهم يا سيد الرسل "سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ" 69 من أمثالكم وانظروا أطلال ديارهم

واسمعوا بقايا أخبارهم تنبئكم عن فظاعة ما حل بهم بسبب تكذيبهم رسلهم .

ثم التفت إلى حبيبه فقال "وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ" إذا حلّ بهم عذابي الذي لا دافع له "وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ" وحرج في صدرك مما تسمعه من التكذيب وتراه من الإعراض "مِمَّا يَمْكُرُونَ" 70 ولا تهتم لما يكيدونه لك ، فإني حافظك منهم ومن يعصمه اللّه لا يصل إليه مكر الخلق .

وقرأ ابن كثير بكسر ضاد ضيق خلافا لسائر القراء ، نزلت هذه الآية في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة ، وأوقفوا على أبواب طرقها رجالا يقولون للداخلين والخارجين أن عندنا رجلا منا يدعى محمدا جاء بدين مخالف لدين آبائنا ، وهو رجل ساحر فلا تصدقوه .

راجع الآية 94 من سورة الحجر في ج 2 والآية 85 من الأعراف المارة

"وَيَقُولُونَ" هؤلاء الماكرون "مَتى هذَا الْوَعْدُ" الذي توعدنا به من إنزال العذاب "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ 71 أنت وأصحابك وتهددنا به ليل نهار "قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ" دنا وقرب ، لأن من أردفته خلفك فقد قربته منك أو حضر "لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ" 72 به ، لأن تغاليكم بالكفر وتكالبكم على عبادة الأوثان يستدعيان نزول العذاب بكم "وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ" ومنهم أهل مكة إذ لم يعجل عقوبتهم كرامة لرسولهم ، ولأن العذاب إذا حل عمّ وان في علمه من يؤمن منهم كثير ، لذلك أمهلهم بفضله وكرمه "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ" من

أهل مكة شأن غيرهم لأن الأكثر دائما هو الضال والقليل المهتدي .

مطلب اختلاف أهل الكتابين والقليل هم الشاكرون :

(135/574)

قال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ) الآية 13 من سورة سبأ في ج 2 ، وهكذا الأقل هو الشاكر والأكثر "لا يَشْكُرُونَ" 73 نعم اللّه التي من جملتها تأخير نزول العذاب "وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ" من عداوتك وتخفيه من مناوأتك "وَما يُعْلِنُونَ" 74 منها وهو يكفيك ذلك "وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ" مهما كانت غامضة متغمضة في الخفاء "إِلَّا" قد علمها اللّه وأحاط بها من قبل وأثبتها "فِي كِتابٍ مُبِينٍ" 75 لمن له حق النظر فيه وهو على ظهوره فيه كل شيء مكتوم عن غير اللّه ، وهو مصدر كل الكتب الإلهية "إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ" المدون ذلك الكتاب المنزل عليك يا محمد "يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ" أهل الكتابين التوراة والإنجيل الذين يستفتونهم أهل مكة في أمرك "أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" 76 من أمر دينهم ودنياهم ، لأنهم أنفسهم اختلفوا بعضهم مع بعض ، فمنهم من يقول المسيح هو اللّه ومنهم من يقول ابنه ، ومنهم من يقول ثالث ثلاثه ، ومنهم من يقول نبي كسائر الأنبياء وهو الصحيح ، ومنهم من ينسبه وحاشاه إلى الكذب في دعواه وأمه إلى ما هي براء منه وهي

العذراء التقية المصونة المفضلة على نساء زمانها ، وان اليهود عليهم غضب اللّه كذبوه وقصدوا إهانته فأنجاه اللّه منهم ورفعه إليه ، وقالوا عزير ابن اللّه ، وقالوا على اللّه بالبداء أي أنه يفعل الشيء مما يقع في كونه ثم يندم على فعله فيفعل غيره ، وحاشاه تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا ، واختلفوا في أمر النبي المبشر به في التوراة فمنهم من يقول يوشع ، ومنهم من يقول عيسى ، ومنهم من يقول لمّا يأت ولم يحن زمانه ، ومنهم من يقول هو محمد وهو الصحيح ، ولهم اختلافات في أمر دينهم ودنياهم لا تدخل تحت الحصر ، وقد أنزل اللّه هذا القرآن على محمد بين فيه ما اختلفوا فيه بيانا كافيا شافيا مما يوجب

(136/574)

إيمانهم لو تأملوا وأنصفوا ، ولكنهم لم يفعلوا مكابرة ، ولذلك كذبوه كما فعل المشركون من قومه أو قالوا فيه ساحر وكاهن وناقل ومتعلم ، وأن القرآن سحر وكهانة وأساطير الأولين ، فقد كذبوا ، وصفه أنه كلام اللّه عز وجل "وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ" 77 به ، وضلال وعذاب للكافرين قال تعالى : "قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى" الآية 14 من سورة فصلت في ج 2 ، فيا أكرم الرسل اتركهم الآن "إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ" في هذه الدنيا ويوم القيامة "بِحُكْمِهِ" العدل في

اختلافهم هذا وغيره من كل ما تسول لهم به أنفسهم الخبيثة "وَهُوَ الْعَزِيزُ" الغالب الذي لا يرد أمره ولا يعقب حكمه "الْعَلِيمُ" 78 بما يفعلون وما يستوجبون ، لأنه يعلم دخائلهم "فَتَوَكَّلْ" يا سيد الرسل واعتمد "عَلَى اللَّهِ" ربك وثق به وفوّض أمرك إليه "إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ" 79 وهم على الباطل الظاهر ، تشير هذه الآية بوجوب توكل الخلق على خالقهم في كل أمورهم ، ولكنه لا يفهم منها ترك الأسباب وعدم اتخاذ الواسطة لقضاء الأمور ، بل لا بأس بها وخاصة في هذا الزمن ، ولكن لا يعتمد مع اتخاذ الأسباب إلا على اللّه وحده في قضاء حوائجه ، ولا يعرف أنها قضيت إلا منه وبأمره ، لأنه هو الذي يوقع في القلوب ما يريده للعبد فيعملونه قسرا من حيث لا يشعرون أنه مراد اللّه سواء الخير والشر ، ولو شاء لحال بين تلك الأسباب ولم يوفق العبد لها ، ولو لم يشأ لعجز أهل الأرض والسماء عن قضائها "إِنَّكَ لا تُسْمِعُ" بدعوتك هذه "الْمَوْتَى" قلوبهم "وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ" 80 لأنهم إذا قابلوك قد يفهمون بالإشارة والرمز أو بمكبرات الصوت ، ولكنهم إذا ولوك ظهورهم امتنع إفهامهم وإسماعهم

"وَما أَنْتَ" يا حبيبي "بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ" ولا بمرشد من أعماه اللّه عن طريق الحق ، وأعمى قلبه عن قبول الإيمان "إِنْ تُسْمِعُ" أي ما تسمع إسماعا يجدي السامع نفعا "إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا" فهذا الصنف يمكنك أن تسمعه دعوتك لأنه ينتفع بها "فَهُمْ مُسْلِمُونَ" 81 لك منقادون لامرك ، مخلصون في اتباعك ، واللّه يعلم من يؤمن ممن لا يؤمن ، فلا تذهب نفسك حسرات على من لا يقبل نصحك ولا يسمع أمرك .

مطلب خروج دابة الأرض ومحلها وعملها ووجوب الاعتقاد بها :

قال تعالى "وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ" أي عصاة أهل الأرض بأن أغضبوا اللّه الحليم بإصرارهم على ما هم عليه ، ووجبت عليهم الحجة ، واستحقوا العقاب

المقدر عليهم ، وظهر لأهل زمانهم الأياس من إيمانهم ولم يبق لهم أمل فيهم ولا رجاء

بإصلاحهم "أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ" قبل قيام الساعة ، وهي آية على انتهاء الأمر ، وإغلاق باب التوبة ، وستعطى هذه الدابة قوة "تُكَلِّمُهُمْ" بلسان فصيح يفهمه كلهم ، فتسم المؤمن بإيمانه والكافر بكفره ، وتقول ما قال اللّه تعالى تبكيتا وتقريعا إليهم ، "أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ" 82 بوقوعها ولا يصدقون بمجيء الساعة والبعث بعد الموت والحساب والجزاء .

روي عن عبد اللّه ابن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول إنّ أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ،

وأيّتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن ، وتخطم أنف الكافر بالخاتم ، حتى إن أهل الحق ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ، ويقول هذا يا كافر .

(138/574)

- أخرجه الترمذي وقال حديث حسن - وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجا بأقصى اليمن ، فينشو ذكرها بالبادية لا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ، ثم تمكث زمانا طويلا ، ثم تخرج خرجة أخرى قريبا من مكة فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ، ثم يبن الناس في أعظم المساجد على اللّه حرمة وأكرمها على اللّه (يعني المسجد الحرام) لم يرعهم الا وهي في ناحية المسجد ، تدنو ، وتدنو كذا وكذا ، قال عمرو ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك ، فارفض الناس عنها وتثبت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا اللّه ، فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب ، فمرّت بهم فجلت وجوههم حتي تركتها كأنها الكواكب الدرّية ، ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا

يعجزها هارب ، حتى إن الرجل ليقوم فيعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلى فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه فيتجاور الناس في ديارهم ويصطبحون في أسفارهم ، ويشتركون في الأحوال ، يعرف الكافر من المؤمن ، فيقال للمؤمن يا مؤمن ، وللكافر يا كافر .

وجاء بإسناد الثعلبي عن حذيفة بن

اليمان ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الدابة ، قلت يا رسول اللّه من أين تخرج ؟ قال من أعظم المساجد حرمة على اللّه (ولا أعظم عند اللّه كرما ولا أوجب حرمة ولا أكثر تبجيلا من المسجد الحرام على خلق اللّه كذلك ذكرنا آنفا أنه هو) فبينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تضطرب الأرض وتنشق الصفا مما يلي المسعى ، وتخرج الدابة من الصفا ، أول ما يخرج منها رأسها ملمعة ذات وبر وريش ، لن يدركها الطالب ولن يفوتها هارب ، تسم الناس مؤمنا وكافرا ، فأما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري ، وتكتب بين عينيه مؤمن ، وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء وتكتب بين عينيه كافر .

(139/574)

وعن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : بئس الشعب شعب أجياد ، مرتين أو ثلاثا ، قيل ولم ذلك يا رسول اللّه ؟ قال تخرج منه الدابة تصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين .

وروي عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم ، وقال إن الدابة تسمع قرع عصاي .

وجاء عن ابن عمر قال إن الدابة تخرج ليلة جمع (ليلة عرفة يقال لها ليلة جمع ويوم جمع لاجتماع الناس فيها) والناس يسيرون إلى منى وروي عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن ايّل ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا .

وقال عبد اللّه بن عمر تمس برأسها السحاب ، ورجلاها في الأرض ، وقال علي كرم اللّه وجهه : لها لحية ، ولا ذنب لها .

وقال وهب : وجهها وجه رجل وسائر خلقها كالطير ، واللّه أعلم بحقيقتها .

الحكم الشرعي وجوب الاعتقاد بخروجها جزما اعتقادا لا مرية فيه ، ومن أنكرها يكفر والعياذ باللّه لثبوتها نصا بالقرآن العظيم وينفي تأويلها عن الظاهر الأحاديث المارة الذكر ، لذلك يجب أن يعتقد أن كل تأويل يصرف حقيقتها إلى معنى آخر على طريق المجاز باطل لا يجوز الالتفات إليه .

أما وقت خروجها وكيفيّتها ومكان خروجها وما تقوله وتفعله ، فيجب أن يجعل علم ذلك إلى اللّه ، لأن الأحاديث كثيرة في ذلك ، وفيها ما يعارض بعضه بعضا ، وقد نقلنا أصح ما جاء فيها من الأخبار وتركنا غيره .

مطلب مواقف القيامة وأن لا نفخة ثالثة :

(140/574)

قال تعالى "وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً" واذكر يا محمد لقومك بعد ذكر الدابة يوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة "مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا" المنزلة على رسلنا لارشادهم "فَهُمْ يُوزَعُونَ" 83 لشدة الازدحام في ذلك اليوم العظيم يحبس أولهم آخرهم ليجتمعوا فيساقوا دفعة واحدة "حَتَّى إِذا جاؤُ" وصلوا إلى محل العرض أثناء مرورهم به ، وأرقفوا بين يدي ربهم في ذلك الموقف الرهيب "قالَ" لهم على طريق الاستفهام التوبيخي "أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي" المبلغة إليكم من رسلي في الدنيا "وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً" والحال انكم لم تعرفوها حق معرفتها بل كذبتموها بادىء الرأي من غير أن تتفكروا بمنزلها وتنظروا الصادقين الذين أرشدوكم إليها "أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 84 بها في الدنيا أجحدتموها وقد جاءكم بها رسل ؟ فخرسوا ، إذ لا حجة لهم يتذرعون بها قال تعالى "وَوَقَعَ الْقَوْلُ" وجب العذاب الثابت

في قوله تعالى "لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ" الآية 13 من سورة السجدة في ج 2 "عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا" أنفسهم بالكفر والعصيان وعدم الالتفات إلى آيات اللّه التي ذكرتهم أنهم لم يخلقوا عبثا "فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ" 85 إذ يغشاهم العذاب فيشغلهم عن الاعتذار ، وتكون أفواههم كأنها مختوم عليها ، راجع الآية 25 من المرسلات المارة ، وهذا في موطن من مواطن القيامة ، وقد ذكرنا أن فيها مواطن كثيرة منها ما يعتذر فيه ، ومنها ما يتحاج فيه ، ومنها ما ينكر فيه ، ومنها ما يعترف فيه ، ومنها ومنها ، أجارنا اللّه منها ، راجع الآية 81 من سورة مريم والآية 64 من سورة يس المارتين قال تعالى "أَلَمْ يَرَوْا" هؤلاء الجاحدون قدرتنا "أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ" ويستوحوا لأنفسهم من نصب المعاش "وَالنَّهارَ مُبْصِراً" مضيئا لينتفعوا به بما يقوّم أمورهم ، وهذه الرؤية قلبية لأن الليل والنهار

(141/574)

وإن كانا مبصرين بالعين لكن جعل كون الليل للراحة والنهار للعمل من الأمور المعقولة لا المبصرة ، أي ألم يعلموا جعلنا الليل المظلم للنوم والقرار ؟ قيل : النوم راحة القوى الحسية ، من حركات القوى النفسية ، والنهار المضيء للشغل النافع مادة

ومعنى "إِنَّ فِي ذلِكَ" الجعل المسلوك بنظام بديع لا يتغير "لَآياتٍ" دالات على كبير نعمنا وقوة

ارادتنا "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" 86 بنا ويصدقون رسلنا "وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ" القرن ، والنافخ به إسرافيل عليه السلام ، وكان أمراء الجيوش أخذوا بوقهم من هذا كما أخذت ترتيبات الشرطة والدرك والجيش والتعذيب وسرادق الملك ولبهته والوزراء والعمال وغيرهم من القرآن ، لأن الدنيا تذكرة ومثالا للآخرة ، والمراد بهذه النفخة الثانية بدليل قوله تعالى "فَفَزِعَ" خاف ودهش وارتعد "مَنْ فِي السَّماواتِ" من الملائكة "وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" من الخلائق فيشمل الإنس والجن والوحش وغيرها ، وجاء الفعل بلفظ الماضي بدلا من المضارع لتحققه ، لأن المستقبل من فعل متيقن الوقوع كالماضي لأنه من اخبار اللّه تعالى ، وهو حق ثابت لا مرته فيه واستثنى من هذا العموم في قوله "إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ" رضوان خازن الجنة ، ومالك خازن النار ، والحور العين والولدان وحملة العرش والمقربون والزبانية ، وإدريس لأن اللّه رفعه بعد الموت وموسى لأنه صعق بالطور وغيرهم ممن أراد استثناءهم ، وهذا التفسير على جعل النفخة هي الثانية أولى وأنسب بالمقام من جعلها النفخة الأولى ، لأن تمام الآية الآتية تدل دلالة صريحة على ذلك ، وان المراد بمن في السموات والأرض جميع الخلائق عدا من استثنى اللّه ، إذ لا أحد الا ويصيبه فزع وهول ورهبة يوم القيامة عند النفخة الاخيرة إذ لا يدري الناس ماذا يراد بهم وما يفعل بتقيهم وشقيهم ، ولا يبعد أن يدخل فيمن استثنى اللّه الأنبياء و

الشهداء والعلماء العاملون والأولياء العارفون الذين ثبتهم اللّه بتثبيتة الداخلون في قوله (وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) الآية 89 الآتية وبقوله لا يحزنهم الفزع الأكبر الآية 103 من سورة الأنبياء في ج 3 ، روى عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم سئل عن قوله تعالى "إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ" قال هم الشهداء مقلدون بسيوفهم حول العرش .

وقال ابن عباس هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون لا يصل إليهم الفزع .

راجع تفسير هذه الآية الآتية 172 من سورة آل عمران في ج 3 "وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ" 87 صاغرين ذليلين ، وفي هذه النفخة تتطاير من بوق اسرافيل أرواح جميع الأموات فتذهب كل روح إلى جسدها كأنها محشوة

فيه فتنشر الأموات من مدافنها أحياء بأمر اللّه وإرادته

فيهم فيهرولون نحو الصوت سراعا لا يميلون عنه ، قال تعالى (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ) الآية 108 من سورة طه المارة وليعلم أن سيدنا إسرافيل عليه السلام منتظر دائما ربه سبحانه ، فعند ما يتلقاه يفاجأ الكون به حالا ، أما ما قاله الألوسي في الغالبة بان النفخات ثلاث ، مستدلا بهذه الآية إذ سماها نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث ، ويؤيد استدلاله بآية ص المارة وهي (وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ) 15 فهو قول لا مستند له ولا يفهم من هذه الآية الا مطلق نفخة وتحمل بالنسبة لسياق

التنزيل على النفخة الثانية كما بيناه في تفسيرها فراجعه وبما أن الإجماع على أنهما نفختان لا ثالثة لهما فكل قول يخالفه لا قيمة له ، ولهذا لا عبرة بقوله هذا رحمه اللّه فلا يؤخذ به لعدم استناده على دليل قاطع ولانفراده بهذا القول وحده .

(143/574)

قال تعالى "وَتَرَى الْجِبالَ" رأي العين "تَحْسَبُها جامِدَةً" ساكنة واقفة قائمة في أمكنتها ممكة عن الحركة "وَهِيَ" والحال أنها تسير سيرا حثيثا "تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ" الذي تسيره الرياح بسرعة عظيمة وتجزأه أجزاء على عظمه وهكذا الأجرام الكبيرة إذا تحركت نحو سمت واحد تراها واقفة بلا شك إذ لا يكاد يحس بحركتها لاجتماعها وكثرتها والتصاقها بعضها ببعض .

قال النابغة الجعوي في وصف جيش عظيم :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لجاج والركاب تهملج

وقيل المراد بالسير هو الوسط . .

قال الأعشى :

كأن مشيتها في بيت جارتها مر السّحابة لا ريث ولا عجل

والأول أولى بالمقام لأن المراد بمر السّحاب سيره إذا شتّته الريح ، فلا ترى أسرع منه ، لهذا حسن التشبيه .

قال تعالى إن هذا الصنع البديع العجيب المتقن في حركة الجبال هو "صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي" يعجز عنه الخلق أجمع كيف لا وهو "أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ" خلقه وأحكمه وسواه فأحسنه على ما تقتضيه حكمته البالغة "إِنَّهُ" الفاعل لذلك "خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ" في هذه الدنيا من الطبائع الحسنة والسيئة ، ومن الأعمال الطيبة والقبيحة ، وأنه يوم ترجعون إليه سيكافئ الخير خيرا والشرير شرا .

مطلب حركة الجبال وما قيل فيها :

(144/574)

اعلم أيها القارئ أن المفسرين أجمعوا على أن هذه في سير الجبال عند خراب الكون في النفخة الأولى ، لأن الآية في بحث القيامة ، كما أن الآية قبلها ، والآية بعدها في بحث القيامة ، الا أن القيامة تكون لخراب الكون ، وإذا أنعمنا النظر في هذه الآية وأجلنا الفكر فيها وهي واقعة بين آيتين دالتين على القيامة بلا شبهة ، نرى أن ليس في معناها ما يدل على الخراب كما هو الحال في الآيات الدالة على القيامة مثل سورة التكوير والانفطار وغيرهما ، والآية

24 من سورة يوسف والآية 47 من سورة الكهف في ج 2 ، لأن كلمة الإتقان فيها تؤذن للعمار لا للخراب من إفساد أحوال الكائنات وإخلال نظامها وكلمة صنع تفيد إجادة العمل وإحسان الفعل لا تشتيته وتبديده والصنع من خصائص الإنسان ولا ينسب للحيوان الا شذوذا ولفظ أتقن يفيد الإحكام والمتانة والرصانة فلا يؤول بالخراب ، وليس الخراب في معناه ، وهذان الفعلان أي مصدر صنع الذي فعله صنع وفعل اتقن ، فيها تشيران إلى التهويل من أمر الجبال إلى الذي مصدره الإتقان ، وتنبه على أن سيرها من الأفاعيل العجيبة وتؤذن بأنها من بدائع صنع اللّه المبنية على الحكمة التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ، ومبادئ الإبداع على وجه متين ونهج رصين وهذا كله من شأن الدنيا لدلالته على العمار كما ذكرنا ، والقصد من تسييرها يوم القيامة سقوطها التسوى بالأرض قال تعالى : (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً) الآية 107 من سورة طه المارة ، وقال تعالى : (وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) الآية 6 من القارعة وقال تعالى : (وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً) الآية 11 من سورة الحاقة في ج 2 ، والآيات الدالة على خراب الكون كثيرة في القرآن ، ويكون يوم تبدل الأرض غير الأرض راجع الآية 48 من سورة ابراهيم في ج 2 أيضا ، وهذه الآية واللّه أعلم لا تدل على

شيء مما تضمنته هذه الآيات لذلك أرى تفسيرها على غير أحوال الآخرة واعتبارها المعترضة بين ما قبلها وما بعدها ، ومثلها في القرآن كثير ، لأن جل الآيات المدنية في السور المكية والآيات المدنية في السور المدنية معترضة بين ما قبلها وما بعدها للاخبار ، وعليه يكون المعنى والله أعلم إرشاد

العباد إلى بدايع حكمه التي كان غافلا عنها الغافلون من أكثر الناس عند نزولها وبعده ، وان المار ذكرهم في الآية 73 المارة لا شك يعلمونها ، وان المراد بهذا الصنع العجيب والإتقان البديع في دورانها الرحوى بصورة دائمة منتظمة بتنظيم الحكيم القادر تنظيما لا يعتريه الخراب مستمرا دائما إلى اليوم الذي يريد فيه خراب كونه ، فتكون كسائر الأجرام الأرضية والسماوية داخلة في قوله تعالى (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) الآية 40 من سورة يس المارة ، ومثلها الآية 22 من الأنبياء وفي ج 2 ، فاذا جاء ذلك اليوم المقدر لخرابها دخلت في معنى الآيات المارة الدالة على الخراب ، راجع الآية 54 من سورة الأعراف المارة .

(146/574)

هذا ما رأيته وعلى من بعدي أن ينتقدوا أو يحبذوا وهنا مسألة ، وهي أن القاضي عبد الجبار استدل بعموم قوله تعالى (أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) على أن قبائح العبد ليست من خلقه سبحانه ، والأوجب وصفها بالإتقان والإجماع مانع منه ، وأجيب بأن الآية مخصوصة بغير الأعراض ، لأن الإتقان بمعنى الإحكام وهو من أوصاف المركبات القائمة بنفسها القابلة للخرق والالتئام ، أما الأعراض القائمة بغيرها فلا تقبل ذلك ، وعليه فلا يستقيم ما أراده حضرة القاضي ، ولو سلم أنها غير مخصوصة فوصف كل الأعراض به ممنوع ، إذ ما من عام إلا وقد خصص ، وهذا من المخصوص ولو سلم أن وصف كل الأعراض به غير ممنوع وأنه غير مخصوص من العموم فالإجماع المذكور يقوله (ان الإجماع مانع من عدّ القبائح متقنة) ممنوع بل هي متقنة أيضا ، بمعنى أن الحكمة اقتضتها وما تقتضيه الحكمة فهو متقن والإتقان نسبيّ لكل بحسبه ، وبما أن هذه الآية لم يفسرها مفسّر بما فسرتها الآن ولم يطرق موضوعها طارق بما ذكرته لحد الآن ، وقد أقدمت عليه لا ترك للقراء الكرام والعلماء الأعلام مجالا لتمحيصه إيجابا أو سلبا قبولا أو ردا ، وفتحت لهم هذا الباب ليقروه إذا رأوه موافقا لا سيما وأن علم الفلك يقره ، وإجماع أهل العصر على أن الأرض هائمة ولها دورتان يومية وسنوية ، أو يغلقوه على هذا القاضي كما أغلقوه على القاضي عبد الجبار المار ذكره ، والله ولي التوفيق .

قال تعالى

"مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ" الخصلة الطيبة من أقوال وأفعال وأخلص للّه وحده وآمن بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر

(147/574)

و بالقضاء والقدر وجميع ما أخبر به الرسل في الدنيا والآخرة "فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها" عند اللّه ثوابا عظيما وأجرا جزيلا "وَهُمْ" أصحاب هذه الخصال "مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ" يوم يفزع الناس في يوم القيامة "آمِنُونَ" 89 لا يخافون كما يخاف غيرهم من العذاب الذي يقع بعده ، أما نفس الفزع الوارد بالآية السابقة فلا يخلو منه أحد لوقوعه فجأة فيعم رعبه ورهبته الناس كلهم ، عدا من استثنى اللّه ، ولبحثه صلة في الآية 170 من آل عمران في ج 3 ، "وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ" الخصلة القبيحة من أقوال وأفعال واشراك باللّه وجحد كتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقضاء والقدر بان كذب ما جاءت به الرسل في الدنيا والآخرة "فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ" بأن قذفوا فيها على وجوههم غير مبال بهم ، فيدفعون دفعا من الوراء إلى الأمام إهانة لهم وتحقيرا لشأنهم ، كما تطرح الزبالة تكفأ كفئا لأن من يطرحها لا ينظر إليها ، وعبر بالوجه عن سائر الجسد لهذا المعنى ، ولأن الوجه أول ما يواجه النار ، راجع الآية 24 من الفرقان المارة والآية 98 من الإسراء الآتية ، ويقال لهؤلاء حين يقذفون في

النار تبكيتا لهم وجوابا لصراخهم المحشو بالأعذار الكاذبة والوعود المخلفة "هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا" جزاء "ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 90 في الدنيا ،

(148/574)

ثم التفت إلى رسوله صلّى اللّه عليه وسلم فقال قل يا أكرم الرسل لقومك إذا جادلوك أو خاصموك "إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ" مكة المكرمة لا أخص بعبادتي غيره ، وإنّما خصها بالذكر لأنها مولده وأحب البلاد إليه وأكرمها عليه وقد أشار إليها إشارة تعظيم "الَّذِي حَرَّمَها" على المشركين وجعلها موطىء رسوله ومهبط وحيه ، وجعلها حرما آمنا من فيها ويتخطف الناس من حولها وحرم سفك الدماء فيها بحيث لو رأى الرجل قاتل أبيه لا يعارضه البتة ، وقد ضاعف عقاب الظلم فيها ومنع أن يصاد صيدها أو يختلي خلاها أو تلتقط لقطتها ولا يدخلها إلا محرم تعظيما لشأنها "وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ" في السموات والأرض ملكا وعبيدا "وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" 91 لعظمة ربي المنقادين لأوامره ونواهيه "وَأَنْ أَتْلُوَا" بنفسي عليكم "الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى" بهديه وآمن بمنزله ومبلغه "فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ" فيعود نفع

(149/574)

هذا إليها "وَمَنْ ضَلَّ" عنه وكفر بمنزله والمنزل عليه ، فيبقى تائها في الضلال "فَقُلْ" يا سيد الرسل لمثله "إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ" 92 المخوفين من عذاب اللّه ما أنا بمجبر ولا مسيطر ولا قاسر لأحد على الإيمان ، راجع الآية 12 من سورة كورت المارة ، وقد قام صلّى اللّه عليه وسلم فيما أمره به ربه أتم قيام هذا ومن قال أن هذه الآية نسخت بآية القتال أراد عدم بقاء حكمها ، لأن الرسول أمر بقتال من لم يؤمن ، وفي الحقيقة لا نسخ ، لأن هذا كله ارشاد من وجه وتهديد من آخر والرسول مأمور في هاتين الحالتين حتى بعد نزول آية القتال ، لأنه لم يقاتل أحدا قبل إنذاره ، فضلا عن أن هذه الآية من الإخبار والأخبار لا يدخلها نسخ "وَقُلِ" يا سيد الرسل "الْحَمْدُ لِلَّهِ" على ما وفقني به من القيام لأداء الرسالة وقل لقومك "سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ" القاهرة قريبا من الجلاء والسبي والقتل في الدنيا كما يريكم العذاب الشديد في الآخرة ويوم تأتيكم آيات ربي "فَتَعْرِفُونَهَا" إذ تشاهدونها عيانا لا قولا وتعريضا "وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" 93 بالتاء خطاب لأهل مكة ، وبالياء لهم ولغيرهم ، وفيها تهديد عظيم ووعيد فظيع إذا هم لم يؤمنوا بأن يوقع بهم ما تهددهم به من الآيات الرهيبة . هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 308 . 350 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة النمل

مكية

طس تقدم الكلام عليه فان وقفت عليه لم تقف وكتاب مبين لان تلك مبتدأ خبره هدى ومن جعل الخبر آيات القرآن وقف على كتاب مبين وهو كاف ويكون هدى مبتدأ خبره للمؤمنين وهو جائز لانه رأس آية يرقنون تام وكذا يعمهون سوء العذاب جائز الاخسرون حسن وكذا عليم آنست نارا جائز تصطلون كاف وكذا ومن حولها ان لم يكن وسجان الله داخلا في النداء وألا فليس بوقف رب العالمين حسن العزيز الحكيم صالح وألق عصاك حسن ولم يعقب تام لاتخف كاف وكذا المرسلون ان جعل الا بمعنى لكن رحيم كاف وقال أبو عمرو تام وقمه كاف فاسقين حسن سحر مبين كاف وكذا وعلوا المفسدين تام علما صالح المؤمنين حسن من كل شيء كاف المبين تام يوزعون كاف وكذا الا يشعرون الصالحين حسن الهدهد صالح وكذا من الغائبين والمعنى أن كان من الغائبين بسلطان مبين كاف غير بعيد

صالح تحط به جائز يقين حسن من كل شيء كاف عظيم حسن من دون الله صالح لا يهتدون تام لمن قرا ألا يسجدوا بالتخفيف وجائز لمن قرا ألا يسجدوا بادغام النون في لا المزيدة لان العامل في ان ما قبلها فلا يحن القطع عنه وعلى الأول لو وقف على يا بمعنى الا يا هؤلاء ثم أبتدأ باسجدوا جاز والأرض صالح وما يعلنون تام العظيم حسن من الكاذبين كاف يرجعون حسن وكذا كريم انه من سليمان كاف مسلمين حسن وقال أبو عمرو تام في أمري صالح حتى تشهدون كاف والأمر إليك جائز ماذا تأمرين أذلة تام وكذلك يفعلون صالح المرسلون كاف تفرحون حسن وكذا صاغرون مسلمين كاف من مقامك صالح أمين حسن طرفك كاف أم كفر لنفسه صالح كريم تام لا يهتدون حسن عشك صالح كانه هو تام كنا مسلمين حسن وكذا من دون الله كافرين تام عن ساقيها صالح من قواريرا كاف رب العالمين تام يختصمون قبل الحسنة صالح ترحمون كاف وبمن معك صالح تفتنون حسن لمن قرا انا دمرناهم بكسر الهمزة وليس بوقف لمن قراه بفتحها اذ تقديره لانا دمرناهم أجمعين كاف وكذا بما ظلموا ويعملون يتقون تام كاف وكذا تجهلون

(151/574)

فإن وقف على من دون النساء فجائز وكذا من قريتكم يتطهرون كاف من الغابرين حسن مطرا كاف المنذرين تام وكذا اصطفى يشركون كاف وكذا ذات بهجة شجرها حسن أ اله مع الله في الخمسة كاف يعدلون حسن حاجزا كاف لا يعملون حسن خلفاء الأرض كاف حسن رحمته كاف يشركون حسن ثم يعيده كاف وكذا والأرض صادقين حسن الا الله كاف وكذا يبعثون في الآخرة صالح منها مفهوم عمون تام لمخرجون مفهوم الأولين تام المجرمين حسن يمكرون كاف صادقين حسن وكذا تستعجلون ولا يشركون وما يعلنون تام وكذا مبين يختلفون حسن للمؤمنين تام العليم حسن المبين تام مدبرين حسن عن صلاتهم صالح مسلمون حسن تكلمهم تام لمن قرا ان الناس بكسر الهمزة وليس بوقف لمن قراه بفتحها لان المعنى عليه تكلمهم بان الناس لايوقنون تام يوزعون كاف تعلمون حسن لا ينطقون تام مبصرا كاف وكذا يؤمنون الا من شاء الله حسن وكذا داخرين ومر السحاب كل شيء كاف وقال أبو عمرو في ذلك كله تام يفعلون تام آمنون حسن وكذا في النار وقال أبو عمرو فيه كاف تعملون تام كل شيء جائز القرآن حسن وقال أبو عمرو كاف لنفسه مفهوم المنذرين حسن وكذا فتعرفونها وقال أبو عمرو فيه كاف آخر السورة تام .

أهـ ﴿ المقصد صـ 566 . 577 ﴾

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة النمل

مكية ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية وكلمها ألف ومائة وتسع وأربعون كلمة وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وتسعون حرفاً

طس تقدم الكلام عليها ومتى وقفت على طس فلا تقف على مبين لأنَّ تلك مبتدأ أخبرها هدى وإن جعل الخبر آيات القرآن كان الوقف على مبين كافياً وهدى مبتدأ خبره للمؤمنين أو خبر مبتدأ محذوف أي هو هدى أو خبر بعد خبر وحسناً إن نصب بشرى ورحمة على المصدر بفعل مقدر من لفظهما أي يهدين هدى ويبشر بشرى وليس مبين وقفاً إن رفع هدى بدلاً من آيات أو خبراً ثانياً أو نصب على الحال من آيات أو من القرآن أو من الضمير في مبين فكأنَّه قال هادياً ومبشراً

للمؤمنين في محل الذين الحركات الثلاث فتام إن رفع خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو نصب على المدح وليس بوقف إن جر نعتاً للمؤمنين أو بدلاً أو بياناً

يوقنون (تام)

أعمالهم (جائز)

يعمهون (كاف) إن لم يجعل ما بعده خبر إن وليس بوقف إن جعل خبراً لها أو خبراً بعد خبر

سوء العذاب (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده جملة في موضع الحال

الأخسرون (حسن) ومثله عليم إن علق إذ بمضمر وليس بوقف إن علق بما قبله أي عليم وقت قول موسى لأهله عند مسيره من مدين إلى مصر

آنست ناراً (جائز) للابتداء بالسين وهو من مقتضيات الابتداء ومثلها سوف لأنَّها للتهديد فيبتدأ بها الكلام لأنَّها لتأكيد الواقع

تصطلون (كاف)

ومن حولها (حسن) إن كان وسبحان الله خارجاً عن النداء وليس بوقف إن كان داخلاً فيه

رب العالمين (حسن)

العزيز الحكيم (كاف)

وألق عصاك (أكفى) منه وقال نافع تام

ولم يعقب (تام) للابتداء بالنداء ومثله لا تخف وكذا المرسلون لمن قرأ ألا من يفتح الهمزة وتخفيف اللام حرف تنبيه وهو أبو جعفر كما قال امرؤ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فعلى هذه القراءة يحسن الوقف على المرسلون وليس بوقف لمن قرأ بأداة الاستثناء لأَنَّها لا يبتدأ بها ولجواز الابتداء بها مدخل لقوم يجعلون إلا بمعنى لكن والمعنى لكن من ظلم من غير المرسلين ويجعلون الاستثناء منقطعاً وهذا مذهب الفراء والنحويون لا يجوّزون ذلك

ليس بوقف لأَنَّ جواب من فإِنَّي غفور رحيم

ورحيم (تام) للابتداء بعد بالأمر

وقومه (كاف)

فاسقين (تام)

مبصرة ليس بوقف لأَنَّ جواب لما لم يأت بعد

مبين (تام) على استئناف ما بعده

استيقنتها أنفسهم ليس بوقف على أَنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً والتقدير جحدوا بها ظلماً وعلوا واستيقنتها أنفسهم

والوقف على علوّاً (كاف)

المفسدين (تام)

علماً (جائز)

المؤمنين (كاف) ولا وقف من قوله وورث سليمان داود إلى كل شيء فلا يوقف على داود

ولا على منطق الطير للعطف في كل

من كل شيء (كاف)

المبين (تام)

يوزعون (كاف)

وادي النمل ليس بوقف لأنَّ قالت جواب حتى إذا لأنَّ حتى الداخلة على إذا إبتدائية

وكذا لا يوقف على مساكنكم لأنَّ ما بعده جواب الأمر

وجنوده (تام) لأنَّه آخر كلام النملة ثم قال تعالى وهم لا يشعرون أي لا يشعرون أنَّ سليمان

يفقه كلامهم وأوحى الله إلى سليمان أنَّ الله قد زاد في ملكك أنَّه لا يتكلم أحد إلا حملت

الريح كلامه فأخبرتك به فسمع سليمان كلام النملة من ثلاثة أميال ثم قال لها لم قلت ادخلوا

مساكنكم أخفت عليهم مني ظلماً فقالت لا ولكن خشيت أن يفتنوا بما يرون من ملكك

فيشغلهم ذلك عن طاعة ربهم

لا يشعرون (كاف) ولا وقف من قوله فتبسم إلى ترضاه فلا يوقف علي وعلى والديَّ لأنَّ أن

الثانية معطوفة على أنَّ الأولى

ترضاه (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن عطف ما بعده على ما قبله

الصالحين (حسن)

الهدهد (جائز)

من الغائبين (كاف) على استئناف ما بعده واللام في لأعذبنه جواب قسم محذوف وليس بوقف إن جعل ما بعده متصلاً بما قبله ورسموا أو لأذبحنه بزيادة ألف بعد لام ألف كما ترى ولا تعرف زيادتها من جهة اللفظ بل من جهة المعنى

بسلطان مبين (كاف)

غير بعيد (جائز)

بما لم تحط به (حسن)

بنبأ يقين (تام) على استئناف ما بعده وإلاَّ كان جائزاً لكونه رأس آية

من كل شيء (حسن) وقد أغرب بعضهم وزعم أنَّ الوقف على عرش ويبتدئ بعظيم وجدتها وليس بشيء لأنَّه جعل العبادة لغير الله عظيمة وكان قياسه على هذا أن يقول عظيمة وجدتها إذ لمستعظم إنَّما هو سجودهم لغير الله وأمَّا عرشها فهو أذل وأحقر أن يصفه الله بالعظم وفيه أيضاً قطع نعت النكرة وهو قليل

عظيم (حسن)

من دون الله (جائز)

لا يهتدون (تام) على قراءة الكسائي ألاَّ بفتح الهمزة وتخفيف اللام وعلى قراءته يوقف على أعمالهم وعلى يهتدون ومن قرأ بتشديد إلاَّ لا يقف على أعمالهم ولا على لا يهتدون ولا على إلاَّ لأنَّ الياء على قراءتها بالتشديد من بنية الكلمة فلا تقطع وأصل ألا إن لأدغمت النون في اللام فأنَّ هي الناصبة للفعل وهو يسجدوا وحذف النون علامة النصب قال أبو حاتم ولولا أنَّ المراد ما ذكر لقال إلاَّ يسجدون بإثبات النون كقوله قوم فرعون ألا يتقون فإن قلت ليس في مصحف عثمان ألف بين السين والياء قلنا حذفت الألف في الكتابة كما حذفت من ابن بين العلمين ولو وقف على قراءة الكسائي الايا ثم ابتدأ اسجدوا جاز لأنَّ تقديره ألا يا هؤلاء اسجدوا وكثير ممن يدعى هذا الفن يتعمد الوقف على ذلك ويعده وقفاً حسناً مختاراً وليس هو كذلك بل هو جائز وليس بمختار ومن وقف مضطراً على يا ثم قال اسجدوا على الأمر جاز والتقدير ألا يا هؤلاء اسجدوا وحذف المنادى لأنَّ حرف النداء يدل عليه وقد كثر مباشرة يا لفعل الأمر وقد سمع ألا يا ارحمونا ألا يا تصدقوا علينا بمعنى ألا يا هؤلاء افعلوا هذا أي السجود لله تعالى

(155/574)

والأرض (حسن) لمن قرأ إلاَّ بالتشديد

وما يعلنون (تام)

إلاَّ هو (جائز) بتقدير هو رب العرش وليس بوقف إن رفع بدلاً من الجلالة

العظيم (كاف) ومثله من الكاذبين 0

ثم تول عنهم ليس بوقف لأنَّ هذا من مجاز المقدم والمؤخر فكأَّنه قال فألقه إليهم فانظر ماذا

يرجعون ثم تول عنهم

يرجعون (كاف)

كتاب كريم (حسن) ولا وقف من قوله إنَّه من سليمان إلى مسلمين لاتصال الكلام بعضه

ببعض من جهة المعنى على قراءة عكرمة وابن أبي عبلة بفتح أنه من سليمان وأَّنه في

الموضعين بدل من كتاب بدل اشتمال أو بدل كل من كل كأَّنه قيل ألقى إليَّ أَّنه من سليمان

وأَّنه كذا وكذا أو الفتح على إسقاط حرف الجر قاله الزمخشري ويجوز أن يراد لأَّنه من

سليمان كأَّنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره باسم الله وعلى قراءة العامة يجوز

الوقف على سليمان على أن ما بعده مستأنف جواباً للسؤال قومها كأنهم قالوا ممن الكتاب

وما فيه فأجابتهم بالجوابين وقرئ تغلوا بغين معجمة من الغلو وهو مجاوزة الحد والمعنى لا

تمتنعوا من جوابي فترك الجواب من الغلو والتكبر ولا يوقف على بسم الله الرحمن الرحيم لأنَّ

قوله أن لا تعلوا عليَّ متصل بألقي فموضع إن رفع على البدل مما عمل فيه ألقى وهو كتاب

ويجوز أن يكون موضعها جراً والتقدير وأنّه بسم الله الرحمن الرحيم بأن لا تعلوا عليّ

مسلمين (تام)

في أمري (جائز)

تشهدون (كاف)

والأمر إليك (جائز)

ماذا تأمرين (كاف) ويجوز في ماذا أن تكون استفهامية مبتدأ وذا اسم موصول بمعنى الذي خبرها ويجوز أن تجعل مع ذا بمنزلة اسم واحد مفعول تأمرين أي أيّ شيء تأمرين به

أذلة (تام) لأنَّه آخر كلام بلقيس ورأس آية أيضاً ثم قال تعالى وكذلك يفعلون وهو أتم ثم أخبر الله تعالى عنها أنها قالت وإنِّي مرسلة إلى سليمان بهدية فإن كان ملكاً قبلها وإن كان نبياً لم يقبلها

المرسلون (كاف)

(156/574)

بمال (حسن) لانتهاء الاستفهام ومثله مما آتاكم لاختلاف الجملتين وأيضاً بل ترجح جانب الوقف

تفرحون (كاف)

لا قبل لهم بها ليس بوقف لأنَّ ما بعده بقية كلامه

وهم صاغرون (كاف) ومثله مسلمين

من مقامك (حسن) للابتداء بإنَّي

أمين (كاف)

طرفك (كاف)

أم أكفر (تام) لانتهاء الاستفهام وللابتداء بالشرط

لنفسه (حسن)

كريم (تام)

لا يهتدون (كاف)

عرشك (حسن)

كأنَّه هو (أحسن) منه

مسلمين (كاف)

من دون الله (حسن) لمن قرأ إنَّها بكسر الهمزة وهي قراءة الجماعة أي صدها الله تعالى أي حال بينها وبين ما كانت تعبد أو صدها سليمان وما على المعنيين في موضع نصب وليس بوقف لمن قرأ أنها بفتح الهمزة وهي قراءة سعيد بن جبير وعليها فالوقف على من قوم

كافرين تام

الصرح (حسن) ورسموا ادخلي بياء يوقف عليها عند الضرورة

عن ساقيها (جائز)

من قوارير (كاف)

لله رب العالمين (تام) لأنَّه آخر القصة وما بعده ابتداء أخرى

أن اعبدوا الله (جائز)

يختصمون (كاف)

قبل الحسنة (جائز)

ترحمون (كاف)

وبمن معك (حسن)

تفتنون (تام)

ولا يصلحون (كاف) على استئناف ما بعده

لصادقون (كاف)

ومكرنا مكراً (جائز)

لا يشعرون (كاف) ومثله عاقبة مكرهم لمن قرأ إنَّا دمرناهم بكسر الهمزة على الاستئناف

وهي قراءة أهل مكة والمدينة والشام والبصرة وليس بوقف لمن قرأ بفتحها بدلاً من قوله

عاقبة فتكون في محل رفع وكذلك إن جعلنا إنا في محل رفع خبر مبتدأ محذوف أي هو إنَّا دمرناهم أو جعلت خبر كان فتكون في محل نصب وبها قرأ الكوفيون عاصم وحمزة والكسائي وعلى قراءتهم لا يوقف على مكراً ولا على يشعرون ولا على مكرهم أجمعين (كاف) ومثله بما ظلموا وكذا يعلمون

آمنوا (جائز)

يتقون (تام) لأنَّه آخر القصة ولوطاً منصوب بفعل مضمر كأنَّه قال وأرسلنا لوطاً وليس بوقف إن عطف لوطاً على صالحاً وحينئذ لا يوقف من أول قصة صالح إلى هذا الموضع لاتصال الكلام بعضه ببعض

وأنتم تبصرون (كاف)

من دون النساء (جائز)

(157/574)

تجهلون (كاف)

من قريتكم (جائز)

يتطهرون (كاف) ومثله من الغابرين وكذا مطراً

المنذرين (تام) لأَنَّه آخر قصص هذه السورة ومن قوله قل الحمد لله إلى صادقين ليس فيه وقف لأنَّ جميعه داخل في الاستفهام الأول ومتصل بعضه ببعض من جهة المعنى

الذين اصطفى (حسن) ومثله يشركون وإن جعل ما بعد يشركون مستأنفاً كان كافياً بهجة (كاف) ومثله شجرها لأنَّ المعنى أعبادة الذي خلق السموات والأرض خير أم عبادة مالا يضر ولا ينفع

أءله مع الله (حسن) ومثله يعدلون وإن جعل ما بعده مستأنفاً غير معطوف على الاستفهام الأول كان كافياً

حاجزاً (حسن) ومثله أءله مع الله وكذا لا يعلمون وكذا خلفاء الأرض ومثله أءله مع الله وتذكرون ورحمته وأءله مع الله ويشركون وثم يعيده والأرض وأءله مع الله وصادقين وإلاَّ الله كلها حسان ورفع إلاَّ الله على أَنَّه فاعل يعلم ومن مفعول والغيب بدل من من أو رفع إلاَّ الله بدل من من أي لا يعلم الغيب إلاَّ الله على لغة تميم حيث يقولون ما في الدار أحد إلاَّ حمار يريدون ما فيها إلاَّ حمار كان أحداً لم يذكر أي لا يعلم من يذكر في السموات والأرض انظر السمين

يبعثون (تام) عند أبي حاتم والمعنى لا يعلمون متى يخرجون من قبورهم فكيف يعلمون الغيب

في الآخرة (حسن) ومثله في شك منها

عمون (تام)

لمخرجون (كاف) على استئناف ما بعده وتكون اللام في لقد جواب قسم محذوف وليس

بوقف إن جعل ما بعده متصلاً بما قبله

من قبل (حسن)

الأولين (كاف) ومثله المجرمين وكذا يمكرون وصادقين وأغرب بعضهم وزعم أنَّ الكلام قد

تم عند قوله ردف ثم يبتدئ لكم بعض الذي وفيه نظر

تستعجلون (كاف) ومثله لا يشكرون

وما يعلنون (تام) ومثله مبين والتاء في غائبة للمبالغة وقيل إنَّها كالتاء الداخلة على المصادر

نحو العاقبة والعافية من أنَّها أسماء لا صفات

فيه تختلفون (كاف)

للمؤمنين (تام)

بحكمه (كاف) ومثله العليم

فتوكل على الله (حسن)

المبين (تام)

الموتى ليس بوقف لمن قرأ تسمع الثانية بالفوقية المضمومة وكسر الميم والصم بالنصب لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله من الخطاب ومن قرأ يسمع بالتحتية المفتوحة وفتح الميم ورفع الصم كان حسناً

مدبرين (كاف)

عن ضلالتهم (حسن) قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وأبو عمرو وبهادي العمي بالإضافة وقرأ حمزة تهدي العمي بالفوقية ونصب العمي وقرأ عبد الله بن عامر الشامي بهادي العمي بتنوين هاد ونصب العمي وكان النسائي يقف بهادي بالياء في النمل والروم أصله بهادي استثقلت الكسرة على الياء فحذفت فبقيت الياء ساكنة والحرف الذي لقيها ساكن فأسقطوا الياء لالتقاء الساكنين وقد اتفق علماء الرسم على حذف الياء من أربعة أحرف مضافة تبعاً لخط المصحف الإمام وإنَّ الله لهاد الذين آمنوا في الحجج وحتى إذا أتوا على واد النمل وما أنت

بهاد العمي في الروم وإلاَّ من هو صال الجحيم في الصافات

بآياتنا (حسن)

مسلمون (تام)

تكلمهم (حسن) لمن قرأ إنَّ الناس بكسر الهمزة على الاستئناف وقرأ العامة تكلمهم بتشديد اللام من الكلام وقرئ تكلمهم بفتح التاء وإسكان الكاف وضم اللام من باب نصر من الكلم أي الجرح أي تجرحهم وبها قرأ ابن عباس وابن جبير ومجاهد وأبو زرعة والجحدري وروي أنَّ خروج الدابة حين ينقطع الخير فلا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ولا منيب ولا نائب وفي الحديث إنَّ خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأشراط ولم يعين الأول منهما وظاهر الأحاديث أنَّ طلوع الشمس آخرها والظاهر أنَّ الدابة واحدة وروي أنَّه يخرج في كل بلد دابة مما هو مبثوث نوعها في الأرض وليست واحدة طولها ستون ذراعاً لها قوائم وزغب وريش وجناحان لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب معها عصى موسى وخاتم سليمان عليهما الصلاة والسلام فتختم وجه الكافر بخاتم سليمان فيسودّ وجهه وتمسح وجه المؤمن فيبيض وجهه وقرأ الكوفيون عاصم وحمزة والكسائي أن بفتح الهمزة لأنَّ أن تكون منصوبة بما قبلها فلا يوقف على تكلمهم لأنَّ المعنى تكلمهم بأنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قيل تخرج من الصفا وقيل تخرج من البحر وهي الجساسة

لا يوقنون (تام)

ممن يكذب بآياتنا (جائز)

يوزعون (كاف)

ولم تحيطوا بها علماً (جائز) فصلاً بين الاستفهامين لأنَّ أم منقطعة فتقدر بل فهو انتقال من الاستفهام الذي يقتضي التوبيخ إلى الاستفهام عن عملهم على جهة التوبيخ أي أي شيء كنتم والمعنى إن كان لكم عمل أو حجة فها توهما وليس لهم عمل ولا حجة فيما عملوه إلاَّ الكفر والتكذيب

تعملون (كاف)

بما ظلموا (جائز)

لا ينطقون (تام)

مبصراً (كاف)

يؤمنون (تام) إن نصب يوم بفعل مضمر وإن عطف على ويوم نحشر لا يوقف من يوم الأول إلى يوم الثاني لاتصال الكلام بعضه ببعض

إلاَّ من شاء الله (تام) ومثله داخرين

السحاب (حسن) ثم يبتدئ صنع الله والعامل فيه مضمر أي صنع الله ذلك صنعاً ثم أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله وقيل منصوب على الإغراء أي انظروا صنع الله عليكم ومن قرأ صنع الله بالرفع خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك صنع الله كان الوقف على السحاب أحسن

كل شيء (كاف)

بما يفعلون (تام)

خير منها (حسن)

آمنون (كاف) وقال يحيى بن نصير النحوي لا يوقف على الأول حتى يؤتى بالثاني والأولى الفصل بين الفريقين ولا يخلط أحدهما مع الآخر

في النار (حسن) للابتداء بالاستفهام

تعملون (تام)

الذي حرمها (حسن) ومثله كل شيء

من المسلمين ليس بوقف لأنَّ أن بعده موضعها نصب بالعطف على أنَّ الأولى

القرآن (كاف)

لنفسه (جائز) وقال يحيى بن نصير النحوي لا يوقف على أحد المتعادلين حتى يؤتى بالثاني

من المنذرين (تام)

الحمد لله (جائز) لأنَّ الابتداء بالسين من مقتضيات الابتداء

فتعرفونها (حسن)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 566. 577 ﴾

(161/574)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة النمل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قراءة أُبَيّ : "تَبَارَكت الأرضُ" .

قال أبو الفتح : هو تَفاعَلَ من البركة ، وهو توكيد لمعنى البركة ، كقولك : تعالى الله ، فهو أبلغ من علا ، وكقول العجاج :

تَقاعَسَ العِزُّ بِنا فَاقْعَنْسَسَا 2

فهو أبلغ معنى من قَعِسَ ، كما أن [118و] احدودب أقوى معنى من حَدِبَ ،

واعشوشب أقوى من أَعْشَبَ ؛ وذلك لكثرة الحروف .

وأصل هذا كله من فَعَّلَ في الفعل ، كقطّعت وكسّرت ، ألا تراها أقوى معنى من قطَعت وكسَرت ؟ وعليه جاء قوله : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ 3 ، فهو أبلغ من قادر . ولهذا جاء قوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ 4 ، فعبر عن لفظ الحسنة بكسب ، وذلك لاحتقار الحسنة إلى ثوابها ؛ لقوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ 5 وجاء "اكتسبت" في السيئة ، تنفيرا عنها ، وتهويلا وتشنيعا بارتكابها . ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ 6 ؟ فافهم هذا ، وابنِ عليه .

---

1 سورة النمل : 8 ، ويقول أبو حيان عن قراءة أبي أيضا : "ومن حولها من الملائكة" تحمل هذه القراءة على التفسير ، لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه . البحر 567 .

2 قبله :

وإن دعونا من تميم أرؤسا والرأس من خزيمة العرندسا

وقيس عيلان ومن تقيسا

والعرندس : الشديد . وتقيس : تشبه بقيس عيلان . وتقاعس العز بنا : امتنع بنا العز فما يرام جنابه ، من تقاعس الفرس : إذا لم ينقد لقائده . واقعنسس : تمكن واستعصى . وانظر الديوان : 33 .

3 سورة القمر : 42 .

4 سورة البقرة : 286 .

5 سورة الأنعام : 160 .

6 سورة مريم : 90 ، 91 .

(162/574)

قال أمية :

تَبَارَكَ أَمْ صِدِّيقُ حَقًّا كانَ مِن كُلِ عَتِيقَا

خالِقُ الخَلْقِ جَمِيعًا ويعُودُ الخَلْقُ صِيقَا

أي ترابا : والتاء في "تبارك" زائدة على بناء البيت . ومعتدة خزما كالواو في قوله :

وكأنَّ ثَبِيرًا في عَرَانِينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ 1

فالواو خَزْم ، وهذا يكاد يسقط حكم ما يُبنَى من الزوائد في الكلم حتى يحسنَ له تحقير الترخيم ، نحو قولهم : في حارث حُرَيْث ، وفي أزهر زُهَيْر . ألا تراه كيف خزم بتاء "تبارك" وإن كانت مصوغة في نفس المثال كما تُخْزَم حروف المعاني المنفصلة من المُثُل ، كواو العطف ، وفائه ، وبل ، وهل ، ويا ، ونحو ذلك ؟ ولهذا قالوا أيضا في تكسير فَعَلَان : فِعْلَان

، ككَرَوَان وكِرْوَان ، وشَقَذَان2 وشِقْذان ، فأجروه مجرى فَعَل وفِعْلان ، نحو خَرَب3 وخِرْبان ، وشَبَثٍ4 وشِبْثان ، وبَرَق5 وبِرْقَان . فاعرف ذلك إلى ما يليه من نحوه بمشيئة الله .

ومن ذلك قراءة الحسن وعمرو بن عبيد : "كَأَنَّهَا جَأْنٌ"6 .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على نظير هذا فيما مضى من الكتاب7 ، وذكرناه أيضا في الخصائص8 ، وفي سر الصناعة9 ، وفي المنصف10 ، وفي التمام ، وغيره من مصنفاتنا وإنما كررناه لإعراب القول في معناه .

---

1 رواه الزوزني في شرحه للمعلقات السبع ، وفيه "كأن" مكان "وكأن" . وروي الشطر الأول في الديوان "25" :

كان أبانا في أفانين ودقه

وثبير وأبان : جبلان . والعرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف أو معظمه ، واستعاره لأوائل المطر ، إذ كانت الأنوف تتقدم الوجوه . والودق : المطر . والبجاد : كساء مخطط . ومزمل : ملفف بالثياب . وخفض "مزمل" على جوار "بجاد" . شبه الجبل في جلاله وطرائق المطر عليه بشيخ مزمل في بجاد .

2 الشقذان : الذي لا يكاد ينام .

3 الخرب : ذكر الحبارى ، لطائر .

4 الشبث : العنبكوت ، ودويبة كثيرة الأرجل .

5 البرق : الحمل ، فارسي معرب .

6 سورة النمل : 10 .

7 انظر الصفحة 147 من الجزء الأول .

8 الخصائص : 3 : 126 .

9 سر الصناعة : 1 : 83 .

10 المنصف : 1 : 149 .

ومن ذلك قراءة زيد بن أسلم وأبي بن جعفر القارئ : "أَلَّا مَنْ ظَلَمَ" 1 ، بفتح الهمزة ، خفيفة اللام .

قال أبو الفتح : "مَنْ" ههنا مرفوعة بالابتداء ، وخبره "ظلم" كقول : من يَقُم أضربْ زيدا ، فيقم خبر عن "من" حيث كان شرطا . وكأن من عَدَلَ إلى هذا جفا عليه انقطاع الاستثناء في القراءة الفاشية . و"من" هناك منصوبة على الاستثناء ، وهو منقطع بمعنى لكن ، فقوله تعالى : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ معناه : لكن من ظلم

كان كذا . ولعمري إن الاستثناء المنقطع فاش في القرآن وغيره ، إلا أنه – مع ذلك – مُحوِج إلى التأول وإعمال القياس والتمحّل .

ومن ذلك قراءة قتادة وعلي بن الحسين : "مَبْصَرَةً"2 .

قال أبو الفتح : هو كقولك : هُدًى ، ونورا . وقد كثرت المَفْعَلَة بمعنى الشّياع والكثرة في الجواهر والأحداث جميعا ، وذلك كقولهم : أرض مَضَبَّةٌ : كثيرة الضِّباب ، ومثْعَلَة : كثيرة الثعالي3 ، ومَحْيَاة ومَحْوَاة ومَفْعَاة : كثير الحيات والأفاعي ، فهذا [118ظ] في الجواهر4 . وأما الأحداث فكقولك : البِطْنَة مَوْسَنَة ، وأكل الرطَب مَوْرَدَة5 ومَحَمَّة . ومنه المَسْعَاة ، والمَعْلَاة ، والحقُّ مَجْدَرَة بك ، ومَخْلَقَة ومَعْسَاة ، ومَقْمَنَة ، ومَحْجَاة . وفي كله معنى الكثرة من موضعين :

أحدهما المصدرية التي فيه ، والمصدر إلى الشياع والعموم والسعة .

---

1 سورة النمل : 11 .

2 سورة النمل : 13 .

3 الثعالي : أحد جمعي الثعلب ، والآخر الثعالب . وينقل صاحب اللسان عن ابن جني أنه يرى أن الثعالي يحتمل أن يكون جمع ثعالة ، وأن أصله ثعائل ، فقلب .

4 في ك : في الأحداث ، وأما الجواهر ، وهو تخليط .

5 موردة : محمة ، من وردته الحمى : أخذته لوقت . والقياس موردِة ، بكسر الراء . وهي

مضبوطة كذلك بالقلم في اللسان ، لكن كلام ابن جني يفيد أنها مفتوحتها ، وهي مضبوطة كذلك بالقلم في نسخة الأصل . فقد يكون فيها لغتان ، وقد يكون الكسر تحريفا في اللسان .

(164/574)

والآخر التاء ، وهي لمثل ذلك ، كرجل راوية ، وعَلّامَة ، ونَسّابَة ، وهُذَرَة1 . ولذلك2 كثرت المَفْعَلَة فيما ذكرناه لإرادة المبالغة .

ومن ذلك قراءة سليمان التيمي : "قَالَتْ نَمُلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمُلُ"3 .

وروي عنه أيضا : "نُمُلَة" ، و"النُّمُل" ، بضمهما .

قال أبو الفتح : أما النَّمُلة ، بفتح النون ، وضم الميم ؛ فتقبلها النَّمْلَة ، بفتح النون ، وسكون الميم ، لأن فَعُلا يخفف إلى فَعْل ، كسَبُع إلى سَبْع ، ورَجُل إلى رَجْل . قال :

رَجْلانِ مِنْ ضَبَّة أَخْبَرَانَا إِنَّا رَأَيْنَا رَجُلا عُرْيَانَا4

فقائل هذا الشعر إما أن يكون له لغتان : رَجُل ورَجْل ، وإما أن تكون لغته رَجُل بضم الجيم ، فاضطر للشعر ؛ فأسكن الجيم .

ألا تراه كيف جمع بين "رَجْلان" و"رَجُل" ؟ ونظير "نَمُلة" "ونَمُل" : سَمُرة وسَمُر ، وثَمُرة

وثَمُر . وكذلك القول في "نُمُلة" ، لأن فُعُلا لا يخفف إلى فَعْل ، إنما يخفف إلى فُعْل ، كطُنُب إلى طُنْب ، وعُنُق إلى عُنْق . ومنه5 عندي : أُخِذ رجل نَمَّال : أي : نمَّام ، كأنه يدب بالنميمة دبيب النملة . ونظير "نُمُلة" و"نُمُل" : بُسُرة وبُسُر ، بضم السين .

ومن ذلك قراءة الحسن : "لا يَحَطِّمَنَّكُم" ، بفتح الياء والحاء ، وتشديد الطاء والنون .

وروي عنه أيضا : "يَحِطِّمَنَّكُم" ، بفتح الياء ، وكسر الحاء ، والتشديد .

قال أبو الفتح : أما الأصل فيهما فَيَحتَطِمَنَّكُم ، يفتعل من الحطم ، وهو الكسر ، أي : يقتلنكم . وآثر إدغام التاء في الطاء لقرب مخرجيهما ؛ فأسكنها ، وأبدلها طاء ، وأدغمها في الطاء بعدها ، ونقل الفتحة من التاء إلى الحاء ، فقال : "يَحَطِّمَنَّكُم" .

ومن كسر الحاء فإنه لما أسكن التاء للإدغام كسر الحاء ، لسكونها وسكون التاء بعدها

---

1 هذرة : كثير الهذر ، وهو الخطأ والباطل ، والفعل كفرح .

2 في ك : ولهذا .

3 سورة النمل : 18 .

4 انظر المحتسب : 1 : 109 .

5 أي في الاشتقاق والرجوع إلى الأصل ، لا في الوزن كما لا يخفى .

6 سورة النمل : 18 .

ثم أدغم فصار "يَحِطِّمَنَّكُم" . ويجوز في العربية كسر الياء إتباعا لكسرة الحاء ؛ فقال يحطمنكم . ومثله قول العجلي :

تَدَافُعُ الشَّيبِ ولم تَقِتِّلِ 1

يريد : تَقَتَّل ، ثم غير ذلك على ما تقدم .

يقال : حَطَمَه يَحْطِمه حَطْما : إذا كسره ، وحطَّمه يُحَطِّمه ، واحْتَطَمَه يَحْتَطِمُه احتطاما ويغيَّر الماضي واسم الفاعل والمصدر على الصنعة التي تقدمت في "يَحَطِّمَنَّكُم" .

فمن قال : يَحَطِّم قال : حَطَّم ، ومن قال : يَحِطِّمُ قال : حِطِّمَ .

ومن أتبع الأول يِحِطِّم أتبع الآخر هنا ، فقال : حِطِّمَ . وعليه أنشد قطرب فيما روينا عنه أو غيره .

لا حِطِّبَ القَوْمَ ولا القَومَ سَقَى 1

يريد : احتطب .

ويقول في اسم الفاعل على يَحَطِّم : مُحَطِّم ، وعلى يَحِطِّم : مُحِطِّم .

ومن كسر الأول إتباعا ، فقال : يحِطِّمُ لم 2 يكسر الميم ؛ لأن اسم المفعول والفاعل من هذا

ونحوه لا يكون إلا مضموم الأول ، وعليه قال : "وَجَاءَ الْمُعَذِّرُون"3 ، و"الْمُعِذِّرُون" .

وتتبع العينُ الميم ، فيقال : "الْمُعُذِّرُون" . وعليه أيضا يقال : مُخُطَّفٌ ، والأصل في جميعه المعتذرون . ويقول في المصدر على يَحَطِّم ويَحِطِّم جميعا : حِطَّامًا .

ومن كسر هناك لالتقاء الساكنين [119و] كسر هنا أيضا ، فقال : حِطَّاما ؛ لئلا تنكسر الطاء ، فتبدل الألف بعدها ياء ، فتقول : حِطِّيمًا ، فيزول حديث المصدر بانقلاب ألفه . وليس في حِطِّم ألف ؛ فتنقلب لكسرة الطاء إلى غيرها .

ومن قال : "وَجَاءَ الْمُعُذِّرُون" ، فضم العين لم يقل حُطاما ؛ لأنه ليس معه في حُطَّاما ضمة مثل الميم فتتبَعها الحاء مضمومةً ، وكذلك "مُرَدِّفِين" "ومُرِدِّفِين" ومُرُدِّفِين ، الحكم واحد .

---

1 انظر المحتسب : 1 : 59 .

2 في ك : ثم ، وهو تحريف .

3 سورة التوبة : 90 .

ومن ذلك قراءة محمد بن السميفع : "فَتَبَسَّمَ ضَحِكًا مِنْ قَوْلِهَا" 1 ، بفتح الضاد بغير ألف .

قال أبو الفتح : "ضَحِكًا" منصوب على المصدر بفعل محذوف يدل على عليه تبسم ، كأنه

قال : ضَحِكَ ضَحِكًا . وهذا مذهب صاحب الكتاب ، وقياس قول أبي عثمان في قولهم : تَبَسَّمْتُ وميضَ البرقِ ، أنه منصوب بنفس "تبسمتُ" ؛ لأنه في معنى أومضت ، ويكون2 "ضَحِكًا" منصوبًا بنفس تبسم ؛ لأنه في معنى ضحك .

ويدل على مذهب صاحب الكتاب أنه قد ثبت أن الماضي والمضارع واسم الفاعل والمصدر يجري كل واحد منها مجرى صاحبه ، حتى كأنه هو . ويجب أن تكون كلها من لفظ واحد ، كضرب يضرب ضربا وهو ضارب ، فكما لا يجوز أن يقول : قعد يجلس وإن كانا في معنى واحد دون أن يكون من لفظ واحد وهو قعد يقعد ، ولا يجوز تبسَّم يُومِض ؛ لاختلاف لفظيهما وإن كان معنياهما واحد – فكذلك لا يجوز تبسمت وميض البرق ؛ لاختلاف لفظيهما ، كما لا يجوز تبسمتُ أُومِض ، لكن دل تبسمت على أومضت ، فكأنه قال : أومضت وميض البرق ، فاعرف ذلك وقسه بإذن الله .

ومن ذلك قراءة ابن عباس في رواية وهب بن منبه : "أَنْ لَا تَغْلُوا"3 ، بالغين معجمة .

قال أبو الفتح : غَلَا في قوله غُلُوًّا ، وغلا السعرُ يغلو غَلَاء . فصلوا بينهما في المصدر وإن اتفقا في الماضي ، وهذا أحد ما يدل على ما قدمناه أيضا من أن الماضي والمضارع واسم الفاعل والمصدر تجري مجرى المثال الواحد ، فإذا خولف فيها بين المصادر قام ذلك الخلاف مقام ما كان يجب من اختلاف الأمثلة لاختلاف ما تحتها من المعاني المقصودة ؛ وذلك أن أعدل اللغة اختلاف الألفاظ لاختلاف المعاني ، فإن اتفقت الألفاظ اختلفت

الأمثلة ، فإن اتفقت الألفاظ والأمثلة ، ووقع التغيير في بعض المُثُل قام مقام تغييرها كلها .

وذلك نحو غلا يغلو في القول والسعر .

فلما اتفق اللفظان والمِثْلان في الماضي والمضارع خالفوا بين مصدريهما ؛ ليكون ذلك كالخلاف

---

1 سورة النمل : 19 .

2 في ك : أو ، وهو تحريف .

3 سورة النمل : 31 .

(167/574)

بين مثاليهما أنفسهما ، فقالوا : غُلُوًّا ، وغَلَاء على ما مضى . وكذلك قولهم في نظائر هذا : وجَدت الشيء وجُودا ، ووجَدت في الحزن وَجْدًا ، ووجَدت من الغنى وُجْدًا ووَجْدًا ووِجْدًا وجِدَة ، ووجدت على الرَّجل مَوْجِدة ، وجدت الضَالَة وِجدَانا ، فجعلوا اختلاف المصادر فيها عوضاً مما كان يقتضيه أصل وضع اللغة من اختلافها أنفسها ، فهذا مَقَاد يُقْتَاس ويُرْجَع في نظائره إليه .

نعم ، وخصوا غَلَا في القول بالغُلُوّ ؛ [119ظ] لأن لفظ فُعُول أقوى من لفظ فَعَال ؛ للواوين

والضمتين ، وضعفِ الألف والفتحتين . وذلك أن الغُلُوّ في القول أعلى وأعنى عندهم من غلاء السعر ، ألا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ 1 ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ 2 ؟ وأما غلاء 3 السعر فلا يدخل النار ، ولا يحرم الجنة ، ثم إنهم قالوا : غلتِ القِدْرُ تَغْلِي غَلَيَانا ، فلما صغر هذا المعنى في أنفسهم أخذوه من الياء ؛ لأنها تنحط عن الواو والضمة إلى الياء والكسرة 4 .

فإن قلت : فقد قالوا : عَلَوْتُ في المكان أَعْلُوا عُلُوًّا وعلِيتُ في الشرف 5 علاءً ؛ فجعلوا الشرف دون ارتفاع النِّصْبَة 6 .

قيل : لم يَجْفُ الشرفُ عندهم ، ولا تَبشَّع تبشّع الكفر والغلوّ في القول المعاقَب عليه ، والمنهيَّ عنه ؛ فلان جانبُه ، ونَعُمَ وعَذُبَ في أنفسهم ؛ فبنوه على فَعِل لتنقلب الواو ياءً ، ومصدره على الفَعَال ؛ لعذوبته بالفتحتين والألف . وهذه أماكن إن رَفَقْت بها ، وسانَيْتَهَا 7 ، وتأَنَّيْتَهَا 8 ، ولم تَبْءَ 9 عليها وتَخْتَبِطَها - أَوْلَئْكَ جانبها ، وأركبتك ذِرْوَتها ، وقبلَتْكَ لها ضيفا ، وبَسَطَتْكَ يدًا وسيفًا . وإن أَخْلَدْتَ بها إلى ضِدّ هذا أَخْلَدَتْ بكَ إلى ضده ، فتَلَاقيا ورفقا ، لا مُغَالَاةً ولا خُرْقًا .

---

1 سورة مريم : 90 ، 91 . و"يكاد" بالياء قراءة نافع والكسائي ، كما في الإتحاف : 183 .

2 سورة النساء : 171 .

3 في ك : غلا ، وهو تحريف .

4 أي في المضارع "تغلي" .

5 في ك : في الشرف أعلو ، وهي زيادة غير صحيحة ، فمضارع على : يعلى .

6 النصبة : هيئة النصب ، أي الرفع والإقامة .

7 ساناه : راضاه ، وداناه .

8 تأنيتها : رفقت بها .

9 لم تبء : لم تتفاخر ولم تتسام ، وماضيه بأى ، كسعى .

(168/574)

ومن ذلك قراءة أبي رجاء وعيسى الثقفي : "عِفْرِيَةٌ" 1 .

قال أبو الفتح : هو العفريت . يقال : رجل عِفْرِيَةٌ نِفْرِيَةٌ إتباعا : إذا كان خبيثا داهيا . وقالوا : تَعَفْرَتَ الرجلُ : إذا صار عفريتا ، أي : خبيثا . وهذا مثال غريب ؛ لأن وزنه تَفَعْلَتَ ، ونحوه من المُثُل الغريبة في الفعل قولهم : يَرْنَأَ الرجُلُ لِحْيَتَهُ : إذا صَبَغَها باليُرْنَاء ، وهو الحناء . فيَرْنَأَ على ما ترى يَفْعَلَ 2 ، ومضارعه يُيَرْنِئُ يُيَفْعِلُ ، واسم الفاعل مُيَرْنِئ ، وهو مُيَفْعِل .

وأصل العفريب من العَفْر ، وهو التراب ، كأنه يختِل قِرْنَه فيصرعه إلى العَفْر, ومنه قيل للأسد : عَفَرْني ، وللناقة الشديدة : عفرناة . وقال الأعشى :

بذاتِ لَوْثٍ عَفْرَنَاةٍ إذَا عَثَرَتْ فَالتَّعْسُ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ : لَعَا 3

ومنه عِفْرِيَةُ الرأس : للشعر الذي عليه ؛ وذلك لأن قُصَارَاه أن يُحْلَقَ فيصير إلى التراب ، أو يصير تُرَابًا . ومنه اليَعْفُور . لولَدِ الظبية ؛ لأنه لصغَرِه ما 4 يلزق بالتراب ، أو لأن لونه لون التراب . ومنه ليث عِفِرِّينَ ؛ لأنه دابة يلزم التراب .

ومن ذلك قراءة الحسن : "فَمَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ" 5 ، برفع الباء .

قال أبو الفتح : أقوى من هذا "جَوَابَ قَوْمِهِ" بالنصب ، ويجعل اسم كان قوله : ﴿أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ : لشبه أن بالمضمر . من حيث كانت لا توصف كما لا يوصف .

والمضمر 6 أعرف من هذا المظهر ، وقد تقدم القول في ذلك 7 .

---

1 سورة النمل : 39 .

2 أورده صاحب القاموس في "يرنأ" ، ونبه في "رنأ" على أنه في الياء .

3 قبله :

كلفت مجهولها نفسي وشايعني همي عليها إذا ما آلها لمعا

وشايعني : أعانني . والآل : السراب . واللوث : القوة . والعفرناة : الغول ، شبه بها ناقته . والتعس : الضعف ، ولعًا له : دعاء للعاثر بأن ينتعش ، أي : سلمت ، ونجوت . وانظر

الديوان : 13 .

4 "ما" زائدة .

5 سورة النمل : 56 ، وفي الأصل : "فَمَا كَانَ جَوَابَ . . " ، وهو تحريف .

6 في ك : المضمر ، سقط .

7 انظر الصفحة 115 من هذا الجزء .

(169/574)

ومن ذلك قراءة الأعمش ، وقد اختلف عنه : "أَمَنْ خَلَقَ" 1 ، خفيفة الميم .

قال أبو الفتح : "مَنْ" هنا خبر 2 بمنزلة الذي ، وليست باستفهام [120و] كقراءة الجماعة : ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ﴾ ، فكأنه قال : الذي خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة 3 ما كان لكم أن تنبتوا شجرها خير أم ما تشركون 4 ثم حذف الخبر الذي هو خير أم ما تشركون ؛ لدلالة ما قبله عليه ، وهو قوله تعالى : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ 5 . وما يحذف خبره لدلالة ما هناك عليه أكثر من أن يحصى ، فابنِ على هذا .

ومن ذلك قراءة السلمى : "إِيَّانَ يُبْعَثُونَ" 6 ، بكسر الهمزة .

قال أبو الفتح : قد تقدم القول على كسر هذه الهمزة فيما مضى من الكتاب7 .

ومن ذلك قراءة سليمان بن يسار وعطاء بن السائب : "بَلَ ادْرَكَ عِلْمُهُمْ"8 ، بفتح اللام ، ولا همز ، ولا ألف .

وروي عنهما : "بَلَ ادّرَكَ" ، بفتح اللام ، ولا همز ، وتشديد الدال ، وليس بعد الدال ألف .

وقرأ : "بلْ آدْرَكَ" الحسن وأبو رجاء وابن محيصن وقتادة .

وقرأ : "بَلَى" بياء "آدْرَك"ممدودا ابن عباس .

وقرأ : "بَلِ ادَّرَكَ" ، مخفوضة اللام ، مشددة الدال الحسن .

وقرأ : "بَلْ تَدَارَكَ" أُبَيّ بن كعب .

---

1 سورة النمل : 60 .

2 بر بالخبر هنا خلاف الانشاء ، كما يدل عليه كلامه الآتي .

3 سقطت "بهجة" في ك .

4 سقط في ك من قوله : ثم إلى "يشركون" .

5 سورة النمل : 59 .

6 سورة النمل : 65 .

7 انظر الصفحة 268 من الجزء الأول ، والصفحة 9 من الجزء الثاني .

8 سورة النمل : 66

وقراءة الناس : "بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ" ، و"بَلِ ادَّارَكَ1" ، فذلك ثمانية أوجه :

قال أبو الفتح : "أما بَلَ ادْرَكَ" فعلى تخفيف الهمزة بحذفها ، وإلقاء حركتها على اللام الساكنة قبلها ، كقولك : في ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ 2 : "قَدَ افْلَحَ" .

وأما "بَلَ ادَّرَكَ" ، بفتح اللام فكان قياسه : بَلِ ادَّرَكَ ؛ بكسر اللام لسكونها وسكون الدال بعدها ، إلا أنه فتحت اللام لأن في ذلك إزالة لالتقاء الساكنين ، وعدولا إلى الفتحة لخفتها ، كما رُوِّينا عن قطرب : أن منهم من يقول : "قُمَ الليل"3 ، وبِيعَ الثوب .

وأما "بَلْ آدْرَكَ" فإن "بل" استئناف ، وما بعدها استفهام ، كما تقول : أزيد عندك ؟ بل أجعفر عندك ؟ تركا للأول إلى غيره ، لا تراجعا عنه ، لكن للانتحاء من بعده على غيره .

وأما "بَلَى" فكأنه جواب ، وذلك أنه لما قال : "قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ" فكأن قائلا قال : ما الأمر كذلك ، فقيل له : "بلى" ، ثم استؤنف فقيل : "آدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ" .

وأما "بَلِ ادَّرَكَ" فلا سوال مع كسر اللام ؛ لسكونها ، وسكون الدال بعدها .

وأما "بَلْ تَدَارَكَ" فإنه أصل قراءة من قرأ : "ادَّارَكَ" ؛ وذلك أنه في الأصل تدارك ، ثم آثر

إدغام التاء في الدال ؛ لأنها أختها في المخرج ، فقلبها إلى لفظها ، وأسكنها ، وأدغمها فيها .

واحتاج إلى ألف الوصل ؛ لسكون الدال بعدها ، ومثله : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ ﴾ 4 .

﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ 5 .

ومن ذلك قراءة الأعرج : "رَدَفَ لَكُمْ" 6 ، بفتح الدال .

قال أبو الفتح : من قال "رَدِف" فهو في وزن تبع ، ومن قال : "ردف" فهو بمنزلة تلا ، وشفع .

والكسر أفصح ، وهو أكثر اللغة .

---

1 هذه قراءة نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ، ووافقهم الأعمش . أما الأولى فقراءة الباقين . وانظر الإتحاف 208 .

2 مما وردت فيه سورة المؤمنون : 1 .

3 سورة المزمل : 2 .

4 سورة النمل : 47 .

5 سورة البقرة : 72 .

6 سورة النمل : 72 .

ومن ذلك قراءة ابن السميفع وابن محيصن : "تَكُنُّ صُدُورُهُمْ1" بفتح التاء . وضم الكاف .

قال أبو الفتح : المألوف في هذا : أَكْنَنْتُ الشيءَ : إذا أخفيتَه في نفسك . وكَنَنْتُه : إذا سترته بشيء ، فأكننت كأضمرت ، وكَنَنْتُ كسترت2 . فأما هذه القراءة : "تَكُنُّ صُدُورُهُمْ

" [120ظ] فعلى أنه أجرى الضمير3 لها مجرى الجسم الساتر لها مبالغة ؛ وذلك لأن الجسم أقوى من العَرَض ، وهذا نحو من قوله :

وحَاجَةٌ دونَ أُخْرَى قَدْ عَرَضْتُ لها جَعَلْتُها لِلَّتِي أَخْفَيْتُ عُنْوَانا4

فأجرى ما يخفيه الضمير ويبرزه البوح به مجرى ما يدرك باللمس ؛ تنويها به ، ومُبَادَاة للحس بإدراكه, وقد مر به بعض المولدين ، فقال :

حُبِّي لَهُ جِسْمٌ وَحُبُّ الناسِ كُلِّهِمُ عَرَضْ

وعليه قول الآخر :

تَغَلْغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ في فُوادِي فَبَادِيهِ مَعَ الخافِي يَسِيرُ5

ألا تراه كيف وصفه بما توصف به الجواهر من السروب والتغلغل ؟ ومرَّ به الطائي الكبير6 ، إلا أنه عكسه فقال :

مَوَدَّةٌ ذَهَبٌ أثمارُها شَبَهُ وَهِمَّةٌ جَوْهَرٌ مَعْرُوفُها عَرَضُ

والباب واسع ، والطريف مُسْهَب, إلا أنّ هذا سَمْته .

ومن ذلك قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والجحدري وأبي زرعة .

"تَكْلِمُهُمْ"7

---

1 سورة النمل : 74 .

2 في ك : كسرت ، وهو تحريف .

3 يريد : ما تضمره النفس .

4 لسوار بن المضرب . وروي "سنحت" مكان "عرضت" ، وانظر اللسان "عنن" .

5 البيت لعبيد الله بن عتبة بن مسعود . وانظر اللسان "غلغل" .

6 هو أبو تمام ، وله في ديوانيه قصيدة من هذا الوزن والروي ، ولكن لم نعثر على الشاهد فيها .

7 سورة النمل : 82 .

قال أبو الفتح : "تَكْلِمُهُمْ" : تجرحهم بأكلها إياهم ، وهذا شاهد لمن ذهب في قوله "تُكَلِّمُهُمْ" إلى أنه بمعنى تجرحهم بأكلها إياهم . ألا ترى أن "تَكْلِمُهُمْ" لا يكون من الكَلْم وهو الجرح .

وهذه المادة مما وضعته العرب عبارة عن الشدة هي وتقاليبها الستة : ك ل م ، ك م ل ، م ل ك ، ل ك م ، م ك ل ، ل م ك . وقد ذكرناها في كتابنا الخصائص 1 أول باب منه ، وهو باب القول على فرق بين الكلام والقول .

ويشهد لمن قال في قوله : "تُكَلِّمُهُمْ" إلى أنه من الكلام قراءة أبي : "تُنَبِّئُهُم" ، ويشهد لهذا التأويل أيضا قراءة ابن مسعود : "تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُون" . وإن شئت كان هذا شاهدا لمن ذهب إلى أن "تُكَلِّمُهُمْ" : تجرحهم ، أي : تفعل بهم ذلك بكفرهم ، وزوال يقينهم .

ومن ذلك قراءة قتادة : "وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِين" 2 .

قال أبو الفتح : حمل "أتاه" على لفظ "كل" ؛ إذ كان مفردا ، و"داخرين" على معناها . ولو قلب ذلك لم يحسن ، لو قال : وكل أتوه داخرا قبح وضعف ؛ وذلك أنك لما قلت : وكل فقد جئت بلفظ مفرد ، فإذا قلت : أتوه فقد حملت على المعنى وانصرفت عن اللفظ ، ثم إذا قلت : من بعد داخرا فأفردت فقد تراجعت إلى ما انصرفت عنه ، فكان ذلك قلقا في الصنعة وانتكاثا عن المحجة المصير إليها المعتزمة .

وعلى ذلك قول الله سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ 3 . فلو قال : من بعد : حتى إذا خرج من عندك لم يحسن ؛ وذلك لأنه قد ترك لفظ . "من" إلى معناه بقوله : "يستمعون" . فلو عاد إليه بعدَ انصرافه عنه فقال : خرج عاد إلى ما كان قد رغب عنه .

واعتزم غيره عوضا منه . وكذلك قول الفرزدق :

تَعَشَّ فإنْ عاهدْتَنِي لا تخونُنِي نَكُنْ مِثْلَ مَن يا ذِيبُ يَصْطَحِبانِ4

---

1 الخصائص : 1 : 5 ، وذكر هناك في عنوان الباب كلمة "الفصل" مكان "فرق" .

2 سورة النمل : 87 .

3 سورة يونس : 42 .

4 روي "واثقتني" مكان "عاهدتني" وانظر الديوان : 870 .

(173/574)

فلو1 قال بعدَ يصطحبان : فلا تُنكر صحبته ، أو فلا تذم عشرته ؛ عودا إلى لفظ "مَن" وإفراده لكان فيه ما ذكرنا من كراهيته . واعلم أن مقاد الاستعمال في "كُلٌّ" أنها إذا كانت [121و] مفردة أخبر عنها بالجميع ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ 2 ، و﴿ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ 3 ، ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ 4 في قراءة الكافة . فإن كانت مضافة إلى الجماعة أتى الخبر عنها مفردا كقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ 5 ، وذلك أن أحد عَلَمَي الجمع كاف عندهم من صاحبه ، وابنِ 6 على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 2 صـ 133. 145 ﴾

1 في ك : ولو .

2 سورة يس : 40 .

3 سورة البقرة : 116 .

4 سورة النمل : 87 : وآتوه" قراءة غير حمزة وخلف الأعمش ، كما في الإتحاف : 208 .

5 سورة مريم" 95 .

6 في ك : فابن .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة النمل

مكية وآيها تسعون وثلاث كوفي وأربع بصري وشامي وخمس حجازي خلافها بأس شديد حجازي قوارير تركها كوفي مشبه الفاصلة طس غير بعيد وما يشعرون القراآت آمال طاء طس أبو بكر وحمزة والكسائي وخلف ومر ذلك كسكت أبي جعفر على طاوس وتقدم التنبيه على إخفاء النون من س عند التاء من تلك خلافا لأبي شامة ونقل قران لابن كثير

وفتح ياء الإضافة من ( ) إني آنست (نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر

واختلف في ( ) بشهاب قبس (الآية 7 فعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالتنوين

على القطع عن الإضافة وقبس بدل منه أو صفة له بمعنى مقتبس أو مقبوس وافقهم

الأعمش والباقون بغير تنوين لبيان النوع أي من قبس كخاتم فضة

وقرأ فلما رآها بالتسهيل الأصبهاني وأما حكم الإمالة فمر نظيره في وإذا رآك بالأنبياء كما

فصل بالأنعام

وأمال ﴿ ولي مدبرا ﴾ الآية 10 حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق

ووقف يعقوب بخلفه على لدي بهاء السكت وتقدم تغليظ لام أظلم للأزرق بخلفه وعن

المطوعي بدل حسنا بفتح الحاء والسين ووقف الكسائي ويعقوب على ﴿ واد النمل ﴾

بالياء والباقون بحذفها

واختلف في (لا يحطمنكم) الآية 18 فرويس بسكون نون التأكيد وافقه الشبنوذي ومر

بآل عمران وعن المطوعي بضم الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء والنون وفتح ياء ( )

أوزعني أن ( ) الأزرق والبزي ووقف يعقوب بخلفه على على بهاء السكت وأمال ترضاه

حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وفتح ياء ( ) ما لي لا أرى ( ) ابن كثير وعاصم

والكسائي واختلف عن هشام وابن وردان

وأمال ( ) أرى الهدهد (وصلا السوسي بخلفه

واختلف في (ليأتيني) الآية 21 فابن كثير بنون التأكيد المشددة وبعدها نون الوقاية على الأصل وعليه الرسم المكي والباقون بحذف نون الوقاية للاستغناء عنها بالمؤكدة ولذا كسرت مثل كأني وعليه بقية الرسوم

(175/574)

واختلف في (فمكث) الآية 22 فعاصم وروح بفتح الكاف والباقون بضمها لغتان كطهر واتفقوا على إدغام الطاء مع بقاء صفتها في التاء من أحطت وإن زيادة الصفة في المدغم لا تمنع

واختلف في ( ) من سبإ (الآية 22 هنا وفي سورة سبأ الآية 15 فالبزي وأبو عمرو بفتح الهمزة من غير تنوين ممنوعا من الصرف للعلمية والتأنيث اسم للقبيلة أو البقعة وافقهما ابن محيصن واليزيدي وقرأ قنبل بسكون الهمزة كأنه نوى الوقف وأجرى الوصل مجراه كيتسنه وعوجا والباقون بالكسر والتنوين فهو مصروف لإرادة الحي

(176/574)

واختلف في ( ) ألا يسجدوا (الآية 25 فالكسائي وكذا رويس وابو جعفر بهمزة مفتوحة وتخفيف اللام على أن ألا للاستفتاح ثم قيل يا حرف تنبيه وجمع بينه وبين إلا تأكيدا وقيل النداء والمنادي محذوف أي يا هؤلاء أو يا قوم ورجح الأول لعدم الحذف ولهم الوقف ابتداء على ألا يا معا والابتداء اسجدوا بهمزة مضمومة فعل أمر وحذفت همزة الوصل خطأ على مراد الوصل كما حذفت لذلك في يبنؤم بطه كما قاله الداني وتعقبه في النشر بأنه رآه في الإمام ومصاحف الشام بإثبات إحدى الألفين ثم اعتذر عنه باحتمال أنه رآه كذلك محذوفا في بعض المصاحف ولهم الوقف اختبارا أيضا على ألا وحدها وعلى يا وحدها لأنهما حرفان منفصلان وقد سمع في النثر ألا يا ارحمونا ألا يا أصدقوا علينا وفي النظم كثيرا نحو فقالت ألا يا اسمع أعظك بخطبة وافقهم الحسن والشنبوذي وكذا المطوعي في أحد وجهيه والثاني عنه هلا يسجد بقلب الهمزه هاء وتشديد اللام والباقون بالهمزة وتشديد اللام وأصلها أن لا فإن ناصبة للفعل ولذا سقطت نون الرفع منه والنون مدغمة في لا المزيدة للتأكيد إن جعلت أن وما بعدها في موضع مفعول يهتدون بإسقاط إلى أي إلى أن يسجدوا أو بدلا من السبيل فإن جعلت بدلا من أعمالهم وما بين المبدل منه والبدل اعتراض أي وزين لهم الشيطان عدم السجود لله أو خبرا لمحذوف أي أعمالهم ألا يسجدوا فلا نافية حينئذ لا مزيدة وقد كتبت إلا بلا نون فيمتنع وقف الاختبار في هذه القراءة على أن وحدها ووقف على الخبء بالنقل مع إسكان الباء للوقف على القياس حمزة وهشام

بخلفه وحكى فيه الحافظ أبو العلاء وجها آخر وهو الخبا بالألف قال في النشر وله وجه في العربية وهو الإشباع

واختلف في ﴿ يخفون وما يعلنون ﴾ الآية 25 فحفص والكسائي بالتاء على الخطاب وافقهما الشنبوذي والباقون بالياء من تحت فيهما وعن ابن محيصن العظيم برفع الميم نعتا للرب

(177/574)

وقرأ (فألقه) الآية 28 بكسر الهاء مع القصر قالون وابن ذكوان بخلفه ويعقوب وقرأ بإسكان الهاء أبو عمرو وعاصم وحمزة والداجوني عن هشام وابن وردان وابن جماز بخلف عنهما و اختلف عن الحلواني عن هشام في الاختلاس والحاصل أن قالون ويعقوب بالقصر فقط وأن أبا عمرو وعاصما وحمزة بالسكون فقط وابن ذكوان بالقصر والإشباع وأن هشاما بالسكون والإشباع وأن هشاما بالسكون والإشباع والقصر وأن أبا جعفر بالسكون والقصر وقرأ الباقون بالإشباع وقرأ الملؤا إني بتسهيل الثانية كالياء وبإبدالها واوا مكسورة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس ووقف حمزة وهشام بخلفه على الملؤا الثلاثة من هذه السورة كالأول من المؤمنين بإبدال الهمزة ألفا على القياسي ويجوز

تسهيلها كالواو على تقدير روم حركة الهمزة وبتخفيفها بحركة نفسها فتبدل واوا مضمومة ثم تسكن للوقف فيتحد معه اتباع الرسم ويجوز معه الروم والإشمام فهي خمسة أوجه وفتح ياء) إني ألقي (نافع وابو جعفر وأبدل الثانية واوا مفتوحة من الملؤ أفتوني نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس وأثبت الياء في تشهدون في الحالين يعقوب

(178/574)

واختلف في ( ) أتمدونن بمال فما آتاني ( ) الآية 36 فنافع وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿ أتمدونني ﴾ بنونين خفيفتين مفتوحة فمكسورة بعدها ياء وصلا فقط (آتاني) بياء مفتوحة وصلا و اختلف عن قالون وأبي عمرو في حذفها وقفا وافقهم اليزيدي وحذفها وقفا ورش وأبو جعفر بلا خلاف وقرأ ابن كثير أتمدونني كذلك بنونين مع إثبات الياء في الحالين آتان بحذف الياء وصلا وكذا وقفا بخلاف عن قنبل وافقه ابن محيصن وقرأ ابن عامر وشعبة ﴿ أتمدونني ﴾ كذلك إلا أنه أثبت الياء في (آتان) مفتوحة وصلا واختلف عنه وقرأ حمزة ﴿ أتمدوني ﴾ بإدغام نون الرفع في نون الوقاية وإثبات الياء بعدها وصلا ووقفا (آتان) بحذف الياء في الحالين وافقه الأعمش وقرأ الكسائي أتمدونني بنونين وحذف الياء في الحالين آتان بالإمالة مع حذف الياء في الحالين وكذا خلف لكن بغير إمالة

وقرأ يعقوب أتمدوني بالإدغام وبالياء في الحالين أتاني بإثبات الياء وقفا وأما وصلا ففتحها رويس وحذفها روح وتقدم للأزرق في أتان بالنظر لمد البدل مع التقليل والفتح خمس طرق الأولى قصر البدل والفتح الثانية التوسط والفتح الثالثة المد المشبع والفتح الرابعة المد مع التقليل الخامسة التوسط مع التقليل وبالطرق الخمسة قرأنا من طرق الطيبة التي هي طرق كتابنا وتقدم في الإمالة منع بعض مشايخنا للطريق الثانية من طرق الحرز وكذا حكم أتاكم غير أن حمزة وخلفا أمالاه مع الكسائي ومد أنا أتيك وصلا نافع وأبو جعفر

وأمال ( ) آتيك به (الآية 36 معا حمزة وخلف بخلف عن خلاد وسهل رآه مستقرا ورأته الأصبهاني عن ورش ومر حكم إمالة رآه وتقليله مفصلا بالأنعام وغيرها كالأنبياء عند وإذا رآك الذين كفروا وهي نظير ما هنا فراجعها وفتح ياء ليبلوني نافع وأبو جعفر وأما أأشكر فنظير أنذرتهم وأمال كافرين أبو عمرو وابن ذكوان بخلفه والدوري عن الكسائي ويعقوب بكماله ولم يمل روح من هذا اللفظ سوى هذه وقللها الأزرق ومر إشمام قيل لهشام والكسائي ورويس

واختلف في (ساقيها) الآية 44 و (بالسوق) بص الآية 33 ( ) على سوقه ( ) الآية 29

بالفتح فقنبل بهمزة ساكنة بدل الألف والواو لغة فيها وهي أصلية على الصحيح وقيل فرعية كهمز ( ) يأجوج ومأجوج ( ) وروي عن قنبل وجه آخر وهو زيادة واو بعد الهمزة في (السوق) بص و (سوقه) بالفتح لأن ساقا يجمع على سؤوق كطل وطلول واستغربت عن قنبل وقيل إنه انفرد بها الشاطبي عنه وليس كذلك فقد نص الهذلي كما في النشر أنها طريق بكار عن ابن مجاهد وأبي أحمد السامري عن ابن شنبوذ قال وقد أجمع الرواة عن بكار عن ابن مجاهد على ذلك في بالسوق والأعناق انتهى ولم يذكر ذلك في التيسير وفاقا لابن مجاهد وحاصله كما في الجعبري أن لابن مجاهد عن قنبل وجهين الشنبوذي عنه على فعل وبكار عنه على فعول والباقون بترك الهمز والواو في الثلاثة على الأصل السالم عن كثرة التغيير وخرج بالقيد) يكشف عن ساق ( ) الساق بالساق ( ) المتفق على ترك الهمز فيه وكسر نون ( ) أن اعبدوا (وصلا أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب

(180/574)

واختلف في ( ) لنبيتنه وأهله ثم لنقولن (الآية 49 فحمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب المضمومة وضم التاء المثناة الفوقية وهي لام الكلمة في الفعل الأول وبتاء الخطاب وضم اللام في الثاني على إسناد الخطاب من بعض الحاضرين إلى بعض وافقهم الأعمش والباقون

بنون التكلم وفتح التاء في الفعل الأول وبنون التكلم أيضا وفتح اللام في الثاني إخبارا عن أنفسهم وقرأ ( ) مهلك أهله ( ) بفتح الميم واللام أبو بكر وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام من أهلك رمز بالكهف والأخيرة تحتمل المصدر والزمان والمكان أي ما شهدنا إهلاك أهله أو زمان إهلاكهم أو مكانه وقراءة حفص تقتضي أن يكون للزمان والمكان أي زمان هلاكهم ولا مكانه وقراءة أبي بكر تقتضي المصدر أي ما شهدنا هلاكه قاله في البحر

واختلف في ( ) أنا دمرناهم ( ) الآية 51 فعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الهمزة على تقدير حرف الجر وكان تامة وعاقبة فاعلها وكيف حال أو أنا دمرناهم بدل من عاقبة أي كيف حدث تدميرنا إياهم أو أنا دمرناهم خبر محذوف أي هي أي العاقبة تدميرنا إياهم وتجري الأوجه الثلاثة مع جعلها ناقصة ويجعل كيف خبرها وتزيد الناقصة جواز جعل عاقبة اسمها وأنا دمرناهم خبرها وكيف حال وافقهم الأعمش والحسن والباقون بكسرها على الاستئناف وهو تفسير للعاقبة وكان يجوز فيها التمام والنقصان والزيادة للتأكيد وكيف وما في حيزها في محل نصب على إسقاط الخافض إلى لتعلقه بأنظر

وقرأ (بيوتهم) الآية 51 بضم الباء ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب وهذه البيوت هي التي قال فيها رسول الله عام تبوك لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين وفي التوراة لا تظلم يخرب بيتك وسهل الثانية من أئنكم مع الفصل قالون وأبو عمرو وأبو جعفر وبلا فصل ورش وابن كثير ورويس وحققها بالفصل الحلواني عن هشام من طريق ابن عبدان ومن طريق الجمال عنه في التجريد ومن طريق الشذائي عن الداجوني وبلا فصل الداجوني عنه الجمهور وفي المبهج من طريق الجمال عن الحلواني وبه قرأ الباقون وعن الحسن كان جواب هنا والعنكبوت بالرفع اسم كان وإلا أن قالوا خبر وهو ضعيف والجمهور بالنصب خبرا مقدما وإلا الخ في موضع الاسم

وقرأ (قدرناها) الآية 57 بالتخفيف ابو بكر كما في الحجر

وأمال (اصطفى) الآية 59 حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق واتفقوا على إثبات همزة الوصل بعد همزة الاستفهام وعلى تسهيلها في آالله السابق ذكره بيونس مع ذكر اختلافهم في كيفية التسهيل عند الآن بها والأكثر على إبدالها ألفا مع إشباع المد وهو المشهور وذهب آخرون إلى أنه بين بين من غير فصل بالألف لضعفها عن همزة القطع وأما أإله في خمسة مواضع هنا من حيث الهمزتان فتقدم نظيره قريبا وهو أئنكم

واختلف في ﴿ أما تشركون ﴾ الآية 59 فأبو عمرو وعاصم ويعقوب بالياء من تحت وافقهم الحسن واليزيدي والباقون بالخطاب وخرج بقيد أما عما يشركون المتفق الغيب

ووقف على ذات بالهاء الكسائي والباقون بالتاء وعن المطوعي أمن خلق وأخواتها الأربعة بتخفيف الميم

واختلف في ( ) قليلا ما تذكرون (الآية 62 فأبو عمرو وهشام وروح بالغيب وافقهم اليزيدي والباقون بالخطاب وخفف الذال حفص وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (الرياح) بالجمع ﴿ نشرا ﴾ الآية 63 بضم الشين والنون نافع وابو عمرو

(182/574)

وأبو جعفر ويعقوب وبالإفراد وضم النون والشين ابن كثير وبالجمع وضم النون وإسكان الشين ابن عامر وبالجمع وبشرا بالموحدة المضمومة مع إسكان الشين عاصم وبالتوحيد والنون المفتوحة وسكون الشين حمزة والكسائي وخلف

واختلف في ﴿ بل أدرك) ﴾ الآية 66 فنافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بوصل الهمزة وتشديد الدال وألف بعدها والأصل تدارك بمعنى تتابع فأريد إدغام التاء في الدال فأبدلت دالا وسكنت فتعذر الابتداء بها فاجتلبت همزة الوصل فصارا أدارك فانتقل من تفاعل إلى افتاعل وافقهم الأعمش والباقون بهمزة واحدة مقطوعة وسكون الدال مخففة بلا ألف بوزن أفعل قيل هو بمعنى تفاعل فتتحد القراءتان وقيل أدرك

بمعنى بلغ وانتهى وفني من أدركت الثمرة لانتهاء غايتها التي عندها تعدم وعن ابن محيصن أأدرك بهمزة ثم ألف بعدها

وقرأ ( ) أئذا كنا ( ) أئنا لمخرجون ( ) بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني نافع وأبو جعفر وسهل الثانية مع المد قالون وابو جعفر ومع القصر ورش وقرأ ابن عامر والكسائي بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني مع زيادة نون فيه وكل على أصله لكن أكثر الطرق عن هشام على المد وأجرى الخلاف له فيه كغيره الهذلي وغيره وهو القياس كما في النشر والباقون بالاستفهام فيهما فابن كثير ورويس بالتسهيل والقصر وأبو عمرو بالتسهيل والمد وعاصم وحمزة وروح وخلف بالتحقيق والقصر فيهما

وقرأ (ضيق) الآية 70 بكسر الضاد ابن كثير ومر بالنحل وعن ابن محيصن ( ) ما تكن ( ) هنا والقصص بفتح تاء المضارعة وضم الكاف من كن الشيء ستره والجمهور من أكنه أخفاه وسهل همز إسرائيل أبو جعفر مع المد والقصر وثلث الأزرق مد همزة بخلفه وتقدم ما فيه مع وقف حمزة عليه أوائل البقرة

وقرأ ﴿ ولا يسمع الصم ﴾ الآية 80 هنا والروم الآية 52 بالغيب وفتح الميم ورفع (الصم) ابن كثير وافقه ابن محيصن وسهل الثانية من الدعاء إذا كالياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

واختلف في ( ) بهادي العمي (الآية 81 هنا والروم الآية 53 فحمزة بالتاء من فوق مفتوحة وإسكان الهاء بلا ألف فعلا مضارعا للمخاطب العمي بالنصب مفعول به وافقه الشنبوذي وعن المطوعي بكسر الباء الموحدة وفتح الهاء وألف وتنوين الدال العمي بالنصب مفعول به والباقون كذلك لكن بغير تنوين مضافا للعمي إضافة لفظية نحو بالغ الكعبة واتفقوا على الوقف بالياء على بهادي هنا موافقة لخط المصحف الكريم واختلفوا في الروم فوقف حمزة والكسائي بخلاف عنهما ويعقوب بالياء أما حمزة فلأنه يقرؤها تهدي فعلا مضارعا مرفوعا فياؤه ثابته وأما الكسائي فبالحمل على هادي في هذه السورة وفيه مخالفة للرسم ويعقوب على أصله

واختلف في ﴿ إن الناس ﴾ الآية 82 فعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الهمزة على نزع الخافض أي بأن وهذه الباء تحتمل التعدية والسببية أي تحدثهم بأن إلخ أو بسبب انتفاء الإيمان وافقهم الأعمش والحسن والباقون بالكسر على الاستئناف وعن الحسن (الصور) بفتح الواو

واختلف في (أتوه) الآية 87 فحفص وحمزة وخلف بقصر الهمزة وفتح التاء فعلا ماضيا

على حد فزع والهاء مفعوله وافقهم الأعمش والباقون بالمد وضم التاء اسم فاعل مضافا للضمير حملا على معنى كل على حد وكلهم آتيه وأصله آتيون نقلت ضمة الياء إلى التاء قبلها بعد تجريدها ثم حذفت الياء للساكنين ثم النون للإضافة ولا يصح فعليته وعن الحسن (داخرين) بلا ألف

وأمال ( ) وترى الجبال (وصلا السوسي بخلفه والباقون بالفتح

(184/574)

وقرأ (تحسبها) الآية 88 بفتح السين على الأصل ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وكسرها الباقون على لغة الحجاز وهذا الحال للجبال عقب النفخ في الصور وهي أول أحوالها تموج وتسير ثم ينسفها الله فتصير كالعهن ثم تكون هباء منبثا في آخر الأمر واختلف في ﴿ يفعلون ﴾ الآية 88 فابن كثير وابو عمرو ويعقوب بالياء وافقهم ابن محيصن واليزيدي واختلف عن هشام وابن ذكوان وأبي بكر فأما هشام فرواه عنه كذلك بالغيب الحلواني من طريق ابن عبدان وهي رواية أحمد والحسن عن الحلواني عنه وكذا روى ابن مجاهد عن الأزرق الجمال وروى النقاش وابن شنبوذ عن الأزرق بالخطاب وهي قراءة الداني على شيخه الفارسي ورواه له أيضا عن الحلواني وكذا رواه الداجوني عن

أصحابه عن هشام وأما ابن ذكوان فروى الصوري عنه بالغيب وكذا العطار عن النهرواني عن النقاش عن الأخفش وكذا روى ابن عبد الرزاق وهبة الله عن الأخفش وكذا ابن هارون عن الأخفش وكذا ابن مجاهد عن أصحابه عنه وكذا الثعلبي عنه وروى سائر الرواة عن الأخفش عن ابن ذكوان بالخطاب وأما أبو بكر فروى عنه العليمي بالغيب وروى عنه يحيى بن آدم بالخطاب وبه قرأ الباقون

وقرأ ( ) من فزع ( ) الآية 89 بالتنوين عاصم وحمزة والكسائي وخلف على أعمال المصدر في الظرف بعده وهو (يومئذ) ويجوز أن يكون العامل في الظرف آمنون أو الظرف في موضع الصفة لفزع أي كائن ذلك في ذلك الوقت وفتح ميمه نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف فعلى قراءة نافع وأبي جعفر فتحة الميم بناء لإضافته إلى غير متمكن وعلى قراءة أبي عمرو ومن معه كسرة الميم إعراب بإضافة فزع إلى يوم على الوجه الآخر فأعرب وإن أضيف إلى إذ لجواز انفصاله عنها وأدغم لام هل تجزون حمزة والكسائي واختلف عن هشام وصوب في النشر عنه الإدغام وقال إنه الذي عليه الجمهور عنه وتقتضيه أصول هشام وعن ابن محيصن هذه البلدة بالياء بدل الهاء

وقرأ (تعلمون) الآية 93 بالخطاب نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالغيب

المرسوم اتفقوا على حذف ألف وكتب مبين وفي المكي أو ليأتينني بنونين وفي الباقي بنون واحدة واتفقوا على حذف ألف تربا هنا كالنبأ آتتنا مبصرة طيركم بل أدرك بحذف الألف واتفقوا على كتابة الملؤا اني والملؤا أفتوني والملؤا أيكم بواو وألف في الثلاثة وكتبوا أئنا لمخرجون بحرفين بين الألفين وكتب بهادي العمي هنا بالياء في الكل وبحذفها في الروم وأما الألف فيهما فثابتة في بعض المصاحف ومحذوفة في بعضها وكذا ألف فناظرة أئنكم لتأتون بالياء الموصول ألآ يسجدوا بلا نون قبل اللام وهو مرادهم بالوصل التاآت اتفقوا على كتابة ذات بالتاء حيث وقعت نحو ذات بهجة ذات البروج ذات لهب ياءات الإضافة خمس ( ) إني آنست ( ) أوزعني أن ( ) ما لي لا أرى ( ) إني ألقي ( ) ليبلوني أأشكر ( ) الآية 7 الآية 19 الآية 20 الآية 29 الآية 40 الزوائد ثلاث (أتمدونن) (أتان) ( ) حتى تشهدون ( ) الآية 36 الآية 36 الآية 32 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 426 . 433﴾

(186/574)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة النمل "

" طس " سكت أبو جعفر على طا وسين سكتة لطيفة من غير تنفس .

" القرآن " معا ، الصلاة ، ظلم ، مبصرة ، سحر ، لهو ، وحشر ، الطير ، كله جلي .

" سوء " لحمزة وهشام في الوقف عليه النقل والإدغام ، وكل منهما مع السكون والروم والإشمام فالأوجه ستة .

" إني أنست " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" بشهاب قبس " قرأ بتنوين شهاب الكوفيون ويعقوب ، وبترك التنوين غيرهم .

" لدي وعلي ووالدي " وقف يعقوب عليها بهاء السكت .

" على واد " وقف الكسائي ويعقوب بالياء ، والباقون بحذفها ، ولا خلاف في حذفها وصلا للساكنين .

" لا يحطمنكم " قرأ رويس بإسكان النون ، وغيره بفتحها مشددة .

" أوزعني أن " فتح الياء البزي وورش وأسكنها سواهما .

" مالي لا أرى " فتح الياء ابن كثير وهشام وعاصم والكسائي ؛ وأسكنها غيرهم .

" أو ليأتيني " قرأ المكي بنونين الأولى مفتوحة مشددة ، والثانية مكسورة مخففة ، وغيرهم بنون واحدة مكسورة مشددة .

" فمكث " فتح الكاف روح وعاصم وضمها غيرهما .

" من سبأ " قرأ البزي والبصري بفتح الهمز من غير تنوين . وقنبل بإسكانها ، والباقون بسكرها منونة ، وأبدل الهمز وقفا حمزة وهشام ولهما تسهيله بالروم ، ولا يبدله السوسي وقفا لعدم سكون همزة أصالة .

" ألا يسجدوا " قرأ الكسائي وأبو جعفر ورويس بتخفيف اللام ولهم الوقف ابتلاء على ألا يا ، معا ويبتدئون باسجدوا بهمزة مضمومة نولهم الوقف اختبارا كذلك على ألا وحدها ويا وحدها والابتداء أيضا اسجدوا بهمزة مضمومة . أما في حالة الاختيار فلا يصح الوقف على ألا ، ولا على يا ، بل يتعين وصلهما باسجدوا ، والباقون بتشديد اللام .

" الخبء " وقف هشام وحمزة بنقل حركة الهمزة إلى الباء مع إسكانها للوقف وليس لهما إلا هذا الوجه .

" تخفون " : " وتعلنون " قرأ حفص والكسائي بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيبة .

" العظيم " آخر الربع .

الممال

" طس " بإمالة الطاء لشعبة والأخوين وخلف ، وهدى ولتلقى عند الوقف ، وولى وترضاه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . وبشرى ولا أرى عند الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، وعند وصل أرى بالهدهد يكون للسوسي الإمالة والفتح ، موسى كله بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلفه . جاءها وجاءتهم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش .

" رآها " بتقليل الراء والهمزة مع ثلاثة البدل لورش ، وبإمالة الراء والهمزة لشعبة والأخوين وخلف ، وبإمالتهما معا ، وفتحهما معا لابن ذكوان ، وبإمالة الهمزة وحدها لأبي عمرو .

المدغم

" الصغير " أحطت ، اتفقوا على إدغام الطاء في التاء مع بقاء صفة الإطباق في الطاء .

" الكبير " بالآخرة زينا ، وورث سليمان ، وحشر لسليمان ، وقال رب ، زين لهم ، ويعلم معا .

" فألقه إليهم " قرأ قالون ويعقوب وهشام بخلف عنه بكسر الهاء من غير صلة وأبو عمرو وعاصم وحمزة وأبو جعفر بإسكان الهاء ، والباقون بكسر الهاء مع الصلة وهو الوجه الثاني لهشام وضم حمزة ويعقوب هاء عليهم .

" الملؤإني " حكمه حكم . يشاء إلى ، ورسمت الهمزة فيه على واو فلهشام وحمزة في الوقف عليه خمسة أوجه ذكرت مرارا ، كذلك رسمت الهمزة واوا في الملؤ أفتوني ، والملؤا

أيكم .

" إني ألقي " فتح الياء المدنيان وأسكنها غيرهما .

" علي " وأتونى . خير . إليهم . صاغرون . مستقرا . نكروا . قيل . رأته . حسبته ؛

قوارير . ظلمت . تستغفرون . طائركم . بيوتهم . ظلموا . جلي .

" الملأ أفتوني " أبدل الثانية واوا المدنيان والمكي والبصري ورويس ، وحققها الباقون .

" تشهدون " أثبت الياء يعقوب في الحالين ، وحذفها غيره كذلك .

" بم " ولم ، وقف يعقوب والبزي بخلف عنه بهاء السكت .

(188/574)

" أتمدونن " قرأ المدنيان وأبو عمرو بإثبات الياء وصلا ، وابن كثير وحمزة ويعقوب بإثباتها في الحالين إلا أن حمزة ويعقوب يدغمان النون الأولى في الثانية مع المد المشبع وصلا ووقفا ، والباقون بحذفها في الحالين .

" آتاني الله " قرأ المدنيان والبصري وحفص ، رويس بإثبات ياء مفتوحة بعد النون في الوصل . وأما في الوقف فلقالون والبصري وحفص حذفها وإثباتها ساكنة ، ولورش وأبي جعفر حذفها ، ولرويس إثباتها . وقرأ روح بحذفها وصلا وإثباتها وقفا ، ولقالون بحذفها

في الحالين .

" الملأ أيكم " هو مثل: الملأ أفتوني .

" أنا آتيك معا " أثبت ألف أنا وصلا المدنيان وحذفها غيرهما ، واتفق العشرة على إثباتها وقفا .

" ليبلوني ءأشكر " فتح الياء المدنيان واسكنها غيرهما . وأما حكم ءأشكر فهو مثل أنذرتهم .

" ساقيها " قرأ قنبل بهمزة ساكنة ، وغيره بالألف .

" أن اعبدوا " كسر النون وصلا البصريان وعاصم وحمزة ، وضمها غيرهم .

" لنبيتنه ، لنقولن " قرأ الأخوان وخلف بالتاء الفوقية مضمومة بعد اللام ، وبضم التاء الفوقية التي بعد الياء التحتية ، والباقون بنون مضمومة بعد اللام وبفتح الفوقية .

وقرءوا لتقولن بتاء فوقية مفتوحة بعد اللام الأولى وبضم الثانية ، والباقون بنون مفتوحة بعد اللام الأولى مع فتح اللام الثانية .

" مهلك " قرأ شعبة بفتح الميم واللام وحفص بفتح الميم وكسر اللام ، والباقون بضم الميم وفتح اللام .

" أنا دمرناهم " قرأ بفتح الهمزة الكوفيون ويعقوب ، وبكسرها الباقون .

" أئنكم " سهل الثانية مع الإدخال قالون والبصري وأبو جعفر ومن غير إدخال ورش وابن

كثير ورويس وحققها هشام مع الإدخال وعدمه ، والباقون كذلك من غير إدخال .

" تجهلون " آخر الربع .

الممال

(189/574)

جاء ، وجاءت ، لابن ذكوان وحمزة وخلف ، آتاني ، بالإمالة للكسائي والتقليل لورش بخلفه ، آتاكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه ، آتيك معا ، بالإمالة في الألف التي بعد الهمزة لخلف عن حمزة وفي اختياره ولخلاد بخلف عنه ، رآه مثل رآها وقد تقدم كافرين بالإمالة للبصري والدوري ويعقوب وبالتقليل لورش .

المدغم

" الكبير " لا قبل لهم ، تقوم من ، فضل ربي ، يشكر لنفسه ، عرشك قالت ، كأنه هو ، هو وأوتينا ، العلم من ، قيل لها ، معك قال ، المدينة تسعة ، قال لقومه ، ووافقه رويس على إدغام لا قبل لهم بخلف عنه .

" قدرناها " قرأ شعبة بتخفيف الدال ، والباقون بتشديدها .

" عليهم " خير ، أمن خلق ، سيروا ، من غائبة ، القرآن ، إسرائيل ، فيه ، وهو ، كله

ظاهر .

" آللّٰه " لكل من القراء العشرة وجهان: إبدال همزة الوصل ألفا مع المد المشبع وتسهيلها بين بين ولم يدخل أحد ألف الفصل بينها وبين همزة الاستفهام .

" يشركون " قرأ عاصم والبصريان بياء الغيبة ، وغيرهم بتاء الخطاب .

" ذات بهجة " وقف الكسائي على ذات ، بالهاء ، وغيره بالتاء .

" ءإله " الخمسة ، حكمه للقراء العشرة حكم أئنكم .

" تذكرون " قرأ هشام والبصري وروح بياء الغيبة مع تشديد الذال والكاف ، وحفص والأخوان وخلف بتاء الخطاب مع تخفيف الذال وتشديد الكاف ، والباقون بتاء الخطاب مع تشديد الذال والكاف .

" الرياح " قرأ بالإفراد المكي والخوان وخلف ، وبالجمع الباقون .

" يبدءوا الخلق " رسمت همزته واوا ، ولا يخفى حكم الوقف عليه لهشام وحمزة .

" بشرا " تقدم حكمه لسائر القراء بسورة الفرقان .

" بل ادارك " قرأ المكي والبصريان وأبو جعفر بإسكان لام بل وأدرك بهمزة قطع مفتوحة وإسكان الدال والباقون بكسر لام بل وادارك بهمزة وصل تسقط في الدرج وتثبت في الابتداء مكسورة وفتح الدال وتشديدها وألف بعدها .

" أئذا أئنا " قرأ المدنيان بهمزة واحدة على الخبر وأئنا بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الاستفهام وكل على أصله فقالون وأبو جعفر يسهلان الثانية مع الإدخال وورش يسهل من غير إدخال والشامي والكسائي يستفهمان في الأول ويخبران في الثاني ويزيدان فيه نونا فيقرآنه بهمزة مكسورة وبعدها نون مفتوحة مشددة . وبعدها نون مفتوحة مخففة وكل على أصله أيضا فهشام يحقق مع الإدخال قولا واحدا ، وابن ذكوان والكسائي يحققان من غير إدخال ، والباقون بالاستفهام فيهما وكل على أصله فابن كثير ورويس بالتسهيل بلا إدخال والبصري بالتسهيل مع الإدخال ، والباقون بالتحقيق من غير إدخال .

" ضيق " كسر المكي الضاد وفتحها غيره .

" ولا تسمع الصم الدعاء " قرأ ابن كثير يسمع بياء مفتوحة مع فتح الميم ورفع ميم الصم وغيره بتاء مضمومة مع كسر الميم ونصب ميم الصم .

" الدعاء إذا " سهل الثانية المدنيان والمكي والبصري ورويس ، وحققها الباقون .

" بهادي العمي " قرأ حمزة بتاء فوقية مفتوحة وإسكان الهاء ونصب العمي ويقف بالياء والباقون بباء موحدة مكسورة وفتح الهاء وألف بعدها وجر العمي ، وأجمعوا على الوقف على بهادي الياء .

" مسلمون " آخر الربع .

الممال

اصطفى وتعالى عند الوقف عليه ومتى وعسى وهدى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . الناس لدوري البصري . الموتى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " آل لوط ، وأنزل لكم ، وجعل لها ، يرزقكم ، يعلم ما ، ليعلم ما .

" أن الناس " فتح الهمزة يعقوب والكوفيون ، وكسرها غيرهم .

" عليهم " ظلموا ، فيه ، مبصرا ، وهى ، خبير ، القرآن ، جلي .

" أتوه " قرأ حفص وخلف وحمزة بقصر الهمزة وفتح التاء ، والباقون بمد الهمزة وضم التاء .

" تحسبها " فتح السين الشامي وعاصم وحمزة وأبو جعفر وكسرها غيرهم .

" تفعلون " قرأ ابن كثير وهشام والبصريان بياء الغيبة ، والباقون بتاء الخطاب .

(191/574)

" فزع يومئذ " قرأ الكوفيون بتنوين فزع ، وغيرهم بترك التنوين ، وكسر ميم يومئذ المكي والبصريان والشامي ، وفتحها غيرهم ، وإذا نظرنا إلى الكلمتين مجتمعتين يكون فيهما ثلاث قراءات حذف تنوين فزع ، وفتح ميم يومئذ للمدنيين ، وحذف التنوين مع كسر الميم للمكي والبصريين والشامي . والتنوين مع الفتح للكوفيين .

" تعملون " قرأ بالخطاب المدنيان والشامي وحفص ويعقوب ، وبالغيبة غيرهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 239 . 243 ﴾

(192/574)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة النمل

قوله تعالى ﴿ بشهاب قبس ﴾

يقرأ بالتنوين والإضافة فالحجة لمن أضاف أنه جعل الشهاب غير القبس فأضافه أو يكون أراد بشهاب من قبس فأسقط من وأضاف أو يكون أضاف والشهاب هو القبس

لاختلاف اللفظين كما قال تعالى ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ والحجة لمن نون أنه جعل القبس

نعتا لشهاب فأعربه بإعرابه وأصل الشهاب كل أبيض نوري

قوله تعالى ﴿ وبشرى ﴾ يقرا بالتفخيم على الأصل وبالإمالة لمكان الياء ومثله ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ يقرأ بالتفخيم والإمالة فأما كسر الراء والهمزة فتسمى إمالة الإمالة

قوله تعالى ﴿ ما لي لا أرى الهدهد ﴾ ﴿ وما لي لا أعبد ﴾ في يس يقرآن بالتحريك والإسكان فالحجة لمن فتح أن كل اسم مكنى كان على حرف واحد مبني على حركة كالتاء في قمت والكاف في ضربك فكذلك الياء والحجة لمن أسكن أن الحركة على الياء ثقيلة فأسكنها تخفيفا وهذا لا سؤال فيه وإنما السؤال على أبي عمرو لأنه أسكن في النمل وحرك في يس

وله في ذلك ثلاث حجج إحداهن ما حكى عنه أنه فرق بين الاستفهام في النمل وبين الانتفاء في يس والثانية أنه اتى باللغتين ليعلم جوازهما والثالثة أن الاستفهام يصلح الوقف عليه فأسكن له الياء كقولك ما لي وما لك والانتفاء يبنى على الوصل من غير نية وقوف فحركت الياء لهذا المعنى

قوله تعالى ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ يقرأ بإظهار النونين وبالإدغام فالحجة لمن أظهر أنه أتى باللفظ على الأصل لأن الأولى نون التأكيد مشددة والثانية مع الياء اسم المفعول به والحجة لمن أدغم أنه استثقل الجمع بين ثلاث نونات متواليات فخفف بالإدغام وحذف إحداهن لأن ذلك لا يخل بلفظ ولا يحيل معنى والسلطان ها هنا الحجة

قوله تعالى ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ يقرأ بضم الكاف إلا ما روي عن عاصم من فتحها وهما لغتان والاختيار عند النحويين الفتح لأنه لا يجيء اسم الفاعل من فعل يفعل بالضم إلا على وزن فعيل إلا الأقل كقولهم حامض وفاضل

قوله تعالى ﴿ من سبإ بنبإ يقين ﴾ يقرا بالإجراء والتنوين وبترك الإجراء والفتح من غير تنوين وبإسكان الهمزة فالحجة لمن أجراه أنه جعله اسم جبل أو اسم أب للقبيلة والحجة لمن لم يجره أنه جعله اسم ارض أو امرأة فثقل بالتعريف والتأنيث والحجة لمن أسكن الهمزة أنه يقول اسم الهمزة أنه يقول هذا اسم مؤنث وهو أثقل من المذكر ومعرفة وهو أثقل من النكرة ومهموز وهو أثقل من المرسل فلما اجتمع في الاسم ما ذكرناه من الثقل خفف بالأسكان وسئل أبو عمرو عن تركه صرفه فقال هو اسم لا أعرفه وما لم تعرفه العرب لم تصرفه

قوله تعالى ﴿ ألا يسجدوا ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف فالحجة لمن شدد أنه جعله حرفا ناصبا للفعل ولا للنفي وأسقط النون علامة للنصب ومعناه وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا لله والحجة لمن خفف أنه جعله تنبيها واستفتاحا للكلام ثم نادى بعده فاجتزأ بحرف النداء من المنادى لإقباله عليه وحضوره فأمرهم حينئذ بالسجود

وتلخيصه ألا يا هؤلاء اسجدوا لله والعرب تفعل ذلك كثيرا في كلامها قال الشاعر

ألا يا اسلمي يا دار مي على البلى

ولا زال منهلا بجرعائك القطر

أراد يا هذه اسلمي ودليله أنه في قراءة عبد الله هلا يسجدون وإنما تقع هلا في الكلام تحضيضا على السجود

قوله تعالى ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ يقرآن بالياء والتاء وقد تقدم ذكر علله فيما مضى

قوله تعالى ﴿ أتمدونن بمال ﴾ يقرأ بإدغام النون في النون والتشديد وإثبات الياء وصلا ووقفا وبإظهار النونين وإثبات الياء وصلا وبحذفها مع الإظهار وصلا ووقفا وقد ذكرت علله في نظائره مقدمة

(194/574)

قوله تعالى ﴿ فما آتاني الله ﴾ يقرأ بالمد والقصر وإثبات الياء وفتحها وإسكانها وحذفها وبالأمالة والتفخيم فالحجة لمن مد أنه جعله من الإعطاء وبه قرأت الأئمة والحجة لمن قصر أنه جعله من المجيء ومن أثبت الياء وفتحها كره إسكانها فتذهب لالتقاء الساكنين

والحجة لمن حذفها أنه اجتزأ بالكسرة منها وقد تقدم القول في الاحتجاج لمن فخم وأمال

قوله تعالى ﴿ وكشفت عن ساقيها ﴾ قرأه الأئمة بإرسال الألف إلا ما قرأه ابن كثير بالهمز مكان الألف وله في ذلك وجهان أحدهما أن العرب تشبه مالا يهمز بما يهمز فتهمزه تشبيها به كقولهم حلات السويق وإنما أصله في قولهم حلات الإبل عن الحوض إذا منعتها من الشرب والآخر أن العرب تبدل من الهمز حروف المد واللين فأبدل ابن كثير من حروف المد واللين همزة تشبيها بذلك فأما همزه في صاد لقوله بالسوق فقيل كان أصله سؤوق على ما يجب في جمع فعل فلما اجتمع واوان الأولى مضمومة همزها واجتزأ بها من الثانية فحذفها

قوله تعالى ﴿ لنبيتنه وأهله ثم لنقولن ﴾ يقرآن بالتاء والنون فالحجة لمن قرأه بالتاء أنه أراد به كأن مخاطبا خاطبهم فقال تحالفوا من القسم لتبيتنه ثم لتقولن فأتى بالتاء دلالة على خطاب الحضرة واسقطت نون التأكيد واو الجمع لالتقاء الساكنين

قوله تعالى ﴿ مهلك أهله ﴾ يقرا بضم الميم وفتحها وبكسر اللام وفتحها وقد أتينا على علله في الكهف

قوله تعالى ﴿ أنا دمرناهم ﴾ يقرا بكسر الهمزة وفتحها فالحجة لمن كسر أنه استأنفها بعد تمام الكلام والحجة لمن فتحها أنه جعلها متصلة بالأول من وجهين أحدهما أنه جعلها وما اتصل بها خبر كان والآخر أنه وصلها بالباء ثم أسقطها فوصل الفعل إليها

قوله تعالى ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ يقرأ بهمزة وياء وبالمد وغير المد وبهمزتين وقد

ذكرت علله محكمة فيما سلف

قوله تعالى ﴿ إلا امرأته قدرناها ﴾ يقرأ بتشديد الدال وتخفيفها وقد تقدم القول فيه

(195/574)

قوله تعالى ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ يقرأ بالتاء والياء وبالتشديد والتخفيف وقد ذكر آنفا

قوله تعالى ﴿ بل ادارك ﴾ يقرأ بقطع الألف وإسكان الدال وبوصل الألف وتشديد الدال وزيادة ألف بين الدال والراء فالحجة لمن قطع الألف أنه جعله ماضيا من الأفعال الرباعية ومنه قوله ﴿ إنا لمدركون ﴾ والحجة لمن وصل وشدد وزاد ألفا أن الأصل عنده تدارك ثم أسكن التاء وأدغمها في الدال فصارتا دالا شديدة ساكنة فأتى بألف الوصل ليقع بها الابتداء وكسر لام بل لذهاب ألف الوصل في درج الكلام والتقائها مع سكون الدال ومثله ﴿ فادارأتم فيها ﴾ ﴿ قالوا اطيرنا بك ﴾ ﴿ وازينت وظن أهلها ﴾

قوله تعالى ﴿ أئذا كنا ترابا وآباؤنا ﴾ مذكور فيما تقدم

فأما قوله ﴿ أئنا ﴾ يقرا بالاستفهام والإخبار فالحجة لمن استفهم أنه أراد أإنا بهمزتين فقلب الثانية ياء لانكسارها تخفيفا لها والحجة لمن أخبر أنه أراد إننا فاستثقل الجمع بين ثلاث نونات فحذف إحداهن تخفيفا ثم أدغم النون في النون للماثلة والحجة لمن

أظهر النونات في الإخبار أنه أتى بالكلام على أصله ووفاه ما أوجبه المعنى له فأما الاسم المكنى ففي موضع نصب بإن في كل الوجوه

قوله تعالى ﴿ ولا تسمع الصم ﴾ يقرأ بالياء مفتوحة ورفع الصم وبالتاء مضمومة ونصب الصم وقد بين الوجه في ذلك مشروحا في سورة الأنبياء فإن قيل فأي حجة تثبت عليهم إذا كانوا صما فقل هذا مثل وإنما نسبوا إلى الصمم لأن الرسول عليه السلام لما وعظهم فتكبروا عن الوعظ ومجته آذانهم ولم ينجح فيهم كانوا بمنزلة من لم يسمع ألا ترى إلى قول الشاعر

أصم عما ساءه سميع

قوله تعالى ﴿ ولا تكن في ضيق ﴾

يقرأ بفتح الضاد وكسرها وقد ذكر فيما سلف

(196/574)

قوله تعالى ﴿ بهادي العمي ﴾

يقرأ بالياء واسم الفاعل مضافا وخفض العمي وبالتاء مكان الباء علامة للمضارعة ونصب العمي فالحجة لمن أدخل الباء أنه شبه ما بليس فأكد بها الخبر فإن أسقط الباء كان له في الاسم الرفع والنصب والحجة لمن قرأه بالتاء أنه جعله فعلا مضارعا لاسم الفاعل لأنه

ضارعه في الإعراب وقام مقامه في الحال فأعطي الفعل بشبهه الإعراب وأعطي اسم الفاعل بشبهه الإعمال

والفعل ها هنا مرفوع باللفظ في موضع نصب بالمعنى والعمي منصوبون بتعديه إليهم وعلى هذا تأتي الحجة في سورة الروم إلا في الوقف فإن الوقف ها هنا بالياء وفي الروم بغير ياء اتباعا لخط السواد

قوله تعالى ﴿ تكلمهم أن الناس ﴾ يقرأ بكسر الهمزة وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعل الكلام تاما عند قوله تكلمهم ثم ابتدأ إن مستأنفا فكسر والحجة لمن فتح أنه أعمل تكلمهم في أن بعد طرح الخافض فوصل الفعل إليها فموضعها على هذا نصب بتعدي الفعل إليها في قول البصريين ونصب بفقدان الخافض في قوله الفراء وخفض في قول الكسائي وإن فقد الخافض

قوله تعالى ﴿ وكل أتوه ﴾ يقرأ بالمد وضم التاء وبالقصر وفتح التاء فالحجة لمن مد أنه جعله جمعا سالما ل آت وأصله آتونه فسقطت النون لمعاقبة الإضافة فالهاء في موضع خفض والحجة لمن قصر أنه جعله فعلا ماضيا بمعنى جاء والواو دالة على الجمع والرفع والتذكير والهاء في موضع نصب بتعدي الفعل إليها

فإن قيل لم اختص ما يعقل بجمع السلامة دون ما لا يعقل فقل لفضيلة ما يعقل على ما لا يعقل فضل في اللفظ بهذا الجمع كما فضل بالأسماء الأعلام في المعنى وحمل ما لا يعقل في الجمع على مؤنث ما يعقل لأن المؤنث العاقل فرع على المذكر والمؤنث مما لا يعقل فرع على المؤنث

العاقل فتجانسا بالفرعية فاجتمعا في لفظ الجمع بالألف والتاء

قوله تعالى ﴿ بما يفعلون ﴾ يقرأ بالتاء والياء على ما قدمناه من مشاهدة الحضرة والغيبة

(197/574)

قوله تعالى ﴿ من فزع يومئذ ﴾ يقرأ بالتنوين والنصب وبالأضافة وكسر الميم

وفتحها معا وقد ذكر علله في آخر المائدة بما يغني عن إعادة القول فيه

قوله تعالى ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ يقرأ بالياء والتاء وقد ذكرت علله في عدة

مواضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 269.276 ﴾

(198/574)

وقال ابن زنجلة :

سورة النمل طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين 1

قوله عز و جل طس تلك نون سين مخفاة عند التاء غير مدغمة إجماعا ولم يختلفوا عند التاء

كما اختلفوا عند الميم والواو وذلك أن التاء أقرب إلى النون من الميم والواو ويعرف ذلك بأن

تقول هي النون والتاء فترى لام التعريف تندغم في التاء كما تندغم في النون وتقول هي الواو والميم فتراها ظاهرة فلما قرب التاء من النون صارت النون مخفاة عندها

أوءاتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون 7

قرأ عاصم وحمزة والكسائي بشهاب قبس منونا جعلوا القبس صفة للشهاب وتأويله بشهاب مقتبس قال الأخفش

وإن شئت كان بدلا منه وهو هو فمن أجل ذلك امتنع من إضافة الشهاب إلى القبس لأن العرب لا تكاد تضيف الأسماء إلى صفاتها إلا في شذوذ والأول قول الفراء

وقرأ الباقون بشهاب قبس مضافا فيكون على ضربين أحدهما ذكره اليزيدي فقال بشهاب قبس أي شعلة نار كما تقول أتيتك بشعلة نار والضرب الآخر ذكره الفراء قال الشهاب هو القبس فيضاف إلى نفسه لما اختلف لفظاه كقوله لحق اليقين ولدار الآخرة

حتى إذا أتوا على واد النمل 17

وقف الكسائي على وادي بالياء قال الكسائي لا يتم إلا بالياء وإنما حذفوا في الوصل من أجل الساكن وهو اللام من النمل فإذا وقفت وقفت على الياء لأن العلة زالت

ووقف الباقون بغير ياء لأنها كتبت بغير ياء على الوصل وسقطت الياء من أجل الساكن

ما لي لا ارى الهدهد أم كان من الغائبين 20

قرأ ابن كثير وعاصم والكسائي وابن عامر ما لي لا ارى الهدهد بفتح الياء ها هنا وفي يس وقرأ نافع وأبو عمرو بإسكان الياء ها هنا وفتح الياء هناك وأسكنهما حمزة

(199/574)

فمن فتح فعلى أصل الكلمة لأن الياء اسم مكني وكل مكني فإنه يبنى على حركة نحو التاء في قمت والكاف في كلمك وإنما فرق أبو عمرو بينهما لأن ما لي لا أرى الهدهد استفهام يصلح الوقف على مالي فإذا وقفت سكنت الياء و مالي لا أعبد بني الكلام فيه على الوصل فحرك الياء إذ لم ينو الوقف

أو ليأتيني بسلطن مبين 21

قرأ ابن كثير أو ليأتينني بنونين الأولى مشددة وهي نون التوكيد والثانية مع الياء اسم المتكلم وقرأ الباقون أو ليأتيني بنون واحدة كرهوا الجمع بين ثلاث نونات فحذفوا واحدة كما قال إنا أعطيناك والأصل إننا

فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين 22

قرأ عاصم فمكث غير بعيد بفتح الكاف وقرأ الباقون بالضم

وهما لغتان مكث ومكث وكمل وكمل وحمض وحمض فهو ماكث وكامل والاختيار مكث

بالفتح لأن فعل بالضم أكثر ما يأتي الاسم منه على فعيل نحو ظرف وكرم فهو ظريف وكريم ومن فعل بالفتح يأتي الاسم على فاعل تقول مكث فهو ماكث قال الله جل وعز ماكثين فيه أبدا و لا يكون من فعل بالضم فاعل إلا حرف واحد قالوا فره فهو فاره ورد الأصمعي ما سوى هذا

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وجئتك من سبأ غير مصروف اسم أرض أو مدينة قال الزجاج من سبأ هي مدينة تعرف ب مأرب من اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام

وقرأ الباقون من سبأ مصروفا جعلوه اسما للبلد فيكون مذكرا سمي به مذكر

وقرأ القواس من سبأ ساكنة الهمزة لأن الاسم مؤنث وهو ثقيل والهمزة ثقيلة فلما اجتمع ثقيلان أسكن الهمزة تحقيقا

وزين لهم الشيطن أعملهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون

ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون 24 و25

(200/574)

قرأ الكسائي فهم لا يهتدون ألا يا اسجدوا بتخفيف اللام و ألا تنبيه و بعدها يا التي ينادى بها والابتداء اسجدوا على الأمر بالسجود فالمعنى ألا يا قوم اسجدوا لله خلافا عليهم وحمدا لله لمكان ما هداكم فلم تكونوا مثلهم في الطغيان وهذا الكلام يكون منقطعا مما قبله على أن ما قبله تمام ويكون ما بعده كلاما معترضا من غير القصة الماضية إما من سليمان صلى الله عليه وإما من الهدهد على تأويل يا هؤلاء اسجدوا فلما كف ذكر هؤلاء اتصلت يا بقوله اسجدوا فصار يسجدوا كأنه فعل مضارع إذا أدرجت الكلام

والعرب تقول ألا يا ارحمونا أي الا يا هؤلاء ارحمونا لأن يا لا يلي الفعل إلا مع إضمار ومثله قول ذي الرمة . . . ألا يا اسلمي يا دارمي على البلى . . . ولا زال فهلا بجرعائك القطر . . .

أي يا دار هذه كنت في سلامة

قال قطرب المعنى ألا يا قوم اسجدوا فحذفت الأسماء وقامت يا مقامها وكان هذا الحذف في النداء خاصة لأنه موضع حذف التنوين إذا قلت يا زيد

وقرأ الباقون فهم لا يهتدون ألا يسجدوا بالتشديد وحجتهم اختلفوا فيها فقال الزجاج من قرأ بالتشديد فالمعنى فصدهم لئلا يسجدوا أي صدهم الشيطان عن سبيل الهدى لئلا يسجدوا ف يسجدوا نصب ب أن وعلامة النصب حذف النون

وقال اليزيدي المعنى وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا ف أن في موضع نصب لأنها بدل من

أعمالهم وقال إذا خففت ألا يا اسجدوا ففيه انقطاع القصة التي كنت فيها ثم تعود بعد إليها وإذا اتصلت القصة بعضها ببعض فذلك أسهل ويجوز أن يكون معناه فصدهم أن يسجدوا وتكون لا داخلة لتوكيد الجحد كما قال وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون معناه أنهم يرجعون لأن الحرام في معنى الجحد وكذلك الصد في معنى الجحد وإنما تدخل لا بمعنى التوكيد إذا كان قبلها جحد مثل قوله ما منعك ألا تسجد ومنه قول ابي النجم . . . فما ألوم البيض ألا تسخرا . . .

8

(201/574)

- أي أن تسخرا وقال قوم جاءت لا ها هنا لمجيء لا التي في قوله فهم لا يهتدون كما قال وما يستوي الأعمى والبصير فهذا بغير لا ثم قال في النسق عليه ولا الظلمات

ولا النور فكرر لا في قوله ولا النور لمجيء لا في قوله ولا الظلمات والتأويل ولا الظلمات والنور فكل موضع دخل لا في مبتدئه حسن أن يدخل لا في خبره على أن تكون زائدة والله أعلم بما أراد

قرأ الكسائي وحفص ويعلم ما تخفون وما تعلنون بالتاء فيهما على الخطاب لأن الكلام قد

دخله خطاب على قراءة الكسائي اسجدوا لله الذي يعلم ما تسرون وما تعلنون

وقرأ الباقون بالياء فيهما أتوا في سياق الخبر عنهم وحجتهم قوله وزين لهم الشيطان

أعمالهم ألا يسجدوا وهو يعلم الغيب وما يخفون وما يعلنون هؤلاء الكفرة

اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم 28

قرأ أبو عمرو و عاصم وحمزة فألقه إليهم بإسكان الهاء وقرأ الحلواني بالاختلاس وقرأ

الباقون بالإشباع وقد ذكرت الحجة في آل عمران

فلما جاء سليمن قال أتمدونن بمال فما ءاتني الله خير مما ءاتكم 36

قرأ حمزة أتمدوني بمال 2 بنون واحدة مشددة والياء مثبتة في الوصل والوقف والأصل

أتمدونني النون الأولى علامة الرفع والثانية نصب ضمير المتكلم المنصوب فأدغم النون في

النون ولم يحذف الياء لأنه ليس بفاصل

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو أتمدونن بنونين أظهروا ولم يدغموا غير أنهم حذفوا الياء في

الوقف لأنها ليست ثابتة في المصحف وأثبت ابن كثير في الوقف

وقرأ ابن عامر وعاصم والكسائي بحذف الياء في الوصل والوقف اجتزؤوا بالكسر عن

الياء

قرأ نافع وأبو عمرو وحفص فما آتاني الله بفتح الياء وقرأ الباقون بكسر النون من غير ياء

من قرأ بسكون الياء إذا أدرج يحذفها لالتقاء الساكنين الياء ولام التعريف وحذفلوا في

الوقف إتباعا للمصحف ومن فتحها فعلى أصل ما يجب لهذه الياء من الفتحة وثبتت ولم تحذف لأنها لا تلتقي ساكنة مع ساكن فيلزم حذفها

(202/574)

وقرأ الكسائي بالإمالة لأن هذه الياء ثابتة في تصرف هذا الفعل و ما بمعنى الذي وهو ابتداء و آتاني صلة ما و خير خبره والتقدير فالذي آتاني الله خير

أنا ءاتيك به 39

قرأ 4حمزة أنا آتيك بالإمالة وإنما أمال من أجل لزوم الكسرة في أنا آتي فإذا لزمت الكسرة جاءت الإمالة فأمال الفتحة التي هي همزة المضارعة ليميل الألف في آتي نحو الياء

وقرأ الباقون أنا آتيك بغير إمالة لأن الهمزة بابها الفتح

ولأنها فاء الفعل فلذلك تركوا الإمالة فإن قيل فما آتاني الله قبلها ممدود لأنه من الإعطاء فلم مددت أنا آتيك وهو من المجيء الجواب في ذلك أن أتى في الماضي يكون مقصورا تقول أتى زيد عمرا فإذا رددت الماضي إلى المستقبل زدت على الهمزة همزة أخرى وهي علامة الاستقبال والثانية فاء الفعل فصيرت الثانية مدة فلذلك صار ممدودا قولك أنا آتيك

وكشفت عن ساقيها 44

قرأ القواس عن سأقيها بالهمز وقرأ الباقون بترك الهمز وهما مثل كاس وياس وساق والعرب تهمز ما لا يهمز تشبيها بما يهمز ف كاس وياس وساق وزنها واحد يشبه بعضها ببعض ألا ترى أن العرب تقول حلأت السويق والأصل حليت تشبيها ب حلأت الإنسان عن المال والإبل

قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصدقون 49

قرأ حمزة والكسائي قالوا تقاسموا بالله لتبيتنه بالتاء وضم التاء الثانية ثم لتقولن بالتاء أيضا وضم اللام

وقرأ الباقون بالنون فيهما وفتح التاء واللام وحجتهم قوله ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون وجعلوا تقاسموا أمرا كأنهم قالوا احلفوا لنبيتنه كما تقول قوموا نذهب إلى فلان وإن الذي

أمرهم بالحلف داخل معهم وقال الفراء قد يجوز اللفظ تقاسموا على هذه القراءة أن يجعل فعلا ماضيا في معنى الحلف ويكون تقاسموا خبرا عنهم فيكون التأويل قالوا متقاسمين بالله لنبيتنه وأهله فحكى لفظهم بعد القول على ما نطقوا

(203/574)

ومن قرأ بالتاء فإنه جعل تقاسموا أمرا أيضا فكأنه قال احلفوا لتفعلن فكأنه أخرج نفسه في اللفظ والنون أجود

قرأ ابو بكر ما شهدنا مهلك بفتح الميم واللام وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام

وقرأ الباقون مهلك بضم الميم وفتح اللام جعلوه مصدرا من أهلك يهلك مهلكا وإهلاكا قالوا فيحتمل ضربين يجوز أن يكون إهلاك أهله أي ما شهدنا إهلاك أهله ويجوز أن يكون الموضع أي لم نشهد موضع ا لإهلاك

ومن فتح الميم واللام جعله مصدرا ل هلك يهلك مهلكا مثل ضرب يضرب واسم المكان المهلك بكسر اللام وكل ما كان على فعل يفعل فاسم المكان على مفعل والمصدر على مفعل المعنى ما شهدنا هلاك أهله

وأما رواية حفص مهلك اسم المكان المعنى ما شهدنا موضع هلاكهم ومكانهم فيكون المهلك كالمجلس في أنه يراد به موضع الجلوس ويجوز أن يريد بالمهلك المصدر لأنه قد جاء المصدر من فعل يفعل على مفعل قال الله عز و جل إلي مرجعكم

فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين 51

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر إنا دمرناهم بكسر الألف على الابتداء واستئناف خبر وحجتهم أن الكلام متناه عند قوله كيف كان عاقبة مكرهم ف عاقبة اسم كان و كيف في موضع نصب خبر كان ويجوز أن يكون كان التي بمعنى وقع وحدث فإذا جعل على

معنى وقع كان قوله كيف في موضع حال المعنى على أي حال وقع عاقبة مكرهم أي حسنا وقع عاقبة مكرهم أم سيئا

(204/574)

وقرأ أهل الكوفة أنا دمرناهم بالفتح وحجتهم قراءة أبي كيف كان عاقبة مكرهم أن دمرناهم قوله أنا دمرناهم على هذه القراءة يكون رفعا من وجه ونصبا من وجهين أما الرفع فأن ترده على قوله عاقبة فتكون تابعة لها ويكون تقدير الكلام فانظر كيف كان تدميرنا إياهم وقومهم أجمعين على البدل من عاقبة و كيف في موضع نصب خبر ل كان ونصبها إن شئت جعلت أنا مع ما بعده في موضع خبر كان المعنى فانظر كيف كان عاقبة مكرهم التدمير ويجوز أن يكون أنا في موضع نصب على معنى فانظر كيف كان عاقبة مكرهم لأنا دمرناهم

فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين 57

قرأ أبو بكر قدرناها بالتخفيف كقوله فقدرنا فنعم القادرون ولو كان قدرنا لقال فنعم المقدرون وقرأ الباقون قدرنا بالتشديد والعرب تقول قدرت وقدرت لغتان

ءالله خير أما يشركون 59

قرأ أبو عمرو وعاصم آللّه خير أم ما يشركون بالياء جعلا الكلام خبرا عن أهل الشرك وهم غيب فجرى الكلام على لفظ الخبر عنهم لغيبتهم

وقرأ الباقون بالتاء وحجتهم أن الكلام أتى عقيب المخاطبة فأجروا الكلام على لفظ ما تقدمه وذلك قوله وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ثم قال آللّه خير أم ما تشركون إذ كان أمره أن يقول لهم مخاطبا لهم

ءإله مع الله 60 64

قرأ نافع وأبو عمرو آيله مع الله بهمزة واحدة مطولة وأصل الكلمة إله ثم دخلت همة الاستفهام فصار أإله فاستثقل الجمع بين الهمزتين أدخل بينهما ألف ليبعد هذه من هذه ثم لين الثانية

وقرأ ورش وابن كثير أيله بهمزة واحدة من غير مد وهو أن تحقق الأولى وتخفف الثانية ولم تدخل بينهما ألفا

وقرأ هشام عن ابن عامر آإله بهمزتين بينهما مدة وهو أن تزاد الألف بين الهمزتين ليبعد المثل عن المثل ويزول الاجتماع فيخف اللفظ بالهمزتين مع الحائل بينهما

وقرأ أهل الشام والكوفة أإله بهمزتين وقد ذكرت حجتهم في سورة البقرة

ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون 62

قرأ أبو عمرو وهشام قليلا ما يذكرون بالياء وحجتهما ما تقدم من رؤوس الآيات من قوله بل هم قوم يعدلون 60 بل أكثرهم لا يعلمون 61 فلما جاءت خاتمة هذه الآية في سياقهن أجرى بلفظهن ليأتلف الكلام على نظام واحد وأراد التوفقة بين رؤوس الآيات

وقرأ الباقون قليلا ما تذكرون بالتاء وحجتهم أنها قريب من المخاطبة في قوله ويجعلكم خلفاء الأرض فأجروا بلفظ المخاطبة إذ كانت أقرب إليها من قوله يعدلون و لا يعلمون

ومن يرسل الريح بشرا بين يدي رحمته 63

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ومن يرسل الريح بغير ألف وقرأ الباقون بالألف وقد ذكرت الحجة في سورة البقرة قوله نشرا وقد ذكرنا أيضا في سورة الأعراف

بل ادرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها 66

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بل ادرك علمهم بقطع الألف وسكون الدال بمعنى هل أدرك علمهم علم الآخرة كذا قال الفراء وهل بمعنى الجحد أي لم يعلموا حدوثها وكونها ودل على ذلك قوله تعالى بل هم في شك منها وقالوا في في قوله في الآخرة بمعنى الباء وتأويل الكلام لم يدرك علمهم بالآخرة ويقوي هذا قراءة من قرا بل أدرك علمهم على لفظ الاستفهام بمعنى النفي وكان قتادة يقول بل أدرك أي لم يدرك بعد

وقرأ الباقون بل اداراك علمهم في الآخرة أي بل تكامل علمه يوم القيامة بأنهم مبعوثون وأن كل

ما وعدوا به حق قال ابن عباس بل أدارك علمهم في الآخرة أي ما جهلوا في الدنيا علموه في الأخرة وحجتهم قراءة أبي بل تدارك علمهم فأدغموا التاء في الدال لمقاربتها لها فلما سكنت التاء للإدغام اجتلبت له ألف الوصل كما اجتلبت في نحو ادارأتم وفي التنزيل حتى إذا ادركوا فيها

وقال الذين كفروا أءذا كنا ترابا وءاباؤنا أئنا لمخرجون 67

قرأ نافع وقال الذي كفروا إذا كنا بكسر الألف أئنا بالاستفهام وقرأ ابن كثير وأبو عمرو جميعا بالاستفهامين

قرأ ابن عامر والكسائي أإذا بهمزتين إننا بنونين

(206/574)

قرأ عاصم وحمزة أإذا بهمزتين أئنا بهمزتين وقد ذكرت الحجة في سورة الرعد

ولا تكن في ضيق مما يمكرون 70

قرأ ابن كثير ولا تكن في ضيق بكسر الضاد وقرأ الباقون في ضيق بالفتح الضيق بالكسر الاسم والضيق بالفتح المصدر وقال الفراء الضيق ما ضاق عنه صدرك والضيق ما يكون في الشيء الذي يتسع ويضيق مثل الدار والثوب وقال أبو عمرو الضيق بالفتح الغم والضيق

بالكسر الشدة

إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين 80

قرأ ابن كثير ولا يسمع بالياء وفتحها الصم بالرفع جعلهم الفاعلين أي لا ينقادون للحق

لعنادهم كما لا يسمع الأصم ما يقال له

وقرأ الباقون لا تسمع بالتاء وضمها الصم نصب خطاب لرسول الله صلى الله عليه

وحجتهم أنه أشبه بما قبله ألا ترى في قوله تعالى إنك لا تسمع الموتى فأسند الفعل إلى

المخاطب فكذلك تسند إليه في قوله ولا تسمع الصم ويدل على ذلك قوله ولو علم الله فيه

خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا فيكون المعنى إنك

لا تسمعهم كما لم يسمعهم الله فالمعنى أنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه من التوحيد

كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه وإعلامه شيئا كالصم

وما أن بهدي العمي عن ضلالتهم 81

قرأ حمزة وما أنت تهدي العمي بالتاء و العمي بالنصب وحجته قوله أفأنت تهدي العمي

والمعنى أنك لا تهديهم لشدة عنادهم وفرط إعراضهم فأما أنت في قوله وما أنت تهدي

فعلى قول أهل الحجاز وهو لغة التنزيل يرتفع ب ما وتهدي في موضع نصب بأنه الخبر

وقرأ الباقون وما أنت بهادي العمي مضافا وفي الروم مثله بهادي اسم الفاعل وهو في موضع

جر بالباء وهو خبر ما كما تقول ما أنت بقائم ولو أسقطت الباء لقلت ما أنت قائما وكتب

بهادي في هذه السورة بالياء على الأصل وكتب في الروم بهاد بغير ياء على نية الوصل والاختيار أن تقف ها هنا

بالياء وفي الروم بغير ياء

أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون 82

(207/574)

قرأ عاصم وحمزة والكسائي أن الناس بفتح الألف واحتجوا بقراءة ابن مسعود تكلمهم بأن الناس بالباء فلما سقطت الباء حكم عليها بالنصب

وقرأ الباقون إن الناس بالكسر على الاستئناف جعلوا الكلام عند قوله تكلمهم تاما

ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله وكل أتوه داخرين 87

قرأ حمزة وحفص وكل أتوه مقصورة مفتوحة التاء جعلاه فعلا ماضيا أي جاؤوه على تأويل إذا كان ذلك أتوه كقوله ونادى أصاب الجنة وإنما هو إذا كان ذلك وكذلك قوله يوما كان شره مستطيرا أي إذا وقع كان شره مستطيرا وهو مردود على قوله ففزع كأنهم وجهوا معنى الكلام إلى قوله ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض وكلهم أتوه داخرين

والأصل أتيوه فاستثقلوا الضمة على الياء فحذفوها وحذفوا الياء لسكونها وسكون واو الجمع

وقرأ الباقون وكل آتوه بالمد مضمومة على الاستقبال وحجتهم قوله تعالى وكلهم آتيه ويوم القيامة فكذلك الجمع آتوه والأصل آتيونه فذهبت الياء لما أعلمتك والنون للإضافة وإنما جاز في كل أن تقول آتيه و آتوه لأن لفظها لفظ الواحد ومعناه الجمع فمن جمع رده إلى معناها كقوله تعالى كل له قانتون وكل أتوه داخرين ومن وحد رده إلى لفظها كما قال وكلهم آتيه يوم القيامة فردا فوحد ردا إلى اللفظ

وترى الجبال تحسبها جامدة إنه خبير بما تفعلون 88

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر إنه خبير بما يفعلون بالياء ردوه على الخبر عن الغيب في قوله وكل أتوه داخرين

(208/574)

وقرأ الباقون إنه خبير بما تفعلون بالتاء أي أنتم وهم وحجتهم في ذلك أنه قرب من المخاطبة في قوله وترى الجبال تحسبها جامدة فهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وأمته داخلون معه في الخطاب كما قال فأقم وجهك للدين حنيفا ثم قال منيبين إليه فجعل الحال من أمته فدل

على أنه خاطبه وأمته وأسند الخطاب إليه والمعنى هو وأمته فكذلك قوله وترى الجبال تحسبها جامدة الخطاب له ولأمته فختم الكلام بمثل معنى ما تقدمه من الخطاب من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون 89

قرأ عاصم وحمزة والكسائي وهم من فزع منون يومئذ نصب

وقرأ ابو عمرو وابن كثير وابن عامر وإسماعيل من فزع يومئذ بكسر الميم غير منون جعلوه مضافا

وقرأ نافع من فزع غير منون يومئذ بفتح الميم

قال الفراء الإضافة أعجب إلي لأنه فزع يوم معلوم وإذا نون صار فزعا دون فزع وحجتهم قوله لا يحزنهم الفزع الأكبر فجعله معرفة فكان تأويله وهم من فزع يوم القيامة كله آمنون وحجة من نون هي أن النكرة أعم من المعرفة لأن ذلك يقع على فزع وهو أعم وأكثر لأنك إذ قلت رأيت رجلا وقع على كل رجل وكذا إذا قلت رايت غلاما فإذا قلت رايت غلامك حصرت الرؤية على شخص واحد

قال بعض النحويين يجوز إذا نون أن يعني به فزع واحد ويجوز أن يعنى به كثرة لأنه مصدر والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة قال وينتصب يومئذ من وجهين أحدهما أن يكون منتصبا بالمصدر كأنه قال وهم من أن يفزعوا يومئذ ويجوز أن اليوم صفة لفزع لأن أسماء الأحداث توصف بأسماء الزمان كما يخبر عنها بها وفيه ذكر الموصوف وتقديره في هذا الوجه أن يتعلق بمحذوف كأنه من فزع يحدث يومئذ والثاني أن يتعلق باسم الفاعل كأنه قال آمنون يومئذ من فزع ومن لم ينون وفتح الميم فإنه جعل يوم مع إذ كالاسم الواحد فبنى الكلام وجعل الإسمين اسما واحد كقولك خمسة عشر وحجته في ذلك أن إضافة يوم إلى إذ غير محضة لأن الحروف لا يضاف إليها ولا إلى الأفعال لا يقال هذا غلام يقوم ولا يقال هذ غلام إذ وإنما تقول هذا غلام زيد فأما من كسر فقد أضاف اليوم وهو معرب في نفسه فأعطاه حقه من الإعراب كما كان يجب له في غير هذا الموضع ولم يلتفت إلى ما بعده

وقل الحمد لله سيريكم ءايته فتعروفونها وما الله بغافل عما تعملون 93

قرأ نافع وابن عامر وحفص وما ربك بغافل عما تعملون بالتاء على الخطاب وحجتهم ما تقدم وهو قوله سيريكم آياته وقرأ الباقون بالياء وحجتهم أن الكلام انقطع عند قوله وقل الحمد لله سيريكم آياته ثم قال وما ربك بغافل عما يعملون أي عما يعمل هؤلاء المشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 522. 541﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة النمل

مكية ولا نظير لها في عددها

وكلمها ألف ومئة وتسع وأربعون كلمة

وحروفها أربعة آلاف وسبع مئة وتسعون حرفا

وهي تسعون وثلاث آيات في الكوفي وأربع بصري وشامي وخمس في المدنيين والمكي

اختلافها آيتان (﴿ وأولو بأس شديد ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون (

﴿ من قوارير ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون وكلهم لم يعد (﴿ طس ﴾)

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضع واحد (﴿ وما يشعرون ﴾) بعده

(﴿ أيان يبعثون ﴾) ورؤوس الآي

مبين

1 للمؤمنين

2 يوقنون

3 يعمهون

4 الأخسرون

5 عليم

6 تصطلون

7 العالمين

8 الحكيم

9 المرسلون

10 رحيم

11 فاسقين

12 مبين

13 المفسدين

14 المؤمنين

15 المبين

16 يوزعون

17 لا يشعرون

18 الصالحين

19 الغائبين

20 مبين

21 يقين

22 عظيم

23 لا يهتدون

24 يعلنون

25 العظيم

26 الكاذبين

27 يرجعون

28 كريم

29 الرحيم

30 مسلمين

31 تشهدون

32 شديد

العالمين

44 يختصمون

45 ترحمون

46 تفتنون

47 ولا يصلحون

48 لصادقون

49 لا يشعرون

50 أجمعين

51 يعلمون

52 يتقون

53 تبصرون

54 تجهلون

55 يتطهرون

56 الغابرين

57 المنذرين

58 تشركون

59 يعدلون

60 لا يعلمون

61 تذكرون

62 يشركون

63 صادقين

64 يبعثون

65 عمون

66 لمخرجون

67 الأولين

68

(211/574)

المجرمين

69 يمكرون

70 صادقين

71 تستعجلون

72 لا يشكرون

73 يعلنون

74 مبين

75 يختلفون

76 للمؤمنين

77 العليم

78 المبين

79 مدبرين

80 مسلمون

81 لا يوقنون

82 يوزعون

83 تعملون

84 لا ينطقون

85 يؤمنون

86 داخرين

87 يفعلون

88 آمنون

89 تعملون

90 المسلمين

91 المنذرين

92 تعملون

93 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 199 . 200﴾

(212/574)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (تلك آيات القرآن) هو مثل قوله " ذلك الكتاب " في أول البقرة (وكتاب) بالجر عطفا على المجرور ، وبالرفع عطفا على آيات ، وجاء بالواو كما جاء في قوله تعالى " ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم " وقد ذكر .

فإن قيل ، ما وجه الرفع عطفا على آيات ؟ ففيه ثلاثة أوجه: أحدها أن الكتاب مجموع آيات ، فكأن التأنيث على المعنى .

والثانى أن التقدير: وآيات كتاب ، فأقيم المضاف إليه مقام المضاف .

والثالث أنه حسن لما صحت الإشارة إلى آيات ، ولو ولى

الكتاب تلك لم يحسن ، ألا ترى أنك تقول جاءتني هند وزيد ، ولو حذفت هندا أو أخرتها

لم يجز التأنيث .

قوله تعالى (هدى وبشرى) هما في موضع الحال من آيات ، أو من كتاب إذا رفعت ،

ويضعف أن يكون من المجرور ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير في مبين جررت أو رفعت

ويجوز أن يكونا في موضع خبرا بعد خبر أو على حذف مبتدإ .

قوله تعالى (إذ قال موسى) أي واذكر .

قوله تعالى (بشهاب قبس) الإضافة من باب " ثوب خز " لأن الشهاب نوع من القبس: أي

المقبوس والتنوين على الصفة ، والطاء في (يصطلون) بدل من تاء افتعل من أجل الصاد .

قوله تعالى (نودى) في ضمير الفاعل ثلاثة أوجه: أحدها هو ضمير موسى عليه السلام ،

فعلى هذا في (أن) ثلاثة أوجه: هي بمعنى أي ، لأن من النداء معنى القول .

والثانى هو مصدرية ، والفعل صلة لها ، والتقدير: لبركة من في النار أو ببركة: أي اعلم

بذلك ، والثالث هي مخففة من الثقيلة ، وجاز ذلك من غير عوض لأن بورك دعاء والدعاء

يخالف غيره في أحكام كثيرة .

والوجه الثاني لاضمير في نودى والمرفوع به أن بورك ، والتقدير : نودى بأن بورك ، كما تقول: قد نودى بالرخص والثالث المصدر مضمر : أي نودى النداء ، ثم فسر بما بعده كقوله تعالى " ثم بدا لهم " وأما (من) فمرفوعة ببورك والتقدير : بورك من في جوار وبورك من حولها .

وقيل التقدير : بورك مكان من في النار .

النار ، ومكان من حولها من الملائكة .

قوله تعالى (إنه أنا الله) الهاء ضمير الشأن ، وأنا الله مبتدأ وخبر ، ويجوز أن يكون ضمير رب: أي أن الرب أنا الله ، فيكون أنا فصلا أو توكيدا أو خبر إن ، والله بدل منه .

قوله تعالى (تهتز) هو حال من الهاء في رآها ، و (كأنها جان) حال من الضمير في تهتز .

قوله تعالى (إلا من ظلم) هو استثناء منقطع في موضع نصب ، ويجوز أن يكون في موضع رفع بدلا من الفاعل .

قوله تعالى (بيضاء) حال ، و (من غير سوء) حال أخرى ، و (في تسع) حال ثالثة ، والتقدير : آية في تسع آيات ، و (إلى) متعلقة بمحذوف تقديره: مرسلا إلى فرعون ، ويجوز أن يكون صفة لتسع ، أو لآيات: أي واصلة إلى فرعون و (مبصرة) حال ، ويقرأ بفتح الميم والصاد ، وهو مصدر مفعول له: أي تبصرة و (ظلما) حال من الضمير في جحدوا ، ويجوز أن يكون مفعولا من أجله .

ويقرأ " غلوا " بالغين المعجمة ، والمعنى متقارب ، و (كيف) خبر كان ، و (عاقبة) اسمها ، و (من الجن) حال من جنوده ، و (نملة) بسكون الميم وضمها لغتان (ادخلوا) أتى بضمير من يعقل ، لأنه وصفها بصفة من يعقل (لا يحطمنكم) نهى مستأنف ، وقيل هو جواب الأمر وهو ضعيف ، لأن جواب الأمر لا يؤكد بالنون في الاختيار ، و (ضاحكا) حال مؤكدة ، وقيل مقدرة لأل التبسم مبدأ الضحك ، ويقرأ " ضحكا " على أنه مصدر ، والعامل فيه تبسم لأنه بمعنى ضحك ، ويجوز أن يكون اسم فاعل مثل نصب ، لأن ماضيه ضحك وهو لازم .

(214/574)

قوله تعالى (عذابا) أي تعذيبا (فمكث) بفتح الكاف وضمها لغتان (غير بعيد) أي مكانا غير بعيد ، أو وقتا أو مكثا : وفي الكلام حذف: أي فجاء ، و (سبأ) بالتنوين على أنه اسم رجل أو بلد ، وبغير تنوين على أنها بقعة أو قبيلة (وأوتيت) يجوز أن يكون حالا ، وقد مقدرة ، وأن يكون معطوفا لأن تملكهم بمعنى ملكتهم .

قوله تعالى (ألا يسجدوا) في " لا " وجهان: أحدهما ليست زائدة ، وموضع الكلام نصب بدلا من أعمالهم ، أو رفع على تقدير: هي ألا يسجدوا .

والثانى هي زائدة ، وموضعه نصب بيهتدون: أي لا يهتدون ، لأن يسجدوا أو جر على إرادة الجار ، ويجوز أن يكون بدلا من السبيل: أي وصدهم عن أن يسجدوا ، ويقرأ ألا اسجدوا ، فألا تنبيه ، ويا : نداء ، والمنادى محذوف: أي يا قوم اسجدوا .

وقال جماعة من المحققين: دخل حرف التنبيه على الفعل من غير تقدير حذف ، كما دخل في " هلم " .

قوله تعالى (ثم تول عنهم) أي قف عنهم حجزا (1) لتنظر ماذا يردون ، ولا تقديم في هذا ، وقال أبو على: فيه تقديم ، أي فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم .

قوله تعالى (إنه من سليمان) بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح بدلا من كتاب ، أو مرفوع بكريم .

قوله تعالى (ألا تعلوا علي) موضعه رفع بدلا من كتاب: أي هو أن لا تعلوا أو في موضع نصب: أي لأن لا تعلوا ، ويجوز أن تكون أن بمعنى أي ، فلا يكون لها موضع ، ويقرأ بالغين: أي لا تزيدوا .

قوله تعالى (ماذا) هو مثل قوله تعالى " ماذا أراد الله بهذا " وقد ذكر (وكذلك يفعلون) من تمام الحكاية عنها ، وقيل هو مستأنف من الله تعالى .

قوله تعالى (اتمدوننى) بالإظهار على الأصل ، وبالإدغام لأنهما مثلان .

قوله تعالى (عفريت) التاء زائدة لأنه من العفر ، يقال: عفرية وعفريت ، وآتيك) فعل ، ويجوز أن يكون اسم فاعل ، و (مستقرا) أي ثابتا غير متقلقل وليس بمعنى الحصول المطلق ، إذ لو كان كذلك لم يذكر ، و (أأشكر أم أكفر) في موضع نصب: أي ليبلو شكرى وكفرى ، و (ننظر) بالجزم على الجواب ، وبالرفع على الاستئناف .

قوله تعالى (وصدها) الفاعل (ما كانت) وقيل ضمير اسم الله: أي وصدها الله عما كانت (إنها) بالكسر على الاستئناف ، وبالفتح أي لأنها أو على البدل من " ما " وتكون على هذا مصدرية ، و (ادخلي الصرح) أي في الصرح ، وقد ذكر نظيره (وأسلمت) أي وقد أسلمت .

قوله تعالى (فإذا هم) إذا هنا للمفاجأة ، فهى مكان ، وهم مبتدأ ، و (فريقان) الخبر ، و (يختصمون) صفة وهى العاملة في إذا ، و (اطيرنا) قد ذكر في الأعراف ، و (رهط) اسم للجمع ، فلذلك أضيف تسعة إليه ، و (يفسدون) صفة لتسعة أو لرهط .

قوله تعالى (تقاسموا) فيه وجهان: أحدهما هو أمر: أي أمر بعضهم بعضا

---

(1) قوله (حجزا) في القاموس: الحجز بالكسر وبضم: الناحية اه .

(*)

بذلك ، فعلى هذا يجوز في (لنبيتنه) النون تقديره: قولوا لنبيتنه ، والتاء على خطاب الآمر المأمور ، ولايجوز الياء .

والثانى هو فعل ماض فيجوز الأوجه الثلاثة ، وهو على هذا تفسير لقالوا ، و (مهلك) قد ذكر في الكهف .

قوله تعالى (كيف كان عاقبة) في كان وجهان: أحدهما هي الناقصة ، وعاقبة مرفوعة على أنها اسمها .

وفي الخبر وجهان: أحدهما كيف ، و (أنا دمرناهم) إن كسرت كان مستأنفا ، وهى مفسر لمعنى الكلام ، وإن فتحت فيه أوجه: أحدها أن يكون بدلا من العاقبة .

والثانى خبر مبتدإ محذوف: أي هي أنا دمرناهم .

والثالث أن يكون بدلا من كيف عند بعضهم ، وقال آخرون: لا يجوز ذلك لأن البدل من الاستفهام يلزم فيه إعادة حرفه كقولك: كيف زيد أصحيح أم مريض ؟ والرابع هو في موضع نصب: أي بأنا أو لأنا .

(216/574)

والوجه الثاني أن يكون خبر كان أنا دمرناهم إذا فتحت ، وإذا كسرت لم يجز لأنه ليس في الجملة ضمير يعود على عاقبة ، وكيف على

هذا حال ، والعامل فيها كان أو ما يدل عليه الخبر .

والوجه الثاني من وجهى كان أن تكون التامة ، وكيف على هذا حال غير ، وإنا دمرنا بالكسر مستأنف ، وبالفتح على ما تقدم إلا في كونها خبرا .

قوله تعالى (خاوية) هو حال من البيوت ، والعامل الإشارة ، والرفع جائز على ما ذكرنا في " هذا بعلى شيخا " و (بما) يتعلق بخاوية .

قوله تعالى (ولوطا) أي وأرسلنا لوطا ، و (شهوة) قد ذكر في الأعراف .

قوله تعالى (وسلام) الجملة محكمية أيضا ، وكذلك (آلله خير) أي قل ذلك كله .

قوله تعالى (ما كان لكم أن تنبتوا) الكلام كله نعت لحدائق ، ويجوز أن يكون مستأنفا ، و (خلالها) ظرف ، وهو المفعول الثاني ، و (بين البحرين) كذلك ، ويجوز أن ينتصب بين بحاجز : أي ما يحجز بين البحرين ، و (بشرا) قد ذكر في الأعراف .

قوله تعالى (من في السموات) فاعل يعلم ، و (الغيب) مفعوله ، و (إلا الله) بدل من " من " ومعناه لا يعلم أحد ، وقيل إلا بمعنى غير ، وهى صفة لمن .

قوله تعالى (بل ادارك) فيه قراءات : إحداها أدرك مثل أخرج ، ومنهم من يلقى حركة الهمزة على اللام .

والثانية بل أدرك على افتعل ، وقد ذكر في الأعراف .

والثالثة ادارك وأصله تدارك ، ثم سكنت التاء واجتلبت لها همزة الوصل .

والرابع

تدارك: أي تتابع علمهم في الآخرة: أي بالآخرة ، والمعنى ، بل تم علمهم بالآخرة لما قام عليه من الأدلة فما انتفعوا بل هم في شك ، و (منها) يتعلق ب (عمون) .

قوله تعالى (وآباؤنا) هو معطوف على الضمير في كنا من غير توكيد ، لأن المفعول فصل فجرى مجرى التوكيد .

قوله تعالى (عسى أن يكون) فأن يكون فاعل عسى ، واسم كان مضمر فيها أي أن يكون الشأن وما بعده في موضع نصب خبر كان ، وقد ذكر مثله في آخر الأعراف .

(217/574)

قوله تعالى (ردف لكم) الجمهور بكسر الدال ، وقرئ بالفتح وهى لغة ، واللام زائدة: أي ردفكم ، ويجوز أن لا تكون زائدة ، ويحمل الفعل على معنى دنا لكم ، أو قرب أجلكم ، والفاعل بعض .

قوله تعالى (ما تكن) من أكننت ، ويقرأ بفتح التاء وضم الكاف من كننت: أي سترت (ولا

تسمع) بالضم على إسناد الفعل إلى المخاطب (وما أنت بهادي العمى) على الإضافة ، وبالتنوين والنصب على إعمال اسم الفاعل ، وتهدى على أنه فعل ، و (عن) يتعلق بتهدى ، وعداه بعن لأن معناه تصرف ، ويجوز أن تتعلق بالعمى ، ويكون المعنى أن العمى صدر عن ضلالتهم .

قوله تعالى (تكلمهم) يقرأ بفتح التاء وكسر اللام مخففا بمعنى تسمهم وتعلم فيهم من كلمه إذا جرحه ، ويقرأ بالضم والتشديد ، وهو بمعنى الأولى إلا أنه شدد للتكثير ، ويجوز أن يكون من الكلام (إن الناس) بالكسر على الاستئناف وبالفتح أي تكلهم بأن الناس ، أو تخبرهم بأن الناس ، أو لأن الناس (ويوم نحشر) أي واذكر يوم ، وكذلك (ويوم ينفخ في الصور .

ففزع) بمعنى فيفزع (وكل أتوه) على الفعل وآتوه بالمد على أنه اسم ، و (داخرين) حال .

قوله تعالى (تحسبها) الجملة حال من الجبال أو من الضمير في ترى (وهى تمر) حال من الضمير المنصوب في تحسبها ، ولايكون حالا من الضمير في جامدة إذ لا يستقيم أن تكون جامدة مارة مر السحاب ، والتقدير: مرا مثل مر السحاب ، و (صنع الله) مصدر عمل فيه مادل عليه تمر ، لأن ذلك من صنعه سبحانه ، فكأنه قال: أصنع ذلك صنعا .

وأظهر الاسم لما لم يذكر .

قوله تعالى (خير منها) يجوز أن يكون المعنى أفضل منها فيكون " من " في موضع نصب ، ويجوز أن يكون بمعنى فضل فيكون " منها " في موضع رفع صفة

لخير: أي فله خبر حاصل بسببها (من فزع) بالتنوين (يومئذ) بالنصب، ويقرأ " من فزع يومئذ " بالأضافة، وقد ذكر مثله في هود عند قوله " ومن خزى يومئذ " .

قوله تعالى (هل يجزون) أي يقال لهم، وهو في موضع نصب على الحال: أي فكبت وجوههم مقولا لهم هل يجزون.

قوله تعالى (الذى حرمها) هو صفة لرب، وقرئ التى على الصفة للبلدة، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 171.176 ﴾

(218/574)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة النمل

[سورة النمل (27): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (1) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4)

"طس" من الحروف النورانية لا إعراب لها "تِلْكَ" مبتدأ "آياتُ" خبر "الْقُرْآنِ" مضاف إليه والجملة ابتدائية "وَكِتابٍ" معطوف على القرآن "مُبِينٍ" صفة "هُدىً" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي هدى أو منصوبة على الحال "وَبُشْرى" معطوف على هدى "لِلْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بصفة محذوفة لبشرى أو لهدى "الَّذِينَ" اسم الموصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم الذين "يُقِيمُونَ الصَّلاةَ" مضارع وفاعل ومفعول به والجملة صلة "وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ" مضارع وفاعل ومفعول به والجملة معطوفة "وَهُمْ" الواو واو الحال وهم مبتدأ "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بالفعل بعدهما "يُوقِنُونَ" الجملة خبر وجملة هم يوقنون في محل نصب على الحال "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم الموصول اسمها والجملة مستأنفة "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ويؤمنون مضارع وفاعل والجملة صلة الموصول "بِالْآخِرَةِ" متعلقان بيؤمنون "زَيَّنَّا" ماض وفاعل والجملة خبر إن "لَهُمْ" متعلقان بزينا "أَعْمالَهُمْ" مفعول به والهاء مضاف إليه "فَهُمْ" الفاء عاطفة وهم مبتدأ والجملة معطوفة "يَعْمَهُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر المبتدأ .

[سورة النمل (27) : الآيات 5 الى 7]

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7)

"أُوْلَئِكَ" اسم الإشارة مبتدأ والكاف للخطاب والجملة ابتدائية "الَّذِينَ" اسم الموصول خبر "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "سُوءُ" مبتدأ مؤخر "الْعَذابِ" مضاف إليه والجملة صلة "وَهُمْ" الواو واو الحال وهم مبتدأ والجملة حالية "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بالأخسرون "هُمْ" ضمير فصل "الْأَخْسَرُونَ" خبر المبتدأ "وَإِنَّكَ" الواو استئنافية وإن واسمها "لَتُلَقَّى" اللام المزحلقة وتلقى مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره أنت وهو المفعول الأول "الْقُرْآنَ" مفعول به ثان والجملة خبر "مِنْ لَدُنْ" متعلقان بتلقى "حَكِيمٍ" مضاف إليه "عَلِيمٍ" بدل من حكيم "إِذْ" ظرف متعلق بفعل محذوف "قالَ مُوسى" الجملة مضاف إليه "لِأَهْلِهِ" متعلقان بقال "إِنِّي آنَسْتُ" إن واسمها والجملة مقول القول وجملة آنست خبر "ناراً" مفعول به "سَآتِيكُمْ" مضارع والكاف مفعول به فاعله مستتر "مِنْها بِخَبَرٍ" كلاهما متعلقان بالفعل سآتيكم "أَوْ آتِيكُمْ" مضارع ومفعول به وفاعله مستتر والجملة معطوفة "بِشِهابٍ" متعلقان بآتيكم "قَبَسٍ" بدل من شهاب "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها والجملة تعليلية أو حالية "تَصْطَلُونَ" الجملة خبر لعل.

[سورة النمل (27) : الآيات 8 الى 10]

فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (8) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما ظرفية حينية "جاءَها" ماض فاعله مستتر وها مفعول به والجملة مضاف إليه "نُودِيَ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة لا محل لها جواب شرط غير جازم "أَنْ" مفسرة "بُورِكَ" ماض مبني للمجهول والكاف مفعول به والجملة مفسرة لا محل لها "مَنْ" اسم موصول نائب فاعل "فِي النَّارِ" متعلقان بمحذوف صلة "وَمَنْ" معطوف على من التي قبلها "حَوْلَها" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة والهاء مضاف إليه "وَسُبْحانَ اللَّهِ" الواو استئنافية وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف ولفظ الجلالة مضاف إليه "رَبِّ" بدل من الله "الْعالَمِينَ" مضاف إليه "يا مُوسى" يا أداة نداء وموسى منادى مفرد علم "إِنَّهُ" إن واسمها "أَنَا اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ وأنا خبر والجملة خبر إن "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" خبران آخران للمبتدأ "وَأَلْقِ عَصاكَ" أمر فاعله مستتر ومفعول به والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "فَلَمَّا رَآها" لما ظرفية شرطية غير جازمة "رَآها"

ماض وفاعله مستتر والها مفعول به والجملة مضاف إليه "تَهْتَزُّ" الجملة حالية "كَأَنَّها جَانٌّ" كأن واسمها وخبرها والجملة حالية "وَلَّى مُدْبِراً" ماض فاعله مستتر ومدبرا حال "وَلَمْ يُعَقِّبْ" الجملة معطوفة "يا مُوسى" منادى بيا "لا تَخَفْ" لا ناهية ومضارع مجزوم "إِنِّي" إن واسمها "لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ" مضارع وفاعله ولدي ظرف متعلق بالفعل والجملة مستأنفة.

[سورة النمل (27) : الآيات 11 الى 13]

(221/574)

إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (13)

"إِلَّا" أداة استثناء بمعنى لكن "مَنْ" اسم موصول مستثنى بإلا في محل نصب "ظَلَمَ" الجملة صلة "ثُمَّ بَدَّلَ" الجملة معطوفة "حُسْناً" مفعول به "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بصفة محذوفة لحسنا "سُوءٍ" مضاف إليه "فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ" إن واسمها وخبراها والجملة مستأنفة "وَأَدْخِلْ يَدَكَ" أمر فاعله مستتر ومفعول به والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "فِي

جَيْبِكَ" متعلقان بأدخل "تَخْرُجْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وفاعله مستتر "بَيْضاءَ" حال "مِنْ غَيْرِ" متعلقان ببيضاء "سُوءٍ" مضاف إليه "فِي تِسْعِ" متعلقان بفعل محذوف تقديره اذهب في تسع "آياتٍ" مضاف إليه "إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان بالفعل المحذوف "وَقَوْمِهِ" معطوف على فرعون والهاء مضاف إليه "إِنَّهُمْ" إن واسمها والجملة مستأنفة "كانُوا" كان واسمها والجملة خبر إن "قَوْماً" خبر كان "فاسِقِينَ" صفة "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما ظرفية شرطية "جاءَتْهُمْ آياتُنا" ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر والجملة مضاف إليه ونا مضاف إليه "مُبْصِرَةً"

إ

حال "قالُوا" الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "هذا سِحْرٌ" الها للتنبيه واسم الإشارة مبتدأ وسحر خبره والجملة مقول القول "مُبِينٌ" صفة.

[سورة النمل (27) : الآيات 14 الى 16]

(222/574)

وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)
وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ

(15) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)

(223/574)

"وَجَحَدُوا" الجملة معطوفة على قالوا "بِها" متعلقان بجحدوا "وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ" ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وهم مضاف إليه والجملة معطوفة "ظُلْماً" مفعول لأجله "وَعُلُوًّا" عطف على ظلما "فَانْظُرْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر "كَيْفَ" اسم استفهام خبر مقدم لكان "كانَ عاقِبَةُ" كان واسمها وجملة كيف في محل نصب مفعول به لانظر "الْمُفْسِدِينَ" مضاف إليه "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب القسم "آتَيْنا داوُدَ" ماض وفاعل ومفعول به أول والجملة جواب قسم لا محل لها "وَسُلَيْمانَ" عطف على داود "عِلْماً" مفعول به ثان "وَقالا" الجملة معطوفة على محذوف تقديره عملا فقالا "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "الَّذِي" اسم الموصول صفة "فَضَّلَنا" الجملة صلة "عَلى كَثِيرٍ" متعلقان بفضلنا "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بصفة لكثير "الْمُؤْمِنِينَ" صفة "وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة مستأنفة "وَقالَ" الجملة معطوفة "يا أَيُّهَا" يا أداة نداء وأيها منادى "النَّاسُ" بدل من أي أو

عطف بيان "عُلِّمْنا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل وهو مفعول أول "مَنْطِقَ" مفعول به ثان "الطَّيْرِ" مضاف إليه "وَأُوتِينا" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة معطوفة "مِنْ كُلِّ" متعلقان بأوتينا "شَيْءٍ" مضاف إليه "إِنَّ هذا" إن واسم الإشارة اسمها "لَهُوَ" اللام المزحلقة وهو ضمير فصل "الْفَضْلُ" خبر إن "الْمُبِينُ" صفة والجملة مستأنفة.

[سورة النمل (27) : الآيات 17 الى 19]

(224/574)

وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

"وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل ولسليمان متعلقان بحشر والجملة مستأنفة "مِنَ الْجِنِّ" متعلقان بحال من جنوده "وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ" معطوف على الجن "فَهُمْ يُوزَعُونَ" الفاء الفصيحة والجملة بعدها جواب شرط مقدر وهم مبتدأ ويوزعون

مضارع مبني للمجهول ونائب فاعل والجملة خبر "حَتَّى" حرف غاية "إِذا" ظرف متضمن معنى الشرط "أَتَوْا" الجملة مضاف إليه "عَلى وادِ" متعلقان بأتوا وحذفت الياء لالتقاء الساكنين "النَّمْلِ" مضاف إليه "قالَتْ نَمْلَةٌ" الجملة لا

(225/574)

محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "يا أَيُّهَا النَّمْلُ" منادى بيا والنمل بدل من أي "ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ" أمر وفاعله ومفعوله والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول "لا يَحْطِمَنَّكُمْ" لا ناهية والمضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والكاف مفعول به مقدم "سُلَيْمانُ" فاعل مؤخر "وَجُنُودُهُ" معطوف "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" الواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يشعرون خبر والجملة حالية "فَتَبَسَّمَ" الفاء استئنافية ماض فاعله مستتر "ضاحِكاً" حال "مِنْ قَوْلِها" متعلقان بالحال "وَقالَ" الجملة معطوفة على تبسم وهو معطوف على محذوف تقديره فسمع فتبسم "رَبِّ" منادى بأداة محذوفة وهو مضاف لياء المتكلم المحذوفة "أَوْزِعْنِي" فعل دعاء ومفعول به أول فاعله مستتر وجملة النداء وما بعدها مقول القول "أَنْ أَشْكُرَ" أن ناصبة والمضارع منصوب بأن فاعله مستتر "نِعْمَتَكَ" مفعول به وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول به ثان "الَّتِي" صفة لنعمتك "أَنْعَمْتَ"

الجملة صلة "عَلَيَّ" متعلقان بأنعمت "وَعَلى والِدَيَّ" عطف على ما سبق "وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً" أن ومضارع منصوب فاعله مستتر وصالحا صفة لمفعول مطلق محذوف والجملة معطوفة "تَرْضاهُ" مضارع فاعله مستتر ومفعول به والجملة صفة ثانية للمفعول المطلق المحذوف "وَأَدْخِلْنِي" فعل دعاء فاعله مستتر والياء مفعول به والجملة معطوفة "بِرَحْمَتِكَ" متعلقان بأدخلني والكاف مضاف إليه "فِي عِبادِكَ" متعلقان بأدخلني والكاف مضاف إليه "الصَّالِحِينَ" صفة لعبادك.

[سورة النمل (27) : الآيات 20 الى 21]

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (21)

(226/574)

"وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ" ماض فاعله مستتر ومفعول به والجملة مستأنفة "فَقالَ" الجملة معطوفة "ما" اسم استفهام مبتدأ "لِيَ" متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "لا أَرَى الْهُدْهُدَ" لا نافية والمضارع فاعله مستتر والهدهد مفعول به والجملة حالية "أَمْ" حرف إضراب وتسمى منقطعة "كانَ" ناقصة واسمها ضمير مستتر "مِنَ الْغائِبِينَ" متعلقان بالخبر والجملة مقول

القول "لَأُعَذِّبَنَّهُ" اللام واقعة في جواب قسم مقدر والمضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة لا محل لها "عَذاباً" مفعول مطلق "شَدِيداً" صفة "أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ" كإعراب لأعذبنه الجملة معطوفة "أَوْ لَيَأْتِيَنِّي" الجملة معطوفة "بِسُلْطانٍ" متعلقان بيأتيني "مُبِينٍ" صفة.

[سورة النمل (27) : الآيات 22 الى 24]

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (24)

"فَمَكَثَ" الفاء استئنافية وماض فاعله مستتر "غَيْرَ بَعِيدٍ" الظرف متعلق بمكث وبعيد مضاف إليه "فَقالَ"

(227/574)

الجملة مستأنفة "أَحَطْتُ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "بِما" متعلقان بأحطت "لَمْ تُحِطْ" المضارع مجزوم بلم والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بتحط "وَجِئْتُكَ" ماض وفاعل

ومفعول به والجملة معطوفة "مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ" كلاهما متعلقان بجئتك "يَقِينٍ" صفة "إِنِّي" إن واسمها والجملة تعليلية "وَجَدْتُ" ماض وفاعله والجملة خبر "امْرَأَةً" مفعول به "تَمْلِكُهُمْ" مضارع فاعله مستتر ومفعول به والجملة صفة لامرأة "وَأُوتِيَتْ" الجملة معطوفة وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "مِنْ كُلِّ" متعلقان بأوتيت "شَيْءٍ" مضاف إليه "وَلَها" الواو واو الحال ومتعلقان بخبر مقدم "عَرْشٌ" مبتدأ مؤخر والجملة في محل نصب على الحال "عَظِيمٌ" صفة "وَجَدْتُها" ماض وفاعل ومفعول به أول والجملة مستأنفة "وَقَوْمَها" معطوف على المفعول به "يَسْجُدُونَ" الجملة في محل نصب مفعول به ثان "لِلشَّمْسِ" "مِنْ دُونِ" كلاهما متعلقان بيسجدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله ولهم متعلقان بزين والجملة معطوفة "فَصَدَّهُمْ" ماض ومفعول به وفاعله مستتر "عَنِ السَّبِيلِ" متعلقان بصدهم والجملة معطوفة "فَهُمْ" مبتدأ والجملة معطوفة "لا يَهْتَدُونَ" الجملة خبر.

[سورة النمل (27) : الآيات 25 الى 28]

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (28)

"أَلَّا" ناصبة ولا زائدة "يَسْجُدُوا" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل وأن وما بعدها في تأويل مصدر مجرور بلام التعليل المحذوفة وهما متعلقان بزين "لِلَّهِ" متعلقان بالفعل قبلهما "الَّذِي" اسم موصول بدل من لفظ الجلالة "يُخْرِجُ الْخَبْءَ" مضارع فاعله مستتر ومفعول به والجملة صلة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بالخبء "وَالْأَرْضِ" معطوفة على السموات "وَيَعْلَمُ" الجملة معطوفة "ما" اسم موصول مفعول به "تُخْفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "وَما تُعْلِنُونَ" الجملة معطوفة على ما قبلها "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسم لا "إِلَّا" أداة حصر وخبر لا محذوف تقديره موجود "هُوَ" بدل من اسم لا "رَبُّ" خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو رب "الْعَرْشِ" مضاف إليه "الْعَظِيمِ" صفة والجملة مستأنفة كسابقتها "قالَ" الجملة مستأنفة سننظر مضارع مرفوع وفاعله مستتر والجملة مقول القول "أَصَدَقْتَ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعل والجملة مقول القول "أَمْ" عاطفة "كُنْتَ" كان واسمها "مِنَ الْكاذِبِينَ" متعلقان بالخبر والجملة معطوفة "اذْهَبْ" الجملة مقول القول "بِكِتابِي" متعلقان بالفعل "هذا" صفة "فَأَلْقِهْ" أمر وفاعل مستتر ومفعول به والجملة معطوفة "إِلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "ثُمَّ تَوَلَّ" ثم حرف عطف وأمر فاعله مستتر "فَانْظُرْ" الجملة معطوفة "ما" ما اسم استفهام مبتدأ "ذا" اسم إشارة خبره

"يَرْجِعُونَ" الجملة صلة الموصول .

[سورة النمل (27) : الآيات 29 الى 32]

(229/574)

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

"قالَتْ" الجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبنية على الضم "الْمَلَأُ" بدل أو عطف بيان والجملة مقول القول "إِنِّي" إن واسمها والجملة مقول القول "أُلْقِيَ" ماض مبني للمجهول "إِلَيَّ" متعلقان بألقي "كِتابٌ" نائب فاعل "كَرِيمٌ" صفة والجملة خبر إن "إِنَّهُ" إن واسمها "مِنْ سُلَيْمانَ" متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "وَإِنَّهُ" إن واسمها "بِسْمِ" متعلقان بفعل محذوف تقديره ابتدئ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ" بدلان من لفظ الجلالة قوله بسم اللّه إلخ . . . والجملة خبر إنه على الحكاية "أَلَّا" أن ناصبة "لا" نافية "تَعْلُوا" مضارع منصوب بحذف النون والواو فاعل وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل رفع بدل من كتاب "عَلَيَّ" متعلقان بتعلوا "وَأْتُونِي" أمر وفاعله والنون للوقاية

والياء مفعول به "مُسْلِمِينَ" حال والجملة معطوفة "قالَتْ" الجملة مستأنفة "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى "الْمَلَأُ" بدل وجملة النداء مقول القول "أَفْتُونِي" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "فِي أَمْرِي" متعلقان بأفتوني "ما" نافية "كُنْتُ قاطِعَةً" كان واسمها وخبرها والجملة تعليلية لا محل لها "أَمْراً" مفعول به لقاطعة وفاعلها مستتر "حَتَّى" حرف غاية وجر "تَشْهَدُونِ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى وعلامة نصبه حذف النون والياء المحذوفة مفعول به وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحتى متعلقان بقاطعة.

[سورة النمل (27) : الآيات 33 الى 35]

(230/574)

قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (33) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

"قالُوا" الجملة مستأنفة "نَحْنُ" مبتدأ "أُولُوا" خبر مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع الذكر السالم ""قُوَّةٍ" مضاف إليه "وَأُولُوا" معطوف على أولو "بَأْسٍ" مضاف إليه "شَدِيدٍ" صفة والجملة مقول القول "وَالْأَمْرُ" الواو حالية والأمر مبتدأ "إِلَيْكِ" متعلقان بالخبر والجملة حالية

"فَانْظُرِي" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والياء فاعل "ما ذا" اسم استفهام في محل نصب مفعول به لانظري والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط مقدر "تَأْمُرِينَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة سدت مسد مفعول انظري "قالَتْ" الجملة مستأنفة "إِنَّ الْمُلُوكَ" إن واسمها والجملة مقول القول "إِذا" ظرفية شرطية "دَخَلُوا" الجملة مضاف إليه "قَرْيَةً" مفعول به لدخلوا "أَفْسَدُوها" ماض وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا "وَجَعَلُوا" الجملة معطوفة على جملة أفسدوها "أَعِزَّةَ" مفعول به أول "أَهْلِها" مضاف إليه "أَذِلَّةً" مفعول به ثان "وَكَذلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق مقدر "يَفْعَلُونَ" الجملة مستأنفة "وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ" إن واسمها وخبرها "إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ" كلاهما متعلقان بمرسلة "فَناظِرَةٌ" معطوف على مرسلة "بِمَ" الباء حرف جر وما اسم استفهام متعلقان بالفعل بعدهما "يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ" الجملة سدت مسد مفعولي ناظرة.

[سورة النمل (27) : الآيات 36 الى 38]

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (37) قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38)

(232/574)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية لما ظرفية شرطية "جاءَ سُلَيْمانَ" ماض فاعله مستتر وسليمان مفعوله والجملة مضاف إليه "قالَ" الجملة جواب شرط غير جازم "أَتُمِدُّونَنِ" الهمزة للاستفهام ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة مقول القول "بِمالٍ" متعلقان بتمدونني "فَما" الفاء عاطفة وما موصولية مبتدأ "آتانِيَ اللَّهُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة صلة "خَيْرٌ" خبر المبتدأ ما والجملة معطوفة "مِمَّا" متعلقان بخير "آتاكُمْ" ماض فاعله مستتر ومفعول به والجملة صلة "بَلْ" حرف عطف "أَنْتُمْ" مبتدأ "بِهَدِيَّتِكُمْ" متعلقان بتفرحون "تَفْرَحُونَ" الجملة خبر المبتدأ "ارْجِعْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِلَيْهِمْ" متعلقان بارجع "فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ" الفاء استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف والمضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والهاء مفعول به "بِجُنُودٍ" متعلقان بنأتينهم "لا" نافية للجنس "قِبَلَ" اسمها

"لَهُمْ" متعلقان بالخبر "بِها" متعلقان بقبل والجملة صفة لجنود "وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ" معطوف على لنأتينهم "مِنْها" متعلقان بنخرجنهم "أَذِلَّةً" حال "وَهُمْ صاغِرُونَ" مبتدأ وخبر والجملة حال "قالَ" الجملة مستأنفة "يا أَيُّهَا" نداء والجملة مقول القول "الْمَلَؤُا" بدل "أَيُّكُمْ" أي اسم استفهام مبتدأ "يَأْتِينِي" مضارع فاعله مستتر والياء مفعول به والجملة خبر "بِعَرْشِها" متعلقان بيأتيني "قَبْلَ" ظرف متعلق بالفعل "أَنْ" حرف ناصب "يَأْتُونِي" مضارع منصوب بحذف النون والنون للوقاية وفاعله ومفعوله وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه "مُسْلِمِينَ" حال.

[سورة النمل (27) : الآيات 39 الى 40]

(233/574)

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

"قالَ عِفْرِيتٌ" الجملة مستأنفة "مِنَ الْجِنِّ" متعلقان بصفة لعفريت "أَنَا" مبتدأ "آتِيكَ"

مضارع فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة خبر ويجوز إعرابه خبرا لأنه اسم فاعل "بِهِ" متعلقان بآتيك "قَبْلَ"

(234/574)

متعلق بآتيك "أَنْ تَقُومَ" مضارع منصوب بأن والجملة من أن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر مضاف إليه "مِنْ مَقامِكَ" متعلقان بتقوم "وَإِنِّي" الواو حالية إن واسمها والجملة في محل نصب على الحال "عَلَيْهِ" متعلقان بقوي "لَقَوِيٌّ أَمِينٌ" اللام المزحلقة وقوي أمين خبران لإن "قالَ الَّذِي" اسم الموصول فاعل والجملة مستأنفة "عِنْدَهُ" ظرف مكان متعلق بخبر مقدم "عِلْمٌ" مبتدأ مؤخر والجملة صلة "مِنَ الْكِتابِ" متعلقان بصفة لعلم "أَنَا" مبتدأ "آتِيكَ" الجملة خبر "بِهِ" و "قَبْلَ" كلاهما متعلقان بآتيك والجملة مقول القول "أَنْ يَرْتَدَّ" مضارع منصوب بأن المصدر المؤول مضاف إليه "إِلَيْكَ" متعلقان بتقوم "طَرْفُكَ" فاعل يرتد "فَلَمَّا" الفاء عاطفة على محذوف مقدر ولما ظرفية "رَآهُ" ماض ومفعوله الجملة مضاف إليه "مُسْتَقِرًّا" حال "عِنْدَهُ" متعلق بمستقرا "قالَ" الجملة جواب شرط غير جازم "هذا" مبتدأ "مِنْ فَضْلِ" متعلقان بالخبر "رَبِّي" مضاف إليه والجملة مقول القول "لِيَبْلُوَنِي" اللام لام التعليل والمضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر والياء مفعول به

"أَأَشْكُرُ" الهمزة للاستفهام وجملة أشكر مفعول به ليبلوني والتقدير ليبلو شكري "أَمْ أَكْفُرُ" معطوف على ما قبله "وَمَنْ شَكَرَ" من موصول مبتدأ وجملة شكر صلة "فَإِنَّما" الفاء زائدة وإنما كافة ومكفوفة "يَشْكُرُ" الجملة خبر المبتدأ "لِنَفْسِهِ" متعلقان بيشكر "وَمَنْ كَفَرَ" من اسم شرط جازم مبتدأ وكفر ماض فاعله مستتر "فَإِنَّ" الفاء واقعة في جواب الشرط وإن حرف مشبه بالفعل "رَبِّي" اسم إن والياء مضاف إليه "غَنِيٌّ كَرِيمٌ" خبران لإن والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ .

[سورة النمل (27) : آية 41]

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (41)

(235/574)

"قالَ" الجملة مستأنفة "نَكِّرُوا" الجملة مقول القول "لَها" متعلقان بنكروا "عَرْشَها" مفعول به أي غيروه والجملة مقول القول "نَنْظُرْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب وقرىء بالرفع على الاستئناف "أَتَهْتَدِي" الهمزة للاستفهام والمضارع مرفوع فاعله مستتر والجملة مفعول به لننظر "أَمْ" عاطفة "تَكُونُ" مضارع ناقص والجملة معطوفة على تهتدي واسمها محذوف "مِنَ الَّذِينَ" متعلقان بمحذوف خبر "لا يَهْتَدُونَ" لا نافية والمضارع مرفوع بثبوت النون

والواو فاعل والجملة صلة.

[سورة النمل (27) : الآيات 42 الى 43]

فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)

وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (43)

"فَلَمَّا" الفاء عاطفة "لما" ظرفية شرطية "جاءَتْ" الجملة مضاف إليه "قِيلَ" ماض مبني للمجهول "أَهكَذا عَرْشُكِ" الهمزة للاستفهام "هكَذا" الها للتنبيه والكاف حرف جر والكاف واسم الإشارة متعلقان بمحذوف خبر مقدم وعرشك مبتدأ مؤخر والكاف مضاف إليه "قالَتْ" الجملة مستأنفة "كَأَنَّهُ" كأن واسمها "هُوَ" خبر كأن والجملة مقول القول "وَأُوتِينَا" ماض ونائب فاعل والجملة معطوفة على كانه

هو "الْعِلْمَ" مفعول به ثان "مِنْ قَبْلِها" متعلقان بأوتينا والها مضاف إليه والجملة معطوفة "وَكُنَّا مُسْلِمِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة معطوفة "وَصَدَّها" الواو عاطفة وماض ومفعوله "ما" اسم موصول فاعل "كانَتْ" كان واسمها محذوف والجملة صلة "تَعْبُدُ" الجملة خبر كانت "مِنْ دُونِ" متعلقان بتعبد "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه وجملة "صَدَّها . ."

معطوفة على جملة أوتينا "إِنَّها" إن واسمها والجملة مستأنفة "كانَتْ" كان فعل ماض ناقص والتاء تاء التأنيث الساكنة واسمها محذوف تقديره هي "مِنْ قَوْمٍ" متعلقان بكافرين "كافِرِينَ" خبر كان والجملة خبر إنها .

[سورة النمل (27) : آية 44]

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (44)

"قِيلَ"

ماض مبني للمجهول والجملة مستأنفة "لَهَا"

متعلقان بقيل "ادْخُلِي الصَّرْحَ"

أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "لَمَّا"

الفاء عاطفة على محذوف مقدر تقديره دخلته فلما رأته ولما ظرفية شرطية "رَأَتْهُ"

ماض فاعله مستتر ومفعول به والجملة مضاف إليه "حَسِبَتْهُ لُجَّةً"

فعل ماض فاعله مستتر ومفعول به أول ولجة مفعول به ثان والجملة جواب شرط لا محل لها "كَشَفَتْ"

الجملة معطوفة "عَنْ ساقَيْها"

متعلقان بكشفت وعلامة جره الياء لأنه مثنى "ال"

الجملة مستأنفةٌ نَّهُ صَرْحٌ"

إن واسمها وخبرها مُرَدَّدٌ"

صفةٌ نْ قَوارِيرَ"

متعلقان بصفة ثانية والجملة مقول القول الَتْ"

الجملة مستأنفةٌ بِّ"

منادى بأداة نداء محذوفة والجملة مقول القول نِّي"

إن واسمها لَّمْتُ"

ماض وفاعل فْسِي"

(237/574)

مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه والجملة خبر إني وجملة إني وخبرها مقول القول

أَسْلَمْتُ"

الجملة معطوفة على ظلمتَ عَ"

ظرف مكان متعلق بأسلمتُ لَيْمانَ"

مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرفِ لَهِ"

متعلقان بأسلمتَ بِّ"

بدل لْعالَمِينَ"

مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

[سورة النمل (27) : الآيات 45 الى 47]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

"وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق

"أَرْسَلْنا" ماض وفاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم "إِلى ثَمُودَ" متعلقان بأرسلنا

"أَخاهُمْ" مفعول به منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة والهاء مضاف إليه "صالِحاً"

بدل "أَنِ" حرف تفسير "اعْبُدُوا" أمر وفاعله "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة لا محل

لها لأنها تفسيرية "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا الفجائية

"هُمْ" مبتدأ "فَرِيقانِ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "يَخْتَصِمُونَ" الجملة في محل رفع خبر ثان للمبتدأ هم "قالَ" الجملة مستأنفة "يا قَوْمِ" منادى مضاف وياء المتكلم المحذوفة مضاف إليه والجملة مقول القول "لِمَ" اللام حرف جر وما استفهامية حذف ألفها وهما متعلقان بتستعجلون "تَسْتَعْجِلُونَ" مضارع وفاعله "بِالسَّيِّئَةِ" متعلقان بتستعجلون "قَبْلَ" ظرف متعلق بمحذوف حال "الْحَسَنَةِ" مضاف إليه "لَوْلا" حرف تحضيض "تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ" مضارع وواو الجماعة فاعل ولفظ الجلالة مفعول به "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تُرْحَمُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر لعل "قالُوا" الجملة مستأنفة "اطَّيَّرْنا" ماض وفاعله الجملة مقول القول "بِكَ" متعلقان باطيرنا "وَبِمَنْ" الجار والمجرور معطوفان على بك "مَعَكَ" ظرف متعلق بصلة الموصول من "قالَ" الجملة مستأنفة "طائِرُكُمْ" مبتدأ "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف متعلق بالخبر ولفظ الجلالة مضاف إليه "بَلْ" حرف إضراب "أَنْتُمْ" مبتدأ "قَوْمٌ" خبر "تُفْتَنُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة صفة قوم.

[سورة النمل (27) : الآيات 48 الى 49]

وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (48) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (49)

"وَكانَ" الواو استئنافية "فِي الْمَدِينَةِ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "تِسْعَةُ" اسم كان المؤخر والجملة مستأنفة "رَهْطٍ" مضاف إليه "يُفْسِدُونَ" الجملة في محل جر صفة لرهط "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيفسدون "وَلا يُصْلِحُونَ" الواو عاطفة ولا نافية ويصلحون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة ثانية "قالُوا" الجملة مستأنفة "تَقاسَمُوا" أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والجملة مقول القول "بِاللَّهِ" متعلقان بتقاسموا "لَنُبَيِّتَنَّهُ" اللام واقعة في جواب القسم والمضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والهاء مفعول به والجملة لا محل لها من الإعراب "وَأَهْلَهُ" الواو حرف عطف وأهله معطوف على الهاء من لنبيتنه والهاء مضاف إليه "ثُمَّ" عاطفة "لَنَقُولَنَّ" الجملة معطوفة "لِوَلِيِّهِ" متعلقان بنقولن "ما" نافية "شَهِدْنا مَهْلِكَ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة مقول القول "أَهْلَهُ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "وَإِنَّا لَصادِقُونَ" الواو حالية وإن واسمها وخبرها واللام المزحلقة والجملة حالية.

[سورة النمل (27) : الآيات 50 الى 53]

وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (53)

"وَمَكَرُوا" الواو عاطفة وماض وفاعل "مَكْراً" مفعول مطلق والجملة معطوفة على جملة قالوا "وَمَكَرْنا مَكْراً" والجملة معطوفة "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" الواو حالية والجملة بعدها حالية وهم مبتدأ وجملة لا

(240/574)

يشعرون خبر "فَانْظُرْ" الفاء استئنافية وانظر أمر فاعله مستتر وجملة انظر مستأنفة "كَيْفَ" خبر كان المقدم "كانَ عاقِبَةُ" كان واسمها "مَكْرِهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه والجملة مفعول به لانظر "أَنَّا" أن واسمها والجملة مستأنفة "دَمَّرْناهُمْ" ماض وفاعل ومفعول به والجملة خبر أن "وَقَوْمَهُمْ" معطوفة على الهاء من دمرناهم "أَجْمَعِينَ" توكيد لمفعول دمرناهم منصوب بالياء "فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ" الفاء استئنافية وتلك مبتدأ بيوتهم خبر والهاء مضاف إليه "خاوِيَةً" حال والجملة مستأنفة "بِما" الباء للسببية وما مصدرية وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر متعلقان بخاوية "ظَلَمُوا" ماض وفاعل "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" حرف الجر واسم الإشارة متعلقان بخبر إن المقدم "لَآيَةً" اللام المزحلقة وآية اسم إن "لِقَوْمٍ" متعلقان بمحذوف صفة لآية "يَعْلَمُونَ" الجملة في محل جر صفة قوم وجملة إن واسمها وخبرها مستأنفة "وَأَنْجَيْنَا" ماض وفاعل والجملة معطوفة "الَّذِينَ" اسم

موصول مفعول به "آمَنُوا" الجملة صلة "وَكانُوا" الواو عاطفة وكان واسمها والجملة معطوفة "يَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل ومفعوله محذوف والجملة خبر كان.

[سورة النمل (27) : آية 54]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54)

"وَلُوطاً" الواو حرف استئناف ومفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر "إِذْ" ظرف زمان متعلق باذكر "قالَ" ماض فاعله مستتر "لِقَوْمِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "أَتَأْتُونَ" الهمزة حرف استفهام وتوبيخ ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله "الْفاحِشَةَ" مفعول به والجملة مقول القول. "وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ" الواو حالية ومبتدأ ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية حال.

[سورة النمل (27) : آية 55]

أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

"أَإِنَّكُمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري وإن واسمها "لَتَأْتُونَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر إن "الرِّجالَ" مفعول به "شَهْوَةً" مفعول لأجله

"مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "النِّساءِ" مضاف إليه "بَلْ" حرف عطف وانتقال "أَنْتُمْ قَوْمٌ" مبتدأ وخبره "تَجْهَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية صفة قوم.

[سورة النمل (27) : آية 56]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56)

"فَما" الفاء حرف استئناف وما نافية "كانَ" ماض ناقص "جَوابَ قَوْمِهِ" خبر كان المقدم وقومه مضاف إليه "إِلَّا" حرف حصر "أَنْ" حرف مصدري ونصب "قالُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول من أن والفعل اسم كان المؤخر. "أَخْرِجُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "آلَ" مفعول به مضاف إلى "لُوطٍ" "مِنْ قَرْيَتِكُمْ" متعلقان بالفعل "إِنَّهُمْ" إن واسمها و"أُناسٌ" خبرها والجملة تعليل "يَتَطَهَّرُونَ" مضارع وفاعله والجملة صفة أناس.

[سورة النمل (27) : آية 57]

فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (57)

"فَأَنْجَيْناهُ" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة لا محل لها "أَهْلَهُ" معطوف على الضمير المنصوب "إِلَّا" حرف استثناء "امْرَأَتَهُ" مستثنى بإلا "قَدَّرْناها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة حال "مِنَ الْغابِرِينَ" متعلقان بالفعل.

[سورة النمل (27) : آية 58]

وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

"وَأَمْطَرْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "مَطَراً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "فَساءَ" الفاء حرف عطف وماض و"مَطَرُ" فاعله المضاف إلى "الْمُنْذَرِينَ" والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة النمل (27) : آية 59]

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59)

"قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بالخبر المحذوف والجملة مقول القول . "وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ" الواو حرف عطف ومبتدأ والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة على ما قبلها ، "الَّذِينَ" صفة عباده "اصْطَفى" ماض فاعله مستتر والجملة صلة الموصول "آللَّهُ خَيْرٌ" الهمزة حرف استفهام وتوبيخ ولفظ الجلالة مبتدأ وخير خبره والجملة مستأنفة لا محل لها . "أم" حرف عطف "ما" اسم موصول معطوف على لفظ الجلالة "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة ما .

[سورة النمل (27) : آية 60]

أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)

"أم" حرف إضراب بمعنى بل "من" اسم موصول مبتدأ خبره محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها .

"خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات والجملة صلة من

(243/574)

"وَأَنْزَلَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بمحذوف حال "ماءً" مفعول به "فَأَنْبَتْنا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "بِهِ" متعلقان بالفعل "حَدائِقَ" مفعول به "ذاتَ بَهْجَةٍ" صفة مضافة إلى بهجة "ما" نافية "كانَ" ماض ناقص "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم "أَنْ تُنْبِتُوا" مضارع منصوب بأن والواو فاعله "شَجَرَها" مفعول به والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل رفع اسم كان المؤخر وجملة ما كان . . صفة حدائق "أَإِلهٌ" الهمزة حرف استفهام توبيخي ومبتدأ "مَعَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف

خبر المبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "بَلْ" حرف إضراب "هُمْ قَوْمٌ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "يَعْدِلُونَ" مضارع وفاعله والجملة صفة قوم .

[سورة النمل (27) : آية 61]

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61)

"أم" حرف إضراب بمعنى بل "من" اسم موصول مبتدأ خبره محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها . "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "الْأَرْضَ" مفعول به أول "قَراراً" مفعول به ثان والجملة صلة من "وَجَعَلَ" معطوف على ما قبله والفاعل مستتر "خِلالَها" ظرف سد مسد مفعول به ثان لجعل "أَنْهاراً" مفعول به أول "وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ" معطوفة على سابقتها "وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً" معطوفة على ما قبلها . "أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ" سبق إعرابها في الآية السابقة . "بَلْ" حرف إضراب وانتقال "أَكْثَرُهُمْ" مبتدأ "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 62]

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (62)

"أم" حرف إضراب بمعنى بل "من" اسم موصول مبتدأ خبره محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها "يُجِيبُ" مضارع فاعله مستتر "الْمُضْطَرَّ" مفعول به والجملة صلة "إِذا" ظرف زمان "دَعاهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَيَكْشِفُ" الواو حرف عطف ومضارع فاعله مستتر "السُّوءَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَيَجْعَلُكُمْ" الواو حرف عطف ومضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "خُلَفاءَ" مفعوله الثاني مضاف إلى الأرض. "أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ" سبق إعرابها في الآية - 61 - "قَلِيلًا" نائب مفعول مطلق لفعل محذوف "ما تَذَكَّرُونَ" ما زائدة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة تعليلية لا محل لها.

[سورة النمل (27) : آية 63]

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)

"أَمَّنْ" سبق إعرابها "يَهْدِيكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة من "فِي ظُلُماتِ" متعلقان بالفعل "الْبَرِّ" مضاف إليه "وَالْبَحْرِ" معطوف على البر. والواو حرف

عطف "وَمَنْ" معطوفة على ما قبلها "يُرْسِلُ" مضارع فاعله مستتر "الرِّياحَ" مفعول به "بُشْراً" حال والجملة صلة من "بَيْنَ" ظرف مكان مضاف إلى "يَدَيْ" "رَحْمَتِهِ" مضاف إليه "أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ" سبق إعرابها . "تَعالَى اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله "عَمَّا" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها "يُشْرِكُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة ما .

[سورة النمل (27) : آية 64]

(245/574)

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (64)

"أَمَّنْ يَبْدَؤُا" تقدم إعرابها ومضارع فاعله مستتر "الْخَلْقَ" مفعول به والجملة صلة من "ثُمَّ يُعِيدُهُ" ثم حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَمَنْ" الواو حرف عطف ومن معطوفة على ما قبلها "يَرْزُقُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة من "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بالفعل "وَالْأَرْضِ" معطوفة على السماء "أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ" تقدم إعرابها "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "هاتُوا" أمر وفاعله "بُرْهانَكُمْ" مفعول به والجملة مقول القول "إِنْ كُنْتُمْ" إن حرف شرط جازم وكان واسمها

"صادِقِينَ" خبرها والجملة ابتدائية لا محل لها ، وجواب الشرط محذوف .

[سورة النمل (27) : آية 65]

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

"قُلْ" فعل أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "لا يَعْلَمُ" لا نافية ومضارع "مَنْ" فاعل "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "الْغَيْبَ" مفعول به "إِلَّا اللَّهُ" حرف حصر ولفظ الجلالة بدل والجملة مقول القول ، "وَما" الواو حالية وما نافية "يَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة حال . و"أَيَّانَ" اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية الزمانية "يُبْعَثُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة سدت مسد مفعول يشعرون .

[سورة النمل (27) : آية 66]

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (66)

"بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ" : بل حرف إضراب وانتقال وماض وفاعله "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بما قبلهما والجملة مستأنفة لا محل لها ، "بَلِ" حرف إضراب وانتقال أيضا "هُمْ" مبتدأ "فِي

شَكٍّ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "مِنْها" متعلقان بشك ، والجملة مستأنفة لا محل لها "بَلِ" حرف إضراب وانتقال "هُمْ" مبتدأ "مِنْها" متعلقان بالخبر "عَمُونَ" خبر مرفوع بالواو والجملة مستأنفة .

[سورة النمل (27) : آية 67]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67)

"وَقالَ الَّذِينَ" الواو حرف استئناف وماض واسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين ، "أَإِذا" الهمزة حرف استفهام إنكاري وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "كُنَّا" كان واسمها "تُراباً" خبرها والجملة في محل جر بالإضافة . "وَآباؤُنا" معطوف على اسم كان "أَإِنَّا" الهمزة حرف استفهام إنكاري أيضا وإن واسمها "لَمُخْرَجُونَ" اللام المزحلقة "لَمُخْرَجُونَ" خبر إن والجملة الاسمية مؤكدة لما قبلها .

[سورة النمل (27) : آية 68]

لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)

"لَقَدْ وُعِدْنا" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق وماض مبني للمجهول "نا" نائب فاعله "هذا" مفعول به والجملة جواب قسم مقدر لا محل لها . "نَحْنُ" توكيد لنا "وَآباؤُنا" الواو حرف عطف وآباؤنا معطوف على نا "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بوعدنا . "إِنْ"

حرف نفي "هذا" اسم الإشارة مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "أَساطِيرُ" خبر مضاف إلى الأولين "الْأَوَّلِينَ" مضاف إليه.

[سورة النمل (27) : آية 69]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69)

(247/574)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "سِيرُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "فَانْظُرُوا" الفاء حرف عطف "انظروا" معطوف على سيروا "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر كان "كانَ" ماض ناقص "عاقِبَةُ" اسم كان المؤخر "الْمُجْرِمِينَ" مضاف إليه وجملة كيف كان . . سدت مسد مفعولي فانظروا.

[سورة النمل (27) : آية 70]

وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)

"وَلا تَحْزَنْ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل.

والجملة معطوفة على ما قبلها "وَلا تَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية واسمه مستتر

"فِي ضَيْقٍ" متعلقان بمحذوف خبر تكن والجملة معطوفة على ما قبلها . "مِمَّا" متعلقان بضيق "يَمْكُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة .

[سورة النمل (27) : آية 71]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (71)

"وَيَقُولُونَ" الواو حرف استئناف ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "مَتى" اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب على الظرفية الزمانية متعلق بمحذوف خبر مقدم "هذَا" اسم الإشارة مبتدأ مؤخر "الْوَعْدُ" بدل والجملة الاسمية مقول القول "إِنْ كُنْتُمْ" حرف شرط جازم وماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمه "صادِقِينَ" خبره والجملة ابتدائية لا محل لها ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه .

[سورة النمل (27) : آية 72]

قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "عَسى" فعل ماض جامد واسمه مستتر "أَنْ يَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن واسمه مستتر والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل نصب خبر عسى "رَدِفَ" ماض "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "بَعْضُ" فاعل ردف "الَّذِي" اسم الموصول مضاف إليه والجملة خبر يكون "تَسْتَعْجِلُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة .

[سورة النمل (27) : آية 73]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (73)

"وَإِنَّ رَبَّكَ" الواو حرف استئناف وإن واسمها "لَذُو" اللام المزحلقة "و ذو" خبر إن المضاف إلى "فَضْلٍ" "عَلَى النَّاسِ" متعلقان بفضل والجملة مستأنفة لا محل لها "وَلَكِنَّ" الواو حرف عطف ولكن حرف مشبه بالفعل "أَكْثَرَهُمْ" اسمها "لا" نافية "يَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لكن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة النمل (27) : آية 74]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (74)

"وَإِنَّ رَبَّكَ" الواو حرف عطف وإن واسمها واللام المزحلقة "لَيَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة خبر إن "تُكِنُّ صُدُورُهُمْ" مضارع وفاعله والجملة صلة ، "وَما

يُعْلِنُونَ" الواو حرف عطف "ما" معطوفة على ما السابقة "يُعْلِنُونَ" ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة .

وجملة إن ربك معطوفة على ما قبلها .

[سورة النمل (27) : آية 75]

وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (75)

(249/574)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "مِنْ" حرف جر زائد "غائِبَةٍ" اسم مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ "فِي السَّماءِ" متعلقان بغائبة "وَالْأَرْضِ" معطوف على السماء "إِلَّا" حرف حصر "فِي كِتابٍ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "مُبِينٍ" صفة كتاب والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 76]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

"إِنَّ هذَا" إن واسمها "الْقُرْآنَ" بدل من هذا "يَقُصُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "عَلى بَنِي" متعلقان بالفعل "إِسْرائِيلَ" مضاف

إليه. "أَكْثَرَ" مفعول به مضاف إلى الذي "الَّذِي" مضاف إليه "هُمْ" مبتدأ "فِيهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "يَخْتَلِفُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية صلة الذي.

[سورة النمل (27) : آية 77]

وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

"وَإِنَّهُ" الواو حرف عطف وإن والهاء اسمها "لَهُدىً" اللام المزحلقة "هدى" خبر إن المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة على ما قبلها. "وَرَحْمَةٌ" معطوف على هدى "لِلْمُؤْمِنِينَ" متعلقان برحمة.

[سورة النمل (27) : آية 78]

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)

"إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها "يَقْضِي" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان "بِحُكْمِهِ" متعلقان بالفعل "وَهُوَ" الواو حالية ومبتدأ "الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" خبرا إن والجملة حال.

[سورة النمل (27) : آية 79]

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79)

"فَتَوَكَّلْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها . "إِنَّكَ" إن واسمها "عَلَى الْحَقِّ" متعلقان بمحذوف خبر إن "الْمُبِينِ" صفة الحق والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 80]

إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)

"إِنَّكَ" إن واسمها "لا" نافية "تُسْمِعُ" مضارع فاعله مستتر "الْمَوْتى" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها . والواو حرف عطف "وَلا تُسْمِعُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر "الصُّمَّ" مفعول به أول "الدُّعاءَ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِذا" ظرف زمان "وَلَّوْا" ماض وفاعله "مُدْبِرِينَ" حال منصوبة بالياء والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة النمل (27) : آية 81]

وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية تعمل عمل ليس "أَنْتَ" اسمها "بِهادِي" الباء حرف جر زائد وهادي اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "الْعُمْيِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها "عَنْ ضَلالَتِهِمْ" متعلقان بهادي "إِنْ تُسْمِعُ" إن نافية ومضارع فاعله

مستتر "إِلَّا" حرف حصر "مَنْ" اسم موصول في محل نصب مفعول به "يُؤْمِنُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "فَهُمْ" الفاء حرف عطف "هم مسلمون" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها وجملة إن تسمع . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 82]

وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (82)

(251/574)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "وَقَعَ الْقَوْلُ" ماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل . والجملة في محل جر بالإضافة وجملة إذا . . مستأنفة لا محل لها "أَخْرَجْنا" ماض وفاعله "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "دَابَّةً" مفعول به "مِنَ الْأَرْضِ" صفة دابة والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها . "تُكَلِّمُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صفة دابة "أَنَّ النَّاسَ" أن واسمها "كانُوا" كان واسمها "بِآياتِنا" متعلقان بما بعدهما "لا يُوقِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كانوا

وجملة كانوا . . خبر أن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 83]

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

"وَيَوْمَ" الواو حرف استئناف "يَوْمَ نَحْشُرُ" يوم ظرف زمان ومضارع فاعله مستتر "مِنْ كُلِّ" متعلقان بالفعل "أُمَّةٍ" مضاف إليه "فَوْجاً" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "مِمَّنْ" من حرف جر ومن موصولية ومتعلقان بمحذوف صفة فوجا "يُكَذِّبُ" مضارع فاعله مستتر "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل ، والجملة صلة من "فَهُمْ" الفاء حرف عطف وهم مبتدأ "يُوزَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 84]

حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

"حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا جاؤُ" ظرفية شرطية غير جازمة وماض وفاعله ، والجملة في محل جر بالإضافة . "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب شرط غير جازم لا محل

لها "أَكَذَّبْتُمْ" الهمزة حرف استفهام توبيخي وماض وفاعله "بِآيَاتِي" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "وَلَمْ تُحِيطُوا" الواو حالية ومضارع مجزوم بلم والواو فاعله "بِها" متعلقان بالفعل "عِلْماً" مفعول به والجملة حال. "أم" حرف إضراب وانتقال "ما" مبتدأ "ذا" خبر والجملة الاسمية مستأنفة "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كنتم وجملة كنتم . . صلة الموصول لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 85]

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (85)

"وَوَقَعَ الْقَوْلُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل ، والجملة معطوفة على ما قبلها "بِما" الباء حرف جر وما مصدرية "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما "فَهُمْ" الفاء حرف عطف "هم" مبتدأ "لا يَنْطِقُونَ" "لا" نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة النمل (27) : آية 86]

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

"أَلَمْ" الهمزة حرف استفهام وتقرير "يَرَوْا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "أَنَّا" أن واسمها "جَعَلْنَا" ماض وفاعله "اللَّيْلَ" مفعول به والجملة جعلنا خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يروا . "لِيَسْكُنُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله "فِيهِ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل "وَالنَّهارَ" معطوف على الليل "مُبْصِراً" حال منصوبة "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذِلكَ" اسم الإشارة مجرور بفي متعلقان بالخبر المقدم "لَآياتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن المؤخر "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" لقوم صفة آيات ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صفة قوم والجملة الاسمية إن . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 87]

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (87)

"وَيَوْمَ" الواو حرف عطف "يَوْمَ" ظرف زمان "يُنْفَخُ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "فِي الصُّورِ" متعلقان بالفعل ، والجملة في محل جر بالإضافة ، "فَفَزِعَ" الفاء حرف عطف وماض "مَنْ" اسم الموصول فاعله والجملة معطوفة "فِي السَّماواتِ" متعلقان

بمحذوف صلة الموصول "وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" أداة استثناء "مَنْ" مستثنى و"شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة من لا محل لها . "وَكُلٌّ" الواو حرف استئناف "كُلٌّ" مبتدأ و"أَتَوْهُ" ماض وفاعله ومفعوله "داخِرِينَ" حال والجملة الفعلية خبر المبتدأ . والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة النمل (27) : آية 88]

(254/574)

وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (88)

"وَتَرَى الْجِبالَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر والجبال مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها ، "تَحْسَبُها" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "جامِدَةً" مفعول به ثان والجملة حال . "وَهِيَ تَمُرُّ" الواو حالية ومبتدأ ومضارع فاعله مستتر "مَرَّ" مفعول مطلق "السَّحابِ" مضاف إليه والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال "صُنْعَ" مفعول مطلق "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "الَّذِي" اسم الموصول صفة للفظ الجلالة . "أَتْقَنَ" ماض فاعله مستتر "كُلَّ" مفعول به "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة صلة الذي ، "إِنَّهُ خَبِيرٌ"

إن واسمها وخبرها والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها "بِما" متعلقان بخبير "تَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة ما .

[سورة النمل (27) : آية 89]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89)

"مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "جاءَ" ماض فاعله مستتر "بِالْحَسَنَةِ" متعلقان بالفعل ، "فَلَهُ" الفاء رابطة وله خبر مقدم "خَيْرٌ" مبتدأ مؤخر "مِنْها" متعلقان بخير والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . . مستأنفة لا محل لها . "وَهُمْ" الواو حرف استئناف وهم مبتدأ "مِنْ فَزَعٍ" متعلقان بالخبر آمنون "يَوْمَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "آمِنُونَ" خبر .

[سورة النمل (27) : آية 90]

وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

"وَمَنْ" الواو حرف عطف ومن اسم شرط جازم مبتدأ "جاءَ" ماض فاعله مستتر "بِالسَّيِّئَةِ" متعلقان بالفعل "فَكُبَّتْ" الفاء رابطة وماض مبني للمجهول "وُجُوهُهُمْ" نائب

فاعل "فِي النَّارِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من . "هَلْ" حرف استفهام "تُجْزَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة حال . "إِلَّا" حرف حصر "ما" مفعول به "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة ما .

[سورة النمل (27) : آية 91]

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91)

"إِنَّما" كافة ومكفوفة "أُمِرْتُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والجملة مقول القول لقول محذوف ، "أَنْ أَعْبُدَ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر "رَبَّ" مفعول به "هذِهِ" اسم إشارة مضاف إليه "الْبَلْدَةِ" بدل من اسم الإشارة والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به لأمرت .

"الَّذِي" صفة رب "حَرَّمَها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة الذي . "وَلَهُ" الواو حالية وله متعلقان بمحذوف خبر مقدم "كُلُّ" مبتدأ مؤخر "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة حال . "وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ" معطوفة على ما قبلها وإعرابها واضح "مِنَ الْمُسْلِمِينَ" متعلقان بمحذوف خبر أكون .

[سورة النمل (27) : آية 92]

وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92)

(256/574)

"وَأَنْ أَتْلُوَا" الواو حرف عطف ومضارع منصوب بأن ، والفاعل مستتر "الْقُرْآنَ" مفعول به ، والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَمَنِ اهْتَدى" الفاء حرف استئناف ومن اسم شرط جازم مبتدأ وماض فاعله مستتر "فَإِنَّما" الفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة "يَهْتَدِي" مضارع فاعله مستتر "لِنَفْسِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من . "وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ" إعرابها مثل إعراب سابقتها . "إِنَّما" كافة ومكفوفة . "أَنَا" مبتدأ . "مِنَ الْمُنْذِرِينَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة النمل (27) : آية 93]

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

"وَقُلِ" الواو حرف عطف وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "الْحَمْدُ لِلَّهِ" مبتدأ والجار مجرور متعلقان بالخبر والجملة مقول القول "سَيُرِيكُمْ" السين للاستقبال ومضارع والكاف

مفعوله الأول والفاعل مستتر "آيَاتِهِ" مفعول به ثان والجملة مقول القول "فَتَعْرِفُونَهَا" الفاء حرف عطف ومضارع وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَمَا" الواو حالية وما ناهية تعمل عمل ليس "رَبُّكَ" اسمها والباء حرف جر زائد "غافل" اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما "عَمَّا" مؤلفة من عن وما الموصولية ومتعلقان بغافل "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة ما . وجملة وما ربك . . حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 419.400 ﴾

(257/574)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة النَّمْل

ذكر فِيهَا خَمْسَة عشر حَدِيثا

918 - الحَدِيث الأول

سَمّى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْعلمَاء وَرَثَة الْأَنْبِيَاء

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي الدَّرْدَاء والبراء بن عَازِب وَعبد الله بن عَمْرو وَجَابِر وَابْن مَسْعُود

(258/574)

فَحَدِيث أبي الدَّرْدَاء رَوَاهُ أَبُو دَاوُود وَالتِّرْمِذِيّ فِي كتاب الْعلم وَابْن ماجة فِي السّنة فَأَبُو دَاوُد وَابْن ماجة من حَدِيث عَاصِم بن رَجَاء بن حَيْوَة عَن دَاوُد بن جميل عَن كثير بن قيس قَالَ كنت جَالِسا مَعَ أبي الدَّرْدَاء فِي مَسْجِد دمشق فَجَاءَهُ رجل فَقَالَ يَا أَبَا الدَّرْدَاء إِنِّي جِئْتُك من مَدِينَة الرَّسُول لحَدِيث بَلغنِي أَنَّك تحدثه عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا جِئْت لحَاجَة قَالَ فَإِنِّي سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (من سلك طَرِيقا يطْلب فِيهِ علما سلك بِهِ طَرِيقا من طرق الْجنَّة وَإِن الْمَلَائِكَة لتَضع أَجْنِحَتهَا رضا لطَالب الْعلم وَإِن الْعَالم ليَسْتَغْفِر لَهُ من فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض وَالْحِيتَان فِي جَوف المَاء وَإِن فضل الْعَالم عَلَى العابد كفضل الْقَمَر لَيْلَة الْبَدْر عَلَى سَائِر الْكَوَاكِب وَإِن الْعلمَاء وَرَثَة الْأَنْبِيَاء وَإِن الْأَنْبِيَاء لم يورثوا دِينَارا وَلَا درهما وَإِنَّمَا ورثوا الْعلم فَمن أَخذه أَخذ بحظ وافر) انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ لَا يعرف هَذَا الحَدِيث إِلَّا عَن عَاصِم بن رَجَاء بن حَيْوَة وَلَيْسَ إِسْنَاده عِنْدِي بِمُتَّصِل هَكَذَا حَدثنَا مَحْمُود بن خِدَاش هَذَا الحَدِيث وَإِنَّمَا يروي هَذَا الحَدِيث عَن

عَاصِم بن رَجَاء بن حَيْوَة عَن دَاوُد بن جميل عَن كثير بن قيس عَن أبي الدَّرْدَاء عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهَذَا أصح من حَدِيث مَحْمُود بن خِدَاش انْتَهَى

(259/574)

وَقَالَ الْمُنْذِرِيّ فِي مُخْتَصره وَقد اخْتلف فِي هَذَا الحَدِيث اخْتِلَافا كثيرا فَقيل فِيهِ كثير بن قيس وَقيل قيس بن كثير وَفِي بَعْضهَا أَن كثير بن قيس ذكر أَنه جَاءَهُ رجل من الْمَدِينَة وَفِي بَعْضهَا عَن كثير بن قيس قَالَ أَتيت أَبَا الدَّرْدَاء وَهُوَ جَالس فِي مَسْجِد دمشق وَفِي بَعْضهَا جَاءَهُ رجل من أهل الْمَدِينَة وَهُوَ بمصْر وَمِنْهُم من أثبت فِي إِسْنَاده دَاوُد بن جميل وَمِنْهُم من أسْقطه وَرُوِيَ عَن كثير ابْن قيس عَن يزِيد بن سَمُرَة عَن أبي الدَّرْدَاء انْتَهَى كَلَامه

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث من الْقسم الأول كرِوَايَة أبي دَاوُد

وَخَالفهُ الدَّارَقُطْنِيّ فَذكره فِي الْعِلَل وَأعله بِالِاضْطِرَابِ وَضعف رَاوِيه فَقَالَ وَعَاصِم بن رَجَاء وَمن فَوْقه إِلَى أبي الدَّرْدَاء ضعفاء وَلَا يثبت انْتَهَى

وَأعله ابْن الْقطَّان أَيْضا فِي كتاب الْوَهم وَالْإِيهَام فَقَالَ دَاوُد بن جميل وَكثير ابْن قيس لَا يعلمَان فِي غير هَذَا الحَدِيث وَلَا نعلم رَوَى عَن كثير غير دَاوُد والوليد ابْن مرّة وَلَا نعلم رَوَى عَن

دَاوُد غير عَاصِم بن رَجَاء . . . إِلَى أَن قَالَ فالمتحصل من علته هُوَ الْجَهْل بِحَال رَاوِيَيْنِ من رُوَاته وَالِاضْطِرَاب فِيهِ مِمَّن لم تثبت عَدَالَته يَعْنِي عَاصِمًا انْتَهَى

(260/574)

وَفِيه نظر فَإِن عَاصِم بن رَجَاء قَالَ فِيهِ أَبُو زرْعَة لَا بَأْس بِهِ وَقَالَ ابْن معِين صُوَيْلِح وَقَالَ ابْن عبد الْبر ثِقَة مَشْهُور وَذكره ابْن حبَان فِي الثِّقَات وَرَوَى لَهُ فِي صَحِيحه وَرَوَى عَنهُ جمَاعَة من الْأَئِمَّة مِنْهُم أَبُو نعيم الْفضل بن دُكَيْن والحربي وَغَيرهمَا وَدَاوُد بن جميل وَكثير بن قيس ذكرهمَا ابْن حبَان فِي الثِّقَات وَرَوَى لَهما فِي صَحِيحه وَرَوَى عَن كثير جمَاعَة دَاوُد بن جميل والوليد بن مرّة الْأَوْزَاعِيّ وَرِوَايَته عَنهُ فِي المعجم الْكَبِير للطبراني وَذكر ابْن حبَان فِي الثِّقَات أَنه رَوَى عَنهُ يزِيد بن سَمُرَة نعم لم أر من رَوَى عَن دَاوُد بن جميل غير عَاصِم وَلِهَذَا قَالَ ابْن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم إِنَّه مَجْهُول لَا يعرف هُوَ وَلَا أَبوهُ وَلَا نعلم أحدا رَوَى عَنهُ غير عَاصِم بن رَجَاء وَذكره الْأَزْدِيّ أَيْضا فِي الضُّعَفَاء

وَله طَرِيق آخر عِنْد أبي دَاوُد عَن الْوَلِيد بن مُسلم قَالَ لَقِيت شبيب بن شيبَة فَحَدثني بِهِ عَن عُثْمَان بن أبي سَوْدَة عَن أبي الدَّرْدَاء بِمَعْنَاهُ مَرْفُوعا وَعُثْمَان ابْن أبي سَوْدَة قَالَ فِيهِ

مَرْوَان بن مُحَمَّد ثِقَة ثَبت وَذكره ابْن حبَان فِي الثِّقَات وَتوقف فِيهِ ابْن الْقطَّان لعدم مَعْرفَته بِثِقَتِهِ وَأما شبيب بن شيبَة فَلم أر لَهُ ذكرا إِلَّا فِي هَذَا الحَدِيث

(261/574)

وَقد رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْكَبِير من حَدِيث مُسلم عَن شُعَيْب بن زُرَيْق سَمِعت عُثْمَان بن أبي سَوْدَة قَالَ قدم رجل من الْمَدِينَة عَلَى أبي الدَّرْدَاء فَقَالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاء أما الَّذِي قدمت لَهُ فَذكر الحَدِيث وَفِيه الْعلمَاء وَرَثَة الْأَنْبِيَاء لَيْسَ فِيهِ إِن وَهَذِه الرِّوَايَة أشبه من رِوَايَة أبي دَاوُد وَإِسْنَاده جيد وَشُعَيْب ابْن زُرَيْق قَالَ فِيهِ دُحَيْم لَا بَأْس بِهِ وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ ثِقَة انْتَهَى

وَلِلْحَدِيثِ طَرِيق سَالِمَة من الضعْف وَالِاضْطِرَاب

رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْكَبِير حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ ثَنَا عمر بن مُحَمَّد بن الْحسن الْأَسدي ثَنَا أبي شَيبَان بن عبد الرَّحْمَن عَن عتبَة ابْن عبد الله عَن يُونُس بن يزِيد عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن أبي الدَّرْدَاء فَذكره

فَشَيْخ الطَّبَرَانِيّ هُوَ مطين صَاحب الْمسند إِمَام حَافظ وَبَاقِي رِجَاله مُحْتَج بهم فِي الصَّحِيح لَيْسَ فيهم من تكلم فِيهِ غير مُحَمَّد بن الْحسن الْأَسدي الْمَعْرُوف بِالتَّلِّ وَقد احْتج

بِهِ الْبُخَارِيّ وَقَالَ أَبُو دَاوُد صَالح وَقَالَ ابْن عدي لم أر بحديثه بَأْسا وَضَعفه ابْن معِين وَابْن حبَان وَيَعْقُوب الْفَسَوِي وَالله أعلم

وَأما حَدِيث الْبَراء بن عَازِب رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي كتاب فضل الْعَالم الْعَفِيف عَلَى الْجَاهِل الشريف حَدثنَا أَحْمد بن عَاصِم مُحَمَّد بن عَاصِم الْأَيْلِي ثَنَا زَكَرِيَّا ابْن يَحْيَى السَّاجِي ثَنَا مُحَمَّد بن إِسْحَاق البكائي ثَنَا مُحَمَّد بن مطرف ثَنَا شريك عَن أبي إِسْحَاق عَن الْبَراء بن عَازِب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (الْعلمَاء وَرَثَة الْأَنْبِيَاء يُحِبهُمْ أهل السَّمَاء وَتَسْتَغْفِر لَهُم الْحيتَان فِي الْبَحْر) انْتَهَى

(262/574)

وَأما حَدِيث عبد الله بن عَمْرو فَرَوَاهُ أَبُو نعيم أَيْضا حَدثنَا مُحَمَّد بن عَلّي ابْن مُسلم الْعقيلِيّ ثَنَا عبد الْكَبِير بن عمر الخطائري ثَنَا سُلَيْمَان بن مُحَمَّد بن الْفضل ثَنَا عَلّي بن شبْرمَة عَن شريك عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن عبد الله ابْن عَمْرو قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِن الْعلمَاء وَرَثَة الْأَنْبِيَاء وَإِن الْأَنْبِيَاء لم يورثوا دِينَارا وَلَا درهما وَلَكِن ورثوا الْعلم) انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن مَسْعُود فَرَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم حَمْزَة بن يُوسُف السَّهْمِي فِي تَارِيخ جرجان ثَنَا

يَحْيَى بن زَكَرِيَّا بن أَحْمد الْمصْرِيّ ثَنَا زفر بن الهديل ثَنَا أَبُو حنيفَة النُّعْمَان بن ثَابت عَن حَمَّاد عَن عَلْقَمَة عَن عبد الله بن مَسْعُود سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول الْعلمَاء وَرَثَة الْأَنْبِيَاء انْتَهَى

وَأما حَدِيث جَابر فَرَوَاهُ الْخَطِيب فِي تَارِيخ بَغْدَاد فِي تَرْجَمَة أَحْمد بن مُحَمَّد ابْن حَامِد الْبَلْخِي من رِوَايَة مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر عَن جَابر بن عبد الله قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَكْرمُوا الْعلمَاء فَإِنَّهُم وَرَثَة الْأَنْبِيَاء فَمن أَكْرمهم فقد أَكْرم الله وَرَسُوله

وَفِي إِسْنَاده الضَّحَّاك بن حَجْوَة قَالَ ابْن حبَان لَا يجوز الِاحْتِجَاج بِهِ وَقَالَ ابْن عدي مُنكر الْحَدِيث وَقَالَ الدَّارَقُطْنِيّ يضع الْحَدِيث

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من حَدِيث الضَّحَّاك بن حَجْوَة ثَنَا الْفِرْيَانِيُّ ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدر بِهِ وَنقل كَلَام الْمَذْكُورين

919 - قَوْله

قَالَ عمر كل النَّاس أفقه من عمر

قلت تقدم بِتَمَامِهِ فِي سُورَة النِّسَاء وَكَذَا أَحَالَهُ الطِّيبِيّ

920 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام (أَنا سيد ولد آدم وَلَا فَخر)

قلت تقدم فِي يُوسُف

921 - الحَدِيث الثَّالِث

أَمر النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْعَبَّاس أَن يحبس أَبَا سُفْيَان حَتَّى تمر عَلَيْهِ الْكَتَائِب

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي الْمَغَازِي فِي غَزْوَة الْفَتْح من حَدِيث هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه قَالَ لما سَار رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَام الْفَتْح بلغ ذَلِك قُرَيْشًا فَخرج أَبُو سُفْيَان بن حَرْب وَحَكِيم بن حزَام وبُدَيْل بن وَرْقَاء يَلْتَمِسُونَ الْخَبَر عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَقبَلُوا يَسِيرُونَ حَتَّى أَتَوا مر الظهْرَان فَرَآهُمْ نَاس من حرس رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَخَذُوهُمْ فَأتوا بهم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأسلم أَبُو سُفْيَان فَلَمَّا سَار قَالَ للعَبَّاس احْبسْ أَبَا سُفْيَان عِنْد حطم الْخَيل حَتَّى ينظر إِلَى الْمُسلمين فحبسه الْعَبَّاس فَجعلت الْقَبَائِل تمر مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تمر كَتِيبَة كَتِيبَة عَلَى أبي سُفْيَان فمرت كَتِيبَة فَقَالَ يَا عَبَّاس من هَذِه قَالَ غفار فَقَالَ مَا لي وَلغفار ثمَّ مرت جُهَيْنَة فَقَالَ مثل ذَلِك ثمَّ مرت سعد بن هديم فَقَالَ مثل ذَلِك وَمَرَّتْ سليم فَقَالَ مثل ذَلِك حَتَّى أَقبلت كَتِيبَة لم ير مثلهَا قَالَ من هَذِه قَالَ هَؤُلَاءِ الْأَنْصَار عَلَيْهِم سعد بن عبادَة مَعَه الرَّايَة ثمَّ

جَاءَت كَتِيبَة وَهِي أقل الْكَتَائِب فيهم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأَصْحَابه وَرَايَة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَعَ الزُّبَيْر . . . الْحَدِيث بِطُولِهِ وَهُوَ مُرْسل فَليعلم ذَلِك

(264/574)

رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة فِي فتح مَكَّة عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس وَفِيه ابْن إِسْحَاق

922 - الْحَدِيث الرَّابِع

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضحك حَتَّى بَدَت نَوَاجذه

قلت حَدِيث أخرجه مُسلم فِي الْمَغَازِي عَن سَلَمَة بن الْأَكْوَع قَالَ قدمنَا الْحُدَيْبِيَة مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكر الْحَدِيث بِطُولِهِ وَفِيه قَالَ قلت يَا رَسُول الله خَلِّنِي أَنْتَخِبُ من الْقَوْم مائَة رجل فَاتبع الْقَوْم فَلَا أُبْقِي مِنْهُم أحد إِلَّا قتلته فَضَحِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه . . . الْحَدِيث بِطُولِهِ

وَورد فِيهِ أَحَادِيث

فَمِنْهَا حَدِيث رَوَاهُ الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحَيْهِمَا من رِوَايَة عُبَيْدَة السَّلمَانِي عَن ابْن مَسْعُود قَالَ جَاءَ رجل من الْيَهُود فَقَالَ يَا مُحَمَّد إِن الله يمسك السَّمَوَات عَلَى أصْبع وَالْأَرضين عَلَى أصْبع وَالْجِبَال عَلَى أصْبع وَالشَّجر عَلَى أصْبع وَالْخَلَائِق عَلَى أصْبع ثمَّ

يَقُول أَنا الْملك فَضَحِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه وَقَرَأَ وَمَا قدرُوا الله حق قدره الْآيَة

(265/574)

حَدِيث آخر رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الْإِيمَان من حَدِيث الْمَعْرُور بن سُوَيْد عَن أبي ذر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنِّي لأعْلم آخر أهل الْجنَّة دُخُولا الْجنَّة وَآخر أهل النَّار خُرُوجًا رجل يُؤْتَى بِهِ يَوْم الْقِيَامَة فَيُقَال أَعرضُوا عَلَيْهِ صغَار ذنُوبه وَارْفَعُوا عَنهُ كِبَارهَا فَيعرض عَلَيْهِ صغَار ذنُوبه فَيُقَال لَهُ عملت كَذَا وَكَذَا فِي يَوْم كَذَا وَكَذَا فَيَقُول نعم لَا يَسْتَطِيع أَن يُنكر وَهُوَ مُشفق من كبار ذنُوبه أَن تعرض عَلَيْهِ فَيُقَال لَهُ فَإِن لَك مَكَان كل سَيِّئَة حَسَنَة فَيَقُول رب قد عملت أَشْيَاء لَا أَرَاهَا هَاهُنَا) فَلَقَد رَأَيْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضحك حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه انْتَهَى

حَدِيث آخر رَوَى ابْن حبَان وَالْحَاكِم وَصَححهُ من حَدِيث أبي عمره الْأَنْصَارِيّ واسْمه ثَعْلَبَة عَمْرو بن مُحصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي غَزْوَة فَأَصَاب النَّاس مَخْمَصَة شَدِيدَة فَاسْتَأْذَنُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي نحر بعض ظهْرهمْ

فَقَالَ عمر يَا رَسُول الله كَيفَ بِنَا إِذا لَقينَا الْعَدو غَدا وَنحن جياع وَلَكِن إِن رَأَيت يَا رَسُول الله أَن نَدْعُو النَّاس ببَقِيَّة أَزْوَادهم قَالَ فَجعل الرجل يَجِيء بِالْحَفْنَةِ من الطَّعَام فَمَا زَاد وَأَعْلَاهُمْ من جَاءَ بِصَاع فَجَمعه عَلَى نطع ثمَّ دَعَا الله بِمَا شَاءَ أَن يَدْعُو ثمَّ أَتَى النَّاس بأَوْعِيَتِهِمْ قَالَ فَلم يبْق فِي الْجَيْش وعَاء إِلَّا مَلِيء وَبَقِي مثله قَالَ فَضَحِك رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى بَدَت نَوَاجذه وَقَالَ (أشهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَأَنِّي رَسُول الله لَا يلقاه بهما عبد مُؤمن إِلَّا حجبتاه عَن النَّار يَوْم الْقِيَامَة) انْتَهَى

حَدِيث آخر رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَسكت عَنهُ فِي الْفَضَائِل عَن أبي مَالك النَّخعِيّ عَن الْأَسود بن قيس عَن نُبيح الْعَنزي عَن أم أَيمن قَالَت قَامَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِاللَّيْلِ فَبَال فِي فخاره فَقُمْت وَأَنا عَطْشَانَة فَشربته وَأَنا لَا أشعر فَلَمَّا أصبح أَمرني أَن أهريقها فَقلت لَهُ إِنِّي شربته فَضَحِك حَتَّى بَدَت نَوَاجذه وَقَالَ لَا تجعي بَطْنك أبدا انْتَهَى

حَدِيث آخر رَوَى الدَّارَقُطْنِيّ فِي سننه من جهَة زمعَة بن صَالح عَن سَلمَة ابْن وهرام عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ عبد الله بن رَوَاحَة مُضْطَجعا إِلَى جنب امْرَأَته فَقَامَ إِلَى جَارِيَة لَهُ فِي نَاحيَة الْحُجْرَة فَوَقع عَلَيْهَا فَقَامَتْ امْرَأَته فَأَخذت الشَّفْرَة وَقَامَت إِلَيْهِ فَلَمَّا

رَآهَا قَالَ لَهَا مَا رَأَيْت قَالَت رَايَتك تفعل كَذَا وَكَذَا فَجحد فَقلت لَهُ اقْرَأ فَقَالَ

(أَتَانَا رَسُول الله يَتْلُو كِتَابه . . . كَمَا لَاحَ مَشْهُور من الْفجْر سَاطِع)

(267/574)

(أَتَى بِالْهُدَى بعد الْعَمى فَقُلُوبنَا . . . بِهِ مُوقِنَات أَن مَا قَالَ وَاقع)

(يبيت يُجَافِي جفْنه عَن فرَاشه . . . إِذا اسْتَقَلت بالمشركين الْمضَاجِع)

فَقَالَت آمَنت بِاللَّه وكذبت الْبَصَر ثمَّ غَدا عَلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فاخبره

فَضَحِك حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه انْتَهَى وَزَمعَة ضَعِيف إِلَّا أَن ابْن عَبدِي مَشاهُ

حَدِيث آخر رَوَى الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث عبد الحميد بن صَيْفِي بن صُهَيْب عَن أَبِيه

عَن جده صُهَيْب قَالَ دخلت عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَعِنْده أَصْحَابه وَبَين

أَيديهم تمر يَأْكُلُونَهُ وَكنت رمد إِحْدَى الْعَينَيْن فَقَالَ لِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا

تَأْكُل التَّمْر فَإِن بِعَيْنَيْك الماء فَقلت يَا رَسُول الله إِنَّمَا آكله بشق عَيْنِي الصَّحِيحَة قَالَ

فَضَحِك عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن ماجة فِي سننه فِي الطِّبّ وَقَالَ فِيهِ فَتَبَسَّم وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك

وَصَححهُ إِلَّا أَنه لم يقل فِيهِ حَتَّى بَدَت نَوَاجذه وَسَنَده جيد

وَعند الْحَاكِم فِي آخر الْمُسْتَدْرك عَن ابْن مَسْعُود أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضحك حَتَّى بدا آخر ضرس من أَضْرَاسه وَصَححهُ

(268/574)

حَدِيث آخر رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم أَيضا من حَدِيث ابْن مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنِّي لأعْلم آخر أهل النَّار خُرُوجًا وَآخر أهل الْجنَّة دُخُولا إِلَى أَن قَالَ فَيَقُول الله تَعَالَى اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجنَّة فَإِن لَك مثل الدُّنْيَا وَعشر أَمْثَالهَا فَيَقُول أَتسخر بِي وَأَنت الْملك) قَالَ فَلَقَد رَأَيت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ضحك حَتَّى بَدَت نَوَاجذه

حَدِيث آخر رَوَى البُخَارِيّ وَمُسلم أَيضا من حَدِيث عَطاء بن يسَار عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (تكون الأَرْض يَوْم الْقِيَامَة خبْزَة وَاحِدَة يَتَكَفَّؤُهَا الْجَبَّار بِيَدِهِ كَمَا يَتَكَفَّأ أحدكُم خبزته فِي السّفر قَالَ فَأَتَى رجل من الْيَهُود وَقَالَ بَارك الرَّحْمَن عَلَيْك يَا أَبَا الْقَاسِم أَلا أخْبرك بنزل أهل الْجنَّة يَوْم الْقِيَامَة قَالَ بلَى تكون الأَرْض خبْزَة وَاحِدَة قَالَ فَنظر إِلَيْنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ثمَّ ضحك حَتَّى بَدَت

نَوَاجِذه وَقَالَ أَلَا أخْبرك بِإِدَامِهِمْ قَالَ بلَى قَالَ إِدَامهمْ بَالَام نون قَالَ وَمَا هَذَا قَالَ ثَوْر وَنون يَأْكُل من زَائِدَة كَبِدهَا سَبْعُونَ ألفا) انْتَهَى

(269/574)

حَدِيث آخر رَوَاهُ مُسلم فِي الطَّلَاق عَن أبي الزُّبَيْر عَن جَابر قَالَ دخل أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَالْقَوْم جُلُوس بِالْبَابِ لم يُؤذن لَهُم قَالَ فَأذن لنا فَدَخَلْنَا قَالَ وَجَلَسْنَا وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَالس وَالنّسَاء حوله وَسَاكِت فَاحم فَقَالَ عمر لأُكلمَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَدَعُهُ يضْحك فَقَالَ يَا رَسُول الله لَو رَأَيْت بنت خَارجَة وَهِي تَسْأَلنِي النَّفَقَة فَقُمْت فَوجَأْت عُنُقهَا قَالَ فَضَحِك النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه الحَدِيث مُخْتَصر

حَدِيث آخر رَوَى أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ فِي الطَّلَاق وَابْن ماجة فِي الْأَحْكَام من حَدِيث زيد بن أَرقم قَالَ أَتَى عَلّي وَهُوَ بِالْيمن بِثَلَاثَة وَقَعُوا عَلَى امْرَأَة فِي طهر وَاحِد فَسَالَ اثْنَيْن أَتُقِرَّان لهَذَا بِالْوَلَدِ قَالَا لَا حَتَّى سَأَلَهُمْ جَمِيعًا ثمَّ أَقرع بَينهم فَأَلْحق الْوَلَد بِالَّذِي صَارَت عَلَيْهِ الْقرعَة وَجعل عَلَيْهِ ثُلثي الدِّيَة فَذكر ذَلِك للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَضَحِك حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي الْفَضَائِل وَزَاد فِيهِ فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَا أعلم فِيهَا إِلَّا مَا قَالَ عَلِّي) وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد

(270/574)

حَدِيث آخر رَوَى أَبُو دَاوُد فِي الْأَدَب وَالنَّسَائِيّ فِي الْعشْرَة من حَدِيث عَائِشَة قَالَت قدم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غَزْوَة تَبُوك أَو خَيْبَر وَفِي سهواتها ستر فَهبت رِيح فَكشفت نَاحيَة السّتْر عَن بَنَات لعَائِشَة لعب فَقَالَ مَا هَذَا يَا عَائِشَة قَالَت بَنَاتِي وَرَأَى بَينهُنَّ فرسا لَهَا جَنَاحَان قَالَ وَمَا هَذَا قَالَت فرس قَالَ فرس لَهَا جَنَاحَان قَالَت أما سَمِعت أَن لسُلَيْمَان خيلا لَهَا أَجْنِحَة قَالَت فَضَحِك حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه انْتَهَى

وَسكت عَنهُ ثمَّ الْمُنْذِرِيّ بعده

حَدِيث آخر رَوَى أَبُو دَاوُد فِي الاسْتِسْقَاء من حَدِيث عَائِشَة قَالَت شكا النَّاس إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُحُوط الْمَطَر إِلَى أَن قَالَت فَأَنْشَأَ الله سَحَابَة فَرعدَت وَبَرقَتْ ثمَّ أمْطرت بِإِذن الله فَلم يَأْتِ مَسْجده حَتَّى سَالَتْ السُّيُول فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتهمْ إِلَى الْكن ضحك حَتَّى بَدَت نَوَاجِذه وَقَالَ أشهد أَن الله عَلَى كل شَيْء قدير

مُخْتَصر

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ

923 - الْحَدِيث الْخَامِس

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كرم الْكتاب خَتمه

قلت رَوَاهُ الْقُضَاعِي فِي مُسْند الشهَاب من حَدِيث مُحَمَّد بن مَرْوَان عَن مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح مولَى أم هَانِئ عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كرم الْكتاب خَتمه وَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى إِنِّي أُلْقِي إِلَيّ كتاب كريم انْتَهَى

(271/574)

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُعَاوِيَة بن مُحَمَّد ثَنَا صَالح بن مُحَمَّد عَن مَرْوَان بن مُحَمَّد عَن ابْن جريج عَن عَطاء بن أبي رَبَاح عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ كَرَامَة الْكتاب خَتمه انْتَهَى

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق الثَّقَفِيّ ثَنَا يَحْيَى بن طَلْحَة الْيَرْبُوعي ثَنَا مُحَمَّد بن مَرْوَان السّديّ عَن ابْن جريج بِهِ

قَالَ ابْن طَاهِر فِي كَلَامه عَلَى أَحَادِيث الشهَاب هَذَا التَّخْلِيط وَقع فِيهِ من جِهَة مُحَمَّد بن مَرْوَان فَإِنَّهُ مرّة عَن مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس وَمرَّة رَوَاهُ عَن

ابْن جريج عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس وَمُحَمّد ابْن مَرْوَان يعرف بِالسُّدِّيِّ الصَّغِير مَتْرُوك الحَدِيث والكلبي مثله انْتَهَى

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط عَن مُحَمَّد بن مَرْوَان السّديّ عَن ابْن جريج بِهِ وَقَالَ لم يروه عَن ابْن جريج إِن مُحَمَّد بن مَرْوَان

انْتَهَى

924 - الحَدِيث السَّادِس

كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يكْتب إِلَى الْعَجم فَقيل لَهُ إِنَّهُم لَا يقبلُونَ إِلَّا كتابا مَخْتُومًا فَاصْطَنع خَاتمًا

(272/574)

قلت رَوَاهُ الْجَمَاعَة إِلَّا ابْن مَاجَه فِي اللبَاس من حَدِيث قَتَادَة عَن أنس قَالَ أَرَادَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَن يكْتب إِلَى الْعَجم فَقيل لَهُ إِنَّهُم لَا يقبلُونَ كتابا إِلَّا بِخَاتم وَفِي لفظ للْبُخَارِيّ أَن يكون مَخْتُومًا فَاتخذ خَاتمًا من فضَّة وَنقش فِيهِ مُحَمَّد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى وَفِيه رِوَايَة اصْطنع خَاتمًا من ورق وَزَاد فِي رِوَايَة فَكَانَ فِي يَده حَتَّى قبض وَفِي يَد أبي بكر حَتَّى قبض وَفِي يَد عمر حَتَّى قبض وَفِي يَد عُثْمَان فِينَا هُوَ عِنْد بِئْر

إِذْ سقط فِي الْبِئْر فَأمر بهَا فَنُزِحَتْ فَلم يقدر عَلَيْهِ انْتَهَى

925 - الْحَدِيث السَّابع

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا قَرَأَ قَوْله تَعَالَى (آللَّهُ خير أم مَا يشركُونَ) قَالَ بل الله خير وَأجل وَأَبْقَى وَأَكْرم

(273/574)

قلت قَالَ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَقد رُوِيَ فِي ختم الْقُرْآن حَدِيث مُنْقَطع بِسَنَد ضَعِيف إِلَّا أَنه لَيْسَ فِيهِ من يعرف بِالْكَذِبِ وَوضع الْحَدِيث ثمَّ قَالَ أَنا أَبُو نصر بن قَتَادَة وَهُوَ عمر بن عبد الْعَزِيز أَنا أَبُو الْفضل مُحَمَّد ابْن عبد الله بن مُحَمَّد بن خمرويه الْكَرَابِيسِي الْهَرَوِيّ ثَنَا احْمَد بن نجدة بن الْعُرْيَان ابْن شَدَّاد الْقرشِي ثَنَا أَحْمد بن يُونُس ثَنَا عَمْرو بن عمر عَن جَابر الْجعْفِيّ عَن أبي جَعْفَر قَالَ كَانَ عَلّي بن الْحُسَيْن يذكر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه كَانَ إِذا ختم الْقُرْآن قَالَ الْحَمد لله رب الْعَالمين الْحَمد لله الَّذِي خلق السَّمَوَات وَالْأَرْض وَجعل الظُّلُمَات والنور ثمَّ الَّذين كفرُوا برَبهمْ يعدلُونَ لَا إِلَه إِلَّا الله وَكذب الْعَادِلُونَ بِالله وَضَلُّوا ضلالا بَعيدا لَا إِلَه إِلَّا الله وَكذب الْمُشْركين من الْعَرَب وَالْمَجُوس وَالْيَهُود وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ وَمن دَعَا لله ولدا أَو صَاحبه أَو ندا أَو مثلا أَو

عدلا أَو شَبيها وَإِن رَبنَا أعظم من أَن نتَّخذ شَرِيكا فِيمَا خلقت الْحَمد لله الَّذِي لم يتَّخذ ولدا وَلم يكن لَهُ شريك فِي الْملك وَلم يكن لَهُ ولي من الذل وكبره تَكْبِيرا الله أكبر كَبِيرا وَالْحَمْد لله كثيرا وَسُبْحَان الله بكرَة

(274/574)

وَأَصِيلا الْحَمد لله الَّذِي أنزل عَلَى عَبده الْكتاب وَلم يَجْعَل لَهُ عوجا قيمًا إِلَى قَوْله إِن يَقُولُونَ إِلَّا كذبا الْحَمد لله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الأَرْض وَله الْحَمد فِي الْآخِرَة وَهُوَ الْحَكِيم الْخَبِير يعلم مَا يلج فِي الأَرْض وَمَا يخرج مِنْهَا وَمَا ينزل من السَّمَاء وَمَا يعرج فِيهَا فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيم الغفور الْحَمد لله وَسَلام عَلَى عباده الَّذين اصْطَفَى آللَّهُ خير أم مَا يشركُونَ بل الله خير وَأجل وَأَتْقَى وَأَكْرم وَأعظم مِمَّا يشركُونَ وَالْحَمْد لله بل أَكْثَرهم يعلمُونَ الْحَمد لله فاطر السَّمَوَات وَالْأَرْض جَاعل الْمَلَائِكَة رسلًا أولي أَجْنِحَة مثنى وَثَلَاث وَرباع يزِيد فِي الْخلق مَا يَشَاء إِن الله عَلَى كل شَيْء قدير مَا يفتح الله للنَّاس من رَحْمَة فَلَا مُمْسك لَهَا وَمَا يمسك فَلَا مُرْسل لَهُ من بعده وَهُوَ الْعَزِيز الْحَكِيم صدق الله وَبلغت رسله وَأَنا عَلَى ذَلِك من الشَّاهِدين اللَّهُمَّ صل عَلَى جَمِيع الْمَلَائِكَة وَالْمُرْسلِينَ وَارْحَمْ عِبَادك الْمُؤمنِينَ من أهل السَّمَوَات وَالْأَرضين وَاخْتِمْ لنا بِخَير وَافْتَحْ لنا بِخَير وَبَارك لنا فِي الْقُرْآن الْعَظِيم وانفعنا

بِالْآيَاتِ وَالذكر الْحَكِيم رَبنَا تقبل منا إِنَّك أَنْت السَّمِيع الْعَلِيم انْتَهَى

وَذكره الثَّعْلَبِيّ من غير سَنَد وَلَا راو

926 - الْحَدِيث الْعَاشِر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لمن قَالَ وَمن يَعْصِمهَا فقد غَوى بئس خطيب الْقَوْم أَنْت

(275/574)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي الْجُمُعَة من حَدِيث عدي بن حَاتِم أَن رجلا خطب عِنْد النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ وَمن يطع الله وَرَسُوله فقد رشد وَمن يَعْصِيهمَا فقد غَوى فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (بئس الْخَطِيب أَنْت قل وَمن يعْص الله وَرَسُوله فقد غَوى) انْتَهَى

927 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها من زعم أَنه يعلم مَا فِي غَد فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي . . . وَمُسلم فِي الْإِيمَان عَن مَسْرُوق قَالَ كنت مُتكئا عِنْد عَائِشَة فَقَالَت يَا أَبَا عَائِشَة ثَلَاث من تكلم بِوَاحِدَة مِنْهُنَّ فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة قلت مَا هن قَالَت من زعم أَن مُحَمَّد رَأَى ربه فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة وَمن زعم أَن

رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كتم شَيْئا من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة وَمن زعم أَنه يخبر مَا فِي غَد فقد أعظم عَلَى الله الْفِرْيَة مُخْتَصر

928 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

جَاءَ فِي الْحَدِيث (إِن دَابَّة الأَرْض وَهِي الْجَسَّاسَة طولهَا سِتُّونَ ذِرَاعا لَا يُدْرِكهَا طَالب وَلَا يفوتها هارب)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث مُحَمَّد بن النَّضر بن مُحَمَّد الأودي عَن أَبِيه عَن سُفْيَان الثَّوْرِيّ عَن شهَاب بن عبد الرَّحْمَن بن طَارق عَن ربعي بن حِرَاش عَن حُذَيْفَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (دَابَّة الأَرْض طولهَا سِتُّونَ ذِرَاعا لَا يُدْرِكهَا طَالب وَلَا يفوتها هارب فَتَسِم الْمُؤمن بَين عَيْنَيْهِ مُؤمن وَتَسِم الْكَافِر بَين عَيْنَيْهِ كَافِر وَمَعَهَا عَصا مُوسَى وَخَاتم سُلَيْمَان) انْتَهَى وَبَعضه فِي مُسْتَدْرك الْحَاكِم وَسَيَأْتِي بعده

(276/574)

---

929 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

سُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن الدَّابَّة من أَيْن تخرج فَقَالَ (من أعظم الْمَسَاجِد حُرْمَة وَأَكْرمهَا عَلَى الله يَعْنِي الْمَسْجِد الْحَرَام)

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْفِتَن من حَدِيث طَلْحَة بن عَمْرو

الْحَضْرَمِيّ عَن عبد الله بن عبيد بن عُمَيْر اللَّيْثِيّ عَن أبي الطُّفَيْل عَن حُذَيْفَة بن أسيد أبي

سريحَة الْأَنْصَارِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (تكون للدابة ثَلَاث خرجات . . .

إِلَى أَن قَالَ ثمَّ بَيْنَمَا النَّاس فِي أعظم الْمَسَاجِد حُرْمَة عَلَى الله وَخَيرهَا وَأَكْرمهَا الْمَسْجِد

الْحَرَام لم ترعهم إِلَّا وَهِي ترعوا بَين الرُّكْن وَالْمقَام فَارْفض النَّاس عَنْهَا وَتثبت عِصَابَة من

الْمُؤمنِينَ وَعرفُوا أَنهم لم يعْجزُوا الله فَبدأت بهم فَجلت وُجُوههم حَتَّى جعلتهَا كَالْكَوْكَب

الدُّرِّي ثمَّ ولت فِي الْأَرْض لَا يُدْركهَا طَالب وَلَا يفوتها هارب حَتَّى أَن الرجل ليَتَعَوَّذ مِنْهَا

بالصَّلَاة فَتَأْتِيه من خَلفه فَتَقول لَهُ يَا فلَان الْآن تصلي فَتَسِمهُ فِي وَجهه ثمَّ تَنْطَلِق . . .

مُخْتَصر وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجاهُ وَهُوَ أبين حَدِيث فِي الدَّابَّة

انْتَهَى

رَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مسنديهما

وَمن طَرِيق الطَّيَالِسِيّ رَوَاهُ ابْن مردويه فِي تَفْسِيره

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْبَعْث والنشور وَقَالَ وَطَلْحَة بن عَمْرو غير قوي

انْتَهَى

وَرَوَى الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا عِصَام بن رواد بن الْجراح ثَنَا أبي ثَنَا سُفْيَان الثَّوْرِيّ ثَنَا مَنْصُور بن الْمُعْتَمِر عَن ربعي بن حِرَاش قَالَ سَمِعت حُذَيْفَة ابْن الْيَمَان يَقُول ذكر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّابَّة فَقلت يَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أَيْن تخرج فَقَالَ من أعظم الْمَسَاجِد حُرْمَة عَلَى الله بَينا عِيسَى يطوف بِالْبَيْتِ مَعَه الْمُسلمين إِذْ اضْطَرَبَتْ الأَرْض تَحْتهم فَتَنْشَق الصَّفَا مِمَّا يَلِي الْمَسْعَى وَتخرج الدَّابَّة من الصَّفَا أول مَا يَبْدُو مِنْهَا رَأسهَا مُلَمَّعَة ذَات وبر وَرِيش لن يُدْرِكهَا طَالب وَلَا يفوتها هارب تسم النَّاس مُؤمن وَكَافِر فَأَما الْمُؤمن فَتَتْرك وَجهه كَأَنَّهُ كَوْكَب دري وَأما الْكَافِر فَتَنْكت بَين عَيْنَيَّة نُكْتَة سَوْدَاء انْتَهَى

وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَمن طَرِيق الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الْبَغَوِيّ

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُحَمَّد بن مُسلم الطَّائِفِي عَن عَمْرو بن دِينَار عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تخرج دَابَّة الأَرْض

وَلها ثَلَاث خرجات فَأول خرجَة مِنْهَا بِأَرْض الْبَادِيَة وَالثَّانِيَة فِي أعظم الْمَسَاجِد وَأَشْرَفهَا وَأَكْرمهَا وَلها عنق مشرف . . . فَذكره بِطُولِهِ

930 - الْحَدِيث الرَّابِع عشر

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج من مَكَّة مُهَاجرا حَتَّى بلغ الْحَزْوَرَة اسْتَقْبلهَا بِوَجْهِهِ الْكَرِيم وَقَالَ أعلم أَنَّك أحب بِلَاد الله إِلَى الله وَلَوْلَا أَن اهلك أَخْرجُونِي مَا خرجت

قلت رُوِيَ من حَدِيث عبد الله بن عدي بن الْحَمْرَاء وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث ابْن عَبَّاس

(278/574)

أما حَدِيث عدي بن الْحَمْرَاء فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي المناقب فِي بَاب فضل مَكَّة وَالنَّسَائِيّ وَابْن ماجة فِي الْحَج من حَدِيث عقيل عَن الزُّهْرِيّ عَن أبي سَلمَة عَن عبد الله بن عدي بن الْحَمْرَاء قَالَ رَأَيْت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَاقِفًا عَلَى الْحَزْوَرَة وَهُوَ يَقُول وَالله إِنَّك لخير أَرض الله وَأحب أَرض الله عَلَى الله وَلَوْلَا أَنِّي أخرجت مِنْك مَا خرجت انْتَهَى هَكَذَا لَفظهمْ الثَّلَاثَة وَلَوْلَا أَنِّي أخرجت قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح وَقد رَوَاهُ يُونُس عَن الزُّهْرِيّ كَمَا رَوَاهُ عقيل وَرَوَاهُ مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَحَدِيث الزُّهْرِيّ عَن أبي سَلمَة عَن عبد الله بن عدي بن الْحَمْرَاء عِنْدِي أصح انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي تَصْحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْهِجْرَة وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة وَعبد بن حميد وَأَبُو يعلي الْموصِلِي والدارمي وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

قَالَ الْبَزَّار وَلَا يعلم لعبد الله بن عدي بن الْحَمْرَاء غير هَذَا الحَدِيث انْتَهَى

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ أَيْضا من حَدِيث صَالح بن كيسَان عَن الزُّهْرِيّ بِهِ سَوَاء

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من حَدِيث شُعَيْب عَن الزُّهْرِيّ بِهِ سَوَاء

وَله طَرِيق آخر عِنْد الطَّبَرَانِيّ أخرجه عَن مُحَمَّد بن عبد الله ابْن أخي الزُّهْرِيّ عَن مُحَمَّد بن جُبَير بن مطعم عَن عبد الله بن عدي بن الْحَمْرَاء . . . فَذكره بِلَفْظ السّنَن

(279/574)

قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ ذكر أَحَادِيث رجال من الصَّحَابَة رووا عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رويت أَحَادِيثهم من وُجُوه صِحَاحًا مطْعن فِي نَاقِليهَا وَلم يخرجَا من أَحَادِيثهم شَيْئًا يَعْنِي الْبُخَارِيّ وَمُسلمًا فَيلْزم إخْرَاجهَا عَلَى مَذْهَبهمَا فَذكر جمَاعَة مِنْهُم عبد الله بن عدي بن الْحَمْرَاء الزُّهْرِيّ رَوَى عَنهُ أَبُو سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن وَمُحَمّد ابْن جُبَير بن مطعم قَالَه الزُّهْرِيّ عَنْهُمَا انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ النَّسَائِيّ من حَدِيث معمر عَن الزُّهْرِيّ عَن أبي سَلمَة بن عبد الرَّحْمَن عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ وقف رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سوق الْحَزْوَرَة بِمَكَّة

وَقَالَ وَالله إِنَّك لخير أَرض الله وَأحب الْبِلَاد إِلَى الله وَلَوْلَا أَنِّي أخرجت مِنْك مَا خرجت انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عبد الرازق فِي مُصَنفه أَنا معمر بِهِ سَوَاء

وَعَن عبد الرازق رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة وَقَالَ فِيهِ لَوْلَا أَن أهلك أَخْرجُونِي مِنْك مَا خرجت انْتَهَى

ثمَّ قَالَ الْبَيْهَقِيّ هَذَا وهم وهم فِيهِ معمر وَقد رَوَاهُ بَعضهم أَيْضا عَن مُحَمَّد بن عَمْرو عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة وَهُوَ أَيْضا وهم وَالصَّحِيح حَدِيث عبد الله بن عدي بن الْحَمْرَاء انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرازق أَيْضا رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَقَالَ لَا نعلم رَوَاهُ عَن الزُّهْرِيّ إِلَّا معمر

وَبِهَذَا الحَدِيث اسْتدل أَحْمد عَلَى تَفْضِيل مَكَّة عَلَى الْمَدِينَة

وَأما حَدِيث ابْن عَبَّاس فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ من حَدِيث عبد الله بن عُثْمَان بن خثيم

(280/574)

ثَنَا سعيد بن جُبَير وَأَبُو الطُّفَيْل عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَكَّة مَا أطيبك من بلد وَأَحَبّك إِلَي وَلَوْلَا أَن قومِي أَخْرجُونِي مِنْك مَا سكنت غَيْرك انْتَهَى قَالَ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب من هَذَا الْوَجْه انْتَهَى

931 - الْحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ طس سُلَيْمَان كَانَ لَهُ من الْأَجر عشر حَسَنَات بِعَدَد من صدق بِسُلَيْمَان وَكذب بِهِ وَهود وَشُعَيْب وَصَالح وَإِبْرَاهِيم وَيخرج من قَبره وَهُوَ يَقُول لَا إِلَه إِلَّا الله

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا أَبُو الْحسن مُحَمَّد بن الْقَاسِم الْفَقِيه ثَنَا أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن يزِيد الْمعدل ثَنَا أَبُو يَحْيَى الْبَزَّار ثَنَا مُحَمَّد بن مَنْصُور ثَنَا مُحَمَّد بن عمرَان بن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى ثَنَا أبي عَن مجَالد بن عبد الْوَاحِد عَن الْحجَّاج بن عبد الله عَن أبي الْجَلِيل وَعَن عَلّي بن زيد وَعَطَاء بن مَيْمُون عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَد الثَّانِي فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 7 . 23 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة النمل» (27)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ» (6) أي تأخذه عنه ويلقى عليك . .

«إِنِّي آنَسْتُ ناراً» (7) أي أبصرت وأحسست بها . .

«بِشِهابٍ «1» قَبَسٍ» (7) أي بشعلة نار ، ومجاز «قبس» ما اقتبست منها من الجمر قال :

فى كفّه صعدة مثقّفة فيها سنان كشعلة القبس

«2» [651] .

«كَأَنَّها جَانٌّ» (10) وهى جنس من الحيّات . .

«وَلَمْ يُعَقِّبْ» (10) أي ولم يرجع يقال : عقّب عليه فأخذه . .

«فَهُمْ يُوزَعُونَ» (17) أي يدفعون فيستحث آخرهم ويحبس أولهم ، وفى آية أخرى : .

«أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ» (19) مجازه : شدّدنى «3» إليه ومنه قولهم :

(1) . - 5 «الشهاب» : روى القرطبي (13/ 157) تفسير هذه الكلمة لأبى عبيدة .

(2) . - 651 : فى الطبري 19/ 57 غير معزو لأبى زبيد وهو منسوب لأبى زبيد فى حاشية نسخة .

(3) . - 12 «شددنى» : قال ابن حجر : وقال أبو عبيدة فى قوله «أوزعنى أي سددنى (لعله مصحف من شددنى) إليه» وقال فى موضع آخر أي ألهمنى (فتح الباري 8/ 388)

(282/574)

وزعنى الحلم عن السّفاه أي منعنى ، ومنه قوله :

على حين عاقبت المشيب على الصّبا فقلت ألمّا تصح والشّيب وازع

«1» [652] ومنه الوزعة الذين يدفعون الخصوم والناس عن القضاة والأمراء . .

«قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ» (18) هذا من الحيوان الذي خرج مخرج الآدميّين ، والعرب قد تفعل ذلك قال :

شربت إذا ما الدّيك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوّبوا

(310) .

«فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ» (22) أي غير طويل ، كاف «مكث» مفتوحة ، وبعضهم يضمها

. .

«أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ» (25) مجازه الأمر ، وهذه الياء التي قبل الألف .

«اسْجُدُوا» تزيدها العرب للتنبيه إذا كانت ألف الأمر التي فيها من ألفات الوصل نحو قولك

: اضرب يا فتى ، واسجد واسلم ونحو ذلك قال العجّاج :

---

(1) . - 652 : ديوانه من الستة ص 18 والكتاب 1/ 322 والطبري 19/ 80

والشنتمرى 1/ 369 واللسان والتاج (وزع) والعيني 3/ 406 ، 4/ 357 وشواشد

المغني ص 298 والخزانة 3/ 19 وشواهد الكشاف 169 .

(283/574)

يا دار سلمى يا سلمى ثم أسلمي

«1» [654] فالياء زائدة فى قوله : «يا سلمى» ، وقال ذو الرّمّة :

ألا يا سلمى يا دار مىّ على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

«2» [655] وقال الأخطل :

ألا يا سلمى يا هند هند بنى بدر وإن كان حيّانا عدى آخر الدهر

(515) .

«الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ» (25) ما خبأت فى نفسك أي ما أسررت . .

«لا قِبَلَ لَهُمْ بِها» (37) مجازه لا طاقة «3» لهم بها ولا يدين . .

«قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ» (39) وهو من كل جن وإنس أو شيطان الفائق المبالغ الرئيس ، يقال عفرية نفرية «4» وعفارية وهما مثل عفريت قال جرير :

قرنت الظالمين بمرمريس يذلّ له العفارية المريد

«5» [656] المرمريس : الداهية الشديدة ، قال ذو الرّمّة :

---

(1) . - 654 : ديوانه ص 58 والسمط ص 457 وابن يعيش 1/ 890 ، 2/ 1360 .

(2) . - 655 : من مطلع قصيدة فى ديوانه ص 206 وهو فى الكامل المبرد ص 84 والصحاح واللسان والتاج (يا) والعيني 4/ 285 وشواهد المغني ص 210 .

[. . . . .]

(3) . - 8 «لا طاقة» : أخذ البخاري تفسيره هذا وأشار إليه ابن حجر وقال هو قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 387) .

(4) . - 10 «عفرية نفرية» : وفى اللسان : ورجل عفر وعفرية ونفرية وعفارية (عفر)

وفى الحديث : أن اللّه يبغض العفرية النفرية (النهاية واللسان) .

(5) . - 656 : ديوانه ص 163 والأمالى للقالى 3/ 65 واللسان (عفر) .

(284/574)

كأنه كوكب فى إثر عفرية مسوّم فى سواد الليل منقضب

«1» [658]

قال لصَّرْحَ»

»

44) القصر وكان من قوارير قال أبو ذؤيب :

بهن نعام بناها الرجا ل تشبّه أعلامهن الصروحا

«3» [659] كل بناء بنيته من حجارة فهو نعامة والجماع نعام وإذا كان من شجر وثرى فهو ثاية . .

«قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ» (49) أي تحالفوا وهو من القسم . .

«قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ» (57) أي جعلناها من الباقين .

«آللّه خير أمّا تشركون» (59) مجازه أم ما تشركون أي أم الذي تشركون به فأدغمت الميم

فى الميم فثقّلت و«ما» قد يوضع فى موضع «من» و«الذي» وكذلك هى فى آية أخرى :

«وَالسَّماءِ وَما بَناها» (91/ 5) ومن بناها .

«وَالْأَرْضِ وَما طَحاها» ومن طحاها . .

«فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ» (60) أي جنانا من جنان الدنيا واحدتها حديقة . .

«وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ» (65) مجازه متى وفى آية أخرى : «أَيَّانَ مُرْساها» (41) أي متى .

---

(1) . - 658 : ديوانه ص 27 والكامل للمبرد ص 493 والأمالى للقالى 3/ 65 واللسان (قضب) والقرطبي 13/ 203 .

(2) . - 2لصَّرْحَ» : انظر تفسير هذه الكلمة لأبى عبيدة فى القرطبي 13/ 209 وفتح الباري 8/ 387 .

(3) . - 659 : ديوانه ص 136 والطبري 20/ 45 واللسان والتاج (صرح) وفى القرطبي (13/ 209) عجزه فقط ، وبين رواية أبى عبيدة وبين رواية الديوان خلاف .

«عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ» (72) مجازه جاء بعدكم «1» . .

«وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً» (83) أمة كل نبى الذين آمنوا به ، ومن كل أمة أي من كل

قرن فوجا جماعة ، ويقال جاءونى أفواجا أي جماعات ، وفى آية أخرى : «وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً» (2/110) أي جماعات . .

«وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا» (85) مجازه وجب العقاب عليهم بما كفروا . .

«وَالنَّهارَ مُبْصِراً» (86) مجازه مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أي يبصر فيه ، ألا ترى أن البصر إنما هو فى النهار والنهار لا يبصر كما أن النوم فى الليل ولا ينام الليل فإذا نيم فيه قالوا : ليلة قائم ونهاره صائم قال جرير :

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السّرى ونمت وما ليل المطىّ بنائم

(96) .

«وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ» (87) أي صاغرين خاضعين «كُلٌّ» لفظه لفظ واحد ومعناه جميع ، فهذه الآية فى موضع جميع وقد يجوز فى الكلام أن تجعله فى موضع واحد فتقول : كل آتيه ذاخرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 92.96 ﴾

---

(1) . - 1 «جاء بعدكم» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 387 .

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «النمل»

[سورة النمل (27) : آية 7]

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7)

قوله تعالى : إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً [7] وهذه استعارة على القلب .

والمراد بها - والله أعلم - إنى رأيت نارا فآنستنى فنقل فعل الإيناس إلى نفسه على معنى : إنى وجدت النار مؤنسة لى ، كما سبق من قولنا فى تأويل قوله تعالى : وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا «1» أي وجدناه غافلا ، على بعض الأقوال .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا «2» ولم تغرّهم هى ، وإنما اغتروا بها هم ، فلما كانت سببا للغرور حسن أن ينسب إليها ويناط بها .

وحقيقة الإيناس هى الإحساس بالشيء من جهة يؤنس بها ، وما أنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك إليه .

[سورة النمل (27) : آية 32]

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

وقوله سبحانه حاكيا عن ملكة سبإ : ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ [32] وهذه استعارة . والمراد بقطع الأمر - والله أعلم - الرجوع بعد إجالة الآراء ، ومخض الأقوال إلى رأى واحد يصحّ العزم على فعله ، والعمل عليه دون غيره ، تشبيها بالإسداء والإلحام فى الثوب النسيج ، ثم القطع له بعد الفراغ منه . فكأنها أجالت الرأى عند ورود ما ورد عليها من دعاء سليمان عليه السلام لها إلى الإيمان به ، والاتباع له ، فميلت «3» بين الامتناع

---

(1) سورة الكهف . الآية رقم 28 .

(2) سورة الأعراف . الآية رقم 51 .

(3) ميلت : أي شكت انظر القاموس المحيط . [. . . . .]

والإجابة ، والمخاشنة والملاينة . فلما قوى فى نفسها أمر الملاطفة عزمت على فعله ، فحسن أن يعبّر عن ذلك بقطع الأمر ، لما أشرنا إليه .

وعلى هذا قول الرجل لصاحبه : لا أقطع أمرا دونك . أي لا أقرر العزم على شىء حتى أفاوضك فيه وأوافقك عليه . وقد يجوز أن يكون ذلك كناية عن الاستعجال بفعل الأمر تشبيها بسرعة قطع الشيء المستدقّ كالحبل وغيره . ومنه قولهم : صرم الأمر . أي فرغ من

فعله بسرعة. والصّريمة من ذلك. وفصل الأمر أيضا قريب منه.

[سورة النمل (27) : آية 40]

قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

وقوله سبحانه: أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ [40] وهذه استعارة.

لأن المراد بارتداد الطّرف هاهنا التقاء الجفنين بعد افتراقهما. وذلك أبلغ ما يوصف به فى السرعة. وليس هناك على الحقيقة شىء ذهب عنه ثم رجع إليه. ولكن جفن العين لمّا كان ينفتح وينطبق، أقام الانفتاح مقام الخروج، والانطباق مقام الرجوع.

وقيل فى ذلك وجه آخر. وهو أن فى مجرى عادة الناس أن يقول القائل لغيره إذا كان على انتظار أمر يرد عليه من جهته: أنا ممدود الطرف إليك، وشاخص البصر نحوك.

فإذا كان امتداد الطرف بمعنى الانتظار مستعملا، جاز أن يجعل ارتداده عبارة عن زوال الانتظار. فكأنه قال: أنا آتيك به قبل أن تتكلف أمر انتظار، وتعدّ الأوقات.

والقول الأول أولى بالاعتماد، وأخلق بالصواب «1».

[سورة النمل (27) : آية 66]

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (66)

وقوله تعالى: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها، بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ [66]

وهذه استعارة. لأن العمى هنا ليس يراد به فقد الجارحة المخصوصة، وإنما

---

(1) فى الأصل: «بالصوب» وهو تحريف.

(288/574)

يراد به التعامي عن الحق، و الذهاب صفحا عن النظر والفكر، إمّا قصدا و تعمدا، أو جهلا و عمى.

وإنما أجرى الجهل مجرى العمى فى هذا المعنى، لأن كل واحد منهما يمنع بوجوده من إدراك الشيء على ما هو به. إذ الجهل مضادّ للعلم و المعرفة، و العمى مناف للنظر و الرؤية. و إنما قال سبحانه: بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ و لم يقل: عنها، لأن المراد أنهم يشكّون فيها، و يمترون فى صحّتها، فهم فى عمى منها و لا يصلح أن يكون فى هذا الموضع: عنها. لأنه ليس المراد ذكر عماهم عن النظر إليها، و إنما القصد ذكر عماهم بالشك فيها. و هذا من لطائف المعاني «1».

[سورة النمل (27): آية 72]

قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

وقوله سبحانه: قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ [72] و هذه استعارة. لأن حقيقة الرّدف هى حمل الإنسان غيره مما يلى ظهره على مركوب «2»

. . . .

فالمراد بقوله سبحانه: رَدِفَ لَكُمْ ها هنا - و اللّه أعلم - أي عسى أن يكون العذاب الذي تتوقعونه قد قرب منكم. و هو فى آثاركم، و لاحق بكم.

وقد قيل أيضا إن المراد بردف لكم. أي ردفكم. فصار العذاب فى الالتصاق بكم كالمرادف لكم. و المعنى واحد.

---

(1) فى الأصل: «المغالى» و هو تحريف بين.

(2) هنا سطر غير واضح الكلام و لا ملتئم السياق.

[سورة النمل (27): آية 76]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

وقوله تعالى: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [76]

وهذه استعارة. لأن القصص كلام مخصوص، ولا يوصف به إلا الحىّ الناطق المميّز.

ولكن القرآن لما تضمن نبأ الأوّلين ، ومصادر أمور الآخرين ، كان كأنّه يقصّ على من آمن به عند تلاوته له قصص من تقدمه «1» . . . هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 260. 263 ﴾

---

(1) هنا ضاع من الأصل أربع ورقات تقريبا . من الآية 76 من سورة النمل إلى الآية 26 من سورة الأحزاب .

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة النمل

سورة النمل من القرآن النازل بمكة . وقد حوت عجائب عن عالم الحيوان ربما كشف عنها المستقبل القريب ، وإلى ذلك تشير الآية الآخيرة فى السورة: " وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون " . أما صدر السورة ففيه خلاصات سريعة عن مصائر المؤمنين والكافرين ، فالهدى والبشرى للأولين ، والضياع والخسار للآخرين .

والواقع أن هذا التمهيد السريع جاءت السورة فى الجزء الأخير منها بتفصيله ، ولكن بعد إيراد أربع قصص: عن موسى وفرعون ، وعن سليمان وسبأ ، وعن ثمود ، وعن قوم

لوط . . . كما جاء فى السورة إيماء وجيز عن الدابة التى تخرج قبيل الساعة . فلننظر أولا إلى هذه القصص نظرة عجلى : فى قصة موسى يقول الله له عندما فر بعد ما رأى عصاه تتحول إلى ثعبان : " يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون * إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم " . فى هذا الكلمة طمأنة لموسى أن الله غفر له قتل خصمه فى مصر ، فقد قال بعد ما صرعه : " رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم" . وهو هنا يؤكد هذه المغفرة ، ويبشره بالرسالة ! ! . ثم يذكر الفراعنة بأنهم كفروا بالله عن عمد وإصرار وهم عارفون بأن موسى على حق ، فليس لهم أى عذر فى حربه ! " وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " . وقبل أن نشير إلى قصة سليمان نذكر بقوله تعالى : " وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . . . " .

(291/574)

هذه الأمم تعيش وتتفاهم بلغات خاصة بها ، ومادام هذا التفاهم مستيقنا ، فإن فى مكنة الناس أن يعرفوا أسراره . وقد كان سليمان من المحيطين بلغات الطيور والحشرات . ، وعلمه الله منها ما يعجز عنه الآخرون : " علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا

لهو الفضل المبين " . وقد أسمعه الله قول النملة لجماعتها : " يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون * فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين " . وذكرت السورة أن الهدهد أتى سليمان بخبر بلقيس ملكة سبأ التى كانت تعبد الشمس ، وقد عجب الهدهد لما رأى أنهم وثنيون يعبدون من دون الله بعض مخلوقاته " فهم لا يهتدون * ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . . . " . وقد خط سليمان كتابا إلى هذه الملكة جاء فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين" . والإسلام هو دين الأنبياء كلهم ، ما شذ منهم أحد ، لأن أساسه الإيمان بالله ، والخضوع له ، والاستعداد للقائه . . وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد سواء فى ذلك . وقد تريثت بلقيس فى الرد ، وأحبت أن تعرف هل سليمان واحد من الملوك الذين يطلبون المال والسيادة ؟ أم هو من الهداة إلى الله المترفعين عن الدنيا ؟ فلما جاء سليمان وفد يحمل إليه التحف والهدايا أدرك ما هنالك . وقال للوفد : " أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون " . وأحب أن يرى الملكة معجزة تشهد له بالصدق ! فقال لجلسائه: " أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين " ؟ . وجاء العرش بقدرة الله إلى بيت المقدس من اليمن فى لمح البصر ! . ورأى سليمان عظمة ما وقع فقال: " هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم

أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم " . وأظن – تفسيرا لما وقع – أن المادة تحولت

(292/574)

إلى

طاقة تجرى بسرعة الضوء ، ثم عادت سيرتها الأولى عرشا تجلس عليه الملكة . .

(293/574)

وقد نظرت بلقيس إليه فى دهشة ، وقيل لها : " أهكذا عرشك قالت كأنه هو " وهى إجابة تدل على تمام عقلها ، ثم رأت من حال سليمان ما عرفها أنه رسول من الله ، فآمنت به وقالت " . . وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين . . . " . وتلت قصة ثمود قصة سبأ ، وثمود نموذج آخر لعاد فى الكبر والغطرسة . فلما جاءهم صالح يدعوهم إلى الله تشاءموا منه ، وتآمروا على قتله " قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله . . . " . ويبدو أنهم بدل أن يقتلوه قتلوا الناقة التى خلقها الله معجزة له ، فذاقوا

العقاب الأليم " ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا . . . " . ثم جاءت قصة لوط مع المدينة الفاسقة ، كان أهلها قد مسخت فطرتهم ، واستمرأوا الدنس ، وجعلوه علنا فى مجالسهم ونواديهم . ولوط إسرائيلى مهاجر إلى هذه المدينة ، فلما فوجئ بخبثها نهاهم عنه ، فرأوا طرده من مدينتهم ، ويظهر أن فجورهم قد استقر فى أنفسهم ومجتمعهم . " ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون * أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون " . وقد دمر الله القرية وجعل عاليها سافلها . . ما فعله قوم لوط معروف عند أهل الكتاب ومصيرهم الكالح مذكور عندهم ، ومع ذلك فقد استباحوه ، ومنعوا معاقبة فاعليه ، فهل هذا إلا الكفر ؟ . وعندما ننظر إلى أول السورة نجده مهادا لهذه الآحداث ، ونذيرا بعقباها : " إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون * أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون " . بعد أن قص الله على نبيه مصائر بعض الأمم التى كذبت رسلها أقبل عليه بهذا الخطاب : " قل الحمد لله وسلام على عباده

الذين اصطفى . . . " .

الحمد لله على هلاك المعتدين وطفر الأرض منهم ، كما قال فى سورة الأنعام: " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين " . إن فراغ الأرض من الظلمة ، ورسو قواعد الحق ، نعمة كبرى تستحق الشكر ، كما يستحق التحية الأنبياء الكرام الذى صبروا وصابروا حتى انتهوا إلى هذه النتيجة المرضية . ثم جاء هذا الاستفهام لتقرير حقيقة عظيمة: " آلله خير أما يشركون " ؟ . وهو كقوله سبحانه على لسان يوسف: " يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار " . وتقرير الوحدانية أصل مشترك فى جميع الرسالات السماوية ، فإن التعدد نبت فى الأرض فى بعض البيئات الضالة ، ولما كان قد شاع بين العرب ، فقد وجه القرآن إليهم خمسة أسئلة ترسى قواعد الوحدانية ، وتشرح الحقيقة لكل ذى لب: 1 - " أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون " أى يسوون بالله غيره من أصنام ، أو يميلون عن الطريق القويم ، ولا يستطيع أحد القول بأن خالق السماء ومنزل الماء ومنبت الحدائق الغناء حجر أو بشر . . ! ! . 2 - " أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون " ! ! . إن استقرار الأرض بمن عليها فلا قلق ولا اهتزاز: أمر مدهش ، لأن للأرض حركتين: حول نفسها ، وحول الشمس ، ومع هذا الحراك المزدوج ،

والانطلاق الهائل فى الفضاء لايهتز كوب ماء فى يدك ! . ثم إن الأرض كرة وأربعة أخماسها ماء ملح . وفى القارات أنهار وبحيرات عذبة ، ولا يختلط عذب وملح ، كل مستقر فى مجراه ! لاختلاف الكثافة النوعية كما يقولون ، أفلا يسوقنا هذا إلى الله ؟ . 3 - " أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون " . وهذه الآية انتقلت من المكان إلى السكان ! وما يعروهم فى حياتهم من آلام تجعلهم

(295/574)

يجأرون بالدعاء ، ويتلهفون على الفرج ، من يسودتى الخير إلا الله ؟ .

4 - " أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون " ! الهادى للناس فى أسفارهم برا أو بحرا أو جوا هو الله ، ومرسل الرياح فى الجهات الأربع هو الله . من من الآلهة المزعومة يفعل شيئًا من ذلك ؟ . 5 - " أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " . لا برهان هنالك . ليس للكفر دليل يسمع . إن الإلحاد مرض ، وليس فكرا ، إنه غرور يرتكز على أوهام ولامكان له فى منطق العقل ! ! . والفلسفة المادية السائدة الآن

، إنما تدور على فكرة " إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع " التى تولدت عن الوثنيات القديمة . وغريب أن تتحول إلى نظرية علمية تقول: " المادة لا تفنى ولا تستحدث " . وفى ظل هذا الخيال تنطلق الأجيال نحو صفر ! ! ويسود السلوك الحيوانى كل شىء " وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين " . وقد كلف النبى العربى المحمد أن يعترض هذا الضلال ، وأن يصور للناس الآخرة رأى العين ! وأن يكون حضارة ربانية تؤمن بالله ، وترتبط بالوحى ، وتستعد للجزاء . والإسلام يصنع على ظهر الأرض أمة تعتبر السعى للآخرة إطار سلوكها كله ، وتقف أمام ربها صفوفا صفوفا خمس مرات كل يوم بعد نداءات مدوية بتكبير الله وتوحيده ! ! . وفى سورة النمل آية تذكر أنه بين يدى الفصل الأخير فى رواية هذه الحياة سوف تخرج من عالم الحيوان دابة يلهمها الله النطق ، تقول للبشر: كيف نسيتم ربكم ، وجحدتم عقولكم وأنكرتم خالقكم ؟ ؟ ما هذا الكفر ؟ . وإنى أتصور هذه الدابة وهى تعترض ذوى الألقاب وأصحاب المناصب ، لتقول لهم: عالم الحيوان أسعد منكم حظا ، فهو لم يحظ بعلمكم ، ومن ثم لا يلام على غباء ، أما

أنتم فقد منحكم الله الذكاء فحاربتموه به . . ! قبحتم من بشر ! ! . " وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون " وقد وردت روايات خرافية عن هذه الدابة لا تصح ، ويكفينا فى شأنها الخبر اليقين . .

وانتهت هذه السورة بحديث عن الآخرة والحساب ، يقوم على هذا القانون العادل: " من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون " . ولواء الدعوة إلى الله آخر الدهر معقود لصاحب الرسالة العظمى الذى صنع بالقرآن أمة وظيفتها أن تبلغ الوحى ، وتصنع به أمما على غرارها . " إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن . . . " . وسيكشف المستقبل الكثير عن مستقبل الإسلام ومستقبل الكفر فى هذه الدار المحدودة ، وفيما بعدها " وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 291.296 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والسبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة النمل

وحتى الآية ﴿ 14 ﴾ من نفس السورة

(4/575)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/575)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة النمل

أقول: وجه اتصالها بما قبلها : أنها كالتتمة لها ، في ذكر بقية القرون ، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان ، وداود ، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء وقد روينا عن إبن عباس ، وجابر بن زيد ، في ترتيب السور : أن الشعراء أنزلت ، ثم طه ، ثم القصص ولذلك

كان ترتيبها في المصحف هكذا

وأيضاً فقد وقع فيها : (وإِذ قال موسى لأَهلِهِ امكثوا إِني آنستُ ناراً) إلى آخره وذلك تفصيل قوله في الشعراء : (فوهَبَ لي رَبي حكما وجعلني من المُرسَلين) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 121.122 ﴾

(6/575)

قوله تعالى ﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي كمل علمه فبهرت حكمته (الرحمن) الذي عم بالهداية بأوضح البيان (الرحيم) الذي منّ بجنان النعيم .

على من ألزمه الصراط المستقيم .

﴿ طس ﴾ يشير إلى طهارة الطور وذي طوى منه وطيب طيبه ، وسعد بيت المقدس الذي بناه سليمان عليه الصلاة والسلام التي انتشر منها الناهي عن الظلم ، وإلى أنه لما طهر سبحانه بني إسرائيل ، وطيبهم بالابتلاء فصبروا ، خلصهم من فرعون وجنوده بمسموع موسى عليه الصلاة والسلام للوحي المخالف لشعر الشعراء ، وإفك الآثمين وزلته من الطور ، ولم يذكر تمام أمرهم بإغراق فرعون ، لأن مقصودها إظهار العلم والحكمة دون البطش والنقمة ، فلم يقتض الحال ذكر الميم .

(7/575)

ولما ختم التي قبلها بتحقيق أمر القرآن ، وأنه من عند الله ، ونفي الشبه عنه وتزييف ما كانوا يتكلفونه من تفريق القول فيه بالنسبة إلى السحر والأضغاث والافتراء والشعر ، الناشىء كل ذلك عن أحوال الشياطين ، وابتدأ هذه بالإشارة إلى أنه من الكلام القديم المسموع المطهر عن وصمة تلحقه من شيء من ذلك ، تلاه بوصفه بأنه كما أنه منظوم مجموع لفظاً ومعنى لا فصم فيه ولا خلل ، ولا وصم ولا زلل ، فهو جامع لأصول الدين ناشر لفروعه ، بما أشار إليه الكون من المسلمين فقال : ﴿ تلك ﴾ أي الآيات العالية المقام البعيدة المرام ، البديعة النظام ﴿ آيات القرآن ﴾ أي الكامل في قرآنيته الجامع للأصول ، الناشر

للفروع ، الذي لا خلل فيه ولا فصم ، ولا صدع لولا وصم ﴿ و ﴾ آيات ﴿ كتاب ﴾ أي وأيّ كتاب هو مع كونه جامعاً لجميع ما يصلح المعاش والمعاد ، قاطع في أحكامه ، غالب في أحكامه ، في كل من نقضه وإبرامه ، وعطفه دون إتباعه للدلالة على أنه كامل في كل من قرآنيته وكتابيته ﴿ مبين ﴾ أي بين في نفسه أنه من عند الله كاشف لكل مشكل ، موضح لكل ملبس مما كان ومما هو كائن من الأحكام والدلائل في الأصول والفروع ، والنكت والإشارات والمعارف ، فيا له من جامع فارق واصل فاصل .

(8/575)

ولما كانت العناية في هذه السورة بالنشر – الذي هو من لوازم الجمع في مادة " قرا " كما مضى بيانه أول الحجر – أكثر ، قدم القرآن ، يدل على ذلك انتشاراً أمر موسى عليه الصلاة والسلام في أكثر قصته بتفريقه من أمه ، وخروجه من وطنه إلى مدين ، ورجوعه مما صار إليه إلى ما كان فيه ، والتماسه لأهله الهدى والصلى واضطراب العصى وبث الخوف منها ، وآية اليد وجميع الآيات التسع ، واختيار التعبير بالقوم الذي أصل معناه القيام ، وإبصار الآيات ، وانتشار الهدهد ، وإخراج الخبأ الذي منه تعليم منطق الطير ، وتكليم الدابة للناس ، وانتشار المرأة وقومها وعرشها بعد تردد الرسل بينها وبين سليمان عليه الصلاة

والسلام ، وكشف الساق ، وافتراق ثمود إلى فريقين ، مع الاختصام المشتت ، وانتثام قوم لوط عليه السلام إلى ما لا يحل ، وتفريق الرياح نشراً ، وتقسيم الرزق بين السماء والأرض ، ومرور الجبال ، ونشر الريح لنفخ الصور الناشىء عنه فزع الخلائق المبعثر للقبور ، إلى غير ذلك مما إذا تدبرت السورة انفتح لك بابه ، وانكشف عنه حجابه ، وهذا بخلاف ما في الحجر على ما مضى .

(9/575)

وقال الإمام ابو جعفر بن الزبير : لما أوضح في سورة الشعراء عظيم رحمته بالكتاب ، وبيان ما تضمنه مما فضح به الأعداء ، ورحم به الأولياء ، وبراءته من أن تتسور الشياطين عليه ، وباهر آياته الداعية من اهتدى بها إليه ، فتميز بعظيم آياته كونه فرقاناً قاطعاً ، ونوراً ساطعاً ، أتبع سبحانه ذلك مدحة وثناء ، وذكر من شملته رحمته به تخصيصاً واعتناء ، فقال ﴿ تلك آيات القرآن ﴾ أي الحاصل عنها مجموع تلك الأنوار آيات القرآن ﴿ وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ ثم وصفهم ليحصل للتابع قسطه من بركة التبع ، وليتقوى رجاؤه في النجاة مما أشار إليه ﴿ وسيعلم الذين ظلموا ﴾ من عظيم ذلك المطلع ؛ ثم أتبع ذلك بالتنبيه على صفة الآهلين لما تقدم من التقول والافتراء تنزيهاً لعباده المتقين ، وأوليائه

المخلصين ، عن دنس الشكوك والامتراء فقال : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ أي يتحيرون فلا يفرقون بين النور والإظلام ، لارتباك الخواطر والأفهام ؛ ثم أتبع ذلك بتسليته عليه الصلاة والسلام بالقصص الواقعة بعد تنشيطاً له وتعريفاً بعلي منصبه ، وإطلاعاً له على عظيم صنعه تعالى فيمن تقدم ، ثم ختمت السورة بذكر أهل القيامة وبعض ما بين يديها ، والإشارة إلى الجزاء ونجاة المؤمنين ، وتهديد من تنكب عن سبيله عليه الصلاة والسلام – انتهى .

ولما عظم سبحانه آيات الكتاب بما فيها من الجمع من النشر مع الإبانة ، ذكر حاله فقال : ﴿ هدى ﴾ ولما كان الشيء قد يهدي إلى مقصود يكدر حال قاصده .

قال نافياً لذلك ، وعطف عليه بالواو دلالة على الكمال في كل من الوصفين :

﴿ وبشرى ﴾ أي عظيمة .

(10/575)

فلما تشوفت النفوس ، وارتاحت القلوب ، فطم من ليس بأهل عن عظيم هذه الثمرة فقال : ﴿ للمؤمنين ﴾ أي الذين صار ذلك لهم وصفاً لازماً بما كان لهم قبل دعاء الداعي من طهارة الأخلاق ، وطيب الأعراق ، وفي التصريح بهذا الحال تلويح بأنه فتنه وإنذار

للكافرين ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ -الآية ، ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ [فصلت : 44] ، ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمي ﴾ -إلى غير ذلك من الآيات .

ولما كان وصف الإيمان خفياً ، وصفهم بما يصدقه من الأمور الظاهرة فقال : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أي بجميع حدودها الظاهرة والباطنة من المواقيت والطهارات والشروط والأركان والخشوع والخضوع والمراقبة والإحسان إصلاحاً لما بينهم وبين الخالق .

ولما كان المقصود الأعظم من الزكاة إنما هو التوسعة على الفقراء قال : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي إحساناً فيما بينهم وبين الخلائق .

ولما كان الإيمان بالبعث هو الجامع لذلك ولغيره من سائر الطاعات ، ذكره معظماً لتأكيده ، فقال معلماً بجعله حالاً إلا أنه شرط لما قبله : ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم .

ولما كان الإيمان بالبعث هو السبب الأعظم للسعادة وهو محط للحكمة ، عبر فيه بما يقتضي الاختصاص ، لا للاختصاص بل للدلالة على غاية الرسوخ في الإيمان به ، فقال : ﴿ بالآخرة هم ﴾ أي المختصون بأنهم ﴿ يوقنون ﴾ أي يوجدون الإيقان حق الإيجاد ويجددونه في كل حين بما يوجد منهم من الإقدام على الطاعة ، والإحجام عن المعصية .

ولما أفهم التخصيص أن ثم من يكذب بها وكان أمرها مركوزاً في الطباع، لما عليها من الأدلة الباهرة في العقل والسماع، تشوفت نفس السامع على سبيل التعجب إلى حالهم، فقال مجيباً له مؤكداً تعجيباً ممن ينكر ذلك: ﴿إن الذين لا يؤمنون﴾ أي يوجدون الإيمان ويجددونه ﴿بالآخرة زينا﴾ أي بعظمتنا التي لا يمكن دفاعها ﴿لهم أعمالهم﴾ أي القبيحة، حتى أعرضوا عن الخوف من عاقبتها مع ظهور قباحتها، والإسناد إليه سبحانه حقيقي عند أهل السنة لأنه الموجد الحقيقي، وإلى الشيطان مجاز سببي ﴿فهم﴾ أي فتسبب عن ذلك أنهم ﴿يعمهون﴾ أي يخبطون خبط من لا بصيرة له اصلاً ويترددون في أودية الضلال، ويتمادون في ذلك، فهم كل لحظة في خبط جديد، بعمل غير سديد ولا سعيد، فإن العمه التحير والتردد كما هو حال الضال.

ولما خص المؤمنين بما علم منه أن لهم حسن الثواب، وأنهم في الآخرة هم الفائزون، ذكر ما يختص به هؤلاء من ضد ذلك فقال: ﴿أولئك﴾ أي البعداء البغضاء ﴿الذين لهم﴾ أي خاصة ﴿سوء العذاب﴾ في الدارين: في الدنيا بالأسر والقتل والخوف ﴿وهم في الآخرة هم﴾ المختصون بأنهم ﴿الأخسرون﴾ أي أشد الناس خسارة لأنهم خسروا ما لا خسارة مثله، وهو أنفسهم التي لا يمكنهم إخلافها.

ولما وصف القرآن من الجمع والفرقان، بما اقتضى بيان أهل الفوز والخسران، وكان

حاصل حال الكفرة أنهم يتلقون كفرهم الذي هو في غاية السفه إما عن الشياطين الذين هم في غاية الشر ، وإما عن آبائهم الذين هم في غاية الجهل ، وصف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بضد حالهم ، فذكر جلالة المنزل عليه والمنزل ليكون أدعى إلى قبوله .

فقال عاطفاً على ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ : ﴿ وإنك ﴾ أي وأنت أشرف الخلق وأعلمهم وأحلمهم وأحكمهم ﴿ لتلقى القرآن ﴾ أي تجعل متلقياً له من الملك ، وحذف هنا الواسطة وبناه للمفعول إعلاء له .

(12/575)

ولما كانت الأمور التي من عند الله تارة تكون على مقتضى الحكمة فتسند إلى أسبابها ، وأخرى خارقة للعادة فتنسب إليه سبحانه ، والخارقة تارة تكون في أول رتب الغرابة فيعبر عنها بعند ، تارة تكون في أعلاها فيعبر عنها بلدان ، نبه سبحانه على أن هذا القرآن في الذروة من الغرابة في أنواع الخوارق فقال : ﴿ من لدن ﴾ .

ولما مضى في آخر الشعراء ما تقدم من الحكم الجمة في تنزيله بهذا اللسان .

وعلى قلب سيد ولد عدنان ، بواسطة الروح الأمين ، مبايناً لأحوال الشياطين ، إلى غير ذلك مما مضى إلى أن ختمت بتهديد الظالمين ، وكان الظالم إلى الحكمة أحوج منه إلى مطلق

العلم ، وقدم في هذه أنه هدى ، وكان الهادي لا يقتدي به ولا يوثق بهدايته إلا إن كان في علمه حكيماً ، اقتضى السياق تقديم وصف الحكمة ، واقتضى الحال التنكير لمزيد التعظيم فقال : ﴿ حكيم ﴾ أي بالغ الحكمة ، فلا شيء من أفعاله إلا وهو في غاية الإتقان ﴿ عليم ﴾ أي عظيم العلم واسعه تامة شاملة ، فهو بعيد جداً عما ادعوه فيه من أنه كلام الخلق الذي لا علم لهم ولا حكمة إلا ما آتاهم الله ، ومصداق ذل عجز جميع الخلق عن الإتيان بشيء من مثله ، وإدراك شيء من مغازيه حق إدراكه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 405. 409 ﴾

(13/575)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إني آنست ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . ﴿ بشهاب ﴾ منوناً على أن قبساً وهو بمعنى مقبوس بدل أو صفة : عاصم وحمزة وعلي وخلف ورويس . الباقون بالإضافة ﴿ من في النار ﴾ ممالة : عليّ غير ليث وابي حمدون وحمدويه وحمزة وفي رواية ابن سعدان والنجاري عن ورش وأبو عمرو غير إبراهيم بن

حماد وكذلك في "القصص".

الوقوف: ﴿ طس ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 لا بناء على أن ﴿ هدى ﴾ حال والعامل معنى الإشارة في ﴿ تلك ﴾ أو هو مرفوع بدلاً من ﴿ الآيات ﴾ أو خبراً بعد خبر وإن كان التقدير هي هدى به فلك الوقف ﴿ للمؤمنين ﴾ 5 لا لأن ﴿ الذين ﴾ صفتهم ﴿ يوقنون ﴾ 5 ﴿ يعمهون ﴾ 5 ط تنصيصاً على أن ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ مستأنف ﴿ الأخسرون ﴾ 5 ﴿ عليم ﴾ 5 ﴿ ناراً ﴾ 5 ﴿ تصطلون ﴾ ﴿ حولها ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ الحكيم ﴾ 5 لا للعطف الجملتين الداخلتين تحت النداء ﴿ عصاك ﴾ ط للعدول عن بيان حال الخطاب إلى ذكر حال المخاطب مع حذف أي فألقاها فحييت ﴿ ولم يعقب ﴾ ط لابتداء النداء ﴿ المرسلون ﴾ 5 لا لأن "إلاّ" إن كان بمعنى "لكن" فالاستدراك يوجب الوصل أيضاً. ﴿ رحيم ﴾ 5 ﴿ وقومه ﴾ ط ﴿ فاسقين ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ ج 5 للآية والعطف ﴿ وعلواً ﴾ ط لاختلاف الجملتين وتعظيم الأمر بالاعتبار بعد حذف أي فأغرقناهم ﴿ المفسدين ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 291. 292 ﴾

(14/575)

فصل

قال الفخر :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وإبانته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن ، فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات ، وإنما نكر الكتاب المبين ليصير مبهماً بالتنكير فيكون أفخم له كقوله : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : 55] وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ وكتاب مُّبِينٌ ﴾ بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، فإن قلت : ما الفرق بين هذا وبين قوله : ﴿ الرَ تِلْكَ ءايات الكتاب وَقُرْءانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1] ؟ قلت : لا فرق لأن واو العطف لا تقتضي الترتيب .

أما قوله : ﴿ هُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهو في محل النصب أو الرفع فالنصب على الحال أي هادية ومبشرة ، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ، والرفع على ثلاثة أوجه على معنى هي هدى وبشرى ، وعلى البدل من الآيات ، وعلى أن يكون خبراً بعد خبر ، أي جمعت آياتها آيات الكتاب وأنها هدى وبشرى ، واختلفوا في وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين : الأول : المراد أنه يهديهم إلى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى :

﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صراطا مُّسْتَقِيماً ﴾ [النساء : 175

] فلهذا اختص به المؤمنون الثاني : المراد بالهدى الدلالة ثم ذكروا في تخصيصه بالمؤمنين وجوهاً : أحدها : أنه إنما خصه بالمؤمنين لأنه ذكر مع الهدى البشرى ، والبشرى إنما تكون للمؤمنين وثانيها : أن وجه الاختصاص أنهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يخشاها ﴾ [النازعات : 45] ، وثالثها : المراد من كونها ﴿ هُدًى لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنها زائدة في هداهم ، قال تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى ﴾ [مريم : 76] .

(15/575)

أما قوله : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ فالأقرب أنها الصلوات الخمس لأن التعريف بالألف واللام يقتضي ذلك ، وإقامة الصلاة أن يؤتى بها بشرائطها ، وكذا القول في الزكاة فإنها هي الواجبة ، وإقامتها وضعها في حقها .

(16/575)

أما قوله : ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ففيه سؤال وهو : أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لا بد وأن يكونوا متيقنين بالآخرة ، فما الوجه من ذكره مرة أخرى ؟ جوابه من

وجهين : الأول : أن يكون من جملة صلة الموصول ، ثم فيه وجهان : الأول : أن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، وأما عرفان الحق فأقسام كثيرة لكن الذي يستفاد منه طريق النجاة معرفة المبدأ ، ومعرفة المعاد ، وأما الخير الذي يعمل به فأقسام كثيرة وأشرفها قسمان : الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إشارة إلى معرفة المبدأ ، وقوله : ﴿ يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكواة ﴾ إشارة إلى الطاعة بالنفس والمال ، وقوله : ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ إشارة إلى علم المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدأ طرفاً أولاً ، ومعرفة المعاد طرفاً أخيراً وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطاً بينهما الثاني : أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، منهم من هو جازم بالحشر والنشر ، ومنهم من يكون شاكاً فيه إلا أنه يأتي بهذه الطاعات للاحتياط ، فيقول إن كنت مصيباً فيها فقد فزت بالسعادة ، وإن كنت مخطئاً فيها لم يفتني إلا خيرات قليلة في هذه المدة اليسيرة ، فمن يأتي بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن في الحقيقة مهتدياً بالقرآن ، أما من كان حازماً بالآخرة كان مهتدياً به ، فلهذا السبب ذكر هذا القيد الثاني : أن يجعل قوله : ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ، وهذا هو الأقرب ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو ﴿ هُمْ ﴾

حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق .

(17/575)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) ﴾

(18/575)

اعلم أنه تعالى لما بين ما للمؤمنين من البشرى أتبعه بما على الكفار من سوء العذاب فقال : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم ﴾ ، واختلف الناس في أنه كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته مع أنه أسنده إلى الشيطان في قوله : ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطن أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النحل : 63] ؟ فأما أصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها وذلك لأن الإنسان لا يفعل شيئاً ألبتة إلا إذا دعاه الداعي إلى الفعل والمعقول من الداعي هو العلم والاعتقاد والظن بكون الفعل مشتملاً على منفعة ، وهذا الداعي لا بد وأن يكون من فعل الله تعالى لوجهين : الأول : أنه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه إلى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال

الثاني : وهو أن العلم إما أن يكون ضرورياً أو كسبياً ، فإن كان ضرورياً فلا بد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسباً لأن المكتسب إن كان شاعراً به فهو متصور له ، وتحصيل الحاصل محال وإن لم يكن شاعراً به كان غافلاً عنه والغافل عن الشيء يمتنع أن يكون طالباً له ، فإن قلت هو مشعور به من وجه دون وجه ، قلت فالمشعور به غير ما هو غير مشعور به فيعود التقسيم المتقدم في كل واحد من هذين الوجهين ، وإذا ثبت أن التصور غير مكتسب ألبتة والعلم الضروري هو الذي يكون حضور كل واحد من تصوريه كافياً في حصول التصديق ، فالتصورات غير كسبية وهي مستلزمة للتصديقات ، فإذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لا محالة ، ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق ألبتة ، فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب ، ثم إن التصديقات البديهية إن كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية ، لأن لازم الضروري ضروري ، وإن لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الأشياء التي فرضناها علوماً نظرية كذلك بل هي اعتقادات تقليدية ، لأنه لا معنى لاعتقاد المقلد إلا اعتقاد تحسيني يفعله ابتداء من غير أن يكون له موجب فثبت بهذا أن العلوم

(19/575)

بأسرها ضرورية ، وثبت أن مبادىء الأفعال هي العلوم فأفعال العباد بأسرها ضرورية ، والإنسان مضطر في صورة مختار ، فثبت أن الله تعالى هو الذي زين لكل عامل عمله .

والمراد من التزيين هو أنه يخلق في قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات ، فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب إجراء هذه الآية على ظاهرها ، أما المعتزلة فإنهم ذكروا في تأويلها وجوهاً : أحدها : أن المراد بينا لهم أمر الدين وما يلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بأن بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب ، لأن التزيين من الله تعالى للعمل ليس إلا وصفه بأنه حسن وواجب وحميد العاقبة ، وهو المراد من قوله :

(20/575)

﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 7] ومعنى ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يدل على ذلك لأن المراد فهم يعدلون وينحرفون عما زينا من أعمالهم وثانيها : أنه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا إنعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف ، فكأنه تعالى زين بذلك أعمالهم وإليه إشارة الملائكة عليهم السلام في قولهم : ﴿ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَءابَاءهُمْ حتى نَسُواْ الذكر ﴾ [الفرقان

: 18] وثالثها : أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه والجواب : عن الأول أن قوله تعالى : ﴿ أعمالهم ﴾ صيغة عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسناً كان العمل أو قبيحاً ومعنى التزيين قد قدمناه ، وعن الثاني أن الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الأمور أثر في ترجيح فاعلية المعصية على تركها أوليس لها فيه أثر ، فإن كان الأول فقد دللنا على أن الترجيح متى حصل فلا بد وأن ينتهي إلى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وإن لم يكن فيه أثر صارت هذه الأشياء بالنسبة إلى أعمالهم كصرير الباب ونعيق الغراب ، وذلك يمنع من إسناد فعلهم إليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذي ذكروه ، والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق .

أما قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَهُمْ سُوء العذاب ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه القتل والأسر يوم بدر والثاني : مطلق العذاب سواء كان في الدنيا أو في الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه .

(21/575)

وأما قوله : ﴿ هُمُ الأخسرون ﴾ ففيه وجهان : الأول : أنه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بأن يسلب عنه الصحة والسلامة في الدنيا ويسلم في الآخرة إلى العذاب العظيم الثاني : المراد أنهم خسروا منازلهم في الجنة لو أطاعوا ، فإنه لا مكلف إلا وعين له منزل في الجنة لو أطاع فإذا عصى عدل به إلى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل .

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

أما قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

فمعناه لتؤتاه (وتلقاه) من عند أي حكيم وأي عليم ، وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص ، و (إذ) منصوب بمضمر وهو اذكر كأنه قال على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ، ويجوز أن ينتصب بعليم فإن قيل الحكمة أما أن تكون نفس العلم ، والعلم إما أن يكون داخلاً فيها ، فلما ذكر الحكمة فلم ذكر العلم ؟ جوابه : الحكمة هي العلم بالأمور العملية فقط والعلم أعم منه ، لأن العلم قد يكون عملياً وقد يكون نظرياً والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية ، فذكر الحكمة المشتملة على العلوم العملية ، ثم ذكر العليم وهو البالغ في كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصوناً عن كل التغيرات ، وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة إلا في علمه سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 152 . 155 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ ﴾

أي هذه آيات القرآن

. ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وآيات الكتاب المبين ، والكتاب هو القرآن ، فجمع له بَيْنَ الصفتين بأنه قرآن وأنه كتاب لأنه ما يظهر بالكتابة ويظهر بالقراءة .

﴿ مُّبِينٍ ﴾ لأنه يبين فيه نهيه وأمره ، وحلاله وحرامه ، ووعده ووعيده

. وفي المضمر في ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه يعود إلى الحروف التي في ﴿ طسٓ ﴾ قاله الفراء .

الثاني : إلى جميع السورة .

﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : هدى إلى الجنة وبشرى بالثواب ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : هدى من الضلالة وبشرى بالجنة ، قاله الشعبي .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ يعني المفروضة ، وفي إقامتها وجهان :

أحدهما : استيفاء فروضها وسننها ، قاله ابن عباس .

الثاني : المحافظة على مواقيتها ، قاله قتادة .

﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ فيها أربعة أقاويل

: أحدها : أنها زكاة المال ، قاله عكرمة ، وقتادة والحسن .

الثاني : أنها زكاة الفطر ؛ قاله الحارث العكلي .

الثالث : أنها طاعة الله والإخلاص ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

الرابع : أنها تطهير أجسادهم من دنس المعاصي .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يترددون ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

الثاني : يتمادون ، قاله أبو العالية ، وأبو مالك ، والربيع بن أنس .

الثالث : يلعبون ، قاله قتادة ، والأعمش .

الرابع : يتحيرون ، قاله الحسن ، ومنه قول الراجز :

ومهمه أطرافه في مهمة . . . أعمى الهدى بالجاهلين العمه

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْءَانَ ﴾ فيه أربعة تأويلات

: أحدها : لتأخذ القرآن ، قاله قتادة .

الثاني : لتوفى القرآن ، قاله السدي .

الثالث : لتلقن القرآن ، قاله ابن بحر .

ويحتمل رابعاً : لتقبل القرآن ، لأنه أوّل من يلقاه عند نزوله .

﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي من عند حكيم في أمره ، عليم بخلقه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(23/575)

وقال ابن عطية :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور ، وكل الأقوال مترتب ها هنا ، وعلى القول بأنها حروف من أسماء الله تعالى فالأسماء هنا لطيف وسميع وكونها إشارة إلى نوع حروف المعجم أبين الأقوال ، وعطف " الكتاب " على ﴿ القرآن ﴾ وهما لمسمى واحد من حيث هما صفتان لمعنيين ، فالقرآن لأنه اجتمع والكتاب لأنه يكتب ، وقرأ ابن أبي عبلة " وكتابٌ مبينٌ " بالرفع ، وقوله ﴿ هدى وبشرى ﴾ يحتمل أن يكون في موضع نصب على المصدر ، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء مضمر تقديره ذلك ﴿ هدى وبشرى ﴾ . ثم وصف تعالى المؤمنين بالأوصاف الخليقة بهم ، وإقامة الصلاة إدامتها

وأداؤها على وجهها ، و﴿ الزكاة ﴾ هنا يحتمل أن - تكون غير المفروضة لأن السورة مكية قديمة ، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير ، وقيل ﴿ الزكاة ﴾ هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق ، وتكرار الضمير في قوله ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ للتأكيد ، ثم ذكر تعالى الكفرة ﴿ الذين لا يؤمنون ﴾ بالبعث ، والإشارة إلى قريش ، وقوله ﴿ زينا لهم أعمالهم ﴾ يحتمل أن يريد أنه تعالى جعل عقابهم على كفرهم أن حتم عليهم الكفر وحبب إليهم الشرك ، وزينه بإن خلقه واخترعه في نفوسهم ، ومع ذلك اكتسابهم وحرصهم ، وهذا على أن تكون الأعمال المزينة كفرهم وطغيانهم ويحتمل أن الأعمال المزينة هي الشريعة التي كان الواجب أن تكون أعمالهم ، فأخبر الله تعالى على جهة الذكر لنقصهم أنه بفضله ونعمته زين الدين وبينه ، ورسم الأعمال والتوحيد لكن هؤلاء ﴿ يعمهون ﴾ ، ويعرضون ، والعمه الحيرة والتردد في الضلال ، ثم توعدهم تعالى ب ﴿ سوء العذاب ﴾ ، فمن ناله شيء في الدنيا بقي عليه عذاب الآخرة .

(24/575)

ومن لم ينله عذاب الدنيا كان سوء عذابه في موته وفيما بعده ، و﴿ الأخسرون ﴾ جمع أخسري لأن أفعل صفة لا يجمع إلا أن يضاف فتقوى رتبته في الأسماء .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) ﴾

" تلقى " تفعل مضاعف لقي يلقى ومعناه تعطى ، كما قال ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ [فصلت : 35] قال الحسن المعنى أنك لتقبل القرآن .

قال القاضي أبو محمد : ولا شك أنه يفيض عليه فضل الله ويعتمد به فيقلبه صلى الله عليه وسلم ، وهذه الآية رد على كفار قريش في قولهم إن القرآن من تلقاء محمد صلى الله عليه وسلم بن عبد الله ، و ﴿ من لدن ﴾ ، معناه من عنده ومن جهته ، و" الحكيم " ذو الحكمة في معرفته ، حيث يجعل رسالاته وفي غير ذلك لا إله إلا هو . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(25/575)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ طس ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قسم أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وفي رواية أخرى عنه ، قال : هو اسم الله الأعظم .

والثاني : اسم من أسماء القرآن ، قاله قتاده .

والثالث : الطاء من اللطيف ، والسين من السميع ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ وكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وقرأ أبو المتوكل ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : ﴿ وكتابٌ مبينٌ ﴾ بالرفع فيهما .

قوله تعالى : ﴿ وبُشْرى ﴾ أي : بشرى بما فيه من الثواب للمصدّقين .

قوله تعالى : ﴿ زيَّنَّا لَهم أعمالهم ﴾ أي : حبَّبْنا إليهم قبيح فعلهم .

وقد بيَّنَّا حقيقة التزيين والعَمَه في [البقرة : 15 ، 212] .

وسُوءُ العذاب : شديده .

قوله تعالى : ﴿ هم الأخسرون ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ وإنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : يُلْقَى عليك فتَتَلَقَّاه أنت ، أي : تأخذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(26/575)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ القرآن وكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

مضى الكلام في الحروف المقطعة في "البقرة" وغيرها .

و﴿ تِلْكَ ﴾ بمعنى هذه ؛ أي هذه السورة آيات القرآن وآيات كتاب مبين .

وذكر القرآن بلفظ المعرفة ، وقال : ﴿ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ بلفظ النكرة وهما في معنى المعرفة ؛ كما تقول : فلان رجل عاقل وفلان الرجل العاقل .

والكتاب هو القرآن ، فجمع له بين الصفتين : بأنه قرآن وأنه كتاب ؛ لأنه ما يظهر بالكتابة ، ويظهر بالقراءة .

وقد مضى اشتقاقهما في "البقرة" .

وقال في سورة الحجر : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1] فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة ؛ وذلك لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة ، وأن يجعل صفة .

ووصفه بالمبين لأنه بيّن فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ هُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ هُدًى ﴾ في موضع نصب على الحال من الكتاب ؛ أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة .

ويجوز فيه الرفع على الابتداء ؛ أي هو هدى .

وإن شئت على حذف حرف الصفة ؛ أي فيه هدى .

ويجوز أن يكون الخبر ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ

الزكاة وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وقد مضى في أوّل "البقرة" بيان هذا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ أي لا يصدّقون بالبعث .

﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ قيل : أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة .

وقيل : زينا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها .

وقال الزجاج : جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه .

﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يترددون في أعمالهم الخبيثة ، وفي ضلالتهم .

عن ابن عباس .

أبو العالية : يتمادون .

قتادة : يلعبون .

الحسن : يتحيرون ؛ قال الراجز :

وَمَهْمَهٍ أطرافُه في مَهْمَهِ . . .

أَعْمَى الهدُىَ بالحائرين العُمَّهِ

(27/575)

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين لَهُمْ سواء العذاب ﴾ وهو جهنم .

﴿ وَهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ .

﴿ فِي الآخِرَةِ ﴾ تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن ﴾ أي يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه .

﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ ﴿ لَدُنْ ﴾ بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة ؛ لأنها لا تتمكن ، وفيها لغات ذكرت في "الكهف" .

وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص ، وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(28/575)

وقال أبو حيان :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) ﴾

هذه السورة مكية بلا خلاف .

ومناسبة أول السورة لآخر ما قبلها واضحة ، لأنه قال : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ ،

وقبله : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ ، وقال هنا : ﴿ طس تلك آيات القرآن ﴾ : أي الذي هو تنزيل رب العالمين .

وأضاف الآيات إلى القرآن والكتاب المبين على سبيل التفخيم لها والتعظيم ، لأن المضاف إلى العظيم عظيم .

والكتاب المبين ، إما اللوح ، وإبانته أن قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين ، وإما السورة ، وإما القرآن ، وإبانتهما أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع .

وأن إعجازهما ظاهر مكشوف ونكر .

﴿ وكتاب مبين ﴾ ، ليبهم بالتنكير ، فيكون أفخم له كقوله : ﴿ في مقعد صدق ﴾ وإذا أريد به القرآن ، فعطفه من عطف إحدى الصفتين على الأخرى ، لتغايرهما في المدلول عليه بالصفة ، من حيث أن مدلول القرآن الاجتماع ، ومدلول كتاب الكتابة .

وقيل : القرآن والكتاب اسمان علمان على المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فحيث جاء بلفظ التعريف ، فهو العلم ، وحيث جاء بوصف النكرة ، فهو الوصف ، وقيل : هما يجريان مجرى العباس ، وعباس فهو في الحالين اسم العلم . انتهى .

وهذا خطأ ، إذ لو كان حاله نزع منه علماً ، ما جاز أن يوصف بالنكرة .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ وكتاب مبين ﴾ ، ﴿ وقرآن مبين ﴾ وأنت لا تقول : مررت بعباس قائم ، تريد به الوصف ؟ وقرأ ابن أبي عبلة : وكتاب مبين ، برفعهما ، التقدير : وآيات كتاب

، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، فأعرب بإعرابه .

وهنا تقدم القرآن على الكتاب ، وفي الحجر عكسه ، ولا يظهر فرق ، وهذا كالمتعاطفين في نحو : ما جاء زيد وعمرو .

(29/575)

فتارة يظهر ترجيح كقوله : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾ وتارة لا يظهر كقوله : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ قال يحيى بن سلام : ﴿ هدى ﴾ إلى الجنة ، ﴿ وبشرى ﴾ بالثواب .

وقال الشعبي : هدى من الضلال ، وبشرى بالجنة ، وهدى وبشرى مقصوران ، فاحتمل أن يكونا منصوبين على الحال ، أي هادية ومبشرة .

قيل : والعامل في الحال ما في تلك من معنى الإشارة ، واحتمل أن يكونا مصدرين ، واحتملا الرفع على إضمار مبتدأ .

أي هي هدى وبشرى ؛ أو على البدل من آيات ؛ أو على خبر بعد خبر ، أي جمعت بين كونها آيات وهدى وبشرى .

ومعنى كونها هدى للمؤمنين : زيادة هداهم .

قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وقيل : هدى لجميع الخلق ، ويكون الهدى بمعنى الدلالة والإرشاد والتبيين ، لا بمعنى تحصيل الهدى الذي هو مقابل الضلال .

﴿ وبشرى للمؤمنين ﴾ خاصة ، وقيل : هدى للمؤمنين وبشرى للمؤمنين ، وخصهم بالذكر لانتفاعهم به .

﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ : تحتمل هذه الجملة أن تكون معطوفة على صلة ﴿ الذين ﴾ .

ولما كان : ﴿ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ مما يتجدد ولا يستغرق الأزمان ، جاءت الصلة فعلاً .

ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت عندهم مستقر الديمومة ، جاءت الجملة اسمية ، وأكدت المسند إليه فيها بتكراره ، فقيل : ﴿ هم يوقنون ﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على الديمومة ، واحتمل أن تكون الجملة استئناف إخبار .

(30/575)

قال الزمخشري : ويحتمل أن تتم الصلة عنده ، أي عند قوله : ﴿ وهم ﴾ ، قال : وتكون الجملة اعتراضية ، كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ، وهو الوجه ، ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم ، حتى صار معناها : وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق . انتهى .

وقوله : وتكون الجملة اعتراضية ، هو على غير اصطلاح النحاة في الجملة الاعتراضية من كونها لا تقع إلا بين شيئين متعلق بعضهما ببعض ، كوقوعها بين صلة وموصولة ، وبين جزأي إسناد ، وبين شرط وجزائه ، وبين نعت ومنعوت ، وبين قسم ومقسم عليه ، وهنا ليست واقعة بين شيئين مما ذكر وقوله الخ .

حتى صار معناها فيه دسيسة الاعتزال .

وقال ابن عطية : والزكاة هنا يحتمل أن تكون غير المفروضة ؛ لأن السورة مكية قديمة ، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير .

وقيل : الزكاة هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق . انتهى .

ولما ذكر تعالى المؤمنين الموقنين بالبعث ، ذكر المنكرين والإشارة إلى قريش ومن جرى مجراهم في إنكار البعث .

والأعمال ، إما أن تكون أعمال الخير والتوحيد التي كان الواجب عليهم أن تكون أعمالهم ،

فعموا عنها وتردّدوا وتحيروا ، وينسب هذا القول إلى الحسن البصري ؛ أو أعمال الكفر والضلال ، فيكون تعالى قد حبب ذلك إليهم وزينه بأن خلقه في نفوسهم ، فرأوا تلك الأعمال القبيحة حسنة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف أسند تزين أعمالهم إلى ذاته ، وأسنده إلى الشيطان في قوله : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ قلت : بين الإسنادين فرق ، وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده إلى الله تعالى مجاز ، وله طريقان في علم البيان : أحدهما : أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة .

والثاني : أن يكون من المجاز الحكمي .

(31/575)

فالطريق الأول : أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق ، وجعلوا إنعام الله عليهم بذلك وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الترفه ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة ، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم ، وإليه إشارة الملائكة بقولهم : ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ﴾ والطريق الثاني : أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند إليه ، لأنه المختار الحكمي

ببعض الملابسات .

انتهى ، وهو تأويل على طريق الاعتزال .

﴿ أولئك ﴾ : إشارة إلى منكري البعث ، و ﴿ سوء العذاب ﴾ : الظاهر أنه ليس مقيداً بالدنيا ، بل لهم ذلك في الدنيا والآخرة .

وقيل : المعنى في الدنيا ، وفسر بما نالهم يوم بدر من القتل والأسر والنهب .

وقيل : ما ينالونه عند الموت وما بعده من عذاب القبر .

وسوء العذاب : شدته وعظمه .

والظاهر أن ﴿ الأخسرون ﴾ أفعل التفضيل ، وذلك أن الكافر خسر الدنيا والآخرة ، كما أخبر عنه تعالى ، وهو في الآخرة أكثر خسراناً ، إذ مآله إلى عقاب دائم .

وأما في الدنيا ، فإذا أصابه بلاء ، فقد يزول عنه وينكشف .

فكثرة الخسران وزيادته ، إنما ذلك له في الآخرة ، وقد ترتب الأكثرية ، وإن كان المسند إليه واحداً بالنسبة إلى الزمان والمكان ، أو الهيئة ، أو غير ذلك مما يقبل الزيادة .

وقال الكرماني : أفعل هنا للمبالغة لا للشركة ، كأنه يقول : ليس للمؤمن خسران ألبتة حتى يشركه فيه الكافر ويزيد عليه ، وقد بينا كيفية الاشتراك بالنسبة إلى الدنيا والآخرة .

وقال ابن عطية : والأخسرون جمع أخسر ، لأن أفعل صفة لا يجمع إلا أن يضاف ، فتقوى رتبته في الأسماء ، وفي هذا نظر . انتهى .

ولا نظر في كونه يجمع جمع سلامة وجمع تكسير .

إذا كان بأل ، بل لا يجوز فيه إلا ذلك ، إذا كان قبله ما يطابقه في الجمعية فيقول : الزيدون هم الأفضلون ، والأفاضل ، والهندات هنّ الفضليات والفضل .

(32/575)

وأما قوله : لا يجمع إلا أن يضاف ، فلا يتعين إذ ذاك جمعه ، بل إذا أضيف إلى نكرة فلا يجوز جمعه ، وإن أضيف إلى معرفة جاز فيه الجمع والإفراد على ما قرر ذلك في كتب النحو .

ولما تقدم : ﴿ تلك آيات القرآن ﴾ ، خاطب نبيه بقوله : ﴿ وإنك ﴾ ، أي هذا القرآن الذي تلقيته هو من عند الله تعالى ، وهو الحكيم العليم ، لا كما ادعاه المشركون من أنه إفك وأساطير وكهانة وشعر ، وغير ذلك من تقوّلاتهم .

وبنى الفعل للمفعول ، وحذف الفاعل ، وهو جبريل عليه السلام ، للدلالة عليه في قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ ولقي يتعدى إلى واحد ، والتضعيف فيه للتعدية ، فيعدى به إلى اثنين ، وكأنه كان غائباً عنه فلقيه فتلقاه .

قال ابن عطية : ومعناه يعطي ، كما قال : ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ وقال الحسن : المعنى وإنك لتقبل القرآن .

وقيل : معناه تلقن .

والحكمة : العلم بالأمور العملية ، والعلم أعم منه ، لأنه يكون عملياً ونظرياً ، وكمال العلم : تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصوناً عن كل التغيرات ، ولا يكون ذلك إلا لله تعالى .

وهذه الآية تمهيد لما يخبر به من المغيبات وبيان قصص الأمم الخالية ، مما يدل على تلقيه ذلك من جهة الله ، وإعلامه بلطيف حكمته دقيق علمه تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(33/575)

وقال أبو السعود :

﴿ طس ﴾ بالتَّفخيمِ وقُرِىءَ بالإمالةِ . والكلامُ فيهِ كالذي مرَّ في نظائرِه من الفواتحِ الشريفةِ . ومحلَّه على تقديرِ كونِه اسماً للسورةِ وهو الأظهرُ والأشهرُ الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هذا طس أي مسمًّى بهِ . والإشارةُ إليهِ قبلَ ذكرِه قد مرَّ وجهُها في فاتحةِ سورةِ يونسَ وغيرِها . ورفعُه بالابتداءِ على أنَّ ما بعده خبرٌ ضعيفٌ لما ذُكر هناك . ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارةٌ إلى نفسِ السُّورةِ لأنَّها التي نوَّهتْ بذكرِ اسمِها لا إلى آياتِها لعدمِ ذكرِها صريحاً لأنَّ إضافتَها إليها تأبى إضافتَها إلى القُرآنِ كما سيأتي . وما في اسمِ الإشارةِ من مَعْنى

البُعدِ مع قربِ العهدِ بالمشارِ إليهِ للإيذانِ ببعدِ منزلتِه في الفضلِ والشرفِ . ومحله الرفعُ على الابتداءِ خبرُه ﴿ ءَايَاتِ القرءان ﴾ والجملةُ مستأنفةٌ مقررةٌ لما أفادَه التسميةُ من نباهةِ شأنِ المسمَّى . والقرآنُ عبارةٌ عن الكلِّ أو عن الجميعِ المنزلِ عند نزولِ السُّورةِ حسبَما ذُكر في فاتحةِ الكتابِ أي تلك السورةُ آياتُ القرآنِ المعروفِ بعلوِّ الشأنِ ، أي بعضٌ منه مترجمٌ مستقلٌّ باسمٍ خاصَ ﴿ وكتاب ﴾ أي كتابٌ عظيمُ الشأنِ ﴿ مُّبِينٌ ﴾ مظهرٌ لما في تضاعيفِه من الحكمِ والأحكامِ وأحوالِ الآخرةِ التي من جُملتِها الثوابُ والعقابُ أو لسبيلِ الرُّشدِ والغيِّ ، أو فارقٌ بين الحقِّ والباطلِ والحلالِ والحرامِ أو ظاهرُ الإعجازِ على أنَّه منْ أبانَ بمعنى بانَ ولقد فخَّم شأنَه الجليلَ بما جَمع فيه من وصفِ القرآنيةِ المنبئةِ عن كونِه بديعاً في بابِه ممتازاً عن غيرِه بالنظمِ المعجزِ كما يُعربُ عنه قولُه تعالى : ﴿ قُرْءاناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ ووصفُ الكتابيةِ المعربةِ عن اشتمالِه على صفاتِ كمالِ الكتبِ الإلهيةِ فكأنه كلَّها . وقدَّم الوصفَ الأولَ ههنا نظراً إلى تقدمِ حالِ القرآنيةِ على حالِ الكتابيةِ وعكسَ في سورةِ الحجرِ نظراً إلى ما ذُكر هناك

(34/575)

من الوجهِ وما قيلَ من أنَّ الكتابَ هو اللوحُ المحفوظُ وإبانته أنَّه خطَّ فيهِ ما هو كائنٌ فهو يبينه للناظرينَ فيه لا يساعدُه إضافةُ الآياتِ إذ لا عهدَ باشتمالِه على الآياتِ ولا وصفِه بالهدايةِ والبشارةِ إذ هُما باعتبارِ إبانتِه فلا بُدَّ من اعتبارِها بالنسبةِ إلى النَّاسِ الذين من جُملتهم المؤمنونَ لا إلى الناظرينَ فيهِ وقُرِئَ وكتابُ ، بالرفعِ على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامَه أي وآياتُ كتابٍ مبينٍ .

﴿ هُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في حيزِ النصبِ على الحاليةِ من الآياتِ على أنَّهما مصدرانِ أُقيما مُقامَ الفاعلِ للمبالغةِ كأنَّهما نفسُ الهُدَى والبشارةِ ، والعاملُ معنى الإشارةِ أي هاديةً ومبشِّرةً أ الرَّفعُ على أنَّهما بدلانِ من الآياتِ أو خبرانِ آخرانِ لتلك أو لمبتدأٍ محذوفٍ .

ومعنى هدايتها لهم وهمُ مهتدون أنَّها تزيدُهم هُدى . قالَ تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ﴾ وأمَّا معنى تبشيرِها إيَّاهُم فظاهرٌ لأنَّها تبشِّرهم برحمةٍ من اللهِ ورضوان وجنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ .

وقولُه تعالى : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة ﴾ صفةٌ مادحةٌ لهم وتخصيصُهما بالذكرِ لأنَّهما قرينتا الإيمانِ وقُطرا العباداتِ البدنيَّةِ والماليَّةِ مستتبعانِ لسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَهُم بالأخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ كأنَّه قيلَ وهؤلاء الذينَ يُؤمنون ويعملُون الصَّالحاتِ هم الموقنون بالآخرة حقَّ الإيقانِ لا مَن عداهُم لأنَّ تحمُّلَ مشاقِّ العباداتِ لخوفِ العقابِ ورجاءِ الثَّوابِ أو هُو من تتمةِ الصِّلةِ . والواوُ حاليةٌ أو

عاطفةٌ له على الصِّلةِ الأُولى وتغييرُ نظمِه للدّلالةَ على قوّةِ يقينهم وثباتِه وأنَّهم أوحديُّون فيه .

(35/575)

﴿ إنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ بيانٌ لأحوالِ الكَفَرة بعدَ بيانِ أحوالِ المُؤمنينَ أي لا يُؤمنون بها وبما فيها من الثَّوابِ على الأعمالِ الصَّالحةِ والعقابِ على السَّيِّئاتِ حسبما ينطقُ به القرآنُ ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم ﴾ القبيحةَ حيثُ جعلناها مشتهاةً للطَّبعِ محبوبةً للنَّفسِ كما يُنبيءُ عنه قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام : " حُفَّتِ النَّارُ بالشَّهواتِ " أو الأعمالَ الحسنةَ ببيانِ حُسنها في أنفسِها حالاً واستتباعِها لفنونِ المنافعِ مآلاً . وإضافتُها إليها باعتبارِ أمرِهم بها وإيجابِها عليهم ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون ويتردَّدون على التَّجددِ والاستمرارِ في الاشتغالِ بها والانهماكِ فيها من غيرِ ملاحظةٍ لما يتبعها من نفعٍ وضرَ أو في الضَّلالِ والإعراضِ عنها . والفاء على الأول لترتيبِ المسبَّبِ على السَّببِ وعلى الثَّاني لترتيبِ ضدِّ المُسبَّبِ على السَّببِ كما في قولك وعظتُه فلم يتَّعظ وفيه إيذانٌ بكمالِ عتوِّهم ومكابرتهم وتعكيسهم في الأمور ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ وهو مبتدأ خبرُه الموصولُ بعده أي أولئك الموصُوفون بالكُفرِ والعمهِ ﴿ الذين لَهُمْ سُوء العذاب ﴾ أي

في الدّنيا كالقتلِ والأسرِ يومَ بدرٍ ﴿ وَهُمْ فِى الأخرة هُمُ الأخسرون ﴾ أي أشدُّ النّاس خُسراناً لفواتِ الثّوابِ واستحقاقِ العقابِ .

(36/575)

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾ كلام مستأنفٌ قد سيق بعد بيانِ بعضِ شؤونِ القرآن الكريمِ تمهيداً لما يعقبُه من الأقاصيصِ ، وتصديرُه بحرفَيْ التّأكيدِ لإبراز كمال العنايةِ بمضمونِه أي لتؤتاه بطريق التّلقيةِ والتّلقينِ ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أيْ أيِّ حكيمٍ وأيِّ عليمٍ وفي تفخيمهما تفخيمٌ لشأن القرآن وتنصيصٌ على علوّ طبقتِه عليه الصّلاةُ والسّلامُ في معرفتِه والإحاطة بما فيه من الجلائلِ والدقائقِ فإنَّ من تلقى العلومَ والحكمَ من مثل ذلك الحكيمِ العليمِ يكون عَلَماً في رصانةِ العلمِ والحكمةِ والجمع بينهما مع دخولِ العلم في الحكمةِ لعموم العلمِ ودلالة الحكمة على إتقانِ الفعلِ وللإشعارِ بأنَّ ما في القرآن من العلومِ منها ما هو حكمةٌ كالعقائدِ والشّرائعِ ومنها ما ليسَ كذلك كالقصصِ والأخبارِ الغيبيّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(37/575)

وقال الآلوسى :

﴿ طس ﴾ قرىء بالأمالة وعدمها ، والكلام فيه كالكلام في نظائره من الفواتح .

﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى السورة المذكورة ، وأداة البعد للإشارة إلى بعد المنزلة في الفضل والشرف أو إلى الآيات التي تتلى بعد نظير الإشارة في قوله تعالى : ﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 1 ، 2] أو إلى مطلق الآيات ، ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى : ﴿ ءايات القرءان ﴾ والجملة مستأنفة أو خبر لقوله تعالى : ﴿ طس ﴾ وإضافة ﴿ ءايات ﴾ إلى ﴿ القرءان ﴾ لتعظيم شأنها فإن المراد به المنزل المبارك المصدق لما بين يديه الموصوف بالكمالات التي لا نهاية لها ، ويطلق على كل المنزل عليه صلى الله عليه وسلم للإعجاز وعلى بعض منه ، وجوز هنا إرادة كل من المعنيين وإذا أريد الثاني فالمراد بالبعض جميع المنزل عند نزول السورة ، وقوله تعالى : ﴿ وكتاب مُّبِينٍ ﴾ عطف على ﴿ القرءان ﴾ والمراد به القرآن وعطفه عليه مع اتحاده معه في الصدق كعطف إحدى الصفتين على الأخرى كما في قولهم : هذا فعل السخي والجواد الكريم ، وتنوينه للتفخيم ، و ﴿ المبين ﴾ إما من أبان المتعدي أي مظهر ما في تضاعيفه من الحكم والأحكام وأحوال القرون الأولى وأحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب أو سبيل الرشد والغي أو نحو ذلك ، والمشهور في أمثال هذا الحذف أنه يفيد العموم ، وأما من أبان اللازم بمعنى بأن أي ظاهر

الإعجاز أو ظاهر الصحة للإعجاز وهو على الاحتمالين صفة مادحة لكتاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة .

ولما كان في التنكير نوع من الفخامة وفي التعريف نوع آخر وكان الغرض الجمع للاستيعاب الكامل عرف القرآن ونكر الكتاب وعكس في الحجر ، وقدم المعرف في الموضعين لزيادة التنويه ، ولما عقبه سبحانه بالحديث عن الخصوص ههنا قدم كونه قرآناً لأنه أدل على خصوص المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز كذا في "الكشف" .

(38/575)

وقال بعض الأجلة : قدم الوصف الأول ههنا نظراً إلى حال تقدم القرآنية على حال الكتابية وعكس هنالك لأن المراد تفخيمه من حيث اشتماله على كمال جنس الكتب الإلهية حتى كأنه كلها ومن حيث كونه ممتازاً عن غيره نسيج وحده بديعاً في بابه والإشارة إلى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل في المدح لئلا يتوهم من أول الأمر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله بأوصاف خاصة به من غير اشتماله على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة ، وفي هذا حمل أل على الجنس في الكتاب .

والظاهر أنها في ﴿ القرءان ﴾ للعهد فيختلف معناها في الموضعين وإليه يشير ظاهر كلام

الكشاف كما قيل ، واعتذر له بأنه إذا رجع المعنيان إلى التفخيم فلا بأس بمثل هذا الاختلاف ، وجوز أن تكون في الموضعين للعهد وأن تكون فيهما للجنس فتأمل ، وقيل : إن اختصاص كل من الموضعين بما اختص به من تعيين الطريق .

وجوز أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو يبينه للناظرين فيه ، وتأخيره هنا عن القرآن باعتبار تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر عليه باعتبار الوجود الخارجي فإن القرآن بمعنى المقروء لنا مؤخر عن اللوح المحفوظ ولا يخفى أن إرادة غير اللوح من الكتاب أظهر .

وقال بعضهم : لا يساعد إرادة اللوح منه ههنا إضافة الآيات إليه إذ لا عهد باشتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة إذ هما باعتبار إبانته فلا بد من اعتبارها بالنسبة إلى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا إلى الناظرين فيه .

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ وكتاب مُّبِينٌ ﴾ برفعهما ، وخرج على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي وآيات كتاب ، وقيل : يجوز عدم اعتبار الحذف والكتاب لكونه مصدراً في الأصل يجوز الإخبار به عن المؤنث ، وقيل : رب شيء يجوز تبعاً ولا يجوز استقلالاً ألا ترى أنهم حظروا جاءتني زيد وأجازوا جاءتني هند وزيد ، وقوله تعالى :

﴿ هُدًى وبشرى ﴾ في حيز النصب على الحالية من ﴿ ءايات ﴾ [النمل : 1] على إقامة المصدر مقام الفاعل فيه للمبالغة كأنها نفس الهدى والبشارة ، والعامل معنى الإشارة وهو الذي سمته النحاة عاملاً معنوياً .

وجوز أبو البقاء على قراءة الرفع في ﴿ كِتَابٌ ﴾ [النمل : 1] كون الحال منه ثم قال : ويضعف أن يكون من المجرور ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ مُّبِينٌ ﴾ [النمل : 1] على القراءتين ، وجوز أبو حيان كون النصب على المصدرية أي تهدي هدى وتبشر بشرى أو الرفع على البدلية من ﴿ ءايات ﴾ [النمل : 1] واشتراط الكوفيين في إبدال النكرة من المعرفة شرطين اتحاد اللفظ وأن تكون النكرة موصوفة نحو قوله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية نَاصِيَةٍ كاذبة ﴾ [العلق : 15 ، 16] غير صحيح كما في شرح التسهيل لشهادة السماع بخلافه أو على أنه خبر بعد خبر لتلك أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي هدى وبشرى ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يحتمل أن يكون قيداً للهدى والبشرى معاً ، ومعنى هداية الآيات لهم وهم مهتدون أنها تزيدهم هدى قال سبحانه : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ [التوبة : 124] وأما معنى تبشيرها إياهم فظاهر لأنها تبشرهم برحمة من الله تعالى ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم كذا قيل ، وفي "الحواشي الشهابية" أن الهدى على هذا الاحتمال ، إما بمعنى الاهتداء أو على ظاهره

وتخصيص المؤمنين لأنهم المنتفعون به وإن كانت هدايتها عامة ، وجعل المؤمنين بمعنى الصائرين للإيمان تكلف كحمل هداهم على زيادته ، ويحتمل أن يكون قيداً للبشرى فقط ويبقى الهدى على العموم وهو بمعنى الدلالة والإرشاد أي هدى لجميع المكلفين وبشرى للمؤمنين .

﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزكاة ﴾

(40/575)

صفة مادحة للمؤمنين ، وكنى بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة عن عمل الصالحات مطلقاً ، وخصا لأنهما على ما قيل أما العبادة البدنية والمالية ، والظاهر أنه حمل الزكاة على الزكاة المفروضة .

وتعقب بأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، وقيل كان في مكة زكاة مفروضة إلا أنها لم تكن كالزكاة المفروضة بالمدينة فلتحمل في الآية عليها ، وقيل : الزكاة هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق وهو خلاف المشهور في الزكاة المقرونة بالصلاة ويبعده تعليق الإيتاء بها ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُم بالآخرة يُوقِنُونَ ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على جملة الصلة ، ويحتمل أن يكون في موضع الحال من ضمير الموصول ،

ويحتمل أن يكون استئنافاً جيء به للقصد إلى تأكيد ما وصف المؤمنون به من حيث أن الإيقان بالآخرة يستلزم الخوف المستلزم لتحمل مشاق التكليف فلا بد من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وقد أقيم الضمير فيه مقام اسم الإشارة المفيد لاكتساب الخلافة بالحكم باعتبار السوابق فكأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ، وسمي الزمخشري هذا الاستئناف اعتراضاً وكونه لا يكون إلا بين شيئين يتعلق أحدهما بالآخر كالمبتدأ والخبر غير مسلم عنده .

واختار هذا الاحتمال فقال : إنه الوجه ويدل عليه أنه عقد الكلام جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو ﴿ هُمْ ﴾ حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق انتهى .

وأنكر ابن المنير إفادة نحو هذا التركيب الاختصاص وادعى أن تكرار الضمير للتطرية لمكان الفصل بين الضميرين بالجار والمجرور ، والحق أنه يفيد ذلك كما صرحوا به في نحو هو عرف ، وكذا يفيد التأكيد لما فيه من تكرار الضمير .

(41/575)

وزعم أبو حيان أن فيما ذكره الزمخشري دسيسة الاعتزال ، ولا يخفى أنه ليس في كلامه أكثر من الإشارة إلى أن المؤمن العاصي لم يوقن بالآخرة حق الإيقان ، ولعل جعل ذلك دسيسة مبني على أنه بنى ذلك على مذهبه في أصحاب الكبائر وقوله فيهم بالمنزلة بين المنزلتين .

وأنت تعلم أن القول بما اختاره في الآية لا يتوقف على القول المذكور ؛ وتغيير النظم الكريم على الوجهين الأولين لما لا يخفى ، وتقديم ﴿ بالآخرة ﴾ في جميع الأوجه لرعاية الفاصلة ، وجوز أن يكون للحصر الإضافة كما في "الحواشي الشهابية" .

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ بيان لأحوال الكفرة بعد أحوال المؤمنين أي لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الأعمال الصالحة والعقاب على الأعمال السيئة حسبما ينطق به القرآن ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم ﴾ القبيحة بما ركبنا فيهم من الشهوات والأماني حتى رأوها حسنة ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون ويترددون والاستمرار في الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها .

والفاء لترتيب المسبب على السبب .

ونسبة التزيين إليه عز وجل عند الجماعة حقيقة وكذا التزيين نفسه ، وذهب الزمخشري إلى أن التزيين إما مستعار للتمتيع بطول العمر وسعة الرزق وإما حقيقة وإسناده إليه سبحانه وتعالى مجاز وهو حقيقة للشيطان كما في قوله تعالى : ﴿ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ [

الأنفال : 48] .

والمصحح لهذا المجاز إمهاله تعالى الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ، والداعي له إلى أحد الأمرين إيجاب رعاية الأصلح عليه عز وجل .

ونسب إلى الحسن أن المراد بالأعمال الأعمال الحسنة وتزيينها بيان حسنها في أنفسها حالاً واستتباعها لفنون المنافع مآلاً أي زينا لهم الأعمال الحسنة فهم يترددون في الضلال والإعراض عنها .

(42/575)

والفاء عليه لترتيب ضد المسبب على السبب كما في قولك : وعظته فلم يتعظ ، وفيه إيذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم الأمور ، وتعقب هذا القول بأن التزيين قد ورد غالباً في غير الخير نحو قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات ﴾ [آل عمران : 14] ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الحياة الدنيا ﴾ [البقرة : 212] ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين ﴾ [الأنعام : 137] الخ وروده في الخير قليل نحو قوله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمان وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : 7] ويبعد حمل الأعمال على الأعمال الحسنة إضافتها إلى ضميرهم وهم لم يعملوا حسنة أصلاً .

وكون إضافتها إلى ذلك باعتبار أمرهم بها ، وإيجابها عليهم لا يدفع البعد .

وذكر الطيبي أنه يؤيد ما ذكر أولاً أن وزان فاتحة هذه السورة إلى ههنا وزان فاتحة البقرة فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [البقرة : 6] وقوله سبحانه : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم ﴾ [النمل : 4] كقوله جل وعلا : ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ (البقرة ؛ 7) .

وقد سبق بيان وجه دلالة ذلك على مذهب الجماعة هناك وأن التركيب من باب تحقيق الخبر وأن المعنى استمرارهم على الكفر وأنهم بحيث لا يتوقع منهم الإيمان ساعة فساعة أمارة لرقم الشقاء عليهم في الأزل والختم على قلوبهم وأنه تعالى زين لهم سوء أعمالهم فهم لذلك في تيه الضلال يترددون وفي بيداء الكفر يعمهون ، ودل على هذا التأويل إيقاع لفظ المضارع في صلة الموصول والماضي في خبره وترتيب قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ بالفاء عليه ، واختصاص الخطاب بما يدل على الكبرياء والجبروت من باب تحقيق الخبر نحو قول الشاعر :

إن التي ضربت بيتاً مهاجرة . . .

بكوفة الجند غالت ودها غول

وفي الأخبار الصحيحة ما ينصر هذا التأويل أيضاً .

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين الموصوفين بالكفر والعمه وهو مبتدأ خبره ﴿ الذين لَهُمْ سُوء العذاب ﴾ يحتمل أن يكون المراد لهم ذلك في الدنيا بأن يقتلوا أو يؤسروا أو تشدد عليهم سكرات الموت لقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِى الآخرة هُمُ الاخسرون ﴾ ويحتمل أن يكون المراد لهم ذلك في الدارين وهو الذي استظهره أبو حيان ويكون قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ ﴾ الخ لبيان أن ما في الآخرة أعظم العذابين بناءً على أن ﴿ الاخسرين ﴾ أفعل تفضيل ، والتفضيل باعتبار حاليهم في الدارين أي هم في الآخرة أخسر منهم في الدنيا لا غيرهم كما يدل عليه تعريف الجزأين على معنى أن خسرانهم في الآخرة أعظم من خسرانهم في الدنيا من حيث أن عذابهم في الآخرة غير منقطع أصلاً وعذابهم في الدنيا منقطع ولا كذلك غيرهم من عصاة المؤمنين لأن خسرانهم في الآخرة ليس أعظم من خسرانهم في الدنيا من هذه الحيثية فإن عذابهم في الآخرة ينقطع ويعقبه نعيم الأبد حتى يكادوا لا يخطر ببالهم أنهم عذبوا كذا قيل .

وقال بعضهم : إن التفضيل باعتبار ما في الآخرة أي هم في الآخرة أشد الناس خسراناً لا غيرهم لحرمانهم الثواب واستمرارهم في العقاب بخلاف عصاة المؤمنين ، ويلزم من ذلك كون عذابهم في الآخرة أعظم من عذابهم في الدنيا ويكفي هذا في البيان ، وقال الكرماني : إن أفعل هنا للمبالغة لا للشركة ، قال أبو حيان : كأنه يقول : ليس للمؤمن خسران البتة حتى

يشركه فيه الكافر ويزيد عليه ولم يتفطن لكون المراد أن خسران الكافر في الآخرة أشد من خسرانه في الدنيا فالاشتراك الذي يدل عليه أفعل إنما هو بين ما في الآخرة وما في الدنيا اه كلامه .

وكأنه يسلم أن ليس للمؤمن خسران البتة وفيه بحث لا يخفى ، وتقديم ﴿ فِى الآخرة ﴾ إما للفاصلة أو للحصر .

(44/575)

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾

كلام مستأنف سيق بعد بيان بعض شؤون القرآن الكريم تمهيداً لما يعقبه من الأقاصيص ، وتصديره بحرفي التأكيد لإبراز كمال العناية بمضمونه وبني الفعل للمفعول وحذف الفاعل وهو جبريل عليه السلام للدلالة عليه في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الامين ﴾ [الشعراء : 193] ولقى المخفف يتعدى لواحد والمضاعف يتعدى لاثنين وهما هنا نائب الفاعل والقرآن ، والمراد وإنك لتعطي القرآن تلقنه ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي أي حكيم وأي عليم ، وفي تفخيمهما تفخيم لشأن القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام في معرفته والإحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق ، والحكمة كما قال الراغب من الله عز

وجل معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الأحكام ، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات وجمع بينهما وبين العلم مع أنه داخل في معناها لغة كما سمعت لعمومه إذ هو يتعلق بالمعدومات ويكون بلا عمل ودلالة الحكمة على أحكام العمل وإتقانه وللإشعار بأن ما في القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالشرائع ومنها ما هو ليس كذلك كالقصص والأخبار الغيبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(45/575)

وقال القاسمى :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

الإشارة إلى نفس السورة . والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع المنزل . أي : تلك السورة آيات القرآن الذي عرف بعلوّ الشأن . وآيات كتاب عظيم المقدار ، مبين لما تضمنه من الحكم والأحكام والمواعظ والاعتبار ﴿ هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أي : هو هدى من الضلالة ، وبشرى برحمة الله ورضوانه ، لمن آمن وعمل صالحاً من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأيقن بالآخرة ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها .

لطيفة :

تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص على ما في " الكشاف " .

ولصاحب " الانتصاف " وجه آخر قال : لما كان أصل الكلام , وهم يوقنون بالآخرة , ثم قدم المجرور على عامله ، عناية به ، فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر ، فأريد أن يلي المبتدأ خبره ، وقد حال المجرور بينهما ، فطرّى ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقي على حاله مقدماً : ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها ، بعد ما يوجب التطرية . فأقرب منها أن الشاعر قال :

~سَلْ ذُو وَعَجِّلْ ذَا وَأَلْحِقْنَا بِذَا الشَّحْمِ ، إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بِخَلّ

(46/575)

والأصل وألحقنا بذا الشحم فوقع منتصف الرجز أو منتهاه على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام . وبنى الشاعر على أنه لا بد ، عند المنتصف أو المنتهى ، من وقيفة ما . فقدر بتلك الوقفة بُعْداً بين المعرّف وآلة التعريف . فطرّاها ثانية . فهذه التطرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرّر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير .

ثم قال : فتأمل هذا الفصل فإنه جدير بالتأمل . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 506 ﴾

(47/575)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) ﴾

﴿ طا . سين ﴾ . . الأحرف المقطعة للتنبيه على المادة الأولية التي تتألف منها السورة والقرآن كله . وهي متاحة لجميع الناطقين بالعربية . وهم يعجزون أن يؤلفوا منها كتاباً كهذا القرآن ، بعد التحدي والإفحام . .

ويلي ذلك التنبيه ذكر القرآن :

﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ . .

والكتاب هو نفسه القرآن . وذكره بهذه الصفة هنا يبدو لنا أنه للموازنة الخفية بين استقبال المشركين للكتاب المنزل عليهم من عند الله ؛ واستقبال ملكة سبأ وقومها للكتاب الذي أرسله إليهم سليمان . وهو عبد من عباد الله .

ثم يصف القرآن أو يصف الكتاب بأنه :

﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ . .

وهذه أبلغ مما لو قيل : فيه هدى وبشرى للمؤمنين .

فالتعبير القرآني على هذا النحو يجعل مادة القرآن وماهيته هدى وبشرى للمؤمنين .

والقرآن يمنح المؤمنين هدى في كل فج ، وهدى في كل طريق . كما يطلع عليهم بالبشرى في الحياتين الأولى والآخرة .

وفي تخصيص المؤمنين بالهدى والبشرى تكمن حقيقة ضخمة عميقة . . إن القرآن ليس كتاب علم نظري أو تطبيقي ينتفع به كل من يقرؤه ويستوعب ما فيه . إنما القرآن كتاب يخاطب القلب ، أول ما يخاطب ؛ ويسكب نوره وعطره في القلب المفتوح ، الذي يتلقاه بالإيمان واليقين . وكلما كان القلب نديا بالإيمان زاد تذوقه لحلاوة القرآن ؛ وأدرك من معانيه وتوجيهاته ما لا يدركه منه القلب الصلد الجاف ؛ واهتدى بنوره إلى ما لا يهتدي إليه الجاحد الصادف . وانتفع بصحبته ما لا ينتفع القارئ المطموس !

وإن الإنسان ليقرأ الآية أو السورة مرات كثيرة ، وهو غافل أو عجول ، فلا تنض له بشيء ؛ وفجأة يشرق النور في قلبه ، فتتفتح له عن عوالم ما كانت تخطر له ببال . وتصنع في حياته المعجزة في تحويلها من منهج إلى منهج ، ومن طريق إلى طريق .

وكل النظم والشرائع والآداب التي يتضمنها هذا القرآن ، إنما تقوم قبل كل شيء على الإيمان . فالذي لا يؤمن قلبه بالله ، ولا يتلقى هذا القرآن على أنه وحي من عند الله وعلى أن ما جاء فيه إنما هو المنهج الذي يريده الله . الذي لا يؤمن هذا الإيمان لا يهتدي بالقرآن كما ينبغي ولا يستبشر بما فيه من بشارات .

إن في القرآن كنوزاً ضخمة من الهدى والمعرفة والحركة والتوجيه . والإيمان هو مفتاح هذه الكنوز . ولن تفتح كنوز القرآن إلا بمفتاح الإيمان . والذين آمنوا حق الإيمان حققوا الخوارق بهذا القرآن . فأما حين أصبح القرآن كتاباً يترنم المترنمون بآياته ، فتصل إلى الآذان ، ولا تتعداها إلى القلوب . فإنه لم يصنع شيئاً ، ولم ينتفع به أحد . . لقد ظل كنزاً بلا مفتاح !

والسورة تعرض صفة المؤمنين الذين يجدون القرآن هدى وبشرى . . إنهم هم :

﴿ الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ . .

يقيمون الصلاة . . فيؤدونها حق أدائها ، يقظة قلوبهم لموقفهم بين يدي الله ، شاعرة أرواحهم بأنهم في حضرة ذي الجلال والإكرام ، مرتفعة مشاعرهم إلى ذلك الأفق الوضيء ، مشغولة خواطرهم بنجاء الله ودعائه والتوجه إليه في محضره العظيم .

ويؤتون الزكاة . . فيطهرون نفوسهم من رذيلة الشح ؛ ويستعلون بأرواحهم على فتنة المال ؛ ويصلون إخوانهم في الله ببعض ما رزقهم الله ؛ ويقومون بحق الجماعة المسلمة التي هم فيها

أعضاء .

وهم بالآخرة هم يوقنون . . فإذا حساب الآخرة يشغل بالهم ، ويصدهم عن جموح الشهوات ، ويغمر أرواحهم بتقوى الله وخشيته والحياء من الوقوف بين يديه موقف العصاة .

هؤلاء المؤمنون الذاكرون الله ، القائمون بتكاليفه ، المشفقون من حسابه وعقابه ، الطامعون في رضائه وثوابه . . هؤلاء هم الذين تنفتح قلوبهم للقرآن ، فإذا هو هدى وبشرى .

(49/575)

فإذا هو هدى وبشرى . وإذا هو نور في أرواحهم ، ودفعة في دمائهم ، وحركة في حياتهم .

وإذا هو زادهم الذي به يبلغون وريهم الذي به يشتفون .

وعند ذكر الآخرة يركز عليها ويؤكد في صورة التهديد والوعيد لمن لا يؤمنون بها ، فيسدرون في غيهم ، حتى يلاقوا مصيرهم الوخيم :

«إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ ، وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» . .

والإيمان بالآخرة هو الزمام الذي يكبح الشهوات والنزوات ، ويضمن القصد والاعتدال في الحياة . والذي لا يعتقد بالآخرة لا يملك أن يحرم نفسه شهوة أو يكبح فيها نزوة ، وهو يظن أن الفرصة الوحيدة المتاحة له للمتاع هي فرصة الحياة على هذا الكوكب ، وهي قصيرة مهما طالت . وما تكاد تتسع لشيء من مطالب النفوس وأمانيها التي لا تنال ! ثم ما الذي يمسكه حين يملك إرضاء شهواته ونزواته ، وتحقيق لذاته ورغباته وهو لا يحسب حساب وقفة بين يدي اللّه ولا يتوقع ثوابا ولا عقابا يوم يقوم الأشهاد ؟

(50/575)

ومن ثم يصبح كل تحقيق للشهوة واللذة مزينا للنفس التي لا تؤمن بالآخرة ، تندفع إليه بلا معوق من تقوى أو حياء . والنفس مطبوعة على أن تحب ما يلذ لها ، وأن تجده حسنا جميلا ما لم تهتد بآيات اللّه ورسالاته إلى الإيمان بعالم آخر باق بعد هذا العالم الفاني . فإذا هي تجد لذتها في أعمال أخرى وأشواق أخرى ، تصغر إلى جوارها لذائذ البطون والأجسام ! واللّه – سبحانه – هو الذي خلق النفس البشرية على هذا النحو وجعلها مستعدة للاهتداء إن تفتحت لدلائل الهدي ، مستعدة للعماء إن طمست منافذ الإدراك فيها . ومشيئته نافذة – وفق سنته التي خلق النفس البشرية عليها – في حالتي الاهتداء

والعماء . ومن ثم يقول القرآن عن الذين لا يؤمنون بالآخرة : «زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ» . . فهم لم يؤمنوا بالآخرة فنفذت سنة اللّه في أن تصبح أعمالهم وشهواتهم مزينة لهم حسنة عندهم . .

وهذا هو معنى التزيين في هذا المقام . فهم يعمهون لا يرون ما فيها من شر وسوء . أو فهم حائرون لا يهتدون فيها إلى صواب .

والعاقبة معروفة لمن يزين له الشر والسوء : «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ . وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» . .

سواء كان سوء العذاب لهم في الدنيا أو في الآخرة ، فالخسارة المطلقة في الآخرة ، محققة جزاء وفاقا على الاندفاع في سوء الأعمال .

وتنتهي مقدمة السورة بإثبات المصدر الإلهي الذي يتنزل منه هذا القرآن على رسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلّم – :

«وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ» . .

(51/575)

ولفظ «تلقى» يلقي ظل الهدية المباشرة السنية من لدن حكيم عليم . يصنع كل شيء بحكمة ، ويدبر كل أمر بعلم . . وتتجلى حكمته وعلمه في هذا القرآن . في منهجه ، وتكاليفه ، وتوجيهاته ، وطريقته . وفي تنزيله في إبانه . وفي توالي أجزائه . وتناسق موضوعاته .

ثم يأخذ في القصص . وهو معرض لحكمة اللّه وعلمه وتدبيره الخفي اللطيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2626 . 2628 ﴾

(52/575)

وقال ابن عاشور :

﴿ طس ﴾

تقدم القول في أن الراجح أن هذه الحروف تعريض بالتحدّي بإعجاز القرآن وأنه مؤتلف من حروف كلامهم .

وتقدم ما في أمثالها من المحامل التي حاولها كثير من المتأولين .

ويجيء على اعتبار أن تلك الحروف مقتضبة من أسماء الله تعالى أن يقال في حروف هذه السورة ما روي عن ابن عباس أن : طس مقتضب من طَاءِ اسمه تعالى اللطيف ، ومن سين

اسمه تعالى السميع .

وأن المقصود القَسَم بهاذين الاسمين ، أي واللطيفِ والسميعِ تلك آيات القرآن المبين .

القول فيه كالقول في صدر سورة الشعراء وخالفت آية هذه السورة سابقتها بثلاثة أشياء :

بذكر اسم القرآن وبعطف ﴿ وكتاب ﴾ على ﴿ القرآن ﴾ وبتنكير ﴿ كتاب ﴾ .

فأما ذكر اسم القرآن فلأنه علَم للكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز والهدي .

وهذا العَلم يرادف الكتاب المعرَّف بلام العهد المجعول علماً بالغلبة على القرآن ، إلا أن اسم القرآن أدخل في التعريف لأنه علم منقول .

وأما الكتاب فعلَم بالغلبة ، فالمراد بقوله : ﴿ وكتاب مبين ﴾ القرآنُ أيضاً ولا وجه لتفسيره باللَّوح المحفوظ للتفصّي من إشكال عطف الشيء على نفسه لأن التفصي من ذلك حاصل بأنَّ عطفَ إحدى صفتين على أُخرى كثير في الكلام .

ولما كان في كلّ من ﴿ القرآن ﴾ و ﴿ كتاب مبين ﴾ شائبة الوصف فالأول باشتقاقه من القراءة ، والثاني بوصفه بـ ﴿ مبين ﴾ ، كان عطف أحدهما على الآخر راجعاً إلى عطف الصفات بعضها على بعض ، وإنما لم يؤت بالثاني بدَلاً ، لأن العطف أعلق باستقلال كلا المتعاطفين بأنه مقصود في الكلام بخلاف البدل .

ونظير هذه الآية آية سورة الحجر (1) ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآنٍ مبين فإن قرآن ﴾ في

تلك الآية في معنى عطف البيان من ﴿ الكتاب ﴾ ولكنه عُطف لقصد جمعهما بإضافة ﴿ آيات ﴾ إليهما .

(53/575)

وإنما قدم في هذه الآية ﴿ القرآن ﴾ وعطف عليه ﴿ كتاب مبين ﴾ على عكس ما في طالعة سورة الحجر لأن المقام هنا مقام التنويه بالقرآن ومتبعيه المؤمنين ، فلذلك وصف بأنه ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ [النمل : 2] أي بأنهم على هدى في الحال ومبشرون بحسن الاستقبال فكان الأهم هنا للوحي المشتمل على الآيات هو استحضاره باسمه العلم المنقول من مصدر القراءة لأن القراءة تناسب حال المؤمنين به والمتقبلين لآياته فهم يدرسونها ، ولأجل ذلك أدخلت اللام للمح الأصل ، تذكيراً بأنه مقروء مدروس .

ثم عطف عليه ﴿ كتاب مبين ﴾ ليكون التنويه به جامعاً لعنوانيه ومستكملاً للدلالة بالتعريف على معنى الكمال في نوعه من المقروءات ، والدلالة بالتنكير على معنى تفخيمه بين الكُتب كقوله تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ [المائدة : 48] .

:

وأما ما في أول سورة الحجر فهو مقام التحسير للكافرين من جراء إعراضهم عن الإسلام فناسب أن يبتدئوا باسم الكتاب المشتق من الكتابة دون القرآن لأنهم بمعزل عن قراءته ولكنه مكتوب ، وحجة عليهم باقية على مر الزمان .

وقد تقدم تفصيل ذلك في أول سورة الحجر ، ولهذا عقب هنا ذكر ﴿ كتاب مبين ﴾ بالحال ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ [النمل : 2] .

و ﴿ مبين ﴾ اسم فاعل إما من (أبان) القاصر بمعنى (بان) لأن وصفه بأنه بيّن واضح له حظ من التنويه به ما ليس من الوصف بأنه مُوضِّح مبين .

فالمبين أفاد معنيين أحدهما : أن شواهد صدقه وإعجازه وهديه لكل متأمل ، وثانيهما : أنه مرشد ومفصِّل .

هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)

﴿ هدى وبشرى ﴾ حالان من ﴿ كتاب بعد وصفه بمبين ﴾ [النمل : 1] .

وجعل الحال مصدراً للمبالغة بقوة تسببه في الهدى وتبليغه البشرى للمؤمنين .

فالمعنى : أن الهدى للمؤمنين والبشرى حاصلان منه ومستمران من آياته .

والبشرى : اسم للتبشير ، ووصف الكتاب بالهدى والبشرى جار على طريقة المجاز العقلي ، وإنما الهادي والمبشر الله أو الرسول بسبب الكتاب .

والعامل في الحال ما في اسم الإشارة من معنى : أُشير ، كقوله : ﴿ وهذا بعلي شيخاً ﴾ [هود : 72] ، وقد تقدم ما فيه في سورة إبراهيم .

و ﴿ للمؤمنين ﴾ يتنازعه ﴿ هدى وبشرى ﴾ لأن المؤمنين هم الذين انتفعوا بهديه كقوله : ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] .

ووصف المؤمنين بالموصول لتمييزهم عن غيرهم لأنهم عُرفوا يومئذ بإقامة الصلاة وإعطاء الصدقات للفقراء والمساكين ، ألا ترى أن الله عرّف الكفار بقوله ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ [فصلت : 6 ، 7] ، ولأن في الصلة إيماء إلى وجه بناء الإخبار عنهم بأنهم على هدى من ربّهم ومفلحون .

و ﴿ الزكاة ﴾ : الصدقة لأنها تزكي النفس أو تزكي المال ، أي تزيده بركة .

والمراد بالزكاة هنا الصدقة مطلقاً أو صدقة واجبة كانت على المسلمين ، وهي مواساة بعضهم بعضاً كما دل عليه قوله في صفة المشركين ﴿ بل لا تكرمون اليتيمَ ولا تحضّون على طعام المسكين ﴾ [الفجر : 17 ، 18] .

وأما الزكاة المقدرة بالنُّصُب والمقادير الواجبة على أموال الأغنياء فإنها فرضت بعد الهجرة فليست مراداً هنا لأن هذه السورة مكية .

وجملة : ﴿ وهم بالأخرة هم يوقنون ﴾ عطف على الصلة وليست من الصلة ، ولذلك خولف بين أسلوبها وأسلوب الصلة فأتي له بجملة اسمية اهتماماً بمضمونها لأنه باعث على فعل الخيرات ، على أن ضمير ﴿ هم ﴾ الثاني يجوز أن يعتبر ضمير فصل دالاً على القصر ، أي ما يوقن بالآخرة إلا هؤلاء .

والقصْر إضافي بالنسبة إلى مجاوريهم من المشركين ، وإلا فإن أهل الكتاب يوقنون بالآخرة ، إلا أنهم غير مقصود حالهم للمخاطبين من الفريقين .

وتقديم ﴿ بالأخرة ﴾ للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بها .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4)

(55/575)

لا محالة يثير كون الكتاب المبين هدى وبشرى للذين يوقنون بالآخرة سؤالاً في نفس السامع عن حال أضدادهم الذين لا يوقنون بالآخرة لماذا لا يهتدون بهدي هذا الكتاب البالغ حداً عظيماً في التبين والوضوح .

فلا جرم أن يصلح المقام للإخبار عما صَرَفَ هؤلاء الأضدادَ عن الإيمان بالحياة الآخرة فوقع هذا الاستئناف البياني لبيان سبب استمرارهم على ضلالهم .

ذلك بأن الله يعلم خبث طوايا هم فحرمهم التوفيق ولم يصرف إليهم عناية تنشلهم من كيد الشيطان لحكمة علمها الله من حال ما جبلت عليه نفوسهم ، فوقع هذا الاستئناف بتوابعه موقع الاعتراض بين أخبار التنويه بالقرآن بما سبق ، والتنويه به بمن أنزل عليه بقوله : ﴿ وإنك لتُلَقّى القرآن ﴾ [النمل : 6] .

وتأكيد الخبر بحرف التوكيد للاهتمام به لأنه بحيث يلتبس على الناس سبب افتراق الناس في تلقي الهدى بين مبادر ومتقاعس ومُصرّ على الاستمرار في الضلال .

ومجيء المسند إليه موصولاً يومىء إلى أن الصلة علة في المسند .

وتزيين تلك الأعمال لهم : تصوّرهم إياها في نفوسهم زَيْناً ، وإسناد التزيين إلى الله تعالى يرجع إلى أمر التكوين ، أي خُلقت نفوسهم وعقولهم قابلة للانفعال وقبول ما تراه من مساوىء الاعتقادات والأعمال التي اعتادوها ، فإضافة أعمال إلى ضمير الذين لا يؤمنون بالآخرة يقتضي أن تلك الأعمال هي أعمال الإشراك الظاهرة والباطنة فهم لإلفهم إياها وتصلّبهم فيها صاروا غير قابلين لهدي هذا الكتاب الذي جاءتهم آياته .

وقد أشارت الآية إلى معنى دقيق جداً وهو أن تفاوت الناس في قبول الخير كائن بمقدار رسوخ ضد الخير في نفوسهم وتعلق فطرتهم به .

وذلك من جراء ما طرأ على سلامة الفطرة التي فطر الله الناس عليها من التطور إلى الفساد

كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددْناه أسفلَ سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [التين : 5 ، 6] الآية .

(56/575)

فمبادرة أبي بكر رضي الله عنه إلى الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم أمارةٌ على أن الله فطره بنفس وعقل بريئين من التعلق بالشر مشتاقين إلى الخير حتى إذا لاح لهما تقبّلاه .

وهذا معنى قول أبي الحسن الأشعري "ما زال أبو بكر بعين الرضى من الرحمن" .

وقد أومأ جعل صلة الموصول مضارعاً إلى أن الحكم منوط بالاستمرار على عدم الإيمان ، وأومأ جعل الخبر ماضياً في قوله : ﴿ زينا ﴾ إلى أن هذا التزيين حكم سبق وتقرر من قبلُ ، وحسبك أنه من آثار التكوين بحسب ما طرأ على النفوس من الأطوار .

فإسناد تزيين أعمال المشركين إلى الله في هذه الآية وغيرها مثل قوله : ﴿ كذلك زيّنا لكل أمة عملهم ﴾ في سورة الأنعام (108) لا ينافي إسناد ذلك إلى الشيطان في قوله الآتي ﴿ وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن السبيل ﴾ [النمل : 24] ؛ فإن وسوسة الشيطان تجد في نفوس أولئك مرتعاً خصباً ومنبتاً لا يقحل ؛ فالله تعالى مزينٌ لهم بسبب تطور جبلة نفوسهم من أثر ضُعف سلامة الفِطَر عندهم ، والشيطان مزيّن لهم بالوسوسة

التي تجد قبولاً في نفوسهم كما قال تعالى حكاية عنه ﴿ قال فبعزتك لأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [ص : 82 ، 83] وقال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : 42] وقد تقدم ذلك في قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ الآية في سورة البقرة (7) .

وفُرّع على تزيين أعمالهم لهم أنهم في عمَهٍ متمكن منهم بصوغ الإخبار عنهم بذلك بالجملة الاسمية .

وأفادت صيغة المضارع أن العَمه متجدد مستمر فيهم ، أي فهم لا يرجعون إلى اهتداء لأنهم يحسبون أنهم على صواب .

والعَمَه : الضلال عن الطريق بدون اهتداء .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ في سورة البقرة (15) .

وفعله كمنع وفرح .

فضمير ﴿ هم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ بمراعاة هذا العنوان لا بذواتهم .

واعلم أن هذا الاستمرار متفاوت الامتداد فمنه أشدّه وهو الذي يمتد بصاحبه إلى الموت ، ومنه دون ذلك .

وكل ذلك على حسب تزيين الكفر في نفوسهم تزييناً خالصاً أو مشوباً بشيء من التأمل في مفاسده ، وتلك مراتب لا يحيط بها إلا الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5)

قصد باسم الإشارة زيادة تمييزهم فضحاً لسوء حالهم مع ما ينبه إليه اسم الإشارة في مثل هذا المقام من أن استحقاقَهم ما يخبَر به عنهم ناشئٌ عما تقدم اسم الإشارة كما في ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ في سورة البقرة (5) .

وعُزز ما نُبه عليه باسم الإشارة فأعقب باسم الموصول وصلته لما فيه من الإيماء إلى وجه بناء الخبر .

وجيء بلام الاختصاص للإشارة إلى أنهم في حالتهم هذه قد هُيِّىء لهم سوء العذاب .

والظاهر أن المراد به عذاب الدنيا وهو عذاب السيف وخزي الغلب يوم بدر وما بعده بقرينة عطف : ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون .

ففي الآية إشارة إلى جزاءين : جزاء في الدنيا معدود لهم يستحقونه بكفرهم ، فهم ما داموا كافرين متهيئون للوقوع في ذلك العذاب إن جاء إبانه وهم على الكفر .

وجزاءٍ في الآخرة يَنَال من صار إلى الآخرة وهو كافر ، وهذا المصير يسمى بالموافاة عند

الأشعري .

ولكون نوال العذاب الأول إياهم قابلاً للتفصّي منه بالإيمان قبيل حلوله بهم جيء في جانبه بلام الاختصاص المفيدة كونه مهيّأً تهيئة ، أما أصالة جزاء الآخرة إياهم فلا مندوحة لهم عنه إن جاؤوا يوم القيامة بكفرهم .

فالضمائر في قوله لهم ﴾ وقوله : ﴿ وهم في الآخرة هم ﴾ عائدة إلى ﴿ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [النمل : 4] بمراعاة ذلك العنوان الذي أفادته الصلة فلا دلالة في الضمير على أشخاص مُعَيّنين ولكن على موصوفين بمضمون الصلة فمن تنقشع عنه الضلالة ويثوبُ إلى الإيمان يبرأ من هذا الحكم .

(58/575)

وصيغ الخبر عنهم بالخسران في صيغة الجملة الاسمية وقرن بضمير الفصل للدلالة على ثبات مضمون الجملة وعلى انحصار مضمونها فيهم كما تقدم في قوله : ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ [النمل : 3] .

وجاء المسند اسم تفضيل للدلالة على أنهم أوحدون في الخسران لا يشبهه خسرانُ غيرهم ، لأن الخسران في الآخرة متفاوت المقدار والمدة وأعظمه فيهما خسران المشركين .

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

عطف على جملة : ﴿ تلك آيات القرآن ﴾ [النمل : 1] انتقال من التنويه بالقرآن إلى التنويه بالذي أنزل عليه بأن القرآن آيات دالة على أنه كتاب مبين .

وذلك آية أنه من عند الله ، ثم بأنه آية على صدق من أنزل عليه إذْ أنبأه بأخبار الأنبياء والأمم الماضين التي ما كان يعلمها هو ولا قومه قبل القرآن .

وما كان يعلم خاصة أهل الكتاب إلا قليلاً منها أكثره محرف .

وأيضاً فهذا تمهيد لما يذكر بعده من القصص .

و﴿ تلقّى ﴾ مضارع لقاه مبنيٌّ للمجهول ، أي جعله لاقياً .

واللُّقيُّ واللقاء : وصول أحد الشيئين إلى شيء آخر قصداً أو مصادفة .

والتلقية : جعل الشيء لاقياً غيره ، قال تعالى : ﴿ ولقّاهم نضرة وسروراً ﴾ [الإنسان : 11] ، وهو هنا تمثيل لحال إنزال القرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بحال التلقية كأنَّ جبريل سعَى للجمع بين النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن .

وإنما بني الفعل إلى غير مذكور للعلم بأنه الله أو جبريل ، والمعنى واحد : وهو أنك مؤتى الوحي من لدن حكيم عليم .

وتأكيد الخبر لمجرد الاهتمام لأن المخاطب هو النبي وهو لا يتردد في ذلك ، أو يكون التأكيد موجهاً إلى السامعين من الكفار على طريقة التعريض .

وفي إقحام اسم ﴿ لدُن ﴾ بين ﴿ مِن ﴾ و ﴿ حكيم ﴾ تنبيه على شدة انتساب القرآن إلى جانب الله تعالى ، فإن أصل ﴿ لدن ﴾ الدلالة على المكان مثل (عند) ثم شاع إطلاقها على ما هو من خصائص ما تضاف هي إليه تنويهاً بشأنه ، قال تعالى : ﴿ وعلَّمناه من لُدنَّا عِلماً ﴾ [الكهف : 65] .

والحكيم : القوي الحكمة ، والعليم : الواسع العلم .

وفي التنكير إيذان بتعظيم هذا الحكيم العليم كأنه قيل : من حكيم أيّ حكيم ، وعليم أيّ عليم .

وفي الوصفين الشريفين مناسبة للمعطوف عليه وللممهَّد إليه ، فإن ما في القرآن دليل على حكمة وعلم من أوحى به ، وأن ما يذكر هنا من القصص وما يستخلص منها من المغازي والأمثال والموعظة ، من آثار حكمةٍ وعِلْم حكيمٍ عليم ، وكذلك ما في ذلك من تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) ﴾

تكلمنا كثيراً على هذه الحروف المقطَّعة في أوائل السور ، وهنا (طس) وهما حرفان من حروف المعجم ، وهي تُنطق هكذا (طاء) و (سين) لأنهما أسماء حروف ، وفَرْق بين اسم الحرف ومُسمَّاه ، فكلٌّ من الأمي والمتعلم يتكلم بحروف يقول مثلاً : كتب محمد الدرس . فإنْ طلبتَ من الأمي أن يتهجى هذه الحروف لا يستطيع لأنه لا يعرف اسم الحرف ، وإنْ كان ينطق بمُسمَّاه ، أمّا المتعلم فيقول : كاف تاء باء .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يعرف أسماء الحروف ، فهي إذن من الله ؛ لذلك كانت مسألة توقيفية ، فالحروف (الام) نطقنا بها في أول البقرة بأسماء الحروف (ألف) (لام) (ميم) ، أما في أول الانشراح فقلنا ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] بمسميات الحروف نفسها ، فنقول : أَلَم .

و﴿ تِلْكَ ﴾ [النمل : 1] اسم إشارة للآيات الآتية خلال هذه السورة ، وقُلْنا إن الآيات لها مَعَانٍ متعددة ، فقد تعني الآيات الكونية : كالشمس والقمر ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر ﴾ [فصلت : 37] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم : 21] وهذه الآيات الكونية هي التي تلفتنا إلى عظمة الخالق عزَّ وجلّ وقدرته .

والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل ، والتي تثبت صِدْق بلاغهم عن الله ، والآيات بمعنى آيات القرآن الحاملة للأحكام ، وهي المرادة هنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ القرآن وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 1] .

(61/575)

وسبق إنْ قال تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1] فمرة يقول ﴿ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1] ومرة ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 1] ويأتي بالكتاب ويعطف عليه القرآن ، أو يأتي بالقرآن ويعطف عليه الكتاب ، مع أنهما شيء واحد ، فكيف إذن يعطف الشيء على نفسه ؟

قالوا : إذا عطف الشيء على نفسه ، فاعلم أنه لزيادة وَصْف الشيء ، تقول : جاءني زيد الشاعر والخطيب والتاجر ، فلكلِّ صفة منها إضافة في ناحية من نواحي الموصوف ، فهو القرآن لأنه يُقرأ في الصدور ، وهو نفسه الكتاب لأنه مكتوب في السطور ، وهما معاً نُسمِّيهم مرة القرآن ومرة الكتاب ، أمّا الوصف فيجعل المغايرة موجودة .

ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 1] بيِّن واضح ومحيط بكل شيء من أقضية الحياة وحركتها من أوامر ونواهٍ ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38

] .

وسبق أنْ حكينا ما حدث مع الإمام محمد عبده رحمه الله حينما كان في فرنسا ، وسأله أحد المستشرقين : تقولون إن القرآن أحاط بكل شيء ، فكم رغيفا في إردبّ القمح ؟

فدعا الإمام الخباز وسأله فقال : كذا وكذا ، فقال المستشرق : أُريدها من القرآن ، قال الإمام : القرآن قال لنا : ﴿ فاسئلوا أَهْلَ الذكرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 7] .

فهو كما قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ هُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)

الهدى : يأتي بمعنيين : بمعنى الدلالة على طريق الخير ، وبمعنى المعونة ، فمن ناحية الدلالة هو هُدىً للمؤمن وللكافر على حَدٍّ سواء ؛ لأنه دلَّ الجميع وأرشدهم ، ثم تأتي هداية المعونة على حسب اتباعك لهداية الدلالة .

(62/575)

فمَنْ أطاع الله وآمن به وأخذ بدلالته ، فكان الحق سبحانه يقول له : أنت استأمنتني على حركة حياتك وأطعتني في أمري ونهيي ، فسوف أخفف عنك وأُهوِّن عليك أمر العبادة

وأُعينك عليها ، وهذه هي هداية المعونة التي قال الله عنها : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

وكذلك الكافر الذي لم يأخذ بهداية الدلالة والإرشاد ، واختار لنفسه طريقاً آخر يُعينه الله عليه ، ويُيسِّر له ما سعى إليه من الكفر ؛ لذلك يختم الله على قلوب الكافرين حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر .

لكن الهداية هنا : أهي دلالة ، أم هداية معونة ؟

نقول : هي هداية معونة ، بدليل قوله تعالى بعدها ﴿ وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : 2] فما كانوا مؤمنين إلا لأنهم مهديون ، والبُشْرى لا تكون إلا للمؤمنين ، إذن : هي معونة للمؤمنين بأنْ يزيدهم هدايةً إلى الطريق السَّويّ ، وإلى جنات النعيم ﴿ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا واغفر لَنَا إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم : 8] .

ولو أن الهداية هنا بمعنى الدلالة التي تأتي للمؤمن والكافر لكانتْ بشرى وإنذاراً ، لكن الآية ﴿ وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : 2] فتعيَّن أن يكون المعنى هداية المعونة وهداية البشرى .

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)

المؤمنون هم أصحاب عقيدة الإيمان ، وهو أن تؤمن بقضية الحق الواحد الإله المختار

الفاعل الذي له صفات الكمال ، تؤمن بها حتى تصير عقيدة في نفسك ثابتة لا تتزعزع ، والإيمان اعتقاد بالقلب ، وقَوْل باللسان ، وعمل بالجوارح ، فلا يكفي النطق باللسان ، إنما لا بد من أداء تكاليف الإيمان ومطلوباته ، وقمتها إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصَوْم رمضان ، والحج .

(63/575)

فالصلاة دعوة من الله لخَلْقه ، دعوة من الصانع للمصنوع ، فربُّك يستدعيك إلى حضرته ، وكيف بالصَّنْعة إذا عُرِضَتْ على صانعها كل يوم خمس مرات ، ومع ذلك نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة ، وإذا سمع النداء قال عندي أعمال ومشاغل ، إياك أنْ تظن أن الصلاة تعطيل للمصالح ، أو إضاعة للوقت ؛ لأنك في حركة حياتكم مع نِعَم الله وفي الصلاة مع الله .

ونقيس هذه المسألةَ ولله المثل الأعلى لو أن أباك ناداك فلم تُجبه ، ماذا يفعل بك ؟ فلا يكُنْ ربُّك أهونَ عليك من أبيك ، ربك يناديك : الله أكبر يعني : أكبر من العمل ، وأكبر من كل شيء يشغلك عن تلبية ندائه .

وفي الصلاة نأخذ شحنة إيمانية تُقوِّينا على حركة حياتنا ، كما لو ذهبتَ ببطارية السيارة

مثلاً لجهاز الشحن أتقول : إنك عطلتَ البطارية ؟

ولو حسبنا الوقت الذي تستغرقه الصلوات الخمس لوجدناه لا يتعدّى ساعة من الأربع والعشرين ساعة ، فلا تضن على نفسك بها لتلتقي بربك ، وتقف بين يديه ، وتعرض نفسك عليه ، فيصلح فيك ما أفسدته حركة الحياة ويعطيك المدد والعون و الشحنة الإيمانية التي تدفعك إلى حركة منسجمة مع الحياة والكون من حولك .

وإنْ كان مهندس الآلة يُصلحها بشيء مادي ، فربُّك عز وجل غَيْب ، فيصلحك بالغيب ، ومن حيث لا تدري أنت ، لذلك كانت الصلاة في قمة مطلوبات الإيمان .

فإنْ كانت الصلاة لإصلاح النفس ، فالزكاة لإصلاح المال ؛ لذلك تجد دائماً أن الصلاة مقرونة بالزكاة في معظم الآيات ، وإنْ كان المال نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، فإن الصلاة تأخذ الوقت ، والزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، الزكاة تأخذ 2 . 5% أمّا الصلاة فتأخذ الوقت نفقسه يعني بنسبة 100% .

ومع ذلك لا نقول : إن الصلاة أضاعتْ الوقت ، لأن الشحنة التي تأخذها في الصلاة تجعلك تنجز العمل الذي يستغرق عدة ساعات في نصف ساعة ، فتعطيك بركة في الوقت .

(64/575)

وسبق أن قلنا : إن نداء الله أكبر يعني : أن لقاء الله أكبر من أي شيء يشغلك مهما رأيته كبيراً ؛ لأنه سبحانه واهب البركة ، وواهب الطاقة ، وإنْ كان العمل والسَّعْي في مناكب الأرض مطلوباً ، لكن الصلاة في وقتها أَوْلَى .

وحين نتأمل أطول الأوقات بين كل صلاتين نجد أنها من الصبح حتى الظهر ، وهو الوقت المناسب للعمل ، ومن العشاء حتى الصبح ، وهو الوقت المناسب للنوم ، وهكذا تُنظِّم لنا الصلاة حياتنا ، فمِنْ صلاة الصبح إلى صلاة الظهر سبع ساعات هي ساعات العمل .

لو أن الأمة الإسلامية تمسّكتْ بشرعها ومنهج ربها ، وبعد هذه الساعات السبع التي تقضيها في عملك ، أنت حر بعد صلاة الظهر ، أمّا التخصيص الذي طرأ على حركة الحياة فقد اقتضى أنْ يأتي صلاة الظهر بل والعصر والناس ما يزالون في أعمالهم .

أما الذين يُؤخرون الصلاة عن وقتها بحجة امتداد الوقت بين الصلاتين ، نعم الوقت ممتدٌّ ، لكن لا يجوز لك تأخير الصلاة ، ولبيان هذه المسألة نقول : هَبْ أن غنياً مستطيعٌ للحج ، ولم يحج متى يأثم .

يأثم إذا ما غَرَّه طول الأمل ، ثم عاجله الموت قبل أنْ يحجَّ ، فإنْ أمهله العمر حتى يحج ، فقد سقط عنه هذا الفرض ، لكن مَنْ يضمن له البقاء إلى أنْ يؤدي هذه الفريضة .

لذلك ورد في الحديث : " حُجُّوا قبل ألاَّ تحجُّوا " .

كذلك الحال في وقت الصلاة ، فهو ممتد ، لكن مَنْ يضمن لك امتداده ؛ لذلك تارك الصلاة

يأثم في آخر لحظة من حياته ، فإنْ ظلَّ إلى أنْ يصلي فلا شيء عليه .

إذن : لا تتعلَّل بطول الوقت ؛ لأن طول الوقت جعله الله لحكمه ، لا لنأخذه ذريعة لتأخير الصلاة عن وقتها ، طول الوقت بين الصلوات جُعِل للنائم كي يستيقظ ، أو للناسي كي يتذكّر .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : 3] .

(65/575)

فالآية جمعتْ أمر المؤمن كله ، بداية من العقيدة والإيمان بالله ، ثم الصلاة ، فالزكاة وهما المطلبان العمليان بين إيمانين : الإيمان الاول بالله ، والآخر أنْ يؤمن بالآخرة وبالجزاء والمرجع والمصير .

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : 3] الإيقان : الحكم بثبات الشيء بدون توهُّم شكٍّ ؛ لذلك قلنا : إن العلم أنْ تعرف قضية واقعة وتقول ، إنها صدق وتُدلِّل عليها .

وقلنا : إن اليقين درجات ؛ علم اليقين ، وعين اليقين ، وحقُّ اليقين ، فمثلاً حين أقول لك : إنني رأيتُ في أحد البلاد أصبع الموز نصف متر ، وأن تثق فيَّ ولا تكذبني ، فهذا علم يقين ، فإنْ رأيته ، فهذا عَيْن اليقين ، فإن أخذته وذهبتَ تقطعه مثلاً ، وتوزعه على الحاضرين

فهذا حقُّ اليقين . وهذه الدرجة لا يمكن أن يتسرَّب إليها شكٌّ .

لذلك لما " سأل النبي صلى الله عليه وسلم الصحابي الحارث بن مالك الأنصاري : "كيف أصبحتَ " ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال " فإنّ لكل حَقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ " قال : عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي ذهبها ومدرها ، كأنِّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " عرفت فالزم " .

والإمام على رضي الله عنه يعطينا صفة اليقين في قوله : لو كُشِف عني الحجاب ما ازددتُ يقيناً ؛ لأني صدقت بما قال الله ، وليست عيني أصدق عندي من الله .

ومن هذا اليقين ما ذكرنا في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1] مع أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلِد في هذا العام ، فلم يَرَ هذه الحادثة ، فالمعنى : ألم تعلم ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليقول النبي صلى الله عليه وسلم أن إخبار الله لك أقوى صِدْقاً من رؤية عينيك .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4)

هؤلاء في مقابل الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ لأن الحق تبارك وتعالى يعرض الشيء ومقابله لنُجري نحن مقارنة بين المتقابلات ، وفي هؤلاء يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ [النمل : 4] .

ولم يَنْفِ عنهم إقامة الصلاة أو إيتاء الزكاة ، لماذا ؟ لأنهم أصلاً لا يؤمنون بالله ، ولا بالبعث والحساب ، ولو علموا أنهم سيرجعون إلى الله لآمنوا به ، ولَقدَّموا العمل الصالح .

ومعنى ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النمل : 4] أن الذين لا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، ولا يُؤدُّون مطلوبات الإيمان لا عُذْرَ لهم ؛ لأننا حينما عرضنا الإيمان ومطلوباته عرضناه عَرْضاً جيداً مُستميلاً مُشوِّقاً وزيَّناه لكم .

فالصلاة لقاء بينك وبين ربك يعبر عن دوام الولاء ، ويعطيك شحنة إيمانية ، والزكاة تُؤمِّنك حين ضعفك وعدم قدرتك ، فنأخذ منك وأنت غني لنعطيك إنْ حَلَّ بك الفقر ، ولما نهيناك عن الكذب نهينا الناس جميعاً أن يكذبوا عليك ، ولما حذَّرناك من الرشوة قلنا للآخرين : لا تأكلوا ماله دون وَجْه حقٍّ . . إلخ .

وهكذا شرحنا التكاليف وبيَّنا الحكمة منها ، وحبّبناها إليكم .

أو : يكون المعنى : زيّنّا لهم أعمالهم التي يعملونها ، فلما عَلم الله عشْقهم للضلال وللانحراف ختم على قلوبهم ، يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ [فاطر : 8] .

لكن مَنِ الذي زَيَّن لهم : ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النحل : 63] فالتزيين يأتي مرة من الشيطان ، ومرة مجهول الفاعل ، ومرة زَيَّن الله لهم .

ومن تزيين الله قوله تعالى في شأن فرعون : ﴿ وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ [يونس : 88] فلما أعطاهم الله النعمة فُتِنوا بها .

(67/575)

وإبليس خلقه الله ، وجعل له ذرية تتسلَّط على الناس ، وتُغْويهم ، وما ذلك إلا للاختبار ليرى مَنْ سيقف على هذه الأبواب ، إذن : الحق تبارك وتعالى لم يجعل حواجز عن المعصية ، وجعل لكم دوافع على الطاعة ، فالمسألة منك أنتَ ، فإنْ رأيتُك مِلْتَ إلى شيء وأحببته أعنْتُكَ عليه .

والذي يموت له عزيز ، أو المرأة التي يموت ولدها ، فتظل حزينة عليه تُكدِّر حياتها وحياة مَنْ حولها ويا ليت هذا يفيد أو يُعيد الميت ونقول لمن يستقبل قضاء الله بهذا السُّخْط : إن ربك حين يعلم أنك أَلِفْتَ الحزن وعشقْته وهو رب ، فلا بُدَّ أن يعطيك مطلوبك ، ويفتح عَليك كل يوم باباً من أبوابه .

إذن : ينبغي على مَنْ يتعرَّض لمثل هذا البلاء أنْ يستقبله بالرضا ، وإنْ يغلق باب الحزن ، ولا يتركه مواربا .

ومن التزيين قوله سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20] .

ومعنى ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل : 4] يتحيرون ويضطربون ، لا يعرفون أين يذهبون ؟

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5)

أي : العذاب السيء ، وهذا في الآخرة ، فبالإضافة إلى ما حدث لهم من تقتيل في بدر ، وهزيمة كسرتْ شوكتهم فلم ينته الأمر عند هذا الحد ، إنما هناك خسارة أخرى في الآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ [النمل : 5] .

والأخسر مبالغة في الخسران ، فلم يَقُلْ : خاسر إنما أخسر ؛ لأنه خسر النعيم ؛ لأنه لم يُقدِّم صالحاً في الدنيا ، وليته ظل بلا نعيم وتُرِكَ في حاله ، إنما يأتيه العذاب الذي يسوؤه ؛ لذلك قال تعالى ﴿ هُمُ الأخسرون ﴾ [النمل : 5] لأنهم لم يدخلوا الجنة ، وهذه خسارة ، ثم هم في النار ، وهذه خسارة أخرى .

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

يعني : هذه المسائل والقضايا إنما تأتيك من الله الحكيم الذي يضع الشيء في نصابه وفي محله ، فإنْ أثاب المحسن أو عاقب المسيء ، فكلٌّ من محلِّه ، وهو سبحانه العليم بما يضع من الجزاءات على الحسنة وعلى السيئة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(69/575)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ طس ﴾ قال : هو اسم الله الأعظم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ طس ﴾ قال : هو اسم الله الأعظم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ طس ﴾ قال : هو اسم من أسماء القرآن . وفي قوله ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ قال : لا يُقِرّون بها ولا يؤمنون بها ﴿ فهم يعمهون ﴾ قال : في صلاتهم وفي قوله ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ يقول :

تأخذ القرآن من عند ﴿ حكيم عليم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ

﴾

(70/575)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَكِتَابٍ ﴾ : العامَّةُ على جَرِّه عطفاً على القرآن ، وهل المرادُ نفسُ القرآنِ فيكونَ من عطفِ بعضِ الصفاتِ على بعضٍ ، والمدلولُ واحدٌ ، أو اللوحُ المحفوظُ أو نفس السورةِ ؟ وقيل : القرآنُ والكتابُ عَلَمان للمنزَّلِ على نبيِّنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فهما كالعبَّاسِ وعَبَّاس . يعني فتكون أل فيهما لِلَمْحِ الصفةِ . وهذا خطأٌ ؛ إذ لو كانا عَلَمَيْن لما وُصِفا بالنكرةِ ، وقد وُصِف " قرآن " بها في قوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ [الآية : 1] في سورة الحجر . ووُصِفَ بها " كتاب " كما في هذه الآية الكريمةِ . والذي يُقال : إنه نكرةٌ هنا لإفادةِ التفخيم ، كقوله تعالى : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ [القمر : 55] . وقرأ ابن أبي عبلة " كتابٌ مبينٌ " برفعِهما ، عطفٌ على " آياتُ " المُخْبرِ بها عن " تلك " . فإن قيل : كيف صَحَّ أَنْ يُشارَ لاثنين ، أحدُهما مؤنثٌ ، والآخرُ مذكرٌ باسم إشارةِ المؤنثِ

ولو قلتَ : " تلك هندٌ وزيدٌ " لم يَجُزْ ؟ فالجواب من ثلاثةِ أوجه : أحدُهما : أنَّ المرادَ بالكتابِ هو الآياتُ ؛ لأنَّ الكتابَ عبارةٌ عن آياتٍ مجموعةٍ فلمَّا كانا شيئاً واحداً / صَحَّتْ الإشارةُ إليهما بإشارةِ الواحدِ المؤنثِ . الثاني : أنَّه على حَذْفِ مضافٍ أي : وآياتُ كتابٍ مبين . الثالث : أنه لَمَّا وَلِيَ المؤنثَ ما يَصِحُّ الإشارةُ به إليه اكتُفي به وحَسُنَ ، ولو أُوْلِيَ المذكرَ لم يَحْسُنْ . ألا تراك تقولُ : " جاءَتْني هندٌ وزيدٌ " ولو حَذَفْتَ " هند " أو أَخَّرْتَها لم يَجُزْ تأنيثُ الفعلِ .

(71/575)

قوله : ﴿ هُدًى وبشرى ﴾ : يجوزُ فيهما أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ يكونا منصوبَيْنِ على المصدرِ بفعلٍ مقدرٍ مِنْ لفظِهما أي : يَهْدي هُدَىً ويُبَشِّرُ بُشْرَى . الثاني : أن يكونا في موضعِ الحالِ من " آياتُ " . والعاملُ فيها ما في " تلك " مِنْ معنى الإشارةِ . الثالث : أَنْ يكونا في موضعِ الحالِ من " القرآن " . وفيه ضعفٌ من حيث كونُه مضافاً إليه . الرابع : أَنْ يكونَ حالاً من " كتاب " في قراءة مَنْ رَفَعه . ويَضْعُفُ في قراءة مَنْ جرَّه لما تقدَّمَ مِنْ كونِه في حكمِ المضافِ إليه لعَطْفِه عليه . الخامس : أنهما حالان من الضميرِ المستترِ في " مبين " سواءً رَفَعْتَه أم جَرَرْتَه . السادس : أَنْ يكونا بَدَلَيْن مِنْ " آيات " . السابع : أَنْ يكونا خبراً

بعد خبر . الثامن : أن يكونا خبرَيْ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هي هدىً وبشرى .

قوله : ﴿ الذين يُقِيمُونَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مجرورَ المحلِّ نعتاً للمؤمنين ، أو بدلاً ، أو بياناً ، أو منصوبه على المدحِ أو مرفوعَه على تقديرِ مبتدأ أي : هم الذين .

(72/575)

قوله : ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ " هم " الثاني تكريرٌ للأول على سبيلِ التوكيدِ اللفظيِّ . وفهم الزمخشري منه الحَصْرَ أي : لا يُوقِنُ بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ إلاَّ هؤلاءِ المتصفونَ بهذه الصفاتِ . و " بالآخرةِ " متعلقٌ ب "يُوقنون " ولا يَضُرُّ الفصلُ بينهما بالتوكيدِ . وهذه الجملةُ يُحتمل أَنْ تكونَ معطوفةً على الصلةِ داخلةً في حَيِّزِ الموصولِ ، وحينئذٍ يكون قد غايَرَ بين الصلتين لمعنىً : وهو أَنَّه لَمَّا كان إقامةُ الصلاةِ وإيتاءُ الزكاةِ مِمَّا يتكرَّرُ ويتجدَّدُ أتى بالصلتين جملةً فعليةً فقال : "يُقيمون " و "يُؤْتُون " . ولَمَّا كان الإيقانُ بالآخرةِ أمراً ثابتاً مطلوباً دوامُه أتى بالصلةِ جملةً اسميةً مكَّرراً فيها المسندُ إليه مُقَدَّماً فيها المُوْقَنُ به الدالُّ على الاختصاصِ ليدلَّ على الثباتِ والاستقرارِ . وجاء بخبرِ المبتدأ في هذه الجملةِ فعلاً مضارعاً ، دلالةً على أنَّ ذلك مُتَجَدِّدٌ كلَّ وقتٍ غيرُ منقطعٍ . ويُحتمل أَنْ تكونَ مستأنفةً غيرَ داخلةٍ في حَيِّزِ الموصولِ .

قال الزمخشري : " ويُحتمل أَنْ تَتِمَّ الصلةُ عنده " أي : عند قولِه : " وهم " . قال " وتكونُ الجملةُ اعتراضيةً " يريد أنَّ الصلةَ تَمَّتْ عند " الزكاةِ " فيجوزُ في ذلك . وإلاَّ فكيف يَصِحُّ إذا أخَذْنا بظاهرِ كلامِه أنَّ الصِّلةَ تَمَّتْ عند قولِه " وهم " ؟ وتسميتُه هذا اعتراضاً يعني من حيث المعنى ، وسياقُ الكلام ، وإلاَّ فالاعتراضُ في الاصطلاحِ لما يكون بين متلازِمَيْنِ من مبتدأ وخبرٍ ، وشرطٍ وجزاءٍ ، وقَسَمٍ وجوابِه ، وتابعٍ ومتبوعٍ ، وصلةٍ وموصولٍ ، وليس هنا شيءٌ من ذلك .

(73/575)

قوله : ﴿ الأخسرون ﴾ في أَفْعَل قولان ، أحدهما : وهو الظاهرُ أنَّها على بابِها من التفضيل ، وذلك بالنسبةِ إلى الكفَّار من حيث اختلافُ الزمانِ والمكانِ . يعني : أنَّهم أكثرُ خُسْراناً في الآخرةِ منهم في الدنيا ، أي : إنَّ خُسْرانَهم في الآخرة أكثرُ من خُسْرانِهم في الدنيا . وقال جماعةٌ منهم الكرماني : " هي هنا للمبالغةِ لا للشِّرْكة ؛ لأن المؤمنَ لا خُسْران له في الآخرةِ البتة " . وقد تقدَّم جوابُ ذلك : وهو أنَّ الخسرانَ راجعٌ إلى شيءٍ واحدٍ . باعتبارِ اختلافِ زمانِه ومكانِه .

وقال ابن عطية : " الأَخْسرون جمع " أَخْسَر " لأنَّ أَفْعَل صفةٌ لا يُجْمَعُ ، إلاَّ أن يُضاف

فَتَقْوى رتبتُه في الأسماء ، وفي هذا نظرٌ " . قال الشيخ : " ولا نظرَ في أنَّه يُجمع جَمْعَ سلامةٍ أو جمعَ تكسيرٍ إذا كان بأل ، بل لا يجوزُ فيه إلاَّ ذلك ، إذا كان قبله ما يُطابِقُه في الجمعيَّةِ . فتقول : " الزيدون هم الأفضلون والأفاضل " و " الهندات هنَّ الفُضْلَياتُ " ، والفُضُلُ . وأمَّا قوله : " لا يُجْمَعُ إلاَّ أَنْ يُضَافَ " فلا يَتَعَيَّنُ إذ ذاك جَمْعُه ، بل إذا أُضيف إلى نكرةٍ لا يجوزُ جَمْعُه ، وإن أضيف إلى معرفةٍ جاز في الجمعُ والإفرادُ " .

قوله : ﴿ لَتُلَقَّى ﴾ : " لَقِيَ " مخففاً يتعدى لواحدٍ ، وبالتضعيف يتعدى لاثنين فأُقيم أَوَّلُهما هنا مُقامَ الفاعلِ ، والثاني " القرآنَ " . وقول من قال : إنَّ أصلَه تَلَقَّنَ بالنون/ تفسيرُ معنىً فلا يَتَعَلَّقُ به مُتَعَلَّقٌ ، فإنَّ النونَ أُبْدِلَتْ حرفَ علةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 569.572 ﴾

(74/575)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

بسم الله اسم عزيز قصده العاصي لطلب التخفيف فصار وزره مغفورا ، اسم كريم قصده العابد لطلب التضعيف فصار أجره موفورا ، اسم جليل أمه الولي لطلب التشريف فصار

سعيه مشكورا ، اسم عزيز إن تعرض الفقير لوجوده محقته العزة ، وطوحته السطوة ، فصار كأن لم يكن شيئًا مذكورا .

جلت الأحدية .

. فأتى بالوصول وتقدست الصمدية .

. فمن ذا الذي عليها يقف ؟) كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره ([المدثر : 54 ، 55] :

وكم باسطين إلى وصلنا

أكفهمو . . لم ينالوا نصيبا .

بطهارةِ قُدّسِي وسناءِ عِزّي لا أُخَيِّبُ أَمَلَ من أَمَّلَ لطفي .

بوجود بِرّي تطيب قلوبُ أوليائي ، وبشهود وجهي تغيب أسرار أصفيائي .

طَلَبُ القاصدين مُقَابَلٌ بلطفي ، وسَعْيُ العاملين مشكورٌ بعطفي .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النحل : 1] : هذه دلالات كَرَمنا ، وأماراتُ فضلنا وشواهدُ بِرّنا ، نُبَيِّنُ لأوليائنا صِدْقَ وَعْدِنا ، ونُحقِّقُ للأصفياء حِفْظَ عَهْدِنا .

هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2)

هذه الآياتُ وهذا الكتابُ بيانٌ وشِفاءٌ ، ونورٌ وضياءٌ ، وبشرى ودليلٌ لِمَنْ حققنا لهم الإيمان ، وأَكَّدْنا لهم الضمان ، وكفلنا لهم الإحسان .

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)

يديمون المواصلات ، ويستقيمون في آداب المناجاة ويؤدون عن أموالهم وأحوالهم وحركاتِهم وسكناتِهم الزكاة ، بما يقومون في حقوق المسلمين أحسنَ مقام ، وينوبون عن ضعفائهم أحسنَ مناب .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4)

أغشيناهم فَهُم لا يُبْصِرُون ، وعَمَّيْنَا عليهم المسالكَ فهم عن الطريقة المُثْلَى يَعْدِلون ، أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون ، وفي حيرتهم يَتَرَدَّون .

(75/575)

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5)

﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ أن يجد الآلامَ ولا يجد التسلِّي بمعرفة المُسَلِّي ، ويحمل البلاءَ ولا يحمل عنه ثقلَه وعذابَه شهودُ المُبْلِي . . وذلك للكفار ، فأمّا المؤمنون فيُخَفِّفُ عنهم العذابَ في الآخرةِ حُسْنُ رجائِهم في الله ، ثم تضرُّعُهم إلى الله ، ثم فَضْلُ الله معهم بالتخفيف في حال البلاء ثم ما وقع عليهم من الغشي والإفاقة – كما في الخبر – إلى وقت إخراجهم من النار .

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

أي أن الذي أكرمكَ بإنزال القرآن عليك هو الذي يحفظك عن الأسواء والأعداء وصنوف البلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 23. 25 ﴾

(76/575)

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وصفه بتمام الحكمة وشمول العلم ، دل على كل من الوصفين ، وعلى إيانه القرآن وما له من العظمة التي أشار إليها أول السورة بما يأتي في السورة من القصص وغيرها ، واقتصر في هذه السورة على هذه القصص لما بينها من عظيم التناسب المناسب لمقصود السورة ، فابتدىء بقصة أطبق فيها الأباعد على الكفران فأهلكوا ، والأقارب على الإيمان فأنجوا ،

وثنى بقصة أجمع فيها الأباعد على الإيمان ، لم يتخلف منهم إنسان ، وثلث بأخرى حصل بين الأقارب فيها الفرقان ، باقتسام الكفر والإيمان ، وختم بقصة تمالأ الأباعد فيها على العصيان ، وأصروا على الكفران ، فابتلعتهم الأرض ثم غطوا بالماء كما بلغ الأولين الماء فكان فيه التواء .

ولما كان تعلق " إذ " باذكر من الوضوح في حد لا يخفى على أحد ، قال دالاً على حكمته وعلمه : ﴿ إذ ﴾ طاوياً لمتعلقه لوضوح أمره فصار كأنه ﴿ قال ﴾ : اذكر حكمته وعلمه حين قال : ﴿ موسى لأهله ﴾ أي زوجة وهو راجع من مدين إلى مصر ، قيل : ولم يكن معه غيرها : ﴿ إني آنست ﴾ أي أبصرت إبصاراً حصل لي الأنس ، وأزال عني الوحشة والنوس ﴿ ناراً ﴾ فعلم بما في هذه القصة من الأفعال المحكمة المنبئة عن تمام العلم اتصافه بالوصفين علماً مشاهداً ، وقدم ما الحكمة فيه أظهر لاقتضاء الحال التأمين من نقص ما يؤمر به من الأفعال .

ولما كان كأنه قيل : فماذا تصنع ؟ قال آتياً بضمير المذكر المجموع للتعبير عن الزوجة المذكورة بلفظ " الأهل " الصالح للمذكر والجمع صيانة لها وستراً .

(77/575)

جازماً بالوعد للتعبير بالخير الشامل للهدى وغيره ، فكان تعلق الرجاء به أقوى من تعلقه بخصوص كونه هدى ، ولأن مقصود السورة يرجع إلى العلم ، فكان الأليق به الجزم ، ولذا عبر بالشهاب الهادي لأولي الألباب : ﴿ سآتيكم ﴾ أي بوعد صادق وإن أبطأت ﴿ منها بخبر ﴾ أي ولعل بعضه يكون مما نهتدي به في هذا الظلام إلى الطريق ، وكان قد ضلها ﴿ أو آتيكم بشهاب ﴾ أي شعلة من نار ساطعة ﴿ قبس ﴾ أي عود جاف مأخوذ من معظم النار فهو بحيث قد استحكمت فيه النار فلا ينطفىء ؛ وقال البغوي : وقال بعضهم : الشهاب شيء ذو نور مثل العمود ، والعرب تسمي كل أبيض ذي نور شهاباً ، والقبس : القطعة من النار .

فقراءة الكوفيين بالتنوين على البدل أو الوصف ، وقراءة غيرهم بالإضافة ، لأن القبس أخص .

وعلل إتيانه بذلك إفهاماً لأنها ليله باردة بقوله : ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي لتكونوا في حال من يرجى أن يستدفىء بذلك أي يجد به الدفء لوصوله معي فيه النار ، وآذن بقرب وصوله فقال : ﴿ فلما جاءها ﴾ أي تلك التي ظنها ناراً .

ولما كان البيان بعد الإبهام أعظم ، لما فيه من التشويق والتهيئة للفهم ، بني للمفعول قوله : ﴿ نودي ﴾ أي من قبل الله تعالى .

ولما أبهم المنادى فتشوقت النفوس إلى بيانه ، وكان البيان بالإشارة أعظم .

لما فيه من توجه النفس إلى الاستدلال ، نبه سبحانه عليه بجعل الكلام على طريقة كلام القادرين ، إعلاماً بأنه الملك الأعلى فقال بانياً للمعفول ، آتياً بأداة التفسير ، لأن النداء بمعنى القول : ﴿ أن بورك ﴾ أي ثبت تثبيتاً يحصل منه من النماء والطهارة وجميع الخيرات ما لا يوصف ﴿ من في النار ﴾ أي بقعتها ، أو طلبها وهو طلب بمعنى الدعاء ، والعبارة تدل على أن الشجرة كانت كبيرة وأنها لما دنا منها بعدت منه النار إلى بعض جوانبها فتبعها ، فلما توسط الردحة أحاط به النور ، وسمي النور ناراً على ما كان في ظن موسى عليه الصلاة والسلام ، وقال سعيد بن جبير : بل كانت ناراً كما رأى موسى عليه السلام ، والنار من حجب الله كما في الحديث :

" حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " ﴿ ومن حولها ﴾ من جميع الملائكة عليهم السلام وتلك الأراضي المقدسة على ما أراد الله في ذلك الوقت وفي غيره وحق لتلك الأراضي أن تكون كذلك لأنها مبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومهبط الوحي عليهم وكفاتهم أحياء وأمواتاً .

ولما أتاه النداء – كما ورد – من جميع الجهات ، فسمعه بجميع الحواس ، أمر بالتنزيه ،

تحقيقاً لأمر من أمره سبحانه ، وتثبيتاً له ، فقال عاطفاً على ما أرشد السياق إلى تقديره من مثل : فأبشر بهذه البشرى العظيمة : ﴿ وسبحان الله ﴾ أي ونزه الملك الذي له الكمال المطلق تنزيهاً يليق بجلاله ، ويجوز أن يكون خبراً معطوفاً على ﴿ بورك ﴾ أي وتنزه الله سبحانه تنزهاً يليق بجلاله عن أن يكون في موضع النداء أو غيره من الأماكن .

ولما كان تعليق ذلك بالاسم العلم دالاً على أنه يستحق ذلك لمجرد ذاته المستجمع لجميع صفات الكمال ، من الجلال والجمال ، وصفه بما يعرف أنه يستحقه أيضاً لأفعاله بكل مخلوق التي منها ما يريد أن يربي به موسى عليه الصلاة والسلام كبيراً بعد ما رباه به صغيراً ، فقال : ﴿ رب العالمين ﴾ .

(79/575)

ولما تشوفت النفس إلى تحقق الأمر تصريحاً ، قال معظماً له تمهيداً لما أراد سبحانه إظهاره على يده من المعجزات الباهرات : ﴿ يا موسى إنه ﴾ أي الشأن العظيم الجليل الذي لا يبلغ وصفه ﴿ أنا الله ﴾ أي البالغ من العظمة ما تقصر عنه الأوهام ، وتتضاءل دونه نوافذ الأفهام ، ثم أفهمه مما تتضمن ذلك وصفين يدلانه على أفعاله معه فقال : ﴿ العزيز ﴾ أي الذي يصل إلى جميع ما يريد ولا يوصل إلى شيء مما عنده من غير الطريق التي يريد

﴿ الحكيم ﴾ أي الذي ينقض كل ما يفعله غيره إذا أراد ، ولا يقدر غيره أن ينقض شيئاً من فعله .

ولما كان التقدير : فافعل جميع ما آمرك به فإنه لا بد منه ، ولا تخف من شيء فإنه لا يوصل إليك بسوء لأنه متقن بقانون الحكمة ، محروس بسور العزة ، دل عليه بالعطف في قوله : ﴿ وألق عصاك ﴾ أي لتعلم علماً شهودياً عزتي وحكمتي - أو هو معطوف على ﴿ أن بورك ﴾ - فألقاها كما أمر ، فصارت في الحال - بما أذنت به الفاء - حية عظيمة جداً ، هي - مع كونها في غاية العظم - في نهاية الخفة والسرعة في اصطرابها عند محاولتها ما يريد ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أي تضطرب في تحركها مع كونها في غاية الكبر ﴿ كأنها جآن ﴾ أي حية صغيرة في خفتها وسرعتها ، ولا ينافي ذلك كبر جثتها ﴿ ولى ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام .

ولما كانت عليه التولية مشتركة بين معان ، بين المراد بقوله : ﴿ مدبراً ﴾ أي التفت هارباً منها مسرعاً جداً لقوله : ﴿ ولم يعقب ﴾ أي لم يرجع على عقبه ، ولم يتردد في الجد في الهرب ، ولم يلتفت إلى ما وراءه بعد توليته ، يقال : عقب عليه تعقيباً ، أي كر ، وعقب في الأمر تعقيباً : تردد في طلبه مجداً - هذا في ترتيب المحكم .

وفي القاموس : التعقيب : الالتفات .

وقال القزاز في ديوانه : عقب - إذا انصرف راجعاً فهو معقب .

ولما تشوفت النفس إلى ما قيل له عند هذه الحالة ، أجيبت بأنه قيل له : ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ ثم علل هذا النهي بقوله ، مبشراً بالأمن والرسالة : ﴿ إني لا يخاف لديّ ﴾ أي في الموضع الذي هو من غرائب نواقض العادات ، وهي وقت الوحي ومكانه ﴿ المرسلون ﴾ أي لأنهم معصومون من الظلم ، ولا يخاف من الملك العدل إلا ظالم .

ولما دل أول الكلام وآخره على أن التقدير ما ذكرته ، وعلم منه أن من ظلم خاف ، وكان المرسلون بل الأنبياء معصومين عن صدور ظلم ، ولكنهم لعلو مقامهم ، وعظيم شأنهم ، يعد عليهم خلاف الأولى ، بل بعض المباحات المستوية ، بل أخص من ذلك ، كما قالوا " حسنات الأبرار سيئات المقربين " ، استدرك سبحانه من ذلك بأداة الاستثناء ما يرغب المرهبين من عواقب الظلم آخر تلك في التوبة ، وينبه موسى عليه السلام على غفران وكزة القبطي له ، وأنه لا خوف عليه بسببه وإن كان قتله مباحاً لكونه خطأ مع أنه كافر ، لكن علو المقام يوجب التوقف عن الإقدام إلا بإذن خاص ، ولذلك سماه هو ظلماً فقال ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها فقال : ﴿ إلا ﴾ أو المعنى : لكن ﴿ من ظلم ﴾ كائناً من كان ، بفعل سوء ﴿ ثم بدل ﴾ بتوبته ﴿ حسناً

بعد سوء ﴾ وهو الظلم الذي كان عمله ، أي جعل الحسن بدل السوء كالسحرة الذين آمنوا بعد ذلك بموسى عليه الصلاة والسلام فإني أغفره له بحيث يكون كأنه لم يعمله أصلاً ، وأرحمه بما أسبغ عليه من ملابس الكرامة المقارنة للأمن والعز وإن أصابه قبل ذلك نوع خوف .

ثم علل ذلك بأن المغفرة والرحمة صفتان له ثابتتان ، فقال : ﴿ فإني ﴾ أي أرحمه بسبب أني ﴿ غفور ﴾ أي من شأني أني أمحو الذنوب محواً يزيل جميع آثارها ﴿ رحيم ﴾ أعامل التائب منها معاملة الراحم البليغ الرحمة بما يقتضيه حاله من الكرامة ، فايل أثر ما كان وقع فيه من موجب الخوف وهو الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 409 . 412 ﴾

(81/575)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) ﴾

واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة أنواعاً من القصص .

القصة الأولى قصة موسى عليه الصلاة والسلام

أما قوله : ﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ ﴾ فيدل على أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ابنة شعيب عليه السلام ، وقد كنى الله تعالى عنها بالأهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله ﴿ امكثوا ﴾ [القصص : 29] .

أما قوله : ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ﴾ فالمعنى أنهما كانا يسيران ليلاً ، وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفي مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة في أمر الطريق ، ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال : ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ﴾ وقد اختلفوا فقال بعضهم المراد أبصرت ورأيت ، وقال آخرون بل المراد صادفت ووجدت فآنست به ، والأول أقرب ، لأنهم لا يفرقون بين قول القائل آنست ببصري ورأيت ببصري .

أما قوله : ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ فالخبر ما يخبر به عن حال الطريق لأنه كان قد ضل ، ثم في الكلام حذف وهو أنه لما أبصر النار توجه إليها وقال : ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ يعرف به الطريق .

أما قوله : ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة .

وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبساً وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلاً

أو صفة لما فيه من معنى القبس ثم ههنا أسئلة :

السؤال الأول : ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ و ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ [القصص : 29] كالمتدافعين لأن أحدهما ترج والآخر تيقن ؟ نقول جوابه : قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة .

السؤال الثاني : كيف جاء بسين التسويف ؟ جوابه : عدة منه لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ أو كانت المسافة بعيدة .

(82/575)

السؤال الثالث : لماذا أدخل (أو) بين الأمرين وهلا جمع بينهما لحاجته إليهما معاً ؟ جوابه : بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بهذين المقصودين ظفر بأحدهما ، إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ثقة بعادة الله تعالى لأنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده .

وأما قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ فالمعنى لكي تصطلون وذلك يدل على حاجة بهم إلى الاصطلاء وحينئذ لا يكون ذلك إلا في حال برد .

أما قوله تعالى : ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا وسبحان الله رَبِّ العالمين ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : ﴿ أن ﴾ أن هي المفسرة لأن النداء فيه معنى القول ، والمعنى قيل له بورك .

البحث الثاني : اختلفوا فيمن في النار على وجوه : أحدها : ﴿ أَن بُورِكَ ﴾ بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من في النور ، وذلك هو الله سبحانه ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني الملائكة وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وإن كنا نقطع بأن هذه الرواية موضوعة مختلفة وثانيها : ﴿ مَن فِى النار ﴾ هو نور الله ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ الملائكة ، وهو مروي عن قتادة والزجاج وثالثها : أن الله تعالى ناداه بكلام سمعه من الشجرة في البقعة المباركة فكانت الشجرة محلاً للكلام ، والله هو المكلم له بأن فعله فيه دون الشجرة .

(83/575)

ثم إن الشجرة كانت في النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال : ﴿ بُورِكَ مَن فِى النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وهو قول الجبائي ورابعها : ﴿ مَن فِى النار ﴾ هو موسى عليه السلام لقربه منها ﴿ مِنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني الملائكة ، وهذا أقرب لأن القريب من الشيء قد يقال إنه فيه وخامسها : قول صاحب "الكشاف" : ﴿ بُورِكَ مَن فِى النار ﴾ أي من في مكان النار ومن حول مكانها هي البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى :

﴿ مِن شَاطِىءِ الواد الأيمن فِي البقعة المباركة ﴾ [القصص : 30] ويدل عليه قراءة أبي (تباركت الأرض ومن حولها) وعنه أيضاً (بوركت النار) .

البحث الثالث : السبب الذي لأجله بوركت البقعة ، وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الأمر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولاً وإظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات في قوله : ﴿ ونجيناه ولُوطاً إِلَى الأرض التى بَارَكْنَا فِيهَا للعالمين ﴾ [الأنبياء : 71] وحقت أن تكون كذلك فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحي وكفاتهم أحياء وأمواتاً .

البحث الرابع : أنه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله : ﴿ بُورِكَ مَن فِى النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يدل على أنه قد قضى أمر عظيم تنتشر البركة منه في أرض الشام كلها .

وقوله : ﴿ وسبحان الله رَبّ العالمين ﴾ فيه فائدتان : إحداهما : أنه سبحانه نزه نفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته ليكون ذلك مقدمة في صحة رسالة موسى عليه السلام الثانية : أن يكون ذلك إيذاناً بأن ذلك الأمر مريده ومكونه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الوقائع .

أما قوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللهُ العزيز الحكيم ﴾ فقال صاحب "الكشاف" الهاء في (إنه) يجوز أن يكون ضمير الشأن و ﴿ أَنَا اللهُ ﴾ مبتدأ وخبر ، و ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان للخبر ، وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله يعني أن مكلمك أنا والله بيان لأنا والعزيز الحكيم صفتان (للتعيين) وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية ، الفاعل (كل) ما أفعله بحكمة وتدبير .

فإن قيل هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى ، فكيف علم موسى عليه السلام أنه من الله ؟ جوابه : لأهل السنة فيه طريقان : الأول : أنه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحروف والأصوات فعلم بالضرورة أنه صفة الله تعالى الثاني : قول أئمة ما وراء النهر وهو أنه عليه السلام سمع الصوت من الشجرة فنقول إنما عرف أن ذلك من الله تعالى لأمور :

أحدها : أن النداء إذا حصل في النار أو الشجرة علم أنه من قبل الله تعالى لأن أحداً منا لا يقدر عليه وهو ضعف لاحتمال أن يقال الشيطان دخل في النار والشجرة ثم نادى وثانيها : يجوز في نفس النداء أن يكون قد بلغ في العظم مبلغاً لا يكون إلا معجزاً ، وهو أيضاً ضعيف لأنا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلا قدر إلا ويجوز صدوره منهم وثالثها : أنه قد اقترن به معجز دل على ذلك ، فقيل إن النار كانت مشتعلة في شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز ، وهذا هو الأصح ، والله أعلم .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾

اعلم أن أكثر ما في هذا الآيات قد مر شرحه ، ولنذكر ما هو من خواص هذا الموضع : يقال علام عطف قوله : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ؟ جوابه : على ﴿ بُورِكَ ﴾ [النمل : 8] لأن المعنى : نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك ، كلاهما تفسير لنودي .

(85/575)

أما قوله : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ فالجان الحية الصغيرة ، سميت جاناً ، لأنها تستتر عن الناس ، وقرأ الحسن ﴿ جَانٌّ ﴾ على لغة من يهرب من التقاء الساكنين ، فيقول شأبة ودأبة .

أما قوله : ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ معناه لم يرجع ، يقال عقب المقاتل إذا (مر) بعد الفرار ، وإنما خاف لظنه أن ذلك لأمر أريد به ، ويدل عليه ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وقال بعضهم : المراد إني إذا أمرتهم بإظهار معجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة .

أما قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل أو الصغيرة ، ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات اللطيفة .

قال الحسن رحمه الله : كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطي ثم بدل ، فإنه عليه السلام قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لي ﴾ [القصص : 16] وقرىء (ألا من ظلم) بحرف التنبيه .

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ ﴾ فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب ، وعن أبي بكر في رواية عاصم (حسناً) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 158.155 ﴾

(86/575)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : رأيت ناراً ، قاله أبو عبيدة ومنه سمي الإنساء إنساً لأنهم مرئيون .

الثاني : أحسست ناراً ، قاله قتادة ، والإيناس : الإحساس من جهة يؤنس بها .

﴿ سَءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : سأخبركم عنها بعلم ، قاله ابن شجرة .

الثاني : بخبر الطريق ، لأنه قد كان ضل الطريق ، قاله ابن عباس .

﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ والشهاب الشعاع المضي ، ومنه قيل للكوكب الذي يمر ضوؤه في السماء شهاب ، قال الشاعر :

في كفِّهِ صعدة مثقفة . . . فيها سنان كشعلة القبسِ

والقبس هو القطعة من النار ، ومنه اقتبست النارَ ، أخذت منها قطعة ، واقتبست منه علماً إذا أخذت منه علماً ، لأنك تستضيء به كما تستضيء بالنار .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي لكي تصطلون من البرد ، قال قتادة : وكان شتاء

. قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ يعني ظن أنها نار ، وهي نور ، قال وهب بن منبه : فلما رأى موسى وقف قريباً منها فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العليق ، لا تزداد النار إلا تضرماً وعظماً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسناً ، فعجب منها ودنا وأهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها ، فمالت إليه فخافها فتأخر عنها ، ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضع أمْرها على أنها مأمورة ولا يدري ما أمرها ، إلى أن :

﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ .

وفي ﴿ بُورِكَ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني قُدِّس ، قاله ابن عباس .

الثاني : تبارك ، حكاه النقاش .

الثالث : البركة في النار ، حكاه ابن شجرة ، وأنشد لعبد الله بن الزبير :

فبورك في بنيك وفي بنيهم . . . إذا ذكروا ونحن لك الفداء

وفي النار وجهان

: أحدهما : أنها نار فيها نور .

الثاني : أنها نور ليس فيها نار ، وهو قول الجمهور .

وفي ﴿ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ خمسة أقاويل :

(87/575)

أحدها : بوركت النار ، و ﴿ مَن ﴾ زيادة ، وهي في مصحف أُبي : ﴿ بُورِكَتِ النَّارُ وَمَن حَوْلَهَا ﴾ قاله مجاهد .

الثاني : بورك النور الذي في النار ، قاله ابن عيسى .

الثالث : بورك الله الذي في النور ، قاله عكرمة ، وابن جبير .

الرابع : أنهم الملائكة ، قاله السدي .

الخامس : الشجرة لأن النار اشتعلت فيها وهي خضراء لا تحترق .

وفي قوله : ﴿ وَمَن حَوْلَهَا ﴾ وجهان :

أحدهما : الملائكة ، قاله ابن عباس .

الثاني : موسى ، قالها أبو صخر .

﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن موسى قال حين فرغ من سماع النداء من قوله الله : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ استعانة بالله وتنزيهاً له ، قاله السدي .

الثاني : أن هذا من قول الله ومعناه : وبورك فيمن يسبح الله رب العالمين ، حكاه ابن شجرة . ويكون هذا من جملة الكلام الذي نودي به موسى .

وفي ذلك الكلام قولان :

أحدهما : أنه كلام الله تعالى من السماء عند الشجرة وهو قول السدي . قال وهب بن منبه : ثم لم يمس موسى امرأة بعد ما كلمه ربه .

والثاني : أن الله خلق في الشجرة كلاماً خرج منها حتى سمعه موسى ، حكاه النقاش .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ قال وهب : ظن موسى أن الله أمره برفضها فرفضها .

﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن الجان الحية الصغيرة ، سميت بذلك لاجتنانها واستتارها .

والثاني : أنه أراد بالجان الشيطان من الجن ، لأنهم يشبهون كل ما استهولوه بالشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات : 65] . وقد كان انقلاب

العصا إلى أعظم الحيات لا إلى أصغرها ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف : 107] و [الشعراء : 33] .

(88/575)

قال عبد الله بن عباس : وكانت العصا قد أعطاه إياها ملك من الملائكة حين توجه إلى مَدْيَن وكان اسمها : ما شاء ، قال ابن جبير : وكانت من عوسج .

﴿ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ . . . ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : ولم يرجع ، قاله مجاهد ، قال قطرب : مأخوذ من العقب .

الثاني : ولم ينتظر ، قاله السدي .

الثالث : ولم يلتفت ، قاله قتادة .

ويحتمل رابعاً : أن يكون معناه أنه بقي ولم يمش ، لأنه في المشيء معقب لابتدائه بوضع عقبة قبل قدمه .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قيل إنه أراد في الموضع الذي يوحى فيه إليهم ، ولا فالمرسلون من الله أخوف .

﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أنه أراد من غير المسلمين لأن الأنبياء لا يكون منهم الظلم ، ويكون منهم هذا الاستثناء المنقطع .

الوجه الثاني : أن الاستثناء يرجع إلى المرسلين .

وفيه على هذا وجهان :

أحدهما : فيما كان منهم قبل النبوة كالذي كان من موسى في قتل القبطي ، فأما بعد النبوة فهم معصومون من الكبائر والصغائر جميعاً .

الوجه الثاني : بعد النبوة فإنه معصومون فيها مع وجود الصغائر منهم ، غير أن الله لطف بهم في توفيقهم للتوبة منها ، وهو معنى قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ ﴾ يعني توبة بعد سيئة .

﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي غفور لذنبهم ، رحيم بقبول توبتهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(89/575)

وقال ابن عطية :

ثم قص تعالى خبر موسى ، والتقدير اذكر ﴿ إذْ قال موسى ﴾ وكان من أمر موسى عليه

السلام أنه حين خرج بزوجه بنت شعيب عليه السلام يريد مصر وقد قرب وقت نبوته مشوا في ليلة ظلماء ذات برد ومطر ففقدوا النار ومسهم البرد واشتدت عليهم الظلمة وضلوا الطريق وأصلد زناد موسى عليه السلام ، فبينما هو في هذه الحالة إذ رأى ناراً على بعد ، و﴿ أنست ﴾ معناه رأيت ، ومنه قول حسان بن ثابت : [المنسرح]

انظر خليلي بباب جِلَّقَ هل تؤنس . . . دون البلقاء من أحد

فلما رأى موسى ذلك قال لأهله ما في الآية .

ومشى نحوها لما دنا منها رأى النار في شجرة سمر خضراء وهي لا تحرقها ، وكلا قرب هو منها بعدت هي منه ، وكان ذلك نوراً من نور الله عز وجل ولم يكن ناراً في نفسها لكن ظنه موسى ناراً فناداه الله عز وجل عند ذلك ، وسمع موسى عليه السلام النداء من جهة الشجرة وأسمعه الله كلامه والخبر الذي رجاه موسى عليه السلام هو الإعلام بالطريق ، وقوله ﴿ بشهاب قبس ﴾ شبه النار التي تؤخذ في طرف عود أو غيره ب " الشهاب " ثم خصصه بأنه مما اقتبس ، إذ الشهب قد تكون من غير اقتباس ، و" القبس " اسم لقطعة النار تقتبس في عود أو غيره كما القبض اسم ما يقبض ومنه قول أبي زيد : [المنسرح]

في كفة صعدة مثقفة . . . فيها سنان كشعلة القبسِ

ومنه قول الآخر : " من شاء من نار الجحيم اقتبسا " وأصل الشهاب الكوكب المنقض في أثر مسترق السمع وكل من يقال له شهاب من المنيرات فعلى التشبيه ، قال الزجاج : كل أبيض ذي نور فهو شهاب وكلامه معترض ، و" القبس " يحتمل أن يكون اسماً غير صفة ويحتمل أن يكون صفة ، فعلى كونه اسماً غير صفة أضاف إليه بمعنى بشهاب اقتبسته أو اقتبسه ، وعلى كونه صفة يكون ذلك كإضافة الدار إلى الآخرة والصلاة إلى الأولى وغير ذلك ، وقرأ الجمهور بإضافة " شهاب " إلى " قبس " وهي قراءة الحسن وأهل المدينة ومكة والشام ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " بشهابٍ قبس " بتنوين " شهاب " فهذا على الصفة .

ويجوز أن يكون " القبس " مصدر قبس يقبس كما الجلب مصدر جلب يجلب وقال أبو الحسن : الإضافة أجود وأكثر في القراءة كما تقول دار آجر وسوار ذهب حكاه أبو علي ، و﴿ تصطلون ﴾ معناه تستدفئون من البرد ، والضمير في ﴿ جاءها ﴾ للنار التي رآها موسى ، وقوله ﴿ أن بورك ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ أن ﴾ مفسرة ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب على تقدير " بأن بورك " ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على تقدير نودي أنه قاله الزجاج ، وقوله ﴿ بورك ﴾ معناه قدس وضوعف خيره ونمي ، والبركة مختصة بالخير ، ومن هذا قول أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب .

بورك الميت الغريب كما بو . . . رك ينع الرمان والزيتون

وبارك متعد بغير حرف تقول العرب باركك الله وقوله ﴿ من في النار ﴾ اضطرب المتأولون فيه فقال ابن عباس وابن جبير والحسن وغيرهم : أراد عز وجل نفسه وعبر بعضهم في هذا القول عبارات مردودة شنيعة ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : أراد النور ، وقال الحسن وابن عباس : أراد بمن حولها الملائكة وموسى .

(91/575)

قال القاضي أبو محمد : فأما قول الحسن وغيره فإنما يتخرج على حذف مضاف بمعنى ﴿ بورك مَن ﴾ قدرته وسلطانه ﴿ في النار ﴾ والمعنى في النار على ظنك وما حسبت ، وأما القول بأن ﴿ من ﴾ للنور فهذا على أن يعبر على النور بمن من حيث كان من نور الله ويحتمل أن تكون من الملائكة لأن ذلك النور الذي حسبه موسى ناراً لم يخل من الملائكة ، ﴿ ومن حولها ﴾ يكون لموسى عليه السلام وللملائكة المطيفين به ، وقرأ أبي بن كعب " أن بوركت النار " ، كذا حكى أبو حاتم وحكى ابن جني أنه قرأ " تباركت النار ومن حولها " ، وحكى الداني أبو عمرو أنه قرأ " ومن حولها من الملائكة " ، قال : وكذلك قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة ، وقوله تعالى : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ يحتمل أن يكون

مما قيل في النداء لموسى ، ويحتمل أن يكون خطاباً لمحمد عليه السلام اعتراضاً بين الكلامين ، والمقصد به على كلا الوجهين تنزيه الله تعالى مِمَّا عسى أن يخطر ببال في معنى النداء من الشجرة وكون قدرته وسلطانه في النار وعود من عليه ، أي هو منزه في جميع هذه الحالات عن التشبيه والتكييف ، قال الثعلبي : وإنما الأمر كما روي أن في التوراة جاء الله من سيناء وأشرق من ساعير واستعلى من فاران ، المعنى ظهرت أوامره بأنبيائه في هذه الجهات وفاران جبل مكة ، وباقي الآية إعلام بأنه الله تعالى والضمير في ﴿ أنه ﴾ للأمر والشأن . قال الطبري : ويسميها أهل الكوفة المجهولة وأنسه بصفاته من العزة ، أي لا خوف معي ، والحكمة ، أي لا نقص في أفعالي .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾

(92/575)

أمره الله عز وجل بهذين الأمرين تدريباً له في استعمالهما ، وفي الكلام حذف تقديره فألقى العصا ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ ، وأمال " رآها " بعضُ القراء ، و" الجانّ " الحيات لأنها تجن أنفسها أي تسترها ، وقالت فرقة : الجان صغار الحيات وعصا موسى صارت حية ثعباناً وهو العظيم فإنها شبهت ب " الجانّ " في سرعة الاضطراب ، لأن الصغار أكثر حركة من

الكبار ، وعلى كل قول فإن الله خلق في العصا حياة وغير أوصافها وأعراضها فصارت حية ، وقرأ الحسن والزهري وعمرو بن عبيد " جأن " بالهمز فلما أبصر موسى عليه السلام هل ذلك المنظر ﴿ ولى ﴾ فاراً ، قال مجاهد ولم يرجع وقال قتادة : ولم يلتفت . قال القاضي أبو أحمد : و" عقب " الرجل إذا ولى عن أمر صرف بدنه أو وجهه إليه كأنه انصرف على عقبيه وناداه الله مؤنساً ومقوياً على الأمر : ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ فإن رسلي الذين اصطفيتهم للنبوّة لا يخافون عندي ، ومعي ، فأخذ موسى الحية فرجعت عصا ثم صارت له عادة ، واختلف الناس في الاستثناء في قوله تعالى ﴿ إلا من ظلم ﴾ ، فقال مقاتل وغيره : الاستثناء متصل وهو من الأنبياء ، وروى الحسن أن الله تعالى قال لموسى : أخفتك بقتلك النفس ، وقال الحسن أيضاً : كانت الأنبياء تذنب فتعاقب ثم تذنب والله فتاقب فكيف بنا ، وقال ابن جريج : لا يخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه ، قال كثير من العلماء : لم يعر أحد من البشر من ذنب إلا ما روي عن يحيى بن زكرياء .

(93/575)

قال القاضي أبو محمد : وأجمع العلماء أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل واختلف فيما عدا هذا ، فعسى أن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك ، وفي الآية على هذا التأويل حذف اقتضى الإيجاز والفصاحة ترك نصه تقديره فمن ظلم ﴿ ثم بدل ﴾ ، وقال الفراء وجماعة : الاستثناء منقطع وهو إخبار عن غير الأنبياء كأنه قال : لكن من ظلم من الناس ثم تاب ﴿ فإني غفور رحيم ﴾ ، وقالت فرقة : ﴿ إلا ﴾ بمعنى الواو .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول لا وجه له ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وزيد بن أسلم " ألا من ظلم " على الاستفتاح ، وقوله ﴿ ثم بدل حسناً ﴾ معناه عملاً صالحاً مقترناً بتوبة ، وهذه الآية تقتضي حتم المغفرة للتائب ، وأجمع الناس على ذلك في التوبة من الشرك ، وأهل السنة في التائب من الماصي على أنه في المشيئة كالْمُصِرِّ ، لكن يغلب الرجاء على التائب والخوف على المصر ، وقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] عمت الجميع من التائب والمصر ، وقالت المعتزلة

﴿ لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] معناه للتائبين .

قال القاضي أبو محمد : وذلك مردود من لفظ الآية لأن تفصيلها بين الشرك وغيره كان يذهب فائدته إذ الشرك يغفر للتائب وما دونه كذلك على تأويلهم فما فائدة التفصيل في الآية وهذا احتجاج لازم فتأمله ، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ " حَسناً بعد سَوء " بفتح

الحاء والسين وهي قراءة مجاهد وابن أبي ليلى ، وقرأ محمد بن عيسى الأصبهاني " حسنى " مثل فعلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(94/575)

وقال ابن الجوزى :

﴿ إِذ قال موسى ﴾ المعنى : اذكر إِذ قال موسى .

قوله تعالى : ﴿ بشهاب قَبَس ﴾ قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب إِلاّ زيداً : ﴿ بشهابٍ ﴾ بالتنوين .

وقرأ الباقون على الإِضافة غير منوَّن .

قال الزجاج : من نوَّن الشهاب ، وجعل القبس من صفة الشهاب ، وكل أبيض ذي نور ، فهو شهاب .

فأما من أضاف ، فقال الفراء : هذا مما يضاف إِلى نفسه إِذا اختلفت الأسماء ، كقوله : ﴿ ولَدارُ الآخرة ﴾ [يوسف : 109] .

قال ابن قتيبة : الشِّهاب : النار ، والقَبَس : النار تُقْبَس ، يقال : قَبَسْتُ النار قَبْساً ، واسم ما قَبَستَ : قَبَسٌ .

قوله تعالى : ﴿ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : تستدفئون ، وكان الزمان شتاءً .

قوله تعالى : ﴿ فلمّا جاءها ﴾ أي : جاء موسى النارَ ، وإنما كان نوراً فاعتقده ناراً ، ﴿ نُوديَ أن بُورِكَ مَنْ في النّار ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المعنى : قُدِّس مَنْ في النّار ، وهو الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والمعنى : قُدِّس مَنْ ناداه مِنَ النّار ، لا أنّ الله عز وجل يَحُلُّ في شيء .

والثاني : أن "مَنْ" زائدة ؛ والمعنى : بوركتِ النَّارُ ، قاله مجاهد .

والثالث : أن المعنى : بُورِكَ على من في النار ، أو فيمن في النار ؛ قال الفراء : والعرب تقول : باركه الله ، وبارك عليه ، وبارك فيه ، بمعنى واحد ، والتقدير : بُورِكَ من في طلب النار ، وهو موسى ، فحذف المضاف .

وهذه تحيَّة من الله تعالى لموسى بالبركة ، كما حيَّا إبراهيمَ بالبركة على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه ، فقالوا : ﴿ رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهلَ البيت ﴾ [هود : 73] .

فخرج في قوله : ﴿ بُورِكَ ﴾ قولان :

أحدهما : قدِّس .

والثاني : من البَرَكة .

وفي قوله ﴿ ومَنْ حَوْلَها ﴾ ثلاثة أقوال :

أحدها : الملائكة ، قاله ابن عباس ، والحسن .

والثاني : موسى والملائكة ، قاله محمد بن كعب .

والثالث : موسى ؛ فالمعنى : بُورِك فيمن يطلبها وهو قريب منها .

(95/575)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّه أنا اللّهُ ﴾ الهاء عماد في قول أهل اللغة ؛ وعلى قول السدي : هي كناية عن المنادي ، لأن موسى قال : مَن هذا الذي يناديني ؟ فقيل : ﴿ إِنَّه أنا الله ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأَلْقِ عصاكَ ﴾ في الآية محذوف ، تقديره : فألقاها فصارت حيَّة ، ﴿ فلمَّا رآها تهتزُّ كأَنَّها جانٌّ ﴾ قال الفراء : الجانّ : الحيَّة التي ليست بالعظيمة ولا بالصغيرة .

قوله تعالى : ﴿ ولَمْ يُعَقِّبْ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لم يلتفت ، قاله قتادة .

والثاني : لم يرجع ، قاله ابن قتيبة ، والزجاج .

قال ابن قتيبة : وأهل النظر يرون أنه مأخوذ من العَقْبِ .

قوله تعالى : ﴿ إِنّي لا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُونَ ﴾ أي : لا يخافون عندي .

وقيل : المراد : في الموضع الذي يوحى إليهم فيه ، فكأنه نبَّهه على أن من آمنه الله بالنبوَّة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حيَّة .

وفي قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه استثناء صحيح ، قاله الحسن ، وقتادة ، ومقاتل ؛ والمعنى : إلا من ظَلَمَ منهم فانه يخاف .

قال ابن قتيبة : علم الله تعالى أن موسى مُسْتَشْعِرٌ خِيفةً من ذنْبه في الرَّجل الذي وكَزَه ، فقال ﴿ إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً ﴾ أي : توبة وندماً ، فانه يخاف ، وإني غفور رحيم .

والثاني : أنه استثناء منقطع ؛ والمعنى : لكن من ظَلَمَ فانه يخاف ، قاله ابن السائب ، والزجاج .

وقال الفراء : "مَنْ" مستثناة من الذين تُركوا في الكلام ، كأنه قال : لا يخاف لديّ المرسَلون ، إنما الخوف على غيرهم ، إلا من ظَلَمَ ، فتكون "مَنْ" مستثناة .

وقال ابن جرير : في الآية محذوف ، تقديره : إلا من ظَلَمَ ، فمن ظَلَمَ ثم بدّل حُسْناً .

والثالث : أن "إلاّ" بمعنى الواو ، فهو كقوله ﴿ لِئَلاَّ يكونَ للناس عليكم حُجَّةٌ إلاَّ الذين ظَلَموا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة150] ، حكاه الفراء عن بعض النحويين ، ولم يرضه .

(96/575)

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وعاصم الجحدري ، وابن يعمر : ﴿ أَلا مَنْ ظَلَمَ ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام .

وللمفسرين في المراد بالظلم ها هنا قولان .

أحدهما : المعاصي .

والثاني : الشِّرك .

ومعنى ﴿ حُسْناً ﴾ : توبة وندماً .

وقرأ ابن مسعود ، والضَّحَّاك ، وأبو رجاء ، والأعمش ، وابن السميفع ، وعبد الوارث عن أبي عمرو : ﴿ حَسَناً ﴾ بفتح الحاء والسين .

﴿ بَعْدَ سُوءٍ ﴾ أي : بعد إِساءة .

وقيل : الإِشارة بهذا إِلى أن موسى وإِن كان [قد] ظلم نفسه بقتل القبطي ، فإِن الله يغفِر له ، لأنه ندم على ذلك وتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(97/575)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ ﴾

﴿ إِذْ ﴾ منصوب بمضمر وهو اذكر ؛ كأنه قال على أثر قوله : "وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ" : خذ يا محمد من آثار حكمته وعلمه قصة موسى إذ قال لأهله .

﴿ إِنِي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي أبصرتها من بُعد .

قال الحارث بن حلّزَة :

آنَستْ نَبْأَةً وَأَفْزَعَهَا الْقُنَّ . . .

اصُ عصراً وقَدْ دَنَا الإمساءُ

﴿ سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي : ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ بتنوين ﴿ شِهابٍ ﴾ .

والباقون بغير تنوين على الإضافة ؛ أي بشعلة نار ؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

وزعم الفرّاء في ترك التنوين أنه بمنزلة قولهم : ولدار الآخرة ، ومسجد الجامع ، وصلاة الأولى ؛ يضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلفت أسماؤه .

قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال عند البصريين ، لأن معنى الإضافة في اللغة ضم شيء إلى شيء فمحال أن يضم الشيء إلى نفسه ، وإنما يضاف الشيء إلى الشيء ليتبين به معنى الملك أو النوع ، فمحال أن يتبين أنه مالك نفسه أو من نوعها .

و ﴿ شِهابِ قبسٍ ﴾ إضافة النوع والجنس ، كما تقول : هذا ثوبُ خزٍّ ، وخاتمُ حديدٍ وشبهه .

والشهاب كل ذي نُور ؛ نحو الكوكب والعُود الموقَد .

والقبَس اسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه ؛ فالمعنى بشهاب من قبس .

يقال : أقبست قبساً ؛ والاسم قبس .

كما تقول : قبضت قبضاً .

والاسم القبض .

ومن قرأ : ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ جعله بدلاً منه .

المهدوي : أو صفة له ؛ لأن القبس يجوز أن يكون اسماً غير صفة ، ويجوز أن يكون صفة ؛ فأما كونه غير صفة فلأنهم قالوا قبسته أقبسه قبساً والقبس المقبوس ؛ وإذا كان صفة فالأحسن أن يكون نعتاً .

والإضافة فيه إذا كان غير صفة أحسن .

وهي إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وشبهه .

ولو قرئ بنصب قبس على البيان أو الحال كان أحسن .

(98/575)

ويجوز في غير القرآن بشهابٍ قبساً على أنه مصدر أو بيان أو حال .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أصل الطاء تاء فأبدل منها هنا طاء ؛ لأن الطاء مطبقة والصاد مطبقة فكان الجمع بينهما حسناً ، ومعناه يستدفئون من البرد .

يقال : اصطلى يصطلي إذا استدفأ .

قال الشاعر :

النارُ فاكهةُ الشتاءِ فمن يردْ . . .

أكلَ الفواكهِ شاتياً فليصطلِ

الزجاج : كل أبيض ذي نُور فهو شهاب .

أبو عبيدة : الشهاب النار .

قال أبو النَّجم :

كأنما كان شهاباً واقدَا . . .

أضاء ضوءاً ثم صار خامدَا

أحمد بن يحيى : أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه ؛ وقول النحاس فيه حسن : والشهاب الشعاع المضيء ومنه الكوكب الذي يمد ضوءه في السماء .

وقال الشاعر :

في كفِّه صَعْدَةٌ مثقَّفةٌ . . .

فيها سِنانٌ كشُعلة القَبَسِ

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا ﴾ أي فلما جاء موسى الذي ظن أنه نار وهي نور؛ قاله وهب بن منبّه.

فلما رأى موسى النار وقف قريباً منها، فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة يقال لها العُلَّيق، لا تزداد النار إلا عظماً وتضرّماً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسناً؛ فعجب منها وأهوى إليها بضِغْث في يده ليقتبس منها؛ فمالت إليه؛ فخافها فتأخر عنها؛ ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة لا يدري من أمرها، إلى أن ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾.

وقد مضى هذا المعنى في "طه".

﴿ نُودِيَ ﴾ أي ناداه الله؛ كما قال: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم: 52].

﴿ أَن بُورِكَ ﴾ قال الزجاج: ﴿ أَنْ ﴾ في موضع نصب؛ أي بأنه.

قال: ويجوز أن تكون في موضع رفع جعلها اسم ما لم يسم فاعله.

وحكى أبو حاتم أن في قراءة أبيّ وابن عباس ومجاهد ﴿ أن بوركت النار ومن حولها ﴾.

قال النحاس : ومثل هذا لا يوجد بإسناد صحيح ، ولو صح لكان على التفسير ، فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى .

وحكى الكسائي عن العرب : باركك الله ، وبارك فيك .

الثعلبي : العرب تقول باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، أربع لغات .

قال الشاعر :

فبوركتَ مولوداً وبوركتَ ناشِئاً . . .

وبوركتَ عند الشَّيبِ إذ أنتَ أشيبُ

الطبري : قال ﴿ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ ولم يقل بورك (في من في) النار على لغة من يقول باركك الله .

ويقال باركه الله ، وبارك له ، وبارك عليه ، وبارك فيه بمعنًى ؛ أي بورك على من في النار وهو موسى ، أو على من في قرب النار ؛ لا أنه كان في وسطها .

وقال السّدي : كان في النار ملائكة فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة ؛ أي بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولها .

وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له ، كما حيّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه ؛ قال : ﴿ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾ [هود : 73] .

وقول ثالث قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير : قُدِّس من في النار وهو الله سبحانه وتعالى ، عنى به نفسه تقدّس وتعالى .

قال ابن عباس ومحمد بن كعب : النار نور الله عز وجل ؛ نادى الله موسى وهو في النور ؛ وتأويل هذا أن موسى عليه السلام رأى نوراً عظيماً فظنه ناراً ؛ وهذا لأن الله تعالى ظهر لموسى بآياته وكلامه من النار لا أنه يتحيز في جهة ﴿ وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله ﴾ [الزخرف : 84] لا أنه يتحيز فيهما ، ولكن يظهر في كل فعل فيعلَم به وجود الفاعل .

وقيل على هذا : أي بورك من في النار سلطانه وقدرته .

وقيل : أي بورك ما في النار من أمر الله تعالى الذي جعله علامة .

قلت : ومما يدلّ على صحة قول ابن عباس ما خرّجه مسلم في "صحيحه" ، وابن ماجه في "سننه" واللفظ له عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(100/575)

" إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القِسط ويرفعه حجابه النور لو كشفها لأحرقت سُبُحات وجهه كل شيء أدركه بصره " ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ

حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أخرجه البيهقي أيضاً .

ولفظ مسلم عن أبي موسى قال : " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ؛ فقال : إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يُرفَع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور وفي رواية أبي بكر النار لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرهُ من خلقه " قال أبو عبيد : يقال السُّبَحات إنها جلال وجهه ، ومنها قيل : سبحان الله إنما هو تعظيم له وتنزيه .

وقوله : "لو كشفها" يعني لو رفع الحجاب عن أعينهم ولم يثبِّتهم لرؤيته لاحترقوا وما استطاعوا لها .

قال ابن جُريج : النار حجاب من الحجب وهي سبعة حجب ؛ حجاب العزّة ، وحجاب الملك ، وحجاب السلطان ، وحجاب النار ، وحجاب النور ، وحجاب الغمام ، وحجاب الماء .

وبالحقيقة فالمخلوق المحجوب والله لا يحجبه شيء ؛ فكانت النار نوراً وإنما ذكره بلفظ النار ؛ لأن موسى حسبه ناراً ، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر .

وقال سعيد بن جبير : كانت النار بعينها فأسمعه تعالى كلامه من ناحيتها ، وأظهر له ربوبيته من جهتها .

وهو كما روي أنه مكتوب في التوراة : "جاء الله من سيناء وأشرف من ساعير واستعلى

من جبال فاران" .

فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها ، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمداً صلى الله عليه وسلم ، وفاران مكة .

وسيأتي في "القصص" بإسماعه سبحانه كلامه من الشجرة زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العالمين ﴾ تنزيهاً وتقديساً لله رب العالمين .

(101/575)

وقد تقدّم في غير موضع ، والمعنى : أي ويقول من حولها ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ فحذف .

وقيل : إن موسى عليه السلام قاله حين فرغ من سماع النداء ؛ استعانة بالله تعالى وتنزيهاً له ؛ قاله السدي .

وقيل : هو من قول الله تعالى .

ومعناه : وبورك فيمن سبح الله تعالى رب العالمين ؛ حكاه ابن شجرة .

قوله تعالى : ﴿ يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ الهاء عماد وليست بكناية في قول الكوفيين .

والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن .

﴿ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذي ليس كمثله شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أمره وفعله .

وقيل : قال موسى يا رب من الذي نادى ؟ فقال له : " ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إني أنا المنادي لك ﴿ أَنَا اللَّهُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ قال وهب بن منبّه : ظن موسى أن الله أمره أن يرفضها فرفضها .

وقيل : إنما قال له ذلك ليعلم موسى أن المكلّم له هو الله ، وأن موسى رسوله ؛ وكل نبيّ لا بدّ له من آية في نفسه يعلم بها نبوّته .

وفي الآية حذف : أي وألق عصاك فألقاها من يده فصارت حيّة تهتز كأنها جانّ ، وهي الحيّة الخفيفة الصغيرة الجسم .

وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة .

وقيل : إنها قلبت له أوّلاً حية صغيرة فلما أنس منها قلبت حية كبيرة .

وقيل : انقلبت مرة حية صغيرة ، ومرة حية تسعى وهي الأنثى ، ومرة ثعباناً وهو الذكر الكبير من الحيات .

وقيل : المعنى انقلبت ثعباناً تهتز كأنها جانّ لها عظم الثعبان وخفة الجانّ واهتزازه وهي حية تسعى .

وجمع الجان جِنّان ومنه الحديث : " نهى عن قتل الجِنّان التي في البيوت " ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾

خائفاً على عادة البشر ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يرجع ؛ قاله مجاهد .

وقال قتادة : لم يلتفت .

﴿ يا موسى لاَ تَخَفْ ﴾ أي من الحية وضررها .

﴿ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون ﴾ وتم الكلام ثم استثنى استثناء منقطعاً فقال : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ .

(102/575)

وقيل : إنه استثناء من محذوف ؛ والمعنى : إني لا يخاف لديّ المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سواء ﴾ فإنه لا يخاف ؛ قاله الفرّاء .

قال النحاس : استثناء من محذوف محال ؛ لأنه استثناء من شيء لم يذكر ولو جاز هذا لجاز إني لأضرب القوم إلا زيداً بمعنى إني لا أضرب القوم وإنما أضرب غيرهم إلا زيداً ؛ وهذا ضدّ البيان ، والمجيء بما لا يعرف معناه .

وزعم الفرّاء أيضاً : أن بعض النحويين يجعل إلى بمعنى الواو أي ولا من ظلم ؛ قال :

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوهُ . . .

لَعَمْرُ أبيكَ إلا الْفَرْقَدانِ

قال النحاس : وكون "إلاَّ" بمعنى الواو لا وجه له ولا يجوز في شيء من الكلام ، ومعنى ﴿ إلاَّ ﴾ خلاف الواو ؛ لأنك إذا قلت : جاءني إخوتك إلا زيداً أخرجت زيداً مما دخل فيه الإخوة فلا نسبة بينهما ولا تقارب .

وفي الآية قول آخر : وهو أن يكون الاستثناء متصلاً ؛ والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد ، سوى ما روي عن يحيى بن زكريا عليه السلام ، وما ذكره الله تعالى في نبينا عليه السلام في قوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] ذكره المهدويّ واختاره النحاس ؛ وقال : عِلم الله من عصى منهم ﴿ يُسرّ الخيفة ﴾ فاستثناه فقال : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سواء ﴾ فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له .

الضحاك : يعني آدم وداود عليهما السلام .

الزمخشري : كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى عليه السلام بوكزه القبطي .

فإن قال قائل : فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة ؟ قيل له : هذه سبيل العلماء بالله عز وجلّ أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين ، وهم أيضاً لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به ، فهم يخافون من المطالبة به .

وقال الحسن وابن جريج : قال الله لموسى إني أخفتك لقتلك النفس .

قال الحسن : وكانت الأنبياء تذنب فتعاقَب .

قال الثعلبي والقشيري والماوردي وغيرهم : فالاستثناء على هذا صحيح ؛ أي إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة .

وكان موسى خاف من قتل القبطي وتاب منه .

وقد قيل : إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر .

وقد مضى هذا في "البقرة" .

قلت : والأوّل أصح لتنصلهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة ، وإذا أحدث المقرَّب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة ، والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدّر عليه صفاء الثقة .

وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني ، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له ، ثم قال بعد المغفرة : ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : 17] ثم ابتلي من الغد بالفرعوني الآخر وأراد أن يبطش به ، فصار حدثاً آخر بهذه الإرادة .

وإنما ابتلي من الغد لقوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ وتلك كلمة اقتدار من قوله لن أفعل ، فعوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل ، فسلط عليه الإسرائيلي حتى أفشى سره ؛ لأن الإسرائيلي لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده ، فأفشى عليه ف ﴿ قَالَ يَا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأمس ﴾ [القصص : 19] فهرب الفرعوني وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلي على موسى ، وكان القتيل بالأمس مكتوماً أمره لا يدري من قتله ، فلما علم فرعون بذلك ، وجّه في طلب موسى ليقتله ، واشتد الطلب وأخذوا مجامع الطرق ؛ جاء رجل يسعى ف ﴿ قَالَ يَا موسى إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : 20] الآية .

فخرج كما أخبر الله .

(104/575)

فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث ؛ فهو وإن قرّبه ربه وأكرمه واصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولّت به ولم يعقّب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(105/575)

وقال أبو حيان :

﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ ﴾

قيل : وانتصب ﴿ إذ ﴾ باذكر مضمرة ، أو بعليم ؛ وليس انتصابه بعليم واضحاً ، إذ يصير الوصف مقيداً بالمعمول .

وقد تقدم طرف من قصة موسى عليه السلام في رحلته بأهله من مدين : في سورة طه ، وظاهر أهله جمع لقوله : ﴿ سآتيكم ﴾ و ﴿ تصطلون ﴾ ، وروي أنه لم يكن معه غير امرأته .

وقيل : كانت ولدت له ، وهو عند شعيب ، ولداً ، فكان مع أمه .

فإن صح هذا النقل ، كان من باب خطاب الجمع على سبيل الإكرام والتعظيم .

وكان الطريق قد اشتبه عليه ، والوقت بارد ، والسير في ليل ، فتشوقت نفسه ، إذ رأى النار إلى زوال ما لحق من إضلال الطريق وشدة البرد فقال : ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ : أي من موقدها بخبر يدل على الطريق ، ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ : أي إن لم يكن هناك من يخبر ، فإني أستصحب ما تدفؤون به منها .

وهذا الترديد بأو ظاهر ، لأنه كان مطلوبه أولاً أن يلقي على النار من يخبره بالطريق ، فإنه مسافر ليس بمقيم .

فإن لم يكن أحد ، فهو مقيم ، فيحتاجون لدفع ضرر البرد ، وهو أن يأتيهم بما يصطلون ، فليس محتاجاً للشيئين معاً ، بل لأحدهما الخبر إن وجد من يخبره فيرحل ، أو الاصطلاء إن لم يجد وأقام .

فمقصوده إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، وهو معنى قوله : ﴿ لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ وجاء هنا : ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ ، وهو خبر ، وفي طه : ﴿ لعلي آتيكم منها بقبس ﴾ وفي القصص : ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ وهو ترج ، ومعنى الترجي مخالف لمعنى الخبر .

ولكن الرجاء إذا قوي ، جاز للراجي أن يخبر بذلك ، وإن كانت الخيبة يجوز أن تقع .

وأتى بسين الاستقبال ، إما لأن المسافة كانت بعيدة ، وإما لأنه قد يمكن أن تبطىء لما قدر أنه قد يعرض له ما يبطئه .

والشهاب : الشعلة ، والقبس : النار المقبوسة ، فعل بمعنى مفعول ، وهو القطعة من النار في عود أو غيره ، وتقدم ذلك في طه .

(106/575)

وقرأ الكوفيون : بشهاب منوناً ، فقبس بدل أو صفة ، لأنه بمعنى المقبوس .

وقرأ باقي السبعة : بالإضافة ، وهي قراءة الحسن .

قال الزمخشري : أضاف الشهاب إلى القبس ، لأنه يكون قبساً وغير قبس ، واتبع في ذلك أبا الحسن .

قال أبو الحسن : الإضافة أجود وأكثر في القراءة ، كما تقول : دار آجر ، وسوار ذهب .

والظاهر أن الضمير في ﴿ جاءها ﴾ عائد على النار ، وقيل : على الشجرة ، وكان قد رآها في شجرة سمر خضراء .

وقيل : عليق ، وهي لا تحرقها ، كلما قرب منها بعدت .

و ﴿ نودي ﴾ المفعول الذي لم يسم فاعله ، الظاهر أنه ضمير عائد على موسى عليه السلام .

و ﴿ أن ﴾ على هذا يجوز أن تكون مفسرة لوجود شرط المفسرة فيها ، ويجوز أن تكون مصدرية .

أما الثنائية التي تنصب المضارع ، وبورك صلة لها ، والأصل حرف الجر ، أي بأن بورك ، وبورك خبر .

وأما المخففة من الثقيلة فأصلها حرف الجر .

وقال الزمخشري : فإن قلت : هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، وتقديره بأنه بورك ،

والضمير ضمير الشأن والقصة ؟ قلت : لا ، لأنه لا بد من قد .

فإن قلت : فعلى إضمارها ؟ قلت : لا يصح ، لأنها علامة ولا تحذف . انتهى .

ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، وبورك فعل دعاء ، كما تقول : بارك الله فيك .

وإذا كان دعاء ، لم يجز دخول قد عليه ، فيكون كقوله تعالى :

﴿ والخامسة أن غضب الله عليها ﴾ في قراءة من جعله فعلاً ماضياً ، وكقول العرب : إما أن جزاك الله خيراً ، وإما أن يغفر الله لك ، وكان الزمخشري بنى ذلك على ﴿ أن بورك ﴾ خبر لا دعاء ، فلذلك لم يجز أن تكون مخففة من الثقيلة ، وأجاز الزجاج أن تكون ﴿ أن بورك ﴾ في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله ، وهو على إسقاط الخافض ، أي نودي بأن بورك ، كما تقول : نودي بالرخص .

ويجوز أن تكون أن الثنائية ، أو المخففة من الثقيلة ، فيكون بورك دعاء .

وقيل : المفعول الذي لم يسم فاعله هو ضمير النداء ، أي نودي هو ، أي النداء ، ثم فسر بما بعده .

(107/575)

وبورك معناه : قدّس وطهر وزيد خيره ، ويقال : باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك .

وقال الشاعر :

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئاً . . .

وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

وقال آخر :

بورك الميت الغريب كما . . .

بورك نبع الرمان والزيتون

وقال عبد الله بن الزبير :

فبورك في بنيك وفي بنيهم . . .

إذا ذكروا ونحن لك الفداء

و﴿ من ﴾ : المشهور أنها لمن يعلم ، فقال ابن عباس ، وابن جبير ، والحسن وغيرهم : أراد تعالى بمن في النار ذاته ، وعبر بعضهم بعبارات شنيعة مردودة بالنسبة إلى الله تعالى .

وإذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومن ذكر أول على حذف ، أي بورك من قدرته وسلطانه في النار .

وقيل لموسى عليه السلام : أي بورك من في المكان أو الجهة التي لاح له فيه النار .

وقال السدّي : من للملائكة الموكلين بها .

وقيل : من تقع هنا على ما لا يعقل .

فقال ابن عباس : أراد النور .

وقيل : الشجرة التي تتقد فيها النار .

وقيل : والظاهر في ﴿ ومن حولها ﴾ أنه لمن يعلم تفسير ﴿ يا موسى ﴾ ، وفسر بالملائكة ، ويدل عليه قراءة أبي ؛ فيما نقل أبو عمرو الداني : وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ؛ ومن حولها من الملائكة ، وتحمل هذه القراءة على التفسير ، لأنها مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه ، وفسر أيضاً بموسى والملائكة عليهم السلام معاً .

وقيل : تكون لما لا يعقل ، وفسر بالأمكنة التي حول النار ؛ وجدير أن يبارك من فيها ومن حواليها إذا حدث أمر عظيم ، وهو تكليم الله لموسى عليه السلام ؛ وتنبيئه وبدؤه بالنداء بالبركة تبشير لموسى وتأنيس له ومقدمة لمناجاته .

والظاهر أن قوله : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ داخل تحت قوله : ﴿ نودي ﴾ .

أي لما نودي ببركة من ذكر ، نودي أيضاً بما يدل على التنزيه والبراءة من صفات المحدثين مما عسى أن يخطر ببال ، ولا سيما إن حمل من في النار على تفسير ابن عباس أن من أريد به الله تعالى ، فإن ذلك دال على التحيز ، فأتى بما يقتضي التنزيه .

وقال السدّي : هو من كلام موسى ، لما سمع النداء قال : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ تنزيهاً لله تعالى عن سمات المحدثين .

وقال ابن شجرة : هو من كلام الله ، ومعناه : وبورك من سبح الله ، وهذا بعيد من دلالة اللفظ .

وقيل : ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ خطاب لمحمد عليه لصلاة والسلام ، وهو اعتراض بين الكلامين ، والمقصود به التنزيه .

ولما آنسه تعالى ، ناداه وأقبل عليه فقال : ﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ .

والظاهر أن الضمير في إنه ضمير الشأن ، وأنا الله : جملة في موضع الخبر ، والعزيز الحكيم : صفتان ، وأجاز الزمخشري أن يكون الضمير في إنه راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله ، يعني : إن مكلمك أنا ، والله بيان لأنا ، والعزيز الحكيم صفتان للبيان . انتهى .

وإذا حذف الفاعل وبني الفعل للمفعول ، فلا يجوز أن يعود على الضمير على ذلك المحذوف ، إذ قد غير الفعل عن بنائه له ، وعزم على أن لا يكون محدثاً عنه .

فعود الضمير إليه مما ينافي ذلك ، إذ يصير مقصوداً معتنى به ، وهذا النداء والإقبال والمخاطبة تمهيد لما أراد الله تعالى أن يظهره على يده من المعجز ، أي أنا القوي القادر على ما يبعد في الأوهام ، الفاعل ما أفعله بالحكمة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : علام عطف قوله : ﴿ وألق عصاك ﴾ ؟ قلت : على بورك ، لأن المعنى : ﴿ نودي أن بورك من في النار ﴾ .

وقيل له : ألق عصاك ، والدليل على ذلك قوله : ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ بعد قوله : ﴿ أن يا موسى إني أنا الله ﴾ على تكرير حرف التفسير ، كما تقول : كتبت إليه أن حج واعتمر ، وإن شئت أن حج وأن اعتمر . انتهى .

وقوله : ﴿ إنه ﴾ ، معطوف على بورك مناف لتقديره .

وقيل له : ألق عصاك ، لأن هذه جملة معطوفة على بورك ، وليس جزؤها الذي هو .

وقيل : معطوفاً على بورك ، وإنما احتيج إلى تقدير .

(109/575)

وقيل له : ألق عصاك ، لتكون الجملة خبرية مناسبة للجملة الخبرية التي عطفت عليها ، كأنه يرى في العطف تناسب المتعاطفين ، والصحيح أنه لا يشترط ذلك ، بل قوله : ﴿ وألق عصاك ﴾ معطوف على قوله : ﴿ إنه أنا العزيز الحكيم ﴾ ، عطف جملة الأمر على جملة الخبر .

وقد أجاز سيبويه : جاء زيد ومن عمرو .

﴿ فلما رآها تهتز ﴾ : ثم محذوف تقديره : فألقاها من يده .

وقرأ الحسن ، والزهري ، وعمرو بن عبيد : جأن ، بهمزة مكان الألف ، كأنه فر من التقاء الساكنين ؛ وقد تقدم الكلام في نحو ذلك في قوله : ولا الضألين ، بالهمز في قراءة عمرو بن عبيد .

وجاء : ﴿ فإذا هي حية ﴾ ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ وهذا إخبار من الله بانقلابها وتغيير أوصافها وإعراضها ، وليس إعداماً لذاتها وخلقها لحية وثعبان ، بل ذلك من تغيير الصفات لا تغيير الذات .

وهنا شبهها حالة اهتزازها بالجان ، فقيل : وهو صغار الحيات ، شبهها بها في سرعة اضطرابها وحركتها ، مع عظم جثتها .

ولما رأى موسى هذا الأمر الهائل ، ﴿ ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ .

قال مجاهد : ولم يرجع .

وقال السدّي : لم يمكث .

وقال قتادة : ولم يلتفت ، يقال : عقب الرجل : توجه إلى شيء كان ولى عنه ، كأنه انصرف على عقبيه ، ومنه : عقب المقاتل ، إذا كر بعد الفرار .

قال الشاعر :

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب . . .

ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا

ولحقه ما لحق طبع البشرية إذا رأى الإنسان أمراً هائلاً جداً ، وهو رؤية انقلاب العصا حية تسعى ، ولم يتقدمه في ذلك تطمين إليه عند رؤيتها .

قال الزمخشري : وإنما رغب لظنه أن ذلك لأمرٍ أريد به ، ويدل عليه : ﴿ إني لا يخاف لديّ المرسلون ﴾ . انتهى .

وقال ابن عطية : وناداه الله تعالى مؤنساً ومقوياً على الأمر : ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ ، فإن رسلي الذين اصطفيتم للنبوة لا يخافون غيري .

فأخذ موسى عليه السلام الحية ، فرجعت عصا ، ثم صارت له عادة . انتهى .

(110/575)

وقيل : المعنى لا يخاف المرسلون في الموضع الذي يوحى إليهم فيه ، وهم أخوف الناس من الله .

وقيل : إذا أمرتهم بإظهار معجز ، فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك ، فالمرسل يخاف الله لا محالة . انتهى .

والأظهر أن قوله : ﴿ إلا من ظلم ﴾ ، استثناء منقطع ، والمعنى : لكن من ظلم غيرهم ،

قاله الفراء وجماعة ، إذ الأنبياء معصومون من وقوع الظلم الواقع من غيرهم .

وعن الفراء : إنه استثناء متصل من جمل محذوفة ، والتقدير : وإنما يخاف غيرهم إلا من ظلم .

ورده النحاس وقال : الاستثناء من محذوف محال ، لو جاز هذا لجاز أن لا يضرب القوم إلا زيداً ، بمعنى : وإنما أضرب غيرهم إلا زيداً ، وهذا ضد البيان والمجيء بما لا يعرف معناه . انتهى .

وقالت فرقة : إلا بمعنى الواو ، والتقدير : ولا من ظلم ، وهذا ليس بشيء ، لأن معنى إلا مباين لمعنى الواو مباينة كثيرة ، إذ الواو للإدخال ، وإلا للإخراج ، فلا يمكن وقوع أحدهما موقع الآخر .

وروي عن الحسن ، ومقاتل ، وابن جريج ، والضحاك ، ما يقتضي أنه استثناء متصل .

قال ابن عطية : وأجمع العلماء على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل ، واختلف فيما عداها ، فعسى أن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك . انتهى .

وقال الزمخشري : وإلا بمعنى لكن ، لأنه لما أطلق نفي الخوف عن المرسل كان ذلك مظنة لطرو الشبهة فاستدرك ذلك ، والمعنى : ولكن من ظلم منهم ، أي فرطت منهم صغيرة مما لا يجوز على الأنبياء ، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن

موسى ، بوكزة القبطي .

ويوشك أن يقصد بهذا التعريض ما وجد من موسى ، وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها ، وسماه ظلماً ؛ كما قال موسى : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ انتهى .

وقرأ أبو جعفر ، وزيد بن أسلم : ألا من ظلم ، بفتح الهمزة وتخفيف اللام ، حرف استفتاح .

ومن : شرطية .

(111/575)

والحسن : حسن التوبة ، والسوء : الظلم الذي ارتكبه .

وقرأ الجمهور : حسناً ، بضم الحاء وإسكان السين منوناً .

وقرأ محمد بن عيسى الأصبهاني : كذلك ، إلا أنه لم ينون ، جعله فعلى ، فامتنع الصرف ؛

وابن مقسم : بضم الحاء والسين منوناً .

ومجاهد ، وأبو حيوة ، وابن أبي ليلى ، والأعمش ، وأبو عمرو في رواية الجعفي ، وأبو زيد ، وعصمة ، وعبد الوارث ، وهارون ، وعياش : بفتحهما منوناً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ ﴾

منصوبٌ على المفعولية بمضمرٍ خُوطب به النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأُمر بتلاوةِ بعضٍ من القرآن الذي يُلقاه عليه الصَّلاةُ والسلام من لَدْنه عزَّ وجلَّ تقريراً لما قبله وتحقيقاً له أي أذكُر لهم وقت قوله عليه الصَّلاة والسَّلامُ لأهلِه في وادي طوى وقد غشيتُهم ظلمةُ اللَّيلِ وقدَح فأصلَدَ زنده فبدا له من جانب الطور ناراً ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي عن حال الطَّريقِ وقد كانوا ضلُّوه ، والسِّينُ للدّلالةِ على نوعِ بُعدٍ في المسافةِ وتأكيد الوعد والجمع إن صحَّ أنَّه لم يكُن معه عليه الصلاة والسلام إلا امرأتُه لما كنى عنها بالأهلِ أو للتَّعظيمِ مبالغةً في التَّسليةِ ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ بتنوينهما على أن الثَّاني بدل من الأَوَّلِ أو صفة له لأنَّه بمعنى مقبوسٍ أي بشعلة نارٍ مقبوسةٍ أي مأخودة من أصلها . وقُرِىء بالإضافةِ وعلى التَّقديرينِ فالمرادُ تعيينُ المقصودِ الذي هو القَبس الجامعُ لمنفعتي الضِّياءِ والاصطلاءِ لأنَّ من النَّار ما ليس بقبسٍ كالجمرِ وكلتا العُدَّتينِ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطريق الظنِّ كما يفصحُ عن ذلك ما في سورةِ طه من صيغة التَّرجي ، والتَّرديدُ للإيذانِ بأنَّه

إن لم يظفرْ بهما لم يعدم أحدهما بناءً على ظاهرِ الأمرِ وثقةً بسُنَّةِ الله تعالى فإنَّه تعالى لا يكادُ يجمع على عبده حرمانين ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ رجاءَ أنْ تستدفئوا بها والصِّلاءُ النَّارُ العظيمةُ .

(113/575)

﴿ فَلَمَّا جَاءهَا نُودِىَ ﴾ من جانب الطُّورِ ﴿ أَن بُورِكَ ﴾ معناه أي بُورك على أن أنْ مفسِّرةٌ لما في النِّداءِ من معنى القول أو بأنْ بورك على أنَّها مصدرية حُذف عنها الجارُّ جرياً على القاعدة المستمرَّةِ ، وقيل : مخفَّفةٌ من الثَّقيلة ، ولا ضير في فقدان التَّعويضِ بلا أو قد أو السِّينِ أو سوفَ لما أنَّ الدُّعاء يخالفُ غيرَه في كثير من الأحكامِ ﴿ مَن فِى النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي من في مكانِ النَّارِ وهي البقعةُ المباركةُ المذكورةُ في قوله سبحانه نُودي من شاطيءِ الوادي الأيمنِ في البقعة المباركة ومن حولَ مكانها وقُرِىء تباركتِ الأرضُ ومَن حولَها والظَّاهرُ عمومُه لكلِّ مَن في ذلك الوادِي وحواليه من أرض الشَّامِ الموسومةِ بالبركات لكونها مبعثَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام وكفاتهم أحياءً وأمواتاً ولا سيَّما تلك البقعةُ التي كلَّم الله تعالى فيها مُوسى .

وقيل : المرادُ موسى والملائكةُ الحاضرونَ ، ، وتصديرُ الخطابِ بذلك بشارةٌ بأنَّه قد قضى

له أمر عظيمٌ دينيٌّ تنتشر بركاتُه في أقطارِ الشّامِ وهو تكليمُه تعالى إيّاه عليه الصّلاةُ والسّلامُ واستنباؤه له وإظهار المعجزات على يدِه عليه الصّلاةُ والسّلامُ ﴿ وسبحان الله ربّ العالمين ﴾ تعجيبٌ لموسى عليه الصّلاةُ والسّلامُ من ذلك وإيذانٌ بأنّ ذلك مريدُه ومكونُه ربُّ العالمينَ تنبيهاً على أنّ الكائنَ من جلائلِ الأمورِ وعظائمِ الشّؤونِ ومن أحكامِ تربيته تعالى للعالمين .

(114/575)

﴿ يا موسى إنّهُ أنَا الله ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان آثارِ البركةِ المذكورةِ . والضّميرُ إمّا للشّامِ وأنا اللّهُ جملة مفسّرةٌ له وإمّا راجعٌ إلى المتكلّمِ وأنا خبرُه والله بيان له وقوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتانِ لله تعالى ممهدتانِ لما أريد إظهارُه على يدِه من المعجزاتِ أي أنا القويُّ القادرُ على ما لا تناله الأوهامُ من الأمورِ العظامِ التي من جُملتها أمرُ العصا واليدُ ، والفاعلُ كلَّ ما أفعله بحكمةٍ بالغة وتدبير رصين .

(115/575)

﴿ وَأَلْقِ ﴾ عطف على بُورك منتظم معه في سلك تفسير النّداءِ أي نُودي أنْ بُورك وأن ألقِ ﴿ عَصَاكَ ﴾ حسبما نطقَ به قولُه تعالى : وأنْ ألقِ عصاك بتكريرِ حرفِ التَّفسير كما تقول كتبتُ إليه أنْ حُجَّ وأنِ اعتمرْ وإن شئتَ أن حجَّ واعتمرْ والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ فصيحةٌ تفصحُ عن جملةٍ قد حُذفت ثقةً بظهورها ودلالةً على سرعةِ وقوع مضمونِها كما في قوله تعالى : ﴿ اخرج عَلَيْهِنَّ ﴾ كأنَّه قيل : فألقاهَا فانقلبت حيةً تسعى فأبصرَها فلَّما أبصرها متحركةً بسرعة واضطراب . وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ أي حيَّةٌ خفيفة سريعة الحركة جملة حالية إما من مفعولِ رأى مثل يهتزُّ كما أُشير إليه أو من ضميرِ تهتز على طريقة التَّداخلِ وقرىء جأن على لغةِ من جدَّ في الهربِ من التقاءِ السَّاكنين ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ من الخوفِ ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يرجعْ على عقبةِ ، مِن عقّب المقاتل إذا كرَّ بعد الفرّ وإنما اعتراهُ الرُّعب لظنّه أن ذلك الأمرَ أُريد به كما يُنبىء عنه قوله تعالى : ﴿ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ أي من غيري ثقةً بي أو مطلقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون ﴾ فإنَّه يدلُّ على نفيِ الخوفِ عنهم مُطلقاً لكن لا في جميعِ الأوقاتِ بل حين يُوحى إليهم كوقتِ الخطابِ فإنَّهم حينئذٍ مستغرقُون في مطالعةِ شؤونِ الله عزَّ وجلَّ لا يخطرُ ببالِهم خوفٌ من أحدٍ أصلاً وأما في سائرِ الأحيانِ فهم أخوفُ النَّاسِ منه سبحانَه أو لا يكون لهم عندي سوءُ عاقبة ليخافُوا منه .

﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوء فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(116/575)

استثناءٌ منقطع استدرك به ما عسى يختلجُ في الخلد من نفي الخوفِ عن كلّهم مع أنَّ منهم من فرطتْ منه صعيرةٌ مما يجوز صدورُه عن الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام فإنَّهم وإنْ صدرَ عنهم شيءٌ من ذلك فقد فعلوا عقيبه ما يبطلُه ويستحقُّون به من الله تعالى مغفرةً ورحمةً وقد قصد به التَّعريض بما وقعَ من موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ من وكزِه القبطيَّ والاستغفارِ ، وتسميتُها ظُلماً لقوله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " ربِّ إنِّي ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي فغفرَ له " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(117/575)

وقال الآلوسى :

﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ ﴾

منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض من القرآن الذي تلقاه صلى الله عليه وسلم من لدنه عز وجل تقريراً لما قبله وتحقيقاً له أي اذكر

لهم وقت قول موسى عليه السلام لأهله ، وجوز أن تكون ﴿ إِذْ ﴾ ظرفاً لعليم .

وتعقبه في "البحر" بأن ذلك ليس بواضح إذ يصير الوصف مقيداً بالمعمول ، وقال في "الكشف" : ما يتوهم من دخل التقييد بوقت معين مندفع إذ ليس مفهوماً معتبراً عند المعتبر ولأنه لما كان تمهيد القصة حسن أن يكون قيداً لها كأنه قيل : ما أعلمه حيث فعل بموسى عليه السلام ما فعل ، ولما كان ذلك من دلائل العلم والحكمة على الإطلاق لم يضر التقييد بل نفع لرجوعه بالحقيقة إلى نوع من التعليل والتذكير اه .

ولا يخفى أن الظاهر مع هذا هو الوجه الأول ثم إن قول موسى عليه السلام ﴿ إِنِّى ءانَسْتُ نَاراً إِذْ قَالَ موسى ﴾ كان في أثناء سيره خارجاً من مدين عند وادي طوى وكان عليه السلام قد حاد عن الطريق في ليلة باردة مظلمة فقدح فاصلد زنده فبدا له من جانب الطور نار ، والمراد بالخبر الذي يأتيهم به من جهة النار الخبر عن حال الطريق لأن من يذهب لضوء نار على الطريق يكون كذلك ؛ ولم يجرد الفعل عن السين إما للدلالة على بعد مسافة النار في الجملة حتى لا يستوحشوا إن أبطأ عليه السلام عنهم أو لتأكيد الوعد بالإتيان فإنها كما ذكره الزمخشري تدخل في الوعد لتأكيده وبيان أنه كائن لا محالة وإن تأخر ، وما قيل من أن السين للدلالة على تقريب المدة دفعاً للاستيحاش إنما ينفع على ما قيل في اختياره على سوف دون التجريد الذي يتبادر من الفعل معه الحال الذي هو أتم في دفع الاستيحاش .

ولعل الأولى اعتبار كونه للتأكيد ، لا يقال : إنه عليه السلام لم يتكلم بالعربية وما ذكر من مباحثها لأنا نقول : ما المانع من أن يكون في غير اللغة العربية ما يؤدي مؤداها بل حكاية القول عنه عليه السلام بهذه الألفاظ يقتضي أنه تكلم في لغته بما يؤدي ذلك ولا بد ، وجمع الضمير إن صح أنه لم يكن معه عليه السلام غير امرأته للتعظيم وهو الوجه في تسمية الله تعالى شأنه امرأة موسى عليه السلام بالأهل مع أنه جماعة الأتباع ﴿ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ أي بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها فقبس صفة شهاب أو بدل منه ، وهذه قراءة الكوفيين .

ويعقوب ، وقرأ باقي السبعة .

والحسن ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ بإضافة واختارها أبو الحسن وهي إضافة بيانية لما بينهما من العموم والخصوص كما في ثوب خز فإن الشهاب يكون قبساً وغير قبس ، والعدتان على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في سورة طه فلا تدافع بين ما وقع هنا وما وقع هناك ، والترديد للدلالة على أنه عليه السلام إن لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناءً على ظاهر الأمر وثقة بسنة الله عز وجل أنه لا يكاد يجمع حرمانين على عبده .

وقيل : يجوز أن يقال الترديد لأن احتياجه عليه السلام إلى أحدهما لا لهما لأنه كان في حال الترحال وقد ضل عن الطريق فمقصوده أن يجد أحداً يهدي إلى الطريق فيستمر في سفره

فإن لم يجده يقتبس ناراً ويوقدها ويدفع ضرر البرد في الإقامة .

وتعقب بأنه قد ورد في القصة أنه عليه السلام كان قد ولد له عند الطور ابن في ليلة شاتية وظلمة مثلجة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته فرأى النار فقال لأهله ما قال وهو يدل على احتياجه لهما معاً لكنه تحرى عليه السلام الصدق فأتى بأو ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي رجاءً أو لأجل أن تستدفئوا بها ، والصلاء بكسر الصاد والمد ويفتح بالقصر الدنو من النار لتسخين البدن وهو الدفؤ ويطلق على النار نفسها أو هو بالكسر الدفؤ وبالفتح النار .

(119/575)

﴿ فَلَمَّا جَاءهَا ﴾ أي النار التي قال فيها ﴿ إِنِّى ءانَسْتُ نَاراً ﴾ [النمل : 7] وقيل : الضمير للشجرة وهو كما ترى ، وما ظنه داعياً ليس بداع لما أشرنا إليه ﴿ نُودِىَ ﴾ أي موسى عليه السلام من جانب الطور ﴿ أَن بُورِكَ ﴾ معناه أي بورك على أن ان مفسرة لما في النداء من معنى القول دون حروفه .

وجوز أن تكون أن المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، ومنعه بعضهم لعدم الفصل بينها وبين الفعل بقد أو السين أو سوف أو حرف النفي وهو مما لا بد منه إذا كانت مخففة لما في الحجة لأبي علي الفارسي أنها لما كانت لا يليها إلا اوسماء استقبحوا أن يليها الفعل من

غير فاصل .

وأجيب بأن ما ذكر ليس على إطلاقه .

فقد صرحوا بعدم اشتراط الفصل في مواضع ، منها ما يكون الفعل فيه دعاء فلعل من جوز كونها المخففة ههنا جعل ﴿ بُورِكَ ﴾ دعاء على أنه يجوز أن يدعي أن الفصل بإحدى المذكورات في غير ما استثنى أغلبي لقوله :

علموا أن يؤملون فجادوا . . .

قبل أن يسألوا بأعظم سؤل

وجوز أن تكون المصدرية الناصبة للأفعال و ﴿ بُورِكَ ﴾ حينئذٍ إما خبر أو إنشاء للدعاء .

وادعى الرضى أن بورك إذا جعل دعاء فإن مفسرة لا غير لأن المخففة لا يقع بعدها فعل إنشائي إجماعاً وكذا المصدرية وهو مخالف لما ذكره النحاة ، ودعوى الإجماع ليست بصحيحة ، والقول بأنه يفوت معنى الطلب بعد التأويل بالمصدر قد تقدم ما فيه ، وفي "الكشف" يمنع عن جعلها مصدرية عدم سداد المعنى لأن ﴿ بُورِكَ ﴾ إذ ذاك ليس يصلح بشارة وقد قالوا : إن تصدير الخطاب بذلك بشارة لموسى عليه السلام بأنه قد قضي له أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشأم كلها البركة وهذا بخلاف ما إذا كان ﴿ بُورِكَ ﴾ تفسيراً للشأن اه وفيه نظر ، وعلى الوجهين الكلام على حذف حرف الجر أي نودي بأن الخ

، والجار والمجرور متعلق بما عنده وليس نائب الفاعل بل نائب الفاعل ضمير موسى عليه السلام ، وقيل : هو نائب الفاعل ولا ضمير .

(120/575)

وقال بعضهم في الوجه الأول أيضاً إن الضمير القائم مقام الفاعل ليس لموسى عليه السلام بل هو لمصدر الفعل أي نودي هو أي النداء ، وفسر النداء بما بعده ، واوظهر في الضمير رجوعه لموسى وفي أن أنها مفسرة وفي ﴿ بُورِكَ ﴾ أنه خبر وهو من البركة وقد تقدم معناها ، وقيل : هنا المعنى قدس وظهر وزيد خيراً ﴿ مَن فِى النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ذهب جماعة إلى أن في الكلام مضافاً مقدراً في موضعين أي من في مكان النار ومن حول مكانها قالوا : ومكانها البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ نُودِىَ مِن شَاطِىء الوادى الايمن فِى البقعة المباركة ﴾ [القصص : 30] وتدل على ذلك قراءة أبي ﴿ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ واستظهر عموم من لكل ﴿ مِنْ ﴾ في ذلك الوادي وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء عليهم السلام وكفاتهم أحياءاً وأمواتاً ولا سيما تلك البقعة التي كلم الله تعالى موسى عليه السلام فيها . وقيل : من في النار موسى عليه السلام ومن حولها الملائكة الحاضرون عليهم السلام ، وأيد

بقراءة أبي فيما نقل أبو عمرو الداني .

وابن عباس .

ومجاهد .

(121/575)

وعكرمة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الملائكة ﴾ وهي عند كثير تفسير لا قراءة لمخالفتها سواد المصحف المجمع عليه ، وقيل : الأول الملائكة والثاني موسى عليهم السلام ، واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجعل الظرفية مجازاً عن القرب التام ، وذهب إلى القول الثاني في المراد بالموصولين ، وأياً ما كان فالمراد بذلك بشارة موسى عليه السلام ، والمراد بقوله تعالى على ما قيل : ﴿ وسبحان الله رَبّ العالمين ﴾ تعجيب له عليه السلام من ذلك وإيذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيهاً على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون ، ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين أو خبر له عليه السلام بتنزيهه سبحانه لئلا يتوهم من سماع كلامه تعالى التشبيه بما للبشر أو طلب منه عليه السلام لذلك .

وجوز أن يكون تعجيباً صادراً منه عليه السلام بتقدير القول أي وقال سبحان الله الخ ، وقال السدي : هو من كلام موسى عليه السلام قاله لما سمع النداء من الشجرة تنزيهاً لله

تعالى عن سمات المحدثين ، وكأنه على تقدير القول أيضاً ، وجعل المقدر عطفاً على ﴿ نُودِيَ ﴾ .

وقال ابن شجرة : هو من كلام الله تعالى ومعناه وبورك من سبح الله تعالى رب العالمين" وهذا بعيد من دلالة اللفظ جداً ، وقيل : هو خطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم مراد به التنزيه وجعل معترضاً بين ما تقدم وقوله تعالى :

﴿ يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ فإنه متصل معنى بذلك والضمير للشأن ، وقوله سبحانه : ﴿ أَنَا الله ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿ العزيز الحكيم ﴾ نعتان للاسم الجليل ممهدتان لما أريد إظهاره على يده من المعجزة أي أنا الله القوي القادر على ما لا تناله الأوهام من الأمور العظام التي من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله بحكمة بالغة وتدبير رصين ، والجملة خبران مفسرة لضمير الشأن .

(122/575)

وجوز أن يكون الضمير راجعاً إلى ما دل عليه الكلام وهو المكلم المنادي و ﴿ أَنَاْ ﴾ خبر أي إن مكلمك المنادي لك أنا ، والاسم الجليل عطف بيان لأنا ، وتجوز البدلية عند من جوز إبدال الظاهر من ضمير المتكلم بدل كل ، ويجوز أن يكون ﴿ أَنَاْ ﴾ توكيداً للضمير

و﴿ الله ﴾ الخبر.

وتعقب أبو حيان إرجاع الضمير للمكلم المنادي بأنه إذا حذف الفاعل وبنى فعله للمفعول لا يجوز عود ضمير على ذلك المحذوف لأنه نقض للغرض من حذفه والعزم على أن لا يكون محدثاً عنه، وفيه أنه لم يقل أحد أنه عائد على الفاعل المحذوف بل على ما دل عليه الكلام ولو سلم فلا امتناع في ذلك إذا كان في جملة أخرى؛ وأيضاً قوله والعزم على أن لا يكون محدثاً عنه غير صحيح لأنه قد يكو محدثاً عنه ويحذف للعلم به وعدم الحاجة إلى ذكره، ثم إن الحمل مفيد من غير رؤية لأنه عليه السلام علمه سبحانه علم اليقين بما وقر في قلبه فكأنه رآه عز وجل، هذا وفي قوله تعالى: ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِى النار ﴾ [النمل: 8] الخ أقوال أخر، الأول: أن المراد بمن في النار نور الله تعالى وبمن حولها الملائكة عليهم السلام وروى ذلك عن قتادة.

والزجاج.

والثاني: أن المراد بمن في النار الشجرة التي جعلها الله محلاً للكلام وبمن حولها الملائكة عليهم السلام أيضاً ونقل هذا عن الجبائي وفي ما ذكر إطلاق ﴿ مِنْ ﴾ على غير العالم.

والثالث: ما أخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس.

قال في قوله تعالى: ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِى النار ﴾ يعني تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها يعني الملائكة عليهم السلام، واشتهر عنه كون المراد بمن في

النار نفسه تعالى وهو مروي أيضاً عن الحسن .

وابن جبير .

وغيرهما كما في "البحر" .

وتعقب ذلك الإمام بأنا نقطع بأن هذه الرواية عن ابن عباس موضوعة مختلقة .

(123/575)

وقال أبو حيان : إذا ثبت ذلك عن ابن عباس ومن ذكر أول حذف أي بورك من قدرته وسلطانه في النار ، وذهب الشيخ إبراهيم الكوراني في رسالته تنبيه العقول على تنزيه الصوفية عن اعتقاد التجسيم والعينية والاتحاد والحلول إلى صحة الخبر عن الحبر رضي الله تعالى عنه وعدم احتياجه إلى التأويل المذكور فإن الذي دعا المؤولين أو الحاكمين بالوضع إلى التأويل أو الحكم بالوضع ظن دلالته على الحلو المستحيل عليه تعالى وليس كذلك بل ما يدل عليه هو ظهوره سبحانه في النار وتجليه فيها وليس ذلك من الحلو في شيء فإن كون الشيء مجلي لشيء ليس كونه محلاً له فإن الظاهر في المرآة مثلاً خارج عن المرآة بذاته قطعاً بخلاف الحال في محل فإنه حاصل فيه ثم إن تجليه تعالى وظهوره في المظاهر يجامع التنزيه .

ومعنى الآية عنده فلما جاءها نودي أن بورك أي قدس أي نحو ذلك من تجلي وظهر في صورة النار لما اقتضته الحكمة لكونها مطلوبة لموسى عليه السلام ومن حولها من الملائكة أو منهم ومن موسى عليهم السلام ، وقوله تعالى : ﴿ وسبحان الله ﴾ دفع لما يتوهمه التجلي في مظهر النار من التشبيه أي وسبحان الله عن التقيد بالصورة والمكان والجهة وإن ظهر فيها بمقتضى الحكمة لكونه موصوفاً بصفة رب العالمين الواسع القدوس الغني عن العالمين ومن هو هو كذلك لا يتقيد بشيء من صفات المحدثات بل هو جل وعلا باق على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق في حال تجليه وظهوره فيما شاء من المظاهر .

ولهذا ورد في الحديث الصحيح "سبحانك حيث كنت" فأثبت له تعالى التجلي في الحيث ونزهه عن أن يتقيد بذلك "يا موسى" إنه أي المنادي المتجلي في النار ﴿ أَنَا الله العزيز ﴾ فلا أتقيد بمظهر للعزة الذاتية لكني الحكيم ومقتضى الحكمة الظهور في صورة مطلوبك .

وذكر أن تقدير المضاف كما فعل بعض المفسرين عدول عن الظاهر لظن المحذور فيه .

(124/575)

وقد تبين أن لا محذور فلا حاجة إلى العدول انتهى ، وكأني بك تقول : هذا طور ما وراء طور العقول .

ثم إنه لا مانع على أصول الصوفية أن يريدوا بمن حولها الله عز وجل أيضاً إذ ليس في الدار عندهم غيره سبحانه ديار .

ولا بعد في أن تكون الآية عند ابن عباس إن صح عنه ما ذكر من المتشابه والمذاهب فيه معلومة عندك .

والأوفق بالعامة التأويل بأن يقال : المراد أن بورك من ظهر نوره في النار .

ولعل في خبر الحبر السابق ما يشير إليه .

وإضافة النور إليه تعالى لتشريف المضاف وهو نور خاص كان مظهراً لعظيم قدرته تعالى وعظمته .

وسمعت من بعض أجلة المشايخ يقول : إن هذا النور لم يكن عيناً ولا غيراً على نحو قول الأشعري في صفاته عز وجل الذاتية وهو أيضاً ، منزع صوفي يرجع بالآخرة إلى حديث التجلي والظهور كما لا يخفى فتأمل .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على ﴿ بُورِكَ ﴾ [النمل : 8] منتظم معه في سلك تفسير النداء أي نودي أن بورك وأن الق عصاك .

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ بعد قوله سبحانه : ﴿ أَن يا موسى إِنِّى أَنَا الله ﴾ [القصص : 30 ، 31] بتكرير أن فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً وهذا ما اختاره الزمخشري .

وأورد عليه أن تجديد النداء في قوله تعالى : ﴿ حَدِيثُ موسى ﴾ الخ يأباه .

ورد بأنه ليس بتجديد نداء لأنه من جملة تفسير النداء المذكور ، وقيل : لا يأباه لأنه جملة معترضة وفيه بحث ، واعترض أيضاً بأن ﴿ بُورِكَ ﴾ أخبار ﴿ وَأَلْقِ ﴾ إنشاء ولا يعطف الإنشاء على الاخبار ، ومن هنا قيل ؛ إن العطف على ذلك بتقدير وقيل له : الق أو العطف على مقدر أي افعل ما آمرك والق ، وفيه إنه في مثل هذا يجوز عطف الإنشاء على الأخبار لكون النداء في معنى القول بل أجاز سيبويه جاء زيد ومن عمر بالعطف .

(125/575)

ولا يرد هذا أصلاً على من يجعل ﴿ بُورِكَ ﴾ إنشاء ، ويرد على من جعل العف على أفعل محذوفاً أن الظاهر حينئذ فألق بالفاء ، واختار أبو حيان كون العطف على جملة ﴿ إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ [النمل : 9] ولم يبال باختلاف الجملتين اسمية وفعلية وإخبارية وإنشائية لما ذكر أن الصحيح عدم اشتراط تناسب الجملتين المتعاطفتين في ذلك لما سمعت آنفاً عن سيبويه ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كأنه قيل : فألقاها فانقلبت حية فلما أبصرها تتحرك بشدة اضطراب ، وجملة ﴿ تَهْتَزُّ ﴾ في موضع الحال من مفعول

رأى فإنها بصرية كما أشرنا إليه لا علمية كما قيل .

وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ في موضع حال أخرى منه ألا هو حال من ضمير ﴿ تَهْتَزُّ ﴾ على طريقة التداخل ، والجان الحية الصغيرة السريعة الحركة شبهها سبحانه في شدة حركتها واضطرابها مع عظم جثتها بصغار الحيات السريعة الحركة فلا ينافي هذا قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 107] .

وقيل : يجوز أن يكون الأخبار عنها بصفات مختلفة باعتبار تنقلها فيها ، وقرأ الحسن .

والزهري .

وعمرو بن عبيد : ﴿ جَأَنٌّ ﴾ بهمزة مفتوحة هرباً من التقاء الساكنين وإن كان على حده كما قيل : دأبة وشأبة .

﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ أي انهزم ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي ولم يرجع على عقبه من عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار قال الشاعر :

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب . . .

ولا نزلوا يوم الكريهة منزلاً

وهذا مروى عن مجاهد ، وقريب منه قول قتادة : أي لم يلتفت وهو الذي ذكره الراغب ، وكان ذلك منه عليه السلام لخوف لحقه ، قيل : لمقتضى البشرية فإن الإنسان إذا رأى أمراً هائلاً جداً يخاد طبعاً ألا لما أنه ظن أن ذلك لأمر أريد وقوعه به ، ويدل على ذلك قوله سبحانه : ﴿ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ أي من غيري أي مخلوق كان حية أو غيرها ثقة بي واعتماداً على أو لا تخف مطلقاً على تنزيل الفعل منزلة اللازم ، وهذا إما لمجرد الإيناس دون أرادة حقيقة النهي وإما للنهي عن منشأ الخوف وهو الظن الذي سمعته ، وقوله تعالى : ﴿ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون ﴾ تعليل للنهي عن الخوف ، وهو على ما قيل يؤيد أن الخوف كان للظن المذكور وأن المراد ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ مطلقاً ، والمراد من ﴿ لدى ﴾ في حضرة القرب مني وذلك حين الوحي .

والمعنى أن الشأن لا ينبغي للمرسلين أن يخافوا حين الوحي إليهم بل لا يخطر ببالهم الخوف وإن وجد ما يخاف منه لفرط استغراقهم إلى تلقي الأوامر وانجذاب أرواحهم إلى عالم الملكوت ، والتقييد بلدى لأن المرسلين في سائر الأحيان أخوف الناس من الله عز وجل فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] ولا أعلم منهم بالله تعالى شأنه ، وقيل : المعنى لا تخف من غيري أو لا تخف مطلقاً فإن الذي ينبغي أن يخاف منه أمثالك المرسلون إنما هو سوء العاقبة وأن الشأن لا يكون للمرسلين عندي سوء عاقبة ليخافوا منه .

والمراد بسوء العاقبة ما في الآخرة لا ما في الدنيا لئلا يرد قتل بعض المرسلين عليهم الصلاة والسلام ، والمراد بلدي على ما قال الخفاجي : عند لقائي وفي حكمي على ما قال ابن الشيخ ، وأياً ما كان يلزم مما ذكر أن المرسلين عليهم السلام لا يخافون سوء العاقبة لأن الله تعالى آمنهم من ذلك فلو خافوا لزم أن لا يكونوا واثقين به عز وجل وهذا هو الصحيح كما في "الحواشي الشهابية" عند الأشعري ، وظاهر الآثار يقتضي أنهم عليهم السلام كانوا يخافون ذلك ، فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يكثر أن يقول : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقالت له عائشة رضي الله تعالى عنها يوماً : يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فهل تخشى ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : وما يؤمنني يا عائشة وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن إذا أراد يقلب قلب عبده " وظاهر بعد الآيات يقتضي ذلك أيضاً مثل قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ القوم الخاسرون ﴾ [الأعراف : 99] وكون الله تعالى آمنهم من ذلك إن أريد به ما جاء في ضمن تبشيرهم بالجنة فقد صح أن المبشرين بالجنة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يخافون من سوء العاقبة مع علمهم ببشارته تعالى إياهم بالجنة ، ويعلم منه أن الخوف يجتمع مع البشارة ، ولا يلزم من ذلك عدم

الوثوق به عز وجل لأنه لاحتمال أن يكون هناك شرط لم يظهره الله تعالى لهم للابتلاء ونحوه من الحكم الإلهية ، وإن أريد به ما كان بصرحي ءامنتكم من سوء العاقبة كان هذا الاحتمال قائماً أيضاً فيه ويحصل الخوف من ذلك ، وإن أريد به ما اقتضاه جعله تعالى إياهم معصومين من الكفر ونحوه ورد أن الملائكة عليهم السلام جعلهم الله تعالى معصومين من ذلك أيضاً وهم يخافون .

ففي الأثر لما مكر بإبليس بكى جبرائيل .

(128/575)

وميكائيل عليهما السلام فقال الله عز وجل لهما : ما يبكيكما ؟ قالا : يا رب ما نأمن مكرك فقال تعالى : هكذا كونا لا تأمنا مكري ، ولعل ذلك لأن العصمة عندنا على ما يقتضيه أصل استناد الأشياء كلها إلى الفاعل المختار ابتداء كما في المواقف وشرحه الشريف الشريفي أن لا يخلق الله تعالى في الشخص ذنباً ، وعند الحكماء بناء على ما ذهبوا إليه من القول بالإيجاب واعتبار استعداد القوابل ملكة تمنع الفجور وتحصل ابتداء بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات وتتأكد بتتابع الوحي بالأوامر والنواهي وهي بكلا المعنيين لا تقتضي استحالة الذنب ، أما عدم اقتضائها ذلك بالمعنى الأول فلأن عدم

خلقه تعالى إياه ليس بواجب عليه سبحانه ليكون خلقه مستحيلاً عليه تعالى ومتى لم يكن الخلق مستحيلاً عليه تعالى فكيف يحصل الأمن من المكر ، وأما عدم اقتضائها ذلك بالمعنى الثاني فلأن زوال تلك الملكة ممكن أيضاً واقتضاء العلم بالمثالب والمناقب إياها ابتداء وتأكدها بتتابع الوحي ليس من الضروريات العقلية ومتى كان الأمر كذلك لا يحصل الأمن بمجرد حصول الملكة ، نعم قال قوم : العصمة تكون خاصية في نفس الشخص أو في بدنه يمتنع بسببها صدور الذنب عنه ، وقد يستند إليه من يقول بالأمن ، ولا يخفى أنه لو سلم تمام الاستدلال به على هذا المطلب فهو في حد ذاته غير صحيح .

(129/575)

ففي المواقف وشرحه أنه يكذب هذا القول أنه لو كان صدور الذنب ممتنعاً لما استحق النبي عليه الصلاة والسلام المدح بترك الذنب إذ لا مدح بترك ما هو ممتنع لأنه ليس بمقدور داخلاً تحت الاختيار ، وأيضاً فالاجماع على أن الأنبياء عليهم السلام مكلفون بترك الذنوب مثابون به ولو كان صدور الذنب ممتنعاً عنهم لما كان الأمر كذلك ، وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الكهف : 110] يدل على مماثلتهم عليهم السلام لسائر الناس فيما يرجع إلى البشرية والامتياز بالوحي فلا يمتنع صدور الذنب

عنهم كما لا يمتنع صدوره عن سائر البشر اه ، وذكر الخفاجي في شرح الشفاء عن ابن الهمام أنه قال في التحرير : العصمة عدم القدرة على المعصية وخلق مانع عنها غير ملجىء ، ثم قال : وهو مناسب لقول الماتريدي العصمة لا تزيل المحنة أي الابتلاء المقتضى لبقاء الاختيار ، ومعناه كما في "الهداية" أنها لا تجبره على الطاعة ولا تعجزه عن المعصية بل هي لطف من الله تعالى تحمله على فعله وتزجره عن الشر مع بقاء الاختيار وتحقيق للابتلاء اه ، وهو ظاهر على عدم الاستحالة الذاتية لصدور الذنب ، ولعل ما وقع في كلام بعض الأجلة من استحالة وقوع الذنب منهم عليهم السلام محمول على الاستحالة الشرعية كما يؤذن به كلام العلامة ابن حجر في "شرح الهمزية" ، وبالجملة الذي تقتضيه الظواهر ويشهد له العقل أن الأنبياء عليهم يخافون ولا يأمنون مكر الله تعالى لأنه وإن استحال صدور الذنب عنهم شرعاً لكنه غير مستحيل عقلاً بل هو من الممكنات التي يصح تعلق قدرة الله تعالى بها ومع ملاحظة إمكانه الذاتي وأن الله تعالى لا يجب عليه شيء وقيام احتمال تقييد المطلق بما لم يصرحج به لحكمة كالمشيئة لا يكاد يأمن معصوم من مكر الملك الحي القيوم فالأنبياء والملائكة كلهم خائفون ومن خشيته سبحانه عز وجل مشفقون ، وليس لك أن تخص خوفهم بخوف الإجلال إذ الظاهر

(130/575)

العموم ولا دليل على الخصوص يعود عليه عند فحول الرجال ، نعم قال يقال بإمكان حصول الأمن من المكر وذلك بخلق الله تعالى علماً ضرورياً في العبد بعدم تحقق ما يخاف منه في وقت من الأوقات أصلاً لعلم الله تعالى عدم تحققه كذلك وإن كان ممكناً ذاتياً ، ولعله يحصل لأهل الجنة لتتم لذتهم فيها فقد قيل :

فإن شئت إن تحيا حياة هنية . . .

فلا تتخذ شيئاً تخاف له فقداً

ولا يبعد حصوله لمن شاء الله تعالى من عباده يوم القيامة قبل دخولها أيضاً ، ولم تقم أمارة عندي على حصوله في هذه النشأة لأحد والله تعالى أعلم فتأمل ذاك والله تعالى يتولى هاك ، وروى الإمام عن بعضهم أنه قال معنى الآية : إني إذا أمرت المرسلين بإظهار معجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الاستثناء منقطع عند كثير إلا أنه روى عن الفراء . والزجاج . وغيرهما أن المراد بمن ظلم من أذنب من غير الأنبياء عليهم السلام ، قال "صاحب المطلع" : والمعنى عليه لكن من ظلم من سائر العباد ثم تاب فإني أغفر له ، وقال جماعة : إن المراد به من فرطت منه صغير ما وصدر منه خلاف الأولى بالنسبة إلى شأنه من المرسلين عليهم السلام .

والمراد استدراك ما يختلج في الصدر من نفى الخوف عن كلهم وفيهم من صدر منه ذلك ، والمعنى عليه لكن من صدر منهم ما هو في صورة الظلم ثم تاب فإني أغفر له فلا ينبغي أن يخاف أيضاً ، وهو شامل على ما قيل لمن فعل منهم شيئاً من ذلك قبل رسالته ، وخصه بعضهم بمن صدر منه شيء من ذلك قبل النبوة وقال : يؤيده لفظة ﴿ ثُمَّ ﴾ فإنها ظاهرة في التراخي الزماني ، ولعل الظاهر كونه خاصاً بمن صدر منه بعد الرسالة لظهور المرسل في المتلبس بالرسالة لا فيمن يتلبس بها بعد ألأ الأعم ، وكأن فيما ذكر على الوجهين الأولين تعريضاً بما وقع من موسى عليه السلام من وكزه القبطي واستغفاره ، وتسميته ظلماً مشاكلة لقوله عليه السلام ﴿ ظلمت نفسي ﴾ [القصص : 16] ، ولم يجعلوه على هذا متصلاً مع دخول المستثنى في المستثنى منه أعني المرسلين مطلقاً لأنه لو كان متصلاً لزم إثبات الخوف لمن فرطت منه صغيرة ما منهم لاستثنائه من الحكم وهو نفي الخوف عنهم ونفي النفي إثبات وذلك خلاف المراد فلا يكن متصلاً بل هو شروع في حكم آخر .

ورجح الطيبي ما قاله الجماعة بأن مقام تلقي الرسالة وابتداء المكالمة مع الكليم يقتضي إزالة الخوف بالكلية وهو ظاهر على ما قالوه ، وروى عن الحسن .

ومقاتل .

وابن جريج .

والضحاك ما يقتضي أنه استثناء متصل والظاهر أنهم أرادوا بمن من أراده الجماعة ؛ وفي اتصاله على ما سمعت خفاء .

وربما يقال : إن من يطلق الاتصال عليه في رأي الجماعة يكتفي في الاتصال بمجرد كون المستثني من جنس المستثنى منه فإن كفى فذاك وإلا يلتزم إثبات الخوف ويجعل ﴿ بَدَّلَ ﴾ عطفاً على مستأنف محذوف كأنه قيل : إلا من فرطت منه صغيرة فإن يخاف فمن فرط ثم تاب غفر له فلا يخاف .

وحاصله إلا من ظلم فإنه يخاف أولاً ويزول عنه الخوف بالتوبة آخراً ، وعن الفراء في رواية أخرى عنه أنه استثناء متصل من جملة محذوفة والتقدير وإنما يخاف غيرهم إلا من ظلم .

(132/575)

ورده النحاس بأن الاستثناء من محذوف لا يجوز ولو جاز هذا الجاز أن يقال : لا تضرب القوم إلا زيداً على معنى وإنما أضرب غيرهم إلا زيداً وهذا ضد البيان والمجيء بما لا يعرف معناه انتهى وهو كما قال .

ولا يجدي نفعاً القول باعتبار مفهوم المخالفة .

وقالت فرقة : إن إلا بمعنى الواو والتقدير ولا من ظلم الخ .

وتعقبه في "البحر" بأنه ليس بشيء للمباينة التامة بين إلا والواو فلا تقع أحدهما موقع الآخري .

وحسن الظن يجوز أنهم لم يصرحوا بكون إلا بمعنى الواو وإنما فهم من نسبه إليه من تقديرهم وهو يحتمل أن يكون تقدير معنى لا إعراب فلا تغفل ، والظاهر انقطاع الاستثناء ، ولعل الأوفق بشأن المرسلين أن يراد بمن ظلم من ارتكب ذنباً كبيراً أو صغيراً من غيرهم ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ يحتمل أن تكون للتراخي الزماني فتفيد الآية المغفرة لمن يدل على الفور من باب أولى ، ويحتمل أن تكون للتراخي الرتبي وهو ظاهر بين الظلم والتبديل المذكور .

والتبديل قد يتعدى إلى مفعولين بنفسه نحو ﴿ بدلناهم جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ [النساء : 56] وقد يتعدى إلى أحدهما بنفسه وإلى الآخر بالباء أو بمن وهو المذهوب به والمبدل منه نحو بدله بخوفه أو من خوفه أمناً وقد يتعدى إلى واحد نحو بدلت الشيء أي غيرته .

وَمِنْهُ ﴿ فمن بدله بعدما سمعه ﴾ [البقرة : 181] والمعنى هنا على المتعدي إلى مفعولين .

وقد تعدى إلى أحدهما وهو المبدل منه بالباء أو بمن فكأنه قيل : ثم بدل بظلمه أو من ظلمه حسناً .

ويشير إليه قوله تعالى : ﴿ بَعْدَ سُوءٍ ﴾ وحاصله ثم ترك الظلم وأتى بحسن ، والمراد به التوبة .

(133/575)

فيكون المعنى في الآخرة إلا من ظلم ثم تاب وعدل عنه إلى ما في النظم الجليل لأنه أوفق بمقام الإيناس كذا قيل ، والظاهر عليه إن إسناد التبديل إلى من ظلم حقيقي ، وقيل : إن المعنى ثم رفع الظلم والسوء ومحاه من صحيفة أعماله ووضع مكانه الحسن بسبب توبته نظير ما في قوله تعالى : ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حسنات ﴾ [الفرقان : 70] ، وإسناد التبديل إلى من ظلم على هذا مجازي لأنه سبب لتبديل الله تعالى له بتوبته ، وكأني بك تختار الأول ، ومحل ﴿ مِنْ ﴾ على كل من تقديري انقطاع الاستثناء واتصاله ظاهر .

والظاهر أنها موصولة في التقديرين .

ولا يخفى إنها إذا اعتبرت منصوبة المحل على الاستثناء أو مرفوعته على البدل تكون جملة ﴿ فَإِنِّي ﴾ الخ مستأنفة .

ومن قدر في الكلام محذوفاً وعطف عليه ﴿ بَدَّلَ ﴾ ، وقال : التقدير من ظلم ثم بدل جعل الجملة خبر من ، وجوز بعضهم أن تكون شرطية وجملة ﴿ فَإِنِّي ﴾ الخ جوابها

فتأمل ولا تغفل .

وقرأ أبو جعفر .

وزيد بن أسلم ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام على ﴿ إِلا ﴾ حرف استفتاح.

وجعل أبو حيان ﴿ مِنْ ﴾ على هذه القراءة شرطية ولا أراه واجباً .

وقرأ محمد بن عيسى الأصبهاني ﴿ حسني ﴾ على وزن فعلي ممنوع الصرف .

وقرأ ابن مقسم ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ بضم الحاء والسين منوناً .

وقرأ مجاهد .

وأبو حيوة .

وابن أبي علي .

والأعمش .

وأبو عمرو في رواية الجعفي . وعصمة . وعبد الوارث . وهرون . وعياش ﴿ حَسَنًا ﴾ بفتح الحاء والسين مع التنوين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(134/575)

وقال القاسمي :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ﴾

أي : حين قفل من مدين إلى مصر ، وأضلَّ الطريق : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي : رأيتها : ﴿ سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي : عن الطريق : ﴿ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ أي : بشعلة مقتبسة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : تتدفئون به : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي : بورك من في مكان النار ومَن حول مكانها . ومكانها البقعة التي حصلت فيها . وتدل عليه قراءة أُبيّ : تباركت الأرض ومن حولها , وعنه : بوركت النار . والذي بوركت له البقعة ، وبورك من فيها وحواليها ، حدوث أمر دينيّ فيها ، وهو تكليم الله موسى ، واستنباؤه له ، وإظهار المعجزات عليه . ورب خير يتجدد في بعض البقاع ، فينشر الله بركة ذلك الخير في أقاصيها ويبث أثار يمنه في أباعدها . فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى فـ تلك البقعة المباركة ؟ كذا في " الكشاف " .

وقال السمين : بارك يتعدى بنفسه . فلذلك بني للمفعول : باركك الله ، وبارك عليك ، وبارك فيك وبارك لك . والمراد بمن إما الباري تعالى وهو على حذف مضاف ، أي : من قدرته وسلطانه في النار . وقيل المراد به موسى والملائكة . وكذلك قوله : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وقيل المراد بمن غير العقلاء . وهو النور والأمكنة التي حولها . انتهى .

ولذا قال الزمخشري : والظاهر أنه عامّ في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي

وحواليهما من أرض الشام . قال : ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات موسومة في قوله : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [71] ، وحقت أن تكون كذلك . فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم ، ومهبط الوحي إليهم ، وكفاتهم أحياء وأمواتاً .

(135/575)

ثم قال : ومعنى ابتداء خطاب الله موسى بذلك عند مجيئه ، هي بشارة له بأنه قد مضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة . انتهى .

وقال القرطبيّ : هذا تحية من الله تعالى لموسى ، وتكرمة له . كما حيا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ [هود : 73] .

وعن ابن عباس : لم تكن تلك النار ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج . وعنه : هي نور رب العالمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه .

يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل . حجابه النور أو النار . لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره > ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ .

قال ابن كثير : وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عَمْرو بن مرّة : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : الذي يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العليّ العظيم المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات . قاله ابن كثير .

وقد أفاد أن المقام اقتضى التنزيه ، دفعاً لإيهام ما لا يليق من التشبيه . ثم إن موسى عليه السلام ، أعلمه تعالى بأنه هو الذي يكلمه ويناجيه ، لا ملك ولا خلق آخر ، بل ذاته العلية المستحقة للألوهية والنعوت القدسية ، فقال سبحانه :

(136/575)

﴿ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وفي إيثار هذه الأسماء الجليلة سرّ بديع . وهو الإشارة الجُمْلية إلى روح إرساله عليه السلام . أي : أنا الله لا تلك المعبودات التي عكف عليها قوم فرعون ، العزيز الغالب القاهر لكل عات متمرد ، الحكيم في البعثة والإرسال ،

والتفضل والإفضال . ثم أمره تعالى أن يلقي عصاه من يده ليريه دليلاً واضحاً على أنه القادر على كل شيء ، بقوله : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ هو ضرب من الحيات ، أسرعه حركة وأكثره اضطراباً : ﴿ وَلَّى ﴾ أي : من الخوف : ﴿ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي : لم يرجع على عقبه من شدة خوفه : ﴿ يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي : لحفظي لهم وعنايتي بهم وعصمتي إياهم مما يؤذيهم . وفيه تبشير له باصطفائه بالرسالة والنبوة . وتشجيع له بنزع الخوف . إذ لا يتمكن من أداء الرسالة ، ما لم يزل خوفه من المرسل إليه . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ استثناء منقطع . استدرك به ما عسى يختلج في الخلد من نفي الخوف عن كلهم . مع أن منهم من فرطت منه صغيرة ما ، مما يجوز صدوره عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإنهم وإن صدر عنهم شيء من ذلك ، فقد فعلوا عقيبه ما يبطله ، ويستحقون به من الله تعالى مغفرة ورحمة . وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى عليه الصلاة والسلام ، من وكزه القبطيّ والاستغفار . قاله أبو السعود . وسبقه الزمخشري حيث قال : يوشك أن يقصد بهذا ، التعريض بما وجد من موسى . وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها ، وسماه ظلماً كما قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 507.510 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾

قال الزجاج والزمخشري وغيرهما : انتصب ﴿ إذْ ﴾ بفعل مضمر تقديره : اذكر ، أي أن ﴿ إذْ ﴾ مجردٌ عن الظرفية مستعمل بمعنى مطلق الوقت ، ونصْبُه على المفعول به ، أي اذكر قصة زمن قال موسى لأهله ، يعني أنه جار على طريقة ﴿ وإذْ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [البقرة : 30] .

فالجملة استئناف ابتدائي .

ومناسبة موقعها إفادة تنظير تلقي النبي صلى الله عليه وسلم القرآن بتلقّي موسى عليه السلام كلامَ الله إذ نودي ﴿ يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ [النمل : 9] .

وذلك من بديع التخلص إلى ذكر قصص هؤلاء الأنبياء عقب التنويه بالقرآن ، وأنه من لدن حكيم عليم .

والمعنى : أن الله يقصّ عليك من أنباء الرسل ما فيه مَثَل لك ولقومك وما يثبت به فؤادك .

وفي ذلك انتقال لنوع آخر من الإعجاز وهو الإخبار عن المغيبات وهو ما عددناه في الجهة الرابعة من جهات إعجاز القرآن في المقدمة العاشرة من المقدمات .

وجملة : ﴿ قال موسى لأهله ﴾ إلى آخرها تمهيد لجملة ﴿ فلما جاءها نُودي أن بُورك

مَن في النّار ﴾ [النمل : 8] إلخ .

وزمانُ قول موسى لأهله هذه المقالة هو وقت اجتلابه للمبادرة بالوحي إليه .

فهذه القصة مثَل ضربه اللهِ لحال رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ، ابتدئت بما تقدم رسالة موسى من الأحوال إدماجاً للقصة في الموعظة .

والأهل : مراد به زوجه ، ولم يكن معه إلا زوجه وابنان صغيران .

والمخاطب بالقول زوجه ، ويكنى عن الزوجة بالأهل .

وفي الحديث : " والله ما علمتُ على أهلي إلا خَيراً "

ولم تظهر النار إلا لموسى دون غيره من أهله لأنها لم تكن ناراً معتادة ، لكنها من أنوار عالم الملكوت جلاّه الله لموسى فلا يراه غيره .

ويؤيد هذا تأكيده الخبر بـ (إن) المشير إلى أن زوجهُ ترددت في ظهور نار لأنها لم ترها .

(138/575)

والإيناس : الإحساس والشعور بأمر خفي ، فيكون في المرئيات وفي الأصوات كما قال الحارث بن حلزة:

آنَستْ نَبْأَةً وأفزعها القُنّ . . .

اصُ عَصْرًا وقد دنا الإِمساء

والمراد بالخبر خبر المكان الذي تلوح منه النار .

ولعله ظن أن هنالك بيتاً يرجو استضافتهم إياه وأهله تلك الليلة ، وإن لم يكن أهل النار أهل بيت يستضيفون بأن كانوا رجالاً مقوين يأتتِ منهم بجمرة نار ليوقد أهله ناراً من حطب الطريق للتدفُّؤ بها .

والشهاب : الجمر المشتعل .

والقبس : جمرة أو شعلة نار تُقبس ، أي يُؤخذ اشتعالها من نار أخرى ليُشعل بها حطب أو ذُبالة نار أو غيرهما .

وقرأ الجمهور بإضافة ﴿ شهاب ﴾ إلى ﴿ قبس ﴾ إضافة العام إلى الخاص مثل : خَاتم حديد .

وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بتنوين ﴿ شهاب ﴾ ، فيكون ﴿ قبس ﴾ بدلاً من ﴿ شهاب ﴾ أو نعتاً له .

وتقدم في أول سورة طه .

والاصطلاء : افتعال من الصلي وهو الشيُّ بالنار .

ودلت صيغة الافتعال أنه محاولة الصلي فصار بمعنى التدفُّؤ بوهج النار .

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)

أُنث ضمير ﴿ جاءها ﴾ جرياً على ما تقدم من تسمية النور ناراً بحسب ما لاح لموسى .

وتقدم ذكر هذه القصة في سورة طه ، فبنا أن نتعرض هنا لما انفردت به هذه الآيات من المفردات والتراكيب ، فقوله : ﴿ أن بورك من في النار ومن حولها ﴾ هو بعض ما اقتضاه قوله في طه (12) : ﴿ فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طُوى ﴾ لأن معنى بورك قُدّس وزُكِّيَ .

وفعل (بارك) يستعمل متعدياً ، يقال : باركك الله ، أي جعل لك بركة وتقدم بيان معنى البركة في قوله تعالى : ﴿ للَّذِي بِبَكَّة مباركاً ﴾ في آل عمران (96) ، وقوله ﴿ وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممّن معك ﴾ في سورة هود (48) .

و(أن) تفسيرية لفعل ﴿ نُودِيَ ﴾ لأن فيه معنى القول دون حروفه ، أي نودي بهذا الكلام .

(139/575)

و ﴿ مَن في النار ﴾ مراد به موسى فإنه لما حل في موضع النور صار محيطاً به فتلك الإحاطة تشبه إحاطة الظرف بالمظروف ، فعبر عنه بـ ﴿ مَن في النار ﴾ وهو نفسه .

والعدول عن ذِكره بضمير الخِطاب كما هو مقتضى الظاهر ، أو باسمه العلم إن أريد العدول

عن مقتضى الظاهر ، لأن في معنى صلة الموصول إيناساً له وتلطفاً كقول النبي صلى الله عليه وسلم لعليّ "قُم أبَا تراب" وكثيرٌ التلطف بذكر بعض ما التبس به المتلطَّف به من أحواله .

وهذا الكلام خبر هو بشارة لموسى عليه السلام ببركة النبوءة .

ومَن حَوْل النار : هو جبريل الذي أرسل إليه بما نودي به والملائكة الذين وكل إليهم إنارة المكان وتقديسُه إن كان النداء بغير واسطة جبريل بل كان من لدن الله تعالى .

فهذا التبريك تبريك ذوات لا تبريك مكان بدليل ذكر ﴿ مَن ﴾ الموصولة في الموضعين ، وهو تبريك الاصطفاء الإلهي بالكرامة .

وقيل إن قوله ﴿ أن بورك من في النار ﴾ إنشاء تحية من الله تعالى إلى موسى عليه السلام كما كانت تحية الملائكة لإبراهيم ﴿ رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ [هود : 73] أي أهل هذا البيت الذي نحن فيه .

و ﴿ سبحان الله رب العالمين ﴾ عطف على ما نودي به موسى على صريح معناه إخباراً بتنزيه الله تعالى عما لا يليق بإلهيته من أحوال المحدثات ليعلم موسى أمرين : أحدهما أن النداء وحي من الله تعالى ، والثاني أن الله منزه عما عسى أن يخطر بالبال أن جلالته في ذلك المكان .

ويجوز أن يكون ﴿ سبحان الله ﴾ مستعملاً للتعجيب من ذلك المشهد وأنه أمر عظيم من

أمر الله تعالى وعنايته يقتضي تذكُّر تنزيهه وتقديسه .

وفي حذف متعلق التنزيه إيذان بالعموم المناسب لمصدر التنزيه وهو عموم الأشياء التي لا يليق إثباتها لله تعالى وإنما يُعلم تفصيلها بالأدلة العقلية والشرعية .

فالمعنى : ونَزِّه الله تنزيهاً عن كل ما لا يليق به ، ومن أول تلك الأشياء تنزيهه عن أن يكون حالاً في ذلك المكان .

(140/575)

وإرداف اسم الجلالة بوصف ﴿ رب العالمين ﴾ فيه معنى التعليل للتنزيه عن شؤون المحدثات لأنه رب العالمين فلا يشبه شأنه تعالى شؤونهم .

وضمير ﴿ إنه ﴾ ضمير الشأن ، وجملة : ﴿ أنا الله العزيز الحكيم ﴾ خبر عن ضمير الشأن .

والمعنى : إعلامه بأن أمراً مهماً يجب علمه وهو أن الله عزيز حكيم ، أي لا يغلبه شيء ، لا يستصعب عليه تكوين .

وتقديم هذا بين يدي ما سيلقى إليه من الأمر لإحداث رِبَاطَة جأْش لموسى ليعلم أنه خلعت عليه النبوءة إذ ألقي إليه الوحي ، ويعلم أنه سيتعرض إلى أذى وتألب عليه ، وذلك

كناية عن كونه سيصير رسولاً ، وأن الله يؤيده وينصره على كل قوي ، وليعلمَ أن ما شاهد من النار وما تلقّاه من الوحي وما سيشاهده من قلب العصا حية ليس بعجيب في جانب حكمة الله تعالى ، فتلك ثلاث كنايات ، فلذلك أتبع هذا بقوله : ﴿ وألق عصاك ﴾ .

والمعنى : وقلنا ألق عصاك .

والاهتزاز : الاضطراب ، وهو افتعال من الهَزّ وهو الرفع كأنها تطاوع فعل هازَ يهزُّها .

والجانّ : ذَكَر الحيات ، وهو شديد الاهتزاز وجمعه جِنّان (وأما الجانّ بمعنى واحد الجن فاسم جمعه جنّ) .

والتشبيه في سرعة الاضطراب لأن الحيات خفيفة التحرك ، وأما تشبيه العصا بالثعبان في آية ﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ [الأعراف : 107] فذلك لضخامة الجرم .

والتولي : الرجوع عن السير في طريقه .

وفعل (تولى) مرادف فعل ﴿ ولّى ﴾ كما هو ظاهر صنيع "القاموس" وإن كان مقتضى ما في فعل (تولى) من زيادة المبنى أن يفيد (تولى) زيادة في معنى الفعل .

وقد قال تعالى : ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ في سورة القصص (24) .

ولعل قصد إفادة قوة توليه لمّا رأى عصاه تهْتَزّ هو الداعي لتأكيد فعل ﴿ ولّى ﴾ بقوله : ﴿ مدبراً ولم يعقب ﴾ فتأمّل .

والإدبار : التوجه إلى جهة الخلف وهو ملازم للتولي فقوله : ﴿ مدبراً ﴾ حال لازمة لفعل ﴿ ولَّى ﴾ .

(141/575)

والتعقب : الرجوع بعد الانصراف مشتق من العَقب لأنه رجوع إلى جهة العَقب ، أي الخَلْف ، فقوله : ﴿ ولم يعقب ﴾ تأكيد لشدة تولّيه ، أي ولّى توليا قويا لا تردد فيه .

وكان ذلك التولي منه لتغلّب القوة الواهمة التي في جبلة الإنسان على قوة العقل الباعثة على التأمل فيما دل عليه قوله : ﴿ أنا الله العزيز ﴾ من الكناية عن إعطائه النبوءة والتأييد ، إذ كانت القوة الواهمة متأصلة في الجبلة سابقة على ما تلقاه من التعريض بالرسالة ، وتأصُّل القوة الواهمة يزول بالتخلق وبمحاربة العقل للوهَم فلا يزالان يتدافعان ويضعف سلطان الوَهَم بتعاقب الأيام .

وقوله : ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ مقول قول محذوف ، أي قلنا له .

والنهي عن الخوف مستعمل في النهي عن استمرار الخوف .

لأن خوفه قد حصل .

والخوف الحاصل لموسى عليه السلام خوف رغب من انقلاب العصا حية وليس خوف

ذَنب ، فالمعنى : لا يَجْبُنُ لديَّ المرسلون لأني أحفَظُهم .

و﴿ إني لا يخاف لديّ المرسلون ﴾ تعليل للنهي عن الخوف وتحقيق لما يتضمنه نهيه عن الخوف من انتفاء موجبه .

وهذا كناية عن تشريفه بمرتبة الرسالة إذ عُلّل بأن المرسلين لا يخافون لدى الله تعالى .

ومعنى ﴿ لديّ ﴾ في حضرتي ، أي حين تلقِّي رسالتي .

وحقيقة ﴿ لدي ﴾ مستحيلة على الله لأن حقيقتها المكان .

وإذا قد كان انقلاب العصا حية حصل حين الوحي كان تابعاً لما سبقه من الوحي ، وهذا تعليم لموسى عليه السلام التخلق بخلق المرسلين من رِبَاطة الجأش .

وليس في النهي حط لمرتبة موسى عليه السلام عن مراتب غيره من المرسلين وإنما هو جار على طريقة : مثلُكَ لا يبخل .

والمراد النهي عن الخوف الذي حصل له من انقلاب العصا حية وعن كل خوف يخافه كما في قوله : ﴿ فاضْرِب لهم طريقاً في البَحر يَبَساً لا تخافُ دركاً ولا تخشى ﴾ [طه : 77] .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا من ظلم ﴾ ظاهره أنه متصل .

(142/575)

ونسَب ابن عطية هذا إلى مقاتل وابن جُريج فيكون ﴿ من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء ﴾ مستثنى من عموم الخوف الواقع فعله في حيّز النفي فيعم الخوف بمعنى الرعب والخوف الذي هو خوف العقاب على الذنب ، أي إلا رسولاً ظَلم ، أي فَرط منه ظلم ، أي ذَنب قبل اصطفائه للرسالة ، أي صدر منه اعتداء بفعل ما لا يفعله مثلُه في متعارف شرائع البشر المتقرر أنها عدل ، بأن ارتكب ما يخالف المتقرر بين أهل الاستقامة أنه عدل (قبل أن يكون الرسول متعبَّداً بشرع) فهو يخاف أن يؤاخذه الله به ويجازيه على ارتكابه وذلك مثل كيد إخوة يوسف لأخيهم ، واعتداء موسى على القِبطي بالقتل دون معرفة المحق في تلك القضية ؛ فذلك الذي ظلم ثم بَدَّل حُسناً بعد سوء ، أي تاب عن فعله وأصلح حاله يغفر الله له .

والمقصود من هذا الاستثناء على هذا الوجه تسكين خاطر موسى وتبشيره بأن الله غفر له ما كان فرط فيه ، وأنه قبل توبته مما قاله يوم الاعتداء ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضل مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ [القصص : 15 ، 16] ، فأفرغ هذا التطمين لموسى في قالَب العموم تعميماً للفائدة .

واستقامةُ نظم الكلام بهذا المعنى يكون بتقدير كلام محذوف يدل عليه التفريع في قوله : ﴿ فإني غفور رحيم ﴾ .

فالتقدير : إلا من ظلم من قبل الإرسال وتاب من ظلمه فخاف عقابي فلا يَخاف لأني غافر

له وقابل لتوبته لأني غفور رحيم .

وانتظم الكلام على إيجاز بديع اقتضاه مقام تعجيل المسرة ، ونسج على منسج التذكرة الرمزية لعلم المتخاطبَيْن بذلك كأنه يقول : لم أهمل توبتك يوم اعتديت وقولَك ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضلّ مبين قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ [القصص : 15 ، 16] ، وعزمَك على الاستقامة يوم قلتَ : ﴿ رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ [القصص : 17] .

ولذلك اقتصر في الاستثناء على خصوص من بدّل حسناً بعد سوء إذ لا يتصور في الرسول الإصرار على الظلم .

(143/575)

ومن ألطف الإيماء الإتيان بفعل ﴿ ظَلم ﴾ ليومىء إلى قول موسى يوم ارتكب الاعتداء ﴿ ربّ إني ظلمتُ نفسي ﴾ [القصص : 16] ولذلك تعين أن يكون المقصود بـ ﴿ من ظَلم ثم بدّل حسناً بعد سوء ﴾ موسى نفسَه .

وقال الفرّاء والزجاج والزمخشري وجرى عليه كلام الضحاك : الاستثناء منقطع وحرف الاستثناء بمعنى الاستدراك فالكلام استطراد للتنبيه على أن من ظَلم وبدّل حسناً بعد

سوء من الناس يغفر له .

وعليه تكون ﴿ مَن ﴾ صادقة على شَخص ظَلَم وليس المراد بها مخالفات بعض الرسل .

وهذا التأويل دعا إليه أن الرسالة تنافي سبق ظلم النفس .

والذي حداهم إلى ذلك أن من مقتضى الاستثناء المتصل إثباتَ نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى ، ونقيضُ انتفاء الخوف حصول الخوف .

والموجود بعد أداة الاستثناء أنه مغفور له فلا خلاف عليه .

ويُفهم منه أنه لو ظلم ولم يبدل حسناً بعد سوء يخاف عذاب الآخرة .

أما الزمخشري فزاد على ما سلكه الفرّاء والزجاج فجعل ما صْدَق ﴿ من ظلم ﴾ رسولاً ظلم .

والذي دعاه إلى اعتبار الاستثناء منقطعاً هو أحد الداعيين اللذين دعيا الفرّاء والزجاج وهو أن الحكم المثبت للمستثنى ليس نقيضاً لحكم المستثنى منه ولذلك جعل ما صْدَق ﴿ مَن ظلم ﴾ رسولاً من الرسل ظلم بما فرط منه من صغائر ليشمل موسى وهو واحد منهم .

وقد تحصل من الاحتمالين في معنى الاستثناء أن الرسل في حضرة الله (أي حين القيام بواجبات الرسالة) لا يخافون شيئاً من المخلوقات لأن الله تعالى تكفل لهم السلامة ، ولا يخافون الذنوب لأن الله تكفل لهم العصْمة .

ولا يخافون عقاباً على الذنوب لأنهم لا يقربونها ، وأن من عداهم إن ظلم نفسه ثم بَدّل حسناً بعد سوء أمِن ممّا يُخاف من عقاب الذنوب لأنه تدارك ظلمه بالتوبة ، وإن ظلم نفسه ولم يتب يخف عقاب الذنب فإن لم يظلم نفسه فلا خوف عليه .

فهذه معان دلّ عليها الاستثناء باحتماليه ، وذلك إيجاز .

(144/575)

وفي "تفسير ابن عطية" أن أبا جعفر قرأ : ﴿ أَلاَ من ظلم ﴾ بفتح همزة (أَلاَ) وتخفيف اللام فتكون حرف تنبيه ، ولا تعرف نسبة هذه القراءة لأبي جعفر فيما رأينا من كتب علم القراءات فلعلها رواية ضعيفة عن أبي جعفر .

وفعل ﴿ بدّل ﴾ يقتضي شيئين : مأخوذاً ، ومُعطى ، فيتعدى الفعل إلى الشيئين تارة بنفسه كقوله تعالى في الفرقان (70) ﴿ فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، ويتعدّى تارة إلى المأخوذ بنفسه وإلى المعطى بالباء على تضمينه معنى عَاوض كما قال تعالى : ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب ﴾ [النساء : 2] ، أي لا تأخذوا خبيث المال وتضيّعوا طيّبه ، فإذا ذكر المفعولان منصوبين تعين المأخوذ والمبذول بالقرينة وإلا فالمجرور بالباء هو المبذول ، وإن لم يذكر إلا مفعول واحد فهو المأخوذ كقول امرىء القيس:

وبُدِّلت قُرحاً دامياً بعد صحة . . .

فيا لكِكِ من نُعمى تبدَّلْنَ أبؤسا

وكذلك قوله تعالى هنا : ﴿ ثم بدل حسناً بعد سوء ﴾ أي أخذ حسناً بسوء ، فإن كلمة ﴿ بعد ﴾ تدل على أن ما أضيفت إليه هو الذي كان ثابتاً ثم زال وخلفه غيره .

وكذلك ما يفيد معنى (بعد) كقوله تعالى : ﴿ ثم بدلنا مكانَ السيئة الحسنة ﴾ [الأعراف : 95] فالحالة الحسنة هي المأخوذة مجعولة في موضع الحالة السيئة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(145/575)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾

ما زِلْنا قريبي عَهْد بذكر طرف من قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء ، وهنا يعود السياق إليه مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن دعوة موسى عليه السلام أخذت حيّزاً كبيراً من القرآن الكريم ، ذلك لأنهم أتبعوا أنبياءهم وعاندوهم حتى كَثُر الكلام عنهم .

وعجيب أنهم يفخرون بكثرة أنبيائهم ، وهم لا يعلمون أنها تُحسب عليهم لا لهم ، فالنبي لا

يأتي إلا عند شقْوة أصحابه ، وبنوا إسرائيل كانوا من الضلال والعناد بحيث لا يَكفيهم رسول واحد ، بل يلزمهم (كونسلتو) من الأنبياء ، فهم يعتبرونها مفخرة ، وهي مَنْقصة ومذمّة .

أما تكرار قصة بني إسرائيل وموسى عليه السلام كثيراً في القرآن ، فلأن القرآن لا يروي (حدوتة) و ، لا يذكر أحداثاً للتأريخ لها ، إنما يأتي من القصة بما يناسب موطن العبرة والتثبيت لفؤاد رسول الله : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : 120] .

لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرَّض في رحلة الدعوة لكثير من المصاعب والمشاقّ ، ويحتاج لتسلية وتثبيت ، فيأتي له ربُّه بلقطة معينة ، ولكن لا يُورد القصة كاملة ، وهذا ليس عَجْزاً وحاشا لله عن إيراد القصة كاملة مرة واحدة .

وقد أورد سبحانه قصة يوسف عليه السلام كاملة من الألف إلى الياء في صورة قصة محبوكة على أتمِّ ما يكون الفن القصصي ، ومع ذلك لم يأتِ لسيدنا يوسف عليه السلام ذِكْر في غير هذه القصة إلا في موضعين :

أحدهما : في سورة الأنعام : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ [الأنعام : 84] .

والآخر في سورة غافر : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالبينات فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حتى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾ [غافر : 34] .

(146/575)

إذن : ورود القصة في لقطات مختلفة متفرقة ليس عَجْزاً عن إيرادها مُسْتوفاة كاملة في سياق واحد ، ولو فعل ذلك لكان التثبيت مرة واحدة .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ إِني آنَسْتُ نَاراً ﴾ [النمل : 7] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِني آنَسْتُ نَاراً ﴾ [القصص : 29] وفي هذه الآية إضافة جديدة ليست في الأولى .

أما قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً ﴾ [القصص : 29] أي : آنس في ذاته ، أمّا في الآيتين السابقتين فيخبر بأنه آنسَ ناراً ، إذن : كل آية في موقف ، وليس في الأمر تكرار ، كما يتوهمّ البعض .

فموسى عليه السلام يسير بأهله في هذا الطريق الوَعْر ويحلّ عليه الظلام ، ولا يكاد يرى الطريق فيقول لزوجته : ﴿ إِني آنَسْتُ نَاراً ﴾ [النمل : 7] يعني : سأذهب لأقتبسَ منها ، ليهتدوا بها ، أو ليستدفئوا بها .

وطبيعي أنْ تعارضه زوجته : كيف تتركني في هذا المكان المُوحِش وحدي ، فيقول لها ﴿ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً ﴾ [القصص : 29] يعني : أبقىْ هنا مستريحة ، وأنا الذي سأذهب ، فلربما تعرَّضت لمخاطر فكُوني أنت بعيداً عنها ، إذن : هي مواقف جديدة استدعاها الحال ، ليست تكراراً .

كذلك نجد اختلافاً طبيعياً في قوله : ﴿ لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص : 29] وقوله ﴿ سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [النمل : 7] .

فالأولى ﴿ لعلي ﴾ [القصص : 29] فيها رجاء ؛ لأنه مُقبل على شيء يشكُّ فيه ، وغير متأكد منه ، وهو في هذه الحالة صادق مع خواطر نفسه أمام شيء غائب عنه ، فلما تأكد قال ﴿ سَآتِيكُمْ ﴾ [النمل : 7] على وجه اليقين .

(147/575)

وفي هذه المسألة قال مرة : ﴿ لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ [القصص : 29] وهنا قال : ﴿ سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [النمل : 7] .

ذلك لأنه لا يدري حينما يصل إلى النار ، أيجدها مشتعلة لها لسان يقتبس من شعلة ، أم يجدها قد هدأتْ ولمْ يَبْقَ منها إلا جذوة ، وهي القطعة المتوهجة مثل الفحم مثلاً ، فكلُّ

تكرار هنا له موضع ، وله معنى ، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق القصة ، فهو تكامل في اللقطات تأتي متفرقة حَسْب المراد من العبرة والتثبيت .

ومعنى ﴿ لأَهْلِهِ ﴾ [النمل : 7] قالوا : إنها تعني جماعة بدليل قوله لهم ﴿ امكثوا ﴾ [القصص : 29] فكانت زوجته ، ومعه أيضاً بعض الرُّعْيان أو الخدم . والإنسان منا يحتاج لأشياء كثيرة تقتضي التعدّد : فهذا يطبخ الطعام ، وهذا للنظافة ، وهذا لِكَيِّ الملابس . . إلخ .

لكن هناك شيء واحد لا يستطيع أحد أنْ يقضيَه لك إلا زوجتك ، هي النسْل والمعاشرة الزوجية ، كما يمكن للزوجة وحدها أن تقوم لك بكل هذه الأعمال ، إذن : فهي تُغْني عن الأهل كلهم ، ونستطيع أن نقول : إنه لم يكُنْ معه إلا زوجته .

وهذه شائعة في لغتنا : يقول الرجل : الجماعة أو جماعتي أو أهلي ويقصد زوجته ، وفي هذا تقدير من الزوج لمكانة زوجته .

ومعنى ﴿ آنَسْتُ ﴾ [النمل : 7] آنس : يعني شعر وأحسَّ بشيء يُؤنسه ويُطمئنه ، وضده التوجس : أي شعر وأحسَّ بشيء يخيفه ، ومنه قوله تعالى في شأن موسى أيضاً : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى * قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ [طه : 6768] .

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)

أي : جاء النار ف ﴿ نُودِيَ ﴾ [النمل : 8] النداء : طلب إقبال ، كما تقول : يا فلان ، فيأتيك فتقول له ما تريد . فالنداء مثلاً في قوله تعالى : ﴿ يا موسى ﴾ [طه : 11] نداء ﴿ إنني أَنَا الله ﴾ [طه : 14] خطاب وإخبار .

لكن ما معنى ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : 8] ولم يقُلْ : يا موسى فليس هنا نداء ، قالوا : مجرد الخطاب هنا يُراد به النداء ؛ لأنه ما دام يخاطبه فكأنه يناديه ، ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً ﴾ [الأعراف : 44] .

فذكر الخطاب مباشرة دون نداء ؛ لأن النداء هنا مُقدَّر معلوم من سياق الكلام ، ومنه أيضاً : ﴿ ونادى أَصْحَابُ الأعراف رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَآ أَغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف : 48] .

ومنه أيضاً : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ [مريم : 24] فجعل الخطاب نفسه هو النداء .

وقوله : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : 8] كلمة بُورِك لا تناسب النار ؛

لأن النار تحرق ، وما دام قال ﴿ بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ [النمل : 8] فلا بُدَّ أن مَنْ في النار خَلْق لا يُحرق ، ولا تؤثر فيه النار ، فمَنْ هم الذين لا تؤثر فيهم النار ، هم الملائكة .

وقد رأى موسى عليه السلام مشهداً عجيباً ، رأى النار تشتعل في فرع من الشجرة ، فالنار تزداد ، والفرع يزداد خُضْرة ، فلان النار تحرق الخضرة ولا رطوبة الخضرة ومائيتها تطفىء النار ، فمَنْ يقدر على هذه المسألة ؟ لذلك قال بعدها : ﴿ وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العالمين ﴾ [النمل : 8] .

(149/575)

ففي مثل هذا الموقف إياك أنْ تقول : كيف ، بل نزِّه الله عن تصرفاتك أنت ، فهذا عجيب لا يُتصوَّر بالنسبة لك ، أمّا عند الله فأمر يسير .

وقد رأينا مثل هذه المعجزة في قصة إبراهيم عليه السلام حين نجَّاه ربه من النار ، ولم يكُنْ المقصود من هذه الحادثة نجاة إبراهيم فقط ، فلو أن الله أراد نجاته فحسب لَمَا أمكنهم منه ، أو لأطفأ النار التي أوقدوها بسحابة ممطرة ، أسباب كثيرة كانت مُمكِنة لنجاة سيدنا إبراهيم .

لكن الله تعالى أرادهم أنْ يُمسِكوا به ، وأنْ يُلْقوه في النار ، وهي على حال اشتعالها

وتوهّجها ، ثم يُلْقونه في النار بأنفسهم ، وهم يروْنَ هذا كله عَيَاناً ، ثم لا تؤذيه النار ، كأنه يقول لهم : أنا أريد أن أنجيه من النار ، رغم قوة أسبابكم في إحراقه ، فأنا خالق النار ومعطيها خاصية الإحراق ، وهي مُؤتمرةٌ بأمري أقول لها : كُونِي بَرْداً وسلاماً تكون ، فالمسألة ليست ناموساً وقاعدة تحكم الكون ، إنما هي قيوميتي على خَلْقي .

إذن : ما رآه موسى عليه السلام من النار التي تشتعل في خضرة الشجرة أمر عجيب عندكم ، وليس عجيباً عند مَنْ له طلاقة القدرة التي تخرق النواميس .

وبناء الفعل ﴿ بُورِكَ ﴾ [النمل : 8] للمجهول تعني : أن الله تعالى هو الذي يبارك ، فهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله ﴿ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : 8] يجوز أن يكون الملائكة ، أو : بُورِكت الشجرة ذاتها لأنها لا تُحرق ، أو النار لأنها لا تنطفىء فهي مُباركة .

وفي موضع آخر يُوسِّع دائرة البركة ، فيقول سبحانه : ﴿ فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة ﴾ [القصص : 30] .

ثم يخاطب الحق سبحانه موسى : ﴿ يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله ﴾

جاء هنا النداء على حقيقته بأداة ومنادى ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللهُ ﴾ [النمل : 9] هذا هو الأصل ، وما دُمْتُ أن الله فلا تتعجَّب مما ترى ، وساعة تسمع مَنْ يكلِّمك دون أن ترى متكلماً من جنسك ، فلا تتعجب ولا تندهش .

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)

ونلحظ أن هنا تفاصيلَ وأحداث لم تذكرها الآية هنا ، وذُكِرَت في موضع آخر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 1718] .

والأدب يقتضي أن يأتي الجواب على قَدْر السؤال ، لكن موسى عليه السلام أراد أنْ يطيل أمد الأُنس بالله والبقاء في حضرته تعالى ، ولما أحسَّ موسى أنه أطال في هذا المقام أجمل ، فقال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرى ﴾ [طه : 18] فللعصا مهام أخرى كثيرة في حياته .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [النمل : 10] يعني : إنْ كانت العصا بالنسبة لك بهذه البساطة ، وهذه مهمتها عندك فلها عندي مهمة أخرى ، فانظر إلى مهمتها عندي ، وإلى ما لا تعرفه عنها .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ [النمل : 10] فلمّا ألقى موسى عصاه وجدها ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [النمل : 10] يعني : حية تسعى وتتحرك ، والعجيب أنها لم تتحول إلى شيء من

جنسها ، فالعصا عود من خشب ، كان فرعاً في شجرة ، فجنسه النبات ولما قُطعت وجفَّتْ صارت جماداً ، فلو عادت إلى النباتية يعني : إلى الجنس القريب منها واخضرتْ لكانت عجيبة .

أمّا الحق تبارك وتعالى فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية ، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف ، خاصة وهي ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ [النمل : 10] أي : تتحرك حركة سريعة هنا وهناك .

(151/575)

وطبيعي في نفسية موسى حين يرى العصا التي في يده على هذه الصورة أنْ يخاف ويضطرب ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ [طه : 6768] .

ومعنى : ﴿ الأعلى ﴾ [طه : 68] إشارة إلى أنه تعالى يُعده لمهمة كبرى ، وأن لهذه العصا دوراً من الخصوم ، وسوف ينتصر عليهم ، ويكون هو الأعلى .

وحين تتتبع اللقطات المختلفة لهذه القصة تجدها مرة (جان) ومرة (حية) ومرة (ثعبان) ، وهي كلها حالات للشيء الواحد ، فالجان فَرْخ الثعبان ، وله مِن خفة الحركة ما ليس

للثعبان ، والحية هي الثعبان الضخم .

وقوله تعالى ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ [النمل : 10] يعني : انصرف عنها وأعطاها ظهره ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [النمل : 10] نقول : فلان يُعقِّب يعني : يدور على عَقِبه ويرجع ، والمعنى أنه انصرف عنها ولم يرجع إليها ؛ لذلك ناداه ربه سبحانه وتعالى : ﴿ يا موسى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون ﴾ [النمل : 10] .

ونلحظ هنا نداءين اثنين يذكر فيهما ، المنادى موسى عليه السلام وكأنهما تعويض للنداء السابق الذي نُودِي فيه بالخبر ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : 8] .

وعلَّة عدم الخوف ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ [النمل : 10] ليعلمه أنه سيُضطر إلى معركة ، فليكُنْ ثابتَ الجأْش لا يخاف لأنّه لا يحارب شخصاً بمفرده ، إنما جمعاً من السَّحرة جُمِعوا من كل أنحاء البلاد ، وسبق أنْ قال له :

﴿ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ﴾ [طه : 68] حتى لا تُرهبه هذه الكثرة .

وهنا قال ﴿ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون ﴾ [النمل : 10] والمعنى : لا تخفْ ، لأني أنا الذي أرسلتُك ، وأنا الذي أتولّى حمايتك وتأييدك ، كما قال الحق سبحانه في موضع آخر :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171173] .

فأنت معذور في الخوف ، إنْ كنتَ بعيداً عني ، فكيف وأنت في جواري وأنا معك ، وها أنذا أخاطبك ؟

وكان إلقاء العصا من موسى هذه المرة مجرد تجربة (بروفة) ليألف هذه المسألة ويأنس إليها ، وتحدث له دُرْبة ورياضة ، فإذا ما أجرى هذه العملية أمام فرعون والسحرة أجراها بثقة وثبات ويقين من إمكانية انقلاب العصا إلى حية .

وبعد ذلك يأتي بآية تثبيت منطقة التكليف في البشر حتى الرسل ، والرسل أيضاً مُكلَّفون ، وكل مُكلَّف يصح أن يطيع أو أن يعصي ، لكن الرسلَ معصومون من المعصية ، أما موسى عليه السلام فله حادثة مخصوصة حين وكَز الرجل فسقط ميتاً ، فقال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : 14] .

وفي موضع آخر يُحدِّد هذا الذنب : ﴿ قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص : 33] .

ونضع هذه القصة أمامنا لنفهم : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾

إذن : فالاستثناء هنا من قوله تعالى : ﴿ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون ﴾ [النمل : 10]

استثنى من ذلك ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سواء ﴾ [النمل : 11] .

وكأنه عز وجل يُعرِّض بهذه الحادثة الخاصة بموسى عليه السلام : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ [

النمل : 11] أي : حين قتَل القبطي ، لكن موسى عليه السلام اعترف بذنبه واستغفر ربه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ [القصص : 16] .

ولا كلامَ لاحد بعد مغفرة الله عز وجل للمذنب ؛ لأنه بعد أنْ ظلم ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سواء ﴾ [النمل : 11] يعني : عمل عملاً حسناً بعد الذنب الذي ارتكبه ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النمل : 11] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(153/575)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

(154/575)

قوله تعالى : (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النمل : 10 – 11) ، وفي سورة القصص : (أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) (القصص : 31) ، للسائل

أن يسأل عن القول لموسى ، عليه السلام ، عقب قوله عندما ولّى مدبراً (لما رأى) من فعل الله سبحانه في عصاه حين ألقاها من اهتزازها كأنها جان ، فنودي تأنيساً وإعلاماً بما الأمر عليه ، ولا شك أن ذلك في مقام واحد وحال ابتداء أمره ورسالته ، فالمعنى واحد ، فما وجه اختلاف العبارة ؟ فأقول جواباً لهذا السؤال – وأسأل الله توفيه وعصمته – إنه قد تقدم في سورة طه أن الوارد من هذا القصص إنما أخبرنا به على المعنى ، وإنما خوطبنا باللسان العربي ، وخاطب موسى باللسان العبراني ، (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) (إبراهيم : 4) ، وجل كلام ربنا عن الحرف والصوت وعن شبه كلام البشر ، وبسط هذا في مظانه ، وإذا تقرر أنا إنما خوطبنا بلساننا ، وأن الاختلاف والتفاوت فيما بين الألسنة معلوم ، والمعاني لا تختلف ، فالمراد من الوارد في السورتين أن موسى ، عليه السلام ، أُمن من خوفه الذي لحقه ، وأُعلم أنه من الآمنين ، وأن الآمنين لديه سبحانه هم المرسلون ، ومن اهتدى بهديهم ممن سبقت له الحسنى ، ومن لحق بهم ممن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء وسبقت له من الله الحسنى ، فهؤلاء هم الآمنون لدينه سبحانه بما سبق لهم ، ولا يجب عليه سبحانه إلا ما أوجبه على نفسه ، فهذا الحاصل من المقول لموسى ، عليه السلام ، في السورتين من غير اختلاف في شيء من معناه ، وهو المراد بقوله سبحانه : (وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) (القصص : 31) ، وبقوله : (لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ

لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ . . .) (النمل : 10 – 11) ، والاستثناء منقطع ، وليس المراد إلا من ظلم من الرسل ، ولا يكون من الاستثناء المتصل كما قاله بعض المحرفين من ذوي الضلال ، فإن الرسل ، عليهم السلام ، معصومون من الكفر مطلقاً باتفاق من أهل القبلة إلا ما قالته الشوذية ومن قال بقولهم من المارقين ممن لا عبرة به ، والظلم هنا هو الكفر فما دون ، وقد عصم الله الرسل ومن شاء عصمته من ذلك ممن سواهم ، ثم إن من كان ظالماً لنفسه بالكفر أو بما دون الكفر ثم بدل حسناً بعد سوء فإنه راج ما وعد (الله) سبحانه ، ومن مات على ظلمه ولم يكن كفراً فهو في المشيئة ، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (النساء : 48) ، فما أفهمت آية النمل من هذا فهو المراد بآية القصص من قوله : (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) ، ولم يقع في آية النمل (ذكر) غير المرسلين ممن لم يظلم نفسه إيجازاً ، لأنه من المعلوم أنه إذا كان حال الظالم لنفسه المبدل حسناً بعد سوء على ما ذكرنا من الرجاء فحال من لم يظلم نفسه أولى ، فسمع موسى ، عليه السلام ، من كلام ربه ما حصل به المعنى المقصود ، ثم اختلف التعبير عندنا عن ذلك والمعنى (واحد) ، فلا اختلاف .

فإن قيل : فما وجه اختصاص آية النمل بما ورد فيها وآية القصص بما ورد فيها ؟

قلت : (هذا) سؤال لازم على شرطنا ، والجواب عنه – إن شاء الله – أن سورة النمل لما ورد فيها قصة بلقيس وقومها ، وعبادتهم الشمس حسب ما ورد في السورة في قوله : (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (النمل : 24) ، ثم هداها الله بسليمان ، عليه السلام ، حتى قالت : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (النمل : 44) ، ناسب هذا قوله تعالى في تأنيس موسى ، عليه السلام ، : (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ) (النمل : 11) ، ولما ورد في آخر سورة القصص : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) (القصص : 83) ، وهي آي عامة في كل متصف بالإيمان متمسك بما في الآية ، وقد أشارت إلى أمنهم لأنهم ممن سبقت لهم الحسنى ، وقد نص الكتاب على أنهم آمنون لديه سبحانه حين قال : (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) (الأنبياء : 101) ، ثم قال : (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ) (الأنبياء : 103) فهم آمنون ، فناسب قوله سبحانه : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) (القصص : 83) ، ما خصت به هذه السورة من قوله في قصة موسى ، عليه السلام : (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) .

(157/575)

وجواب ثان ، وهو أن الآمنين لما تقدم بيان أنهم المرسلون ومن ظلم من غيرهم (ثم) بدل حسناً بسوء ، وحصل في طي هذا الكلام وضمنه أن من لم يظلم نفسه من غير المسلمين فلا توقف أنه من الآمنين ، فلما تحصل بيان الآمنين وقعت الإالة في آية القصص على ذلك ، ولم يحتج إلى تفصيل أحوالهم اكتفاء بما تقدم فقيل : (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) ، وهذا الوجه الثاني كاف في حصول التناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 379. 380 ﴾

(158/575)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ :

يجوز أَنْ يكونَ منصوباً بإضمار اذكُرْ أو تَعَلَّمْ مقدَّراً مدلولاً عليه ب عَليم أو ب حَليم . وفيه

ضعفٌ لتقيُّدِ الصفةِ بهذا الظرفِ .

قوله : ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ قرأ الكوفيون بتنوين " شهاب " على أنَّ قَبَساً بدلٌ مِنْ " شهاب " أو صفةٌ له ؛ لأنه بمعنى مَقْبوس كالقَبَضِ والنَّقَضِ . والباقون بالإضافةِ على البيانِ ؛ لأن الشهابَ يكونُ قَبَساً وغيرَه . والشِّهابُ : الشُّعلةُ . والقَبَس : القطعةُ منها ، تكونُ في عُوْدٍ وغيرِ عُوْد . و " أَوْ " على بابِها من التنويع . والطاء في " تَصْطَلُون " بدلٌ مِنْ تاءِ الافتعال لأنه مِنْ صَلِيَ بالنار .

قوله : ﴿ نُودِيَ ﴾ : في القائمِ مَقامَ الفاعلِ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه ضميرُ موسى ، وهو الظاهرُ . وفي " أَنْ " حينئذٍ ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنَّها المُفَسِّرَةُ لتقدُّمِ ما هو بمعنى القول . والثاني : أنها الناصبةُ للمضارعِ ، ولكنْ وُصِلَتْ هنا بالماضي . وتقدَّم تحقيقُ ذلك ، وذلك على إسقاطِ الخافضِ أي : نُوْدي موسى بأَنْ بُورِك . الثالث : أنها المخففةُ ، واسمُها ضميرُ الشأنِ ، و " بُوْرِك " خبرُها ، ولم يَحْتَجْ هنا إلى فاصلٍ ؛ لأنه دعاءٌ ، وقد تقدَّم نحوُه في النور في قوله : ﴿ أَنْ غَضِبَ ﴾ [النور : 9] في قراءته فعلاً ماضياً .

قال الزمخشري : " فإن قلتَ : هل يجوز أن تكونَ المخففةَ من الثقيلةِ ، والتقدير : بأنَّه بُورك . والضميرُ ضميرُ الشأنِ والقصةِ ؟ قلت : لا لأنه لا بُدَّ مِنْ " قد " . فإنْ قلتَ : فعلى إضمارِها ؟ قلت : لا يَصِحُّ لأنها علامةٌ ولا تُحْذَفُ " . انتهى . فمنع أَنْ تكونَ مخففةً لِما ذُكِر ، وهذا بناءً منه على أَنَّ "بُوْرِكَ" خبرٌ لا دعاءٌ . أمَّا إذا قُلْنا : إنه دعاءٌ كما تقدَّم في النورِ فلا حاجةَ إلى الفاصلِ كما تقدَّم . وقد تقدَّم فيه استشكالٌ : وهو أنَّ الطلبَ لا يَقَعُ خبراً في هذا البابِ فكيف وَقَعَ هذا خبراً ل "أَنْ" المخففةِ وهو دُعاءٌ ؟

الثاني : من الأوجهِ الأُوَلِ : أنَّ القائمَ مَقامَ الفاعلِ نفسُ "أَنْ بُوْرِكَ" على حَذْفِ حرفِ الجرِّ أي : بأَنْ بُوْرِكَ . و "أَنْ" حينئذٍ : إمَّا ناصبةٌ في الأصلِ ، وإمَّا مخففةٌ .

الثالث : أنه ضميرُ المصدرِ المفهومِ من الفعلِ أي : نُودي النداءُ ، ثم فُسِّر بما بعدَه . ومثلُه ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ [يوسف : 35] .

قوله : ﴿ مَن فِي النار ﴾ "مَنْ" قائمٌ مقامَ الفاعلِ ل "بُوْرِك" . وبارَكَ يتعدى بنفسِه ، ولذلك بُني للمفعولِ . يقال : بارَكَكَ اللهُ ، وبارَكَ عليكَ ، وبارَكَ فيك ، وبارك لكَ ، وقال الشاعر :

3539 فَبُوْرِكْتَ مَوْلُوداً وبُوْرِكْتَ ناشِئاً . . . وبُوْرِكْتَ عند الشَّيْبِ إذ أَنْتَ أَشْيَبُ

وقال عبدُ اللهِ بن الزبير :

3540 فبُوْرِكَ في بَنِيْكَ وفي بَنيهِمْ . . . إذا ذُكِروا ونحن لك الفِداءُ

وقال آخر :

3541 بُوْرِكَ الميّتُ الغريبُ كما بُوْ . . . رِكَ نَضْحُ الرُّمانِ والزيتونِ

(160/575)

والمرادُ ب " مَنْ " : إمَّا الباري تعالى ، وهو على حَذْفٍ مضافٍ أي : مَنْ قُدْرَتُه وسُلْطانه في النار . وقيل : المرادُ به موسى والملائكةُ ، وكذلك بمَنْ حولَها . وقيل : المرادُ ب " مَنْ " غيرُ العقلاءِ وهو النورُ والأمكنةُ التي حولَها .

قوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللهِ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدها : أنَّه من تتمَّةِ النداءِ أي : نُوْدِي بالبركةِ وتَنْزِيْهِ ربِّ العزَّةِ . أي : نُودي بمجموعِ الأمرَيْنِ . الثاني : أنه من كلامِ اللهِ تعالى مخاطِباً لنبيِّنا محمدٍ عليه الصلاةُ والسلامُ ، وهو على هذا اعتراضٌ بين أثناءِ القصةِ . الثالث : أنَّ معناه : وبُوْرِكَ مَنْ سَبَّحَ اللهَ . يعني أنه حَذَفَ " مَنْ " وصلَتَها وأبقى معمولَ الصلةِ إذ التقدير : بُوْرِكَ مَنْ في النار ومَنْ حَوْلَها ، ومَنْ قال : سبحان الله و " سُبْحانَ " في الحقيقةِ ليس معمولاً لـ " قال " بل لفعلٍ مِنْ لفظِه ، وذلك الفعلُ هو المنصوبُ بالقول .

يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

قوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللهُ ﴾ : في اسمِ " إنَّ " وجهان ، أظهرهما : أنه ضميرُ الشأن . و ﴿ أَنَا

الله ﴾ مبتدأ وخبرُه ، و ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان لله . والثاني : أنه ضميرٌ راجعٌ إلى ما دلَّ عليه ما قبله ، يعني : أنَّ مُكَلِّمَكَ أنا ، و " الله " بيانٌ ل " أنا " . والله العزيزُ الحكيمُ صفتان للبيانِ . قاله الزمخشري . قال الشيخ : " وإذا حُذِفَ الفاعلُ وبُنِيَ الفعلُ للمفعولِ فلا يجوزُ أَنْ يعودَ الضميرُ على ذلك/ المحذوفِ ، إذ قد غُيِّرَ الفعلُ عن بنائِه له . وعُزِمَ على أَنْ لا يكونَ مُحَدَّثاً عنه ، فَعَوْدُ الضميرِ إليه مِمَّا يُنافي ذلك ؛ إذ يصيرُ مُعْتَنَىً به " .

(161/575)

قلت : وفيه نظرٌ ؛ لأَنَّه قد يُلْتَفَتُ إليه . وقد تقدَّم ذلك في قوله في البقرة ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ ﴾ [الآية : 178] ثم قال : " وأداءٌ إليه " قيل : أي : الذي عفا ، وهو وليُّ الدمِ ، على ما تقدَّم تحريره . ولَئِنْ سُلِّم ذلك فالزمخشريُّ لم يَقُلْ : إنه عائدٌ على ذلك الفاعلِ ، إنما قال : راجعٌ إلى ما دَلَّ عليهِ ما قبلَه ، يعني مِن السِّياقِ .

وقال أبو البقاء : " ويجوزُ أَنْ يكونَ ضميرَ " ربّ " أي : إنَّ الرَّبَّ أنا الله ، فيكون " أنا " فَصْلاً ، أو توكيداً ، أو خبراً إنَّ ، والله بدلٌ منه " .

قوله : ﴿ وَأَلْقِ ﴾ :

عطفٌ على ما قبلَه من الجملةِ الاسميةِ الخبريةِ . وقد تقدَّم أنَّ سيبويهِ لا يَشْترط تناسُبَ

الجملِ ، وأنه يُجيز " جاء زيدٌ ومَنْ أبوك " وتقدَّمت أدلَّتُه في أول البقرة . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ علامَ عَطَفَ قولَه : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ؟ قلت : على قولِه " بُوْرِكَ " لأنَّ المعنى : نُوْدِيَ أَنْ بُوْرِكَ . وقيل له : أَلْقِ عَصاك . والدليلُ على ذلك قولُه : " وأَنْ أَلْقِ عَصاك " بعد قولِه " يا موسى إنَّه أنا اللهُ " على تكريرِ حرفِ التفسيرِ كما تقول : " كَتَبْتُ إليه أَنْ حُجَّ واعْتَمِرْ " وإنْ شِئْتَ : أَنْ حُجَّ وأَنِ اعْتَمِرْ " . قال : الشيخ : " وقولُه : " إنه معطوفٌ على " بُوْرِكَ " منافٍ لتقديرِه " وقيل له : " أَلْقِ عصاك " لأَنَّ هذه جملةٌ معطوفةٌ على " بُوْرِكَ " وليس جُزْؤها الذي هو معمول " وقيل " معطوفاً على " بُوْرِكَ " ، وإنما احتاج إلى تقديرِ " وقيل له : أَلْقِ " لتكونَ جملةً خبريةً مناسِبَةً للجملةِ الخبريةِ التي عُطِفَتْ عليها . كأنه يرى في العطفِ تناسُبَ الجملِ المتعاطفةِ . والصحيحُ أنَّه لا يُشْتَرَطُ ذلك " ثم ذكرَ مذهبَ سيبويه .

قوله : ﴿ تَهْتَزُّ ﴾ جملةٌ حاليةٌ مِنْ هاء " تَراها " لأنَّ الرؤيةَ بَصَرِيَّةٌ .

(162/575)

قوله : ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً ثانيةً ، وأَنْ تكونَ حالاً من ضمير " تَهْتَزُّ " فتكونَ حالاً متداخلةً . وقرأ الحسن والزهري وعمرو بن عبيد " جَأَنٌّ " بهمزةٍ مكانَ

الألفِ ، وتقدَّم تقريرُ هذا في آخرِ الفاتحةِ عند ﴿ وَلاَ الضآلين ﴾ [الفاتحة : 7] .

قوله : ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ يجوز أن يكونَ عطفاً على " ولى " ، وأَنْ يكونَ حالاً أخرى .

والمعنى : لم يَرْجِعْ على عَقِبه . كقوله :

3542 فما عَقَّبوا إذ قيلَ : هل مَنْ مُعَقِّبٍ . . . ولا نَزَلُوا يومَ الكَريهةِ مَنْزِلا

قوله : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ :

فيه وجهان ، أحدُهما : أنه استثناءٌ منقطعٌ ؛ لأنَّ المرسلين مَعْصُومون من المعاصي . وهذا هو الظاهرُ الصحيحُ . والثاني : أنه متصلٌ . ولأهلِ التفسيرِ فيه عباراتٌ ليس هذا موضعَها . وعن الفراء : أنَّه متصلٌ . لكن من جملةٍ محذوفةٍ ، تقديرُه : وإنما يَخاف غيرُهم إلاَّ مَنْ ظَلَمَ . وردَّه النحاس : بأنه لو جاز هذا لجازَ " لا أضرب القوم إلاَّ زيداً " أي : وإنما أَضْرِبُ غيرَهم إلاَّ زيداً ، وهذا ضدُّ البيانِ والمجيءُ بما لا يُعْرَفُ معناه .

وقَدَّره الزمخشري ب " لكن " . وهي علامةٌ على أنه منقطعٌ ، وذكر كلاماً طويلاً . فعلى الانقطاعِ يكونُ منصوباً فقط على لغةِ الحجاز . وعلى لغةِ تميمٍ يجوزُ فيه النَصبُ والرفعُ على البدلِ من الفاعلِ قبلَه . وأمَّا على الاتصالِ فيجوزُ فيه الوجهان على اللغتين ، ويكون الاختيارُ البدلَ ؛ لأنَّ الكلامَ غيرُ موجَبٍ .

وقرأ أبو جعفر وزيد بن أسلم " ألا " بفتح الهمزة وتخفيفِ اللامِ جعلاها حرفَ تنبيهٍ . و " مَنْ " شرطيةٌ ، وجوابُها ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ ﴾ .

(163/575)

والعامَّةُ على تنوينِ " حُسْناً " . ومحمد بن عيسى الأصبهاني غيرَ منوَّن ، جعله فُعْلى مصدراً كرُجْعَى فمنعَها الصرفَ لألفِ التأنيثِ . وابنُ مقسم بضم الحاء والسين منوناً . ومجاهد وأبو حيوة ورُوِيَتْ عن أبي عمرو بفَتْحِهما . وقد تقدَّم تحقيقُ القراءتين في البقرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 572.578﴾

(164/575)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) ﴾

سار موسى بأهله من مدين شعيب متوجهاً إلى مصر ، ودَجَا عليه الليلُ ، وأخذ امرأتَه الطَّلْقُ وهَبَّت الرياحُ الباردة ، ولم يورِ الزَّنْد ، وضاق على موسى الأمرُ ، واستبهم الوقتُ ،

وتشتتت به الهمة ، واستولى على قلبه الشغل . ثم رأى ناراً من بعيد ، فقال لأهله : امكثوا إنّي أبصرتُ ناراً . وفي القصة : إنه تشتت أغنامُه ، وكانت له بقور وثيران تحمل متاعَه فشردت ، فقالت امرأتُه :

كيف تتركنا وتمضي والوادي مسبع ؟ ! .

فقال : امكثوا . . فإني لأجلكم أمضي وأتعرف أمرَ هذه النار ، لَعَلّي آتيكم منها إمَّا بِقَبَسٍ أو شعلةٍ ، أو بخبرٍ عن قوم نُزُولٍ عليها تكون لنا بهم استعانة ، ومن جهتهم انتفاع . وبَدَتْ لعينه تلك النارُ قريبةً ، فكان يمشي نحوها ، وهي تتباعد حتى قَرُب منها ، فرأى شجرةً رطبةً خضراءَ تشتعل كلُّها من أولها إلى آخرها ، وهي مضيئة ، فَجَمَعَ خُشَيْبَاتٍ وأراد أن يقتبس منها ، فعند ذلك سمع النداءَ من الله لا من الشجرة كما تَوَهَّم المخالِفون من أهل البدع . وحصل الإجماعُ أَنَّ موسى سمع تلك الليلة كلامَ الله ، ولو كان النداء في الشجرة لكان المتكلم به الشجرة ، ولأجل الإجماع قلنا : لم يكن النداء في الشجرة وإلا فنحن نجوّز أن يخلق الله نداءً في الشجرة ويكون تعريفاً ، ولكن حينئذٍ يكون المتكلم بذلك الشجرة . ولا يُنْكر في الجواز أن يكون الله أسمع موسى كلامه بإسماع خلقه له ، وخَلَقَ كلاماً في الشجرة أيضاً ، فموسى سمع كلامَه القديم وسمع كلاماً مخلوقاً في الشجرة . . . وهذا من طريق العقل جائز .

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)

أي بورِكَ مَنْ هو في طلب النار ومَنْ هو حول النار .

ومعنى بورِكَ لَحِقَتْه البركةُ أو أصابته البَرَكةُ . . . والبركةُ الزيادةُ والنّماءُ في الخير .

والدعاء مِنَ القديم – سبحانه – بهذا يكون تحقيقاً له وتيسيراً به .

يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

الذي يُخَاطِبُكَ أنا اللَّهُ ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ في استحقاق جلالي ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في جميع أفعالي .

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ .

في آية أخرى بَيَّنَ أنه سأله ، وقال له على وجه التقرير : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : 17] وأجابه بقوله : ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه : 17] وذَكَرَ بعضَ ما له فيها من المآرب والمنافع ، فقال الله : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ، وذلك لأنه أراد أَنْ يُرِيَه فيها من عظيم البرهان ما يجعل له كمالَ اليقين .

وألقاها موسى فَقَلَبَهَا اللَّهُ ثعباناً ، أولاً حيةً صغيرةً ثم صارت حيةً كبيرةً ، فأوجس في نفسه موسى خيفةً وولَّى مُدْبِراً هارباً ، وكان خوفه من أن يُسَلِّطَهَا عليه لَمَّا كان عارفاً بأن

اللهُ يعذِّبَ مَنْ يشاء بما يشاء ، فقال له الحقُّ :

﴿ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

أي لا ينبغي لهم أن يخافوا .

إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11)

وهذا يدلُّ على جواز الذَّنبِ على الأنبياء عليهم السلام فيما لا يتعلق بتبليغ الرسالة بشرط تَرْكِ الإصرار . فأمَّا مَنْ لا يُجيزُ عليهم الذنوبَ فيحمل هذا على ما قبل النبوة .

فلمَّا رأى موسى انقلابَ العصا عَلِمَ أَنَّ الحقَّ هو الذي يكاشفه بذلك .

ويقال : كيف عَلِمَ موسى – عليه السلام – أَنَّ الذي سمعه كلامُ اللَّهِ ؟

(166/575)

والجواب أنه بتعريفٍ منه إياه – ويجوز أن يكون ذلك العلم ضرورياً فيه ، ويجوز أن يكون كَسْبياً ، ويكون الدليل له الذي له الذي به عَلِمَ صِدْقَه في قوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ ﴾ هو ما ظهر على يَدِهِ – في الوقت – من المعجزة ، من قَلْبِ العصا ، وإخراج يده بيضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 25 . 27 ﴾

(167/575)

قوله تعالى ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أراه سبحانه هذه الخارقة فيما كان في يده بقلب جوهرها إلى جوهر شيء آخر حيواني ، أراه آية أخرى في يده نفسها بقلب عرضها الذي كانت عليه إلى عرض آخر نوراني ، فقال : ﴿ وأدخل يدك في جيبك ﴾ أي فتحة ثوبك ، وهو ما قطع منه ليخيط بعنقك ﴿ تخرج ﴾ أي إذا أخرجتها ﴿ بيضاء ﴾ أي بياضاً عظيماً نيراً جداً ، له شعاع كشعاع الشمس .

ولما كان ربما وقع في وهم أن هذه الآفة ، قال : ﴿ من غير سوء ﴾ أي برص ولا غيره من الآفات ، آية أخرى كائنة ﴿ في ﴾ جملة ﴿ تسع آيات ﴾ كما تقدم شرحها في سورة الإسراء وغيرها ، منتهية على يدك برسالتي لك ﴿ إلى فرعون وقومه ﴾ أي الذين هم أشد أهل هذا الزمان قياماً في الجبروت والعدوان ؛ ثم علل إرساله إليهم بالخوارق بقوله :

﴿ إنهم كانوا ﴾ أي كوناً كأنه جبلة لهم ﴿ قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعتنا لتردهم إلينا .

ولما كان التقدير : فأتاهم كما أمرناهم فعاندوا أمرنا ، قال منبهاً على ذلك ، دالاً بالفاء على سرعة إتيانه إليهم امتثالاً لما أمر به : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا ﴾ أي على يده ﴿ مبصرة ﴾ أي سبب الإبصار لكونها منيرة ظاهرة جداً ، فهي هادية لهم إلى الطريق الأقوم هداية النور لمن يبصر ، فهو لا يخطىء شيئاً ينبغي أن ينتفع به ﴿ قالوا هذا سحر ﴾ أي خيال لا حقيقة له ﴿ مبين ﴾ أي واضح في أنه خيال ﴿ وجحدوا ﴾ أي أنكروا عالمين ﴿ بها ﴾ أي أنكروا كونها آيات موجبات لصدقه مع علمهم بإبطالهم لأن الجحود الإنكار مع العلم .

(168/575)

ولما كان الجحد معناه إنكار الشيء مع العلم به ، حقق ذلك بقوله : ﴿ واستيقنتها ﴾ أي والحال أنهم قد طلبوا الوقوف على حقائق أمرها حتى تيقنتها في كونها حقاً ﴿ أنفسهم ﴾ وتخلل علمها صميم عظامهم ، فكانت ألسنتهم مخالفة لما في قلوبهم ، ولذلك أسند الاستيقان إلى النفس .

ثم علل جحدهم ووصفهم لها بخلاف وصفها فقال : ﴿ ظلماً وعلواً ﴾ أي إرادة وضع

الشيء في غير حقه ، والتكبر على الآتي به ، تلبيساً على عباد الله .

ولما كان التقدير : فأغرقناهم أجمعين بأيسر سعي وأهون أمر فلم يبق منهم غير تطرف ، ولم يرجع منهم مخبر ، على كثرتهم وعظمتهم وقوتهم ، عطف عليه تذكيراً به مسبباً عنه قوله : ﴿ فانظر ﴾ ونبه على أن خبرهم مما تتوفر الدواعي على السؤال عنه لعظمته ، فقال معبراً بأداة الاستفهام : ﴿ كيف كان ﴾ وكان الأصل : عاقبتهم ، أي آخر أمرهم ، ولكنه أظهر فقال : ﴿ عاقبة المفسدين ﴾ ليدل على الوصف الذي كان سبباً لأخذهم تهديداً لكل من ارتكب مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 412.413 ﴾

(169/575)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ في تسع آيات ﴾

فهو كلام مستأنف ، وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف ، والمعنى اذهب في تسع آيات إلى فرعون ، ولقائل أن يقول : كانت الآيات إحدى عشرة ، اثنتان منها اليد والعصا ، والتسع : الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان

في مزارعهم .

أما قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا مُبْصِرةً ﴾ فقد جعل الإبصار لها ، وهو في الحقيقة لمتأملها ، وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها ، أو جعلت كأنها لظهورها تبصر فتهتدي ، وقرأ علي بن الحسين وقتادة ﴿ مُبْصِرةً ﴾ وهو نحو مجبنة ومبخلة ، أي مكاناً يكثر فيه التبصر .

أما قوله : ﴿ واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ فالواو فيها واو الحال ، وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم ، والاستيقان أبلغ من الإيقان .

أما قوله : ﴿ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ فأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى ، ثم كابر بتسميتها سحراً بيناً .

وأما العلو فهو التكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله : ﴿ فاستكبروا وكَانُواْ قَوْماً عالين ﴾ [المؤمنون : 46] وقرىء (علياً) و (علياً) بالضم والكسر ، كما قرىء (عتياً) و ﴿ عِتِيّاً ﴾ [مريم : 8 ، 69] ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 158 ﴾

وقال ابن عطية :

ثم أمر تعالى موسى بأن يدخل يده في جيب جبته لأنها لم يكن لها كم فيما قال ابن عباس ، وقال مجاهد كانت مدرعة صوف إلى بعض يده ، و" الجيب " الفتح في الثوب لرأس الإنسان ، وروي أن يد موسى عليه السلام كانت تخرج تلألأ كأنها قطعة نور ، ومعنى إدخال اليد في الجيب ضم الآية إلى موسى وإظهار تلبسها به لأن المعجزات من شروطها أن يكون لها اتصال بالآتي بها ، وقوله ﴿ من غير سوء ﴾ أي من غير برص ولا علة وإنما هي آية تجيء وتذهب ، وقوله ﴿ في تسع آيات ﴾ ، متصل بقوله ﴿ ألق ﴾ ﴿ وأدخل ﴾ ، وفي اقتضاب وحذف تقديره نمهد ونسير ذلك لك في جملة تسع آيات ، وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والحجر ، وفي هذين الآخيرين اختلاف والمعنى تجيء بهن إلى فرعون وقومه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) ﴾

الضمير في قوله ﴿ جاءتهم ﴾ لفرعون وقومه ، و ﴿ مبصرة ﴾ معناه الإبصار والوضوح ، وهذا على نحو قولهم : نهار صائم وليل قائم ونائم ، وقرأ قتادة وعلي بن الحسين " مَبصَرة " بفتح الميم والصاد ، وظاهر قوله تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ حصول الكفر عناداً وهي مسألة قولين هل يجوز أن يقع أم لا ؟ فجوزت ذلك فرقة وقالت

يجوز أن يكون الرجل عارفاً إلا أنه يجحد عناداً ويموت على معرفته وجحوده فهو بذلك في حكم الكافر المخلد ، قالوا وهذا حكم إبليس وحكم حيي بن أخطب وأخيه حسبما روي عنهما .

قال الفقيه الإمام القاضي : وإن عورض هذا المثال فرض إنسان ويجوز ذلك فيه وقالت فرقة لا يصح لوجهين :

أحدهما أن هذا لا يجوز وقوعه من عاقل ، والوجه الآخر أن المعرفة تقتضي أن تحل في القلب ، وذلك إيمان وحكم الكفر لا يلحقه إلا بأن يحل بالقلب كفر ، ولا يصح اجتماع الضدين في محل واحد ، قالوا : ويشبه في هذا العارف الجاحد أن يسلب عند الموافاة تلك المعرفة ويحل بدلها الكفر .

(171/575)

قال القاضي أبو محمد : والذي يظهر عندي في هذه الآية وكل ما جرى مجراها أن هؤلاء الكفرة كانوا إذا نظروا في آيات موسى عليه السلام أعطتهم عقولهم أنها ليست تحت قدرة البشر وحصل لهم اليقين أنها من عند الله تعالى ، فيغلبهم أثناء ذلك الحسد ويتمسكون بالظنون في أنه سحر وغير ذلك مما يختلج في الظن بحسب كل آية ، ويلجون في عماهم

فيضطرب ذلك اليقين ويدفعونه في كل حيلة من التحيل لربوبية فرعون وغير ذلك ، حتى يستلب ذلك اليقين أو يدوم كذلك مضطرباً ، وحكمه المستلب في وجوب عذابهم ، و ﴿ ظلماً ﴾ معناه على غير استحقاق للجحد ، و" العلو " في الأرض أعظم آفة على طالبه . قال الله تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ [القصص : 83] . ثم عجبه تعالى من عقاب ﴿ المفسدين ﴾ قوم فرعون وسوء منقلبهم حين كذبوا موسى وفي هذا تمثيل لكفار قريش إذ كانوا مفسدين مستعلين ، وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش " ظلماً وعلياً " ، وحكى أبو عمرو الداني عنهم وعن أبان بن تغلب أنهم كسروا العين من " عِلياً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(172/575)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ ﴾

الجَيْب حيث جيبَ من القميص ، أي : قُطِع .

قال ابن جرير : إِنَّما أُمر بادخاله يده في جيبه ، لأنه كان عليه حينئذ مِدْرَعة من صوف ليس لها كُمّ .

والسُّوء : البَرَص .

قوله تعالى : ﴿ فِي تِسْعِ آيات ﴾ قال الزجاج : "في" مِنْ صلة قوله ﴿ وأَلْقِ عصاك ﴾ ﴿ وأدخل يدك ﴾ ، فالتأويل : أظْهِر هاتين الآيتين في تسع آيات .

و"في" بمعنى "مِنْ" ، فتأويله : مِنْ تسع آيات ؛ تقول : خذ لي عشراً من الإِبل فيها فحلان ، أي : منها فحلان ، وقد شرحنا الآيات في [بني إِسرائيل : 101] .

قوله تعالى : ﴿ إِلى فرعون وقومه ﴾ أي : مُرْسَلاً إِلى فرعون وقَومِه ، فحذف ذلك لأنه معروف ، ﴿ فلما جاءتهم آياتُنا مُبْصِرةً ﴾ أي : بيّنة واضحة ، وهو كقوله ﴿ وآتَينا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرةً ﴾ [الاسراء : 59] وقد شرحناه .

قوله تعالى : ﴿ قالوا هذا ﴾ أي : هذا الذي نراه عِياناً ﴿ سِحْرٌ مُبين ﴾ ﴿ وجَحَدوا بها ﴾ أي : أنكرها ﴿ واستَيْقَنَتْها أَنْفُسُهم ﴾ أنّها مِنْ عند الله ، ﴿ ظُلْماً ﴾ أي : شِركاً ﴿ وعُلُوّاً ﴾ أي : تكبراً .

قال الزجاج : المعنى : وجحدوا بها ظُلماً وعُلُوّاً ، أي : ترفُّعاً عن أن يؤمِنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(173/575)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾

تقدم في "طه" القول فيه .

﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن المعنى : هذه الآية داخلة في تسع آيات .

المهدوي : المعنى : ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ فهما آيتان من تسع آيات .

وقال القشيري معناه : كما تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم .

أي خرجت عاشر عشرة .

ف ﴿ في ﴾ بمعنى ﴿ من ﴾ لقربها منها كما تقول خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي منها .

وقال الأصمعي في قول امرىء القيس :

وهل يَنْعَمَنْ من كان آخرُ عهدِه . . .

ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوالِ

في بمعنى من .

وقيل : في بمعنى مع ؛ فالآيات عشرة منها اليد ، والتسع : الفلق والعصا والجراد والقُمَّل

والطوفان والدم والضفادع والسنين والطَّمْس .

وقد تقدّم بيان جميعه .

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ قال الفرّاء : في الكلام إضمار لدلالة الكلام عليه ، أي إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي واضحة بينة .

قال الأخفش : ويجوز مَبصْرَة وهو مصدر كما يقال : الولد مَجْبَنة .

﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ جروا على عادتهم في التكذيب فلهذا قال : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ أي تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحراً ، ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى .

وهذا يدلّ على أنهم كانوا معاندين .

و﴿ ظُلْماً ﴾ و ﴿ عُلُوّاً ﴾ منصوبان على نعت مصدر محذوف ، أي وجحدوا بها جحوداً ظلماً وعلواً .

والباء زائدة أي وجحدوها ؛ قاله أبو عبيدة .

﴿ فانظر ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ أي آخر أمر الكافرين الطاغين ،

انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه .

الخطاب له والمراد غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(174/575)

وقال أبو حيان :

﴿ وأدخل ﴾ : أمر بما يترتب عليه من ظهور المعجز العظيم ، لما أظهر له معجزاً في غيره ، وهو العصا ، أظهر له معجزاً في نفسه ، وهو تلألؤ يده كأنها قطعة نور ، إذا فعل ما أمر به .

وجواب الأمر الظاهر أنه تخرج ، لأن خروجها مترتب على إدخالها .

وقيل : في الكلام حذف تقديره : وأدخل يدك في جيبك تدخل ، وأخرجها تخرج ، فحذف من الأول ما أثبت مقابله في الثاني ، ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول .

قال قتادة : ﴿ في جيبك ﴾ : قميصك ، كانت له مدرعة من صوف لا كمين لها .

وقال ابن عباس ، ومجاهد : كان كمها إلى بعض يده .

وقال السدي : في جيبك : أي تحت إبطك .

والظاهر أن قوله : ﴿ في تسع آيات إلى فرعون ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : اذهب بهاتين الآيتين : ﴿ في تسع آيات إلى فرعون ﴾ ، ويدل عليه قوله بعد : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا

مبصرة ﴾ ، وهذا الحذف مثل قوله :

أتوا ناري فقلت منون أنتم . . .

فقالوا الجن قلت عموا ظلاماً

وقلت إلى الطعام فقال منهم . . .

فريق يحسد الإنس الطعاما

التقدير : هلموا إلى الطعام .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى : وألق عصاك ، وأدخل يدك ، في ﴿ تسع آيات ﴾ ، أي في جملة تسع آيات .

ولقائل أن يقول : كانت الآيات إحدى عشرة ، ثنتان منها : اليد والعصا ، والتسع : الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجذب في بواديهم ، والنقصان من مزارعهم . انتهى .

فعلى الأول يكون العصا واليد داخلتين في التسع ، وعلى الثاني تكون في بمعنى مع ، أي مع تسع آيات .

وقال ابن عطية : ﴿ في تسع آيات ﴾ متصل بقوله : ﴿ ألق ، وأدخل ﴾ ، وفيه اقتضاب وحذف تقديره : تمهد ذلك وتيسر لك في جملة تسع آيات وهي : العصا ، واليد ، والطوفان

، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمس ، والحجر ؛ وفي هذين الأخيرين اختلاف ، والمعنى : يجيء بهنّ إلى فرعون وقومه .

(175/575)

وقال الزجاج : في تسع آيات ، أي من تسع آيات ، كما تقول : خذ ﴿ لي ﴾ عشراً من الإبل فيها فحلان ، أي منها إلى فرعون ، أي مرسلاً إلى فرعون . انتهى .

وانتصب ﴿ مبصرة ﴾ على الحال ، أي بينة واضحة ، ونسب الإبصار إليها على سبيل المجاز ، لما كان يبصر بها جعلت مبصرة ، أو لما كان معها الإبصار والوضوح .

وقيل : لجعلهم بصراء ، من قول : أبصرته المتعدية بهمزة النقل من بصر .

وقيل : فاعل بمعنى مفعول ، كماء دافق .

وقرأ قتادة ، وعلي بن الحسين : مبصرة ، بفتح الميم والصاد ، وهو مصدر ، كما تقول : الولد مجبنة ، وأقيم مقام الاسم ، وانتصب أيضاً على الحال ، وكثر هذا الوزن في صفات الأماكن نحو : أرض مسبعة ، ومكان مضية .

قال الزمخشري : أي مكاناً يكثر فيه التبصر . انتهى .

والأبلغ في : ﴿ واستيقنتها ﴾ أن تكون الواو واو الحال ، أي كفروا بها وأنكروها في

الظاهر ، وقد استيقنت أنفسهم في الباطن أنها آيات من عند الله ، وكابروا وسموها سحراً .

وقال تعالى ، حكاية عن موسى في محاورته لفرعون : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ ﴿ ظلماً ﴾ : مجاوزة الحد ، ﴿ وعلواً ﴾ : ارتفاعاً وتكبراً عن الإيمان ، وانتصبا على أنهما مصدران في موضع الحال ، أي ظالمين عالين ؛ أو مفعولان من أجلهما ، أي لظلمهم وعلوهم ، أي الحامل لهم على الإنكار والجحود ، مع استيقان أنها آيات من عند الله هو الظلم والعلو .

واستفعل هنا بمعنى تفعل نحو : استكبر في معنى تكبر .

(176/575)

وقرأ عبد الله ، وابن وثاب ، والأعمش ، وطلحة ، وأبان بن تغلب ، وعلياً : بقلب الواو ياء ، وكسر العين واللام ، وأصله فعول ، لكنهم كسروا العين اتباعاً ؛ وروي ضمها عن ابن وثاب والأعمش وطلحة ، وتقدم الخلاف في كفر العناد ، هل يجوز أن يقع أم لا ؟ والعاقبة : ما آل إليه قوم فرعون من سوء المنقلب ، وما أعد لهم في الآخرة أشد ، وفي هذا تمثيل لكفار

قريش ، إذ كانوا مفسدين مستعلين ، وتحذير لهم أن يحل بهم مثل ما حل بمن كان قبلهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(177/575)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾

لأَنَّه كان مدرعةَ صوفٍ لا كم لها وقيل : الجيبُ القميصُ لأَنَّه يُجاب أي يُقطع ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ أي آفة كبَرَصٍ ونحوه ﴿ فِى تِسْعِ ءَايَاتٍ ﴾ في جُملتها أو معها على أنَّ التِّسعَ هي الفَلْقُ والطُّوفان والجرادُ والقُمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ والطَّمسةُ والجَدبُ في بواديهم والنُّقصان في مزارعِهم ولمن عدَّ العصَا واليدَ من التسعِ أن يعدَّ الأخيرين واحداً ولا يعدُّ الفَلْق منها لأنه لم يُبعث به إلى فرعونَ أو اذهب في تسع آيات على أنه استئنافٌ بالإرسال فيتعلَّق به ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ وعلى الأولين يتعلَّق بنحو مبعوثاً أو مرسلاً ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ تعليل للإرسالِ أي خارجين عن الحدود في الكفرِ والعُدوان .

﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا ﴾ وظهرتْ على يدِ مُوسى ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بينة اسم فاعلِ أطلق

على المفعول إشعاراً بأنَّها لفرطِ وضوحِها وإنارتِها كأنَّها تُبصر نفسَها لو كانت ممَّا يُبصر أو ذاتُ تبصُّرٍ من حيث أنها تهدي والعمي لا تهتدي فضلاً عن الهدايةِ أو مبصرة كلَّ مَن ينظر إليها ويتأمَّلُ فيها وقرىء مَبْصرة أي مكاناً يكثُر فيه التَّبصرُ .

﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ واضحٌ سحريته .

(178/575)

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ أي كذَّبوا بها ﴿ واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ الواو للحالِ أي وقد استيقنتها أي علمتها أنفسُهم علماً يقينياً ﴿ ظُلْماً ﴾ أي للآياتِ كقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ بآياتنا يَظْلِمُونَ ﴾ ولقد ظلُموا بها أيَّ ظلم حيث حطُّوها عن رتبتها العاليةِ وسمَّوها سحراً وقيل ظُلماً لأنفسِهم وليس بذاك ﴿ وَعُلُوّاً ﴾ أي استكباراً عن الإيمان بها كقوله تعالى : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا واستكبروا عَنْهَا ﴾ وانتصابهُما إما على العلَّةِ من جحدُوا بها أي على الحاليةِ من فاعله أي جحدُوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ من الإغراقِ على الوجهِ الهائل الذي هو عبرةٌ للعالمين ، وإنَّما لم يذكر تنبيهاً على أنَّه عرضة لكلِّ ناظرٍ مشهور فيها بين كل بادٍ وحاضرٍ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾

أي جيب قميصك وهو مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن لأنه مولد ، ولم يقل سبحانه : في كمك لأنه عليه السلام كان لابساً إذ ذاك مدرعة من صوف لا كم لها ، وقيل : الجيب القميص نفسه لأنه يجاب أي يقطع فهو فعل بمعنى مفعول ، وقال السدي : ﴿ فِى جَيْبِكَ ﴾ أي تحت إبطك .

ولعل مراده أن المعنى أدخلها في جيبك وضعها تحت إبطك ، وكانت مدرعته عليه السلام على ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لا أزرار لها ، وقد ورد في بعض الآثار أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان مطلق القميص في بعض الأوقات ، ففي سنن أبي داود باب في حل الأزرار ثم أخرج فيه من طريق معاوية بن قرة قال : حدثني أبي قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من مزينة فبايعناه وإن قميصه لمطلق ، وفي رواية البغوي في معجم الصحابة لمطلق الأزرار قال : فبايعته .

ثم أدخلت يدي في جيب قميصه فمسست الخاتم ، قال عروة فما رأيت معاوية ولا أباه قط

إلا مطلقي أزرارهما ، ولا يزرانها أبداً وجاء أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام أمر بزر الأزرار .

فقد أخرج الطبراني عن زيد بن أبي أوفى " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فإذا أزراره محلولة فزرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : اجمع عطفي ردائك على نحرك " وفي هذين الأثرين ما هو ظاهر في أن جيب القميص كان إذا ذاك على الصدر كما هو اليوم عند العرب .

وهو يبطل القول بأنه خلاف السنة وأنه من شعائر اليهود ، وأمره تعالى إياه عليه السلام بإدخال يده في جيبه مع أنه سبحانه قادر على أن يجعلها بيضاء من غير إدخال للامتحان وله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء ، والظاهر أن قوله تعالى :

(180/575)

﴿ تُخْرِجُ ﴾ جواب الأمر لأن خروجها مترتب على إدخالها ، وقيل : في الكلام حذف تقديره وأدخل يدك في جيبك تدخل وأخرجها تخرج فحذف من الأول ما أثبت مقابلة في الثاني ومن الثاني ما أثبت مقابله في الأول فيكون في الكلام صنعة الاحتباك وهو تكلف لا حاجة إليه ، وقوله تعالى : ﴿ بَيْضَاء ﴾ حال وكذا قوله تعالى : ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾

وهو احتراس وقد تقدم الكلام فيه .

وكذا قوله سبحانه : ﴿ فِى تِسْعِ ءايات ﴾ أي آية معدودة من جملة تسع آيات أو معجزة لك معها على أن التسع هي الفلق .

والطوفان .

والجراد .

والقمل .

والضفادع .

والدم .

والطمسة وهي جعل أسبابهم حجارة .

والجدب .

في بواديهم .

والنقصان في مزارعهم .

ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الجدب والنقصان في المزارع واحداً ولا يعد الفلق منها لأنه عليه السلام لم يبعث به إلى فرعون وأن تقدمه بيسير ؛ ومن عده يقول : يكفي معاينته له في البعث به أو هو بعث به لمن آمن من قومه ولمن تخلف من القبط ولم يؤمن ، وفي "التقريب" أن الطمسة .

والجدب .

والنقصان يرجع إلى شيء واحد فالتسع هذا الواحد .

والعصا .

واليد .

وما بقي من المذكورات .

وذهب "صاحب الفرائد" إلى أن الجراد .

القمل واحد ، والجدب .

والنقصان واحد ، وجوز أن يكون في تسع منقطعاً عما قبله متعلقاً بمحذوف أي اذهب في تسع آيات .

ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا ﴾ [النمل : 13] وفي بمعنى مع ،

ونظير هذا الحذف ما في قوله :

أوا ناري فقلت منون أنتم . . .

فقالوا الجن قلت عموا ظلاماً

وقلت إلى الطعام فقال منهم . . .

فريق يحسد الإنس الطعاما

فإن التقدير هلموا إلى العطام .

ويتعلق بهاذ المحذوف قوله تعالى : ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ وعلى ما تقدم يتعلق بمحذوف وقع حالاً أي مبعوثاً أو مرسلاً إلى فرعون ، وأياً ما كان فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ مستأنف استئنافاً بيانياً كأنه قيل لم أرسلت إليهم بما ذكر ؟ فقيل : إنهم الخ ، والمراد بالفسق إما الخروج عما ألزمهم الشرع إياه إن قلنا بأنهم قد أرسل قبل موسى عليه السلام من يلزمهم اتباعه وهو يوسف عليه السلام ، وإما الخروج عما ألزمه العقل واقتضاء الفطرة إن قلنا بأنه لم يرسل إليهم أحد قبله عليه السلام .

﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا ﴾ أي ظهرت لهم على يد موسى عليه السلام ، فالمجيء مجاز عن الظهور وإسناده إلى الآيات حقيقي ، وقال بعض الأجلة : المجيء حقيقة وإسناده إلى الآيات مجازي وهو حقيقة لموسى عليه السلام ولما بينهما من الملابسة لكونها معجزة له عليه السلام ساغ ذلك .

ولعل النكتة في العدول عن فلما جاءهم موسى بآياتنا إلى ما في النظم الجليل الإشارة إلى أن تلك الآيات خارجة عن طوقه عليه السلام كسائر المعجزات وأنه لم يكن له عليه السلام تصرف في بعها وكونه معجة له لأهباره به ووقوعه بدعائه ونحوه ، ولا ينافي هذا الإسناد إليه لكونها جارية على يده للإعجاز في قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم موسى بآياتنا ﴾ [القصص : 36] في محل آخر ، وقد بين بعضهم وجهاً لاختصاص كل منهما بمحله بأن ثمة ذكر مقاولته عليه السلام ومجادلتهم معه فناسب الإسناد إليه ، وهنا لما لم يكن كذلك ناسب الإسناد إليها لأ المقصود بيان جحودهم بها ، وإضافة الآيات للعهد ، وفي إضافتها إلى ضمير العظمة ما لا يخفى من تعظيم شأنها ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ حال من الآيات أي بينة واضحة ، وجعل الأبصار لها وهو حقيقة لمتأمليها للملابسة بينها وبينهم لأنهم إنما يبصرون بسبب تأملهم فيها فالإسناد مجازي من باب الإسناد إلى السبب ، ويجوز أن يراد مبصرة كل من نظر إليها من العقلاء أو من فرعون وقومه لقوله تعالى : ﴿ واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] أي جاعلته بصيراً من أبصره المتعدي بهمزة النقل من بصر والإسناد أيضاً مجازي .

ويجوز أن تجعل الآيات كأنها تبصر فتهدي لأن العمى لا تقدر على الاهتداء فضلاً أن تهدي غيرها فيكون في الكلام استعارة مكنية تخييلية مرشحة ، قال في "الكشف" وهذا الوجه

أبلغ ، وقيل : إن فاعلاً أطلق للمفعول فالمجاز إما في الطرف أو في الإسناد فتأمل .

وقرأ قتادة .

(183/575)

وعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بفتح الميم والصاد على وزن مسبغة ، وأصل هذه الصيغة أن تصاغ في الأكثر لمكان كثر فيه مبدأ الاشتقاق فلا يقال : مسبعة مثلاً إلا لمكان يكثر فيه السباع لا لما فيه سبع واحد ثم تجوز بها عما هو سبب لكثرة الشيء وغلبته كقولهم : الولد مجبنة ومبخلة أي سبب لكثرة جبن الوالد وكثرة بخله وهو المراد هنا أي سبباً لكثرة تبصر الناظرين فيها ، وقال أبو حيان : هو مصدر أقيم مقام الاسم وانتصب على الحال أيضاً ﴿ قَالُواْ هذا ﴾ أي الذي نراه أو نحوه ﴿ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي واضح سحريته على أن ﴿ مُّبِينٌ ﴾ من أبان اللازم .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ أي وكذبوا بها ﴿ واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ أي علمت علماً يقينياً أنها آيات من عند الله تعالى ، والاستيقان أبلغ من الإيقان .

وفي "البحر" أن استفعل هنا بمعنى تفعل كاستكبر بمعنى تكبر ، والأبلغ أن تكون الواو للحال والجملة بعدها حالية إما بتقدير قد أو بدونها ﴿ ظُلْماً ﴾ أي للآيات كقوله تعالى : ﴿ بِمَا

كَانُواْ بآيَاتنا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف : 9] وقد ظلموا بها أي ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحراً ، وقيل : ظلماً لأنفسهم وليس بذاك ﴿ وَعُلُوّاً ﴾ أي ترفعاً واستكباراً عن الإيمان بها كقوله تعالى : ﴿ والذين كَذَّبُواْ بآيَاتنا واستكبروا عَنْهَا ﴾ [الأعراف : 36] وانتصابهما إما على العلية من ﴿ جَحَدُواْ ﴾ وهي على ما قيل باعتبار العاقبة والادعاء كما في قوله :

لدوا للموت وابنوا للخراب . . .

وأما على الحال من فاعله أي جحدوا بها ظالمين عالين ، ورجح الأول بأنه أبلغ وأنسب بقوله تعالى : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ أي ما آل إليه فرعون وقومه من الإغراق على الوجه الهائل الذي هو عبرة للظالمين ، وإنما لم يذكر تنبيهاً على أنه عرضة لكل ناظر مشهور لدى كل باد وحاضر .

(184/575)

وأدخل بعضهم في العاقبة حالهم في الآخرة من الإحراق والعذاب الأليم .

وفي إقامة الظاهر مقام الضمير ذم لهم وتحذير لأمثالهم .

وقرأ عبد الله .

وابن وثاب .

والأعمش .

وطلحة .

وأبان بن تغلب ﴿ وعلياً ﴾ بقلب الواو ياء وكسر العين واللام ، وأصله فعول لكنهم كسروا العين اتباعاً ، وروي ضمها عن ابن وثاب . والأعمش . وطلحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(185/575)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) ﴾

قوله : ﴿ طس ﴾ قد مرّ الكلام مفصلاً في فواتح السور ، وهذه الحروف إن كانت اسماً للسورة ، فمحلها الرفع على الابتداء ، وما بعده خبره ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذا اسم هذه السورة ، وإن لم تكن هذه الحروف اسماً للسورة ، بل مسرودة على نمط التعديد ، فلا محل لها ، والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى نفس السورة ؛ لأنها قد ذكرت إجمالاً بذكر اسمها ، واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره : ﴿ آيَاتُ القرآن ﴾ والجملة خبر

المبتدأ الأوّل على تقدير أنه مرتفع بالإبتداء ﴿ وكتاب مُّبِين ﴾ قرأ الجمهور بجرّ كتاب عطفاً على القرآن أي تلك آيات القرآن وآيات كتاب مبين ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ وكتاب ﴾ القرآن نفسه ، فيكون من عطف بعض الصفات على بعض مع اتحاد المدلول ، وأن يكون المراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، أو نفس السورة ، وقرأ ابن أبي عبلة " وكتاب مبين " برفعهما عطفاً على آيات .

وقيل : هو على هذه القراءة على تقدير مضاف محذوف ، وإقامة المضاف إليه مقامه أي وآيات كتاب مبين ، فقد وصف الآيات بالوصفين : القرآنية الدالة على كونه مقروءاً مع الإشارة إلى كونه قرآناً عربياً معجزاً ، والكتابية الدالة على كونه مكتوباً مع الإشارة إلى كونه متصفاً بصفة الكتب المنزلة ، فلا يكون على هذا من باب عطف صفة على صفة مع اتحاد المدلول ، ثم ضم إلى الوصفين وصفاً ثالثاً ، وهي : الإبانة لمعانيه لمن يقرؤه ، أو هو من أبان بمعنى : بان ، معناه واتضح إعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة .

وقدّم وصف القرآنية هنا نظراً إلى تقدّم حال القرآنية على حال الكتابة ، وأخَّره في سورة الحجر ، فقال : ﴿ الرَ تِلْكَ ءايات الكتاب وَقُرْءانٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر : 1] .

نظراً إلى حالته التي قد صار عليها ، فإنه مكتوب .

والكتابة سبب القراءة ، والله أعلم .

وأما تعريف القرآن هنا ، وتنكير الكتاب ، وتعريف الكتاب في سورة الحجر ، وتنكير القرآن فلصلاحية كلّ واحد منهما للتعريف ، والتنكير .

﴿ هُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في موضع نصب على الحال من الآيات أو من الكتاب أي تلك آيات هادية ومبشرة ، ويجوز أن يكون في محل رفع على الإبتداء ، أي هو هدى ، أو هما خبران آخران لتلك ، أو هما مصدران منصوبان بفعل مقدّر ، أي : يهدي هدى ، ويبشر بشرى .

ثم وصف المؤمنين الذي لهم الهدى والبشرى ، فقال : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزكواة ﴾ ، والموصول في محل جرّ ، أو يكون بدلاً أو بياناً ، أو منصوباً على المدح ، أو مرفوعاً على تقدير مبتدأ .

والمراد بالصلاة : الصلوات الخمس ، والمراد بالزكاة : الزكاة المفروضة ، وجملة : ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، وكرّر الضمير للدلالة على الحصر ، أي لا يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلاّ هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، وجعل الخبر مضارعاً للدلالة على التجدد في كلّ وقت ، وعدم الانقطاع .

ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة ، فقال : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ ، وهم الكفار ، أي لا يصدّقون بالبعث ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم ﴾ قيل : المراد :

زين الله لهم أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة .

وقيل : المراد : أن الله زين لهم الأعمال الحسنة ، وذكر لهم ما فيها من خيري الدنيا والآخرة ، فلم يقبلوا ذلك .

قال الزجاج : معنى الآية : أنا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يتردّدون فيها متحيرين على الاستمرار لا يهتدون إلى طريقة ، ولا يقفون على حقيقة .

وقيل : معنى ﴿ يعمهون ﴾ : يتمادون .

وقال قتادة : يلعبون ، وفي معنى التحير قال الشاعر :

ومهمه أطرافه في مهمه . . . أعمى الهدى الحائرين العمه

(187/575)

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المذكورين قبله ، وهو مبتدأ خبره ﴿ لَهُمْ سُوء العذاب ﴾ قيل : في الدنيا كالقتل والأسر ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده : ﴿ وَهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ أي هم أشدّ الناس خسراناً ، وأعظمهم خيبة ثم مهد سبحانه مقدّمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الأخبار العجيبة ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان مِن

لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي يلقى عليك فتلقاه وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم قيل : إن لدن هاهنا بمعنى عند .

وفيها لغات كما تقدّم في سورة الكهف .

﴿ إِذْ قَالَ موسى لِأَهْلِهِ ﴾ الظرف منصوب بمضمر ، وهو اذكر .

قال الزجاج : موضع "إذ" نصب ، المعنى : اذكر إذ قال موسى ، أي : اذكر قصته إذ قال لأهله ، والمراد بأهله : امرأته في مسيره من مدين إلى مصر ، ولم يكن معه إذ ذاك إلاّ زوجته بنت شعيب ، فكنى عنها بلفظ الأهل الدالّ على الكثرة ، ومثله قوله : ﴿ امكثوا ﴾ [طه : 10] ، ومعنى ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ : أبصرتها ﴿ سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ السين تدلّ على بعد مسافة النار ﴿ ءاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين ﴿ شهاب ﴾ ، وقرأ الباقون بإضافته إلى قبس ، فعلى القراءة الأولى يكون قبس بدلاً من شهاب ، أو صفة له لأنه بمعنى مقبوس ، وعلى القراءة الثانية الإضافة للبيان ، والمعنى على القراءتين : آتيكم بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها .

قال الزجاج : من نوّن جعل ﴿ قبس ﴾ من صفة شهاب ، وقال الفراء : هذه الإضافة كالإضافة في قولهم : مسجد الجامع ، وصلاة الأولى ، أضاف الشيء إلى نفسه لاختلاف أسمائه .

وقال النحاس : هي إضافة النوع إلى الجنس كما تقول : ثوب خز ، وخاتم حديد .

قال : ويجوز في غير القرآن بشهاب قبساً على أنه مصدر ، أو بيان ، أو حال ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي رجاء أن تستدفئوا بها .

(188/575)

أو لكي تستدفئوا بها من البرد ، يقال : صلى بالنار ، واصطلى بها : إذا استدفأ بها .

قال الزجاج : كلّ أبيض ذي نور فهو : شهاب .

وقال أبو عبيدة : الشهاب : النار ، ومنه قول أبي النجم :

كأنما كان شهاباً واقدا . . . أضاء ضوءاً ثم صار خامداً

وقال ثعلب : أصل الشهاب عود في أحد طرفيه جمرة ، والآخر لا نار فيه ، والشهاب : الشعاع المضيء ، وقيل : للكوكب : شهاب ، ومنه قول الشاعر :

في كفه صعدة مثقفة . . . فيها سنان كشعلة القبس

﴿ فَلَمَّا جَاءهَا ﴾ أي : جاء النار موسى ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ : " أن " هي المفسرة لما في النداء من معنى القول ، أو هي المصدرية أي بأن بورك ، وقيل : هي المخففة من الثقيلة .

قال الزجاج : " أن " في موضع نصب أي بأن قال ، ويجوز أن يكون في موضع رفع اسم ما لم

يسم فاعله .

والأولى أن النائب ضمير يعود إلى موسى .

وقرأ أبيّ ، وابن عباس ، ومجاهد : " أن بوركت النار ومن حولها " حكى ذلك أبو حاتم .

وحكى الكسائي عن العرب : باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك ، وبارك لك ، وكذلك حكى هذا الفراء .

قال ابن جرير : قال : ﴿ بورك من في النار ﴾ ، ولم يقل : بورك على النار على لغة من يقول : باركك الله أي : بورك على من في النار ، وهو موسى ، أو على من في قرب النار لا أنه كان في وسطها .

وقال السديّ : كان في النار ملائكة ، والنار هنا هي مجرّد نور ، ولكنه ظن موسى أنها نار ، فلما وصل إليها وجدها نوراً .

وحكي عن الحسن وسعيد بن جبير : أن المراد بمن في النار : هو الله سبحانه أي نوره .

وقيل : بورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذي جعلها على تلك الصفة .

قال الواحدي : ومذهب المفسرين : أن المراد بالنار : النور ، ثم نزّه سبحانه نفسه ، فقال : ﴿ وسبحان الله رَبّ العالمين ﴾ ، وفيه تعجيب لموسى من ذلك .

﴿ يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ الضمير للشأن ، أنا الله العزيز الغالب القاهر الحكيم في أمره وفعله .

وقيل : إن موسى قال : يا ربّ من الذي ناداني ؟ فأجابه الله سبحانه بقوله : ﴿ إنه أنا الله ﴾ ثم أمره سبحانه بأن يلقي عصاه ؛ ليعرف ما أجراه الله سبحانه على يده من المعجزة الخارقة ، وجملة : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ معطوفة على ﴿ بورك ﴾ ، وفي الكلام حذف ، والتقدير ، فألقاها من يده ، فصارت حية ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ قال الزجاج : صارت العصا تتحرك كما يتحرّك الجانّ ، وهي الحية البيضاء ، وإنما شبهها بالجانّ في خفة حركتها ، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها ، وجمع الجانّ : جنان ، وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم .

وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي لم يرجع ، يقال : عقب فلان إذا رجع ، وكل راجع معقب ، وقيل : لم يقف ، ولم يلتفت .

والأوّل أولى ؛ لأن التعقيب هو : الكرّ بعد الفرّ .

فلما وقع منه ذلك قال الله سبحانه : ﴿ يا موسى لاَ تَخَفْ ﴾ أي من الحية وضررها ﴿ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون ﴾ أي لا يخاف عندي من أرسلته برسالتي فلا تخف أنت .

قيل : ونفى الخوف عن المرسلين ليس في جميع الأوقات ، بل في وقت الخطاب لهم ؛ لأنهم إذ

ذاك مستغرقون .

ثم استثنى استثناء منقطعاً ، فقال ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : لكن من أذنب في ظلم نفسه بالمعصية ﴿ ثم بدل حسناً ﴾ أي : توبة وندماً ﴿ بعد سوء ﴾ أي بعد عمل سوء ﴿ فإني غفور رحيم ﴾ وقيل : الاستثناء من مقدّر محذوف أي لا يخاف لديّ المرسلون ، وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم إلاّ من ظلم ثم بدل إلخ ، كذا قال الفراء .

قال النحاس : الاستثناء من محذوف محال ، لأنه استثناء من شيء لم يذكر .

وروي عن الفراء أنه قال : إلاّ بمعنى الواو .

(190/575)

وقيل : إن الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف .

والمعنى : إلاّ من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد ، واختار هذا النحاس ، وقال : علم من عصى منهم ، فاستثناه فقال : ﴿ إلا من ظلم ﴾ وإن كنت قد غفرت له كآدم ، وداود وإخوة يوسف وموسى بقتله القبطيّ .

ولا مانع من الخوف بعد المغفرة ، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم الذي غفر الله له ما تقدّم من

ذنبه وما تأخر ، كان يقول : " وددت أني شجرة تعضد " ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ المراد بالجيب هو المعروف ، وفي القصص ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [القصص : 32] .

وفي ﴿ أدخل ﴾ من المبالغة ما لم يكن في ﴿ اسلك ﴾ .

﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ أي من غير برص ، أو نحوه من الآفات ، فهو احتراس .

وقوله : ﴿ تَخْرُجُ ﴾ جواب : ﴿ أدخل يدك ﴾ .

وقيل : في الكلام حذف تقديره : أدخل يدك تدخل ، وأخرجها تخرج ، ولا حاجة لهذا الحذف ، ولا ملجىء إليه .

قال المفسرون : كانت على موسى مدرعة من صوف لا كمّ لها ولا إزار ، فأدخل يده في جيبه وأخرجها ، فإذا هي تبرق كالبرق ، وقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ قال أبو البقاء : هو في محل نصب على الحال من فاعل تخرج ، وفيه بعد .

وقيل : متعلق بمحذوف أي اذهب في تسع آيات .

وقيل : متعلق بقوله : ﴿ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ و ﴿ أدخل يدك ﴾ في جملة تسع آيات أو مع تسع آيات .

وقيل : المعنى : فهما آيتان من تسع يعني : العصا واليد ، فتكون الآيات إحدى عشرة : هاتان ، والفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب

في بواديهم ، والنقصان في مزارعهم .

قال النحاس : أحسن ما قيل فيه أن هذه الآية يعني : اليد داخلة في تسع آيات ، وكذا قال المهدوي ، والقشيري .

قال القشيري : تقول خرجت في عشرة نفر ، وأنت أحدهم أي خرجت عاشر عشرة ، ففي بمعنى : من لقربها منها ، كما تقول : خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان أي منها .

(191/575)

قال الأصمعي في قول امرىء القيس :

وهل ينعمن من كان آخر عهده . . . ثلاثون شهراً في ثلاثة أحوال

في بمعنى من ، وقيل : في بمعنى مع ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ قال الفراء : في الكلام إضمار ، أي إنك مبعوث ، أو مرسل إلى فرعون وقومه ، وكذا قال الزجاج : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ الجملة تعليل لما قبلها ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا مُبْصِرَةً ﴾ أي جاءتهم آياتنا التي على يد موسى حال كونها مبصرة أي واضحة بينة كأنها لفرط وضوحها تبصر نفسها كقوله : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : 59] .

قال الأخفش : ويجوز أن تكون بمعنى مبصرة على أن اسم الفاعل بمعنى اسم المفعول ، وقد

تقدّم تحقيق الكلام في هذا .

وقرأ عليّ بن الحسين ، وقتادة : " مبصرة " بفتح الميم ، والصاد أي مكاناً يكثر فيه التبصر ، كما يقال : الولد مجبنة ومبخلة ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : لما جاءتهم قالوا هذا القول أي سحر واضح .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ أي كذبوا بها حال كون أنفسهم مستيقنة لها ، فالواو للحال ، وانتصاب ﴿ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ على الحال أي ظالمين عالين ، ويجوز أن ينتصبا على العلة أي الحامل لهم على ذلك الظلم والعلوّ ، ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف أي جحدوا بها جحوداً ظلماً وعلوّاً .

قال أبو عبيدة : والباء في ﴿ وجحدوا بها ﴾ زائدة ، أي وجحدوها .

قال الزجاج : التقدير : وجحدوا بها ظلماً وعلوّاً ، أي شركاً ، وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ، وهم يعلمون أنها من عند الله ﴿ فانظر ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ أي تفكر في ذلك ، فإن فيه معتبراً للمعتبرين .

وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم في البحر على تلك الصفة الهائلة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ يعني تبارك وتعالى نفسه كان نور ربّ العالمين في الشجرة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني : الملائكة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : كان الله في النور نودي من النور ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه أيضاً قال : ناداه الله ، وهو في النور .

وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ قال : بوركت النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : في مصحف أبيّ بن كعب : " بوركت النار ومن حولها " ، أما النار ، فيزعمون : أنها نور ربّ العالمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ أَن بُورِكَ ﴾ قال : قدّس .

وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق أبي عبيدة عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام .

يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور

لو رفع لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره " ثم قرأ أبو عبيدة ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا وسبحان الله رَبّ العالمين ﴾ .

والحديث أصله مخرّج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرّة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه ، فقال له : أدخل يدك في جيبك ، فأدخلها .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ قال : تكبروا ، وقد استيقنتها أنفسهم ، وهذا من التقديم والتأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(193/575)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾

عطف على قوله : ﴿ وألق عصاك ﴾ [النمل : 10] وما بينهما اعتراض ، بعد أن أراه آية انقلاب العصا ثعباناً أراه آية أخرى ليطمئن قلبه بالتأييد ، وقد مضى في "طه" التصريح بأنه أراه آية أخرى .

والمقصود من ذلك أن يعجل له ما تطمئن له نفسه من تأييد الله تعالى إياه عند لقاء فرعون .

وقوله : ﴿ في تسع آيات ﴾ حال من ﴿ تخرج بيضاء ﴾ أي حالة كونها آية من تسع آيات ، و ﴿ إلى فرعون ﴾ صفة لآيات ، أي آيات مسوقة إلى فرعون .

وفي هذا إيذان بكلام محذوف إيجازاً وهو أمر الله موسى بأن يذهب إلى فرعون كما بيّن في سورة الشعراء .

والآيات هي : العصا ، واليَد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم ، والقحط ، وانفلاق البحر وهو أعظمها ، وقد عدّ بعضها في سورة الأعراف .

وجمعها الفيروزآبادي في بيت ذكره في مادة (تسع) من "القاموس" وهو:

عصاً سَنَةٌ بحر جراد وقُمَّل . . .

يَدٌ ودَمٌ بعدَ الضفادع طُوفان

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13)

أوجز بقية القصة وانتقل إلى العبرة بتكذيب فرعون وقومه الآيات ، ليُعتبر بذلك حال الذين كذبوا بآيات محمد صلى الله عليه وسلم وقصد من هذا الإيجاز طي بساط القصة لينتقل منها إلى قصة داود ثم قصة سليمان المبسوطة في هذه السورة .

والمراد بمجيء الآيات حصولها واحدة بعد أخرى وهي الآيات الثمان التي قبل الغرق .

والمبصرة : الظاهرة .

صيغ لها وزن اسم فاعل الإبصار على طريقة المجاز العقلي ، وإنما المبصر الناظرُ إليها .

وقد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾ في سورة الإسراء (59) .

والجحود : الإنكار باللسان .

و ﴿ استيْقنتها ﴾ بمعنى أيقنت بها ، فحُذف حرف الجر وعدي الفعل إلى المجرور على التوسع أو على نزع الخافض ، أي تحققتها عقولُهم ، والسين والتاء للمبالغة .

(194/575)

والظلم في تكذيبهم الرسول لأنهم ألصقوا به ما ليس بحق فظلموه حقه .

والعلو : الكبر ويحسن أن تكون جملة : ﴿ واستيقنتها ﴾ حالية ، فقوله : ﴿ ظلماً وعلواً ﴾ نشر على ترتيب اللفّ .

فالظلم في الجحد بها والعلوّ في كونهم موقنين بها .

وانتصب ﴿ ظلماً وعلوّاً ﴾ على الحال من ضمير ﴿ جحدوا ﴾ وجعل ما هو معلوم من حالهم فيما لحق بهم من العذاب بمنزلة الشيء المشاهد للسامعين فأمر بالنظر إليه بقوله : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

والخطاب لغير معين .

ويجوز أن يكون الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم تسلية له بما حلّ بالمكذبين بالرسل قبله لأن في ذلك تعريضاً بتهديد المشركين بمثل تلك العاقبة .

و﴿ كيف ﴾ يجوز أن يكون مجرّداً عن معنى الاستفهام منصوباً على المفعولية ، ويجوز أن يكون استفهاماً معلّقاً فعلَ النظر عن العمل ، والاستفهام حينئذ للتعجيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(195/575)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ فَاسِقِينَ (12)

هذه آية أخرى ومعجزة جديدة ، قال عنها في موضع آخر : ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ [القصص : 32] .

فما الفرق بين : أَدْخِل يدك ، واسْلُك يدك ؟ قالوا : لأنه ساعة يُدخِل يده في جيبه يعني : في فتحة القميص ، إنْ كانت فتحة القميص مفتوحة أدخل يده بسهولة فيُسمّى (إدخال) .

فإن كانت مغلقة (فيها أزرار مثلاً) احتاج أنْ يسلك يده يعني : يُدخلها برفق ويُوسّع لها مكاناً ، نقول : سلك الشيء يعني : أدخله بلُطْف ورِفْق ، ومنه السلك الرفيع حين تُدخِله

في شيء .

وساعةَ نسمع كلمة الجيب نجد أن لها معنىً عرفياً بين الناس ، ومعنى لُغوياً : فمعناها في اللغة فتحة القميص العليا ، والتي تكون للرقبة ، وهي في المعنى العُرْفي فتحة بداخل الثوب يضع فيها الإنسان نقوده ، يقولون (جيب) والعوام لهم عُذْر في ذلك ؛ لأنهم اضطروا إلى حِفْظ نقودهم داخل الثياب ، حتى لا تكون ظاهرة ، وربما سرقها منهم النشالون والأشقياء .

ولا يزال الفلاحون في الريف يجعلون الجيب في (السديري) الداخلي ؛ لذلك سمعنا الحاوي مثلاً يقول ليُحنّن الناس عليه بارك الله فيمَنْ يضع يده في جيبه يعني : بارك الله في الذي يعطيني جنيهاً .

وقوله تعالى ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ [النمل : 12] أي : وأخرجها تخرج بيضاء ناصعة مُنوّرة ، ومعلوم أن موسى عليه السلام كان آدمَ اللون يعني : أسمر ، فحين يروْنَ لونه تغيّر إلى البياض ، فربما قالوا : إن ذلك مرضٌ كالبرص مثلاً .

لذلك أزال الله هذا الظنَّ بقوله : ﴿ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ [النمل : 12] من غير مرض ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ [النمل : 12] ليعلم موسى عليه السلام أن هذه الآية واحدة من تسع آيات أخرى يُثبّته الله بها أمام عدوه فرعون وقومه .

وهذه التسع هي : العصا ولها مهمتان : أن تتحول إلى حية أمام السحرة ، وأنْ يضرب بها البحر أمام جيشه ، حينما يهاجمه فرعون وجنوده .

ثم اليد ، واثنتان هما الجدب ، ونقص الثمرات في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات ﴾ [الأعراف : 130] .

ثم : الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم . هذه تسع آيات . تُثبِّت موسى أمام فرعون وقومه . فهل أُرسل موسى عليه السلام إلى فرعون خاصة ؟ لا ، إنما أُرسِل إلى بني إسرائيل ، لكنه أراد أنْ يُقنع فرعون بأنه مُرْسَل من عند الله حتى لا يحول بينه وبينهم ، وجاءت مسألة دعوة فرعون إلى الإيمان بالله عَرَضاً في أحداث القصة ، فليست هي أساسَ دعوة موسى عليه السلام .

ومعنى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [النمل : 12] إشارةً إلى أن الإنسان وإنْ كان كافراً خارجاً عن طاعة الله إلا أنَّ أصله من أصلاب مؤمنة ، والمراد الإيمان الأول في آدم عليه السلام ، وفي ذريته من بعده ، لكنهم فسقوا أي : خرجوا من غشاء التكليف الذي يُغلِّف حركة حياتهم ، كما نقول : فسقت الرطبة : يعني خرجت من غلافها ، كذلك فَسَق الإنسان أي : خرج عن حيِّز التكليف الصائن له .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا ﴾

الآيات : المعجزات التي تُثبت صِدْق الرسول ، والآيات تكون مُبْصَرة بصيغة اسم المفعول ، لكن كيف تكون هي المبصرة بصيغة اسم الفاعل ، وهذه المسألة عرفناها أخيراً ، فكانوا منذ القدم عند اليونان والحضارات القديمة يظنون أن رؤية العين للأشياء تحدث من شعاع يخرج من العين إلى الشيء المرئي ، إلى أن جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ليثبت خطأ هذه النظرية ويقول بعكسها .

فالرؤية تتم بخروج شعاع من الشيء المرئيّ إلى العين ، بدليل أننا لا نرى الشيء إنْ كان في الظلام ، وأنت في النور ، فإنْ كان الشيء في النور وأنت في الظلام تراه .

(197/575)

إذن : فكأن الآيات نفسها هي المبصِرة ؛ لأنها هي التي ترسل الأشعة التي تسبب الرؤية .

أو : أن الآيات من الوضوح كأنها تُلِحّ على الناس أنْ يروْا وأنْ يتأملوا ، فكأنها أبصرُ منهم للحقائق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها ﴾

﴿ وَجَحَدُواْ ﴾ [النمل : 14] أي : باللسان ﴿ بِهَا ﴾ [النمل : 14] بالآيات ﴿ واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] أي : إيماناً بها ، إذن : المسألة عناد ولَدَد في

الخصومة ؛ لذلك قال تعالى بعدها ﴿ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : 14] أي : استكباراً عن الحق ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ [النمل : 14] وترْك عاقبتهم مبهمة لتعظيم شأنها وتهويلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(198/575)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾

أخرج الطستي عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق قال له : اخبرني عن قوله عز وجل ﴿ بشهاب قبس ﴾ قال : شعلة من نار يقتبسون منه قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول طرفة :

هم عراني فبت أدفعه . . . دون سهادي كشعلة القَبس

فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8)

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ﴾ يعني تبارك وتعالى نفسه ، كان نور رب العالمين في الشجرة ﴿ ومن

حولها ﴾ يعني الملائكة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وابن مردويه عنه عن ابن عباس ﴿ نودي أن بورك من في النار ومن حولها ﴾ يقول : بوركت بالنار ناداه الله وهو في النور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال : كانت تلك النار نوراً ﴿ أن بورك من في النار ومن ﴾ حول النار .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ أن بورك من في النار ﴾ قال : بوركت النار .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد . مثله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : في مصحف أبي بن كعب ﴿ بوركت النار ومن حولها ﴾ أما النار فيزعمون أنها نور رب العالمين ﴿ ومن حولها ﴾ الملائكة .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة أنه كان يقرأ ﴿ أن بوركت النار ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن محمد بن كعب في الآية قال : النار : نور الرحمن ﴿ ومن حولها ﴾ موسى والملائكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ بورك ﴾ قال : قدس .

وأخرج عبد بن حميد ومسلم وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق أبي عبيدة عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه . يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل . حجابه النور لو رفع الحجاب لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره " ثم قرأ أبو عبيدة ﴿ أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ﴾ .

وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10)

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ﴾ قال : حين تحوّلت حية تسعى .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ولم يعقب يا موسى ﴾ قال : لم يرجع وفي قوله ﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء ﴾ قال : ثم تاب من بعد ظلمه واساءته .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ولى مدبراً ﴾ قال : فاراً ﴿ ولم يعقب ﴾ قال : لم يلتفت . وفي قوله ﴿ لا يخاف لدي ﴾ قال : عندي وفي قوله ﴿ إلا من ظلم ﴾ قال : إن الله لم يجز ظالماً . ثم عاد الله بعائدته وبرحمته فقال ﴿ ثم بدل حسناً بعد سوء ﴾ أي فعمل عملاً صالحاً بعد عمل سيء عمله ﴿ فإني غفور رحيم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ميمون قال : إن الله قال لموسى ﴿ إنه لا يخاف لديَّ المرسلون إلا من ظلم ﴾ وليس للظالم عندي أمان حتى يتوب .

وأخرج سعيد بن منصور عن زيد بن أسلم أنه قرأ ﴿ إلا من ظلم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كانت على موسى جبة لا تبلغ مرفقيه فقال له ﴿ أدخل يدك في جيبك ﴾ فادخلها .

(200/575)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مقسم قال : إنما قيل ﴿ أدخل يدك في جيبك ﴾ لأنه لم يكن لها كم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كانت عليه مدرعة إلى بعض يده ، ولو

كان لها كم أمره أن يدخل يده في كمه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وأدخل يدك في جيبك ﴾ قال : جيب القميص .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وأدخل يدك في جيبك ﴾ قال : في جيب قميصك ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ قال : من غير برص ﴿ في تسع آيات ﴾ قال : يقول هاتان الآيتان : يد موسى ، وعصاه ﴿ في تسع آيات ﴾ وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : التسع آيات : يد موسى ، وعصاه ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والسنين في بواديهم ومواشيهم ، ونقص من الثمرات في أمصارهم . وفي قوله ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ قال : بينة ﴿ وجحدوا بها ﴾ قال : كذبت القوم بآيات الله بعد ما استيقنتها أنفسهم أنها حق . والجحود لا يكون إلا من بعد المعرفة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ ظلماً وعلواً ﴾ قال : تعظماً واستكباراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ قال : تكبروا وقد استيقنتها أنفسهم ؛ وهذا من التقديم والتأخير .

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش أنه قرأ ﴿ ظلماً وعلياً ﴾ وقرأ عاصم ﴿ وعلواً ﴾ برفع العين واللام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ تَخْرُجْ ﴾ :

الظاهرُ أنه جوابٌ لقولِه " أَدْخِلْ " أي : إنْ أَدْخَلْتَها تَخْرُجْ على هذه الصفةِ ، وقيل : في الكلامِ حَذْفٌ تقديرُه : وأَدْخِلْ يدَكَ تَدْخُلْ ، وأَخْرِجْها تَخْرُجْ . فَحَذَفَ من الثاني ما أَثْبَتَه في الأولِ ، ومن الأولِ ما أَثْبتَه في الثاني . وهذا تقديرُ ما لا حاجةَ إليه .

قوله : ﴿ بَيْضَآءَ ﴾ حالٌ مِنْ فاعلِ " تَخْرُجْ " . و ﴿ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ يجوزُ أَنْ تكونَ حالاً أخرى ، أو مِن الضميرِ في " بَيْضاء " أو صفةً لـ " بَيْضاءَ " .

قوله : ﴿ فِي تِسْعِ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنهُ حالٌ ثالثة . قال أبو البقاء . يعني : مِنْ فاعل يَخْرُجْ " / أي : آيةً في تسعِ آياتٍ . كذا قدَّره ، والثاني : أنها متعلقةٌ بمحذوفٍ أي : اذهَبْ في تسعِ . وقد تَقَدَّم اختيارُ الزمخشري لذلك في أولِ هذه الموضوعِ عند ذِكْرِ البَسْملةِ ، ونَظَّره بقولِ الآخرِ :

3543 وقُلْتُ إلى الطَعامِ فقالَ منهم . . . . . .

. . . .

(202/575)

وقولهم : " بالرَّفاهِ والبنين " ، وجَعَلَ هذا التقديرَ أعربَ وأحسنَ . الثالث : أَنْ يتعلَّقَ بقولِه : " وأَلْقِ عَصاكَ وأَدْخِلْ " . قال الزمخشري : " ويجوزُ أَنْ يكونَ المعنى : وأَلْقِ عَصاكَ وأَدْخِلْ يَدكَ في تسعِ آياتٍ أي : في جملةِ تسعِ آياتٍ . ولقائلٍ أَنْ يقولَ : كانَتِ الآياتُ إحدى عشرةَ منها اثنتان : اليدُ والعَصا . والتِّسْعُ : الفَلْقُ والطُّوفانُ والجَرادُ والقُمَّلُ والضفادِعُ والدَّمُ والطَّمْسَةُ والجَدْبُ في بَواديهم ، والنُّقْصانُ في مزارِعهم " انتهى . وعلى هذا تكونُ " في " بمعنى " مع " لأنَّ اليدَ والعَصا حينئذٍ خارجتان مِن التِّسْع ، وكذا فعلَ ابنُ عطية ، أعني أنه جَعَلَ " في تِسْع " متصلاً ب " أَلْقِ " و " أَدْخِلْ " إلاَّ أَنَّه جَعَلَ اليدَ والعَصا مِنْ جملةِ التسعِ . وقال : " تقديرُه نُمَهِّد لكَ ذلك ، ونُيَسِّر في [جملةِ] تسعِ " .

وجَعَلَ الزجاجُ أَنَّ " في " بمعنى " مِنْ " قال : كما تقول : خُذْ لي من الإبلِ عشراً فيها فَحْلان أي : منها فَحْلان " .

قولُه : ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ هذا متعلِّقٌ بما تَعَلَّقَ به " في تسعِ " ، إذا لم تَجْعَلْه حالاً ، فإنْ

جَعَلْناه حالاً عَلَّقْناه بمحذوفٍ ، فقدَّره أبو البقاء " مُرْسَلاً إلى فرعون " . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّه كونٌ مقيدٌ وسبَقَه إلى هذا التقديرِ الزجاجُ ، وكأنهما أرادا تفسيرَ المعنى دونَ الإعرابِ . وجَوَّزَ أبو البقاء أيضاً أن تكونَ صفةً لآيات ، وقدَّره : " واصلةً إلى فرعونَ " . وفيه ما تقدَّم .

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13)

(203/575)

قوله : ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ : حالٌ ، ونَسَبَ الإبصارَ إليها مجازاً ؛ لأنَّ بها تُبْصِرُ ، وقيل : بل هي مِنْ أَبْصَرَ المنقولةِ بالهمزةِ مِنْ بَصِرَ أي : إنها تُبْصِرُ غيرَها لِما فيها من الظهور . ولكنه مجازٌ آخرُ غيرُ الأولِ ، وقيل : هو بمعنى مفعول نحو : ماءٌ دافِقٌ أي : مَدْفُوق . وقرأ علي بن الحسين وقتادة بفتح الميم والصادِ أي : على وزنِ " أَرْضٌ مَسْبَعَةٌ " ذاتُ سِباع ، ونصبُها على الحالِ أيضاً ، وجَعَلها أبو البقاء في هذه القراءةِ [مفعولاً مِنْ أجله . وقد تَقَدَّم ذلك] .

قوله : ﴿ واستيقنتها ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ هذه الجملةُ معطوفةً على الجملةِ قبلَها . ويجوزُ أَنْ تكونَ حالاً مِنْ فاعلِ " جَحَدُوا " وهو أبلغُ في الذَّمِّ . واسْتَفْعل هنا بمعنى تَفَعَّل نحو : اسْتَعظم واسْتَكْبر ، بمعنى : تَعَظَّم وتَكَبَّر .

قوله : ﴿ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ يجوز أَنْ يكونا في موضعِ الحالِ أي : ظالِمين عالِين ، وأَنْ يكونا مفعولاً مِنْ أجلِهما أي : الحامِلُ على ذلك الظُّلْمُ والعُلُوُّ . وقرأ عبد الله وابن وثاب والأعمش وطلحة " وعِلِيّاً " بكسر العينِ واللامِ ، وقَلْبِ الواوِ ياءً . وقد تقدَّم تحقيقُه في " عِتِيّاً " في مريم . ورُوي عن الأعمش وابن وثاب ضمُّ العين كما في " عِتِيّا " . وقرىء و " غُلُوّاً " بالغينِ مُعجَمَةً ، وهو قريبٌ من هذا المعنى .

قوله : ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ﴾ "كيف " خبرٌ مقدمٌ " وعاقبةُ " اسمُها ، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافضِ ؛ لأنها مُعَلِّقةٌ لـ " انْظُرْ " بمعنى تَفَكَّرْ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 578. 581 ﴾

(204/575)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾

من غير سوءٍ أي بَرَصٍ . وفي القصة أن موسى عليه السلام ذَكَرَ اشتغال قلبه بحديث امرأته ، وما أصابه تلك الليلة من الأحوال التي أَوْجَبَتْ انزعاجَه ، وقَصْدَه في طلب النار ، فقال

الله تعالى : " إنا قد كفيناكَ ذلك الأمرَ ، ووكلنا بامرأتِكَ وأسبابك ، فجمعنا أغنامَك وثيرانَك ، وسَلِمْتَ لَكَ المرأةُ " .

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

لم يُظْهِرْ اللَّهُ – سبحانه – آيةً على رسولٍ من أنبيائه – عليهم السلام – إلاّ كانت في الوضوح بحيث لو وَضَعوا النظرَ فيها موضعَه لتَوَصَّلُوا إلى حصول العلم وثلج الصدور ، ولكنهم قَصَّروا في بعضها بالإعراض عن النظر فيها ، وفي بعضها الآخر عرفوها وقابلوها بالجَحْدِ .

قال تعالى وقولُه صِدْقٌ :

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكما يَحْصُلُ من الكافِرِ الجَحْدُ تحصل للعاصي عند الإلمام ببعض الذنوب حالةٌ يعلم فيها – بالقطع – أن ما يفعله غير جائز ، وتتوالى على قلبه الخواطرُ الزاجرةُ الداعيةُ له عن فِعْلِها من غير أَنْ يكونَ متغافلاً عنها أو ناسياً لها ، ثم يُقْدِمُ على ذلك غيرَ مُحْتَفِلٍ بها مُوَافَقَةً لشهوته .

وهذا الجنسُ من المعاصي أكثرُها شؤماً ، وأشدُّها في العقوبة ، وأبْعَدُها عن الغفران .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 27 . 28 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) ﴾

التفسير : تلك الآيات التي تضمنتها هذه السورة آيات القرآن الذي علم أنه منزل مبارك مصدق لما بين يديه وكتاب مبين . فإن أريد به اللوح فآياته أنه أثبت فيه كل كائن ، وإن أريد به السورة أو القرآن فالغرض تفخيم شأنهما من قبل التنكير . فآياتهما أن إعجازهما ظاهر مكشوف وفيهما من العلوم والحكم ما لا يفخى ، ولأن الواو لا تفيد الترتيب فلا حكمة ظاهرة في عكس الترتيب بين ما ههنا وبين ما في أول " الحجر " . ومعنى كون الآيات هدى وبشرى أنها تزيد في إيمانهم وتبشرهم بالثواب . قال جار الله : يحتمل أن يكون قوله ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ من تتمة الموصول إلا أن الأوجه أن يكون جملة مستقلة ابتدائية شبيهة بالمعترضة بدليل تكرير المبتدأ الذي هو هم فكأنه قيل : وما يؤمن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف العاقبة هو الذي يسهل عليهم متاعب التكاليف . وأقول : إنه وصفهم بالإيمان ليكون إشارة إلى معرفتهم المبتدأ ، ثم وصفهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهما الطاعة بالنفس والمال ، وهذه إشارة إلى وسط . ثم وصفهم بمعرفة المعاد فلا أحسن من هذا النسق . وفيه أن المهتدي بالقرآن

حقيقة هو الذي يكون موقناً بأحوال المعاد لا شاكاً فيها ، آتياً بالطاعات للاحتياط قائلاً : إن كنت مصيباً فيها فقد نلت السعادة وإن كنت مخطئاً فلم تفتني إلا لذات يسيرة زائلة .

(206/575)

ثم أورد وعيد المنكرين للمعاد وإسناد تزيين الأعمال إلى الله ظاهر على قول الأشاعرة ، وأما المعتزلة فتأولوه بوجوه منها : أنه استعارة فكأنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق وجعلوا ذلك التمتع ذريعة إلى اتباع الشهوات وإيثار اللذات فقد زين لهم بذلك أعمالهم . ومنها أنه مجاز حكمي وهو الذي يصححه بعض الملابسات . ولا ريب أن إمهال الشيطان وتخليته حتى زين لهم أعمالهم كما قال ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ [النمل : 24] ملابسة ظاهرة للتزيين . ومنها أنه أراد زيناً لهم أمر الدين ولا يلزمهم أن يتمسكوا به وذلك أن بينا لهم حسنه وما لهم فيه من الثواب ﴿ فهم يعمهون ﴾ يعدلون ويتحيرون عما زينا لهم قاله الحسن ﴿ لهم سوء العذاب ﴾ أي القتل والأسر كيوم بدر . ثم مهد مقدمة لما سيذكر في السورة من الأخبار العجيبة فقال ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ لتؤتاه وتلقنه من عند أيّ حكيم وأيّ عليم . و ﴿ إذ قال ﴾ منصوب ب ﴿ عليم ﴾ أو باذكر كأنه قيل : خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى العجيبة الشأن . والخبر خبر الطريق لأنه كان قد ضله .

وفي قوله ﴿ سآتيكم ﴾ مع قوله في " طه " و " القصص " ﴿ لعلي آتيكم ﴾ [طه : 10] دليل على أنه كان قوي الرجاء إلا أنه كان يجوّز النقيض ، وعد أهله بأنه يأتيهم بأحد الأمرين وإن أبطأ لبعد المسافة أو غيره . قالوا : في " أو " دليل على أنه جزم بوجدان أحد الأمرين ثقة بعناية الله تعالى أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها والاجتماع عليها وإنما خصت هذه السورة بقوله ﴿ فلما جاءها ﴾ وقد قال في " طه " و " القصص " ﴿ فلما أتاها ﴾ [طه : 11] ﴿ نودي ﴾ لأنه كرر لفظ ﴿ آتيكم ﴾ ههنا بخلاف السورتين فاحترز من تكرار ما يقاربه في الاشتقاق مرة أخرى . و ﴿ أن ﴾ مفسرة لأن النداء فيه معنى القول لا مخففة من الثقيلة بدليل فقدان " قد " في فعلها . قال جار الله : معنى ﴿ بورك من في النار ﴾ بورك من في مكان النار ، ومن

حول مكانها ، ومكانها البقعة التي حصلت النار فيها كما قال في القصص ﴿ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة ﴾ [القصص : 30] وسبب البركة حدوث أمر ديني فيها وهو تكليم الله إياه وإظهار المعجزات عليه . وقيل : معنى بورك تبارك ، والنار بمعنى النور أي تبارك من في النار وهو الله سبحانه مروي عن ابن عباس . وعن قتادة

والزجاج أن من في النار هو نور الله ، ومن حولها الملائكة . وقال الجبائي : ناداه بكلام سمعه من الشجرة في البقعة المباركة وهي الشأم فكانت الشجرة محلاً للكلام والمتكلم هو الله بأن خلقه فيها ، ثم إن الشجرة كانت في النار ومن حولها الملائكة .

وقيل : من في النار هو موسى لقربه منها ، ومن حولها الملائكة . وفي الابتداء بهذا الخطاب عند مجيء موسى بشارة له بأنه قد قضي أمر عظيم تنتشر منه البركة في أرض الشأم .

(208/575)

وفي قوله ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ تنزيه له عما لا يليق بذاته من الحدوث والحلول ونحوهما مما هو من خواص المحدثات ، وتنبيه على أن الكائن من جلائل الأمور التي لا يقدر عليها إلا رب العالمين . والهاء في ﴿ إنه ﴾ إما للشأن وإما راجع إلى ما دل عليه سياق الكلام أي أن المتكلم ﴿ انا ﴾ وعلى هذا فالله مع وصفيه بيان لانا وفيه تلويح إلى ما أراد إظهاره عليه ، يريد أنا القادر القوي على إظهار الخوارق الحكيم الذي لا يفعل جزافاً ولا عبثاً . وقوله ﴿ وألق عصاك ﴾ معطوف على ﴿ بورك ﴾ وكلاهما تفسير ﴿ نودي ﴾ والمعنى : قيل له بورك وألق : ومعنى ﴿ لم يعقب ﴾ لم يرجع يقال : عقب المقاتل إذا كر بعد الفر . وإنما اقتصر ههنا على قوله ﴿ لا تخف ﴾ ولم يضف إليه أقبل كما في " القصص

" لأنه أراد أن يبني عليه قوله ﴿ إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ وسبب نفي الخوف عن الرسل مشاهدة مزيد فضل الله وعنايته في حقهم . ثم استثنى من ظلم منهم بترك ما هو أولى به ، وقد مر بحث عصمة الأنبياء في أول " البقرة " . وفي الآية لطائف وإشارات منها : أنه أشار بقوله ﴿ أني لا يخاف لديّ المرسلون ﴾ إلى أن موسى قد جعل رسولاً . ومنها أنه أشار بقوله ﴿ إلا من ظلم ﴾ إلى ما وجد من موسى في حق القبطي ، وبقوله ﴿ ثم بدل حسناً بعد سوء ﴾ أي توبة بعد ذنب إلى قول موسى ﴿ رب إن ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ [القصص : 16] وقرئ " الا " بحرف التنبيه . ومنها أنه أشار بقوله ﴿ ثم بدل ﴾ معطوفاً على ﴿ ظلم ﴾ إلى أن النبي المرسل بدّل النية ولم يصر على فعله وإلا كان هذا العطف مقطوعاً عن الكلام ضائعاً ، فإنه إذا ظلم ولم يبدل كان خائفاً أيضاً . ومنها أنه أشار بقوله ﴿ فإني غفور رحيم ﴾ إلى أن الخوف وإن لحق المستثنى إلا أنه منفي عنه أيضاً بسبب غفرانه ورحمته ، فنفي الخوف ثابت على كل حال فهذا الاستثناء قريب من تأكيد المدح بما يشبه الذم كقوله :

هو البدر إلا أنه البحر زاخر . . . وكقوله

:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكتائب

وهذه اللطائف مما سمح بها الخاطر أوان الكتابة أرجو أن تكون صواباً إن شاء العزيز . قوله ﴿ وأدخل يدك ﴾ وفي "القصص" ﴿ اسلك يدك ﴾ [القصص : 32] موافقة لأضمم ولأن المبالغة في ﴿ أدخل ﴾ أكثر منها في ﴿ أسلك ﴾ لأن سلك لازم ومتعد . وهناك قال ﴿ فذانك برهانان ﴾ [القصص : 32] وههنا قال ﴿ في تسع آيات ﴾ وكان أبلغ في العدد فناسب الأبلغ في اللفظ .

قال النحويون : متعلق الجار محذوف مستأنف أي أذهب في تسع آيات . أو المراد وأدخل يدك في تسع أي في جملتهن وعدادهن ، اذهب إلى فرعون . وتفسير التسع قد مر في آخر "سبحان" وإنما قال ههنا ﴿ إلى فرعون وقومه ﴾ دون أن يقول ﴿ وملئه ﴾ [الآية : 32] كما في القصص لأن الملأ أشراف القوم وقد وصفهم ههنا بقوله ﴿ فلما جاءتهم ﴾ إلى قوله ﴿ ظلماً وعلواً ﴾ فلم يناسب أن يطلق عليهم لفظ ينبئ عن المدح . ومعنى ﴿ مبصرة ﴾ ظاهرة بينة كأنها تبصر بطباق العين فتهدي ، ويجوز أن يكون الإبصار مجازاً باعتبار إبصار صاحبها وهو كل ذي عقل أو فرعون وقومه . والواو في ﴿ واستيقنتها ﴾ للحال وقد مضمرة وفي زيادة ﴿ انفسهم ﴾ إشارة إلى أنهم أظهروا خلاف ما أبطنوا والاستيقان أبلغ من الإيقان . وقوله ﴿ ظلماً وعلواً ﴾ أي كبراً وترفعاً مفعول لأجلهما .

وقرئ ﴿ مبصرة ﴾ بفتح الميم نحو " مبخلة " قرأها علي بن الحسين وقتادة والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 292. 295 ﴾

(210/575)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾

تعرض هذه الحلقة السريعة من قصة موسى عليه السلام بعد قوله تعالى في هذه السورة :

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ وكأنما ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لست بدعاً في هذا التلقي . فها هو ذا موسى يتلقى التكليف ، وينادى ليحمل الرسالة إلى فرعون وقومه . وليس ما تلقاه من قومك بدعاً في التكذيب . فها هم أولاء قوم موسى تستيقن نفوسهم بآيات الله ، ولكنهم يجحدون بها ظلماً وعلواً . ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ولينتظر قومك عاقبة الجاحدين المكابرين !

﴿ إذ قال موسى لأهله : إني آنست ناراً . سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ .

وقد ذكر هذا الموقف في سورة طه . وهو في طريق عودته من أرض مدين إلى مصر ، ومعه

زوجه بنت شعيب عليه السلام . وقد ضل طريقه في ليلة مظلمة باردة . يدل على هذا قوله لأهله : سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون . وكان ذلك إلى جانب الطور . وكانت النيران توقد في البرية فوق المرتفعات لهداية السالكين بالليل ؛ فإذا جاءوها وجدوا القرى والدفء ، أو وجدوا الدليل على الطريق .

﴿ إِني آنست ناراً ﴾ فقد رآها على بعد ، فشعر لها بالطمأنينة والأنس . وتوقع أن يجد عندها خبر الطريق ، أو أن يقبس منها ما يستدفىء به أهله في قر الليل في الصحراء .

ومضى موسى عليه السلام إلى النار التي آنسها ، ينشد خبراً ، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى :

﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها . وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحيكم ﴾ . .

إنه النداء الذي يتجاوب به الكون كله ، وتتصل به العوالم والأفلاك ؛ ويخشع له الوجود كله وترتعش له الضمائر والأرواح . النداء الذي تتصل فيه السماء بالأرض ؛ وتتلقى الذرة الصغيرة دعوة خالقها الكبير ؛ ويرتفع فيه الإنسان الفاني الضعيف إلى مقام المناجاة بفضل من الله .

﴿ فلما جاءها نودي ﴾ . . بهذا البناء للمجهول وهو معلوم ولكنه التوقير والإجلال والتعظيم للمنادي العظيم .

﴿ نودي أن بورك من في النار ومن حولها ﴾ . .

فمن ذا كان في النار ؟ ومن ذا كان حولها ؟ إنها على الأرجح لم تكن ناراً من هذه النار التي نوقدها . إنما كانت ناراً مصدرها الملأ الأعلى . ناراً أوقدتها الأرواح الطاهرة من ملائكة الله للهداية الكبرى . وتراءت كالنار وهذه الأرواح الطاهرة فيها . ومن ثم كان النداء : ﴿ أن بورك من في النار ﴾ إيذاناً بفيض من البركة العلوية على من في النار من الملائكة ومن حولها . . وفيمن حولها موسى . . وسجل الوجود كله هذه المنحة العليا . ومضت هذه البقعة في سجل الوجود مباركة مقدسة بتجلي ذي الجلال عليها ، وإذنه لها بالبركة الكبرى .

وسجل الوجود كله بقية النداء والنجاء : ﴿ وسبحان الله رب العالمين . يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ . .

نزه الله ذاته وأعلن ربوبيته للعالمين ، وكشف لعبده أن الذي يناديه هو الله العزيز الحكيم .

وارتفعت البشرية كلها في شخص موسى عليه السلام إلى ذلك الأفق الوضيء الكريم .

ووجد موسى الخبر عند النار التي آنسها ، ولكنه كان الخبر الهائل العظيم ؛ ووجد القبس

الدافئ ، ولكنه كان القبس الذي يهدي إلى الصراط المستقيم .

وكان النداء للاصطفاء ؛ ووراء الاصطفاء التكليف بحمل الرسالة إلى أكبر الطغاة في الأرض في ذلك الحين . ومن ثم جعل ربه يعده ويجهزه ويقويه :

﴿ وألق عصاك ﴾ . . باختصار هنا ، حيث لا يذكر ذلك النجاء الطويل الذي في سورة طه . لأن العبرة المطلوبة هي عبرة النداء والتكليف .

﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ . .

(212/575)

فقد ألقى عصاه كما أمر ؛ فإذا هي تدب وتسعى ، وتتحرك حركة سريعة كحركة ذلك النوع الصغير السريع من الحيات ﴿ الجان ﴾ . وأدركت موسى عليه السلام طبيعته الانفعالية ، وأخذته هزة المفاجأة التي لم تخطر له ببال ، وجرى بعيداً عن الحية دون أن يفكر في الرجوع ! وهي حركة تبدو فيها دهشة المفاجأة العنيفة في مثل تلك الطبيعة الشديدة الانفعال .

ثم نودي موسى بالنداء العلوي المطمئن ؛ وأعلن له عن طبيعة التكليف الذي سيلقاه :

﴿ يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ . .

لا تخف . فأنت مكلف بالرسالة . والرسل لا يخافون في حضرة ربهم وهم يتلقون التكليف .

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء . فإني غفور رحيم ﴾ . .

إنما يخاف الذين ظلموا . ذلك إلا أن يبدلوا حسناً بعد سوء ، ويدعوا الظلم إلى العدل ؛ ويدعوا الشرك إلى الإيمان ، ويدعوا الشر إلى الخير . فإن رحمتي واسعة وغفراني عظيم .

والآن وقد اطمأن موسى وقر ، يجهزه ربه بالمعجزة الثانية ، قبل أن يكشف له عن جهة الرسالة ووجهة التكليف :

﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ . .

وكان هذا . وأدخل موسى يده في فتحة ثوبه وهي جيبه فخرجت بيضاء مشرقة لا عن مرض ، ولكن عن معجزة . ووعده ربه أن يؤيده بتسع آيات من هذا النوع الذي شاهد منه اثنتين ؛ وكشف له حينئذ عن وجهته التي من أجلها دعاه وجهزه ورعاه !

﴿ في تسع آيات إلى فرعون وقومه . إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ . .

ولم يعدد هنا بقية هذه الآيات التسع ، التي كشف عنها في سورة الأعراف . وهي سنون الجدب ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . لأن التركيز هنا على قوة الآيات لا على ماهيتها . وعلى وضوحها وجحود القوم لها :

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا : هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

(213/575)

«فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا : هذا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا . فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» . .

هذه الآيات الكثيرة العدد ، الكاشفة عن الحق ، حتى ليبصره كل من له عينان . ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة ، فهي تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى . ومع هذا فقد قالوا عنها : إنها سحر مبين ! قالوا ذلك لا عن اقتناع به ، ولا عن شبهة فيه . إنما قالوه «ظلما وعلوا» وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذي لا شبهة فيه : «وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ» . قالوا جحودا ومكابرة ، لأنهم لا يريدون الإيمان ، ولا يطلبون البرهان .

استعلاء على الحق وظلما له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميم .

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن ، ويستيقنون أنه الحق ، ولكنهم يجحدونه ، ويجحدون دعوة النبي – صلّى اللّه عليه وسلّم – إياهم إلى اللّه الواحد . ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم ، لما وراءها من أوضاع تسندهم ، ومغانم تتوافد

عليهم . وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة ، التي يحسون خطر الدعوة الإسلامية عليها ، ويحسونها تتزلزل تحت أقدامهم ، وترتج في ضمائرهم . ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهي المريب ! وكذلك الحق لا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه . بل لأنهم يعرفونه ! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم ، لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم ، أو الخطر على أوضاعهم ، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم .

فيقفون في وجهه مكابرين ، وهو واضح مبين .

«فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» . .

وعاقبة فرعون وقومه معروفة ، كشف عنها القرآن في مواضع أخرى . إنما يشير إليها هنا هذه الإشارة ، لعلها توقظ الغافلين من الجاحدين بالحق المكابرين فيه ، إلى عاقبة فرعون وقومه قبل أن يأخذهم ما أخذ المفسدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2628.2630 ﴾

(214/575)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : طا طلب الطالبين ، وسين سلامة قلوبهم من تعلقات غير الله ، تلك دلالات القرآن وشواهد أنواره ﴿ وكتاب مبين ﴾ فيه بيان كيفية السلوك ولذلك قال ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ بالوصول إلى الله الذين يستقيمون في المعارج لحقائق الصلوات ويؤتون الزكاة أموالهم وأحوالهم بالإضافة على المستحقين ﴿ زيناً لهم أعمالهم ﴾ الدنيوية النفسانية ﴿ فهم يعمهون ﴾ لعمي قلوبهم عن رؤية الآخرة ونعيمها ، ولا يكون في عالم الآخرة أعمى إلا كان اصم وأبكم ولهذا قال صلى الله عليه وسلم " حبك للشيء يعمي ويصم " فبحب الدنيا صمت عين القلب وصمت أذنه وصار أبكم عن العلم اللداني والنطق به ، وهو سوء العذاب ، وهو الموجب لخسران الدارين مع خسران المولى ، وإنما يكون خسران الدارين ممدوحاً إذا ربح المولى . وجد أبو زيد في البادية قحفاً مكتوباً عليه خسر الدنيا والآخرة فبكى وقبله وقال : هذا رأس صوفي . وحين أخبر عن مقامات المؤمنين ودركات الكافرين أخبر عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ لا من عند جبريل بل ﴿ من لدن حكيم ﴾ تجلى لقلبك بحكمة القرآن ﴿ عليم ﴾ يعلم حيث يجعل رسالته . ثم ضرب مثالاً لذلك وهو أن موسى القلب لما كشف له أنوار شواهد الحق في ليلة الهوى وظلمة الطبيعة (قال لأهله) وهم النفس وصفاتها ﴿ إني آنست ناراً ﴾ بوادي أيمن السر ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ بتلك النار عن جمود الطبيعة ﴿ فلما جاءها ﴾ على قدمي الشوق وصدق الطلب ﴿ نودي ﴾ من الشجرة الروحانية ﴿ أن بورك من في

﴿ نار المحبة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴾ ومن حولها ﴾ كالفراش يريد أن يقع فيها و ﴿ ألق ﴾ عن يد همتك كل ما تعتمد عليه سوى فضل الله فإنه جان في الحقيقة ﴿ ولى مدبراً ﴾ هارباً إلى الله ﴿ ولم يعقب ﴾ لم يرجع إلى غيره فلذلك نودي ب ﴿ لا تخف ﴾ فإن القلوب الملهمة الموصلة إليها الهدايا والتحف والالطاف لا تخاف سوى الله ﴿ إلاَّ من ظلم ﴾ نفسه بالرجوع إلى

(215/575)

الغير ﴿ وأدخل ﴾ يد همتك في جيب قناعتك ﴿ تخرج بيضاء ﴾ نقية من لوث الدارين ﴿ في تسع آيات ﴾ من أسباب هلاك النفس وصفاتها ﴿ فانظر كيف كان عاقبة ﴾ الذين أفسدوا الاستعداد الفطري والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 295 ﴾

(216/575)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/576)

الجزء السادس والسبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 15 ﴾ من سورة النمل

وحتى الآية ﴿ 19 ﴾ من نفس السورة

(4/576)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم بهذه القصة الدليل على حكمته ، توقع السامع الدلالة على علمه سبحانه ، فقال

مبتدئاً بحرف التوقع مشيراً إلى أنه لا نكير في فضل الآخر على الأول عاطفاً على ما تقديره : فلقد آتينا موسى وأخاه هارون عليهما السلام حكمة وهدى وعلماً ونصراً على من خالفهما وعزاً : ﴿ ولقد آتينا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ داود وسليمان ﴾ أي ابن داود ، وهما من أتباع موسى عليهم السلام وبعده بأزمان متطاولة ﴿ علماً ﴾ أي جزاء من العلم عظيماً من منطق الطير والدواب وغير ذلك لم نؤته لأحد قبلهما .

ولما كان التقدير : فعملا بمقتضاه ، عطف عليه قوله : ﴿ وقالا ﴾ شكراً عليه ، دلالة على شرف العلم وتنبيهاً لأهله على التواضع : ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بجميع أوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي الذي لا مثل له وله الجلال والجمال ﴿ الذي فضلنا ﴾ أي بما آتانا من ذلك ﴿ على كثير من عباده المؤمنين ﴾ أي الذين صار الإيمان لهم خلقاً .

(5/576)

ولما كان كل منهما عليهما السلام قد أوتي ما ذكر ، أشار إلى فضل سليمان عليه السلام بأنه جمع إلى ما آتاه ما كان منح به أباه فقال : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي أباه عليهما السلام دون إخوته في النبوة والعلم والملك الذي كان قد خصه الله دون قومه بجمعه له إلى النبوة ، فشكر الله على ما أنعم به عليه أولاً وثانياً ﴿ وقال ﴾ أي سليمان عليه السلام محدثاً

بنعمة ربه ومنبهاً على ما شرفه الله به ، ليكون أجدر في قبول الناس ما يدعوهم إليه من الخير : ﴿ يا أيها الناس ﴾ .

ولما كان من المعلوم أنه لا معلم له إلا الله ، فإن لا يقدر على ذلك غيره ، قال بانياً للمفعول : ﴿ علمنا ﴾ أي أنا وأبي بأيسر أمر وأسهله ممن لا يقدر على ما علمنا سواء ولو كان المقصود هو وحده لم يكن من التعاظم في شيء ، بل هو كلام الواحد المطاع ، تنبيهاً على تعظيم الله بما عظمه به مما يختص بالقدرة عليه أو بالأمر به كما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفعل إذا كان هناك حال يحوج إليه كما قال في الزكاة : إنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا عز وجل ، وكما كان يكتب لبعض الجبابرة ﴿ منطق الطير ﴾ أي فهم ما يريد كل طائر إذا صوت ، والمنطق ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، لا بدع في أن الذي آتى كل نفس هداها وعلمها تميز منافعها ومضارها يؤتيها قوة تدرك بها تخاطباً بينها يتفاهم كل نوع منها به فيما يريد ، ويكون ذلك قاصراً عن إدراك الإنسان لخصوصه بالجزئيات الناشئة عن الحسيات ﴿ وأوتينا ﴾ ممن له العظمة بأيسر أمر من أمره ﴿ من كل شيء ﴾ أي يكمل به ذلك من اسباب الملك والنبوة وغيرهما ، وعبر بأداة الاستغراق تعظيماً للنعمة كما يقال لمن يكثر تردد الناس إليه : فلان يقصده كل أحد .

(6/576)

ولما كان هذا أمراً باهراً ، دل عليه بقوله مؤكداً بأنواع التأكيد وشاكراً حاثاً لنفسه على مزيد الشكر وهازاً لها إليه : ﴿ إن هذا ﴾ أي الذي أوتيناه ﴿ لهو الفضل المبين ﴾ أي البين في نفسه لكل من ينظره ، الموضح لعلو قدر صاحبه ووحدانية مفيضة مؤتية .

ولما كان هذا مجرد خبر ، أتبعه ما يصدقه فقال : ﴿ وحشر ﴾ أي جمع جمعاً حتماً بقهر وسطوة وإكراه بأيسر سعي ﴿ لسليمان جنوده ﴾ .

ولما دل ذلك على عظمه ، زاد في الدلالة عليه بقوله : ﴿ من الجن ﴾ بدأ بهم لعسر جمعهم ﴿ والإنس ﴾ ثنى بهم لشرفهم ومشاركتهم لهم في ذلك من حيث تباعد أغراضهم وتناءي قصودهم .

ولما ذكر ما يعقل وبدأ به لشرفه ، أتبعه ما لا يعقل فقال : ﴿ والطير ﴾ ولما كان الحشر معناه الجمع بكره ، فكان لا يخلو عن انتشار ، وكان التقدير : وسار بهم في بعض الغزوات ، سبب عنه قوله تعظيماً للجيش وصاحبه : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يكفون بجيش أولهم على آخرهم بأدنى أمر وأسهله ليتلاحقوا ، فيكون ذلك أجدر بالهيبة ، وأعون على النصرة ، وأقرب إلى السلامة ؛ عن قتادة أنه كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير ، قال : والوازع : الحابس وهو النقيب .

وأصل الوزع الكف والمنع .

ولما كان التقدير : فساروا ، لأن الوزع لا يكون إلا عن سير ، غياه بقوله : ﴿ حتى إذا أتوا ﴾ أي أشرفوا .

ولما كان على بساطه فوق متن الريح بين السماء والأرض .

عبر بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ على واد النمل ﴾ وهو واد بالطائف - كما نقله البغوي عن كعب ، وهو الذي تميل إليه النفس فإنه معروف إلى الآن عندهم بهذا الاسم ، ويسمى أيضاً نخب وزن كتف ، وقد رأيته لما قصدت تلك الديار لرؤية مشاهدها ، والتطواف في معابدها ومعاهدها .

(7/576)

والتبرك بآثار الهادي ، في الانتهاء والمبادىء ، ووقفت بمسجد فيه قرب سدرة تسمى الصادرة مشهور عندهم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صلى به ، وهذه السدرة مذكورة في غزوة الطائف من السيرة الهشامية واقتصر في تسمية الوادي على نخب ، وأنشدت فيه يوم وقوفي ببابه ، وتضرعي في أعتابه :

مررت بوادي النمل يا صاح بكرة . . .

فصحت وأجريت الدموع على خدي

وتممت منه موقف الهاشمي الذي . . .

ملأ الأرض توحيداً يزيد على العد

وكم موقف أفرشته حر جبهتي . . .

وأبديت في أرجائه ذلة العبد

في قصيدة طويلة .

ولما كانوا في أمر يهول منظره ، ويوهي القوى مخالطته ومخبره ، فكان التقدير : فتبدت طلائعهم ، وتراءت راياتهم ولوامعهم ، وأحمالهم ووضائعهم ، نظم به قوله : ﴿ قالت نملة ﴾ أي من النمل الذي بذلك الوادي : ﴿ يا أيها النمل ﴾ ولما حكى عنهم سبحانه ما هو من شأن العقلاء ، عبر بضمائرهم فقال : ﴿ ادخلوا ﴾ أي قبل وصول ما أرى من الجيش ما ﴿ مساكنكم ﴾ ثم عللت أمرها معينة لصاحبه إذ كانت أماراته لا تخفى فقالت جواباً للأمر أو مبدلاً منه : ﴿ لا يحطمنكم ﴾ أي يكسرنكم ويهشمنكم أي لا تبرزوا فيحطمنكم .

فهو نهي لهم عن البروز في صور نهيه وهو أبلغ من التصريح بنهيهم لأن من نهى كبيراً عن شيء كان لغيره أشد نهياً ﴿ سليمان وجنوده ﴾ أي فإنهم لكثرتهم إذا صاروا في الوادي استعلوا عليه فطبقوه فلم يدعوا منه موضع شبر خالياً ﴿ وهم ﴾ أي سليمان عليه السلام وجنوده ﴿ لا يشعرون ﴾ أي بحطمهم لكم لاشتغالهم بما هم فيه من أحوال السير ،

وتعاطي مصالحة ، مع صغر أجسامكم ، وخفائكم على السائر في حال اضطرابكم ومقامكم ، وقولها هذا يدل على علمها بأنهم لو شعروا بهم ما آذوهم لأنهم أتباع نبي فهم رحماء .

(8/576)

ولما كان هذا أمراً معجباً لما فيه من جزالة الألفاظ وجلالة المعاني ، تسبب عنه قوله : ﴿ فتبسم ﴾ ولما دل ذلك على الضحك ، وكان ذلك قد يكون للغضب ، أكده وحقق معناه بقوله : ﴿ ضاحكاً من قولها ﴾ أي لما أوتيته من الفصاحة والبيان ، وسروراً بما وصفته به من العدل في أنه وجنوده لا يؤذون أحداً وهم يعلمون ﴿ وقال ﴾ متذكراً ما أولاه ربه سبحانه بحسن تربيته من فهم كلامها إلى ما أنعم عليه من غير ذلك : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ ﴿ أوزعني أن ﴾ أي اجعلني مطيقاً لأن ﴿ أشكر نعمتك ﴾ أي وازعاً له كافاً مرتبطاً حتى لا يغلبني .

ولا يتفلت مني ، ولا يشذ عني وقتاً ما .

ولما أفهم ذلك تعلق النعمة به .

حققه بقوله : ﴿ التي أنعمت عليّ ﴾ وربما أفهم قوله : ﴿ وعلى والديّ ﴾ أن أمه كانت أيضاً تعرف منطق الطير .

(9/576)

وتحقيق معنى هذه العبارة أن مادة " وزع " - بأيّ ترتيب كان - يدور على المعوز - لخرقة بالية يلف بها الصبي ، ويلزمها التمييز ، فإن الملفوف بها يتميز عن غيره ، ومنه الأوزاع وهم الجماعات المتفرقة ، ويلزمها أيضاً الإطاقة فإن أكثر الناس يجدها ، ومنه العزون - لعصب من الناس ، فإنهم يطيقون ما يريدون ويطيقهم من يريدهم ، ومنه الوزع وهو كف ما يراد كفه ، والولوع بما يزاد ، ومنه الإيعاز - للتقدم بالأمر والنهي ، والزوع للجذب ، ويلزمها أيضاً الحاجة فإنه لا يرضى بها دون الجديد إلا محتاج ، فمعنى الآية : اجعلني وازعاً - أي مطيقاً - أن أشكرها كما يطيق الوازع كف ما يريد كفه ، ويمكن أن يكون مدار المادة الحاجة لأن الأوزاع - وهم الجماعات - يحتاجون إلى الاجتماع جملة ، والكاف محتاج إلى امتثال ما يكفه لأمره ، والجاذب محتاج إلى الزوع أي الجذب ، والمولع بالشيء فقير إليه ، والموعز محتاج إلى قبول وصيته ، فالمعنى : اجعلني وازعاً أي فقيراً إلى الشكر ، أي ملازماً له مولعاً به ، لأن كل فقير إلى شيء مجتهد في تحصيله ، ويلزم على هذا التخريج احتقار العمل ، فيكون

سبباً للأمن من الإعجاب ، وفي الآية تنبيه على بر الوالدين في سؤال القيام عنهم بما لم يبلغاه من الشكر – والله الموفق .

والشكر في اللغة فعل ينبىء عن تعظيم المنعم لكونه منعماً كالثناء على المنعم بما يدل على أن الشاكر قد عرف نعمته واعترف له بها وحسن موقعها عنده ، وخضع قلبه له لذلك ، وحاصله أنه اسم لمعرفة النعمة لأنها السبيل إلى معرفة المنعم فإنه إذا عرفها تسبب في التعرف إليه ، فسلك طريق التعرف وجد في الطلب ، ومن جدَّ وجد ، ويروى عن داود عليه الصلاة والسلام أنه قال : يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة آخرى منك أحتاج عليها إلى شكر آخر ؟ فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ! إذا علمت أن ما بك من نعمة فمني فقد شكرتني .

(10/576)

والشكر ثلاثة أشياء : الأول معرفة النعمة بمعنى إحضارها في الخاطر بحيث يتميز عندك أنها نعمة ، فرب جاهل يحسن إليه وينعم عليه وهو لا يدري ، فلا جرم أنه لا يصح منه الشكر .

والثاني : قبول النعمة بتلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة ، فإن ذلك شاهد بقبولها

حقيقة ، والثالث : الثناء بها بأن تصف المنعم بالجود والكرم ونحوه مما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك في الرتبة عن مقامه ، فإن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وهو على ثلاث درجات : الأولى الشكر على المحاب أي الأشياء المحبوبة ، وهذا شكر تشارك فيه المثبتون المسلمون واليهود والنصارى والمجوس ، فإن الكل يعتقدون أن الإحسان الواصل من الرحمن واجب معرفته على الإنسان ، ومن سعة بر البارىء سبحانه وتعالى أن عده شكراً مع كونه واجباً على الشاكر .

ووعد عليه الزيادة ، وأوجب فيه المثوبة إحساناً ولطفاً .

الثانية : الشكر في المكاره ، وهو إما من رجل لا يميز بين الحالات ، بل يستوي عنده المكروه والمحبوب ، فإذا نزل به المكروه شكر الله عليه بمعنى أنه أظهر الرضا بنزوله به ، وهذا مقام الرضا ، وإما من رجل يميز بين الأحوال فهو لا يحب المكروه ولا يرضى بنزوله ، فإن نزل به مكروه فشكره عليه إنما هو كظم الغيظ وستر الشكوى وإن كان باطنه شاكياً ، والكظم إنما هو لرعاية الأدب بالسلوك في مسلك العلم ، فإنه يأمر العبد بالشكر في السراء والضراء

والثالثة : أن لا يشهد العبد إلا المنعم باشتغاله بالاستغراق في مشاهدته عن مشاهدة النعمة ، وهذا الشهود على ثلاثة أقسام : أحدها أن يستغرق فيها عبودة ، فيكون مشاهداً له مشاهدة العبد للسيد بأدب العبيد إذا حضروا بين يدي سيدهم ، فإنهم ينسون ما هم فيه من الجاه والقرب الذي ما حصل لغيرهم ، باستغراقهم في الأدب ، وملاحظتهم لسيدهم

خوفاً من أن يسير إليهم في أمر فيجدهم غافلين ، وهذا أمر معروف عند من صحب الملوك .

(11/576)

فصاحب هذا الحال إذا أنعم عليه سيده في هذه الحالة ، مع قيامه في حقيقة العبودة ، استعظم الإحسان ، لأن العبودة توجب عليه أن يستضغر نفسه .

ثانيها أن يشهد سيده شهود محبة غالبة ، فهو يسبب هذا الاستغراق فيه ، يستحلي منه الشدة ، وقد قال بعض عشاق حسن الصورة لا صورة الحسن فأحسن :

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه . . .

حلواً فقد جهل المحبة وادعى

ثالثها : أن يشهد شهود تفريد يرفع الثنويه ويفني الرسم ويذهب الغيرية ، فإذا وردت عليه النعمة أو الشدة كان مستغرقاً في الفناء فلم يحس بشيء منهما .

ولما علم من هذا كله أن الشاكر هو المستغرق في الثناء على المنعم بما يجب عليه من العمل من فناء أو غيره بحسب ما يقدر عليه ، وكان ذلك عمل مما يجوز أن يكون زين لذلك العبد كونه حسناً وهو ليس كذلك ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ مشيراً إلى هذا المعنى : ﴿ وأن

أعمل صالحاً ﴾ أي في نفس الأمر .

ولما كان العمل الصالح قد لا يرضي المنعم لنقص في العمل كما قيل في معنى ذلك :

إذا كان المحب قليل حظ . . .

فما حسناته إلا ذنوب

قال : ﴿ ترضاه ﴾ .

ولما كان العمل الصالح المرضي قد لا يعلى إلى درجة المرضي عنهم ، لكون العامل منظوراً إليه بعين السخط ، لكونه ممن سبق عليه الكتاب بالشقاء ، لأن الملك المنعم تام الملك عظيم الملك فهو بحيث لا يسأل عما يفعل ، قال معرضاً عن عمله معترفاً بعجزه ، معلماً بأن المنعم غني عن العمل وعن غيره ، لا تضره معصية ولا ينفعه طاعة : ﴿ وأدخلني برحمتك ﴾ أي لا بعملي ﴿ في عبادك الصالحين ﴾ أي لما أردتهم له من تمام النعمة بالقرب والنظر إليهم بعين العفو والرحمة والرضا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 414.418 ﴾

(12/576)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ وادي النمل ﴾ ممالة : عباس وقتيبة . وقرأ يعقوب وعلي والسرنديبي عن قنبل بالياء في الوقف . ﴿ لا يحطمنكم ﴾ بالنون الخفيفة : عباس ورويس . ﴿ أوزعني ﴾ بفتح الياء : ابن كثير وكذلك في " الأحقاف " ﴿ ما لي لا ﴾ بفتح ياء المتكلم : ابن كثير وعلي وعاصم ﴿ ليأتيني ﴾ بنون الوقاية بعد الثقيلة : ابن كثير . ﴿ فمكث ﴾ بفتح الكاف : عاصم وسهل ويعقوب غير رويس . الآخرون بضمها ﴿ من سبأ ﴾ بفتح الهمزة لامتناع الصرف : البزي وأبو عمرو وعن قنبل بهمزة ساكنة . وفي رواية أخرى عنه وعن ابن فليح وزمعة بغير همز . الباقون بهمزة منونة مكسورة ، وكذلك في سورة سبأ . ﴿ ألا يسجدوا ﴾ مخففاً : يزيد وعلي ورويس . الآخرون بالتشديد . وقال ابن مجاهد : إذا وقفوا على ﴿ إلا ﴾ وقفوا على " ألا ياء " والابتداء ﴿ اسجدوا ﴾ ﴿ تخفون ﴾ و ﴿ تعلنون ﴾ بتاء الخطاب فيهما : علي وحفص والباقون على الغيبة ﴿ فألقه ﴾ بسكون الهاء : حمزة وعاصم غير المفضل وأبو عمرو غير عباس ، وقرأ باختلاس حركة الهاء : يزيد وقالون ويعقوب غير زيد وأبو عمرو من طريق الهاشمي عن اليزيدي الباقون بالإشباع ﴿ إني القي ﴾ بفتح ياء المتكلم : ابو جعفر ونافع ﴿ أتمدونني ﴾ بالياء في

الحالين : ابن كثير وسهل وافق به ابو جعفر ونافع وأبو عمرو في الوصل ﴿ اتمدوني ﴾ بتشديد النون وبالياء في الحالين : حمزة ويعقوب . الآخرون بإظهار النونين وحذف الياء ﴿ أتاني الله ﴾ بفتح الياء : ابو جعفر ونافع وأبو عمرو وابن فليح وحفص . فمن فتح الياء فالوقف بالياء لا غير ، من حذف الياء فإنه يقف بغير الياء إلا سهلاً ويعقوب فإنهما يقفان بالياء . وقرأ علي ﴿ آتاني الله ﴾ بالإمالة ﴿ أنا آتيك ﴾ بالإمالة وكذلك ما بعده : حمزة في رواية خلف وابن سعدان والعجلي وأبي عمرو وخلف لنفسه ﴿ فلما رايه ﴾ بكسر الراء : نصير ﴿ ليبلوني ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع . ﴿ ساقيها ﴾ وبابه بالهمز : ابن مجاهد وأبو عون عن قنبل والأحسن تركها .

(14/576)

قال في الكشاف : من همز فوجهه أنه سمع سؤقاً فأجرى عليه الواحد .

الوقوف : ﴿ علماً ﴾ ج للعدول عن بيان إيتاء الفضل ابتداء إلى ذكر قول المنعم عليهما شكراً ووفاء ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ شيء ﴾ ط ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ يوزعون ﴾ 5 ﴿ النمل ﴾ لا لأن ما بعده جواب "إذا" ﴿ مساكنكم ﴾ ج لانقطاع النظم لنهي الغائب مع اتحاد القائل ﴿ وجنوده ﴾ لا لأن الواو للحال ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 ﴿ الصالحين ﴾ 5

﴿ الهدهد ﴾ ز على معنى بل أكان من الغائبين على معنى التهديد والأصح أن "أم" متصل بمعنى الاستفهام في ﴿ مالي ﴾ أي أنا لا اراه أو هو غائب ﴿ الغائبين ﴾ 5 ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ يقيم ﴾ 5 ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ لا يهتدون ﴾ 5 لا ومن خفف ﴿ ألا ﴾ وقف مطلقاً ﴿ تلعنون ﴾ 5 ﴿ العظيم ﴾ 5 سجدة ﴿ الكاذبين ﴾ 5 ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ كريم ﴾ 5 ﴿ الرحيم ﴾ 5 لا لتعلق "أن" ﴿ مسلمين ﴾ 5 ﴿ أمري ﴾ ج لانقطاع النظم مع اتحاد القائل ﴿ تشهدون ﴾ 5 ﴿ تأمرين ﴾ 5 ﴿ أذلة ﴾ ج لأن قوله ﴿ وكذلك ﴾ يحتمل أن يكون من تتمة قولها أو هو تصديق من الله لما قالت ﴿ يفعلون ﴾ 5 ﴿ المرسلون ﴾ 5 ﴿ بمال ﴾ ز لانتهاء الاستفهام مع فاء التعقيب وبيان الاستغناء على التعجيل ﴿ آتاكم ﴾ ج لاختلاف الجملتين على أن "بل" ترجح جانب الوقف ﴿ تفرحون ﴾ 5 ﴿ صاغرون ﴾ 5 ﴿ مسلمين ﴾ 5 ﴿ مقامك ﴾ ج للابتداء بإن مع اتحاد القائل ﴿ أمين ﴾ 5 ﴿ طرفك ﴾ ط للعدول ﴿ أم أكفر ﴾ 5 ﴿ لنفسه ﴾ ج ﴿ كريم ﴾ 5 ﴿ لا يهتدون ﴾ 5 ﴿ عرشك ﴾ ط ﴿ هو ﴾ ج لاحتمال أن يكون ما بعده من كلامها أو من كلام سليمان ﴿ مسلمين ﴾ 5 ﴿ من دون الله ﴾ ط ﴿ كافرين ﴾ 5 ﴿ الصرح ﴾ ج ﴿ ساقيها ﴾ ط ﴿ قوارير ﴾ 5 ﴿ العالمين ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 297 . 298 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾

القصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

أما قوله تعالى : ﴿ عِلْمًا ﴾ فالمراد طائفة من العلم أو علماً سنياً (عزيزاً) ، فإن قيل أليس هذا موضع الفاء دون الواو ، كقولك أعطيته فشكر (ومنعته فصبر) ؟ جوابه : أن الشكر باللسان إنما يحسن موقعه إذا كان مسبوقاً بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية ، وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات ، ولما كان الشكر باللسان يجب كونه مسبوقاً بهما فلا جرم صار كأنه قال : ولقد آتيناهما علماً ، فعملا به قلباً وقالباً ، وقالا باللسان الحمد لله الذي فعل كذا وكذا .

وأما قوله تعالى : ﴿ الحمد الله الذى فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ ففيها أبحاث : أحدها : أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علماً أو من لم يؤت مثل علمهما ، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وثانيها : في الآية دليل على علو مرتبة العلم لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم وثالثها : أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع ورابعها : أن الظاهر يقتضي أن

تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم ، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره ، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم ، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سبباً لفضيلتهم على المؤمنين فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جلياً بحيث يصير المرء مستغرقاً فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات .

(16/576)

أما قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سليمان دَاوُودُ ﴾ فقد اختلفوا فيه ، فقال الحسن المال لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث ، وقال غيره بل النبوة ، وقال آخرون بل الملك والسياسة ، ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضاً عطية مبتدأة من الله تعالى ، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمناً ولا يرث إذا كان كافراً أو قاتلاً ، لكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط ، وليس كذلك النبوة لأن الموت لا يكون سبباً لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان ، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته ، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه أنه تعالى لو فصل فقال وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله : ﴿ وَقَالَ يا أَيُّهَا الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير ﴾ معنى ، وإذا قلنا وورث مقامه من

النبوة والملك حسن ذلك لأن تعليم منطق الطير يكون داخلاً في جملة ما ورثه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لأن وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفضل المبين ﴾ لا يليق أيضاً إلا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص ، وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق إلا بما ذكرناه ، فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال ، فأما إذا قيل ورث المال والملك معاً فهذا لا يبطل بالوجوه التي ذكرناها ، بل بظاهر قوله عليه السلام : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث " (1)

---

(1) للحديث بقية لم يذكرها المفسر وهي «ما تركناه صدقة» .

(17/576)

فأما قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الناس ﴾ فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير ، قال صاحب "الكشاف" المنطق كل ما يصوّت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وقد ترجم يعقوب كتابه "بإصلاح المنطق" وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم ، وقالت العرب نطقت الحمامة (وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته) فالذي علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه .

أما قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فالمراد كثرة ما أوتي وذلك لأن الكل والبعض الكثير يشتركان في صفة الكثرة ، والمشاركة سبب لجواز الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] .

أما قوله : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفضل المبين ﴾ فهو تقرير لقوله : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى فَضَّلَنَا ﴾ والمقصود منه الشكر والمحمدة كما قال عليه السلام : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " فإن قيل كيف قال : ﴿ عَلِمْنَا . . .

وَأُوتِينَا ﴾ وهو من كلام المتكبرين ؟ جوابه من وجهين : الأول : أن يريد نفسه وأباه والثاني : أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكاً مطاعاً ، وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح فيصير ذلك التعظيم واجباً .

وأما قوله : ﴿ وَحُشِرَ لسليمان جُنُودُهُ مِنَ الجن والإنس والطير ﴾ فالحشر هو الإحضار والجمع من الأماكن المختلفة ، والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرف على مراده ، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف ، أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا إن الله تعالى جعل الطير في أيامه مما له عقل ، وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة إليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ معناه يحبسون وهذا لا يكون إلا إذا كان في كل قبيل منها وازع ، ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه ، فالظاهر يشهد بهذا القدر والذي جاء في الخبر من أنهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب فغير ممتنع .

أما قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا أَتَوْا على وَادِى النمل ﴾ فقيل هو واد بالشام كثير النمل ، ويقال لم عدى ﴿ أَتَوْا ﴾ بعلى ؟ فجوابه من وجهين : الأول : أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء والثاني : أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشيء إذا (أنفذه و) بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي ، وقرىء ﴿ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النمل ﴾ بضم الميم وبضم النون والميم وكان الأصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف عنه (كقولهم السبع في السبع) .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ فالمعنى أنها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد ، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق .

وعن قتادة : أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضراً وهو غلام حدث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى ؟ فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة رضي الله عنه كانت أنثى فقيل له من أين عرفت ؟ فقال

من كتاب الله تعالى وهو قوله : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ ولو كان ذكراً لقال (قال نملة) ، وذلك لأن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي . (1)

أما قوله تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾ فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل ، لا جرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى : ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾ فإن قلت ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ ما هو ؟ قلت يحتمل أن يكون جواباً للأمر وأن يكون نهياً بدلاً من الأمر ، والمعنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة : لا أرينك ههنا .

---

(1) مقتضى ما ذكره من أن النملة تقع على المذكر والمؤنث يبطل رد أبي حنيفة رحمه اللَّه تعالى .

(19/576)

وفي هذه الآية تنبيه على أمور : أحدها : أن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز ، وإنما يلزم من في الطريق التحرز وثانيها : أن النملة قالت : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ كأنها عرفت أن النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات إلا على سبيل السهو ، وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الأنبياء عليهم السلام وثالثها : ما رأيت في بعض الكتب أن تلك النملة

إنما أمرت غيرها بالدخول لأنها خافت على قومها أنها إذا رأت سليمان في جلالته ، فربما وقعت في كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله : ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سليمان ﴾ فأمرتها بالدخول في مساكنها لئلا ترى تلك النعم فلا تقع في كفران نعمة الله تعالى ، وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة ورابعها : قرىء (مسكنكم) و (لا يحطمنكم) بتخفيف النون ، وقرىء (لا يحطمنكم) بفتح الطاء وكسرها وأصلها يحطمنكم .

أما قوله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضاحكا مّن قَوْلِهَا ﴾ يعني تبسم شارعاً في الضحك (وآخذاً فيه) ، بمعنى أنه قد تجاوز حد التبسم إلى الضحك ، وإنما ضحك لأمرين : أحدهما : إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده (وشفقتهم) وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى ، وذلك قولها : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ والثاني : سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً من سماعه لكلام النملة وإحاطته بمعناه .

أما قوله تعالى : ﴿ رَبّ أَوْزِعْنِى ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : حقيقة أوزعني : اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأكفه عن أن ينقلب عني ، حتى أكون شاكراً لك أبداً ، وهذا يدل على مذهبنا فإن عند المعتزلة كل ما أمكن فعله من الألطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث .

وأما قوله تعالى : ﴿ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ فذلك لأنه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه .

ومعنى قوله : ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ طلب الإعانة في الشكر وفي العمل الصالح ، ثم قال : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ فلما طلب في الدنيا الإعانة على الخيرات طلب أن يجعل في الآخرة من الصالحين ، وقوله : ﴿ بِرَحْمَتِكَ ﴾ يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد واعلم أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة إلى ثواب الآخرة أولاً ثم طلب ثواب الآخرة ثانياً ، أما وسيلة الثواب فهي أمران : أحدهما : شكر النعمة السالفة والثاني : الاشتغال بسائر أنواع الخدمة ، أما الاشتغال بشكر النعمة السالفة ، فهي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ ولما كان الإنعام على الآباء إنعاماً على الأبناء لأن انتساب الابن إلى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن ، لا جرم اشتغل بشكر نعم الله على الآباء بقوله : ﴿ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ وأما الاشتغال بسائر أنواع الخدمة ، فقوله : ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ وأما طلب ثواب الآخرة فقوله : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ فإن قيل درجات الأنبياء أعظم من درجات الأولياء والصالحين ، فما السبب في أن الأنبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ وقال سليمان : ﴿ أَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ ؟ جوابه : الصالح الكامل هو

الذي لا يعصي الله ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 159.162 ﴾

(21/576)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُد وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَدْ بَيَّنَّا فِيمَا سَلَفَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ ﴾ .

وَأَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، إنَّمَا وَرَّثُوا عِلْمًا ﴾ .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ .

فَإِنْ قِيلَ : فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُد ﴾ قُلْنَا ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : أَرَادَ بِالْإِرْثِ هَاهُنَا نُزُولَهُ مَنْزِلَتَهُ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ ، وَكَانَ لِدَاوُدَ تِسْعَةَ عَشَرَ وَلَدًا ذَكَرًا وَأُنْثَى ، فَخَصَّ سُلَيْمَانَ بِالذِّكْرِ ، وَلَوْ كَانَتْ وِرَاثَةَ مَالٍ لَانْقَسَمَتْ عَلَى الْعَدَدِ ، فَخَصَّهُ بِمَا كَانَ لِدَاوُدَ

، وَزَادَهُ مِنْ فَضْلِهِ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ :

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْقَوْلُ فِي مَنْطِقِ الطَّيْرِ ، وَهُوَ صَوْتٌ تَتَفَاهَمُ بِهِ فِي مَعَانِيهَا عَلَى صِيغَةٍ وَاحِدَةٍ ، بِخِلَافِ مَنْطِقِنَا ، فَإِنَّهُ عَلَى صِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ ، نَفْهَمُ بِهِ مَعَانِيَهَا .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَفِي الْمُوَاضَعَاتِ غَرَائِبُ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ صَوْتَ الْبُوقِ تُفْهَمُ مِنْهُ أَفْعَالٌ مُخْتَلِفَةٌ مِنْ حَلٍّ وَتَرْحَالٍ ، وَنُزُولٍ وَانْتِقَالٍ ، وَبَسْطٍ وَرَبْطٍ ، وَتَفْرِيقٍ وَجَمْعٍ ، وَإِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ ، بِحَسْبِ الْمُوَاضَعَةِ وَالِاصْطِلَاحِ .

(22/576)

وَقَدْ كَانَ صَاحِبُنَا مُمَوَّسٌ الدُّرَيْدِيُّ يَقْرَأُ مَعَنَا بِبَغْدَادَ ، وَكَانَ مِنْ قَوْمٍ كَلَامُهُمْ حُرُوفُ الشَّفَتَيْنِ ، لَيْسَ لِحُرُوفِ الْحَلْقِ عِنْدَهُمْ أَصْلٌ .

فَجَعَلَ اللَّهُ لِسُلَيْمَانَ مُعْجِزَةَ فَهْمِ كَلَامِ الطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ وَالْحَشَرَاتِ ؛ وَإِنَّمَا خَصَّ الطَّيْرَ لِأَجْلِ سَوْقِ قِصَّةِ الْهُدْهُدِ بَعْدَهَا .

أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ ذَكَرَ قِصَّةَ النَّمْلِ مَعَهَا ، وَلَيْسَتْ مِنْ الطَّيْرِ .

وَلَا خِلَافَ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ فِي أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ كُلَّهَا لَهَا أَفْهَامٌ وَعُقُولٌ .

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ : الْحَمَامُ أَعْقَلُ الطَّيْرِ .

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاءُ الْأُصُولِيِّينَ : انْظُرُوا إلَى النَّمْلَةِ كَيْفَ تُقَسِّمُ كُلَّ حَبَّةٍ تَدَّخِرُهَا نِصْفَيْنِ لِئَلَّا يَنْبُتَ الْحَبُّ ، إلَّا حَبَّ الْكُزْبَرَةِ فَإِنَّهَا تُقَسِّمُ الْحَبَّةَ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعٍ ؛ لِأَنَّهَا إذَا قُسِّمَتْ بِنِصْفَيْنِ تَنْبُتُ ، وَإِذَا قُسِّمَتْ بِأَرْبَعَةِ أَنْصَافٍ لَمْ تَنْبُتْ .

وَهَذِهِ مِنْ غَوَامِضِ الْعُلُومِ عِنْدَنَا ، وَأَدْرَكَتْهَا النَّمْلُ بِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ لَهَا .

وَقَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْمُظَفَّرِ شَاهْ نُورِ الْإِسْفَرَايِينِيّ : وَلَا يَبْعُدُ أَنْ تُدْرِكَ الْبَهَائِمُ حُدُوثَ الْعَالَمِ ، وَخَلْقَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَوَحْدَانِيَّةَ الْإِلَهِ ، وَلَكِنَّا لَا نَفْهَمُ عَنْهُمْ ، وَلَا تَفْهَمُ عَنَّا ، أَمَّا أَنَّا نَطْلُبُهَا وَهِيَ تَفِرُّ مِنَّا فَبِحُكْمِ الْجِنْسِيَّةِ .

(23/576)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ أَنَّ سُلَيْمَانَ النَّبِيَّ مَرَّ عَلَى قَصْرٍ بِالْعِرَاقِ ، فَإِذَا فِيهِ كِتَابٌ : خَرَجْنَا مِنْ قُرَى إصْطَخْرَ إلَى الْقَصْرِ فَقُلْنَاهُ فَمَنْ سَأَلَ عَنْ الْقَصْرِ فَمَبْنِيًّا وَجَدْنَاهُ وَعَلَى الْقَصْرِ نَسْرٌ ، فَنَادَاهُ سُلَيْمَانُ ، فَأَقْبَلَ إلَيْهِ ، فَقَالَ : مُذْ كَمْ أَنْتَ هَاهُنَا ؟ قَالَ : مُذْ تِسْعِمِائَةِ سَنَةٍ .

وَوَجَدْتُ الْقَصْرَ عَلَى هَيْئَتِهِ .

قَالَ الْقَاضِي : قَرَأْت بِمَدِينَةِ السَّلَامِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ النَّجِيبِ بْنِ الْأَسْعَدِ قَالَ : أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فُتُّوحٍ الرُّصَافِيُّ ، أَنْبَأَنَا الْخَطِيبُ أَبُو بَكْرٍ الْحَافِظُ ، حَدَّثَنِي أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الرِّفَاعِيُّ ، أَنْبَأَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَقِيهُ بِأَصْبَهَانَ ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أُسَيْدٍ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زَكَرِيَّا الْغَلَّابِيُّ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيِّ بْنِ يَحْيَى الْإِفْرِيقِيُّ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، وَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ : كَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ يَرْكَبُ الرِّيحَ مِنْ إصْطَخْرَ فَيَتَغَدَّى بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَتَعَشَّى بِإِصْطَخْرَ .

فَقَالَ : إنَّ ابْنَ حَبِيبٍ أَدْرَكَ مَالِكًا ، وَمَا أَرَاهُ وَلَا هَذَا الْحَدِيثَ إلَّا مَقْطُوعًا .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(24/576)

وَرَوَى مَالِكٌ وَغَيْرُهُ فِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ نَزَلَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ ، فَأَمَرَ بِجِهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إلَيْهِ فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ يَعْنِي يَمْنَعُونَ وَيَدْفَعُونَ ، وَيَرُدُّ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى يُلْهَمُونَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ أَيْ أَلْهِمْنِي .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْأُولَى ، وَيَكُونُ مَعْنَاهُ رُدَّنِي .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى أَشْهَبُ قَالَ : قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : قَالَ عُثْمَانُ : مَا يَزَعُ النَّاسَ السُّلْطَانُ أَكْثَرَ مِمَّا يَزَعُهُمْ الْقُرْآنُ .

قَالَ مَالِكٌ : يَعْنِي يَكُفُّهُمْ .

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ مِثْلَهُ ، وَزَادَ ثُمَّ تَلَا مَالِكٌ : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أَيْ يُكَفُّونَ .

وَقَدْ جَهِلَ قَوْمٌ الْمُرَادَ بِهَذَا الْكَلَامِ ، فَظَنُّوا أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ أَنَّ قُدْرَةَ السُّلْطَانِ تَرْدَعُ النَّاسَ أَكْثَرَ مِمَّا تَرْدَعُهُمْ حُدُودُ الْقُرْآنِ .

(25/576)

وَهَذَا جَهْلٌ بِاللَّهِ وَحُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَوَضْعِهِ لِخَلْقِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا وَضَعَ الْحُدُودَ إِلَّا مَصْلَحَةً عَامَّةً كَافَّةً قَائِمَةً بِقِوَامِ الْحَقِّ ، لَا زِيَادَةَ عَلَيْهَا وَلَا نُقْصَانَ مَعَهَا ، وَلَا يَصْلُحُ سِوَاهَا ، وَلَكِنَّ الظَّلَمَةَ خَاسُوا بِهَا ، وَقَصَّرُوا عَنْهَا ، وَأَتَوْا مَا أَتَوْا بِغَيْرِ نِيَّةٍ مِنْهَا ، وَلَمْ يَقْصِدُوا وَجْهَ اللَّهِ فِي

الْقَضَاءِ بِهَا ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ يَرْتَدِعْ الْخَلْقُ بِهَا .

وَلَوْ حَكَمُوا بِالْعَدْلِ ؛ وَأَخْلِصُوا النِّيَّةَ ، لَاسْتَقَامَتْ الْأُمُورُ ، وَصَلُحَ الْجُمْهُورُ ؛ وَقَدْ شَاهَدْتُمْ مِنَّا إقَامَةَ الْعَدْلِ وَالْقَضَاءَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِالْحَقِّ ، وَالْكَفِّ لِلنَّاسِ بِالْقِسْطِ ، وَانْتَشَرَتْ الْأَمَنَةُ ، وَعَظُمَتْ الْمَنَعَةُ ، وَاتَّصَلَتْ فِي الْبَيْضَةِ الْهُدْنَةُ ، حَتَّى غَلَبَ قَضَاءُ اللَّهِ بِفَسَادِ الْحَسَدَةِ ، وَاسْتِيلَاءِ الظَّلَمَةِ .

قَوْله تَعَالَى ﴿ حَتَّى إذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : رَأَيْت بَعْضَ الْبَصْرِيِّينَ قَدْ قَالَ : إنَّ النَّمْلَةَ كَانَ لَهَا جَنَاحَانِ ، فَصَارَتْ فِي جُمْلَةِ الطَّيْرِ ، وَلِذَلِكَ فَهِمَ مَنْطِقَهَا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ إلَّا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ؛ وَهَذَا نُقْصَانٌ عَظِيمٌ .

وَقَدْ بَيَّنَّا الْحِكْمَةَ فِي ذِكْرِ الطَّيْرِ خُصُوصًا دُونَ سَائِرِ الْبَهَائِمِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَمَا لَا يَعْقِلُ .

(26/576)

وَقَدْ اتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَفْهَمُ كَلَامَ مَنْ لَا يَتَكَلَّمُ ، وَيُخْلَقُ لَهُ فِيهِ الْقَوْلُ مِنْ النَّبَاتِ ؛ فَكَانَ كُلُّ نَبَاتٍ يَقُولُ لَهُ : أَنَا شَجَرَةُ كَذَا ، أَنْفَعُ مِنْ كَذَا ، وَأَضُرُّ مِنْ كَذَا ، وَفَائِدَتِي كَذَا ، فَمَا ظَنُّك بِالْحَيَوَانِ ، الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

فَانْظُرْ إلَى فَهْمِهَا بِأَنَّ جُنْدَ سُلَيْمَانَ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَنْ يُؤْذِي نَمْلَةً مَعَ الْقَصْدِ إلَى ذَلِكَ ، وَالْعِلْمِ بِهِ ، تَقِيَّةً لِسُلَيْمَانَ ؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ التَّقِيَّ وَالْفَاجِرَ ، وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ ؛ إذْ كَانَ فِيهِمْ الشَّيَاطِينُ .

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ جَيْشِ مُحَمَّدٍ بِمِثْلِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وَهَذَا مِنْ فَضَائِلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ ، وَفِي مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ مِنْ كِتَابِ " أَنْوَارِ الْفَجْرِ " .

وَقَدْ انْتَهَى الْجَهْلُ بِقَوْمٍ إلَى أَنْ يَقُولُوا : إنَّ مَعْنَاهُ : وَالنَّمْلُ لَا يَشْعُرُونَ ، فَخَرَجَ مِنْ خِطَابِ الْمُوَاجَهَةِ إلَى خِطَابِ الْغَائِبِ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ وَلَا فَائِدَةٍ إلَّا إبْطَالَ الْمُعْجِزَةِ لِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ، وَاَللَّهُ وَلِيُّ التَّقْوِيمِ .

كَمَا انْتَهَى الْإِفْرَاطُ بِقَوْمٍ إلَى أَنْ يَقُولُوا : إنَّهُ كَانَ مِنْ كَلَامِ النَّمْلَةِ لَهُ أَنْ قَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؛ أَرَى لَك مُلْكًا عَظِيمًا ، فَمَا أَعْظَمُ جُنْدِك ؟ قَالَ لَهَا : تَسْخِيرُ الرِّيحِ .

(27/576)

قَالَتْ لَهُ : إنَّ اللَّهَ أَعْلَمَك أَنَّ كُلَّ مَا أَنْتَ فِيهِ فِي الدُّنْيَا رِيحٌ .

وَمَا أَحْسَنُ الِاقْتِصَادَ ، وَأَضْبَطُ السَّدَادَ لِلْأُمُورِ وَالِانْتِقَادَ ،

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : الْقَوْلُ فِي التَّبَسُّمِ : وَهُوَ أَوَّلُ الضَّحِكِ ، وَآخِرُهُ بُدُوُّ النَّوَاجِذِ ؛ وَذَلِكَ يَكُونُ مَعَ الْقَهْقَهَةِ ، وَجُلُّ ضَحِكِ الْأَنْبِيَاءِ التَّبَسُّمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : مِنْ الضَّحِكِ مَكْرُوهٌ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ كَانَ لَا يَضْحَكُ ؛ اهْتِمَامًا بِنَفْسِهِ وَفَسَادِ حَالِهِ فِي اعْتِقَادِهِ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا طَائِعًا .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَضْحَكُ ، وَإِنَّمَا قَالَ اللَّهُ فِي الْكُفَّارِ : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ النِّفَاقِ يَعْنِي ضَحِكَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ تَهْدِيدٌ لَا أَمْرٌ بِالضَّحِكِ .

(28/576)

وَقَالَتْ عَائِشَةُ : ﴿ جَاءَتْ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ رِفَاعَةُ طَلَّقَهَا فَبَتَّ طَلَاقَهَا ، فَتَزَوَّجَتْ بَعْدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزُّبَيْرِ ، وَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ

؛ وَاللَّهِ مَا مَعَهُ إلَّا مِثْلُ هَذِهِ الْهُدْبَةِ الْهُدْبَةُ أَخَذَتْهَا مِنْ جِلْبَابِهَا ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَخَالِدٌ جَالِسَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ سَعِيدَ بْنَ الْعَاصِ جَالِسٌ بِبَابِ الْحُجْرَةِ لِيُؤْذَنَ لَهُ ، فَطَفِقَ خَالِدٌ يُنَادِي : يَا أَبَا بَكْرٍ ، انْظُرْ مَا تَجْهَرُ بِهِ هَذِهِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يَزِيدُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّبَسُّمِ .

ثُمَّ قَالَ : لَعَلَّك تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إلَى رِفَاعَةَ .

﴿ الْحَدِيثَ .

﴿ وَاسْتَأْذَنَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ نِسْوَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَسْأَلْنَهُ وَيَسْتَكْثِرْنَهُ عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ عَلَى صَوْتِهِ ؛ فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ ، فَأَذِنَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ .

فَقَالَ : أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّك يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، فَقَالَ : عَجِبْت مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي ، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَك تَبَادَرْنَ الْحِجَابَ ﴾ وَذَكَرَ الْحَدِيثَ .

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا كَانَ بِالطَّائِفِ قَالَ : إنَّا قَافِلُونَ غَدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ .

(29/576)

فَقَالَ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَا نَبْرَحُ حَتَّى نَفْتَحَهَا .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَاغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ .

قَالَ : فَغَدَوْا ، فَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَكَثُرَتْ الْجِرَاحَاتُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ : فَسَكَتُوا .

قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﴿ : أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : هَلَكْت ، وَأَهْلَكْت ، وَقَعْت عَلَى أَهْلِي فِي رَمَضَانَ .

قَالَ : اعْتِقْ رَقَبَةً .

قَالَ : لَيْسَ لِي مَالٌ .

قَالَ : فَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ .

قَالَ : لَا أَسْتَطِيعُ .

قَالَ : فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا .

قَالَ : لَا أَجِدُ .

قَالَ : فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ بِعَرَقِ تَمْرٍ .

وَالْعَرَقُ : الْمِكْتَلُ .

فَقَالَ : أَيْنَ السَّائِلُ ؟ تَصَدَّقْ بِهَذَا قَالَ : أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي ، وَاَللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ

مِنَّا .

فَضَحِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ .

قَالَ : فَأَنْتُمْ إذًا ﴾ .

وَلَمَّا سَأَلَهُ النَّاسُ الْمَطَرَ فَأُمْطِرُوا ، ثُمَّ سَأَلُوهُ الصَّحْوَ ضَحِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنْ قِيلَ : مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكَ سُلَيْمَانُ ؟ قُلْنَا : فِيهِ أَقْوَالٌ : أَصَحُّهَا أَنَّهُ ضَحِكَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَسْخِيرِ الْجَيْشِ وَعَظِيمِ الطَّاعَةِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ اعْتِدَاءً .

(30/576)

وَلِذَلِكَ قَالَ : ﴿ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ وَهُوَ حَقِيقَةُ الشُّكْرِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(31/576)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ﴾

فيه ستة أوجه

: أحدها : فهماً ، قاله قتادة .

الثاني : صنعة الكيمياء وهو شاذ .

الثالث : فصل القضاء .

الرابع : علم الدين .

الخامس : منطق الطير .

السادس : بسم الله الرحمن الرحيم .

﴿ وَقَالاَ الْحَمْدُ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وحمدهما لله شكراً على نعمه .

وفيما فضلهما به على كثير من عباده المؤمنين ثلاثة أقاويل :

أحدها : بالنبوة .

الثاني : بالملك .

الثالث : بالنبوة والعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ورث نبوته وملكه ، قاله قتادة ، قال الكلبي : وكان لداود تسعة عشر ولداً ذكراً وإنما خص سليمان بوراثته لأنها وراثة نبوة وملك ، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء .

الثاني : أن سخر له الشياطين والرياح ، قاله الربيع .

الثالث : أن داود استخلفه في حياته على بني إسرائيل وكانت ولايته هي الوراثة وهو قول الضحاك ، ومنه قيل : العلماء ورثة الأنبياء ، لأنهم في الدين مقام الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ فيه ستة أوجه :

أحدها : يساقون ، وهو قول ابن زيد .

الثاني : يدفعون ، قاله الحسن ، قال اليزيدي : تدفع أخراهم وتوقف أولاهم .

الثالث : يسحبون ، قاله المبرِّد .

الرابع : يجمعون .

الخامس : يسجنون ، قال الشاعر :

لسان الفتى سبع عليه سداته . . . وإلا يزع من عَرْبه فهو قاتله

وما الجهل إلا منطق متسرع . . . سواءٌ عليه حق أمرٍ وباطله

السادس : يمنعون ، مأخوذ من وزعه عن الظلم ، وهو منعه عنه ، ومنه قول عثمان رضي الله عنه : ما وزع الله بالسلطان أكبر مما وزع بالقرآن . وقال النابغة :

على حين عاتبتُ المشيبَ على الصبا . . . وقلت ألما تصدع والشيب وازعُ

والمراد بهذا المنع ما قاله قتادة : أن يُرد أولهم على آخرهم ليجتمعوا ولا يتفرقوا .

(32/576)

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنه وادٍ بأرض الشام .

وقال كعب : وهو بالطائف .

﴿ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ ﴾ قال الشعبي : كان للنملة جناحان

فصارت من الطير ، فلذلك علم منطقها ، ولولا ذلك ، ما علمه .

﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ أي لا يهلكنكم

. ﴿ وَهُمْ لاَ يَشعُرُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : والنمل لا يشعرون بسليمان وجنوده ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : وسليمان وجنوده لا يشعرون بهلاك النمل ، وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة

حركتها وقلة قرارها ، وقيل إن النمل أكثر جنسه حساً لأنه إذا التقط الحبة من الحنطة

والشعير للادخار قطعها اثنين لئلا تنبت ، وإن كانت كزبرة قطعها أربع قطع ﴿ لاَ

يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ فحكي أن الريح أطارت كلامها إلى سليمان حتى سمع

قولها من ثلاثة أميال فانتهى إليها وهي تأمر النمل بالمغادرة .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أنه تبسم من حذرها بالمغادرة .

الثاني : أنه تبسم من ثنائها عليه .

الثالث : أنه تبسم من استبقائها للنمل .

قال ابن عباس : فوقف سليمان بجنوده حتى دخل النمل مساكنه .

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : ألهمني ، قاله قتادة .

الثاني : اجعلني ، قاله ابن عباس .

الثالث : حرضني ، قاله ابن زيد فحكى سفيان أن رجلاً من الحرس قال لسليمان ، أنا بمقدرتي أشكر لله منك ، قال فخرّ سليمان عن فرسه ساجداً .

وفي سبب شكره قولان :

أحدهما : أن علم منطق الطير حتى فهم قولها .

الثاني : أن حملت الريح قولها إليه حتى سمعه قبل وصوله لجنوده على ثلاثة أميال فأمكنه الكف .

﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : شكر ما أنعم به عليه ، قاله الضحاك .

الثاني : حفظ ما استرعاه ، وهو محتمل .

(33/576)

﴿ وَأَدْخِلْنِي فِي رَحْمَتِكَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : بالنبوة التي شرفتني بها .

الثاني : بالمعونة التي أنعمت عليّ بها .

﴿ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : في جملة أنبيائك .

الثاني : في الجنة التي هي دار أوليائك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(34/576)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾

(35/576)

هذا ابتداء قصص في غيوب وعبر وليس بمثال لقريش ، و ﴿ داود ﴾ من بني إسرائيل وكان ملكاً ﴿ وورث سليمان ﴾ ملكه ومنزلته من النبوءة بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمي ميراثاً تجوزاً ، وهذا نحن قولهم العلماء ورثة الأنبياء ، وحقيقة الميراث في المال والأنبياء لا تورث أموالهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة " ، ويحتمل قوله عليه السلام " إنا معشر الأنبياء لا نورث " أن يريد به أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه ، وهذا كما تقول : إنا معشر المسلمين إنما شغلنا العبادة ، فالمراد أن ذلك فيه فعل الأكثر ، ومنه ما حكى سيبويه أنا معشر العرب أقرى الناس لضيف . وقوله ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ إخبار بنعمة الله عندهما في أن فهمهما من أصوات الطير المعاني التي نفوسها ، وهذا نحو ما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يسمع أصوات الحجارة بالسلام وسليمان عليه السلام حكى عن البلبل أنه قال : أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء إلى كثير من هذا النوع وقال قتادة والشعبي وغيره : إنما كان هذا الأمر في الطير خاصة والنملة طائر قد يوجد له الأجنحة ، قال الشعبي : وكذلك كانت هذه القائلة ذات جناحين ، وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جنود سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص لكثرة مداخلته ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير

متردد أمْر الطير ، والنمل حيوان فطن قويّ شمام جداً يدخر القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت شقين ويأكل في عامه نصف ما جمع ، ويستبقي سائره عُدَّه ، وقوله ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ معناه يصلح لنا ونتمناه وليست على العموم ، ثم ردد شكر فضل الله تعالى ، ثم قص تعالى حال سليمان فقال : ﴿ وحشر لسليمان ﴾ أيْ جمع واختلف الناس في مقدار جند

(36/576)

سلمان عليه السلام اختلافاً شديداً لم أر ذكره لعدم صحة التحديد ، غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً ملأ الأرض وانقادت له المعمورة وكان كرسيه يحمل أجناده من الإنس والجن ، وكانت الطير تظله من الشمس ويبعثها في الأمور ، وكان له في الكرسي الأعظم موضع يخصه ، و ﴿ يوزعون ﴾ معناه يرد أولهم إلى آخرهم ويُكَفُّون ، وقال قتادة فكان لكل صنف وزعة في رتبهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها فرب وقت كان يسير فيه في الأرض ، ومنه قول الحسن الصبري حين ولي قضاء البصرة : لا بد للحاكم من وزعة ، ومنه قول أبي قحافة حين وصفت له الجارية في يوم الفتح أنها ترى سواداً أمامه فارس قد نهد من الصف فقال لها : ذلك الوازع ، ومنه قول الشاعر [النابغة الذبياني] : [

الطويل]

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . وقلت ألمّا أصح والشيب وازع

أي كافٍ .

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾

ظاهر هذه الآية أن سليمان وجنوده كانوا مشاة في الأرض ، وبذلك يتفق حطم النمل ، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح وأحست النمل بنزولهم في ﴿ واد النمل ﴾ ، وأمال أبو عمرو الواو من ﴿ واد ﴾ ، والجميع فخم ، وبالإمالة قرأ ابن إسحاق ، وقرأ المعتمر بن سليمان عن أبيه " النمُل " بضم الميم كالسمر ، و" قالت نَمُلة " بالضم كسمرة ، وروي عنه ضم النون والميم من " النُّمُل " ، وقال نوف البكالي : كانت تلك النملة على قدر الذئاب وقالت فرقة : بل كانت صغاراً .

(37/576)

قال القاضي أبو محمد : والذي يقال في هذا أن النمل كانت نسبتها من ذلك الخلق نسبة هذا النمل منا فيحتمل أن كان الخلق كله أكمل ، وهذه النملة قالت هذا المعنى الذي لا يصلح له إلا هذه العبارة قولاً فهمه عنها النمل ، فسمعها سليمان على بعده ، وجاءت المخاطبة

كمن يعقل ، لأنها أمرتهم بما يؤمر به من يعقل ، وروي أنه كان على ثلاثة أميال ﴿ فتبسم ﴾ من قولها ، والتبسم ضحك الأنبياء في غالب أمرهم لا يليق بهم سواه ، وكان تبسمه سروراً ، واختلف بما كان ، فقالت فرقة بنعمة الله في إسماعه وإفهامه ونحو ذلك ، وقالت فرقة بثناء النملة عليه وعلى جنوده في أن نفت عنهم تعمد القبيح من الفعل فجعلت الحطم ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ، وقرأ شهر بن حوشب " مسْكنكم " بسكون السين على الإفراد ، وفي مصحف أبي " مساكنكن " ، و﴿ ضاحكاً ﴾ نصب على الحال ، وقرأ محمد بن السميفع " ضحكاً " وهو نصب على المصدر إما ب " تبسم " على مذهب المبرد إذ هو في معنى ضحك ، وإما بتقدير ضحك على مذهب سيبويه ، وقرأ جمهور القراء " لا يحْطمنّكم " بشد النون وسكون الحاء ، وقرأ أبو عمرو وفي رواية عبيد " لا يحطمنْكم " بسكون النون وهي قراءة ابن أبي إسحاق ، وقرأ الحسن وأبو رجاء " لا يُحَطِّمنّكم " بضم الياء وفتح الحاء وكسر الطاء وشدها وشد النون وعنه أيضاً " يَحِطِّمنكم " بفتح الياء وكسر الحاء والطاء وشدها ، وقرأ الأعمش وطلحة " لا يحطمكم " مخففة بغير نون ، وفي مصحف أبي بن كعب " لا يحطمنكن " مخففة النون التي قبل الكاف ، ثم دعا سليمان إلى ربه في أن يعينه الله تعالى ويفرغه إلى شكر نعمته وهذا هو معنى " إيزاع الشكر " ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ ابْتِدَاءُ دَرْسٍ عَمِلَهُ لِوَلَدِهِ الشَّيْخِ بَهَاءِ الدِّينِ عُمْدَةِ الْمُحَقِّقِينَ أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ دَرَّسَ بِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ الْمَنْصُورِيَّةِ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْخَمِيسِ رَابِعَ عَشْرَ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَأَلْقَاهُ الْعَلَّامَةُ بِحُضُورِ وَالِدِهِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الْكَلَامُ عَلَيْهَا مِنْ وُجُوهٍ أَحَدُهَا إنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ الثَّانِيَةَ مِنْ الْقِصَصِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي هِيَ - أَعْنِي الْقِصَصَ الْمَذْكُورَةَ - بَيَانٌ لِقَوْلِهِ ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ وَمِنْ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ مَا اتَّفَقَ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ وَمَا آتَاهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وَلَمَّا كَانَ مُوسَى وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَمُوسَى مِنْ أَوْلَادِ لَاوِي بْنِ يَعْقُوبَ وَهُوَ إسْرَائِيلُ ؛ ذَكَرَ الْقِصَّتَيْنِ مُتَجَاوِرَتَيْنِ ، وَقَدَّمَ الْقِصَّةَ الْمُتَقَدِّمَةَ فِي الزَّمَانِ وَهِيَ قِصَّةُ مُوسَى ثُمَّ تَلَاهَا بِهَذِهِ وَقَدْ اشْتَرَكَتَا فِيمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ مِنْ نَصْرِهِمْ وَاسْتِنْقَاذِهِمْ مِنْ يَدِ عَدُوِّهِمْ فِرْعَوْنَ وَإِهْلَاكِهِ وَذَهَابِ مُلْكِهِ ، وَاسْتِخْلَافِهِمْ مِنْ بَعْدِهِ وَتَوْرِيثِهِمْ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا .

وَأَمْرُهُمْ مُتَزَايِدٌ مِنْ لَدُنْ عُرِفَ فِرْعَوْنُ بِبَرَكَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَنْ مَلَكَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا مَعَ مَا أُوتِيَهُ مِنْ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْخَصَائِصِ الْعَظِيمَةِ .

(الْوَجْهُ الثَّانِي) تَعْظِيمُ مَرْتَبَةِ الْعِلْمِ وَشَرَفِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى آتَى دَاوُد وَسُلَيْمَانُ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا

(39/576)

لَا يَنْحَصِرُ وَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ ذَلِكَ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْآيَةِ إلَّا الْعِلْمَ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ الْأَصْلُ فِي النِّعَمِ كُلِّهَا ، فَلَقَدْ كَانَ دَاوُد مِنْ أَعْبَدِ الْبَشَرِ كَمَا صَحَّ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَذَلِكَ مِنْ آثَارِ عِلْمِهِ وَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ وَلِابْنِهِ سُلَيْمَانَ مَا لَمْ يَجْمَعْهُ لِأَحَدٍ ، وَجَعَلَ الْعِلْمَ أَصْلًا لِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَشَارَا هُمَا أَيْضًا إلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِمَا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عَقِيبَ قَوْلِهِ ﴿ آتَيْنَا دَاوُد وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ وَمَا يُفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمَا شَكَرَا مَا آتَاهُمَا إيَّاهُ وَأَنَّ سَبَبَ التَّفْضِيلِ هُوَ الْعِلْمُ ، وَإِنَّمَا قَالَ (وَقَالَا) بِالْوَاوِ دُونَ الْفَاءِ ، لِأَنَّهُ لَوْ أَتَى بِالْفَاءِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِك فَشُكْرًا ، وَيَكُونُ الشُّكْرُ حِينَئِذٍ هُوَ قَوْلُهُمَا ذَلِكَ لَا غَيْرُ ، فَعَدَلَ إلَى الْوَاوِ لِيُشِيرَ إلَى الْجَمْعِ فِي الْإِيتَاءِ لَهُمَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَقَوْلِهِمَا ذَلِكَ الْمُحَقِّقَ لِمَقْصُودِ الْعِلْمِ مِنْ الْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْعِبَادَةِ وَكُلِّ خَصْلَةٍ حَمِيدَةٍ ؛ فَلِذَلِكَ يُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ مَسَائِلُ ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ مِنْهَا : أَنَّ فَضْلَ

الْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ .

وَمِنْهَا أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَفْضَلُ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ ، وَلِهَذَا مِدَادُ الْعُلَمَاءِ أَفْضَلُ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ وَأَعْظَمُ مَا عِنْدَ الْمُجَاهِدِ دَمُهُ وَأَهْوَنُ مَا عِنْدَ الْعَالِمِ مِدَادُهُ ، فَمَا ظَنُّك بِأَشْرَفِ مَا عِنْدَ الْعَالِمِ مِنْ الْمَعَارِفِ وَالتَّفَكُّرِ فِي آلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَفِي تَحْقِيقِ الْحَقِّ وَبَيَانِ الْأَحْكَامِ وَهِدَايَةِ الْخَلْقِ . وَلِذَلِكَ جُعِلُوا وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ .

فَمَنْ أَخَذَهُ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ ﴾ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُد ﴾ .

(الْوَجْهُ الثَّالِثُ) فِي

(40/576)

قَوْلِهِ ﴿ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَاوَ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ أَوْ نَقِيضَهُ ، بَلْ هِيَ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ مِنْ مُطْلَقِ الْجَمْعِ ، وَإِنْ كَانَ الْمَعْلُومُ أَنَّ إيتَاءَ دَاوُد قَبْلَ إيتَاءِ سُلَيْمَانَ ، وَكُلُّ مَوْضِعٍ وَرَدَتْ الْوَاوُ فِيهِ مِمَّا يُعْلَمُ التَّرْتِيبُ فِيهِ مِنْ خَارِجٍ كَهَذِهِ الْآيَةِ لَنَا فِيهِ طَرِيقَتَانِ إحْدَاهُمَا أَنْ تَكُونَ مُسْتَعْمَلَةً فِي مَعْنَاهَا وَهُوَ الْجَمْعُ الْمُطْلَقُ فَتَكُونُ عَلَى حَقِيقَتِهَا وَلَا يُنَافِي الْعِلْمَ بِكَوْنِ

ذَلِكَ مُرَتَّبًا ، لِأَنَّ الْجَمْعَ الْمُطْلَقَ حَاصِلٌ مَعَ التَّرْتِيبِ ، وَالثَّانِيَةُ أَنْ تَكُونَ مُسْتَعْمَلَةً فِي التَّرْتِيبِ فَيَلْزَمُ التَّجَوُّزُ فِي الْحُرُوفِ إذَا قُلْنَا أَنَّ اللَّفْظَ الْمُتَوَاطِئَ إذَا اُسْتُعْمِلَ فِي بَعْضِ أَفْرَادِهِ كَانَ مَجَازًا وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يُطْلَقَ اللَّفْظُ الْأَعَمُّ وَيُرَادُ بِهِ الْأَخَصُّ وَبَيْنَ أَنْ يُطْلَقَ وَلَا يُرَادُ بِهِ الْأَخَصُّ بَلْ يُرَادُ بِهِ مَعْنَاهُ الْأَعَمُّ وَإِنْ عُلِمَ مِنْ خَارِجٍ أَنَّ الْوَاقِعَ التَّرْتِيبُ وَالْمَجَازُ إنَّمَا يَصِحُّ عَلَى الْأَوَّلِ لَا الثَّانِي .

(الْوَجْهُ الرَّابِعُ) هَذَا الْبَحْثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي اسْتِعْمَالِ الْعَامِّ فِي الْخَاصِّ يَجْرِي فِي قَوْلِهِ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هَلْ هُوَ حَمْدٌ أَوْ شُكْرٌ ؟ وَتَحْقِيقُ هَذَا الْبَحْثِ بِتَقْدِيمِ مُقَدِّمَتَيْنِ (أَحَدَاهُمَا) أَنَّ الْحَمْدَ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالثَّنَاءُ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِالصِّفَاتِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَمِمَّا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ الْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ ، وَالشُّكْرُ هُوَ الثَّنَاءُ بِمَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ الْإِنْعَامِ وَالْإِفْضَالِ فَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنْ الشُّكْرِ

.

وَقِيلَ الْحَمْدُ الثَّنَاءُ بِمَا فِيهِ وَالشُّكْرُ بِمَا مِنْهُ ؛ فَيَكُونَانِ خَاصَّيْنِ تَحْتَ أَعَمَّ ، وَهُوَ مُطْلَقُ الثَّنَاءِ وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ مُتَبَايِنَيْنِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي عَلَى هَذَا أَنَّ

بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا مِنْ وَجْهٍ ، وَفِيهِ نَظَرٌ لِأَنَّهُمَا لَا يَجْتَمِعَانِ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ حَمْدٌ وَأَنَّهُ شُكْرٌ .

(الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ) إذَا ثَبَتَ أَنَّ الْحَمْدَ أَعَمُّ مِنْ الشُّكْرِ فَقَوْلُنَا (الْحَمْدُ لِلَّهِ) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ثَنَاءً عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ ، فَيَكُونُ شُكْرًا ، فَعَلَى الْأُولَى أَنَّ جَعَلْنَا الْحَمْدَ أَعَمَّ مُطْلَقًا فَيَكُونُ مُسْتَعْمَلًا فِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ ، فَيَكُونُ مَجَازًا وَلَا يَكُونُ حَقِيقَةً حَتَّى يُرَادَ الْأَعَمُّ مِنْ حَيْثُ هُوَ هُوَ ، وَإِنْ جَعَلْنَا الْحَمْدَ الثَّنَاءَ بِمَا فِيهِ فَقَطْ يَكُونُ مُسْتَعْمَلًا فِي مَوْضُوعِهِ فَيَكُونُ حَقِيقَةً .

وَعَلَى الثَّانِي – وَهُوَ أَنْ يُرَادَ الثَّنَاءُ بِمَا مِنْهُ فَقَطْ – يَكُونُ مُسْتَعْمَلًا فِي غَيْرِ مَوْضُوعِهِ سَوَاءٌ أَجَعَلْنَا الْحَمْدَ أَعَمَّ مُطْلَقًا أَمْ لَا .

أَمَّا عَلَى الثَّانِي فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا عَلَى الْأَوَّلِ فَلِأَنَّهُ كَاسْتِعْمَالِ الْعَامِّ فِي الْخَاصِّ فَيَكُونُ مَجَازًا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ الْبَحْثِ ، وَقَوْلُهُ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا ﴾ وَنَحْوُهُ كَقَوْلِنَا " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ قَوْلِنَا " الْحَمْدُ لِلَّهِ " إذَا اقْتَصَرْنَا عَلَيْهِ ، وَيَكُونُ الْوَصْفُ الْمَذْكُورُ الْمُرَادُ بِهِ ذِكْرُ صِفَتِهِ تَعَالَى لَا غَيْرُ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ التَّعْرِيضَ بِحُصُولِ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَيَكُونُ ثَنَاءً بِالنِّعْمَةِ فَيَكُونُ شُكْرًا ، فَيَعُودُ فِيهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ أَوْ مَجَازٌ وَيَتَرَجَّحُ أَنَّهُ مَجَازٌ .

وَقَوْلُنَا " الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ " وَنَحْوُهُ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ ثَنَاءٌ بِالنِّعَمِ فَتَظْهَرُ فِيهِ جِهَةُ الْمَجَازِ

وَيَكُونُ شُكْرًا لَا حَمْدًا مُجَرَّدًا وَإِنَّمَا قُلْت لَا حَمْدًا لِأَنَّ كُلَّ شُكْرٍ حَمْدٌ ، عَلَى مَا تَقَرَّرَ أَنَّهُ أَخَصُّ وَأَنَّ الْحَمْدَ هُوَ مُطْلَقُ الثَّنَاءِ بِمَا فِيهِ خَاصَّةً دُونَ مَا مِنْهُ ؛ لَمْ يَكُنْ كَقَوْلِنَا " الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى

(42/576)

نِعَمِهِ " وَقَوْلِنَا " الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ " يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يُرَادَ الشُّكْرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَأَنْ يُحْمَدَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ السَّرَّاءَ تُوجِبُ الشُّكْرَ ، وَالضَّرَّاءَ تُوجِبُ الصَّبْرَ الْمُوجِبَ لِلثَّوَابِ الْمُوجِبِ لِلشُّكْرِ ، فَهِيَ نِعْمَةٌ فِي الْحَقِيقَةِ .

فَالْأَحْوَالُ كُلُّهَا نِعَمٌ ، فَيَصِيرُ مِثْلَ قَوْلِهِ " الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ " فَيَكُونُ مَجَازًا فِي الشُّكْرِ وَالثَّانِي أَنْ يُرَادَ الثَّنَاءُ عَلَى صِفَاتِ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَإِنْ حَصَلَ مِنْهُ ضَرَّاءُ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ مِنْ اسْتِحْقَاقِهِ الثَّنَاءَ عَلَى صِفَاتِ كَمَالِهِ ، فَيَكُونُ اللَّفْظُ حَقِيقَةً وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ أَنْقَصُ مِنْ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ أَحْسَنُ وَأَمْكَنُ فِي الْمَعْنَى .

(الْوَجْهُ الْخَامِسُ) قَوْلُهُ (عِلْمًا) يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِتَنْكِيرِهِ تَعْظِيمَهُ أَيْ عِلْمًا أَيَّ عِلْمٍ ، وَيَكُونُ تَفْضِيلُهُمَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْعِبَادِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ الْعِلْمِ وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ الْآيَةِ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ اسْتَعْمَلَ الْعِلْمَ لِلْأَعَمِّ فِيمَا هُوَ أَخَصُّ مِنْهُ ، فَيَعُودُ الْكَلَامُ فِي

أَنَّهُ مَجَازٌ أَوْ حَقِيقَةٌ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ مَوْضُوعُهُ الْأَصْلِيُّ وَحُذِفَتْ صِفَتُهُ أَيْ عِلْمًا عَظِيمًا ، فَيَكُونُ الْعِلْمُ الْمُسْتَعْمَلُ فِي مَوْضُوعِهِ حَقِيقَةً ، وَلَكِنْ مَعَهُ حَذْفٌ وَفِي التَّرْجِيحِ بَيْنَ هَذَا الْوَجْهِ وَالَّذِي قَبْلَهُ الْخِلَافُ الْمَعْرُوفُ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْمَجَازِ وَالْإِضْمَارِ ؛ وَعَلَى الْوَجْهَيْنِ مَعْنَى التَّفْضِيلِ لَا يَخْتَلِفُ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ مُطْلَقُ الْعِلْمِ فَلَا مَجَازَ وَلَا إضْمَارَ بَيْنَهُمَا ، عَلَى أَنَّ مُطْلَقَ الْعِلْمِ مُسْتَوْجِبٌ لَأَنْ يُقَالَ فِيهِ ذَلِكَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُوصَفَ بِهِ خَوَاصُّ الْعِبَادِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَيَكُونُ بِالْعِلْمِ الْخَاصِّ الْعَظِيمِ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ .

وَهَذَا الْوَجْهُ أَبْلَغُ فِي بَيَانِ شَرَفِ الْعِلْمِ

(43/576)

وَالْقَوْمِ الْأَوْزَاعِ وَمِنْ قَوْلِك تَوَزَّعُوا الْمَالَ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ أَنْ أَشْكُرَ مَفْعُولًا صَرِيحًا وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ حَقِيقَةُ أَوْزِعْنِي اجْعَلْنِي أَزَعُ شُكْرَ نِعْمَتِك عِنْدِي وَأَكُفُّهُ وَأَرْتَبِطُهُ لَا تَنْقَلِبُ عَنِّي حَتَّى لَا أَنْفَكَّ شَاكِرًا لَك وَقَوْلُهُ ﴿ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ يَعْنِي مِنْ الْعِلْمِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْهِدَايَةِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ جَلَائِلِ النِّعَمِ (وَعَلَى وَالِدَيَّ) يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ نِعْمَتَك الَّتِي أَنْعَمْتَهَا عَلَيَّ وَنِعْمَتَك الَّتِي أَنْعَمْتَهَا عَلَى وَالِدَيَّ لِأَنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْوَلَدِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَالِدَيْنِ ،

فَيَكُونَانِ نِعْمَتَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى وَاحِدٍ ؛ وَيَكُنْ قِيَامُ سُلَيْمَانَ بِشُكْرِ نِعْمَةِ أَبِيهِ لِأَنَّ النِّعْمَةَ عَلَى أَبِيهِ نِعْمَةٌ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ يُنْسَبُ إلَيْهِ وَيَفْتَخِرُ بِهِ .

وَفِي هَذَا التَّقْدِيرِ نَظَرٌ ، وَسَوَاءٌ جَعَلْنَاهَا نِعْمَتَيْنِ أَوْ نِعْمَةً وَاحِدَةً عَلَى الْأَبِ .

وَيَقُومُ الِابْنُ بِشُكْرِهَا وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ نِعْمَتُك الَّتِي أَنْعَمْتَهَا عَلَيَّ ، وَهِيَ نِعْمَةٌ عَلَى وَالِدَيَّ لِأَنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْوَلَدِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَالِدَيْنِ ؛ لَا سِيَّمَا النِّعْمَةُ الرَّاجِعَةُ إلَى الْوَالِدَيْنِ لِأَنَّهُ إذَا كَانَ تَقِيًّا نَفَعَهُمَا بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ وَبِدُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمَا كُلَّمَا دَعُوا ، وَقَالُوا لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْك وَعَنْ وَالِدَيْك .

وَقَوْلُهُ ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ إنَّمَا قَدَّمَ الشُّكْرَ عَلَى الْعَمَلِ لِأَنَّ الشُّكْرَ عَمَلُ الْقَلْبِ .

وَهُوَ أَشْرَفُ مِنْ عَمَلِ الْجَوَارِحِ ؛ وَلِأَنَّ الشُّكْرَ عَلَى النِّعَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ صَالِحٌ يَرْضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، لِأَنَّ الْعَمَلَ قَدْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ صَالِحٌ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ وَلَا يُقْبَلُ حَتَّى يَنْضَمَّ إلَيْهِ الْإِخْلَاصُ فَإِذَا كَانَ صَالِحًا مُخْلِصًا فِيهِ كَانَ مَرْضِيًّا مَقْبُولًا .

قَالَ الْفُضَيْلُ : إنَّ الْعَمَلَ لَا يَكُونُ صَالِحًا إلَّا إذَا كَانَ صَوَابًا خَالِصًا .

وَالصَّوَابُ

أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ .

وَقَوْلُهُ ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ ﴾ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ الْجَنَّةَ تُنَالُ بِرَحْمَتِهِ لَا بِالْعَمَلِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِك فِي عِبَادِك الْكَامِلِينَ فِي الصَّلَاحِ الْقَائِمِينَ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ ، وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ دَرَجَةَ النُّبُوَّةِ فَوْقَ دَرَجَةِ الصَّلَاحِ ، وَلَكِنْ أَشَارَ إلَى الْكَمَالِ وَإِلَى الْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْعُبُودِيَّةِ عَلَى أَتَمِّ الْأَحْوَالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 72 . 81 ﴾

(45/576)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان عِلْماً ﴾

قال المفسرون : عِلْماً بالقضاء وبكلام الطير والدواب وتسبيح الجبال ﴿ وقالا الحمدُ لله الذي فضَّلَنا ﴾ بالنبوَّة والكتاب وإلانة الحديد وتسخير الشياطين والجن والإنس ﴿ على كثير من عباده المؤمنين ﴾ قال مقاتل : كان داود أشد تعبُّداً من سليمان ، وكان سليمان أعظمَ مُلْكاً منه وأفطن .

قوله تعالى : ﴿ وَورِث سليمانُ داودَ ﴾ أي : ورث نبوّته وعِلْمه ومُلْكه ، وكان لداود تسعة عشر ذكراً ، فخصّ سليمان بذلك ، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيها سواء .

قوله تعالى : ﴿ وقال ﴾ يعني سليمان لبني إسرائيل ﴿ يا أيُّها الناسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْر ﴾ قرأ أُبيُّ بن كعب ﴿ عَلَمْنا ﴾ بفتح العين واللام .

قال الفراء : ﴿ مَنْطِقَ الطَّير ﴾ : كلام الطَّير ، كالمنطق إذا فُهم ، قال الشاعر :

عَجِبْتُ لها أَنَّى يَكُونُ غِناؤها . . .

فَصيحاً ولم تَفْغَرْ بمَنْطِقها فَمَا

ومعنى الآية : فهمنا ما تقول الطَّير .

قال قتادة : والنمل من الطَّير .

﴿ وأُوتِينا من كُلِّ شيء ﴾ قال الزجاج : أي : من كل شيء يجوز أن يؤتاه الأنبياء والناس .

وقال مقاتل : أُعطينا المُلك والنبوَّة والكتاب والرِّياح ومَنْطِق الطَّير ، وسخِّرت لنا الجنُّ والشياطين .

وروى جعفر بن محمد عن أبيه ، قال : أُعطي سليمان مُلْك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سبعمائة سنة وستة أشهر ، وملك اهلَ الدنيا كلَّهم من الجن والإِنس والشياطين

والدواب والطير والسباع ، وأُعطي عِلْم كل شيء ومنطق كل شيء ، وفي زمانه صُنعت الصنائع المعجّبة ، فذلك قوله : ﴿ عُلِّمنا مَنْطِقَ الطَّير وأوتينا من كلِّ شيء ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إنَّ هذا ﴾ يعني : الذي أُعطينا ﴿ لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ﴾ أي : الزيادة الظاهرة على ما أُعطي غيرنا .

(46/576)

﴿ وحُشِر لسليمان جنودُه ﴾ أي : جُمع له كل صِنف من جُنده على حِدَة ، وهذا كان في مسيرٍ له ، ﴿ فهم يُوزَعُون ﴾ قال مجاهد : يُحبَس أوَّلُهم على آخرهم .

قال ابن قتيبة : وأصل الوَزْع : الكَفُّ والمنع .

يقال : وزَعْت الرَّجل ، أي : كففته ، ووازِعُ الجيش : الذي يكفُّهم عن التفرُّق ، ويردُّ مَنْ شَذَّ منهم .

قوله تعالى : ﴿ حتَّى إذا أَتَوا ﴾ أي : أشرفوا ﴿ على وادي النَّمْل ﴾ وفي موضعه قولان .

أحدهما : أنه بالطَّائف ، قاله كعب .

والثاني : بالشَّام قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ قالتْ نَمْلَةٌ ﴾ وقرأ ابو مجلز ، وأبو رجاء ، وعاصم الجحدري ، وطلحة بن مصرف ﴿ نَمُلَةٌ ﴾ بضم الميم ؛ أي : صاحت بصوت ، فلما كان ذلك الصوت مفهوماً عبّر عنه بالقول ؛ ولَمَّا نَطَقَ النَّمل كما ينطق بنو آدم ، أُجري مجرى الآدميين ، فقيل : ﴿ ادخُلوا ﴾ ، وألهم الله تلك النملة معرفة سليمان مُعْجِزاً له ، وقد ألهم الله النمل كثيراً من مصالحها تزيد به على الحيوانات ، فمن ذلك أنها تكسر كل حبَّة تدخرها قطعتين لئلاّ تَنْبُت ، إلا الكُزْبرة فانها تكسرها أربع قطع ، لأنها تَنْبُت إذا كُسرت قطعتين ، فسبحان من ألهمها هذا !

وفي صفة تلك النملة قولان .

أحدهما : أنها كانت كهيئة النعجة ، قال نوف الشامي : كان النمل في زمن سليمان بن داود كأمثال الذئاب .

والثاني : كانت نملة صغيرة .

﴿ ادخلوا مساكنَكم ﴾ وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري : ﴿ مَسْكَنَكم ﴾ على التوحيد .

قوله تعالى : ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ الحَطْم : الكَسْر .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو رجاء ﴿ لَيَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ بغير ألف بعد اللام .

وقرأ ابن مسعود : ﴿ لا يَحْطِمْكُمْ ﴾ بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وسكون

الميم وحذف النون .

وقرأ عمرو بن العاص ، وأبان ﴿ يَحْطِمَنْكُمْ ﴾ بفتح الياء وسكون الحاء والنون ساكنة أيضاً والطاء خفيفة .

(47/576)

وقرا أبو المتوكل ، وأبو مجلز : ﴿ لا يَحِطِّمَنَّكُمْ ﴾ بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون جميعاً .

وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : ﴿ يُحْطِمَنَّكُمْ ﴾ برفع الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وتشديد النون .

والحَطْمُ : الكَسْر ، والحُطَام : ما تحطَّم .

قال مقاتل : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال .

وفي قوله : ﴿ وهم لا يَشْعُرون ﴾ قولان .

أحدهما : وأصحاب سليمان لم يشعروا بكلام النملة ، قاله ابن عباس .

والثاني : وأصحاب سليمان لا يَشْعُرون بمكانكم ، لانها علمتْ أنَّه ملك لا بغي فيه ، وأنهم لو علموا بالنمل ما توطَّؤوهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ فتبسَّمَ ضاحكاً ﴾ قال الزجاج : ﴿ ضاحكاً ﴾ منصوب ، حال مؤكَدة ، لأن "تبسّم" بمعنى "ضحك" .

قال المفسرون : تبسم تعجُّباً ممَّا قالت : وقيل : من ثنائها عليه .

وقال بعض العلماء : هذه الآية من عجائب القرآن ، لأنها بلفظة "يا" نادت "أيها" نبهت ﴿ النمل ﴾ عيَّنت ﴿ ادخلوا ﴾ أمرت ﴿ مساكنَكم ﴾ نصَّت ﴿ لا يحطمنَّكم ﴾ حذَّرت ﴿ سليمانُ ﴾ خصَّت ﴿ وجنوده ﴾ عمَّت ﴿ وهم لا يشعُرون ﴾ عذرت .

قوله تعالى : ﴿ وقال ربِّ أَوْزِعْني ﴾ قال ابن قتيبة : ألهِمْني ، أصل الإيزاع : الإغراء بالشيء ، يقال : أوزَعْتُه بكذا ، أي : أغريتُه به ، وهو مُوزَعٌ بكذا ، ومُولَعٌ بكذا .

وقال الزجاج .

تأويله في اللغة : كُفَّني عن الأشياء إلا عن شُكرِ نعمتك ؛ والمعنى : كُفَّني عمَّا يُباعِد منك ، ﴿ وأن أَعْمَلَ ﴾ أي : وألهِمْني أن أعمل ﴿ صالحاً ترضاه ﴾ قال المفسرون : إنما شكر اللّهَ عز وجل لأن الريح أبلغت إليه صوتها ففهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ﴾

أي فهما ؛ قاله قتادة .

وقيل : علماً بالدين والحكم وغيرهما كما قال : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء : 80] .

وقيل : صنعة الكيمياء .

وهو شاذ .

وإنما الذي آتاهما الله النبوّة والخلافة في الأرض والزبور .

﴿ وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محلّه وتقدّم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النِعم وأجزل القِسَم ، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباد الله المؤمنين .

﴿ يَرْفَعِ الله الذين آمَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : 11] .

وقد تقدّم هذا في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يا أيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال الكلبي : كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولداً فورث سليمان

من بينهم نبوّته وملكه ، ولو كان وراثة مال لكان جميع أولاده فيه سواء ؛ وقاله ابن العربي ؛ قال : فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد ؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوّة ، وزاده من فضله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده .

قال ابن عطية : داود من بني إسرائيل وكان ملكاً وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوّة ، بمعنى صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمي ميراثاً تجوزاً ؛ وهذا نحو قوله : "العلماء ورثة الأنبياء" ويحتمل قوله عليه السلام : "إنا معشر الأنبياء لا نورث" أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم ، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه ؛ وهذا كما تقول : إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة ، والمراد أن ذلك فعل الأكثر .

ومنه ما حكى سيبويه : إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف .

(49/576)

قلت : قد تقدّم هذا المعنى في "مريم" وأن الصحيح القول الأوّل لقوله عليه السلام : "إنا معشر الأنبياء لا نورث" فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل .

قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبداً من سليمان .

قال غيره : ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه ؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخّر له الإنس والجن والطير والوحش ، وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين ، وورث أباه في الملك والنبوّة ، وقام بعده بشريعته ، وكل نبي جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى ، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها .

وبينه وبين الهجرة نحو من ألف وثمانمائة سنة .

واليهود تقول ألف وثلاثمائة واثنتان وستون سنة .

وقيل : إن بين موته وبين مولد النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من ألف وسبعمائة ، واليهود تنقص منها ثلاثمائة سنة ، وعاش نيفاً وخمسين سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يا أيها الناس ﴾ أي قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ أي تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوّة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها .

قال مقاتل في الآية : كان سليمان جالساً ذات يوم إذ مرّ به طائر يطوف ، فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر ؟ إنها قالت لي : السلام عليك أيها الملك المسلَّط والنبي لبني إسرائيل ! أعطاك الله الكرامة ، وأظهرك على عدوّك ، إني منطلق إلى أفراخي ثم أمرّ بك الثانية ؛ وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع ؛ فقال إنه يقول : السلام عليك أيها الملك المسلَّط ،

إن شئت أن تأذن لي كيما أكتسب على أفراخي حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بي ما شئت .

فأخبرهم سليمان بما قال ؛ وأذن له فانطلق .

(50/576)

وقال فَرْقَد السَّبَخيّ : مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا : لا يا نبي الله .

قال إنه يقول : أكلتُ نصف ثمرة فعلى الدنيا العَفَاء .

ومرّ بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبيّ فخاً فقال له سليمان : احذر يا هدهد ! فقال : يا نبي الله ! هذا صبيّ لا عقل له فأنا أسخر به .

ثم رجع سليمان فوجده قد وقع في حِبالة الصبيّ وهو في يده ، فقال : هدهد ما هذا ؟ قال : ما رأيتها حتى وقعت فيها يا نبي الله .

قال : ويحك ! فأنت ترى الماء تحت الأرض أما ترى الفخ ! قال : يا نبي الله إذا نزل القضاء عميَ البصر .

وقال كعب .

صاح وَرَشان عند سليمان بن داود ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا .

قال إنه يقول : لِدُوا للموت وابنوا للخراب .

وصاحت فاختة ، فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا .

قال إنها تقول : ليت هذا الخلق لم يُخلقوا وليتهم إذ خُلقوا علموا لماذا خُلقوا .

وصاح عنده طاوس ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا .

قال إنه يقول : كما تدين تدان .

وصاح عنده هدهد ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا .

قال فإنه يقول : من لا يَرحم لا يُرحم .

وصاح صُرَد عنده ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا .

قال إنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين ؛ فمن ثَمَّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله .

وقيل : إن الصُّرَد هو الذي دلّ آدم على مكان البيت .

وهو أوّل من صام ؛ ولذلك يقال للصُّرَد الصوّام ؛ روي عن أبي هريرة .

وصاحت عنده طِيطَوى فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا .

قال إنها تقول : كل حيّ ميّت وكل جديد بال .

وصاحت خُطَّافة عنده ، فقال : أتدرون ما تقول قالوا : لا .

قال إنها تقول : قدّموا خيراً تجدوه ؛ فمن ثَمَّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

قتلها .

وقيل : إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة ، فآنسه الله تعالى بالخُطَّاف وألزمها البيوت ، فهي لا تفارق بني آدم أنساً لهم .

(51/576)

قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ ﴾ [الحشر : 21] إلى آخرها وتمدّ صوتها بقوله : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وهدرت حمامة عند سليمان فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا .

قال إنها تقول : سبحان ربي الأعلى عدد ما في سمواته وأرضه .

وصاح قُمْري عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا .

قال إنه يقول : سبحان ربي العظيم المهيمن .

وقال كعب : وحدثهم سليمان ، فقال الغراب يقول : اللهم العن العَشَّار ؛ والحِدأة تقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] .

والقطاة تقول : من سكت سلِم .

والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه .

والضفدع يقول : سبحان ربي القدّوس .

والبازي يقول : سبحان ربي وبحمده .

والسرطان يقول : سبحان المذكور بكل لسان في كل مكان .

وقال مكحول : صاح دُرّاج عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا .

قال إنه يقول : ﴿ الرحمن عَلَى العرش استوى ﴾ [طه : 5] .

وقال الحسن قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الديك إذا صاح قال اذكروا الله يا غافلين "

وقال الحسن بن علي بن أبي طالب قال النبي صلى الله عليه وسلم : " النسر إذا صاح قال يا ابن آدم عِش ما شئت فآخرك الموت وإذا صاح العُقَاب قال في البعد من الناس الراحة وإذا صاح القُنْبر قال إلهي الْعن مبغضي آل محمد وإذا صاح الخطاف قرأ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى آخرها فيقول : ﴿ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ ويمد بها صوته كما يمد القارىء "

قال قتادة والشعبي : إنما هذا الأمر في الطير خاصة ، لقوله : ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾

والنملة طائر إذ قد يوجد له أجنحة .

قال الشعبي : وكذلك كانت هذه النملة ذات جناحين .

(52/576)

وقالت فرقة : بل كان في جميع الحيوان ، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جند سليمان يحتاجه في التظليل عن الشمس وفي البعث في الأمور فخص بالذكر لكثرة مداخلته ؛ ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردّد ترداد أمر الطير .

وقال أبو جعفر النحاس : والمنطق قد يقع لما يفهم بغير كلام ، والله جل وعز أعلم بما أراد .

قال ابن العربي : من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم ، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات ، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا ، أنفع من كذا وأضر من كذا ؛ فما ظنك بالحيوان .

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ ﴾ ﴿ حُشِرَ ﴾ جُمِع والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 47] واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام ؛ فيقال : كان معسكره مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سَرِّية .

ابن عطية : واختلف في معسكره ومقدار جنده اختلافاً شديداً غير أن الصحيح أن ملكه

كان عظيماً ملأ الأرض ، وانقادت له المعمورة كلها .

﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ معناه يُردّ أولهم إلى آخرهم ويُكفّون .

قال قتادة : كان لكل صنف وَزَعة في رتبتهم ومواضعهم من الكرسيّ ومن الأرض إذا مشوا فيها .

يقال : وزَعته أوزعه وزَعَا أي كففته .

والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم .

روى محمد بن إسحاق عن أسماء بنت أبي بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى تعني يوم الفتح قال أبو قحافة وقد كُفَّ بصرُه يومئذٍ لابنته : اظهري بي على أبي قُبَيْس .

(53/576)

قالت : فأشرفت به عليه فقال : ما ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً .

قال تلك الخيل .

قالت وأرى رجلاً من السواد مقبلاً ومدبراً .

قال : ذلك الوازع يمنعها أن تنتشر .

وذكر تمام الخبر .

ومن هذا قوله عليه السلام : " "ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر" قيل : وما رأى يا رسول الله ؟ قال : "أما أنه رأى جبريل يزع الملائكة" " خرّجه الموطأ .

ومن هذا المعنى قول النابغة :

على حينَ عاتبتُ المَشيبَ على الصِّبَا . . .

وقلت أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازِعُ

آخر :

ولما تَلاقَينا جرت من جُفوننا . . .

دموعٌ وَزَعْنا غَرْبَها بالأَصابِعِ

آخر :

ولا يَزَعُ النفس اللَّجُوجَ عن الهوى . . .

من الناس إلا وافرُ العقل كامله

وقيل : هو من التوزيع بمعنى التفريق .

والقوم أوزاع أي طوائف .

وفي القصة : إن الشياطين نسجت له بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم ، وكان يوضع له كرسيّ من ذهب وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب ، والعلماء على كراسي الفضة .

الثانية : في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وَزَعة يكفّون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض ؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم .

وقال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال : والله ما يُصلح هؤلاء الناسَ إلا وَزَعةٌ .

وقال الحسن أيضاً : لا بدّ للناس من وازع ؛ أي من سلطان يكفهم .

وذكر ابن القاسم قال حدّثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يزَعُ الإمام أكثر مما يزَعُ القرآن ؛ أي من الناس .

قال ابن القاسم : قلت لمالك ما يزع ؟ قال : يكف .

(54/576)

قال القاضي أبو بكر بن العربي : وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام ، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمته .

قال : فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامّة كافة قائمة لِقوام الخلق ، لا زيادة عليها ، ولا نقصان معها ، ولا يصلح سواها ، ولكن الظلمة خاسوا بها ، وقصروا عنها ، وأتوا ما أتوا بغير نية ، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها ، فلم يرتدع الخلق بها ، ولو حكموا بالعدل ، وأخلصوا النية ، لاستقامت الأمور ، وصلح الجمهور .

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِي النمل ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنه واد بأرض الشام .

وقال كعب : هو بالطائف .

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أيها النمل ﴾ قال الشعبي : كان للنملة جناحان فصارت من الطير ، فلذلك علم منطقها ولولا ذلك لما علمه .

وقد مضى هذا ويأتي .

وقرأ سليمان التيمي بمكة : "نَمُلَةٌ" و"النَّمُلُ" بفتح النون وضم الميم .

وعنه أيضاً ضمهما جميعاً .

وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها .

قال كعب : مرّ سليمان عليه السلام بوادي السَّدير من أودية الطائف ، فأتى على وادي النمل ، فقامت نملة تمشي وهي عرجاء تتكاوس مثل الذئب في العظم ؛ فنادت : ﴿ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ﴾ الآية .

الزمخشري : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال ، وكانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس ؛ وقيل : كان اسمها طاخية .

(55/576)

وقال السهيلي : ذكروا اسم النملة المكلِّمة لسليمان عليه السلام ، وقالوا اسمها حرميا ، ولا أدري كيف يتصوّر للنملة اسم عَلم والنمل لا يسمي بعضهم بعضاً ، ولا الآدميون يمكنهم تسمية واحدة منهم باسم عَلَم ، لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض ، ولا هم أيضاً واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها ، فإن العلمية فيما كان كذلك موجودة عند العرب .

فإن قلت : إن العلمية موجودة في الأجناس كثُعَالة وأسَامة وجَعَار وقَثَامِ في الضّبع ونحو هذا كثير ؛ فليس اسم النملة من هذا ؛ لأنهم زعموا أنه اسم عَلَم لنملة واحدة معينة من بين سائر النمل ، وثعالة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس ، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس

فهو ثُعالة ، وكذلك أُسامة وابن آوى وابن عرس وما أشبه ذلك .

فإن صح ما قالوه فله وجه ، وهو أن تكون هذه النملة الناطقة قد سميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزبور أو في بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم ، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم .

وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه .

ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل : ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ فقولها : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ التفاتة مؤمن .

أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألاّ يشعروا .

وقد قيل : إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها ؛ ولذلك أكد التبسم بقوله : ﴿ ضَاحِكاً ﴾ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا ، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسّم المستهزئين .

وتبسم الضحك إنما هو عن سرور ، ولا يُسرّ نبيّ بأمر دنيا ؛ وإنما سُرّ بما كان من أمر الآخرة والدّين .

وقولها : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ إشارة إلى الدّين والعدل والرأفة .

ونظير قول النملة في جند سليمان : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ قول الله تعالى في جند محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح : 25] .

التفاتاً إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن .

إلا أن المثني على جند سليمان هي النملة بإذن الله تعالى ، والمثني على جند محمد صلى الله عليه وسلم هو الله عز وجل بنفسه ؛ لما لجنود محمد صلى الله عليه وسلم من الفضل على جند غيره من الأنبياء ؛ كما لمحمد صلى الله عليه وسلم فضل على جميع النبيين صلى الله عليه وسلم أجمعين .

وقرأ شهر بن حوشب : ﴿ مَسْكَنَكُمْ ﴾ بسكون السين على الإفراد .

وفي مصحف أبيّ ﴿ مَسَاكِنَكُنَّ لاَ يَحْطِمَنْكُمْ ﴾ .

وقرأ سليمان التَّيمي ﴿ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنْكُنَّ ﴾ ذكره النحاس ؛ أي لا يكسرنكم بوطئهم عليكم وهم لا يعلمون بكم .

قال المهدوي : وأفهم الله تعالى النملة هذا لتكون معجزة لسليمان .

وقال وهب : أمر الله تعالى الريح ألا يتكلم أحد بشيء إلا طرحته في سمع سليمان ؛ بسبب أن الشياطين أرادت كيده .

وقد قيل : إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد قاله الكلبيّ .

وقال نَوْف الشامي وشَقيق بن سَلَمة : كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئاب في العظم .

وقال بُرَيْدَة الأسلمي : كهيئة النعاج .

قال محمد بن علي الترمذي : فإن كان على هذه الخلقة فلها صوت ، وإنما افتقد صوت النمل لصغر خلقها ، وإلا فالأصوات في الطيور والبهائم كائنة ، وذلك منطقهم ، وفي تلك المناطق معاني التسبيح وغير ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

قلت : وقوله ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ يدل على صحة قول الكلبي ؛ إذ لو كانت كهيئة الذئاب والنعاج لما حطمت بالوطء ؛ والله أعلم .

وقال : ﴿ ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ فجاء على خطاب الآدميين لأن النمل ها هنا أجري مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون .

(57/576)

قال أبو إسحاق الثعلبي : ورأيت في بعض الكتب أن سليمان قال لها لِم حذّرتِ النمل ؟ أخفت ظلمي ؟ أما علمتِ أني نبيّ عدل ؟ فلم قلت : ﴿ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ فقالت النملة : أما سمعت قولي ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ مع أني لم أرد حطم النفوس ، وإنما أردت حطم القلوب خشية أن يتمنين مثل ما أعطيت ، أو يفتتن بالدنيا ، ويشتغلن بالنظر إلى ملكك عن التسبيح والذكر .

فقال لها سليمان : عظيني .

فقالت النملة : أما علمت لم سُمِّي أبوك داود ؟ قال : لا .

قالت : لأنه داوى جراحة فؤاده ؛ هل علمت لم سُميت سليمان ؟ قال : لا .

قالت : لأنك سليم الناحية على ما أوتيته بسلامة صدرك ، وإن لك أن تلحق بأبيك .

ثم قالت أتدري : لِمَ سخر الله لك الريح ؟ قال : لا .

قالت : أخبرك أن الدنيا كلها ريح .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ متعجباً ثم مضت مسرعة إلى قومها ، فقالت : هل عندكم من شيء نهديه إلى نبيّ الله ؟ قالوا : وما قدر ما نهدي له ! والله ما عندنا إلا نبقة واحدة .

قالت : حسنة ؛ ايتوني بها .

فأتوها بها فحملتها بفيها فانطلقت تجرها ، فأمر الله الريح فحملتها ، وأقبلت تشق الإنس

والجن والعلماء والأنبياء على البساط ، حتى وقعت بين يديه ، ثم وضعت تلك النبقة من فيها في كفّه ، وأنشأت تقول :

ألم تَرنا نُهدِي إلى الله مَا لَهُ . . .

وإن كان عنه ذا غنى فهو قابلُهْ

ولو كان يُهدَى للجليل بقدره . . .

لقصّر عنه البحرُ يوماً وساحلُهْ

ولكننا نُهدي إلى من نُحبُّه . . .

فيرضى به عنا ويشكر فاعلُهْ

وما ذاك إلا من كريمٍ فعالُه . . .

وإلا فما في ملكنا ما يشاكلُهْ

فقال لها : بارك الله فيكم ؛ فهم بتلك الدعوة أشكر خلق الله وأكثر خلق الله .

وقال ابن عباس : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والصُّرَد والنمّلة والنحلة ؛ خرجه أبو داود وصححه أبو محمد عبد الحق وروي من حديث أبي هريرة .

وقد مضى في "الأعراف" .

فالنملة أثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون إن حطموكم ، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم ، فنفت عنهم الجور ؛ ولذلك نهى عن قتلها ، وعن قتل الهدهد ؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس .

وقال عكرمة : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان باراً بوالديه .

والصُّرَد يقال له الصوّام .

وروي عن أبي هريرة قال : أوّل من صام الصُّرد ولما خرج إبراهيم عليه السلام من الشام إلى الحرم في بناء البيت كانت السكينة معه والصُّرَد ، فكان الصّرد دليله على الموضع والسكينة مقداره ، فلما صار إلى البقعة وقعت السكينة على موضع البيت ونادت وقالت : ابن يا إبراهيم على مقدار ظلّي .

وقد تقدّم في "الأعراف" سبب النهي عن قتل الضّفدع وفي "النحل" النهي عن قتل النحل .

والحمد لله .

الثانية : قرأ الحسن : ﴿ لاَيَحَطِّمَنَّكُمْ ﴾ وعنه أيضاً ﴿ لاَيَحِطِّمَنَّكُمْ ﴾ وعنه أيضاً وعن أبي رجاء : ﴿ لاَيُحَطِّمَنَّكُمْ ﴾ والحطْم الكسر .

حطمته حَطْماً أي كسرته وتَحطَّم ؛ والتّحطيم التكسير ، ﴿ وَهُمْ لاَيَشْعُرُونَ ﴾ يجوز أن يكون حالاً من سليمان وجنوده ، والعامل في الحال ﴿ يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ .

أو حالاً من النملة والعامل ﴿ قَالَتْ ﴾ : أي قالت ذلك في حال غفلة الجنود ؛ كقولك : قمت والناس غافلون .

أو حالاً من النمل أيضاً والعامل ﴿ قَالَتْ ﴾ على أن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها .

وفيه بعدٌ وسيأتي .

الثالثة : روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أن نملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبِّح " وفي طريق آخر : "فهلا نملة واحدة" .

قال علماؤنا : يقال إن هذا النبيّ هو موسى عليه السلام ، وإنه قال : يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع .

(59/576)

فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده ، فسلّط عليه الحرّ حتى التجأ إلى شجرة مستروحاً إلى ظلّها ، وعندها قرية النمل ، فغلبه النوم ، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرته ، فدلكهنّ بقدمه فأهلكهنّ ، وأحرق تلك الشجرة التي عندها مساكنهم ، فأراه الله العبرة في

ذلك آية : لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة ، وشراً ونقمة على العاصي .

وعلى هذا فليس في الحديث ما يدلّ على كراهةٍ ولا حظرٍ في قتل النمل ؛ فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك ، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن ، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار ، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها ، فإذا آذاك أبيح لك قتله .

وروي عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله .

وقوله : "ألا نملة واحدة" دليل على أن الذي يؤذِي يؤذَى ويقتل ، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء .

وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التي لدغت من غيرها ؛ لأنه ليس المراد القصاص ؛ لأنه لو أراده لقال ألا نملتك التي لدغتك ، ولكن قال : ألا نملة مكان نملة ؛ فعم البريء والجاني بذلك ، ليعلم أنه أراد أن ينبهه لمسألته ربّه في عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصي .

وقد قيل : إن هذا النبيّ كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة في شرعه ؛ فلذلك إنما عاتبه الله تعالى في إحراق الكثير من النمل لا في أصل الإحراق .

ألا ترى قوله : "فهلا نملة واحدة" أي هلا حرقت نملة واحدة .

وهذا بخلاف شرعنا ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد نهى عن التعذيب بالنار .

وقال : " لا يعذّب بالنار إلا الله " وكذلك أيضاً كان قتل النمل مباحاً في شريعة ذلك النبيّ ؛ فإن الله لم يعتبه على أصل قتل النمل .

وأما شرعنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبي هريرة النهي عن ذلك .

(60/576)

وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل .

وقد قيل : إن هذا النبيّ إنما عاتبه الله حيث انتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد ، وكان الأوْلى الصبر والصفح ؛ لكن وقع للنبيّ أن هذا النوع مؤذٍ لبني آدم ، وحرمة بني آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق ، فلو انفرد له هذا النظر ولم ينضم إليه التشفي الطبعي لم يعاتب .

والله أعلم .

لكن لما انضاف إليه التشفي الذي دلّ عليه سياق الحديث عوتب عليه .

الرابعة : قوله : "أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح" مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق ، كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقاً وفَهِمه سليمان عليه السلام وهذا معجزة له وتبسم من قولها .

وهذا يدلّ دلالة واضحة أن للنمل نطقاً وقولاً ، لكن لا يسمعه كل أحد ، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبيّ أو وليّ .

ولا ننكر هذا من حيث أنا لا نسمع ذلك ؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك في نفسه .

ثم إن الإنسان يجد في نفسه قولاً وكلاماً ولا يسمع منه إلا إذا نطق بلسانه .

وقد خرق الله العادة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فأسمعه كلام النفس من قوم تحدّثوا مع أنفسهم وأخبرهم بما في نفوسهم ، كما قد نقل منه الكثير من أئمتنا في كتب معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وكذلك وقع لكثير ممن أكرمه الله تعالى من الأولياء مثل ذلك في غير ما قضية .

وإياه عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : " إنّ في أمتي محدّثين وإن عمر منهم " وقد مضى هذا المعنى في تسبيح الجماد في ﴿ سبحان ﴾ وأنه تسبيح لسان ومقال لا تسبيح دلالة حال .

والحمد لله .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ وقرأ ابن السّمَيقُع : ﴿ ضحكا ﴾ بغير ألف ، وهو منصوب على المصدر بفعل محذوف يدلّ عليه تبسم ، كأنه قال

ضحك ضحكاً ، هذا مذهب سيبويه .

وهو عند غير سيبويه منصوب بنفس ﴿ تَبَسَّمَ ﴾ لأنه في معنى ضحك .

(61/576)

ومن قرأ : ﴿ ضَاحِكاً ﴾ فهو منصوب على الحال من الضمير في ﴿ تَبَسَّمَ ﴾ .

والمعنى تبسم مقدار الضحك ؛ لأن الضحك يستغرق التبسم ، والتبسم دون الضحك وهو أوّله .

يقال : بَسمَ بالفتح يَبْسِم بَسْماً فهو باسم وابتسم وتبسم ، والمَبْسِم الثغر مثل المجلس من جلس يجلس ورجل مِبسام وبسّام كثير التبسم ، فالتبسم ابتداء الضحك .

والضحك عبارة عن الابتداء والانتهاء ، إلا أن الضحك يقتضي مزيداً على التبسم ، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قيل قهقه .

والتبسم ضحك الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم .

وفي الصحيح عن جابر بن سَمُرة وقيل له : أكنت تجالس النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قال : نعم كثيراً ؛ كان لا يقوم من مصلاّه الذي يصلّي فيه الصبح أو الغداة حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدّثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم .

وفيه " عن سعد قال : كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ارمِ فداك أبي وأميّ" قال فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه " فكان عليه السلام في أكثر أحواله يتبسم .

وكان أيضاً يضحك في أحوال أُخَر ضحكاً أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذي تبدو فهي اللَّهَوات .

وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه .

وقد كره العلماء منه الكثرة ؛ كما قال لقمان لابنه : يا بنيّ إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب .

وقد روي مرفوعاً من حديث أبي ذرّ وغيره .

وضحك النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين رمى سعداً الرجل فأصابه ، إنما كان سروراً بإصابته لا بانكشاف عورته ؛ فإنه المنزَّه عن ذلك صلى الله عليه وسلم .

السادسة : لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول .

وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير .

قال ابن عطية : والنمل حيوان فطن قوي شمام جداً يدّخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا ينبت ، ويشق الكزبرة بأربع قطع ؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقتين ، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره عدّة .

قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا ، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها ؛ قال الأستاذ أبو المظفر شاهنور الإسفراييني : ولا يبعد أن تدرك البهائم حدوث العالم وحدوث المخلوقات ؛ ووحدانية الإله ، ولكننا لا نفهم عنها ولا تفهم عنا ، أما أنّا نطلبها وهي تفر منا فبحكم الجنسية .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ ﴾ ف ﴿ أن ﴾ مصدرية .

و ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾ أي ألهمني ذلك .

وأصله من وزع فكأنه قال : كفّني عما يسخط .

وقال محمد بن إسحاق : يزعم أهل الكتاب أن أم سليمان هي امرأة أوريا التي امتحن الله بها داود ، أو أنه بعد موت زوجها تزوّجها داود فولدت له سليمان عليه السلام .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة "صا" إن شاء الله تعالى .

﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين ﴾ أي مع عبادك ، عن ابن زيد .

وقيل : المعنى في جملة عبادك الصالحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(63/576)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾

هذا ابتداء قصص وأخبار بمغيبات وعبر ونكر .

﴿ علماً ﴾ لأنه طائفة من العلم .

وقال قتادة : علماً : فهماً .

وقال مقاتل : علماً بالقضاء .

وقال ابن عطاء : علماً بالله تعالى .

وقال الزمخشري : أو علماً سنياً عزيزاً .

﴿ وقالا ﴾ قال : فإن قلت : أليس هذا موضع الفاء دون الواو ، كقولك : أعطيته فشكر ومنعته فصبر ؟ قلت : بلى ، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه ، فأضمر ذلك ، ثم عطف عليه التحميد ، كأنه قال : ولقد

آتيناهما علماً ، فعملا به وعلماه ، وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة ، ﴿ وقالا الحمد لله ﴾ ، والكثير المفضل عليه من لم يؤت علماً ، أو من يؤت مثل علمهما ، وفي الآية دليل على شرف العلم . انتهى .

والموروث : الملك والنبوّة ، بمعنى : صار ذلك إليه بعد موت أبيه فسمي ميراثاً تجوزاً ، كما قيل : العلماء ورثة الأنبياء .

وحقيقة الميراث في المال والأنبياء لا نورث مالاً ، وكان لداود تسعة عشر ولداً ذكراً ، فنبىء سليمان من بينهم وملك .

وقيل : ولاه على بني إسرائيل في حياته من بين سائر أولاده ، فكانت الولاية في معنى الوراثة .

وقال الحسن : ورث المال لأن النبوة عطية مبتدأة لا تورث .

وقيل : الملك والسياسة .

وقيل : النبوة فقط ، والأظهر القول الأول ، ويؤيده قوله : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ ، فهذا يدل على النبوة ؛ ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ يدل على الملك ، وكان هذا شرحاً للميراث .

وقوله : ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ يقوي ذلك ، ولا يناسب شيء من هذا وراثة المال .

وقوله : ﴿ يا أيها الناس ﴾ تشهير لنعمة الله ، وتنويه بها واعتراف بمكانها ، ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير ، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور .

(64/576)

و ﴿ منطق الطير ﴾ : استعارة لما يسمع منها من الأصوات ، وهو حقيقة في بني آدم ، لما كان سليمان يفهم منه ما يفهم من كلام بني آدم ، كما يفهم بعض الطير من بعض ، أطلق عليه منطق .

وقيل : كانت الطير تكلمه معجزة له ، كقصة الهدهد ، والظاهر أنه علم منطق الطير وعموم الطير .

وقيل : علم منطق الحيوان .

قيل : والنبات ، حتى كان يمر على الشجرة فتذكر له منافعها ومضارها ، وإنما نص على الطير ، لأنه كان جنداً من جنوده ، يحتاج إليه في التظليل من الشمس ، وفي البعث في الأمور .

وقال قتادة : والشعبي : وكذلك كانت هذه النملة القائلة ذات جناحين .

وأورد المفسرون مما ذكروا : أن سليمان عليه السلام أخبر عن كثير من الطير بأنواع من الكلام ، تقديس لله تعالى وعظات ، وعبر ما الله أعلم بصحته .

﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ : ظاهره العموم ، والمراد الخصوص ، أي من كل شيء يصلح لنا ونتمناه ، وأريد به كثرة ما أوتي ، فكأنه مستغرق لجميع الأشياء .

كما تقول : فلان يقصده كل أحد ، يريد كثرة قصاده ، وهذا كقوله تعالى في قصة بلقيس : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ وبنى علمنا وأوتينا للمفعول ، وحذف الفاعل للعلم به ، وهو الله تعالى .

وكانا مسندين لنون العظمة لا لتاء المتكلم ، لأنه إما إن أراد نفسه وأباه ، أو لما كان ملكاً مطاعاً خاطب أهل طاعته ومملكته بحاله التي هو عليها ، لا على سبيل التعاظم والتكبر .

﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ : إقرار بالنعمة وشكر لها ومحمدة .

(65/576)

روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة خمسة وعشرون للجن ، ومثلها للإنس ، ومثلها للطير ، ومثلها للوحش ، وألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة منكوحة ، وسبعمائة سرية ، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ ،

ومنبره في وسطه من ذهب ، فيصعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة ، تقعد الأنبياء على كراسي الفضة ، وحولهم الناس ، وحول الناس الجن والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط ، فتسير به مسيرة شهر ، وتفصيل هذه الأشياء يحتاج إلى صحة نقل ، وكان ملكه عظيماً ، ملأ الأرض ، وانقاد له أهل المعمور منها .

وتقدم لنا أنه ملك الأرض بأسرها أربعة : مؤمنان : سليمان وذو القرنين ، وكافران : بختنصر ونمروذ .

وحشر الجنود يقتضي سفراً وفسر الجنود أنهم الجن والإنس والطير ، وذكر المفسرون الوحش رابعاً .

﴿ فهم يوزعون ﴾ : يحشر أولهم على آخرهم ، أي يوقف متقدمو العسكر حتى يأتي آخرهم فيجتمعون ، لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ، أو يكفون عن المسير حتى يجتمعوا .

وقيل : يجتمعون من كل جهة .

وقيل : يساقون .

وقيل : يدفعون .

وقيل : يحبسون .

كانت الجيوش تسير معه إذا سار ، وينزل إذا نزل .

﴿ حتى إذا أتوا ﴾ : هذه غاية لشيء مقدر ، أي وساروا حتى إذا أتوا ، أو يضمن يوزعون معنى فعل يقتضي أن تكون حتى غاية له ، أي فهم يسيرون مكفوفاً بعضهم من مفارقة بعض .

وعدى أتوا بعلى ، إما لأن إتيانهم كان من فوق ، وإما أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم : أتى على الشيء ، إذا أتى على آخره وأنفذه ، كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي ، لأنهم ما دامت الريح تحملهم لا يخاف حطمهم ، قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : والظاهر أن سليمان وجنوده كانوا مشاة في الأرض ، ولذلك يتهيأ حطم النمل بنزولهم في وادي النمل .

(66/576)

ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح ، فأحست النمل بنزولهم في وادي النمل ، ووادي النمل قيل بالشام .

وقيل : بأقصى اليمن ، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها .

وقال كعب : وادي السدر من الطائف .

والظاهر صدور القول من النملة ، وفهم سليمان كلامها ، كما فهم منطق الطير .

قال مقاتل : من ثلاثة أميال .

وقال الضحاك بلغته : الريح كلامها .

وقال ابن بحر : نطقت بالصوت معجزة لسليمان ، ككلام الضب والذراع للرسول .

وقيل : فهمه إلهاماً من الله ، كما فهمه جنس النمل ، لا أنه سمع قولاً .

وقال الكلبي : أخبره ملك بذلك .

قال الشاعر :

لو كنت أوتيت كلام الحكل . . .

علم سليمان كلام النمل

والحكل : ما لا يسمع صوته .

وذكروا اختلافاً في صغر النملة وكبرها ، وفي اسمها العلم ما لفظه .

وليت شعري ، من الذي وضع لها لفظاً يخصها ، أبنو آدم أم النمل ؟ وقالوا : كانت نملة عرجاء ، ولحوق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنث ، بل يصح أن يقال في المذكر : قالت نملة ، لأن نملة ، وإن كان بالتاء ، هو مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث .

وما كان كذلك ، كالنملة والقملة ، مما بينه في الجمع وبين واحدة من الحيوان تاء التأنيث ، فإنه يخبر عنه إخبار المؤنث ، ولا يدل كونه يخبر عنه إخبار المؤنث على أنه ذكر أو أنثى ،

لأن التاء دخلت فيه للفرق ، لا دالة على التأنيث الحقيقي ، بل دالة على الواحد من هذا الجنس .

وقال الزمخشري ، وعن قتادة : أنه دخل الكوفة ، فالتف عليه الناس فقال : سلوا عما شئتم .

وكان أبو حنيفة حاضراً ، وهو غلام حدث ، فقال : سلوه عن نملة سليمان ، أكانت ذكراً أم أنثى : فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى .

فقيل له : من أين عرفت ؟ فقال : من كتاب الله ، وهو قوله : ﴿ قالت نملة ﴾ ، ولو كان ذكراً لقال قال نملة .

(67/576)

قال الزمخشري : وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى ، فيميز بينهما بعلامة ، نحو قولهم : حمامة ذكر وحمامة أنثى ، وهو وهي . انتهى .

وكان قتادة بن دعامة السدوسي بصيراً بالعربية ، وكونه أفحم ، يدل على معرفته باللسان ، إذ علم أن النملة يخبر عنها إخبار المؤنث ، وإن كانت تنطلق على الأنثى والذكر ، إذ هو مما لا يتميز فيه أحد هذين ، فتذكيره وتأنيثه لا يعلم ذلك من إلحاق العلامة للفعل فتوقف ، إذ

لا يعلم ذلك إلا بوحي من الله .

وأما استنباط تأنيثه من كتاب الله من قوله : ﴿ قالت نملة ﴾ ، ولو كان ذكراً لقال : قال نملة ، وكلام النحاة على خلافه ، وأنه لا يخبر عنه إلا إخبار المؤنث ، سواء كان ذكراً أم أنثى .

وأما تشبيه الزمخشري النملة بالحمامة والشاة ، فبينهما قدر مشترك ، وهو إطلاقهما على الذكر والمؤنث ، وبينهما فرق ، وهو أن الحمامة والشاة يتميز فيهما المذكر من المؤنث ، فيمكن أن تقول : حمامة ذكر وحمامة أنثى ، فتميز بالصفة .

وأما تمييزه بهو وهي ، فإنه لا يجوز .

لا تقول : هو الحمامة ، ولا هو الشاة ؛ وأما النملة والقملة فلا يتيمز فيه المذكر من المؤنث ، فلا يجوز فيه في الإخبار إلا التأنيث ، وحكمه حكم المؤنث بالتاء من الحيوان العاقل نحو : المرأة ، أو غير العاقل كالدابة ، إلا أن وقع فصل بين الفعل وبين ما أسند إليه من ذلك ، فيجوز أن تلحق العلامة الفعل ، ويجوز أن لا تلحق ، على ما قرر ذلك في باب الإخبار عن المؤنث في علم العربية .

وقرأ الحسن ، وطلحة ، ومعتمر بن سليمان ، وأبو سليمان التيمي : نملة ، بضم الميم كسمرة ، وكذلك النمل ، كالرجلة والرجل لغتان .

وعن سليمان التيمي : نمل ونمل بضم النون والميم ، وجاء الخطاب بالأمر ، كخطاب من

يعقل في قوله : ﴿ ادخلوا ﴾ وما بعده ، لأنها أمرت النمل كأمر من يعقل ، وصدر من النمل الامتثال لأمرها .

وقرأ شهر بن حوشب : مسكنكم ، على الإفراد .

(68/576)

وعن أبيّ : أدخلن مساكنكن لا يحطمنكم : مخففة النون التي قبل الكاف .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وقتادة ، وعيسى بن عمر الهمداني ، الكوفي ، ونوح القاضي : بضم الياء وفتح الحاء وشد الطاء والنون ، مضارع حطم مشدداً .

وعن الحسن : بفتح الياء وإسكان الحاء وشد الطاء ، وعنه كذلك مع كسر الحاء ، وأصله : لا يحتطمنكم من الاحتطام .

وقرأ ابن أبي إسحاق ، وطلحة ، ويعقوب ، وأبو عمرو في رواية عبيد : كقراءة الجمهور ، إلا أنهم سكنوا نون التوكيد .

وقرأ الأعمش : بحذف النون وجزم الميم ، والظاهر أن قوله : ﴿ لا يحطمنكم ﴾ ، بالنون خفيفة أو شديدة ، نهي مستأنف ، وهو من باب : لا أرينك ههنا ، نهت غير النمل ، والمراد النمل ، أي لا تظهروا بأرض الوادي فيحطمكم ، ولا تكن هنا فأراك .

وقال الزمخشري : فإن قلت : لا يحطمنكم ما هو ؟ قلت : يحتمل أن يكون جواباً للأمر ، وأن يكون هنا بدلاً من الأمر ، والذي جوز أن يكون بدلاً منه ، لأنه في معنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة لا أرينك ههنا ، أرادت لا يحطمنكم جنود سليمان ، فجاءت بما هو أبلغ ونحوه : عجبت من نفسي ومن إشفاقها . انتهى .

وأما تخريجه على أنه أمر ، فلا يكون ذلك إلا على قراءة الأعمش ، إذ هو مجزوم ، مع أنه يحتمل أن يكون استئناف نفي ، وأما مع وجود نون التوكيد ، فإنه لا يجوز ذلك إلا إن كان في الشعر .

وإذا لم يجز ذلك في جواب الشرط إلا في الشعر ، فأحرى أن لا يجوز في جواب الأمر إلا في الشعر .

وكونه جواب الأمر متنازع فيه على ما قرر في النحو ، ومثال مجيء نون التوكيد في جواب الشرط ، قول الشاعر :

نبتم نبات الخيزرانة في الثرى . . .

حديثاً متى يأتك الخير ينفعا

وقول الآخر :

مهما تشا منه فزارة يعطه . . .

ومهما تشا منه فزارة يمنعا

قال سيبويه : وذلك قليل في الشعر ، شبهوه بالنفي حيث كان مجزوماً غير واجب . انتهى .

(69/576)

وقد تنبه أبو البقاء لشيء من هذا قال : وقيل هو جواب الأمر ، وهو ضعيف ، لأن جواب الشرط لا يؤكد بالنون في الاختيار .

وأما تخريجه على البدل فلا يجوز ، لأن مدلول ﴿ لا يحطمنكم ﴾ مخالف لمدلول ﴿ ادخلوا ﴾ .

وأما قوله : لأنه في معنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم ، فهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب ، والبدل من صفة الألفاظ .

نعم لو كان اللفظ القرآني لا تكونوا حيث أنتم لا يحطمنكم لتخيل فيه البدل ، لأن الأمر بدخول المساكن نهى عن كونهم في ظاهر الأرض .

وأما قوله : أنه أراد لا يحطمنكم جنود سليمان إلى آخر ، فيسوغ زيادة الأسماء ، وهو لا يجوز ، بل الظاهر إسناد الحطم إليه وإلى جنوده ، وهو على حذف مضاف ، أي خيل سليمان وجنوده ، أو نحو ذلك مما يصح تقديره .

﴿ وهم لا يشعرون ﴾ : جملة حالية ، أي إن وقع حطم ، فليس ذلك بتعمد منهم ، إنما يقع وهم لا يعلمون بحطمنا ، كقوله : ﴿ فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ﴾ وهذا التفات حسن ، أي من عدل سليمان وأتباعه ورحمته ورفقه أن لا يحطم نملة فما فوقها إلا بأن لا يكون لهم شعور بذلك .

وما أحسن ما أتت به هذه النملة في قولها وأغربه وأفصحه وأجمعه للمعاني ، أدركت فخامة ملك سليمان ، فنادت وأمرت وأنذرت .

وذكروا أنه جرى بينها وبين سليمان محاورات ، وأهدت له نبقة ، وأنشدوا أبياتاً في حقارة ما يهدى إلى العظيم ، والاستعذار من ذلك ، ودعاء سليمان للنمل بالبركة ، والله أعلم بصحة ذلك أو افتعاله .

والنمل حيوان قوي الحس شمام جداً ، يدخر القوت ، ويشق الحبة قطعتين لئلا تنبت ، والكزبرة بأربع ، لأنها إذا قطعت قطعتين أنبتت ، وتأكل في عامها بعض ما تجمع ، وتدخر الباقي عدة .

وفي الحديث : " النهي عن قتل أربع من الدواب : الهدهد والصرد والنملة والنحلة " ، خرجه أبو داود عن ابن عباس .

وروي من حديث أبي هريرة : وتبسم سليمان عليه السلام ، إما للعجب بما دل عليه قولها : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ، وهو إدراكها رحمته وشفقته ورحمة عسكره ، وإما للسرور بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً ، وهو إدراكه قول ما همس به ، الذي هو مثل في الصغر ، ولذلك دعا أن يوزعه الله شكر ما أنعم به عليه .

وانتصب ضاحكاً على الحال ، أي شارعاً في الضحك ومتجاوزاً حد التبسم إلى الضحك ، ولما كان التبسم يكون للاستهزاء وللغضب ، كما يقولون ، تبسم تبسم الغضبان ، وتبسم تبسم المستهزىء ، وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح ، أتى بقوله : ﴿ ضاحكاً ﴾ .

وقرأ ابن السميفع : ضحكاً ، جعله مصدراً ، لأن تبسم في معنى ضحك ، فانتصابه على المصدريه ، أو على أنه مصدر في موضع الحال ، كقراءة ضاحكاً .

﴿ وقال رب أوزعني ﴾ : أي اجعلني أزع شكر نعمتك وآلفه وأرتبطه ، حتى لا ينفلت عني ، حتى لا أنفك شاكراً لك .

وقال ابن عباس : أوزعني : اجعلني أشكر .

وقال ابن زيد : حرضني .

وقال أبو عبيدة : أولعني .

وقال الزجاج : امنعني عن الكفران .

وقيل : ألهمني الشكر ، وأدرج ذكر نعمة الله على والديه في أن يشكرهما ، كما يشكر نعمة الله على نفسه ، لما يجب للوالد على الولد من الدعاء لهما والبر بهما ، ولا سيما إذا كان الولد تقياً لله صالحاً ، فإن والديه ينتفعان بدعائه وبدعاء المؤمنين لهما بسببه ، كقولهم : رحم الله من خلفك ، رضي الله عنك وعن والديك .

ولما سأل ربه شيئاً خاصاً ، وهو شكر النعمة ، سأل شيئاً عاماً ، وهو أن يعمل عملاً يرضاه الله تعالى ، فاندرج فيه شكر النعمة ، فكأنه سأل إيزاع الشكر مرتين ، ثم دعا أن يلحق بالصالحين .

(71/576)

قال ابن زيد : هم الأنبياء والمؤمنون ، وكذا عادة الأنبياء أن يطلبوا جعلهم من الصالحين ، كما قال يوسف عليه السلام : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ وقال تعالى ، عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ قيل : لأن كمال الصلاح أن لا يعصي الله تعالى ولا يهم بمعصية ، وهذه درجة عالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودَ وسليمان عِلْماً ﴾

كلامٌ مستأنف مسوقٌ لتقرير ما سبقَ من أنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُلَقَّى القرآنَ من لدن حكيمٍ عليمٍ فإنَّ قصَّتَهمَا عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ من جملة القرآنِ الكريمِ لُقِّيه عليه الصلاة والسلام من لدنه تعالى كقصَّةِ موسى عليه الصلاة والسلام ، وتصديرُه بالقسمِ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيق مضمونِه أي آتينا كل واحد منهما طائفةً من العلم لائقةً به من علمِ الشرَّائعِ والأحكامِ وغير ذلك مما يختصُّ بكلَ منهما كصنعةِ لبوسٍ ومنطقِ الطَّيرِ أو علماً سنياً عزيزاً ﴿ وَقَالاَ ﴾ أي قال كلٌّ واحد منهما شُكراً لما أوتيه من العلمِ ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى فَضَّلَنَا ﴾ بما آتانَا من العلمِ ﴿ على كَثِيرٍ مّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ على أنَّ عبارةَ كلَ منهما فضَّلني إلا أنَّه عبَّر عنهما عند الحكايةِ بصيغة المتكلِّم مع الغير إيجازاً فإن حكايةَ الأقوالِ المتعدّدة سواء كانتْ صادرةً عن المتكلِّم أو عن غيره بعبارةٍ جامعة للكلِّ مما ليس بعزيزٍ ، ومن الأوَّلِ قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صالحا ﴾ وقد مرَّ في سورة قد أفلح المؤمنون وبهذا ظهر حسنُ موقع العطفِ بالواو إذ المتبادر من العطفِ بالفاء ترتبُ حمدِ كلَ

منهما على إيتاءِ ما أوتي كلٌّ منهما لا على إيتاءِ ما أوتي نفسه فقط وقيل : في العطفِ بالواوِ إشعارٌ بأنَّ ما قالاهُ بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلمِ وشيء من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف عليه التَّحميد كأنَّه قيل : ولقد آتيناهُما علماً فعمِلا به وعلماه وعرفا حقّ النّعمةِ فيه ، وقالا الحمدُ لله الآية فتأمَّل والكثيرُ المفضل عليه من لم يُؤت مثل علمهما وقيل من لم يُؤت علماً ويأباه تبيينُ الكثير بالمؤمنين فإنَّ خلوهم من العلم بالمرةِ مما لا يمكن ، وفي تخصيصِهما الأكثرَ بالذِّكر رمزٌ إلى أنَّ البعضَ مفضَّلون عليهما وفيه أوضحُ دليلٍ على فضل العلمِ وشرفِ أهلهِ حيثُ شكرا على

(73/576)

العلمِ وجعلاه أساسَ الفضلِ ولم يعبترا دونَه ما أُوتيا من الملكِ الذي لم يُؤته غيرهما وتحريضٌ للعلماءِ على أن يحمدُوا الله تعالى على ما آتاهُم من فضلِه ويتواضعوا ويعتقدُوا أنَّهم وإنْ فُضِّلوا على كثيرٍ فقد فُضِّل عليهم كثيرٌ وفوقَ كلِّ ذي علمٍ عليم ونِعمّا قال أميرُ المؤمنينَ عمر رضي الله عنه : (كلُّ النَّاس أفقهُ من عمرَ) .

﴿ وَوَرِثَ سليمان دَاوُودُ ﴾ أي النُّبوةَ والعلمَ أو الملكَ بأنْ قامَ مقامَهُ في ذلكَ دونَ سائرِ بنيهِ وكانُوا تسعةَ عشَر ﴿ وَقَالَ ﴾ تشهيراً لنعمةِ الله تعالى وتنويهاً بها ودعاءً للنَّاسِ إلى

التصديقِ بذكرِ المُعجزاتِ الباهرةِ التي أُوتيها ﴿ يا أيها الناس عُلّمْنَا مَنطِقَ الطير وَأُوتِينَا مِن كُلّ شَىْءٍ ﴾ المنطقُ في المتعارَفِ كلُّ لفظٍ يُعبَّر بهِ عمَّا في الضميرِ مُفرداً كانَ أو مُركباً وقد يُطلق على كلِّ ما يُصوَّتُ بِهِ من المفرد والمؤلَّفِ المفيدِ وغيرِ المفيدِ يقالُ نطقت الحمامةُ .

(74/576)

وكلُّ صنفٍ من أصنافِ الطيرِ يتفاهُم أصواتُه والذي عُلّمه سليمانُ عليه السَّلامُ من منطقِ الطيرِ هو ما يُفهم بعضُه من بعضٍ من معانيهِ وأغراضِه . ويُحكَى أنَّه مرَّ على بُلبلٍ في شجرةٍ يُحرّكُ رأسَهُ ويُميلُ ذنبَهُ فقالَ لأصحابِه أتدرونَ ما يقولُ ، قالوُا اللهُ ونبيُّه أعلمُ . قالَ يقولُ : إذا أكلتُ نصفُ تمرةٍ فعلى الدُّنيا العَفاءُ . وصاحتْ فاختةٌ فأَخبرَ أنَّها تقولُ : ليتَ الخلقَ لم يُخلقوا . وصاحَ طاووسٌ فقالَ يقول : كَمَا تَدينُ تُدانُ . وصاحَ هُدهدٌ فقالَ : يقول : استغفرُوا اللهَ يا مُذنبينَ . وصاحَ طَيْطَوى ، فقال : يقول : كُلُّ حيَ ميتٌ ، وكلُّ جديدٍ بالٍ . وصاحَ خُطَّافٌ فقالَ : يقولُ : قَدّمُوا خيراً تجدوه . وصاحَ قَمْريٌّ فأَخبرَ أنَّه يقولُ : سُبحانَ ربِّي الأَعْلَى . وصاحت رخمةٌ فقال تقول : سبحان ربي الأعلى ملءَ سمائِه وأرضِه . وقالَ الحِدَأةُ تقولُ : كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا اللهُ ، والقطاةُ تقولُ : منْ سكتَ سلَمْ . والببغاءُ تقولُ : ويلٌ لمنْ الدُّنيا همُّه ، والديكُ يقولُ : اذكرُوا اللهَ يا غافلينَ ، والنَّسرُ يقولُ : يا ابنَ آدمَ عِشْ مَا

شئتَ آخرُكَ الموتُ ، والعُقابُ تقولُ : في البعدِ عن النَّاسِ أُنسٌ والضِّفدعُ يقولُ : سبُحانَ ربِّي القُدُّوسِ . وأرادَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بقولِه : عُلِّمنا وأُوتينَا بالنُّونِ التي يُقال لها نونُ الواحدِ المُطاع بيانَ حالِه وصفتِه من كونِه ملكاً مطاعاً لكنْ لا تجبُّراً وتكبُّراً بل تمهيداً لما أرادَ منهم من حُسنِ الطاعةِ والانقيادِ له في أوامرِه ونواهيه حيثُ كان على عزيمةِ المسيرِ . وبقولِه : من كلِّ شيءٍ كثرةَ ما أُوتيه كما يُقال فلانٌ يقصده كلُّ أحدٍ ويعلمُ كلَّ شيءٍ ويُرادُ بهِ كثرةَ قُصَّادِه وغزارةَ علمِه . ومثلُه قولُه تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا : كلُّ ما يهمُّه من أمرِ الدُّنيا

(75/576)

والآخرةِ . وقال مقاتلٌ : يعني النُّبوةَ والملكَ وتسخيرَ الجنِّ والإنسِ والشياطينِ والريحِ . ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكرَ من التعليمِ والإيتاء ﴿ لَهُوَ الفضل ﴾ والإحسانُ من الله تعالَى ﴿ المبين ﴾ الواضحُ الذي لا يخفى على أحدٍ أو إنَّ هَذا الفضلَ الذي أُوتيهِ لهو الفضلُ المبينُ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قاله على سبيل الشكرِ والمحمدةِ كما قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " أنَا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ " أي أقولُ هذا القولَ شُكراً لا فخراً

ولعلَّه عليه الصَّلاة والسَّلام رتَّب على كلامه ذلك دعوةَ النَّاسِ إلى الغزوِ فإنَّ إخبارَهم بإيتاءِ كلِّ شيءٍ من الأشياءِ التي من جُملتها آلاتُ الحربِ وأسبابُ الغزوِ ممَّا ينبىءُ عن ذلك .

(76/576)

وقولِه تعالى ﴿ وَحُشِرَ لسليمان جُنُودُهُ ﴾ جُمع له عساكرُه ﴿ مِنَ الجن والإنس والطير ﴾ بمباشرة مخاطبيه فإنَّهم كانوا رؤساءَ مملكتِه وعظماءَ دولتِه من الثَّقلينِ وغيرِهم ، بتعميم النَّاس للكلِّ تغليباً . وتقديمُ الجنِّ على الإنسِ في البيانِ للمسارعةِ إلى الإيذانِ بكمالِ قوَّة مُلكِه وعزَّةِ سُلطانِه من أول الأمرِ لما أنَّ الجنَّ طائفةٌ عاتيةٌ وقبيلةٌ طاغيةٌ ماردةٌ بعيدةٌ من الحشرِ والتسخيرِ . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يُحبس أوائلُهم على أواخِرهم أي يُوقف سُلافُ العسكرِ حتى يلحقَهم التَّوالي فيكونُوا مجتمعينَ لا يختلفُ منهم أحدٌ وذلك للكثرة العظيمةِ . ويجوزُ أن يكونَ ذلك لترتيب الصُّفوفِ كما هم المُعتاد في العساكرِ ، وفيه إشعارٌ بكمال مسارعتِهم إلى السَّير . وتخصيصُ حسبِ أوائِلهم بالذكر دون سوقِ أواخرهم مع أنَّ التلاحقَ يحصلُ بذلكَ أيضاً لما أنَّ أواخرَهم غيرُ قادرينَ على ما يقدرُ عليه أوائلُهم من السيرِ السريعِ ، وهذا إذا لم يكُن سيرُهم بتسييرِ الرِّيحِ في الجوِّ . رُوي أنَّ معسكرَه عليهِ الصَّلاة والسَّلام كان مائةَ فرسخٍ في مائةٍ ، خمسةٌ وعشرونَ للجنِّ وخمسةٌ وعشرونَ للإنس

وخمسةٌ وعشرونَ للطيرِ وخمسةٌ وعشرونَ للوحشِ . وكان له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ألف بيتٍ من قواريرَ على الخشبِ ثلاثمائةُ منكوحةٍ وسبعمائةُ سريةٍ ، وقد نسجتْ له الجنُّ بساطاً من ذهبٍ وإبْرِيْسَمَ فرسخاً في فرسخٍ وكان يُوضعُ منبرُه في وسطِه وهو من ذهبٍ فيقعدُ عليه وحوله ستمائة ألفِ كرسيَ من ذهبٍ وفضةٍ فيقعدُ الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ على كَرَاسي الذهبِ والعلماءُ على كَرَاسي الفضَّةِ وحولَهم النَّاسُ وحول النَّاسِ الجنُّ والشياطينُ وتظله الطيرُ بأجنحتِها حتَّى لا تقعَ عليه الشمسُ وترفع ريحُ الصَّبا البساطَ فتسيرُ به مسيرةَ شهرٍ . ويُروى أنَّه كان يأمُر الريحَ العاصفَ تحملُه ويأمُر الرُّخاء تسيره

(77/576)

فأَوحى الله تعالى إليهِ وهو يسيرُ بين السماءِ والأرضِ إنَّي قد زدتُ في ملكك لا يتكلم أحدٌ بشيءٍ إلا ألقته الريحُ في سمعِك فيُحكى أنه مرَّ بحرَّاثٍ فقال : لقد أُوتيَ آلُ داودَ ملكاً عظيماً فألقته الريحُ في أذنِه فنزلَ ومشى إلى الحرَّاثِ وقال : إنَّما مشيتُ إليكَ لئلاَّ تتمنَّى ما لا تقدرُ عليه ، ثمَّ قال لتسبيحةٌ واحدةٌ يقبلها الله تعالى خيرٌ مما أُوتي آلُ داودَ .

﴿ حتى إذَا أَتَوْا على وَادِي النمل ﴾

(78/576)

حتَّى هي التي يُبتدأُ بها الكلامُ ومع ذلك هي غايةٌ لما قبلها كالتي في قولِه تعالى : ﴿ حتى إذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التنور قُلْنَا احمل ﴾ الآيةَ وهي ههنا غايةٌ لما يُنبىء عنه قولُه تعالى فهُم يُوزعونَ من السير كأنَّه قيلَ : فسارُوا حتَّى إذا أتَوا الخ ووادي النَّمل وادٍ بالشامِ كثيرُ النَّمل على ما قالَه مقاتلٌ رضي الله عنه ، وبالطَّائفِ على ما قالَه كعبٌ رضي الله عنه ، وقيلَ هو وادٍ تسكنُه الجنُّ والنملُ مراكبُهم . وتعديةُ الفعلِ إليه بكلمةِ عَلى إمَّا لأنَّ إتيانَهم كان من فوق ، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالإتيانِ عليه قطعُه ، من قولِهم أتَى على الشيءِ إذا أنفَدَه وبلغَ آخرَهُ ، ولعلَّهم أرادُوا أنْ ينزلُوا عند مُنتهى الوادي إذْ حينئذٍ يخافُهم ما في الأرضِ لا عند سيرِهم في الهواءِ . وقولُه تعالى ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ جوابُ إذا كأنَّها لما رأتْهُم متوجهينَ إلى الوادي فرَّتْ منهم فصاحتْ صيحةً تنبهتْ بها ما بحضرتِها من النملِ لمرادِها فتبعها في الفرارِ فُشبّه ذلك بمخاطبةِ العُقلاءِ ومناصحتِهم فأُجروا مُجراهم ، جُعلتْ هي قائلةً وما عداها من النملِ مقولٌ لهم حيثُ قيل : ﴿ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ مع أنَّه لا يمتنعُ أنْ يخلقَ الله تعالى فيها النُّطقَ وفيما عداها العقلَ والفهمَ . وقُرىء نَمُلة يا أيُّها النَّمُل بضمِّ الميمِ ، وهو الأصلُ كالرجُل ، وتسكينُ الميمِ تخفيفٌ منه كالسَّبْعِ في السبُع . وقُرىء بضمِّ النونِ والميمِ . قيل : كانتْ نملةً عرجاءَ تمشي وهي تتكاوسُ فنادتْ بما قالتْ فسمعَ سليمانُ عليه السَّلام كلامَها من ثلاثةِ أميالٍ وقيل : كان اسمُها طاخيةً . وقُرىء مسكَنكم . وقولُه تعالى : ﴿ لاَ

يَحْطِمَنَّكُمْ سليمان وَجُنُودُهُ ﴾ نهيٌ في الحقيقيةِ للنَّملِ عن التأخرِ في دخولِ مساكِنِهم وإنْ كانَ بحسبِ الظَّاهر نهياً له عليه الصَّلاة والسَّلام ولجنودِه عن الحطْمِ

(79/576)

كقولِهم : لا أرينَّك هَهُنا . فهُو استئنافٌ أو بدلٌ من الأمرِ ، كقولِ مَنْ قالَ فقلتُ له ارحلْ لا تُقيمنّ عندنا . . . لا جوابَ له فإنَّ النُّون لا تدخلُه في السَّعة . وقُرِىء لا يَحَطَمنكم بفتحِ الحاءِ وكسرِها ، وأصلُه لا يحتطمنّكم . وقولُه تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ حالٌ من فاعلِ يحطمنّكم مفيدةٌ لتقييدِ الحطمِ بحالِ عدمِ شعورِهم بمكانِهم حتَّى لو شعروا بذلك لم يحطَّمُوا ، وأرادتْ بذلكَ الإيذانَ بأنَّها عارفةٌ بشؤونِ سليمانَ وسائرِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام من عصمتِهم عن الظُّلم والإيذاءِ ، وقيل : هو استئنافٌ أي فهمَ سليمانُ ما قالتْهُ والقومُ لا يشعرونَ بذلكَ .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضاحكا مّن قَوْلِهَا ﴾

تعجباً من حذرها واهتدائِها إلى تدبير مصالحِها ومصالحِ بني نوعِها وسروراً بشهرة حالِه وحالِ جنودِه في بابِ التَّقوى والشَّفقةِ فيما بين أَصنافِ المخلوقاتِ التي هي أبعدُها من إدراك أمثالِ هذه الأمورِ وابتهاجاً بما خصَّه الله تعالى به من إدراك همسِها وفهمِ مُرادِها .

رُوي أَنَّها أحسَّتْ بصوتِ الجنودِ ولا تعلمُ أَنَّهم في الهواءِ فأمرَ سليمانُ عليه السَّلام الريحَ فوقفتْ لئلاَّ يذعَرنَ حتَّى دخلن مساكنهنَّ . ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ أي اجعلني أزعُ شكرَ نعمتكَ عندي واكفَّه وأرتبطُه بحيثُ لا ينفلتُ عنّي حتَّى لا أنفكَّ عن شكرِك أصلاً . وقُرِىء بفتحِ ياءِ أَوزعني . ﴿ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ أدرك فيه ذكرهما تكثيراً للنعمة فإنَّ الإنعامَ عليهما إنعامٌ عليه مستوجبٌ للشُّكرِ . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ إتماماً للشُّكرِ واستدامةً للنّعمةِ ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ في جُملتهم الجنَّةَ التي هي دارُ الصالحينَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(80/576)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودَ وسليمان عِلْماً ﴾

كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أنه عليه السلام تلقى القرآن من لدون حكيم عليم كقصة موسى عليه السلام ، وتصديره بالقسم لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من علم الشرائع والأحكام وغير ذلك مما يختص بكل

منهما كصنعة لبوس ومنطق الطير ، وخصها مقاتل بعلم القضاء ، وابن عطاء بالعلم بالله عز وجل ، ولعل الأولى ما ذكر أو علماً سنياً غزيراً فالتنوين على الأول للتقليل وهو أوفق بكون القائل هو الله عز وجل فإن كل علم عنده سبحانه قليل وعلى الثاني للتعظيم والتكثير ؛ وهو أوفق بامتنانه جل جلاله فإنه سبحانه الملك العظيم فاللائق بشأنه الامتنان بالعظيم الكثير فلكل وجهة ، وربما يرجح الثاني ، ومما ينبغي أن لا يلتفت إليه كون التنوين للنوعية أي نوعاً من العلم والمراد به علم الكيمياء ﴿ وَقَالاَ ﴾ أي قال كل منهما شكراً لما أوتيه من العلم ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى فَضَّلَنَا ﴾ بما آتانا من العلم ﴿ على كَثِيرٍ مّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ على أن عبارة كل منهما فضلني إلا أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير إيجازاً ، وحكاية الأقوال المتعددة سواء كانت صادرة عن المتكلم أو عن غيره بعبارة جامعة للكل مما ليس بعزيز ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ [المؤمنون : 51] قيل وبهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو دون الفاء إذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمل كل منهما على إيتاء ما أوتي كل منهما لا على إيتاء ما أوتي نفسه فقط .

(81/576)

وتعقب بأنه إذا سلم ما ذكر فالعطف بالواو أيضاً يتبادر معه كون حمد كل منهما على إيتاء ما أوتي كل منهما فما يمنع من ذلك مع الواو يمنع نحوه مع الفاء ، وقال العلامة الزمخشري : عطف بالواو دون الفاء مع أن الظاهر العكس كما في قولك : أعطيته فشكر إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قال سبحانه : ولقد آتيناهما علماً فعملا فيه وعلماه وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة ، وقالا : الحمد لله الذي فضلنا ، وحاصله أن إيتاء العلم من جلائل النعم وفواضل المنح يستدعي إحداث الشكر أكثر مما ذكر فجيء بالواو لأنها تستدعي إضماراً فيضمر ما يقتضيه موجب الشكر من قوله : فعملا به وعلماه فإنه شكر فعلي ، وقوله : وعرفا حق النعمة فيه والفضيلة فإنه شكر قلبي ، وبقوله تعالى : ﴿ وَقَالاَ ﴾ الخ تتم أنواع الشكر لأنه شكر لساني ، وفي الطي إيماء بأن المطوي جاوز حد الإحصاء ، ويعلم مما ذكر أن هذا الوجه لاختيار العطف بالواو أولى مما ذهب إليه السكاكي من تفويض الترتب إلى العقل لأن المقام يستدعي الشكر البالغ وهو ما يستوعب الأنواع وعلى ما ذهب إليه يكون بنوع القولي منها وحده ، وهو أولى مما قيل أيضاً : إنه لم يعطف بالفاء لأن الحمد على نعم عظيمة من جملتها العلم ولو عطف بالفاء لكان الحمد عليه فقط لأن السياق ظاهر في أن الحمد عليه لا على ما يدخل هو في جملته ، وهل هناك على ما ذكره العلامة تقدير حقيقة أم لا قولان ، وممن ذهب إلى الأول من يسمي هذه الواو الواو الفصيحة ، والظاهر أن المراد من

الكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما عليهما السلام ، وقيل : ذاك ومن لم يؤت علماً أصلاً .

(82/576)

وتعقب بأنه يأباه تبيين الكثير بعباده تعالى المؤمنين فإن خلوهم عن العلم بالمرة مما لا يمكن ، وفي تخصيصهما الكثير بالذكر إشارة إلى أن البعض مفضلون عليهما كذا قيل ، والمتبادر من البعض القليل ، وفي "الكشاف" أن في قوله تعالى : ﴿ على كَثِيرٍ ﴾ أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير .

وتعقب بأن فيه نظراً إذ يدل بالمفهوم على أنهما لم يفضلا على القليل فإما أن يفضل القليل عليهما أو يساوياه فلا بل يحتمل الأمرين .

ورده صاحب الكشف بأن الكثير لا يقابله القليل في مثل هذا المقام بل يدل على أن حكم الأكثر بخلافه ، ولما بعد تساوى الأكثر من حيث العادة لا سيما والأصل التفاوت حكم صاحب الكشاف بأنه يدل على أنه فضل عليهما أيضاً كثير على أن العرف طرح التساوي في مثله عن الاعتبار وجعل التقابل بين المفضل والمفضل عليه ، ألا ترى أنهم إذا قالوا : لا أفضل من زيد فهم أنه أفضل من الكل انتهى .

وفي الآية أوضح دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه مما أوتياه من الملك العظيم وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن في عباد الله تعالى من يفضلهم في العلم ، ونعم ما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حين نهى على المنبر عن التغالي في المهور فاعترضت عليه عجوز بقوله تعالى : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ [النساء : 20] الآية : كل الناس أفقه من عمر ، وفيه من جبر قلب العجوز وفتح باب الاجتهاد ما فيه ، وجعل الشيعة له من المثالب من أعظم المثالب وأعجب العجائب .

ولعل في الآية إشارة إلى جواز أن يقول العالم : أنا عالم .

وقد قال ذلك جملة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم منهم أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه .

(83/576)

وعبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وما شاع من حديث "من قال أنا عالم فهو جاهل" إنما يعرف من كلا يحيى بن أبي كثير موقوفاً عليه على ضعف في إسناده ، ويحيى هذا من صغار التابعين فإنه رأى أنس بن مالك وحده ، وقد وهم بعض الرواة فرفعه إلى النبي

صلى الله عليه وسلم ، وتحقيقه في أعذب المناهل للجلال السيوطي .

﴿ وَوَرِثَ سليمان دَاوُودَ ﴾ أي قام مقامه في النبوة والملك وصار نبياً ملكاً بعد موت أبيه داود عليهما السلام فوراثته إياه مجاز عن قيامه مقامه فيما ذكر بعد موته ، وقيل : المراد وراثة النبوة فقط ، وقيل : وراثة الملك فقط ، وعن الحسن ونسبه الطبرسي إلى أئمة أهل البيت أنها وراثة المال ، وتعقب بأنه قد صح " نحن معاشر الأنبياء لا نورث " وقد ذكره الصديق .

والفاروق رضي الله تعالى عنهما بحضرة جمع من الصحابة وهم الذين لا يخافون في الله تعالى لومة لائم ولم ينكره أحد منهم عليهما .

وأخرج أبو داود .

والترمذي عن أبي الدرداء قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر " وروى محمد بن يعقوب الرازي في "الكافي" عن أبي البحتري عن أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال ذلك أيضاً ، ومما يدل على أن هذه الوراثة ليست وراثة المال ما روى الكليني عن أبي عبد الله أن سليمان ورث داود وأن محمداً ورث سليمان صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً وراثة المال لا تختص بسليمان عليه السلام فإنه كان لداود عدة أولاد غيره كما رواه الكليني عنه أيضاً ، وذكر غيره أنه عليه السلام توفي عن تسعة عشر ابناً

فالإخبار بها عن سليمان ليس فيه كثير نفع وإن كان المراد الأخبار بما يلزمها من بقاء سليمان بعد داود عليهما السلام فما الداعي للعدول عما يفيده من غير خفاء مثل وقال سليمان بعد موت أبيه داود "يا أيها الناس" الخ.

(84/576)

وأيضاً السياق والسباق يأبيان أن يكون المراد وراثة المال كما لا يخفى على منصف، والظاهر أن الرواية عن الحسن غير ثابتة وكذا الرواية عن أئمة أهل البيت رضي الله تعالى عنهم، فقد سمعت في رواية الكليني عن الصادق رضي الله تعالى عنه ما ينافي ثبوتها، ووراثة غير المال شائعة في الكتاب الكريم فقد قال عز من قائل: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب ﴾ [فاطر: 32]، وقال سبحانه: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب ﴾ [الأعراف: 169] ولا يضر تفاوت القرينة فافهم.

وكان عمره يوم توفى داود عليهما السلام اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة وكان داود قد أوصى له بالملك فلما توفي ملك وعمره ما ذكر، وقيل: إن داود عليه السلام ولاه على بني إسرائيل في حياته حكاه في "البحر".

﴿ وَقَالَ ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى وتعظيماً لقدرها ودعاءً للناس إلى التصديق بنبوته

بذكر المعجزات الباهرات التي أوتيها لا افتخاراً ﴿ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس ﴾ الظاهر عمومه جميع الناس الذين يمكن عادة مخاطبتهم .

وقال بعض الأجلة : المراد به رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم ، والتعبير عنهم بما ذكر للتغليب ، وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي أنه قال : الناس عندنا أهل العلم ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير ﴾ أي نطقه وهو في المتعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً أو مركباً ، وقد يطلق على كل ما يصوت به على سبيل الاستعارة المصرحة ، ويجوز أن يعتبر تشبيه المصوت بالإنسان ويكون هناك استعارة بالكناية وإثبات النطق تخييلاً ، وقيل يجوز أيضاً أن يراد بالنطق مطلق الصوت على أنه مجاز مرسل وليس بذاك .

ويحتمل الأوجه الثلاثة قوله :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت . . .

حمامة في غصون ذات أو قال

(85/576)

وقد يطلق على ذلك للمشاكلة كما في قولهم : الناطق والصامت للحيوان والجماد ، والذي علمه عليه السلام من منطق الطير هو على ما قيل ما يفهم بعضه من بعض من معانيه

وأغراضه ، ويحكى أنه عليه السلام مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول ؟ قالوا : الله تعالى ونبيه أعلم قال : يقول أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء .

وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان ، وصاح هدهد فقال : يقول استغفروا الله تعالى يا مذنبون ، وصاح طيطوى فقال : يقول كل حي ميت وكل جديد بال ، وصاح خطاف فقال : يقول قدموا خيراً تجدوه ، وصاحت رخمة فقال : تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه ، وصاح قمري فأخبر أنه يقال : سبحان ربي الأعلى ، وقال الحدأ : يقول كل شيء هالك إلا الله تعالى ، والقطاة تقول : من سكت سلم ، والببغاء يقول : ويل لمن الدنيا همه ؛ والديك يقول : اذكروا الله تعالى يا غافلون .

والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت .

والعقاب يقول : في البعد من الناس أنس .

والضفدع يقول : سبحان ربي القدوس .

والقنبرة تقول : اللهم العن مبغض محمد وآل محمد ، والزرزور يقول : اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق .

والدراج يقول : الرحمن على العرش استوى انتهى .

ونظم الضفدع في سلك المذكورات من الطير ليس في محله ، ومع هذا الله تعالى أعلم بصحة هذه الحكاية .

وقيل : كانت الطير تكلمه عليه السلام معجزة له نحو ما وقع من الهدهد في القصة الآتية .

وقيل : علم عليه السلام ما تقصده الطير في أصواتها في سائر أحوالها فيفهم تسبيحها ووعظها وما تخاطبه به عليه السلام وما يخاطب به بعضها بعضاً .

(86/576)

وبالجملة علم من منطقها ما علم الإنسان من منطق بني صنفه ، ولا يستبعد أن يكون للطير نفوس ناطقة ولغات مخصوصة تؤدي بها مقاصدها كما في نوع الإنسان إلا أن النفوس الإنسانية أقوى وأكمل ، ولا يبعد أن تكون متفاوتة تفاوت النفوس الإنسانية الذي قال به من قال .

ويجوز أن يعلم الله تعالى منطقها من شاء من عباده ولا يختص ذلك بالأنبياء عليهم السلام ، ويجري ما ذكرناه في سائر الحيوانات .

وذهب بعض الناس إلى أن سليمان عليه علم منطقها أيضاً إلا أنه نص على الطير لأنها كانت جنداً من جنوده يحتاج إليها في التظليل من الشمس وفي البعض في الأمور ، ولا يخفى

أن الآية لا تدل على ذلك فيحتاج القول به إلى نقل صحيح ، وزعم بعضهم أنه عليه السلام علم أيضاً منطق النبات فكان يمر على الشجرة فتذكر له منافعها ومضارها .

ولم أجد في ذلك خبراً صحيحاً .

وكثير من الحكماء من يعرف خواص النبات بلونه وهيئته وطعمه وغير ذلك .

ولا يحتاج في معرفتها إلى نطقه بلسان القال .

والضمير في ﴿ عَلِمْنَا وَأُوتِينَا ﴾ قيل : له ولأبيه عليهما السلام وهو خلاف الظاهر .

والأولى كونه له عليه السلام .

ولما كان ملكاً مطاعاً خاطب رعيته على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة من التمهيد لما يراد من الرعية من الطاعة والانقياد في الأوامر والنواهي ولم يكن ذلك تعاظماً وتكبراً منه عليه السلام ، ومراعاة قواعد السياسة للتوصل بها إلى ما فيه رضا الله عز وجل من الأمور المهمة .

وقد أمر نبينا صلى الله عليه وسلم العباس بحبس أبي سفيان حتى تمر عليه الكتائب يوم الفتح لذلك ، و ﴿ كُلِّ ﴾ في الأصل للإحاطة وترد للتكثير كثيراً نحو قولك : فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء وهي كناية في ذلك أو مجاز مشهور .

وهذا المعنى هو المراد هنا إذا جعلت ﴿ مِنْ ﴾ صلة وهو المناسب لمقام التحدث بالنعم

، وإن لم تجعل صلة فهي على أصلها فيما قيل .

وأنت تعلم أنه لا يتسنى ذلك إلا إذا أريد الكل المجموعي وهو كما ترى .

(87/576)

وفي "البحر" أن قوله تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير ﴾ إشارة إلى النبوة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ إشارة إلى الملك .

والجملتان كالشرح للميراث .

وعن مقاتل أنه أريد بما أوتيه النبوة .

والملك .

وتسخير الجن والإنس والشياطين والريح .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هو ما يهمه عليه السلام من أمر الدنيا والآخرة .

وقد يقال : إنه ما يحتاجه الملك من آلات الحرب وغيرها ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارة إلى ما ذكر من التعليم والإيتاء ﴿ لَهُوَ الفضل ﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿ المبين ﴾ الواضح الذي لا يخفى على أحد أو أن هذا الفضل الذي أوتيته لهو الفضل المبين .

فيكون من كلامه عليه السلام قطعاً ذيل به ما تقدم منه ليدل على أنه إنما قال ما قال على

سبيل الشكر كما قال صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " بالراء المهملة آخره كما في الرواية المشهورة أي أقول هذا القول شكراً لا فخراً .

ويقرب من هذا المعنى ولا فخز بالزاي كما في الرواية الغير المشهورة .

﴿ وَحُشِرَ لسليمان جُنُودُهُ ﴾ أي جمع له عساكره من الأماكن المختلفة ﴿ مّن الجن والأرض والطير ﴾ بيان للجنود كما في البحر" وغيره .

ولا يلزم من ذلك أن يكون الجنود المحشورون له عليه السلام جميع الجن وجميع الإنس وجميع الطير إذ يأبى ذلك مع قطع النظر عن العقل قصة بلقيس الآتية بعد ، وكذا قصة الهدهد .

ونقل عن بعضهم أنه عليه السلام كان يأتيه من كل صنف من الطير واحد وهو نص في أن المحشور ليس جميع الطير .

ولا يكاد يصح إرادة الجميع في الجميع على ما ذكره الإمام في الآية أيضاً وهو أن المعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده لأنه وإن لم يستدع الحضور والاجتماع في موضع واحد بل يكفي فيه مجرد الانقياد والدخول في حيطة تصرفه والاتباع له حيث كانوا لإباء قصة بلقيس أيضاً عنه فإن المناسب الإخبار بهذا الجعل بعد الإخبار بدخولها ومن معها في حيطة تصرفه .

والظاهر أن هذا الحشر ليس إلا جمع العساكر ليذهب بهم إلى محاربة من لم يدخل في ربقة طاعته عليه السلام .

وكونه ليذهب بهم إلى مكة شكراً على ما وفق له من بناء بيت المقدس خلاف الظاهر . لكن إذا صح فيه خبر قبل ، وأن المجموع من الأنواع المذكورة ما يليق بشأنه وأبهته وعظمته سواء جعلت ﴿ مِنْ ﴾ بيانية أو تبعيضية .

وكونه عليه السلام أحد المؤمنين الذين ملكا المعمورة بأسرها إذا سلمنا صحة الخبر الدال عليه وسلامته من المعارض وأنه نص في المطلوب لا يستدعي سوى دخول سكان المعمورة في عداد رعيته وحيطة ملكته وليس ذلك دفعياً بل هو إن صح كان بحسب التدريج .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن بلقيس إنما دخلت تحت طاعته في السنة الخامسة والعشرين من ملكه ، وكانت مدة ملكه عليه السلام أربعين سنة وكذا كانت مدة ملك أبيه داود عليهما السلام .

والظاهر أن الحاشر لكل نوع من الأنواع الثلاثة أشخاص منهم فيكون من كل نوع أشخاص مأمورون بذلك معدون له .

ولا تستعد ذلك في الطير إذا كنت من المؤمنين بقصة الهدهد ، ولا يلزمك التزام ما قاله الإمام من أن الله تعالى جعل للطير عقلاً في أيام سليمان عليه السلام ولم يجعل لها ذلك في

أيامنا فما عليك بأس إذا قلت بأنها على حالة واحدة اليوم وذلك اليوم .

ولا نعني بعقلها إلا ما تهتدي به لأغراضها ، ووجود ذلك اليوم فيها وكذا في غيرها من سائر الحيوانات مما لا ينكره إلا مكابر ، وما علينا أن نقول : إن عقولها من حيث هي كعقول الإنسان من حيث هي .

ولعل فيها من يهتدي إلى ما لا يهتدي إليه الكثير من بني آدم كالنحل ، ولعمري أنها لو كانت خالية من العقل كما يقال وفرض وجود العقل فيها لا أظن أنها تصنع بعد وجوده أحسن مما تصنع اليوم .

(89/576)

وهي خالية منه ولا يجب أن يكون كل عاقل مكلفاً فلتكن الطيور كسائر العقلاء الذين لم يبعث إليهم نبي يأمرهم وينهاهم ، ويجوز أيضاً أن تكون عارفة بربها مؤمنة به جل وعلا من غير أن يبعث إليها نبي كمن ينشأ بشاهق جبل وحده ويكون مؤمناً بربه سبحانه بل كونها مؤمنة بالله تعالى مسبحة له وكذا سائر الحيوانات مما تشهد له ظواهر الآيات والأخبار ، وقد قدمنا بعضاً من ذلك وليس عندنا ما يجب له التأويل ، وبالغ بعضهم فزعم أنها مكلفة وفيها وكذا في غيرها من الحيوانات أنبياء لهم شرائع خاصة واستدل عليه بما استدل

والمشهور إكفار من زعم ذلك .

وقد نص على إكفاره جمع من الفقهاء ، وتخصيص الأنواع الثلاثة بالذكر ظاهر في أنه عليه السلام لم يسخر له الوحش .

وفي خبر أخرجه الحاكم عن محمد بن كعب ما هو ظاهر في تسخيره له عليه السلام أيضاً ، وسنذكره قريباً إن شاء الله تعالى لكنه لا يعول عليه ، وتقديم الجن للمسارعة إلى الإيذان بكمال قوة ملكه عليه السلام وعزة سلطانه من أول الأمر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية ماردة بعيدة من الحشر والتسخير .

ولم يقدم الطير على الإنس مع أن تسخيرها أشق أيضاً وأدل على قوة الملك وعزة السلطان لئلا يفصل بين الجن والإنس المتقابلين والمشتركين في كثير من الأحكام .

وقيل في تقدم الجن : إن مقام التسخير لا يخلو من تحقير وهو مناسب لهم وليس بشيء لأن التسخير للأنبياء عليهم السلام شرف لأنه في الحقيقة لله عز وجل الذي سخر كل شيء .

وإذا اعتبر في نفسه فالتعليل بذلك غير مناسب للمقام ويكفي هذا في عدم قبوله ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ، ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد في العساكر والأول أولى وفيه مع الدلالة على الكثرة والإشعار بكمال مسارعتهم إلى السير الدلالة على أنهم كانوا مسوسين غير مهملين لا يتأذى أحد بهم .

وأصل الوزع الكف والمنع ، ومنه قول عثمان رضي الله تعالى عنه : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن .

وقول الحسن لا لا بد للقاضي من وزعة ، وقول الشاعر :

ومن لم يزعه لبه وحياؤه . . .

فليس له من شيب فوديه وازع

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضاً لأن في ذلك شفقة على الطائفتين ، أما الأوائل فمن جهة أن يستريحوا في الجملة بالوقوف عن السيرد وأما الأواخر فمن جهة أن لا يجهدوا أنفسهم بسرعة السير ، وقيل : إن ذلك لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع ، وأخرج الطبراني ، والطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه يحبس أولهم على آخرهم حتى تنام الطير والله تعالى أعلم بصحة الخبر .

والظاهر أن هذا الوزع إذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح في الجو ، والأخبار في قصته عليه السلام كثيرة .

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال .

كان يوضع لسليمان ثلاثمائة ألف كرسي فيجلس مؤمني الإنس مما يليه ومؤمني الجن من ورائهم ثم يأمر الطير فتظله ثم يأمر الريح فتحمله فيمرون على السنبلة فلا يحركونها ،

وأخرج الحاكم عن محمد بن كعب قال : بلغنا أن سليمان عليه السلام كان معسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون للإنس .

وخمسة وعشرون للجن .

وخمس وعشرون للوحش .

وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به .

وأوحى الله عز وجل إليه وهو يسير بين السماء والأرض إني قد زدتك في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح إليك وألقته في سمعك .

(91/576)

ويروى أن الجن نسجت له عليه السلام بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ ومنبره في وسطه من ذهب فيصعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة فتقعد

الأنبياء عليهم السلام على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين وتظله الطير بأجنحتها وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر .

وأخرج عبد الله بن أحمد في "زوائد الزهد" .

وابن المنذر عن وهب بن منبه قال : مر سليمان عليه السلام وهو في ملكه وقد حملته الريح على رجل حراث من بني إسرائيل فلما رآه قال : سبحان الله لقد أوتي آل داود ملكاً فحملتها الريح فوضعتها في أذنه فقال : ائتوني بالرجل قال : ماذا قلت ؟ فأخبره فقال سليمان : إني خشيت عليك الفتنة لثواب سبحان الله عند الله يوم القيامة أعظم مما رأيت آل داود أوتوا فقال الحراث : أذهب الله تعالى همك كما أذهبت همي .

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام نزل ومشى إلى الحراث وقال : إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال : لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود ، وأكثر الأخبار في هذا الشأن لا يعول عليها فعليك بالإيمان بما نطق به القرآن ودلت عليه الأخبار الصحيحة وإياك من الانتصار لما لا صحة له مما يذكره كثير من القصاص والمؤرخين مما فيه مبالغات شنيعة بمجرد أنها أمور ممكنة يصح تعلق قدرته عز وجل بها فتفتح بذلك باب السخرية بالدين والعياذ بالله تعالى ، ولا يبعد أن يكون أكثر ما تضمن مثل ذلك من

وضع الزنادقة يريدون به التنفير عن دين الإسلام .

﴿ حتى إِذَا أَتَوْا على وَادِي النمل ﴾

(92/576)

حتى هي التي يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هي غاية لما قبلها وهي ههنا غاية لما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : 17] من السير كأنه قيل : فساروا حتى إذا أتوا الخ ، ووادي النمل واد بأرض الشام كثير النمل على ما روي عن قتادة ومقاتل ، وقال كعب : هو وادي السدير من أرض الطائف ، وقيل : واد بأقصى اليمن وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها ، وقيل : هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وهذا عندي مما لا يلتفت إليه .

وتعدية الفعل إليه بكلمة على مع أنه يتعدى بنفسه أو بإلى إما لأن إتيانهم كان من جانب عال فعدى بها للدلالة على ذلك كما قال المتنبي :

ولشد ما جاوزت قدرك صاعدا . . .

ولشد ما قربت عليك الأنجم

لما كان قرب الأنجم وإن أراد بها أبيات شعره من فوق ، وإما لأن المراد بالإتيان عليه قطعه

وبلوغ آخره من قولهم : أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره .

ثم الإتيان عليه بمعنى قطعه مجاز عن إرادة ذلك وإلا لم يكن للتحذير من الحطم الآتي وجه إذ لا معنى له بعد قطع الوادي الذي فيه النمل ومجاوزته ، والظاهر على الوجهين أنهم أتوا عليه مشاة ، ويحتمل أنهم كانوا يسيرون في الهواء فأرادوا أن ينزلوا هناك فأحست النملة بنزولهم فأنذرت النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ جواب إذا .

والظاهر أنها صوتت بما فهم سليمان عليه السلام منه معنى ﴿ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سليمان وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وهذا كما يفهم عليه السلام من أصوات الطير ما يفهم ، ولا يقدح في ذلك أنه عليه السلام لم يعلم إلا منطق الطير إما لأنها كانت من الطير ذات جناحين كما أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي وهو .

عبد الرزاق .

وعبد بن حميد .

(93/576)

وابن المنذر عن قتادة ، وكم رأينا نملة لها جناحان تطير بهما ، وكون ذلك لا يقتضي عدها من الطير محل نظر وإما لأن فهم ما ذكر وقع له عليه السلام هذه المرة فقط ولم يطرد كفهم

أصوات الطير ، وليس في الآية السابقة ولا في الأخبار ما ينفي فهم ما يقصده غير الطير من الحيوانات بدون اطراد ، وقال ابن بحر : إنها نطقت بذلك معجزة لسليمان عليه السلام كما نطق الضب والذراع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال مقاتل : وقد سمع عليه السلام قولها من ثلاثة أميال ، ويلزم على هذا أنها أحست بنزولهم من هذه المسافة .

والسمع من سليمان منها غير بعيد لأن الريح كما جاء في الآثار توصل الصوت إليه أو لأن الله تعالى وهبه إذ ذاك قوة قدسية سمع بها إلا أن إحساس النملة من تلك المسافة بعيد ، والمشهور عند العرب بالإحساس من بعيد القراد حتى ضربوا به المثل .

وأنت تعلم أنه لا ضرر في إنكار صحة هذا الخبر ، وقيل : إنه عليه السلام لم يسمع صوتاً أصلاً وإنما فهم ما في نفس النملة الهاماً من الله تعالى ، وقال الكلبي : أخبره ملك بذلك وإلى أنه لم يسمع صوتاً يشير قول جرير :

لو كنت أوتيت كلام الحكل . . .

علم سليمان كلام النمل

فإنه أراد بالحكل ما لا يسمع صوته ؛ وقال بعضهم : كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حطمهم فتبعها غيرها وصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل فتبعتها فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أجروا مجراهم حيث جعلت هي قائلة وما عداها من النمل مقولاً له فيكون الكلام خارج مخرج الاستعارة التمثيلية ،

ويجوز أن يكون فيه استعارة مكنية .

وأنت تعلم أنه لا ضرورة تدعو إلى ذلك .

(94/576)

ومن تتبع أحوال النمل لا يستبعد أن تكون له نفس ناطقة فإنه يدخر في الصيف ما يقتات به في الشتاء ويشق ما يدخره من الحبوب نصفين مخافة أن يصيبه الندى فينبت إلا الكزبرة والعدس فإنه يقطع الواحدة منهما أربع قطع ولا يكتفي بشقها نصفين لأنها تنبت كما تنبت إذا لم تشق .

وهذا وأمثاله يحتاج إلى علم كلي استدلالي وهو يحتاج إلى نفس ناطقة .

وقد برهن شيخ الأشراف على ثبوت النفس الناطقة لجميع الحيوانات .

وظواهر الآيات والأخبار الصحيحة تقتضيه كما سمعت قديماً وحديثاً فلا حاجة بك إلى أن تقول : يجوز أن يكون الله تعالى قد خلق في النملة إذ ذاك النطق وفيما عداها من النمل العقل والفهم وأما اليوم فليس في النمل ذلك .

ثم إنه ينبغي أن يعلم أن الظاهر أن علم النملة بأن الآتي هو سليمان عليه السلام وجنوده كان عن إلهام منه عز وجل وذلك كعلم الضب برسول صلى الله عليه وسلم حين تكلم معه

وشهد برسالته عليه الصلاة والسلام ، والظاهر أيضاً أنها كانت كسائر النمل في الجثة ، وفيه اليوم ما يقرب من الذبابة ويسمى بالنمل الفارسي ، وبالغ بعض القصاص في كبرها ولا يصح له مستند .

(95/576)

وفي بعض الآثار أنها كانت عرجاء واسمها طاخية ، وقيل : جرمي ، وفي "البحر" اختلف في اسمها العلم ما لفظه وليت شعري من الذي وضع لها لفظاً يخصها أبنو آدم أم النمل انتهى ، والذي يذهب إلى أن للحيوانات نفوساً ناطقة لا يمنع أن تكون لها أسماء وضعها بعضها لبعض لكن لا بألفاظ كألفاظنا بل بأصوات تؤدي على نحو مخصوص من الأداء ولعله يشتمل على أمور مختلفة كل منها يقوم مقام حرف من الحروف المألوفة لنا إذا أراد أن يترجم عنها من عرفها من ذوي النفوس القدسية ترجمها بما نعرف ، ويقرب هذا لك أن بعض كلام الإفرنج وأشباههم لا نسمع منه إلا كما نسمع من أصوات العصافير ونحوها وإذا ترجم لنا بما نعرفه ظهر مشتملاً على الحروف المألوفة ، والظاهر أن تاء ﴿ نَمْلَةٌ ﴾ للوحدة فتأنيث الفعل لمراعاة ظاهر التأنيث فلا دليل في ذلك على أن النملة كانت أنثى قاله بعضهم .

(96/576)

وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال : سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه حاضراً وهو غلام حدث فقال : سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى ؟ فسألوه فافحم فقال أبو حينفة : كانت أنثى فقيل له : من أين عرفت ؟ فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ ولو كان ذكراً لقال سبحانه قال نملة ، وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم : حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي كذا في الكساف ، وتعقبه ابن المنير فقال : لا أدري العجب منه أم من أبي حنيفة إن ثبت ذلك عنه ، وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس فيقال : نملة ذكر ونملة أنثى كما يقولون : حمامة ذكر وحمامة أنثى وشاة ذكر وشاة أنثى فلفظها مؤنث ومعناها محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها وإن كانت واقعة على ذكر بل هذا هو الفصيح المستعمل ، ألا ترى قوله صلى الله عليه وسلم : " لا يضحى بعوراء ولا عمياء ولا عجفاء " كيف أخرج عليه الصلاة والسلام هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعني صلى الله عليه وسلم الأناث من الأنعام خاصة فحينئذ قوله تعالى : قلت نملة روعي فيه تأنيث اللفظ وأما المعنى فيحتمل التذكير والتأنيث على حد سواء ، وكيف يسأل أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه بهذا ويفحم به قتادة مع غزارة علمه ، والأشبه ان ذلك لا يصح عنهما اه .

وقال ابن الحاجب عليه الرحمة : التأنيث اللفظي هو أن لا يكون بإزائه ذكر في الحيوان كظلمة وعين ، ولا فرق بين أن يكون حيواناً أو غيره كدجاجة .

وحمامة إذا قصد به مذكر فإنه مؤنث لفظي ، ولذلك كان قول من زعم أن النملة في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ أنثى لورود تاء التأنيث في ﴿ قَالَتْ ﴾ وهما لجواز أن يكون مذكراً في الحقيقة ، وورود تاء التأنيث كورودها في الفعل المؤنث اللفظي نحو جاءت الظلمة .

(97/576)

وأجاب بعض فضلاء ما وراء النهر وقال لعمر : أنه قد تعسف ههنا ابن الحاجب وترك الواجب حيث اعترض على إمام أهل الإسلام ، واعتراضه بقوله : وورود تاء التأنيث كورودها الخليش بشيء إذ لو كان جائزاً أن يؤتى بتاء التأنيث في الفعل لمجرد صورة التأنيث في الفاعل المذكر الحقيقي لكان ينبغي جواز أن يقال : جاءتني طلحة مع أنه لا يجوز ، وجوابه عن ذلك في شرحه بقوله : وليس ذلك كتأنيث أسماء الأعلام فإنها لا يعتبر فيها إلا المعنى دون اللفظ خلافاً للكوفيين .

والسر فيه أنهم نقلوها عن معانيها إلى مدلول آخر فاعتبروا فيها المدلول الثاني ، ولو اعتبروا

تأنيثها لكان اعتباراً للمدلول الأول فيفسد المعنى فلذلك لا يقال : أعجبتني طلحة تناقض محض كأنه نسي ما أمضى في صدر كتابه من قوله فإن سمي به مذكر فشرطه الزيادة يعني فإن سمي بالمؤنث المعنوي فشرطه الزيادة على ثلاثة أحرف فلا يخفى على من له أدنى مسكة أن عقرب مع أن علامة التأنيث فيه مقدرة العلمية لا تمنعها عن اعتبار تأنيثها حتى تمنع من الصرف فكيف تمنع العلمية عن اعتبار التأنيث في طلحة مع أن علامة التأنيث فيه لفظية فإذن ليس طرح التاء عن الفعل إلا لأن التاء إنما يجاء بها علامة لتأنيث الفاعل ، والفاعل ههنا مذكر حقيقي فكذا النملة لو كان مذكراً لكان هو مع طلحة حذو القذة بالقذة .

وينصر قول أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه ما نقل عن ابن السكيت هذا بطة ذكر وهذا حمامة ذكر وهذا شاة إذا عنيت كبشا وهذا بقرة إذا عنيت ثوراً فإن عنيت به أنثى قلت : هذه بقرة اه .

وارتضاه الطيبي ثم قال فظهر أن القول ما قالت حذام والمذهب ما سلكه الإمام .

(98/576)

وفي الكشف إن التاء في نملة للوحدة فهنى في حكم المؤنث اللفظي جاز أن تعامل معاملته كتمر وتمرة على ما نص عليه في المفصل ، ولا يشكل بنحو طلحة حيث لم يجز الحالق فعله التاء لأن أسماء الأعلام يعتبر فيها المعنى دون اللفظ خلافاً للكوفيين إلى آخر ما ذكره ابن الحاجب ، ولا نقض باعتبار التأنيث في عقرب ان سمي به مذكر ولا في طلحة نفسه باعتبار منع الصرف على ما ظنه بعض فضلاء ما وراء النهر .

وصوبه شيخنا الطيبي لأن اعتبار المعنى هو فيما يرجع إلى المعنى لا فيما يرجع إلى اللفظ ، والحاق العلامة باعتبار الفاعل إما للتأنيث الحقيقي وإما لشبه التأنيث من الوحدة أو الجمعية ونحوها فإذا لم يبق المعنى أعني التأنيث وشبه التأنيث فلا وجه للإلحاق .

وأما منع الصرف فلا نظر فيه إلى معنى التأنيث بل إلى هذه الزيادة لفظاً أو تقديراً وذلك غير مختلف في المنقول والمنقول عنه ، وكفاك دليلاً لاعتبار اللفظ وحده في هذا الحكم تفرقتهم في سقر بين تسمية المذكر به والمؤنث دون عقرب فلو تأمل المناقض لكان ما أورده عليه لا له هذا ، وإن ازمام رضي الله تعالى عنه كوفي والقاعدة على أصله مهدومة انتهى .

وهو كلام متين .

والحزم القول بعدم صحة هذه الحكاية فأبو جنيفة رضي الله تعالى عنه من عرفت وأن كان إذ ذاك غلاماً حدثاً .

وقتادة بن دعامة السدوسي بإجماع العارفين بالرجال كان بصيراً بالعربية فيبعد كل البعد

وقوع ما ذكر منهما والله تعالى أعلم .

والحطم الكسر والمراد به الإهلاك .

(99/576)

والنهي في الظاهر لسليمان عليه السلام وجنوده وهو في الحقيقة نهى على طريق الكناية للنمل عن التوقف حتى تحطم لأن الحطم غير مقدور لها نحو قولك : لا أرينك ههنا فإنه في الظاهر نهي للمتكلم عن رؤية المخاطب والمقصود نهى المخاطب عن الكون بحيث يراه المتكلم فالجملة استئناف أو بدل اشتمال من جملة ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾ ، وقول بعضهم : إذا كان المعنى النهي عن التوقف حتى تحطم يحصل الاتحاد بين الجملتين يقتضي انه بدل كل من كل بناء على أن الأمر بالشيء عين النهي عن ضده وعلى ما ذكر لا حاجة إليه ؛ وبالجملة اعتراض أبي حيان على وجه الإبدال باختلاف مدلولي الجملتين ليس في محله ، وجوز الزمخشري كون لا يحطمنكم جواباً للأمر ، أعني ادخلوا و ﴿ لا ﴾ حينئذ نافية وتعقب بأن دخول النون في جواب الشرط مخصوص بضرورة الشعر كقوله :

مهما تشأ منه فزارة تعطه . . .

ومهما تشأ منه فزارة يمنعا

وفي الكتاب وهو قليل في الشعر شبهوه بالنهي حيث كان مجزوماً غير واجب .

وأرادت النملة على ما في الكشاف لا يحطمنكم جنود سليمان فجاءت بما هو أبلغ .

ونحوه قوله :

عجبت من نفسي ومن إشفاقها . . .

حيث أراد عجبت من إشفاق نفسي فجاء بما هو أبلغ للإجمال والتفصيل .

وتعقب ذلك في البحر بأن فيه القول بزيادة الأسماء وهي لا تجوز بل الظاهر إسناد الحطم إليه عليه السلام وإلى جنوده والكلام على حذف مضاف أي خيل سليمان وجنوده أو نحو ذلك مما يصح تقديره وللبحث فيه مجال وجملة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ حال من مجموع المتعاطفين والضمير لهما .

(100/576)

وجوز أن تكون حالاً من الجنود والضمير لهم ، وأياً ما كان ففي تقييد الحطم بعدم الشعور بمكانهم المشعر بأنه لو شعروا بذلك لم يحطموا ما يشعر بغاية أدب النملة مع سليمان عليه السلام وجنوده ، وليت من طعن في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنهم تأسى بها فكف عن ذلك وأحسن الأدب ، وروي أن سليمان عليه السلام لما سمع

قول النملة : ﴿ على وَادِى النمل ﴾ الخ قال ائتوني بها فأتوا بها فقال لم حذرت النمل ظلمي ؟ أما علمت اني نبي عدل فلم قلت : ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سليمان ﴾ وجنوده فقالت : أما سمعت قولي ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ ومع ذلك أني لم أرد حطم النفوس وإنما أردت حطم القلوب خشيت أن يروا ما أنعم الله تعالى به عليك من الجاه والملك العظيم فيقعوا في كفران النعم فلا أقل من أن يشتغلوا بالنظر إليك عن التسبيح فقال لها سليمان عظيني فقالت أعلمت لم سمي أبوك داود ؟ قال : لا قالت : لأنه داوى جراحة قلبه وهل تدري لم سميت سليمان ؟ قال : لا قالت : لأنك سليم القلب والصدر .

ثم قالت : أتدرى لم سخر الله تعالى لك الريح ؟ قال لا قالت أخبرك الله تعالى بذلك أن الدنيا كلها ريح فمن اعتمد عليها فكأنما اعتمد على الريح .

وهذا ظاهر الوضع كما لا يخفى وفيه ما يشبه كلام الصوفية والله تعالى أعلم بصحة ما روي من أنها أهدت إليه نبقة وانه عليه السلام دعا للنمل بالبركة .

وجوز أن تكون جملة ﴿ هُمْ لا ما ناتهم يَشْعُرُونَ ﴾ في موضع الحال من النملة والضمير للجنود كالضمائر السابقة في قوله تعالى : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : 17] وقوله سبحانه : ﴿ حتى إِذَا أَتَوْا ﴾ وهي من كلامه تعالى أي قالت ذلك في حال كون الجنود لا يشعرون به وليس بشيء وقد يقرب منه ما قيل أنه يجوز أن تكون الجملة معطوفة على مقدر وهي من كلامه عزوجل كأنه قيل : فهم سليمان ما قالت والجنود لا يشعرون بذلك .

وقرأ الحسن .

وطلحة ومعتمرين سليمان .

(101/576)

وأبو سليمان التيمي نملة بضم الميم كسمرة .

وكذلك النمل كالرجل والرجل لغتان ، وعن أبي سليمان التيمي نملة ونمل بضم النون والميم .

وقرأ شهر بن حوشب ﴿ مساكنكم ﴾ على الافراد .

وعن أبي ﴿ ادخلن مساكنكن لا يحطمنكن ﴾ مخففة النون التي قبل الكاف .

وقرأ الحسن .

وأبو رجاء .

وقتادة .

وعيسى بن عمر الهمداني الكوفي .

ونوح القاضي بضم الياء وفتح الحاء وشد الطاء والنون مضارع حطم مشدداً .

وعن الحسن بفتح الياء وإسكان الحاء وشد الطاء وعنه كذلك مع كسر الحاء وأصله

يحتطمنكم من الاحتطام .

وقرأ ابن أبي إسحق .

وطلحة .

ويعقوب .

وأبو عمرو في رواية عبيد كقراءة الجمهور إلا أنهم سكنوا نون التأكيد ، وقرأ الأعمش بحذف النون وجزم الميم .

ولا خلاف على هذه القراءة في جواز أن يكون الفعل مجزوماً في جواب الأمر .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضاحكا مّن قَوْلِهَا ﴾

تفريع على ما تقدم فلا حاجة إلى تقدير معطوف عليه أي فسمعها فتبسم وجعل الفاء فصيحة كما قيل .

ولعله عليه السلام إنما تبسم من ذلك سروراً بما الهمت من حسن حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة وابتهاجاً بما خصه الله تعالى به من إدراك ما هو همس بالنسبة إلى البشر وفهم مرادها منه .

وجوز أن يكون ذلك تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها : والأول أظهر مناسبة لما بعد من الدعاء .

وانتصب ﴿ ضاحكا ﴾ على الحال أي شارعاً في الضحك أعني قد تجاوز حد التبسم

إلى الضحك أو مقدر الضحك بناء على أنه حال مقدرة كما نقله الطيبي عن بعضهم .

وقال أبو البقاء هو حال مؤكدة وهو يقتضي كون التبسم والضحك بمعنى والمعروف الفرق بينهما قال ابن حجر .

(102/576)

التبسم مبادىء الضحك من غير صوت والضحك انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفي فإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة ، وكان من ذهب إلى اتحاد التبسم والضحك خص ذلك بما كان من الأنبياء عليهم السلام فإن ضحكهم تبسم ، وقد قال البوصيري في مدح نبينا صلى الله عليه وسلم :

سيد ضحكه التبسم والم . . .

شي الهوينا ونومه الإغفاء

وروي البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : ما رأيته صلى الله عليه وسلم مستجمعاً قط ضاحكاً أي مقبلاً على الضحك بكليته إنما كان يتبسم ، والذي يدل عليه مجموع الأحاديث ان تبسمه عليه الصلاة والسلام أكثر من ضحكه وربما ضحك حتى بدت نواجذه .

وكونه ضحك كذلك مذكور في حديث آخر أهل النار خروجاً منها وأهل الجنة دخولاً الجنة .

وقد أخرجه البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

وكذا في حديث أخرجه البخاري في المواقع أهله في رمضان ، وليس في حديث عائشة السابق أكثر من نفيها رؤيتها إياه صلى الله عليه وسلم مستجمعاً ضاحكاً وهو لا ينافي وقوع الضحك منه في بعض الأوقات حيث لم تره .

وأول الزمخشري ما روي من أنه صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه بأن الغرض منه المبالغة في وصف ما وجد منه عليه الصلاة والسلام من الضحك النبوي وليس هناك ظهور النواجذ وهي أواخر الأضراس حقيقة ، ولعله إنما لم يقل سبحانه : فتبسم من قولها بل جاء جل وعلا بضاحكاً نصباً على الحال ليكون المقصود بالإفادة التجاوز إلى الضحك بناء على أن المقصود من الكلام الذي فيه قيد إفادة القيد نفياً أو إثباتاً ، وفيه إشعار بقوة تأثير قولها فيه عليه السلام حيث اداه ما عراه منه إلى أن تجاوز حد التبسم آخذاً في الضحك ولم يكن حاله التبسم فقط .

وكأنه لما لم يكن قول فضحك من قولها في إفادة ما ذكرنا مثل ما في النظم الجليل لم يؤت به ، وفي البحر أنه لما كان التبسم يكون للاستهزاء وللغضب كما يقولون : تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزىء وكان الضحك إنما يكون للسرور والفرح أتى سبحانه بقوله تعالى : ﴿ ضاحكا ﴾ لبيان أن التبسم لم يكن استهزاء ولا غضباً انتهى .

ولا يخفى أن دعوى أن الضحك لا يكون إلا للسرور والفرح يكذبها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين ءامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين : 29] فإن هذا الضحك كان من مشركي قريش استهزاء بفقرائهم كعمار .

وصهيب .

وخباب .

وغيرهم كما ذكره المفسرون ولم يكن للسرور والفرح .

وكذا قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين ءامَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين : 34] كما هو الظاهر .

وإن هرعت إلى التأويل قلنا والواقع يكذبها فإن أنكرت ضحك منك أولوا الألباب ، وفيه أيضاً غير ذلك فتأمل والله تعالى الهادي إلى صوب الصواب ، وقرأ ابن السميقع ﴿ ضاحكا ﴾ على أنه مصدر في موضع الحال ، وجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول

مطلق نحو شكراً في قولك حمد شكراً .

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ أي اجعلني أزع شكر نعمتك أي اكفه وارتبطه لا ينفلت عني وهو مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه فكأنه قيل : رب اجعلني مداوماً على شكر نعمتك ، وهمزة أوزع للتعدية ، ولا حاجة إلى اعتبار التضمين .

وكون التقدير رب يسر لي أن أشكر نعمتك وازعا إياه وعن ابن عباس أن المعنى اجعلني أشكر .

وقال ابن زيد : أي حرضني .

وقال أبو عبيدة أي أولعني .

وقال الزجاج فيما قيل أي ألهمن .

وتأويله في اللغة كفني عن الأشياء التي تباعدني عنك .

قال الطيبي فعلى هذا هو كناية تلويحية فإنه طلب أن يكفه عما يؤدي إلى كفران النعمة بأن يلهمه ما به تقيد النعمة من الشكر .

وإضافة النعمة للاستغراق أي جميع نعمك .

(104/576)

وقرىء ﴿ أَوْزِعْنِى ﴾ بفتح الياء ﴿ التى أَنْعَمْتَ ﴾ أي أنعمتها ، وأصله أنعمت بها إلا أنه اعتبر الحذف والإيصال لفقد شرط حذف العائد المجرور وهو أن يكون مجروراً بمثل ما جربه الموصول لفظاً ومعنى ومتعلقاً ، ومن لا يقول باطراد ذلك لا يعتبر ما ذكر ولا أرى فيه بأساً ﴿ عَلَىَّ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ أدرج ذكر والديه تكثيراً للنعمة فإن الأنعام عليهما انعام عليه من وجه مستوجب للشكر أو تعميماً لها فإن النعمة عليه عليه السلام يرجع نفعها إليهما ، والفرق بين الوجهين ظاهر ، واقتصر على الثاني في الكشاف وهو أوفق بالشكر . وكون الدعاء المذكور بعد وفاة والديه عليهما السلام قطعاً ، ورجح الأول بأنه أوفق بقوله تعالى : ﴿ اعلموا ءالَ دَاوُودُ شاكرا ﴾ [سبأ : 13] بعد قوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودُ مِنَّا فَضْلاً ﴾ [سبأ : 10] الخ ، وقوله تعالى : ﴿ ولسليمان الريح ﴾ [الأنبياء : 81] الخ فتدبر فإنه دقيق ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ﴾ عطف على ﴿ أَنِ اشكر ﴾ فيكون عليه السلام قد طلب جعله مداوماً على العمل الصالح أيضاً .

وكأنه عليه السلام أراد بالشكر الشكر باللسان المستلزم للشكر بالجنان وأردفه بما ذكر تتميناً له لأن عمل الصالح شكر بالأركان ، وفي البحر أنه عليه السلام سأل أولاً شيئاً خاصاً وهو شكر النعمة وثانياً شيئاً عاماً وهو عمل الصالح ، وقوله تعالى : ﴿ ترضياه ﴾ قيل صفة مؤكدة أو مخصصة ان أريد به كمال الرضا ، واختير كونه صفة مخصصة . والمراد بالرضا القبول وهو ليس من لوازم العمل الصالح أصلاً لا عقلاً ولا شرعاً ﴿ ترضاه

وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ أي في جملتهم .

والكلام عن الزمخشري كناية عن جعله من أهل الجنة .

(105/576)

وقدر بعضهم الجنة مفعولاً ثانياً لأدخلني ، وعلى كونه كناية لا حاجة إلى التقدير ، والداعي لأحد الأمرين على ما قيل دفع التكرار مع ما قبل لأنه إذا عمل عملاً صالحاً كان من الصالحين البتة إذ لا معنى للصالح إلا العامل عملاً صالحاً ، وأردف طلب المداومة على عمل الصالح بطلب ادخاله الجنة لعدم استلزام العمل الصالح بنفسه ادخال الجنة ، ففي الخبر " لن يدخل أحدكم الجنة عمله قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمته " وكأن في ذكر ﴿ بِرَحْمَتِكَ ﴾ في هذا الدعاء إشارة إلى ذلك .

ولا يأبي ما ذكر قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الجنة التى أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف : 72] لأن سببية العمل للإيراث برحمة الله تعالى .

وقال الخفاجي : لك أن تقول أنه عليه السلام عد نفسه غير صالح تواضعاً أي فلا يحتاج إلى التقدير ولا إلى نظم الكلام في سلك الكناية ، ولا يخفى أن هذا لا يدفع السؤال باغناء الدعاء بالمداومة على عمل الصالح عنه .

وقيل : المراد أن يجعله سبحانه في عداد الأنبياء عليهم السلام ويثبت اسمه مع أسمائهم ولا يعزله عن منصب النبوة الذي هو منحة الهية لا تنال بالأعمال ولذا ذكر الرحمة في البين ، ونقل الطبرسي عن ابن عباس ما يلوح بهذا المعنى .

وقيل : المراد أدخلني في عداد الصالحين واجعلني اذكر معهم إذا ذكروا ، وحاصله طلب الذكر الجميل الذي لا يستلزمه عمل الصالح إذ قد يتحقق من شخص في نفس الأمر ولا يعده الناس في عداد الصالحين .

(106/576)

وفي هذا الدعاء شمة من دعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ واجعل لّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الاخرين ﴾ [الشعراء : 84] ومقاصد الأنبياء في مثل ذلك أخروية ، وقيل : يحتمل أنه أراد بعمل الصالح القيام بحقوق الله عز وجل وأراد بالصالح في قوله : ﴿ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ القيام بحقوقه تعالى وحقوق عباده فيكون من قبيل التعميم بعد التخصيص وتعيين ما هو الأولى من هذه الأقوال مفوض إلى فكرك والله تعالى الهادي ، وكان دعاؤه عليه السلام على ما في بعض الآثار بعد أن دخل النمل مساكنهن ، قال في الكشاف : روي أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فمر سليمان عليه السلام الريح

فوقفت لئلا يذرعن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(107/576)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً ﴾

التفسير :

[سليمان . . والنملة . . والهدهد]

مناسبة هذه القصة ، لقصة فرعون ، هى أن اللّه سبحانه وتعالى ، يبتلى بنعمه من يشاء من عباده ، فمنهم من يكفر بهذه النعم ، ويتخذ منها أسلحة يحارب بها في مواقع الحق ، والخير ، ويضرب بها في وجه المحقين والأخيار من عباد اللّه . . ومنهم من يتلقى هذه النعم بالشكران للّه ، والولاء لطريق اللّه ، ولمن يسلك هذا الطريق من عباده . .

فهذا فرعون يمكّن اللّه له في الأرض ، ويبسط له الرزق ، فيتحول من إنسان إلى شيطان مريد ، وإلى إعصار عاصف ، يأتى على كل ما يزرع في منابت الحق والخير . . ثم يبعث اللّه إليه نبيا كريما ، يحمل إليه دعوة كريمة ، فى رفق ولين ، حتى إن اللّه سبحانه وتعالى .

كرما منه ، وفضلا ـ يوصى رسوله أن يتلطف ، ويترفق بهذا الإنسان ، الذي ملأه الغرور ، واستبد به الكفر ، فيقول له الحق جل وعلا :

« اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى ؟ وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى ؟ » (19.17 : النازعات) .

فيلقى هذا النداء الكريم ، وهذا اللطف اللطيف بهذا العناد اللئيم ، الذي وصفه اللّه تعالى في قوله : « فَكَذَّبَ وَعَصى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى فَحَشَرَ فَنادى فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى » (24.21 النازعات) .

وعلى غير هذا تماما ، كان موقف عباد اللّه المؤمنين ، الذين يعرفون للّه قدره ، ويذكرون له فضله . .

ومن هؤلاء داود وسليمان . . عليهما السلام . . لقد آتاهما اللّه خير ما يؤتى الإنسان من فضل وإحسان ، وهو العلم ، الذي من ملكه ، ملك أقوى ما على هذه الأرض من قوة ، يستطيع بها أن يستولى على سلطان هذا العالم كله . .

(108/576)

ومع هذا ، فإنهما استقبلا هذه النعمة الجليلة العظيمة ، بالحمد ، والشكر ، والولاء للّه ، وخفض الجناح لعباد اللّه ، ولكل ما خلق اللّه . . حتى إن سليمان عليه السلام ، وهو في أروع مظاهر سلطانه ، وفي أعظم مجالى قدرته وقوته ، يقف بين يدى أضعف مخلوقات اللّه ، وهي النملة . . فيأخذ منها العبرة والعظة ، وينظر من خلال ملكها إلى ملكه العريض ، فيرى أن لها سلطانا كسلطانه ، وملكا كملكه ، وسياسة رفيقة رحيمة ، أروع وأعظم من سياسته ، فلا يملك إلا أن يخشع لسلطان اللّه بين يديها ، ويسبح بحمده وجلاله . فيقول في محراب ملكها الذي تسبح فيه بحمد اللّه : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ » !

فأين موقف فرعون ، من هذا الموقف ؟ وأين الأرض من السماء ؟ وأين الباطل من الحق ، والعمى من الهدى ؟ وأين أعداء اللّه من أولياء اللّه ؟ .

وفي قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً » إشارة إلى أن الذي أعطاهما اللّه إياه من العلم ، هو ـ على عظمته وجلاله ـ شيء قليل ، لا يكاد يذكر

إلى ما للّه سبحانه وتعالى من علم ، وهذا ما يدل عليه تنكير كلمة « علم » . .

فهو علم قليل قليل ، مما عند اللّه من علم . .

وفي قوله تعالى : « وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ » ـ إشارة أخرى إلى أن العلم الذي كان عندهما ، هو وإن علوا به عن كثير من عباد اللّه ، فإن في عباد

اللّه من أوتى علما أكثر من علمهما . . فهما أكثر من كثير من الناس علما ، وأقل من بعض الناس علما . .

واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ »

(109/576)

(76 : يوسف) وبهذه النظرة كانا ينظران إلى علمهما ، وأنهما لم يستوليا على غاية العلم ، مما هو متاح للناس ، وإنما أخذا حظا كبيرا من هذا العلم .

قوله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ ، وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » .

ميراث سليمان لداود ، هو وراثة الملك من بعده ، دون إخوته . . ثم اختياره للنبوة ، فى قومه ، كما كان أبوه نبيا فيهم . . فالملك وراثة ، والنبوة اصطفاء ، لا ميراث . وقد جمعهما اللّه سبحانه لسليمان ، كما جمعهما لداود . .

فتلقى سليمان من اللّه ما كان لداود من ملك ونبوة ، وكان بهذا قد ورث أباه فى كل ما كان له من ملك ونبوة .

وقوله تعالى : « وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ

الْفَضْلُ الْمُبِينُ » . . هو تحدث بنعمة اللّه عليه ، واستعراض لهذه النعم التي أسبغها اللّه عليه ، ليكون في ذلك داعية له إلى القيام بشكرها ، ورعايتها حق الرعاية .

وفي الحديث عن نفسه « بنا » الدالة على الجمع ، فى قوله « علمنا » . .

« وأوتينا » . . هو دعوة إلى الناس ، أن يشاركوا معه في هذا التحدث بنعمة اللّه ، والاستعراض لأفضاله ، فما هو إلا واحد من هؤلاء الناس ، وما الفضل الذي فضل اللّه به عليه ، إلا فضل يأخذ منه الناس حظهم ، فلا يختص به نفسه ، وإنما هم شركاء له ، فيما يعود عليه من هذا العلم لمنطق الطير ، ولهذه النعم التي أوتى منها كل شىء ! . . وهكذا شأن أهل العلم ، وأرباب الجاه والسلطان من عباد اللّه . . إن ما يفتح اللّه عليهم به من علم ، وما يمكّن لهم به من جاه وسلطان في هذا الوجود ، هو خير متاح للناس جميعا ، وتمكين لخلافتهم على هذه الأرض . .

(110/576)

ـ وقوله تعالى : « وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » أي أوتينا من كل شىء من أشياء هذه الدنيا مما ينصلح به أمرنا ، ويقوم عليه وجودنا ، وسلطاننا . . فهو لم يؤت كل شىء ، وإنما أوتى شيئا من كل شىء هو في حاجة إليه . .

قوله تعالى :

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ . . فَهُمْ يُوزَعُونَ » الحشر : الجمع والحشد . .

يوزعون : من الوزع ، وهو السوق ، والدفع ، بفعل قوة خارجة ، أو طبيعة غالبة . .

وقد ذكر من جنود سليمان هنا : الجن ، والإنس ، والطير . . إذ كانت هى القوى العاملة معه في دولته . .

فالجن كانوا مسخرين له ، فى عمل ما يريد منهم . . « يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ » (13 : سبأ) .

والإنس : هم من تضمهم دولته من رعيته .

والطير : هى أجناس من الطيور ، التي تعيش في جو مملكته ، ويسخرها لخدمته . .

وبهذا يكون له ملك ما على أرض مملكته ، وما في جوها . .

وطبيعى ، أنه ليس كلّ الجنّ قد سخروا لسليمان ، وإنما بعضهم ، شأنهم فى هذا شأن الناس . . فليس كل الناس ، كانوا في سلطان سليمان . . وإنما هم الذين كانوا يعيشون في دائرة مملكته . .

وكذلك الطير . . فليس كلّ الطير كان مسخرا له . . وإنما هي بعض الطيور التي كانت تعيش في هذه الملكة . .

وكان سليمان يستعرض وجوه مملكته . . من الجنّ ، والإنس ، والطير ، ويحشدهم بين يديه ، بسلطانه ، الذي مكن اللّه سبحانه وتعالى له به ، فى هذه الرعايا ، فلا يقدر أحد على أن يخرج عن هذا السلطان ، الذي يزع هذه الرعايا ، ويأخذ من يخالف منها بالعقاب الذي يستحقه ! وفي ثمان كلمات صوّر هذا العرض العظيم ، الذي جمع عوالم الجن والإنسان ، والطير ، وحشرها في موقف واحد ، وجىء بها من كل صوب ، فى حركة هادفة منتظمة ، أشبه بحركات الأفلاك في مداراتها ، يمسكها نظام ، وتظلها سكينة وجلال . .

« وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ » . .

ثمانى كلمات لا غير ، يقوم بها هذا المشهد ، الذي تعجز أدوات البيان والتصوير كلها عن أن تأتى له بنظير ، وأن تمسك بهذه الروعة وهذا الجلال .

فهذه الكلمات الثمان ، قد استدعيت بها كل هذه الحشود الحاشدة ، من الجن ، والإنس ، والطير ، وقد أمسكتها يد القوة القادرة بكلمة واحدة . . هى « يوزعون » التي قامت على هذه الأمم مقام الحرس والقادة ، فى أحدث ما عرفت الجيوش من حراسة ، وضبط ، وقيادة ! قوله تعالى :

« حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ » .

« حتى » إشارة إلى غاية من غايات للسيرة التي يسير إليها سليمان ، بهذه الحشود التي احتشدت له ، من الجنّ والإنس والطير . .

(112/576)

وقد انتهت به هذه الغاية هو وجنوده إلى « واد النّمل » أي قرية من قراه ، حيث يعيش النّمل جماعات ، وفي نظام أشبه بنظام المجتمع الإنسانى ! وقد أراد سبحانه وتعالى ، أن يصغّر في عينى سليمان هذا الملك العريض الذي بين يديه ، وأن يكسر من حدّة هذا السلطان المندفع كالشهاب ، لا يمسكه شىء ، ولا يعترض سبيله معترض ، وذلك كى لا يدخل على نفسه شىء من العجب والزهو . . فتقف له النملة هذا الموقف الذي يرى منه سليمان عجبا عاجبا . . فيرى سليمان من النّملة ما لم ير أحد من جنده ، ويسمع منها ، ما لم يسمعه أحد غير النمل الذي يعيش معها . . « يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ » . .

هذا هو صوت النذير ، الذي أنذرت به النملة جماعتها . .

إن الهلاك مقبل على جماعة النمل ، من هذه الحشود الحاشدة ، التي تسير في ركب سليمان . . فلتأخذ الجماعة حذرها ، ولتدخل مساكنها ، وتنجحر في مساربها ، وإلا فالهلاك المحقق ! وممن هذا الهلاك ؟

من جماعة عالية ، لا تنظر إلى ما تحتها ، ولا تلتفت إلى مواطىء أقدامها ، ولا تشعر بما تصيب أو تقتل ، من تلك الكائنات الضعيفة ! وهل يشعر من يسكن القصر ، بما يعانى ساكن الكوخ ؟ وكم في دنيا الناس من المستضعفين من تطؤهم أقدم الأقوياء ، دون أن يشعروا بهم ، وهم في طريقهم إلى التمكين لسلطانهم ، والاستزادة من جاههم وقوتهم ؟ وكم من مجتمعات بشرية بأسرها جرفها تيار عات من تيارات الطغاة والمستبدّين ؟ وكم من مدن عامرة دمّرتها رحى الحروب التي يوقد نارها من يملكون الحطب والوقود ؟ وكم ؟ وكم ؟

إنها حكمة بالغة ، ودرس عظيم ، تلقيه « النملة » ـ أضأل مخلوقات اللّه ، وأقلها شأنا ـ على الإنسانية ، فى أحسن أحوالها ، وأعدل أزمانها ، وأقوى سلطانها ! .

ولكن أين من يتعظ ويعتبر ؟

(113/576)

ولقد أخذ سليمان العبرة والعظة . . ! فحاد بركبه عن وادي النّمل ، وهو يضع ابتسامة على فمه ، ويرسل ضحكة رقيقة واعية من صدره ، ويحرك لسانه بكلمات شاكرة ، ذاكرة فضل اللّه ، ونعمته . . فيقول : « رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » . . ومن شكر النعمة ، حراستها من أن تكون سلاح بغى وقهر . ومن العمل الصالح ، إرسال هذه النعم في وجوه الخير والإحسان .

إن للنملة سلطانا كسلطان سليمان ، ودولة كدولته ، وجندا كجنده . . ثم إنها تقوم على هذه الدولة وترعاها رعاية الأم لأبنائها ، وإنها لتضع عينها دائما على مواقع الخير ، ترتاده لرعيتها ، وإلى مواطن الشر ، فتدفعها عنها ، وتحذرها منها . .

فهل تجد رعايا سليمان في ظله ، مثل هذه الرعاية التي تجدها جماعة النمل في ظل هذا السلطان الحكيم ؟ وهل تنال رعيته مثل هذا العطف والحنو الذي تناله جماعة النمل من ملكتها ؟ إن مقاييس الحكمة والرشاد لا تقاس بالكم ولا تحسب بالعدد . . ومتى كانت المعاني كمّا وعددا ؟

والعجب أن مشيخة المفسّرين يدعون مثل هذه المعاني الدقيقة ، التي جاءت هذه القصة وأمثالها لها ، من حيث الوقوف على مواقع العبرة والعظة فيها ، ثم يشغلون أنفسهم ، ويشغلون الناس معهم ، بالبحث عن النملة ، وهل هي ذكر أم أنثى ، وعن الموضع الذي

كانت فيه مملكتها ، واسم الوادي الذي قامت فيه تلك المملكة . . ثم اسم النملة ! ! إي والله اسم النملة ! ! حتى لكأنها لا تكون نملة إلا إذا حملت اسما لها ، وحتى لا يكون منها هذا التدبير لمملكتها إلا إذا كانت من ذوات الأسماء ! ! ثم ما أكثر الأسماء التي تجلب لها من كل واد من أودية الخيال . .

(114/576)

فمن أسمائها « حرس » وأنها من قبيلة بنى الشّيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت في حجم الذئب . . وقد لسب هذا القول إلى الحسن البصري ! ومن أسمائها « طاخية » و « منذرة » ! وهكذا تكثر لها الأسماء والصفات ، حتى لتخرج عن أن تكون نملة من هذه النّمال التي يعرفها النّاس ، وحتى ليخرج بها ذلك عن أن تكون موضعا للعبرة والعظة ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 10 صـ 224 . 231 ﴾

(115/576)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾

كما كان في قصة موسى وإرساله إلى فرعون آياتٌ عبرةٌ ومَثَل للذين جحدوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم كذلك في قصة سليمان وملكة سبأ وما رأته من آياته وإيمانها به مثَلٌ لعلم النبي صلى الله عليه وسلم وإظهارٌ لفضيلة ملكةِ سبأ إذ لم يصدها مُلكُها عن الاعتراف بآيات سليمان فآمنت به ، وفي ذلك مَثَل للذين اهتدَوْا من المؤمنين .

وتقديم ذكر داود ليبْنى عليه ذكر سليمان إذ كان ملكه ورثه من أبيه داود .

ولأن في ذكر داود مثل لإفاضة الحكمة على من لم يكن متصدياً لها .

وما كان من أهل العلم بالكتاب أيامَ كان فيهم أحبارٌ وعلماء ؛ فقد كان داود راعياً غَنَم أبيه (يسّي) في بيت لحم فأمر الله شمويل النبيءَ أن يجعل داود نبيئاً في مدة ملك طالوت (شاول) .

فما كان عجب في نبوءة محمد الأمي بين الأميين ليعلم المشركون أن الله أعطى الحكمة والنبوءة محمداً صلى الله عليه وسلم ولم يكن يعلم ذلك من قبلُ ولكن في قومه من يعلم ذلك كما قال تعالى : ﴿ ما كنتَ تعلمُها أنتَ ولا قومُك من قبل هذا ﴾ [هود : 49] ، فهذه القصة تتصل بقوله تعالى : ﴿ وإنك لَتُلَقّى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ [النمل : 6] .

فيصح أن تكون جملة : ﴿ ولقد آتينا داود ﴾ معطوفاً على ﴿ إذ قال موسى لأهله ﴾ [

النمل : 7] إذا جعلنا (إذ) مفعولاً لفعل (اذكر) محذوف .

ويصح أن تكون الواو للاستئناف فالجملة مستأنفة .

ومناسبة الذكر ظاهرة .

وبعدُ ففي كل قصة من قصص القرآن علم وعبرة وأسوة .

وافتتاح الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطبين به منزلة من يتردد في ذلك لأنهم جحدوا نبوءة مثلِ داود وسليمان إذ قالوا : ﴿ لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ [سبأ : 31] .

وتنكير ﴿ علماً ﴾ للتعظيم لأنه علم بنبوءة وحكمة كقوله في صاحب موسى ﴿ وعلّمناه من لدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف : 65] .

(116/576)

وفي فعل ﴿ آتينا ﴾ ما يؤذن بأنه علم مفاض من عند الله ، لأن الإيتاءَ أخصّ من ﴿ علّمناه ﴾ فلذلك استغني هنا عن كلمة (من لدنّا) .

وحكاية قولهما ﴿ الحمد لله الذي فضلنا ﴾ كناية عن تفضيلهما بفضائل غير العلم .

ألاَ ترى إلى قوله : ﴿ على كثير من عباده المؤمنين ﴾ ومنهم أهلُ العلم وغيرهم ، وتنويه

بأنهما شاكران نعمته .

ولأجل ذلك عطف قولهما هذا بالواو دُون الفاء لأنه ليس حمداً لمجرد الشكر على إيتاءِ العلم .

والظاهر أن حكاية قوليهما وقعت بالمعنى ، بأن قال كل واحد منهما : الحمد لله الذي فضلني ، فلما حكي القولان جمع ضمير المتكلم ، ويجوز أن يكون كل واحد شكر الله على منحه ومنحِ قريبه ، على أنه يكثر استعمال ضمير المتكلم المشارَك لا لقصد التعظيم بل لإخفاء المتكلم نفسه بقدر الإمكان تواضعاً كما قال سليمان عقب هذا

﴿ عُلِّمنا منطقَ الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ [النمل : 16] .

وجعلا تفضيلهما على كثير من المؤمنين دون جميع المؤمنين ؛ إمَّا لأنهما أرادا بالعباد المؤمنين كلّ مَن ثبت له هذا الوصف من الماضين وفيهم موسى وهارون ، وكثير من الأفضل والمُساوي ، وإمّا لأنهما اقتصدا في العبارة إذ لم يحيطا بمن ناله التفضيل ، وإما لأنهما أرادا بالعباد أهلَ عصرهما فعبَّرا بـ ﴿ كثير من عباده ﴾ تواضعاً لله .

ثم إن كان قولهما هذا جهراً وهو الظاهر كان حجة عَلى أنه يجوز للعالم أن يذكر مرتبته في العلم لفوائد شرعية ترجع إلى أن يَحْذر الناس من الاغترار بمن ليست له أهلية من أهل الدعوى الكاذبة والجعجعة الجالبة ، وهذا حكم يستنبط من الآية لأن شرع من قبلنا شرع لنا ، وإن قالاه في سرهما لم يكن فيه هذه الحجة .

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)

(117/576)

﴿ المؤمنين * وَوَرِثَ سليمان دَاوُودَ وَقَالَ يا أيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هذا ﴾ .

طوى خبر ملك داود وبعض أحواله إلى وفاته لأن المقصود هو قصة سليمان كما قدمناه آنفاً .

وقد كان داود ملكاً على بني إسرائيل ودام ملكه أربعين سنة وتوفي وهو ابن سبعين سنة .

فخلفه سليمان فهو وارث ملكه والقائم في مقامه في سياسة الأمة وظهور الحكمة ونبوءة بني إسرائيل والسمعة العظيمة بينهم .

فالإرث هنا مستعمل في معناه المجازي وهو تشبيه الأحوال الجليلة بالمال وتشبيه الخلفة بانتقال ملك الأموال لظهور أن ليس غرض الآية إفادة من انتقلت إليه أموال داود بعد قوله : ﴿ ولقد آتينا داوود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضَّلنا ﴾ [النمل : 15] فتعين أن إرث المال غير مقصود فإنه غرض تافه .

وقد كان لداود أحدَ عشر ولداً فلا يختص إرثُ ماله بسليمان وليس هو أكبرهم ، وكان داود قد أقام سليمان ملكاً على إسرائيل .

وبهذا يظهر أن ليس في الآية ما يحتج به لجواز أن يورث مال النبي ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا نُورث ما تركنَا صدقة " ، وظاهره أنه أراد من الضمير جماعة الأنبياء وشاع على ألسنة العلماء : إنا أو نَحن معاشرَ الأنبياء لا نورث ، ولا يعرف بهذا اللفظ ، ووقع في كلام عمر بن الخطاب مع العباس وعلي في شأن صدقة النبي صلى الله عليه وسلم قال عمر : "أنشدكما الله هل تعلمان أن رسول الله قال : لا نُورث ما تركنا صدقة ، يريد رسولُ الله نفسَه" وكذلك قالت عائشة ، فإذا أخذنا بظاهر الآية كان هذا حكماً في شرع من قبلنا فينسخ بالإسلام ، وإذا أخذنا بالتأويل فظاهر .

وقد أجمع الخلفاء الراشدون وغيرهم على ذلك ، خلافاً للعباس وعلي ، ثم رجعا حين حاجهما عمر .

والعلة هي سدّ ذريعة خطور تمني موت النبي في نفس بعض ورثته .

(118/576)

قال سليمان هذه المقالة في مجمع عظيم لأن لهجة هذا الكلام لهجة خطبته في مجمع من الناس الحاضرين مجلسه من الخاصة والسامعين من العامة .

فهذه الجملة متضمنة شكر الله تعالى ما منحه من علم ومُلك ، وليقدر الناس قدره ويعلموا واجب طاعته إذ كان الله قد اصطفاه لذلك ، وأطلعه على نوايا أنفر الحيوان وأبعده عن إلف الإنسان وهو الطير ، فما ظنك بمعرفة نوايا الناس من رعيته وجنده فإن تخطيط رسوم الملك وواجباته من المقاصد لصلاح المملكة بالتفاف الناس حول ملكهم وصفاء النيات نحوه ، وبمقدار ما يحصل ذلك من جانبهم يكون التعاون على الخير وتنزل السكينة الربانية ، فلما حصل من جانب سليمان الاعتراف بهذا الفضل لله تعالى فقد أدى واجبه نحو أمته فلم يبق إلا أن تؤدي الأمة واجبها نحو مَلِكها ، كما كان تعليم فضائل النبوة من مقاصد الشارع ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم

" أنا سيِّد ولدِ آدم ولا فخر " أي أقوله لقصد الإعلام بواجب التقادير لا لقصد الفخر على الناس ، ويعلموا واجب طاعته .

وعِلم منطق الطير أوتيه سليمان من طريق الوحي بأن أطلعه الله على ما في تقاطيع وتخاليف صفير الطيور أو نعيقها من دلالة على ما في إدراكها وإرادتها .

وفائدة هذا العلم أن الله جعله سبيلاً له يهتدي به إلى تعرف أحوال عالمية يسبق الطير إلى إدراكها بما أودع فيه من القُوى الكثيرة ، وللطير دلالة في تخاطب أجناسها واستدعاء

أصنافها والإنباء بما حولها ما فيه عون على تدبير ملكه وسياسة أمته ، مثل استخدام نوع الهدهد في إبلاغ الأخبار وردها ونحو ذلك .

ووراء ذلك كله انشراحُ الصدر بالحكمة والمعرِفة لكثير من طبائع الموجودات وخصائصها .

(119/576)

ودلالة أصوات الطير على ما في ضمائرها : بعضُها مشهور كدلالة بعض أصواته على نداء الذكور لإناثها ، ودلالة بعضها على اضطراب الخوف حين يمسكه مُمسك أو يهاجمه كاسر ، ووراء ذلك دلالات فيها تفصيل ، فكل كيفية من تلك الدلالات الإجمالية تنطوي على تقاطيع خفية من كيفيات صوتية يخالف بعضها بعضاً فيها دلالات على أحوال فيها تفضيل لما أجملته الأحوال المجملة ، فتلك التقاطيع لا يهتدي إليها الناس ولا يطلع عليها إلا خالقها ، وهذا قريب من دلالة مخارج الحروف وصفاتها في لغة من اللغات وفكّها وإدغامها واختلاف حركاتها على معانٍ لا يهتدي إليها مَن يعرف تلك اللغة معرفة ضعيفة ولم يتقن دقائقها .

مثل أن يسمع ضَلَلْت وظَلَلت ، فالله تعالى اطلع سليمان بوحي على مختلف التقاطيع

الصوتية التي في صفير الطير وأعلمه بأحوال نفوس الطير عندما تصفر بتلك التقاطيع ، وقد كان الناس في حيرة من ذلك كما قال المعري:

أَبَكَتْ تِلكمُ الحمامةُ أَمْ غَنّ . . .

تْ على غصن دوحها الميَّاد

وقال صاحبنا الشاعر البليغ الشيخ عبد العزيز المسعودي من أبيات في هذا المعنى:

فمن كان مسروراً يراه تَغنياً . . .

ومن كان محزوناً يقول ينوح

والاقتصار على منطق الطير إيجاز لأنه إذا عَلِم منطق الطير وهي أبعد الحيوان عن الركون إلى الإنسان وأسرعها نفوراً منه ، علم أن منطق ما هو أكثر اختلاطاً بالإنسان حاصل له بالأحرى كما يدل عليه قوله تعالى فيما يأتي قريباً : ﴿ فتبسّم ضَاحكاً من قولها ﴾ [النمل : 19] ، فتدل هذه الآية على أنه علِّم منطق كل صنف من أصناف الحيوان .

وهذا العلم سماه العرب علم الحُكْل (بضم الحاء المهملة وسكون الكاف) قال العجاج وقيل ابنه رؤبة:

لو أَنني أوتيتُ علم الحُكْل . . .

عِلْم سليمان كَلامَ النمل

أو أنني عُمِّرت عُمْر الحِسْل . . .

أو عُمر نُوح زَمَن الفِطَحْل

كُنتُ رهينَ هَرم أو قَتل . . .

(120/576)

وعُبر عن أصوات الطير بلفظ ﴿ منطق ﴾ تشبيهاً له بنطق الإنسان من حيث هو ذو دلالة لسليمان على ما في ضمائر الطير ، فحقيقة المنطق الصوتُ المشتمل على حروف تدل على معان .

وضمير ﴿ عُلِّمنا أُوتينا ﴾ مراد به نفسه ، جاء به على صيغة المتكلم المشارك ؛ إما لقصد التواضع كأنَّ جماعة عُلموا وأُوتوا وليس هو وحده كما تقدم في بعض احتمالات قوله تعالى آنفاً : ﴿ وقالا الحمد لله الذي فضّلنا ﴾ [النمل : 15] ، وإما لأنه المناسب لإظهار عظمة الملك ، وفي ذلك تهويل لأمر السلطان عند الرعية ، وقد يكون ذلك من مقتضى السياسة في بعض الأحوال كما أجاب معاوية عُمر رضي الله عنهما حين لقيه في جند (وأبهة) ببلاد الشام فقال عمر لمعاوية "أَكِسْرَوِيَّةً يا معاوية ؟ فقال معاوية : إنا في بلاد من ثغور العدوّ فلا يرهبون إلا مثل هذا .

فقال عمر : خَدعة أريب أو اجتهادُ مصيب لا آمرك ولا أنهاك" فترك الأمرَ لعهدة معاوية

وما يتوسمه من أساليب سياسة الأقوام .

والمراد بـ ﴿ كل شيء ﴾ كل شيء من الأشياء المهمة ففي ﴿ كل شيء ﴾ عمومان عموم ﴿ كلّ ﴾ وعموم النكرة وكلاهما هنا عموم عرفي ، ف ﴿ كلّ ﴾ مستعملة في الكثرة و ﴿ شيء ﴾ مستعمل في الأشياء المهمة مما له علاقة بمقام سليمان ، وهو كقوله تعالى فيما حكى عن أخبار الهدهد .

﴿ وأوتِيَتْ من كل شيء ﴾ [النمل : 23] ، أي كثيراً من النفائس والأموال .

وفي كل مقام يحمل على ما يناسب المتحدث عنه .

والتأكيد في ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ بحرف التوكيد ولامه الذي هو في الأصل لام قسم وبضمير الفصل مقصود به تعظيم النعمة أداء للشكر عليها بالمستطاع من العبارة .

و ﴿ الفضل ﴾ : الزيادة من الخير والنفع .

و ﴿ المبين ﴾ : الظاهر الواضح .

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

(121/576)

وهب الله سليمانَ قوة من قوى النبوءة يدرك بها من أحوال الأرواح والمجردات كما يدرك منطق الطير ودلالة النمل ونحوها .

ويزَع تلك الموجودات بها فيوزعون تسخيراً كما سخر بعض العناصر لبعض في الكيمياء والكهربائية .

وقد وهب الله هذه القوة محمداً صلى الله عليه وسلم فصرَف إليه نفراً من الجن يستمعون القرآن ، ويخاطبونه .

وإنما أمسك رسول الله عن أن يتصرف فيها ويزعها كرامة لأخيه سليمان إذ سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فلم يتصرف فيها النبي صلى الله عليه وسلم مع المكنة من ذلك ، لأن الله محضه لما هو أهمّ وأعلى فنال بذلك فضلاً مثل فضل سليمان ، ورجح بإعراضه عن التصرف تبريراً لدعوة أخيه في النبوءة لأن جانب النبوءة في رسول الله أقوى من جانب الملك ، كما قال للرجل الذي رُعد حين مَثَل بين يديه : "إني لست بمَلِك ولا جبّار" .

وقد ورد في الحديث : "أنه خُيّر بين أن يكون نبيئاً عبداً أو نبيئاً مَلكاً فاختار أن يكون نبيئاً عبداً" ، فرتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم رتبة التشريع وهي أعظم من رتبة الملك ، وسليمانُ لم يكن مشرِّعاً لأنه ليس برسول ، فوهبه الله ملكاً يتصرف به في السياسة ، وهذه المراتب يندرج بعضها فيما هو أعلى منه فهو ليس بمَلِك ، وهو يتصرف في الأمة تصرف الملوك تصرفاً بريئاً مما يقتضيه المُلك من الزخرف والأُبَهة كما بيناه في كتاب "النقد" على

كتاب الشيخ علي عبد الرازق المصري الذي سماه "الإسلام وأصول الحكم" .

والحشر : الجمع .

والمعنى : أن جنوده كانت مُحْضَرة في حضرته مسخّرة لأمره حيث هو .

والجنود : جمع جند ، وهو الطائفة التي لها عمل متّحد تسخَّر له .

وغلب إطلاق الجند على طائفة من الناس يُعدّها المِلك لقتال العَدوّ ولحراسة البلاد .

وقوله : ﴿ من الجن والإنس والطير ﴾ بيان للجنود فهي ثلاثة أصناف : صنف الجن وهو لتوجيه القُوى الخفية ، والتأثير في الأمور الروحية .

(122/576)

وصنف الإنس وهو جنود تنفيذ أوامره ومحاربة العدو وحراسة المملكة ، وصنفُ الطير وهو من تمام الجند لتوجيه الأخبار وتلقيها وتوجيه الرسائل إلى قُواده وأمرائه .

واقتُصر على الجن والطير لغرابة كونهما من الجنود فلذلك لم يُذكر الخيل وهي من الجيش .

والوزْعُ : الكفّ عما لا يراد ، فشمل الأمر والنهي ، أي فهم يؤمرون فيأتمرون ويُنهون فينتهون ، فقد سخر الله له الرعية كلها .

والفاء للتفريع على معنى حُشر لأن الحشر إنما يراد لذلك .

وفي الآية إشارة إلى أن جمع الجنود وتدريبها من واجبات الملوك ليكون الجنود متعهدين لأحوالهم وحاجاتهم ليشعروا بما ينقصهم ويتذكروا ما قد ينسونه عند تشوش الأذهان عند القتال وعند النفير .

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18)

﴿ حتّى ﴾ ابتدائية ، ومعنى الغاية لا يفارقها ، ولكنها مع الابتدائية غاية غيرُ نهاية .

و ﴿ إذا ﴾ ظرف زمان بمعنى حين ، وهو يقتضي فعلين بعدهُ يشبهان فعلي الشرط وجوابِه لأن ﴿ إذا ﴾ مضمَّنة معنى الشرط ، و ﴿ إذا ﴾ معمول لفعل جوابه ، وأما فعل شرطه فهو جملة مضاف إليها ﴿ إذا ﴾ .

والتقدير : حتى قالت نملة حينَ أتوا على واد النمل .

وواد النمل يجوز أن يكون مراداً به الجنس لأن للنمل شقوقاً ومسالك هي بالنسبة إليها كالأودية للساكنين من الناس ، ويجوز أن يراد به مكان مشتهر بالنمل غلب عليه هذا المضاف كما سمي وادي السباع موضع معلوم بين البصرة ومكة .

قيل : واد النمل في جهة الطائف ، وقيل غير ذلك ، وكله غير ظاهر من سياق الآية .

و ﴿ النمل ﴾ : اسم جنس لحشرات صغيرة ذات ست أرجل تسكن في شقوق من الأرض .

وهي أصناف متفاوتة في الحجم ، والواحد منه نملة بتاء الوحدة ، فكلمة نملة لا تدل إلا على فرد واحد من هذا النوع دون دلالة على تذكير ولا تأنيث فقوله : ﴿ نملة ﴾ مفاده : قال واحدٌ من هذا النوع .

واقتران فعله بتاء التأنيث جرى على مراعاة صورة لفظه لشبه هائه بهاء التأنيث وإنما هي علامة الوحدة ، والعرب لا يقولون : مشَى شاة ، إذا كان الماشي فحلاً من الغنم ، وإنما يقولون : مَشت شاة ، وطارت حمامة ، فلو كان ذلك الفرد ذكراً وكان مما يفرق بين ذكره وأنثاه في أغراض الناس وأرادوا بيان كونه ذكراً قالوا : طارت حمامة ذكر ، ولا يقولون طار حمامة ، لأن ذلك لا يفيد التفرقة .

ألا ترى أنه لا يصلح أن يكون علامة على كون الفاعل أنثى ، ألا ترى إلى قول النابغة:

مَاذَا رُزئنا به من حَيَّة ذَكَر . . .

نَضناضة بالرزايا صِلِّ أصلال

فجاء باسم (حية) وهو اسم للجنس مقترن بهاء التأنيث ، ثم وصفه بوصف ذكر ثم أجرى عليه التأنيث في قوله : نضناضة ، لأنه صفة ل (حية) .

وفي حديث ابن عباس عن صلاة العيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم "أقبلتُ راكباً على حمار أتان" فوصف (حمارٍ) الذي هو اسم جنس باسم خاص بأنثاه.

ولذلك فاقتران فعل ﴿ قالت ﴾ هنا بعلامَة التأنيث لمراعاة اللفظ فقط، على أنه لا يتعلق غرض بالتمييز بين أنثى النمل وذكره بلْه أن يتعلق به غرض القرآن لأن القصد وقوع هذا الحادث وبيان علم سليمان لا فيما دون ذلك من السفاسف.

وذكر في "الكشاف": أن قتادة دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال: سلوا عما شئتم، وكان أبو حنيفة حاضراً وهو غلام حَدَث، فقال لهم أبو حنيفة: سلوه عن نملة سليمان: أكانت ذكراً أم أنثى؟ فسألوه، فأفْحِم.

فقال أبو حنيفة: كانت أنثى.

فقيل له: من أين عرفت؟ قال: من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿ قالت نملة ﴾ ولو كانت ذكراً لقال: قال نملة.

(124/576)

قال في "الكشاف": وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة في وُقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامةٍ نحو قولهم: حمامةٌ ذكر وحمامةٌ أنثى، وقولِهم: وهُو وهِي.

اه .

ولعل مراد صاحب "الكشاف" إن كان قَصَدَ تأييدَ قَولة أبي حنيفة أن يقاس على الوصف بالتذكير ما يقوم مقامه في الدلالة على التفرقة بين الذكر والأنثى فتقاس حالة الفعل على حالة الوصف ، إلا أن الزمخشري جاء بكلام غير صريح لا يدرى أهو تأييد لأبي حنيفة أم خروج من المضيق .

فلم يُقدم على التصريح بأن الفعل يقترن بتاء التأنيث إذا أريد التفرقة في حالة فاعله .

وقد رد عليه ابن المنيّر في "الانتصاف" وابن الحاجب في "إيضاح المفصّل" والقزويني في "الكشف على الكشاف" .

ورأوا أن أبا حنيفة ذهل فيما قاله بأنه لا يساعد قول أحد من أئمة اللغة ولا يشهد به استعمال ولا سيما نحاة الكوفة ببلدِه فإنهم زادوا فجوزوا تأنيث الفعل إذا كان فعله علماً مؤنث اللفظ مثل : طلحة وحمزة .

واعلم أن إمامة أبي حنيفة في الدين والشريعة لا تنافي أن تكون مقالته في العربية غير ضليعة .

وأعجب من ذهول أبي حنيفة انفحام قتادة من مثل ذلك الكلام .

وغالب ظني أن القصة مختلقة اختلاقاً غير متقن .

ويجوز أن يخلق الله لها دلالة وللنمل الذي معها فهما لها وأن يخلق فيها إلهاماً بأن الجيش

جيشُ سليمان على سبيل المعجزة له .

والحطم : حقيقته الكسر لشيء صلب .

واستعير هنا للرفس بجامع الإهلاك .

و﴿ لا يحطمنّكم ﴾ إن جعلت ﴿ لا ﴾ فيه ناهية كانت الجملة مستأنفة تكريراً للتحذير ودلالة على الفزع لأن المحذِّر من شيء مُفزِع يأتي بجمل متعددة للتحذير من فرط المخافة والنهي عن حطم سليمان إياهن كناية عن نهيهن عن التسبب فيه وإهمال الحذر منه كما يقال : لا أعرفنك تفعل كذا ، أي لا تفعله فأَعرِفَك بفعله ، والنون توكيد للنهي ؛ وإن جعلت ﴿ لا ﴾ نافية كانت الجملة واقعة في جواب الأمر فكان لها حكم جواب شرط مقدّر .

(125/576)

فالتقدير : إن تدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان ، أي يَنْتفِ حطمُ سليمان إياكنّ ، وإلاّ حطمكم .

وهذا مما جوّزه في "الكشاف" .

وفي هذا الوجه كون الفعل مؤكداً بالنون وهو منفي بـ ﴿ لا ﴾ وذلك جائز على رأي المحققين إلا أنه قليل .

وأما من منعه من النحاة فيمنع أن تجعل ﴿ لا ﴾ نافية هنا .

وصاحب "الكشاف" جعله من اقتران جواب الشرط بنون التوكيد لأن جواب الأمر في الحكم جواب الشرط وهو عنده أخف من دخولها في الفعل المنفي بناءً على أن النفي يضاد التوكيد .

وتسمية سليمان في حكاية كلام النملة يجوز أن تكون حكاية بالمعنى وإنما دلت دلالة النملة على الحذر من حطم ذلك المحاذي لواديها ، فلما حكيت دلالتها حكيتْ بالمعنى لا باللفظ ، ويجوز أن يكون قد خلق الله علماً في النملة علمت به أن المارّ بها يُدعى سليمان على سبيل المعجزة وخرق العادة .

وتبسُّم سليمان من قولها تبسم تعجب .

والتبسّم أضعف حالات الضحك فقوله : ﴿ ضاحكاً ﴾ حال موكدة ل ﴿ تبسَّم ﴾ وضحك الأنبياء التبسّم ، كما ورد في صفة ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما يقرب من التبسّم مثل بدوّ النواجذ كما ورد في بعض صفات ضحكه .

وأما القهقهة فلا تكون للأنبياء ، وفي الحديث "كثرة الضحك تميت القلب" وإنما تعجب من أنها عرفت اسمه وأنها قالت : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فوسمته وجندَه بالصلاح والرأفة وأنهم لا يقتلون ما فيه روح لغير مصلحة ، وهذا تنويه برأفتِه وعدله الشامل لكل مخلوق لا فساد منه أجراه الله على نملة ليعلَم شرفَ العدل ولا يحتقِرَ مواضعه ، وأن وليّ الأمر إذا

عدل سرى عدله في سائر الأشياء وظهرت آثاره فيها حتى كأنه معلوم عند ما لا إدراك له ، فتسير جميع أمور الأمة على عدل .

ويضرب الله الأمثال للناس ، فضرب هذا المثل لنبيئه سليمان بالوحي من دلالة نملة ، وذلك سر بينه وبين ربّه جعله تنبيهاً له وداعية لشكر ربّه فقال : ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك ﴾ .

(126/576)

وأوزع : مزيد (وزع) الذي هو بمعنى كفّ كما تقدم آنفاً ، والهمزة للإزالة ، أي أزال الوزع ، أي الكف .

والمراد أنه لم يترك غيره كافّاً عن عمل وأرادوا بذلك الكناية عن ضد معناه ، أي كناية عن الحث على العمل .

وشاع هذا الإطلاق فصار معنى أوزع أغرى بالعمل .

فالمعنى : وفِّقني للشكر ، ولذلك كان حقّه أن يتعدى بالباء .

فمعنى قوله : ﴿ أوزعني ﴾ ألهمني وأغْرِني .

و ﴿ أن أشكُر نعمتك ﴾ منصوب بنزع الخافض وهو الباء .

والمعنى : اجعلني ملازماً شكر نعمتك .

وإنما سأل الله الدوام على شكر النعمة لما في الشكر من الثواب ومن ازدياد النعم ، فقد ورد : النعمة وحشية قيّدوها بالشكر فإنها إذا شُكرت قرّت .

وإذا كُفرت فرّت .

ومن كلام الشيخ ابن عطاء الله : "من لم يشكر النعمة فقد تعرّض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها" .

وفي "الكشاف" عند قوله : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ [لقمان : 12] وفي كلام بعض المتقدمين "أن كُفران النعم بوار ، وقلما أقشعت نافرة فرجعت في نصابها فاستدع شاردها بالشكر ، واستدم راهنَها بكرم الجوار ، واعلم أن سُبوغ ستر الله متقلص عما قريب إذا أنت لم ترجُ لله وقاراً" .

وأدرج سليمان ذكر والديه عند ذكره إنعام الله تعالى عليه لأن صلاح الولد نعمة على الوالدين بما يدخل عليهما من مسرة في الدنيا وما ينالهما من دُعائه وصدقاته عنهما من الثواب .

ووالداه هما أبوه داود بن يسّي وأمه (بشبع) بنت (اليعام) وهي التي كانت زوجة (أوريا) الحِثّي فاصطفاها داود لنفسه ، وهي التي جاءت فيها قصة نبأ الخصم المذكورة في سورة ص .

و﴿ أن أعمَل ﴾ عطف على ﴿ أن أشكر ﴾ .

والإدخال في العباد الصالحين مستعار لجعله واحداً منهم ، فشبه إلحاقه بهم في الصلاح بإدخاله عليهم في زمرتهم ، وسؤاله ذلك مراد به الاستمرار والزيادة من رفع الدرجات لأن لعباد الله الصالحين مراتبَ كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(127/576)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾

وتسأل : لقد أعطى الله داود وسليمان عليهما السلام نِعَماً كثيرة غير العلم ، أَلَانَ لداود الحديد ، وأعطى سليمان مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وسخَّر له الريح والجن ، وعلَّمه منطق الطير . . إلخ ومع ذلك لم يمتنّ عليهما إلا بالعلم وهو منهج الدين ؟

قالوا : لأن العلم هو النعمة الحقيقية التي يجب أن يفرح بها المؤمن ، لا المُلْك ولا المال ، ولا الدنيا كلها ، فلم يُعتد بشيء من هذا كله ؛ لذلك حمد الله على أن آتاه الله العلم ؛ لأنه النعمة التي يحتاج إليها كل الخَلْق ، أما المُلْك أو الجاه أو تسخير الكون لخدمته ، فيمكن للإنسان الاستغناء عنها .

والإمام علي كرم الله وجهه حينما نُفِي أبو ذر ؛ لأنه كان يتكلم عن المال وخطره والأبنية ومسائل الدنيا ، فَنَفَوْه إلى الربذة حتى لا يثير فتنة ، لكنه قبل أن يذهب مرَّ بالإمام علي كي يتوسط له ليعفوا عنه ، لكن الإمام علياً رضي الله عنه أراد ألاَّ يتدخل في هذه المسألة حتى لا يقال : إن علياً سلَّط أبا ذر على معارضة أهل الدنيا ومهاجمتهم ، فقال له : يا أبا ذر إنك قد غضبتَ لله فارْجُ مَنْ غضبتَ له ، فإن القوم خافوك على دُنْياهم ومُلكهم ، وخِفْتهم أنت على دينك فاهرب بما خِفْتَهم عليه يعني : اهرب بدينك واترك ما خافوك عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عَمَّا منعوك .

هكذا أزال الإمام هذه الإشكال ، وأظهر أهمية العلم ومنهج الله بحيث لا يستغني عنه المسلم بحال من الأحوال ، ولا يعيش بدونه ، وبه ينال حياة أخرى رفعية باقية ، في حين يستطيع الإنسان أن يعيش بدون المال وبدون الملك .

(128/576)

ولذلك يبعث خيلفة المسلمين إلى سيدنا جعفر الصادق : يا ابن بنت محمد صلى الله عليه وسلم ما لك لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟ أي : تأتينا وتجالسنا وتسمر معنا ، فقال : ليس عندي من الدنيا ما أخافك عليه يعني : ليس عندي مال تصادره وليس عندك من الآخرة

ما أرجوك له . وهذا نفس المنطق الذي تكلم به الإمام علي .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ [النمل : 15] فالحمد هنا على نعمة العلم وحِفْظ منهج الله ، وفي الآية مظهر من مظاهر أدب النبوة ، حيث قالا ﴿ فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ [النمل : 15] فكأن هناك مَنْ هم أفضل مِنّا ، وليس التفضيل حَجْراً علينا ، وهذا من تواضعهما عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل : 16] أي : بقيتْ فيه النبوة وحمل المنهج ، لا الملك لأن الأنبياء لا تورث كما جاء في الحديث الشريف : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة "

وهذا يدل على أن سليمان جاء بعد داود ، وقد ورث عنه النبوة مع أنهما متعاصران ، بدليل قوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحرث إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القوم وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : 78] .

إذن : كان سليمان مع داود في هذه الحكومة وفي العلم ، لكن الحق سبحانه جعل العلم منازل ، بدليل أنه قال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء : 79] مع أن أباه موجود ، وحكم في القضية بأن يأخذ صاحبُ الزرع الغنم التي أكلت .

فلما خرجوا من عند داود سألهم سليمان عن حكم أبيه ، فأخبروه بما قال ، فقال سليمان : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يصلحه حتى يعود كما كان ، وعندها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زرعه .

والحق تبارك وتعالى يعطينا هذا المثل مع نبي وأبيه ، لا مع نبيين مختلفين بعيدين ، وفي هذا إشارة أن حقّ الأبوة على سليمان لم يمنعه من مخالفة أبيه في الحكم ؛ لأن الله تعالى قال عنهما ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ [الأنبياء : 79] فكلٌّ منهما يحكم على مقتضى علمه الذي منحه الله .

ومن هذه الحادثة أخذنا مشروعية الاستئناف والنقض وفي أحكام المحاكم ، فقاضي الاستئناف حينما يُعدِّل في حكم القاضي الابتدائي لا يُعَدُّ هذا طعْناً فيه ، إنما كل منهما حكم بناءً على علمه ، وعلى ما توفّر له من أدلة ووقائع ، وربما فطِن القاضي الثاني لما لم يفطِنْ له القاضي الأول .

إذن : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل : 16] لا تعني أنه جاء بعده ، إنما هما متعاصران ، وورثه في العلم والنبوة والحكمة ، لا في المُلْك والمال ؛ لأن الله تعالى يريد أن يكون الرسول بعيداً في رسالته وتبليغه عن الله عن أيِّ نفع يجيء له ، أو لذريته .

لذلك كان الفقراء من أهل النبي صلى الله عليه وسلم لا يأخذون من زكاة المؤمنين ، لكن أين

هذا التشريع الحكيم مما يحدث الآن من الحكام والرؤساء والمسئولين ممَّنْ يوالون أقاربهم ، وينهبون البلاد من أجلهم .

﴿ وَقَالَ يا أَيُّهَا الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير ﴾ [النمل : 16] فالطير له منطق ولغة ؛ لأنه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام : 38] والآن ومع تقدُّم العلم يتحدث العلماء عن لغة للنمل ، ولغة للنحل ، ولغة للسمك . . إلخ .

(130/576)

وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقَّة تفاهم غريزي ، لكننا لا نفهم هذا المنطق ، والحق تبارك وتعالى يُعلِّمنا : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] . فإنْ قلتَ كمَنْ قالوا : هو تسبيح دلالة لا منطقَ ومقال ، نقول : طالما أن الله تعالى قال ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] فلا بُدَّ أنه مقال وكلام ، ولكن أنت لا تفهمه .

وعلماء اللغة يقولون : إن النطق خاصٌّ بالإنسان ، أما ما تُحدثه الحيوانات والطيور فأصوات تُحدِثها في كل وقت ، مثل مواء القطة ، ونُباح الكلب ، وخُوَار البقر ونقيق

الضفادع ، لكن هذه الأصوات لها معنى (فنونوه) القطة حين تجوع غير (نونوتها) حين تخاف .

إذن : فهي تُعبِّر ، لكننا لا نعرف هذه التعبيرات ، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض ؛ لأننا لم نتعلمها ، وللغة ضرورة اجتماعية نتواضع عليها أي : نتفق أن هذا اللفظ يعني كذا ، فإذا نطقتَ به أفهمك ، وإن نطقتُ به تفهمني .

واللغة بنت الاستماع ، فاللفظ الذي تسمعه تستطيع نُطْقه ، والذي لم تسمعه لا تستطيع نُطْقه ، حتى لو كان لفظاً عربياً من لغتك ، ولا تعرف أيضاً معناه ، فلو قلت لك : (إنما الحيزبون و الدردبيس والطخا والنخالح والعصلبيص) فلا شكَّ أن لا تعرف لهذا معنى ؛ لأننا لم نتواضع على معناه .

والطفل الذي نشأ في بيئة عربية يتكلم العربية ؛ لأنه سمعها و لا يتكلم الإنجليزية مثلاً : لأنه لم يسمعها ، ولو وضعتَ نفس الطفل في بيئة إنجليزية لتكلم الإنجليزية ؛ لأن اللغة لا ترتبط بجنس ولا دم ، اللغة سماع .

(131/576)

ومعنى ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 16] أي : من النِّعَم على الإطلاق ، وبعد قليل سنسمع نفس هذه العبارة يقولها الهدهد عن ملكة سبأ ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] إذن : فهي مثله فيما يناسب أمثالها من الملوك لا في النبوة وحَمْل المنهج ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفضل المبين ﴾ [النمل : 16] الفضل المحيط بكل الفضائل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَحُشِرَ لسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ ﴾

حُشِروا : جُمِعوا من كل مكان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ ﴾ [الشعراء : 36] والحشْر : جَمْع الناس للحساب يوم القيامة .

وسُمِّي الجمع حَشْراً ؛ لأن تجمع الناس من أماكن متفرقة في مكان واحد ، حتى يضيق بهم ويزدحم ، وهذا معنى الحشْر المتعارف عليه عندنا ، نقول : نحشرهم على بعض .

ومعنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : 17] يعني : يُمنعون ، ومنه قوله " إن الله ليزع بالسُّلْطان ما يزع بالقرآن " يعني : أن السلطان والقوة والبطش تمنع ما لا يستطيع القرآن منعه ؛ ذلك لأنهم يستبعدون القيامة والعذاب ، أمّا السلطان فرادع حاضر الآن .

لكن ، مِمَّ يمنعون وهم في موقف الحشر أمام سليمان ؟ قالوا : يُمنعون أن يَسبق بعضهم بعضاً إلى سليمان ، إنما نمنعهم حتى يأتي المتأخر منهم ، ويدخلون جميعاً عليه مرة واحدة ، وفي ذلك إحداثُ توازنٍ بين الرعية كلها .

وقد حدَّثونا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من صفاته إذا جلس في مجلس تزوعَتْ

نظراته وعينه على كل الجالسين حتى يُسوِّي بينهم ، ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر ، ولا يُميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبي فضَّله على غيره .

(132/576)

وكان صلى الله عليه وسلم لا يُقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذي يُعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس ؛ ولذلك كان صلى الله عليه وسلم لا يُوطِّن وينهي عن ذلك على خلاف ما نراه الآن من بعض المصلِّين الذين يضعون سجادة مثلاً في الصف الأول يشغلون بها المكان ، ثم يذهب ويقضي حاجاته ، ويعود وقد امتلأ المسجد فيتخطّى رقاب الناس ليصل إلى مكان في المقدمة ، وهي ليس مكانه عند الله .

فالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حَسْب الورود ، فإتيانك إلى بيت الله أولاً يعطيك ثواب الصف الأول ، وإنْ صليت في الصفِّ الأخير ، وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلفة بين الناس ، ويزيل الفوارق ويساعد على التعارف ، فكل صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرف عليه وتعرف أحواله .

وهذا معنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : 17] يمنع السابق أنْ يسبق حتى يأتي اللاحق ، ليكونوا سواسية في الدخول على نبي الله سليمان عليه السلام .

لكن في ضوء هذا المعنى لمادة (وزع) كيف نفهم قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ [النمل : 19] .

أوزعني هنا يعني : أَقْدِرني وامنعني من الغفلة عن نعمتك ، لأضلَّ شاكراً لك .

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18)

الضمير في ﴿ أَتَوْا ﴾ [النمل : 18] يعود على جنود سليمان من الإِنس والجن والطير ، أي جاءوا جميعاً صَفّاً واحداً ومرُّوا ﴿ على وَادِ النمل ﴾ [النمل : 18] يعني : قرية النمل ، وقوله ﴿ على وَادِ النمل ﴾ [النمل : 18] يدلُّ على أنهم جاءوا من أعلى الجبل ، أو أنهم قطعوا الوادي كله ، كما نقول : فلان أتى على الطعام كله .

(133/576)

عندها ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [النمل : 18] لماذا هذا التحذير ؟ ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ [النمل : 18] ثم احتاطتْ النملة للأمر ، فقالت ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 18] فما كان سليمان وجنوده ليُحطِّموا بيوت النمل عن قَصْد منهم .

والمعنى : حالة كونهم لا يشعرون بكم ، وهذا من عدالة حكمها ومعرفتها بسليمان ، وأنه ليس جباراً ولا عاتياً . إذن : فالنملة رأتْ عن بُعْد ، ونطقتْ عن حق ، وحكمتْ بعدل ، لهذا كله تبسَّم سليمان ضاحكاً .

وواضح في هذا القول ما تتميز به مملكة النمل من نظام يعرف فيه كُلٌّ مهمته ، ويؤديها على أكمل وجه ، فهذه النملة لا بُدَّ أنها كانت تقوم بمهمة الحراسة وتقف في الدَّرَك ، ترقب الجو من حولها ، وكأنها جندي الدورية اليقظ .

وسبق أن قُلْنا : لو أنك جلستَ في مكان ، وتركتَ فيه بعض فضلات الطعام مثلاً أو الحلوى لرأيتَ بعض النمل يدور حولها دون أنْ يقربها ، ثم انصرفوا عنها ، وبعد مدة ترى جماعة منهم جاءت وحملت هذه القطعة ، وكأن الجماعة الأولى أفراد الاستطلاع الذين يكتشفون أماكن الطعام ، ويُقدِّرون كم نملة تستطيع حمل هذا الشيء .

بدليل أنك لو ضاعفتَ القطعة الملقاة لرأيتَ عدد النمل الذي جاء لحملها قد تضاعفت هو أيضاً . ولو قتلتَ النمل الأول الذي جاء للاستطلاع تلاحظ أن النمل امتنع عن هذا المكان ، لماذا ؟ لأن النملة التي نجتْ من القتل ذهبت إلى مملكتها ، وحذَّرتهم من هذا المكان .

وفي مملكة النمل عجائب وآيات ، سبحان خالقها ، وسبحان مَنْ هداها إلى هذه الهندسة المحكومة بالغريزة .

ومن عجائب النمل أنك ترى في عُشِّ النمل الحبوب مفلوقة إلى نصفين حتى لا تنبت ، وتهدم

عليهم عُشَّهم ، لكن حبَّة الكُسْبرة مثلاً تنبت حتى لو انفلقتْ نصفين ، حيث ينبت كل نصف على حِدَة ، لذلك لاحظوا أن النمل يفلق هذه الحبة بالذات إلى أربعة أقسام .

(134/576)

كما لاحظ المهتمون بدراسة النمل وجود حبات بيضاء صغيرة مثل رأس الدبوس أمام أعشاش النمل ، وبفحصها تبيَّن أنها زريعة النبات التي تحمل خلايا الإنبات أخرجوها كي لا تنبت .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام : 38] .

وقد سمَّى الله تعالى ما قالت النملة قولاً ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ [النملة : 18] ولا بُدَّ أن هذا التحذير ﴿ ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [النملة : 18] جاء قبل أنْ يأتي سليمان وجنوده ، وهم على مشارف الوادي .

وكلمة ﴿ مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [النمل : 18] تدل على أن لهم بُيوتاً ومساكنَ ، ومجالَ معيشة ، وكسْبَ أرزاق ، كما نقول (بيلقّطوا رزقهم) من هنا ومن هناك ؛ لذلك تجده يتتبع مواضع الطعام والفضلات ، ويدخل إليها من أضيق الأماكن ، لكن نرى مثلاً محلات الحلوى مليئة

بالسكر الذي يعشقه النمل ، ومع ذلك لا نجد في هذه المحلات نملة واحدة ، لماذا ؟ لما تتبَّعوا هذه الظاهرة بالدراسة وجدوا أن النمل لا يدخل المكان إذا كان به سِمْسم ، وهذه من عجائب النمل أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿ لاَيَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ [النمل : 18] الحَطْم هو التكسير ، ومنه قوله سبحانه عن النار : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ [الهمزة : 5] لأنها تحطم ما يُلْقى فيها .

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ

تبسَّم سليمان عليه السلام بالبسمة التي تتصل بالضحك لماذا ؟ لأنه سمعها قبل أنْ يصل إليها ، ولأنها رأتْ قبل أن يأتي المرئي ، وقد تكلم البعض في هذه المسألة فقالوا : إن الريح نقلتْ إليه مقالة النملة ، وهو ما يزال بعيداً عنها ، وهذا الكلام يُقبل لو أن المسألة (ميكانيكا) إنما هي عمل رب وقدرة خالق مُنعِم ينعم بما يشاء .

(135/576)

ونطق قائلاً ﴿ رَبِّ أوزعني ﴾ [النمل : 19] أي : امنعني أنْ أغفل ، أو أنْ أنسى هذه النِّعم ، فأظل شاكراً حامداً لك على الدوام ؛ لأن هذه النعَم فاقتْ ما أنعمت به على عامة الخَلْق ، وفوق ما أنعمتُ به على إخواني من الأنبياء السابقين ، وعلى كل ملوك الدنيا ؛ لأنه

عليه السلام جمع بين المُلْك والنُّبوة ، وإنْ كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض عليه المُلْك فرفضه ، وآثر أن يكون عبداً رسولاً .

لذلك وجب على كل صاحب نعمة أنْ يستقبلها بحمد الله وشكْره ، وسبق أنْ قُلْنا في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر : 8] أن حق النعمة أن تحمد المنعم عليها ، فلا تُسأل عنها يوم القيامة .

وما أشبه الحمد على النعمة بما يُسمُّونه عندنا في الريف (الرقوبة) ، وهي بيضة تضعها ربَّة المنزل في مكان أمين يصلح عُشّاً يبيض فيه الدجاج ، فإذا رأتْ الدجاجة هذه البيضة جاءتْ فباضتْ عليها ، وهكذا شكر الله وحمده على النعم هو النواة التي يتجمع عليها المزيد من نِعَم الله .

وقد شُرِح هذا المعنى في قوله سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] ألاَ ترى أن مَنْ علم علماً فعلم به أورثه الله علم ما لم يعلم ؟ لماذا ؟ لأنه ما دام عمل بعلمه ، فهو مُؤْتمن على العلم ؛ لذلك يزيده الله منه ويفتح له مغاليقه ، على خلاف مَنْ عَلِم علماً ولم يعمل به ، فإنَّ الله يسلبه نور العلم ، فيغلق عليه ، وتصدأ ذاكرته ، وينسى ما تعلَّمه .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ [لقمان : 12] أي : تعود عليه ثمرة شُكْره ؛ لأنه إنْ شكر الله بالحمد شكره الله بالزيادة ؛ لذلك من أسمائه تعالى (الشكور) .

وقوله : ﴿ عَلَيَّ ﴾ [النمل : 19] هذه خصوصية ﴿ وعلى وَالِدَيَّ ﴾ [النمل : 19] لأنه ورث عنهما المُلْك والنبوة ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ [النمل : 19] وهذا ثمن النعمة أن أؤدي خدمات الصلاح في المجتمع لأكون مُؤْتمناً على النعمة أهْلاً للمزيد منها .

والحق تبارك وتعالى يريد منَّا أنْ نُوسِّع دائرة الصلاح ودائرة المعروف في المجتمع ، أَلَا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : 245] .

فسمَّى الخير الذي تقدمه قَرْضاً ، مع أنه سبحانه واهب كل النِّعم ، وذلك لِيُحنّن قلوب العباد بعضهم على بعض ؛ لأنه تعالى خالقهم ، وهو سبحانه المتكفِّل برزقهم .

ثم يقول : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين ﴾ [النمل : 19] وذكر الرحمة والفضل ؛ لأنهما وسيلة النجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد ، واقرأ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمّدني الله برحمته " .

ويقول سبحانه في هذا المعنى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ ﴾ [يونس : 58]

فالمؤمن الحق لا يفرح بعمله ، إنما يفرح : إنْ نال فَضْلَ الله ورحمته ، كأنه يقول لربه : لن أتكل يا رب على عملي ، بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأنني لو قارنتُ العبادة التي كلفتني بها بما أسديْتَ إليَّ من نِعَم وآلاء لَقصُرَتْ عبادتي عن أداء حقِّك عليَّ ، فإنْ أكرمتني بالجنة فبفضلك .

والبعض يقولون : كيف يعاملنا ربنا بالفضل والزيادة ، ويُحرِّم علينا التعامل بالربا ؟ أليست الحسنة عنده بعشرة أمثالها أو يزيد ؟ نقول : نعم ، لكن الزيادة هنا منه سبحانه وتعالى وليستْ من مُسَاو ، إنها زيادة ربٍّ لعبيد .

(137/576)

وقوله ﴿ فِي عِبَادِكَ الصالحين ﴾ [النمل : 19] دليل على تواضع سيدنا سليمان عليه السلام فمع مكانته ومنزلته يطلب أنْ يُدخِله الله في الصالحين ، وأن يجعله في زمرتهم ، فلم يجعل لنفسه مَيْزةً ولا صدارة ولا أدَّعى خيرية على غيره من عباد الله ، مع ما أعطاه الله من المُلْك الذي لا ينبغي لأحد من بعده .

وأعطاه النبوة وحمَّله المنهج ، فلم يُورثه شيء من هذا غروراً ولا تعالياً ، وها هو يطلب من ربه أن يكون ضمن عباده الصالحين ، كما نقول (زقني مع الجماعة دول) ، حين تكون

السيارة مثلاً كاملة العدد ، وليس لي مقعد أجلس عليه .

مَنْ يقول هذا الكلام ؟ إنه سليمان بن داود عليهما السلام الذي آتاه الله مُلْكاً ، لا ينبغي لأحد من بعده ، ومن ذلك كان يُؤثِر عبيده وجنوده على نفسه ، وكان يأكل (الردة) من الدقيق ، ويترك النقي منه لرعيته .

إذن : لم ينتفع من هذا المُلْك بشيء ، ولم يصنع لنفسه شيئاً من مظاهر هذا الملك ، إنما صنعه له ربه لأنه كان في عَوْن عباد الله ، فكان الله في عَوْنه ، وأنت حين تُعين أخاك تُعينه بقدرتك وإمكاناتك المحدودة ، أما معونة الله تعالى فتأتي على قَدْر قوته تعالى ، وقدرته وإمكاناته التي لا حدودَ لها ، إذن : فأنت الرابح في هذه الصفقة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(138/576)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان داود أعطي ثلاثاً : سخرت له الجبال يسبحن معه

، وأُلِينَ له الحديد ، وعلم منطق الطير . وأعطي سليمان : منطق الطير ، وسخرت له الجن ، وكان ذلك مما ورث عنه . ولم تسخر له الجبال ، ولم يلن له الحديد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمته .

إن كنت لا تعرف . ذلك في كتاب الله المنزل قال الله عز وجل ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ وأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان ! .

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وورث سليمان داود ﴾ قال : ورثه نبوته ، وملكه ، وعلمه .

وأما قوله تعالى : ﴿ وقال يا أيها الناس ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي قال : الناس عندنا : أهل العلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال : كنت عند عمر بن الخطاب فدخل علينا كعب الحبر فقال : يا أمير المؤمنين ألا أخبرك بأغرب شيء قرأت في كتب الأنبياء : إن هامة جاءت إلى سليمان فقالت : السلام عليك يا نبي الله ، فقال : وعليك السلام يا هام ، أخبريني كيف لا تأكلين الزرع ؟ فقالت : يا نبي الله لأن آدم عصى ربه في سببه لذلك لا آكله ، قال : فكيف لا تشربين الماء ؟ قالت : يا نبي الله لأن الله أغرق بالماء قوم نوح من أجل ذلك تركت شربه ، قال : فكيف تركت العمران وأسكنت الخراب ؟ قالت : لأن الخراب ميراث الله ، وأنا أسكن في ميراث الله وقد ذكر الله ذلك في كتابه فقال ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ [القصص : 58] إلى قوله ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ [القصص : 58] .

وأخرج ابن أبي شيبه وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال : خرج سليمان بن داود يستسقي بالناس ، فمر بنملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك ، فاما أن تسقينا ، وإما أن تهلكنا فقال سليمان للناس : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال : كان داود يقضي بين البهائم يوماً وبين الناس يوماً ، فجاءت بقرة فوضعت قرنها في حلقة الباب ثم تنغمت كما تنغم الوالدة على ولدها ،

وقالت : كنت شابة كانوا ينتجوني ويستعملوني ، ثم إني كبرت فأرادوا أن يذبحوني ، فقال داود : أحسنوا إليها ولا تذبحوها ثم قرأ ﴿ علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ .

(140/576)

وأخرج الحاكم في المستدرك عن جعفر بن محمد قال : أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر . ملك أهل الدنيا كلهم من الجن ، والإِنس ، والدواب ، والطير ، والسباع ، وأعطي كل شيء ومنطق كل شيء ، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة . حتى إذا أراد الله أن يقبضه إليه أوحى إليه : أن استودع علم الله وحكمته أخاه . وولد داود كانوا أربعمائة وثمانين رجلاً أنبياء بلا رسالة . قال الذهبي : هذا باطل .

وأخرج الحاكم عن محمد بن كعب قال : بلغنا أن سليمان كان عسكره مائة فرسخ : خمسة وعشرون منها للإِنس ، وخمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للوحش ، وخمسة وعشرون للطير ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب .

فيها ثلثمائة صريحة ، وسبعمائة سرية ، وأمر الريح العاصف فرفعته ، فأمر الريح فسارت به . فأوحى الله إليه : إني زدتك في ملكك أن لا يتكلم أحد بشيء إلا جاءت الريح

فأخبرتك .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن المنذر عن وهب بن منبه قال : مر سليمان بن داود وهو في ملكه قد حملته الريح على رجل حراث من بني إسرائيل ، فلما رآه قال – سبحان الله – لقد أوتي آل داود ملكاً . فحملتها الريح ، فوضعتها في أذنه ، فقال : ائتوني بالرجل ، فأتي به فقال : ماذا قلت ؟ فأخبره فقال سليمان : إني خشيت عليك الفتنة . لثواب سبحان الله عند الله يوم القيامة أعظم مما أوتي آل داود فقال الحراث : أذهب الله همك كما أذهبت همي قال : وكان سليمان رجلاً أبيض ، جسيماً ، أشقر ، غزاء ، لا يسمع بملك إلا أتاه فقاتله فدوخه ، يأمر الشياطين فيجعلون له داراً من قوارير ، فيحمل ما يريد من آلة الحرب فيها ، ثم يأمر العاصف فتحمله من الأرض ، ثم يأمر الرخاء فتقدمه حيث شاء .

(141/576)

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن كثير قال : قال سليمان بن داود لبني إسرائيل : ألا أريكم بعض ملكي اليوم قالوا : بلى يا نبي الله قال : يا ريح ارفعينا . فرفعتهم الريح فجعلتهم بين السماء والأرض ، ثم قال : يا طير أظلينا . فأظلتهم الطير بأجنحتها لا يرون الشمس . قال

: يا بني إسرائيل أي ملك ترون ؟ قالوا : نرى ملكاً عظيماً قال : قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ؛ خير من ملكي هذا ، ومن الدنيا وما فيها . يا بني إسرائيل من خشي الله في السر والعلانية ، وقصد في الغنى والفقر ، وعدل في الغضب والرضا ، وذكر الله على كل حال ، فقد أعطي مثل ما أعطيت .

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، كان يوضع لسليمان عليه السلام ثلثمائة ألف كرسي ، فيجلس مؤمنو الإِنس مما يليه ، ومؤمنو الجن من ورائهم ، ثم يأمر الطير فتظله ، ثم يأمر الريح فتحمله ، فيمرون على السنبلة فلا يحركونها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال : يدفعون .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال : جعل على كل صنف منهم وزعة ترد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك .

وأخرج الطبراني والطستي في مسائله عن ابن عباس ؛ أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال : يحبس أولهم على آخرهم حتى تنام الطير . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أو ما سمعت قول الشاعر :

وزعت رعيلها باقب نهد . . . إذا ما القوم شدوا بعد خمس

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد وأبي رزين في قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال : يحبس أولهم على آخرهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال : يرد أولهم على آخرهم .

(142/576)

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18)

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ حتى إذا أتوا على وادِ النمل ﴾ قال : ذكر لنا أنه واد بأرض الشام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : النملة التي فقه سليمان كلامها كانت من الطير ذات جناحين ، ولولا ذلك لم يعرف سليمان ما تقول .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : النمل من الطير .

وأخرج البخاري في تاريخه ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن نوف قال :

كان النمل في زمن سليمان بن داود أمثال الذباب . وفي لفظ مثل الذباب .

وأخرج عبد بن حميد عن الحكم قال : كان النمل في زمان سليمان أمثال الذباب .

وأخرج ابن المنذر عن وهب بن منبه قال : أمر الله الريح قال " لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء في الأرض بينهم إلا حملته فوضعته في أذن سليمان " فبذلك سمع كلام النملة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن سيرين أنه سئل عن التبسم في الصلاة ، فقرأ هذه الآية ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها ﴾ وقال : لا أعلم التبسم إلا ضحكاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ أوزعني ﴾ قال : ألهمني .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ قال : مع الأنبياء والمؤمنين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(143/576)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَقَالاَ ﴾ :

قال الزمخشري : فإن قلتَ : أليسَ هذا موضعَ الفاءِ دونَ الواو كقولك : " أَعْطَيْتُه فَشَكر " و " مَنَعْتُه فَصَبرَ " ؟ قلت : بلى . ولكنَّ عَطْفَه بالواو إشعارٌ بأنَّ ما قالاه بعضُ ما أَحْدَثَ فيهما إيتاءُ العِلْمِ وشيءٌ من مَواجبِهِ ، فأضمرَ ذلك ثُمَّ عَطَفَ عليه التحميدَ ، كأنه قال : " ولقد آتيناهُما عِلْماً فَعَمِلا به ، وعَلَّماه وعَرَفاه حَقَّ مَعْرِفَتِه وقالا : " الحمد " انتهى . وإنما نَكَّر " عِلْماً " تَعْظيماً له أي : علماً سَنِيّاً ، أو دلالةً على التبعيضِ لأنه قليلٌ جداً بالنسبةِ إلى عِلْمِه تعالى .

وَحُشِرَ لسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

قوله : ﴿ مِنَ الجن ﴾ : وما بعَده بيانٌ لجنودِه ، فيتعلَّق بمحذوفٍ . ويجوزُ أَنْ يكونَ هذا الجارُّ حالاً ، فيتعلَّقُ بمحذوفٍ أيضاً .

قوله : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يُمْنَعون ويُكَفُّون . والوَزْعُ : الكَفُّ والحَبْسُ ، يقال : وَزَعَه يَزَعُهُ فهو وازِعٌ ومَوْزُوْع ، وقال عثمان رضي الله عنه : " ما يَزَعُ السلطانُ أكثرُ مِمَّا يَزَعُ القرآنُ " وعنه : / " لا بُدَّ للقاضي مِنْ وَزَعَةٍ " .

وقال الشاعر :

3544 ومَن لم يَزَعْه لُبُّه وحَياؤُه . . . فليس له مِنْ شَيْبِ فَوْدَيْه وازِعُ

وقوله : ﴿ أوزعني أَنْ أَشكرَ ﴾ بمعنى : أَلْهِمْني ، من هذا ؛ لأن تحقيقَه : اجعلني أَزَعُ

نفسي عن الكفر .

قوله : ﴿ حتى إذآ ﴾ : في المُغَيَّا ب " حتى " وجهان ، أحدهما : هو يُوْزَعُون ؛ لأَنَّه مُضَمَّنٌ معنى : فهم يسيرون ممنوعاً بعضُهم مِنْ مفارقةِ بعضٍ حتى إذا . والثاني : أَنَّه محذوفٌ أي : فسارُوا حتى . وتقدَّم الكلامُ في " حتى " الداخلةِ على " إذا " هل هي حرفُ ابتداءٍ أو حرفُ جرّ ؟

(144/576)

قوله : " وادي " متعلقٌ ب " أَتَوْا " وإنما عُدِّيَ ب " على " لأنَّ الواقعَ كذا ؛ لأَنَّهم كانوا محمولِيْنَ على الرِّيح فهم مُسْتَعْلُون . وقيل : هو مِنْ قولِهم : أَتَيْتُ عليه ، إذا اسْتَقْصَيْتَه إلى آخره والمعنى : أنهم قَطَعوا الواديَ كلَّه وبَلَغُوا آخرَه . ووقف القُراءُ كُلُّهم على " وادِ " دونَ ياءٍ اتّباعاً للرَّسْمِ ، ولأنها محذوفةٌ لفظاً لالتقاءِ الساكنين في الوصلِ ، ولأنها قد حُذِفَتْ حيث لم تُحْذَفْ لالتقاءِ الساكنين نحو : ﴿ جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ [الفجر : 9] فَحَذفُها وقفاً وقد عُهِدَ حَذْفُها دونَ التقاء ساكنين أولى . إلاَّ الكسائيَّ فإنه وَقَفَ بالياء قال : " لأنَّ المُوْجِبَ للحذفِ إنما هو التقاءُ ساكنين بالوصلِ ، وقد زالَ فعادَتِ اللامُ " ، واعتَذَرَ عن مخالفةِ الرسمِ بقوةِ الأصلِ .

والنَّمْلُ اسمُ جنسٍ معروفٌ ، واحده نَمْلة ، ويقال : نُمْلَة ونُمْلٌ بضمِّ النونِ وسكونِ الميم ، ونُمُلَةٌ ونُمُلٌ بضمهما ونَمُلَة بالفتح والضم ، بوزن سَمُرة ، ونَمُل بوزن رَجُل . واشتقاقُه من التنمُّلِ لكثرةِ حركتِه . ومنه قيل للواشي : المُنْمِل ، يقال : أَنْمَلَ بين القومِ يُنْمِلُ أي : وشى ، ونَمَّ لكثرةِ تَرَدُّدِه وحركتِه في ذلك ، قال :

3545 ولَسْتُ بذي نَيْرَبٍ فيهمُ . . . ولا مُنْمِشٍ فيهمُ مُنْمِلُ

ويقال أيضاً : نَمَل يَنْمُلُ فهو نَمِل ونَمَّال . وتَنَمَّل القوم : تفرَّقوا للجمع تفرُّقَ النملِ . وفي المثل : "أجمعُ مِنْ نملة" . والنَّمْلَةُ أيضاً : فُرْجَةٌ تخرج في الجَنْب تشبيهاً بها في الهيئة ، والنَّمْلَة أيضاً : شَقٌّ في الحافِر ، ومنه : فَرَسٌ مَنْمولُ القوائم . والأَنْمُلَة طرفُ الإِصْبَعِ مِنْ ذلك لِدِقَّتِها وسُرْعَةِ حركتِها . والجمعُ : أَنامِل .

(145/576)

قوله : ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ هذه النملةُ هنا مؤنثةٌ حقيقيةٌ بدليلِ لَحاقِ علامةِ التأنيثِ فِعْلَها ؛ لأنَّ نملةَ يُطْلَقُ على الذَّكَرِ وعلى الأُنْثى ، فإذا أُريد تمييزُ ذلك قيل : نَمْلَةٌ ذَكَرٌ ونملةٌ أُنْثى نحو : حَمامةٌ ويَمامةٌ . وحكى الزمخشري عن أبي حنيفةَ رضي الله عنه . أنه وقف على قتادةَ وهو يقول : سَلُوني . فأَمَرَ مَنْ سأله عن نملةِ سليمان : هل كانت ذكراً أو أنثى ؟ فلم يُجب

. فقيل لأبي حنيفة في ذلك ؟ فقال : كانَتْ أنثى . واستدل بلَحاقِ العلامةِ . قال الزمخشري : " وذلك أنَّ النَّمْلَةَ مثلُ الحمامةِ والشاةِ في وقوعِهما على المذكَّرِ والمؤنثِ فيُمَيَّزُ بينهما بعلامةٍ نحو قولهم : حمامةٌ ذَكَرٌ وحمامَةٌ أُنْثى ، وهو وهي " انتهى .

إلاَّ أنَّ الشيخَ قد رَدَّ هذا فقال : " ولَحاقُ التاءِ في " قالَتْ " لا يَدُلُّ على أنَّ النملةَ مؤنثٌ ، بل يَصِحُّ أن يُقال في المذكر : " قالت نملة " ؛ لأنَّ " نملة " وإنْ كانَتْ بالتاء هو ممَّا لا يتميَّزُ فيه المذكرُ من المؤمث ، وما كان كذلك كالنَّمْلَةِ والقَمْلة مِمَّا بَيْنَه في الجمعِ وبين واحدِه تاءُ التأنيثِ من الحيوان ، فإنَّه يُخْبَرُ عنه إخبارُ المؤنثِ ، ولا يَدُلُّ كونُه يُخْبَرُ عنه إخبارُ المؤنثِ على أنه ذَكَرٌ أو أنثى ؛ لأن التاءَ دخلت فيه للفَرْقِ لا للدلالةِ على التأنيثِ الحقيقيِّ ، بل دالةٌ على الواحدِ من هذا الجنس " ، قال : " وكان قتادةُ بصيراً بالعربيةِ .

(146/576)

وكونُه أُفْحِمَ يَدُلُّ على معرفتِه باللسانِ ؛ إذْ عَلِم أنَّ النملةَ يُخبر عنها إخبارُ المؤنث ، وإنْ كانَتْ تنطلقُ على الأنثى والذكرِ إذْ لا يَتَمَيَّزُ فيه أحدُ هذين . ولحاقُ العلامةِ لا يَدُلُّ ، فلا يُعْلَمُ التذكيرُ والتأنيثُ إلاَّ بوحيٍ من اللهِ تعالى " قال : " وأمَّا استنباطُ تأنيثِه من كتابِ اللهِ ب " قالَتْ " ولو كان ذَكَراً لقيل : قال ، فكلامُ النحاةِ على خِلافه ، وأنَّه لا يُخْبر عنه ألاَّ إخبارُ

المؤنثِ سواءً كان ذكراً أم أنثى " ، قال : " وأمَّا تشبيهُ الزمخشري/ النملةَ بالحمامةِ والشاةِ ففيهما قَدْرٌ مشتركٌ يتميَّزُ فيهما المذكرُ من المؤنثِ فيمكن أَنْ يقول : حمامةٌ ذَكَرٌ وحمامةٌ أنثى فتمييزُه بالصفة ، وأمَّا تمييزُه ب هو وهي فإنه لا يجوزُ . لا تقول : هو الحمامةُ ولا هو الشاةُ ، وأمَّا النملةُ والقملةُ فلا يَتَمَيَّزُ فيه المذكرُ من المؤنثِ فلا يجوز في الإخبار إلاَّ التأنيثُ ، وحكمُه حكمُ المؤنثِ بالتاءِ من الحيوان نحو : المرأة ، أو غيرِ العاقل كالدابَّة ، إلاَّ إنْ وَقَعَ فَصْلٌ بين الفعلِ وبين ما أُسْنِدَ إليه من ذلك ، فيجوزُ أَنْ تَلحق العلامةُ وأن لا تَلْحَقَها على ما تقرَّر في علم العربية " انتهى .

(147/576)

أمَّا ما ذكره ففيه نظرٌ : من حيث إنَّ التأنيثَ : أمَّا لفظيٌّ أو معنويٌّ ، واللفظيُّ لا يُعتبر في لحاقِ العلامةِ البتة ، بدليلِ أنه لا يجوز : " قامَتْ ربعةُ " وأنت تعني رجلاً ؛ ولذلك لا يجوز : قامت طلحةُ ولا حمزةُ عَلَمَيْ مذكرٍ ، فَتَعَيَّنَ أن يكونَ اللَّحاقُ إنما هو للتأنيثِ المعنويِّ ، وإنما تعيَّن لفظُ التأنيثِ والتذكيرِ في بابِ العددِ على معنى خاصٍّ أيضاً : وهو أنَّا ننظر إلى ما عامَلَتِ العربُ ذلك اللفظَ به من تذكيرٍ أو تأنيثٍ ، من غيرِ نَظَرٍ إلى مدلولِه فهناك له هذا الاعتبارُ ، وتحقيقُه هنا يُخرِجُنا عن المقصودِ ، وإنما نَبَّهْتُك على القَدْرِ المحتاجِ إليه .

وأمَّا قولُه : " وأمَّا النملةُ والقَمْلةُ فلا يَتَمَيَّزُ " يعني : لا يُتَوَصَّلُ لمعرفةِ الذَّكرِ منهما ولا الأنثى بخلافِ الحمامةِ والشاةِ ؛ فإنَّ الاطلاعِ على ذلك ممكنٌ فهو أيضاً ممنوعٌ . قد يمكن الاطلاعُ على ذلك ، وإنَّ الاطلاع على ذكوريَّةِ الحمامةِ والشاةِ أسهلُ من الاطلاعِ على ذُكوريَّةِ النملةِ والقملةِ . ومَنْعُه أيضاً أن يقال : هو الشاةُ ، وهو الحمامة ، ممنوعٌ .

وقرأ الحسن وطلحة ومعتمر بن سليمان النَّمُل ونَمُلة بضم الميم وفتح النون بزنةِ رَجُل وسَمُرَة .

وسليمان التميمي بضمتين فيهما . وقد تقدَّم أن ذلك لغاتٌ في الواحدِ والجمعِ .

(148/576)

قوله : ﴿ لاَيَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه نهيٌ . والثاني : أنه جوابٌ للأمرِ ، وإذا كان نَهْياً ففيه وجهان ، أحدُهما : أنه نهيٌ مستأنَفٌ لا تَعَلُّقَ له بما قبله من حيث الإعرابُ ، وإنما هو نهيٌ للجنودِ في اللفظِ ، وفي المعنى للنَّمْلِ أي : لا تكونوا بحيث يَحْطِمونَكُمْ كقولِهم : " لا أُرَيَنَّك ههنا " . والثاني : أنه بدلٌ من جملةِ الأمرِ قبلَه ، وهي ادْخلوا . وقد تَعَرَّضَ الزمخشريُّ لذلك فقال : " فإنْ قلتَ : لا يَحْطِمَنَّكم ما هو ؟ قلت : يُحتمل أَنْ يكونَ جواباً للأمرِ ، وأَنْ يكونَ نهياً بدلاً من الأمرِ . والذي جَوَّزَ أَنْ يكونَ بدلاً أنه

في معنى : لا تكونوا حيث أنتم ، فيَحْطِمَنّكم ، على طريقةِ " لا أُرَيَنَّك ههنا " أرادَتْ : لا يَحْطِمنكم جنودُ سليمان ، فجاءت بما هو أبلغُ . ونحوُه " عَجِبْتُ من نفسي ومن إشْفاقِها " . قال الشيخ : أمَّا تخريجُه على أنه جوابٌ للأمرِ فلا يكون ذلك إلاَّ على قراءةِ الأعمشِ فإنه مجزومٌ ، مع أنه يُحْتمل أن يكونَ اشتئنافَ نهي " قلت : يعني أنَّ الأعمشَ قرأ " لا يَحْطِمْكم " بجزم الميمِ ، دونَ نونِ توكيدٍ .

قال : وأمَّا مع وجودِ نونِ التوكيد فلا يجوزُ ذلك ، إلاَّ إنْ كان في شعرٍ ، وإذا لم يَجُزْ ذلك في جوابِ الشرطِ إلاَّ في الشعر فأحرى أَنْ لا يجوزَ في جوابِ الأمرِ إلاَّ في الشعرِ . وكونُه جوابُ الأمرِ متنازعٌ فيه على ما قُرِّرَ في علمِ النحوِ . ومثالُ مجيءِ النونِ في جوابِ الشرطِ قولُ الشاعر :

3546 نَبَتَّمْ نباتَ الخَيْزُرانةِ في الثَّرَى . . . حديثاً متى يأتِك الخيرُ يَنْفَعا

وقول الآخر :

3547 فمهما تَشَأْ منه فَزارةُ تُعطِكُمْ . . . ومهما تَشَأْ منه فَزارةُ تَمْنعا

قال سيبويه : " وهو قليلٌ في الشعرِ شَبَّهوه بالنهيِ حيث كان مجزوماً غيرَ واجب " قال : " وأما تخريجُه على البدلِ فلا يجوزُ لأنَّ مدلولَ " لا يَحْطِمَنّكم " مخالِفٌ لمدلولِ " ادْخُلوا " .

وأمَّا قولُه لأنَّه بمعنى : لا تكونوا حيث أنتم فَيَحْطِمَنّكم فتفسيرُ معنى لا إعراب/ والبدلُ من صفةِ الألفاظِ . نعم لو كان اللفظُ القرآنيُّ : لا تكونوا بحيث لا يَحْطِمَنّكم لتُخُيِّلَ فيه البدلُ ؛ لأنَّ الأمرَ بدخولِ المساكنِ نهيٌ عن كونِهم بظاهرِ الأرضِ . وأمَّا قوله : " إنه أراد لا يحْطِمَنّكم جنودُ سليمان إلى آخرِه " فسوّغُ زيادةَ الأسماءِ وهي لا تجوزُ ، بل الظاهرُ إسنادُ الحكمِ إلى سليمانَ وإلى جنودِه . وهو على حَذْفِ مضافٍ أي : خيلُ سليمانَ وجنودُه ، أو نحو ذلك ، مما يَصِحُّ تقديره " . انتهى .

أمَّا مَنْعُه كونَه جوابَ الأمرِ مِنْ أجلِ النون فقد سبقه إليه أبو البقاء فقال : " وهو ضعيفٌ ؛ لأنَّ جوابَ الشرطِ لا يؤكَّدُ بالنونِ في الاختيار " .

وأمَّا مَنْعُهُ البدلَ بما ذَكَر فلا نُسَلِّم تغايُرَ المدلولِ بالنسبةِ لما يَؤُول إليه المعنى . وأمَّا قوله : " فيُسَوِّغُ زيادةَ الأسماءِ " لم يُسَوِّغ ذلك ، وإنما فَسَّر المعنى . وعلى تقدير ذلك فقد قيل به .

وجاء الخطابُ في قولها : " ادْخُلوا " كخطابِ العقلاء لَمَّا عُوْمِلوا معاملتَهم .

(150/576)

وقرأ أُبَيٌّ " ادْخُلْنَ " ، " مَساكِنَكُنَّ " ، " لا يَحْطِمَنْكُنَّ " بالنونِ الخفيفةِ جاءَ به على الأصل . وقرأ شهر بن حوشب " مَسْكَنَكُمْ " بالإفراد . وقرأ حسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى الهمداني بضمِّ الياءِ ، وفتحِ الحاءِ ، وتشديدِ الطاءِ والنونِ ، مضارعَ حَطَّمه بالتشديد . وعن الحسن أيضاً قراءاتان : فتحُ الياءُ وتشديدُ الطاءِ مع سكونِ الحاءِ وكسرِها . والأصل : لا يَحْتَطِمَنَّكم فأُدْغَم . وإسكانُ الحاءِ مُشْكِلٌ تقدَّم نظيرُه في " لا يَهِدِّي " ونحوِه . وقرأ ابن أبي إسحاقَ ويعقوبُ وأبو عمرو في روايةٍ بسكونِ نونِ التوكيدِ .

قوله : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ جملة حالية . والحَطْمُ : الكَسْر . يقال منه : حَطَمْتُه فحَطِمَ ثم اسْتُعمِل لكلِّ كَسْرٍ مُتَناهٍ . والحُطامُ : ما تكسَّر يُبْساً ، وغَلَبَ على الأشياءِ التافهةِ . والحُطَمُ : السائق السريع كأنه يَحْطِمُ الإبلَ قال :

3548 قد لَفَّها الليلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ . . . ليس براعي إبلٍ ولا غَنَمْ

ولا بجَزَّارٍ على ظهرِ وَضَمْ . . . والحُطَمَةُ : من دَرَكاتِ النار . ورجلٌ حُطَمة : للأكولِ . تشبيهاً لبطنه بالنارِ كقوله :

3549 كأنَّما في جَوْفِه تَنُّورُ . . .

فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ

قوله : ﴿ ضَاحِكاً ﴾ : قيل : هي حالٌ مؤكدةٌ ؛ لأنَّها مفهومةٌ مِنْ تَبَسَّمَ . وقيل : بل هي

حالٌ مقدرةٌ فإنَّ التبسُّمَ ابتداءُ الضحكِ . وقيل : لَمَّا كان التبسُّمُ قد يكون للغَضَبِ ، ومنه : تَبَسَّم تَبَسُّمَ الغَضْبانِ ، أتى بضاحكاً مبيّناً له . قال عنترة :

3550 لَمَّا رآني قد قَصَدْتُ أُرِيْدُه . . . أبدى نواجِذَه لِغَيْرِ تَبَسُّمِ

وتَبَسَّمَ تفعَّل ، بمعنى بَسَمَ المجرد . قال :

(151/576)

3551 وتَبْسِمُ عن ألمى كأن مُنَوَّراً . . . تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ له نَدِي

وقال بعض المُوَلَّدين :

3552 كأَنَّما تَبْسِمُ عن لؤلؤٍ . . . مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أَقَاحِ

وقرأ ابن السمفيع " ضَحِكاً " مقصوراً . وفيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمعنى تَبَسَّم لأنه بمعناه . والثاني : أنه في موضعِ الحالِ فهو في المعنى كالذي قبله . الثالث : أنه اسمُ فاعل كفَرِح ؛ وذلك لأنَّ فِعْلَه على فَعِل بكسر العين وهو لازم فهو كفَرِحٍ وبَطِرٍ .

قوله : ﴿ أَنْ أَشْكُرَ ﴾ مفعولٌ ثانٍ لأَوْزِعْني لأنَّ معناه أَلْهِمْني . وقيل : معناه اجْعَلني أَزَعُ شكرَ نعمتك أي : أكُفُّه وأمنعُه حتى لا ينفلتَ مني ، فلا أزال شاكراً . وتفسير الزَّجاج له

ب " امْنَعْني أن أكفَر نعمتَك " من بابِ تفسيرِ المعنى باللازم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 581. 591 ﴾

(152/576)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى نطق)

النُّطْقُ فى العُرْف : الأَصواتُ المُقطَّعة التى يُظهرها اللسانُ وتَعيها الآذان .

ولا يكاد يُقال إلاَّ للإنسان ، وأَمّا لغيره فعلى التبعيَّة ، كقولهم : مالٌ صامِتٌ وناطقٌ ، فإِنّهم يريدون بالناطق مالَهُ صَوْت ، وبالصّامت : ما لا صَوْتَ له .

وقد نَطَقَ الرْجل يَنْطِقُ نُطْقاً ومَنْطِقاً ، زاد ابن عَبّاد نُطُوقاً :

وقوله تعالى : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ قال ابنُ عرفة : إنّما يقال لغير المخاطبين من الحيوان صَوْتٌ ، والنُّطق إنما يكون لمن عَبَّر عن مَعْنَىً ، فلَّما فَهَّم الله سليمانَ صلوات الله عليه أَصوات الطَّير سَمّاه مَنْطِقاً لأَنّه عبّر به عن معنىً فَهِمَه ، فهو بالنسبة إليه ناطق وإن كان صامتا ، وبالنَّسبة إلى من لا يَفْهَم عنه صامتٌ وإن كان ناطقاً .

قال : فأَمّا قول جرير :

لقد نَطَقَ اليَومَ الحَمامُ لِتَطْرَبَا

فإِن الحمام لا نطق له وإِنّما هو صوتٌ ، لكن استجاز الشاعرُ ذلك لأَن عنده أَنَّ الحمام إِنّما صَوَت شوقاً إِلى أُلاَّفِهِ وبكَى ، فكأَنّه ناطق إِذ عرف ما أَراد .

والمنطقيُّون يسمّون القوّة الَّتى منها النُطق نُطْقاً ، وإِيَّاها عَنَوْا حَيْثُ حَدُّوا الإِنسان بالحَيّ الناطق المائت ، فالنُّطْق لفظٌ مُشْتَرَك عندهم بين القوّة الإِنسانية التى [يكون بها] الكلام ، وبين الكلام المَبْرَز بالصوت .

وقد يُقال الناطقُ لما يَدُلّ على شىء ، وعلى هذا قيل لحكيم : ما الصّامت الناطِق ؟ فقال : الدّلائل المُخْبِرَة ، والعِبَر الواعِظَة .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ﴾ إِشارة إِلى أَنّهم ليسوا من [جنس] الناطقين ذَوى العقول .

وقوله : ﴿ قَالُواْ أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فقد قيل : أَراد الاعتبارَ ، ومعلوم أَنَّ الأَشياءَ كلَّها ليست تَنْطِق إِلاَّ من حيث العِبْرة .

(153/576)

وقوله تعالى : ﴿ هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ فإنّ الكتاب ناطقٌ ، لكنْ نُطْقُه تُدْرِكه العين ، كما أَنَّ الكلامَ كتابٌ لكن يُدْرَك بالسَمْع .

وحقيقة النُّطْق هو اللَّفْظُ الذى هو كالنِّطاق للمعنىَ فى ضَمِّه وحَصْره .

والمِنْطَقُ والمِنْطَقَةُ : ما يُشَدُّ به الوَسَط ويُنْتَطَق به .

وقول علىّ رضى الله عنه : "مَنْ يَطُلْ أَيْرُ يَنْتطقْ به" ضرب طُولَه مثلاً لكَثْرة الوَلَد .

والانْتطاق مثلاً للتّقَوّى والاعْتِضاد ، والمعنى : من كَثُرَتْ إخوته كان منهم فى عِزٍّ ومَنعَة .

وقول خِداش بن زُهَيْر :

*ولم يَبْرَح طِوالَ الدّهر رَهْطِى * بحَمْدِ الله مُنْتَطِقين جُودا *

يريد مُؤْتَزِرين بالجُود مُنْتَطقين به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 80 . 81 ﴾

(154/576)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾

يقتضي حكمُ هذا الخطاب أنه أفْرَدهُما بجنسٍ من العلم لم يشارِكُهما فيه أحدٌ ؛ لأنه ذَكَرَه على وجه تخصيصهما به ، ولا شكّ أنه كان من العلوم الدينية ؛ ويحتمل أنه كان بزيادة بيانٍ لهما أغناهما عن إقامة البرهان عليه وتصحيحه بالاستدلال الذي هو مُعَرَّضٌ للشك فيه .

ويحتمل أن يكون علمهما بأحوال أمتهما على وجه الإشراف على ما كانوا يستسرون به ، فيكون إخبارُهما عن ذلك معجزةً لهما .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ .

ويحتمل أن يكون علمهما بالله على وجه زيادةٍ لهما في البيان .

وفي الآية دليل على أن التفضيل الذي يحصل بالعلم لا يحصل بغيره من الصفات ، فأخبر بأنهما شَكَرَا الله على عظيم ما أنعم به عليهما .

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)

ورث أباه في النبوة ، وورثه في أن أقامه مقامه .

قوله : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ : وكان ذلك معجزةً له ، أظهرها لقومه ليعلموا بها صِدْقَ إخباره عن نبوته . ومَنْ كان صاحبَ بصيرةٍ وحضور قلب بالله يشهد الأشياءَ كلّها بالله ومن الله . ويكون مُكَاشَفاً بها من حيث التفهيم ، فكأنه يسمع من كل شيءٍ تعريفاتِ الحقِّ – سبحانه – للعبد مما لا نهاية له ، وذلك موجودٌ فيهم مَحْكِيٌّ عنهم . وكما أنَّ ضربَ

الطّبْلِ مثلاً دليلٌ يُعْرَفُ – بالمواضعة – عند سماعه وقتُ الرحيلِ والنزولِ فالحقُّ – سبحانه – يخصُّ أهلَ الحضورِ بفنون التعريفاتِ ، من سماعِ الأصواتِ وشهودِ أحوال المرئيات في اختلافها ، كما قيل :

إذا المرءُ كانت له فِكرةٌ . . . ففي كل شيءٍ له عِبْرَةٌ

(155/576)

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

سخَّر اللَّهُ لسليمان – عليه السلام – الجنَّ والطيرَ ، فكان الجنُّ مكلَّفين ، والطيرُ كانت مُسَخَّرةً إلا أنه كان عليها شَرْعٌ ، وكذلك الحيوانات التي كانت في وقته ، حتى النمل كان سليمان يعرف خطابَهم ينفذ عليهم حُكْمه .

حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18)

قيل إن سليمان استحضر أميرَ النمل الذي قال لقومه : ﴿ ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ ﴾ وقال له : أمَا عَلِمْتَ أَنِّي معصومٌ ، وأَنَّي لن أُمَكِّنْ عسكري مِنْ أَنْ يطؤوكم ؟ فأخبره أميرُ النمل أنّه لا يعلم ذلك ؛ لأنه ليس بواجبٍ أن يكون النملُ عالماً بعصمة سليمان . ولو قال : لعلكم أبيح

لكم ذلك . . لكان هذا أيضاً جائزاً .

وقيل إن ذلك النمل قال لسليمان : إني أَحْمِلُ قومي على الزهد في الدنيا ، وخَشِيتُ إنْ يَرَوْكُم في مُلْكِكم أَنْ يرغبوا فيها ، فأَمَرْتُهم بدخول مساكنهم لئلا يتشوَّشَ عليهم زُهْدُهُم . ولَئِنْ صَحَّ هذا ففيه دليلٌ على وجوب سياسة الكبارِ لِمَنْ هو في رعيتهم . وفي الآية دليلٌ على حَسْنِ الاحترازِ مِمّا يُخْشَى وقوعُه ، وأَنَّ ذلك مما تقتضيه عادةُ النّفْسِ وما فُطِرُوا عليه من التمييز .

ويقال إن ذلك النمل قال لسليمان : ما الذي أعطاك اللَّهُ من الكرامة ؟

فقال : سَخّرَ لي الريحَ .

فقال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإشارة فيه أنه ليس بيدك مما أُعْطِيتَ إلا الريح ؟

وهكذا بيَّنَه الكبيرُ على لسان الصغير ! .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا ﴾ .

التبسُّمُ من الملوكِ يندر لمراعاتهم حُكْمَ السياسة ، وذلك يدلُّ على رضاهم واستحسانهم لما منه يحصل التبسُّم ، فلقد استحسن سليمان من كبير النمل حُسْنَ سياسته لرعيته .

(156/576)

وفي القصة أنه استعرض جُنْدَه ليراهم كم هم ، فَعَرَضَهم عليه ، وكانوا يأتون فوجاً فوجاً ، حتى مضى شَهْرٌ وسليمان واقفٌ ينظر إليهم مُعْتَبِراً فلم ينتهوا ، ومَرَّ سليمانُ عليه السلام .

وفي القصة : أن عظيم النمل كان مثل البغل في عِظَمِ الجثة ، وله خرطوم . والله أعلم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ﴾ .

في ذلك دليلٌ على أن نَظَرَه إليهم كان نَظَرَ اعتبارٍ ، وأنه رأى تعريفَ الله إياه ذلك ، وتنبيهُه عليه من جملةِ نِعَمِه التي يجب عليها الشكرُ .

وفي قوله : ﴿ وَعَلَى وَالِدَىَّ ﴾ دليلٌ على أَنَّ شُكْرَ الشاكر لله لا يختص بما أَنْعَمَ به عليه على الخصوص ، بل يجب على العبد أن يشكر الله على ما خَصَّ وَعَمَّ من نِعَمِه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

سأل حُسْنَ العاقبة . لأنَّ الصالحَ من عباده مَنْ هو مختوم له بالسعادة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 28 . 31 ﴾

(157/576)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/577)

الجزء السابع والسبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 20 ﴾ من سورة النمل

وحتى الآية ﴿ 26 ﴾ من نفس السورة

(4/577)

قوله تعالى ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فوصل إلى المنزل الذي قصده فنزله وتفقد أحوال جنوده كما يقتضيه

العناية بأمور الملك ، أي تجنب فقدهم بأن تعرف من هو منهم موجود ومن هو منهم مفقود ، الذي يلزمه أن لا يغيب أحد منهم : ﴿ وتفقد الطير ﴾ إذ كانت أحد أركان جنده ففقد الهدهد ﴿ فقال ما لي ﴾ أي أيّ شيء حصل لي حال كوني ﴿ لا أرى الهدهد ﴾ أي أهو حاضر ، وستره عني ساتر ، وقوله : ﴿ أم كان من الغائبين ﴾ كما أنه يدل على ما قدرته يدل على أنه فقد جماعة من الجند ، فتحقق غيبتهم وشك في غيبته ، وذكره له دونهم يدل على عظيم منزلة الهدهد فيما له عنده من النفع ، وأن غيبة غيره كانت بأمره عليه السلام .

(5/577)

ثم قال على سبيل الاستئناف إقامة لسياسة الملك ما يدل أيضاً على عظمته ، قالوا : إنه يرى الماء في الأرض كما يرى الإنسان الماء من داخل الزجاج فينقر الأرض فتأتي الشياطين فتستخرجه : ﴿ لأعذبنه ﴾ أي بسبب غيبته فيما لم آذن فيه ﴿ عذاباً شديداً ﴾ أي مع إبقاء روحه تأديباً له وردعاً لأمثاله ﴿ أو لأذبحنه ﴾ أي تأديباً لغيره ﴿ أو ليأتيني ﴾ أي ليكونن أحد هذه الثلاثة الأشياء ، أو تكون ﴿ أو ﴾ الثانية بمعنى إلا أن فيكون المعنى : ليكونن أحد الأمرين : التعذيب أو الذبح : إلا أن يأتيني ﴿ بسلطان مبين ﴾ أي حجة واضحة في عذره ، فكأنه قال : والله ليقيمن عذره أو لأفعلن معه أحد الأمرين

﴿ فمكث ﴾ أي فترتب على ذلك أنه مكث بعد الحلف بالتهديد زماناً قريباً ﴿ غير بعيد ﴾ من زمان التهديد ، وأتى خوفاً من هيبة سليمان عليه السلام ، وقياماً بما يجب عليه من الخدمة ، قرأه عاصم وروح عن يعقوب بفتح الكاف على الأغلب في الأفعال الماضية ، وضمه الجماعة إشارة إلى شدة الغيبة عن سليمان عليه السلام ليوافق إفهام حركة الكلمة ما أفهمه تركيب الكلام ﴿ فقال ﴾ عقب إتيانه مفخماً للشأن ومعظماً لرتبة العلم ودافعاً لما علم أنه أضمر من عقوبته : ﴿ أحطت ﴾ أي علماً ﴿ بما لم تحط به ﴾ أي أنت من اتساع علمك وامتداد ملكك ، والإحاطة : العلم بالشيء من جميع جهاته ، وفي هذه المكافحة التنبيه على أن أضعف الخلق قد يؤتي ما لا يصل إليه أقواهم لتتحاقر إلى العلماء علومهم ويردوا العلم في كل شيء إلى الله ، وفيه إبطال لقول الرافضة : إن الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه من هو أعلم منه .

(6/577)

ولما أبهمه تشويقاً ، وأخذ بمجامع القلب إلى تعرفه ، ثنى بمدح الخبر مجلياً بعض إبهامه ، هزاً للنفس إلى طلب إتمامه ، فقال : ﴿ وجئتك ﴾ أي الآن ﴿ من سبإ ﴾ قيل : إنه اسم رجل صار علماً لقبيلة ، وقيل : أرض في بلاد اليمن ، وحكمة تسكين قنبل له بنية الوقف

الإشارة إلى تحقير أمرهم بالنسبة إلى نبي الله سليمان عليه السلام بأنهم ليست لهم معه حركة أصلاً على ما هم فيه من الفخامة والعز والبأس الشديد ﴿ بنبإ ﴾ أي خبر عظيم ﴿ يقين ﴾ وهو من أبدع الكلام موازنة في اللفظ ومجانسة في الخط مع ما له من الانطباع والرونق ، فكأنه قيل : ما هو ؟ فقال : ﴿ إني وجدت امرأة ﴾ وهي بلقيس بنت شراحيل ﴿ تملكهم ﴾ أي أهل سبأ .

ولما كانت قد أوتيت من كل ما يحتاج إليه الملوك أمراً كبيراً قال : ﴿ وأوتيت ﴾ بنى الفعل للمفعول إقراراً بأنها مع ملكها مربوبة ﴿ من كل شيء ﴾ تهويلاً لما رأى من أمرها .

ولما كان عرشها – أي السرير الذي تجلس عليه للحكم – زائداً في العظمة ، خصه بقوله : ﴿ ولها عرش ﴾ أي سرير تجلس عليه للحكم ﴿ عظيم ﴾ أي لم أر لأحد مثله .

ولما كان في الخدمة أقرب أهل ذلك الزمان إلى الله فحصل له من النورانية ما هاله لأجله إعراضهم عن الله ، قال مستأنفاً تعجيباً : ﴿ وجدتها وقومها ﴾ أي كلهم على ضلال كبير ، وذلك أنهم ﴿ يسجدون للشمس ﴾ مبتدئين ذلك ﴿ من دون الله ﴾ أي من أدنى رتبة من رتب الملك الأعظم الذي لا مثل له ، وهي الرتبة الأفعال لأنها مصنوع من مصنوعاته تعالى سواء كان ذلك مع الاستقلال أو الشرك ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ أي هذه القبيحة حتى صاروا يظنونها حسنة .

ولما تسبب عن ذلك أنه أعماهم عن طريق الحق قال : ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ أي

الذي لا سبيل إلى الله غيره ، وهو الذي بعث به أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام .

ولما تسبب عن ذلك ضلالهم ، قال : ﴿ فهم ﴾ أي بحيث ﴿ لا يهتدون ﴾ أي لا يوجد لهم هدى ، بل هم في ضلال صرف ، وعمى محض .

(7/577)

ولما كان هذا الضلال عجباً في نفسه فضلاً عن أن يكون من قوم يجمعهم جامع ملك مبناه السياسة التي محطها العقل الذي هو نور الهداية ، ودواء الغواية ، علله بانتفاء أعظم مقرب إلى الله : السجود ، تعظيماً له وتنويهاً به فقال : ﴿ ألا ﴾ أي لئن لا ﴿ يسجدوا ﴾ أي حصل لهم هذا العمى العظيم الذي استولى به عليهم الشيطان لانتفاء سجودهم ، ويجوز أن يتعلق بالتزيين ، أي زين لهم لئلا يسجدوا ﴿ لله ﴾ أي يعبدوا الذي له الكمال كله بالسجود الذي هو محل الإنس ، ومحط القرب ، ودارة المناجاة ، وآية المعافاة ، فإنهم لو سجدوا له سبحانه لاهتدوا ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ففات الشيطان ما يقصده منهم من الضلال ، وعلى قراءة الكسائي وأبي جعفر بالتخفيف وإشباع فتح الياء يكون استئنافاً ، بدىء بأداة الاستفتاح تنبيهاً لهم على عظم المقام لئلا يفوت الوعظ أحداً منهم بمصادفته غافلاً ، ثم نادى لمثل ذلك وحذف المنادى إيذاناً بالاكتفاء بالإشارة لضيق

الحال ، خوفاً من المبادرة بالنكال عن استيفاء العبارة التي كان حقها : : ألا يا هؤلاء اسجدوا لله ، أي لتخلصوا من أسر الشيطان ، فإن السجود مرضاة للرحمن ، ومجلاة للعرفان ، ومجناة لتمام الهدى والإيمان .

ولما كانت القصة في بيان علمه سبحانه السابق لعلم الخلائق المستلزم للحكمة ، وصفه بما يقتضي ذلك فقال : ﴿ الذي يخرج الخبء ﴾ وهو الشيء المخبوء بالفعل المخفي في غيره ، وهو ما وجد وغيب عن الخلق كالماء الذي في بطن الأرض ، أو بالقوة وهو ما لم يوجد أصلاً ، وخصه بقوله : ﴿ في السماوات والأرض ﴾ لأن ذلك منتهى مشاهدتنا ، فننظر ما يتكون فيهما بعد أن لم يكن من سحاب ومطر ونبات وتوابع ذلك من الرعد والبرق وغيرهما ، وما يشرق من الكواكب ويغرب - إلى غير ذلك من الرياح ، والبرد والحر ، الحركة والسكون ، والنطق والسكوت ، وما لا يحصيه إلا الله تعالى ، والمعنى أنه يخرج ما هو في عالم الغيب فيجعله في عالم الشهادة .

(8/577)

ولما كان ذلك قد يخص بما لم يضمر في القلوب كالماء الذي كان يخرجه الهدهد وكان ذلك قد يعرف بأمارات ، وكان ما تضمره القلوب أخفى ، قال : ﴿ ويعلم ما تخفون ﴾ ولما كان

هذا مستزماً لعلم الجهر ، وكان التصريح ما ليس لغيره من المكنة والطمأنينة ، مع أن الإعلان ربما كان فيه من اللغط واختلاط الأصوات ما يمنع المستمع من العلم ، قال : ﴿ وما تعلنون ﴾ أي يظهرون .

ولما كان هذا الوصف موجباً لأن يعبد سبحانه وحده ، صرح بما يقتضيه في قوله : ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ؛ ولما كان هذا إشارة إلى أنه لا سمي له ، أتبعه التصريح بأنه لا كفوء له فقال : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ولما كان وصف عرشها بعظم ما ، قال : ﴿ رب ﴾ أي مبدع ومدبر ﴿ العرش العظيم ﴾ أي الكامل في العظم الذي لا عظيم يدانيه ، وهو محتو على جميع الأكوان ، وقد ثبت أن صاحبه أعظم منه ومن كل عظيم بآية الكرسي وبغيرها ، فقطع ذلك لسان التعنت عند ذكره مع مزيد اقتضاء السياق له لأنه للانفراد بالإلهية المقتضية للقهر والكبر بخلاف آية المؤمنون ، وهذه آية سجدة على كل القراءتين ، لأن مواضع السجود إما مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها ، كقراءة التشديد ، أو أمر بالسجود كقراءة التخفيف ، والكل ناظر إلى العظمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 419.422 ﴾

(9/577)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير أوهم ذلك أنه إنما تفقده لأمر يختص به ذلك الطير ، واختلفوا فيما لأجله تفقده على وجوه : أحدها : قول وهب أنه أخل بالنوبة التي كان ينوبها فلذلك تفقده وثانيها : أنه تفقده لأن مقاييس الماء كانت إليه ، وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده ، فلحاجة سليمان إلى ذلك طلبه وتفقده وثالثها : أنه كان يظله من الشمس ، فلما فقد ذلك تفقده .

أما قوله : ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين ﴾ فأم هي المنقطعة نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال ما لي لا أراه ، على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : أهو غائب ؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ، ومثله قولهم : إنها لإبل أم شاء .

أما قوله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فهذا لا يجوز أن يقوله إلا فيمن هو مكلف أو فيمن قارب العقل فيصلح لأن يؤدب ، ثم اختلفوا في قوله : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ ﴾ فقال ابن عباس إنه نتف الريش والإلقاء في الشمس ، وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس ، وقيل أن يلقى للنمل فتأكله ، وقيل إيداعه القفص ، وقيل التفريق بينه

وبين إلفه ، وقيل لألزمنه صحبة الأضداد ، وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد ، وقيل لألزمنه خدمة أقرانه .

أما قوله : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ فقد قرىء بفتح الكاف وضمها ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ (غير زمان بعيد) كقولك عن قريب ، ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخراً له .

(10/577)

أما قوله : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ ففيه تنبيه لسليمان على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به ، فيكون ذلك لطفاً في ترك الإعجاب والإحاطة بالشيء علماً أن يعلم من جميع جهاته .

أما قوله : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ فاعلم أن سبأ قرىء بالصرف ومنعه ، وقد روي بسكون الباء ، وعن ابن كثير في رواية سبا بالألف كقولهم ذهبوا أيدي سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فمن جعله اسماً للقبيلة لم يصرف ، ومن جعله اسماً للحي أو للأب الأكبر صرف ، ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، والنبأ الخبر الذي له شأن .

وقوله : ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ وشرط حسنه صحة المعنى ، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن لفظاً ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان (بنبأ) بخبر لكان المعنى صحيحاً ، ولكن لفظ النبأ أولى لما فيه من الزيادة التي يطابقها وصف الحال .

أما قوله : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ ﴾ فالمرأة بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها ملك أرض اليمن وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس ، والضمير في تملكهم راجع إلى سبأ ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر ، وإن أريدت المدين فمعناه تملك أهلها .

وأما قوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ففيه سؤال وهو أنه كيف قال : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مع قول سليمان ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 16] فكأن الهدهد سوى بينهما جوابه : أن قول سليمان عليه السلام يرجع إلى ما أوتي من النبوة والحكمة ، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا ، وأما قول الهدهد فلم يكن إلا إلى ما يتعلق بالدنيا .

(11/577)

وأما قوله : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ ففيه سؤال ، وهو أنه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان ؟ وأيضاً فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى

في الوصف بالعظيم ؟ والجواب عن الأول : يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش ، ويجوز أن لا يكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الأمراء شيء لا يكون مثله عند السلطان ، وعن الثاني : أن وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض ، واعلم أن ههنا بحثين :

(12/577)

البحث الأول : أن الملاحدة طعنت في هذه القصة من وجوه : أحدها : أن هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بكلام لا يصدر ذلك الكلام إلا من العقلاء وذلك يجر إلى السفسطة ، فإنا لو جوزنا ذلك لما أمنا في النملة التي نشاهدها في زماننا هذا ، أن تكون أعلم بالهندسة من إقليدس ، وبالنحو من سيبويه ، وكذا القول في القملة والصئبان ، ويجوز أن يكون فيهم الأنبياء والتكاليف والمعجزات ، ومعلوم أن من جوز ذلك كان إلى الجنون أقرب وثانيها : أن سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد في تلك اللحظة اللطيفة من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه ؟ وثالثها : كيف خفي على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال إن الجن والإنس كانوا في طاعة سليمان ،

وإنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ، ومع أنه يقال إنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام ورابعها : من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟ والجواب عن الأول : أن ذلك الاحتمال قائم في أول العقل ، وإنما يدفع ذلك بالإجماع ، وعن البواقي أن الإيمان بافتقار العالم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك .

(13/577)

البحث الثاني : قالت المعتزلة قوله : ﴿ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ يدل على أن فعل العبد من جهته لأنه تعالى أضاف ذلك إلى الشيطان بعد إضافته إليهم ولأنه أورده مورد الذم ولأنه بين أنهم لا يهتدون والجواب من وجوه : أحدها : أن هذا قول الهدهد فلا يكون حجة وثانيها : أنه متروك الظاهر ، فإنه قال : ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل إذ لو كان مصدوداً ممنوعاً لسقط عنه التكليف ، فلم يبق ههنا إلا التمسك بفصل المدح والذم والجواب : قد تقدم عنه مراراً فلا فائدة في الإعادة ، والله أعلم .

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾ قراءات أحدها قراءة من قرأ بالتخفيف (ألا) للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف ، كما حذفه من قال :

ألا يا اسلمى يا دار ميَّ على البلى . . (ولا زال منهلاً بجرعائك القطر)

وثانيها : بالتشديد أراد فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا ، فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ، ويكون المعنى فهم لا يهتدون (إلا) أن يسجدوا وثالثها : وهي حرف عبد الله و (هي) قراءة الأعمش هلا بقلب الهمزة هاء ، وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب ورابعها : قراءة أبي ﴿ ألا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الذى يُخْرِجُ الخبء (فِى السموات) والأرض وَيَعْلَمَ سِرَّكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

المسألة الثانية :

قال أهل التحقيق قوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾ يجب أن يكون بمعنى الأمر لأنه لو كان بمعنى المنع من السجدة لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون السجود له وهو كونه قادراً على إخراج الخبء عالماً بالأسرار معنى .

المسألة الثالثة :

الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم ، أما القدرة فقوله : ﴿ يُخْرِجُ الخبء فِى السموات والأرض ﴾ وسمي المخبوء بالمصدر ، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأموال وإخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات .

وأما العلم فقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا : الإله يجب أن يكون قادراً على إخراج الخبء وعالماً بالخفيات ، والشمس ليست كذلك فهي لا تكون إلهاً وإذا لم تكن إلهاً لم يجز السجود لها ، أما أنه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادراً عالماً على الوجه المذكور ، فلما أنه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض ، وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه ، وكل ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات ، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على إخراج الخبء عالمة بالخفيات ، فإذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار ، فرجع حاصل الدلالة إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [

مريم : 42] وفي قوله : ﴿ للَّهِ الذى يُخْرِجُ الخبء فِى السموات والأرض ﴾ وجه آخر وهو أن هذا إشارة إلى ما استدل به إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ رَّبِّيَ الذى يُحْىِ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] وفي قوله : ﴿ إِنَّ الله يَأْتِى بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب ﴾ [البقرة : 258] وذلك لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق بعد أفولها في المغرب فهذا هو إخراج الخبء في السموات وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام :

(15/577)

﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [الأنعام : 76] ومن قوله : ﴿ فَإِنَّ الله يَأْتِى بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب ﴾ ومن قوله موسى عليه السلام : ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ [الشعراء : 28] وحاصله يرجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها أولى ، وأما إخراج الخبء من الأرض فهو يتناول إخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه ، فإن قيل إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلالة الأنفس على دلالة الآفاق فإن إبراهيم قال : ﴿ رَّبِّيَ الذى يُحْىِ وَيُمِيتُ ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِنَّ الله يَأْتِى بالشمس مِنَ المشرق ﴾ وموسى

عليه السلام قال : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : 26] ثم قال : ﴿ رَّبُّ المشرق والمغرب ﴾ فلم كان الأمر ههنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الأرض ؟ جوابه : أن إبراهيم وموسى عليهما السلام ناظراً مع من ادعى إلهية البشر ، فلا جرم ابتدأ بإبطال إلهية البشر ثم انتقلا إلى إبطال إلهية السموات ، وههنا المناظرة مع من ادعى إلهية الشمس لقوله : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله ﴾ فلا جرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالأرضيات .

أما قوله : ﴿ الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ فالمراد منه أنه سبحانه لما بين افتقار السموات والأرض وما بينهما إلى المدبر ذكر بعد ذلك أن ما هو أعظم الأجسام فهي مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على أنه سبحانه هو المنتهى في القدرة والربوبية إلى ما لا يزيد عليه ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

قيل من ﴿ أَحَطتُ ﴾ إلى ﴿ العظيم ﴾ كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة .

المسألة الخامسة :

الحق أن سجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً وهو قول الشافعي وأبي حنيفة رحمة الله عليهما لأنهم أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة ، وهذا واحد منها ولأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك فثبت أن الذي ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت إليه .

المسألة السادسة :

يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين ؟ جوابه : نعم إذا خفف وقف على ﴿ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 24] ثم ابتدأ بألا يسجدوا وإن شاء وقف على ألا يا ثم ابتدأ اسجدوا وإذا شدد لم يقف إلا على (العرش العظيم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 162.166 ﴾

(17/577)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنْ الْغَائِبِينَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ تَفَقُّدِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الطَّيْرَ كَانَتْ تُظِلُّ سُلَيْمَانَ مِنْ الشَّمْسِ حَتَّى تَصِيرَ عَلَيْهِ صَافَّاتٍ ، كَالْغَمَامَةِ ، فَطَارَ الْهُدْهُدُ عَنْ مَوْضِعِهِ ، فَأَصَابَتْ الشَّمْسُ سُلَيْمَانَ ، فَتَفَقَّدَهُ حِينَئِذٍ .

الثَّانِي : أَنَّ الْهُدْهُدَ كَانَ يَرَى تَحْتَ الْأَرْضِ الْمَاءَ ، فَكَانَ يَنْزِلُ بِجَيْشِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْهُدْهُدِ : انْظُرْ بُعْدَ الْمَاءِ مِنْ قُرْبِهِ ، فَيُشِيرُ لَهُ إلَى بِقْعَةٍ ، فَيَأْمُرُ الْجِنَّ فَتَسْلُخُ الْأَرْضَ سَلْخَ الْأَدِيمِ ، حَتَّى تَبْلُغَ الْمَاءَ ، فَيَسْتَقِي وَيَسْقِي .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ سُلَيْمَانُ : مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ .

وَلَمْ يَقُلْ : مَا لِلْهُدْهُدِ لَا أَرَاهُ ، قَالَ لَنَا أَبُو سَعِيدٍ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ الشَّهِيدُ : قَالَ لَنَا جَمَالُ الْإِسْلَامِ وَشَيْخُ الصُّوفِيَّةِ أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ هَوَازِنَ : إنَّمَا قَالَ : [مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ] ؛ لِأَنَّهُ اعْتَبَرَ حَالَ نَفْسِهِ ؟ إذْ عَلِمَ أَنَّهُ أُوتِيَ الْمُلْكَ الْعَظِيمَ ، وَسُخِّرَ لَهُ الْخَلْقُ ، فَقَدْ لَزِمَهُ حَقُّ الشُّكْرِ بِإِقَامَةِ الطَّاعَةِ وَإِدَامَةِ الْعَمَلِ .

فَلَمَّا فَقَدَ نِعْمَةَ الْهُدْهُدِ تَوَقَّعَ أَنْ يَكُونَ قَصَّرَ فِي حَقِّ الشُّكْرِ ، فَلِأَجْلِهِ سُلِبَهَا ، فَجَعَلَ يَتَفَقَّدُ نَفْسَهُ ، فَقَالَ : مَا لِي ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ شُيُوخُ الصُّوفِيَّةِ إذَا فَقَدُوا آمَالَهُمْ تَفَقَّدُوا أَعْمَالَهُمْ .

(18/577)

هَذَا فِي الْآدَابِ ، فَكَيْفَ بِنَا الْيَوْمَ ، وَنَحْنُ نُقَصِّرُ فِي الْفَرَائِضِ ، الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذَا يَدُلُّ مِنْ سَلِيمَانَ عَلَى تَفَقُّدِهِ أَحْوَالَ الرَّعِيَّةِ ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمْ ، فَانْظُرُوا إلَى الْهُدْهُدِ وَإِلَى صِغَرِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْهُ حَالُهُ ، فَكَيْفَ بِعَظَائِمِ الْمُلْكِ ؟ وَيَرْحَمُ اللَّهُ عُمَرَ ، فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى سِيرَتِهِ قَالَ : " لَوْ أَنَّ سَخْلَةً بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ أَخَذَهَا الذِّئْبُ لَيُسْأَلُ عَنْهَا عُمَرُ ، فَمَا ظَنُّك بِوَالٍ تَذْهَبُ عَلَى يَدَيْهِ الْبُلْدَانُ ، وَتَضِيعُ الرَّعِيَّةُ ، وَتَضِيعُ الرُّعْيَانُ ، الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ ابْنُ الْأَزْرَقِ لِابْنِ عَبَّاسٍ وَقَدْ سَمِعَهُ يَذْكُرُ شَأْنَ الْهُدْهُدِ هَذَا : قِفْ يَا وَقَّافٍ . كَيْفَ يَرَى الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَلَا يَرَى الْحَبَّةَ فِي الْفَخِّ .

فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ بَدِيهَةً : إذَا نَزَلَ الْقَدَرُ عَشِيَ الْبَصَرُ .

وَلَا يَقْدِرُ عَلَى هَذَا الْجَوَابِ إلَّا عَالِمُ الْقُرْآنِ وَقَدْ أَنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ التِّنِّيسِيُّ الْوَاعِظُ عَنْ الشَّيْخِ أَبِي الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيِّ فِي هَذَا الْمَعْنَى : إذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا بِامْرِئٍ وَكَانَ ذَا عَقْلٍ وَسَمْعٍ وَبَصَرٍ وَحِيلَةٍ يَعْمَلُهَا فِي دَفْعِ مَا يَأْتِي بِهِ مَكْرُوهُ أَسْبَابِ الْقَدَرِ غَطَّى عَلَيْهِ سَمْعَهُ وَعَقْلَهُ وَسَلَّهُ مِنْ ذِهْنِهِ سَلَّ الشَّعَرِ حَتَّى إذَا أَنْفَذَ فِيهِ حُكْمَهُ رَدَّ عَلَيْهِ عَقْلَهُ لِيَعْتَبِرْ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطَّيْرَ كَانُوا مُكَلَّفِينَ ؛ إذْ لَا يُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِ فِعْلٍ إلَّا مَنْ كُلِّفَ ذَلِكَ الْفِعْلَ ، وَبِهَذَا يُسْتَدَلُّ عَلَى جَهْلِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ ذَلِكَ إنَّمَا كَانَ مِنْ سُلَيْمَانَ اسْتِدْلَالًا بِالْأَمَارَاتِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلطَّيْرِ عَقْلٌ ، وَلَا كَانَ لِلْبَهَائِمِ عِلْمٌ ، وَلَا أُوتِيَ سُلَيْمَانُ عِلْمَ مَنْطِقِ الطَّيْرِ .

وَقَاتَلَهُمْ اللَّهُ ، مَا أَجْرَأَهُمْ عَلَى الْخَلْقِ فَضْلًا عَنْ الْخَالِقِ ، الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : كَانَ الْهُدْهُدُ صَغِيرَ الْجُرْمِ ، وَوُعِدَ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ لِعَظِيمِ الْجُرْمِ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَدَّ عَلَى قَدْرِ الذَّنْبِ ، لَا عَلَى قَدْرِ الْجَسَدِ ، أَمَّا إنَّهُ يُرْفَقُ بِالْمَحْدُودِ فِي الزَّمَانِ وَالصِّفَةِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي أَحْكَامِ اسْتِيفَاءِ الْقِصَاصِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ .

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّغِيرَ يَقُولُ لِلْكَبِيرِ ، وَالْمُتَعَلِّمُ لِلْعَالِمِ : عِنْدِي مَا لَيْسَ عِنْدَك ، إذَا تَحَقَّقَ ذَلِكَ وَتَيَقَّنَهُ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي آدَابِ الْعِلْمِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هِيَ بِلْقِيسُ بِنْتُ شُرَحْبِيلَ مَلِكَةُ سَبَأٍ ، وَأُمُّهَا جِنِّيَّةٌ بِنْتُ

أَرْبَعِينَ مَلِكًا .

وَهَذَا أَمْرٌ تُنْكِرُهُ الْمُلْحِدَةُ .

(20/577)

وَيَقُولُونَ : إنَّ الْجِنَّ لَا يَأْكُلُونَ ، وَلَا يَلِدُونَ وَكَذَبُوا لَعَنَهُمْ اللَّهُ أَجْمَعِينَ .

ذَلِكَ صَحِيحٌ وَنِكَاحُهُمْ مَعَ الْإِنْسِ جَائِزٌ عَقْلًا .

فَإِنْ صَحَّ نَقْلًا فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَإِلَّا بَقِيْنَا عَلَى أَصْلِ الْجَوَازِ الْعَقْلِيِّ . .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ قَالَ فِي سَبَأٍ : هُوَ رَجُلٌ وُلِدَ لَهُ عَشْرَةُ أَوْلَادٍ ، وَكَانَ لَهُمْ خَبَرٌ فَسَمَّى الْبَلَدَ بِاسْمِ الْقَبِيلَةِ ﴾ ، أَوْ ذَكَرَ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ الْقَبِيلَةِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَمَّى الْبَلَدَ بِاسْمِ الْقَبِيلَةِ .

رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ فَرْوَةَ بْنِ مُسَيْكٍ الْمُرَادِيِّ ، قَالَ : ﴿ أَتَيْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَلَا أُقَاتِلُ مَنْ أَدْبَرَ مِنْ قَوْمِي بِمَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ ، فَأَذِنَ لِي فِي قِتَالِهِمْ وَأَمَرَنِي .

فَلَمَّا خَرَجْت مِنْ عِنْدِهِ سَأَلَ عَنِّي مَا فَعَلَ الْقَطِيفِيُّ ؟ فَأَخْبَرَ بِأَنِّي قَدْ سِرْت .

قَالَ : فَأَرْسَلَ فِي أَثَرِي فَرَدَّنِي ، فَأَتَيْته ، وَهُوَ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : ادْعُ الْقَوْمَ ، فَمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ فَاقْبَلْ مِنْهُ ، وَمَنْ لَمْ يُسْلِمْ فَلَا تَعْجَلْ حَتَّى أُحْدِثَ لَك .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي سَبَأٍ مَا أَنْزَلَ .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ مَا سَبَأٌ ؟ أَرْضٌ أَوْ امْرَأَةٌ ؟ فَقَالَ : لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا امْرَأَةٍ ، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وَلَدَ عَشَرَةً مِنْ الْعَرَبِ فَتَيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ ، وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا فَلَخْمٌ وَجُذَامُ وَغَسَّانُ وَعَامِلَةُ .

(21/577)

وَأَمَّا الَّذِينَ تَيَامَنُوا فَالْأَزْدُ ، وَالْأَشْعَرِيُّونَ ، وَحِمْيَرُ ، وَكِنْدَةُ ، وَمَذْحِجُ ، وَأَنْمَارٌ .

فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ وَمَا أَنْمَارُ ؟ قَالَ : الَّذِينَ مِنْهُمْ خَثْعَمُ وَبُجَيْلَةُ ﴾ .

وَرُوِيَ فِي هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثٌ آخَرُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ كِسْرَى لَمَّا مَاتَ وَلَّى قَوْمُهُ بِنْتَهُ : لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَكُونُ خَلِيفَةً ، وَلَا خِلَافَ فِيهِ .

وَنُقِلَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطَّبَرِيِّ إمَامِ الدِّينِ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ قَاضِيَةً ؛ وَلَمْ يَصِحَّ

ذَلِكَ عَنْهُ ؛ وَلَعَلَّهُ كَمَا نُقِلَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّهَا [إنَّمَا] تَقْضِي فِيمَا تَشْهَدُ فِيهِ ، وَلَيْسَ بِأَنْ تَكُونَ قَاضِيَةً عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَا بِأَنْ يُكْتَبَ لَهَا مَنْشُورٌ بِأَنَّ فُلَانَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلَى الْحُكْمِ ، إلَّا فِي الدِّمَاءِ وَالنِّكَاحِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ كَسَبِيلِ التَّحْكِيمِ أَوْ الِاسْتِبَانَةِ فِي الْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً ﴾ .

وَهَذَا هُوَ الظَّنُّ بِأَبِي حَنِيفَةَ وَابْنِ جَرِيرٍ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ قَدَّمَ امْرَأَةً عَلَى حِسْبَةِ السُّوقِ ، وَلَمْ يَصِحَّ ؛ فَلَا تَلْتَفِتُوا إلَيْهِ ؛ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ دَسَائِسِ الْمُبْتَدِعَةِ فِي الْأَحَادِيثِ .

(22/577)

وَقَدْ تَنَاظَرَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الطَّيِّبِ الْمَالِكِيُّ الْأَشْعَرِيُّ مَعَ أَبِي الْفَرَجِ بْنِ طَرَارٍ شَيْخِ الشَّافِعِيَّةِ بِبَغْدَادَ فِي مَجْلِسِ السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ ، فَمَا حَلَ وَنَصَرَ ابْنُ طَرَارٍ لِمَا يُنْسَبُ إلَى ابْنِ جَرِيرٍ ، عَلَى عَادَةِ الْقَوْمِ التَّجَادُلِ عَلَى الْمَذَاهِبِ ، وَإِنْ لَمْ يَقُولُوا بِهَا اسْتِخْرَاجًا لِلْأَدِلَّةِ وَتَمَرُّنًا فِي الِاسْتِنْبَاطِ لِلْمَعَانِي ؛ فَقَالَ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ طَرَارٍ : الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ يَجُوزُ أَنْ تَحْكُمَ أَنَّ الْغَرَضَ مِنْ الْأَحْكَامِ تَنْفِيذُ الْقَاضِي لَهَا ، وَسَمَاعُ الْبَيِّنَةِ عَلَيْهَا ، وَالْفَصْلُ بَيْنَ الْخُصُومِ فِيهَا ، وَذَلِكَ يُمْكِنُ مِنْ الْمَرْأَةِ ، كَإِمْكَانِهِ مِنْ الرَّجُلِ .

فَاعْتَرَضَ عَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ، وَنَقَضَ كَلَامَهُ بِالْإِمَامَةِ الْكُبْرَى ؛ فَإِنَّ الْغَرَضَ مِنْهَا حِفْظُ الثُّغُورِ ، وَتَدْبِيرُ الْأُمُورِ ، وَحِمَايَةُ الْبَيْضَةِ ، وَقَبْضُ الْخَرَاجِ ، وَرَدُّهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ ، وَذَلِكَ يَتَأَتَّى مِنْ الْمَرْأَةِ كَتَأَتِّيهِ مِنْ الرَّجُلِ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو الْفَرَجِ بْنُ طَرَارٍ : هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الشَّرْعِ ، إلَّا أَنْ يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى مَنْعِهِ .

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ : لَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ أَصْلُ الشَّرْعِ .

قَالَ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ : هَذَا تَعْلِيلٌ لِلنَّقْضِ ، يُرِيدُ : وَالنَّقْضُ لَا يُعَلَّلُ .

وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ قَوْلِ الْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

(23/577)

قَالَ الْفَقِيهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَيْسَ كَلَامُ الشَّيْخَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِشَيْءٍ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَا يَتَأَتَّى مِنْهَا أَنْ تَبْرُزَ إلَى الْمَجَالِسِ ، وَلَا تُخَالِطَ الرِّجَالَ ، وَلَا تُفَاوِضَهُمْ مُفَاوَضَةَ النَّظِيرِ لِلنَّظِيرِ ، لِأَنَّهَا إنْ كَانَتْ فَتَاةً حَرُمَ النَّظَرُ إلَيْهَا وَكَلَامُهَا ، وَإِنْ كَانَتْ مُتَجَالَّةً بَرْزَةً لَمْ يَجْمَعْهَا وَالرِّجَالَ مَجْلِسٌ تَزْدَحِمُ فِيهِ مَعَهُمْ ، وَتَكُونُ مَنْظَرَةً لَهُمْ ، وَلَمْ يُفْلِحْ قَطُّ مَنْ تَصَوَّرَ هَذَا ، وَلَا مَنْ اعْتَقَدَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(24/577)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾

قيل إن سليمان كان إذا سافر أظله الطير من الشمس ، فأخل الهدهد بكانه ، فبان بطلوع الشمس منه بعده عنه ، وكان دليله على الماء ، وقيل : إن الأرض كانت كالزجاج للهدهد ، يرى ما تحتها فيدل على مواضع الماء حتى يحضر ، قال ابن عباس : فكانوا إذا سافروا نقر لهم الهدهد عن أقرب الماء في الأرض ، فقال نافع بن الأزرق : فكيف يعلم أقرب الماء إلى الأرض ولا يعلم بالفخ حتى يأخذه بعنقه ؟ فقال ابن عباس : ويحك يا نافع ألم تعلم أنه إذا جاء القدر ذهب الحذر ؟ فقال سليمان عن زوال الهدهد عن مكانه ﴿ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ أي انتقل عن مكانه أم غاب .

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أنه نتف ريشه حتى لا يمتنع من شيء ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن يحوجه إلى جنسه .

الثالث : أن يجعله مع أضداده .

﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : بحجة بينة .

الثاني : بعذر ظاهر ، قاله قتادة .

قوله : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي أقام غير طويل ويحتمل وجهين

: أحدهما : مكث سليمان غير بعيد حتى أتاه الهدهد .

الثاني : فمكث الهدهد غير بعيد حتى أتى سليمان .

﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : بلغت ما لم تبلغه ، قاله قتادة .

الثاني : علمت ما لم تعلمه ، قاله سفيان .

الثالث : اطلعت على ما لم تطلع عليه ، قاله ابن عباس ، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته ، وفي الكلام حذف تقديره . ثم جاء الهدهد فسأله سليمان عن غيبته .

﴿ وَجِئْتُكَ مِنَ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي بخبر صحيح صدق ، وفي ﴿ سبأ ﴾ قولان

(25/577)

: أحدهما : أنها مدينة بأرض اليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ، قاله قتادة ، قال السدي : بعث الله إلى سبأ اثني عشر نبياً ، وقال الشاعر :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ . . . يبنون من دون سيله العرما

الثاني : أن سبأ حي من أحياء اليمن واختلف قائلو هذا في نسبتهم إلى هذا ، فذهب قوم إلى أنه اسم امرأة كانت أمهم ، وروى علقمة عن ابن عباس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ فقال : " هُوَ وَلَدُ رَجُلٍ لَهُ عَشْرَةُ أَوْلَادٍ فَبِالْيَمَنِ مِنهُم سِتَّةٌ وبالشَّامِ مِنهُم أَربَعَةٌ ، فَأَمَّا اليَمَانِيونَ فَمَذحِجُ وجُهَينَةُ وكِندَةُ وأنمارُ وَالأَزْدُ وَالأَشعَرِيونَ وأَمَّا الشامِيون فَلَخْمُ وَجذامُ وعَامِلَةُ وَغَسَّانُ

" وقيل هو سبأ بن يعرب بن قحطان . قال المفضل وسُمِّيَ سبأ لأنه أول من سبا

. قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُم ﴾ قال الحسن : هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ، وقال زهير بن محمد : هي بلقيس بنت شرحبيل بن مالك بن الديان وأمها فارعة الجنية ، وقيل ولدها أربعون ملكاً آخرهم شرحبيل . قال قتادة كان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل .

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : من كل شيء في أرضها ، قاله السدي .

الثاني : من أنواع الدنيا كلها ، قاله سفيان .

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : أنه السرير ، قاله قتادة .

الثاني : أنه الكرسي ، قاله سفيان .

الثالث : المجلس ، قاله ابن زيد .

الرابع : الملك ، قاله ابن بحر .

وفي قوله : ﴿ عَظِيمٌ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : ضخم .

الثاني : حسن الصنعة ، قاله زهير .

الثالث : لأنه كان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وكان مستراً بالديباج والحرير عليه سبعة تعاليق ، قاله قتادة .

قال ابن إسحاق : وكان يخدمها النساء فكان معها لخدمتها ستمائة امرأة .

(26/577)

قوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : يعني غيب السموات والأرض ، قاله عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن جبير .

الثاني : أن خبء السموات المطر وخبء الأرض النبات ، قاله ابن زيد ، والخبء بمعنى المخبوء وقع المصدر موقع الصفة .

وفي معنى الخبء في اللغة وجهان :

أحدهما : أنه ما غاب .

الثاني : أنه ما استتر .

وقرأ الكسائي ﴿ أَلاَ يَسْجُدُواْ ﴾ بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ ﴾

قال الفراء : من قرأ بالتخفيف فهو موضع سجدة ، ومن قرأ بالتشديد فليس بموضع سجدة .

وفي قائل هذا قولان :

أحدهما : أنه قول الله تعالى أمر فيه بالسجود له ، وهو أمر منه لجميع خلقه وتقدير الكلام : ألا يا ناس اسجدواْ لله .

الثاني : أنه قول الهدهد حكاه الله عنه .

ويحتمل قوله هذا وجهين :

أحدهما : أن يكون قاله لقوم بلقيس حين وجدهم يسجدون لغير الله .

الثاني : أن يكون قاله لسليمان عند عوده إليه واستكباراً لما وجدهم عليه .

وفي قول الهدهد لذلك وجهان :

أحدهما : أنه وإن يكن ممن قد علم وجوب التكليف بالفعل فهو ممن قد تصور بما ألهم من الطاعة لسليمان أنه نبي مطاع لا يخالف في قول ولا عمل .

الثاني : أنه كالصبي منا إذا راهق فرآنا على عبادة الله تصوّر أن ما خالفها باطل فكذا

الهدهد في تصوره أن ما خالف فعل سليمان باطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(27/577)

وقال ابن عطية :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

اختلف الناس في معنى " تفقده الطير " ، فقالت فرقة ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والتهمم بكل جزء منها .

(28/577)

قال القاضي أبو محمد : وظاهر الآية أنه تفقد جميع الطير ، وقالت فرقة : بل " تفقد الطير " لأن الشمس دخلت من موضع ﴿ الهدهد ﴾ حين غاب ، فكان ذلك سبب تفقد الطير ليبين من أين دخلت الشمس ، وقال عبد الله بن سلام إنما طلب ﴿ الهدهد ﴾ لأنه احتاج إلى معرفة الماء على كَم هو من وجه الأرض ، لأنه كان نزل في مفازة عدم فيها الماء ،

وأن ﴿ الهدهد ﴾ كان يرى باطن الأرض وظاهرها كانت تشف له وكان يخبر سليمان بموضع الماء ، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ شاة قاله ابن عباس فيما روي عن أبي سلام وغيره ، وقال في كتاب النقاش كان ﴿ الهدهد ﴾ مهندساً ، وروي أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يقول هذا فقال له : قف يا وقاف كيف يرى ﴿ الهدهد ﴾ باطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع فيه . فقال له ابن عباس رضي الله عنه : إذا جاء القدر عمي البصر . وقال وهب بن منبه : كانت الطير تنتاب سليمان كل يوم من كل نوع واحد نوبة معهودة ففقد ﴿ الهدهد ﴾ ، وقوله ﴿ ما لي لا أرى ﴾ إنما مقصد الكلام ﴿ الهدهد ﴾ غاب لكنه أخذ اللام عن مغيبه وهو أن لا يراه فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم ، وهذا ضرب من الإيجاز ، والاستفهام الذي في قوله ﴿ ما لي ﴾ ، ناب مناب الألف التي تحتاجها أم ، ثم توعده عليه السلام بالعذاب ، وروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن تنتف ، قال ابن جريج : ريشه أجمع ، وقال يزيد بن رومان : جناحاه ، وروي ابن وهب أنه بأن تنتف أجمع وتبقى بضعة تنزو ، و" السلطان " الحجة حيث وقع في القرآن ، قاله عكرمة عن ابن عباس ، وقرأ ابن كثير وحده " ليأتينني " بنونين ، وفعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظاً عن العاصين وعقاباً على إخلاله بنوبته ورتبته ، وقرأ جمهور القراء ، " فمكُث " بضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده "

فمكَث " بفتحها ، ومعناه في القراءتين أقام ، والفتح في الكاف أحسن لأنها لغة القرآن في قوله ﴿ ماكثين ﴾ [

(29/577)

الكهف : 3] إذ هو من مكَث بفتح الكاف ، ولو كان من مكُث بضم الكاف لكان جمع مكيث ، والضمير في " مكث " يحتمل أن يكون لسليمان أول ﴿ الهدهد ﴾ ، وفي قراءة ابن مسعود " فتمكث ثم جاء فقال " وفي قراءة أبي بن كعب " فتمكث " ثم قال ﴿ أحطت ﴾ وقوله ﴿ غير بعيد ﴾ كما في مصاحف الجمهور يريد به في الزمن والمدة ، وقوله ﴿ أحطت ﴾ أي علمت علماً تاماً ليس في علمك ، واختلف القراء في ﴿ سبأ ﴾ ، فقرأ جمهور القراء " سبأ " بالصرف .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " سبأ " بفتح الهمزة وترك الصرف ، وقرأ الأعمش " من سبإ " بالكسر وترك الصرف وروى ابن حبيب عن اليزيدي " سبا " بألف ساكنة ، وقرأ قنبل عن النبال بسكون الهمزة ، فالأولى على أنه اسم رجل وعليه قول الشاعر : [البسيط]

الواردون وتيم في ذرى سبإ . . . قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس

(30/577)

وقال الآخر : " من سبأ الحاضرين مآرب " ، وهذا على أنها قبيلة والثانية على أنها بلدة ، قاله الحسن وقتادة ، وكلا القولين قد قيل ، ولكن روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث فروة بن مسيك وغيره أنه اسم رجل ولد عشرة من الولد تيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة ، وخفي هذا الحديث على الزجاج فخبط عشوى ، والثالثة على البناء والرابعة والخامسة لتوالي الحركات السبع فسكن تخفيفاً للتثقيل في توالي الحركات ، وهذه القراءة لا تبنى على الأولى بل هي إما على الثانية أو الثالثة ، وقرأت فرقة " بنبأ " وقرأت فرقة دون تنوين على الإضافة ، وقرأت فرقة " بنبا " بالألف مقصورة وقوله ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ مبالغة أي مما تحتاج المملكة قال الحسن : من كل أمر الدنيا ، ووصف عرشها بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان ، وروي عن نافع الوقف على ﴿ عرش ﴾ ف ﴿ عظيم ﴾ على هذا يتعلق بما بعده ، وهذه المرأة هي بلقيس بنت شراحيل فيما قال بعضهم ، وقيل بنت الفشرح ، وقيل كانت أمها جنية ، وأكثر بعض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته وإنما اللازم من الآية أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن ذات ملك عظيم وكانت كافرة من قوم كفار .

و ﴿ جَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

كانت هذه الأمة أمة تعبد الشمس لأنهم كانوا زنادقة فيما روي ، وقيل كانوا مجوساً يعبدون الأنوار ، وقوله ﴿ ألا يسجدوا ﴾ إلى قوله ﴿ العظيم ﴾ ظاهره أنه من قول الهدهد ، وهو قول ابن زيد وابن إسحاق ويعترض بأنه غير مخاطب ، فكيف يتكلم في معنى شرع ، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى اعتراضاً بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل ، وقراءة التشديد في " ألاَّ " تعطي أن الكلام للهدهد ، وقراءة التخفيف تمنعه وتقوي الآخر حسبما يتأمل إن شاء الله ، وقرأ جمهور القراء " ألا يسجدوا " ف " أن " في موضع نصب على البدل من ﴿ أعمالهم ﴾ وفي موضع خفض على البدل من ﴿ السبيل ﴾ أو يكون التقدير لأن لا يسجدوا ف " أن " متعلقة إما ب " زين " وإما ب " صدهم " ، واللام الداخلة على " أن " داخلة على مفعول له ، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر والزهري وأبو عبد الرحمن والحسن والكسائي وحميد : " ألا " على جهة الاستفتاح ووقف الكسائي من هذه الفرقة على يا ، ثم يبتدىء " اسجدوا " ، واحتج الكسائي لقراءته هذه بأنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه موضع سجدة .

قال القاضي أبو محمد : وهذه القراءة مقدر فيها النداء والمنادى محذوف تقديره إن جعلناه

اعتراضاً يا هؤلاء ويجيء موضع سجدة ، وإن جعلناه من كلام الهدهد يا قوم أو يا عقلاء ونحو هذا ومنه قول الشاعر : " ألا يا سلمي " يا دار ميَّ على البلا إلخ . . البيت ، ونحو قول الآخر وهو الأخطل : [الطويل]

ألا يا أسلمي يا هند هند بني بدر . . . وإن كان حيانا عدًى آخر الدهر

ومنه قول الآخر :

فقالت ألا يا اسمع أعظك بخطة . . . فقلت سمعنا فاسمعي واصمتي

(32/577)

ويحتمل قراءة من شدد : " ألاَّ " أن يجعلها بمعنى التخصيص ، ويقدر هذا النداء بعدها ويجيء في الكلام إضمار كثير ولكنه متوجه ، وسقطت الألف كما كتبت في يا عيسى ويا قوم ، وقرأ الأعمش " هل لا يسجدون " ، وفي حرف عبد الله بن معسود " ألا هل تسجدون " بالتاء ، وفي قراءة أبيّ : " ألا هل تسجدوا " بالتاء أيضاً ، و﴿ الخبء ﴾ الخفي من الأمور وهو من خبأت الشيء ، و" خبء " السماء مطرها ، و" خبء " الأرض كنوزها ونباتها ، واللفظة بعد هذا تعم كل خفيّ من الأمور وبه فسر ابن عباس ، وقرأ جمهور الناس " الخبْء " بسكون الباء والهمز ، وقرأ أبي بن كعب " الخبَ ، بفتح الباء وترك

الهمز ، وقرأ عكرمة " الخبا " بألف مقصورة ، وحكى سيبويه أن بعض العرب يقلب الهمزة إذا كانت في مثل هذا مفتوحة وقبلها ساكن يقلبها ألفاً ، وإذا كانت مضمومة وقبلها ساكن قلبها واواً ، وإذا كانت مكسورة قلبها ياء ومثل سيبويه ذلك بالوثا والوثو والوثي ، وكذلك يجيء ﴿ الخبء ﴾ في حال النصب وتقول اطلعت على الخبي وراقني الخبو وقرأ جمهور القراء " يخفون " و" يعلنون " بياء الغائب .

قال القاضي أبو محمد : وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الهدهد ، وقرأ الكسائي وعاصم في رواية حفص " تخفون وما تعلنون " بتاء الخطاب ، وهذه القراءة تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي مصحف أبي بن كعب " ألا يسجدوا والله الذي يخرج الخبء من السماوات والأرض ويعلم سركم وما تعلنون " ، وخصص ﴿ العرش ﴾ بالذكر في قوله ﴿ رب العرش العظيم ﴾ لأنه أعظم المخلوقات ، وما عداه في ضمنه وقبضته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(33/577)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾

التفقُّد : طلب ما غاب عنك ؛ والمعنى أنه طلب ما فقد من الطير ؛ والطَّير اسم جامع للجنس ، وكانت الطَّير تصحب سليمان في سفره تُظِلُّه بأجنحتها ﴿ فقال ما لِيَ لا أرى الهُدْهُدَ ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، والكسائي : ﴿ ما لِيَ لا أرى الهُدْهُدَ ﴾ بفتح الياء .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة بالسكون ، والمعنى : ما للهدهد [لا أراه] ؟ ! تقول العرب : مالي أراك كئيباً ، أي : مَالَكَ ؟ فهذا من المقلوب الذي معناه معلوم .

قال المفسرون : لَمَّا فَصَلَ سليمان عن وادي النمل ، وقع في قفر من الأرض ، فعطش الجيش فسألوه الماء ، وكان الهدهد يدلُّه على الماء ، فإذا قال له : هاهنا الماء ، شقَّقت الشياطين الصَّخر وفجَّرت العيون قبل أن يضربوا أبنيتهم ، وكان الهدهد يرى الماء في الأرض كما يرى الماء في الزجاجة ، فطلبه يومئذ فلم يجده .

وقال بعضهم : إنما طلبه لأن الطَّير كانت تُظِلُّهم من الشمس ، فأخلَّ الهدهد بمكانه ، فطلعت الشمس عليهم من الخلل .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ كان ﴾ قال الزجاج : معناه : بل كان .

قوله تعالى : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : نتف ريشه ، قاله ابن عباس ، والجمهور .

والثاني : نتفه وتشميسه ، قاله عبد الله بن شداد .

والثالث : شد رجله وتشميسه ، قاله الضحاك .

والرابع : أن يطليَه بالقطران ويشمّسه ، قاله مقاتل بن حيان .

والخامس : ان يودِعه القفص .

والسادس : أن يفرّق بينه وبين إلفه ، حكاهما الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ أو لَيَأْتِيَنّي ﴾ وقرأ ابن كثير : ﴿ لَيَأْتِيَنَّنِي ﴾ بنونين ، وكذلك هي في مصاحفهم .

فأما السلطان ، فهو الحُجَّة ، وقيل : العُذر .

(34/577)

وجاء في التفسير أن سليمان لما نزل في بعض مسيره ، قال الهدهد : إنه قد اشتغل بالنزول فأرتفع أنا إلى السماء فأنظر إلى طول الدنيا وعرضها ، فارتفع فرأى بستاناً لبلقيس ، فمال إلى الخُضرة فوقع فيه ، فإذا هو بهدهد قد لقيَه ، فقال : من اين أقبلت ؟ قال : من الشام مع صاحبي سليمان ، فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد ، وملكها امرأة يقال لها : بلقيس ، فهل أنت مُنطلق معي حتى ترى مُلْكها ؟ قال : أخاف أن يتفقَّدني سليمان وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء ، قال : إن صاحبك يسرُّه أن تأتيَه بخبر هذه المِلكة ، فانطلق معه ،

فنظر إلى بلقيس ومُلْكها ، ﴿ فمَكث غير بعيد ﴾ قرأ الجمهور بضم الكاف ، وقرأ عاصم بفتحها ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ فتمكَّث ﴾ بزيادة تاء ؛ والمعنى : لم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ، فقال سليمان : ما الذي أبطأ بك ؟ ﴿ فقال أَحَطْتُ بما لم تُحِطْ به ﴾ أي : علمتُ شيئاً من جميع جهاته مما لم تعلم [به] ﴿ وجِئْتُكَ من سَبَإٍ ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ سَبَأَ ﴾ نصباً غير مصروف ، وقرأ الباقون خفضاً منوّناً .

وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سبأ رجل من العرب .

وقال قتادة : هي أرض باليمن يقال لها : مأرب .

وقال أبو الحسن الأخفش : إن شئتَ صرفت "سبأ" فجعلته اسم أبيهم ، أو اسم الحيِّ ، وإن شئت لم تصرف فجعلته اسم القبيلة ، أو اسم الأرض .

قال الزجاج : وقد ذكر قوم من النحويين أنه اسم رجل .

وقال آخرون : الاسم إذا لم يُدْرَ ما هو لم يُصرف ؛ وكلا القولين خطأٌ ، لأن الأسماء حقُّها الصَّرف ، وإذا لم يُعلم هل الاسم للمذكَّر أم للمؤنَّث ، فحقُّه الصَّرف حتى يُعلم أنَّه لا ينصرف ، لأن أصل الأسماء الصرف .

(35/577)

وقول الذين قالوا : هو اسم رجل ، غلط ، لأن سبأ هي مدينة تُعرف بمأرب من اليمن ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، فمن لم يصرفه جعله اسم مدينة ، ومن صرفه فلأنَّه اسم البلد ، فيكون مذكَّراً سمي بمذكَّر .

قوله تعالى : ﴿ بنبأٍ يقينٍ ﴾ أي : بخبر صادق ، ﴿ إِني وجدتُ امرأةً تَمْلِكُهم ﴾ يعني : بلقيس ﴿ وأوتيتْ من كل شيء ﴾ قال الزجاج : معناه : من كل شيء يُعطاه الملوك ويؤتاه الناس .

والعرش : سرير الملك .

قال قتادة : كان عرشها من ذهب ، قوائمه من جوهر مكلَّل باللؤلؤ ، وكان أحد أبويها من الجنّ ، وكان مؤخَّر أحد قدميها مثل حافر الدابة .

وقال مجاهد : كان قدماها كحافر الحمار .

وقال ابن السائب : لم يكن بقدميها شيء ، إنما وقع الجنُّ فيها عند سليمان بهذا القول ، فلمَّا جعل لها الصرح بان له كذبُهم .

قال مقاتل : كان ارتفاع عرشها ثمانين ذراعاً في عرض ثمانين ، وكانت أُمُّها من الجنّ .

قال ابن جرير : وإنما صار هذا الخبر عُذْراً للهدهد ، لأن سليمان كان لا يرى لأحد في الأرض مملكة سواه ، وكان مع ذلك يحبُّ الجهاد ، فلمَّا دلَّه الهدهد على مملكةٍ لغيره ، وعلى قومٍ كَفَرة يجاهدهم ، صار ذلك عُذراً له .

قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا ﴾ قرأ الأكثرون : "أَلاَّ" بالتشديد .

قال الزجاج : والمعنى : وزيَّن لهم الشيطان ألاَّ يسجدوا ، أي : فصدَّهم لئلاَّ يسجُدوا .

وقرأ ابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والزهري ، وقتادة ، وأبو العالية ، وحميد الأعرج ، والأعمش ، وابن أبي عبلة ، والكسائي : ﴿ ألا يسجُدوا ﴾ مخفَّفة ، على معنى : ألا يا هؤلاء اسجُدوا ، فيكون في الكلام إِضمار ﴿ هؤلاء ﴾ ويُكتفى منها ب "يا" ، ويكون الوقف "ألا يا" والابتداء ﴿ اسجدوا ﴾ ؛ قال الفراء : فعلى هذه القراءة هي سجدة ، وعلى قراءة من شدَّد لا ينبغي لها أن تكون سجدة .

وقال أبو عبيدة : هذا أمر من الله مستأنَف ، يعني : ألا يا أيُّها الناس اسجدوا .

(36/577)

وقرأ ابن مسعود ، وأُبيٌّ : ﴿ هلاَّ يسجدوا ﴾ بهاءٍ .

قوله تعالى : ﴿ الذي يُخرِجُ الخَبْءَ في السَّموات والأرض ﴾ قال ابن قتيبة : أي : المُسْتَتِر فيهما ، وهو من خَبَأْتُ الشيءَ : إِذا أخفيته ، ويقال : خبْءُ السموات : المطر ، وخبءُ الأرض : النبات .

وقال الزجاج : كل ما خَبَأته فهو خَبْءٌ ، فالخَبْءُ : كُلُّ ما غاب ؛ فالمعنى : يعلم الغيب في

السموات والأرض .

وقال ابن جرير : "في" بمعنى "مِنْ" ، فتقديره : يُخرِج الخَبْءَ من السموات .

قوله تعالى : ﴿ ويَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وما تُعْلِنُونَ ﴾ قرأ حفص [عن] عاصم ، والكسائي بالتاء فيهما .

وقرأ الباقون بالياء .

قال ابن زيد : من قوله : ﴿ أَحَطْتُ ﴾ إلى قوله : ﴿ العَظيمِ ﴾ كلام الهدهد .

وقرأ الضحاك ، وابن محيصن : ﴿ العَظيمُ ﴾ برفع الميم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(37/577)

وقال القرطبى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

فيه ثماني عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾ ذكر شيئاً آخر مما جرى له في مسيره الذي كان فيه من النمل ما تقدّم .

والتفقد تطلّب ما غاب عنك من شيء .

والطير اسم جامع والواحد طائر ، والمراد بالطير هنا جنس الطير وجماعتها .

وكانت تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها .

واختلف الناس في معنى تفقده للطير ؛ فقالت فرقة : ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك ، والتَّهمُّم بكل جزء منها ؛ وهذا ظاهر الآية .

وقالت فرقة : بل تفقد الطير لأن الشمس دخلت من موضع الهدهد حين غاب ؛ فكان ذلك سبب تفقد الطير ؛ ليتبيّن من أين دخلت الشمس .

وقال عبد الله ابن سَلاَم : إنما طلب الهدهد لأنه احتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض ؛ لأنه كان نزل في مفازة عُدِم فيها الماء ، وأن الهدهد كان يرى باطن الأرض وظاهرها ؛ فكان يخبر سليمان بموضع الماء ، ثم كانت الجنّ تخرجه في ساعة يسيرة ؛ تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة ؛ قاله ابن عباس فيما روى عن ابن سَلاَم .

قال أبو مِجْلَز قال ابن عباس لعبد الله بن سَلاَم : أريد أن أسألك عن ثلاث مسائل قال : أتسألني وأنت تقرأ القرآن ؟ قال : نعم ثلاث مرات .

قال : لم تفقد سليمان الهدهد دون سائر الطير ؟ قال : احتاج إلى الماء ولم يعرف عمقه أو قال مسافته وكان الهدهد يعرف ذلك دون سائر الطير فتفقده .

وقال في كتاب النقاش : كان الهدهد مهندساً .

وروي أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس يذكر شأن الهدهد فقال له : قف يا وقّاف كيف يرى الهدهد باطن الأرض وهو لا يرى الفخّ حين يقع فيه ؟! فقال له ابن عباس : إذا جاء القدر عَمِي البصر .

وقال مجاهد : قيل لابن عباس كيف تفقّد الهدهد من الطير ؟ فقال : نزل منزلاً ولم يدر ما بُعْد الماء ، وكان الهدهد مهتدياً إليه ، فأراد أن يسأله .

(38/577)

قال مجاهد : فقلت كيف يهتدي والصبيّ يضع له الحِبَالة فيصيده ؟! فقال : إذا جاء القدر عَمِيَ البصر .

قال ابن العربي : ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم القرآن .

قلت : هذا الجواب قد قاله الهدهد لسليمان كما تقدّم .

وأنشدوا :

إذا أراد الله أمراً بامرئٍ . . .

وكان ذا عقلٍ ورأيٍ ونَظَرْ

وحيلةٍ يعملها في دفع ما . . .

يأتي بِه مكروهُ أسبابِ القَدَرْ

غَطَّى عليه سمعَه وعقلَه . . .

وسَلَّه من ذهنه سلَّ الشّعَرْ

حتى إذا أنفذ فيه حكمه . . .

ردّ عليه عقلَه ليعتبرْ

قال الكلبي : لم يكن له في مسيره إلا هدهد واحد .

والله أعلم .

الثانية : في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته ؛ والمحافظة عليهم .

فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظام المُلْك .

ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته ؛ قال : لو أن سخلة على شاطىء الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر .

فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان ، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان .

وفي الصحيح عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بَسْرَغٍ لقيه أمراء الأجناد : أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام .

الحديث ؛ قال علماؤنا : كان هذا الخروج من عمر بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة على ما ذكره خليفة بن خياط .

وكان يتفقد أحوال رعيته وأحوال أمرائه بنفسه ، فقد دلّ القرآن والسنة وَبيَّنا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته ، ومباشرة ذلك بنفسه ، والسفر إلى ذلك وإن طال .

ورحم الله ابن المبارك حيث يقول :

وهل أفسدَ الدينَ إلاَّ الملوكُ . . .

وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد ﴾ أي ما للهدهد لا أراه ؛ فهو من القلب الذي لا يعرف معناه .

وهو كقولك : ما لي أراك كئيباً .

أي مالك .

والهدهد طير معروف وهدهدته صوته .

(39/577)

قال ابن عطية : إنما مقصد الكلام الهدهد غاب لكنه أخذ اللازم عن مغيبه وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهة التوقيف على اللازم وهذا ضرب من الإيجاز .

والاستفهام الذي في قوله : ﴿ مَالِيَ ﴾ ناب مناب الألف التي تحتاجها أم .

وقيل : إنما قال : ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾ ؛ لأنّه اعتبر حال نفسه ، إذ علم أنه أوتي الملك العظيم ، وسخر له الخلق ، فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل ، فلما فقد نعمة الهدهد توقع أن يكون قصّر في حق الشكر ، فلأجله سلبها فجعل يتفقد نفسه ؛ فقال : ﴿ مَالِيَ ﴾ .

قال ابن العربي : وهذا يفعله شيوخ الصوفية إذا فقدوا ما لهم ، تفقدوا أعمالَهم ؛ هذا في الآداب ، فكيف بنا اليوم ونحن نقصّر في الفرائضا .

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وعاصم والكسائي وهشام وأيوب : ﴿ مَالِيَ ﴾ بفتح الياء وكذلك في "ياس" ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ [ياس : 22] .

وأسكنها حمزة ويعقوب .

وقرأ الباقون المدنيون وأبو عمرو بفتح التي في "ياس" وإسكان هذه .

قال أبو عمرو : لأن هذه التي في "النمل" استفهام ، والأخرى انتفاء .

واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان "فَقَالَ مَالِي" .

وقال أبو جعفر النحاس : زعم قوم أنهم أرادوا أن يفرّقوا بين ما كان مبتدأ ، وبين ما كان معطوفاً على ما قبله ، وهذا ليس بشيء ؛ وإنما هي ياء النفس ، من العرب من يفتحها ومنهم من يسكِنها ، فقرؤوا باللغتين ؛ واللغة الفصيحة في ياء النفس أن تكون مفتوحة ؛ لأنها اسم وهي على حرف واحد ، وكان الاختيار ألا تسكن فيجحف الاسم .

﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الغَآئِبِين ﴾ بمعنى بل .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ دليل على أن الحدّ على قدر الذنب لا على قدر الجسد ، أما أنه يرفق بالمحدود في الزمان والصفة .

روي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذيبه للطير كان بأن ينتف ريشه .

قال ابن جريج : ريشه أجمع .

(40/577)

وقال يزيد بن رومان : جناحاه .

فعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظاً على العاصين ، وعقاباً على إخلاله بنَوْبته ورتبته ؛ وكأن الله أباح له ذلك ، كما أباح ذبح البهائم والطير للأكل وغيره من المنافع .

والله أعلم .

وفي "نوادر الأصول" قال : حدّثنا سليمان بن حميد أبو الربيع الإيادي ، قال : حدّثنا عون بن عمارة ، عن الحسين الجَعْفيّ ، عن الزبير بن الخِرِّيت ، عن عكرمة ، قال : إنما صرف الله شر سليمان عن الهدهد لأنه كان باراً بوالديه .

وسيأتي .

وقيل : تعذيبه أن يجعل مع أضداده .

وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد .

وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه .

وقيل : إيداعه القفص .

وقيل : بأن يجعله للشمس بعد نتفه .

وقيل : بتبعيده عن خدمتي ، والملوك يؤدّبون بالهجران الجسدَ بتفريق إلفه .

وهو مؤكد بالنون الثقيلة ، وهي لازمة هي أو الخفيفة .

قال أبو حاتم : ولو قرئت "لأَعَذِّبَنْهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنْهُ" جاز .

﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة بينة .

وليست اللام في ﴿ لَيَأْتِيَنِّي ﴾ لام القسم لأنه لا يقسم سليمان على فعل الهدهد ؛ ولكن لما جاء في أثر قوله : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ ﴾ وهو مما جاز به القسم أجراه مجراه .

وقرأ ابن كثير وحده ﴿ لَيَأْتِيَنَّنِي ﴾ بنونين .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي الهدهد .

والجمهور من القراء على ضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها .

ومعناه في القراءتين أقام .

قال سيبويه : مَكَث يمكُث مُكُوثاً كما قالوا قعد يقعد قعوداً .

قال : ومَكُث مثل ظَرُف .

قال غيره : والفتح أحسن لقوله تعالى : ﴿ مَّاكِثِينَ ﴾ [الكهف : 3] إذ هو من مكث ؛ يقال : مَكَث يَمكُث فهو ماكثٌ ؛ ومَكُث يمكُث مثل عَظُم يعظُم فهو مكِيثٌ ؛ مثل عظيم . ومَكُث يمكُث فهو ماكثٌ ؛ مثل حَمُض يَحمُض فهو حامض .

(41/577)

والضمير في ﴿ مَكَثَ ﴾ يحتمل أن يكون لسليمان ؛ والمعنى : بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل .

ويحتمل أن يكون للهدهد وهو الأكثر .

فجاء ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ وهي :

السادسة : أي علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا ردّ على من قال : إن الأنبياء تعلم الغيب .

وحكى الفراء "أَحَطُّ" يدغم التاء في الطاء .

وحكى "أَحَتُّ" بقلب الطاء تاء وتدغم .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أعلم سليمان ما لم يكن يعلمه ،

ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح .

وقرأ الجمهور : "سبإٍ" بالصرف .

وابن كثير وأبو عمرو "سَبَأَ" بفتح الهمزة وترك الصرف ؛ فالأوّل على أنه اسم رجل نسب إليه قوم ، وعليه قول الشاعر :

الواردون وتيم في ذُرَى سبإٍ . . .

قد عَضّ أعناقَهُمْ جلدُ الجواميسِ

وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل ، وقال : "سبأ" اسم مدينة تعرف بمأرب باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ؛ وأنشد للنابغة الجعدي :

من سَبَأَ الحاضِرِين مَأرِبَ إذْ . . .

يَبْنُون من دون سَيْلِهِ العَرِمَا

قال : فمن لم يصرف قال إنه اسم مدينة ، ومن صرف وهو الأكثر فلأنه اسم البلد فيكون مذكراً سمي به مذكر .

وقيل : اسم امرأة سميت بها المدينة .

والصحيح أنه اسم رجل ، كذلك في كتاب الترمذي من حديث فروة بن مُسَيْكٍ المرادي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : وسيأتي إن شاء الله تعالى .

قال ابن عطية : وخفي هذا الحديث على الزجاج فخبط عشواء .

وزعم الفرّاء أن الرُّؤاسيّ سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبإ فقال : ما أدري ما هو .

قال النحاس : وتأوّل الفرّاء على أبي عمرو أنه منعه من الصرف لأنه مجهول ، وأنه إذا لم يعرف الشيء لم ينصرف .

(42/577)

وقال النحاس : وأبو عمرو أجلُّ من أن يقول مثل هذا ، وليس في حكاية الرُّؤاسي عنه دليل أنه إنما منعه من الصرف لأنه لم يعرفه ، وإنما قال لا أعرفه ، ولو سئل نحويّ عن اسم فقال لا أعرفه لم يكن في هذا دليل على أنه يمنعه من الصرف ، بل الحق على غير هذا ؛ والواجب إذا لم يعرفه أن يصرفه ؛ لأن أصل الأسماء الصرف ؛ وإنما يمنع الشيء من الصرف لعلة داخلة عليه ؛ فالأصل ثابت بيقين فلا يزول بما لا يعرف .

وذكر كلاماً كثيراً عن النحاة وقال في آخره : والقول في "سبإ" ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل ، فإن صرفته فلأنه قد صار اسماً للحيّ ، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند سيبويه الصرف وحجته في ذلك قاطعة ؛ لأن هذا الاسم لما كان يقع له التذكير والتأنيث كان التذكير أولى ؛ لأنه الأصل والأخف .

الثامنة : وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك إذا

تحقّق ذلك وتيقنه .

هذا عمر بن الخطاب مع جلالته رضي الله عنه وعلمه لم يكن عنده علم بالاستئذان .

وكان علم التيمّم عند عمّار وغيره ، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا : لا يتيمم الجنب .

وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت .

وكان غسل رأس المحرم معلوماً عند ابن عباس وخفي عن المِسْوَر بن مَخْرَمة .

ومثله كثير فلا يطوّل به .

التاسعة : قوله تعالى : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ ﴾ لما قال الهدهد : ﴿ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ قال سليمان : وما ذلك الخبر ؟ قال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبإ .

ويقال : كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطّهِ وبين بلدها قريبة ، وهي من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب ؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة ، كما أخفى على يعقوب مكان يوسف .

ويروى أن أحد أبويها كان من الجن .

قال ابن العربي : وهذا أمر تنكره الملحِدة ، ويقولون : الجن لا يأكلون ولا يلدون ؛ كذبوا لعنهم الله أجمعين ؛ ذلك صحيح ونكاحهم جائز عقلاً فإن صح نقلاً فبها ونعمت .

قلت : خرج أبو داود من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال : قدم وفد من الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد انْهَ أمتك أن يستنجوا بعَظْم أو رَوْثة أو جمجمة فإن الله جاعل لنا فيها رزقاً .

وفي "صحيح مسلم" : فقال : " "لكم كل عَظْم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً وكل بعرة علف لدوابكم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن" " وفي "البخاري" " من حديث أبي هريرة قال : فقلت : ما بال العَظْم والرّوثة ؟ فقال : "هما من طعام الجن وإنه أتاني وفدُ جِنِّ نصيبين ونِعْم الجِنُّ فسألوني الزاد فدعوت الله تعالى ألا يمروا بعظم ولا رَوْثة إلا وجدوا عليها طعاماً" " وهذا كله نص في أنهم يطعمون .

وأما نكاحهم فقد تقدّمت الإشارة إليه في ﴿ سبحان ﴾ عند قوله : ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد ﴾ [الإسراء : 64] .

وروى وهيب بن جرير بن حازم عن الخليل بن أحمد عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم

بلقيس من الجنّ يقال لها بلعمة بنت شيصان .

وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

(44/577)

العاشرة : روى البخاريّ من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملّكوا بنت كسرى قال : " لن يُفلح قوم وَلَّوا أمرَهم امرأة " قال القاضي أبو بكر بن العربي : هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ؛ ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح ذلك عنه ، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ؛ ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدّمة على الحكم ، وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستنابة في القضية الواحدة ، وهذا هو الظن بأبي حنيفة وابن جرير .

وقد روي عن عمر أنه قدّم امرأة على حِسبة السوق .

ولم يصح فلا تلتفتوا إليه ، فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث .

وقد تناظر في هذه المسألة القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج بن طَرَار شيخ الشافعية ، فقال أبو الفرج : الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من

الأحكام تنفيذ القاضي لها ، وسماع البينة عليها ، والفصل بين الخصوم فيها ، وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل .

فاعترض عليه القاضي أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى ؛ فإن الغرض منه حفظ الثغور ، وتدبير الأمور وحماية البَيْضة ، وقبض الخراج ورده على مستحقه ، وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل .

قال ابن العربي : وليس كلام الشيخين في هذه المسألة بشيء ؛ فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس ، ولا تخالط الرجال ، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير ؛ لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليه وكلامها ، وإن كانت بَرْزَة لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم ، وتكون مناظرة لهم ؛ ولن يفلح قطّ من تصور هذا ولا من اعتقده .

الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة ؛ أي مما تحتاجه المملكة .

(45/577)

وقيل : المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئاً فحذف المفعول ؛ لأن الكلام دلّ عليه .

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي سرير ؛ ووصفه بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان .

قيل : كان من ذهب تجلس عليه .

وقيل : العرش هنا الملك ؛ والأوّل أصح ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ [النمل : 38] .

الزمخشري : فإن قلت كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم ؟ قلت : بين الوصفين بون عظيم ؛ لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض .

قال ابن عباس : كان طول عرشها ثمانين ذراعاً ، وعرضه أربعين ذراعاً ، وارتفاعه في السماء ثلاثين ذراعاً ، مكلل بالدر والياقوت الأحمر ، والزبرجد الأخضر .

قتادة : وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مُستَّراً بالديباج والحرير ، عليه سبعة مغاليق .

مقاتل : كان ثمانين ذراعاً ، وارتفاعه من الأرض ثمانون ذراعاً ، وهو مكلل بالجواهر .

ابن إسحاق : وكان يخدمها النساء ، وكان معها لخدمتها ستمائة امرأة .

قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها امرأة ملكت على مدائن اليمن ، ذات ملك عظيم ، وسرير عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار .

الثانية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ قيل : كانت هذه الأمة ممن يعبد الشمس ؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما يروى .

وقيل : كانوا مجوساً يعبدون الأنوار .

وروي عن نافع أن الوقف على ﴿ عرش ﴾ .

قال المهدوي : فعظيم على هذا متعلق بما بعده ، وكان ينبغي على هذا أن يكون عظيم أن وجدتها ؛ أي وجودي إياها كافرة .

وقال ابن الأنباري : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ وقف حسن ، ولا يجوز أن يقف على ﴿ عرش ﴾ ويبتدىء ﴿ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا ﴾ إلا على من فتح ؛ لأن عظيماً نعت لعرش فلو كان متعلقاً بوجدتها لقلت عظيمة وجدتها ؛ وهذا محال من كل وجه .

(46/577)

وقد حدّثني أبو بكر محمد بن الحسين بن شهريار ، قال : حدّثنا أبو عبد الله الحسين بن الأسود العِجليّ ، عن بعض أهل العلم أنه قال : الوقف على ﴿ عرش ﴾ والابتداء ﴿ عظيم ﴾ على معنى عظيم عبادتهم الشمس والقمر .

قال : وقد سمعت من يؤيد هذا المذهب ، ويحتج بأن عرشها أحقر وأدق شأناً من أن يصفه الله بالعظيم .

قال ابن الأنباري : والاختيار عندي ما ذكرته أوّلاً ؛ لأنه ليس على إضمار عبادة الشمس والقمر دليل .

وغير منكر أن يصف الهدهد عرشها بالعظيم إذ رآه متناهي الطول والعرض ؛ وجريه على إعراب ﴿ عرش ﴾ دليل على أنه نعته .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي ما هم فيه من الكفر .

﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ أي عن طريق التوحيد .

وبيّن بهذا أن ما ليس بسبيل التوحيد فليس بسبيل ينتفع به على التحقيق .

﴿ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الله وتوحيده .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو ونافع وعاصم وحمزة : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾ بتشديد ﴿ أَلاَ ﴾ قال ابن الأنباري : ﴿ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ غير تام لمن شدّد ﴿ أَلاَّ ﴾ لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا .

قال النحاس : هي ﴿ أن ﴾ دخلت عليها ﴿ لا ﴾ و ﴿ أن ﴾ في موضع نصب ؛ قال الأخفش : ب ﴿ زين ﴾ أي وزين لهم لئلا يسجدوا لله .

وقال الكسائي : ب ﴿ فصدّهم ﴾ أي فصدهم ألا يسجدوا .

وهو في الوجهين مفعول له .

وقال اليزيدي وعلي بن سليمان : ﴿ أن ﴾ بدل من ﴿ أعمالهم ﴾ في موضع نصب .

وقال أبو عمرو : و ﴿ أن ﴾ في موضع خفض على البدل من السبيل .

وقيل العامل فيها ﴿ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ أي فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ؛ أي لا يعلمون أن

ذلك واجب عليهم .

وعلى هذا القول ﴿ لا ﴾ زائدة ؛ كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12]

أي ما منعك أن تسجد .

(47/577)

وعلى هذه القراءة فليس بموضع سجدة ؛ لأن ذلك خبر عنهم بترك السجود ، إما بالتزيين ، أو بالصدّ ، أو بمنع الاهتداء .

وقرأ الزهري والكسائي وغيرهما : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ بمعنى ألا يا هؤلاء اسجدوا ؛ لأن ﴿ يا ﴾ ينادى بها الأسماء دون الأفعال .

وأنشد سيبويه :

يا لعنةُ اللَّهِ والأقوامِ كلِّهِمُ . . .

والصَّالحين على سِمْعَانَ من جَارِ

قال سيبويه : (يا) لغير اللعنة ، لأنه لو كان للعنة لنصبها ، لأنه كان يصير منادى مضافاً ، ولكن تقديره يا هؤلاء لعنة الله والأقوام على سِمعان .

وحكى بعضهم سماعاً عن العرب : ألا يا ارحموا ألا يا اصدُقوا .

يريدون ألا يا قوم ارحموا آصدُقوا ، فعلى هذه القراءة ﴿ اسْجُدُوا ﴾ في موضع جزم بالأمر والوقف على ﴿ أَلاَ يَا ﴾ ثم تبتدىء فتقول : ﴿ اسْجُدُوا ﴾ .

قال الكسائي : ما كنت أسمع الأشياخ يقرؤونها إلا بالتخفيف على نية الأمر .

وفي قراءة عبد الله : ﴿ أَلاَ هَلْ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ ﴾ بالتاء والنون .

وفي قراءة أبيّ "أَلاَ تَسْجُدُونَ لِلَّهِ" فهاتان القراءتان حجة لمن خفف .

الزجاج : وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون التشديد .

واختار أبو حاتم وأبو عبيدة قراءة التشديد .

وقال : التخفيف وجه حسن إلا أن فيه انقطاع الخبر من أمر سبأ ، ثم رجع بعد إلى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه .

ونحوه قال النحاس ؛ قال : قراءة التخفيف بعيدة ؛ لأن الكلام يكون معترضاً ، وقراءة التشديد يكون الكلام بها متسقاً ، وأيضاً فإن السواد على غير هذه القراءة ؛ لأنه قد حذف منها ألفان ، وإنما يختصر مثل هذا بحذف ألف واحدة نحو يا عيسى ابن مريم .

ابن الأنباري : وسقطت ألف ﴿ اسجدوا ﴾ كما تسقط مع هؤلاء إذا ظهر ، ولما سقطت ألف ﴿ يا ﴾ واتصلت بها ألف ﴿ اسْجُدُوا ﴾ سقطت ، فعد سقوطها دلالة على الاختصار وإيثاراً لما يخفّ وتقل ألفاظه .

وقال الجوهري في آخر كتابه : قال بعضهم : إن ﴿ يا ﴾ في هذا الموضع إنما هو للتنبيه كأنه قال : ألا اسجدوا لله ، فلما أدخل عليه ﴿ يا ﴾ للتنبيه سقطت الألف التي في ﴿ اسْجُدُوا ﴾ لأنها ألف وصل ، وذهبت الألف التي في ﴿ يا ﴾ لاجتماع الساكنين ؛ لأنها والسين ساكنتان .

قال ذو الرُّمّة :

أَلَا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيَّ على البِلَى . . .
وَلَا زَالَ مُنْهَلاًّ بجَرْعَائِكِ الْقَطْرُ

وقال الجرجانيّ : هو كلام معترض من الهدهد أو سليمان أو من الله .

أي ألا ليسجدوا كقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله ﴾ [الجاثية : 14] قيل : إنه أمر أي ليغفروا .

وتنتظم على هذا كتابة المصحف ؛ أي ليس ها هنا نداء .

قال ابن عطية : قيل هو من كلام الهدهد إلى قوله ﴿ العظِيمِ ﴾ وهو قول ابن زيد وابن إسحاق ؛ ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في معنى شرع .

ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم .

ويحتمل أن يكون من (قول) الله تعالى فهو اعتراض بين الكلامين وهو الثابت مع التأمل ،

وقراءة التشديد في ﴿ ألاّ ﴾ تعطي أن الكلام للهدهد ، وقراءة التخفيف تمنعه ، والتخفيف يقتضي الأمر بالسجود لله عز وجل للأمر على ما بيناه .

وقال الزمخشري : فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما ؟

قلت هي واجبة فيهما جميعاً ؛ لأن مواضع السجدة إمّا أمرٌ بها ، أو مدحٌ لمن أتى بها ، أو ذم (لمن) تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود والأخرى ذم للتارك .

قلت : وقد أخبر الله عن الكفار بأنهم لا يسجدون كما في "الانشقاق" وسجد النبي صلى الله عليه وسلم فيها ، كما ثبت في "البخاريّ" وغيره فكذلك "النمل" .

والله أعلم .

الزمخشري : وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه .

﴿ الذي يُخْرِجُ الخبء ﴾ خَبْء السماء قطرها ، وخَبْء الأرض كنوزها ونباتها .

(49/577)

وقال قتادة : الخَبْء السر .

النحاس : وهذا أولى .

أي ما غاب في السموات والأرض ، ويدلّ عليه ﴿ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

وقرأ عكرمة ومالك بن دينار : ﴿ الخب ﴾ بفتح الباء من غير همز .

قال المهدوي : وهو التخفيف القياسي ؛ وذكر من يترك الهمز في الوقف .

وقال النحاس : وحكى أبو حاتم أن عكرمة قرأ : ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا ﴾ بألف غير مهموزة ، وزعم أن هذا لا يجوز في العربية ، واعتلّ بأنه إن خفّف الهمزة ألقى حركتها على الباء فقال : ﴿ الْخَبَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وأنه إن حوّل الهمزة قال : الْخَبْيَ بإسكان الباء وبعدها ياء .

قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلده لم يلق أعلم منه .

وحكى سيبويه عن العرب أنها تبدل من الهمزة ألفاً إذا كان قبلها ساكن وكانت مفتوحة ، وتبدل منها واواً إذا كان قبلها ساكن وكانت مضمومة ، وتبدل منها ياء إذا كان قبلها ساكن وكانت مكسورة ؛ فتقول : هذا الْوَثْوُ وعجبت من الوَثْيِ ورأيت الْوَثَا ؛ وهذا من وَثَئَت يدُه ؛ وكذلك هذا الْخَبْوُ وعجبت من الخَبْيِ ، ورأيت الخَبَا ؛ وإنما فعل هذا لأن الهمزة خفيفة فأبدل منها هذه الحروف .

وحكى سيبويه عن قوم من بني تميم وبني أسد أنهم يقولون : هذا الخبأُ ؛ يضمون الساكن إذا كانت الهمزة مضمومة ، ويثبتون الهمزة ويكسرون الساكن إذا كانت الهمزة مكسورة ،

ويفتحون الساكن إذا كانت الهمزة مفتوحة .

وحكى سيبويه أيضاً أنهم يكسرون وإن كانت الهمزة مضمومة ، إلا أن هذا عن بني تميم ؛ فيقولون : الرِّدِيءُ ؛ وزعم أنهم لم يضموا الدال لأنهم كرهوا ضمة قبلها كسرة ؛ لأنه ليس في الكلام فِعُلٌ .

(50/577)

وهذه كلّها لغات داخلة على اللغة التي قرأ بها الجماعة ؛ وفي قراءة عبد الله ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَا مِنَ السَّمَوَاتِ ﴾ و ﴿ من ﴾ و ﴿ في ﴾ يتعاقبان ؛ تقول العرب : لأستخرجنّ العلم فيكم يريد منكم ؛ قاله الفراء .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قراءة العامة فيهما بياء ، وهذه القراءة تعطي أن الآية من كلام الهدهد ، وأن الله تعالى خصّه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس ، وإضافته للشيطان ، وتزيينه لهم ، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان ؛ من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لها .

وقرأ الجحدريّ وعيسى بن عمر وحفص والكسائي : ﴿ تُخْفُونَ ﴾ و ﴿ تُعْلِنُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب ؛ وهذه القراءة تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد

صلى الله عليه وسلم .

﴿ اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ قرأ ابن محيصن ﴿ العظِيمُ ﴾ رفعا نعتاً لله .

الباقون بالخفض نعتاً للعرش .

وخص بالذكر لأنه أعظم المخلوقات وما عداه في ضمنه وقبضته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(51/577)

وقال أبو حيان :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

الظاهر أنه تفقد جميع الطير ، وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والاهتمام بالرعايا .

قيل : وكان يأتيه من كل صنف واحد ، فلم ير الهدهد .

وقيل : كانت الطير تظله من الشمس ، وكان الهدهد يستر مكانه الأيمن ، فمسته الشمس ، فنظر إلى مكان الهدهد ، فلم يره .

وعن عبد الله بن سلام : أن سليمان عليه السلام نزل بمفازة لا ماء فيها ، وكان الهدهد يرى

ظاهر الأرض وباطنها ، وكان يخبر سليمان بذلك ، فكانت الجن تخرجه في ساعة تسلخ الأرض كما تسلخ الشاة ، فسأل عنه حين حلوا تلك المفازة ، لاحتياجهم إلى الماء .

وفي قوله ﴿ وتفقد الطير ﴾ دلالة على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم .

وقال عمر رضي الله عنه : لو أن سخلة على شاطىء الفرات أخذها الذئب لسئل عنها عمر ، وفي الكلام محذوف ، أي فقد الهدهد حين تفقد الطير .

قال ابن عطية وقوله : ﴿ ما لي لا أرى الهدهد ﴾ ، مقصد الكلام الهدهد ، غاب ولكنه أخذ اللازم عن مغيبه ، وهو أن لا يراه ، فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم ، وهذا ضرب من الإيجاز والاستفهام الذي في قوله : ﴿ ما لي ﴾ ، ناب مناب الألف التي تحتلجها أم . انتهى .

فظاهر هذا الكلام أن أم متصلة ، وأن الاستفهام الذي في قوله : ما لي ، ناب مناب ألف الاستفهام ، فمعناه عنده : أغاب عني الآن فلم أره حالة التفقد ؟ أم كان ممن غاب قبل ولم أشعر بغيبته ؟ وقال الزمخشري : أم هي المنقطعة ، نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره فقال : ﴿ ما لي لا أرى الهدهد ﴾ ؟ على معنى : أنه لا يراه ، وهو حاضر ، لساتر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب ، فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : أهو غائب ؟ كأنه سأل صحة ما لاح له ، ونحوه قولهم : إنها لإبل أم شاء ؟ انتهى .

والصحيح أن أم في هذا هي المنقطعة ، لأن شرط المتصلة تقدم همزة الاستفهام ، فلو تقدمها أداة الاستفهام غير الهمزة ، كانت أم منقطعة ، وهنا تقدم ما ، ففات شرط المتصلة .

وقيل : يحتمل أن تكون من المقلوب وتقديره : ما للهدهد لا أراه ؟ ولا ضرورة إلى ادعاء القلب .

وفي الكشاف ، أن سليمان لما تم له بناء بيت المقدس ، تجهز للحج ، فوافى الحرم وأقام به ما شاء ، ثم عزم على المسير إلى اليمن ، فخرج من مكة صباحاً يؤم سهيلاً ، فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضاً حسناء أعجبته خضرتها ، فنزل ليتغدى ويصلي ، فلم يجد الماء ، وكان الهدهد يأتيه ، وكان يرى الماء من تحت الأرض .

وذكر أنه كان الجن يسلخون الأرض حتى يظهر الماء .

﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ : أبهم العذاب الشديد ، وفي تعيينه أقوال متعارضة ، والأجود أن يجعل أمثلة .

فعن ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جريج : نتف ريشه .

وقال ابن جريج : ريشه كله .

وقال يزيد بن رومان : جناحه .

وقال ابن وهب : نصفه ويبقى نصفه .

وقيل : يزاد مع نتفه تركه للشمس .

وقيل : يحبس في القفص .

وقيل : يطلى بالقطران ويشمس .

وقيل : ينتف ويلقى للنمل .

وقيل : يجمع مع غير جنسه .

وقيل : يبعد من خدمة سليمان عليه السلام .

وقيل : يفرق بينه وبين إلفه .

وقيل : يلزم خدمة امرأته ، وكان هذا القول من سليمان غضباً لله ، حيث حضرت الصلاة وطلب الماء للوضوء فلم يجده ، وأباح الله له ذلك للمصلحة ، كما أباح البهائم والطيور للأكل ، وكما سخر له الطير ، فله أن يؤذّيه إذا لم يأت ما سخر له .

وقرأ الجمهور : أو ليأتيني ، بنون مشددة بعدها ياء المتكلم ، وابن كثير : بنون مشددة بعدها نون الوقاية بعد الياء ؛ وعيسى بن عمر : بنون مشددة مفتوحة بغير ياء .

والسلطان المبين : الحجة والعذر ، وفيه دليل على الإغلاظ على العاصين وعقابهم .

وبدأ أولاً بأخف العقابين ، وهو التعذيب ؛ ثم أتبعه بالأشد ، وهو إذهاب المهجة بالذبح ، وأقسم على هذين لأنهما من فعله ، وأقسم على الإتيان بالسلطان وليس من فعله .

لما نظم الثلاثة في الحكم بأو ، كأنه قال : ليكونن أحد الثلاثة ، والمعنى : إن أتى بالسلطان ، لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإلا كان أحدهما .

ولا يدل قسمه على الإتيان على ادعاء دراية ، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحي من الله بأنه يأتيه بسلطان ، فيكون قوله : ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ عن دراية وإيقان .

وقرأ الجمهور : فمكث ، بضم الكاف ؛ وعاصم ، وأبو عمرو في رواية الجعفي ، وسهل ، وروح : بضمها .

وفي قراءة أبيّ : فيمكث ، ثم قال : وفي قراءة عبد الله : فيمكث ، فقال : وكلاهما في الحقيقة تفسير لا قراءة ، لمخالفة ذلك سواد المصحف ، وما روي عنهما بالنقل الثابت .

والظاهر أن الضمير في فمكث عائد على الهدهد ، أي غير زمن بعيد ، أي عن قرب .

ووصف مكثه بقصر المدة ، للدلالة على إسراعه ، خوفاً من سليمان ، وليعلم كيف كان الطير مسخراً له ، ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوته وعلى قدرة الله .

وقيل : وقف مكاناً غير بعيد من سليمان ، وكأنه فيما روي ، حين نزل سليمان حلق

الهدهد ، فرأى هدهداً ، فانحط عليه ووصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس وعظم منه ، وذهب معه لينظر ، فما رجع إلا بعد العصر .

وقيل : الضمير في فمكث لسليمان .

(54/577)

وقيل : يحتمل أن يكون لسليمان وللهدهد ، وفي الكلام حذف ، فإن كان غير بعيد زماناً ، فالتقدير : فجاء سليمان ، فسأله : ما غيبك ؟ فقال : أحطت ؛ وإن كان مكاناً ، فالتقدير : فجاء فوقف مكاناً قريباً من سليمان ، فسأله : ما غيبك ؟ وكان فيما روي قد علم بما أقسم عليه سليمان ، فبادر إلى جوابه بما يسكن غيظه عليه ، وهو أن غيبته كانت لأمر عظيم عرض له ، فقال : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ، وفي هذا جسارة من لديه علم ، لم يكن عند غيره ، وتبجحه بذلك ، وإبهام حتى تتشوف النفس إلى معرفة ذلك المبهم ما هو .

ومعنى الإحاطة هنا : أنه علم علماً ليس عند نبي الله سليمان .

قال الزمخشري : ألهم الله الهدهد ، فكافح سليمان بهذا الكلام ، على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له في علمه ، وتنبيهاً

على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به سليمان ، لتتحاقر إليه نفسه ويصغر إليه علمه ، ويكون لطفاً له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة ، والإحاطة بالشيء علماً أن يعلم من جميع جهاته ، لا يخفى منه معلوم ، قالوا : وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه أعلم منه .

انتهى .

ولما أبهم في قوله : ﴿ بما لم تحط ﴾ ، انتقل إلى ما هو أقل منه إبهاماً ، وهو قوله : ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ ، إذ فيه إخبار بالمكان الذي جاء منه ، وأنه له علم بخبر مستيقن له .

وقرأ الجمهور : من سبأ ، مصروفاً ، هذا وفي : ﴿ لقد كان لسبأ ﴾ وابن كثير ، وأبو عمرو : بفتح الهمزة ، غير مصروف فيهما ، وقنبل من طريق النبال : بإسكانها فيهما .

فمن صرفه جعله اسماً للحي أو الموضع أو للأب ، كما في حديث فروة بن مسيك وغيره ، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أنه اسم رجل ولد عشرة من الولد ، تيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة .

(55/577)

والستة : حمير ، وكندة ، والأزد ، وأشعر ، وخثعم ، وبجيلة ؛ والأربعة : لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان " وكان سبأ رجلاً من قحطان اسمه عبد شمس .

وقيل : عامر ، وسمي سبأ لأنه أول من سبا ، ومن منعه الصرف جعله اسماً للقبيلة أو البقعة ، وأنشدوا على الصرف :

الواردون وتيم في ذرى سبأ . . .

قد عض أعناقهم جلد الجواميس

ومن سكن الهمزة ، فلتوالي الحركات فيمن منع الصرف ، وإجراء للوصل مجرى الوقف .

وقال مكي : الإسكان في الوصل بعيد غير مختار ولا قوي . انتهى .

وقرأ الأعمش : من سبأ ، بكسر الهمزة من غير تنوين ، حكاها عنه ابن خالويه وابن عطية ، ويبعد توجيهها .

وقرأ ابن كثير في رواية : من سبأ ، بتنوين الباء على وزن رحى ، جعله مقصوراً مصروفاً .

وذكر أبو معاذ أنه قرأ من سبأ : بسكون الباء وهمزة مفتوحة غير منونة ، بناه على فعلى ، فامتنع الصرف للتأنيث اللازم .

وروى ابن حبيب ، عن اليزيدي : من سبأ ، بألف ساكنة ، كقولهم : تفرقوا أيدي سبا .

وقرأت فرقة : بنبأ ، بألف عوض الهمزة ، وكأنها قراءة من قرأ : لسبا ، بالألف ، لتتوازن الكلمتان ، كما توازنت في قراءة من قرأهما بالهمز المكسور والتنوين .

وقال في التحرير : إن هذا النوع في علم البديع يسمى بالترديد ، وفي كتاب التفريع بفنون البديع .

إن الترديد رد أعجاز البيوت على صدورها ، أو رد كلمة من النصف الأول إلى النصف الثاني ، ويسمى أيضاً التصدير ، فمثال الأول قوله :

سريع إلى ابن العم يجبر كسره . . .

وليس إلى داعي الخنا بسريع

ومثال الثاني قوله :

والليالي إذا نأيتم طوال . . .

والليالي إذا دنوتم قصار

وذكر أن مثل : ﴿ من سبأ بنبأ ﴾ ، يسمى تجنيس التصريف ، قال : وهو أن تنفرد كل كلمة من الكلمتين عن الأخرى بحرف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴾ ، وما ورد في الحديث : " الخيل معقود في نواصيها الخير " وقال الشاعر :

لله ما صنعت بنا . . .

وقال الزمخشري : وقوله : ﴿ من سبأ بنبأ ﴾ ، من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ ، بشرط أن يجيء مطبوعاً ، أو بصيغة عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده .

ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة ، فحسن وبدع لفظاً ومعنى .

ألا ترى لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحاً ؟ وهو كما جاء أصح ، لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال . انتهى .

والزيادة التي أشار إليها هي أن النبأ لا يكون إلا الخبر الذي له شأن ، ولفظ الخبر مطلق ، ينطلق على ما له شأن وما ليس له شأن .

ولما أبهم الهدهد أولاً ، ثم أبهم ثانياً دون الإبهام ، صرح بما كان أبهمه فقال : ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ .

ولا يدل قوله : ﴿ تملكهم ﴾ على جواز أن تكون المرأة ملكة ، لأن ذلك كان من فعل قوم بلقيس ، وهم كفار ، فلا حجة في ذلك .

وفي صحيح البخاري ، من حديث ابن عباس ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ، لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " ونقل عن محمد

بن جرير أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ، ولم يصح عنه .

ونقل عن أبي حنيفة أنها تقضي فيما تشهد فيه ، لا على الإطلاق ، ولا أن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم ، وإنما ذلك على سبيل التحكم والاستنابة في القضية الواحدة .

ومعنى وجدت هنا : أصبت ، والضمير في تملكهم عائد على سبأ ، إن كان أريد القبيلة ، وإن أريد الموضع ، فهو على حذف ، أي وجئتك من أهل سبأ .

والمرأة بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها ملك اليمن كلها ، وقد ولد له أربعون ملكاً ، ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت على الملك ، وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس .

واختلف في اسم أبيها اختلافاً كثيراً .

(57/577)

قيل : وكانت أمها جنية تسمى ريحانة بنت السكن ، تزوجها أبوها ، إذ كان من عظمه لم ير أن يتزوج أحداً من ملوك زمانه ، فولدت له بلقيس ، وقد طولوا في قصصها بما لم يثبت في القرآن ، ولا الحديث الصحيح .

وبدأ الهدهد بالإخبار عن ملكها ، وأنها ﴿ أوتيت من كل شيء ﴾ ، وهذا على سبيل

المبالغة ، والمعنى : من كل شيء احتاجت إليه ، أو من كل شيء في أرضها .

وبين قول الهدهد ذلك ، وبين قول سليمان : ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ فرق ، وذلك أن سليمان عطف على قوله : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ ، وهو معجزة ، فيرجع أولاً إلى ما أوتي من النبوة والحكمة وأسباب الدين ، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا ، وعطف الهدهد على الملك ، فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها .

﴿ ولها عرش عظيم ﴾ ، قال ابن زيد : هو مجلسها .

وقال سفيان : هو كرسيها ، وكان مرصعاً بالجواهر ، وعليه سبعة أبواب .

وذكروا من وصف عرشها أشياء ، الله هو العالم بحقيقة ذلك ، واستعظام الهدهد عرشها ، إما لاستصغار حالها أن يكون لها مثل هذا العرش ، وإما لأن سليمان لم يكن له مثله ، وإن كان عظيم المملكة في كل شيء ، لأنه قد يوجد لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون للملك الذي هو تحت طاعته .

ولما كان سليمان قد آتاه الله من كل شيء ، وكان له عرش عظيم ، أخبره بهذا النبأ العظيم ، حيث كان في الدنيا من يشاركه فيما يقرب من ذلك .

ولم يلتفت سليمان لذلك ، إذ كان معرضاً عن أمور الدنيا .

فانتقل الهدهد إلى الإخبار إلى ما يتعلق بأمور الدين ، وما أحسن انتقالات هذه الأخبار بعد تهدد الهدهد وعلمه بذلك ، أخبر أولاً باطلاعه على ما لم يطلع عليه سليمان ، تحصناً

من العقوبة ، بزينة العلم الذي حصل له ، فتشوف السامع إلى علم ذلك .

ثم أخبرنا ثانياً يتعلق ذلك العلم ، وهو أنه من سبأ ، وأنه أمر متيقن لا شك فيه ، فزاد تشوف السامع إلى سماع ذلك النبأ .

(58/577)

ثم أخبر ثالثاً عن الملك الذي أوتيته امرأة ، وكان سليمان عليه السلام قد سأل الله أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده .

ثم أخبر رابعاً ما ظاهره الإشتراك بينه وبين هذه المرأة التي ليس من شأنها ولا شأن النساء أن تملك فحول الرجال ، وهو قوله : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ ، وقوله : ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ ، وكان سليمان له بساط قد صنع له ، وكان عظيماً .

ولما لم يتأثر سليمان للإخبار بهذا كله ، إذ هو أمر دنياوي ، أخبره خامساً بما يهزه لطلب هذه الملكة ، ودعائها إلى الإيمان ، وإفراده بالعبادة فقال : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ ، وقد تقدم القول : إنهم كانوا مجوساً يعبدون الأنوار ، وهو قول الحسن .

وقيل : كانوا زنادقة .

وهذه الإخبارات من الهدهد كانت على سبيل الاعتذار عن غيبته عن سليمان ، وعرف أن مقصد سليمان الدعاء إلى توحيد الله والإيمان به ، فكان ذلك عذراً واضحاً أزال عنه العقوبة التي كان سليمان قد توعده بها .

وقام ذلك الإخبار مقام الإيقان بالسلطان المبين ، إذ كان في غيبته مصلحة لإعلام سليمان بما كان خافياً عنه ، ومآله إلى إيمان الملكة وقومها .

وخفي ملك هذه المرأة ومكانها على سليمان ، وإن كانت المسافة بينهما قريبة ، كما خفي ملك يوسف على يعقوب ، وذلك لأمر أراده الله تعالى .

قال الزمخشري : ومن نوكي القصاص من يقف على قوله : ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ ، وجدتها يريد أمر عظيم ، إن وجدتها فر من استعظام الهدهد عرشها ، فوقع في عظيمة وهي نسخ كتاب الله . انتهى .

وقال أيضاً فإن قلت : من أين للهدهد الهدى إلى معرفة الله ووجوب السجود له ، وإنكار السجود للشمس ، وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟ قلت : لا يبعد أن يلهمه الله ذلك ، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة الت لا تكاد العقلاء يهتدون لها .

(59/577)

ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان خصوصاً في زمان نبي سخرت له الطيور وعلم منطقها ، وجعل ذلك معجزة له . انتهى .

وأسند التزيين إلى الشيطان ، إذ كان هو المتسبب في ذلك بأقدار الله تعالى .

﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ ، أي الشيطان ، أو تزيينه عن السبيل وهو الإيمان بالله وإفراده بالعبادة .

﴿ فهم لا يهتدون ﴾ ، أي إلى الحق .

وقرأ ابن عباس ، وأبو جعفر ، والزهري ، والسلمي ، والحسن ، وحميد ، والكسائي : ألا ، بتخفيف لام الألف ، فعلى هذا له أن يقف على : ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ ، ويبتدىء على : ﴿ ألا يسجدوا ﴾ .

قال الزمخشري : وإن شاء وقف على ألا يا ، ثم ابتدأ اسجدوا ، وباقي السبعة : بتشديدها ، وعلى هذا يصل قوله : ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ بقوله : ﴿ ألا يسجدوا ﴾ .

وقال الزمخشري : وفي حرف عبد الله ، وهي قراءة الأعمش : هلا وهلا ، بقلب الهمزتين هاء ، وعن عبد الله : هلا يسجدون ، بمعنى : ألا تسجدون ، على الخطاب .

وفي قراءة أبي : ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون ، انتهى .

وقال بن عطية : وقرأ الأعمش : هلا يسجدون ؛ وفي حرف عبد الله : ألا هل تسجدون ،

بالتاء ، وفي قراءة أبي : ألا تسجدون ، بالتاء أيضاً ؛ فأما قراءة من أثبت النون في يسجدون ، وقرأ بالتاء أو الياء ، فتخريجها واضح .

وأما قراءة باقي السبعة فخرجت على أن قوله : ﴿ ألا يسجدوا ﴾ في موضع نصب ، على أن يكون بدلاً من قوله : ﴿ أعمالهم ﴾ ، أي فزين لهم الشيطان أن لا يسجدوا .

وما بين المبدل منه والبدل معترض ، أو في موضع جر ، على أن يكون بدلاً من السبيل ، أي نصدهم عن أن لا يسجدوا .

وعلى هذا التخريج تكون لا زائدة ، أي فصدهم عن أن يسجدوا لله ، ويكون ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ معترضاً بين المبدل منه والبدل ، ويكون التقدير : لأن لا يسجدوا .

(60/577)

وتتعلق اللام إما بزين ، وإما بقصدهم ، واللام الداخلة على أن داخلة على مفعول له ، أي علة تزيين الشيطان لهم ، أو صدهم عن السبيل ، هي انتفاء سجودهم لله ، أو لخوفه أن يسجدوا لله .

وقال الزمخشري : ويجوز أن تكون لا مزيدة ، ويكون المعنى فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا . انتهى .

وأما قراءة ابن عباس ومن وافقه ، فخرجت على أن تكون ألا حرف استفتاح ، ويا حرف نداء ، والمنادى محذوف ، واسجدوا فعل أمر ، وسقطت ألف يا التي للنداء ، وألف الوصل في اسجدوا ، إذ رسم المصحف يسجدوا بغير ألفين لما سقطا لفظاً سقطا خطاً . ومجيء مثل هذا التركيب موجود في كلام العرب .

قال الشاعر :

ألا يا اسلمي ذات الدمالج والعقد . . .

وقال :

ألا يا اسقياني قبل غارة سنجال . . .

وقال :

ألا يا اسلمي يا دارميّ على البلى . . .

وقال :

ألا يا اسقياني قبل حبل أبي بكر . . .

وقال :

فقالت ألا يا اسمع أعظك بخطبة . . .

فقلت سمعنا فانطقي وأصيبي

وقال :

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر . . .

وإن كان جباناً عدا آخر الدهر

وسمع بعض العرب يقول :

ألا يا ارحمونا ألا تصدّقوا علينا . . .

ووقف الكسائي في هذه القراءة على يا ، ثم يبتدىء اسجدوا ، وهو وقف اختيار لا اختبار ، والذي أذهب إليه أن مثل هذا التركيب الوارد عن العرب ليست يا فيه للنداء ، وحذف المنادى ، لأن المنادى عندي لا يجوز حذفه ، لأنه قد حذف الفعل العامل في النداء ، وانحذف فاعله لحذفه .

ولو حذفنا المنادى ، لكان في ذلك حذف جملة النداء ، وحذف متعلقه وهو المنادي ، فكان ذلك إخلالاً كبيراً .

وإذا أبقينا المنادى ولم نحذفه ، كان ذلك دليلاً على العامل فيه جملة النداء .

وليس حرف النداء حرف جواب ، كنعم ، ولا ، وبلى ، وأجل ؛ فيجوز حذف الجمل بعدهنّ لدلالة ما سبق من السؤال على الجمل المحذوفة .

(61/577)

فـيا عندي في تلك التراكيب حرف تنبيه أكد به ألا التي للتنبيه ، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين ، ولقصد المبالغة في التوكيد ، وإذا كان قد وجد التأكيد في اجتماع الحرفين المختلفي اللفظ العاملين في قوله :

فأصبحن لا يسألنني عن بما به . . .

والمتفقي اللفظ العاملين في قوله :

ولا للما بهم أبداً دواء . . .

وجاز ذلك ، وإن عدوه ضرورة أو قليلاً ، فاجتماع غير العاملين ، وهما مختلفا اللفظ ، يكون جائزاً ، وليس يا في قوله :

يا لعنة الله والأقوام كلهم . . .

حرف نداء عندي ، بل حرف تنبيه جاء بعده المبتدأ ، وليس مما حذف منه المنادى لما ذكرناه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً ، أو في واحدة منهما : قلت : هي واجبة فيهما ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذمّ للتارك ؛ وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد فغير مرجوع إليه ، انتهى .

والخبء : مصدر أطلق على المخبوء ، وهو المطر والنبات وغيرهما مما خبأه تعالى من

غيوبه .

وقرأ الجمهور : الخبء ، بسكون الباء والهمزة .

وقرأ أبيّ ، وعيسى : بنقل حركة الهمزة إلى الباء وحذف الهمزة .

وقرأ عكرمة : بألف بدل الهمزة ، فلزم فتح ما قبلها ، وهي قراءة عبد الله ، ومالك بن دينار .

ويخرج على لغة من يقول في الوقف : هذا الخبو ، ومررت بالخبي ، ورأيت الخبا ، وأجرى الوصل مجرى الوقف .

وأجاز الكوفيون أن تقول في المرأة والكمأة : المرأة والكمأة ، فيبدل من الهمزة ألفاً ، فتفتح ما قبلها ، فعلى قولهم هذا يجوز أن يكون الخبأ منه .

قيل : وهي لغة ضعيفة ، وإجراء الوصل مجرى الوقف أيضاً نادر قليل ، فيعادل التخريجان .

ونقل الحركة إلى الباء ، وحذف الهمزة ، حكاه سيبويه ، عن قوم من بني تميم وبني أسد .

وقراءة الخبا بالألف ، طعن فيها أبو حاتم وقال : لا يجوز في العربية ، قال : لأنه إن حذف الهمزة ألقى حركتها على الباء فقال : الخب ، وإن حولها قال : الخبي ، بسكون الباء وياء بعدها .

قال المبرد : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ، ولم يلحق بهم ، إلا أنه إذا خرج من بلدتهم لم يلق أعلم منه .

والظاهر أن ﴿ في السموات ﴾ متعلق بالخبء ، أي المخبوء في السموات .

وقال الفراء في ومن يتعاقبان بقول العرب : لأستخرجن العلم فيكم ، يريد منكم . انتهى .

فعلى هذا يتعلق بيخرج ، أي من في السموات .

ولما كان الهدهد قد أوتي من معرفة الماء تحت الأرض ما لم يؤت غيره ، وألهمه الله تعالى ذلك ، كان وصفه ربه تعالى بهذا الوصف الذي هو قوله : ﴿ الذي يخرج الخبء ﴾ ، إذ كل مختص بوصف من علم أو صناعة ، يظهر عليه مخايل ذلك الوصف في روائه ومنطقه وشمائله ، ولذلك ورد " ما عمل عبد عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله " وقرأ الحرميان والجمهور : ما يخفون وما يعلنون ، بياء الغيبة ، والضمير عائد على المرأة وقومها .

وقرأ الكسائي وحفص : بتاء الخطاب ، فاحتمل أن يكون خطاباً لسليمان عليه السلام والحاضرين معه ، إذ يبعد أن تكون محاورة الهدهد لسليمان ، وهما ليس معهما أحد .

وكما جاز له أن يخاطبه بقوله : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ، جاز أن يخاطبه والحاضرين

معه بقوله : ﴿ ما تخفون وما تعلنون ﴾ ، بل خطابه بهذا ليس فيه ظهور شغوف بخلاف ذلك الخطاب .

والظاهر أن قوله : ﴿ ألا يسجدوا ﴾ إلى العظيم من كلام الهدهد .

وقيل : من كلام الله تعالى لأمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عطية : القراءة بياء الغيبة تعطي أن الأية من كلام الهدهد ، وبتاء الخطاب تعطي أنها من خطاب الله عز وجل لأمة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

(63/577)

وقال صاحب الغنيان : لما ذكر الهدهد عرش بلقيس ووصفه بالعظم ، رد الله عز وجل عليه وبين أن عرشه تعالى هو الموصوف بهذه الصفة على الحقيقة ، إذ لا يستحق عرش دونه أن يوصف بالعظمة .

وقيل : إنه من تمام كلام الهدهد ، كأنه استدرك ورد العظمة من عرش بلقيس إلى عرش الله .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظم ؟ قلت : بين الوصفين فرق ، لأن وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالإضافة إلى

عروش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض . انتهى .

وقرأ ابن محيصن وجماعة : العظيم بالرفع ، فاحتمل أن تكون صفة للعرش ، وقطع على إضمار هو على سبيل المدح ، فتستوي قراءته وقراءة الجمهور في المعنى .

واحتمل أن تكون صفة للرب ، وخص العرش بالذكر ، لأنه أعظم المخلوقات ، وما عداه في ضمنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(64/577)

وقال أبو السعود :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾ أي تعرَّف أحوالَ الطيرِ فلم يرَ الهُدهدَ فيما بينها . ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين ﴾ كأنَّه قال أولاً : ما لِيَ لا أراه لساترٍ سترَه أو لسببٍ آخرَ ثمَّ بدا له أنَّه غائبٌ فأضربَ عنْه فأخذَ يقولُ أهو غائبٌ ﴿ لاعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ قيلَ : كان تعذيبُه للطيرِ بنتفِ ريشِه وتشميسِه ، وقيلَ : بجعلِه مع ضدِّه في قفصٍ ، وقيل : بالتفريق بينه وبين إلفِه . ﴿ أَوْ لاَذْبَحَنَّهُ ﴾ ليعتبرَ به أبناءُ جنسهِ ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بسلطان مُّبِينٍ ﴾ بحجَّةٍ تبينُ عذرَهُ . والحَلِفُ في الحقيقةِ على أحدِ الأَولينِ على تقديرِ عدمِ الثَّالث .

وقُرِىء ليأتينَّني بنونينِ أولاهُما مفتوحةٌ مشددةٌ . قيلَ : إنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لما أتمَّ بيتَ المقدسِ تجهَّزَ للحجِّ بحشرِه فوَافى الحرمَ وأقامَ به ما شاء ، وكان يقرِّب كلَّ يومٍ طولَ مقامِه خمسةَ آلافِ ناقةٍ وخمسةَ آلافِ بقرةٍ وعشرينَ ألفَ شاةٍ ثم عزمَ على السيرِ إلى اليمنِ فخرج من مكةَ صباحاً يؤمُّ سُهَيلاً فوافى صنعاءَ وقتَ الزَّوالِ وذلكَ مسيرةَ شهرٍ فرأى أرضاً حسناءَ أعجبتْهُ خضرتُها فنزل ليتغدَّى ويصلِّي فلم يجد الماءَ وكان الهدهدُ قناقه وكان يَرَى الماءَ من تحتِ الأرضِ كما يَرَى الماءَ في الزُّجاجةِ فيجيءُ الشياطينُ فيسلخونَها كما يُسلخُ الأهابُ ويستخرجون الماءَ فتفقَّده لذلك وقد كانَ حين نزلَ سليمانُ عليه السلام حلَّق الهدهُد فرأى هدهداً واقعاً فانحطَّ إليه فوصفَ له ملكَ سليمانَ عليه السَّلام وما سُخِّر له عن كلِّ شيءٍ وذكر له صاحبُه ملكَ بلقيسَ وأنَّ تحت يدِها اثني عشرَ ألفَ قائدٍ تحت يد كلِّ قائدٍ مائةُ ألفٍ . وذهبَ معه لينظرَ فما رجع إلا بعدَ العصرِ .

(65/577)

وقولُه تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي زماناً غيرَ مديدٍ . وقُرِىء بضمِّ الكافِ . وذُكر أنَّه وقعتْ نفحةٌ من الشمس على رأسِ سليمانَ عليه السَّلام فنظر فإذا موضعُ الهدهدِ خالٍ فدعا عرِّيفَ الطيرِ وهو النَّسر فسألَه عنه فلم يجدْ عنده علمَه ثم قال لسيدِ الطيرِ وهو

العُقابُ عليَّ به فارتفعتْ فنظرتْ فإذا هو مقبلٌ فقصدتْهُ فناشدها الله وقال بحقِّ الله الذي قوّاكِ وأقدركِ عليَّ إلاَّ رحِمتِني فتركتْهُ . وقالتْ : ثكلتكَ أمُّك . إنَّ نبيَّ الله قد حلفَ ليعذبنَّك . قال : وما استثنَى . قالتْ : بَلَى ، قَالَ : أو ليأتينّي بعذرٍ مبينٍ ، فلمَّا قرُب من سليمانَ عليه السَّلامِ أَرْخى ذنبَه وجناحيه يجرُّها على الأرضِ تواضعاً له فلما دنا منه أخذ عليه السَّلام برأسه فمدَّه إليه ، فقال : يا نبيَّ الله اذكرُ وقوفكَ بين يَدَي الله تعالى ، فارتعدَ سليمانُ عليه السَّلام وعفا عنه ثم سأَله ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي علماً ومعرفةً وحفظتُه من جميعِ جهاتِه . وقُرِىء أحطتُ بادغامِ الطَّاءِ في التَّاءِ بإطباقٍ وبغيرِ إطباقٍ . ولاخفاءَ في أنَّه لم يُرد بما ادَّعى الإحاطةَ به ما هو من حقائق العلومِ ودقائقِ المعارفِ التي تكونُ معرفتُها والإحاطةُ بها من وظائف أربابِ العلمِ والحكمةِ لتوقفها على علمٍ رصينٍ وفضلٍ مبينٍ حتَّى يكونَ إثباتُها لنفسه بين يدي نبيِّ الله سليمانَ عليه السَّلام تعدِّياً عن طورِه وتجاوزاً عن دائرة قدرِه ، ونفيُها عنه عليه الصَّلاة والسَّلام جنايةً على جنايةٍ ، فيُحتاجَ إلى الاعتذار عنه بأنَّ ذلك كان منه بطريق الإلهامِ فكافَحه عليه الصَّلاة والسَّلام بذلك مع ما أُوتي عليه الصَّلاة والسَّلام من فضل النُّبوة والحكمةِ والعلومِ الجمَّة والإحاطةِ بالمعلوماتِ الكثيرةِ ابتلاءً له عليه الصَّلاة والسَّلام في علمِه ، وتنبيهاً على أنَّ في أدنى خلقِه تعالى وأضعفِهم من أحاطَ علماً

بما لم يُحط به لتتحاقر إليه نفسُه ويتصاغر إليه علمُه ويكون لطفاً له في تركِ الاعجاب الذي هو فتنةُ العلماء بل أرادَ به ما هو من الأمورِ المحسوسةِ التي لا تُعد الإحاطةُ بها فضليةً ولا الغفلةُ عنها نقيصةً لعدم توقف إدراكِها إلا على مجردِ إحساسٍ يستوى فيه العقلاءُ وغيرُهم . وقد علم أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يشاهدْهُ ولم يسمعْ خبره من غيرِه قطعاً فعبَّر عنه بما ذُكر لترويج كلامِه عنده عليه الصَّلاة والسَّلام وترغيبهِ في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالةِ قلبهِ نحو قبولِه فإنَّ النفسَ للإعتذارِ المُنبىءِ عن أمرٍ بديعٍ أقبلُ وإلى تلقّي ما لا تعلمُه أميلُ ثم أيَّده بقولِه . ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ حيثُ فسَّر إبهامَه نوعَ تفسيرٍ وأراه عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه كان بصدد إقامةِ خدمةٍ مهمةٍ له حيثُ عبَّر عمَّا جاء به بالنبأِ الذي هو الخبرُ الخطيرُ والشَّأنُ الكبيرُ ووصفَهُ بما وصفَهُ وإلاَّ فماذا صدرَ عنهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع ما حُكي عنه ما حُكي من الحمد والشُّكرِ واستدعاءِ الإيزاعِ حتَّى يليقَ بالحكمة الإلهيةِ تنبيهُه عليه الصَّلاة والسَّلام على تركِه .

(67/577)

وسبأٌ منصرفٌ على أنَّه اسمٌ لحيَ سُمُّوا باسم أبيهم الأكبرِ وهو سبأُ بنُ يشجبَ بنِ يعرُبَ بنِ قَحطانَ. قالُوا اسمُه عبدُ شمسٍ لُقِّب به لكونه أوَّلَ مَنْ سَبَى. وقُرِىء بفتحِ الهمزةِ غيرَ مُنصرفٍ على أنَّه اسمٌ للقبيلةِ ثمَّ سُميت مدينةُ مأربَ بسبأٍ وبينها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثٍ. وعلى هذه القراءةِ يجوزُ أنْ يرادَ به القبيلةُ والمدينةُ، وأمَّا على القراءةِ الأُولى فالمرادُ هو الحيُّ لا غيرُ. وعدمُ وقوفِ سليمانَ عليه السَّلامُ على نبئِهم قبلَ إنباءِ الهُدهدِ ليس بأمرٍ بديعٍ لا بدَّ له من حكمةٍ داعيةٍ إليه ألبتةَ وإنِ استحال خلوُّ إفعالِه تعالى من الحكمِ والمصالحِ لما أنَّ المسافةَ بين محطِّه عليه الصَّلاة والسَّلام وبين مأربَ وإن كانتْ قصيرةً لكن مدةُ ما بين نزولِه عليه الصَّلاة والسَّلام هناك وبين مجيءِ الهدهدِ بالخبرِ أيضاً قصيرةٌ. نعم اختصاصُ الهدهدِ بذلك مع كون الجنِّ أقوى منه مبنيٌّ على حِكَمٍ بالغةٍ يستأثرُ بها علاَّمُ الغيوبِ.

(68/577)

وقولُه تعالى: ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ امرأةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ استئنافٌ ببيانِ ما جاء به من النبأ وتفصيلٌ له إثرَ الإجمالِ وهي بلقيسُ بنتُ شراحيلَ بنِ مالكِ بنِ ريَّانَ. وكان أبوها ملكَ أرضِ اليمنِ كلِّها ورثَ المُلكَ من أربعين أباً ولم يكُن له ولدٌ غيرُها فغلبتْ بعدَه على المُلكِ ودانتْ لها الأمَّة. وكانتْ هي وقومُها مجوساً يعبدونَ الشمسَ. وإيثارُ وجدتُ على رأيتُ لما أُشير

إليه من الإيذانِ بكونِه عند غيبته بصددِ خدمتِه عليه الصَّلاة والسَّلامِ بإبراز نفسه في معرضِ من يتفقدُ أحوالَها ويتعرَّفها كأنَّها طِلبتُه وضالَّتُه ليعرضَها على سليمانَ عليه السَّلامُ. وضميرُ تملكُهم لسبأٍ على أنَّه اسمُ الحيِّ أو لأهلها المدلولِ عليهم بذكرِ مدينتِهم على أنَّه اسمٌ لها. ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي من الأشياءِ التي يحتاجُ إليها الملوكُ ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ قيل كان ثلاثينَ ذراعاً في ثلاثين عَرضاً وسَمكاً وقيل: ثمانينَ في ثمانينَ من ذهبٍ وفضةَ مُكللاً بالجواهرِ، وكانتْ قوائمُه من ياقوتٍ أحمرَ وأخضرَ ودُرَ وزمردٍ، وعليه سبعةُ أبياتٍ على كلِّ بيتٍ بابٌ مغلقٌ. واستعظامُ الهدهدِ لعرشِها مع ما كان يشاهدُه من ملكِ سليمانَ عليه السَّلام إمَّا بالنسبة إلى حالِها أو إلى عروشَ أمثالِها من الملوكِ. وقد جُوِّز أنْ لا يكونَ لسليمانَ عليه السَّلامَ مثلُه. وأيًّا ما كانَ فوصفُه بذلكَ بينَ يديهِ عليه الصَّلاة والسَّلام لما مرَّ من ترغيبِه عليه الصَّلاة والسَّلام في الإصغاءِ إلى حديثِه وتوجيهِ عزيمتِه عليه الصَّلاة والسَّلام نحو تسخيرِها، ولذلكَ عقَّبه بما يُوجبُ عزوَها من كُفرِها وكُفرِ قومِها حيثُ قال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي يعبدونَها متجاوزينَ عبادةَ اللهِ تعالى ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ التي هي عبادةُ الشمسِ ونظائِرها منْ أصنافِ الكفرِ

والمَعَاصي . ﴿ فَصَدَّهُمْ ﴾ بسببِ ذلكَ ﴿ عَنِ السبيل ﴾ أي سبيلِ الحقّ والصوابِ فإنَّ تزيينَ أعمالِهم لا يتصورُ بدون تقويمِ طرقِ كفرِهم وضلالِهم ، ومن ضرورته نسبةُ طريقِ الحقّ إلى العوجِ . ﴿ فَهُمْ ﴾ بسبب ذلكَ ﴿ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ إليهِ .

وقولُه تعالى ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾ مفعولٌ له إمَّا للصدّ أو للتزيينِ على حذفِ اللامِ منه أي فصدَّهم لأنْ لا يسجدوا له تعالى أو زيَّن لهم أعمالَهم لأنْ لا يسجدوا أو بدلٌ على حالِه من أعمالَهم ، وما بينهما اعتراضٌ أي زيَّن لهم أنْ لا يسجدوا وقيل : هو في موقع المفعولِ ليهتدون بإسقاطِ الخافضِ ، ولا مزيدةٌ كما في قولِه تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ والمعنى فهم لا يهتدون إلى أنْ يسجدوا له تعالى . وقرىء أَلاَ يَا اسجدُوا ، على التنبيهِ والنداءِ ، والمُنادى محذوفٌ ، أيْ أَلاَ يا قومُ اسجدُوا كما في قولِه

أَلاَ يا اسلَمي يا دارَ مَي عَلَى البِلَى . . .

ونظائِره . وعلى هذا يحتملُ أنْ يكونَ استئنافاً من جهة الله عزَّ وجلَّ أو من سليمانَ عليه السَّلام ويُوقف على لا يهتدونَ ويكون أمراً بالسجودِ ، على الوجوهِ المتقدمةِ ذمَّاً على تركِه وأيًّا ما كان فالسجودُ واجبٌ . وقُرىء هَلاّ وهَلاَ بقلبِ الهمزتينِ هاءً . وقُرىء هَلاَّ تسجدون بمعنى ألا تسجدونَ على الخطاب .

﴿ الذى يُخْرِجُ الخبء فِى السموات والأرض ﴾ أيْ يظهرُ ما هو مخبوءٌ مخفيٌّ فيهما كائناً ما كان ، وتخصيصُ هذا الوصفِ بالذكرِ بصددِ بيانِ تفرُّده تعالى باستحقاق السُّجودِ له من بين سائرِ أوصافِه الموجبةِ لذلك لما أنَّه أرسخُ في معرفتِه والإحاطةِ بأحكامه بمشاهدة آثارِه التي من جُملتها ما أودعَه الله تعالى في نفسه من مقدرةٍ على معرفةِ الماءِ تحتَ الأرضِ . وأشارَ بعطفِ قولِه ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ على يخرجُ إلى أنَّه تعالى يخرجُ ما في العالمِ الإنسانيِّ من الخَفَايَا كما يخرجُ ما في العالم الكبير من الخَبَايَا لما أنَّ المرادَ يظهرُ ما تُخفونَهُ من الأحوال فيجازيكُم بها ، وذكرُ ما تُعلنون لتوسيع دائرةِ العلمِ وللتنبيهِ على تساويهما بالنسبة إلى العلمِ الإلهيِّ . وقُرِىءَ ما يُخفون وما يُعلنون على صيغةِ الغَيبةِ بلا التفاتٍ . وإخراجُ الخبءِ يعمُّ إشراقَ الكواكبِ وإظهارَها من آفاقِها بعد استتارِها وراءها وإنزالَ الأمطارِ وإنباتَ النباتِ . بل الإنشاءَ الذي هو إخراجُ ما في الشيء بالقوَّةِ إلى الفعلِ والإبداعَ الذي هو إخراجُ ما في الإمكان والعدمِ إلى الوجود وغيرَ ذلك من غيوبه عزَّ وجلَّ . وقُرِىء الخَبَ بتخفيف الهمزةِ بالحذفِ . وقُرِىء الخَبَا بتخفيفها بالقلبِ . وقُرِىء : ﴿ ألا

تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون ﴾ .

﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾

(71/577)

الذي هو أول الأجرام وأعظمها . وقرىء العظيمُ بالرّفع على أنّه صفة الربّ . واعلمْ أن ما حُكي من الهُدهدِ من قولِه الذي يُخرج الخبءَ إلى هُنا ليس داخلاً تحت قولِه أحطتُ بما لم تُحط به وإنّما هُو من العلومِ والمعارفِ التي اقتبسها من سليمانَ عليه السّلام أوردَهُ بياناً لما هو عليهِ وإظهاراً لتصلُّبِهِ في الدّينِ ، وكلُّ ذلكَ لتوجيهِ قلبه عليه الصّلاةُ والسّلامُ نحوَ قبولِ كلامِه وصرفِ عَنَانِ عزيمتِه عليه السّلامُ إلى غزوِها وتسخيرِ ولايتِها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(72/577)

وقال الآلوسى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾

أي أراد معرفة الموجود منها من غيره ، وأصل التفقد معرفة الفقد ، والظاهر أنه عليه السلام تفقد كل الطير وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك والاهتمام بالرعاية لا سيما الضعفاء منها ؛ قيل وكان يأتيه من كل صنف واحد فلم ير الهدهد ، وقيل : كانت الطير تظله من الشمس وكان الهدهد يستر مكانه الأيمن فمسته الشمس فنظر إلى مكان الهدهد فلم يره ، وعن عبد الله بن سلام أن سليمان عليه السلام نزل بمفازة لا ماء فيها وكان الهدهد يرى الماء في باطن الأرض فيخبر سليمان بذلك فيأمر الجن فتسلخ الأرض عنه في ساعة كما تسلخ الشاة فاحتاجوا إلى الماء فتفقد لذلك الطير فلم ير الهدهد ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد ﴾ وهو طائر معروف منتن يأكل الدم فيما قيل ويكنى بأبي الأخبار .

وأبي الربيع .

وأبي ثمامة وبغير ذلك مما ذكره الدميري ، وتصغيره على القياس هديهد ، وزعم بعضهم أنه يقال في تصغيره هداهد بقلب الياء الفاء ، وأنشدوا :

كهداهد كسر الرماة جناحه . . .

ونظير ذلك دوابه وشوابه في دويبه وشويبه .

والظاهر أن قوله عليه السلام ذلك مبني على أنه ظن حضوره ومنع مانع له من رؤيته أي عدم رؤيتي إياه مع حضوره لأن سبب ألساتر أم لغيره ثم لاح له أنه غائب فاضرب عن ذلك وأخذ

يقول : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين ﴾ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ، فأم هي المنقطعة كما في قولهم إنها لا بل أم شاء .

وقال ابن عطية : مقصد الكلام الهدهد غاب ولكنه أخذ اللازم من مغيبه وهو أن لا يراه فاستفهم على جهة التوقيف عن اللازم وهذا ضرب من الإيجاز ، والاستفهام الذي في قوله ﴿ مَالِيَ ﴾ ناب مناب الهمزة التي تحتاجها أم انتهى .

(73/577)

وظاهره أن أم متصلة والهمزة قائمة مثام همزة الاستفهام فالمعنى عنده أغاب عني الآن فلم أره حال التفقد أم كان من غاب قبل ولم أشعر بغيبته والحق ما تقدم ، وقيل في الكلام قلب والأصل ما للهدهد لا أراد ، ولا يخفى أنه لا ضرورة إلى ادعاء ذلك ، نعم قيل هو أوفق بكون التفقد للعناية ، وذكر أن اسم هذا الهدهد يعفور ، وكون الهدهد يرى الماء تحت الأرض رواه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وأخرج ابن أبي حاتم .

وسعيد بن منصور عن يوسف بن ماهك أن ابن عباس حين قال ذلك اعترض عليه نافع بن الأزرق كعادته بأنه كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ ويوضع فيه الحبة وتستر بالتراب فيصطاد فقال رضي الله تعالى عنه إن البصر ينفع ما لم يأت القدر فإذا جاء القدر حال دون البصر فقال ابن الأزرق : لا أجادلك بعدها بشيء ولا مانع من أن يقال : يجوز أن يرى الحبة أيضاً إلا أنه لا يعرف أن التقاطها من الفخ يوجب اصطياده ، وكثير من الطيور وسائر الحيوانات يصطاد بما يراه بنوع حيلة .

(74/577)

ويجوز أيضاً أن يراها ويعرف المكيدة في وضعها إلا أن القدر يغلب عليه فيظن أنه ينجو إذا التقطها بأحد وجوه يتخيلها فيكون نظير من يخوض المهالك لظن النجاة مع مشاهدة هلاك الكثير ممن خاضها قبله وإذا أراد الله تعالى بقوم أمراً سلب من ذوي العقول عقولهم ، نعم أن رأيته الماء تحت الأرض وان جاز على ما تقتضيه أصول الأشاعرة أمر يستبعده العقل جداً ولا جزم لي بصحة الخبر السابق ، وتصحيح الحاكم محكوم عليه عند المحدثين بما تعلم ، ومثله ما تقدم عن ابن سلام وكذا غيره من الأخبار التي وقفت عليها في هذا الشأن ، وليس في الآية إشارة إلى ذلك بل الظاهر بناء على ما يقتضيه حال سليمان عليه السلام إن التفقد

كان منه عليه السلام عناية بأمور ملكه واهتماماً بضعفاء جنده ، وكانه عليه السلام أخرج كلامه كما حكاه النظم الجليل لغلبة ظنه إنه لم يصبه ما أهلكه وليكون ذلك مع التفقد من باب الجمع بين صفتي الجمال والجلال وهو الأكمل في شأن الملوك ، ولعل ما وقع من حديث النملة كان كالحالة المذكورة له عليه السلام للتفقد .

(75/577)

وعلى ما تقدم عن ابن سلام أن الحالة المذكرة بل الداعية هي النزول في المفازة التي لا ماء فيها ، وكون الهدهد قناقنه ، ويحكون في ذلك أن سليمان عليه السلام حين تم له بناء بيت المقدس تجهز ليحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف بقرة وخمسة آلاف ناقة وعشرين ألف شاة وقال لأشراف من معه أن هذا مكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا يعطي النصر على من عاداه وينصر بالرعب من مسيرة شهر القريب والبعيد عنده سواء في الحق لا تأخذه في الله تعالى لومة لائم قالوا : فبأي دين يدين يا نبي الله ؟ فقال : بدين الحنيفية فطوبى لمن آمن به وأدركه فقالوا : كم بيننا وبين خروجه ؟ قال : مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل عليهم السلام ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً يؤم سهيلاً فوافى

صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً أعجبته خضرتها فنزل ليتغذى ويصلي فلم يجدوا الماء فكان ما كان.

(76/577)

وفي بعض الآثار ما يعارض حكاية الحج، فقد روي عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام سار من اصطخر يريد اليمن فمر على مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام فقال: هذه دار هجرة نبي يكون آخر الزمان طوبى لمن اتبعه، ولما وصل إلى مكة رأى حول البيت أصناماً تعبد فجاوزه فبكى البيت فأوحى الله تعالى إليه ما يبكيك؟ قال يا رب أبكاني أن هذا نبي من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك مروا على ولم يهبطوا ولم يصلوا عندي والأصنام تعبد حولي من دونك فأوحى الله تعالى إليه لاتبك فإني سوف أبكيك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً وأبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي إلي واجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني وأفرض عليهم فريضة يرفون إليك رفيف النسر إلى وكره ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشيطان، ثم مضى سليمان حتى أتى على وادي النمل، ولا يظهر الجمع بين الخبرين، ولعل المقدار الذي يصح من الأخبار أنه عليه السلام لما تم له بناء بيت المقدس حج وأكثر من تقريب القرابين

وبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم وقصد اليمن وتفقد الطير فلم ير الهدهد فتوعده بقوله :

﴿ لأعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ قيل بنتف ريشه وروي ذلك عن ابن عباس .

ومجاهد .

وابن جريج .

والظاهر أن المراد جميع ريشه ، وقال يزيد بن رومان بنتف ريش جناحيه ، وقال ابن وهب بنتف نصف ريشه .

وزاد بعضهم مع النتف القاره للنمل وآخر تركه في الشمس ، وقيل : ذلك بطليه بالقطران وتشميسه وقيل بحبسه في القفص ، وقيل بجمعه مع غير جنسه ، وقيل بإبعاده من خدمة سليمان عليه السلام ، وقيل بالتفريق بينه وبين الفه ، وقيل بالزامه خدمة أقرانه .

وفي البحر الأجود أن يجعل كل من الأقوال من باب التمثيل وهذا التعذيب للتأديب .

(77/577)

ويجوز أن يبيح الله تعالى له ذلك لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة كام أباح سبحانه ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر من أجله إلا بالتأديب والسياسة جاز أن يباح له ما يستصطلح به .

وفي إلاكليل للجلال السيوطي قد يستدل بالآية على جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي أو إسراعها أو نحو ذلك .

وعلى جواز نتف ريش الحيوان لمصلحة بناء على أن المراد بالتعذيب المذكور نتف ريشه .

وذكر فيه أن ابن العربي استدل بها على أن العذاب على قدر الذنب لا على قدر الجسد .

وعلى أن الطير كانوا مكلفين إذ لا يعاقب على ترك فعل إلا من كلف به اه فلا تغفل ﴿ أَوْ لَاَذْبَحَنَّهُ ﴾ كالترقي من الشديد إلى الأشد فإن في الذبح تجريع كاس المنية .

وقد قيل :

كل شيء دون المنية سهل . . .

﴿ فَأْتُونَا بسلطان مُّبِينٍ ﴾ أي بحجة تبين عذرة في غيبته .

وما ألطف التعبير بالسلطان دون الحجة هنا لما أن ما أتى به من العذر انجر إلى الإتيان ببلقيس وهس سلطان ، قم ان هذا الشق وان قرن بحرف القسم ليس مقسما عليه في الحقيقة وإنما المقسم عليه حقيقة الأولان وأدخل هذا في سلكهما للتقابل .

وهذا كما في الكشف نوع من التغليب لطيف المسلك ، ومآل كلامه عليه السلام ليكونن أحد الأمور على معنى إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما فأو في الموضعين للترديد .

وقيل : هي في الأول للتخيير بين التعذيب والذبح .

وفي الثاني للترديد بينهما وبين الإتيان بالسلطان وهو كما ترى .

(78/577)

وزعم بعضهم أنها في الأول للتخيير وفي الثاني بمعنى إلا وفيه غفلة عن لام القسم ، وجوز أن تكون الآمور الثلاثة مقسماً عليها حقيقة ، وصح قسمه عليه السلام على الإتيان المذكور لعلمه بالوحي أنه سيكون أو غلبة ظنه بذلك لأمر قام عنده يفيدها وإلا فالقسم على فعل الغير في المستقبل من دون علم أو غلبة ظن به لا يكاد يسوغ في شريعة من الشرائع .

وتعقب بأن قوله : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ [النمل : 27] ينافي حصول العلم وما حاكاه له .

ودفع المنافاة بأنه يجوز أن يأتي بحجة لا يعلم سليمان عليه السلام ولا يظن صدقها وكذبها غير سديد إذ قوله : ﴿ مُّبِينٌ ﴾ يأباه .

وبالجملة الوجه ما ذكر أولاً فتأمل .

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ ليأتين ﴾ بنون مشددة مفتوحة بغير ياء ، وكتب في الإمام ﴿ لا ﴾ بزيادة ألف بين الذال والألف المتصلة باللام ولا يعلم وجهه كأكثر ما جاء فيه مما يخالف

الرسم المعروف ، وقيل : هو التنبيه على أن الذبح لم يقع .

وقال ابن خلدون في مقدمة تاريخه : إن الكتابة العربية كانت في غاية الاتقان والجودة في حمير ومنهم تعلمها مضر إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لبعدهم عن الحضارة وكان الخط العربي أول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الاتقان والجودة وإلى التوسط لمكان الغرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وما وقع في رسم المصحف من الصحابة رضي الله تعالى عنهم من الرسوم املخالفة لما اقتضته أقيسة رسوم الخطر وصناعته عند أهلها كزيادة الألف في ﴿ لا ﴾ من قبلة الاجادة لصنعة الخط واقتفاء السلف رسمهم ذلك من باب التبرك .

وتوجيه بعض المغلفين تلك المخالفة بما وجهه بها ليس بصحيح .

(79/577)

والداعي له إذا ذلك تنزيه الصحابة عن النقص لما زعم أن الخط كمال ولم يتفطن لأن الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية وذلك ليس بكمال في حقهم إذ الكمال في الصنائع إضافي وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ونحوه وإنما يعود على أسباب المعاش .

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام أمياً وكان ذلك كما لا في حقه وبالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام .

ومثل الأمية تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران ولا يعد ذلك كمالا في حقنا إذ هو صلى الله عليه وسلم منقطع إلى ربه عز وجل ونحن متعاونون على الحياة الدنيا ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام : "أنتم أعلم بأمور دنياكم" انتهى ملخصاً .

وأنت تعلم أن كون زيادة الألف في ﴿ لا ﴾ لقلة اجادتهم رضي الله تعالى عنهم صنعة الكتابة في غاية البعد ، وتعليل ذلك بما تقدم من التنبيه على عدم وقوع الذبح كذلك وإلا لزادوها في ﴿ لا ﴾ لأن التعذيب لم يقع أيضاً .

وما أشار إليه من أن الإجادة في الخط ليس بكمال في حقهم أن أراد به أن تحسين الخط وإخراجه على صور متناسبة يستحسنها الناظر وتميل إليها النفوس كسائر النقوش المستحسنة ليس بكمال في حقهم ولا يضر بشأنهم فقده فمسلم لكن هذا شيء وما نحن فيه شيء ، وإن أراد به أن الإتيان بالخط على وجهه المعروف عند أهله من وصل ما يصلونه وفصل ما يفصلونه ورسم ما يرسمونه وترك ما يتركونه ليس بكمال فهذا محل بحث ألا ترى أنه لا يعترض على العالم بقبح الخط وخروجه عن الصور الحسنة والهيآت المستحسنة ويعترض عليه بوصل ما يفصل وفصل ما يوصل ورسم ما لا يرسم وعدم رسم ما يرسم

ونحو ذلك إن لم يكن ذلك لنكتة .

والظاهر أن الصحابة الذين كتبوا القرآن كانوا متقنين رسم الخط عارفين ما يقتضي أن يكتب وما يقتضي أن لا يكتب .

وما يقتضي أن يوصل .

(80/577)

وما يقتضي أن لا يوصل إلى غير ذلك لكن خالفوا القواعد في بعض المواضع لحكمة ؛

ويستأنس لذلك بما أخرجه ابن الأنباري في كتابه التكملة عن عبد الله بن فروخ قال : قلت لابن عباس يا معشر قريش أخبروني عن هذا الكتاب العربي هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الألف .

واللام .

والنون ؟ قال : نعم قلت : وممن أخذتموه ؟ قال : من حرب بن أمية قلت : وممن أخذه حرب ؟ قال : من عبد الله بن جدعان قلت : وممن أخذه عبد الله بن جدعان ؟ قال : من أهل الأنبار قلت : وممن أخذه أهل الأنبار ؟ قال : من طار طرأ عليهم من أهل اليمن قلت :

وممن أخذ ذلك الطارىء ؟ قال : من الخلجان بن القسم كاتب الوحي لهود النبي عليه السلام وهو الذي يقول :

في كل عام سنة تحدثونها . . .

ورأى على غير الطريق يعبر

وللموت خير من حياة تسبنا . . .

بها جرهم فيمن يسب وحمير

انتهى ، وفي كتاب "محاصرة الأوائل ومسامرة الأواخر" أن أول من اشتهر بالكتابة في الإسلام من الصحابة أبو بكر .

وعمر .

وعثمان .

وعلي .

وأبي بن كعب .

وزيد بن ثابت رضي الله تعالى عنهم ، والظاهر أنهم لم يشتهروا في ذلك إلا لأصابتهم فيها .

والقول بأن هؤلاء الأجلة وسائر الصحابة لم يعرفوا مخالفة رسم الألف هنا لما يقتضيه قوانين أهل الخط وكذا سائر ما وقع من المخالفة مما لا يقدم عليه من له أدنى أدب وانصاف .

ومثل هذا القول بأنه يحتمل أنه عرف ذلك من عرف منهم إلا أنه ترك تغييره إلى الموافق للقوانين أو وافقه على الغلط للتبرك ، ومن الناس من جوز أن يكون ما وقع من الصحابة من الرسم المخالف بسبب قلة مهارة من أخذوا عنه صنعة الخط فيكون هو الذي خالف في مثل ذلك ولم يعلموا أنه خالف فالقصور إن كان ممن أخذوا عنه وأما هم فلا قصور فيهم إذ لم يخلوا بالقواعد التي أخذوها وإخلالهم بقواعد لم تصل إليهم ولم يعلموا بها لا يعد قصوراً ، وهذا قريب مما تقدم إلا أنه ليس فيه ما فيه من البشاعة ، ثم أن الإنصاف بعد كل كلام يقتضي الإقرار بقوة دعوى أن المخالفة لضعف صناعة الكتابة إذ ذاك إن صح أنها وقعت أيضاً في غير الإمام من المكاتبات وغيرها ولعله لم يصح وإلا لنقل فتأمل والله تعالى يتولى هداك .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾

(82/577)

الظاهر أن الضمير للهدهد و﴿ بَعِيدٍ ﴾ صفة زمان والكلام بيان لمقدر كأنه قيل : ما مضى من غيبته بعد التهديد ؟ فقيل : مكث غير بعيد أي مكث زماناً غير مديد ،

ووصف زمان مكثه بذلك للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان عليه السلام وليعلم كيف كان الطير مسخراً له ، وقيل : الضمير لسليمان وهو كما ترى ، وقيل : ﴿ بَعِيدٍ ﴾ صفة مكان أي فمكث الهدهد في مكان غير بعيد من سليمان ، وجعله صفة الزمان أولى ، ويحكى أنه حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهداً واسمه فيما قيل عفير واقعاً فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس ، وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر ، وفي بعض الآثار أنه عليه السلام لما لم يره دعا عريف الطير وهو النسر فسأله فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : على به فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله تعالى وقال : بحق الله الذي قواك وأقدرك على إلا رحمتني فتركته وقالت : ثكلتك أمك إن نبي الله تعالى قد حلف ليعذبنك أو ليذبحنك قال : وما استثنى ؟ بلى قال : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 21] فقال : نجوت إذا فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً له فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه فقال : يا نبي الله تعالى اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل فارتعد سليمان وعفا عنه ، وعن عكرمة أنه إنما عفا لأنه كان باراً بأبويه يأتيهما بالطعام فيزقهما لكبرهما ، ثم سأله :

﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي علماً ومعرفة وحفظته من جميع جهاته ، وابتداء كلامه بذلك لترويجه عنده عليه السلام وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فإن النفس للاعتذار المنبىء عن أمر بديع أقبل وإلى تلقي ما لا تعلمه أميل ، وأيد ذلك بقوله : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ حيث فسر ابهامه السابق نوع تفسير وأراه عليه السلام أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبأ الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير ووصفه بما وصفه ، وقال الزمخشري : إن الله تعالى ألهم الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به ليتحاقر إليه نفسه ويصغر إليه علمه ويكون لطفاً له في ترك الاعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة انتهى ، وتعقب بأن ما أحاط به من الأمور المحسوسة التي لا تعد الإحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف إدراكها إلا على جرد إحساس يستوي فيه العقلاء وغيرهم وماذا صدر عنه عليه السلام مع ما حكى عنه ما حكى من الحمد والشكر والدعاء حتى يليق بالحكمة الإلهي تنبيهه عليه السلام على تركه واعترض بأن قوله : ﴿ أَحَطتُ ﴾ الخ ظاهر في أنه كلام مدل بعلمه مصغر لما عند صاحبه وأن العلم بالأمور المحسسة وإن لم يكن فضيلة إلا أن فقده بالنسبة إلى سليمان عليه السلام

وملكه وإلقاء الريح الأخبار في سمعه يدل على ما يدل ، وفي التنبيه المذكور تثبيت منه تعالى له عليه السلام على الحمد والشكر وهو ما يناسب دعاؤه السابق بقوله :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ [النمل : 19] ، ولعل الأولى والأظهر مع هذا ما ذكر أولاً .

و﴿ سَبَإٍ ﴾ منصرف على أنه لحي من الناس سموا باسم أبيهم سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

(84/577)

وفي حديث فروة وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سبأ اسم رجل ولد عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة والستة حمير .

وكندة .

والأزد .

واشعر .

وخثعم ، والأربعة لخم .

وجذام وعاملة .

وغسان ؛ وقيل : سبأ لقب لأبي هذا الحي من قحطان اسمه عبد شمس ، وقيل : عامر ، ولقب بذلك لأنه أول من سبى .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو ﴿ مِن سَبَإٍ ﴾ بفتح الهمزة غير مصروف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت به ما رب سبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، وجوز أن يراد به على الصرف الموضع المخصوص وعلى منع الصرف المدينة المخصوصة ، وأشندوا على صرفه قوله :

الواردون وتيم في ذري سبأ . . .

قد عض أعناقهم جلد الجواميس

وقرأ قنبل من طريق النبال بإسكان الهمزة وخرج على إجراء الول مجرى الوقف ، وقال مكي ؛ الإسكان في الوصل بعيد غير مختار ولا قوي ، وقرأ الأعمش ﴿ مِن سَبَإٍ ﴾ بكسر الهمزة من غير تنوين حكاها عنه ابن خالويه .

وابن عطية ، وخرجت على أن الجر بالكسرة لرعاية ما نقل عنه فإنه في الأصل اسم الرجل أو مكان مخصوص وحذف التنوين لرعاية ما نقل إليه فإنه جعل اسماً للقبية أو للمدينة وهو كما ترى ، وقرأ ابن كثير في رواية ﴿ مِنْ ﴾ بتنوين الباء على وزن رحى جعله مقصوراً مصروفاً ، وذكر أبو معاذ أنه قرأ ﴿ مِنْ ﴾ بسكون الباء وهمزة مفتوحة غير منونة على وزن فعلي فهو ممنوع من الصرف للتأنيث اللازم .

وروى ابن حبيب عن اليزيدي ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ ﴾ بألف ساكنة كما في قولهم : ﴿ تَفَرَّقُواْ أَيْدِىَ سَبَإٍ ﴾ ، وقرأ فرقة ﴿ بِنَبَإٍ ﴾ بالألف عوض الهمزة وكأنها قراءة من قرأ سبأ بالألف لتتوازن الكلمتان كما توازنت في قراءة من قرأهما بالهمزة المكسورة والتنوين ، وفي التحرير أن مثل ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ يسمى تجنيس التصريف وهو أن تنفرد كل من الكلمتين بحرف كما في قوله تعالى :

(85/577)

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر : 75]

وحديث " الخيل معقود بنواصيها الخير "

وقال الزمخشري : إن قوله تعالى : ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعاً أو يصيغه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ، ولقد جاء ههنا زائداً على الصحة فحسن وبدع لفظاً ومعنى ألا ترى لو وضع مكان ﴿ بِنَبَإٍ ﴾ بخبر لكان المعنى صحيحاً ، وهو كما جاء أصح لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال اه .

وهذه الزيادة كون الخبر ذا شأن ، وكون النبأ بمعنى الخبر الذي له شأن مما صرح به غير

واحد من اللغويين .

والظاهر أنه معنى وضعي له .

وزعم بعضهم أنه ليس بوضعي وليس بشيء ، وقول المحدثين : أنبأنا أحط درجة من أخبرنا غير وارد لأنه اصطلاح لهم .

وقرأ الجمهور ﴿ فَمَكَثَ ﴾ بضم الكاف ، والفتح قراءة عاصم .

وأبي عمرو في رواية الجعفي .

وسهل .

وروح .

وقرأ أبي ﴿ فَمَكَثَ ثُمَّ قَالَ ﴾ .

وعبد الله ﴿ فَمَكَثَ فَقَالَ ﴾ ، وكلتا القراءتين في الحقيقة على ما في "البحر" تفسير لا قراءة لمخالفتها سواد المصحف .

وقرىء في السبعة ﴿ أَحَطتُ ﴾ بإدغام التاء في الطاء مع بقاء صفة الإطباق وليس بإدغام حقيقي .

وقرأ ابن محيصن بإدغام حقيقي .

واعترض ابن الحاجب القراءة الأولى بأن الإطباق وهو رفع اللسان إلى ما يحاذيه من الحنك للتصويت بصوت الحرف المخرج لا يستقيم إلا بنفس الحرف وهو الطاء هنا والإدغام

يقتضي إبدالها تاء وهو ينافي وجود ذلك لأنه يقتضي أن تكون موجودة وغير موجودة وهو تناقض فالتحقيق أن نحو أحطت بالإطباق ليس فيه إدغام ولكنه لما أمكن النطق بالثاني مع الأول من غير ثقل على اللسان كان كالنطق بالمثل بعد المثل فأطلق عليه الإدغام توسعاً قاله الطيبي .

(86/577)

وفي النشر أن التاء تدغم في الطاء في قوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار ﴾ [هود : 114] وفي التسهيل أنه إذا أدغم المطبق يجوز إبقاء الاطباق وعدمه .

وقال سيبويه : كل كلام عربي كذا "الحواشي الشهابية" فتأمل .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَحَطتُ ﴾ الخ دليل بإشارة النص والإدماج على بطلان قول الرافضة : إن الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيء من الجزئيات ، ولا يخفى أنهم إن عنوا بذلك أنه يجب أن يكون الإمام عالماً على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعها وأن يكون مستحضراً الجواب الصحيح عن كل ما يسأل عنه فبطلان كلامهم في غاية الظهور ، وقد سئل علي كرم الله تعالى وجهه وهو على منبر الكوفة عن مسألة فقال : لا أدري فقال السائل : ليس مكانك هذا مكان من يقول : لا أدري فقال الإمام كرم الله تعالى وجهه .

بلى والله هذا مكان من يقول لا أدري وأما من لا يقول ذلك فلا مكان له يعني به الله عز وجل وإن عنوا أنه يجب أن يكون عالماً بجميع القواعد الشرعية وبكثير من الفروع الجزئية لتلك القواعد بحيث لو حدثت حادثة ولا يعلم حكمها يكون متمكناً من استنباط الحكم فيها على الوجه الصحيح فذاك حق وهو في معنى قول الجماعة يجب أن يكون الإمام مجتهداً .

وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله .

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ ﴾

أي تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد استئناف لبيان ما جاء به من النبأ .

وتفصيل له إثر إجمال وعني بهذه المرأة بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان من نسل يعرب بن قحطان ، ويقال : من نسل تبع الحميري .

وروى ابن عساكر عن الحسن أن اسم هذه المرأة ليلى وهو خلاف المشهور ، وقيل : اسم أبيها السرح بن الهداهد .

ويحكى أنه كان أبوها ملك أرض اليمن كلها وورث الملك من أربعين أباً ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الأمة .

(87/577)

وفي بعض الآثار أنه لما مات أبوها طمعت في الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون فملكوا عليهم جرلاً يقال : إنه ابن عمها وكان خبيثاً فأساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يفجر بنساء رعيته فأرادوا خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه فأجابها وقال : ما منعني أن ابتدئك بالخطبة إلا إلياس منك قالت : لا أرغب عنك لأنك كفؤ كريم فاجمع رجال أهلي وأخطبني فجمعهم وخطبها فقالوا : لا نراها تفعل فقال : بلى إنها رغبت في فذكروا لها ذلك فقالت : نعم فزوجوها منه فلما زفت إليه خرجت مع أناس كثير من حشمه وخدمها فلما خلت به سقته الخمر حتى سكر فقتلته وحزت رأسه وانصرفت إلى منزلها فلما أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم ، وقالت : أما كان فيكم من يأنف من الفجور بكرائم عشيرته ثم أرتهم إياه قتيلاً ، وقالت : اختاروا رجلاً تملكوه عليكم فقالوا : لا نرضى غيرك فملكوها وعلموا أن ذلك النكاح كان مكراً وخديعة منها واشتهر أن أمها جنية .

وقد أخرج ذلك ابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن مجاهد .

والحكيم الترمذي .

وابن مردويه عن عثمان بن حاضر أن أمها امرأة من الجن يقال لها بلقمة بنت شيصا .

وابن أبي حاتم عن زهير بن محمد أن أمها فارعة الجنية .

وفي "التفسير الخازني" أن أباها شراحيل كان يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفؤاً لي وأبى أن يتزوج فيهم فخطب إلى الجن فزوجوه امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن وسبب وصوله إلى الجن حتى خطب إليهم على ما قيل إنه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن وهم على صور الظباء فيخلى عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقاً فخطب ابنته فزوجه إياها .

(88/577)

وقيل : إنه خرج متصيداً فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء وقد ظهرت السوداء على البيضاء فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فأفاقت فأطلقها فلما رجع إلى داره جلس وحده منفرداً فإذا هو معه شاب جميل فخاف منه فقال : لا تخف أنا الحية البيضاء الذي أحييتني والأسود الذي قتلته هو عبد لنا تمرد علينا وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال : لا حاجة لي به ولكن إن كان لك بنت فزوجينها فزوجه ابنته فولدت له بلقيس انتهى ، وأخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ في العظمة .

وابن مردويه .

وابن عساكر عن أبي هريرة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أبوي بلقيس كان جنياً" والذي ينبغي أن يعول عليه عدم صحة هذا الخبر ، وفي "البحر" قد طولوا في قصصها يعني بلقيس بما لم يثبت في القرآن ولا الحديث الصحيح وأن ما ذكر من الحكايات أشبه شيء بالخرافات فإن الظاهر على تقدير وقوع التناكح بين الأنس والجنس الذي قيل يصفع السائل عنه لحماقته وجعله أن لا يكون توالد بينهما ، وقد ذكر عن الحسن فيما روى ابن عساكر أنه قيل بحضرته : إن ملكة سبأ أحد أبويها جني فقال : لا يتوالدون أي أن المرأة من الإنس لا تلد من الجن والمرأة من الجن لا تلد من الإنس .

نعم روى عن مالك ما يقتضي صحة ذلك .

(89/577)

ففي الأشباه والنظائر لابن نجيم روى أبو عثمان سعيد بن داود الزبيدي قال : كتب قوم من أهل اليمن إلى مالك يسألونه عن نكاح الجن وقالوا : إن ههنا رجلاً من الجن زعم أنه يريد الحلال فقال : ما أرى بأساً في الدين ولكن أكره إذا وجدت امرأة حامل قيل لها من زوجك ؟ قالت : من الجن فيكثر الفساد في الإسلام بذلك انتهى ، ولعله لم يثبت عن مالك لظهور ما يرد على تعليل الكراهة ، ثم ليت شعري إذا حملت الجنية من الإنسي هل تبقى

على لطافتها فلا ترى والحمل على كثافته فيرى أو يكون الحمل لطيفاً مثلها فلا يريان فإذا تم أمره تكثف وظهر كسائر بني آدم أو تكون متشكلة بشكل نساء بني آدم أو تكون متشكلة بشكل نساء بني آدم ما دام الحمل في بطنها وهو فيه يتغذى وينمو بما يصل إليه من غذائها وكل الشقوق لا يخلو عن استبعاد كما لا يخفى ، وإيثار ﴿ وَجَدتُّ ﴾ على رأيت لما أشير إليه فيما سبق من الإيذان لكونه عند غيبته بصدد خدمته عليه السلام بإبراز نفسه في معرض من يتفقد أحوالها ويتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام ، وقيل : للإشعار بأن ما ظفر به أمر غير معلوم أولاً لأن الوجدان بعد الفقد وفيه رمز بغرابة الحال ، وضمير ﴿ تَمْلِكُهُمْ ﴾ لسبأ على أنه اسم للحي أو لأهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنها اسم لها .

وليس في الآية ما يدل على جواز أن تكون المرأة ملكة ولا حجة في عمل قوم كفرة على مثل هذا المطلب .

(90/577)

وفي "صحيح البخاري" من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال : ﴿ لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امرأت ﴾ ونقل عن

محمد بن جرير أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ولم يصح عنه وفي الأشباه لا ينبغي أن تولي القضاء وإن صح منها بغير الحدود والقصاص ، وذكر أبو حيان أنه نقل عن أبي حنيفة عليه الرحمة أنها تقضي فيما تشهد فيه لا على الإطلاق ولا على أن يكتب لها منشور بأن فلانة مقدمة على الحكم وإنما ذلك على سبيل التحكيم لها ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي من الأشياء التي تحتاج إليها الملوك بقرينة ﴿ تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، وقد يقال : ليس الغرض إلا إفادة كثرة ما أوتيت .

والجملة تحتمل أن تكون عطفاً على جملة ﴿ تَمْلِكُهُمْ ﴾ وأن تكون حالاً من ضمير تملكهم المرفوع بتقدير قد أو بدونه ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ قال ابن عباس كما أخرجه عنه ابن جرير .

وابن المنذر أي سرير كريم من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالي الثمن ، وروى عنه أيضاً أنه كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وكان طوله في السماء ثلاثين ذراعاً أيضاً ، وقيل : كان طوله ثمانين في ثمانين وارتفاعه ثمانين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد أنه سرير من ذهب وصفحتاه مرصعتان بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً ، وقيل : كان من ذهب مكللاً بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر وقوائمه من الياقوت والزمرد وعليه سبعة أبيات على

كل بيت باب مغلق ، وقيل : غير ذلك والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، وبالجملة فالظاهر أن المراد بالعرش السرير ، وقال أبو مسلم المراد به الملك ولا داعي إليه .

(91/577)

واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك ، وجوز أن يكون ذلك لأنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثله وإن كان عظيم الملك فإنه قد يوجد لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون للملك الذي هم تحت طاعته .

وأياً ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه السلام لما ذكر أولاً من ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه وفيه توجيه لعزيمته عليه السلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قوامها حيث قال :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾

أي يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى .

قال الحسن كانوا مجوساً يعبدون الأنوار ، وقيل : كانوا زنادقة .

والظاهر أن هذه الجملة استئناف كلام وأن الوقف على ﴿ عظِيمٌ ﴾ [النمل : 23] قال

"صاحب المرشد " ولا يوقف على عرش وقد زعم بعضهم جوازه وقال معناه عظيم عند الناس .

وقد أنكر هذا الوقف أبو حاتم وغيره من المتقدمين ونسبوا القائل به إلى الجهل ، وقول من قال معناه عظيم عبادتهم للشمس من دون الله تعالى قول ركيك لا يعتد به وليس في الكلام ما يدل عليه ، وفي "الكشاف" من نوكي القصاص من وقف على ﴿ عَرْشَ ﴾ [النمل : 23] يريد عظيم إن وجدتها فر من استعظام الهدهد عرشها فوقع في عظيمة وهي نسخ كتاب الله تعالى ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ التي هي عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي ، والجملة تحتمل العطف على جملة ﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ والحالية من الضمير على نحو ما مر آنفاً ﴿ فَصَدَّهُمْ ﴾ أي الشيطان ، وجوز كون الضمير للتزيين المفهوم من الفعل أي فصدهم تزيين الشيطان ﴿ عَنِ السبيل ﴾ أي سبيل الحق والصواب ﴿ فَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ إليه

وقوله تعالى ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾ أي لئلا يسجدوا واللام للتعليل وهو متعلق بصدهم أو بزين .

(92/577)

والفاء في ﴿ فَصَدَّهُمْ ﴾ لا يلزم أن تكون سببية لجواز كونها تفريعية أو تفصيلية أي فصدهم عن ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله عز وجل أو زين لهم ذلك لأجل أن لا يسجدوا له تعالى ، وجوز أن تكون أن وما بعدها في تأويل مصدر وقع بدلاً من أعمالهم وما بينهما اعتراض كأنه قيل وزين لهم الشيطان عدم السجود لله تعالى ، وتعقب بأنه ظاهر في عد عدم السجود من الأعمال وهو بعيد ، وجوز أن يكون ذلك بدلاً من السبيل و ﴿ لا ﴾ زائدة مثلها في قوله تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] كأنه قيل فصدهم عن السجود لله تعالى ، وجوز أن يكون بتقدير إلى و ﴿ لا ﴾ زائدة أيضاً والجار والمجرور متعلق بيهتدون كأنه قيل فهم لا يهتدون إلى السجود له عز وجل ، وأنت تعلم أن زيادة لا وإن وقعت في الفصيح خلاف الظاهر ، وجوز أن لا يكون هناك تقدير والمصدر خبر مبتدأ محذوف أي دأبهم عدم السجود ، وقيل : التقدير هي أي أعمالهم عدم السجود وفيه ما مر آنفاً ، وقرأ ابن عباس .

وأبو جعفر .

والزهري .

والسلمي .

والحسن .

وحميد .

والكسائي ﴿ إِلا ﴾ بالتخفيف على أنها للاستفتاح ويا حرف نداء والمنادى محذوف

أي ألا يا قوم اسجدوا كما في قوله :

ألا يا أسلمى ذات الدمالج والعقد . . .

ونظائره الكثيرة .

وسقطت ألف يا وألف الوصل في ﴿ اسجدوا ﴾ كتبت الياء متصلة بالسين على

خلاف القياس .

(93/577)

ووقف الكسائي في هذه القراءة على ياء وابتدأ باسجدوا وهو وقف اختيار ، وفي

"البحر" الذي أذهب إليه أن مثل هذا التركيب الوارد عن العرب ليست يا فيه للنداء

والمنادى محذوف لأن المنادى عندي لا يجوز حذفه لأنه قد حذف الفعل العامل في النداء

وانحذف فاعله لحذفه فلو حذفنا المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء وحذف

متعلقه وهو المنادي وإذا لم نحذفه كان دليلاً على العامل فيه وهو جملة النداء وليس حرف

الندا حرف جواب كنعم وبلى ولا وأجل فيجوز حذف الجملة بعده كما يجوز حذفها

بعد هن لدلالة ما سبق من السؤال على الجملة المحذوفة .

فيا عندي في تلك التراكيب حرف تنبيه أكد به ﴿ إِلا ﴾ التي للتنبيه وجاز ذلك لاختلاف الحرفين ولقصد المبالغة في التوكيد .

وإذا كان قد وجد التأكيد في اجتماع الحرفين المختلفي اللفظ العاملين في قوله :

فأصبحن لا يسألنني عن بما به . . .

والمتفقي اللفظ العاملين أيضاً في قوله :

فلا والله لا يلفي لما بي . . .

ولا للما بهم أبداً دواء

وجاز ذلك وإن عدوه ضرورة أو قليلاً فاجتماع غير العاملين وهما مختلفا اللفظ يكون جائزاً .

وليس يا في قوله :

يا لعنة الله والأقوام كلهم . . .

حرف نداء عندي بل حرف تنبيه جاء بعده المبتدا وليس مما حذف فيه المنادى لما ذكرناه انتهى ، وللبحث فيه مجال .

وعلى هذه القراءة يحتمل أن يكون الكلام استئنافاً من كلام الهدهد أما خطاباً لقوم سليمان عليه السلام للحث على عبادة الله تعالى أو لقوم بلقيس لتنزيلهم منزلة المخاطبين .

ويحتمل أن يكون استئنافاً من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام كما قيل وهو

حينئذ بتقدير القول .

ولعل الأظهر احتمال كونه استئنافاً من جهته عز وجل وخاطب سبحانه به هذه الأمة .

(94/577)

والجملة معترضة ويوقف على هذه القراءة على ﴿ يَهْتَدُونَ ﴾ استحساناً ويوجب ذلك زيادة عدة آيات هذه السورة على ما قالوه فيها عند بعض ، وقيل : لا يوجبها فإن الآيات توقيفية ليس مدارها على الوقف وعدمه فتأمل .

والفرق بين القراءتين معنى أن في الآية على الأولى ذماً على ترك السجود وفيها على الثانية أمراً بالسجود .

وأياً ما كان فالسجود واجب عند قراءة الآية ، وزعم الزجاج وجوبه على القراءة الثانية وهو مخالف لما صرح به الفقهاء ولذا قال الزمخشري إنه غير مرجوع إليه .

وقرأ الأعمش : ﴿ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ على التحضيض وإسناد الفعل إلى ضمير الغائبين .

وفي قراءة أبي ﴿ إِلا ﴾ على العرض وإسناد الفعل إلى ضمير المخاطبين ، وفي حرف عبد الله ﴿ إِلا هَلُ ﴾ بألا الاستفتاحية وهل الاستفهامية .

وإسناد الفعل إلى ضمير المخاطبين قاله ابن عطية .

وفي "الكشاف" ما فيه مخالفة ما له والعالم بحقيقة الحال هو الله عز وجل

﴿ الَّذِى يُخْرِجُ الخبء فِى السموات والأرض ﴾ أي يظهر الشيء المخبوء فيهما كائناً ما كان فالخبء مصدر أريد به اسم المفعول .

وفسره بعضهم هنا بالمطر والنبات ، وروى ذلك عن ابن زيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أنه فسره بالماء والأولى التعميم كما روى ذلك جماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

﴿ وَفِى السموات ﴾ متعلق بالخبء ، وعن الفراء أن ﴿ فِى ﴾ بمعنى من فالجار والمجرور على هذا متعلق بيخرج والظاهر ما تقدم .

واختيار هذا الوصف لما أنه أوفق بالقصة حيث تضمنت ما هو أشبه شيء بإخراج الخبء وهو إظهار أمر بلقيس وما يتعلق به .

وعلى هذا القياس اختيار ما ذكر بعد من صفاته عز وجل ، وقيل : إن تخصيص هذا الوصف بالذكر لما أن الهدهد أرسخ في معرفته والإحاطة بأحكامه بمشاهدة آثارها التي من جملتها ما أودعه الله تعالى في نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت الأرض .

وأنت تعلم أن كون الهدهد أودع فيه القدرة على ما ذكر مما لم يجيء فيه خبر يعول عليه ، وأيضاً التعليل المذكور لا يتسنى على قراءة ابن عباس والستة الذين معه ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ ﴾ بالتخفيف إذا جعل الكلام استئنافاً من جهته عز وجل أو من جهة سليمان عليه السلام .

وقرأ أبي .

وعيسى ﴿ الخب ﴾ بنقل حركة الهمزة إلى الباء وحذف الهمزة .

وحكى ذلك سيبويه عن قوم من بني تميم .

وبني أسد .

وقرأ عكرمة بألف بدل الهمزة فلزم فتح ما قبلها وهي قراءة عبد الله .

ومالك بن دينار .

وخرجت على لغة من يقول في الوقف هذا الخبو ومررت بالخبي ورأيت الخبا وأجرى الوصل مجرى الوقف .

وأجاز الكوفيون أن يقال في المرأة والكمأة المراة والكماة بإبدال الهمزة ألفاً وفتح ما قبلها .

وذكر أن هذا الإبدال لغة .

وجوز أن يكون ﴿ يُخْرِجُ الخبء ﴾ من ذلك ومنعه الزمخشري مدعياً أن ذلك لغة

ضعيفة مسترذلة .

وعلل بأن الهمزة إذا سكن ما قبلها فطريق تخفيفها الحذف لا القلب كما يقال في الكمء كمه .

وتعقبه في "الكشف" فقال : تخريجه على الوقف فيه ضعفان لأن الوقف على ذلك الوجه ليس من لغة الفصحاء وأجراء الوصل مجرى الوقف فيما لا يكثر استعماله كذلك .

وأما تلك اللغة فعن الكوفيين أنها قياس انتهى .

وزعم أبو حاتم أن الخبا بالألف لا يجوز أصلاً وهو من قصور العلم .

قال المبرد : كان أبو حاتم دون أصحابه في النحو ولم يلحق بهم إلا أنه إذا خرج من بلدتهم لم يلق أعلم منه .

وأشير بعطف قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ على ﴿ يَخْرُجُ ﴾ إلى أنه تعالى يخرج ما في العالم الإنساني من الخفايا كما يخرج ما في العالم الكبير من الخبايا لما أن المراد يظهر ما تخفونه من الأحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة إلى العلم الإلهي كذا قيل .

(96/577)

ويشعر كلام بعضهم بأنه أشير بما تقدم إلى كمال قدرته تعالى وبهذا إلى كمال علمه عز وجل وأنه استوى فيه الباطن والظاهر .

وقدم ﴿ مَا تُخْفُونَ ﴾ لذلك مع مناسبته لما قبله من الخبء ، وقدم وصفه تعالى بإخراج الخبء من السموات لأنه أشد ملاءمة للمقام ، والخطاب على ما قيل أما للناس أو لقوم سليمان أو لقوم بلقيس .

وفي الكلام التفات .

وقرأ الحرميان .

والجمهور ﴿ مَا يخافون وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بياء الغيبة ، وفي "الكشاف" عن أبي أنه قرأ "ألا تسجدون لله الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون" .

﴿ الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾

في معنى التعليل لوصفه عز وجل بكمال القدرة وكمال العلم .

و ﴿ العظام ﴾ بالجر صفة العرش وهو نهاية الأجرام فلا جرم فوقه ، وفي الآثار من وصف عظمه ما يبهر العقول ويكفي ذلك أن الكرسي الذي نطق الكتاب العزيز بأنه وسع السموات والأرض بالنسبة إليه كحلقة في فلاة ، وهو عند الفلاسفة محدد الجهات وذهبوا إلى أنه جسم كرى خال عن الكواكب محيط بسائر الأفلاك محرك لها قسراً من المشرق إلى المغرب ولا يكاد يعلم مقدار ثخنه إلا الله تعالى ، وفي الأخبار الصحيحة ما يأبى بظاهره بعض

ذلك .

وأياً ما كان فبين عظمه وعظم عرش بلقيس بون عظيم .

وقرأ ابن محيصن .

وجماعة ﴿ العظيم ﴾ بالرفع فاحتمل أن يكون صفة للعرش مقطوعة بتقدير هو فتستوي القراءتان معنى .

واحتمل أن يكون صفة للرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(97/577)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع في قصة داود ، وابنه سليمان ، وهذه القصص وما قبلها وما بعدها هي كالبيان ، والتقرير لقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيم ﴾ ، والتنوين في ﴿ عِلْمًا ﴾ إما للنوع أي طائفة من العلم ، أو للتعظيم أي علماً كثيراً ، والواو في قوله : ﴿ وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ ﴾ للعطف على محذوف ؛ لأن هذا المقام مقام الفاء ؛ فالتقدير : ولقد آتيناهما علماً فعملا به ، وقالا الحمد لله ، ويؤيده أن الشكر باللسان إنما

يحسن إذا كان مسبوقاً بعمل القلب ، وهو العزم على فعل الطاعة ، وترك المعصية ﴿ الذي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ أي فضلنا بالعلم والنبوّة وتسخير الطير والجنّ والإنس ، ولم يفضلوا أنفسهم على الكلّ تواضعاً منهم .

وفي الآية دليل على شرف العلم ، وارتفاع محله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم التي ينعم الله بها على عباده ، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من العباد ، ومنح شرفاً جليلاً .

﴿ وَوَرِثَ سليمان دَاوُودُ ﴾ أي ورثه العلم والنبوّة .

قال قتادة والكلبي : كان لداود تسعة عشر ولداً ذكراً ، فورث سليمان من بينهم نبوّته ، ولو كان المراد : وراثة المال لم يخصّ سليمان بالذكر ؛ لأن جميع أولاده في ذلك سواء ، وكذا قال جمهور المفسرين ، فهذه الوراثة هي وراثة مجازية كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأنبياء " ﴿ وَقَالَ يا أَيُّهَا الناس عُلّمْنَا مَنطِقَ الطير ﴾ قال سليمان : هذه المقالة مخاطباً للناس تحدّثاً بما أنعم الله به عليه ، وشكر النعمة التي خصه بها .

وقدّم منطق الطير ؛ لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره .

قال الفراء : منطق الطير كلام الطير ، فجعل كمنطق الرجل ، وأنشد قول حميد بن ثور :

عجيب لها أن يكون غناؤها . . . فصيحاً ولم يغفر بمنطقها فماً

ومعنى الآية : فهمنا ما يقول الطير .

قال جماعة من المفسرين : إنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير ؛ لأنه كان جنداً من جنده يسير معه لتظليله من الشمس .

وقال قتادة والشعبي : إنما علم منطق الطير خاصة ولا يعترض ذلك بالنملة ، فإنها من جملة الطير ، وكثيراً ما تخرج لها أجنحة ، فتطير ، وكذلك كانت هذه النملة التي سمع كلامها وفهمه ، ومعنى ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ : كلّ شيء تدعو إليه الحاجة كالعلم والنبوّة والحكمة والمال وتسخير الجن والإنس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والأرض .

وجاء سليمان بنون العظمة ، والمراد : نفسه بياناً لحاله من كونه مطاعاً لا يخالف ، لا تكبراً وتعظيماً لنفسه ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إلى ما تقدّم ذكره من التعليم ، والإيتاء ﴿ لَهُوَ الفضل المبين ﴾ أي الظاهر الواضح الذي لا يخفى على أحد ، أو المظهر لفضيلتنا .

﴿ وَحُشِرَ لسليمان جُنُودُهُ مِنَ الجن والإنس والطير ﴾ الحشر : الجمع أي جمع له جنوده من هذه الأجناس .

وقد أطال المفسرون في ذكر مقدار جنده ، وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ، ولا تصحّ من جهة النقل ، ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر ﴿

فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي لكلّ طائفة منهم وزعة تردّ ، أولهم على آخرهم فيقفون على مراتبهم ، يقال : وزعه يزعه وزعاً : كفه ، والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدّم منهم ، أي يردّه ، ومنه قول النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . وقلت ألما أصح والشيب وازع

وقول الآخر :

ومن لم يزعه لبه وحياؤه . . . فليس له من شيب فوديه وازع

وقول الآخر :

ولا يزع النفس اللجوج عن الهوى . . . من الناس إلاّ وافر العقل كامله

وقيل : من التوزيع بمعنى التفريق ، يقال : القوم أوزاع أي : طوائف .

(99/577)

﴿ حتى إِذَا أَتَوْا على وَادِي النمل ﴾ حتى هي التي يبتدأ بعدها الكلام ، ويكون غاية لما قبلها ، والمعنى : فهم يوزعون إلى حصول هذه الغاية وهو إتيانهم على واد النمل ، أي فهم يسيرون ممنوعاً بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا إلخ ، و ﴿ على واد النمل ﴾ متعلق ب ﴿ أتوا ﴾ ، وعدّي بعلى ؛ لأنهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون .

والمعنى : أنهم قطعوا الوادي وبلغوا آخره ، ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعاً للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله : ﴿ الذين جَابُواْ الصخر بالواد ﴾ [الفجر : 9] إلاّ الكسائي ، فإنه وقف بالياء ، قال : لأن الموجب للحذف إنما هو التقاء الساكنين بالوصل .

قال كعب : واد النمل بالطائف .

وقال قتادة ومقاتل : هو بالشام ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ هذا جواب إذا ، كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت ونبهت سائر النمل منادية لها قائلة : ﴿ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب ، والمساكن هي الأمكنة التي يسكن النمل فيها .

قيل : وهذه النملة التي سمعها سليمان هي أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند إليها .

وردّ هذا أبو حيان ، فقال : لحاق التاء في قالت لا يدلّ على أن النملة مؤنثة ، بل يصحّ أن يقال في المذكر : قالت ، لأن نملة وإن كانت بالتاء فهي مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بتذكير الفعل ولا بتأنيثه ، بل يتميز بالإخبار عنه بأنه ذكر ، أو أنثى ، ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة ، ولا بالتعرّض لاسم النملة ، ولما ذكر من القصص الموضوعة ، والأحاديث المكذوبة .

قرأ الحسن وطلحة ومعمر بن سليمان : "نَمْلة" والنمل بضم الميم وفتح النون بزنة رجل

وسمرة .

وقرأ سليمان التيمي بضمتين فيهما .

(100/577)

﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سليمان وَجُنُودُهُ ﴾ الحطم : الكسر ، يقال : حطمته حطماً أي كسرته كسراً ، وتحطم : تكسر ، وهذا النهي هو في الظاهر للنمل ، وفي الحقيقة لسليمان ، فهو من باب : لا أرينك ها هنا ، ويجوز أن يكون بدلاً من الأمر ، ويحتمل أن يكون جواباً للأمر .

قال أبو حيان : أما تخريجه على جواب الأمر ، فلا يكون إلاّ على قراءة الأعمش ، فإنه قرأ : " لا يحطمكم " بالجزم بدون نون التوكيد ، وأما مع وجود نون التوكيد ، فلا يجوز ذلك إلاّ في الشعر .

قال سيبويه : وهو قليل في الشعر ، شبهوه بالنهي حيث كان مجزوماً .

وقرأ أبيّ : " ادخلوا مساكنكنّ " وقرأ شهر بن حوشب : " مسكنكم " وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة وعيسى الهمداني : " لا يحطمنكم " بضمّ الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء .

وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب وأبو عمرو في رواية بسكون نون التوكيد وجملة : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿ يحطمنكم ﴾ أي لا يشعرون بحطمكم

ولا يعلمون بمكانكم ، وقيل : إن المعنى : والنمل لا يشعرون أن سليمان يفهم مقالتها ، وهو بعيد .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضاحكا مّن قَوْلِهَا ﴾ قرأ ابن السميفع : " ضحكاً " وعلى قراءة الجمهور يكون ﴿ ضاحكاً ﴾ حالاً مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم .

وقيل : هي حال مقدّرة لأن التبسم أوّل الضحك .

(101/577)

وقيل : لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبيناً له ، وقيل : إن ضحك الأنبياء هو التبسم لا غير ، وعلى قراءة ابن السميفع يكون " ضحكاً " مصدراً منصوباً بفعل محذوف أو في موضع الحال ، وكان ضحك سليمان تعجباً من قولها وفهمها واهتدائها إلى تحذير النمل ﴿ وَقَالَ رَبّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ ﴾ قد تقدّم بيان معنى أوزعني قريباً في قوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال في الكشاف : وحقيقة أوزعني : اجعلني أزع شكر نعمك عندي وأكفه وارتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكراً لك .

انتهى .

قال الواحدي : أوزعني ، أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ ، يقال : فلان موزع بكذا أي مولع به .

انتهى .

قال القرطبي : وأصله من وزع ، فكأنه قال : كفني عما يسخطك .

انتهى .

والمفعول الثاني لأوزعني هو : أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وقال الزجاج : إن معنى ﴿ أوزعني ﴾ : امنعني أن أكفر نعمتك ، وهو تفسير باللازم ، ومعنى ﴿ وعلى وَالِدَيَّ ﴾ : الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه ، فإن الإنعام عليهما إنعام عليه ، وذلك يستوجب الشكر منه لله سبحانه ، ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه إلى سوابقها ، ولا سيما النعم الدينية ، فقال : ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ أي عملاً صالحاً ترضاه مني ، ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلاً في زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق الطلب بها ، فقال : ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين ﴾ ، والمعنى : أدخلني في جملتهم ، وأثبت اسمي في أسمائهم ، واحشرني في زمرتهم إلى دار الصالحين ، وهي الجنة .

(102/577)

اللهم وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبيّ الكريم ، فتقبل ذلك مني ، وتفضل عليّ به ، فإني وإن كنت مقصراً في العمل ، ففضلك هو سبب الفوز بالخير ، فهذه الآية منادية بأعلى صوت ، وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المؤمنين بالتفضل منك لا بالعمل منهم كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه في الصحيح : " سدّدوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته " فإذا لم يكن إلاّ تفضلك الواسع ، فترك طلبه منك عجز ، والتفريط في التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع .

ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس ، وما جرى بينها وبين سليمان ، وذلك بدلالة الهدهد ، فقال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾ التفقد : تطلب ما غاب عنك ، وتعرّف أحواله ، والطير : اسم جنس لكلّ ما يطير ، والمعنى : أنه تطلب ما فقد من الطير ، وتعرف حال ما غاب منها ، وكانت الطير تصحبه في سفره ، وتظله بأجنحتها ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين ﴾ أي : ما للهدهد لا أراه ؟ فهذا الكلام من الكلام المقلوب الذي تستعمله العرب كثيراً ، وقيل : لا حاجة إلى ادّعاء القلب ، بل هو استفهام عن المانع له من رؤية الهدهد ، كأنه قال : مالي لا أراه ؟ هل ذلك لساتر يستره عني ، أو لشيء آخر ؟ ثم ظهر له أنه غائب ، فقال : ﴿ أم كان من الغائبين ﴾ و " أم " هي المنقطعة التي بمعنى الإضراب قرأ

ابن كثير وابن محيصن وهشام وأيوب " مالي " بفتح الياء ، وكذلك قرؤوا في يس : ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي ﴾ [ياس : 22] بفتح الياء ، وقرأ بإسكانها في الموضعين حمزة والكسائي ، ويعقوب ، وقرأ الباقون بفتح التي في يس وإسكان التي هنا .

قال أبو عمرو : لأن هذه التي هنا استفهام ، والتي في يس نفي ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد الإسكان .

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ .

(103/577)

اختلفوا في هذا العذاب الشديد ما هو ؟ فقال مجاهد وابن جريج : هو أن ينتف ريشه جميعاً .

وقال يزيد بن رومان : هو أن ينتف ريش جناحيه .

وقيل : هو أن يحبسه مع أضداده ، وقيل : أن يمنعه من خدمته ، وفي هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد .

وقوله : ﴿ عَذَاباً ﴾ اسم مصدر على حذف الزوائد كقوله : ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرضِ نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] .

﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بسلطان مُّبِينٍ ﴾ قرأ ابن كثير وحده بنون التأكيد المشدّدة بعدها نون الوقاية ، وقرأ الباقون بنون مشدّدة فقط ، وهي نون التوكيد ، وقرأ عيسى بن عمر بنون مشدّدة مفتوحة غير موصولة بالياء ، والسلطان المبين هو : الحجة البينة في غيبته .

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي الهدهد مكث زماناً غير بعيد .

قرأ الجمهور " مكث " بضم الكاف ، وقرأ عاصم وحده بفتحها ، ومعناه في القراءتين : أقام زماناً غير بعيد .

قال سيبويه : مكث يمكث مكوثاً كقعد يقعد قعوداً .

وقيل : إن الضمير في مكث لسليمان .

والمعنى : بقي سليمان بعد التفقد والتوعد زماناً غير طويل ، والأوّل أولى ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أي علمت ما لم تعلمه من الأمر ، والإحاطة العلم بالشيء من جميع جهاته ، ولعلّ في الكلام حذفاً ، والتقدير : فمكث الهدهد غير بعيد ، فجاء ، فعوتب على مغيبه ، فقال معتذراً عن ذلك : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ .

قال الفراء : ويجوز إدغام التاء في الطاء ، فيقال : أحطّ ، وإدغام الطاء في التاء ، فيقال : أحتّ ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ قرأ الجمهور من سبأ بالصرف على أنه اسم رجل ، نسب إليه قوم ، ومنه قول الشاعر :

الواردون وتيم في ذرى سبأ . . . قد غضّ أعناقهم جلد الجواميس

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بفتح الهمزة ، وترك الصرف على أنه اسم مدينة ، وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل ، وقال : سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام .

(104/577)

وقيل : هو اسم امرأة سميت بها المدينة .

قال القرطبي : والصحيح أنه اسم رجل كما في كتاب الترمذي من حديث فروة ابن مسيك المرادي .

قال ابن عطية : وخفي هذا على الزجاج ، فخبط خبط عشواء .

وزعم الفراء : أن الرؤاسي سأل أبا عمرو بن العلاء عن سبأ ، فقال : ما أدري ما هو ؟ قال النحاس : وأبو عمرو أجلّ من أن يقول هذا ، قال : والقول في سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل ، فإن صرفته ، فلأنه قد صار اسماً للحيّ ، وإن لم تصرفه جعلته اسماً للقبيلة مثل ثمود ، إلاّ أن الاختيار عند سيبويه الصرف .

انتهى .

وأقول : لا شك أن سبأ اسم لمدينة باليمن كانت فيها بلقيس ، وهو أيضاً اسم رجل من

قحطان ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ، ولكن المراد هنا أن الهدهد جاء إلى سليمان بخبر ما عاينه في مدينة سبأ مما وصفه ، وسيأتي في آخر هذا البحث من المأثور ما يوضح هذا ، ويؤيده ، ومعنى الآية : أن الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة بخبر يقين ، والنبأ هو : الخبر الخطير الشأن .

فلما قال الهدهد لسليمان ما قال ، قال له سليمان : وما ذاك ؟ فقال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ ﴾ ، وهي بلقيس بنت شرحبيل ، وجدها الهدهد تملك أهل سبأ ، والجملة هذه كالبيان ، والتفسير للجملة التي قبلها أي ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فيه مبالغة ، والمراد : أنها أوتيت من كلّ شيء من الأشياء التي تحتاجها .

وقيل : المعنى : أوتيت من كلّ شيء في زمانها شيئاً ، فحذف شيئاً ؛ لأن الكلام قد دلّ عليه ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي سرير عظيم ، ووصفه بالعظم ؛ لأنه – كما قيل – كان من ذهب طوله ثمانون ذراعاً ، وعرضه أربعون ذراعاً ، وارتفاعه في السماء ثلاثون ذراعاً مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر .

(105/577)

وقيل : المراد بالعرش هنا : الملك ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ قال ابن عطية : واللازم من الآية أنها امرأة ، ملكة على مدائن اليمن ذات ملك عظيم وسرير عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ أي يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه ، قيل : كانوا مجوساً ، وقيل : زنادقة ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ التي يعملونها ، وهي عبادة الشمس ، وسائر أعمال الكفر ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ أي صدّهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح ، وهو الإيمان بالله وتوحيده ﴿ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى ذلك .

﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ ﴾ قرأ الجمهور بتشديد ﴿ ألا ﴾ .

قال ابن الأنباري : الوقف على فهم لا يهتدون غير تامّ عند من شدّد ألا ، لأن المعنى : وزين لهم الشيطان ألا يسجدوا .

قال النحاس : هي أن دخلت عليها لا ، وهي في موضع نصب .

قال الأخفش : أي زين لهم أن لا يسجدوا لله بمعنى : لئلا يسجدوا لله .

وقال الكسائي : هي في موضع نصب بصدّهم أي فصدّهم ألا يسجدوا بمعنى لئلا يسجدوا ، فهو على الوجهين مفعول له .

وقال اليزيدي : إنه بدل من أعمالهم في موضع نصب .

وقال أبو عمرو : في موضع خفض على البدل من السبيل .

وقيل : العامل فيها ﴿ لا يهتدون ﴾ أي فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ، وتكون لا على هذا زائدة كقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَكَ أَن لاَ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] .

وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة ؛ لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود : إما بالتزيين أو بالصدّ ، أو بمنع الاهتداء ، وقد رجح كونه علة للصدّ الزجاج ، ورجح الفراء كونه علة لزين ، قال : زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا ، ثم حذفت اللام .

(106/577)

وقرأ الزهري والكسائي بتخفيف " ألا " قال الكسائي : ما كنت أسمع الأشياخ يقرؤونها إلاّ بالتخفيف على نية الأمر ، فتكون "ألاّ" على هذه القراءة حرف تنبيه واستفتاح ، وما بعدها حرف نداء ، واسجدوا فعل أمر ، وكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون هكذا ألا يا اسجدوا ، ولكن الصحابة رضي الله عنهم أسقطوا الألف من يا وهمزة الوصل من اسجدوا خطأً ووصلوا الياء بسين اسجدوا ، فصارت صورة الخط ألاّ يسجدوا ، والمنادى محذوف ، وتقديره : ألاّ يا هؤلاء اسجدوا .

وقد حذفت العرب المنادى كثيراً في كلامها ، ومنه قول الشاعر :

ألاّ يا اسلمي يا دار ميّ على البلى . . . ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

وقول الآخر :

ألاّ يا اسلمى ثم اسلمي ثمت اسلمى . . . ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقول الآخر أيضاً :

ألاّ يا اسلمي يا هند هند بني بكر . . . وهو كثير في أشعارهم .

قال الزجاج : وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون قراءة التشديد ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد قراءة التشديد .

قال الزجاج : ولقراءة التخفيف وجه حسن إلاّ أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم .

والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه ، وكذا قال النحاس ، وعلى هذه القراءة تكون جملة ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ ﴾ معترضة من كلام الهدهد ، أو من كلام سليمان ، أو من كلام الله سبحانه .

وفي قراءة عبد الله بن مسعود : " هل لا تسجدوا " بالفوقية ، وفي قراءة أبيّ : ﴿ أَلا تَسْجُدُواْ ﴾ بالفوقية أيضاً ﴿ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السموات والأرض ﴾ أي يظهر ما هو مخبوء ومخفيّ فيهما ، يقال : خبأت الشيء أخبؤه خبأ والخبء ما خبأته .

قال الزجاج : جاء في التفسير أن الخبء هاهنا بمعنى : القطر من السماء والنبات من الأرض .

وقيل : خبء الأرض : كنوزها ونباتها .

وقال قتادة : الخبء : السرّ .

قال النحاس : أي : ما غاب في السماوات والأرض .

(107/577)

وقرأ أبيّ وعيسى بن عمر : " الخب " بفتح الباء من غير همز تخفيفاً ، وقرأ عبد الله وعكرمة ومالك بن دينار : " الخبا " بالألف .

قال أبو حاتم : وهذا لا يجوز في العربية .

وردّ عليه بأن سيبويه حكى عن العرب : أن الألف تبدل من الهمزة إذا كان قبلها ساكن .

وفي قراءة عبد الله : "يخرج الخب من السموات والأرض" .

قال الفراء : ومن وفى يتعاقبان ، والموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً لله سبحانه ، أو بدلاً منه ، أو بياناً له ، ويجوز أن يكون في محل نصب على المدح ، ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف .

وجملة : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ معطوفة على يخرج ، قرأ الجمهور بالتحتية في الفعلين ، وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وحفص والكسائي بالفوقية للخطاب ، أما

القراءة الأولى فلكون الضمائر المتقدّمة ضمائر غيبة ، وأما القراءة الثانية : فلكون قراءة الزهري والكسائي فيها الأمر بالسجود والخطاب لهم بذلك ، فهذا عندهم من تمام ذلك الخطاب .

والمعنى : أن الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الإنساني من الخفاء بعلمه له كما يخرج ما خفي في السماوات والأرض .

ثم بعد ما وصف الربّ سبحانه بما تقدّم مما يدلّ على عظيم قدرته وجليل سلطانه ووجوب توحيده ، وتخصيصه بالعبادة قال : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ قرأ الجمهور ﴿ العظيم ﴾ : بالجرّ نعتاً للعرش ، وقرأ ابن محيصن بالرفع نعتاً للربّ ، وخصّ العرش بالذكر ؛ لأنه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك في المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز ؛ أنه كتب : إن الله لم ينعم على عبد نعمة ، فحمد الله عليها إلاّ كان حمده أفضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك إلاّ في كتاب الله المنزل .

(108/577)

قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودَ وسليمان عِلْماً وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ وأي نعمة أفضل مما أعطى داود وسليمان ؟ أقول : ليس في الآية ما يدلّ على ما فهمه رحمه الله ، والذي تدلّ عليه أنهما حمدا الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم ، فمن أين تدلّ على أن حمده أفضل من نعمته ؟ وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَوَرِثَ سليمان دَاوُود ﴾ قال : ورثه نبوّته ، وملكه وعلمه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد في الزهد ، وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال : "خرج سليمان بن داود يستسقي بالناس ، فمرّ على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء ، وهي تقول : اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك ، فإما أن تسقينا وإما أن تهلكنا ، فقال سليمان للناس : ارجعوا ، فقد سقيتم بدعوة غيركم" .

وأخرج الحاكم في المستدرك عن جعفر بن محمد قال : أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر ، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والدواب والطير والسباع ، وأعطي كل شيء ، ومنطق كل شيء ، وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة ، حتى إذا أراد الله أن يقبضه إليه أوحى إليه أن يستودع علم الله وحكمته أخاه ، وولد داود كانوا أربعمائة وثمانين رجلاً أنبياء بلا رسالة .

قال الذهبي : هذا باطل ، وقد رويت قصص في عظم ملك سليمان لا تطيب النفس بذكر

شيء منها ، فالإمساك عن ذكرها أولى .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال : يدفعون .

وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال : جعل لكل صنف وزعة تردّ أولاها على أخراها لئلا تتقدّمه في السير كما تصنع الملوك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾ قال : ألهمني .

(109/577)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل : كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير ؟ قال : إن سليمان نزل منزلاً ، فلم يدر ما بعد الماء ، وكان الهدهد يدلّ سليمان على الماء ، فأراد أن يسأله عنه ، ففقده ، قيل : كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب ، ويضع له الصبي الحبالة ، فيغيبها ، فيصيده ؟ فقال : إذا جاء القضاء ذهب البصر .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ قال : أنتف ريشه كله ، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين ، وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال : كان اسم هدهد سليمان : غبر .

وأقول : من أين جاء علم هذا للحسن رحمه الله ، وهكذا ما رواه عنه ابن عساكر أن اسم النملة : حرس ، وأنها من قبيلة يقال لها : بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء ، وكانت بقدر الذئب ، وهو رحمه الله أورع الناس عن نقل الكذب ، ونحن نعلم أنه لم يصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك شيء ، ونعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان ، أو بأحد من أصحابه ، فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب ، وقد أمرنا : "أن لا نصدّقهم ، ولا نكذبهم" ، فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روى : " حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج " فليس ذلك فيما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك ، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم .

وقد كرّرنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بسلطان مُّبِينٍ ﴾ قال : خبر الحقّ الصدق البين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس: كلّ سلطان في القرآن حجة، وذكر هذه الآية، ثم قال: وأيّ سلطان كان للهدهد؟ يعني: أن المراد بالسلطان: الحجة لا السلطان الذي هو الملك.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ قال: اطلعت على ما لم تطلع عليه.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ ﴾ قال: سبأ بأرض اليمن، يقال لها: مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليالٍ ﴿ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ قال: بخبر حقّ.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عنه أيضاً: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ قال: كان اسمها بلقيس بنت ذي شيرة، وكانت صلباء شعراء.

وروى عن الحسن وقتادة وزهير بن محمد أنها بلقيس بنت شراحيل، وعن ابن جريج بنت ذي شرح.

وأخرج ابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إحدى أبوي بلقيس كان جنياً" وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ قال: سرير كريم من ذهب

وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالي الثمن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ يُخْرِجُ الخبء ﴾ قال : يعلم كلّ خبيئة في السماء والأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(111/577)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

التفسير :

وما يكاد سليمان يخرج من هذا الموقف الذي وقفه مع النملة ، حتى يلقاه موقف آخر ، مع طائر ، وديع لطيف ، أقرب إلى النملة في لطفها ، وحسن مدخلها للأمور التي تعالجها . . وهو « الهدهد » .

(112/577)

وكأن سليمان قد نسى هذا الموقف الذي كان فيه مع جماعة النمل منذ قليل ، وزايلته تلك المشاعر التي وقعت في نفسه هناك . . وها هو ذا يلبس سلطان الجلال ، ويمسك بصولجان الملك ، ويضرب بسيفه ! « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » .

الهدهد . . هذا الطائر الوديع المسكين . . يتخلّف عن هذا الحشد ، ولا يحضر هذا الحفل ، فيتوعّده ، صاحب السلطان بأشدّ العذاب والنقمة ! « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً . . أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ . . أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » ! ! أما للهدهد عذر يمكن أن يقوم لتخلفه هذا ، ويدفع عنه هذا العذاب ؟

ألا يجوز أن يكون مريضا ؟ ألا يصح أن يكون قد وقع في شباك صائد ؟ ألا يعرض للهدهد ما يعرض للناس من أمور تعطل إرادتهم ، أو تدفع بهم إلى غير

ما يريدون ؟ ألا سأل سليمان عن الهدهد أولا ، وطلب إلى بعض جنده أن يأتوه بالخبر اليقين عنه ؟ ألا اطمأن إلى سلامته قبل أن يسأل عن تأخره عن أخذ مكانه في هذا الحشد ؟ وماذا يغنى الهدهد في هذا الجمع العظيم ؟ وماذا يجدى أو يضير إذا هو حضر أو تخلف ، وبين يدى سليمان من الحشود والقوى ما لا حصر له ؟ .

إنه سلطة السلطان ، وناموس الملك . . الطاعة والولاء ، لحساب الطاعة والولاء ، ولسلطان الهيبة والجلال . . !

وفي قول سليمان : « ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ » . هو علم من علم سليمان الذي آتاه الله . . فهو حين ينظر فلا يرى الهدهد ، يتهم نفسه أولا ، ويتشكك في أن تكون حواسه قد خدعته : « ما لى لا أرى الهدهد ؟ » ولم يقل : « أين الهدهد ؟ » ولم يقل : « إن الهدهد غائب ! » . . وهذا هو شأن أصحاب العلم ، إذا التمسوا حقيقة من الحقائق ، فلم يجدوها بين أيديهم ، تشككوا في أسلوب تفكيرهم الذي لم يصل بهم إلى الحقيقة ، ثم أعادوا البحث والنظر . . حتى يجدوا ما يطلبون . . أما إذا التمس المرء الحقيقة ثم لم يجدها ، ثم كان ذلك مدعاة له إلى إنكارها ، فذلك ليس من أسلوب العلماء ، ولا من طرق تحصيل العلم .

فسليمان ، إذ لم ير الهدهد . . وقف موقف الشك . حتى ينجلى الموقف . .

إنه لم يره ، وقد يكون موجودا ، وقد يكون غائبا ! ثم استبان له بعد هذا ، أن الهدهد غائب ! . . ومن هنا كان هذا الوعيد بالعقاب الأليم له ! ويطلع « الهدهد » على سليمان بما لم يكن يحتسب ، ويهجم عليه ، وهو الأعزل الضعيف ، بسلطان أقوى من سلطانه ، وجيش أعز وأقوى من جيشه ، وعلم أكثر وأشمل من علمه . .

« فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ . . فَقَالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ . وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ » ! ! لقد انقلبت الآية ، وانعكس الوضع . وها هو ذا « الهدهد » الضعيف الأعزل ، الذي تنتظر هذه الحشود الحاشدة من الجن والإنس والطير ، مصيره ، ومصرعه ، بين مشفق ، وشامت ، ولاه ـ هذا الهدهد ، يحاكم سليمان ، وينتقص قدرته ، ويتهمه بالقصور عن أن يرى ما حوله ، وأن يدير هذه القوى التي بين يديه الدعوة إلى اللّه ، وهداية الضالين من عباده ، لا في هذه المظاهر الاستعراضية ، التي لا ثمرة لها . .

لقد حاكم ، هذا المخلوق الضعيف الأعزل ، ملك الملوك في عصره . .

(114/577)

حاكمه ، ووضعه موضع الاتهام ، وهو في أبهة ملكه . . وعلى أعين الملأ من جنده . . من الجن والإنس والطير ! ! « إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » ! فلم يكن هذا الطائر الضعيف الصغير ، مجرد مكتشف ، وعالم ، بما لم يعلم به سليمان وحسب ، بل إنه

كان داعية إلى اللّه ، وإلى الإيمان به . . فهو ينكر على المشركين شركهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحقر آلهتهم وما يعبدون من دون اللّه ! .

إنه يدين سليمان في هذه الإنسانية الضالة ، التي ينتمى إليها سليمان ، باعتباره واحدا من عالم الناس ! ثم ماذا بقي لسليمان من فضل على هذا المخلوق الضعيف ؟

إن سلطان سليمان - كملك - قصر عن أن يمتد إلى ما وصل إليه سلطان الهدهد ، وأحاط به علمه ! .

وإن دعوته كنبيّ . . لا تقوم على أكثر من هذه الدعوة التي يدعو بها الهدهد . . وإن حجته على دعوته ، ليست بأقوى من حجة هذا الهدهد ! فماذا بقي للإنسان في أكمل صوره ، وأحسن أحواله ، وأعلى منازله . ؟

ماذا بقي له من فضل ، على أضعف مخلوقات اللّه وأقلها شأنا . . كالنملة والهدهد ؟

إن جهل الإنسان بأسرار هذا الوجود ، هو الذي يخيل إليه أنه سيّد هذا العالم ، وأنه قد علم ما لم يعلمه غيره من مخلوقات اللّه . .

(115/577)

وهذا ـ لا شك ـ رحمة من رحمة اللّه بالإنسان . . إذ لو انكشف له الغطاء عن أسرار هذا الوجود ، وما أودع الخالق في مخلوقاته من عجائب وأسرار ـ لمات الإنسان حسرة وكمدا ، على ضآلة شأنه ، وكثافة جهله ، ولانطفأت في نفسه شعلة الأمل التي تدفىء صدره ، وتغريه بالاندفاع وراء المجهول ، لكشف الستر المحجّب وراءها ، ولوقف من هذا الوجود موقف الذليل المهين أمام سلطان جليل مهيب . . وصدق اللّه العظيم : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

(85 : الإسراء) ولعل خير شاهد لهذا الذي نقول ، ما يعانيه الغرب اليوم من قلق نفسى ، وحيرة فكرية ، واضطراب سلوكيّ . . ومرّد هذا كله ـ فيما نرى ـ إلى هذا القدر الضئيل ، الذي انكشف للعقل من أسرار الوجود ، دون أن يرتبط ذلك بالإيمان باللّه ، وإضافة هذا إلى علمه وقدرته ، وإبداعه في خلقه . . فكان الأثر المباشر لهذا ، هو ضمور شخصية الإنسان ، وصغاره ، وضآلة شأنه بين عوالم الوجود . .

وليست هذه النظرات المتشائمة ، التي قامت عليها هذه المذاهب المادية السوداء ، التي يعيش فيها الغرب اليوم ـ ليست إلا أثرا من آثار هذه الكشوف العلمية ، التي ألقت أضواء خافتة على أسرار هذا الوجود ، فظهر الإنسان فى شعاعاتها المضطربة المتراقصة ، كأنه حشرة حقيرة ، أو دودة هزيلة ، أو قرد خلقه اللّه ليتسلى به في أبديته الطويلة المملة ، كما

يقول كبير الفلاسفة «نيتشه» ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 10 صـ 236.232 ﴾

(116/577)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

صيغة التفعُّل تدل على التكلف ، والتكلف : الطلب .

واشتقاق ﴿ تفقّد ﴾ من الفَقْد يقتضي أن ﴿ تفقّد ﴾ بمعنى طلب الفَقد .

ولكنهم توسعوا فيه فأطلقوه على طلب معرفة سبب الفقد ، أي معرفة ما أحدثه الفقد في شيء ، فالتفقد : البحث عن الفقد ليعرف بذلك أن الشيء لم ينقص وكان الطير من جملة الجند لأن كثيراً من الطير صالح للانتفاع به في أمور الجند فمنه الحمام الزاجل ، ومنه الهُدهد أيضاً لمعرفة الماء ، ومنه البزاة والصقور لصيد الملك وجنده ولجلب الطعام للجند من الصيد إذا حل الجند في القفار أو نفد الزاد .

وللطير جنود يقومون بشؤونها .

وتفقد الجند من شعار الملك والأمراء وهو من مقاصد حشر الجنود وتسييرها .

والمعنى : تفقَّد الطيرَ في جملة ما تفقده ، فقال لمن يلون أمر الطير : ﴿ ما لي لا أرى الهدهد ﴾ .

ومن واجبات ولاة الأمور تفقد أحوال الرعية وتفقد العمال ونحوهم بنفسه كما فعل عمر في خروجه إلى الشام سنة سبع عشرة هجرية ، أو بمن يكل إليه ذلك ، فقد جعل عمر محمد بن مسلمة الأنصاري يتفقد العمال .

و﴿ الهُدهد ﴾ : نوع من الطير وهو ما يقرقر ، وفي رائحته نتن وفوق رأسه قَزَعة سوداء ، وهو أسود البراثن ، أصفر الأجفان ، يقتات الحبوب والدود ، يرى الماء من بُعد ويحس به في باطن الأرض ، فإذا رَفرف على موضع عُلم أن به ماء ، وهذا سبب اتخاذه في جند سليمان .

قال الجاحظ : يزعمون أنه هو الذي كان يدل سليمان على مواضع الماء في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها .

وقوله : ﴿ ما لي لا أرى الهدهد ﴾ استفهام عن شيء حصل له في حال عدم رؤيته الهدهد ، ف ﴿ ما ﴾ استفهام .

واللام من قوله : ﴿ لي ﴾ للاختصاص .

والمجرور باللام خبر عن ﴿ ما ﴾ الاستفهامية .

والتقدير : ما الأمر الذي كان لي .

وجملة : ﴿ لا أرى الهدهد ﴾ في موضع الحال من ياء المتكلم المجرورة باللام ، فالاستفهام عما حصل له في هذه الحال ، أي عن المانع لرؤية الهدهد .

والكلام موجه إلى خفرائه ، يعني : أكان انتفاء رؤيتي الهدهد من عدم إحاطة نظري أم من اختفاء الهدهد ؟ فالاستفهام حقيقي وهو كناية عن عدم ظهور الهدهد .

و ﴿ أم ﴾ منقطعة لأنها لم تقع بعد همزة الاستفهام التي يطلب بها تعيين أحد الشيئين .

و ﴿ أم ﴾ لا يفارقها تقدير معنى الاستفهام بعدها ، فأفادت هنا إضراب الانتقال من استفهام إلى استفهام آخر .

والتقدير : بل أكان من الغائبين ؟ وليست ﴿ أم ﴾ المنقطعة خاصة بالوقوع بعد الخبر بل كما تقع بعد الخبر تقع بعد الاستفهام .

وصاحب "المفتاح" مثَّل بهذه الآية لاستعمال الاستفهام في التعجب والمثال يكفي فيه الفرض .

ولما كان قول سليمان هذا صادراً بعد تقصّيه أحوال الطير ورجح ذلك عنده أنه غاب فقال : ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ﴾ لأن تغيبه من دون إذن عصيان يقتضي

عقابه ، وذلك موكول لاجتهاد سليمان في المقدار الذي يراه استصلاحاً له إن كان يرجى صلاحه ، أو إعداماً له لئلا يلقّن بالفساد غيرَه فيدخل الفساد في الجند وليكون عقابه نكالاً لغيره .

فصمم سليمان على أنه يفعل به عقوبة جزاء على عدم حضوره في الجنود .

ويؤخذ من هذا جواز عقاب الجندي إذا خالف ما عُيّن له من عمل أو تغيب عنه .

وأما عقوبة الحيوان فإنما تكون عند تجاوزه المعتاد في أحواله .

قال القرافي في "تنقيح الفصول" في آخر فصوله : سئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن قتل الهرّ الموذي هل يجوز ؟ فكتب وأنا حاضر : إذا خرجت أذيته عن عادة القطط وتكرر ذلك منه قتل أ هـ .

قال القرافي : فاحترز بالقيد الأول عما هو في طبع الهر من أكل اللحم إذا تُرك فإذا أكله لم يقتل لأنه طبعه ، واحترز بالقيد الثاني عن أن يكون ذلك منه على وجه القلة فإن ذلك لا يوجب قتله .

(118/577)

قال القرافي : وقال أبو حنيفة : إذا آذت الهرة وقصد قتلها لا تعذب ولا تخنق بل تذبح بموسى حادة لقوله صلى الله عليه وسلم " إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة " أ هـ .

وقال الشيخ ابن أبي زيد في "الرسالة" : ولا بأس إن شاء الله بقتل النمل إذا آذت ولم يُقدَر على تركها .

فقول سليمان ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ شريعة منسوخة .

أما العقاب الخفيف للحيوان لتربيته وتأديبه كضرب الخيل لتعليم السير ونحو ذلك فهو مأذون فيه لمصلحة السير ، وكذلك السبق بين الخيل مع ما فيه من إتعابها لمصلحة السير عليها في الجيوش .

و﴿ أو ﴾ تفيد أحَدَ الأشياء فقوله : ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ جعله ثالث الأمور التي جعلها جزاء لغيبته وهو أن يأتي بما يدفع به العقاب عن نفسه من عذر في التخلف مقبول .

والسلطان : الحجة .

والمبين : المظهر لحق المحتج بها .

وهذه الزيادة من النبي سليمان استقصاء للهدهد في حقه لأن الغائب حجته معه .

وأكد عزمه على عقابه بتأكيد الجملتين ﴿ لأعذبنه لأذبحنه ﴾ باللام الموكدة التي تسمى

لام القسم وبنون التوكيد ليَعلم الجند ذلك حتى إذا فُقِد الهدهد ولم يرجع يكون ذلك التأكيد زاجراً لباقي الجند عن أن يأتوا بمثل فَعْلته فينالهم العقاب .

وأما تأكيد جملة : ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ فلإفادة تحقيق أنه لا منجى له من العقاب إلا أن يأتي بحجة تبرّر تغيبه ، لأن سياق تلك الجملة يفيد أن مضمونها عديل العقوبة .

فلما كان العقاب مؤكّدا محققاً فقد اقتضى تأكيد المخرج منه لئلا يبرئه منه إلا تحقق الإتيان بحجة ظاهرة لئلا تتوهم هوادةٌ في الإدلاء بالحجة فكان تأكيد العديل كتأكيد مُعادله .

وبهذا يظهر أن ﴿ أو ﴾ الأولى للتخيير و ﴿ أو ﴾ الثانية للتقسيم .

وقيل جيء بتوكيد جملة : ﴿ ليأتيني ﴾ مشاكلة للجملتين اللتين قبلها وتغليباً .

واختاره بعض المحققين وليس من التحقيق .

(119/577)

وكتب في المصاحف ﴿ لأذبحنه ﴾ بلاَم ألفٍ بعدها ألفٌ حتى يخال أنه نفي الذبح وليس بنفي ، لأن وقوع نون التوكيد بعده يؤذن بأنه إثبات إذ لا يؤكد المنفي بنون التأكيد إلا نادراً في كلامهم ، ولأن سياق الكلام والمعنى حارس من تطرق احتمال النفي ، ولأن اعتماد المسلمين في ألفاظ القرآن على الحفظ لا على الكتابة ، فإن المصاحف ما كتبت

حتى قرىء القرآن نَيِّفاً وعشرين سنة .

وقد تقع في رسم المصحف أشياء مخالفة لما اصطلح عليه الراسمون من بعد لأن الرسم لم يكن على تمام الضبط في صدر الإسلام وكان اعتماد العرب على حوافظهم .

وقرأ ابن كثير : ﴿ أو ليأتينَّني ﴾ بنونين ، الأولى مشددة وهي نون التوكيد ، والثانية نون الوقاية .

وقرأ الباقون بنون واحدة مشددة بحذف نون الوقاية لتلاقي النونات .

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22)

﴿ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امرأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا ﴾ ﴿ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ .

الفاء لتفريع الحكاية عطفت جملة على جملة وضمير ﴿ مكث ﴾ للهدهد .

والمكث : البقاء في المكان وملازمته زمناً ما ، وفعله من باب كرم ونصر .

وقرأه الجمهور بالأول .

وقرأ عاصم وروح عن يعقوب بالثاني .

وأطلق المكث هنا على البُطْء لأنّ الهدهد لم يكن ماكثاً بمكان ولكنه كان يطير وينتقل ، فأطلق المكث على البُطء مجاز مرسل لأن المكث يستلزم زمناً .

و ﴿ غير بعيد ﴾ صفة لاسم زمن أو اسم مكان محذوف منصوب على الظرفية ، أي مكث زمناً غير بعيد ، أو في مكان غير بعيد ، وكلا المعنيين يقتضي أنه رجع إلى سليمان بعد زمن قليل .

(120/577)

و ﴿ غير بعيد ﴾ قريب قرباً يوصف بضد البعد ، أي يوشك أن يكون بعيداً .

وهذا وجه إيثار التعبير بـ ﴿ غيرَ بعيد ﴾ لأن ﴿ غير ﴾ تفيد دفع توهم أن يكون بعيداً ، وإنما يتوهم ذلك إذا كان القُرب يُشبه البُعد .

والبُعد والقرب حقيقتهما من أوصاف المكان ويستعاران لقلة الحصة بتشبيه الزمن القصير بالمكان القريب وشاع ذلك حتى ساوى الحقيقة قال تعالى : ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ [هود : 89] .

والفاء في فقال ﴾ عاطفة على "مكُث" وجُعل القول عقيب المكث لأنه لما حضر صدر القول من جهته فالتعقيب حقيقي .

والقولُ المسند إلى الهدهد إنْ حمل على حقيقة القول وهو الكلام الذي من شأنه أن ينطق به الناس ، فقول الهدهد هذا ليس من دلالة منطق الطير الذي عُلّمه سليمان لأن ذلك هو

المنطق الدال على ما في نفوس الطير من المدركات وهي محدودة كما قدمنا بيانه عند قوله تعالى : ﴿ علّمنا منطق الطير ﴾ [النمل : 16] .

وليس للهدهد قِبَل بإدراك ما اشتمل عليه القول المنسوب إليه ولا باستفادة الأحوال من مشاهدة الأقوام والبلدان حتى تَخطر في نفسه وحتى يعبر عنها بمنطقه الذي عُلّم سليمانُ دلالتَه كما قدمناه .

فهذا وحي لسليمان أجراه الله على لسان الهدهد .

وأما قول سليمان ﴿ سننظر أصدقتَ أم كنتَ من الكاذبين ﴾ [النمل : 27] فيجوز أن يكون سليمان خشي أن يكون ذلك الكلام الذي سمعه من تلقاء الهدهد كلاماً ألقاه الشيطان من جانب الهدهد ليضَلّل سليمان ويفتنه بالبحث عن مملكة موهومة ليسخر به كما يسخر بالمتثائِب ، فعزم سليمان على استثبات الخبر بالبحث الذي لا يترك ريبة في صحته خزياً للشيطان .

ولنشتغل الآن بما اشتمل عليه هذا الكلام فابتداؤه بـ ﴿ أحطتُ بما لم تُحِطْ به ﴾ تنبيه لسليمان بأن في مخلوقات الله ممالك وملوكاً تداني مُلكه أو تفوقه في بعض أحوال الملك جعله الله مثلاً له ، كما جعل عِلم الخضر مثلاً لموسى عليه السلام لئلا يغتر بانتهاء الأمر إلى ما بلغه هو .

وفيه استدعاء لإقباله على ما سيُلقى إليه بشراشره لأهمية هذا المطلع في الكلام ، فإن معرفة أحوال الممالك والأمم من أهم ما يعنى به ملوك الصلاح ليكونوا على استعداد بما يُفاجئهم من تلقائها ، ولتكون من دواعي الازدياد من العمل النافع للمملكة بالاقتداء بالنافع من أحوال غيرها والانقباض عما في أحوال المملكة من الخلل بمشاهدة آثار مثله في غيرها .

b

ومن فقرات الوزير ابن الخطيب الأندلسي : فأخبارُ الأقطار مما تُنفق فيه الملوك أسمارها ، وترقم ببديع هالاته أقمارها ، وتستفيد منه حسن السِيَر ، والأمنَ من الغِيَر ، فتستعين على الدهر بالتجارب .

.

وتستدل بالشاهد على الغايب أ هـ .

والإحاطة : الاشتمال على الشيء وجعله في حَوزة المحيط .

وهي هنا مستعارة لاستيعاب العلم بالمعلومات كقوله تعالى : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تُحطْ به خُبراً ﴾ [الكهف : 68] فما صُدَقُ ﴿ ما لم تحط به ﴾ معلومات لم يحط بها علم سليمان .

و ﴿ سبأ ﴾ : بهمزة في آخره وقد يخفف اسم رجل هو عَبَّشَمْس بن يشْجُب بن يَعرُب

ابن قحطان .

لُقب بسبأ .

قالوا : لأنه أول من سبَى في غزوه .

وكان الهمز فيه لتغييره العلمية عن المصدر .

وهو جدّ جذم عظيم من أجذام العرب .

وذريته كانوا باليمن ثم تفرقوا كما سيأتي في سورة سبأ .

وأطلق هذا الاسم هنا على ديارهم لأن ﴿ من ﴾ ابتدائية وهي لابتداء الأمكنة غالباً .

فاسم ﴿ سبأ ﴾ غلب على القبيلة المتناسلة من سبأ المذكور وهم من الجذم القحطاني المعروف بالعرب المستعربة ، أي الذين لم ينشأوا في بلاد العرب ولكنهم نزحوا من العراق إلى بلاد العرب ، وأول نازح منهم هو يَعرب (بفتح التحتية وضم الراء) بن قحطان (وبالعبرانية يقطان) بن عَابر بن شالخ بن أرفخشد (وبالعبرانية أرفكشاد) بن سَام بن نوح .

(122/577)

وهذا النسب يتفق مع ما في سفر التكوين من سَام إلى عابر ، فمن عابر يفترق نسب القحطانيين من نسب العبرانيين ؛ فأما أهل أنساب العرب فيجعلون لعابر ابنين أحدهما

اسمه قحطان والآخر اسمه (فالغ) .

وأما سفر التكوين فيجعل أنّ أحدهما اسمه (يقطن) ولا شك أنه المسمى عند العرب قحطان ، والآخر اسمه (فالج) بفاء في أوله وجيم في آخره ، فوقع تغيير في بعض حروف الاسمين لاختلاف اللغتين .

ولما انتقل يعرب سكن جنوب البلاد العربية (اليمن) فاستقر بموضع بنى فيه مدينة ظَفارِ (بفتح الظاء المشالة المعجمة وكسر الراء) فهي أول مدينة في بلاد اليمن وانتشر أبناؤه في بلاد الجنوب الذي على البحر وهو بلاد (حضرموت) ثم بنى ابنه يَشجب (بفتح التحتية وضم الجيم) مدينة صنعاء وسمى البلاد باليمن ، ثم خلفه ابنه عَبَّشمس (بتشديد الموحدة ومعناه ضوء الشمس) وساد قومه ولقب سَبأ (بفتحتين وهمزة في آخره) واستقل بأهله فبنى مدينة مأرب حاضرة سبأ ، قال النابغة الجعدي:

من سبأ الحاضرين مأرب إذ . . .

يبنون من دون سَيْله العَرِما

وبين مأرب وصنعاء مسيرة ثلاث مراحل خفيفة .

ثم جاء بعد سبأ ابنُه حِمْير ويلقب العَرنْجح (أي العتيق) ، ويظهر أنه جعل بلاده ظفار بعد أن انتقل أبناء يشجب منها إلى صنعاء .

وفي المثَل : من ظَفَّر حَمَّر ، أي من دخل ظفار فليتكلم بالحميرية ، ولهذا المثل قصة .

فكانت البلاد اليمنية أو القحطانية منقسمة إلى ثلاث قبائل : اليمنية ، والسبئية ، والحميرية .

وكان على كل قبية مَلِك منها ، واستقلّت أفخاذهم بمواقع أطلقوا على الواحد منها اسم مخلاف (بكسر الميم) وكان لكل مخلاف رئيس يلقب بالقيل ويقال له : ذو كذا ، بالإضافة إلى اسم مخلافه ، مثل ذو رُعين .

والملك الذي تتبعه الأقيال كلها ويحكم اليمن كلّها يلقب تُبَّع لأنه متبوع بأمراء كثيرين .

(123/577)

وقد انفردت سبأ بالملك في حدود القرن السابع عشر قبل الهجرة وكان أشهر ملوكهم أو أولَهم الهَدهاد بن شرحبيل ويلقب اليَشرَّح (بفتح التحتية وفتح الشين المعجمة وفتح الراء مشددة وبحاء مهملة في آخره) .

ثم وليت بعده بلقيس ابنة شرحبيل أيضاً أو شراحيل ولم تكن ذات زوج فيما يظهر من سياق القرآن .

وقيل كانت متزوجة شَدد بن زرعة ، فإن صح ذلك فلعله لم تطل مدته فمات .

وكان أهل سَبأ صابئة يعبدون الشمس .

وبقية ذكر حضارتهم تأتي في تفسير سورة سَبأ .

و﴿ أحطت ﴾ يقرأ بطاء مشددة لأنه التقاء طاء الكلمة وتاء المتكلم فقلبت هذه التاء طاء وأدغمتا .

والباء في قوله : ﴿ بنبإ ﴾ للمصاحبة لأن النبأ كان مصاحباً للهدهد حين مجيئه ، والنبأ : الخبر المهم .

وبين بـ ﴿ سبأ ﴾ و ﴿ بنبإٍ ﴾ الجناس المزدوج .

وفيه أيضاً جناس الخط وهو أن تكون صورة الكلمتين واحدة في الخَط وإنما تختلفان في النطق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مَرضت فهو يَشفين ﴾ [الشعراء : 79 ، 80] .

ووصفه بـ ﴿ يقين ﴾ تحقيق لكون ما سيلقى إليه شيء محقق لا شبهة فيه فوصف بالمصدر للمبالغة .

وجملة : ﴿ إني وجدت امرأة ﴾ بيان ل ﴿ نبأ ﴾ فلذلك لم تعطف .

وإدخال (إنّ) في صدر هذه الجملة لأهمية الخبر إذ لم يكن معهوداً في بني إسرائيل أن تكون المرأة ملكاً .

وفعل ﴿ تملكهم ﴾ هنا مشتق من المُلك بضم الميم وفعله كفعل مِلك الأشياء .

وروي حديث هرقل "هل كان في آبائه مِن مَلَك" بفتح اللام ، أي كان مَلكاً ، ويفرق بين الفعلين بالمصدر فمصدر هذا مُلك بضم الميم ، والآخر بكسرها ، وضمير الجمع راجع إلى سبأ .

وهذه المرأة أريد بها بلقيس (بكسر الموحدة وسكون اللام وكسر القافِ) ابنة شراحيل وفي ترتيبها مع ملوك سَبأ وتعيين اسمها واسم أبيها اضطراب للمؤرخين .

والموثوق به أنها كانت معاصرة سليمان في أوائل القرن السابع عَشر قبل الهجرة وكانت امرأة عاقلة .

ويقال : هي التي بَنت سُدّ مَأرب .

(124/577)

وكانت حاضرةُ ملكها مأربَ مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث مراحل وسيأتي ذكرها في سورة سبأ .

وتنكير ﴿ امرأة ﴾ وهو مفعول أول ل ﴿ وجدت ﴾ له حكم المبتدأ فهو كالابتداء بالنكرة إذا أريد بالنكرة التعجب من جنسها كقولهم : بقَرة تكلمتْ ، لأن المراد حكاية أمر عجيب عندهم أن تكون امرأة ملكة على قوم .

ولذلك لم يقل : وجدتهم تملكهم امرأة .

والإيتاء : الإعطاء ، وهو مشعر بأن المعطَى مرغوب فيه ، وهو مستعمل في لازمه وهو النول .

ومعنى ﴿ أوتيت من كل شيء ﴾ نالت من كل شيء حسن من شؤون الملك .

فعموم كل شيء عموم عرفي من جهتين يفسره المقام كما فسر قول سليمان ﴿ أوتينا من كل شيء ﴾ [النمل : 16] ، أي أوتيتْ من خصال الملوك ومن ذخائرهم وعددهم وجيوشهم وثراء مملكتهم وزخرفها ونحو ذلك من المحامد والمحاسن .

وبناء فِعل ﴿ أوتيت ﴾ إلى المجهول إذ لا يتعلق الغرض بتعيين أسباب ما نالته بل المقصود ما نالته على أن الوسائل والأسباب شتى ، فمنه ما كان إرثاً من الملوك الذين سلفوها ، ومنه ما كان كسباً من كسبها واقتنائها ، ومنه ما وهبها الله من عقل وحكمة ، وما منَح بلادها من خصب ووفرة مياه .

وقد كان اليونان يلقبون مملكة اليمن بالعربية السعيدة أخذاً من معنى اليُمْن في العربية ، وقال تعالى : ﴿ لقد كان لسبإٍ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكُروا له بلدةٌ طيبة وربٌ غفور ﴾ [سبأ : 15] .

وأما رجاحة العقول ففي الحديث : "أتاكم أهل اليمن هُم أرق أفئدة ، الإيمان يَمانٍ ، والحكمةُ يمانية" فليس المراد خصوص ما آتاها الله في أصل خلقتها وخلقة أمتها وبلادها ،

ولذا فلم يتعين الفاعل عرفاً .

وكلّ من عند الله .

وخص من نفائس الأشياء عرشها إذ كان عرشاً بديعاً ولم يكن لسليمان عرش مثله .

وقد جاء في الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأول ما يقتضي أن سليمان صنع كرسيَّهُ البديع بعد أن زارته ملكة سبأ .

(125/577)

وسنشير إليه عند قوله تعالى : ﴿ أيُّكم يأتيني بعرشها ﴾ [النمل : 38] .

والعظيم : مستعمل في عظمة القَدْر والنفاسة في ضخامة الهيكل والذات .

وأعقب التنويه بشأنها بالحط من حال اعتقادهم إذ هم يسجدون ، أي يعبدون الشمس .

ولأجل الاهتمام بهذا الخبر أعيد فعل وَجَدْتُها إنكاراً لكونهم يسجدون للشمس ، فذلك من انحطاط العقلية الاعتقادية فكان انحطاطهم في الجانب الغيبي من التفكير وهو ما يظهر فيه تفاوت عوض العقول على الحقائق لأنه جانب متمحّض لعمل الفكر لا يستعان فيه بالأدلة المحسوسة ، فلا جرم أن تضل فيه عقول كثير من أهل العقول الصحيحة في الشؤون الخاضعة للحواس .

قال تعالى في المشركين ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [الروم : 7 ، 8] وكان عرب اليمن أيامئذ من عَبدة الشمس ثم دخلت فيهم الديانة اليهودية في زمن تُبّع أسْعَد من ملوك حِمير ، ولكونهم عبدة شمس كانوا يسمون عبد شمس كما تقدم في اسم سبأ .

وقد جمع هذا القولُ الذي ألقي إلى سليمان أصولَ الجغرافية السياسية من صفة المكان والأديان ، وصبغة الدولة وثروتها ، ووقع الاهتمام بأخبار مملكة سبأ لأن ذلك أهم لملك سليمان إذ كانت مجاورة لمملكته يفصل بينهما البحر الأحمر ، فأمور هذه المملكة أجدى بعمله .

وقرأ الجمهور : ﴿ من سبأ ﴾ بالصرف .

وقرأه أبو عمرو والبَزي عن ابن كثير بفتحة غير مصروف على تأويل البلاد أو القبيلة .

وقرأه قنبل عن ابن كثير بسكون الهمزة على اعتبار الوقف إجراء للوصل مُجرى الوقف .

يجوز أن يكون هذا من جملة الكلام الذي ألقيَ على لسان الهدهد ، فالواو للعطف .

والأظهر أنه كلام آخر من القرآن ذُيِّل به الكلام الملقَى إلى سليمان ، فالواو للاعتراض بين الكلام الملقَى لسليمان وبين جواب سليمان ، والمقصود التعريض بالمشركين .

وقوله : ﴿ ألا يسجدوا ﴾ قرأه الجمهور بتشديد اللام على أنه مركب في الخط من (أَنْ) و (لاَ) النافية كتبتا كلمة واحدة اعتباراً بحالة النطق بها على كل المعاني المرادة منها .

و ﴿ يسجدوا ﴾ فعل مضارع منصوب .

ويقدر لاَم جر يتعلق بـ ﴿ صدَّهم عن السبيل ﴾ أي صدهم لأجل أن لا يسجدوا لله ، أي فسجدوا للشمس .

ويجوز أن يكون المصدر المسبوك من ﴿ ألا يسجدوا ﴾ بدل بعض من ﴿ أعمالهم ﴾ وما بينهما اعتراض .

وجُوز أن يكون ﴿ ألاّ ﴾ كلمة واحدة بمعنى (هلاّ) فإن هاءها تبدل همزة .

وجَعْل ﴿ يسجدوا ﴾ مركباً من ياء النداء المستعملة تأكيداً للتنبيه وفعلِ أمر من السجود كقول ذي الرمة:

أَلاَ يا اسلمي يا دَار مَيَّ على البِلَى . . .

وهو لا يلائم رسم المصحف إلا أن يقال : إنه رسم كذلك على خلاف القياس .

وقرأ الكسائي بتخفيف اللام على أنها (أَلاَ) حرفُ الاستفتاح ويتعين أن يكون ﴿ يسجدوا ﴾ مركباً من ياء النداء وفعل الأمر ، كما تقدم وفيه ما تقدم .

والوقف في هذه على (أَلاَ) .

وتزيين الأعمال تقدم في أول السورة عند قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زَيَّنا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ [النمل : 4] .

وإسناده هنا للشيطان حقيقي و ﴿ السبيل ﴾ مستعار للدين الذي باتباعه تكون النجاة من العذاب وبلوغ دار الثواب .

و ﴿ الخبء ﴾ : مصدر خبأ الشيء إذا أخفاه .

أطلق هنا على اسم المفعول ، أي المَخبوء على طريقة المبالغة في الخفاء كما هو شأن الوصف بالمصدر .

ومناسبة وقوع الصفة بالموصول في قوله : ﴿ الذي يخرج الخبء ﴾ لحالة خبر الهدهد ظاهرة لأن فيها اطلاعاً على أمر خفِي .

وإخراج الخبء : إبرازه للناس ، أي إعطاؤه ، أي إعطاء ما هو غير معلوم لهم من المطر وإخراج النبات وإعطاء الأرزاق ، وهذا مؤذن بصفة القدرة .

وقوله : ﴿ ويعلم ما يخفون وما يعلنون ﴾ مؤذن بعموم صفة العلم .

وقرأ الجمهور : ﴿ يخفون . . .

ويعلنون ﴾ بياء الغيبة .

وقرأه الكسائي وحفص عن عاصم بتاء الخطاب فهو التفات .

ومجيء جملة : ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ عقب ذلك استئناف هو بمنزلة النتيجة للصفات التي أجريت على اسم الجلالة وهو المقصود من هذا التذييل ، أي ليس لغير الله شُبهة إلهية .

وقوله : ﴿ رب العرش العظيم ﴾ أي مالك الفلك الأعظم المحيط بالعوالم العليا وقد تقدم .

وفي هذا تعريض بأن عظمة مُلك بلقيس وعِظَم عرشها ما كان حقيقاً بأن يغرها بالإعراض عن عبادة الله تعالى لأن الله هو رب الملك الأعظم ، فتعريف ﴿ العرش ﴾ للدلالة على معنى الكمال .

ووصفه بـ ﴿ العظيم ﴾ للدلالة على كمال العظم في تجسم النفاسة .

وفي منتهى هذه الآية موضع سجود تلاوة تحقيقاً للعمل بمقتضى قوله : ﴿ ألا يسجدوا لله ﴾ .

وسواء قرىء بتشديد اللام من قوله : ﴿ ألاّ يسجدوا ﴾ أم بتخفيفها لأن مآل المعنى على القراءتين واحد وهو إنكار سجودهم لغير الله لأن الله هو الحقيق بالسجود . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) ﴾

(129/577)

تقدم إيضاحه بالآيات القرآنية في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] وقوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ . الآية كقوله تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ واسجدوا لِلَّهِ الذي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : 37] وقوله تعالى : ﴿ فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ﴾ [النجم : 62] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ الذي يُخْرِجُ الخبء ﴾ وقال بعض أهل العلم : الخبأ في السموات : المطر ، والخبأ في الأرض : النبات ، والمعادن ، والكنوز ، وهذا المعنى ملائم لقوله : ﴿ يُخْرِجُ الخبء ﴾ وقال بعض أهل العلم : الخبأ : السر والغيب أي يعلم ما غاب في السموات ، والأرض ، كما يدل عليه قوله بعده ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ وكقوله في هذه

السورة الكريمة : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السمآء والأرض إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 75] وقوله ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] كما أوضحناه في سورة هود ، وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير الكسائي : ألا يسجوا لله بتشديد اللام في لفظه ألا ، ولا خلاف على هذه القراءة أن يسجدوا فعل مضارع منصوب بأن المدغمة في لفظه لا ، فالفعل المضارع على هذه القراءة ، وأن المصدرية المدغمة في لا ينسبك منهما مصدر في محل نصب على الأظهر ، وقيل في محل جر وفي إعرابه أوجه .

(130/577)

الأول : أنه منصوب على أنه مفعول من أجله : أي وزين لهم الشيطان أعمالهم ، من أجل ألا يسجدوا لله : أي من أجل عدم سجودهم لله ، أو فصدهم عن السبيل ، لأجل ألا يسجدوا لله ، وبالأول قال الأخفش وبالثاني قال الكسائي ، وقال اليزيدي وغيره : هو منصوب على أنه بدل من أعمالهم : أي وزين لهم الشيطان أعمالهم ، ألا يسجدوا أي عدم سجودهم ، وعلى هذا فأعمالهم هي عدم سجودهم لله ، وهذا الإعراب يدل على أن الترك عمل كما أوضحناه في سورة الفرقان في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الرسول

يارب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ﴾ [الفرقان : 30] وقال بعضهم : إن المصدر المذكور في محل خفض على أنه بدل من السبيل . أو على أن العامل فيه فهم لا يهتدون ، وعلى هذين الوجهين فلفظة لا صلة ، فعلى الأول منهما . فالمعنى : فصدهم عن السبيل سجودهم لله ، وعلى هذا فسبيل الحق الذي صدوا عنه ، هو السجود لله ، ولا زائدة أيضاً للتوكيد ، ومعلوم في علم العربية أن المصدر المنسبك من فعل ، وموصول حرفي إن كان الفعل منفقياً ذكرت لفظة عدم قبل المصدر ، ليؤدي بها معنى النفي الداخل على الفعل ، فقولك مثلاً : عجبت من أن لا تقوم . إذا سبكت مصدره لزم أن تقول : عجبت من عدم قيامك ، وإذا كان الفعل مثبتاً لم تذكر مع المصدر لفظة عدم ، فلو قلت عجبت من أن تقوم ، فإنك تقوم في سبك مصدره : عجبت من قيامك كما لا يخفى ، وعليه فالمصدر المنسبك من قوله ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا ﴾ يلزم أن يقال فيه عدم السجود إلا إذا اعتبرت لفظة لا زائدة ، وقد أشرنا في سورة الأعراف في الكلام على قوله تعالى :

(131/577)

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعرا : 12] إلى أنا أوضحنا الكلام على زيادة لا لتوكيد الكلام في كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] في أول سورة

البلد في الكلام ، على قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بهذا البلد ﴾ [البلد : 1] وسنذكر طرفاً من كلامنا فيه هنا .

فقد قلنا فيه : الأول وعليه الجمهور . أن لا هنا صلة على عادة العرب فإنها ربما لفظت لا ، من غير قصد معناها الأصلي بل لمجرد تقوية الكلام ، وتوكيده كقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا ﴾ [طه : 29] يعني أن تتبعني ، وقوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ﴾ [ص : 75] أي أن تسجد على أحد القولين . ويدل له قوله تعالى في سورة ص ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75] وقوله تعالى : ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء : 65] الآية أي فوربك ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ﴾ [فصلت : 34] أي والسيئة ، وقوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 95] على أحد القولين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : 109] على أحد القولين ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ ﴾ [الأنعام : 151] الآية . على أحد الأقوال الماضية ، وكقول أبي النجم :

فما ألوم البيض ألا تسخرا . . . لما رأين الشمط القفندرا

يعني أن تسخر ، وقول الآخر :

وتلحينني في اللهو ألا أحبه . . . وللهو داع دائب غير ساقل

يعني أن أحبهن ولا زائدة ، وقول الآخر :

أبي جوده لا البخل واستعجلت به . . . نعم من فتى لا يمنع الجود قاتله

(132/577)

يعني أبا جوده البخل ، ولا زائدة على خلاف في زيادتها في هذا البيت الأخير ، ولا سيما على رواية البخل بالجر ، لأن لا عليها مضاف بمعنى لفظة لا ، فليست زائدة على رواية الجر وقول امرئ القيس :

فلا وأبيك أنبت العامري . . . لا يدعي القوم أني أفر

يعني وأبيك ، وأنشد الفراء لزيادة لا في الكلام الذي فيه معنى الجحد قول الشاعر :

ما كان يرضى رسول الله دينهم . . . والأطيبان أبو بكر ولا عمر

يعني وعمر ولا صلة ، وأنشد الجوهري لزيادتها قول العجاج :

في بئر لا حور سرى وما شعر . . . بإفكه حتى رأى الصبح جشر

والحور الهلكة يعني في بئر هلكة ولا صلة . قاله أبو عبيدة وغيره . وأنشد الأصمعي لزيادتها قول ساعدة الهذلي :

أفعنك لا برق كان وميضه . . . غاب تسنمه ضرام مثقب

ويروى أفمنك وتشميه بدل أفعنك وتسمنه ، يعني أفعنك برق ، ولا صلة ، ومن شواهد زيادتها قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة . . . وكاد صميم القلب لا يتقطع

يعني كاد يتقطع ، وأما استدلال أبي عبيدة لزيادتها بقول الشماخ :

أعائش ما لقومك لا أراهم . . . يضيعون الهجان مع المضيع

فغلط منه ، لأن لا في بيت الشماخ هذا نافية لا زائدة ، ومقصوده أنها تنهاه عن حفظ ماله ، مع أن أهلها يحفظون مالهم ، أي لا أرى قومك يضيعون مالهم وأنت تعاتبينني في حفظ مالي ، وما ذكره الفراء من أن لفظة لا لا تكون صلة إلا في الكلام الذي فيه معنى الجحد ، فهو أغلبي لا يصح على الإطلاق ، بدليل بعض الأمثلة المتقدمة التي لا جحد فيها كهذه الآية ، على القول بأن لا فيها صلة ، وكبيت ساعدة الهذلي ، وما ذكره الزمخشري من زيادة لا في أول الكلام دون غيره ، فلا دليل عليه . انتهى محل الغرض من كتابنا : [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] .

(133/577)

وقرأ هذا الحرف الكسائي وحده من السبعة : ألا يسجدوا بتخفيف اللام من قوله ألا ، وعلى قراءة الكسائي هذه ، فلفظة ألا حرف استفتاح ، وتنبيه ويا حرف نداء ، والمنادى محذوف تقديره ألا يا هؤلاء اسجدوا ، واسجدوا فعل أمر ومعلوم في علم القراءات ، أنك إذا قيل لك : قف على كل كلمة بانفرادها في قراءة الكسائي أنك تقف في قوله : ألا يسجدوا ثلاث وقفات الأولى : أن تقف على ألا . والثانية : أن تقف على يا ، والثالثة : أن تقف على اسجدوا ، وهذا الوقف على أن لأنها مدغمة في لا ، والثانية : أنك تقف على يسجدوا .

واعلم أنه على قراءة الكسائي قد حذف في الخط ألفان ، الأولى : الألف المتصلة بياء النداء ، والثانية : ألف الوصل في قوله : اسجدوا ، ووجه بعض أهل العلم إسقاطهما في الخط ، بأنهما لما سقطتا في اللفظ ، سقطتا في الكتابة قالوا ومثل ذلك في القرآن كثير .

واعلم أن جمهور أهل العلم على ما ذكرنا في قراءة الكسائي من أن لفظة ألا للاستفتاح والتنبيه ، وأن يا حرف نداء حذف منه الألف في الخط ، واسجدوا فعل أمر قالوا ، وحذف المنادى مع ذكر أداة النداء أسلوب عربي معروف ، ومنه قول الأخطل :

ألا يا اسلمى يا هند هند بني بكر . . . وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

وقول ذي الرمة :

ألا يا سلمى يا دارمي على البلا . . . ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

فقوله في البيتين ألا اسلمي : أي يا هذه اسلمي ، وقول الآخر :

ألا يا اسلمي ذات الدماليج والعقد . . . وقول الشماخ :

ألا يا صحبي أصبحاني قبل غارة سنجالي . . . وقبل منايا قد حضرن وآجالي

يعني ألا يا صحبي أصبحاني ، ونظيره قول الآخر :

ألا يا اسقياني قبل خيل أبي بكر . . . ومنه قول الآخر :

فقالت ألا يا اسمع أعظك بخطبة . . . فقلت سمعنا فانطقي وأصيبي

يعني ألا يا هذا اسمع ، وأنشد سيبويه لحذف المنادى مع ذكر أداته قول الشاعر :

يا لعنة الله والأقوام كلهم . . . والصالحين على سمعان من جار

(134/577)

بضم التاء من قوله : لعنة الله ، ثم قال فيالغير اللعنة يعني أن المراد : يا قوم لعنة الله إلى آخره ، وأنشد صاحب اللسان لحذف المنادى ، مع ذكر أداته مستشهداً لقراءة الكسائي المذكورة قول الشاعر :

يا قاتل صبياناً تجيء بهم . . . أم الهنينين من زند لها واري

ثم قال كأنه أراد قوم قاتل الله صبياناً ، وقول الآخر :

يا من رأى بارقاً أكفكفه . . . بين ذراعي وجبهة الأسد

ثم قال كأنه دعا يا قوم يا إخواتي ، فلما أقبلوا عليه قال من رأى ، وأنشد بعضهم لحذف المنادى مع ذكر أداته قول عنترة في معلقته :

يا شاة ما قنص لمن حلت له . . . حرمت على وليتها لم تحرم

قالوا : التقدير : يا قوم انظروا شاة ما قنص .

واعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا : إن يا على قراءة الكسائي ، وفي جميع الشواهد التي ذكرنا ليست للنداء ، وإنما هي للتنبيه فكل من ألا ويا : حرف تنبيه كرر للتوكيد ، وممن روى عنه هذا القول أبو الحسن بن عصفور ، وهذا القول اختاره أبو حيان في البحر المحيط ، قال فيه : والذي أذهب إليه أن مثل هذا التركيب الوارد عن العرب ، ليست : يا فيه للنداء ، وحذف المنادى ، لأن المنادى عندي لا يجوز حذفه ، لأن قد حذف الفعل العامل في النداء ، وانحذف فاعله لحذفه ، ولو حذف المنادى لكان في ذلك حذف جملة النداء ، وحذف متعلقة ، وهو المنادى ، فكان ذلك إخلالاً كبيراً ، وإذا أبقينا المنادى ولم نحذفه كان ذلك دليلاً على العامل فيه جملة النداء وليس حرف النداء حرف جواب كنعم ، ولا ، وبلى ، وأجل ، فيجوز حذف الجمل بعدهن لدلالة ما سبق من السؤال ، على الجمل المحذوفة ، فيا عندي في تلك التراكيب حرف تنبيه أكد به ألا التي للتنبيه ، وجاز ذلك لاختلاف الحرفين ولقصد المبالغة في التوكيد ، وإذا كان قد وجد التوكيد في اجتماع الحرفين

المختلفي اللفظ العاملين في قوله : فأصبحن لا يسألنني عن بما يه : والمتفقي اللفظ العاملين في قوله :

(135/577)

للما بهم أبداً دواء . . . وجاز ذلك ، وإن عدوه ضرورة أو قليلاً فاجتماع غير العالمين ، وهما مختلفا اللفظ يكون جائزاً ، وليس يا في قوله :

يا لعنة الله والأقوام كلهم . . . حرف نداء عندي ، بل حرف تنبيه جاء بعده المبتدأ ، وليس مما حذف منه المنادى لما ذكرناه . انتهى الغرض من كلام أَبي حيان ، وما أختاره له وجه من النظر .

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له : ومما له وجه من النظر عندي في قراءة ، الكسائي ، أن يكون قوله : يا اسجدوا فعل مضارع حذفت منه نون الرفع ، بلا ناصب ، ولا جازم ، ولا نون توكيد ، ولا نون وقاية .

وقد قال بعض أهل العلم : إن حذفها لا لموجب مما ذكر لغة صحيحة .

قال النووي في شرح مسلم في الجزء السابع عشر في صفحة 207 ما نصه : قوله : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا . كذا هو في عامة النسخ ،

كيف يسمعوا ، وأنى يجيبوا من غير نون وهي لغة صحيحة ، وإن كانت قليلة الاستعمال ، وسبق بيانها مرات .

ومنها الحديث السابق في كتاب الإيمان " لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا " انتهى منه ، وعلى أن حذف نون الرفع لغة صحيحة . فلا مانع من أن يكون قوله تعالى : ﴿ يَسْجُدُوا ﴾ في قراءة الكسائي فعل مضارع ، ولا شك أن هذا له وجه من النظر ، وقد اقتصرنا في سورة الحجر على أن حذفها مقصور على السماع ، وذكرنا بعض شواهده . والعلم عند الله تعالى .

تنبيهات

الأول : اعلم أن التحقيق أن آية النمل هذه محل سجدة على كلتا القراءتين ، لأن قراءة الكسائي فيها الأمر بالسجود ، وقراءة الجمهور فيها ذم تارك السجود ، وتوبيخه . وبه تعلم أن قول الزجاج ، ومن وفقه أنها ليست محل سجدة على قراءة الجمهور ، وإنما هي محل سجود على قراء الكسائي ، خلاف التحقيق وقد نبّه على هذا الزمخشري وغيره .

التنبيه الثاني : اعلم أنه على قراءة الجمهور ، لا يحسن الوقف على قوله : ﴿ لاَيَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 24] وعلى قراءة الكسائي ، يحسن الوقف عليه .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ قرأه حفص والكسائي بالتاء الفوقية على الخطاب ، وقرأه الباقون : يخفون ، ويعلنون بالتحتية على الغيبة ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(137/577)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

مادة : فقد الفاء والقاف والدال ، وكل ما يُشتقّ منها تأتي بمعنى ضاع منه الشيء ، ومنه قوله تعالى في قصة إخوة يوسف : ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ [يوسف : 71] ، فإنْ جاءت بصيغة (تفقَّد) بالتضعيف دلَّتْ على أن الشيء موجود وأنا أبحث عنه في مظانّه .

فمعنى ﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾ [النمل : 20] أن الرئيس او المهيمن على شيء لا بُدَّ له من متابعته ، وسليمان عليه السلام ساعةَ جلس في مجلس العلم أو مجلس القضاء نظر للحاضرين من مملكته ، كأنه القائد يستعرض جنوده ، وفي هذا إشارة إلى أنه عليه السلام مع

أن هذا ملكه ومُسخَّر له ومُنقَاد لأمره ، إلا أنه لم يتركه هَمَلاً دون متابعة .

لكن ، لماذا تفقَّد الطير بالذات ؟ قالوا : لأنه أراد أنْ يقوم برحلة في الصحراء ، والهدهد هو الخبير بهذه المسألة ؛ لأنه يعلم مجاهلها ، ويرى حتى الماء في باطن الأرض ، يقولون : كما يرى أحدكم الزيت في وعائه .

لذلك نرى أن من مميزات الهدهد أن الله تعالى جعل له منقاراً طويلاً ؛ لأنه لا يأكل مما على سطح الأرض ، إنما ينبش بمنقاره ليُخرج طعامه من تحت الأرض .

ألاَ تراه حين كلَّم سليمان في دقائق العقيدة والإيمان بالله يقول عن أهل سبأ : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض ﴾ [النمل : 25] فاختار هذه المسألة بالذات ؛ لأنه الخبير بها ورزقه منها .

ولما لم يجد الهدهد في الحاضرين قال ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين ﴾ [النمل : 20] فساعةَ يستفهم الإنسان عن شيء يعلم حقيقته ، فإنه لا يقصد الاستفهام ، إنما هو يستبعد أنْ يتخلَّف الهدهد عن مجلسه .

(138/577)

لذلك قال ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد ﴾ [النمل : 20] يعني : ربما هو موجود ، لكنّي لا أراه لعلّة عندي أنا ، فلما دَقّق النظر وتأكد من خُلوّ مكانه بين الطيور ، قال ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الغَآئِبِين ﴾ [النمل : 20] إذن : لا بد من معاقبته :

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21)

ومعاقبة المخالف أمر ضروري ؛ لأن أيّ مخالفة لا تُقابل بالجزاء المناسب لا بُدَّ أن تثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها ، فحين نرى موظفاً مُقصّرًا في عمله لا يحاسبه أحد ، فسوف نكون مثله ، وتنتشر بيننا الفوضى والتكاسل واللامبالاة ، وتحدث الطَّامة حينما يُثاب المقصر ويُرقى مَنْ لا يستحق .

لذلك توعَّد سليمان الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ [النمل : 21]

.

وقد تكلَّم العلماء في كيفية تعذيب الهدهد ، فقالوا : بنتف ريشه الجميل الذي يزهوا به بين الطيور ، حتى يصير لحماً ثم يُسلط عليه النمل فيلدغه ، أو يجعْله مع غير بني جنسه ، فلا يجد لها إلفاً ولا مشابهاً له في حركته ونظامه ، أو : أنْ يُكلِّفه بخدمة أقرانه من الهداهد التي لم تخالف ، أو : أجمعه مع أضداده ، وبعض الطيور إذا اجتمعتْ تنافرتْ وتشاجرتْ ، ونتف بعضها ريش بعض ؛ لأنهم أضداد ؛ لذلك قالوا : أضيق من السجن عِشْرة الأضداد

.

والشاعر يقول :

وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا عليَ المرْءِ أنْ يرى . . . عَدُواً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَته بُدُّ

ثم رقَّى الأمر من العذاب الشديد إلى الذبح ، وهذه المسألة أثار حولها المتمردون على منهج الله والذين يريدون أنْ يُعدّلوا على الله أحكامه ، أثاروا إشكالاً حول قوله تعالى في حَدِّ الزنا : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : 2] أما الرَّجْم فلم يَرِدْ فيه شيء ، فمن أين أتيتم به ؟

(139/577)

نقول أتينا به أيضاً من كتاب الله ، حيث قال سبحانه في جَلد الأَمَة إنْ زنتْ وهي غير مُحْصنة : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات مِنَ العذاب ﴾ [النساء : 25] فقالوا : وكيف نُنصّف حدَّ الرجم ؟ وهذا القول منهم دليل على عدم فهمهم لأحكام الله .

فالمعنى ﴿ فَعَلَيْهِنَّ ﴾ [النساء : 25] أي : على الإماء الجواري ﴿ نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات ﴾ [النساء : 25] الحرائر ، ولم يسكت إنما خصص التنصيف هنا بالجَلْد ، فقال : ﴿ مِنَ العذاب ﴾ [النساء : 25] فتجلد الأَمَة خمسين جلدة ، وهذا التخصيص يدلُّ على أن هناك عقوبة أخرى لا تُنصف هي الرجْم .

وينتهي تهديد سليمان للهدهد بقوله ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 21] أي : حجة واضحة تبرر غيابه ، فنفهم من الآية أن المرؤوس يحوز له أنْ يتصرف برأيه ، ودون أن يأخذ الإذن من رئيسه إنْ رأى مصلحة للجماعة لا تستدعي التأخير .

وعلى الرئيس عندها أن يُقدِّر لمرؤوسيه اجتهاده ، ويلتمس له عذراً ، فلعله عنده حجة أحمده عليها بل وأكافئه ؛ لأن وقت فراغه مني كان في مصلحة عامة ، كما نقول في العامية (الغايب حجته معاه) .

إذن : المرؤوس إنْ رأى خيراً يخدم الفكر العام ، ووجد أن فرصته ضيقة يسمح له بالتصرف دون إذن ، وفي الحرب العالمية الأولى تصرّف أحد القادة الألمان تصرُّفاً يخالف القواعد الحربية ، لكنه كان سبباً في النصر ؛ لذلك أعطوه وسام النصر ولم ينسُوا أنْ يُعاقبوه على مخالفة القواعد والقانون .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾

(140/577)

معنى ﴿ فَمَكَثَ ﴾ [النمل : 22] أقام واستقر ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [النمل : 22] مدة يسيرة ، فلم يتأخر كثيراً ؛ لأنه يعلم أنه تخلّف عن مجلس سليمان ، وذهب بدون إذنه ؛

لذلك تعجَّل العودة ، وما إنْ وصل إليه إلا وبادره ﴿ فَقَالَ ﴾ [النمل : 22] بالفاء الدالة على التعقيب ؛ لأنه رأى سليمان غاضباً مُتحفِّزاً لمعاقبته .

لذلك بادره قبل أنْ ينطق ، وقبل أنْ ينهره ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ [النمل : 22] أي : عرفتُ ما لم تعرف هذا الكلام مُوجَّه إلى سليمان الذي ملَك الدنيا كلها ، وسخَّر الله له كل شيء ؛ لذلك ذُهل سليمان من مقالة الهدهد وتشوَّق إلى ما عنده من أخبار لا يعرفها هو .

ثم يستمر الهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : 22] .

أولاً : نقف عند جمال التعبير في سبأ ونبأ ، فبينهما جناس ناقص ، وهو من المحسّنات البديعية في لغتنا ، ويعطي للعبارة نغمة جميلة تتوافق مع المعنى المراد ، والجناس أن تتفق الكلمتان في الحروف ، وتختلفا في المعنى ، كما في قول الشاعر :

رَحَلْتُ عَنِ الدِّيَارِ لكُم أَسِيرُ . . . وَقَلْبي في محبتكُمْ أَسير

وقَوْل الآخر :

لَمْ يَقْضِ مِنْ حقِّكم عَليَّ . . . بَعْضَ الذي يَجِبُ

قَلْبٌ متَى مَا جَرَت . . . ذِكْرَاكُمُ يَجِبُ

ومن الجناس التام في القرآن الكريم : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم : 55] .

فالتعبير القرآني ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ [النمل : 22] تعبير جميل لفظاً ، دقيق مَعنىً ، أَلَا تراه لو قال (وجئتك من سبأ بخبر) لاختلَّ اللفظ والمعنى معاً ؛ لأن الخبر يُرَاد به مُطلْق الخبر ، أمّا النبا فلا تُقال إلا للخبر العجيب الهام الملفت للنظر ، كما في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإِ العظيم ﴾ [النبأ : 12] .

(141/577)

والجناس لا يكون جميلاً مؤثراً إلا إذا جاء طبيعياً غير مُتكلّف ، ومثال ذلك هذا الجناس الناقص في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : 1] فقد ورد اللفظ المناسب مُعبّراً عن المعنى المراد دون تكلّف ، فالهُمَزة هو الذي يعيب بالقول . واللمزة : الذي يعيب بالفعل ، فالقرآن لا يتصيَّد لفظاً ليُحدِث جناساً ، إنما يأتي الجناس فيه طبيعياً يقتضيه المعنى .

ومن ذلك في الحديث الشريف : " الخَيْل معقود بنواصيها الخير " فبيْن الخيل والخير جناس ناقص ، مُحسّناً للفظ ، مؤدّياً للمعنى .

وقد يأتي المحسّن البديعي مُضطرباً مُتكلّفاً ، يتصيده صاحبه ، كقول أحدهم ينحت الكلام نحتاً فيأتي بسجع ركيك : في أثناء ما كنا نسير نزل المطر كأفواه القِرَب ، فوقع رجل

كان يحمل العنب .

ومعنى ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ [النمل : 22] الإحاطة : إدراك المعلوم من كل جوانبه ، ومنه البحر المحيط لاتساعه ، ويقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً ﴾ [النساء : 126] ومنه : الحائط يجعلونه حول البستان ليحميه ويُحدِّده ، ومنه : يحتاط للأمر .

ومحيط الدائرة الذي يحيط بالمركز من كل ناحية إحاطة مستوية بأنصاف الأقطار .

لكن أَيَعَدُّ قول الهدهد لسليمان ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ [النمل : 22] نقصاً في سليمان عليه السلام ؟ لا ، إنما يُعَدُّ تكريماً له ؛ لأن ربه عز وجل سخَّر له مَنْ يخدمه ، وفَرْق بين أن تفعل أنت الشيء وبين أن يُفعل لك ، فحين يفعل لك ، فهذه زيادة سيادة ، وعُلُو مكانة .

كما أن الله تعالى يُعلِّمنا ألاَّ نكتم مواهب التابعين ، وأن نعطي لهم الفرصة ، ونُفسِح لهم المجال ليُخرجوا مواهبهم ، وأن يقول كل منهم ما عنده حتى لو لم نكُنْ نعرفها ؛ لأنها خدمة لي .

أليس من الكرامة أن يُحضر سليمان عرش بلقيس وهو في مكانه ﴿ قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : 40] .

ونلحظ أن الهدهد لم يُعرِّف سبأ ما هي ، وهذا دليل على أن سليمان عليه السلام يعرف سبأ ، وما فيها من ملك ، إنما لا يعرف أنه بهذه الفخامة وهذه العظمة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ ﴾

وقوله ﴿ تَمْلِكُهُمْ ﴾ [النمل : 23] يعني : تحكمهم امرأة ، ورأينا نساءً كثيرات نابهات حكمْن الدول في وجود الرجال .

ثم يذكر من صفاتها ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْ ﴾ [النمل : 23] وكأنها إشارة إلى ما سبق أنْ قاله سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 16] فهي كذلك أُوتيتْ من كل شيء بالنسبة لأقرانها ، وإلا فسليمان أُوتي من المُلْك ومن النبوة ما لم تُؤْتَهُ ملكة سبأ .

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23] العرش مكان جلوس الملك ، وكان العرش عادةً يتوافق مع عظمة الملك ، فمثلاً (شيخ الغفر) أو العمدة أو المحافظ . . إلخ لكل منهم كرسيٌّ يجلس عليه يناسب مكانته ، إذن : العرش هو جِلْسة المتمكّن الذي يتولّى تَدبير الأمور .

ووصْف العرش بأنه عظيم مع أن هذا الوصف لعرش الله تعالى ، فكيف ؟ قالوا : عظيم

بالنسبة لأمثالها من الملوك ، أمّا عرْش الله فعظيم بالنسبة لكل الخَلْق عظمةً مُطْلقة .

هكذا حدَّث الهدهُد سليمانَ فيما يخصُّ ملكة سبأ من حيث الملك الذي تشبه فيه سليمان كملك ، ثم يُحدّثه بعد ذلك عن مسألة تتعلق بالنبوة والإيمان بالله ، وهذه المسألة التي غار عليها سليمان ، وثار من أجلها : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ ﴾

(143/577)

ذلك لأنه لما طاف حول قصر بلقيس وجد فيه كُوَّة تدخل منها الشمس ، كما نرى في معابد الفراعنة ، ففي أحد هذه المعابد طاقات بعدد أيام السنة ، بحيث تدخل الشمس في كل يوم من واحدة بعينها لا تدخل من الأخرى . وكذلك كان عند بلقيس مثل هذه الكُوَّة تدخل منها الشمس فتتنبه لها وتستقبلها .

لذلك لما ذهب إليها بكتاب سليمان وقف على هذه الكُوَّة وسدَّها بجناحه ، فلم تدخل الشمس في موعدها كما اعتادت الملكة ، فقامت حتى وصلتْ إلى هذه الكُوَّة فرمى عندها الكتاب .

فالهدهد إذن مؤمن عارف بقضية العقيدة والإيمان بالله يَغَار عليها ويستنكر مخالفتها ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [النمل : 24] فهو يعرف أن الله هو

المعبود بحقٍّ ، بل ويعلم أيضاً قضية الشيطان ، وأنه سبب الانصراف عن عبادة الله .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 24]

فالقضية عنده كاملة بكل تفاصيلها ، ولا تتعجب من مقالة الهدهد واقرأ : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : 44] .

إنها موعظة بليغة من واعظ مُتمكِّن يفهم عن الله ، ويعلم منهجه ويدعو إليه ، بل ويعزّ عليه ويحزّ في نفسه أن ينصرف العباد عن الله المنْعِم : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾

﴿ أَلاَّ ﴾ [النمل : 25] مكوّنة من أنْ ، لا ، وعند إدغامهما تُقلَبُ النون لاَماً فتصير : ألاَّ ، فالمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، لماذا ؟ لألاَّ يسجدوا ، فهنا حرف جر محذوف كما تقول : عجبتُ من أن يَقْدم علينا فلان ، أو عجبت أن يقدم علينا فلان .

وفي قراءة أخرى : (أَلاَ) للحثّ والحضّ .

(144/577)

وقلنا : إنه اختار هذه الصفة بالذات ﴿ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض ﴾ [النمل : 25] لأنه خبير في هذه المسألة ، حيث يرى الماء في باطن الأرض ، كما يرى أحدكم الزيت في إنائه .

والمراد بالخَبْء في السموات : المطر ، والخَبْء في الأرض . النبات ، ومنهما تأتي مُقوّمات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتي النبات ، وعلى النبات يتغذَّى الحيوان ، ويتغذّى الإنسان .

بل إن الحق سبحانه ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النمل : 25] ، كما قال في آية أخرى : ﴿ وَمَا يخفى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء ﴾ [إبراهيم : 38] ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ [آل عمران : 29] .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

لما تكلّم عن عرش بلقيس قال ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23] يعني : بالنسبة لأمثالها من الملوك ولأهل زمانها . فإذا عُرِّف ﴿ العرش العظيم ﴾ [النمل : 26] فإنه لا ينصرف إلا إلى عرشه تعالى ، فله العظمة المطلقة عند كل الخَلْق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(145/577)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد ﴾ :

هذا استفهامُ توقيفٍ ، ولا حاجةَ إلى ادّعاء القَلْب ، وأنَّ الأصلَ : ما للهدهد لا أراه ؟ إذ المعنى قويٌّ دونه . والهُدْهُدُ معروفٌ . وتصغيره على هُدَيْهِد وهو القياس . وزعم بعضُ النحويين أنه تُقْلَبُ ياءُ تصغيره ألفاً ، فيقال : هُداهِد . وأنشد :

3553 كهُداهِدٍ كَسَرَ الرماةُ جناحَه . . . يَدْعو بقارعةِ الطريق هَدِيْلا

كما قالوا دُوابَّة وشُوابَّة ، في : دُوَيْبَّة وشُوَيْبَّة . ورَدَّه بعضُهم : بأن الهُداهِد الحَمامُ ، الكثيرُ ترجيعِ الصوتِ . تزعُمُ العربُ أن جارحاً في زمان الطُّوفانِ ، اخْتَطَفَ فرخَ حمامةٍ تسمَّى الهديل . قالوا : فكلُّ حمامةٍ تبكي فإنما تبكي على الهديل .

قوله : ﴿ أَمْ كَانَ ﴾ هذه " أم " المنقطعةُ وقد تقدَّم الكلامُ فيها . وقال ابن عطية : " قوله مالي لا أرى الهدهد " مَقْصَدُ الكلامِ : الهُدْهُدُ غاب ، ولكنه أَخَذَ اللازمَ عن مُغَيَّبِه : وهو أَنْ لا يَراه ، فاستفهم على جهةِ التوقُّفِ عن اللازمِ ، وهذا ضَرْبٌ من الإيجاز . والاستفهامُ الذي في قوله : " مالي " نابَ منابَ الألفِ التي تحتاجُها " أم " . قال الشيخ : " فظاهرُ كلامِه أنَّ " أم " متصلةٌ ، وأن الاستفهامَ الذي في قوله " مالي " ناب منابَ ألفِ الاستفهام . فمعناه : أغاب عني الآن فلم أَرَهُ حال التفقُّد أم كان مِمَّنْ غابَ قبلُ ، ولم أَشْعُرْ بغَيْبَتِه ؟ " . قلت : لا

يُظَنُّ بأبي محمد ذلك ، فإنه لا يَجْهَلُ أنَّ شَرْطَ المتصلةِ تَقَدُّمُ همزةِ الاستفهامِ أو التسويةِ لا مطلقُ الاستفهامِ .

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21)

(146/577)

قوله : ﴿ عَذَاباً ﴾ : أي : تَعْذِيباً ، فهو اسمُ مصدرٍ أو مصدرٌ على حَذْفِ الزوائد ك ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ﴾ [نوح : 17] . وقد كتبوا " أو لأَذْبَحَنَّه " بزيادةِ ألفٍ بين لامِ ألفٍ والذال . ولا يجوز أن يُقرأ بها . وهذا كما تقدم أنهم كتبوا " ولأَوْضَعوا خلالَكم " بزيادة ألف بين لام ألف والواو .

قوله : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي ﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ بنون التوكيد المشددة ، بعدها نونُ الوقايةِ . وهذا هو الأصلُ واتَّبع مع ذلك رَسْمَ مصحفِه . والباقون بنونٍ مشدَّدَةٍ فقط . الأظهرُ أنها نونُ التوكيدِ الشديدةِ ، تُوصَّل بكسرِها لياءِ المتكلم . وقيل بل هي نونُ التوكيدِ الخفيفةِ أُدْغِمَتْ في نونِ الوقايةِ . وليس بشيءٍ لمخالَفَةِ الفعلين قبلَه . وعيسى بن عمر بنونٍ مشددةٍ مفتوحة لم يَصِلْها بالياء .

قوله : ﴿ فَمَكَثَ ﴾ : قرأ عاصم بفتحِ الكافِ . والباقون بضمِّها . وهما لغتان . إلاَّ أنَّ

الفتحَ أشهرُ ، ولذلك جاءت الصفة على " ماكِث " دون مَكِيْث . واعْتُذِر عنه بأنَّ فاعِلاً قد جاء لفَعُل بالضمّ نحو : حَمُض فهو حامِض ، وخَثُرَ فهو خاثِرٌ ، وفَرُهَ فهو فارِهٌ .

قوله : ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ صفةً للمصدرِ أي : مُكْثاً غيرَ بعيدٍ ، وللزمان أي : زماناً غيرَ بعيدٍ ، وللمكان أي : مكاناً غيرَ بعيدٍ . والظاهرُ أنَّ الضمير في " مكث " للهُدْهُدِ . وقيل : لسليمان عليه السلام .

قوله : ﴿ مِن سَبَإٍ ﴾ : قرأ البَزِّيُّ وأبو عمرو بفتحِ الهمزة ، جعلاه اسماً للقبيلة ، أو البُقْعَةِ ، فَمَنَعاه من الصرفِ للعَلَمِيَّةِ والتأنيث . وعليه قولُه :

3554 مِنْ سَبَأَ الحاضرينَ مَأْرِبَ إذ . . . يَبْنُون مِنْ دونِ سَيْلِها العَرِما

وقرأ قنبل بسكونِ الهمزةِ ، كأنه نوى الوقفَ وأجرى الوَصْلَ مُجْراه . والباقون بالجَرِّ والتنوينِ ، جعلوه اسماً للحَيِّ أو المكانِ . وعليه قولُه :

(147/577)

3555 الواردُون وتَيْمٌ في ذُرا سَبَأٍ . . . قد عَضَّ أعناقَهم جِلْدُ الجواميسِ

وهذا الخلافُ جارٍ بعينِه في سورة سَبَأ . وفي قوله : ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ فيه من البديع : " التجانُسُ " وهو تَجْنيسُ التصريفِ . وهو عبارةٌ عن انفرادِ كلِّ كلمةٍ من الكلمتين عن

الأخرى بحرفٍ كهذه الآيةِ . ومثلُه : ﴿ تَفْرَحُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر : 75] وفي الحديث : " الخيلُ مَعْقُودٌ بنواصِيها الخيرُ " .

وقال آخر :

3556 للهِ ما صَنَعَتْ بنا . . . تلك المَعاجِرُ والمحَاجِرْ

وقال الزمخشري : " وقوله : ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ مِنْ جنسِ الكلامِ الذي سَمَّاه المُحْدَثون بالبديع . وهو من محاسنِ الكلامِ الذي يتعلَّقُ باللفظِ ، بشرطِ أَنْ يجيْءَ مطبوعاً ، أو يصنَعه عالمٌ بجَوْهَرِ الكلامِ ، يَحْفَظُ معه صحةَ المعنى وسَدادَه ، ولقد جاء هنا زائداً على الصحةِ فَحَسُنَ وبَدُعَ لفظاً ومعنىً . ألا ترى أنه لو وُضِع مكان " بنَبَأ " " بخبر " لكان المعنى صحيحاً ، وهو كما جاء أصَحُّ ؛ لِما في النبأ من الزيادة التي يطابِقُها وصفُ الحال " . يريد بالزيادة : أنَّ النبأ أخصُّ من الخبرِ ؛ لأنه لا يُقال إلاَّ فيما له شَأْنٌ من الأخبارِ بخلافِ الخبرِ فإنه يُطْلَقُ على ماله شَأْنٌ ، وعلى ما لا شأنَ له ، فكلُّ نبأ خبرٌ مِنْ غيرِ عكسٍ . وبعضُهم يُعَبِّرُ عن نحوِ ﴿ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ ﴾ في علم البديع بالتَّرْدِيد . قاله صاحب " التحرير " . وقال غيرُه : إنَّ الترديدَ عبارةٌ عن رَدِّ أعجاز البيوت على صدورِها ، أو رَدِّ كلمةٍ من النصفِ الأولِ إلى النصف الثاني . فمثالُ الأولِ قولُه :

3557 سَرِيعٌ إلى ابنِ العَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَه . . . وليس إلى داعي الخَنا بسَرِيعِ

ومثالُ الثاني قولُه :

3558 والليالي إذا نَأَيْتُمْ طِوالٌ . . . والليالي إذا دَنَوْتُمْ قِصَارُ

(148/577)

وقرأ ابن كثير في روايةٍ " مِنْ سَبَاً " مقصوراً منوَّناً . وعنه أيضاً : " مِنْ سَبْأً " بسكون الباءِ وفتحِ الهمزة ، جعله على فَعْل ومَنَعَه من الصرفِ لِما تقدَّم .

وعن الأعمش " مِنْ سَبْءٍ " بهمزةٍ مكسورةٍ غير منونةٍ . وفيها إشكالٌ ؛ إذ لا وجهَ للبناء . والذي يظهر لي أنَّ تنوينَها لا بدَّ أَنْ يُقْلَبَ ميماً وصلاً ضرورةَ ملاقاتِه للباء ، فسمعها الراوي ، فظنَّ أنه كَسَر مِنْ غيرِ تنوينٍ . ورُوِيَ عن أبي عمروٍ " مِنْ سَبَا " بالألفِ صريحةً كقولِهم : " تَفَرَّقُوا أَيْدِيْ سَبا " . وكذلك قُرِىء " بنَبَا " بألفٍ خالصةٍ ، وينبغي أَنْ يكونا لقارِىءٍ واحدٍ .

و " سَبَأ " في الأصلِ اسمُ رجلٍ مِنْ قَحْطانَ ، واسمه عبد شمس ، وسَبَأٌ لقبٌ له . وإنما لُقِّبَ به لأنه أولُ مَنْ سبى ، وَوُلِدَ له عشرةُ أولادٍ ، تيامَنَ ستةٌ وهم : حِمْيَرُ وكِنْدَةُ والأَزْدُ وأَشْعَرُ وخَثْعَمُ وبُجَيْلَةُ ، وتشاءَمَ أربعةٌ وهم : لَخْمٌ وجُذامُ وعامِلَةُ وغَسَّانُ .

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23)

قوله: ﴿ وَأُوتِيَتْ ﴾: يجوز أَنْ تكونَ معطوفةً على "تَمْلِكُهم". وجاز عَطْفُ الماضي على المضارع؛ لأنَّ المضارعَ بمعناه أي: مَلَكَتْهُمْ. ويجوز أَنْ يكونَ في محلِّ نصبٍ على الحالِ من مرفوعِ "تَمْلِكُهم"، و"قد" معها مضمرةٌ عند مَنْ يرى ذلك.

وقوله: ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عامٌّ مخصوصٌ بالعَقْلِ لأنها لم تُؤْتَ ما أُوْتِيَه سُلَيْمانُ.

(149/577)

قوله: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ هذه جملةً مستقلةً بنفسِها سِيْقَتْ للإخبارِ بها، وأَنْ تكونَ معطوفةً على "أُوْتِيَتْ"، وأَنْ تكونَ حالاً مِنْ مرفوعِ "أُوْتِيَتْ". والأحسنُ أَنْ تُجْعَلَ الحالُ الجارَّ، و"عَرْشٌ" مرفوعٌ به، وبعضُهم يَقِفُ على "عَرْشٌ"، ويَقْطَعُه عن نَعْتِه. قال الزمخشري: "ومِنْ نَوْكَى القُصَّاص مَنْ يقفُ على قولِه: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ ﴾ ثم يَبْتَدِئُ "عظيمٌ وَجَدْتُها" يريد: أمرٌ عظيمٌ أَنْ وَجَدْتُها، فَرَّ مِنْ استعظامِ الهُدْهُدِ عرشَها فوقع في عظيمةٍ وهي مَسْخُ كتابِ الله". قلت: النوكى: الحمقى جمعَ أَنْوكِ. وهذا الذي ذكرَه مِنْ أَمْرِ الوقف نقله الدانيُّ عن نافعٍ، وقَرَّره، وأبو بكر بن الأنباري، ورفعه إلى بعضِ أهل العلمِ، فلا ينبغي أَنْ يُقال: "نوكى القُصَّاص". وخرَّجه الدانيُّ على أَنْ يكونَ "عظيم" مبتدأ و"وَجَدْتُها" الخبرُ. وهذا خطأٌ كيف يُبْتدأ بنكرةٍ مِنْ غيرِ مُسَوِّغٍ، ويُخْبَرُ عنها

بجملةٍ لا رابطَ بينها وبينَه ؟ والإعرابُ ما قاله الزمخشريُّ : مِنْ أنَّ عظيماً صفةٌ لمحذوفٍ خبراً مقدماً [و " وَجَدْتُها " مبتدأٌ مؤخرٌ مُقَدَّراً معه حرفٌ مصدريٌّ أي : أمرٌ عظيمٌ وُجْداني إياها وقومَها غيرَ عابدي الله تعالى .

قوله : ﴿ وَجَدتُّهَا ﴾ : هي التي بمعنى لَقِيْتُ] وأَصَبْتُ/ فتتعدى لواحدٍ ، فيكونُ " يَسْجُدون " حالاً مِنْ مفعولِها وما عُطِفَ عليه .

(150/577)

قوله : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُواْ ﴾ : قرأ الكسائيُّ بتخفيف " ألا " ، والباقون بتشديدها . فأمَّا قراءةُ الكسائيِّ ف " ألا " فيها تنبيهٌ واستفتاحٌ ، و " يا " بعدها حرفُ نداءٍ أو تنبيهٍ أيضاً على ما سيأتي و " اسْجُدوا " فعلُ أمرٍ . وكان حَقُّ الخَطِّ على هذه القراءةِ أن يكونَ " يا اسْجُدوا " ، لكنَّ الصحابةَ أسقطُوا ألفَ " يا " وهمزةَ الوصلِ من " اسْجُدوا " خَطّاً لَمَّا سَقَطا لفظاً ، ووَصَلُوا الياءَ بسين " اسْجُدوا " ، فصارَتْ صورتُه " يَسْجُدوا " كما ترى ، فاتَّحدت القراءتان لفظاً وخَطّاً واختلفتا تقديراً .

واختلف النحويون في " يا " هذه : هل هي حرفُ تنبيهٍ أو للنداءِ ، والمنادى محذوفٌ تقديرُه : يا هؤلاءِ اسْجُدوا ؟ وقد تقدَّم ذلك عند قولِه : ﴿ ياليتني ﴾ [الآية : 73] في

سورة النساء . والمرجَّحُ أَنْ تكونَ للتنبيهِ ؛ لئلا يُؤَدّيَ إلى حَذْفٍ كثيرٍ مِنْ غيرِ بقاءِ ما يَدُلُّ على المحذوفِ . ألا ترى أنَّ جملةَ النداءِ حُذِفَتْ ، فلو ادَّعَيْتَ حَذْفَ المنادى كَثُرَ الحذفُ ولم يَبْقَ معمولٌ يَدُلُّ على عامِلِهِ ، بخلافِ ما إذا جَعَلْتَها للتنبيهِ . ولكنْ عارَضَنَا هنا أنَّ قبلَها حرفَ تنبيهٍ آخرَ وهو " ألا " . وقد اعْتُذِرَ عن ذلك : بأنه جُمِع بينهما تأكيداً . وإذا كانوا قد جَمَعُوا بين حرفين عامِلَيْنِ للتأكيدِ كقوله :

3559 فَأَصْبَحْنَ لا يَسْأَلْنَنِي عَنْ بما به . . . . . .

. . . . .

فغيرُ العامِلَيْن أولى . وأيضاً فقد جَمَعُوا بين حَرْفَيْنِ عامِلَيْنِ مُتَّحِدَيْ اللفظِ والمعنى ، كقوله :

3560 فلا واللهِ لا يلفى لِما بي . . . ولا لِلما بهم أبداً دَواءُ

فهذا أَوْلَى . وقد كَثُرَ مباشرةُ " يا " لفعلِ الأمرِ وقبلَها " ألا " التي للاستفتاح كقوله :

3561 ألا يا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلمي ثُمَّتَ اسْلَمي . . . ثلاثَ تحيَّاتٍ وإنْ لَمْ تَكَلَّمي

وقوله :

3562 ألا يا اسْلَمِي يا دارَ مَيَّ على البِلى . . . ولا زال مُنْهَلاً بجَرْعائِكِ القَطْرُ

وقوله :

3563 ألا يا اسلمي ذاتَ الدَّماليجِ والعِقْدِ . . . وذَاتَ اللِّثاثِ الجُمِّ والفاحِمِ الجَعْدِ

وقوله :

364 ألا يا اسْلمي يا هندُ هندَ بني بدرٍ . . . وإن كان حَيَّانا عِداً آخرَ الدهرِ

وقوله :

3565 ألا يا اسْقِياني قبلَ حَبْلِ أبي بكرِ . . . لعل منايانا قَرُبْنَ ولا نَدْري

وقوله :

3566 ألا يا اسْقِياني قبلَ غارةِ سِنْجالِ . . . . . .

. . . . . .

وقوله :

3567 فقالَتْ ألا يا اسْمَعْ أَعِظْكَ لخُطْبةٍ . . . فقلتُ : سَمِعْنا فانْطِقي وأَصِيْبي

وقد جاءَ ذلك ، وإنْ لم يكنْ قبلَها " ألا " كقوله :

3568 يا دارَ هندٍ يا اسْلَمي ثُمَّ اسْلَمي . . . بِسَمْسَمٍ أو عَنْ يمين سَمْسَمِ

فقد عَرَفْتَ أنَّ قراءةَ الكسائيِّ قويةٌ لكثرةِ دَوْرِها في لغتهم .

وقد سُمع ذلك في النثر ، سُمِع بعضُهم يقول : ألا يا ارحموني ، ألا يا تَصَدَّقوا علينا . وأمَّا

قولُ الأخرِ :

3569 يا لعنةَ اللهِ والأقوامِ كلِّهمُ . . . والصالحينَ على سَمْعانَ مِنْ جارِ

فيُحتمل أَنْ تكونَ يا للنداء ، والمنادى محذوف ، وأَنْ تكونَ للتنبيهِ وهو الأرجحُ لما مَرَّ .

واعلمْ أن الكسائيَّ الوقفُ عنده على "يَهْتَدون" تامٌّ .

وله أن يَقِفَ على "ألا يا" معاً ويَبْتَدِىءَ "اسْجُدوا" بهمزة مضمومةٍ ، وله أَنْ يقفَ على "ألا" وحدَها ، وعلى "يا" وحدَها ؛ لأنهما حرفان منفصِلان . وهذان الوقفان وقفا اختبارٍ لا اختيارٍ ؛ لأنهما حرفان لا يَتِمُّ معناهما ، إلاَّ بما يتصلان به ، وإنما فعله القراءُ امتحاناً وبياناً . فهذا توجيهُ قراءةِ الكسائيِّ ، والخطبُ فيها سَهْلٌ .

(152/577)

وأما قراءةُ الباقين فتحتاج إلى إمعانِ نَظَرٍ . وفيه أوجهٌ كثيرةٌ ، أحدها : أنَّ "ألاَّ" أصلُها : أَنْ لا ، ف "أنْ" ناصبةٌ للفعلِ بعدَها ؛ ولذلك سَقَطَتْ نونُ الرفعِ ، و "لا" بعدها حَرفُ نفيٍ . و "أنْ" وما بعدها في موضع مفعولِ "يَهْتَدون" على إسقاطِ الخافضِ ، أي : إلى أن/ لا يَسْجُدوا . و "لا" مزيدةٌ كزيادتِها في ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] . الثاني : أنه بدلٌ مِنْ "أعمالَهم" وما بينهما اعتراضٌ تقديرُه : وزَيَّن لهم الشيطانُ عدمَ

السجودِ لله . الثالث : أنه بدلٌ من " السبيل " على زيادةِ " لا " أيضاً . والتقديرُ : فصَدَّهم عن السجودِ لله تعالى . الرابع : أنَّ ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا ﴾ مفعول له . وفي متعلَّقه وجهان ، أحدهما : أنه زَيَّن أي : زَيَّن لهم لأجلِ أَنْ لا يَسْجدُوا . والثاني : أَنَّه متعلِّقٌ ب " صَدَّهم " أي : صَدَّهم لأجلِ أَنْ لا يَسْجُدوا . وفي " لا " حينئذٍ وجهان ، أحدهما : أنه ليسَتْ مزيدةً ، بل نافيةٌ على معناها من النفي . والثاني : أنها مزيدةٌ والمعنى : وزَيَّن لهم لأجلِ توقُّعِه سُجودَهم ، أو لأجْلِ خَوْفِه مِنْ سُجودِهم . وعدمُ الزيادةِ أظهرُ .

الخامس : أنه خبرُ مبتدأ مضمرٍ . وهذا المبتدأُ : إمَّا أَنْ يُقَدَّرَ ضميراً عائداً على " أعمالَهم " التقديرُ : هي أن لا يَسْجدوا ، فتكون " لا " على بابِها من النفي ، وإمَّا أن يُقَدَّرَ ضميراً عائداً على " السبيل " . التقديرُ : هو أَنْ لا يَسْجُدوا فتكون " لا " مزيدةً على ما تقدَّم ليَصِحَّ المعنى .

(153/577)

وعلى الأوجهِ الأربعةِ المتقدمةِ لا يجوزُ الوقفُ على " يَهْتدون " لأنَّ ما بعدَه : إمَّا معمولٌ له أو لِما قبلَه مِنْ " زَيَّن " و " صَدَّ " ، أو بدلٌ مِمَّا قبله أيضاً مِنْ " أعمالَهم " أو من " السبيل " على ما قُرِّر وحُرِّرَ ، بخلافِ الوجهِ الخامسِ فإنه مبنيٌّ على مبتدأ مضمرٍ ، وإن كان ذلك

الضمير مُفَسَّراً بما سَبَقَ قبلَه .

وقد كُتِبَتْ " ألاَّ " موصولةً غيرَ مفصولةٍ ، فلم تُكْتَبْ " أنْ " منفصِلةً مِنْ " لا " فمِنْ ثَمَّ امتنعَ أَنْ يُوْقَفَ لهؤلاء في الابتلاء والامتحان على " أنْ " وحدَها لاتِّصالِها ب " لا " في الكتابةِ ، بل يُوْقَفُ لهم على " ألاَّ " بجملتِها ، كذا قال القُراء .

والنحويون متى سُئِلوا عن مثلِ ذلك وَقَفُوا لأجلِ البيانِ على كلِّ كلمةٍ على حِدَتِها لضرورة البيانِ ، وكونُها كُتِبَتْ متصلةً ب " لا " غيرُ مانعٍ من ذلك . ثم قولُ القُرَّاءِ كُتِبَتْ متصلةً فيه تجوُّزٌ وتَسامُحٌ ؛ لأنَّ حقيقةَ هذا أَنْ يُثْبِتُوا صورةَ نونٍ ويَصِلُونها ب " لا " ، فيكتبونها : أَنْلا ، ولكن لَمَّا أُدْغِمَتْ فيما بعدَها لفظاً وذَهَبَ لفظُها إلى لفظِ ما بعدَها ، قالوا ذلك تسامحاً .

وقد رتَّب أبو إسحاق على القراءتين حُكماً : وهو وجوبُ سجودِ التلاوةِ وعَدَمُه ؛ فأوجبه مع قراءةِ الكسائيِّ وكأنه لأجلِ الأمرِ به ، ولم يُوْجِبْه في قراءة الباقين لعدمِ وجودِ الأمرِ فيها . إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ لم يَرْتَضِه منه فإنه قال : " فإنْ قلتَ : أسَجْدَةُ التلاوةِ واجبةٌ في القراءتين جميعاً أو في واحدةٍ فيهما ؟ قلت : هي واجبةٌ فيهما ، وإحدى القراءتين أمرٌ بالسجودِ ، والأخرى ذمٌّ للتارك " . فما ذكره الزجاج مِنْ وجوبِ السجدةِ مع التخفيفِ دونَ التشديدِ فغيرُ مرجوعٍ إليه .

قلت : وكأنَّ الزجاجَ أخذ بظاهرِ الأمرِ ، وظاهرُه الوجوبُ ، وهذا لو خُلِّيْنا والآيةَ لكان السجودُ واجباً ، ولكنْ دلَّتِ السُّنَّةُ على استحبابِه دونَ وجوبِه ، على أنَّا نقول : هذا مبنيٌّ على نظرٍ آخر : وهو أنَّ هذا الأمرَ من كلامِ اللهِ تعالى ، أو من كلامِ الهُدْهُدِ محكيًّا عنه . فإنْ كان مِنْ كلامِ اللهِ تعالى فيُقال : يَقْتضي الوجوبَ ، إلاَّ أَنْ يجيْءَ دليلٌ يَصْرِفُه عن ظاهرِه ، وإنْ كان من كلامِ الهُدْهد وهو الظاهرُ ففي انتهاضِه دليلاً نظرٌ لا يخفى .

وقرأ الأعمشُ " هَلاَّ " ، و " هَلا " بقلب الهمزة هاءً مع تشديدِ " لا " وتخفيفها وكذا هي في مصحفِ عبد الله . وقرأ عبدُ الله " تَسْجُدون " بتاء الخطابِ ونونِ الرفع . وقُرِىءَ كذلك بالياءِ مِنْ تحتُ . فمَنْ أَثْبَتَ نونَ الرفعِ فألا بالتشديدِ أو التخفيفِ للتحضيضِ ، وقد تكونُ المخففةُ للعَرْضِ أيضاً نحو : " ألا تَنْزِل عندنا تتحدَّث " وفي حرف عبدِ الله أيضاً : " ألا هَلْ تَسْجدُون " بالخطاب .

(155/577)

قوله : ﴿ الذي يُخْرِجُ الخبء ﴾ يجوز أَنْ يكونَ مجرورَ المحلِّ نعتاً له أو بدلاً منه أو بياناً ، أو منصوبَه/ على المدحِ ، ومرفوعَه على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ . والخَبْءُ مصدرُ خَبَأْتُ الشَيءَ

أخبَؤُه خَبْئاً أي : سَتَرْتُهُ ، ثم أُطْلِقَ على الشيءِ المَخْبوء . ونحُوه : ﴿ هذا خَلْقُ الله ﴾ [لقمان : 11] . وفي التفسير : الخَبْءُ في السماواتِ : المطرُ ، وفي الأرض : النباتُ .

والخابِيَةُ مِنْ هذا ، إلاَّ أنهم التزموا فيها تَرْكَ الهمزةِ كالبَرِيَّة والذُّرِّيَّة عند بعضِهم . وقرأ أُبَيٌّ وعيسى " الخَبَ " بنَقْلِ حركةِ الهمزةِ إلى الباءِ ، وحَذْفِ الهمزة ، فيصيرُ نحوَ : رأيتُ الأَبَ . وقرأ عبد الله وعكرمةُ ومالك بن دينار " الخبا " بألفٍ صريحة . ووجْهُها : أنه أبدلَ الهمزةَ ألفاً فلزِمَ تحريكُ الباءِ ، وذلك على لغةِ مَنْ يَقِفُ من العرب بإبدال الهمزةِ حرفاً يجانِسُ حركتَها فيقول : هذا الخَبُوْ ، ورأيتُ الخَبا ومررت بالخَبِي ، ثم أُجْرِي الوصلُ مجرى الوقفِ .

وعندي أنه لَمَّا نَقَلَ حركةَ الهمزةِ إلى الساكنِ قبلَها لم يَحْذِفْها ، بل تركها فسكَنَتْ بعد فتحةٍ فدُيِّرَتْ بحركةِ ما قبلها ، وهي لغةٌ ثابتةٌ يقولون : المَراة والكَماة بألفٍ مكانَ الهمزةِ بهذه الطريقةِ .

وقد طَعن أبو حاتم على هذه القراءةِ وقال : " لا يجوزُ في العربيةِ ؛ لأنه إنْ حَذَفَ الهمزةَ ألقى حركتَها على الباء ، فقال : الخَبَ ، وإن حَوَّلها قال : الخَبْيَ بسكونِ الباءِ وياءٍ بعدَها " قال المبرد : " كان أبو حاتم دونَ أصحابِه في النحوِ ، لم يَلْحَقْ بهم ، إلاَّ أنه إذا خَرَجَ مِنْ بلدِهم لم يَلْقَ أَعْلَمَ منه " .

قوله : ﴿ فِي السماوات ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه متعلقٌ ب " الخَبْءَ " أي : المخبوءَ في السماواتِ . والثاني : أنه متعلقٌ ب "يُخْرِجُ" على أنَّ معنى "في" معنى "مِنْ" أي : يُخْرِجُه من السماواتِ . وهو قول الفراء .

قوله : ﴿ مَا تُخْفُونَ ﴾ قرأ الكسائيُّ وحفص بالتاء مِنْ فوقُ فيهما ، والباقون بالياءِ مِنْ تحتُ . فالخطابُ ظاهرٌ على قراءةِ الكسائي ؛ لأنَّ قبلَه أمْرَهم بالسجودِ وخطابَهم به . والغَيْبَةُ على قراءةِ الباقينِ غيرَ حفصٍ ظاهرةٌ أيضاً ؛ لتقدُّمِ الضمائرِ الغائبةِ في قوله : " لهم " و " أعمالهم " و " صَدَّهم " و " فهمْ " . وأمَّا قراءةُ حفصٍ فتأويلُها أنه خَرَجَ إلى خطابِ الحاضرين بعد أَنْ أتمَّ قضيةَ أهلِ سَبَأ . ويجوز أَنْ يكونَ التفاتاً على أنه نزَّل الغائبَ منزلةَ الحاضرِ فخاطبه مُلْتَفِتاً إليه .

وقال ابن عطية : " القراءةُ بياءِ الغَيْبة تعطي أن الآيةَ من كلامَ الهُدْهد ، وبتاءِ الخطابِ تعطي أنها من خطابِ الله لأمةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم " . وقد تقدَّم أنَّ الظاهر أنه من كلامِ الهدهد مطلقاً . وكذلك الخلافُ في قولِه ﴿ اللهُ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ هل هو من كلامِ الهدهدِ استدراكاً منه ، لَمَّا وَصَفَ عَرْشَ بلقيسَ العظيمَ ، أو من كلامِ اللهِ تعالى رَدَّاً عليه في وَصْفِه عَرْشَها بالعظيم ؟ .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

والعامَّةُ على جرِّ " العظيم " تابعاً للجلالة . وابن محيصن بالرفعِ . وهو يحتمل وجهين . أن يكونَ نعتاً للربِّ ، وأَنْ يكونَ مقطوعاً عن تبعيَّةِ العرش إلى الرفعِ بإضمارِ مبتدأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 591.606 ﴾

(157/577)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

تَطَلَّبَه فَلَمَّا لم يَرَه تَعَرَّف ما سبب تأخره وغيبته .

ودلَّ ذلك على تيقظ سليمان في مملكته ، وحسن قيامه وتكفله بأمور أمته ورعيته ، حيث لم تَخْفَ عليه غيبةُ طيرٍ هو من أصغر الطيور لم يحضر ساعةً واحدةً . وهذا أحسن ما قيل .

ثم تَهَدَّدَه إن لم يكن له عُذْرٌ بعذاب شديدٍ ، وذلك يدلُّ على كمال سياسته وعَدْلِه في مملكته .

وقال قومٌ إنما عَرَفَ أن الهدهد يعرف أعماقَ الماء بإلهام خُصَّ به ، وأنَّ سليمان كان قد نزل

منزلاً ليس به ماء ، فطلبَ الهدهد ليهديَهم إلى مواضع الماء ، وهذا ممكن ؛ لأن في الهدهد كَثْرَةً . وغيبةُ واحدةٍ منها لا يحصل منها خَلَلٌ – اللهم إلاّ إنْ كان ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة مواضع وأعماق الماء . . . والله أعلم .

وروي أن ابن عباس سُئِلَ عن ذلك ، وأنه قيل له : إنْ كان الهدهدُ يرى الماءَ تحت الترابِ ويعرفه فكيف لا يرى الفَخَّ مخفيّاً تحت التراب ؟

فقال : إذا جاء القضاء عَمِيَ البصر .

ويقال : إن الطير كانت تقف فوق رأس سليمان مُصْطَفَّةً ، وكانت تستر انبساط الشمس وشعاعها بأجنحتها ، فوقع شعاعُ الشمسِ على الأرض ، فنظر سليمانُ فرأى موضع الهدهد خالياً منه ، فعَرَفَ بذلك غَيْبَتَه . . وهذا أيضاً ممكن ، ويدل على كمال تَفَقُّدِه ، وكمال تَيَقُّظِه – كما ذكرنا .

لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21)

في هذه الآية دليل على مقدار الجُرْمِ ، وأنه لا عِبْرَةَ بصغر الجثة وعِظَمِها . وفيه دليل على أن الطير في زمانه كانت في جملة التكليف ، ولا يبعد الآن أن يكون عليها شَرْعٌ ، وأَنَّ لهم من الله إلهاماً وإعلاماً ؛ وإن كان لا يُعْرَفُ ذلك على وجه القَطْع .

(158/577)

وتعيين ذلك العذاب الشديدِ غيرُ ممكنٍ قطعاً ، إلا تجويزاً واحتمالاً .

وعلى هذه الطريقة يَحْتَمِل كُلَّ ما قيل فيه .

ويمكن أن يقال فإن وُجِدَ في شيءٍ نَقْلٌ فهو مُتَّبَعٌ .

وقد قيل هو نَتْفُ رِيشه وإلقاؤه في الشمس .

وقيل يفرِّق بينه وبين أليفه .

وقيل يشتِّت عليه وقتَه .

وقيل يُلْزِمُه خدمة أقرانه .

والأَولى في هذا أن يقال من العذاب الشديد كيت وكيت ، وألا يُقْطَعَ بشيءٍ دون غيره على وجه القطع .

فَمِنَ العذاب الشديد أن يُمْنَعَ حلاوة الخدمة فيجد أَلَمَ المشقة . ومن ذلك أن يقطع عنه حُسْنُ التولي لشأْنه ويوكَلَ إلى حَوْلِهِ ونَفْسِه ، ومن ذلك أن يُمْتَحَنَ بالحِرْصِ في الطلب ثم يحال بينه وبين مقصوده ومطلوبه . ومن العذاب الشديد الطمع في اسم العذر ثم لا يرتفع ومن ذلك سَلْبُ القناعة . ومنه عَدَمُ الرضا بما يجري . ومن ذلك توهم الحدثان وحسبان شيءٍ من الخَلْق .

ومن ذلك الحاجة إلى الأَخِسَّةِ من الناس . ومن ذلك ذُلُّ السؤال مع الغفلة عن شهود

التقدير . ومن ذلك صحبة الأضداد والابتلاء بمعاشرتهم . ومن ذلك ضعف اليقين وقلة الصبر . ومن ذلك التباس طريق الرُّشد . ومنه حسبان الباطل بصفة الحق . والتباس الحقِّ في صورة الباطل . ومنه أن يطالب بما لا تتسع له ذات يده . ومنه الفقر في الغُرْبة .

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22)

فلم يلبث الهدهدُ أن جاء ، وعَلِمَ أن سليمانَ قد تهدَّدَه ، فقال : أَحَطْتُ علماً بما هو عليك خافٍ ، ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ .

ثم ذكر حديث بلقيس ، وأنها ملكتهم ، وأن لها من المالِ والمُلْكِ والسرير العظيم ما عَدَّه ، فلم يتغير سليمانُ – عليه السلام – لذلك ، ولم يستفزّه الطمع فيما سَمِعَ عن هذا كما يحدث من عادة الملوك في الطمع في مُلكِ غيرهم ، فلما قال :

(159/577)

وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)

فعند ذلك غَاظَ هذا سليمانَ ، وغَضِبَ في الله ، و ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) ﴾ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 31.34 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ طسٓ تِلْكَ ءايات القرءان ﴾

يعني : هذه الأحكام ويقال : تلك الآيات التي وعدتم بها ، وذلك أنهم وعدوا بالقرآن في كتبهم .

ويقال : يعني : العلامات جميع الأحرف للقرآن ﴿ وكتاب مُّبِينٌ ﴾ كلاهما واحد ، وإنما كرر اللفظ للتأكيد ﴿ مُّبِينٌ ﴾ يعني : بيّن ما فيه من أمره ونهيه .

ويقال : مبين للأحكام الحلال والحرام .

ثم قال : ﴿ هُدًى ﴾ يعني : القرآن هدى وبياناً من الضلالة لمن عمل به .

ويقال ﴿ هُدًى ﴾ يعني : هادياً ﴿ وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : ما فيه من الثواب للمؤمنين ، قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وورش عن نافع ﴿ وبشرى ﴾ بإمالة الراء ، وقرأ الباقون بالتفخيم ، وكلاهما جائز ، والإمالة أكثر في كلام العرب ، والتفخيم أفصح ، وهي لغة أهل الحجاز ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يعني : للمصدقين بالقرآن أنه من الله تعالى .

ثم نعتهم فقال : ﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ يعني : يقرون بها ويتمونها ﴿ ويُؤْتُونَ الزكواة ﴾ يعني : يقرون بها ويعظمونها ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون بأنها كائنة ثم قال : ﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ أي : لا يصدقون بالبعث بعد الموت ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم ﴾ يعني : ضلالتهم عقوبة لهم ولما عملوا ، ومجازاة لكفرهم زينا لهم سوء أعمالهم ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يعني : يترددون فيها ، ويتحيرون في ضلالتهم .

قوله عز وجل : ﴿ أولئك ﴾ يعني : أهل هذه الصفة ﴿ الذين لَهُمْ سُوء العذاب ﴾ يعني : شدة العذاب ﴿ وَهُمْ فِى الآخرة هُمُ الاخسرون ﴾ يعني : الخاسرون بحرمان النجاة ، والمنع من الحسنات .

ويقال : هم أخسر من غيرهم وقال أهل اللغة متى ذكر الأخسر مع الألف واللام ، فيجوز أن يراد به الأخسر من غيرهم .

وإن لم يذكر غيرهم ، وإن ذكر بغير ألف ولام ، فلا يجوز أن يقال : هو أخسر إلا أن يبين أنه هو أخسر من فلان أو من غيره .

(161/577)

قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾ يعني : كقوله ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : 35] يعني : مما يؤتي بها .

ويقال : وما يؤتي ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾ يعني : لتلقن القرآن .

وقال أهل اللغة تلقى وتلقن بمعنى واحد إذا أخذ وَقُبِلَ من غيره ويقال ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾ ، أي يلقى إليك القرآن وحياً من الله عز وجل .

ثم قال : ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ يعني : نزل عليك جبريل من عند حكيم عليم في أمره ، عليم بأعمال الخلق قوله عز وجل : ﴿ إِذْ قَالَ موسى لِاهْلِهِ ﴾ قال بعضهم : معناه إنه عليم بما نزل عليك ، كعلمه بقول موسى عليه السلام ويقال : حكمت لك بالنبوة ، كما حكمت لموسى ، إذ قال لأهله : ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ﴾ يعني : رأيت ناراً ﴿ إِذْ قَالَ موسى ﴾ يعني : خبر الطريق ﴿ إِذْ قَالَ موسى لِاهْلِهِ ﴾ يعني : بنارٍ ويقال : كل أبيض ذو نور فهو شهاب ، والقبس كل ما يقتبس من النار ، والقبس يعني : المقبوس .

كما يقال : ضرب فلان ، يعني : مضروبه .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ شِهَابٌ قَبَسٍ ﴾ بالتنوين ، وقرأ الباقون بغير تنوين ، فمن قرأ منوناً ، جعل القبس نعت الشهاب ومن قرأ بشهاب غير منون ، أضاف الشهاب إلى القبس ثم قال ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ يعني : تستدفئون من البرد .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَاءهَا ﴾ يعني : النار ويقال يعني : الشجرة ﴿ نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن

فِي النار ﴾ يعني : بورك مَنْ عند النار ، وهو موسى عليه السلام ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني : الملائكة عليهم السلام وهو على وجه التقديم يعني : فلما جاءها ومن حولها من الملائكة ، نودي أن بورك من في النار ، أي : عند النار .

ويقال : من في طلب النار أو قصدها والمعنى : بورك فيك يا موسى .

(162/577)

وقال أهل اللغة : باركه وبارك فيه ، وبارك عليه واحد ، وهذا تحية من الله تعالى لموسى عليه السلام ثم قال : ﴿ وسبحان الله ﴾ يعني : قيل له قل سبحان الله تنزيهاً لله تعالى من السُّوء ويقال : إنه أي الله في النداء قال : فسبحان الله ﴿ رَبّ العالمين ﴾ وقال بعض المفسرين : كان ذلك نور رب العزة ، وإنما أراد به تعظيم ذلك النور ، كما يقال للمساجد بيوت الله تعظيماً لها .

ثم قال عز وجل : ﴿ العالمين يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله ﴾ وذكر عن الفراء أنه قال : هذه الهاء عماد ، وإنما يراد به وصل الكلام ، كما يقال : إنما ، وما يكون للوصل كذلك ها هنا ، فكأنه قال : يا موسى إني أنا الله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ ويقال : معناه إن الذي تسمع نداءه هو الله العزيز الحكيم قوله عز وجل : ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ يعني : من يدك فألقاها ، فصارت حية ،

وقد يجوز أن يضمر الكلام إذا كان في ظاهره دليل ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ يعني : تتحرك ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ يعني : حية والجان هي الحية الخفيفة الأهلية ، فإن قيل : إنه قال في آية أخرى ، ﴿ فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : 107] والثعبان الحية الكبيرة ، فأجاب بعض أصحاب المعاني أنه كان في كبر الثعبان ، وفي خفة الجان قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : والجواب الصحيح أن الثعبان كان عند فرعون ، والجان عند الطور ثم قال : ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ يعني : أدبر هارباً من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ يعني : لم يرجع ويقال : لم يلتفت يقول الله تعالى لموسى ﴿ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ ﴾ من الحية ﴿ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون ﴾ يعني : لا يخاف عندي ، ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ قال مقاتل : إلا من ظلم نفسه من المرسلين ، مثل آدم وسليمان ، وإخوة يوسف ، وداود وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(163/577)

ويقال : إلا من ظلم يعني : لكن من ظلم ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوء ﴾ أي : فعل إحساناً بعد إساءته ﴿ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال الكلبي : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ يعني : أشرك فهذا الذي يخاف ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً ﴾ يعني : توحيداً بعد سوء ، يعني : بعد شرك ﴿ فَإِنِّى

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال أبو الليث رحمه الله : ويكون إلا على هذا التفسير ، بمعنى لكن لا وعلى وجه الاستثناء ، وذكر عن الفراء أنه قال : الاستثناء وقع في معنى مضمر من الكلام ، كأنه قال : لا يخاف لدي المرسلون ، بل غيرهم الخائف .

وقال القتبي : هذا لا يصح ، لأن الإضمار يصح إذا كان في ظاهره دليل ، ولكن معناه أن الله تعالى لما قال : ﴿ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون ﴾ ، علم أن موسى كان مستشعراً خيفة من قبل القبطي ، فقال : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوء ﴾ فإنه يخاف ، ولكني أغفر له ، ﴿ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ويقال ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ يعني ، ولا من ظلم ، ولا يبين ظلمه ، ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوء ﴾ فإنه لا يخاف أيضاً ، ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ يعني : جيب المدرعة ، ثم أخرجها ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ يعني : من غير برص ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى ﴾ يعني : هذه الآية من تسع آيات ، كما تقول أعطيت لفلان عشرة أبعرة فيها فحلان ، أي منها وقد بيّن في موضع آخر حيث قال : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى تِسْعَ ءايات بَيِّنَاتٍ فاسأل بَنِى إسراءيل إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّى لأَظُنُّكَ يا موسى مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء : 101] وقد ذكرناها ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ أي اذهب إلى فرعون ﴿ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ

كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ يعني : إنهم كانوا قوماً عاصين قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا ﴾ يعني : جاءهم موسى بآياتنا التسع ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ يعني : معاينة .

(164/577)

ويقال : مبينة ، أي علامة لنبوته ، ويقال : مبصرة يعني : مضيئة واضحة ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي بيّن ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ يعني : بالآيات بعد المعرفة ﴿ واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ أنها من الله تعالى ، وإنما استيقنتها قلوبهم ، لأن كل آية رأوها استغاثوا بموسى ، وسألوا بأن يكشف عنهم ، فكشفنا عنهم ، فظهر لهم بذلك أنه من الله تعالى ، وفي الآية تقديم .

ومعناه وجحدوا بها ﴿ ظُلْماً ﴾ يعني : شركاً ﴿ وَعُلُوّاً ﴾ يعني : تكبراً وترفعاً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ﴿ واستيقنتها ﴾ أنفسهم يعني : وهم يعلمون أنها من الله .

ثم قال : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ يعني : الذين يفسدون في الأرض بالمعاصي ، فكانت عاقبتهم الغرق .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودُ وسليمان عِلْماً ﴾ يعني : علم القضاء ، والعلم بكلام الطير والدوابّ ﴿ وَقَالاَ ﴾ يعني : داود وسليمان ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى فَضَّلَنَا على

كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ﴾ بالكتاب والنبوة وكلام البهائم والطير والملك ، ويقال : فضلنا على كثير من الأنبياء ، حيث لم يعط أحداً من الأنبياء عليهم السلام ما أعطانا .

وقال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكاً ، وأقضى من داود ، وكان داود أشدَّ تعبداً من سليمان عليهما السلام .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَوَرِثَ سليمان دَاوُودُ ﴾ يعني : ورث ملكه .

وقال الحسن : ورث المال والملك لا النبوة والعلم ، لأن النبوة والعلم من فضل الله ، ولا يكون بالميراث ويقال : ورث العلم والحكم لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون دراهم ولا دنانير .

﴿ وَقَالَ ﴾ سليمان لبني إسرائيل : ﴿ وَقَالَ يا أيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير ﴾ يعني : أفهمنا وألهمنا منطق الطير ، وذلك أن سليمان كان جالساً في أصحابه إذ مرّ بهم طير يصوت ، فقال لجلسائه : أتدرون ماذا يقول ؟ قالوا : لا .

(165/577)

قال : إنه يقول : ليت الخلق لم يخلقوا ، فإذا خلقوا علموا لماذا خلقوا قال : وصاح عنده ديك فقال : هل تدرون ماذا يقول ؟ قالوا : لا .

قال : إنه يقول اذكروا الله يا غافلين .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني : أعطينا علم كل شيء .

ويقال : النبوة والملك وتسخير الجن والشياطين والرياح .

﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الذي أعطينا ﴿ لَهُوَ الفضل المبين ﴾ يعني : المبين ويقال : المبين تبين للناس فضلهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَحُشِرَ لسليمان جُنُودُهُ ﴾ يعني : جموعه ، والحشر هو أن يجمع ليساق ، ثم قال : ﴿ مِنَ الجن والإنس والطير فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يعني : يساقون .

ويقال : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ يعني : يكفون ، ويحبس أولاهم على آخرهم ، وأصل الوزع الكف ، يقال : وزعت الرجل إذا كففته .

وعن الحسن أنه قال : لا بد للناس من وزعة ، أي : من سلطان يكفهم .

وقال مقاتل : إنه استعمل جنياً عليهم يرد أولهم على آخرهم .

ويقال : هكذا إعادة القوافل والعساكر .

ويقال : ﴿ وَحُشِرَ ﴾ ، أي : جمع لسليمان جنوده مسيرة له من الجن والإنس والطير ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يجلس أولهم على آخرهم ، حتى يجتمعوا .

قوله عز وجل : ﴿ حتى إِذَا أَتَوْا على وَادِى النمل ﴾ وذلك أن سليمان كان له بساط فرسخ في فرسخ ، ويقال : أربع فراسخ في أربع فراسخ ، وكان يضع عليه كرسيه وجميع

عساكره ، ثم يأمر الريح فترفعه ، وتذهب به مسيرة شهر في ساعة واحدة ، فركب ذات يوم في جموعه ، فمر بواد النمل في أرض الشام .

(166/577)

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ يعني : بيوتكم ، ويقال : حجركم ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ أي لا يهلكنكم ، ويقال : لا يكسرنكم ﴿ سليمان وَجُنُودُهُ ﴾ وإنما خاطبهم بقوله ﴿ أَدْخِلُواْ ﴾ بخطاب العقلاء لأنه حكى عنهم ما يحكى عن العقلاء ، ثم قال : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يعني : قوم سليمان لا يشعرون بكم ولو كانوا يشعرون بكم لا يحطمونكم لأنهم علموا أن سليمان عليه السلام ملك عادل لا بغي فيه ولا جور ، ولئن علم بها لم توطأ ويقال : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يعني : جنوده خاصة لأنه علم أن سليمان يعلم بمكانه ويتعاهده .

ويقال : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يعني : النمل لا يشعرون بجنود سليمان حتى أخبرتهم النملة المنذرة ، فرفع الريح صوتها إلى سليمان .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضاحكا مّن قَوْلِهَا ﴾ كما يكون ضحك الأنبياء عليهم السلام وإنما ضحك من ثنائها على سليمان بعدله في ملكه ، يعني : أنه لو شعر بكم لم يحطمكم .

ويقال : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضاحكا ﴾ أي متعجباً .

ويقال : فرحاً بما أنعم الله تعالى عليه ، صار ضاحكاً ، نصباً على الحال .

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ يعني : ألهمني ، ويقال : أوزعني من الكف أيضاً ، كأنه قال : احفظ جوارحي لكيلا تشتغل بشيءٍ سوى شكر نعمتك عليَّ .

﴿ وعلى وَالِدَىَّ ﴾ يعني : النبوة والملك .

﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ يعني : تقبله مني .

وذكر أنه مر بزارع ، فقال ؟ الزارع : إنه ما أعطي مثل هذا الملك لأحد ؟ فقال له سليمان : ألا أنبئك بما هو أفضل من هذا ؟ القصد في الغنى والفقر ، وتقوى الله تعالى في السر والعلانية ، والقضاء بالعدل في الرضا والغضب .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ يعني : أدخلني بنعمتك مع عبادك الصالحين ، يعني : المرسلين في جنتك .

(167/577)

فوقف سليمان عليه السلام بموضعه ليدخل النمل مساكنهم ، ثم مضى .

قرأ يعقوب الحضرمي وأبو عمرو في إحدى الروايتين ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ بسكون النون وقراءة العامة بنصب النون وتشديدها ، وهذه النون تدخل للتأكيد فيجوز التخفيف والتثقيل ، ولفظه لفظ النهي ، ومعناه جواب الأمر ، يعني : إن لم تدخلوا مساكنكم حطمكم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾ يعني : طلب الطير ، وذلك أنه أراد أن ينزل منزلاً ، فطلب الهدهد ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لِيَ لاَ أَرَى الهدهد ﴾ وكان رئيس الهداهد ، وكان سليمان قد جعل على كل صنف منهم رئيساً ، ثم جعل الكركي رئيساً على جميع الطيور .

قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة ﴿ مَا لِي ﴾ بسكون الياء .

وقرأ الباقون بنصب الياء ، وهما لغتان : يجوز كلاهما ، ثم قال : ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين ﴾ يعني : أم صار غائباً لم يحضر بعد .

ويقال : الميم للصلة ، ومعناه أكان من الغائبين يعني : أصار من الغائبين .

وذكر أن الهدهد كان مهندساً يعرف المسافة التي بينهم وبين الماء .

ويقال : كان يعرف الماء من تحت الأرض ، ويراه كما يرى من القارورة .

وروى عكرمة أنه قال : قلت لابن عباس : كيف يرى الماء من تحت الأرض .

وأن صبياننا يأخذونه بالفخ فلا يرى الخيط والشبكة من تحت التراب .

فقال ابن عباس : ما ألقى هذه الكلمة على لسانك إلا الشيطان ، أما علمت أنه إذا نزل القضاء ذهب البصر .

(168/577)

فدعا سليمان أمير الطير ، فسأله عن الهدهد ، فقال : أصلح الله الملك ما أدري أين هو ؟ وما أرسلته مكاناً ، فغضب سليمان عند ذلك وقال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ يعني : لأنتفن ريشه فلا يطير مع الطيور حولاً ولأشمسنه في الحر حتى يأكله الذر ﴿ أَوْ لاَذْبَحَنَّهُ ﴾ يعني : لأقتلنه حتى لا يكون له نسل ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بسلطان ﴾ يعني : بحجة بينة واضحة أعذره بها ﴿ مُّبِينٌ ﴾ بيّن ، فإن قيل كيف يجوز أن يعاقب من لا يجري عليه القلم ؟ قيل له : تجوز العقوبة على وجه التأديب إذا كان منه ذنب ، كما يجوز للأب أن يؤدب ولده الصغير ، وأما الذبح ، فيجوز ، وإن لم يكن منه ذنب .

قرأ ابن كثير ﴿ ليأتينني ﴾ بنونين .

وقرأ الباقون بنون واحدة ، فمن قرأ بنونين فهو للتأكيد ، لأن النون الأولى مشددة ، وتسمى تلك نون القسم ، وهي في الحقيقة نونين ، والنون الثانية للإضافة .

ومن قرأ بنون واحدة ، فقد استقل الجمع بين النونات ، واقتصر على نونين ، فأدغم إحداهما في الأخرى .

قوله عز وجل : ﴿ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ قرأ عاصم بنصب الكاف .

وقرأ الباقون بالضم وهما لغتان : ومعناهما واحد .

يعني : لم يلبث إلا قليلاً .

ويقال : لم يظل الوقت حتى جاء الهدهد ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ ﴾ وفي الآية مضمر ، ومعناه فمكث غير بعيد أن جاءه الهدهد .

فقال له سليمان : أين كنت ؟ فخرّ له ساجداً وقال : أحطت ﴿ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ يعني : علمت ما لم تعلم ، وجئتك بخبر لم تكن تعلمه ، ولم يخبرك عنه أحد ثم أخبره فقال : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ فإن قيل : كيف يجوز أن يقال إن سليمان لم يعلم به ، وكانت أرض سبأ قريبة منه ، وهناك ملك لم يعلم به سليمان ؟ قيل له : علم به سليمان ، ولكنه لم يعلم أنهم يسجدون للشمس .

(169/577)

ويقال : إنه علم بها ، ولكنه لم يعلم أن ملكها قد بلغ هذا المبلغ ، وعلم أنهم أهل الضلالة ، والإحاطة هي العلم بالأشياء بما فيها وجهتها كما قال ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ ﴾ ، يعني : من أرض سبأ ، وهي مدينة باليمن بنبأ يقيني يعني : بخبر صدق لا شك فيه .

ويقال : بخبر عجيب .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ سَبَإٍ ﴾ بالنصب بغير تنوين .

وقرأ الباقون بالكسر والتنوين ، فمن قرأ بالنصب جعله اسم مدينة ، وهي مؤنثة لا تنصرف ، ومن قرأ بالكسر والتنوين جعله اسم الرجل .

ويقال : جعله اسم مكان .

فقال له سليمان : وما ذلك الخبر ؟ فقال : ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ امرأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ يعني : تملك أرض سبأ ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يعني : أعطيت علم ما في بلادها .

ويقال : من كل صنف من الأموال والجنود ، وأنواع الخير مما يعطى الملوك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني : سريراً كبيراً أعظم من سريرك .

ويقال : كان طول سريرها ثمانون ذراعاً في ثمانين مرصعاً بالذهب والدر والياقوت ، وقوائمه من اللؤلؤ والياقوت ، واسمها بلقيس .

قال مقاتل : كانت أمها من الجن .

ويقال : ولها عرش عظيم ، أي شديد .

قوله عز وجل : ﴿ وَجَدتُّهَا ﴾ يعني : رأيتها ﴿ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ يعني : يعبدون الشمس ﴿ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ الخبيثة ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ يعني : طريق الهدى ، ومعناه صدهم الشيطان عن الإسلام ، فهم لا يهتدون .

يعني : لا يعرفون الدين قوله عز وجل : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾ قرأ الكسائي ﴿ ألاَ ﴾ بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتشديد ، فمن قرأ بالتخفيف ، فمعناه أن الهدهد قال عند ذلك : أنْ لاَ تسجدوا لله ؟ وقال مقاتل : هذا قول سليمان قال لقومه : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ ﴾ ويقال هذا كلام الله ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾ وهذا من الاختصار ، فكأنه قال : ألا يا هؤلاء اسجدوا لله .

(170/577)

ومن قرأ بالتشديد فمعناه فصدهم عن السبيل أن لا يسجدوا لله .

يعني : لأن لا يسجدوا .

ويقال : معناه وزين لهم الشيطان أعمالهم ، لأن لا يسجدوا وإذا قرىء بالتخفيف ، فهو موضع السجدة ، وإذا قرىء بالتشديد ، فليس بموضع سجدة في الوجهين جميعاً .

وهذا القول أحوط ﴿ الذى يُخْرِجُ الخبء ﴾ يعني : المخبئات ﴿ فِي السموات والأرض ﴾ مثل الثلج والمطر ، وفي الأرض مثل النبات والأشجار والكنوز والموتى .

ويقال : الذي يظهر سر أهل السموات والأرض ، ويعلنها فذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ أي الذين يعلم ذلك .

قرأ عاصم والكسائي في رواية حفص ﴿ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة لهم .

وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 572 . 579 ﴾

(171/577)

وقال الثعلبى :

﴿ طس ﴾

قال ابن عباس : هو اسم من أسماء الله عزَّ وجل ، أقسم الله سبحانه به أن هذه السورة ﴿ تِلْكَ آيَاتُ القرآن وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ يعني وآيات كتاب مبين ، وقيل : الطاء من اللطيف ،

والسين من السميع ، وقال أهل الإشارة : هي إشارة إلى طهارة سرّ حبيبه .

﴿ هُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيهما وجهان من العربية ، الرفع على خبر الابتداء أي هي هدىً ، وإنْ شئت على حرف جزاء الصفه في قوله ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والنّصب على القطع والحال .

﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزكاة وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ (*) إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ القبيحة حتى رأوها حسنة ، وتزيينه خذلانه إيّاهم .

﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أولئك الذين لَهُمْ سواء ﴾ شدّة ﴿ العذاب ﴾ في الدّنيا القتل والأسر بيده .

﴿ وَهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ بحرمان النجاة والمنع من دخول الجنّات .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ﴾ لتلقّن وتعطى ﴿ القرآن ﴾ نظيره قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصابرون ﴾ [القصص : 80] ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ ﴾ في مسيره من مدين إلى مصر وقد أصلد زنده ﴿ إِني آنَسْتُ نَاراً ﴾ فامكثوا مكانكم ﴿ سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب : بشهاب منوّن على البدل ، غيرهم بالإضافة ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ، ومعناه : سآتيكم بشعلة نار اقتبسها منها .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ .

قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن : يعني قُدّس مَن في النار وهو الله سبحانه عنى به نفسه عزَّ وجل ، وتأويل هذا القول أنّه كان فيها لا على معنى تمكُّن الأجسام لكن على معنى أنّه نادى موسى منها ، وأسمعه كلامه من جهتها وأظهر له ربوبيته من ناحيتها ، وهو كما روي أنّه مكتوب في التوراة : جاء الله عزّ وجلّ من سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران ، فمجيئه عزَّ وجلّ من سيناء بعثته موسى منها ، ومن ساعير بعثته المسيح بها ، واستعلامه من جبال فاران بعثه المصطفى صلى الله عليه وسلم وفاران مكة ، وقالوا : كانت النار نوره عزَّ وجلّ ، وإنّما ذكره بلفظ النّار لأنّ موسى حسبه ناراً ، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر .

وقال سعيد بن جبير : كانت النار بعينها وهي إحدى حجب الله سبحانه وتعالى ، يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا محمد بن إسحاق قال : حدّثنا هاشم القاسم بن القاسم قال : حدّثنا المسعودي عن عمرو بن مرّة عن أبي عبيدة ، موسى عن الأشعري قال : قام بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع فقال : " إنّ اللّه عزَّ وجل لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه

عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النار ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كلّ شيء أدركه بصره " ، ثم قرأ أبو عبيدة ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ الله رَبِّ العالمين ﴾ .

وقيل معناه : بورك مَن في النار سلطانه وقدرته وفيمن حولها .

وقال آخرون : هذا التبريك عائد إلى موسى والملائكة ، ومجاز الآية : بورك من في طلب النار وقصدها بالقرب منها ، وهذا كما يقال : بلغ فلان البلد إذا قرب منه ، وورد فلان الماء لا يريدون أنّه في وسطه ، ويقال : أعطِ مَن في الدار ، يريدون من هو فيها مقيم أو شريك وإن لم يكن في الوقت في الدار ، ونحوها كثير .

(173/577)

ومعنى الآية : بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين حول النار ، وهذا تحيّة من الله سبحانه لموسى وتكرمة له كما حيّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا :

﴿ رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ﴾

[هود : 73] .

وقال بعضهم : هذه البركة راجعة إلى النار نفسها .

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس أنّه قال : معناه بوركت النار ، ودليل هذا التأويل ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى قال : حدّثنا أحمد بن نجدة قال : حدّثنا الحمّاني قال : حدّثنا هشيم قال : أخبرنا سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سمعت أُبيّاً يقرؤها : أن بوركت النار ومن حولها ، وتقدير هذا التفسير أنَّ (من) تأتي في الكلام بمعنى (ما) ، كقوله سبحانه ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ [الحجر : 20] وقوله ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ ﴾ [النور : 45] الآية و (ما) قد تكون صلة في كثير من المواضع كقوله ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ ﴾ [ص : 11] و ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ [المؤمنون : 40] فمعنى الآية بورك في النار وفيمن حولها وهم الملائكة وموسى (عليه السلام) ، فسمّى النار مباركة كما سمّى البقعة مباركة فقال في ﴿ البقعة المباركة ﴾ [القصص : 30] .

وأمّا وجه قوله ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ فإنّ العرب تقول : باركك الله ، وبارك فيك ، وبارك عليك وبارك لك ، أربع لغات ، قال الشاعر :

فبوركت مولوداً وبوركت ناشياً . . . وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

فأما الكلام المسموع من الشجرة فاعلم أنّ مذهب أهل الحق أنّ الله سبحانه وتعالى مستغن عن الحدّ والمكان والجهة والزمان لأنَّ ذلك كلّه من أمارات الحدث ، وهي خلقه وملكه وهو

سبحانه أجلّ وأعظم من أن يوصف بالجهات ، أو تحدّه الصفات ، أو تصحبه الأوقات ، أو تحويه الأماكن والأقطار .

(174/577)

ولمّا كان كذلك استحال أن توصف صفات ذاته بأنّها متنقّلة من مكان أو حالّة في مكان ، وإذا ثبت هذا لم يجز أن يوصف كلامه بأنّه يحلّ موضعاً أو ينزل مكاناً ، كما لا يوصف بأنّه جوهر ولا عرض ولا حروف ولا صوت ، بل هو صفة يوصف بها الباري عزّ وجل فينتفى عنه بها آفات الخرس والبكم وما لا يليق به .

فأمّا الأفهام والأسماع فيجوز أن يكون في موضع دون موضع ومن مكان دون مكان ومن حيث لم تقع إحاطة واستغراق بالوقت على كنه صفاته ، قال اللّه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ .

﴿ يا موسى إِنَّهُ ﴾ الهاء عماد وليست بكناية ﴿ أَنَا اللهُ العزيز الحكيم * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرّك ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ وهي الحيّة الخفيفة الصغيرة الجسم ، وقال الكلبي : لا صغيرة ولا كبيرة .

فإن قيل : كيف قال في موضع ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ وفي موضع آخر ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾

والموصوف واحد ؟

قلنا : فيه وجهان :

أحدهما : أنّها في أوّل أمرها جانّ وفي آخر الأمر ثعبان ، وذلك أنّها كانت تصير حية على قدر العصا ثم لا تزال تنتفخ وتربو حتى تصير كالثعبان العظيم .

والآخر : أنّها في سرعة الجانّ وخفّته وفي صورة الثعبان وقوّته .

فلمّا رآها موسى (عليه السلام) ﴿ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع ، قال قتادة : ولم يلتفت .

فقال الله سبحانه ﴿ يا موسى لاَ تَخَفْ إِنّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون * إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ فعمل بغير ما أمر ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً ﴾ قراءة العامة بضم الحاء وجزم السين ، وقرأ الأعمش بفتح الحاء والسين ﴿ بَعْدَ سواء فَإِنّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

واختلف العلماء في حكم هذا الاستثناء ومعنى الآية ، فقال الحسن وابن جريج : قال الله سبحانه (يا موسى إنّما أخفتك لقتلك) .

قال الحسن : وكانت الأنبياء تذنب فتعاقب ، ثم تذنب والله فتعاقب .

قال ابن جريج : فمعنى الآية : لا يخيف الله سبحانه الأنبياء بذنب يصيبه أحدهم ، فإن أصابه أخافه حتى يتوب ، فقوله ﴿ إِلاَّ ﴾ على هذا التأويل استثناء صحيح ، وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ ثم ابتدأ الخبر عن حال من ظلم من الرسل وغيرهم من الناس ، وفي الآية استغنى عنه بدلالة الكلام عليه تقديرها (فمن ظلم ثمّ بدّل حسناً بعد سوء فإنّي غفور رحيم)

وقال الفرّاء : يقول القائل : كيف صيّر خائفاً من ظلم ثم بدّل حُسناً بعد سوء وهو مغفور له ؟

فأقول له : في الآية وجهان :

أحدهما : أن تقول أنّ الرسل معصومة ، مغفور لها ، آمنة يوم القيامة ، ومن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً من سائر الناس فهو يخاف ويرجو ، فهذا وجه .

والآخر : أن يجعل الاستثناء من الذين تركوا في الكلمة لأنّ المعنى ﴿ لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون ﴾ إنما الخوف على غيرهم .

ثمَّ استثنى فقال عزَّ من قائل : ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ يقول : كان مشركاً فتاب من الشرك وعمل حسنةً مغفور له وليس بخائف .

قال : وقد قال بعض النحويّين : ﴿ إِلاَّ ﴾ ههنا بمعنى الواو يعني : ولا من ظلم منهم كقوله سبحانه (لئلاّ يكون للناس عليهم حجّة إلاّ الذين ظلموا منهم) .

وقال بعضهم : قوله ﴿ إِلاَّ ﴾ ليس باستثناء من المرسلين لأنّه لا يجوز عليهم الظلم وإنّما معنى الآية : لكن من ظلم فعليه الخوف فإذا تاب أزال الله سبحانه وتعالى عنه الخوف .

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ وإنّما أمره بإدخال يده في جيبه لأنّه كان عليه في ذلك الوقت مدرعة من صوف ، ولم يكن لها كُمٌّ ، قاله المفسّرون .

﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ﴾ برص وآفة ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ يقول هذه آية مع تسع آيات أنت مُرسَل بهنّ .

﴿ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ فترك ذكر مرسل لدلالة الكلام عليه ، كقول الشاعر :

رأتني بحبليها فصدّت مخافةً . . . وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق

(176/577)

أراد : راتني مقبلاً بحبليها ، فترك ذكره لدلالة الكلام عليه .

﴿ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ مضيئة بيّنة يُبصر بها ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ

المؤمنين * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ نبوّته وعلمه وملكه دون سائر أولاده ، وكان لداود (عليه السلام) تسعة عشر ابناً .

قال مقاتل : كان سليمان أعظم مُلْكاً من داود وأقضى منه ، وكان داود أشدّ تعبّداً من سليمان (عليهما السلام) .

﴿ وَقَالَ ﴾ سليمان شاكراً لنعم الله سبحانه وتعالى عليه ﴿ يا أيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير ﴾ جعل ذلك من الطير كمنطق بني آدم إذ فهمه عنها ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الفضل المبين ﴾ .

قال مقاتل في هذه الآية : كان سليمان (عليه السلام) جالساً إذ مرَّ به طائر يطوف فقال لجلسائه : هل تدرون ما يقول الطائر الذي مرَّ بنا ؟ قالوا : أنت أعلم ، فقال سليمان : إنّه قال لي : السلام عليك أيها الملك المسلّط على بني إسرائيل ، أعطاك الله سبحانه وتعالى الكرامة وأظهرك على عدوّك ، إنّي منطلق الى فروخي ثم أمرّ بك الثانية ، وإنّه سيرجع إلينا الثانية فانظروا إلى رجوعه .

قال : فنظر القوم طويلاً إذ مرَّ بهم فقال : السلام عليك أيها الملك إن شئت أن تأذن لي كيما أكسب على فروخي حتى يشبّوا ثم آتيك فافعل بي ما شئت ، فأخبرهم سليمان بما قال وأذن له .

وقال فرقد السخي : مرَّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنَبه فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا : الله ونبيُّه أعلم ، قال : يقول : أكلتُ نصف تمرة فعَلى الدُنيا العَفا .

وأخبرني الحسين بن محمد بن الحسن العَدل قال : حدّثنا عبيد الله بن محمد بن شنبة وأحمد ابن جعفر بن حمدان قالا : حدّثنا الفضل بن العباس الرازي قال : حدّثنا أبو عبيد قال : حدّثنا موسى ابن إبراهيم قال : حدّثنا عباد بن إبراهيم عن الكلبي عن رجل عن كعب قال : صاحت ورشان عند سليمان بن داود (عليه السلام) فقال : أتدرون ما تقول ؟

قالوا : لا .

قال : فإنّها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا .

وصاح طاوُس عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما يقول ؟

قالوا : لا .

قال : فإنّه يقول : مَن لا يَرحم لا يُرحَم .

وصاح صرد عند سليمان فقال : أتدرون ما يقول ؟

قالوا : لا .

قال : فإنّه يقول : استغفروا اللّه يا مذنبين ، فمن ثَمَّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله .

قال : فصاحت طيطوى عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما تقول ؟

قالوا : لا .

قال : فإنّها تقول : كلّ حيّ ميّت ، وكلّ جديد بال .

وصاح خطّاف عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما يقول ؟

قالوا : لا .

قال : فإنّه تقول : قدّموا خيراً تجدوه ، فمن ثَمَّ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله

.

وهدرت حمامة عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما تقول هذه الحمامة ؟

قالوا : لا .

قال : فإنها تقول : سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه .

وصاح قُمريّ عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما يقول ؟

قالوا : لا .

قال : فإنّه يقول : سبحان ربّي الأعلى ، والغراب يدعو على العشّار ، والحدأة تقول : كلّ شيء هالك إلاّ الله . والقطاة تقول : من سكت سلم ، والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همّه ، والضفدع يقول : سبحان ربّي القدّوس ، والبازي يقول : سبحان ربي وبحمده ، والضفدعة تقول : سبحان المذكور بكلّ مكان .

وأخبرنا الحسين بن محمد قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدّثنا الفضل بن العباس بن مهران قال : حدّثنا أبو عبيد قال : حدّثنا موسى بن إبراهيم قال : أخبرنا إسماعيل عن عياش عن زرّ عن مكحول قال : صاح درّاج عند سليمان بن داود (عليه السلام) فقال : أتدرون ما يقول ؟

قالوا : لا .

قال فإنّه يقول : الرَّحْمن على العرش استوى .

وبإسناده عن موسى بن إبراهيم قال : أخبرنا صالح الهروي عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الديك إذا صاح يقول : اذكروا الله يا غافلين " .

وروى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جدّه عن الحسن بن علي قال : إذا صاح النسر قال : يا بن آدم عش ما شئت آخرهُ الموت ، وإذا صاح العقاب قال : في البعد من الناس أُنس ، وإذا صاح القبّر قال : الهي العن مبغضي آل محمد ، وإذا صاح الخطّاف قرأ : الحمد لله

ربّ العالمين ، يمدّ الضالين كما يمد للقارئ .

﴿ وَحُشِرَ ﴾ وجُمع ﴿ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجن والإنس والطير ﴾ في مسير لهم ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يُحبَس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ، وذلك أنّه جعل على كلّ صنف منهم وَزَعَةً ترد أُولاها على أُخراها لئلاّ يتقدّموا في المسير كما يصنع الملوك .

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : يُوزعون : يدفعون . ابن زيد ومقاتل : يُساقون ، السدّي : يوقفون ، وأصل الوزع في كلام العرب الكفّ والمنع ، ومنه الحديث : ما يزع السلطان أكثر ممّا يزع القرآن ويُقال للأمر أوزعه . وفي الخبر : لا بدّ للناس من وزعة .

وقال الشاعر :

(179/577)

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . وقلت ألمّا أصحُ والشيب وازع

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة بن محمد وعبيد الله بن أحمد قالا : حدّثنا أبو بكر ابن مجاهد قال : حدّثنا أحمد قال : حدّثنا سنيد قال : حدّثنا حجاج عن أبي معشر عن محمد بن كعب في هذه الآية قال : بَلَغنا أنَّ سليمان (عليه السلام) كان عسكره مائة فرسخ ، خمسة وعشرون منها للإنس ، وخمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للوحش ،

وخمسة وعشرون للطير ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة صريحة وسبعمائة سرية ، فأمر الريح العاصف فحملته وأمر الرخاء فسرت به ، فأوحي إليه وهو يسير بين السماء الأرض إنّي قد زدت في ملكك أنّه لا يتكلّم أحد من الخلائق بشيء إلاّ جاءت الريح فأخبرتك به .

وقال مقاتل : نسجت الشياطين لسليمان (عليه السلام) بساطاً فرسخاً في فرسخ ذهباً في إبريسم ، وكان يوضع له منبر من الذهب في وسط البساط فيقعد عليه ، وحوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة ، يقعد الأنبياء على كراسي الذهب ، والعلماء على كراسي الفضة ، وحولهم الناس ، وحول الناس الجنّ والشياطين ، وتظلّه الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط سيرة شهر من الصباح الى الرّواح ومن الرواح إلى الصباح .

(180/577)

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك القطيعي قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن أيوب قال : حدّثنا أبو بكر يعني ابن عياش عن إدريس ابن وهب بن مُنبه قال : حدّثني أبي قال : إنّ سليمان (عليه السلام) ركب البحر

يوماً فمرَّ بحرّاث فنظر إليه الحرّاث فقال : لقد أُوتي آل داود مُلكاً عظيماً ، فحملت الريح كلامه في أُذن سليمان فنزل حتى أتى الحرّاث فقال : إنّي سمعت قولك وإنّما مشيت إليك لأن لا تتمنى مالا تقدر عليه ، لَتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير ممّا أُوتي آل داود ، فقال الحرّاث : أذهب الله همّك كما أذهبت همّي .

﴿ حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِ النمل ﴾ .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا مخلد بن جعفر قال : حدّثنا الحسن بن علوية قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا إسحاق بن بشر قال : أخبرنا أبو إلياس عن وَهب بن منبه عن كعب قال : إنَّ سليمان (عليه السلام) كان إذا ركب حمل أهله وسائر حشمه وخدمه وكتّابه تلك السقوف بعضها فوق بعض على قدر درجاتهم ، وقد اتّخذ مطابخ ومخابز تحمل فيها تنانير الحديد وقدور عظام تسع في قدر عشرة جزائر ، وقد اتّخذ ميادين للدوابّ أمامه ، فيطبخ الطبّاخون ويخبز الخابزون وتجري الدواب بين يديه بين السماء والأرض والريح تهوي بهم .

(181/577)

فسار بمن اصطحبه إلى اليمن ، فسلك المدينة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال سليمان : هذه دار هجرة نبيّ في آخر الزمان ، طوبى لمن آمن به ، وطوبى لمن اتّبعه ، وطوبى لمن اقتدى به ، ورأى حول البيت أصناماً تُعبد من دون الله سبحانه ، فلمّا جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله سبحانه إلى البيت : ما يبكيك ؟ فقال : يا ربّ أبكاني هذا نبيّ من أنبيائك وقوم من أولياءك مرّوا عليَّ ، فلم يهبطوا فيَّ ولم يصلّوا عندي ولم يذكروك بحضرتي ، والأصنام تعبد حولي من دونك ، فأوحى الله سبحانه إليه أن لا تبك وإنّي سوف أملأك وجوهاً سجّداً ، وأُنزل فيك قرآناً جديداً ، وأبعث منك نبيّاً في آخر الزمان أحبّ أنبيائي إليَّ ، وأجعل فيك عمّاراً من خلقي يعبدونني وأفرض على عبادي فريضة يرفّون إليك رفّة النّسور الى وكرها ويحنّون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضتها ، وأُطهّرك من الأوثان وعبدة الشيطان .

قال : ثم مضى سليمان حتى مرَّ بوادي السدير ، واد من الطائف فأتى على وادي النمل فقالت نملة تمشي ، وكانت عرجاء تتكاوس ، وكانت مثل المذنب في العظم ، فنادت النملة ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يا أيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يعني أنّ سليمان يفهم مقالتها وكان لا يتكلّم خلق إلاّ حملت الريح ذلك فألقته في مسامع سليمان (عليه السلام) .

قال ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوزِعْنِي ﴾ إلى قوله ﴿ فِي عِبَادِكَ الصالحين

﴿ يعني مع عبادك الموحّدين .

وقال قتادة ومقاتل : وادي النمل بأرض الشام

قال نوف الحميري : كان نمل وادي سليمان مثل الذباب .

وقال الشعبي : النملة التي فقه سليمان كلامها كانت ذات جناحين .

قال مقاتل : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال . واختلفوا في اسم تلك النملة .

(182/577)

فأخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الحسني الدينوري قال : حدّثنا أبو العباس أحمد ابن محمد بن يوسف الصرصري قال : حدّثنا الهيثم بن خلف الدوري قال : حدّثنا هارون بن حاتم البزاز قال : حدّثنا إبراهيم بن الزبرقان التيمي عن أبي روق عن الضحاك قال : كان اسم النملة التي كلّمت سليمان بن داود (عليه السلام) طاحية .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة وعبيد الله قالا : حدّثنا ابن مجاهد قال : حدّثني الفضل بن الحسن قال : حدّثنا أبو محمد النعمان بن شبل الباهلي قال : حدّثنا ابن أبي روق عن أبيه قال : كان اسم نملة سليمان حرمي ، وهو قول مقاتل .

ورأيت في بعض الكتب أنّ سليمان لمّا سمع قول النملة قال : ائتوني بها ، فأتوه بها فقال لها :

لِمَ حَذّرتِ النمل ظلمي ؟ أما علمتِ أنّي نبي عدل ؟ فلِمَ قلتِ : لا يحطمنّكم سليمان وجنوده ؟

فقالت النملة : أما سمعت قولي : وهم لا يشعرون ؟ مع ما أنّي لم أُرد حطم النفوس وإنّما أردت حطم القلوب ، خشيت أن يتمنّين ما أُعطيت ويشتغلن بالنظر عن التسبيح ، فقال لها : عظيني ، فقالت النملة : هل علمت لِمَ سمّي أبوك داودَ ؟

قال : لا .

قالت : لأنّه داوى جرحه فردّ . هل تدري لم سمّيت سليمان ؟

قال : لا .

قالت : لأنّك سليم وكنت إلى ما أُوتيت لسلامة صدرك وإنّ لك أن تلحق بأبيك ثم قالت : أتدري لِمَ سخّر الله لك الريح ؟

قال : لا .

قالت : أخبَرك الله أنّ الدنيا كلّها ريح ، فتبسّم سليمان ضاحكاً متعجّباً من قولها ، وقال ﴿ رَبِّ أوزعني ﴾ الى آخر الآية .

أخبرني ابن فنجويه قال : أخبرنا ابن شنبة قال : أخبرنا الحضرمي قال : حدّثنا حسن الخلاّل قال : حدّثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن

عباس قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربعة من الدواب : الهدهد والصرد والنحلة والنملة " .

(183/577)

﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾ أي طلبها وبحث عنها ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد ﴾ فتح ابن كثير وعاصم والكسائي وأيوّب (لي) ههنا وفي سورة يس ﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ ﴾ [يس : 22] وأرسل حمزة الياء فيهما جميعاً ، وأمّا أبو عمرو فكان يرسل الياء في هذه ويفتح في يس ، وفرّق بينهما فقال : لأنّ هذه للتي في النمل استفهام والأُخرى انتفاء .

﴿ أَمْ كَانَ ﴾ قيل : الميم صلة وقيل : أم بمعنى بل كان ﴿ مِنَ الغآئبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ وكان عذابه أن ينتف ريشه وذنبه فيدعه ممعطاً ثم يلقيه في بيت النمل فيلدغه ، وقال عبد الله بن شدّاد : نتفه وتشميسه .

الضحّاك : لأشدّن رجله ولأُشمسنّه .

مقاتل بن حيّان : لاطلينّه بالقطران ولأُشمسنّه .

وقيل : لأُودعنّه القفص ، وقيل : لأُفرّقنَّ بينه وبين إلفه ، وقيل : لأمنعنه من خدمتي ، وقيل : لأُبدّدنّ عليه ؟ .

﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ حجة واضحة ، وأما سبب تفقّده الهُدهد وسؤاله عنه من بين الطير إخلاله بالنوبة التي كان ينوبها واحتياج سليمان (عليه السلام) إلى الماء ، فلم يعلم من قصره بعد الماء ، وقيل له : عِلْم ذلك عند الهدهد ، فتفقدّه فلم يجده فتوعّده وكانت القِصّة فيه على ما ذكره العلماء بسيرة الأنبياء دخل حديث بعضهم في بعض : إنَّ نبي الله سليمان صلى الله عليه وسلم لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج الى أرض الحرم ، فتجهز للمسير واستصحب من الإنس والجنّ والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ ، وأمر الريح الرخاء فحملتهم ، فلمّا وافى الحرم وأقام به ما شاء الله تعالى أن يقيم وكان ينحر كل يوم طول مقامه جملة خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة .

(184/577)

وقال لمن حضره من أشراف قومه : إنَّ هذا مكان يخرج منه نبيّ عربيّ صفته كذا وكذا ، يعطى النصر على جميع من ناواه ، وتبلغ هيبته مسيرة شهر بالقريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه في الله لومة لائم .

قالوا : فبأي دين ندين يا نبي الله ؟ قال : بدين الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به وصدقه .

قالوا : وكم بيننا وبين خروجه يا نبي الله ؟ قال : زهاء ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل وإن إسمه محمد في زمر الأنبياء .

قال : فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم أحب أن [يسعى] إلى أرض اليمن فخرج من مكة صباحاً وسار نحو اليمن يوم نجم سهيل فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً وأزهر خضرتها وأحب النزول بها ليصلي ويتغدى فطلبوا الماء فلم يجدوا وكان الهدهد دليله على الماء ، كان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى أحدكم كأسه بيده فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وبُعده ثم يجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب ثم يستخرجون الماء .

قال سعيد بن جبير : ذكر ابن عباس هذا الحديث ، فقال له نافع بن الأزرق : فرأيت قولك الهدهد ينقر الأرض فيبصر الماء ، كيف يبصر هذا ولا يبصر] حبتي القمح] فيقع في عنقه ؟ .

فقال له ابن عباس : ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر .

وروى قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : " لا تقتلوا الهدهد فإنه كان دليل سليمان على قرب الماء وبعده ، وأحب أن يعبد الله في الأرض حيث يقول ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امرأة ﴾ " الآية . "

قالوا : فلما نزل سليمان قال الهدهد : إن سليمان قد إشتغل بالنزول فارتفع نحو السماء فانظر إلى طول الدنيا وعرضها ، ففعل ذلك فنظر يميناً وشمالا فرأى بستاناً فمال إلى الخضرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط عليه ، وكان اسم هدهد سليمان بن داود عليه السلام : يعفور ، وإسم هدهد اليمن عنفر فقال عنفر ليعفور سليمان : من أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ قال : أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام .

فقال الهدهد : ومن سليمان بن داود ؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير الوحوش والريح فمن أين أنت ؟ فقال : أنا من هذه البلاد . قال : ومن ملكها ؟ قال : إمرأة يقال لها : بلقيس ، وإن لصاحبكم سليمان مُلكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه ، فإنها ملكت الشمس كلها وتحت يديها إثنا عشر ألف قائد ، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل .

فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها ؟ قال : أخاف أن يتفقدني سليمان وقت الصلاة إذا أحتاج إلى الماء .

قال الهدهد اليماني : إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة . فإنطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلى سليمان إلاّ وقت العصر .

قال : فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت الصلاة طلب الهدهد وذلك أنه نزل على غير ماء

فسأل الإنس عن الماء فقالوا : ما نعلم ههنا ماء . فسأل الجن والشياطين فلم يعلموا فتفقد الهدهد ففقده قال ابن عباس : في بعض الروايات : وتعب] من تفحّصِه إلى] الشمس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال : أصلح الله الملك ما أدري أين هو وما أرسلته مكاناً ، فغضب عند ذلك سليمان عليه السلام وقال ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ . روى عكرمة عن ابن عباس قال : كل سلطان في القرآن فهو حجة .

(186/577)

قالوا : ثم دعا بالعقاب سيد الطير فقال : عليَّ بالهدهد الساعة . فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى استقرَّ بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ثم التفت يميناً وشمالا فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده ، فلما رأى الهدهد ذلك عَلم أن العقاب يقصده بسوء فناشده فقال : بحق الله الذي قواك فأقدرك عليَّ إلاّ رحمتني ولم تتعرض لي بسوء .

قال : فولَّى عنه العقاب وقال له : ويلك ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك أو يذبحك ، ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما إنتهى إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له

: ويلك أين غبت في نومك هذا ، فلقد توعدك نبي الله وأخبرّوه بما قال .

فقال الهدهد : أوما استثنى رسول الله ؟ قالوا : بلى ، قال : أو ليأتيني بعذر بيّن . ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه . فقال العقاب : قد أتيتك به يا نبي الله .

فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض ؛ تواضعاً لسليمان ، فلمّا دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه وقال له : أين كنت ؟ لأُعذّبنك عذاباً شديداً ، فقال له الهدهد : يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله سبحانه ، فلمّا سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه .

أخبرني الحسن بن محمد الثقفي قال : حدّثنا الفضل بن الفضل الكندي قال : حدّثنا محمد ابن إبراهيم بن أبي الرجال ببغداد قال : حدّثنا إبراهيم بن بسطام عن أبي قتيبة عن الحسن بن أبي جعفر الجعفري عن الزبير بن حريث عن عكرمة قال : إنّما صرف سليمان (عليه السلام) عن ذبح الهدهد لبرّه بوالديه .

قالوا : ثم سأله فقال : ما الذي أبطا بك عنّي ؟ فقال الهدهد : ما أخبَر الله في قوله ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ قراءة العامّة بضم الكاف ، وقرأ عاصِم ويعقوب وأبو حاتم بفتحه وهما لغتان مشهورتان .

﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ علمتُ ما لم تعلم ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ ﴾ قرأ الحسن وأبو عمرو وابن أبي إسحاق وحميد وابن كثير في رواية البزي من سَبأ ولسبأ مفتوحة الهمزتين غير مصروفة ، ردّوها الى القبيلة ، وهي اختيار أبي عُبيد ، وقرأ الباقون بالجرّ ، جعلوه اسم رجل وبه نطق الخبر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن سبأ فقال : كان رجلاً له عشرة من البنين يتيامن من ستة ويتشاءم من أربعة ، وسنذكر أسماءهم وقصتهم في سورة سبأ إن شاء الله عزّ وجل ، وقال الشاعر :

الواردون وتيم في ذرى سبا . . . قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس

﴿ بِنَبَإٍ ﴾ بخبر ﴿ يَقِينٍ ﴾ لا شكَّ فيه .

قال وهب : قال الهدهد : إنّي أدركت ملكاً لم يبلغه مُلكك .

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ واسمها بلقيس بنت الشيرح ، وهو الهدهَاد وقيل : شراحيل ابن ذي حدن بن اليشرح بن الحرث بن قيس بن صفى بن سبأ بن يشخب بن يعرب بن قحطان ، وكان أبو بلقيس الذي يسمّى اليشرح ويلقّب بالهدهاد ملكاً عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكاً ، وكان يملك أرض اليمن كلّها وكان يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفواً لي ، فأبى أن يتزوّج فيهم فزوّجوه امرأة من الجنّ يُقال لها ريحانة بنت السكن ، فولدت له تلمقة وهي بلقيس ولم يكن له ولد غيرها .

ويصدّق هذا ما أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن الحسن بن بشر قال : حدّثنا محمد بن حريم بن مروان قال : حدّثنا هشام بن عمّار قال : حدّثنا الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشر بن نهيك عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : "كان أحد أبوَي بلقيس جنّياً . "

قالوا : فلمّا مات أبو بلقيس ولم يخلّف ولداً غيرها طمعت في الملك وطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون ، فاختاروا عليها رجلاً فملّكوه عليهم ، وافترقوا فرقتين كلّ فرقة منها استولت بملكها على طرف من أرض اليمن .

(188/577)

ثمّ إنّ هذا الرجل الذي ملّكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمّد يده إلى حرم رعيّته ويفجر ، بهن وأراد أصحابه أن يخلعوه فلم يقدروا عليه ، فلمّا رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه ، فأجابها الملك : والله ما منعني أن ابتديك بالخطبة إلاّ اليأس منك فقالت : لا أرغب عنك فإنك كفؤ كريم ، فاجمع رجال قومي واخطبني إليهم فجمعهم وخطبها إليهم ، فقالوا : لا نراها تفعل هذا ، فقال لهم : إنّما هي ابتدأتني فأنا أحبّ أن تسمعوا قولها وتشهدوا عليها ، فلّما جاؤوها وذكروا لها ذلك قالت

: نعم أحببت الولد ولم أزل ، كنت أرغب عن هذا فالساعة قد رضيتُ به فزوّجُوها منهُ ، فلمّا زُفّت إليه خرجت في ناس كثير من خدمها وحشمها حتى غصّت منازله دوره بهم ، فلمّا جاءته سقته الخمر حتى سكر ثم حزّت رأسه وانصرفت من الليل الى منزلها ، فلمّا أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوباً على باب دارها ، فعلموا أنّ تلك المناكحة كانت مكراً وخديعة منها فاجتمعوا إليها وقالوا لها : أنتِ بهذا الملك أحقّ من غيرك ، فقالت : لولا العار والشنار ما قتلته ولكن عمَّ فساده وأخذتني الحميّة حتى فعلت ما فعلت فملّكوها واستتبّ أمرها " .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن خديجة قال : حدّثنا ابن أبي الليث ببغداد قال : حدّثنا أبو كريب قال : حدّثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن أبي بكرة قال : ذكرت بلقيس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة " .

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدّة .

(189/577)

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ سرير ضخم حسن ، وكان مقدّمه من ذهب مفصّص بالياقوت الأحمر والزمرد الأخضر ، ومؤخّره من فضّة مكلّل بألوان الجواهر وله أربع قوائم : قائمة من ياقوت أحمر وقائمة من زمرّد ، وقائمة من ياقوت أخضر ، وقائمة من درّ ، وصفائح السرير من ذهب ، وعليه سبعة أبواب كلّ بيت باب مغلق .

وقال ابن عباس : كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً ، وطوله في الهواء ثلاثون ذراعاً .

وقال مقاتل : كان ثمانين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وطوله في الهواء ثمانون ذراعاً مُكلّل بالجوَهر .

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ * أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾ قرأ أبو عبد الرَّحْمن البلخي والحسن وأبو جعفر وحميد والأعرج والكسائي ويعقوب برواية رويس " ألا اسجدوا " بالتخفيف على معنى : ألا يا هؤلاء اسجدوا ، وجعلوه أمراً من الله سبحانه مستأنفاً ، وحذفوا هؤلاء بدلالة فاعلهما ، وذكر بعضهم سماعاً من العرب : ألا يا أرحمونا ، ألا يا تصدّقوا علينا ، يريدون ألا يا قوم كقول الأخطل :

ألا يا سلمى يا هند ، هند بني بدر . . . وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

فعلى هذه القراءة "اسجدوا" في موضع جزم على الأمر والوقف عليه ألا ، ثمّ يبتدي اسجدوا .

(190/577)

قال الفرّاء : حدّثني الكسائي عن عيسى الهمذاني قال : ما كنت أسمع المشيخة يقرؤونها إلاّ بالتخفيف على نيّة الأمر ، وهي في قراءة عبد الله : هلاّ تسجدوا لله ، بالتاء ، وفي قراءة أُبي ألا يسجُدون لله ، فهاتان القراءتان حجة لمن خفّف ، وقرأ الباقون : ألاّ يسجدوا بالتشديد بمعنى وزين لهم الشيطان اعمالهم لئلاّ يسجدوا لله فأنْ موضع نصب ويسجدوا نصب بأن ، واختار أبو عبيد هذه القراءة وقال : للتخفيف وجه حسن إلاّ أنّ فيه انقطاع الخبر عن أمر سبأ وقومها ، ثم يرجع بعد إلى ذكرهم ، والقراءة بالتشديد خبر يتّبع بعضه بعضاً لا انقطاع في وسطه ، والوقف على هذه ألا ثمَّ يبتدي يسجِدُوا كما يصل ﴿ الذي يُخْرِجُ الخبء ﴾ الخفيّ المخبوّ ﴿ فِي السماوات والأرض ﴾ يعني غيب السموات والأرض .

وقال أكثر المفسّرين : خبءَ السماء المطر ، وخبءَ الأرض النبات ، وفي قراءة عبد الله : خرجُ الخبء من السموات ، ومن وفي يتعاقبان ، يقول العرب : لاستخرجنّ العلم فيكم ،

يريد منكم ، قاله الفرّاء .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

قراءة العامة بالياء فيهما ، وقرأ الكسائي بالتاء وهي رواية حفص عن عاصم .

﴿ اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ الذي كل عرش وإنْ عظم فدونه ، لا يشبهه عرش ملكة سبأ ولا غيره

قال ابن إسحاق وابن زيد : من قوله ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ الى قوله ﴿ ﴿ اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ كلّه كلام الهُدهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 188.204 ﴾

(191/577)

وقال الزمخشرى :

سورة النمل

مكية ، وهي ثلاث وتسعون آية ، وقيل أربع وتسعون [نزلت بعد الشعراء] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النمل (27) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (1) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)

طس قرئ بالتفخيم والإمالة ، وتِلْكَ إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين :

إما اللوح ، وإبانته : أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه إبانة . وإما السورة .

وإما القرآن ، وإبانتهما : أنهما يبينان ما أودعاه من العلوم والحكم والشرائع ، وأنّ إعجازهما ظاهر مكشوف ، وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين : على سبيل التفخيم لها والتعظيم ، لأنّ المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه . فإن قلت : لم نكر الكتاب المبين ؟ قلت : ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له ، كقوله تعالى فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ . فإن قلت : ما وجه عطفه على القرآن إذا أريد به القرآن ؟ قلت : كما يعطف إحدى الصفتين على الأخرى في نحو قولك : هذا فعل السخي والجواد الكريم ، لأنّ القرآن هو المنزل المبارك المصدّق لما بين يديه ، فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح ، فكأنه قيل : تلك الآيات آيات المنزل المبارك آي

كتاب مبين . وقرأ ابن أبى عبلة : وكتاب مبين بالرفع على تقدير : وآيات كتاب مبين ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . فإن قلت : ما الفرق بين هذا وبين قوله : الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ؟ قلت : لا فرق بينهما إلا ما بين المعطوف والمعطوف عليه من التقدّم والتأخر ، وذلك على ضربين : ضرب جار مجرى التثنية لا يترجح فيه جانب على جانب ، وضرب فيه ترجح ، فالأول نحو قوله تعالى وَقُولُوا حِطَّةٌ ، وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً ومنه ما نحن بصدده . والثاني : نحو قوله تعالى شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ، هُدىً وَبُشْرى في محل النصب أو الرفع ، فالنصب على الحال ، أى : هادية ومبشرة ، والعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ، والرفع على ثلاثة أوجه ، على : هي هدى وبشرى ، وعلى البدل من الآيات ، وعلى أن يكون خبرا بعد خبر ، أى : جمعت أنها آيات ، وأنها هدى وبشرى .

والمعنى في كونها هدى للمؤمنين : أنها زائدة في هداهم . قال اللّه تعالى فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً . فإن قلت وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ كيف يتصل بما قبله ؟ قلت : يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول ، ويحتمل أن تتم الصلة عنده ويكون جملة اعتراضية ، كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : هم الموقنون بالآخرة ، وهو الوجه . ويدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية وكرّر فيها المبتدأ الذي هو هُمْ

حتى صار معناها :

وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق «1» .

---

(1) . قال محمود : «كرر الضمير حتى صار معنى الكلام : ولا يوقن بالاخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح ، لأن خوف الآخرة يحملهم على تحمل المشاق» قال أحمد : قد تقدم في غير موضع اعتقاد أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر ، كما مر له في قوله تعالى هُمْ يُنْشِرُونَ أن معناه : لا ينشر إلا هم ، وعد الضمير من آلات الحصر كما مر ليس ببين ، وقد بينا لمجيء الضمير في سورة اقترب وجها سوى الحصر . وأما وجه تكراره هاهنا – والله أعلم – فهو أنه لما كان أصل الكلام : وهم يوقنون بالآخرة ، ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلا بين المبتدإ والخبر ، فأريد أن يلي المبتدأ خبره وقد حال المجرور بينهما ، فطري ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور . حيث بقي على حاله مقدما ، ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعد ما يوجب النظرية ، فأقرب منها أن الشاعر قال :

سل ذو عجل ذا وألحقنا بذا ال الشحم إنا قد مللناه بجل

والأصل : وألحقنا بذا الشحم ، فوقع منتصف الرجز أو منتهاه ، على القول بأن مشطور الرجز بيت كامل عند اللام وبنى الشاعر على أنه لا بد عند المنتصف أو المنتهى من وقيفة

ما ، فقدر بتلك الوقفة بعد أن بين المعرف وآلة التعريف فطراها ثانية ، فهذه النظرية لم تتوقف على أن يحول بين الأول وبين المكرر ولا كلمة واحدة ، سوى تقديره وقفة لطيفة لا غير ، فتأمل هذا الفصل فانه جدير بالتأمل ، والله أعلم .

(193/577)

[سورة النمل (27) : الآيات 4 إلى 5]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5)

فإن قلت : كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته ، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ؟ قلت : بين الإسنادين فرق ، وذلك أنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده إلى الله عز وجل «1» مجاز ، وله طريقان في علم البيان . أحدهما : أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة . والثاني : أن يكون من المجاز الحكمىّ ، فالطريق الأوّل : أنه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق ، وجعلوا إنعام الله بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه ، ونفارهم عما يلزمهم فيه التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة ، فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم . وإليه أشارت الملائكة صلوات

اللّه عليهم في قولهم وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ والطريق الثاني : أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين ، فأسند إليه لأن المجاز الحكمىّ يصححه بعض الملابسات . وقيل : هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها : زينها لهم اللّه فعمهوا عنها وضلوا ، ويعزى إلى الحسن . والعمه :

التحير والتردّد ، كما يكون حال الضال عن الطريق . وعن بعض الأعراب : أنه دخل السوق وما أبصرها قط ، فقال : رأيت الناس عمهين ، أراد : متردّدين في أعمالهم وأشغالهم سُوءُ الْعَذابِ القتل والأسر يوم بدر . والْأَخْسَرُونَ أشدّ الناس خسرانا ، لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم ، فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب اللّه .

[سورة النمل (27) : آية 6]

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

---

(1) . قال محمود : «إن قلت كيف أسند التزيين إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان في قوله وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ قلت :

إن بين الاسنادين فرقا ، فالاسناد إلى اللّه مجاز ، وإلى الشيطان حقيقة . وقد روى عن الحسن أن المراد زينا لهم أعمال البر فعمهوا عنها ولم يهتدوا إلى العمل بها» قال أحمد : وهذا الجواب مبنى على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح ، وامتناع أن يخلق اللّه تعالى للعبد إلا ما هو مصلحة ، فمن ثم جعل إسناد التزيين إلى اللّه تعالى مجازا ، وإلى

الشيطان حقيقة ، ولو عكس الجواب لفاز بالصواب ، وتأمل ميله إلى التأويل الآخر : من أن المراد أعمال البر على بعده ، لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض ، وأتى لهم ذلك وقد اتى الله بنيانهم من القواعد ، على أن التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ على أن غالب وروده في غير البر ، كقوله زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ ، زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا ، وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ومما يبعد حمله على أعمال البر : إضافة الأعمال إليهم في قوله أَعْمالَهُمْ وأعمال البر ليست مضافة إليهم ، لأنهم لم يعملوها قط ، فظاهر الاضافة يعطى ذلك . ألا ترى إلى قوله تعالى وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وقوله قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ فأطلق الايمان في المكانين عن إضافته إليهم لأنه لم يصدر منهم ، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم ، لأنه صدر منهم ، والله أعلم .

(194/577)

لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ لتؤتاه وتلقنه مِنْ عند أيّ حَكِيمٍ وأيّ عَلِيمٍ وهذا معنى مجيئهما نكرتين . وهذه الآية بساط وتمهيد ، لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه .

[سورة النمل (27) : آية 7]

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7)

إِذْ منصوب بمضمر ، وهو : اذكر ، كأنه قال على أثر ذلك : خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى . ويجوز أن ينتصب بعليم . وروى أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ، وقد كنى اللّه عنها بالأهل ، فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع ، وهو قوله امْكُثُوا .

الشهاب :

الشعلة . والقبس : النار المقبوسة ، وأضاف الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبسا وغير قبس .

ومن قرأ بالتنوين : جعل القبس بدلا ، أو صفة لما فيه من معنى القبس . والخبر : ما يخبر به عن حال الطريق ، لأنه كان قد ضله . فإن قلت : سآتيكم منها بخبر ، ولعلى آتيكم منها بخبر : كالمتدافعين :

لأنّ أحدهما ترجّ والآخر تيقن . قلت : قد يقول الراجي إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة . فإن قلت : كيف جاء بسين التسويف ؟ قلت : عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة . فإن قلت : فلم جاء بأو دون الواو ؟ قلت : بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما : إمّا هداية

الطريق ، وإما اقتباس النار ، ثقة بعادة اللّه أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده ، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعا ، وهما العزّان : عز الدنيا ، وعز الآخرة .

[سورة النمل (27) : آية 8]

فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (8)

أَنْ هي المفسرة : لأنّ النداء فيه معنى القول . والمعنى : قيل له بورك . فإن قلت : هل يجوز أن تكون المخففة من الثقيلة وتقديره : نودي بأنه بورك . والضمير ضمير الشأن ؟ قلت : لا ، لأنه لا بدّ من «قد» . فإن قلت : فعلى إضمارها ؟ قلت : لا يصح ، لأنها علامة لا تحذف .

ومعنى بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها بورك من في مكان النار ، ومن حول مكانها . ومكانها :

البقعة التي حصلت فيها وهي البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ وتدل عليه قراءة أبيّ . تباركت الأرض ومن حولها . وعنه : بوركت النار ، والذي بوركت له البقعة ، وبورك من فيها وحواليها حدوث أمر دينى فيها : وهو تكليم

اللّه موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه ، وربّ خير يتجدّد في بعض البقاع ، فينشر اللّه بركة ذلك الخير في أقاصيها ، ويبث آثار يمنه في أباعدها ، فكيف بمثل ذلك الأمر العظيم الذي جرى في تلك البقعة . وقيل : المراد بالمبارك فيهم : موسى والملائكة الحاضرون . والظاهر أنه عامّ في كل من كان في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام ، ولقد جعل اللّه أرض الشام بالبركات موسومة في قوله وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ وحقت أن تكون كذلك ، فهي مبعث الأنبياء صلوات اللّه عليهم ومهبط الوحى إليهم وكفاتهم أحياء وأمواتا . فإن قلت : فما معنى ابتداء خطاب اللّه موسى بذلك عند مجيئه ؟ قلت :

هي بشارة له بأنه قد قضى أمر عظيم تنتشر منه في أرض الشام كلها البركة وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ تعجيب لموسى عليه السلام من ذلك ، وإيذان بأنّ ذلك الأمر مريده ومكوّنه رب العالمين ، تنبيها على أن الكائن من جلائل الأمور وعظائم الشؤون .

[سورة النمل (27) : آية 9]

يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

الهاء في إِنَّهُ يجوز أن يكون ضمير الشأن ، والشأن أَنَا اللَّهُ مبتدأ وخبر . وَالْعَزِيزُ الْحَكِيمُ صفتان للخبر . وأن يكون راجعا إلى ما دل عليه ما قبله ، يعنى : أنّ مكلمك أنا ، واللّه بيان

لأنا . والعزيز الحكيم : صفتان للمبين ، وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة ، يريد : أنا القوىّ القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية ، الفاعل كل ما أفعله تحكمة وتدبير .

[سورة النمل (27) : الآيات 10 إلى 11]

وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11)

فإن قلت : علام عطف قوله وَأَلْقِ عَصاكَ ؟ قلت : على بورك ، لأن المعنى : نودي أن بورك من في النار ، وأن ألق عصاك : كلاهما تفسير لنؤدي . والمعنى : قيل له بورك من في النار ، وقيل له : ألق عصاك . والدليل على ذلك قوله تعالى وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ بعد قوله أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ على تكرير حرف التفسير ، كما تقول : كتبت إليك أن حج وأن اعتمر ، وإن شئت أن حج واعتمر . وقرأ الحسن : جأنّ على لغة من يجدّ في الهرب من التقاء الساكنين ، فيقول : شأبّة ودأبّة . ومنها قراءة عمرو بن عبيد : ولا الضألين وَلَمْ يُعَقِّبْ لم يرجع ، يقال : عقب المقاتل ، إذا كرّ بعد الفرار . قال :

فما عقّبوا إذ قيل هل من معقّب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا «1»

وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به ، ويدل عليه إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ وإِلَّا بمعنى «لكن» لأنه لما أطلق نفى الخوف عن الرسل ، كان ذلك مظنة لطروّ الشبهة ، فاستدرك ذلك . والمعنى : ولكن من ظلم منهم أى فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء ، كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ، ومن موسى بوكزة القبطي ، ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى ، وهو من التعريضات التي يلطف مأخذها . وسماه ظلما ، كما قال موسى رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي والحسن ، والسوء : حسن التوبة ، وقبح الذنب . وقرئ : ألا من ظلم ، بحرف التنبيه . وعن أبى عمرو في رواية عصمة : حسنا .

[سورة النمل (27) : آية 12]

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (12)

وفِي تِسْعِ آياتٍ كلام مستأنف ، وحرف الجرّ فيه يتعلق بمحذوف . والمعنى : اذهب في تسع آيات إِلى فِرْعَوْنَ ونحوه :

فقلت إلى الطّعام فقال منهم فريق نحسد الإنس الطّعاما «2»

ويجوز أن يكون المعنى : وألق عصاك ، وأدخل يدك : في تسع آيات ، أى : في جملة تسع آيات

وعدادهنّ . ولقائل أن يقول : كانت الآيات إحدى عشرة : ثنتان منها اليد والعصا ، والتسع :

الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب في بواديهم ، والنقصان في مزارعهم .

[سورة النمل (27) : آية 13]

فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (13)

المبصرة : الظاهرة البينة . جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمّليها ، لأنهم لابسوها وكانوا بسبب منها بنظرهم وتفكرهم فيها . ويجوز أن يراد بحقيقة الإبصار : كل ناظر فيها من كافة أولى العقل ، وأن يراد إبصار فرعون وملئه ، لقوله وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ أو جعلت كأنها تبصر فتهدى ، لأنّ العمى لا تقدر على الاهتداء ، فضلا أن تهدى غيرها . ومنه قولهم : كلمة عيناء ،

---

(1) . يصف قوما بالجبن ، وإنهم إن قيل : هل من معقب وراجع على عقبه للحرب فما رجعوا إليها ، ولا نزلوا يوم الحرب منزلا من منازلها ، أى : لم يقدموا مرة على العدو . وروى : إذ قيل ، أى : حين ذلك . [. . . . .]

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 2 فراجعه إن شئت اه مصححه .

وكلمة عوراء ، لأن الكلمة الحسنة ترشد ، والسيئة تغوى . ونحوه قوله تعالى لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ فوصفها بالبصارة ، كما وصفها بالإبصار .

وقرأ علىّ بن الحسين رضى اللّه عنهما وقتادة : مبصرة ، وهي نحو : مجبنة ومبخلة ومجفرة «1» ، أى :

مكانا يكثر فيه التبصر .

[سورة النمل (27) : آية 14]

وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

الواو في وَاسْتَيْقَنَتْها واو الحال ، وقد بعدها مضمرة ، والعلو : الكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى ، كقوله تعالى فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً عالِينَ فَقالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَقَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ وقرئ : عليا ، وعليا بالضم والكسر ، كما قرئ عتيا ، وعتيا .

وفائدة ذكر الأنفس : أنهم جحدوها بألسنتهم ، واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم .

والاستيقان أبلغ من الإيقان ، وقد قوبل بين المبصرة والمبين ، وأى ظلم أفحش من ظلم من اعتقد واستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند اللّه ، ثم كابر بتسميتها سحرا بينا

مكشوفا لا شبهة فيه.

[سورة النمل (27) : آية 15]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15)

عِلْماً طائفة من العلم «2» أو علما سنيا غزيرا. فإن قلت: أليس هذا موضع الفاء دون الواو، كقولك: أعطيته فشكر، ومنعته فصبر؟ قلت: بلى، ولكن عطفه بالواو إشعار بأن ما قالاه بعض ما أحدث فيهما إيتاء العلم وشيء من مواجبه، فأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد، كأنه قال: ولقد آتيناهما علما فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه «3» والفضيلة وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا

---

(1). قوله «و مجفرة» في الصحاح «جفر الفحل عن الضراب»: إذا انقطع عنه. ومنه قيل: الصوم مجفرة، أى قاطع للنكاح. (ع)

(2). قال محمود: «معناه طائفة من العلم» قال أحمد: التبعيض والتقليل من التنكير، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر، فكذلك يرد للتعظيم من شأنه كما مر آنفا في قوله تعالى وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ولم يقبل الحكيم العليم. والغرض من التنكير التفخيم، كأنه قال: من لدن حكيم عليم، فظاهر قوله وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه، كأنه قال: علما أى علم، وهو كذلك، فان

علمهما كان مما يستعظم ويستغرب ، ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات الذي خصهما اللّه تعالى به وكل علم بالاضافة إلى علم اللّه تعالى قليل ضئيل ، واللّه أعلم .

(3) . قال محمود : «بجلا نعمة اللّه عليهما من حيث قولهما فَضَّلَنا وتواضعا بقولهما عَلى كَثِيرٍ ولم يقولا : على عباده ، اعترافا بأن غيرهما يفضلهما ، حذرا من الترفع .

(198/577)

. والكثير المفضل عليه : من لم يؤت علما . أو من لم يؤت مثل علمهما . وفيه : أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير . وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم . وأجزل القسم ، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلا على كثير من عباد اللّه ، كما قال وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ ، وما سماهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ورثة الأنبياء «1»» إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة ، لأنهم القوّام بما بعثوا من أجله . وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة لوازم ، منها : أن يحمدوا اللّه على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم . وفيها التذكير بالتواضع ، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم . وما أحسن قول عمر : كل الناس أفقه من عمر «2» .

[سورة النمل (27) : آية 16]

وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)

ورث منه النبوّة والملك دون سائر بنيه - وكانوا تسعة عشر - وكان داود أكثر تعبدا ، وسليمان أقضى وأشكر لنعمة اللّه وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ تشهيرا لنعمة اللّه ، وتنويها بها ، واعترافا بمكانها ، ودعاء للناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير ، وغير ذلك مما أوتيه من عظائم الأمور . والمنطق : كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف ، المفيد وغير المفيد .

وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح المنطق ، وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم ، وقالت العرب : نطقت الحمامة ، وكل صنف من الطير يتفاهم أصواته ، والذي علمه سليمان من منطق الطير : هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه «3» وأغراضه . ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : اللّه ونبيه أعلم : قال يقول :

أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء . وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا .

وصاح طاوس ، فقال يقول : كما تدين تدان . وصاح هدهد ، فقال يقول : استغفروا اللّه يا

مذنبين .

---

(1) . أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان من حديث أبى الدرداء ، من حديث رواه «من سلك طريقا يلتمس فيه علما وفيه : إن العلماء ورثة الأنبياء» وله طرق عند الطبراني . وفي الباب عن البراء وابن عمرو ابن العاص أخرجهما أبو نعيم في كتاب فضل العالم العفيف على الجاهل الشريف . وعن ابن مسعود أخرجه ابن حمزة السهمي في تاريخ جرجان . وعن جابر أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد في ترجمة أحمد بن محمد الثلجى . وفي إسناده الضحاك بن حجزة . وهو متهم بوضع الحديث

(2) . تقدم في سورة النساء

(3) . قوله «هو ما يفهم بعضه من بعض معانيه» عبارة النسفي : والمنطق : كل ما يصوت من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض اه (ع)

(199/577)

وصاح طيطوى ، فقال يقول : كل حىّ ميت ، وكل جديد بال . وصاح خطاف فقال يقول : قدّموا خيرا تجدوه . وصاحت رخمة ، فقال تقول : سبحان ربى الأعلى ملء سمائه

وأرضه.

وصاح قمرى، فأخبر أنه يقول: سبحان ربى الأعلى. وقال: الحدأ يقول: كل شيء هالك إلا اللّه. والقطاة تقول: من سكت سلم. والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه: والديك يقول:

اذكروا اللّه يا غافلين. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعقاب يقول:

في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربى القدوس. وأراد بقوله مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كثرة ما أوتى، كما تقول: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شيء، تريد: كثرة قصاده ورجوعه إلى غزارة في العلم واستكثار منه. ومثله قوله وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة، كما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أنا سيد ولد آدم ولا فخر «1»» أى: أقول هذا القول شكرا ولا أقوله فخرا. فإن قلت: كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يريد نفسه وأباه. والثاني:

أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع - وكان ملكا مطاعا - فكلم أهل طاعته على صفته وحاله التي كان عليها، وليس التكبر من لوازم ذلك، وقد يتعلق بتجمل الملك وتفخمه وإظهار آيينه «2» وسياسته مصالح، فيعود تكلف ذلك واجبا. وقد كان

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يفعل نحوا من ذلك إذا وفد عليه وفد أو احتاج أن يرجح في عين عدوّ. ألا ترى كيف أمر العباس رضى اللّه عنه بأن يحبس أبا سفيان حتى تمرّ عليه الكتائب «3».

[سورة النمل (27) : آية 17]

وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17)

روى أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة : خمسة وعشرون للجنّ ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة منكوحة. وسبعمائة سرية ، وقد نسجت له الجنّ بساطا من ذهب وإبريسم فرسخا في فرسخ ، وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب ، فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة ، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة ، وحولهم الناس وحول الناس الجنّ والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه الشمس ،

---

(1) . تقدم في سورة يوسف

(2) . قوله «وإظهار آيينه» قيل : مراتبه وبهاؤه. وفي نسخة : أبهته ، فليحرر. (ع)

(3) . أخرجه البخاري من رواية هشام بن عروة عن أبيه في قصة الفتح قال فأسلم أبو سفيان. فلما سار قال للعباس احبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين

، فحبسه العباس ، فجعلت الكتائب تمر مع النبي صلى اللّه عليه وسلم كتيبة بعد كتيبة»

وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس رضى اللّه عنهما .

(200/577)

وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر . ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ، ويأمر الرخاء تسيره ، فأوحى اللّه إليه وهو يسير بين السماء والأرض : إنى قد زدت في ملكك لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك ، فيحكى أنه مر بحرّاث فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ، فألقته الريح في أذنه ، فنزل ومشى إلى الحرّاث وقال : إنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ، ثم قال : لتسبيحة واحدة يقبلها اللّه ، خير مما أوتى آل داود يُوزَعُونَ يحبس أولهم على آخرهم ، أى : توقف سلاف العسكر «1» حتى تلحقهم التوالي فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وذلك للكثرة العظيمة .

[سورة النمل (27) : آية 18]

حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (18)

قيل : هو واد بالشام كثير النمل . فان قلت : لم عدّى أَتَوْا بعلى ؟ قلت : يتوجه على معنيين

أحدهما أن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء ، كما قال أبو الطيب :

ولشدّ ما قربت عليك الأنجم «2»

لما كان قربا من فوق . والثاني : أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره ، من قولهم : أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي ، لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهواء لا يخاف حطمهم ، وقرئ نملة يا أيها النمل ، بضم الميم وبضم النون والميم ، وكان الأصل : النمل ، بوزن الرجل ، والنمل الذي عليه الاستعمال : تخفيف عنه ، كقولهم «السبع» في السبع . قيل : كانت تمشى وهي عرجاء تتكاوس «3» ، فنادت : يا أيها النمل : الآية ، فسمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال . وقيل : كان اسمها طاخية . وعن قتادة أنه دخل الكوفة

---

(1) . قوله «سلاف العسكر» أى متقدموهم . أفاده الصحاح . (ع)

(2) فلشد ما جاوزت قدرك صاعدا ولشد ما قربت عليك الأنجم

لأبى الطيب المتنبي ، طلب منه رجل المدح ، فأبى وقال ذلك ، واللام للتأكيد ، وشد على صورة المبنى للمجهول للتعجب ، وأصله شدد كحسن ، فنقل ضم الدال إلى الشين وأدغم ، كما هو قياس بناء التعجب ، أى : ما أشد مجاوزتك لقدرك ، يعنى : كثرت مجاوزتك لمقدارك ، حال كونك صاعدا فيما ليس لك من الرفعة ، وقال : عليك ، دون : إليك ، لأن قرب الأنجم من جهة العلو ، أى : كثر عندك قرب النجوم إليك من فوق ، ثم

يحتمل أن النجوم حقيقة فقد بنى على الصعود المعنوي ما ينبنى على الصعود الحسى ، للمبالغة في تشبيه الأول بالثاني . ويحتمل أنها مستعارة لشعره الذي هو النجوم في الحسن ، وعزة الوصول إليه على طريق التصريحية ، ففيه شبه التورية .

(3) . قوله «تتكاوس» في الصحاح : كوسته على رأسه تكويسا ، أى : قلبته ، وكاس هو يكوس : إذا فعل ذلك . وكاس البعير : إذا مشى على ثلاث قوائم وهو معرقب . (ع)

(201/577)

فالتف عليه الناس ، فقال : سلوا عما شئتم ، وكان أبو حنيفة رحمه اللّه حاضرا - وهو غلام حدث - . فقال : سلوه عن نملة سليمان ، أكانت ذكرا أم أنثى ؟ فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقيل له : من أين عرفت ؟ قال : من كتاب اللّه ، وهو قوله قالَتْ نَمْلَةٌ ولو كانت ذكرا لقال : قال نملة ، «1» وذلك أنّ النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى ، فيميز بينهما بعلامة ، نحو قولهم : حمامة ذكر ، وحمامه أنثى ، وهو وهي . وقرئ : مسكنكم ولا يحطمنكم ، بتخفيف النون ، وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها . وأصله : يحتطمنكم . ولما جعلها قائلة والنمل مقولا لهم كما يكون في أولى العقل : أجرى خطابهم مجرى خطابهم . فإن قلت :

لا يحطمنكم ما هو؟ قلت: يحتمل أن يكون جوابا للأمر، وأن يكون نهيا بدلا من الأمر، والذي جوّز أن يكون بدلا منه: أنه في معنى: لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم، على طريقة: لا أرينك هاهنا، أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ، ونحوه: عجبت من نفسي ومن إشفاقها.

[سورة النمل (27): آية 19]

فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

ومعنى فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً تبسم شارعا في الضحك وآخذا فيه، يعنى أنه قد تجاوز حدّ التبسم إلى الضحك، وكذلك ضحك الأنبياء عليهم السلام. وأما ما روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه «2» فالغرض المبالغة في وصف ما وجد منه من الضحك

---

(1). قال محمود «لما دخل قتادة الكوفة التفت عليه الناس، فقال: سلوا عما شئتم، فقال أبو حنيفة - وكان شابا -: سلوه عن النملة التي كلمت سليمان، أذكر كانت أم أنثى؟ فسألوه فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى فقيل: كيف لك ذلك؟ قال: لأن اللّه عز وجل قال قالَتْ نَمْلَةٌ، ولو كانت ذكرا لقال: قال نملة» قال أحمد: لا أدرى العجب منه أم من أبى حنيفة أن يثبت ذلك عنه، وذلك أن النملة

كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس ، يقال : نملة ذكر ونملة أنثى ، كما يقولون حمامة ذكر وحمامة أنثى ، وشاة ذكر وشاة أنثى ، فلفظها مؤنث .

ومعناه محتمل ، فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها ، وإن كانت واقعة على ذكر . بل هذا هو الفصيح المستعمل . ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام : «لا تضحى بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء» كيف أخرج هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعنى الإناث من الأنعام خاصة ، فحينئذ قوله تعالى قالَتْ نَمْلَةٌ روعي فيه تأنيث اللفظ . وأما المعنى فيحتمل على حد سواء ، وإنما أطلت في هذا وإن كان لا يتمشى عليه حكم ، لأنه نسبه إلى الامام أبى حنيفة على بصيرته باللغة ، ثم جعل هذا الجواب معجبا لنعمان على غزارة علمه وتبصره بالمنقولات ، ثم قرر الكلام على ما هو عليه مصونا له ، فيا للعجب العجاب ، والله الموفق للصواب . [. . . . .]

(2) . وقعت في هذه الجملة عدة أحاديث . منها حديث ابن مسعود «جاء رجل من اليهود . فقال : يا محمد ، إن الله يمسك السماوات على أصبع الحديث . وفيه فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه» متفق عليه . ومنها حديثه مرفوعا «إنى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها – الحديث . وفيه : قول الرجل : أتسخر بى وأنت الملك ؟ قال : ولقد رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه أيضا . ومنها حديث أبى ذر رضى الله عنه «يؤتى برجل يوم القيامة . فيقال اعرض

عليه صغار ذنوبه – الحديث . وفيه : فلقد رأيت النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى آخره» أخرجه مسلم . ومنها حديث أبى سعيد – رفعه – «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة – الحديث . وفيه : فنظر إلينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم ضحك حتى بدت نواجذه» متفق عليه ومنها حديث جابر «دخل أبو بكر والقوم جلوس على الباب – فذكر الحديث وفيه : فقال عمر : لو رأيت بنت خارجة وهي تسألنى النفقة فقمت فوجأت عنقها . قال : فضحك النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه مسلم . ومنها حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما «كنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم في غزوة فأصاب الناس مخمصة – الحديث . وفيه : فلم يبق في الجيش وعاء إلا مليء وبقي مقله . فضحك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه ابن حبان والحاكم . ومنها حديث سلمة بن الأكوع «قدمنا الحديبية – الحديث . وفيه :

قلت يا رسول اللّه ، خلنى أنتخب من القوم مائة رجل ، فأتبع القوم ، فلا أبقى منهم أحدا إلا قتلته ، فضحك النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» وهو حديث طويل . وفيه هذه اللفظة في موضع آخر أخرجه مسلم . ومنها حديث زيد بن أرقم «أتى على رضى اللّه عنه – وهو باليمن – بثلاثة وقعوا على امرأة في طهر واحد – الحديث .

وفيه : فذكر ذلك للنبي صلى اللّه عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم .

ومنها حديث أم أيمن «قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالليل ، فبال في فخارة . فقمت وأنا عطشانة فشربته وأنا لا أشعر فلما أصبح أمرني أن أهريقها فقلت : إني شربتها ، فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه الحاكم . ومنها حديث صهيب في أكلة التمر وهو أرمد . فقال «إنما آكله من شق عيني الصحيحة . قال : فضحك النبي صلى اللّه عليه وسلم حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار بتمامه . وبعضه لابن ماجة والحاكم . ومنها حديث ابن عباس «كان عبد اللّه ابن رواحة مضطجعا إلى جنب امرأته . فقام إلى جارية له فوقع عليها – الحديث . وفيه : الشعر . وقول المرأة :

آمنت باللّه وكذبت البصر . قال : فغدا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخبره فضحك حتى بدت نواجذه» أخرجه البزار وإسناده ضعيف .

(202/577)

النبوي ، وإلا فبدوّ النواجذ على الحقيقة إنما يكون عند الاستغراب ، وقرأ ابن السميقع : ضحكا ، فان قلت : ما أضحكه من قولها ؟ قلت : شيئان ، إعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى ، وذلك قولها وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ تعني أنهم لو شعروا لم يفعلوا . وسروره بما آتاه اللّه مما لم يؤت أحدا :

من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحكل «1» الذي هو مثل في الصغر والقلة ، ومن إحاطته بمعناه ، ولذلك اشتمل دعاؤه على استيزاع اللّه شكر ما أنعم به عليه من ذلك ، وعلى استيفاقه»

لزيادة العمل الصالح والتقوى . وحقيقة أَوْزِعْنِي اجعلنى أزع شكر نعمتك عندي ، وأكفه وأرتبطه لا ينفلت عنى ، حتى لا أنفك شاكرا لك . وإنما أدرج ذكر والديه لأنّ النعمة على الولد نعمة على الوالدين ، خصوصا النعمة الراجعة إلى الدين ، فإنه إذا كان تقيا نفعهما بدعائه وشفاعته وبدعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له ، وقالوا : رضى اللّه عنك وعن والديك . وروى

---

(1) . قوله «ما همس به بعض الحكل» في الصحاح «الحكل» : ما لا يسمع له صوت . (ع)

(2) . قوله «و على استيفاقه لزيادة العمل» في الصحاح «استوفقت اللّه» : سألته التوفيق . (ع)

أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء ، فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهنّ ، ثم دعا بالدعوة . ومعنى وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ

الصَّالِحِينَ واجعلنى من أهل الجنة .

[سورة النمل (27) : الآيات 20 إلى 21]

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (21)

أَمْ هي المنقطعة : نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره ، فقال ما لِيَ لا أَرَى على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : أهو غائب ؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له . ونحوه قولهم : إنها لإبل أم شاء ، وذكر من قصة الهدهد أنّ سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره «1» ، فوافى الحرم وأقام به ما شاء ، وكان يقرّب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا ، فوافى صنعاء وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها ، فنزل ليتغدّى ويصلى فلم يجدوا الماء ، وكان الهدهد قناقنه «2» ، وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء ، فتفقده لذلك ، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا ، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء ، وذكر له صاحبه ملك بلقيس ، وأنّ تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر

فما رجع إلا بعد العصر ، وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : عليّ به ، فارتفعت فنظرت ، فإذا هو مقبل فقصدته ، فناشدها اللّه وقال :

بحق الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلا رحمتيني ، فتركته وقالت : ثكلتك أمك ، إنّ نبي اللّه قد حلف ليعذبنك ، قال : وما استثنى ؟ قالت : بلى قال : أو ليأتيني بعذر مبين ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرّها عليّ الأرض تواضعا له ، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه ، فقال :

يا نبي اللّه ، اذكر وقوفك بين يدي اللّه ، فارتعد سليمان وعفا عنه ، ثم سأله . تعذيبه : أن يؤدّب

---

(1) . قوله «تجهز للحج بحشره» في الصحاح : حشرت الناس أحشرهم حشرا : جمعتهم . ومنه : يوم الحشر . (ع)

(2) . قوله «وكان الهدهد قناقنه» القناقن – بالضم – : الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القنى . والقنى :

جمع قناة . أفاده الصحاح في موضعين . (ع)

بما يحتمله حاله ليعتبر به أبناء جنسه . وقيل : كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه .

وقيل : أن يطلى بالقطران ويشمس . وقيل : أن يلقى للنمل تأكله . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : التفريق بينه وبين إلفه . وقيل : لألزمنه صحبة الأضداد . وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد . وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه . فإن قلت : من أين حل له تعذيب الهدهد ؟

قلت : يجوز أن يبيح له اللّه ذلك . لما رأى فيه من المصلحة والمنفعة ، كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع : وإذا سخر له الطير ولم يتم ما سخر له من أجله إلا بالتأديب والسياسة :

جاز أن يباح له ما يستصلح به . وقرئ : ليأتينى . وليأتينن . والسلطان : الحجة والعذر . فإن قلت :

قد حلف على أحد ثلاثة أشياء : فحلفه على فعليه لا مقال فيه ، ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد ؟ ومن أين درى أنه يأتى بسلطان ، حتى يقول واللّه ليأتينى بسلطان ؟

قلت : لما نظم الثلاثة «بأو» في الحكم الذي هو الحلف : آل كلامه إلى قولك : ليكونن أحد الأمور ، يعنى : إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما ، وليس في هذا ادّعاء دراية ، على أنه يجوز أن يتعقب حلفه بالفعلين وحى من اللّه بأنه سيأتيه بسلطان مبين ، فثلث بقوله أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ عن دراية وإيقان .

[سورة النمل (27) : آية 22]

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22)

فَمَكَثَ قرئ بفتح الكاف وضمها غَيْرَ بَعِيدٍ غير زمان بعيد ، كقوله : عن قريب .

ووصف مكثه بقصر المدّة للدلالة على إسراعه خوفا من سليمان ، وليعلم كيف كان الطير مسخرا له ، ولبيان ما أعطى من المعجزة الدالة على نبوّته وعلى قدرة اللّه تعالى أَحَطْتُ بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق : ألهم اللّه الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له في علمه ، وتنبيها على أنّ في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علما بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفا له في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء وأعظم بها فتنة ، والإحاطة بالشيء علما : أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم . قالوا : وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إنّ الإمام لا يخفى عليه شيء ، ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه . سبأ : قرئ بالصرف ومنعه . وقد روى بسكون الباء . وعن ابن كثير في

رواية : سبا ، بالألف كقولهم : ذهبوا أيدى سبا . وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ، ومن جعله اسما للحىّ أو الأب الأكبر صرف .

قال :

(205/577)

من سبإ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما «1»

وقال :

الواردون وتيم في ذرى سباء قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس «2»

ثم سميت مدينة مأرب بسبإ ، وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ، كما سميت معافر بمعافر بن أدّ . ويحتمل أن يراد المدينة والقوم . والنبأ : الخبر الذي له شأن . وقوله مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ من جنس الكلام الذي سماه المحدّثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق «3» باللفظ ، بشرط أن يجيء مطبوعا . أو يصنعه عالم بجوهر الكلام يحفظ معه صحة المعنى وسداده ، ولقد جاء هاهنا زائدا على الصحة فحسن وبدع لفظا ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر ، لكان المعنى صحيحا ، وهو كما جاء أصح ، لما في النبإ ، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال .

[سورة النمل (27) : آية 23]

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23)

المرأة بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ، وقد ولده أربعون ملكا ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت على الملك ، وكانت هي وقومها مجوسا يعبدون الشمس . والضمير في تَمْلِكُهُمْ راجع إلى سبإ ، فإن أريد به القوم فالأمر ظاهر ، وإن أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها . وقيل في وصف عرشها : كان ثمانين ذراعا في ثمانين وسمكه ثمانين . وقيل ثلاثين مكان ثمانين ، وكان من ذهب وفضة مكللا بأنواع الجواهر ، وكانت قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودرّ وزمرّد ، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق . فإن قلت : كيف استعظم عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان ؟ قلت : يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان ، فاستعظم لها ذلك العرش . ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء ، كما يكون لبعض

---

(1) . يمدح رجلا بأنه من قبيلة سبأ ، وهو في الأصل اسم لابن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ثم سميت به القبيلة ومأرب : مدينتها . وقيل : قصر لملكهم ، وهو مفعول الحاضرين ممنوع من الصرف . وإذ ظرف . ومن دون بمعنى أمام . والعرم : السد العظيم ، يحبس السيل عن المدينة .

(2) . أى الواردون هم ، وتيم : اسم قبيلة في أعالى أرض سبأ . والمراد بجلد الجواميس :

الحبال المفتولة منه لتغسل بها الأسرى في أعناقهم ، فشبهت ما يصح منه العض لصلابتها على طريق المكنية ، والعض تخييل ، ويصح استعارته للقرص على طريق التصريحية ، وسبأ - في الأصل - : لقب رجل من قحطان اسمه عبد شمس ، لأنه أول من سبى كان له عشرة أولاد ، فذهب ستة إلى اليمن : حمير ، وكندة ، والأسد ، وأشعر ، وقشعم ، وبجيلة . وذهب أربعة إلى الشام : لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان . وبها سميت قبائلهم المشهورة .

(3) . قوله «الذي يتعلق» لعله : التي تتعلق . (ع)

(206/577)

أمراء الأطراف شيء لا يكون مثله للملك الذي يملك عليهم أمرهم ويستخدمهم . ومن نوكى القصاص «1» من يقف على قوله وَلَها عَرْشٌ ثم يبتدئ عَظِيمٌ وَجَدْتُها يريد : أمر عظيم ، أن وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فرّ من استعظام الهدهد عرشها ، فوقع في عظيمة وهي مسخ كتاب اللّه . فإن قلت : كيف قال وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مع قول سليمان وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كأنه سوّى بينهما ؟ قلت : بينهما فرق بين ، لأن سليمان عليه السلام عطف قوله على ما هو معجزة من اللّه ، وهو تعليم منطق الطير ، فرجع أوّلا إلى ما

أوتى من النبوّة والحكمة وأسباب الدين ، ثم إلى الملك وأسباب الدنيا ، وعطفه الهدهد على الملك فلم يرد إلا ما أوتيت من أسباب الدنيا اللائقة بحالها فبين الكلامين بون بعيد .

فإن قلت : كيف خفى على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطه وبين بلدها قريبة ، وهي مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب ؟ قلت : لعل اللّه عز وجل أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها ، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب .

[سورة النمل (27) : الآيات 24 إلى 26]

وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

فإن قلت : من أين للهدهد التهدى إلى معرفة اللّه ، ووجوب السجود له ، وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟ قلت : لا يبعد أن يلهمه اللّه ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها ، ومن أراد استقراء ذلك فعليه بكتاب الحيوان ، خصوصا في زمن نبىّ سخرت له الطيور وعلم منطقها ، وجعل ذلك معجزة له . من قرأ بالتشديد أراد : فصدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن . ويجوز أن تكون «لا» مزيدة ، ويكون المعنى : فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا . ومن قرأ بالتخفيف ، فهو ألا يسجدوا . ألا للتنبيه ، ويا حرف

النداء ، ومناداه محذوف ، كما حذفه من قال :

ألا يا أسلمي يا دار مىّ على البلى «2»

---

(1) . قوله «و من نوكى القصاص» النوكى : جمع أنوك ، وهو الأحمق . (ع)

(2) ألا يا أسلمي يا دار مى على البلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

لذي الرمة . وألا استفتاحية للتنبيه ، فلا معنى ليا إلا النداء . والمنادى بها محذوف ، تقديره : يا دار مى أسلمي ، فاستغنى عنه بما بعده ، وحذفه اهتماما بطلب السلامة لها . وفي تكرير ندائها : نوع تفجع . ومى : مرخم مية .

وترخيم المضاف إليه : ضرورة حسنها سبق النداء . وعلى : بمعنى مع ، أى : اسلمي ولو كنت بالية ، لأنه إن لم تبق الدار كفتني الآثار . ومنهلا : منصبا ، والجرعاء : مؤنث الأجراع ، وهو الموضع المختلط ترابه بالحصى . والقطر :

المطر ، يدعو لها بالخصب .

(207/577)

وفي حرف عبد اللّه وهي قراءة الأعمش : هلا ، وهلا : بقلب الهمزتين هاء . وعن عبد اللّه : هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب . وفي قراءة أبىّ : ألا تسجدون للّه

الذي يخرج الخبء من السماء والأرض ويعلم سركم وما تعلنون وسمى المخبوء بالمصدر : وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه عز وعلا من غيوبه . وقرئ : الخب ، على تخفيف الهمزة بالحذف . والخبا ، على تخفيفها بالقلب ، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار . ووجهها : أن تخرّج على لغة من يقول في الوقف :

هذا الخبو ، رأيت الخبا ، ومررت بالخبى . ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، لا على لغة من يقول :

الكماة والحماة ، لأنها ضعيفة مسترذلة . وقرئ : يخفون ويعلنون ، بالياء والتاء . وقيل : من أحطت إلى العظيم «1» : هو كلام الهدهد . وقيل : كلام رب العزة . وفي إخراج الخبء : أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض ، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض جلت قدرته ولطف علمه ، ولا يكاد تخفى على ذى الفراسة النظار بنور اللّه مخائل كل مختص بصناعة أو فنّ من العلم في روائه «2» ومنطقه وشمائله ، ولهذا ورد : ما عمل عبد عملا إلا ألقى اللّه عليه رداء عمله . فإن قلت : أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا أم في إحداهما ؟

قلت ، هي واجبة فيهما جميعا ، لأنّ مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك . وقد اتفق أبو حنيفة والشافعي رحمهما اللّه على أنّ سجدات القرآن أربع عشرة ، وإنما اختلفا في سجدة ص :

فهي عند أبي حنيفة سجدة تلاوة. وعند الشافعي: سجدة شكر. وفي سجدتي سورة الحج وما ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد، فغير مرجوع إليه.

فإن قلت: هل يفرق الواقف بين القراءتين؟ قلت: نعم إذا خفف وقف على فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ثم ابتدأ أَلَّا يَسْجُدُوا، وإن شاء وقف على «ألا يا» ثم ابتدأ «اسجدوا» وإذا شدّد لم يقف إلا على الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. فإن قلت: كيف سوّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش اللّه في الوصف بالعظم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم، لأنّ وصف عرشها بالعظم: تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك.

ووصف عرش اللّه بالعظم: تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السماوات والأرض.

وقرئ:

العظيم، بالرفع. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 346. 362﴾

---

(1). قوله «و قيل من أحطت إلى العظيم» في اللباب: أن الخلاف في: ألا يسجدوا - إلى - العظيم، ومال إليه في التقريب اه من هامش (ع)

(2). قوله «في روائه» بالضم، أي: منظره. أفاده الصحاح. (ع)

وقال ابن جزى :

﴿ آيَاتُ القرآن وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

عطف الكتاب على القرآن كعطف الصفات بعضها على بعض ، وإن كان الموصوف واحداً .

﴿ هُدًى وبشرى ﴾ في موضع نصب على المصدر ، أو في موضع رفع على أنه خبر ابتداء مضمر .

﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ تحتمل هذه الجملة أن تكون معطوفة ، فتكون بقية صلة الذين ، أو تكون مستأنفة وتمت الصلة قبلها ، ورجح الزمخشري هذا .

﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون ﴿ سواء العذاب ﴾ يعني في الدنيا وهو القتل يوم بدر ، ويحتمل أن يريد عذاب الآخرة ، والأول أرجح لأنه ذكر الآية بعد ذلك ﴿ لَتُلَقَّى القرآن ﴾ أي تعطاه .

﴿ آنَسْتُ ﴾ ذكر في [طه : 11] وكذلك قبس : [طه : 12] ، والشهاب : النجم شبَّه القبس به ، وقرىء بإضافة شهاب إلى قبس وبالتنوين على البدل أو الصفة ، فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿ سَآتِيكُمْ ﴾ وفي الموضع الآخر : ﴿ لعلي آتِيكُمْ ﴾ [طه : 10 ، القصص : 29] ؛ والفرق بين الترجي والتسويق أن التسويق متيقن الوقوع بخلاف الترجي ؟ فالجواب أنه قد يقول الراجي : سيكون كذا ؛ إذا قوي رجاؤه ﴿ تَصْطَلُونَ ﴾

معناه : تستدفئون بالنار من البرد ، ووزنه تفعلون ، وهو مشتق من صلى بالنار والطاء بدل من التاء ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ ﴿ أَن ﴾ مفسرة ، و ﴿ بُورِكَ ﴾ من البركة ، ﴿ مَن فِي النار ﴾ : يعني من في مكان النار ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ : من حول مكانها : يريد الملائكة الحاضرين وموسى عليه السلام ، قال الزمخشري : والظاهر أنه عام في كل من كان في تلك الأرض ، وفي ذلك الوادي وما حوله من أرض الشام ﴿ وَسُبْحَانَ الله ﴾ يحتمل أن يكون مما قيل في النداء لموسى عليه السلام ، أو يكون مستأنفاً وعلى كلا الوجهين قصد به تنزيه الله مما عسى أن يخطر ببال السامع من معنى النداء ، أو في قوله : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ لأن المعنى نودي أن بورك من في النار ، إذ قال بعض الناس فيه ما يجب تنزيه الله عنه .

(209/577)

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله : ﴿ بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ ، لأن المعنى يؤدي إلى أن : ﴿ بُورِكَ مَن فِي النار ﴾ ، وأن ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ وكلاهما تفسير للنداء ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ الجان : الحية ، وقيل : الحية الصغيرة ، وعلى هذا يشكل قوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾ [الأعراف : 107 ، الشعراء : 32] ، والجواب أنها ثعبان في جِرْمها ،

جانٌّ في سرعة حركتها ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ لم يرجع أو لم يلتفت ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ استثناء منقطع تقديره : لكن من ظلم من سائر الناس ، لا من المرسلين ، وقيل : إنه متصل على القول بتجويز الذنوب عليهم ، وهذا بعيد ؛ لأن الصحيح عصمتهم من الذنوب ، وأيضاً فإن تسميتهم ظالمين شنيع على القول بتجويز الذنوب عليهم ﴿ بَدَّلَ حُسْناً ﴾ أي عمل صالحاً ﴿ فِي جَيْبِكَ ﴾ ذكر في [طه : 22] ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ متصل بقوله : ألق وأدخل ، تقديره : نسير لك في جملة تسع آيات ، وقد ذكرت الآيات التسع في [الإسراء : 101] ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ متعلق بفعل محذوف يقتضيه الكلام تقديره : اذهب بالآيات التسع إلى فرعون ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ أي ظاهرة واضحة الدلالة ، وأسند الإبصار لها مجازاً ، وهو في الحقيقة لمتأملها ﴿ واستيقنتها ﴾ يعني أنهم جحدوا بها مع أنهم تيقنوا أنها الحق فكفرهم عناد ، ولذلك قال فيه : ﴿ ظُلْماً ﴾ . والواو فيه واو الحال ، وأضمرت بعدها قد عَلَوْا يعني تكبروا .

(210/577)

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ أي ورث عنه النبوة والعلم والملك ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير ﴾ أي فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عموم

معناه الخصوص ، والمراد بهذا اللفظ التكثير : كقولك : فلان يقصده كل أحد ، وقوله : علمنا وأوتينا ؛ يحتمل أن يريد نفسه وأباه أو نفسه خاصة على وجه التعظيم ، لأنه كان ملكاً ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ ﴾ اختلف الناس في عدد جنود سليمان اختلافاً شديداً ، تركنا ذكره لعدم صحته ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي : يكفُّون ويردّ أوّلهم إلى آخرهم ، ولا بدّ لكل ملك أو حاكم في وَزَعَةٍ يدفعون الناس .

﴿ حتى إِذَآ أَتَوْا على وَادِ النمل ﴾ ظاهر هذا أن سليمان وجنوده كانوا مشاة بالأرض ، أو ركباناً حتى خافت منهم النمل ، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح ، وأحست النملة بنزولهم في وادي النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾ النمل : حيوان بل حشرة فطن قويّ الحس يدخر قوته ، ويقسم الحبة بقسمين لئلا تنبت ، ويقسم حبة الكسبرة على أربع قطع لأنها تنبت إذا قمست قسمين ، ولإفراط إدراكها قالت هذا القول ، ورُوي أن سليمان سمع كلامها ، وكان بينه وبينها ثلاثة أميال ، وهذا لا يسمعه البشر إلى من خصة الله بذلك ﴿ ادخلوا ﴾ خاطبتهم مخاطبة العقلاء ، لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون جواباً للأمر ، أو نهياً بدلاً من الأمر لتقارب المعنى ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ الضمير لسليمان وجنوده ، والمعنى اعتذار عنهم لو حطموا النمل أي لو شعروا بهم لم يحطموهم ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً ﴾ تبسم لأحد أمرين : أحدهما سروره بما

أعطاه الله ؛ والآخر ثناء النملة عليه وعلى جنوده ، فإن قولها هم لا يشعرون : وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان .

(211/577)

﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾ اختلف الناس في معنى تفقده للطير ، فقيل : ذلك لعنايته بأمور ملكه ، وقيل : لأن الطير كانت تظله فغاب الهدهد فدخلت الشمس عليه من موضعه ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين ﴾ أم منقطعة ، فإنه نظر إلى مكان الهدهد فلم يبصره ، ﴿ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد ﴾ أي لا أراه ولعله حاضر وستره ساتر ، ثم علم بأنه غائب فأخبر بذلك .

﴿ فَمَكَثَ ﴾ أي أقام ويجوز فتح الكاف وضمها ، وبالفتح قرأ عاصم والباقون بالضم ، والفعل يحتمل أن يكون مسنداً إلى سليمان عليه السلام أو إلى الهدهد ، وهو أظهر ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ يعني زمان قريب ﴿ أَحَطتُ ﴾ أي أحطت علماً بما لم تعلمه ﴿ مِن سَبَإٍ ﴾ يعني قبيلة من العرب ، وجدّهم الذي يعرفون به : سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ومن صرفه أراد الحيّ أو الأب ، ومن لم يصرفه سبأ أراد القبيلة أو البلدة ، وقرىء بالتسكين لتوالي الحركات ، وعلى القراءة بالتنوين يكون في قوله : من سبإ بنإ ضرب من أدوات البيان ، وهو التجنيس .

﴿ وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ ﴾ المرأة بلقيس بنت شراحيل : كان أبوها ملك اليمن ولم يكن له ولد غيرها ، فغلبت بعده على الملك ، والضمير في تملكهم يعود على سبأ ، وهم قومها ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ عموم يراد به الخصوص فيما يحتاجه الملك ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني سرير ملكها ، ووقف بعضهم على عرش ، ثم ابتدأ ﴿ عَظِيمٌ ﴾ ﴿ وَجَدتُّهَا ﴾ على تقدير عظيم أن ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ ، وهذا خطأ ، وإنما حمله عليه الفرار من وصف عرشها بالعظمة .

(212/577)

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ من كلام الهدهد أو من كلام الله ، وقرأ الجمهور ألَّا بالتشديد ، وأن في موضع نصب على البدن من أعمالهم ، أو في موضع خفض على البدل من السبيل ، أو يكون التقدير : لا يهتدون لأن يسجدوا بحذف اللام ، وزيادة لا ، وقرأ الكسائي : ألا يا اسجدوا بالتخفيف على أن تكون لا حرف تنبيه وأن تكون الياء حرف نداء فيوقف عليها بالألف على تقدير يا قوم ثم يبتدىء اسجدوا ﴿ يُخْرِجُ الخبء ﴾ في اللغة : الخفي ، وقيل : معناه هنا : الغيب ، وقيل : يخرج النبات من الأرض ، واللفظ يعم كل خفيّ ، وبه فسره ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 92.95 ﴾

وقال الخازن :

قوله ﴿ طس تلك آيات القرآن ﴾

أي هذه آيات القرآن ﴿ وكتاب مبين ﴾ أي وآيات كتاب مبين ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هو هدى من الضلالة ، وبشرى لهم بالجنة ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أي الخمس بشرائطها ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي إذا وجبت عليهم طيبة بها أنفسهم ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ يعني أن هؤلاء الذين يعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة .

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم ﴾ أي القبيحة حتى رأوها حسنة وقيل : إن التزين هو أن يخلق الله العلم في القلب بما فيه المنافع واللذات ولا يخلق العمل بما فيه المضار والآفات ﴿ فهم يعمهون ﴾ أي يترددون فيها متحيرين ﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾ أي أشده وهو القتل والأسر ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي أنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وساورا إلى النار .

قوله تعالى ﴿ وإنك لتلقى القرآن ﴾ أي تؤتاه وتلقنه حياً ﴿ من لدن حكيم عليم ﴾ أي

حكيم عليم بما أنزل إليك .

فإن قلت : ما الفرق بين الحكمة والعلم .

(214/577)

قلت : الحكمة هي العلم بالأمور العلمية فقط والعلم أعم منه لأنه العلم قد يكون علماً ، وقد يكون نظراً والعلوم النظرية أشرف ﴿ إذ قال ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ﴿ موسى لأهله ﴾ أي في مسيره بأهله من مدين إلى مصر ﴿ إني آنست ﴾ أي أبصرت ﴿ ناراً سآتيكم منها بخبر ﴾ أي امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق ، وقد كان ضل عن الطريق ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ الشهاب شعلة النار والقبس النار المقبوسة منها ، وقيل : القبس هو العود الذي في أحد طرفيه نار ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ يعني تستدفئون من البرد كان في شدة الشتاء ﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ﴾ يعني بورك على من في النار وقيل : البركة راجعة إلى موسى والملائكة والمعنى من في طلب النار وهو موسى ﴿ ومن حولها ﴾ وهم الملائكة الذين حول النار وهذه تحية من الله لموسى بالبركة ، وقيل : المراد من النار النور وذكر بلفظ النار لأن موسى حسبه ناراً من النار هم الملائكة وذلك أن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، ومن حولها موسى ،

لأنه كان بالقرب منها وقيل البركة راجعة إلى النار ، وقال ابن عباس : معناه بوركت النار والمعنى بورك من في النار ومن حولها وهم الملائكة وموسى وروي عن ابن عباس في قوله بورك من في النار قدس من في النار وهو الله تعالى عنى به نفسه على معنى أنه نادى موسى وأسمعه من جهتها كما روي أنه مكتوب في التوراة جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعين واستعلى من جبال فاران ومعنى مجيئه من سيناء بعثه موسى منه ، ومن ساعين بعثة المسيح ومن جبال فاران بعثة محمد (صلى الله عليه وسلم) وفاران اسم مكة ، وقيل كانت النار بعينها وهي إحدى حجب الله كما صح في الحديث " حجابة النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " ثم نزه الله سبحانه وتعالى نفسه ، وهو المنزه من كل سوء وعيب فقال تعالى ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ ثم تعرف إلى موسى بصفاته

(215/577)

فقال : الله يا موسى ﴿ إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ قيل معناه أن موسى قال : من المنادي قال : إنه أنا الله وهذا تمهيد لما أراد الله أن يظهره على يده من المعجزات ، والمعنى أن القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية وهو قوله ﴿ وألق عصاك ﴾ تقديره

فألقاها فصارت حية ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أي تتحرك ﴿ كأنها جان ﴾ وهي الحية الصغيرة التي يكثر اضطرابها ﴿ ولى مدبراً ﴾ يعني هرب من الخوف ﴿ ولم يعقب ﴾ يعني لم يرجع ، ولم يلتفت قال الله تعالى ﴿ يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ يريد إذا أمنتهم لا يخافون أما الخوف الذي هو شرط الإيمان ، فلا يفارقهم قال النبيّ (صلى الله عليه وسلم) " أنا أخشاكم لله " .

(216/577)

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم ﴾ قيل : هو ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل والصغيرة وقيل يحتمل أن يكون المراد منه التعريض بما وجد من موسى من قتل القبطي وهو من التعريضات اللطيفة وسماه ظلماً لقول موسى ﴿ إني ظلمت نفسي ﴾ ثم إنه خاف من ذلك فتاب قال : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ﴾ قال ابن جريج : قال الله تعالى لموسى إنما أخفتك لقتلك النفس ، ومعنى الآية لا يخيف الله الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم فإن أصابه أخافه حتى يتوب ، فعلى هذا التأويل يكون صحيحاً وتناهى الخبر عن الرسل عند قوله إلا من ظلم ثم ابتدأ الخبر عن حالة من ظلم من الناس كافة وفي الآية متروك استغنى عن ذكره لدلالة الكلام عليه تقديره :

فمن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم وقيل ليس هذا الاستثناء من المرسلين ، لأنه لا يجوز عليهم الظلم بل هو استثناء من المتروك ومعناه : لا يخاف لدي المرسلون إنما الخوف عليهم من الظالمين وهذا الاستثناء المنقطع معناه لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف فإن تاب وبدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم أي أغفر له وأزيل خوفه وقيل : إلا هنا بمعنى ولا معناه ولا يخاف لدي المرسلون ولا من ظلم ، ثم بدل حسناً بعد سوء يعني تاب من ظلمه فإني غفور رحيم ثم إن الله تعالى أراه آية أخرى فقال تعالى ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء ﴾ قيل كانت عليه مدرعة صوف لا كمَّ لها ، ولا أزرار فأدخل يده في جيبها وأخرجها فإذا هي تبرق مثل شعاع الشمس أو البرق ﴿ من غير سوء ﴾ يعني من غير برص ﴿ في تسع آيات ﴾ يعني آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن فعلى هذا تكون الآيات إحدى عشرة العصا واليد البيضاء والفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب في بواديهم ، والنقصان في مزارعهم ، وقيل : في بمعنى من أي من تسع آيات فتكون اليد البيضاء من التسع ﴿ إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ يعني خارجين عن الطاعة

(217/577)

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ يعني بينة واضحة يبصرونها ﴿ قالوا هذا ﴾ يعني الذي نراه ﴿ سحر مبين ﴾ يعني ظاهر ﴿ وجحدوا بها ﴾ يعني أنكروه الآيات ، ولم يقروا أنها من عند الله ﴿ واستيقنتها أنفسهم ﴾ يعني علموا أنها من عند الله والمعنى أنهم جحدوا بها بألسنتهم واستيقنوها بقلوبهم وضمائرهم ﴿ ظلماً وعلواً ﴾ أي شركاً وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ يعني الغرق .

قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ﴾ يعني علم القضاء والسياسة وعلم داود تسبيح الطير ، والجبال وعلم سليمان منطق الطير والدواب ﴿ وقالا الحمد لله الذي فضلنا ﴾ يعني بالنبوة والكتاب والملك وتسخير الجن والإنس ﴿ على كثير من عباده المؤمنين ﴾ أراد الكثير الذي فضلا عليهم من لم يؤت علماً أو لم يؤت مثل علمهما ، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير وقيل إنهما لم يفضلا أنفسهما على الكل ، وذلك يدل على حسن التواضع .

(218/577)

قوله تعالى ﴿ وورث سليمان داود ﴾ يعني نبوته وعلمه ، وملكه دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابناً وأعطي سليمان ما أعطي داود وزيد له تسخير الريح ، والجن والشياطين قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه وكان داود أشد تعبداً من سليمان كان سليمان شاكراً لنعم الله تعالى ﴿ وقال ﴾ يعني سليمان ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ سمى صوت الطير منطقاً لحصول الفهم منه ، وروي عن كعب الأحبار قال : صاح ورشان عند سليمان ، فقال : أتدرون ما يقول هذا ؟ قالوا : لا قال إنه يقول لدوا للموت وابنوا للخراب وصاحت فاختة فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا لا قال إنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا وصاح طاووس فقال أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا قال : إنه يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال : أتدرون ما يقول هذا ؟ قالوا : لا قال : إنه يقول من لا يرحم لا يرحم وصاح صرد فقال : أتدرون ما يقول هذا ؟ قالوا : لا قال إنه يقول استغفروا ربكم يا مذنبين وصاحت طيطوى فقال أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا قال : فإنها تقول كلي حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال : أتدرون ما يقول قالوا : لا قال إنه يقول قدموا خيراً تجدوه وهدرت حمامة قال : أتدرون ما تقول قالوا : لا قال : إنها تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه وصاح قمري قال أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا قال إنه يقول سبحان ربي الدائم قال والغراب يدعو على العشار والحدأة تقول كل شيء هالك إلا وجهه ، والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول : ويل لمن كانت الدنيا همه .

والضفدع يقول سبحان ربي القدوس والبازي يقول : سبحان ربي وبحمده والضفدعة تقول : سبحان المذكور بكل لسان .

(219/577)

وعن مكحول قال صاح دراج عند سليمان فقال : أتدرون ما يقول قالوا : لا قال إنه يقول الرحمن على العرش استوى وقال فرقد مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ، ويميل ذنبه فقال : لأصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا الله ونبيه أعلم قال إنه يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وروي أن جماعة من اليهود قالوا لابن عباس : إنا سائلوك عن سبعة أشياء إن أخبرتنا آمنا وصدقنا قال : سلوا تفقهاً لا تعنتاً قالوا أخبرنا ما تقول القنبرة في صفيرها والديك في صعيقه ، والضفدع في نقيقه والحمار في نهيقه ، والفرس في صهيله وماذا يقول الزرزور والدراج قال نعم أما القنبر فإنه يقول : اللهم العن مبغض محمد وآل محمد والديك يقول اذكروا الله يا غافلين وأما الضفدع ، فإنه يقول سبحان الله المعبود في البحار وأما الحمار فإنه يقول اللهم العن العشار وأما الفرس ، فإنه يقول إذا التقى الجمعان سبوح قدوس رب الملائكة والروح وأما الزرزور ، فإنه يقول اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق وأما الدراج فإنه يقول الرحمن على العرش استوى ، فأسلم هؤلاء اليهود وحسن

إسلامهم وروي عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده الحسين بن علي بن أبي طالب م ، قال : إذا صاح النسر قال : يا ابن آدم عشت ما شئت آخره الموت ، وإذا صاح العقاب قال البعد من الناس أنس ، وإذا صاح القنبر قال إلهي العن مبغضي محمد وآل محمد وإذا صاح الخطاف قال الحمد لله رب العالمين ويمد العالمين كما يمد القارىء .

(220/577)

وقوله تعالى ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ أي مما أوتي الأنبياء ، والملوك قال ابن عباس : من أمر الدنيا والآخرة وقيل النبوة والملك وتسخير الرياح والجن والشياطين ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ يعني الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا وروي أن سليمان أعطي مشارق الأرض ومغاربها فملك ذلك أربعين سنة فملك جميع الدنيا من الجن والإنس والشياطين والطير ، والدواب والسباع وأعطي مع هذا منطق الطير ومنطق كل شيء وفي زمنه صنعت الصنائع العجيبة .

﴿ وحشر ﴾ أي جمع ﴿ لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ﴾ من الأماكن في مسيره له ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يحبسون حتى يرد أولهم على آخرهم ، قيل : كان على جنوده وزعة من النقباء ترد أولها على آخرها لئلا يتقدموا في المسير قال محمد بن كعب

القرظي كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمسة وعشرون منها للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش ، وخمسة وعشرون للطير والفرسخ اثنا عشر ألف خطوة فالبريد ثمانية وأربعون ألف خطوة لأنه أربع فراسخ فجملة ذلك خمسة وعشرون بريداً وقيل نسجت الجن له بساطاً من ذهب وحرير ، فرسخاً في فرسخ وكان يوضع كرسيه في وسطه ، فيقعد وحوله كراسي الذهب والفضة فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة ، والناس حوله والجن والشياطين حول الناس والوحوش حولهم وتظله الطيور بأجنحتها ، حتى لا تقع عليه الشمس وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة يعني حرة وسبعمائة سرية فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به وأوحى الله إليه ، وهو يسير بين السماء والأرض أني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت الريح وأخبرتك به .

(221/577)

قوله ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل ﴾ أي أشرفوا على وادي النمل روي عن كعب الأحبار قال : كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه ، وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد والقدور العظام تسع كل قدر على عشرة من الإبل فيطبخ

الطباخون ويخبز الخبازون وهو بين السماء والأرض واتخذ ميادين للدواب فتجري بين يديه والريح تهوي به فسار من اصطخر يريد اليمن فسلك على مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال سليمان : هذه دار هجرة نبي يكون في آخر الزمان طوبى لمن آمن به ، وطوبى لمن اتبعه ولما وصل مكة رأى حول البيت ، أصناماً تعبد فجاوزه سليمان فلما جاوزه بكى البيت فأوحى الله إليه ما يبكيك قال يا رب أبكاني هذا نبي من أنبيائك ومعه قوم من أوليائك مروا علي ، ولم يهبطوا ولم يصلوا عندي والأصنام تعبد حولي من دونك فأوحى الله إليه لا تبك ، فإني سوف أملؤك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً ، وأبعث منك نبياً في آخر الزمان أحب أنبيائي إلي ، وأجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني ، وأفرض عليهم فريضة يزفون إليك زفيف النسر إلى وكرها ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها والحمامة إلى بيضها ، وأطهرك من الأوثان والأصنام والشيطان ثم مضى سليمان حتى مر بوادي السدير وادٍ من الطائف فأتى على وادي النمل كذا قال كعب الأحبار .

وقيل : إنه بالشأم هو واد يسكنه الجن وذلك النمل مراكبهم .

وقيل : إن ذلك النمل الذباب .

وقيل كالبخاتي والمشهور أنه النمل الصغير ﴿ قالت نملة ﴾ قيل : كانت عرجاء وكانت ذات جناحين وقيل اسمها طاخية وقيل جرمى ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ ولم يقل ادخلن لأنه جعل لهم عقولاً كالآدميين فخوطبوا خطاب الآدميين وهذا ليس بمستعبد

أن يخلق الله فيها عقلاً ونطقاً فإنه قادر على ذلك ﴿ لا يحطمنكم ﴾ أي لا يكسرنكم ﴿ سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ قال أهل التفسير .

(222/577)

علمت النملة أن سليمان نبي ليس فيه جبروتية ولا ظلم ، ومعنى الآية أنكم لو لم تدخلوا وطؤوكم ، ولم يشعروا فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال وكان لا يتكلم أحد بشيء إلا حملته الريح حتى تلقيه إلى مسامع سليمان ، فلما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخلوا بيوتهم .

فإن قلت : كيف يتصور الحطم من سليمان وجنوده وهو فوق البساط على متن الريح ، قلت كأنهم أرادوا النزول عند منقطع الوادي ، فلذلك قالت نملة : لا يحطمنكم سليمان وجنوده لأنهم ما دامت الريح تحملهم لا يخاف حطمهم ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها ﴾ قيل أكثر ضحك الأنبياء تبسم وقيل معنى ضاحكاً متبسماً ، وقيل : كان أوله التبسم وآخره الضحك (ق) عن عائشة ا قالت : " ما رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم " عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال " ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم " أخرجه

الترمذي .

فإن قلت : ما كان سبب ضحك سليمان .

قلت شيئان : أحدهما ما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم ، وذلك قولها وهم لا يشعرون يعني أنهم لو شعروا ما يفعلون .

الثاني سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً من إدراك سمعه ، ما قالته النملة وقيل : إن الإنسان إذا رأى أو سمع ما لا عهد له به تعجب وضحك ، ثم إن سليمان حمد ربه على ما أنعم به عليه ﴿ وقال رب أوزعني ﴾ أي ألهمني ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أي أدخلني في جملتهم ، وأثبت اسمي مع أسمائهم واحشرني في زمرتهم .

قال ابن عباس : يريد مع إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين وقيل : أدخلني الجنة مع عبادك الصالحين .

(223/577)

قوله ﴿ وتفقد الطير ﴾ أي طلبها وبحث عنها والمعنى أنه طلب ما فقد من الطير ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد ﴾ وكان سبب تفقده الهدهد وسؤاله عنه إخلاله بالنوبة ، وذلك أن

سليمان كان إذا نزل منزلاً تظله وجنده الطير من الشمس ، فأصابته الشمس من موضع الهدهد فنظر فرآه خالياً .

وروي عن ابن عباس أنه كان دليله على الماء وكان يعرف موضع الماء ويرى الماء تحت الأرض كما يرى في الزجاجة ، ويعرف قربه من بعده فينقر الأرض فتجيء الشياطين فيحفرونه ويستخرجون الماء منه قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا ، قال نافع بن الأزرق بأوصاف انظر ما تقول إن الصبي منا يضع الفخ ويحثو عليه التراب ، فيجيء بالهدهد ، وهو لا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه ، فقال له ابن عباس ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر وفي رواية إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب ، وعمي البصر فنزل سليمان منزلاً واحتاج إلى الماء ، فطلبوه فلم يجدوه فتفقد الهدهد ليدله على الماء فقال ما لي لا أرى الهدهد على تقدير أنه مع جنوده ، وهو لا يراه ثم إنه أدركه الشك فقال ﴿ أم كان من الغائبين ﴾ أي أكان وقيل بل كان من أهل الغائبين ، ثم أوعده على غيبته .

(224/577)

قال : ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ قيل هو أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً لا يمتنع من النمل ولا من غيره وقيل لأودعنه القفص ولأحبسنه مع ضده ، وقيل لأفرقنَّ بينه

وبين إلفه ﴿ أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ أي بحجة بينة على غيبته وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكر العلماء أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس ، عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب جنوده من الجن والإنس ، والطير والوحش فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام ما شاء الله أن يقيم ، وكان في كل يوم ينحر حول مقامه خمسة آلاف ناقة ويذبح خمسة آلاف ثور وعشرين ألف شاة وقال لمن يحضر من أشراف قومه إن هذا المكان يخرج منه نبي عربي صفته كذا وكذا ، يعطى النصرة على جميع من ناوأه وتبلغ هيبته مسيرة شهر ، القريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه من الله لومة لائم قالوا فبأي دين يدين يا نبي الله ؟ قال : بدين الحنيفية فطوبى لمن أدركه وآمن به قالوا كم بيننا وبين خروجه يا نبي الله قال مقدار ألف سنة فليبلغ الشاهد الغائب ، فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل قال فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج من مكة صباحاً ، وسار نحو اليمن فوافى صنعاء زوالاً أي وقت الزوال ، وذلك مسيرة شهر فرأى أرضاً حسناء تزهو خضرتها فأحب النزول بها ليصلي ويتغذى فلما نزل قال الهدهد : اشتغل سليمان بالنزول فارتفع نحو السماء لينظر إلى الدنيا ، وعرضها فبينما هو ينظر يميناً وشمالاً رأى بستاناً لبلقيس فنزل إليه فإذا هو بهدهد آخر وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن يعفير ، فقال يعفير ليعفور : من أين أقبلت وأين تريد قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود قال ومن سليمان بن داود ؟ قال : ملك الإنس والجن والشياطين

، والطير والوحش والرياح فمن أين أنت يا يعفير قال أنا من هذه البلاد قال : ومن ملكها ؟ قال : امرأة يقال لها بلقيس وإن لصاحبك ملكاً عظيماً ، ولكن ليس ملك

(225/577)

بلقيس دونه ، فإنها تملك اليمن وتحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة مع كل ملك أربعة آلاف مقاتل ، ولها ثلاثمائة وزير يديرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل ، فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها قال أخاف أن يفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء قال الهدهد اليماني إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة .

قال فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها ، وأما سليمان فإنه نزل على غير ماء فسأل عن الماء الإنس والجن فلم يعلموا فتفقد الهدهد فلم يره فدعا بعريف الطير ، وهو النسر فسأله عن الهدهد فقال أصلح الله الملك ما أدري أين هو ، وما أرسلته إلى مكان فغضب سليمان وقال لأعذبنه الآية ثم دعا العقاب وهو أشد الطير ، فقال له عليّ بالهدهد هذه الساعة فرفع العقاب في الهواء حتى رأى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ، ثم التفت يميناً وشمالاً فرأى الهدهد مقبلاً من نحو اليمن فانقض العقاب بريده ، فعلم الهدهد أن العقاب

يقصده بسوء فقال له بحق الله الذي قواك وأقدرك علي إلا ما رحمتني ، ولم تتعرض لي بسوء فتركه العقاب وقال ويحك ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف أن يعذبك ، أو أن يذبحك ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهيا إلى العسكر تلقاه النسر والطير ، فقالوا : ويلك إين غبت في يومك هذا فلقد توعدك نبي الله وأخبروه بما قال سليمان .

فقال الهدهد : أو ما استثنى نبي الله قالوا بلى ولكنه قال أو ليأتيني بسلطان مبين .

قال نجوت إذاً فانطلق به العقاب : حتى أتيا سليمان وكان قاعداً على كرسيه فقال العقاب قد أتيتك به يا نبي الله فلما قرب منه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان ، فلما دنا منه أخذ برأسه فمده إليه .

(226/577)

وقال له : أين كنت لأعذبنك عذاباً شديداً فقال يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ، ثم قال ما الذي أبطأك عني فقال الهدهد ما أخبر الله عنه بقوله تعالى ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ معناه أي غير طويل ﴿ فقال أحطت بما لم تحط به ﴾ أي عملت ما لم تعلم وبلغت ما لم تبلغ أنت ولا جنودك ألهم الله الهدهد هذا الكلام فكافح سليمان تنبيهاً على أن أدنى خلق الله قد أحاط علماً بما لم يحط به ليكون لطفاً له

في ترك الإعجاب .

والإحاطة بالشيء علماً أن يعلمه من جميع جهاته حتى لا يخفى عليه من معلوم ﴿ وجئتك من سبأ ﴾ قيل : هو اسم للبلد وهي مأرب والأصح أنه اسم رجل وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقد جاء في الحديث أن النبي صلّى الله عليه وسلّم سئل عن سبأ فقال : " رجل له عشرة من النبين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة " ﴿ بنبأ ﴾ أي بخبر ﴿ يقين ﴾ فقال سليمان وما ذاك .

قال : ﴿ إني ﴾ أي الهدهد ﴿ وجدت امرأة تملكهم ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب من قحطان ، وكان أبوها ملكاً عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكاً هو آخرهم ، وكان يملك أرض اليمن كلها وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤاً لي وأبى أن يتزوج منهم فخطب إلى الجن فزوجوه منهم امرأة يقال لها ريحانة بنت السكن .

(227/577)

قيل في سبب وصوله إلى الجن حتى خطب منهم ، أنه كان كثير الصيد فربما اصطاد الجن ، وهم على صورة الضباء فيخلي عنهم فظهر له ملك الجن وشكره على ذلك واتخذه صديقاً ، فخطب ابنته فزوجه إياها وقيل إنه خرج متصيداً فرأى حيتين يقتتلان بيضاء وسوداء ،

وقد ظهرت السوداء على البيضاء ، فقتل السوداء وحمل البيضاء وصب عليها الماء فأفاقت ، وأطلقها فلما رجع إلى داره وجلس وحده منفرداً ، فإذا معه شاب جميل فخاف منه ، قال : لا تخاف أنا الحية البيضاء التي أحييتني والأسود الذي قتلته هو عبد لنا تمرد علينا ، وقتل عدة منا وعرض عليه المال فقال : المال لا حاجة لي به .

(228/577)

ولكن إن كان لك بنت فزوجنيها فزوجه ابنته ، فولدت له بلقيس وجاء في الحديث " إن أحد أبوي بلقيس كان جنياً : فلما مات أبو بلقيس طمعت في الملك وطلبت قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وأبى آخرون ، وملكوا عليهم رجلاً آخر يقال : إنه ابن أخي الملك وكان خبيثاً سيء السيرة في أهل مملكته ، حتى كان يمد يده إلى حريم رعيته ، ويفجر بهن فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه فلما رأت بلقيس ذلك ، أدركتها الغيرة فأرسلت إليه فعرضت نفسها عليه فأجابها الملك وقال : ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك فقالت لا أرغب عنك لأنك كفوء كريم فاجمع رجال أهلي واخطبني منهم ، وخطبها فقالوا لا نراها تفعل فقال : بلى إنها قد رغبت فيّ فذكروا ذلك لها فقالت : نعم فزوجوها منه فلما زفت إليه خرجت في ملأ كثير من خدمها وحشمها ، فلما دخلت به سقته الخمر حتى

سكر ثم قتلته وحزت رأسه وانصرفت إلى منزلها من الليل ، فلما أصبحت أرسلت إلى وزرائه وأحضرتهم وقرعتهم وقالت أما كان فيكم من يأنف لكريمته أو كرائم عشيرته ، ثم أرتهم إياه قتيلاً وقالت اختاروا رجلاً تملكونه عليكم فقالوا لا نرضى غيرك فملكوها وعلموا أن ذلك النكاح كان مكراً وخديعة منها (خ) عن أبي بكرة قال لما بلغ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال " لن يفلح قوم ملكوا عليهم امرأة " قوله تعالى ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ يعني ما تحتاج إليه الملوك من المال والعدة ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ أي سرير ضخم عال .

فإن قلت : كيف استعظم الهدهد عرشها على ما رأى من عظمة ملك سليمان .

(229/577)

قلت : يحتمل أنه استعظم ذلك بالنسبة إليها ، ويحتمل أنه لم يكن لسليمان مع عظم ملكه مثله وكان عرش بلقيس من الذهب مكللاً بالدر ، والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، وقوائمه من الياقوت والزمرد ، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق قال ابن عباس : كان عرش بلقيس ثلاثين ذراعاً في ثلاثين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثون ذراعاً .

وقيل كان طوله ثمانين في ثمانين وعلوه ثمانون وقيل : كان طوله ثمانين وعرضه أربعين وارتفاعه

ثلاثون ذراعاً .

قوله إخباراً عن الهدهد ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ وذلك أنهم كانوا يعبدون الشمس ، وهم مجوس ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ المزين هو الله لأنه الفعل لما يريد ، وإنما ذكر الشيطان لأنه سبب الإغواء ﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ أي عن طريق الحق الذي هو دين الإسلام ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ أي إلى الصواب ﴿ ألا يسجدوا ﴾ قرىء بالتخفيف ومعناه ألا يا أيها الناس اسجدوا وهو أمر من الله مستأنف ، وقرىء بالتشديد ومعناه وزين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا ﴿ لله الذي يخرج الخبء ﴾ يعني الخفي المخبأ ﴿ في السموات والأرض ﴾ قيل خبء السموات المطر وخبء الأرض النبات ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ والمقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وغيرها ، من دون الله لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من في السموات والأرض ، عالم بجميع المعلومات ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ أي هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره .

فصل

وهذه السجدة من عزائم السجود ، يستحب للقارىء والمستمع أن يسجد عند قراءتها .

فإن قلت : قد وقف عرش بلقيس بالعظم وعشر الله بالعظم ، فما الفرق بينهما .

قلت وصف عرش بلقيس بالعظم بالنسبة إليها وإلى أمثالها من ملوك الدنيا وأما عرش الله

تعالى فهو بالنسبة إلى جميع المخلوقات من السموات والأرض ، فحصل الفرق بينهما . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 133.143 ﴾

(230/577)

وقال النسفى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ طس تِلْكَ ءايات القرءان وكتاب مُّبِينٍ ﴾

أي وآيات كتاب مبين و ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى آيات السورة ، والكتاب المبين : اللوح ، وآياته أنه قد خط فيه كل ما هو كائن فهو يبين للناظرين فيه آياته ، أو القرآن وآياته إنه يبين ما أودع فيه من العلوم والحكم وعلى هذا عطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى نحو هذا فعل السخي والجود .

ونكر الكتاب ليكون أفخم له .

وقيل : إنما نكر الكتاب هنا وعرفه في "الحجر" وعرف القرآن هنا ونكره ثمّ ، لأن القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد عليه الصلاة والسلام ووصفان له لأنه يقرأ ويكتب ، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم ، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف

﴿ هُدًى وبشرى ﴾ في محل النصب على الحال من آيات أي هداية وبشارة فالعامل فيها ما في تلك من معنى الإشارة ، أو الجر على أنه بدل من ﴿ كتاب ﴾ أو صفة له أو الرفع على هي هدى وبشرى ، أو على البدل من ﴿ آيات ﴾ أو على أن يكون خبراً بعد خبر ل ﴿ تلك ﴾ أي تلك آيات وهادية من الضلالة ومبشرة بالجنة .

وقيل : هدى لجميع الخلق وبشرى ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خاصة

﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ﴾ يديمون على فرائضها وسننها ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكواة ﴾ يؤدون زكاة أموالهم ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ من جملة صلة الموصول .

ويحتمل أن تتم الصلة عنده وهو استئناف كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة ، ويدل عليه أنه عقد جملة اسمية وكرر فيها المبتدأ الذي هو ﴿ هم ﴾ حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق .

(231/577)

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم ﴾ بخلق الشهوة حتى رأوا ذلك حسناً كما قال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوء عَمَلِهِ فَرَءاهُ حَسَناً ﴾ [فاطر : 8] ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون في ضلالتهم كما يكون حال الضال عن الطريق ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَهُمْ سُوء العذاب ﴾ القتل والأسر يوم بدر بما كان منهم من سوء الأعمال ﴿ وَهُمْ فِى الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ أشد الناس خسراناً لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم فخسروا ذلك مع خسران النجاة وثواب الله ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾ لتؤتاه وتلقنه ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ من عند أيّ حكيم وأيّ عليم وهذا معنى تنكيرهما ، وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص وما في ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه .

﴿ إذ ﴾ منصوب ب "اذكر" كأنه قال : على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى عليه السلام ﴿ قَالَ موسى لِاهْلِهِ ﴾ لزوجته ومن معه عند مسيره من مدين إلى مصر ﴿ إِنِّى آنَسْتُ ﴾ أبصرت ﴿ نَاراً سَـَٔاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن حال الطريق لأنه كان قد ضله ﴿ أو ءَاتيكم بشهابٍ ﴾ بالتنوين : كوفي أي شعلة مضيئة ﴿ قَبَسٍ ﴾ نار مقبوسة بدل أو صفة .

وغيرهم ﴿ بشهاب قبس ﴾ على الإضافة لأنه يكون قبساً وغير قبس .

ولا تدافع بين قوله ﴿ سآتيكم ﴾ هنا ﴿ ولعلي آتيكم ﴾ في القصص مع أن أحدهما ترجٍ والآخر تيقن ، لأن الراجي إذا قوي رجاؤه يقول سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة ، ومجيئه بسين التسويف عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة ، "بأو" لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منها إما هداية الطريق وإما اقتباس النار ولم يدر أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين وهما عز الدنيا والآخرة ، واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين والقصة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى ، وجواز النكاح بغير لفظ التزوج .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون بالنار من البرد الذي أصابكم ، والطاء بدل من تاء افتعل لأجل الصاد

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا ﴾ أي النار التي أبصرها ﴿ نُودِيَ ﴾ موسى ﴿ أَن بُورِكَ ﴾ مخففة من الثقيلة وتقديره ونودي بأنه بورك والضمير ضمير الشأن ، وجاز ذلك من غير عوض وإن منعه الزمخشري لأن قوله ﴿ بورك ﴾ دعاء والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة ، أو مفسرة لأن في النداء معنى القول أي قيل له بورك أي قدس أو جعل فيه البركة والخير ﴿ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي بورك من في مكان النار وهم الملائكة ومن حول مكانها أي موسى لحدوث أمر ديني فيها وهو تكليم الله موسى واستنباؤه له وإظهار المعجزات عليه

﴿ وسبحان الله رَبّ العالمين ﴾ هو من جملة ما نودي فقد نزه ذاته عما لا يليق به من التشبيه وغيره .

﴿ يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ الضمير في ﴿ إنه ﴾ للشأن والشأن أنا الله مبتدأ وخبره و ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان للخبر ، أو يرجع إلى ما دل عليه ما قبله أي إن مكلمك أنا والله بيان لأنا و ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان للمبين ، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يده من المعجزات .

(233/577)

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ لتعلم معجزتك فتأنس بها وهو عطف على ﴿ بورك ﴾ لأن المعنى نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير ل ﴿ نودي ﴾ والمعنى قيل له بورك من في النار وقيل له ألق عصاك ، ويدل عليه ما ذكر في سورة القصص ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ بعد قوله ﴿ أَن يَا موسى إِنّى أَنَا الله ﴾ [القصص : 30] على تكرير حرف التفسير ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك حال من الهاء في ﴿ رَءاهَا ﴾ ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ حية صغيرة حال من الضمير في ﴿ تهتز ﴾ ﴿ وَلِىُّ ﴾ موسى ﴿ مُدْبِراً ﴾ أدبر عنها وجعلها تلي ظهره خوفاً من وثوب الحية عليه ﴿ وَلَمْ يُعَقّبْ ﴾ ولم يلتفت أو لم يرجع .

يقال قد عقب فلان إذا رجع يقاتل بعد أن ولى فنودي ﴿ يا موسى لاَ تَخَفْ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون ﴾ أي لا يخاف عندي المرسلون حال خطابي إياهم أولا يخاف لدي المرسلون من غيري ﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ﴾ أي لكن من ظلم من غيرهم لأن الأنبياء لا يظلمون ، أو لكن من ظلم منهم من زل من المرسلين فجاء غير ما أذنت له مما يجوز على الأنبياء كما فرط من آدم ويونس وداود وسليمان عليهم السلام ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً ﴾ أي أتبع توبة ﴿ بَعْدَ سُوء ﴾ زلة ﴿ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أقبل توبته وأغفر زلته وأرحمه فأحقق أمنيته وكأنه تعريض بما قال موسى حين قتل القبطي : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغفر لى فَغَفَرَ لَهُ ﴾ .

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ جيب قميصك وأخرجها ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء ﴾ نيرة تغلب نور الشمس ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ برص وبيضاء ومن غير سوء حالان ﴿ في تسع آيات ﴾ كلام مستأنف و"في" يتعلق بمحذوف أي اذهب في تسع آيات أو وألق عصاك وأدخل يدك في جملة تسع آيات ﴿ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ "إلى" يتعلق بمحذوف أي مرسلاً إلى فرعون وقومه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ خارجين عن أمر الله كافرين

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءاياتنا ﴾ أي معجزاتنا ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ حال أي ظاهرة بينة جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمليها لملابستهم إياها بالنظر والتفكر فيها ، أو جعلت كأنها تبصر فتهدي لأن الأعمى لا يقدر على الاهتداء فضلاً أن يهدي غيره ومنه قولهم "كلمة عيناء وعوراء" لأن الكلمة الحسنة ترشد والسيئة تغوي ﴿ قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر لمن تأمله وقد قوبل بين المبصرة والمبين ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ قيل : الجحود لا يكون إلا من علم من الجاحد وهذا ليس بصحيح ، لأن الجحود هو الإنكار وقد يكون الإنكار للشيء للجهل به وقد يكون بعد المعرفة تعنتاً كذا ذكره في شرح التأويلات .

وذكر في الديوان يقال جحد حقه وبحقه بمعنى .

والواو في ﴿ واستيقنتها ﴾ للحال و"قد" بعدها مضمرة والاستيقان أبلغ من الإيقان ﴿ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم ﴿ ظُلْماً ﴾ حال من الضمير في ﴿ وجحدوا ﴾ وأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات من عند الله ثم سماها سحراً بيناً ﴿ وَعُلُوّاً ﴾ ترفعاً عن الإيمان بما جاء به موسى ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ وهو الإغراق هنا والإحراق ثمة .

﴿ ولقد ءاتينا ﴾ أعطينا ﴿ داوود وسليمان علماً ﴾ طائفة من العلم أو علماً سنياً غزيراً والمراد علم الدين والحكم ﴿ وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثيرٍ مّن عباده المؤمنين ﴾ والآيات حجة لنا على المعتزلة في ترك الأصلح وهنا محذوف ليصح عطف

الواو عليه ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه الفاء كقولك "أعطيته فشكر" ، وتقديره : آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الذي فضلنا ، والكثير المفضل عليه من لم يؤت علماً أو من لم يؤت مثل علمهما ، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير .

(235/577)

وفي الآية دليل على شرف العلم وتقدم حملته وأهله ، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم ، وأن من أوتيه فقد أوتي فضلاً على كثير من عباده ، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة لأنهم القوام بما بعثوا من أجله ، وفيها أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه ، وأن يعتقد العالم أنه إن فضل على كثير فقد فضل عليهم مثلهم ، وما أحسن قول عمر رضي الله عنه : كل الناس أفقه من عمر رضي الله عنه .

﴿ وورث سليمان داود ﴾ ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا : أوتي النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلا فالنبوة لا تورث ﴿ وقال يا أيها النّاس علّمنا منطق الطّير ﴾ تشهيراً لنعمة الله تعالى واعترافاً بمكانها ودعاء للناس إلى التصديق بذكر

المعجزة التي هي علم منطق الطير .

والمنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد ، وكان سليمان عليه السلام يفهم منها كما يفهم بعضها من بعض .

روي أنه صاحب فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وصاح طاوس فقال : يقول : كما تدين تدان ، وصاح هدهد فقال : يقول : استغفروا الله يا مذنبين ، وصاح خطاف فقال : يقول : قدموا خيراً تجدوه .

وصاحت رحمة فقال : تقول : سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه .

وصاح قمري فأخبر أنه يقول : سبحان ربي الأعلى .

وقال : الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله .

والقطاة تقول من سكت سلم .

والديك يقول : اذكروا الله يا غافلين والنسر يقول : يا بن آدم عش ما شئت آخرك الموت .

والعقاب يقول : في البعد من الناس أنس .

(236/577)

والضفدع يقول : سبحان ربي القدوس ﴿ وأوتينا من كلّ شيءٍ ﴾ المراد به كثرة ما أوتي كما تقول فلان يعلم كل شيء ومثله ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ ﴿ إنّ هذا لهو الفضل المبين ﴾ قوله وارد على سبيل الشكر كقوله عليه السلام : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " أي أقول هذا القول شكراً ولا أقوله فخراً ، والنون في ﴿ علمنا ﴾ و ﴿ أوتينا ﴾ نون الواحد المطاع وكان ملكاً مطاعاً فكلم أهل طاعته على الحال التي كان عليها وليس التكبر من لوازم ذلك .

﴿ وحشر ﴾ وجمع ﴿ لسليمان جنوده من الجنّ والإنس والطّير ﴾ روي أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة فرسخ ، خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية ، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وابريسم فرسخاً في فرسخ ، وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب وفضة فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة فيقعد وحوله ، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا يقع عليه حر الشمس ، وترفع ريح الصبا البساط فتسير به مسيرة شهر .

ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى إليه وهو

يسير بين السماء والأرض إني قد زدت في ملكك أن لا يتكلم أحد بشيء إلا ألقته الريح في سمعك ، فيحكى أنه مر بحراث فقال : لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً فألقته الريح في أذنه فنزل ومشى إلى الحراث وقال : إني جئت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال : لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود ﴿ فهم يوزعون ﴾ يحبس أولهم على آخرهم أي يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالي ليكونوا مجتمعين وذلك للكثرة العظيمة .

والوزع : المنع ، ومنه قول عثمان رضي الله عنه : "ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن" .

(237/577)

﴿ حتّى إذا أتوا على واد النّمل ﴾ أي ساروا حتى إذا بلغوا وادي النمل وهو واد بالشام كثير النمل .

وعدي ب "على" لأن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء ﴿ قالت نملةٌ ﴾ عرجاء تسمى طاخية أو منذرة .

وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال : سلوا عما شئتم فسأله أبو حنيفة رضي الله عنه وهو شاب عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى ؟ فأفحم فقال أبو حنيفة

رضي الله عنه : كانت أنثى .

فقيل له : بماذا عرفت ؟ فقال : بقوله ﴿ قالت نملة ﴾ ولو كانت ذكراً لقال قال نملة ، وذلك أن النملة مثل الحمامة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة ، نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي ﴿ يا أيها النّمل ادخلوا مساكنكم ﴾ ولم يقل "ادخلن" لأنه لما جعلها قائلة والنمل مقولاً لهم كما يكون في أولي العقل أجرى خطابهن مجرى خطابهم ﴿ لا يحطمنّكم ﴾ لا يكسرنكم ، والحطم الكسر وهو نهي مستأنف وهو في الظاهر نهي لسليمان عن الحطم وفي الحقيقة نهي لهن عن البروز والوقوف على طريقة "لا أرينك ها هنا" أي لا تحضر هذا الموضع .

وقيل : هو جواب الأمر وهو ضعيف يدفعه نون التوكيد لأنه من ضرورات الشعر ﴿ سليمان وجنوده ﴾ قيل : أراد لا يحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ لا يعلمون بمكانكم أي لو شعروا لم يفعلوا ، قالت ذلك على وجه العذر واصفة سليمان وجنوده بالعدل فسمع سليمان قولها من ثلاثة أميال

﴿ فتبسّم ضاحكاً مّن قولها ﴾ متعجباً من حذرها واهتدائها لمصالحها ونصيحتها للنمل ، أو فرحاً لظهور عدله .

و ﴿ ضاحكاً ﴾ حال مؤكدة لأن تبسم بمعنى ضحك وأكثر ضحك الأنبياء التبسم كذا قاله الزجاج ﴿ وقال ربّ أوزعني ﴾ ألهمني وحقيقته كفني عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ ﴾ من النبوة والملك والعلم ﴿ وعلى والديّ ﴾ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ في بقية عمري ﴿ وأدخلني برحمتك ﴾ وأدخلني الجنة برحمتك لا بصالح عملي إذ لا يدخل الجنة أحد إلا برحمته كما جاء في الحديث ﴿ في عبادك الصّالحين ﴾ أي في زمرة أنبيائك المرسلين أو مع عبادك الصالحين .

روي أن النملة أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرن حتى دخلن مساكنهن ثم دعا بالدعوة .

﴿ وتفقّد الطّير فقال مالي ﴾ مكي وعلي وعاصم ، وغيرهم بسكون الياء .

والتفقد صلب ما غاب عنك ﴿ لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ "أم" بمعنى بل والمعنى أنه تعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد فقال : مالي لا أراه على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ، ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : بل هو غائب .

وذكر أن سليمان عليه السلام لما حج خرج إلى اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال فنزل

ليصلي فلم يجد الماء وكان الهدهد قنّاقنه وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فتستخرج الشياطين الماء فتفقده لذلك .

وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال ، فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب : عليّ به ، فارتفع فنظر فإذا هو مقبل فقصده فناشده الله فتركه ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض وقال : يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله فارتعد سليمان وعفا عنه ﴿ لأعذّبنّه عذاباً شديداً ﴾ بنتف ريشه وإلقائه في الشمس ، أو بالتفريق بينه وبين إلفه ، أو بإلزامه خدمة أقرآنه ، أو بالحبس مع أضداده .

(239/577)

وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الأضداد .

أو بإبداعه القفص أو بطرحه بين يدي النمل ليأكله .

وحل له تعذيب الهدهد لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع ، وإذا سخر له الطير لم يتم التسخير إلا بالتأديب والسياسة ﴿ أو لأذبحنّه أو ليأتينّي ﴾ بالنون الثقيلة ليشاكل قوله ﴿ لأعذبنه ﴾ وحذف نون العماد للتخفيف .

﴿ ليأتيني ﴾ بنونين : مكي الأول للتأكيد والثاني للعماد ﴿ بسلطانٍ مّبينٍ ﴾ بحجة له فيها عذر ظاهر على غيبته .

والإشكال أنه حلف على أحد ثلاثة أشياء : اثنان منها فعله ولا مقال فيه ، والثالث فعل الهدهد وهو مشكل لأنه من أين درى أنه يأتي بسلطان حتى قال : والله ليأتيني بسلطان ؟ وجوابه أن معنى كلامه ليكونن أحد الأمور يعني إن كان الإتيان بالسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح ، وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا دعاء دراية

﴿ فمكث ﴾ الهدهد بعد تفقد سليمان إياه ، وبضم الكاف غيره عاصم وسهل ويعقوب ، وهما لغتان

﴿ غير بعيدٍ ﴾ أي مكثاً غير طويل أو غير زمان بعيد كقوله "عن قريب" ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفاً من سليمان .

فلما رجع سأله عما لقي في غيبته ﴿ فقال أحطت ﴾ علماً شيئاً من جميع جهاته ﴿ بما لم تحط به ﴾ ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمة ابتلاء له في علمه ، وفيه دليل بطلان قول الرافضة أن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه ﴿ وجئتك من سبإٍ ﴾ غير منصرف .

أبو عمرو جعله اسماً للقبيلة أو المدينة وغيره بالتنوين جعله اسماً للحي أو الأب الأكبر ﴿ بنبإٍ يقينٍ ﴾ النبأ الخبر الذي له شأن ، وقوله من ﴿ سبأ بنبإٍ ﴾ من محاسن الكلام ويسمى

البديع وقد حسن وبدع لفظاً ومعنى ها هنا ألا ترى أنه لو وضع مكان ﴿ بنبإ ﴾ بخبر لكان المعنى صحيحاً وهو كما جاء أصح لما في النبإ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال .

(240/577)

﴿ إنّي وجدتّ امرأةً ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هي وقومها مجوساً يعبدون الشمس .

والضمير في ﴿ تملكهم ﴾ راجع إلى سبأ على تأويل القوم أو أهل المدينة ﴿ وأوتيت ﴾ حال ، و"قد" مقدرة ﴿ من كلّ شيءٍ ﴾ من أسباب الدنيا ما يليق بحالها ﴿ ولها عرشٌ ﴾ سرير عظيم ﴿ عظيمٌ ﴾ كبير .

قيل : كان ثمانين ذراعاً في ثمانين ذراعاً وطوله في الهواء ثمانون ذراعاً ، وكان من ذهب وفضة وكان مرصعاً بأنواع الجواهر وقوائمه من يا قوت أحمر وأخضر ودر وزمرد ، وعليه سبعة أبواب على كل بيت باب مغلق .

واستصغر حالها إلى حال سليمان فاستعظم عرضها لذلك ، وقد أخفى الله تعالى على سليمان ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب عليهما السلام

﴿ وجدتّها وقومها يسجدون للشّمس من دون الله وزّين لهم الشّيطان أعمالهم فصدّهم

عن السّبيل ﴾ أي سبيل التوحيد ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ إلى الحق ولا يبعد من الهدهد التهدي إلى معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وحرمة السجود للشمس إلهاماً من الذلة كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها .

﴿ ألاّ يسجدوا ﴾ بالتشديد أي فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع "أن" وأدغمت النون في اللام ، ويجوز أن تكون "لا" مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا .

(241/577)

وبالتخفيف : يزيد وعلي ، وتقديره : ألا يا هؤلاء اسجدوا ف "ألا" للتنبيه و"يا" حرف نداء ومناداه محذوف ، فمن شدد لم يقف إلا على العرش العظيم ، ومن خفف وقف على ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ ثم ابتدأ ﴿ ألا يسجدوا ﴾ أو وقف على ﴿ ألايا ﴾ ثم ابتدأ ﴿ اسجدوا ﴾ وسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً بخلاف ما يقوله الزجاج إنه لا يجب السجود مع التشديد ، لأن مواضع السجدة إما أمر بها أو مدح للآتي بها أو ذم لتاركها ، وإحدى القراءتين أمر والآخرى ذم للتارك ﴿ لله الذي يخرج الخبء ﴾ سمى المخبوء

بالمصدر ﴿ في السّماوات والأرض ﴾ قتادة خبء السماء المطر وخبء الأرض النبات ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ وبالتاء فيهما : علي وحفص ﴿ الله لا إله إلاّ هو ربّ العرش العظيم ﴾ وصف الهدهد عرش الله بالعظيم تعظيم به بالنسبة إلى سائر ما خلق من السماوات والأرض ، ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك إلى ههنا كلام الهدهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 209.201 ﴾

(242/577)

وقال البيضاوى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طس ﴾ .

﴿ تِلْكَ ءايات القرءان وكتاب مُّبِينٍ ﴾ الإِشارة إلى آي السورة ، والكتاب المبين إما اللوح المحفوظ وإبانته أنه خط فيه ما هو كائن فهو يبينه للناظرين فيه ، وتأخيره باعتباره تعلق علمنا به وتقديمه في الحجر باعتبار الوجود ، أو القرآن وإبانته لما أودع فيه من الحكم والأحكام ، أو لصحته بإعجازه وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى

وتنكيره للتعظيم . وقرىء ﴿ وكتاب ﴾ بالرفع على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه .

﴿ هُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ حالان من ال ﴿ ءايات ﴾ والعامل فيهما معنى الإِشارة ، أو بدلان منها أو خبران آخران أو خبران لمحذوف .

﴿ الذين يُقِيمُونَ الصلاة ويُؤْتُونَ الزكوة ﴾ الذين يعملون الصالحات من الصلاة والزكاة . ﴿ وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ من تتمة الصلة والواو للحال أو للعطف ، وتغيير النظم للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم الأوحدون فيه ، أو جملة اعتراضية كأنه قيل : وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة ، فإن تحمل المشاق إنما يكون لخوف العاقبة والوثوق على المحاسبة وتكرير الضمير للاختصاص .

﴿ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة زَيَّنَّا لَهُمْ أعمالهم ﴾ زين لهم أعمالهم القبيحة بأن جعلها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس ، أو الأعمال الحسنة التي وجب عليهم أن يعملوها بترتيب المثوبات عليها . ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ عنها لا يدركون ما يتبعها من ضر أو نفع .

﴿ أولئك الذين لَهُمْ سُوء العذاب ﴾ كالقتل والأسر يوم بدر . ﴿ وَهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ أشد الناس خسراناً لفوات المثوبة واستحقاق العقوبة .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان ﴾ لتؤتاه . ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أي حكيم وأي عليم ، والجمع بينهما مع أن العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل والإشعار بأن علوم القرآن منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات ، ثم شرع في بيان بعض تلك العلوم بقوله :

﴿ إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً ﴾ أي اذكر قصته ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ ويجوز أن يتعلق ب ﴿ عَلِيمٌ ﴾ . ﴿ سَئَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي عن حال الطريق لأنه قد ضله ، وجمع الضمير إن صح أنه لم يكن معه غير امرأته لما كنى عنها بالأهل ، والسين للدلالة على بعد المسافة والوعد بالإتيان وإن أبطأ . ﴿ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ ﴾ شعلة نار مقبوسة ، وإضافة الشهاب إليه لأنه قد يكون قبساً وغير قبس ، ونونه الكوفيون ويعقوب على أن ال ﴿ قَبَسٍ ﴾ بدل منه أو وصف له لأنه بمعنى المقبوس ، والعدتان على سبيل الظن ولذلك عبر عنهما بصيغة الترجي في "طه" ، والترديد للدلالة على أنه إن لم يظفر بهما لم يعدم ، أحدهما بناء على ظاهر الأمر أو ثقة بعبادة الله تعالى أنه لا يكاد يجمع حرمانين على عبده .

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ ﴾ أي ﴿ بُورِكَ ﴾ فإن النداء فيه معنى القول ، أو ب ﴿ أَن بُورِكَ ﴾ على أنها مصدرية أو مخففة من الثقيلة ، والتخفيف وإن اقتضى التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لكنه دعاء وهو يخالف غيره في أحكام كثيرة . ﴿ مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ في مكان ﴿ النار ﴾ وهو البقعة المباركة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِىء الواد الأيمن فِي البقعة المباركة ﴾ ومن حول مكانها والظاهر أنه عام في كل من تلك الأرض ، وفي ذلك الواد وحواليها من أرض الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتاً وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى . وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون ، وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم تنتشر بركته في أقطار الشأم . ﴿ وسبحان الله رَبّ العالمين ﴾ من تمام ما نودي به لئلا يتوهم من سماع كلامه تشبيهاً وللتعجيب من عظمة ذلك الأمر ، أو تعجب من موسى لما دهاه من عظمته .

﴿ يا موسى إِنَّهُ أَنَا الله ﴾ الهاء للشأن و ﴿ أَنَا الله ﴾ جملة مفسرة له ، أو للمتكلم و ﴿ أَنَاْ ﴾ خبره و ﴿ الله ﴾ بيان له . ﴿ العزيز الحكيم ﴾ صفتان لله ممهدتان لما أراد أن

يظهره ، يريد أنا القوي القادر على ما يبعد من الأوهام كقلب العصا حية الفاعل كل ما أفعله بحكمة وتدبير .

(245/577)

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على ﴿ بُورِكَ ﴾ أي نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك ، ويدل عليه قوله ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ بعد قوله ﴿ أَن يَا موسى إِنِّي أَنَا الله ﴾ بتكرير أن . ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك باضطراب . ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ حية خفيفة سريعة ، وقرىء "جأن" على لغة من جد في الهرب من التقاء الساكنين . ﴿ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع من عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار ، وإنما رعب لظنه أن ذلك الأمر أريد به ويدل عليه قوله : ﴿ يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ ﴾ أي من غيري ثقة بي أو مطلقاً لقوله : ﴿ إِنِّى لاَ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون ﴾ أي حين يوحى إليهم من فرط الاستغراق فإنهم أخوف الناس أي من الله تعالى ، أو لا يكون لهم عندي سوء عاقبة فيخافون منه .

﴿ إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوء فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ استثناء منقطع استدرك به ما يختلج في الصدر من نفي الخوف عن كلهم ، وفيهم من فرطت منه صغيرة فإنهم وإن فعلوها أتبعوا فعلها ما يبطلها ويستحقون به من الله مغفرة ورحمة فإنه لا يخاف أيضاً ،

وقصد تعريض موسى بوكزه القبطي . وقيل متصل وثم بدل مستأنف معطوف على محذوف أي عن ظلم ثم بدل ذنبه بالتوبة .

(246/577)

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ لأنه كان بمدرعة صوف لا كم لها . وقيل الجيب القميص لأنه يجاب أي يقطع . ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ آفة كبرص . ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ ﴾ في جملتها أو معها على أن التسع هي ، الفلق ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطمسة ، والجدب في بواديهم ، والنقصان في مزراعهم ولمن عد العصا واليد من التسع أن يعد الأخيرين واحداً ولا يعد الفلق لأنه لم يبعث به إلى فرعون . أو اذهب في تسع آيات على أنه استئناف بالإرسال فيتعلق به . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴾ وعلى الأولين يتعلق بنحو مبعوثاً أو مرسلاً . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ تعليل للإرسال .

﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ ءاياتنا ﴾ بأن جاءهم موسى بها . ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ بينة اسم فاعل أطلق للمفعول ، وإشعاراً بأنها لفرط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر ، أو ذات تبصر من حيث إنها تهدي والعمي لا تهتدي فضلاً عن أن تهدي ، أو مبصرة كل من نظر إليها وتأمل فيها . وقرىء "مُبْصِرَةً" أي مكاناً يكثركم فيه التبصر . ﴿ قَالُواْ هذا

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ واضح سحريته .

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا ﴾ وكذبوا بها . ﴿ واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ وقد استيقنتها لأن الواو للحال . ﴿ ظُلْماً ﴾ لأنفسهم . ﴿ وَعُلُوّاً ﴾ ترفعاً عن الإيمان وانتصابهما . على العلة من ﴿ جَحَدُواْ ﴾ . ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة المفسدين ﴾ وهو الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة .

(247/577)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وسليمان عِلْماً ﴾ طائفة من العلم وهو علم الحكم والشرائع ، أو علماً أي علم . ﴿ وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ ﴾ عطفه بالواو إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة هذه النعمة كأنه قال : ففعلا شكراً له ما فعلا ﴿ وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ ﴾ . ﴿ الذى فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني من لم يؤت علماً أو مثل علمهما ، وفيه دليل على فضل العلم وشرف أهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا من الملك الذي لم يؤت غيرهما ، وتحريض للعالم على أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله وأن يتواضع ويعتقد أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير .

﴿ وَوَرِثَ سليمان دَاوُودَ ﴾ النبوة أو العلم أو الملك بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر .

(248/577)

﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تشهيراً لنعمة الله وتنويهاً بها ودعاء الناس إلى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير وغير ذلك من عظائم ما أوتيه ، والنطق والمنطق في المتعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفرداً كان أو مركباً وقد يطلق لكل ما يصوت به على التشبيه ، أو التبع كقولهم نطقت الحمامة ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد ، فإن الأصوات الحيوانية من حيث إنها تابعة للتخيلات منزلة منزلة العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما من جنسه ، ولعل سليمان عليه الصلاة والسلام مهما سمع صوت حيوان علم بقوته القدسية التخيل الذي صوته والغرض الذي توخاه به . ومن ذلك ما حكي أنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال : يقول إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء ، وصاحت فاختة فقال : إنها تقول ليت الخلق لم يخلقوا ، فلعله كان صوت البلبل عن شبع وفراغ بال وصياح الفاختة عن مقاساة شدة وتألم قلب ، والضمير في ﴿ عَلِمْنَا ﴾ ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ له ولأبيه

عليهما الصلاة والسلام أوله وحده على عادة الملوك لمراعاة قواعد السياسة ، والمراد ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كثرة ما أوتي كقولك : فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء . ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ الفضل المبين ﴾ الذي لا يخفى على أحد .

﴿ وَحُشِرَ ﴾ وجمع . ﴿ لسليمان جُنُودُهُ مِنَ الجن والإنس والطير فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبسون بحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا .

(249/577)

﴿ حتى إِذَا أَتَوْا على وَادِي النمل ﴾ واد بالشام كثير النمل ، وتعدية الفعل إليه ب ﴿ على ﴾ إما لأن إتيانهم كان من عال أو لأن المراد قطعة من قولهم : أتى على الشيء إذا أنفده وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا أخريات الوادي . ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ كأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادي فرت عنهم مخافة حطمهم فتبعها غيرها فصاحت صيحة نبهت بها ما بحضرتها من النمال فتبعتها ، فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ولذلك أجروا مجراهم مع أنه لا يمتنع أن خلق الله سبحانه وتعالى فيها العقل والنطق . ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سليمان وَجُنُودُهُ ﴾ نهي لهم عن الحطم ، والمراد نهيها عن التوقف بحيث يحطمونها كقولهم : لا أرينك ها هنا ، فهو استئناف أو بدل من الأمر لا

جواب له فإن النون لا تدخله في السعة . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بأنهم يحطمونكم إذ لو شعروا لم يفعلوا كأنها شعرت عصمة الأنبياء من الظلم والإيذاء . وقيل استئناف أي فهم سليمان والقوم لا يشعرون .

﴿ فَتَبَسَّمَ ضاحكا مّن قَوْلِهَا ﴾ تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى مصالحها ، وسروراً بما خصه الله تعالى به من إدراك همسها وفهم غرضها ولذلك سأل توفيق شكره . ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ أي اجعلني أزع شكر نعمتك عندي ، أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني بحيث لا أنفك عنه ، وقرأ البزي وورش بفتح ياء ﴿ أَوْزِعْنِي ﴾ . ﴿ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ ﴾ أدرج فيه ذكر والديه تكثيراً للنعمة أو تعميماً لها ، فإن النعمة عليهما نعمة عليه والنعمة عليه يرجع نفعها إليهما سيما الدينية . ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صالحا ترضاه ﴾ إتماماً للشكر واستدامة للنعمة . ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ في عدادهم الجنة .

(250/577)

﴿ وَتَفَقَّدَ الطير ﴾ وتعرف الطير فلم يجد فيها الهدهد . ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغائبين ﴾ أم منقطعة كأنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولا يراه لساتر أو غيره فقال :

ما لي لا أراه ، ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له .

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ كنتف ريشه وإلقائه في الشمس ، أو حيث النمل يأكله أو جعله مع ضده في قفص . ﴿ أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ ليعتبر به أبناء جنسه . ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بسلطان مُّبِينٍ ﴾ بحجة تبين عذره ، والحلف في الحقيقة على أحد الأولين بتقدير عدم الثالث لكن لما اقتضى ذلك وقوع أحد الأمور الثلاثة ثلث المحلوف عليه بعطفه عليهما ، وقرأ ابن كثير أو "ليأتينني" بنونين الأولى مفتوحة مشددة .

(251/577)

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ زماناً غير مديد يريد به الدلالة على سرعة رجوعه خوفاً منه ، وقرأ عاصم بفتح الكاف . ﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ يعني حالاً سبأ ، وفي مخاطبته إياه بذلك تنبيه له على أن في أدنى خلق الله تعالى من أحاط علماً بما لم يحط به لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر لديه علمه ، وقرىء بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق . ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ ﴾ وقرأ ابن كثير برواية البزي وأبو عمرو غير مصروف على تأويل القبيلة والبلدة والقواس بهمزة ساكنة . ﴿ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ بخبر متحقق روي أنه عليه

الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج فوافى الحرم وأقام بها ما شاء ، ثم توجه إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً فوافى صنعاء ظهيرة فأعجبته نزاهة أرضها فنزل بها ثم لم يجد الماء وكان الهدهد رائده لأنه يحسن طلب الماء فتفقده لذلك فلم يجده إذ حلق حين نزل سليمان فرأى هدهداً واقعاً فانحط إليه فتواصفا وطار معه لينظر ما وصف له ، ثم رجع بعد العصر وحكى ما حكى ، ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها .

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ ﴾ يعني بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان ، والضمير لسبأ أو لأهلها . ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه الملوك . ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ عظمه بالنسبة إليها أو إلى عروش أمثالها . وقيل كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عرضاً وسمكاً ، أو ثمانين من ذهب وفضة مكللاً بالجواهر .

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ كأنهم كانوا يعبدونها . ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أعمالهم ﴾ عبادة الشمس وغيرها من مقابح أعمالهم . ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ﴾ عن سبيل الحق والصواب . ﴿ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ إليه .

﴿ أَلاَّ يَسْجُدُواْ للَّهِ ﴾ فصدهم لئلا يسجدوا أو زين لهم أن لا يسجدوا على أنه بدل من ﴿ أعمالهم ﴾ ، أو ﴿ لاَيَهْتَدُونَ ﴾ إلى أن يسجدوا بزيادة ﴿ لا ﴾ . وقرأ الكسائي ويعقوب ﴿ إلا ﴾ بالتخفيف على أنها للتنبيه ويا للنداء ومناداه محذوف أي : ألا يا قوم اسجدوا كقوله :

وَقَالَتْ أَلاَيَا اسْمَعْ أَعِظكَ بِخطَّةٍ . . . فَقُلْتُ سَمِيعاً فَانْطِقِي وَأَصِيبِي

وعلى هذا صح أن يكون استئنافاً من الله أو من سليمان والوقف على ﴿ لاَيَهْتَدُونَ ﴾ ، فيكون أمراً بالسجود وعلى الأول ذماً على تركه وعلى الوجهين يقتضي وجوب السجود في الجملة لا عند قراءتها ، وقرىء "هلا" و"هلا" بقلب الهمزة هاء و"ألا تسجدون" و"هلا تسجدون" على الخطاب . ﴿ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السموات والأرض وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وصف له تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من التفرد بكمال القدرة والعلم حثاً على سجوده ورداً على من يسجد لغيره ، و ﴿ الخبء ﴾ ما خفي في غيره وإخراجه إظهاره ، وهو يعم إشراق الكواكب وإنزال الأمطار وإنبات النبات بل الإنشاء فإنه إخراج ما في الشيء بالقوة إلى الفعل والإبداع ، فإنه إخراج ما في الإمكان والعدم إلى الوجوب والوجود ومعلوم أنه يختص بالواجب لذاته . وقرأ حفص والكسائي "مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ" بالتاء .

﴿ اللهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ الذي هو أول الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها فبين العظيمين بون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 258 . 265 ﴾

(253/577)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة النمل

مكية وهي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية ، وألف ومائة وتسع وأربعون كلمة ، وأربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ أي : الذي كمل علمه فبهرت حكمته ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بالهداية بأوضح البيان ﴿ الرحيم ﴾ أي : الذي منّ بجنات النعيم على من اتبع الصراط المستقيم .

﴿ طس ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء الله عز وجلّ ، وقد سبق الكلام في حروف الهجاء عليه ، وقرأ حمزة والكسائي وشعبة ، بإمالة الطاء ، والباقون بالفتح .

﴿ تلك ﴾ أي : هذه الآيات العالية المقام البعيدة المرام البديعة النظام ﴿ آيات القرآن ﴾ أي : الكامل في قرآنيته الجامع للأصول الناشر للفروع الذي لا خلل فيه ولا فصم ولا صدع ولا وصم ﴿ وكتاب مبين ﴾ أي : مظهر الحق من الباطل ، فإن قيل : كيف صح أن يشار لاثنين

أحدهما مؤنث والآخر مذكر باسم الإشارة المؤنث ولو قلت تلك هند وزيد لم يجز ؟ .

أجيب من ثلاثة أوجه : أحدها : أنّ المراد بالكتاب هو الآيات لأنّ الكتاب عبارة عن الآيات المجموعة فلما كانا شيئاً واحد صحت الإشارة إليهما بإشارة الواحد المؤنث ، الثاني : أنه على حذف مضاف أي : وآيات كتاب مبين ، الثالث : أنه لما ولي المؤنث ما تصح الإشارة به إليه اكتفى به وحسن ، ولو ولي المذكر لم يحسن ، ألا ترى أنك تقول جاءتني هند وزيد ولو أخرت هند لم يجز تأنيث الفعل ، وقرأ ابن كثير بالنقل وصلاً وابتداءً وحمزة في الوقف لا غير ، والباقون بغير نقل وقوله تعالى:

﴿ هدى وبشرى ﴾ يجوز أن يكونا منصوبين على المصدر بفعل مقدّر من لفظهما ، أي : يهدي هدىً ويبشر بشرى ، وأن يكونا في موضع الحال من آيات والعامل فيهما ما في تلك من معنى الإشارة ، وأن يكونا خبراً بعد خبر ، وأن يكونا خبري مبتدأ مضمر ، أي : هو هدى من الضلالة وبشرى ﴿ للمؤمنين ﴾ أي : المصدّقين به بالجنة كقوله تعالى : ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ (النساء :)

(254/577)

ولهذا خص به المؤمنين ، وقيل المراد بالهدى الدلالة ، وإنما خصه بالمؤمنين لأنه ذكر مع الهدى البشرى ، والبشرى إنما تكون للمؤمنين ، أو لأنهم تمسكوا به كقوله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ (النازعات :)

أو لأنه يزيد في هداهم كقوله تعالى : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ﴾ (مريم :) ، ولما كان وصف الإيمان خفياً وصفهم بما يصدّقه من الأمور الظاهرة بقوله تعالى:

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أي : بجميع حدودها الظاهرة والباطنة من المواقيت والطهارات والشروط والأركان والخشوع والمراقبة والإحسان إصلاحاً لما بينهم وبين الخالق ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي : إحساناً فيما بينهم وبين الخلائق ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ أي : يوجدون الإيقان حق الإيجاد بالاستدلال ويجدّدونه في كل حين بما يوجد منهم من الإقدام على الطاعة والإحجام عن المعصية ، وأعيد هم لما فصل بينه وبين الخبر ، ولما أفهم التخصيص أن ثم من يكذب بها ذكره بقوله تعالى:

﴿ إن الذين لا يؤمنون ﴾ أي : لا يوجدون الإيمان ولا يجددونه ﴿ بالآخرة زينا ﴾ أي : بعظمتنا التي لا يمكن دفاعها ﴿ لهم أعمالهم ﴾ أي : القبيحة بتركيب الشهوة حتى أعرضوا عن الخوف من عاقبتها مع ظهور قباحتها ، والإسناد إليه حقيقيّ عند أهل السنة لأنه الموجد الحقيقيّ ، وإلى الشيطان مجاز سببيّ ، وعند المعتزلة بالعكس ، قال الزمخشريّ في تفسيره : إنّ إسناده إلى الشيطان حقيقة وإسناده إلى الله عز وجل مجاز ﴿ فهم ﴾ أي :

فتسبب عن ذلك أنهم ﴿ يعمهون ﴾ أي : يتحيرون ويتردّدون في أودية الضلال ويتمادون في ذلك ، فهم كل لحظة في خبط جديد بعمل غير سديد .

(255/577)

﴿ أولئك ﴾ أي : البعداء البغضاء ﴿ الذين لهم ﴾ أي : خاصة ﴿ سوء العذاب ﴾ أي : أشدّه في الدنيا بالخوف والقتل ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي : أشدّ الناس خسارة لأنهم خسروا ما لا خسارة مثله لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ، ولما وصف تعالى القرآن بما اقتضى بيان أهل الفوز والخسران ، ذكر حال المنزل عليه وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم مخاطباً له بقوله تعالى:

﴿ وإنك ﴾ أي : وأنت يا أشرف الخلق وأعلمهم وأعظمهم وأحكمهم ﴿ لتلقى القرآن ﴾ أي : لتؤتاه وتلقنه أي : يلقى عليك بشدّة ﴿ من لدن ﴾ أي : من عند ﴿ حكيم ﴾ أي : بالغ الحكمة فلا شيء من أفعاله إلا وهو في غاية الإتقان ﴿ عليم ﴾ أي : عظيم العلم واسعه تامّه شامله ، والجمع بينهما مع أنّ العلم داخل في الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على إتقان الفعل ، والإشعار بأنّ علوم القرآن منها : ما هو كالعقائد والشرائع ، ومنها : ما ليس كذلك كالقصص والأخبار عن المغيبات ، ثم شرع في بيان تلك العلوم بقوله تعالى:

﴿ إذ قال موسى ﴾ أي : اذكر قصته حين قال ﴿ لأهله ﴾ أي : زوجته بنت شعيب عليه السلام عند مسيره من مدين إلى مصر وهي القصة الأولى من قصص هذه السورة ، قال الزمخشريّ : روي أنه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ، وقد كنى الله تعالى عنها بالأهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله : امكثوا ، وكانا يسيران ليلاً وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد ، وفي مثل هذا الحال يقوى الناس بمشاهدة نار من بعد ، لما يرجى فيها من زوال الحيرة وأمن الطريق ومن الانتفاع بالنار للإصطلاء ، فلذلك بشرها فقال : ﴿ إني آنست ﴾ أي : أبصرت إبصار حصل لي به الأنس وأزال عني الوحشة ﴿ ناراً سآتيكم منها بخبر ﴾ أي : عن حال الطريق وكان قد أضلها ، وعبر بلفظ الجمع كما في قوله : ﴿ امكثوا ﴾ فإن قيل : كيف جاء بسين التسويف ؟

(256/577)

أجيب : بأنّ ذلك عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ الإتيان أو كانت المسافة بعيدة ، فإن قيل : قال هنا ﴿ سآتيكم منها بخبر ﴾ وفي السورة الآتية : ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ (القصص :)

وهما كالمتدافعين لأنّ أحدهما ترج والآخر تيقن ؟

أجيب : بأنّ الراجي قد يقول إذا قوي رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الحقيقة .

﴿ أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ أي : شعلة نار في رأس فتيلة أو عود ، قال البغويّ : وليس في الطرف الآخر نار ، وقال بعضهم الشهاب شيء ذو نور مثل العمود والعرب تسمى كل شيء أبيض ذي نور شهاباً ، والقبس : القطعة من النار ، وقرأ الكوفيون بشهابٍ بالتنوين على أنّ القبس بدل منه أو وصف له لأنه بمعنى المقبوس ، والباقون بإضافة الشهاب إليه لأنه يكون قبساً وغير قبس فهو من إضافة النوع إلى جنسه ، نحو ثوب خز إذ الشهاب شعلة من النار والقبس قطعة منها يكون في عود أو غيره كما مرّ .

فإن قيل : لم جاء بأو دون الواو ؟

أجيب : بأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما ، إمّا هداية الطريق وإمّا اقتباس النار ثقة بعادة الله أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده ، وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكليتين جميعاً وهما العزان عز الدنيا وعز الآخرة ، ثم إنه عليه السلام علل إتيانه بذلك إفهاماً لأنها ليلة باردة بقوله : ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي : لتكونوا في حال من يرجى أن يستدفئ بذلك من البرد ، والطاء بدل من تاء الافتعال ، من صلى بالنار بكسر اللام وفتحها .

﴿ فلما جاءها ﴾ أي : تلك التي ظنها ناراً ﴿ نودي ﴾ من قبل الله تعالى ﴿ أن بورك ﴾

أن هي المفسرة لأنّ النداء فيه معنى القول ، والمعنى قيل له : بورك ، أو المصدرية أي : بأن بورك ، وقوله تعالى : ﴿ من في النار ﴾ أي : موسى ﴿ ومن حولها ﴾ أي : الملائكة هو نائب الفاعل لبورك ، والأصل بارك الله من في النار ومن حولها ، وهذا تحية من الله عز وجلّ لموسى بالبركة .

(257/577)

ومذهب أكثر المفسرين أنّ المراد بالنار النور ذكر بلفظ النار لأنّ موسى حسبه ناراً ، أو من في النار هم الملائكة ، وذلك أنّ النور الذي رآه موسى عليه السلام كان فيه الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتقديس ومن حولها هو موسى لأنه كان بالقرب منها ولم يكن فيها ، وقال سعيد بن جبير : كانت النار بعينها والنار إحدى حجب الله تعالى ، كما جاء في الحديث : "حجابه النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه" الحديث تنبيه : بارك يتعدّى بنفسه وبحرف الجرّ يقال باركك الله وبارك عليك وبارك فيك وبارك لك ، وقال الشاعر :

*فبوركت مولوداً وبوركت ناشئاً ** وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب*

قال الزمخشريّ : والظاهر أنه عامّ في كل من في تلك الأرض وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشأم ، ولقد جعل الله تعالى أرض الشأم الموسومة بالبركات لكثرتها مبعث الأنبياء ،

وكفاتهم أحياء وأمواتاً ، ومهبط الوحي عليهم ، وخصوصاً تلك البقعة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام وقوله تعالى ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ من تمام ما نودي به لئلا يتوهم من سماع كلامه تشبيهاً ، وللعجب من عظمة الله في ذلك الأمر فإنه أتاه النداء ، كما ورد من جميع الجهات فسمعه بجميع الحواس ، أو تعجب من موسى لما دعاه من عظمته ولما تشوفت النفس إلى تحقق الأمر تصريحاً ، قال تعالى تمهيداً لما أراد سبحانه إظهاره على يد موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات .

﴿ يا موسى إنه ﴾ أي : الشأن العظيم الجليل الذي لا يبلغ وصفه ، وجملة ﴿ أنا الله ﴾ أي : البالغ في العظمة ما تقصر عنه الأوهام ، مفسرة له ، أو المتكلم ، وأنا خبر ، والله بيان له ، ثم وصف تعالى نفسه بوصفين يدلان على ما يفعله مع موسى عليه السلام : أحدهما : ﴿ العزيز ﴾ أي : الذي يصل إلى سائر ما يريد ولا يرده عن مراده راد ، والثاني : ﴿ الحكيم ﴾ أي : الذي يفعل كل ما يفعله بحكمة وتدبير .

(258/577)

فإن قيل : هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى ، فكيف علم موسى أنه من الله تعالى ؟

أجيب : بأنه سمع الكلام المنزه عن شائبة كلام المخلوقين لأنّ النداء أتاه من جميع الجهات وسمعه بجميع الحواس كما مر ، فعلم بالضرورة أنه صفة الله سبحانه وتعالى ، ثم أرى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام آية تدلّ على قدرته ليعلم علم شهود وهي قوله تعالى: ﴿ وألق عصاك ﴾ فألقاها كما مرّ فصارت في الحال ، كما آذنت به الفاء حية عظيمة جدّاً ، ومع كونها في غاية العظم في نهاية الخفة والسرعة في اضطرابها عند محاولتها ما تريد ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أي : تضطرب في تحرّكها مع كونها في غاية الكبر ﴿ كأنها جان ﴾ أي : حية صغيرة في خفتها وسرعتها فلا ينافي ذلك كبر جثتها ﴿ ولى ﴾ أي : موسى عليه السلام ثم إنّ التولية مشتركة بين معان ، فلذا بين المراد منها بقوله تعالى : ﴿ مدبراً ﴾ أي : التفت هارباً منها مسرعاً جدّاً لقوله تعالى : ﴿ ولم يعقب ﴾ أي : لم يرجع على عقبه ولم يلتفت إلى ما وراءه بعد توليه .

تنبيه : قال الزمخشري : وألق عصاك معطوف على بورك لأنّ المعنى نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لنودي ، والمعنى قيل : له : بورك من في النار ، وقيل له : ألق عصاك انتهى . وإنما احتاج إلى تقدير وقيل له ألق لتكون جمله خبرية مناسبة للجملة الخبرية التي عطفت عليها لأنه يرى في العطف تناسب الجمل المتعاطفة ، والصحيح كما قاله أبو حيان : أنه لا يشترط ذلك ، ولما تشوّفت النفس إلى ما قيل له عند هذه الحالة أجيب : بأنه قيل له ﴿ يا موسى لا تخف ﴾ أي : منها ولا من غيرها ثقة بي ، ثم علل هذا

النهي بقوله تعالى : مبشراً بالأمن والرسالة ﴿ إني لا يخاف لديّ ﴾ أي : عندي ﴿ المرسلون ﴾ أي : من حية وغيرها لأنهم معصومون من الظلم لا يخاف من الملك العدل إلا ظالم ، وقوله تعالى .

(259/577)

﴿ إلا من ظلم ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه استثناء منقطع ، لأنّ المرسلين معصومون من المعاصي وهذا هو الصحيح ، والمعنى لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف إلا من تاب كما قال تعالى : ﴿ ثم بدّل ﴾ أي : بتوبته ﴿ حسناً بعد سوء ﴾ وهو الظلم الذي كان عمله أي : جعل الحسن بدل السوء كالسحرة الذين آمنوا بعد ذلك بموسى عليه السلام ﴿ فإني ﴾ أرحمه بسبب أني ﴿ غفور ﴾ أي : من شأني أن أمحو الذنوب محواً يزيل جميع آثارها ﴿ رحيم ﴾ أي : أعامله معاملة الراحم البليغ الرحمة ، والثاني : أنه استثناء متصل .

وللمفسرين فيه عبارات : قال الحسن : إنّ موسى ظلم بقتل القبطي ثم تاب فقال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، وقال غيره : إنّ ذلك محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل ، وقال بعض النحويين : إلا ههنا بمعنى ولا ، أي : لا يخاف لديّ المرسلون ولا

المذنبون التائبون كقوله تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا ﴾ (البقرة :)

أي : ولا الذين ظلموا ثم أراه الله تعالى بعد هذه الآية آية أخرى ذكرها بقوله تعالى:

﴿ وأدخل يدك في جيبك ﴾ أي : فتحة ثوبك وهو ما قطع منه ليحيط بعنقك ، وكان عليه مدرعة صوف لا كم لها وقيل : الجيب القميص لأنه يجاب أي : يقطع ﴿ تخرج بيضاء ﴾ أي : بياضاً عظيماً نيراً جداً له شعاع كشعاع الشمس ، وكانت الآية الأولى مما في يده بقلب جوهرها إلى جوهر شيء آخر حيواني ، وهذه في يده نفسها بقلب عرضها التي كانت عليه إلى عرض آخر نوراني ، ثم نفى عنها أن يكون ذلك بسبب آفة بقوله تعالى : ﴿ من غير سوء ﴾ أي : برص ولا غيره من الآفات ، وقوله تعالى ﴿ في تسع آيات ﴾ كلام مستأنف ، وحرف الجرّ فيه متعلق بمحذوف ، والمعنى : اذهب في تسع آيات ﴿ إلى فرعون وقومه ﴾ كقول القائل:

*فقلت إلى الطعام فقال منهم ** فريق يحسد الأنس الطعاما *

ويجوز أن يكون بمعنى وألق عصاك وأدخل يدك في تسع آيات وعدادهنّ .

(260/577)

ولقائل أن يقول كانت الآيات إحدى عشرة آية : ثنتان منها العصا واليد ، والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم ، وقيل : في بمعنى من أي : من تسع آيات فتكون العصا واليد من التسع ، ثم علل إرساله إليهم بالخوارق بقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي : خارجين عن طاعتنا .

﴿ فلما جاءتهم آياتنا ﴾ أي : على يد موسى عليه السلام ﴿ مبصرة ﴾ أي : بينة واضحة هادية إلى الطريق الأقوم ﴿ قالوا هذا سحر ﴾ أي : خيال لا حقيقة له ﴿ مبين ﴾ أي : واضح في أنه خيال .

أي : أنكروا كونها آيات موجبات لصدقه مع علمهم بإبطالهم لأنّ الجحود الإنكار مع العلم ﴿ واستيقنتها أنفسهم ﴾ أي : علموا أنها من عند الله تعالى وتخلل علمها صميم قلوبهم ، فكانت ألسنتهم مخالفة لما في قلوبهم ولذلك أسند الاستيقان إلى النفس ، ثم علل جحدهم ووصفهم لها بخلاف وصفها بقوله تعالى : ﴿ ظلماً وعلواً ﴾ أي : شركاء وتكبراً عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى ﴿ فانظر ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وهو الإغراق في الدنيا بأيسر سعي وأيسر أمر ، فلم يبق منهم عين تطرف ولم يرجع منهم مخبر على كثرتهم وعظمتهم وقوتهم ، والإحراق في الآخرة بالنار المؤبدة . القصة الثانية قصة داود وسليمان عليهما السلام المذكورة في قوله تعالى .

﴿ ولقد آتينا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ داود وسليمان ﴾ ابنه وهما من أتباع موسى عليهم السلام وبعده بأزمان متطاولة ﴿ علماً ﴾ أي : جزأ من العلم عظيماً من منطق الطير والدواب وتسبيح الجبال وغير ذلك لم نؤته لأحد من قبلهما ولما كان التقدير فعملا بمقتضاه ، عطف عليه قوله : ﴿ وقالا ﴾ شكراً عليه ودلالة على شرف العلم وتنبيهاً لأهله على التواضع ﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بجميع أوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي : الذي لا كفء له ﴿ الذي فضلنا ﴾ أي : بما آتانا من النبوّة والكتاب وتسخير الشياطين والجنّ والإنس وغير ذلك ﴿ على كثير من عباده المؤمنين ﴾ أي : ممن لم يؤت علماً أو مثل علمهما ، وفي ذلك تحريض للعالم أن يحمد الله تعالى على ما آتاه من فضله ويعتقد أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه كثير ، فلا يتكبر ولا يفتخر ويشكر الله تعالى ، وينفع به المسلمين كما نفعه الله تعالى به ، ثم إنه تعالى أشار إلى فضل سليمان بأنه جمع إلى ما آتاه ما كان منح به أباه بقوله تعالى:

﴿ وورث سليمان داود ﴾ أباه عليهما السلام دون سائر أولاده وكان لداود تسعة عشر ابناً فأعطي سليمان ما أعطي داود من الملك وزيد له تسخير الريح وتسخير الشياطين ،

قال مقاتل : كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأقضى منه ، وكان داود أشد تعبداً من سليمان ، وكان سليمان شاكراً لنعم الله تعالى ﴿ وقال ﴾ تحدّثاً بنعمة ربه ومنبهاً على ما شرّفه الله تعالى به ليكون أجدر في قبول الناس ما يدعوهم إليه من الخير ﴿ يا أيها الناس علمنا ﴾ أي : أنا وأبي بأيسر أمر وأسهله ﴿ منطق الطير ﴾ أي : فهم ما يريده كل طائر إذا صوّت ، فسمى صوت الطير منطقاً لحصول الفهم منه كما يفهم من كلام الناس .

(262/577)

روي عن كعب الأحبار أنه قال : صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال أتدرون ما يقول : قالوا : لا قال : إنه يقول : لدوا للموت وابنوا للخراب ، وصاحت فاختة فقال : أتدرون ما تقول قالوا : لا قال : فإنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وصاح طاووس فقال أتدرون ما يقول : قالوا : لا قال : فإنه يقول : كما تدين تدان ، وصاح هدهد فقال أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا قال : فإنه يقول : من لا يرحم لا يرحم ، وصاح صرد فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا قال فإنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين ، وصاح طيطوى فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا لا قال فإنه يقول : كل حيّ ميت وكل جديد بال ، وصاح خطاف فقال : أتدرون ما يقول قالوا : لا قال فإنه يقول : قدّموا خيراً تجدوه ، وهدرت حمامة فقال :

أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا ، قال فإنها تقول : سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه ، وصاح قمري فقال : أتدرون ما يقول قالوا : لا ، قال : فإنه يقول سبحان ربي الأعلى ، قال والغراب يدعو على العشار ، والحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله ، والقطاة تقول من سكت سلم ، والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والضفدع يقول سبحان رب القدّوس ، ويقول أيضاً سبحان ربي المذكور بكلّ لسان ، والباز يقول سبحان ربي وبحمده ، وعن مكحول قال : صاح دراج عند سليمان فقال أتدرون ما يقول هذا ؟ قالوا : لا قال : فإنه يقول : الرحمن على العرش استوى .

(263/577)

وروي عن فرقد السنحيّ قال مرّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرّك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء : وهو بالفتح والمدّ التراب ، وقال أبو عبيد : هو الدروس ، وفي حديث صفوان : "إذا دخلت بيتي فأكلت رغيفاً وشربت عليه فعلى الدنيا العفاء" ، وروي أنّ جماعة من اليهود قالوا لابن عباس إنا سائلوك عن سبعة أشياء فإن أخبرتنا آمناً وصدّقنا ، قال : اسألوا تفقهاً ولا تسألوا تعنتاً ، قالوا : أخبرنا ما يقول القنبر في صفيره والديك في

صعيقه والضفدع في نعيقه والحمار في نهيقه والفرس في صهيله وما يقول الزرزور والدرّاج ، قال نعم أمّا القنبر فيقول : اللهمّ العن مبغضي محمد وآل محمد ، وأمّا الديك فيقول : اذكروا الله يا غافلين ، وأمّا الضفدع فيقول : سبحان المعبود في لجج البحار ، وأمّا الحمار فيقول : اللهمّ العن العشار ، وأمّا الفرس فيقول : إذا التقى الصفان سبوح قدّوس رب الملائكة والروح ، وأما الزرزور فيقول : اللهمّ إني أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق ، وأمّا الدراج فيقول : الرحمن على العرش استوى قال : فأسلم اليهود وحسن إسلامهم .

ويروى عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جدّه عن الحسين بن عليّ قال : إذا صاح النسر قال : ابن آدم عش ما شئت آخره الموت ، وإذا صاح العقاب قال : في البعد من الناس أنس ، وإذا صاح القنبر قال : إلهي العن مبغضي آل محمد ، وإذا صاح الخطاف قرأ : الحمد لله رب العالمين ويمدّ ولا الضالين كما يمدّ القارئ .

(264/577)

وقول سليمان عليه السلام ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ أي : نؤتاه الأنبياء والملوك ، قال ابن عباس من أمر الدنيا والآخرة ، وقال مقاتل : يعني النبوّة والملك وتسخير الجنّ والإنس والرياح ﴿ إن هذا ﴾ أي : الذي أوتيناه ﴿ لهو الفضل المبين ﴾ أي : البين في نفسه لكلّ من

ينظره الموضح لعلوّ قدر صاحبه ، روي أنّ سليمان أعطي ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك أربعين سنة وستة أشهر جميع أهل الدنيا من الجنّ والأنس والدواب والطير والسباع وأعطى مع ذلك منطق الطير ، وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة ، فقوله : ﴿ إنّ هذا لهو الفضل المبين ﴾ تقرير لقوله ﴿ الحمد لله الذي فضلنا ﴾ والمقصود منه الشكر والحمد ، كما قال صلى الله عليه وسلم "أنا سيد ولد آدم ولا فخر" ، فإن قيل : كيف قال علمنا وأوتينا وهو كلام المتكبر ؟

أجيب بوجهين : الأوّل : أنه يريد نفسه وأباه كما مرّ ، الثاني : أنّ هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكاً مطاعاً ، ولما كان هذا مجرّد خبر أتبعه ما يصدّقه بقوله تعالى: ﴿ وحشر ﴾ أي : جمع جمعاً حتماً بقهر وسطوة وإكراه بأيسر أمر ﴿ لسليمان جنوده ﴾ ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ من الجنّ ﴾ وبدأ بهم لعسر جمعهم ثم ثنى بقوله تعالى : ﴿ والإنس ﴾ لشرفهم ثم أتبع من يعقل بما لا يعقل بقوله ﴿ والطير ﴾ فقدّم القسم الأول لشرفه وذلك كان في مسير له في بعض الغزوات ﴿ فهم ﴾ أي : فتسبب عن مسيره بذلك أنهم ﴿ يوزعون ﴾ أي : يكفون بحبس أولهم على آخرهم بأدنى أمر وأسهله ليتلاحقوا فيكون ذلك أجدر بالهيبة وأعون على النصرة وأقرب إلى السلامة ، قال قتادة : كان على كل صنف من جنوده وزعة ترد أوّلها على آخرها لئلا يتقدّموا في المسير ، قال والوازع :

الحابس وهو النقيب ، وقال مقاتل : يوزعون أي : يساقون ، وقال السدّيّ : يوقفون ، وقيل : يجمعون ، وأصل الوزع الكف والمنع .

(265/577)

قال محمد بن كعب القرظيّ : كان معسكر سليمان عليه السلام مئة فرسخ خمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير ، وقيل : نسجت له الجنّ بساطاً من ذهب وحرير فرسخاً في فرسخ وكان يوضع كرسيه وسطه فيقعد وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة فتقعد الأنبياء على كراسي الذهب والعلماء على كراسي الفضة والناس حولهم والجنّ والشياطين حول الناس والوحش حولهم وتظلهم الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة منكوحة يعني : حرّة وسبعمائة سرّية ، فيأمر الريح العاصف فترفعه ثم يأمر الرخاء فتسير به مسيرة شهر ، وأوحي إليه وهو يسير بين السماء والأرض أني قد زدت في في ملكك أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشيء إلا جاءت به الريح فأخبرتك به ، فيحكى أنه مرّ بحراث فقال لقد أوتي آل داود ملكاً عظيماً فألقته الريح في أذنه فنزل ومشى إلى الحراث وقال : إني مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال

لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتي آل داود واستمرّ سائراً بمن معه .

﴿ حتى إذا أتوا ﴾ أي : أشرفوا ﴿ على وادي النمل ﴾ روي عن كعب الأحبار أنه قال : كان سليمان إذا ركب حمل أهله وخدمه وحشمه ، وقد اتخذ مطابخ ومخابز فيها تنانير الحديد وقدور عظام تسع كل قدر عشرة من الإبل يطبخ الطباخون ويخبز الخبازون واتخذ ميادين للدّواب فتجري بين يديه وهو بين السماء والأرض والريح تهوي بهم فسار من اصطخر يريد اليمن ، فمرّ بمدينة النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال سليمان هذه دار هجرة نبيّ يخرج في آخر الزمان طوبى لمن آمن به وطوبى لمن اتبعه ، ولما وصل إلى مكة رأى حول البيت أصناماً تعبد من دون الله فلما جاوز سليمان البيت بكى البيت فأوحى الله تعالى إلى البيت ما يبكيك ؟

(266/577)

فقال : يا رب أبكاني أنّ هذا نبيّ من أنبياءك وقوم من أوليائك مرّوا علي فلم يهبطوا ولم يصلوا عندي والأصنام تعبد حولي من دونك ، فأوحى الله تعالى إليه لا تبك فإني سوف أملؤك وجوهاً سجداً وأنزل فيك قرآناً جديداً وأبعث منك نبي آخر الزمان أحب أنبيائي إليّ وأجعل فيك عماراً من خلقي يعبدونني وأفرض على عبادي فريضة يزفون إليك زفيف

النسور إلى وكرها ويحنون إليك حنين الناقة إلى ولدها وحنين الحمامة إلى بيضها وأطهرك من الأوثان وعبدة الشياطين ، ثم مرّ سليمان حتى مرّ بوادي السدير من الطائف فأتى على وادي النمل هكذا قال كعب إنه واد بالطائف .

قال البقاعي : وهو الذي تميل إليه النفس فإنه معروف عندهم إلى الآن بهذا الاسم ، وقال قتادة ومقاتل : هو واد بالشأم وجرى عليه البيضاوي ، وقيل : واد كانت تسكنه الجنّ وأولئك النمل مراكبهم ، وقال نوف الحميري : كان نمل ذلك الوادي مثل الذباب ، وقيل : كان كالبخاتي ، وقال البغويّ والمشهور : أنه النمل الصغير .

فائدة : وقف الكسائي على وادي بالياء ، والباقون بغير ياء ، فإن قيل : لم عدى أتوا بعلى ؟

أجيب : بأنه يتوجه على معنيين : أحدهما : أن إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء ، والثاني : أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشيء إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم ، أرادوا أن ينزلوا عند مقطع الوادي لأنهم ما دامت الريح تحملهم في الهوى لا يخاف حطمهم .

(267/577)

ولما كانوا في أمر مهول منظره وقربوا من ذلك الوادي ﴿ قالت نملة ﴾ قال الشعبيّ : كانت تلك النملة ذات جناحين ، وقيل : كانت نملة عرجاء فنادت ﴿ يا أيها النمل ادخلوا ﴾ أي : قبل وصول ما أرى من الجيش ﴿ مساكنكم ﴾ ثم عللت أمرها فقالت : ﴿ لا يحطمنكم ﴾ أي : يكسرنكم ويهشمنكم ، أي : لا تبرزوا فيحطمكم فهو نهي لهم عن البروز في صورة نهيه وهو أبلغ من التصريح بنهيهم لأن من نهى أميراً عن شيء كان لغيره أشدّ نهياً ﴿ سليمان وجنوده ﴾ أي : لأنهم لكثرتهم إذا صاروا في هذا الوادي استعلوا عليه فضيقوه فلم يدعوا فيه موضع شبر خالياً ﴿ وهم ﴾ أي : سليمان وجنوده ﴿ لا يشعرون ﴾ أي : بحطمهم لكم لاشتغالهم بما هم فيه من أحوال السير ، وقولها هذا يدل على علمها بأنهم لو شعروا بهم ما آذوهم لأنهم أتباع نبيّ فهم رحماء ، وإنما خاطبتهم خطاب من يعقل لأنها لما جعلت قائلة والنمل مقولاً له كما يكون في أولي العقل أجرت خطابهم ، والنمل : اسم جنس معروف واحده نملة ، ويقال نملة ونمل بضم النون وسكون الميم ، ونملة ونمل بضمهما .

وعن قتادة : أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوني عما شئتم ، وكان أبو حنيفة رحمه الله تعالى حاضراً وهو غلام حديث ، فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى ؟ فسألوه فأفحم ، فقال أبو حنيفة : كانت أنثى ، فقيل له من أين عرفت ؟ فقال من كتاب الله ، وهو قوله : قالت نملة ولو كانت ذكراً لقال قال نملة ، قال الزمخشريّ : وذلك أنّ

النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي انتهى .

(268/577)

وردّ هذا أبو حيان فقال : ولحاق التاء في قالت لا يدلّ على أنّ النملة مؤنثة بل يصح أن يقال في الذكر قالت نملة لأن النمل وإن كان بالتاء هو مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث وما كان كذلك كاليمامة والقملة مما بينه في الجمع وبين واحده تاء التأنيث من الحيوان ، فإنه يخبر عنه إخبار المؤنث ، ولا يدلّ كونه يخبر عنه إخبار المؤنث على كونه ذكراً وأنثى لأنّ التاء دخلت فيه للفرق لا للدّلالة على التأنيث له الحقيقي ، بل دالة على الواحد من هذا الجنس ، قال وكان قتادة بصيراً بالعربية ، وكونه أفحم يدل على معرفته باللسان إذا علم أنّ النملة يخبر عنها إخبار المؤنث وإن كانت تطلق على الأنثى والذكر إذ لا يتميز فيه أحد هذين ، ولحاق العلامة لا يدل ، فلا يعلم التذكير والتأنيث إلا بوحي من الله ا . ه .

وقال الطيبي : العجب من أبي حنيفة إن ثبت ذلك عنه لأنّ النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر والأنثى وأطال الكلام في ذلك .

فإن قيل : كيف يتصوّر الحطم من سليمان وجنوده وكانت الريح تحمل سليمان وجنوده

على بساط بين السماء والأرض ؟

أجيب : بأنّ من جنوده ركباناً ومنهم مشاة على الأرض تطوى لهم ، أو أنّ ذلك كان قبل تسخير الريح لسليمان ، ويروى أنّ سليمان لما بلغ وادي النمل حبس جنده حتى دخل النمل بيوتهم ، فقد روي أنه سمع كلامها من ثلاثة أميال ، وقيل : كان اسمها طاخية .

فائدة : قال أهل المعاني في كلام هذه النملة أنواع من البلاغة : نادت ونبهت وسمت وأمرت ونصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وأعذرت ، ووجهه : نادت يا ، نبهت : ها ، سمت : النمل ، أمرت : ادخلوا ، نصت : مساكنكم ، حذرت : لا يحطمنكم ، خصت : سليمان ، عمت : وجنوده ، أشارت : وهم ، أعذرت : لا يشعرون ، ولما كان هذا أمر معجباً لما فيه من جزالة الألفاظ وجلالة المعاني تسبب عنه قوله .

(269/577)

﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها ﴾ أي : لما أوتيته من الفصاحة والبيان وسروراً بما وصفته به من العدل في أنه وجنوده لا يؤذي أحداً وهم يعلمون ، وبما آتاه الله من سمعه كلام النملة وإحاطته بمعناه تنبيه : ضاحكاً : حال مؤكدة لأنها مفهومة من تبسم ، وقيل : هي حال مقدّرة فإنّ التبسم ابتداء الضحك ، وقيل : التبسم قد يكون للغضب ، ومنه تبسم تبسم

الغضبان ، فضاحكاً : مبيناً له ، قال عنترة:

d

*لما رآني قد قصدت أريده **أبدى نواجذه لغير تبسم*

وقال الزجاج : أكثر ضحك الأنبياء التبسم ، وقوله : ضاحكاً أي : متبسماً ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم" ، وعن عبد الله بن الحارث بن جبير قال : "ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كان أوّله التبسم ، وآخره الضحك ، ثم حمد الله تعالى على هذه النعمة وسأل ربه توفيق شكره لما تذكر ما أولاه ربه سبحانه وتعالى بحسن تربيته من فهم كلامها إلى ما أنعم عليه من غير ذلك ﴿ وقال رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ أوزعني ﴾ أي : ألهمني ﴿ أن أشكر نعمتك ﴾ وقيل معناه لغة : اجعلني أزع شكر نعمتك أي : أكفه وأمنعه حتى لا يفلت مني فلا أزال شاكراً ، وأزع بفتح الزاي أصله : أوزع فحذفت واوه كما في أدع ، ولما أفهم ذلك تعلق النعمة به حققه بقوله ﴿ التي أنعمت عليّ ﴾ وأفهم قوله : ﴿ وعلى والديّ ﴾ أن أمّه كانت أيضاً تعرف منطق الطير وإنما أدرج ذكر والديه لأنّ النعمة على الولد نعمة على الوالدين خصوصاً النعمة الراجعة إلى الدين فإنه إذا كان تقياً نفعهما بدعائه وشفاعته ودعاء المؤمنين لهما كلما دعوا له وقالوا رضي الله عنك وعن والديك .

تنبيه : الشكر لغة : فعل ينبئ عن تعظيم المنعم من حيث إنه منعم على الشاكر أو غيره سواء كان ذكراً باللسان أم اعتقاداً أو محبة بالجنان أم عملاً وخدمة بالأركان ، كما قال القائل:

(270/577)

---

*أفادتكم النعماء مني ثلاثة** يدي ولساني والضمير المحجبا*

وعرفاً : صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه من السمع وغيره إلى ما خلق لأجله ، وهذا لمن حفته العناية الربانية نسأل الله الكريم الفتاح أن يحفنا ومن يلوذ بنا بعنايته .

روي عن داود عليه السلام أنه قال : يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة أخرى منك أحتاج عليها إلى شكر آخر ؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود إذا علمت أنّ ما بك من نعمة فمني فقد شكرتني . والشكر ثلاثة أشياء : الأول : معرفة النعمة بمعنى إحضارها في الخاطر بحيث يتميز عندك أنها نعمة ، فرب جاهل تحسن إليه وتنعم عليه وهو لا يدري ، فلا جرم أنه لا يصح منه الشكر ، الثاني : قبول النعمة بتلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة ، فإنّ ذلك شاهد بقبولها حقيقة ، الثالث : الثناء بها بأن تصف المنعم بالجود والكرم ونحوه مما يدل على حسن تلقيك لها واعترافك بنزول مقامك في الرتبة عن مقامه ، فإنّ اليد العليا

خير من اليد السفلى .

ولما علم من كلامه أن الشاكر هو المستغرق في الثناء على المنعم بما يجب عليه من العمل بحسب ما يقدر عليه ، وكان ذلك العمل مما يجوز أن يكون زين لذلك العبد كونه حسناً وهو ليس كذلك قال عليه السلام : مشيراً إلى هذا المعنى ﴿ وأن أعمل صالحاً ﴾ أي : في نفس الأمر ، وقيده بقوله ﴿ ترضاه ﴾ لأنّ العمل الصالح قد لا يرضاه المنعم لنقص في العامل ، كما قيل:

*إذا كان المحب قليل حظ ** فما حسناته إلا ذنوب*

(271/577)

وقوله ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ يدل على أنّ دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق العبد ، والمعنى : أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي في أسمائهم واحشرني في زمرتهم ، قال ابن عباس : يريد مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومن بعدهم من النبيين ، فإن قيل : درجات الأنبياء أفضل من درجات الصالحين والأولياء فما السبب في أنّ الأنبياء يطلبون جعلهم من الصالحين وقد تمنى يوسف عليه السلام بقوله ﴿ فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ (الشعراء :)

وقال إبراهيم : ﴿ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ (الشعراء ،) .

أجيب : بأنّ الصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله تعالى ولا يفعل معصية ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية ، ثم إنّ سليمان عليه السلام لما وصل إلى المنزل الذي قصده تفقد أحوال جنوده كما تقتضيه العناية بأمور الملك .

﴿ وتفقد الطير ﴾ أي : طلبها وبحث عنها ، والتفقد طلب ما فقد ، ومعنى الآية طلب ما فقد من الطير ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد ﴾ أي : أهو حاضر ﴿ أم كان من الغائبين ﴾ أم منقطعة ، كأنه لما لم يره ظنّ أنه حاضر ولم يره لساتر أو غيره ، فقال ما لي لا أراه ، ثم احتاط فلاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : أهو غائب ؟ كأنه يسأل عن صحة ما لا ح له ، وهذا يدل على أنه تفقد جماعة من الجند وتحقق غيبتهم وشك في غيبته .

(272/577)

وكان سبب غيبة الهدهد على ما ذكره العلماء : أن سليمان لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير واستصحب من الجنّ والإنس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ عسكره مائة فرسخ فحملتهم الريح فلما وافى الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم وكان ينحر في كل يوم مدة مقامه بمكة خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة

وعشرين ألف شاة وقال لمن حضر من أشراف قومه أنّ هذا المكان يخرج منه نبيّ عربي صفته كذا وكذا يعطى النصر على جميع ما يأواه ، وتبلغ هيبته مسيرة شهر ، القريب والبعيد عنده في الحق سواء لا تأخذه في الله لومة لائم ، قالوا فبأي : دين يدين يا نبيّ الله ؟ قال بدين الحنيفية : فطوبى لمن أدركه وآمن به ، قالوا كم بيننا وبين خروجه يا نبيّ الله ؟ قال : مقدار ألف عام فليبلغ الشاهد منكم الغائب فإنه سيد الأنبياء وخاتم الرسل ، فأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم خرج منها صباحاً وسار نحو اليمن فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضاً حسناء تزهو خضرتها فأحبّ النزول ليصلي ويتغدى ، فلما نزل قال الهدهد : إنّ سليمان قد اشتغل بالنزول فأرتفع نحو السماء فانظر إلى طول الدنيا وعرضها فنظر يميناً وشمالاً فرأى بستاناً لبلقيس ، فمال إلى الخضرة فوقع فيه فإذا هو بهدهد فهبط عليه ، وكان اسم هدهد سليمان يعفور واسم هدهد اليمن عنفير ، فقال عنفير هدهد اليمن ليعفور سليمان من أين أقبلت وإلى أين تريد ؟ قال أقبلت من الشأم مع صاحبي سليمان بن داود فقال ومن سليمان ؟ قال ملك الإنس والجنّ والشياطين والطير والوحوش والرياح ، فمن أين أنت ؟ قال أنا من هذه البلاد ، قال ومن ملكها ؟ قال امرأة يقال لها بلقيس ، وإن لصاحبكم ملكاً عظيماً ولكن ليس ملك بلقيس دونه ، فإنها ملكت اليمن كله وتحت يدها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل ، فهل أنت

منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها ، قال أخاف أن يفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء ، قال

(273/577)

الهدهد اليماني إن صاحبك يسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة ، فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وغاب إلى وقت العصر ، وكان نزول سليمان على غير ماء ، قال ابن عباس : وكان الهدهد دليل سليمان على الماء ، وكان يعرف الماء ويرى الماء تحت الأرض كما يرى في الزجاجة ويعرف بعده وقربه فينقر الأرض ثم تجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب ويستخرجون الماء ، قال سعيد بن جبير : لما ذكر ابن عباس هذا قال له نافع بن الأزرق : انظر ما تقول : إن الصبيّ منا يصنع الفخ ويحثوا عليه التراب فيجيء الهدهد ولا يبصر الفخ حتى يقع في عنقه ؟ فقال له ابن عباس ويحك إن القدر إذا جاء حال بين البصر ، وفي رواية إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب وعمي البصر ، قال القائل:

*هي المقادير فدعني والقدر ** إن كنت أخطأت فما أخطأ القدر*

*إذا أراد الله أمراً بامرئ ** وكان ذا عقل وسمع وبصر*

*يعبر الجهل فيعمى قلبه ** وسمعه وعقله ثم البصر *

*حتى إذا أنفذ فيه حكمه ** ردّ عليه عقله ليعتبر *

*لا تقل لما جرى كيف جرى ** كل شيء بقضاء وقدر *

فلما دخل على سليمان وقت الصلاة سأل الإنس والجنّ والشياطين عن الماء فلم يعلموه ، فتفقد الهدهد فلم يجده فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فقال أصلح الله الملك ما أدري أين هو ، وما أرسلته مكاناً ، فغضب سليمان عند ذلك وقال .

﴿ لأعذبنه ﴾ أي : بسبب غيبته فيما لم آذن فيه ﴿ عذاباً شديداً ﴾ أي : مع بقاء روحه ردعاً لأمثاله ﴿ أو لأذبحنه ﴾ أي : بقطع حلقومه أي : تأديباً لغيره ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ أي : بحجة واضحة .

(274/577)

واختلفوا في تعذيبه الذي أوعده به على أقوال : قال البغوي : أظهرها أنّ عذابه أن ينتف ريشه وذنبه ويلقيه في الشمس ممعطاً لا يمتنع من النمل والذباب ولا من هوام الأرض انتهى ، وقيل : تعذيبه أن يؤذيه بما لا يحتمله ليعتبر به أبناء جنسه ، وقيل : كان عذاب سليمان للطير أن ينتف ريشه ويشمسه ، وقيل : أن يطلى بالقطران ويشمس ، وقيل : أن يلقى للنمل

تأكله ، وقيل : إيداعه القفص ، وقيل : التفريق بينه وبين ألفه ، وقيل : لألزمنه صحبة الأضداد .

قال الزمخشريّ : وعن بعضهم : أضيق السجون معاشرة الأضداد ، وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه ، ثم دعا العقاب سيد الطير فقال له : عليّ بالهدهد الساعة فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى الترق بالهواء فنظر الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ، فالتفت يميناً وشمالاً فإذا بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن ، فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أنّ العقاب يقصده بسوء ، فناشده فقال بحق الله الذي قواك وأقدرك عليّ إلا ما رحمتني ولم تتعرّض لي بسوء ، فولى عنه العقاب وقال له ويلك ثكلتك أمّك إنّ نبيّ الله قد حلف أن يعذبك أو ليذبحنك ، قال فما استثنى ، قال : بلى ، قال أو ليأتيني بسلطان مبين ، ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما انتهى إلى العسكر تلقاه النسر والطير فقالوا له ويلك أين غبت في يومك هذا فلقد توعدك نبي الله وأخبروه بما قال ، فقال الهدهد وما استثنى نبي الله عليه السلام ؟ قالوا : بلى ، قال أو ليأتيني بسلطان مبين ، قال فنجوت إذاً ، ثم طار العقاب والهدهد حتى أتيا سليمان ، وكان قاعداً على كرسيه ، فقال العقاب قد أتيتك به يا نبيّ الله .

﴿ فمكث ﴾ أي : الهدهد ، وقوله تعالى : ﴿ غير بعيد ﴾ صفة للمصدر ، أي : مكثاً غير بعيد ، فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان ، فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه إليه ، وقال له أين كنت ؟ لأعذبنك عذاباً شديداً فقال له الهدهد : يا نبيّ الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى ، فلما سمع سليمان ذلك ارتعد وعفا عنه ، ثم سأله فقال ما الذي أبطأك عني ﴿ فقال أحطت ﴾ أي : علماً ﴿ بما لم تحط به ﴾ أي : أنت مع اتساع علمك وامتداد ملكك ، ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوّة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ابتلاء له في علمه ، وتنبيهاً له على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ويتصاغر إليه علمه ويكون لطفاً في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء والإحاطة بالشيء علماً أن يعلم من جميع جهاته لا يخفى منه معلوم ، قالوا :

وفيه دليل على بطلان قول الروافضة أنّ الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه ، وقيل : الضمير في مكث لسليمان ، وقيل : غير بعيد صفة للزمان أي : زماناً غير بعيد ، وقرأ عاصم بفتح الكاف ، والباقون بضمها ، وهما لغتان إلا أنّ الفتح أشهر ، ﴿ وجئتك ﴾ أي : الآن ﴿ من سبأ بنبأ ﴾ أي : خبر عظيم ﴿ يقين ﴾ أي : محقق ، وقرأ

أبو عمرو والبزيّ سبأ بفتح الهمزة من غير تنوين ، جعلاه اسماً للقبيلة أو البقعة فمنعاه من الصرف للعلمية والتأنيث ، والباقون بالجر والتنوين جعلوه اسماً للحيّ أو المكان ، قال البغوي : وجاء في الحديث أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن سبأ فقال : "رجلاً كان له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة" فقال سليمان وما ذاك قال:

(276/577)

﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ وهي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان ، وكان أبوها ملكاً عظيم الشأن قد ولد له أربعون ملكاً هو آخرهم ، وكان يملك أرض اليمن كلها ، وكان يقول لملوك الأطراف ليس أحد منكم كفؤاً لي ، وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجنّ يقال لها ريحانة بنت السكن ، فولدت بلقيس ولم يكن له ولد غيرها .

قال البغوي : وجاء في الحديث "أنّ أحد أبوي بلقيس كان جنياً فلما مات أبو بلقيس طمعت في الملك ، فطلبت من قومها أن يبايعوها فأطاعها قوم وعصاها آخرون ، وملكوا عليهم رجلاً وافترقوا فرقتين كل فرقة استولت على طرف من أرض اليمن ، ثم إنّ الرجل الذي ملكوه أساء السير في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويفجر بهنّ ، فأراد قومه خلعه فلم يقدروا عليه ، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الغيرة فأرسلت إليه تعرض

نفسها عليه ، فأجابها ، وقال : ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا إياسي منك ، فقالت لا أرغب عنك أنت كفؤ كريم ، فاجمع رجال قومي واخطبني منهم ، فجمعهم وخطبها إليهم ، فقالوا لا نراها تفعل ذلك ، فقال لهم إنها قد ابتدأتني وأنا أحبّ أن تسمعوا قولها ، فجاؤها فذكروا لها قالت نعم أحببت الولد فزوجوها منه ، فلما زفت إليه خرجت في أناس كثير من حشمها ، فلما جاءته أسقته الخمر حتى سكر ، ثم جزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها ، فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً ورأسه منصوب على باب دارها ، فعلموا أنّ تلك المناكحة كانت حيلة مكر وخديعة منها ، فاجتمعوا إليها وقالوا أنت بهذا الملك أحق من غيرك فملكوها" .

(277/577)

وعن الحسن عن أبي بكرة قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ أهل فارس قد ملكوا عليهم امرأة قال : "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة" وقوله ﴿ وأوتيت ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على تملكهم ، وجاز عطف الماضي على المضارع لأنّ المضارع بمعناه ، أي : ملكتهم ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال من مرفوع تملكهم ، وقد معها مضمرة عند من يرى ذلك ، وقوله ﴿ من كل شيء ﴾ عام مخصوص بالعقل لأنها لم تؤت ما أوتيه

سليمان ، فالمراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك من الآلة والعدّة ﴿ ولها عرش ﴾ أي : سرير ﴿ عظيم ﴾ أي : ضخم لم أجد لأحد مثله طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً وارتفاعه ثلاثون ذراعاً ، مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدرّ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والزمرّد ، وقوائمه من الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والزمرّد عليه سبعة أبواب على كل باب بيت مغلق .

فإن قيل : كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان ؟ وأيضاً كيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الرحمن في الوصف بالعظم ؟

أجيب عن الأوّل : بأنه يجوز أن يستصغر حالها إلى حال سليمان واستعظم لها ذلك العرش ، ويجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته في كل شيء كما يكون لبعض أمراء الأطراف شيء يكون في العظم أبلغ مما لغيره من أبناء جنسه من الملوك ، ووصف عرش الرحمن بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض .

فإن قيل : كيف خفي على سليمان تلك المملكة العظيمة مع أنّ الإنس والجنّ كانوا في طاعته فإنه عليه السلام كان ملك الدنيا كلها مع أنه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد إلا مسيرة ثلاثة أيام ؟

أجيب : بأنّ الله تعالى أخفى عنه ذلك لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف على يعقوب

، ولما كان الهدهد في خدمة أقرب أهل ذلك الزمان إلى الله تعالى فحصل له من النورانية ما هاله ، قال مستأنفاً .

(278/577)

﴿ وجدتها وقومها ﴾ أي : كلهم على ضلال كبير وذلك أنهم ﴿ يسجدون للشمس ﴾ مبتدئين ذلك ﴿ من دون الله ﴾ أي : من أدنى رتبة للملك الأعظم الذي لا مثل له ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ أي : هذه القبيحة حتى صاروا يظنونها حسنة ، ثم تسبب عن ذلك أنه أعماهم عن طريق الحق فلهذا قال ﴿ فصدّهم عن السبيل ﴾ أي : الذي لا سبيل إلى الله غيره ، وهو الذي بعث به أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، ثم تسبب عن ذلك ضلالهم فلهذا قال ﴿ فهم ﴾ أي : بحيث ﴿ لا يهتدون ﴾ أي : لا يوجد لهم هدى بل هم في ضلال صرف وعمى محض .

﴿ ألا يسجدوا لله ﴾ أي : أن يسجدوا له ، فزيدت لا وأدغم فيها نون أن ، كما في قوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ (الحديد :)

والجملة في موضع مفعول يهتدون بإسقاط إلى ، هذا إذا قرئ بالتشديد وهي قراءة غير الكسائي ، وأمّا الكسائي : فقرأ بتخفيف ألا فألا فيها تنبيه واستفتاح وما بعدها حرف

نداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال:

*ألايا اسلمي يا دار ميّ عليّ البلى ** ولا زال منهلاً بجرعائك القطر*

(279/577)

ويقف الكسائي على ألا ، وعلى يا ، وعلى اسجدوا ، وإذا ابتدأ اسجدوا ابتدأ بالضم ، ثم وصف الله تعالى بما يوجب اختصاصه باستحقاق السجود من الاتصاف بكمال القدرة والعلم حثاً على السجود له وردّاً على من يسجد لغيره سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ الذي يخرج الخبء ﴾ وهو مصدر بمعنى المخبوء من المطر والنبات وغيرهما وخصه بقوله : ﴿ في السموات والأرض ﴾ لأنّ ذلك منتهى مشاهدتنا فننظر ما يكون فيهما بعد أن لم يكن من سحاب ومطر ونبات وتوابع ذلك من الرعد والبرق وما يشرق من الكواكب ويغرب إلى غير ذلك من الرياح والحرّ والبرد وما لا يحصيه إلا الله تعالى ﴿ ويعلم ما تخفون ﴾ في قلوبهم ﴿ وما تعلنون ﴾ بألسنتهم ، وقرأ الكسائي وحفص بالتاء الفوقية فيهما ، والباقون بالتحتية ، فالخطاب ظاهر على قراءة الكسائي لأنّ ما قبله أمرهم بالسجود وخاطبهم به ، والغيبة على قراءة الباقين غير ظاهرة لتقدّم الضمائر الغائبة في قوله ﴿ أعمالهم ﴾ ﴿ فصدهم ﴾ و ﴿ فهم ﴾ وأمّا قراءة حفص فتأويلها أنه خرج إلى

خطاب الحاضرين بعد أن أتم قصة أهل سبأ ، ويجوز أن تكون إلتفاتاً على أنه نزل الغائب منزلة الحاضر فخطابه ملتفتاً إليه وقوله:

﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾

أي : الذي هو أوّل الأجرام وأعظمها والمحيط بجملتها ، يحتمل أن يكون من كلام الهدهد استدراكاً لما وصف عرش بلقيس بالعظم ، وأن يكون من كلام الله تعالى ردّاً عليه في وصفه عرشها بالعظم فبين العظمتين بون عظيم ، فإن قيل : من أين للهدهد التهدي إلى معرفة الله ووجوب السجود له وإنكار سجودهم للشمس وإضافته إلى الشيطان وتزيينه ؟ .

(280/577)

أجيب : بأنه لا يبعد أن يلهمه الله تعالى ذلك كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها ، خصوصاً في زمن نبي سخرت له الطيور وعلم منطقها وجعل ذلك معجزة له ، وهذه آية سجدة واختلف في محلها ، هل هو هذه الآية أو عند قوله قبلها وما يعلنون ؟ الجمهور على الأوّل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ السراج المنير جـ 5 صـ 65 . 85 ﴾

صور من عجائب الله تعالى فى بعض المخلوقات

- حيوانات ذكرت في القرآن الكريم

-

د . عاطف الهندي

مقدمة :

احتوى القرآن الكريم (كلام الله المعجز ليوم القيامة) على كثير من الأخبار والأذكار منها ما كان عن الماضي أي قبل البعثة وبالتحديد عن الأقوام السابقة ومنها ما ذكر في وقت البعثة الشريفة ومنها ما سوف يحدث وهو علم الغيبيات سواء كان يخص البشر أو الظواهر الكونية وعندما كان يسأل الرسول الكريم عن تفسير لهذا الجزء من التنزيل يقول صلى الله عليه وسلم : سيأتي تأويلها فيما بعد أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكما ذكر القرآن الكريم البشر صالحهم وسيئهم ذكرت الحيوانات بما فيها الحشرات صالحها و(طالحها) ، ذكرت الحيوانات في القرآن الكريم لارتباطها الوثيق بالإنسان صاحب الأهلية بحمل الأمانة وهذه الأمانة هي خلافة الله ورسله في الأرض بإقامة العدل الذي جاء به

شرعه عز وجل .

البحث :

(282/577)

ذكرت الحيوانات في القرآن الكريم في مواضع عدة إما تبياناً لتحريم (كالخنزير) أو لوصف خلق ذميم لبعض البشر (كالحمار والكلب والغراب) أو للتفكر في آيات الخلق (كالإبل والبعوض والذباب والعنكبوت) أو لتشريف هذه الحيوانات (كالخيل) . وهناك سور سميت بأسماء بعض الحيوانات التي ذكرت فيها وهي : البقرة والنمل والعنكبوت والنحل والفيل والأنعام حيث الأخيرة هي السورة الوحيدة التي فصلت الأزواج الثمانية للأنعام وذكرتها بالإسم وهي (الإبل والبقر والضأن والماعز بذكرها وأنثاها) وذكر القرآن الكريم حيوانات على سبيل العموم مثل الدابة (14 مرة) والدواب (4 مرات) (سواء يعني بها جميع المخلوقات بما فيها الإنسان لأنه مما يدب على هذه الأرض أو فقط الحيوانات أو دابة الأرض ويقصد بها الأرضة وهي حشرات مشهورة بقضم الأشجار والخشب وأيضاً دابة آخر الزمان التي تظهر كعلامة من علامات يوم القيامة) والطير (34 مرة) وطائر (5 مرات) (بما فيها طيور الأبابيل وطير إبراهيم وطير عيسى وما يطير من الملائكة)

والجوارح (مرة واحدة) (سواء حيوانات دابة مثل الكلاب أو طيور مثل الصقور) وهنا نذكر ورود كلمة (السبع) في القرآن لتدل على الجوارح من الحيوانات مثل الأسد والنمر والذئب والكلب الضال (السلق) والضبع وغيرها ، والأنعام (التي تشمل الإبل والبقر والضان والمعز) وذكر لفظ (أنعام) 32 مرة وتكرر لفظ أنعام في سورة الأنعام 4 مرات للتذكير أن الأنعام من الحيوانات أربعة وأكثر السور ذكراً للحيوانات هي الأعراف فقد تحدثت عن عشرة أصناف محددة من الحيوانات وهي : الإبل والبقر والثعبان والجراد والسمك وطائر السلوى والضفادع والقمل والقردة والكلب وذكر القرآن بعض أجزاء من الحيوانات في آيات مختلفة من القرآن الكريم مثل : الخرطوم (للفيل) والحوايا (الأمعاء) والفرث (الكرش) والجناحين (للطائر) وأربع (الأرجل الرباعية للحيوانات)

(283/577)

والبطن (وسيلة الحركة للزواحف) وذكر بعض المنتجات

الحيوانية المهمة للغذاء البشري مثل : البيض المكنون (أي المرقود عليه) والعسل واللبن والأوبار والجلود والأصواف واللحوم والشحوم .

وفيما يلي ذكر لهذه الحيوانات مرتبة هجائياً مع ذكر السور والآيات التي ذكرتها : -

أسماء الحيوانات المذكورة في القرآن

أسماء السور وأرقام الآيات التي ذكرتها

الإبل – الناقة – (البحيرة) – (السائبة) – (الوصيلة) – (الضامر) – الجمل – (الحام)

الأنعام (144) الغاشية (17) الأعراف (77، 40، 73) هود (64) الإسراء (59) الشعراء (155) القمر (27) الشمس (13) الحج (27) المائدة (103)

البعوضة

البقرة (26)

البغال

النحل (8)

البقرة – البقر – العجل (ويشمل عجل إبراهيم السمين وعجل له خوار الذي اتخذه بني إسرائيل إلهاً)

هود (69) البقرة (67، 51، 69,68، 54، 92، 93، 71، 70) الأنعام (146، 144) النساء (153) الأعراف (152، 148) طه (88) الذاريات (26)

الثعبان – الحية

الأعراف (107) الشعراء (32) طه (20)

الجراد

الأعراف (133) القمر (7)

الحمار – الحمير – حمر

الجمعة (5) النحل (8) لقمان (19) المدثر (50)

الحوت – الحيتان – اللحم الطري (السمك) – صيد البحر وطعامه

الكهف (61، 63) الصافات (142) القلم (48) الأعراف (163) فاطر (21) المائدة (96)

الخنزير

البقرة (173) المائدة (3) الأنعام (145) النحل (115)

الخيل

آل عمران (14) الأنفال (60) صَ (31) العاديات (1)

الذئب

يوسف (13،14،17)

الذباب

الحج (73)

السلوى

البقرة (57) الأعراف (160) طه (80)

الضأن- النعجة - ذبح عظيم (الكبش)

الأنعام (143) صَ (23،24) الصافات (107)

الضفادع

الأعراف (133)

العنكبوت

العنكبوت (41)

الغراب - الغرابيب

المائدة (31) فاطر (27)

الفراش

القارعة (4)

الفيل

الفيل (1)

(284/577)

القردة

البقرة (65) المائدة (60) الأعراف (166)

القسورة (الأسد باللغة الحبشية) - السبع

المدثر (51) المائدة (3)

القمل

الأعراف (133)

الكلب

الأعراف (176) الكهف (18، 22)

المعز

الأنعام (143)

النحل

النحل (68)

النمل

النمل (18)

الهدهد

النمل (20)

من الجدول يتبين أنه ذكر القرآن الكريم 27 صنفاً من الحيوانات وكانت الثدييات أكثر ذكراً وتضم 12 نوعاً : أربعة من الأنعام المجترة وثلاثة من الجوارح (الأسد والكلب والذئب) واثنين من المسخ (القرد والخنزير) وأربعة من الركوبة (وهي الخيل والبغال والحمير والفيلة) تلاها الحشرات وتضمنت 8 أنواع ثم الطيور (3 أنواع) ثم نوع واحد لكل من الأسماك

والزواحف والبرمائيات .

وفيما يأتي تفصيل لتعليل ذكر هذه الحيوانات دون غيرها في القرآن الكريم : -

(285/577)

---

1 . الإبل Camels : قال تعالى : (أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) (الغاشية : 17) ولماذا يأمرنا رب العزة أن ننظر إلى الإبل (ذكرها وأنثاها) كيف خلقت وصممت لتتكيف مع ما قدر لها من مشقة وظروف شديدة ؟ ويأتي العلماء بتسهيل رباني بالجواب حيث بعد البحث والتقصي تبين أنه يحمي عيون الجمل قضيب هيكلي ، وله رموش طويلة غليظة تسمح له برؤية جيدة في النهار والليل ، وأنفه يرطب الهواء الحار في الشهيق ويبرد هواء الزفير ليستعيد منه بخار الماء إلى جسمهفهو بمثابة جهاز تكييف حيث يحوي في مناخيره تجاويف أنفية تشبه الكهوف مستطيلة ومتعرجة مهمة هذه التجاويف تلطيف الهواء الداخل سواء حار أو بارد ، أيضاً جلد الجمل سميك نسبياً مقارنة مع بقية الحيوانات وهذا يعمل له عزل حراري ويقلل التبخر وحاسة الشم قوية تشم رائحة أقرانها على بعد 11 كيلومترا ، والشفة العليا مشقوقة لتسهل أكل النباتات الشوكية وله 34 سن ، بعضه (النوع العربي) له سنام من الدهون على ظهره والآخر له سنامينويستطيع بسهولة صرف

دهنه المخزن في سنامه بفعل الحركة وعامل الجاذبية ويعتبر انتصاب السنام علامة صحية للجمل والسنام المتدلي أو الصغير علامة مرضية له وهو يصبر على الجوع والعطش ويختزن الطعام والماء في جدران معدتهو بالتحديد في جيوب خاصة في كرشه . ومما يساعد الجمل على تحمل مشقة السفر والحر بدون طعام ولا شراب أن جسمه مصمم للفقد القليل وتخزين الكثير حيث لديه قدرة هضم وامتصاص عالية وإفرازاتها قليلة سواء عرق أو لعاب أو بول أو براز (بعكس الأبقار وما تخلفه من أطنان الروث الذي يخرب البيئة ولا يجد المزارع له تصريف) وتحتفظ الإبل بالتالي بكثير من السموم الواردة للبيئة كاليوريا فهي صديقة للبيئة وهذا يفسر الهدي النبوي في الوضوء بعد أكل وجبة لحم الإبل .

(286/577)

كريات دمه الحمراء بيضاوية ولها أنوية وهذا الشكل متواجد عند الطيور لجعل جسمها خفيف سهل الحركة وهذا الشكل البيضاوي المستطيل في بعض الأحيان يسهل انسياب وتدفق الدم في العروق والشرايين ويحافظ على سيولة الدم وعدم تجلطه بسهولة ويمكن الجمل لاحتفاظ أكثر بالسوائل والالكترولايتات (المعادن والأملاح) فيظل الجمل نشيط وحيوي وسط أجواء الصحراء الشديدة . له أقدام ذات خف عريض مشقوق ومبطن

تساعده على السير في الرمال الناعمة المتزحلقة دون أن تغوص أقدامه فيها كما تغوص أقدام الحصان والسبب أن الخف يمثل راحة القدم وليس أصابعها فالجمل يمشي على رؤوس الحوافر أو الأصابع كباقي الحيوانات فالخف يشبه الزعانف . وينفرد الجمل في مشيته بين ذوات الأربع فإن قدمي الجانب الأيمن تتحركان للأمام معا ثم قدمي الجانب الآخر، وكأنها تمشى على طرفين لا على أربع . تستطيع أن تشرب 200 ليتر من الماء خلال 24 ساعة والسير لوحدها أسبوع دون ماء (وبالتحديد تستطيع السير لوحدها بسرعة 20كم/الساعة لمدة 3 أيام وتستطيع السير براكبها لمدة 12 ساعة متواصلة دون ماء أو طعام ويستطيع الجمل أن يفقد 40% من رطوبة جسمه دون أن يتأثر بينما تموت بقية الخليقة إذا فقدت 12% من رطوبتها أيضاً درجة حرارة الجمل متقلبة من 35° -39° م لتتكيف مع جو الصحراء القاري المتقلب وتستطيع الجمال القوية أن تحمل حمولة تصل أوزانها حتى 450كلغ (وتحمل 300كغم وتسير بها بسرعة 6كم/الساعة قاطعة مسافة 22كم) . كما استخدم وبرها للملابس، وجلدها للمصنوعات الجلدية، وحليبها ولحمها كغذاء، وبعرها كسماد . . يبلغ متوسط طول الجمل (حتى كتفه) من 180-230سم، كما أن أوزانها تتراوح فيما بين 450-810 كجم . وتضع عادة فصيلاً واحداً بعد فترة حمل تستمر فيما بين 12-13 شهراً وتعمر الجمال فيما بين 25-30 سنة .

بالنسبة للناقة فهي لا تحلب إلا بوجود فصيلها (الحوار أو القاعود) ولا تبيض بويضة إلا وقت التزاوج وشرط وجود الذكر (Induced ovulation) وتنتج الناقة 45 كغم/ يومياً من الحليب لذا يعتبر الجمل أفضل للتربية من بقر الهولشتاين وحتى أفضل من كل أنواع البقر في العالم إذا قارنت السعر وتكاليف العلف وتكاليف العلاج حيث يعتبر الجمل أقل المجترات عرضة للإصابة بالأمراض وحليب الإبل الوحيد الذي يحتوي على فيتامين (C) وهذا الفيتامين ضروري لحفظ الحليب مدة أطول ومنعه من التلف ولكي يشربه أهل الصحراء ليغنيهم عن الفواكه مصدر فيتامين (C) للحضر وينصح بحليب الإبل للعلاج وهذا تصديق للسنة النبوية الشريفة التي أقرت بالتداوي بحليب الإبل وحتى بولها ويوجد دراسة حديثة تربط بين حليب الناقة وحليب الإنسان (خاصة أنه أقرب للإنسان بالنسبة لسكر اللاكتوز ومريح بالنسبة لهضم بروتين الكازيين من قبل الطفل حيث يحوي ثلث كمية الكازيين الموجود في حليب الأم وبالتالي لا يوجد مغص للطفل من جراء تجبن البروتين بفعل المعدة الحامضية للطفل) وأنه أفضل لتقديمه للأنسان بدلاً من حليب الأبقار المعدّل أيضاً

دورة الحليب عند الإبل 606يوم (ضعف ما لدى البقرة) فسبحان الله حيوان عجيب وقوي ومع كل ذلك فقد ذلّله الله لنا فهلا نظرنا إلى الإبل كيف خلقت ! !

(288/577)

---

2 . البعوضةMosquito : يقول تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) (البقرة : 26) ولماذا لا يستحي جل جلاله من ضرب البعوضة مثلا لأنه الحق والحق يقوله دائماً وفي القرآن أمثال كثيرة، قال بعض السلف وهو عمرو بن مرة : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأنني سمعت الله تعالى يقول : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ فانظر إلى البعوضة الحقيرة قيمة والعظيمة مثلا : فالبعوضة من حشرات ثنائية الجناحين تشترك مع الذباب في عائلة واحدة ويتواجد البعوض في كل أنحاء العالم ماعدا القطبين ولا تتواجد على إرتفاع 5500م ولا على إنخفاض 1250م من سطح البحر ولها 34 جنس أو نوع وتضم 3100 فصيل وعادة تضع البعوضة بيوضها (تقدر بـ1000 بيضة خلال حياتها بواقع 170 بيضة/ مرة) في مياه البرك، . الانثى التي تكون

حاملة لبيوضات تقوم بمص الدم لتغذية البيوضات وفي شهور الصيف او الخريف تضع الانثى البيوض على الاوراق الرطبة او بجانب البحيرات اليابسة . فالبعوضة الام بواسطة اللاقطات الحساسة الموجودة تحت بطنها تقوم بالبحث عن مكان مناسب لوضع بيوضها وعندما تجد المكان المناسب تقوم بوضع بويضاتها فطول كل بيضة لا تصل 1 ملم فتوضعها واحد فواحدة او بحالة مجموعة وتوضع بصف واحد ، وهناك نوع ثاني تقوم بربط بيوضاتها بعضها ببعض وتضعها ، وتصل عدد البيوضات التي تضعها في المجموعة 300 بيضة .

(289/577)

وبعد ان تضع البعوضة بيوضاتها التي تكون بلون ابيض وبعد 2.1 ساعة من وضع البيض تتبدل لونها الى لون الاسود وسبب تبدل لونها هو لكي لا يعرف من قبل الحشرات والطيور أي بمعنى آخر لكي لا تكون طعاما لهم . وهذا الشئ سبب لحمايتها وان بعضها تغير لونها حسب البيئة التي هي بها . وتفقس البيوض بعد 3-8 يوم فتخرج اليرقانات، حيث تتغذى على العوالق، وهي تتدلى من سطح الماء معلقة بذيلها الذى هو أنبوب التنفسوتستمر يرقة 12 يومثمخادرة مائية (PUPA) لمدة أسبوع (وهي الوحيدة من لها خادرة مائية وباقي الحشرات لها خادرة أرضية) ثم تخرجمن الخادرة (معناها النائمة)

بعوضة كاملة وتطير قي الهواء . وتستغرق هذه العملية من 9 الى 14 يوم في الماء الساكن، أما الماء الجاري فلا يبيض فيه . تقوم البعوضة بعد الهبوط على سطح جسم العائل بترطيب سطح الجلد وذلك بإفراز مخدر موضعي لتسهل إمرار خرطومها في الجلد (ويشبه هذا الخرطوم إبرة المحقن أو الإسرينج) ولهذا الخرطوم 6 أجزاء جانبية (تشبه السكاكين) لتثبيت الخرطوم على سطح الجلد ليسهل دخوله في أقرب شريان سطحي (حيث لديها القدرة على تمييز وتحسس الشرايين دون الأوردة) فتثقب البعوضة الجلد ثم تمتص الدم ويكمن السر في نقلها للأمراض عملية التقيؤ التي تقوم بها في كل مصة دم حيث تفرغ ما أخذته من جسم في جسم آخر حاصلة من الأخير على وجبة دم جديدة وسبحان الله فإن للبعوضة في لعابها مادة مانعة للتجلط (تشبه الـ EDTA) تجعل الدم الممتص دائماً سائلاً وسهل دخوله وتقيؤه . فالبعوضة عندما تحط على هدف تقوم بتحديد مكان معين بواسطة الشفاه الموجودة في الخرطوم، فالبعوضة لها أبرة مغلفة بغلاف خاص تخرجها عندما تقوم بمص الدم . والجلد لا يثقب بواسطة هذه الإبرة كما هو متصور . ولكن يقوم بالعمل هو الفك العلوي التي تشبه السكين والفك السفلى الذي يحتوى على أسنان مائلة نحو الداخل .

(290/577)

فالفك السفلى يعمل بمقام المنشار أي يتحرك مثل المنشار والجلد ينشق بمساعدة الفك العلوي الذي يكون بمقام السكين ومن المكان المنشق تدخل الإبرة إلى أن تصل إلى العرق وتقوم بعملية مص الدم وفى مدة قصيرة وبمساعدة أنزيمات الموجودة في الجسم بعملية تخثر الدم في تلك المنطقة . وتقوم بصنع مادة في جسمها وتفرزها إلى وريد الإنسان في تلك المنطقة لمنع تخثر الدم هناك وبهذا تكمل عملية امتصاصها للدم . والبعوضة عندما تلدغ الإنسان تنتفخ منطقة اللدغ ويكون فيها احتكاك وسبب ذلك هو الإنزيم الذي قامت بإفرازه داخلها . وللبعوض أنواع كثيرة منها وأشهرها (الانوفيليس) وهو أخطر أنواعها إذ ينقل جراثيم مرض الملاريا وتنقل البعوضة أمراض كثيرة (90% تقريباً من الأمراض التي تنتقل بواسطة الحشرات عن طريق البعوض) مثل الحمى الصفراء وحمى وادي المتصدع وحمى النيل الغربي وجدري الماء (جدري الدجاج) . ويختص ذكر البعوض بالتغذي على رشف النباتات والرحيق، وهكذا تختص الإناث فقط بمص دم الحيوانات والإنسان (كما جاءت به الآيات بعوضة بتاء التأنيث) والسر في تخصصها لمص الدم البحث عن مصدر للبروتين لإنتاج وإنضاج البيض الذي تفرزه فهي مضطرة لامتصاص الدم لكيتحافظ على دوام نسلها . وبالرغم من أن عضتها ليست مزعجة وجرحها بحد ذاته ليس خطيراً إلا أن الخطر يكمن في إمكانية تأثر الضحية بمرض مزعج عندما تحقن البعوضة لعابها فيه .

ويقال أن البعوضة تحيا ما جاعت فإذا سمنت ما تتوثبت أن للبعوضة جهاز استشعاري حراري حساس (ومقدار حساسيته بمقدار 1/1000 درجة) يعتمد استخدام الأشعة تحت الحمراء الموجودة ضمن طيف الأضواء التي تستطيع البعوضة رؤيتها يمكنها من تحديد المادة الأكثر عضوية فتحس بالنائم دون اليقظان وتفرق بين الأم والأب والطفل وحتى بين الحامل وغير الحامل، للبعوضة 100 عين مجتمعة في عينين مركبة وهذه العيون موجودة في الرأس على شكل تشبه قرص العسل تقوم عين البعوض باستلام هذه الإشارات وتنقلها إلى الدماغ. ولها 47 سن في فمها ولها كباقي الحشرات قرنين استشعار وبطنها مكون من 7 أجزاء ولها دورة دموية بسيطة تتضمن ثلاثة قلوب متصلة مثل باقي الحشرات ولها ستة أرجل وجناحين مضمحلين وراء الجناحين الكبيرين . إن ذكر البعوض عندما يصل إلى مرحلة البلوغ فانه يقوم بالبحث عن الأنثى مستعملاً حاسة السمع لأن حاسة السمع عند الذكر أقوى من الأنثى،فالصوت الصادر من الأنثى ينتبه إليه الذكر ويلتقطه بواسطة الشعيرات الدقيقة التي توجد في نهاية قرني الاستشعار، ويوجد للذكر ملاقط وهي الكلاليب تساعد في مسك الأنثى أثناء التزاوج. فالذكور عندما تطير تكون بحاله

جماعية تشبه الغيوم فعندما تدخل أي أنثى في هذا السرب فالذكر أثناء طيرانه يقوم بعملية الازدواج فيمسك الأنثى بواسطة كلاليبها وتتم العملية بمدة قصيرة ويرجع الذكر إلى المجموعة بعد ذلك . إن أساس الجهاز التنفسي التي تستعملها يرقات البعوض (Larvae) هو قضيب تخرجها خارج الماء لتتنفس بواسطتها . وتكون اليرقة معلقه رأساً على عقب (أي بالمقلوب) ولمنع نفوذ الماء إلى القضيب تفرز مادة صمغية من جسمها فسبحان الله تتنفس من خلال قضيب ولا يدخل ماء إلى هذا القضيب فهي غطاسة ماهرة .

(292/577)

عند انتهاء فترة حضانة البيض تخرج اليرقة واحدة بعد الأخرى من البيض فتتغذى هذه اليرقات بدون انقطاع فتكبر إلى أن تصبح جلدها صلب وسهل كسره فيبدأ الغلاف الخارجي بالتشقق فتتشرنق وعندها تسمى خادرة (Pupa) ، فاليرقة خلال دورة حياتها تقوم بتغير جلدها مرتين وتكون طريقة غذاءها خلال ذلكبواسطة الشعيرات الموجودة في طرفيها والتي تكون مدخلاً صغيراً تضمن دخول البكتريا وأجسام ميكروسكوبية إلى الفمللحصول على الغذاء . إن الثقوب الموجوة في الأنبوب الذي بواسطته تستطيع اليرقة التنفس عندما تنغلق فأنها تصبح وجها لوجه في انعدام هوائها ، أما

في التغير الأخير الحشرة الجديدة (pupa) لا تحتاج إلى هذه الأنبوبة فهناك قضيبان في طرفي الرأس بواسطتها تستطيع أن تتنفس ولهذا فأن هذه الكائنات قبل أن تبدأ بعملية تغير غلافها تصعد إلى سطح الماء . فالبعوضة الموجودة في الشرنقة تكون قد تغيرت تماماً . فالبعوضة تصبح جاهزة للطيران . وعندما تخرج البعوضة يجب أن لا تلامس رأسها الماء لان لحظة واحدة بالنسبة لها دون هواء تكون سبب موتها . ولهذا السبب فأن كانت هناك ريح أو تيار مائي فأن هذا يعني للبعوضة الهلاك . فالشرنقة تنشق من الطرف العلوي ففي هذه المرحلة يوجد خطورة كبيرة وهي دخول الماء إلى الغلاف، ولكن المنطقة المنشقة من الكيس هي المنطقة التي تخرج الرأس منها ولكي تمنع من تماس الماء فأن الرأس تكن مغلفة بنوع خاص من الصمغ تمنع وصول الماء إليها وهذا شئ مهم . لان أي هواء تجعلها تسقط في الماء وتموت ولهذا فأن البعوضة تقوم بوضع رجلها على الماء عندما تخرج .

% لطيفة : المقصود بـ فما فوقها : حسب رأي ابن كثير تعني الذباب والعنكبوت اللتان ضربتا مثلاً من قبل وحديثاً اكتشف طفيل صغير يركب فوق جسم البعوضة فبذلك أيضاً يتم تفسير ما فوق البعوضة .

من فضلك أقرأ المزيد

.

.

.

0–حيوانات ذكرت في القرآن الجزء الثالث

بقلم الدكتور : عاطف الهندي

(293/577)

---

6 . الجراد Grasshopper : وتتبع الجرادة فصيلة الحشرات، وتكون أرجلها الخلفية طويلة مما يساعدها على القفز في وثبات واسعة، وفي بعض الأحيان تتجمع جيوش كثيفة عظيمة العدد من الجراد وتهاجر مجتازة مسافات شاسعة، فإذا هبطت على حقل أتلفت كل ما تصادفه من زرع . قال تعالى : (خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ) (القمر : 7) والآية الكريمة تتحدث عن دورة حياة الجراد فقبل أن تخرج الجرادة البالغة تكون خشعة في الأجداث وهذا الوصف الرباني للخادرة (pupa) والتي تأتي بعد اليرقة والأخيرة تتكون بعد خروج الحوريات (nymph) من البيض ولكل مرحلة من مراحل تطور الحشرة تغذية معينة حيث في موسم البيض تحفر الجرادة في الرمل بمؤخر جسمها ثقبا تغرز في أعماقه البيض ممزوجاً بمادة رغوية سريعة

التصلب وفي مدى أسبوعين تفقس البيوض عن يرقانات صغيرة جرادية الشكل تسمى الحواري وتكون قادرة على القفز لذا تسمى النطاطة . تتغذى الجرادة على أوراق النبات ولها كلابات مساعدة لعملية القضم التي تقوم بها على أوراق الشجر ، ومن حين لآخر يضيق الجلد عنها فينسلخ ويحل محله جلد جديد حتى تصير جرادة كاملة . للجرادة طبلة (tympany) مثل طبلة الأذن مسؤولة عن استقبال ترددات صوت أجنحة بقية قرنائها في سرب الجراد وتوجد هذه الطبلة أسفل الجناحين الأماميين حيث لها جناحين كاملين أيضاً خلف الجناحين الأماميين ولها عينين بسيطتين إلى جانب عينين مركبتين وما يجعل وزنها خفيف وجود أكياس هوائية داخلية قريبة من سطح جسمها ولهذه الأكياس فتحات خارجية عبر سطح الجلد .

لطيفة : سئل شريح القاضي عن الجراد فقال : قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة، رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد ، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجل جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب

7 .الحمار Donkey : قال تعالى : (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (لقمان : 19) وهذا الخطاب جاء على لسان الحكيم لقمان وهو يعظ ابنه حيث طلب منه إخفاض صوته لأن الصوت العالي يصبح منكراً وحتى يسمى ضجيج وعد العلماء ذلك من التلوث البيئي، وتشتهر الحمير بنهيقها ، والذي يعد من أنكر الأصوات وأقبحها ، وقد وجد العلماء أن لكل حمار نهيقه الخاص به . ويمكنها أن تميز فيما بينها بنهيقها . وسبب قبح صوته (نهيقه) يكمن في قلة حركته وعدوه قال تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً) (العاديات : 1) وتفسيرها والعاديات صهيلاً خفيفاً فصوت الضبح هو الصهيل الخفيف الغير مزعج والذي اكتسبه الحصان بفضل العدو حيث ذابت كل الشحوم حول الأحبال الصوتية وتعرضت هذه الأحبال للإحماء والشد من خلال رياضة العدو فيشبه ذلك شد أوتار المعازف لكي تحصل على صوت عالي دو نبرة رفيعة جميلة والضبح صوت بين الصهيل والحمحمة ينتج من العدو . والحمار صورته قبيحة في القرآن والسنة وحرم أكله ماعدا الحمار الوحشي وأمرنا الرسول الكريم عندما نسمعه أن نتعوذ من الشيطان . وقال تعالى لذم اليهود الذين أعطوا التوراة ولم يعملوا بها ولم ينتفعوا بشرائعها في حياتهم : (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الجمعة : 5) . ويصنف الحمار من الثدييات ذوات الحوافر الفردية الأصابع، وهو أصغر حجما من الخيل يستخدم منذ

القدم في حمل الأمتعة وحرث الأرض وهو شديد التحمل والصبر وينتشر في كثير من بقاع الأرض.

(295/577)

يتميز الحمار بانتمائه للعائلة الخيلية وله أذنين طويلتين مقارنة مع الحصان وشعره قصير منتصب يبدأ بين الأذنين إلى الكتفين، وله ذيل رفيع ذو خصلات شعر وأرجل طويلة هزيلة وهو أقصر من الحصان. يتراوح متوسط طول الحمار (حتى كتفه) ما بين 100-160سم. بينما يتراوح وزنه من 136-544 كجم، وتلد الأنثى مولوداً واحداً في كل مرة بعد فترة حمل تستمر من 11-12شهراً. ويعيش الحمار فيما بين 15-25 سنة. الحمير تشق طريقها بسهولة في الأراضي الصخرية والمنحدرات الجبلية، كما أنه يمكنها العيش بدون ماء، ويمكنها أن تشرب المياه المالحة. وتفر الحمير من مطارديها وتختبئ، لكنها إذا هوجمت فإنها تعض وترفس لتدافع عن نفسها. وأكثر الحمير شبهاً بالأحصنة هو الحمار الآسيوي. ولصورة الحمار الكريهة في القرآن والسنة حرمت لحومها علينا فلا يريد الله ورسوله لنا صورة الحمار تكون فينا وقال تعالى: (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ*فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ*) (المدثر: 50-51) وتتحدث الآيات هنا عن الحمر

الوحشية التي يحب صيدها الأسد : ويوجد حمار الوحش في أفريقيا ، وهو حيوان جميل الشكل قريب الشبه بالخيل والحمار ، ويختلف عنها بجلده المخطط ، وحمير الوحش هي من فصيلة متوحشة غير قابلة للاستئناس وتتميز بوجود الخطوط السوداء على جسدها والتي تجعل عملية تمييزها معقدة ولا سيما في الصباح الباكر أو عند الغروب وهي الأوقات التي تنشط فيها الحيوانات المفترسة . توجد حمير الوحش في قطعان هائلة في السهول الفسيحة في أفريقيا ، وقد قل عددها لأنها كانت تذبح بكثرة للحصول على لحومها .

(296/577)

بعض حمير الوحش لها نهيق كنهيق الحمار يتميز عن نباح حمار الوحش العادي وحمير الوحش حيوانات اجتماعية تتعاون كلها في تحذير بعضها البعض من الأعداء . وحمار الكواغة في أفريقيا الجنوبية هو حمار وحشي ذو خطوط على الرأس والرقبة والكتفين فقط . وانقرض قبل عشرين عاماً نتيجة الصيد . وأصغر أنواع الحمير الوحشية هو الحمار الجبلي ، ورغم أنه كان يطوف جنوب أفريقيا في قطعان كبيرة إلا أنه يقتصر الآن على المناطق المحمية . وهو أكثر الحمير الوحشية شبهاً بالحمار العادي بأذنيه الطويلتين وحوافره الضيقة ورأسه الثقيل .

8 . الحوت Whale و (السمك) Fish : قال تعالى : (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (فاطر : 12) قال صلى الله عليه وسلم " أحلت لكم ميتتان الحوت والجراد " من سنن ابن ماجه فالحوت أو السمك ميت لخروجه من البحر بالصيد وهو حلال والذي يموت لوحده بفعل تصادم التيارات الدافئة والباردة فيطفو على سطح البحار المالحة كالسردين أيضاً حلال وليس من أكله خطورة وقال عز وجل : (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً) (الكهف : 61) وهذا يعني أن الحوت

يترك أثراً (لمسربه) أي لمسلكه في البحر لإنسياب جسمه في البحر فسهل أن تقتفي أثره وتصيده وهذا السبب في انقراضه لولا تدخل الجهود الدولية أيضاً طريقة أكل الحوت والسمك تكون بالإلتقام قال تعالى : (فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ) (الصافات : 142) أي فبلعه حيث تتغذي الحيتان المسننة بما تبلعه من السمك، والكبار منها تأكل الحبار، أما

الحوت السفاح فهو يتغذي بالفقمة وصغار القرش وطيور البطريق . والحوت حيوان ثديي يشبه السمك ويعيش في البحر . الطرفان الأماميان يشبهان الزعانف وبالذيل مروحة أفقية يستخدمها الحوت في السباحة . وليس للحيتان البالغة شعر وقد استعاضت عنه بطبقة سميكة من الدهن .

قد يصل طول الحوت البالغ إلى 45 متر ويزن 150 طن وأكثر الحواس شدة هي السمع والبصر والإحساس، وهو صاحب أكبر مخ في الثدييات والحوت الأزرق أكبر وأثقل الثدييات المخلوقة . تعيش معظم الحيتان في زمر وجماعات وتغوص إلى عمق 3 كم وتخرج إلى سطح الماء من حين لآخر للتنفس حيث تفرز من الرئتين الهواء الدافئ المستنفذ عبر ثقب النفخ أو المنخر في أعلى الجمجمة وهذا المنخر أحادي الفتحة في الحيتان ذوات الأسنان وثنائي في الحيتان اللا مسننة . تستطيع الحيتان البقاء تحت الماء حوالي خمس عشرة دقيقة والحيتان الكبار قد تظل ثلاثة أضعاف ذلك .

(298/577)

والحيتان نوعين أحدهما مسنن في الفك العلوي والسفلى وعدد أسنانها 200 سن ، مثل حوت العنبر والحوت القاتل، والآخر له وسادة سنية لبنية في الفك السفلي وتتدلى من فكها

العلوي صف من الصفائح القرنية مثل الحوت الأزرق والحوت ذو الزعنفة . وللحم الحوت فوائد عظيمة حيث يحتوى على كمية كبيرة من البروتينات ذات القيمة الغذائية العالية الغنية بالأحماض الأمينية ونسبة عالية من الفوسفور المهم لبناء الأنسجة والعظام عند الصغار وغنى بالكالسيوم وفيتامين أ الضروري لسلامة البصر والجلد والأغشية المخاطية . ومن أهم الفوائد الطبية لزيت الحوت : أنه يخفض نسبة الكوليسترول ويقلل نسبة الدهون بالدم ويمنع تجلط الدم ويخفض ضغط الدم ويمنع الالتهابات الجلدية والتهاب المفاصل وفي الأثر أن أول طعام أهل الجنة حين يدخلون الجنة هو زيت كبد الحوت . وأحد المفسرين قال أن (نّ) في الآية الكريمة : (نْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (القلم : 1) هو حوت عظيم وقد يكون الذي التقم النبي يونس عليه السلام لذا يدعى ذا النون (أو صاحب الحوت) أما اللحم الطري أو صيد البحر وطعامه والمسمى بالسمك قال تعالى : (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المائدة : 96) وسبحان الله العظيم صاحب الإعجاز العلمي واللفظي في القرآن كلامه الحق يقول تعالى : (صيد البحر) وهذا معروف وهو ما يتم اصطياده من الحيتان والأسماك ولكن ما (وطعامه) ويفسرها علماء التفسير ما يلفظ من البحر ميتاً أي حالياً سمك السردين . والسمك هو أحد طوائف شعبة الفقاريات،

ويصنف العلماء الأسماك إلى فئتين : إحداها عظمية وتحوي في هياكلها عظماً حقيقاً والأخرى غضروفية كالقرش والشفنين .

(299/577)

والأسماك فصيلة لوحدها تختلف عن الحيتان الثديية بأنها تضع البيض ولا تتوالد مثل الحوت وهي حيوانات مائية باردة الدم، وهي خيشومية التنفس وليس بالرئتين وفقط تتنفس في الماء، تندفع السمكة بحركات الذيل من جانب إلى آخر، بينما تعمل الزعانف على ضبط الاتجاه، وبعض أنواع السمك تعيش في المياه العذبة والأخرى في المياه المالحة . معظم الأسماك لها حراشف تغطي جسمها ، ولها شكل انسيابي، وبعضها كالشفنين له شكل منبسط، وفي الأعماق السحيقة : تحت كيلومتر أو أكثر في أعماق البحار تبدو أشكال غريبة من الأسماك تعيش هناك، يغلب عليها اللون الأحمر والأسود، كما تظهر على جوانب بعض الأسماك في تلك المناطق بقع خاصة في جانبي السمكة تشع بنور ضارب إلى البياض، حتى أن السمكة تبدو كغواصة صغيرة يشع الضوء من كواتها الجانبية . ومعظم أسماك الأعماق عمياء لظلمة المحيطات .

(300/577)

9 . الخنزير Pig : ومن الثابت في الأثر أن الخنزير من المسخ ولذا هو من المحرم أكله سواء كان مربى بالمزارع أو بري قال تعالى : (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) (المائدة : 60) ولكن رسول الله عندما سئل هل كان الخنزير موجود قبل حدوث المسخ لطائفة من بني إسرائيل فقال صلى الله عليه وسلم : "إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك" (رواه مسلم) وقال تعالى عن تحريمه : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل : 115) والعلة في تحريمه كثيرة الأسباب وأهمها أنه شرعة وأمر من الله تعالى علينا وعلينا الالتزام بهذا الأمر وأبدلنا ربنا محله بالأنعام ومن أسباب تحريمه الظاهرة : أنه أكبر مستودع للطفيليات

(301/577)

والجراثيم الضارة حيث ينقل للإنسان 30 مرض طفيلي أخطرها الدودة الشعرية Trichinella و34 مرض فيروسي وأشهرها انفلونزا الخنازير و15 مرض

بكتيري وأخطرها مرض الحمرة (Erysipelothrix) و3 أمراض فطرية و10 أمراض غذائية أشهرها والسمنة وارتفاع الكوليسترول (حيث يحوي كل 2كغم لحم خنزير على كيلو دهن (يعني 50%) بينما لحم الضأن يمثل الدهن فيه ما نسبته 17% والبقر ما نسبته 5% ونسبة الكوليسترول في دهن الخنزير إلى الضأن إلى الأبقار مساوية لـ 6 : 7 : 9 وأمراض أخرى مثل تصلب الشرايين والضغط والسرطان . ومن الأسباب الأخرى احتواء دهنه الذي لا تستطيع فصله عن لحمه على نسبة عالية من الكبريت واحتواء لحمه على نسب عالية من حامض البوليك وكل ذلك مؤذي ومسرطن كذلك ثبت أنه إذا أكل دهنه فإنه يتكسر ويتركب بنفس الصورة الخنزيرية فتظل لبنة خنزيرية في شحم الإنسان (لذلك إذا اضطررنا إليه من مجاعة فيجب أن لا نشبع منه ويكفي 3 لقيمات منه) وآكله يتطبع بسلوك وطبائع الخنزير الغير سوية كدياثته (عدم غيرته على إناثه) وكذلك طبيعة أكل الخنزير القذرة فهو يحب التقاط العذرة (الأوساخ) ولا يأكل طيبا ويعتبر ثنائي الأكل (Omnivorous) أي يأكل اللحم والنبات وأي شيء ويوجد أبحاث كثيرة تربط بين سلوك الإنسان وبين ما يأكله من حيوان فمثلاً آكل الإبل يتصف بالصبر والتحمل والشدة وآكل الضأن يتصف بالهدوء وهكذا . والخنزير أحد الحيوانات الحافرية الظلفية أي أن حوافرها مشقوقة وله جسم ثقيل وأرجل قصيرة وخرطوم قوي يحفر به الارض بحثا عن جذور النباتات . وذكر الخنزير المسمى بـ (Boar) له أنياب قوية يستخدمها في الدفاع

عن نفسه . والخنزير كسول لا يعشق ضوء الشمس، يحب أن يأكل وينام وهو أكثر جشعا من الحيوانات الأليفة، وكلما كبر في السن ازداد خمولا، ولا توجد فيه عزيمة أو إرادة للقتال أو الدفاع عن نفسه، وهو يأكل أي شيء حتى الفطر والديدان والأفاعي .

(302/577)

وهي حيوانات قذرة تحب التمرغ في الوحل والقاذورات . ينتشر الخنزير بنوعيه البري والمستأنس في كل قارات العالم ماعدا القارة القطبية الجنوبية، وتختلف أوزان الخنازير وأحجامها فالصغير منها قد لا يتعدى طوله 30سم ووزنه 6كجم، بينما قد يصل طول بعضها إلى المتر ووزنها إلى 136كجم وبما أنها حيوانات شرهة فإنه قد يتجاوز وزن الواحد منها 360كجم . ويعد الخنزير البري من أبشع الثديات منظراً . فوجهه مسطح طويل وله أربعة أنياب خارجة من فمه، وعيونه ضيقة تقع في نتوء الوجه، وهذه الخنازير قد تصل سرعة الواحد منها إلى 50كم/ساعة وعندما تجري ترفع ذيولها كالأعلام . تلد أنثى الخنزير البري من 2-12 خنزيراً في الحمل الواحد بينما تلد أنثى الخنزير المستأنس أعداداً أكبر . وتصل فترة الحمل من 3.5 إلى 5 أشهر . وهي تلد صغارها كبيرة الحجم نسبياً . ويعيش الخنزير في البرية من 15-20سنة . ويوجد أسماء تكون على منتجات غذائية

تحتوي على الخنزير نحذر من التعامل معها نذكر منها :ـ

scrofulous

Sow

Pork

cochon

Stud–Boar

Hog

Maws

Stag

Gilt

Casings

Swine

Bacon

Soveloys

Porcine

Ham

Lard

Sowil

Chitterlings

Truiegoret

Charcuterie

Sanglier

Sowbelly

Ecrouelles

Ochen

(303/577)

---

10 . الخيل Equine : قال تعالى : (إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ*فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ* رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ*) (صٓ : 31 – 33) والآيات الكريمة تتحدث عن مسابقات الخيول وأولها مسابقة الجمال وأنه دائماً تفوز فيها بلا منازع الصافنات الجياد وهي أفضل ما اقتنى النبي سليمان عليه السلام والصافنات وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة لقوتها وخفتها وهي علامة الصحة للخيل والجياد معناها السراع ويوجد علامة ثانية لجمال الخيول وهي السوم ومعناه الرعي وخيل مسومة يعني خيل راعية أو مسومة الغرة والتحجيل وكل ذلك في الخيل الحسان قال تعالى : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ

النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران : 14) والعلامة الثالثة للخيول الأصيلة الجميلة أن تكون من العاديات ضبحا (تصدر صوت الضبح وهو صهيلها أثناء العدو) وتقدح من الصخر الشرر بحوافرها وتثير التراب غباراً قال تعالى : (وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً *) (العاديات 1-4) وترسل عرفها أي تنشره على رقبتها قال تعالى : (وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً) (المرسلات : 1) والآية بالأصل تصف الرياح وتشبهها بالخيل .

(304/577)

والسباق الثاني هو سباق التحمل وتركض فيه الخيل مسافات حتى تتوارى عن نقطة الانطلاق (عن الحجاب) ثم يرجع بها الفارس إلى حيث بدأ فيتحسسها بالمسح على سيقانها وعنقها حيث يستطيع أخذ عدة قراءات من ذلك ومنه معدل ضربات القلب أو نبضها (28 - 40/الدقيقة) ومعدل تنفسها (10 - 14/الدقيقة) وحرارة جلدها (37.5 - 37.9 بعد دقيقتين) ليحكم من خلال ذلك على قوة وتحمل الخيول واستعدادها لسباقات أطول مسافة وهذا الهدي الرباني الذي قام به النبي سليمان على

خيوله والتي أحسن اختيارها هو نفسه الفحص البيطري المعمول به لخيل السبق في الوقت الحاضر فأي كتاب عظيم هذا القرآن يقرأه الطبيب فيظنه كتاب طب ويقرأه المهندس فيظنه كتاب هندسة ويقرأه من كان فيظنه كتاب يختص في علمه . وقد استخدم الإنسان الخيل مدة تزيد على أربعة آلاف سنة وكان يستخدم في حرث الحقول وحمل البضائع وفي القتال . ويمتاز حصان السباق بخفة الجسم وضمور البطن وقوة القوائم . والخيل سهلة التدريب والتعلم ولديها ذاكرة قوية وهي وفية لصاحبها . والحصان يظل شهر كامل واقف على قدميه بدون تعب وينام واقفاً ، ويقال إذا قطع ذيله مات . وليس للحصان مرارة (Gall bladder) أرجل الخيل طويلة وقوية تقوى على جر العربات وركل أي مهاجم، وأنفها واسع يساعد على استنشاق كمية كافية من الهواء ، وأبرز حواسها القوية : البصر والسمع والشم . وتمتاز العائلة الخيلية (بما فيها الحمار) بحدة سمعها (أكثر من الإنسان) وللخيل نوعان رئيسيان : الخيول العربية السريعة التي نشأت منها خيول السباقات والخيل التي تربى في وادى نهر كلايد ويشار وهذه تستخدم في جر الاثقال . وهناك خيول صغيرة يبلغ ارتفاعها نحو متر وعشرين سنتمترا ووزنها نحو 225 كيلوجرام وأصلها من جزر شتلاند في الشمال من أستكلندة ويعرف بالفولابيلا .

ولا يعرف سوى ضرب واحد فقط من الحصان الوحشي على قيد الحياة اليوم، ويعرف بالحصان الوحشي المغولي، الذي يعيش في السهول الباردة غير المأهولة في منغوليا في آسيا الوسطى، وتتميز عن سلالات الخيل الأليفة بكونها ذات شعر أسود منتصب قاس وقصير ورأس ثقيلة وأذنين صغيرتين وذيل متدل بشكل منخفض وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة" (رواه بخاري) وفي رواية لأحمد "وأهلها معانون عليها" .

(306/577)

---

11 . الذئب Wolf : قال تعالى : (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ) (يوسف : 13 – 14) ويقصد هنا بالذئب عل العموم (أي الجنس) وتطرقت الآيات للحديث عن سلوك العدوان الذي تتميز به الكلبيات وفي الآيات قال يعقوب عليه السلام (أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) وسلوك العدوان هذا يخضع لحالتين : السيادة أو الإذعان فإما يذعن إن أحس بالخوف والقوة من الجانب الآخر (ونحن عصبة) أو يسود إذا

أحس بخوف الجانب الآخر ودائماً تجد الكلبيات تركض وراء من يهرب وتهرب ممن يركض ورائها . والذئب أكبر أفراد عائلة الكلبيات Canine التي تضم كذلك الكلاب والثعالب وبنات آوى والقيوط. تتزاوج الذئاب في فصل الشتاء ومدة الحمل 65 يوما وتلد الأنثى ما بين جرو الى احد عشر جرواً في كل ولادة وتكون الجراء عمياء صماء عند ولادتها .

والذئاب نوعان : الرمادى ويعيش في غابات المنطقة المعتدلة الشمالية، وجسمه مغطى بفراء رمادى مرشوش بالأسود وبطنه وأرجله بيضاء مصفرة. والنوع الثاني هو الأحمر ذو الفراء البني المحمر وهو اصغر من النوع الأول في الحجم، وهذا النوع يصطاد في جماعات ويصيد الثدييات الكبيرة كالغزال المرقط والدب الكسلان والدب الأسود، وقد تصل شراهتها إلى قتل النمور . يمتلك الذئب حواس قوية، فالبصر والشم والسمع شديدة الحساسية لدرجة أنه يمكنه رؤية وشم رائحة غزال على بعد 1600 متر، والكلبيات عموماً لها أربع أصابع فقط في أرجلها الخلفية وهي غير قادرة على تسلق الأشجار لكنها عداءة ماهرة.

لطيفة : ومن عجيب أمر الذئب انه إذا نام أن يناوب بين عينيه فينام بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام وفتح بها الثانية

قال الشاعر : ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقضان نائم

12 . الذباب Flies : قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) (الحج : 73) وإليكم تعليل لضرب الذباب مثلاً فوجد أن الذباب يحوي زغب على جسمه وأرجله يستطيع أن يسلب أي شيء يحط عليه فتعلق به حبوب الطلع لذا يساهم في تلقيح الأزهار والنباتات ويتحدى رب العالمين أن يستنقذ أي إنسان ما يسلبه الذباب منه حيث لديه خرطوم يمتص به ما يسلبهم إياه ويهضمه في فمه خلال ثوان فلا يستطيع أحد استرجاعه (فضعف الطالب والمطلوب) وفي الهدي النبوي مثل آخر للذباب حيث قال صلى الله عليه وسلم : " إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء " (رواه البخاري) حيث وجد أن الذباب شديد التقاط الأوساخ من بيوض ديدان وطفيليات وجراثيم ممرضة من بكتيريا وفيروسات وخاصة فيروسات ملتهمات البكتيريا (Bacteriophages) التي تتخصص كل نوع منها في القضاء على نوع معين من البكتيريا وحتى على فصيل (Species) معين من نفس نوع البكتيريا أو حتى على نوع مصلي (Serotype) معين من ذلك الفصيل وأضرب مثلاً للفيروس الذي يلتهم البكتيريا الممرضة الآية الكريمة التي تقول : (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأنعام : 129)

ويتجلى الهدي النبوي بأن نغمس الذبابة كلها لأنه لا ندري في أي جناح توجد هذه الـ Bacteriophages وتتواجد الـ (Bacteriophages) بالطبيعة بشكل رئيسي في المجاري (Sewage) ويبلغ قطرها 20 – 25 مليميكرون وللعلم أصبح الآن شغل الشاغل للشركات الدوائية لتصنيعه تجارياً لعلاج الأمراض عوضاً عن المضادات الحيوية ومشاكل المقاومة فيها .

(308/577)

والعجيب أن الذبابة كانت مادة بحث لكثير من العلماء الغربيين وتم دراسة فطر يتطفل على الذبابة المنزلية يدعى Ambus musci وتم عزل عدة مضادات حيوية من فطريات الذبابة مثل (Javacin,Clutizin,Aniatin) والذبابة حشرة ذات أجنحة شفافة، وهي من رتبة ذوات الجناحين . وتضم الذبابة زهاء ثمانين ألف نوع تتوزع في كل بيئة يستوطنها البشر وبعض الذباب شبيه بالنحل أو الزنابير بأجسادها وألوانها . أرجل الذبابة المنزلية Musca domestica مغطاة بالشعر وتنتهي بوسائد ماصة تمكنها من الالتصاق بالأسطح الملساء فتراها تسير مقلوبة فوق سقف الحجرة، ويحمل هذا الشعر المنتشر على أرجلها الجراثيم من القاذورات التي تهبط عليها .

ولها دبوس توازن في مكان الجناحين الخلفيين اللذان يوجدان في الحشرات الرباعية الأجنحة، وهما يحفظان توازنها أثناء الطيران، وهو ذو شكل مغزلي ويتكون من ساق رفيعة تنتهي بكتل نسيجية كثيفة وفي قاعدة كل دبوس 418 مستقبل عصبي للحركة تعمل على حفظ توازنها .

وللذبابة خرطوم يمتص الطعام ولها لسان فإذا صادفت الذبابة طعاما صلبا كالسكر تصب عليه من ريقها فيذوب فيمتصه الخرطوم ولها عيون كبيرة تحتوي على عدد كبير جداً من العدسات السداسية مما يتيح لها الرؤية من جميع الجهات . وتكاثرها سريع حيث تضع في المرة الواحدة ما قد يبلغ مائة وخمسين بيضة . والذبابة عضوية الأكل سواء كان حيواني أم نباتي (Omnivorous) وهي تنشط فوق درجة حرارة 10ْ م وفي الجو البارد لليوم الحار وتشبه البعوض في تصنيفها وتركيب جسمها وفي بعض العادات مثل عادة التقيؤ (Regurgitation) وتستطيع الذبابة الطيران مدى 3-4كم من نقطة انطلاقها أو أن تسافر مسافة 34كم . ومجموع ما تضعه من بيوض أكثر من 500 بيضة ويخفق قلبها 1000مرة / الدقيقة .

(309/577)

13 . طائر السلوى (السماني) Quail : قال تعالى : (وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (البقرة : 57) ويذكر القرآن أنه كان منة من الله على بني إسرائيل كل أيام الأسبوع ما عدا السبت فيتزودوا بطعامه ما يكفيهم ثم سئلوا الأدنى فأخذه عنهم . وقد كان السلوى الذي أعطاه الله لبني إسرائيل يأتي لأحدهم مشوياً فيأكله ثم يتركه عظاماً فيعود طيراً بإذن الله . والسماني من العائلة الدجاجية يتواجد في كل العالم خاصة في الجزر مثل مدغشقر واليابان وغينيا الجديدة ونيوزيلندا والفليبين وتعتبر من المهاجرات ودجن بعضها للتربية والتسمين طوله 13 – 26 سم ويختلف من بلد لآخر وتختلف فصائلها وله عدة ألوان تعيش في أسراب (كل سرب يحوي 100 طائر) وهو احادية التزاوج كالحمام .

من فضلك أقرأ المزيد

0–حيوانات ذكرت في القرآن الكريم الجزء الثاني

بقلم الدكتور : عاطف الهندي

3 . البغال Mules : قال تعالى عنها : (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ) (النحل : 8) والبغل هو الهجين الذي ينشأ من تزاوج الحمار والفرس فيأخذ حجم الفرس وتحمل الحمار لذا يكون الناتج أقوى وما يزيد قوته أيضاً أنه عقيم

والسبب أنه يحمل عدد فردي للكروموسومات (63) حيث ينشأ من الوحدة بين كروموسومات الحمار (عددها 62) والفرس أنثى الحصان (عدد كروموسوماتها 64) .

(310/577)

---

4 . البقر Cattle : ذكرت البقرة في عدة مواضع وسأبحث في موضعين اثنين الأول منهما فيه قال تعالى : (قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ *قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ *قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ *قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) (البقرة : 68-71) وفي الآية هدي رباني لكيفية اختيار الأبقار الممتازة وأهم مواصفاتها كما جاءت بها الآيات وحسب تفسير علماءنا (1) أن تكون متوسطة في العمر ليست بكيرة غير منتجة للحليب أو انتاجها قليل ولا هرمة (فارض) ذات الإنتاج القليل أيضاً وثبت أن البقرة بعد الولادة الثانية أو الثالثة أي بعمر 4-5 سنوات تتمتع بإنتاج غزير ثم تبدأ تتناقص

بالإنتاج (2) أن تكون صفراء فاقع لونها ويعني ذلك أن تكون شديدة البياض حيث تصف العرب الروم ذو البشرة البيضاء ببني الأصفر وللون الأبيض علاقة أيضاً بالإنتاج فهو عاكس للضوء والحرارة بعكس الأسود الذي يمتصهما وبالتالي يقلل الإنتاج خاصة في الصيف بينما الإنتاج في البقر الأبيض صيفاً إنتاجه وفير مثل الشتاء ذو المعدلات العالية في الإنتاج (3) وأن تكون بقرة قوية لا منهكة ولا تستخدم للحراثة والسقي لأن كل ذلك يكون على حساب الإنتاج فيقلله وأن تكون خالية من أي عيوب خلقية ظاهرة وهذا تفسير (لا شية فيها) لأن أي عيب خلقي يقلل سعرها في

(311/577)

ناظرها حتى لو تنتج

الكثير . كل تلك المواصفات والمقاييس لم توضع من قبل عالم أو خبير أو طبيب بيطري أو مهندس إنتاج حيواني ولكن جاء بها الوحي من عالم كل شيء من رب العالمين وقبل أكثر من 1400 عام .

و البقر " بالتحريك " اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، والجمع بقرات وبقر وبقار وأبقر وبواقر . وقد سمى هذا الحيوان بالبقر لأنه يشق الأرض بالحراثة ، يقال : بقره بقراً أي شقه

شقاً ، أي فتحه ووسعه . ويسمى ذكر البقر وأنثاه بالبقر ، وولده العجل للذكر الصغير والعجلة للأنثى الصغيرة . ، وتنتشر الأبقار في معظم أنحاء الكرة الأرضية ، ماعدا المناطق الباردة، ويربى في المراعي والمروج من أجل لحمه وحليبه وجلده . ويستخدم للحراثة والجر، وأحياناً لحمل الأثقال، وله ضروب كثيرة تختلف باختلاف البيئات التي يعيش فيها . وتتميز بقرونها متوسطة الطول . ومدة حمل الأنثى من البقر (285) يوماً ، ووزن صغيرها بعد الولادة 30 كغ تقريباً ، ويجب أن يسقى في اليوم الواحد (8ليتراً) من لبن أمه ، ويجب الإعتناء في أمر فطامه بصورة تدريجية حتى يعتاد على ذلك . وبشكل عام تصنف البقر من حيوانات ذوات الظلف المشقوق (ذوات الحوافر المزدوجة الأصابع) ، ومعدتها ذات حجرات أربع . وليس لها قواطع في الفك العلوى، وللبقر صوت يسمى الخوار . وهي من المجترات حيث أنها تتناول الورق والعشب ببعض المضغ فتبلعه مؤقتا ثم تستعيد الجرة فتمضغها جيدا ثم تهضمها وطريقة أكلها مميزة عن الغنم بحيث تلم الكلأ لماً وليس تقطيعاً خفيفا على أضراسها كالغنم (بياضه وسماره) ومعظم أبقار العالم من النوع الحلوب ذو الإنتاج العالي الصالح للتربية في المزارع ويتبع فصيل (الهولشتاين – فريزيان) الألماني المهجن والمسمى في بلادنا بـ (الهولندي) .

(312/577)

وتعيش بعض الأبقار البرية في بعض أنحاء العالم مثل قطعان القطاس والبيزون الامريكى وهو أضخم اللبونات في العالم وكان يجوب مروج امريكا الشمالية بأعداد هائلة، وذلك قبل أن يفرط المستوطنون في صيده . وربى الانسان الأبقار منذ عهد بعيد واعتمد عليها للحصول على اللبن ومشتقاته وبعض الأبقار تربى لإنتاج اللحوم . ومنذ القرن الثامن عشر بدأ الإنسان برامج التربية العلمية للأبقار وأمكنه عزل سلالات وراثية نقية، بالتحكم في التزاوج بينها ، ومنها سلالات الفرزيان المشهورة بإنتاج اللبن، وأبقار الهرفورد المشهورة بإنتاج اللحم، وقد توصلوا إلى سلالات مزدوجة الإنتاج من اللبن واللحم . وفي الهدي النبوي أن لحم البقر فيه داء وفي لبنها الدواء (ويتصف لحمها بأنه شديد يعمل إمساك والسبب في أليافه المعقدة وأما لبنها فاكتشف حديثاً وجود أحماض دهنية غير مشبعة من نوع أوميغا -3 فيه (ومن أشهرها Prostaglandin) تزيد المناعة لدى شاربيه ضد الأمراض) وأما العجل فهو صغير البقرة وتضع البقرة عجلاً واحداً بعد فترة حمل تستمر عادة تسعة أشهر، وترضع الأبقار عجولها لمدة ثمانية أشهر، وقد تأكل العجول خلالها الأعشاب . وقد ذكر العجل أيضاً في مواضع عدة من القرآن الكريم منها : (فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ) (الذريات : 26) وفي الآية بيان لتربية وتسمين العجول للحم . قال تعالى : (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً

خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ) (النحل : 66) وفعلاً فإن الفرث (الكرش) والدم وحدات من مصنع اللبن عند الأنعام وليس الضرع فقط فالفرث عملياً عبارة عن السليلوز ومركبات غذائية مختلفة ومختلطة بالقلورا Microflora (البكتيريا والطلائعيات النافعة المسؤلة عن التخمير داخل الكرش) داخل الكرش .

(313/577)

حيث يحدث بها تخمر وتغيير في تركيبها من جراء تكسير قلورا الكرش لهذا السليلوز ، والمواد السكرية ، مما يؤدي إلى إنتاج ثلاثة أحماض دهنية ، وهي حامض الخليك وحامض البيوتريك ، وحامض البروبيونيك ، فتمتص الشعيرات الدموية المنتشرة حول الكرش هذه الأحماض ، وذلك دون مرورها في القناة الهضمية إلى الأمعاء (المسؤولة بالأصل عن الامتصاص) كما هو متبع مع باقي الغذاء ، فتصل إلى الغدد اللبنية ويحدث الآتي : يزيد حمض الخليك من دهن اللبن . ويزيد حمض البيوترك من بروتين اللبن ، ويزيد حمض البروبيونيك من سكر اللبن . ووجود الدهن في اللبن هو السبب في وجود الطعم المستساغ له . وكلما قلت نسبة الدهن قل إستساغة طعم اللبن عند الشرب . كما وجد أيضاً أنه كلما زادت نسبة السليلوز في الغذاء زادت نسبة حامض الخليك ، وبذلك تزيد كيمة

الدهن في اللبن وبالتالي ندى استساغته . ثم إن إشارة القرآن الكريم إلى خروج اللبن سائغاً طيب الطعم . وخالصاً نقياً من اللون والطعم والرائحة غير المرغوبة، هذه الإشارة تدل على نعمة الخالق جل جلاله وقدرته، فأنظر كيف تقوم الغدد اللبنية في الضرع بعلمية التصفية والتميز والاختيار ، وانتخاب المواد النافعة والمغذية من الدم والابتعاد عن المواد الضارة كالسموم ، وحامض البوليك (Uric Acid) مع كونهم مختلطين بالدم، ويسيرون في الجسم مع مجاري الدم، فيجتمع اللبن في الضرع انتظاراً لحلبه ، وتقديمه لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، بينما تقوم غدد أخرى في الجسم وهما الكليتان بعكس هذا العمل فتقومان بامتصاص سموم الدم وحامض البوليك من الدم لطرحه خارج الجسم عن طريق الجهاز البولي . فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

(314/577)

وأين العبرة في الأنعام يقول العلم الحديث : هذه الأنعام هي وحدها من بين جميع الحيوانات اللبونة تنتج اللبن باستمرار، وبكثرة عظيمة، وهي وحدها التي تجمع بين هذه الخصائص، وبين القدرة على الحرث والحمل والجر ، إنها قدرة ربانية عظيمة جمعت في الأنعام بين أن تكون آكلة عشب ميسوراً غذاؤها ، يسيراً تذليلها ، وبين أن تكون مخزناً دائماً ومصنعاً

دائباً للحليب والسمن واللحم، وكلها من المواد البروتينية . وقد كان من المتوقع عقلاً أن تنتج هذه الأنعام التي كل غذائها العشب مادة نشوية سكرية، ولا تنتج لحماً ولا سمناً ولا شحماً فسبحان الخلاق العظيم . وأيضاً العبرة فيها كثرة منتجاتها التي لا غنى عنها قال تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ) (النحل : 80) وظعنكم : أي سفركم وقال تعالى : (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) (النحل : 81) وهذه السرابيل كلها من منتجات الأنعام فسبحان الله .

(315/577)

---

5 . الثعبان (الحية) Snake : قال الله تعالى عن أفعى موسى : (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ) (لأعراف : 107) والثعبان هو الحية الضخمة الطويلة وأحياناً يقصد به الحية الذكر والأفاعي هي أكثر الزواحف قابلية للعيش في مجالات أوسع من الحرارة . ويمتاز باستطالة جسمه الذي يشبه جسم الدودة، وخلوه من الأطراف ويحتوى هيكل

الثعبان على عدة ضلوع وتكسو جسمه حراشف قرنية، وعموده الفقري يتمتع بحركة تمكنه أحيانا من القفز وليس لها جفون لذا لا تغمض أعينها . في بعض الثعابين يتصل النابان العلويان الأماميان بكيس صغير من السم (كالكوبرا) ، وبعض الثعابين كالأصلة تلتف حول الفريسة وتضغط عليها فتقتلها ثم تبلعها وتبدأ بإدخال الرأس، ويمكن أن تبلع حيوانات أكبر من فمها ، فيمكن لأصلة كبيرة أن تقتل غزالاً وتبتلعه، ويساعدها على ذلك إمكانية تحريك المجموع العظمى للفك حيث الفكين غير متصلين، قال تعالى : (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) (الشعراء : 45) ومعنى تلقف : تبلع الفريسة بسرعة وإتقان . والسم ليس هو الوسيلة الوحيدة للأفعى للدفاع عن نفسها ، فهناك أفعى الأعشاب الأوربية التي تدافع عن نفسها بإفراز سائل ذي رائحة كريهة، أما أفعى الأنف المقوس فإنها تتظاهر بالموت وتنقلب على ظهرها . أما أكثر الأفاعي سمية فهي الكوبرا التي توجد في الهند والصين والمالايو وتنمو إلى طول خمسة أمتار أو أكثر . وعن حركة الأفاعي قال تعالى : (فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) (طه : 20) وفعلاً فإن أفاعي الأشجار تتحرك وتنزلق بين الأشجار بسرعة كبيرة، والأفاعي الصحراوية تتحرك بصورة لولبية حتى تغوص في الرمال هربا من حرارة الشمس، ومعظم الثعابين لها لسان متشعب يتذبذب داخل الفم وخارجه .

يمسك صيادو الأفاعي بالأفعى بإصبع وإبهام من جانبي رقبتها وإصبع فوق رأسها ، وهذا وضع آمن بالنسبة لحامل الأفعى، لكن مع أفعى الخلد فالأمر مختلف لأنها تستطيع أن تدير أنيابها نحو الأعلى وتضرب حاملها وفي الهدي النبوي توجيه لقتل الحيات لتجنب أذاها .

أما بالنسبة للأفاعي البحرية (تعتبر من الأسماك) فإن معظمها لا تأتي إلى الشاطئ لتضع بيضها بل تفقس البيوض داخل جسمها وتلد صغاراً حية تستطيع السباحة . وهذه الأفاعي مائية بشكل كامل ولمنخريها صمامات تمنع دخول الماء إلى جوف جسمها .

من فضلك أقرأ المزيد

.

.

.

0–حيوانات ذكرت في القرآن الكريم الجزء الرابع

بقلم الدكتور : عاطف الهندي

14 . الضأن Sheep والماعز Goat : قال تعالى : (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأنعام : 143) وتسمى الضأن والمعز أغنام والأولى تسمى غنم بيضاء (بياض) والثانية غنم سمراء (سمار) والغنم بشقيها محمودة في ديننا الحنيف في القرآن والسنة قال تعالى : (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) (الصافات : 107) وهذا الذبح يقصد به كبش فإما أن يكون عظيم بحجمه أو بقدره عند الله وكذلك هي الضأن فهي عظيمة كلها عند الله فيها فداء ابن خليل الرحمن (إسماعيل الذبيح المطيع لأمر الله ولأبيه) ويذبحها أغلب المسلمون في أنحاء العالم عقيقة كانت أم أضحية أو فدو أو نذر أو هدي وسبحان الله مبقي نسلها رغم الملايين التي تذبح منها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء في أهل الخيل والإبل والفدادين أهل الوبر والسكينة في أهل الغنم " (رواه بخاري) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يكون خير مال المسلمغنميتبع بها شعف الجبال (أعلاها) ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن (رواه البخاري) والضأن هي ذوات الصوف من الغنم فهي تحتوى على فروة تحتية فائقة الطول،

وتربى الضأن من أجل ألبانها ولحومها وتلد الضأن في العام مولودا واحدا . ومن الضأن ما توجد القرون في الذكر ومنها ما توجد القرون في الذكر والأنثى ومنها عديمة القرون . ويبلغ عدد فصائل الخراف البرية الموجودة في العالم السبعة وثلاثون فصيلة وأصغر هذه الفصائل حجماً هي خراف الموفلون وأكبرها حجماً هي خراف الأرغالي التي تعيش في منغوليا و .

(318/577)

يعطي غنم المرينو (تمت تربيته أصلاً في أسبانيا) أجود أنواع الصوف، فهو يحمل خمسة أصناف من الألياف الصوفية في كل سم مربع من جلده، ويربى اليوم في المزارع بشكل واسع في جميع أنحاء العالم حيثما وجد الطقس الدافيء الجاف . أما الخروف البري الوحيد الموجود في أفريقيا هو الخروف البربري الذي يعيش في المناطق الخربة الجرداء من جبال شمال أفريقيا . وتعد استراليا البلد الأول انتاجاً للضأنوأما الخروف المعروف بذي القرن الكبير فيعيش في المناطق التي يصعب الوصول إليها في براري وجبال أمريكا الشمالية وشمال شرقي سيبيريا ، وقرون الذكور الضخمة تلتف في شكل دائرة كاملة وعندما يتشاجر الذكور فإنهم يركضون نحو بعضهم البعض يضربون أسفل قرونهم ببعض مما يحدث أصواتاً يتردد صداها أسفل الوادي ومن المدهش أن هذه المشاجرات لا يظهر على

الخراف أي أثر للأذى حتى ولا عوارض أوجاع الرأس . ولا تحتاج الأغنام إلى الأراضي الزراعية الخصبة فهي ترعى عادة على النجيل القصير الرفيع ، ويمكن أن تعيش على القليل من الحشائش أو الأراضي القاحلة وتحتاج إلى الملح احتياجاً شديداً وتأكله بشراهة بما يزيد على نصف أوقية يومياً لأنه يفتح شهيتها ويحفظ فروتها في حالة جيدة وهذا يفسر انحراف شهيتها والتقاطها التراب والبلاستيك المغبر بحثا عن الملح لذا يجب تزويدها دائماً بالأحجار الملحية المتوازنة ، والفروة هي الصوف المغطي للجسم والذي يحميها من الجو البارد ، وفي الصيف يجز الصوف لتخفيف الحرارة عنها وتنتج ما متوسطه 2 كيلوجرام من الصوف في كل جزة .

(319/577)

أما الماعز فإنه يربى في بعض البلاد ليؤخذ منه اللبن واللحم والشعر . وللماعز شعر قصير وأرجلها أطول من الضأن وتعيش غالبا في البلاد الحارة والجافة وتتغذى على أى شى تقريبا ، كما أنها أكثر جرأة وخفة في الحركة . والماعز شديدة القدرة على الاحتمال ومقاومة الأمراض كما أنها سهلة الانقياد . وتشكل في كثير من دول العالم الثالث مصدراً رئيسياً للحليب بالنسبة للسكان المحليين . وحليب الماعز أسهل هضماً من حليب البقر ،

كما أنه لا يخفي مرضاً سلياً . تلد أنثى الماعز الأليف من 1-3 صغار . وولادة التوأم شائعة كثيرا ، . بينما تلد أنثى الماعز البري صغيراً واحداً كل مرة وولادة التوأم فيها قليلة . تربى أهم السلالات المنتجة للحليب وهو الماعز السويسري أو الألبي، وكذلك الماعز الشرقي (أو النوبي) ذو الأذنين الكبيرتين المتدليتين . ويربى ماعز كشمير من أجل صوفها الناعم، ويتألف الشعر الأبيض في ماعز كشمير التيبي من أشعار واقية طويلة وصوف تحتي حريري ثمين جدا . أما الماعز البري مثل وعل جبال الألب يعيش في المناطق الجبلية ويؤخذ منه الصوف . وكان قد تعرض للانقراض حتى قام الإنسان بجعل إقليمه حديقة عامة في عام 1920م وهو الآن يجوب منطقة كبيرة من جبال الألب . وتعيش الماعز البري على الصخور والجروف الجبلية القريبة من خط الثلج الدائم على مدار السنة، وهي رشيقة وثابتة القدم إلى حد كبير ولا تدع بحواسها القوية لأعداءها ومراقبيها فرصة الاقتراب، فهي سريعة الحركة . قال تعالى : (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) (الأنبياء : 78) ومعنى نفشت : انتشرت بلا راعي ورعت في الحرث ليلاً حيث أهملت نهاراً ولم تطعم .

%مقارنة بين الماعز والضأن : ـ

وجه المقارنة

الضأن

الماعز

الغطاء الخارجي

صوف

شعر (يسمى الوهير)

الولادات

غالباً واحد

غالباً توائم

الحليب

(320/577)

دسمه عالي وبروتينه عالي

أقل دسم وبروتين ولكن أكثر كمية

الدهون

يحويكتلة دهن كبيرة فيالالية

يتوزع قليل من الهون في لحمه ولا يوجد الية

اللحم

أطيب

قد تشتم رائحة الفرمون (Pheromone) المزعجةمنلحمه

العائلة

Ovine

Caprine

الحركة

مستكينة

كثيرة ويصعب السيطرة عليه في المزارع

من التراث العربي

يعتبر مباركاً فينبت الزرع أكثر في محل رعيه، والضأن العربي مستور بالألية ويمدح به (فيقال فلان كبش ابن كبش) وتخاف البياض من الذئب .

لا تعتبر العرب السمار مباركاً ويهلك الشجر والغابا تحيث يجور في رعيه ولا يخاف من الذئب بل يربيها المزارع العربي مع البياض لكي ينبه المزارع من أي خطر لأنه يصرخ ويعمل قلق ملحوظ والماعز مكشوف العورة وذيله القصير مرفوع لأعلى ويذم بذكر الماعز ويسب به (التيس)

(321/577)

---

15 . الضفادع Frogs : قال تعالى : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) (لأعراف : 133) وذكرت الضفادع هنا آية مفصلة لأنها كانت جنود لله أرسلها على فرعون وقومه فكانت تتواجد في طعامهم وحتى في أفواههم حتى رفعها الله عنهم بسؤال من نبيهم موسى عليه

السلام والضفدعحيوان برمائي لهجلد أملس زلق أخضر اللون أو بنى وكثيراً ما يكون أبقع للتمويه، وفمها واسع وعيناها كبيرتان والرجلان الخلفيتان أكبر من الأمامية وذلك يساعدها على السباحة والغوص بخفة في الماء والقفز برشاقة . لسان الضفدع مثبت في مقدمة الفم وينثني إلى الداخل وتوجد في طرف اللسان إفرازات لزجة وبحركة سريعة تدفعه نحو الحشرة فتلتصق به ثم ترد الضفدعة لسانها إلى الفم حاملا الفريسة . وتضع الضفدعة بيضها في الماء وبعضها يحمل بيضه فوق ظهره . وحين يفقس البيض يخرج من كل بيضة حيوان دقيق الحجم يسمى (أبوذنيبة) يتنفس بواسطة خياشيم، ثم يبدأ ظهور الطرفين الخلفيين ويليهما الأماميين، كما يضمر الذيل ويقصر وتتكون داخل الجسم رئتان تحل محل الخياشيم، ثم يصبح ضفدعة تترك الماء لتعيش على الأرض وتتنفس من جلدها علاوة على التنفس بالرئتين . وضفدع الطين (المسمى العلجوم) يتميز بخاصيتين هما : جلده الجاف المغطى بالثآليل وطرفاه الخلفيتان القصيرتان، وجلده الجاف يمكنه من التكيف مع الحالات الأكثر جفافاً . وتختبيء بعض أنواع العلجوم في جحور عند إحساسها بالخطر .

(322/577)

16 . العنكبوت Spider : قال تعالى : (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت : 41) من الآية الكريمة يخبرنا الله أن الذي يبني بيت العنكبوت هي الأنثى وليس الذكر بدليل تاء التأنيث في (اتخذت) وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ووهنه مادي على الرغم من أنه تم تصنيع منه حرير أقوى من حرير دودة القز ذلك أن من صفات البيت الذي يُسكن إليه أنه يقي صاحبه من البرد والحر وتبدلان الطقس ومن أذى الكائنات التي أقوى منه وهذا لا يتوفر في بيت العنكبوت وهناك وهن آخر اجتماعي حيث ثبت أن العنكبوت تقتل ذكرها بعد التزاوج وتشرنقه وتطعمه ليرقاتها بعد فقسها من بيوضهم لذا تسمى بالأرملة السوداء . وتحدثت الآية عن بناء العنكبوت لبيتها بصيغة الندرة فقالت (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) لأنه ثبت أن العنكبوت نادراً ما تبني بيت وإنما تظل حشرة مرتحلة فسبحان الله كيف أمر العنكبوت أن تكف عن ارتحالها وتبني بيتها في باب غار الهجرة (غار ثور) لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم . والعنكبوت له ثمانية أرجل وينقسم جسمه إلى رأس وصدر وبطن، وللعنكبوت ثمانية عيون وملمسان يستخدمهما في التزاوج . ويتألف الشع وهو بيت العنكبوت من خيوط حريرية دقيقة تفرزها المغازل في مؤخرة الجسم، ويستغرق في إنشاء الشع حوالي ثلاثين دقيقة . بعد أن ينصب العنكبوت الشراك يختبئ تحت ورقة شجرة وعندما تعلق ذبابة بالشراك تبعث حركتها عبر خيط

الأمان المتصل بالعنكبوت وسرعان ما يهرول العنكبوت نحو الفريسة دون أن تعلق أرجله الزيتية بالشع فيعضها بمخلبيه ويشلها بسمه ثم يلفها بغشاء حريرى ويجرها إلى وسط الشع ليتغذى بعصارتها .

(323/577)

أما العنكبوت البوابى فيحفر نفقا في الأرض يبطنه بالحرير الشعي وينتظر الفريسة فيه مختبئًا وعندما يسمع دبيب الفريسة العابرة ينقض عليها ويجرها إلى الجحر .

17 . الغراب Crow : قال تعالى : (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) (المائدة : 31) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خمس من الدواب كلها فاسق لا حرج على من قتلهن العقرب والغراب والحدأة والفأرة والكلب العقور " (متفق عليه) والغراب هو طائر كبير أسود سمى بهذا الاسم لسواده وهو من الطيور الأوابد التي تتكاثر محليا ومنه أنواع مهاجرة .

والغراب يأكل الجيف والقمامات والحيوانات الصغيرة والبيض والحشرات وهو مفيد من

هذه الناحية للزراعة إلا أن من أنواعها ما يغير على الثمار فيخربها وهو ماهر حاد البصر شديد الحذر كثير الذكاء وله أرجل قويه مهيئة للمشي الطويل ومنقاره طويل وقوى جداً . تبنى الغربان أعشاشها في الآكام وقمم الأشجار، وأعشاشها غير منتظمة وتضع الأنثى أربع بيضات تحتضنها ويأتيها الذكر بالطعام وصغارها قبيحة المنظر . الغراب يصنف في مجموعة واحدة مع العقيق والقيق وهي مجموعة يوجد منها أكثر من 100 نوع، وتوصف بأنها طيور صاخبة وعدوانية ودائماً جريئة ونشيطة في بنيتها . ومن الملاحظ أن الغربان تتجمع على مصيبة سواء حوادث أو وفيات وتظل تصرخ وكأنه كتب عليها التبشير بالسوء، ولكن نهانا رسولنا الكريم عن الطيرة والتشائم .

(324/577)

---

18 . الفراش Butterfly : قال تعالى : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) (القارعة : 4) والمبثوث : تعني المنتشر والمتفرق وذهابهم ومجيئهم في حيرة من أمرهم فهم (كأنهم جراد منتشر) أيضاً وهكذا الفراش يهيم بدون هدف محدد أثناء طيرانه حتى أن النوع منه المسمى العث يظل يطير ليلاً حول السراج حتى يحرق جناحيه وحتى نفسه دون هدف . والفراشة تضع عددا من البيض تخرج منه يرقات تتغذى بأوراق الشجر ثم تمر

بمرحلة الشرنقة وتبقى بها حتى يتم نموها ثم تخرج فيها فراشة كاملة . ولا يزيد عمر بعض أنواع الفراش عن أسبوع وقد يمتد إلى 18 شهر ويتغذى الفراش على رحيق الأزهار وحبوب اللقاح وإن كان بعض الفراش ليس له أجزاء فمية فيتغذى على ما اختزنته الفراشه في طور الخادرة . ومن الفراش ما يهاجر لمناطق دافئة قد تبلغ 3000 كيلومتر وقد يموت البالغ منها قبل العودة إلى موطنها في الربيع مثل فراشة الملكة التى تهاجر من كندا الى المكسيك . ويصعب تحديد الاختلاف الدقيق بين العث (Moth) والفراشات، لكن معظم أنواع العث تظهر ليلاً ولها قرون استشعار ريشية وتثني اجنحتها أفقيا على ظهرها . بينما تطير معظم الفراشات نهاراً ولها قرون استشعار ذات نهايات منتفخة وتثني أجنحتها عامودياً على ظهرها . وتلد الفراشة (وهي حشرة الحرير) في المرة الواحد ما يقارب (450_500) بيضة في المرة الواحدة وللمحافظة على البيوض يتم ربطها بعضها ببعض بواسطة مادة خيطية لاصقة تقوم بإفرازها وبهذا تمنع تناثر البيوض في الأطراف . وبعد خروج هذه اليسروعات تقوم بربط نفسها بأغصان شجرة ملائمة لها بواسطة الخيوط التي تفرزها . ومن اجل نموها تقوم بإفرازات خيطية لحياكة الشرنقة، فهذه اليسروعات في خلال 3-4 أيام تقوم بهذه الأعمال كلها .

(325/577)

وفي خلال هذه المدة تبدأ بالالتفاف الآلاف المرات حول نفسها ونتيجة لذلك تنتج ما يقارب 900-1500 متر من الخيوط وبعد أن تنتهي من هذا العمل وبدون ان ترتاح تقوم بعملية التغيير من دودة داخل شرنقة الى حشرة كاملة (الفراشة) . ولو نظرنا وبدقة إلى أجنحة الفراشة نرى فيها تناظر واضح وبدون قصور فهذه الاجنحة الشفافة ، إشكالها ، نقاطها ، والألوان التي تحملها فأنها خلقت كلوحة مرسومة فأجنحة الفراشة تماماً تشبه الواحدة الآخر في أدق رسوماتها وانتظام نقاطها وألوانها فلا توجد اختلاط في ألوانها الموجودة . فهذه الألوان تتكون من أقراص صغيرة جدا مرتبة واحدة بجانب الآخر . فاذا ما لمسنا هذه الاقراص الصغيرة فأنها تتشتت (تتفرق) فكيف تكون هذه الأقراص الصغيرة دون أن تفقد أو تضل صفوفها فتكون نفس النقشة في كلا الجناحين انه فعلا من صنع رسام واحد الذي هو الله ولا مثيل لخلقه يبين لنا صفاته في اجنحة فراشة . ﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِرُ لَهُ للأسماء الحُسنى يُسَبّحُ لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَالارضِ وَهُوَ العَزِيز الحَكِيمُ ﴾ (سورة الحشر، 24) .

0- لطيفة : سئل الإمام الشافعي يوماً : كيف عرفت الله، فأجاب : عرفته بورقة التوت تأكلها النحلة فتخرج عسلاً، وتأكلها الشاة فتخرج بعراً ، وتأكلها الدودة فتخرج حريراً ، ويأكلها الغزال فيخرج مسكاً .

19 . الفيل Elephant : قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) (الفيل : 1) والفيل يعد أكبر الحيوانات الثديية كلها ماعدا الحوت ، ولذا فهو أكبر حيوان بري حي ،والفيل الافريقى أكبر من الهندى (أوالآسيوي) في الجسم كما أن اذنيه أكبر حجما وليس من السهل استئناس الفيل الافريقى أما الفيل الهندى فقد درب على حمل كتل الأخشاب والسير في المواكب . ويبلغ ارتفاع اكبر انواع الفيلة ثلاثه أمتار ونصف (من الأرض حتى الكتف) ويزن 8 طن ومتوسط عمره من 60 إلى 70 عام ، وجلده خشن يميل إلى التشقق وهو خالي من الشعر ويحرص على التمرغ على بطنه بعد الاستحمام وذلك للمحافظة على حيوية جسمه، وأطراف الفيل اسطوانية كبيرة تشبه الأعمدة وقدمه قصيرة مستديرة ولها خمسة أصابع وذات أطراف ، وأسفل قدم الفيل مبطن بوسادة جلدية خشنة لينة مكونة من عدة بقات من الجلد . و للفيلخرطوم طويل وهو عبارة عن امتداد الأنف مع الشفة العليا ويستخدمه ليجمع به الطعام ويمتص الماء به، فيرشفه إلى الفم للشرب أو يدفعه فوق الجسم للتبرد ويتنسم به في الهواء فيشم وجود حيوانات أخرى، كما يستخدمه لالتقاط الأشياء المختلفة . وعند طرف الخرطوم ثمة نتواءات أصبعية

الشكل لالتقاط الأشياء الصغيرة، وهي في الفيل الأفريقي اصبعان أما في الهندي فأصبع واحد . كما ليه نابين كبيرين هما امتداد لقاطعيه العلويين، وهما سبب تعرض الفيل للإنقراض فهو المصدر الرئيسى للعاج ويبلغ طول الناب عند الفيل الأفريقى من 7 الى 8 أقدام ووزنه 9 كيلو . والأذان في الفيل تعمل كمروحة لتلطيف الجو حول جسمه ويمكن أن تخفض درجة حرارة الجسم بمقدار 9 درجات مئوية لغزارة تغذيتها بالأوعية الدموية مما يسهل انتقال الحرارة الى الهواء حولها ،وعينا الفيل صغيرتان ومتباعدتان بحيث يمكنانه من الرؤية بزاوية متسعة .

(327/577)

ومن المفارقات أنه يصاحب الفيل طيراً يظل مستوياً على ظهر الفيل وينظر إلى جهة الخلف من الفيل وذلك بمثابة تعاون للتحذير من قدوم أي خطر وخاصة أن الفيل لا يستطيع النظر للخلف وبمجرد طيران هذا الطائر يعرف الفيل عن وجود خطر فيدور . والفيل تبكي عندما تكون حزينة ويقال أنها تموت إذا دخلت نملة في آذانها وللفيل 32 سن . وتعيش الأفيال قطعانا وهي تسير طويلا للحصول على كفايتها من الغذاء ويأكل الفيل 5%من وزنه ويشرب 180 لتراً من الماء في اليوم ويمص 9 لترات مرة واحدة بخرطومه . وتلد أنثى الفيل

صغيراً واحداً بعد حمل 21 شهراً ويناضل الصغير فور ولادته برجليه حتى يصل إلى حلمات أمه ويقف بين أرجلها الأربعة . ويوجد الثدي عند الفيل في منطقة الصدر كالإنسان والقرد بعكس باقي الحيوان . وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة : "إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ألا فليبلغ الشاهد الغائب" . وهذا مما كرم به الفيل أنه لم يرد له هدم الكعبة فرفض الفيل (يقال كان اسمه محمود) أمر سيده أبرهة فلم يهدم الكعبة لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

(328/577)

---

20 . القردة Monkeys : قال تعالى : (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ) (البقرة : 65) وروت بعض النصوص أن مسخ الصيادون الذين عدوا في سبتهم واصطادوا بالخداع أسماكهم التي أخذت عليهم الأمان والعهد فأصبحت تأتيهم شرّعا قروداً والعلماء الذين سكتوا أو أجازوا فعلهم مسخوا خنازير وهذا توجيه لأمة الإسلام بعدم ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى : (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ

وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) (المائدة : 60)

والقرد يعده علماء الأحياء من الرئيسيات والتي تضم معه الإنسانوعموماً يتم تقسيم القردة إلى نوعين فهناك قردة العالم الجديد والنوع الآخر هو قردة العالم القديم الذي يستوطن المناطق الأكثر دفئاً في أفريقيا والهند وآسيا . وتتميز قردة العالم الجديد بأنها ذات أنوف عريضة ومنخران يزفران نحو الجانبين أكثر منه نحو الأمام مقارنة مع الأنوف الضيقة والفتحات الأمامية لقردة العالم القديم . وتشمل القردة : الغوريلا والاورانج والشمبانزى والجابون وتعيش الغوريلا في افريقية الاستوائية وهي أكبر حجما وأثقل وزنا ، ويتميز قرد الغوريلا باختفاء الذيل وطول البالغ منها مترين ونصف ووزنه 225 كيلو جرام، أما الاورانج فهو يبنى عشه فوق أشجار الغابات الاستوائية في بورنيو وسومطرة، ويعيش الشمبانزي في غرب أفريقيا وأفريقيا الاستوائية، أما الجابون وهو أصغر أنواع القردة فيعيش في شرق آسيا . ويعتبر الشامبنزي من أشهر أنواع القردة ورغم أنه يتسلق الأشجار وينام عادة في عش بسيط يتركب من الأوراق والأغصان المضفورة لكنه يقضي حياته على الأرض معظم الأحيان .

(329/577)

وتتسلق القردة الكبار الشجرة لتغذي بأوراقها وثمارها ، والقردة الصغيرة رشيقة الحركة، وتتميز بيدين وذراعين طويلين يتأرجح ويقفز بهما عالياً بين الشجر ، ويستعمل الذيل كيد إضافية، ولجفن عين القرد السفلى أهداب وهو ماليس لغيره من الحيوانات . يتميز القرد بسرعة الفهم وله قدرة على التقليد وحاسة البصر عند القردة من أرقى الحواس وهي في مقدمة الرأس وترى من مسافات بعيدة ويمكنها الرؤية بعمق ويميز بهما نضج الفاكهة . وقد تلد القردة من 1 إلى 12 وتحمل أولادها مثل المرأة .

(330/577)

---

21 . القسورة (الأسد) Lion : قال تعالى : (فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) (المدثر : 51)

والقسورة تعني الأسد باللغة الحبشية كناية عن موطنه أو تواجده (اثيوبيا) وما حولها كالصومال والسودان وكينيا وتستوطن الأسود الأرض العشبية في إفريقيه ويوجد قليل منها في الهند الغربية الشمالية . وقال رسوله صلى الله عليه وسلم : " فر من المجذوم كفرارك من الأسد " (رواه بخاري) والمجذوم المصاب بمرض الجذام Leprosy ففي القرآن والسنة ذكر الفرار من الأسد وذلك لعقره الإنسان ويعد الأسد من عائلة القطط الكبيرة (Feline) . ضخم الجسم ويبلغ طول جسم الأسد التام النمو من الأنف إلى نهاية الذيل

تسعة إقدام (3أمتار) وللأسد لبد أغبر او اسود حول عنقه وقد يصل إلى بطنه،ولا لبد للبوة وهي أصغر حجماً من الأسد . ويسمى ملك الغابة لشدة بأسة . يخرج الاسد ليلا لاصطياد فريسته ويبلغ من قوته انه يستطيع أن يقتل الحيوانات الضخمة مثل الجاموس والثور ولكنه كسلان إلى حد ما فهو لا يريد ان يتعب نفسه كثيرا ولذلك يقنع بافتراس الضباء وحمار الوحش وهو لا يأكل من فريسة غيره وإذا شبع من فريسته تركها ولم يعد إليها ويصبر أكثر من غيره من السباع على الجوع والعطش . ينام الأسد من 18 إلى 20 ساعة كما يمشى ثمان كيلومترات يومياً ، وفي حال الجوع قد يمشى 24 كيلومتر بحثا عن فريسه . ولكل قطيع من الأسود منطقه نفوذ يميزها برائحته التى ينشرها على مواقعها المميزة وقد تصل إلى 40كيلومتر أو إلى 260كيلومتر إذا ندرت الفرائس . قال تعالى : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) (التكوير : 5) وهذا تنبؤ من القرآن العظيم بأن الوحوش التي تعقر مثل الأسد سوف تحشر في أقفاص وسياج سواء كانت في السيرك أو حديقة حيوان أو محمية طبيعية .

(331/577)

22 . القمل Lice : قال تعالى : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) (لأعراف : 133) والقمل من الطفيليات المتخصصة أي التي تصيب كل حيوان أو إنسان على حدٍ سواء وحتى تتخصص في مكان إصابته فقمل الرأس غير قمل العانة، وهي من الطفيليات الدائمة (التي لا تنقطع دورة حياتها بسبب مناخي أو زمني، وهي طفيليات مسطحة، عمياء ولأرجلها مخالب وقمل الثدييات له مخلب واحد ورأسه صغير وله فم واضح وهو أكبر وهو من النوع الماص وهذا يسبب فقر دم خاصة في الإصابة الشديدة وقمل الطيور له مخلبين صغيرين ورأسه كبير وهو أقصر وهو قمل عاضّ وكلا النوعين تعمل إثارة وخراب للجلد وهناك آلاف الأنواع من القمليات ومن القمل أنواع تنقل الأمراض (مثل الريكتسيا والبوريليا) للإنسان والحيوان . وطرقة حركة القمل بالتسلق وكأنها في الغابات . ويمتص القمل دم الحيوانات ويثقب جلدها لوضع البيض ومن القمل ما يتطفل على جهاز التنفس من الأنف حتى الرئتين . وتعيش القمليا تفي بيئات مختلفة فبعضها يعيش في التربة بين دبال الورق المتساقط والعشب، وبعضها يعيش في الماء، وبعضها يتطفل على الحيوانات الأخرى، وقمل الكتب يفضل كما يبدو غراء الكتب . وأكبر علاج للقمل وهو أيضاً من الهدي النبوي هو حلق الرأس لتتفتح مسام الأبخرة فتتصاعد الأبخرة الرديئة وينبغي أن يدهن الرأس بالأدوية التي تقتل القمل وتمنع توالده .

قال تعالى : (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (البقرة : 196) فرخص رب العالمين لمن في رأسه أذى كالقمل بحلاقة رأسه في الحج والعمرة فلله الحمد .

23 . الكلبDog : قال تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (لأعراف : 176) ولهث الكلب واخراجه للسانه وجعله متدلي طبيعي للكلب وصحي لأنه بهذا يحافظ على تنظيم درجة حرارته وضغطه حيث يتم حدوث التبخر عن طريق لسانه وبالتالي حصول الكلب على التبريد أيضاً هناك ارتباط بين حاسة الشم وحاسة الذوق لذا يجعل لسانه مشهوراً لشرهه واشتمامه للفريسة حيث وجد أنه يلتقط بواسطة حاسة الشم عنده الأحماض النووية

لعرق آثار أقدام من يتعقبه فيحللها بأدق التفاصيل كل ذلك بتدبير وصنع من الله الخالق فهل تؤمنون . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا ولغ الكلب في الإناء فاغسلوه سبع مرات وعفِّروه الثامنة في التراب " .

(333/577)

صحيح مسلم لأن الكلب مستودع كبير للطفيليات وفيروساته تتواجد في لعابه مثل القرود وهو شديد التقاط الأوساخ والجراثيم لأنه يتناول من الميتة والعذرة وذكر التراب هنا لما له من فائدة في التعقيم وتنصح الجهات الطبية بقتل الكلب المسعور اذا ثبت عليه السعار بعد حجره 10 أيام وهذا أمرنا الرسول به منذ أكثر من 1400 عام بقتل الكلب العقور قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خمس من الدواب كلهن فواسق يقتلن في الحل والحرم الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور " (رواه البخاري) وللكلاب فكاك طويلة وأنياب حادة لتمزيق اللحم ولها 42 سن ، وجسمها قوي وأرجلها طويلة مجهزة للجري السريع، وتتميز بحاسة شم قوية تستخدم في الصيد والكشف عن المخدرات، وزاوية النظر عندها ضيقة بحيث يمكنها النظر عن بعد وهي لا تميز بين الألوان لأنها مصابة بعمى الألوان وحاسة السمع عند الكلب تصل إلى تردد بين 70 ألف إلى 100 ألف . ويحتفظ

الناس بالكلاب لكي تحرس بيوتهم أو أغنامهم من اللصوص والذئاب وكذلك ترعى الأغنام . فكلاب السانت برونار دو قد تفترس الذئاب، وكلاب الالسياشية تستطيع اقتفاء أثر المجرمين، والكلب السلوقي يصيد الأرانب وهو أسرع أنواع الكلاب . وصيد الكلب المدرب المقتنى فقط حلال ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

(334/577)

---

24 . النحل Bees : قال تعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل : 68- 69) تخيل النص القرآني في حديثه عن مساكن النحل : الجبال والشجر وبيوت الناس المعروشة ويقول (ثم كلي من كل الثمرات) والنحل بذا ينفرد عن بقية الحشرات بأنه يأكل من كل الثمرات حلوها ومرها وليس نوع واحد من الثمرات وكل ذلك لإنتاج العسل الحلو (فاسلكي سبل ربك) الخطاب موجه لأنثى وهي النحلة الشغالة التي تجمع الرحيق

وتصنعه عسل وثبت أنه يوجد طرق محددة تسير فيها جميع الشغالات فهي التي تسمى (سبل ربك) حتى أنه يوجد رقصة مميزة لكل تفاهم بين النحل سواء عن وجود مكان مناسب أو وجود خطر (وهل تعلم أن 1 كغم عسل يكلف النحلة مجهود 15 ألف ساعة عمل دون توقف" تعادل سنة و5 أشهر" تقطع خلالها مسافة 225كم من سبل ربها) ولكن هذا المجهود يقوم به مجتمع النحل بتعاون دون كلل لذلك ذكر الله رب العالمين كلمة (ذللا) فقد ذكرها أيضاً للأنعام أي أنها مأمورة ومسخرة لهذا الانسان الذي كرمناه فاصنعي له شراب مختلف ألوانه وضروبه وفعلاً فمن فمها يخرج العسل (التي عجزت مختبرات العالم عن تحليله بالكامل) وغذاء الملكات (دواء الشباب) والعكبر والشمع والبربوليس (مادة للتحنيط) ومن جهة الزبانية يخرج سم يستخدم حالياً لعلاج الأمراض التي عجز الطب عن مداواتها (1 غم من سم النحلة يقدر بـ 1500 $) ويوجد من النحل 700 جنس وتضم 20 ألف نوع وينفرد جنس واحد يتبعه خمسة أنواع بإنتاج العسل والشمع وهي : نحل العسل العادي ، ونوعان من نحل العسل العملاق، ونحل العسل الهندي، ونحل العسل

(335/577)

القزم .

وطول أكبر انواع النحل 4سنتمترات والقزم 2مليمترا ويبلغ متوسط طول النحل المنتج للعسل 2سنتمتر . والنحل حشرة ذات أجنحة تعيش في مستعمرات ولها أم واحدة فقط وهي الملكة تظل عامين أو ثلاثة تضع ألوفا من البيض في عيون من الخلايا الشمعية تكونها الشغالة، وقد يبلغ عددها ثلاثين ألفا في الخلية الواحدة، ويوجد عدد قليل من الذكور يلقح أحدها الملكة قبل أن تضع البيض ثم يموت . تخرج من البيض يرقات صغيرة تعتنى بها الشغالات وتطعمها حتى تكبر، وللنحلة إبر تلسع بها دفاعا عن الخلية، ومعظم الناس يخشونها بسبب لسعتها المؤلمة ويتألف جهاز اللسع من حمة دقيقة في مؤخرة البطن تفرزها الحشرة في الكائن المهاجم مصحوبة بسم تفرزه غدة خاصة . وتستطيع النحلة رؤية الأشعة فوق البنفسجية التي يعز على الانسان رؤيتها . ويضم القرص الواحد من الخلية 6600 عينا من العيون السداسية وهي ثلاثة مقاسات : الصغير لتخزين العسل وحبوب اللقاح والبيض وحضن الصغار، والوسط لتخزين البيض غير المخصب لإنتاج الذكور وعدده قليل، والكبير وتربى فيه ملكات المستقبل، وربى الأنسان خلايا النحل لجني العسل منها منذ مئات السنين . أما العسل فقد عرفته البشرية منذ القدم واكتشفت خصائصه العلاجية والغذائية وقد وجد العسل في كثير من مقابر الفراعنة، ورغم طول هذه المدة إلا أنه وجد سليما لم يتغير إلا لونه الذى مال إلى السواد، وهذا يدل على

الاحتفاظ بصفاته وخصائصه . والعسل أنواعه كثيرة وتختلف باختلاف المنطقة التى يجمع منها وباختلاف الفصل الذى يتم الجمع فيه وأجود أنواعه ماجمع في فصل الربيع . ويتركب العسل من 20%ماء و79.5%كربوهيدرات و0.04% فيتامين ب2 و0.4% ج وحمض ستريك وكالسيوم ونحاس . وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال الشفاء في ثلاثة في شرطة محجم أو شربة عسل أو كية بنار وأنا أنهى أمتي عن الكي (رواه البخاري) .

(336/577)

حيث للعسل فوائد طبية فهو منشط وفاتح للشهية وعلاج لمدمن الخمر لما فيه من سكر الفراكتوز الذي يساعد على أكسدة الكحول في الكبد . ويعتبر علاج مرضى الكبد فيساعد على ازالة السموم . ويستخدم عسل النحل المركز لعلاج الحروق والتشققات ومنعم للبشرة ويحميها من التشققات . أما غذاء الملكة : فهو سائل لبني تنتجه الشغالات من غدد خاصة في مقدمة رأسها وتستعمله في تغذية الملكة ويرقانات النحل ويستعمل الغذاء الملكى في علاج أمراض سوء التغذية والضعف العام أو أمراض الشيخوخة وتنشيط الدورة الدموية . ولقد زرع عالم يدعى (ساكيت) جراثيم ممرضة في كل مزارع النحل فوجدها ماتت بفضل الشمع والبروبوليس والعسل حيث أحاطت النحل هذه

المواد بما علق بالخلايا من أوساخ فقضت على ما فيها من شتى أنواع الجراثيم .

+حكمة طبية : ـ أصاب المرض عوف بن مالك رضي الله عنه فقيل له : يا عوف ألا نعالجك قال : بلى ،أتوني ماءاً فإن الله عزوجل يقول في كتابه الحكيم : (ونزلنا من السماء ماءاً مباركاً) وأتوني عسلاً فإن الله عزوجل يقول في كتابه الحكيم : (فيه شفاء للناس) وأتوني زيتاً فإن الله عز وجل يقول في كتابه الحكيم : (يوقد من شجرة مباركة زيتونة) ثم خلطهم جميعاً فشربه فبرئ . والتحليل الطبي لذلك أن الخليط هو علاج واسع الطيف لأنه يحوي جزء سكري (العسل) فيتصل بالبكتيريا سالبة الغرام ذات الاطار الخارجي السكري فيتم القضاء عليها ويحوي جزء دهني (الزيت خاصة الزيتون) فيتم القضاء على بكتيريا موجبة الغرام ذات طبقة الدهون الفسفورية الخارجية والماء في الخليط عامل مساعد للتفاعل لأنه يوجد أجزاء أيونية تحتاج الى ما يسمى بالتميه .

(337/577)

---

25 . النمل Ants : قال تعالى : (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) (النمل : 18) تقول الآية الكريمة أن النمل يسكن في وديان وتقول أنه قالت نملة (وهنا إشارة إلى جنس أغلب

أهل النمل فهو من الإناث ومن العاملات التي تجمع الحبوب) ادخلوا مساكنكم كي لا تموتوا بالتحطيم (أي بالتكسير) تحت أقدام النبي سليمان وجنوده ولكن تقولها بأدب فتقول وتعطي لهم العذر : (وهم لا يشعرون) أي رعية مطيعة لحاكمها ورئيسها هذه تلك النملة . أحد العلماء قال : جاءت العبارة (لا يحطمنّكم) هنا للدلالة عن طبيعة جسم النملة المفصلية (Arthropods) التي تحتاج إلى تحطيم حيث يتكون جسمها الخارجي من مادة صلبة كالزجاج هي الكيتين (Chitin) وهذه المادة تشابه في تركيبها الكيراتين مادة التكوين للقرون والحوافر والأظافر كذلك اكتشف أن أعين النملة ذات طبيعة بلورية كالزجاج لا تنكسر بسهولة بل تحتاج إلى تحطيم فانظر في آيات الخالق في النمل فهم يعملون في الصيف ليل نهار يجمعون الحب ويخزنوها للشتاء الذي يسبتون فيه ولا تنمو أية حبة من قمح أو شعير أو غير ذلك لأن النمل يقوم بقرض الجنين الموجود بين فلقتي الحبة بل وتقسم الحبة إلى قسمين ولو لم تعمل ذلك لهدمت البذور النامية بسيقانها وجذورها بيتها ، وقد ألهم المولى النمل بمعرفتها أن نصف حبات الكزبرة تنبت فهو يقسمها إلى أربعة، وإذا خاف على حبات القمح من الرطوبة أخرجها لتجف .

(338/577)

ونهى الرسول الكريم عن حرق النمل لأنه أمة تسبح الله . وتعيش النمل في قرى تحت الأرض أو داخل الشجر ، وتحتوى قرية النمل من بضع عشرات إلى مئات الآلاف، وتضم ملكة واحدة أو اكثر وعاملات وذكور وقد تعيش الملكة خمس عشرة سنة . والنمل متعدد الأنواع وينتشر في أنحاء المعمورة ويعرف منه ستة آلاف نوع، بعضها لاحم، وبعضها نمل وحشي تهاجم أي حيوان حي تصادفه في طريقها . أما دورة تكاثرها فتطير الذكور والإناث أسرابا للتزاوج ثم تموت الذكور وتعود الأنثى أو الملكة إلى الأرض وتبدأ بوضع البيض وتنقطع عن الطعام في هذه الفترة ، وعندما يفقس البيض تخرج اليرقانات عديمة الأرجل فتعتنى بها الملكة وتغذيها بلعابها ، وتغزل يرقانات النمل شرانق تحول داخلها إلى خادرات ثم إلى عاملات . ثم تقوم العاملات بحفر حجرات أكبر وأنفاقا وتتولى جمع الطعام والاهتمام براحة الملكة وقد تمر أعوام قبل أن يكتمل نمو قرية النمل . وتدافع النملة عن نفسها بثج حامض من مؤخرة جسدها . وللنملة معدة اجتماعية تخزن فيها الطعام وتخرجه إذا احتاج إليه باقى النمل، وإلا تنقله الى معدتها الحقيقية بواسطة مضخه للهضم . والنملة تأكل ثلاث حبات قمح في السنة وتعتبر الحيوان الوحيد الذي يستطيع حمل أكثر من وزنه . قال تعالى : (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) (سبأ : 14) ودابة الأرض هي الأرضة (wood worm) أو (termite) والأرضة أو

النملة البيضاء حشرة بدائية اجتماعية تتميز عن النملة العادية بجسدها اللين ذي اللون الفاتح وبطنها العريض ولكنها تشبهها من حيث أنها تحيا في مستعمرات متطورة . يكثر النمل الأبيض في البلدان الحارة والاستوائية حيث ينشئ مجتمعه الطبقي الخاص .

(339/577)

فهناك الملكة، وهي بدينة إلى درجة تعجز معها عن الحركة أو تكاد ، وهي تضع البيض بمعدل 36,000 بيضة في اليوم الواحد طوال خمسين سنة بلا انقطاع، ولا تغادر المستعمرة أبدا . وهناك الملك، وهو ضئيل الجسم بالقياس إلى الملكة . وهناك طبقة (العاملات) وهن يجمعن الطعام، ويبنين المستعمرات، ويعنين بالجيل الجديد . وهناك طبقة (الجنود) ويتميز أفرادها بفكوكها العريضة وخطومها المستدقة، ومهمتها الدفاع عن المستعمرة . ومن بين جميع الحشرات الاجتماعية يتميز النمل الأبيض بأن طبقة العاملات وطبقة الجنود فيه تشملان الذكور والإناث على حد سواء . وجدير بالذكر أن بعض مستعمرات الأرضة، في أستراليا ، ضخم جدا يصل ارتفاعه إلى ستة أمتار . وهذه المستعمرات إنما تبنيها الأرضة من تراب تجبله بلعابها . غذائها دائماً قرض الخشب سواء أشجار أو أثاث .

26 . الهدهد Hoopoe : قال تعالى على لسان النبي سليمان عليه السلام : (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) (النمل : 20) فجاء الهدهد بالجواب يقول رب العزة : (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ) (النمل : 22)

(340/577)

أخبر عبدا لله بن العباس رضي الله عنه أن الهدهد يرى الماء في تخوم الأرض وفعلاً فمن الآية الكريمة تجد أن الهدهد سافر من الشام حتى اليمن عبر صحراء الحجاز ونجد حتى وصل إلى سد مأرب في مملكة سبأ فهو أفضل دليل للبحث عن المياه العذبة في الصحراء والأراضي المقفرة . والهدهد من الطيور المشهورة والمعروفة بجمالها ، طوله حوالي 30سنتيمتر ومنقاره 5 سنتيمترات، ويتميز بتاج وردي اللون ذو قمة سوداء . ولون ريش الهدهد بنى محمر وريش الأجنحة مخطط عرضي بالأبيض والأسود وذيل أسود اللون مع قاعدة بيضاء . ويأكل الهدهد الحشرات والديدان من باطن الأرض ويبنى عشه في أماكن مختلفة بعيدة عن الأعين في شقوق الصخور وجذوع الأشجار وله بصر حاد وهو سريع الطيران وكثير الطلعات الاستكشافية، ومشهور بشدة الخوف وبالسكون فإذا احس

بالخطر استلقى على الأرض وتظاهر بالموت حتى يزول الخطر .

المراجع :

1 . القرآن الكريم

2 . تفسير ابن كثير (أبو الفداء الدمشقي)

3 . تفسير الفتح القدير للشوكاني الصنعاني

4 . صحيح بخاري

5 . صحيح مسلم

6 . سنن أبي داوود

7 . سنن ابن ماجه

8 . موسوعة الحيوان

9 . المستطرف في كل فن مستظرف

10 . الخنزير / دكتور بيطري أحمد جواد

11 . قاموس المورد

12 . قاموس فرنسي

13 . Veterinary parasitology

14 . Encarta encyclopedia

15 . الموسوعة العربية الحديثة

16 . www.islamonline.com

17 . www.islamleadtoscience.com

18 . موقع د . سعيد الغامدي للأعجاز العلمي في القرآن والسنة

19 . محاضرات (الطفيليات) أ . محمود أبو شحادة

20 . موسوعة الإبل / أ . فلاح العاني

21 . Biology / Mader

.

.

.

0-نبات يذيب الثلج سبحان الله

لقد قرأتُ مقالة منذ فترة حول عجائب عالم النبات [1]، ومما لفت انتباهي أن علماء الغرب قد أدهشهم السلوك العجيب لبعض أنواع النباتات وهذه النباتات تطلق الحرارة عندما تدعو الحاجة لذلك .

طبعاً لا يمكن أبداً أن نظن بأن هذه النباتات لا تعقل أو لا عقل لها ، بل زوّدها الله تعالى بجهاز دقيق لتحسس درجة الحرارة من حولها ، وعندما تصل درجة الحرارة إلى حدود منخفضة جداً تبدأ الأجهزة الموجودة في هذه النباتات بتوليد الطاقة من خلال بعض العمليات الكيميائية والتي تولد بنتيجتها الطاقة الحرارية والتي تقوم بتسخين الجليد وإذابته ! !

وقد لاحظ العلماء أن حرارة الجو عندما تنخفض إلى ما دون الصفر فإن هذه النباتات تكون درجة حرارتها من 30 إلى 36 درجة مئوية، ولولا هذه الخاصية لما استطاعت هذه النباتات العيش على الإطلاق .

ومن هذه النباتات نوع من أنواع الملفوف [2] يدعى skunk cabbages أو علمياً Symplocarpus foetidus والذي أدهش العلماء أن هذا النبات ينمو في المنحدرات الثلجية ! ! ويصنع داخل الثلج "كهفه" الخاص . حيث تنخفض درجة الحرارة حول النبات إلى -15 درجة مئوية (تحت الصفر) بينما تكون الحرارة في النبات 30 درجة مئوية، وهذه الظاهرة الفريدة لا توجد في أي مخلوق آخر ، حيث تتجمد معظم الثدييات إذا بقيت في هذا الجو لفترة طويلة، بينما هذا النبات يعيش بشكل طبيعي ولفترات طويلة جداً في هذا الجو البارد .

نبات يسخن الثلج ويذيبه من حوله إلى درجة حرارة تبلغ 36 درجة مئوية، بينما تنخفض درجة الحرارة إلى -15 درجة مئوية تحت الصفر . مصدر الصورة National Geographic

ومن هنا يمكن أن نستنتج أن الله تعالى قد زوّد هذا النبات بتقنية معقدة لتنظيم درجة الحرارة، فهو يعمل مثل مكيفات الهواء المزودة بجهاز التنظيم الحراري حيث تتحسس درجة الحرارة الخارجية فإذا انخفضت الحرارة تحت درجة محددة يعمل هذا المكيف وعندما ترتفع الحرارة إلى درجة محددة يتوقف هذا المكيف عن العمل، كذلك نجد أن النبات قد تمت برمجته من قبل الخالق عزّ وجل ليعمل بدقة كبيرة فلا يخطئ ولا يحتاج إلى صيانة أو قطع تبديل . . . .

(342/577)

ولذلك لا تزال الآلية الدقيقة لهذا التنظيم الحراري المذهل مجهولة حتى الآن [3] ، ولكن الله تعالى يحدثنا عن هدايته لهذا النبات وغيره من المخلوقات ليقوم بعمليه على أكمل وجه، وهنا نستشعر قول الحق تعالى : (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه :

50]، فالله تعالى هو الذي أعطى هذا النبات خلقه ثم هداه ليقوم بمهمته في هذه الحياة .

تعتبر الآلية الدقيقة التي يستخدمها هذا النبات غير واضحة للعلماء ، ويتساءلون : كيف يمكن لنبات لا يعقل أن يتحكم بهذا الشكل المذهل بدرجة حرارته، بل من أين يأتي بهذه الطاقة الحرارية وما هي التقنيات المعقدة التي يستخدمها ؟ ؟ إنه الله تعالى الذي هدى هذا النبات إلى عمله وقال : (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه : 50]، مصدر الصورة www.virtualinsectary.com

ويفكر العلماء اليوم من الاستفادة من طاقة "النباتات الحارة" والاستعاضة عن الطاقة الكهربائية في تدفئة المنازل ! فهذه النباتات تنتج طاقة كبيرة قياساً لحجمها ، فالفارق في درجات الحرارة التي يتمكن هذا النبات من إحداثه بحدود 50 درجة مئوية (من الدرجة -15 وحتى 35) ، وهذا المجال الحراري كافٍ لتسخين الماء أو تدفئة منزل مثلاً ! !

إذن هنالك طاقة مجانية يمكن الحصول عليها من هذا النبات، ولذلك يقول سبحانه وتعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ) [الحج : 65]، أي أن كل ما نراه حولنا على الأرض مسخّر لنا أي يمكننا الاستفادة منه، فكلمة (سخّر) في اللغة تعني أنه قدّم عملاً بلا أجر، ولذلك فإن هذه النباتات يمكن أن نستفيد منها في توليد الكهرباء مثلاً لأن الله تعالى أكّد لنا أن كل ما في الأرض مسخر لنا أي يمكننا الاستفادة منه مجاناً .

ولذلك يقول تعالى : (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الجاثية : 13] . فهل نتفكّر في خلق هذه النباتات ودقة صنعها وإتقانها ، وهل نتذكر قول الحق تبارك وتعالى : (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) [النمل : 88] .

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

هوامش

[1] Susan Milius, Warm-Blooded Plants? Science News, Vol. 164, No. 24, Dec. 13, 2003, p. 379.

[2] Warm-Blooded Plants, National Geographic.

[3] Heat-producing flowers, Heat-producing flowers, www.sciencedirect.com, 10 June 1998.

.

.

.

0-كيف تحمي الفراشات أنفسها ؟

د . محمد السقا عيد

عضو الجمعية الرمدية المصرية

الفراشة واحدة من أجمل الحشرات قاطبة، ولذا فُتن الناس بجمال أجنحتها الرقيقة ذات الألوان الجذابة . وكان جمال هذه الفراشة مصدرًا من مصادر إلهام الفنانين والشعراء ، وتغطي أجنحة الفراشة حراشف دقيقة مسطحة متداخلة فيما بينها . وهذه الحراشف مصدر الألوان والتشكيلات الرائعة الموجودة في أجنحة الفراشات .

وتحتوي بعض الحراشف على الأصباغ (مواد تلوين) التي تعطي الألوان السوداء والبنية والحمراء والبيضاء والصفراء ، بينما تنتج أنواع أخرى من الحراشف الألوان، بعكسها للضوء على أسطحها . ومن الألوان المعدنية البراقة التي تعكسها تلك الحراشف اللونان الأزرق والأخضر (1) .

وللفراشات أعداء كثيرة من الحشرات والطيور . وللهروب من هؤلاء تستخدم الفراشات وسائل عديدة للدفاع عن النفس .

وتهرب كثير من الفراشات من أعدائها عن طريق التكيف مع الوسط الذي تعيش فيه،

ويسمى هذا النوع من الدفاع التلوين الوقائي فقد تبدو الفراشات بلون قلف الأشجار أو بلون النباتات الأخرى . .

(344/577)

وتهرب كثير من الفراشات من أعدائها عن طريق التكيف مع الوسط الذي تعيش فيه، ويسمى هذا النوع من الدفاع التلوين الوقائي فقد تبدو الفراشات بلون قلف الأشجار أو بلون النباتات الأخرى . .

وتحصل بعض الفراشات على الحماية، سواء في الطور اليرقي أو في طور الحشرة الكاملة، لأن لها طعمًا غير مستساغ لدى أعدائها ، وذلك لأن يرقات كثير من تلك الفراشات تأكل نباتات ذات عصارات مرة الطعم، أو سامة، وتتحرك تلك العصارات في أنسجة تلك الفراشات مما يجعلها ذات مذاق غير مرغوب لدى الأعداء .

ولمعظم تلك الفراشات مثل الفراشة الملكة ويسروعها ، ألوان زاهية تعلن للأعداء بأن طعمها غير مستساغ، ويسمى هذا النوع من الحماية التحذير اللوني .

فالحيوان الذي التهم مثل تلك الفراشات من قبل يتجنب أكل واحدة أخرى لها نفس اللون .

وهنالك فراشات أخرى غير محمية تشبه الفراشات ذات الطعم غير المستساغ، ولا

تستطيع الحيوانات المفترسة التمييز بينها وبين الفراشات ذات الطعم الرديء، ومن ثم تتجنب أكل أيٍّ منهما .

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

ففي أمريكا الشمالية تشبه الفراشة نائبة الملك الفراشة الملكة في لونها، ولذا يتجنب الأعداء الفراشة نائبة الملك لأن طعم الفراشة الملكة غير مستساغ. وقد يشبه بعض الفراشات المحمية فراشات محمية أخرى. ونتيجة لهذا التشابه المتبادل تكتسب تلك الحشرات حماية مضاعفة.

وصدق الله تعالى حينما قال (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿ 49 ﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) سورة طه أي خلقه وعلمه ما يصلح شأنه لحياته.

وقال الله تعالى: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) سورة لقمان.

(345/577)

المصدر : http : //www.mawsoah.net/maogen.asp?main2articleid=

21_029235

مصدر الصور : الموسوعة الحرة

.

.

.

0-قصة غرق السفينة تيتانيك

بقلم الأستاذ الدكتور مهندس/ مصطفى محمد الجمال

أستاذ متفرغ - كلية الهندسة - جامعة الإسكندرية

profgammal@hotmail.com

نبدأ بعد الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وأنصاره وكل من اتبع سنته إلى يوم الدين وسلم، بهذا المسلسل والذي يحتوي على حكم الله الكثيرة ومواعظ علمية يقينية، أتى ذكر ومسح عنها في آيات التدبر في كلمات السور القرآنية . يقول تعالى : "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22/10) " صدق الله العظيم .

هذه الآية الكريمة تحدثنا عن مجموعة من الظواهر البحرية الفريدة وتغير حال البحر من طبيعته الهادئة إلى طبيعة أخرى فجائية ديناميكية متغيرة مع الوقت والقيمة مما يؤدي إلى حوادث غرق السفن مهما عظمت أبعادها ومهما امتلكت من سبل التقنيات، فعلى النحو المعلوم لنا الآن من أن التغير في حال البحر يصاحبه تغيرات مماثلة في درجات الحرارة والضغوط بما يجعل رواده يدعون الله خشية الغرق وما أن ينجيهم الله من الغرق حتى يعودوا إلى غيهم وطاغوتهم وعدم إخلاصهم لله والشرك به سبحانه وتعالى وأن عقاب الله لهذه الفئة الضالة سيكون شديد . ومن أمثلة هذه الحقائق العلمية هو ما حدث للسفينة التيتانيك .

(346/577)

ومسألة الغرابة في حادث غرق هذه السفينة العملاقة ليس فقط لكونها الحادث الذي أسفر عن غرق أضخم سفينة ركاب آنذاك، وغرق معظم ركابها ، ولكن الغرابة في إيجاد تفسير منطقي لحدوث الحادث، إذ كان يعتقد فيما مضى أن أسباب الحادث هو ارتطام السفينة

بأحد الجبال الجليدية، مما أحدث صوتا مدويا أدى إلى انشطار السفينة وغرقها بعد مدة قصيرة، بينما تبين حديثا وبعد تحديد موقع غرق التيتانيك باستخدام معدات حديثة وتقنيات الأقمار الصناعية من أن أقرب جبل من الجبال الجليدية يبعد قرابة ثمانية أميال بحرية (الميل البحري يساوي 85ر1 كيلومترا تقريبا) ، بمعنى آخر أن سبب الغرق صار لغزاً علمياً ، وما أن توصل الإنسان إلى صنع إنسان آلي يمكنه الغوص في أعماق المحيط ويمكن توجيهه عن طريق جهاز خاص من بعيد أعلى سطح المياه، وبعد أن تم تزويده بمعدات قطع الحديد ، حتى تمكن من أخذ عينات من أجزاء معينة من بدن السفينة الغارق، وتم تحليلها وإجراء التجارب عليها في المختبرات فأتضح لهم في استجلاء أن أسباب الغرق لم تكن كما كان يتصور الناس آنذاك بارتطامها بجبل من الجليد بل إن السبب الحقيقي يكمن في حدوث تغيرات فلزية في معدن المادة المصنع منها بدن السفينة، وتحول جزيئات المعدن من حالة الممطولية والجساءة العالية إلى مرحلة الهشاشة الفجائية والتي أفقدت المادة لحظيا متانتها وأن هذا التحول يصحبه صوت مدوي يشبه صوت الارتطام . دعونا الآن ندخل في القصة الحقيقية للغرق والتي أثبتتها التجارب العلمية اليقينية . وإليكم بعض التفاصيل المختصرة عن السفينة والتي كان لها شقيقتين إحداهما السفينة أوليمبيك "Olympic" والتي بنيت عام 1910 وتم تخريجها عام 1935 والسفينة بريطانيك "Britannic" والتي تم إنزالها عام 1914 وارتطمت بلغم وغرقت عام

1916 والسفن الثلاث تم بناؤهم في إحدى ترسانات بلفاست بإيرلندا .

أولا : موجز تواريخ البناء والتجارب والتشغيل :

(347/577)

تاريخ إنشاء بنائها يعود إلى 31 مارس عام 1909

تاريخ تدشينها وإنزالها 31 مايو عام 1911

تاريخ الانتهاء من تجهيزاتها 31 مارس عام 1912

ثانيا تفاصيل موجز لرحلة البداية والنهاية :

-غادرت ميناء ساوث أمبتون بجنوب المملكة المتحدة البريطانية يوم 10 إبريل عام 1912

-اتجهت إلى ميناء شوربيرج بفرنسا بعد حوالي ستة ساعات من الإبحار وصلت في نفس اليوم .

-غادرت ميناء شوربيرج متجهة الي ميناء كوينز تاون بأيرلندا في نفس اليوم بعد أن مكثت حوالي ساعتين .

- وصلت إلى ميناء كوينز تاون حوالي ظهر يوم 11 إبريل عام 1912 .

-غادرت ميناء كوينز تاون متجهة إلى ميناء نيويورك الساعة الواحدة والنصف ظهراً من نفس اليوم .

-تاريخ الغرق Titanic foundered كان الساعة 20ر2 بعد ظهر يوم 15 إبريل عام 1912 .

- تاريخ كشف وتحديد موضع الغرق كان يوم أول سبتمبر عام 1985 وتم وجود واكتشاف الحطام في موقع يبعد حوالي 5ر2 ميل بحري عن سطح المحيط وكان ذلك عن طريق مجموعة بحثية مشتركة من الفرنسيين والأمريكيين .

صورة توضح سلم السفينة وكيف أنه كان تحفة معمارية فقد بنيت السفينة مثل القصر وتوضح الصورة جهة اليمين إحدى الساعات التي تم وضعها داخل الكبائن وتوضح الصورة مدى عظمة وأبهة محتويات السفينة من الداخل .

- إجمالي عدد الركاب والطاقم في رحلة المغادرة من ميناء كوينز تاون بأيرلندا 2238 فردا .

- عدد المفقودين في حادث الغرق 1523 فردا . بينهم 815 راكبو 688 فرد طاقم أي أن عدد الناجين من هذا الحادث هو 715 شخصا فقط بين طاقم وركاب، أي أقل من 32% من مجموع المتواجدين على سطح السفينة .

ثالثا : موجز بتفاصيل البيانات الإحصائية والتصميمية للسفينة :

طول السفينة المسجل 259,909 متراً .

الطول الكلي للسفينة 269ر131 مترا .

العرض 28ر201 مترا .

العمق 18ر171 مترا .

الحمولة الكلية المسجلة 46326

الحمولة الصافية المسجلة 21831

(348/577)

القدرة المحركة الكلية 46000 حصان عند سرعة قدرها 21 عقدة (العقدة تساوي ميل بحري مقطوع في الساعة والميل البحري يساوي ما يقارب 1ر85 كيلومتر) .

- عدد ركاب الدرجة الأولي 735 راكب .

- عدد ركاب الدرجة الثانية 674 راكب .

- عدد ركاب الدرجة الثالثة 1026 راكب .

- السعة الإجمالية لعدد الركاب على سطحا لسفينة 2435 راكب .

- عدد أفراد الطاقم 885 فردا .

- سعة زوارق الإنقاذ والنجاة الإجمالية على سطح السفينة بعدد 20 زورقا بسعة 1178 فردا . أي أقل من نصف عدد الركاب والطاقم ! ! ! .

لقد تم تصميم السفينة وفقا لنظرية السفينة التي لن تغرق وتم تطبيق نظريات حسابات الطفو ودراسة وتحديد المسافات بين القواطع السدودة للمياه، وكذا حسابات ما يسمى بطول التغريق ثم حساب ما نعرفه نحن باسم معامل التقسيم الفرعي، والذي ينتج عنه طول السماح للعنبر والذي إذا ما غرق هذا الطول من السفينة فإن الطفو الاحتياطي لها سيقاوم عملية الغرق الكلي للسفينة . إلا أن الله أراد لهذه السفينة علي الرغم من كافة الاحتياطات الحسابية وأعمال التصاميم الهندسية أن يغرقها في رحلتها الأولى .

تفاصيل أسباب الغرق العلمية

من أسباب الكوارث في حياتنا هو الكفر بالله وتحدينا لمشيئته يظهر في مقطع من فلم تم إنتاجه لتخليد قصة غرق السفينة "التيتانيك R.M.S. Titanic" يمكن أن نشاهد أحد الأميرات البريطانية وهي تقوم بتدشين السفينة وتستمع إلى شرح من المهندس الألماني الذي قام بتصميمها وهو يحدثها عن إجراءات الأمان والإمكانيات الخارقة التي تتمتع بها ، وعلى الفور تسأله الأميرة هل يمكن لهذه السفينة أن تغرق، فأجابها المهندس على الفور " الله لا يستطيع أن يغرقها " .

ولكنها غرقت في رحلتها الأولى على الرغم من قيام مصممها ومعه مجموعة من المهندسين البريطانيين من عمل حسابات نعرفها نحن الآن باسم حسابات التغريق وفيها يتم دراسة تقسيم السفينة إلى أجزاء وعنابر بأطوال مسموحة، أي تحديد أطوال العنابر التي حال امتلاؤها لمياه البحر فإنها لن تغرق. إلا أن ما حدث في هذه الباخرة إنما هو شيء جدير بالدراسة وإلقاء الضوء عليه.

ترك الربان عجلة القيادة إلى ضابط أول السفينة، حيث كانت قد اقتربت كثيراً من ميناء الوصول وعلى بعد سويعات قليلة من ميناء نيويورك وذلك حتى يتمكن من تقديم واجب الضيافة والحفاوة بكبراء القوم من ركاب السفينة، وكانت هذه هي بداية النهاية.
إذ ما أن تبين للضابط الأول وجود هالة من السواد تنبئ عن وجود جبل من الجليد في طريق الإبحار وتبعد عن مقدمة السفينة آنذاك بمسافة حوالي ثمانية أميال بحرية حتى أعطي القرار الخاطئ بإصداره الأوامر بتحويل وتغيير مسار السفينة فجأة من قيمة الصفر إلى أقصى قيمة لوضع الدفة مما نتج عنه إجهادات عصر فجائية للبدن نتج عنها حدوث شرخ

بسطح السفينة والذي هيأت الظروف له الانتشار بسرعة الصوت في المادة مما أدي إلى إنشطار السفينة إلى جزئين غرق الجزء الأمامي منها في التو وفي اللحظة بينما ظل الجزء الخلفي يقاوم الغرق لمدة حوالي ساعتين ونصف الساعة كانت كافية لإنقاذ أقل من نصف عدد الركاب بينما غرق جميع من كانوا جهة المقدم من السفينة .

وغرقت السفينة في مياه المحيط في المسافة بين سواحل نيويورك وكندا ، وقد ظن البعض خطئًا أن السفينة قد ارتطمت بجبل من الجليد مع أن موضع غرقها كان يبعد عن أقرب جبل للجليد في المنطقة بقيمة تقدر بخمسة أميال بحرية أي مسافة تقدر بحوالي 10 كيلومترات . معنى هذا هو أن مادة الصلب التي تم تصنيع البدن منها كانت تعاني آنذاك فقرا في الممطولية يصل إلى درجة الاضمحلال عند درجات الحرارة المنخفضة .

(350/577)

وتصف لنا آيات الله في القرآن الكريم حقيقة علمية مؤكدة عن اتزان وسلامة السفن أثناء إبحارها فلننظر إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة يونس : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : "وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41/11) " صدق الله العظيم . فالسفينة هي الجسم الهندسي الوحيد الذي إذا ما حدث وأن مال إلى أحد

الجوانب فإنه يعود لوضعه الرأسي مرة أخرى نتيجة تخليق عزوم استعدال داخلية يتم تخليقها ذاتيا حسب خطة توزيع الأحمال والبعد البياني فيما بين محصلة مراكز الثقل ومركز الطفو، وهذا التخليق الإلهي يسمي هندسيا باسم عزوم القصور الذاتي لجسم السفينة .

لهذا كله فقد وضعت لنا هذه الكلمات أسسا حسابيا لو تمعنا فيها لما حدث لنا من تخلف ولكان لنا شأن آخر بين أمم الحاضر . وسوف نتناول موضوع استقرار السفن وعلاقته بمجريها ومرساها في بحث آخر قريب إن شاء الله تعالى .

توضح الصورة اليسرى حطام السفينة

كانت التيتانيك هي أعظم السفن وأكبرها حجما وغرقت وهي في رحلتها الأولى على الرغم من تحري الدقة في تقسيماتها الداخلية وعمل أقسام فرعية عرضية لأول مرة في تاريخ السفن البحرية ومن ثم فإن سبب الغرق كما كان يظن خطئا حتى الماضي القريب كان بسبب ارتطام جسم السفينة من أحد الجوانب بجبل من الجليد إلا أن الثابت هو حدوث انتقال مرحلي لجزيئات المادة من حالة الممطولية إلى حالة

الهاشية . كانت وسيلة الاتصال الوحيدة المتاحة آنذاك عن طريق استخدام جهاز التلغراف "مورس" والذي لا يمكنه استقبال الرسائل حال إرساله لذلك فلم تستقبل السفينة إشارات السفن الأخرى المرسلة عن طريق هذا الجهاز لإنذار السفينة التيتانيك بوجود جبل من الجليد أمامها . فقد كان جعل ضابط اللاسلكي أن جعل الجهاز معلقا على الإرسال فقط دون الاستقبال وذلك نتيجة إرساله لمقالات الصحافيين المتواجدين أثناء الرحلة إلى إدارات الصحف والمجلات ودور النشر آنذاك والذين لم يبخلوا عليه بالغالي والنفيس من البقشيش نظير إرساله لمحرراتهم إلى جرائدهم الرئيسية حتى ظهر أمام الضابط أول ظلا أسودا في عباب البحر عند خط الأفق .

توضح الصورة حطام السفينة

كانت السفينة التيانيك آنذاك تقترب وتتقدم نحو جبل من الجليد ، والذي كان يبعد عن مقدمتها آنذاك مسافة تقدر بحوالي 5 ميل بحري (أي قرابة حوالي 10 كيلومتر تقريبا) . فما كان من الضابط الأول إلا أن أعطى قراره الخاطئ بإدارة الدفة إلى أقصى نقطة تجنبا لحدوث الارتطام بالجبل . وما أن حدث هذا حتى سمع صوت دوي وانفجار أدى إلى حدوث الحادث . ولم يكن يعرف أحد آنذاك أن السبب الفعلي للغرق نتج عن تحول مادة الصلب المصنع منه بدن السفينة من حالة الممطولية وفقد الجثاءة نتيجة انخفاض درجة

حرارة الماء عن – 35 درجة مئوية (كان الصلب آنذاك يتم تصنيعه بحيث أن تصل درجة حرارة التحول الحرجة إلى –10 درجات مئوية) .

(352/577)

ولما تعرضت المادة إلى درجة حرارة تقل كثيرا عن درجة الحرارة الحرجة اللازمة للتحول فقد تحولت إلي مادة هاشية، والتي ما أن أعطى ضابط أول السفينة قراره الخاطئ وليس بالتدريج فقد نتج عن هذا الفعل نوع من الإجهادات سمي بإجهادات الليّ والعصّر ومع سؤ حالة الجو والحالة الديناميكية والمتغيرة من أحمال أمواج البحر وفي ظل تحول المادة من مادة ذات ممطولية الي مادة هاشية فقد أدت هذه العوامل جميعها والتي تزامنت في آن واحد إلى حدوث الانهيار لجسم السفينة، وإحدى ظواهره تكمن في حدوث انفجار يؤدي إلى انتشار الشروخ في المادة بسرعة الصوت فيها مما يحدث ما يسمى بالرعد المعدني "Metal Bang" نتيجة فقد المادة للممطولية وتحولها إلى مادة هاشة مما جعل الركاب يظنون أنهم ارتطموا بجبل من الجليد وتسبب هذا في غرق السفينة التيتانيك، وكانت هذه السفينة قد بنيت حسب نظرية السفينة التي لن تغرق فأغرقها الله وهي في رحلتها الأولى .

توضح الصورة إنزال وتثبيت الروبوت الذي تم استخدامه في قطع عينات من معدن السفينة ثم الدخول إلى جسم السفينة الغارقة على عمق كبير تحت سطح المحيط بينما

الخلاصة والخاتمة والدروس المستفادة من حادث الغرق

نخلص من هذه الدراسة إلى أنه على الرغم من فعل الصدمة نتيجة حادث الغرق وضخامة عدد الغرقى فإننا استفدنا كثيرا من هذا الحادث المأساوي الأليم ونلخص أوجه الفائدة في النقاط التالية :

1) الإنسان ضعيف عليه أن يعترف بضعفه ولا يتحدى قدرة الله تعالى .

2) اتضح لنا جليا أن أحد أسباب الغرق هو فقد في طفو هذه السفن إلى حد حرج يحدث بعده الغرق . وعلى الرغم من دقة حسابات التغريق وحسابات التقاسيم الفرعية الداخلية ووضع قواطيع سدودة للمياه .

3) حدوث انهيار داخلي فجائي لبعض مقومات المتانة الطولية أو العرضية أو كلاهما معا نتيجة تحول المادة من حالة إلى حالة أخرى .

3) عدم توافر زوارق النجاة بالسعة والعدد الكافي أدى إلى فقد وحصد كثير من الأرواح.

أهم المصادر والمراجع العلمية

[1] Bruce Beveridge: "THS-Titanic Plans", THE OFFICIAL WEBSITE OF THE TITANICHISTORICAL SOCIETY, INC. 2001-2004 www.titanic1.org & www.titanichistoricalsociety.org

[2] William H. Garzke, and others: " The Titanic and Lusitania : A final Forensic Analysis", Marine Technology, Vol. 33, No. 4, Oct. 1996, pp. 241-289.

[3] Robert Ballard: "The Discovery of the Titanic". Madison Press Books, Toronto, 1987.

[4] Brigham, R. J. and Lafreniere, Y.A.: " Titanic Specimens", Metals Technology Laboratories, CANMET. 1002.

[5] Sumpter, J.D. and others: " Fracture Toughness

The Royal Institution of Naval ",of Ship' Steels
.Architects, 1988
http : ",Marine Accidents": Cargo Law files [6]
//www.cargolaw.com
Types of Ships within the ": .El-Gammal, M.M [7]
Book in Arabic under revision ",Holy Book Verses
.to be published, 2005
Reseach Guidfe D1, D2, http : [8]
///www.nmm.ac.uk/server/show/conWebDoc.590

.

.

.

0-ظاهرة الأمواج الممتدة تسونامي

بين العلم والقرآن

بقلم المهندس عبد الدائم الكحيل

ما أكثر الكوارث الطبيعية التي يمرّ عليها الإنسان وينسى أن يتذكر العبرة منها ، ومن هذه الظواهر ما يسميه اليابانيون بالتسونامي Tsunami أي "موجة الميناء" وهي امتداد لأمواج البحر حتى يبلغ ارتفاعها عشرات الأمتار ، ويبلغ طولها عشرات الكيلومترات .

هذه الأمواج العاتية تستطيع أن تدمر أي شيء بأمر ربها ! وتستطيع إبادة مدن بأكملها خلال زمن قصير . والسؤال : ما هي هذه الظاهرة، وكيف تحدث، وما هي مسبباتها ، وهل هنالك إشارات قرآنية لها ؟

التفسير العلمي للظاهرة

(354/577)

هنالك تغيرات تحدث في الكرة الأرضية مثل درجات الحرارة وتحرك الألواح الأرضية وتشوه هذه الألواح والزلازل والهزات الأرضية والبراكين، وهذه تؤدي إلى التأثير المباشر على مياه البحار التي تشكل أكثر من 78 بالمئة من سطح الكرة الأرضية .

إن هذه التغيرات تؤدي إلى تحرك هذه المياه بسرعة كبيرة مسببة موجات ضخمة يصل طول الموجة الواحدة إلى 150 كيلو متر ! ! هذه الموجة تسير بسرعة تتجاوز الـ 700 كيلو متر في الساعة ! وتكمن قوتها المدمرة في أنها تظهر للناس على الشاطئ كموجة عادية، ولكن

عندما تصل إلى الشاطئ فإنها تضربه بقوة هائلة يصل ارتفاعها إلى 40 متراً !

وتأمَّل معي موجة يبلغ ارتفاعها ارتفاع بناء مؤلف من عشرة طوابق، تسير بسرعة طائرة حديثة، ماذا يمكن أن تسبب عندما تضرب شاطئاً أو قرية أو مدينة ؟ ؟

إن أكثر المناطق تأثراً بهذه الظاهرة هي منطقة المحيط الهادئ والجزر المتوضعة فيه حيث تشير الإحصائيات إلى أن هذه الظاهرة تكررت أكثر من 40 مرة خلال المئة سنة الماضية .

يتولد مدّ الأمواج بسبب انفجار بركاني، أو زلزال في قاع المحيط، أو انهيارات أرضية في القاع، أو اصطدام جسم كوني بالأرض يولد هزة عنيفة . وهذه جميعاً تؤدي إلى إزاحة قسم من ماء البحر مما يخلق اضطراباً يتحول إلى أمواج عملاقة .

شكل (1) طفل وسط الأمواج المتولدة بسبب التسونامي، إن هذه الظاهرة أدت إلى غرق مئات الآلاف من البشر خلال السنوات الماضية . وذلك بسبب الطاقة المدمرة الكبيرة التي تحملها أمواج البحر .

كيف تحدث هذه الظاهرة ؟

عندما يحدث تشوه لقاع البحر بسبب حدوث زلزال مثلاً فإن كميات كبيرة من الماء تندفع

من قاع المحيط باتجاه الأعلى وهذه الكتل المائية ستولد أمواجاً عاتية على وجه الماء، تسير هذه الأمواج بسرعة نحو الشواطئ محملة بطاقة هائلة تفرغها في المكان الذي تضرب فيه.

(355/577)

عندما يحدث الانزياح أو الانهيار في جزء من قاع المحيط فإن ذلك يؤدي لنشوء فراغ سرعان ما يمتلئ بالماء، إن انتقال الماء بسرعة لملء الفراغ الناشئ، يؤدي حسب هندسة ميكانيك السوائل إلى تولد موجات مائية طويلة وذات ارتفاع عال، وهذه الموجات سوف تنتقل باتجاه المياه الضحلة أي باتجاه الشاطئ، وهذا من قدر الله تعالى.

شكل (2) ترتفع أمواج التسونامي حتى تبلغ 40 متراً أحياناً، وتضرب الشواطئ بسرعة مذهلة تبلغ مئات الكيلومترات في الساعة! وتستطيع هذه الأمواج اجتياح مدن بأكملها مدمرة كل ما تصادفه في طريقها من بيوت وأشجار وبشر وحيوانات.

إن أمواج التسونامي لها قدرة على الانتقال لتعبر كامل المحيط! ولها القدرة على الاحتفاظ بكامل طاقتها خلال رحلتها وهنا تكمن الخطورة، إذ أن طاقة الموجة لا تتناقص مع تحركها باتجاه الشاطئ، بل تحافظ على مستواها، ولذلك فإن الموجة تضرب الشاطئ وهي محملة

بكامل طاقتها ، ولذلك نرى الخسائر الناجمة عن مثل هذه الظاهرة دائماً مرتفعة .

كارثة في القرن الحادي والعشرين

ربما جميعنا رأى تلك الكارثة التي ضربت شواطئ إندونيسيا عام 2004 بسبب انزياح في قاع المحيط الهادئ، أدى إلى حدوث ظاهرة التسونامي والتي أدت إلى دمار رهيب يقدر بعشرات المليارات الدولارات، وتشريد ملايين الأشخاص ووفاة مئات الآلاف ! !

فتأمل أخي القارئ قدرة الله تعالى، وتذكر قوله عز وجل : (ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) [الزمر : 16] . إنها قدرة الله القائل أيضاً : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) [الملك : 16] . وما هذه الكارثة إلا خسف ضئيل في قشرة الأرض تحت البحر، فتأمل لو أن الله تعالى خسف بنا لوحاً أرضياً بأكمله فهل يبقى من المخلوقات شيء ؟

(356/577)

شكل (3) تستطيع أمواج التسونامي الانتقال آلاف الكيلومترات لتعبر مياه المحيط الهادئ بأكمله . والعجيب في هذه الأمواج أنها تحتفظ بكل طاقتها على الرغم من المسافات

الكبيرة التي تقطعها ، وهذا ما يجعلها مدمرة عند وصولها للشواطئ .

إن المؤمن الحقيقي لا يأمن عذاب الله بل تجده دائم الخوف والخشية من الله تعالى : (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) [النحل : 45-46] .

بين العلم والإيمان

إن علماء الغرب ينسبون هذه الظاهرة للطبيعة وقوانينها ، ولكننا كمسلمين نؤمن بأن كل شيء هو من عند الله تعالى، فإننا ننظر إلى هذه الظاهرة كإنذار من الله تعالى لعباده يحذرهم به من الاقتراب من الفواحش أو المنكرات .

وقد نعجب إذا علمنا بأن القرآن الكريم قد ربط بين خسف الأرض، أي انزلاق جزء من قشرتها ، وبين الغرق، يقول تعالى : (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا) [الإسراء : 68-69] .

شكل (4) يمثل هذا الشكل مراحل تشكل أمواج التسونامي، حيث يبدأ الانزلاق في

الألواح الأرضية في قاع المحيط، مؤدياً لحدوث اضطراب هائل يولد أمواجاً تتجه نحو الأعلى وتسير باتجاه الشاطئ لتفرغ طاقتها المدمرة.

(357/577)

وتأمل معي أخي المؤمن كيف عبّر القرآن عن هذه الظاهرة بقوله تعالى: (يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)، فلم يقل (البرّ) إنما قال (جانب البرّ)، للدلالة على وجود جوانب متعددة للبرّ، وهو ما يسميه العلماء بالألواح الأرضية، حيث اكتشفوا أن القشرة الأرضية ليست كتلة واحدة، إنما هنالك مجموعة من الألواح لكل لوح حواف وجوانب محددة، وهذا من دقة التعبير القرآني. وفي نفس النص نجد قوله تعالى: (فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ) وهذا يدل على دقة التسلسل العلمي للأحداث في القرآن العظيم. أي الخسف ثم الغرق.

وفي عذاب الأمم السابقة بسبب ظلمهم ربطاً بين خسف الأرض وبين الغرق من خلال قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) [العنكبوت: 40]. وهنا جاء التسلسل بخسف الأرض ثم الإغراق وهذا ما يحدث فعلاً.

وأخيراً

ينبغي على كل مؤمن عندما يرى هذه الكوارث أن يحمد الله تعالى ويسأله العافية والنجاة، وربما أجد خير دعاء لمن يتعرض لمثل هذه الكارثة في دعاء سيدنا يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت وفي ظلمات البحر عندما نادى ربه فقال : (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) [الأنبياء : 87-88] .

موقع الداعية عبد الدائم الكحيل : http : //www.kaheel7.com/

المراجع

1- مقالة بعنوان : تشكل التسونامي على الرابط :

http : //web.mit.edu/12.000/www/m2009/teams/5/research.html

2- مجموعة من المقالات على موقع التسونامي :

http : //www.tsunami.org

3- مقالات حول ظاهرة التسونامي على الروابط :

http : //www.ess.washington.edu/tsunami/index.html

http : //library.thinkquest.org/04oct/01724/causes_formation.html

http : //en.wikipedia.org/wiki/Image : Tsunami_comic_book_style.png

http : //www.ew.govt.nz/enviroinfo/hazards/naturalhazards/coastal/tsunami.htm

.

.

.

0-الميكروحاسوب الحيوي

معجزة علمية

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

وقف العالِم يقول : إليكم أصغر جهاز حاسوب حيوي في العالم, إنه في حجم اقل من أصغر نقطة في هذا الكتاب, ومع ذلك فهو يحمل معلومات حيوية إذا طبعناها على الورق لاحتجنا إلى أوراق تعادل أوراق الموسوعة البريطانية (46) ألف مرة, والحاسوب العادي له لوحة مفاتيح بها 28 حرفاً باللغة العربية أو 26 حرفاً بالحروف اللاتينية, علاوة على الفواصل وغيرها , أما لوحة مفاتيح هذا الميكروحاسوب الحيوي المعجز والعجيب, فتحتوي أربعة حروف فقط هي (A , G ,T , C) وبهذه الحروف الأربعة تكتب كل المعلومات المخزنة في هذا الحاسوب, فلو فرضنا ان هذه المعلومات تخص الانسان فإنه بهذه الحروف الأربعة وبعملية توافيق وتباديل معجزة يُكتب لون البشرة, ولون العيون والشعر وصفاته وعدد شعراته, والحواجب, وفتحات الفم, والأسنان وتركيبها وترتيبها , والشفتين والأذنين وخصائص كل منها وكيف تعمل, وشكل الوجه, وعدد العظام به, والحلق وما به من خلايا وتراكيب, واللسان وطوله وشكله وخصائصه الوراثية والتشريحية والوظائفية, واللوزتين وعملهما والحلق, والغدد اللعابية, والبلعوم والمريء والمعدة, والرأس والمخ والخلايا العصبية, وكل المعلومات التي تعرفها عن جسم الانسان والتي تدرس بالتفصيل في كليات الطب ومراكز البحوث , كل ذلك مكتوب في هذا الميكروحاسوب الحيوي الدقيق .

يعجب الحاضرون من هذا الحاسوب العجيب, وحجمه الدقيق, وبرمجته المعجزه الداله

على علم الصانع وابداعه وتقديره .

سألوه : أين نرى هذا الحاسوب العجيب ؟

قال : وكيف ترونه وهو أدق من نقطة هذه الصفحة ؟ !

(359/577)

قالوا : أين نجد هذا الحاسوب العجيب وما اسمه ؟

قال : هذا الحاسوب هو جزيء الحامض النووي (DNA) الموجود في خلايا جسم الانسان والكائنات الحية الأخرى .

إنه الجزيء العجيب والمعجز يتكون خيطين دقيقين كيميائيين يتركبان من السكر الخماسي منقوص الأوكسجين (Deoxyribose sugar) يرتبط بمجموعات من الفوسفات Phosphate Groups وقواعد الأدنين Adenin A , والثيامين Thymine T , والجوانين Guanin G , والسيتوسين Cytosine C النيتروجينية .

وعلى حسب ترتيب كل من A , G , T , C تتكون الجينات التي تحمل جميع الصفات الوراثية للكائن الحي, وقد أمكن التعرف على الخارطة الوراثية لبعض الكائنات

الحية, ودراستها وهذا فتح علمي عظيم حل العديد من المشكلات الوراثية للكائنات الحية .

وهذا الجزيء يهدم نظرية الصدفة والعشوائية (النظرية الدارونية) في خلق الانسان والكائنات الحية حيث ثبت أن الفوارق بين الكائنات الحية هي فوارق في البرمجة في هذا الجزيء العجيب (1) , والآن نستطيع أن نقول أن الانسان يفكر بهذا الجزيء, حيث أن الانسان يفكر بخلايا مخه, تلك الخلايا أهم ما فيها النواه وأهم جزيء في النواه هو جزيء DNA المكون للمادة الوراثية في الخلية, هذه المادة المركزية في نواة الخلية, إذا نحن نفكر بهذا الجزيء ونحب به , وتنتقل صفاتنا الوراثية لأبنائنا عبر هذا الجزيء العجيب .
ويمكن اعتبار اكتشاف هذا الجزيء من أعظم الاكتشافات التي حققها علم الأحياء المعاصر وعلم الوراثة وعلم الخلية .
وكل كائن حي يمثل في الحقيقة نوعية معينه من البرمجة الخاصة به, وتتحدد شخصية الكائن الحي وجميع خصائصه من برمجة هذا الجزيء المعجز .

إذا طبعنا المعلومات التي على جزئ (DNA) على الورق لاحتجنا إلى أوراق تعادل أوراق الموسوعة البريطانية (46) ألف مرة فسبحان من خلق هذا الجزيء العجيب

انظروا إلى الخلية الموجودة في مخ الانسان التي نعتبرها خلية ذات خصائص عالية , ولكننا نجدها عاجزة عن القيام بعمليات حيوية بسيطة كالتنفس الذاتي والتغذية الذاتية , بينما تقوم خلية الأميبا بفعل كل تلك العمليات الحيوية .

ويستطيع جزيء DNA نسخ نفسه بما وهبه الله سبحانه وتعالى من خصائص حيوية مميزه , وأثناء الانقسام الخلوي تتوزع جزيئات DNA للكائن الحي بطريقة دقيقة محكمة , بحيث يتم تبادل الصفات الوراثية بين الجينات وبين الكائنات الحية .

فسبحان من خلق هذا الجزيء العجيب وسبحان من كتب بقدرته صفات الكائنات الحية بهذه المركبات الكيميائية المعجزة وسبحان القائل (سنريهم آياتنا فيالآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) فصلت 53 .

ففي كل يوم تتكشف آيات الله الدالة على أن القرآن حق , وأن الله هو الحق وأنه على كل شيء شهيد .

تعرف على المؤلف في سطور

التواصل مع المؤلف :

موبايل 009733 . . .

هـ 009731 . . .

alfowz@batelco.com.bh

مواضيع أخرى للمؤلف :

? أسراب الجراد بين التنظيم والتشتت

? الأسرار الخفية في أصغر الكائنات الحية – معجزة علمية

? بيت المسلم وبيت العنكبوت معجزة علمية

? فذروه في سنبله – معجزة علمية

(1) – انظر كتابنا نظرية التطور بين المؤيدين والمعارضين حيث الأدلة العقلية , والدلة العلمية , والأدلة الشرعية الداله على بطلان النظرية الداروينية .

.

.

.

0–دودة الأرض آية من آيات الله

بقلم مروة عزمي مختار جنينة

مدرس مساعد بكلية الزراعة جامعة المنصورة– مصر

marwaaz2002@yahoo.com

قال تعالى : (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ) [يونس : 101] صدق الله العظيم .

(361/577)

إن الكون الذي حولنا من سماوات وارض وبحار وانهار وجبال ومخلوقات يشير إلى عظمة وقدرة الخالق عز وجل ويدل على إعجاز الله العظيم . لقد كان حديثنا في المقال السابق عن إعجاز قدرة الخالق في ديدان العلق الطبي الماصة للدماء والتي تتبع شعبة الديدان الحلقية Phylum : Annelida واليوم احبائى نتحدث عن عظمة الخالق في دودة أخرى تتبع نفس الشعبة السابقة والتي تنتشر في جميع أنحاء العالم ماعدا القطبين ويبلغ عدد أنواعها 5500 نوع تقريبا . حيث تعيش هذه الديدان في التربة الخصبة داخل إنفاق وتخرج ليلا لتستكشف ما حولها وتعيش بالقرب من سطح التربة عند انخفاض درجة الحرارة وتبتعد عن السطح عند ارتفاع الحرارة وبعضها قادر على اختراق عده أقدام تحت

سطح التربة .

هل عرفتوا أحبائي ما هذا الدودة التي سوف أحدثكم عنها اليوم ؟ ؟ ؟ ؟ هل ذهبنا قبل ذلك إلى احد الأنهار أو البحيرات لصيد الأسماك واصطحبنا معنا هذه الدودة الصغيرة الضعيفة والتي تعتبر غذاء مفضل للأسماك وتنجذب إليه ؟

هل سمعنا عن المحراث الطبيعي ؟ أو الزواحف الليلية night crawlers ؟

أو . . . . . .

ديدان الأرض Earth worms

هيا نقترب من ديدان الأرض أكثر ونسال أنفسنا العديد من الأسئلة ونحاول أن نصل معا إلى أجابتها مثل ما هو تركيب جسمها ؟ كيف تتحرك ؟ وكيف تتكاثر ؟ وكيف تتنفس وهى داخل الأنفاق ؟ ما هو غذائها ؟ وهل لها جهاز هضمي ؟ لماذا سميت بالمحاريث الطبيعية ؟ واترك لكم أحبائي في نهاية المقال مفاجآت طبية نعتبرها بريقة أمل جديدة في مجال الطب .

صورة لدودة الأرض وهي في نفق داخل التربة

انظروا احبائى لقد وجدت احد ديدان الأرض بالقرب من سطح التربة داخل احد أنفاقها وتحاول مراوغتي والدخول مرة ثانية في النفق والآن لقد أمسكت بها واضربها بيدي ضربة

بسيطة حتى تهدا ونحاول معا أن نتعرف على تركيب جسمها .

ما هو تركيب جسم ديدان الأرض ؟

(362/577)

جسم الدودة عبارة عن مجموعة حلقات من 100 - 250 حلقة . يصل طولها من 2 سم إلى 3 أمتار كما هو الحال في ديدان الأرض الاستوائية العملاقة Giant Gippsland Earthworm .

لون جسم الدودة من قرنفلي إلى بني داكن . وتحمل جميع حلقات الجسم ما عدا الحلقة الأولى والأخيرة أربعة أزواج من الأشواك , اثنان منها على جانبي الجسم واثنان على سطحها البطني ولكن ما فائدة هذه الأشواك ؟ هل يخلق الله عز وجل شيئًا عبثا ؟ بكل تأكيد لا

قال تعالى : (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (النحل : 88) .

شكل توضيحي لتشريح جسم دودة الأرض

تقوم هذه الأشواك بمساعدة الدودة في حركتها داخل الأنفاق حيث تقوم بسك التربة

بواسطة زوجي الأشواك الجانبية ثم بواسطة انقباض الألياف العضلية الموجودة على جدار الجسم ينقبض جسم الدودة ثم بعد ذلك تمسك سطح التربة بأشواكها البطنية وتنبسط أليافها العضلية فيودى ذلك إلى زحف الدودة ودفعها إلى الأمام داخل النفق قال تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (النور : 45) .

كيف تتكاثر ديدان الأرض ؟

هذه الديدان خناث بمعنى وجود الأعضاء التناسلية الأنثوية والذكرية في داخل جسم الدودة الواحدة فكل دودة بها زوج من المبايض وزوجين من الخصيات ومع ذلك لا يتم الإخصاب الذاتي داخل الدودة الواحدة ولكن يحدث الإخصاب الخلطى وهو يعنى تبادل الحيوانات المنوية من دودة إلى دودة أخرى ثم بعد ذلك تخزن كل دودة الحيوانات المنوية في تركيب يسمى المستودعات المنوية ثم يحدث إخصاب للبويضات وتضعها الدودة الأم داخل شرنقة تغلفها بمادة مغذية تتغذى منها الصغار بعد الفقس .

)

ولماذا الإخصاب الخلطى رغم أنها ديدان خناث ؟ ؟ ؟) من المعروف علميا أن التكاثر الذاتي يساعد على انتقال جميع الصفات الوراثية من الأم إلى الأبناء فلو كانت الأم تحمل بعض الصفات الوراثية السيئة فإنها تنتقل للأبناء أما التكاثر الخلطى يساعد على تبادل العوامل الوراثية من دودة خنثي لدودة أخرى وبالتالي يتم تجنب بعض الصفات الوراثية السيئة وظهور نسل قوى .

سبحان الخالق المصور من علم هذه الديدان أن التكاثر الخلطى أفضل لها ويحسن من نسلها انه الله الخالق الوهاب

كيف تتنفس ديدان الأرض الهواء الجوى داخل أنفاقها ؟

تتنفس الهواء الجوى داخل الأنفاق عن طريق الانتشار من خلال سطح الجسم فهي لا تملك جهاز تنفسي .

ما هو غذائها ؟ وهل لها جهاز هضمي ؟

تتغذى ديدان الأرض على المخلفات العضوية الموجودة في التربة وتدخلها من خلال فتحة الفم الموجودة على الحلقة الأولى من جسمها ثم تبتلعها لتصل إلى البلعوم العضلي ثم إلى المرئ المزود بثلاث غدد تقوم هذه الغدد بإفراز كربونات الكالسيوم الذي يعمل على تخلص الدودة من الكالسيوم الفائض عن الغذاء ثم بعد ذلك ينتقل الغذاء إلى الحوصلة ثم إلى المعدة

ليتم هضمه ومنها إلى الأمعاء ثم المستقيم وتتخلص من نواتج هضم الغذاء خارج جسمها من خلال فتحة الشرج على السطح البطنى للحلقة الأخيرة من الجسم .

لماذا سميت بالمحاريث الطبيعية ؟

إن وظيفة المحراث الصناعي والذي صنعه الإنسان هو تقليب سطح التربة وتعريض الأجزاء تحت سطح التربة للهواء الجوى وبالتالي يعمل على تهويتها . هذا ما تقوم به المحاريث الصناعية فماذا عن المحاريث الطبيعية والتي أبدع صنعها الخالق الوهاب عز وجل ؟ ؟ ؟

إليكم احبائى الفوائد العظيمة للمحاريث الطبيعية اقصد (ديدان الأرض) : -

1- تهوية التربة من خلال الأنفاق والتي تسمح بدخول الأكسجين إلى الشعيرات الجذرية وكذلك جلب الماء من سطح التربة إلى باطنها .

2- عند تغذيتها تجلب المخلفات العضوية داخل أنفاقها وبمساعدة الكائنات الحية الدقيقة تعمل على تحرر العناصر الغذائية في صورة يسهل على النبات امتصاصها .

3- تعطى حوالي 18 طن من الدبال المخصب كل عام وعند موتها تتحلل أجسامها

وتعطى عناصر غذائية للنبات

4- تعمل الأنفاق على زيادة مسامية التربة

5- تمنع الأنفاق تصلب التربة

6- مقذوفات دودة الأرض (وهى عبارة عن نواتج عملية هضم الغذاء والتي تختلط بالتربة عند خروجها) غنية بالعناصر الغذائية مثل الكالسيوم والبوتاسيوم والنتروجين والفوسفور والتي يحتاجها النبات بالإضافة إلى تقليل تأثير الغسيل والذي من خلاله يتم فقد كثير من العناصر الغذائية من الطبقة السطحية .

7- تعمل على زيادة نسبة النيتروجين في التربة بنسبة خمس مرات وزيادة الفوسفور بنسبة سبع مرات وزيادة البوتاسيوم بنسبة إحدى عشر مرة والماغنسيوم بنسبة ثلاث مرات وكالسيوم بنسبة مرة ونصف .

قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) [لقمان : 20]

لقمان : 20

تعالوا معي احبائى نتعرف على المزيد والمزيد من فوائد دودة الأرض هذا الحيوان الصغير الضعيف والذي يستهين به الكثير من البشر ويقولون ما فائدة هذا المخلوق ولماذا خلقه الله

؟ فاليوم نقول لهم إن الله لم يخلق شيئًا عبثًا .

1- يستخدمها الكنديون في عمل بعض أنواع الكيك .

2- يستخدمها الأمريكيون بعد تجفيفها كغذاء بروتيني يومي .

3- عند وضع الديدان في مزارع تربية الأرانب وجد إنها تتحكم في الرائحة المنبعثة من مخلفات الأرانب .

4- يستخدمها الصيادون كطعم للأسماك

(365/577)

قال تعالى : (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [العنكبوت : 62]

وقال تعالى : (وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [العنكبوت : 60]

وقال تعالى : (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [سبأ : 36] .

هل لديكم احبائى مزرعة دواجن أو مزرعة سمكية أو مزرعة ماشية وتريدون زيادة نمو

هذه الحيوانات ؟ ؟

لقد وجد علماء تربية الحيوان أن إضافة ديدان الأرض الجافة إلى وجبات الحيوانات تعمل على زيادة نمو العضلات وزيادة الوزن وتعمل على تعويض نقص الحامض الامينى والبروتين في الوجبات الحيوانية بالإضافة إلى تحسين الأداء الجنسي وتحفز شهية الحيوان . بالإضافة لاحتوائها على الأحماض الامينية الغير مشبعة الذي يحتاجها الحيوان .

1- فعند إضافة نصف جرام من الديدان المجففة إلى 50 جرام من علف الدواجن فانه عمل على زيادة نموها بنسبة 35% عن المرباة على علف خالي منها .

2- عند إضافة 2% من الديدان إلى غذاء المزارع السمكية الصغيرة عمل على زيادة معدل نمو الأسماك وزيادة ربح المزارع السمكية إلى 80% .

3- عند إضافة 3جرام منها إلى وجبة الحصان ولمدة عشرون يوما فعمل على زيادة وزن العضلات به من 20 : 30 كجم كما انه عمل على زيادة نشاط الخيول وزيادة سرعتها .

(366/577)

واليكم في النهاية المفاجأة الطبية والتي حدثتكم عنها في بداية المقال والتي تعتبر بريقة لعلاج واحدا من اخطر الأمراض المعاصرة وهى مرض السرطان حفظنا الله وإياكم منها فقد قام

مجموعة من الأطباء في أمريكا باستخراج احد الإنزيمات تسمى Pancreatic enzyme من القناة الهضمية للدودة وتجربتها على مجموعة من الفئران المصابة بالسرطان فوجدوا أن الإنزيم عمل على انحصار الورم السرطاني وإطالة عمر الفئران (4,3,1) . ومازال العلماء مستمرين في تجاربهم وندعو الله أن ينجح هذا الأنزيم في علاج الأشخاص المصابين بهذا بمرض السرطان حفظنا الله وإياكم من كل شر .

المراجع :

1- Saruc M, Standop S. and Standop J.. 2004 : Pancreatic enzyme extract improves survival in murine pancreatic cancer. Pancreas. 28 (4) : 401-412.

2- http : //en.wikipedia.org/

3- http : //www.cancerdecisions.com/062602.html

4- http : //charles-darwin.classic-literature.co.uk/formation-of-vegetable-mould/

5- http : //www.taoofherbs.com/categories/82.asp

6- http : //www.cog.brown.edu/gardening/worms.html

http : -7
//mypeoplepc.com/members/arbra/bbb/id3.html
http : -8
catid//www.berlinkauf.com/detail.php?siteid=5011
191=
http : -9
//www.amonline.net.au/invertebrates/ann/index.htm
http : -10
//www.uwex.edu/ces/wihort/pests/index.htm
http : -11
//www.naturewatch.ca/english/wormwatch/about/ecology.html
http : -12
//www.sidwell.edu/us/science/vlb5/Labs/Classification_Lab/Eukarya/Animalia/Annelida

.

.

.

0-معجزة الغدة النخامية

بقلم الدكتور محمد السقا عيد

(367/577)

الغدة النخامية هي معجزة من معجزات الخالق سبحانه وتعالى . و تزن تلك الغدة حوالي نصف جرام (حجم الحمصة الصغيرة) وبرغم صغرها فانها تفرز العديد من الهرمونات الرئيسية في الدم والتى تحمل الأوامر المباشرة إلى كل الغدد الهرمونية الموجودة في الجسم، وبذلك تُجري تبنيها لتلك الغدد الأخرى؛ لتفرز هرموناتها فورًا في الدم .

فعند الغضب والغيظ والحقد تُرسل الغدة النخامية الأمر إلى غدة "الأدرينال" التي تستجيب على الفور؛ حيث يُفرز هرمون "الأدرينالين" ، الذي يؤدي إفرازه في الدم إلى تغيرات فسيولوجية وكيميائية حيوية مذهلة، إنه يهيئ الجسم لقوى شيطانية رهيبة؛ وذلك استجابة لإشارة التهديد الصادرة من الغضب والغيظ والحقد .

وتقوم أيضا غدة "الأدرينال" بإفراز هرمونات القشرة مثل هرمون "الكورتيزون"؛ لإعداد

الجسم بيولوجيا للدفاع عن الإرهاق النفسي بأشكاله المختلفة .

وحينما يتعرض الإنسان إلى تلك الانفعالات السابق ذكرها لفترات مستمرة تزيد إفرازات تلك الهرمونات التي تؤدي إلى تغيير مدمر لكيميائية الجسم : هدم في أنسجة الجسم، إفراز الجليكوز في البول . . وعلى المدى الطويل قد يحدث مرض "السكر"، ويسير الجسم بخطى وئيدة إلى زيادة نسبة "الكولسترول" في الدم؛ وهو ما قد يؤدي إلى حدوث الذبحة الصدرية، وتصلب الشرايين، وأمراض أخرى مدمرة لكيان الإنسان، هذا بجانب الأمراض النفسية العضوية .

وحصيلة كظم الغيظ والعفو عن الناس والخلاص من الحقد هو الطريق للخلاص من قوى التدمير النفسي والعضوي، وهو الطريق المضيء نحو الاستقرار الوجداني والأمن النفسي والسعادة الروحية .

موقع الغدة النخامية

تقع الغدة النخامية في الجزء السفلي الأمامي للدماغ ومتصلة من الأعلى بمنطقة في المخ تسمى بمركز تحت سرير المخ (الهيبوثلاموس) Hypothalamus وهذا الموقع يعتبر موقعا جيدا وحصنا حصينا (بين سقف الفم وقاع المخ) لحماية الغدة ووقايتها .

صورة توضيحية للغدة النخامية

وهي غدة مهمة تفرز العديد من الهرمونات الحيوية والضرورية لجسم الإنسان، وتعتبر (المايسترو) بالنسبة لعدد كبير من الغدد الصماء الأخرى، حيث تعد هرموناتها هي المؤثر والمنظم الأساسي لعمل تلك الغدد وإفرازاتها .

التركيب المجهري لاجزاء الغدة النخامية

وهي تتكون من فصين اثنين يختلفان عن بعضهما البعض من حيث التركيب والوظيفة

الفص الأمامي Adenohypophysis ويتكون من خلايا طلائية .

الفص الخلفي neurohypophysis ويتكون من خلال شبه عصبية .

يمكن تصنيف الهرمونات التي يفرزها الفص الأمامي من الغدة النخامية إلى مجموعتين :

-هرمونات تؤثر بصورة مباشرة على أنسجة الجسم .

-وهرمونات تؤثر على غدد صماء أخرى وتدفعها إلى إفراز هرموناتها .

وأشهر هرمونات الغدة النخامية :

(الهرمون الحاث للنمو) growth hormon وهو الهرمون المسئول عن النمو الطبيعي لأنسجة الجسم وأعضائه . ويتركز عمله الأساسي على حفز الخلايا لتخليق البروتين

المكون الأساسي لأنسجة الكائن الحي .

النخامية الأمامية

يتألف هذا الجزء من فص أمامي طرفي وفص متوسط .

ينتج الفص الأمامي بالرغم من أبعاده الدقيقة (6) هرمونات بروتينيه على الأقل .

ينظم الهرمون المنشط للدرقية (TSH) إنتاج الهرمونات الدرقية من الغدة الدرقية .

ويقوم الهرمون المنشط للقشرة الكظرية (ACTH) بتحفيز قشره الغدة الكظرية .

يسمى اثنان من الهرمونات المنشطة بمنشطى المنسلين لأنهما يؤثران على المنسلين وهما يشكلان : الهرمون المحفز للحويصلات (FSH) والهرمون المرتبط بالجسم الأصفر (LH) وهو الهرمون المحفز للخلايا البينية .

والهرمون المنشط الخامس هو المدر للحليب (قبل الحليب) والذي يحفز إنتاج الحليب في الغدد اللبنية للأنثى , وله تأثيرات أخرى متعددة أيضا في الفقاريات الدنيئة .

أما الهرمون السادس فهو هرمون النمو (GH) المسئول عن التكوينات البنائية في الجسم كاستطالة العظام وترسب البروتين في العضلات وتكوين الجسم .

في الفقاريات الدنيا ينتج الفص المتوسط للنخامية هرمونا محفزا لحاملات الصبغ الأسود (MSH) والذي يتحكم في انتشار الصبغ الأسود بداخل الخلايا التي تحمل الصبغ فتمكنهم من مضاهاه الوسط المحيط بالحيوان بدرجة أكبر .

أما في الطيور والثدييات فتقوم خلايا في الفص الأمامي للنخامية وليس الفص المتوسط الذي تفتقر إليه الطيور وبعض الثدييات كلية بإنتاج هذا الهرمون .

ويبدو إن للهرمون (MSH) دورا بسيطا فقط فيما يختص بظاهرة التصبغ في حاله الحيوانات الداخلية الحرارة حتى بالرغم من انه يسبب قتامه في حاله البشر عند حقنهم به في تيار الدم .

وتتم السيطرة على هذه الغدة من قبل المنطقة (تحت سرير المخ) وهي جزء من الدماغ يربط أجهزة السيطرة العصبية والغدد الصماء .

وتعتبر وظيفة الغدة النخامية فى الدرجة الأولى وظيفة تنظيمية، هرمونات النمو من عملقة وقزامه وهرمونات منشطة للغدد التناسلية وهرمون الاكسيتوسين المسمى هرمون الميلاد السريع والفازوبرسين المانع لادرار البول .

النخامية الخلفية

لايعتبر الفص الخلفي غدة داخلية الإفراز حقيقية ؛ وإنما هو مركز إختزان وتحرير للهرمونات التي تم تصنيعها كليه في تحت سرير المخ ، حيث يقوم تحت سرير المخ (الهيبوثلاموس) بإصدار اثنين من الهرمونات التابعة للفص الخلفي للنخامية .

يتشابه الهرمونان للفص الخلفي في الثدييات لأقصى درجه كيميائيا وهما

اوكسيتين (المعجل بالولادة)

فازوبرسين أو الضاغط للاوعيه الدموية .

فكلاهما ببتيدات عديدة بثمانية أحماض أمينية ويسميان "ثمانيات الببتيدات" ، وهما من أسرع الهرمونات تأثيرا بالجسم حيث أنهما قادران على إحداث استجابة في خلال ثواني من تحررهما من الفص الخلفي .

(370/577)

---

*يقوم الهرمون اوكسيتوسين بوظيفتان هامتان متخصصتان في التكاثر في حالة الإناث البالغة للثدييات

-فهو يحفز تقلص العضلات الملساء للرحم أثناء الولادة . . يستخدم هذا الهرمون ISF لإتمام خروج المولود أثناء الولادة المتعسرة ولمنع النزيف بعد الولادة .

-والتأثير الثاني للهرمون هو قذف الحليب بواسطة الغدد اللبنية استجابة لعمليه الرضاعة . وبالرغم من وجود الهرمون في الذكر إلا انه ذو وظيفة غير معروفة .

*يقوم الهرمون الثاني للفص الخلفي . . الضاغط للأوعيه الدموية (فازوبرسين) بالتأثير على الكلية لحصر تدفق البول ولهذا فانه في الأغلب يعرف بالهرمون المانع لإدرار البول (ADH)

ولهذا الهرمون تأثير ثاني أقل شأناً إذ يعمل على زيادة ضغط الدم من خلال عمله كقابض عام للعضلات الملساء للشرايين .

أرأيت معى أخى المسلم قمة البداع والاعجاز لغدة تزن أقل من جرام واحد . . . .

أين أدعياء العلم والتكنولوجيا ليقفوا على هذه المعجزات الربانية التى يقف المخ البشرى أمامها مذهولا مأخوذا . . . لانملك بعد ما رأينا الا أن نحنى الجباه لخالق الموت والحياة الله الواحد الأحد الخالق البارىء المصور . . .البديع المبدع

هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه . . . .

المصادر

ضاد – المجلة الالكترونية للعلوم – كل ما يمكن معرفته عن الغدد الصماء

إسلام أون لاين . نت –كيميائية الصوم والسعادة الروحية د . محمد محمود عبد القادر

د . محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائى جراحة العيون

عضو الجمعية الرمدية المصرية

مصر – دمياط

الزرقا –شارع طارق بن زياد

ت : 851395 عيادة

854754 منزل

01029509 68 محمول

Dr_mohamed_60@hotmail.com

.

.

.

0–إنما يخشى الله من عباده العلماء

بقلم فراس نور الحق مدير الموقع

قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿ 27 ﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ 28 ﴾) .

معاني الألفاظ :

الخشية : خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص العلماء بها في قوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ <فاطر/28> (مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني) .

الجدد : جُدَّةَ . وجُدَّةُ كل شيء : طريقته . وجُدَّتُه : علامته؛ عن ثعلب والجُدَّةُ : الطريقة في السماء والجبل، وقيل : الجُدَّةَ الطريقة، والجمع جُدَدٌ؛ وقوله عز وجل : جُدَدٌ بيض وحمر؛ أَي طرائق تخالف لون الجبل؛ ومنه قولهم ركب فلان جُدَّةً من الأَمر إِذا رأَى فيه رأْياً . قال الفراء : الجُدَدُ الخِطَطُ والطُّرُق، تكون في الجبال خِطَطٌ بيض وسود وحمر كالطُّرُق، واحدها جُدَّةٌ؛ وأَنشد قول امرئ القيس : كأَن سَراتَهُ وجُدَّةَ مَتْنِه كنائِنُ يَجْرِي، فَوقَهُنَّ، دَلِيصُ

قال : والجُدَّةَ الخُطَّةُ السوداء في متن الحمار . وفي الصحاح : الجدة الخطة التي في ظهر الحمار

تخالف لونه . قال الزجاج : كل طريقة جُدَّة وجادَّة . (لسان العرب لأبن منظور) .

وخلاصة القول : الجدد هي الخطوط والطرق الملونة التي على ظهر الجبال وهي تخالف لون الجبال .

الغرابيب : العرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب : أسود غربيب . قال الجوهري : وتقول هذا أسود غربيب؛ أي شديد السواد . وإذا قلت : غرابيب سود ، تجعل السود بدلا من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم . (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي)

.

تفسير الآيات :

(372/577)

حيث ورد في مختصر تفسير ابن كثير للصابوني في تفسير الآيات السباقة ما يلي :

قال تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو الشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن

في ذلك لآيات لقوم يعلمون ﴾ ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً ، قال ابن عباس : الجدد الطرائق ، ومنها غرابيب سود ، قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود ، وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غربيب ، ولهذا قال بعض المفسرين في هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر في قوله تعالى : ﴿ وغرابيب سود ﴾ أي سود غرابيب ، فيما قاله نظر . وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناسي (والدواب) وهو كل ما دب على القوائم (والأنعام) من باب عطف الخاص على العام

(373/577)

كذلك هي مختلفة أيضاً ، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ، وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون ، وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، وقد روى الحافظ البزار في مسنده عن ابن عباس

رضي اللّه عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : أيصبغ ربك ؟ قال صلى اللّه عليه وسلم : "نعم صبغاً لا ينفض أحمر وأصفر وأبيض" (قال ابن كثير : روي مرسلاً وموقوفاً واللّه أعلم) ، ولهذا قال تعالى بعد هذا ﴿ إنما يخشى اللّه من عباده العلماء ﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى اللّه من عباده العلماء ﴾ قال : الذين يعلمون أن اللّه على كل شيء قدير، (ورد في كتاب مختصر تفسير ابن كثير اختصار الصابوني) .

بعض الإشارات القرآنية العلمية :

لقد ذكر الله تعالى في هذا الآيات الكريمة مجموعة من الظواهر التي تشير إلى عدد من العلوم ففي قوله : أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء وتشير إلى ظاهرة نزول المطر من السماء وتدل على علم الطقس والمناخ .

وفي قوله : فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا فتدل على علم النبات والزراعة .

وفي قوله تعالى وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وهي ظاهرة تلون الجبال بسبب تأكسد المعادن التي تكون على شكل عروق معدنية على سطح الجبال وهي تشير إلى علم الجيولوجيات وطبقات الأرض .

وفي قوله وَمِنَ النَّاسِ : فتشير إلى ظاهرة اختلاف ألوان البشر وهو علم الأجناس البشرية .

وفي قوله وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فهي تشير إلى علم الحيوان . .

(374/577)

ولقد ختمت هذه الآيات بقوله : كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ

أي أن أكمل الناس خشية لله تعالى هم العلماء في أي علم من العلوم سواء كان علم المناخ أو علم الحيوان أو علم الأجناس أو أي علم من العلوم فكل العلوم تدل على الخالق سبحانه وتعالى

يقول عبد الله بن عباس في قوله : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير . .

وأنا أعتقد أن أعلم الناس بقدرته سبحانه هم العلماء المتخصصين في أي علم من العلوم مثل علم الفيزياء والكيمياء والذرة وغيرها من العلوم[1] . .

ولو حاولت تتبع بعض سير مؤسسي العلوم الحديثة فستجد أن معظمهم إن لم نقل كلهم من أشد الناس خشية لله تعالى ولو عُرض عليهم الإسلام بصورته الصحيحة لما ترددوا في اعتناقه أمثال : نيوتن وكابلر وليوناردو دافنشي وآينشتاين .

فجل العلماء العظام الذين أسسوا لعلوم ونظريات جديدة ونذروا حياتهم في المخابر والمراصد الفلكية لم يكن دافعهم كسب المال أو الشهرة إنما كان دافعهم هو معرفة أسرار قدرة الخالق وكانوا على قدر كبير من الإيمان يقول أرونو بنزياسعالم الفيزياء الشهير والحائز على جائزة نوبل عام 1978 وأحد الذي قاموا باكتشاف خلفية الإشعاع الكوني في صدد الحديث عن سبب نجاح سلفه كابلر (عالم فلكي شهير له إنجازات كبير في علم الفلك) :

" إن نجاح كابلر لم يكن كوبرنيكوس ولكن بسبب إيمان كابلر أن الله وهو حقاً المانح للقوانين وهو أي كابلر قال أنه عند ذلك أصبح الأمر أسهل "[2]

فقد كان معاصرو كابلر يعتقدون أن القوانين التي تتحكم بكوكب الأرض تختلف عن القوانين التي تتحكم بالكون أما كابلر فكان يعتقد أنه لما كان الخالق الذي خلق الكون هو واحد وهو الله وهو المانح للقوانين فكل الكون له نفس القوانين وبذلك أكتشف الحركة الأهليلجية للأرض وللكواكب . . .

(375/577)

وسوف نعرض في هذا البحث إلى بعض سير أئمة العلوم الحديث ونذكر بعض أقوالهم التي تعبر عن عميق إيمانهم بالله تعالى :

روجر بيكون (1220-1292)

هو الطبيب والعالم البريطاني العظيم الإيمان بالله تعالى، مؤسس الطريقةِ التجريبيةِ في الاستدلال أو (العلم التجريبي) تنبأ ببعض الاختراعات قبل اختراعها بمئات السنين مثل المراكب البخارية، والقطارات، والسيارات، والطائرات، والرافعات، والجسور المعلّقة .

كتب في رسالة إلى صديق له : بدايةً من خلال بعض التشكيلات الفنية يمكن صنع آلات للإبحار تعمل بدون مجذفين، مثل سُفن عظيمة تشق البحر يقودها رجل واحد ، ويمكن أن يبحر بسرعة أكبر بكثير مم لو كانت السفينة مليئة بالرجال المجذفين، كذلك العربات يمكن أن تتحرك بقوة كبيرة وبدون أيّ كائن حي يقوم بتحريكها[3] .

"كان يقول بأن العلم لا يمكن أن يُتضاربْ مع الدين، بل يُمْكِنُ أَنْ يَعْمل كَأداةِ مهمةِ للمُسَاعَدَة على إقْناع المتشكّكين بالله .

كما صرح بأنّ العلم له فائدة عظيمة في إقْناع الناس بقبول الإيمان بالله تعالى[4] .

فرانسيز بيكون (1561-1626)

يعتبر أحد أهم مؤسسيي الطريقةِ العلميةِ، معروفُ بأنه كان عظيم الإيمان بالله وقد صرح مرة :

"إن علم الفلسفة بعد كلام الله تعالى هو العلاج المؤكد من الخرافة وهو الداعم المصدق للإيمان بالله تعالى[5] .

غاليلو غاليلي ((1564-1642

غاليلو هو أول إنسان أستعمل المنظار لمراقبة السماءِ كما أنه أكد بالأدلة العلمية الواضحة أن الأرض كروية وأكتشف المناطق المظلمة والتلال والحفر على سطح القمر .

كان غاليلو مشهوراً لمساهماته الكبيرة في ميدان العلم، كان غاليلو عظيم الإيمان بالله تعالى ومن أقواله : "إن الحواس والقدرة على الكلام والذكاء منحت للإنسان من قبل الله تعالى حتى يتم استعمالها بأفضل طريقة ممكنة" .

كما أنه كان يؤكد بالأدلة العلمية الواضحة أن الطبيعية مصممة من قبل الله تعالى .

(376/577)

وقال : إن الطبيعية ببساطة هي كتابٌ قد كُتب من قبل الله تعالى .

كما أكد من خلال الأدلة أن حقائق العلم والدين لا يمكن أن يناقض أحدهم الآخر من اللحظة التي ألف الله فيها كل الحقائق . [6] .

يوهانز كابلر (1571-1630)

هو مؤسس علْمِ الفلك الحديثِ، اكتشف الحركةَ الإهليليجيةَ للكواكبِ، كما وضع علاقة رياضية بين فترة دوران الكوكب المدارية حول الشمس وبين المسافة التي تفصلها عنها ، كما أنه قام بتصميم طاولة فلكية تحدد موقع الكوكب في أي وقت سواء كان في الماضي أم في المستقبل .

كعالم أعتقد كابلر أن الكون خلق من قبل خالق، وعندما سأل عن سبب اشتغاله بالعلم قال :

"كَانَ عِنْدي نيةُ أن أصبح عالم دين، لكن الآن أنا أعرف الله من خلال محاولاتي أن أمجده في علم الفلك، السماوات تشير إلى عظمة الله تعالى[7] .

لقد آمن كابلر أن عظمة الله تعالى تتجلى في كل شيء مخلوق وأن التفكير الصحيح يرشد الإنسان إلى أنه هناك أرادة واعية وذكية في الطبيعية :

"مَنْ أعطى الدببة والذئاب اللون الأبيض في المناطق الشمالية الثلجية ومن جعل غذاء الدببة هو الأسماك . . وجعل غذاء الذئاب بيض الطيور . . .

هكذا تسائل كابلر ثم أجاب :

"كم أنت عظيم يا رب وكم هي عظيمة ورائعة حكمتك لا يوجد ثناء أو مديح يليق بك، السماوات تمجدك والشموس والأقمار والكواكب كل إحساس يدركك كل لسان

بمجدك كل ما في السماوات تمجدك، أما أنا فما دمت حياً فسوف تظل روحي تمجدك . . . . العقول الصحيحة تمجدك على الرغم من أننا مازلنا لا نعرف إلا القليل ونجهل الكثير . . . . . .لكن مديحك وتمجيدك شرف لنا على الدوام "[8] .

كما قال أيضاً :

من اللحظة التي أصبحنا فيها علماء فلك أصبحنا كهنة لله الأعلى، فبعد أن نظرنا على كتاب الطبيعة كان المناسب لنا أن نفكر ملياً لا في مجد أنفسنا بل أكثر من ذلك وفوق كل شيء في مجد الله [9] .

باسكال بلاس (1623-1662)

(377/577)

هو أحد أعظم علماء الهندسة منذ زمن اليونان، كان عالماً متميزاً، كانت أهم اكتشافاته في سن مبكرة من حياته . . أضاف مساهمات هامة في علم الرياضيات كما كانت له اكتشافات تاريخية في علم الفيزياء أثبتتْ بأنّ الضغطِ الجوّيِ يَتفاوتُ تبعاً للارتفاع .

باسكال كان عظيم الإيمان بالله تعالى ولقد أشار إلى القوّةِ الأزلية لله عندما قالَ : " إنّ الله هو الخالقُ لكُلّ القوانين الرياضية التي تتحكم بالعناصر "[10] .

جون راي (1627-1705)

هو عالم النبات البريطاني المشهور كان يؤمن أنه على كل إنسان أن يدرك بأن كل شيء في الكون مخلوق .

لقد كان هذا الإيمان هو القوة التي ينطلق منها راي، ألف راي كتاباً بعنوان "حكمة الله في الخَلْقِ" في هذا الكتابِ نطلع على آلاف النباتاتِ والحشرات والطيور، وأنواع الأسماك، وما شابه، والذي يذكَرَ بأنّ الطبيعةِ تكشف عن وجودَ خالق لها وقالَ : "إن الله هو الذي خالق الكون من بدايته، وبفضل الله تم المحافظة على الكون إلى يومنا هذا في نفس الحالةِ والشروط التي خلقها الله ابتداء"[11]

رايكانت له مساهمات كبيرة في علم النبات، كان دائماً يشدد على أن العِلْم والدينِ يلتقيان في نقاط كثيرة .

روبرت بويل (1627-1691)

يعتبر بويل أبُّ الكيمياءِ الحديثةِ، كما حقق عدداً مِنْ الاكتشافات العلميةِ الثوريةِ منها اكتشافه للقانون الذي يحدد العلاقة بين تغير الضغط الجوي وتغير حجم الغاز والذي عرف بـ"قانون بويل للغازاتِ" كان له عدة اختراعات هامة مثل اختراعه الثلاجة البدائية كما أكتشف بأن الماء يتمدد عندما يبرد كما وضع نظرية تتعلق بالذرات .

كَانَ يعتقد أنه يوجد تصميم ذكي في الطبيعةِ، وأن الذي صنعها هو بمنتهى القوة .

كما أشار بويل من خلال محاضراته إلى أن العلم والإيمان بالله يجب أن يقفا جنباً إلى جنب كما كان يدعوا إلى تمجيد الله الواحد "يجب علينا أن نذكر الله الواحد الذي أنشأ الحياة وهذا الإيمان سيكون مفيداً للبشرية . . . "[12]

إن التصميم الممتاز لهذا النظامِ العظيمِ الكوني، وخصوصاً هذا النسيج الغريب في أجسام الحيواناتِ وأمور أخرى كانت كلها الدافع الذي أقنع الفلاسفةَ عبر العصور للاعتراف أنه هناك إله منشأ لهذه التراكيبِ الجديرة بالإعجابِ.[13]

أنتوني فون ليونهوك (1723.1632)

لقد أكتشف ليونهوك البكتيرا . .

تَعلّمَ ليونهوك صقل عدساته التكبير وذلك لفَحْص القماشِ لقد ذهل راي بما رأى .

بَدأَ ليونهوك في إنْتاج مكبرات أخرى وأصبحَ أول إنسان يرى ويصف البكتريا بواسطة المجهر

.

هدفه كان دَحْض فكرةِ النشوء العفوي أي النشأة بدون خالق فقاده هذا لإجْراء الدِراساتِ العلميةِ الهامة .

لهذا الغرضِ، دَرسَ ليونهوك الأنظمةَ المغذّيةَ للنباتاتِ والحيواناتِ، ودرس المواد المغذّيةِ في النباتاتِ، وتراكيبها ووظائف الأجزاءِ المُخْتَلِفةِ في النباتاتِ .

كما أصبحتْ الخلايا الدمّويةِ مواضيع لأبحاثه .

وكان أول من درس الأوعية الشعرية ورأى الخلايا الدموية التي تجتازها . [14]

إسحاق نيوتن (1642-1727)

يعتبر نيوتن من أعظم العلماء عبر التاريخ، فقد كان عالم فيزياء ورياضيات .

أكبر مساهمة له في مجال العلوم كَانتْ اكتشافه لقانونِ الجاذبيةِ الأرضية .

حيث أضافَ مفهومَ الكتلةِ إلى العلاقةِ بين القوةِ والتسارع وأكتشف قانونُ الفعل ورد الفعل، وطرح النظرية التي تقول بأن : "الجسم المتحرّك سَيَستمرُّ بالتَحَرُّك على بأتجاه مستقيمِ وبسرعة ثابتة ما لم تصرفه قوة ثانية" .

بَقيتْ قوانينُ حركة نيوتن قابلة للتطبيق لأربعة قرونِ، حيث استعملت في أبسط الحسابات الهندسية إلى أكبر المشاريعِ التقنيةِ المعقّدةِ .

مساهمات نيوتن لم تقتصر فقط باكتشافه الجاذبية الأرضية ولكن امتدت أيضاً إلى حقولِ الميكانيك والبصرياتِ حيث أكتشف ألوان الطيف السبعة للضوء .

إضافة إلى اكتشافاته الرائدةَ كَتَبَ نيوتن مقالات تَدْحضُ الإلحاد وتدافع عن الخلق .

دَعمَ فكرة أن الخلق هو التفسير العلمي والوحيد لوجود العالم .

أعتقد نيوتن أن الحركة الميكانيكية للكون تشبه ساعة عملاقة تَعْملُ باستمرار وبدقة وهي نتيجة عملَ خالقِ قوي وحكيم .

وكان وراء اكتشافات نيوتن، التي غيّرتْ وجهه العالمِ، هي رغبتَه للتعرف أكثر على الله تعالى .

حيث درس الأجسام للتعرف على الله تعالى، فقد كرس حياته للتعرف على القدرة العظيمة لله تعالى، عبر نيوتن عن الدافع الذي يثير حماسه لمواصلة أبحاثه :

. . . هو (الله) العالم بكل شيء صاحب القدرة اللانهائية، الذي يتمتع بالخلود وهو موجود منذ الأزل إلى الأبد فهو الذي يتحكم بكل شيء وهو عليم بكل شيء وكيف تعمل . . . أبدي ولانهائي؛ . . . موجود في كل زمان وكل مكان وإلى الأبد ممكن أن تعرفه من خلال إبداعه وتصميمه الحكيم الرائع للمخلوقات . وهو عزيز ويَعْشقُه عباده[15]

السّير وليام هيرشيل (1738-1822)

هيرشيل هو أحد أعظم الفلكين في القرن الثامن عشرِ .

قام هيرشيل ببناء المناظير العاكسة المتقدمة والتي لم تكن معروفة من قبله، حيث قام من خلالها لأول مرة بدراسة السدمَ والمجراتَ كما أنه كان عالماً مؤمناً بالله .

من أقواله : " الفلكي الغير المؤمن بالله ينبغي أَنْ يَكُونَ مجنوناً "

كما أشار إلى أنه من المدهش أن العالم الذي يَدْرسُ عِلْمَ فلك، ويقوم بمشاهدة النظام التام في الكون ثم لا يُؤمنَ بوجود الله [16]

جول جيمس بريسكوت (1818-1889)

جول هو مكتشف القانونِ الأولِ للديناميكا الحراريةِ، كذلك قام بحساب كمية الحرارة التي تنتج عن مرور تيار كهربائي في سلك، كان اكتشافه الأعظم هو قيمةَ الثابتةِ المعروفون ب"المكافئ الحراري" .

(380/577)

هذا الاكتشاف أدّى إلى صياغةِ قانونِ صيانة الطاقةِ وهو من القوانين الأساسية والأكثر أهمية بين القوانين الطبيعية .

جول مكتشف هذه القوانينِ العلميةِ الهامة، كَانَ يعتقد بأَنّه يُمْكِن أَنْ يَقتربَ المرء من الله عندما يتَعرّفَ على قوانينِ الطبيعيةِ .

اعتقاده دفعه للاستمرار في أبحاثه الأخرى، وكان أحد العلماءِ الـ717 الذين وقّعوا على البيان الرافض لنظرية داروين في عام 1864م. [17]

جريجوري ميندل (1822-1884)

لقد أكتشف ماندل ثلاثة قوانين في عِلْمِ الوراثة، ماندل دخل التاريخ من خلال تأسيسه لمبادئ علم الوراثة.

أظَهرتْ قوانين ماندل في الوراثة البراهينَ الأكثر أهمية التي تدحض نظريةِ التطورِ.

بَعْدَ أَنْ دَحضَ ماندل نظريةَ التطورِ باكتشافه لقوانين الوراثة، آمن بأنّ الله هو خالق العالَمَ، وبأنّ الصدفة العمياءِ لا يُمكنُ أَنْ تَكُونَ سبباً لهذه النتائج [18]

لويس باستور (1822-1895)

أحد أهم الأشخاص الذين ساهموا في تطوير العلم والطبِّ، بصورة رئيسية بسبب وضعه لنظرية الجراثيمِ المسببة للمرضِ، ومعارضته القوية لنظريةِ التطورِ.

وهو أول من شرح القاعدةِ العضويةِ وسيطرةِ الاختمار، كما أن أبحاثه قادته أبعد وأبعد إلى عِلْمِ الجراثيم، حيث عَزَلَ عدداً مِنْ كائنات الحية المنتجة للأمراض، ولِقاحات متطورة لمكافحتهم- بشكل خاص الأمراض المُخيفة كداءِ الكلب والدفتيريا، والجمرة الخبيثة، وغيرهم من الأمراض بالإضافة إلى عملياتِ البسترةِ والتعقيمِ.

باستور كَانَ شديد الإيمان بالله تعالى، وكان المعارض والمقاوم العنيف لنظريةِ داروين للتطورِ .

كما أنه دافع عن توافقَ العِلْمِ مع الدينِ ويظهر هذا في معظم كتاباتِه .

من أقواله : "القليل من العلم يبعدك عن الله، والكثير من العلم يدلك على الله" [19]

وليام تومسن (اللّورد كيلفن) (1824-1907)

(381/577)

اللّورد كيلفن مشهود له بأنه كان في مقدمة علماء الفيزياء في زمانه، إضافة إلى ذلك كان معروفاً بإيمانه الشديد بالله .

كما أنه له احترام كبير من قبل الأوساط العلمية، لمساهماتِه في مجال الفيزياءِ والرياضياتِ، بالإضافة إلى اختراعاته .

فقد طوّرَ طريقة ناجحة لتَذْويب الهيدروجينِ والهليومِ .

أخترعِ مِقياسَ درجة الحرارة المطلقةِ، كل درجات الحرارة تقاس اليوم من خلال درجات كالفن .

أَسّسَ علم الديناميكا الحراريةَ (فرع من الفيزياء يبحث في العلاقة بين الحرارة والطاقة

الميكانيكية) وصاغَ قانوناه الأولى والثانيةَ في المصطلحات الفنية الدقيقة .

من أقواله : " لا تخافوا من التفكير الحر ، إن فكرت بقوة كافية، فإنك سوف تقوي بهذا التفكير إيمانك بالله تعالى [20]

كما قال : "فيما يتعلق بأصلِ الحياةِ . . فإن العلم اليقيني يؤكد وجود قوة خالقة" [21]

جْي . جْي . ثومسن (1856-1940)

في عام 1897 أكتشف ثومسن الإلكترون .

كَانَ ثومسن أستاذ الفيزياءَ في جامعة كامبردجِ كما كان ورعاً متديناً ، له تصريح من أقواله : "من خلال تركيزك على الحقائق والنتائج العلمية فإنها سوف تصل بك إلى العلم بوجودِ الله[22]

ألبرت آينشتاين (1879-1955)

كان ألبرت آينشتاين أحد أهم علماءِ القرن العشرين، كما معروفاً بإيمانه العميق بالله تعالى كان لا يتردد في الدفاع عن فكرة تلازم العلم والدين حيث قال : أنا لا أَستطيعُ أن أتخيل أن عالم حقيقي بدون ذلك الإيمانِ العميقِ بالله، العلم بدون دين يبدوا كالأعرج[23] .

آينشتاين كان مقتنعاً أن الكون قد صمم بشكل تام ولم يأتي بالصدفة وبأنّه خُلِقَ من قبل خالق له حكمة عليا .

لقد أشار آينشتاين إلى إيمانه بالله تعالى في معظم كتاباتِ ومن أقواله : إن أي باحث حقيقي

في الطبيعة يجد نوعاً من المهابة الدينية [24]

في مكان آخر، كَتَبَ:

(382/577)

إن الإنسان الذي يسير في طريق العلم بشكل جدي يُصبحُ مقتنعاً أن هناك روح مقدسة تظهر في قوانينِ الكونِ، روح أعلى وأعظم من التي في الإنسان. . . لذلك فإن سبيل العِلْمِ سوف يؤدي بك إلى شعور ديني من نوع خاصّ [25]

جورجيس ليماتير (1894-1966)

أقترح جورجيس ليماتير نظرية الضربة الكبرى التي تُشيرُ إلى خَلْقِ الكونِ.

كان يعتقد بأنّ للكونَ بداية مميزة، لذلك حتماً سَيكونُ له نهايةً، وإن إدراك هذه الحقيقةِ سوف تلعب دوراً هاماً في مساعدة العديد مِنْ الناسِ كي يؤمنوا بالله، ليماتير الذي كَانَ أيضاً كاهناً، أعتقد بأنَّ العِلْم والدين يقودان إلى نفس الحقيقةِ [26].

ورنهر فون بروان (1912-1977):

كان بروان أحد أعظم العلماء في العالم وكَانَ رئيس مهندسي الصواريخ في ألمانيا، طور صاروخ V-2 المشهور أثناء الحرب العالمية الثانية

الدكتور بروان هو مُدِير سابق لوكالة ناسا لأبحاث الفضاء كَانَ أيضاً عالِماً ذا إيمان عميق .

من أقواله : إنني أجد صعوبةً في فهمَ كيفية أن عالِماً لا يعترف بأن هناك قوة عظمى عاقلة وراء وجود الكون [27]

في أيار 1974 كتب بروان في مقالة له :

لا يمكن لأي شخص أطلع على القوانين والأنظمة التي في الكون إلا ويستنتج أنه يجب أن يكون هناك تصميم وغاية وراء هذا كله . [28]

تعليق بقلم عبد الدائم الكحيل

إنها آية تستحق التفكر طويلاً، ففي كل كلمة من كلماتها معجزة، وهذا ليس غريباً عن كتاب الله تعالى، فهو كما وصفه رسولنا عليه الصلاة والسلام بأنه كتاب لا تنقضي عجائبه . لقد تفكّرتُ في قوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [فاطر : 28] . ولا ننسى أن اسم (اللهَ) في الآية هو اسم منصوب أي في نهايته فتحة، ولو أن بعض المبتدئين بقراءة القرآن يخطئون فيلفظون هذا الاسم بالضمّ أي (اللهُ) ، وهذا خطأ كبير، لأن تغيير هذه العلامة سوف يُغير المعنى بالكامل .

إن المقصود من هذه الآية أن الذي يخشى الله هو من عباده العلماء، أي أن العلماء هم أشدّ خشية وخوفاً من الله تعالى، أكثر من غيرهم. فينبغي أن ندرك المعنى اللغوي أولاً لنتمكن من إدراك المعنى العلمي.

لقد وجدتُ في هذه الآية سبقاً علمياً للقرآن الكريم، فهذه الآية تقرر أن العالِم هو أكثر خشية وخوفاً من الله تعالى من الجاهل. والسؤال: ماذا عن العلماء من غير المسلمين، وهل تنطبق عليهم الآية؟ والجواب هو أن الآية تقرر أمراً وهو أن الإنسان عندما يمتلك معرفة عالية بأمر من الأمور يتملَّكه إحساس بالرهبة من مبدع الكون سبحانه وتعالى. ولو تتبعنا تصريحات العلماء من غير المسلمين نلمسُ فيها شيئاً من الإيمان بخالقٍ للكون، ونجدهم يحسّون بنوع من أنواع الخشية، وهذا ما تحدثت عنه الآية. وما جمعه الأخ الأستاذ فراس نور الحق من أقوال لكبار علماء الغرب من أمثال آينشتاين، نرى فيه نوعاً من أنواع الرهبة والخوف من الله تعالى.

وتأمل معي أخي المؤمن تصريحات هؤلاء العلماء، والعجيب أنهم غير مسلمين وغير مؤمنين بالقرآن، فتأمل لو أن أحداً أوصل لهم رسالة الإسلام بشكلها الصحيح، ألا تظنّ أنهم سيكونون من أول المؤمنين؟!

ومن هنا ينبغي علينا كمؤمنين نحبّ القرآن أو على الأقل ندّعي أننا نحب القرآن، ينبغي علينا أن نتعلم المزيد والمزيد من الحقائق العلمية والكونية الواردة في كتاب الله تعالى لنتمكّن

من إيصالها إلى علماء الغرب، ونقنعهم بأن الإسلام هو دين العلم وليس دين الإرهاب كما يصورونه لهم في وسائل الإعلام.

ويبقى السؤال: كيف علم النبي الكريم عليه صلوات الله وسلامه وهو النبي الأميّ بأن العلماء هم أكثر رهبة وخشية لله من غيرهم؟ إن الله تبارك وتعالى هو من علّمه وقال في حقّه: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) [النساء: 113].

(384/577)

للتعليق على الموضوع أضغط هنا

المصادر:

THE QUR'AN LEADS THE WAY TO SCIENCE R. HARUN YAHYA

تم الاستفادة من كتب هارون يحيى في إعداد هذا البحث

كتاب معاني ألفاظ القرآن للأصفهاني

معجم لسان العرب لابن منظور

مختصر تفسير ابن كثير للصابوني

تفسير القرطبي

[1] سمعت هذه الفكرة من الدكتور محمد الحبش في إحدى خطبه على منبر مسجد الزهراء في دمشق .

[2] http : //www.ldolphin.org/bum bulis

[3] "Great Aviation Quotes," : http

//www.skygod.com/quotes/predictions.html

[4] First Book of Francis Bacon of the Proficience and Advancement of Learning Divine and Human

[5] . http : //www.christianity.co.nz/ science4.htm

[6] http : //home.columbus.rr.com/

sciences/enlightened_belief_ history.htm

[7] Johannes Kepler, quoted in : J.H. Tiner,

Johannes Kepler–Giant of Faith and Science (

Milford, Michigan : Mott Media, 1977) , p. 197

[8] Harmonice Mundi (Harmonies of the World) ,

Johannes Kepler Gesammelte Werke, Munich,

1937, v. 6, p. 363

[9] . Johannes Kepler, quoted in : J.H. Tiner,

Johannes Kepler–Giant of Faith and Science (
Milford, Michigan : Mott Media, 1977) , p. 197
Dan Graves, Scientists of Faith, Kregel [10]
Resources, 1996, p. 57
Henry M. Morris, Men of Science Men of God, [11]
Master Books, 1992, p.18
Henry M. Morris, Men of Science Men of God, [12]
Master Books, 1992, p.18
Henry M. Morris, Men of Science Men of God, [13]
Master Books, 1992, p.18
Dan Graves, Scientists of Faith, Kregel [14]
Resources, 1996, p. 70
]

Sir Isaac Newton, Mathematical Principles of . [15
Natural Philosophy, Translated by Andrew Motte,

Revised by Florian Cajore, Great Books of the Western World 34, Robert Maynard Hutchins, Editor in chief, William Benton, Chicago, 1952 : 273-74

[16] Henry M. Morris, Men of Science Men of God, Master Books, 1992, p.31

[17] Dan Graves, Scientists of Faith, Kregel Resources, 1996, p. 133

[18] Dan Graves, Scientists of Faith, Kregel Resources, 1996, p. 143

[19] Jean Guitton, Dieu et La Science : Vers Le Métaréalisme, Paris : Grasset, 1991, p. 5

[20] www.leaderu.com/offices/schaefer/docs/scientists.html

[21] Henry M. Morris, Men of Science Men of God, Master Books, 1992, p.66

[22] www.leaderu.com/offices/schaefer/docs/scientists.html

[23] Science, Philosophy and Religion, A Symposium, published by the Conference on Science, Philosophy and Religion in Their Relation to the Democratic Way of Life, Inc., New York, 1941

[24] Quoted in Moszkowski, Conversations with Einstein, p. 46

[25] Letter to a child who asked if scientists pray, January 24, 1936; Einstein Archive 42-601

[26] Dan Graves, Scientists of Faith, Kregel Resources, 1996, p. 159

[27] Henry M. Morris, Men of Science Men of God, Master Books, 1992, p.85

[28] Dennis R. Petersen, Unlocking the Mysteries of Creation, Creation Resource Foundation : El Dorado, California, 1990, p. 63

.

.

.

0-الجهاز الهرموني آية من آيات الله

(386/577)

يقول الله تعالى في كتابه العزيز : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) [فصلت : 53]

عالم من الروعة في التنسيق والدقة وآية جديدة من آيات الخالق في أجسامنا تحكم ما لا يحصى من الأحداث الإرادية واللاإرادية في حياتنا وتصرفاتنا .

أحيانا يخطر على بالنا أن نفكر ولو قليلاً وبشيء من التعقيد . . . كيف تعمل ملايين الخلايا في جسمنا ؟ كيف يتم التواصل فيما بينها . . . ؟

لتعلم أخي المسلم أنه يتم حالياً داخل جسمك وفي هذه اللحظة تماماً ملايين الوظائف والمعالجات الحيوية . ومن خلال هذه التفاعلات يتم تثبيت ما تحتاج إليه كل خلية من خلايا جسمك من مواد ضرورية ، وكذلك يتم تحديد وظيفة كل خلية بالإضافة إلى اتخاذ ما يلزم من تدابير لتوفير احتياجاتها بتنسيق كامل بين مختلف الأجهزة وبسرعة خيالية مع قدرة

على التصدي والاستجابة لأية تغيرات مفاجئة . وكل الخلايا التي يتشكل منها جسمك تعمل ضمن شبكة متكاملة فيما بينها وتلبّي احتياجاتك كافة دون أن تجعلك تشعر بشيء من ذلك . وهذا يحدث من خلال شبكة اتّصال فيما بينها على درجة عالية جداً من الكفاءة .

وإحدى أهم العناصر التي تشارك في هذه العمليات الحيوية هي البروتينات التي تعتبر أحد العناصر الأساسية في كل خلية حية .

تعريف الهرمونات

الهرمونات هي مواد كيماوية تعمل بكميات غاية في البساطة وتدور في الدم بصفة مستمرة ليل نهار ، تقرّر في جسدنا نسبة النمو والشكل والنعومة والرجولة والأنوثة والقوة والضعف والانفعالات وكل ما يمت إلى البقاء بصلة ولها أبعد الأثر في وظائف أعضاء الجسم جميعاً الخامل منها والعامل . وحتى تصرفات الشخص وأخلاقياته وعاداته وأحكامه على الأمور وعلى الأشخاص، كلها تقع تحت سيطرة هذه الهرمونات .

للهرمون تركيب كيميائي معقد والشكل التالي يبين تركيبها

ويعتبر كل هرمون بمثابة رسول كيميائي محدد الوظيفة يسري في مجرى الدم، من الغدة المفرِزة إلى الخلية أو النسيج الهدف ليؤدى دور محدد ، فالهرمونات في الأصل عبارة عن بروتينات أو سلاسل ببيتيدية، وهذه السلاسل تعتبر إحدى مراحل تكوين البروتين .

أ ـ تنتج هذه الهرمونات من مناطق محددة في جسم الكائن الحي تعرف بالغدد الصماء تنتقل إلى الدم مباشرة لتلعب دوراً كبيراً في تنظيم وظائف الجسم .

والغدد الصماء Endocrine glands هي غدد لا قنويه ذات إفراز داخلي تتكون من مجموعة متخصصة من الخلايا تقوم بإرسال افرازاتها مباشرة في الدم، وليس عبر قنوات مثل باقي الغدد في الجسم

ب ـ لا تحدث الهرمونات تأثيرها في نفس المنطقة التي تفرزه بل تؤثر في مناطق أخرى بالجسم .

ج ـ يعتبر وجود الهرمونات أساسياً في تنسيق وتنظيم وظائف الجسم لكن بكميات صغيرة .

د ـ الهرمونات إما أن تكون لها تأثير حافزي أي منشط أو تأثير مثبط .

هـ ـ ومن ناحية التركيب الكيميائي وجد أن بعضها يتكون من بروتينات مثل الأنسولين وبعضها الآخر يتكون من استروئيدات مثل الهرمونات الجنسية وهرمونات الغدد الكظرية

ومجموعة ثالثة تتكون من مشتقات الفينول مثل هرمون الأدرينالين الذي يفرز من نخاع الغدد الكظرية.

وتبرز أهمية الهرمونات في أنها تقوم مع الجهاز العصبي بتنظيم وظائف الجسم المختلفة وبينما يقوم الجهاز العصبي بعمله التنظيمي في فترة قصيرة جداً (قد لا يتعدى جزء من الثانية) تقوم غدد الإفراز الداخلي بعملها ببطء أي قد يستمر لدقائق أو ساعات أو أيام.

آلية عمل الهرمونات

هنالك ثلاثة طرق رئيسة للتنشيط الهرموني:

1- قد ينشط الهرمون أحد الجينات. ومن الأمثلة عليها الهرمونات الجنسية، التي لها القدرة على الانتقال إلى داخل نواة الخلية والارتباط مع الحموض النووية (DNA).

2- قد ينشط الهرمون أحد الأنزيمات. ومن الأمثلة عليها هرمون الأدرينالين الذي ينشط أنزيماً معيناً داخل الغشاء الخلوي، ويحدث هذا الأنزيم التغير المطلوب مع بقاء الهرمون خارج الغشاء الخلوي.

3- قد يغير الهرمون من مقدرة الجدار الخلوي ليسمح بعبور بعض المواد إلى الداخل أو

الخارج . ومن الأمثلة عليها هرمون الأنسولين وهرمون النمو، حيث يعتبران مثالان على مقدرة الهرمونات على تغير النفاذية . فالأنسولين يسمح بدخول الجلوكوز إلى داخل الخلية، أما هرمون النمو فيسمح بدخول الأحماض الأمينية إلى الخلية لكي يتم تصنيع البروتين .

الغدة النخامية من أبرز الغدد المفرزة للهرمونات في جسم الإنسان

لماذا يجب الحذر عند التعامل مع الهرمونات ؟

أولاً : هذا يعود إلى طبيعة الهرمونات نفسها ، فالهرمونات مواد حساسة جداً وتفرز بالجسم بنسب ضئيلة جداً لذا فأي خطأ سواء بالزيادة أو النقصان في نسبها سيؤدى إلى تأثير جوهري .

ثانياً : هناك علاقات مختلفة بين الهرمونات وبعضها

فنجد مثلاً أن زيادة بعض هرمونات الجسم يؤدى إلى نقص هرمونات أخرى مثل هرمون الأنسولين المسئول عن تقليل نسبة السكر ، هناك هرمون مضاد له وهو هرمون الجلوكاجون وهو المسئول عن زيادة نسبة السكر في الدم ولذلك فإن الجسم بطبيعتهيقوم بعملية موازنة بين احتياجاتهوبين نسب هذها لهرمونات في الدم فإذا تم تعاطى الهرمونات بطريقة صناعية غير مدروسة سيؤدى ذلك إلى تشويش هذها لنسب الطبيعية الربانية في الجسم .

مثال آخر وهو وجود بعض هرمونات الجسم التي تتكامل مع بعضها البعض فوحدة واحدة من هرمون الاستروجين تزيد بطانة الرحم بمقدار 1 جم ، وكذلك وحدة واحدة من البروجوستيرون ، أما لو تم أخذ وحدتان واحدة من الاستروجين والأخرى من البروجستيرون مع بعضهم البعض سيزيد ذلك من بطانة الرحم بمقدار 8 جرام مرة واحدة ، فماذا يحدث إذا تم زيادة إحدى الهرمونين في توقيت لا يتطلب كل هذه الزيادة كما نرى الفرق شاسع وخطير .مما سبقسنكتشف أن أي زيادة أو نقصان غير محسوبة في الهرمونات ستؤدى إلى اختلال الدورة السابقة التي تعمل مع معظم الهرمونات مما سيؤدى إلى مشاكل كثيرة لا حصر لها . . . . .

وسبحانه وتعالى يقول : (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) [الفرقان : 2]

ويقول الله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) [التين : 4]

كلمة أخيرة

يقول الكاتب هارون يحيى في كتابه" معجزة خلق الإنسان"

لقد خلق الله تعالى نظاماً وشبكة بريدية في غاية الروعة حيث تقوم جزيئات الهرمونات بوظيفة ساعي البريد ، فكما يقوم ساعي البريد بالتجول في جميع أنحاء المدينة ناقلاً الرسائل إلى الأماكن المطلوبة، كذلك تقوم الهرمونات بنقل الأوامر الصادرة من الدماغ إلى الخلايا ذات العلاقة . وهكذا تتم في الجسم جميع الفعاليات الضرورية لحياة الإنسان ولكن يجب ألا ننسى هنا أن الهرمونات لا تملك وعياً كما يملكه الإنسان، ولا تملك شعوراً ولا إدراكاً لكي تقوم بتعين الاتجاهات ومعرفة ما تحمله ولمن تحمله، فهي لم تتلق أي تدريب في هذا المجال ولم تملك هذه القابلية بعد سنوات من المران ومن التجارب .

فالهرمونات التي نطلق عليها اسم " سعادة البريد " عبارة عن جزيئات معقدة جداً لا يمكن شرحها إلا بمعادلات ورموز كيميائية معقدة .

(390/577)

وإن قيام جزيء الهرمون بمعرفة ما تحمله من رسائل وإلى أي خلية تحملها ، ومواصلة سيرها في الظلام الدامس للجسم (الذي يكبرها بمليارات المرات) دون أن تضل طريقها ، ثم قيامها بتنفيذ هذه الوظيفة على أحسن وجه ودون أي قصور ، هذا كله عمل خارق ومعجزة

مدهشة . ويكفي هذا المثال فقط لمعرفة مدى كمال وروعة الأنظمة التي أودعها الله تعالى في جسم الإنسان .

وبعد . . . فهذه دعوة إلى الناس جميعا إلى التفكر والتدبر في الخلق والمخلوقات كما قال تعالى :

(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ) .

وسبحان الله الخالق المبدع العظيم القائل : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (فصلت- 53) .

المصادر :

الصور مأخوذة من موقع الموسوعة الحرة : http : //ar.wikipedia.org

معجزة خلق الإنسان للكاتب التركي هارون يحيى

-ضاد - المجلة الالكترونية للعلوم .

متى وكيف ولماذا تعمل الهرمونات في الجسم

-موسوعة جسم الإنسان- الهرمونات - منتدى الساحات الالكترونية

د . محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائي جراحة العيون

عضو الجمعية الرمدية المصرية

جمهورية مصر العربية

دمياط – الزرقا – ش طارق بن زياد

ت : 851395 عيادة 854754 منزل

محمول 010295096

.

.

.

0–آيات الله في عالم النحل

د . رمضان مصري هلال

أستاذ الحشرات الاقتصادية المساعد كفر الشيخ . مصر

يقول الله تبارك وتعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة النحل آية 68 . 69) .

إنها دعوة من الحق تبارك وتعالى إلى أن نتفكر ونتأمل في عالم النحل الواسع الرحب . . الذي يعمل بتلقائية وإلهام من المولى ـ عز وجل ـ ، ذلك العالم المليء بالأسرار والآيات التي تنطق بالإيمان وتشهد بالوحدانية لله الواحد القهار .

وروى الإمام أحمد وابن أبي شيبة والطبراني أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (المؤمن كالنحلة وقعت فأكلت طيباً ، ثم سقطت ولم تكسر ولم تفسد) . وفي (شعب) البيهقي عن مجاهد قال : صاحبت عمر ـ رضي الله عنه ـ من مكة إلى المدينة، فما سمعته يحدث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا هذا الحديث : (إن مثل المؤمن كمثل النحلة، إن صاحبته نفعك، وإن شاورته نفعك، وإن جالسته نفعك، وكل شأنه منافع، وكذلك النحلة كل شأنها منافع) .

قال ابن الأثير : (وجه المشابهة بين المؤمن والنحلة حذق النحل وفطنته وقلة أذاه وخفارته، ومنفعته وقنوعه، وسعيه في النهار وتنزهه عن الأقذار، وطيب أكله فإنه لا يأكل

من كسب غيره، ونحوله وطاعته لأميره . وإن للنحل آفات تقطعه عن عمله، منها الظلمة والغيم والريح والدخان والماء والنار، وكذلك المؤمن له آفات تفتر به عن عمله منها ظلمة الغفلة وغيم الشك وريح الفتنة ودخان الحرام وماء السعة ونار الهوى) .

(392/577)

والنحلة التي تنجذب إلى الأزهار بألوانها الزاهية ورائحتها الذكية، وتبتعد عن السام والضار وتنقل من زهرة إلى أخرى وتقول : أنا بين الزهر أسعى . . . وإلى الزهر طريقي في جو صحي حيث الشمس الساطعة والهواء العليل، وتجمع منها رحيقها وتفرز عليه من لعابها لتصنع عسلاً، فإنما هي تصنع سراً من أسرار الحياة، وفي هذا المقال نحاول ـ بعون الله وتوفيقه ـ أن نوضح بعض الأسرار الخفية في حياة النحل .

أفراد طائفة نحل العسل :

تتكون طائفة نحل العسل من عدة آلاف من الشغالات، وبضع مئات من الذكور على رأسها توجد ملكة واحدة بالإضافة إلى ذلك نجد الأطوار المختلفة من البيض واليرقات والعذارى والتي نطلق عليها (الحضنة) ويتوفر لدى الطائفة الغذاء اللازم من العسل وحبوب اللقاح ولكل فرد من هذه الأفراد مميزاته وخصائصه التي تميزه، وتتجلى عظمة

الحق وبديع خلقه في ملائمة صفات كل فرد لما تقوم به من أعمال وما ينوط إليها من واجبات .

ملكة نحل العسل :

وهي أم الطائفة وتتميز عن الشغالة باختلاف لونها وكبر حجمها وثقل وزنها وقصر أجنحتها عن بطنها الطويلة، وخرطومها قصير، ولا توجد سلة لجمع حبوب اللقاح، على أرجلها الخلفية، آلة وضع البيض مقوسة ذات تسنين ضعيف لا تستعملها في اللسع إلا ضد ملكة أخرى فقط، ولها مبيضان

صورة للملكة الأم تظهر عليها علامة ذهبية

كبيران يشغلان معظم حيز البطن، والملكة تقضي حياتها داخل الخلية ولا تخرج منها إلى في حالتي التلقيح أو التطريد وهي وديعة وهادئة تسير ببطء على الأقراص الشمعية بالخلية ومن حولها مجموعة من الشغالات (الوصيفات) تسهر على رعايتها وإطعامها بالغذاء الملكي، وتربي الملكة في البيت الملكي (المقصورة الملكية) وهي كبيرة الحجم تشبه حبة الفول السوداني .

شغالة نحل العسل :

والشغالة عبارة عن أنثى عقيمة تنشأ من بيضة مخصبة، وهي غير قابلة للتلقيح ورأسها مثلثة الشكل تقريباً ، وأجزاء فمها مهيأة لجمع الرحيق أما الأرجل الأمامية محورة لتنظيف قرون الاستشعار وأجزاء الفم وأرجلها الخلفية معدة لجمع حبوب اللقاح، مزودة بالغدد تحت البلعومية لإفراز الغذاء الملكي لتغذية اليرقات والملكة وبها أيضاً غدد إفراز الشمع وغدة الرائحة، ومعدة نحل العسل كبيرة الحجم لتخزين الرحيق، وآلة اللسع مستقيمة ذات تسنين حاد وهذه التراكيب هيأت الشغالة للقيام بمعظم الأعمال التي تتطلبها الطائفة .

الذكر :

ذكور النحل أضخم من الملكات والشغالات، وجسمها أقصر طولاً من الملكات، نهاية البطن غير مدببة، ليس له آلة لسع، أجزاء فمه ماصة قصيرة حيث يتغذى من داخل العيون السداسية، وأرجله الخلفية غير محورة لجمع حبوب اللقاح، ولا يمتلك غدداً لإفراز الشمع أو لإفراز الغذاء الملكي، والحوصلة والأمعاء مختزلتان، ولكن الجهاز التناسلي كبير ويشغل جزء كبيراً من البطن ووظيفته الوحيدة هي تلقيح الملكات . وآلة السفاد في الذكور لا تنطلق إلا إذا امتلأت الأكياس الهوائية في بطنه بالهواء ، ولا تعبأ الذكور بالملكات طيلة وجودها في الخلية وتموت الذكور بعد تلقيحها الملكات وذلك لانفصال آلة السفاد منها واستقرارها في مؤخرة الملكة وتطير الذكور لمسافات بعيدة لتلقيح الملكات .

التلقيح الطبيعي للملكة . . والانتخاب الطبيعي :

(394/577)

يتم تلقيح الملكة خارج الخلية في الهواء الطلق ولا يمكن أن يتم داخل الخلية أو في حيز مغلق مطلقاً ، بعد خروج الملكة العذراء من البيت الملكي بـ (3 ـ 5) أيام تطير خارج الخلية (طيران ما قبل الزفاف) لتتعرف على موقع الخلية والعلامات الأرضية بالمنطقة يعقبه طيران الزفاف والذي يحدث عادة في الجو الصحو في فترة الظهيرة، وتخرج الملكة العذراء من الخلية وتحدث صوتاً خاصاً لتلهب حماس الذكور وتخرج رائحة خاصة من غددها الفكية تعمل على حث وتنبيه الذكور، وتطير الملكة العذراء يتبعها جيش جرار من الذكور ليس فقط من طائفتها ولكن أيضاً من الطوائف المجاورة المتعطشة للحاق بالملكة العذراء المتجمعة في منطقة تجمع الذكور وأكثر الذكور سرعة وأقواها جسداً وبنية هو الذي يظفر بتلقيح الملكة بينما تتساقط الذكور الضعيفة واحد تلو الآخر وتعقب كل هذه الذكور للملكة أمر ضروري لإبقاء واستمرار النوع والحفاظ عليه من التدهور فهو نوع من الانتخاب الطبيعي للحفاظ على مملكة النحل قوية مع استمرار الزمن، وعندما يتمكن أحد الذكور الأقوياء من

اللحاق بالملكة ويمسكها أثناء الطيران بواسطة أرجلة الستة، وبواسطة خلايا حسية في المنطقة التناسلية يستطيع أن يميز غرفة اللسع ويدخل عضو السفاد فيها ، وبعد حوالي 48 ساعة من انتهاء عملية التلقيح تكون القنوات المبيضية خالية تماماً من أي حيوانات منوية وتخزن في القابلة المنوية حوالي من 5 ـ 6 مليون حيوان منوي، ويساعد وجود شبكة من القصبات الهوائية وأيضاً الإفراز المغذي من الغدد الموجودة على القابلة المنوية على بقاء واستمرار الحياة والحيوية للحيوانات المنوية لفترة زمنية طويلة . تبدأ الملكة في وضع البيض بعد حوالي يومين من التلقيح الناجح ولكي تضع بيضاً مخصباً فإن البيضة أثناء خروجها يخرج لها مجموعة من الحيوانات المنوية لتخصيبها .

وظائف أفراد الطائفة :

تختلف وظائف الأفراد باختلاف نوعه (ملكة ـ شغالة ـ ذكر) فلكل فرد له وظيفته الخاصة به .

1 ـ وظائف الملكة :

وضع البيض : تضع الملكة نوعين من البيض :

بيضاً مخصباً : تضعه في البيت الملكي ينتج عنه ملكات، أو تضعه في العيون السداسية الصغيرة الحجم (25 عين سداسية ـ بوصة مربعة) ينتج عنه الشغالات .

بيضاً غير مخصب : تضعه في العيون السداسية الأكبر حجماً (16 خلية سداسية ـ بورصة مربعة) ينتج عنه ذكور ، والملكة لا تخطئ مطلقاً في نوع البيضة التي تضعها في أي منهما .

والبيضة دقيقة بيضاء اللون، منجلية الشكل، طولها حوالي 1.5 مم، وعرضها 0.3 مم، ووزنها حوالي 0.132 ملليجرام، وعند محاولة الملكة وضع البيض فإنها تتحرك على القرص الشمعي وتفحص بعينيها في خلية سداسية للتأكد من خلوها ، ثم تسحب رأسها وتدير بطنها وتدخلها في العين السداسية وفي ثوان تضع البيضة وتلصقها في قاع الخلية عمودياً وتضع الملكة خلال حياتها حوالي 2 مليون بيضة تضع معظمها خلال السنة الأولى والثانية من حياتها ولذلك ينصح بتغير الملكة بأخرى بعد السنة الثانية وفي فترات الفيض والنشاط يمكن للملكة أن تضع من 1500 ـ 2000 بيضة يومياً .

وهناك عوامل تؤثر في كمية البيض التي تضعها الملكة منها سلالة الملكة (تعد سلالة النحل الإيطالي والكرينولي والقوقازى من السلالات القياسية) وعمرها وقوة جسمها وأسلوب تربيتها وسلامة أعضاءها وإصابتها بالأمراض أو الطفيليات، أو حدوث التطريد

الطبيعية، كما أن قوة الطائفة توفر مصادر الرحيق وحبوب اللقاح بالمنطقة المحيطة وكذلك توفر العيون السداسية الفارغة كل ذلك له دور في كمية البيض الذي تضعه الملكة .

(396/577)

ومن نتائج الأبحاث التي أجراها الكاتب على الملكات وجد أنه في فترات نشاط الملكة في وضع البيض ينمو المبيض ويزداد في الحجم حيث يشغل معظم حيز البطن ويزداد وزن الملكة، وقد وجد أن هنا ارتباطاً موجباً بين كمية الحضنة المرباة بالطائفة وكمية العسل المنتج منها .

وللملكة وظيفة أخرى في غاية الأهمية : حيث تعمل على ترابط الشغالات وتنظيم العمل داخل الطائفة وإصدارها للتعليمات والأوامر التي تنظم العمل داخل الطائفة عن طريق مجموعة من الرسائل التي تتولى إصدارها الغدد الفرمونية للملكة .

ومن أهم الغدد الفرمونية بالملكة الغدد الفكية، وغدد الترجات، وغدد الرسغ وغدة حجرة آلة اللسع أو غدة كوشيفينكوف Koschevinikov .

فرمونات الغدد الفكية :

الغدد الفكية في كل من الملكة أو الشغالة تكون نامية جيداً ولكنها تكون في الملكة أكبر في

الحجم، إفرازات هذه الغدد تقوم بأكثر من وظيفة ومنها إفرازات خاصة بالسلوك الاجتماعي .

المادة الملكية Queen substance :

تقوم بتثبيط نمو مبايض الشغالات أو بناء بيوت الملكات وتعمل كمادة جاذبة للشغالات في الطوائف عديمة الملكات وتؤثر على السروح وتربية الحضنة، وهي أيضاً فرمون جنسي يجذب الذكور للتلقيح على ارتفاع عالي، ويعتمد هذا على قوة الطائفة وبعض العوامل الأخرى وقد أمكن تصنيعها للاستفادة منها في مجال تربية النحل .

رائحة الملكة (Queen scent, -9-HAD) :

وهي تزيد من تأثير مادة الملكة وتأثيرها أقل بكثير من مادة الملكة وتؤثر في قابلية تجميع الطرود وتساعد الشغالات في العثور على الملكة أثناء التطريد .

توجد على الترجات البطنية 4.2 للملكة مجموعة الخلايا الغدية وهذه تفرز رائحة عطرية أثناء التطريد ، كما توجد غدد على الناحية الظهرية لبطن الملكة وتنشط من استعداد الملكة للتلقيح وتتلقى الذكور المادة عند لمس الملكة بالأرجل الأمامية أو قرون الاستشعار .

الملكات العذارى تنتج أكبر كمية من المركب (ODA-9) في الربيع وقت الطيران للتلقيح والتطريد ، وتخليق الجزء الأكبر منه يكون في أثناء الفترة التي يحدث فيها طيران الزفاف وعلى ذلك يكون أعلى إنتاج لهذا الفرمون خلال الفترة التي تستخدمه الملكة العذراء كجاذب جنسي عند طيران التلقيح .

فرمونات الغدة الترجية :

تقع غدد الترجات على الترجات من 4 ـ 6 البطنية وتكون نامية جيداً في الملكات الصغيرة، ويظهر فعلها في تثبيط نمو مبايض الشغالات وتثبيط بناء بيوت الملكات، كما أن الشغالات الصغيرة (التوابع) تكون منجذبة بشدة إلى إفراز غدة الترجات للملكة التي تحصل عليه بالملامسة فقط . كذلك لها تأثير في جذب الذكور والتقدم للتزاوج .

غدة كوشيفنكوف : Koschevniko

تتكون هذه الغدة من مجموعة صغيرة من الخلايا متجمعة في حجرة آلة اللسع وتم وصفها لأول مرة بواسطة عالم روسي وسميت باسمه، في الملكة الملقحة تفرز هذه الغدة فرمونات تجذب الشغالات بشدة ولا يعرف التركيب الكيماوي لهذه الغدة .

غدة الرسغ (غدة Arnhart)

تفرز غدة الرسغ بالملكة إفراز زيتي يوضع بواسطة الوسادة الموجودة بالرسغ على سطح

القرص الشمعي ويكون ذلك مقترناً بإفراز الغدد الفكية ويعملان على تثبيط بناء بيوت الملكات في الطوائف المزدحمة بالنحل، ويحدث التطريد نتيجة ازدحام الطوائف بالنحل إلى الدرجة التي لا تمكن الملكة من الحركة بطول قواعد الأقراص ووضع إفراز الغدد الفكية، إفراز غدة الرسغ للملكات الصغيرة (6 شهور) تكون أكثر من إفراز الملكات المسنة (سنتين) ومعدل إفراز الشغالات من هذه الغدة يكون أقل من إفراز الملكات بحوالي (10 . 15 مرة) ولم يعرف تركيب هذا الفرمون بعد .

الفرمون الطارد للشغالة :

حديثاً اكتشف إفراز فرموني هام ينتج بواسطة الملكات في الجزء الخلفي من القناة الهضمية (المستقيم) ولا يوجد هذا الفرمون في الشغالات والمصدر الغدي لهذا الفرمون لم يحدد بعد .

(398/577)

عندما يبلغ عمر الملكات العذارى حوالي 24 ساعة فإنها تفرز هذا الفرمون كمادة إخراجية من المستقيم يستمر إنتاجه لمدة أسبوعين وعندما تتعرض الشغالة لهذه المادة البرازية تبتعد وتتراجع عن مصدرها وبعد فترة بسيطة ينتهي مظهرها العدائي تجاه الملكة

العذراء .

المادة الفرمونية الطاردة لها رائحة تشبه رائحة العنب وتكون وظيفتها كمادة مهدئة للشغالة . هذا الفرمون لا وجود له في براز كل من الشغالات أو الذكور .

وعلى ذلك فإن فرمونات الملكة أو ما يطلق عليها بالمادة الملكية، تلعب دوراً هاماً في حياة طائفة نحل العسل، وغياب هذه الفرمونات أو انخفاض مستوى إنتاجها يؤدي إلى اختلال الوظائف الحيوية للطائفة كتربية وإنتاج ملكات جديدة، وظهور الشغالات الواضعة وارتباك في الوظائف المختلفة للشغالات بالطائفة .

وأورد الدميري تحت باب (اليعسوب) في كتابه (الحيوان) وهو ملك النحل وأميرها الذي لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به، فهي مؤتمرة بأمره متبعة برأيه يديرها كما يدير الملك أمر رعيته حتى إنها إذا أوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم أخرى ولا تتقدم عليها في العبور كما يفعل الأمير إذا انتهى بعساكره إلى معبر ضيق، وأعجب من ذلك أن أميرين منهما لا يجتمعان في بيت ولا يتأمران ولا يأتمران على جمع واحد بل إذا اجتمع منها جنديان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه واتفقوا على الأمير الواحد من غير معاداة منهم ولا أذى من بعضهم لبعض بل يصيرون يداً واحدة .

2 . وظائف الشغالات :

تقوم الشغالات بجميع الأعمال داخل الخلية وخارجها وذلك تبعاً لعمرها وحالتها

الفسيولوجية .

أعمال داخل الخلية :

(399/577)

بعد خروج الحشرة الكاملة لا تستطيع تغذية نفسها وتطلب الغذاء من الشغالات الأكبر منها حيث تكون مبللة ومجعدة الأجنحة ولكنها سرعان ما تبدأ في العمل حيث تقوم بتنظيف وثقل العين السداسية التي خرجت منها ثم تستريح بالوقوف على الحضنة لتدفئتها .

الشغالة مربية مثالية : وبعد اليوم الثالث تأخذ الشغالة غذائها بنفسها وفي نفس الوقت تقوم بتغذية اليرقات الكبيرة بخبز النحل هذا ، ونحل العسل يعتبر فريد بين النحل الاجتماعي في مقدار العناية التي توليها الشغالات الحاضنة لليرقات النامية . حيث أحصى Lindauer ومساعدوه سنة 1952م عدد زيارات الشغالات الحاضنة ليرقة نموذجية بـ 2069 زيارة والتي استغرقت 181 دقيقة و38 ثانية وأن اليرقة قد تمت تغذيتها خلال 143 زيارة خلال فترة مجموعها 109 دقيقة من الـ 181 دقيقة . لذلك فإنه توجد فرصة كافية للشغالات الحاضنة لتقييم حالة نمو اليرقات على فترات متكررة

ولضبط معدل التغذية .

الشغالة مهندسة بارعة : تفرز الشغالات الشمع من غدد خاصة بالبطن وتقوم ببناء الخلايا السداسية وهي تختار الشكل السداسي من بين مختلف الأشكال حيث إنه لا يترك مسافات بين خلاياه والنحلة الشغالة قبل أن تبنى الخلية السداسية وهي تختار الشكل السداسي من بين مختلف الأشكال حيث إنه لا يترك مسافات بين خلاياه والنحلة الشغالة قبل أن تبنى الخلية السداسية فإنها تعلم الغرض منه حتى تصممه بما يتفق مع هذا العرض، فإذا كانت تبنى خلايا لتربية الشغالات جعلت قطره 5.3

صورة النحل وهو يقوم ببناء الخلايا السداسية

7مم وإذا كانت تبنى خلايا لتربية الذكور جعلت قطره 6.91مم، معنى ذلك أن الديسمتر المربع يحوي من الجهة الواحدة حوالي 400 عين سداسية لإنتاج الشغالات أو 275 عين سداسية لإنتاج الذكور .

وللخلايا السداسية قدرة كبيرة في تخزين كمية كبيرة من العسل فمثلاً 20 جرام من الشمع على هيئة خلايا سداسية تستطيع حمل 1 كجم من العسل .

الشغالة عاملة نظافة : وبعد اليوم الثامن عشر تقوم الشغالة بآخر عمل لها داخل الخلية وهو تنظيفها وإلقاء النحل الميت خارجها .

الشغالة جندية شجاعة : حيث تتولى حراسة مدخل الخلية ضد النحل السارق والحشرات المفترسة خاصة الذنبور الأصفر، ومن الطريف أن النحل الحارس لا يتعرض للشغالات الغريبة المحملة بالغذاء مادامت تدخل بهدوء .

الشغالة تتفوق على أحدث أجهزة التكييف : وفي الطقس الدافئ يزاول النحل أسلوباً عجيباً من التهوية بأجنحته بواسطته يدفع الهواء إلى الداخل على أحد جانبي مدخل الخلية ويسحبه إلى الخارج عند الجانب الآخر بدون دوران الهواء خلال جميع الفجوات بين الأقراص .

هذا وقد تؤدي الشغالات ما يسمى برقصات التنظيف Cleaning dances وذلك لإزالة الأتربة والمواد الغريبة العالقة بأجسامها . هذه الرقصات عبارة عن ضربات سريعة بالأرجل وتتمايل بجسمها على جوانبها بطريقة منتظمة . وفي نفس الوقت فإن النحلة ترفع وتخفض جسمها وتنظف حول قواعد الأجنحة باستخدام زوج الأرجل الوسطى . وتؤدي النحلة هذه الرقصات خلال أي وقت من أوقات السنة . وعادة فإن النحلة القريبة من النحلة الراقصة تقوم بلحس النحلة الراقصة بقرون استشعارها

وتبدأ في تنظيف النحلة الراقصة، وتسمى بالنحلة المنظفة Cleaner والتي تقوم بفرد فكوكها العليا وتلمس صدر النحلة الراقصة تحت قواعد الأجنحة التي لا تلبث أن تفرد أجنحتها ببطء في ناحية واحدة وتقوم بثنى بطنها وتنحي بجسدها على الجانب متجاوبة مع النحلة المنظفة، وعندئذ تقوم النحلة المنظفة في العمل بنشاط بفكوكها العليا حيث تقوم بالتنظيف حول قواعد الأجنحة .

وعادة يوجد على القرص الواحد حوالي 10 نحلات منظفة حيث تقوم بتنظيف النحل على التوالي حتى وإن تكن هناك رقصات تنظيفية، وقد وجد أن كل نحلة منظفة تقوم بتنظيف 26 نحلة في مدة 25 دقيقة، وهذا النحل يكون في الأسبوع الثالث من عمره .

أعمال خارج الخلية :

1 .جمع الرحيق

متوسط ما تحمله الشغالة من رحيق هو 40 ملليجرام، وأقصى ما تستطيع الشغالة حمله هو 70 ملليجرام (85% من وزنها) ولكن الشغالة تقوم فقط بتخزين حوالي 30 ملليجرام في الخلية وتحتفظ بالباقي لتزويدها بالطاقة، ومن الملاحظ أن الشغالة وهي في

رحلتها لجمع الرحيق تطير بسرعة (18.7 ميلاً / ساعة) ولا تطير في خط مستقيم بينما في رحلة العودة إلى الخلية تطير بسرعة 16.13 ميلاً / ساعة وتطير في خط مستقيم .

ولكن كيف يتحول الشراب الذي جمعته الشغالة وحملته في بطنها إلى عسل في الخلية ؟

يتم تحويل الرحيق إلى عسل بواسطة عملتين :

صورة لنحلة شغالة تقوم بجمع الرحيق

الأولى : طبيعية وذلك بخفض المحتويات المائية للرحيق حتى يصل إلى درجة النضج ونسبة الرطوبة فيه لا تزيد عن 18.14% .

الثانية : العملية الكيماوية حيث تتم بفعل إنزيم الانفرتيز وتفرزه الغدد اللعابية ويقوم بتحويل السكر الثنائي (سكروز) إلى سكر أحادي (جلكوز - فركتوز) ، وبعد نضج العسل والذي يستغرق حوالي (2 - 5 يوم من جمعه) تقوم الشغالات بختمه بغطاء شمعي دقيق للحفاظ عليه .

وجمع العسل ليس بالأمر السهل أو الهين، بل قد يكون مستحيلاً في عالم البشر، ولكنه في عالم النحل شيء يسير، ذلك العالم الذي لا يعرف الخمول أو الكسل، فعلى سبيل المثال لكي نحصل على 1 جرام عسل فعلى الشغالة أن تجمع 3 جرام رحيق وتحصل على هذه

الكمية من زيارة حوالي (1400.500) زهرة تفاح أو (20000.3300) زهرة كمثرى أو (2000.1250) زهرة رابس أو (1000.500) زهرة كاستانيا أو (30000.500) زهرة برسيم أحمر أو (80000.7000) زهرة برسيم أبيض وذلك للحصول على 100 حمولة وإذا كانت المسافة بين الخلية ومكان الزهور 1.5 كم، معنى ذلك أن النحلة تطير مسافة 300 كم للحصول على 1 جرام عسل .

(402/577)

ومن الإحصاءات التي أجريت وجد أن الرطل الواحد من العسل يحتاج إلى 37 ألف رحلة طيران تستغرق الرحلة ما بين 35.60 دقيقة تبعاً للمسافة وظروف الجو .

2.جمع حبوب اللقاح :

وتختلف طريقة جمع حبوب اللقاح باختلاف نوع الزهرة مفتوحة (مثل أزهار الحلويات والموالح) أو مغلقة (مثل أزهار البرسيم أو الترمس) والشغالات صغيرة السن تجمع كمية كبيرة من حبوب اللقاح وذلك لكثرة عدد الشعيرات على جسمها ، ويلتصق بشعيرات جسم النحلة عدد كبير جداً من حبوب اللقاح يتراوح من (250000.6000000) حبة لقاح .

3.جمع مادة البروبوليس (العلك) :

تحصل الشغالات على العلك إما من حبوب اللقاح وفي هذه الحالة تستخدمه في صقل العيون السداسية قبل وضع الملكة البيض فيها ، أو تجمعه من براعم وقلف بعض الأشجار والنباتات، وأهم المصادر الشائعة للبروبوليس هي من أشجار (جار الماء alder) (وكستناء الحصان horse chestnet) (والحور poplar) (والبتولا birch) (والدردار elm) (والعليق blackberry) (والصنوبريات conifers) .

صورة لنحلة شغالة تقوم بجمع الرحيق

4.جمع الماء :

الوظائف الأساسية للماء في حياة النحل : تخفيف العسل في الماء لكي يصبح صالحاً لتقديمه للحضنة، تعذر على النحل تغذية الحضنة من العسل حيث إن العسل المناسب لها يحتوي على 40% السكريات، ولابد من الماء لتخفيفه، وكذلك العسل الذي يتناوله النحل البالغ يخفف بالماء ، كما أن النحل يعطش وخصوصاً في الصيف فيحتاج إلى الماء كذلك يستخدم النحل بالماء ، كما أن النحل يعطش وخصوصاً في الصيف فيحتاج إلى الماء كذلك يستخدم النحل الماء لتخفيض درجة حرارة الطائفة فيقوم برش الماء وبعثرته في أرضية الخلية ثم يبخره بتسليط تيار من الهواء تولده بضع مئات من الشغالات بحركة سريعة من

أجنحتها .

حيث إن تبخير الماء هو أفضل طريقة لترطيب حرارة الجو داخل الخلية .

التواصل داخل مملكة النحل :

(403/577)

يختلف أسلوب التفاهم في عالم النحل ذلك العالم الذي يعمل بالهام من المولى سبحانه وتعالى فالحياة داخل طائفة نحل العسل تعتمد على الإخلاص والولاء والعمل الجاد من أجل الطائفة جميعها حيث يختفي التفكير الفردي والجشع وحب الذات .

ولعل الكثير من النحالين يلاحظون عند فحصهم الأقراص الشمعية أن هناك نحلة أو أكثر تكون منهمكة في الرقص وهي تفيض بالانفعال فإن لديها رسالة تريد أن تنقلها إلى رفاقها والشغالات من حولها ترقبها باهتمام لتتلقى إشارتها والتي تعطي معلومات كافية عن اتجاه الغذاء وبعده عن الخلية .

وكارل فون فريش نمساوي الأصل من علماء علم الحيوان كان يعمل في جامعة ميونيخ، قضى أكثر من أربعين عاماً لفك رموز لغة النحل . . . . . حينما أعلن أنه قد توصل إلى مدلول الرقص واستطرد في شرح معناه، لم يشأ أحد أن يصدقه وحتى الذين وهبوا وقتهم

لدراسة النحل كانوا يعتقدون أن فون فريش قد تخطى الحدود المعقولة وحتى هو نفسه كان يقول إن ما أثبته وشاهدته أقرب ما يكون إلى القصص الخرافية منها إلى الحقائق العلمية .

الرقص في مملكة النحل يحدد ليس فقط الاتجاه والمسافة التي يبعدها مصدر الغذاء عن الخلية بل يحدد أيضاً مدى خصوبة وغزارة مصدر الرحيق وأيضاً يحدد المجهود المبذول والوقت اللازم للوصول إلى مكان الغذاء حيث إن اتجاه الرياح له تأثير قوي على هذا المجهود .

كذلك توجد عدة أشكال للرقص لها وظيفة في لغة الاتصال لم تتم دراستها جيداً . . ومنها :

الجري التصادمي Jostling run

ويقوم الجري التصادمي بإثارة الشغالات الأخرى ولفت انتباهها إلى السروح. وهو يحدث بعد الطيران الأول الناجح للشغالة للبحث عن مصدر للغذاء في حين أن الرقص الاهتزازي يحدث غالباً وفقط بعد عدة طيرانات .

الرقص التشنجي Spasmodic dance

يقوم النحل العائد بالجريان الجزئي في خط مستقيم موجه بشكل سليم ويعتقد أنه يعمل كإشارات فعالة لإنجاز عمل ما بصورة أكثر من أداء الرقص الاهتزازي .

الجري الطنان Buzzing run

يعطي النحل المعلومات لبدء التطريد Swarming حيث إنه قبل أن يحدث التطريد يكون النحل داخل الخلية أو خارجها أمام المدخل في حالة من عدم النشاط .

الرقص التنظيفي Grooming (cealning) dance

هذا السلوك يحث الشغالات المجاورة لها بالاقتراب منها والعمل بفكوكها لتنظيف خصرها وقواعد أجنحتها . وهذه الأجزاء هي التي لا تستطيع النحلة تنظيفها بنفسها . وله علاقة بمكافحة طفيل الفاروا .

الرقص الارتجاجي Jerking dance

أحياناً تقوم النحلة بلمس أحد رفقاء عشها بواسطة قرون الاستشعار أو أن تمسك بجسمها بواسطة أرجلها الأمامية أو أن تتسلق فوق جسمها . هذه الرقصة تحدث عندما تكون الطائفة في أفضل حالتها ، هذا وما زالت هذه الرقصة غير معروفة .

الرقص الارتجافي Trembling dance

بعض الدلائل تشير إلى أنه دليل مرضي تسببه السموم التي قد تلتقطها الشغالات خلال سروحها .

الرقص التحذيري Alarm dance

ويكون ذلك نتيجة التسمم بالمبيدات حيث إن نسبة عالية من الموت تحدث بعد أداء هذه الرقصة بـ 1.2 ساعة وبعد 2.3 ساعات بعد ذلك تعود الطائفة إلى حالتها الطبيعية وتبدأ في نشاط الطيران مرة أخرى.

رقص الدفع Pull dance

وقد تسمى برقصة الرسالة Massage dance، وتحدث عندما تبدأ نحلة في ثنى رأسها على القرص بطريقة خاصة فيتم إثارة بعض النحل المجاور لها حيث يقوم بفحصها مستخدماً قرون استشعاره وأرجله الأمامية ويتسلق فوقها وتحتها ويلمس جوانبها بقرون استشعاره وفكوكه وأرجله الأمامية وينظف قرون استشعاره بشكل دوري.

(405/577)

وبعد هذا العرض الموجز لجوانب من حياة أفراد نحل العسل وإلقاء فكرة مبسطة عن أهم الأعمال التي تقوم بها سواء في داخل الخلية أو خارجها، نجد أنها في سلسلة من العمل المتواصل لتؤدي وظيفتها في الحياة من أجل طائفة النحل، موقنين ومقرين بعظمة الخالق - سبحانه وتعالى - أن سهل لها من كل السبل، ونحمده - جل في علاه - أن سخر لنا ما في السموات وما في الأرض ولله الحمد من قبل ومن بعد . . . . .

المصادر :

.مصطفى أحمد شحاته : وسائل التفاهم في المملكة الحيوانية. مجلة العلم (29) 1978م.

.كيرشنر & تاونى : الأساس الحسي للغة الرقص عند نحل العسل. مجلة العلوم (مترجمة) المجلد 11، عدد 2 1995م الكويت.

.علي المصري : مملكة النحل. دار الكتاب العربي. دمشق.

.محمد علي البنبى : نحل العسل ومنتجاته 1969م.

.محمد بهجت شاور : مذكرات في نحل العسل 2000م.

.أسامة محمد الأنصاري : النحل في إنتاج العسل وتلقيح المحاصيل. مركز الدلتا للطباعة. الإسكندرية 1998م.

.رمضان مصري هلال : رسالة ماجستير (جامعة طنطا) ، أبحاث علمية، مقالات منشورة في المجلة العربية والفيصل (السعودية) ، بيت النحل (الكويت) ، النحال العربي (لبنان) .

.محمد عباس عبد اللطيف وآخرون : عالم النحل ومنتجاته. 1984م.

.تامة نادية الدخاخنى : الحديث والمتقدم في فرمونات نحل العسل (مقالة مرجعية) . جامعة طنطا 1998م.

.نتائج أبحاث علمية منشورة .

- Karl Von Frisch : Tanzsprache und orientierung der Bienen. (Berlin Heideiberg. New York 1965)

مصدر الصور : موقع الموسوعة الحرة

مصدر المادة العلمية : منقولة من موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

nooran.org

.

.

.

0-دودة العلق الماصة للدماء

قال تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (يونس : 101)

إن الكون الذي حولنا من سماوات وارض وبحار وانهار وجبال ومخلوقات تعبر عن عظمة وقدرة الخالق عز وجل ويدل على إعجاز الله العظيم . وفى هذه المقالة سوف نتحدث عن آيات الله في حيوان صغير وضعيف من وجه نظر البشر . إن هذا الحيوان يتبع شعبة الديدان الحلقية Phylum : Annelida وهذه الحيوانات يتميز جسمها بأنه مقسم إلى عدد كبير من الحلقات بناء على النوع. كما أن هذا الحيوان يتبع طائفة العلقيات Class : Hirudinea وهذه الطائفة تضم حوالي 500 نوع من الديدان ولكن استوقفني من هذا الأنواع المتنوعة في الشكل وطبيعة التغذية إلى هذا الحيوان الصغير الذي يتراوح طوله من 20 : 7 سم والذي يتواجد في المياه العذبة في البرك والمستنقعات وينتشر في معظم دول العالم لكن أكثر تواجدا في الدول الأوروبية . إن هذا الحيوان يقوم بامتصاص دم الضفادع والأسماك وأيضا الإنسان بمجرد نزوله هذه الأماكن لكي يا خد وجبته من الدم.

هل عرفتوا أحبائي ما هذا الحيوان الذي سوف أتحدث عنه اليوم ؟ ؟ ؟ ؟ هل سمعنا عن مصاص الدماء ؟ ؟ ؟ لا تفهموني خطأ فانا لا اقصد الفيلم الأجنبي مصاص الدماء لأحد ثكم عنه حاشه لله . . . .أنني اقصد : –

(دودة العلق الطبي) أو (الديدان المصاصة للدماء) Medicinal Leech

---

هيا نقترب من ديدان العلق الطبي أكثر ونسال أنفسنا العديد من الأسئلة ونحاول أن نصل معاً إلى أجابتها مثل : أين يعيش العلق الطبي ؟ ما هو تركيب جسمه ؟ كيف يتحرك ؟ كيف يتفادى أعداؤه من الحيوانات الفقارية ؟ وكيف تتكاثر ؟ وكيف تستطيع ديدان العلق امتصاص دم الإنسان ؟ هل يستطيع هذا الحيوان أن يصوم ؟ كيف يقوم بهضم بروتينات الدم المعقدة ؟ هل لها جهاز هضمي ؟ واترك لكم أحبائي في نهاية المقال مفاجآت طبية تم اكتشاف بعضها منذ حوالي 2000 عام ومازال علماء الطب يكتشفون المزيد والمزيد من الفوائد الطبية للعلق الطبي وعندما نعرف سويا هذه المفاجآت سوف نعرف لماذا اقترن اسم هذا الحيوان بالطب وسمي العلق الطبي ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

هيا هيا نقترب من هذه البحيرة ذات المياه العذبة الهادئة الضحلة أو تلك البركة ونرمى بأحد الشباك الصغيرة الضيقة لنحاول صيد احد ديدان العلق الطبي التي تعيش في هذه الأماكن أثناء الربيع والصيف .

صورة لدودة العلق معلقة على صخرة

ما هو تركيب جسم العلق الطبي ؟

يتركب جسم الدودة من 34 حلقة متداخلة مع بعضها وتحمل مقدمة الجسم تركيب صغير يشبه الرأس يسمى الرؤيس والذي يحمل ممص أمامي بطني وبداخلة فتحة الفم المزودة بثلاث فكوك قرنية مسننة والتي تتقابل مع بعضها مكونة مثلث صغير وتعمل هذه الفكوك على خدش جسم الإنسان أو أي حيوان فقاري متواجد في الماء وتحدث له جرح ذو ثلاث شعب بعد أن تثبت الممص الأمامي على جسم عائلها ثم تمتص دمه .

(408/577)

كما يوجد في مقدمة جسم العلق عين مركبة تتكون من العديد من العيون البسيطة ليبصر بها الحيوان ولكن قوة الإبصار ضعيفة فهو يميز بها الضوء والظلام فقط ليتجنب الضوء ويبتعد عن مصدره ولكنه يعتمد على حاسة اللمس والاهتزازات داخل الماء ليشعر بالإنسان بمجرد نزوله الماء (كيف ذلك ؟) من خلال العديد من الخلايا الحسية المنتشرة على سطح الجسم كما انه يستخدم الرؤيس في اكتشاف التغيرات الخفيفة في درجة حرارة الماء وكذلك اكتشاف أي تلوث في الماء فيبتعد عن مصدر التلوث . كما أن نهاية الجسم لها ممص آخر خلفي اصغر من الممص الأمامي يساعده على تثبيت نفسه أيضا على جسم

عائله أثناء امتصاص الدم .

قال تعالى : صنع الله الذي أتقن كل شيء (النحل : 88)

كيف يتحرك ؟

أثناء تواجده في قاع البحيرة أو البركة فانه يزحف على الصخور أو على ارض البركة حيث يثبت جسمه على الأرض بالممص الأمامي ثم بمساعدة انقباض الألياف العضلية وانبساطها فانه يتحرك زحفا على الأرض . أما أثناء سباحته في الماء فانه يتحرك في الماء بانقباض وانبساط هذه الألياف العضلية أيضا .

قال تعالى : (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) . (النور : 45)

كيف يتفادى هذا الحيوان الضعيف أعداؤه من الحيوانات الفقارية ؟

إن هذا الحيوان الضعيف قد منحه الله سبحانه وتعالى الذكاء الفطري بحيث انه إذا رأى عدوا يريد التغذية عليه فيقوم بتكوير جسمه ويسقط في قاع الماء ويظهر لأعدائه كالميت . والبعض الآخر من ديدان العلق تختبأ بين الصخور بحيث لا يستطيع احد الدخول ورائها أو أن تقوم بدفن نفسها داخل طين البحيرة بعيدة عن أنظار أعدائها من الأسماك أو الكائنات

الأخرى المائية .

كيف يتكاثر هذا الحيوان ؟

(409/577)

هذه الديدان خناث بمعنى وجود الأعضاء التناسلية الأنثوية والذكرية في داخل جسم الدودة الواحدة فكل دودة بها زوج من المبايض و 9 أزواج من الخصيات ومع ذلك لا يتم الإخصاب الذاتي داخل الدودة الواحدة ولكن يحدث الإخصاب الخلطى وهو يعنى تبادل الحيوانات المنوية من دودة إلى دودة أخرى ثم بعد ذلك تخزن كل دودة الحيوانات المنوية في تركيب يسمى المستودعات المنوية ثم يحدث إخصاب للبويضات وتضعها الدودة الأم داخل شرنقة تغلفها بمادة مغذية تتغذى منها الصغار بعد الفقس وتحمل الأم الشرنقة في مقدمة جسمها وتسبح بها في الماء لتحميها وبعض أنواع العلق تقوم الأم بتحريك تيار ماء خفيف فوق سطح الشرنقة حتى يصل إلى البيض داخل الشرنقة الكمية المناسبة من الأكسجين التي يحتاجها الجنين داخل البيضة . ثم تترك الصغار الشرنقة لتبدأ في اخذ أول وجبة دم من أي حيوان برمائي ثم بعد ذلك تمتص دم الإنسان عند نزوله الماء .

يا الله انه حنان ورقة الأم مع جميع مخلوقات الله حتى ديدان العلق الطبي التي يستهين منها

البعض .

)

ولماذا الإخصاب الخلطى رغم أنها ديدان خناث ؟ ؟ ؟) من المعروف علميا أن التكاثر الذاتي يساعد على انتقال جميع الصفات الوراثية من الأم إلى الأبناء فلو كانت الأم تحمل بعض الصفات الوراثية السيئة فإنها تنتقل للأبناء أما التكاثر الخلطى يساعد على تبادل العوامل الوراثية من دودة خنثي لدودة أخرى وبالتالي يتم تجنب بعض الصفات الوراثية السيئة وظهور نسل قوى .

سبحان الخالق المصور من علم هذه الديدان أن التكاثر الخلطى أفضل لها ويحسن من نسلها انه الله الخالق الوهاب

كيف تستطيع ديدان العلق امتصاص دم الانسان ؟

(410/577)

بمجرد نزول الإنسان ماء البركة أو البحيرة فانا العلق الطبي يشعر به ويقترب من أي جزء في جسمه ويبدأ بتثبيت الممص الأمامي ثم إدخال الفكوك الثلاثة المسننة والتي تحدث خدش ذو ثلاث شعب ثم يقوم العلق بعد ذلك بإفراز اللعاب الذي يحتوى على ثلاث مركبات

كيمائية وهى : -

1- مادة بVasodilator وهذه المادة تعمل على توسيع الأوعية الدموية ليتدفق فيها الدم بسرعة

2- مادة Hirudin وهى مادة العلقين المانعة لتجلط الدم

3- إنزيم Hyaluronidase وهو إنزيم يعمل على زيادة نفاذية الجلد

وبمجرد إفراز هذه المركبات الثلاثة ينطلق تيار من الدم عبر الخدش الذي احدثة فى جلد الإنسان ويبدأ العلق في امتصاص الدم بفضل جدران البلعوم العضلية التي تقوم بشفط الدم ومنها إلى تركيب الحوصلة حيث يتم تخزينه وهضمه ومنها للمعدة ثم الأمعاء ثم المستقيم .

صورة لشاب يضع دودة العلق على ساعده

وتمتص الدودة ما بين 6 : 3 جرام دم أي حوالي قدر وزنها 5 مرات .

قال تعالى : (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم)

العنكبوت : 62

وقال تعالى : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم)

العنكبوت : 60

وقال تعالى : (قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون) سبأ :

هل يستطيع العلق الطبي أن يصوم ويمتنع عن امتصاص الدم ؟

نعم أحبائي يستطيع العلق الصيام والامتناع عن التغذية لمدة تصل إلى 6 شهور (ولكن كيف ذلك ؟ ؟) فقد ذكرنا سابقا أن العلق يأخذ كمية كبيرة من الدم تفوق وزنه 5 مرات فيقوم بتخزينها في الحوصلة حيث يتم هضم هذه الكمية ببطئ شديد للاستفادة منها خلال فترة الصيام وذلك لان العلق قد لا يتوفر له اخذ وجبة دم يومية .

كيف لهذه الديدان أن تقوم بهضم بروتينات الدم المعقدة داخل الحوصلة ؟

(411/577)

إن الخالق سبحانة وتعالى وهب لهذه الديدان نوع من البكتيريا التي تتواجد داخل حوصلة العلق ولا تسبب له أي أضرار بالعكس فهي تقوم بعدة وظائف للعلق ومن هذه الوظائف :

1- تقوم بهضم البروتينات المعقدة الموجودة في الدم وتحولها إلى مركبات بسيطة يسهل للعلق امتصاصها والاستفادة منها

2- تزود العلق بفيتامين ب 12 الذي لا يتوفر في وجبة الدم

3- تمنع دخول أي نوع آخر من البكتيريا الضارة داخل جسم العلق

4- تحافظ على تخزين الدم داخل الحوصلة خلال فترة الصيام لمدة 6 اشهر دون أن يتلف وذلك لإفرازها بعض الإنزيمات التي تمنع تلف الدم ويظل بكفاءته

قال تعالى : (إن الله كان على كل شيء حسيبا) النساء : 86

بعد أن اقتربنا أكثر من ديدان العلق الطبي أو الديدان مصاصة الدماء ووجدنا إعجاز الخالق وإحكام صنعه في جميع مخلوقاته لعلى أتوقع سؤال يدور في أذهان أحبائي في الله وهو ما فائدة هذه الديدان ؟ ؟ ؟ لقد وجدناها تخدش جلد الإنسان وتمتص دمه . أتعتقدون أن العلق الطبي له فوائد ؟ ؟ بالطبع نعم له الكثير من الفوائد الطبية والتي تنقلنا سويا إلى ما وعدتكم به في بداية المقالة وهى المفاجآت الطبية للعلق الطبي والتي تفسر لنا لماذا اقترن اسمه بالطب ؟

العلق مستعمل منذ القرون الوسطى للقضاء على الالتهابات وإصلاح الخل المفترض في المزاجات الأربعة

لقد استخدم أطباء أوروبا العلق الطبي منذ حوالي 2000 عام حيث كانوا يستخدمونه أثناء الجراحات الطبية ليساعد على تدفق الدم في الشهيرات الدموية الدقيقة ولا يتجلط دم المريض أثناء إجراء الجراحة له .

هذا منذ حوالي 2000 عام فماذا عن استخداماته الطبية في الآونة الأخيرة ؟

1- يقوم الأطباء الصيادلة باستخراج مادة العلقين Hirudin من لعاب الدودة والتي تدخل في صناعة أدوية مانعة لتجلط الدم تباع بأسعار ثمينة

2- كما تدخل مادة العلقين في صناعة أدوية لعلاج التهاب الأذن الوسطي

(412/577)

3- كما تدخل مادة Vasodilator التي يفرزها العلق في أدوية توسيع الأوعية الدموية

4- يفيد العلق في توزيع الدم بكفاءة عالية أثناء عملية الترقيع بعد استئصال الورم السرطاني من الثدي

5- في عام 1985 وأثناء إجراء احد أطباء جامعة هارفارد عملية جراحة دقيقة في أذن طفل صغير عمره 5 سنوات بعد أن حدث قطع عميق بها واجهه الطبيب مشكلة وهى أن الشعيرات الدموية الدقيقة يتجلط دمها أثناء العملية وبالتالي لا يستطيع الطبيب رؤية هذه الشعيرات الدموية لكي يوصلها ببعضها فاستعان بأحد ديدان العلق ووضعها على أذن الطفل مكان انسداد الشعيرات فتدفق الدم بها واستطاع توصيل الشعيرات الدموية والشرايين ببعضها ونجحت العملية نجاح كبير .

ولكن تواجه الأطباء مشكلة عند استخدام العلق في الجراحات الطبية هو انه أثناء إفراز اللعاب في جسم المريض تنتقل البكتيريا الموجودة في حوصلته إلى الإنسان وهذه البكتيريا رغم فوائدها الكبيرة للعلق إلا أنها تسبب ارتفاع في حرارة جسم الإنسان وألم في المعدة ولكن يتغلب الأطباء على ذلك بإعطاء المريض مضاد حيوي قبل استخدام العلق في الجراحة .

بعد كل هذا الإعجاز الكبير لرب السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكه نقول لأعداء الدين قوله تعالى :

)

الم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنه ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) لقمان : 20

والى اللقاء أحبائي في الله إذا كان في العمر بقية مع حيوان آخر ينتمي لشعبة الديدان الحلقية وقريب الصلة بالعلق الطبي

ويسمى (المحراث الطبيعي) أتعرفونه ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

مصدر الصور : موقع الموسوعة الحرة en.wikipedia.org

المراجع

1- http : //www.biokids.umich.edu

http : -2

//www.pbs.org/wnet/nature/bloodysuckers/leech2.

html

http : //www.factmonster.com-3

http : -4

//news.bbc.co.uk/1/hi/health/1708205.stm

---

http : -5

//www.sp.uconn.edu/~mcbstaff/graf/AvHm/MedUs

e.htm

http : -6

//animaldiversity.ummz.umich.edu/accounts/hirudo

/h._medicinalis

http : //www.gondar.co.uk/abe/leeches.html-7

http : -8

//www.amonline.net.au/factsheets/leeches.htm

9- http : //en.wikipedia.org/

إعداد :

مروة عزمي مختار جنينة

مدرس مساعد بكلية الزراعة جامعة المنصورة- مصر

marwaaz2002@yahoo..com

.

.

.

0-الفراشة الحشرة الخارقة

بقلم الداعية التركي هارون يحيى

قال تعالى : (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) (القارعة : 4) .

لقد شبه الله سبحانه وتعالى حركة الناس يوم القيام في ارتباكهم كالفراش المنتشر وهي إشارة خفية إلى هذه الحشرة التي هي من مخلوقات الله تعالى فكل ما في الوجود من مخلوقات هو إعجاز ومعجزة يستحيل خلق مثلها وسوف نتحدث عن بعض عجائب الفراش ونكتشف بديع خلق الله ودقة تكوينه للفراش .

توجد في الدنيا الملايين من النباتات والحيوانات المختلفة الأنواع التي تظهر أمامنا ، والتي تثبت على وجود الخالق .

وبدون شك فإن الكتابة على هذه الكائنات الحية لاتسع كتابتها في كتاب بل يحتاج إلى مجلدات لكتابتها وهنا سنذكر بعض الأمثلة للأحياء التي لا يمكن أن تأتي صدفة وهذا ما سنقوم بإثباته هنا .

لو كان لدينا 450-500 بيضة ،وهذه البيوض نريد الاحتفاظ بها في الخارج وحماية البيوض من الرياح التي تبعثرها هنا وهناك ماذا يمكن أن نفعل وكيف نتخذ الاحتياطيات اللازمة لذلك .

فمن الكائنات الحية التي تستطيع أن تضع في المرة الواحد ما يقارب (450_500) بيضة في المرة الواحدة هي حشرة الحرير

(414/577)

وللمحافظة على البويضات تقوم بهذا التدبير المنطقي وهو ربط البويضات بعضها ببعض بواسطة مادة خيطية لاصقة تقوم بإفرازها وبهذا تمنع تناثر البيوض في الأطراف . وبعد خروج هذه اليسروعات تقوم بربط نفسها على غصون شجرة ملائمة لها بواسطة الخيوط

التي تفرزها . ومن اجل نموها تقوم بأفرازات خيطية لحياكة الشرنقة، فهذه اليسروعات في خلال 3-4 أيام تقوم بهذه الأعمال كلها . وفي خلال هذه المدة تبدأ بالالتفاف الآف المرات حول نفسها ونتيجة لذلك تنتج ما يقارب 900-1500 متر من الخيوط وبعد أن تنتهي من هذا العمل وبدون أن ترتاح تقوم بعملية التغيير من دودة داخل شرنقة إلى حشرة كاملة (الفراشة) . ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لا يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُون ﴾ (سورة النحل، 17) .

الأم الحشرة الكاملة "التي تصنع الحرير" من أين تعلمت كيفية المحافظة على أطفالها واليرقات الصغيرة الحجم والتي ليس لها إلا أيام من خروجها من بيوضها كيف تقوم بهذه الأعمال, هذا ما لم تستطيع نظرية دارون إيضاحه . فقبل كل شيء (أولا) كيف استطاعت الأم أن تفرز هذه الخيوط لتلصق بها بيوضها واليرقات التي خرجت من البيضة كيف استطاعت أن تجد مكان مناسب لها لتصنع شرانقها ومن ثم تستطيع أن تتغير دون أن تكون هناك مشاكل . فهذه الأشياء كلها فوق حدود طاقة فهم الإنسان .

ففي هذه الحالة يمكن أن نستنبط وبكل بساطة أن كل دودة تعرف ما ستفعله في الدنيا . وهذا يعني أنها قد تعلمت هذه الأشياء قبل أن تأتي إلى الدنيا .

ونستطيع أن نوضح هذا بالمثال الآتي : فالطفل المولد جديداً وبعد مرور عدد ساعات من الولادة يقف الطفل على رجليه ويقوم بجميع ما يحتاجه لصنع فراش للنوم (الغطاء، الوسادة، زربية) وبعد إتمامه ينام عليه فإذا ما رأيتم هذا الشيء ماذا ستفكرون ؟ وبعد

انتهاء الدهشة ستصلون إلى نتيجة وهي أن الطفل قد اخذ هذا التعليم وهو في بطن أمه .

وهذا شبيه بما يفعله اليرقات .

(415/577)

وهنا توصلنا إلى نفس النتيجة وهي أن الأحياء تلد ، تتصرف وتعيش مثل ما أراد الله لهم . فكما بين الله سبحانه وتعالى في القرآن كيف أن النحل تعمل العسل بوحيٍ من الله ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النَّحل أن أتخذى مِنْ الجبَال بُيُوتاً وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِّما يَعرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فاسلكي سُبُلَ رَبكَ ذُللًا يَخرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرابٌ مُخْتَلِفٌ ألوانه فِيه شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إن في ذِلكَ لآيةِ لقَومٍ يَتفكَّرُون ﴾ (سورة النحل، 68-69) .

تناظر الأجنحة

لو نظرنا وبدقة إلى أجنحة الفراشة نرى أمامنا أجنحة متناظرة الشكل وبدون قصور فهذه الأجنحة الشفافة ، أشكالها ، نقاطها ، والألوان التي تجملها فأنها خلقت كاللوحة مرسومة أمامنا دون قصور فانها تمثل لنا شيء فوق العادة في صناعتها .

فأجنحة الفراشة مهما تكون مختلفة فإن أجنحتها الاثنان كل منها تشبه الواحدة الآخر في أدق رسوماتها وانتظام نقاطها وألوانها فلا توجد اختلاط في ألوانها الموجودة . فهذه الألوان

تتكون من أقراص صغيرة جدا مرتبة واحدة بجانب الآخر . فإذا ما لمسنا هذه الأقراص الصغيرة فإنها تتشتت (تتفرق) فكيف تكون هذه الأقراص الصغيرة دون أن تفقد أو تضل صفوفها فتكون نفس النقشة في كلا الجناحين فلو تغيير مكان أي قرص من هذه الأقراص الصغيرة فانها تظهر في الأجنحة فليس هناك على وجه الأرض فراشة أجنحتها بدون نظام كأنها من صنع رسام واحد فهذا ، لأنه فعلا من صنع رسام واحد أو صانع واحد وخالق واحد عظيم . صاحب جميع الكائنات الذي هو الله الذي لا مثيل لخلقه يبين لنا صفاته في أجنحة فراشة . ﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِرُ لَهُ الأسماء الحُسنى يُسَبّحُ لَهُ مَا في السَّموَاتِ والأرض وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (سورة الحشر، 24) .

.

.

.

0-الأسرار الخفية في أصغر الكائنات الحية معجزة علمية

بقلم الدكتور نظمي خليل أبو العطا

ظل هذا الكائن الدقيق والصغير يسرح ويمرح, ويتكاثر داخل خلايا الكائنات الحية دون أن يعرفه أحد أو يراه لآلاف السنين .

أحدث العديد من الأمراض الفتاكه للإنسان والحيوان والنبات والبكتيريا , ومع ذلك لم يمكن التعرف عليه, فإذا كان طول الخلية البكتيرية (1.5) ميكرومتر (الميكرومتر واحد من ألف من الملمتر) , فإن حجم هذا الكائن يعادل (60) نانومتر (النانومتر واحد على ألف من الميكرومتر) , فهو في داخل الخلية البكتيرية الدقيقة كالبذرة الصغيرة في داخل الثمرة الكبيرة, أي لو مثلنا حجم البكتيريا بالبرتقالة الكبيرة فإن حجم هذا الكائن بالنسبة لها كالبذرة الواحدة داخل البرتقالة, انه الكائن العجيب الذي ينفذ من مسام أدق المرشحات البكتيرية التي تحتجز البكتيريا من السوائل عند تعقيمها بالترشيح .

من عجائب هذا الكائن أنه لايعيش إلا في داخل خلايا الكائنات الحية, حيث يحيا ويتكاثر بصورة مهوله ومفزعة, أما خارج خلايا الكائنات الحية فهو كبللورة الملح أو السكر الميتة أو الماسة العجيبة, ولذلك هو ينتشر في الهواء والماء والأجساد بطريقة سريعة ومفزعة , فقد استطاع أحد أنواع هذا الكائن الحي القضاء على عشرين مليون شخص في شهرين فقط .

وهو الآن يحدث أخطر الأمراض العصرية, واحتار العلماء والباحثون في علاجه , ويعود السبب في ذلك إلى قلة العلم بخصائصه الحيوية , وسرعة تغييره لتركيبه التي تعود إلى بساطة

تركيبه إذا ما قورن بالبكتيريا والفطر فخليته تتكون عادة من الجزء الداخلي النووي , والجزء الغلافي البروتيني, ولذلك يخرجه الباحثون من دائرة التركيب الخلوي المعهود .

(417/577)

ومن خصائص هذا الكائن الحي أنه إجباري التطفل, حيث يحتاج إلى الخلايا الحية لاتمام عملياته الحيوية , وذلك لغياب العضيات الخلوية اللازمة لاتمام العمليات الحيوية في الخلايا الحية , لهذا فهو انتهازي استعماري خطير , يحدث عملية تطهير عرقي حيوي للخلايا التي يستعمرها , حيث يسخر كل امكانات هذه الخلية لمنافعه الشخصية فتنشغل الخلية المستعمرة في تلبية طلبات هذا المستعمر الاستيطاني الخطير .

أحد هذه الكائنات يشبه مركبات الفضاء الحالية وله قاعدة بزوائد مماثلة لتلك الزوائد التي تهبط بها المركبات الفضائية على سطح القمر, وله وصلة عليا تحمل رأس مسدس الشكل وله مثقاب يثقب به جسم الخلية , التي يتطفل عليها , ويستخدم الزوائد للهبوط والالتصاق بالخلية , وعنده آلية يخترق بها جدر حصون عائله, ثم يصب جام غضبه ويدخل محتوياته الداخلية إلى جسم العائل وهنا تحدث عملية انتشار سريعة ورهيبة أشد من انتشار الغزاه في المستعمرة الضعيفة المنهارة, وتقوم تلك الجزيئات باستغلال خيرات الخلية ومحتوياتها

الحيوية ومراكز صنع القرار فيها , ثم يصدر تعليمات خاطئة ومشددة تؤدي إلى تسخير محتويات الخلية المستعمرة لتكوين وحدات من الكائن الغازي, وهنا تنفذ محتويات الخلية المستعمرة , وبعد أن تصبح الخلية المستعمرة قاعاً صفصفا وتستهلك محتوياتها يفجر هذا الكائن جدار الخلية وينتشر في الخارج بالملايين في عملية غزو لمستعمرات خلوية أخرى , وهكذا يعيد هذا الكائن المسمى باللاقم البكتيري (Bacteriophage) نفسه, ويعيد انتشاره, ويوسع مستعمراته .

(418/577)

ويتكون هذا الكائن بأشكاله المختلفة من غلاف خارجي يسمى الكابسيد Capside)) يحيط بالمحتوي الجيني الداخلي (Nucleic acid) المكون من DNA أو RNA والذي يحتوي الجينوم (Genome) والذي يتكون من المواد الجينية (الجينات Genes) المتجمعة في الخيط الجيني RNA أو جزيء DNA في مجموعات قليلة إذا قورنت بالكائنات الحية الأخرى .

وتتميز هذه الكائنات بأنها متخصصة في طفيلاتها فالذي يتطفل على نبات معين لايعدي غيره , والذي يتطفل على حيوان معين لايعدوه إلى غيره , وهناك أنواع منها مشتركة بين

الانسان والحيوان , والحيوان والحيوان , واخرى خاصة بالنبات أو البكتيريا .

عندما يُدخل هذا الكائن الوحدات الوراثية الخاصة به إلى داخل الخلية كما قلنا سابقاً فإنها تصنع لها وحدات مشابهة من محتويات الخلية ثم تصنع لها أغطية وأغلفة وتعيد دورة الحياة , ويتكاثر الكائن بتضاعف جزيئات DNA أو RNA والآن بكل تأكيد لقد عرفتم اسم هذا الكائن الخطير انه الفيروس الذي خفي عن البشرية سنين عديدة وعندما ظهر أربكها , وأحدث هرجاً ومرجاً عظيما في صفوف علمائها وعوامها .

ومن الفيروسات التي أجهدت الانسان وأرعبته وحيرته وردعته عن الزنا فيروس فقدان المناعة المكتسبة (HIV) أي Human immunodeficiency virous المسبب لمرض الأيدز (AIDS) الذي يهدم المناعة الجسدية فتهاجمه البكتيريا والفطريات الانتهازية , أي التي تنتهز فرصة ضعف جهاز المقاومة وتقضي على الجسم .

وهناك فيروسات الالتهاب الكبدي الوبائي والانفلونزا وجدري الطيور وغيرها .

(419/577)

وبهذا نكون قد تعرفنا سريعاً على بعض الأسرار الخفية في أصغر الكائنات الحية غير المرئية (الفيروسات) , تلك الكائنات التي أقسم الله بها وبغيرها من المخلوقات غير المرئية

قال تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿ 38 ﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿ 39 ﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) الحاقة (38 –40) والتي فصلنا القول عنها في موضوع وما لا تبصرون بين الدين والعلم الحديث في كتابنا آيات معجزات من القرآن الكريم وعالم النبات .

.

.

.

0–غريزة الحفاظ على النسل

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

كما ذكرنا في مواضيع سابقة أن دعاة التطور لم يكن بإمكانهم تفسير التضحية في سلوك بعض الحيوانات . وهناك أمثلة عديدة للتضحية في الطبيعة تهدم الأساس الفكري لهذه النظرية حتى إن ستيفن جي جولد Stephen Jay Goui يتحدثعن التضحية كمشكلة عويصة تواجه نظرية التطور .

من جانب آخر يتحدث عنها جوردن تايلر Gorden Taylor باعتبارها مانعاً أو سداً كبيراً أمام النظرية ليعبر عن عمق المأزق الفكري الذي يواجه هؤلاء في دفاعهم عنها .

وهذه التضحية والرأفة التي يمكن مشاهدتها تحمل مفهومات كبيرة وتعتبر طعنة قاتلة في

جسد نظرية أولئك الذين ينظرون إلى الطبيعة نظرة مادية بحتة ويعتبرونها نتاج مصادفات لا غير.

(420/577)

وهناك بعض من غلاتهم قد فسر هذه الظواهر تفسيراً آخر مختلفاً سماه بقانون الجين الأناني، ورائد هذه الفكرة أحد الغلاة في وقتنا الحاضر ويدعى Richard Dawkins وهو يرى أن التضحية التي تعبر عنها بعض الكائنات ما هي إلا نتاج أنانيتها، وحسب قوله فإن الحيوان عندما يبدي تضحية ما فإنه لا يفعل ذلك دفاعاً عن الباقين بل حفاظاً على جيناته أي أن الأم عندما تذود عن صغيرها فهي في الحقيقة تدافع عن الجينات التي تولدت منها لأن صغيرها عندما يتم إنقاذه فإنه يستطيع أن ينقل هذه الجينات إلى أجيال لاحقة، وعلى هذا الأساس تصبح الكائنات الحية بما فيها الإنسان شبيهة بآلات لتوليد الجينات ومسؤولة عن نقلها إلى أجيال لاحقة.

ويدعي هؤلاء أنّ الكائنات الحية مبرمجة على الحفاظ على النسل ونقل الجينات إلى أجيال لاحقة ولهذا تسلك سلوكاً يلائم هذا البرنامج. ونورد مثالاً على طريقة تفكير هؤلاء وتفسيرهم لسلوك الحيوانات من خلال الاطلاع على نص مأخوذ من كتاب في علم الأحياء

يتبنى هذه النظرية وعنوانه Essentails of Biology : أو مبادئ علم الأحياء والنص كما يلي : كيف يمكن تفسير السلوك الذي يقود صاحبه إلى الخطر من أجل إنقاذ غيره ؟ بعض السلوكيات المستندة إلى التضحية مصدرها الجينات الأنانية، والاحتمال الأكبر أن تكون الكائنات الحية وهي تعرض نفسها للخطر في سبيل جلب الغذاء اللازم لصغارها تسلك هذا السلوك وفق برنامج جيني محدد ، وسلوكها هذا يهدف إلى سلامة انتقال الجينات من الأبوين إلى الأبناء ومنهم إلى أجيال لاحقة، ويبدو رد الفعل هذا من الكائنات الحية تجاه أعدائها نوعاً من السلوك لتحقيق هدف معين، ويتجلى هذا البرنامج المعين للسلوك الحيواني في الرائحة والصوت والمظهر الخارجي وأشكال أخرى .

(421/577)

ولو تأملنا في النص السابق لاتضح لنا أن الكاتب يقصد أنّ الكائنات الحية في سلوكها تبدو وكأنها تسعى إلى شيء معين لا عن دراية وفهم بل لأنها مبرمجة على أن تسلك مثل هذا السلوك، وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : ما مصدر هذه البرمجة ؟ والجين الذي نتحدث عنه هو شبيه بمجموعة من الشفرات المعلوماتية، ولكن هذه المجموعة من الشفرات لا تستطيع التفكير، والجين يفتقد الذكاء والعقل والتقدير . لهذا السبب إذا وجد جين خاص

يدفع الكائن الحي إلى التضحية فلا يمكن أن يكون هذا الجين هو الآمر بالتضحية . لقد صمم الحاسوب من قبل مصمم عاقل وذي دراية على أن يتوقف عن العمل عند الضغط على زر الإيقاف، إذن فالحاسوب لا يغلق من تلقاء نفسه وزر الإيقاف لا يعمل بالمصادفة دون مصمم . إن أحداً قد برمج هذا الزر على أن يوقف الجهاز عن العمل عند الضغط عليه .

إذن هناك جينات مبرمجة على دفع هذا الكائن الحي نحو التضحية بنفسه، وهناك قوة ذات عقل ودراية صممت وبرمجت هذه الجينات بهذه الصورة، وهذه القوة تلهم الكائنات كل لحظة وتراقبها وتهديها إلى اتباع سلوك معين، وهذه القوة هي الله جلت قدرته، وهذه الحقيقة يذكرها القرآن كما يلي :

]إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿ 56 ﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ[[سورة هود : 11] .

(422/577)

لا تبدي الكائنات الحية تعاوناً نحو أقربائها من حملة جيناتها فقط بل نحو الكائنات الحية الأخرى أيضاً كما سنرى أمثلة مفصلة عديدة وهذه الظاهرة شكلت مشكلة عسيرة الحل بالنسبة إلى نظرية التطور لأنها توحي برغبة في الحفاظ على انتقال الجينات من نسل إلى آخر . وتحلل Cientific American التي تتبنى هذه النظرية ظاهرة التعاون بين الحيوانات كما يلي : هناك مثال حي لتعاون حيوانين غير قريبين جينياً وهو تعاون ذكري حيوان البابون، فإذا حدث تنافس أو صراع بينهما يطلب أحدهما مساعدة من ثالث، ويبدأ الذي طلب المساعدة بهز رأسه إلى الأمام والخلف أي بين الذي جاء لنجدته وبين خصمه، ويفسر بعض الدارسين هذا السلوك بأن الذي طلب المساعدة يعتبر أن عليه حقوقاً مستقبلاً للذي قدم لنجدته إذا حدث أن تعرض لأي مكروه . إلا أن نظرية التطور تعجز عن تفسير كيفية منع الخديعة في الصراع بين الذكور وتعجز أيضاً عن تفسير طلب الذكر للمساعدة مرة أخرى والدافع الذي يجعله يسلك مثل هذا السلوك، والحقيقة التي لا لبس فيها تتمثل في أن الله سبحانه وتعالى يلهم المخلوقات ويدفعها إلى أن تضحي بنفسها وهي تسلك هذا السلوك .

تضحية الكائنات الحية داخل العائلة الواحدة

إن قسماً منها يقضي حياته أو جزءاً كبيراً من حياته مع باقي أفراد ما يسمى "بالعائلة"، فنجد على سبيل المثال البطريق والبجع، إذ يعيش هذان

عندما تذهب البطاريق للصيد تبقى الصغار متراصة جنباً إلى جنب، وبذلك تحافظ على أنفسها من البرد القارس، ولكن كيف تتعرف طيور البطريق على صغارها عند رجوعها من الصيد ؟ . . . . . منح الله سبحانه وتعالى طيور البطريق القدرة على تمييز الأصوات وبهذه الوسيلة تستطيع هذه الطيور التعرف بعضها على بعض .

(423/577)

الحيوانان مع زوجيهما طيلة فترة حياتهما ، أما إناث الأسود والفيلة فتعيش مع أمّاتها أو أمّات أمّاتها . وعموماً يتصف ذكور اللبائن بإنشاء عائلات خاصة بهم تتألف هذه العائلات من الذكور والإناث والصغار . وإنشاء هذه العائلات يلقي مسؤولية على عاتق البالغين لأنه يجب على الذكور في هذه الحالة الذهاب للصيد أكثر من ذكور الأنواع التي تعيش وحيدة، ويجب عليها الدفاع ليس فقط عن نفسها بل عن أفراد العائلة أيضاً ، ثم إن الدفاع عن الصغار يتطلب تضحية كبيرة .

وتتطلب عملية إنشاء عائلات والدفاع عنها جهداً كبيراً وتحمل مخاطر جسيمة وترك الخلود إلى الراحة . وهذه العملية تثير تساؤلاً مهماً مفاده : لماذا تختار الحيوانات هذا

الطريق الصعب ؟

واختيار الحيوانات لهذا الطريق المحفوف بالمخاطر يبطل نظرية داروين والتي تقول بأن البقاء للأقوى، والموت والفناء للأضعف، فنحن سنرى في الصفحات القادمة من خلال أمثلة عديدة كيف تصمد ، بل سنكتشف كيف أن الحيوانات الأقوى تعمل على المحافظة على حياة هذه الحيوانات الضعيفة وبأنبل صورة للإيثار والتضحية .

كيفية تعرف أفراد العائلة الواحدة على بعضهم البعض

يجب على أفراد العائلة الواحدة أن يملكوا آلية خاصة للتعرف على بعضهم البعض، وبواسطة هذه الآلية الخاصة للتعارف تستطيع الكائنات الحية التي تعيش على شكل مجموعات كبيرة أو مستعمرات أن تتعرف على صغارها أو أزواجها وحتى على آبائها أو أمّاتها أو أشقائها . ووسيلة

(424/577)

التعرف تختلف من حيوان لآخر، فالطيور التي تبني أعشاشها على الأرض مثلاً تتعرف على فراخها عن طريق الصوت والشكل الخارجي، ومنها طائر النورس الذي يقتات على

سمكة الرينكا . ويعيش هذا الطائر ضمن مجموعات كبيرة العدد ويمكن أن يميز صوت فراخه وسط الزحام الهائل دون أن يختلط عليه الأمر بين باقي الأصوات حتى وإن كانت الفراخ بعيدة عن بصره . أمّا عن دخول طائر صغير آخر إلى المكان الذي توجد فيه الفراخ فإنّه سرعان ما يطرد من تلك المنطقة .

أما اللبائن فتستطيع التعرف على صغارها عن طريق الرائحة، وتقوم الأم بشم ولدها لحظة ولادته وفيما بعد تصبح هذه الرائحة وسيلة للتعرف على الصغار .

ويعتبر البطريق من أنجح الحيوانات في استخدام وسيلة التعرف، ويبدو لنا أمر التعرف على طير وسط من طيور متشابهة تماماً شبه مستحيل . والمحير أن البطريق يستطيع بسهولة التعرف على أفراد عائلته دون خلط وخصوصاً الأنثى، التي تغيب مدة 2 –3 أشهر لجلب الغذاء وعند عودتها لا تجد أية صعوبة في التعرف على ذكرها وصغيرها من بين مئات البطاريق .

معظم اللبائن تبدأ بلحس وليدها بعد ولادته مباشرة لتنظيفه من آثار الولادة وأثناء ذلك تتعرف الأم على رائحة وليدها الرضيع وبهذه الرائحة تستطيع أن تميزه عن باقي الصغار . والأغرب من ذلك قيام طيور البطريق بجمع صغارها في محل واحد شبيه بروضة من رياض الأطفال ثم تذهب إلى البحر، وهذه الطيور الصغيرة تتراص جنباً إلى جنب، وتعد هذه

العمليه مهمة لدرء خطر البرد وبالتالي الحفاظ على حياة الصغار . والسؤال الذي يطرح نفسه : كيف يتعرف ذكر البطريق أو أنثاه على فرخه بعد غياب طويل ؟

فحل هذا اللغز يتم من خلال إصدار الأب أو الأم أصواتاً مرتفعة فيستطيع الصغير أن يتعرف على أمه وأبيه من خلالها .

(425/577)

ولا شك أن وسيلة الصوت هذه أنجح وسيلة لتعرف أفراد مستعمرة البطريق على بعضهم من بين الآلاف من البطاريق . ولكن كيف أمكن لهذه الطيور المتشابهة فيما بينها إلى حد التطابق أن تمتلك أصواتاً مختلفة بعضها عن بعض ؟ وكيف اكتسبت هذه الطيور قابلية التمييز بين الأصوات المختلفة ؟ من المستحيل أن تكون طيور البطريق قد اكتسبت هذه القابلية بمحض إرادتها ، فمن الذي وهبها هذه الميزة الفريدة ؟

ما هو العنصر من عناصر الطبيعة الذي تولى هذه المهمة ؟ هل هو الجليد في المنطقة القطبية ؟ أم الصخور ؟ الجواب قطعاً لا ، لأن هذه العناصر التي يتحدث عنها دعاة التطور بدورها مخلوقة، فالله سبحانه وهبها ميزة الصوت المختلف وجعل لها قدرة على تمييز الأصوات المختلفة وكما يسر لها معيشتها بهذه الصورة المعجزة .

قال الله تعالى على لسان نبي الله موسى :

(قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿ 49 ﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)

[سورة طه] .

المصدر : موقع هارون يحيى www.harunyahya.com

.

.

.

0-الغريزة ونظرية التطور

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

كلمة الغريزة تستخدم من قبل دعاة نظرية التطور لتفسير قابلية الحيوان القيام بسلوك معين منذ الولادة . وكانت هناك تساؤلات عديدة تدور حول كيفية اكتساب الحيوانات لهذه الغريزة وعن كيفية ظهور أول سلوك غريزي لدى الحيوانات وكذلك عن كيفية انتقال هذه الغريزة كابراً عن كابر .

كل هذه التساؤلات باقية بدون رد أو جواب .

هناك اختصاصي في علم الجينات وأحد دعاة نظرية التطور ويدعى Gordon Taylor Rottary.

قد ذكر في كتابه "The great evolution Myster سر التطور العظيم" اعترافاً يعجز النظرية عن الإجابة عن التساؤلات الخاصة بالغريزة كما يلي :

لو تساءلنا عن كيفية ظهور أول سلوك غريزي وعن كيفية توارث هذا السلوك الغريزي لما وجدنا أية إجابة (1) .

(426/577)

وهناك آخرون على شاكلة "Gordon Taylor" "يؤمنون بنظرية التطور لا يودون الاعتراف بهذه الحقيقة وبدلاً من ذلك يحاولون التمسك بإجابة غامضة ولا تحمل أي معنى حقيقي . وبالنسبة لرأي هؤلاء فإن الغرائز تعتبر جينات موجودة لدى الحيوانات تظهر على شكل أنماط سلوكية، واستناداً إلى هذا التعريف يقوم نحل العسل ببناء الخلية على الشكل المنتظم المعروف بوحدات بنائية هندسية مسدسة وفق الغريزة الحيوانية، وبمعنى آخر يوجد جين خاص في أجسام كل أنواع نحل العسل يجعل هذه الأنواع تبني خلاياها غريزياً وفق الشكل المعروف .

وفي هذه الحالة يطرح الإنسان العاقل المفكر سؤاله المنطقي : لو كانت الكائنات الحية مبرمجة على أن تسلك هذا السلوك المعين فمن الذي برمج هذا السلوك ؟ إذ لا يوجد أي برنامج مبرمج من تلقاء نفسه ولا بد من مبرمج ؟ !

يدعي دعاة التطور أن الطبيعة الأم التي تتشكل من البحيرات والجبال والأشجار . . . الخ لها القدرة على الخلق، ترى أي جزء من هذه الأجزاء لديه القدرة على إكساب القندس غريزة إنشاء مسكنه بهذه الصورة البارعة أو إكساب الحيوانات المختلفة أنماطها السلوكية المختلفة ؟

(427/577)

ولم يجد دعاة نظرية التطور إجابة محددة عن هذا السؤال واستخدموا أسلوباً آخر للمناورة حيث يؤكدون على اكتساب الكائنات الحية لهذه الغريزة عن طريق الطبيعة الأم وكما نعلم فإن الطبيعة تتألف من الحجر والتراب والأشجار والنباتات . .إلخ. ومن هذه العناصر تكون لها القدرة على إكساب الكائنات الحية هذا السلوك المبرمج ؟ أي جزء من الطبيعة لديه القدرة والعقل على فعل ذلك ؟ كل ما نراه في الطبيعة مخلوق ولا يمكن له أن يكون

خالقاً، ولا يمكن للإنسان العاقل أن يقول وهو يرى لوحة زيتية جميلة ما أحلى الأصباغ التي رسمت هذه اللوحة، بلا شك يكون هذا الكلام غير منطقي. إذن فإن ادعاء كون المخلوق خالقاً للأشياء هو بلا شك ادعاء غير منطقي. وهنا تظهر لنا حقيقة واضحة وهي عدم اكتساب هذه الكائنات الحية غير العاقلة لهذه الميزات السلوكية المنطقية من تلقاء نفسها، فهذه الميزات مكتسبة بالولادة، إذن فإن هناك من خلقها بهذه الكيفية ويتميز صاحب هذا الإبداع بالعلم والعقل اللامتناهيين اللذين نرى أثرهما في الطبيعة.

فليس هناك من هو أقدر على تسيير هذا الخلق وتنظيم هديه غير الله سبحانه وتعالى.

لذا ذكر الله سبحانه معجزة العسل في كتابه العزيز كمثال على إلهامه الكائنات الحية لاتباع سلوك معين، أي أن الغريزة التي يرددها دعاة نظرية التطور أو كما يقولون: إن الحيوانات مبرمجة على أداء سلوك معين ما هي إلا إلهام إلهي لهذه الكائنات الحية، وهذه الحقيقة ذكرت في القرآن الكريم:]وَأَوحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ[[النحل: 68-69]

(428/577)

ودعاة نظرية التطور يغمضون أعينهم أمام هذه الحقيقة لإنكار الوجود الإلهي، وهم بالتأكيد قد رأوا ومازالوا يرون الأنماط السلوكية للحيوانات ومازالوا يبحثون عن تفسير لها ويعلمون يقيناً عدم قدرة نظرية التطور على تفسيرها تفسيراً منطقياً . وكثيراً ما نجد عبارات وجملاً مألوفة عند قراءتنا لمؤلفين من دعاة هذه النظرية ومن هذه العبارات : "لإنجاز هذا العمل لا بد من وجود عقل ذي مستوى عال ولكون الحيوانات لا تملك مثل هذا العقل فإن العلم يعجز عن الإجابة عن هذا السؤال" .

ونورد المثال الآتي المتعلق بسلوك دودة القز على لسان أحد دعاة نظرية التطور المعروفين ويدعى " Haimar Von Dithfurth هيرمان فون ديثفورت "حيث يقول : إن فكرة اتخاذ الأوراق الثابتة المتعددة كوسيلة للتمويه فكرة باهرة، ترى من يكون صاحب هذه الفكرة ؟ من صاحب هذه الفكرة الذكية التي تقلل من احتمال عثور الطير على الفريسة التي يبحث عنها ؟ ولا بد للدودة أن تكون قد تعلمت بالوراثة من صاحب هذه الفكرة الذكية . . . كل هذه الظواهر لا بد أن تتوفر لدى إنسان ذكي للغاية يحاول أن يظل على قيد الحياة ولا بد لنا أن نقبل بهذه الحقيقة، علماً أن لدودة القز جهازاً عصبياً بسيطاً للغاية فضلاً عن بدائية سلوكها الحياتي، وتفتقر هذه الدودة إلى القدرة على قابلية تحديد هدف معين والتحرك باتجاه هذا الهدف .

ولكن كيف يتسنى لهذه الدودة أن تخترع هذه الوسيلة للدفاع عن نفسها وهي بهذا الضعف من التكوين ؟ . وعندما جابه علماء الطبيعة الأقدمون مثل هذه الظواهر لم يجدوا لها تفسيراً إلا بالمعجزة؛ أي تبنوا فكرة وجود قوة غير طبيعية خلاقة، أي أنهم آمنوا بوجود الله الذي يعطي مخلوقاته آليات معينة للدفاع عن النفس . وبالنسبة إلى هذه الطريقة في التفكير تعتبر بمثابة انتحار لعالم أو باحث في الطبيعة، ومن جانب آخر يقوم العلم الحديث بتفسير هذه الظواهر تفسيراً خالياً من أي معنى عبر التمسك بمفهوم الغريزة، لأنه على عكس ما يعتقده أغلبنا فإن تفسير السلوك بالغريزة يعني اكتساب الحيوان لهذه الأنماط السلوكية بالولادة، وهذا التفسير لا يقدم ولا يؤخر في تساؤلنا بل يعيق بحثنا عن إجابة محدودة وواضحة، ولا يمكن الحديث عن السلوك العقلاني لدودة القز التي تفتقد وجود مثل هذا العقل .

هناك تفسير وحيد لظاهرة رعاية الكائنات الحية غير العاقلة لصغارها بهذه الشفقة والحنان وذودها عنها ، وهو انقياد للإلهام الإلهي ومثال على ذلك هذا الطائر الغطاس الذي يرعى صغيره بوحي إلهام إلهي .

ومرة أخرى نعود إلى الحديث حول السلوك المعين للحيوانات فإن هناك ما يفرض نفسه أمام

أعيننا وهو الترتيب العقلاني لهذه الأنماط السلوكية، ولو لم يكن هذا السلوك المعين مثل تحديد الهدف أو التحسب للمستقبل أو توقع ما يمكن أن يقدم عليه أي حيوان آخر وحساب رد الفعل اللازم إبداءه تجاهه كعلامة على وجود عقل مدبر ومفكر، فإذن ما هو تفسير هذا السلوك؟ (2)

(430/577)

هذا الكلام يقوله هذا المتبني لنظرية التطور وهو يحلل أو يحاول أن يصل إلى تحليل منطقي لسلوك دودة القز، هذا السلوك العقلاني المدروس، لا نجد في مثل هذه الكتب والإصدارات إلا أسئلة بدون ردود واضحة، أو تناقضات فكرية لا تؤدي إلا إلى طريق مسدود . حتى صاحب النظرية تشارلز داروين نفسه قد اعترف بهذه الحقيقة فذكر أن سلوك الحيوانات وغرائزها تشكل تهديداً واضحاً لصحة نظريته وذكر ذلك في كتابه "أصل الأنواع" عدة مرات وبصورة واضحة لا لبس فيها : "أغلب الغرائز تمتاز بتأثير بالغ وتثير درجة كبيرة من الحيرة، وكيفية نشوئها وتطورها ربما تبدو لقارئ نظريتي كافية لهدم نظريتي من الأساس" (3) .

أما نجل تشارلز داروين المدعو فرانسيس داروين فقد قام بتحليل وشرح رسائل أبيه في

كتاب أسماه "الحياة ورسائل تشارلز داروين = The Life And Letters Of Darwin "وذكر مدى الصعوبات التي واجهها داروين في تفسيره للغرائز قائلاً في الكتاب (يعني أصل الأنواع) وفي الباب الثالث منه يتحدث في القسم الأول عن العادات الحيوانية والغرائز والاختلاف الحاصل فيها . والسبب في إدخال هذا الموضوع في بداية الباب تشريد فكر القراء عن إمكانية رفضهم لفكرة تطور الغرائز بالانتخاب الطبيعي، ويعتبر باب الغرائز من أصعب المواضيع التي احتواها كتاب "أصل الأنواع" (4) .

لا يمكن للغرائز أن تتطور

إن دعاة نظرية التطور يجادلون بكون أغلب سلوك الحيوانات نتيجة للغريزة، ولكن كما أسلفنا القول في سابقاً لا يستطيعون إيراد تفسير مقبول عن كيفية نشوء الغرائز ولا عن كيفية ظهور الغريزة لأول مرة ولا عن كيفية اكتساب الحيوانات لها ، ولو حوصر أحدهم بالأسئلة لتعلق بالادعاء التالي : "تكتسب الحيوانات أنماطاً سلوكية عن طريق التجربة ويتم انتقاء الأقوى بواسطة الانتخاب الطبيعي . وفي مرحلة لاحقة يتم توارث هذه الأنماط السلوكية الناجحة عبر الأجيال المتعاقبة" .

(431/577)

وهناك أخطاء منطقية لا يمكن أن يقبلها العقل في هذا الادعاء، دعونا نتفحص هذه الأخطاء بالتسلسل :

1 -الأخطاء الكامنة في المقولة : اختيار السلوكيات المفيدة عبر الانتخاب الطبيعي :

إن الانتخاب الطبيعي يعتبر الحجر الأساس لنظرية "تشارلز داروين" الخاصة بالتطور . والانتخاب الطبيعي يعني اختيار أي تغيير مفيد وصالح للكائن الحي (قد يكون هذا التغيير هيكلياً أو سلوكياً) واختيار ذلك الكائن الحي لتوريث ذلك التغيير للأجيال اللاحقة . وهناك نقطة مهمة في هذا الادعاء يجب ألا نغفل عنها وهي : كون الطبيعة حسب ادعاء داروين تعتبر المحك لتمييز المفيد من الضار وهي القوة المؤثرة والعاقلة في الوجود ولكن لا يوجد في الطبيعة من يميز بين الضار والمفيد كقوة مؤثرة حيث لا يوجد بين الحيوانات أو غير الحيوانات ذاك الذي يملك قرار ذلك أو القابلية على اتخاذ هذا القرار، فقط من خلق الطبيعة وما تحتويه وخلق كل شيء يملك العقل والمنطق والقدرة على تمييز الضار من المفيد .

في الحقيقة يعترف داروين نفسه باستحالة اكتساب السلوكيات المفيدة عن طريق الانتخاب الطبيعي إلا أنه يعود ويدافع عن وجهة نظره التي هي محض خيال واستمر في الدفاع عن رأيه على الرغم من كونه هذراً وغير منطقي حيث يقول : "في النهاية يمكن اعتبار أنّ الغرائز التي تجعل زغلول الحمام يطرد إخوانه غير الأشقاء من العش، وتجعل مملكة النحل مقسمة إلى

خدم وملكة ليست غرائز موهوبة أو مخلوقة بل تفاصيل حية وصغيرة لدستور عام لعالم الأحياء وهذه التفاصيل الصغيرة تتولى مهمة التكثير والتغيير عبر انتقاء الأصلح من الأضعف . ولكن هذا الاعتبار لا يبدو لي منطقياً ولكنه قريب إلى الأفكار التي تدور في مخيلتي " (5) .

ويعترف داعية آخر لنظرية التطور وهذه المرة في تركيا وهو البروفيسور جمال يلدرم بأن عاطفة الأمومة لدى الأم لا يمكن تفسيرها بواسطة الانتخاب الطبيعي ويقول بهذا الصدد :

"هل توجد إمكانية لتفسير عاطفة الأمومة تجاه الأبناء بواسطة نظام أعمى يفتقر إلى مشاعر روحية مثل نظام الانتخاب الطبيعي ؟ وبلا شك فشل علماء الأحياء ومنهم مؤيدو داروين في إيراد جواب مقنع لهذا السؤال . وهنالك صفات معنوية لدى الكائنات الحية غير العاقلة وبما أنها لا تستطيع أن تكتسب هذه الصفات بإرادتها فإذن يجب أن يكون هناك من منحها هذه الصفات، وحيث إن الطبيعة وقانون الانتخاب الطبيعي عاجزان عن إكساب الأحياء هذه الطبيعة المعنوية بسبب كونهما يفتقدان للصفات المعنوية فإنّ الحقيقة الساطعة كالشمس تتمثل بوجود كافة الأحياء تحت العناية الإلهية وتدبيره المحكم، ولهذه

الأسباب المتقدمة نستطيع أن نشاهد في الطبيعة أنماطاً سلوكية لبعض الحيوانات تثير الحيرة والاستغراب وتجعلنا نتساءل : كيف تسنى لهذا الحيوان الاهتداء إلى هذا السلوك ؟ وكيف يستطيع هذا الحيوان أو ذاك التفكير بهذه الطريقة ؟

2.الأخطاء الخاصة بتوارث السلوكيات المفيدة والمنتخبة عبر الانتخاب الطبيعي :

الخطوة الثانية لمؤيدي داروين هي ادعاؤهم بأن السلوكيات المفيدة والمنتخبة عبر الانتخاب الطبيعي يتم توارثها عبر الأجيال وهذا الادعاء ضعيف وهش للغاية من مختلف الوجوه . قبل كل شيء فإن أي سلوك جديد يكتسبه الحيوان عن طريق التجربة لا يمكن توريثه لجيل لاحق بأي حال من الأحوال لأن التجربة المكتسبة تخص ذاك الجيل وحده ولا يمكن إدخال هذه التجربة السلوكية الجديدة المكتسبة في البناء الجيني للحيوان إطلاقاً .

(433/577)

ويقول Gordon Rtaylor مبدياً رأيه المناهض لرأي أولئك الذين يدعون توارث الأنماط السلوكية عبر الأجيال المتعاقبة بما يلي : "يدعي علماء الأحياء أن هناك إمكانية لتوارث الأنماط السلوكية عبر الأجيال المتعاقبة ويمكن مشاهدة هذه الظاهرة في الطبيعة فمثلاً Dobzhansky يدعي أن جميع وظائف جسم الكائن الحي ما هي إلا نتاج

التوارث الناتج بتأثير العناصر والعوامل المتوفرة في المحيط الخارجي، وفي هذه الحالة يكون الأمر مقبولاً بصورته النهائية بالنسبة لجميع أنواع الأنماط السلوكية، ولكن هذا غير صحيح أبداً ويعتبر أمراً محزناً أن يكون هذا رأي عالم له مكانته مثل Dobzhansky ويمكن القول : إنّ هنالك بعض الأنماط السلوكية لبعض الأحياء يتم توارثها عبر الأجيال اللاحقة ولكن لا يمكن تعميم الأمر على جميع الأنماط السلوكية" .

والحقيقة الظاهرة للعيان عدم وجود أي دليل علمي يمكن بواسطته إثبات توارث بعض الأنماط السلوكية بواسطة الخريطة الجينية للكائن الحي والمعروف أن الجينات مسؤولة فقط عن بناء البروتينات حيث يتم بناؤها أكثر من إفراز بعض الهرمونات لتتم السيطرة على سلوك الكائن الحي (بصورة عامة) وعلى سبيل المثال أن يكون الحيوان نشيطاً أو بالعكس خاملاً أو أن يكون الوليد أكثر ارتباطاً بأمه، ولكن لا يوجد أي دليل يثبت توارث السلوك الخاص الذي يجعل الحيوان يبني عشه بالترتيب والتزامن والانتظام المعروف .

ولو كان الأمر كذلك فإذن ما هي الوحدات الوراثية المسؤولة عن عملية التوريث ؟ لأن هناك فرضيات تثبت وجودها ، ولم يستطع أحد الإجابة عن هذا السؤال (6) .

وكما أفاد به Gordon Rtaylor فإن الادعاء بكون الأنماط قابلة للتوارث أمر غير مقبول علمياً ، فبناء الطيور لأعشاشها وإنشاء القندس للسدود وإفراز عاملات نحل العسل للشمع يقتضي وجود نوع من الأنماط السلوكية المعقدة كالتصميم والتخطيط للمستقبل وهذه لا يمكن توارثها عبر الأجيال وهناك مثال آخر يفرض نفسه بشدة وهو المتعلق بسلوك العاملات القاصرات في مملكة النمل .

فهذه العاملات لها سلوك خاص تتميز به يقتضي منها أن تكون على دراية تامة بالحساب وذات خبرة واسعة، ولكن هذه الأنماط السلوكية لعاملات النمل لا يمكن أن تكتسب بالتوارث لسبب وحيد كونها قاصرات ولا يمكن لها التكاثر لذا فلا تستطيع توريث هذه الأنماط السلوكية لأجيال لاحقة، وما دام الأمر كذلك يجب توجيه السؤال الآتي لدعاة نظرية التطور : كيف تسنى لأول نملة عاملة قاصرة أن تورث هذه الأنماط السلوكية لأجيال لاحقة من العاملات القاصرات وهي بالتأكيد لا تستطيع التكاثر ؟ وما تزال هذه العاملات سواء أكانت نملاً أو نحلاً أو أي حيوان آخر تعمل منذ ملايين السنين بهذا السلوك الذي يعكس مدى العقلانية والقابلية والتكافل والانتظام وتوزيع الأدوار بدقة إضافة إلى روح التضحية إلا أن هذه المخلوقات لم تستطع البتة أن تورث هذه الأنماط السلوكية منذ خلقت لأول مرة .

ولا يمكننا القول بأن هذه المخلوقات قد بذلت جهداً في اكتساب هذه الأنماط السلوكية

لأنها تبدأ في اتباع هذا السلوك منذ اللحظات الأولى لوجودها على وجه الأرض بأكمل صورة. ولا تصادف في أي طور من أطوار حياتها أية مرحلة للتعليم وجميع سلوكها مكتسب بالفطرة، وهذا الأمر جائز مع جميع الكائنات الحية. إذن فمن الذي علم الكائنات الحية تلك الأنماط السلوكية؟ وهو السؤال نفسه الذي طرحه داروين قبل 150 سنة ولم يستطع دعاة نظرية التطور الإجابة عنه، وهناك تناقض عبر عنه داروين نفسه قائلاً :

(435/577)

"إنه لخطأ كبير أن نتحدث عن فرضية اكتساب الأنماط السلوكية الغريزية بالتطبع وتوريثها إلى أجيال لاحقة، لأنّه كما نعلم هناك غرائز محيرة للغاية كتلك التي عند النمل أو النحل ولا يمكن البتة اكتسابها بالتطبع".

فلو افترضنا أن النملة العاملة أو أية حشرة أخرى قد اكتسبت جميع صفاتها المتميزة عبر الانتخاب الطبيعي وبالتدرج، أي افترضنا أنها عملية انتخاب للصفات الصالحة ثم يتمّ توريثها بعد ذلك إلى أجيال لاحقة وبصورة متعاقبة وفي كل مرة يتم انتخاب صفات مفيدة تورث إلى جيل لاحق وهكذا، لو افترضنا ذلك لأصبحت فرضيتنا مستحيلة لسبب

وحيد هو عدم تشابه النملة العاملة مع أبويها إلى حد كبير إضافة إلى كونها عقيمة، ولهذا فهي لا تستطيع توريث الصفات والأنماط السلوكية الجديدة المكتسبة إلى الأجيال اللاحقة. وهنا يطرح السؤال نفسه: كيف يمكن تفسير هذه الحالة بواسطة الانتخاب الطبيعي (7).

ويعبر جمال يلدرم أحد المؤمنين بنظرية التطور عن التناقض الذي وقع فيه المتبنّون لهذه النظرية: "ولنأخذ على سبيل المثال الحشرات التي تعيش على شكل مجتمعات مثل النمل والنحل، فهذه الحشرات عقيمة وليست لديها أية إمكانية لتوريث أية صفات حيوية جديدة تنقلها إلى أجيال لاحقة إلا أنها تبدي تكيفاً مدهشاً مع ظروف المحيط الذي توجد فيه وعلى أعلى المستويات". (8)

ويتضح مما تقدم من اعترافات العلماء وأقوالهم استحالة تفسير الأنماط السلوكية المحيرة لهذه الكائنات الحية بواسطة نظرية التطور لأن هذه الأنماط السلوكية لم تكتسب عبر الانتخاب الطبيعي ولا يمكن توريثها إلى أجيال لاحقة.

سقوط فكرة تطور الغرائز بتطور الأحياء

تدعي نظرية التطور أن الكائنات قد نشأت عن بعضها البعض عبر التطور . ووفقاً لهذه النظرية تكون الزواحف قد نشأت من الأسماك والطيور من الزواحف . . . ولكن يجب ألا ننسى أن النوع الواحد يختلف تماماً من حيث السلوك حيث تختلف السمكة عن الزواحف اختلافاً كلياً . ويدور السؤال التالي : هل تعرض سلوك الكائن الحي إلى تطور كما تعرض بناؤه الحيوي البيولوجي إلى تطور ؟

وهذا التساؤل يعتبر أحد التناقضات والمآزق الفكرية التي وقع فيها دعاة نظرية التطور فداروين وضع إصبعه على هذا التناقض وتوصل إلى استحالة اكتساب الغرائز بالانتخاب الطبيعي وتغيرها بالتطور حيث تساءل قائلاً : هل من الممكن اكتساب الغرائز بالانتخاب الطبيعي وتطويرها وتغييرها فيما بعد ؟ ماذا يمكننا القول أمام بناء نحل العسل لخليته بهذا الشكل الهندسي الذي سبق اختصاصيي الرياضيات بزمن سحيق ؟ ماذا يمكننا القول أمام هذه الغريزة ؟ (9) . ويمكن إيراد الأمثلة المختلفة على هذا التناقض من كافة أنواع الحيوانات كالأسماك والزواحف والطيور . فالأسماك لها صفات خاصة بها من حيث التكاثر والصيد والدفاع عن النفس فضلاً عن إنشاء منازلها بطريقتها الخاصة، وهذه الصفات الخاصة في حالة تتلاءم تماماً مع الوسط المائي الذي تعيش فيه . وهناك بعض الأنواع من الأسماك تقوم بلصق بيضها تحت الأحجار الموجودة في قاع البحر وبعد لصقها لبيضها تقوم برفرفة زعانفها فوقها لتتيح أكبر كمية من الأوكسجين اللازمة لتنفس الأجنة

الموجودة داخل البيض . أمّا الطيور فتضع بيضها في أعشاش ذات بناء خاص تبنيها لهذا الغرض وترقد على بيضها مدة زمنية محددة لازمة لفقس البيض .

(437/577)

أما التماسيح والتي تعتبر حيوانات برية فتملك سلوكاً معاكساً تماماً فتقوم بدفن بيضها تحت الرمال مدة شهرين كاملين لازمة لفقسها ، وهناك بعض الأسماك تقوم بوضع بيضها داخل الأحجار الموجودة في قاع البحر ومن جانب آخر هناك بعض الحيوانات البرية تقوم ببناء مساكنها على أطراف الأشجار العليا باستخدام الأغصان وقشور الأشجار ، أما الطيور فتنشئ أعشاشها باستخدام الأعشاب والنباتات البرية أما اللبان التي يدعون أنها نشأت من الزواحف فتختلف من حيث التكاثر اختلافاً كليّاً عن باقي الكائنات الحية . فبينما تكون باقي الحيوانات تتكاثر بالبيض تتكاثر اللبان بأن تحمل أجنتها داخل بطونها أشهراً عديدة وبعد أن تضع جنينها تقوم بتغذيته باللبن الذي يفرزه جسمها .

وهناك أسلوب للصيد مختلف لكلّ نوع من أنواع الأحياء ، فبينما يبقى بعضها كامناً للصيد فترة طويلة يكون بعض منها متخفياً بلون المكان الموجود فيه والبعض الآخر يعتمد على

السرعة والمباغتة . وكما يتضح هناك اختلاف كبير وشاسع بين الحيوانات البرية والحيوانات المائية وكلّ نوع يتميز باختلاف واضح حسب الوسط الذي يعيش فيه .

(438/577)

من هذا العرض نستنتج أن التغيير في الغرائز يجب أن يكون مصاحباً للتطور الحاصل في الأحياء . على سبيل المثال أن تصبح السمكة التي تضع بيضها تحت أحجار قاع البحر وترفرف بزعانفها رعاية لها حيواناً برّياً تقوده غريزته المتطورة إلى بناء أعشاش خاصة على أطراف الأشجار ويرقد على البيض مدة معينة من أجل تفقيسها . وهذا الأمر محال طبعاً ، والاستحالة الأخرى في هذا الموضوع يمكن توضيحها بفرض عدم استطاعة الكائن الحي العيش نتيجة عدم ملاءمة سلوكه غير المتطور لبنيته المتطورة نتيجة تغير الوسط الذي يعيش فيه حيث لا تستطيع السمكة التي تتقن التّخفي في البحر العيش إلا بعد إيجادها وسيلة جديدة للدفاع، وبالإضافة إلى ضيق الوقت لتحقيق ذلك لأنه يجب أن تقوم بتغيير سلوكها وطريقة حياتها وبناء جسمها بصورة مستمرة وإلا فإنها معرضة للهلاك وانقراض نسلها .

ومن الواضح أنه لا يوجد حيوان غير عاقل يمتلك القابلية لاتخاذ مثل هذا القرار السريع

والاستراتيجي الذي يتطلب قوى عقلية . إذن فكيف يتم تفسير سلوك الحيوانات الملائم لبناء أجسامها وشروط الوسط الذي تعيش فيه ؟ وأدلى داروين بدلوه في هذا الخصوص في معرض رده على النقد الموجه لكتابه "أصل الأنواع" قائلاً : كان هناك اعتراض على فكرة أصل الأنواع مفاده أنه يجب أن يكون التغيير الحاصل في بناء الكائن الحي متزامناً مع التغيير في غرائزه فضلاً عن كونهما متلائمين مع بعضهما لأن أي تباين يحدث بينهما يعني الموت المحتم/ (10) .

(439/577)

يتضح مما تقدم أنه لا يمكن تفسير سلوك الحيوان بواسطة التطور عبر الزمن أو بالمصادفة أو بتأثير الطبيعة الأم . إذن فكيف اكتسبت الكائنات الحية تلك الصفات والخصائص التي تتيح لها مواصلة حياتها ؟ والجواب عن السؤال في غاية الدقة والوضوح؛ فالإنسان المطلع على طريقة معيشة الأحياء يستطيع أن يرى استحالة تشكل هذه الأنماط السلوكية من تلقاء ذاتها أو بواسطة سلسلة من المصادفات . ومصدر هذه الأنماط السلوكية لا يوجد في أجسامها ولا في المحيط الذي تعيش فيه . إذن فهناك قوة لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة تقوم بإدارة سلوك هذه الكائنات الحية . تهيئ مظاهر الحياة وأسرار البقاء هي الله سبحانه

وتعالى والذي وسعت رحمته كل شيء . والنتيجة : إنّ الكائنات الحية تتحرك بواسطة إلهام إلهي .

(440/577)

كما ذكرنا في الصفحات السابقة واجه دعاة نظرية التطور إشكالات كبيرة تتعلق بتفسير سلوك الحيوانات في حين أنّ الحقيقة واضحة جلية وهي عدم استطاعة الكائن الحي غير العاقل أن يقوم بتمييز الفروق الواضحة أو أن يقوم بالربط بين الوقائع أو اتخاذ قرار صحيح، فضلاً عن عدم قدرته على التخطيط لعدة مراحل مقبلة إلى جانب أشياء أخرى تتطلب عقلاً وتفكيراً وإدراكاً . ويقول دعاة التطور إنّ هذه الكائنات الحية مبرمجة على أداء هذه الأعمال، إذن من هو الذي وضع هذا البرنامج ؟ وما هي القوة التي تجعل نحل العسل يفرز الشمع الخاص لبناء الخلية ؟ والجواب واضح ودقيق، وهو استحالة تولد هذه الأنماط السلوكية من تلقاء نفسها أو محض الصدفة بل الواضح أن هناك قوة تحكم هذه الطبيعة وتديرها ولها تأثير مباشر على تلك الكائنات . وصاحب هذه القوة بلا شك هو الله الخلاق العليم . ونظرية تعجز عن أن تفسر كيفية خلق الكائن الحي لا بد لها أن تقف عاجزة أمام تفسير سلوكه ومصدره . لذا فإجراء الأبحاث حوله له أهمية قصوى بلا شك

لأن هذه الأبحاث تثبت أنه لا يوجد كائن حيّ يعيش جزافاً أو دون ضابط، فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يقوم بخلق الكائن الحي من العدم ويدبر أموره ويراقبه في كل حين وينظم له سلوكه بقدرته، ربّ السماوات والأرض وما بينهما، وهذه الحقيقة وردت في القرآن الحكيم.]إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[. [هود: 56].

روح التضحية لدى الكائنات الحية تفنّد ادعاء داروين بأن البقاء للأقوى

مثلما أسلفنا القول في الصفحات السابقة فإن الأمر حسب ادعاء داروين يعتمد على قانون الانتخاب الطبيعي، أي أنّ الكائنات الحية التي تستطيع أن تتكيف مع شروط الوسط الذي تعيش فيه تستطيع مواصلة حياتها والحفاظ على نسلها، وأمّا الكائنات الضعيفة التي لا تستطيع التكيف مع تلك الشروط فهي معرضة للهلاك والفناء، وبناء على هذا يكون التعريف المنطقي للطبيعة وفقاً لقانون الانتخاب الطبيعي لداروين هو المكان الذي تقوم فيه الكائنات الحية بكفاح مرير فيما بينها من أجل البقاء فيبقى القوي ويفنى الضعيف.

واستناداً إلى هذا التعريف يجب على كل كائن حي أن يكون قوياً ومتميزاً بالقوة عن الآخرين في سبيل الكفاح والبقاء . وفي وسط مثل هذا لا يمكن الحديث عن بعض الميزات مثل الإيثار والتضحية والتكافل، فهي قد تصبح ذات آثار سلبية على الكائن الحي نفسه . ووفقاً لهذا المنطق يتميز بمنتهى الأنانية ولا همّ له سوى البحث عن الغذاء وإنشاء البيت الذي يؤويه وحماية نفسه من خطر الأعداء .

ولكن هل صحيح أن الطبيعة هي المكان الذي يضمّ كائنات تخوض صراعاً مريراً للقضاء على بعضها بمنتهى الوحشية والأنانية ؟ . إن الأبحاث الجارية بهذا الشأن حتى يومنا هذا قد أبطلت ادّعاءات دعاة التطور . فالطبيعة تحوي في أركانها أمثلة لا حصر لها تكشف صوراً غاية في التضحية من أجل الآخرين .

يذكر جمال يلدرم في كتابه "التطرف وقانون التطور" .

أن الأسباب التي جعلت داروين وغيره من رجالات العلم في عصره يصورون الطبيعة على أنها تمثل مسرحاً للحرب بين الأحياء يمكن إجمالها في النقاط التالية : كان رجال العلم في القرن التاسع عشر يقبعون في مختبراتهم أو أماكن عملهم لمدة طويلة ولا يدرسون الطبيعة ميدانياً ولهذا ذهب خيالهم ببساطة إلى الاستسلام لفكرة كون الكائنات الحية في حالة حرب صامتة فيما بينها ، وعالم فذ مثل هالي Haley لم يستطع إنقاذ نفسه من براثن هذا الوهم (11) .

أما العالم بيتر كروبوتكين Peter Kropotkin الذي يؤمن أيضاً بنظرية التطور فيذكر في كتابه Mutual Aid : A Factor in Evolution أو "الهدف المشترك : العامل المؤثر في التطور" الخطأ الذي وقع فيه داروين ومؤيدوه قائلاً : داروين ومؤيدوه عرّفوا الطبيعة على أنها مكان تخوض فيه الكائنات الحية حروباً مستمرة فيما بينها . ويصور هاكسلي Haxley عالم الحيوان باعتباره حلبة مصارعة تقوم فيه الحيوانات بصراع مرير فيما بينها وتكون الغلبة من بينها للذكي والسريع وهو الذي يستطيع العيش ليبدأ في اليوم التالي صراعاً جديداً وهكذا . ويتبين لنا منذ الوهلة الأولى أن وجهة نظر هكسلي بشأن الطبيعة ليست علمية . . . (12) .

وهذا الوضع يعتبر شاهداً على عدم استناد نظرية التطور إلى ملاحظات علمية، ويغلب على العلماء من دعاتها التزمت الفكري من خلال تحليل بعض الظواهر الموجودة وفقاً لهواهم . والحقيقة أن الحرب التي يدعي داروين انتشارها في أرجاء الطبيعة تبيّن أنها خطأ كبير فلا نجد الأحياء التي

يقف البطريق على قدميه لمدة أشهر لحماية صغيره من البرد .

تكافح من أجل البقاء فقط بل نجد أيضاً كائنات حية تبذل تعاوناً ملحوظاً نحو الكائنات الحية الأخرى، والأعجب من هذا أنها تؤثرها أحياناً على نفسها . من هنا فدعاة التطور عاجزون عن تفسير ظواهر الإيثار . وورد في مقالة صادرة في إحدى المجلات العلمية نص يصور عجز هؤلاء : "المشكلة تكمن في السبب الذي من أجله تتعاون الكائنات الحية، وبالنسبة إلى نظرية داروين فهي تقول إنه يجب على كل كائن حي أن يكافح من أجل البقاء والتكاثر، ومعاونة باقي الكائنات الحية يقلل من فرص نجاح ذلك الكائن الحي في البقاء وعلى هذا الأساس يجب أن يُزال هذا النمط السلوكي عبر التطور، ولكن الملاحظ أن الإيثار لا يزال موجوداً في سلوك الكائنات الحية (13) .

(443/577)

وأبسط مثال على الإيثار هو سلوك عاملات النحل فهي تقوم بلسع أي حيوان يدخل إلى خليتها مع علمها يقيناً أنها ستموت، فإبرتها اللاسعة تبقى مغروزة في الجسم الذي تلسعه ونظراً لارتباط هذه الإبرة الوثيق بالأعضاء الداخلية للحشرة تسحب معها هذه الأعضاء خارجاً متسببة في موت النحلة . يتّضح من ذلك أنّ النحلة العاملة تضحي بحياتها من أجل

سلامة باقي أفراد الخلية .

أمّا ذكر البطريق وأنثاه فيقومان بحراسة عشهما حتى الموت، فالذكر يسهر على رعاية الفرخ الجديد بين ساقيه طيلة أربعة أشهر متصلة دون انقطاع، ولا يستطيع طيلة هذه الفترة أن يتناول شيئاً من الغذاء أمّا الأنثى فتذهب إلى البحر لتجلب الغذاء وهي تجمعه في بلعومها وتأتي به إلى فرخها ويبديان تفانياً ملحوظاً من أجل فرخهما .

أنثى التمساح تحمل صغارها في فمها لحمايتهم .

ويعرف عن التمساح كونه من الحيوانات المتوحشة إلا أنّ الرعاية التي يوليها لأبنائه تثير الحيرة الشديدة، فعندما تخرج التماسيح الصغيرة بعد فقس البيض تقوم الأم بجمعها في فمها حتى تصل بها إلى الماء ثم تعكف على رعايتها وحملها حتى تكبر ويشتد عودها وتصبح قادرة على مواجهة المصاعب بنفسها ، وعندما تشعر التماسيح الصغيرة بأي خطر سرعان ما تلوذ بالفرار ملتجئة إلى فم أمّها وهو الملجأ الأمين بالنسبة إليها . إن هذا السلوك يثير الاستغراب خاصة إذا علمنا أن التماسيح حيوانات متوحشة والمنتظر منها أن تأكل أبناءها وتلتهمهم لا أن ترعاهم وتحميهم . . .

وهناك بعض الأمهّات من الحيوانات تترك القطيع الذي تعيش فيه لترضع أولادها ، فتتخلف الأم مع ولدها وتظل ترضعه حتى يشبع معرّضة حياتها لخطر جسيم . والمعروف عن الحيوانات أنها تهتم بأولادها الذين ولدوا حديثاً أو الذين خرجوا من البيض لمدد طويلة تصل إلى أيام أو أشهر أو حتى بضع سنين فتوفر هذه الحيوانات لصغارها الغذاء والمسكن والدفء وتقوم بالدفاع عنهم من خطر الأعداء المفترسين . وأغلب أنواع الطيور يقوم بتغذية صغاره من 4 –20 مرة في الساعة خلال اليوم الواحد ، أمّا إناث اللبان فأمرها مختلف إذ يحتم عليها أن تتغذى جيداً عندما ترضع صغارها حتى توفر لهم اللبن الكافي، وطيلة هذه الفترة يزداد الرضيع وزناً بينما تفقد الأم من وزنها بشكل ملحوظ .

أما الطبيعي والمتوقع في هذه الحالات فهو أن تهمل هذه الحيوانات غير العاقلة صغارها وتتركها وشأنها لأنها لا تفهم معنى الأمومة أو العطف ولكنها على العكس من ذلك تتحمل مسؤولية رعايتها والدفاع عنها بشكل عجيب .

ولا تقوم الأحياء باتخاذ مثل هذا السلوك مع صغارها فقط وإنما قد تبدي العطف نفسه والحنان نفسه إزاء الحيوانات الأخرى أو الأفراد الأخرى التي تعيش معها في المجموعات نفسها ، ويمكن ملاحظة ذلك عندما تشح مصادر الغذاء ، فالمتوقع في مثل هذه الحالات العصيبة أن ينطلق القوي منها ليبيد الضعيف ويستحوذ على ما يوجد من الغذاء ، غير أن

الذي يحدث هو عكس ما يتوقعه دعاة التطور . ويورد كروبوتكين وهو معروف بتأييده لهذه النظرية أمثلة عديدة تتعلق بهذا الموضوع منها مثلاً : يبدأ النمل بتناول ما ادخره عندما تشح مصادر الغذاء بينما تبدأ الطيور بالهجرة بشكل جماعي إلى مكان آخر، كما تتوجه القنادس الشابة إلى الشمال والكبيرة في السن إلى جنوب الأنهار حيث تعيش هناك مزدحمة (14) .

(445/577)

والذي يفهم من هذه الأمثلة أنه لا وجود لمنافسة أو مزاحمة بين الحيوانات من أجل الغذاء بل على العكس يمكن مشاهدة نماذج عديدة لتعاونها وتضحياتها حتى في أقسى الظروف . وهي تعمل في أحيان كثيرة على التخفيف من وطأة الظروف وقسوتها . ومع هذا فهناك مسألة يجب أخذها بعين الاعتبار وهي أن انعدام التفكير هو الذي يجعلها تتخذ هذه القرارات وتنشئ هذا النظام . كيف يمكن تفسير تجمع هذه الحيوانات في مجموعات ذات هدف واحد وعملها مجتمعة لتحقيق هذا الهدف المشترك ؟ .

بلا شك إن الذي خلق هذه الأحياء وألهمها اتباع ما ينفعها والذي يحافظ عليها هو الله رب العالمين جلت قدرته . مصداقاً لقوله عزَّ وجلَّ لها :]وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى

اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ] . [هود : 6]

أمام هذه الحقائق تسقط ادعاءات التطور عن كون الطبيعة مسرحاً للحرب لا ينتصر فيها إلا من كان أنانياً ومن لا يرى سوى مصالحه فقط، سأل John Maynard Smith التطوري المشهور سؤالاً لأقرانه في الفكر يتعلق بهذا النوع من السلوك لدى الحيوانات : إذا كان الانتخاب الطبيعي يعني اختيار الصفات الصالحة للكائن الحي والتي تضمن له بقاؤه وتكاثره فكيف يمكن لنا أن نفسر صفة التضحية لدى بعض الحيوانات ؟ (15)

غريزة الحفاظ على النسل

مثلما اتضح في الصفحات السابقة فإن دعاة التطور لم يكن بإمكانهم تفسير التضحية في سلوك بعض الحيوانات . وهناك أمثلة عديدة للتضحية في الطبيعة تهدم الأساس الفكري لهذه النظرية حتى إن ستيفن جي جولد Stephen Jay Goui يتحدث عن التضحية كمشكلة عويصة تواجه نظرية التطور (16) .

من جانب آخر يتحدث عنها جوردن تايلر Gorden Taylor باعتبارها مانعاً أو سداً كبيراً أمام النظرية ليعبر عن عمق المأزق الفكري الذي يواجه هؤلاء في دفاعهم عنها .

وهذه التضحية والرأفة التي يمكن مشاهدتها تحمل مفهومات كبيرة وتعتبر طعنة قاتلة في جسد نظرية أولئك الذين ينظرون إلى الطبيعة نظرة مادية بحتة ويعتبرونها نتاج مصادفات لا غير .

وهناك بعض من غلاتهم قد فسر هذه الظواهر تفسيراً آخر مختلفاً سماه بقانون الجين الأناني، ورائد هذه الفكرة أحد الغلاة في وقتنا الحاضر ويدعى Richard Dawkins وهو يرى أن التضحية التي تعبر عنها بعض الكائنات ما هي إلا نتاج أنانيتها ، وحسب قوله فإن الحيوان عندما يبدي تضحية ما فإنه لا يفعل ذلك دفاعاً عن الباقين بل حفاظاً على جيناته أي أن الأم عندما تذود عن صغيرها فهي في الحقيقة تدافع عن الجينات التي تولدت منها لأن صغيرها عندما يتم إنقاذه فإنه يستطيع أن ينقل هذه الجينات إلى أجيال لاحقة، وعلى هذا الأساس تصبح الكائنات الحية بما فيها الإنسان شبيهة بآلات لتوليد الجينات ومسؤولة عن نقلها إلى أجيال لاحقة .

(447/577)

ويدعي هؤلاء أنّ الكائنات الحية مبرمجة على الحفاظ على النسل ونقل الجينات إلى أجيال لاحقة ولهذا تسلك سلوكاً يلائم هذا البرنامج . ونورد مثالاً على طريقة تفكير هؤلاء وتفسيرهم لسلوك الحيوانات من خلال الاطلاع على نص مأخوذ من كتاب في علم الأحياء يتبنى هذه النظرية وعنوانه Essentails of Biology : أو مبادئ علم الأحياء والنص كما يلي : كيف يمكن تفسير السلوك الذي يقود صاحبه إلى الخطر من أجل إنقاذ غيره ؟ بعض السلوكيات المستندة إلى التضحية مصدرها الجينات الأنانية، والاحتمال الأكبر أن تكون الكائنات الحية وهي تعرض نفسها للخطر في سبيل جلب الغذاء اللازم لصغارها تسلك هذا السلوك وفق برنامج جيني محدد ، وسلوكها هذا يهدف إلى سلامة انتقال الجينات من الأبوين إلى الأبناء ومنهم إلى أجيال لاحقة، ويبدو رد الفعل هذا من الكائنات الحية تجاه أعدائها نوعاً من السلوك لتحقيق هدف معين، ويتجلى هذا البرنامج المعين للسلوك الحيواني في الرائحة والصوت والمظهر الخارجي وأشكال أخرى (17) .

ولو تأملنا في النص السابق لاتضح لنا أن الكاتب يقصد أنّ الكائنات الحية في سلوكها تبدو وكأنها تسعى إلى شيء معين لا عن دراية وفهم بل لأنها مبرمجة على أن تسلك مثل هذا السلوك، وهنا يطرح السؤال التالي نفسه : ما مصدر هذه البرمجة ؟ والجين الذي نتحدث عنه هو شبيه بمجموعة من الشفرات المعلوماتية، ولكن هذه المجموعة من الشفرات لا تستطيع التفكير، والجين يفتقد الذكاء والعقل والتقدير . لهذا السبب إذا وجد جين خاص

يدفع الكائن الحي إلى التضحية فلا يمكن أن يكون هذا الجين هو الآمر بالتضحية . لقد صمم الحاسوب من قبل مصمم عاقل وذي دراية على أن يتوقف عن العمل عند الضغط على زر الإيقاف، إذن فالحاسوب لا يغلق من تلقاء نفسه وزر الإيقاف لا يعمل بالمصادفة دون مصمم . إن أحداً قد برمج هذا الزر على أن يوقف الجهاز عن العمل عند الضغط عليه .

(448/577)

إذن هناك جينات مبرمجة على دفع هذا الكائن الحي نحو التضحية بنفسه، وهناك قوة ذات عقل ودراية صممت وبرمجت هذه الجينات بهذه الصورة، وهذه القوة تلهم الكائنات كل لحظة وتراقبها وتهديها إلى اتباع سلوك معين، وهذه القوة هي الله جلت قدرته، وهذه الحقيقة يذكرها القرآن كما يلي :]وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوقِهِم وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [[النحل : 49 .50] .

]اللهُ الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً [[الطلاق : 12] .

المصدر : موقع الكاتب التركي هارون يحيى

1 Gordon Rattray Taylor, The Great Evolution Mystery (London : Martin Secker & Warburg Ltd, 1983) , p. 222.

2 Ditfurth, Dinazorlar?n Sessiz Gecesi 1, pp. 12-19

3 Charles Darwin, The Origin of Species (New York : The Modern Library) , p. 184.

4 Francis Darwin, The Life and Letters of Charles Darwin (New York : D. Appleton and Co., 1896) , Letter of C. Darwin to J. D. Hooker, Down, March 1, 1854.

5 Darwin, C., The Origin of Species, p. 208.

6 Cemal Yildirim, Evrim Kurami ve Bagnazlik (The Theory of Evolution and Bigotry) (Ankara : Bilgi Publishing House, January 1998) , p. 185.

7 Taylor, The Great Evolution Mystery, p. 221.

8 Darwin, C., The Origin of Species, p. 185.

9 Ibid., p. 204.

10 Cemal Yildirim, Evrim Kurami ve Bagnazlik (The Theory of Evolution and Bigotry) , p. 34.

11 Darwin, C., The Origin of Species, p. 124.

12 Ibid., p. 124.

---

13 Cemal Yildirim, Evrim Kurami ve Bagnazlik (The Theory of Evolution and Bigotry) , p. 49.

14 Peter Kropotkin, Mutual Aid : A Factor of Evolution, Chapter I. (http : //www.spunk.org/library/writers/kropotki/sp001503 /index.html)

15 Bilim ve Teknik (Science and Technology Journal) , no. 190, September 1983, p. 4.

16 Kropotkin, Mutual Aid : A Factor of Evolution, Chapter II.

17 John Maynard Smith, "The Evolution of Behavior", Scientific American, September 1978, Vol. 239, no. 3, p. 176.

.

.

.

0-التضحية عند الحيوان

بقلم الكاتب التركي هارون يحيى

مع اقتراب القرن الحادي والعشرين فقدت نظرية التطور لتشارلز داروين مصداقيتها وإن كانت قد احتضنت من طرف بعض المؤمنين بالفكر المادي في بدايات القرن المنصرم، حيث عمل هؤلاء على نشر مقولاتها، كما اجتهدوا في إثبات صحة فرضيتها كونها حقيقة علمية ثابتة.

وفي جو التطور الكبير الذي طرأ على بعض فروع العلم ذات الصلة بهذه المسألة كعلم الأحياء المجهرية، والكيمياء الحيوية، وعلم المتحجرات وغيرها . . .

بدأ ضباب الشك ينجلي، واتضح إفلاس فكر أصحابها وتبين حقيقة لا وهماً أن الحياة لم

تنشأ -كما روّج لها -مصادفة ولم تتطور خطوة خطوة، بل ثبت استحالة تبني هذه الفكرة أصلاً (للمزيد من التوضيح يرجى الاطلاع على فصل "خطأ نظرية التطور") . وعجزت هذه النظرية عن إيراد الأدلة العلمية المقنعة بشأن أصل الأنواع الحية . كما لم تستطع الإجابة عن التساؤلات الواردة بشأن الخصائص المتميزة لبعض الكائنات مما جعل المنادين بها في مأزق حقيقي . لذا جاء هذا الكتاب لشرح وتحليل ظاهرة التضحية لدى الكائنات الحية "كواحدة من أهم المميزات الخاصة بها . باعتبار أنه ليس من الصعب ملاحظة هذه الظاهرة في عالم الأحياء باستمرار إضافة إلى التكافل والتعاون والرأفة في العلاقات الرابطة بينها .

(450/577)

كل ذلك جعل النظرية وجهاً لوجه أمام تساؤلات أهمها :

كيف يمكن لنا تفسير العلاقات التي تربط هذه الكائنات وتدفعها للقيام بمثل هذه الأعمال التي تنضح منها روح الحب والرحمة والأثرة ؟

ولو افترضنا جدلاً أن نظرية داروين فسرت التطور الجسدي الذي طرأ على الكائنات فكيف بها أن تفسر لنا الجانب غير المادي المتمثل في فهم العلاقات الروحية . إن صح هذا

التعبير ـ فيما بينها ؟

لقد أسس داروين نظريته على مفهوم الانتخاب الطبيعي هذا من ناحية، وهو مفهوم لا يعتمد أساساً على تحليل أو نقد موضوعيين، أما الناحية الثانية فقد ارتكز على مبدأ أن أصل الأنواع الحية على وجه البسيطة واحد ، أما الاختلافات الطارئة على هذه الكائنات إنما كانت نتاج اختلاف الظروف الطبيعية التي يعيش في إطارها كل من هذه الأحياء فمنها من بقي على قيد الحياة حيث أبدى تكيفاً مع محيطه فاستمر وتطور، ومنها من عجز عن الاستمرار فمات وانقرض . ومن هنا فإن هذا الكائن الذي حافظ على كيانه وبقائه يعتبر من منظور داروين هو الأقوى .

فالطبيعة على ضوء هذه الفرضيات يمكن تعريفها استناداً لما جاء في مقولة، جوليان هكسلي، أحد الأصدقاء المقربين من داروين والمدافعين بشدة عن نظريته بما يلي : "هي حلبة يتم فيها انتقاء الأقوى والأصلح من الأضعف والفاشل، ولا مناص من هذا الانتقاء"

وهنا يستوقفنا سؤال :

هل حقاً أن الطبيعة حلبة صراع يتم فيها النصر للأقوى والأصلح على حساب سحق الأضعف بمنتهى القسوة والأنانية ليمثل شكلاً من أشكال الحياة ؟

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال عبر ملاحظة أشكال الحياة حيث من الطبيعي أن تقوم الكائنات ببذل جهد كاف للعيش، مثل الصيد والدفاع عن النفس، أو الاستعداد

والتخفي . . .

لكن المسرح الطبيعي للأحياء لا يتألف من هذين المشهدين فقط بل يمكن ملاحظة مشاهد تنطق بأنبل أنواع التضحية تقوم بها الحيوانات لصالح أفراخها وجماعاتها أو حتى تجاه حيوانات أو أنواع أخرى .

(451/577)

يضاف إلى ذلك التكافل والتعاون لإنقاذ أحد الحيوانات المنكوبة والذي يعد من المميزات السلوكية التي يمكن معاينتها على الأرض .

وقد عجزت نظرية التطور عن شرح هذه المميزات السلوكية وبيان أسباب حدوثها ، وثبت أن الطبيعة ليست ساحة حرب كما يدعي البعض وأن الحياة أثبتت إفلاس نظرية التطور وعجزها كلياً ، والأمثلة على ذلك كثيرة .

فمثلاً : لماذا يقوم الحمار الوحشي (زيبرا) بالهرب في اتجاه بعيد عن القطيع مضحياً بنفسه في سبيل إنقاذ البقية حيث تتم مطاردته منعزلاً وبالتالي يتمكن البقية من الهرب .

فهل تستطيع نظرية داروين أن تجد تفسيراً لذلك ؟

كذلك السلوك الغريب لسمكة "أتارينا" كما سترى في الفصول القادمة فهي تعرض حياتها

للخطر في خروجها من الماء إلى السواحل الرملية لوضع بيوضها . ومع ذلك فإن قانون الانتخاب الطبيعي لم يستطع إزالتها من الوجود .

وستجدون في الصفحات القادمة ما يجعلكم تشعرون بالحيرة والدهشة إزاء كائنات حيوانيّة غير عاقلة والإنسان اللبيب والمنصف وحده الذي يستطيع أن يرجع أصل هذه السلوكيات المتميزة إلى هدي الله الخلاق العليم والمتصرّف وحده في خلقه، يبرز ذلك في قوله عزَّ وجلَّ :]وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ[. [الجاثية : 5]

المنطقية في سلوك الحيوانات إحدى المعضلات التي واجهتها نظرية التطور

من المعروف أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي تحكمه العقلانية والمنطقية في السلوك، فبالإضافة إلى مميزاته البدنية فإن الميزة الفريدة التي جعلته في صعيد مختلف عن باقي الكائنات الحية هي العقل والمنطق، وعلى ضوء ذلك فإن الإنسان يتميز بمحاسبة النفس والتفكير والتخطيط واستشراف المستقبل فضلاً عن رد الفعل تجاه الأحداث الحاصلة، كذلك السير نحو هدف معين . كل هذه الصفات السلوكية خاصة بالإنسان، أما

الكائنات الحية الأخرى الموجودة فلا تملك هذه الصفات، لهذا السبب لا يمكن لنا أن ننتظر من الحيوانات أنماطاً سلوكية مشابهة للإنسان كالتخطيط والتقدير أو القيام ببعض الحسابات كالتي يقوم بها بعض المهندسين .

إذن، فكيف لنا أن نجيب عن بعض الظواهر السلوكية المنطقية في الطبيعة ؟

إن بعض الحيوانات التي تتصف بهذه السلوكيات المنطقية لا تملك مخاً أصلاً، وقبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من الإطلاع عن كثب على بعض هذه السلوكيات لمعرفة كنهها ومنشئها .

القندس مهندس السدود

يعتبر هذا الحيوان مهندساً بارعاً وبناء ماهراً في الوقت نفسه حيث ينشئ عشه بمهارة فائقة وبالمهارة نفسها ينشئ سداً منيعاً أمام عشه ليحميه من تأثير الماء الجاري، وهو يبذل جهداً خارقاً وعلى مدى عدة مراحل لإنجاز هذا العمل المرهق . ففي المرحلة الأولى يقوم بتجميع كم هائل من أغصان الأشجار ليستخدمها في التغذية وبناء عشه والسد الذي أمامه، ولهذا يقوم هذا الحيوان بقرض الأشجار المتوفرة لقطعها وأثبتت الأبحاث العلمية أنه يقوم بحسابات دقيقة عند عملية القطع . كما يفضل العمل على ضفة المياه التي تهب عليها الرياح حتى تساعده المياه في جلب تلك الأغصان باتجاه عشه .

ويتميز عش هذا الحيوان بتخطيط بارع إذ يحتوي على مدخلين سفليين تحت سطح الماء ومكان خاص أعلى من مستوى الماء للتغذية وفوقه يوجد مكان خاص للنوم إضافة إلى قناة خاصة للتهوية . ويقوم القندس بتجميع الأغصان واحداً فوق الآخر لتشكيل الهيكل الخارجي للعش بعناية كبيرة مستخدماً أعواداً صغيرة مع كمية من الطين حيث لا يترك فيه أية فجوة أو ثقب .

أما المواد التي يستخدمها القندس في بناء عشه فهي تساعد على تماسكه من جهة والحفاظ على درجة الحرارة داخله من جهة أخرى، فبالرغم من انخفاض درجة الحرارة في الشتاء إلى 35 درجة تحت الصفر فإن الحرارة داخل العش تبقى فوق الصفر باستمرار، ويقوم القندس أيضاً بإنشاء مخزن للأغذية تحت العش يتغذى منه طيلة فصل الشتاء . وفي تلك الأثناء يقوم القندس بإنشاء قنوات تحتية على شكل شبكة، ويبلغ طول هذه القنوات مترين يستطيع بواسطتها أن يصل إلى اليابسة حيث توجد الأشجار التي يتغذى عليها .

يسلك القندس سلوك مهندس بارع إذ يخطط ويقوم بحسابات دقيقة ويشتغل مثل عامل بناء ماهر لإنشاء مسكن بمواصفات عجيبة

صورة للسد الذي أنشأه القندس

رسم تخطيطي للمسكن الذي أنشأه القندس بنجاح باهر

(454/577)

والسدود التي يبنيها تتألف من النباتات والأحجار التي يركمها فوق بعضها بالطريقة نفسها التي يبني بها العش . ويبذل هذا الحيوان جهده في رص الأغصان على شكل مثلث طويل يربط بين ضفتي المياه إضافة إلى رتق الفجوات الموجودة في السد عبر ملئها بالمواد اللازمة، وكلّ هذا يحدث وهو يسبح ضد تيار الماء ويمتطي كومة عشه في الوقت نفسه . وعند حدوث أية فجوة أو خلل في بناء السد يقوم القندس باستخدام الطين أو أغصان الأشجار لملئه ثانية، وهكذا يتحول السد إلى نوع من الحوض العميق يستطيع من خلاله أن يجعل من عشه مخبأً كبيراً للأغذية والمؤونة تساعده على الحياة طيلة فصل الشتاء ، ويستطيع القندس أن يوسع من المساحة المائية داخل العش لنقل أكبر كمية ممكنة من الغذاء والمواد اللازمة لبناء العش وترميمه حتى أن هذا الأسلوب يجعل العش في مأمن من الأعداء ، وفي هذا يشبه عش القندس قلعة محاطة بخنادق الدفاع يصعب الهجوم عليها .

فيما تقدم لخصنا سلوك هذا الحيوان كمثال على العقلانية والتخطيط والحساب الدقيق في كل مرحلة من المراحل، ولكن لا يمكن لي أن أرجع هذه الصفات إلى القندس وحده بسبب افتقاده للعقل أو أي شيء يمت بصلة إلى العقل، إذن فما مصدر سلوك الحيوان هذا ؟ لا بد من وجود إجابة عن هذا السؤال، وإذا كان هذا السلوك ليس من اكتساب القندس فما مصدر هذا السلوك ؟

لا شك في أن مصدر سلوك القندس أو الأمثلة الأخرى التي سنراها في الصفحات القادمة من سلوك الحيوانات المختلفة على هذا الشكل المتميز ما هي إلا من صنع الله القادر على كلّ شيء الذي لا حدّ لقدرته وعلمه فهو الذي يلهم هذه الكائنات الحية ويهديها سبلها فتبارك الله أحسن الخالقين .

دودة الإمبراطور التي تعمل وفق مخطط متعدد المراحل

من المؤكد أن القندس ليس الحيوان الوحيد الذي يبدي سلوكاً مخططاً مدروساً ، فهناك العديد من الأمثلة الحية والتي لا يمكن حصرها ، والحيوان الآتي يعتبر أصغر بكثير من القندس ولا ينتظر منه أي دليل على سلوك عقلي أو ما يؤكد وجود عقل أو ذكاء في بنيته،

هذا الحيوان يدعى دودة القز التي تفرز يرقتها خيوط الحرير . وكباقي أنواع اليرقات فإنها تقضي فترة من فترات حياتها داخل شرنقة وعند خروجها من الشرنقة تقوم بإخفاء نفسها داخل ورقة نباتية، وعملية الاختفاء تتم بمنتهى الإحكام وفق مخطط مدروس مسبقاً وعبر مراحل تتطلب خبرة وقدرة فائقة لصعوبة طي الورقة الخضراء وبالتالي لا يمكن لها أن تخفي جسم الحيوان الصغير بسهولة لذا وجب إيجاد حل لهذه المشكلة .

صورة لدودة الإمبراطور

لذا فقد استطاعت أن تجد حلاً بسيطاً لكنه يفي بالغرض إلى أبعد حد حيث يقوم الحيوان بقرض جزء الورقة المتصل بالنبات لقطعها ، ولمنع سقوطها يقوم بربطها بشكل محكم عبر إفراز خيوط الحرير ثم تبدأ الورقة بالتيبس وتنكمش الورقة اليابسة حول نفسها ، وبعد ساعات تأخذ الورقة شكلها النّهائي كأنبوب يصلح أن يكون مخبأً أميناً لها وسرعان ما تلجه متخذة إياه مسكناً لها .

للوهلة الأولى يمكن أن يفكّر المرء بأنّ الحيوان قد خطا هذه الخطوة المنطقية لتوفير مخبأ أمين لنفسه وهذا صحيح، ولكن بدخول الحيوان داخل الورقة المتيبسة قد يصبح صيداً سهلاً للطيور لأنّ اللون المختلف لهذه الورقة يجلب انتباهها ، وهذا يعني نهاية الحيوان المختبئ داخلها . وفي هذه الخطوة بالذات تقدم الدودة على اختراع جديد بواسطته تنقذ نفسها من مخالب الطيور، إذ تقوم بإجراء عملية حسابية دقيقة كالتي يقوم اختصاصيو الرياضيات استناداً إلى مبدأ الاحتمالات، لأن الدودة تقوم بالعمل نفسه في أوراق نباتية أخرى وتقوم ربط هذه الأوراق حول الورقة التي تختبئ داخلها كنوع من أنواع التمويه ضد الأعداء وهكذا يصبح على غصن واحد أكثر من ورقة (6 – 7) واحدة منها فقط تحوي الدودة المختبئة والباقية خالية تماماً ، وإذا حدث وتناول أحد الطيور هذه الأوراق يصبح احتمال وقوع الدودة كفريسة 6/1 . (3)

كل هذه الظواهر السلوكية تعتمد على منطق معين بلا شك، ولكن هل يمكن لهذه الدودة التي تحتوي على مخ مجهري وجهاز عصبي بسيط أن تقوم بهذه الأعمال العقلانية والمنطقية والمخطط لها مسبقاً من تلقاء نفسها ؟ وكما هو معلوم فلا حظ لهذه الدودة من التفكير . ومن الاستحالة أن تكون قد تعلمت من دودة أخرى، وفي الحقيقة فإن هذه الدودة لا تعلم بالخطر الذي يتهددها في المستقبل، إذن فكيف اهتدت إلى فكرة التمويه ؟

ولو وجهتم هذا السؤال إلى أحد أصحاب نظرية التطور فلن يستطيع أن يجيب إجابة مقنعة ومحددة، وفي غالب الأحيان يلجؤون إلى مفهوم واحد وهو الغريزة حيث يفسر هؤلاء طريقة سلوك الحيوانات بالغريزة، وفي هذه الحالة فإن السؤال الأول الذي يتبادر إلى ذهننا هو عن تعريف الغريزة، حيث نستطيع أن نقول إنها آلية معينة تجعل الدودة مثلاً تخفي نفسها داخل ورقة نباتية أو تجعل القندس يبني عشه وسده بهذه الكيفية وهذه الآلية أو القوة الدافعة التي يجب أن توجد في مكان ما داخل جسم الحيوان.

المصدر : موقع هارون يحيى http : //www.harunyahya.com/

مصدر بعض الصور : موقع الموسوعة الحرة http : //wikipedia.org/

.

.

.

0–خلق الإنسان تقدير وقصد

د . محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة

رابطة العالم الإسلامي مكة المكرمة (mdoudah@hotmail.com)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد :

ارتبط موضوع أصل الحياة والإنسان في تاريخ العلوم بالداروينية نسبة إلى دارون في كتابه "أصل الأنواع" الذي صدر في منتصف القرن التاسع عشر وقال فيه بتطور أنواع الأحياء بآليات افترضها مضمونها الصدفة, وخالفته الكشوف العلمية لاحقا فغير أنصاره الملامح تحت اسم الداروينية الجديدة مع استمرار الحفاظ على مضمون الصدفة, ويفترض سؤال اتفاق علماء الطبيعة عليها ابتداء فيقول : (هل هناك اتّفاق بين المختصين في العلوم وبين علماء الإسلام في مسألة أصل الإنسان ؟) , ولكن لم يتفق المختصون عليها بحيث يصادم علماء الإسلام الواقع إذا خالفوهم, ومستعينا بالله تعالى أوجز القول في ضوء ثوابت علم الأحياء Biology وعلم تاريخ الإنسان Anthropology مبينا أن النقطة الجوهرية هي رفض فلسفة الحدوث ذاتيا صدفة مهما كانت كيفيات تقدير الخلق وفق ما يكشفها العلم, وأن تدرج التنويع ليس بالضرورة تطورًا , وذلك في النقاط التالية :

(1) معجزة التنويع في الخلق :

هل تصدق أن هذا البيت المنظم الأثاث بنى نفسه ورتب الأثاث نفسه صدفة ! !

أعلن مِندل عن اكتشاف قوانين الوراثة عام 1865 فمهد لولادة علم الوراثة Genetics في أوائل القرن العشرين, وقبل نشوء علم الوراثة ومعرفة دور الجينات في الحفاظ على صفات النوع وراثيًا رأي لامارك Lamarck عام 1809 أن أفراد الكائنات الحية تنقل السمات التي اكتسبتها في حياتها إلى الأبناء، فالزرافة مثلا تطورت عن طريق إطالة أعناقها شيئاً فشيئاً عندما كانت تحاول الوصول إلى الأغصان الأعلى، ولم يدرك دارون كذلك آلية الحفاظ على توريث صفات النوع وإن تنوعت الأفراد فافترض تغيره ذاتيا صدفة لأسباب خارجية عزاها إلى الطبيعة, ولكنها لا تمتلك إرادة واعية لتقرر ما ينفع وتنسق العمل بين الأعضاء وبين الذكر والأنثى فلا بد إذن من قوة عليا مدبرة, ومن المسلمات عند العقلاء أن البيت المرتب الأثاث لا يبني نفسه وينظم أثاثه ذاتيا وأنه لا بد من إرادة واعية بنته ورتبته, ولكن الفلسفة المادية Materialism أفرزت نظرية التطور عام 1859 مخالفة أبسط المسلمات عندما افترضت أن الفوضى Chaos يمكن أن تصنع نظاما وأن الترتيب يوجد ذاتيا صدفة, فجوهرها في تفسير معجزة تنوع الأحياء هو إبداعات الصدفة ولذا من الأولى كشف القناع بتسميتها "نظرية الصدفة", ولكن أدى اكتشاف تركيب الحمض النووي DNA البالغ التعقيد ليحافظ على سمات أسلاف كل نوع

ويورثها للنسل إلى نقض قواعد نظرية دارون من الأساس, ومع ذلك استمر ترويجها مما يعكس غرضا عقائديا أكثر من كونها اهتمامات علمية بحتة .

(459/577)

وتدّعي الداروينية Darwinism أن الحياة بدأت بخلية تكونت صدفة من مركبات غير عضوية في ظروف أولية للأرض, ولكن لم ينجح أبداً أي شخص في تكوين تركيب خلوي واحد من مواد بسيطة ولا حتى في أكثر المختبرات تطوراً, والخلية أكثر تعقيدا وروعة في أداء وظائف الحياة مما كان يظن دارون في القرن التاسع عشر فهي تحتوي على محطات لتوليد الطاقة ومصانعَ مدهشة لإنتاج الإنزيمات والهرمونات اللازمة للحياة ونظم نقلٍ وخطوطَ أنابيب معقدة لنقل المواد الخام والمنتجات ومختبرات بارعة ومحطات تكرير تحلل المواد الخام إلى أجزائها الأبسط وبروتينات حراسة متخصصة تغلف أغشية الخلية لمراقبة المواد الداخلة والخارجة وبرنامج بالمعلومات الضرورية لتنسيق الأعمال في وقتها , فهل يُبني هذا كله ذاتيا صدفة ! .

(460/577)

وقد رأى البعض بحساب الاحتمالات أنه أيسر لقرد يعبث بمفاتيح آلة كاتبة أن يصنع قصيدة صدفة من صنع بروتين واحد صدفة فما بالك بالنظام والتخطيط والتصميم البديع الذي نراه في كل الكائنات الحية وجميع التكوينات في الكون أجمعه, ووفق الموسوعة العلمية البريطانية فإن اختيار كل الأحماض الأمينية Amino Acids وهي أساس تكوين البروتينات لتكون عسراء الاتجاه صدفة بلا تدخل واع أشبه بقذف عملة معدنية في الهواء مليون مرة والحصول دائماً على نفس الوجه !, ونشأة خلية حية واحدة من ذاتها يعد احتمالا مستحيلا مثل احتمال قيام القرد بكتابة تاريخ البشرية كله على آلة كاتبة بلا أخطاء, ويعني هذا أن خلية حية واحدة تتحدى مقولة الصدفة, وقد بين السير فِرِد هويل Sir Fred Hoyle في مقالة نشرت عام 1981 أن احتمال ظهور أشكال الحياة صدفة يقارن بفرصة قيام سيل يمر بساحة خردة بتجميع طائرة بوينج 747 صالحة للطيران, والنتيجة التي يقود إليها العلم والمنطق وليس الإيمان فحسب هي أن كل الكائنات الحية قد جاءت بتخطيط واعي وقصد أكيد, ومن يظل معتقدا في عصرنا بالفلسفة المادية بعد ما دحضها العلم في مجالات علمية شتى عليه ألا يحسب نفسه من المحققين, قال ماكس بلانك : "ينبغي على كل من يدرس العلم بجدية أن يقرأ العبارة الآتية على باب محراب العلم : (تَحلَّى بالإيمان) ", وقال الدكتور مايكل بيهي : "على مدى الأربعين سنة

الماضية اكتشف علم الكيمياء الحيوية . . أسرار الخلية، وقد استلزم ذلك من عشرات الآلاف من الأشخاص تكريس أفضل سنوات حياتهم . . وقد تجسدت نتيجة كل هذه الجهود المتراكمة . . لدراسة الخلية . . في صرخة عالية واضحة حادة تقول : التصميم المبدع ! والتصميم الذكي المبدع يؤدي حتماً إلى التسليم بوجود الله"* .

(461/577)

والتبصر في الأسماك والنباتات والحشرات والطيور وحيوانات البر وهي غافلة عنه يعني وجود توجيه وقصد لم تفرضه ضرورة وإنما أملته إرادة عليا تعلم بكل شيء فأعدت للحدث قبل وقوعه, فأقدام البط تمتلك غشاء منذ خروجه من البيض وليس وليد محاولة العوم, والثدي يمتلئ بلبن سميك Colostrum قبيل ولادة الجنين وكأنه على علم مسبق بموعد الولادة, ولا يقل التصميم الذكي في خلية أميبا عن التصميم في خلق فيل فهي تقوم على ضآلتها بنفس الوظائف؛ بل كلما دقت الصنعة اتضح الإبداع وتجلى الإعجاز, فلا يهم إذن هل هو تطوير أم تنويع طالما أدرك النبيه التوجيه والقصد , فهل طال أنف الفيل تطويرا أم تنويعا ليصنع خرطوم كبير قادر على مسك الأشياء !, وهل اختارت بطانة المعدة إفراز حامض ليهضم الغذاء قبل أن تمتصه الأمعاء !, وهل طورت الشجرة نفسها لتسقط

الأوراق قبل فصل الشتاء فتحافظ على الغذاء أم هو التقدير والقصد !, وقد وصف تشاندرا كراماسنغي الحقيقة بقوله : "تعرض دماغي لعملية غسيل هائلة كي أعتقدَ أن العلوم لا يمكن أن تتوافق مع أي نوع من أنواع الخلق المقصود . . (ولكني الآن) لا أستطيع أن أجد أية حجة عقلانية تستطيع الوقوف أمام وجهة النظر المؤمنة بالله . . الآن ندرك أن الإجابة المنطقية الوحيدة للحياة هي الخلق وليس الخبط العشوائي غير المقصود", وطريق معرفة آلية التنويع هو البحث العلمي, ولكن بدء النشأة وتجددها في الأحياء والوظائف المحددة لكل تركيب خلوي وانسجام كل عضو مع مثيله وتناسب كل زوج مع بيئته ونظيره هو عند النابهين دليل أكيد على الخلق والتوجيه مهما كانت الكيفيات, وهذا ما يعلنه القرآن الكريم ولا يصعب إدراكه حتى على البسطاء : "سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى" الأعلى 1-3 .

(462/577)

وتحت ضغط الحقيقة أقرت مصطلحات علمية مبدأ الخلق مثل التصميم الذكي Intelligent Design والكون الذكي Intelligent universe والتطور المبرمج Programmed Evolution والتطور الموجه بوعي Rational

Directed Evolution وكلها تفصح عن تنظيم وتوجيه بلا فوضى وإنما تقدير Predestination فتعلن أن العلم يقود للإيمان, قال الفيزيائي هاوكنج Hawking : "ليس كل تاريخ العلم إلا التحقق التدريجي من أن الأحداث لم تقع بطريقة اعتباطية بل تعكس ترتيب ونظام ضمني أكيد" (1) , وقال : "طالما أن للكون بداية (واحدة أكيدة) فحتما لا بد من خالق (واحد) " (2) , وقال الشيخ جوهري : "هذا النظام الجميل شاهد عدل على إله نظمه بعلمه وأحكمه بقدرته فإن هذا العالم المشاهد لا يمكن أن يصدر إلا عن إرادة لأن المادة عمياء جاهلة والجاهل لا يعطي علما" (3) , والقرآن الكريم يدعو لتأمل تلك الحقيقة وراء الخلق : "أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِيءُ اللّهُ الْخَلْقَ ثُمّ يُعِيدُهُ إِنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمّ اللّهُ يُنشِىءُ النّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" العنكبوت 19و20 .

(2) لطمات في تاريخ الداروينية :

دلت أقدم المتحجرات Fossils التي بلغ عمرها حوالي 600 مليون سنة على أن الحياة ظهرت بأشكال عديدة فجأة حتى وصف ظهورها بالانفجار Explosion, وظهرت بهيئات بسيطة أولا من اللافقاريات Invertebrates ولكنها معقدة التركيب ابتداء بحيث امتلك بعضها عيون ذات عدسات كالفقاريات Vertebrates, ولا يعلم أحد حتى اليوم على وجه اليقين كيف ظهرت هذه الأنماط المعقدة دون أسلاف سابقة

انحدرت منها , ومع هذا التنويع الهائل لا يمكن تفسير نشأة أشكال الحياة إلا بخطوات مقررة مسبقا في سجل خطة الخلق محددة الخطوات عند نشأة الكون نفسه بلا سبق مادة منذ نحو : 10-15 بليون سنة .

(463/577)

وطبقا للداروينية تكونت للأسماك أقدام بدل الزعانف وخرجت للبر لتكون البرمائيات ثم الزواحف ثم الطيور والثدييات, ولكن الفك السفلي للثدييات يتكون من عظمة أما في الزواحف فتوجد ثلاث عظام صغيرة على جانبي الفك السفلي, وكل الثدييات لديها ثلاث عظام في أذنها الوسطى هي المطرقة والسندان والرِّكاب بينما توجد عظمة واحدة في الأذن الوسطى لدى كل الزواحف, فإذا كان عدد العظام مقياسا للتطور فأيهما أكثر تطورا : ذوات العظام الثلاثة أم العظمة الواحدة أم أن الكل مؤهل في أقصى درجات الكمال بما يناسبه والتسلسل في ظهور الكائنات وانقراضها ما هو إلا تجدد في الإبداع بروعة مذهلة ! .

وقد تنبأ دارون قائلا : "إذا كانت نظريتي صحيحة فمن المؤكد أن هناك أنواعاً وسيطة لا حصر لها . . ولا يمكن أن تتوفر أدلة على وجودها في الماضي إلا بين بقايا المتحجرات" ,

ومنذ القرن التاسع عشر يبحث أنصاره عن حلقة مفقودة بلا جدوى فتسببوا دون قصد في تكذيب نبوءته وإن ملئوا الساحة برسوم ظنية وأفلام خيالية للتأثير على العامة ولكنها تفتقر لأدلة علمية, فالمشكلة الأساسية في إثبات الداروينية تكمن في سجل المتحجرات نفسه فلم يكتشف قط أية آثار للحلقات الوسيطة بين الأنواع وعوضاً عن ذلك تظهر أجناس وتختفي أخرى, وقد اكتشفت متحجرة سمكية لها ما يشبه الرئة البدائية قدر عمرها بحوالي 410 مليون سنة سموها كولاكانث Coelacanth وافترض أنها الحلقة الوسيطة بين الأسماك والبرمائيات, ولكن في 22 ديسمبر عام 1938 اصطيدت من المحيط الهندي أول سمكة حية من نفس النوع فتبين أنها لا تعيش قريبا من السطح لتغزو اليابسة وإنما على عمق لا يقل عن 180 مترا وأن ما حيك حولها من وجود رئة بدائية لجعلها حلقة وسيطة مجرد افتراء .

(464/577)

ويشكل تركيب الطيور خاصة الأجنحة ذات الريش والعظام الخفيفة عائقا كبيراً لفرضية دارون, فمن غير الممكن أن تكون قد تشكلت جميع تركيبات الطيور المطلوبة للطيران على انفراد تدريجياً هكذا صدفة عن طريق تراكم تغييرات موجهة في الإتجاه الصحيح دوما ,

وافترضت الحلقة الوسيطة بعد ظهور الديناصورات مع العثور على بقايا متحجرة لما يشبه ديناصور صغير له أجنحة سموه الأركيوبتركج Archaeopteryx يشتبه عدم نمو عظمة القص عنده وبالتالي عضلات صدره بما يكفي للطيران، ومع اكتشاف متحجرة عام 1992 تبين أنه ليس إلا طائرا منقرضا من ذوي الأسنان بعظمة قص عادية وريش وهو من ذوات الدم الحار بعكس الديناصور الذي يخلو بعضه من الأسنان, ومثله في وجود مخالب الأجنحة للتمسك بالأشجار كمثل بعض الطيور اليوم مثل طائر التاووراكو Taouraco وطائر الهواتزن Hoatzin، واكتشفت في الصين عام 1995 متحجرة لطائر معاصر له بلا أسنان سموه كونفوشيوسورنيس Confuciusornis مما ينفي أن الأسنان بالضرورة سمة للزواحف*, والخفاش يطير كذلك وهو حيوان ثديي ينتمي إلى فصيلة تختلف كل الاختلاف عن فصيلة الطيور, والحوت يسبح مع الأسماك وهو أيضا حيوان ثديي يختلف عن الأسماك, ولا سبيل لتفسير هذا التنوع البديع المعجز إلا القدرة المبدعة الخلاقة التي أتقنت كل شيء .

(465/577)

وكانت الضربة القاصمة للداروينية مع اكتشاف توريث صفات Traits كل نوع بما يحفظ خصائصه, وفي محاولة يائسة افترضت عام 1941 الطفرة Mutation ضمن النظرية التركيبية الحديثة للتطور The Modern Synthetic Evolution Theory, وسميت فرضية التطور البطيء التدريجي نتيجة تراكم تغييرات جينية باسم "الداروينية الجديدة New Darwinism", ولكن ثبت أن الطفرة لم تأت بكائن جديد وإنما بمسخ عقيم إذا لم تكتف بتخريب وظائف الجينات في الحامض النووي الذي يحفظ الصفات, وقد باءت كل المحاولات بفشل ذريع حتى في الإتيان بميزة نافعة واحدة جديدة, فأُدخلت الطفرات على ذبابة الفاكهة Drosophila جيلاً بعد جيل لأكثر من خمسين سنة فلم ينتج سوى التشوهات ولم تخرج ذبابة واحدة قط بصفة واحدة جديدة محمودة، وأما نتيجة إحداث الطفرات على الإنسان فالمثال الحي ما حدث للسكان الأبرياء في هيروشيما وناجازاكي عام 1945 حيث لم يكتسب ناج بعد إلقاء القنبلتين النوويتين أي صفة وراثية محمودة سوى التشوهات التي طالت الأجنة في بطون الأمهات وإصابة مختلف الأعمار بالسرطان, وفوق ذلك لم يعثر على أي من الأشكال الانتقالية التي من المفترض أن تدعم التطور التدريجي, وكشف التشريح المقارن كذلك أن الأنواع التي يفترض أنها تطورت بعضها من بعض تتسم بسمات تشريحية بعيدة الاختلاف مما يستبعد

الانتقال التدريجي, ولذا استبدل بفرضية التطور بقفزات كبيرة متفرقة في بداية السبعينيات .

(466/577)

فاقترح بعضهم على سبيل المثال أن أول طائر خرج من بيضة إحدى الزواحف كطفرة هائلة؛ أي نتيجة صدفة ضخمة حدثت في التركيب الجيني, ولكن الطفرات لا تؤدي سوى إلى تلف المعلومات الوراثية ومن ثم فإن الطفرات الكبيرة لن ينتج عنها إلا تلفيات كبيرة، ولكن هل نشأت الحياة ذاتها كطفرة فجائية كبيرة ! وهل نشأ الكون ذاته كذلك كطفرة ضخمة !, ومضمون الداروينية الجديدة تراكم طفرات عشوائية في التركيب الجيني تدريجيا أو فجائيا ويتم انتقاء سمات أنفع بآلية الانتقاء الطبيعي كأساس للتطور !, ولكنها بوجهيها كالداروينية القديمة تماما لم تكن نظرية علمية أبداً بل كانت مبدأ فلسفي يروج للإلحاد بخفاء حذر, ولو صح الانتقال التدريجي أو الفجائي في نشأة الأنواع فلن يكون ذلك مصادفة بل كعمليات خلق موجهة بوعي .

(3) التزوير في تاريخ الداروينية :

يقوم الداروينيون بإعادة البناء بالرسوم أو النماذج استناداً إلى بقايا المتحجرات باستخدام

التخمين، ويمكنك أن تشكل من جمجمة نموذجا بملامح شمبانزي أو بقسمات فيلسوف ولذا لا تحظى بأي قيمة علمية وإن ضللت العامة, وتعد الرسوم الثلاثة المختلفة لمتحجرة القرد الأفريقي الجنوبي القوي) Australopithecus robustus (Zinjanthropus مثالاً شهيراً لمثل هذا التزييف .

(467/577)

ومع ذلك فإن هذه الحيل تبدو بريئة إذا ما قورنت بأعمال التزييف المتعمدة التي ارتكبت في تاريخ الداروينية, فلا يوجد دليل حفري موثوق على وجود حلقة وسيطة بين الإنسان وأقرب الثدييات شبها , فادعى تشارلز داوسون عام 1912 الحلقة المفقودة بعثوره على جزء من جمجمة وعظمة فك داخل حفرة في بيلتداون بإنكلترا فسماه إنسان بِلْتْداون Piltdown Man, وعرضت العينة في المتحف البريطاني بزعم أن عمرها خمسمائة ألف سنة وكُتب عنهما ما لا يقل عن خمسمائة رسالة دكتوراه، ولم تكتشف الخدعة إلا عام 1949 عندما اختبر المتحف عمرها بطريقة الفلورين فتبين أن الجمجمة عمرها نحو خمسمائة سنة والفك حديث العهد يرجع لقرد والأدوات الحجرية الموضوعة معهما مقلَّدة فأعلنت الفضيحة عام 1953 على الجمهور .

وفي عام 1922 أعلن مدير المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي عن عثوره على ضرس متحجرة في نبراسكا يحمل صفات مشتركة بين الإنسان والقرد، فسماه البعض إنسان نبراسكا كما أُعطي له في الحال اسماً معقدا صعب النطق حتى يضفي نوعا من العلمية هو هسبيروبايثيكوس هارولد كوكي Hesperopithecus Haroldcooki, واستناداً إلى الضرس الأوحد رُسمت الرأس وأعيد بناء الجسد تخمينا بل تم رسمه مع زوجته, ولكن في عام 1927 عُثر على أجزاء أخرى من نفس الهيكل العظمي وتبين أن ذلك الضرس الأوحد يخص نوعاً منقرضاً من الخنازير البرية يسمى بروثينوبس Prosthennops.

(468/577)

وشجرة عائلة الإنسان المزعومة تمتد إلى القرد الأفريقي الجنوبي Australopithecus, ومنه نشأ الإنسان مستخدم الأدوات Homo habilis ثم الإنسان منتصب القامة Homo erectus, وأخيرا ظهر الإنسان العاقل Homo sapiens, وأما التصورات الحديثة بنشأة الإنسان في غير أفريقيا أو أنه

عاش بجانب القرد الأفريقي فهي دليل على التخبط, والطريقة التي تتحرك بها القردة أسهل وأسرع وأكفأ من مشية الإنسان على قدمين فهو لا يستطيع أن يتحرك بالقفز بين الأشجار, ووفقاً لمنطق نظرية التطور كان حرياً به من هذا الجانب أن يتطور ليصبح من ذوات الأربع, وتبلغ أنواع القردة أكثر من ستة آلاف نوع لم يتبق منها اليوم سوى حوالي مئة وعشرين نوعاً فقط وتمثل البقية المنقرضة مصدراً ثرياً لتزييف الحقائق, والمتحجرات التي يدّعى أنها أسلاف للإنسان فإنها إما تخص قرودا منقرضة أو تخص أجناساً بشرية قديمة عاشت حتى فترة قريبة ولها نفس الهيئة والصفات الجسدية لبعض المجتمعات البشرية اليوم, وفي البحث الحديث الذي أجري في عام 1994 حول قنوات التوازن في الأذن الداخلية تم تصنيف القرد الجنوبي والإنسان مستخدم الأدوات ضمن فئة القردة بينما صُنّف الإنسان منتصب القامة ضمن فئة البشر, وأشهر العينات المكتشفة في أفريقيا ونسبت زورا للإنسان منتصب القامة هي تلك التي عُثر عليها قرب بحيرة توركانا في كينيا ثم تبين لاحقا أنها لغلام في الثانية عشر من عمره لذا سميت متحجرة غلام توركانا Turkana Boy, وما سموه بالنياندرتاليين Neanderthals هم جنس بشرى قد أثبتت الكشوف أنهم كانوا يدفنون موتاهم ويصنعون الآلات الموسيقية, وإذا كانت سعة الجمجمة معيارا للذكاء فالإنسان الكرومانيوني Cro-Magnon أكثر ذكاء من الإنسان حاليا

لأن سعة جمجمته أكبر* .

(4) فلسفة استعمارية :

(469/577)

افترض داروين صراع قاس من أجل البقاء في الطبيعة تزول معه أشكال ضعيفة لم تتكيف مع بيئتها تتولد ذاتيا دوما وتبقى أخرى نجحت الصدفة في إبداعها بطريقة أحكم, وبذلك يكون التطور سلسلة من المنتخبات تميزت فيها الأنواع عبر حلقات وسيطة عديدة, ولذا كان العنوان الكامل لكتابه الأول الذي نشر عام 1859 واشتهر باسم "أصل الأنواع" هو : "أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي أو الحفاظ على الأجناس المفضلة في الصراع من أجل الحياة The Origin of Species by Means of Natural Selection or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for life", ولكن علم الأحافير قد قدم ضربات أليمة لفرضية دارون فقد استنفذ الجهد ولم يعثر على أي حلقة وسيطة قط وفعل علم الأحياء نفس الشيء ولم يعثر على كائن واحد قط من أصغر خلية إلى أكبر حيوان غير متكيف مع بيئته تشريحيا ووظيفيا وسلوكيا .

وفي كتابه الثاني "سلالة الإنسان The Descent of Man" قدم داروين عام 1871 مزاعم حول تطور الإنسان من كائنات شبيهة بالقرود, فبدأ البحث والتنقيب ليس عن متحجرات فحسب بل عن سلالات بشرية حية تمثل الحلقات الوسيطة, فقام أحدهم عام 1904 في الكونغو باصطياد رجل أفريقي متزوج ولديه طفلين، وبعد تقييده بالسلاسل ووضعه في قفص كالحيوان نُقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تم عرضه على الجمهور في إحدى حدائق الحيوان تصحبه بعض القردة بوصفه أقرب حلقة انتقالية للإنسان الغربي الأبيض, وأخيرا انتحر الرجل المسالم الذي كان يسمى بلغته المحلية أوتا بينجا Ota Benga بمعنى : الصديق*, وليس من قبيل الصدفة أن يُكتب في بروتوكولات حكماء صهيون العبارة التالية : "لاحظوا هنا أن نجاح داروين Darwin . . قد رتبناه من قبل والأمر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي (غير اليهودي) سيكون واضحاً لنا على التأكيد " (4) , والزعم بصراع حضارات الأجناس البشرية ليس إلا غرضا استعماريا يتخفى بعباءة علمية زائفة ومضمونه تمييز عنصري, وهو جد الزعم بالإنسان الأمثل Superman سليل الإنسان الغربي الأبيض الذي يسود

وتنقرض بقية الشعوب أو تصبح له عبيد , وما زالت البشرية تدفع ثمنا باهظا نتيجة لهذه الأفكار الزائفة التي جعلت دولا معاصرة تمارس همجية الغاب بادعاءات كاذبة .

(5) رأي الكنيسة :

اعتمادا على سفر التكوين geneses رفضت الكنيسة الداروينية ليس لسبب تجاهل تدبير الله فحسب وإنما لمصادمة نصوص يستحيل حملها على التطور تدل على أن آدم هو اسم أول إنسان على الأرض وأنه خلق مباشرة من ترابها بلا أطوار تسبقه : "وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حيّة" تكوين 7 , وأنه فقد ضلعا خُلقت منه امرأته مباشرة : "فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم" تكوين 21و22 , ولذا اختارت الكنيسة رفض التطور بحزم وإلا شككت في صحة التدوين .

(6) رأي الباحثين المسلمين :

رفض جُل الباحثين المسلمين الداروينية إجمالا باعتبارها أحد شباك الإلحاد كما يُرفض الطعام كله إذا خالطه سم, قال الدكتور أحمد أبو خطوة : "نحن كمسلمين لا نتفق إجمالا مع نظرية التطور إن لم تُدخل في اعتبارها القدرة والمشيئة الإلهية" (5) , واكتفى البعض برفض الصدفة وتوقفوا في إمكان الأطوار المقدرة كتفسير للتنويع الهائل في أشكال الكائنات الحية على الأرض, فوافقوا نظريات حديثة تجعل التقدير أساسا للتطور إن صح كمقولة التطور الموجه بوعي Rational Directed Evolution وتجنبوا الخوض فيما لم يفصل فيه العلم بعد ؛ فقد جاء في فتاوى الأزهر : "ورد أن اللّه خلق الإنسان نوعا مستقلا لا بطريق النشوء والاشتقاق من نوع آخر ، وإن كان كلا الأمرين من الجائز العقلي الذي يدخل تحت قدرة اللّه تعالى ، قال بعض العلماء : إنه لا يوجد فى النصوص أن الله خلق الإنسان الأول من تراب دفعة واحدة أو بتكوين متمهل على انفراد فسبيل ذلك التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين حتى يقوم الدليل القاطع عليه فنعتقده ما دام أن الذي فعل ذلك كله هو الله تعالى, ثم إن النواميس المذكورة فى مذهب داروين ظواهر واضحة في الكون ولا حرج في اعتقادها ما دام أن الله هو الذي خلقها ووجهها فهي لا تحقق وجودها من نفسها : ﴿ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبّكُمْ لآ إِلَهَ إِلاّ هُوَ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ ﴾ الأنعام 102 ، فهو خالق المادة والنواميس" (6) , " (ولكن) قولهم إن المخلوقات خُلقت عشوائيا بغير

تدبير سابق وعلم محكم يرده قول الله سبحانه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر 49" (7) .

(473/577)

وقال الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم : "يقرر العلم الحديث أن الحياة ظهرت على هذه الأرض أول ما ظهرت على شواطئ المسطحات المائية حيث يتكون بجوارها الطين الذي نشأ منه . . النبات فالحيوان فالإنسان وأن هذا التطور في حالات الطين وأشكاله . . حدثت عبر ملايين السنين حتى أثمرت . . وكان أكمل وأكرم ثمره من ثمارها في النهاية هو الإنسان, والقرآن الكريم لم يبين لنا كيف تفرعت هذه الشجرة حتى كان الإنسان أحد فروعها ولكنه أشار في أكثر من آية إلى الصلة الوثيقة بين الإنسان وعالم الأحياء الناشئ من الماء الممزوج بالتراب, ففي قوله تعالى : "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ" النور 45, وقوله سبحانه : "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" الأنبياء 30؛ دلالة قوية على أن الأحياء كلها ومنها الإنسان مخلوقة من مادة واحدة هي الماء" (8) ,

وقال سيد قطب : "شطر الآية . . "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" الأنبياء 30؛ . .

يقرر . . حقيقة . . أن الماء هو مهد الحياة الأول . . وأقصى ما يُقال . . إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات" (9) .

(474/577)

وساق البعض نقولا عن علماء مسلمين تصرح بأن التدريج مع التنويع وتطور الأشكال ظاهرة واضحة في الكون ولا تُعارض أن الله تعالى هو المدبر وإنما تُبين كيف بدأ الخلق, فغاية الوجود معرفة الله وعبادته ولذا كانت الوجهة منذ خلق الكون والأرض هي إيجاد الإنسان صاحب الفكر ليقوم بالمهمة, والتطوير دليل على التقدير وإلا ما كانت الوجهة دائما نحو الأرقى, قال ابن خلدون : "أنظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج, آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف . . , ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر" (10) , وقال البروسوي : "يكون الإنسان في زمرة الجمادات وأول نعمة عليه أن الله تعالى كرمه فنقله من عالم الجماد إلى عالم

النبات ثم عظم شأنه فنقله من عالم النبات إلى عالم الحيوان فجعله حساسا متحركا بالإرادة ثم نقله إلى عالم الإنسان فجعله ناطقا وهي نعمة أخرى أعظم مما سبق" (11) , وفي تفسير الميزان : "العناية الإلهية تهدي أنواع النبات والحيوان إلى كمال خلقها وغاية وجودها" (12) .

(475/577)

ولكن علماء الإسلام لم يستخدموا كلمة التطور Evolution على نحو ما تعنيه في الداروينية وإنما بمعنى الترقي المتدرج في التنويع بيانا لوحدانية الله تعالى وقدرته, فوحدة الخلق في الأصل والطبيعة دليل على وحدانيته وطيف التدرج الواسع في التنويع دليل على قدرته تعالى, قال جوهري : "سنة التطور والارتقاء . . تجري عليها الطبيعة في جميع أركانها من الذرة . . إلى النظام الشمسي" (13) , و"سنة الكون الترقي من أسفل إلى أعلى" (14) . . "لا يُخلق الأعلى إلا بعد خلق الأدنى فلم يُخلق الحيوان إلا بعد خلق النبات ولم يُخلق الإنسان إلا بعد خلق الحيوان" , ولكن "شعار الكون هو ذا : الوحدة في التفنن, فإن صعدت في سلم العوالم وجدت وحدة النظام والخلقة مع تفنن لا يعرف حده في تلك الأجرام الفلكية, وإن أجلت بنظرك في مراتب الحياة من (أدنى) الكائنات إلى أعلاها

وجدت وحدة التناسب والتسلسل, كذلك القوى الطبيعية كلها صادرة بالتسلسل عن قوة أصلية واحدة" (15) , وقد "خلق اللهُ العالم من مادة واحدة ليستدلوا على (وحدانيته) وقدرته" (16) , وفي بيان الحكمة وراء خلق الجنين الإنساني في أطوار قال ابن عاشور : "التطور هو مقتضى الحكمة وهي من شؤون العلم وإبرازهُ على أحكم وجه هو من أثر القدرة" , و"الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته فإن تطور الخلق . . والذاتُ واحدة . . دليل على تمكن الخالق من كيفيات الخلق والتبديل في الأطوار" (18) , وقال سيد قطب : "ليس هناك ما يمنع من وجود أنواع من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض بفعل الظروف السائدة في الأرض ومدى ما تسمح به من وجود أنواع تلائم هذه الظروف السائدة حياتها ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة, ولكن هذا لا يحتم أن يكون بعضها متطوراً من بعض" (19) .

(476/577)

وتجنب آخرون المأثور وسلكوا مسلك التأويل على وجه غير شائع في التفسير بغير جزم, فقالوا مثلا : الزواحف تمشي غالبا على بطنها كالتمساح لثقله وتمشي الطيور على رجلين والثدييات على أربع؛ فإذا كان هذا هو ترتيب خلق أنواع الحيوان قبل الإنسان فهو نفس

الترتيب مع بيان وحدة الأصل في قوله تعالى : "وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" النور 45, ولم يقل القرآن بأن الطين أصل مباشر للإنسان بل جعله بداية فحسب : "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ" السجدة 7، ولم يعتمد القرآن رواية الضلع المفقود وإنما أفاد اصطفاء آدم كالأنبياء من بين أقوامهم وبقية الأجناس مما يحتمل أنه نبي جد رأس أمة : "إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ" آل عمران 33, وفي قوله تعالى : "إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" آل عمران 59؛ قد يقال أن عيسى كآدم وكانت نشأته مباشرة فكذلك يجب أن تكون نشأة آدم من التراب مباشرة, ولكن لا توجد دلالة صريحة على خلق آدم فجأة وإنما المقام بيان للاقتدار فالمثلية في الاقتدار وظاهر المعنى أن الذي قدر على إيجاد آدم من تراب رغم الفرق الشاسع بينهما أهون عليه خلق عيسى نظيره بلا أب, وتقدير خلق آدم أطوارا يعمق الفرق ويبين القصد ويجلي الاقتدار, والقول بخلق الإنسان أطوارا يفيد أن خلقه هو المقصود على طول أطوار خلق العالم, ولذا يرجعه القرآن عند التفصيل إلى صلصال أو طين لازب, وفي قوله تعالى : "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ" الحجر

الحمأ المسنون أشبه ما يكون بصخر ناري طحنته السنون وكلها أحوال مرت بها الأرض, وعندما يحدثك القرآن قائلا : "خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ" العلق 2؛ فلا يعني خلق الجنين مباشرة مما يماثل علق البرك وكذلك النوع, وقوله تعالى : "خُلِقَ الإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ" الأنبياء 37؛ يرجع الإنسان للحالة الأولى للكون حيث لم تكن مادة وإنما موجة أو اهتزازة تتردد في عجل كتعبير عن الشيء بلازمه, والمقام يتعلق بمادة خَلقه وطبيعته بعكس السائد أنه وصف لخُلُقه وطبعه نحو قوله تعالى : "وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً" الإسراء 11, ولكن الفيزياء نجحت بالفعل في إثبات توحد معظم القوى وتسعى جاهدة لإثبات توحدها جميعا في حالة سميت بالتوحد الكبير super unification أساسها قوة واحدة سميت بالقوة الكبرى Super Force قد نشأت منها كل القوى والمواد وتطورت أشكال الذرات والمجرات وأخيرا ظهر الإنسان, وفي قوله تعالى "مّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً" نوح 13و14؛ قالوا : لا قيد يخصص الوصف بأطوار الجنين وظاهره مجموع النوع الإنساني منذ كان نباتا خاصة مع الاستطراد بعده بآيتين : "وَاللّهُ أَنبَتَكُمْ مّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً" نوح 17, قال الجاعوني : "الكلام مسوق سوق الحقيقة من غير تشبيه واستعارة . . (و) استدلّ بها (الشيخ الوائلي) على أنها قد تشير إلى خلق الإنسان التدريجي من طور إلى

آخر . . (وقال) هذه النظريّة أي تطوّر النبات إلى حيوان ثمّ إلى إنسان . . إذا قلنا . . عفوًا (أي ذاتيا صدفة؛ فهي) مرفوضة من أساسها . . (لأنه) لا شيء عفوًا بل بإرادة الله, (و) إذا قلنا . . (بتقدير) الخالق . .

(478/577)

لا عفوًا فلا ضير من ذلك" (20) , ومجمل القول أنه لو ظهر يوما ما بمعزل عن الداروينية دليل يرجح التطور بتقدير الله فالإسلام لا يصادم حقيقة مطلقًا أما اليوم فالدليل مفقود, والاستنصار لنشأة الإنسان خاصة من الحيوان بلا دليل علمي يؤيد تحوله ولا قرينة صارفة لظواهر المأثور سيظل كذلك ادعاء محل شك, ويسبق القرآن في بيان أول حالة للكون دليلا على الوحي وتأكيدا لخلق الإنسان بتقدير وقصد مهما كانت الكيفيات كحلقة متميزة من جملة حلقات موجهة بوعي منذ البدء؛ وذلك وفي قوله تعالى : "خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ" الأنبياء 37 .

1. " The whole history of science has been the gradual realization that events do not happen in an arbitrary manner, but that they reflect a certain underlying order". (Brief history of Time, page 140

)

2. " So long as the universe had a (Certain one) Creator (Certain one) it had a .. beginning ."(

Brief history of Time, page 122)

3. تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج21ص259 .

4. بروتوكولات حكماء صهيون, البروتوكول الثاني .

5. د . أحمد نبيل أبو خطوة العدد الخامس من مجلة الإعجاز العلمي .

6. فتاوى الأزهر ج7ص399 .

7. فتاوى الأزهر ج7ص412, مجلة الأزهر ج2ص749, مجلة الهداية البحرين عدد مارس 1993 .

8. القرآن وإعجازه العلمي – الأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم ج 1ص97 .

9. في ظلال القرآن لسيد قطب المتوفى سنة 1386 هـ ج5ص155 .

10. مقدمة ابن خلدون ج1ص40 .

11. تفسير حقي البروسوي المتوفى سنة 1137 هـ ج13ص71 .

12. تفسير الميزان للطباطبائي المتوفى سنة 1402 هـ ج9ص293 .

13. تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج7ص140 .

14 . تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج2ص48 .

15 . تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج2ص180 .

16 . تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري ج1ص146 .

(479/577)

---

17 . تفسير الطاهر بن عاشور المتوفى سنة 1393هـ ج11ص101 .

18 . تفسير الطاهر بن عاشور المتوفى سنة 1393هـ ج15ص337 .

19 . في ظلال القرآن لسيد قطب المتوفى سنة 1386 هـ ج3ص195 .

20 . النشوء والارتقاء ورؤية القرآن للخلق – تاج الدين محمود الجاعوني .

(*) خديعة التطور – عدنان أوكطار (هارون يحيى, جاويد يالجن) :

المرجع الرئيس للمعلومات العلمية باختصار وتصرف .

.

.

.

0-آيات الله في الله في النمل جـ 1

إعداد وجمع فراس نور الحق

قال تعالى : (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿ 17 ﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ 18 ﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ . .) (سورة النمل : 19.17) .

تصف هذه الآيات الكريمة موكب سليمان المهيب وحوله جنده من الجن والإنس والطير، وعند اقترابه من وادي النمل، وإذا بنملة تحمل هموم شعبها تتنبه للخطر القادم سوف يهدد أفراد قومها نتيجة وطء أقدام سليمان وجنده، فانبرت مخاطبة أفراد قومها بقولها يا أيها النمل وتأمرهم دخول مساكنكم حتى لا يدوسهم سليمان وجنوده وهم لا يشعون فقد نصحت قومها وبينت لهم مكمن الخطر وأمرتهم بالدخول واعتذرت عن سليمان وجنوده فهم صالحون لا يتعمدون إيذاء أي مخلوق ولو كان نملة صغيرة .

الإعجاز العلمي :

1 . ذكر القرآن كلمة نملة بلفظ المؤنث : قَالَتْ نَمْلَةٌ .

فقد ثبت علمياً أن النملة الأنثى العقيمة هي التي تقوم بأعباء المملكة من جمع الطعام ورعاية

الصغار والدفاع عن المملكة وتخرج من الخلية للعمل، أما النمل المذكر فلا يظهر إلا في فترة التلقيح ولا دور له إلا في تلقيح الملكات .

(480/577)

---

2 . وجود لغة تفاهم بين أفراد النمل : قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .

فقد أكتشف العلماء أن للنمل لغات تفاهم خاصة بينها وذلك من خلال تقنية التخاطب من خلال الشفرات الكيماوية وربما كان الخطاب الذي وجهته النملة إلى قومها هو عبارة عن شيفرة كيماوية .

فقد أثبتت أحدث الدراسات العلمية أن لكل نوع من أنواع الحيوانات رائحة خاصة به، وداخل النوع الواحد هناك روائح إضافية تعمل بمثابة بطاقة شخصية أو جواز سفر للتعريف بشخصية كل حيوان أو العائلات المختلفة، أو أفراد المستعمرات المختلفة .

ولم يكن عجيباً أن نجد أحد علماء التاريخ الطبيعي (وهو رويال وكنسون) قد صنف كتاباً مهماً جعل عنوانه " شخصية الحشرات" .

و الرائحة تعتبر لغة خفية أو رسالة صامتة تتكون مفرداتها من مواد كيماوية أطلق عليها العلماء اسم " فرمونات " ، وتجدر الإشارة إلى أنه ليست كل الروائح " فرمونات" ، فالإنسان

يتعرف على العديد من الروائح في الطعام مثلاً ولكنه لا يتخاطب أو يتفاهم من خلال هذه الروائح، ويقتصر الباحثون استخدام كلمة " فرمون " على وصف الرسائل الكيماوية المتبادلة بين حيوان من السلالة نفسها . وعليه فقد توصف رائحة بأنها " فرمون " بالنسبة إلى حيوان معين، بينما تكون مجرد رائحة بالنسبة لحيوان آخر .

وإذا طبقنا هذا على عالم النمل نجد أن النمل يتميز برائحة خاصة تدل على العش الذي ينتمي إليه، والوظيفة التي تؤديها كل نملة في هذا العش حيث يتم إنتاج هذه الفرمونات من غدة قرب الشرج.

وحينما تلتقي نملتان فإنهما تستخدمان قرون الاستشعار، وهي الأعضاء الخاصة بالشم، لتعرف الواحدة الأخرى .

(481/577)

وقد وجد أنه إذا دخلت نملة غريبة مستعمرة لا تنتمي إليها ، فإن النمل في هذه المستعمرة يتعرفن عليها عن طريق رائحتها ويعدها عدواً ، ثم يبدأ في الهجوم عليها ، ومن الطريف أنه في إحدى التجارب المعملية وجد أن إزالة الرائحة الخاصة ببعض النمل التابع لعشيرة معينة ثم إضافة رائحة خاصة بنوع آخر عدو له، أدى إلى مهاجمته بأفراد من عشيرته نفسها .

وفي تجربة أخرى تم غمس نملة برائحة نملة ميتة ثم أعيدت إلى عشها ، فلوحظ أن أقرانها يخرجونها من العش لكونها ميتة، وفي كل مرة تحاول فيها العودة يتم إخراجها ثانية على الرغم من أنها حية تتحرك وتقاوم . وحينما تمت إزالة رائحة الموت فقط تم السماح لهذه النملة بالبقاء في العش .

وحينما تعثر النملة الكشافة على مصدر للطعام فإنها تقوم على الفور بإفراز " الفرمون " اللازم من الغدد الموجودة في بطنها لتعليم المكان ثم ترجع إلى العش، وفي طريق عودتها لا تنسى تعليم الطريق حتى يتعقبها زملاؤها ، وفي الوقت نفسه يضيفون مزيداً من الإفراز لتسهيل الطريق أكثر فأكثر[1] .

ومن العجيب أن النمل يقلل الإفراز عندما يتضاءل مصدر الطعام ويرسل عدداً أقل من الأفراد إلى مصدر الطعام، وحينما ينضب هذا المصدر تماماً فإن آخر نملة، وهي عائدة إلى العش لا تترك أثراً على الإطلاق .

وهنالك العديد من التجارب التي يمكن إجراؤها عل دروب النمل هذه، فإذا أزلت جزءاً من هذا الأثر بفرشاة مثلاً، فإن النمل يبحث في المكان وقد أصابه الارتباك حتى يهتدي إلى الأثر ثانية، وإذا وضعت قطعة من الورق بين العش ومصدر الطعام فإن النمل يمشي فوقها واضعاً أثراً كيماوياً فوقها .

ولكن لفترة قصيرة، حيث إنه إذا لم يكن هناك طعام عند نهاية الأثر، فإن النمل يترك هذا

الأثر، ويبدأ في البحث عن طعام من جديد .

3 . ذكاء النمل :

(482/577)

لقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة علمية كبيرة وهي ذكاء النمل وقدرته على المحاكمة العقلية والفكرية ومواجهة الأخطار وذلك من خلال هذه القصة التي حدثت مع نبي الله سليمان عليه السلام وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، فقد استطاعت نملة صغيرة من تحديد مكان سليمان والطريق الذي سوف يمر به وهذا لم يكن ليتم لولا هذه القدرات الخارقة التي يتمتع بها النمل .

ولقد كشف العلم الحديث عنبعض العجائب من سلوك النمل الذكي وتطور جهازها العصبي فعند دراسته تحت المجهر يظهر لنا أن دماغ النملة يتكون من فصين رئيسيين يشبه مخ الإنسان، ومن مراكز عصبية متطورة وخلايا حساسة .

وأعلم :

أنا الله تعالى لم يذكر النمل في القرآن الكريم إلا ليلفت انتباهنا إلى عظمة وروعة هذه الكائنات التي يحسبها الإنسان مخلوقات تافهة، ولكنها بحق مخلوقات منظمة ذات قدرات

خارقة، تعمل ضمن خطة عمل واضحة حيث يتوزع العمل على أفراد الخلية، فيقوم كل فرد من أفراد المملكة بواجبه على أكمل وجه من خلال البرنامج الفطري الذي أودعه الله تعالى في دماغه .

4وادي النمل : لقد أشار القرآن أن النمل مخلوقات اجتماعي تعيش في مستعمرات وهي مخلوق متعاون متكاتفة يشعر كل فرد منها بشعور الآخرين ويظهر ذلك في سلوك النملة وفي إنذار قومها وسوف نتعرض لذلك في السطور القادمة . . . .

مجتمع النمل :

يتكون مجتمع النمل من الملكة التي تقوم بإنتاج البيوض والتي تنتفخ وتكبر حتى يصل طولها إلى 9 سم في بعض الأنواع كالنمل الأبيض فتصبح من الصعوبة بمكان أن تتحرك وبما أنها لا عمل لها سوى وضع البيوض توجد مجموعة خاصة من النمل للاعتناء بها وإطعامها وتنظيفها , من الإناث العقيمات التي تقوم بكافة أعمال الخلية من الدفاع ضد الإخطار التي يمكن أن تتهدد الخلية إلى جمع الطعام إلى تنظيف الخلية والرعاية بالملكة الأم واليرقات الصغيرة إلخ . . .

ذكور النمل لها مهمة واحدة في حياتها وهي تلقيح الملكات ولا تظهر على سطح الأرض إلا عند موسم التكاثر وبعد القيام بمهمتها تقتلها الشغلات ذلك أنه في مجمع النمل لا مكان لغير العمال المنتجين .

وادي النمل :

يعيش النمل ضمن مستعمرات يقوم ببنائها وقد يتجاور عدد كبيرة من المستعمرات مكوناً مدينة أو وادياً للنمل كما سماها القرآن الكريم ففي جبال بنسلفانيا إحدى الولايات الأمريكية أكتشف أحد علماء أحد أكبر مدن النمل في العالم، وقد بني معظمها تحت الأرض وتشغل مساحتها ثلاثين فداناً حفرت فيها منازل النمل تتخللها الشوارع والمعابر والطرق، وكل نملة تعرف طريقها إلى بيتها بإحساس غريب .

وتشمل كل مستعمرة من مستعمرات النمل على الطبقات التالية :

1- باب التهوية .

2- مكان الحرس لمنع دخول الغريب .

3- أول طبقة لراحة العاملات في الصيف .

4- مخزن ادخار الأقوات .

5- مكان تناول الطعام .

6- ثكنة الجنود .

7- الغرف الملوكية حيث تبيض ملكة النمل .

8- إسطبل لبقر النمل وعلفه .

9- إسطبل آخر لحلب البقر .

10- مكان تفقيس البيض .

11- مكان تربية صغار النمل .

12- مشتى النمل، وفي يمينه جبانة لدفن من يموت .

13- مشتى الملكة . " [2]

يمكن أن تصل أعماق مملكة النمل في بعض الأنواع التي تعيش في غابات الأمازون إلى (5 أمتار) واتساعها 7 أمتار

تُنشئ النملات فيها مئات الغرف والأنفاق .

يُحفر وينقل قرابة (أربعين طن) من التراب إلى الخارج

الهندسة المعمارية للمملكة لوحدها معجزة من معجزات الخلق .

جمع المواد الغذائية :

ولأعضاء مجتمع النمل طرق فريدة في جمع المواد الغذائية وتخزينها والمحافظة عليها ، فإذا لم تستطيع النملة حمل ما جمعته في فمها كعادتها لكبر حجمه، حركته بأرجلها الخلفية ورفعته بذراعيها ، ومن عاداتها أن تقضم البذور قبل تخزينها حتى لا تعود إلى الإنبات مرة أخرى، وكي يسهل عليها إدخالها في مستودعاتها وهناك بعض البذور التي إذا كُسرت إلى فلقتين فإن كل فلقة ممكنها أن تُنبت من جديد مثل بذور الكزبرة لذلك فإن النمل يقوم بتقطيع بذرة الكزبرة إلى أربع قطع كي لا تنبت، وإذا ما ابتلت البذور بفعل المطر أخرجتها إلى الهواء والشمس لتجف، ولا يملك الإنسان أمام هذا السلوك الذكي للنمل إلا أن يسجد لله الخالق العليم الذي جعل النمل يدرك أن تكسير جنين الحبة وعزل البذرة عن الماء والرطوبة يجعلها لا تنبت .

أبقار النمل :

ويضيف العلم الحديث حقائق جديدة عن أبقار النمل وزراعتها ، فقد ذكر أحد علماء التاريخ الطبيعي وهو (رويال ديكنسون) [3]أنه ظل يدرس مدينة النمل حوالي عشرين عاماً في بقاع مختلفة من العالم فوجد نظاماً لا يمكن أن نراه في مدن البشر، وراقبه وهو يرعى أبقاره، وما هذه الأبقار إلا خنافس صغيرة رباها النمل في جوف الأرض زماناً طويلاً حتى فقدت في الظلام بصرها .

وإذا كان الإنسان قد سخر عدداً محدوداً من الحيوانات لمنافعه، فإن النمل قد سخر مئات الأجناس من حيوانات أدنى منه جنساً .

(485/577)

ونذكر على سبيل المثال " بق النبات " تلك الحشرة الصغيرة التي تعيش على النبات ويصعب استئصالها لأن أجناسها كثيرة من النمل ترعاها ، يرسل النمل الرسل لتُجمع له بيوض هذا البق حيث تعتني به وترعاه حتى يفقس وتخرج صغاره، ومتى كبرت درت هذه اليرقات سائلاً حلواً مؤلف من مواد سكرية يمكن أن نسمها (بعسل النمل) ، ويقوم على حلبه جماعة من النمل لا عمل لها إلا حلب هذه الحشرات بمسها بقرونها ، وتنتج هذه الحشرة 48 قطرة من العسل كل يوم، وهذا ما يزيد مائة ضعف عما تنتجه البقرة إذا قارنا حجم الحشرة بحجم البقرة .

أقرأ المزيد

[1] - كتاب " رحيق العلم والإيمان " الدكتور أحمد فؤاد باشا

(2) المعجزة والإعجاز في سورة النمل : عبد الحميد محمود طهماز، ص 28

[3] كتاب " شخصية الحشرات " لمؤلفه رويال وكنسون .

.

.

.

0-آيات الله في النمل جـ 2

أنواع النمل

النمل يمثل 20% من الكائنات الحية على كوكب الأرض . . وتبلغ أنواعه ما يقرب من 20.000 نوع من النمل تنتشر تقريبًا في كل مكان . . منه من يعيش عمره تحت الأرض . . وآخر يعيش فوقها أو بين الأشجار . . قد تجده في سهول القطب الشمالي . . أو حتى عند خط الاستواء .

النملة الخياطة (Tailor ants)

في غابات أستراليا المطيرة بين هذه الأشجار تعيش أكبرَ مستعمرات المستعمرات النمل في العالم .

تبني النملة الناسجة التي يبلغ طولها (6 مم) مملكتها بنفسها يتم بناء المملكة بفضل تعاون معجز، المواد الأساسية التي تستخدم في بناء هذه الممكلة هي الأوراق .

المرحلة الأولى : تجميع الأوراق في مكان واحد حتى يتسنى لها لصقها ببعضها

ولأجل ذلك تكّون النملات العاملة فيما بينها سلسلةَ حيةَ تُمسكُ بعضها ببعضٍ، وتشد لجهتها الطرف الآخر للورقة، وتستخدم فيها أعجب تقنية .

حيث تقوم بعض الشغالات بحمل يرقة نمل غير ناضجة وتبدأ اليرقة مباشرة بإفراز حرير لاصق .

(486/577)

هذه النملة العاملة كما تنسج الأوارق بمسدسها اللاصق بشكل مكوكي، وتلحم بعضها ببعض .

النملات البالغة غير قادرة على إنتاج الحرير المستخدم كلاصق، وحرصا على مستقبل المملكة تضحي اليرقة الصغيرة بكل الحرير الذي تحتاجه لنفسها ، مما يتسبب ذلك في نقص نموها ولن تصبح نملا كاملة، غير أن هذه التضحية لا تذهب أدراج الرياح، فإن النملات العاملة ترعى هذه النملة المشوهة داخل مملكتها إلى آخر عمرها .

عملية نسج الأوراق تستلزم تعاونا كبيراً ، ولذلك تعمل بعض العاملات من الداخل، وبعضها الآخر من الخارج، وبهذا تلتحم الأوراق ببعضها إلى أقصى درجات المتانة .

البناء الذي أنشئ معجزةٌ هندسية من ناحية سهولة الاستخدام والمتانة وتقنية الإنشاء .

تعرف النملات بشكل ملهم في أي موضع تشد الأوراق ومن أين تربط خيوط الحرير دون حاجة إلى أي إدارة أو مراقبة، ولهذا يصف العلماء تصرفات هذه الكائنات الصغيرة التي تعمل معاً كدماغ واحد بأنها معجزةٌ كبيرة .

إن اشتغالَ هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك عقلاً وليس لها قائد يقودها ، ويحركَها وفق خطط تصل إلى أقصى درجات الذكاء للوصول معاً إلى غاية مشتركة يدلنا على وجود إرادة حكيمة تحكمها وتهديها .

قال تعالى : (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه : من الآية50) .

كشفت البحوث الجارية لمملكات النمل حقائق مدهشة لرجال العلم لوحظ من النملات لدى مراقبتها تصرفاتٌ محيّرةٌ وسط المختبر .

مثلاً : عند الحاجة إلى تقوية بنائها تبدأ بإنشاء ما يسمى عند المعماريين بحائط الاستناد في مدخل البناء الذي يزيد في قوة تحمل المبنى .

تشارك كل نملة في نقل حبيبات الرمل واحدةً واحدة والواحدةُ منها بحجم الصخرة بالنسبة لها ، إلى مكان إنشاء الحائط، تنسِّق كلُّ نملة حجارتها بشكل معجز في المكان المناسب كمهندس وعامل يسير وفق مخطط البناء ، وإذا بالحائط قد تم بناؤه[1] .

أقرأ المزيد

[1]- Harun Yahya, For Men of Understanding, Ta-Ha Publishers, 1999, p. 148-149

.

.

.

0-آيات الله في النمل ج3

النملة المزارعة (Hanester ants)

يزرع البشر منذ الآف السنين، والزارعة تسد أكبر قسم من احتياجات الغذاء في العالم، يستخدم الناسُ تقنيات مختلفةً لزراعة أخصب، طور رجالُ العلم أساليب لزيادة الخصوبة كاستخدام الأسمدة الكيماوية والأدوية الفعالة، بالإضافة إلى أنهم نجحوا في الحصول على نتاج الفصول كلها بإنشائهم البيوت البلاستيكية

لكن هناك كائن ظل يشتغل بالزراعة ويستخدم أرقى التقنيات قبل البشر منذ دهر طويل . . . . إنها النملة المزارعة . . .

تعيش النملة المزارعة بين غابات الأمازون الاستوائية ،هذه النملة تعمل في الزراعة منذ

ملايين السنين، وتصل إلى تحقيق غايتها بعمل دءوب مرحلة مرحلة بتخطيط وتعاون لا مثيل له .

في أول مرحلة من مراحل الإنتاج تقوم النملات العاملة بمَهَمَّتِها خارج مملكتها . . .

حيث تقطع أوراق ونهاراً بدون أي توقف

وفي المرحلة الثانية تقوم بنقل الأوراق شجرة الغابات الاستوائية التي قطعتها إلى مملكتها ،

تحمل النملات قِطع الأوراق إلى مملكتها ممسكة بها كشراع .

هذه العاملات الصغيرة قوية أكثر مما يتصورها الإنسان، وعلى سبيل المقارنة فالواحدة منها تشبه إنساناً يحمل على ظهره (250كغ) راكضاً بسرعة (1.5كم) في الدقيقة، ليس بمقدور إي إنسان بنفسه أن ينجز مثل هذا العمل .

تعمل النملات بتخطيط ونظام إلى درجة محيرة . من الضروري لها نقل الأوراق إلى مملكتها تمهيداً للزراعة، ولأجل هذا يجب ألا تتعطل عملية النقل .

تُنشئ النملاتُ طريقاً كثيرَ المَمرات لتسهيل عملية النقل .

الأعجب من هذا وجود منظمة مسؤولة عن إصلاح وصيانة الطرق كما هو الحال عند البشر .

فهناك مجموعة من النمل موظفة تقوم بإزالة العوائق عن الطريق، وهذه أخرى موظفة لمراقبة الطريق العام .

تتحرك (خَمسمِئة ألف) نملة تقريباً بهذه الأعمال كجسد واحد ، وهذه المنظمة الضخمة قادرة في أربع وعشرين ساعة على قطع ونقل أوراق شجرة كبيرة جداً .

تقطع النملات هذه كل أنواع النباتات وحتى الأزهار دون ملل ولا توقف .

وعند مقارنة حجم النملة مع ما قطعتها من الأوراق بالنسبة لحجم الإنسان يكون الذي قطعته النملات كجذع شجرة سميكة واسعة الأطراف .

يستخدم الإنسان في قطعه للشجر آلات خاصة،أما النمل فقد وهبها الله تعالى آلة قطع خارقة التصميم .

تتكوّن آلة القطع هذه من سكينين مختلفين، وقد غُطي سطحُ السكاكين بالزنك لتأمين حدّ أدق يوجد في آلة القطع هذه نظامٌ يُحيّر العقول .

يوجد تحت رأس كل نملة مباشرة عضو خاص يبث موجات صوتية ذات ترددٍ عالٍ تُرسل هذه الترددات من السكين إلى الورقة فتُهشّم هذه الموجاتُ الورقةَ وتُسَهّل قطعَها[1]

فكيف استطاعت النملة هذا المخلوق الضعيف أن يصنع مادة الزنك وكيف علم أن هذه

المادة تقوم بزيادة حِدة شفرات السكين التي يقص بها .

أم كيف تقوم بإصدار الموجات الصوتية أم كيف عرفت أن هذه الموجات قادرة على تهشيم المواد الصلبة قبل أن يكتشفها الإنسان بملايين السنين ومنذ أن خلقها الله تبارك وتعالى على هذه الأرض إنه الله مبدع الكائنات .

لا تأكل النمل هذه الأوراق التي قطعتها من الأشجار لأنها لا تتغذى إلا على نوع خاص من الفطر .

إذاً ماذا ستفعل بهذه الأوراق ؟ . . الجواب : مدهش حقاً .

ستستخدم النملات هذه الأوراق كمادة أولية للزراعة وبفضل هذه المادة ستنتج الفطر ولهذه الغاية تقيم مئات المزراع للفطر داخل مملكتها .

هذه المزارع أُعدت من قبل النملاتِ بشكل خاصٍ لزراعة الفطر حدد مساحة هذه المزرعة ورطوبتها وحرارتها .

تسلّم النملاتُ العاملة الأوراق التي قطعتها إلى النملاتِ الموظفةِ في المزرعة .

قبل أن تبدأ النملات التي تتسلم الأوراقَ بمهماتها تقوم أولاً بتعقيمها ولهذا سبب مهم جداً ،

لأن دخول فطر غريب أو بكتيريا للمملكة يسبب أضراراً بالغة

وهذا يعني خطر مرضٍ معدٍ لمستعمرةٍ ربما تعيش فيها (500.000) نملةٍ .

إلا أن الله تعالى هيئ نظاماً خاصا جداً لحماية النمل من هذا الخطر

تفرز من جسم النملة مادة يُرى فيها خصائص مضادات الالتهاب (أنتي بيوتك)

حيث يقوم النمل بتعقيم نفسه حيث لا يبق في نهاية هذا العمل أيُّ بكتيريا على الورقة

والبشر تكافح البكتيريا مثلما تكافح النملات تماماً .

لذلك تنتج مواد (مضادات الالتهاب) في المختبرات إلا أن (مضادات الالتهاب) التي

أنتجها النمل أقوى بكثير ، وتستخدمها منذ ملايين السنين .

بلا شك ليس لدى هذه الكائنات الصغيرة علم بالبكتيريا أو بـ (مضادات الالتهاب) التي

تمنع تكاثر البكتيريا ، ولكن بفضل هذا النظام الرائع الذي خلقه الله تعالى ، لا تقدر جرثومةٌ

ضارةٌ واحدة أن تأوي إلى جسم النملة ولا البيئة التي تعيش فيها .

بعد الانتهاء من أعمال التعقيم تبدأ النملات سوية بتقطيع الأوراق

بعد فصل الأوراق إلى قطع صغيرة يأتي دور أصغر النملات .

هذه النملات في طول (2 مم) أي بحجم حبة رمل ، وتمضي طوال حياتها في الغرف

الصغيرة تحت الأرض . حيث تقوم بنشرُ الأوراقَ التي مضغتها جيداً إلى مسحوق في حقل

الإنتاج، ثم تُخمِّر الفطرَ على هذا

المسحوق[2]

يختفي اللون الأخضر للأوراق تماماً في أربع وعشرين ساعة، وبعد يوم يغطى مسحوق الأوراق بطبقات الفطر البيضاء النامية الذي يدعى (فطر عش الغراب) .

وعند الحصاد تقوم مجموعة من النمل بجني المحصول حيث تؤثر النملات التي تعمل بالحصاد زميلاتها على أنفسها وتجعل لها الأولوية، فتحمل الفطر إلى النملات العاملة خارج غرف الحصاد .

(490/577)

وبهذا الأسلوب يُوزع الغذاء الذي تحتاجه جميعُ النملات، من قاطعاتِ الأوراق التي تعمل في الخارج إلى المطحّنات التي تحول الأوراق إلى مسحوق .

وهكذا تعمل (500 ألف) نملة يومياً وعلى مدار السنة دون توقف في تعاون وتكافل رائع .

تُنقل فضلات الأوراق التي فائدة من وجودها إلى خارج الخلية .

هذه الكائنات النشيطة لا تعرف الراحة ولا التشكي .

عندما تواجه مستعمرة النمل خطر ما نتيجة عدوان خارجي يتصدى لهذا الهجوم نوع خاص من النمل إنها الأفراد المحاربة وتتميز عن غيرها أنها أثقل من النملات الأخرى ب (300) ضعفاً ، تقوم بالهجوم على كل شيء غريب في أطراف المملكة .

حتى أنها تخرج من الخلية عند سمعها أي صوت غير طبيعي كصوت كحركة أقدام إنسان

.

تُعدُّ النحلات (الطنانة) أكبر عدوٍّ للنملات القاطعة للأوراق، تستطيع النملةُ الدفاعَ بسهولة تجاه النحلة الطنانة بفضل فكيها القويتين .

ولكنها تبقى دون دفاع تجاه أي هجوم مفاجئ أثناء حملها للورقة لأنها تمسك الورقة بفكيها .

إذاً كيف يتحقق أمن النملة التي تحمل الورق ؟ . . . .

لهذا هداها الله سبحانه وتعالى إلى أسلوب فريد للدفاع عن نفسها ، للتعلق على كل ورقة من الأوراق التي يتم نقلها نملة صغيرة وظيفتها فقط الدفاع حيال أي هجوم جوي مفاجئ يتهدد النملة التي تحمل الورقة . .

تقوم هذه النملةُ الصغيرةُ بتكتيكٍ دفاعي ذكي جداً ، وفي نفس الوقت تعرض حياتها للخطر دفاعا عن النملة حاملة الورق .

من ألهم هذه الحشرة النملة الصغيرة أن تضحي بنفسها من أجل حياة أختها ومن أجل بقاء

المستعمرة إنه الله تعالى .

كما ذكر الدكتور رويال ديكنسون أنه وجد في إحدى المستعمرات أن النمل زرع مساحة بلغت خمسة عشر متراً مربعاً من الأرض حيث قامت جماعة من النمل بحرثها على أحسن ما يقتضي به علم الزراعة، فبعضها زرع الأرز، وجماعة أزالت الأعشاب، وغيرها قامت بحراسة المزرعة من الديدان .

(491/577)

و لما بلغت عيدان الأرز نموها وكان يرى صفاً من شغالة النمل لا ينقطع، يتجه إلى العيدان فيتسلقها إلى حب الأرز، فتنزع كل شغالة من النمل حبة، وتنزل بها بسرعة إلى مخازن تحت الأرض .

و قد طلى العالم أفراد النمل بالألوان، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائماً إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز . ولما فرغ الحصاد هطل المطر أياماً وما إن انقطع حتى أسرع العالم إلى مزرعة النمل ليتعرف أحواله فوجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل . ووجد النملة تخرج من عشها تحمل حبة الأرز وتذهب إلى العراء في جانب مائل من الأرض معرض للشمس، وتضع حبتها لتجف من ماء المطر، وما إن انتصف النهار

حتى كان الأرز قد جف وعادت الشغالة به إلى مخازنه تحت الأرض .

أقرأ المزيد

[1] National Geographic, July 1995, p. 104

[2] National Geographic, July 1995, p. 100

.

.

.

0-آيات الله في النمل جـ 4

التضحية في مستعمرة النمل

1 . من أهم المعالم المميزة لمستعمرة النمل المشاركة في الغذاء : فإذا تقابلت نملتان وكانت إحداها جائعة أو عطشى والأخرى تملك شيئا في بلعومها لم يمضغ بعد فان الجائعة تطلب شيئا من الأخرى التي لا ترد الطلب أبدا وتشاركها في الأكل والشرب . وتقوم النملات العاملات بتغذية اليرقات بالغذاء الموجود في بلعومها وفي أغلب الأحيان تكون كريمة مع غيرها وبخيلة مع نفسها بشأن الغذاء[1] .

2 . هناك توزيع في أداء الواجبات ضمن المستعمرة الواحدة : وكل نملة تؤدي ما عليها من

واجب بكل تفاني وإخلاص . وإحدى هذه النملات هي البوابة أو حارسة الباب . وهي المسئولة عن السماح بدخول النمل من أبناء المستعمرة فقط ولا يسمح للغرباء بالدخول أبدا وتكون رؤوس هذه الحارسات بحجم بوابة المستعمرة فتستطيع أن تسد هذه البوابة برأسها . وتظل الحارسات طيلة اليوم يقمن بواجبهن وهو حراسة مدخل المستعمرة [2] لذلك فان أول من يجابه الخطر هؤلاء الحارسات .

(492/577)

---

3 . لا تكتفي النملات بمشاركة أخواتها بالطعام الذي تحمله في معدتها بل تقوم بتنبيه الباقيات إلى وجد طعام أو كلأ في مكامن ما صادفته وهذا السلوك لا يحمل في طياته أي معنى للأنانية . وأول نملة تكشف الغذاء تقوم بملء بلعومها منه ثم تعود إلى المستعمرة . وفي طريق العودة تقوم بلمس الأرض بطرف بطنها تاركة مادة كيماوية معينة ولا تكتفي بذلك بل تتجول في أنحاء المستعمرة بسرعة ملحوظة ثلاث أو ستة مرات وهذه الجولة تكفي لإخبار باقي أفراد المستعمرة بالكنز الذي وجدته . وعند عودة النملة المكتشفة إلى مصدر الغذاء يتبعها طابور طويل من أفراد المستعمرة .

(493/577)

4 . هناك نوع من النمل يدعى نمل العسل وسبب هذه التسمية أنها تتغذى على فضلات بعض الحشرات المتطفلة على الأوراق النباتية وتكون فضلات هذه الحشرات غنية بالمواد السكرية . وتحمل هذه النملات ما مصته من فضلات سكرية إلى مستعمرتها وتخزنها في أسلوب عجيب وغريب . لان البعض من هذه النملات العاملات يستخدم جسمه كمخزن للماد السكرية . وتقوم العاملات اللاتي حملن المواد السكرية بتفريغ حمولتهن داخل أفواه العاملات أو –المخازن الحية– والتي بدورها تملأ الأجزاء السفلية من بطونها بهذا السكر حتى تنتفخ بطونها ويصبح حجمها في بعض الأحيان بحجم حبة العنب . ويوجد من هذه العاملات في كل غرفة من غرف الخلية عددا منهن يتراوح بين 25و30نملة ملتصقات بواسطة سيقانهن بسقف الغرفة في وضع مقلوب . ولو تعرضت إحداهن للسقوط تسارع العاملات الأخريات إلى إلصاقها من جديد . والمحلول السكري الذي تحمله كل نملة يكون أثقل بثماني مرات من وزن النملة نفسها . وفي موسم الجفاف أو الشتاء تقوم باقي النملات بزيارة هذه المخازن الحية لأخذ احتياجاتها من الغذاء – السكر – اليومي . حيث تلصق النملة الجائعة فمها بفم النملة المنتفخة وعندئذ تقوم الأخيرة بتقليص بطنها لإخراج قطرة واحدة إلى فم أختها . ومن المستحيل أن يقوم النمل بتطوير هذه المخازن وابتكارها بهذه الطريقة العجيبة ومن تلقاء نفسها . وإضافة إلى ذلك التفاني والتضحية التي تتسم بها

النملة المنتفخة حيث تحمل ما هو أكبر من وزنها ثماني مرات فضلاً عن بقائها ملتصقة وبالمقلوب مدة طويلة جدا ودون مقابل وان هذا الأسلوب المبتكر وفقا لبنية تلك النملة ليس من الصدفة وحدها لأن هناك نمل متطوع أن يصبح مخزناً حياً في كل جيل جديد وطيلة أجيال سابقة ولاحقة بلا شك أن سلوكها هذا من تأثير الإلهام الإلهي الذي خلقهن وسواهن عز وجل .

(494/577)

---

5 . هناك أسلوب للدفاع عن المستعمرة يتبعه النمل الأبيض في الدفاع عن مستعمرته التضحية بنفسه في سبيل الحفاظ على سلامتها وإلحاق الخسائر بالأعداء ، إلا أن تطبيق هذه الخطط الفدائية يختلف من نوع إلى آخر . على سبيل المثال : تبدوا خطة النمل الأبيض الذي يعيش في الغابات الاستوائية في ماليزيا مثيرة بشكل خاص . حيث تظهر هذه الحشرات وكأنها " قنابل تسير على الأرض " حسب بنيتها وسلوكها ، فهي تحمل كيساً خاصاً داخل جسمها يحتوي على مركب كيميائي يجعل عدوها عاجزاً عند تعرضه إلى هجوم من قبل الأعداء وعندما يحكم العدو قبضته يقوم النمل الأبيض بتقليص عضلات بطنه ويعصر الأنسجة اللمفاوية مما يؤدي إلى تبليل العدو بسائل أصفر سميك سام ، ينهج

النمل الأبيض في جنوب إفريقيا وجنوب أمريكا نهجاً مشابهاً ، ويعتبر هذا الهجوم فدائياً ، لأن النملة البيضاء بسلوكها هذا تتسبب بأضرار بالغة لأجهزتها الداخلية مما يؤدي إلى موتها بعد ذلك بفترة وجيزة، وإذا كانت المعركة حامية الوطيس، يتدخل حتى العمال لمساعدة الجنود .

يدحض التعاون بين أفراد النمل لتحقيق غاية واحدة والتضحية لدى النمل الأبيض المزاعم الداروينية التي تقول : "كل مخلوق يعيش لمتعته الخاصة " علاوة على أن هذه الأمثلة تعطينا فكرة عن مخلوقات تتحرك بغريزة مدهشة، فلماذا ترغب النملة البيضاء مثلاً أن تكون جندياً ؟ ولو كان لها الخيار فماذا تختار أن تكون الأثقل وتتحمل مهمة التضحية بالنفس دون غيرها ؟ لو كان لها أن تختار لاختارت أسهل المهام وأقلها تكليفاً . لو سلمنا جدالاً أنها اختارت أن تضحي بنفسها في الدفاع عن المستعمرة، فيبقى من المستحيل أن تورث هذا السلوك الفدائي إلى الأجيال من بعدها بإرادتها عن طريق الجينات التي تحملها . النمل الأبيض العامل أعمى ولا يمكن أن ينتج أي أجيال لاحقة بإرادته .

(495/577)

خالق النمل الأبيض فقط هو من يستطيع أن يصمم حياة متقنة ومتوازنة في هذه المستعمرة، ويشكل فرقاً ذات مسؤوليات محددة .

إن النمل الأبيض يقوم بالواجبات التي أوحى بها الله إليه بجد واجتهاد . يقول تعالى في القرآن الكريم : (ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (هود : من الآية56) .

أنظمة منع التخثر :

يستخدم النمل الأبيض أنظمة خاصة موجودة داخل جسمه في توظيف التضحيات الفطرية والدفاعية المتوارثة . على سبيل المثال : تقوم بعض الأنواع ببخ مواد كيميائية سامة داخل الجروح التي تصيب بها أعداءها عندما تعضها . بينما تطبق أنواع أخرى آلية "الفرشاة" حيث تضع السم على جسم المهاجم وتدعكه مستخدمةً الشفة العليا كفرشاة .

تقع مسؤولية الدفاع عن العش عند النمل الأبيض على عاتق الإناث، تكون هذه الإناث عمياء وهي جنود صغيرة نسبياً ، أما الحراس الملكيون ـ وعادةً يكونون أكبر حجماً ـ فيقومون بالاعتناء باليرقات والزوج الملكي، ويمنعون أي دخيل من دخول الخلية الملكية . في حين يساعد الجنود الصغار العمال في جمع الطعام وترتيب العش .

خُلق الحرس الملكي للقتال، إذ يمتلك أفراده رؤوساً تشبه التروس، وفكوكاً حادة كالشفرة

مجهزة للدفاع . يوجد سائل في جسم الحارس يحتل 10% من وزنه، ويتكون هذا السائل من سلسلة كربوهيدراتية مفتوحة يخزن هذا السائل في أكياس يحملها الحارس في مقدمة جسمه، يقوم الحرس الملكي بحقن هذا السائل داخل جروح الأعداء التي سببوها لهم باستخدام فكوكهم .

(496/577)

ما هو تأثير هذا السائل على العدو ؟ صعق العلماء عندما عرفوا الإجابة على هذا السؤال . لم يكن هذا السائل سوى مانع لتخثر الدم . يوجد سائل في أجسام النمل يطلق عليه : "Haemolymph" يعمل عمل الدم، عندما تُجرح النملة، تبدأ مادة كيميائية جديدة بالعمل على تخير الدم ليشفى الجرح . السائل الذي يفرزه النمل الأبيض يعطل عمل هذه المادة المخثرة .

إن وجود نظام للإفراز مواد مانعة للتخثر داخل هذه المخلوقات الصغيرة أمر معجز بحد ذاته . ولا يقتصر الإعجاز في النمل الأبيض على إفرازه هذه المادة المانعة للتخثر ،بل يتعداه إلى الأعضاء التي تنتجه بهذه الصورة الفعالة .

بالتأكيد تناسق كهذا لا يمكن أن يفسر بطريقة المصادفة، فالنمل الأبيض بالتأكيد ليس

عالماً كيميائياً يفهم آلية تخثر الدم عند النمل، ويقوم بناءً على ذلك بإعداد المادة المعطلة لهذا النظام، هذا دليل آخر لا يرقى إليه الشك في أن هذه المخلوقات خلقها الله الواحد الأحد .

أحيانا يكون الهجوم على العدو والتضحية حتى الموت وتوجد أشكال عديدة لهذا الهجوم الانتحاري . منها الأسلوب الذي يتبعه النمل الذي يعيش في الغابات المطرية في ماليزيا فجسم هذا النوع من النمل يتميز بوجود غدة سمية تمتد من رأس النمل حتى مؤخرة جسمه . وان حدث أن حوصرت النملة من كل جهة تقوم بتقليص عضلات بطنها بشدة تكفي لتفجير هذه الغدة بما فيها من السم بوجه أعدائها ولكن النتيجة موتها بالطبع [3] .

(497/577)

يقدم ذكر النمل ومثله الأنثى تضحية كبيرة في سبيل التكاثر ، فالذكر المجنح يموت بعد فترة قصيرة من التزاوج . أما الأنثى فتبحث عن مكان مناسب لإنشاء المستعمرة وعندما تجد هذا المكان فان أول عمل تقوم به هو التخلي عن أجنحتها . وبعد ذلك تسد مدخل المكان وتظل كامنة داخله لأسابيع وحتى الشهور دون أكل أو شرب . وتبدأ بوضع البيض باعتبارها ملكة المستعمرة . وتتغذى في هذه الفترة على جناحيها الذين تخلت عنهما

. وتغذي أول اليرقات بإفرازاتها هي وهذه الفترة تعتبر الوحيدة بالنسبة للملكة التي تعمل فيها لوحدها بهذا الجهد والتفاني وهكذا تبدأ الحياة بالمستعمرة إذا حدث هجوم مفاجئ من قبل الأعداء على المستعمرة تقوم العاملات ببذل ما بوسعهن للحفاظ على حياة الصغار . ويبدأ النمل المقاتل بالتحرك صوب الجهة التي هجم منها العدو ومجابهته فورا . أما العاملات فتسرع نحو الغرف التي توجد فيها اليرقات لتحملها بواسطة فكوكها إلى مكان معين خارج المستعمرة لحين انتهاء المعركة [4] والمتوقع من حيوان كالنمل في مثل هذا الموقف العصيب أن هذا الموقف العصيب أن يفر هاربا ويختفي فيه عن أنظار الأعداء، ولكن الذي يجري في المستعمرة غاية في التضحية والتفاني من أجل سلامة المستعمرة, فلا النّمل المقاتل ولا حراس البوابة ولا العاملات يفكرون في أنفسهم فقط، فالكلّ يفكّر في المستعمرة بأكملها، وهذا ديدن النّمل منذ ملايين السنين .

(498/577)

و بلا شك فإنّ الأمثلة سالفة الذّكر تعتبر أمثلة محيرة من عالم الأحياء, والمحير فيها أنّ هذه الأنماط السّلوكية صادرة عن كائنات حيّة صغيرة كالنمل وهو ما يصادفه الإنسان في حياته اليومية دون أن يشعر بتفاصيل حياة هذا المخلوق . ولو دققنا في هذه التفاصيل لوجدنا

أمورا عجيبة وغريبة تجبرنا على التفكير بروية في ماهيتها لأن هذه الحيوانات تمتاز بوجود جهاز عصبي دقيق للغاية ومخّ محدود الحجم والارتباطات العصبية مع هذا تقوم بسلوكيات لا يمكن القول عنها إلاّ أنها شعورية محض، والسبب كونها منفذة مطيعة لما أمرت به أن تنفذه منذ ملايين السنين دون فوضى أو إهمال أو تقصير، وما هذا الأمر المنفذ بحذافيره إلا إلهام إلهي من الخلاق العليم جل جلاله . وهذا الانقياد التام من الكائنات الحية للخالق عز وجل يصوّر من قبل القرآن كما يلي :

: ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾ سورة آل عمران – الآية 83

المصادر :

النمل تأليف هارون يحيى

كتاب " رحيق العلم والإيمان " الدكتور أحمد فؤاد باشا .

. كتاب " شخصية الحشرات " لمؤلفه رويال وكنسون .

المعجزة والإعجاز في سورة النمل : عبد الحميد محمود طهماز .

التضحية عند الكائنات الحية : هارون يحيى

(1) 1902 الجزء الأول – PETER KROPOTKIN بيتر كروبوتكين,

MUTUAL AID ,A FACTORAL EVOLUTION .

(2) برت هولدوبلرو ادوارد ويلسون ، 1990، - BERT
H?LLDOBLER –EDWORD O WILSON
(3) BERT H?LLDOBLER –EDWORD O WILSONرت
هولدوبلرو ادوارد ويلسون ، 1990،
(4) NATIONAL GEOGRAPHIC

.

.

.

0–الدفاع الحراري عند النحل

ظاهرة حيرت العلماء

بقلم المهندس عبد الدائم الكحيل

يطرح العلماء أسئلة كثيرة حول علم غريب هو عالم النحل، ولا يجدون الإجابة عنها، ولكن القرآن الكريم وبكلمات قليلة أجاب عن كل هذه التساؤلات، فيا ليت علماء الغرب يقرؤون القرآن . . .

عالم النحل

هنالك أشياء كثيرة اكتشفها العلم الحديث في عالم النحل، والذي يتأمل هذه الاكتشافات يجدها تملأ مجلدات ضخمة، ولكن المؤمن تكفيه الإشارة ليزداد إيماناً بعظمة الخالق عز وجل .

ومن الأشياء العجيبة التي قرأتها الأسلوب الذي تدافع به النحل عن الخلية وكيف تحميها من الأعداء . وربما يكون من ألد أعداء النحلة هو "الدبور" . فالدبور يجد في خلايا النحل وجبة شهية من العسل، ويبدأ بالهجوم .

وبمجرد الاقتراب من الخلية تبدأ النحلات بالتجمع حول هذا الدبور وتلتف من حوله وتحيط به من كل جانب، ولكن وبسبب الحجم الكبير للدبور نسبة لحجم النحلة فإن هذه المهمة تتطلب عدداً كبيراً من النحل . ويختفي الدبور تماماً وسط النحلات الهائجة والمدافعة عن بيتها وخليتها .

دبور يطير باتجاه خلية نحل ليهاجمها ، إن الحجم الكبير للدبور مقارنة بحجم النحلات سوف يكون من الصعب القضاء عليه، ولكن النحلة تتبع تقنية مذهلة للقضاء عليه بواسطة

الحرارة !

العجيب أن النحلات تقضي على الدبور بطريقة تقنية مذهلة ! فبعد تغليف هذا الدبور بغلاف من النحل تقوم كل نحلة بهزّ جناحيها بسرعة كبيرة وهذا يؤدي إلى رفع درجة حرارة جسمها حتى 47 درجة مئوية بسبب الاحتكاك، ولكن لماذا هذه الدرجة بالذات ؟

إن الدرجة 47 هي أقصى درجة تستطيع النحلة أن تتحملها وتعمل عندها ، لأن النحلة تموت بعد ذلك عندما تصل حرارة جسمها إلى 49 درجة . إن الدرجة القصوى التي يتحملها الدبور هي أقل من 45 درجة مئوية، وبالتالي سوف يموت في الحال بفعل الحرارة التي تولدها رفرفات أجنحة النحل أي عندما تصل درجة حرارته إلى 45 درجة، وبهذه الطريقة الحرارية يتم القضاء على الدبور وحماية الخلية ! ! !

(500/577)

تصميم رائع لجناح النحلة، ولولا هذا التصميم الدقيق لم تستطع النحلة أن ترف بجناحها 11400 رفة في الدقيقة الواحدة، فتأمل عظمة الخالق سبحانه وتعالى ودقة صنعه .

هذه السرعة الكبيرة لجناح النحلة سوف ترفع درجة الحرارة حتى 47 درجة مئوية . (

هذا خلق الله ! !) .

أسئلة حيرت العلماء

وهنا يطرح العلماء أسئلة عديدة ولا يجدون الإجابة عنها :

- كيف علمت النحلة أن جسمها لا يتحمل أكثر من 47 درجة فتبلغ هذه الدرجة بالضبط ؟

- وكيف علمت النحلة أن الدبور سوف يموت عندما تبلغ درجة حرارته 45 درجة ؟

- من الذي علم النحلة هذه التقنية المتطورة للقضاء على الخصم ؟ ومن الذي زودها بجهاز لقياس درجة الحرارة فتحدد بواسطته الدرجة 47 ولا تتجاوزها ، ومن الذي أخبرها أنها ستموت لو تخطت هذه الدرجة ؟ ؟

- ولماذا تحمي النحلة الخلية من خطر هذا الدبور ؟ وما هو الميزان الذي حددت به النحلة درجة الحرارة المناسبة، فهي أعلى بدرجتين من الحرارة التي يموت عندها الدبور، وأخفض بدرجتين من الحرارة التي تموت عندها النحلة ! ! !

تأمل كيف أن الدبور يموت عند الحرارة 45 درجة مئوية، وأقصى حرارة تتحملها النحلة هي 47 درجة مئوية، فمن الذي زود النحلة بجهاز إنذار يحذرها أن تتوقف عند هذه الدرجة لأن بعدها الموت ؟ ! وهل نجد في القرآن إجابة شافية ؟

صورة بالأشعة تحت الحمراء، ونرى في الدائرة الحمراء في الوسط عند الدرجة 44.4 ، إن هذه الصورة تظهر فقط الطيف الحراري للنحل، فالمناطق الزرقاء يوجد فيها نحل ولكن درجة حرارته بحدود 33 درجة، أي لا يمارس الهجوم على الدبور، أما المناطق ذات اللون الزهري فهي طيف حراري لنحلات تتجمع حول الدبور وترفرف بجناحيها وبالتالي ترتفع درجة حرارة سطح جسمها أكثر من 40 درجة مئوية .

ماذا عن القرآن ؟

(501/577)

إنها أسئلة فشل العلماء في الإجابة عنها حتى الآن، ولكن القرآن العظيم حدد لنا في آية من آياته الأسلوب الذي يجعل النحلة تقوم بكل هذه الأشياء، وهو وجود مدبر حكيم هو من أوحى إليها بهذه المعلومات، يقول تعالى : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) [النحل : 68] .

وفي هذه الكلمات الإلهية سر للعمليات التي تقوم بها النحلة وهو أن الله تعالى هو الذي أوحى إليها وعلمها، وهذا ما نجده في كلمة (أَوْحَى) . والله تعالى لم يقل (علّم) إنما قال (أوحى) لأن النحلة لا تتعلم هذه التقنية تعلماً ! ! ! بل هي موجودة في تركيبها وفطرتها، وهذا يدل على دقة ألفاظ القرآن .

هنالك وسائل زود الله بها النحلة لقياس درجة الحرارة وتحديد الدرجة المناسبة لقتل الدبور، وذلّل لها الله تعالى الطريق التي تسلكها في صناعة العسل وفي الحفاظ عليه وحمايته من الأعداء، وهذا ما نجده في قوله تعالى: (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا) [النحل: 69].

وإذا تأملنا كلمة (ذُلُلًا) نجد أنها تشير إلى أن الله تعالى هو من ذلّل لها الطريق لتنجز مهمتها في صناعة العسل الذي جعل الله فيه شفاء للناس، ولولا أن الله هو من علم هذه النحلات كيف تدافع عن عسلها لما وصلنا منه شيء!!

هل نتفكّر؟

وهذا يدعونا للتفكر في دقة صنع الخالق عز وجل، ولذلك نجد العلماء في كل يوم يكتشفون حقائق جديدة عن النحل، وهذا يدل على أن الإنسان عندما يتفكر في عالم النحل فسوف يكتشف الكثير من الحقائق، ولذلك قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: 69].

إن الذي خلق هذه النحلة هو الذي هداها إلى هذه التقنية! يقول تعالى على لسان سيدنا موسى مخاطباً فرعون الذي أنكر وجود الله: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: 50].

لنتأمل النص القرآني : (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل : 68-69] .

المراجع

[1] Anton Stabentheiner, Helmut Kovac and Sigurd Schmaranzer, Honeybee nestmate recognition : the thermal behaviour of guards and their examinees, Experimental Biology 205, 2637-2642 (2002) .

[2] MASATO ONO, TAKESHI IGARASHI, EISHI OHNO & MASAMI SASAKI, Unusual thermal defence by a honeybee against mass attack by hornets, Nature 377, 334 - 336, 28 September 1995.

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

.

.

.

0–جسم الإنسان في أرقام

بقلم الدكتور محمد السقا عيد

ماجستير وأخصائى طب وجراحة العيون

لقد كشف العلم الحديث ما يبهر العقول وتدهش له النفوس مما خفي أمره ولم يستطع الإنسان أن يعرفه إلا بعد اكتشاف الآلات المكبرة والمجاهر وبعد البحث والتجارب . والآن تعال معي عزيزي القارئ في جولة قصيرة جداً لنتلمس هذا القول في أجزاء جسمك ولنرى ما كشفه العلم وحققه .

الخلية سر الحياة المحير

وسنبدأ جولتنا السريعة هذه بالخلية الحية التي هي وحدة الحياة الأساسية , والتي تعتبر أحد البراهين الناطقة على وجود الله تعالى .

سنجد العجب العجاب الذي يدعو إلى الوقوف الطويل المصحوب بالإيمان العميق والتسبيح لله البارئ المصور . تأمل عزيزي القارئ : يبلغ وزن الخلية جزءاً من المليار جزء

من الجرام . أما قطرها فيقع على العموم بين جزء من عشرة آلاف من الملليمتر , وعشر الملليمتر .

(503/577)

فى جسم الإنسان 60 مليون مليون خلية (60 تريليون خلية) والتي تتجمع في مجموعات كل مجموعة تقوم بعمل واحد ، ومن عملها يتشكل النسيج ومن مجموعة الأنسجة التي تتضافر لتؤدى وظيفة واحدة هي تشكيل العضو . ومن مجموعة الأعضاء تتشكل أجهزة الجسم المختلفة كالجهاز الهضمي والعصبي . . . الخ ومن مجموعة الأجهزة هذه يتشكل الكائن الحي بإعجازه وتفرده وبنائه المدهش المحير .

o يستهلك الجسم من خلاياه حوالي 125 مليون خلية فى الثانية الواحدة أي بمعدل 7500 خلية في الدقيقة الواحدة .

o والخلايا أنواع وتختلف في أعمارها . فمنها ما لا يعيش إلا أياماً قليلة . ومنها الخلايا التي تعيش وسطياً حوالي شهرين .

وهناك الخلايا التي تعيش ما عاش الإنسان . تولد بعدد محدود مقدر , وتبقى كما هي لا تزيد إلا فى حالة واحدة وهى النمو السرطاني الخبيث , كما أنها لا تنقص إلا بالآفات التي

تدمر الخلايا وتتلفها .

إنها أشرف خلايا الجسم وأندرها وأنبلها , إنها خلايا المجموعة العصبية المركزية التي يقدر عددها بحوالي 30 مليار خلية عصبية وهى التي تسيطر على نشاط البدن وفعاليته جميعاً , وهى التي يكون فيها النشاط الفكري والتخيل والذهني .

هذه الخلايا العصبية في جسم الإنسان لو صفت صفاً لبلغ طولها حوالي أضعاف المسافة بين الأرض والقمر . فسبحان من هذا خلقه وسبحان من هذا تكوينه .

الجهاز الهضمي :

وإذا ما انتقلنا إلى الجهاز الهضمي ذلك الجهاز الذي يعمل في صمت والذي يحول اللحوم والخضروات وغيرها إلى مواد مغذية لخلايا الجسم فسنجد ما يلي على سبيل المثال :

أن المعدة وحدها تحتوى على 35 مليون غدة معقدة التركيب لأجل الإفراز .

أما الخلايا الجدارية التي تفرز حمض كلور الماء فتقدر بمليار خلية

---

o أن الكبد أكبر غدة في البدن إذ يزن 1500 جرام ويحتوى على 300 مليار خلية .

ويمكن أن تتجدد كلياً خلال أربعة أشهر . كما أن الكبد يلعب دوراً أساسياً فى الهضم إذ

يجرى فيه حوالي 500 عملية كيميائية لهذه الغاية .

*فى البنكرياس (المعشكلة) يبلغ عدد جزيرات لانغرهانس ما بين (200 ألف) و(مليون و800 ألف) وهي من الناحية الذنبية أكثر ؛ فيها أربعة أنواع من الخلايا (ألفا ؛ بيتا ؛غاما ؛دلتا) أهمها خلايا ألفا التي تفرز هرمون (الغلوكاجون) الذي يزيد من كمية السكر في الدم ، وخلايا بيتا التي تفرز الأنسولين ومهمته الرئيسية حرق السكر في الجسم أو على الأقل اعطاؤه إلى الخلايا التي تستعمله كوقود للطاقة والحرارة

o ويجب أن نعلم أن مقدار السكر في الدم هو غرام واحد فقط في كل ليتر من الدم بنسبة ثابتة أي خمسة غرامات في كل الدم داخل العروق وهذا لا يبقى في الدم أكثر من دقائق قليلة . ومصدر التموين الرئيسي لسكر الدم هو الكبد بما يحوي من غليكوجين الذي يعتبر سكر مجفف . . والكبد هو العضو الذي يشرف على تحولات السكر من حل وإماهة أو تكثيف وتجفيف .

كما يوجد فى (البنكرياس) قطاع لإفراز الخمائر التي تفرغ إلى الأمعاء الدقيقة حيث يتم هضم أنواع الطعام الثلاثة البروتينات والسكاكر والدهون

o لقد ثبت أن الخلية المعوية تولد وتعيش وتموت في 48 ساعة وتتجدد الخلايا المعوية باستمرار ولا يتبع هذا النظام في الجسم إلا الدم ، مع العلم أن طول الأمعاء حوالي 8 أمتار وتفرش مساحة 40 متر مربع للامتصاص بزغابات معوية تبلغ المليارات حيث يتم

امتصاص كافة أنواع الأغذية والماء والأملاح والفيتامينات بل وحتى المواد الضارة أحياناً .

o الجهاز التنفسي : -

إن الإنسان في تنفسه كأنه يعبر شلالات نياجرا على جبل ممتد فوقها ومعه عصى للتوازن وأي ميل إلى الجانبين يرديه إلى الخطر .

(505/577)

---

o يتنفس الإنسان يومياً (23000) مرة يسحب فيها 180 متراً مكعباً من الهواء يتسرب منها 6.5 متر مكعب من الأكسجين إلى الدم . وفى التنفس تنتفخ الأكياس الهوائية التي تبلغ 750 مليون كيس , تفرش سطحاً مساحته 70 متراً مربعاً . . . ولو وقفت دقيقة واحدة وتأملت عملية التنفس ذاتها تجدها تحدث بمعدل 16 مرة في الدقيقة تقريباً أي بمعدل 23 ألف مرة شهيق في يوم واحد . يسحب الإنسان فيها حوالي 120 ألف لتر من الهواء . قدر ذلك فى سنة واحدة ثم في عشرات السنوات التي يعيشها الإنسان تخرج بأرقام ضخمة .

الجهاز الدوري (القلب) :

o وزن القلب حوالي 312 غراماً ، حجمه في قبضة اليد ، تبلغ ضربات قلب الرجل

حوالي 60 – 80/د وينبض في العام حوالي 40 مليون مرة ، وكل نبضة يدخل القلب حوالي ربع رطل من الدم ويضخ في يوم واحد 2200 جالون من الدم ، وحوالي 56 مليون جالون على مدى حياة بأكملها . . . ترى هل يستطيع محرك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاق لمثل تلك الفترة الطويلة ، دون أن يحتاج لإصلاح ؟

o ويستطيع القلب إذا استعمل كآلة محركة أن يرفع ثقلاً مقداره رطلين إلى ارتفاع قدمين بنفس الجهد الذي يبذله في نبضة واحدة .

o ويبلغ مقدار الدم الذي يدفعه قلب رجل صحيح أثناء القيام بتمارين قاسية حوالي 20 ليتر في الدقيقة ، ويستغرق مرور دفعة واحدة من الدم خلال القلب حوالي 1.5 ثانية ، والطريق من القلب إلى الرئة ثم إلى القلب مرة أخرى (الدورة الصغرى) ست ثواني .

o الدم الذاهب إلى الدماغ يعود إلى القلب في 8 ثواني ، بينما يعود الدم الذاهب إلى أصابع القدم في 18 ثانية .

دم الإنسان : –

وإذا ما انتقلنا إلى جهاز النقل في إنسان لنتأمل أوجه الإعجاز فيه فسنجد العجب العجاب الذى يحار فيه العقل والفؤاد .

o يقدر حجم الدم الموجود في جسم الإنسان بخمسة لترات .

o ويحتوى المليمتر المكعب الواحد على خمسة ملاين كرية دم حمراء (وسطياً) .

---

o أي أن المجموع كريات الدم الحمراء في دم الإنسان الواحد 25 مليون مليون كرية حمراء .

كذلك يبلغ مجموع كريات الدم البيضاء 25 مليار كرية دم بيضاء المقاومة للجراثيم . و عدد الصفائح الدموية مليون المليون صفيحة دموية لمنع النزف لعملية التخثر في أي عرق نازف

o وتتكون هذه الكريات بشكل أساسي في نخاع العظام (مخ العظام) وهو النسيج اللين الموجود داخل العظام . حيث يقوم مخ العظام بصنع هذه الكريات وصبها في الدم فيصب الأعداد التالية : –

* مليون ونصف كرية حمراء في الثانية الواحدة

* خمسة ملاين صفيحة دموية في الثانية الواحدة

* مائة وعشرون ألف كرية دم بيضاء

ولتعلم عزيزي القارئ أن كريات الدم الحمراء هذه والبالغ عددها 25 مليون مليون خلية تتلف وتموت كلها ويتجدد مثيلها .

فالإنسان يستهلك من الكريات الحمراء في كل ثانية حوالي مليوني كرية حمراء , أي أنه

يستهلك في الساعة الواحدة أكثر من عدد سكان العالم .

ولتعلم أيضاً أن الكرية الحمراء تحمل الأكسجين إلى أعماق الأعضاء والأجهزة من بصيلات الشعر إلى أعقاب القدمين بحيث لا تترك خلية أو نسيجاً أو جهازاً أو عضواً إلا زادته ومنحته الأكسجين بما يكفيه , فهذه الكرية حمال لا يعترف بالتعب . وتدور فى الدم 1000 دورة يومياً مارة بأعضاء الجسم وتنقل 600لتر من الأكسجين إليه وفى رحلتها الشاقة تعبر خلال حياتها الكاملة 1150 كم ثم يطيب لها بعد ذلك أن تستريح وأن تتلف بعد أن تكون قد أدت وظيفتها خير أداء .

* يصل عمر الكرية الحمراء 120 يوماً .

* وعلى ذلك فإن كريات الدم الحمراء تتبدل كلها فى مدى 120 يوماً .

* أما عدد كريات الدم التي تتجدد فى اليوم الواحد فهو يصل إلى

240×120=28800 مليار كرية حمراء في الدم الكامل .

أليس ذلك إعجاز رباني ؟

الجهاز التناسلي :

* تعتبر الخصية عند الرجل مصنع الإنتاج للنطف أو الحيوانات المنوية ، حيث تجتمع أنابيب مجوفة وبأطوال تصل إلى بضع كيلو مترات لتصنع النطف؛ ومن جدارها الداخلي حيث تتطور خلايا الجدار لتصل إلى مرحلة النطفة برأس طوله 5 ميكرونات وذنب طوله 55 ميكرون ، وتعتبر النطفة حاملة لإمكانية خلق نصف إنسان ، ويجب أن نعلم أن دفقة المني الواحدة عند الرجل تصل إلى 500 مليون حيوان منوي ولا يتخلق الإنسان إلا من نطفة واحدة فقط ، بل إن التوأم أيضاً قد يتخلق من نطفة واحدة اندمجت ببويضة واحدة كما قد يتخلق من تلقيح بيضة بحيوانين منويين ، وعدد الأنابيب المنوية في الخصية حوالي (4000) أنبوب منوي .

* في المبيض عند المرأة بويضات جاهزة تصلح كل واحدة أن تكون نصف إنسان .

* يبلغ عددها في المبيض الواحد (400.000) بويضة .

* ولا يفرز من هذه البويضات في كل دورة قمرية (28) يوماً سوى بيضة واحدة .

* ويتناوب المبيضان في الإفراز بالحالة الطبيعية ، ويعتبر المبيض غدة الجنس البدائية كما هو الحال في الخصية عند الذكر .

* ولكن من الأمور الملفتة للنظر أن مبيض المرأة في بطنها في حين أن خصية الرجل خارج بدنه لأن احتمال موت النطف أو إصابة الخصية بالسرطان وارد جداً إذا بقيت خصية الرجل داخل البطن ولم تنزل إلى كيس الصفن كالمعتاد وهو ما يسمى (بالخصية المهاجرة)

.

المسالك البولية :

الجهاز البولي عند الذكور

الجهاز البولي عند الإناث

* تزن الكلية الواحدة 150 غراماً ، فيها مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم تسمى (النفرونات)

* ويرد إلى الكلية في مدى 24 ساعة 1800 ليتر من الدم .

* ويتم رشح 180 لتر منه ويعاد امتصاص معظمه ويطرح منه حوالي 1.5 ليتر وهو المعروف بالبول .

* ويبلغ طول أنابيب النفرونات حوالي (50) كيلو متراً .

(508/577)

---

* وبهذه الطريقة يتم تصفية الدم من كل شوائبه وبشكل مدهش وكأننا نرى أمانة العاصمة وهي تنظيف ليس مرة واحدة في اليوم بل 36 مرة ويزيد ، ولا تقف وظائف الكلية عند التصفية بل فيها جهاز ينبه مصنع العظام (النقي) لتنظيم إفراز عناصر الدم ، كما أن فيها

جهاز منظم لضغط الدم بالتعاون مع الكبد وهو ما يسمى (بالهايبرتنسين Hypertensin) .

* وفوق الكلية تتربع غدة تزن سبعة غرامات وهي الكظر وتفرز من قشرها عشرات الهرمونات المنظمة للسكاكر والأملاح والماء في البدن ، ولإقرار شحنة الجنس؛ كما أن لب هذه الغدة يفرز مادة الادرينالين المنظمة لتوتر الدم .

الدماغ :

فإذا ما انتقلنا إلى الدماغ مركز قيادة الجسم الذى يهيمن على سائر أعضائه ، مركز الفكر والأحاسيس لوجدنا الإعجاز بعينه حيث :

يبلغ عدد الخلايا العصبية 30 مليار خلية عصبية وما بين 50 إلى 300 مليار خلية استنادية تشكل سداً ماردا لحراسة الخلايا العصبية من التأثر بأية مادة . ويحتاج الدماغ يومياً إلى ما لا يقل عن 1000 لتر من الدم .

ومن العناية الإلهية لهذا العضو النفيس (الدماغ) أنه سبحانه وضعه داخل جمجمة من العظام تحميه . تتألف هذه الجمجمة من 22 عظمة , ثمان منها مترابطة بشكل وثيق وتكون (القحف) وهو العلبة التي تحوى الدماغ وتحميه .

o أما العظام الأخرى وعددها (14) أربع عشرة عظمة فتعرف بالعظام الوجهية وتكون الوجه والفكين . . . لقد وصف أحد العلماء الدماغ فقال :

"هذا هو عجيبة الدهر الذى في تلافيفه بنيت المختبرات واستنبطت الاختراعات . وبين تعاريجه أسست معاهد العلم وعلى تحاديبه نصبت ميادين الطائرات والسيارات، وداخل تجاويفه سطعت الكهرباء ,كتلة صغيرة وسعت ما ضاق به الكون الفسيح , هذا هو رافع الإنسان إلى أعلى المراتب , وهذا هو أساس العلم والعمران . " عن كتاب (هذا الإنسان) للدكتور حبيب صادر بتصرف .

(509/577)

أو كما قال العالم الأمريكي (جورسون هويك) عندما أراد ان يصفه فى محاضرة له فى معهد التاريخ بنيويورك فى ديسمبر 1957م فقال : -"لو جمعنا كل أجهزة العالم من الردار والتلغراف والتليفون ثم بدأنا بتصغير ما اجتمع لدينا حتى توصلنا بهذه الكومه الهائلة من الأشرطة والأجهزة المعقدة إلى حجم الدماغ فإنها لا تبلغ فى تعقيدها مثل الدماغ"

فأين التكنولوجيا الحديثة من هذا المخ ومن تلافيفه ومن تركيبه العجيب ومن أسراره التي لم يطلع عليها أحد .

"هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه"لقمان آية (11)

العين :

* لا تعجب أيها القارئ إن قلت لك أن فى العين الواحدة حوالى 140 مليون مستقبل حساس للضوء وهى تسمى بالمخاريط والعصيات . وطبقة المخاريط والعصيات هذه واحدة من الطبقات العشرة التي تشكل شبكة العين والتي يبلغ سمكها بطبقاتها العشرة 0.4 ملليمتر .

* ولا تعجب إذا قلت لك أن العين يخرج منها نصف مليون ليف من العصبيات تنقل الصورة بشكل ملون (التليفزيون الملون)

* ولا تعجب إذا قلت لك أن العين ككاميرا تلتقط حوالي 20 صورة في الثانية الواحدة فتتكون الصورة على الفيلم الذي هو الشبكة وتكون مقلوبة مصغرة ثم تذهب إلى معمل التحميض والطبع في معمل المخ (المنطقة 18،19) فيعدلها ويجعلها في حجمها الطبيعي في أقل من 20/1 من الثانية الواحدة .

الجلد :

نسيج لا يخترقه الماء ويشكل خط الدفاع الأول ضد غزو الأجسام المؤذية .

ويقوم بأدوار هامة كعضو للحس وعامل إفراز ومعدل لحرارة الجسم . وتحت سطحه يوجد من (5-15) مليون مكيف لحرارة البدن . ونقصد بالمكيف هنا الغدة العرقية التي تخلص الجسم من حرارته الزائدة بواسطة عملية التبخر والعرق .

الأنف :

أن الأنف والزور والقصبة الهوائية وما فيها من أسرار عجيبة وما فيها من حراس وحفظه في مسالكنا الهوائية دلالة واضحة على إعجاز الله في خلقه .

(510/577)

إن حاسة الشم فى أنف الإنسان المتمرس تستطيع أن تميز مثلاً أكثر من 30 ألف نوع من العطور وحدها . وهذا يعنى أن هذه الحاسة العجيبة تستطيع تمييز مئات الألوف من الروائح المختلفة ذكية كانت هذه الروائح أو منفرة .

ويقع على الأنف عبء آخر , إذ ليس الهواء بدوره نقياً صافياً بل هو في الحقيقة مُحمل بنسب متفاوتة من الغبار والهباب وحبوب اللقاح والميكروبات وما شابه ذلك . ولو دخل الهواء بأدرانه إلى الرئتين لفسدتا فى بضع شهور أو سنين خاصة إذا عرفنا أن الإنسان البالغ يستنشق من الهواء يومياً حوالي 120 لتر . يكفي أن نذكر هنا على سبيل المثال أن الإنسان الذي يسكن المدن التي يثار غبارها يستنشق سنوياً من الأتربة المعلقة ففي الهواء ما يتراوح وزنه بين ربع ونصف كجم ، أي أنه لو عاش ستين عاماً لبلغ ما يستنشقه من التراب من 15 إلى 30 كجم ومع ذلك لا نرى الرئتين وقد تكدستا بالطين أو التراب .

اللسان :

يشتمل اللسان على 17 عضلة تحركه إلى كافة الاتجاهات وثلاثة أعصاب لتنظيم نقل الحس .

وعلى سطحه يوجد 900 نتوء ذوقي لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والمالح .

فالإحساس بالمرارة يحصل في مؤخرة اللسان وبالحموضة على جانبيه وبالملوحة على كامل سطحه ولاسيما في مقدمته وبالحلاوة على رأسه ، ولا تتمازج جميع الطعوم بعضها مع بعض .

غير أن المر والحلو يمتزجان فيولدان إحساساً موحداً . كذلك الحامض والملح فسبحان الذي خلق هذا العضو الذواق الكثير المنافع .

كما أن حركة اللسان في أي اتجاه ينتج عنها حرفاً معينا ، وبذلك يستطيع الإنسان أن ينطق بفصاحة .

وأثناء مضغ الطعام والبلع تفرز ست غدد اللعاب إلى الفم لتطرية الطعام وتهيئته المبدئية بالاشتراك مع 36 قاطعاً وطاحناً للطعام وهي الأسنان . . . فما أعظم خلقك وأحكم صنعك يا لله ! !

حقاً إن كل شئ داخل الجسم البشري ينطق ويشهد بوجود الله وقدرته ، فهل رأيتموه معي عبر هذه الرحلة القصيرة ؟ ؟

ولو تابعنا التعرف على دقائق جسم الإنسان وما فيه من عجائب وغرائب لأصابتنا الدهشة وانتابنا الذهول ولكنا سنقتصر على هذا القدر القليل .

وعلينا أن نتلو ونردد بعض الآيات القرآنية التي تصف خلق الإنسان الباهر والكون العجيب لعلنا نقدر الله حق قدره .

"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" . فصلت : 53 .

"هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه" لقمان : 11

"وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون" الجاثية : 4

"وفي أنفسكم أفلا تبصرون" الذاريات : 21

المصادر :

1-موسوعة الاعجاز العلمى فى خلق الانسان .

د . محمد السقا عيد (تحت الطبع)

2- تأملات فى العلم والإيمان أ . نجيب غا . لب

3-الطب محراب الايمان ؛ د . خالص جلبي ج2

يمكن التواصل على العنوان التالي :

الزرقا – شارع طارق بن زياد

ت : 851395 عيادة

854754 منزل

01029509 68 محمول

Dr_mohamed_60@hotmail.com

.

.

.

0-اليراع المضيء

إعداد / مروة عزمي مختار جنبنة

مدرس مساعد بقسم الحيوان الزراعي

كلية الزراعة جامعة المنصورة – مصر

قال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلنها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير) الملك : 5

وقال تعالى : (تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً)

الفرقان : 61

وقال تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) النور : 40

لقد تحدثنا في المقالة السابقة عن ظاهرة الإضاءة الحيوية bioluminescence)) في الأسماك المضيئة في أعماق المحيطات والبحار وتحدثنا عن عظمة الخالق وإبداع صنعه وتوقفنا عند حقيقة هامة في الآية السابقة من سورة النور وهى (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

صورة لأحد الخنافس المضيئة على جزع شجرة

(512/577)

واليوم أحبائي نتحدث عن عظمة الخالق العظيم في أنواع مختلفة من الخنافس الأرضية والتي تقوم بظاهرة الإضاءة ويطلق على هذه الخنافس بالخنافس المضيئة Fireflies or

Lightning bugs)) . ويوجد في جميع أنحاء العالم حوالي 300.000 نوع من الخنافس ومنها حوالي 2000 نوع من الخنافس المضيئة والتي تنتشر في معظم المناطق الاستوائية الحارة والغابات . وهذه الخنافس المضيئة تنتمي إلى فصيلة : Family Lampyridae وهى إحدى فصائل رتبة الحشرات غمدية الأجنحة :

Coleoptera Order :

تعالوا أحبتي في الله نتجول ليلاً في أحد غابات المناطق الاستوائية ونقترب أكثر من احد أنواع الخنافس المضيئة لنتعرف على أكثر أنواعها انتشارا في العالم ودورة حياتها وسلوكها الغذائي ونضع بعض علامات الاستفهام الكبيرة ؟ ونتساءل : –

كيف تحدث ظاهرة الإضاءة الحيوية في الخنافس المضيئة ؟ ؟ ؟ وما لون الضوء الناتج منها ؟ ؟ ؟ ولماذا تضيء هذه الخنافس ؟ ؟ ؟ ومن الأكثر طاقة ضوئية المصباح الكهربي الذي اكتشفه العالم أديسون أم الخنافس المضيئة ؟ ؟ ؟ واترك لكم أحبائي مفاجآت علمية مذهلة في نهاية هذا المقال خاصة بتلك الخنافس الصغيرة ! ! ! !

هيا بنا نقترب من هذا الضوء المتوهج الذي يبدوا مثل الكشاف الضوئي على تلك الشجرة ونجيب عن الأسئلة السابقة والتي تشغل عقولنا ولا تنسوا أحبائي قوله تعالى : (ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) هود : 56

يتركب جسم الخنافس المضيئة من ثلاث مناطق هي :

1- الرأس : وهى المنطقة الأمامية من الجسم ويحمل الرأس زوجين من الأعين المركبة وزوج من قرون الاستشعار وكذلك أجزاء الفم القارضة والتي تستخدمها الخنافس وكذلك يرقاتها في افتراس الحشرات الأخرى الصغيرة وافتراس البزاقات والقواقع وديدان الأرض .

2- الصدر : عبارة عن ثلاث حلقات وتحمل كل حلقة زوج من أرجل المشي وتحمل الحلقة الثانية والثالثة زوجين من الأجنحة . وبعض الأنواع نجدها غير مجنحة .

(513/577)

3- البطن : وهى المنطقة الأخيرة من الجسم وتتكون من 11 حلقة .

دورة حياة الخنافس المضيئة : -

يحدث التزاوج بين الذكور والإناث في فصل الصيف ليلا ثم تضع الأنثى البيض في التربة والذي يفقس بعد 4 أسابيع ثم يعطى عده أطوار يرقية والتي تتغذى بالافتراس على الحشرات الصغيرة ثم تقضى فصل الخريف والشتاء في بيات شتوي حيث تدفن نفسها في التربة وممكن أن تظل في بياتها لمدة سنتين ومع بداية الصيف تتغذى وتنشط وتتحول إلى طور العذراء وبعد ذلك تتحول إلى خنافس كاملة ذكور وإناث وتعيش الخنافس الكاملة

من عدة أسابيع إلى شهرين حسب النوع .

شكل (1) : يوضح يرقة احد أنواع الخنافس المضيئة

شكل (2) : يوضح الخنفساء الكاملة لأحد الأنواع

والسؤال الآن كيف تحدث ظاهرة الإضاءة الضوئية في الخنافس المضيئة ؟ ؟

تحدث هذه الظاهرة عند توافر صبغة تسمى (Luciferin) وإنزيم يسمى (Luciferase) مع وجود مصدر للأكسجين ومصدر للطاقة وهو مركب ثالث فوسفات الادينوسين (ATP) ونتيجة هذا التفاعل ينتج مركب يسمى (Oxyluciferen) وينبعث الضوء .

شكل : (3) يوضح التفاعل الذي يحدث

ولكن أين توجد هذه المركبات الكيمائية في الخنافس المضيئة ؟ ؟

نجد انه على جانبي السطح البطني لمنطقة البطن عدد من الخلايا تسمى الخلايا الضوئية (Photocytes) وهذه الخلايا غالبا ما توجد في الحلقات الأخيرة من البطن سواء للأطوار الكاملة أو يرقاتها . وتتوقف كمية الضوء المنبعثة من الخنافس على كمية الأكسجين الداخلة في التفاعل فعندما تريد الخنافس إنتاج وميض طويل لفترة طويلة فان

المخ يعطى تياراً عصبياً إلى نهايات الجهاز التنفسي لإنتاج كمية كبيرة من الأكسجين إلى داخل الخلايا الضوئية فيصدر ضوء بكمية كبيرة . وفى بعض الأنواع تصدر الخنافس وميض متقطع وفى هذه الحالة يتوقف التيار العصبي لثواني فيتوقف الوميض ثم يحدث التيار العصبي مرة أخرى ويصدر الضوء من جديد .

(514/577)

ما لون الضوء المنبعث من الخنافس ؟ ؟

اللون المنبعث لونه أصفر مخضر أو برتقالي اللون .

قال تعالى : (هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين) لقمان : 11

لماذا تضئ هذه الخنافس ؟ ؟

سبحان الله العظيم الذي خلق كل شيء بقدر وحسابات عظيمة فهذه الخنافس تتواجد في بيئة قاسية ذات حرارة مرتفعة جدا فلهذا تلجأ إلى النشاط والبحث عن الغذاء ليلا . فكيف ترى بعضها وسط الغابات الشاسعة والأشجار العالية المتشابكة والتي تخفى ضوء القمر والنجوم في الليالي الصافية . فسبحان الخالق جعل لهذه الخنافس هذه الظاهرة

لعدة أسباب وهى : -

1- لتنير لها الغابات الكثيفة المظلمة ليلاً وترى ما حولها من ظلام دامس .

2- تتعرف الخنافس التابعة لنفس النوع على بعضها من خلال درجة الضوء وهل هو متصل أم متقطع في شكل ومضات منفصلة ؟

3- تستخدم هذا الضوء في جذب فرائسها من الحشرات الأخرى الصغيرة والبزاقات والقواقع وديدان الأرض والتي تنبهر بأضوائها فتقترب منها ثم تقوم بالتغذية عليها .

قال تعالى : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) العنكبوت : 60

4- تستخدم الذكور هذا الضوء لجذب الإناث لعملية التزاوج حيث لكل ذكر إشارة ضوئية معروفة لدى الإناث التابعة لنفس نوعه . بمجرد رؤية الإناث لهذه الإشارات الضوئية فأنها تعطى إشارة مماثلة للذكر فينجذب إليها الذكر للتزاوج ونجد بعض الإناث التي لا ترغب في التزاوج من الذكور تقوم بعدم الرد عليهم بالإشارات الضوئية المتعارف عليها فيما بينهما .

5- بعض الإناث ترسل إشارة ضوئية مضللة وكاذبة لذكر يتبع نوع أخر وعندما يقترب منها للتزاوج تقوم بالتغذية علية .

شكل : (5) يوضح احد إناث الخنافس التي تفترس احد الذكور

6- تستخدم الخنافس الضوء في تخويف وترهيب بعض الحيوانات الأخرى التي تقوم بافتراسها فهذه وسيلة الدفاع الوحيدة لها

(515/577)

تعالوا أحبائي نسأل هذا السؤال : هل تخيل أديسون مكتشف المصباح الكهربي أننا نقارن الطاقة الضوئية المنبعثة من المصباح الكهربي بتلك الطاقة المنبعثة من الخنافس المضيئة ؟ ؟ ؟ ؟

لا اعتقد أن أديسون تخيل هذه المقارنة وإذا كان يعيش بيننا إلى الآن فلا اعرف ماذا كان يرد على علماء الحشرات ! ! ! ولكنه إبداع الخالق الذي لا ينافسه أي مخلوق .

إن الضوء الصادر من الخنافس المضيئة يسمى (الضوء البارد) نعم بارد لا تتعجبوا ! ! ! ولكن لماذا هو ضوء بارد ؟ ؟ ؟

عند تحليل العلماء لهذا الضوء وجدوا انه عبارة عن 100% طاقة ضوئية وصفر% حرارة . . . . . ولماذا هذا الإبداع الرباني العظيم ؟ ؟ ؟ لحكمة للخالق سبحانه وتعالى وهى أن هذا الضوء لو كان به نسبة حرارة ولو بسيطة لاحترق جسم الخنفساء

ودمرت .

أما المصباح الكهربي فانه يعطى طاقة ضوئية مقدارها 10% فقط وحرارة ساخنة بنسبة 90% ولهذا عند لمس المصباح بأيدينا فإننا نشعر بحرارة عالية تكاد تحرق يدنا فنبعدها عنه (8) .

هل تخيل احد منا أن الطاقة الضوئية المنبعثة من جسم الخنفساء تفوق الطاقة الضوئية للمصباح الكهربي ؟ ! ! ! !

(صنع الله الذي أتقن كل شيء) النحل : 88

هيا بنا نحاول الإمساك بأهم أنواع الخنافس المضيئة والأكثر انتشارا في العالم ونتعرف على وصفها : -

1- Lampyris noctiluca : وتسمى الديدان المتوهجة (glow worms) وذلك لان الإناث تشبه شكل الدودة وليس لها أجنحة ويبلغ طولها حوالي 10-25 مم . لونها بنى داكن والحلقات الثلاث البطنية هي التي ينبعث منها الضوء لوجود الخلايا الضوئية بهم . الذكور مجنحة ولونها بنى واصغر حجما من الإناث وحواف الأجنحة الغمدية لونها اصفر وتتركز الخلايا المضيئة على الحلقة قبل الأخير للبطن .

شكل : (6) الأنثى

شكل : (7) الذكر

(516/577)

2- Photinus pyralis : وتسمى الخنافس الخاطفة طول الإناث حوالي 30مم والذكور اصغر حجما وكلا النوعين مجنح ولهما نفس الشكل حيث نجد أن الجسم لونه اسود داكن مع خطين لونهم احمر على جانبي الرأس ونجد حواف الأجنحة الغمدية لونها بنى كريمي . والخلايا الضوئية موجودة على الثلاث حلقات البطنية الأخيرة في كلا من الذكر والأنثى .

شكل : (8) شكل الخنفساء الخاطفة

3- Photurissp . : وهى اصغر حجما من النوعين السابقين والذكور والإناث متشابه في الشكل إلا أن الإناث اكبر حجما من الذكور ونجد أن لون الجسم بنى مع وجود خطين لونهم اصفر على جانبي الرأس وعلى حواف الأجنحة الغمدية . وتنتشر الخلايا الضوئية على الحلقات الثلاث الأخيرة لكلا من الذكور والإناث .

واليكم المفاجآت العلمية التي واعدتكم أحبائي بها في نهاية المقال : –

المفاجأة الأولى : قام علماء الطب بتجارب معملية لاستخراج كلا من صبغة luciferin وأيضا إنزيم luciferase من أجسام الخنافس المضيئة لاستخدامها في علاج الأورام السرطانية وأمراض تصلب الشرايين والقلب وأيضا لإنتاج أمصال ضد السل الرئوي .

المفاجأة الثانية والأكبر : يقوم علماء ناسا للفضاء باستخراج المادتين السابقتين من الخنافس والحيوانات الأخرى المضيئة للتعرف على وجود أو عدم وجود حياة على الكواكب الأخرى التي تم اكتشافها ولكن كيف ذلك ؟ ؟ ؟ ؟

من خلال اخذ عينة من الكوكب المراد معرفة وجود أحياء عليها أم لا ويضعوا عليها المركبين السابقين المستخرجين من الخنافس المضيئة مع وجود مصدر للأكسجين فإذا انبعث من العينة ضوء فيدل ذلك على وجود (مركب ثالث فوسفات الادينوسين) والذي لا يتواجد غير في العينات الحية فقط ويكون هذا دليل على وجود كائنات حية على هذا الكوكب أما في حالة عدم انبعاث الضوء من العينة فيدل ذلك على عدم وجود هذا المركب وهو مصدر الطاقة الذي يتواجد فقط في أجسام الكائنات الحية وبالتالي عدم وجود كائنات على هذا الكوكب .

لا يسعنا غير أن نقول صدق الله العظيم حين قال في كتابه الحكيم :

(الم تر أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) لقمان : 20

فقد سخر الله سبحانه وتعالى هذه الحشرة الصغيرة للإنسان لتساعده على اكتشاف أحياء على الكواكب الأخرى وتساعده على علاج الأمراض المستعصية .

وصدق الله تعالى حينما قال : (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

المراجع :

1- : http

//insects.tamu.edu/fieldguide/bimg153.html

2- http : //iris.biosci.ohio-

/state.edu/projects/FFiles

3- : http

//eny3005.ifas.ufl.edu/lab1/Coleoptera/Lampyrid.htm

http : //en.wikipedia.org/wiki/Firefly -4

http : -5

//www.suite101.com/article.cfm/science_surfing/65368

http : -6

//whalonlab.msu.edu/Student_Webpages/Firefly/whatfirefly.html

http : -7

//whalonlab.msu.edu/Student_Webpages/Firefly/communication.html

http : -8

//whalonlab.msu.edu/Student_Webpages/Firefly/illumination.html

http : //en.wikipedia.org/wiki/Main_Page -9

.

.

.

0-الأسماك المضيئة

إعداد مروة عزمي مختار جنينة

مدرس مساعد بقسم الحيوان الزراعي بكلية الزراعة جامعة المنصورة – مصر

قال تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلنها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير) الملك : 5

وقال تعالى : (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا) الفرقان : 61

(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) سورة الأنعام : 59

في الآيتين الكريمتين السابقتين يوضح الله سبحانه وتعالى انه زين السماء الدنيا بمصابيح ربانية وهى النجوم والكواكب والتي تعمل على إضاءة سطح كوكب الأرض خلال ظلمه

الليل . وخلال النهار ينير الله لنا سطح كوكبنا بالشمس الساطعة . فهل احد منا أحبائي في الله يستطيع أن يتخيل حياتنا وحياة باقي المخلوقات الحية على كوكب الأرض بدون الضوء أو النور ؟

الإجابة أننا لا نستطيع الحياة على كوكبنا بدون وجود مصدر للضوء الذي ينير ظلمة الليل . فلنتخيل حياتنا بدون ضوء ونتخيل أننا نعيش في ظلام حالك ونتساءل :

كيف يرى بعضنا البعض ؟ وكيف نتواصل مع بعضنا البعض ؟ وكيف نتفادى هجوم أي عدو علينا ونحن لا نراه ؟ وكيف نذهب لأداء أعمالنا اليومية والحصول على غذائنا بدون وجود الضوء ؟ وكيف وكيف . . . . . ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

ولان إجابتنا جميعا أننا لا نستطيع الاستغناء عن زينة السماء الدنيا وهى النجوم والكواكب فلابد أن نحمد الله العلي العظيم الذي وهب لنا هذه النعم العظيمة ونشكر الله أيضا انه انعم على مكتشف المصباح الكهربي ويجعله يكتشف هذا الاكتشاف الكبير .

إن هذه الكواكب والنجوم تنير وتسطح فوق سطح الأرض وأيضا ترسل إشعاعها الضوئي إلى سطح الماء . ولكن هل سألنا أنفسنا هذا السؤال ؟ وهو كيف تعيش الكائنات البحرية مثل الأسماك في ظلمات فوق بعض داخل الأعماق السحيقة للمحيطات والبحار والتي تصل إلى مئات الأمتار تحت سطح الماء ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

قال تعالى : (أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات

بعضها فوق بعض إذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) النور : 40

(519/577)

وهذه الآية الكريمة تجعلنا نتوقف عند حقيقة هامة وهى أن أعماق البحار والمحيطات ظلمات بعضها فوق بعض والحقيقة الثانية هي أن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور وهنا نضع أيدينا على حقيقة أخرى وهى أن اسماك المحيطات لابد أن يكون الله الخالق البارئ المصور جعل لها نورا لتهتدي به في هذه الظلمة .

ولكن كيف يتم ذلك ؟ ؟ ؟ وما مصدر هذا النور ؟ ؟ ؟ وما لون هذا النور ؟ ؟ ؟ وهل هو مثل نور الكواكب والنجوم ؟ ؟ ؟

تعالوا معي أحبائي في الله نصطحب غواصة ونغوص معا في أعماق احد المحيطات لنشاهد قدرة الله ونجيب معا على علامات الاستفهام الكثيرة السابقة ونقول معا في صوت واحد (سبحانك يا الله يا بديع السماوات والأرض) .

حوالي 90% من اسماك المحيطات والبحار المالحة تقوم بظاهرة حيوية داخل أجسامها يتم في هذه العملية تحويل الطاقة الكيمائية من خلال بعض المواد الكيمائية إلى طاقة ضوئية

ينبعث منها ضوء ساطع ينافس به السمك (أضواء شوارع لاس فيجاس) في جمالها وبريقها . وتسمى هذه الظاهرة الحيوية بظاهرة (الإضاءة الحيوية Bioluminescence) وهذه الظاهرة تحدث داخل أجسام بعض الكائنات الحية مثل الأسماك والتي تعيش داخل المياه المالحة ولا تحدث في المياه العذبة ونادرة الحدوث على الأرض فهي تحدث فقط في نوع من الخنافس وبعض أنواع البكتيريا والفطريات .

كيف تحدث هذه الظاهرة ؟ ؟ ؟ : -

لحدوث هذه الظاهرة وانبعاث الضوء من أجسام الأسماك لابد من توافر نوع من الصبغات تسمى صبغة Luciferin)) وهى التي تقوم بتخليق الضوء مع وجود إنزيم يسمى إنزيم (Luciferase) والذي يعمل كمادة محفزة تساعد على إتمام التفاعل داخل أجسام الأسماك بالإضافة إلى وجود الأكسجين ومصدر للطاقة وهو مركب يسمى (ثالث فوسفات الادينوسين ATP :) مما يؤدى إلى إنتاج مادة تسمى ((Oxyluciferen وينبعث الضوء من أجسام الأسماك .

يوضح التفاعل الكيمائي الذي يحدث داخل أجسام الأسماك وينتج عنه الضوء

هل المواد الكيمائية الداخلة في التفاعل والتي تتحول لضوء موجودة في أجسام الأسماك أم لا ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ : -

هذه المواد الكيمائية إما أنها تتواجد داخل تراكيب تسمى الحوامل الضوئية (Photophores) وهذه الحوامل تتواجد في أماكن معينه داخل أجسام الأسماك بناء على نوع السمك . ويتم داخل هذه الحوامل الضوئية التفاعل السابق وينبعث الضوء من أجسام الأسماك خلال أماكن تواجد الحوامل الضوئية . الحالة الثانية أن تختفي هذه الحوامل من أجسام الأسماك ونجد أن هذه المواد الكيمائية متواجدة داخل أجسام بعض أنواع البكتيريا والتي لها القدرة أيضا على إنتاج الضوء داخل أجسامها (وما علاقة البكتيريا التي ينبعث منها الضوء بالأسماك ؟ ؟)

سبحان الله الذي أتقن كل شيء خلقه قال تعالى : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) النحل : 88

وقال تعالى : (إن الله كان على كل شيء حسيبا) النساء : 86

إن هذه الآيات توضح أن الله خلق كل مخلوق بحسابات وقدر وتجيب عن سؤالنا السابق بان الأسماك التي لا تتوافر بها الحوامل الضوئية جعل الله عز وجل لها هذه البكتيريا التي تعيش في أماكن معينه داخل أجسام الأسماك وينبعث منها الضوء والذي يبدوا لنا أن

الأسماك نفسها هي التي تنتجه . (ما هذا ؟ ! !) (بالتأكيد هذه البكتيريا تسبب أمراض للأسماك التي تعيش بداخلها) إن إبداع الخالق جعل هذه البكتيريا لا تسبب أي مرض أو أي أذى للأسماك التي تعيش بداخلها ولكنهما يعيشان في سلام مع بعضيهما البعض في علاقة تبادل منفعة فالأسماك تستفيد من البكتيريا في إنتاج الضوء لها على أجسامها والبكتيريا تستفيد من الأسماك بأنها تجد المأوى والحماية ومصدر الغذاء داخل أجسام الأسماك .

ما لون الضوء المنبعث من ظاهرة الإضاءة الحيوية ؟ ؟ : -

إن اللون المنبعث يكون إما ازرق أو ازرق مخضر وذلك لسببين هما : -

· أن اللون الأزرق والأزرق المخضر يسافر لمسافات طويلة داخل مياه البحار المالحة والمحيطات

· أن الأسماك حساسة لهذه الألوان فتستطيع رؤيتها بسهولة في الماء

ونجد في بعض أنواع السمك ينبعث منها ضوء احمر طوله الموجى طويل جدا فلا تراه باقي الأسماك وبهذا فهي ترى الأسماك الأخرى وهم لا يستطيعون رؤيتها فتستخدم هذه

الخاصية في افتراس غيرها من الأسماك أو تستخدمها كلغة إشارة بين بعضها البعض .

إن الله سبحانه وتعالى خلق الأسماك وجعلها تعيش في الأعماق السحيقة المظلمة في البحار والمحيطات وخلق لها هذه الظاهرة الطبيعية والتي تستخدمها في إنتاج الضوء الذي ينير لها هذا الظلام الحالك .

هل تندرج وظيفة هذه الظاهرة فقط في إضاءة المحيطات للأسماك ؟ ؟ : -

لا أحبائي في الله إن قدرة الخالق لا تتوقف إلى كون هذه الظاهرة تقوم بإضاءة وإنارة المحيطات للأسماك بل تمتد إلى إعجاز اكبر من ذلك بكثير : -

1- تستخدم بعض الأسماك هذا الضوء في جذب فرائسها ثم تقوم بإمساكها بفكها وتلتهمها

2- تستخدم الضوء كوسيلة تخويف وتشويش لباقي الأسماك التي تخاف من هذا الضوء المتوهج وتبتعد عنها

3- تستخدم هذا الضوء ككشافات ترى بها الطحالب والكائنات الدقيقة والتي تتغذى عليها العديد من اسماك المحيطات الصغيرة

4- تستخدم الضوء كالغة إشارة بين أفراد النوع الواحد فهم يستخدموا إشارات ضوئية فيما بينهم لا يعرفها احد غيرهم

5- البعض الأخر يستخدم الضوء كشفرات بين الذكور والإناث أثناء موسم التزاوج

فنجد بعض أنواع إناث الأسماك ينبعث منها أضواء ملونة من أماكن مختلفة على أجسامها فتصبح مثل الطاووس في روعتها وجمالها فتجذب الذكور إليها أثناء موسم التزاوج والغريب أن هذه الأضواء المبهرة لا يراها إلا الذكور التابعة لنفس نوع الإناث أما أنواع الذكور الأخرى فلا تراها .

(إن إناث الأسماك تتزين وتبهر ذكورها فقط بأضوائها الجميلة الملونة فتبدوا لهم مثل الطاووس الجميل وتعلمنا نحن نساء الأمة الإسلامية أن التزين والتجمل لا يكون إلا لأزواجنا فقط)

صورة سمكة المصباح

(522/577)

تعالوا معي أحبائي نغوص أكثر بالغواصة ونقترب من بعض الأسماك المضيئة المبهرة لنتعرف عليها : -

1- سمكة المصباح : Lantern fish

وهذه السمكة تعيش في المحيطات على أعماق 1200 - 3000 قدم ولكنها تقترب من السطح أثناء الليل بحثا عن الغذاء وتحمل مجموعة من الحوامل الضوئية المركزة أسفل الرأس وعلى سطحها البطن والضوء المنبعث لونه ازرق مخضر وتستخدمه السمكة لجذب فرائسها من السمك .

صورة لسمكة الفأس

2- سمكة الفأس : Hatchet fish

تعيش أيضا على أعماق كبيرة وتحمل الحوامل الضوئية على سطحها البطنى وينبعث منها إضاءة شديدة تعمل ككشافات تشوش باقي الأسماك فتبتعد عنها ولا تفترسها فهذا الضوء هو وسيلة الدفاع الوحيدة للسمكة .

3- سمكة الثعبان : Viper fish

توجد على أعماق من 80-1600 م تحت سطح الماء ويوجد على زعنفتها الظهرية حوامل ضوئية تنتج ضوء مبهر يعمل على جذب الأسماك الأخرى ثم تقوم بالهجوم والتغذية عليها .

صورة لسمكة الثعبان (الحنش)

4- سمكة التنين : Dragon fish

وهذه السمكة لا يوجد بها حوامل ضوئية ولكن أجسامها تحمل مجموعة من البكتيريا في منطقتين على جسمها :

المنطقة الأولى : بجانب العين وتعطى الضوء العادي الأزرق المخضر والذي تستخدمه في جذب فرائسها

المنطقة الثانية : أسفل الرأس وينبعث منها ضوء لونه احمر لا يراه أحدا من الأنواع الأخرى من الأسماك كما أن العين البشرية لا تستطيع رؤيته لأنه ذو طول موجي طويل يصل إلى 700 نانوميتر وتستخدم هذا الضوء الأحمر كلغة إشارة بين بعضها البعض دون أن يلاحظها احد من الأسماك الأخرى .

صورة سمكة التنين

قال تعالى :

(هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين) لقمان : 11

إن قول الله حقا سبحانه وتعالى الذي أبدع كل شيء خلقه فلماذا يشكك الكافرون بقدرة الله العظيم ويشككون في كلام الله الذي انزله على نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام؟؟!!! أيوجد إبداع وإعجاز وإتقان في صنعه الخالق أكثر من ذلك؟!!!!!!!!!!!

وللحديث بقية إن شاء الله إذا كان بالعمر بقية لاستكمال هذه الظاهرة ولكن مع الخنفساء المضيئة

(أتعرفونها ؟؟؟؟)

إعداد :

مروة عزمي مختار جنينة

مدرس مساعد بقسم الحيوان الزراعي بكلية الزراعة جامعة المنصورة – مصر

المراجع :

1- en.wikipedia.org/wiki/Bioluminescence

2- www.lifesci.ucsb.edu/~biolum

3-

jrscience.wcp.muohio.edu/…/UsesofBioluminescenceFina.html

4-

jrscience.wcp.muohio.edu/…/UsesofBioluminescenceDraf.html

5-

www.pleasanton.k12.ca.us/amador/Creek/AP2000/shelley_jasper/title.html

6- www.bioscience-explained.org/EN1.1/flashlight.html

7- www.seasky.org/monsters/sea7a3.html

.

.

.

0-من آيات الله في النمل

بقلم مروة عزمى مختار جنينة

مدرس مساعد بقسم الحيوان الزراعي بكلية الزراعة جامعة المنصورة- مصر

قال الله تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) صدق الله العظيم

في هذه الآية الكريمة يأمر الله الإنسان أن ينظر إلى السماوات والأرض ليرى العديد والعديد من آيات إعجاز الله الخالق المصور في مخلوقاته . وفى هذه المقالة سوف نلقى الضوء عن آيات الله في حيوان صغير جدا وضعيف وبعض الناس يستهينون به . انه حيوان من شعبة مفصليات الأرجل phylum : Arthropoda ويتبع طائفة الحشرات Class : Insecta .

من منا لم يشاهد هذه الحشرة الصغيرة وهى تمشى في صفوف منظمة بحثا عن الغذاء ومن منا لم يشاهدها وهى تتعاون مع بعضها البعض في حمل حشرة ميتة تفوق حجمها عشرات المرات . هل عرفتوا أحبائي في الله هذه الحشرة ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ إنها

صورة لمجموعة من النمل وهي تبحث عن الطعام

حشرة النمل :

والتي خصص الله سبحانه وتعالى سورة بأكملها لهذا المخلوق ليتعلم منه الإنسان العديد

والعديد من الدروس والعبر ومن أهمها الحياة الاجتماعية التي يتعاون فيها الأفراد مع بعضهم البعض وتتعلم أيضا حب العمل والإخلاص فيه والنظام والنظافة والتفاني من اجل الآخرين وتتعلم منه محاربة الأعداء والدفاع عن أفراد مملكتها . (ما هذا كل هذا نتعلمه من هذا المخلوق الصغير الضعيف ؟ نعم أحبائي لا تتعجبون ! ! وأكثر من ذلك بكثير) سبحانه وتعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه) السجدة : 7 .

النمل يمثل حوالي 20% من الكائنات الحية على كوكب الأرض ويوجد حتى عام 2006 حوالي 11.844 نوع معروف من النمل معظمه يعيش في المناطق الحارة . وظهر النمل منذ حوالي 92 مليون سنة فهو من أقدم الكائنات الحية على وجه الأرض . ويعيش النمل في أعشاش ويختلف شكلها ومكان تواجدها بناء على نوع النمل . وأعشاش النمل قد تصل إلى 40قدم تحت سطح الأرض وقد تمكن العلماء الأوروبيين باكتشاف مستعمرة هائلة للنمل تمتد لآلاف الأميال من ايطاليا إلى شمال غرب أسبانيا (1) .

ويتغذى النمل على الحشرات الميتة والندوة العسلية لحشرة المن والعسل وبعضها يتغذى على بذور النباتات . ويحتاج النمل في غذائه إلى المواد الكربوهيدراتية والبروتين وخاصة البروتين الذي تحتاجه الملكة لإنتاج كمية كبيرة من البيض وأيضاً لنمو يرقات النمل .

تعالوا أحبائي في الله نطرح عليكم هذا السؤال : هل اعترض احد منكم طريق مجموعة من النمل وهي تسير في طريقها من مصدر الغذاء إلى عشها وشاهد رد فعل هذا النمل وماذا

يفعل في هذا الموقف ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

إن النمل يقوم بإفراز مواد كيمائية تسمى (الفرمونات) لها رائحة مميزة لكل مملكة نمل تقوم الشغالات بإفرازها إثناء سيرها على الأرض وعن طريقها تسير باقي أفراد النمل .

(525/577)

فلو أن هناك مجموعة من النمل تسير من عشها nest تجاه مصدر الغذاء food فإننا نلاحظ أن النمل يوزع نفسه كالأتي, اكبر الشغالات حجما تتقدم المسيرة من بداية مصدر الغذاء وأخرى في مؤخرة المسيرة بالقرب من العش لتحمى باقي أفراد النمل التي تسير في صفين احديهما في اتجاه العش والأخر في اتجاه الغذاء حول مصدر الفرمون .

(شكل : 1)

وعندما نعترض طريق النمل بعقبة ما نجد أن النمل يفقد كمية كبيرة من الهرمون الموجود على طريق سيره ولهذا يقسم نفسه إلى مجموعتين : مجموعة تسير يمين العقبة بزاوية مائلة قيمتها 60 درجة والمجموعة الثانية تسير يسار العقبة بنفس قيمة الزاوية

(شكل : 2)

بعد ذلك يقوم النمل بتركيز الفرمون من جديد في اتجاه واحد ويسيروا جميعهم في هذا الاتجاه بعيدا عن العقبة بزاوية مائلة 60درجة .

(شكل : 3)

من علم هذه الحشرة الصغيرة هذا السلوك وهذا التخطيط المنظم انه الخالق سبحانه وتعالى إن قوله الحق عندما قال تعال : (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) طه : 50 أي سوى خلق كل دابة ثم هداها لما يصلحها وعلمها إياه .

هيا بنا نقترب سوياً من مملكة النمل ونتعرف على كل فرد من أفرادها والأعمال التي يقوم بها كل فرد منهم : -

1- الملكة : Queen

وهى اكبر الأفراد حجما والملكة الحديثة النمو لها زوجين من الأجنحة وبعد التلقيح تقوم بنزع أجنحتها وتظل بدون أجنحة وفى هذه الحالة نجدها تشبه الشغالات فيما عدا أنها اكبر حجما منها . وتعيش الملكة من 10 : 20 سنة ووظيفتها إنتاج البيض ورعاية الأطوار اليرقية وتغذيتهم . إن هذه الحشرة الصغيرة تعلمنا كيف نعتني بأبنائنا ونحافظ عليهم ونرعاهم سبحان الله الذي علمها كل هذه الأشياء .

2- الذكور : Males

وهى تلي الملكات في الحجم ولها أيضا زوجين من الأجنحة ووظيفتها تلقيح الأنثى ثم تموت بعد التلقيح مباشرة . ويعيش الذكر أسابيع قليلة .

3- الشغالات : Workers

(526/577)

اقل حجما من الذكور وعديمة الأجنحة وهى عبارة عن إناث عقيمة وتقوم الشغالات بجميع المهام من حراسة العش وتنظيف وجمع الغذاء وتخزينه وعمل العشوش وبعضها يقوم بالفلاحة ونجد أن بعض الشغالات تكون اكبر حجما من باقي الشغالات وذات فكوك قوية تسمى العساكر Soldiers تقوم بالدفاع عن باقي أفراد المملكة من أي عدو خارجي . وتعيش الشغالات من سنه إلى 5 سنوات .

قال تعالى : (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) هود : 56

صدقت يا الله فهذه الحشرة الصغيرة عرَّفها الخالق عز وجل المهام التي يقوم كل فرد من أفرادها بها .

يوضح الأشكال المختلفة لإفراد النمل

هيا بنا أحبائي في الله نرى عظمة الخالق أكثر ونقول معا سبحانك يا الله عندما نتعرف معا على اجزاء جسم النمل .

أولا : الرأس Head

وهى المنطقة الأمامية من الجسم وتحمل الرأس زوج من قرون الاستشعار (Antennae) وهى أعضاء حسية مسئولة عن الشم وتذوق الطعام حيث تقوم النملة بتحريك قرون الاستشعار ناحية الأرض لتتحسس الأرض وتدفعهم في الغذاء لتشم رائحته كما أنها تهتدي إلى مكان الغذاء عن طريق قرون استشعارها .

يوجد أيضا في مقدمة الرأس أجزاء فم النمل وهى من النوع القارض حيث تتكون من زوج من الفكوك العليا القوية الحادة المسننة ويوجد على حافتها مجموعة من الشعرات وتستخدم النملة هذه الفكوك في طحن وتفتيت الغداء كما أنها تستخدمها في حمل الصغار من مكان لمكان آخر في العش وأيضا في

رأس نملة مكبرة بالمجهر الإلكتروني فسبحان الله

محاربة الأعداء وبعض الأنواع تستخدمها في بناء العشوش عن طريق استخدامها في حفر الأرض لعمل الإنفاق . ويوجد أسفل هذه الفكوك زوج آخر من الفكوك تسمى الفكوك السفلى والتي تساعد الفكوك العليا في تفتيت الغداء وتستخدمها أيضا في تنظيف أرجلها الأمامية (كيف يتم ذلك ؟) عن طريق مجموعة من الأمشاط موجودة على سطح الفك السفلى فتقوم النملة بإدخال رجلها الأمامية بين حافتي الفكين السفليين وتمررها بينهم وبذلك تنظف رجليها بما يلعق بها من أتربة أو قاذورات قبل دخولها إلى العش . بالإضافة للفكوك يوجد أيضا شفة عليا وشفة سفلى تساعد الفكوك في إسناد الطعام وإدخاله إلى فتحة الفم .

كما يوجد على منطقة الرأس زوج من العيون المركبة التي تتركب من عدد من العدسات الموجودة بجانب بعضها والتي يختلف عددها باختلاف أنواع النمل فهي تتراوح من 6 : 1000 عدسة . بذلك نجد أن النمل له قوة أبصار قوية يميز بها الأشياء الثابتة والمتحركة .

صدق الله القدير الحسيب عندما قال تعالى (صنع الله الذي أتقن كل شيء) النحل : 88

ثانيا : الصدر : Thorax Alitrunk or

هي المنطقة التي تلي الرأس مباشرة وتتكون من ثلاث حلقات تتمفصل مع بعضها البعض وتحمل كل حلقة زوج من أرجل المشي والتي تستخدمها أيضا في الإمساك بالغذاء وتنظيف قرون الاستشعار وذلك بتمرير قرن الاستشعار بين الزوج الأول من الأرجل والتي يوجد عليها العديد من الشعرات التي تعمل على تنظيف قرن الاستشعار . كما يوجد على الحلقة الثانية والثالثة في كلا من الذكور والملكات زوجين من الأجنحة تستخدمها في الطيران .

(528/577)

ونجد أن نهاية منطقة الصدر عبارة عن منطقة ضيقة مكونة من قطعة واحدة أو قطعتين ومتصلين بمنطقة البطن هذه المنطقة الضيقة تسمى (الخصر) Petioleوسبحان الله الخالق الذي أتقن صنعه نجد أن منطقة الخصر تسهل على النمل انثناء جسمه بمرونة وسهولة وهو موجود داخل أنفاقه تحت الأرض وكذلك تسهل عليه المرور بين الشقوق الضيقة بسهولة ويسر .

يوضح شكل الرأس على اليسار وشكل الفكوك العليا على يمين الصورة في نوعين من النمل

من منا لم يسمع عن المضادات الحيوية ضد الميكروبات البكتيرية والفيروسية والفطرية والتي يقوم الإنسان بتصنيعها ! ! ! هل تصدقوا أحبائي في الله أن النمل يقوم بإنتاج مضادات حيوية مطهرة ضد البكتريا والفطريات والفيروسات ؟ ؟ ؟ ؟ ؟ نعم إنها تنتجها من غدة تسمى (Metapleural gland) موجودة على جانبي الحلقة الثالثة للصدر ويعمل إفرازها على قتل أي ميكروب موجود داخل أعشاش النمل .

ثالثا : البطن Abdomen : Gaster

وهى آخر منطقة في الجسم وتتكون من عدد من الحلقات المتداخلة مع بعضها بشكل تلسكوبي ونجد أن أكثر الحلقات اتساعاً هي المنطقة الوسطية حيث يوجد الجهاز الهضمي في هذه المنطقة . ونجد أن نهاية البطن في الشغالات تنتهي بتركيب يشبه الإبرة يسمى اللاسعة Stiger تستخدمها في الدفاع عن نفسها ضد أعدائها وبعض الأنواع لا يوجد بها هذا التركيب ولكن توجد غدة تسمى غدة السم في نهاية البطن ولها فتحة تقوم الشغالة بحقن السم من خلال هذه الفتحة إلى أي حيوان صغير يقوم بمهاجمة العش وهذا السم يعمل على قتل الحيوان ثم تقوم بسحبة وإدخاله إلى العش للتغذية عليه .

قال تعالى : (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) النمل : 18

لقد توقفت أمام هذه الآية الكريمة وتعجبت كثيرا وسالت نفسي أسئلة كثيرة : كيف عرفت هذه النملة سيدنا سليمان وجنوده ؟ وكيف شعرت بوجودهم هل هي حاسة الإبصار القوية أم حاسة السمع أم الاثنين معا ؟ وما هذا الذكاء الذي تتمتع به هذه النملة ؟ هل لها مخ تميز به وتعرف أن سليمان وجنوده سوف يدوسونهم وهم لا يشعرون ؟ هل هذه النملة لها قلب وينبض بسرعة من شدة خوفها من هذا الموقف ؟ هل تتنفس هذه النملة وسرعة تنفسها زادت من شدة خوفها ؟ ؟ ؟ ؟ ! ! ! ! ! !

لقد توصل العلم إلى إجابات هذه الأسئلة عندما أوضح العلماء أن النمل له قوة سمع قوية عن طريق وجود مجموعة كبيرة من الخلايا تسمى (Chordotonal organs) والتي تنتشر على قرون الاستشعار والأرجل والرأس والصدر وعن طريقها يسمع النمل أي اهتزازات أو تحركات على المكان الذي يسير عليه وبهذا فقد عرفنا أن هذه النملة شعرت بتحركات سيدنا سليمان وجنوده على الأرض بالإضافة إلى رؤيتها لهم بأعينها المركبة .

كما أن للنملة جهاز عصبي يتكون من مخ brain موجود في منطقة الرأس ثم يتفرع منه حبل عصبي والذي يمتد إلى باقي أجزاء الجسم حيث يستقبل المخ أي مؤثرات عصبية حسية خارجية من خلال قرون الاستشعار وينقلها إلى داخل الجسم .

كما يوجد للنمل قلب (heart) نابض عبارة عن أنبوبة صغيرة تمتد من نهاية الرأس حتى

منطقة البطن ويحتوى جدار هذه الأنبوبة على عضلات لها القدرة على الانقباض والانبساط لتدفع الدم إلى باقي أجزاء الجسم وينظم عملية مرور الدم مجموعة من الفتحات تسمى صمامات تتحكم في مرور الدم .

كما أن للنمل جهاز تنفسي عبارة عن مجموعة من التفرعات الأنبوبية تسمى القصبات الهوائية والتي تمد جسم النملة بالأكسجين حيث يتم دخوله من خلال فتحات على جانبي جسم النملة ويخرج ثاني أكسيد الكربون من خلال تلك الفتحات أيضا .

لا تتعجبوا أحبائي في الله انه الله القادر على كل شيء والذي أتقن صنع كل شيء خلقه)

(530/577)

هو الله الخالق المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) الحشر : 24 صدق الله العظيم . انتهى انتهى ا هـ ﴿ الإعجاز العلمى فى القرآن ﴾

لمراسلة المؤلف :

Marwaaz2002@yahoo.com

المراجع :

1- http : //iridia.ulb.ac.be/~mdorigo/ACO/RealAnts.html

2- http : //en.wikipedia.org/wiki/Eusociality

3- http : //members.fortunecity.com/phylcage

4- http : //tolweb.org/onlinecontributors/app?service=external24820-basic=sp&al/ViewTreehouse

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/578)

الجزء الثامن والسبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 27 ﴾ من سورة النمل

وحتى الآية ﴿ 44 ﴾ من نفس السورة

(4/578)

قوله تعالى ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ

(29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما صح قوله في كون هذا خبراً عظيماً ، وخطباً جسيماً ، حصل التشوق إلى جوابه فقيل : ﴿ قال ﴾ أي سليمان عليه السلام للهدهد : ﴿ سننظر ﴾ أي نختبر ما قلته ﴿ أصدقت ﴾ أي فيه فنعذرك .

ولما كان الكذب بين يديه – لما أوتيه من العظمة بالنبوة والملك الذي لم يكن لأحد بعده – يدل على رسوخ القدم فيه ، قال : ﴿ أم كنت ﴾ أي كوناً هو كالجبلة ﴿ من الكاذبين ﴾ أي معروفاً بالانخراط في سلكهم ، فإنه لا يجترىء على الكذب عندي إلا من كان عريقاً في الكذب دون " أم كذبت " لأن هذا يصدق بمرة واحدة .

ثم شرع فيما يختبره به ، فكتب له كتاباً على الفور في غاية الوجازة قصداً للإسراع في إزالة المنكر على تقدير صدق الهدهد بحسب الاستطاعة ، ودل على إسراعه في كتابته بقوله جواباً له : ﴿ اذهب بكتابي هذا ﴾ قول من كان مهيئاً عنده ودفعه إليه .

ولما كان عليه السلام قد زاد قلقه بسجودهم لغير الله ، أمره بغاية الإسراع ، وكأنه كان أسرع الطير طيراناً وأمده الله زيادة على ذلك بمعونة منه إكراماً لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصار كأنه البرق ، فأشار إلى ذلك بالفاء في قوله : ﴿ فألقه ﴾ ولما لم يخصها في الكتاب دونهم بكلام لتصغر إليهم أنفسهم بخطابه مع ما يدلهم على عظمته ، جمع فقال : ﴿ إليهم ﴾ أي الذين ذكرت أنهم يعبدون الشمس ، وذلك للاهتمام بأمر الدين .

ولما كان لو تأخر عنهم بعد إلقائه إلى موضع يأمن فيه على نفسه على ما هو فيه من السرعة لداخلهم شك في أنه هو الملقى له ، أمره بأن يمكث بعد إلقائه يرفرف على رؤوسهم حتى يتحققوا أمره ، فأشار سبحانه إلى ذلك بأداة التراخي بقوله ، ﴿ ثم ﴾ أي بعد وصولك وإلقائك ﴿ تول ﴾ أي تنح ﴿ عنهم ﴾ إلى مكان تسمع فيه كلامهم ولا يصلون معه إليك ﴿ فانظر ﴾ عقب توليك ﴿ ماذا يرجعون ﴾ أي من القول من بعضهم إلى بعض بسبب الكتاب .

ولما كان العلم واقعاً بأنه يفعل ما أمر به لا محالة ، وأنه لا يدفعه إلا إلى الملكة التي بالغ في وصفها ، تشوفت النفس إلى قولها عند ذلك ، فكان كأنه قيل : فأخذ الكتاب وذهب به ، فلما ألقاه إليها وقرأته ، وكانت قارئة كاتبة من قوم تبع ﴿ قالت ﴾ لقومها بعد أن جمعتهم معمظمة لهم ، أو لأشرافهم فقط : ﴿ يا أيها الملأ ﴾ أي الأشراف .

ولما كان من شأن الملوك أن لا يصل إليهم أحد بكتاب ولا غيره إلا على أيدي جماعتهم ، عظمت هذا الكتاب بأنه وصل إليها على غير ذلك المنهاج فبنت للمفعول قولها : ﴿ إني ألقي إليَّ ﴾ أي بإلقاء ملق على وجه غريب ﴿ كتاب ﴾ أي صحيفة مكتوب فيها كلام وجيز جامع .

(6/578)

ولما كان الكريم كما تقدم في الرعد – من ستر مساوىء الأخلاق بإظهار معاليها لأنه ضد اللئيم ، وكان هذا الكتاب قد حوى من الشرف أمراً باهراً لم يعهد مثله من جهة المرسل والرسول والافتتاح بالاسم الأعظم إلى ما له من وجازة اللفظ وبلوغ المعنى ، قالت : ﴿ كريم ﴾ ثم بينت كرمه أو استأنفت جواباً لمن يقول : ممن هو وما هو ؟ فقالت : ﴿ إنه ﴾ أي الكتاب ﴿ من سليمان ﴾ وفيه دلالة على أن الابتداء باسم صاحب الكتاب لا يقدح في الابتداء بالحمد ﴿ وإنه ﴾ أي المكتوب فيه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فحمد المستحق للحمد وهو الملك الأعلى المحيط عظمه بدائرتي الجلال والإكرام ، العام الرحمة بك نعمة ، فملك الملوك من فائض ما له من الإنعام الذي يخص بعد العموم من يشاء بما يشاء مما ترضاه ألوهيته من إنعامه العام ، بعد التعريف باسمه إشارة إلى

أنه المدعو إليه للعبادة بما وجب له لذاته وما استحقه بصفاته ، وذلك كله بعد التعريف بصاحب الكتاب ليكون ذلك أجدر بقبوله ، لأن أكثر الخلق إنما يعرف الحق بالرجال ، ولما في كتابه من الدلالة على نبوته ، فسر مراده بأمر قاهر فقال : ﴿ ألا تعلوا عليّ ﴾ أي لا تمتنعوا من الإجابة لي ، والإذعان لأمري ، كما يفعل الملوك ، بل اتركوا علوهم ، لكوني داعياً إلى الله الذي أعلمت في باء البسملة بأنه لا تكون حركة ولا سكون إلا به ، فيجب الخضوع له لكونه رب كل شيء ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ أي منقادين خاضعين بما رأيتم من معجزتي في أمر الكتاب .

(7/578)

ولما تشوفت النفس غلى جوابهم ، اعلم سبحانه بأنهم بهتوا فقال : ﴿ قالت يا أيها الملأ ﴾ ثم بينت ما داخلها من الرعب من صاحب هذا الكتاب بقولها : ﴿ أفتوني ﴾ أي تكرموا عليّ بالإبانة عما أفعله ﴿ في أمري ﴾ هذا الذي أجيب به عن هذا الكتاب ، جعلت المشورة فتوى توسعاً ، لأن الفتوى الجواب في الحادثة ، والحكم بما هو صواب مستعار من الفتاء في السن الذي صفرة العمر ؛ ثم عللت أمرها لهم بذلك بأنها شأنها دائماً مشاورتهم في كل جليل وحقير ، فكيف بهذا الأمر الخطير ، وفي ذلك استعطافهم بتعظيمهم وإجلالهم

وتكريمهم ، فقال : ﴿ ما كنت ﴾ أي كوناً ما ﴿ قاطعة أمراً ﴾ أي فاعلته وفاصلته غير مترددة فيه ﴿ حتى تشهدون ﴾ وقد دل على غزارة عقلها وحسن أدبها ، ولذلك جنت ثمرة أمثال ذلك طاعتهم لها في المنشط والمكره ، فاستأنف تعالى الإخبار عن جوابهم بقوله : ﴿ قالوا ﴾ أي الملأ مائلين إلى الحرب : ﴿ نحن أولوا قوة ﴾ أي بالمال والرجال ﴿ وأولوا بأس ﴾ أي عزم في الحرب ﴿ شديد والأمر ﴾ راجع وموكول ﴿ إليك ﴾ أي كل من المسالمة والمصادمة ﴿ فانظري ﴾ بسبب أنه لا نزاع معك ﴿ ماذا تأمرين ﴾ أي به فإنه مسموع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 422 . 424 ﴾

(8/578)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ فمن النظر الذي هو التأمل ، وأراد صدقت أم كذبت إلا أن ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ أبلغ ، لأنه إذا كان معروفاً بالكذب كان متهماً بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به ، وإنما قال : ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ على لفظ الجمع لأنه قال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ [النمل : 24] فقال : ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى الذين هذا دينهم .

أما قوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك و ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴾ [سبأ : 30] ويقال دخل عليها من كوة وألقى إليها الكتاب وتوارى في الكوة .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ إِنِّى أُلْقِيَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ بمعنى أن يقال إن الهدهد ألقى إليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت ، روي أنها كانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية ، وقيل نقرها فانتبهت فزعة .

أما قوله : ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه : أحدها : حسن مضمونه وما فيه وثانيها : وصفته بالكريم لأنه من عند ملك كريم وثالثها : أن الكتاب كان مختوماً وقال عليه السلام : "كرم الكتاب ختمه " وكان عليه السلام " يكتب إلى العجم ، فقيل له إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتماً "

أما قوله : ﴿ أَنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : أنه استئناف وتبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت إني ألقي إليّ كتاب كريم قيل لها ممن هو وما هو فقالت إنه من سليمان وإنه كيت وكيت ، وقرأ عبد الله ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ الله ﴾ عطفاً على ﴿ إِنّى ﴾ وقرىء ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ ﴾ بالفتح وفيه وجهان : أحدهما : أنه بدل من كتاب كأنه قيل ألقي إليّ أنه من سليمان وثانيهما : أن يريد أن من سليمان ولأنه بسم الله كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله وقرأ أبي (أن من سليمان وأن بسم الله) على أن المفسرة ، وأن في (ألا تعلوا) مفسرة أيضاً ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك ، وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهي مجاوزة الحد .

البحث الثاني : يقال لما قدم سليمان اسمه على قوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ ؟ جوابه : حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو ببسم الله الرحمن الرحيم ، وإنما ذكرت بلقيس أن هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما في الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع في الحكاية .

البحث الثالث : أن الأنبياء عليهم السلام لا يطيلون بل يقتصرون على المقصود ، وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود ، وذلك لأن المطلوب من الخلق ، إما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ مشتمل على إثبات الصانع سبحانه

وتعالى وإثبات كونه عالماً قادراً حياً مريداً حكيماً رحيماً .

وأما قوله : ﴿ أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ فهو نهي عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر .

(10/578)

وأما قوله : ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ فالمراد من المسلم إما المنقاد أو المؤمن ، فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوي كل ما لا بد منه في الدين والدنيا ، فإن قيل النهي عن الاستعلاء والأمر بالانقياد قبل إقامة الدلالة على كونه رسولاً حقاً يدل على الاكتفاء بالتقليد جوابه : معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لأن رسول سليمان إلى بلقيس كان الهدهد ورسالة الهدهد معجز ، والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعي فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر في الكتاب دليلاً آخر .

أما قوله : ﴿ يا أيها الملأ أَفْتُونِى فِى أَمْرِي ﴾ فالفتوى هي الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن أي أجيبوني في الأمر الفتى ، وقصدت بالانقطاع إليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ﴿ مَا كُنتُ قاطعة أَمْراً ﴾ أي لا أبت أمراً إلا بمحضركم .

أما قوله : ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ فالمراد قوة الأجسام وقوة الآلات (والعدد) والمراد

بالبأس النجدة (والثبات) في الحرب ، وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين : أحدهما : إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد ، والآخر قولهم : ﴿ والأمر إِلَيْكِ فانظرى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ وفي ذلك إظهار الطاعة لها إن أرادت السلم ، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 166 . 167 ﴾

(11/578)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنْ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ .

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ لَمْ يُعَاقِبْهُ ؛ لِأَنَّهُ اعْتَذَرَ لَهُ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللَّهِ ، وَلِذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ .

وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى الْوَالِي أَنْ يَقْبَلَ عُذْرَ رَعِيَّتِهِ ، وَيَدْرَأَ الْعُقُوبَةَ عَنْهُمْ فِي ظَاهِرِ أَحْوَالِهِمْ بِبَاطِنِ أَعْذَارِهِمْ ، وَلَكِنْ لَهُ أَنْ يَمْتَحِنَ ذَلِكَ إذَا تَعَلَّقَ بِهِ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، كَمَا فَعَلَ سُلَيْمَانُ ؟ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُ [الْهُدْهُدُ] : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ لَمْ يَسْتَفِزَّهُ الطَّمَعُ ، وَلَا اسْتَجَرَّهُ حُبُّ الزِّيَادَةِ فِي الْمِلْكِ إلَى أَنْ يَعْرِضَ لَهُ ، حَتَّى قَالَ : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، حِينَئِذٍ غَاظَهُ مَا سَمِعَ ، وَطَلَبَ الِانْتِهَاءَ إلَى مَا أَخْبَرَ ، وَتَحْصِيلَ عِلْمِ مَا غَابَ مِنْ ذَلِكَ ، حَتَّى يُغَيِّرَهُ بِالْحَقِّ ، وَيَرُدَّهُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَنَحْوٌ مِنْهُ مَا يُرْوَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ سَأَلَ عَنْ إمْلَاصِ الْمَرْأَةِ ، وَهِيَ الَّتِي يُضْرَبُ بَطْنُهَا فَتُلْقِي جَنِينَهَا ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ سَمِعَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ شَيْئًا ؟ قُلْت : أَنَا يَعْنِي الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ فَقَالَ : مَا هُوَ ؟ قُلْت : سَمِعْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ فِيهِ غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ ﴾ .

(12/578)

فَقَالَ : " لَا تَبْرَحْ حَتَّى تَجِيءَ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ " فَخَرَجْت ، فَوَجَدْت مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ، فَجِئْت بِهِ ، فَشَهِدَ .

وَكَانَ هَذَا تَثَبُّتًا مِنْ عُمَرَ احْتَجَّ بِهِ لِنَفْسِهِ .

وَأَمَّا الْمُغِيرَةُ فَتَوَقَّفَ فِيمَا قَالَ لِأَجْلِ قِصَّةِ أَبِي بَكْرَةَ ، وَهَذَا كُلُّهُ مُبَيَّنٌ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : لَوْ قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : سَنَنْظُرُ فِي أَمْرِك

لَاجْتَزَأَ بِهِ ، وَلَكِنَّ الْهُدْهُدَ لَمَّا صَرَّحَ لَهُ بِفَخْرِ الْعِلْمِ ، ﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ صَرَّحَ لَهُ سُلَيْمَانُ بِأَنَّهُ سَيَنْظُرُ ، أَصَدَقَ أَمْ كَذَبَ فَكَانَ ذَلِكَ كُفُؤًا لِمَا قَالَهُ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فِيهِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : لِخَتْمِهِ ، وَكَرَامَةُ الْكِتَابِ خَتْمُهُ .

الثَّانِي : لِحُسْنِ مَا فِيهِ مِنْ بَلَاغَةٍ وَإِصَابَةِ مَعْنًى .

الثَّالِثُ : كَرَامَةُ صَاحِبِهِ ؛ لِأَنَّهُ مَلَكٌ .

الرَّابِعُ : كَرَامَةُ رَسُولِهِ ؛ لِأَنَّهُ طَائِرٌ ؛ وَمَا عُهِدَتْ الرُّسُلُ مِنْهَا .

الْخَامِسُ : لِأَنَّهُ بَدَأَ فِيهِ بِبَسْمِ اللَّهِ .

السَّادِسُ : لِأَنَّهُ بَدَأَ فِيهِ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إلَّا الْجُلَّةُ .

(13/578)

وَفِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُبَايِعُهُ : لِعَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنِّي أُقِرُّ لَكَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَإِنَّ بَنِيَّ قَدْ أَقَرُّوا لَكَ بِذَلِكَ .

وَهَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا صَحِيحَةٌ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَحَدٌ قَبْلَ سُلَيْمَانَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْوَصْفُ الْكَرِيمُ فِي الْكِتَابِ غَايَةُ الْوَصْفِ ؛ أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وَأَهْلُ الزَّمَانِ يَصِفُونَ الْكِتَابَ بِالْخَطِيرِ ، وَبِالْأَثِيرِ ، وَبِالْمَبْرُورِ ؛ فَإِنْ كَانَ لِمَلِكٍ قَالُوا : الْعَزِيزَ ؛ وَأَسْقَطُوا الْكَرِيمَ غَفْلَةً ، وَهُوَ أَفْضَلُهَا خَصْلَةً .

فَأَمَّا الْوَصْفُ بِالْعَزِيزِ فَقَدْ اتَّصَفَ بِهِ الْقُرْآنُ أَيْضًا ؛ فَقَالَ : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ .

فَهَذِهِ عِزَّتُهُ ، وَلَيْسَتْ لِأَحَدٍ إِلَّا لَهُ ؛ فَاجْتَنِبُوهَا فِي كُتُبِكُمْ ، وَاجْعَلُوا بَدَلَهَا الْعَالِيَ ، تَوْقِيَةً لِحَقِّ الْوِلَايَةِ ، وَحِيَاطَةً لِلدِّيَانَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَذِهِ الْبَسْمَلَةُ آيَةٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِإِجْمَاعٍ ؛ وَلِذَلِكَ إِنَّ مَنْ قَالَ : إِنَّ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ لَيْسَتْ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ كُفْرٌ ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّهَا لَيْسَتْ بِآيَةٍ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ لَمْ يَكْفُرْ ؛ لِأَنَّ الْمَسْأَلَةَ الْأُولَى مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا ، وَالْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ مُخْتَلَفٌ فِيهَا .

وَلَا يَكْفُرُ إِلَّا بِالنَّصِّ أَوْ مَا يُجْمَعُ عَلَيْهِ .

(14/578)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴾ .

فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْمُشَاوَرَةِ إمَّا اسْتِعَانَةً بِالْآرَاءِ ، وَإِمَّا مُدَارَاةً لِلْأَوْلِيَاءِ .

وَيُقَالُ : إنَّهَا أَوَّلُ مَنْ جَاءَ أَنَّهُ شَاوَرَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا الْمَشُورَةَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إعَادَتِهِ ، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ الْفُضَلَاءَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(15/578)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ . . . ﴾ الآية ،

هذا قول سليمان للهدهد قال ابتلي فاختبر من ذلك فوجده صادقاً .

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا إِلَيهِمْ ﴾ قال مجاهد أخذ الهدهد الكتاب بمنقاره فأتى بهوها فجعل يدور فيه فقالت ما رأيت خيراً منذ رأيت هذا الطير في بهوي فألقى الكتاب إليها .

قال قتادة : فألقاه على صدرها وهي نائمة ، قال يزيد بن رومان : كانت في ملك من مضى من أهلها وقد سيست وساست حتى أحكمها ذلك .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس كن قريباً منهم .

﴿ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

فيه تقديم وتأخير تقديره فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم ، حكاه ابن عيسى ، وقاله الفراء .

قوله : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ وفي صفتها الكتاب أنه كريم ، أربعة أوجه :

أحدها : لأنه مختوم ، قاله السدي .

الثاني : لحسن ما فيه ، قاله قتادة .

الثالث : لكرم صاحبه وأنه كان ملكاً ، حكاه ابن بحر .

الرابع : لتسخير الهدهد به بجمله . ويحتمل خامساً : لإلقائه عليها عالياً من نحو السماء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ الآية ، أما قولها إنه من سليمان فلإعلامهم مرسل الكتابي وممن هو .

وأما قولها : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فلاستنكار هذا الاستفتاح الذي لم تعرفه هي ولا قومها لأن أول من افتتح ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ سليمان .

روى ابن بريدة عن أبيه قال كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إِنِّي لأَعْلَمُ آيَةً لَمْ تَنْزِلْ عَلَى نَبِيٍ قَبْلِي بَعْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ " قال : قلت يا رسول الله أي آية هي ؟ قال : " سَأُعَلِّمُكَهَا قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ " قال : فانتهى إلى الباب فأخرج إحدى قدميه فقلت : نسي ثم التفت إليّ فقال : " إِنَّهُ مِنْ سُلَيمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

" . حكى عاصم عن الشعبي قال : كَانَتْ كُتُبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة كتب كان يكتب : باسمك الله ، فلما نزلت ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا ﴾ [هود : 41] كتب : باسم الله ، فلما نزلت ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ [الإسراء : 110] كتب : باسم الله الرحمن ، فلما نزلت ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴾ كتب : بسم الله الرحمن الرحيم . قال عاصم قلت للشعبي أنا رأيت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال ذلك الكتاب الثالث

. وأما قوله : ﴿ ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين ﴾ فهذه كتب الأنباء موجزة مقصورة على الدعاء إلى الطاعة من غير بسط ولا إسهاب .

وفي ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : لا تخالفوا عليّ ، قاله قتادة .

الثاني : لا تتكبروا علي ، قاله السدي وابن زيد .

الثالث : لا تمتنعوا عليّ ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فيه أربعة تأويلات

: أحدها : مستسلمين ، قاله الكلبي .

الثاني : موحدين ، قاله ابن عباس .

الثالث : مخلصين ، قاله زهير .

الرابع : طائعين ، قاله سفيان .

قوله : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾

أشيروا عليّ في هذا الأمر الذي نزل بي فجعلت المشورة فتيا وقيل : إنها أول من وضع المشورة .

(17/578)

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴾ أي ممضية أمراً ، وفي قراءة ابن مسعود قاضية أمراً ، والمعنى واحد .

﴿ حَتَّى تَشْهَدُونَ ﴾ فيه وجهان

. أحدهما : حتى تشيروا ، قاله زهير .

الثاني : حتى تحضروا ، قاله الكلبي .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ أي أهل عدد وعدة .

﴿ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي شجاعة وآلة ، وفي هذا القول منهم وجهان

: أحدهما : تفويض الأمر إلى رأيها لأنها المدبرة لهم .

الثاني : أنهم أجابوها تبادرين إلى قتاله ، قاله ابن زيد .

قال مجاهد : كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف مقاتل وهذا بعيد .

﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ الآية . عرضوا عليها الحرب وردوا إليها الأمر ، قال الحسن : ولّوا أمرهم علجة يضطرب ثدياها ، حدث أبو بكرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ تَمْلِكُهُمُ امْرَأَةٌ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(18/578)

وقال ابن عطية :

ثم إن سليمان عليه السلام أخَّر أمر الهدهد إلى إن يبين له حقه من باطله فسوفه بالنظر في ذلك وأمر بكتاب فكتب وحمله إياه وأمره بإلقائه إلى القوم والتولي بعد ذلك ، وقال وهب بن منبه أمره بالتولي حسن أدب ، ليتنحى حسبما يتأدب به مع الملوك بمعنى وكن قريباً حتى ترى مراجعاتهم ، وقال ابن زيد : أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه أي ألقه وارجع ، قال وقوله ﴿ فانظر ماذا يرجعون ﴾ في معنى التقديم على قوله ﴿ ثم تول ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : واتساق رتبه الكلام أظهر أي " ألقه ثم تول " وفي خلال ذلك ﴿ فانظر ﴾ وإنما أراد أن يكل الأمر إلى علم ما في الكتاب دون أن تكون للرسول ملازمة ولا إلحاح.

وقرأ نافع " فألقِه " بكسر الهاء ، وفرقة " فألقهُ " بضمها ، وقرأ ابن كثير وابن عامر والكسائي بإشباع ياء بعد الكسرة في الهاء ، وروى عنه ورش بياء بعد الهاء في الوصل ، وقرأ قوم بإشباع واو بعد الضمة ، وقرأ البزي عن أبي عمرو وعاصم وحمزة " فألقهْ " بسكون الهاء ، وروي عن وهب بن منبه في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألفى دون هذه الملكة حجب جدرات فعمد إلى كوة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عن طلوعها لمعنى عبادتها إياها فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي فيما يروى نائمة

، فلما انتبهت وجدته فراعها وظنت أنه قد دخل عليها أحد ثم قامت فوجدت حالها كما عهدته فنظرت إلى الكوة تهمماً بأمر الشمس فرأت الهدهد فعلمت أمره ثم جمعت أهل ملكها وعلية قومها فخاطبتهم بما يأتي بعد .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) ﴾

(19/578)

في هذا الموضع اختصار لما يدل ظاهر القول عليه تقديره فألقى الكتاب وقرأته وجمعت له أهل ملكها ، و﴿ الملأ ﴾ أشراف الناس الذين ينوبون مناب الجميع ، ووصفت " الكتاب بالكرم " إما لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالاً لسليمان ، وهذا قول ابن زيد ، وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم ، وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كرم الكتاب ختمه " وإما إن أرادت أنه بدىء ﴿ بسم الله ﴾ ف ﴿ كريم ﴾ ضد أجْذم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل كلام لم يبدأ باسم الله تعالى فهو أجذم " ، ثم أخذت تصف لهم ما في الكتاب فيحتمل اللفظ أنه نص الكتاب موجزاً بليغاً وكذلك كتب الأنبياء وقدم فيه العنوان وهي عادة الناس على وجه الدهر ، ثم سمى الله تعالى ، ثم أمرهم بأن لا يعلوا عليه طغياناً وكفراً وأن يأتوه ﴿ مسلمين ﴾ ،

ويحتمل أنها قصدت إلى اقتضاب معانيه دون ترتيبه فأعلمتهم ﴿ أنه من سليمان ﴾ وأن معنى ما فيه كذا وكذا ، وقرأ أبيّ " وأن بسم الله " بفتح الهمز وتخفيف النون وحذف الهاء ، وقرأ ابن أبي عبلة " أنه " من " وأنه " بفتح الهمزة فيهما ، وفي قراءة عبد الله " وأنه من سليمان " بزيادة ، و﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، استفتاح شريف بارع المعنى معبر عنه بكل وفي كل شرع ، و﴿ أن ﴾ في قوله تعالى : ﴿ أن لا تعلوا علي ﴾ يحتمل أن تكون رفعاً على البدل من ﴿ كتاب ﴾ ، أو نصباً على معنى " بأن لا تعلوا " ، أو مفسرة بمنزلة أي قاله سيبويه ، وقرأ وهب بن منبه " أن لا تغلوا " بالغين منقوطة ، قال أبو الفتح رواها وهب عن ابن عباس وهي قراءة الأشهب العقيلي ذكرها الثعلبي ثم أخذت في حسن الأدب مع رجالها ومشاورتهم في أمرهم وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر فكيف في هذه النازلة الكبرى ، فراجعها الملأ بما يقر عينها من إعلامهم إياها ب " القوة والبأس " أي وذلك مبذول إليك فقاتلي إن شئت ، ثم سلموا الأمر إلى نظرها وهذه

(20/578)

محاورة حسنة من الجميع ، وفي قراءة عبد الله " ما كنت قاضية أمراً " بالضاد من القضاء ، وذكر مجاهد في عدد أجنادها أنها كان لها اثنا عشر ألفاً ، قيل تحت يد كل واحد منهم

مائة ألف .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بعيد ، وذكر غيره نحوه فاختصرته لبعد الصحة عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(21/578)

وقال ابن الجوزى :

فلما فرغ الهدهد من كلامه ﴿ قال سنَنْظُرُ ﴾ فيما أخبرتَنا به ﴿ أَصَدَقْتَ ﴾ فيما قلتَ ﴿ أم كنتَ من الكاذِبين ﴾ وإنما شَكَّ في خبره ، لأنه أنكر أن يكون لغيره في الأرض سلطان .

ثم كتب كتاباً وختمه بخاتَمه ودفعه إلى الهدهد وقال : ﴿ اذهب بكتابي هذا فأَلقِهْ إليهم ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، والكسائي : ﴿ فأَلْقِهي ﴾ موصولة بياء .

وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وحمزة : ﴿ فأَلْقِهْ ﴾ بسكون الهاء ، وروى قالون عن نافع كسر الهاء من غير إشباع ؛ ويعني إلى أهل سبأ ، ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عنهم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أَعْرِض .

والثاني : انْصَرِف ، ﴿ فانظُر ماذا يَرْجِعون ﴾ أي : ماذا يَرُدُّون من الجواب .

فإن قيل : إذا تولَّى عنهم فكيف يعلم جوابهم ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن المعنى : ثم تولَّ عنهم مستتراً من حيث لا يرونك ، فانظر ماذا يردُّون من الجواب ، وهذا قول وهب بن منبّه .

والثاني : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : فانظر ماذا يرجعِون ثم تولّ عنهم ، وهذا مذهب ابن زيد .

قال قتادة : أتاها الهدهد وهي نائمة فألقى الكتاب على نحرها فقرأته وأخبرت قومها .

وقال مقاتل : حمله في منقاره حتى وقف على رأس المرأة ، فرفرف ساعة والناس ينظُرون ، فرفعت رأسها فألقي الكتاب في حِجْرها ، فلما رأت الخاتَم أُرْعِدَتْ وخضعتْ وخضع مَنْ معها من الجنود .

واختلفوا لأيِّ عِلَّة سمَّتْه كريماً على سبعة أقوال .

أحدها : لأنه كان مختوماً ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : لأنها ظنَّته من عند الله عز وجل ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أن معنى قولها ﴿ كريمٌ ﴾ : حَسَنٌ ما فيه ، قاله قتادة ، والزجاج .

والرابع : لكَرَم صاحبه ، فانه كان مِلكاً ، ذكره ابن جرير .

والخامس : لأنه كان مَهيباً ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

والسادس : لتسخير الهدهد لحمله ، حكاه الماوردي .

السابع : لأنها رأت في صدره ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّه من سُلَيمان ﴾ أي : إن الكتاب من عنده ﴿ وإِنَّه ﴾ أي : وإِنَّ المكتوب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم .

ألاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ ﴾ أي : لا تتكبروا .

وقرأ ابن عباس : ﴿ تَغْلُوا ﴾ بغين معجمة ﴿ وأْتُوني مُسْلِمِينَ ﴾ أي : منقادين طائعين .

ثم استشارت قومها ، ف ﴿ قالت يا أيُّها الملأُ ﴾ يعني الاشراف ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائداً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف .

وقال ابن عباس : كان معها مائة ألف قَيْل ، مع كل قَيْل مائة ألف .

وقيل : كانت جنودها ألف ألف ومائتي ألف .

قوله تعالى : ﴿ أَفْتُوني في أمري ﴾ أي : بيّنوا لي ما أفعل ، وأشيروا عليَّ .

قال الفراء : جعلت المشورة فُتْيا ، وذلك جائز لسَعة اللغة .

قوله تعالى : ﴿ ما كنتُ قاطعةً أمراً ﴾ أي : فاعلته ﴿ حتى تَشْهَدُون ﴾ أي : تَحْضُرون ؛ والمعنى : إلا بحضوركم ومشورتكم .

﴿ قالوا نحن أولُوا قُوَّة ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنهم أرادوا القُوَّة في الأبدان .

والثاني : كثرة العدد والبأس والشجاعة في الحرب .

وفيما أرادوا بذلك القول قولان .

أحدهما : تفويض الأمر إلى رأيها .

والثاني : تعريض منهم بالقتال إن أمرتْهم .

ثم قالوا : ﴿ والأمر إليكِ ﴾ أي : في القتال وتركه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(23/578)

وقال القرطبى :

الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ من النظر الذي هو التأمل والتصفح .

﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ في مقالتك .

و ﴿ كنت ﴾ بمعنى أنت .

وقال : ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ ولم يقل سننظر في أمرك ؛ لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم

في قوله : ﴿ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك (كفاء) لما قاله .

الخامسة عشرة : في قوله : ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه .

وإنما صار صدق الهدهد عذراً لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد ، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد .

وفي "الصحيح" :

" ليس أحدٌ أحبَّ إليه العذرُ من الله من أجل ذلك أنزل الكتابَ وأرسل الرسل " وقد قبل عمر عذر النعمان بن عديّ ولم يعاقبه .

ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة .

كما فعل سليمان ؛ فإنه لما قال الهدهد : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ لم يستفزه الطمع ، ولا استجرّه حبّ الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله ﴾ فغاظه حينئذٍ ما سمع ، وطلب الانتهاء إلى ما أخبر ، وتحصيلِ علم ما غاب عنه من ذلك ، فقال : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ ونحو منه ما رواه الصحيح عن المِسْور بن

مَخْرَمة ، حين استشار عمر الناس في إملاص المرأة وهي التي يضرب بطنها فتلقي جنينها ؛ فقال المغيرة بن شعبة : شهدت النبيّ صلى الله عليه وسلم قضى فيه بغُرّةِ عبدٍ أو أمة .

(24/578)

قال فقال عمر : ايتني بمن يشهد معك ؛ قال : فشهد له محمد بن مسلمة وفي رواية فقال : لا تبرح حتى تأتي بالمخرج من ذلك ؛ فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد .

ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان وغيره .

السادسة عشرة : قوله تعالى : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ قال الزجاج : فيها خمسة أوجه ﴿ فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ﴾ بإثبات الياء في اللفظ .

وبحذف الياء وإثبات الكسرة دالّة عليها ﴿ فَأَلْقِهِ وإِلَيْهِمِ ﴾ .

وبضم الهاء وإثبات الواو على الأصل ﴿ فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ ﴾ .

وبحذف الواو وإثبات الضمة ﴿ فَأَلْقِهُ إِلَيْهِمْ ﴾ .

واللغة الخامسة قرأ بها حمزة بإسكان الهاء ﴿ فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ .

قال النحاس : وهذا عند النحويين لا يجوز إلا على حيلة بعيدة تكون : يقدّر الوقف ؛ وسمعت علي بن سليمان يقول : لا تلتفت إلى هذه العلة ، ولو جاز أن يصل وهو ينوي

الوقف لجاز أن يحذف الإعراب من الأسماء .

وقال : ﴿ إليهم ﴾ على لفظ الجمع ولم يقل إليها ؛ لأنه قال : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ﴾ فكأنه قال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ؛ اهتماماً منه بأمر الدِّين ، واشتغالاً به عن غيره ، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك .

وروي في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألفى دون هذه الملكة حجُبَ جدران ؛ فعمد إلى كُوّة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إياها ، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي فيما يروى نائمة ؛ فلما انتبهت وجدته فراعها ، وظنت أنه قد دخل عليها أحد ، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدت ، فنظرت إلى الكُوّة تَهمُّما بأمر الشمس ، فرأت الهدهد فعلمت .

(25/578)

وقال وهب وابن زيد : كانت لها كُوّة مستقبلة مطلع الشمس ، فإذا طلعت سجدت ، فسدها الهدهد بجناحه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، لأن ملك سليمان عليه السلام كان في خاتمه ، فقرأته فجمعت الملأ من قومها وخضعت ، لأن مُلك سليمان عليه

السلام كان في خاتمه ؛ فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتي بعد .

وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره ، وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر ، فرفرف ساعة والناس ينظرون إليه ، فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها .

السابعة عشرة : في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ، ودعائهم إلى الإسلام .

وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبّار ؛ كما تقدّم في "آل عمران" :

الثامنة عشرة : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أمره بالتولّي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك .

بمعنى : وكن قريباً حتى ترى مراجعتهم ؛ قاله وهب بن منبّه .

وقال ابن زيد : أمره بالتولّي بمعنى الرجوع إليه ؛ أي ألقه وارجع .

قال وقوله : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ في معنى التقديم على قوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ ﴾ واتساق رتبة الكلام أظهر ؛ أي ألقه ثم تول ، وفي خلال ذلك فانظر أي انتظر .

وقيل : فاعلم ؛ كقوله : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ : 40] أي اعلم ماذا يرجعون أي يجيبون وماذا يردّون من القول .

وقيل : ﴿ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ بينهم من الكلام .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) ﴾

فيه ست مسائل :

(26/578)

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ ﴾ في الكلام حذف ؛ والمعنى : فذهب فألقاه إليهم فسمعها وهي تقول : ﴿ يَأَيُّهَا الْمَلأُ ﴾ ثم وصفت الكتاب بالكريم إما لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم فعظمته إجلالاً لسليمان عليه السلام ؛ وهذا قول ابن زيد : . وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم ، فكرامة الكتاب ختمه ؛ وروي ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : لأنه بدأ فيه ب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وقد قال صلى الله عليه وسلم : " كل كلام لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم " وقيل : لأنه بدأ فيه بنفسه ، ولا يفعل ذلك إلا الجلّة .

وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه : من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ؛ إني أقرّ لك بالسمع والطاعة ما استطعت ، وإن بَنِيّ قد أقرّوا لك

بذلك .

وقيل : توهمت أنه كتاب جاء من السماء إذ كان الموصِّل طيراً .

وقيل : ﴿ كَرِيمٌ ﴾ حسن ؛ كقوله : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 58] أي مجلس حسن .

وقيل : وصفته بذلك ؛ لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عز وجل ، وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًّا ولا لعناً ، ولا ما يغيّر النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ؛ على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عز وجل ؛ ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ ادعُ إلى سَبيلِ ربِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ [النحل : 125] وقوله لموسى وهارون : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 44] .

وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها .

وقد روي أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان .

وفي قراءة عبد الله ﴿ وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَان ﴾ بزيادة واو .

(27/578)

الثانية : الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : 77] وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور ؛ فإن كان لملك قالوا : العزيز وأسقطوا الكريم غفلة ، وهو أفضلها خصلة .

فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : 41 42] فهذه عزته وليست لأحد إلا له ؛ فاجتنبوها في كتبكم ، واجعلوا بدلها العالي ؛ توفية لحق الولاية ، وحياطة للديانة ؛ قاله القاضي أبو بكر بن العربي .

الثالثة : كان رسم المتقدّمين إذا كتبوا أن يبدؤوا بأنفسهم من فلان إلى فلان ، وبذلك جاءت الآثار .

وروى الربيع عن أنس قال : ما كان أحد أعظم حرمة من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أصحابه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم .

وقال ابن سيرين قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أهل فارس إذا كتبوا بدؤوا بعظمائهم فلا يبدأ الرجل إلا بنفسه "

قال أبو الليث في كتاب "البستان" له : ولو بدأ بالمكتوب إليه لجاز ؛ لأن الأمة قد اجتمعت عليه وفعلوه لمصلحة رأوا في ذلك ، أو نسخ ما كان من قبل ؛ فالأحسن في زماننا هذا أن يبدأ بالمكتوب إليه ، ثم بنفسه ؛ لأن البداية بنفسه تعدّ منه استخفافاً بالمكتوب إليه وتكبّراً

عليه ؛ إلا أن يكتب إلى عبد من عبيده ، أو غلام من غلمانه .

الرابعة : وإذا ورد على إنسان كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يرد الجواب ؛ لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر .

وروي عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجباً كما يرى رد السلام .

والله أعلم .

الخامسة : اتفقوا على كتب "بسم الله الرحمن الرحيم" في أوّل الكتب والرسائل ، وعلى ختمها ؛ لأنه أبعد من الريبة ، وعلى هذا جرى الرسم ، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : أيما كتاب لم يكن مختوماً فهو أغلف .

(28/578)

وفي الحديث : "كرم الكتاب خَتْمُه " وقال بعض الأدباء ؛ هو ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به ؛ لأن الختم ختم .

وقال أنس : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم فقيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه ختم ؛ فاصطنع خاتماً ونقش على فصه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكأني أنظر إلى وبيصِه وبياضه في كفّه .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ بالكسر فيهما أي وإن الكلام ، أو إن مبتدأ الكلام ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وأجاز الفراء ﴿ أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنَّهُ ﴾ بفتحهما جميعاً على أن يكونا في موضع رفع بدل من الكتاب ؛ بمعنى ألقى إليّ أنه من سليمان .

وأجاز أن يكونا في موضع نصب على حذف الخافض ؛ أي لأنه من سليمان ولأنه ؛ كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله .

وقرأ الأشهب العُقَيليّ ومحمد بن السَّمَيْقع : ﴿ أَلَّا تَغْلُوا ﴾ بالغين المعجمة ؛ وروي عن وهب بن منبّه ؛ من غلا يغلوا إذا تجاوز وتكبّر .

وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة .

﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي منقادين طائعين مؤمنين .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ الملأ أشراف القوم وقد مضى في سورة "البقرة" القول فيه .

قال ابن عباس : كان معها ألف قَيْل .

وقيل : اثنا عشر ألف قَيْل مع كل قَيْل مائة ألف .

والقَيْل المِلك دون المِلك الأعظم .

فأخذت في حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم في أمرها ، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض ، بقولها : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ ﴾ فكيف في هذه النازلة الكبرى .

(29/578)

فراجعها الملأ بما يقر عينها ، من إعلامهم إياها بالقوّة والبأس ، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها ؛ وهذه محاورة حسنة من الجميع .

قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً هم أهل مشورتها ، كل رجل منهم على عشرة آلاف .

الثانية : في هذه الآية دليل على صحة المشاورة .

وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : 159] في "آل عمران" إما استعانة بالآراء ، وإما مداراة للأولياء .

وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : 38] .

والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب ؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد

الشمس : ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ ﴾ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضائهم على الطاعة لها ، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدّهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم ، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم ، وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها ، ودخيلة في تقدير أمرهم ، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوّة شوكتهم ، وشدّة مدافعتهم ؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم : ﴿ نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ .

قال ابن عباس : كان من قوّة أحدهم أنه يَركُض فرسَه حتى إذا احتدّ ضم فخذيه فحبسه بقوّته .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ والأمر إِلَيْكِ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ سلّموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لها من القوّة والبأس والشدّة ، فلما فعلوا ذلك أخبرت عند ذلك بفعل الملوك بالقُرى التي يتغلبون عليها .

وفي هذا الكلام خوف على قومها ، وحيطة واستعظام لأمر سليمان عليه السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

ولما فرغ الهدهد من كلامه ، وأبدى عذره في غيبته ، أخر سليمان أمره إلى أن يتبين له صدقه من كذبه فقال : ﴿ سننظر أصدقت ﴾ في أخبارك أم كذبت .

والنظر هنا : التأمل والتصفح ، وأصدقت : جملة معلق عنها سننظر ، وهي في موضع نصب على إسقاط حرف الجر ، لأن نظر ، بمعنى التأمل والتفكر ، إنما يتعدى بحرف الجر الذي هو في .

وعادل بين الجملتين بأم ، ولم يكن التركيب أم كذبت ، لأن قوله : ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ أبلغ في نسبة الكذب إليه ، لأن كونه من الكاذبين يدل على أنه معروف بالكذب ، سابق له هذا الوصف قبل الإخبار بما أخبر به .

وإذا كان قد سبق له الوصف بالكذب ، كان متهماً فيما أخبر به ، بخلاف من يظن ابتداء كذبه فيما أخبر به .

وفي الكلام حذف تقديره : فأمر بكتابة كتاب إليهم ، وبذهاب الهدهد رسولاً إليهم بالكتاب ، فقال : ﴿ اذهب بكتابي هذا ﴾ : أي الحاضر المكتوب الآن .

﴿ فألقه إليهم ثم تول عنهم ﴾ : أي تنح عنهم إلى مكان قريب ، بحيث تسمع ما يصدر منهم وما يرجع به بعضهم إلى بعض من القول .

وفي قوله : ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ﴾ دليل على إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام ، يبلغهم الدعوة ويدعوهم إلى الإسلام .

وقد كتب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى كسرى وقيصر وغيرهما ملوك العرب .

وقال وهب : أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدّب به الملوك ، بمعنى : وكن قريباً بحيث تسمع مراجعاتهم .

وقال ابن زيد : أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه ، أي ألقه وارجع .

قال : وقوله : ﴿ فانظر ماذا يرجعون ﴾ في معنى التقديم على قوله : ﴿ ثم تولى عنهم ﴾ . انتهى .

وقاله أبو علي ، ولا ضرورة تدعو إلى التقديم والتأخير ، بل الظاهر أن النظر معتقب التولي عنهم .

وقرىء في السبعة : فألقه ، بكسر الهاء وياء بعدها ، وباختلاس الكسرة وبسكون الهاء .

(31/578)

وقرأ مسلم بن جندب : بضم الهاء وواو بعدها ، وجمع في قوله : ﴿ إليهم ﴾ الهدهد قال : ﴿ وجدتها وقومها ﴾ .

وفي الكتاب أيضاً ضمير الجمع في قوله : ﴿ أن لا تعلوا عليّ ﴾ والكتاب كان فيه الدعاء إلى الإسلام لبلقيس وقومها .

ومعنى : ﴿ فانظر ماذا يرجعون ﴾ : أي تأمل واستحضره في ذهنك .

وقيل معناه : فانتظر .

ماذا : إن كان معنى فانظر معنى التأمل بالفكر ، كان انظر معلقاً ، وماذا : إما كلمة استفهام في موضع نصب ، وإما أن تكون ما استفهاماً وذا موصول بمعنى الذي .

فعلى الأول يكون يرجعون خبراً عن ماذا ، وعلى الثاني يكون ذا هو الخبر ويرجعون صلة ذا .

وإن كان معنى فانظر : فانتظر ، فليس فعل قلب فيعلق ، بل يكون ماذا كله موصولاً بمعنى الذي ، أي فانتظر الذي يرجعون ، والمعنى : فانظر ماذا يرجعون حتى ترد إلى ما يرجعون من القول .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) ﴾

في الكلام حذف تقديره : فأخذ الهدهد الكتاب وذهب به إلى بلقيس وقومها وألقاه إليهم ، كما أمره سليمان .

فقيل : أخذه بمنقاره .

وقيل : علقه في عنقه ، فجاءها حتى وقف على رأسها ، وحولها جنودها ، فرفرف

بجناحيه ، والناس ينظرون إليه ، حتى رفعت رأسها ، فألقى الكتاب في حجرها .

وقيل : كانت في قصرها قد غلقت الأبواب واستلقت على فراشها نائمة ، فألقي الكتاب على نحرها .

وقيل : كانت في البيت كوة تقع الشمس فيها كل يوم ، فإذا نظرت إليها سجدت ، فجاء الهدهد فسدها بجناحه ، فرأت ذلك وقامت إليه ، فألقى الكتاب إليها ، وكانت قارئة عربية من قوم تبع .

وقيل : ألقاه من كوة وتوارى فيها .

فأخذت الكتاب ونادت أشراف قومها : ﴿ قالت يا أيها الملأ ﴾ .

(32/578)

وكرم الكتاب لطبعه بالخاتم ، وفي الحديث : "كرم الكتاب ختمه" أو لكونه من سليمان ، وكانت عالمة بملكه ، أو لكون الرسول به الطير ، فظنته كتاباً سماوياً ؛ أو لكونه تضمن لطفاً ولينا ، لا سباً ولا ما يغير النفس ، أو لبداءته باسم الله ، أقوال .

ثم أخبرتهم فقالت : ﴿ إنه من سليمان ﴾ ، كأنها قيل لها : ممن الكتاب وما هو ؟ فقالت : ﴿ إنه من سليمان ﴾ ، وإنه كيت وكيت .

أبهمت أولاً ثم فسرت ، وفي بنائها ألقي للمفعول دلالة على جهلها بالملقي ، حيث حذفته ، أو تحقيراً له ، حيث كان طائراً ، إن كانت شاهدته .

والظاهر أن بداءة الكتاب من سليمان باسم الله الرحمن الرحيم ، إلى آخر ما قص الله منه خاصة ، فاحتمل أن يكون من سليمان مقدماً على بسم الله ، وهو الظاهر ، وقدمه لاحتمال أن يندر منها ما لا يليق ، إذ كانت كافرة ، فيكون اسمه وقاية لاسم الله تعالى .

أو كان عنواناً في ظاهر الكتاب ، وباطنه فيه بسم الله إلى آخره .

واحتمل أن يكون مؤخراً في الكتابة عن بسم الله ، وإن ابتدأ الكتاب باسم الله ، وحين قرأته عليهم بعد قراءتها له في نفسها ، قدمته في الحكاية ، وإن لم يكن مقدماً في الكتابة .

وقال أبو بكر بن العربي : كانت رسل المتقدمين إذا كتبوا كتاباً بدأوا بأنفسهم ، من فلان إلى فلان ، وكذلك جاءت الإشارة .

وعن أنس : ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً بدأوا بأنفسهم .

وقال أبو الليث في (كتاب البستان) له : ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز ، لأن الأمة قد أجمعت عليه وفعلوه .

وقرأ الجمهور : إنه من سليمان ، وإنه بكسر الهمزة فيهما .

وقرأ عبد الله : وإنه من سليمان ، بزيادة واو عطفاً على ﴿ إني ألقي ﴾ .

وقرأ عكرمة ، وابن أبي عبلة : بفتحهما ، وخرج على البدل من كتاب ، أي ألقى إليّ أنه ، أو على أن يكون التقدير لأنه كأنها .

عللت كرم الكتاب لكونه من سليمان وتصديره ببسم الله .

(33/578)

وقرأ أبي : أن من سليمان وأن بسم الله ، بفتح الهمزة ونون ساكنة ، فخرج على أن أن هي المفسرة ، لأنه قد تقدمت جملة فيها معنى القول ، وعلى أنها أن المخففة من الثقيلة ، وحذفت الهاء وبسم الله الرحمن الرحيم ، استفتاح شريف بارع المعنى مبدوء به في الكتب في كل لغة وكل شرع .

وأن في قوله : ﴿ أن لا تعلوا ﴾ ، قيل : في موضع رفع على البدل من كتاب .

وقيل : في موضع نصب على معنى بأن لا تعلوا ، وعلى هذين التقديرين تكون أن ناصبة للفعل .

وقال الزمخشري : وأن في ﴿ أن لا تعلوا عليّ ﴾ مفسرة ، فعلى هذا تكون لا في لا تعلوا للنهي ، وهو حسن لمشاكلة عطف الأمر عليه .

وجوز أبو البقاء أن يكون التقدير هو أن لا تعلوا ، فيكون خبر مبتدأ محذوف .

ومعنى لا تعلوا : لا تتكبروا ، كما يفعل الملوك .

وقرأ ابن عباس ، في رواية وهب بن منبه والأشهب العقيلي : أن لا تغلوا ، بالغين المعجمة ، أي ألا تتجاوزوا الحد ، وهو من الغلو .

والظاهر أنه طلب منهم أن يأتوه وقد أسلموا ، وتركوا الكفر وعبادة الشمس .

وقيل : معناه مذعنين مستسلمين من الانقياد والدخول في الطاعة ، وما كتبه سليمان في غاية الإيجاز والبلاغة ، وكذلك كتب الأنبياء .

والظاهر أن الكتاب هو ما نص الله عليه فقط .

واحتمل أن يكون مكتوباً بالعربي ، إذ الملوك يكون عندهم من يترجم بعدة ألسن ، فكتب بالخط العربي واللفظ العربي ، لأنها كانت عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري .

واحتمل أن يكون باللسان الذي كان سليمان يتكلم به ، وكان عندها من يترجم لها ، إذ كانت هي عارفة بذلك اللسان .

وروي أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فلا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين .

وكانت كتب الأنبياء جملاً لا يطيلون ولا يكثرون ، وطبع الكتاب بالمسك ، وختمه بخاتمة .

(34/578)

وروي أنه لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان ، ولما قرأت على الملأ الكتاب ، ورأت ما فيه من الانتقال إلى سليمان ، استشارتهم في أمرها .

قال قتادة : وكان أولو مشورتها ثلاثمائة واثني عشر ، وعنه : وثلاثة عشر ، كل رجل منهم على عشرة آلاف ، وكانت بأرض مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام ، وذكر عن عسكرها ما هو أعظم وأكثر من هذا ، والله أعلم بذلك .

وتقدم الكلام في الفتوى في سورة يوسف ، والمراد هنا : أشيروا عليّ بما عندكم في ما حدث لها من الرأي السديد والتدبير .

وقصدت بإشارتهم : استطلاع آرائهم واستعطافهم وتطييب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا .

﴿ ما كنت قاطعة أمراً ﴾ : أي مبرمة وفاصلة أمراً ، ﴿ حتى تشهدون ﴾ : أي تحضروا عندي ، فلا أستبد بأمر ، بل تكونون حاضرين معي .

وفي قراءة عبد الله : ما كنت قاضية أمراً ، أي لا أبت إلا وأنتم حاضرون معي .

وما كنت قاطعة أمراً ، عام في كل أمر ، أي إذا كانت عادتي هذه معكم ، فكيف لا أستشيركم في هذه الحادثة الكبرى التي هي الخروج من الملك والانسلاك في طاعة غيري والصيرورة تبعاً ؟ فراجعها الملأ بما أقر عينها من قولهم : إنهم ﴿ أولوا ﴾ ، أي قوة بالعدد والعدد ، ﴿ وأولوا بأس شديد ﴾ : أي أصحاب شجاعة ونجدة .

أظهروا القوة العرضية ، ثم القوة الذاتية ، أي نحن متهيؤون للحرب ودفع هذا الحادث .

ثم قالوا : ﴿ والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ ، وذلك من حسن محاورتهم ، إذ وكلوا الأمر إليها ، وهو دليل على الطاعة المفرطة ، أي نحن ذكرنا ما نحن عليه ، ومع ذلك فالأمر موكول إليك ، كأنهم أشاروا أولاً عليها بالحرب ، أو أرادوا : نحن أبناء الحرب لا أبناء الاستشارة ، وأنت ذات الرأي والتدبير الحسن .

فانظري ماذا تأمرين به ، نرجع إليك ونتبع رأيك ، وفانظري من التأمل والتفكر ، وماذا هو المفعول الثاني لتأمرين ، والمفعول الأول محذوف لفهم المعنى ، أي تأمريننا .

(35/578)

والجملة معلق عنها انظري ، فهي في موضع مفعول لأنظري بعد إسقاط الحرف من اسم الاستفهام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(36/578)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً عن سؤالٍ نشأَ من حكايةِ كلامِ الهُدهدِ كأنَّه قيلَ فماذا فعلَ سليمانُ عليه السَّلام عند ذلكَ فقيل قال ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ أي فيما ذكرتَه من النَّظر بمعنى التَّأملِ ، والسِّينُ للتأكيدِ أي سنتعرفُ بالتجربةِ ألبتةَ ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ كان مُقتضى الظَّاهرِ أم كذبتَ وإيثارُ ما عليهِ النَّظمُ الكريمُ للإيذانِ بأنَّ كذبَهُ في هذه المادةِ يستلزمُ انتظامَهُ في سلكِ الموسومينَ بالكذبِ الراسخينَ فيه فإنَّ مساقَ هذه الأقاويلِ الملفَّقةِ على ترتيبٍ أنيقٍ يستميلُ قلوبَ السامعينَ نحوَ قَبُولِها من غيرِ أنْ يكونَ لها مصداقٌ أصلاً لا سيما بينَ يدَي نبيٍّ عظيم الشأنِ لا يكادُ يصدرُ إلا عمَّن له قدم راسخٌ في الكذب والإفكِ .

وقولُه تعالى ﴿ اذهب بِّكِتَابِى هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفيةِ النَّظر الذي وعدَه عليه الصَّلاة والسَّلام ، وقد قاله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد ما كتبَ كتابَه في ذلكَ المجلسِ أو بعدَهُ . وتخصيصُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه بالرِّسالةِ دونَ سائرِ ما تحتَ مُلكِه من أمناءِ الجنِّ الأقوياءِ على التصرف والتعرُّفِ لما عاينَ فيه من مخايل العلمِ والحكمةِ وصحَّةِ الفراسةِ ولئلاَّ يبقى له عذرٌ أصلاً ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي تنحَّ إلى مكانٍ قريبٍ تتَوارى فيه ﴿ فانظر ﴾ أي تأمَّلَ وتعرَّفْ ﴿ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي ماذا يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ من القول . وجمعُ الضمائرِ لما أنَّ مضمونَ الكتابِ الكريمِ دعوةُ الكُلِّ إلى الإسلام .

﴿ قَالَتْ ﴾ أي بعدَ ما ذهبَ الهدهدُ بالكتابِ فألقاهُ إليهم وتنحَّى عنهم حسبما أُمر به ، وإنَّما طُوي ذكرُه إيذاناً بكمالِ مسارعتِه إلى إقامةِ ما أُمر به من الخدمة وإشعاراً باستغنائه عن التَّصريحِ به لغايةِ ظهورِه . روُي أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام كتب كتابَه وطبعه بالمسكِ وختَمه بخاتمِه ودفعَه إلى الهدهدِ فوجدَها الهدهدُ راقدةً في قصرِها بمأربَ وكانتْ إذا رقدتْ غلَّقتِ الأبوابَ ووضعتِ المفاتيحَ تحتَ رأسِها فدخلَ من كُوَّةٍ وطرحَ الكتابَ على نحرِها وهي مستلقيةٌ وقيل : نقرَها فانتبهتْ فزعةً وقيل أتاها والقادةُ والجنودُ حواليَها فرفرفَ ساعةً والنَّاسُ ينظرونَ حتَّى رفعتْ رأسَها فألقى الكتابَ في حجرِها وكانت قارئةً كاتبةً عربيةً من نسلِ تُبَّعٍ الحميريِّ كما مرَّ فلما رأتِ الخاتمَ ارتعدتْ وخضعتْ ، فعندَ ذلكَ قالتْ لأشرافِ قومِها ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ وصفتْه بالكرمِ لكرمِ مضمونِه أو لكونِه من عندَ ملكٍ كريمٍ أو لكونِه مختوماً أو لغرابةِ شأنِه ووصولِه إليها على منهاجٍ غيرِ معتادٍ .

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً لسؤالٍ مقدرٍ كأنَّه قيل ممن هُو وماذا مضمونُه فقالتْ إنَّه منْ سُليمان ﴿ وَأَنَّهُ ﴾ أي مضمونُه أو المكتوبُ فيه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم

﴿ وفيه إشارةٌ إلى سببِ وصفِها ايّاه بالكرمِ . وقُرِىء أنَّه وأنَّه بالفتحِ على حذفِ اللامِ كأنها عللتْ كرمَه بكونِه من سليمانَ وبكونِه مُصدَّراً باسمِ الله تعالى ، وقيل : على أنَّه بدلٌ من كتابٌ . وقُرِىء أنْ من سُليمان وأنْ بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ ، على أنَّ أنْ المفسرةُ .

(38/578)

﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ أنْ مفسرةٌ ولا ناهيةٌ أي لا تتكبروا كما يفعلُ جبابرةُ الملوكِ ، وقيل : مصدريةٌ ناصبةٌ للفعلِ ولا نافيةٌ محلُّها الرَّفعُ على أنَّها بدلٌ من كتابٌ ، أو خبرٌ لمبتدأٍ مضمرٍ يليقُ بالمقام ، أي مضمونُه أنْ لا تعلُوا ، أو النَّصبُ بإسقاطِ الخافضِ أي بأنْ لا تعلُوا عليَّ . وقُرِىء ألا تغلُوا بالغينِ المعجمةِ أي لا تجاوزُوا حدَّكم . ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ أي مؤمنينَ وقيل : منقادينَ والأولُ هو الأليقُ بشأنِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أنَّ الإيمانَ مستتبعٌ للانقيادِ حتماً . روي أنَّ نسخةَ الكتابِ "من عبدِ اللَّهِ سلميانَ بنِ داودَ إلى بلقيسَ ملكةِ سبأٍ السَّلامُ على من اتبعَ الهُدَى أمَّا بعدُ فلا تعلُوا عليَّ وائتوني مسلمينَ" وليسَ الأمرُ فيه بالإسلامِ قبل إقامةِ الحجَّةِ على رسالتِه حتَّى يُتوهم كونُه استدعاءاً للتقليدِ فإنَّ إلقاء الكتابِ إليها على تلك الحالةِ معجزةٌ باهرةٌ دالَّةٌ على رسالةِ مُرسِلها دلالةً بينةً .

﴿ قَالَتْ ﴾ كُررتْ حكايةُ قولِها للإيذانِ بغايةِ اعتنائِها بما في حيزه من قولِها ﴿ يا أيها الملأ

أَفْتُونِى فِى أَمْرِى ﴾ أي أجيبونِي في أمرِي الذي حَزَبني وذكرتُ لكم خُلاصتَه ، وعبرتْ عن الجوابِ بالفَتوى التي هي الجواب في الحوادث المشكلة غالباً تهويلاً للأمر ورفعاً لمحلهم بالإشعار بأنهم قادرونَ على حلِّ المشكلاتِ المُلمَّةِ . وقولُها ﴿ مَا كُنتُ قاطعة أَمْراً ﴾ أي من الأمورِ المتعلقةِ بالملكِ ﴿ حتى تَشْهَدُونِ ﴾ أي إلا بمحضرِكم وبموجبِ آرائكم استعطافاً لهم واستمالةً لقلوبِهم لئلاَّ يخالفُوها في الرَّأي والتدبير .

(39/578)

﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكايةِ قولِها كأنَّه قيل : فمَاذا قالُوا في جوابِها فقيلَ قالُوا ﴿ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ في الأجسادِ والآلاتِ والعُددِ ﴿ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي نجدةٍ وشجاعةٍ مفرطةٍ وبلاءٍ في الحربِ ﴿ والأمر إِلَيْكِ ﴾ أي هو موكولٌ إليكِ ﴿ فانظرى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ونحنُ مطيعونَ لكِ فمُرينا بأمرِك نمتثلْ به ونتبعْ رأيكِ أو أرادوا نحنُ من أبناءِ الحربِ لا من أبناءِ الرأي والمشورةِ وإليكِ الرَّأي والتَّدبيرِ فانظري ماذا ترينَ نكنْ في الخدمةِ فلَّما أحسَّتْ منهم الميلَ إلى الحرابِ والعدولَ عن سَنَنِ الصَّوابِ شرعتْ في تزييف مقالِتهم المبنيةِ على الغفلةِ عن شأنِ سليمانَ عليه السَّلامُ .

وذلك قولُه تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(40/578)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا فعل سليمان عليه السلام عند قوله ذلك ؟ فقيل قال : ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ أي فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والتفكر ، والسين للتأكيد أي سنتعرف بالتجربة البتة ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ جملة معلق عنها الفعل للاستفهام .

وكان مقتضى الظاهر أم كذبت وإيثار ما عليه النظم الكريم للإيذان بأن كذبه في هذه المادة يستلزم انتظامه في سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فإن مساق هذه الأقاويل الملفقة مع ترتيب أنيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن يكون لها مصداق أصلاً لا سيما بين يدي نبي عظيم تخشى سطوته لا يكاد يصدر إلا عمن رسخت قدمه في الكذب والإفك وصار سجية له حتى لا يملك نفسه عنه في أي موطن كان ، وزعم بعضهم أن ذاك لمراعاة الفاصلة وليس بشيء أصلاً ، وفي الآية على ما في الإكليل قبول الوالي عذر رعيته

ودرء العقوبة عنهم وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به

﴿ اذهب بِّكِتَابِى هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ استئناف مبين لكيفية النظر الذي وعده عليه السلام بعد ما كتب كتابه في ذلك المجلس أو بعده .

فهذا إشارة إلى الحاضر وتخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة ولئلا يبقى له عذر أصلاً ، وفي الآية دليل على جواز إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام لإبلاغ الدعوة والدعاء إلى الإسلام .

وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى .

وقيصر .

وغيرهما من ملوك العرب ، وقرىء في السبعة ﴿ فَأَلْقِهْ ﴾ بكسر الهاء وياء بعدها وباختلاس الكسرة وبسكون الهاء ، وقرأ مسلم بن جندب بضم الهاء وواو بعدها ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي تنح .

وحمل على ذلك لأن التولي بالكلية ينافي قوله : ﴿ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلا أن يحمل على القلب كما زعم ابن زيد .

وأبو علي وهو غير مناسب .

وأمره عليه السلام إياه بالتنحي من باب تعليم الأدب مع الملوك كما روي عن وهب .

والنظر بمعنى التأمل والتفكر و﴿ مَاذَا ﴾ إما كلمة استفهام في موضع المفعول ليرجعون ورجع تكون متعدية كما تكون لازمة أو مبتدأ وجملة ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ خبره .

وإما أن تكون ما استفهامية مبتدأ وذا اسم موصول بمعنى الذي خبره وجملة ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ صلة الموصول والعائد محذوف .

وأياً ما كان فالجملة معلق عنها فعل القلب فمحلها النصب على إسقاط الخافض ، وقيل : النظر بمعنى الانتظار كما في قوله تعالى : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد : 13] فلا تعليق بل كلمة ﴿ مَاذَا ﴾ موصول في موضع المفعول كذا قيل ، والظاهر أنه بمعنى التأمل وأن المراد فتأمل وتعرف ماذا يرد بعضهم على بعض من القول .

وهذا ظاهر في أن الله تعالى أعطى الهدهد قوة يفهم بها ما يسمعه من كلامهم ، والتعبير بالإلقاء لأن تبليغه لا يمكن بدونه .

وجمع الضمير لأن المقصود تبليغ ما فيه لجميع القوم والكشف عن حالهم بعده .

﴿ قَالَتْ ﴾ أي بعد ما ذهب الهدهد بالكتاب فألقاه إليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به ، وإنما طوى ذكره إيذاناً بكمال مسارعته إلى إقامة ما أمر به من الخدمة وإشعاراً بالاستغناء عن التصريح به لغاية ظهوره .

روي أنه عليه السلام كتب كتابه وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدهد به فوجدها راقدة في قصرها بمأرب وكانت إذا رقعدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية ، وفي رواية بين ثدييها ، وقيل : نقرها فانتبهت فزعة ، وقيل : أتاه والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فقالت ما قالت ، وقيل : كانت في البيت كوة تقع الشمس منها كل يوم فإذا نظرت إليها سجدت فجاء الهدهد فسدها بجناحيه فرأت ذلك وقامت إليه فألقى الكتاب إليها

وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل يعرب بن قحطان واشتهر أنها من نسل تبع الحميري وكان الخط العربي في غاية الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة وهو المسمى بالخط الحميري وكان بحمير كتابة تسمى المسند حروفها مفصلة وكانوا يمنعون من تعليمها إلا بإذنهم ومن حمير تعلم مضر ، وقد تقدم بعض الكلام في ذلك .

واختار ابن خلدون القول بأنه تعلم الكتابة العربية من التبابعة وحمير أهل الحيرة وتعلمها منهم أهل الحجاز وظاهر كون بلقيس من العرب وأنها قرأت الكتاب يقتضي أن الكتاب

كان عربياً ، ولعل سليمان عليه السلام كان يعرف العربي وإن لم يكن من العرب .

ومن علم منطق الطير لا يبعد أن يعلم منطق العرب الذي هو أشرف منطق .

(43/578)

ويحتمل أن يكون عنده من يعرف ذلك وكذا من يعرف غيره من اللغات كعادة الملوك يكون عندهم من يتكلم بعدة لغات ليترجم لهم ما يحتاجونه ، ويجوز أن يكون الكتاب غير عربي بل بلغة سليمان عليه السلام وقلمه وكان قلمه كما نقل عن الإمام أحمد البوني كاهنياف وكان عند بلقيس من ترجمه لها وأعلمها بما فيه فجمعت أشراف قومها وأخبرتهم بذلك واستشارتهم كما حكى سبحانه عنها بقوله جل وعلا قالت : ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ الخ ، وأقدم سليمان عليه السلام على كتابة الكتاب إليها كذلك قول الهدهد ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : 23] والمترجم من الأشياء التي يحتاج إليها الملك وأن اللائق بشأنه وعظمته أن لا يترك لسانه ويتشبه بها في لسانها ، ويحتمل أنها كانت بنفسها تعرف تلك الكتابة فقرأت الكتاب لذلك ، ورجح احتمال أن يكون الكتاب غير عربي بأن الكتابة لها بالعربية تستدعي الوقوف على حالها وهو عليه السلام ما وقف عليه بعد .

وتعقب بأنه دله على كونها عربية قول الهدهد ﴿ جِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدتُّ امرأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ [النمل : 22 ، 23] فإنه عليه السلام ممن لا يخفى عليه كون سبأ من العرب والظاهر كون ملكتهم منهم ، ووصفت الكتاب بالكرم لكونه مختوماً ففي الحديث " كرم الكتاب ختمه " ، وفي شرح أدب الكاتب يقال أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته ، وقال ابن المنقع : من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به ، وقد فسر ابن عباس .

وقتادة .

(44/578)

وزهير بن محمد ﴿ الكريم ﴾ هنا بالمختوم ، وفيه كما قيل استحباب ختم الكتاب لكرم مضمونه وشرفه أو لكرم مرسله وعلو منزلته وعلمت ذلك بالسماع أو بكون كتابه مختوماً باسمه على عادة الملوك والعظماء أو بكون رسوله به الطير أو لبداءته باسم الله عز وجل أو لغرابة شأنه ووصوله إليها على منهاج غير معتاد ، وقيل : أن ذلك لظنها إياه بسبب أن الملقى له طير أنه كتاب سماوي وليس بشيء .

وبناء ﴿ ألقى ﴾ للمفعول لعدم الاهتمام بالفاعل ، وقيل : لجهلها به أو لكونه حقيراً .

وقال الشيخ الأكبر قدس سره في الفصوص : من حكمة بلقيس كونها لم تذكر من ألقى إليها الكتاب وما ذاك إلا لتعلم أصحابها أن لها اتصالاً إلى أمور لا يعلمون طريقها .

وفي ذلك سياسة منها أورثت الحذر منها في أهل مملكتها وخواص مدبريها وبهذا استحقت التقديم عليهم انتهى .

وتأكيد الجملة للاعتناء بشأن الحكم ، وأما التأكيد في قوله تعالى :

﴿ إِنَّهُ مِنَ سليمان وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ﴾

فلذلك أيضاً أو لوقوعه في جواب سؤال مقدر كأنه قيل : ممن هذا الكتاب وماذا مضمونه ؟ فقيل : إنه من سليمان الخ ، ويحسن التأكيد بأن في جواب السؤال ولا أرى فرقاً في ذلك بين المحقق والمقدر ، ويعلم مما ذكر أن ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ الأول للكتاب وضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ الثاني للمضمون وإن لم يذكر ، وليس في الآية ما يدل على أنه عليه السلام قدم اسمه على اسم الله عز وجل ، وعلمها بأنه من سليمان يجوز أن يكون لكتابة اسمه بعد .

(45/578)

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان أنه قال : كتب سليمان بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن داود إلى بلقيس ابنة ذي شرح وقومها أن لا تعلوا الخ ، وجوز أن يكون

لكتابته في ظاهر الكتاب وكان باطن الكتاب ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ الخ ، وقيل : ضمير ﴿ أَنَّهُ ﴾ الأول للعنوان وإنه عليه السلام عنون الكتاب باسمه مقدماً له فكتب من سليمان ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ الخ واستظهر هذا أبو حيان ثم قال : وقدم عليه السلام اسمه لاحتمال أن يبدر منها ما لا يليق إذ كانت كافرة فيكون اسمه وقاية لاسم الله عز وجل وهو كما ترى ، وكتابة البسملة في أوائل الكتب مما جرت به سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية بلا خلاف ، وأما قبله فقد قيل إن كتبه عليه الصلاة والسلام لم تفتتح بها ، فقد أخرج عبد الرزاق .

وابن المنذر .

وغيرهما عن الشعبي قال : كان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم فكتب النبي صلى الله عليه وسلم أول ما كتب باسم اللهم حتى نزلت ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : 41] فكتب بسم الله ثم نزلت ﴿ أَدْعُوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن ﴾ [الإسراء : 110] فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت آية النمل ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ الآية فكتب بسم الله الرحمن الرحيم .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن أبي مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب باسمك اللهم فلما نزلت ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ الآية كتب بسم الله الخ ، وروي نحو ذلك عن ميمون بن مهران .

وقتادة ، وهذا عندي مما لا يكاد يتسنى مع القول بنزول البسملة قبل نزول هذه الآية وهذا القول مما لا ينبغي أن يذهب إلى خلافه ، فقد قال الجلال السيوطي في إتقانه اختلف في أول ما نزل من القرآن على أقوال ، أحدها : وهو الصحيح ﴿ اقرأ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ [العلق : 1] واحتج له بعده أخبار منها خبر الشيخين في بدء الوحي وهو مشهور ، وثانيها : ﴿ يا أَيُّهَا المدثر ﴾ [المدثر : 1] وثالثها : سورة الفاتحة ، ورابعها : البسملة ثم قال وعندي أن هذا لا يعد قولاً برأسه فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها فهي أول آية نزلت على الإطلاق اه .

وهو يقوي ما قلناه فإن البسملة إذا كانت أول آية نزلت كانت هي المفتتح لكتاب الله تعالى وإذا كانت كذلك كان اللائق بشأنه صلى الله عليه وسلم أن يفتتح بها كتبه كما افتتح الله تعالى بها كتابه وجعلها أول المنزل منه .

والقول بأنها نزلت قبل إلا أنه عليه الصلاة والسلام لم يعلم مشروعيتها في أوائل الكتب والرسائل حتى نزلت هذه الآية المتضمنة لكتابة سليمان عليه السلام إياها في كتابه إلى أهل سبأ مما لا يقدم عليه إلا جاهل بقدره عليه الصلاة والسلام ، وذكر بعض الأجلة أنها إذا

كتبت في الكتب والرسائل فالأولى أن تكتب سطراً وحدها .

وفي أدب الكتاب للصولي أنهم يختارون أن يبدأ الكاتب بالبسملة من حاشية القرطاس ثم يكتب الدعاء مساوياً لها ويستقبحون أن يخرج الكلام عن البسملة فاضلاً بقليل ولا يكتبونها وسطاف ويكون الدعاء فاضلاًاه .

وما ذكر من كتابة الدعاء بعدها لم يكن في الصدر الأول وإنما كان فيه كتابة من فلان إلى فلان .

وتقديم اسم الكاتب على اسم المكتوب له مشروع وإن كان الأول مفضولاً والثاني فاضلاً ، ففي "البحر" عن أنس ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً بدؤا بأنفسهم .

(47/578)

وقال أبو الليث في البستان له : ولو بدأ بالمكتوب إليه جاز لأن الأمة قد أجمعت عليه وفعلوه انتهى .

وظاهر الآية أن البسملة ليست من الخصوصيات ، وقال بعضهم : إنها منها لكن باللفظ العربي والترتيب المخصوص ، وما في كتاب سليمان عليه السلام لم تكن باللفظ العربي

وترجمت لنا به وليس ذلك ببعيد .

وقرأ عبد الله ﴿ وَأَنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ بزيادة واو ، وخرجه أبو حيان على أنها عاطفة للجملة بعدها على جملة ﴿ إِنِّى أَلقى ﴾ [النمل : 29] ، وقيل : هي واو الحال والجملة حالية ، وقرأ عكرمة .

وابن أبي عبلة ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ ﴾ بفتح همزة أن في الموضعين ، وخرج على الإبدال من ﴿ كِتَابٌ ﴾ [النمل : 29] أي ألقى إلى أنه الخ أو على أن يكون التقدير لأنه الخ كأنها عللت كرم الكتاب بكونه من سليمان وبكونه مصدراً باسم الله عز وجل ، وقرأ أبي ﴿ إِنَّ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ بفتح الهمزة وسكون النون ، وخرج على أن أن هي المفسرة لأنه قد تقدمت جملة فيها معنى القول أو على أنها المخففة من الثقيلة وحذفت الهاء .

و ﴿ إن ﴾ في قوله تعالى :

﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ ﴾ يحتمل أن تكون مفسرة ولا ناهية .

ويحتمل أن تكون مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية ، وقيل : يجوز كونها ناهية أيضاً ، ومحل المصدر الرفع على أنه بدل من ﴿ كِتَابٌ ﴾ [النمل : 29] أو خبر لمبتدأ مضمر يليق بالمقام أي مضمونه أن لا تعلوا على أي أن لا تتكبروا علي كما يفعل جبابرة الملوك ، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في رواية وهب بن منبه .

والأشهب العقيلي ﴿ أَن لا تَغْلُواْ ﴾ بالغين المعجمة من الغلو وهي مجاوزة الحد أي أن لا

تتجاوزا حدكم ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ عطف على ما قبله فإن كانت فيه لا ناهية فعطف الأمر عليه ظاهر وإن كانت نافية وأن مصدرية فعطفه عليه من عطف الإنشاء على الأخبار والكلام فيه مشهور ، والأكثرون على جوازه في مثل هذا .

(48/578)

والمراد بالإسلام الإيمان أي وأتوني مؤمنين ، وقيل : المراد به الانقياد أي ائتوني منقادين مستسلمين .

والدعوة على الأول دعوة النبوة وعلى الثاني دعوة الملك واللائق بشأنه عليه السلام هو الأول .

وفي بعض الآثار كما ستعلم إن شاء الله تعالى ما يؤيده .

ولا يرد أنه يلزم عليه أن يكون الأمر بالإيمان قبل إقامة الحجة على رسالته فيكون استدعاء للتقليد لأن الدعوة المذكورة هي الدعوة الأولى التي لا تستدعي إظهار المعجزة وإقامة الحجة ، وعادة الأنبياء عليهم السلام الدعوة إلى الإيمان أولاً فإذا عورضوا أقاموا الدليل وأظهروا المعجزة ؛ وفيما نحن فيه لم يصدر معارضة ، وقيل : إن الدعوة ما كانت إلا مقرونة بإقامة الحجة لأن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة التي ذكرت فيما مر أولاً معجزة باهرة

دالة على رسالته عليه السلام دلالة بينة .

وتعقب بأن كون الإلقاء المذكور معجزة غير واضح خصوصاً وهي لم تقارن التحدي ، ورجح الثاني بأن قولها : ﴿ إِنَّ الملوك ﴾ [النمل : 34] الخ صريح في دعوة الملك والسلطنة .

(49/578)

وأجيب بأن ذاك لعدم تيقنها رسالته عليه السلام حينئذٍ أو هو من باب الاحتيال لجلب القوم إلى الإجابة بإدخال الروع عليهم من حيثية كونه عليه السلام ملكاً وهذا كما ترى ، والظاهر أنه لم يكن في الكتاب أكثر مما قص الله تعالى وهو إحدى الروايتين عن مجاهد ، وثانيتهما : أن فيه السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين ، وفي بعض الآثار أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ السلام على من اتبع الهدى إلى آخر ما ذكر ، ولعلها على ما هو الظاهر عرفت أنهم المعنيون بالخطاب من قرائن الأحوال ، وقد تضمن ما قصه سبحانه البسملة التي هي في الدلالة على صفاته تعالى صريحاً والتزاماً والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والأمر بالإسلام الجامع لأمهات الفضائل فيا له كتاب في غاية الإيجاز ونهاية الإعجاز ، وعن قتادة كذلك

كانت الأنبياء عليهم السلام تكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون .

هذا ولم أر في الآثار ما يشعر بأنه عليه السلام كتب ذلك على الكاغد أو الرق أو غيرهما ، واشتهر على ألسنة الكتاب أن الكتاب كان من الكاغد المعروف وأن الهدهد أخذه من طرفه بمنقاره فابتل ذلك الطرف بريقه وذهب منه شيء وكان ذلك الزاوية اليمنى من جهة أسفل الكتاب ، وزعموا أن قطعهم شيئاً من القرطاس من تلك الزاوية تشبيهاً لما يكتبونه بكتاب سليمان عليه السلام وهذا مما لا يعول عليه ولسائر أرباب الصنائع والحرف حكايات من هذا القبيل وهي عند العقلاء أحاديث خرافة .

﴿ قَالَتْ يا أيها أَيُّهَا الملؤا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى ﴾

(50/578)

كررت حكاية قولها للإيذان بغاية اعتنائها بما في حيزها ، والإفتاء على ما قال صاحب المطلع الإشارة على المستفتي فيما حدث له من الحادثة بما عند المفتي من الرأي والتدبير وهو إزالة ما حدث له من الإشكال كالإشكاء إزالة الشكوى ، وفي المغرب اشتقاق الفتوى من الفتى لأنها جواب في حادثة أو إحداث حكم أو تقوية لبيان مشكل ، وأياً ما كان فالمعنى أشيروا علي بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرت لكم خلاصته ،

وقصدت بما ذكرت استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوها ويقوموا معها وأكدت ذلك بقولها : ﴿ مَا كُنتُ قاطعة أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ ﴾ أي ما أقطع أمراً من الأمور المتعلقة بالملك إلا بمحضركم وبموجب آرائكم ، والإتيان بكان للإيذان بأنها استمرت على ذلك أو لم يقع منها غيره في الزمن الماضي فكذا في هذا و ﴿ حتى تَشْهَدُونِ ﴾ غاية للقطع .

واستدل بالآية على استحباب المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمة ، وفي قراءة عبد الله ﴿ مَا كُنتُ لَكَ أمْراً ﴾ .

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية قولها كأنه قيل : فماذا قالوا في جوابها ؟ فقيل قالوا : ﴿ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ في الأجساد والعدد ﴿ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أي نجدة وشجاعة مفرطة وبلاء في الحرب قيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلاً كل واحد على عشرة آلاف ، وروي ذلك عن قتادة .

(51/578)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان لصاحبة سليمان اثنا عشر ألف قيل تحت يد كل قيل مائة ألف ، وقيل : كان تحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة تحت يد كل ملك أربعمائة ألف مقاتل ولها ثلثمائة وزير يدبرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد كل قائد

تحت يده اثنا عشر ألف مقاتل ، وهذه الأخبار إلى الكذب أقرب منها إلى الصدق ، ولعمري أن أرض اليمن لتكاد تضيق عن العدد الذي تضمنه الخبران الأخيران ، وليت شعري ما مقدار عدد رعيتها الباقين الذين تحتاج إلى هذا العسكر والقواد والوزراء لسياستهم وضبط أمورهم وتنظيم أحوالهم ﴿ والأمر إِلَيْكِ ﴾ تسليم للأمر إليها بعد تقدم ما يدل على القوة والشجاعة حتى لا توهم أنه من العجز ، والأمر بمعناه المعروف أو المعنى الشأن وهو مبتدأ ﴿ وَإِلَيْكَ ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً له ويقدر مؤخراً ليفيد الحصر المقصود لفهمه من السياق أي والأمر إليك موكول .

﴿ فانظرى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ من الصلح والمقاتلة نطعك ونتبع رأيك ، وقيل : أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وإليك الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين نكن في الخدمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(52/578)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) ﴾

تقدم عند قوله : ﴿ فقال أحطت بما لم تحط به ﴾ [النمل : 22] بيان وجه تطلب

سليمان تحقيق صدق خبر الهدهد .

والنظر هنا نظر العقل وهو التأمُّل ، لا سيما وإقحام ﴿ كنتَ ﴾ أدخل في نسبته إلى الكذب من صيغة ﴿ أَصدقت ﴾ لأن فعل ﴿ كنتَ من الكاذبين ﴾ يفيد الرسوخ في الوصف بأنه كائن عليه .

وجملة : ﴿ من الكاذبين ﴾ أشدّ في النسبة إلى الكذب بالانخراط في سلك الكاذبين بأن يكون الكذب عادة له .

وفي ذلك إيذان بتوضيح تهمته بالكذب ليتخلص من العقاب ، وإيذان بالتوبيخ والتهديد وإدخال الروع عليه بأنّ كذبه أرجح عند الملك ليكون الهدهد مغلّباً الخوف على الرجاء ، وذلك أدخل في التأديب على مثل فعلته وفي حرصه على تصديق نفسه بأن يبلغ الكتاب الذي يرسله معه .

اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)

الجملة مبيّنة لجملة ﴿ سننظر أصدقت أم كنتَ من الكاذبين ﴾ [النمل : 27] لأن فيما سينكشف بعد توجيه كتابه إلى ملكة سبأ ما يصدق خبر الهدهد إن جاء من الملكة جواب عن كتابه ، أو يكذب خبر الهدهد إن لم يجيء منها جواب .

ألهم الله سليمان بحكمته أن يجعل لاتصاله ببلاد اليمن طريقَ المراسلة لإدخال المملكة في حيّز نفوذه والانتفاع باجتلاب خيراتها وجعلها طريق تجارة مع شرق مملكته فكتب إلى

ملكة سبأ كتاباً لتأتيَ إليه وتدخلَ تحت طاعته وتُصلح ديانة قومها ، وليعلَم أن الله ألقى في نفوس الملوك المعاصرين له رهبةً من ملكه وجلباً لمرضاته لأن الله أيده وإن كانت مملكته أصغر من ممالك جيرانه مثل مملكة اليمن ومملكة مصر .

وكانت مملكة سليمان يومئذ محدودة بالأُردن وتخوم مصر وبحر الروم .

ولم يزل تبادل الرسائل بين الملوك من سنة الدول ومن سنة الدعاة إلى الخير .

وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر .

(53/578)

وقَد عظُم شأن الكتابة في دول الإسلام ، قال الحريري في "المقامة الثانية والعشرين" : "والمنشئُ جهنية الأخبار ، وحقيبة الأسرار ، وقلمه لسان الدولة ، وفارس الجَولة . . . "إلخ .

واتخذ للمراسلة وسيلة الطير الزاجل من حَمام ونحوه ، فالهدهد من فصيلة الحَمام وهو قابل للتدجين ، فقوله : ﴿ اذهب بكتابي هذا ﴾ يقتضي كلاماً محذوفاً وهو أن سليمان فكر في الاتصال بين مملكته وبين مملكة سبأ فأحضر كتاباً وحمَّله الهدهد .

وتقدم القول على (ماذا) عند قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ في سورة

النحل (24) .

وفعل ﴿ انظر ﴾ معلق عن العمل بالاستفهام .

والإلقاء : الرمي إلى الأرض .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وألقُوه في غيابات الجب ﴾ في سورة يوسف (10) وهو هنا مستعمل إمّا في حقيقته إن كان شأن الهدهد أن يصل إلى المكان فيرميَ الكتاب من منقاره ، وإما في مجازه إن كان يدخل المكان المرسل إليه فيتناول أصحابه الرسالة من رجله التي تربط فيها الرسالة فيكون الإلقاء مثل قوله : ﴿ فأَلْقَوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ في سورة النحل (86) .

والمراد بالرَّجع : رَجع الجواب عن الكتاب ، أي من قبول أو رفض .

وهذا كقوله الآتي : ﴿ فانظري ماذا تأمرين ﴾ [النمل : 33] .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29)

طويت أخبار كثيرة دل عليها ما بين الخبرين المذكورين من اقتضاء عدة أحداث ، إذ التقدير : فذهب الهدهد إلى سبأ فرمى بالكتاب فأبلغ الكتاب إلى الملكة وهي في مجلس ملكها فقرأته ، قالت : يا أيها الملأ إلخ .

وجملة : ﴿ قالت ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن غرابة قصة إلقاء الكتاب إليها يثير سؤالاً عن شأنها حين بلَغها الكتاب .

و﴿ الملأ ﴾ : الجماعة من أشراف القوم وهم أهل مجلسها .

وظاهر قولها : ﴿ ألقي إليّ ﴾ أن الكتاب سُلّم إليها دون حُضور أهل مجلسها .

(54/578)

وتقدم غير مرة وذلك أن يكون نظام بَلاطها أن تسلم الرسائل إليها رأساً .

والإلقاء تقدم آنفاً .

ووصف الكتاب بالكريم ينصرف إلى نفاسته في جنسه كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ لهم مغفِرَة ورزق كريم ﴾ في سورة الأنفال (74) ؛ بأن كان نفيسَ الصحيفة نفيسَ التخطيط بهيجَ الشكل مستوفياً كل ما جرت عادة أمثالهم بالتأنق فيه .

ومن ذلك أن يكون مختوماً ، وقد قيل : كرم الكتاب ختمه ، ليكون ما في ضمنه خاصاً باطلاع من أُرسل إليه وهو يُطلع عليه من يشاء ويكتمه عمن يشاء .

قال ابن العربي : "الوصف بالكرم في الكتاب غاية الوصف ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ [الواقعة : 77] وأهل الزمان يصفون الكِتاب بالخَطير ، والأثير ، والمبرور ، فإن كان لملك قالوا : العزيز ، وأسقطوا الكريم غفلة وهو أفضلها خصلة" .

وأما ما يشتمل عليه الكتاب من المعاني فلم يكن محموداً عندها لأنها قالت : ﴿ إن الملوك

إذا دَخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ [النمل : 34] .

ثم قصَّت عليهم الكتاب حين قالت : ﴿ إنه من سليمان وإنه ﴾ إلى آخره .

فيحتمل أن يكون قد تُرجم لها قبل أن تخرج إلى مجلس مشُورتها ، ويحتمل أن تكون عارفة بالعبرانية ، ويحتمل أن يكون الكتاب مكتوباً بالعربية القحطانية ، فإن عظمة ملك سليمان لا تخلو من كتَّاب عارفين بلغات الأمم المجاورة لمملكته ، وكونه بلغته أظهر وأنسب بشعار الملوك ، وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم للملوك باللغة العربية .

أما الكلام المذكور في هذه الآية فهو ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية الفصحى بتضمين دقائقه وخصوصيات اللغة التي أنشىء بها .

وقوله : ﴿ إنه من سليمان ﴾ هو من كلام الملكة ابتدأت به مخاطَبة أهل مشُورتها لإيقاظ أفهامهم إلى التدبر في مغزاه لأن اللائق بسليمان أن لا يقدّمِ في كتابه شيئاً قبل اسم الله تعالى ، وأن معرفة اسم سليمان تؤخذ من ختمه وهو خارج الكتاب فلذلك ابتدأت به أيضاً .

(55/578)

والتأكيد بـ (إنَّ) في الموضعين يترجم عما في كلامهما باللغة السبائية من عبارات دالة على اهتمامها بمُرسل الكتاب وبما تضمنه الكتاب اهتماماً يؤدَّى مثله في العربية الفصحى بحرف

التأكيد الذي يدل على الاهتمام في مقام لا شك فيه .

وتكرير حرف (إن) بعد واو العطف إيماء إلى اختلاف المعطوف والمعطوف عليه بأن المراد بالمعطوف عليه ذاتُ الكتاب ، والمرادَ بالمعطوف معناه وما اشتمل عليه ، كما تقول : إن فلاناً لحسن الطلعة وإنه لزكيّ .

وهذا من خصوصيات إعادة العامل بعد حرف العطف مع إغناء حرف العطف عن ذكر العامل ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمرِ منكم ﴾ [النساء : 59] ، أعيد ﴿ أطيعوا ﴾ لاختلاف معنى الطاعتين ، لأن طاعة الله تنصرف إلى الأعمال الدينية ، وطاعة الرسول مراد بها طاعته في التصرفات الدنيوية ، ولذلك عُطف على الرسول أولو الأمر من الأمة .

وقوله : ﴿ إنه من سليمان ﴾ حكاية لمقالها ، وعرفت هي ذلك من عنوان الكتاب بأعلاه أو بظاهره على حسب طريقة الرسائل السلطانية في ذلك العهد في بني إسرائيل ، مثل افتتاح كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك بجملة : "مِن محمد رسول الله" .

وافتتاح الكتاب بجملة البسملة يدل على أن مرادفها كان خاصاً بكُتُب النبي سليمان أن يُتبع اسم الجلالة بوصفي : الرحمان الرحيم ، فصار ذلك سنة لافتتاح الأمور ذوات البال في الإسلام ادخره الله للمسلمين من بقايا سنة الأنبياء بعد أن تنوسي ذلك فإنه لم يعرف أن بني إسرائيل افتتحوا كتبهم باسم الله الرحمن الرحيم .

روى أبو داود في كتاب "المراسيل" : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب "باسمك اللهم" كما كانت قريش تكتب ، فلما نزلتْ هذه الآية صار يكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" ، أي صار يكتب البسملة في أول كتبه .

وأما جعلها فصلاً بين السور أو آية من كل سورة فمسألة أخرى .

(56/578)

وكان كتاب سليمان وجيزاً لأن ذلك أنسب بمخاطبة من لا يحسن لغة المخاطب فيقتصر له على المقصود لإمكان ترجمته وحُصول فهمه فأحاط كتابه بالمقصود ، وهو تحذير ملكة سبأ من أن تحاول الترفع على الخضوع إلى سليمان والطاعة له كما كان شأن الملوك المجاورين له بمصر وصور والعراق .

y

فالإتيان المأمور به في قوله : ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ هو إتيان مجازي مثل ما يقال : اتبع سبيلي .

و ﴿ مسلمين ﴾ مشتق من أسلم إذا تقلد الإسلام .

وإطلاق اسم الإسلام على الدين يدل على أن سليمان إنما دعا ملكة سبأ وقومها إلى نبذ

الشرك والاعتراف لله بالإلهية والوحدانية ولم يدعهم إلى اتباع شريعة التوراة لأنهم غير مخاطبين بها وأما دعوتهم إلى إفراد الله بالعبادة والاعتراف له بالوحدانية في الإلهية فذلك مما خاطب الله به البشر كلهم وشاع ذلك فيهم من عهد آدم ونوح وإبراهيم .

وقد بيّنا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فلا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ في سورة البقرة (132) ، قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ [يس : 60] .

جمع سليمان بين دعوتها إلى مسالمته وطاعته وذلك تصرف بصفة الملك ، وبين دعوة قومها إلى اتباع دين التوحيد وذلك تصرف بالنبوءة لأن النبي يلقي الإرشاد إلى الهُدى حيثما تمكَّن منه كما قال شعيب

﴿ إنْ أريد إلا الإصلاح ما استطعتُ ﴾ [هود : 88] وهذا نظير قول يوسف لصاحبي السجن ﴿ أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار ﴾ [يوسف : 39] الآية .

وإن كان لم يرسل إليهم ، فالأنبياء مأمورون أمراً عاماً بالإرشاد إلى الحق ، وكذلك دعاء سليمان هنا ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم " لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حُمْر النعم " فهذه سنة الشرائع لأن الغاية المهمة عندها هو إصلاح النفوس دون التشفي وحب الغلبة .

وحرف (أنْ) من قوله : ﴿ أن لا تعلوا عليّ ﴾ في موقعه غموض لأن الظاهر أنه مما شمله كتاب سليمان لوقوعه بعد البسملة التي هي مبدأ الكتاب .

وهذا الحرف لا يخلو من كونه (أن) المصدرية الناصبة للمضارع ، أو المخففة من الثقيلة ، أو التفسيرية .

فأما معنى (أَنْ) المصدرية الناصبة للمضارع فلا يتضح لأنها تستدعي عاملاً يكون مصدرُها المنسبك بها معمولاً له وليس في الكلام ما يصلح لذلك لفظاً مطلقاً ولا معنى إلا بتعسف ، وقد جوزه ابن هشام في "مغني اللبيب" في بحث (أَلاّ) الذي هو حرف تحضيض وهو وجهة شيخنا محمد النجار رحمه الله بأن يُجعل ﴿ أن لا تعلوا ﴾ إلخ خبراً عن ضمير ﴿ كتاب ﴾ في قوله : ﴿ وإنه ﴾ فحيث كان مضمون الكتاب النهيَ عن العلو جُعل ﴿ أن لا تعلوا ﴾ نفسَ الكتاب كما يقع الإخبار بالمصدر .

وهذا تكلف لأنه يقتضي الفصل بين أجزاء الكتاب بقوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وأما معنى المخففة من الثقيلة فكذلك لوجوب سدّ مصدر مسدّها وكونها معمولة لعامل ، وليس في الكلام ما يصلح لذلك أيضاً .

وقد ذكر وجهاً ثالثاً في الآية في بعض نسخ "مغني اللبيب" في بحث (أَلاَّ) أيضاً ولم يوجد في

النسخ الصحيحة من "المغني" ولا من "شروحه" ولعله من زيادات بعض الطلبة .

وقد اقتصر في "الكشاف" على وجه التفسيرية لعلمه بأن غير ذلك لا ينبغي أن يفرض .

وأعقبه بما روي من نسخة كتاب سليمان ليظهر أن ليس في كتاب سليمان ما يقابل حرف (أنْ) فلذلك تتعين (أنْ) لمعنى التفسيرية لضمير ﴿ وإنه ﴾ العائد إلى ﴿ كتاب ﴾ كما علمته آنفاً لأنه لما كان عائداً إلى ﴿ كتاب ﴾ كان بمعنى معاده فكان مما فيه معنى القول دون حروفه فصح وقع (أَنْ) بعده فيكون (أَنْ) من كلام ملكة سبأ فَسَّرَتْ بها وبما بعدها مضمون ﴿ كتاب ﴾ في قولها : ﴿ ألقى إلى كتاب كريم ﴾ .

و ﴿ ألا تعلوا عليّ ﴾ يكون هو أول كتاب سليمان ، وأنها حكاية لكلام بلقيس .

(58/578)

قال في "الكشف" يتبين أن قوله : ﴿ إنه من سليمان ﴾ بيان لعنوان الكتاب وأن قوله : ﴿ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ إلخ بيان لمضمون الكتاب فلا يرد سؤال كيف قدم قوله : ﴿ إنه من سليمان ﴾ على ﴿ إنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

ولم تزل نفسي غير منثلجة لهذه الوجوه في هذه الآية ويخطر ببالي أن موقع (أَنْ) هذه استعمال خاص في افتتاح الكلام يعتمد عليه المتكلم في أول كلامه .

وأنها المخففة من الثقيلة .

وقد رأيتُ في بعض خطب النبي صلى الله عليه وسلم الافتتاح بـ (أنْ) في ثاني خُطبة خطبها بالمدينة في "سيرة ابن إسحاق" .

وذكر السهيلي : أَنَّ الحمدُ ، مضبوط بضمة على تقدير ضمير الأمر والشأن .

ولكن كلامه جرى على أن حرف (إن) مكسور الهمزة مشدد النون .

ويظهر لي أن الهمزة مفتوحة وأنه استعمال ل (أنْ) المخففة من الثقيلة في افتتاح الأمور المهمة وأن منه قوله تعالى : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] .

و ﴿ ألا تعلوا عليّ ﴾ نهي مستعمل في التهديد ولذلك أتبعته ملكة سبأ بقولها : ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في أمري ﴾ [النمل : 32] .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

سألتْهم إبداء آرائهم ماذا تعمل تجاه دعوة سليمان .

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً مثل التي قبلها .

والإفتاء : الإخبار بالفَتوى وهي إزالة مشكل يعرض .

وقد تقدمت عند قوله تعالى : ﴿ قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ في سورة يوسف (41) .

والأمر : الحال المهم ، وإضافته إلى ضميرها لأنها المخاطبة بكتاب سليمان ولأنها

المضطلعة بما يجب إجراؤه من شؤون المملكة وعليها تبعة الخطأ في المنهج الذي تسلكه من السياسة ، ولذلك يقال للخليفة وللملك وللأمير ولعالم الدين : وَلِيُّ الأمر .

(59/578)

وبهذه الثلاثة فُسِّر قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [النساء : 59] .

وقال الراعي يخاطب عبد الملك بن مروان:

أَوَلِيَّ أمرِ اللَّه إنا مَعشر . . .

حُنفاء نسجد بكرة وأصيلاً

فهذا معنى قولهم لها : ﴿ والأمرُ إليك ﴾ [النمل : 33] .

وقد أفادت إضافة ﴿ أمري ﴾ تعريفاً ، أي في الحادثة المعيَّنة .

ومعنى ﴿ قاطعة أمراً ﴾ عاملةً عملاً لا تردد فيه بالعزم على ما تجيب به سليمان .

وصيغة ﴿ كنت قاطعة ﴾ تؤذن بأن ذلك دأبها وعادتها معهم ، فكانت عاقلة حكيمة مستشيرة لا تخاطر بالاستبداد بمصالح قومها ولا تعرِّض ملكها لمهاوي أخطاء المستبدين .

والأمر في ﴿ ما كنت قاطعة أمراً ﴾ هو أيضاً الحال المهم ، أي أنها لا تقضي في المهمات إلا

عن استشارتهم .

و﴿ تَشهدون ﴾ مضارع شَهِد المستعمل بمعنى حَضر كقوله تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر ﴾ [البقرة : 185] ، أي حتى تَحْضُرون .

وشهد هذا يتعدى بنفسه إلى كل ما يحضر فاعل الفعل عنده من مكان وزمان واسم ذات ، وذلك تعدّ على التوسع لكثرته ، وحق الفعل أن يُعدى بحرف الجر أو يعلق به ظرف .

يقال : شهد عند فلان وشهد مجلس فلان .

ويقال : شهد الجمعة .

وفعل ﴿ تشهدون ﴾ هنا مستعمل كناية عن المشاورة لأنها يلزمها الحضور غالباً إذ لا تقع مشاورة مع غائب .

والنون في ﴿ تشهدون ﴾ نون الوقاية وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً وألقيت كسرة النون المجتلبة لوقاية الحرف الأخير من الفعل عن أن يكون مكسوراً ، ونون الوقاية دالة على المحذوف .

وقرأه الجمهور بحذف الياء وصلاً ووقفاً .

وقرأ يعقوب بإثبات الياء وصلاً ووقفاً .

وفي قولها : ﴿ حتى تشهدون ﴾ كناية عن معنى : توافقوني فيما أقطعه ، أي يصدر منها في مقاطع الحقوق والسياسة : إما بالقول كما جرى في هذه الحادثة ، وإما بالسكوت وعدم

الإنكار لأن حضور المعدود للشورى في مكان الاستشارة مغن عن استشارته إذ سكوته موافقة .

(60/578)

ولذلك قال فقهاؤنا : إن على القاضي إذا جلس للقضاء أن يقضي بمحضر أهل العلم ، أو مشاورتهم .

وكان عثمان يقضي بمحضر أهل العلم وكان عُمر يستشيرهم وإن لم يَحضروا .

وقال الفقهاء : إن سكوتهم مع حضورهم تقرير لحكمه .

وليس في هذه الآية دليل على مشروعية الشورى لأنها لم تحك شَرعاً إلهياً ولا سيق مساق المدح ، ولكنه حكاية ما جَرى عند أمة غير متدينة بوحي إلهي ؛ غير أن شأن القرآن فيما يذكره من القَصص أن يذكر المهم منها للموعظة أو للإسوة كما قدمناه في المقدمة السابعة .

فلذلك يستروح من سياق هذه الآية حسن الشورى .

وتقدم ذكر الشورى في سورة آل عمران .

قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)

جواب بأسلوب المحاورة فلذلك فُصل ولم يعطف كما هي طريقة المحاورات .

أرادوا من قولهم : نحن ، جماعة المملكة الذين هم من أهل الحرب .

فهو من إخبار عرفاء القوم عن حال جماعاتهم ومن يفوض أمرهم إليهم .

والقوة : حقيقتها ومجازها تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فخذها بقوة ﴾ في سورة الأعراف (145) .

وأطلقت على وسائل القوة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ في سورة الأنفال (60) ، أي وسائل القدرة على القتال والغلبة ، ومن القوة كثرة القادرين على القتال والعارفين بأساليبه .

والبأسُ : الشدة على العدوّ ، قال تعالى : ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحينَ البأس ﴾ [البقرة : 177] أي في مواقع القتال ، وقال : ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ [الحشر : 14] ، وهذا الجواب تصريح بأنهم مستعدون للحرب للدفاع عن ملكهم وتعريض بأنهم يميلون إلى الدفع بالقوة إن أراد أن يكرههم على الدخول تحت طاعته لأنهم حملوا ما تضمنه كتابه على ما قد يفضي إلى هذا .

(61/578)

ومع إظهار هذا الرأي فوّضوا الأمر إلى الملكة لثقتهم بأصالة رأيها لتنظر ما تأمرهم فيمتثلونه ، فحذف مفعول ﴿ تأمرين ﴾ ومتعلقه لظهورهما من المقام ، والتقدير : ما تأمريننا به ، أي إن كان رأيك غير الحرب فمُري به نُطعك .

وفعل ﴿ انظري ﴾ معلق عن العمل بما بعده من الاستفهام وهو ﴿ ماذا تأمرين ﴾ .

وتقدم الكلام على ﴿ ماذا ﴾ في قوله : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ﴾ في سورة النحل (24) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(62/578)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ ﴾ [النمل : 27] والنظر محلُّه العين ، لكن هل يُعرف الصدق والكذب بالعين ؟ لا ، فالكلمة انتقلت من النظر بالعين إلى العلم بالحجة ، فهي بمعنى نعلم ، ونقول : هذا الأمر فيه نظر يعني : يحتاج إلى دراسة وتمحيص .

وفي الآية مظهر من مظاهر أدب سليمان عليه السلام وتلطُّفه مع رعيته ، فهو السيد المطاع ، ومع ذلك يقول للهدهد : ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ [النمل : 27] والصِّدْق يقابله الكذب ، لكن سليمان عليه السلام يأبى عليه أدب النبوة أن يتهم أحد جنوده

بالكذب فقال : ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ [النمل : 27] .

يعني : حتى لو وقع منك الكذب فلست فذّاً فيه ، فكثير من الخَلْق يكذبون ، أو : من الكاذبين مَيْلاً لهم وقُرْباً منهم ، مما يدلُّ على أنه بإلهاماته كنبي يعرف أنه صادق ، إنما ما دام الأمر محلَّ نظر فلا بُدَّ أن نتأكد ، ولن أجامل جندياً من جنودي .

اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)

هذا هو النظر الذي ارتآه سليمان ليتأكد من صِدْق الهدهد : أنْ يرسله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم ، وهنا مظهر من مظاهر الإيجاز البليغ في القرآن الكريم ، فبعد أن قال سليمان ﴿ سَنَنظُرُ ﴾ [النمل : 27] قال ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا ﴾ [النمل : 28] .

فهل كان الكتاب مُعَدّاً وجاهزاً ؟ لا ، إنما التقدير : قال سننظر أصدقتَ أم كنت من الكاذبين ، فكتب إليها كتاباً فيه كذا وكذا ثم قال للهدهد : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا ﴾ [النمل : 28] وقد حُذِف هذا للعلم به من سياق القصة .

(63/578)

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ [النمل : 28] يعني : ابتعِدْ قليلاً ، وحاول أنْ تعرف ﴿ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : 28] يعني : يراجع بعضهم بعضاً ، ويتناقشون فيما في الكتاب ، ومن

ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ [طه : 89] .

والسياق يقتضي أن نقول : فذهب الهدهد بالكتاب ، وألقاه عند بلقيس فقرأتْه واستشارتْ فيه أتباعها وخاصتها ، ثم قالت : ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ ﴾

نلحظ هنا سرعة جواب الأمر ﴿ اذهب ﴾ [النمل : 28] فبعده مباشرة قالت ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ يا أَيُّهَا الملأ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 29] وهذا يدل على أن أوامر سليمان كانت محوطة بالتنفيذ العاجل ؛ لذلك حذف السياق كل التفاصيل بين الأمر ﴿ اذهب ﴾ [النمل : 28] والجواب ﴿ قَالَتْ ﴾ [النمل : 29] هكذا على وجه السرعة .

ومعنى ﴿ الملأ ﴾ [النمل : 29] هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون والخاصة ﴿ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 29] فوصفتْ الكتاب بأنه كريم إما لأنها سمعتْ عن سليمان عليه السلام وعظمة مُلْكه ، أو : لأن الكتاب سُطِّر على ورق رَاقٍ وبخط جميل ، وبعد ذلك هو ممهور بخاتمه الرسمي ، مما يدل على أنه كتاب هام ينبغي دراسته وأَخذْ الرأي فيه .

إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30)

إذن : فهي تعرف سليمان ، وتعرف نُبوّته وصفاته ، وأنه يكاتبهم باسْم الله ويَصْدُر في

دعوتهم عن أوامر الله ، وكان مجمل الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي ﴾

(64/578)

إنها برقية موجزة في أبلغ ما يكون الإيجاز ﴿ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ [النمل : 31] العلو هنا بمعنى الغطرسة والزَّهو الذي يعتاده الملوك خاصة ، وهي مِثْله ، ملكة لها عَرْش عظيم ، وأُوتيتْ من كل شيء وكونه يخاطبها بهذه اللهجة المختصرة البعيدة عن النقاش والجدال ، هذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أناةٍ .

لذلك بعد أن اخبرتْ مستشاريها بأمر الكتاب ، وما ورد فيه طلبتْ منهم الرأي والمشورة : ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ ﴾

سبق أن تكلمنا في معنى الفتوى ، وأنها من الفُتوة أي : القوة ، وهي مثل : غَنِيَ فلان أي : صار غنياً بذاته ، وأغناه غيره أمدَّه بالغنى ، كذلك أفتاه يعني : أعطاه قوة في الحكم والحجة .

وقالت : ﴿ فِي أَمْرِي ﴾ [النمل : 32] مع أن الأمر خاصٌّ بالدولة كلها ، لا بها وحدها ؛ لأنها رمز للدولة وللملْك ، وإنْ تعرض لها سليمان فسوف يُخدش مُلْكها أولاً ، ويُنال من

هيبتها قبل رعيتها .

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل : 32] يعني : لا أُبَتُّ في أمر إلا في حضوركم ، وبعد استشارتكم . وهذا يدل على أنها كانت تأخذ بمبدأ الشورى رغم ما كان لها من المُلْك والسيطرة والهيمنة .

فردّ عليها الملأ من قومها : ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ ﴾

يعني : نحن أصحاب قوة في أجسامنا ، وأصحاب شجاعة وبأس أي جيوش فيها عَدَد وعُدة ﴿ والأمر إِلَيْكِ ﴾ [النمل : 33] أي : إنْ رأيتِ الحرب ، فنحن على أُهْبة الاستعداد ، فهم يعرضون عليها رأيهم دون أنْ يُلزموها به ، فهو رَأْي سياسي لا رأي حربي ، فهي صاحبة قرار الحرب إنْ أرادتْ ﴿ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل : 33] يعني : نحن على استعداد للسِّلْم وللحرب ، وننتظر أمرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(65/578)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ ﴾ :

الجملةُ الاستفهاميةُ في محلِّ نصب ب " نَنْظُرُ " لأنها معلَّقةٌ لها . و " أم " هنا متصلةٌ . وقوله : ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ أبلغُ مِنْ قولِه : " أم كَذَبْتَ " وإنْ كان هو الأصلَ ؛ لأنَّ المعنى : مِن الذين اتَّصفوا وانْخرَطوا في سِلْكِ الكاذبين .

اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)

قوله : ﴿ هذا ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ صفةً ل " كتابي " أو بدلاً منه أو بياناً له .

قوله : ﴿ فَأَلْقِهْ ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزةُ وأبو بكر بإسكان الهاء ، وقالون بكسرها فقط من غيرِ صلةٍ بلا خلافٍ عنه . وهشام عنه وجهان بالقصرِ والصلةِ . والباقون بالصلة بلا خلاف . وقد تقدَّم توجيهُ ذلك كلِّه في آل عمران والنساء وغيرِهما عند ﴿ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران : 75] و ﴿ نُوَلِّهِ مَا تولى ﴾ [النساء : 115] . وقرأ مسلم بن جندب بضمِّ الهاءِ موصولةً بواوٍ : " فَأَلْقُهُوْ إليهم " وقد تقدَّم أنَّ الضمَّ الأصلُ .

[قوله :] " ثم تَوَلَّ عنهم " زعم أبو علي وغيرُه أنَّ في الكلام تقديماً وأن الأصلَ : فانظرْ ماذا يَرْجِعون ثم تَوَلَّ عنهم . ولا حاجةَ إلى هذا [لأن المعنى بدونه صحيحٌ أي : قِفْ قريباً منهم لتنظرَ ماذا يكون] .

قوله : ﴿ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ إنْ جَعَلْنا " انظر " بمعنى تأمَّلْ وتَفَكَّرْ كانت " ما " استفهاميةً . وفيها حينئذٍ وجهان ، / أحدُهما : أَنْ تُجْعَلَ مع " ذا " بمنزلةِ اسمٍ واحد ، وتكونُ مفعولةً ب "يَرْجِعُون " تقديرُه : أيَّ شيء يَرْجِعون . والثاني : أن تُجْعل " ما " مبتدأً ، و " ذا " بمعنى الذي و "يَرْجِعُون " صلتَها ، وعائدُها محذوفٌ تقديرُه : أيُّ شيء الذي يَرْجِعونه . وهذا الموصولُ هو خبر " ما " الاستفهامية ، وعلى التقديرين فالجملة الاستفهاميةُ مُعَلَّقَةٌ ل " انْظُرْ " فمحلُّها النصبُ على إسقاطِ الخافضِ أي : انْظُرْ في كذا وفَكِّر فيه ، وإنْ جَعَلْناه بمعنى انتظرْ مِنْ قوله : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [الحديد : 13] كانت " ماذا " بمعنى الذي ، و "يَرْجِعون " صلةٌ ، والعائدُ مقدرٌ كما مرَّ تقريرُه . وهذا الموصولُ مفعولٌ به أي : انتظر الذي يَرْجِعونه .

وقال الشيخ : " وماذا : إنْ كان معنى " انظرْ " معنى التأمُّلِ بالفكر كان " انظر " مُعَلَّقاً . و " ماذا " : إمَّا أَنْ يكونَ استفهاماً في موضعِ نصبٍ ، وإمَّا أَنْ يكونَ " ما " استفهاماً ، وذا موصول بمعنى الذي . فعلى الأولِ يكونُ "يَرْجِعون " خبراً عن " ماذا " ، وعلى الثاني يكون " ذا " هو الخبرَ ، ويَرْجِعُون صلة " انتهى .

وهذا غَلَطٌ : إمَّا من الكاتبِ ، وإمَّا مِنْ غيرِه ؛ وذلك أنَّ قولَه " فعلى الأولِ " يعني به أنَّ " ماذا " كلَّه استفهامٌ في موضع نصبٍ بمنعُ قولَه : "يَرْجِعون " خبرٌ عن " ماذا " . كيف يكون خبراً عنه وهو منصوبٌ به كما تقدَّم تقريرُه ؟ وقد صَرَّح هو بأنه منصوبٌ يعنى بما بعدَه ، ولا يعملُ فيه ما قبلَه . وهذا نظيرُ ما تقدَّم في آخرِ السورةِ قبلَها في قولِه : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : 227] في كونِ اسمِ الاستفهامِ معمولاً لِما بعدَه ، وهو مُعَلِّقٌ لما قبله ، فكما حَكَمْتَ على الجملةِ مِنْ "يَنْقَلِبُوْن " وما اشتملَتْ عليه من اسمِ الاستفهامِ المعمولِ لها بالنصبِ على سبيلِ التعليقِ ، كذلك تَحْكُمُ على "يَرْجِعُون " فكيف تقول : إنها خبرٌ عن " ماذا " ؟ .

قوله : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ ﴾ : العامَّةُ على كسرِ الهمزتين على الاستئنافِ جواباً لسؤالِ قومِها كأنَّهم قالوا : مِمَّن الكتابُ ؟ وما فيه ؟ فأجابَتْهم بالجوابَيْن .

وقرأ عبد الله " وإنَّه مِنْ سليمانَ " بزيادةِ واوٍ عاطفةٍ " إنه من سليمان " على قولِه : ﴿ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ ﴾ . وقرأ عكرمةُ وابن أبي عبلةَ بفتح الهمزتين . صَرَّح بذلك الزمخشري وغيرُه ، ولم يذكر أبو البقاء إلاَّ الكسرَ في " إنه من سليمان " ، وكأنه سكتَ عن الثانيةِ ؛ لأنها معطوفةٌ على الأولى . وفي تخريجِ الفتحِ فيهما أوجهٌ ، أحدُهما : أنه بدلٌ من "كتاب " بدلُ اشتمالٍ ، أو بدلُ كلٍ مِنْ كلٍ ، كأنه قيل : أُلْقِي إليَّ أنه من سليمانَ ، وأنه كذا وكذا . وهذا

هو الأصحُّ . والثاني : أنه مرفوعٌ ب "كريمٌ" ذكره أبو البقاء ، وليس بالقويِّ . الثالث : أنه على إسقاطِ حرفِ العلةِ . قال الزمشخري : "ويجوز أَنْ تريدَ : لأنه مِنْ سليمانَ ، ولأَنَّه ، كأنها عَلَّلَتْ كرمَه بكونِه من سليمان وتصديرَه باسم الله" .

(68/578)

قال مكي : "وأجاز الفراء الفتحَ فيهما في الكلامِ "كأنه لم يَطَّلِعْ على أنها قراءةٌ .

وقرأ أُبَيٌّ "أَنْ مِنْ سليمانَ ، وأَنْ بسمِ اللهِ" بسكون النون فيهما . وفيها وجهان ، أظهرُهما : أنها "أنْ" المفسرةُ ، لتقدُّم ما هو بمعنى القول . والثاني : أنَّها المخففةُ ، واسمُها محذوفٌ وهذا لا يتمشى على أصول البصريين ؛ لأنَّ اسمَها لا يكونُ إلاَّ ضميرَ شأنٍ ، وضميرُ الشأنِ لا يُفَسَّرَ إلاَّ بجملةٍ مُصَرَّحٍ بجُزْأَيْها .

(69/578)

قوله : ﴿ أَلاَّ تَعْلُواْ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ "أنْ" مفسِّرةٌ ، كما تقدَّمَ في أحد الأوجهِ في "أنْ" قبلَها في قراءةِ عكرمة ، ولم يذكُرْ الزمخشريُّ غيرَه . وهو وجهٌ حسنٌ لما في ذلك

من المشاكلةِ : وهو عطفُ الأمرِ عليه وهو قولُه " وَأْتُونِي " . والثاني : أنها مصدرية في محلِّ رفعٍ بدلاً مِنْ "كتاب" كأنه قيل : أُلْقِيَ إليَّ : أَنْ لا تَعْلُوا عليَّ . والثالث : أنها في موضعِ رفعٍ على خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ أي : هو أَنْ لا تَعْلُوا . والرابع : أنَّها على إسقاطِ الخافضِ أي : بأَنْ لا تَعْلُوا ، فيجيءُ في موضِعها القولان المشهوران . والظاهر أنَّ "لا" في/ هذه الأوجهِ الثلاثة للنهيِ . وقد تقدَّم أنَّ "أَنْ" المصدرية تُوْصَلُ بالمتصرفِ مطلقاً . وقال الشيخ : " وأَنْ في قولِه : "أن لا تَعْلُوا عليَّ" في موضع رفعٍ على البدلِ من "كتاب" . وقيل : في موضعِ نصبٍ على [معنى] : بأن لا تَعْلُوا . وعلى هذين التقديرين تكون "أنْ" ناصبةً للفعل " . قلت : وظاهرُ هذا أنها نافيةٌ ؛ إذ لا يُتَصَوَّرُ أَنْ تكونَ ناهيةً بعد "أَنْ" الناصبةِ للمضارع . ويؤيِّد هذا ما حكاه عن الزمخشريِّ فإنه قال : " وقال الزمخشريُّ : وأنْ في "أَنْ لا تَعْلُوا" مفسرةٌ" قال : "فعلى هذه تكون "لا" في "لا تَعْلُوا" للنهي ، وهو حسنٌ لمشاكلة عطفِ الأمرِ عليه" . فقوله : "فعلى هذا" إلى آخره صريحٌ أنها على غيرِ هذا يعني الوجهين المتقدمين ليست للنهي فيهما . ثم القولُ بأنَّها للنفيِ لا يَظْهَرُ ؛ إذ يصيرُ المعنى على الإخبارِ منه عليه السلامُ بأنهم لا يَعْلُون عليه ، وليس هذا مقصوداً ، وإنما المقصودُ أَنْ يَنْهاهُمْ عن ذلك .

وقرأ ابن عباس والعقيلي "تَغْلُوا" بالغين مُعْجمةً من الغُلُوِّ وهو مجاوَزَةُ الحَدِّ .

قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)

قوله: ﴿ مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ : "ماذا" هو المفعولُ الثاني ل "تَأْمُرين"، والأولُ محذوفٌ، تقديره: تَأْمُرِيْنَنَا . والاستفهامُ مُعَلّق للنظرِ، ولا يخفى حكمُه ممَّا تقدَّم قبلَه . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 606. 611﴾

(71/578)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) ﴾

وفي هذا دلالة على أن خَبَرَ الواحدِ لا يوجِب العلمَ فيجب التوقفُ فيه على حدِّ التجويز، وفيه دلالة على أنه لا يُطْرَح بل يجب أن يُتَعَرَّفَ: هل هو صدق أم كذب؟

ولَمَّا عَرَفَ سليمان هذا العُذْرَ تَرَكَ عقوبتَه وما تَوَعَّدَه به . . . وكذلك سبيلُ الوالي؛ فإنَّ عَدْلَه يمنعه من الحيفِ على رعيته، ويَقْبَلُ عُذْرَ مَنْ وَجَدَهُ في صورة المجرمين إذا صَدَقَ في اعتذاره.

اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)

في الآية إشارة إلى أنه لا ينبغي للإنسان أن يذكر بين يدي الملوك كل كلمة ، فإنه يَجُرُّ العناءَ بذلك إلى نَفْسه ؛ وقد كان لسليمان من الخَدَمِ والحَشَم ومَنْ يأتمر بأمره الكثير ، ولكنه لم يستعمل واحداً في هذا التكليف إلا الهدهد لأنه هو الذي قال ما قال ، فلزمه الخروج من عهدة ما قال .

ويقال لَمَّا صَدَقَ فيما أخبر لِمَلِكِهِ عُوِّضَ عليه فَأُهِّلَ للسفارة والرسالة – على ضعف صورته .

فمضى الهدهد ، وألقى الكتاب إليها كما أُمِرَ ، وانتحى إلى جانبٍ ينتظر ماذا يفعلون وبماذا يُجَاب .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

(72/578)

﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ الكَرَمُ نَفْيُ الدناءة ، وقيل لأنه كان مختوماً ، وقيل لأنَّ الرسول كان طيراً ؛ فَعَلِمَتْ أَنَّ مَنْ تكون الطيرُ مُسَخَّرة لَهُ لا بُدّ أنه عظيمُ الشأنِ . وقيل لأنه كان مُصَدَّراً ببسم

الله الرحمن الرحيم . وقيل لأنه كتب فيه اسم نَفْسِه أولاً ولم يَقُلْ : إنه من سليمان إلى فلانة .

ويقال لم يكن في الكتاب ذكر الطمع في المُلْكِ بل كان دُعَاءً إلى الله : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

ويقال أَخَذَ الكتابُ بمجامع قلبها ، وقَهَرَها ؛ فلم يكن لها جواب ، فقالت ، ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فلمَّا عَرَفَتْ قَدْرَ الكتابِ وصلت باحترامها إلى بقاء مُلكِها ، ورُزِقَتْ الإسلامَ وصُحْبَةً سليمان .

ويقال إذا كان الكتابُ كريماً لما فيه من آية التسمية فالكريمُ من الصلاة ما لا يتجرَّدُ عن التسمية . وإذا تجرَّدت كان الأمرُ فيها بالعكس .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

أَخَذَتْ في المشاورة كما تقتضيه الحال في الأمور العظام ؛ فإن المَلِكَ لا ينبغي أن يكون مستبداً برأيه ، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأي والبصيرة .

قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33)

أجابوا على شرط الأدب ، وقالوا : ليس منا إلاّ بَذْلُ الوسع ، وليس لنا إلاّ إظهارُ النُّصح وما علينا إلا متابعةُ الأمر – وتمشيةُ الأمرِ وإمضاؤه . . . إليكِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 34.36 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علمت أن من سخر له الطير على هذا الوجه لا يعجزه شيء يريده ، ولا أحد يكيده ، مالت إلى المسالمة ، فاستأنف سبحانه وتعالى الإخبار عنها بقوله : ﴿ قالت ﴾ جواباً لما أحست في جوابهم من ميلهم إلى الحرب أن الصواب من غير ارتياب أن نحتال في عدم قصد هذا الملك المطاع ؛ ثم عللت هذا الذي أفهمه سياق كلامها بقولها ﴿ إن الملوك ﴾ أي مطلقاً ، فكيف بهذا النافذ الأمر ، العظيم القدر ﴿ إذا دخلوا قرية ﴾ أي عنوة بالقهر والغلبة ﴿ أفسدوها ﴾ أي بالنهب والتخريب ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أي بما يرونهم من البأس ، ويحلون بهم من السطوة .

ثم أكدت هذا المعنى بقولها : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل هذا الفعل العظيم الشأن ، الوعر المسلك البعيد الشأو ﴿ يفعلون ﴾ دائماً ، هو خلق لهم مستمر جميعهم على هذا ، فكيف بمن تطيعه الطيور ، ذوات الوكور ، فيما يريده من الأمور .

ولما بينت ما في المصادمة من الخطر ، أتبعته ما عزمت عليه من المسالمة ، فقالت : ﴿ وإني مرسلة ﴾ وأشار سبحانه إلى عظيم ما ترسل به بالجمع في قولها : ﴿ إليهم ﴾ أي إليه وإلى جنوده ﴿ بهدية ﴾ أي تقع منهم موقعاً .

قال البغوي : وهي العطية على طريق الملاطفة .

﴿ فناظرة ﴾ عقب ذلك وبسببه ﴿ بم ﴾ أي بأي شيء ﴿ يرجع المرسلون ﴾ بتلك الهدية عنه من المقال أو الحال ، فنعمل بعد ذلك على حسب ما نراه من أمره ، فنكون قد سلمنا من خطر الإقدام على ما لم نعرف عاقبته ، ولم يضرنا ما فعلنا شيئاً .

ولما كان التقدير : فأرسلت بالهدية ، وهي فيما يقال خمسمائة غلام مرد ، زينتهم بزي الجواري ، وأمرتهم بتأنيث الكلام ، وخمسمائة جارية في زي الغلمان ، وأمر لهم بتغليظ الكلام .

وجزعه معوجة الثقب ، ودرة غير مثقوبة – وغير ذلك ، وسألته أن يميز بين الغلمان والجواري ، وأن يثقب الدرة ، وأن يدخل في الجزعة خيطاً ، فأمرهم بغسل الوجوه والأيدي

، فكانت الجارية تأخذ الماء بإحدى يديها ثم تنقله إلى الأخرى ثم تضرب الوجه وتصب الماء على باطن ساعدها صباً ، وكان الغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه ويصب الماء على ظهر الساعد ويحدره على يديه حدراً ، وأمر الأرضة فثقبت الدرة ، والدودة فأدخلت السلك في الثقب المعوج ، رتب عليه قوله مشيراً بالفاء إلى سرعة الإرسال : ﴿ فلما جاء ﴾ أي الرسول الذي بعثته وأرسلته ، والمراد به الجنس ؛ قال أبو حيان : وهو يقع على الجمع والمفرد والمذكر والمؤنث .

(75/578)

﴿ سليمان ﴾ فدفع إليه ذلك ﴿ قال ﴾ أي سليمان عليه السلام للرسول ولمن في خدمته استصغاراً لما معه : ﴿ أتمدونن ﴾ أي أنت ومن معك ومن أرسلك ﴿ بمال ﴾ وإنما قصدي لكم لأجل الدين ، تحقيراً لأمر الدنيا وإعلاماً بأنه لا التفات له نحوها بوجه ، ولا يرضيه شيء دون طاعة الله .

ثم سبب عنه ما أوجب له استصغار ما معه فقال : ﴿ فما آتاني الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له جميع الكمال من المال والجلال بالنبوة والملك والقرب منه سبحانه ، وهو الذي يغني مطيعه عن كل ما سواه ، فمهما سأله أعطاه ، وذلك أنه صف الشياطين والإنس والسباع

والوحش والطير والهوام صفوفاً فراسخ عدة ، وبسط المكان كله بلين الذهب إلى غير ذلك مما يليق به ﴿ خير مما آتاكم ﴾ أي من الملك الذي لا نبوة فيه ، ولا تأييد من الله .

ولما كان التقدير : ولكنكم لا تعلمون أن هديتكم مما يزهد فيه لتقيدكم بظاهر من الحياة الدنيا ، نسق عليه قوله : ﴿ بل أنتم ﴾ أي بجهلكم لذلك تستعظمون ما أنتم فيه ، فأنتم ﴿ بهديتكم تفرحون ﴾ بتجويزكم أن الدنيا تردني عنكم لأنها غاية قصدي ، ويجوز أن يراد أنكم تفرحون بما يهدي إليكم فتتركون من كنتم تريدون غزوه لأجل ما آتاكم منه من الدنيا ، فحالي خلاف حالكم ، فإنه لا يرضيني إلا الدين .

ثم أفرد الرسول إرادة لكبيرهم بقوله : ﴿ ارجع ﴾ وجمع في قوله : ﴿ إليهم ﴾ إكراماً لنفسه ، وصيانه لاسمها عن التصريح بضميرها ، وتعميماً لكل من يهتم بأمرها ويطيعها ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل ﴾ أي طاقة ﴿ لهم بها ﴾ أي بمقابلتها لمقاومتها وقلبها عن قصدها ، أي لا يقدرون أن يقابلوها ﴿ ولنخرجنهم منها ﴾ أي من بلادهم ﴿ أذلة ﴾ .

ولما كان الذل قد يكون لمجرد الانقياد ، لا على سبيل الهوان ، حقق المراد بقوله : ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي لا يملكون شيئاً من المنعة إن لم يقروا بالإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 424 . 426 ﴾

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في هدية ملكة سبأ لسيدنا سليمان :

ومن الإسرائيليات : ما ذكره كثير من المفسرين كابن جرير ، والثعلبي ، والبغوي ، وصاحب الدر ، في الهدية التي أرسلتها بلقيس إلى سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام وإليك ما ذكره البغوي في تفسيره ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : الآية 35] .

قال البغوي :

فأهدت إليه وصفاء ووصائف ، قال ابن عباس : ألبستهم لباسا واحدا كي لا يعرف الذكر من الأنثى ، وقال مجاهد : ألبس الغلمان لباس الجواري ، وألبس الجواري لبسة الغلمان ، واختلفوا في عددهم ، فقال ابن عباس : مائة وصيف ، ومائة وصيفة1 ، وقال مجاهد ومقاتل : مائتا غلام ، ومائتا جارية ، وقال قتادة وسعيد بن جبير وغيرهما : أرسلت إليه بلبنة من ذهب في حرير ، وديباج . . .

وقال وهب وغيره : عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام ، وخمسمائة جارية ، فألبست الغلمان لباس الجواري ، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب ، وفي أعناقهم أطواقا من

ذهب ، وفي آذانهم أقراطا ، وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر ، وألبست الجواري لباس الغلمان : الأقبية والمناطق ، وحملت الجواري على خمسمائة رمكة2 ، والغلمان على خمسمائة برذون3 على كل فرس لجام من ذهب مرصع بالجواهر ، وغواشيها من الديباج الملون ، وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة ، وتاجا مكللا بالدر ، والياقوت ، وأرسلت إليه المسك والعنبر والعود وعمدت إلى حقة ، فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة ، وخرزة مثقوبة معوَجَّة الثقب ، وأرسلت مع الهدية رجالا من عقلاء قومها ، وكتبت معهم كتابا إلى سليمان بالهدية ، وقالت : إن كنت نبيا فميز لي بين الوصائف والوصفاء ، وأخبرني بما في الحقة قبل أن تفتحها ، واثقب الدر ثقبا مستويا ، وأدخل خيطا في الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جن ، ورووا أيضا : أن سليمان عيه

---

1 أي : خادم ، وخادمة .

2 أنثى البغال .

3 البغل .

السلام أمر الجن أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ، ثم أمرهم أن يفرشوا الطريق من موضعه الذي هو فيه إلى تسعة فراسخ ميدانا واحدا بلبنات الذهب والفضة ! ! ! وأن يعدوا في الميدان أعجب دواب البر والبحر ، فأعدوها ، ثم قعد على سريره ، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ ، وأمر الوحوش ، والسباع والهوام ، والطير ، فاصطفوا فراسخ عن يمينه ، وعن يساره ، فلما دنا القوم من الميدان ، ونظروا إلى ملك سليمان ، ورأوا الدواب التي لم ترَ أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة ، تقاصرت أنفسهم ، ورموا بما معهم من الهدايا ، ثم كان أن استعان سليمان بجبريل ، والشياطين ، والأرضة في الإجابة عما سألته عنه1 .

ومعظم ذلك مما لا نشك أنه من الإسرائيليات المكذوبة2 ، وأي ملك في الدنيا يتسع لفرش تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة ؟ ! ! وفي رواية وهب ما يدل على الأصل الذي جاءت منه هذه المرويات ، وأن من روى ذلك من السلف فإنما أخذه عن مسلمة أهل الكتاب وما كان أجدر كتب التفسير أن تتنزه عن مثل هذا اللغو ، والخرافات التي تدسست إلى الرواية الإسلامية فأساءت إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 251.252 ﴾

---

1 تفسير البغوي على هامش تفسير ابن كثير ج6 ص 278 ، 280 .

2 تفسير ابن كثير ج6 ص 281 ط المنار .

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾

اعلم أنها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم أظهرت رأيها ، وهو أن الملوك إذا دخلوا قرية بالقهر أفسدوها ، أي خربوها وأذلوا أعزتها ، فذكرت لهم عاقبة الحرب .

وأما قوله : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ فقد اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها والأقرب أنه من كلامها ، وأنها ذكرته تأكيداً لما وصفته من حال الملوك .

فأما الكلام في صفة الهدية فالناس أكثروا فيها لكن لا ذكر لها في الكتاب وقولها :

﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ فيه دلالة على أنها لم تثق بالقبول وجوزت الرد ، وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان ، ولما وصلت الهدايا إلى سليمان عليه السلام ذكر أمرين : الأول : قوله : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال .

أما قوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ ففيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن الهدية اسم للمهدي ، كما أن العطية اسم للمعطي ، فتضاف إلى المهدي وإلى المهدى إليه ، والمضاف

إليه ههنا هو المهدى إليه ، والمعنى أن الله تعالى آتاني الدين الذي هو السعادة القصوى ، وآتاني من الدنيا ما لا مزيد عليه ، فكيف يستمال مثلي بمثل هذه الهدية ، بل أنتم تفرحون بما يهدى إليكم ، لكن حالي خلاف حالكم وثانيها : بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون من حيث إنكم قدرتم على إهداء مثلها وثالثها : كأنه قال : بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها الثاني : قوله : ﴿ ارجع إِلَيْهِمْ ﴾ فقيل ارجع خطاب للرسول ، وقيل للهدهد محملاً كتاباً آخر .

أما قوله تعالى : ﴿ لاَّ قِبَلَ ﴾ أي لا طاقة ، وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة ، أي لا يقدرون أن يقابلوهم .

(79/578)

وقرأ ابن مسعود : (لا قبل لهم بهم) ، والضمير في (منها) لسبأ ، والذل أن يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك ، والصغار أن يقعوا في أسر واستعباد ، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 168 ﴾

(80/578)

وقال ابن العربى :

قَوْله تعَالَى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : يُرْوَى أَنَّهَا قَالَتْ : إنْ كَانَ نَبِيًّا لَمْ يَقْبَلْ الْهَدِيَّةَ ، وَإِنْ كَانَ مَلِكًا قَبِلَهَا .

وَفِي صِفَةِ النَّبِيِّ أَنَّهُ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ ، وَلَا يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ .

وَكَذَلِكَ كَانَ سُلَيْمَانُ ، وَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ يَقْبَلُونَ الْهَدِيَّةَ .

وَإِنَّمَا جَعَلَتْ بِلْقِيسُ قَبُولَ الْهَدِيَّةِ أَوْ رَدَّهَا عَلَامَةً عَلَى مَا فِي نَفْسِهَا ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهَا فِي كِتَابِهِ : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وَهَذَا لَا تُقْبَلُ فِيهِ فِدْيَةٌ ، وَلَا تُؤْخَذُ عَنْهُ هَدِيَّةٌ .

وَلَيْسَ هَذَا مِنْ الْبَابِ الَّذِي تَقَرَّرَ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ قَبُولِ الْهَدِيَّةِ بِسَبِيلٍ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ رِشْوَةٌ ، وَبَيْعُ الْحَقِّ بِالْمَالِ هُوَ الرِّشْوَةُ الَّتِي لَا تَحِلُّ .

وَأَمَّا الْهَدِيَّةُ الْمُطْلَقَةُ لِلتَّحَبُّبِ وَالتَّوَاصُلِ فَإِنَّهَا جَائِزَةٌ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : وَهَذَا مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ مُشْرِكٍ ؛ فَإِنْ كَانَتْ مِنْ مُشْرِكٍ ، فَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ نُهِيت عَنْ زَبْدِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : ﴿ لَقَدْ هَمَمْت أَلَّا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إلَّا مِنْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ ﴾ .

وَالصَّحِيحُ مَا ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا ﴾ .

وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : ﴿ لَوْ دُعِيت إلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْت ، وَلَوْ أُهْدِيَ إلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْت ﴾ .

(81/578)

وَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ فِي الصَّيْدِ : هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ ؟ قُلْت : نَعَمْ .

فَنَاوَلْته الْعَضُدَ ﴾ .

﴿ وَقَدْ اسْتَسْقَى فِي دَارِ أَنَسٍ فَحُلِبَتْ لَهُ شَاةٌ وَشِيبٌ وَشَرِبَهُ ﴾ .

﴿ وَأَهْدَى أَبُو طَلْحَةَ لَهُ وَرِكَ أَرْنَبٍ وَفَخِذَيْهَا فَقَبِلَهُ ﴾ .

﴿ وَأَهْدَتْ أُمُّ حَفِيدٍ إلَيْهِ أَقِطًا وَسَمْنًا وَضَبًّا ، فَأَكَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْأَقِطِ وَالسَّمْنِ ، وَتَرَكَ الضَّبَّ ﴾ .

وَقَالَ فِي حَدِيثِ بَرِيرَةَ : ﴿ هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ ﴾ .

وَكَانَ النَّاسُ يَتَحَرَّوْنَ بِهَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(82/578)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾

قال ابن عباس أخذوها عنوة ، وأفسدوها ، وخربوها .

ويحتمل وجهاً آخر : أن يكون بالاستيلاء على مساكنها وإجلاء أهلها عنها .

﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أي أشرافهم وعظماءهم أذلة وفيه وجهان

: أحدهما : بالسيف ، قاله زهير .

الثاني : بالاستعباد ، قاله ابن عيسى .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون بأخذ أموالهم وحط أقدارهم .

﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أن هذا من قول الله ، وكذلك يفعل الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، قاله ابن عباس .

الثاني أن هذا حكاية عن قول بلقيس : كذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا ، قاله ابن شجرة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ اختلف فيها على أربعة فيها على أربعة أقاويل :

أحدها : أنها كانت لبنة من ذهب ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها كانت جوهَراً ، قاله ابن جبير .

الثالث : أنها كانت صحائف الذهب في أوعية الديباج ، قاله ثابت البناني .

الرابع : أنها أهدت غلماناً لباسهم لباس الجواري ، وجواري لباسهم لباس الغلمان ، قاله مجاهد ، وعكرمة وابن جبير ، والسدي ، وزهير ، واختلف في عددهم فقال سعيد بن جبير : كانوا ثمانين غلاماً وجارية ، وقال زهير كانوا ثمانين غلاماً وثمانين جارية .

﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال قتادة : يرحمها الله إن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها ، قد علمت أن الهدية تقع موقعها من الناس .

واختلف فيما قصدت بهديتها على قولين :

أحدهما : ما ذكره قتادة من الملاطفة والاستنزال .

الثاني : اختبار نبوته من ملكه ، ومن قال بهذا اختلفوا بماذا اختبرته على قولين :

أحدهما : أنها اختبرته بالقبول والرد ، فقالت : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه على ملككم وإن لم يقبل الهدية فهو نبي لا طاقة لكم بقتاله ، قاله ابن عباس وزهير .

(83/578)

الثاني : أنها اختبرته بتمييز الغلمان من الجواري ، ومن قال بهذا اختلفوا بماذا ميزهم سليمان عل ثلاثة أقوال .

أحدها : أن أمرهم بالوضوء فاغترف الغلام بيده وأفرغت الجارية على يديها فميزهم بهذا ، قاله السدي .

الثاني : لما توضؤوا غسل الغلمان ظهور السواعد قبل بطونها ، وغسل الجواري بطون السواعد قبل ظهورها ، فميزهم بهذا ، قاله قتادة .

الثالث : أنهم لما توضؤوا بدأ الغلام من مرفقه إلى كفه وبدأت الجارية من كفها إلى مرفقها ، فميزهم بهذا ، قاله ابن جبير .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : فلما جاءت هداياها سليمان ، قاله يزيد بن رومان .

الثاني : فلما جاءت رسلها سليمان لأن الهدهد قد كان سبق إلى سليمان فأخبره بالهدية

والرسل فتأهب سليمان لهم .

قال السدي : فأمر الشياطين فموّهوا لَبِن المدينة وحيطانها ذهباً وفضة ، وقيل إنها بعثت مع رسلها بعصاً كان يتوارثها ملوك حمير ، وقالت : أريد أن يعرفني رأس هذه من أسفلها ، وبقدح وقالت : يملؤه ماءً ليس من الأرض ولا من السماء ، وبخرزتين إحداهما ثقبُها معوج وقالت يدخل فيها خيطاً والأخرى غير مثقوبة وقالت يثقب هذه .

﴿ قَالَ ﴾ سليمان للرسل حين وصلوا إليه ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ معناه أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي .

﴿ فَمَا ءَاتَانِ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَاكُم ﴾ أي فما آتاني من النبوة والملك خير مما آتاكم من المال ، فرد عليهم المال وميز الغلمان من الجواري ، وأرسل العصا إلى الأرض فقال أي الرأسين سبق للأرض فهو أصلها ، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها وقال : ليس هذا من الأرض ولا من السماء ، وثقب إحدى الخرزتين وأدخل الخيط في الأخرى ، فقال الرسل ما شاهدوا .

واختلف في الرسل هل كانوا رجالاً أو نساء على قولين .

قوله ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه قال ذلك للرسول ارجع إليهم بما جئت من الهدايا ، قاله قتادة . ويزيد بن رومان .

الثاني : أنه قال ذلك للهدهد [ارجع إليه] ، قائلاً لهم :

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بها ليكون الهدهد نذيراً لهم ، قاله زهير .

وصدق نبي الله سليمان صلى الله عليه لأن من جنوده الإنس والجن والطير فليس لأحدٍ بها طاقة .

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً ﴾ الآية . إخباراً له عما يصنعه بهم ليسعد منهم بالإيمان من هدي وهذه سنة كل نبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(85/578)

وقال ابن عطية :

ثم أخبرت بلقيس عند ذلك بفعل ﴿ الملوك ﴾ بالقرى التي يتغلبون عليها ، وفي الكلام خوف على قومها وحيطة لهم واستعظام لأمر سليمان عليه السلام ، وقالت فرقة إن ﴿

وكذلك يفعلون ﴾ من قول بلقيس تأكيداً منها للمعنى الذي أرادته ، وقال ابن عباس : هو من قول الله تعالى معرفاً لمحمد عليه السلام وأمته ومخبراً به .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) ﴾

روي أن بلقيس قالت لقومها إني أجرب هذا الرجل ﴿ بهدية ﴾ أعطيه فيها نفائس الأموال وأغرب عليه بأمور المملكة ، فإن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال فعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازمنا في أمر الدين فينبغي أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه ﴿ بهدية ﴾ عظيمة أكثر بعض الناس في تفصيلها فرأيت اختصار ذلك لعدم صحته ، واختبرت علمه فيما روي بأن بعثت إليه قدحاً فقالت املأه لي ماء ليس من الأرض ولا من السماء ، وبعثت إليه درة فيها ثقب محلزق وقالت يدخل سلكها دون أن يقربها إنس ولا جان ، وبعثت أخرى غير مثقوبة وقالت يثقب هذه غير الإنس والجن ، فملأ سليمان القدح من عرق الخيل ، وأدخلت السلك دودة . وثقبت الدرة أرضة ماء .

(86/578)

وراجع سليمان مع رد الهدية بما في الآية وعبر عن " المرسلين ب ﴿ جاء ﴾ وبقوله ﴿ ارجع ﴾ لما أراد به الرسول الذي يقع على الجمع والإفراد والتأنيث والتذكير ، وقرأ ابن

مسعود " فلما جاؤوا سليمان " وقرأ " ارجعوا " ، ووعيد سليمان لهم مقترن بدوامهم على كفرهم ، وذكر مجاهد أنها بعثت في هديتها بعدد كثير من العبيد بين غلام وجارية وجعلت زيهم واحداً وجربته في التفريق بينهم .

قال القاضي أبو محمد : وليس هذا بتجربة في مثل هذا الأمر الخطير ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو " أتمدونني " بنونين وياء في الوصل ، وقرأ ابن عامر وعاصم والكسائي " أتمدونن " بغير ياء في وقف ووصل ، وقرأ حمزة " أتمدونّي " بشد النون وإثبات الياء ، وقرأ عاصم " فما آتانِ الله " بكسر النون دون ياء ، وقرأ فرقة " آتاني " بياء ساكنة ، وقرأ أبو عمرو ونافع " آتانيَ " بياء مفتوحة ، ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج أذلاء والمعنى إن لم يسلموا ، وقرأ عبد الله " لا قبل لهم بهم " على جمع ضمير الجنود . و ﴿ لا قبل ﴾ معناه لا طاقة ولا مقاومة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(87/578)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قالت إِن الملوك إِذا دخلوا قرية ﴾

قال الزجاج : المعنى : إِذا دخلوها عَنْوة عن قتال وغَلَبة .

قوله تعالى : ﴿ أفسَدوها ﴾ أي : خرّبوها ﴿ وجعلوا أعِزّةَ أهلها أذلّة ﴾ أي : أهانوا أشرافها ليستقيم لهم الأمر .

ومعنى الكلام : أنها حذّرتْهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادها .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك يَفْعَلون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه من تصديق الله تعالى ، لقولها ، قاله الزجاج .

والثاني : من تمام كلامها ؛ والمعنى : وكذلك يفعل سليمان وأصحابه إذا دخلوا بلادنا ، حكاه الماوردي .

(88/578)

قوله تعالى : ﴿ وإنّي مُرْسِلة إليهم بهديّة ﴾ قال ابن عباس : إنما أرسَلَت الهديّة لتعلم أنه إن كان نبيّاً لم يُرِد الدُّنيا ، وإن كان مَلِكاً فسيرضى بالحَمْل ، وأنها بعثت ثلاث لَبِنات مِنْ ذهب في كل لَبِنة مائة رطل ؛ ويا قوتةً حمراء طولها شِبر مثقوبة ، وثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة ، وألبستْهم لباساً واحداً حتى لا يُعرف الذكر من الأنثى ، ثم كتبتْ إليه : إنّي قد بعثتُ إليكَ بهديّة فاقبلها ، وبعثتُ إليكَ بيا قوتة طولها شبر ، فأدخل فيها خيطاً واختِم على طرفي الخيط بخاتَمك ، وقد بعثت إليك ثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة ، فميّز بين

الجواري والغِلمان ؛ فجاء أمير الشياطين فأخبره بما بعثتْ إليه ، فقال له : انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسي ثمانية أميال في ثمانية أميال [لَبِناً] من الذهب ؛ فانطلق ، فبعث الشياطين ، فقطعوا اللَّبِن من الجبال وطلَوه بالذهب وفرشوه ، ونصبوا في الطريق أساطين الياقوت الأحمر ، فلمّا جاء الرُّسُل ، قال بعضهم لبعض : كيف تدخُلون على هذا الرجل بثلاث لَبِنات ، وعنده ما رأيتم ؟ ! فقال رئيسهم : إنما نحن رُسُل ، فدخلوا عليه ، فوضعوا اللَّبِن بين يديه ، فقال : أتُمِدُّنني بمال ؟ ثم دعا ذَرَّةً فربط فيها خيطاً وأدخلها في ثَقْب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر ، ثم جمع بين طرفي الخيط فختم عليه ودفعها إليهم ، ثم ميَّز بين الغِلمان والجواري ، هذا كلُّه مرويّ عن ابن عباس .

وقال مجاهد : جعلت لباس الغِلمان للجواري ولباس الجواري للغلمان ، فميَّزهم ولم يقبل هديَّتها .

وفي عدد الوصائف والوُصفاء خمسة أقوال .

أحدها : ثلاثون وصيفاً وثلاثون وصيفة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس .

والثاني : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية ، قاله وهب .

والثالث : مائتا غلام ومائتا جارية ، قاله مجاهد .

والرابع : عشرة غلمان وعشر جوارٍ ، قاله ابن السائب .

والخامس : مائة وصيف ومائة وصيفة ، قاله مقاتل .

وفي ما ميَّزهم به ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أمرهم بالوضوء ، فبدأ الغلام من مرفقه إلى كفّه ، وبدأت الجارية من كفّها إلى مرفقها ، فميَّزهم بذلك ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : أن الغِلمان بدؤوا بغَسْل ظُهور السَّواعد قبل بُطونها ، والجواري على عكس ذلك ، قاله قتادة .

والثالث : أن الغلام اغترف بيده ، والجارية أفرغت على يدها ، قاله السدي .

وجاء في التفسير : أنها أمرت الجواري أن يكلّمن سليمان بكلام الرجال ، وأمرت الرجال أن يكلّموه كلام النساء ، وأرسلت قَدَحاً تسأله أن يملأها ماءً ليس من [ماء] السماء ولا من ماء الأرض ، فأجرى الخيل وملأه من عرقها .

قوله تعالى : ﴿ فناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلون ﴾ أي : بقَبُول أم بِردّ .

قال ابن جرير : وأصل "بِمَ" : بما ، وإنما أُسقطت الألف لأن العرب إذا كانت "ما" بمعنى "أيّ" ثم وصلوها بحرف خافض ، أسقطوا ألفها ، تفريقاً بين الاستفهام والخبر ، كقوله تعالى : ﴿ عَمَّ يتساءلون ﴾ ؟ [النبأ : 1] و ﴿ قالوا فيم كنتم ﴾ ؟ [النساء : 97] ،

وربما أثبتوا فيها الألف كما قال الشاعر :

عَلَى مَا قام يَشْتُمُنا لَئِيمٌ . . .

كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ ؟

قوله تعالى : ﴿ فلما جاء سليمانَ ﴾

قال الزجاج : لما جاء رسُولها ، ويجوز : فلمَّا جاء بِرُّها .

قوله تعالى : ﴿ أَتُمِدُّونَنِي بمال ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿ أَتُمِدُّونَنِي ﴾ بنونين وياء في الوصل .

وروى المسيِّبي عن نافع : ﴿ أَتُمِدُّونِي ﴾ بنون واحدة خفيفة وياء في الوصل والوقف .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، والكسائي : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف .

وقرأ حمزة : ﴿ أَتُمِدُّونِّي بمال ﴾ بنون واحدة مشددة ووقف على الياء .

قوله تعالى : ﴿ فما آتانيَ اللّهُ ﴾ قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ فما آتانِ اللّهُ ﴾ بكسر النون من غير ياء .

(90/578)

وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وحفص عن عاصم : ﴿ آتانيَ ﴾ بفتح الياء .

وكلُّهم فتحوا التاء غير الكسائي ، فإنه أمالها من ﴿ آتاني اللّهُ ﴾ وأمال حمزة : ﴿ أنا آتيكَ به ﴾ أشمَّ النون شيئاً من الكسر ، والمعنى : فما آتاني الله ، أي : من النبوَّة والملك ﴿ خيرٌ مما آتاكم ﴾ من المال ﴿ بل أنتم بهديَّتكم تَفْرَحون ﴾ يعني إذا أهدى بعضكم إلى بعض فرح ، فأمّا أنا فلا ، ثم قال للرسول : ﴿ إرجع إليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قِبَلَ ﴾ أي : لا طاقة ﴿ لهم بها ولنُخرِجَنَّهم منها ﴾ يعني بلدتهم .

فلمّا رجعتْ رسلُها إليها بالخبر ، قالت : قد علمتُ أنَّه ليس بمِلك وما لنا به طاقة ، فبعثتْ إليه ، إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما تدعو إليه ، ثم أمرت بعرشها فجُعل وراء سبعة أبواب ، ووكَّلتْ به حرساً يحفظونه ، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف مِلك ، تحت يدي كل مِلك منهم ألوف ، وكان سليمان مَهيباً لا يُبتَدأ بشيء حتى يسأل عنه ، فجلس يوماً على سرير ملكه فرأى رهجاً قريباً منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : بلقيس قد نزلت بهذا المكان ، وكان قدر فرسخ ، وقد كان بلغه أنها احتاطت على عرشها قبل خروجها ف ﴿ قال يا أيُّها الملأُ أيُّكم يأتيني بعرشها ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(91/578)

وقال القرطبى :

﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾

قيل : هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادته .

وقال ابن عباس : هو من قول الله عز وجل معرِّفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته بذلك ومخبراً به .

وقال وهب : لما قرأت عليهم الكتاب لم تعرف اسم الله ، فقالت : ما هذا ؟! فقال بعض القوم : ما نظن هذا إلا عفريتاً عظيماً من الجن يقتدر به هذا الملك على ما يريده ؛ فسكَّتوه .

وقال الآخر : أراهم ثلاثة من العفاريت ؛ فسكَّتوه ؛ فقال شاب قد علم : يا سيدة الملوك ! إن سليمان مِلك قد أعطاه مَلِكُ السماء مُلْكاً عظيماً فهو لا يتكلم بكلمة إلا بدأ فيها بتسمية إلهه ، والله اسم مليك السماء ، والرحمن الرحيم نعوته ؛ فعندها قالت : ﴿ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ فقالوا : ﴿ نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ ﴾ في القتال ﴿ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ (قوة) في الحرب واللقاء ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ ردّوا أمرهم إليها لما جربوا على رأيها من البركة ﴿ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ف ﴿ قَالَتْ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور ، فصدق الله قولها .

﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن الأنباري : ﴿ وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ هذا وقف تام ؛

فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ وشبيه به في سورة "الأعراف" ﴿ قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ ثم الكلام ، فقال فرعون : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ .

وقال ابن شجرة : هو قول بلقيس ، فالوقف ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أي وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا .

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

فيه ست مسائل :

(92/578)

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها ؛ أي إني أجرب هذا الرجل بهدية ، وأعطيه فيها نفائس من الأموال ، وأغرب عليه بأمور المملكة : فإن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازَمَنا في أمر الدِّين ، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه ، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها ، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أرسلت إليه بلَبِنة من ذهب ، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغُر عندهم ما جاؤوا به .

وقال مجاهد : أرسلت إليه بمائتي غلام ومائتي جارية .

وروي عن ابن عباس : باثنتي عشرة وصيفة مذكَّرين قد ألبستهم زيّ الغلمان ، واثني عشر غلاماً مؤنثين قد ألبستهم زيّ النساء ، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر ، وباثنتي عشرة نجيبة تحمل لَبِن الذّهب ، وبخرزتين إحداهما غير مثقوبة ، والأخرى مثقوبة ثَقْباً معوجاً ، وبقدح لا شيء فيه ، وبعصا كان يتوارثها ملوك حِميَر ، وأنفذت الهدية مع جماعة من قومها .

وقيل : كان الرسول واحداً ولكن كان في صحبته أتباع وخدم .

وقيل : أرسلت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو ، وضمت إليه رجالاً ذوي رأي وعقل ، والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة ، قد خولف بينهم في اللباس ، وقالت للغلمان : إذا كلَّمكم سليمان فكلِّموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء ، وقالت للجواري : كلِّمنه بكلام فيه غِلظ يشبه كلام الرجال ؛ فيقال : إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله .

(93/578)

وقيل : إن الله أخبر سليمان بذلك ، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة ، ثم قال : أيّ الدواب رأيتم أحسن في البر والبحر ؟ قالوا : يا نبيّ الله رأينا في بحر كذا دواب مُنقَّطة مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواصي ؛ فأمر بها فجاءت فشدّت على يمين الميدان وعلى يساره ، وعلى لبِنات الذهب والفضة ، وألقوا لها علوفاتها ؛ ثم قال : للجن عليّ بأولادكم ؛ فأقامهم أحسن ما يكون من الشباب عن يمين الميدان ويساره .

ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه في مجلسه ، ووضع له أربعة آلاف كرسيّ من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء ، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفاً فراسخ ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى مُلك سليمان ، ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم أحسن منها تَروث على لبِنات الذهب والفضة ، تقاصرت إليهم أنفسهم ، ورموا ما معهم من الهدايا .

وفي بعض الروايات : إن سليمان لما أمرهم بفرش الميدان بلبِنَات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش ، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان ، فلما رأوا الشياطين رأوا منظراً هائلاً فظيعاً ففزعوا وخافوا ، فقالت لهم الشياطين : جُوزُوا لا بأس عليكم ؛ فكانوا يمرون

على كُرْدُوس كُرْدُوس من الجنّ والإنس والبهائم والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان ، فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طَلْق ، وكانت قالت لرسولها : إن نظر إليك نظر مغضَب فاعلم أنه مِلك فلا يهولنّك منظره فأنا أعز منه ، وإن رأيت الرجل بشّاً لطيفاً فاعلم أنه نبيّ مرسل فتفهم قوله وردّ الجواب ، فأخبر الهدهد سليمان بذلك على ما تقدّم .

(94/578)

وكانت عمدت إلى حُقَّة من ذهب فجعلت فيها درّة يتيمة غير مثقوبة ، وخرزة معوجة الثَّقْب ، وكتبت كتاباً مع رسولها تقول فيه : إن كنت نبيًّا فميّز بين الوصفاء والوصائف ، وأخبر بما في الحُقَّة ، وعرفني رأس العصا من أسفلها ، واثقب الدرّة ثَقْباً مستوياً ، وأدخل خيط الخرزة ، واملأ القدح ماء من ندى ليس من الأرض ولا من السماء ؛ فلما وصل الرسول ووقف بين يدي سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه ، وقال : أين الحُقَّة ؟ فأتى بها فحركها ، فأخبره جبريل بما فيها ، ثم أخبرهم سليمان .

فقال له الرسول : صدقت ؛ فاثقب الدرّة ، وأدخل الخيط في الخَرَزة ؛ فسأل سليمان الجن والإنس عن ثَقْبها فعجزوا ؛ فقال للشياطين : ما الرأي فيها ؟ فقالوا : ترسل إلى الأَرَضة ،

فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها حتى خرجت من الجانب الآخر ؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تصيِّر رزقي في الشجر ؛ فقال لها : لكِ ذلك .

ثم قال سليمان : من لهذه الخَرَزة يسلكها الخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبيّ الله ؛ فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثَّقْب حتى خرجت من الجانب الآخر ؛ فقال لها سليمان : ما حاجتك ؟ قالت : تجعل رزقي في الفواكه ؛ قال : ذلك لكِ .

ثم ميز بين الغلمان والجواري .

قال السديّ : أمرهم بالوضوء ، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حَدْراً ، وجعل الجواري يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى ، ومن اليمنى على اليسرى ، فميّز بينهم بهذا .

وقيل : كانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ، ثم تحملها على الأخرى ، ثم تضرب به على الوجه ؛ والغلام كان يأخذ الماء من الآنية يضرب به في الوجه ، والجارية تصب على بطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، والجارية تصب الماء صباً ، والغلام يحدر على يديه ؛ فميز بينهم بهذا .

(95/578)

وروى يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير قال : أرسلت بلقيس بمائتي وصيفة ووصيف ، وقالت : إن كان نبياً فسيعلم الذكور من الإناث ؛ فأمرهم فتوضؤوا ؛ فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفّه قال هو من الإناث ، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور ؛ ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال : أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها ، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها ، ثم رد سليمان الهدية ؛ فروي أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد ؛ قالت لقومها : هذا أمر من السماء .

الثانية : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثبت عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردّها علامة على ما في نفسها ؛ على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً ؛ لأنه قال لها في كتابه : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية ، وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل ، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل ، وهي الرشوة التي لا تحل .

وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال ، وهذا ما لم يكن من مشرك .

الثالثة : فإن كانت من مشرك ففي الحديث : " نُهِيت عن زَبْد المشركين " يعني رِفدهم وعطاياهم .

وروي عنه عليه السلام أنه قبلها كما في حديث مالك عن ثور بن زيد الدِّيليّ وغيره ، فقال جماعة من العلماء بالنسخ فيهما ، وقال آخرون ؛ ليس فيها ناسخ ولا منسوخ ، والمعنى فيها : أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله في الإسلام ، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام ، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملاً على الكفّ عنه ؛ وهذا أحسن تأويل للعلماء في هذا ؛ فإنه جمع بين الأحاديث .

وقيل غير هذا .

(96/578)

الرابعة : الهدية مندوب إليها ، وهي مما تورث المودة وتذهب العداوة ؛ روى مالك عن عطاء بن عبد الله الخراساني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تَصافحوا يَذهب الغِلُّ وتَهادوا تحابُّوا وتذهب الشَّحناء " وروى معاوية بن الحكم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " تهادوا فإنه يضعِّف الودّ ويذهب بغوائل الصَّدر " وقال الدَّارَقُطْنِيّ : تفرد به ابن بُجَير عن أبيه عن مالك ، ولم يكن بالرضىّ ، ولا يصح عن مالك ولا عن الزهري .

وعن ابن شهاب قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تهادوا بينكم فإن

الهدية تُذهب السَّخِيمة " قال ابن وهب : سألت يونس عن السَّخِيمة ما هي فقال : الغل .

وهذا الحديث وصله الوقّاصي عثمان عن الزهري وهو ضعيف .

وعلى الجملة : فقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ، وفيه الأسوة الحسنة .

ومن فضَّل الهدية مع اتباع السنة أنها تزيل حزازات النفوس ، وتكسب المهدي والمهدَى إليه رنّة في اللقاء والجلوس .

ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض . . .

تُولِّد في قلوبهمُ الوِصَالاَ

وتزرعُ في الضمير هَوًى ووُدًّا . . .

وتُكسبهمْ إذا حضروا جَمالاَ

آخر :

إنّ الهدايا لها حظٌّ إذا وَرَدتْ . . .

أحظى من الابن عند الوالد الحدب

الخامسة : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " جلساؤكم شركاؤكم في الهدية "

واختلف في معناه ؛ فقيل : هو محمول على ظاهره .

وقيل : يشاركهم على وجه الكرم والمروءة ، فإن لم يفعل فلا يجبر عليه .

وقال أبو يوسف : ذلك في الفواكه ونحوها .

وقال بعضهم : هم شركاؤه في السرور لا في الهدية .

والخبر محمول في أمثال أصحاب الصُّفَّة والخوانق والرّباطات ؛ أما إذا كان فقيهاً من الفقهاء اختص بها فلا شركة فيها لأصحابه ، فإن أشركهم فذلك كرم وجود منه .

(97/578)

السادسة : قوله تعالى : ﴿ فَنَاظِرَةٌ ﴾ أي منتظرة ﴿ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ قال قتادة : يرحمها الله أن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها ؛ قد علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس .

وسقطت الألف في ﴿ بِم ﴾ للفرق بين "ما" الخبرية .

وقد يجوز إثباتها ؛ قال :

على ما قام يشتمني لئيم . . .

كخنزير تمرَّغ في رمادِ

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ﴾

أي جاء الرسول سليمان بالهدية قال : ﴿ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ﴾ .

قرأ حمزة ويعقوب والأعمش : بنون واحدة مشدّدة وياء ثابتة بعدها .

الباقون بنونين وهو اختيار أبي عبيد ؛ لأنها في كل المصاحف بنونين .

وقد روى إسحاق عن نافع أنه كان يقرأ : ﴿ أَتُمِدُّونِ ﴾ بنون واحدة مخففة بعدها ياء في اللفظ .

قال ابن الأنباري : فهذه القراءة يجب فيها إثبات الياء عند الوقف ، ليصح لها موافقة هجاء المصحف .

والأصل في النون التشديد ، فخفف التشديد من ذا الموضع كما خفف من : أشهد أنك عالم ؛ وأصله : أنك عالم .

وعلى هذا المعنى بنى الذي قرأ : ﴿ يُشَاقُّونِ فِيهِم ﴾ [النحل : 26] ، ﴿ أَتُحَاجُّونِ فِي اللَّهِ ﴾ [الأنعام : 80] .

وقد قالت العرب : الرجال يضربونِ ويقصدونِ ، وأصله يضربونّي ويقصدونّي : لأنه إدغام يضربونني ويقصدونني قال الشاعر :

تَرْهبينِ والجيدُ منكِ لِلَيْلَى . . .

والحَشَاء والبُغَامُ والعينَانِ

والأصل ترهبيني فخفف .

ومعنى ﴿ أَتُمِدُّونَنِي ﴾ أتزيدونني مالاً إلى ما تشاهدونه من أموالي .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا آتَانِي اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ﴾ أي فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوّة خير مما أعطاكم ، فلا أفرح بالمال .

و"آتَانِ" وقعت في كل المصاحف بغير ياء .

وقرأ أبو عمرو ونافع وحفص : ﴿ آتَانِيَ اللَّهُ ﴾ بياء مفتوحة ؛ فإذا وقفوا حذفوا .

وأما يعقوب فإنه يثبتها في الوقف ويحذف في الوصل لالتقاء الساكنين .

الباقون بغير ياء في الحالين .

(98/578)

﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ ارجع إِلَيْهِمْ ﴾ أي قال سليمان للمنذر بن عمرو أمير الوفد ؛ ارجع إليهم بهديتهم .

﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لام القسم والنون لها لازمة .

قال النحاس : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : هي لام توكيد وكذا كان عنده أن اللامات كلها ثلاث لا غير ؛ لام توكيد ، ولام أمر ، ولام خفض ؛ وهذا قول الحذاق من النحويين ؛ لأنهم يردّون الشيء إلى أصله : وهذا لا يتهيأ إلا لمن درب في العربية .

ومعنى ﴿ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم عليها .

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ ﴾ أي من أرضهم ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

وقيل : ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من قرية سبأ .

وقد سبق ذكر القرية في قوله : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ .

﴿ أَذِلَّةً ﴾ قد سُلبوا ملكهم وعزّهم .

﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أي مهانون أذلاء من الصّغر وهو الذل إن لم يسلموا ؛ فرجع إليها رسولها فأخبرها ؛ فقالت : قد عرفت أنه ليس بملك ولا طاقة لنا بقتال نبيّ من أنبياء الله .

ثم أمرت بعرشها فجعل في سبعة أبيات بعضها في جوف بعض ؛ في آخر قصر من سبعة قصور ؛ وغلقت الأبواب ، وجعلت الحرس عليه ، وتوجهت إليه في اثني عشر ألف قَيْل من ملوك اليمن ، تحت كل قَيْل مائة ألف .

قال ابن عباس : وكان سليمان مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه ؛ فنظر ذات يوم رَهجاً قريباً منه ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : بلقيس يا نبيّ الله .

فقال سليمان لجنوده وقال وهب وغيره : للجن ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(99/578)

وقال أبو حيان :

ولما وصل إليها كتاب سليمان ، لا على يد رجل بل على طائر ، استعظمت ملك سليمان ، وعلمت أن من سخر له الطير حتى يرسله بأمر خاص إلى شخص خاص مغلق عليه الأبواب ، غير ممتنع عليه تدويخ الأرض وملوكها ، فأخبرت بحال الملوك ومالت إلى المهاداة والصلح فقالت : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية ﴾ : أي تغلبوا عليها ، ﴿ أفسدوها ﴾ : أي خربوها بالهدم والحرق والقطع ، وأذلوا أعزة أهلها بالقتل والنهب والأسر ، وقولها فيه تزييف لآرائهم في الحرب ، وخوف عليهم وحياطة لهم ، واستعظام لملك سليمان .

والظاهر أن ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ هو من قولها ، أي عادة الملوك المستمرة تلك من الإفساد والتذليل ، وكانت ناشئة في بيت الملك ، فرأت ذلك وسمعت .

ذكرت ذلك تأكيداً لما ذكرت من حال الملوك .

وقيل : هو من كلام الله إعلاماً لرسوله (صلى الله عليه وسلم) وأمته ، وتصديقاً لإخبارها عن الملوك إذا تغلبوا .

ولما كانت عادة الملوك قبول الهدايا ، وأن قبولها يدل على الرضا والإلفة ، قالت : ﴿ وإني مرسلة إليهم ﴾ ، أي إلى سليمان ومن معه ، رسلاً ﴿ بهدية ﴾ ، وجاء لفظ الهدية مبهماً .

وقد ذكروا في تعيينها أقوالاً مضطربة متعارضة ، وذكروا من حيلها ومن حال سليمان حين وصلت إليه الهدية ، وكلامه مع رسلها ما الله أعلم به .

و﴿ فناظرة ﴾ معطوف على ﴿ مرسلة ﴾ .

و﴿ بم ﴾ متعلق بيرجع .

ووقع للحوفي أن الباء متعلقة بناظرة ، وهو وهم فاحش ، والنظر هنا معلق أيضاً .

والجملة في موضع مفعول به ، وفيه دلالة على أنها لم تثق بقبول الهدية ، بل جوزت الرد ، وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان .

والهدية : اسم لما يهدى ، كالعطية هي اسم لما يعطى .

(100/578)

وروي أنها قالت لقومها : إن كان ملكاً دنياوياً ، أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك ، وإن كان نبياً ، لم يرضه المال وينبغي أن نتبعه على دينه ، وفي الكلام حذف تقديره : فأرسلت الهدية ، فلما جاء ، أي الرسول سليمان ، والمراد بالرسول الجنس لا حقيقة المفرد ، وكذلك الضمير في ارجع والرسول يقع على الجمع والمفرد والمذكر والمؤنث .

وقرأ عبد الله : فلما جاءوا ، وقرأ : ارجعوا ، جعله عائداً على قوله : ﴿ المرسلون ﴾ .

و﴿ أتمدونني بمال ﴾ : استفهام إنكار واستقلال ، وفي ذلك دلالة على عزوفه عن الدنيا ، وعدم تعلق قلبه عليه الصلاة والسلام بها .

ثم ذكر نعمة الله عليه ، وإن ما آتاه الله من النبوة وسعة الملك خير مما آتاكم ، بل أنتم بما يهدى إليكم تفرحون بحبكم الدنيا ، والهدية تصح إضافتها إلى المهدي وإلى المهدى إليه ، وهي هنا مضافة للمهدى إليه ، وهذا هو الظاهر .

ويجوز أن تكون مضافة إلى المهدي ، أي بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك ، فإنكم قدرتم على إهداء مثلها .

ويجوز أن تكون عبارة عن الرد ، كأنه قال : بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها .

وقرأ جمهور السبعة : أتمدونني ، بنونين ، وأثبت بعض الياء .

وقرأ حمزة : بإدغام نون الرفع في نون الوقاية وإثبات ياء المتكلم .

وقرأ المسيبي ، عن نافع : بنون واحدة خفيفة .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما الفرق بين قولك : أتمدونني بمال وأنا أغني منكم ، وبين أن يقوله بالفاء ؟ قلت : إذا قلته بالواو ، فقد جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى ، وهو مع ذلك يمدني بالمال ، وإذا قلته بالفاء ، فقد جعلته ممن خفيت عنه حالي ، وأنا أخبره

الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده ، كأني أقول له : أنكر عليك ما فعلت ، فإني غني عنه .

وعليه ورد قوله : ﴿ فما آتاني الله ﴾ .

(101/578)

فإن قلت : فما وجه الإضراب ؟ قلت : لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره ، أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه ، وهو أنهم لا يعرفون سبب رضاً ولا فرح إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها . انتهى .

﴿ ارجع إليهم ﴾ : هو خطاب للرسول الذي جاء بالهدية ، وهو المنذر بن عمرو أمير الوفد ، والمعنى : ارجع إليهم بهديتهم ، وتقدمت قراءة عبد الله : ارجعوا إليهم ، وارجعوا هنا لا تتعدى ، أي انقلبوا وانصرفوا إليهم .

وقيل : الخطاب بقوله : ارجع ، للهدهد محملاً كتاباً آخر .

ثم أقسم سليمان فقال : ﴿ فلنأتينهم بجنود ﴾ ، متوعداً لهم ، وفيه حذف ، أي إن لم يأتوني مسلمين .

ودل هذا التوعد على أنهم كانوا كفاراً باقين على الكفر إذ ذاك .

والضمير في ﴿ بها ﴾ عائد على الجنود ، وهو جمع تكسير ، فيجوز أن يعود الضمير عليه

، كما يعود على الواحدة ، كما قالت العرب : الرجال وأعضادها .

وقرأ عبد الله : بهم .

ومعنى ﴿ لا قبل ﴾ : لا طاقة ، وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة ، أي لا تقدرون أن تقابلوهم .

والضمير في منها عائد على سبأ ، وهي أرض بلقيس وقومها .

وانتصب ﴿ أذلة ﴾ على الحال .

﴿ وهم صاغرون ﴾ : حال أخرى .

والذل : ذهاب ما كانوا فيه من العز ، والصغار : وقوعهم في أسر واستعباد ، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكاً .

وفي مجيء هاتين الحالتين دليل على جواز أن يقضي العامل حالين الذي حال واحد ، وهي مسألة خلاف ، ويمكن أن يقال : إن الثانية هنا جاءت توكيداً لقوله : ﴿ أذلة ﴾ ، فكأنهما حال واحدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(102/578)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ﴾ .

من القُرى على منهاجِ المقاتلةِ والحرابِ ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ بتخريبِ عماراتِها وإتلافِ ما فيها من الأموالِ ﴿ وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ بالقتلِ والأسرِ والإجلاءِ وغيرِ ذلك من فُنونِ الإهانةِ والإذلالِ ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ تأكيدٌ لما وصفتْ من حالِهم بطريقِ الاعتراضِ التذييليِّ وتقريرٌ له بأنَّ ذلك عادتُهم المستمرةُ . وقيل تصديقٌ لها من جهةِ الله تعالى على طريقةِ قولِه تعالى : ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ إثرَ قولِه : ﴿ لَنَفِدَ البحر قَبْلَ أَن تَنفَدَ كلمات رَبِّى ﴾ ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ تقريرٌ لرأيها بعدَ ما زيفتْ آراءَهم وأتتْ بالجملةِ الاسميةِ الدالَّةِ على الثباتِ المصدرةِ بحرفِ التحقيق للإيذانِ بأنَّها مزمعةٌ على رأيها لا يَلْويها عنه صارفٌ ولا يَثْنيها عاطفٌ أيْ وإنِّي مرسلةٌ إليهم رُسُلاً بهديةٍ عظيمة ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ حتَّى أعملَ بما يقتضيهِ الحالُ . رُوي أنَّها بعثت خمسمائةِ غلامٍ عليهم ثيابُ الجَوَاري وحليُّهن الأساورُ والأطواقُ والقِرَطةُ راكبي خيلٍ مغشَّاةٍ بالديباجِ محلاَّةِ اللُّجمِ والسُّروجِ بالذهبِ المُرَّصعِ بالجواهرِ وخمسمائةِ جاريةٍ على رِماكٍ في زيِّ الغلمانِ وألفَ لبنةٍ من ذهبٍ وفضةٍ وتاجاً مكللاً بالدرِّ والياقوتِ المرتفعِ والمسكِ والعنبرِ وحُقَّاً فيه درةٌ عذراءُ وجزعة معوجة الثقبِ وبعثتْ رجلاً من أشرافِ قومِها المنذرَ بنَ عمروٍ وآخرَ ذا رأيٍ وعقلٍ . وقالتْ : إنْ كانَ نبياً ميَّز بين الغلمانِ والجواري وثقبَ الدرةَ

ثقباً مستوياً وسلك في الخرزةِ خيطاً ، ثمَّ قالتْ للمنذرِ إنْ نظرَ إليكَ نظرَ غضبانَ فهو ملكٌ فلا يَهُولنَّك ، وإنْ رأيتَه بشّاً لطيفاً فهو نبيٌّ .

(103/578)

فأقبلَ الهدهدُ فأخبرَ سليمانَ عليه السَّلامُ بذلك فأمرَ الجنَّ فضربُوا لبِنَ الذهبِ والفضَّةِ وفرشُوه في ميدانٍ بين يديه طولُه سبعةُ فراسخ وجعلُوا حولَ الميدانِ حائطاً شرفاتُه من الذَّهبِ والفِضَّةِ وأمرَ بأحسنِ الدَّوابِّ في البرِّ والبحرِ فربطُوها عن يمينِ الميدانِ ويسارِه على اللبن وأمرَ بأولادِ الجنِّ وهم خلقٌ كثيرٌ فأُقيمُوا على اليمينِ واليسارِ ثم قعدَ على سريرِه والكراسيُّ من جانبيه واصطفتِ الشياطينُ صفوفاً فراسخَ ، والإنسُ صفوفاً فراسخَ ، والوحشُ والسباعُ والطيورُ والهوامُّ كذلك فلما دنا القومُ ونظرُوا بُهتوا ورأَوا الدوابَّ تروثُ على اللبنِ فتقاصرتْ إليهم نفوسُهم ورمَوا بما معهم ولما وقفُوا بين يديه نظرَ إليهم بوجهٍ طَلْقٍ وقال : ما وراءكم وقال : أينَ الحُقُّ وأخبرَهُ جبريلُ عليهما السَّلامُ بما فيه فقالَ لهم إنَّ فيه كذا وكذا ثم أمرَ بالأَرَضةِ فأخذتْ شعرةً ونفذتْ في الدُّرة فجعلَ رزقَها في الشَّجرةِ وأخذتْ دودةٌ بيضاءُ الخيطَ بفيها ونفذتْ في الجَزَعةِ فجعلَ رزقَها في الفواكه ودعا بالماءِ فكانتِ

الجاريةُ تأخذُ الماء بيدِها فتجعلُه في الأُخرى ثم تضربُ به وجهَها والغلامُ كما يأخذُه يضربُ به وجهه ثمَّ ردَّ الهدية.

(104/578)

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ ﴾ أي الرَّسولُ ﴿ قَالَ ﴾ أي مخاطباً للرَّسولِ والمُرْسِلِ، تغليباً للحاضرِ على الغائبِ، وقيل: للرَّسولِ ومن مَعه ويؤيدُه أنَّه قُرِىء فلمَّا جاءُوا والأولُ أَولى لما فيه من تشديدِ الإنكارِ والتَّوبيخِ وتعميمهُما لبلقيسَ وقومِها ويؤيدُه الإفرادُ في قولِه تعالى ارجعْ إليهم: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ وهو إنكارٌ لإمدادِهم إيَّاه عليه الصَّلاة والسَّلام بالمالِ مع عُلوِّ شأنِه وسعَةِ سُلطانِه، وتوبيخٌ لهم بذلكَ، وتنكيرُ مالٍ للتحقيرِ. وقولُه تعالى: ﴿ فَمَا ءاتانى الله ﴾ أيْ ممَّا رأيتُم آثارَه من النُّبوةِ والمُلكِ الذي لا غايةَ وراءَهُ ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا ءاتاكم ﴾ أي من المالِ الذي مِنْ جُملتِه ما جئتُم به فلا حاجةَ لي إلى هديَّتِكم ولا وقعَ لها عندي تعليلاً للإنكارِ، ولعلَّه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما قال لهم هذه المقالةَ إلى آخرِها بعد ما جَرى بينَهُ وبينهم ما حكي من قصة الحُقِّ وغيرها كما أشير إليه لا أنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خاطبَهم بها أولَ ما جاءوه كما يُفهم من ظاهرِ قولِه تعالى فلمَّا جاءَ الخ وقُرِىء أتُمدُّونِّي بالإدغامِ وبنونٍ واحدةٍ وبنونين وحذفِ الياءِ. وقولُه تعالى: ﴿ بَلْ أَنتُمْ

بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ إضرابٌ عمَّا ذكر من إنكارِ الإمدادِ بالمالِ إلى التَّوبيخِ بفرحِهم بهديتهم التي أهدَوها إليه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فرحَ افتخارٍ وامتنانٍ واعتدادٍ بها كما ينبىء عنه ما ذُكر من حديثِ الحقِّ والجَزَعةِ وتغييرِ زيِّ الغِلمانِ والجواري وغيرِ ذلك . وفائدةُ الإضرابِ التَّنبيهُ على أنَّ إمدادَهُ عليه الصَّلاة والسَّلام بالمالِ منكرٌ قبيحٌ ، وعدُّ ذلكَ مع أنَّه لا قدرَ له عنده عليه الصَّلاةُ والسَّلام مما يتنافسُ فيه المتنافسون أقبحُ والتَّوبيخُ به أدخلُ . وقيلَ المضافُ إليهِ المُهدى إليهِ والمعنى بل

(105/578)

أنتمُ بما يهدى إليكم تفرحونَ حُبًّا لزيادةِ المالِ لما أنَّكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياةِ الدُّنيا . ﴿ ارْجِعْ ﴾ أفردَ الضميرَ هَهُنا بعد جمعِ الضمائرِ الخمسةِ فيما سبقَ لاختصاصِ الرجوعِ بالرَّسولِ ، وعمومِ الإمدادِ ونحوِه للكلِّ أي ارجعْ أيُّها الرَّسُولُ ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى بلقيسَ وقومِها ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم ﴾ أي فواللهِ لنأتينَّهم ﴿ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي لا طاقةَ لهمُ بمقاومتِها ولا قدرةَ لهم على مقابلتِها . وقُرىء بهم ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم ﴾ عطفٌ على جوابِ القسمِ ﴿ مِنْهَا ﴾ من سبأٍ ﴿ أَذِلَّةً ﴾ أي حالَ كونِهم أذلةً بعد ما كانُوا فيه من العزِّ والتمكينِ . وفي جمعِ القِلَّةِ تأكيدٌ لذِلَّتِهم . وقولُه تعالى : ﴿ وَهُمْ صاغرون ﴾ أي أُسارَى

مُهَانون ، حالٌ أُخرى مفيدةٌ لكونِ إخراجِهم بطريقِ الأسرِ لا بطريقِ الإجلاءِ . وعدمُ وقوعِ جوابِ القسمِ لأنَّه كانَ معلَّقاً بشرطٍ قد حُذفَ عندَ الحكايةِ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليه كأنَّه قيلَ ارجعْ إليهم فليأتُوا مسلمينَ وإلا فلنأتينَّهم الخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(106/578)

وقال الآلوسى :

فلما أحست منهم الميل إلى الحرب والعدول عن السنن الصواب شرعت في تزييف مقالتهم المنبئة عن الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام حسبما تعتقده

وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ﴾

من القرى على منهاج المقاتلة والحرب ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ بتخريب عماراتها وإتلاف ما فيها من الأموال .

﴿ وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ بالقتل والأسر والإجلاء وغير ذلك من فنون الإهانة والإذلال ، ولم يقل وأذلوا أعزة أهلها مع أنه أخصر للمبالغة في التصيير والجعل ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ تصديق لها من جهته عز وجل على ما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أو هو

من كلامها جاءت به تأكيداً لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلي وتقرير له بأن ذلك عادتهم المستمرة فالضمير للملوك ، وقيل : هو لسليمان ومن معه فيكون تأسيساً لا تأكيداً .

وتعقب بأن التأكيد لازم على ذلك أيضاً للإندراج تحت الكلية وكأنها أرادت على ما قيل : إن سليمان ملك والملوك هذا شأنهم وغلبتنا عليه غير محققة ولا اعتماد على العدد والعدة والشجاعة والنجدة فربما يغلبنا فيكون ما يكون فالصلح خير ، وقيل : إنها غلب على ظنها غلبته حيث رأت أنه سخر له الطير فجعل يرسله بأمر خاص إلى شخص خاص مغلق عليه الأبواب فأشارت لهم إلى أنه يغلب عليهم إذا قاتلوه فيفسد القرى ويذل الأعزة وأفسدت بذلك رأيهم وما أحسته منهم من الميل إلى مقاتلته عليه السلام وقررت رأيها بقولها :

﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾

حتى أعمل بما يقتضيه الحال ، وهذا ظاهر في أنها لم تثق بقبوله عليه السلام هديتها .

(107/578)

وروى أنها قالت لقومها : إن كان ملكاً دنياوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك وإن كان نبياً لم يرضه المال وينبغي أن نتبعه على دينه ، والهدية اسم لما يهدي كالعطية اسم لما يعطي ، والتنوين فيها للتعظيم ؛ و﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ عطف على ﴿ مُرْسِلَةٌ ﴾ و﴿ بِمَ ﴾ متعلق بيرجع .

ووقع للحوفي أنه متعلق بناظرة وهو وهم فاحش كما في "البحر" ، والنظر معلق والجملة في موضع المفعول به له والجملة الاسمية الدالة على الثبات المصدرة بحرف التحقيق للإيذان بأنها مزمعة على رأيها لا يلويها عنه صارف ولا يثنيها عاطف .

واختلف في هديتها فعن ابن عباس أنها كانت مائة وصيف ومائة وصيفة ، وقال وهب .

(108/578)

وغيره : عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجواري لبس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجواري وجعلت في أيديهم أساور الذهب وفي أعناقهم أطواق الذهب وفي آذانهم أقرطة وشنوفاً مرصعة بأنواع الجواهر وحملت الجواري على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجوهر وعليه أغشية الديباج وبعثت إليه لبنات من ذهب ولبنات من

فضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت وأرسلت بالمسك والعنبر والعود وعمدت إلى حق فجعلت فيه درة عذراء وخرزة جزع معوجة الثقب ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بني عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل وكتبت معه كتاباً تذكر فيه الهدية وقالت فيه : إن كنت نبياً ميز بين الغلمان والجواري وأخبر بما في الحق قبل أن تفتحه ثم قالت للرسول : فإن أخبر فقل له اثقب الدرة ثقباً مستوياً وأدخل في الخرزة خيطاً من غير علاج أنس ولا جن وقالت للغلمان : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنث يشبه كلام النساء وأمرت الجواري أن يكلموه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم قالت للرسول : انظر إلى الرجل إذا دخلت فإن نظر إليك نظراً فيه غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبي فتفهم منه قوله ورد الجواب فانطلق الرجل بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سلمان فأخبره الخبر فأمر عليه السلام الجن أن يضربوا لبنا من الذهب والفضة ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسع فراسخ وأن يفرشوا فيه لبن الذهب والفضة وأن يخلو قدر تلك اللبنات التي معهم وأن يعملوا حول الميدان حائطاً مشرفاً من الذهب والفضة ففعلوا ثم قال : أي دواب البر والبحر أحسن فقالوا : يا نبي الله ما رأينا أحسن من دواب في البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص قال علي بها الساعة فأتوه بها قال : شدوها عن يمين الميدان

وشماله وقال للجن : علي بأولادكم فاجتمع منهم خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان وعلى شماله وأمر الجن .

والإنس .

والشياطين .

والوحوش .

والسباع .

والطير ثم قعد في مجلسه على سريره ووضع أربعة آلاف كرسي على يمينه وعلى شماله

وأمر جميع الإنس .

والجن .

والشياطين .

والوحوش .

والسباع .

والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك

سليمان عليه السلام ورأوا الدواب التي لم يروا مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تصاغرت إليهم أنفسهم وخبؤا ما كان معهم من الهدايا ، وقيل : إنهم لما رأوا ذلك الموضع الخالي من اللبنات خالياً خافوا أن يتهموا بذلك فوضعوا ما معهم من اللبن فيه ولما نظروا إلى الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا فقالت لهم الشياطين : جوزوا لا بأس عليكم وكانوا يمرون على كراديس الجن .

والوحش .

(110/578)

والطير حتى وقفوا بين يدي سليمان فأقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم ملقى حسناً وسألهم عن حالهم فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا فيه وأعطاه الكتاب فنظر فيه وقال : أين الحق فأتى به فحركه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره بما فيه فقال لهم : إن فيه درة غير مثقوبة وجزعة معوجة الثقب قال الرسول : صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الجزعة فقال سليمان عليه السلام من لي بثقبها وسأل الجن والإنس فلم يكن عندهم علم ذلك ثم سأل الجن والإنس فلم يكن عندهم علم ذلك ثم سأل الشياطين فقالوا نرسل إلى الأرضة فلما جاءت أخذت شعرة بفيها ونفذت في الدرة حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها : ما

حاجتك ؟ قالت : تصير رزقي في الشجر فقال : لك ذلك ثم قال : من لهذه الخرزة ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبي الله فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال : ما حاجتك ؟ قالت : يكون رزقي في الفواكه فقال : لك ذلك ثم ميز بين الغلمان والجواري أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها وتضرب بها الأخرى وتغسل وجهها والغلام يأخذ الماء بيديه ويضرب به وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعديها والغلام على ظاهره ثم رد سليمان عليه السلام الهدية كما أخبر الله تعالى ، وقيل : إنها أنفذت مع هداياها عصا كان يتوارثها ملوك حمير وقالت : أريد أن تعرفني رأسها من أسفلها وبقدح ماء وقالت : تملؤه ماء رواء ليس من الأرض ولا من السماء فأرسل عليه السلام العصا إلى الهواء وقال أي الطرفين سبق إلى الأرض فهو أصلها وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملأ القدح من عرقها وقال : هذا ليس من ماء الأرض ولا من ماء السماء اه .

وكل ذلك أخبار لا يدري صحتها ولا كذبها ، ولعل في بعضها ما يميل القلب إلى القول بكذبه والله تعالى أعلم .

(111/578)

﴿ فَلَمَّا جَآء سليمان ﴾ في الكلام حذف أي فأرسلت الهدية فلما جاء الخ ، وضمير ﴿ جَاء ﴾ للرسول ، وجوز أن يكون لما أهدت إليه والأول أولى ، وقرأ عبد الله ﴿ فَلَمَّا ﴾ أي المرسلون ﴿ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ خطاب للرسول والمرسل تغليباً للحاضر على الغائب وإطلاقاً للجمع على الاثنين ، وجوز أن يكون للرسول ومن معه وهو أوفق بقراءة عبد الله ، ورجح الأول لما فيه من تشديد الإنكار والتوبيخ المستفادين من الهمزة على ما قيل وتعميمهما لبلقيس وقومها ، وأيد بمجيء قوله تعالى : ﴿ ارجع إِلَيْهِمْ ﴾ [النمل : 37] بالإفراد ؛ وتنكير ﴿ مَّالٍ ﴾ للتحقير .

وقرأ جمهور السبعة ﴿ تمدونن ﴾ بنونين وأثبت بعض الياء .

وقرأ حمزة بإدغام نون الرفع في نون الوقاية وإثبات ياء المتكلم .

وقرأ المسيبي عن نافع بنون واحدة خفيفة والمحذوف نون الوقاية ، وجوز أن يكون الأولى فرفعه بعلامة مقدرة كما قيل في قوله :

أبيت أسري وتبيتي تدلكي . . .

وجهك بالعنبر والمسك الذكي

﴿ فَمَا عَبْدُ الله ﴾ أي من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا ءاتِيكُمْ ﴾ أي من المال الذي من جملته ما جئتم به ، وقيل : عنى بما آتاه المال لأنه المناسب للمفضل عليه والأول أولى لأنه أبلغ ، والجملة تعليل للإنكار والكلام كناية عن عدم القبول لهديتهم ، وليس

المراد منه الافتخار بما أوتيه فكأنه قيل : أنكر إمدادكم إياي بمال لأن ما عندي خير منه فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وقع لها عندي ، والظاهر أن الخطاب المذكور كان أول ما جاؤه كما يؤذن به قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ ﴾ الخ ، ولعل ذلك لمزيد حرصه على إرشادهم إلى الحق ، وقيل : لعله عليه السلام قال لهم ما ذكر بعد أن جرى بينهم وبينه ما جرى مما في خبر وهب .

وغيره ، واستدل بالآية على استحباب رد هدايا المشركين .

(112/578)

والظاهر أن الأمر كذلك إذا كان في الرد مصلحة دينية لا مطلقاً ، وإنما لم يقل : وما آتاني الله خير مما آتاكم لتكون الجملة حالاً لما أن مثل هذه الحال وهي الحال المقررة للإشكال يجب أن تكون معلومة بخلاف العلة وهي هنا ليست كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال وتعليله إلى بيان ما حملهم عليه من قياس حاله عليه السلام على حالهم وهو قصور همتهم على الدنيا والزيادة فيها فالمعنى أنتم تفرحون بما يهدى إليكم لقصور همتكم على الدنيا وحبكم الزيادة فيها ، ففي ذلك من الحط عليهم ما لا يخفى ، والهدية مضافة إلى المهدي إليه وهي تضاف إلى ذلك كما تضاف إلى

المهدي أو إضراب عن ذلك إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أهدوها إليه عليه السلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها ، وفائدة الإضراب التنبيه على أن إمداده عليه السلام بالمال منكر قبيح ، وعد ذلك مع أنه لا قدر له عنده عليه السلام مما يتنافس فيه المتنافسون أقبح والتوبيخ به أدخل ، قيل : وينبىء عن اعتداهم بتلك الهدية التنكير في قول بلقيس : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل : 35] بعد عدها إياه عليه السلام ملكاً عظيماً . وكذا ما تقدم في خبر وهب .

وغيره من حديث الحق والجزعة وتغيير زي الغلمان والجواري وغير ذلك ، وقيل : فرحهم بما أهدوه إليه عليه السلام من حيث توقعهم به ما هو أزيد منه فإن الهدايا للعظماء قد تفيد ما هو أزيد منها ما لا أو غيره كمنع تخريب ديارهم هنا ، وقيل : الكلام كناية عن الرد ، والمعنى أنتم من حقكم أن تفرحوا بأخذ الهدية لا أنا فخذوها وافرحوا وهو معنى لطيف إلا أن فيه خفاء .

(113/578)

﴿ ارْجِعِ ﴾ أمر للرسول ولم يجمع الضمير كما جمعه فيما تقدم من قوله : ﴿ أَتُمِدُّونَنِي ﴾ [النمل : 36] الخ لاختصاص الرجوع به بخلاف الإمداد ونحوه ، وقيل : هو أمر للهدهد

محملاً كتاباً آخر وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن زهير بن زهير .

وتعقب بأنه ضعيف دراية ورواية .

وقرأ عبد الله ﴿ الحاكمين ارجعوا ﴾ على أنه أمر للمرسلين والفعل هنا لازم أي انقلب وانصرف ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى بلقيس وقومها ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم ﴾ أي فوالله لنأتينهم ﴿ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وأصل القبل المقابلة فجعل مجازاً أو كناية عن الطاقة والقدرة عليها .

وقرأ عبد الله ﴿ بِهِمْ ﴾ ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم ﴾ عطف على جواب القسم ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من سبأ ﴿ أَذِلَّةٍ ﴾ أي حال كونهم أذلة بعد ما كانوا فيه من العز والتمكين ، وفي جمع القلة تأكيد لذلتهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ صاغرون ﴾ حال أخرى ، والصغار وإن كان بمعنى الذل إلا أن المراد به هنا وقوعهم في أسر واستعباد فيفيد الكلام أن إخراجهم بطريق الأسر لا بطريق الإجلاء وعدم وقوع جواب القسم لأنه كان معلقاً بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل : ارجع إليهم فليأتوني مسلمين وإلا فلنأتينهم الخ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(114/578)

وقال ابن عاشور :

﴿ قالت ﴾ جواب محاورة فلذلك فُصل .

أبدت لهم رأيها مفضِّلةً جانب السلم على جانب الحرب ، وحاذرة من الدخول تحت سلطة سليمان اختياراً لأن نهاية الحرب فيها احتمال أن ينتصر سليمان فتصير مملكة سبأ إليه ، وفي الدخول تحت سلطة سليمان إلقاء للمملكة في تصرفه ، وفي كلا الحالين يحصل تصرف مَلك جديد في مدينتها فعلمت بقياس شواهد التاريخ وبخبرة طبائع الملوك إذا تصرفوا في مملكة غيرهم أن يقلبوا نظامها إلى ما يساير مصالحهم واطمئنان نفوسهم من انقلاب الأمة المغلوبة عليهم في فُرص الضعف أو لوائح الاشتغال بحوادث مهمة ، فأول ما يفعلونه إقصاء الذين كانوا في الحكم لأن الخطر يتوقع من جانبهم حيث زال سلطانهم بالسلطان الجديد ، ثم يبدلون القوانين والنظم التي كانت تسير عليها الدولة ، فأما إذا أخذوها عنوة فلا يخلو الأخذ من تخريب وسبي ومغانم ، وذلك أشد فساداً .

وقد اندرج الحالان في قولها ﴿ إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ .

وافتتاح جملة : ﴿ إن الملوك ﴾ بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر وتحقيقه ، فقولها ﴿ إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ استدلال بشواهد التاريخ الماضي ولهذا تكون ﴿ إذا ﴾ ظرفاً للماضي بقرينة المقام كقوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ [الجمعة : 11] وقوله : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا

﴾ [التوبة : 92] .

وجملة : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ استدلال على المستقبل بحكم الماضي على طريقة الاستصحاب وهو كالنتيجة للدليل الذي في قوله : ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ .

والإشارة إلى المذكور من الإفساد وجَعْلِ الأعزة أذلة ، أي فكيف نلقي بأيدينا إلى من لا يألو إفساداً في حالنا .

(115/578)

فدبرت أن تتفادى من الحرب ومن الإلقاء باليد ، بطريقة المصانعة والتزلف إلى سليمان بإرسال هدية إليه ، وقد عزمت على ذلك ولم تستطلع رأي أهل مشورتها لأنهم فوضوا الرأي إليها ، ولأن سكوتهم على ما تخبرهم به يُعدّ موافقة ورضى .

وهذا الكلام مقدمة لما ستلقيه إليهم من عزمها ، ويتضمن تعليلاً لما عزمت عليه .

والباء في ﴿ بهدية ﴾ باء المصاحبة .

ومفعول ﴿ مرسلة ﴾ محذوف دل عليه وصف ﴿ مرسلة ﴾ وكون التشاور فيما تضمنه كتاب سليمان .

فالتقدير : مرسلة إليهم كتاباً ووَفداً مصحوباً بهدية إذ لا بد أن يكون الوفد مصحوباً بكتاب تجيب به كتاب سليمان فإن الجواب عن الكتاب عادة قديمة ، وهو من سنن المسلمين ، وعدّ من حق المسلم على المسلم ، قال القرطبي : إذا ورد على إنسان في كتاب بالتحية أو نحوها ينبغي أن يَرد الجواب لأن الكتاب من الغائب كالسلام من الحاضر .

وروي عن ابن عباس أنه كان يرى رد الكتاب واجباً كرد السلام أ هـ .

ولم أقف على حكم فيه من مذاهب الفقهاء .

والظاهر أن الجواب إن كان عن كتاب مشتمل على صيغة السلام أن يكون رد الجواب واجباً وأن يشتمل على رد السلام لأن الرد بالكتابة يقاس على الرد بالكلام مع إلغاء فارق ما في المكالمة من المواجهة التي يكون ترك الرد معها أقرب لإلقاء العداوة .

ولم أر في كتب النبي صلى الله عليه وسلم جواباً عن كتاب إلا جوابه عن كتاب مسيلمة والسلام على من اتّبع الهدى .

والهدية : فعيلة من أهدى : فالهدية ما يعطَى لقصد التقرب والتحبب ، والجمع هَدايا على اللغة الفصحى ، وهي لغة سُفلَى مَعَدَ .

(116/578)

وأصل هدايا : هدائيَ بهمزة بعد ألف الجمع ثم ياءٍ لأن فعيلة يجمع على فعائل بإبدال ياء فعيلة همزة لأنها حرف وقع في الجمع بعد حرف مدّ فلما وجدوا الضمة في حالة الرفع ثقيلة على الياء سكّنوا الياء طرداً للباب ثم قلبوا اليَاء الساكنة ألفاً للخفة فوقعت الهمزة بين ألفين فثقلت فقلبوها ياء لأنها مفتوحة وهي أخف ، وأما لغة سُفلى معدّ فيقولون : هَدَاوَى بقلب الهمزة التي بين الألفين واواً لأنها أخت الياء وكلتاهما أخت الهمزة .

و﴿ ناظرة ﴾ اسم فاعل من نَظر بمعنى انتظَر ، أي مترقبةٌ ، فتكون جملة : ﴿ بم يرجع المرسلون ﴾ مبيّنة لجملة ﴿ فناظرة ﴾ ، أو مستأنفة .

وأصل النظم : فناظرة ما يرجع المرسلون به ، فغير النظم لمَّا أريد أنها مترددة فيما يرجع به المرسلون .

فالباء في قوله : ﴿ بم يرجع المرسلون ﴾ متعلقة بفعل ﴿ يرجع ﴾ قدمت على متعلَّقها لاقترانها بحرف (ما) الاستفهامية لأن الاستفهام له صدر الكلام .

ويجوز أن يكون ﴿ ناظرة ﴾ من النظر العقلي ، أي عالمة ، وتعلقَ الباء بفعل ﴿ يرجع ﴾ ، وعلى كلا الوجهين ف ﴿ ناظرة ﴾ معلَّق عن العمل في مفعوله أو مفعوليه لوجود الاستفهام ، ولا يجوز تعلق الباء بـ ﴿ ناظرة ﴾ لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيما بعده فمن ثم غلطوا الحوفي في "تفسيره" لتعليقه الباء بـ ﴿ ناظرة ﴾ كما في الجهة السادسة من الباب الخامس من "مغني اللبيب" .

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)

أي فلما جاء الرسول الذي دل عليه قوله : ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية ﴾ [النمل : 35] ، فالإرسال يقتضي رسولاً ، والرسول لفظه مفرد ويصدق بالواحد والجماعة ، كما تقدم في قصة موسى في سورة الشعراء .

وأيضاً فإن هدايا الملوك يحملها ركب ، فيجوز أن يكون فاعل ﴿ جاء ﴾ الركبُ المعهود في إرسال هدايا أمثال الملوك .

(117/578)

وقد أبى سليمان قبول الهدية لأن الملكة أرسلتها بعد بلوغ كتابه ولعلها سكتت عن الجواب عما تضمنه كتابه من قوله : ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ [النمل : 31] فتبيّن له قصدُها من الهدية أن تصرفه عن محاولة ما تضمنه الكتاب ، فكانت الهدية رشوة لتصرفه عن بثّ سلطانه على مملكة سبأ .

والخطاب في ﴿ أتمدونن ﴾ لوفد الهدية لقصد تبليغه إلى الملكة لأن خطاب الرسل إنما يقصد به من أرسلهم فيما يرجع إلى الغرض المرسل فيه .

والاستفهام إنكاري لأن حال إرسال الهدية والسكوت عن الجواب يقتضي محاولة صرف سليمان عن طلب ما طلبه بما بذل له من المال ، فيقتضي أنهم يحسبونه محتاجاً إلى مثل ذلك المال فيقتنع بما وجّه إليه .

ويظهر أن الهدية كانت ذهباً ومالاً .

وقرأ الجمهور : ﴿ أتمدونني ﴾ بنونين .

وقرأه حمزة وخلف بنون واحدة مشدّدة بالإدغام .

والفاء لتفريع الكلام الذي بعدها على الإنكار السابق ، أي أنكرت عليكم ظنكم فرحي بما وجهتم إليّ لأنّ ما أعطاني الله خير مما أعطاكم ، أي هو أفضل منه في صفات الأموال من نفاسة ووفرة .

وسَوق التعليل يشعر بأنه علم أن الملكة لا تعلم أن لدى سليمان من الأموال ما هو خير مما لديها ، لأنه لو كان يظن أنها تعلم ذلك لما احتاج إلى التفريع .

وهذا من أسرار الفرق في الكلام البليغ بين الواو والفاء في هذه الجملة فلو قال : وما آتاني الله خير مما آتاكم ، لكان مُشعراً بأنها تعلم ذلك لأن الواو تكون واو الحال .

و﴿ بل ﴾ للإضراب الانتقالي وهو انتقال من إنكاره عليهم إمداده بمال إلى رد ذلك المال وإرجاعه إليهم .

وإضافة ﴿ هديتكم ﴾ تشبيه ؛ تحتمل أن تكون من إضافة الشيء إلى ما هو في معنى

المفعول ، أي بما تهدونه .

ويجوز أن يكون شبيهة بالإضافة إلى ما هو في معنى المفعول ، أي بما يُهدى إليكم .

والخبر استعمل كناية عن رد الهدية للمهدي .

(118/578)

ومعنى : ﴿ تفرحون ﴾ يجوز أن يكون تُسرُّون ، ويجوز أن يكون تفتخرون ، أي أنتم تعظم عندكم تلك الهدية لا أنا ، لأن الله أعطاني خيراً منها .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في "أنتم تَفرحون" لإفادة القصر ، أي أنتم .

وهو الكناية عن رد الهدية .

وتوعدهم وهددهم بأنه مرسل إليهم جيشاً لا قِبَل لهم بحربه .

وضمائر جمع الذكور الغائب في قوله : ﴿ فلنأتينهم ﴾ و ﴿ لنخرجنهم ﴾ عائدة إلى القوم ، أي لنخرجن من نخرج من الأسرى .

وقوله : ﴿ فلنأتينهم بجنود ﴾ يحتمل أنه أراد غزو بلدها بنفسه ، فتكون الباء للمصاحبة .

ويحتمل أنه أراد إرسال جنود لغزوها فتكون الباء للتعدية كالتي في قوله تعالى : ﴿ ذهب

الله بنورهم ﴾ [البقرة : 17] أي أذهبه ؛ فيكون المعنى : فلنؤتينهم جنوداً ، أي نجعلها آتية إياهم .

والقِبَل : الطاقة .

وأصله المقابلة فأطلق على الطاقة لأن الذي يُطيق شيئاً يثبت للقائه ويقابله .

فإذا لم يُطقه تقهقر عن لقائه .

ولعل أصل هذا الاستعمال ناظر إلى المقابلة في القتال .

والباء في ﴿ بها ﴾ للسببية ، أي انتفى قِبلهم بسببها ، أو تكون الباء للمصاحبة ، أي انتفى قِبلهم المصاحب لها ، أي للقدرة على لقائها .

وضمير ﴿ بها ﴾ للجنود وضمير ﴿ منها ﴾ للمدينة ، وهي مأرب ، أي يخرجهم أسرى ويأتي بهم إلى مدينته .

والصاغر : الذليل ، اسم فاعل من صغر بضم الغين المستعمل بمعنى ذل ومصدره الصغار .

والمراد : ذل الهزيمة والأسر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(119/578)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾

وتعرض بلقيس رأيها ﴿ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ [النمل : 34] ، ذلك لأنهم يريدون مُلْكاً ، فينهبون كل ما يمرُّون به بل ويُخربون ويفسدون لماذا ؟ لأنهم ساعةَ يصل المِلك المغير لا يضمن النصر ؛ لذلك يُخرِّب كل شيء ، حتى إذا ما عرف أنه انتصر ، وأن الأمور قد استقرتْ له يحافظ على الأشياء ولا يُخربها .

﴿ وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : 34] لأن المُلْك يقوم على أنقاض مُلْك قديم ، فيكون أصحاب العزة والسيادة هم أول مَنْ يُبدأ بهم ؛ لأن الأمر أُخِذ من أيديهم ، وسوف يسعَوْن لاستعادته ، ولا بُدَّ أنْ يكون عندهم غَيْظ ولَدَد في الخصومة .

أما قوله تعالى : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : 34] فللعلماء فيه كلام : قالوا إنه من كلام بلقيس ، وكأنه تذييل لكلامها السابق ، لكن ماذا يضيف ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : 34] بعد أن قالت ﴿ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : 34] .

فالرأي الصواب أن هذه العبارة من الحق سبحانه وتعالى ليُصدِّق على كلامها ، وأنها أصابت في رأيها ، فكذلك يفعل الملوك إذا دخلوا قرية ، مما يدل على أن الحق سبحانه رب الخَلْق أجمعين ، إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، لا يتعصب ضده ، ولا

يهضمه حقه .

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

بعد أنْ ترك لها المستشارون الأمر والتدبير أخذتْ تُعمِل عقلها ، وتستخدم فطنتها وخبرتها بحياة الملوك ، فقالت : إنْ كان سليمان مَلِكاً فسوف يطمع في خيرنا ، وإنْ كان نبياً فلن يهتم بشيء منه ، فقررتْ أنْ تُرسل له هدية تناسب مكانته كملك ومكانتها هي أيضاً ، لتثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى .

(120/578)

ولا بد أنها كانت ثمينة لتستميل الملك ، أو كما نقول (تلوحه أو تلويه) .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ [النمل : 35] فإنْ كان ملكاً قَبِلها ، وعرفنا أن علاجه في بعض الخراج والأموال تُسَاق إليه كل عام ، وإنْ كان نبياً فلن يقبل منها شيئاً ، وهذا رَأْي جميل من بلقيس يدل على فِطْنتها وذكائها وحصافتها ، حيث جنَّبتْ قومها ويلات الحرب والمواجهة .

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)

أي : فلما جاء رسول بلقيس إلى سليمان بالهدية ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ﴾ [النمل : 36] فأيُّ هدية هذه ، وأنا أملك مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ؟ ﴿ بَلْ ﴾ [النمل : 36] يعني : اضرب عن الكلام السابق ﴿ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل : 36] .

أضاف الهدية إليهم ، لا إليه هو ، والإضافة تأتي إما بمعنى اللام مثل : قلم زيد يعني لزيد ، أو : بمعنى من مثل : إردب قمح يعني : من قمح ، أو : بمعنى في مثل : مكر الليل يعني : في الليل .

فقوله ﴿ بِهَدِيَّتِكُمْ ﴾ [النمل : 36] إما أن يكون المراد : هدية لكم . أي : فأنتم تفرحون إنْ جاءتكم هدية من أحد ، أو لأنني سأردُّها إليكم فتفرحوا بردّها كمَنْ يقول (بركة يا جامع) أو : هدية منكم . أي : أنكم تفرحون إنْ أهديتم لي هدية فقبلتُها منكم .

فهذه معانٍ ثلاثة لقوله : ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل : 36] .

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (37)

نذكر أن الملكة قالت ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ [النمل : 35] فكأنه يستشعر نصَّ ما قالت ، وينطق عن إشراقات النبوة فيه ، فيقول : ﴿ ارجع إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ [النمل : 37] .

وهكذا دخلتْ المسألة في طَوْر المواجهة ؛ لأن كلامنا كلامُ النبوة التي لا تقبل المساومة ، لا كلام الملك الذي يسعى لحطام الدنيا .

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل : 37] وكأنه يكشف لهم عن قَوْل ملكتهم : ﴿ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : 34] وهذه أيضاً من إشراقات النبوة .

ومعنى ﴿ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ [النمل : 37] تقول : لا قِبَل لي بكذا . يعني : لا أستطيع مقابلته ، وأنا أضعف من أنْ أقابله ، أَوْ لا طاقة لي به ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : 37] لأنه سيسلب مُلْكهم ، فبعد أنْ كانوا ملوكاً صاروا عبيداً ، ثم يزيد في حِدّته عليهم ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل : 37] لأنهم قد يقبلون حالة العبودية وعيشة الرعية ، فزاد ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل : 37] لأن الصَّغَار لا يكون إلا بالقَتْل والأَسْر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(122/578)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى إخباراً عن بلقيس: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ، يدل على تعدد رسلها إلى سليمان وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ﴾ بإفراد فاعل جاء ، وقوله تعالى إخباراً عن سليمان أنه قال: ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ ﴾ الآية يدل على أن الرسول واحد .

والظاهر في الجواب: هو ما ذكره غير واحد من أن الرسل جماعة وعليهم رئيس منهم فالجمع نظراً إلى الكل والإفراد نظراً إلى الرئيس ؛ لأن من معه تبع له والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 227 ﴾

(123/578)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ :

أي : مِثْلَ ذلك الفعلِ يَفْعلون . وهل هذه الجملةُ مِنْ كلامِها وهو الظاهرُ فتكونُ منصوبةً بالقولِ أو مِنْ كلامِ اللهِ تعالى ، فهي استئنافيةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ ، وهي معترضةٌ بين قَوْلَيْها ؟

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

والهَدِيَّةُ : ما بُعِثَ على جهةِ الإكرامِ ، وهي اسمٌ للمهدى فيحتمل أَنْ يكونَ اسماً صريحاً ، ويُحتمل أَنْ يكونَ في الأصلِ مصدراً أُطْلِقَ على اسمِ المفعولِ ، وليسَتْ مصدراً قياسياً ؛ لأنَّ الفعلَ منها " أهدى " رباعياً فقياسُ مصدرِه : إهداءً .

قوله : ﴿ فَنَاظِرَةٌ ﴾ : عطفٌ على " مُرْسِلَة " . و " بِمَ " متعلقٌ ب " يَرجِعُ " . وقد وَهِمَ الحوفيُّ فجعلَها متعلقةً ب " ناظِرَةٌ " وهذا لا يستقيمُ ؛ لأنَّ اسمَ الاستفهامِ له صدرُ الكلامِ . " وبِمَ يَرْجِعُ " مُعَلِّقٌ ل " ناظِرَةٌ " .

قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ ﴾ :

أي : فلمَّا جاء الرسولُ ، أضمرَه لدلالةِ قولِها " مُرْسِلَةٌ " فإنه يَسْتَلْزِمُ رسولاً . والمرادُ به الجنسُ لا حقيقةُ رسولٍ واحدٍ بدليلِ خطابِه لهم بالجمع في قوله : " أَتُمِدُّونَنِ " إلى آخره . ولذلك قرأ عبد الله " فلمَّا جاؤُوا " وقرأ " فارْجِعوا " إليهم اعتباراً بالأصلِ المشارِ إليه .

قوله : ﴿ أَتُمِدُّونَنِي ﴾ استفهامُ إنكارٍ . وقرأ حمزةُ بإدغام نونِ الرفع في نونِ الوقايةِ . وأمَّا الياءُ فإنه يَحْذِفُها وقفاً ويُثْبِتُها وصلاً على قاعدتِه في الزوائد . والباقون بنونَيْنِ على الأصل . وأمَّا الياءُ فإنَّ نافعاً وأبا عمروٍ كحمزةَ يُثْبِتانها وصلاً ويَحْذِفانها وَقْفاً ، وابنُ كثيرٍ يُثْبِتُها في الحالَيْن ، والباقون يَحْذِفونها في الحالَيْن . ورُوِيَ عن نافعٍ أنه يَقْرأ بنونٍ واحدة ، فتكمَّلَتْ ثلاثُ قراءات ، كما في ﴿ تأمروني أَعْبُدُ ﴾ [الزمر : 64] .

قال الزمخشري : " فإن قلتَ ما الفرق بين قولِك : أتُمِدُّونني بمال وأنا أَغْنى منكم ، وبين أَنْ تقولَه بالفاء ؟

قلت : إذا قلتُه بالواوِ فقد جَعَلْتُ مخاطَبي عالماً بزيادتي عليه في الغِنَى ، وهو مَعَ ذلك يَمُدُّني بالمال . وإذا قُلْتُه بالفاءِ فقد جَعَلْتُه مِمَّن خَفِي عليه حالي ، وإنما أُخْبِره الساعةَ بما لا أَحْتاجُ معه إلى إمدادِه كأني أقولُ : أُنْكِرُ عليك ما فَعَلْتَ فإني غَنِيٌّ عنه ، وعليه وَرَد قولُه : ﴿ فَمَا آتَانِي اللهُ ﴾ انتهى . وفي هذا الفرقِ نَظَرٌ ؛ إذ لا يُفهم ذلك بمجردِ الواوِ والفاءِ ، ثم إنه لم يُجِبْ عن السؤال الأول : وهو أنه لِمَ عَدَلَ عن قوله : " وأنا أغنى منكم " إلى قوله : ﴿ فَمَا آتَانِي اللهُ ﴾ ؟ وجوابُه : أنه أُسْنِدَ إيتاءُ الغنى إلى اللهِ إظهاراً لنعمتِه عليه ، ولو قال : وأنا أغنى منكم ، كان في افتخارٌ من غيرِ ذِكْرٍ لنعمةِ اللهِ عليه .

قوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ ﴾ إضرابُ انتقال . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : فما وجه الإضرابِ ؟ قلت : لَمَّا أَنْكر عليهم الإمدادَ ، وعَلَّل إنكارَه ، أَضْرَبَ عن ذلك إلى بيان السببِ الذي حَمَلَهم عليه ، وهو أَنَّهم لا يَعْرِفُون سببَ رضا إلاَّ ما يهدى إليهم / من حُظوظِ الدنيا التي لا يَعْرِفُون غيرَها . والهديَّة يجوزُ إضافتُه إلى المُهْدي . وإلى المهدى إليه وهي هنا محتملةٌ للأمرَيْن " .

قال الشيخ : " وهي هنا مضافةٌ للمهدى إليه . وهذا هو الظاهرُ . ويجوز أَنْ تكونَ مضافةً إلى المُهْدِي أي : بل أنتم بهديَّتِكم هذه التي أَهْدَيْتُموها تَفْرَحُوْنَ فَرَحَ افتخارٍ " . قلت كيف يَجْعَلُ هذا الأولَ هو الظاهرَ ، ولم يُنْقَلْ أنَّ سليمان صلَّى الله عليه وسلَّم أرسلَ إليهم هديةً في هذه الحالةِ حتى يُضيفَها إليهم ؟ ، بل الذي يتعيَّن إضافتُها إلى المُهْدِي .

قوله : ﴿ ارجع ﴾ :

الظاهرُ أنَّ الضميرَ يعودُ على الرسولِ . وتقدَّمَتْ قراءةُ عبدِ الله " ارْجِعُوا " . وقيل : يعودُ على الهُدْهُدِ .

قوله : ﴿ لاَّ قِبَلَ ﴾ : صفةٌ لـ " جُنودٍ " ومعنى لا قِبَلَ : لا طاقةَ . وحقيقتُه لا مقابلةَ .

والضميرُ في "بها" عائدٌ على "جنود" لأنه جمعُ تكسيرٍ فيجري مجرى المؤنثةِ الواحدةِ كقولِهم: "الرجال وأَعْضادُها".

وقرأ عبد الله "بهم" على الأصلِ.

وقوله: ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ حالٌ ثانيةٌ. والظاهرُ أنها مؤكِّدةٌ؛ لأنَّ "اَذِلَّة" تُغْني عنها.

إنْ قيل: قولُه: "فَلَنَأْتِيَنَّهم" و "لَنُخْرِجَنَّهُمْ" قسمٌ فلا بدَّ أن يقعَ. فالجوابُ: أنه مُعَلَّقٌ على شرطٍ حُذِفَ لفَهْمِ المعنى أي: إنْ لم يأْتُوْني مُسْلِمين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 614.611﴾

(126/578)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾

ويقال إنَّ: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ مِنْ قولِها.

ويقال: تغييرُ الملوكِ إذا دخلوا قريةً – عن صفتها – معلومٌ، ثم يُنْظَر... فإن كان الداخِلُ عادلاً أزال سُنَّةَ الجَوْرِ، وأثبت سُنَّةَ العَدْلِ، وإنْ كان الداخلُ جائراً أزال الحَسَنَ وأثبت

الباطلَ . هذا معلوم ؛ فإنَّ خرابَ البلادِ بولاةِ السُّوءِ ، حيث يستولي أسافلُ الناس وأَسقاطُهم على الأعزة منهم ، وكما قيل :

يا دولة ليس فيها . . . من المعالي شظيهْ

زولى فما أنتِ إلاّ . . . عل الكرام بليهْ

وعمارة الدنيا بولاة الرُّشْدِ ، يكسرون رقابَ الغاغة ، ويُخَلِّصُون الكرامَ من أَسْرِ السِّفْلة ، (ويأخذ القوس باريها) ، وتطلع شمسُ العدل من برج شرفها . . . كذلك المعرفةُ والخصالُ المحمودة إذا باشَرَتْ قلبَ عبدٍ أخرجت عنه الشهواتِ والمُنى ، وسفاسفَ الأخلاقِ من الحقد والحسد والشُّحِّ وصِغَرِ الهمة . . . وغير ذلك من الأوصاف الذميمة وتُثْبِتُ بَدَلَها من الأحوال العَلِيَّةِ والأوصاف المَرْضِيَّةِ ما به نظامُ العبد وتمامُ سعادته . ومتى استولت على قلبٍ غاغةُ النَّفسِ والخصالُ المذمومة أزالت عنه عمارته ، وأَبْطَلَتْ نضارتَه ، فتخرب أوطانُ الحقائق ، وتتداعى مساكنُ الأوصاف الحميدة للأفوال ، وعند ذلك ، يَعْظُم البلاءُ وتتراكم المِحَنُ .

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

(127/578)

جاء في القصة أنها بعثت إلى سليمانَ بهدايا ، ومن جملتها لَبِنَةٌ مصنوعةٌ من الفضة وأخرى من الذهب . وأن اللَّهَ أخبر سليمانَ بذلك ، وأوحى إليه في معناه . وأمَرَ سليمانُ الشياطينَ حتى بَنَوْا بساحة منزله ميداناً ، وأمرهم أن يفرشوا الميدان بهيئة اللَّبِنِ المصنوعِ من الذهب والفضة من أوله إلى آخره . وأَمَرَ بأن توقف الدوابُّ على ذلك وألا تُنَظَّفَ آثارُها من رَوْثٍ وغيره ، وأن يُتْرَكَ موضعانِ للَبِنَتَيْنِ خالِيَيْن في ممرِّ الدخول . وأقبل رُسُلُها ، وكانت معهم اللبنتان ملفوفتين ، فلمَّا رَأَوْا الأمر ، ووقعت أبصارُهم على طريقهم ، صَغُرَ في أعينهم ما كان معهم ، وخَجِلوا من تقديم ذلك إلى سليمان ووقعوا في الفكرة . . . كيف يتخلصون مما معهم ؟ . فلمَّا رأوا موضع اللَّبِنَتَيْن فارغا ظنُّوا أن ذلك سُرِق من بينها ، فقالوا لو أظهرنا نُسِبْنا إلى أنَّا سرقناهما من هذا الموضع ، فطرحاهما في الموضع الخالي ، ودَخَلاَ على سليمان .

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)

أتهدونني مالاً ؟ وهل مثلي يُسْتَمالُ بمثل هذه الأفعال ؟ إنكم وأمثالكم تعامِلُون بمثل ما عوملتم ! ارجع إليهم : –

﴿ ارجع إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

فلمَّا رجعوا إلى بلقيس ، وأخبروها بما شاهدوا وسمعوا علمت أنه لا وَجْه لها سوى

الاستسلام والطاعة ، فعَزَمَتْ على المسير إلى خدمته ، وأوحى الله إلى سليمان بذلك ، وأنها خرجت مستسلمةً ، فقال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ؟ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 36 . 38 ﴾

(128/578)

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذهب الرسل ، وعلم صلى الله عليه السلام مما رأى من تصاغرهم لما رأوا من هيبته وجلاله الذي حباه به ربه وعظمته أنهم يأتون بها مذعنة ﴿ قال ﴾ لجماعته تحقيقاً لقوله : ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ لإعلامه بأنها استوثقت من عرشها : ﴿ يا أيها الملأ ﴾ أي

الأشراف ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ لترى بعض ما آتاني الله من الخوارق ، فيكون أعون على متابعتها في الدين ، ولآخذه قبل أن يحرم أخذه بإسلامها ، وأختبر به عقلها ﴿ قبل أن يأتوني ﴾ أي هي وجماعتها ﴿ مسلمين ﴾ أي منقادين لسلطاني ، تاركين لعز سلطانهم ، منخلعين من عظيم شأنهم ، ليكون ذلك أمكن في إقامة الحجة عليها في نبوتي وأعون على رسوخ الإيمان في قلبها وإخلاصها فيه ﴿ قال عفريت ﴾ .

ولما كان هذا اللفظ يطلق على الأسد ، وعلى المارد القوي ، وعلى الرجل النافذ في الأمر المبالغ فيه مع دهاء وقوة - وقال الرازي : مع خبث ومكر - وعلى غيره ، بينه بأن قال : ﴿ من الجن أنا ﴾ الداهية الغليظ الشديد ﴿ آتيك به ﴾ ولما علم أن غرضه الإسراع قال : ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾ أي مجلسك هذا ، ثم أوثق الأمر وأكده بقوله : ﴿ وإني عليه ﴾ أي الإتيان به سالماً ﴿ لقوي ﴾ لا يخشى عجزي عنه ﴿ أمين ﴾ لا يخاف انتقاضي شيئاً منه .

ولما كانت القصة لإظهار فضل العلم المستلزم للحكمة ، دلالة على أنه تعالى حكيم عليم ، ترغيباً في القرآن ، وحثاً على ما أفاده من البيان ، قال حاكياً لذلك استئنافاً جواباً لاستشرافه - صلى الله عليه وسلم - لأقرب من ذلك : ﴿ قال الذي عنده ﴾ .

ولما كان لكتب الله من العظمة ما لا يحيطه إلا الله ، اشار إلى ذلك بتنكير ما لهذا الذي يفعل مثل هذا الخارق العظيم من ذلك فقال : ﴿ علم ﴾ تنبيهاً على أنه اقتدر على ذلك بقوة العلم ليفيد ذلك تعظيم العلم والحث على تعلمه ، وبين أن هذا الفضل إنما هو للعلم الشرعي فقال : ﴿ من الكتاب ﴾ أي الذي لا كتاب في الحقيقة غيره ، وهو المنسوب إلينا ، وكأنه الذي كان شهيراً في ذلك الزمان ، ولعله التوراة والزبور ، إشارة إلى أن من خدم كتاباً حق الخدمة كان الله – تعالى كما ورد في شرعنا – سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، أي إنه يفعل له ما يشاء ، وقيل في تعيينه إنه آصف بن برخيا وكان صديقاً عالماً : ﴿ أنا آتيك به ﴾ وهذا أظهر في كونه اسم فاعل لأن الفعل قارن الكلام ؛ وبين فضله على العفريت بقوله : ﴿ قبل أن يرتد ﴾ أي يرجع ﴿ إليك طرفك ﴾ أي بصرك إذا طرفت بأجفانك فأرسلته إلى منتهاه ثم رددته ؛ قال القزاز : طرف العين : امتداد بصرها حيث أدرك ، ولذلك يقولون : لا أفعل ذلك ما ارتد إليّ طرفي ، أي ما دمت أبصر ، ويقال : طرف الرجل يطرف – إذا حرك جفونه ، وقيل : الطرف اسم لجامع البصر لا يثنى ولا يجمع .

وبين تصديق فعله لقوله أنه استولى عليه قبل أن يتحكم منه العفريت فبادر الطرف إحضاره كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ فلما رآه ﴾ أي العرش .

ولما كانت الرؤية قد تكون عن بعد ومجازية ، وكذلك العندية ، بين أنها حقيقية بإظهار العامل في الظرف ومن حقه في غير هذا السياق الحذف فقال : ﴿ مستقراً عنده ﴾ أي ثابتاً ثباتاً لا مرية فيه ، ما هو بسحر ولا منام لا مثال ؛ قال الإمام جمال الدين بن هشام في الباب الثالث من كتابه المغني : زعم ابن عطية أن ﴿ مستقراً ﴾ هو المتعلق الذي يقدر في أمثاله قد ظهر ، والصواب ما قاله أبو البقاء وغيره من أن هذا الاستقرار معناه عدم التحرك لا مطلق الوجود والحصول ، فهو كون خاص .

(130/578)

﴿ قال ﴾ أي سليمان عليه السلام شكراً لما آتاه الله من هذه الخوارق : ﴿ هذا ﴾ أي الإتيان المحقق ﴿ من فضل ربي ﴾ أي المحسن إليّ ، لا بعمل أستحق به شيئاً ، فإنه أحسن إليّ بإخراجي من العدم وتطويقي للعمل ، فكل عمل نعمة منه يستوجب عليّ به الشكر ، ولذلك قال : ﴿ ليبلوني ﴾ أي يفعل معي فعل المبتلي الناظر ﴿ ءأشكر ﴾ فأعترف بكونه فضلاً ﴿ أم أكفر ﴾ بظن أني أوتيته باستحقاق .

ثم زاد في حث نفسه على الشكر بقوله : ﴿ ومن شكر ﴾ أي أوقع الشكر لربه ﴿ فإنما يشكر لنفسه ﴾ فإن نفعه لها ، وأما الله تعالى فهو أعلى من أن يكون له في شيء نفع أو عليه

فيه ضر ﴿ ومن كفر فإن ربي ﴾ أي المحسن إليّ بتوفيقي لما أنا فيه من الشكر ﴿ غني ﴾ أي عن شكر ، لا يضره تركه شيئاً ﴿ كريم ﴾ يفعل معه بإدرار النعم عليه فعل من أظهر محاسنه وستر مساوئه ، ثم هو جدير بأن يقطع إحسانه إن استمر على إجرامه كما يفعل الغني بمن أصر على كفر إحسانه فإذا هو قد هلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 426. 427 ﴾

(131/578)

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) ﴾

اعلم أن في قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الملأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ دلالة على أنها عزمت على اللحوق بسليمان ، ودلالة على أن أمر ذلك العرش كان مشهوراً ، فأحب أن يحصل عنده قبل حضورها ، واختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من إحضار ذلك العرض على وجوه : أحدها : أن المراد أن يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام ، حتى تنضم هذه الدلالة إلى سائر الدلائل التي سلفت وثانيها : أراد

أن يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر ، ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره ، والمقصود اختبار عقلها ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ [النمل : 41] كالدلالة على ذلك وثالثها : قال قتادة : أراد أن يأخذه قبل إسلامها ، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها ورابعها : أن العرش سرير المملكة ، فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها إليه .

أما قوله : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ، ومن الشياطين الخبيث المارد .

أما قوله : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ فالمعنى من مجلسك ، ولا بد فيه من عادة معلومة حتى يصح أن يؤقت ، فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس ، وقيل الوقت الذي يخطب فيه الناس ، وقيل إلى انتصاف النهار .

وأما قوله : ﴿ لَقَوِيٌّ ﴾ أي على حمله ﴿ أَمِينٌ ﴾ آتي به كما هو لا أختزل منه شيئاً .

أما قوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ ففيه بحثان :

الأول : اختلفوا في ذلك الشخص على قولين : قيل كان من الملائكة ، وقيل كان من الإنس ، فمن قال بالأول اختلفوا ، قيل هو جبريل عليه السلام ، وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ، ومن قال بالثاني اختلفوا على وجوه : أحدها : قول ابن مسعود : إنه الخضر عليه السلام وثانيها : وهو المشهور من قول ابن عباس : إنه آصف بن برخيا وزير سليمان ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم إذا دعا به أجيب وثالثها : قول قتادة : رجل من الإنس كان يعلم اسم الله الأعظم ورابعها : قول ابن زيد : كان رجلاً صالحاً في جزيرة في البحر ، خرج ذلك اليوم ينظر إلى سليمان وخامسها : بل هو سليمان نفسه والمخاطب هو العفريت الذي كلمه ، وأراد سليمان عليه السلام إظهار معجزة فتحداهم أولاً ، ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت ، وهذا القول أقرب لوجوه : أحدها : أن لفظة (الذي) موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام ، فوجب انصرافه إليه ، أقصى ما في الباب أن يقال ، كان آصف كذلك أيضاً لكنا نقول إن سليمان عليه السلام ، كان أعرف بالكتاب منه لأنه هو النبي ، فكان صرف هذا اللفظ إلى سليمان عليه السلام أولى الثاني : أن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ، فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام ، وأنه غير جائز الثالث : أن سليمان عليه السلام ، لو افتقر في ذلك إلى آصف لاقتضى

ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق الرابع : أن سليمان قال : ﴿ هذا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَءشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان .

البحث الثاني : اختلفوا في الكتاب ، فقيل اللوم المحفوظ ، والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام .

(133/578)

وقيل كتاب سليمان ، أو كتاب بعض الأنبياء ، ومعلوم في الجملة أن ذلك مدح ، وأن لهذا الوصف تأثيراً في نقل ذلك العرش ، فلذلك قالوا إنه الاسم الأعظم وإن عنده وقعت الإجابة من الله تعالى في أسرع الأوقات .

أما قوله تعالى : ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ ففيه بحثان :

الأول : (آتيك) في الموضعين ، يجوز أن يكون فعلاً واسم فاعل .

(134/578)

الثاني : اختلفوا في قوله : ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ على وجهين : الأول : أنه أراد المبالغة في السرعة ، كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة ، وهذا قول مجاهد الثاني : أن نجريه على ظاهره ، والطرف تحريك الأجفان عند النظر ، فإذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد إلى المرئي ، وإذا أغمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد إلى العين ، فهذا هو المراد من ارتداد الطرف وههنا سؤال : وهو أنه كيف يجوز والمسافة بعيدة أن ينقل العرش في هذا القدر من الزمان ، وهذا يقتضي إما القول بالطفرة أو حصول الجسم الواحد دفعة واحدة في مكانين جوابه : أن المهندسين قالوا كرة الشمس مثل كرة الأرض مائة وأربعة وستين مرة ، ثم إن زمان طلوعها زمان قصير فإذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذي بين الشام واليمن كانت اللمحة كثيرة فلما ثبت عقلاً إمكان وجود هذه الحركة السريعة ، وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال ، ثم إنه عليه السلام لما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر والكلام في تفسير الابتلاء قد مر غير مرة ، ثم إنه عليه السلام بين أن نفع الشكر عائد إلى الشاكر لا إلى الله تعالى ، أما أنه عائد إلى الشاكر فلوجوه : أحدها : أنه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر وثانيها : أنه يستمد به المزيد على ما قال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبرهيم : 7] ، وثالثها : أن المشتغل بالشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة في الشرف ، ثم قال : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ غني عن شكره لا يضره كفرانه ، كريم

لا يقطع عنه نعمه بسبب إعراضه عن الشكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 169.170 ﴾

(135/578)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : مَا الْفَائِدَةُ فِي طَلَبِ عَرْشِهَا ؟ : قِيلَ : فِيهِ أَرْبَعُ فَوَائِدَ : الْفَائِدَةُ الْأُولَى : أَحَبَّ أَنْ يَخْتَبِرَ صِدْقَ الْهُدْهُدِ .

الثَّانِيَةُ : أَرَادَ أَخْذَهُ قَبْلَ أَنْ تُسْلِمَ ، فَيَحْرُمَ عَلَيْهِ مَالُهَا .

الثَّالِثَةُ : أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ عَقْلَهَا فِي مَعْرِفَتِهَا بِهِ .

الرَّابِعَةُ : أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَهُ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّتِهِ ؛ لِأَخْذِهِ مِنْ ثِقَاتِهَا دُونَ جَيْشٍ وَلَا حَرْبٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْغَنِيمَةَ وَهِيَ أَمْوَالُ الْكُفَّارِ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَإِنَّمَا قَصَدَ بِالْإِرْسَالِ إِلَيْهَا إِظْهَارَ نُبُوَّتِهِ ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهَا مُلْكُهَا بَعْدَ قِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى النُّبُوَّةِ بِهِ عِنْدَهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيك بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إلَيْك طَرْفُك ﴾ فِي تَسْمِيَتِهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ لَا تُسَاوِي سَمَاعَهَا ، وَلَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ مَنْ يَعْلَمُهُ .

(136/578)

وَلَقَدْ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : حَدَّثَنِي مَالِكٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْ الْكِتَابِ أَنَا آتِيك بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إلَيْك طَرْفُك ﴾ قَالَ : كَانَتْ بِالْيَمَنِ ، وَسُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالشَّامِ ، أَرَادَ مَالِكٌ أَنَّ هَذِهِ مُعْجِزَةٌ ؛ لِأَنَّ قَطْعَ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ بِالْعَرْشِ فِي الْمُدَّةِ الْقَصِيرَةِ لَا يَكُونُ إلَّا بِأَحَدِ الْوَجْهَيْنِ : إمَّا أَنْ تُعْدَمَ الْمَسَافَةُ بَيْنَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ .

وَإِمَّا أَنْ يُعْدَمَ الْعَرْشُ بِالْيَمَنِ ، وَيُوجَدُ بِالشَّامِ ، وَالْكُلُّ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ هَيِّنٌ ، وَهُوَ عِنْدَنَا غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(137/578)

وقال الماوردى :

قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ الآية .

حكى يزيد بن رومان أنه لما عاد رسلها بالهدايا قالت : قد والله عرفت أنه ليس بملك وما لنا به طاقة ، ثم بعثت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي ثم أمرت بعرشها فجعلته في سبعة أبيات بعضها في جوف بعض وغلقت عليه الأبواب وشَخَصَت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن ، فقال سليمان حين علم قدومها عليه :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ الآية : وفيه وجهان

: أحدهما : مسلمين أي مستسلمين طائعين ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن يأتوني مسلمين أي بحرمة الإسلام ودين الحق ، قاله ابن جريج .

فإن قيل : فلم أَمَرَ أَنَ أن يؤتى بعرشها قبل أن يأتوا إليه مسلمين ؟

قيل عنه في الجواب خمسة أوجه :

أحدها : أنه أراد أن يختبر صدق الهدهد ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه أعجب بصفته حين وصفه الهدهد وخشي أن تسلم فيحرم عليه مالها فأراد أخذه قبل أن يحرم عليه بإسلامها ، قاله قتادة .

الثالث : أنه أحب أن يعاليها به وكانت الملوك يعالون بالملك والقدرة ، قاله ابن زيد .

الرابع : أنه أراد أن يختبر بذلك عقلها وفطنتها ، وهل تعرفه أو تنكره ، قاله ابن جبير .

الخامس : أنه أراد أن يجعل ذلك دليلاً على صدق نبوته ، لأنها خلفته في دارها وأوثقته في حرزها ثم جاءت إلى سليمان فوجدته قد تقدمها ، قاله وهب .

قوله : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ العفريت المارد القوي ، قال أبو صالح كأنه جبل وفيه وجهان :

أحدهما : أنه المبالغ في كل شيء مأخوذ من قولهم فلان عفرية نفرية إذا كان مبالغاً في الأمور ، قاله الأخفش .

الثاني : أصله العفر وهو الشديد ، زيدت فيه التاء فقيل عفريت ، قاله ابن قتيبة .

﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

(138/578)

: أحدها : من مجلسك وسمي المجلس مقاماً لإقامة صاحبه فيه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان : 51] .

الثاني : أنه أراد يوماً معروفاً كان عادة سليمان أن يقوم فيه خطيباً يعظهم ، ويأمرهم ، وينهاهم ، وكان مجيء اليوم تقريباً .

الثالث : أنه أراد قبل أن تسير عن ملكك إليهم محارباً .

﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ لقوي على حمله ، وفي الأمين ثلاثة أقاويل :

أحدها : أمين على ما فيه من جوهر ولؤلؤ ، قاله الكلبي وابن جرير .

الثاني : أمين ألا آتيك بغيره بدلاً منه ، قاله ابن زيد .

الثالث : أمين على فرج المرأة ، قاله ابن عباس ، وحكى يزيد بن رومان ان اسم العفريت كودي ، وحكى ابن أبي طلحة أن اسمه صخر ، وحكى السدي أنه آصف بن السيطر بن إبليس ، والله أعلم بصحة ذلك .

قوله : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنه ملك أيد الله به سليمان ، والعلم الذي من الكتاب هو ما كتب الله لبني آدم ، وقد علم الملائكة منه كثيراً فأذن الله له أن يعلم سليمان بذلك ، وأن يأتيه بالعرش الذي طلبه ، حكاه ابن بحر .

القول الثاني : أنه بعض جنود سليمان من الجن والإنس ، والعلم الذي عنده من الكتاب هو كتاب سليمان الذي كتبه إلى بلقيس وعلم أن الريح مسخرة لسليمان وأن الملائكة تعينه فتوثق بذلك قبل أن يأتيه بالعرش قبل أن يرتد إليه طرفه .

والقول الثالث : أنه سليمان قال ذلك للعفريت .

والقول الرابع : أنه قول غيره من الإنس ، وفيه خمسة أقاويل :

أحدها : أنه مليخا ، قاله قتادة .

الثاني : أنه أسطوم ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه آصف بن برخيا وكان صدّيقاً ، قاله ابن رومان .

الرابع : أنه ذو النور بمصر ، قاله زهير .

الخامس : أنه الخضر ، قاله ابن لهيعة .

و﴿ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب .

﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ ﴾ يعني بالعرش

(139/578)

. ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ فيه ستة أوجه

: أحدها : قبل أن يأتيك أقصى من تنظر إليه ، قاله ابن جبير .

الثاني : قبل أن يعود طرفك إلى مد بصرك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

الثالث : قبل أن يعود طرفك إلى مجلسك ، قاله إدريس .

الرابع : قبل الوقت الذي تنظر وروده فيه من قولهم : أنا ممد الطرف إليك أي منتظر لك ، قاله ابن بحر .

الخامس : قبل أن يرجع طرف رجائك خائباً لأن الرجاء يمد الطرف والإياس يقصر

الطرف .

السادس : قبل أن ينقص طرفك بالموت ، أخبره أنه سيأتيه قبل موته .

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ ﴾ قبل أن يرتد طرفه لأن الذي عنده علم عن الكتاب دعا باسم الله الأعظم وعاد طرف سليمان إليه فإذا العرش بين يديه .

قال عبد الرحمن بن زيد : لم يعلم سليمان ذلك الاسم وقد أُعطي ما أُعطي .

قال السدي : فجزع سليمان وقال : غيري أقدر على ما عند الله مني ، ثم استرجع . ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ يعني وصول العرش إليّ قبل أن يرتد إليَّ طرفي . ﴿ لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ قال زهير : أأشكر على العرش إذ أوتيته في سرعة أم أكفر فلا أشكر إذ رأيت من هو أعلم مني في الدنيا .

قال زهير : ثم عزم الله له على الشكر فقال : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن الشكر تأدية حق واستدعاء مزيد .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ في التفضل ، وهذه معجزة لسليمان أجراها الله على يد من اختصه من أوليائه .

وكان العرش باليمن وسليمان بالشام فقيل : ان الله حرك به الأرض حتى صار بين يديه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) ﴾

القائل سليمان عليه السلام و ﴿ الملأ ﴾ المنادى جمعه من الإنس والجن ، واختلف المتأولون في غرضه في استدعاء " عرشها " فقال قتادة ذكر له بعظم وجودة فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم ، و" الإسلام " على هذا التأويل الدين ، وهو قول ابن جريج ، وقال ابن زيد استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله وليغرب عليها ، و ﴿ مسلمين ﴾ في هذا التأويل بمعنى مستسلمين وهو قول ابن عباس وذكره صلة في العبارة لا تأثير لاستسلامهم في غرض سليمان ، ويحتمل أن يكون بمعنى الإسلام ، وظاهر هذه الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديتها ورده إياها ، وقد بعث الهدهد بالكتاب وعلى هذا جمهور المفسرين ، وحكى الطبري عن ابن عباس أنه قال هذه المقالة هي ابتداء النظر في صدق الهدهد من كذبه لما قال له ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ [النمل : 23] قال سليمان ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ ثم وقع في ترتيب القصص تقديم وتأخير .

قال القاضي أبو محمد : والقول الأول أصح وروي أن عرشها كان من ذهب وفضة مرصعاً بالياقوت والجوهر وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق ، وقرأ الجمهور " قال

عفريت " وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفي " قال عفرية " ، ورويت عن أبي بكر الصديق ، وقرأت فرقة " قال عِفر " بكسر العين ، وكل ذلك لغات فيه وهو من الشياطين القوي المارد والتاء في ﴿ عفريت ﴾ زائدة ، وقد قالوا تعفرت الرجل إذا تخلق بخلق الإذاية ، قال وهب بن منبه اسم هذا العفريت كودا ، وروي عن ابن عباس أنه صخر الجني ومن هذا الاسم قول ذي الرمة : [البسيط]

كأنه كوكب في إثر عفرية . . . مصوب في سواد الليل منقضب

(141/578)

وقوله ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾ قال مجاهد وقتادة وابن منبه معناه قبل قيامك من مجلس الحكم ، وكان يجلس من الصبح إلى وقت الظهر في كل يوم ، وقيل معناه قبل أن تستوي من جلوسك قائماً ، و ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ ، قال ابن جبير وقتادة قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه في أبعد ما ترى ، وقال مجاهد معناه قبل أن يحتاج إلى التغميض أي مدة ما يمكنك أن تمد بصرك دون تغميض وذلك ارتداد .

قال القاضي أبو محمد : وهذان القولان يقابلان قول من قال إن القيام هو مجلس الحكم ، ومن

قال إن القيام هو من الجلوس ، فيقول في ارتداد الطرف هو أن يطرف أي قبل أن تصلح عينيك وتفتحهما ، وذلك أن الثاني تعاطى الأقصر في المدة ولا بد .

وقوله ﴿ لَقوي أمين ﴾ معناه " قوي " على حمله ﴿ آمين ﴾ على ما فيه ، ويروى أن بلقيس لما فصلت من بلدها متوجهة إلى سليمان تركت العرش تحت أقفال وثقاف حصين فلما علم سليمان بانفصالها أراد أن يغرب عليها بأن تجد عرشها عنده ليبين لها أن ملكه لا يضاهى ، فاستدعى سوقه فدعا الذي عنده علم من التوراة وهو ﴿ الكتاب ﴾ المشار إليه باسم الله الأعظم الذي كانت العادة في ذلك الزمن أن لا يدعو به أحد إلا أجيب ، فشقت الأرض بذلك العرش حتى نبع بين يدي سليمان عليه السلام وقيل بل جيء به في الهواء . قال مجاهد وكان بين سليمان وبين العرش كما بين الكوفة والحيرة ، وحكى الرماني أن العرش حمل من مأرب إلى الشام في قدر رجع البصر .

(142/578)

قال القاضي أبو محمد : وهي مسيرة شهرين للمجدّ ، وقول مجاهد : أشهر ، وروي أن الجن كانت تخبر سليمان بمناقل سيرها فلما قربت قال ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ ، واختلف المفسرون في ﴿ الذي عنده علم من الكتاب ﴾ من هو ، فجمهور الناس على أنه رجل

صالح من بني إسرائيل اسمه " آصف بن برخيا " روي أنه صلى ركتين ثم قال يا نبي الله أمدد بصرك فمد بصره نحو اليمن فإذا بالعرش فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده ، وقال قتادة اسمه بليخا ، وقال إبراهيم النخعي هو " جبريل عليه السلام " ، وقال ابن لهيعة هو الخضر وحكى النقاش عن جماعة أنهم سمعوا أنه ضبة بن آد جد بني ضبة من العرب ، قالوا وكان رجلاً فاضلاً يخدم سليمان على قطعة من خيله .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ضعيف ، وقالت فرقة بل هو سليمان عليه السلام والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لما قال هو ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ ، كأن سليمان عليه السلام استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ واستدل قائل هذا القول بقول سليمان . ﴿ هذا من فضل ربي ﴾ ، واستدل أيضاً بهذا القول مناقضه إذ في كلا الأمرين على سليمان فضل من الله تعالى ، وعلى القول الأول المخاطبة لسليمان ، ولفظ ، ﴿ آتيك ﴾ ، يحتمل أن يكون فعلاً مستقبلاً ، ويحتمل أن يكون اسم فاعل ، وفي الكلام حذف تقديره فدعا باسم الله فجاء العرش بقدرة الله فلما رآه سليمان مستقراً عنده جعل يشكر نعمة ربه بعبارة فيا تعليم للناس وفي عرضة للاقتداء بها والاقتباس منها ، وقال ابن عباس المعنى ﴿ ءاشكر ﴾ على السرير وسوقه ﴿ أم أكفر ﴾ إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم مني وظهر العامل في

الظرف من قوله ﴿ مستقراً ﴾ وهذا المقدر أبداً في كل ظرف جاء هنا مظهراً وليس في كتاب الله تعالى مثله . وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(143/578)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قال يا أيُّها الملأُ أيُّكم يأتيني بعرشها ﴾ .

وفي سبب طلبه له خمسة أقوال .

أحدها : ليعلم صِدق الهدهد ، قاله ابن عباس .

والثاني : ليجعل ذلك دليلاً على صِدق نبوَّته ، لأنها خلَّفته في دارها واحتاطت عليه ، فوجدته قد تقدَّمها ، قاله وهب بن منبه .

والثالث : ليختبر عقلها وفطنتها ، أتعرفه أم تُنْكِره ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : لأن صفته أعجبتْه ، فخشي أن تُسْلِم فيحرم عليه مالها ، فأراد أخذه قبل ذلك ، قاله قتادة .

والخامس : ليريَها قدرة الله تعالى وعِظَم سلطانه ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ قال عِفْريتٌ من الجِنِّ ﴾ قال أبو عبيدة : العِفْريت من كل جِنّ أو إِنس :

الفائق المبالغ الرئيس .

وقال ابن قتيبة : العِفْريت : الشديد الوثيق .

وقال الزجاج : العفريت : النافذ في الأمر ، المبالغ فيه مع خُبث ودهاء .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والضحاك ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : ﴿ قال عَفْرِيت ﴾ بفتح العين وكسر الراء .

وروى ابن أبي شريح عن الكسائي : "عِفْرِيَةٌ" بفتح الياء وتخفيفها ؛ وروي عنه أيضاً تشديدها وتنوين الهاء على التأنيث .

وقرأ ابن مسعود ، وابن السميفع : ﴿ عِفْرَاةٌ ﴾ بكسر العين وفتح الراء وبألف من غير ياء .

قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أن تَقُوم من مَقامِكَ ﴾ أي : من مجلسك ؛ ومثله ﴿ في مَقَامٍ أمينٍ ﴾ [الدخان : 51] .

وكان سليمان يجلس للقضاء بين الناس من وقت الفجر إلى طلوع الشمس ، وقيل : إلى نصف النهار ﴿ وإنّي عليه ﴾ أي : على حمله ﴿ لَقَوِيٌّ ﴾ .

وفي قوله ﴿ أمينٌ ﴾ قولان .

أحدهما : أمين على ما فيه من الجوهر والدُّرِّ وغير ذلك ، قاله ابن السائب .

والثاني : أمين أن لا آتيك بغيره بدلاً منه ، قاله ابن زيد .

قال سليمان : أريد اسرع من ذلك ، ﴿ قال الذي عنده عِلْمٌ مِنَ الكِتَاب ﴾ وهل هو إِنسي أم مَلَك ؟ فيه قولان .

أحدهما : إِنسيّ ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وأبو صالح .

(144/578)

ثم فيه أربعة أقوال .

أحدها : أَنَّه رجل من بني إِسرائيل ، واسمه آصف بن برخيا ، قاله مقاتل .

قال ابن عباس : دعا آصف وكان آصف يقوم على رأس سليمان بالسيف فبعث اللّهُ الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض يَخُدُّون الأرض خَدّاً ، حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان .

والثاني : أنه سليمان عليه السلام ، وإِنما قال له رجل : أنا آتيك به قبل أن يرتد إِليك طَرْفك ، فقال : هات ، قال : أنت النبيُّ ابن النبيِّ ، فإن دعوتَ الله جاءكَ ، فدعا اللّهَ فجاءه ، قاله محمد بن المكندر .

والثالث : أَنَّه الخضر ، قاله ابن لهيعة .

والرابع : أنه عابد خرج يومئذ من جزيرة في البحر فوجد سليمان فدعا فأُتيَ بالعرش ، قاله

ابن زيد .

والقول الثاني : أنه من الملائكة .

ثم فيه قولان .

أحدهما : أنه جبريل عليه السلام .

والثاني : مَلَك من الملائكة أيَّد اللّهُ به سليمان ، حكاهما الثعلبي .

وفي العِلْم الذي عنده من الكتاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم الله الأعظم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : أنه عِلْم كتاب سليمان إلى بلقيس .

والثالث : أنه عِلْم ما كتب اللّهُ لبني آدم ، وهذا على أنه مَلَك ، حكى القولين الماوردي .

وفي قوله : ﴿ قبل أن يَرْتَدَّ إليكَ طَرْفُك ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : قبل أن يأتيَك أقصى ما تنظر إليه ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : قبل أن ينتهي طرفك إذا مددته إلى مداه ، قاله وهب .

والثالث : قبل أن يرتد طرفك حسيراً إذا أدمتَ النظر ، قاله مجاهد .

والرابع : بمقدار ما تفتح عينك ثم تطرف ، قاله الزجاج .

قال مجاهد : دعا فقال : ياذا الجلال والإكرام .

وقال ابن السائب : إنما قال : ياحيُّ ياقيُّوم .

قوله تعالى : ﴿ فلمَّا رآه ﴾ في الكلام محذوف ، تقديره : فدعا اللّهَ [فأُتيَ] به ، فلمَّا رآه ، يعني : سليمان ﴿ مستقِرّاً عنده ﴾ أي : ثابتاً بين يديه ﴿ قال هذا ﴾ يعني : التمكُّن من حصول المراد .

(145/578)

قوله تعالى : ﴿ أأشكُرُ أم أكفُر ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أأشكر على السرير إذ أُتيتُ به ، أم أكفر إذا رأيتُ من هو دوني في الدنيا أعلم مني ، قاله ابن عباس .

والثاني : أأشكر ذلك من فضل الله عليَّ ، أم أكفر نعمته بترك الشُّكر له ، قاله ابن جرير .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(146/578)

وقال القرطبى :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقال عبد الله بن شداد .

كانت بلقيس على فرسخ من سليمان لما قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ وكانت خلفت عرشها بسبأ ، ووكّلت به حفظة .

وقيل : إنها لما بعثت بالهدية بعثت رسلها في جندها لتغافص سليمان عليه السلام بالقتل قبل أن يتأهب سليمان لها إن كان طالب ملك ، فلما علم ذلك قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ .

قال ابن عباس : كان أمره بالإتيان بالعرش قبل أن يكتب الكتاب إليها ، ولم يكتب إليها حتى جاءه العرش .

وقال ابن عطية : وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء هديتها وردّه إياها ، وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأولين .

واختلفوا في فائدة استدعاء عرشها ؛ فقال قتادة : ذكر له بعظَم وجَوْدة فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم ؛ والإسلام على هذا الدِّين ؛ وهو قول ابن جريج .

وقال ابن زيد : استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله ، ويجعله دليلاً على نبوته ؛ لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب ؛ و ﴿ مسلِمِينَ ﴾ على هذا التأويل بمعنى مستسلمين ؛ وهو قول ابن عباس .

وقال ابن زيد أيضاً : أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتهتدي

﴾ .

وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان عليه السلام فيولد له منها ، فلا يزالون في السخرة والخدمة لنسل سليمان فقالت لسليمان في عقلها خلل ؛ فأراد أن يمتحنها بعرشها .

وقيل : (أراد) أن يختبر صدق الهدهد في قوله : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ قاله الطبري .

وعن قتادة : أحب أن يراه لما وصفه الهدهد .

والقول الأوّل عليه أكثر العلماء ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 38] .

ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يؤتى به إلا بإذنها .

(147/578)

روي أنه كان من فضة وذهب مرصعاً بالياقوت الأحمر والجوهر ، وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجن ﴾ كذا قرأ الجمهور وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفي ﴿ عِفْرِيَةٌ ﴾ ورويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

وفي الحديث : " إن الله يُبغِض العِفرِية النفرِية " إتباع لعفرية .

قال قتادة : هي الداهية قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء عِفر وعِفرية وعِفرِيت وعُفَارية .

وقيل : ﴿ عفريت ﴾ أي رئيس .

وقرأت فرقة : ﴿ قال عِفْرٌ ﴾ بكسر العين ؛ حكاه ابن عطية ؛ قال النحاس : من قال عفرية جمعه على عفار ، ومن قال : عفريت كان له في الجمع ثلاثة أوجه ؛ إن شاء قال عفريت ، وإن شاء قال عَفارٍ ؛ لأن التاء زائدة ؛ كما يقال : طواغٍ في جمع طاغوت ، وإن شاء عوض من التاء ياء فقال عَفارِي .

والعفريت من الشياطين القوي المارد .

والتاء زائدة .

وقد قالوا : تَعَفْرَتَ الرجل إذا تخلق بخلق الأذاية .

وقال وهب بن منبّه : اسم هذا العفريت كودن ؛ ذكره النحاس .

وقيل : ذكوان ؛ ذكره السُّهيلي .

وقال شعيب الجُبّائي : اسمه دعوان .

وروي عن ابن عباس أنه صخر الجني .

ومن هذا الاسم قول ذي الرُّمَّة :

كأنّه كوكبٌ في إثْرِ عِفْرِيةٍ . . .

مُصَوَّبٌ في سوادِ الليل مُنْقَضِبُ

وأنشد الكسائي :

إذ قال شيطانُهُمُ العِفريتُ . . .

ليس لكمْ مُلكٌ ولا تثبيتُ

وفي "الصحيح" عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن عفريتاً من الجن جعل يَفْتِك عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاةَ وإنّ الله أمكنني منه فدَعَتُّه " وذكر الحديث .

وفي البخاري " تَفلّت علي البارحةَ " مكان "جعل يَفْتِك" .

(148/578)

وفي "الموطأ" عن يحيى بن سعيد أنه قال : أُسرِي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار ، كلما التفت رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه ؛ فقال جبريل : أفلا أعلِّمك كلماتٍ تقولهنّ إذا قلتهنّ طُفِئت شعلته وخَرّ لفيه ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بلى" فقال : "أعوذ بالله الكريم وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر من شرّ ما ينزل من السماء وشرّ ما يَعرُج فيها (وشرّ ما ذرأ في الأرض

، وشر ما يخرج منها) ومن فِتَن الليل والنهار ومن طوارقِ الليل والنهار إلا طارقاً يَطرُق بخيرٍ يا رحمن" .

قوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ يعني في مجلسه الذي يحكم فيه .

﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ أي قويٌّ على حمله .

﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما فيه .

ابن عباس : أمين على فرج المرأة ؛ ذكره المهدوي .

فقال سليمان أريد أسرع من ذلك ؛ ف ﴿ قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل ، وكان صدّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أَعْطى ، وإذا دعي به أجاب .

وقالت عائشة رضي الله عنها قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا يا حيّ يا قيوُّم " قيل : وهو بلسانهم ، أهيا شراهيا ؛ وقال الزهري : دعاء الذي عنده اسم الله الأعظم ؛ يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحداً لا إله إلا أنت ايتني بعرشها ؛ فمثُلَ بين يديه .

وقال مجاهد : دعا فقال : يا إلهنا وإله كل شيء يا ذا الجلال والإكرام .

قال السُّهَيليّ : الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان ؛ وكان

عنده اسم الله الأعظم من أسماء الله تعالى .

وقيل : هو سليمان نفسه ؛ ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل .

(149/578)

قال ابن عطية : وقالت فرقة هو سليمان عليه السلام ، والمخاطبة في هذا التأويل للعفريت لما قال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ كأن سليمان استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ واستدلّ قائلو هذه المقالة بقول سليمان : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ .

قلت : ما ذكره ابن عطية قاله النحاس في معاني القرآن له ، وهو قول حسن إن شاء الله تعالى .

قال بحر : هو مَلَك بيده كتاب المقادير ، أرسله الله عند قول العفريت .

قال السُّهَيليّ : وذكر محمد بن الحسن المقرىء أنه ضَبَّة بن أُدّ ؛ وهذا لا يصح أَلبتة لأن ضَبَّة هو ابن أُدّ ابن طابخة ، واسمه عمرو بن إلياس بن مُضر بن نزار بن معَدّ : ومعدّ كان في مدة بختنصر ، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل ؛ فإذا لم يكن معدّ في عهد سليمان ، فكيف ضَبّة بن أدّ وهو بعده بخمسة آباء ؟! وهذا بيّن لمن تأمله .

ابن لِهِيَعة : هو الخضر عليه السلام .

وقال ابن زيد : الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر البحر ، خرج ذلك اليوم ينظر من ساكن الأرض ؛ وهل يعبد الله أم لا ؟ فوجد سليمان ، فدعا باسم من أسماء الله تعالى فجيء بالعرش .

وقول سابع : إنه رجل من بني إسرائيل اسمه يمليخا كان يعلم اسم الله الأعظم ؛ ذكره القشيري .

وقال ابن أبي بزة : الرجل الذي كان عنده علم من الكتاب اسمه أسطوم وكان عابداً في بني إسرائيل ؛ ذكره الغزنوي .

وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان عليه السلام ؛ أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم وليس ذلك كذلك ؛ إنما كان رجل من بني إسرائيل عالم آتاه الله علماً وفقهاً قال : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قال : هات .

قال : أنت نبيّ لله ابن نبي الله فإن دعوت الله جاءك به ، فدعا الله سليمان فجاءه الله بالعرش .

(150/578)

وقول ثامن : إنه جبريل عليه السلام ؛ قاله النّخَعي ؛ وروي عن ابن عباس .

وعلم الكتاب على هذا علمه بكتب الله المنزلة ، أو بما في اللوح المحفوظ .

وقيل : علم كتاب سليمان إلى بلقيس .

قال ابن عطية : والذي عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا ؛ روي أنه صلّى ركعتين ، ثم قال لسليمان : يا نبيّ الله امدد بصرك فمدّ بصره نحو اليمن فإذا بالعرش ، فما ردّ سليمان بصره إلا وهو عنده .

قال مجاهد : هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئاً حسيراً .

وقيل : أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف ، وهو كما تقول : افعل كذا في لحظة عين ؛ وهذا أشبه ؛ لأنه إن كان الفعل من سليمان فهو معجزة ، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهي كرامة ، وكرامة الوليّ معجزة النبيّ .

قال القشيريّ : وقد أنكر كرامات الأولياء من قال إن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان ، قال للعفريت : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

وعند هؤلاء ما فعل العفريت فليس من المعجزات ولا من الكرامات ، فإن الجن يقدرون على مثل هذا .

ولا يقطع جوهر في حال واحدة مكانين ، بل يتصوّر ذلك بأن يعدم الله الجوهر في أقصى الشرق ثم يعيده في الحالة الثانية ، وهي الحالة التي بعد العدم في أقصى الغرب .

أو يعدم الأماكن المتوسطة ثم يعيدها .

قال القشيري : ورواه وهب عن مالك .

وقد قيل : بل جيء به في الهواء ؛ قاله مجاهد .

وكان بين سليمان والعرش كما بين الكوفة والحيرة .

وقال مالك : كانت باليمن وسليمان عليه السلام بالشام .

وفي "التفاسير" : انخرق بعرش بلقيس مكانه الذي هو فيه ثم نبع بين يدي سليمان ؛ قال عبد الله بن شدّاد : وظهر العرش من نفق تحت الأرض ؛ فالله أعلم أيّ ذلك كان .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ أي ثابتاً عنده .

﴿ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ أي هذا النصر والتمكين من فضل ربي .

(151/578)

﴿ ليبلوني ﴾ قال الأخفش : المعنى لينظر ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ .

وقال غيره : معنى ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ ليتعبدني ؛ وهو مجاز .

والأصل في الابتلاء الاختبار أي ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه ، حيث استوجب بشكره تمام النعمة

ودوامها والمزيد منها .

والشكر قيد النعمة الموجودة ، وبه تنال النعمة المفقودة .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ أي عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ في التفضل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(152/578)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) ﴾

في الكلام حذف تقديره : فرجع المرسل إليها بالهدية ، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان ، فتجهزت للمسير إليه ، إذ علمت أنه نبي ولا طاقة لها بقتال نبي .

فروي أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان ، فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات ، بعضها في جوف بعض ، في آخر قصر من قصورها ، وغلقت الأبواب ووكلت به حراساً يحفظونه ، وتوجهت إلى سليمان في أقيالها وأتباعهم .

قال عبد الله بن شداد : فلما كانت على فرسخ من سليمان ، قال : ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ ؟ وقال ابن عباس : كان سليمان مهيباً ، لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل

عنه .

فنظر ذات يوم رهجاً قريباً منه فقال : ما هذا ؟ فقالوا : بلقيس ، فقال ذلك .

واختلفوا في قصد سليمان استدعاء عرشها .

فقال قتادة ، وابن جريج : لما وصف له عظم عرشها وجودته ، أراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويمنع أخذ أموالهم ، والإسلام على هذا الدين ، وهذا فيه بعد أن يقع ذلك من نبي أوتي ملكاً لم يؤته غيره .

وقال ابن عباس ، وابن زيد : استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله ، وليغرب عليها سليمان والإسلام على هذا الاستسلام .

وأشار الزمخشري لقول فقال : ولعله أوحي إليه عليه السلام باستيثاقها من عرشها ، فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه به من إجراء العجائب على يده ، مع اطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى ، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان ويصدقها . انتهى .

وقال الطبري : أراد أن يختبر صدق الهدهد في قوله : ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ ، وهذا فيه بعد ، لأنه قد ظهر صدقة في حمل الكتاب ، وما ترتب على حمله من مشورة بلقيس قومها وبعثها بالهدية .

وقيل : أراد أن يؤتي به ، فينكر ويغير ، ثم ينظر أتثبته أم تنكره ، اختباراً لعقلها .

والظاهر ترتيب هذه الأخبار على حسب ما وقعت في الوجود ، وهو قول الجمهور .

وعن ابن عباس أنه قال : ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ ؟ حين ابتدأ النظر في صدق الهدهد من كذبه لما قال : ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ .

ففي ترتيب القصص تقديم وتأخير ، وفي قوله : ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ دليل على جواز الاستعانة ببعض الاتباع في مقاصد الملوك ، ودليل على أنه قد يخص بعض أتباع الأنبياء بشيء لا يكون لغيرهم ، ودليل على مبادرة من طلبه منه الملوك قضاء حاجة ، وبداءة الشياطين في التسخير على الإنس ، وقدرتهم بأقدار الله على ما يبعد فعله من الإنس .

وقرأ الجمهور : عفريت ، وأبو حيوة : بفتح العين .

وقرأ أبو رجاء ، وأبو السماك ، وعيسى ، ورويت عن أبي بكر الصديق : عفرية ، بكسر العين ، وسكون الفاء ، وكسر الراء ، بعدها ياء مفتوحة ، بعدها تاء التأنيث .

وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب في إثر عفرية . . .

مصوّب في سواد الليل مقتضب

وقرأت فرقة : عفر ، بلا ياء ولا تاء ، ويقال في لغة طيىء وتميم : عفراة بالألف وتاء التأنيث

، وفيه لغة سادسة عفارية ، ويوصف بها الرجل ، ولما كان قد يوصف به الإنس خص بقوله من الجن .

وعن ابن عباس : اسمه صخر .

وقيل : كوري .

وقيل : ذكران .

و ﴿ آتيك ﴾ : يحتمل أن يكون مضارعاً واسم فاعل .

وقال قتادة ، ومجاهد ، ووهب : ﴿ من مقامك ﴾ : أي من مجلس الحكم ، وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم .

وقيل : قبل أن تستوي من جلوسك قائماً .

﴿ وإني عليه ﴾ : أي على الإتيان به لقوي على حمله ؛ ﴿ أمين ﴾ : لا أختلس منه شيئاً .

قال الحسن : كان كافراً ، لكنه كان مسخراً ، والعفريت لا يكون إلا كافراً .

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ ، قيل : هو من الملائكة ، وهو جبريل ، قاله النخعي .

والكتاب : اللوح المحفوظ ، أو كتاب سليمان إلى بلقيس .

وقيل : ملك أيد الله به سليمان .

وقيل : هو رجل من الإنس ، واسمه آصف بن برخيا ، كاتب سليمان ، وكان صديقاً عالماً قاله الجمهور .

أو اسطوام ، أو هود ، أو مليخا ، قاله قتادة .

(154/578)

أو اسطورس ، أو الخضر عليه السلام ، قاله ابن لهيعة .

وقالت جماعة : هو ضبة بن ادجد بني ضبة ، من العرب ، وكان فاضلاً يخدم سليمان ، كان على قطعة من خيله ، وهذه أقوال مضطربة ، وقد أبهم الله اسمه ، فكان ينبغي أن لا يذكر اسمه حتى يخبر به نبي .

ومن أغرب الأقوال أنه سليمان عليه السلام ، كأنه يقول لنفسه : ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ ، أو يكون خاطب بذلك العفريت ، حكى هذا القول الزمخشري وغيره ، كأنه استبطأ ما قال العفريت ، فقال له سليمان ذلك على تحقير العفريت .

والكتاب : هو المنزل من عند الله ، أو اللوح المحفوظ ، قولان .

والعلم الذي أوتيه ، قال : اسم الله الأعظم وهو : يا حي يا قيوم .

وقيل : يا ذا الجلال والإكرام .

وقيل بالعبرانية : أهيا شراهيا .

وقال الحسن : الله ثم الرحمن .

والظاهر أن ارتداد الطرف حقيقة ، وأنه أقصر في المدة من مدة العفريت ، ولذلك روي أن سليمان قال : أريد أسرع من ذلك حين أجابه العفريت ، ولما كان الناظر موصوفاً بإرسال البصر ، كما قال الشاعر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً . . .

لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

وصف برد الطرف ، ووصف الطرف بالارتداد .

فالمعنى أنك ترسل طرفك ، فقبل أن ترده أتيتك به ، وصار بين يديك .

فروي أن آصف قال لسليمان عليه السلام : مد عينيك حتى ينتهي طرفك ، فمد طرفه فنظر نحو اليمن ، فدعا آصف فغاب العرش في مكانه بمأرب ، ثم نبع عند مجلس سليمان بالشام بقدرة الله ، قبل أن يرد طرفه .

وقال ابن جبير ، وقتادة : قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه في أبعد ما ترى .

وقال مجاهد : قبل أن تحتاج إلى التغميض ، أي مدة ما يمكنك أن تمد بصرك دون تغميض ، وذلك ارتداده .

قال ابن عطية : وهذان القولان يقابلان قول من قال : إن القيام هو من مجلس الحكم ، ومن قال : إن القيام هو من الجلوس ، فيقول في ارتداد الطرف هو أن تطرف ، أي قبل أن تغمض عينيك وتفتحهما ، وذلك أن الثاني يعطي الأقصر في المدة ولا بد . انتهى .

وقيل : طرفك مطروفك ، أي قبل أن يرجع إليك من تنظر إليه من منتهى بصرك ، وهذا هو قول ابن جبير وقتادة المتقدم ، لأن من يقع طرفك عليه هو مطروفك .

وقال الماوردي : قبل أن ينقبض إليك طرفك بالموت ، فخبره أنه سيأتيه قبل موته ، وهذا تأويل بعيد ، بل المعنى آتيك به سريعاً .

وقيل : ارتداد الطرف مجاز هنا ، وهو من باب مجاز التمثيل ، والمراد استقصار مدة الإتيان به ، كما تقول لصاحبك : افعل كذا في لحظة ، وفي ردة طرف ، وفي طرفة عين ، تريد به السرعة ، أي آتيك به في مدة أسرع من مدة العفريت .

﴿ فلما رآه مستقراً ﴾ عنده : في الكلام حذف تقديره : فدعا الله فأتاه به ، فلما رآه : أي عرش بلقيس .

قيل : نزل على سليمان من الهواء .

وقيل : نبع من الأرض .

وقيل : من تحت عرش سليمان ، وانتصب مستقراً على الحال ، وعنده معمول له .

والظرف إذا وقع في موضع الحال ، كان العامل فيه واجب الحذف .

فقال ابن عطية : وظهر العامل في الظرف من قوله : ﴿ مستقراً ﴾ ، وهذا هو المقدر أبداً في كل ظرف وقع في موضع الحال .

وقال أبو البقاء : ومستقراً ، أي ثابتاً غر متقلقل ، وليس بمعنى الحضور المطلق ، إذ لو كان كذلك لم يذكر . انتهى .

فأخذ في مستقراً أمراً زائداً على الاستقرار المطلق ، وهو كونه غير متقلقل ، حتى يكون مدلوله غير مدلول العندية ، وهو توجيه حسن لذكر العامل في الظرف الواقع حالاً ؛ وقد قدر ذكر العامل في ما وقع خبراً من الجار والمجرور التام في قول الشاعر :

لك العزان مولاك عزوان يهن . . .

فأنت لدى بحبوحة الهون كائن

(156/578)

﴿ قال هذا من فضل ربي ﴾ : أي هذا الإتيان بعرشها ، وتحصيل ما أردت من ذلك ، هو من فضل ربي عليّ وإحسانه ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴾ .

قال ابن عباس : المعنى أأشكر على السرير وسوقه أم أكفر ؟ إذ رأيت من هو دوني في

الدنيا أعلم مني . انتهى .

وتلقى سليمان النعمة وفضل الله بالشكر ، إذ ذاك نعمة متجددة ، والشكر قيد للنعم .

وأأشكر أم أكفر في موضع نصب ليبلوني ، وهو معلق ، لأنه في معنى التمييز ، والتمييز في معنى العلم ، وكثير التعليق في هذا الفعل إجراء له مجرى العلم ، وإن لم يكن مرادفاً له ، لأن مدلوله الحقيقي هو الاختبار .

﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ : أي ذلك الشكر عائد ثوابه إليه ، إذ كان قد صان نفسه عن كفران النعمة ، وفعل ما هو واجب عليه من شكر نعمة الله عليه .

﴿ ومن كفر ﴾ : أي فضل الله ونعمته عليه ، فإن ربي غني عن شكره ، لا يعود منفعتها إلى الله ، لأنه هو الغني المطلق الكريم بالإنعام على من كفر نعمته .

والظاهر أن قوله : ﴿ فإن ربي غني كريم ﴾ هو جواب الشرط ، ولذلك أضمر فاء في قوله : ﴿ غني ﴾ ، أي عن شكره .

ويجوز أن يكون الجواب محذوفاً دل عليه ما قبله من قسيمه ، أي ومن كفر فلنفسه ، أي ذلك الكفر عائد عقابه إليه .

ويجوز أن تكون ما موصولة ، ودخلت الفاء في الخبر لتضمنها معنى الشرط . انتهى انتهى .

اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

ثم قال سليمان لجَمْعِه ﴿ يا أيها الملأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ .

قال ابن زيد : وغرضُه في استدعاءِ عرشِها ؛ أن يُرِيَها القدرةَ التي من عندِ اللّهِ وليغرب عليها ، و ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ في هذا التأويل بمعنى : مُسْتَسْلِمِينَ ، ويحتمل أُنْ يكونَ بمعنى الإسلام .

وقال قتادة : كان غرضُ سليمانَ عليه السلام قبل أن يَعْصِمَهُم الإسلامُ ؛ فالإسلامُ على هذا التأويل يراد به الدين .

* ت * : والتأويل الأول أَلْيَقُ بِمَنْصِبِ النُّبُوَّةِ ، فيتعينُ حملُ الآيةِ عليه ، والله أعلم .

ورُوِي أن عرشِهَا كانَ من ذهبٍ وفضةٍ ؛ مُرَصَّعاً بالياقوتِ والجَوْهرِ ، وأنه كان في جوفِه سبعةُ أبياتٍ عليها سَبْعة أغلاقٍ . والعِفْرِيتُ هو من الشياطين ؛ القويُّ الماردُ .

وقوله : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : معناه : قبل قيامِك من مجلس الحكم وكان يجلس من الصبح إلى وقتَ الظهرِ في كل يوم ، وقيل : معناه : قبل أَنْ تستويَ من جلوسِكَ قَائِماً . وقول الذي عنده علم من الكتاب : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قال ابن جبير وقتادة : معناه : قبل أن يصل إليكَ مَنْ يَقَعُ طَرْفُكَ عَلَيْهِ في أبعد ما ترى . وقال مجاهد : معناه : قبل أن تحتاج إلى التغميض ، أي : مدة ما يمكنك أن تمد

ببصرك دون تغميض ؛ وذلك ارتداده .

قال *ع* : وهذانِ القولانِ يقابلانِ القولينِ قبلَهما .

(158/578)

وقوله : ﴿ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ معناه : قويٌّ على حمله ؛ أمين على ما فيه . ويُرْوَى أنَّ الجنَّ كَانَتْ تُخْبِرُ سليمانَ بمَنَاقِل سَيْرِ بلقيس ، فلما قربَتْ ، قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ فدعا الذي عنده علم من التوراة ، وهو الكتاب المشار إليه باسم اللّه الأعظم ؛ الذي كانت العادة في ذلك الزمان أن لا يدعو به أحد ، إلا أجيب ، فشقت الأرض بذلك العرشِ ، حتَّى نَبَعَ بَيْنَ يَدَيْ سليمانَ عليه السلام : وقيل : بل جِيءَ به في الهواءِ . وجمهورُ المفسرين على أن هذا الذي عنده علم من الكتاب كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا ، روي أنه صلى ركعتين ، ثم قال لسليمان عليه السلام : يا نبي اللّه ؛ امدد بصرك نحوَ اليَمَنِ ، فمد بصره ؛ فإذا بالعرش ، فما رد سليمان بَصره إلا وهو عنده . وقال قتادة : اسمه بلخيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(159/578)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الملأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾

قالَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لما دَنا مجيءُ بلقيسَ إليه عليه الصَّلاة والسَّلام . يُروى أَنَّه لَمَّا رجعتْ رسلُها إليها بما حُكي من خبرِ سُليمانَ عليه السَّلام ، قالتْ قد علمتُ واللهِ ما هذا بملكٍ ولا لنا به من طاقةٌ ، وبعثتْ إلى سُليمانَ عليه السَّلام إنِّي قادمةٌ إليكَ بملوكِ قَوْمي حتى أنظرَ ما أمرُك وما تدعُو إليهِ من دينِك ثمَّ آذنتْ بالرَّحيلِ إلى سُليمانَ عليه السَّلامُ فشخصتْ إليه في اثني عشرَ ألفاً قيل : تحتَ كلِّ قَيْلٍ ألوفٌ ويُروى أَنَّها أمرتْ فجُعِلَ عرشُها في آخرِ سبعةِ أبياتٍ بعضُها في بعضٍ في آخرِ قصرٍ من قصورٍ سبعةٍ لها وغلَّقتِ الأبوابَ ووكَّلتْ به حَرَساً يحفظونَهُ ولعَلَّه أُوحيَ إلى سُليمانَ عليه السَّلامُ باستيثاقِها من عرشِها فأرادَ أنْ يُريها بعضَ ما خصَّه اللهُ عزَّ سلطانُه به من إجراءِ التعاجيبِ على يدِهِ مع إطلاعِها على عظيمِ قدرتِه تعالى وصحَّةِ نبُوتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ويختبرَ عقلَها بأنْ يُنكِّرَ عرشَها فينظرَ أتعرفُه أم لا . وتقييدُ الإتيانِ به بقولِه تعالى : ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ لِمَا أنَّ ذلكَ أبدعُ وأغربُ وأبعدُ من الوقوعِ عادةً وأدلُّ على عظمِ قُدرةِ اللهِ تعالى وصحَّةِ نبُوتِه عليه الصَّلاة والسَّلام وليكونَ اختبارُها وإطلاعُها على بدائعِ المعجزاتِ في أولِ مجيئِها . وقيلَ : لأنَّها إذا أتتْ مُسلمةً لم يحلَّ له أخذُ مالِها بغيرِ رضاها .

(160/578)

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ ﴾ أي ماردٌ خبيثٌ ﴿ مّن الجن ﴾ بيانٌ له إذْ يقالُ للرجلِ الخبيثِ المنكرِ المعفرِ لأقرانِه وكان اسمُه ذكوانَ أو صخراً ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ ﴾ أي بعرشِها ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أي من مجلِسك للحكومةِ وكان يجلسُ إلى نصفِ النّهار . وآتيكَ إمّا صيغةُ المضارعِ أو الفاعلِ وهو الأنسبُ لمقامِ ادّعاءِ الإتيانِ به لا محالةَ وأوفقُ لما عُطفَ عليه من الجملةِ الاسميةِ أي أنا آتٍ به في تلك المُدّةِ ألبتةَ ﴿ وَإِنّى عَلَيْهِ ﴾ أي على الإتيانِ به ﴿ لَقَوِىٌّ ﴾ لا يثقلُ عليَّ حملُه ﴿ أَمِينٌ ﴾ لا أختزلُ منه شيئاً ولا أُبدّلُه .

(161/578)

﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الكتاب ﴾ فُصلَ عمّا قبلَه للإيذانِ بما بينَ القائلين ، ومقاليهما وكيفيّتي قدرتِهما على الإتيانِ من كمالِ التباينِ ، أو لإسقاطِ الأولِ عن درجةِ الاعتبارِ . قيلَ هو آصِفُ بنُ برَخيا وزيرُ سليمانَ عليه السّلام ، وقيل رجلٌ كان عنده اسمُ الله الأعظمُ الذي إذا سُئل به أجابَ وقيل الخَضِرُ أو جبريلُ أو مَلَكٌ أيّده الله عزَّ وجلَّ به عليهم

السَّلام ، وقيل هو سُليمانُ نفسُه عليه السَّلام وفيه بُعدٌ لا يَخْفى والمرادُ بالكتابِ الجنسُ المنتظمُ لجميعِ الكتبِ المنزلةِ أو اللوحُ ، وتنكيرُ عِلْمٌ للتفخيمِ والرمزِ إلى أنَّه علمٌ غيرُ معهودٍ ومن ابتدائيةٌ ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ الطَّرفُ تحريكُ الأجفانِ وفتحُها للنَّظرِ إلى شيءٍ وارتدادُه انضمامُهما ولكونِه أمراً طبيعياً غيرَ منوطٍ بالقصدِ أُوثر الارتدادُ على الردِّ ولمَّا لم يكُنْ بينَ هذا الوعدِ وإنجازه مدةٌ كما في وعدِ العفريتِ استغنى عن التأكيدِ وطُوي عند الحكايةِ ذكرُ الإتيانِ به للإيذانِ بأنَّه أمرٌ متحققٌ غنيٌّ عن الإخبارِ به وجيءَ بالفاءِ الفصيحةِ لا داخلةً على جملةٍ معطوفةٍ على جملةٍ مقدرةٍ دالةٍ على تحققِه فقط كما في قولِه عزَّ وجلَّ :

﴿ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق ﴾ ونظائِره بل داخلةً على الشرطيةِ حيثُ قيل :

(162/578)

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ أيْ رأى العرشَ حاضراً لديهِ كما في قولِه عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ للدلالةِ على كمالِ ظهورِ ما ذُكر مِن تحققِه واستغنائِه عن الإخبارِ به ببيانِ ظهورِ ما يترتبُ عليه من رؤيةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ إيَّاهُ واستغنائِه أيضاً عن التصريحِ به إذِ التَّقديرُ فأتاه به فرآهُ فلمَّا رآه الخ فحذفَ ما حُذف لما ذُكر وللإيذانِ بكمالِ سرعةِ

الإتيانِ به كأنَّه لم يقعْ بينَ الوعدِ به وبين رؤيتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه شيءٌ ما أصلاً ، وفي تقييدِ رؤيتِه باستقرارِه عندَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تأكيدٌ لهذا المَعْنى لإيهامِه أنَّه لم يتوسط بينَهما ابتداء الإتيانِ أيضاً كأنَّه لم يزلْ موجُوداً عندَهُ معَ ما فيه من الدّلالةِ على دوامِ قرارِه عنده مُنتظماً في سلكِ مُلكه ﴿ قَالَ ﴾ أيْ سليمانُ عليه السَّلامُ تلقياً للنعمةِ بالشُّكرِ جرياً على سَنَن أبناءِ جنسِه من أنبيا الله تعالى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وخلَّصِ عبادِه ﴿ هذا ﴾ أي حضورُ العرشِ بين يديه في هذهِ المُدَّة القصيرةِ أو التمكنُ من إحضارِه بالواسطةِ أو بالذاتِ كما قيلَ : ﴿ مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ أي تفضله عليَّ من غيرِ استحقاقٍ له من قِبلي : ﴿ لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ ﴾ بأنْ أراهُ محضَ فضلِه تعالى من غيرِ حولٍ من جهتي ولا قوةٍ وأقومَ بحقِّه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بأنْ أجدَ لنفسي مدخلاً في البينِ أو أقصّر في إقامةِ مواجبه كما هو شأنُ سائرِ النعمِ الفائضةِ على العبادِ ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأنَّه يرتبطُ به عتيدُها ويُستجلبُ به مزيدُها ويحطُّ بِهِ عن ذمَّته عبءَ الواجبِ ويتخلصُ عن وصمةِ الكُفرانِ ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أيْ لم يشكُرْ ﴿ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ عن شُكرِه ﴿ كَرِيمٌ ﴾ بتركِ تعجيلِ العقوبةِ والإنعامِ مع عدمِ الشكرِ أيضاً . انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(163/578)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) ﴾

في الكلام حذف أي فرجع الرسول إليها وأخبرها بما أقسم عليه سليمان فتجهزت للمسير إليه إذ علمت أنه نبي ولا طاقة لها بقتاله ، فروي أنها أمرت عند خروجها فجعل عرضها في آخر سبعة أبيات بعضها في جوف بعض في آخر قصر من قصورها وغلقت الأبواب ووكلت به حراساً يحفظونه وتوجهت إلى سليمان في أقيالها وأتباعهم وأرسلت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ، قال عبد الله بن شداد : فلما كانت على فرسخ من سليمان قال : أيكم يأتيني بعرشها .

وعن ابن عباس كان سليمان مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه فنظر ذات يوم رهجاً قريباً منه فقال : ما هذا ؟ فقالوا : بلقيس فقال : أيكم الخ ، ومعنى مسلمين على ما روي عنه طائعين ، وقال بعضهم : هو بمعنى مؤمنين ، واختلفوا في مقصوده عليه السلام من استدعائه عرشها ، فعن ابن عباس .

وابن زيد أنه عليه السلام استدعى ذلك ليريها القدرة التي هي من عند الله تعالى وليغرب عليها ، ومن هنا قال في "الكشاف" : لعله أوحى إليه عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده

مع اطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمان عليه السلام ويصدقها انتهى ؛ وتقييد الإتيان بقوله : ﴿ قَبْلُ ﴾ الخ لما أن ذلك أبدع وأغرب وأبعد من الوقوع عادة وأدل على عظيم قدرة الله عز وجل وصحة نبوته عليه السلام وليكون اطلاعها على بدائع المعجزات في أول مجيئها .

(164/578)

وقال الطبري : أراد عليه السلام أن يختبر صدق الهدهد في قوله : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23] واستبعد ذلك لعدم احتياجه عليه السلام إلى هذا الاختبار فإن أمارة الصدق في ذلك في غاية الوضوح لديه عليه السلام لا سيما إذا صح ما روي عن وهب . وغيره .

وقيل : أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختباراً لعقلها .

وقال قتادة : وابن جريج : إنه عليه السلام أراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإيمان ويمنع أخذ أموالهم .

قال في "الكشف" : فيه أن حل الغنائم مما اختص به نبينا صلى الله عليه وسلم ، وقال في التحقيق لا يناسب رد الهدية .

وتعليله بقوله : ﴿ فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ [النمل : 36] .

وأجيب بأن هذا ليس من باب أخذ الغنائم وإنما هو من باب أخذ مال الحربي والتصرف بغير رضاه مع أن الظاهر أنه بوحي فيجوز أنه من خصوصياته لحكمة ولم يكن ذلك هدية لها حتى لا يناسب الرد السابق وفيه بحث ، ولعل الألصق بالقلب أن ذاك لينكره فيمتحنها اختباراً لعقلها مع إراءتها بعض خوارقه الدالة على صحة نبوته وعظيم قدرة الله عز وجل .

ثم الظاهر أن هذا القول بعد رد الهدية وهو الذي عليه الجمهور .

وفي رواية عن ابن عباس أنه عليه السلام قال ذلك حين ابتدأ النظر في صدق الهدهد من كذبه لما قال : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23] ففي ترتيب القصص تقديم وتأخير وأظن أنه لا يصح هذا عن ابن عباس .

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ ﴾ أي خبيث مارد ﴿ مّن الجن ﴾ بيان له إذ يقال للرجل الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ، وقرأ أبو حيوة ﴿ عِفْرِيتٌ ﴾ بفتح العين .

وقرأ أبو رجاء .

وأبو السمال .

وعيسى ورويت عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ﴿ عفرية ﴾ بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء بعدها ياء مفتوحة بعدها تاء التأنيث ، وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب في أثر عفرية . . .

مصوب في سواد الليل منقضب

(165/578)

وقرأ فرقة ﴿ عفر ﴾ بلا ياء ولا تاء ويقال في لغة طيء وتميم : عفراة بألف بعدها تاء التأنيث ، وفيه لغة سادسة عفارية ؛ وتاء عفريت زائدة للمبالغة في المشهور .

وفي النهاية الياء في عفرية وعفارية للإلحاق بشرذمة وعذافرة والهاء فيهما للمبالغة والتاء في عفريت للإلحاق بقنديل اه .

واسم هذا العفريت على ما أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس صخر .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن جرير عن شعيب الجبائي أن اسمه كوزن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان أن اسمه كوزي .

وقيل : اسمه ذكوان ﴿ الجن أَنَا ءاتِيكَ بِهِ ﴾ أي بعرشها ، وآتي يحتمل أن يكون مضارعاً

وأن يكون اسم فاعل .

قيل : وهو الأنسب بمقام ادعاء الإتيان به في المدة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أي من مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة وكان عليه السلام يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم قاله قتادة .

ومجاهد .

ووهب .

وزهير بن محمد .

وقيل : أي قبل أن تستوي من جلوسك قائماً ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ ﴾ لا يثقل على حمله .

والقوة صفة تصدر عنها الأفعال الشاقة ويطيق بها من قامت به لتحمل الأجرام العظيمة ولذا اختير قوي على قادر هنا ، وظاهر كلام بعضهم أن في الكلام حذفاً فمنهم من قال : أي على حمله ومنهمق ال : أي على الإتيان به ، ورجح الثاني بالتبادر نظراً إلى أول الكلام .

والأول بأنه أنسب بقوله لقوي ﴿ أَمِينٌ ﴾ لا أقتطع منه شيئاً ولا أبدله .

﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب ﴾

فصله عما قبله للإيذان بما بين القائلين ومقالتيهما وكيفيتي قدرتيهما على الإتيان به من كمال التباين أو لإسقاط الأول عن درجة الاعتبار .

واختلف في تعيين هذا القائل فالجمهور ومنهم ابن عباس .

ويزيد بن رومان .

(166/578)

والحسن على أنه آصف بن برخيا بن شمعيا بن منكيل ، واسم أمه باطورا من بني إسرائيل كان وزير سليمان على المشهور ، وفي "مجمع البيان" أنه وزيره وابن أخته وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم ، وقيل كان كاتبه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أنه رجل اسمه اسطوم ، وقيل : اسطورس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد أنه رجل يقال له ذو النور .

وأخرج هو أيضاً عن ابن لهيعة أنه الخضر عليه السلام ، وعن قتادة أن اسمه مليخا ؛ وقيل : ملخ .

وقيل : تمليخا .

وقيل : هود .

وقالت جماعة هو ضب بن أد جد بني ضبة من العرب وكان فاضلاً يخدم سليمان كان على قطعة من خيله ، وقال النخعي هو جبريل عليه السلام ، وقيل : هو ملك آخر أيد الله

تعالى به سليمان عليه السلام ، وقال الجبائي : هو سليمان نفسه عليه السلام .

ووجه الفصل عليه واضح فإن الجملة حينئذٍ مستأنفة استئنافاً بيانياً كأنه قيل : فما قال سليمان عليه السلام حين قال العفريت ذلك ؟ فقيل : قال الخ ويكون التعبير عنه بما في "النظم الكريم" للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه ، ويكون الخطاب في قوله : ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ للعفريت وإنما لم يأت به أولاً بل استفهم القوم بقوله : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ [النمل : 38] ثم قال ما قال وأتى به قصداً لأن يريهم أنه يتأتى له ما لا يتهيأ لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم .

وتخصيص الخطاب بالعفريت لأنه الذي تصدى لدعوى القدرة على الإتيان به من بينهم ، وجعله لكل أحد كما في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدنى أَن لا تَعُولُواْ ﴾ [النساء : 3] غير ظاهر بالنسبة إلى ما ذكر .

وآثر هذا القول الإمام وقال إنه أقرب لوجوه .

(167/578)

الأول : إن الموصول موضوع في اللغة لشخص معين بمضمون الصلة المعلومة عند المخاطب والشخص المعلوم بأن عنده علم الكتاب هو سليمان وقد تقدم في هذ السورة ما يستأنس

به لذلك فوجب إرادته وصرف اللفظ إليه وآصف وإن شاركه في مضمون الصلة لكن هو فيه أتم لأنه نبي وهو أعلم بالكتاب من أمته .

الثاني : إن إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لأحد من أمته دونه لاقتضى تفضيل ذلك عليه عليه السلام وأنه غير جائز .

الثالث : أنه لو افتقر في إحضاره إلى أحد من أمته لاقتضى قصور حاله في أعين الناس .

الرابع : أن ظاهر قوله عليه السلام فيما بعد ﴿ هذا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ الخ يقتضي أن ذلك الخارق قد أظهره الله تعالى بدعائه عليه السلام اه .

وللمناقشة فيه مجال .

واعترض على هذا القول بعضهم بأن الخطاب في ﴿ ءاتِيكَ ﴾ يأباه فإن حق الكلام عليه أن يقال : أنا آتي به قبل أن يرتد إلى الشخص طرفه مثلاً ، وقد علمت دفعه .

وبأن المناسب أن يقال فيما بعد فلما أتى به دون ﴿ فَلَمَّا رَءاهُ ﴾ الخ .

وأجيب عن هذا بأن قوله ذاك للإشارة إلى أنه لا حول ولا قوة له فيه ، ولعل الأظهر أن القائل أحد أتباعه .

ولا يلزم من ذلك أنه عليه السلام لم يكن قادراً على الإتيان به كذلك فإن عادة الملوك تكليف أتباعهم بمصالح لهم لا يعجزهم فعلها بأنفسهم فليكن ما نحن فيه جارياً على هذه العادة ،

ولا يضر في ذلك كون الغرض مما يتم بالقول وهو الدعاء ولا يحتاج إلى أعمال البدن وأتعابه كما لا يخفى .

(168/578)

وفي فصوص الحكم كان ذلك على يد بعض أصحاب سليمان عليه السلام ليكون أعظم لسليمان في نفوس الحاضرين ، وقال القيصري : كان سليمان قطب وقته ومتصرفاً وخليفة على العالم وكان آصف وزيره وكان كاملاً وخوارق العادات قلما تصدر من الأقطاب والخلفاء بل من وراثهم وخلفائهم لقيامهم بالعبودية التامة واتصافهم بالفقر الكلي فلا يتصرفون لأنفسهم في شيء ، ومن منن الله تعالى عليهم أن يرزقهم صحبة العلماء الأمناء يحملون منهم أثقالهم وينذفون أحكامهم وأقوالهم اه ، وما في الفصوص أقرب لمشرب أمثالها على أن ما ذكر لا يخلو عن بحث على مشرب القوم أيضاً .

وفي "مجمع البيان" روى العياشي بإسناده قال : التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى . ويحيى بن أكثم فسأله عن مسائل منها : هل كان سليمان محتاجاً إلى علم آصف ؟ فلم يجب حتى سأل أخاه علي بن محمد فقال : اكتب له لم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف لكنه عليه السلام أحب أن يعرف أمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده ، وذلك

من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله تعالى ذلك لئلا يختلف في إمامته كما فهم سليمان في حياة داود لتعرف إمامته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق اه وهو كما ترى .

والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة ؛ وقيل : اللوح المحفوظ ، وكون المراد به ذلك على جميع الأقوال السابقة في الموصول بعيد جداً ، وقيل : المراد به الذي أرسل إلى بلقيس ، ومن ابتدائية وتنكير ﴿ عِلْمٍ ﴾ للتفخيم والرمز إلى أنه علم غير معهود ، قيل : كان ذلك العلم باسم الله تعالى الأعظم الذي إذا سئل به أجاب ، وقد دعا ذلك العالم به فحصل غرضه ، وهو يا حي يا قيوم ، وقيل يا ذا الجلال والإكرام ، وقيل الله الرحمن وقيل : هو بالعبرانية آهياً شراهياً .

وأخرج ابن جرير .

(169/578)

وابن أبي حاتم عن الزهري أنه دعا بقوله : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها ، والطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر إلى شيء ثم تجوز به عن النظر وارتداده انقطاعه بانضمام الأجفان ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد ، فالمعنى آتيك به قبل أن ينضم جفن عينك بعد فتحه ، وقيل : لا حاجة إلى

اعتبار التجوز في الطرف إذ المراد قبل ارتداد تحريك الأجفان بطبقها بعد فتحها وفيه نظر ، والكلام جار على حقيقته وليس من باب التمثيل للسرعة ، فقد روي أن آصف قال لسليمان عليه السلام : مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد طرفه فنظر نحو اليمن فقبل أن يرتد إليه حضر العرش عنده .

وقيل : هو من باب التمثيل فيحتمل أن يكون قد أتى به في مدة طلوع درجة أو درجتين أو نحو ذلك .

وعن ابن جبير .

وقتادة أن الطرف بمعنى المطروف أي من يقع إليه النظر ، وأن المعنى قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه في أبعد ما ترى إذا نظرت أمامك وهو كما ترى ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ أي فلما رأى سليمان عليه السلام العرش ساكناً عنده قاراً على حاله التي كان عليها ﴿ قَالَ ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر جرياً على سنن إخوانه الأنبياء عليهم السلام وخلص عباد الله عز وجل ﴿ هذا ﴾ أي الإتيان بالعرش أو حضوره بين يدي في هذه المدة القصيرة ، وقيل : أي التمكن من إحضاره بالواسطة أو بالذات ﴿ مِن فَضْلِ رَبّى ﴾ أي تفضله جل شأنه على من غير استحقاق ذاتي لي له ولا عمل مني يوجبه عليه سبحانه وتعالى ، وفي الكلام حذف أي فأتاه به فرآه فلما رآه الخ وحذف ما حذف للدلالة على كمال ظهوره واستغنائه عن الإخبار به وللإيذان بكمال سرعة الإتيان به كأنه لم يقع بين

الوعد به ورؤيته عليه السلام إياه شيء ما أصلاً ، وفي تقييد رؤيته باستقراره عنده تأكيد لهذا المعنى لإيهامه أنه لم يتوسط بينهما ابتداء الإتيان أيضاً كأنه لم يزل موجوداً عنده .

(170/578)

فمستقراً منتصب على الحال و﴿ عِندَهُ ﴾ متعلق به .

وهو على ما أشرنا إليه كون خاص ولذا ساغ ذكره .

وظن بعضهم أنه كون عام فأشكل عليهم ذكره مع قول جمهور النحاة : إن متعلق الظرف إذا كان كوناً عاماً وجب حذفه فالتزم بعضهم لذلك كون الظرف متعلقاً براءه لا به .

ومنهم من ذهب كابن مالك إلى أن حذف ذلك أغلبي وأنه قد يظهر كما في هذه الآية .

وقوله :

لك العز إن مولاك عز وإن يهن . . .

فأنت لدى بحبوحة الهون كائن

وأنت تعلم أنه يمكن اعتبار ما في البيت كوناً خاصاً كالذي في الآية .

وفي كيفية وصول العرش إليه عليه السلام حتى رآه مستقراً عنده خلاف .

فأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر .

وابن عساكر عن ابن عباس أنه قال لم يجر عرش صاحبة سبأ بين السماء والأرض ولكن انشقت به الأرض فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان وإلى هذا ذهب مجاهد وابن سابط .

وغيرهما .

وقيل نزل بين يدي سليمان عليه السلام من السماء وكان عليه السلام إذ ذاك في أرض الشام على ما قيل رجع إليها من صنعاء وبينها وبين مأرب محل العرش نحو من مسافة شهرين .

وعلى القول بأنه كان في صنعاء فالمسافة بين محله ومحل العرش نحو ثلاثة أيام .

وأياً ما كان فقطعه المسافة الطويلة في الزمن القصير أمر ممكن وقد أخبر بوقوعه الصادق فيجب قبوله .

وقد اتفق البر والفاجر على وقوع ما هو أعظم من ذلك وهو قطع الشمس في طرفة عين آلافاً من الفراسخ مع أن نسبة عرش بلقيس إلى جرمها نسبة الذرة إلى الجبل ، وقال الشيخ الأكبر قدس سره : إن آصف تصرف في عين العرش فأعدمه في موضعه وأوجده عند سليمان من حيث لا يشعر أحد بذلك إلا من عرف الخلق الجديد الحاصل في كل آن وكان زمان وجوده عين زمان عدمه وكل منهما في آن وكان عين قول آصف عين الفعل في الزمان فإن القول من الكامل بمنزلة كن من الله تعالى .

ومسألة حصول العرش من أشكل المسائل إلا عند من عرف ما ذكرناه من الإيجاد والإعدام فما قطع العرش مسافة ولا زويت له أرض ولا خرقها اه ملخصاً .

وله تتمة ستأتي إن شاء الله تعالى .

وماذكره من أنه كان بالإعدام والإيجاد مما يجوز عندي وإن لم أقل بتجدد الجواهر تجدد الأعراض عند اوشعري إلا أنه خلاف ظاهر الآية .

واستدل بها على ثبوت الكرامات .

وأنت تعلم أن الاحتمال يسقط الاستدلال .

وعلل عليه السلام تفضله تعالى بذلك عليه بقوله : ﴿ لِيَبْلُوَنِى ﴾ أي ليعاملني معاملة المبتلي أي المختبر ﴿ ءَأَشْكُرُ ﴾ على ذلك بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتي ولا قوة وأقوم بحقه ﴿ أَءشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بأن أجد لنفسي مدخلاً في البين أو اقصر في إقامة مواجبه كما هو شأن سائر النعم الفائضة على العباد ، وأخرج ابن المنذر .

وابن جرير عن ابن جريج أن المعنى ليبلوني أأشكر إذا أتيت بالعرش أم أكفر إذا رأيت من هو أدنى مني في الدنيا أعلم مني ، ونقل مثله في "البحر" عن ابن عباس والظاهر عدم صحته ، وأبعد منه عن الصحة ما أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي أنه قال لما رآه مستقراً عنده جزع وقال : رجل غيري أقدر على ما عند الله عز وجل مني ، ولعل الحق الجزم بكذب

ذلك ، وجملة ﴿ شَكَرَ ﴾ الخ في موضع نصب على أنها مفعول ثان لفعل البلوى وهو معلق بالهمزة عنها إجراء له مجرى العلم وإن لم يكن مرادفاً له .

(172/578)

وقيل : محله النصب على البدل من الياء ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي لنفعها لأنه يربط به القيد ويستجلب المزيد ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي لم يشكر ﴿ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ﴾ بترك تعجيل العقوبة والإنعام مع عدم الشكر أيضاً ، والظاهر أن من شرطية والجملة المقرونة بالفاء جواب الشرط ، وجوز أن يكون الجواب محذوفاً دل عليه ما قبله من قسيمه والمذكور قائم مقامه أي ومن كفر فعلى نفسه أي فضرر كفرانه عليها .

وتعقب بأنه لا يناسب قوله : ﴿ كَرِيمٌ ﴾ وجوز أيضاً أن تكون من موصولة ودخلت الفاء في الخبر لتضمنها معنى الشرط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(173/578)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) ﴾

جملة ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر أي قال سليمان للهدهد : سننظر فيما أخبرتنا به من هذه القصة ﴿ أَصَدَقْتَ ﴾ فيما قلت ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ هذه الجملة الاستفهامية في محل نصب على أنها مفعول ﴿ سننظر ﴾ ، وأم هي المتصلة ، وقوله : ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ أبلغ من قوله : أم كذبت ؛ لأن المعنى : من الذين اتصفوا بالكذب ، وصار خلقاً لهم .

والنظر : هو التأمل والتصفح ، وفيه إرشاد إلى البحث عن الأخبار ، والكشف عن الحقائق ، وعدم قبول خبر المخبرين تقليداً لهم واعتماداً عليهم إذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه .

ثم بيّن سليمان هذا النظر الذي وعد به فقال : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي إلى أهل سبأ .

قال الزجاج : في " ألقه " خمسة أوجه : إثبات الياء في اللفظ وحذفها ، وإثبات الكسرة للدلالة عليها ، وبضم الهاء وإثبات الواو ، وبحذف الواو وإثبات الضمة للدلالة عليها ، وبإسكان الهاء .

وقرأ بهذه اللغة الخامسة أبو عمرو وحمزة وأبو بكر .

وقرأ قالون بكسر الهاء فقط من غير ياء .

وروي عن هشام وجهان : إثبات الياء لفظاً ، وحذفها مع كسر الهاء .

وقرأ الباقون بإثبات الياء في اللفظ .

(174/578)

وقوله ﴿ بِّكِتَابِي هذا ﴾ يحتمل أن يكون اسم الإشارة صفة للكتاب ، وأن يكون بدلاً منه ، وأن يكون بياناً له ، وخصّ الهدهد بإرساله بالكتاب ؛ لأنه المخبر بالقصة ، ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلاً للرسالة ﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي تنحّ عنهم ، أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسول الملوك ، والمراد : التنحي إلى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع ، وقيل : معنى التولي : الرجوع إليه ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ أي تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم إلى بعض من القول وما يتراجعونه بينهم من الكلام .

﴿ قَالَتْ ﴾ أي : بلقيس ﴿ يا أَيُّهَا الملأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ في الكلام حذف ، والتقدير : فذهب الهدهد ، فألقاه إليهم ، فسمعها تقول : يا أيها الملأ إلخ ، ووصفت الكتاب بالكريم لكونه من عند عظيم في نفسها ، فعظمته إجلالاً لسليمان ، وقيل :

وصفته بذلك لاشتماله على كلام حسن ، وقيل : وصفته بذلك لكونه وصل إليها مختوماً بخاتم سليمان ، وكرامة الكتاب ختمه كما روي ذلك مرفوعاً .

ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب ، فقالت : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ﴾ أي : وإن ما اشتمل عليه من الكلام ، وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية ، وبعد التسمية ﴿ أَن لا تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ أي لا تتكبروا كما يفعله جبابرة الملوك ، و " أن " هي المفسرة ، وقيل : مصدرية ، ولا ناهية ، وقيل : نافية ، ومحل الجملة الرفع على أنها بدل من كتاب ، أو خبر مبتدأ محذوف أي هو أن لا تعلوا .

(175/578)

قرأ الجمهور : ﴿ إنه من سليمان وإنه ﴾ بكسرهما على الاستئناف ، وقرأ عكرمة وابن أبي عبلة بفتحهما على إسقاط حرف الجرّ ، وقرأ أبيّ : " إن من سليمان وإن بسم الله " بحذف الضميرين ، وإسكان النونين على أنهما مفسرتان ، وقرأ عبد الله بن مسعود : " وإنه من سليمان " بزيادة الواو ، وروي ذلك أيضاً عن أبيّ ، وقرأ أشهب العقيلي وابن السميفع : " أن لا تغلوا " بالغين المعجمة من الغلوّ ، وهو تجاوز الحدّ في الكبر ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي منقادين للدين مؤمنين بما جئت به .

﴿ قَالَتْ يا أَيُّهَا الملأُ أَفْتُونِي فِى أَمْرِي ﴾ الملأ : أشراف القوم ، والمعنى : يا أيها الأشراف أشيروا علي ، وبيّنوا لي الصواب في هذا الأمر ، وأجيبوني بما يقتضيه الحزم ، وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون في ذلك حلّ لما أشكل من الأمر عليها ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت أشراف قومها ، وقالت لهم : يا أيها الملأ إني ألقي إليّ ، يا أيها الملأ أفتوني ، وكرّر "قالت" لمزيد العناية بما قالته لهم ، ثم زادت في التأدب ، واستجلاب خواطرهم ، ليمحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ، فقالت : ﴿ مَا كُنتُ قاطعة أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ ﴾ أي ما كنت مبرمة أمراً من الأمور حتى تحضروا عندي ، وتشيروا عليّ .

فقولوا مجيبين لها ﴿ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ في العدد والعدّة ﴿ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ عند الحرب ، واللقاء لنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا وبلدنا ومملكتنا .

(176/578)

ثم فوّضوا الأمر إليها لعلمهم بصحة رأيها ، وقوّة عقلها فقالوا : ﴿ والأمر إِلَيْكِ ﴾ أي موكول إلى رأيك ونظرك ﴿ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أي تأملي ماذا تأمرينا به فنحن سامعون لأمرك مطيعون له فلما سمعت تفويضهم الأمر إليها ﴿ قَالَتْ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ أي إذا دخلوا قرية من القرى خرّبوا مبانيها ، وغيروا معانيها ، وأتلفوا أموالها ، وفرّقوا شمل أهلها ﴿ وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ أي أهانوا أشرافها ، وحطوا مراتبهم ، فصاروا عند ذلك أذلة ، وإنما يفعلون ذلك لأجل أن يتمّ لهم الملك ، وتستحكم لهم الوطأة ، وتتقرّر لهم في قلوبهم المهابة .

قال الزجاج : أي إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة ، والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان إليهم ، ودخوله بلادهم ، وقد صدقها الله سبحانه فيما قالت ، فقال سبحانه : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ أي مثل ذلك الفعل يفعلون .

قال ابن الأنباري : الوقف على قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ وقف تام ، فقال الله عزّ وجلّ تحقيقاً لقولها ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ ، وقيل : هذه الجملة من تمام كلامها ، فتكون من جملة مقول قولها ، وعلى القول الأوّل تكون هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب .

(177/578)

ثم لما قدّمت لهم هذه المقدّمة ، وبيّنت لهم ما في دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة ، أوضحت لهم وجه الرأي عندها ، وصرحت لهم بصوابه ، فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ

إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ أي إني أجرّب هذا الرجل بإرسال رسلي إليه بهدية مشتملة على نفائس الأموال ، فإن كان ملكاً أرضيناه بذلك وكفينا أمره ، وإن كان نبياً لم يرضه ذلك ، لأن غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء إلى الدين ، فلا ينجينا منه إلاّ إجابته ومتابعته والتدين بدينه وسلوك طريقته ؛ ولهذا قالت : ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ الفاء للعطف على مرسلة ، و ﴿ بم ﴾ متعلق ب ﴿ يرجع ﴾ ، والمعنى : إني ناظرة فيما يرجع به رسلي المرسلون بالهدية من قبول أو ردّ فعاملة بما يقتضيه ذلك ، وقد طوّل المفسرون في ذكر هذه الهدية ، وسيأتي في آخر البحث بيان ما هو أقرب ما قيل إلى الصواب والصحة .

﴿ فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ ﴾ أي فلما جاء رسولها المرسل بالهدية سليمان ، والمراد بهذا المضمر : الجنس ، فلا ينافي كونهم جماعة كما يدل عليه قولها : ﴿ بم يرجع المرسلون ﴾ وقرأ عبد الله " فلما جاؤوا سليمان " أي الرسل ، وجملة ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والاستفهام للاستنكار أي قال منكراً لإمدادهم له بالمال مع علوّ سلطانه وكثرة ماله .

وقرأ حمزة بإدغام نون الإعراب في نون الوقاية ، والباقون بنونين من غير إدغام ، وأما الياء ، فإن نافعاً وأبا عمرو وحمزة يثبتونها وصلاً ويحذفونها وقفاً ، وابن كثير يثبتها في الحالين ، والباقون يحذفونها في الحالين .

وروي عن نافع أنه يقرأ بنون واحدة ﴿ فَمَا ءاتاني اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءاتاكم ﴾ أي ما آتاني من النبوّة والملك العظيم والأموال الكثيرة خير مما آتاكم من المال الذي هذه الهدية من جملته .

(178/578)

قرأ أبو عمرو ونافع وحفص ﴿ آتاني الله ﴾ بياء مفتوحة وقرأ يعقوب بإثباتها في الوقف وحذفها في الوصل ، وقرأ الباقون بغير ياء في الوصل والوقف .

ثم إنه أضرب عن الإنكار المتقدّم ، فقال : ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ توبيخاً لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء ، وأما أنا فلا أفرح بها ، وليست الدنيا من حاجتي ، لأن الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحداً من العالمين ، ومع ذلك أكرمني بالنبوّة .

والمراد بهذا الإضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الإزراء بهم ، والحط عليهم .

﴿ ارجع إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي قال سليمان للرسول : ارجع إليهم أي إلى بلقيس وقومها ، خاطب المفرد ها هنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل ، إما لأن الذي سيرجع هو الرسول فقط ، أو خص أمير الرسل بالخطاب هنا وخاطبهم معه فيما سبق افتناناً في الكلام .

وقرأ عبد الله بن عباس : " ارجعوا " ، وقيل : إن الضمير يرجع إلى الهدهد ، واللام في " لنأتيهم " جواب قسم محذوف .

قال النحاس : وسمعت ابن كيسان يقول : هي لام توكيد ولام أمر ولام خفض ، وهذا قول الحذاق من النحويين ؛ لأنهم يردّون الشيء إلى أصله ، وهذا لا يتهيأ إلاّ لمن درب في العربية ، ومعنى ﴿ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ ﴾ : لا طاقة لهم بها ، والجملة في محل جرّ صفة لجنود ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم ﴾ معطوف على جواب القسم ، أي لنخرجنهم من أرضهم التي هم فيها ﴿ أَذِلَّةٍ ﴾ أي حال كونهم أذلة بعد ما كانوا أعزّة ، وجملة : ﴿ وَهُمْ صاغرون ﴾ في محل نصب على الحال ، قيل : وهي حال مؤكدة ؛ لأن الصغار هو الذلة ، وقيل : إن المراد بالصغار هنا : الأسر ، والاستعباد ، وقيل : إن الصغار الإهانة التي تسبب عنها الذلة .

(179/578)

ولما رجع الرسول إلى بلقيس تجهزت للمسير إلى سليمان ، وأخبر جبريل سليمان بذلك ، فقال سليمان : ﴿ يا أَيُّهَا الملأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ أي عرش بلقيس الذي تقدّم وصفه بالعظم ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي قبل أن تأتيني هي وقومها مسلمين .

قيل : إنما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا إليه ويسلموا ؛ لأنها إذا أسلمت وأسلم

قومها لم يحلّ أخذ أموالهم بغير رضاهم .

قال ابن عطية : وظاهر الروايات أن هذه المقالة من سليمان هي بعد مجيء هديتها وردّه إياها وبعثه الهدهد بالكتاب ، وعلى هذا جمهور المتأوّلين .

وقيل : استدعاء العرش قبل وصولها ؛ ليريها القدرة التي هي من عند الله ويجعله دليلاً على نبوّته ، وقيل : أراد أن يختبر عقلها ، ولهذا قال : ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ .

. .

. إلخ ، وقيل : أراد أن يختبر صدق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم ، والقول الأوّل هو الذي عليه الأكثر .

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجن أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قرأ الجمهور بكسر العين وسكون الفاء وكسر الراء وسكون المثناة التحتية وبالتاء ، وقرأ أبو رجاء وعيسى الثقفي وابن السميفع ، وأبو السمال : " عفريه " بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء رويت هذه القراءة عن أبي بكر الصديق .

وقرأ أبو حيان بفتح العين .

والعفريت : المارد الغليظ الشديد .

قال النحاس : يقال للشديد إذا كان معه خبث ودهاء : عفر وعفريه وعفريت .

وقال قتادة : هو الداهية ، وقيل : هو رئيس الجنّ .

قال ابن عطية : وقرأت فرقة : " عفر " بكسر العين جمعه على عفار ، ومما ورد من أشعار العرب مطابقاً لقراءة الجمهور ما أنشده الكسائي :

فقال شيطان لهم عفريت . . . ما لكم مكث ولا تبييت

ومما ورد على القراءة الثانية قول ذي الرمة :

كأنه كوكب في إثر عفرية . . . مصوّب في سواد الليل منقضب

(180/578)

ومعنى قول العفريت : أنه سيأتي بالعرش إلى سليمان قبل أن يقوم من مجلسه الذي يجلس فيه للحكومة بين الناس ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ إني لقويّ على حمله أمين على ما فيه .

قيل : اسم هذا العفريت : كودن ذكره النحاس عن وهب بن منبه ، وقال السهيلي : ذكوان .

وقيل : اسمه دعوان .

وقيل : صخر .

وقوله : ﴿ ءَاتِيكَ ﴾ فعل مضارع ، وأصله ءأتيك بهمزتين ، فأبدلت الثانية ألفاً .

وقيل : هو اسم فاعل .

﴿ قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قال أكثر المفسرين : اسم هذا الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا ، وهو من بني إسرائيل ، وكان وزيراً لسليمان ، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى .

قال ابن عطية ، وقالت فرقة : هو سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا للعفريت : كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت ، فقال له تحقيراً له : ﴿ أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ ، وقيل : هو جبريل ، وقيل : الخضر .

والأوّل أولى .

وقد قيل : غير ذلك بما لا أصل له .

والمراد بالطرف : تحريك الأجفان ، وفتحها للنظر وارتداده انضمامها .

وقيل : هو بمعنى المطروف ، أي الشيء الذي ينظره ، وقيل : هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك : افعل ذلك في لحظة .

قاله مجاهد .

وقال سعيد بن جبير : إنه قال لسليمان : انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به ، فوضعه بين يديه ، والمعنى : حتى يعود إليك طرفك بعد مدّه إلى السماء ، والأول أولى هذه الأقوال .

ثم الثالث ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ قيل : في الآية حذف ، والتقدير : فأذن له سليمان ، فدعا الله ، فأتى به ، فلما رآه سليمان مستقرًّا عنده أي رأى العرش حاضراً لديه ﴿ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ليبلونيا أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ الإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى حضور العرش ، ﴿ ليبلوني ﴾ أي ليختبرني أشكره بذلك ، وأعترف أنه من فضله من غير حول مني ولا قوّة ، أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به .

قال الأخفش : المعنى : لينظر أأشكر أم أكفر ، وقال غيره : معنى ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ : ليتعبدني ، وهو مجاز ، والأصل في الابتلاء الاختبار .

﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ ؛ لأنه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها ، والمعنى : أنه لا يرجع نفع ذلك إلاّ إلى الشاكر ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ بترك الشكر ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه ، وسلبه ما أعطاه منها ، و "أم" في ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ هي متصلة .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يقول : كن قريباً منهم ﴿ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ فانطلق بالكتاب

حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها ، فقرىء عليها ، فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ﴾ ، وأخرج ابن مردويه عنه : ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ قال : مختوم ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب : "باسمك اللهم" حتى نزلت ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم ﴾ .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن أبي مالك مرفوعاً مثله .

(182/578)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ قال : جمعت رؤوس مملكتها فشاورتهم في رأيها ، فأجمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه ، فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت : أرسل إليهم بهدية ، فإن قبلها ، فهو ملك أقاتله ، وإن ردّها تابعته ، فهو نبيّ ، فلما دنت رسلها من سليمان علم خبرهم ، فأمر الشياطين ، فموّهوا ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها قصور الذهب قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا ، وقصوره ذهب وفضة ، فلما دخلوا عليه بهديتها قال : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ ، ثم قال سليمان : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فقال كاتب سليمان : ارفع بصرك ، فرفع بصره ، فلما رجع إليه طرفه فإذا هو بسرير ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ فنزع منه فصوصه ،

ومرافقه ، وما كان عليه من شيء ف قيل لها : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ وأمر الشياطين فجعلوا لها صرحاً ممرّداً من قوارير ، وجعل فيها تماثيل السمك ، فقيل لها : ﴿ ادخلي الصرح ﴾ فكشفت عن ساقيها فإذا فيها شعر ، فعند ذلك أمر بصنعة النورة فصنعت .

فقيل لها : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سليمان لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ قال : إذا أخذوها عنوة أخربوها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : يقول الربّ تبارك وتعالى : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ قال : أرسلت بلبنة من ذهب ، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ الآية .

(183/578)

وقال ثابت البناني : أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج .

وقال مجاهد : جواري لباسهن لباس الغلمان ، وغلمان لباسهم لباس الجواري .

وقال عكرمة : أهدت مائتي فرس على كلّ فرس غلام وجارية ، وعلى كلّ فرس لون ليس على الآخر .

وقال سعيد بن جبير : كانت الهدية جواهر ، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره .

وأخرج ابن المنذر من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ قال : طائعين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، عنه قال : اسم العفريت : صخر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قال : من مجلسك .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الكتاب ﴾ قال : هو آصف بن برخيا ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم .

وأخرج أبو عبيد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : في قراءة ابن مسعود : " قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أنظر في كتاب ربي ، ثم آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك " قال : فتكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ قال : قال لسليمان : انظر إلى السماء ، قال : فما أطرف حتى جاءه به فوضعه بين يديه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن عساكر ، عن ابن عباس قال : لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ، ولكن انشقت به الأرض ، فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(184/578)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) ﴾

استئناف ابتدائي لذكر بعض أجزاء القصة طوي خبر رجوع الرسل والهدية ، وعلم سليمان أن ملكة سبأ لا يسعها إلا طاعته ومجيئها إليه ، أو ورد له منها أنها عزمت على الحضور عنده عملاً بقوله : ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ [النمل : 31] .

ثم يحتمل أن يكون سليمان قال ذلك بعد أن حطت رحال الملكة في مدينة أورشليم وقبل أن تتهيَّأ للدخول على الملك ، أو حين جاءه الخَبَر بأنها شارفت المدينة فأراد أن يحضر لها عرشها قبل أن تدخل عليه ليُرِيَها مقدرة أهل دولته .

وقد يكون عرشها محمولاً معها في رحالها جاءت به معها لتجلس عليه خشية أن لا يهيىء لها سليمان عرشاً ، فإن للملوك تقادير وظنوناً يحترزون منها خشية الغضاضة .

وقوله : ﴿ آتيك ﴾ يجوز أن يكون فعلاً مضارعاً من أتى ، وأن يكون اسم فاعل منه ، والباء على الاحتمالين للتعدية .

ولّما علم سليمان بأنها ستحضر عنده أراد أن يبهتها بإحضار عرشها الذي تفتخر به وتعده نادرة الدنيا ، فخاطب ملأه ليظهر منهم منتهى علمهم وقوتهم .

فالباء في ﴿ بعرشها ﴾ كالباء في قوله : ﴿ فلنأتينّهم بجنود ﴾ [النمل : 37] تحتمل الوجهين .

وجملة : ﴿ قال يا أيها الملؤا ﴾ مستأنفة ابتداء لجزء من قصة .

وجملة : ﴿ قال عفريت ﴾ واقعة موقع جواب المحاورة ففصلت على أسلوب المحاورات كما تقدم غير مرة .

وجملة : ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ أيضاً جواب محاورة .

ومعنى ﴿ عفريت ﴾ حسبما يستخلص من مختلف كلمات أهل اللغة أنه اسم للشديد الذي لا يصاب ولا ينال ، فهو يُتَّقى لشَره .

وأصله اسم لعُتاة الجن ، ويوصف به الناس على معنى التشبيه .

و ﴿ الذي عنده علم من الكتاب ﴾ رجل من أهل الحكمة من حاشية سليمان .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من الكتاب ﴾ ابتدائية ، أي عنده علم مكتسب من الكتب ، أي من الحكمة ، وليس المراد بالكتاب التوراة .

(185/578)

وقد عدّ في سفر الملوك الأول في الإصحاح الرابع أحد عشر رجلاً أهل خاصة سليمان بأسمائهم وذكر أهل التفسير والقصص أن : ﴿ الذي عنده علم من الكتاب ﴾ هو "آصف بن برخيا" وأنه كان وزير سليمان .

وارتداد الطرف حقيقته : رجوع تحديق العين من جهة منظورة تَحُول عنَها لحظة .

وعبر عنه بالارتداد لأنهم يعبرون عن النظر بإرسال الطرف وإرسال النظر فكان الارتداد استعارة مبنية على ذلك .

وهذه المناظرة بين العفريت من الجن والذي عنده علم من الكتاب ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة ، وأن الحكمة مكتسبة لقوله : ﴿ عنده علم من الكتاب ﴾ ، وأن قوة العناصر طبيعة فيها ، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضاً .

فذكر في هذه القصة مثلاً لتغلب العلم على القوة .

ولما كان هذان الرجلان مسخرَّين لسليمان كان ما اختصا به من المعرفة مزية لهما ترجع إلى فضل سليمان وكرامته أن سخر الله له مثل هذه القوى .

ومقام نبوته يترفع عن أن يباشر بنفسه الإتيان بعرش بلقيس .

والظاهر أن قوله : ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾ وقوله : ﴿ قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ مثلان في السرعة والأسرعية ، والضمير البارز في ﴿ رءاه ﴾ يعود إلى العرش .

والاستقرار : التمكن في الأرض وهو مبالغة في القرار .

وهذا استقرار خاص هو غير الاستقرار العام المرادف للكون ، وهو الاستقرار الذي يقدر في الإخبار عن المبتدأ بالظرف والمجرور ليكون متعلّقاً بهما إذا وقعا خبراً أو وقعا حالاً ، إذ يقدر (كائن) أو (مستقر) فإن ذلك الاستقرار ليس شأنه أن يصرح به .

وابن عطية جعله في الآية من إظهار المقدر وهو بعيد .

ولما ذَكر الفضل أضافه إلى الله بعنوان كونه ربّه لإظهار أن فضله عليه عظيم إذ هو عبد ربه .

(186/578)

فليس إحسان الله إليه إلا فضلاً محضاً ، ولم يشتغل سليمان حين أحضر له العرش بأن يبتهج بسلطانه ولا بمقدرة رجاله ولكنه انصرف إلى شكر الله تعالى على ما منحه من فضل وأعطاه من جند مسخرين بالعلم والقوة ، فمزايا جميعهم وفضلهم راجع إلى تفضيله .

وضرب حكمة خُلقية دينية وهي : ﴿ من شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كَفر فإن ربي غني كريم ﴾ ؛ فكل متقرب إلى الله بعمل صالح يجب أن يستحضر أن عمله إنما هو لنفسه يرجو به ثواب الله ورضاه في الآخرة ويرجو دوام التفضل من الله عليه في الدنيا ، فالنفع حاصل له في الدارين ولا ينتفع الله بشيء من ذلك .

فالكلام في قوله : ﴿ يشكر لنفسه ﴾ لام الأجْل وليست اللام التي يُعدى بها فعل الشكر في نحو ﴿ واشكُروا لي ﴾ [البقرة : 152] .

والمراد بـ ﴿ من كفر ﴾ من كفر فضل الله عليه بأن عبَد غير الله ، فإن الله غني عن شكره وهو كريم في إمهاله ورزقه في هذه الدنيا .

وقد تقدم عند قوله فيما تقدم : ﴿ قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك ﴾ [النمل : 19] .

والعدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله : ﴿ فإن ربي غني كريم ﴾ دون أن يقول : فإنه غني كريم ، تأكيد للاعتراف بتمحض الفضل المستفاد من قوله : ﴿ فضل ربي ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾

جاء معناه موضحاً في آيات متعددة ، كقوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت : 46] و [الجاثية : 45] وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : 44] وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : 7] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ .

جاء معناه موضحاً أيضاً في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : 8] وقوله تعالى : ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن : 6] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد ﴾ [فاطر : 15] وقوله تعالى : ﴿ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد : 38] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) ﴾

الملأ : أشراف القوم وسادتهم وأصحاب الرأي فيهم ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 38] هنا أيضاً مظهر من إشراقات النبوة عند سليمان ، فهو يعلم ما سيحدث عندهم حينما تعود إليهم هديتهم ، وأنهم سيسارعون إلى الإسلام ، فردُّ الهدية يعني أننا أصحاب كلمة ورسالة ومبدأ ندافع عنه لا أصحاب مصلحة .

ولما علم أنهم سيأتون مسلمين طلب من جنوده أنْ يأتوه بعرشها ، وحدَّد زمن الإتيان بهذا العرش ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 38] .

إذن : لا بُدَّ من الذهاب إلى مملكة سبأ وفكِّ العرش ، وحَمْله إلى مملكة سليمان ، ثم إعادة تركيبه عنده ، وهذه مهمة بالطبع فوق قدرة البشر ؛ لذلك لم يتكلم منهم أحد ، حتى الجن العادي لم يعرض على سليمان استعداده للقيام بهذه المهمة : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ والجن في القدرة والمهارة مثل الإنس ، منهم القوى الماهر ، ومنهم العَيِيّ الذي لا يجيد شيئاً .

نقول (لبخة) وكلمة عفريت من تعفير التراب ، وكانوا حينما يتسابقون في العَدُو بالخيل أو

غيرها ، فمَنْ يسبق منهم يُثير الغبار في وجه الآخر فيُعطّله عن السَّبْق . فقالوا : عفريت يعني عفَّر من وراءه . أو : المعنى أنه يُعفِّر وجه مَنْ عارضه بالتراب فسُمِّي عفريتاً .

إذن : فالعفريت هو الخبيث الماكر من الجنّ ، وصاحب القوة الخارقة فيهم ، وهو الذي تعرَّض لهذه المهمة ، وقال ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ [النمل : 39] .

وهذا كلام مُجْمل ؛ لأن مقام سليمان بين رعيته للحكم أو للمدارسة سوف يستغرق وقتاً : ساعة أو ساعتين مثلاً ، وقد تعهَّد العفريت أنْ يأتي بالعرش في هذا الوقت يعني : لن يُؤخِّره إلى جلسة أخرى .

(189/578)

وقوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : 39] يدل على أن هذا العفريت يعلم فخامة هذا العرش وضخامته ، وأنه شيء نفيس يستحق الاعتناء به ، خاصة في عملية نقله ؛ لذلك قال من ناحية كبره وضخامته " فأنا عليه قوي " قادر على حَمْله ، ومن ناحية نفاسته وفخامته ، فأنا عليه أمين لن أُبدِّد منه شيئاً .

ثم تكلَّم آخر لم يُحدِّده القرآن إلا بالوصف : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ ﴾

الطرف : الجِفْن الأعلى للعين .

تكلم العلماء في هذه الآية : أولاً : قالوا ﴿ الكتاب ﴾ [النمل : 40] يُراد به اللوح المحفوظ ، يُعلم الله تعالى بعض خَلْقه أسراراً من اللوح المحفوظ ، أما الذي عنده علم من الكتاب فقالوا : هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله على أسرار الكون .

وقال آخرون : بل هو سليمان عليه السلام ، لما قال له العفريت ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ [النمل : 39] قال هو : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : 40] لأنه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوُّق على سليمان في معرفة الكتاب .

لكن رَدُّوا عليهم بأن من عظمة سليمان أنْ يعلمَ أحد رعيته هذا العلم ، فمَنْ عنده علم من الكتاب بحيث يأتي بالعرش قبل طَرْفة عين هو خادم في مملكة سليمان ومُسخر له ، كما أن المزايا لا تقتضي الأفضلية ، وليس شَرْطاً في المِلك أنْ يعرف كل شيء ، وإلا لَقُلْنا للمِلك : تَعَال أصلح لنا دورة المياه .

أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام .

وفَرْق كبير في القدرات بين مَنْ يأتي بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه ، وبين مَنْ يأتي به في طَرْفة عين ، ونَقْل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة .

(190/578)

والزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً : فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، فمثلاً حين تُكلِّف الطفل الصغير بنقل شيء من مكانه إلى مكان ما ، فإنه يذهب إليه ببُطْء ويحمله ببُطء حتى يضعه في مكانه ، أما الرجل فبيده وفي سرعة ينقله ، وهذه المسألة نلاحظها في وسائل المواصلات ، ففرْق بين السفر بالسيارة ، والسفر بالطائرة ، والسفر بالصاروخ مثلاً .

وهذه تكلّمنا عنها في قصة " الإسراء والمعراج " فقد أُسْرِي برسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه السرعة ؛ لأن الله تعالى أَسْرى به ، ونقله من مكان إلى مكان ؛ لذلك جاءت الرحلة في سرعة فوق تصوُّر البشر .

وما دام الزمن يتناسب مع القوة ، فلا تنسب الحدث إلى رسول الله ، إنما إلى الله ، إلى قوة القوى التي لا تحتاج إلى زمن أصلاً ، فإنْ قلتَ : فلماذا استغرقتْ الرحلة ليلةَ وأخذت وقتاً ؟ نقول : لأنه صلى الله عليه وسلم مرَّ بأشياء ، ورأى أشياء ، وقال ، وسأل ، وسمع ، فهو الذي شغل هذا الوقت ، أمّا الإسراء نفسه فلا زمنَ له .

لذلك قبل أن يخبرنا الحق تبارك وتعالى بهذه الحادثة العجيبة قال : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] أي : نزّهه عن مشابهة غيره ، كذلك مسألة نَقْل العرش في طرْفة عين لا بُدَّ أن مَنْ فعلها فعلها بعون من الله وبعلم أطلعه الله عليه ، فنقله بكُنْ التي لا تحتاج وقتاً ولا قوة ، وما دام الأمر بإرادة الله وقوته وإلهامه فلا نقول إلا : آمين .

وفي قوله للجن : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : 40] تحدٍّ لعفريت

الجن ، حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان ، فإنْ أراد الله منحني من القوة ما أتفوّق عليك به ، بل وأُسخِّرك بها لخدمتي .

ومن ذلك قوله سبحانه عن تسخير الجن : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ [سبأ : 13] .

(191/578)

وليعلموا أنهم جهلاء ، ظلُّوا يعملون لسليمان وهو ميت ومُتكىء على عصاه أمامهم ، وهم مرعوبون خائفون منه .

والتحدي قد يكون بالعُلوِّ ، وقد يكون بالدُّنُو ، كالذي قال لصاحبه : أنا دارس باريس دراسة دقيقة ، وأستطيع أنْ أركب معك السيارة وأقول لك : أين نحن منها ، وأمام أيّ محل ، وأنا مُغْمض العينين ، فقال الآخر : وأنا أستطيع أن أخبرك بذلك بدون أن أُغمِض عَيْنيّ .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ ﴾ [النمل : 40] أي : العرش ﴿ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ [النمل : 40] إما لأنه أقدره على الإتيان به بنفسه ، أو سخّر له مَنْ عنده علم من الكتاب ، فأتاه به ، فهذه أو ذلك فضل من الله .

﴿ ليبلوني ﴾ [النمل : 40] يختبرني ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل : 40] يعني :

أشكر الله فأُوفَّق في هذا الاختبار ؟ أم أكفر بنعمة الله فأخفق فيه ؟ لأن الاختبار إنما يكون بنتيجته .

والشكر بأن ينسب النعمة إلى المنعم وألاَّ يلهيه جمال النعمة عن جلال واهبها ومُسْديها ، فيقول مثلاً : إنما أوتيته على علم عندي .

وقوله : ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ [النمل : 40] أي : أن الله تعالى لا يزيده شُكْرنا شيئاً ، فله سبحانه وتعالى صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد ، فمَنْ يشكر فإنما يعود عليه ، وهو ثمرة شُكْره .

﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ [النمل : 40] يعني : جحد النعمة ولم يشكر المنعم ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ [النمل : 40] أي : عن شكره ﴿ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 40] أي يعطي عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة ؛ لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ ، وهذا من حِلمه تعالى ورأفته بخَلْقه .

(192/578)

لذلك لما نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] وقد تكررت هذه العبارة بنصِّها في آيتين من كتاب الله ، مما جعل البعض يرى فيها تكراراً لا

فائدة منه ، لكن لو نظرنا إلى عَجُز كل منهما لوجدناه مختلفاً .

فالأولى تُختتم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : 34] والأخرى : ﴿ إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 18] .

إذن : فهما متكاملتان ، لكلٍّ منهما معناها الخاص ، فالأولى تبين ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله عليه ويجحدها ، وتضيف الأخرى أن الله تعالى مع ذلك غفور لعبده رحيم به .

كما نلحظ في الآية : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ ﴾ [إبراهيم : 34] استخدم (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن أحداً لا يجرؤ على عَدِّ نِعَم الله في الكون ، فهي فوق الحصر ؛ لذلك لم يُقْدِم على هذه المسألة أحد ، مع أنهم بوسائلهم الحديثة أحصُوا كل شيء إلا نعم الله لم يتصَدَّ لأحصائها أحد في معهد أو جامعة ممن تخصصت في الإحصاء .

وهذا دليل على أنها مقطوع بالعجز عنها ، كما لم نجد مثلاً مَنْ تصدّى لإحصاء عدد الرمل في الصحراء . كما نقف عند قوله سبحانه : ﴿ نِعْمَتَ الله ﴾ [إبراهيم : 34] ولم يقُلْ : نِعَم الله ، فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة ؛ لأن تحتها نِعَم كثيرة لو تتبعتها لوجدتها فوق الحصر .

ثم لما جاءته بلقيس أراد أن يُجري لها اختبارَ عقلٍ ، واختبارَ إيمان : ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ عِفْرِيتٌ ﴾ :

العامَّةُ على كسرِ العينِ وسكونِ الياء بعدها تاءٌ مجبورةٌ . وقرأ أبو حيوةَ بفتح العينِ . وأبو رجاء وأبو السَّمَّال ورُوِيَتْ عن أبي بكر الصدّيق " عِفْرِيَةٌ " بياءٍ مفتوحةٍ بعدها تاءُ التأنيثِ المنقلبةُ هاءً وَقْفاً . وأنشدوا على ذلك قولَ ذي الرمة :

3570 كأنه كوكبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ . . . مُصَوَّبٌ في سوادِ الليلِ مُنْقَضِبُ

وقرأَتْ طائفةٌ " عِفْرٌ " بحذفِ الياء والتاء . فهذه أربعُ لغاتٍ ، وقد قُرِىء بهنَّ . وفيه لغتان أُخْرَيان وهما عَفارِيَة ، وطيِّىء وتميمٌ يقولون : عفرى بألفِ التأنيثِ كذكرى . واشتقاقُه من العَفْرِ وهو الترابُ يقال : عافَرَه فَعَفَرَه أي صارَعَه فَصَرَعَه ، وألقاء في العَفْرِ وهو الترابُ . وقيل : من العُفْر وهو القُوَّةُ ، والعِفْريتُ من الجنِّ الماردُ الخبيثُ . ويقال : عِفْريتٌ نِفْريت وهو إتْباعٌ كشَيْطان لَيْطان ، وحَسَن بَسَن . ويُستعار للعارِمِ من الإنس ، ولاشتهار هذه الاستعارةِ وُصِفَ في الآيةِ بكونِه من الجنِّ تمييزاً له . وقال ابن قتيبة : " العِفْرية : المُوَثَّقُ الخَلْقِ " وعِفْرِيَةُ الدِّيكِ والحبارى : الشَّعْر الذي على رأسِهما ، وعفرنى للقويِّ ، ورجلٌ عِفِرٌّ بتشديدِ الراءِ للمبالغةِ مثل : شَرٌّ شِمِرٌّ .

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

قوله : ﴿ أَنَا آتِيكَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ فعلاً مضارعاً ، فوزنُه أفْعِلُ نحو : أَضْرِبُ ، والأصل أَأْتِيْك بهمزتين ، فَأُبدلت الثانية ألفاً ، وأن يكونَ اسمَ فاعِلٍ ، وزنُه فاعِل والألفُ زائدةٌ ، والهمزةُ أصليةٌ عكسُ الأول . وأمالَ حمزةُ "آتِيْكَ" في الموضعين من هذه السورةِ بخلافٍ عن خَلاَّد .

(194/578)

قوله : ﴿ طَرْفُكَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدُهما : أنه الجَفْنُ . عَبَّر به عن سُرْعةِ الأمرِ . وقال الزمخشري : " هو تحريكُ أجفانِك إذا نظرْتَ فوُضِعَ مَوْضِعَ النظرِ " . والثاني : أنه بمعنى المَطْروفِ أي : الشيء الذي تَنْظُره . والأولُ هو الظاهرُ ؛ لأنَّ الطَّرْفَ قد وُصِفَ بالإرسال في قولِه :

3571 وكنتَ متى أرسَلْتَ طرفَك رائداً . . . لقلبك يوماً أَتْعَبَتْكَ المناظِرُ

رأيتُ الذي لا كلُّه أنت قادِرٌ . . . عليه ولا عَنْ بَعْضِه أنتَ صابرُ

قوله : ﴿ مُسْتَقِرّاً ﴾ حالٌ لأنَّ الرؤيةَ بَصَريةٌ . و "عنده" معمولٌ له . لا يُقال : إذا وقع الظرفُ حالاً وَجَبَ حَذْفُ متعلَّقِه فكيف ذُكِرَ هنا ؟ لأنَّ الاستقرارَ هنا ليس هو ذلك

الحصولَ المطلقَ بل المرادُ به هنا الثابتُ الذي لا/ يَتَقَلْقَلُ ، قاله أبو البقاء . وقد جَعَلَه ابنُ عطيةَ هو العاملَ في الظرفِ الذي كان يجبُ حَذْفُه فقال : " وظهرَ العاملُ في الظرفِ مِنْ قولِه " مُسْتَقَرًّا " وهذا هو المقدَّرُ أبداً مع كلِّ ظرفٍ جاء هنا مُظْهَراً ، وليس في كتابِ اللهِ مثلُه " . وما قاله أبو البقاءِ أحسنُ . على أنَّه قد ظهرَ العاملُ المُطْلَقُ في قولِه :

3572 . . . . . .

فأنتَ لدى بُحْبُوْحَةِ الهَوْنِ كائنُ

وقد تقدَّم ذلك مُحقَّقاً في أولِ الفاتحة ، فعليكَ بالالتفاتِ إليه .

قوله : ﴿ أَأَشْكُرُ ﴾ مُعَلِّقٌ "لِيَبْلُوَني " و " أم " متصلةٌ ، وكذلك قولُه ﴿ نَنظُرْ أتهتدي أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 41] .

(195/578)

قوله : ﴿ وَمَن شَكَرَ ﴾ ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ يُحْتمل أَنْ تكونَ " مَنْ " شرطيةً أو موصولةً مُضَمَّنَةً معنى الشرطِ ، فلذلك دَخَلَتِ الفاءُ في الخبر . والظاهرُ : أنَّ جوابَ الشرطِ الثاني أو خبرَ الموصولِ قولُه : ﴿ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ ولا بدَّ حينئذٍ مِنْ ضميرٍ يعودُ على " مَنْ " تقديرُه : غنيٌّ عن شكرِه . وقيل : الجوابُ محذوفٌ تقديرُه : فإنَّما كفرُه عليه ؛ لدلالةِ

مقابِلِهِ وهو قولُه : ﴿ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 616.614 ﴾

(196/578)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) ﴾

بسط اللَّهُ – سبحانه – مُلْكَ سليمان ، وكان في مُلْكِه الجِنُّ والإِنسُ والشياطين ؛ الجن على جهة التسخير ، والإنس على حكم الطوع ، والشياطين وكانوا على أقسام .

ولَمَّا قال : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ؟ ﴾ قال عفريت من الجن – وكان أقواهم – ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ ، فلم يرغب سليمانُ في قوله لأنه بَنَى القولَ فيه على دعوى قُوَّته .

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

﴿ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (قيل هو آصف) وكان صاحب كرامة . وكراماتُ الأولياءِ مُلْتَحِقَةٌ بمعجزات الأنبياء ، إذ لو لم يكن النبيُّ صادقاً في نبوته لم تكن الكرامة تظهر

على من يُصَدّقه ويكون من جملة أمته .

ومعلومٌ أنه لا يكون في وُسْعِ البَشَرِ الإتيانُ بالعرش بهذه السرعة ، وأن ذلك لا يحصل إلا بخصائص قدرة الله تعالى . وقَطْعُ المسافة البعيدة في لحظةٍ لا يصح تقديره في الجواز إلا بأحد وجهين : إمَّا بأن يُقَدِّمِ اللَّهُ المسافةَ بين العرش وبين منزل سليمان ، وإمَّا بأن يعدم العرش ثم يعيده في الوقت الثاني بحضرة سليمان . وأيُّ واحدٍ من القسمين كان – لم يكن إلاّ من قِبَل الله ، فالذي كان عنده علم من الكتاب دعا الله – سبحانه – واستجاب له في ذلك ، وأحضر العرش ، وأمر سليمان حتى غَيَّرَ صورته فجعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وأثبته على تركيبٍ آخر غير ما كان عليه .

(197/578)

ولّما رأى سليمان ذلك أخذ في الشكر لله – سبحانه – والاعتراف بِعِظَمِ نِعَمِه ، والاستيحاء ، والتواضع له ، وقال : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ : لا باستحقاقٍ مني ، ولا باستطاعةٍ من غيري ، بل أحمد النعمةَ لربِّي حيث جعل في قومي ومِنْ أمتي مَنْ له الجاهُ عنده فاستجاب دعاءَه .

وحقيقةُ الشكرِ – على لسان العلماء – الاعترافُ بنعمة المُنْعِم على جهة الخضوع .

والأحسنُ أن يقال الشكرُ هو الثناءُ على المُحْسِنِ بِذِكْرِ إحسانه ، فيدخل في هذا شكرُ اللَّهِ للعبد لأنه ثناءٌ منه على العبد بذكر إحسان العبد ، وشكرُ العبد ثناءٌ على الله بذكر إحسانه . . . إلاّ أَنَّ إحسان الحقِّ هو إنعامُه ، وإحسانُ العبد طاعتُه وخدمتُه لله ، وما هو الحميد من أفعاله .

فأمَّا على طريقِ أهل المعاملة وبيان الإشارة : فالشكرُ صَرْفُ النعمة في وجه الخدمة .

ويقال الشكر أَلاَّ تستعينَ بنعمته على معاصيه .

ويقال الشكر شهودُ المنعِم من غير مساكنةٍ إلى النعمة .

ويقال الشكر رؤية العجز عن الشكر .

ويقال أعظمُ الشكرِ الشكرُ على توفيق الشكر .

ويقال الشكر على قسمين : شكر العوام على شهود المزيد ، قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] ، وشكر الخواص يكون مجرداً عن طلب المزيد ، غيرَ متعرض لمنال العِوَض .

ويقال حقيقةُ الشكرِ قيد النعم وارتباطها ؛ لأَنَّ بالشكر بقاءَها ودوامَها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 38 . 40 ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم – كما هو دأب الصالحين – الشكر ، علم أنه يفعل في العرش ما لأجله أحضره ، تشوفت النفس إليه فأجيبت بقوله : ﴿ قال ﴾ أي سليمان عليه السلام : ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أي بتغيير بعض معالمه وهيئته اختباراً بعقلها كما اختبرتنا هي بالوصفاء والوصائف والدرة وغير ذلك ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ ننظر أتهتدي ﴾ أي إلى معرفته فيكون ذلك سبباً لهدايتها في الدين ﴿ أم تكون من الذين ﴾ شأنهم أنهم ﴿ لا يهتدون ﴾ أي بل هم في غاية الغباوة ، لا يتجدد لهم اهتداء ، بل لو هدوا لوقفوا عند الشبه ، وجادلوا بالباطل وما حلوا ، وأشار إلى سرعة مجيئها إشارة إلى خضوعها بالتعبير بالفاء في قوله : ﴿ فلما جاءت ﴾ وكان مجيئها – على ما قيل – في اثنى عشر ألف قيل من وجوه اليمن ،

تحت يد كل قيل ألوف كثيرة ، وكانت قد وضعت عرشها داخل بيت منيع ، ووكلت به حراساً أشداء ﴿ قيل ﴾ أي لها وقد رأت عرشها بعد تنكيره بتقليب نصبه وتغييره ، من قائل لا يقدر على السكوت عن جوابه لما نالها من الهيبة وخالطها من الرعب من عظيم ما رأت ، فقرعها بكلمة تشمل على أربع كلمات : هاء التنبيه ، وكاف التشبيه ، واسم الإشارة ، مصدرة بهمزة الاستفهام ، أي تنبهي ﴿ أهكذا ﴾ أمثل ذا العرش ﴿ عرشك قالت ﴾ عادلة عن حق الجواب من " نعم " أو " لا " إشارة إلى أنها غلب على ظنها أنه هو بعينه كما قالوا في " كأن زيداً قائم " : ﴿ كأنه هو ﴾ وذلك يدل على ثبات كبير ، وفكر ثاقب ، ونظر ثابت ، وطبع منقاد ، لتجويز المعجزات والإذعان لها مع دهشة القدوم ، واشتغال الفكر بما دهمها من هيبته وعظيم أمره ، فعلم سليمان عليه السلام رجاحة عقلها وبطلان ما قال الشياطين من نقصه خوفاً من أن يتزوجها فتفشي عليه أسرار الجن لأن أمها كانت جنية – على ما قيل ، وقالوا : إن رجلها كحافر الحمار ، وإنها كثيرة الشعر جداً . (1)

---

(1) كلام لا أصل له ومرده إلى الإسرائيليات المنكرة . والله أعلم .

ولما كانت مع ذلك قد شبه عليها ولم تصل إلى حاق الانكشاف مع أنها غلبت على عرشها مع الاحتفاظ عليه ، استحضر ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما خصه الله به من العلم زيادة في حثه على الشكر ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فأوتيت من أمر عرشها علماً ، ولكنه يخالجه شك ، فدل على أنها في الجملة من أهل العلم المهيئي للهداية ، أو يكون التقدير بما دل عليه ما يلزم من قولها ﴿ كأنه ﴾ : فجهلت أمر عرشها على كثرة ملابستها له :

﴿ وأوتينا ﴾ معبراً بنون الواحد المطاع ، لا سيما والمؤتى سبب لعظمة شرعية ، وهو العلم الذي لا يقدر على إيتائه غير الله ، ولذلك بني الفعل للمفعول لأن فاعله معلوم

﴿ العلم ﴾ أي بجميع ما آتانا الله علمه ، ومنه أنه يخفى عليها ﴿ من قبلها ﴾ أي من قبل إتيانها ، بأن عرشها يشتبه عليها ، أو من قبل علمها بما ظنت من أمر عرشها ، أو أنا وأسلافي من قبل وجودها ، فنحن عريقون في العلم ، فلذلك نحن على حقيقة من جميع أمورنا ، وإنما قال : ﴿ ننظر أتهتدي ﴾ بالنسبة إلى جنوده .

ثم ذكر السبب في وجود العلم واتساعه وثباته فقال : ﴿ وكنا ﴾ أي مع العلم الذي هيأنا الله له بما جعل في غرائزنا من النورانية ﴿ مسلمين ﴾ أي خاضعين لله تعالى عريقين في ذلك مقبلين على جميع أوامره بالفعل على حسب أمره كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ [البقرة : 282] ، ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ [يونس : 9] .

ولما كان المعنى : وأما هي فإنها وإن أوتيت علماً فلم يكن ثابتاً ، ولا كان معه دين ، ترجمه

بقوله : ﴿ وصدها ﴾ أي هي عن كمال العلم كما صدها عن الدين ﴿ ما ﴾ أي المعبود الذي ﴿ كانت ﴾ أي كوناً ثابتاً في الزمن الماضي ﴿ تعبد ﴾ أي عبادة مبتدئة ﴿ من دون الله ﴾ أي غير الملك الأعلى الذي له الكمال كله أو أدنى رتبة من رتبته ، وهي عبادة الشمس ليظهر الفرق بين حزب الله الحكيم العليم وحزب إبليس السفيه الجهول .

(200/578)

ثم علل ذلك إشارة إلى عظيم نعمة الله عليه بالنعمة على أسلافه بقوله : ﴿ إنها ﴾ وقرىء بالفتح على البدل من فاعل " صد " ﴿ كانت من قوم ﴾ أي ذوي بطش وقيام ﴿ كافرين ﴾ أي فكان ذلك سبباً – وإن كانت في غاية من وفور العقل وصفاء الذهن وقبول العلم كما دل عليه ظنها في عرشها ، ما يهتدي له إلا من عنده قابلية الهدي – في اقتفائها لآثارهم في الدين ، فصديت مرآة فكرها ونبت صوارم عقلها .

ولما تم ذلك ، كان كأنه قيل : هل كان بعد ذلك اختبار ؟ فقيل : نعم ! ﴿ قيل لها ﴾ أي من قائل من جنود سليمان عليه السلام ، فلم تمكنها المخالفة لما هناك من الهيبة بالملك والنبوة والدين : ﴿ ادخلي الصرح ﴾ وهو قصر بناه قبل قدومها ، وجلس في صدره ، وجعل صحنه من الزجاج الأبيض الصافي ، وأجرى تحته الماء ، وجعل فيه دواب البحر ، وأصله

- كما قال في الجمع بين العباب والمحكم : بيت واحد يبني منفرداً ضخماً طويلاً في السماء ، قال : وقيل : كل بناء متسع مرتفع ، وقيل : هو القصر ، وقيل : كل بناء عال مرتفع ، والصرح : الأرض الملسة ، وصرحة الدار ساحتها .

ودل على مبادرتها لامتثال الأمر وسرعة دخولها بالفاء فقال : ﴿ فلما رأته ﴾ وعبر بما هو من الحسبان دلالة على أن عقلها وأن كان في غاية الرجاحة ناقص لعبادتها لغير الله فقال : ﴿ حسبته ﴾ أي لشدة صفاء الزجاج واتصال الماء بسطحه الأسفل ﴿ لجة ﴾ أي غمرة عظيمة من ماء ، فعزمت على خوضها إظهاراً لتمام الاستسلام ﴿ وكشفت عن ساقيها ﴾ أي لئلا تبتل ثيابها فتحتاج إلى تغييرها قبل الوصول إلى سليمان عليه السلام ، فرآها أحسن الناس ساقاً وقدماً غير أنها شعراء .

(201/578)

ولما حصل مراده ، استؤنف الإخبار عن أمره بعده فقيل : ﴿ قال ﴾ مبيناً لعظم عقله وعلمه ، وحكمته وقدرته ، مؤكداً لأنه لشدة اشتباهه بجودة المادة وتناهي حسن الصنعة وإحكامها لا يكاد يصدق أنه حائل دون الماء : ﴿ إنه ﴾ أي هذا الذي ظننته ماءاً ﴿ صرح ﴾ أي قصر ﴿ ممرد ﴾ أي مملس ، وأصل المرودة : الملامة والاستواء ﴿ من ﴾

أي كائن من ﴿ قوارير ﴾ أي زجاج ليتصف بشفوفة الماء فيظن أنه لا حائل دونه ، فلما رأت ما فضله الله به من العلم ، المؤيد بالحكمة ، المكمل بالوقار والسكينة ، المتمم بالخوارق ، بادرت إلى طاعته علماً بأنه رسول الله ، فاستأنف تعالى الإخبار عن ذلك بقوله :

﴿ قالت ﴾ مقبلة على من آتاه ، للاستمطار من فضله ، والاستجداء من عظيم وبله :

﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ ﴿ إني ظلمت نفسي ﴾ أي بما كنت فيه من العمى بعبادة غيرك عن عبادتك ﴿ وأسلمت ﴾ أي ليظهر عليّ ثمرات الإسلام .

ولما ذكرت هذا الأساس الذي لا يصح بناء طاعة إلا عليه ، أتبعته الداعي الذي لا تتم ثمرات الأعمال المؤسسة عليه إلا بحبه ، والإذعان له ، والانقياد والاعتراف بالفضل ، وبهدايته إلى ما يصلح منها وما لا يصلح على الوجوه التي لا تقوم إلا بها من الكميات والكيفيات .

فقالت : ﴿ مع سليمان ﴾ .

ولما ذكر صفة الربوبية الموجبة للعبادة بالإحسان ، ذكرت الاسم الأعظم الدال على ذات المستجمع للصفات الموجبة للإلهية للذات فقالت : ﴿ لله ﴾ أي مقرة له بالألوهية والربوبية على سبيل الوحدانية .

ثم رجعت إشارة إلى العجز عن معرفة الذات حق المعرفة إلى الأفعال التي هي بحر المعرفة فقالت : ﴿ رب العالمين ﴾ فعمت بعد أن خصت إشارة إلى الترقي من حضيض دركات

العمى إلى أوج درجات الهدى ، فلله درها ما أعلمها ! وأطيب أعراقها وأكرمها ! ويقال : أن سليمان عليه السلام تزوجها واصطنع الحمام – وهو أول من اتخذه – وأذهب شعرها بالنورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 427 . 430 ﴾

(202/578)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

الإسرائيليات في قصة بلقيس ملكة سبأ :

ومن الإسرائيليات ما ذكره بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل : الآية 44] .

فقد ذكر ابن جرير ، والثعلبي والبغوي ، والخازن ، وغيرهم : "أن سليمان أراد أن يتزوجها ، فقيل له : إن رجليها كحافر الحمار ، وهي شَعْرَاء الساقين ، فأمرهم ، فبنوا له هذا القصر على هذه الصفة ، فلما رأته حسبته لجة ، وكشفت عن ساقيها لتخوضه ، فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس قدما وساقا ، إلا أنها كانت شعراء الساقين ، فكره ذلك ، فسأل

الإنس ما يذهب هذا ؟ قالوا : الموسي ، فقالت بلقيس : لم تمسني حديدة[1] قط ، وكره سليمان ذلك ، خشية ان تقطع ساقيها ، فسأل الجن : فقالوا : لا ندري ، ثم سأل الشياطين ؟ فقالوا : إنا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء ، فاتخذوا لها النورة[2] والحمام ، فكانت النورة والحمام من يومئذ "[3] .

وقد روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي ، والسدي ، وابن جريج وغيرهم .

وروي أيضا : أنها سألت سيدنا سليمان عن أمرين قالت له : أريد ماء ليس من أرض ولا من سماء ! ! فسأل سليمان الإنس ، ثم الجن ، ثم الشياطين ، فقالت الشياطين : هذا هين ، أجر الخيل ، ثم خذ عرقها ، ثم املأ منه الآنية ، فأمر بالخيل فأجريت ، ثم أخذ العرق فملأ من الآنية ! !

وسألته عن لون الله عز وجل فوثب سليمان عن سريره ، وفزع من السؤال ، وقال : لقد سألتني –يا رب– عن أمر ، إنه ليتعاظم في قلبي أن أذكره لك ، ولكن الله

---

1 المراد : الموسي التي تزيل الشعر .

2 مادة يزال بها الشعر .

3 كذاب ظاهر ، كأن النورة والحمام لم يكونا إلا لها ، وكأن سليمان عليه السلام لم يكن له

هَمٌّ إلا إزالة شعر ساقيها ، وهو تجنٍّ صارخ على الأنبياء ، وإظهارهم بمظهر المتهالك على النساء ومحاسنهم ، فقبح الله اليهود .

(203/578)

أنساه ، وأنساهم ما سألته عنه .

وأن الشياطين خافوا لو تزوجها سليمان ، وجاءت بولد ، أن يبقوا في عبوديته ، فصنعوا له هذا الصرح الممرد 1 ، فظنّته ماء ، فكشفت عن ساقيها لتعبره ، فإذا هي شعراء ، فاستشارهم سليمان : ما يذهبه ؟ . فجعلت له الشياطين النورة2 .

قال العلامة ابن كثير في تفسيره بعد أن ذكر بعض المرويات : والأقرب في مثل هذه السياقات : أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد في صحفهم ، كرواية كعب ، ووهب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل من الأوابد 3 ، والغرائب والعجائب مما كان ، وما لم يكن ، ومما حرف ، وبدل ، ونسخ ، وقد أغنانا الله عن ذلك ما هو أصح منه ، وأنفع ، وأوضح ، وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

التفسير الصحيح لبناء الصرح :

والحق : أن سليمان عليه الصلاة والسلام أراد ببنائه الصرح : أن يريها عظمة ملكه ،

وسلطانه ، وأن الله سبحانه وتعالى أعطاه من الملك ومن أسباب العمران والحضارة ما لم يعطها ، فضلاً عن النبوة التي هي فوق الملك ، والتي دونها أية نعمة ، وحاشا لسليمان عليه السلام وهو الذي سأل الله أن يعطيه حكما يوافق حكمه -أي : الله ، فأوتيه أن يتحايل هذا التحايل ، حتى ينظر إلى ما حرم الله عليه ، وهما ساقاها ، وهو أَجَلُّ من ذلك وأسمى .

ولولا أنها رأت من سليمان ما كان عليه من الدين المتين ، والخلق الرفيع ، لما أذعنت إليه لما دعاها إلى الله الواحد الحق ، ولما ندمت على ما فرط منها من عبادة الكواكب والشمس ، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإسرائيليات والموضوعات صـ 249.250 ﴾

---

1 الصرح : هو القصر المشيد المحكم البناء ، المرتفع في السماء ، والممرد : الناعم الأملس ، القوارير : الزجاج الشديد الصفاء .

2 تفسير ابن كثير والبغوي ج6 ص 286 ، 289 .

3 جمع آبدة : وهي : الأمور المشكلة البعيدة المعاني ، واصل الآبدة النافرة من الوحش التي يستعصى أخذها ، ثم شبه بها الكلام العويص المعاني .

فصل

قال الفخر :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) ﴾

اعلم أن قوله : ﴿ نَكِّرُواْ ﴾ معناه اجعلوا العرش منكراً مغيراً عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه ، وذلك لأنه لو ترك على ما كان لعرفته لا محالة ، وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها وإذا غير دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل ، ولا يمتنع صحة ما قيل إن سليمان عليه السلام ألقى إليه أن فيها نقصان عقل لكي لا يتزوجها أو لا تحظى عنده على وجه الحسد ، فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها .

أما قوله : ﴿ نَنظُرْ ﴾ فقرىء بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف ، واختلفوا في ﴿ أَتَهْتَدِى ﴾ على وجهين : أحدهما : أتعرف أنه عرشها أم لا ؟ كما قدمنا الثاني : أتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال : ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ وذلك كالذم ولا يليق إلا بطريقة الدلالة ، فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار متنقلاً من المكان البعيد إلى هناك ، وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام ، ويعرف بذلك أيضاً فضل عقلها لأغراض كانت له ، فعند ذلك سألها .

أما قوله : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ فاعلم أن هكذا ثلاث كلمات ، حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الإشارة ، ولم يقل أهذا عرشك ، ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقيناً فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ولم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت في محل التوقف .

(205/578)

أما قوله : ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا ﴾ ففيه سؤالان ، وهو أن هذا الكلام كلام من ؟ وأيضاً فعلى أي شيء عطف هذا الكلام ؟ وعنه جوابان : الأول : أنه كلام سليمان وقومه ، وذلك لأن بلقيس لما سئلت عن عرشها ، ثم إنها أجابت بقولها : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ فالظاهر أن سليمان وقومه قالوا إنها قد أصابت في جوابها وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام ، ثم عطفوا على ذلك قولهم وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته قبل علمها ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى في أن خصهم بمزية التقدم في الإسلام الثاني : أنه من كلام بلقيس موصولاً بقولها : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ والمعنى : وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة ، ثم أن قوله : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ الله ﴾ إلى آخر الآية يكون من كلام رب العزة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ ﴾ ففيه وجهان : الأول : المراد : وصدها عبادتها لغير الله عن الإيمان الثاني : وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل ، وقرىء أنها بالفتح على أنه بدل من فاعل صد وبمعنى لأنها ، واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا لو كان تعالى خلق الكفر فيها لم يكن الصاد لها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة الكفار ، بل كان يكون الصاد لها عن الإيمان تجدد خلق الله الكفر فيها والجواب : أما على التأويل الثاني فلا شك في سقوط الاستدلال ، وأما على الأول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار صار سبباً لحصول الداعية المستلزمة للكفر ، وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقاً لقولنا ، والله أعلم .

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ﴾

(206/578)

اعلم أنه تعالى لما حكى إقامتها على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الأمر ما صار داعياً لها إلى الإسلام وهو قوله ﴿ قِيلَ لَهَا ادخلى الصرح ﴾ والصرح القصر كقوله : ﴿ يا هامان ابن لى صَرْحاً ﴾ [غافر : 36] وقيل صحن الدار ، وقرأ ابن كثير عن ﴿ سَأَقَيْهَا ﴾ بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقاً فأجرى عليه الواحد ،

والممرد الملس ، روي أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضاً ، ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الإنس والجن والطير ، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره وتحققاً لنبوته ، وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية ، وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد ، فقالوا إن في عقلها نقصاناً وإنها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش ، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ، ومعلوم من حال الزجاج الصافي أنه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماءاً راكداً فكشفت عن ساقيها لتخوضه ، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً ، وهذا على طريقة من يقول تزوجها (1) ، وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه ، وحصل كشف الساق على سبيل التبع ، فلما قيل لها هو صرح ممرد من قوارير استترت ، وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة ، فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سليمان لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة ، فقالت ظلمت نفسي بسوء ظني سليمان ، واختلفوا في أنه هل تزوجها أم لا ، وأنه تزوجها في هذه الحال أو قبل أن كشفت عن ساقيها ، والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها ، وليس لذلك ذكر في الكتاب ، ولا

في

---

(1) كلام قبيح يتنزه عنه مقام نبى كريم كسليمان ـ عليه السلام ـ الذى مدحه ربه تعالى بقوله تعالى ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وما كان غرضه إلا إسلامها وعجز الآية يشهد بذلك ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) ﴾ . ومن ثم فهذه القصة وما شاكلها من الإسرائيليات المختلقة والمفتراه على أنبياء الله ـ صوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ

وقد أصاب الإمام الفخر فى نسبة الزعم إلى أصحاب هذا القول . واللهخ أعلم .

(207/578)

خبر مقطوع بصحته ، ويروى عن ابن عباس أنها لما أسلمت قال لها اختاري من قومك من أزوجك منه فقالت مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني ، فقال النكاح من الإسلام ، فقالت إن كان كذلك فزوجني ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردهما إلى اليمن ، ولم يزل بها ملكاً ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 171 . 172 ﴾

(208/578)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾

أي غيروه وفي تغييره خمسة أوجه

: أحدها : أنه نزع ما عليه من فصوصه ، ومرافقه وجواهره ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه غيّر ما كان أحمر فجعله أخضر وما كان أخضر جعله أحمر ، قاله مجاهد .

الثالث : غيّر بأن زيد فيه ونقص منه ، قاله عكرمة .

الرابع : حوّل أعلاه أسفله ومقدمه مؤخره ، قاله شيبان بن عبد الرحمن .

الخامس : غيّره بأن جعل فيه تمثال السمك ، قاله أبو صالح .

﴿ نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أتهتدي إلى الحق بعقلها أم تكون من الذين لا يعقلون ، وهذا معنى قول ابن رومان .

الثاني : إلى معرفة العرش بفطنتها أم تكون من الذين لا يعرفون ، وهذا معنى قول ابن جبير ، ومجاهد .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ فلم تثبته ولم تنكره واختلف في سبب قولها ذلك ، على ثلاثة أقاويل :

أحدها : لأنها خلفته وراءها فوجدته أمامها فكان معرفتها له تمنع من إنكاره وتركها له وراءها يمنع إثباته ، وهذا معنى قول قتادة .

الثاني : لأنها وجدت فيه ما تعرفه فلذلك لم تنكره ووجدت فيه ما بُدِّل وغير فلذلك لم تثبته ، قاله السدي .

الثالث : شبهوا عليها حين قالوا : أهكذا عرشك ؟ فشبهت عليهم فقالت : كأنه هو ولو قالوا لها : هذا عرشك لقالت : نعم ، قاله مقاتل .

﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا ﴾ وهذا قول من سليمان وقيل هو من كلام قومه ، وفي تأويله ثلاثة أقاويل :

أحدها : معرفة الله وتوحيده ، قاله زهير .

الثاني : النبوة ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : أي علمنا أن العرش عرشها قبل أن نسألها ، قاله ابن شجرة .

﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : طائعين لله بالاستسلام له .

الثاني : مخلصين لله بالتوحيد .

قوله تعالى ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : وصدها عبادة الشمس أن تعبد الله .

الثاني : وصدّها كفرها بقضاء الله أن تهتدي للحق .

الثالث : وصدّها سليمان عما كانت تعبد في كفرها .

الرابع : وصدها الله تعالى إليه بتوفيقها بالإيمان عن الكفر .

قوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها بركة بنيت قوارير ، قاله مجاهد .

الثاني : أنها صحن الدار ، حكاه ابن عيسى يقال صرحة الدار وساحة الدار وباحة الدار وقاعة الدار كله بمعنى واحد . قال زهير مأخوذ من التصريح ومنه صرح بالأمر إذا أظهره .

الثالث : أنه القصر قاله ابن شجرة ، واستشهد بقول الهذلي .

على طرق كنحو الظباء . . . تحسب أعلامهن الصروحا

﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أي ماء لأن سليمان أمر الجن أن يبنوه من قوارير في ماء فبنوه وجعلوا حوله أمثال السمك فأمرها بالدخول لأنها وصفت له فأحب أن يراها .

قال مجاهد : وكانت هلباء الشعر والهلباء الطويلة الشعر ، قدمها كحافر الحمار وكانت أمها جنيه . قال الحسن : وخافت الجن أن يتزوجها سليمان فيطلع منها على أشياء كانت

الجن تخفيها عنه . وهذا القول بأن أمها جنية مستنكر في العقول لتباين الجنسين واختلاف الطبعين وتفاوت الجسمين ، لأن الآدمي جسماني ، والجني روحاني ، وخلق الله الآدمي من صلصال كالفخار وخلق الجني من مارج من نار ، ويمتنع الامتزاج من هذا التباين ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف ، لكنه قيل فذكرته حاكياً .

﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ فرآهما سليمان شعراوين فصنعت له الجن النورة فحلقهما ، فكان أول من صنعت النورة .

واختلفوا في السبب الذي كان من أجله أراد سليمان كشف ساقيها لدخول الصرح على ثلاثة أقاويل :

أحدها : لأنه أراد أن يختبر بذلك عقلها .

الثاني : أنه ذكر له أن ساقها ساق حمار لأن أمها جنية فأحب أن يختبرها .

الثالث : لأنه أراد أن يتزوجها فأحب أن يشاهدها .

﴿ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنه المجلس ومنه الأمرد لملوسته ، قاله علي بن عيسى .

الثاني : أنه الواسع طوله وعرضه ، قاله ابن شجرة وأنشد :

غدوت صباحاً باكراً فوجدتهم . . . قبيل الضحى في البابلي الممرد

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ فيه قولان

: أحدهما : بالشرك الذي كانت عليه ، قاله ابن شجرة .

الثاني : بالظن الذي توهمته في سليمان لأنها لما أمرت بدخول الصرح حسبته لجة وأن سليمان يريد تغريقها فيه فلما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن ، قاله سفيان .

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي استسلمت مع سليمان لله طائعة لله رب العالمين .

قال مقاتل : فتزوجها سليمان واتخذ لها حماماً ونورة بالشام ، وهو أول من اتخذ ذلك ، ثم لم ير إلا كذلك حتى فرق الموت بينهما ، فحكى الشعبي عن ناس من حمير أنهم حفروا مقبرة الملك فوجدوا فيها أرضاً معقودة فيها امرأة عليها حلل منسوخة بالذهب وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب : –

يا أيها الأقوام عُوجوا معاً . . . وأربعوا في مقبري العيسا

لتعلموا أني تلك التي . . . قد كنت أدْعي الدهر بلقيسا

شيّدت قصر الملك في حمير . . . قومي وقد كان مأنوسا

وكنت في ملكي وتدبيره . . . أرغم في الله المعاطيسا

بَعْلي سليمان النبي الذي . . . قد كان للتوراة دريسا

وسخّر الريح له مركباً . . . تهب أحياناً رواميسا

مع ابن داود النبي الذي . . . قدسه الرحمن تقديسا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(211/578)

وقال ابن عطية :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) ﴾

أراد سليمان عليه السلام في هذا " التنكير " تجربة ميزها ونظرها وليزيد في الإغراب عليها ، وروت فرقة أن الجن أحست من سليمان أو ظنت به أنه ربما تزوج بلقيس ، فكرهوا ذلك وعابوها عنده بأنها غير عاقلة ولا مميزة وبأن رجلها كحافر دابة ، فجرب عقلها وميزها بتنكير عرشها ، وجرب أمر رجلها بأمر الصرح ، لتكشف عن ساقيها عنده ، وقرأ أبو حيوة " تنظُر " بضم الراء ، و" تنكير العرش " تغيير وضعه وستر بعضه ، ونحو هذا ، وقال

ابن عباس ومجاهد والضحاك تنكيره بأن زيد فيه ونقص منه ، ويعترض هذا بأن من حقها على هذا أن تقول ليس به وتكون صادقة ، وقولها ﴿ كأنه هو ﴾ ، تجوز فصيح ونحوه قول الله تعالى : ﴿ كأنه ولي حميم ﴾ [فصلت : 34] . وقال الحسن بن الفضل شبهوا عليها فشبهت عليهم ولو قالوا هذا عرشك لقالت نعم ، وفي الكلام حذف تقديره كأنه هو ، وقال سليمان عند ذلك ﴿ وأوتينا العلم من قبلها ﴾ الآية ، وهذا منه على جهة تعديد نعم الله ، وإنما قال ذلك لما علمت هي وفهمت ، ذكر هو نعمة الله عليه وعلى آبائه ، وقوله تعالى : ﴿ وصدها ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون من قول الله تعالى إخباراً لمحمد عليه السلام والصاد ما كانت تعبد أي عن الإيمان ونحوه . وقال الرماني عن التفطن للعرش ، لأن المؤمن يقظ والكافر خشيب أو يكون الصاد سليمان عليه السلام قاله الطبري ، أو يكون الصاد الله عز وجل . ولما كان ﴿ صدها ﴾ بمعنى منعها ، تجاوز على هذا التأويل بغير حرف جر وإلا فبابه ألا يتعدى إلا ب " عن " ، وقرأ جمهور الناس " إنها بكسر الهمزة ، وقرأ سعيد بن جبير وابن أبي عبلة " أنها " بفتح الهمزة وهو على تقدير ذلك أنها ، أو على البدل من ﴿ ما ﴾ ، قال محمد بن كعب القرظي وغيره ولما وصلت بلقيس أمر سليمان الجن فصنعت له صرحاً وهو الصحن من غير سقف وجعلته مبنياً كالصهريج وملىء ماء وبث فيه السمك والضفادع وطبق بالزجاج الأبيض الشفاف ، وبهذا جاء صرحاً ، و ﴿ الصرح ﴾ أيضاً كل

بناء عال ، وكل هذا من التصريح وهو الإعلان البالغ ، وجعل لسليمان في وسطه كرسي ، فلما وصلت إليه بلقيس ﴿ قيل لها ادخلي ﴾ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأت اللجة وفزعت وظنت أنها قصد بها الغرق وعجبت من كون كرسيه على الماء ورأت ما هالها ولم يكن لها بد من امتثال الأمر ف "كشفت" عن ساقيها " ، فرأى سليمان ساقيها سليمة مما قالت الجن غير أنها كثيرة الشعر ، فلما بلغا هذا الحد ، قال لها سليمان ﴿ إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ ، و" الممرد " المحكوك الملس ، ومنه الأمرد والشجرة المرداء التي لا ورق عليها والممرد أيضاً المطول ، ومنه قيل للحصن مارد ، وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم ، فروي أن سليمان تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام قاله الضحاك ، وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقاش تزوجها وردها إلى ملكها باليمن وكان يأتيها على الريح كل يوم مرة ، فولدت له غلاماً سماه داوود مات في حياته ، و﴿ مع ﴾ ظرف ، وقيل حرف بني على الفتح ، وأما إذا أسكنت العين فلا خلاف أنه حرف جاء لمعنى وقرأ ابن كثير وحده في رواية أبي الأخربط " عن سأقيها " بالهمز قال أبو علي وهي ضعيفة وكذلك يضعف الهمز في قراءة قنبل " يكشف عن سأق "

فأما همز السؤق وعلى سؤقه فلغة مشهورة في همز الواو التي قبلها ضمة حكى أبو علي أن أبا حيّة النميري كان يهمز كل واو قبلها ضمة وأنشد " لب المؤقدان إلى موسى " ووجهها أن الضمة تقوم على الواو إذ لا حائل بينهما ، وقرأ ابن مسعود " عن رجليها " ، وروي أن سليمان عليه السلام لما أراد زوال شعر ساقيها أشفق من حمل الموسى عليها وقيل إنها قالت ما مسني حديد قط فأمر الجن بالتلطف في زواله . فصنعوا النورة ولم تكن قبل الأمم ، وهذه الأمور التي فعلها سليمان عليه السلام من سوق العرش وعمل الصرح وغير ذلك قصد بذلك معاياتها والإغراب عليها ، كما سلكت هي قبل سبيل ملوك الدنيا في ذلك بأن أرسلت الجواري

والغلمان واقترحت في أمر القدح والذرتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(213/578)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قال نكِّروا لها عرشها ﴾

قال المفسرون : خافت الشياطين أن يتزوج سليمان بلقيس ، فتُفشي إليه أسرار الجن ، لأن

أُمَّها كانت جِنّية ، فلا ينفكُّون من تسخير سليمان وذرِّيَته بعده ، فأساؤوا الثناء عليها وقالوا : إن في عقلها شيئاً ، وإن رجلها كحافر الحمار ، فأراد سليمان [أن] يختبر عقلها بتنكير عرشها ، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح .

قال ابن قتيبة : ومعنى ﴿ نكِّروا ﴾ : غيِّروا ، يقال : نكَّرت الشيء فتنكَّر ، أي : غيَّرته فتغيَّر .

وللمفسرين في كيفية تغييره ستة أقوال .

أحدها : أنه زِيد فيه ونقص منه ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنهم جعلوا صفائح الذهب التي كانت عليه مكان صفائح الفضة ، وصفائح الفضة مكان صفائح الذهب ، والياقوتَ مكان الزَّبَرْجَد ، والدُّرَّ مكان اللؤلؤ ، وقائمتَي الزَّبَرْجَد مكان قائمتَي الياقوت ، قاله ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنهم نزعوا ما عليه من فصوصه وجواهره ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والرابع : أنهم جعلوا ما كان منه أحمرَ أخضرَ ، وما كان أخضر أحمر ، قاله مجاهد .

والخامس : أنهم جعلوا أسفله أعلاه ، ومُقَدَّمه مُؤخَّره ، وزادوا فيه ، ونقصوا منه ، قاله قتادة .

والسادس : أنهم جعلوا فيه تماثيل السَّمك ، قاله أبو صالح .

وفي قوله ﴿ كأنّه هو ﴾ قولان .

أحدهما : أنها لمَّا رأته جعلت تَعْرِف وتُنْكِر ، ثم قالت في نفسها : من أين يَخْلُص إلى ذلك وهو في سبعة أبيات والحرس حوله ؟ ! ثم قالت : كأنه هو ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقال قتادة : شبَّهتْه بعرشها .

وقال السدي : وجدت فيه ما تعرفه فلم تُنْكِر ، ووجدت فيه ما تُنْكِره فلم تُثْبِت ، فلذلك قالت : كأنه هو .

والثاني : أنَّها عرفتْه ، ولكنها شبَّهتْ عليهم كما شبَّهوا [عليها] ، فلو أنهم قالوا : هذا عرشكِ ، لقالت : نعم ، قاله مقاتل .

(214/578)

قال المفسرون : فقيل لها : فانه عرشكِ ، فما أغنى عنكِ إغلاق الابواب ؟ !

وفي قوله : ﴿ وأُوتينا العِلْم ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قول سليمان ، قاله مجاهد .

ثم في معناه قولان .

أحدهما : وأُوتينا العِلْم بالله وقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة .

والثاني : أُوتينا العِلْم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكُنَّا مُسْلِمين لله .

والقول الثاني : انه من قول بلقيس ، فانها لمّا رأت عرشها ، قالت : قد عرفتُ هذه الآية ، وأُوتينا العِلْم بصِحَّة نبوَّة سليمان بالآيات المتقدّمة ، تعني أمر الهدهد والرُّسُلِ التي بُعثت من قَبْل هذه الآية ، وكُنَّا مُسْلِمِين منقادِين لأمركَ قبل أن نجيء .

والثالث : أنه من قول قوم سليمان ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ وصدَّها ما كانت تعبُد مِنْ دون الله ﴾ قال الفراء : معنى الكلام : هي عاقلة ، إنَّما صدَّها عن عبادة الله عبادتُها الشمس والقمر ، وكان عادةً من دين آبائها ؛ والمعنى : وصدَّها أن تعبُد الله ما كانت تعبد ، قال : وقد قيل : صدَّها سليمانُ ، أي : منعها ما كانت تعبُد .

قال الزجاج : المعنى : صدَّها عن الإيمان العادةُ التي كانت عليها ، لأنها نشأت ولم تعرِف إلا قوماً يعبُدون الشمس ، وبيَّن عبادتها بقوله : ﴿ إنَّها كانت من قوم كافرين ﴾ وقرأ سعيد بن جبير ، وابن أبي عبلة : ﴿ أنَّها كانت ﴾ بفتح الهمزة .

قوله تعالى : ﴿ قيل لها ادخُلي الصَّرْحَ ﴾ قال المفسرون : أمر الشياطين فبنَوا له صرحاً كهيئة السطح من زجاج .

وفي سبب أمره بذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أراد أن يريَها مُلكاً هو اعزُّ من مُلكها ، قاله وهب بن منبّه .

والثاني : أنه أراد أن ينظر إلى قدمها من غير أن يسألها كشفها ، لأنه قيل له إن رجلها كحافر

الحمار ، فأمر ان يُهيَّأ لها بيت من قوارير فوق الماء ، ووُضع سرير سليمان في صدر البيت ، هذا قول محمد بن كعب القرظي .

(215/578)

والثالث : أنه فعل ذلك ليختبرها كما اختبرته بالوصائف والوصفاء ، ذكره ابن جرير .

فأمّا الصَّرْح فقال ابن قتيبة : هو القصر ، وجمعه : صُروح ، ومنه قول الهذليّ :

[على طُرُقٍ كنحور الرِّكا . . .

بِ] تَحْسَبُ أعلامَهنَّ الصُّروحا

قال : ويقال : الصَّرْحُ بلاطٌ اتُّخِذ لها من قَوارير ، وجُعل تحتها ماءٌ وسمك .

قال مجاهد : كانت بِركة من ماء ضرب عليها سليمان قوارير .

وقال مقاتل : كان قصراً من قوارير بني على الماء ، وتحته السَّمك .

قوله تعالى : ﴿ حَسِبَتْه لُجَّةً ﴾ وهي : مُعْظَم الماء ﴿ وكَشَفَتْ عن ساقَيْها ﴾ لدخول الماء ، فناداها سليمان ﴿ إنَّه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ ﴾ أي : مملَّسٌ ﴿ مِنْ قَوارير ﴾ أي : من زُجاج ؛ فعلمتْ حينئذ أن مُلك سليمان من الله تعالى ، ف ﴿ قالت ربِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسي ﴾ أي : بعبادة غيرك .

وقيل : ظنّت في سليمان أنه يريد تغريقها في الماء ، فلمّا علمتْ أنه صَرْح ممرَّد قالت : ربِّ إنّي ظَلَمْتُ نفسي بذلك الظَّنِّ ، وأسلمتُ مع سليمان ، ثم تزوجها سليمان .

وقيل : إنه ردَّها إلى مملكتها وكان يزورها في كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام ، وأنها ولدت منه ، وقيل : إنه زوَّجها ببعض الملوك ولم يتزوجها هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(216/578)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾

أي غيِّروه .

قيل : جعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه .

وقيل : غيِّر بزيادة أو نقصان .

قال الفرّاء وغيره : إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له : إن في عقلها شيئاً فأراد أن يمتحنها .

وقيل : خافت الجن أن يتزوّج بها سليمان فيولد له منها ولد فيبقون مسخَّرين لآل سليمان

أبداً ، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ، ورجلها كرجل الحمار ؛ فقال : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ لنعرف عقلها .

وكان لسليمان ناصح من الجن ، فقال كيف لي أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها ؟ فقال : أنا أجعل في هذا القصر ماء ، وأجعل فوق الماء زجاجاً ، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها ؛ فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ ﴾ يريد بلقيس ، ﴿ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق ، فلم تقرّ بذلك ولم تنكر ، فعلم سليمان كمال عقلها .

قال عكرمة : كانت حكيمة فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ .

وقال مقاتل : عرفته ولكن شَبَّهت عليهم كما شَبَّهوا عليها ؛ ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت نعم هو ؛ وقاله الحسن بن الفضل أيضاً .

وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أنّ الجن مسخَّرون له ، وكذلك الشياطين لتعرف أنها نبوّة ونؤمن به .

وقد قيل هذا في مقابلة تعميتها الأمر في باب الغلمان والجواري .

﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا ﴾ قيل : هو من قول بلقيس ؛ أي أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره .

وقيل : هو من قول سليمان أي أوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرّة .

وقيل : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها .

وقيل : هو من كلام قوم سليمان .

والله أعلم .

(217/578)

قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ الله ﴾ الوقف على ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ حسن ؛ والمعنى : منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر ف ﴿ ما ﴾ في موضع رفع .

النحاس : المعنى ؛ أي صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه (عن أن تسلم) .

ويجوز أن يكون ﴿ ما ﴾ في موضع نصب ، ويكون التقدير : وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ؛ أي حال بينها وبينه .

ويجوز أن يكون المعنى : وصدها الله ؛ أي منعها الله عن عبادتها غيره فحذفت ﴿ عن ﴾ وتعدى الفعل .

نظيره : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] أي من قومه .

وأنشد سيبويه :

ونُبِّئْتُ عبدَ الله بالجوّ أصبحتْ . . .

كِراماً مواليها لئيما صمِيمُها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله .

﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ قرأ سعيد بن جبير : ﴿ أنها ﴾ بفتح الهمزة ، وهي في موضع نصب بمعنى لأنها .

ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ ما ﴾ فيكون في موضع رفع إن كانت ﴿ ما ﴾ فاعلة الصد .

والكسر على الاستئناف .

قوله تعالى : ﴿ قِيلَ لَهَا ادخلي الصرح ﴾

التقدير عند سيبويه : ادخلي إلى الصرح فحذف إلى وعدّي الفعل .

وأبو العباس يغلِّطه في هذا ؛ قال : لأن دخل يدلّ على مدخول .

وكان الصرح صحناً من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان ، عمله ليريها ملكاً أعظم من ملكها ؛ قاله مجاهد .

وقال قتادة : كان من قوارير خلفه ماء ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أي ماء .

وقيل : الصرح القصر ؛ عن أبي عبيدة .

كما قال :

تَحسِب أعلامَهنّ الصُّروحَا . . .

وقيل : الصَّرْح الصَّحْن ؛ كما يقال : هذه صَرْحة الدار وقاعتها ؛ بمعنًى .

وحكى أبو عبيدة في الغريب المصنف أن الصَّرح كل بناء عال مرتفع من الأرض ، وأن الممرد الطويل .

النحاس : أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملاً واحداً صرح ؛ من قولهم : لبن صريح إذا لم يَشُبه ماء ؛ ومن قولهم : صَرَّح بالأمر ، ومنه : عربي صريح .

(218/578)

وقيل : عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن ، ورِجلها رِجل حمار ؛ قاله وهب بن منبّه .

فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق : وتعجبت من كون كرسيه على الماء ، ورأت ما هالها ، ولم يكن بَدّ من امتثال الأمر .

﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ فإذا هي أحسن الناس ساقاً ؛ سليمة مما قالت الجن ، غير أنها كانت كثيرة الشعر ، فلما بلغت هذا الحد ، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها

: ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ والممرد المحكوك الملس ، ومنه الأمرد .

وتمرد الرجل إذ أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه ؛ قاله الفراء .

ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها .

ورملة مرداء إذا كانت لا تُنْبِت .

والممرد أيضاً المطوَّل ، ومنه قيل للحصن مارد .

أبو صالح : طويل على هيئة النخلة .

ابن شجرة : واسع في طوله وعرضه .

قال :

غدوت صباحاً باكراً فوجدتهم . . .

قبيل الضحا في السَّابريِّ الممرَّد

أي الدروع الواسعة .

وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم ؛ على ما يأتي .

ولما رأى سليمان عليه السلام قدميها قال لناصحه من الشياطين : كيف لي أن أقلع هذا الشعر من غير مضرة بالجسد ؟ فدلّه على عمل النُّورَة ، فكانت النُّورَة والحمامات من يومئذٍ .

فيروى أن سليمان تزوّجها عند ذلك وأسكنها الشام ؛ قاله الضحاك .

وقال سعيد بن عبد العزيز في كتاب النقاش : تزوّجها وردّها إلى ملكها باليمن ، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة ؛ فولدت له غلاماً سماه داود مات في زمانه .

وفي بعض الأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " "كانت بلقيس من أحسن نساء العالمين ساقين وهي من أزواج سليمان عليه السلام في الجنة" فقالت عائشة : هي أحسن ساقين مني ؟ فقال عليه السلام : "أنت أحسن ساقين منها في الجنة" " ذكره القشيري .

وذكر الثعلبي عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(219/578)

" أول من اتخذ الحمامات سليمان بن داود فلما ألصق ظهره إلى الجدار فمسه حرُّها قال أوّاه من عذاب الله " ثم أحبها حباً شديداً وأقرها على ملكها باليمن ، وأمر الجن فبنوا لها ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً : سَلْحون وبَيْنون وغُمْدان ، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة ، ويقيم عندها ثلاثة أيام .

وحكى الشّعبي أن ناساً من حِمْير حفروا مقبرة الملوك ، فوجدوا فيها قبراً معقوداً فيه امرأة عليها حُلَل منسوجة بالذهب ، وعند رأسها لوح رخام فيه مكتوب :

يأيها الأقوامُ عُوجُوا معاً . . .

وأربعوا في مَقْبَرِى العِيسَا

لتعلموا أنِّي تلك التي . . .

قد كنتُ أُدعَى الدهر بَلْقِيسَا

شَيَّدْتُ قصرَ الْمُلْكِ في حِميْرٍ . . .

قَوْمِي وقِدْماً كان مأنوسا

وكنتُ في مُلْكي وتدبيره . . .

أُرْغِمُ في الله المَعَاطِيسَا

بَعْلِي سليمانُ النبيُّ الذي . . .

قد كان للتوراة دِرِّيسَا

وسخّر الريحُ له مركبا . . .

تَهبُّ أحياناً رَوَامِيسَا

مع ابن داودَ النبيّ الذي . . .

قَدَّسه الرحمنُ تَقْدِيسَا

وقال محمد بن إسحاق ووهب بن منبه : لم يتزوجها سليمان ، وإنما قال لها : اختاري زوجاً ؛ فقالت : مثلي لا ينكح وقد كان لي من الملك ما كان .

فقال : لا بد في الإسلام من ذلك .

فاختارت ذا تُبَّع ملك هَمْدَان ، فزوجه إياها وردها إلى اليمن ، وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يطيعه ، فبنى له المصانع ، ولم يزل أميراً حتى مات سليمان .

وقال قوم : لم يرد فيه خبر صحيح لا في أنه تزوَّجها ولا في أنه زوّجها .

وهي بلقيس بنت السرح بن الهداهد بن شراحيل بن أدد بن حدر بن السرح بن الحرس بن قيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

(220/578)

وكان جدها الهداهد ملكاً عظيم الشأن قد ولد له أربعون ولداً كلهم ملوك ، وكان ملك أرض اليمن كلها ، وكان أبوها السرح يقول لملوك الأطراف : ليس أحد منكم كفؤا لي ، وأبى أن يتزوج منهم ، فزوجوه امرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت السكن ، فولدت له بلقمة وهي بلقيس ، ولم يكن له ولد غيرها .

وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كان أحد أبوي بلقيس جنياً " فمات أبوها ، واختلف عليها قومها فرقتين ، وملكوا أمرهم رجلاً فساءت سيرته ، حتى فجر

بنساء رعيته ، فأدركت بلقيس الغيرة ، فعرضت عليه نفسها فتزوجها ، فسقته الخمر حتى حزت رأسه ، ونصبته على باب دارها فملكوها .

وقال أبو بكرة : ذكرت بلقيس عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " ويقال : إن سبب تزوج أبيها من الجن أنه كان وزيراً لملك عاتٍ يغتصب نساء الرعية ، وكان الوزير غيوراً فلم يتزوج ، فصحب مرة في الطريق رجلاً لا يعرفه ، فقال هل لك من زوجة ؟ فقال : لا أتزوج أبداً ، فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن ، فقال لئن تزوجت ابنتي لا يغتصبها أبداً .

قال : بل يغتصبها .

قال : إنا قوم من الجن لا يقدر علينا ؛ فتزوَّج ابنته فولدت له بلقيس ؛ ثم ماتت الأم وابتنت بلقيس قصراً في الصحراء ، فتحدث أبوها بحديثها غلطاً ، فنمى للملك خبرها فقال له : يا فلان تكون عندك هذه البنت الجميلة وأنت لا تأتيني بها ، وأنت تعلم حبي للنساء ! ثم أمر بحبسه ، فأرسلت بلقيس إليه إني بين يديك ؛ فتجهز للمسير إلى قصرها ، فلما همّ بالدخول بمن معه أخرجت إليه الجواري من بنات الجن مثل صورة الشمس ، وقلن له ألا تستحي ؟ ! تقول لك سيدتنا أتدخل بهؤلاء الرجال معك على أهلكا فأذن لهم بالانصراف ودخل وحده ، وأغلقت عليه الباب وقتلته بالنعال ، وقطعت رأسه ورمت به

إلى عسكره ، فَأَمَّرُوها عليهم ؛ فلم تزل كذلك إلى أن بلّغ الهدهد خبرها سليمان عليه السلام .

(221/578)

وذلك أن سليمان لما نزل في بعض منازله قال الهدهد : إن سليمان قد اشتغل بالنزول ، فارتفع نحو السماء فأبصر طول الدنيا وعرضها ، فأبصر الدنيا يميناً وشمالاً ، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد ، وكان اسم ذلك الهدهد عفير ، فقال عفير اليمن ليعفور سليمان : من أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ قال : أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود .

قال : ومَن سليمان ؟ قال : ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحش والريح وكل ما بين السماء والأرض .

فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد ؛ ملكها امرأة يقال لها بلقيس ، تحت يدها اثنا عشر ألف قَيْل ، تحت يد كل قَيل مائة ألف مقاتل من سوى النساء والذراري ؛ فانطلق معه ونظر إلى بلقيس ومُلكها ، ورجع إلى سليمان وقت العصر ، وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة فلم يجده ، وكانوا على غير ماء .

قال ابن عباس في رواية : وقعت عليه نفحة من الشمس .

فقال لوزير الطير : هذا موضع مَن ؟ قال : يا نبيّ الله هذا موضع الهدهد .

قال : وأين ذهب ؟ قال : لا أدري أصلح الله الملك .

فغضب سليمان وقال : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ الآية .

ثم دعا بالعُقَاب سيد الطير وأصرمها وأشدها بأساً فقال : ما تريد يا نبيّ الله ؟ فقال : عليّ بالهدهد الساعة .

فرفع العقاب نفسه دون السماء حتى لزق بالهواء ، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ، فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن ، فانقض نحوه وأنشب فيه مِخْلَبه .

فقال له الهدهد : أسألك بالله الذي أقدرك وقوّاك عليّ إلا رحمتني .

فقال له : الويل لك ؛ وثكلتك أمُّك ! إن نبي الله سليمان حلف أن يعذبك أو يذبحك .

ثم أتى به فاستقبلته النّسور وسائر عساكر الطير .

وقالوا الويل لك ؛ لقد توعدك نبيّ الله .

فقال : وما قدري وما أنا أما استثنى ؟ قالوا : بلى إنه قال : ﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ثم دخل على سليمان فرفع رأسه ، وأرخى ذنبه وجناحيه تواضعاً لسليمان عليه السلام .

(222/578)

فقال له سليمان : أين كنت عن خدمتك ومكانك ؟ لأعذبنك عذاباً شديداً أو لأذبحنك .

فقال له الهدهد : يا نبيّ الله ! اذكر وقوفك بين يدي الله بمنزلة وقوفي بين يديك .

فاقشعر جلد سليمان وارتعد وعفا عنه .

وقال عكرمة : إنما صرف الله سليمان عن ذبح الهدهد أنه كان بارّاً بوالديه ؛ ينقل الطعام إليهما فيزقهما .

ثم قال له سليمان : ما الذي أبطأ بك ؟ فقال الهدهد ما أخبر الله عن بلقيس وعرشها وقومها حسبما تقدّم بيانه .

قال الماوردي : والقول بأن أمّ بلقيس جنية مستنكر من العقول لتباين الجنسين ، واختلاف الطبعين ، وتفارق الحسَّين ؛ لأن الآدمي جسماني والجن روحاني ، وخلق الله الآدمي من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، ويمنع الامتزاج مع هذا التباين ، ويستحيل التناسل مع هذا الاختلاف .

قلت : قد مضى القول في هذا ، والعقل لا يحيله مع ما جاء من الخبر في ذلك ، وإذا نظر في أصل الخلق فأصله الماء على ما تقدّم بيانه ، ولا بعد في ذلك ؛ والله أعلم .

وفي التنزيل ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد ﴾ [الإسراء : 64] وقد تقدّم .

وقال تعالى : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 56] على ما يأتي في "الرحمن" .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي بالشرك الذي كانت عليه ؛ قاله ابن شجرة .

وقال سفيان : أي بالظن الذي توهمته في سليمان ؛ لأنها لما أمرت بدخول الصرح حسبته لجة ، وأن سليمان يريد تغريقها فيه .

فلما بان لها أنه صرح ممرد من قوارير علمت أنها ظلمت نفسها بذلك الظن .

وكسرت ﴿ إن ﴾ لأنها مبتدأة بعد القول .

ومن العرب من يفتحها فيعمل فيها القول .

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ .

إذا سكنت ﴿ مع ﴾ فهي حرف جاء لمعنى بلا اختلاف بين النحويين .

وإذا فتحها ففيها قولان : أحدهما : أنه بمعنى الظرف اسم .

والآخر : أنه حرف خافض مبني على الفتح ؛ قاله النحاس] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قال نكروا لها عرشها ﴾ .

روي أن الجن أحست من سليمان ، أو ظنت به أنه ربما تزوج بلقيس ، فكرهوا ذلك ورموها عنده بأنها غير عاقلة ولا مميزة ، وأن رجلها كحافر دابة ، فجرب عقلها وميزها بتنكير العرش ، ورجلها بالصرح ، لتكشف عن ساقيها عنده .

وتنكير عرشها ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك : بأن زيد فيه ونقص منه .

وقيل : بنزع ما عليه من الفصوص والجواهر .

وقيل : بجعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره .

والتنكير : جعله متنكراً متغيراً عن شكله وهيئته ، كما يتنكر الرجل للناس حتى لا يعرفوه .

وقرأ الجمهور : ننظر : بالجزم على جواب الأمر .

وقرأ أبو حيوة : بالرفع على الاستئناف .

أمر بالتنكير ، ثم استأنف الإخبار عن نفسه بأنه ينظر ، ومتعلق أتهتدي محذوف .

والظاهر أنه أتهتدي لمعرفة عرشها ولا يجعل تنكيره قادحاً في معرفتها له فيظهر بذلك فرط عقلها وأنها لم يخف عليه حال عرشها وإن كانوا قد راموا الإخفاء أو أتهتدي للجواب

المصيب إذا سئلت عنه ، أو أتهتدي للإيمان بنبوة سليمان عليه السلام إذا رأت هذا المعجز من نقل عرشها من المكان الذي تركته فيه وغلقت الأبواب عليه وجعلت له حراساً .

﴿ فلما جاءت ﴾ ، في الكلام حذف ، أي فنكروا عرشها ونظروا ما جوابها إذا سئلت عنه .

﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ﴾ : أي مثل هذا العرش الذي أنت رأيتيه عرشك الذي تركتيه ببلادك ؟ ولم يأت التركيب : أهذا عرشك ؟ جاء بأداة التشبيه ، لئلا يكون ذلك تلقيناً لها .

ولما رأته على هيئة لا تعرفها فيه ، وتميزت فيه أشياء من عرشها ، لم تجزم بأنه هو ، ولا نفته النفي البالغ ، بل أبرزت ذلك في صورة تشبيهية فقالت : ﴿ كأنه هو ﴾ ، وذلك من جودة ذهنها ، حيث لم تجزم في الصورة المحتملة بأحد الجائزين من كونه إياه أو من كونه ليس إياه ، وقابلت تشبيههم بتشبيهها .

والظاهر أن قوله : ﴿ وأوتينا العلم ﴾ إلى قوله : ﴿ من قوم كافرين ﴾ ليس من كلام بلقيس ، وإن كان متصلاً بكلامها .

فقيل : من كلام سليمان .

وقيل : من كلام قوم سليمان وأتباعه .

فإن كان من قول سليمان فقيل : العلم هنا مخصوص ، أي وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة .

﴿ من قبلها ﴾ أي من قبل مجيئها .

﴿ وكنا مسلمين ﴾ : موحدين خاضعين .

وقال ابن عطية : وفي الكلام حذف تقديره كأنه هو ، وقال سليمان عند ذلك : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها ﴾ الآية ، قال ذلك على جهة تعديد نعم الله تعالى ، وإنما قال ذلك بما علمت هي وفهمت ، ذكر هو نعمة الله عليه وعلى آبائه .

انتهى ملخصاً .

وقال الزمخشري : وأوتينا العلم من كلام سليمان وملائه ، فإن قلت : علام عطف هذا الكلام وبما اتصل ؟ قلت : لما كان المقام الذي سئلت فيه عن عرشها ، وأجابت بما أجابت به مقاماً ، أجرى فيه سليمان وملأه ما يناسب قولهم : ﴿ وأوتينا العلم ﴾ ، نحو أن يقولوا عند قولها : ﴿ كأنه هو ﴾ ، قد أصابت في جوابها ، فطبقت المفصل ، وهي عاقلة لبيبة ، وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله وصحة النبوّة بالآيات التي تقدمت

عند وفدة المنذر .

وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها عطفوا على ذلك قولهم : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان ما جاء من عنده قبل علمها ، ولم نزل نحن على دين الإسلام ، شكروا الله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها وصدها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة .

ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها ﴿ كأنه هو ﴾ ، والمعنى : وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة ، أو قبل هذه الحالة ، يعني ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام .

ثم قال الله تعالى : ﴿ وصدها ﴾ قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل .

وقيل : وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار واتصال الفعل .

انتهى .

أما قوله : ويجوز أن يكون من كلام بلقيس ، فهو قول قد تقدم إليه على سبيل التعيين لا الجواز .

(225/578)

قيل : والمعنى وأوتينا العلم بصحة نبوته بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة ، يعني إحضار العرش .

وكنا مسلمين مطيعين لأمرك منقادين لك .

والظاهر أن الفاعل بصدّها هو قوله : ﴿ ما كانت تعبد ﴾ ، وكونه الله أو سليمان ، وما مفعول صدّها على إسقاط حرف الجر ، قاله الطبري ، وهو ضعيف لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ، نحو قوله :

تمرون الديار ولم تعوجوا . . .

أي عن الديار ، وليس من مواضع حذف حرف الجر .

وإذا كان الفاعل هو ما كانت بالمصدود عنه ، الظاهر أنه الإسلام .

وقال الرماني : التقدير التفطن للعرش ، لأن المؤمن يقظ والكافر خبيث .

والظاهر أن قوله : ﴿ وصدها ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وأوتينا ﴾ ، إذا كان من كلام سليمان ، وإن كان يحتمل ابتداء إخبار من الله تعالى لمحمد نبيه ولأمته .

وإن كان وأوتينا من كلام بلقيس ، فالظاهر أنه يتعين كونه من قول الله تعالى وقول من قال إنه متصل بقوله : ﴿ أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ .

والواو في صدها للحال ، وقد مضمرة مرغوب عنه لطول الفصل بينهما ، ولأن التقديم والتأخير لا يذهب إليه إلا عند الضرورة .

وقرأ الجمهور : إنها بكسر الهمزة ، وسعيد بن جبير ، وابن أبي عبلة : بفتحها ، فإما على تقدير حرف الجر ، أي لأنها ، وإما على أن يكون بدلاً من الفاعل الذي هو ما كانت تعبد .

قال محمد بن كعب القرظي وغيره : لما وصلت بلقيس ، أمر سليمان الجن فصنعت له صرحاً ، وهو السطح في الصحن من غير سقف ، وجعلته مبنياً كالصهريج وملىء ماء ، وبث فيه السمك والضفادع ، وجعل لسليمان في وسطه كرسي .

فلما وصلته بلقيس ، ﴿ قيل لها : ادخلي ﴾ إلى النبي عليه السلام ، فرأت اللجة وفزعت ، ولم يكن لها بد من امتثال الأمر ، فكشفت عن ساقها ، فرأى سليمان ساقيها سليمتين مما قالت الجن .

(226/578)

فلما بلغت هذا الحد ، قال لها سليمان : ﴿ إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ ، وعند ذلك استسلمت بلقيس وأدغنت وأسلمت وأقرت على نفسها بالظلم .

وفي هذه الحكاية زيادة ، وهو أنه وضع سريره في صدره وجلس عليه ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس .

قال الزمخشري : وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره وتحققاً لنبوته وثباتاً على الدين .

انتهى .

والصرح : كل بناء عال ، ومنه : ﴿ ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ﴾ وهو من التصريح ، وهو الإعلان البالغ .

وقال مجاهد : الصرح هنا : البركة .

وقال ابن عيسى : الصحن ، وصرحة الدار : ساحتها .

وقيل : الصرح هنا : القصر من الزجاج ؛ وفي الكلام حذف ، أي فدخلته امتثالاً للأمر .

واللجة : الماء الكثير .

وكشف ساقيها عادة من كان لابساً وأراد أن يخوض الماء إلى مقصد له ، ولم يكن المقصود من الصرح إلا تهويل الأمر ، وحصل كشف الساق على سبيل التبع ، إلا أن يصح ما روي عن الجن أن ساقها ساق دابة بحافر ، فيمكن أن يكون استعلام ذلك مقصوداً .

وقرأ ابن كثير : قيل في رواية الأخريط وهب بن واضح عن سأقيها بالهمز ، قال أبو علي : وهي ضعيفة ، وكذلك في قراءة قنبل : يكشف عن سأق ، وأما همز السؤق وعلى سؤقه فلغة مشهورة في همز الواو التي قبلها ضمة .

حكى أبو علي أن أبا حية النميري كان يهمز كل واو قبلها ضمة ، وأنشد :

أحب المؤقدين إلى موسى . . .

والظاهر أن الفاعل قال هو سليمان ، ويحتمل أن يكون الفاعل هو الذي أمرها بدخول

الصرح.

وظلمها نفسها ، قيل : بالكفر ، وقيل : بحسبانها أن سليمان أراد أن يعرفها .

وقال ابن عطية : ومع ، ظرف بني على الفتح ، وأما إذا أسكنت العين فلا خلاف أنه حرف جاء لمعنى .

انتهى ، والصحيح أنها ظرف ، فتحت العين أو سكنت ، وليس التسكين مخصوصاً بالشعر ، كما زعم بعضهم ، بل ذلك لغة لبعض العرب ، والظرفية فيها مجاز ، وإنما هو اسم يدل على معنى الصحبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(227/578)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ ﴾ أي سليمانُ عليهِ السَّلام ، كُررتِ الحكايةُ مع كونِ المحكيِّ سابقاً ولاحقاً من كلامِه عليه الصَّلاة والسَّلام تنبيهاً على ما بين السَّابقِ واللاحقِ من المخالفةِ لما أنَّ الأولَ من بابِ الشكرِ تعالى والثَّاني أمرٌ لخدمِه ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ أي غيّروا هيئتَه بوجهٍ من الوجوهِ ﴿ نَنظُرْ ﴾ الجزمُ على أنَّه جوابُ الأمرِ . وقُرِىءَ بالرَّفعِ على الاستئنافِ ﴿ أَتَهْتَدِى ﴾ إلى معرفتِه أو إلى الجوابِ اللائقِ بالمقام ، وقيل : إلى الإيمانِ باللهِ تعالى ورسولِه

عند رؤيتها لتقدمِ عرشِها من مسافةٍ طويلةٍ في مدةٍ قليلةٍ وقد خلَّفته مغلقةً عليه الأبوابَ موكلةً عليه الحُّراسَ والحجَّابَ ويأباهُ تعليقُ النظرِ المتعلقِ بالاهتداءِ بالتنكيرِ فإنَّ ذلكَ مِمَّا لا دخلَ فيه للتنكيرِ ﴿ أَمْ تَكُونُ ﴾ أي بالنسبةِ إلى علمنا ﴿ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى ما ذُكر من معرفةِ عرشِها أو الجوابِ الصَّوابِ فإنَّ كونَها في نفسِ الأمرِ منهم وإنْ كانَ أمراً مستوراً لكن كونُها منهم عند سليمانَ عليهِ السَّلامُ وقومِه أمرٌ حادثٌ يظهرُ بالاختبارِ .

(228/578)

﴿ فَلَمَّا جَاءتْ ﴾ شروعٌ في حكايةِ التَّجربةِ التي قصدَها سليمانُ عليه السَّلام أَي فلمَّا جاءتْ بلقيسُ سليمانَ عليه السَّلام وقد كانَ العرشُ بين يديه ﴿ قِيلَ ﴾ أي من جهةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ بالذاتِ أو بالواسطةِ ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ لم يقُل أهذا عرشُكِ لئلاَّ يكونَ تلقيناً لها فيفوتَ ما هو المقصودُ من الأمرِ بالتَّنكيرِ من إبرازِ العرشِ في مَعْرِضِ الإشكالِ والاشتباهِ حتَّى يتبينَ حالها وقد ذكرت عنده عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بسخافةِ العقلِ ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ فأنبأتْ عن كمالِ رجاحةِ عقلِها حيثُ لم تقُلْ هُو هُو مع علمِها بحقيقةِ الحالِ تلويحاً بما اعتراهُ بالتَّنكيرِ من نوعِ مغايرةٍ في الصِّفاتِ مع اتحادِ الذاتِ ومراعاةً لحسنِ الأدبِ في محاورتِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾

من تتمةِ كلامِها كأنَّها ظنَّت أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أرادَ بذلك اختبارَ عقلِها وإظهارَ معجزةٍ لها فقالتْ أُوتينا العلمَ بكمالِ قدرةِ الله تعالى وصحَّةِ نبوتِك من قبلِ هذه المعجزةِ التي شاهدناها بما سمعناهُ من المنذرِ من الآياتِ الدالَّةِ على ذلكَ وكنَّا مسلمينَ من ذلكَ الوقتِ ، وفيهِ من الدّلالةِ على كمالِ رزانةِ رأيها ورصانةِ فكرِها ما لا يخفى .

وقولُه تعالىَ :

(229/578)

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ الله ﴾ بيانٌ من جهتِه تعالَى لِمَّا كانَ يمنعُها من إظهارِ ما ادَّعتْهُ من الإسلامِ إلى الآنَ أي صدَّها عن ذلكَ عبادتُها القديمةُ للشمسِ ، وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كافرين ﴾ تعليلٌ لسببيةِ عبادتِها المذكورةِ للصدّ أيْ أنَّها كانتْ من قومٍ راسخينَ في الكفرِ ولذلكَ لم تكُنْ قادرةً على إظهارِ إسلامِها وهي بينَ ظهرانيهم إلى أنْ دخلتْ تحتَ مُلكةِ سليمانَ عليهِ والسَّلامُ . وقُرِىءَ أنَّها بالفتحِ على البدليةِ من فاعلِ صدَّ أو على التَّعليلِ بحذفِ اللامِ . هذا وأمَّا ما قيلَ من أنَّ قولَه تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا العلم ﴾ إلى قولِه تعالى : ﴿ مِن قَوْمٍ كافرين ﴾ من كلامِ سليمانَ عليه السَّلامُ وملئِه كأنَّهم لما سمعُوا قولَها كأنَّه هُو تفطنُوا لإسلامِها فقالُوا استحساناً لشأنِها أصابتْ في الجوابِ وعلمت قدرةَ الله

تعالى وصحَّةَ النُّبوةِ بما سمعتْ من المنذرِ من الآياتِ المتقدمةِ وبما عاينتْ من هذهِ الآيةِ الباهرةِ من أمرِ عرشِها ورُزقتِ الإسلامَ فعطفُوا عَلى ذلك قولَهم وأُوتينَا العلمَ الخ أي وأُوتينا نحنُ العلمَ بالله تعالى وبقدرتِه وبصحَّةِ ما جاءَ من عندِه قبلَ علمِها ولم نزلْ على دينِ الإسلامِ شُكراً لله تعالَى على فضلِهم عليها وسبقِهم إلى العلمِ بالله تعالَى والإسلام قبلها وصدَّها عن التقدمِ إلى الإسلامِ عبادةُ الشمسِ ونشؤُها بين ظهراني الكفرةِ فممَّا لا يَخْفى ما فيهِ من البُعدِ والتعسفِ .

﴿ قِيلَ لَهَا ادخلى الصرح ﴾

(230/578)

الصَّرحُ القصرُ وقيل : صحنُ الدَّارِ . رُوي أنَّ سليمانَ عليهِ السَّلامُ أمرَ قبلَ قدومِها فبنَى له على طريقِها قصراً من زجاجٍ أبيضَ وأُجري منْ تحتِه الماءُ وأُلقَي فيه من دوابَ البحرِ السَّمك وغيرُه ووضعَ سريرُه في صدرِه فجلسَ عليهِ وعكفَ عليه الطيرُ والجنُّ والإنسُ وإنَّما فعلَ ذلك ليزيدَها استعظاماً لأمرِه وتحققاً لنبوتِه وثباتاً على الدِّينِ ، وزعمُوا أنَّ الجنَّ كرهوا أنْ يتزوجَها فتفضيَ إليه بأسرارِهم لأنَّها كانتْ بنتَ جنيةٍ وقيل : خافُوا أنْ يولَد له منْهَا ولدٌ يجتمعُ له فطنةُ الجنِّ والإنسِ فيخرجونَ من مُلكِ سليمانَ عليه السَّلامُ إلى مُلكٍ هو

أشدُّ وأفظعُ فقالُوا إنَّ في عقلِها شيئاً وهي شَعراءُ الساقينِ ورجلُها كحافِرِ الحمارِ فاختبرَ عقلَها بتنكيرِ العرشِ واتخذَ الصَّرحَ ليتعرَّفَ ساقَها ورجلَها ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ ﴾ وهو حاضرٌ بينَ يديها كما يَعربُ عنه الأمرُ بدخولِها وأحاطتْ بتفاصيلِ أحوالِه خبراً ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ وتشمرتْ لئلاَّ تبتلَّ أذيالُها فإذا هي أحسنُ النَّاسِ ساقاً وقدماً خلا أنَّها شعْراءُ . قيلَ : هيَ السببُ في اتخاذِ النورةِ أمرَ بها الشياطينَ فاتخذوهَا واستنكحَها عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأمرَ الجنَّ فبنَوا لها سيلحينَ وغمدانَ وكان يزورُها في الشهرِ مرةً ويقيمُ عندها ثلاثةَ أيامٍ وقيل بل زوَّجها ذا تُبَّعٍ ملكِ هَمْدانَ وسلَّطه علي اليمنِ وأمر زوبعةَ أميرَ جنِّ اليمنِ أنْ يطيعَه فبنى له المصانعَ . وقُرِىء ساقها حملا للمفردِ على الجمعِ في سُؤْقٍ وأَسْؤُقٍ ﴿ قَالَ ﴾ عليه الصَّلاة السَّلام حين رأَى ما اعتراها من الدَّهشةِ والرُّعبِ ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي ما توهمْتُه ماءً ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي مملسٌ ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ من الزجاجِ ﴿ قَالَتْ ﴾ حينَ عاينتْ تلكَ المعجزةَ أيضاً ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ بما كنتُ عليهِ إلى الآنَ

(231/578)

من عبادةِ الشَّمسِ وقيل : بظنِّي بسليمانَ حيثُ ظنَّتْ أنَّه يريدُ إغراقَها في اللُّجةِ وهو بعيدٌ ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سليمان ﴾ تابعةً له مقتديةً به ، وما في قولِه تعالى : ﴿ للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ من الالتفاتِ إلى الاسمِ الجليلِ ، ووصفُه بربوبيةِ العالمينَ لإظهارِ معرفتِها بألوهيتِه تعالَى وتفرُّده باستحقاقِ العبادةِ وربوبيتِه لجميعِ الموجُوداتِ التي منْ جُملتها ما كانتْ تعبدُه قبلَ ذلكَ من الشَّمسِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(232/578)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ أي سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكي سابقاً ولاحقاً من كلامه عليه السلام تنبيهاً على ما بين السابق واللاحق من المخالفة لما أن الأول من باب الشكر لله عز وجل والثاني أمر لخدمه ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ أي اجعلوه بحيث لا يعرف ولا يكون ذلك إلا بتغييره عما كان عليه من الهيئة والشكل ، ولعل المراد التغيير في الجملة .

روي عن ابن عباس .

ومجاهد .

والضحاك إنه كان بالزيادة فيه والنقص منه ، وقيل : بنزع ما عليه من الجواهر ، وقيل : بجعل

أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره ، ولام ﴿ لَهَا ﴾ للبيان كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 23] فيدل على أنها المرادة خاصة بالتنكير ﴿ نَنظُرْ ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر . وقرأ أبو حيوة بالرفع على الاستئناف ﴿ أَتَهْتَدِى ﴾ إلى معرفته أو إلى الجواب اللائق بالمقام .

وقيل : إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله عليه السلام إذا رأت تقدم عرشها وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليه الحراس والحجاب وحكاه الطبرسي عن الجبائي ، وفيه أنه لا يظهر مدخلية التنكير في الإيمان ﴿ أَمْ تَكُونُ ﴾ أي بالنسبة إلى علمنا ﴿ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ أي إلى ما ذكر من معرفة عرشها أو الجواب اللائق بالمقام فإن كونها في نفس الأمر منهم وإن كان أمراً مستمراً لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار .

﴿ فَلَمَّا جَاءتْ ﴾ شروع في حكاية التجربة التي قصدها سليمان عليه السلام أي فلما جاءت بلقيس سليمان وقد كان العرش منكراً بين يديه ﴿ قِيلَ ﴾ أي من جهة سليمان بالذات أو بالوساطة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أي أمثل هذا العرش الذي ترينه عرشك الذي تركتيه ببلادك ، ولم يقل : أهذا عرشك لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين لديه عليه السلام حالها وقد ذكرت عنده عليه السلام بسخافة العقل .

وفي بعض الآثار أن الجن خافوا من أن يتزوجها فيرزق منها ولداً يحوز فطنة الإنس وخفة الجن حيث كانت لها نسبة إليهم فيضبطهم ضبطاً قوياً فرموها عنده بالجنون وأن رجليها كحوافر البهائم فلذا اختبرها بهذا وبما يكون سبباً للكشف عن ساقيها ، ومن لم يقل بنسبتها إلى الجن : يقول لعلها رماها حاسد بذلك فأراد عليه السلام اختبارها ليقف على حقيقة الحال ، ومنهم من يقول : ليس ذاك إلا ليقابلها بمثل ما فعلت هي حيث نكرت الغلمان والجواري وامتحنته عليه السلام بالدرة العذراء والجزعة المعوجة الثقب وكون ذلك في عرشها الذي يبعد كل البعد إحضاره مع بعد المسافة وشدة محافظتها له أتم وأقوى ويتضمن أيضاً من إظهار المعجزة ما لا يخفى ، وهذا عندي ألصق بالقلب من غيره ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أجابت بما أنبأ عن كمال رجاحة عقلها حيث لم تجزم بأنه هو لاحتمال أن يكون مثله بل أتت بكأن الدالة كما قيل على غلبة الظن في اتحاده معه مع الشك في خلافه وليست كأن هنا للدلالة على التشبيه كما هو الغالب فيها .

وذكر ابن المنير في الانتصاف ما يدل على أنها تفيد قوة الشبه فقال : الحكمة في عدول بلقيس في الجواب عن هكذا هو المطابق للسؤال إلي ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أن ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾

عبارة من قوي عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين وكاد يقول هو هو وتلك حال بلقيس ، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغاير الأمرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير فلا تطابق حالها فلذا عدلت عنها إلى ما في "النظم الجليل" .

(234/578)

﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ من تتمة كلامها على ما اختاره جمع من المفسرين كأنها استشعرت بما شاهدته اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ولما كان الظاهر من السؤال هو الأول سارعت إلى الجواب بما أنبأ عن كمال رجاحة عقلها ، ولما كان إظهار المعجزة دون ذلك في الظهور ذكرت ما يتعلق به آخراً وهو قولها : ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ الخ وفيه دلالة على كمال عقلها أيضاً ، ومعناه وأوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة بما شاهدناه من أمر الهدهد وما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك وكنا مؤمنين من ذلك الوقت فلا حاجة إلى إظهار هذه المعجزة ، ولك أن تجعله من تتمة ما يتعلق بالاختبار وحاصله لا حاجة إلى الاختبار لأني آمنت قبل وهذا كاف في الدلالة على كمال عقلي .

وجوز أن يكون لبيان منشأ غلبة الظن بأنه عرشها والداعي إلى حسن الأدب في محاورته

عليه السلام أي وأوتينا العلم بإتيانك بالعرش من قبل الرؤية أو من قبل هذه الحالة بالقرائن أو الإخبار وكنا من ذلك الوقت مؤمنين ، والتعبير بنون العظمة جار على سنن تعبيرات الملوك وفيه تعظيم لأمر إسلامها وليس ذاك لإرادة نفسها ومن معها من قومها إذ يبعده قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وهو بيان من جهته عز وجل لما كان يمنعها من إظهار ما ادعت من الإسلام إلى الآن أي صدها عن إظهار ذلك يوم أوتيت العلم الذي يقتضيه عبادتها القديمة للشمس ، فما مصدرية والمصدر فاعل صد ، وجوز كونها موصولة واقعة على الشمس وهي فاعل أيضاً والإسناد مجازي على الوجهين .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كافرين ﴾ تعليل لسببية عبادتها المذكورة للصد أي إنها كانت من قوم راسخين في الكفر فلذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها وهي بين ظهرانيهم إلى أن حضرت بين يدي سليمان عليه السلام .

وقرأ سعيد بن جبير .

(235/578)

وابن أبي عبلة ﴿ أَنَّهَا ﴾ بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل أي لأنها أو جعل المصدر بدلاً من فاعل صد بدل اشتمال .

وقيل : قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ [النمل : 42] الخ من كلام قوم سليمان عليه السلام كأنهم لما سمعوها أجابت السؤال بقولها : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل : 42] قالوا .

قد أصابت في جوابها فطبقت المفصل وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله عز وجل وصحة النبوة بالآيات التي تقدمت وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها وعطفوا على ذلك قولهم : وأوتينا العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده سبحانه قبل علمها ولم نزل على دين الإسلام ، وكان هذا منهم شكراً لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله تعالى والإسلام قبلها ، ويومىء إلى هذا المطوي جعل علمهم وإسلامهم قبلها ، وقوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ الخ على هذا يحتمل أن يكون من تتمة كلام القوم .

ويحتمل أن يكون ابتداء إخبار من جهته عز وجل .

وعن مجاهد .

وزهير بن محمد أن ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ [النمل : 42] من كلام سليمان عليه السلام وفي ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ الخ عليه أيضاً احتمال ، ولا يخفى ما في جعل ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ الخ من كلام القوم أو من سليمان سليمان عليه السلام من البعد والتكلف وليس في ذلك جهة حسن سوى اتساق الضمائر المؤنثة .

وقيل : إن ﴿ وَأُوتِينَا ﴾ الخ من تتمة كلامها .

وقوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ الخ ابتداء إخبار من جهته تعالى لبيان حسن حالها وسلامة إسلامها عن شوب الشرك بجعل فاعل صدها ضميره عز وجل أو ضمير سليمان عليه السلام .

وما مصدرية أو موصولة قبلها حرف جر مقدر أي صدها الله تعالى أو سليمان عن عبادتها من دون الله أو عن الذي تعبده من دونه تعالى .

ونقل ذلك أبو حيان عن الطبري وتعقبه بقوله : وهو ضعيف لا يجوز إلا في الشعر نحو قوله :

تمرون الديار ولم تعوجوا . . .

وليس من مواضع حذف حرف الجر .

(236/578)

وأنت تعلم أن المعنى مع هذا مما لا ينشرح له الصدر ، وأبعد بعضهم كل البعد فزعم أن قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ الخ متصل بقوله سبحانه : ﴿ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 41] والواو فيه للحال وقد مضمرة .

وفي "البحر" أنه قول مرغوب عنه لطول الفصل بينها ولأن التقديم والتأخير لا يذهب إليه إلا عند الضرورة .

ولعمري من أنصف رأي أن ما ذكر مما لا ينبغي أن يخرج عليه كلام الله تعالى المجيد ، وأنا أقول بعد القيل والقال : إن وجه ربط هذه الجمل مما يحتاج إلى تدقيق النظر فليتأمل والله تعالى الموفق .

﴿ قِيلَ لَهَا ادخلى الصرح ﴾ استئناف بياني كأنه قيل فماذا قيل لها بعد الامتحان المذكور ؟ فقيل : ﴿ قِيلَ لَهَا ادخلى ﴾ الخ ولم يعطف على قوله تعالى : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ [النمل : 42] لئلا يفوت هذا المعنى .

وجيء بلها هنا دون ما مر لمكان أمرها ، و﴿ الصرح ﴾ القصر وكل بناء عال .

ومنه ﴿ ابن لى صَرْحاً ﴾ [غافر : 36] وهو من التصريح وهو الإعلان البالغ .

وقال مجاهد ﴿ الصرح ﴾ هنا البركة .

وقال ابن عيسى الصحن وصرحة الدار ساحتها .

وروي أن سليمان عليه السلام أمر الجن قبل قدومها فبنوا له على طريقها قصراً من زجاج أبيض وأجري من تحته الماء وألقي فيه من دواب البحر السمك وغيره .

وفي رواية أنهم بنوا له صرحاً وجعلوا له طوابيق من قوارير كأنها الماء وجعلوا في باطن الطوابيق كل ما يكون من الدواب في "البحر" ثم أطبقوه وهذا أوفق بظاهر الآية ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكفت عليه الطير .

والجن .

والإنس وفعل ذلك امتحاناً لها أيضاً على ما قيل ، وقيل : ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوته وثباتاً على الدين ، وقيل لأن الجن قالوا له عليه السلام إنها شعراء السابقين ورجلها كحافر الحمار فأراد الكشف عن حقيقة الحال بذلك ، وقال الشيخ الأكبر قدس سره ما حاصله إنه أراد أن ينبهها بالفعل على أنها صدقت في قولها في العرش ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل : 42] حيث أنه انعدم في سبأ ووجد مثله بين يديه فجعل لها صرحاً في غاية اللطف والصافي كأنه ماء صاف وليس به ، وهذا غاية الإنصاف منه عليه السلام ولا أظن الأمر كما قال والله تعالى أعلم .

واستدل بالآية على القول بأن أمرها بدخول الصرح ليتوصل به إلى كشف حقيقة الحال على إباحة النظر قبل الخطبة وفيه تفصيل مذكور في كتب الفقه .

﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ ﴾ أي رأت صحته بناء على أن الصرح بمعنى القصر ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أي ظننته ماء كثيراً ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ لئلا تبتل أذيالها كما هو عادة من يريد الخوض في الماء ، وقرأ ابن كثير برواية قنبل ﴿ سَاقَيْهَا ﴾ بهمز ألف ساق حملاً له على جمعه سؤق وأسؤق فإنه يطرد في الواو المضمومة هي أو ما قبلها قلبها همزة فأنجر ذلك

بالتبعية إلى المفرد الذي في ضمنه .

وفي البحر حكى أبو علي أن أباحية النميري كان يهمز كل واو قبلها ضمة وأنشد :

أحب المؤقدين إلى مؤسى . . .

وفي الكشف الظاهر أن الهمز لغة في ساق ويشهد له هذه القراءة الثابتة في السبعة .

وتعقب بأنه يأباه الاستقاق .

(238/578)

وأياً ما كان فقول من قال : إن هذه القراءة لا تصح لا يصح ﴿ قَالَ ﴾ أي سليمان عليه السلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب ، وقيل : القائل هو الذي أمرها بدخول الصرح وهو خلاف الظاهر ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي ما حسبته لجة ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي مملس ومنه الأمر للشاب الذي لا شعر في وجهه وشجرة مرداء لا ورق عليها ورملة مرداء لا تنبت شيئاً والمارد المتعرى من الخير ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ من الزجاج وهو جمع قارورة .

﴿ قَالَتْ ﴾ حين عاينت هذا الأمر العظيم ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ أي بما كنت عليه من عبادة الشمس ، وقيل : بظني السوء بسليمان عليه السلام حيث ظنت أنه يريد اغراقها في اللجة وهو يبعد .

ومثله ما قيل أرادت ظلمت نفسي بامتحاني سليمان حتى امتحنني لذلك بما أوجب كشف ساقي بمرأى منه ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سليمان ﴾ تابعة له مقيدة به ، وما في قوله تعالى : ﴿ للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ من الالتفات إلى الاسم الجليل لاظهار معرفتها بالوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التي من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس ، وكأن هذا القول تجديد لإسلامها على أتم وجه وقد أخرجته مخرجاً لا أنانية فيه ولا كبر أصلاً كما لا يخفى .

واختلف في أمرها بعد الإسلام فقيل إنه عليه السلام تزوجها وأحبها وأقرها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له .

(239/578)

وأخرج ابن عساكر عن سلمة بن عبد الله بن ربعي أنه عليه السلام أمهرها بعلبك ، وذكر غير واحد أنها حين كشفت عن ساقيها أبصر عليهما شعراً كثيراً فكره أن يتزوجها كذلك فدعا الأنس فقال : ما يذهب بهذا ؟ فقالوا : يا رسول الله المواسي فقال : الماوسي تقطع ساقي المرأة ، وفي رواية أنه قيل لها ذلك فقالت لم يمسسني الحديد قط فكره سليمان

المواسي وقال : إنها تقطع ساقيها ثم دعا الجن فقالوا مثل ذلك ثم دعا الشياطين فوضعوا له النورة ، قال ابن عباس وكان ذلك اليوم أول يوم رؤيت فيه النورة ، وعن عكرمة أن أول من وضع النورة شياطين الإنس وضعوها لبلقيس وهو خلاف المشهور ، ويروى أن الحمام وضع يومئذ .

وفي تاريخ الخباري عن أبي موسى الأشعري قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من صنعت له الحمامات سليمان" وأخرج الطبراني .

وابن عدي في الكامل .

والبيهقي في شعب الإيمان عنه أيضاً قال : قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : " أول من دخل الحمام سليمان فلما وجد حره قال أوه من عذاب الله تعالى " وروي عن وهب أنه قال : زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان : اختاري رجلاً من قومك أزوجكه فقالت : أمثلي يا نبي الله تنكح الرجال وقد كان في قومي من الملك والسلطان ما كان ؟ قال : نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك وما ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله تعالى لك فقالت : زوجني إن كان لا بد من ذلك ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردها إلى اليمن وسلط زوجها ذا تبع على اليمن ودعا زوبعة أمير جن اليمن فقال اعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم يزل بها ملكاً يعمل له فيها حتى مات سليمان فلما أن حال الحول وتبين الجن موته عليه السلام أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته با

معشر الجن إن الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان عليه السلام .

(240/578)

وقال عون بن عبد الله : سأل رجل عبد الله بن عتبة هل تزوج سليمان بلقيس فقال انتهى أمرها إلى قولها : ﴿ أَسْلَمْتُ مَعَ سليمان لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ قيل : يعني لا علم لنا وراء ذلك .

والمشهور أنه عليه السلام تزوجها وإليه ذهب جماعة من أهل الأخبار .

وأخرج البيهقي في الزهد عن الأوزاعي قال : كسر برج من أبراج تدمر فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدمجة كأن أعطافها طي الطوامير عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً مكتوب على طرف العمامة بالذهب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود عليهما السلام ملكت من الدنيا كافرة ومؤمنة ما لم يملكه أحد قبلي ولا يملكه أحد بعدي صار مصيري إلى الموت فاقصروا يا طالبي الدنيا والله تعالى أعلم بصحة الخبر ، وكم في هذه القصة من أخبار الله تعالى أعلم بالصحيح منها ، والقصة في نفسها عجيبة وقد اشتملت على أشياء خارقة للعادة بل يكاد العقل يحيلها في أول وهلة ،

ومما يستغرب والله تعالى فيه سر خفي خفاء أمر بلقيس على سليمان عدة سنين كما قاله غير واحد مع أن المسافة بينه وبينها لم تكن في غاية العبد وقد سخر الله تعالى له من الجن .

والشياطين .

والطير .

والريح ما سخر وهذا أغرب من خفاء أمر يوسف على يعقوب عليهام السلام بمراتب ، وسبحان من لا يعزب عن علمه مثقال درة في السموات وفي الأرض ، وهذا وللصوفية في تطبيق ما في هذه هذه القصة على ما في الأنفس كلام طويل ، ولعل الأمر سهل على من له أدنى ذوق بعد الوقوف على بعض ما مر من تطبيقاتهم ما في بعض القصص على ذلك والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(241/578)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾

التنكير التغيير ، يقول : غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته .

قيل : جعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه ، وقيل : غير بزيادة ونقصان .

قال الفراء ، وغيره : إنما أمر بتنكيره ؛ لأن الشياطين قالوا له : إن في عقلها شيئاً ، فأراد أن يمتحنها ، وقيل : خافت الجنّ أن يتزوّج بها سليمان ، فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبداً ، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل ، ورجلها كرجل الحمار ، وقوله : ﴿ نَنظُرْ ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر ، وبالجزم قرأ الجمهور ، وقرأ أبو حيان بالرفع على الاستئناف ﴿ أَتَهْتَدِى ﴾ إلى معرفته ، أو إلى الإيمان بالله ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى ذلك .

﴿ فَلَمَّا جَاءتْ ﴾ أي : بلقيس إلى سليمان ﴿ قِيلَ ﴾ لها ، والقائل هو سليمان ، أو غيره بأمره : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ لم يقل : هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقيناً لها فلا يتمّ الاختبار لعقلها ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ قال مجاهد : جعلت تعرف ، وتنكر ، وتعجب من حضوره عند سليمان ، فقالت : كأنه هو .

وقال مقاتل : عرفته ، ولكنه شبهت عليهم كما شبّهوا عليها ، ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت : نعم .

وقال عكرمة : كانت حكيمة ، قالت : إن قلت : هو هو خشيت أن أكذب ، وإن قلت : لا ، خشيت أن أكذب ، فقالت : كأنه هو ، وقيل : أراد سليمان أن يظهر لها أن الجنّ مسخرون له ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قيل : هو من كلام بلقيس ، أي أوتينا العلم بصحة نبوّة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين

لأمره .

وقيل : هو من قول سليمان أي أوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس ، وقيل : أوتينا العلم بإسلامها ، ومجيئها طائعة من قبلها أي من قبل مجيئها .

وقيل : هو من كلام قوم سليمان .

والقول الثاني أرجح من سائر الأقوال .

(242/578)

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ هذا من كلام الله سبحانه بيان لما كان يمنعها من إظهار ما ادّعته من الإسلام ، ففاعل صدّ هو ما كانت تعبد أي منعها من إظهار الإيمان ما كانت تعبده ، وهي الشمس ، قال النحاس : أي صدّها عبادتها من دون الله ، وقيل : فاعل صدّ هو الله أي منعها الله ما كانت تعبد من دونه فتكون "ما" في محل نصب ، وقيل : الفاعل سليمان أي ومنعها سليمان ما كانت تعبد ، والأوّل أولى ، والجملة مستأنفة للبيان كما ذكرنا ، وجملة ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ تعليل للجملة الأولى أي سبب تأخرها عن عبادة الله ، ومنع ما كانت تعبده عن ذلك أنها كانت من قوم متصفين بالكفر .

قرأ الجمهور : ﴿ إنها ﴾ بالكسر .

وقرأ أبو حيان بالفتح .

وفي هذه القراءة وجهان : أحدهما : أن الجملة بدل مما كانت تعبد .

والثاني أن التقدير : لأنها كانت تعبد ، فسقط حرف التعليل .

﴿ قِيلَ لَهَا ادخلي الصرح ﴾ .

قال أبو عبيدة : الصرح : القصر .

وقال الزجاج : الصرح : الصحن .

يقال : هذه صرحة الدار وقاعتها .

قال ابن قتيبة : الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير ، وجعل تحته ماء وسمك .

وحكى أبو عبيد في الغريب أن الصرح كل بناء عالٍ مرتفع ، وأن الممرّد : الطويل ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ أي فلما رأت الصرح بين يديها حسبت أنه لجة ، واللجة : معظم الماء ، فلذلك كشفت عن ساقيها لتخوض الماء ، فلما فعلت ذلك ﴿ قَالَ ﴾ سليمان : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ الممرّد : المحكوك الملس ، ومنه الأمرد ، وتمرّد الرجل إذا لم تخرج لحيته ، قاله الفراء .

ومنه الشجرة المرداء : التي لا ورق لها .

والممرّد أيضاً : المطوّل ، ومنه قيل : للحصن ما رد ، ومنه قول الشاعر :

غدوت صباحاً باكراً فوجدتهم . . . قبيل الضحى في السابري الممرّد

أي الدروع الواسعة الطويلة ، فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت ، واستسلمت ، و ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي بما كنت عليه من عبادة غيرك ، وقيل : بالظنّ الذي توهمته في سليمان ؛ لأنها توهمت أنه أراد تغريقها في اللجة ، والأوّل أولى ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سليمان ﴾ متابعة له داخلة في دينه ﴿ للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ التفتت من الخطاب إلى الغيبة ، قيل : لإظهار معرفتها بالله ، والأولى أنها التفتت لما في هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء ، ولكونه علماً للذات .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ قال : زيد فيه ونقص ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ قال : لننظر إلى عقلها فوجدت ثابتة العقل .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا ﴾ قال : من قول سليمان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد نحوه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ قال : بحراً .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في أثر طويل ؛ أن

سليمان تزوّجها بعد ذلك .

قال أبو بكر بن أبي شيبة : ما أحسنه من حديث .

قال ابن كثير في تفسيره بعد حكايته لقول أبي بكر بن أبي شيبة : بل هو منكر جداً ، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم .

والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب بما يوجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله فيما نقلا إلى هذه الأمة من بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرّف وبدّل ونسخ .

انتهى .

وكلامه هذا هو شعبة مما قد كررناه في هذا التفسير ، ونبهنا عليه في عدّة مواضع ، وكنت أظنّ أنه لم ينبّه على ذلك غيري .

فالحمد لله على الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف .

(244/578)

وأخرج البخاري في تاريخه ، والعقيلي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوّل من صنعت له الحمامات سليمان " وروي عنه مرفوعاً من طريق

أخرى رواها الطبراني ، وابن عديّ في الكامل ، والبيهقي في الشعب بلفظ : " أوّل من دخل الحمام سليمان فلما وجد حرّه قال : أوّه من عذاب الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(245/578)

وقال القاسمى :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾

أي : اجعلوه [في المطبوع : اجعلوا] متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل للناس : ﴿ نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴾ أي : لمعرفته : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ قال المهايميّ : لم تقل : هو هو خوفاً من التكذيب ، مع نوع من التغيير . ولا لا خوفاً من التجهيل .

وقال الزمخشري : لم تقل : هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع في المحتم . أي : فَأتت بكأن الدالة على غلبة الظن .

قال الشهاب : وهذا إشارة إلى أن كأن ليس المراد بها هنا التشبيه بل الشك وهو مشهور فيها .

وقد أبدى صاحب " الانتصاف " فرقاً بين كأن وهكذا في التشبيه . وعبارته : وفي قولها : كأنه هو وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال بأن تقول : هكذا هو نكتة حسنة . ولعل قائلاً يقول : كلتا العبارتين تشبيه . إذ كان التشبيه فيهما جميعاً ، وإن كانت في إحداهما داخلة على اسم الإشارة ، وفي الأخرى داخلة على المضمر ، وكلاهما أعني : اسم الإشارة والمضمر واقع على الذات المشبهة . وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى . ويفضل قولها : هكذا هو بمطابقته للسؤال . فلا بد في اختيار : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ من حكمة . فنقول : حكمته ، والله أعلم ، أن : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين . فكاد يقول : هو هو وتلك حال بلقيس . وأما هكذا هو فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير . فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة ، لمطابقتها لحالها ، والله أعلم . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، شكراً لله على فضلهم عليها ، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام . أي : وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده ، قبل علمها الذي أومأ إليه قولها : ﴿

كأنه هو ﴾ والجملة عطف على مقدر اقتضاه المقام المقتضى ، للإفاضة في وصفها برجاحة الرأي في الهداية للإسلام . والتقدير : أصابت في جوابها وقد رزقت الإسلام ، وعلمت قدرة الله . وأوتينا العلم الخ . وقيل إنه من كلام بلقيس ، موصولاً بقولها : ﴿ كأنه هو ﴾ ، لا من كلام سليمان ، كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها ، فقالت : أوتينا العلم الخ . أي : لا حاجة إلى الاختبار لأني آمنت قبل . وهذا يدل على كمال عقلها .

أو المعنى : علمنا إتيانك بالعرش قبل الرؤية ، أو هذه الحالة بالقرائن أو الأخبار .

(247/578)

قال ابن كثير : ويؤيد الأول ، أي : أنه من كلام سليمان ، أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح ، كما سيأتي ، والله أعلم . وقوله تعالى :

﴿ وَصَدَّهَا ﴾ أي : وكان صدها عن الهداية : ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ أي : القصر ، أو صحن الدار وكان سليمان عليه السلام اتخذ قصراً بديعاً من زجاج ، فأراد أن يريها منه عظمة ملكه وسلطانه ، ومقدار ما آثره الله به : ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ ﴾ أي : صحنه : ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أي : ماء عظيماً : ﴿

وَكَشَفَتْ ﴾ أي : للخوض فيه : ﴿ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ ﴾ أي : مملّس : ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أي : من الزجاج : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي : بكفرها السالف وعبادتها وقومها الشمس : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : متابعة له في دينه وعبادته لله وحده لا شريك له .

تنبيهات :

الأول : روى كثير من المفسرين ههنا أقاصيص لم تصحّ سنداً ولا مخبراً . وما هذا سبيله ، فلا يسوغ نقله وروايته .

قال الحافظ ابن كثير ، بعد أن ساق ما رواه ابن أبي شيبة عن عطاء مستحسناً له ، ما مثاله : قلت : بل هو منكر غريب جداً . ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس ، والله أعلم .

ثم قال : والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب ، مما وجد في صحفهم . كروايات كعب ووهب ، سامحهما الله تعالى ، فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب . مما كان ومما لم يكن . ومما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ، ولله الحمد والمنة .

الثاني : أشير في " التوراة " في الفصل الرابع من سفر الملوك الثالث إلى تفصيل نبأ سليمان عليه السلام وعظمة ملكه وسلطانه . ومما جاء فيه أن سليمان كان متسلطاً على جميع الممالك من نهر الفرات إلى أرض فلسطين وإلى تخم مصر . وإن ملوك الأطراف كانوا يحملون له الهدايا خاضعين له كل أيام حياته أي : أنها تؤدّي له الجزية ، وإن كان محصوراً في فلسطين . وأن الله تعالى آتاه حكمة وفهماً ذكياً جداً ، وسعة صدر . ففاقت حكمته حكمة جميع أهل المشرق وأهل مصر . وقال ثلاثة آلاف مثل . وتكلم . في الشجر ، من الأرز الذي على لبنان إلى الزوفى التي تخرج في الحائط . وتكلم في البهائم والطير والزحافات والسمك . وأما صرحه وبيته عليه السلام ، فقد جاء وصفه في الفصل الخامس من السفر المتقدم . وأنه أكمل بناءه في ثلاث عشرة سنة . وأنه بنى جازرَ وبيت حورون السفلى وبعلت وتدمر في أرض البرية . وجاء في الفصل العاشر من هذا السفر أيضاً قصة ملكة سبأ ومقدمها من اليمن على سليمان لتخبر حكمته وعظمة ملكه ، ودهشتها مما رأته وتحققته ، وإيمانها بربه تعالى . ثم إعطاؤه إياها بغيتها . ثم انصرافها إلى أرضها .

وقد ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم لا يسوق أنباء ما تقدم سوق مؤرخ ، بل يقصها موجزة ليتحقق أنه مصداق ما بين يديه ، ومهيمن عليه ، ولينبه على أن القصد منها موضع العبرة والحكمة . ومثار التبصر والفطنة .

الثالث : مما استنبط من آيات هذه القصة الجليلة ، أن في قوله تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا ﴾ أنه لا بأس بالتبسم والضحك عن التعجب وغيره . وفي قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ استحباب تفقد الملك أحوال رعيته . وأخذ منه بعضهم تفقد الإخوان ، فأنشد :

~تفقد الإخوان مُسْتَحْسَنٌ فمَن بَدَاهُ نِعْمَ مَا قَدْ بَدَا

~سَنَّ سليمانُ لنا سُنَّةً وكَانَ فِيما سنّه مُقْتَدَى

(249/578)

~ تفقَّدَ الطير على مُلْكِهِ فقال : مَالِي لاَ أَرَ الْهُدْهُدَا

وأن في قوله تعالى : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ الآية ، دليلاً على أن العذاب على قدر الذنب ، لا على قدر الجسد . وعلى جواز تأديب الحيوانات والبهائم بالضرب عند تقصيرها في المشي وإسراعها ونحو ذلك . وأن في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أن الصغير يقول للكبير والتابع للمتبوع : عندي من العلم ما ليس عندك ، إذا تحقق ذلك . وأن في قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ قبول الوالي عذر رعيته ، ودرءه العقوبة عنهم ، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به . وأن في قوله تعالى

: ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ إرسال الطير بالكتب . وأن في قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ استحباب ختم الكتب ، لقول السّدّي : كريم بمعنى مختوم . وأن في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ المشاورة والاستعانة بالآراء في الأمور المهمة . وأن في قوله تعالى : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ الآية ، استحباب رد هدايا المشركين . كذا في " الإكليل " بزيادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 515.

518 ﴾

(250/578)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) ﴾

هذا من جملة المحاورة التي جرت بين سليمان عليه السلام وبين ملئه ، ولذلك لم يعطف لأنه جرى على طريقة المقاولة والمحاورة .

والتنكير : التغيير للحالة .

قال جميل:

وقالوا نراها يا جميلُ تنكّرت . . .

وغيرها الواشي فقلت : لعلها

أراد : تنكرت حالة معاشرتها بسبب تغيير الواشين ، بأن يغير بعض أوصافه ، قالوا : أراد مفاجأتها واختبار مظنتها .

والمأمور بالتنكير أهل المقدرة على ذلك من ملئه .

و﴿ من الذين لا يهتدون ﴾ أبلغ في انتفاء الاهتداء من : لا تهتدي ، كما تقدم في نظائره غير مرة .

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)

﴿ يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا ﴾ .

دل قوله : ﴿ لما جاءت ﴾ أنّ الملكة لما بلغها ما أجاب به سليمان رسلها أزمعت الحضور بنفسها لدى سليمان داخلة تحت نفوذ مملكته ، وأنها تجهزت للسفر إلى أورشليم بما يليق بمثلها .

وقد طُوي خبر ارتحالها إذ لا غرض مُهِمّاً يتعلق به في موضع العبرة .

والمقصود أنها خضعت لأمر سليمان وجاءته راغبة في الانتساب إليه .

وبني فعل ﴿ قيل ﴾ للمجهول إذ لا يتعلق غرض بالقائل .

والظاهر أن الذي قال ذلك هو سليمان .

يجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ هذا من فضل ربي ﴾ [النمل : 40] الآية وما بينهما اعتراضاً ، أي هذا من قول سليمان .

(251/578)

ويجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ ننظر أَتهتدي ﴾ [النمل : 41] الآية وما بينهما اعتراضاً كذلك ، ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ أهكذا عرشُك ﴾ وما بينهما اعتراضاً به جوابها ، أي وقيل أوتينا العلم من قبلها ، أي قال القائل : أهكذا عرشك ، أي قال سليمان ذلك في ملئه عقب اختيار رأيها شكراً لله على ما لديه من العلم ، أو قال بعض ملأ سليمان لبعض هذه المقالة .

ولعلهم تخافتوا به أو رَطنوه بلغتهم العبرية بحيث لا تفهمهم .

وقالوا ذلك بَهجين بأن فيهم من له من العلم ما ليس لملأ ملكة سبأ ، أي لا ننسى بما نُشاهده من بَهرجات هذه الملكة أننا في حالة عقلية أفضل .

وأرادوا بالعلم علم الحكمة الذي علمه الله سليمان ورجال مملكته وتشاركهم بعض أهل سبأ في بعضه فقد كانوا أهل معرفة أنشأوا بها حضارة مبهتة .

فمعنى : ﴿ من قبلها ﴾ إن حمل على ظاهره أن قومهم بني إسرائيل كانوا أسبق في معرفة

الحكمة وحضارة الملك من أهل سبأ لأن الحكمة ظهرت في بني إسرائيل من عهد موسى ، فقد سن لهم الشريعة ، وأقام لهم نظام الجماعة ، وعلمهم أسلوب الحضارة بتخطيط رسوم مساكنهم وملابسهم ونظام الجيش والحرب والمواسم والمحافل .

ثم أخذ ذلك يرتقي إلى أن بلغ غاية بعيدة في مدة سليمان ، فبهذا الاعتبار كان بنو إسرائيل أسبق إلى علم الحكمة قبل أهل سبأ ، وإن أريد بـ ﴿ مِن قبلها ﴾ القبليةُ الاعتباريةُ وهي الفضل والتفوق في المزايا وهو الأليق بالمعنى كان المعنى : إنَّا أوسع وأقوى منها علماً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " نحن الأولون السابقون بَيْد أنهم أوتوا الكتاب من قَبْلنا " أي نحن الأولون في غايات الهدى ، وجعل مثلاً لذلك اهتداء أهل الإسلام ليوم الجمعة فقال : "وهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله إليه" .

فكان الأرجح أن يكون معنى ﴿ من قبلها ﴾ أنّا فائتونها في العلم وبالغون ما لم تبلغه .

(252/578)

وزادوا في إظهار فضلهم عليها بذكر الناحية الدينية ، أي وكنا مسلمين دونها .

وفي ذكر فعل الكون دلالة على تمكنهم من الإسلام منذ القدم .

وصدّها هي عن الإسلام ما كانت تعبد من دون الله ، أي صدّها معبودها من دون الله ،

ومتعلق الصد محذوف لدلالة الكلام عليه في قوله : ﴿ وكنا مسلمين ﴾ .

وما كانت تعبده هو الشمس .

وإسناد الصدّ إلى المعبود مجاز عقلي لأنه سبب صدها عن التوحيد كقوله تعالى : ﴿ وما زادُوهم غير تتبيب ﴾ [هود : 101] وقوله : ﴿ غرَّ هؤلاء دينُهم ﴾ [الأنفال : 49] .

وفي ذكر فعل الكون مرتين في ﴿ ما كانت تعبد ﴾ .

و ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ دلالة على تمكنها من عبادة الشمس وكان ذلك التمكن بسبب الانحدار من سلالة المشركين ، فالشرك منطبع في نفسها بالوراثة ، فالكفر قد أحاط بها بتغلغله في نفسها وبنشأتها عليه وبكونها بين قوم كافرين ، فمن أين يخلص إليها الهدى والإيمان .

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا

﴿ كافرين * قِيلَ لَهَا ادخلى الصرح فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ ﴾ .

جملة : ﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ استئناف ابتدائي لجزء من القصة .

وطوي ذكر ترحلها إلى وصولها في ذكر ما يدل عليه من حلولها أمام صرح سليمان للدخول معه إليه أو الدخول عليه وهو فيه .

لما أراها سليمان عظمة حضارته انتقل بها حيث تشاهد أثراً بديعاً من آثار الصناعة

الحكيمة وهو الصرح.

والصرح يطلق على صحن الدار وعَرصتها .

والظاهر أن صرح القصر الذي ذكر في سفر الملوك الأول في الإصحاح السابع وهو بيت وَعْر له بابان كان يجلس فيه سليمان للقضاء بين الناس .

والقائل لها : ﴿ ادخلي الصرح ﴾ هم الذين كانوا في رفقتها .

والقائل ﴿ إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ هو سليمان كان مصاحباً لها أو كان يترقبها

وزجاج الصرح المبلط به الصرح بينهما .

(253/578)

وذكر الدخول يقتضي أن الصرح مكان له باب .

وفي سفر الملوك الأول في الإصحاح العاشر : فلما رأت البيت الذي بناه .

وحكاية أنها حسبته لجة عندما رأته تقتضي أن ذلك بدا لها في حين دخولها فدل على أن الصرح هو أول ما بدا لها من المدخل فهو لا محالة ساحة مَعْنِيّة للنزهة فرشت بزجاج شفاف وأجري تحته الماء حتى يخاله الناظر لُجّة ماء .

وهذا من بديع الصناعة التي اختصت بها قصور سليمان في ذلك الزمان لم تكن معروفة في

اليمن على ما بلغته من حضارة وعظمة بناء .

وقرأ قنبل عن ابن كثير ﴿ عن سأقيها ﴾ بهمزة ساكنة بعد السين عوضاً عن الألف على لغة من يهمز حرف المدّ إذا وقع وسط الكلمة .

ومنه قول جرير :

لَحَب المُؤقِدانِ إليَّ مؤسى . . .

وجعدة إذْ أضاءهما الوقود

فهمَز المؤقدان ومؤسى . . .

.

وكشف ساقيها كان من أجل أنها شمرت ثيابها كراهية ابتلالها بما حسبته ماء .

فالكشف عن ساقيها يجوز أن يكون بخلع خفيها أو نعليها ، ويجوز أن يكون بتشمير ثوبها .

وقد قيل : إنها كانت لا تلبس الخفّين .

والممرّد : الملس .

والقوارير : جمع قارورة وهي اسم لإناء من الزجاج كانوا يجعلونه للخمر ليظهر للرائي ما قرّ في قعر الإناء من تفث الخمر فيظهر المقدار الصافي منها .

فسمى ذلك الإناء قارورة لأنه يظهر منه ما يقَرّ في قعره ، وجمعت على قَوارير ، ثم أطلق هذا الجمع على الطين الذي تتخذ منه القارورة وهو الزجاج ، فالقوارير من أسماء الزجاج ،

قال بشار:

ارفُق بعمرو إذا حركْت نسبته . . .

فإنه عربي من قَوارير

يريد أن نسبته في العرب ضعيفة إذا حُرّكت تكسرت .

وقد تقدم ذكر الزجاج عند قوله تعالى : ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ في سورة النور (35) .

بهرها ما رأت من آيات علمت منها أن سليمان صادق فيما دعاها إليه وأنه مؤيَّد من الله تعالى ، وعلمت أن دينها ودين قومها باطل فاعترفت بأنها ظلمت نفسها في اتباع الضلال بعبادة الشمس .

(254/578)

وهذا درجة أولى في الاعتقاد وهو درجة التخلية ، ثم صعدت إلى الدرجة التي فوقها وهي درجة التحَلّي بالإيمان الحق فقالت : ﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾

فاعترفت بأن الله هو رب جميع الموجودات ، وهذا مقام التوحيد .

وفي قولها : ﴿ مع سليمان ﴾ إيمان بالدين الذي تقلده سليمان وهو دين اليهودية ، وقد

أرادت جمع معاني الدين في هذه الكلمة ليكون تفصيلها فيما تتلقاه من سليمان من الشرائع والأحكام.

وجملة: ﴿ قالت رب إني ظلمت نفسي ﴾ جواب عن قول سليمان ﴿ إنه صرح ممرّد من قوارير ﴾ ولذلك لم تعطف.

والإسلام: الانقياد إلى الله تعالى.

وتقلُّد بلقيس للتوحيد كان في خاصة نفسها لأنها دانت لله بذلك إذ لم يثبت أن أهل سبأ انخلعوا عن عبادة الأصنام كما يأتي في سورة سبأ.

وأما دخول اليهودية بلاد اليمن فيأتي في سورة البروج.

وسكت القرآن عن بقية خبرها ورجوعها إلى بلادها، وللقصاصين أخبار لا تصح فهذا تمام القصة.

ومكان العبرة منها الاتعاظ بحال هذه الملكة، إذ لم يصدّها علوّ شأنها وعظمة سلطانها مع ما أوتيته من سلامة الفطرة وذكاء العقل عن أن تنظر في دلائل صدق الداعي إلى التوحيد وتوقن بفساد الشرك وتعترف بالوحدانية لله، فما يكون إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدي الإسلامي إلا لسخافة أحلامهم أو لعمايتهم عن الحق وتمسكهم بالباطل وتصلبهم فيه.

ولا أصل لما يذكره القصّاصون وبعض المفسرين من أن سليمان تزوج بلقيس، ولا أن له ولداً

منها .

فإن رحبعام ابنَه الذي خلفه في الملك كان من زوجة عَمُّونِيَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(255/578)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله : ﴿ نَكِّرُواْ ﴾ [النمل : 41] ضده عرِّفوا ؛ لأنه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها في سبأ ، ولو رأتْه على حالته الأولى لقالتْ هو هو ، ولم يظهر له ذكاؤها ؛ لذلك قال ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ [النمل : 41] يعني : غيّروا بعض معالمه ، ومنه شخص متنكر حين يُغيِّر ملامحه وزيّه حتى لا يعرف مَنْ حوله .

﴿ نَنظُرْ أَتهتدي أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : 41] تهتدي إيماناً إلى الإسلام ، أو تهتدي عقلياً إلى الجواب في مسألة العرش .

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)

جاء السؤال بهذه الصيغة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ [النمل : 42] ليُعمِّي عليها أمر العرش ، وليختبر دقة ملاحظتها ، فلو قال لها : أهذا عرشك ؟ لكان إيحاءً لها بالجواب إنما ﴿

أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ [النمل : 42] كأنه يقول : ليس هذا عرشك ، فلما نظرتْ إليه اجمالاً عرفتْ أنه عرشها ، فلما رأتْ ما فيه من تغيير وتنكير ظنتْ أنه غيره ؛ لذلك اختارتْ جواباً دبلوماسياً يحتمل هذه وهذه ، فقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل : 42] وعندها فهم سليمان أنها على قَدْر كبير من الذكاء والفِطْنة وحصافة الرأي .

وكذلك كلام السَّاسَة والدبلوماسيين تجده كلاماً يصلح لكل الاحتمالات ولأيِّ واقع بعده ، فإذا جاء الأمر على خلاف ما قال لك يسبقك بالقول : ألم أَقُلْ لك كذا وكذا .

(256/578)

ومن ذلك ما قاله معاوية بن أبي سفيان للأحنف بن قيس : يا أحنف لماذا لا تسبّ علياً على المنبر كما يسبّه الناس ؟ فقال الأحنف : اعفني يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية : عزمتُ عليك إلاَّ فعلْتَ ، فقال : أما وقد عزمت عليَّ فسأصعد المنبر ، ولكني سأقول للناس : إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أنْ ألعنَ علياً ، فقولوا معي : لعنه الله . عندها قال معاوية : لا يا أحنفُ ، لا تقل شيئاً .

لماذا ؟ لأن اللعن في هذه الحالة سيعود على مَنْ ؟ على معاوية أو عَلَى عَلِيّ ؟

وتُحكَي قصة الخيّاط الأعور الذي خاط لأحد الشعراء جُبَّة فجاءت وأَحَد الكُمَّيْن

أطول من الآخر ، فلم يستطع لبسها ، فلما سألوه عن عدم لُبْس الجبة الجديدة أخبرهم بما حدث من الخياط فقالوا : أُهْجه ، فقال :

قُلْت شِعْراً لَيْس يُدْرَى . . . أَمديحٌ أَمْ هِجَاءُ

خَاطَ لِي عَمْرو قُباء . . . لَيْتَ عينيه سَوَاءُ

فالكلام يحتمل المعنيين : الدعاء له ، والدعاء عليه . هذا هو الرد الدبلوماسي الذي يهرب به صاحبه من المواجهة .

وكذلك قالتْ بلقيس جواباً دبلوماسياً ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل : 42] أما ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 42] فيحتمل أنْ يكون امتداداً لقوْل بلقيس ، يعني : أوتينا العلم من قبل هذه الحادثة ، وعرفنا أنك نبيّ لما رددتَ إلينا الهدية ، وقلت ما قلت ، فلم نكُنْ في حاجة إلى مثل هذه الحادثة لنعلم نُبوّتك .

ويُحتمل أنها من كلام سليمان عليه السلام .

وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43)

المعنى : صدَّها ما فعل سليمان من أحداث ، وما أظهر لها من آيات ، صدَّها عن الكفر الذي أَلِفَتْه ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [النمل : 43] فصدَّها سليمان بما فعل عما كانت تعبد من دون الله .

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

الصَّرْح : إما أن يكون القصر المشيد الفخم ، وإما أن يكون البهو الكبير الذي يجلس فيه الملوك مثل : إيوان كسرى مثلاً ، فلما دخلتْ ﴿ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ [النمل : 44] ظنّته ماءً ، والإنسان إذا رأى أمامه ماءً أو بَلَلاً يرفع ثيابه بعملية آلية قَسْرية حتى لا يصيبه البَلَل ؛ لذلك كشفتْ بلقيس عن ساقيها يعني : رفعتْ ذَيْل ثوبها .

وهنا نَبهها سليمان ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ [النمل : 44] يعني : ادخلي لا تخافي بللاً ، فهذا ليس لُجة ماء ، إنما صَرْح ممرد من قوارير يعني : مبنيٌّ من الزجاج والبللور أو الكريستال ، بحيث يتموج الماء من تحته بما فيه من أسماك .

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ [النمل : 44] بالكفر أولاً ، وبظنّ السوء في سليمان ، وأنه يريد أنْ يُغرقني في لجة الماء ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [النمل : 44] ويبدو أنها لم تنطق بكلمة الإسلام صريحة إلا هذه المرة ، وأن القول السابق ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 42] كان من كلام سليمان عليه السلام .

وقولها ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ [النمل : 44] مثل قول سَحَرة فرعون لما رأوا المعجزة : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ﴾ [طه : 70] لأن الإيمان إنما يكون بالله والرسول دال على الله ، لذلك قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ [النمل : 44] ولم تقُلْ : أسلمتُ لسليمان ، نعم لقد دانتْ له ، واقتنعتْ بنبوته ، لكن كبرياء الملك فيها جعلها لا تخضع له ، وتعلن إسلامها لله مع سليمان ؛ لأنه السبب في ذلك ، وكأنها تقول له : لا تظن أنِّي أسلمتُ لك ، إنما أسلمتُ معك ، إذن : أنا وأنت سواء ، لا يتعالى أحد منا على الآخر ، فكلانا عبد لله .

وقد دخل هذه القصة بعض الإسرائيليات ، منها أن سليمان عليه السلام جعل الصرح على هذه الصورة لتكشف بلقيس عن ساقيها ؛ لأنه بلغه أنها مُشْعِرة الساقين ، وإلى غير هذا من الافتراءات التي لا تليق بمقام النبوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(259/578)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير؟ قال: إن سليمان نزل منزلاً فلم يدر ما بعد الماء، وكان الهدهد يدل سليمان على الماء، فأراد أن يسأله عنه ففقده. وقيل كيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ يلقي عليه التراب، ويضع له الصبي الحبالة فيغيبها فيصيده؟ فقال: إذا جاء القضاء ذهب البصر.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن يوسف بن ماهك أنه حدث: أن نافع بن الأزرق صاحب الازارقة كان يأتي عبد الله بن عباس؛ فإذا أفتى ابن عباس؛ يرى هو أنه ليس بمستقيم فيقول: قف من أين افتيت بكذا وكذا، ومن أين كان؟ فيقول ابن عباس رضي الله عنهما: أو مات من كذا وكذا. حتى ذكر يوماً الهدهد فقال: يعرف بعد مسافة الماء في الأرض فقال له ابن الأزرق: قف قف.. يا ابن العباس. كيف تزعم أن الهدهد يرى مسافة الماء من تحت الأرض، وهو ينصب له الفخ فيذر عليه التراب فيصطاد؟ فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول: كذا وكذا لم أقل له شيئاً. إن البصر ينفع ما لم يأت القدر، فإذا جاء القدر حال دون البصر. فقال ابن الأزرق: لا أجادلك بعدها في شيء.

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: كان سليمان إذا أراد أن ينزل

منزلاً دعا الهدهد ليخبره عن الماء . فكان إذا قال : ههنا شققت الشياطين الصخور فجرت العيون من قبل أن يضربوا أبنيتهم ، فأراد أن ينزل منزلاً فتفقد الطير فلم يره ، فقال ﴿ ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ .

(260/578)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية قال : ذكر لنا أن سليمان أراد أن يأخذ مفازة فدعا بالهدهد وكان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء . وكان قد اعطي من البصر بذلك شيئاً لم يعطه شيء من الطير . لقد ذكر لنا : أنه كان يبصر الماء في الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزجاجة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : اسم هدهد سليمان : عنبر .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ قال : نتف ريشه .

وأخرج الفريابي وابن جرير وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ قال : نُتِفَ ريشه كله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة . مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه قال : نتف ريشة وإلقاؤه للنمل في الشمس .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن رومان قال : إن عذابه الذي كان يعذب به الطير : نتف ريش جناحه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ قال : خبر الحق الصدق البين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ قال : بعذر بين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس : كل سلطان في القرآن حجة ، ونزع الآية التي في سورة سليمان ﴿ أو ليأتيني بسلطان ﴾ قال : وأي سلطان كان للهدهد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : إنما دفع الله عن الهدهد ببره والدته .

وأخرج الحكيم الترمذي وأبو الشيخ في العظمة عن عكرمة قال : إنما صرف الله عذاب سليمان عن الهدهد لأنه كان باراً بوالديه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ قال : اطلعت على ما لم تطلع عليه .

(261/578)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وجئتك من سبإ بنبإ يقين ﴾ قال : خبر حق .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وجئتك من سبإ ﴾ قال : سبأ بأرض اليمن يقال لها : مأرب . بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال ﴿ بنبإ يقين ﴾ قال : بخبر حق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن لهيعة قال : يقولون إن مأرب مدينة بلقيس . لم يكن بينها وبين بيت المقدس الا ميل ، فلما غضب الله عليها بعدها ، وهي اليوم باليمن ، وهي التي ذكر الله القرآن ﴿ لقد كان لسبإ في مساكنهم ﴾ [سبأ : 15] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : بعث إلى سبأ اثنا عشر نبياً منهم : تبع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قرأ ﴿ من سبإ بنبإ يقين ﴾ قال : يجعله أرضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أنه قرأ ﴿ من سبإ بنبإ ﴾ قال : يجعله رجلاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ قال : كان اسمها بلقيس بنت أبي شبرة ، وكانت هلباء شعراء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ قال : هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة قال : بلغني إنها امرأة تسمى بلقيس بنت شراحيل ، أحد أبويها من الجن . مؤخر إحدى قدميها مثل حافر الدابة . وكانت في بيت مملكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد قال : هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان ، وأمها فارعة الجنية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : بلقيس بنت أبي شرح ، وأمها بلقته .

وأخرج ابن مردويه عن سفيان الثوري ، مثله .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال : كانت ملكة سبأ اسمها ليلى ، وسبأ مدينة باليمن ، وبلقيس حميرية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وابن عساكر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إحدى أبوي بلقيس كان جنياً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن قتادة قال : ذكر لنا أن ملك سبأ كانت امرأة باليمن . كانت في بيت مملكة يقال لها بلقيس بنت شراحيل . هلك أهل بيتها فملكها قومها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد قال : صاحبة سبأ كانت أمها جنية .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه عن عثمان بن حاضر قال : كانت أم بلقيس امرأة من الجن يقال لها : بلقمة بنت شيصان .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن أنه سئل عن ملكة سبأ فقال : إن أحد أبويها جني . فقال : الجن لا يتوالدون ! أي أن المرأة من الإِنس لا تلد من الجن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان لصاحبة سليمان اثنا عشر ألف قيل ، تحت كل قيل مائة ألف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : لما قال ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ أنكر سليمان أن يكون لأحد على الأرض سلطان غيره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ قال : من كل شيء في أرضها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ قال : من أنواع

الدنيا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ قال : سرير كريم من ذهب ، وقوائمه من جوهر ولؤلؤ ، حسن الصنعة ، غالي الثمن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ قال : سرير من ذهب ، وصفحتاه مرمول بالياقوت والزبرجد ، طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان في قوله ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس ﴾ قال : كانت لها كوّة في بيتها إذا طلعت الشمس نظرت إليها فسجدت لها .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يخرج الخبء ﴾ قال : يعلم كل خفية في السماء والأرض .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ يخرج الخبء ﴾ قال : الغيب .

(263/578)

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ يخرج الخبء ﴾ قال : السر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة .

مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ يخرج الخبء ﴾ قال : الماء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن حكيم بن جابر في قوله ﴿ يخرج الخبء ﴾ قال : المطر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : خبء السموات والأرض ؛ ما جعل من الأرزاق ، والقطر من السماء ، والنبات من الأرض .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ قال : لم يصدقه ولم يكذبه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ اذهب بكتابي هذا ﴾ قال : كتب معه بكتاب فقال ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم ﴾ يقول : كن قريباً منهم ﴿ فانظر ماذا يرجعون ﴾ فانطلق بالكتاب حتى إذا توسط عرشها ألقى الكتاب إليها ، فقرأه عليها فإذا فيه ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كانت صاحبة سبأ إذا رقدت غلقت الأبواب ، وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها . فلما غلقت

الأبواب وآوت إلى فراشها ، جاءها الهدهد حتى دخل من كوّة بيتها ، فقذف الصحيفة على بطنها بين فخذيها ، فأخذت الصحيفة فقرأتها فقالت ﴿ يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ تقول : حسن ما فيه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ قال : مختوم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله ﴿ كتاب كريم ﴾ قال : تريد مختوم .

وكذلك الملوك تختم كتبها . لا تجيز بينها كتاباً إلا بخاتم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ قال : لم يزد زعموا على هذا الكتاب على ما قص الله .

(264/578)

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان قال : كتب بسم الله الرحمن الرحيم . من سليمان بن داود إلى بلقيس بنت ذي شرح وقومها .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد : أن سليمان بن داود كتب إلى ملكة سبأ . بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ السلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لم يكن في كتاب سليمان إلى صاحبة سبأ إلا ما تقرأون في القرآن ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاَّ تعلوا علي ﴾ يقول : لا تخالفوا علي ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ قال : وكذلك كانت الأنبياء تكتب جميلا . يطلبون ولا يكثرون .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم من طريق سفيان بن منصور قال : كان يقال كان سليمان بن داود أبلغ الناس في كتاب وأقله كلاماً . ثم قرأ ﴿ إنه من سليمان ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي قال : كان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم . فكتب النبي صلى الله عليه وسلم أول ما كتب : باسمك اللهم . حتى نزلت ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ فكتب (بسم الله) ثم نزلت ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ [الرحمن : 110] فكتب (بسم الله الرحمن) ثم أنزلت الآية التي في ﴿ طس . . . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) .

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحرث العكلي قال : قال لي الشعبي : كيف كان كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إليكم ؟ قلت : باسمك اللهم فقال : ذاك الكتاب الأول كتب النبي صلى الله عليه وسلم " باسمك اللهم " فجرت بذلك ما شاء الله أن تجري ، ثم نزلت ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾ فكتب (بسم الله) فجرت بذلك ما شاء الله أن تجري ، ثم نزلت ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ فكتب (بسم الله الرحمن) فجرت بذلك ما شاء الله أن تجري ، ثم نزلت ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فكتب بذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب " باسمك اللهم " حتى نزلت ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة قال : لم يكن الناس يكتبون إلا " باسمك اللهم " حتى نزلت ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

وأخرج أبو داود في مراسيله عن أبي مالك قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب " باسمك اللهم " فلما نزلت ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ كتب " بسم الله الرحمن الرحيم " .

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن أبي شيبة عن سعيد بن المسيب قال : كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ، وقيصر ، والنجاشي " أما بعد : فتعالوا إلى كلمة سواء

بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " فلما أتى كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر فقرأه قال : إن هذا الكتاب لم أره بعد سليمان بن داود " بسم الله الرحمن الرحيم " .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) ﴾

(266/578)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ﴾ قال : جمعت رؤوس مملكتها ، فشاورتهم في أمرها ، فاجتمع رأيهم ورأيها على أن يغزوه . فسارت حتى إذا كانت قريبة قالت : أرسل إليه بهدية فإن قبلها فهو ملك أقاتله ، وإن ردها تابعته فهو نبي . فلما دنت رسلها من سليمان علم خبرهم ، فأمر الشياطين فهيئوا له ألف قصر من ذهب وفضة . فلما رأت رسلها قصور ذهب قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا ، وقصوره ذهب وفضة ! فلما دخلوا بهديتها قال : أتهدونني بمال ، ثم قال سليمان ﴿ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ فقال كاتب سليمان : ارفع بصرك ؛ فرفع بصره . فلما رجع إليه طرفه إذا هو بسريرها ﴿ قال نكروا لها عرشها ﴾ فنزع عنه فصوصه ومرافقه وما كان عليه من شيء فقيل لها ﴿ أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو ﴾ وأمر

الشياطين : فجعلوا لها صرحاً من قوارير ممرداً ، وجعل فيها تماثيل السمك فقيل لها ﴿ ادخلي الصرح . . . وكشفت عن ساقيها ﴾ فإذا فيها الشعر . فعند ذلك أمر بصنعة النورة فقيل لها ﴿ إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله ﴿ أفتوني في أمري ﴾ تقول : أشيروا علي برأيكم ﴿ ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ تريد : حتى تشيروا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيول ، تحت يدي كل قيول مائة ألف مقاتل ، وهم الذين قالوا ﴿ نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أنه كان أول مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلاً . كل رجل منهم على عشرة آلاف من الرجال .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ قال : إذا أخذوها عنوة أخربوها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ قال : بالسيف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قالت بلقيس ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ قال : يقول الرب تبارك وتعالى ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية ﴾ قال : أرسلت بلبنة من ذهب ، فلما قدموا إذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله ﴿ أتمدونِ بمال ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : قالت إني باعثة إليهم بهدية ، فمصانعتهم بها عن ملكي أن كانوا أهل دنيا .

فبعثت إليهم بلبنة من ذهب في حرير وديباج ، فبلغ ذلك سليمان ، فأمر بلبنة من ذهب فصنعت ، ثم قذفت تحت أرجل الدواب على طريقهم تبول عليها وتروث ، فلما جاء رسلها واللبنة تحت أرجل الدواب ، صغر في أعينهم الذي جاؤوا به .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ثابت البناني قال : أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج . فلما بلغ ذلك سليمان أمر الجن ، فموّهوا له الآجر بالذهب ، ثم أمر به ، فألقي في الطريق . فلما جاؤوا ورأوه ملقى في الطريق وفي كل

مكان قالوا : جئنا نحمل شيئاً نراه ههنا ملقى ما يلتفت إليه . فصغر في أعينهم ما جاؤوا به .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية ﴾ قال : جوار لباسهن لباس الغلمان ، وغلمان لباسهن لباس الجواري .

(268/578)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : أرسلت بثمانين من وصيف ووصيفة ، وحلقت رؤوسهم كلهم ، وقالت : إن عرف الغلمان من الجواري فهو نبي ، وإن لم يعرف الغلمان من الجواري فليس بنبي . فدعا بوضوء فقال : توضئوا . فجعل الغلام يأخذ من مرفقيه إلى كفيه ، وجعلت الجارية تأخذ من كفها إلى مرفقها فقال : هؤلاء جوار وهؤلاء غلمان .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال : كانت هدية بلقيس لسليمان مائتي فرس على كل فرس غلام وجارية . الغلمان والجواري على هيئة واحدة ، لا يعرف الجواري من الغلمان ، ولا الغلمان من الجواري . على كل فرس لون ليس على الآخر وكانت أول

هديتهم عند سليمان وآخرها عندها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الهدية . وصفان ، ووصائف ، ولبنة من ذهب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : كانت الهدية . جواهر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : إن الهدية لما جاءت سليمان بين الغلمان والجواري امتحنهم بالوضوء . فغسل الغلمان ظهور السواعد قبل بطونها ، وغسلت الجواري بطون السواعد قبل ظهورها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : قالت : إن هو قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه دون ملككم ، وإن لم يقبل الهدية فهو نبي لا طاقة لكم بقتاله . فبعثت إليه بهدية غلمان في هيئة الجواري وحليهم ، وجوار في هيئة الغلمان ولباسهم ، وبعثت إليه بلبنات من ذهب ، وبخرزة مثقوبة مختلفة ، وبعثت إليه بقدح ، وبعثت إليه تعلمه . فلما جاء سليمان الهدية أمر الشياطين ، فموّهوا لبن المدينة وحيطانها ذهباً وفضة ، فلما رأى ذلك رسلها قالوا : أين نذهب باللبنات في أرض هؤلاء وحيطانهم ذهب وفضة ؟ ! فحسبوا اللبنات وأدخلوا عليه ما سوى ذلك وقالوا : أخرج لنا الغلمان من الجواري .

(269/578)

فأمرهم فتوضأوا ، وأخرج الغلمان من الجواري . أما الجارية فافرغت على يدها ، وأما الغلام فاغترف ، وقالوا : ادخل لنا في هذه الخرزة خيطاً . فدعا بالدساس فربط فيه خيطاً فأدخله فيها ، فجال فيها واضطرب حتى خرج من الجانب الآخر . وقالوا : املأ لنا هذا القدح بماء ليس من الأرض ولا من السماء . فأمر بالخيل فأجريت حتى إذا اربدت مسح عرقها فجعله فيه حتى ملأه . فلما رجعت رسلها فأخبروها : أن سليمان رد الهدية . وفدت إليه وأمرت بعرشها فجعل في سبعة أبيات وغلقت عليها فأخذت المفاتيح . فلما بلغ سليمان ما صنعت بعرشها ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد قال : قال للهدهد ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ يعني من الانس والجن .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم صالح في قوله ﴿ لا قبل لهم بها ﴾ قال : لا طاقة لهم بها .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما بلغ سليمان أنها جاءته وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه . وكان عرشها من ذهب ، وقوائمه من لؤلؤ وجوهر ، وكان مستتراً بالديباج والحرير ، وكان عليه سبعة مغاليق ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله سليمان أن القوم متى ما يسلموا تحرم أموالهم مع دمائهم ، فأحب أن يؤتى به قبل أن يكون ذلك من أمرهم فقال ﴿ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني

مسلمين ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ قال : سرير في أريكة .

وأخرج ابن المنذر من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ قال : طائعين .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قال عفريت من الجن ﴾ قال : مارد ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾ قال : من مقعدك .

(270/578)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح في قوله ﴿ قال عفريت ﴾ قال : عظيم كأنه جبل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال : كان اسم العفريت . كوزن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان قال : اسمه كوزي .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قال عفريت من الجن

﴾ قال : هو صخر الجني ﴿ وإني عليه لقوي ﴾ قال : على حمله ﴿ أمين ﴾ قال : على ما استودع فيه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾ قال : من مجلسك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾ قال : من مجلسك الذي تجلس فيه للقضاء . وكان سليمان إذا جلس للقضاء لم يقم حتى تزول الشمس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإني عليه لقوي أمين ﴾ قال : على جوهره .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ قال : إني أريد أعجل من هذا ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ قال : فخرج العرش من نفق من الأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن حماد بن سلمة قال : قرأت في مصحف أبي بن كعب ﴿ وإني عليه لقوي أمين ﴾ قال : أريد أعجل من ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ قال : آصف : كاتب سليمان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان قال : هو آصف بن برخيا . وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان اسمه أسطوم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن لهيعة قال : هو الخضر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد قال : هو رجل من الإِنس يقال له : ذو النور .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال : هو آصف بن برخيا بن مشعيا بن منكيل ، واسم أمه باطورا من بني إسرائيل .

(271/578)

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ قال : كان اسمه تمليخا .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ قال : الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وهو ياذا الجلال والإِكرام .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن

مجاهد في قوله ﴿ قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ قال : ادامة النظر حتى يرتد إليك الطرف خاسئاً .

وأخرج أبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : في قراءة ابن مسعود " قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أنظر في كتاب ربي ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك " قال : فتكلم ذلك العالم بكلام ، دخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ قال : قال لسليمان : انظر إلى السماء قال : فما اطرق حتى جاءه به فوضعه بين يديه .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ، مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الزهري قال : دعاء الذي عنده من الكتاب .

يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت : ائتني بعرشها . قال : فمثل له بين يديه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن عساكر عن ابن عباس قال : لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ، ولكن انشقت به الأرض فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن سابط قال : دعا باسمه الأعظم ، فدخل السرير فصار له نفق في الأرض حتى نبع بين يدي سليمان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : دعا باسم من أسماء الله . فإذا عرشها يحمل بين عينيه . ولا يدري ذلك الاسم . قد خفي ذلك الإِسم على سليمان وقد أعظم ما أعطى .

(272/578)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ قال : كان رجلاً من بني إسرائيل يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطي . وارتداد الطرف أن يرى ببصره حيث بلغ ثم يرد طرفه . فدعاه فلما رآه مستقراً عنده جزع وقال : رجل غيري أقدر على ما عند الله مني .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ﴾ إذا أتيت بالعرش ﴿ أم أكفر ﴾ إذا رأيت من هو أدنى مني في الدنيا أعلم مني .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قال نكروا لها عرشها ﴾ قال : زيد فيه ونقص ل ﴿ ننظر أتهتدي ﴾ قال : لننظر إلى عقلها . فوجدت ثابتة العقل .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ قال نكروا لها عرشها ﴾ قال : تنكيره أن يجعل أسفله أعلاه ، ومقدمه مؤخره ، ويزاد فيه أو ينقص منه ، فلما جاءت ﴿ قيل أهكذا عرشك ﴾ قالت ﴿ كأنه

هو ﴾ شبهته به وكانت قد تركته خلفها فوجدته أمامها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : لما دخلت وقد غير عرشها . فجعل كل شيء من حليته أو فرشه في غير موضعه ليلبسوا عليها قيل ﴿ أهكذا عرشك ﴾ فرهبت أن تقول نعم هو . فيقولون : ما هكذا كان حليته ولا كسوته ، ورهبت أن تقول ليس هو ، فيقال لها : بل هو ولكنا غيرناه . فقالت كأنه هو .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد في قوله ﴿ وأوتينا العلم من قبلها ﴾ قال : سليمان يقوله : أوتينا معرفة الله وتوحيده .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وأوتينا العلم من قبلها ﴾ قال : سليمان يقوله . وفي قوله ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ﴾ قال : كفرها بقضاء الله غير الوثن أن تهتدي للحق .

(273/578)

في قوله ﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ بركة ماء ضرب عليها سليمان قوارير ، وكانت بلقيس عليها شعر ، قدماها حافر كحافر الحمار ، وكانت أمها جنية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح قال : كان الصرح من زجاج وجعل فيه

تماثيل السمك . فلما رأته وقيل لها : أدخلي الصرح . فكشفت عن ساقيها وظنت أنه ماء

قال : ﴿ والممرد ﴾ : الطويل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان قد نعت لها خلقها ، فأحب أن ينظر إلى ساقيها ، فقيل لها ﴿ ادخلي الصرح ﴾ فلما رأته ظنت أنه ماء ، فكشفت عن ساقيها ، فنظر إلى ساقيها أنه عليهما شعر كثير ، فوقعت من عينيه وكرهها ، فقالت له الشياطين : نحن نصنع لك شيئاً يذهب به . فصنعوا له نورة من أصداف ، فطلوها فذهب الشعر ، ونكحها سليمان عليه السلام .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله قالت ﴿ رب إني ظلمت نفسي ﴾ قال : ظنت أنه ماء . وأن سليمان أراد قتلها فقالت : أراد قتلي – والله – على ذلك ، لأقتحمن فيه . فلما رأته أنه قوارير عرفت أنها ظلمت سليمان بما ظنت . فذلك قولها ﴿ ظلمت نفسي ﴾ وإنما كانت هذه المكيدة من سليمان عليه السلام لها . إن الجن تراجعوا فيما بينهم فقالوا : قد كنتم تصيبون من سليمان غرة ، فإن نكح هذه المرأة اجتمعت فطنة الوحي والجن فلن تصيبوا له غرة . فقدموا إليه فقالوا : إن النصيحة لك علينا حق ، إنما قدماها حافر حمار . فذلك حين ألبس البركة قوارير ، وأرسل إلى نساء من نساء بني إسرائيل ينظرنها إذا كشفت عن ساقيها . ما قدماها ؟ فإذا هي أحسن الناس ساقاً من ساق

شعراء ، وإذا قدماها هما قدم إنسان ، فبشرن سليمان . وكره الشعر ، فأمر الجن ، فجعلت النورة . فذلك أول ما كانت النورة .

(274/578)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان سليمان بن داود عليه السلام إذا أراد سفراً قعد على سريره ، ووضعت الكراسي يميناً وشمالاً ، فيؤذن للإنس عليه ، ثم أذن للجن عليه بعد الانس ، ثم أذن للشياطين بعد الجن ، ثم أرسل إلى الطير فتظلهم ، وأمر الريح فحملتهم وهو على سريره ، والناس على الكراسي ، والطير تظلهم ، والريح تسير بهم . غدوها شهر ، ورواحها شهر ، رخاء حيث أراد . ليس بالعاصف ، ولا باللين ، وسطا بين ذلك . وكان سليمان يختار من كل طير طيراً ، فيجعله رأس تلك الطير . فإذا أراد أن يسائل تلك الطير عن شيء سأل رأسها .

فبينما سليمان يسير إذ نزل مفازة فقال : كم بعد الماء ههنا ؟ فسأل الإنس فقالوا : لا ندري ! فسأل الشياطين فقالوا : لا ندري ! فغضب سليمان وقال : لا أبرح حتى أعلم كم بعد مسافة الماء ههنا ؟ فقالت له الشياطين : يا رسول الله لا تغضب ، فإن يك شيء يعلم فالهدهد يعلمه .

فقال سليمان : عليَّ بالهدهد . فلم يوجد ، فغضب سليمان وقال ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ يقول : بعذر مبين غيبه عن مسيري هذا .

قال : ومر الهدهد على قصر بلقيس فرأى لها بستاناً خلف قصرها ، فمال إلى الخضرة فوقع فيه ، فإذا هو بهدهد في البستان فقال له : هدهد سليمان أين أنت عن سليمان وما تصنع ههنا ؟ فقال له هدهد بلقيس : ومن سليمان ؟ ! فقال : بعث الله رجلاً يقال له : سليمان رسولاً وسخر له الجن والانس والريح والطير . فقال له هدهد بلقيس : أي شيء تقول ؟ قال : أقول لك ما تسمع . قال : إن هذا لعجب ! وأعجب من ذلك أن كثرة هؤلاء القوم تملكهم امرأة ﴿ وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾ جعلوا الشكر لله : أن يسجدوا للشمس من دون الله .

(275/578)

قال : وذكر لهدهد سليمان ، فنهض عنه فلما انتهى إلى العسكر تلقته الطير فقالوا : تواعدك رسول الله ، وأخبروه بما قال . وكان عذاب سليمان للطير أن ينتفه ، ثم يشمسه ، فلا يطير أبداً ويصير مع هوام الأرض ، أو يذبحه فلا يكون له نسل أبداً . قال الهدهد : وما استثنى نبي الله ؟ قالوا : بلى . قال : أو ليأتيني بعذر مبين . فلما أتى سليمان قال : وما

غيبتك عن مسيري ؟ قال ﴿ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾ قال : بل اعتللت ﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ﴾ وكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ إلى بلقيس ﴿ ألا تعلوا علي وائتوني مسلمين ﴾ فلما ألقى الهدهد الكتاب إليها ، ألقى في روعها أنه كتاب كريم ، وإنه من سليمان و ﴿ ألا تعلوا علي وائتوني مسلمين . . . ، قالوا نحن أولوا قوة ﴾ قالت ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها . . . ، وإني مرسلة إليهم بهدية ﴾ فلما جاءت الهدية سليمان قال : أتمدونني بمال ارجع إليهم . فلما رجع إليها رسلها خرجت فزعة ، فأقبل معها ألف قيل مع كل قيل مائة ألف .

قال : وكان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه . فخرج يومئذ فجلس على سريره فرأى رهجاً قريباً منه قال : ما هذا ؟ قالوا : بلقيس يا رسول الله قال : وقد نزلت منا بهذا المكان ؟ قال ابن عباس : وكان بين سليمان وبين ملكة سبأ ومن معها حين نظر إلى الغبار كما بين الكوفة والحيرة قال : فأقبل على جنوده فقال : أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال : وبين سليمان وبين عرشها حين نظر إلى الغبار مسيرة شهرين ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ .

قال : وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس كما تجلس الأمراء ، ثم يقوم قال سليمان : أريد اعجل من ذلك .

(276/578)

قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا انظر في كتاب ربي ثم آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فنظر إليه سليمان فلما قطع كلامه ، رد سليمان بصره ، فنبع عرشها من تحت قدم سليمان . من تحت كرسي كان يضع عليه رجله ، ثم يصعد إلى السرير ، فلما رأى سليمان عرشها مستقراً عنده ﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر ﴾ إذ أتاني به قبل أن يرتد إليَّ طرفي ﴿ أم أكفر ﴾ إذ جعل من هو تحت يدي أقدر على المجيء مني ، ثم ﴿ قال نكروا لها عرشها . . . ، فلما جاءت ﴾ تقدمت إلى سليمان ﴿ قيل لها أهكذا عرشك فقالت كأنه هو ﴾ ثم قالت : يا سليمان إني أريد أن أسألك عن شيء فأخبرني به قال : سلي . قالت : أخبرني عن ماء رواء لا من الأرض ولا من السماء .

(277/578)

قال : وكان إذا جاء سليمان شيء لا يعلمه يسأل الإِنس عنه ، فإن كان عند الإِنس منه علم . . . وإلا سأل الجن ، فإن لم يكن عند الجن علم سأل الشياطين ، فقالت له الشياطين :

ما أهون هذا يا رسول الله ! مر بالخيل فتجري ثم لتملأ الآنية من عرقها فقال لها سليمان : عرق الخيل قالت : صدقت قالت : فأخبرني عن لون الرب قال ابن عباس : فوثب سليمان عن سريره فخر ساجداً فقامت عنه ، وتفرقت عنه جنوده ، وجاءه الرسول فقال : يا سليمان يقول لك ربك ما شأنك ؟ قال : يا رب أنت أعلم بما قالت قال : فإن الله يأمرك أن تعود إلى سريرك فتقعد عليه ، وترسل إليها وإلى من حضرها من جنودها ، وترسل إلى جميع جنودك الذين حضروك فيدخلوا عليك ، فتسألها وتسألهم عما سألتك عنه قال : ففعل سليمان ذلك . فلما دخلوا عليه جميعاً قال لها : عم سألتيني ؟ قالت : سألتك عن ماء رواء لا من الأرض ولا من السماء قال : قلت لك عرق الخيل قالت : صدقت . قال : وعن أي شيء سألتيني ؟ قالت : ما سألتك عن شيء إلا عن هذا قال لها سليمان : فلأي شيء خررت عن سريري ؟ ! قالت : كان ذلك لشيء لا أدري ما هو . فسأل جنودها فقالوا : مثل قولها . فسأل جنوده من الإِنس ، والجن ، والطير ، وكل شيء كان حضره من جنوده ، فقالوا : ما سألتك يا رسول الله عن شيء إلا عن ماء رواء قال : وقد كان .

قال له الرسول : يقول الله لك : ارجع ثمة إلى مكانك فإني قد كفيتكم فقال سليمان للشياطين : ابنو لي صرحاً تدخل علي فيه بلقيس ، فرجع الشياطين بعضهم إلى بعض فقالوا لسليمان : يا رسول الله قد سخر الله لك ما سخر ، وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد له غلاماً فلا ننفك له من العبودية أبداً قال : وكانت امرأة شَعْرَاء الساقين فقالت الشياطين

: ابنو له بنياناً كأنه الماء يرى ذلك منها فلا يتزوجها ، فبنوا له صرحاً من قوارير ، فجعلوا له طوابيق من قوارير ، وجعلوا من باطن الطوابيق كل شيء يكون من الدواب في البحر .

(278/578)

من السمك وغيره ثمَّ اطبقوه ، ثم قالوا لسليمان : ادخل الصرح . فألقي كرسياً في أقصى الصرح . فلما دخله أتى الكرسي فصعد عليه ثم قال : أدخلوا عليَّ بلقيس فقيل لها ادخلي الصرح فلما ذهبت تدخله فرأت صورة السمك ، وما يكون في الماء من الدواب ﴿ حسبته لجة فكشفت عن ساقيها ﴾ لتدخل . وكان شعر ساقها ملتوياً على ساقيها . فلما رآه سليمان ناداها وصرف وجهه عنها ﴿ إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ فألقت ثوبها وقالت ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ . فدعا سليمان الإِنس فقال : ما أقبح هذا ! ما يذهب هذا ! قالوا : يا رسول الله الموسى . فقال : الموسى تقطع ساقي المرأة ، ثم دعا الشياطين فقال مثل ذلك ، فتلكؤوا عليه ثم جعلوا له النورة قال ابن عباس : فإنه لأول يوم رؤيت فيه النورة قال : واستنكحها سليمان عليه السلام . قال ابن أبي حاتم : قال أبو بكر بن أبي شيبة : ما أحسنه من حديث !

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم

عن عبد الله بن شداد قال : كان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يسير وضع كرسيه ، فيأتي من أراد من الانس والجن ، ثم يأمر الريح فتحملهم ، ثم يأمر الطير فتظلهم . فبينا هو يسير إذ عطشوا فقال : ما ترون بعد الماء ؟ قالوا : لا ندري . فتفقد الهدهد وكان له منه منزلة ليس بها طير غيره فقال ﴿ ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ وكان عذابه إذا عذب الطير نتفه ، ثم يجففه في الشمس ﴿ أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ يعني بعذر بين .

(279/578)

فلما جاء الهدهد استقبلته الطير فقالت له : قد أوعدك سليمان فقال لهم : هل استثنى ؟ فقالوا له : نعم . قد قال : إلا أن يجيء بعذر بين . فجاء بخبر صاحبة سبأ ، فكتب معه إليها ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليَّ وائتوني مسلمين ﴾ فأقبلت بلقيس ، فلما كانت على قدر فرسخ قال سليمان ﴿ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ فقال سليمان : أريد أعجل من ذلك . فقال الذي عنده علم من الكتاب ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ فأتى بالعرش في نفق في الأرض ، يعني سرب في الأرض قال سليمان : غيروه . فلما جاءت ﴿

قيل لها أهكذا عرشك ﴾ فاستنكرت السرعة ورأت العرش ﴿ فقالت كأنه هو . . ، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته ﴾ لجة ماء ﴿ وكشفت عن ساقيها ﴾ فإذا هي امرأة شعراء فقال سليمان : ما يذهب هذا ؟ فقال بعض الجن : أنا أذهبه . وصنعت له النورة . وكان أول ما صنعت النورة ، وكان اسمها بلقيس .

وأخرج ابن عساكر عن عكرمة قال : لما تزوج سليمان بلقيس قال : ما مستني حديدة قط فقال للشياطين : أنظروا أي شيء يذهب بالشعر غير الحديد ؟ فوضعوا له النورة ، فكان أول من وضعها شياطين سليمان .

وأخرج البخاري في تاريخه والعقيلي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أول من صنعت له الحمامات سليمان " .

وأخرج الطبراني وابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أول من دخل الحمام سليمان ، فلما وجد حره أوَّهَ من عذاب الله " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن مجاهد قال : لما قدمت ملكة سبأ على سليمان رأت حطباً جزلاً فقالت لغلام سليمان : هل يعرف مولاك كم وزن هذا الدخان ؟ فقال : أنا أعلم فكيف مولاي ؟ قالت : فكم وزنه ؟ فقال الغلام : يوزن الحطب ثم يحرق ، ثم يوزن الرماد فما نقص فهو دخانه .

(280/578)

وأخرج البيهقي في الزهد عن الأوزاعي قال : كسر برج من أبراج تدمر ، فأصابوا فيه امرأة حسناء دعجاء مدمجة كأن أعطافها طي الطوامير ، عليها عمامة طولها ثمانون ذراعاً ، مكتوب على طرف العمامة بالذهب (بسم الله الرحمن الرحيم) أنا بلقيس ملكة سبأ زوجة سليمان بن داود ، ملكت الدنيا كافرة ومؤمنة ، ما لم يملكه أحد قبلي ولا يملكه أحد بعدي ، صار مصيري إلى الموت فأقصروا يا طلاب الدنيا .

وأخرج ابن عساكر عن سلمة بن عبد الله بن ربعي قال : لما أسلمت بلقيس تزوجها سليمان وأمهرها باعلبك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(281/578)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ نَنظُرْ ﴾ :

العامَّةُ على جزمِه جواباً للأمرِ قبله . وأبو حيوةَ بالرفعِ جَعَلَه استئنافاً .

فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)

قوله : ﴿ أَهَكَذَا ﴾ : فَصَلَ بحرفِ الجرّ بينَ حرفِ التنبيهِ واسمِ الإشارةِ . والأصلُ : أكهذا أي : أَمِثْلُ هذا عرشُكِ ؟ ولا يجوزُ ذلك في غيرِ الكافِ ، لو قلت : أبهذا مَرَرْتَ ، وأَلهذا فعلتَ ، لم يَجُزْ أن يُفْصَلَ بحرفِ الجرّ بين " ها " و " ذا " فتقول : أها بِذا مَرَرْتَ ، وأها لِذا فَعَلْتَ .

قوله : ﴿ وَأُوتِينَا العلم ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنه مِنْ كلامِ بلقيسَ . والضميرُ في " قَبْلِها " راجعٌ للمعجزةِ والحالةِ الدالِّ عليهما السياقُ . والمعنى : وأُوتينا العلمَ بنبوةِ سليمانَ من قبلِ ظهورِ هذه المعجزةِ ، أو من هذه الحالةِ ؛ وذلك لِما رأَتْ قبلَ ذلك من أمرِ الهُدْهُدِ ورَدِّ الهديةِ . والثاني : أنه من كلامِ سليمانَ وأتباعِه ، فالضميرُ في " قَبْلِها " عائدٌ على بلقيسَ .

قوله : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ ﴾ :

في فاعلِ " صَدَّ " ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدُها : ضميرُ الباري . والثاني : ضميرُ سليمان . وعلى هذا ف ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ ﴾ منصوبٌ على إسقاطِ الخافضِ أي : وصدَّها اللهُ ، أو سليمانُ ، عن ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دونِ الله ، قاله الزمخشري مُجَوِّزاً له . وفيه نظرٌ : من حيث إنَّ حَذْفَ الجارِّ ضرورةٌ كقوله :

3573 تَمُرُّون الديارَ ولم تَعُوْجُوا . . . . . .

. .

(282/578)

كذا قاله الشيخ . وقد تقدَّم لك آياتٌ كثيرةٌ من هذا النوعِ فلهذه بِهِنَّ أُسْوَةٌ . والثالث : أنَّ الفاعلَ هو " ما كَانَتْ " أي : صَدَّها ما كانَتْ تعبدُ عن الإِسلامِ وهذا واضِحٌ . والظاهرُ أنَّ الجملةَ مِنْ قولِه " وصَدَّها " معطوفةٌ على قولِه : " وأُوْتِيْنا " . وقيل : هي حالٌ مِنْ قوله : " أم تكونَ من الذينَ " و " قد " مضمرةٌ وهذا بعيدٌ جداً . وقيل : هو مستأنَفٌ إخبارٍ من اللهِ تعالى بذلك .

قوله : " إنَّها " العامَّةُ على كسرِها استئنافاً وتعليلاً . وقرأ سعيد بن جبير وأبو حيوةَ بالفتح ، وفيها وجهان ، أحدهما : أنها بدلٌ مِنْ " ما كانَتْ تعبدُ " ، أي : وصَدَّها أنها كانَتْ . والثاني : أنها على إسقاطِ حَرْفِ العلةِ أي : لأَنَّها ، فهي قريبةٌ من قراءةِ العامة .

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا

قوله : ﴿ الصرح ﴾ : قد تقدم الخلافُ في الظرف الواقع بعد " دخل " : هل هو منصوبٌ على الظرفِ ؟ وشَذَّ ذلك مع " دخل " خاصةً كما قاله سيبويه ، أو مفعول به كهَدَمْتُ

البيتَ كما قاله الأخفش . والصَّرْحُ : القَصْرُ أو صَحْنُ الدارِ أو بَلاطٌ متخذٌ مِنْ زُجاج .

وأصلُه من التصريح ، وهو الكشفُ . وكَذِبٌ صُراحٌ أي : ظاهرٌ مكشوفٌ ولُؤْمٌ صُراحٌ .

والصَّرِيحُ : مقابِلُ الكنايةِ لظهورِه واستتارِ ضدِّه . وقيل : الصريحُ : الخالِصُ ، مِنْ قولِهم : لَبَنٌ صَرِيحٌ بَيِّنُ الصَّراحَةِ والصُّرُوْحَةِ .

وقال الراغب : " الصَّرْحُ : بيتٌ عالٍ مُزَوَّقٌ ، سمِّي بذلك اعتباراً بكونِه صَرْحاً عن/ الشَّوْبِ أي : خالصاً " .

(283/578)

قوله : ﴿ سَاقَيْهَا ﴾ العامَّةُ على ألفٍ صريحةٍ . وقنبل روى همزَها عن ابنِ كثير .

وضَعَّفَها أبو عليّ . وكذلك فعل قنبل في جمع " ساق " في ص ، وفي الفتح هَمَزَ واوَه . فقرأ " بالسُّؤْقِ والأَعْناق " " فاستوى على سُؤْقِه " بهمزةٍ مكانَ الواوِ . وعنه وجهٌ آخرُ : " السُّؤُوْق " و " سُؤُوْقة " بزيادة واوٍ بعد الهمزة .

ورُوِي عنه أنه كان يَهْمِزُه مفرداً في قوله : ﴿ يُكْشَفُ عَن سَأْقٍ ﴾ [القلم : 42] .

فأمَّا هَمْزُ الواوِ ففيها أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ الواوَ الساكنةَ المضمومَ ما قبلَها يَقْلِبُها بعضُ العربِ همزةَ . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في أولِ البقرةِ عند "يُوْقنون " وأنشَدْتُ عليه :

3574 أَحَبُّ المُؤْقِدِين إليَّ موسى . . . . . .

. . . . . .

وكان أبو حَيَّةَ النميري يَهْمِزُ كلَّ واوٍ في القرآن ، هذا وَصْفُها . الثاني : أنَّ ساقاً على فَعَلَ كأَسَدٍ ، فجُمِعَ على فُعُل بضمِّ العين كأُسُدٍ . والواوُ المضمومة تُقْلب همزةً نحو : وُجوه ، ووُقِّتَتْ ، ثم بعد الهمزِ سَكَنَتْ .

الثالث : أنَّ المفردَ سُمِعَ هَمْزُه ، كما سيأتي تقريرُه ، فجاء جَمْعُه عليه .

وأمَّا " سُؤُوْق " بالواوِ بعد الهمزة فإنَّ ساقاً جُمِع على " سُوُوق " بواوٍ ، فهُمِزَتْ الأولى لانضمامِها . وهذه الروايةُ غريبةٌ عن قنبلٍ ، وقد قَرَأْنا بها ولله الحمدُ .

وأمَّا " سَأْقَيْها " فوجهُ الهمزِ أحدُ أوجهٍ : إمَّا لغةُ مَنْ يَقْلِبُ الألفَ همزةَ ، وعليه لغةُ العَجَّاج في العَأْلَمِ والخَأْتَمِ . وأنشد :

(284/578)

3575 وخِنْدِفٌ هامَةُ هذا العَأْلَمِ . . . وسيأتي تقريرُه أيضاً في " مِنْسَأَته " في سبأ إنْ شاء اللهُ تعالى ، وتقدَّم طَرَفٌ منه في الفاتحة ، وإمَّا على التشبيهِ برأْس وكَأْس ، كما قالوا : " حَلأْت السَّويق " حَمْلاً على حَلأْتُه عن الماء أي طَرَدْتُه ، وإمَّا حَمْلاً للمفرد والمثنى على

جَمْعِهما . وقد تَقَرَّرَ في جمعِهما الهمزُ .

قوله : ﴿ مُّمَرَّدٌ ﴾ أي مُمَلَّسٌ . ومنه الأَمْرَدُ لِمَلاسَةِ وجهه من الشَّعر . وبَرِّيَّة مَرْدَاء : لخُلُوِّها من النباتِ ، ورَمْلَةٌ مَرْداء : لا تُنْبِتُ شيئاً . والمارِدُ من الشياطين : مَنْ تعرى من الخيرِ وتَجَرَّد منه . ومارِدٌ : حِصْنٌ معروفٌ . وفي أمثال الزَّبَّاء : " تَمَرَّد مارِدٌ وعَزَّ الأَبْلَقُ " قالَتْها في حِصْنَيْنِ امتنع فَتْحُهما عليها .

والقوارِيْرُ : جمعُ قارُوْرة ، وهي الزُّجاج الشفافُ . و " مِنْ قواريرَ " صفةٌ ثانية ل " صَرْحٌ " .

قوله : ﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ ، ولا يتعلَّقُ ب " أَسْلَمْتُ " ؛ لأنَّ إسلامَه سابقٌ إسلامَها بزمانٍ . وهو وجهٌ لطيفٌ . وقال ابن عطية : " ومع ظرفٌ بُنِيَ على الفتحِ . وأمَّا إذا أُسْكِنَتِ العينُ فلا خِلافَ أنه حرفٌ " قلتُ : قد تقدَّم القولُ في ذلك . وقد قال مكي هنا نحواً مِنْ قولِ ابنِ عطيةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 621.617 ﴾

(285/578)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ .

أراد سليمانُ أن يمتحنَها وأن يختبرَ عقلَها ، فأمر بتغيير عرْشِها ، فلمَّا رأته : –

﴿ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ .

فاستدلَّ بذلك على كمالِ عقلها ، وكان ذلك أمراً ناقضاً للعادة ، فصار لها آية وعلامةً على صحة نبوة سليمان – عليه السلام – وأسلَمَتْ .

وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (43)

كان ذلك امتحاناً آخرَ لها . فقد أَمَرَ سليمانُ الشياطينَ أن يصنعوا من الزجاج شِبْهَ طبقٍ كبيرٍ صافٍ مضيءٍ ، ووَضَعَه فوق بِرْكَةٍ بها ماء كثير عميق ، يُرَى الماءُ من أسفل الزجاج ولا يُمَيِّزُ بين الزجاج والماء ، وأُمِرَتْ أن تخوضَ تلك البركة ، فكَشَفَتْ عن ساقيها ؛ لأنها وُصِفَتْ لسليمان بأنها جنّيةُ النَّسَبِ . وأن رجليها كحوافر الدواب ، فَتَقَوَّلوا عليها ، ولمَّا تَوَهَّمَتْ أنها تخوض الماءَ كَشَفَتْ عن ساقيها ، فرأى سليمان رِجْلَيْها صحيحين . وقيل لها : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِن قَوَارِيرَ ﴾ : فصار ذلك أيضاً سبباً وموجباً ليقينها . وآمنَتْ وتزوج بها سليمان عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 40 . 41 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) ﴾

(287/578)

التفسير : لما فرغ من قصة موسى شرع في قصة ثانية وهي قصة داود وابنه سليمان . والتنوين في ﴿ علماً ﴾ إما للنوع أي طائفة من العلم أو للتعظيم أي علماً غزيراً . قال علماء المعاني : الواو في ﴿ وقالا ﴾ للعطف على محذوف لأن هذا مقام الفاء كقولك : أعطيته فشكر . فالتقدي : ولقد آتيناهما علماً فعملا به وعلماه وعرفا حق النعمة والفضيلة فيه ﴿ وقالا الحمد لله ﴾ وبيانه أن الشكر باللسان إنما يحسن إذا كان مسبوقاً بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية ، وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات فكأنه قال : ولقد آتيناهما علماً فعملاَ به قلباً وقالباً ﴿ وقالا ﴾ باللسان ﴿ الحمد لله ﴾ قلت : لقائل أن يقول : الأصل عدم الإضمار وقوله هذا مقام الفاء ممنوع ، وإنما يكون كذلك إذا

أريد التعقيب والتسبيب فإن كان المراد مجرد الإخبار عما فعل بهما وعما فعلا فالواو كقولك " أعطيته وشكر " . وقوله ﴿ على كثير من عباده ﴾ يجوز أن يكون واردا " على سبيل التواضع وإن كانا مفضلين على جميع أهل زمانهما . ويجوز أن يكون وارداً على الحقيقة بالنسبة إلى زمانهما أو بالنسبة إلى سائر الأزمنة وهذا أظهر ، وإنما وصف العباد بالمؤمنين لئلا يظن أن سبب الفضيلة هو مجرد الإيمان ولكن ما يزيد عليه من الاستغراق في بحر العبودية والعرفان . وفي الآية دليل على شرف العلم وأن العالم يجب أن يتلقى علمه بشكر الله تعالى قلباً وقالباً وما التوفيق إلا منه . قوله ﴿ وورث سليمان داود ﴾ عن الحسن أنه المال لأن النبوة عطية مبتدأة ، وزيف بأن المال أيضاً عطية مبتدأة ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمناً ولا يرث إذا كان كافراً أو قاتلاً . ومات المانع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام بها عند موته كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته . والظاهر أنه أراد وراثة النبوة والملك معاً دليله قوله تشهيراً لنعمة الله ودعاء للناس إلى تصديق المعجزة ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾

(288/578)

والمنطق يشمل كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف مفيداً وغير مفيد ، ومنه قولهم " نطقت الحمامة " .

(289/578)

قال المفسرون : إنه تعالى جعل الطير في ايامه مما له عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة إليها . يحكى أنه مر على بلبل في شجرة فقال لأصحابه : إنه يقول : إني أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفا أي التراب . وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت الخق لم يخلقوا . وصاح طاوس فقال : يقول : كما تدين تدان . وأخبر أن الهدهد يقول : استغفروا الله يا مذنبون . والخطاف يقول : قدموا خيراً تجدوه . والرخمة تقول : سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وارضه . والقمريّ يقول : سبحان ربي الأعلى . والقطاة تقول : من سكت سلم . والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والديك يقول : اذكروا الله يا غافلون . والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت . والعقاب يقول : في البعد من الناس أنس . ومعنى ﴿ من كل شيء ﴾ بعض كل شيء . وقال في الكشاف : أراد كثرة ما أوتي كما تقول " فلان يقصده كل أحد " تريد كثرة قاصديه . وإنما قال ﴿ علمنا ﴾ ﴿ وأوتينا ﴾ لأنه أراد نفسه واباه ، ويجوز أن يريد

نفسه فقط لا على طريق التكبر بل على عادة الملوك يعظمون أنفسهم لمصلحة التهييب .

وقوله ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ قول وارد على سبيل الشكر والتحدث بالنعم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " أي أقول هذا شكراً لا فخراً . يروى أن معسكره كان مائة فرسخ في مائة فرسخ . خمسة وعشرون للجن ومثله للإنس ومثله للطير ومثله للوحش ، وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية ، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم فرسخاً في فرسخ ، وكان يوضع منبره في وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة ، فتقعد الأنبياء عليهم السلام على كراسيّ الذهب والعلماء على كراسيّ الفضة وحولهم الناس وحول الناس الجن والشياطين ، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس وترفع ريح الصبا

(290/578)

البساط فتسير به مسيرة شهر ، وإن كان يقول مع ذلك : لتسبيحة واحدة يقبلها الله خير مما أوتي آل داود . ومعنى ﴿ يوزعون ﴾ يحبسون . قيل : كانوا يمنعون من يتقدم من عسكره ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب ، ومنه يعلم أنه كان في كل قبيلة منها وازع يكون له

تسلط على الباقين يكفهم ويصرفهم . ومعنى ﴿ أتوا على واد النمل ﴾ قطعوه وبلغوا آخره من قولهم " أتى على الشيء " إذا أنفذه وبلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي .

ويجوز أن يقصد إتيانهم من فوق لأن الريح كانت تحلهم في الهواء فلذلك عدي ب " على " عن قتادة أنه دخل الكوفة فاجتمع عليه الناس فقال : سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة حاضراً وهو غلام حدث فقال : سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكراً أم أنثى ؟ فسألوه فأفحم فقال ابو حنيفة : كانت أنثى لقوله تعالى ﴿ قالت نملة ﴾ لو كان ذكراً لم تجز التاء لأن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى فلا بد التمييز بالعلامة .

(291/578)

وحين عبر عن تفاهم النمل بلفظ التقاول جعل خطابهم أولي العقل فحكى أنها ﴿ قالت يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم ﴾ أما جواب للأمر وإما نهي بدلاً من الأمر أي لا تكونوا بحيث يحطمكم أي يكسركم سليمان وجنوده على طريقة " لا أرينك ههنا " . وفي قوله ﴿ سليمان وجنوده ﴾ دون أن يقول جنود سليمان مبالغة أخرى كما تقول : أعجبني زيد وكرمه . وفي الآية دلالة على أن من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز وإنما يلزم من في

الطريق التحرز . وفي قوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ تنبيه على وجود الجزم بعصمة الأنبياء كأنها عرفت أن النبي لعصمته لا يقع منه قتل هذه الحيوانات إلا على سبيل السهو . وعن بعضهم أنها خافت على قومها أن يقعوا في كفران نعمة الله تعالى إذا رأوا جلالة سليمان ، وهذا معنى الحطم فلذلك أمرتهم بدخول المساكن . وفيه تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة . قيل : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال ﴿ فتبسم ضاحكاً ﴾ أي شارعاً في الضحك آخذاً فيه ولكن لم يبلغ حدّ القهقهة وكمال الضحك . وما روي أنه صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه فعلى وجه المبالغة في الضحك النبوي . وإنما أضحكه من قولها شفقتها على قومها وسروره بما آتاه الله من إدراك الهمس واشتهاره بالتحرز والتقوى ولذلك مال إلى الدعاء قائلاً : ﴿ رب أوزعني ﴾ قال جار الله : حقيقته اجعلني أزع شكر نعمتك عندي وأربطه لا ينفلت عني فلا أزال شاكراً لك . وإنما أدرج ذكر الوالدين لأن النعمة على الولد نعمة عليهما وبالعكس . ثم طلب أن يضيف لواحق نعمه إلى سوابقها ولا سيما النعم الدينية فقال : ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ ثم دعا أن يجعله في الآخرة من زمرة الصالحين لأن ذلك غاية كل مقصود . يروى أن النملة أحست بصوت الجنود ولم تعلم أنها في الهواء فأمر سليمان الريح فوقفت لئلا يذعرون حتى دخلن مساكنهن ، ثم دعا بالدعوة .

القصة الثالثة قصة بلقيس وما جرى بينها وبين سليمان وذلك بدلالة الهدهد ، يروى أن سليمان حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج مع حشمه فأتى الحرم ومكث به أياماً يقرب كل يوم خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة .

(293/578)

ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحاً فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر ، فرأى أرضاً أعجبته بهجتها إلا أنهم لم يجدوا الماء فطلب الهدهد لأنه يرى الماء من تحت الأرض . وعن وهب أنه أخل بالنوبة التي كانت تنويه فلذلك تفقده . وقيل : إنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خالٍ فدعا عفريت الطير –وهو النسر– فسأله عنه فلم يجد عنده علمه . ثم قال لسيد الطير –وهو العقاب– عليّ به فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبل فقصدته فأقسم عليها بالله لتتركنه فتركته . وقالت : إن نبي الله قد حلف ليعذبنك قال : وما استثنى ؟ قالت : بلى قال : ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ أي بعذر واضح . فلما قرب من سليمان ارخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض تواضعاً له ، فلما دنا منه أخذ سليمان براسه فمده إليه فقال : يا نبي الله

اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل فارتعد سليمان وعفا عنه ثم سأله عما لقي في غيبته . وفي تفقد الهدهد إشارة إلى أن الملوك يجب عليهم التيقظ وعدم الغفلة عن اصغر رعيتهم . وأرجع إلى التفسير . قوله ﴿ مالي لا أرى ﴾ استبعاد منه أنه لا يراه وهو حاضر في الجند كأن ساتراً ستره ثم لاح له أنه غائب فقال ﴿ أم كان من الغائبين ﴾ وقد مر في الوقوف قوله ﴿ لأعذبنه ﴾ لا شك أن تعذيبه إنما يكون بما يحتمله حاله . فقيل : أراد أن ينتف ريشه ويشمسه وكان هذا عذابه للطير . وقيل : كان يطلي بالقطران ويشمس . وقيل : هو أن يلقيه للنمل لتأكله . وقيل : إيداعه القفص . وقيل : التفريق بينه وبين إلفه . وقييل : أراد لألزمنه صحبة الأضداد كما قيل : أضيق السجون مجالسة الأضداد . وقيل : لألزمنه خدمة أقرانه . ولعل تعذيب الهدهد وذبحه في عصره جائز لمصلحة السياسة كما أباح لنا ذبح كل مأكول لحمه لمصلحة التغذي . وحاصل القسم يرجع إلى قوله ليكونن أحد هذه الأمور الثلاثة : التعذيب أو الذبح أو الإتيان بعذر بين وحجة واضحة . ويحتمل أن يكون قد عرف إتيانه بالعذر

بطريق الوحي فلذلك أدرجه في سلك ما هو قادر على فعله فأقسم عليه . ثم أخبر الله سبحانه أنه أتى بسلطان مبين وذلك قوله ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ أي غير زمان بعيد ﴾ فقال ﴾ مخاطباً لسليمان ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ قالوا : فيه إبطال قول من زعم أن إمام الزمان لا يخفى عليه شيء ولا يكون في زمانه أحد أعلم منه . وفيه دليل على شرف العلم وأن صاحبه له أن يكافح به من هو أعلى حالاً منه . والإحاطة بالشيء علماً هو أن يعلمه من جميع جهاته . وقوله ﴿ من سبأ بنبأ ﴾ من جملة صنائع البديع على أن النبأ خبر له شأن فذكره في هذا الموضع دون أن يقول " من سبأ بخبر " حسن على حسن .

(295/578)

وسبأ اسم للقبيلة فلا ينصرف أو اسم للحي أو الأب الأكبر فينصرف ، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ثم سميت مدينة مارب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث . ويحتمل أن يراد بسبأ المدينة أو القوم . ثم شرع في النبأ وهو قوله ﴿ إني وجدت امرأة ﴾ واسمها بلقيس بنت شراحيل ملك اليمن كابراً عن كابر إلى تبع الأول ، ولم يكن له ولد غيرها فورثت الملك وكانت هي وقومها مجوساً عبدة الشمس . والضمير في ﴿ تملكهم ﴾ يعود إلى سبأ إن أريد به القوم وإلى الأهل المحذوف إن أريد به المدينة . ﴾

وأوتيت من كل شيء ﴾ اي بعض كل ما يتعلق بالدنيا من الأسباب . ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ كأنه استعظم لها ذلك مع صغر حالها إلى حال سليمان ، أو استعظمه في نفسه لأنه لم يكن لسليمان مثله مع علو شأنه ، وقد يتفق لبعض الأمراء شيء لا يكون مثله لمن فوقه في الملك ، وقد يطلع بعض الأصاغر على مسألة لم يطلع عليها أحد كما اطلع الهدهد على حال بلقيس دون سليمان . ووصف عرش الله بالعظم إنما هو بالإضافة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض . يحكى من عظم شأنه إنما كان مكعباً ثلاثين في ثلاثين أو ثمانين وكان من ذهب وفضة مكللاً بأنواع الجواهر وكذا قوائمه ، وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق ، قال بعض المعتزلة : في قوله ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ دليل على أن المزين للكفر والمعاصي هو الشيطان . وأجيب بأن قول الهدهد لا يصلح للحجة والتحقيق فيه قد مر ولا يبعد أن يلهم الله الهدهد وجوب معرفته والإنكار على من يعبد غيره خصوصاً في زمن سليمان عليه السلام .

قوله ﴿ الا يسجدوا ﴾ من قرأ بالتشديد على أن الجار محذوف فإن كان متعلقاً بالصد فالتقدير صدهم لأن ﴿ لا يسجدوا ﴾ وإن كان متعلقاً ب ﴿ لا يهتدون ﴾ ف ﴿ لا ﴾ مزيدة أي لا يهتدون إلى أن يسجدوا . ومن قرأ بالتخفيف فقوله ﴿ ألا ﴾ حرف تنبيه و ﴿ يا ﴾ حرف النداء والمنادى محذوف والتقدير : ألا يا قوم اسجدوا كقوله :

ألا يا أسلمي يا دارميّ على البلى . . . ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

قال الزجاج : السجدة في الآية على قراءة التخفيف دون التشديد . والحق عدم الفرق لأن الذم على الترك كالأمر بالسجود في الاقتضاء . والخبء مصدر بمعنى المخبوء وهو النبات والمطر وغيرهما مما خبأه الله عز وجل من غيوبه ، ومن جملة ذلك اطلاع الكواكب من أفق الشرف بعد اختفائها في أفق الغرب ، ومنها الأقضية والأحكام والوحي والإلهام ، ومنها إنزال الملك وكل أثر علوي . وفي تخصيص وصف الله تعالى في هذا المقام بإخراج الخبء إشارة إلى ما عهده الهدهد من قدرة الله تعالى في إخراج الماء من الأرض ، ألهمه هذا التخصيص كما ألهمه تلك المعرفة .

(297/578)

ولما انجر كلام الهدهد إلى هذه الغاية ﴿ قال ﴾ سليمان ﴿ سننظر ﴾ أي نتأمل في صفحات حالك ﴿ أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ وهذا أبلغ من أن لو قال له "كذبت" لأنه إذا كان معروفاً بالكذب كان متهماً في كل ما أخبر به . ثم ذكر كيفية النظر في أمره فقال ﴿ أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ﴾ لم يقل إليها لأنه كان قد قال ﴿ وجدتها وقومها

﴿ فكأن سليمان قال : فألقه إلى الذين هذا دينهم اهتماماً فيه بأمر الدين . ولمثل هذا قال في الكتاب ﴿ ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴾ ومعنى ﴿ ثم تول عنهم ﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه تسمع ما يقولون ﴿ يرجعون ﴾ من رجع القول كقوله ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ [سبأ : 31] يروى أنها كانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها ، فدخل من كوة وطرح الكتاب على حجرها وهي مستلقية نائمة . وقيل : نقرها فانتبهت فزعة . وقيل : أتاها والجنود حواليها من فوق والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب في حجرها . وقيل : كان في البيت كوة تقع الشمس فيها كل يوم فإذا نظرت إليها سجدت فجاء الهدهد فسد تلك الكوة بجناحه ، فلما رأت ذلك قامت إليه فألقى الكتاب إليها . وههنا إضمار أي فذهب فألقى ثم توارى ثم كأن سائلاً سأل فماذا قالت بلقيس ؟ فقيل ﴿ قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ مصدر بالتسمية أو حسن مضمونه أو هو من عند ملك كريم أو هو مختوم . يروى أنه طبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه وقال صلى الله عليه وسلم "كرم الكتاب ختمه" وعن ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به . ثم إن سائلاً كأنه قال لها ممن الكتاب وما هو ؟ فقالت ﴿ إنه من سليمان وإنه ﴾ كيت وكيت .

سؤال : لم قدم سليمان اسمه على اسم الله ؟ والجواب أنها لم وجدت الكتاب على وسادتها ولم يكن لأحد إليها طريق ورأت الهدهد علمت أنه من سليمان وحين فتحت الكتاب رأت التسمية ، ولذلك قالت ما قالت ، أو لعل سليمان كتب على عنوان الكتاب ﴿ إنه من سليمان ﴾ فقرأت عنوانه أوّلاً ثم أخبرت بما في الكتاب . أو لعل سليمان قصد بذلك أنها لو شتمت لأجل كفرها حصل الشتم لسليمان لا لله تعالى . و " أن " في ﴿ أن لا تعلوا ﴾ مفسرة لما ألقي إليها أي لا تتكبروا كما تفعل الملوك . يروى أن نسخة الكتاب : من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين . وكان كتب الأنبياء عليهم السلام جملاً وأنه مع وجازته مشتمل على تمام المقصود لأن قوله ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ مشتمل على إثبات الصانع وصفاته ، والباقي نهي عن الترفع والتكبر وأمر بالانقياد للتكاليف ، كل ذلك بعد إظهار المعجز برسالة الهدهد .

(299/578)

قوله ﴿ قالت يا ايها الملأ ﴾ استئناف آخر وهكذا إلى تمام القصة . ومعنى ﴿ أفتوني ﴾ أشيروا عليّ بما يحدث لكم من الرأي . والفتوى الجواب في الحادثة وأصلها من الفتاء في السن وقطع الأمر فصله والقضاء فيه ، أرادت بذلك استعطافهم وتطييب نفوسهم واستطلاع آرائهم ، فأجابوا بأنهم اصحاب القوى الجسدانية والخارجية ، ولهم النجدة والبلاء في الحرب ، ومع ذلك فوضوا الأمر إليها فما أحسن هذا الأدب . ويحتمل أن يراد نحن من أبناء الحرب لا من ارباب الرأي والشمروة وإنما الرأي إليكن وحيث كان يلوح من وصفهم أنفسهم بالشجاعة والعلم بأمور الحرب أهم مائلون إلى المحاربة ، ارادت أن تنبههم إلى الأمر الأصوب وهو الميل إلى الصلح فلذلك ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية افسدوها ﴾ وذلك إذا أرادوا قهرها والتسلط عليها ابتداء وإلا فالإفساد غير لازم ، بل لعل الإصلاح ألزم إذا سلكت سبيل العدل والإنصاف فليس للظلمة في الآية حجة .

ومفعول ﴿ مرسلة ﴾ محذوف اي مرسلة رسلاً مع هدية وهي اسم المهدي كالعطية اسم المعطي . وإنما رأت الإهداء أوّلاً لأن الهدية سبب استمالة القلوب . قال صلى الله عليه وسلم " تهادوا تحابوا " قال في الكشاف : روي أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن الأساور والأطواق والقرطة راكبي خيل مغشاة بالديباج مرصعة اللجم والسروج بالجواهر ، وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان ، وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت ، وحقاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب :

وبعثت رجلين من أشراف قومها – المنذر بن عمرو وآخر ذا رأي وعقل –وقالت : إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرة ثقباً مستوياً وسلك في الخرزة خيطاً . ثم قالت : للمنذر : إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك ، وإن رأيته بشاً لطيفاً فهو نبي . فأقبل الهدهد فأخبر سليمان فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول

(300/578)

الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة ، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان وعن يساره على اللبنات ، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين وعن اليسار ، ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه ، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ والأنس كذلك ، ولاوحش والطير كذلك . فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب على اللبنات فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال : ما وراءكم ؟ وقال : أين الحق ؟ وأخبرهم بما فيه . ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة فجعل رزقها في الشجر ، وأخذت دودة بيضاء الخيط فأدخلته في الجزعة ، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في

الأخرى ثم تضرب به وجهها ، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ، ثم رد الهدية وذلك قوله على سبيل الإنكار ﴿ أتمدونني بمال ﴾ ثم قال على سبيل الإعلام وتعليل الإنكار ﴿ فما آتاني الله ﴾ من الكمالات والقربات والدرجات ﴿ خير مما آتاكم ﴾ ثم أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو أنهم لا يعرفون الفرح إلا في أن يهدي إليهم حظ من الدنيا ، فعلى هذا تكون الهدية مضافة إلى المهدي إليه .

(301/578)

والمعنى ﴿ بل أنتم بهديتكم ﴾ هذه التي أهديتموها ﴿ تفرحون ﴾ فرح افتخار على الملوك . ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن الرد كأنه قال . بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها ثم قال للرسول أو للهدهد معه كتاب آخر ﴿ ارجع إليهم ﴾ ومعنى ﴿ لا قبل ﴾ لا طاقة ولا مقابلة . والذل أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك ، والصغار أن يقعوا مع ذلك في أسر واستعباد يروى أنه لما رجعت إليها الرسل عرفت أن سليمان نبي وليس لهم به طاقة ، فشخصت إليه في اثني عشر الف قيل . مع كل قيل ألوف . وأمرت عند خروجها أن يجعل عرشها في آخر سبعة أبيات في آخر قصر من قصور سبعة ، وغلقت الأبواب ووكلت به حرساً فلعل سليمن أوحي إليه ذلك فاراد أن يريها بعض ما

خصه الله به من المعجزات فلذلك ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ وعن قتادة : اراد أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا اسلمت لم يحل له أخذ مالها . وقيل : أراد بذلك اختبار عقلها كما يجيء . وقيل : أراد أن يعرف تجملها ومقدار مملكتها قبل وصولها إليه والعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر اقرانه ، ومن الشياطين الخبيث المارد ، ووزنه " فعليت " . قالوا : كان اسمه ذكوان . و ﴿ آتيك به ﴾ في الموضعين يجوز أن يكون فعلاً مضارعاً وأن يكون اسم فاعل . ومعنى . ﴿ أن تقوم من مقامك ﴾ إما على ظاهره وهو أن يقوم فيقعد ، وإما أن يكون المقام هو المجلس ولا بد فيه من عادة معلومة حتى يصح أن يؤقت به . وعلى هذا فقيل : المراد مجلس الحكم . وقيل : مقدار فراغه من الخطبة . وقيل : إلى انتصاف النهار . ﴿ وإني عليه ﴾ أي على حمله ﴿ لقوي أمين ﴾ آتي به على حاله لا أتصرف فيه بشيء . واختلفوا في الذي عنده علم من الكتاب فقيل : هو الخضر عليه السلام . وقيل : جبرائيل . وقيل : ملك أيد الله به سليمان . وقيل : آصف بن برخيا وزيره أو كاتبه . وقيل : هو سليمان نفسه استبطأ العفريت فقال له : أنا اريك ما هو أسرع مما تقول . وقد يرجح

هذا القول بوجوه منها : أن الشخص المشار إليه بالذي يجب أن يكون معلوماً للمخاطب وليس سوى سليمان ، ولو سلم أن آصف أيضاً كان كذلك فسليمان أولى بإحضار العرش في تلك اللمحة والإلزام تفضيل آصف عليه من هذا الوجه .

(303/578)

ومنها قول سليمان . ﴿ هذا من فضل ربي ﴾ ويمكن أن يقال : الضمير راجع إلى استقرار العرش عنده ، ولو سلم رجوعه غلى الإتيان بالعرش فلا يخفى أن كمال حال التابع والخادم من جملة كمالات المتبوع والمخدوم ، ولا يلزم من أن يأمر الإنسان غيره بشيء أن يكون الآمر عاجزاً عن الإتيان بذلك الشيء . واختلفوا ايضاً في الكتاب فقيل : هو اللوح . وقيل : الكتاب المنزل الذي فيه الوحي والشرائع . وقيل : كتاب سليمان أو كتاب بعض الأنبياء . وما ذلك العلم ؟ قيل : نوع من العلم لا يعرف الآن . والأكثرون على أنه العلم باسم الله الأعظم وقد مر في تفسير البسملة كثير مما قيل فيه . ومما وقفت عليه بعد ذلك أن غالب بن قطان مكث عشرين سنة يسأل الله الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى فأري في منامه ثلاث ليال متواليات : قل يا غالب يا فارج الهم يا كاشف الغم يا صادق الوعد يا موفياً بالعهد يا منجز الوعد يا حي يا لا إله إلا أنت صل اللهم على محمد

وآل محمد وسلم . والطرف تحريك الأجفان عند النظر فوضع موضع النظر فإِذا فتحت العين توهمت أن نور العين يمتد إلى المرئي وإذا غمضت توهمت أن ذلك النور قد ارتدّ ، فمعنى الآية أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك . يروى أن آصف قال له : مدّ عينك حتى ينتهي طرفك فمدّ عينه فنظر نحو اليمن ودعا آصف فغاص العرش في مكانه ثم ظهر عند مجلس سليمان بالشام بقدرة الله قبل أن يرتدّ طرفه . ومن استبعد هذا في قدرة الله فليتأمل في الحركات السماوية على ما يشهد به علم الهيئة حتى يزول استبعاده . وقال مجاهد : هو تمثيل لاستقصار مدة الإتيان به كما تقول لصاحبك : افعل هذا في لحظة أو لمحة . وحين عرف سليمان نعمة الله في شأنه وأن ذلك صورة الابتلاء بين أن شكر الشاكر إنما يعود إلى نفس الشاكر لأنه يرتبط به العتيد ويطلب المزيد كما قيل : الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة . وروي في الكشاف عن بعضهم أن

كفران النعمة بوار وقلما أقشعت نافرة فرجعت في نصابها ، فاستدع شاردها بالشكر واستدم راهنها بكرم الجوار . قوله " أقشعت نافرة " أي ذهبت في حال نفارها وراهنها أي

ثابتها . ﴿ ومن كفر فان ربي غني ﴾ عن عبادة كل عابد فضلاً عن شكر شاكر ﴿ كريم ﴾ لا يقطع إمداد نعمه عنه لعله يتوب ويصلح حاله . زعم المفسرون أن الجن كرهوا أن يتزوّجها سليمان فتفضي إليه بإسرارهم لأنها كانت بنت جنية ، أو خافوا أن يولد له منها ولد تجمع له فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشد فقالوا له : إن في عقلها شيئاً وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش وذلك قوله ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أي اجعلوه متنكراً متغيراً عن هيئته وشكله كما يتنكر الرجل لغيره لئلا يعرفه .

(305/578)

قالوا : وسعوه وجعلوا مقدمه مؤخره وأعلاه اسفله . وقوله ﴿ ننظر ﴾ بالجزم جواب للأمر وقرئ بالرفع على الاستئناف . ﴿ أتهتدي ﴾ لمعرفة العرش أو للجواب الصائب إذا سئلت عنه أو للدين والإيمان بنبوة سليمان إذا رأت تلك الخوارق . وقوله ﴿ أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ أبلغ من أن لو قال " أم لا تهتدي " كما مر في قوله ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ ﴿ فلما جاءت قيل أهكذا ﴾ أي مثل ذا ﴿ عرشك ﴾ لئلا يكون شبه تلقين فقالت ﴿ كأنه هو ﴾ ولم تقل : هو هو مع أنها عرفته ليكون دليلاً على وفور عقلها حيث لم تقطع

في المحتمل وتوقفت في مقام التوقف . أما قوله ﴿ وأوتينا العلم ﴾ فمعطوف على مقدر كأنهم قالوا عند قولها كأنه هو قد اصابت في جوابها وطابقت المفصل وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الإسلام وعلمت قدرة الله وصحة نبوة سليمان بهذه الخوارق . ﴿ وأوتينا ﴾ نحن ﴿ العلم ﴾ بالله وبقدرته قبل علمها ولم نزل على دين الإسلام ﴿ وصدّها ﴾ عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس وكونها بين ظهراني الكفرة . والغرض تلقي نعمة الله بالشكر على سابقة الإسلام . وقيل : هو موصول بكلام بلقيس . والمعنى وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو الحالة وذلك عند وفدة المنذر . ثم قال سبحانه ﴿ وصدها ﴾ قبل ذلك عما دخلت فيه ﴿ ما كانت تعبد من دون الله ﴾ وقيل : الجار محذوف أي وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد ، واختبر ساقها بأن أمر أن يبني على طريقها قصر من زجاج أبيض فأجرى من تحته الماء والقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ، ووضع سريره في آخر فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس . ثم ﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ أي القصر أو صحن الدار ﴿ فلما رأته حسبته لجة ﴾ أي ماء غامراً ﴿ وكشفت عن ساقيها ﴾ لتخوض في الماء فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها شعراء ، فصرف سليمان بصره وناداها ﴿ إنه صرح ممرد ﴾ أي مملس ﴿ من قوارير ﴾ هذا عند من يقول : تزوجها وأقرها على ملكها

وأمر الجن فبنوا له همدان وكان يزورها في الشهر مرّة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له .

قالوا : كون ساقها شعراء هو السبب في اتخاذ النورة ، أمر به الشياطين فاتخذوها . وقال آخرون : المقصود من الصرح تهويل المجلس ، وحصل كشف الساق على سبيل التبع . عن ابن عباس : لما اسلمت قال لها : اختاري من أزوّجكه ؟ فقالت : مثلي لا ينكح الرجال مع سلطان .

فقال : النكاح من الإسلام . فقالت : إن كان كذلك فزوّجني ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه ثم ردهما إلى اليمن ولم يزل بها ملكاً ﴿ قالت رب إني ظلمت نفسي ﴾ أي بالكفر في الزمن السالف أو بسوء ظني بسليمان إذ حسبت أنه يغرقني في الماء . وهذا التفسير أنسب بما قبله ولعل في قولها ﴿ مع سليمان ﴾ أي مصاحبة له إشارة إلى إسلامها تبع لإسلام سليمان وأنها تريد أن تكون معه في الدارين جميعاً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 298. 307 ﴾

(307/578)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) ﴾

ترد هذه الإشارة إلى داود ، وهذه القصة عن سليمان بعد تلك الحلقة من قصة موسى عليهم السلام وهم من أنبياء بني إسرائيل ، في السورة التي تبدأ بالحديث عن القرآن ؛ ويجيء فيها : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ وقصة سليمان عليه السلام في هذه السورة مبسوطة بتوسع أكثر منها في أية سورة أخرى . وإن كانت تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته . حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ . يمهد لها السياق بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير وإعطائه من كل شيء . وشكره لله على فضله المبين . ثم مشهد موكبه من الجن والإنس والطير ، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب ، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله ، وإدراكه أن النعمة ابتلاء ، وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء . ومناسبة ورود هذا القصص إجمالاً في هذه السورة ما سبق بيانه من افتتاح السورة بحديث عن القرآن ، وتقرير أن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون . وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات في تاريخ بني إسرائيل .

أما مناسبة هذه الحلقة ومقدماتها لموضوع هذه السورة فتبدو في عدة مواضع منها ومن

السورة :

التركيز في جو السورة وظلالها على العلم كما أسلفنا في أوائلها والإشارة الأولى في قصة داود وسليمان هي :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ﴾ وإعلان سليمان لنعمة الله عليه يبدأ بالإشارة إلى تعليمه منطق الطير : ﴿ وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ . وعذر الهدهد عن غيبته في ثنايا القصة يبدأ بقوله : ﴿ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ . والذي عنده ﴿ علم ﴾ من الكتاب هو الذي يأتي بعرش الملكة في غمضة عين . .

(308/578)

وافتتاح السورة عن القرآن كتاب الله المبين إلى المشركين . وهم يتلقونه بالتكذيب . وفي القصة كتاب سليمان تتلقاه ملكة سبأ ، فما تلبث طويلاً حتى تأتي هي وقومها مسلمين . لما رأته من القوى المسخرة لسليمان من الجن والإنس والطير . والله هو الذي سخر لسليمان ما سخر ، وهو القاهر فوق عباده . وهو رب العرش العظيم .

وفي السورة استعراض لنعم الله على العباد ، وآياته في الكون ، واستخلافه للناس وهم يجحدون بآيات الله ، ولا يشكرونه . وفي القصة نموذج للعبد الشاكر ، الذي يسأل ربه أو

يوفقه إلى شكر نعمته عليه ؛ المتدبر لآيات الله الذي لا يغفل عنها ، ولا تبطره النعمة ، ولا تطغيه القوة . . فالمناسبات كثيرة وواضحة بين موضوع السورة وإشارات القصة ومواقفها .

وقصة سليمان مع ملكة سبأ نموذج واف للقصة في القرآن ، ولطريقة الأداء الفني كذلك . فهي قصة حافلة بالحركة ، وبالمشاعر ، وبالمشاهد ، وبتقطيع هذه المشاهد ووضع الفجوات الفنية بينها !

فلنأخذ في عرضها بالتفصيل :

﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً . وقالا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ .

هذه هي إشارة البدء في القصة . وإعلان الافتتاح . خبر تقريري عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان عليهما السلام نعمة العلم . فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم في سور أخرى . منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور ، ترتيلاً يتجاوب به الكون من حوله ، فتؤوب الجبال معه والطير ، لحلاوة صوته ، وحرارة نبراته ، واستغراقه في مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التي تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود . ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطويع الحديد له ، ليصوغ منه من هذا ما يشاء . ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان .

وأما سليمان ففي هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه ؛ بالإضافة إلى ما ذكر في سور أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله .

تبدأ القصة بتلك الإشارة : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ﴾ وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة ، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم ، والحمد لله الذي فضلهما بها على كثير من عباده المؤمنين .

فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة به من الله على العباد ، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين .

ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار . وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله ، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره ، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه ، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله ، ولا منسياً له إياه . وهو بعض مننه وعطاياه .

والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد ، زائغ عن مصدره ، وعن هدفه . لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس ، إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن

مصدره ، وانحرف عن وجهته ، وضل طريقه إلى الله . .

ولقد انتهت البشرية اليوم إلى مرحلة جيدة من مراحل العلم ، بتحطيم الذرة واستخدامها . ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذي لا يذكر أصحابه الله ، ولا يخشونه ، ولا يحمدون له ، ولا يتوجهون بعلمهم إليه ؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية في قنبلتي " هيروشيما " و " ناجازاكي " . وغير الخوف والقلق الذي يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددهما بالتحطيم والدمار والفناء ؟

وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما الله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث :

﴿ وورث سليمان داود . وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء . إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ . .

(310/578)

وداود أوتي الملك مع النبوة والعلم . ولكن الملك لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان . إنما يذكر العلم . لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال !

﴿ وورث سليمان داود ﴾ والمفهوم أنها وراثة العلم ، لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل

الذكر . ويؤكد هذا إعلان سليمان في الناس : ﴿ قال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ﴾ . . فيظهر ما علمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذي علمه منطق الطير . وليس هو داود . فهو لم يرث هذا عن أبيه . وكذلك ما أوتيه من كل شيء إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم .

﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ . . يذيعها سليمان عليه السلام في الناس تحدثاً بنعمة الله ، وإظهاراً لفضله ، لا مباهاة ولا تنفجاً على الناس . ويعقب عليها ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ فضل الله الكاشف عن مصدره ، الدال على صاحبه . فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله . وكذلك لا يؤتي أحداً من كل شيء بهذا التعميم إلا الله .

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم هي لغاتها ومنطقها فيما بينها . والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ ولا تكون أمماً حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها . وذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات . ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين . فأما ما وهبه الله لسليمان عليه السلام فكان شأناً خاصاً به على طريق الخارقة

التي تخالف مألوف البشر . لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره في التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هو حال العلماء اليوم . .

(311/578)

أحب أن يتأكد هذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلم الحديث يحاولون تفسير ما قصه القرآن عن سليمان عليه السلام في هذا الشأن بأنه نوع من إدارك لغات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة . وهذا إخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل ! وإنه لأيسر شيء وأهون شيء على الله ، أن يعلم عبداً من عباده لغات الطير والحيوان والحشرات ، هبة لدنية منه ، بلا محاولة ولا اجتهاد . وإن هي إلا إزاحة لحواجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع . وهو خالق هذه الأنواع !

على أن هذا كله لم يكن إلا شقاً واحداً للخارقة التي أتاحها الله لعبده سليمان .

أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت إمرته ، وطوع أمره ، كجنوده من الإنس سواء بسواء . والطائفة التي سخرها له من الطير وهبها إدراكاً خاصاً أعلى من إدراك نظائرها في أمة الطير .

يبدو ذلك في قصة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة سبأ وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم . وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والإعجاز . .

حقيقة إن سنة الله في الخلق جرت على أن يكون للطير إدراك خاص يتفاوت فيما بينه ، ولكنه لا يصل إلى مستوى إدراك الإنسان ؛ وإن خلقة الطير على هذا النحو حلقة في سلسلة التناسق الكوني العام . وإنها خاضعة كحلقة مفردة للناموس العام ، الذي يقتضي وجودها على النحو الذي وجدت به .

وحقيقة إن الهدهد الذي يولد اليوم ، هو نسخة من الهدهد الذي وجد منذ ألوف أو ملايين من السنين ، منذ أن وجدت الهداهد . وإن هناك عوامل وراثة خاصة تجعل منه نسخة تكاد تكون طبق الأصل من الهدهد الأول . ومهما بلغ التحوير فيه ، فهو لا يخرج من نوعه ، ليرتقي إلى نوع آخر . . وإن هذا كما يبدو طرف من سنة الله في الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون .

(312/578)

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس . وقد تكون الخارقة ذاتها جزءاً من الناموس العام ، الذي لا نعرف أطرافه .

جزءاً يظهر في موعده الذي لا يعلمه إلا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس الله في الخلق والتناسق العام . وهكذا وجد هدهد سليمان ، وربما كل الطائفة من الطير التي سخرت له في ذلك الزمان .

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وإفضال ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ . .

فهذا هو موكب سليمان محشود محشور . يتألف من الجن والإنس والطير . والإنس معروفون ، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في القرآن . وهو أنه خلقهم من مارج من نار . أي من لهيب متموج من النار . وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ (الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن) وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية ولا ندري كيف وأن منهم طائفة آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخباراً : ﴿ قل : أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدي إلى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً . . ﴾ ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل

والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له في البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله .

ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

(313/578)

ونقول : إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس . وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جنداً لسليمان إذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند في مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن . . ﴿ إِن إبليس كان من الجن ﴾ وقال في سورة " الناس " : ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنَّةِ والناس ﴾ وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر في عهد سليمان . وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره . وهو نبي يدعو إلى الهدى . فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هي التي كانت مسخرة له .

ونستند في مسألة الطير إلى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد . ولو كانت جميع الطيور مسخرة له ، محشورة في موكبه ، ومنها جميع الهداهد ، ما استطاع أن يتبين

غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلاً على بلايين الطير . ولما قال : ما لي لا أرى الهدهد ؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذي سخر لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة في ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب إدراكاً خاصاً ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة . ولا بد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التي سخرت لسليمان . لا لجميع الهداهد وجميع الطيور . فإن نوع الإدراك الذي ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس !

حشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير . وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره ﴿ فهم يوزعون ﴾ حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكري منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، إشارة إلى الحشد والتنظيم .

(314/578)

﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل . قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ،

وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ . .

لقد سار الموكب . موكب سليمان من الجن والإنس والطير . في ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خطاه . حتى إذا أتوا على واد كثير النمل . حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه ﴿ وادي النمل ﴾ قالت نملة .

لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف ، وتؤدى كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله ، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التي تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها . قالت للنمل : ادخلوا مساكنكم كي لا يحطمنكم سليمان وجنوده . وهم لا يشعرون بكم .

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت ، وبمضمون ما قالت . هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر أذاه . وانشرح صدره لإدراكه . فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز . وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطيع !

أدرك سليمان هذا ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها ﴾ . . وسرعان ما هزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه إلى ربه الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة ؛ وفتح بينه وبين تلك العوالم

المحجوبة المعزولة من خلقه ؛ واتجه إلى ربه في إنابة يتوسل إليه :

﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي ﴾ . .

(315/578)

﴿ رب ﴾ . . بهذا النداء القريب المباشر المتصل . . ﴿ أوزعني ﴾ اجمعني كلي . اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي ، وكلماتي وعباراتي ، وأعمالي وتوجهاتي . اجمعني كلي . اجمع طاقاتي كلها . أولها على آخرها على أولها (وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني) لتكون كلها في شكر نعمتك عليّ وعلى والديَّ . . وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان عليه السلام في تلك اللحظة ويصور نوع تأثره ، وقوة توجهه ، وارتعاشة وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة في ارتياع وابتهال .

﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ ﴾ . . ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ . . فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته ، يستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه . وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله .

﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ . .

أدخلني برحمتك . . فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح ، فيسلك في عداد الصالحين . يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين في هذا الرعيل . يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير . غير آمن مكر الله حتى بعد أن اصطفاه . خائفاً أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره . . وكذلك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته في اللحظة التي تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

(316/578)

ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة . خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها . وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده . فأما الأولى فهي مما علمه الله لسليمان . وسليمان إنسان ونبي ، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة . فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر ؛ وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه . وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة . أما أن تدرك النملة أن

هذه الشخوص هي سليمان وجنوده ، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المألوف . وتحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال .

والآن نأتي إلى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهي مقطعة إلى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفني في القصة ، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد تحمل التوجيه الوجداني المقصود بعرضها في السورة ؛ وتحقق العبرة التي من أجلها يساق القصص في القرآن الكريم . وتتناسق التعقيبات مع المشاهد والفجوات تنسيقاً بديعاً ، من الناحيتين : الفنية الجمالية ، والدينية الوجدانية .

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الإشارة إلى الجن والإنس والطير ، كما تضمن الإشارة إلى نعمة العلم ، فإن القصة تحتوي دوراً لكل من الجن والإنس والطير . ويبرز فيها دور العلم كذلك . وكأنما كانت تلك المقدمة إشارة إلى أصحاب الأدوار الرئيسية في القصة . . وهذه سمة فنية دقيقة في القصص القرآني .

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة : شخصية سليمان ، وشخصية الملكة ، وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة . كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات في شتى مشاهد القصة ومواقفها .

يبدأ المشهد الأول في مشهد العرض العسكري العام لسليمان وجنوده ، بعد ما أتوا على وادي النمل ، وبعد مقالة النملة ، وتوجه سليمان إلى ربه بالشكر والدعاء والإنابة :

(317/578)

﴿ وتفقد الطير فقال : ما لي لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ، أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ . .

فها هو ذا الملك النبي . سليمان . في موكبه الفخم الضخم . ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد . ونفهم من هذا أنه هدهد خاص ، معين في نوبته في هذا العرض . وليس هدهداً ما من تلك الألوف أو الملايين التي تحويها الأرض من أمة الهداهد . كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم . فهو لم يغفل عن غيبته جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير ، الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق وينتكث .

وهو يسأل عنه في صيغة مترفعة مرنة جامعة : ﴿ ما لي لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ ﴾ .

ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! وحينئذ يتعين أن

يؤخذ الأمر بالحزم، كي لا تكون فوضى. فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سراً. وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند. ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: ﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ﴾.. ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض، إنما هو نبي. وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائياً قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره.. ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾. أي حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه.

ويسدل الستار على هذا المشهد الأول في القصة (أو لعله كان ما يزال قائماً) ويحضر الهدهد. ومعه نبأ عظيم، بل مفاجأة ضخمة لسليمان، ولنا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن!

(318/578)

﴿ فمكث غير بعيد فقال: أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل، فهم لا يهتدون

ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ . .

إنه يعرف حزم الملك وشدته . فهو يبدأ حديثه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن إصغاء الملك له : ﴿ أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ . . فأي ملك لا يستمع وأحد رعاياه يقول له : ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ ؟ !

فإذا ضمن إصغاء الملك بعد هذه المفاجأة أخذ في تفصيل النبأ اليقين الذي جاء به من سبأ ومملكة سبأ تقع في جنوب الجزيرة باليمن فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة ، ﴿ أوتيت من كل شيء ﴾ وهي كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضارة والقوة والمتاع . ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ . أي سرير ملك فخم ضخم ، يدل على الغنى والترف وارتقاء الصناعة . وذكر أنه وجد الملكة وقومها ﴿ يسجدون للشمس من دون الله ﴾ وهنا يعلل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم ، فأضلهم ، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير ﴿ الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ﴾ . والخبء : المخبوء إجمالاً سواء أكان هو مطر السماء ونبات الأرض ، أم كان هو أسرار السماوات والأرض . وهي كناية عن كل مخبوء وراء ستار الغيب في الكون العريض . ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ وهي مقابلة للخبء في السماوات والأرض بالخبء في أطواء النفس . ما ظهر منه وما بطن .

والهدهد إلى هذه اللحظة يقف موقف المذنب ، الذي لم يقض الملك في أمره بعد ؛ فهو يلمح في ختام النبأ الذي يقصه ، إلى الله الملك القهار ، رب الجميع ، صاحب العرش العظيم ، الذي لا تقاس إليه عروش البشر .

ذلك كي يطامن الملك من عظمته الإنسانية أمام هذه العظمة الإلهية :

(319/578)

﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ . .

فيلمس قلب سليمان في سياق التعقيب على صنع الملكة وقومها بهذه الإشارة الخفية !

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب . صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة في عرض النبأ ، ويقظة إلى طبيعة موقفه ، وتلميح وإيماء أريب . . فهو يدرك أن هذه ملكة وأن هؤلاء رعية . ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله . ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ، وأنه هو رب العرش العظيم . . وما هكذا تدرك الهداهد . إنما هو هدهد خاص أوتي هذا الإدراك الخاص ، على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف .

ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه ؛ ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به . إنما

يأخذ في تجربته ، للتأكد من صحته . شأن النبي العادل والملك الحازم :

﴿ قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون ﴾ .

ولا يعلن في هذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيه مغلقاً كالكتاب نفسه ، حتى يفتح ويعلن هناك . وتعرض المفاجأة الفنية في موعدها المناسب !

ويسدل الستار على هذا المشهد ليرفع فإذا الملكة وقد وصل إليها الكتاب ، وهي تستشير الملأ من قومها في هذا الأمر الخطير :

﴿ قالت : يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم . إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴾ . .

فهي تخبرهم أنه ألقي إليها كتاب . ومن هذا نرجح أنها لم تعلم من ألقى إليها الكتاب ، ولا كيف ألقاه . ولو كانت تعرف أن الهدهد هو الذي جاء به كما تقول التفاسير لأعلنت هذه العجيبة التي لا تقع كل يوم . ولكنها قالت بصيغة المجهول . مما يجعلنا نرجح أنها لم تعلم كيف ألقي إليها ولا من ألقاه .

(320/578)

وهي تصف الكتاب بأنه ﴿ كريم ﴾ . وهذا الوصف ربما خطر لها من خاتمه أو شكله . أو من محتوياته التي أعلنت عنها للملأ : ﴿ إنه من سليمان ، وإنه باسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلو علي وأتوني مسلمين ﴾ . . وهي كانت لا تعبد الله . ولكن صيت سليمان كان ذائعاً في هذه الرقعة ، ولغة الكتاب التي يحكيها القرآن فيها استعلاء وحزم وجزم . مما قد يوحي إليها بهذا الوصف الذي أعلنته .

وفحوى الكتاب في غاية البساطة والقوة . فهو مبدوء باسم الله الرحمن الرحيم . ومطلوب فيه أمر واحد : ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا ، وأن يأتوا إليه مستسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه .

ألقت الملكة إلى الملأ من قومها بفحوى الكتاب ؛ ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن إليهم أنها لن تقطع في الأمر إلا بعد هذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم :

﴿ قالت : يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ .

.

وفي هذا تبدو سمة الملكة الأريبة ؛ فواضح منذ اللحظة الأولى أنها أُخذت بهذا الكتاب الذي ألقي إليها من حيث لا تعلم ، والذي يبدو فيه الحزم والاستعلاء . وقد نقلت هذا الأثر إلى نفوس الملأ من قومها وهي تصف الكتاب بأنه ﴿ كريم ﴾ وواضح أنها لا تريد المقاومة والخصومة ، ولكنها لا تقول هذا صراحة ، إنما تمهد له بذلك الوصف . ثم تطلب

الرأي بعد ذلك والمشورة !

وعلى عادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل . ولكنهم فوضوا للملكة الرأي :

﴿ قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد . والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ .

وهنا تظهر شخصية " المرأة " من وراء شخصية الملكة . المرأة التي تكره الحروب والتدمير ، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل أن تنضي سلاح القوة والمخاشنة :

﴿ قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ !

(321/578)

فهي تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم إذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفساد ، وأباحوا ذمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ؛ وجعلوهم أذلة لأنهم عنصر المقاومة . وأن هذا هو دأبهم الذي يفعلونه .

والهدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقد تفلح في دفع القتال . وهي تجربة . فإن قبلها سليمان فهو إذن أمر الدنيا ، ووسائل الدنيا إذن تجدي . وإن لم يقبلها فهو إذن أمر العقيدة ، الذي لا

يصرفه عنه مال ، ولا عرض من أعراض هذه الأرض .

ويسدل الستار على المشهد ، ليرفع ، فإذا مشهد رسل الملكة وهديتهم أمام سليمان .

وإذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم إلى شرائه بالمال ، أو تحويله عن دعوتهم إلى الإسلام .

ويعلن في قوة وإصرار تهديده ووعيده الأخير .

﴿ فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ . .

وفي الرد استهزاء بالمال ، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله . مجال العقيدة والدعوة : ﴿ أتمدونن بمال ؟ ﴾ أتقدمون لي هذا العرض التافه الرخيص ؟ ﴿ فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ لقد آتاني من المال خيراً مما لديكم . ولقد آتاني ما هو خير من المال على الإطلاق : العلم والنبوة . وتسخير الجن والطير ، فما عاد شيء من عرض الأرض يفرحني ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ . وتهشون لهذا النوع من القيم الرخيصة التي تعني أهل الأرض ، الذين لا يتصلون بالله ، ولا يتلقون هداياه !

ثم يتبع هذا الاستنكار بالتهديد : ﴿ ارجع إليهم ﴾ بالهدية وانتظروا المصير المرهوب : ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ جنود لم تسخر للبشر في أي مكان ، ولا طاقة للملكة وقومها بهم في نضال : ﴿ ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ مدحورون مهزومون .

ويسدل الستار على هذا المشهد العنيف وينصرف الرسل ، ويدعهم السياق لا يشير إليهم بكلمة كأنما قضي الأمر ، وانتهى الكلام في هذا الشأن .

ثم إذا سليمان عليه السلام يدرك أن هذا الرد سينهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء كما يبدو من طريقتها في مقابلة رسالته القوية بهدية ! ويرجح أنها ستجيب دعوته . أو يؤكد . وقد كان .

ولكن السياق لا يذكر كيف عاد رسلها إليها ، ولا ماذا قالوا لها ، ولا ماذا اعتزمت بعدها . إنما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة ، وأن سليمان يعرف هذا ، وأنه يتذاكر مع جنوده في استحضار عرشها ، الذي خلفته في بلادها محروساً مصوناً :

﴿ قال : يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . وإني عليه لقوي أمين . قال الذي عنده علم الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ . .

ترى ما الذي قصد إليه سليمان عليه السلام من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تؤيده ، لتؤثر في قلب

الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه . وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح إلى الظهر فيما يروى . فاستطول سليمان هذه الفترة واستبطأها فيما يبدو فإذا ﴿ الذي عنده علم من الكتاب ﴾ يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذي عنده علم منه . إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله ، موهوب سراً من الله يستمد به من القوة الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد . وهو أمر يشاهد أحياناً على أيدي بعض المتصلين ، ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية . وهذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة التي لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات !

(323/578)

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : ﴿ عنده علم من الكتاب ﴾ فقال بعضهم : إنه التوراة . وقال بعضهم : إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك . وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها . وكم في

النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدي إليها . فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فجاءت الخارقة التي لا تقع في مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد أن يجريها على يديه أن يجريها . وهذا الذي عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهيأة بسبب ما عنده من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده ، لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقي ، ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه عليه السلام ونحن نرجح أنه غيره . فلو كان هو لأظهره السياق باسمه . ولما أخفاه . والقصة عنه ، ولا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال : إن اسمه آصف ابن برخيا ولا دليل عليه .

﴿ فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ، ليبلوني أأشكر أم أكفر ؟ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ .

(324/578)

لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان عليه السلام وراعه أن يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز ؛ واستشعر أن النعمة على هذا النحو ابتلاء ضخم مخيف ؛ يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه ، ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه ؛ ويحتاج إلى معرفة النعمة الشعور بفضل المنعم ، ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه . والله غني عن شكر الشاكرين ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فينال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء . ومن كفر فإن الله ﴿ غني ﴾ عن الشكر ﴿ كريم ﴾ يعطي عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء .

وبعد هذه الانتفاضة أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضي سليمان عليه السلام في تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل :

﴿ قال : نَكِّروا لها عرشها . ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ .

غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف إن كانت فراستها وفطنتها تهتدي إليه بعد هذا التنكير . أم يلبس عليها الأمر فلا تنفذ إلى معرفته من وراء هذا التغيير .

ولعل هذا كان اختباراً من سليمان لذكائها وتصرفها ، في أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم إذا مشهد الملكة ساعة الحضور :

﴿ فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ﴾ . .

إنها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها في مملكتها ، وعليها أقفالها

وحراسها . . أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جيء به ؟ ومن ذا الذي جاء به ؟

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير !

ترى تنفي أنه هو بناء على تلك الملابسات ؟ أم تراها تقول : إنه هو بناء على ما تراه فيه من أمارات ؟ وقد انتهت إلى جواب ذكي أريب : ﴿ قالت : كأنه هو ﴾ لا تنفي ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة في مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة في السياق فكأنما أخبرت بسر المفاجأة .

(325/578)

فقالت : إنها استعدت للتسليم والإسلام من قبل .

أي منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية .

«وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ» . .

ثم يتدخل السياق القرآني لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الإيمان بالله وصدها عن الإسلام عند ما جاءها كتاب سليمان فقد نشأت في قوم كافرين ، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه ، وهي الشمس كما جاء في أول القصة :

«وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ. إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ» . .

وكان سليمان – عليه السّلام – قد أعد للملكة مفاجأة أخرى، لم يكشف السياق عنها بعد، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها – وهذه طريقة أخرى في الأداء القرآني في القصة غير الطريقة الأولى

(326/578)

يلَ لَهَا: ادْخُلِي الصَّرْحَ. فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها! قالَ: إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ! قالَتْ: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» . .

لقد كانت المفاجأة قصرا من البلور، أقيمت أرضيته فوق الماء، وظهر كأنه لجة. فلما قيل لها: ادخلي الصرح، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة. فكشفت عن ساقيها؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها: الَ: إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ»

! ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشة أمام هذه العجائب التي تعجز البشر، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر. فرجعت إلى اللّه، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره. معلنة إسلامها عَ سُلَيْمانَ»

لا لسليمان . ولكنِ لَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» .

لقد اهتدى قلبها واستنار . فعرفت أن الإسلام للّه ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو كان هو سليمان النبي الملك صاحب هذه المعجزات . إنما الإسلام إسلام للّه رب العالمين . ومصاحبة للمؤمنين به والداعين إلى طريقه على سنة المساواة . . أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» .

وسجل السياق القرآني هذه اللفتة وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الإيمان باللّه ، والإسلام له . فهي العزة التي ترفع المغلوبين إلى صف الغالبين . بل التي يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين في اللّه . لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان في اللّه . . رب العالمين . . على قدم المساواة .

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعوة الرسول – صلّى اللّه عليه وسلّم – إياهم إلى الإسلام . وفي نفوسهم الكبر أن ينقادوا إلى محمد بن عبد اللّه ، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء . فها هي ذي امرأة في التاريخ تعلمهم أن الإسلام للّه يسوي بين الداعي والمدعوين . بين القائد والتابعين . فإنما يسلمون مع رسول اللّه للّه رب العالمين ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2631 . 2643 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولقد آتينا داود ﴾ الروح ﴿ وسليمان ﴾ القلب ﴿ علماً ﴾ لدنيا ﴿ على كثير من عباده ﴾ وهم الأعضاء والجوارح المستعملة في العبودية . ﴿ وورث سليمان داود ﴾ لأن كل إلهام وفيض يصدر من الحضرة الإلهية يكون عبوره على داود الروح إلا أنه للطافته لا يحفظها وإنما يحفظها القلب لكثافته ، ولذلك كان سليمان اقضى من داود . قوله ﴿ منطق الطير ﴾ يعني الرموز والإشارات التي يحفظها بلسان الحال أرباب الأحوال الطائرين في سماء سناء الفناء . وقيل : أراد الخواطر الملكية الروحانية . قوله ﴿ من الجن والإِنس والطير ﴾ أي من الصفات الشيطانية والإنسانية والملكية ﴿ فهم يوزعون ﴾ على طبيعتهم بالشريعة وادي النمل هوى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها ﴿ قالت نملة ﴾ هي النفس اللوامة ﴿ يا أيها النمل ﴾ هي الصفات النفسانية ﴿ ادخلوا مساكنكم ﴾ محالكم المختلفة وهي الحواس الخمس ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنهم على الحق وأنتم على الباطل لأن الشمس لا حس عندها من نورها ولا من الظلمة التي تزيلها ﴿ نعمتك التي أنعمت عليّ ﴾ بتسخير جنودي لي وعلى والديّ وهما الروح والجسد . أنعم على الروح بإفاضة الفيوض ، وعلى الجسد باستعماله في أركان الشريعة . وفي قوله ﴿ بنبأ

يقين ﴾ إشارة إلى أن من أدب المخبر أن لا يخبر إلا عن يقين وبصيرة ولا سيما عند الملوك .

وفي قول سليمان ﴿ سننظر أصدقت ﴾ إشارة إلى أن خبر الواحد وإن زعم اليقين لا يعوّل عليه إلا بأمارات أخر . ﴿ كتاب كريم ﴾ كأنها عرفت أنها بكرامته تهتدي إلى حضرة الكريم : إن ملوك الصفات الربانية ﴿ إذا دخلوا قرية ﴾ الشخص الإنساني ﴿ أفسدوها ﴾ بإفساد الطبيعة الحيوانية ﴿ وجعلوا أعزة أهلها ﴾ وهم النفس الأمارة وصفاتها ﴿ أذلة ﴾ بسطوات التجلي ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ مع الأنبياء والأولياء . وفي قوله ﴿ أيكم يأتيني بعرشها ﴾ إشارة إلى أن سليمان كان واقفاً على أن في قومه من هو أهل لهذه الكرامة وكرامات الأولياء من قوة إعجاز الأنبياء

(328/578)

﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ فيه دليل على أن سليمان أراد أن ينكحها وإلا لم يجوّز النظر إلى ساقيها . ﴿ وأسلمت نفسي ﴾ للنكاح ﴿ مع سليمان لله ﴾ وفي الله .

تأويل آخر : ﴿ وتفقد الطير ﴾ هم أهل العشق الطيارة في فضاء سماء القدس وجوّ عالم الإنس . والهدهد الرجل العلمي الذي عول على فكره وإعمال قريحته في استنباط خبايا الأسرار وكوامن الأستار . ﴿ عذاباً شديداً ﴾ بالرياضة والمجاهدة . ﴿ أو لأذبحنه ﴾

بسكين مخالفات الإرادة .

سبأ مدينة الاختلاط والإنس بالإنس والمرأة الدنيا وبهجتها ، وعرشها العظيم حب الجاه والمناصب يسجدون لشمس عالم الطبيعة وهو الهوى ، والهدية عرض الدنيا وزينتها ، والإتيان بالعرش قبل إتيانهم هو إخراج حب الجاه من الباطن حتى تنقاد الأعضاء والجوارح بالكلية لاشتغال العبودية . آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الجاه . والعفرين الرياضة الشديدة والذي عنده علم من الكتاب هو الجذبة التي توازي عمل الثقلين ، وتنكير العرش تغيير حب الجاه للهوى بحبه للحق ، والقصر قصر التصرف في الدنيا للحق بالحق ، وكشف الساق كناية عن اشتداد الأمر عليه ، والقوارير عبارة عن رؤية بواطن الأمور مع الاشتغال بظواهرها ، وهذه من جملة منطق يفهم إن شاء العزيز وحده والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 307 . 309 ﴾

(329/578)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والسبعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/579)

الجزء التاسع والسبعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 45 ﴾ من سورة النمل

وحتى الآية ﴿ 58 ﴾ من نفس السورة

(4/579)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم سبحانه هذه القصة المؤسسة على العلم المشيد بالحكمة المنبئة عن أن المدعوين فيها أطبقوا على الاستسلام للدخول في الإسلام ، مع أبالة الملك ورئاسة العز ، والقهر على يد غريب عنهم بعيد منهم ، أتبعها قصة انقسم أهلها مع الذل والفقر فريقين مع أن الداعي منهم لا يزول باتباعه شيء من العز عنهم ، مع ما فيها من الحكمة ، وإظهار دقيق العلم بإبطال المكر ، بعد طول الأناة والحلم ، فقال تعالى مفتتحاً بحرف التوقع والتحقيق لمن ظن

أن هذا شأن كل رسول مع يدعوهم ، عاطفاً على ﴿ ولقد آتينا داود ﴾ : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إلى ثمود ﴾ ثم أشار إلى العجب من توقفهم بقوله : ﴿ أخاهم صالحاً ﴾ فجمع إلى حسن الفعل حسن الاسم وقرب النسب .

(5/579)

ثم ذكر المقصود من الرسالة بما لا أعدل منه ولا أحسن ، وهو الاعتراف بالحق لأهله ، فقال : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ولا سيما شيئاً لا يضر بوجه ولا ينفع ، بياناً لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام متفقون على ذلك عربهم وعجمهم .

ثم زاد في التعجيب منهم بما أشارت إليه الفاء وأداة المفاجأة من المبادرة إلى الافتراق بما يدعو إلى الاجتماع فقال : ﴿ فإذا هم ﴾ أي ثمود ﴿ فريقان ﴾ ثم بين بقوله : ﴿ يختصمون ﴾ أنها فرقة افتراق بكفر وإيمان ، لا فرقة اجتماع في هدى وعرفان ، فبعضهم صدق صالحاً واتبعه كما مضى في الأعراف .

وتأتي هنا الإشارة إليه بقوله " وبمن معك " وبعضهم استمر على شركه وكذبه ، وكل فريق يقول : أنا على الحق وخصمي على الباطل .

ثم استأنف بما أشار إليه حرف التوقع من شدة التشوف قائلاً : ﴿ قال ﴾ أي صالح مستعطفاً في هدايته : ﴿ يا قوم ﴾ أي يا أولاد عمي ومن فيهم كفاية للقيام بالمصالح ﴿ لم تستعجلون ﴾ أي تطلبون العجلة بالإتيان ﴿ بالسيئة ﴾ أي الحالة التي مساءتها ثابتة وهي العقوبة التي أنذرت بها من كفر ﴿ قبل ﴾ الحالة ﴿ الحسنة ﴾ من الخيرات التي أبشركم بها في الدنيا والآخرة إن آمنتم ، والاستعجال : طلب الإتيان بالأمر قبل الوقت المضروب له .

(6/579)

واستعجالهم لذلك للإصرار على سببه وقولهم استهزاء ﴿ ائتنا بما تعدنا ﴾ ﴿ لولا ﴾ أي هلا ولم لا ﴿ تستغفرون الله ﴾ أي تطلبون غفران الذي له صفات الكمال لذنوبكم السالفة بالرجوع إليه بالتوبة بإخلاص العبادة له ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي لتكونوا على رجاء من أن تعاملوا من كل من فيه خير معاملة المرحوم بإعطاء الخير والحماية من الشر ، ثم استأنف حكاية جوابهم فقال : ﴿ قالوا ﴾ فظاظة وغلظة مشيرين بالإدغام إلى أن ما يقولونه إنما يفهمه الحذاق بمعرفة الزجر وإن كان الظاهر خلافه بما أتاهم به من الناقة التي كان في وجودها من البركة أمر عظيم ؛ ﴿ اطيرنا ﴾ أي تشاءمنا ﴿ بك وبمن معك ﴾ أي وهو الذين آمنوا بك ، فإنه وقع بيننا بسببكم الخلاف ، وكثر القال والقيل والإرجاف ،

وحصلت لنا شدائد واعتساف ، لأنا جعلناكم مثل الطائر الذي يمر من جهة الشمال – على ما يأتي في الصافات ﴿ قال طائركم ﴾ أي ما تيمنون به فيثمر ما يسركم ، أو تتشاءمون به فينشأ عنه ما يسوءكم وهو عملكم من الخير أو الشر ﴿ عند الله ﴾ أي الملك الأعظم المحيط بكل شيء علماً وقدرة ، وليس شيء منه بيد غيره ولا ينسب إليه ، فإن شاء جعلنا سببه وإن شاء جعل غيرنا .

ولما كان معنى نسبته إلى الله أن هذا الذي بكم الآن من الشر ليس منا ، قال : ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ أي تختبرون من الملك الأعلى بما تنسبونه إلى الطير من الخير والشر ، أي تعاملون به معاملة الاختبار هل تصلحون للخير بالرجوع عن الذنب فيخفف عنكم أو لا فتمحنوا .

ولما أخبر عن عامة هذا الفريق بالشر ، أخبر عن شرهم بقوله : ﴿ وكان في المدينة ﴾ أي مدينتهم الحجر من عظماء القرية وأعيانها ﴿ تسعة رهط ﴾ أي رجال ، مقابلة لآيات موسى التسع .

(7/579)

ولما كان الرهط بمعنى القوم والرجال ، أضيفت التسعة إليه ، فكأنه قيل : تسعة رجال ، وإن كان لقوم ورجال مخصوصين ، وهم ما بين الثلاثة أو السبعة إلى العشرة ، وما دون

التسعة فنفر ، وقال في القاموس : إن النفر ما دون العشرة غير أنه يفهم التفرق ، والرهط يفهم العظمة والشدة والاجتماع ﴿ يفسدون ﴾ وقال : ﴿ في الأرض ﴾ إشارة إلى عموم فسادهم ودوامه .

ولما كان الكفرة كلهم مفسدين بالكفر ، وكان بعضهم ربما كان يصلح في بعض أفعاله ، بين أن هؤلاء ليسوا كذلك ، بل هم شر محض فحقق خلوصهم للفساد بقوله مصرحاً بما أفهمته صيغة المضارع : ﴿ ولا يصلحون ﴾ .

ولما اقتضى السياق السؤال عن بيان بعض حالهم ، أجاب بقوله : ﴿ قالوا تقاسموا ﴾ أمر مما منه القسم ، أي أوقعوا المقاسمة والمحالفة بينكم ﴿ بالله ﴾ أي الذي لا سمى له لما شاع من عظمته ، وشمول إحاطته في علمه وقدرته ، فليقل كل منكم عن نفسه ومن معه إشارة إلى أنكم كالجسد الواحد : ﴿ لنبيتنّه ﴾ أي صالحاً ﴿ وأهله ﴾ أي لنهلكن الجميع ليلاً ، فإن البيات مباغتة العدو ليلاً .

ولما كانت العادة جارية بأن المبيتين لا بد أن يبقى بعضهم ، قالوا : ﴿ ثم لنقولن لوليّه ﴾ أي المطالب بدمه إن بقي منهم أحد : ﴿ ما شهدنا ﴾ أي حضرنا حضوراً تاماً ﴿ مهلك ﴾ أي هلاك ﴿ أهله ﴾ أي أهل ذلك الولي فضلاً عن أن نكون باشرنا ، أو أهل صالح عليه السلام فضلاً عن أن نكون شهدنا مهلك صالح أو باشرنا قتله ولا موضع إهلاكهم .

ولما كانت الفجيعة من وليه بهلاكه – عليه السلام – أكثر من الفجيعة بهلاك أهله وأعظم ،

كان في السياق بالإسناد إلى الولي – على تقدير كون الضمير لصالح عليه السلام – أتم إرشاد إلى أن التقدير : ولا مهلكه .

(8/579)

ولما كانوا قد صمموا على هذا الأمر ، وظنوا أنفسهم على المبالغة في الحلف والاجتراء على الكذب فقالو : ﴿ وإنا ﴾ أي ونقول في جملة القسم تأكيداً للقسم ، إيهاماً لتحقق الصدق : وإنا ﴿ لصادقون ﴾ فيا للعجب من قوم إذا عقدوا اليمين فزعوا إلى الله العظيم ، ثم نفروا عنه نفور الظليم ، إلى أوثان أنفع منها الهشيم .

ولما كان هذا منهم عمل من لا يظن أن الله عالم به ، قال تعالى محذراً أمثالهم عن أمثال ذلك : ﴿ ومكروا مكراً ﴾ أي ستروا ستراً عظيماً أرادوا به الشر بهذه المساومة على المقاسمة ، فكان مكرهم الذي اجتهدوا في ستره لدينا مكشوفاً وفي حضرتنا معروفاً وموصوفاً ، فشعرنا بل علمنا به فأبطلناه ﴿ ومكرنا مكراً ﴾ أي وجزيناهم على فعلهم بما لنا من العظمة شيئاً هو المكر في الحقيقة فإنه لا يعلمه أحد من الخليقة ، ولذلك قال : ﴿ وهم ﴾ أي مع اعتنائهم بالفحص عن الأمور .

والتحرز من عظائم المقدور ﴿ لا يشعرون ﴾ أي لا يتجدد لهم شعور بما قدرناه عليهم

بوجه ما ، فكيف بغيرهم ، وذلك أنا جعلنا تدميرهم في تدبيرهم ، فلم يقدروا على إبطاله ، فأدخلناهم في خبر كان ، لم يفلت منهم إنسان ، وأهلكنا جميع الكفرة من قومهم في أماكنهم مساكنهم أو غير مساكنهم ، وأما مكرهم فكانوا على اجتهادهم في إتقانه وإحكام شأنه ، قد جوزوا فيه سلامة بعض من يقصدونه بالإهلاك ، فشتان بين المكرين ، وهيهات هيهات لما بين الأمرين ، وقد ظهر أن الآية إما احتباك أو شبيهة به : عدم الشعور دال على حذف عدم الإبطال من الثاني ، وعلى حذف الشعور والإبطال الذي هو نتيجته من الأول .

(9/579)

ولما علم من هذا الإبهام تهويل الأمر ، سبب عنه سبحانه زيادة في تهويله قوله : ﴿ فانظر ﴾ وزاده عظمة بالإشارة بأداة الاستفهام إلى أنه أهل لأن يسأل عنه فقال : ﴿ كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ فإن ذلك سنتنا في أمثالهم ، ثم استأنف لزيادة التهويل قوله بياناً لما أبهم : ﴿ إنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ، ومن فتح فهو عنده بدل من ﴿ عاقبة ﴾ ﴿ دمرناهم ﴾ أي أهلكناهم ، أي التسعة المتقاسمين ، بعظمتنا التي لا مثل لها ﴿ وقومهم أجمعين ﴾ لم يفلت منهم مخبر ، ولا كان في ذلك تفاوت بين مقبل ومدبر ، وأين يذهب أحد

منهم أو من غيرهم من قبضتنا أو يفر من مملكتنا .

ولما كانت يتسبب عن دمارهم زيادة الهول والعرب بالإشارة إلى ديارهم ، لاستحضار أحوالهم ، واستعظامهم بعظيم أعمالهم ، قال : ﴿ فتلك ﴾ أي المبعدة بالغضب على أهلها ﴿ بيوتهم ﴾ أي ثمود كلهم ﴿ خاوية ﴾ أي خالية ، متهدمة بالية ، مع شدة أركانها ، وإحكام بنيانها ، فسبحان الفعال لما يريد ، القادر على الضعيف كقدرته على الشديد .

.

ولم ذكر الهلاك ، أتبعه سببه في قوله : ﴿ بما ظلموا ﴾ أي أوقعوا من الأمور في غير مواقعها فعل الماشي في الظلام ، كما عبدوا من الأوثان ، ما يستحق الهوان ، ولا يستحق شيئاً من التعظيم بوجه ، معرضين عمن لا عظيم عندهم غيره عند الإقسام ، والشدائد والاهتمام ، وخراب البيوت – كما قال أبو حيان – وخلوّها من أهلها حتى لا يبقى منهم أحد مما يعاقب به الظلمة .

ثم زاد في التهويل بقوله : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الأمر الباهر للعقول الذي فعل بثمود ﴿ لآية ﴾ أي عظيمة ، ولكنها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي لهم علم .

وأما من لا ينتفع بها نادى على نفسه بأنه في عداد البهائم .

(10/579)

ولما كان ذلك ربما أوهم أن الهلاك عم الفريقين قال : ﴿ وأنجينا ﴾ بعظمتنا ﴿ الذين آمنوا ﴾ أو وهم الفريق الذين كانوا مع صالح عليه السلام كلهم ﴿ وكانوا يتقون ﴾ أي متصفين بالتقوى اتصافاً كأنهم مجبولون عليه ، فيجعلون بينهم وبين ما يسخط ربهم وقايه من الأعمال الصالحة ، والمتاجر الرابحة .

وكذلك نفعل بكل من فعل فعلهم ، قيل : كانوا أربعة آلاف ، ذهب بهم صالح عليه السلام إلى حضرموت ، فلما دخلوها مات صالح عليه السلام ، فسميت بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 434.431 ﴾

(11/579)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ لتنبيه ﴾ على الجمع المخاطب وهكذا ﴿ لتقولن ﴾ : حمزة وعلي وخلف . الباقون بالنون فيهما على التكلم ﴿ مهلك ﴾ بفتح الميم واللام : أبو بكر غير البرجمي وحماد والمفضل . وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام . الباقون بضم الميم وفتح

اللام والكل يحتمل المصدر والمكان والزمان ﴿ أنا دمرناهم ﴾ و ﴿ أن الناس ﴾ بالفتح فيهما : عاصم وحمزة وعلي وخلف وسهل ورويس ﴿ أئنكم ﴾ مذكور في " الأنعام " ﴿ يشكرون ﴾ بياء الغيبة : أبو عمرو وسهل ويعقوب وعاصم ﴿ أءله ﴾ مثل ﴿ أئنكم ﴾ ﴿ الريح ﴾ على التوحيد : ابن كثير وحمزة وعلي وخلف ﴿ يذكرون ﴾ بياء الغيبة : ابو عمرو وهشام . الآخرون بتاء الخطاب ﴿ بل أدرك ﴾ بقطع الهمزة وسكون الدال : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب ويزيد المفضل ﴿ بل ادّرك ﴾ بهمزة موصولة ودال مشددة : الشموني . الباقون مثله ولكن بألف بعد الدال .

(12/579)

الوقوف : ﴿ يختصمون ﴾ 5 ﴿ الحسنة ﴾ ج لابتداء استفهام آخر مع اتحاد القائل . ﴿ ترحمون ﴾ 5 ﴿ معك ﴾ ط ﴿ تفتنون ﴾ 5 ﴿ ولا يصلحون ﴾ 5 ﴿ لصادقون ﴾ 5 ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 ﴿ مكرهم ﴾ ط لمن قرأ . " إنا " بكسر الألف على الاستئناف . ﴿ أجمعين ﴾ 5 ﴿ ظلموا ﴾ ط ﴿ يعلمون ﴾ 5 ﴿ يتقون ﴾ 5 ﴿ تبصرون ﴾ 5 ﴿ النساء ﴾ ط ﴿ تجهلون ﴾ 5 ﴿ قريتكم ﴾ ج لاحتمال تقدير لام التعليل ﴿ يتطهرون ﴾ 5 ﴿ إلا أمرأته ﴾ ز لاحتمال أن ما بعده مستأنف والأظهر

أنه حال تقديره استثناء امرأته مقدرة ﴿ في الغابرين ﴾ 5 ﴿ مطر المنذرين ﴾ 5 ﴿ اصطفى ﴾ ط ﴿ يشكرون ﴾ 5 ط لأن ما بعده استفهام متسأنف و "أم" منقطعة تقديره بل أمن خلق السموات خير أمّا يشركون وكذلك نظائره ﴿ ماء ﴾ ج للعدول مع اتحاد المقول ﴿ بهجة ﴾ ط ولاحتمال الحال أي وقد ورد ﴿ خيراً ﴾ ط ﴿ القتال ﴾ ط ﴿ عزيزاً ﴾ 5 ج للآية والعطف ﴿ فريقاً ﴾ 5 ج لاحتمال أن يكون ما بعده استئنافاً أو حالاً ﴿ تطؤها ﴾ ط ﴿ قديراً ﴾ 5 ﴿ جميلاً ﴾ 5 ﴿ عظيماً ﴾ 5 ﴿ ضعفين ﴾ ط ﴿ يسيراً ﴾ 5 مرتين لا لأن التقدير وقد أعتدنا ﴿ كريماً ﴾ 5 ﴿ معروفاً ﴾ ج للعطف ﴿ ورسوله ﴾ ط ﴿ تطهيراً ﴾ 5 لوقوع العوارض بين المعطوفين ﴿ والحكمة ﴾ ط ﴿ خبيراً ﴾ 5 ﴿ عظيماً ﴾ 5 ﴿ من أمرهم ﴾ ط ﴿ مبيناً ﴾ 5 ﴿ الناس ﴾ ج لاحتمال ما بعده الاستئناف والحال ﴿ تخشاه ﴾ ط ﴿ منهن وطراً ﴾ ط ﴿ مفعولاً ﴾ 5 ﴿ له ﴾ ط ﴿ من قبل ﴾ لا ﴿ مقدوراً ﴾ 5 لا بناء على أن ﴿ الذين ﴾ وصف أو بدل ﴿ إلا الله ﴾ ط ﴿ حسيباً ﴾ 5 ﴿ النبيين ﴾ ط ﴿ عليماً ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 311 ﴾

(13/579)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

القصة الثالثة قصة صالح عليه السلام

قرىء ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ بالضم على إتباع النون الباء . (1)

أما قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ ﴾ ففيه قولان : أحدهما : المراد فريق مؤمن وفريق كافر

الثاني : المراد قوم صالح قبل أن يؤمن منهم أحد .

أما قوله : ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فالمعنى أن الذين آمنوا إنما آمنوا لأنهم نظروا في حجته فعرفوا صحتها ، وإذا كان كذلك فلا بد وأن يكون خصماً لمن لم يقبلها ، وإذا كان هذا الاختصام في باب الدين دل ذلك على أن الجدال في باب الدين حق وفيه إبطال التقليد .

أما قوله : ﴿ قَالَ يا قومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ ففيه بحثان : الأول : في تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان : أحدهما : أن الذين كذبوا صالحاً عليه السلام لما لم ينفعهم الحجاج توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا : ﴿ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [العنكبوت : 29] على وجه الاستهزاء ، فعنده قال صالح : ﴿ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل إلى رحمة

الله تعالى وثوابه ، فلماذا تعدلون عنه إلى استعجال عذابه وثانيهما : أنهم كانوا يقولون لجهلهم إن العقوبة التي يعدها صالح إن وقعت على زعمه أتينا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا ، فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم ، وقال هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر .

---

(1) الاتباع هنا ليس للباء التي في اعبدوا لوجود الفاصل وهو العين والهمزة ، والصواب أن يقال على إتباع النون للألف من اعبدوا لأن الأمر من عبد أعبد مضموم الألف .

(14/579)

البحث الثاني : أن المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب ، فأما وصف العذاب بأنه سيئة فهو مجاز وسبب هذا التجويز ، إما لأن العقاب من لوازمه أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً ، وأما وصف الرحمة بأنها حسنة فمنهم من قال إنه حقيقة ومنهم من قال إنه مجاز والأول أقرب ، ثم إن صالحاً عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد ، وهو قولهم : ﴿ اطيرنا بِكَ ﴾ أي تشاءمنا بك لأن الذي يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وبشؤم من معك .

قال صاحب "الكشاف" كان الرجل يخرج مسافراً فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحاً تيمن

وإن مر بارحاً تشاءم فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان للخير والشر وهو قدر الله وقسمته ، فأجاب صالح عليه السلام بقوله : ﴿ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ ﴾ أي السبب الذي منه يجيء خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم وقيل بل المراد إن جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب ، والأقرب الوجه الأول لأن القوم أشاروا إلى الأمر الحاصل فيجب في جوابه أن يكون فيه لا في غيره ، ثم بين أهذا جهل منهم بقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ فيحتمل أن غيرهم دعاهم إلى هذا القول ، ويحتمل أن يكون المراد أن الشيطان يفتنكم بوسوسته ، ثم إنه سبحانه قال : ﴿ وَكَانَ فِي المدينةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ والأقرب أن يكون المراد تسعة جمع إذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفتهم وأحوالهم لا لاختلاف السبب ، فبين تعالى أنهم يفسدون في الأرض ولا يمزجون ذلك الفساد بشيء من الصلاح ، فلهذا قال : ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ ثم بين تعالى أن من جملة ذلك ما هموا به من أمر صالح عليه السلام .

(15/579)

أما قوله : ﴿ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾ فيحتمل أن يكون أمراً أو خبراً في محل الحال بإضمار قد ، أي قالوا متقاسمين ، والبيات متابعة العدو ليلاً .

أما قوله : ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ يعني لو اتهمنا قومه حلفنا لهم أنا لم نحضر .

وقرىء (مهلك) بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ، ويحتمل المصدر والمكان والزمان ، ثم إنه سبحانه قال : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ وقد اختلفوا في مكر الله تعالى على وجوه : أحدها : أن مكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون ، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة ، روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه ، فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ، ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلي قتلناه ، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة وثانيها : جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة ، يرون الأحجار ولا يرون رامياً وثالثها : أن الله تعالى أخبر صالحاً بمكرهم فتحرز عنهم فذاك مكر الله تعالى في حقهم .

أما قوله : ﴿ أَنَّا دمرناهم ﴾ استئناف ، ومن قرأ بالفتح رفعه بدلاً من العاقبة أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هي تدمرهم أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر كان أي كان عاقبة

مكرهم الدمار .

أما قوله : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ فهو حال عمل فيها ما دل عليه تلك ، وقرأ عيسى بن عمر (خاوية) بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 173.175 ﴾

(16/579)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : لَمَّا صَانَ اللَّهُ بِالْقِصَاصِ فِي أُهُبِهَا الدِّمَاءَ ، وَعَلَيْهَا تَسَلَّطَ عَلَمُ الْأَعْدَاءِ ، شَرَعَ الْقَسَامَةَ بِالتُّهْمَةِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَاعْتَبَرَ فِيهَا التُّهْمَةَ ، وَقَدْ حَبَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا فِي الدِّمَاءِ وَالِاعْتِدَاءِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي حُقُوقِ الْمُعَامَلَاتِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : اعْتَبَرَ كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ قَتِيلَ الْمَحَلَّةِ فِي الْقَسَامَةِ ؛ وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ لِأَجْلِ طَلَبِ الْيَهُودِ ، وَلِحَدِيثِ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ فِي الصَّحِيحِ : أَنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِهِ أَتَوْا خَيْبَرَ

فَتَفَرَّقُوا فِيهَا فَوَجَدُوا أَحَدَهُمْ قَتِيلًا ، فَقَالُوا لِلَّذِي وُجِدَ فِيهِمْ : قَدْ قَتَلْتُمْ صَاحِبَنَا .

قَالُوا : مَا قَتَلْنَاهُ وَلَا عَلِمْنَا قَاتِلَهُ .

وَقَالَ عُمَرُ حِينَ قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْيَهُودَ : أَنْتُمْ عَدُوُّنَا وَتُهْمَتُنَا .

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْيَهُودِ وَبَدَأَ بِهِمْ : أَيَحْلِفُ مِنْكُمْ خَمْسُونَ رَجُلًا .

فَأَبَوْا ، فَقَالَ لِلْأَنْصَارِ : أَتَحْلِفُونَ قَالُوا : نَحْلِفُ عَلَى الْغَيْبِ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَجَعَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى يَهُودَ ﴾ ؛ لِأَنَّهُ وُجِدَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(17/579)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾

فيه قولان

: أحدهما : كافر ومؤمن ، قاله مجاهد .

الثاني : مصدق ومكذب ، قاله قتادة .

وفيم اختصموا ؟ فيه قولان :

أحدهما : أن تقول كل فرقة نحن عل الحق دونكم .

الثاني : اختلفوا أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ، قاله مجاهد .

قوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : بالعذاب قبل الرحمة ، قاله مجاهد ، لقولهم ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

الثاني : بالبلاء قبل العافية ، قاله السدي .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : بالكفاية .

الثاني : بالإجابة .

قوله : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أي تشاءمنا بك وبمن معك مأخوذ من الطيرة ،

وفي تطيرهم به وجهان :

أحدهما : لافتراق كلمتهم ، قاله ابن شجرة .

الثاني : للشر الذي نزل بهم ، قاله قتادة .

﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : مصائبكم عند الله ، قاله ابن عباس ، لأنها في سرعة نزولها عليكم كالطائر .

الثاني : عملكم عند الله ، قاله قتادة ، لأنه في صعوده إليه كالطائر .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : تبتلون بطاعة الله ومعصيته ، قاله قتادة .

الثاني : تصرفون عن دينكم الذي أمركم الله به وهو الإسلام ، قاله الحسن .

قوله : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾

الرهط الجمع لا واحد له يعني من ثمود قوم صالح وهم عاقرو الناقة ، وذكر ابن عباس أساميهم فقال : هم زعجي وزعيم وهرمي ودار وصواب ورباب ومسطح وقدار ، وكانوا بأرض الحجر وهي أرض الشام ، وكانوا فساقاً من أشراف قومهم .

﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ فيه خمسة أوجه

: أحدها : يفسدون بالكفر ولا يصلحون بالإيمان .

الثاني : يفسدون بالمنكر ولا يصلحون بالمعروف .

(18/579)

الثالث : يفسدون بالمعاصي ولا يصلحون بالطاعة .

الرابع : يفسدون بكسر الدراهم والدنانير ولا يصلحون بتركها صحاحاً ، قاله ابن المسيب ، قاله عطاء .

الخامس : أنهم كانوا يتتبعون عورات النساء ولا يسترون عليهن .

قوله : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أي تحالفواْ بالله .

﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي لنقتلنه وأهله ليلاً ، والبيات قتل الليل

. ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي لرهط صالح

. ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي قتله ، وقتل أهله ، ولا علمنا ذلك

. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في إنكارنا لقتله

. ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ وهو ما همّوا به من قتل صالح

. ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ وهو أن رماهم الله بصخرة فأهلكهم

. ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يعلمون بمكرنا وقد علمنا بمكرهم

. وفي مكرهم ومكر الله تعالى بهم قولان :

أحدهما : قاله الكلبي ، وهم لا يشعرون بالملائكة الذين أنزل الله على صالح ليحفظوه من قومه حين دخلوا عليه ليقتلوه ، فرموا كل رجل منهم بحجر حتى قتلوهم جميعاً ، وسَلِمَ صالح من مكرهم .

الثاني : قاله الضحاك ، أنهم مكروا بأن أظهروا سفراً وخرجوا فاستتروا في غار ليعودوا في الليل فيقتلوهُ ، فألقى الله صخرة على باب الغار حتى سدّه وكان هذا مكر الله بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(19/579)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

هذه الآية على جهة التمثيل لقريش ، و﴿ أن ﴾ من قوله ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ ، يحتمل أن تكون مفسرة ويحتمل أن تكون في موضع نصب تقديره " بأن اعبدوا الله " ، و﴿ فريقان ﴾ يريد بهما من آمن بصالح ومن كفر به ، و" اختصاصهم " تنازعهم وجدلهم ، وقد ذكره الله تعالى في سورة الأعراف ، ثم إن ﴿ صالحاً ﴾ تلطف بقومه وترفق بهم في الخطاب فوقفهم على خطيئتهم في استعجال العذاب قبل الرحمة والمعصية لله تعالى قبل الطاعة وفي أن يكون اقتراحهم وطلبهم يقتضي هلاكهم ، ثم حضهم على ما هو أيسر من ذلك وأعود بالخير وهو الإيمان وطلب المغفرة ورجاء الرحمة فخاطبوه عند ذلك بقول سفساف معناه

تشاءمنا بك ، قال المفسرون : وكانوا في قحط فجعلوه لذات صالح وأصل " الطيرة " ما تعارفه أهل الجهل من زجر الطير وشبهت العرب ما عن بما طار حتى سمي ما حصل الإنسان في قرعة طائراً ، ومنه قوله تعالى ﴿ ألزمنا طائره في عنقه ﴾ [الإسراء : 13] ، وخاطبهم صالح ببيان الحق أي ﴿ طائركم ﴾ على زعمكم وتسميتكم وهو حظكم في الحقيقة من تعذيب أو إعفاء هو ﴿ عند الله ﴾ وبقضائه وقدره وإنما أنتم قوم تختبرون ، وهذا أحد وجوه الفتنة ، ويحتمل أن يريد بل أنتم قوم تولعون بشهواتكم وهذا معنى قد تعورف استعمال لفظ الفتنة فيه ومنه قولك : فتن فلان بفلان ، وشاهد ذلك كثير .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48)

ذكر الله تعالى في هذه الآية ﴿ تسعة ﴾ رجال كانوا من أوجه القوم وأفتاهم وأغناهم وكانوا أهل كفر ومعاصٍ جمة ، جملة أمرهم أنهم ﴿ يفسدون ﴾ ﴿ ولا يصلحون ﴾ ، قال عطاء بن أبي رباح : بلغني أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم .

(20/579)

قال القاضي أبو محمد : وهذا نحو الأثر المروي : قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأرض ، و﴿ المدينة ﴾ مجتمع ثمود وقريتهم ، و" الرهط " من أسماء الجمع القليلة ، العشرة

فما دونها رهط ، ف ﴿ تسعة رهط ﴾ كما تقول تسعة رجال ، وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار عاقر الناقة وقد تقدم في غير هذا الموضع ما ذكر في أسمائهم ، وقوله ﴿ تقاسموا ﴾ حكى الطبري أنه يجوز أن يكون فعلاً ماضياً في موضع الحال كأنه قال متقاسمين أي متحالفين بالله ، وكان في قوله ﴿ لنبيتنه ﴾ ، ويؤيد هذا التأويل أن في قراءة عبد الله " ولا يصلحون تقاسموا " بسقوط ﴿ قالوا ﴾ ، ويحتمل وهو تأويل الجمهور أن يكون ﴿ تقاسموا ﴾ فعل أمر أشار بعضهم على بعض بأن يتحالفوا على هذا الفعل ب " صالح " ، ف ﴿ تقاسموا ﴾ هو قولهم على هذا التأويل وهذه الألفاظ الدالة على قسم أو حلف تجاوب باللام وإن لم يتقدم قسم ظاهر فاللام في ﴿ لنبيتنه ﴾ جواب ذلك ، وقرأ جمهور القراء " لنبيتنه " بالنون ، " ثم لنَقولن " بنون وفتح اللام ، وقرأ الأعمش وطلحة وابن وثاب " ليُبيتنه " بالياء مضمومة فيهما " ثم ليقولن " بالياء وضم اللام ، وفي قراءة عبد الله " ثم لتقسمن ما شهدنا " ، وقرأ حمزة والكسائي " لتبيتنه " بالتاء " ثم لتقولُن " بالتاء وضم اللام وهي قراءة الحسن وحميد ، فهذا ذكر الله فيه المعنى الذي أرادوه ، لا بحسب لفظهم ، وروي في قصص هذه الآية أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب اتفق هؤلاء التسعة فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأهله المختصين به ، قالوا فإن كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق ، وإن كان صادقاً كنا قد عجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا ، قال الداودي . فجاؤوا واختفوا لذلك

في غار قريب من داره ، فروي أنه انحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعاً ، وروي أنه طبقت عليهم الغار فهلكوا فيه حين هلك قومهم ، وكل فريق

(21/579)

لا يعلم بما جرى على الآخر ، وكانوا قد بنوا على جحود الأمر من قرابة صالح الذين يمكن أن يغضبوا له فهذا كان أمرهم ، و" المكر " نحو الخديعة ، وسمى الله تعالى عقوبتهم باسم ذنبهم وهذا مهيع ومنه قوله تعالى : ﴿ يستهزىء بهم ﴾ [البقرة : 15] وغير ذلك ، وقرأ الجمهور " مُهلَك " بضم الميم وفتح اللام ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتحهما ، وروي عنه فتح الميم وكسر اللام ، " والعاقبة " حال تقتضيها البدأة وتؤدي إليها بواجب ، ويعني بالأهل ، كل من آمن معه قاله الحسن ، وقرأ جمهور القراء " إنا دمرناهم " بكسر الألف ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " أنا دمرناهم " بفتح الهمزة وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحاق ، ف ﴿ كان ﴾ على قراءة الكسر في الألف تامة ، وإن قدرت ناقصة فخبرها محذوف أو يكون الخبر ﴿ كيف ﴾ مقدماً لأن صدر الكلام لها ولا يعمل على هذا " انظر " ، في ﴿ كيف ﴾ لكن يعمل في موضع الجملة كلها ، وهي في قراءة الفتح ناقصة وخبرها " أنَّا " ويجوز أن يكون الخبر ﴿ كيف ﴾ وتكون " أنَّا " بدلاً من العاقبة ، ويجوز أن تكون ﴿

كان ﴾ تامة " وأنّا " بدلاً من العاقبة ، ووقع تقرير السؤال ب ﴿ كيف ﴾ عن جملة قوله ﴿ كان عاقبة مكرهم إنا دمرناهم ﴾ وليس بمحض سؤال ولكنه حقه أن يسأل عنه ، و " التدمير " الهلاك . ويحتمل أن تتقدر ﴿ كان ﴾ تامة على قراءة الفتح ، وغيره أظهر ، وقرأ أبي بن كعب " أن دمرناهم " فهذه تؤيد قراءة الفتح في " أنا " .

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52)

(22/579)

" إخواء البيوت " وخرابها مما أخبر الله تعالى به في كل الشرائع أنه مما يعاقب به الظلمة وفي التوراة . ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك ، و ﴿ خاوية ﴾ نصب على الحال التي فيها الفائدة ، ومعناها خالية قفراً ، قال الزجاج وقرئت " خاويةُ " بالرفع وذلك على الابتداء المضمر أي " هي خاوية " ، أو على الخبر عن تلك ، و ﴿ بيوتهم ﴾ بدل أو على خبر ثان ، وهذه البيوت المشار إليها هي التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(23/579)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإذا هم فريقان ﴾

أي : مؤمن وكافر ﴿ يختصمون ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : أنه قولهم ﴿ أَتَعْلَمون أنَّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ ربّه . . .

﴾ الآيات [الأعراف : 75 ، 80] .

والثاني : أنه قول كل فريق منهم : الحقُّ معي .

قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَسْتَعْجِلونَ بالسَّيِّئة ﴾ وذلك حين قالوا : إن كان ما أتيتنا به حقّاً فائتنا بالعذاب .

وفي السيِّئة والحسنة قولان .

أحدهما : أن السيِّئة : العذابُ ، والحسنة : الرحمة ، قاله مجاهد .

والثاني : [أن] السيِّئة : البلاءُ ، والحسنة : العافية ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ لولا ﴾ أي : هلاَّ ﴿ تَستغفِرونَ اللّهَ ﴾ من الشِّرك ﴿ لعلَّكم تُرْحَمون ﴾ فلا تعذَّبون .

﴿ قالوا اطَّيَّرْنا ﴾ قال ابن قتيبة : المعنى : تَطَيَّرنا وتشاءَمْنا ﴿ بك ﴾ ، فأُدغمت التاء في الطاء ، وأُثبتت الألف ، ليسلم السكونُ لِمَا بعدها .

وقال الزجاج: الأصل: تطيَّرنا، فأُدغمت التاء في الطاء، واجتُلبت الألفُ لسكون الطاء؛ فإذا ابتدأتَ قلتَ: اطَّيَّرنا، وإذا وصلتَ لم تذكر الألف وتسقط لأنها أَلِف وصل، [وإنما] تطيَّروا به، لأنهم قحطوا وجاعوا، ف ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ طائرُكم عِنْدَ الله ﴾ وقد شرحنا هذا المعنى في [الاعراف: 131].

وفي قوله: ﴿ تُفْتَنون ﴾ ثلاثة أقوال.

أحدها: تُختَبرون بالخير والشر، قاله ابن عباس.

والثاني: تُصرَفون عن دينكم، قاله الحسن.

والثالث: تُبتَلَوْن بالطاعة والمعصية، قاله قتادة.

قوله تعالى: ﴿ وكان في المدينة ﴾ وهي الحِجْر التي نزلها صالح ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفسدون في الأرض ﴾ يريد: في أرض الحِجْر، وفسادهم: كفرهم ومعاصيهم، وكانوا يسفكون الدِّماء ويَثِبون على الأموال والفروج، وهم الذين عملوا في قتل الناقة.

(24/579)

وروي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح قالا: كان فسادهم كسر الدراهم والدنانير، ﴿ قالوا ﴾ فيما بينهم ﴿ تَقَاسَموا بالله ﴾ أي: احلفوا بالله ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ أي: لنقتُلَنَّ

صالحاً ﴿ وأهلَه ﴾ ليلاً ﴿ ثم لَنَقولَنَّ ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي ﴿ لتُبَيِّتُنَّهُ وأهلَه ثم لَتَقولُنَّ ﴾ بالتاء فيهما.

وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، وحميد بن قيس ﴿ لَيُبَيِّتُنَّهُ ﴾ بياء وتاء مرفوعتين ﴿ ثم لَيَقُولُنَّ ﴾ بياء مفتوحة وقاف مرفوعة وواو ساكنة ولام مرفوعة ﴿ لِوَلِيِّه ﴾ أي: لوليِّ دمه إنْ سألَنا عنه ﴿ ما شَهِدْنا ﴾ أي: ما حضرنا ﴿ مُهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ قرأ الأكثرون بضم الميم وفتح اللام؛ والمَهْلِك: يجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع.

وروى ابو بكر، وأبان عن عاصم: بفتح الميم واللام، يريد الهلاك؛ يقال: هَلَكَ يَهْلِكُ مَهْلَكاً.

وروى عنه حفص، والمفضل: بفتح الميم وكسر اللام، وهو اسم المكان، على معنى: ما شهدنا موضع هلاكهم؛ فهذا كان مكرهم، فجازاهم الله عليه فأهلكهم.

وفي صفة إهلاكهم أربعة أقوال.

أحدها: أنهم أتَوا دار صالح شاهرين سيوفهم، فرمتْهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم، [قاله ابن عباس.

والثاني: رماهم الله بصخرة فقتلتهم، قاله قتادة].

والثالث: أنهم دخلوا غاراً ينتظرون مجيء صالح، فبعث الله صخرة سدَّت باب الغار،

قاله ابن زيد .

والرابع : أنهم نزلوا في سفح جبل ينتظر بعضهم بعضاً ليأتوا دار صالح ، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُم ﴾ قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ أَنَّا دمَّرناهم ﴾ بفتح الألف .

وقرأ الباقون بكسرها .

فمن كسر استأنف ، ومن فتح ، فقال أبو علي : فيه وجهان .

أحدهما : أن يكون بدلاً من ﴿ عاقبةُ مَكْرهم ﴾ .

والثاني : أن يكون محمولاً على مبتدإٍ مضمر ، كأنه قال : هو أَنَّا دمَّرناهم .

(25/579)

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْك بيوتُهم خاويةً ﴾ قال الزجاج : هي منصوبة على الحال ؛ المعنى : فانظر إِلى بيوتهم خاويةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(26/579)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعبدوا الله ﴾ تقدّم معناه .

﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : أي مؤمن وكافر ؛ قال : والخصومة ما قصه الله تعالى في قوله : ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الأعراف : 75] إلى قوله : ﴿ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف : 76] .

وقيل : تخاصمهم أن كل فرقة قالت : نحن على الحق دونكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يا قوم لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ؛ المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب ، وتقدّمون الكفر الذي يوجب العقاب ؛ فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار : ايتنا بالعذاب .

وقيل : أي لم تفعلون ما تستحقون به العقاب ؛ لا أنهم التمسوا تعجيل العذاب .

﴿ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله ﴾ أي هلا تتوبون إلى الله من الشرك .

﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لكي ترحموا ؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ اطيرنا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أي تشاءمنا .

والشؤم النحس .

ولا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطِّيرة .

ومن ظن أن خُوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء ، أو يدفع مقدوراً فقد جهل .

وقال الشاعر :

طِيرةُ الدهر لا تَردُّ قضاءً . . .

فاعذر الدهرَ لا تشبه بلومِ

أيُّ يومٍ يَخصُّه بسعودٍ . . .

والمنايا ينزلن في كل يومِ

ليس يومٌ إلا وفيه سعودٌ . . .

ونحوسٌ تجري لقومٍ فقومِ

وقد كانت العرب أكثر الناس طِيرة ، وكانت إذا أرادت سفراً نفرت طائراً ، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت ، وإن طار شمالاً رجعت وتشاءمت ، فنهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : " أَقِرُّوا الطير على وكناتها " على ما تقدمّ بيانه في "المائدة" .

﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ ﴾ أي مصائبكم .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أي تمتحنون .

وقيل : تعذبون بذنوبكم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي المدينة ﴾ أي في مدينة صالح وهي الحِجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي تسعة رجال من أبناء أشرافهم .

قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ، وكانوا يفسدون في الأرض ويأمرون بالفساد ، فجلسوا عند صخرة عظيمة فقلبها الله عليهم .

وقال عطاء بن أبي رباح : بلغني أنهم كانوا يقرِضون الدنانير والدراهم ، وذلك من الفساد في الأرض ؛ وقاله سعيد بن المسيّب .

وقيل : فسادهم أنهم يتبعون عورات الناس ولا يسترون عليهم .

وقيل : غير هذا .

واللازم من الآية ما قاله الضحاك وغيره أنهم كانوا من أوجه القوم وأقناهم وأغناهم ، وكانوا أهل كفر ومعاصجمة ؛ وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون .

والرهط اسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط .

والجمع أرهط وأراهِط .

قال :

يا بؤس للحرب التي . . .

وضعت أراهط فاستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قُدَار عاقر الناقة ؛ ذكره ابن عطية .

قلت : واختلف في أسمائهم ؛ فقال الغزنوي : وأسماؤهم قُدَار بن سالف ومصدع وأسلم ودسما وذهيم وذعما وذعيم وقتال وصداق .

ابن إسحاق : رأسهم قدار بن سالف ومصدع بن مهرع ، فاتبعهم سبعة ؛ هم بلع بن ميلع ودعير بن غنم وذؤاب بن مهرج وأربعة لم تعرف أسماؤهم .

وذكر الزمخشري أسماءهم عن وهب بن منبّه : الهذيل بن عبد رب ، غنم بن غنم ، رياب بن مهرج ، مصدع بن مهرج ، عمير بن كردبة ، عاصم بن مخرمة ، سبيط بن صدقة ، سمعان بن صفي ، قدار بن سالف ؛ وهم الذين سعوا في عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وكانوا من أبناء أشرافهم .

السّهيلي : ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وسماهم بأسمائهم ، وذلك لا ينضبط برواية ؛ غير أني أذكره على وجه الاجتهاد والتخمين ، ولكن نذكره على ما وجدناه في كتاب محمد بن حبيب ، وهم : مصدع بن دهر .

ويقال دهم ، وقدار بن سالف ، وهريم وصواب ورياب وداب ودعما وهرما ودعين بن عمير .

قلت : وقد ذكر الماوردي أسماءهم عن ابن عباس فقال : هم دعما ودعيم وهرما وهريم وداب وصواب ورياب ومسطح وقدار ، وكانوا بأرض الحجر وهي الشام .

قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ يجوز أن يكون ﴿ تَقَاسَمُوا ﴾ فعلاً مستقبلاً وهو أمر ؛ أي قال بعضهم لبعض احلفوا .

ويجوز أن يكون ماضياً في معنى الحال كأنه قال : قالوا متقاسمين بالله ؛ ودليل هذا التأويل قراءة عبد الله : ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ .

تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ وليس فيها ﴿ قَالُوا ﴾ .

﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ قراءة العامة بالنون فيهما واختاره أبو حاتم .

وقرأ حمزة والكسائي : بالتاء فيهما ، وضم التاء واللام على الخطاب أي أنهم تخاطبوا بذلك ؛ واختاره أبو عبيد .

وقرأ مجاهد وحميد بالياء فيهما ، وضم الياء واللام على الخبر .

والبيات مباغتة العدو ليلاً .

ومعنى ﴿ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي لرهط صالح الذي له ولاية الدم .

﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنا ، ولا ندري من قتله وقتل أهله .

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في إنكارنا لقتله .

والمُهْلَك بمعنى الإهلاك ؛ ويجوز أن يكون الموضع .

وقرأ عاصم والسلميّ (بفتح الميم واللام) أي الهلاك ؛ يقال : ضرب يضرب مَضْرَباً أي ضرباً .

وقرأ المفضّل وأبو بكر : (بفتح الميم وجر اللام) فيكون اسم المكان كالمجلس لموضع الجلوس ؛ ويجوز أن يكون مصدراً ؛ كقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ [يونس : 4] أي رجوعكم .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾

(29/579)

مكرهم ما روي أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة ، وقد أخبرهم صالح بمجيء العذاب ، اتفقوا وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً ويقتلوه وأهله المختصين به ؛ قالوا : فإذا كان كاذباً في وعيده أوقعنا به ما يستحق ، وإن كان صادقاً كنا عجلناه قبلنا ، وشفينا نفوسنا ؛ قاله مجاهد وغيره .

قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فامتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخاً بالحجارة فيرون الحجارة ولا

يرون من يرميها .

وقال قتادة : خرجوا مسرعين إلى صالح ، فسلطّ عليهم ملك بيده صخرة فقتلهم .

وقال السديّ : نزلوا على جرف من الأرض ، فانهار بهم فأهلكهم الله تحته .

وقيل : اختفوا في غار قريب من دار صالح ، فانحدرت عليهم صخرة شدختهم جميعاً ؛ فهذا ما كان من مكرهم .

ومكر الله مجازاتهم على ذلك .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي بالصيحة التي أهلكتهم .

وقد قيل : إن هلاك الكل كان بصيحة جبريل .

والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ؛ ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة .

وكان الأعمش والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون : ﴿ أَنَّا ﴾ بالفتح ؛ وقال ابن الأنباري : فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على ﴿ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ لأن ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ خبر كان .

ويجوز أن تجعلها في موضع رفع على الإتباع للعاقبة .

ويجوز أن تجعلها في موضع نصب من قول الفرّاء ، وخفض من قول الكسائي على معنى : بأنا دمرناهم ولأنا دمرناهم .

ويجوز أن تجعلها في موضع نصب على الإتباع لموضع ﴿ كَيْفَ ﴾ فمن هذه المذاهب لا يحسن الوقف على ﴿ مَكْرِهِمْ ﴾ .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو : ﴿ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ بكسر الألف على الاستئناف ؛ فعلى هذا المذهب يحسن الوقف على "مَكْرِهِمْ" .

(30/579)

قال النحاس : ويجوز أن تنصب ﴿ عَاقِبَةُ ﴾ على خبر ﴿ كَانَ ﴾ ويكون ﴿ إِنَّا ﴾ في موضع رفع على أنها اسم "كان" .

ويجوز أن تكون في موضع رفع على إضمار مبتدأ تبييناً للعاقبة ؛ والتقدير : هي إنا دمرناهم ؛ قال أبو حاتم : وفي حرف أُبَيّ ﴿ أَنْ دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ تصديقاً لفتحها .

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا ﴾ قراءة العامة بالنصب على الحال عند الفرّاء والنحاس ؛ أي خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن .

وقال الكسائي وأبو عبيدة : ﴿ خَاوِيَةً ﴾ نصب على القطع ؛ مجازه ؛ فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف واللام نصب على الحال ؛ كقوله : ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾ [النحل : 52] .

وقرأ عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجحدري : بالرفع على أنها خبر عن ﴿ تِلْكَ ﴾ و ﴿ بُيُوتُهُمْ ﴾ بدل من ﴿ تِلْكَ ﴾ .

ويجوز أن تكون ﴿ بُيُوتُهُمْ ﴾ عطف بيان و ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ خبر عن ﴿ تِلْكَ ﴾ .

ويجوز أن يكون رفع ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ على أنها خبر ابتداء محذوف ؛ أي هي خاوية ، أو بدل من ﴿ بُيُوتُهُمْ ﴾ لأن النكرة تبدل من المعرفة .

﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا الذين آمَنُواْ ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ الله ويخافون عذابه .

قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل .

والباقون خرج بأبدانهم في قول مقاتل وغيره خُرَاجٌ مثل الحمّص ؛ وكان في اليوم الأوّل أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار في الثالث أسود .

وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، وهلاكهم يوم الأحد .

قال مقاتل : فقعت تلك الخراجات ، وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فخمدوا ، وكان ذلك ضحوة .

وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ؛ فلما دخلها مات صالح ؛ فسميت حضرموت .

قال الضحاك : ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها حاضورا ؛ على ما تقدّم بيانه في قصة أصحاب الرسّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

الحديقة : البستان ، كان عليه جدار أو لم يكن .

الحاجز : الفاصل بين الشيئين .

الفوج : الجماعة .

الجمود : سكون الشيء وعدم حركته .

الإتقان : الإتيان بالشيء على أحسن حالاته من الكمال والإحكام في الخلق ، وهو مشتق من قول العرب : تقنوا أرضهم إذا أرسلوا فيها الماء الخاثر بالتراب فتجود ، والتقن : ما رمي به الماء في الغدير ، وهو الذي يجيء به الماء من الخثورة .

كبيت الرجل : ألقيته لوجهه .

﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ، قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ، قالوا اطيرنا بك

وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ، وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولنّ لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ، ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

ثمود هي عاد الأولى ، وصالح أخوهم في النسب .

(32/579)

للما ذكر قصة موسى وداود وسليمان ، وهم من بني إسرائيل ، ذكر قصة من هو من العرب ، يذكر بها قريشاً والعرب ، وينبههم أن من تقدم من الأنبياء من العرب كان يدعو إلى إفراد الله تعالى بالعبادة ، ليعلموا أنهم في عبادة الأصنام على ضلالة ، وأن شأن الأنبياء عربهم وعجمهم هو الدعاء إلى عبادة الله ، وإن في : ﴿ أن اعبدوا ﴾ يجوز أن تكون مفسرة ، لأن ﴿ أرسلنا ﴾ تتضمن معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أي بأن اعبدوا ، فحذف حرف الجر ، فعلى الأول لا موضع لها من الإعراب ، وعلى الثاني ففي موضعها خلاف ، أهو في موضع نصب أم في موضع جر ؟ والظاهر أن الضمير في ﴿ فإذا هم ﴾

عائد على ﴿ ثمود ﴾ ، وأن قومه انقسموا فريقين : مؤمناً وكافراً ، وقد جاء ذلك مفسراً في سورة الأعراف في قوله : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ﴾ وقال الزمخشري : أريد بالفريقين : صالح وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد . انتهى .

فجعل الفريق الواحد هو صالح ، والفريق الآخر قومه ، وإذا هنا هي الفجائية ، وعطف بالفاء التي تقتضي التعقيب لا المهلة ، فكان المعنى : أنهم بادروا بالاختصام ، متعقباً دعاء صالح إياهم إلى عبادة الله .

وجاء ﴿ يختصمون ﴾ على المعنى ، لأن الفريقين جمع ، فإن كان الفريقان من آمن ومن كفر ، فالجمعية حاصلة في كل فريق ، ويدل على أن فريق المؤمن جمع قوله : ﴿ إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴾ فقال : آمنتم ، وهو ضمير الجمع .

وإن كان الفريق المؤمن هو صالح وحده ، فإنه قد انضم إلى قومه ، والمجموع جمع ، وأوثر يختصمون على يختصمان ، وإن كان من حيث التثنية جائزاً فصيحاً ، لأنه مقطع فصل ، واختصامهم دعوى كل فريق أن الحق معه ، وقد ذكر الله تخاصمهم في سورة الأعراف .

ثم تلطف صالح بقومه ورفق بهم في الخطاب فقال منادياً لهم على جهة التحنن عليهم : ﴿ لم تستعجلون بالسيئة ﴾ ، أي بوقوع ما يسوؤكم قبل الحالة الحسنة ، وهي رحمة الله .

(33/579)

وكان قد قال لهم في حديث الناقة : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ فقالوا له : ﴿ ائتنا بعذاب الله ﴾ وقيل : لم تستعجلون بوقوع المعاصي منكم قبل الطاعة ؟ قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى ؟ قلت : كانوا يقولون بجهلهم : إن العقوبة التي يعدنا صالح ، إن وقعت على زعمه ، تبنا حينئذ واستغفرنا ، مقدرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت ، وإن لم تقع ، فنحن على ما نحن عليه ، فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم . انتهى .

ثم حضهم على ما فيه درء السيئة عنهم ، وهو الإيمان واستغفار الله مما سبق من الكفر ، وناط ذلك بترجي الرحمة ، ولم يجزم بأنه يترتب على استغفارهم .

وكان في التحضيض تنبيه على الخطأ منهم في استعجال العقوبة ، وتجهيل لهم في اعتقادهم .

ولما لاطفهم في الخطاب أغلظوا له وقالوا : ﴿ اطيرنا بك وبمن معك ﴾ : أي تشاءمنا بك وبالذين آمنوا معك .

ودل هذا العطف على أن الفريقين كانوا مؤمنين وكافرين لقوله : ﴿ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ ، وكانوا قد قحطوا .

وتقدم الكلام في معنى التطير في سورة الأعراف ، جعلوا سبب قحطهم هو ذات صالح ومن آمن معه ، فرد عليهم بقوله : ﴿ طائركم عند الله ﴾ : أي حظكم في الحقيقة من خير أو شر هو عند الله وبقضائه ، إن شاء رزقكم ، وإن شاء حرمكم .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يريد عملكم مكتوب عند الله ، فمنه نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ، ومنه طائركم معكم ، وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه .

وقرئ : تطيرنا بك على الأصل ، ومعنى تطير به : تشاءم به ، وتطير منه : نفر عنه .

انتهى .

ثم انتقل إلى الإخبار عنهم بحالهم فقال : ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ ، أي تختبرون ، أو تعذبون ، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة ، أو تفتنون بشهواته : أي تشفعون بها ، كما يقال : فتن فلان بفلان .

وقال الشاعر :

داء قديم في بني آدم . . .

(34/579)

فتنة إنسان بإنسان

وهذه أقوال يحتملها لفظ تفتنون ، وجاء تفتنون بتاء الخطاب على مراعاة أنتم ، وهو الكثير في لسان العرب .

ويجوز يفتنون بياء الغيبة على مراعاة لفظ قوم ، وهو قليل .

تقول العرب : أنت رجل تأمر بالمعروف ، بتاء الخطاب وبياء الغيبة .

والمدينة مجتمع ثمود وقريتهم ، وهي الحجر .

وذكر المفسرون أسماء التسعة ، وفي بعضها اختلاف ، ورأسهم : قدار بن سالف ، وأسماؤهم لا تنضبط بشكل ولا تتعين ، فلذلك ضربنا صفحاً عن ذكرها ، وكانوا عظماء القرية وأغنياءها وفساقها .

والرهط : من الثلاثة إلى العشرة ، والنفر : من الثلاثة إلى التسعة ، واتفق المفسرون على أن المعنى : تسعة رجال .

وقال الزمخشري : إنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة ، فكأنه قيل : تسعة أنفس . انتهى .

وتقدير غيره : تسعة رجال هو الأولى ، لأنه من حيث أضاف إلى أنفس كان ينبغي أن يقول : تسع أنفس ، على تأنيث النفس ، إذ الفصيح فيها التأنيث .

ألا تراهم عدوا من الشذوذ قول الشاعر :

ثلاثة أنفس وثلاث ذود . . .

فأدخل التاء في ثلاثة ؛ وكان الفصيح أن يقول : ثلاث أنفس .

وقال أبو عبد الله الرازي : الأقرب أن يكون المراد تسعة جمع ، إذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ، ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد ، لاختلاف صفاتهم وأحوالهم ، لا لاختلاف أجناسهم . انتهى .

قيل : والرهط اسم الجماعة ، وكأنهم كانوا رؤساء ، مع كل واحد منهم رهط .

وقال الكرماني : وأصله من الترهيط ، وهو تعظيم اللقم وشدة الأكل . انتهى .

ورهط : اسم جمع ، واتفقوا على أن فصله بمن هو الفصيح كقوله تعالى : ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ واختلفوا في جواز إضافة العدد إليه ، فذهب الأخفش إلى أنه لا ينقاس ، وما ورد من الإضافة إليه فهو على سبيل الندور .

(35/579)

وقد صرح سيبويه أنه لا يقال : ثلاث غنم ، وذهب قوم إلى أنه يجوز ذلك وينقاس ، وهو مع ذلك قليل ، وفصل قوم بين أن يكون اسم الجمع للقليل ، كرهط ونفر وذود ، فيجوز أن يضاف إليه ، أو للتكثير ، أو يستعمل لهما ، فلا تجوز إضافته إليه ، وهو قول المازني ، وقد

أطلنا الكلام في هذه المسألة في (شرح التسهيل) .

و﴿ يفسدون ﴾ : صفة لتسعة رهط ، والمعنى : أنهم يفسدون الفساد العظيم الذي لا يخالطه شيء من الإصلاح ، فلذلك قال : ﴿ ولا يصلحون ﴾ ، لأن بعض من يقع منه إفساد قد يقع منه إصلاح في بعض الأحيان .

وقرأ الجمهور : تقاسموا ، وابن أبي ليلى : تقسموا ، بغير ألف وتشديد السين ، وكلاهما من القسم والتقاسم والتقسيم ، كالتظاهر والتظهير .

والظاهر أن قوله ﴿ تقاسموا ﴾ فعل أمر محكي بالقول ، وهو قول الجمهور ، أشار بعضهم على بعض بالحلف على تبييت صالح .

وأجاز الزمخشري وابن عطية أن يكون تقاسموا فعلاً ماضياً في موضع الحال ، أي قالوا متقاسمين .

قال الزمخشري : تقاسموا يحتمل أن يكون أمراً وخبراً على محل الحال بإضمار قد ، أي قالوا : متقاسمين . انتهى .

أما قوله : وخبراً ، فلا يصح لأن الخبر هو أحد قسمي الكلام ، إذ هو منقسم إلى الخبر والإنشاء ، وجميع معانيه إذا حققت راجعة إلى هذين القسمين .

وقال بعد ذلك وقرىء لنبيتنه بالياء والتاء والنون ، فتقاسموا مع النون والتاء يصح فيه

الوجهان ، يعني فيه : أي في تقاسموا بالله ، والوجهان هما الأمر والخبر عنده .

قال : ومع الباء لا يصح إلا أن يكون خبراً . انتهى .

(36/579)

والتقييد بالحال ليس إلا من باب نسبة التقييد ، لا من نسبة الكلام التي هي الإسناد ، فإذا أطلق عليها الخبر ، كان ذلك على تقدير أنها لو لم تكن حالاً لجاز أن تستعمل خبراً ، وكذلك قولهم في الجملة الواقعة قبله صلة أنها خبرية هو مجاز ، والمعنى : أنها لو لم تكن صلة ، لجاز أن تستعمل خبراً ، وهذا شيء فيه غموض ، ولا يحتاج إلى الإضمار ، فقد كثر وقوع الماضي حالاً بغير قد كثرة ينبغي القياس عليها .

وعلى هذا الإعراب ، احتمل أن يكون ﴿ بالله ﴾ متعلقاً بتقاسموا الذي هو حال ، فهو من صلته ليس داخلاً تحت القول .

والمقول : ﴿ لنبيتنه ﴾ وما بعده احتمل أن يكون هو وما بعده هو المقول .

وقرأ الجمهور : ﴿ لنبيتنه وأهله ثم لنقولن ﴾ بالنون فيهما ، والحسن ، وحمزة ، والكسائي : بتاء خطاب الجمع ؛ ومجاهد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : بياء الغيبة ، والفعلان مسندان للجمع ؛ وحميد بن قيس : بياء الغيبة في الأول مسنداً للجمع ، أي ليبيتنه ، أي قوم

منا ، وبالنون في الثاني ، أي جميعنا يقول لوليه ، والبيات : مباغتة العدو .

وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال : ليس من عادة الملوك استراق الظفر ، ووليه طالب ثأره إذا قتل .

وقرأ الجمهور : مهلك ، بضم الميم وفتح اللام من أهلك .

وقرأ حفص : مهلك ، بفتح الميم وكسر اللام ، وأبو بكر : بفتحهما .

فأما القراءة الأولى فتحتمل المصدر والزمان والمكان ، أي ما شهدنا إهلاك أهله ، أو زمان إهلاكهم ، أو مكان إهلاكهم .

ويلزم من هذين أنهم إذا لم يشهدوا الزمان ولا المكان أن لا يشهدوا الإهلاك .

وأما القراءة الثانية فالقياس يقتضي أن يكون للزمان والمكان ، أي ما شهدنا زمان هلاكهم ولا مكانة .

والثالثة : تقتضي القياس أن يكون مصدراً ، أي ما شهدنا هلاكه .

وقال الزمخشري : وقد ذكروا القراءات الثلاث ، قال : ويحتمل المصدر والزمان والمكان .

انتهى .

(37/579)

والظاهر في الكلام حذف معطوف يدل عليه ما قبله ، والتقدير : ما شهدنا مهلك أهله ومهلكه ، ودل عليه قولهم : ﴿ لنبيتنه وأهله ﴾ ، وما روي أنهم كانوا عزموا على قتله وقتل أهله ، وحذف مثل هذا المعطوف جائز في الفصيح ، كقوله : سرابيل تقيكم الحر ، أي والبرد ، وقال الشاعر :

فما كان بين الخير لو جاء سالماً . . .

أبو حجر إلا ليال قلائل

أي بين الخير وبيني ، ويكون قولهم : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ كذباً في الإخبار ، أوهموا قومهم أنهم إذا قتلوه وأهله سراً ، ولم يشعر بهم أحد ، وقالوا تلك المقالة ، أنهم صادقون وهم كاذبون .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟ قلت : كأنهم اعتقدوا إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله ، فجمعوا بين البياتين ، ثم قالوا : ﴿ ما شهدنا مهلك أهله ﴾ ، فذكروا أحدهما كانوا صادقين ، فإنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما .

وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ، ولا يخطر ببالهم .

ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله ، ولم يروا لأنفسهم أن يكونوا كاذبين حتى سوّوا الصدق في

أنفسهم حيلة ينقصون بها عن الكذب ؟ انتهى .

والعجب من هذا الرجل كيف يتخيل هذه الحيل في جعل إخبارهم ﴿ وإنا لصادقون ﴾ إخباراً بالصدق ؟ وهو يعلم أنهم كذبوا صالحاً ، وعقروا الناقة التي كانت من أعظم الآيات ، وأقدموا على قتل نبي وأهله ؟ ولا يجوز عليهم الكذب ، وهو يتلو في كتاب الله كذبهم على أنبيائهم .

ونص الله ذلك ، وكذبهم على من لا تخفى عليه خافية ، ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ وهو قولهم ، ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وقول الله تعالى : ﴿ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ وإنما هذا منه تحريف لكلام الله تعالى ، حتى ينصر مذهبه في قوله : إن الكذب قبيح عند الكفرة ، ويتحيل لهم هذا التحيل حتى يجعلهم صادقين في إخبارهم .

(38/579)

وهذا الرجل ، وإن كان أوتي من علم القرآن ، أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ .

ففي كتابه في التفسير أشياء منتقدة ، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً في شغل الإنسان نفسه بكتاب الله ، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشري ،

فذكرت شيئاً من محاسنه ، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه ، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابي هذا ويتنبه على ما تضمنه من القبائح ، فقلت بعد ذكر ما مدحته به :

ولكنه فيه مجال لناقد . . .

وزلات سوء قد أخذن المخانقا

فيثبت موضوع الأحاديث جاهلاً . . .

ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا

ويشتم أعلام الأئمة ضلة . . .

ولا سيما إن أولجوه المضايقا

ويسهب في المعنى الوجيز دلالة . . .

بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا

يقول فيها الله ما ليس قائلاً . . .

وكان محباً في الخطابة وامقا

ويخطىء في تركيبه لكلامه . . .

فليس لما قد ركبوه موافقا

وينسب إبداء المعاني لنفسه . . .

ليوهم أغماراً وإن كان سارقا

ويخطىء في فهم القرآن لأنه . . .

يجوز إعراباً أبى أن يطابقا

وكم بين من يؤتى البيان سليقة . . .

وآخر عاناه فما هو لاحقا

ويحتال للألفاظ حتى يديرها . . .

لمذهب سوء فيه أصبح مارقا

فيا خسرة شيخاً تخرق صيته . . .

مغارب تخريق الصبا ومشارقا

لئن لم تداركه من الله رحمة . . .

لسوف يرى للكافرين مرافقا

ومكرهم : ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله .

ومكر الله : إهلاكهم من حيث لا يشعرون ، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة ،

ومكرهم : أنها هم أنهم مسافرون واختفاؤهم في غار .

قيل : أو شعب ، أو عزمهم على قتله وقتل أهله ، وحلفهم أنهم ما حضروا ذلك .

ومكر الله بهم : إطباق صخرة على فم الغار والشعب وإهلاكهم فيه ، أو رمي الملائكة

إياهم بالحجارة ، يرونها ولا يرون الرامي حين شهروا أسيافهم بالليل ليقتلوه ، قولان .

وقيل : إن الله أخبر صالحاً بمكرهم فيخرج عنه ، فذلك مكر الله في حقهم .

(39/579)

وروي أن صالحاً ، بعد عقر الناقة ، أخبرهم بمجيء العذاب بعد ثلاثة أيام ، فاتفق هؤلاء التسعة على قتل صالح وأهله ليلاً وقالوا : إن كان كاذباً في وعيده ، كنا قد أوقعنا به ما يستحق ؛ وإن كان صادقاً ، كنا قد عجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا .

واختفوا في غار ، وأهلكهم الله ، كما تقدم ذكره ، وأهلك قومهم ، ولم يشعر كل فريق بهلاك الآخر .

والظاهر أن كيف خبر كان ، وعاقبة الاسم ، والجملة في موضع نصب بأنظر ، وهي معلقة ، وقرأ الجمهور : إنا ، بكسر الهمزة على الاستئناف .

وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحاق ، والكوفيون : بفتحها ، فأنا بدل من عاقبة ، أو خبر لكان ، ويكون في موضع الحال ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هي ، أي العاقبة تدميرهم .

أو يكون التقدير : لأنا وحذف حرف الجر .

وعلى كلتا القراءتين يجوز أن يكون ﴿ كان ﴾ تامة و﴿ عاقبة ﴾ فاعل بها ، وأن تكون

زائدة وعاقبة مبتدأ خبره ﴿ كيف ﴾ .

وقرأ أبي : أن دمّرناهم ، وهي أن التي من شأنها أن تنصب المضارع ، ويجوز فيها الأوجه الجائزة في أنا ، بفتح الهمزة .

وحكى أبو البقاء : أن بعضهم أجاز في ﴿ أنا دمرناهم ﴾ في قراءة من فتح الهمزة أن تكون بدلاً من كيف ، قال : وقال آخرون : لا يجوز ، لأن البدل من الاستفهام يلزم فيه إعادة حرفه ، كقوله : كيف زيد ، أصحيح أم مريض ؟

ولما أمر تعالى بالنظر فيما جرى لهم من الهلاك في أنفسهم ، بين ذلك بالإشارة إلى منازلهم وكيف خلت منهم ، وخراب البيوت وخلوها من أهلها ، حتى لا يبقى منهم أحد مما يعاقب به الظلمة ، إذ يدل ذلك على استئصالهم .

وفي التوراة : ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك ، وهو إشارة إلى هلاك الظالم ، إذ خراب بيته متعقب هلاكه ، وهذه البيوت هي التي قال فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه ، عام تبوك : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " ، الحديث .

وقرأ الجمهور : خاوية ، بالنصب على الحال .

قال الزمخشري : عمل فيها ما دل عليه تلك .

وقرأ عيسى بن عمر : خاوية ، بالرفع .

قال الزمخشري : على خبر المبتدأ المحذوف ، وقاله ابن عطية ، أي هي خاوية ، قال : أو على الخبر عن تلك ، وبيوتهم بدل ، أو على خبر ثان ، وخاوية خبرية بسبب ظلمهم ، وهو الكفر ، وهو من خلو البطن .

وقال ابن عباس : خاوية ، أي ساقط أعلاها على أسفلها .

﴿ إن في ذلك ﴾ : أي في فعلنا بثمود ، وهو استئصالنا لهم بالتدمير ، وخلاء مساكنهم منهم ، وبيوتهم هي بوادي القرى بين المدينة والشام .

﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ ، أي بصالح من العذاب الذي حل بالكفار ، وكان الذين آمنوا به أربعة آلاف ، خرج بهم صالح إلى حضرموت ، وسميت حضرموت لأن صالحاً عليه السلام لما دخلها مات بها ، وبنى المؤمنون بها مدينة يقال لها : حاضورا .

وأما الهالكون فخرج بأبدانهم خراج مثل الحمص ، احمر في اليوم الأول ، ثم اصفر في الثاني ، ثم اسود في الثالث ، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء ، وهلكوا يوم الأحد .

قال مقاتل : تفتقت تلك الخراجات ، وصاح جبريل عليه السلام بهم صيحة فخمدوا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا ﴾

عطفٌ على قولِه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودُ وسليمان عِلْماً ﴾ مسوقٌ لما سيقَ هُو له من تقريرِ أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام يُلَقَّى القرآنَ من لدنٍ حكيمٍ فإنَّ هذه القصةَ من جُملةِ القرآنِ الكريمِ الذي لقيَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . واللامُ جوابُ قسمٍ محذوفٍ أيْ وبالله لقد أرسلنَا ﴿ إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾ وأنْ في قوله تعالى : ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ مفسرةٌ لما في الإرسالِ من معنى القولِ أو مصدريةٌ حُذف عنها الباءُ .

وقُرِىء بضمِّ النُّونِ إتباعاً لها للباءِ ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ففاجؤا التفرق والاختصامَ فآمنَ فريقٌ وكفرَ فريقٌ . والواوُ مجموعُ الفريقينِ .

﴿ قَالَ ﴾ عليه الصَّلاة والسَّلام للفريقِ الكافرِ منهم بعدَ ما شاهدَ منهم ما شاهدَ من نهايةِ العتوِّ والعنادِ حتَّى بلغُوا من المُكابرةِ إلى أنْ قالُوا له عليه الصَّلاة والسَّلام يا صالحُ ائتِنا بما تعدُنا إنْ كنتَ من الصادقينَ ﴿ قَالَ يا قومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة ﴾ أي بالعقوبةِ السيئةِ ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ أي التوبةِ فتؤخرونَها إلى حينِ نزولِها حيثُ كانُوا من جهلِهم وغوايتِهم

يقولونَ : إنْ وقعَ إيعادُه تُبنَا حينئذٍ وإلاَّ فنحنُ على ما كُنَّا عليه . ﴿ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ ﴾ هلاَّ تستغفرونَه تعالَى قبل نزولِها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بقبولها إذ لا إمكانَ للقبولِ عندَ النُّزولِ .

(42/579)

﴿ قَالُواْ اطيرنا ﴾ أصلُه تطَّيرنَا والتَّطيرُ التشاؤمُ عُبِّر عنه بذلك لما أنَّهم كانُوا إذا خرجُوا مسافرينَ فيمرّون بطائرٍ يزجرونَه فإنْ مرَّ سانحاً تيمَّنوا وإنْ مرَّ بارحاً تشاءمُوا فلما نسبُوا الخيرَ والشرَّ إلى الطائرِ استُعير لما كانَ سبباً لهما من قدرِ اللهِ تعالى وقسمتِه أو من عمل العبدِ أي تشاءمنا . ﴿ بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ في دينِك حيثُ تتعابعت علينا الشدائدُ وقد كانُوا قحطوا أو لم نزل في اختلافٍ وافتراقٍ مُذ اخترعتُم دينَكُم ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ ﴾ أي سببُكم الذي منْهُ ينالُكم ما ينالُكم من الشرِّ ﴿ عَندَ اللهِ ﴾ وهو قدرُه أو عملُكم المكتوبُ عندَهُ . وقولُه تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أي تُختبرون بتعاقبِ السرَّاءِ والضرَّاءِ أو تعذَّبون أو يفتنكُم الشيطانُ بوسوسَتِه إليكم الطيرةَ إضرابٌ من بيانِ طائرِهم الذي هو مبدأُ ما يحيقُ بهم إلى ذِكرِ ما هو الدَّاعي إليهِ .

﴿ وَكَانَ فِى المدينة ﴾ وهي الحِجْرُ ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي أشخاصٍ وبهذا الاعتبارِ

وقعَ تمييزاً للتسعةِ لا باعتبارِ لفظِه . والفرقُ بينه وبينَ النَّفرِ أنَّه من الثلاثةِ أو من السبعةِ إلى العشرةِ والنَّفرُ من الثلاثةِ إلى التسعةِ وأسماؤهم حسبَما نُقل عن وهبٍ : الهذيلُ بنُ عبدِ ربَ وغُنم بنُ غنمٍ ورئابُ بنُ مهرجٍ ومصدعُ بنُ مهرجٍ وعميرُ بنُ كردبةَ وعاصمُ بنُ مخرمةَ وسبيطُ بنُ صدقةَ وشمعانُ بنُ صفي وقُدارُ بن سالف وهم الذين سَعَوا في عَقْرِ النَّاقةِ وكانُوا عتاةَ قومِ صالحٍ ، وكانُوا من أبناءِ أشرافِهم . ﴿ يُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ لا في المدينةِ فقط إفساداً بحتاً لا يُخالطُه شيءٌ ما من الإصلاحِ كما ينطقُ به قولُه تعالى : ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ أي لا يفعلونَ شيئاً من الإصلاحِ أو لا يصلحون شيئاً من الأشياءِ .

(43/579)

﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ ببيانِ بعضِ ما فعلُوا من الفسادِ أي قالَ بعضُهم لبعضٍ في أثناءِ المُشاورةِ في أمرِ صالحٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وكانَ ذلك غِبَّ ما أنذرَهُمْ بالعذاب وقولِه تمتعُوا في داركم ثلاثةَ أيامٍ الخ ﴿ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾ إمَّا أمرٌ مقولٌ لقالُوا أو ماضٍ وقعَ بدلاً منه أو حالاً من فاعلِه بإضمارِ قد . وقولُه تعالى : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي لنباغتنَّ صالحاً وأهلَه ليلاً ونقتلنَّهم . وقُرِىء بالتَّاءِ على خطابِ بعضِهم لبعضٍ . وقُرِىء بياءِ الغَيبةِ وضمِّ التَّاءِ على أنَّ تقاسمُوا فعلٌ ماضٍ ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي لوليِّ صالحٍ . وقُرِىء بالتَّاءِ والياءِ

كما قبلَه . ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنَا هلاكَهم أو مكانَ هلاكِهم فضلاً أنْ نتولَّى إهلاكَهم . وقُرِىءَ مهلَك بفتحِ اللامِ فيكونَ مصدراً ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ من تمامِ القولِ أو حالٌ أي نقولُ ما نقولُ والحالُ إنَّا لصادقونَ في ذلكَ لأنَّ الشاهدَ للشيءِ غيرُ المباشرِ له عُرفاً أو لأنَّا ما شاهدنا مهلكَهم وحدَه بل مهلكه ومهلكَهم جميعاً كقولِك ما رأيتُ ثمةَ رجلاً بل رجلين .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ بهذهِ المواضعةِ ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً غيرَ معهودٍ ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أو جازيناهم مكرَهم من حيثُ لا يحتسبونَ .

(44/579)

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة مَكْرِهِمْ ﴾ شروعٌ في بيانِ ما ترتَّبَ على ما باشرُوه من المكرِ ، وكيفَ معلقةٌ لفعلِ النظرِ . ومحلُّ الجملةِ النصبُ بنزعِ الخافضِ أي فتفكر في أنَّه كيفَ كانَ عاقبةُ مكرِهم . وقولُه تعالى : ﴿ أَنَّا دمرناهم ﴾ . إما بدلٌ من عاقبةُ مكرِهم على أنَّه فاعلُ كان وهي تامَّة وكيفَ حالٌ أي فانظُرْ كيفَ حصلَ أي على أيِّ وجهٍ حدثَ تدميرُنا إيَّاهُم . وإمَّا خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ . والجملةُ مبنيةٌ لما في عاقبةُ مكرِهم من الإبهامِ أي هي تدميرُنا إيَّاهم ﴿ وَقَوْمَهُمْ ﴾ الذين لم يكونُوا معُهم في مباشرةِ التبييتِ . ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾

بحيثُ لم يشذَّ منهم شاذٌّ . وإما تعليلٌ لما ينبىءُ عنه الأمرُ بالنَّظرِ في كيفيةِ عاقبةِ مكرِهم من غايةِ الهولِ والفظاعةِ بحذفِ الجارِّ أي لأنَّا دمَّرناهم الخ وقيل كانَ ناقصةٌ اسمُها عاقبةُ مكرِهم خبرُها كيفَ كانَ فالأوجُه حينئذٍ أنْ يكونَ قولُه تعالى : أنَّا دمَّرناهم الخ تعليلاً لما ذكِر . وقُرىء إنَّا دمَّرناهم الخ بالكسرِ على الاستئنافِ .

رُوي أنَّه كانَ لصالحٍ عليه السَّلام مسجدٌ في الحجرِ في شعبٍ يصلِّي فيهِ ، فقالُوا زعمَ صالحٌ أنَّه يفرغُ منَّا إلى ثلاثٍ فنحنُ نفرغُ منه ومن أهلِه قبل الثَّلاثِ فخرجُوا إلى الشِّعبِ ، وقالُوا إذا جاءَ يُصلِّي قتلناهُ ثمَّ رجعنَا إلى أهلِه فقتلناهُم فبعثَ اللهُ تعالى صخرةً من الهضبِ حيالَهم فبادرُوا فطبقتِ الصَّخرةُ عليهم فم الشِّعبِ فلم يدرِ قومُهم أينَ هُم ولم يدروا ما فُعل بقومِهم وعذَّب اللهُ تعالى كلاً منهم في مكانِه ونجَّى صالحاً ومَن معه . وقيلَ جاءُوا بالليلِ شاهرِي سيوفِهم وقد أرسلَ اللهُ تعالى الملائكةَ ملءَ دارِ صالحٍ فدمغُوهم بالحجارةِ يرون الحجارةَ ولا يَرون رامياً .

(45/579)

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ ﴾ جملةٌ مقررةٌ لما قبلها . وقولُه تعالى : ﴿ خَاوِيَةً ﴾ أي خاليةً أو ساقطةً متهدمةً ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ أي بسببِ ظلمِهم المذكورِ ، حالٌ من بيوتُهم والعاملُ

معنى الإشارةِ. وقُرِىء خاويةٌ بالرَّفعِ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي فيَما ذُكر من التَّدميرِ العجيبِ بظِلمهم ﴿ لَآيَةً ﴾ لعبرةً عظيمةً ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي ما من شأنِه أنْ يُعلم من الأشياءِ أو لقومٍ يتصفونَ بالعلم ﴿ وَأَنجَيْنَا الذين ءامَنُواْ ﴾ صالحاً ومَن معه من المؤمنينَ.

﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أي الكفَر والمعاصي اتقاءً مستمراً فلذلك خُصُّوا بالنَّجاةِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(46/579)

وقال الآلوسى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودَ وسليمان عِلْماً ﴾ [النمل: 15] مسوق لما سيق هو له، واللام واقعة في جواب قسم محذوف أي وبالله لقد أرسلنا ﴿ إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾ وإنما أقسم على ذلك اعتناء بشأن الحكم، و ﴿ صالحا ﴾ بدل من ﴿ أخاهم ﴾ أو عطف بياني، وأن في قوله تعالى: ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ مفسرة لما في الإرسال من معنى القول دون حروفه.

وجوز كونها مصدرية حذف منها حرف الجر أي بأن، وقيل لأن ووصلها بالأمر جائز لا

ضير فيه كما مر .

وقرىء بضم النون اتباعاً لها للباء ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي فأجاأ ارسالنا تفرقهم واختصامهم فآمن فريق وكفر فريق وكان ما حكى الله تعالى في محل آخر بقوله سبحانه : ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف : 75] الآية .

فإذا فجائية والعامل فيها مقدر لا ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ خلافاً لأبي البقاء لأنه صفة "فريقان" كما قال ومعمول الصفة لا يتقدم على الموصوف ، وقيل : هذا حيث لا يكون المعمول ظرفاً ، وضمير "يختصمون" لمجموع الفريقين ولم يقل يختصمان للفاصلة ، ويوهم كملا بعضهم أن الجملة خبر ثان وهو كما ترى ، و"هم" راجع إلى ثمود لأنه اسم للقبيلة ، وقيل : إلى هؤلاء المذكورين ليشمل صالحاً عليه السلام والفريقان حينئذ أحدهما صالح وحده وثانيهما قومه .

والحامل على هذا كما ذكره ابن عادل العطف بالفاء فإنها تؤذن أنهم عقيب الإرسال بلا مهلة صاروا فريقين ولا يصير قومه عليه السلام فريقين إلا بعد زمان .

وفيه أنه يأباه قوله تعالى : ﴿ اطيرنا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ [النمل : 47] وتعقيب كل شيء بحسبه على أنه يجوز كون الفاء لمجرد الترتيب .

ولعل فريق الكفرة أكثر ولذا ناداهم بقوله يا قوم كما حكى عنه في قوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ﴾ لجعله في حكم الكل أي قال عليه السلام للفريق الكفار منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من المكابرة إلى أن قالوا له عليه السلام ﴿ يا صالح ائتنا بما تعدنا أن كنت من المرسلين ﴾ [الأعراف : 77] متلطفاً بهم يا قوم ﴿ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة ﴾ أي بالعقوبة التي تسوءكم ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ أي التوبة فتؤخرونها إلى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون أن وقع إبعاده تبنا حينئذ وإلا فنحن على ما نحن عليه ﴿ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله ﴾ أي هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بقبولها إذ سنة الله تعالى عدم القبول عند النزول .

وقد خاطبهم عليه السلام على حسب تخمينهم وجهلهم في ذلك بأن ما خمنوه من التوبة إذ ذاك فاسدة وأن استعجالهم ذلك خارج من المعقول .

والتقابل بين السيئة والحسنة بالمعن الذي سمعت حاصل من كون احدهما حسناً والآخر سيئاً ، وقيل : المراد بالسيئة تكذيبهم إياه عليه السلام وكفرهم به وبالحسنة تصديقهم وإيمانهم ، والمراد من قوله : ﴿ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ الخ لومهم على المسارعة إلى تكذيبهم إياه وكفرهم به وحضهم على التوبة من ذلك بترك التكذيب والإيمان .

وحاصله لومهم على إيقاع التكذيب عند الدعوة دون التصديق وحضهم على تلافي ذلك .

وإيهام الكلام انتفاء اللوم على إيقاع التكذيب بعد التصديق مما لا يكاد يلتفت إليه .

ولا يخفى بعد طي الكشح عن المناقشة فيما ذكر أن المناسب لما حكى الله تعالى عن القوم في سورة الأعراف ولما جاء في الآثار هو المعنى الأول .

ومن هنا ضعف ما روي عن مجاهد من تفسير الجسنة برحمة الله تعالى لتقابل السيئة المفسرة بعقوبته عز وجل ويكون المراد من استعجالهم بالعقوبة قبل الرحمة طلبهم إياها دون الرحمة فتأمل .

(48/579)

﴿ قَالُواْ اطيرنا ﴾ أصله تطيرنا وقرىء به فادغمت التاء في الطاء وزيدت همة الوصل ليتأتى الابتداء ، والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فإن مر سانحاً بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره تيمنوا وإن مر بارحاً بأن مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا لأنه لا يمكن للمار به كذلك أن يرميه حتى ينحرف فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سبباً لهما من قدر الله تعالى وقسمته عز وجل أو من عمل العبد الذي هو سبب الرحمة والنعمة أي تساءمنا ﴿ بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾

في دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا ولم نزل في اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم ، وتشاؤمهم يحتمل أن يكون من المجموع وأن يكون من كل من المتعاطفين .

﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ ﴾ أي سببكم الذي منه ينالكم ما ينالكم من الشر ﴿ عَندَ اللهِ ﴾ وهو قدره سبحانه أو عملكم المكتوب عنده عز وجل ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ اضراب من بيان طائرهم الذي هو مبتدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه أي بل أنتم قوم تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة ، وجاء ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ بتاء الخطاب على مراعاة ﴿ أَنتُمْ ﴾ وهو الكثير في "لسان العرب" ، ويجوز في مثل هذا التركيب ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ بياء الغيبة على مراعاة لفظ ﴿ قَوْمٌ ﴾ وهو قليل في لسانهم .

﴿ وَكَانَ فِى المدينة ﴾ أي مدينة ثمود وقريتهم وهي الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ هو اسم جمع يطلق على العصابة دون العشرة كما قال الراغب ؛ وفي الكشاف هو من الثلاثة أو من السبعة إلى العشرة ، وقيل : بل يقال إلى الأربعين وليس بمقبول ، وأصله على ما نقل عن الكرماني من الترهيط وهو تعظيم اللقم وشدة الأكل ، وقد أضيف العدد إليه .

(49/579)

وقد اختلف في جواز إضافته إلى اسم اجلمع فذهب الأخفش إلى أنه لا ينقاس وما ورد من الإضافة إليه فهو على سبيل الندور ، وقد صرح سيبويه أنه لا يقال ثلاث غنم .

وذهب قوم إلى أنه يجوز ذلك وينقاس وهو مع ذلك قليل ، وفصل قوم بين أن يكون اسم الجميع للقليل كرهط ونفر وذود فيجوز أن يضاف إليه إجراء له مجرى جمع القلة أو للكثير أو يستعمل لهما فلا يجوز إضافته إليه بل إذا أريد تمييزه به جيء به مقروناً بمن كخمسة من القوم ، وقال تعالى : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطير ﴾ [البقرة : 260] وهو قول المازني .

واختار غير واحد أن إضافة تسعة إلى رهط ههنا باعتبار أن رهطاً لكونه اسم جمع للقليل في حكم أشخاص ونحوه من جموع القلة وهي يضاف إليها العدد كتسعة أشخاص وستع أنفس وهذا معنى قولهم : إن وقوع رهط تمييزاً لتسعة باعتبار المعنى فكأنه قيل تسعة أشخاص ، وقيل أي تسعة أنفس .

وتأنيث العدد لأن المذكور في النظم الكريم ﴿ رَهْطٍ ﴾ وهو مذكر فليس ذاك من غير الفصيح كقوله ثلاثة أنفس وثلاث ذود ، نعم تقدير ما تقدم أسلم من المناقشة ، وأما ما قيل أي تسعة رجال ففيه الغفلة عما أشرنا إليه ، ثم إنه ليس المراد أن الرهط بمعنى الشخص أو بمعنى النفس بل أن التسعة من الأشخاص أو من الأنفس هي الرهط فليس المعدود بالتسعة ما دل عليه الرهط من الجماعة ليكون هناك تسع جماعة لا تسعة أفراد .

وقال الإمام الأقرب أن يكون المراد تسعة جمع إذ الظاهر من الرهط الجماعة ، ثم يحتمل أنهم

كانوا قبائل ، ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفاتهم وأحوالهم لا لاختلاف النسب اه ، وقيل : كان هؤلاء التسعة رؤساء مع كل واحد منهم رهط ، ولذا قيل تسعة رهط وأسماؤهم عن وهب .

الهذيب بن عبد رب .

وعنم بن غنم .

ودباب بن مهرج .

وعمير بن كردية .

وعاصم بن مخزمة .

وسبيط بن صدقة .

وسمعان بن صفى .

(50/579)

وقدار بن سالف وهم الذين سعوا في عقر الناقة وكانوا عتادة قوم صالح ومن أبناء أشرافهم ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن أسماءهم دعمى .

ودعيم .

وهرمى .

وهريم .

ودواب .

وصواب .

ودياب .

ومسطح .

وقدار وهو الذي عقر الناقة ﴿ يُفْسِدُونَ فِى الأرض ﴾ لا في المدنية فقط افساداً بحتاً لا يخالطه شيء من الصلاح كما ينطق به قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ أي لا يفعلون شيئاً من الاصلاح أو لا يصلحون شيئاً من الأشياء ، والمراد أن عادتهم المستمرة ذلك الإفساد كما يؤذن به المضارع ، والجملة في موضع الصفة لرهط أو لتسعة .

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف بيان بعض ما فعلوا من الفساد أي قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه السلام .

وكان ذلك على ما روي عن ابن عباس بعد أن عقروا الناقة أنذرهم بالعذاب ، وقوله : ﴿ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثلاثة أَيَّامٍ ﴾ [هود : 65] الخ ﴿ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾ أمر من التقاسم أي التحالف وقع مقول القول وهو قول الجمهور .

وجوز أن يكون فعلاً ماضياً بدلاً من ﴿ قَالُواْ ﴾ أو حالا من فاعله بتقدير قد أو بدونها

أي قالوا متقاسمين ومقول القول ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ الخ ، وجوز أبو حيان على هذا أن يكون بالله من جملة المقول .

والبيات مباغتة العدو مفاجأته بالإيقاع به ليلاً وهو غافل .

وأراد واقتله عليه السلام وأهله ليلاً وهم غافلون .

وعن الاسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال : ليس من آيين الملوك استراق الظفر .

وقرأ ابن أبي ليلى ﴿ تُقْسِمُواْ ﴾ بغير ألف وتشديد السين ، والمعنى كما في قراءة الجمهور .

وقرأ الحسن .

وحمزة .

والكسائي ﴿ لتبيتنه ﴾ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض .

وقرأ مجاهد .

وابن وثاب .

وطلحة .

والأعمش ﴿ ليبيتنه ﴾ بياء الغيبة .

و ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ ﴾ على هذه القراءة لا يصح إلا أن يكون خبراً بخلافه عنا القراءتين الأوليين فإنه يصح أن يكون خبراً كما يصح أن يكون أمراً .

وذلك لأن الأمر خطاب والمقسم عليه بعده لو نظر إلى الخطاب وجب تاء الخطاب ولو نظر إلى صيغة قولهم عند الحلف وجب النون فأما ياء الغائب فلا وجه له .

وإما إذا جعل خبراً فهو على الغائب كما تقول حلف ليفعلن ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي لولي صالح .

والمراد به طالب ثاره من ذوي قرابته إذا قتل .

وقرأ ﴿ لتقولن ﴾ بالتاء من قرأ ﴿ لتبيتنه ﴾ كذلك .

وقرأ ﴿ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ ﴾ بياء الغيبة من قرأ بها فيما تقدم .

وقرأ حميد بن قيس الأول بياء الغيبة وهذا بالنون .

قيل : والمعنى على ذلك قالوا متقاسمين بالله ليبيتنه قوم منا ثم لنقولن جميعنا لوليه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنا هلاكهم على أن ﴿ مُهْلِكَ ﴾ مصدر كمرجع أو مكان هلاكهم على أنه للمكان أو زمان هلاكهم على أنه للزمان .

والمراد نفي شهود الهلاك الواقع فيه .

واختاروا نفي شهود مهلك أهله على نفي قتلهم إياهم قصداً للمبالغة كأنهم قالوا ما شهدنا

ذلك فضلاً عن أن نتولى إهلاكهم .

ويعلم من ذلك نفي قتلهم صالحاً عليه السلام أيضاً لأن من لم يقتل اتباعه كيف يقتله ، وقيل في الكلام حذف أي ما شهدنا مهلك أهله ومهلكه ، واستظهره أبو حيان ثم قال وحذف مثل هذا المعطوف جائز في الفصيح كقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] أي والبرد وقال الشاعر :

فما كان بين الخير لو جاء سالما . . .

أبو حجر الا ليال قلائل

أي بين الخير وبيني اه وفيه ما لا يخفى .

وقيل : الضمير في ﴿ أَهْلِهِ ﴾ يعود على الولي .

والمراد بأهل الولي صالح وأهله .

واعترض بأنه لو أريد أهل الولي لقيل أهلك أو أهله .

ومنع بأن ذلك غير لازم .

فقد قرىء ﴿ قُلْ للذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ ﴾ [آل عمران : 12] بالخطاب والغيبة ووجه ذلك ظاهر .

نعم رجوع الضمير إلى الولي خلاف الظاهر كما لا يخفى .

وقرأ الجمهور ﴿ مُهْلِكَ ﴾ بضم الميم وفتح اللام من أهلك وفيه الاحتمالات الثلاث .

وقرأ أبو بكر ﴿ مُهْلِكَ ﴾ بفتحهما على أنه مصدر ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ عطف على ﴿ مَا شَهِدْنَا ﴾ كما ذهب إليه الزجاج.

والمعنى ونحلف وإنا لصادقون.

وجوز أن تكون الواو للحال أي والحال إنا لصادقون فيما ذكرنا واستشكل ادعاؤهم الصدق في ذلك وهم عقلاء ينفرون عن الكذب ما أمكن.

وأجيب بأن حضور الأمر غير مباشرته في العرف لأنه لا يقال لمن قتل رجلاً أنه حضر قتله وإن كان الحضور لازماً للمباشرة فحلفوا على المعنى العرفي على العادة في الإيمان وأوهموا الخصم أنهم أرادوا معناه اللغوي فهم صادقون غير حانثين، وكونهم من أهل التعارف أيضاً لا يضر بل يفيد فائدة تامة، وقال الزمخشري.

كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين، ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما.

وتعقب بأن من فعل أمرين وجحد أحدهما لم يكن في كذبه شبهة وإنما تتم الحيلة لو فعلوا أمراً واحداً وادعى عليهم فعل أمرين فجحدوا المجموع.

ولذا لم يختلف العلماء في أن من حلف لا أضرب زيداً فضرب زيداً وعمراً كان حانثاً بخلاف من حلف لا أضرب زيداً وعمراً ولا آكل رغيفين فأكل أحدهما فإنه محل خلاف للعلماء في الحنث وعدمه ، والحق أن تبرئتهم من الكذب فيما ذكر غير لازمة حتى يتكلف لها وهما الذين كذبوا على الله تعالى ورسوله عليه السلام وارتكبوا ما هو أقبح من الكذب فيما ذكر ، ومقصود الزمخشري تأييد ما يزعمه هو وقومه من قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل بموافقة قوم صالح عليها ولا يكاد يتم له ذلك

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ بهذه المواضعة ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ يَشْعُرُونَ ﴾ أي أهلكناهم إهلاكاً غير معهود أو جازينا مكرهم من حيث لا يحتسبون .

(53/579)

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة مَكْرِهِمْ ﴾ شروع في بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر ، والظاهر أن ﴿ كَيْفَ ﴾ خبر مقدم لكان و ﴿ عاقبة ﴾ الاسم أي كان عاقبة مكرهم واقعة على وجه عجيب يعتبر به ، والجملة في محل نصب على أنها مفعول انظر وهي معلقة لمكان الاستفهام ، والمراد تفكر في ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ أَنَّا دمرناهم ﴾ في تأويل مصدر وقع بدلاً من ﴿ عاقبة مَكْرِهِمْ ﴾ أو

خبر مبتدأ محذوف هو ضمير العاقبة ، والجلمة مبينة لما في عاقبة مكرهم من الإبهام أي هو أو هي تدميرنا واهلاكنا إياهم ﴿ وَقَوْمَهُمْ ﴾ الذين لم يكونوا منهم في مباشرة التبييت ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ بحيث لم يشذ منهم شاذ أو هو على تقدير الجار أي لتدميرنا إياهم أو بتدميرنا إياهم ويكون ذلك تعليلاً لما ينبىء عنه الأمر بالنظر في كيفية عاقبة أمرهم من الهول والفظاعة .

وجوز بعضهم كونه بدلاً من ﴿ كَيْفَ ﴾ ، وقال آخرون : لا يجوز ذلك لأن البدل عن الاستفهام يلزم فيه ءعادة حرفه كقولك كيف زيد أصحيح أم مريض ؟

وجوز أن يكون هو الخبر لكان وتكون ﴿ كَيْفَ ﴾ حينئذ حالا والعامل فيها كان أو ما يدل عليه الكسلام من معنى الفعل ، ويجوز أن تكون كان تامة و ﴿ كَيْفَ ﴾ عليه حال لا غير والاحتمالات الجائزة في ﴿ أَنَّا دمرناهم ﴾ لا تخفى .

وقرأ الأكثر ﴿ أَنَّا ﴾ بكسر الهمزة .

فكيف خبر كان و ﴿ عاقبة ﴾ اسمها جملة ﴿ أَنَّا دمرناهم ﴾ استئناف لتفسير العاقبة ، وجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف .

قال الخفاجي : الظاهر أنه الشأن أو ضميره لا شيء آخر مما يحتاج للعائد ليعترض عليه بعدم العائد .

ولا يرد عليه أن ضمير الشأن المرفوع منع كثير من النحويين حذفه فإنه غير مسلم ، ويجوز أن تكون ﴿ كَانَ ﴾ تامة و ﴿ كَيْفَ ﴾ حال كما تقدم ولم يجوز الجمهور كونها ناقصة والخبر جملة ﴿ إِذَا دمرناهم ﴾ لعدم الرابط ، وقيل : يجوز ويكفي للربط وجود ما يرجع إلى متعلق المبتدأ إذ رجوعه إليه نفسه غير لازم وهو تكلف وإنما يتمشى على مذهب الأخفش القائل إذا قام بعض الجملة مقام مضاف إلى العائد اكتفى به .

وغيره من انلحاة يأباه ، وجوز أبو حيان على كلتا القراءتين أن تكون "كان" زائدة و ﴿ عاقبة ﴾ مبتدأ و ﴿ كَيْفَ ﴾ خبر مقدم له .

وقرأ أبي "أن دمرناهم" بأن التي من شأنها أن تنصب المضارع ويجري في المصدر الاحتمالات السابقة فيه على قراءة ﴿ أَنَّا ﴾ بفتح الهمزة .

هذا وفي كيفية التدمير خلاف .

فروي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا بعد ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت عليهم فم الشعل فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم في مكانه ونجى صالحاً ومن معه ، وقيل : جاؤوا بالليل شاهري سيوفهم

، وقد أرسل الله تعالى ملائكة ملء دار صالح عليه السلام فرموهم بالحجارة يرونها ولا يرون رامياً وهلك سائر القوم بالصيحة وقيل : إنهم عزموا على تبييته عليه السلام وأهله فاخبر الله تعالى بذلك صالحاً فخرج عنهم ثم أهلكهم بالصيحة وكان ذلك يوم الأحد .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ ﴾ جملة مقررة لما قبلها .

وقوله تعالى : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ أي خالية أو ساقطة متهدمة أعاليها على أسافلها كما روي عن ابن عباس ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ أي بسبب ظلمهم المذكور حال من "بيوتهم" والعامل فيها معنى الإشارة .

(55/579)

وقرأ عيسى بن عمر ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي خاوية أو خبر بعد خبر لتلك أو خبر لها و ﴿ بُيُوتُهُمْ ﴾ بدل وبيوتهم هذه هي التي قال فيها صلى الله عليه وسلم لأصحابه عام تبوك " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " الحديث .

وهي بوادي القرى بين المدينة والشام ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم ﴿ لآيَةً ﴾ لعبرة عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي ما من شأنه أن يعلم من الأشياء أو

لقوم يتصفون بالعلم ، وقيل : لقوم يعلمون هذه القصة وليس بشيء ، وفي هذه الآية على ما قيل دلالة على الظلم يكون سبباً لخراب الدور .

وروي عن ابن عباس أنه قال أجد في كتاب الله تعالى أن الظلم يخرب البيوت وتلا هذه الآية ، وفي التوراة ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك ، قيل وهو إشارة إلى هلاك الظالم إذ خراب بيته متعقب هلاكه ، ولا يخفى أن كون الظلم بمعنى الجور والتعدي على عباد الله تعالى سبباً لخراب البيوت مما شوهد كثيراً في هذه الأعصار ، وكونه بمعنى الكفر كذلك ليس كذلك .

نعم لا يبعد أن يكون على الكفرة يوم تخرب فيه بيوتهم إن شاء الله تعالى :

﴿ وَأَنجَيْنَا الذين ءامَنُواْ ﴾ صالحاً ومن معه من المؤمنين ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي اتقار مستمراً فلذا خصوا بالنجاة .

روي أن الذين آمنوا به عليه السلام كانوا أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضرموت وحين دخلها مات ولذلك سميت بهذا الاسم وبني المؤمنون بها مدينة يقال لها حاضورا ، وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر . انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

(56/579)

وقال الشوكاني :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا ﴾

معطوف على قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ ﴾ واللام هي الموطئة للقسم ، وهذه القصة من جملة بيان قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ و ﴿ صالحا ﴾ عطف بيان ، و ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ تفسير للرسالة ، وأن هي المفسرة ، ويجوز أن تكون مصدرية أي بأن اعبدوا الله ، و " إذا " في ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ ﴾ هي الفجائية أي ففاجئوا التفرق ، والاختصام ، والمراد ب ﴿ الفريقان ﴾ : المؤمنون منهم والكافرون .

ومعنى الاختصام : أن كلّ فريق يخاصم على ما هو فيه ، ويزعم أن الحقّ معه ، وقيل : إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا ؟ وقيل : أحد الفريقين صالح ، والفريق الآخر جميع قومه ، وهو ضعيف .

﴿ قَالَ يا قومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة ﴾ أي قال صالح للفريق الكافر منهم منكراً عليهم : لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة .

(57/579)

والمعنى : لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب وتقدّمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة ؟ وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون : ائتنا يا صالح بالعذاب ﴿ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ ﴾ هلا تستغفرون الله وتتوبون إليه من الشرك ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ رجاء أن ترحموا أو كي ترحموا فلا تعذبوا ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشرّ ، ووصف العذاب بأنه سيئة مجازاً ، إما لأن العقاب من لوازمه ، أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً ، فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح ، والكلام اللين أنهم ﴿ قَالُواْ اطيرنا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أصله تطيرنا ، وقد قرىء بذلك ، والتطير : التشاؤم أي تشاءمنا منك وبمن معك ممن أجابك ودخل في دينك ، وذلك لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح ، وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة وأشقاهم بها ، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو أمراً من الأمور نفروا طائراً من وكره فإن طار يمنة ساروا ، وفعلوا ما عزموا عليه ، وإن طار يسرة تركوا ذلك فلما قالوا ذلك قَال لهم صالح : ﴿ طَائِرُكُمْ عِندَ اللهِ ﴾ أي ليس ذلك بسبب الطير الذي تتشاءمون به ، بل سبب ذلك عند الله ، وهو ما يقدّره عليكم ، والمعنى : أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللهِ ﴾ [الأعراف : 131] .

ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان ، فقال : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أي تمتحنون ، وتختبرون وقيل : تعذبون بذنوبكم ، وقيل : يفتنكم غيركم ، وقيل : يفتنكم الشيطان بما

تقعون فيه من الطيرة ، أو بما لأجله تطيرون ، فأضرب عن ذكر الطائر إلى ما هو السبب الداعي إليه .

(58/579)

﴿ وَكَانَ فِي المدينة ﴾ التي فيها صالح ، وهو الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي تسعة رجال من أبناء الأشراف ، والرهط : اسم للجماعة ، فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كلّ واحد منهم جماعة ، والجمع أرهط وأراهط ، وهؤلاء التسعة هم أصحاب قدار عاقر الناقة ، ثم وصف هؤلاء بقوله : ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ أي شأنهم وعملهم الفساد في الأرض الذي لا يخالطه صلاح ، وقد اختلف في أسماء هؤلاء التسعة اختلافاً كثيراً لا حاجة إلى التطويل بذكره .

﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾ أي قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله ، هذا على أن ﴿ تقاسموا ﴾ فعل أمر ، ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً مفسراً لقالوا ، كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقال : تقاسموا ، أو يكون حالاً على إضمار قد أي قالوا ذلك متقاسمين ، وقرأ ابن مسعود : " يفسدون في الأرض ولا يصلحون تقاسموا بالله " وليس فيها قالوا ، واللام في ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ جواب القسم أي لنأتينه بغتة في وقت البيات ، فنقتله وأهله ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ

﴿ قرأ الجمهور بالنون للمتكلم في ﴿ لنبيتنه ﴾ ، وفي ﴿ لنقولن ﴾ ، واختار هذه القراءة أبو حاتم .

وقرأ حمزة والكسائي بالفوقية فيهما على خطاب بعضهم لبعضهم ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وقرأ مجاهد وحميد بالتحتية فيهما ، والمراد بوليّ صالح : رهطه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ما حضرنا قتلهم ، ولا ندري من قتله ، وقتل أهله ، ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدلّ على نفي شهودهم لنفس القتل بالأولى ، وقيل : إن المهلك بمعنى الإهلاك ، وقرأ حفص والسلمي مهلك بفتح الميم واللام ، وقرأ أبو بكر ، والمفضل بفتح الميم ، وكسرها ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ فيما قلناه .

(59/579)

قال الزجاج : وكان هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً وأهله ، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ، ولا رأوه ، وكان هذا مكراً منهم ، ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ أي بهذه المحالفة ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بمكر الله بهم .

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة مَكْرِهِمْ ﴾ أي انظر ما انتهى إليه أمرهم الذي بنوه على المكر ،

وما أصابهم بسببه ﴿ أَنَّا دمرناهم وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قرأ الجمهور بكسر همزة أنا ، وقرأ حمزة والكسائي والأعمش والحسن وابن أبي إسحاق وعاصم بفتحها ، فمن كسر جعله استئنافاً .

قال الفراء ، والزجاج : من كسر استأنف ، وهو يفسر به ما كان قبله .

كأنه جعله تابعاً للعاقبة ، كأنه قال : العاقبة إنا دمرناهم ، وعلى قراءة الفتح يكون التقدير : بأنا دمرناهم أو لأنا دمرناهم ، وكان تامة وعاقبة فاعل لها ، أو يكون بدلاً من عاقبة ، أو يكون خبر مبتدأ محذوف أي هي أنا دمرناهم ، ويجوز أن تكون كان ناقصة ، وكيف خبرها ، ويجوز أن يكون خبرها أنا دمرنا .

قال أبو حاتم : وفي حرف أبيّ : " أن دمرناهم " .

والمعنى في الآية : أن الله دمّر التسعة الرهط المذكورين ، ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك ، ومعنى التأكيد بأجمعين : أنه لم يشذ منهم أحد ولا سلم من العقوبة فرد من أفرادهم .

وجملة : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ مقرّرة لما قبلها .

قرأ الجمهور : ﴿ خاوية ﴾ بالنصب على الحال .

قال الزجاج : المعنى : فانظر إلى بيوتهم حال كونها خاوية ، وكذا قال الفراء ، والنحاس : أي خالية عن أهلها خراباً ليس بها ساكن .

وقال الكسائي وأبو عبيدة : نصب خاوية على القطع .

والأصل فتلك بيوتهم الخاوية ، فلما قطع منها الألف ، واللام نصبت كقوله : ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِبًا ﴾ [النحل : 52] .

(60/579)

وقرأ عاصم بن عمر ونصر بن عاصم والجحدري وعيسى بن عمر برفع ﴿ خاوية ﴾ على أنه خبر اسم الإشارة ، وبيوتهم بدل ، أو عطف بيان ، أو خبر لاسم الإشارة ، وخاوية خبر آخر ، والباء في : ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ للسببية أي بسبب ظلمهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ التدمير ، والإهلاك ﴿ لآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يتصفون بالعلم بالأشياء .

﴿ وَأَنجَيْنَا الذين ءَامَنُواْ ﴾ وهم صالح ومن آمن به ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ الله ويخافون عذابه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ طَائِرُكُمْ ﴾ قال : مصائبكم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ وَكَانَ فِي المدينة تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ قال :

هم الذين عقروا الناقة ، وقالوا حين عقروها : نبيت صالحاً وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم فدمرهم الله أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(61/579)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

في معظم المواضع في القرآن ترد قصة صالح وثمود في سياق قصص عام من نوح وهود ، ولوط وشعيب . وأحياناً تجيء قصة إبراهيم في هذا السياق أو لا تجيء . أما في هذه السورة والتركيز فيها على قصص بني إسرائيل ، فقد جاءت قصة موسى وقصة داود وسليمان . واختصرت قصة هود وقصة شعيب من السلسلة ولم تجيء قصة إبراهيم .

وفي هذه السورة لا تذكر حلقة الناقة في قصة صالح عليه السلام إنما يذكر تبييت الرهط التسعة المفسدين لصالح وأهله ، ومكرهم به وهو لا يشعر ، فمكر الله بالمفسدين وهم لا يشعرون ، ودمرهم وقومهم أجمعين . وأنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وترك بيوت

المفسدين خاوية وجعلها لمن بعدهم آية . والمشركون في مكة يمرون بهذه البيوت المدمرة الخاوية ولكنهم لا يعتبرون . .

﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله ، فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ . .

يلخص رسالة صالح عليه السلام في حقيقة واحدة : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ فهذه هي القاعدة التي ترتكز عليها رسالة السماء إلى الأرض في كل جيل ، ومع كل رسول . ومع أن كل ما حول البشر في هذا الكون ، وكل ما يكمن فيهم أنفسهم ، يهتف بهم إلى الإيمان بهذه الحقيقة الواحدة ، فقد أمضت البشرية أجيالاً وأزماناً لا يعلمها إلا الله ، وهي تقف أمام هذه الحقيقة البسيطة وقفة الإنكار والجحود ، أو وقفة الهزء والتكذيب . وما تزال إلى اليوم تروغ عن هذه الحقيقة الخالدة ، وتجنح إلى شتى السبل ، التي تتفرق بها عن سبيل الله الواحد المستقيم .

فأما قوم صالح ثمود فيحكي القرآن خلاصة موقفهم بعد دعوته إياهم ، وجهده معهم بأنهم أصبحوا فريقين يختصمون . فريقاً يستجيب له ، وفريقاً يخالف عنه . وكان الفريق المعارض هو الكثرة ، كما نعرف من المواضع الأخرى في القرآن عن هذه القصة .

وهنا فجوة في السورة على طريقة القصص القرآني ندرك منها أن المكذبين المعرضين استعجلوا عذاب الله الذي أنذرهم به صالح ، بدلاً من أن يطلبوا هدى الله ورحمته شأنهم في هذا شأن مشركي قريش مع الرسول الكريم فأنكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولا يطلبوا الهداية ، وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعل الله يدركهم برحمته :

﴿ قال : يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ !

ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم ﴾ . . بدلاً من أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان به والتصديق !

وكذلك كان قوم صالح يقولون . ولا يستجيبون لتوجيه رسولهم إلى طريق الرحمة والتوبة والاستغفار .

ويعتذرون عن ضيقهم به وبالذين آمنوا معه بأنهم يرونهم شؤماً عليهم ، ويتوقعون الشر من ورائهم : ﴿ قالوا : اطيرنا بك وبمن معك ﴾ .

والتطير . التشاؤم . مأخوذ من عادة الأقوام الجاهلة التي تجري وراء الخرافات والأوهام ، لأنها لا تخرج منها إلى نصاعة الإيمان . فقد كان الواحد منهم إذا همّ بأمر لجأ إلى طائر فزجره أي أشار إليه مطارداً . فإن مر سانحاً عن يمينه إلى يساره استبشر ومضى في

الأمر . وإن مر بارحاً عن يساره إلى يمينه تشاءم وتوقع الضر ! وما تدري الطير الغيب ، وما تنبئ حركاتها التلقائية عن شيء من المجهول . ولكن النفس البشرية لا تستطيع أن تعيش بلا مجهول مغيب تكل إليه ما لا تعرفه وما لا تقدر عليه . فإذا لم تكل المجهول المغيب إلى الإيمان بعلام الغيوب وكلته إلى مثل هذه الأوهام والخرافات التي لا تقف عند حد ، ولا تخضع لعقل ، ولا تنتهي إلى اطمئنان ويقين .

(63/579)

وحتى هذه اللحظة ترى اللذين يهربون من الإيمان بالله ، ويستنكفون أن يكلوا الغيب إليه ، لأنهم بزعمهم قد انتهوا إلى حد من العلم لا يليق معه أن يركنوا إلى خرافة الدين ! هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولا بدينه ولا بغيبه . . نراهم يعلقون أهمية ضخمة على رقم 13 ، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم ، وعلى إشعال أكثر من لفافتين بعود ثقاب واحد . . إلى آخر هذه الخرافات الساذجة . ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة ، وهي جوعتها إلى الإيمان ، وعدم استغنائها عنه ، وركونها إليه في تفسير كثير من حقائق هذا الكون التي لم يصل إليها علم الإنسان ؛ وبعضها لن يصل إليه في يوم من الأيام ، لأنه أكبر من الطاقة البشرية ، ولأنه خارج عن اختصاص الإنسان ، زائد على مطالب خلافته في هذه

الأرض ، التي زود على قدرها بالمواهب والطاقات !

فلما قال قوم صالح قولتهم الجاهلة الساذجة ، الضالة في تيه الوهم والخرافة ، ردهم صالح إلى نور اليقين ، وإلى حقيقته الواضحة ، البعيدة عن الضباب والظلام :

﴿ قال : طائركم عند الله ﴾ .

حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله . والله قد سن سنناً وأمر الناس بأمور ، وبين لهم الطريق المستنير . فمن اتبع سنة الله ، وسار على هداه ، فهناك الخير ، بدون حاجة إلى زجر الطير . ومن انحرف عن السنة ، وحاد عن السواء ، فهناك الشر ، بدون حاجة إلى التشاؤم والتطير .

﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ . .

تفتنون بنعمة الله ، وتختبرون بما يقع لكم من خير ومن شر . فاليقظة وتدبر السنن ، وتتبع الحوادث والشعور بما رواءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية . لا التشاؤم والتطير ببعض خلق الله من الطير ومن الناس سواء .

وهكذا ترد العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة في تقدير الأمور . وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم .

وتشعرهم أن يد اللّه وراء هذا كله ، وأن ليس شيء مما يقع عبثا أو مصادفة . .

وبذلك ترتفع قيمة الحياة وقيمة الناس . وبذلك يقضي الإنسان رحلته على هذا الكوكب غير مقطوع الصلة بالكون كله من حوله ، وبخالق الكون ومدبره ، وبالنواميس التي تدبر هذا الكون وتحفظه بأمر الخالق المدبر الحكيم .

ولكن هذا المنطق المستقيم إنما تستجيب له القلوب التي لم تفسد ، ولم تنحرف الانحراف الذي لا رجعة منه .

وكان من قوم صالح ، من كبرائهم ، تسعة نفر لم يبق في قلوبهم موضع للصلاح والإصلاح . فراحوا يأتمرون به ، ويدبرون له ولأهله في الظلام . .

«وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ . قالُوا : تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ، ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ . وَإِنَّا لَصادِقُونَ» . .

هؤلاء الرهط التسعة الذين تمحضت قلوبهم وأعمالهم للفساد وللإفساد ، لم يعد بها متسع للصلاح والإصلاح ، فضاقت نفوسهم بدعوة صالح وحجته ، وبيتوا فيما بينهم أمرا . ومن العجب أن يتداعوا إلى القسم باللّه مع هذا

الشر المنكر الذي يبيتونه ، وهو قتل صالح وأهله بياتا ، وهو لا يدعوهم إلا لعبادة اللّه ! وإنه لمن العجب كذلك أن يقولوا : «تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ : ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ» ولا حضرنا مقتله . . «وَإِنَّا لَصادِقُونَ» . . فقد قتلوهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم أي لم يروه بسبب الظلام ! وهو احتيال سطحي وحيلة ساذجة . ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها ، ويبررون كذبهم ، الذي اعتزموه للتخلص من أولياء دم صالح وأهله . نعم من العجب أن يحرص مثل هؤلاء على أن يكونوا صادقين ! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالانحرافات والالتواءات ، وبخاصة حين لا تهتدي بنور الإيمان ، الذي يرسم لها الطريق المستقيم .

كذلك دبروا . وكذلك مكروا . . ولكن اللّه كان بالمرصاد يراهم ولا يرونه ، ويعلم تدبيرهم ويطلع على مكرهم وهم لا يشعرون :

«وَمَكَرُوا مَكْراً ، وَمَكَرْنا مَكْراً . وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ» . .

وأين مكر من مكر ؟ وأين تدبير من تدبير ؟ وأين قوة من قوة ؟

وكم ذا يخطىء الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة ، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل ، والقوة التي تملك الأمر كله وتباغتهم من حيث لا يشعرون :

«فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ . أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما

ظَلَمُوا» . .

ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك ، وإذا الدور الخاوية والبيوت الخالية . وقد كانوا منذ لحظة واحدة ، في الآية السابقة من السورة ، يدبرون ويمكرون ، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون ! وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق . لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية . مباغتة القدرة التي لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ومباغتة التدبير الذي لا يخيب للماكرين المستعزين بمكرهم .

(66/579)

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» . . والعلم هو الذي عليه التركيز في السورة وتعقيباتها على القصص والأحداث وبعد مشهد المباغتة يجيء ذكر نجاة المؤمنين الذين يخافون اللّه ويتقونه . .

«وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» . .

والذي يخاف اللّه يقيه سبحانه من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين . كما جاء في حديث قدسي جليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2644 . 2646 ﴾

(67/579)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

هذا مثل ثالث ضربه الله لحال المشركين مع المؤمنين وجعله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن له أسوة بالرسل والأنبياء من قبله .

والانتقال من ذكر ملك سليمان وقصّة ملكة سبأ إلى ذكر ثمود ورسولهم دون ذكر عاد لمناسبة جِوار البلاد ، لأن ديار ثمود كانت على تخوم مملكة سليمان وكانت في طريق السائر من سَبأ إلى فلسطين .

ألا ترى أنه أعقب ذكر ثمود بذكر قوم لوط وهم أدنى إلى بلاد فلسطين ، فكان سياق هذه القصص مناسباً لسياق السائر من بلاد اليمن إلى فلسطين .

ولما كان ما حلّ بالقوم أهمَّ ذِكراً في هذا المقام قدم المجرور على المفعول لأن المجرور هو محل العبرة ، وأما المفعول فهو محلّ التسلية ، والتسلية غرض تَبَعيّ .

ولام القسم لتأكيد الإرسال باعتبار ما اتصل به من بقية الخبر ؛ فإما أن يكون التأكيد لمجرد الاهتمام ، وإما أن يبنى على تنزيل المخاطبين منزلة من يتردد فيما تضمنه الخبر من تكذيب قومه إياه واستخفافهم بوعيد ربّهم على لسانه .

وحلول العذاب بهم لأجل ذلك لأن حالهم في عدم العظة بما جرى للمماثلين في حالهم جعلهم كمن ينكر ذلك .

و﴿ أن أعبُدوا الله ﴾ تفسير لما دل عليه ﴿ أرسلنا ﴾ من معنى القول .

وفرع على ﴿ أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ إلخ ﴿ إذا هم فريقان يختصمون ﴾ .

فالمعنى : أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً لإنقاذهم من الشرك ففاجأ من حالهم أن أعرض فريق عن الإيمان وآمن فريق .

والإتيان بحرف المفاجأة كناية عن كون انقسامهم غير مرضي فكأنّه غير مترقب ، ولذلك لم يقع التعرض لإنكار كون أكثرهم كافرين إشارة إلى أن مجرد بقاء الكفر فيهم كاف في قبْح فعلهم .

وحالهم هذا مساوٍ لحال قريش تجاه الرسالة المحمدية .

(68/579)

وأعيد ضمير ﴿ يختصمون ﴾ على المثنى وهو ﴿ فريقان ﴾ باعتبار اشتمال الفريقين على عدد كثير .

كقوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] ولم يقل : اقتتلتا .

والفريقان هما : فريق الذين استكبروا ، وفريق الذين استضعفوا وفيهم صالح .

والفاء للتعقيب وهو تعقيب بحسب ما يقتضيه العرف بعد سماع الدعوة .

والاختصام واقع مع صالح ابتداء ، ومع أتباعه تبعاً .

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

لما كان الاختصام بين الفريقين في شأن صالح ابتداء جيء بجواب صالح عما تضمنه اختصامهم من محاولتهم إفحامه بطلب نزول العذاب .

فمقول صالح هذا ليس هو ابتداء دعوته فإنه تقدم قوله : ﴿ أن اعبُدوا الله ﴾ [النمل : 45] ولكنه جواب عمّا تضمنه اختصامهم معه ، ولذلك جاءت جملة : ﴿ قال يا قوم ﴾ مفصولة جرياً على طريقة المحاورة لأنها حكاية جواب عما تضمنه اختصامهم .

واقتصر على مراجعة صالح قومَه في شأن غرورهم بظنهم أن تأخر العذاب أمارة على كذب الذي توعدهم به فإنهم قالوا : ﴿ فأتنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين ﴾ [الأعراف : 70] كما حكي عنهم في سورة الأعراف لأن الغرض هنا موعظة قريش في قولهم : ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] بحال ثمود المساوي لحالهم ليعلموا أن عاقبة ذلك مماثلة لعاقبة ثمود لتماثل الحالين قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمّى لجاءهم العذاب ولَيَأتِينّهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ [العنكبوت : 53] .

والاستفهام في قوله : ﴿ لم تستعجلون ﴾ إنكار لأخذهم بجانب العذاب دون جانب الرحمة .

ف ﴿ السيئة ﴾ : صفة لمحذوف ، أي بالحالة السيئة ، وكذلك ﴿ الحسنة ﴾ .

فيجوز أن يكون المراد بـ ﴿ السيئة ﴾ الحالة السيئة في معاملتهم إياه بتكذيبهم إياه .

(69/579)

والمراد بالحسنة ضدّ ذلك ، أي تصديقهم لما جاء به ، فالاستعجال : المبادرة .

والباء للملابسة .

ومفعول ﴿ تستعجلون ﴾ محذوف تقديره : تستعجلونني متلبسين بسيئة التكذيب .

والمعنى : أنه أنكر عليهم أخذهم بطرف التكذيب إذ أعرضوا عن التدبر في دلائل صدقه ، أي إن كنتم مترددين في أمري فافرضوا صدقي ثم انظروا .

وهذا استنزال بهم إلى النظر بدلاً عن الإعراض ، ولذلك جمع في كلامه بين السيئة والحسنة .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ السيئة ﴾ الحالةَ السيئة التي يترقبون حلولها ، وهي ما سألوا من تعجيل العذاب المحكي عنهم في سورة الأعراف ، وب ﴿ الحسنة ﴾ ضد ذلك أي

حالة سلامتهم من حلول العذاب ف ﴿ السيئة ﴾ مفعول ﴿ تستعجلون ﴾ والباء مزيدة لتأكيد اللصوق مثل ما في قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [المائدة : 6] .

والمعنى : إنكار جعلهم تأخيرَ العذاب أمارةً على كذب الوعيد به وأن الأولى بهم أن يجعلوا امتداد السلامة أمارة على إمهال الله إياهم فيتقوا حلول العذاب ، أي لِمَ تبْقَون على التكذيب منتظرين حلول العذاب ، وكان الأجدر بكم أن تبادروا بالتصديق منتظرين عدم حلول العذاب بالمرة .

وعلى كلا الوجهين فجواب صالح إياهم جار على الأسلوب الحكيم بجعل يقينهم بكذبه محمولاً على ترددهم بين صدقه وكذبه .

وقوله : ﴿ قبل الحسنة ﴾ حال من ﴿ السيئة ﴾ .

وهذا تنبيه لهم على خطئهم في ظنهم أنه لو كان صالح صادقاً فيما توعدهم به لعَجّل لهم به ، فما تأخيره إلا لأنه ليس بوعيد حق ، لأن العذاب أمر عظيم لا يجوز الدخول تحت احتماله في مجاري العقول .

فالقبلية في قوله : ﴿ قبل الحسنة ﴾ مجاز في اختيار الأخذ بجانب احتمال السيئة وترجيحه على الأخذ بجانب الحسنة ، فكأنهم بادروا إليها فأخذوها قبل أن يأخذوا الحسنة .

وظاهر الاستفهام أنه استفهام عن علة استعجالهم ، وإنما هو استفهام عن المعلول كناية عن انتفاء ما حقه أن يكون سبباً لاستعجال العذاب ، فالإنكار متوجه للاستعجال لا لعلته .

ثم أُعقب الإنكار المقتضي طلب التخلية عن ذلك بتحريضهم على الإقلاع عن ذلك بالتوبة وطلب المغفرة لما مضى منهم ويرجون أن يرحمهم الله فلا يعذبهم ، وإن كان ما صدر منهم موجباً لاستمرار غضب الله عليهم ، إلا أن الله برحمته جعل التائب من الذنب كمن لم يذنب .

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

هذا من محاورتهم مع صالح فلذلك لم يُعطف فعلا القول وجاء على سنن حكاية أقوال المحاورات كما بيّناه غير مرة .

وأصل ﴿ اطيرنا ﴾ تَطيّرنا فقلبت التاء طاء لقرب مخرجيهما وسكنت لتخفيف الإدغام وأدخلت همزة الوصل لابتداء الكلمة بساكن ، والباء للسببية .

ومعنى التطير : التشاؤم .

أطلق عليه التطيّر لأن أكثره ينشأ من الاستدلال بحركات الطير من سَانح وبارح .

وكان التَطيّر من أوهام العرب وثمود من العرب ، فقولهم المحكي في هذه الآية حُكي به مما ثله من كلامهم ولا يريدون التطيّر الحاصل من زجر الطير لأنه يمنع من ذلك قولهم : ﴿ بك وبمن

معك ﴾ وقد تقدم مثله عند قوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم سيئة يَطَّيَّروا بموسى ومن معه ﴾ في سورة الأعراف (131) .

وتقدم معنى الشؤم هنالك .

وأجاب صالح كلامهم بأنه ومَن معه ليسُوا سبب شُؤم ولكن سبب شؤمهم وحلول المضار بهم هو قدرة الله .

واستعير لما حلّ بهم اسمُ الطائر مشاكلَة لقولهم اطيرنا بك وبمن معك ﴾ ، ومخاطبةً لهم بما يفهمون لإصلاح اعتقادهم ، بقرينة قولهم ﴿ اطيرنا بك ﴾ .

و ﴿ عند ﴾ للمكان المجازي مستعاراً لتحقّق شأن من شؤون الله به يقدر الخير والشر وهو تصرف الله وقدرُه .

وقد تقدم نظيره في الأعراف .

(71/579)

وأضرب بـ ﴿ بل ﴾ عن مضمون قولهم : ﴿ اطيرنا بك وبمن معك ﴾ بأن لا شؤم بسببه هو وسبب من معه ولكن الذين زعموا ذلك قوم فتنهم الشيطان فتنة متجددة بإلقاء الاعتقاد بصحة ذلك في قلوبهم .

وصِيَغ الإخبار عنهم بأنهم مفتونون بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لتقوي الحكم بذلك .

وصيغ المسند فعلاً مضارعاً لدلالته على تجدد الفتون واستمراره .

وغلب جانب الخطاب في قوله : ﴿ تفتنون ﴾ على جانب الغيبة مع أن كليهما مقتضى الظاهر ترجيحاً لجانب الخطاب لأنه أدل من الغيبة .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48)

عطف جزء القصة على جزء منها .

و﴿ المدينة ﴾ : هي حِجْر ثمود بكسر الحاء وسكون الجيم المعروف مكانُها اليوم بديار ثمود ومدائن صالح ، وهي بقايا تلك المدينة من أطلال وبيوت منحوتة في الجبال .

وهي بين المدينة المنورة وتبوك في طريق الشام وقد مرّ بها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون في مسيرهم في غزوة تبوك ورأوا فيها آباراً نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الشرب والوضوء منها إلا بئراً واحدة أمرهم بالشرب والوضوء بها وقال : " إنها البئر التي كانت تشرب منها ناقة صالح "

والرهط : العدد من الناس حوالي العشرة وهو مِثل النَفر .

وإضافة تسعة إليه من إضافة الجزء إلى اسم الكل على التوسع وهو إضافة كثيرة في الكلام العربي مثل : خمس ذود .

واختلف أئمة النحو في القياس عليها ، ومذهب سيبويه والأخفش أنها سماعية .

وكان هؤلاء الرهط من عتاة القوم ، واختلف في أسمائهم على روايات هي من أوضاع القصّاصين ولم يثبت في ذلك ما يعتمد .

واشتهر أن الذي عقر الناقة اسمه "قُدَار" بضم القاف وتخفيف الدال ، وقد تشاءم بعض الناس بعدد التسعة بسبب قصة ثمود وهو من التشاؤم المنهي عنه .

و﴿ الأرض ﴾ : أرض ثمود فالتعريف للعهد .

(72/579)

وعطف ﴿ لا يصلحون ﴾ على ﴿ يفسدون ﴾ احتراس للدلالة على أنهم تمحّضوا للإفساد ولم يكونوا ممن خلطوا إفساداً بإصلاح .

وجملة : ﴿ قالوا ﴾ صفة ل ﴿ تسعة ﴾ ، أو خبر ثان ل ﴿ كان ﴾ ، أو هو الخبر ل ﴿ كان ﴾ .

وفي ﴿ المدينة ﴾ متعلق بـ ﴿ كان ﴾ ظرفاً لغواً ولا يحسن جعل الجملة استئنافاً لأنها المقصود من القصة والمعنى : قَال بعضهم لبعض .

و﴿ تقاسموا ﴾ فعل أمر ، أي قال بعضهم : تقاسموا ، أي ابتدأ بعضهم فقال : تقاسموا .

وهو يريد شمول نفسه إذ لا يأمرهم بذلك إلا وهو يريد المشاركة معهم في المقسم عليه كما دل عليه قوله : ﴿ لنبيتنه ﴾ .

فلما قال ذلك بعضهم توافقوا عليه وأعادوه فصار جميعهم قائلاً ذلك فلذلك أسند القول إلى التسعة .

والقَسَم بالله يدل على أنهم كانوا يعترفون بالله ولكنهم يشركون به الآلهة كما تقدم في قصصهم فيما مرّ من السور .

و ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ جواب القسم ، والضمير عائد إلى صالح .

والتبييت والبيات : مباغتة العدوّ ليلاً .

وعكسه التصبيح : الغارة في الصباح ، وكان شأن الغارات عند العرب أن تكون في الصباح ، ولذلك يقول مَن ينذر قوماً بحلول العدوّ : "يَا صبَاحَاهُ" ، فالتبييت لا يكون إلا لقصد غدْر .

والمعنى : أنهم يغيرون على بيته ليلاً فيقتلونه وأهلَه غدْراً من حيث لا يُعرف قاتله ثم ينكرون أن يكونوا هم قتلوهم ولا شهدوا مقتلهم .

والمُهلك : مصدر ميمي من أهلك الرباعي ، أي شهدنا إهلاك من أهلكهم .

وقولهم : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ هو من جملة ما هيَّأوا أن يقولوه فهو عطف على ﴿ ما شهدنا مهلك ﴾ أي ونؤكد إنّا لصادقون .

ولم يذكروا أنهم يحلفون على أنهم صادقون .

وقرأ الجمهور : ﴿ لَنُبيّتَنّه ﴾ بنون الجماعة وفتح التاء التي قبل نون التوكيد .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب في أوله وبضم التاء الأصلية قبل نون التوكيد .

وذلك على تقدير : أمر بعضهم لبعض .

وهكذا قرأ الجمهور ﴿ لنقولَنّ ﴾ بنون الجماعة في أوله وفتح اللام .

(73/579)

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب وبضم اللام .

وقرأ الجمهور : ﴿ مُهْلَك ﴾ بضم الميم وفتح اللام وهو مصدر الإهلاك أو مكانُه أو زمانه .

وقرأه حفص بفتح الميم وكسر اللام ويحتمل المصدر والمكان والزمان .

وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وفتح اللام فهو مصدر لا غير .

ووليُّ صالح هم أقرب القوم له إذا راموا الأخذ بثأره .

وهذا الجزء من قصة ثمود لم يذكر في غير هذه السورة .

وأحسب أن سبب ذكره أن نزول هذه السورة كان في وقتٍ تآمرَ فيه المشركون على الإيقاع بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو التآمر الذي حكاه الله في قوله : ﴿ وإذ يمكُرُ بك الذين

كفروا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أو يُخْرِجوكَ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال : 30] ؛ فضرب الله لهم مثلاً بتآمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرِهم وكيف كان عاقبة مكرهم ، ولذلك ترى بين الآيتين تشابهاً وترى تكرير ذكر مكرهم ومكر الله بهم ، وذكر أن في قصتهم آية لقوم يعلمون .

وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50)

سمَّى الله تآمرهم مكراً لأنه كان تدبير ضُرٍّ في خفاءٍ .

وأكد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوته في جنس المكر ، وتنوينه للتعظيم .

والمكر الذي أسند إلى اسم الجلالة مكر مجازي .

استعير لفظ المكر لمبادرة الله إياهم باستئصالهم قبل أن يتمكنوا من تبييت صالح وأهله ، وتأخيره استئصالهم إلى الوقت الذي تآمروا فيه على قتل صالح لشَبَه فِعلِ الله ذلك بفعل الماكر في تأجيل فعل إلى وقت الحاجة ، مع عدم إشعار من يُفعل به .

وأُكد مكر الله وعُظّم كما أكد مكرهم وعُظّم ، وذلك بما يناسب جنسه ، فإن عذاب الله لا يدانيه عذاب الناس فعظيمه أعظم من كل ما يقدره الناس .

والمراد بالمكر المسند إلى الجلالة هو ما دلت عليه جملة : ﴿ إنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ الآية .

وفي قوله : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ تأكيد لاستعارة المكر لتقدير الاستئصال فليس في ذلك ترشيحٌ للاستعارة ولا تجريد .

والخطاب في قوله : ﴿ فانظر ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم واقترانه بفاء التفريع إيماء إلى أن الاعتبار بمكر الله بهم هو المقصود من سَوْق القصة تعريضاً بأن عاقبة أمره مع قريش أن يكفّ عنه كيدَهم وينصره عليهم ، وفي ذلك تسلية له على ما يلاقيه من قومه .

والنظر : نظر قلبي ، وقد علق عن المفعولين بالاستفهام .

وقرأ الجمهور : ﴿ إنا دمرناهم ﴾ بكسر الهمزة فتكون الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لما يثيره الاستفهام في قوله : ﴿ كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ من سؤال عن هذه الكيفية .

والتأكيد للاهتمام بالخبر .

وقرأه عاصم والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الهمزة فيكون المصدر بدلاً من ﴿ عاقبة ﴾ .

والتأكيد أيضاً للاهتمام .

وضمير الغيبة في ﴿ دمرناهم ﴾ للرهط .

وعطف قومهم عليهم لموافقة الجزاء للمجزيّ عليه لأنهم مكروا بصالح وأهلِه فدمّرهم الله وقومهم .

والتدمير : الإهلاك الشديد ، وتقدم غير مرة منها في سورة الشعراء .

والقصة تقدمت .

وتقدم إنجاء صالح والذين آمنوا معه وذلك أن الله أوحى إليه أن يخرج ومن معه إلى أرض فلسطين حين أنذر قومه بتمتع ثلاثة أيام .

وتفريع قوله : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ على جملة : ﴿ دمرناهم ﴾ لتفريع الإخبار .

والإشارة منصرفة إلى معلوم غير مشاهد لأن تحققه يقوم مقام حضوره فإن ديار ثمود معلومة لجميع قريش وهي في طريقهم في ممرّهم إلى الشام .

وانتصب ﴿ خاوية ﴾ على الحال .

وعاملها ما في اسم الإشارة من معنى الفعل كقوله تعالى : ﴿ وهذا بعْلِي شيخاً ﴾ وقد تقدم في سورة هود (72) .

والخاوية : الخالية ، ومصدره الخَواء ، أي فالبيوت باق بعضها في الجبال لا ساكن بها .

والباء في بما ظلموا ﴾ للسببية ، و (ما) مصدرية ، أي كان خَواؤها بسبب ظلمهم .

(75/579)

والظلم : الشرك وتكذيب رسولهم ، فذلك ظلم في جانب الله لأنه اعتداء على حق وحدانيته ، وظلم للرسول بتكذيبه وهو الصادق .

ولما خص الله عملهم بوصف الظلم من بين عدة أحوال يشتمل عليها كفرهم كالفساد كان ذلك إشارة إلى أن للظلم أثراً في خراب بلادهم .

وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال : أجد في كتاب الله أن الظلم يخرّب البيوت وتلا : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ .

وهذا من أسلوب أخذ كل ما يُحتمل من معاني الكلام في القرآن كما ذكرناه في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير .

ونزيده هنا ما لم يسبق لنا في نظائره ، وهو أن الحقائق العقلية لما كان قوام ماهياتها حاصلاً في الوجود الذهني كان بين كثير منها انتساب وتقارب يُردّ بعضها إلى بعض باختلاف الاعتبار .

فالشرك مثلاً حقيقة معروفة يكون بها جنساً عقلياً وهو بالنظر إلى ما يبعث عليه وما ينشأ عنه ينتسب إلى حقائق أخرى مثل الظلم ، أي الاعتداء على الناس بأخذ حقوقهم فإنه من أسبابه ، ومثل الفسق فإنه من آثاره ، وكذلك التكذيب فإنه من آثاره أيضاً : ﴿ وذرني والمكذبين ﴾ [المزمل : 11] ، ومثل الكبر ومثل الإسراف فإنهما من آثاره أيضاً .

فمن أساليب القرآن أن يعبر عن الشرك بألفاظ هذه الحقائق للإشارة إلى أنه جامع عدة

فظائع ، وللتنبيه على انتسابه إلى هذه الأجناس ، وليعلم المؤمنون فساد هذه الحقائق من حيث هي فيعبر عنه هنا بالظلم وهو كثير ليعلم السامع أن جنس الظلم قبيح مذموم ، ناهيك أن الشرك من أنواعه .

وكذلك قوله : ﴿ إن الله لا يهدي من هو مُسرف كذّاب ﴾ [غافر : 28] أي هو متأصل في الشرك وإلا فإن الله هدى كثيراً من المسرفين والكاذبين بالتوبة ، ومن قوله : ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ [الزمر : 60] ونحو ذلك .

وجملة : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ معترضة بين الجمل المتعاطفة .

والإشارة إلى ما ذكر من عاقبة مكرهم .

والآية : الدليل على انتصار الله لرسله .

(76/579)

واللام في ﴿ لقوم يعلمون ﴾ لام التعليل يعني آية لأجلهم ، أي لأجل إيمانهم .

وفيه تعريض بأن المشركين الذين سبقت إليهم هذه الموعظة إن لم يتعظوا بها فهم قوم لا يعلمون .

وفي ذكر كلمة (قوم) إيماء إلى أن من يعتبر بهذه الآية متمكن في العقل حتى كان العقل من

صفته القومية ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة البقرة (164) .

وفي تأخير جملة : وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ عن جملة : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ طمأنة لقلوب المؤمنين بأن الله ينجيهم مما توعد به المشركين كما نجى الذين آمنوا وكانوا يتّقون من ثمود وهم صالح ومن آمن معه .

وقيل : كان الذين آمنوا مع صالح أربعة آلاف ، فلما أراد الله إهلاك ثمود أوحى الله إلى صالح أن يخرج هو ومن معه فخرجوا ونزلوا في موضع الرسّ فكان أصحاب الرسّ من ذرياتهم .

وقيل : نزلوا شاطىء اليمن وبنوا مدينة حَضرموت .

وفي بعض الروايات أن صالحاً نزل بفلسطين .

وكلها أخبار غير موثوق بها .

وزيادة فعل الكون في ﴿ وكانوا يتقون ﴾ للدلالة على أنهم متمكّنون من التقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(77/579)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أرسل نبيه صالحاً إلى ثمود ، فإذا هم فريقان يختصمون ، ولم يبين هنا خصومة الفريقين ، ولكنه بين ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قالوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بالذي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف : 7576] فهذه خصومتهم ، وأعظم أنواع الخصومة ، الخصومة في الكفر والإيمان .

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة الرعد في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ﴾ [الرعد : 6] .

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

قوله : اطيرنا بك : أي تشاءمنا بك ، وكان قوم صالح إذا نزل بهم قحط أو بلاء أو مصائب قالوا : ما جاءنا هذا إلا من شؤم صالح ، ومن آمن به . والتطير : التشاؤم ، وأصل اشتقاقه من التشاؤم بزجر الطير .

وقد بينا كيفية التشاؤم والتيامن بالطير في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] وقوله تعالى : ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ الله ﴾ قال بعض أهل العلم : أي سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله ، فالشر الذي أصابكم بذنوبكم لا بشؤم صالح ، ومن آمن به من قومه .

(78/579)

وقد قدمنا معنى طائر الإنسان في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] ، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من تشاؤم الكفار بصالح ، ومن معه من المؤمنين جاء مثله موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى في تشاؤم فرعون وقومه بموسى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحسنة قَالُواْ لَنَا هذه وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : 131] وقوله تعالى في تطير كفار قريش ، بنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِ الله وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله فَمَالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : 78] والحسنة في الآيتين النعمة كالرزق والخصب ، والعافية . والسيئة المصيبة بالجدب والقحط ، ونقص

الأموال ، والأنفس ، والثمرات ، وكقوله تعالى : ﴿ قالوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُواْ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : 1819] أي بليتكم جاءتكم من ذنوبكم ، وكفركم .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ ، قال بعض العلماء تختبرون وقال بعضهم : تعذبون كقوله ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] وقد قدمنا إن اصل الفتنة في اللغة وضع الذهب في النار ليختبر بالسبك أزائف هو أم خالص ؟ وأنها أطلقت في القرآن على اربعة معان :

الأول : إطلاقها على الاحرف بالنار كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات : 13] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات ﴾ [البروج : 10] اي حرقوهم بنار الاخدود على أحد التفسيرين . وقد اختاره بعض المحققين .

المعنى الثاني : إطلاق الفتنة على الاختبار ، وهذا هو أكثرها استعمالاً كقوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] وقوله تعالى : ﴿ وَأَلَّواْ استقاموا عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : 1617] . والآيات بمثل ذلك

كثيرة .

الثالث : إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة ، ومن هنا أطلقت الفتنة على الكفر والضلال كقوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال : 39] أي حتى لا يبقى شرك ، وهذا التفسير الصحيح ، دل عليه الكتاب والسنة .

أما الكتاب فقد دل عليه في قوله بعده في البقرة ﴿ وَيَكُونَ الدين للَّهِ ﴾ [البقرة : 193] وفي الأنفال

﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ﴾ [الأنفال : 39] فإنه يوضح أن معنى : لا تكون فتنة ، أي لا يبقى شرك ، لأن الدين لا يكون كلمة لله ، ما دام في الأرض شرك كما ترى .

(80/579)

وأما السنة ففي قوله صلى الله عليه وسلم " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله " فقد جعل صلى الله عليه وسلم الغاية التي ينتهي إليها قتاله للناس ، هي شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واضح في أن معنى : لا تكون فتنة : لا يبقى شرك ، فالآية والحديث كلاهما دال على أن الغاية التي ينتهي إليها قتال الكفار هي ألا يبقى في الأرض شرك ، إلا أنه تعالى في الآية عبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿ حتى لاَ تَكُونَ

فِتْنَة ﴾ وقد عبر صلى الله عليه وسلم بقوله : " حتى يشهدوا ألا إله إلا الله " فالغاية في الآية والحديث واحدة في المعنى . كما ترى .

الرابع : هو إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] أي لم تكن حجتهم ، كما قاله غير واحد . والعلم عند الله تعالى .

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49)

(81/579)

قد دلت هذه الآية الكريمة على أن نبي الله صالحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام نفعه الله بنصره وليه : أي أوليائه لأنه مضاف إلى معرفة ، ووجه نصرتهم له ، أن التسعة المذكورين في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [النمل : 4849] أي تحالفوا بالله ، لنبيتنه : أي لنباغتنه بياتاً : أي ليلاً فنقتله ونقتل أهله معه ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي أوليائه وعصبته ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي ولا مهلكه هو ، وهذا يدل على أنهم لا يقدرون أن يقتلوه علناً ، لنصرة أوليائه له ، وإنكارهم شهود مهلك

أهله دليل على خوفهم من أوليائه . والظاهر أن هذه النصرة عصبية نسبية لا تمت إلى الذين بصلة ، وأن أولياءه ليسوا مسلمين .

(82/579)

وقد قدمنا الآيات الموضحة لهذا المعنى في سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : 91] الآية . وفي سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] وقوله تعالى في هذه الآية : تقاسموا التحقيق أنه فعل أمر محكي بالقول . وأجاز الزمخشري ، وابن عطية أن يكون ماضياً في موضع الحال ، والأول هو الصواب إن شاء الله ، ونسبه أبو حيان للجمهور ، وقوله في هذه الآية : وإنا لصادقون ، التحقيق فيه أنهم كاذبون في قولهم : وإنا لصادقون كما لا يخفى ، وبه تعلم أن ما تكلفه الزمخشري في الكشاف من كونهم صادقين لا وجه له كما نبه عليه أبو حيان ، وأوضحه وقرأ عامة السبعة غير حمزة والكسائي لنبيتنه بالنون المضمومة بعد اللام ، وفتح الفوقية المثناة التي بعد التحتية المثناة ، وقرأ حمزة الكسائي : لتنبيته بالتاء الفوقية المضمومة بعد اللام ، وضم التاء الفوقية التي بعد الياء التحتية ، وقرأ عامة السبعة أيضاً

غير حمزة والكسائي : ثم لنقولن بالنون المفتوحة ، موضع التاء ، وفتح اللام الثانية ، وقرأ حمزة والكسائي لم لتقولن بفتح التاء الفوقية بعد اللام الأولى ، وضم اللام الثانية ، وقرأ عاصم : مهلك أهله بفتح الميم ، والباقون بضمها ، وقرأ حفص عن عاصم : مهلك بكسر اللام والباقون بفتحها .

(83/579)

فتحصل أن حفصاً عن عاصم قرأ مهلك بفتح الميم وكسر اللام ، وأن أبا بكر أعني شعبة قرأ عن عاصم : مهلك بفتح الميم واللام ، وأن غير عاصم قرأ مهلك أهله بضم الميم وفتح اللام ، فعلى قراءة من قرأ مهلك بفتح الميم ، فهو مصدر ميمي من هلك الثلاثي ، ويحتمل أن يكون اسم زمان أو مكان . وعلى قراءة من قرأ مهلك بضم الميم ، فهو مصدر ميمي من أهلك الرباعي ، ويحتمل أن يكون أيضاً اسم مكان أو زمان .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51)

ذكر جل وعلا في هذه الآيات الكريمة ثلاثة أمور :

الأول : أنه دمر جميع قوم صالح ، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، وذلك في قوله : ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي وهم قوم صالح ثمود ﴿

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ أي خالية من السكان لهلاك جميع أهلها ﴿ بِمَا ظلموا ﴾ أي بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم . وقال بعضهم : خاوية أي ساقطاً أعلاها على أسفلها .

الثاني : أنه جل وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية : أي عبرة يتعظ بها من بعدهم ، فيحذر من الكفر ، وتكذيب الرسل ، لئلا ينزل به من نزل بهم من التدمير . وذلك في قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

الثالث : أنه تعالى أنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب ، وهم نبي الله صالح ومن آمن به من قومه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها جل وعلا هنا جاءت موضحة في آيات أخر .

(84/579)

أما إنجاؤه نبيه صالحاً ، ومن آمن به وإهلاكه ثمود ، فقد أوضحه جل وعلا في مواضع من كتابه كقوله في سورة هود ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ القوي العزيز وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾ [هود :

6668] وآية هود هذه قد بينت أيضاً التدمير المجمل في آية النمل هذه ، فالتدمير المذكور في قوله تعالى : ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بينت آية هود أنه الإهلاك بالصيحة ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [هود : 67] أي وهم موتى ، وأما كونه جعل إهلاكه إياهم آية ، فقد أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع كقوله تعالى فيهم : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَادِمِينَ فَأَخَذَهُمُ العذاب إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ [157 159] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : 51] قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو . وابن عامر : إنا دمرناهم بكسر همزة ، إنا على الاستئناف ، وقرأه الكوفيون وهم : عاصم وحمزة والكسائي : أنا دمرناهم بفتح همزة أنا وفي إعراب المصدر المنسبك من أن وصلتها على قراءة الكوفيين أوجه : منها . أنه بدل من عاقبة مكرهم ، ومنها : أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره هي : أي عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم .

(85/579)

وهذان الوجهان ، هما أقرب الأوجه عندي للصواب ، ولذا تركنا غيرهما من الأوجه ، والضمير في قوله : مكرهم وفي قوله : دمرناهم راجع إلى التسعة المذكورين ، في قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ فِي المدينة تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ [النمل : 48] الآية . وقوله : ﴿ خَاوِيَةً ﴾ حال من بيوتهم ، والعامل فيه الإشارة الكامنة في معنى تلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(86/579)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

مرَّتْ بنا قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه ثمود في سورة الشعراء ، وأُعيد ذكرها هنا ؛ لأن القرآن يقصُّ على رسول الله من موكب الأنبياء ما يُثبِّت به فؤاده ، كلّما تعرض لأحداث تُزلزل الفؤاد ، يعطيه الله النَّجْم من القرآن بما يناسب الظروف التي يمرُّ بها ، وهذا ليس تكراراً للأحداث ، إنما توزيع للقطات ، بحيث إذا تجمعتْ تكاملتْ في بناء القصة .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ [النمل : 45] لا بُدَّ أنه أرسل بشيء ما هو ؟ ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ [النمل : 45] لذلك سُمِّيت (أنْ) التفسيرية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى ﴾ [القصص : 7] ماذا ؟ ﴿

أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: 7] .

وقد يأتي التفسير بجملة، كما في: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ [طه: 120] بأي شيء؟ ﴿ قَالَ يا آدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ﴾ [طه: 120] .

فشرح الوسوسة وهي شيء عام بقوله: ﴿ قَالَ يا آدم ﴾ [طه: 120] فرسالتنا إلى ثمود ملخصها ومؤداها ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ [النمل: 45] .

والعبادة كما ذكرنا أن نطيع الله بفعل ما أمر، وبترْك ما نهى عنه وزَجر، أما ما لم يرِدْ فيه أمر ولا نَهْي فهو من المباحات إنْ شئتَ فعلتها، وإنْ شئت تركتها، وإذا ما استعرضنا حركة الأحياء والخلفاء في الأرض وجدنا 5% من حركتهم تدخّل فيها الشارع بافعل ولا تفعل، أما الباقي فهو مُباح .

إذن: فالتكليف منُوط بأشياء يجب أنْ تفعلها؛ لأن فيها صلاحَ مجتمعك، أو أشياء يجب أن تتركها؛ لأن فيها فساد مجتمعك .

فماذا كانت النتيجة؟

﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل: 45] .

(87/579)

والاختصام أنْ يقف فريق منهم ضد الآخر ، والمراد أن فريقاً منهم عبدوا الله وأطاعوا ، والفريق الآخر عارض وكفر بالله .

وقد وقف عند هذه الآية بعض الذين يحبون أنْ يتهجَّموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن ، وهم يفتقدون الملَكة العربية التي تساعدهم على فَهْم كلام الله ، وإنْ تعلَّموها فنفوسهم غير صافية لاستقبال كلام الله ، وفيهم خُبْث وسُوء نية .

واعتراضهم أن ﴿ فَرِيقَانِ ﴾ [النمل : 45] مثنى و ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل : 45] دالة على الجمع ، فلماذا لم يَقُل : يختصمان ؟ وهذه لغة القرآن في مواضع عدة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : 9] .

والقياس يقتضي أن يقول : اقتتلتا . لكن حين نتدبَّر المعنى نجد أن الطائفة جماعة مقابل جماعة أخرى ، فإنْ حدث قتالٌ حمل كُلٌّ منهم السلاح ، لا أن تتقدم الطائفة بسيف واحد ، فهم في حال القتال جماعة .

لذلك قال (اقتتلوا) بصيغة الجمع ، أما في البداية وعند تقرير القتال فلكُلِّ طائفة منهما رأْي واحد يعبر عنه قائدها ، إذن : فهما في هذه الحالة مثنى .

كما أن الطائفة وإنْ كانت مفردة لفظاً إلا أنها لا تُطلَق إلا على جماعة ، فيقف كل واحد من

الجماعة بسيفه في مواجهة آخر من الطائفة الأخرى .

وهنا أيضاً ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ ﴾ [النمل : 45] أي : مؤمنون وكافرون ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [النمل : 45] لأن كل فرد في هذه الجماعة يقف في مواجهة فرد من الجماعة الأخرى .

(88/579)

وفي موضع آخر ، شرح لنا الحق تبارك وتعالى هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ فالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ والجلود * وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ [الحج : 1922] .

أما الفريق الآخر : ﴿ إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد ﴾ [الحج : 2324] .

فبيَّن لنا الحق سبحانه كل فريق منهما ، وبيَّن مصيره وجزاءه .

ونلحظ هنا ﴿ فَإِذَا ﴾ [النمل : 45] يسمُّونها الفجائية ، ويُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ

فإذا أَسَدٌ بالباب ، والمعنى : أنك فُوجِئْت بشيء لم تكُنْ تتوقعه ، كذلك حدث من الكافرين من قوم ثمود حين قال لهم نبيهم ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ [النمل : 45] لكن يفاجئوننا بأنهم فريقان : مؤمنون وكافرون .

ومنطق العقل والحق والفطرة السليمة يقتضي أنْ يستقبلوا هذا الأمر بالطاعة والتسليم ، ولا يختلفوا فيه هذا الاختلاف : فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : 1314] .

وقالوا : إن الله تعالى لا يرسل الرسل إلا على فساد في المجتمع ، الخالق عز وجل خلق في الإنسان النفس اللوامة التي تردُّه إلى رُشْده وتنهاه ، والنفس المطمئنة التي اطمأنتْ بالإيمان ، وأَمنت الله على الحكم في افعل ولا تفعل ، والنفس الأمَّارة بالسوء ، وهَي التي لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر مُنْكَراً ، ولا تدعو صاحبها إلا إلى السوء .

(89/579)

والله عزَّ وجلَّ رب ، ومن عادة الرب أنْ يتعهّد المربَّي ليؤدي غايته على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يُرَبِّي أبناءه إلا لغاية ؟ وما دام هو سبحانه ربي فلا يأمرني إلا لصالحي ، وصالح مجتمعي ، فلا شيء من طاعتنا يعود عليه بالنفع ولا شيء من معاصينا يعود عليه بالضرر

؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق . إذن : كانت الفطرة السليمة تقتضي استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم .

وهذه الخصومة تجمع المؤمنين في جهة ؛ لأنهم اتفقوا على الإيمان . والكافرين في جهة ؛ لأنهم اتفقوا على الكفر . لكن يمتاز المؤمنون بأن يظل وفاقهم إلى نهاية العمر ، بل وعند لقاء الله تعالى في الجنة ؛ لأنهم اتفقوا في الدنيا في خطة العمل وفي الآخرة في غاية الجزاء ، كما يقول تعالى :

﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

أما الكفار فسوف تقوم بينهم الخصومات يوم القيامة ، ويلعن بعضهم بعضاً ، ويتبرّأ بعضهم من بعض ، والقرآن حين يُصوّر تخاصم أهل النار يقول بعد أنْ ذكر نعيم أهل الجنة :

﴿ هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المهاد * هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النار * قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ القرار * قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النار * وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأشرار * أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصار * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ﴾ [ص : 5564] .

إذن : فالخصومة في الدنيا بين مؤمن وكافر ، أما في الآخرة فبين الكافرين بعضهم البعض ، بين الذين أَضَلُّوا والذي أُضِلُّوا ، بين الذين اتَّبعُوا ، والذي اتُّبعوا .

قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

لما ذُكِرت قصة ثمود في الشعراء ، لم تذكر شيئاً عن استعجال السيئة ، فما هي السيئة التي استعجلوها وربهم عز وجل يلومهم عليها ؟ هي قولهم : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأعراف : 70] .

وعجيب أمْر هؤلاء القوم ، ماذا يفعلون لو نزل بهم ؟ قالوا معاً : حينما تأتينا السيئة نستغفر ونتوب يظنون أن الاستغفار والتوبة تُقبل منهم في هذا الوقت .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا التوبة عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فأولئك يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [النساء : 1718] .

فلماذا تستعجلون السيئة والعذاب ، وكان عليكم أن تستعجلوا الحسنة ، واستعجالكم السيئة يحول بينكم وبين الحسنة ؛ لأنها لن تُقبل منكم ﴿ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل : 46] .

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

(91/579)

اطيَّر : استعمل الطير ، وهذه عملية كانوا يلجئون إليها عند قضاء مصالحهم أو عند سفرهم مثلاً ، فكان الواحد منهم يُمسك بالطائر ثم يرسله ، فإنْ طار ناحية اليمين تفاءل وأقبل على العمل ، وإنْ طار ناحية الشمال تشاءم ، وامتنع عما هو قادم عليه ، يُسمُّونها السانحات والبارحات . فالمعنى : تشاءمنا منك ، وممَّنْ اتبعك .

﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ الله ﴾ [النمل : 47] يعني : قضاء مقضيٌّ عليكم ، وليس للطير دَخْل في أقداركم ، وما يجري عليكم من أحكام ، فيكف تأخذون من حركته مُنطلقاً لحركتكم ؟ إنما طائركم وما يُقدَّر لكم من عند الله قضاء يقضيه .

وفي آية يس : ﴿ قَالُواْ طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس : 19] يعني تشاؤمكم هو كفركم الذي تمسكتم به .

لكن ، لماذا جاء التشاؤم هنا ، ونبيهم يدعوهم إلى الله ؟ قالوا : لأنه بمجرد أنْ جاءهم عارضوه ، فأصابهم قحْط شديد ، وضنَّتْ عليهم السماء بالمطر فقالوا : هو الذي جَرَّ

علينا القَحْط والخراب .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل : 47] الفتنة : إما بمعنى الاختبار والابتلاء ، وإما بمعنى فتنة الذهب في النار .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48)

وهذه المسألة أيضاً لقطة جديدة من القصة لم تُذكَر في الشعراء ، وهكذا كل القَصَص القرآني لو تدبَّره الإنسان لوجده لقطاتٍ متفرقة ، كلٌّ منها يضيف جديداً ، ويعالج أمراً يناسب النجْم القرآني الذي نزل فيه لتثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والرَّهْط : اسم جمع ، لا واحدَ له من لفظه ، ويدل على العدد من الثلاثة إلى العشرة ، فمعنى ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ [النمل : 48] كأنهم كانوا قبائل أو أسراً أو فصائل ، قبيلة فلان وقبيلة فلان . . إلخ .

(92/579)

﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ [النمل : 48] فلماذا قال بعدها : ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : 48] ؟ قالوا : لأن الإنسان قد يُفسد في شيء ، ويُصلح في آخر ، كالذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء عسى الله أنْ يتوبَ عليهم .

أما هؤلاء القوم ، فكانوا أهل فساد مَحْض لا يعرفون الصلاح ، فإنْ رأوْه عمدوا إليه فأفسدوه ، فكأنهم مُصِرُّون على الإفساد ، وللإفساد قوم ينتفعون به ، لذلك يدافعون عنه ويعارضون في سبيله أهل الإصلاح والخير ؛ لأنهم يُعطِّلون عليهم هذه المنفعة .

وقلنا : إن صاحب الدين والخلق والمبادىء في أيِّ مصلحة تراه مكروهاً من هذه الفئة التي تنتفع من الفساد ، يهاجمونه ويتتبعونه بالهَمْز واللمز ، يقولون : حنبلي ، وربما يهزأون به . . إلخ ؛ لذلك لم يقف في وجه الرسل إلا هذه الطائفة المنتفعة بالفساد .

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49)

﴿ قَالُواْ ﴾ [النمل : 49] أي : الرهط ﴿ تَقَاسَمُواْ بِاللّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [النمل : 49] انظر إلى هذه البجاحة وقلة العقل وتفاهة التفكير : إنهم يتعاهدون ويُقسمون بالله أنْ يقتلوا رسول الله ، وهذا دليل غبائهم ، وكأن الحق تبارك وتعالى يجعل لهم منافذ يظهر منها حُمْقهم وقِلّة عقولهم .

ومعنى ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ [النمل : 49] نُبيِّته : نجعله ينام بالليل ، والبيتوتة أن ينقطع الإنسان عن الحركة حال نومه ، ثم يعاود الحركة بالاستيقاظ في الصباح ، لكن هؤلاء يريدون أنْ يُبيِّتوه بيتوتة لا قيامَ منها . والمعنى : نقتله .

فإذا ما جاء أولياء الدم يطالبوننا بدمه ﴿ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ [النمل : 49] أي : وليّ الدم من عُصْبته ورحمه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [النمل : 49] أي : ما شهدنا مقتل أهله ، فمن باب أَوْلَى ما شهدنا مقْتله ، ولا نعرف عنه شيئاً .

هذا ما دبره القوم لنبي الله صالح عليه السلام يظنون أن الله يُسْلِم رسوله ، أو يُمكِّنهم من قتله ، فحاكوا هذه المؤامرة ولم يفتهم تجهيز الدفاع عن أنفسهم حين المساءلة ، هذا مكرهم وتدبيرهم .

وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50)

معنى ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ [النمل : 50] أي : ما دبّروه لقتل نبي الله ورسوله إليهم ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ [النمل : 50] وفَرْق بين مكر الله عز وجل ﴿ والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54] وبين مكْر الكافرين ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] .

إذن : حين تمكر بخير ، فلا يُعَدُّ مكْراً ، إنما إبطال لمكْر العدو ، فلا يجوز لك أنْ تتركه يُدبّر لك ويمكُر بك ، وأنت لا تتحرك ؛ لذلك قال تعالى ﴿ والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [الأنفال : 30] لأنهم يمكرون بشرٍّ ، ونحن نمكر لدفع هذا الشر لنُصْرة رسولنا ، ونجاته من تدبيركم .

والمكْر : مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة ، وهذا في الشجر رفيع السَّاق المتسلق حين تلتفُّ سيقانه وأغصانه ، بعضها على بعض ، فلا تستطيع أن تُميِّزها من بعضها ، فكُلٌّ منها ممكور في الآخر مستتر فيه ، وكذلك المكر أن تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل : 50] أي : أنه مكْر محبوك ومحكم ، بحيث لا يدري به الممكور به ، وإلا لا يكون مَكْراً .

(94/579)

وحين نتأمل : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : 43] و ﴿ والله خَيْرُ الماكرين ﴾ [آل عمران : 54] نعلم أن المكر لا يُمدح ولا يُذمُّ لذاته ، إنما بالغاية من ورائه ، كما في قوله تعالى عن الظن : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن ﴾ [الحجرات : 12] فالظن منه الخيِّر ومنه السيىء .

ونسمع الآن تعبيراً جديداً يعبر عما يدور في المجتمع من انتشار المكر وسوء الظن ، يقولون : الصراحة مكر القرن العشرين ، فالذي يمكر بالناس يظن أنهم جميعاً ماكرون فلا يصدق كلامهم ، ويحتاط له حتى إنْ كان صدقاً ، فأصبح المكر وسوء الظن هو القاعدة ، فإنْ صارحتَ الماكر لا يُصدقك ويقول في نفسه : إنه يُعمى عليَّ أو يُضلِّلني .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51)

أي : تأمل ما حاق بهم لما مكروا بنبي الله ، واتفقوا على التبييت له وقَتْله ، يُرْوى أنهم لما دخلوا عليه أُلْقي على كل واحد منهم حجر لا يدري من أين أتاه ، فهلكوا جميعاً ، فقد سخَّر الله له ملائكة تولَّتْ حمايته والدفاع عنه .

أو : أن الله تعالى صنع له حيلة خرج بها وذهب إلى حضرموت ، وهناك مات عليه السلام ، فَسُمِّيت حضرموت . وآخرون قالوا : بل ذهبوا ينتظرونه في سفح جبل ، واستتروا خلف صخرة ليُوقِعوا به فسقطت عليهم الصخرة فماتوا جميعاً .

المهم ، أن الله دمرهم بأيِّ وسيلة من هذه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : 31] لقد أرادوا أنْ يقتلوه وأهلَه ، فأهلكهم الله .

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ [النمل : 52] دليل على أن الله أهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحداً ، وتُرِكَتْ بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً ﴾ [النمل : 52] عبرة وعظة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : 52] .

(95/579)

وفي مقابل إهلاك الكافرين : ﴿ وَأَنجَيْنَا الذين آمَنُواْ ﴾

فمن آمن واتقى من قوم صالح نجّاه الله عز وجل من العذاب الذي نزل بقومهم قوم ثمود .

انتهى الكلام هنا عن قصة ثمود ، وحين نقارن الأحداث هنا بما ورد في سورة الشعراء نجد أحداثاً جديدة لم تُذكَر هناك ، كما لم يذكر هنا شيئاً عن قصة الناقة التي وردتْ هناك ، مما يدلُّ على تكامل لقطات القصة في السور المختلفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(96/579)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ قال : مؤمن ، وكافر ، قولهم صالح مرسل من ربه . وقولهم ليس بمرسل . وفي قوله ﴿ لم تستعجلون بالسيئة ﴾ قال : العذاب ﴿

قبل الحسنة ﴾ قال : الرحمة . وفي قوله ﴿ قالوا اطيرنا بك ﴾ قال : تشاءمنا . وفي قوله ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط ﴾ قال : من قوم صالح . وفي قوله ﴿ تقاسموا بالله ﴾ قال : تحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى أهلكوا وقومهم أجمعين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ قال : إن القوم بين مصدق ومكذب . مصدق بالحق ونازل عنده ، ومكذب بالحق تاركه . في ذلك كانت خصومة القوم ﴿ قالوا اطيرنا بك ﴾ قال : قالوا : ما أصبنا من شر فإنما هو من قبلك ومن قبل من معك قال ﴿ طائركم عند الله ﴾ يقول : علم أعمالكم عند الله ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ قال : تبتلون بطاعة الله ومعصيته ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط ﴾ قال : من قوم صالح ﴿ قالوا : تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ قال : توافقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه قال : ذكر لنا أنهم بينما هم معانيق إلى صالح - يعني مسرعين - ليقتلوه بعث الله عليهم صخرة فأخمدتهم ﴿ ثم لنقولن لوليه ﴾ يعنون رهط صالح ﴿ ومكروا مكراً ﴾ قال : مكرهم الذي مكروا بصالح ﴿ ومكرنا مكراً ﴾ قال : مكر الله الذي مكر بهم : رماهم بصخرة فأهمدتهم ﴿ فانظر كيف كان ﴾ مكرهم قال : شر والله ﴿ كان عاقبة مكرهم ﴾ أن دمرهم الله وقومهم أجمعين ثم صيرهم إلى النار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ طائركم ﴾ قال : مصائبكم .

(97/579)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط ﴾ قال : كان أسماؤهم زعمي ، وزعيم ، وهرمي ، وهريم ، وداب ، وهواب ، ورياب ، وسيطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط ﴾ قال : وهم الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها تبيتن صالحاً وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به علم فدمرهم الله أجمعين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عطاء بن أبي رباح ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ قال : كانوا يقرضون الدراهم . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(98/579)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَنِ اعبدوا ﴾ :

يجوز في " أَنْ " أَنْ تكونَ مُفَسِّرةً ، وأَنْ تكونَ مصدريةً أي : بأَنْ اعْبُدوا ، فيجيء في محلِّها القولان .

قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ ﴾ تقدَّم الكلامُ في " إذا " الفجائيةِ . والمرادُ بالفريقين : قومُ صالحٍ ، وأنهم انقسموا فريقين : مؤمن وكافر . وقد صَرَّح بذلك في الأعراف حيث قال تعالى : ﴿ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ ﴾ [الأعراف : 75] . وجَعَلَ الزمخشري الفريقَ الواحدَ صالحاً وحدَه ، والأخر جميعَ قومِه . وحَمَلَه على ذلك العطفُ بالفاءِ ؛ فإنَّه يُؤْذِنُ أنه بمجرَّدِ إرسالِه صاروا فريقَيْنِ ، ولا يصيرُ قومُه فريقين إلاَّ بعد زمانٍ ولو قليلاً . و " يَخْتَصمون " صفةٌ لـ " فريقان " كقولِه : ﴿ هذان خَصْمَانِ اختصموا ﴾ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ . واختير هنا مراعاةُ الجَمْعِ لكونِها فاصلةً .

قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

وقُرِئَ " تَطَيَّرْنا بك " وهو الأصلُ وأُدْغِمَ . وقد تقدَّم تقريرُه .

قوله : ﴿ تُفْتَنُونَ ﴾ جاء بالخطاب مراعاةً لتقدُّمِ الضميرِ . ولو رُوْعِيَ ما بعدَه لقيل : " يُفْتَنُون " بياءِ الغَيْبة ، وهو جائزٌ ، ولكنه مرجوحٌ . وتقول : أنت رجلٌ تَفْعل ، ويَفْعل ، بالتاء

والياء ، ونحن قومٌ نقرأ ويَقْرؤون .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48)

(99/579)

قوله : ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ : الأكثرُ أَنَّ تمييزَ العددِ بهذا مجرورٌ ب " مِنْ " كقولِه : ﴿ أَرْبَعَةً مِّنَ الطير ﴾ [البقرة : 260] . وفي المسألةِ مذاهبُ ، أحدُها : أنه لا يجوزُ إلاَّ في قليلٍ . الثاني : أنه يجوزُ ، ولكن لا ينقاس . الثالث : التفصيل بين أن/ يكونَ للقلة كرَهْطٍ ونَفَرٍ فيجوزَ أو للكثرةِ فقط ، أو لها وللقلةِ فلا يجوز ، نحو : تسعةُ قوم . ونَصَّ سيبويه على امتناعِ " ثلاث غنم " . قال الزمخشري : " وإنما جاز تمييزُ التسعةِ بالرَّهْطِ لأنه في معنى الجمعِ كأنه قيل : تسعةُ أنفسٍ " قال الشيخ : " وتقديرُ غيرِه " تسعة رجالٍ " هو الأولى لأنه من حيث أضافَ إلى أنْفُس كان ينبغي أَنْ يقولَ " تِسْع أنفس " ، على تأنيث النفس ؛ إذ الفصيحُ فيها التأنيثُ . ألا تراهُمْ عَدُّوا من الشذوذِ قولَ الشاعر :

3576 ثلاثةُ أَنْفُسٍ وثلاثُ ذَوْدٍ . . . . . .

. . . . . .

قلت : وإنما أراد تفسيرَ المعنى .

قوله : ﴿ يُفْسِدُونَ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ نعتاً للمعدودِ أو العددِ ، فيكونَ في موضع جرٍّ أو رفعٍ .

قوله : ﴿ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ قيل : مؤكِّدٌ للأولِ . وقيل : ليس مؤكِّداً ؛ لأنَّ بعض المفسدين قد يُصْلِحُ في وقتٍ ما ، فأخْبَرَ عن هؤلاءِ بانتفاءِ تَوَهُّمِ ذلك .

قوله : ﴿ تَقَاسَمُواْ ﴾ :

(100/579)

يجوز في " تقاسموا " أَنْ يكونَ أمراً أي : قال بعضُهم لبعضٍ : احْلِفُوا على كذا . ويجوز أن يكونَ فعلاً ماضياً ، وحينئذٍ يجوز أَنْ يكونَ مفسِّراً ل " قالوا " ، كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقيل : تقاسَمُوا . ويجوز أَنْ يكونَ حالاً على إضمار " قد " أي : قالوا ذلك متقاسِمِيْن ، وإليه ذهب الزمخشري ، فإنه قال : "يُحْتمل أَنْ يكونَ أمراً وخبراً في محلِّ الحالِ بإضمار قد " . قال الشيخ : " أمَّا قولهُ : " وخبراً " فلا يَصِحُّ لأنَّ الخبرَ أحدُ قسمَيْ الكلام ؛ لأنه ينقسم إلى الخبرِ والإنشاء ، وجميعُ معانيه إذا حُقِّقَتْ راجعةٌ إلى هذين القسمين " . قلت : ولا أدري : عدمُ الصحة مِنْ ماذا ؟ لأنه جَعَلَ الماضي خبراً لاحتمالِه الصدقَ والكذبَ مقابلاً للأمرِ الذي لا يَحْتَملهما . أمَّا كونُ الكلامِ لا ينقسِمُ إلاَّ إلى خبر وإنشاء ، وأنَّ معانِيَه إذا حُقِّقَتْ

تَرْجِعُ إليهما ، فأيُّ مَدْخلٍ لهذا في الردّ على أبي القاسم ؟

ثم قال الشيخ : والتقييدُ بالحالِ ليس إلاَّ من باب نسبةِ التقييدِ لا من نسبةِ الكلامِ التي هي الإسنادُ ، فإذا أُطْلِقَ عليها الخبرُ كان ذلك على تقديرِ : أنَّها لو لم تكنْ حالاً لجازَ أَنْ تُستعملَ خبراً . وكذلك قولُهم في الجملةِ الواقعةِ صلةٌ : هي خبريةٌ فهو مجازٌ والمعنى : أنها لو لم تكن صلةً لجاز أَنْ تُستَعْمَلَ خبراً وهذا فيه غموضٌ " . قلت : مُسَلَّمٌ أنَّ الجملةَ ما دامَتْ حالاً أو صلةً لا يُقال لها : خبرية ، يعني أنها تَسْتَقِلُّ بإفادةِ الإسنادِ ؛ لأنها سِيْقَتْ مَسَاقَ القَيْدِ في الحالِ ومَسَاقَ جزءِ كلمةٍ في الصلةِ ، وكان ينبغي أن تُذْكَرَ أيضاً الجملةُ الواقعةُ صفةً فإن الحكمَ فيها كذلك .

(101/579)

ثم قال : " وأمَّا إضمارُ " قد " فلا يُحتاج إليه لكثرةِ وقوعِ الماضي حالاً دون " قد " ، كثرةً ينبغي القياسُ عليها " قلت : الزمخشريُّ مشى مع الجمهورِ ؛ فإنَّ مذهَبهم أنه لا بُدَّ من " قد " ظاهرةً أو مضمرةً لتُقَرِّبَه من الحال .

وقرأ ابنُ أبي ليلى " تَقَسَّموا " دونَ ألفٍ مع تشديد السين . والتقاسُمُ والتَّقَسُّم كالتظاهُر والتظَهُّر .

قوله : ﴿ بالله ﴾ إن جَعَلْتَ " تقاسَمُوا " أمراً تَعَلَّق به الجارُّ قولاً واحداً ، وإنْ جَعَلْتَه ماضياً احْتَمَلَ أَنْ يَتعلَّقَ به ، ولا يكونُ داخلاً تحت المَقُول ، والمقولُ هو " لَنُبَيِّتَنَّه " إلى آخره . واحتمل أَنْ يَتَعَلَّقَ بمحذوفٍ هو فعلُ القسمِ ، وجوابه " لَنُبَيِّتَنَّه " فعلى هذا يكونُ مع ما بعده داخلاً تحتَ المَقُوْلِ .

قوله : ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ قرأ الأخَوان بتاءِ الخطابِ المضمومةِ وضمِّ التاءِ ، والباقون بنونِ المتكلِّمِ وفتحِ التاءِ . " ثم لَنَقولَنَّ " قرأه الأخَوان بتاءِ الخطابِ المفتوحةِ وضمِّ اللامِ . والباقون بنونِ المتكلمِ وفتحِ اللامِ .

ومجاهد وابن وثاب والأعمش كقراءة الأخَوَيْن ، إلاَّ أنه بياءِ الغَيْبة في الفعلين . وحميد ابن قيس كهذه القراءةِ في الأولِ وكقراءةِ غيرِ الأخوين من السبعةِ في الثاني .

(102/579)

فأمَّا قراءةُ الأخَوَيْن : فإنْ جَعَلْنا " تقاسَمُوا " فعلَ أمرٍ فالخطابُ واضحٌ رجوعاً بآخرِ الكلامِ إلى أولِه . وإنْ جَعَلْناه ماضياً فالخطابُ على حكايةِ خطابِ بعضِهم لبعضٍ بذلك . وأمَّا قراءةُ بقيةِ السبعةِ : فإنْ جَعَلْناه ماضياً أو أمراً ، فالأمرُ فيها واضحٌ وهو حكايةُ/ أخبارِهم عن أنفسِهم . وأمَّا قراءةُ الغَيْبَةِ فيهما فظاهرةٌ على أن يكونَ " تَقاسَمُوا " ماضياً رُجُوعاً

بآخرِ الكلامِ على أولِه في الغَيْبَةِ . وإنْ جَعَلْناه أمراً كان " لَنُبيِّتَنَّه " جواباً لسؤالٍ مقدرٍ كأنه قيل : كيف تقاسَمُوا ؟ فقيل : لنبيِّتَنه . وأمَّا غيبةُ الأولِ والتكلمُ في الثاني فتعليلُه مأخوذٌ مِمَّا تقدَم في تعليلِ القراءتين .

(103/579)

قال الزمخشري : " وقُرِىءَ " لَنُبيِّتَنَّه " بالياء والتاء والنون . فتقاسَموا مع التاءِ والنونِ يَصِحُّ فيه الوجهان " يعني يَصِحُّ في " تقاسَمُوا " أن يكونَ أمراً ، وأَنْ يكونَ خبراً قال : " ومع الياء لا يَصِحُّ إلاَّ أَنْ يكونَ خبراً " . قلت : وليس كذلكِ لما تقدَّم : مِنْ أَنَّه يكونُ أمراً ، وتكون الغيْبَةُ فيما بعده جواباً لسؤالٍ مقدرٍ . وقد تابع الزمخشريَّ أبو البقاء على ذلك فقال : " تقاسَمُوا " فيه وجهان ، أحدهما : هو أمرٌ أي : أمَرَ بعضُهم بذلك بعضاً . فعلى هذا يجوزُ في " لَنُبَيِّتَنَّه " النونُ تقديرُه : قولوا : لَنُبَيِّتَنَّهُ ، والتاءُ على خطابِ الآمرِ المأمورَ . ولا يجوزُ الياء . والثاني : هو فعل ماضٍ . وعلى هذا يجوز الأوجهُ الثلاثةُ يعني بالأوجه : النونَ والتاءَ والياءَ . قال : " وهو على هذا تفسيرٌ " أي : تقاسَمُوا على كونِه ماضياً : مُفَسِّرٌ لنفسِ " قالوا " . وقد سبقَهما إلى ذلك مكيٌّ . وقد تقدَّم توجيهُ ما منعوه ولله الحمدُ والمِنَّة .

وتنزيلُ هذه الأوجه بعضِها على بعضٍ مما يَصْعُبُ استخراجُه مِنْ كلام القوم ، وإنما رَتَّبْتُه من

أقوال شَتَّى . وتقدَّم الكلامُ في ﴿ مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ في النمل .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51)

(104/579)

قوله : ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ : قرأ الكوفيون بالفتح . والباقون بالكسر . فالفتح من أوجهٍ ، أحدُها : أَنْ يكونَ على حَذْفِ حرفِ الجرّ ؛ أي : لأَنَّا دَمَّرْناهم . و "كان" تامةٌ و "عاقبةٌ" فاعلٌ بها ، و "كيفَ" حالٌ . الثاني : أَنْ يكونَ بدلاً من "عاقبة" أي : كيف كان تدميرُنا إيَّاهم بمعنى : كيف حَدَثَ . الثالث : أَنْ يكونَ خبرَ مبتدأ محذوفٍ أي : هي أَنَّا دَمَّرْناهم أي : العاقبةُ تدميرُنا إياهم . ويجوزُ مع هذه الأوجهِ الثلاثةِ أَنْ تكونَ "كان" ناقصةً ، وتُجْعَلَ "كيف" خبرَها ، فتصيرَ الأوجهُ ستةً : ثلاثةً مع تمام "كان" وثلاثةً مع نُقْصانها . ويُزاد مع الناقصة وجهٌ أخر : وهو أَنْ تُجْعَلَ "عاقبة" اسمَها و "أَنَّا دَمْرناهم" خبرَها و "كيف" حالٌ . فهذه سبعةُ أوجهٍ .

والثامن : أَنْ تكونَ "كان" زائدةً ، و "عاقبة" مبتدأٌ ، وخبرُه "كيف" و "أَنَّا دَمَّرْناهم" بدلٌ مِنْ "عاقبة" أو خبرُ مبتدأ مضمرٍ . وفيه تَعَسُّفٌ . التاسع : أنها على حَذْفِ الجارِّ أيضاً ، إلاَّ أنه الباءُ أي : بأَنَّا دمَّرْناهم ، ذكره أبو البقاء . وليس بالقويِّ . العاشر : أنها بدل

مِنْ "كيف" وهذا وَهْمٌ من قائِله لأنَّ المبدل من اسمِ الاستفهام يَلْزَمُ معه إعادةُ حرفِ الاستفهامِ نحو: "كم مالكُ أعشرون أم ثلاثون"؟ وقال مكي: "ويجوز في الكلام نصبُ "عاقبة"، ويُجْعَلُ "أنَّا دمَّرْناهم" اسمَ كان" انتهى. بل كان هذا هو الأرجحَ، كما كان النصبُ في قولِه "فما كان جوابَ قومه إلاَّ أَنْ قالوا" ونحوِه أرجحَ لما تقدَّم مِنْ شَبَهِهِ بالمضمرِ لتأويله بالمصدرِ، وقد تقدَّم تحقيقُ هذا.

(105/579)

وقرأ أُبَيٌّ "أَنْ دَمَّرْناهم" وهي أَنْ المصدريةُ التي يجوز أَنْ تَنْصِبَ المضارعَ، والكلامُ فيها كالكلامِ على "أنَّا دَمَّرْناهم". وأمَّا قراءةُ الباقين فعلى الاستئنافِ، وهو تفسيرٌ للعاقبةِ. و"كان" يجوز فيها التمامُ والنقصانُ والزيادةُ. وكيف وما في حَيِّزها في محلِّ نصب على إسقاطِ الخافض، لأنه مُعَلِّق للنظرِ.

و"أَجْمعين" تأكيدٌ للمعطوفِ والمعطوفِ معاً.

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52)

قوله: ﴿خَاوِيَةً﴾: العامَّةُ على نصبها حالاً. والعامل فيها معنى اسمِ الإشارة. وقرأ عيسى "خاويةٌ" بالرفع: إمَّا على خبر "تلك" "بيوتُهم" بدلٌ مِنْ "تلك"، وإمَّا خبرٌ ثانٍ

و " بيوتُهم " خبرٌ أولُ ، وإمَّا على خبرِ مبتدأ محذوف أي : هي خاويةٌ ، وهذا إضمارٌ مستغنى عنه . و ﴿ بِمَا ظلموا ﴾ متعلقٌ ب " خاوية " أي : بسببِ ظُلْمهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 621. 627 ﴾

(106/579)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

ذكر قصةَ ثمود ، وقصة نبيِّهم صالح عليه السلام ، وما جرى بينه وبينهم من التكذيب ، وطلبهم منه معجزةً ، وحديث الناقة وعقرها ، وتبرمهم بالناقة بعد أن رأوا فيها من الفعل الذي كانت لهم فيه أعظم آية . . . إلى قوله :

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ .

ومَكْرُهُم ما أظهروا في الظاهر من موافقة صالح ، وعقرهم الناقة خفيةٌ ، وتوريك الذَّنبِ على غير جارمه ، والتبرّي من اختيارهم ذلك .

وأمَّا مَكْرُ اللَّهِ جزاؤهم على مَكِرْهم بإخفاء ما أراد بهم من العقوبة عنهم ، ثم إحلالهم بهم بغتةً . فالمَكْرُ من الله تخليتُه إياهم مع مَكْرِهم بحيث لا يعصمهم ، وتزيينُ ذلك في أعينهم ، وتحبيبُ ذلك إليهم . . . ولو شاء لَعَصَمَهُم . ومن أليم مَكْرِه انتشارُ الصيت بالصلاح ، والعمر في السِّرِّ بخلاف ما يتوهم بهم من الصلاح ، وفي الآخرة لا يَجُوزُ في سُوقِها هذا النَّقْدُ ! .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51)

أهلكهم ولم يغادر منهم أحداً .

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52)

وفي الخبر : " لو كان الظلمُ بيتاً في الجنة لَسَلَّطَ اللَّهُ عليه الخرابَ " ؛ فالنفوسُ إذا ظَلَمت بِزَلاَّتها خربت بلحوقها شؤم الذَّلة حتى يتعود صاحبُها الكسلَ ، ويستوطن مركبَ الفشل ، ويُحْرَم التوفيق ، ويتوالى عليه الخذلانُ وقسوةُ القلب وجحودُ العين وانتفاءُ تعظيمِ الشريعة من القلب . وأصحابُ القلوبِ إذا ظلموها بالغفلة ولم يحاولوا طَرْدَها عن قلوبهم . . . خربت قلوبُهم حتى تقسوا بعد الرأفة ، وتجف بعد الصفوة .

(107/579)

فخرابُ النفوس باستيلاء الشهوة والهفوة ، وخرابُ القلوب باستيلاء الغفلة والقسوة ، وخراب الأرواح باستيلاء الحجبة والوقفة ، وخراب الأسرار باستيلاء الغيبة والوحشة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 41.42 ﴾

(108/579)

قوله تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فرغ من قصة القريب الذي دعا قومه فإذا هم قسمان ، بعد الغريب الذي لم يختلف عليه ممن دعاهم اثنان ، اتبعها بغريب لم يتبعه ممن دعاهم إنسان ، فقال دالاً على أنه له سبحانه الاختيار ، فتارة يجري الأمور على القياس ، وأخرى على خلاف الأساس ، الذي تقتضيه عقول الناس ، فقال : ﴿ ولوطاً ﴾ أي ولقد أرسلناه ؛ وأشار إلى سرعة إبلاغه

بقوله : ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قال لقومه ﴾ أي الذين كان سكن فيهم لما فارق عمه إبراهيم الخليل عليه السلام وصاهرهم ، وكانوا يأتون الأحداث ، منكراً موبخاً : ﴿ أتأتون ﴾ ولما كان للإبهام ثم التعيين من هز النفس وترويعها ما ليس للتعيين من أول الأمر قال :

﴿ الفاحشة ﴾ أي الفعلة المتناهية في القبح ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ أي لكم عقول تعرفون بها المحاسن والمقابح ، وربما كان بعضهم يفعله بحضرة بعض كما قال ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ [العنكبوت : 29] فيكون حينئذ من البصر والبصيرة ؛ ثم أتبع هذا الأنكار إنكاراً آخر لمضمون جملة مؤكدة أتم التأكيد ، إشارة إلى أن فعلتهم هذه مما يعي الواصف ، ولا يبلغ كنه قبحها ولا يصدق ذو عقل أن أحداً يفعلها ، فقال معيناً لما أبهم : ﴿ أئنكم لتأتون ﴾ وقال : ﴿ الرجال ﴾ تنبيهاً على بعدهم عما يأتونه إليهم ، ثم علله بقوله :

﴿ شهوة ﴾ إنزالاً لهم إلى رتبة البهائم التي ليس فيها قصد ولد ولا عفاف ؛ وقال : ﴿ من دون ﴾ أي إتياناً مبتدئاً من غير ، أو أدنى رتبة من رتبة ﴿ النساء ﴾ إشارة إلى أنهم أساؤوا من الطرفين في الفعل والترك .

(109/579)

ولما كان قوله : ﴿ شهوة ﴾ ربما أوهم أنهم لا غنى بهم عن إتيانهم للشهوة الغالبة لكن النساء لا تكفيهم ، لذلك نفى هذا بقوله : ﴿ بل ﴾ أي إنكم لا تأتونهم لشهوة محوجة بل ﴿ أنتم قوم ﴾ ولما كان مقصود السورة إظهار العلم والحكمة ، وكانوا قد خالفوا ذلك إما بالفعل وإما لكونهم يفعلون من الإسراف وغيره عمل الجهلة ، قال : ﴿ تجهلون ﴾ أي تفعلون ذلك إظهاراً للتزين بالشهوات فعل المبالغين في الجهل الذين ليس لهم نوع علم في التجاهر بالقبائح خبثاً وتغليباً لأخلاق البهائم ، مع ما رزقكم الله من العقول التي أهملتموها حتى غلبت عليها الشهوة ، وأشار إلى تغاليهم في الجهل وافتخارهم به بما سببوا عن ذلك بقوله : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ أي لهذا الكلام الحسن لما لم يكن لهم حجة في دفعه بل ولا شبهة ﴿ إلا أن ﴾ صدقوه في نسبته لهم إلى الجهل بأن ﴿ قالوا ﴾ عدولاً إلى المغالبة وتمادياً في الخبث ﴿ أخرجوا آل لوط ﴾ فأظهر ما أضمره في الأعراف لأن الإظهار أليق بسورة العلم والحكمة وإظهار الخبء ، وقالوا ؛ ﴿ من قريتكم ﴾ مناً عليه بإسكانه عندهم ؛ وعللوا ذلك بقولهم : ﴿ إنهم ﴾ ولعلهم عبروا بقولهم : ﴿ أناس ﴾ مع صحة المعنى بدونه تهكماً عليه لما فهموا من أنه أنزلهم إلى رتبة البهائم ﴿ يتطهرون ﴾ أي يعدون أفعالنا نجسة ويتنزهون عنها .

(110/579)

فلما وصلوا في الخبث إلى هذا الحد ، سبب سبحانه عن قولهم وفعلهم قوله : ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ أي كلهم ، أي من أن يصلوا إليه بأذى أو يلحقه شيء من عذابنا ﴿ إلا امرأته ﴾ فكأنه قيل : فما كان من أمرها ؟ فقيل : ﴿ قدرناها ﴾ أي جعلناها بعظمتنا وقدرتنا في الحكم وإن كانت خرجت معه ﴿ من الغابرين ﴾ أي الباقين في القرية في لحوق وجوههم والداهية الدهياء أنفسهم وديارهم حتى كانوا كأمس الدابر ﴿ وأمطرنا ﴾ وأشار إلى أنه إمطار عذاب بالحجارة مع تعديته بالهمزة وهو معدى بدونها فصارت كأنها لإزالة الإغاثة بالإتيان بضدها بقوله : ﴿ عليهم ﴾ وأشار إلى سوء الأثر لاستلزامه سوء الفعل الذي نشأ عنه وغرابته بقوله : ﴿ مطراً ﴾ أي وأيّ مطر ؛ ولذلك سبب عنه قوله : ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ أي الذين وقع إنذارنا لهم الإنذار الذي هو الإنذار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 434.436 ﴾

(111/579)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) ﴾

القصة الرابعة قصة لوط عليه السلام

قال صاحب "الكشاف" ، واذكر لوطاً أو أرسلنا لوطاً بدلالة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ [النمل : 45] عليه ، و (إذ) بدل على الأول ظرف على الثاني .

أما قوله : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ فهو على وجه التنكير وإن كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ .

أما قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ففيه وجوه : أحدها : أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لأجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخه لهم ماله عظم ذلك الفعل وثانيها : أن المراد بصر القلب أي تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وأن الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته وثالثها : تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم ، فإن قلت فسرت (تبصرون) بالعلم وبعده ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ فكيف يكونون علماء وجهلاء ؟ قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها ، ثم إنه تعالى بين جهلهم بأن حكى عنهم أنهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جواباً له فقال : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ فجعلوا الذي لأجله يخرجون أنهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا

يوجب تنعيمهم وتعظيمهم أولى لكن في المفسرين من قال : إنما قالوا ذلك على وجه الهزء ، ثم بين تعالى أنه نجاه وأهله إلا امرأته وأهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحاً ، والله أعلم ، وههنا آخر القصص في هذه السورة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 175.176 ﴾

(112/579)

وقال ابن عطية :

ثم قال تعالى ﴿ ولوطاً ﴾ تقديرة " واذكر لوطاً " ، و ﴿ الفاحشة ﴾ إتيان الرجال في الأدبار ، و ﴿ تبصرون ﴾ معناه بقلوبكم أنها خطيئة وفاحشة ، وقالت فرقة ﴿ تبصرون ﴾ بأبصاركم لأنهم كانوا ينكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضهم من بعض ، واختلف القراء في قوله ﴿ أئنكم ﴾ وقد تقدم ، وقرأ جمهور الناس " جوابَ " نصباً ، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق " جوابُ " بالرفع ، ونسب ابن جني قراءة النصب إلى الحسن وفسّرها في الشاذ ، وأخبر الله تعالى عن قوم لوط أنهم تركوا في جوابهم طريق الحجة وأخبروا بالمبالغة فتآمروا بإخراجه وإخراج من آمن معه ثم ذموهم بمدحه ، وهي " التطهر " من هذه الدناءة التي أصفقوا هم عليها قال قتادة ها بوهم والله بغير عيب ، وقرأ عاصم

في رواية أبي بكر " قدرناها " بتخفيف الدال ، وقرأ جمهور القراء " قدّرناها " بشدّ الدال ، الأولى بمعنى جعلناها وحصلناها والثانية بمعنى قدرناها عليها من القضاء والقدر ، و" الغابرون " ، الباقون في العذاب ، وغنبر بمعنى بقي ، وقد يجيء أحياناً في بعض كلام العرب يوهم أنه بمعنى مضى ، وإذا تؤمل توجه حمله على معنى البقاء ، و" المطر " الذي مطر عليه هي حجارة السجيل أهلكت جميعهم ، وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرجم في اللوطية ، وبها تأنس لأن الله تعالى عذبهم على كفرهم به وأرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم ولم يقس هذا القول على الزنا فيعتبر الإحصان .

بل قال مالك وغيره يرجمان في اللوطية أحصنا أو لم يحصنا وإنما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم " اقتلوا الفاعل والمفعول به " فذهب من ذهب إلى رجمهما بهذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(113/579)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾

أي وأرسلنا لوطاً ، أو اذكر لوطاً .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ وهم أهل سدوم .

وقال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة .

﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة ، وذلك أعظم لذنوبكم .

وقيل : يأتي بعضكم بعضاً وأنتم تنظرون إليه .

وكانوا لا يستترون عتوّاً منهم وتمرّداً .

﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء ﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة .

واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها ؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الاستفهام .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي عن أدبار الرجال .

يقولون ذلك استهزاء منهم ؛ قاله مجاهد .

وقال قتادة : عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغابرين ﴾ وقرأ عاصم : ﴿ قَدَرْنَا ﴾ مخففاً والمعنى واحد .

يقال قد قَدَرتُ الشيءَ قَدْراً وقَدَراً وقدّرته .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ أي من أُنذر فلم يقبل الإنذار .

وقد مضى بيان هذا في "الأعراف" و"هود" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(114/579)

وقال أبو حيان :

﴿ ولوطاً ﴾ : عطف على ﴿ صالحاً ﴾ ، أي وأرسلنا لوطاً ، أو على ﴿ الذين آمنوا ﴾ ، أي وأنجينا لوطاً ، أو باذكر مضمرة ، وإذ بدل منه ، أقوال .

و ﴿ أتأتون ﴾ : استفهام إنكار وتوبيخ ، وأبهم أولاً في قوله : ﴿ الفاحشة ﴾ ، ثم عينها في قوله : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ ، وقوله : ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ : أي تعلمون قبح هذا الفعل المنكر الذي أحدثتموه ، وأنه من أعظم الخطايا ، والعلم بقبح الشيء مع إتيانه أعظم في الذنب ، أو آثار العصاة قبلكم ، أو ينظر بعضكم إلى بعض لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك مجانة وعدم اكتراث بالمعصية الشنعاء ، أقوال ثلاثة .

وانتصب ﴿ شهوة ﴾ على أنه مفعول من أجله ، و ﴿ تجهلون ﴾ غلب فيه الخطاب ، كما غلب في ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ .

ومعنى : ﴿ تجهلون ﴾ ، أي عاقبة ما أنتم عليه ، أو تفعلون فعل السفهاء المجان ، أو فعل من جهل أنها معصية عظيمة مع العلم أقوال .

ولما أنكر عليهم ونسب إلى الجهل ، ولم تكن لهم حجة فيما يأتونه من الفاحشة ، عدلوا إلى المغالبة والإيذاء ، وتقدم معنى يتطهرون في الأعراف .

وقرأ الجمهور : ﴿ جواب ﴾ بالنصب ؛ والحسن ، وابن أبي إسحاق : بالرفع ، والجمهور : ﴿ قدرناها ﴾ ، بتشديد الدال ؛ وأبو بكر بتخفيفها ، وباقي الآية تقدم تفسير نظيره في الأعراف .

وساء : بمعنى بئس ، والمخصوص بالذم محذوف ، أي مطرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(115/579)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلُوطاً ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ معطوفٍ على أرسلنا في صدرِ قصَّة صالحٍ داخلٌ معه في حيّزِ القسمِ أي وأرسلنا لوطاً . وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ظرفٌ للإرسالِ على أنَّ المرادَ به أمرٌ ممتدٌ وقعَ فيه الإرسالُ وما جرى بينَه وبينَ قومِه من الأقوالِ والأحوالِ . وقيل :

انتصابُ لوطاً بإضمارِ اذكُر ، وإذْ بدلٌ منه ، وقيل : بالعطفِ على الذين آمنُوا أي وأنجينا لوطاً وهو بعيدٌ ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ أي الفعلةَ المتناهيةَ في القبحِ والسَّماجةِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ من فاعلِ تأتُون مفيدةٌ لتأكيدِ الإنكارِ وتشديدِ التَّوبيخِ ، فإنَّ تعاطيَ القبيحِ من العالِمِ بقُبحه أقبحُ وأشنعُ . وتُبصرون من بصرِ القلبِ أي أتفعلونَها والحال أنَّكم تعلمون علماً يقينياً بكونِها كذلك وقيل : يبصرُها بعضُكم من بعضٍ لما كانُوا يُعلنون بَها .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً ﴾

تثنيةٌ للإنكارِ وتكريرٌ للتوبيخِ وبيانٌ لما يأتونَهُ من الفاحشةِ بطريق التَّصريحِ ، وتحليةُ الجملةِ بحرفي التأكيدِ للإيذانِ بأنَّ مضمونَها مما لا يُصدّق وقوعَه أحدٌ لكمالِ بُعدِه من العقولِ .

وإيرادُ المفعولِ بعُنوانِ الرُّجوليةِ لتربيةِ التقبيحِ وتحقيقِ المباينةِ بينها وبين الشهوةِ التي عُلل بها الإتيانُ ﴿ مّن دُونِ النساء ﴾ متجاوزينَ النساءَ اللاتي هُنَّ محالُّ الشهوةِ ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تفعلونَ فعلَ الجاهلينَ بقبحِه أو تجهلون العاقبةَ أو الجهلُ بمعنى السَّفاهة والمجُون أي بل أنتُم قومٌ سفهاءُ ماجنونَ . والتَّاءُ فيه مع كونِه صفةً لقومٍ لكونِهم في حيّزِ الخطابِ .

(116/579)

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يتنزهونَ عن أفعالِنا أو عن الأقذارِ ويعدّون فعلَنا قذراً . وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما أنَّه استهزاءٌ وقد مرَّ في سورةِ الأعرافِ أنَّ هذا الجوابَ هو الذي صدرَ عنهم في المرَّةِ الأخيرةِ من مراتِ مواعِظِ لوطٍ عليهِ السَّلامُ بالأمرِ والنَّهي لا أنَّه لم يصدرْ عنهم كلامٌ آخرُ غيرُه .

﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته قدرناها ﴾ أي قدرنَا أنَّها ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ أي الباقينَ في العذابِ .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾ غيرَ معهودٍ ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ قد مرَّ بيانُ كيفيةِ ما جَرى عليهم من العذابِ غيرَ مرَّةٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(117/579)

وقال الآلوسي :

﴿ وَلُوطاً ﴾ منصوب بمضمر معطوف على ﴿ أرسلنا ﴾ [النمل : 45] في صدر قصة صالح عليه السلام داخل معه في حيز القسم أي وأرسلنا لوطاً ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ظرف للارسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الإرسال وما جرى بينه وبين قومه من

الأحوال والأقوال .

وجوز أن يكون منصوباً باضمار اذكر معطوفاً على ما تقدم عطف قصة على قصة و ﴿ إِذْ ﴾ بدل منه بدلاشتمال وليس بذاك .

وقيل : هو معطوف على ﴿ صالحاً ﴾ [النمل : 45] .

وتعقب بأنه غير مستقيم لأن صالحاً بدل أو عطف بيان لأخاهم وقد قيد بقيد مقدم عليه وهو ﴿ إلى ثمود ﴾ [النمل : 45] فلو عطف عليه تقيد به ولا يصح لأن لوطاً عليه السيلام لم يرسل إلى ثمود وهو متعين إذا تقدم القيد بخلاف ما لو تأخر ، وقيل إن تعينه غير مسلم إذ يجوز عطفه على مجموع القيد والمقيد لكنه خلاف المألوف في الخطابيات وارتكاب مثله تعسف لا يليق ، وجوز أن يكون عطفاً على ﴿ الذين آمنوا ﴾ [النمل : 53] وتعقب بأنه لا يناسب أساليب سرد القصص من عطف احدى القصتين على الأخرى لا على تتمة الأولى وذيلها كما لا يخفى ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ أي أتفعلون الفعلة المتناهية في القبح والسماجة ، والاستفهام انكاري .

وقوله تعالى : وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿ تأتون ﴾ مفيدة لتأكيد الإنكار فإن تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع ، و ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ من بصر القلب أي افتعلونها والحال أنتم تعلمون علماً يقينياً كونها كذلك .

ويجوز أن يكون من بصر العين أي وأنتم ترون وتشاهدون كونها فاحشة على تنزيل ذلك لظهوره منزلة المحسوس ، وقيل : مفعول ﴿ تُبْصِرُونَ ﴾ من المحسوسات حقيقة أي وأنتم تبصرون آثار العصاة قبلكم أو وأنتم ينظر بعضكم بعضاً لا يستتر ولا يتحاشى من إظهار ذلك لعدم أكتراثكم به ، ووجه إفادة الجملة على الاحتمالين تأكيد الإنكار أيضاً ظاهر ، وقوله تعالى :

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً ﴾ تثنية للإنكار وبيان لما أتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام ، وتحلية الجملة بحرفي التأكيد للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد لكمال شناعته ، وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية لتربيته التقبيح وبيان اختصاصه ببني آدم ، وتعليل الإتيان بالشهوة تقبيح على تقبيح لما أنها ليست في محله ، وفيه إشارة إلى أنهم مخطؤون في محلها فعلاً ، وفي قوله تعالى : ﴿ مّن دُونِ النساء ﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هن محال الشهوة إشارة إلى أنهم مخطئون فيه تركاً ، ويعلم مما ذكرنا أن ﴿ شَهْوَةً ﴾ مفعول له للإتيان ، وجوز أن يكون حالاً .

(119/579)

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي تفعلون فعل الجاهلين بقبح ذلك أو يجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون كذا في الكشاف ، وأيا ما كان فلا ينافي قوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : 54] ولم يرتض ذلك الطيبي وزعم أن كلمة الاضراب تأباه : ووجه الآية بأنه تعالى لما أنكر عليهم فعلهم على الإجمال وسماه فاحشة وقيده بالحال المقررة لجهة الاشكال تتميماً للإنكار بقوله تعالى : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أراد مزيد ذلك التوبيخ والإنكار فكشف عن حقيقة تلك الفاحشة وأشار سبحانه إلى ما أشار ثم اضرب عن الكل بقوله سبحانه : ﴿ بَلْ أَنتُمْ ﴾ الخ أي كيف يقال لمن يرتكب هذه الفحشاء وأنتم تعلمون فأولى حرف الاضراب ضمير ﴿ أَنتُمْ ﴾ وجعلهم قوماً جاهلين والتفت في ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ موبخاً معيراً اه وفيه نظر .

والقول بالالتفات هنا مما قاله غيره أيضاً وهو التفات من الغيبة التي في ﴿ قَوْمٌ ﴾ إلى الخطاب في ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ وتعقبه الفاضل السالكوتي بأنه وهم إذ ليس المراد بقوم قوم لوط حتى يكون المعبر عنه في الأسلوبين واحداً كما هو شرط الالتفات بل معنى كلي حمل على قوم لوط عليه السلام .

وقال بعض الأجلة : إن الخطاب فيه مع أنه صفة لقوم وهو اسم ظاهر من قبيل الغائب لمراعاة المعنى لأنه متحد مع ﴿ أَنتُمْ ﴾ لحمله عليه ، وجعله غير واحد مما غلب فيه الخطاب ، وأورد عليه أن في التغليب تجوزاً ولا تجوز هنا .

وأجيب بأن نحو ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ موضوع للخطاب مع جماعة لم يذكروا بلفظ غيبة وهنا ليس كذلك فكيف لا يكون فيه تجوز ، وقيل قولهم إن في التغليب تجوزاً خارج مخرج الغالب ، وقال الفاضل السالكوتي إن قوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ ﴾ الخ من المجاز باعتبار ما كان فإن المخاطب في ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ باعتبار كون القوم مخاطبين في التعبير بأنتم فلا يرد أن اللفظ لم يتسعمل فيه في غير ما وضع له ولا الهيئة التركيبية ولم يسند الفعل إلى غير ما هو له فيكون هناك مجاز فافهم .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ ﴾

أي من اتبع دينه وإخراجه عليه السلام يعلم من باب أولى .

وقال بعض المحققين : المراد بآل لوط هو عليه السلام ومن تبع دينه كما يراد من بني آدم آدم وبنوه ، وأياً ما كان فلا تدخل امرأته عليه السلام فيهم ، وقوله سبحانه : ﴿ إِلا ﴾ الخ استثناء مفرغ واقع في موقع اسم كان ، وقرأ الحسن .

وابن أبي إسحاق ﴿ جَوَابَ ﴾ بالرفع فيكون ذاك واقعاً موقع الخبر ، وقد مر تحقيق الكلام في مثل هذا التركيب ، وفي قوله تعالى : ﴿ مّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ بإضافة القرية إلى كم

تهوين لأمر الإخراج ، وقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ تعليل للأمر على وجه يتضمن الاستهزاء أي إنهم أناس يزعمون التطهر والتنزه عن أفعالنا أو عن الأقذار ويعدون فعلنا قذراً وهم متكلفون بإظهار ما ليس فيهم ، والظاهر أن هذا الجواب صدر عنهم في المرة الأخيرة من مراتب مواعظه عليه السلام بالأمر والنهي لا أنه لم يصدر عنه كلام آخر غيره .

﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ أي بعد إهلاك القوم فالفاء فصيحة ﴿ إِلاَّ امرأته قدرناها ﴾ أي قدرنا كونها ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ أي الباقين في العذاب ، وقدر المضاف لأن التقدير يتعلق بالفعل لا بالذات ، وجاء في آية أخرى ما يقتضي ذلك ، وهو قوله تعالى : ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ﴾ [الحجر : 60] .

(121/579)

وقرأ أبو بكر ﴿ قدرناها ﴾ بتخفيف الدال .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ غير معهود ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ أي فبئس مطر المنذرين مطرهم ، وقد مر مثل هذا فارجع إلى ما ذكرناه عنده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 19 صـ ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) ﴾

هذه الحلقة القصيرة من قصة لوط تجيء مختصرة ، تبرز همّ قوم لوط بإخراجه ، لأنه أنكر عليهم الفاحشة الشاذة التي كانوا يأتونها عن إجماع واتفاق وتعارف وعلانية . فاحشة الشذوذ الجنسي بإتيان الرجال ، وترك النساء ، على غير الفطرة التي فطر الله الناس عليها . بل عامة الأحياء .

وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية . فقد يشذ أفراد ، لأسباب مرضية نفسية أو لملابسات وقتية ، فيميل الذكور لأتيان الذكور ؛ وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا يوجد النساء ، أو في السجون التي يقيم فيها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي ، محرومين من الاتصال بالنساء . . أما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح هو القاعدة في بلد بأسره ، مع وجود النساء وتيسر الزواج ، فهذا هو الحادث الغريب حقاً في تاريخ الجماعات البشرية !

لقد جعل الله من الفطرة ميل الجنس إلى الجنس الآخر ، لأنه جعل الحياة كلها تقوم على

قاعدة التزاوج. فقال: ﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾. فجعل الأحياء كلها أزواجاً سواء نبات الأرض والأنفس وما لا يعلمه الناس في شتى المخلوقات. والتزاوج يبدو أصيلاً في بناء الكون كله فضلاً على الأحياء فالذرة ذاتها مؤلفة من كهارب وإلكترونات. أي من كهربائية إيجابية وأخرى سلبية. وهي وحدة الكائنات المكرورة فيها جميعاً كما يبدو حتى الآن.

وعلى أية حال فالحقيقة المضمونة أن الأحياء كلها تقوم على قاعدة التزاوج. حتى التي لا يوجد لها من جنسها ذكر وأنثى تجتمع خلايا التذكير والتأنيث في آحادها، وتتكاثر بهذا الاجتماع.

(123/579)

ولما كان التزاوج هو قاعدة الحياة في ناموس الخلق، فقد جعل الله التجاذب بين الزوجين هو الفطرة، التي لا تحتاج إلى تعليم، ولا تتوقف على تفكير. وذلك كي تسير الحياة في طريقها بدافع الفطرة الأصيل. والأحياء يجدون لذتهم في تحقيق مطالب الفطرة. والقدرة المدبرة تحقق ما تشاؤه من وراء لذتهم المودعة في كيانهم بلا وعي منهم ولا توجيه من غيرهم.

وقد جعل الله تركيب أعضاء الأنثى وأعضاء الذكر، وميول هذا وتلك بحيث تحقق اللذة

الفطرية من اجتماعهما . ولم يجعل هذا في أعضاء الذكرين وميولهما .

ومن ثم يكون عجيباً أن تنحرف الفطرة انحرافاً جماعياً كما حدث في قوم لوط ، بدون ضرورة دافعة إلى عكس اتجاه الفطرة المستقيم .

وهكذا واجه لوط قومه بالاستنكار والعجب مما يفعلون !

﴿ ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ . .

عجب في عبارته الأولى من إتيانهم هذه الفاحشة ، وهم يبصرون الحياة في جميع أنواعها وأجناسها تجري على نسق الفطرة ، وهم وحدهم الشواذ في وسط الحياة والأحياء .

وصرح في عبارته الثانية بطبيعة تلك الفاحشة .

ومجرد الكشف عنها يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمألوف البشرية ، ولمألوف الفطرة جميعا . ثم دمغهم بالجهل بمعنييه : الجهل بمعنى فقدان العلم . والجهل بمعنى السفه والحمق . وكلا المعنيين متحقق في هذا الانحراف البغيض . فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء ، ولا يعلم شيئاً أصلا . والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتد على جميع الحقوق ! فماذا كان جواب قوم لوط على هذا الاستنكار للانحراف ، وهذا التوجيه إلى وحي الفطرة السليمة ؟

كان جوابهم في اختصار أن هموا بإخراج لوط ومن سمع دعوته وهم أهل بيته - إلا امرأته - بحجة أنهم أناس يتطهرون ! «فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ» .

وقولهم هذا قد يكون تهكما بالتطهر من هذا الرجس القذر . وقد يكون إنكارا عليه أن يسمى هذا تطهرا ، فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة . وقد يكون ضيقا بالطهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ ! ! على أية حال لقد هموا همهم ، وحزموا أمرهم . وأراد اللّه غير ما كانوا يريدون :

«فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ «1» . وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ» . .

ولا يذكر تفصيلات هنا عن هذا المطر المهلك كما وردت تفصيلاته في السور الأخرى .

فنكتفي نحن بهذا مجاراة للسياق . ولكننا نلمح في اختيار هلاك قوم لوط بالمطر ، وهو الماء المحيي المنبت أنه مماثل لاستخدامهم ماء الحياة - ماء النطف - في غير ما جعل له وهو أن يكون مادة حياة وخصب . . واللّه أعلم بقوله ومراده ، وأعلم بسننه وتدبيره . وإن هو إلا رأي أراه في هذا التدبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2647 . 2648 ﴾

(1) الهالكين بسبب أنها كانت عجوز سوء توافق قومها على الانحراف والشذوذ .

(125/579)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) ﴾

عطف ﴿ لوطاً ﴾ على ﴿ صالحاً ﴾ في قوله السابق ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ [النمل : 45] .

ولا يمنع من العطف أن العامل في المعطوف تعلق به قوله : ﴿ إلى ثمود ﴾ لأن المجرور ليس قيداً لمتعلَّقه ، ولكنه كواحد من المفاعيل فلا ارتباط له بالمعطوف على مفعول آخر .

فإن الإتْباع في الإعراب يميز المعطوف عليه من غيره .

وقد سبق نظير هذا في سورة الأعراف .

ولم يُذكر المرسل إليهم هنا كما ذكر في قصة ثمود لعدم تمام المشابهة بين قوم لوط وبين قريش فيما عدا التكذيب والشرك .

ويجوز أن ينصب ﴿ ولوطاً ﴾ بفعل مقدّر تقديره : واذكر لوطاً ، لأن وجود ﴿ إذ ﴾ بعده يقربه من نحو : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة ﴾ [البقرة : 30] .

وتعقيب قصة ثمود بقصة قوم لوط جار على معتاد القرآن في ترتيب قصص هذه الأمم ، فإن قوم لوط كانوا متأخرين في الزمن عن ثمود .

وإنما الذي يستثير سؤالاً هنا هو الاقتصار على قصة قوم لوط دون قصة عاد وقصة مدين .

وقد بينته آنفاً أنه لمناسبة مجاورة ديار قوم لوط لمملكة سليمان ووقوعها بين ديار ثمود وبين فلسطين وكانت ديارهم ممرّ قريش إلى بلاد الشام ، قال تعالى ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ [الحجر : 76] وقال ﴿ وإنكم لتَمُرُّون عليهم مُصْبِحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : 137 ، 138] .

وظرف ﴿ إذ ﴾ يتعلق بـ (أرسلنا) أو بـ (اذكر) المقدّرْين .

والاستفهام في ﴿ أتأتون ﴾ إنكاري .

وجملة : ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ حالٌ زيادة في التشنيع ، أي تفعلون ذلك علَناً يبصر بعضكم بعضاً ، فإن التجاهر بالمعصية معصية لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي .

(126/579)

وقوله : ﴿ أئنكم لتأتون ﴾ تقدم في الأعراف (81) ﴿ إنكم لتأتون ، فهنا جيء بالاستفهام الإنكاري ، وما في الأعراف جاء الخبر المستعمل في الإنكار ، فيجوز أن يكون اختلاف الحكاية لاختلاف المحكي بأن يكون لوط قد قال لهم المقالتين في مقامين مختلفين . ويجوز أن يكون اختلاف الحكاية تفنناً مع اتحاد المعنى .

وكلا الأسلوبين يقع في قصص القرآن ، لأن في تغيير الأسلوب تجديداً لنشاط السامع .

على أن ابن كثير وأبا عمرو وابن عامر وحمزة وأبا بكر عن عاصم قرأوا ما في سورة الأعراف بهمزتين فاستوت الآيتان على قراءة هؤلاء .

وقد تقدمت وجوه ذلك في سورة الأعراف .

ووقع في الأعراف (80) ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ ولم يذكر هنا لأن ما يجري في القصة لا يلزم ذكر جميعه .

وكذلك القول في عدم ذكر وأنتم تبصرون ﴾ في سورة الأعراف مع ذكره هنا .

ونظير بقية الآية تقدم في سورة الأعراف ، إلاّ أن الواقع هنا ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ ، فوصفهم بالجهالة وهي اسم جامع لأحوال أَفن الرأي وقساوة القلب .

وفي الأعراف وصفهم بأنهم قوم مسرفون وذلك يحمل على اختلاف المقالتين في مقامين .

وفي إقحام لفظ ﴿ قوم ﴾ في الآيتين من الخصوصية ما تقدم آنفاً في قوله في هذه السورة ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ [النمل : 52] .

ورُجّح في قوله : ﴿ تجهلون ﴾ جانب الخطاب على جانب الغيبة فلم يقل : يَجهلون ، بياء الغيبة وكلاهما مقتضى الظاهر لأن الخطاب أقوى دلالة كما قرىء في قوله : ﴿ بل أنتم قوم تُفتنون ﴾ [النمل : 47] .

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ

(127/579)

تقدم نظير هاته الآية في سورة الأعراف (82) ، وخالفتها هذه بوقوع العطف بالفاء في قوله ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ دون الواو ، وبقوله ﴿ أخرجوا ءال لوط ﴾ عوض ﴿ أخرجوهم ﴾ [الأعراف : 82] وبقوله ﴿ قدرناها ﴾ عوض ﴿ كانت ﴾ [الأعراف : 83] ، وبقوله ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ عوض ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ [الأعراف : 84] .

فأما موقع الفاء هنا فهو لتعقيب الجملة المعطوفة بالفاء على التي قبلها تعقيب جزء القصة على أوله فلا تفيد إلا تعقيب الإخبار ، وهي في ذلك مساوية للواو .

ولكن أوثر حرف التعقيب في هذه الآية لكونها على نسج ما حكيت به قصة ثمود في قوله تعالى ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ [النمل : 45] ، فالاختلاف بين هذه الآية وآية

الأعراف تفنُّن في الحكاية ، ومراعاة للنظير في النسج .

وهذا من أساليب قصص القرآن كما بينته في المقدمة السابعة من مقدمات هذا التفسير .

وكذلك قوله ﴿ أخرجوا آل لوط ﴾ دون ﴿ أخرجوهم ﴾ [الأعراف : 82] لأن المحكي من كلام القوم هو تآمرهم على إخراج آل لوط ؛ فما هنا حكاية بمرادف كلامهم وما في الأعراف حكاية بالمعنى والغرض هو التفنّن أيضاً .

وكذلك الاختلاف بين ﴿ قدرناها ﴾ هنا وبين ﴿ كانت في الأعراف ﴾ (83) .

وأما الاختلاف بين ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ وبين ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ [الأعراف : 84] فهما عبرتان بحالهم تفرعتا على وصف ما حلّ بهم فوزعت العبرتان على الآيتين لئلا يخلو تكرير القصة من فائدة .

والمراد بآل لوطٍ لوطٌ وأهل بيته لأن ربّ البيت ملاحظ في هذا الاستدلال كقوله تعالى ﴿ أدخلوا ءال فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر : 46] ، أراد فرعون وآله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(128/579)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) ﴾

(لُوطاً) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير : أرسلنا لوطاً ، كما قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعبدوا الله ﴾ [النمل : 45] .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : 54] فذكر الداء الذي استشرى فيهم . وفي سورة الشعراء قال سبحانه ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ﴾ [الأعراف : 80] وهنا قال : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : 54] أي : تتعالمون بها وتتجاهرون بها ، فدلَّ على أنهم أجعوا عليها وارتضوْهَا ، وأنه لم يَعُدْ عندهم حياء من ممارستها .

أو : يكون المعنى : وأنتم تبصرون ما حَلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

هذا بيان وتفصيل للداء وللفاحشة التي انتشرت بينهم ، ومعنى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : 55] الآية في ظاهرها أنها تتعارض مع ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل : 54] لكن المعنى ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل : 55] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السَّفه .

والبعض يظن أن الجهل ألاَّ تعلم ، لا إنما الأمية هي الاَّ تعلم ، أمَّا الجهل فأنْ تعلم قضية مخالفة

للواقع ؛ لذلك الأميُّ أسهل في الإقناع ؛ لأنه خالي الذِّهْن ، أمّا الجاهل فلديه قضية خاطئة ، فيستدعي الأمر أن تنزع منه قضية الباطل ، ثم تُدخِل قضية الحق ، فالجهل إذن أشقُّ على الدعاة من الأمية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾

(129/579)

عجيبٌ أمر هؤلاء ، فعِلَّة الإخراج عندهم وحيثيته ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56] سبحان الله ، ومتى كان الطُّهْر ذنباً وجريمة تستوجب أنْ يخرج صاحبها من بلدة ؟ إنها نغمة نسمعها دائماً من أهل الباطل في كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق ، ويَسْعَوْن لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم .

ومن عَدْل الله تعالى أن يظهر في منطقهم دليل إدانتهم وخُبْث طباعهم ، فكلمة ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : 56] التي نطقوا بها تعني : أنهم أنفسهم أنجاسٌ تزعجهم الطهارة ، وما أحلَّ الله من الطيبات ، وكأن الله تعالى يجعل في كلامهم منافذ لإدانتهم ، وليحكموا بها على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته ﴾

أي : من المُهْلَكين مع قومها ، فقد كانت تدل قومها على ضيفان لوط ؛ ليأتوا إليهم ليفعلوا معهم الفاحشة ، لذلك أصابها من العذاب مثلما أصاب قومها .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

أي : قَبُح هذا المطر ، وإنْ أبهم المطر هنا فقد وضَّحه الحق تبارك وتعالى في آيات أخرى فقال : من طين ، ومن سِجّيل ، وهو الطين إذا حُرِق ، فصار فخَّاراً ، وهذه الحجارة منظمة مُسوَّمة صنعها الله لهم بحساب دقيق ، فلكُلِّ واحد منهم حَجَره المسمَّى باسمه ، والذي لا يُخطِئه إلى غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(130/579)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَلُوطاً ﴾ :

إمَّا منصوبٌ عطفاً على " صالحاً " أي : وَأَرْسَلْنا لُوْطاً ، وإمَّا عطفاً على الذين آمنوا أي : وأَنْجَيْنا لوطاً ، وإمَّا ب " اذْكُرْ " مضمرةً .

قوله : ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ : بدلُ اشتمالٍ مِنْ " لوطاً " . وتقدَّم نظيرُه في مريم وغيرِها .

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

قوله : ﴿ شَهْوَةً ﴾ : مفعولٌ مِنْ أَجْله ، أو في موضعِ الحالِ ، وقد تقدَّم .

قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ :

خبرٌ مقدَّمٌ ، و " إلاَّ أَن قالوا " في موضعِ الاسمِ . وقرأ الحسنُ وابنُ أبي إسحاق برفعِه اسماً ، و " إلاَّ أَنْ قالوا " خبراً . وهو ضعيفٌ لِما عَرَفْتَ غيرَ مرةٍ . وتقدَّم قرآناً " قَدَّرْنا " تشديداً وتخفيفاً .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ . أي : فساءَ مَطَرُ المنذَرينَ مَطَرُهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 627.629 ﴾

(131/579)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) ﴾

ذَكَرَ قصة لوطٍ وأمته ، وما أصرُّوا عليه من الفاحشةِ ، وما أَحَلَّ اللَّهُ بهم من العقوبة ،

وإحلالَ العقوبة بامرأته التي كانت تطابق القومَ ، وتخليص الحقّ لوطاً من بينهم ، وما كان من أمر الملائكة الذين بُعِثُوا لإهلاكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 42 ﴾

(132/579)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ ﴾ سليمان ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ في قولك ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ يعني : أم أنت فيها من الكاذبين ، فكتب كتاباً وقال له : ﴿ اذهب بِّكِتَابِى هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ يعني : على ماذا يتفقون .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ .

يعني : ارجع عنهم ويقال ليس فيها تقديم .

ومعناه : ﴿ اذهب بِّكِتَابِى هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ يعني : استأخر في ناحية غير بعيد ، ﴿ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ؟ أي ماذا يريدون من الجواب ؟ قرأ ابن عامر وابن كثير ، ﴿ فألقهي ﴾ إليهم بالياء بعد الهاء .

وقرأ أبو عمرو في إحدى الروايتين وقرأ حمزة وعاصم بالجزم .

وقرأ نافع ﴿ هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ بكسر الهاء ، ولا يبلغ الياء ، وكل ذلك جائز في اللغة .

والقراءة بالياء أوسع اللغتين وأكثر استعمالاً .

قال مقاتل : فجعل الهدهد الكتاب في منقاره ، ثم طار حتى وقف على رأس المرأة ، فرفرف ساعة ، والناس ينظرون إليه ، فرفعت المرأة رأسها ، فألقى الكتاب في حجرها .

وروي في بعض الروايات أنها كانت نائمة في البيت ، وقد أغلقت بابها ، فدخل من الكوة ، ووضع الكتاب على صدرها .

ويقال : عند رأسها .

وأكثر الروايات أنه ألقاه في حجرها ، فقرأت الكتاب .

قرأت فيه الخاتم ، فارتعدت وخضعت ، وخضع من معها من الجنود ، لأن ملك سليمان كان في خاتمه ، فقرأت الكتاب ، وأخبرتهم بما فيه قال مقاتل : ولم يكن في الكتاب إلا قوله : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرحمن الرحيم أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ لأن كلام الأنبياء عليهم السلام على الإجمال ، ولا يكون على التطويل .

(133/579)

وقال في رواية الكلبي : نكتب فيه إن كنتم من الإنس ، فعليكم بالطاعة ، وإن كنتم من الجن ، فقد عبدتم إلى قوله عز وجل : ﴿ قَالَتْ ﴾ أي المرأة ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني : حسن .

ويقال : كتاب مختوم .

وروي عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كرامة الكتاب ختمه" .

ويقال : كل كتاب لا يكون مختوماً ، فهو مغلوب .

ويقال : كان سليمان عليه السلام إذا كتب إلى الشياطين ختمه بالحديد ، وإذا كتب إلى الجن ختمه بالصفر ، وإذا كتب إلى الإنس ختمه بالطين ، وإذا كتب إلى الملوك ختمه بالفضة ، فجعل ختم كتابها من ذهب .

ويقال : إن المرأة إنما قالت : ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ ، لأنها ظنت أنه نزل من السماء ، فلما نظرت إليه قرأت عنوان : ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ﴾ يعني : عنوانه من سليمان وإنه يعني : في داخله ، وأول سطره بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَىَّ ﴾ أي : لا تتعظموا علي ، ولا تتطاولوا علي .

ويقال : لا تترفعوا علي ، وإن كنتم ملوكاً .

قوله عز وجل : ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ يعني : مستسلمين خاضعين .

ويقال : يعني : مخلصين منقادين طائعين .

قال محمد بن موسى : إنما بدأ سليمان بنفسه لعلمه بأن ذكره على سائر الملوك أعظم من ذكره معبوده ، فهول عليها بذكر نفسه ثم ذكر معبوده ، فذهب بنفسها ، وانقادت في مملكتها ، وإنما خافت من هول سليمان حين آمنت بالله فقالت عند ذلك : رب ظلمت نفسي بعبادة الشمس ، وما خفت منك ، فالآن عرفتك ، وتبت إليك وأنت رب العالمين ﴿ قَالَتْ ﴾ المرأة ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ ﴾ يعني : الأشراف والقادة ﴿ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى ﴾ وكان لها ثلاثمائة وثلاثة عشر قائداً تحت يد كل قائد ألف رجل ، وقد قيل أكثر من هذا : ﴿ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى ﴾ .

يعني : أجيبوني في أمري .

ويقال : بينوا لي أمري وأخبروني .

(134/579)

ويقال : أشيروا علي ﴿ مَا كُنتُ قاطعة أَمْراً ﴾ أي قاضية أمراً .

ويقال : فاصلة أمراً ﴿ حتى تَشْهَدُونِ ﴾ يعني : تحضرون أي : لا أقطع أمراً دونكم ﴿ قَالُواْ ﴾ مجيبين لها ﴿ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ يعني : عدة وكثرة وسلاحاً وقتال شديد ﴿ والأمر إِلَيْكِ ﴾ يعني : أخبرناك بما عندنا أيتها الملكة ، ومع ذلك لا نجاوز

ما تقولين .

يعني : إن أمرتينا بقتال قاتلنا ، وإن أمرتنا بغير ذلك أطعناك ﴿ فانظرى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾

يعني : ماذا تشيرين إلينا .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَتْ ﴾ يعني : المرأة ﴿ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ﴾ على وجه القوة والغلبة ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ يعني : أهلكوها وخربوها ﴿ وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ يعني : أهانوا أشرافها وكبراءها ليستقيم لهم الأَمر ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : هذا قول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ تصديقاً لقول المرأة قال الحسن : هذا قول بلقيس : إن سليمان وجنوده كذلك يفعلون ، وأكثر المفسرين على خلاف ذلك .

ثم قالت المرأة : ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ يعني : أصانعهم بالمال ، فإن كان من أهل الدنيا ، فإنه يقبل ويرضى بذلك ويقال : أختبره أملك هو أم نبي ، فإن كان ملكاً قبلها ، وإن كان نبياً لم يقبلها ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ يعني : أنظر بماذا يرجع المرسلون من الجواب من عنده ؟ وذكر في الخبر أنها بعثت إليه لبنتين من ذهب والمسك والعنبر ، وبعثت بعشرة غلمان ، وعشرة جواري .

وكان في الجواري بعض الغلظة ، وكان في الغلمان بعض اللين ، وأمرت بأن تخضب أيديهم جميعاً ، وجعلتهم على هيئة الجواري ، وبعثت إليه جوهرة في ثقبها اعوجاج ، وطلبت أن يدخل الخيط فيها ، وكتبت إلى سليمان إن كنت نبياً ، فميز بين الجواري والغلمان ، فأمر سليمان الشياطين بأن يلقوا في طريق الرسل لبناً كثيراً من الذهب ، فلما جاءت رسل بلقيس استحقروا هديتهم ، فلما قدموا على سليمان أمر بماء ، فوضع وأمر الغلمان والجواري بأن يتوضؤا ، فجعل الغلام يحدر الماء على يده حدراً ، وأما الجواري ، فكن يصببن صباً .

وفي رواية أُخرى كانت الجارية تأخذ الماء بكفها ، وتدلك ذراعها ، وأما الجوهرة ، فأخذ بوردة حمراء عقد فيها خيطاً ، ثم أدخلها في الحجر حتى خرجت من الجانب الآخر ، فرد الهدية .

وقال للوافد : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ يعني : أتغرونني بالمال .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ ﴾ قال بعضهم : يعني : جاء الرسول .

وقال بعضهم : يعني : جاء بريدها والأول أشبه ، لأنه خاطب الرسول .

﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ قرأ حمزة ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ بنون واحدة والتشديد ، وقرأ الباقون بنونين وأصله نونان ، إلا أن حمزة أدغم إحداهما في الأخرى ، وشددها .

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ أتمدونني ﴾ بالياء في الوصل ، لأنه في الأصل الياء ، وهو ياء الإضافة .

وقرأ الباقون بغير ياء ، لأن الكسر يدل عليه .

ثم قال : ﴿ بِمَالٍ فَمَا ءاتانى الله ﴾ يعني : ما أعطاني الله عز وجل من النبوة والحكمة والدين والإسلام والملك ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا ءاتاكم ﴾ يعني : خير مما أعطاكم من الدنيا والمال ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ يعني : إذا أهدى بعضكم إلى بعض يقال : معناه بل أنتم تفرحون بهديتكم إذا ردت إليكم ، لأنكم قليلوا المال .

ويقال : لأنكم مكاثرون بالدنيا .

(136/579)

قوله عز وجل : ﴿ ارجع إِلَيْهِمْ ﴾ يعني : قال سليمان للأمير الوافد : ارجع إليهم بالهدية ، فإن لم يحضروني ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ يعني : لا طاقة لهم بها .

قال بعض المتقدمين : ومتى يكون لهم طاقة بجنود سليمان ، وكان جنود سليمان من الجن والإنس والشياطين ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا ﴾ يعني : من أرض سبأ ﴿ أَذِلَّةٍ ﴾ يعني : مغلولة أيديهم إلى أعناقهم ﴿ وَهُمْ صاغرون ﴾ أي ذليلون ، فلما بلغ الخبر إلى المرأة

ورسالة سليمان لم تجد بداً من الخروج إليه ، فخرجت نحوه ، فلما علم سليمان بمسيرها إليه ﴿ قَالَ ﴾ لجلسائه ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الملأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ يعني : بسرير بلقيس ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ أي موحدين : لأنه قد كان أوحي إلى سليمان بأنها تسلم .

وقال بعضهم : إنما أراد سليمان بإحضار سريرها قبل أن تسلم ليكون السرير له ، لأنها لو أسلمت حرم عليه ما كان لها وقال بعضهم : إنما أراد أن يبين دلالة نبوته عندها ، فتعلم المرأة أنه نبي فتسلم .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مّنَ الجن ﴾ يعني : ما أراد من الجن والعفريت هو الشديد القوي ويقال : العفريت من كل شيء المبالغ والحاذق في أمره ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مّنَ الجن أَنَاْ ءاتِيكَ بِهِ قَبْلَ ﴾ يعني : في مجلس القضاء ، وكان قضاؤه إلى إنصاف النهار .

ويقال : إلى وقت الضحى ﴿ وَإِنّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ قوله ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي على إتيان السرير لقوي على حمله أمين على ما فيه من الجواهر واللؤلؤ وغير ذلك .

فقال سليمان : أنا أريد أسرع من هذا ﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الكتاب ﴾ يعني : آصف بن برخيا ، وكان وزيره ومؤدبه في حال صغره ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، ويقرأ كتاب الله .

فقال : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت .

ويقال : هو قوله يا حي يا قيوم .

ويقال يا ذا الجلال والإكرام ويقال إن الذي عنده علم من الكتاب هو جبريل عليه السلام ، وهو قول المعتزلة .

قال الشيخ الإمام : لأنهم لا يرون كرامة الأولياء وأكثر المفسرين على أنه آصف بن برخيا رضي الله عنه قال : ﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الكتاب أَنَا ءاتِيكَ ﴾ يعني : قبل أن ينتهي إليك الذي وقع عليه منتهى بصرك ، وهو جاءٍ إليك .

ويقال : قبل أن تطرف .

قال له سليمان : لقد أسرعت إن فعلت ذلك ، فدعا بالاسم الأعظم ، فإذا بالسرير قد ظهر بين يدي سليمان ﴿ فَلَمَّا رَءاهُ ﴾ أي : رأى سليمان السرير ﴿ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ أي : موجوداً عنده ﴿ قَالَ ﴾ سليمان ﴿ هذا مِن فَضْلِ رَبّى لِيَبْلُوَنى ﴾ يعني : ليختبرني ﴿ شَكَرَ ﴾ هذه النعمة ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ نعم الله تعالى إذا رأيت من دوني هو أعلم مني .

قال مقاتل : فلما رفع رأسه قال : الحمد لله الذي جعل في أهلي من يدعوه ، فيستجيب له ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ يعني : يفعل لنفسه ، لأنه يعود إليه حيث يستجيب المزيد من الله تعالى ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ النعم يعني : ترك الشكر ﴿ فَإِنَّ رَبّى غَنِىٌّ ﴾ عن

شكر العباد ﴿ كَرِيمٌ ﴾ في الإفضال على من شكره بالنعمة .

ويقال : كريم لمن شكر من عباده .

ويقال : لما رأى آصف السرير مستقراً عنده خرج من فضل نفسه ، ورجع إلى فضل الله ، ورأى الحول والقوة لله تعالى ، فقال : هذا من فضل ربي لا من فضل نفسي ، ولو لم يقل من فضل ربي لسقط عن المنزلة أسرع من إتيان السرير حيث قال : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن ﴾ حيث شهر نفسه بالفضيلة .

ويقال : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن ﴾ .

يعني : بالله آتيك لا بالمدة والحيلة ؛ فأسقط الحول والقوة عن نفسه ، وسلم الأمر إلى الله .

فقال : ﴿ هذا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ ، فلما رأى سليمان السرير عنده علم أن هذا ليس من قوة جلسائه ، إنما هو من صنع ربه .

(138/579)

قوله عز وجل : ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ يعني : قال سليمان عليه السلام : غيّروا لها عرشها عن صورته ، والتنكير هو التغيير يقال : نكرته فنكر ، أي غيرته ، فتغير .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : التنكير أن يزاد فيه أو ينقص منه يعني : زيدوا في

سريرها ، وانقصوا منه ، حتى نرى أنها تعرف سريرها أم لا ، وذلك قوله : ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِى ﴾ يعني : أتعلم أنه عرشها ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ يعني : لا يعلمون يقال : إنه جعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه .

ويقال : إنه أمر بذلك ، لأن الجن قالوا لسليمان عليه السلام في عقلها شيء من النقصان ، فأراد سليمان أن يمتحن عقلها ، فأمر بأن يغير السرير ، ويسألها عن ذلك .

قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءتْ ﴾ يعني : بلقيس وجلست على السرير ﴿ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ يعني : أهكذا سريرك ﴿ قَالَتْ ﴾ بلقيس ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ شبهته به قال مقاتل : شبهوا عليها ، فشبهت عليهم ، ولو قيل لها أهذا عرشك ؟ لقالت : نعم .

ويقال : إنها شكت في ذلك ، لأنها تركت سريرها في سبعة أبيات مقفلة أبوابها ، ومفاتيح الأقفال بيدها .

فقال سليمان : ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا ﴾ يعني : حمد الله على ما أعطاه من إتيان السرير وحضورها ، وعلى ما أعطاه قبل إتيانها من النبوة والإسلام ، فقال : ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا ﴾ .

يعني : أعطينا العلم من قبل مجيئها .

ويقال : أعطينا علم ملكها وعرشها من قبل مجيئها ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ يعني : مخلصين لله تعالى .

ويقال : مسلمين منقادين له .

قوله عز وجل : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يعني : عبادتها التي كانت تعبد الشمس منعها عن الإسلام .

ويقال : معناه صدها إبليس عن الإيمان ، فتكون ﴿ مَا ﴾ ها هنا بمعنى الفاعل .

(139/579)

ويقال : ما هنا بمعنى المفعول ، فكأنه يقول صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله ، كرجل يقول : منعت فلاناً الماء ، يعني : عن الماء .

ويقال معناه : أن الله تعالى صدّها عما كانت تعبد من دون الله ، ووفقها للإسلام .

ويقال : صدها عن الإسلام العبادة التي كانت تعبدها ، لأنها نشأت على ذلك وربيت ، ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس ثم قال : ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كافرين ﴾ أي : من قوم جاحدين لله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ قِيلَ لَهَا ادخلى الصرح ﴾ يعني : القصر ، وذلك لأنها لما أقبلت قالت الجن : لقد لقينا من سليمان ما لقينا من التعب ، فلو اجتمع سليمان وهذه ، وما عندها من العلم لهلكنا ، وخشوا أن يتزوجها ، ويكون بينهما ولد ، فيرث الملك فيبقون في ذلك العناء

إلى الأبد فأرادوا إن يبغضوها إلى سليمان فقالوا إن رجليها شعراوان وقال مقاتل كانت أمها جنية وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال كانت أمها جنية وكانت شعراء .

وقال بعضهم هذا لا يصح لأن الجن ليسوا من جنس الآدميين فلا يكون بينهما شهوة ونسل وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الناس إِنَّا خلقناكم مِّن ذَكَرٍ وأنثى وجعلناكم شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لتعارفوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : 13] .

(140/579)

يعني : آدم وحواء عليهما السلام فلا يجوز أن يكون النسل من غيرهما ويقال إنهم قالوا لسليمان إن رجلها تشبه حافر الدواب فأراد سليمان أن ينظر إلى رجليها فأمر بأن يوضع سريرها في الصرح المبني من القوارير يعني : من الزجاج وجعل تحت الصرح الماء فيه السمك فجلس سليمان على سريره في الصرح ومقدميه ثم أمر بلقيس بأن تدخل الصرح ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ أي فلما جاءت إلى الصرح رأت ما فيه من السمك حسبته لجة أي ظنت أنه ماء كثير بين يدي سرير سليمان فأرادت أن تخوض في الماء فشمرت ثيابها ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ فنظر سليمان إلى ساقيها وكانت شعراً فاستشار سليمان الإنس في ذلك فأشاروا عليه بالموسى فقال سليمان الموسى تخدش ساقيها فاستشار

الجن فأشاروا عليه بالنورة فأصل النورة من ذلك الوقت وروي أن سليمان ما نظر إلى ساق أحسن من ساقيها ولا خلاف بين الروايتين لأنه يكون أحسن الساقين شعراوين وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت أنا أحسن ساقين أم بلقيس فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

قوله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ يعني : أمرهم بأن يعبدوا الله ويطيعوه ويوحدوه ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ يعني : مؤمنون وكافرون فإذا قوم صالح مؤمن وكافر يختصمون يقول كل فريق الحق معي وقد ذكرنا خصومتهم في سورة الأعراف وهي قوله : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : 75] الآية فطلبت الفرقة الكافرة على تصديق صالح العذاب ، ﴿ قَالَ ﴾ لهم صالح عليه السلام ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ ، أي : بالعذاب ﴿ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ ، يعني : العافية .

(141/579)

ويقال : التوبة وهو قولهم : يا صالح إن كان ما أتيت به حقاً ، فأتنا بما تعدنا من العذاب .

ثم قال : ﴿ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله ﴾ يعني : لكي تُرحموا ، فلا تعذبوا .

قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ اطيرنا بِكَ ﴾ وأصله تطيرنا بك يعني : تشاءمنا بك .

﴿ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ ، وذلك أنه قد أصابهم القحط بتكذيبهم إياه .

فقالوا : هذا الذي أصابنا بشؤمك وشؤم أصحابك ﴿ قَالَ ﴾ : لهم صالح ﴿ طَائِرُكُمْ عِندَ الله ﴾ ، يعني : ما أصابكم ، فمن الله ويقال : هذا الذي يصيبكم هو مكتوب عند الله ، ويقال : خيركم وشركم ورخاؤكم وشدتكم من عند الله عليكم بفعلكم .

ويقال : عقوبتكم عند الله ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ ، أي : تبتلون بذنوبكم ويقال : تختبرون بالخير والشر ، وأصل الفتنة هي الاختبار ويقال : فتنت الذهب بالنار ، لينظر إلى جودته

قوله عز وجل : ﴿ وَكَانَ فِى المدينة ﴾ ، يعني : في قرية صالح ، وهي الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ ، كانوا أغنياء قوم صالح ﴿ يُفْسِدُونَ فِى الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ ، يعني : يعملون بالمعاصي في أرض قريتهم ، ولا يصلحون ، أي لا يطيعون الله تعالى فيها ، ولا يتوبون من المعصية ، ولا يأمرون بها ، فسأل قوم صالح منه ناقة ، فصارت الناقة بلية لهم ، فكانت تأتي مراعيهم ، فتأكل جميع ما فيها ، فتنفر منها دوابهم ، وتشرب ماء ، بئرهم العذب الذي يشربون منه ، فجعلوا نيابة لشرب الماء ، اللبن ، فتشرب ذلك اليوم الماء كله ، وتسقيهم اللبن ، حتى يرووا ، فجاء هؤلاء التسعة ، وفيهم قدار بن سالف عاقر الناقة .

وكان ابن زانية أحمر أزرق ، ومصدع بن دهر وكانا قد قعدوا لها ، فلما مرت بهما ، رماها مصدع بسهم ثم قال : يا قدار اضرب ، فضرب عرقوبها فعقروها ، ثم سلخوها ، واقتسموا لحمها ، فأوعدهم الله الهلاك ، وبيّن لهم العلامة ، بتغيير ألوانهم ، فاجتمعوا التسعة ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِاللّهِ ﴾ ، يعني : تحالفوا بالله ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ ، قرأ حمزة والكسائي بالتاء وضم التاء الثاني ﴿ وَأَهْلَهُ ثُمَّ ﴾ ، بالتاء وضم اللام والباقون بالنون ، ونصب التاء ، ﴿ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ ﴾ بالنون ونصب اللام ، فمن قرأ : بالنون جعل تقاسموا خبراً ، فكأنهم قالوا : متقاسمين فيما بينهم ، ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي : لنقتلنه وعياله . ويقال : ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ يعني : ومن آمن معه ، ومن قرأ بالتاء ، فمعناه : جعل تقاسموا أمراً فكان أمر بعضهم بعضاً وقال بعضهم لبعض : تحالفوا ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ ﴾ ﴿ لِوَلِيِّهِ ﴾ ، يعني : لولي صالح إن سألونا فنقول ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ يعني : إهلاك أهله وقومه .

ويقال : ما حضرنا عند إهلاك أهله ، ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ، يعني : إنا لصادقون بما نقول لهم .

ويقال : معناه إنا لصادقون عندهم ، فيصدقونا إذا أخرجنا من بيوتنا .

<<p

قوله عز وجل : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ يعني : أرادوا قتل صالح ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ ، يعني : جثم عليهم الجبل ، فماتوا كلهم ويقال : رجمتهم الملائكة عليهم السلام بالحجارة ، فماتوا فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ أي : أرادوا قتل صالح ، ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ يعني : أراد الله عز وجل قتلهم جزاء لأعمالهم ، ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ ، بأن الملائكة يحرسون صالحاً في داره .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿ مُهْلِكَ ﴾ بنصب الميم واللام ، وفي رواية حفص ﴿ مُهْلِكَ ﴾ بنصب الميم وكسر اللام .

وقرأ الباقون : بضم الميم ، ونصب اللام .

(143/579)

ثم قال : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة مَكْرِهِمْ ﴾ يعني : جزاء مكرهم ﴿ أَنَّا دمرناهم ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي أنا بالنصب ، وقرأ الباقون بكسر الألف ، فمن قرأ بالنصب ، فمعناه فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ، لأنا دمرناهم ويجوز أن يكون خبر كان ومن قرأ :

بالكسر لأنه لما قال ، ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة مَكْرِهِمْ ﴾ .

يعني : إيش كان عاقبة مكرهم ، ثم فسر فقال : إنا دمرناهم على وجه الاستئناف ، ﴿ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، يعني : أهلكناهم بصيحة جبريل عليه السلام .

ويقال : خرجت النار من تحت أرجلهم وأحرقتهم .

ويقال : إنهم خرجوا ليلاً لإهلاك صالح ، فدمغتهم الملائكة بأحجار من حيث لا يرونهم ، فقتلوهم ، وقومهم أجمعين .

قوله عز وجل : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ يعني : خالية من الناس .

ويقال : بيوتهم خاوية .

يعني : مساكنهم خربة ساقطة ، ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ أي : أشركوا .

ويقال : بكفرهم بالله تعالى صارت خاوية نصباً على الحال .

يعني : فانظر إلى بيوتهم خاوية ، وقرىء في الشاذ خاوية بالضم ، على معنى النعت ، للبيوت ثم قال : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ﴾ يعني : في إهلاكهم ، وفيما أصابهم لغيره لمن بعدهم ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ، يعني : يعقلون ويصدقون ، ﴿ وَأَنجَيْنَا الذين ءامَنُواْ ﴾ ، يعني : صدقوا صالحاً برسالته ، ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والفواحش .

قوله عز وجل : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ يعني : وأرسلنا لوطاً عطفاً على قوله ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ ﴾ ويقال معناه واذكر لوطاً إذ قال لقومه يعني : حين قال لقومه .

(144/579)

قوله عز وجل ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً ﴾ يعني : تجامعون الرجال شهوة منكم ﴿ مّن دُونِ النساء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي جاهلون ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ وإنما نصب الجواب ، لأنه خبر كان واسمه ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءالَ لُوطٍ مّن ﴾ يعني : يتنزهون ويقذروننا بهذا الفعل ، وإنا لا نحب أن يكون بين أظهرنا من ينهانا عن أعمالنا .

قال الله تعالى : ﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ يعني : ابنتيه ريثا وزعورا ﴿ إِلاَّ امرأته ﴾ لم ننجها من العذاب ﴿ قدرناها ﴾ أي : تركناها ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ أي : من الباقين في العذاب . ويقال : قضينا عليها أنها من الباقين في العذاب قوله عز وجل : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ يعني : الحجارة ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ يعني : بئس مطر من أنذرتهم الرسل ، فلم يؤمنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 579.588 ﴾

(145/579)

وقال الثعلبي :

﴿ قَالَ ﴾ سليمان للهُدهد ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ فيما أخبرت ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ فَدَلّهم الهُدهد على الماء فاحتفروا الركايا ورَوَى الناس والدوابّ ، وكانوا قد عطشوا ، ثم كتب سليمان كتاباً من عبد الله سليمان بن داود (عليه السلام) الى بلقيس ملكة سبأ ، السلام على مَن اتبّع الهُدى ، أمّا بعد فلا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين .

وقال ابن جُريج : لم يزد سليمان على ما قصّ الله في كتابه إنّه وإنّه .

قال منصور : كان يقال : كان سليمان أبلغ الناس في كتابه ، وأقلّه إملاءً ثم قرأ ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم ﴾ قال قتادة : وكذلك الأنبياء عليهم السلام كانت تكتب جملاً لا يطيلون ولا يكثرون ، فلمّا كتب الكتاب طبعهُ بالمسك ، وختمه بخاتمه وقال للهدهد ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ فكن قريباً منهم ﴿ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ يردّون من الجواب .

وقال ابن زيد : في الآية تقديم وتأخير مجازها : اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم وانظر ماذا يرجعون ثم تولَّ عنهم أي انصرف ، كقوله ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ [القصص : 24] أي انصرف إليه ، فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به الى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام ، فوافاها في قصرها وقد غلّقت الأبواب ، وكانت إذا رقدت غلّقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها وآوت إلى فراشها ، فأتاها الهُدهد وهي

نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها ، هذا قول قتادة .

وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره فطار حتى وقف على رأس المرأة ، وحولها القادة والجنود ، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها .

(146/579)

وقال ابن منبّه وابن زيد : كانت لها كوّة مستقبلة الشمس ، تقع الشمس فيها حين تطلع ، فإذا نظرت إليها سجدت لها ، فجاء الهُدهد تلك الكوّة فسدّها بجناحه ارتفعت الشمس ولم تعلم ، فلمّا استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى بالصحيفة إليها .

قالوا : فأخذت بلقيس الكتاب وكانت كاتبة قارئةً عربيةً من قوم تبع بن شراحيل الحميري ، فلمّا رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان (عليه السلام) كان في خاتمه ، وعرفت أنّ الذي أرسل هذا الكتاب هو أعظم مُلْكاً منها ؛ لأن مَلِكاً رُسله الطير إنّه لمَلِك عظيم ، فقرأت الكتاب وتأخّر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد ، مع كلّ قائد مائة ألف مقاتل .

وقال قتادة ومقاتل والثمالي : كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل رجل منهم

على عشرة آلاف .

قالوا : فجاؤوا وأخذوا مجالسهم فقالت لهم بلقيس : ﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ إني أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ .

قال قتادة : حسن ، نظيره قوله ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : 58] .

وقال ابن عباس : شريف بشرف صاحبه .

الضحاك : سمّته كريماً لأنّه كان مختوماً ، يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن شاذان قال : حدّثنا جبعويه بن محمد قال : حدّثنا صالح بن محمد بن محمد بن مروان عن ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كرامة الكتاب ختمهُ" .

وأنبأني عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن يوسف قال : حدّثنا عمرو قال : حدّثني أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي قال : حدّثنا إسحاق بن منصور قال : حدّثنا معاذ بن هشام قال : حدّثني أبي عن قتادة عن أنس قال : لمّا أراد نبي الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى العجم ، قيل له : أنّ العجم لا يقبلون إلاّ كتاباً عليه خاتم ، فاصطنع خاتماً ، فكأني انظر إلى بياضه في كفّه .

وقال ابن المقفّع : مَن كتب الى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخفّ به لأن الختم ختم ، وقيل : سمّته كريماً لأنّه كان مصدّراً ببسم الله الرَّحْمن الرحيم ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم * أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وقرأ أشهب العقيلي : إلا تغلوا عليّ بالغين معجمة ، وأتوني مسلمين مؤمنين طائعين .

﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ ﴾ قال ابن عباس : كان مع بلقيس مائة ألف قيل ، مع كلّ قيل مائة ألف ، والقيل تلك دون الملك الأعظم ﴿ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ أشيروا عليَّ فيما عرض لي وأجيبوني فيما أُشاوركم فيه ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً ﴾ قاضية وفاصلة ﴿ أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ ﴾ تحضروني .

قالوا مجيبين لها ﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ ﴾ في القتال ﴿ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ عند الحرب ﴿ والأمر إِلَيْكِ ﴾ أيتها الملكة ﴿ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ تجدينا لأمرك مطيعين .

فقالت بلقيس لهم حين عرضوا أنفسهم للحرب ﴿ قَالَتْ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ﴾ عنوة وغَلبة ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ خرّبوها ﴿ وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ أي أهانوا أشرافها وكبراءها لكي يستقيم لهم الأمر ، وتناهى الخبر عنها هاهُنا فصدّق الله سبحانه قولها فقال ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ .

أنشدني أبو القاسم الحبيبي قال : أنشدني أبي رحمه الله :

انَّ الملوك بلاء حيث ما حلّوا . . . فلا يكن لك في أكنافهم ظل

ماذا تؤمّل من قوم إذا غضبوا . . . جاروا عليك وإن أرضيَتهم مَلّوا

وإن مدحتهمُ خالوك تخدعهم . . . واستثقلوك كما يُستثقل الكَلّ

فاستغن بالله عن أبوابهم أبداً . . . إنّ الوقوف على أبوابهم ذلّ

(148/579)

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ وذلك أنّ بلقيس كانت لبيبة قد سيست وساست ، فقالت للملأ من قومها : إنّي مرسلة الى سليمان وقومه بهديّة أصانعه بذلك عن ملكي واختبرهُ بها أملك هو ؟ فإن يكن ملكاً قبل الهديّة وانصرف ، وإنْ يكن نبيّاً لم يقبل الهدية ولم يرضه منّا إلاّ أن نتّبعه على دينه ، فأهدت إليه وصيفاً ووصائف .

قال ابن عباس : ألبستهم لباساً واحداً حتى لا يعرف ذكر من أُنثى .

وقال مجاهد : أُلبس الغلمان لباس الجواري وأُلبس الجواري لبسة الغلمان ، واختلفوا في عددهم فقال مقاتل : مائة وصيف ومائة وصيفة . وقال مجاهد : مائتي غلام ومائتي جارية . وقال الكلبي : عشرة غلمان وعشر جواري . وقال وهب وغيره : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حنش قال : حدّثنا ابن فنجويه قال : حدّثنا سلمة قال : حدّثنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن ثابت البناني في قوله ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ قال : أهدت له صفائح ذهب في أوعية الديباج ، فلمّا بلغ ذلك سليمان أمر الجن فموّهوا له الآجرّ بالذهب ثم أمر به فأُلقي في الطريق ، فلمّا جاؤا رأوه ملقى في الطريق في كل مكان ، قالوا : قد جئنا نحمل شيئاً نراه ههنا ملقىً ما يُلتفت إليه ، فصغر في أعينهم ما جاؤوا به ، وقيل : كانت أربع لبنات من ذهب . وقال وهب وغيره من أهل الكتب : عمدت بلقيس الى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام فألبست الجواري لباس الغلمان ، الأقبية والمناطق ، وألبست الغلمان لباس الجواري ، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب ، وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب ، وفي آذانهم قُروطاً وشنوفاً مرصّعات بأنواع الجواهر ، وحُملَت الجواري على خمسمائة رَمكة والغلمان على خمسمائة برذون ، على كل فرس لجام من ذهب مرصّع بالجواهر وغواشيها من الديباج الملونة ، وبعثت إليه أيضاً خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجاً مكلّلاً بالدرّ والياقوت المرتفع وأرسلت إليه أيضاً المسك والعنبر وعود الالنجوج ، وعمدت الى حقّة فجعلت فيها درّة

يتيمة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معرجة الثقب ، ودَعت رَجُلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمّت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل وكتبت معه كتاباً نسخة الهدية وقالت : إن كنت نبيّاً فميّز بين الوصفاء والوصيفات ، وأخبرْ بما في الحقّة قبل أن تفتحها وأثقب الدرّة ثقباً مستوياً وأدخل خيطاً .

(150/579)

الخرزة وأمرت بلقيس الغلمان فقالت : إذا كلّمكم سليمان فكلّموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث شبه كلام النساء ، وأمرت الجواري أن يكلّمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثمَّ قالت للرسول : انظر الى الرجل إذا دخلت عليه ، فإن نظر إليك نظرَ غَضَب فاعلم أنّه ملك ولا يهولنّك منظره فأنا أعزّ منه ، وإن رأيت الرجل بشّاً لطيفاً فاعلم أنّه نبي مُرسَل فتفهّم قوله وَرُدّ الجواب .

فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان (عليه السلام) فأخبره الخبر كلّه ، فأمر سليمان (عليه السلام) الجنّ أن يضربوا لبنات الذهب والفضة ففعلوا ، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسع فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة ، وأن يجعلوا حول الميدان حائطاً شُرفها من الذهب والفضة ففعلوا ، ثم قال : أيّ

الدوابّ أحسن ممّا رأيتم في البرّ والبحر ؟ قالوا : يا نبي الله إنّا رأينا دوابّ في بحر كذا وكذا منمّرة منقطعة مختلفة ألوانها ، لها أجنحة وأعراف ونواصي .

قال : عليَّ بها الساعة ، فأَتوا بها ، فقال : شدّوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضّة ، وألقوا لها علوفها .

ثم قال للجنّ : عليّ بأولادكم ، فاجتمع خلق كثير فأقامهم على يمين الميدان ويساره ، ثم قعد سليمان (عليه السلام) في مجلسه على سريره ووُضع له أربعون ألف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره ، وأمر الشياطين أن يصطفّوا صفوفاً فراسخ ، وأمر الإنس فاصطفّوا فراسخ ، وأمر الوحش والسباع والهوامّ والطير فاصطفّوا فراسخ عن يمينه ويساره .

فلمّا رأى القوم الميدان ونظروا إلى ملك سليمان (عليه السلام) ورأوا الدوابّ التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لبنات الذهب والفضة ، تقاصرت إليهم نفسهم وبقوا بما معهم من الهدايا .

(151/579)

وفي بعض الروايات أن سليمان (عليه السلام) لمّا أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم وضعاً على قدر موضع اللبنات التي معهم ، فلما رأى

الرسل موضع اللبنات خالياً وكلّ الأرض مفروشة خافوا أن يتّهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان .

(152/579)

قالوا : ثم جاؤوا ، فلمّا رأوا الشياطين نظروا إلى موضع عجيب ففزعوا فقال لهم الشياطين : جوزوا فلا بأس عليكم ، فكانوا يمرّون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والسباع والوحش حتى وقفوا بين يدي سليمان (عليه السلام) فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طَلِق وقال : ما وراءكم ؟ فأخبرهُ رئيس القوم بما جاؤوا له وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه فقال : أين الحُقّة فأتى به فحرّكها ، وجاءه جبرئيل (عليه السلام) فأخبره بما في الحُقّة فقال : إنَّ فيها درة يتيمة غير مثقوبة وجزعة مثقوبة معوجّة الثقب ، فقال الرسول : صدقت فاثقب الدّرة وأدخل الخيط في الخرزة فقال سليمان (عليه السلام) : من لي بثقبها ؟ فسأل سليمان الإنس فلم يكن عندهم علم ذلك ، ثمَّ سأل الجانّ فلم يكن عندهم علم ذلك ، ثم سأل الشياطين فقالوا : ترسل الى الأرضة فجاءت الأرضة وأخذت شعرة في فيها دخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان (عليه السلام) : حاجتك ؟ فقالت : تصيّر رزقي في الشجرة فقال : لك ذاك ، ثمَّ قال : مَن لهذه الخرزة

يسلكها ؟ الخيط فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا رسول الله ، فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال سليمان : حاجتك ؟ قالت : تجعل رزقي في الفواكه قال : لك ذاك ، ثمَّ ميز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأُخرى ثم تضرب به على الوجه ، والغلام كان يأخذهُ من الآنية يضرب به وجهه ، وكانت الجارية تصبّ على باطن ساعدها ، والغلام على ظهر الساعد ، وكانت الجارية تصب الماء صبّاً ، وكان الغلام يحدر الماء على يده حدراً ، فميّز بينهنَّ بذلك ثم ردّ سليمان (عليه السلام) الهديّة .

(153/579)

﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ اختلف القُرّاء فيه فقرأ حمزة ويعقوب أتمدّوني بنون واحدة مُشدَّدة ، غيرهما بنونين خفيفتين وحذف الياء ، ابن عامر وعاصم والكسائي وخلف ، الباقون بإثباته .

﴿ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنّكم أهل مفاخرة الدنيا والمكابرة بها ولا تعرفون غير ذلك ، وليست الدنيا من حاجتي لأن الله سبحانه قد مكّنني

منها وأعطاني فيها ما لم يعط أحداً ومع ذاك أكرمني بالدين والنبوّة والحكمة ، ثمّ قال للمنذر بن عمرو آمر الوفد ﴿ ارجع إِلَيْهِمْ ﴾ بالهدية ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ ﴾ لا طاقة ﴿ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ ﴾ أي من أرضها وملكها ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ ذليلون إن لم يأتوني مسلمين .

قال وهب وغيرهُ مِن أهل الكتب : لما رجعت رُسل بلقيس إليها من عند سليمان (عليه السلام) قالت : قد والله عرفت ما هذا بمَلِك ، وما لنا به طاقة ، وما نصنع بمكاثرته شيئاً ، فبعثت إلى سليمان : إنّي قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ، ثم أمرت بعرشها فجُعل في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض ، في آخر قصر من سبع قصور لها ، ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حرّاساً يحفظونه ثمّ قالت لمن خلّفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي ، فلا يخلص إليه أحد ولا يزيّنه حتى آتيك ، ثم أمرت منادياً فنادى في أهل مملكتها يؤذنهم بالرحيل ، وشخصت الى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يدي كل قيل أُلوف كثيرة .

قال ابن عباس : وكان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدئ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه ، فخرج يوماً فجلس على سرير ملكه فرأى رهجاً قريباً منه فقال : ما هذه ؟ .

قالوا : بلقيس يا رسول الله .

قال : "وقد نزلت منّا بهذا المكان ؟"

قال ابن عباس : وكان ما بين الكوفة والحيرة قدر فرسخ فأقبل حينئذ سليمان على جنوده فقال ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ أي مؤمنين . وقال ابن عباس : طائعين . واختلف أهل العلم في السبب الذي لأجله أمر سليمان (عليه السلام) بإحضار العرش فقال أكثرهم : لأن سليمان (عليه السلام) علم أنها إن أسلمت حُرم عليه ما لها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يُحرم عليه أخذه بإسلامها .

وقال قتادة : لأنه أعجبته صفته لمّا وصفه الهدهد فأحبَّ أن يراه .

وقال ابن زيد : أراد أن يختبر عقلها فيأمر بتنكيره لينظر هل تثبته إذا رأته أم تنكره ؟ وقيل : قدرة الله سبحانه وعظيم سلطانه في معجزه يأتي بها في عرشها .

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وهو المارد القَوي ، وفيه لغتان : عفريت وعفريه ، فمَن قال عفريت جمعه عفاريت ، ومَن قال عفرية جمعَه عفارت .

قال وهب : اسمه كوذى ، وقال شعيب الجبائي : كان اسم العفريت ذكوان ، وقال ابن عباس : العفريت : الداهية ، وقال الضحّاك : هو الخبيث .

ربيع : الغليظ . الفَراء : القويّ الشديد . الكسائي : المنكر ، وأنشد :

فقال شيطان لهم عفريت . . . مالَكمُ مكث ولا تبييت

وقرأ أبو رجاء العطاردي قال : عفريه .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبيد الله بن عبد الله بن أبي سمرة البغوي قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن جعفر بن شاذان البغدادي قال : حدّثنا محمد بن الحسن بن سهل قال : حدّثنا عبد الرَّحْمن البحتري قال : حدّثنا عمرو بن عثمان قال : حدّثنا أبي عن عبد الله بن عبد العزيز القرشي عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه كان يقرأ : قال عفريه من الجنّ والعفريه البكر بين البكرين لم يلد أبواه قبله شيئاً ولم يَلد هُوَ شيئاً .

(155/579)

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أي مجلسك الذي تقضي فيه ، قال ابن عباس : وكان له كلّ غداة مجلس يقضي فيه الى منزع النهار .

﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ ﴾ على حمله ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما فيه من الجواهر ، فقال سليمان عليه السلام أُريد أسرع من هذا ، ﴿ قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب ﴾ واختلفوا فيه ، فقال بعضهم هو جبرئيل (عليه السلام) ملك من الملائكة أيّد الله عزّ وجلّ به نبيه سليمان

عليه السلام .

وقال الآخرون : بل كان رجلاً من بني آدم .

ثمَّ اختلفوا فيه فقال أكثر المفسرين : هو آصف بن برخيا بن شمعيا بن ميكيا وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أُعطي .

أخبرني ابن فنجويه قال : أخبرنا مخلد بن جعفر الباقرحي قال : حدّثنا الحسن بن علوية قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا إسحاق بن بشر قال : حدّثنا جويبر ومقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : إنّ آصف قال لسليمان (عليه السلام) حين صلّى ودعا الله سبحانه : مُدّ عينيك حتى ينتهي طرفك قال : فمدّ سليمان (عليه السلام) عينه فنظر نحو اليمن ودعا آصف ، فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخدّون الأرض خدّاً حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان (عليه السلام) .

واختلف العلماء في الدعاء الذي دعا به آصف عند الإتيان بالعرش ، فروت عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف " يا حيّ يا قيّوم " .

وروى عثمان بن مطر عن الزهري قال : دعاء الذي عنده علم من الكتاب (يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلاّ أنت ائتني بعرشها) قال : فمثل له بين يديه . وقال مجاهد : يا ذا الجلال والإكرام . وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة بن محمد بن جعفر وعبيد الله بن أحمد بن يعقوب قالا : حدّثنا أبو بكر بن مجاهد قال : حدّثنا إسماعيل عن عبد الله بن إسماعيل عن ابن زيد قال : الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر البحر فخرج ذلك اليوم ينظر مَن ساكن الأرض ؟ وهل يعبد الله عزَّوجل أم لا يعبد ؟ فوجد سليمان (عليه السلام) فدعا باسم من أسماء الله فإذا هو بالعرش حُمل فأتى به سليمان من قبل إنْ يرتدّ إليه طرفه .

وبه عن مجاهد قال : حدّثني البزي وابن حرب قال : حدّثنا أبو حذيفة قال : حدّثنا شبل قال : زعم ابن أبي بزة أن اسم الذي عنده علم من الكتاب اسطوم ، وقال بعضهم : كان رجل من حمير يقال له : ضبّة .

وقال قتادة : كان إسمه بليحا ، وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان أما إن الناس يرون أنّه كان معه اسم وليس ذلك كذلك ، إنّما كان رجل عالم من بني إسرائيل آتاه الله علماً وفقهاً فقال : أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك ، قال سليمان (عليه السلام) : هات ، فقال : أنت النبي ابن النبي وليس أحد أوجه عند الله منك ولا أقدر على حاجته فإن دعوت الله ، وطلبت إليه كان عندك .

قال : صدقت ففعل ذلك فجيء بالعرش في الوقت .

وقوله ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ اختلفوا في معناه فقال سعيد بن جبير : يعني قبل أن يرجع إليك أقصى من تركت ، وهو أن يصل إليك من كان منك على مَدّ بصرك . قتادة : قبل أن يأتيك الشخص من مد البصر .

وهب : تمد عينيك فلا ينتهي طرفك الى مداه حتى أُمثّله بين يديك .

مجاهد : يعني إدامة النظر حتى يرتد الطرف خاسئاً .

وعنه أيضاً قال : يعني مدّ بصرك ما بينك وبين الحيرة ، وهو يومئذ في كندة .

(157/579)

وعن قتادة : هو أن يبعث رسولاً الى منتهى طرفه فلا يرجع حتى يؤتى به .

فلمّا رآه يعني رأى سليمان (عليه السلام) العرش ﴿ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ محمولاً إليه من مأرب الى الشام في قدر ارتداد الطرف ﴿ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ليبلوني أَأَشْكُرُ ﴾ نعمته ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ ها فلا أشكرها ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لم ينفع بذلك غير نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودَوامَها ؛ لأنَّ الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة .

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ بالإفضال على من كفر نعمه .

﴿ قَالَ نَكِّرُواْ ﴾ غيّروا ﴿ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ فزيدوا فيه وأنقصوا منه واجعلوا أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ﴿ نَنظُرْ أَتهتدي ﴾ الى عرشها فتعرفه ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ به الذين لا يهتدون إليه ، وإنما حمل سليمان (عليه السلام) على ذلك ، كما ذكره وهب ومحمد بن كعب وغيرهما من أهل الكتب : إنَّ الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي إليه أسرار الجن ، ولا ينفكّون من تسخير سليمان وذرّيته من بعده ، فأرادوا أن يزهّدوه فيها فأساؤوا الثناء عليها وقالوا : إنَّ في عقلها شيئاً وإنّ رجلها كحافر الحمار ، فأراد سليمان (عليه السلام) أن يختبر عقلها بتنكير عرشها ، وينظر الى قدميها ببناء الصرح ، فلمّا جاءت بلقيس ﴿ قِيلَ ﴾ لها ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ شبّهته به وكانت قد تركته خلفها في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فلم تقرّ بذلك ولم تنكر ، فعلم سليمان (عليه السلام) كمال عقلها .

قال الحسن بن الفضل : شبّهوا عليها فشبّهت عليهم وأجابتهم على حسب سؤالهم ، ولو قالوا لها : هذا عرشك لقالت : نعم

فقال سليمان (عليه السلام) ﴿ وَأُوتِينَا العلم ﴾ بالله وبقدرته على ما شاء مِن قبل هذه المرأة ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ هذا قول مجاهد

وقال بعضهم : معناه وأُوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة وقبل مجيئها ، وكنّا مسلمين طائعين خاضعين .

وقال بعضهم : هذا من قول بلقيس لمّا رأت عرشها عند سليمان (عليه السلام) قالت : عرفت هذه ، وأُوتينا العلم بصحة نبوة سليمان (عليه السلام) بالآيات المتقدمة مِن قبل هذه الآية وذلك بما اختبرت من أمر الهديّة والرُسل ، وكنّا مسلمين أي منقادين لك مطيعين لأمرك مِن قبل أن جئناك .

﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ومنعها ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ الله ﴾ وهو الشمس بأن تعبد الله ، وعلى هذا القول يكون ﴿ مَا ﴾ في محل الرفع .

وقال بعضهم : معناه وصدَّها سليمان ما كانت تعبد من دون الله أي منعها ذلك وحال بينها وبينه ، ولو قيل : وصدّها الله ذلك بتوفيقها للإسلام لكان وجهاً صحيحاً ، وعلى هذين التأويلين يكون محل ﴿ مَا ﴾ نصباً .

﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادخلي الصرح ﴾ الآية . وذلك أنَّ سليمان (عليه السلام) لما اقبلت بلقيس تريدهُ أمَرَ الشياطين فبنوا له صرحاً أي قصراً من زجاج كأنّه الماء بياضاً ، وقيل : الصرح صحن الدار ، وأجرى من تحته الماء وألقى فيه كل شيء من دواب البحر ، السمك وغيره ، ثمَّ وضع له سريرهُ في صدرها فجلس عليه وحلقت عليه الطير

والجن والإنس وإنّما أمر ببناء هذا الصرح لأنَّ الشياطين قال بعضهم لبعض : سخّر الله لسليمان عليه السلام ما سخّر وبلقيس ملكة سبأ ينكحها فتلد له غلاماً فلا ننفك من العبودية أبداً ، فأرادوا أن يزهّدوه فيها فقالوا : إنَّ رِجلها رِجل حمار وإنها شَعْراء الساقين لأنّ أُمّها كانت من الجن فأرادَ أن يعلم حقيقة ذلك وينظر الى قدميها وساقيها .

(159/579)

وروى محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبّه قال : إنّما بنى الصرح ليختبر عقلها وفهمها ، يعاينها بذلك كما فعلت هي من توجيهها إليه الوصفاء والوصائف ليميّز بين الذكور والإناث ، تعاينه بذلك ، فلمّا جاءت بلقيس قيل لها : ادخلي الصرح ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ وهي معظم الماء وقال ابن جريج : يعني بحراً .

﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ لتخوضه الى سليمان عليه السلام ، فنظر سليمان فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً إلاّ أنّها كانت شعْراء الساقين ، فلمّا رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها وناداها ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ مملّس مستو ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ وليس ببحر ، فلمّا جلست قالت : يا سليمان إنّي أُريد أن أسألك عن شيء .

قال : سلي .

قالت : أخبرني عن ما ماء رُواء ولا من أرض ولا من سماء . وكان سليمان إذا جاءه شيء لا يعلمه سأل الإنس عنه ، فإن كان عندهم علم ذلك وإلاّ سأل الجن ، فإن علموا وإلاّ سأل الشياطين ، فسأل الشياطين عن ذلك فقالوا له : ما أهون هذا من الخيل فلْتجرِ ثم املأ الآنية من عَرَقها .

فقال لها سليمان : عرق الخيل ، قالت : صدقت ، ثم قالت : أخبرني عن لون الربّ ، فوثب سليمان عليه السلام عن سريره وخرَّ ساجداً وصعق عليه فقامت عنه وتفرّقت جنودُه وجاءهُ الرسول فقال : يا سليمان يقول لك ربك : ما شأنك ؟

قال : يا رب أنت أعلم بما قالت ، قال : فإن الله يأمرك أن تعود ألى سريرك وترسل إليها وإلى مَن حضرها من جنودك وجنودها فتسألها وتسألهم عمّا سألتك عنه ، ففعل ذلك سليمان (عليه السلام) ، فلمّا دخلوا عليه قال لها : عمّاذا سألِتني ؟

قالت : سألتك عن ماء رواء ليس من أرض ولا سماء فأجبتَ .

قال : وعن أيّ شيء سألِتني أيضاً ؟

(160/579)

قالت : ما سألتك عن شيء إلاّ هذا فاسأل الجنود فقالوا مثل قولها ، أنساهم الله تعالى ذلك وكفى سليمان (عليه السلام) الجواب ، ثمَّ إن سليمان دَعَاها الى الإسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت وقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بالكفر ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ فحسن إسلامها .

واختلف العلماء في أمرها بعد إسلامها فقال أكثرهم : لمّا أسلمت أراد سليمان أن يتزوجها ، فلمّا همَّ بذلك كره ما رأى من كثرة شعر ساقيها وقال : ما أقبح هذا فسأل الإنس : ما يذهب هذا ؟

قالوا : الموسى فقالت المرأة : لم تمسّني حديدة قطّ ، فكره سليمان الموسى وقال : إنّها تقطع ساقيها ، فسأل الجن فقالوا : لا ندري ، ثمَّ سأل الشياطين فتلكأوا ثمّ قالوا : انّا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا لها النورة والحمّام .

قال ابن عباس : فإنّه لأول يوم رؤيت فيه النورة واستنكحها سليمان عليه السلام .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن أحمد بن نصرويه قال : حدّثنا محمد بن عمران ابن هارون قال : حدّثنا محمد بن ميمون المكي قال : حدّثني أبو هارون العطار عن أبي حفص الأبار عن إسماعيل بن أبي بردة عن أبي موسى يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أول من اتخذ الحمامات سليمان بن داود عليه السلام ، فلمّا ألزق ظهره إلى الجدر فمسّهُ حرّها قال : آوه مِن عذاب الله " .

قالوا : فلما تزوّجها سليمان أحبّها حبّاً شديداً وأقرّها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً وهي : سلحون وسون وعمدان ، ثم كان سليمان عليه السلام يزورها في كل شهر مرَّة بعد أن ردها الى ملكها ، ويقيم عندها ثلاثة أيّام يبتكر من الشام الى اليمن ومن اليمن الى الشام ، وولدت له فيما ذكر .

(161/579)

وروى ابن أبي إسحاق عن بعض أهل العلم عن وهب قال : زعموا أنّ سليمان بن داود عليه السلام قال لبلقيس لمّا أسلمت وفرغ من امرها : اختاري رجلاً من قومك أُزوّجكه .

قالت : ومثلي يا نبي الله ينكح الرجال وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان .

قال : نعم إنّه لا يكون في الإسلام إلاّ ذلك ولا ينبغي لكِ أنْ تحرّمي ما أحل الله لكِ .

فقالت : زوّجني إنْ كان لابدّ من ذلك ذا تبّع ملك همذان فزّوجه إيّاها ثم ردّها الى اليمن وسلّط زوجها ذا تبّع على اليمن ، ودعا زوبعة أمير جن اليمن فقال : اعمل لذي تبّع ما استعملك فيه .

قال : فصنع لذي تبع الصنائع باليمن ثم لم يزل بها يعمل له فيها ما أراد حتى مات سليمان ابن

داود (عليه السلام) ، فلمّا أنْ حال الحول وتبيّنت الجن موت سليمان (عليه السلام) أقبل رَجُلٌ منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته : يا معشر الجن إنَّ الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم قال : فعمدت الشياطين الى حجرين عظيمين فكتبوا فيها كتاباً بالمسند نحن بنينا سلحين دائبين (سبعة وسبعين خريفاً) ، وبنينا صرواح ومرواح (وبنيون وحاضة وهند وهنيدة ، وسبعة أمجلة بقاعة ، وتلثوم بريدة ، ولولا صارخ بتهامة لتركنا بالبون إمارة ، وقال وسلحين وصرواح ومرواح وبينون وهند وهنيدة وتلثوم حصون كانت باليمن عملتها الشياطين لذي تبع) ، ثم رفعوا أيديهم وانطلقوا وتفرّقوا وانقضى ملك ذي تبّع وملك بلقيس مع ملك سليمان (عليه السلام) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ ﴾ يعني بأن ﴿ اعبدوا الله ﴾ وحده ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ ﴾ مؤمن وكافر ومصدّق ومكذّب ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ في الدين .

(162/579)

قال مقاتل : واختصامهم مُبَيَّن في سورة الأعراف وهو قوله ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف : 75] الى قوله ﴿ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ [الأعراف : 77] .

فقال لهم صالح ﴿ يا قومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة ﴾ بالبلاء والعقوبة ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ العافية والرحمة ، والاستعجال طلب التعجيل بالأمر ، وهو الإتيان به قبل وقته . ﴿ لَوْلاَ ﴾ هلاّ ﴿ تَسْتَغْفِرُونَ الله ﴾ بالتوبة من كفركم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُواْ اطيرنا ﴾ تشاءمنا ، وأصله تطيّرنا ﴿ بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ وذلك أنّ المطر أمسك عنهم في ذلك الوقت وقحطوا فقالوا : أصابنا هذا الضرّ والشرّ من شؤمك وشؤم أصحابك ، وإنّما ذكر التطيّر بلفظ الشأم على عادة العرب ونسبتهم الشؤم إلى البارح ، وهو الطائر الذي يأتي من جانب اليد الشومى وهي اليسرى .

﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ ﴾ من الخير والشر وما يصيبكم من الخصب والجدب ﴿ عِندَ الله ﴾ بأمره وهو مكتوب على رؤوسكم ، لازم أعناقكم ، وليس ذلك إليَّ ولا علمه عندي .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ قال ابن عباس : تُختبرون بالخير والشر ، نظيره ﴿ وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : 35] .

الكلبي : تُفتنون حتى تجهلوا أنّه من عند الله سبحانه وتعالى .

محمد بن كعب : تُعذّبون بذنوبكم وقيل : تمتحنون بإرسالي إليكم لتثابوا على طاعتكم ومتابعتي ، وتعاقبوا على معصيتي ومخالفتي .

﴿ وَكَانَ فِي المدينة ﴾ يعني مدينة ثمود وهي الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ من أبناء

أشرافهم ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأَرضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ وأسماؤهم قدار بن سالف ومصدع بن دهر وأسلم ورهمى وبرهم ودعمى وعيم وقتال وصَداف .

(163/579)

﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ ﴾ تحالفوا ﴿ بالله ﴾ أيها القوم وموضع تقاسموا جزم على الأمر كقوله ﴿ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴾ [الإسراء : 88 ، الزخرف : 67] وقال قوم من أهل المعاني : محله نصب على الفعل الماضي يعني انهم تحالفوا وتواثقوا ، تقديره : قالوا متقاسمين بالله ، ودليل هذا التأويل أنّها في قراءة عبد الله : ولا يصلحون تقاسموا بالله ، وليس فيها قالوا .

﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ من البيات فلنقتله ، هذه قراءة العامة بالنون فيهما واختيار أبي حاتم ، وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائي : لتبيّتنّه ولتقولنّ بالتاء فيهما وضم التاء واللام على الخطاب واختاره أبو عبيد ، وقرأ مجاهد وحميد بالتاء فيهما وضم التاء واللام على الخبر عنهم .

ثم ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا ﴾ ما حضرنا ﴿ مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي إهلاكهم ، وقرأ عاصم برواية أبي بكر مهلك بفتح الميم واللام ، وروى حفص عنه بفتح الميم وكسر اللام ، وهما جميعاً بمعنى الهلاك ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في قولنا : إنّا ما شهدنا ذلك .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ وغدروا غدراً حين قصدوا تبييت صالح والفتك به ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ وجزيناهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا ﴾ قرأ الحسن والأعمش وعاصم وحمزة والكسائي أَنَّا بفتح الالف ولها وجهان :

أحدهما : أن يكون أنّا في محلّ الرفع ردّاً على العاقبة .

والثاني : النصب على تكرير (كان) تقديره : كان عاقبة مكرهم التدمير ، واختار أبو عبيد هذه القراءة اعتبار الحرف أي أنْ دمرناهم ، وقرأ الباقون : إنّا بكسر الألف على الابتداء .

﴿ دَمَّرْنَاهُمْ ﴾ يعني أهلكنا التسعة ، واختلفوا في كيفية هلاكهم .

(164/579)

فقال ابن عباس : أرسل سبحانه الملائكة فامتلأت بهم دار صالح فأتى التسعة الدار شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم .

قال قتادة : خرجوا مسرعين الى صالح فسلَّط الله عليهم صخرة فدمغتهم .

مقاتل : نزلوا في سفح جبل ينتظر بعضهم بعضا ليأتوا دار صالح ، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم .

السدّي : خرجوا ليأتوا صالحاً فنزلوا خرقاً من الأرض يتمكنون فيه فانهار عليهم .

﴿ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بالصيحة وقد مضت القصة .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ خالية ، قراءة العامّة بالنصب على الحال عن الفرّاء والكسائي وأبو عبيدة عن القطع مجازه : فتلك بيوتهم الخاوية ، فلمّا قطع منها الألف واللام نصبت كقوله سبحانه ﴿ وَلَهُ الدين وَاصِباً ﴾ [النحل : 52] وقرأ عيسى بن عمر ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ بالرفع على الخبر ﴿ بِمَا ظلموا ﴾ أي بظلمهم ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً ﴾ لعبرة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ من صيحة جبريل ، والخراج الذي ظهر بأيديهم .

قال مقاتل : خرج أوّل يوم على أيديهم مثل الحمّصة أحمر ثمّ اصفرّ من الغد ، ثمّ اسودّ اليوم الثالث ، ثمّ تفقّأت ، وصاح جبريل (عليه السلام) في خلال ذلك فخمدوا ، وكانت الفرقة المؤمنة الناجية أربعة آلاف ، خرج بهم صالح إلى حضرموت ، فلمّا دخلها صالح مات ، فسمّي (حضر موت) .

قال الضحّاك : ثمّ بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها : (حاضورا) وقد مضت القصّة جميعاً .

(165/579)

﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ وهي الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنّها فاحشة ، وقيل : يرى بعضكم بعضاً . كانوا لا يتستّرون عتوّاً منهم وتمرّداً ﴿ أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ من أدبار الرجال ، يقولونه استهزاءً منهم بهم ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته ﴾ وأهله ﴿ قَدَّرْنَاهَا ﴾ قضينا عليها أنها ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ أي الباقين في العذاب وقال أهل المعاني : معنى ﴿ قَدَّرْنَاهَا ﴾ جعلناها ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ وإنّما قال ذلك لأنّ جرمها على مقدار جرمهم ، فلمّا كان تقديرها كتقديرهم في الشرك والرضى بأفعالهم القبيحة ، جرت مجراهم في إنزال العذاب بها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم ﴾ أي على شذّاذها ﴿ مَّطَراً ﴾ وهو الحجارة ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 204.218 ﴾

(166/579)

وقال الزمخشرى :

﴿ قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (27) ﴾

سَنَنْظُرُ من النظر الذي هو التأمل والتصفح . وأراد : أصدقت أم كذبت ، إلا أن كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ أبلغ ، لأنه إذا كان معروفا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبا لا محالة ، وإذا كان كاذبا اتهم بالكذب فيم أخبر به فلم يوثق به ، «1» تَوَلَّ عَنْهُمْ تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ، ليكون ما يقولونه بمسمع منك . ويَرْجِعُونَ من قوله تعالى يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ فيقال : دخل عليها من كوّة فألقى الكتاب إليها وتوارى في الكوّة .

فإن قلت : لم قال : فألقه إليهم ، على لفظ الجمع ؟ قلت : لأنه قال : وجدتها وقومها يسجدون للشمس ، فقال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ، اهتماما منه بأمر الدين ، واشتغالا به عن غيره .

وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك .

[سورة النمل (27) : الآيات 29 إلى 31]

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

كَرِيمٌ حسن مضمونه وما فيه ، أو وصفته بالكرم ، لأنه من عند ملك كريم أو مختوم .

قال صلى اللّه عليه وسلم : «كرم الكتاب ختمه «2»» وكان صلى اللّه عليه وسلم يكتب

إلى العجم ، فقيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتابا عليه خاتم ، فاصطنع خاتما «3» . وعن ابن المقفع : من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به . وقيل : مصدّر ببسم اللّه الرحمن الرحيم : هو استئناف وتبيين لما ألقى إليها ، كأنها لما قالت : إنى ألقى إلىّ كتاب كريم ، قيل لها : ممن هو ؟ وما هو ؟

فقالت : إنه من سليمان وإنه : كيت وكيت . وقرأ عبد اللّه : وإنه من سليمان وإنه . عطفا على :

إنى . وقرئ : أنه من سليمان وأنه ، بالفتح على أنه بدل من كتاب ، كأنه قيل : ألقى إلىّ أنه من سليمان . ويجوز أن تريد : لأنه من سليمان ولأنه ، كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان ، وتصديره

---

(1) . قال محمود : «معناه أصدقت أم كذبت ، إلا أن عبارة الآية أبلغ ، لأنه إذا كان معروفا بالكذب اتهم في جملة إخباره فلم يوثق به» قال أحمد : وهذا مما نبهت عليه في سورة الشعراء من العدول عن الفعل الذي هو : أم كذبت ، وعن مجرد صفته في قوله : أم كنت كاذبا ، إلى جعله واحدا من الفئة الموسومة بالكذب ، فهو أبلغ في مقصود سياق الآية من التهديد ، واللّه أعلم .

(2) . أخرجه الطبراني في الأوسط من رواية محمد بن مروان . وهو السدى الصغير عن

ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس . وأخرجه القضاعي في مسند البيهقي . [. . . . .]

(3) . متفق عليه من رواية قتادة عن أنس قال : أراد أن يكتب . . . فذكره .

(167/579)

باسم اللّه . وقرأ أبيّ : أن من سليمان وأن بسم اللّه ، على أن المفسرة . وأن في أَلَّا تَعْلُوا مفسرة أيضا . لا تعلوا : لا تتكبروا كما يفعل الملوك . وقرأ ابن عباس رضى اللّه عنهما بالغين معجمة من الغلو : وهو مجاوزة الحد . يروى أنّ نسخة الكتاب من عبد اللّه سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ : السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فلا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين ، وكانت كتب الأنبياء عليهم السلام جملا لا يطيلون ولا يكثرون ، وطبع الكتاب بالمسك وختمه بخاتمه ، فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمأرب ، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها ، فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية . وقيل : نقرها فانتبهت فزعة . وقيل : أتاها والقادة والجنود حواليها ، فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها ، فألقى الكتاب في حجرها ، وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع بن شراحيل الحميري ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ، وقالت لقومها ما قالت مُسْلِمِينَ منقادين أو مؤمنين .

[سورة النمل (27) : آية 32]

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

الفتوى : الجواب في الحادثة ، اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن . والمراد بالفتوى هاهنا : الإشارة عليها بما عندهم فيما حدث لها من الرأى والتدبير ، وقصدت بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم : استعطافهم وتطييب نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها قاطِعَةً أَمْراً فاصلة . وفي قراءة ابن مسعود رضى اللّه عنه : قاضية أى لا أبت أمرا إلا بمحضركم . وقيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا : كل واحد على عشرة آلاف .

[سورة النمل (27) : آية 33]

قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (33)

أرادوا بالقوة : قوّة الأجساد وقوّة الآلات والعدد . وبالبأس : النجدة والبلاء في الحرب وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ أى هو موكول إليك ، ونحن مطيعون لك ، فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك . كأنهم أشاروا عليها بالقتال . أو أرادوا : نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأى والمشورة ، وأنت ذات الرأى والتدبير ، فانظرى ما ذا ترين : نتبع رأيك .

[سورة النمل (27) : الآيات 34 إلى 36]

قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (34)

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36)

(168/579)

لما أحست منهم الميل إلى المحاربة ، رأت من الرأى الميل إلى الصلح والابتداء بما هو أحسن ، ورتبت الجواب ، فزيفت أولا ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه ب إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً عنوة وقهرا أَفْسَدُوها أى خرّبوها - ومن ثمة قالوا للفساد : الخربة - ، وأذلوا أعزتها ، وأهانوا أشرافها ، وقتلوا وأسروا ، فذكرت لهم عاقبة الحرب وسوء مغبتها ثم قالت وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ أرادت : وهذه عادتهم المستمرة الثابتة التي لا تتغير ، لأنها كانت في بيت الملك القديم ، فسمعت نحو ذلك ورأت ، ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأى السديد . وقيل : هو تصديق من اللّه لقولها ، وقد يتعلق الساعون في الأرض بالفساد بهذه الآية ويجعلونها حجة لأنفسهم . ومن استباح حراما فقد كفر ، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ أى مرسلة رسلا بهدية أصانعه بها عن ملكي فَناظِرَةٌ ما يكون منه حتى أعمل على حسب ذلك ، فروى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري ، وحليهنّ الأساور والأطواق . والقرطة «1» راكبي خيل

مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر ، وخمسمائة جارية على رماك «2» في زى الغلمان ، وألف لبنة من ذهب وفضة ، وتاجا مكللا بالدرّ والياقوت المرتفع والمسك والعنبر ، وحقا فيه درّة عذراء ، وجزعة معوجة الثقب ، وبعثت رجلين من أشراف قومها : المنذر بن عمرو ، وآخر ذا رأى وعقل ، وقالت : إن كان نبيا ميز بين الغلمان والجواري ، وثقب الدرّة ثقبا مستويا ، وسلك في الخرزة خيطا ، ثم قالت للمنذر : إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك ، فلا يهولنك ، وإن رأيته بشا لطيفا فهو نبىّ ، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان ، فأمر الجنّ فضربوا لبن الذهب والفضة ، وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ ، وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة ، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن ، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار ، ثم قعد على سريره والكراسىّ من جانبيه ، واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ ، والإنس صفوفا فراسخ ، والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك ، فلما دنا القوم ونظروا : بهتوا ، ورأوا الدواب تروث على اللبن ، فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال : ما وراءكم ؟

---

(1) . قوله «والقرطة» واحدها : قرط . (ع)

(2) . قوله «على رماك» هي إناث الخيل . (ع)

وقال : أين الحقّ ؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه فقال لهم : إن فيه كذا وكذا ، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها ، فجعل رزقها في الشجرة . وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها ، فجعل رزقها في الفواكه . ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها ، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ، ثم رد الهدية وقال للمنذر :

أرجع إليهم ، فقالت : هو نبيّ وما لنا به طاقة ، فشخصت إليه في اثنى عشر ألف قيل ، تحت كل قيل ألوف . وفي قراءة ابن مسعود رضى اللّه عنه : فلما جاءوا . أَتُمِدُّونَنِ وقرئ بحذف الياء والاكتفاء بالكسرة وبالإدغام ، كقوله أَتُحاجُّونِّي وبنون واحدة : أتمدوني .

الهدية :

اسم المهدى ، كما أن العطية اسم المعطى ، فتضاف إلى المهدى والمهدى إليه ، تقول هذه هدية فلان ، تريد : هي التي أهداها أو أهديت إليه ، والمضاف إليه ها هنا هو المهدى إليه . والمعنى : أن ما عندي خير مما عندكم ، وذلك أن اللّه آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع ، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه ، فكيف يرضى مثلي بأن يمدّ

بمال ويصانع به بَلْ أَنْتُمْ قوم لا تعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فلذلك تَفْرَحُونَ بما تزادون ويهدى إليكم ، لأن ذلك مبلغ همتكم وحالى خلاف حالكم ، وما أرضى منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية . فإن قلت : ما الفرق بين قولك : أتمدني بمال وأنا أغنى منك ، وبين أن تقوله بالفاء ؟ قلت : إذا قلته بالواو ، فقد جعلت مخاطبى عالما بزيادتى عليه في الغنى واليسار ، وهو مع ذلك يمدني بالمال . وإذا قلته بالفاء ، فقد جعلته مخاطبى عالما بزيادتى عليه في الغنى واليسار ، وهو مع ذلك يمدني بالمال . وإذا قلته بالفاء ، فقد جعلته ممن خفيت عليه حالى ، فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده ، كأنى أقول له : أنكر عليك ما فعلت ، فإنى غنى عنه . وعليه ورد قوله فَما آتانِيَ اللَّهُ . فإن قلت : فما وجه الإضراب ؟ قلت : لما أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره ، أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه : وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح ، إلا أن يهدى إليهم حظ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها . ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدى ، ويكون المعنى : بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخار على الملوك ، بأنكم قدرتم على إهداء مثلها .

ويحتمل أن يكون عبارة عن الردّ ، كأنه قال : بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها .

[سورة النمل (27) : آية 37]

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (37)

ارْجِعْ خطاب للرسول. وقيل: للهدهد محملا كتابا آخر لا قِبَلَ لا طاقة.

وحقيقة القبل: المقاومة والمقابلة، أى: لا يقدرون أن يقابلوهم. وقرأ ابن مسعود رضى اللّه عنه: لا قبل لهم بهم. الضمير في منها لسبأ. والذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزّ والملك.

(170/579)

والصغار: أن يقعوا في أسر واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد أن كانوا ملوكا.

[سورة النمل (27): آية 38]

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38)

يروى أنها أمرت عند خروجها إلى سليمان عليه السلام، فجعل عرشها في آخر سبعة أبيات بعضها في بعض في آخر قصر من قصور سبعة لها. وغلقت الأبواب ووكلت به حرسا يحفظونه، ولعله أوحى إلى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها، فأراد أن يغرب عليها ويريها بذلك بعض ما خصه اللّه به من إجراء العجائب على يده، مع اطلاعها

على عظيم قدرة اللّه وعلى ما يشهد لنبوّة سليمان عليه السلام ويصدقها . وعن قتادة : أراد أن يأخذه قبل أن تسلم ، لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحلّ له أخذ مالها . وقيل . أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ، ثم ينظر أتثبته أم تنكره ؟ اختبارا لعقلها .

[سورة النمل (27) : آية 39]

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39)

وقرئ : عفرية . والعفر ، والعفريت ، والعفرية ، والعفراة ، والعفارية من الرجال : الخبيث المنكر ، الذي يعفر أقرانه . ومن الشياطين : الخبيث المارد . وقالوا : كان اسمه ذكوان لَقَوِيٌّ على حمله أَمِينٌ آتى به كما هو لا أختزل منه شيئا ولا أبد له .

[سورة النمل (27) : آية 40]

قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ رجل كان عنده اسم اللّه الأعظم ، وهو يا حى يا قيوم ، وقيل : يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت . وقيل : يا ذا الجلال والإكرام ، وعن الحسن رضى اللّه . عنه : اللّه . والرحمن . وقيل هو آصف بن برخيا كاتب سليمان عليه السلام ، وكان صدّيقا عالما . وقيل : اسمه أسطوم . وقيل : هو جبريل . وقيل : ملك أيد اللّه به

سليمان .

وقيل : هو سليمان نفسه ، كأنه استبطأ العفريت فقال له : أنا أريك ما هو أسرع مما تقول .

وعن ابن لهيعة : بلغني أنه الخضر عليه السلام : علم من الكتاب : من الكتاب المنزل ، وهو

(171/579)

علم الوحى والشرائع . وقيل : هو اللوح . والذي عنده علم منه : جبريل عليه السلام .

وآتيك - في الموضعين - يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل . الطرف : تحريكك أجفانك إذا نظرت ، فوضع موضع النظر . ولما كان الناظر موصوفا بإرسال الطرف في نحو قوله :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر «1»

وصف بردّ الطرف ، ووصف الطرف بالارتداد . ومعنى قوله قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ أنك ترسل طرفك إلى شيء ، فقبل أن تردّه أبصرت العرش بين يديك : ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام : مدّ عينيك حتى ينتهى طرفك . فمدّ عينيه فنظر نحو اليمن . ودعا آصف فغار العرش في مكانه بمأرب ، ثم نبغ «2» عند مجلس سليمان عليه السلام بالشام بقدرة اللّه ، قبل أن يردّ طرفه . ويجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدّة المجيء به ، كما تقول لصاحبك : افعل كذا في لحظة ، وفي ردّة طرف ، والتفت ترني ، وما أشبه ذلك :

تريد السرعة. يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ لأنه يحط به عنها عبء الواجب، ويصونها عن سمة الكفران، وترتبط به النعمة ويستمد المزيد.

وقيل: الشكر، قيد للنعمة الموجودة، وصيد للنعمة المفقودة. وفي كلام بعض المتقدمين: إن كفران النعمة بوار، وقلما أقشعت «3» ناقرة فرجعت في نصابها، فاستدع شاردها بالشكر، واستدم راهنها بكرم الجوار. واعلم أن سبوغ ستر اللّه متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج اللّه وقارا غَنِيٌّ عن الشكر كَرِيمٌ بالإنعام على من يكفر نعمته، والذي قاله سليمان عليه السلام عند رؤية العرش شاكرا لربه، جرى على شاكلة أبناء جنسه من أنبياء اللّه والمخلصين من عباده يتلقون النعمة القادمة بحسن الشكر، كما يشيعون النعمة المودعة بجميل الصبر.

[سورة النمل (27): الآيات 41 إلى 43]

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42) وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (43)

---

(1) وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

لأعرابية، نظرها أعرابى فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها، كأنه يراودها عن

نفسها ، فأجابته بذلك وقيل : هو لشاعر حماسى . وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يتعرف لهم مكان الخصب ، على طريق التصريحية ، ورائدا ترشيح ، لأنه يلائم الإرسال . ويوما : ظرف له . والمناظر : مواقع النظر ، واستدل على إتعابها إياه بقوله : رأيت الذي لا تملكه كله ولا تصبر عن بعضه ، فكانت عينك سببا لوقوع قلبك في حيرة الهوى وحرقة الجوى .

(2) . قوله «ثم نبغ عند مجلس سليمان» في الصحاح «نبغ الشيء» : ظهر . (ع)

(3) . قوله «و قلما أقشعت» أى : أقلعت ، أفاده الصحاح . (ع)

(172/579)

نَكِّرُوا اجعلوه متنكرا متغيرا عن هيئته وشكله ، كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه . قالوا : وسعوه وجعلوا مقدّمه مؤخره ، وأعلاه أسفله . وقرئ : ننظر ، بالجزم على الجواب ، وبالرفع على الاستئناف أَتَهْتَدِي لمعرفته ، أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه ، أو للدين والايمان بنبوّة سليمان عليه السلام إذا رأت تلك المعجزة البينة ، من تقدّم عرشها وقد خلفته وأغلقت عليه الأبواب ونصبت عليه الحرس . هكذا ثلاث كلمات : حرف التنبيه ، وكاف التشبيه ، واسم الإشارة . لم يقل : أهذا عرشك ، ولكن : أمثل هذا عرشك ، لئلا

يكون تلقينا قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ولم تقل : هو هو ، ولا ليس به ، وذلك من رجاحة عقلها ، حيث لم تقع في المحتمل «1» وَأُوتِينَا الْعِلْمَ من كلام سليمان وملئه : فإن قلت : علام عطف هذا الكلام ، وبم اتصل ؟ قلت : لما كان المقام - الذي سئلت فيه عن عرشها وأجابت بما أجابت به - مقاما أجرى فيه سليمان وملؤه ما يناسب قولهم وَأُوتِينَا الْعِلْمَ نحو أن يقولوا عند قولها كأنه هو : قد أصابت في جوابها وطبقت المفصل «2» ، وهي عاقلة لبيبة ، وقد رزقت الإسلام ، وعلمت قدرة اللّه وصحة النبوّة بالآيات التي تقدّمت عند وفدة المنذر ، وبهذه الآية العجيبة من أمر عرشها - عطفوا على ذلك قولهم : وأوتينا نحن العلم باللّه وبقدرته ، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ، ولم نزل على دين الإسلام شكرا للّه على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم باللّه والإسلام قبلها وَصَدَّها عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهرانى الكفرة ، ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولا بقولها كَأَنَّهُ هُوَ والمعنى : وأوتينا العلم باللّه وبقدرته وبصحة نبوّة سليمان

---

(1) . قال محمود : «لم يقل أهذا عرشك ، لئلا يكون تلقينا ، قالت . كأنه هو ولم تقل هو هو ، ولا ليس بهو وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل ، قال أحمد : وفي قولها كَأَنَّهُ هُوَ وعدولها عن مطابقة الجواب للسؤال ، بأن تقول : هكذا هو ، نكتة حسنة . ولعل قائلا يقول : كلا العبارتين تشبيه ، إذ كاف التشبيه فيهما جميعا ، وإن كانت في إحداهما داخلة على اسم الاشارة ، وفي الأخرى داخلة على المضمر ، وكلاهما - أعنى اسم الاشارة

والمضمر - واقع على الذات المشبهة ، وحينئذ تستوي العبارتان في المعنى ، ويفضل قولها هكذا هو بمطابقته للسؤال ، فلا بد في اختيار كَأَنَّهُ هُوَ من حكمة فنقول : حكمته والله أعلم : أن كَأَنَّهُ هُوَ عبارة من قرب عنده الشبه حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين ، فكاد يقول : هو هو ، وتلك حال بلقيس . وأما هكذا هو ، فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير ، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها والله أعلم . وقول الزمخشري : ولا ليس بهو ، إن كان من قوله فوهم ، والصواب : ولا ليس به ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(2) . قوله «و طبقت المفصل» لعله : وطابقت . (ع)

(173/579)

عليه السلام قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة ، تعني : ما تبينت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام ، ثم قال الله تعالى : وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل . وقيل : وصدها الله - أو سليمان - عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل .

وقرئ : أنها ، بالفتح على أنه بدل من فاعل صد . أو بمعنى لأنها .

[سورة النمل (27) : آية 44]

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

الصرح: القصر. وقيل: صحن الدار. وقرأ ابن كثير: سأقيها، بالهمزة. ووجهه أنه سمع :

سؤقا، فأجرى عليه الواحد. والممرد: المملس، وروى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لأمره، وتحققا لنبوته، وثباتا على الدين. وزعموا أنّ الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى إليه بأسرارهم، لأنها كانت بنت جنية. وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد تجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من ملك سليمان إلى ملك هو أشدّ وأفظع، فقالوا له: إن في عقلها شيئا، وهي شعراء الساقين، ورجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ورجلها، فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقا وقدما لا أنها شعراء، ثم صرف بصره وناداها إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ

وقيل: هي السبب في اتخاذ النورة: أمر بها الشياطين فاتخذوها، واستنكحها سليمان

عليه السلام وأحبها وأقرّها على ملكها وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان «1» ، وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام ، وولدت له . وقيل : بل زوجها ذا تبع ملك همدان ، وسلطه على اليمن ، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه ، فبنى له المصانع ، ولم يزل أميرا حتى مات سليمان لَمْتُ نَفْسِي

تريد بكفرها فيما تقدّم ، وقيل حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت : ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام .

---

(1) . قوله «فبنوا لها سيلحين وغمدان» في الصحاح «سيلحون» : قرية . وفيه في فصل «نصب» : أن للعرب في نصيبين ونحوه كبيرين وفلسطين وسيلحين وباسمين وقنسرين : مذهبين ، أحدهما : لزوم الياء وإعراب ما لا ينصرف . والثاني : إعراب الجمع بالياء والنون نصبا وجرا ، وبالواو والنون رفعا . وفي فصل «غمد» : غمدان : قصر باليمن . وفي فصل «صنع» المصانع : الحصون . (ع)

[سورة النمل (27) : الآيات 45 إلى 46]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قالَ

يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

وقرئ : أن اعبدوا ، بالضم على إتباع النون الباء فَرِيقانِ فريق مؤمن وفريق كافر .

وقيل أريد بالفريقين صالح عليه السلام وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد يَخْتَصِمُونَ يقول كل فريق : الحق معى . السيئة : العقوبة ، والحسنة : التوبة ، فإن قلت : ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة ؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى ؟ قلت : كانوا يقولون لجهلهم : إن العقوبة التي يعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعمه ، تبنا حينئذ واستغفرنا - مقدّرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت - . وإن لم تقع ، فنحن على ما نحن عليه ، فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب قولهم واعتقادهم ، ثم قال لهم : هلا تستغفرون اللّه قبل نزول العذاب ؟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ تنبيها لهم على الخطأ فيما قالوه وتجهيلا فيما اعتقدوه .

[سورة النمل (27) : آية 47]

قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

وكان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره ، فإن مر سانحا «1» تيمن ، وإن مر بارحا تشاءم ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير لما كان سببهما من قدر اللّه وقسمته : أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة . ومنه قالوا : طائر اللّه لا طائرك ، أى : قدر اللّه الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر ، لا طائرك الذي تتشاءم به وتتيمن ، فلما

قالوا :

اطيرنا بكم ، أى : تشاءمنا وكانوا قد قحطوا قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أى سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند اللّه ، وهو قدره وقسمته ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرمكم .

ويجوز أن يريد :

عملكم مكتوب عند اللّه ، فمنه نزل بكم ما نزل . عقوبة لكم وفتنة . ومنه قوله طائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ . وقرئ : تطيرنا بكم ، على الأصل . ومعنى : تطير به : تشاءم به .

وتطير منه : نفر منه تُفْتَنُونَ تختبرون . أو تعذبون . أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة .

[سورة النمل (27) : الآيات 48 إلى 53]

وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (48) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (49) وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (53)

---

(1) . قوله «فان مرّ سانحا تيمن . . . الخ» السانح : ما ولاك ميامنه من ظنى أو طائر أو

غيرهما ، بأن يمر من مياسرك إلى ميامنك . والبارح : ما ولاك مياسره بأن يمر من ميامنك إلى مياسرك ، كذا في الصحاح . (ع)

(175/579)

الْمَدِينَةِ الحجر . وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة ، فكأنه قيل : تسعة أنفس . والفرق بين الرهط والنفر : أن الرهط من الثلاثة إلى العشرة ، أو من السبعة إلى العشرة .

والنفر من الثلاثة إلى التسعة وأسماؤهم عن وهب : الهذيل بن عبد رب . غنم بن غنم . رباب بن مهرج . مصدع بن مهرج . عمير بن كردبة . عاصم بن مخرمة . سبيط بن صدقة . سمعان بن صفى .

قدار بن سالف : وهم الذين سعوا في عقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح عليه السلام ، وكانوا من أبناء أشرافهم وَلَا يُصْلِحُونَ يعنى أن شأنهم الإفساد البحت الذي لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح تَقَاسَمُوا يحتمل أن يكون أمرا وخبرا في محل الحال بإضمار قد ، أى : قالوا متقاسمين : وقرئ : تقسموا . وقرئ : لتبيتنه ، بالتاء والياء والنون ، فتقاسموا - مع النون والتاء - يصح فيه الوجهان . ومع الياء

لا يصح إلا أن يكون خبرا .

والتقاسم ، والتقسم : كالتظاهر ، والتظهر : التحالف . والبيات : مباغتة العدو ليلا «1» . وعن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال : ليس من آيين الملوك «2» استراق الظفر ، وقرئ : مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك . ومهلك بضم الميم من أهلك . ويحتمل المصدر والزمان والمكان ، فإن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه «3» ؟ قلت كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ثم قالوا

---

(1) . قوله «و البيات مباغتة العدو ليلا» في الصحاح «بيت العدو» أى : أوقع بهم ليلا ، والاسم : البيات . (ع)

(2) . قوله «ليس من آيين الملوك» تقدم آنفا أنه قيل : آيين الملك : مراتبه وبهاؤه ، كما وجد بهامش . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟

قلت : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحا وبيتوا أهله وجمعوا بين البياتين جميعا لا أحدهما كانوا صادقين ، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم ، ألا تراهم قصدوا قتل نبى اللّه ولم يرضوا لأنفسهم بأن

يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق حيلة يتفصون بها عن الكذب» قال أحمد : وحيلة الزمخشري لتصحيح قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل أقرب من حيلتهم التي سماها اللّه تعالى مكرا ، لأن غرضه من تمهيد حيلتهم أن يستشهد على صحة القاعدة المذكورة في موافقة قوم لوط عليها ، إذ استقبحوا الكذب بعقولهم لا بالشرع . وأنى يتم له ذلك أو لهم ، وهم كاذبون صريح الكذب في قولهم ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وذلك أنهم فعلوا الأمرين ، ومن فعل الأمرين فجحد فعل أحدهما لم يكن في فريته مرية ، وإنما كانت الحيلة تتم لو فعلوا أمرا فادعي عليهم فعل أمرين ، فجحدوا المجموع . ومن ثم لم تختلف العلماء في أن من حلف لا أضرب زيدا ، فضرب زيدا وعمرا : كان حانثا ، بخلاف الحالف لا أضرب زيدا وعمرا فضرب عمرا ، ولا آكل رغيفين فأكل أحدهما ، فان مثل هذا محل خلاف العلماء في الحنث وعدمه ، فإذا تمهد أن هؤلاء كاذبون صراحا في قولهم ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وأنه لا حيلة لهم في الخلاص من الكذب ، فلا يخلو أمرهم أن يكونوا عقلاء فهم لا يتواطئون على اعتقاد الصدق بهذه الحيلة ، مع القطع بأنها ليست حيلة ، ولا شبهة لقرب جحدهم من الصدق ، فيبطل ما قال الزمخشري لاثبات قاعدة دينه على زعمه ، إذ قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل من قواعد عقائد القدرية ، بموافقة قوم غير عقلاء على صحتها ، فحسبه ما رضى به لدينه ، والسلام .

ما شهدنا مهلك أهله ، فذكروا أحدهما : كانوا صادقين ، لأنهم فعلوا البياتين جميعا لا أحدهما وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم . ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبى اللّه ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سووا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون بها عن الكذب «1» . مكرهم : ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله . ومكر اللّه : إهلاكهم من حيث لا يشعرون . شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة . روى أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلى فيه ، فقالوا : زعم صالح عليه السلام أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فخرجوا إلى الشعب وقالوا : إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فبعث اللّه صخرة من الهضب «2» حيالهم ، فبادروا ، فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب . فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم ، وعذب اللّه كلا منهم في مكانه ، ونجى صالحا ومن معه . وقيل : جاءوا بالليل شاهري سيوفهم ، وقد أرسل اللّه الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة : يرون الحجارة ولا يرون راميا أَنَّا دَمَّرْناهُمْ استئناف . ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة ، أو خبر مبتدإ محذوف تقديره : هي تدميرهم . أو نصبه على معنى : لأنا . أو على أنه خبر كان ، أى : كان عاقبة مكرهم الدمار خاوِيَةً حال عمل فيها ما دل عليه تلك . وقرأ عيسى بن عمر : خاوية ، بالرفع على

خبر المبتدإ المحذوف.

[سورة النمل (27) : الآيات 54 إلى 55]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

وَاذكر لُوطاً أو أرسلنا لوطا لدلالة وَلَقَدْ أَرْسَلْنا عليه. وإِذْ بدل على

---

(1). قوله «حيلة يتفصون بها عن الكذب» في الصحاح «فصا الإنسان» : إذا تخلص من البلية والضيق، وتفصيت من الديون : إذا خرجت منها وتخلصت. (ع) [. . . . .]

(2). قوله «صخرة من الهضب حيالهم» أى من المطر المتتابع مطرة بعد مطرة، وقعد حياله : أى إزاءه.

وأصله الواو، أفاده الصحاح. (ع)

(177/579)

الأول ظرف على الثاني وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ من بصر القلب، أى : تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها، وأن اللّه إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادّة للّه في حكمته وحكمه، وعلمكم بذلك أعظم لذنوبكم وأدخل في القبح والسماجة. وفيه

دليل على أن القبيح من اللّه أقبح منه من عباده ، لأنه أعلم العالمين وأحكم الحاكمين . أو تبصرونها بعضكم من بعض ، لأنهم كانوا في ناديهم يرتكبونها معالنين بها ، لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة ، وانهما كافى المعصية ، وكأن أبا نواس بنى على مذهبهم قوله :

وبح باسم ما تأتى وذرني من الكنى فلا خير في اللّذّات من دونها ستر «1»

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم . فإن قلت : فسرت تبصرون بالعلم وبعده بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فكيف يكونون علماء وجهلاء ؟ قلت : أراد : تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك . أو تجهلون العاقبة . أو أراد بالجهل . السفاهة والمجانة التي كانوا عليها فإن قلت : تَجْهَلُونَ صفة لقوم ، والموصوف لفظه لفظ الغائب ، فهلا طابقت الصفة الموصوف فقرئ بالياء دون التاء ؟ وكذلك بل أنتم قوم تفتنون ؟ قلت : اجتمعت الغيبة والمخاطبة ، فغلبت المخاطبة ، لأنها أقوى وأرسخ أصلا من الغيبة .

[سورة النمل (27) : الآيات 56 إلى 58]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

وقرأ الأعمش : جواب قومه ، بالرفع . والمشهورة أحسن يَتَطَهَّرُونَ يتنزهون عن القاذورات كلها ، فينكرون هذا العمل القذر ، ويغيظنا إنكارهم . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما :

هو استهزاء قَدَّرْناها قدّرنا كونها مِنَ الْغابِرِينَ كقوله قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ فالتقدير واقع على الغبور في المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 363.374 ﴾

---

(1) ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

وبح باسم من تهوى وذرني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

لأبي نواس . وألا استفتاحية للتنبيه ، فكأنه قال : تنبيه فاسقني . وقل لي هي الخمر : أي اجهر باسمها . وقوله : إذا أمكن الجهر : احترس – وباح الشيء : ظهر ، وباح به : أظهره ، أي : أظهر اسم من تحب كما تبوح باسم الخمر . ويروى وبح باسم ما تأتى ، أي : ما تفعل . ودعني : أي اتركني : ضمنه معنى باعدني فعداه بمن ، كناية عن نهيه عن ذكر الكنى : جمع كنية : وهو ما دل على الشيء دلالة خفية ، وشبه العبارة الخفية بالستر الحائل تصريحا .

(178/579)

وقال ابن جزى :

﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾

أي تنح إلى مكان قريب لتسمع ما يقولون ، وروي أنه دخل عليها من كوّة فألقى إليها الكتاب وتوارى في الكوة ، وقيل : إن التقدير انظر ماذا يرجعون ، تول عنهم فهو من المقلوب والأول

أحسن ﴿ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ من قوله يرجع بعضهم إلى بعض القول .

﴿ قَالَتْ يا أَيُّهَا الملأ ﴾ قبل هذا الكلام محذوف تقديره : فألقى الهدهد إليها الكتاب فقرأته ، ثم جمعت أهل ملكها فقالت لهم : يا أيها الملأ ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ وصفته بالكرم لأنه من عند سليمان ، أو لأن فيه اسم الله ، أو لأنه مختوم كما جاء في الحديث : كرم الكتاب ختمه ﴿ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ يحتمل أن يكون هذا نص الكتاب بدأ فيه بالعنوان ، وأن يكون من كلامها : أخبرتهم أن الكتاب من سليمان ﴿ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ يحتمل أن يكون من الانقياد بمعنى مستسلمين ، أو يكون من الدخول في الإسلام ﴿ أُوْلُو قُوَّةٍ ﴾ يحتمل أن يريد قوة الأجساد أو قوة الملك والعدد ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ من كلام الله عز وجل تصديقاً لقولها فيوقف على ما قبله ، أو من كلام بلقيس تأكيداً للمعنى الذي أرادته ، وتعني : كذلك يفعل هؤلاء بنا .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ قالت لقومها إني أجرب هذا الرجل بهدية من نفائس الأموال ، فإن كان ملكاً دنيوياً : أرضاه المال ، ون كان نبياً لم يرضه المال ، وإنما يرضيه دخولنا في دينه ، فبعثت إليه هدية عظيمة وصفها الناس ، واختصرنا وصفها لعدم صحته .

﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ إنكار للهدية لأن الله أغناه عنها بما أعطاه ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أي أنتم محتاجون إليها فتفرحون بها ، وأنا لست كذلك .

﴿ ارجع إِلَيْهِمْ ﴾ خطاب للرسول ، وقيل : للهدهد ، والأول أرجح ، لأن قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ ﴾ مسند إلى الرسول ﴿ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أي لا طاقة لهم بها .

(179/579)

﴿ قَالَ يا أَيُّهَا الملأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ القائل : سليمان ، والملأ جماعة من الجن والإنس ، وطلب عرشها قبل أن يأتوه مسلمين ، لأنه وصف له بعظمة ، فأراد أن يأخذه قبل أن يسلموا فيمنع إسلامهم من أخذ أموالهم ، فمسلمين على هذا من الدخول في دين الإسلام ، وقيل : إنما طلب عرشها قبل أن يأتوه مسلمين ليظهر لهم قوّته ، فمسلمين على هذا بمعنى منقادين .

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ ﴾ روي عن وهب بن منبه أن اسم هذا العفريت كوزن ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قبل أن تقوم من موضع الحكم ، وكان يجلس من بكرة إلى الظهر ، وقيل : معناه قبل أن تستوي من جلوسك قائماً .

﴿ قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب ﴾ هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل كان يعلم اسم الله الأعظم وقيل : هو الخضر ، وقيل هو جبريل ، والأول أشهر ، وقيل سليمان وهذا بعيد ﴿ آتِيكَ بِهِ ﴾ في الموضعين : يحتمل أن يكون فعلاً مستقلاً او

اسم فاعل ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ الطرف العين ، فالمعنى على هذا قبل أن تغمض بصرك إذا نظرت إلى شيء وقيل : الطرف تحريك الأجفان إذا نظرت ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ قيل : هنا محذوف تقديره : فجاءه الذي عنده ، علم من الكتاب بعرشها ، ومعنى مستقرّاً عنده حاصلاً عنده وليس هذا بمستقر الذي يقدر النحويون تعلق المجرورات به خلافاً لمن فهم ذلك ﴿ يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي منفعة الشكر لنفسه .

﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ تنكيره تغيير وصفه وستر بعضه ، وقيل : الزيادة فيه والنقص منه ، وقصد بذلك اختبار عقلها وفهمها ﴿ أتهتدي ﴾ يحتمل أن يرتد : تهتدي لمعرفة عرشها ، أو للجواب عنه إذا سئلت أو للإيمان .

(180/579)

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ كان عرشها قد وصل قبلها إلى سليمان فأمر بتنكيره ، وأن يقال لها أهكذا عرشك ؟ أي أمثل هذا عرشك ؟ لئلا تفطن أنه هو ، فأجابته بقوله : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ . جواباً عن السؤال ، ولم تقل هو تحرزاً من الكذب أو من التحقيق في محل الاحتمال ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا ﴾ هذا من كلام سليمان وقومه لما رأوها قد آمنت قالوا ذلك ؛ اعترافاً بنعمة الله عليهم ، في أن آتاهم العلم قبل بلقيس ،

وهداهم للإسلام قبلها ، والجملة معطوفة على كلام محذوف تقديره : قد أسلمت هي وعلمت وحدانية الله وصحة النبوّة وأوتينا نحن العلم قبلها .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ هذا يحتمل أن يكون من كلام سليمان وقومه ، أو من كلام الله تعالى ، ويحتمل أن يكون ﴿ مَا كَانَت تَّعْبُدُ ﴾ فاعلاً أو مفعولاً ، فإن كان فاعلاً ، فالمعنى صدها ما كانت تعبد عن عبادة الله والدخول في الإسلام حتى إلى هذا الوقت ، وإن كان مفعولاً : فهو على إسقاط حرف الجر ، والمعنى صدها الله أو سليمان عن ما كانت تعبد من دون الله فدخلت في الإسلام .

(181/579)

﴿ قِيلَ لَهَا ادخلي الصرح فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ الصرح في اللغة هو القصر ، وقيل : صحن الدار ، روي أن سليمان أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصراً من زجاج أبيض ، وأجرى الماء من تحته ، وألقى فيه دواب البحر من السمك وغيره وضع سريره في صدره فجلس عليه فلما رأته حسبته لجة ، واللجة الماء المجتمع كالبحر ، فكشفت عن ساقيها لتدخله لما أمرت بدخوله ، وروي أن الجن كرهوا تزوج سليمان لها ، فقالوا له : أن عقلها مجنون ، وإن رجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش

فوجدها عاقلة ، واختبر ساقها بالصرح فلما كشف عن ساقيها وجدها أحسن الناس ساقاً ، فتزوجها وأقرها على ملكها باليمن ، وكان يأتيها مرة في كل شهر ، وقيل : أسكنها معه بالشام ﴿ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ لما ظنت أن الصرح لجة ماء وكشفت عن ساقيها لتدخل الماء قال لها سليمان : إنه صرح ممرّد والممرّد الأملس ، وقيل الطويل ، والقوارير جمع قارورة وهي الزجاجة .

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ تعني بكفرها فيما تقدم ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ هذا ضرب من ضروب التجنيس .

﴿ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ الفريقان من آمن ومن كفر ؛ واختصامهم ؛ اختلافهم وجدالهم في الدين ﴿ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي لم تطلبون العذاب قبل الرحمة ، أو المعصية قبل الطاعة ﴿ قَالُواْ اطيرنا بِكَ ﴾ أي تشاءَمنا بك ، وكانوا قد أصابهم القحط ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللّهِ ﴾ أي السبب الذي يحدث عنه خيركم أو شركم : هو عند الله وهو قضاؤه وقدره ، وذلك رد عليهم في تطيرهم ، ونسبتهم ما أصابهم من القحط إلى صالح عليه السلام .

(182/579)

﴿ وَكَانَ فِي المدينة ﴾ يعني مدينة ثمود ﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأرض ﴾ قيل : إنهم كانوا يقرضون الدنانير والدارهم ولفظ الفساد أعم من ذلك ﴿ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾ أي حلفوا بالله ، وقيل : إنه فعل ماض وذلك ضعيف ، والصحيح أنه فعل أمر قاله بعضهم لبعض ، وتعاقدوا عليه ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي لنقتلنه وأهله بالليل ، وهذا هو الفعل الذي تحالفوا عليه ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي نتبرأ من دمه إن طلبنا به وليه ، ومهلك يحتمل أن يكون اسم مصدر أو زمان أو مكان ، فإن قيل : إن قولهم : ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ يقتضي التبري من دم أهله ، دون التبري من دمه ، فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول أنهم رادوا ما شهدنا مهلكه ومهلك أهله ، وحذف مهلكه لدلالة قولهم ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ ، والثاني أن أهل الإنسان قد يراد به هو وهم لقوله : " وأغرقنا آل فرعون " يعني فرعون وقومه ، الثالث : أنهم قالوا مهلك أهله خاصة ليكونوا صادقين ، فإنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معاً ، وأرادوا التعريض في كلامهم لئلا يكذبوا .

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ يحتمل أن يكون قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ مغالطة مع اعتقادهم أنهم كاذبون ، ويحتمل أنهم قصدوا وجهاً من التعريض ليخرجوا به عن الكذب وقد ذكرناه في الجواب الثالث عن مهلك أهله ، وهو أنهم قصدوا أن يقتلوا صالحاً وأهله معاً ، ثم يقولون : ما شهدنا مهلك أهله وحدهم وإنا لصادقون في ذلك بل يعنون أنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله معاً ، وعلى ذلك حمله الزمخشري .

(183/579)

﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ ﴾ روي أن الرهط الذين تقاسموا على قتل صالح اختفوا ليلاً في غار ، قريباً من داره ليخرجوا منه إلى داره بالليل ، فوقعت عليهم صخرة فأهلكتهم ، ثم هلك قومهم بالصيحة ولم يعلم بعضهم بهلاك بعض ، ونجا صالح ومن آمن به ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : معناه تبصرون بقلوبكم أنها معصية وقيل : تبصرون بأبصاركم لأنهم كانوا ينكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضهم من بعض ، وقيل : تبصرون آثار الكافر قبلكم وما نزل بهم من العذاب ﴿ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ و ﴿ الغابرين ﴾ ﴿ وَأَمْطَرْنَا ﴾ قد ذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 95.98 ﴾

(184/579)

وقال الخازن :

(185/579)

فلما فرغ الهدهد من كلامه ﴿ قال ﴾ سليمان ﴿ سننظر أصدقت ﴾ أي فيما أخبرت ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ ثم إن الهدهد دلهم على الماء فاحتفروا الركايا وروى الناس والدواب ، ثم إن سليمان كتب كتاباً : من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ " بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد أن لا تعلوا علي وأتوني مسلمين قيل لم يزد على ما نص الله في كتابه ، وكذلك الأنبياء كانوا يكتبون جملاً ، لا يطيلون ولا يكثرون فلما كتب سليمان الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه ، وقال للهدهد ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ﴾ إنما قال : إليهم بلفظ الجمع لأنه جعله جواباً لقول الهدهد وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال : فألقه إلى الذين هذا دينهم ﴿ ثم تول عنهم ﴾ أي تنح عنهم فقف قريباً منهم ﴿ فانظر ماذا يرجعون ﴾ أي يردون من الجواب وقيل : تقدير الآية فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنه ، أي انصرف إلي فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به بلقيس وكانت بأرض مأرب من اليمن على ثلاث مراحل من صنعاء ، فوجدها نائمة مستلقية على قفاها وقد غلقت الأبواب ، ووضعت المفاتيح تحت رأسها وكذلك كانت تفعل إذا رقدت فآتى الهدهد وألقى الكتاب على نحرها وقيل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على المرأة وحولها القادة والوزراء والجنود ، فرفرف ساعة والناس ينظرون فرفعت بلقيس رأسها فألقى الكتاب على حجرها وقال وهب بن منبه : كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع فيها حين تطلع فإذا نظرت إليها

سجدت لها فجاء الهدهد ، وسد الكوة بجناحيه فارتفعت الشمس ، ولم تعلم فلما استبطأت الشمس قامت تنظر ، فرمى بالصحيفة إليها فأخذت بلقيس الكتاب ، وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت ، وخضعت لأن ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أن الذي أرسل الكتاب أعظم ملكاً منها فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد وجاءت هي حتى قعدت على سرير ملكها ، وجمعت الملأ من قومها وهم الأشراف وقال ابن

(186/579)

عباس كان مع بلقيس مائة قيل مع كل قيل مائة ألف والقيل ملك دون الملك الأعظم وقيل كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف فلما جاؤوا وأخذوا مجالسهم .

﴿ قالت ﴾ لهم بلقيس ﴿ يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب كريم ﴾ قيل سمته كريماً لأنه كان مختوماً ، روى ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه سلم قال "كرامة الكتاب ختمه" وقال ابن عباس : كريم أي شريف لشرف صاحبه ، ثم بينت ممن الكتاب فقالت ﴿ إنه من سليمان ﴾ قرأت المكتوب فيه فقالت ﴿ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فإن قلت لم قدم إنه من سليمان على بسم الله .

قلت : ليس هو كذلك بل ابتدأ سليمان ببسم الله الرحمن الرحيم وإنما ذكرت بلقيس ، أن هذا الكتاب من سليمان ثم ذكرت ما في الكتاب فقالت : وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ألا تعلوا علي ﴾ قال ابن عباس : لا تتكبروا علي .

(187/579)

والمعنى لا تمتنعوا من الإجابة فإن ترك الإجابة ، من العلو والتكبر ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ أي طائعين مؤمنين وقيل من الاستسلام وهو الانقياد ﴿ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ﴾ أي أشيروا علي فيما عرض علي ﴿ ما كنت قاطعة أمراً ﴾ أي قاضية وفاصلة ﴿ حتى تشهدون ﴾ أي تحضرون ﴿ قالوا ﴾ يعني الملأ مجيبين لها ﴿ نحن أولو قوة ﴾ أي في الجسم على القتال ﴿ وأولو بأس شديد ﴾ أي عند الحرب وقيل أرادوا بالقوة كثرة العدد والبأس والشجاعة وهذا تعريض منهم بالقتال أي إن أمرتهم بذلك قالوا ﴿ والأمر إليك ﴾ أيتها الملكة أي في القتال وتركه ﴿ فانظري ماذا تأمرين ﴾ أي تجدين مطيعين لأمرك ﴿ قالت ﴾ بلقيس مجيبة لهم عن التعريض للقتال وما يؤول إليه أمره ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية ﴾ أي عنوة ﴿ أفسدوها ﴾ أي خربوها ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أي أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر تحذرهم بذلك مسير سليمان إليهم

ودخوله بلادهم ثم تناهى الخبر عنها هنا ، وصدق الله قولها فقال تعالى ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ أي كما قالت هي يفعلون وقيل هو من قولها وهو للتأكيد لما قالت ثم قالت ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية ﴾ يعني إلى سليمان وقومه أصانعه بها على ملكي ، وأختبره بها أملك هو أم نبي فإن كان ملكاً قبل الهدية ورجع ، وإن كان نبياً لم يقبل الهدية ، ولم يرضه منا إلا أن نتبعه في دينه وهو قولها ﴿ فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الأمور ، وجربتها فأهدت وصفاء ووصائف .

(188/579)

قال ابن عباس : مائة وصيف ومائة وصيفة قال وهب وغيره عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية ، فألبست الجواري لبس الغلمان الأقبية والمناطق ، وألبست الغلمان لبس الجواري وجعلت في أيديهم أساور الذهب ، وفي أعناقهم أطواق الذهب وفي آذانهم أقرطة ، وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر وحملت الجواري على خمسمائة رمكة ، والغلمان على خمسمائة برذون على كل فرس سرج من الذهب مرصع بالجواهر ، وأغشية الديباج وبعثت إليه لبنات من الذهب ولبنات من الفضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت ، وأرسلت بالمسك والعنبر والعود اليلنجوج وعمدت إلى حق جعلت فيه درة بقيمة ثمينة

غير مثقوبة ، وخرزة جزع معوجة الثقب ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له : المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب عقل ورأي وكتبت مع المنذر كتاباً تذكر فيه الهدية ، وقالت : إن كنت نبياً ميز بن الوصفاء والوصائف ، وأخبرنا بما في الحق قبل أن تفتحه واثقب الدرة ثقباً مستوياً وأدخل في الخرزة خيطاً من غير علاج إنس ولا جن ، وأمرت بلقيس الغلمان فقالت : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء ، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم قالت للرسول انظر إذا دخلت ، فإن نظر إليك نظراً فيه غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك أمره ومنظره فأنا أعز منه وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فافهم أنه نبي فتفهم قوله ورد الجواب فانطلق الرسول بالهدايا ، وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان ، فأخبره فأمر سليمان الجن أن يضربوا لبناً من الذهب والفضة ، ففعلوا وأمرهم بعمل ميدان مقدار تسعة فراسخ وأن يفرشوا لبن الذهب والفضة ، وأن يخلوا مقدار تلك اللبنات التي معهم وأن يعملوا حائطاً شرفه من الذهب والفضة ، ففعلوا ثم قال أي دواب البر والبحر أحسن فقالوا يا نبي الله ما رأينا أحسن من دابة من دواب البحر يقال لها كذا وكذا مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص ،

قال : علي بها الساعة فأتوا بها قال شدوها بين يمين الميدان وشماله ثم قال للجن علي بأولادكم ، فاجتمع منهم خلاق كثير فأقامهم على يمين الميدان ، وعلى شماله وأمر الإنس والجن والشياطين ، والوحوش والطير والسباع فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله ، فلما دنا القوم إلى الميدان ونظروا إلى ملك سليمان رأوا أول الأمر الدواب ، التي لا يرى مثلها تروث في لبنات الذهب والفضة ، فلما رأوا ذلك تقاصرت أنفسهم وخبؤوا ما معهم من الهدايا وقيل إن سليمان فرش الميدان بلبنات الذهب والفضة ، وترك على طريقهم موضعاً على قدر ما معهم من اللبن في ذلك الموضع فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً خافوا أن يتهموا بذلك ، فوضعوا ما معهم من اللبن في ذلك الموضع فلما رأوا الشياطين هالهم ما رأوا وفزعوا فقالت لهم الشياطين جوزوا لا بأس عليكم ، فكانوا يمرون على كراديس الإنس والجن والوحش والطير حتى وقفوا بين يدي سليمان ، فأقبل عليهم بوجه طلق وتلقاهم تلقياً حسناً ، وسألهم عن حالهم فأخبره رئيس القوم بما جاؤوا فيه وأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه ، وقال أين الحق ؟ فأتى به فحركه فجاءه جبريل فأخبره بما فيه ، فقال لهم : أن فيه درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة معوجة الثقب قال الرسول : صدقت فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الجزعة فقال سليمان : من لي بثقبها وسأل الإنس والجن ، فلم يكن عندهم علم ثم سأل الشياطين فقالوا : نرسل إلى الأرضة فلما جاءت الأرضة أخذت شعرة في فيها

ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر فقال سليمان ما حاجتك قالت : تصير رزقي في الشجر .

فقال : لك ذلك ثم قال من لي بهذه الخرزة فقالت دودة بيضاء أنا لها يا نبي الله فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر .

(190/579)

فقال لها سليمان : ما حاجتك فقالت يكون رزقي في الفواكة قال : لك ذلك ثم ميز بن الغلمان والجواري ، بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء بيدها ، تضرب بها الآخرى وتغسل وجهها والغلام يأخذ الماء بيديه ويغسل به وجهه ، وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها والغلام على ظاهره فميز بين الغلمان والجواري ، ثم رد سليمان الهدية كما أخبر الله تعالى .

فقال تعالى : ﴿ فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله ﴾ أي ما أعطاني من الدين والنبوة والحكمة والملك ﴿ خير ﴾ أي أفضل ﴿ مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ معناه أنتم أهل مفاخرة ومكاثرة بالدنيا تفرحون بإهداء بعضكم إلى بعض ، وأما أنا فلا أفرح بالدنيا وليست الدنيا من حاجتي لأن الله قد أعطاني منها ما لم يعط أحداً ومع ذلك

أكرمني بالدين والنبوة ، ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد ﴿ ارجع إليهم ﴾ أي بالهدية ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل ﴾ أي لا طاقة ﴿ لهم بها ولنخرجنهم منها ﴾ أي من أرض سبأ ﴿ أذلة وهم صاغرون ﴾ أي إن لم يأتوني مسلمين قال وهب وغيره من أهل الكتاب : لما رجعت رسل بلقيس إليها أي من عند سليمان ، وبلغوها ما قال سليمان قالت والله لقد عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة .

فبعثت إلى سليمان إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك ، وما الذي تدعو إليه من دينك ، ثم أمرت بعرشها فجعلته في آخر سبعة أبيات بعضها داخل بعض ثم أغلقت عليه سبعة أبواب ، ووكلت به حراساً يحفظونه ثم قالت لمن خلفت على ملكها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي لا يخلص إليه أحد ، ثم أمرت منادياً ينادي في أهل مملكتها توّذنهم بالرحيل ، وشخصت إلى سليمان في أثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن كل قيل تحت يده ألوف كثيرة ، قال ابن عباس : وكان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه .

(191/579)

فخرج يوماً فجلس على سريره فرأى رهجاً قريباً منه قال ما هذا ؟ قالوا : بلقيس قد نزلت منا بهذا المكان وكان على مسيرة فرسخ من سليمان فأقبل سليمان على جنوده ﴿ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ قال ابن عباس يعني طائعين وقيل مؤمنين .

قيل : غرض سليمان في إحضار عرشها ليريها قدرة الله تعالى وإظهار معجزة دالة على نبوته ، وقيل أراد أن ينكره ويغيره قبل مجيئها ليختبر بذلك عقلها وقيل : إن سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه لأنه أعجبه وصفه ، لما وصفه له الهدهد وقيل أراد أن يعرف قدر ملكها لأن السرير على قدر المملكة ﴿ قال عفريت من الجن ﴾ وهو المارد القوي ، وقال ابن عباس العفريت الداهية قال وهب : اسمه كوذي .

وقيل : ذكوان .

وقيل : هو صخر المارد وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ أي مجلس قضائك قال ابن عباس : وكان له في الغداة مجلس يقضي فيه إلى متسع النهار وقيل نصفه ﴿ وإني عليه ﴾ أي على حمله ﴿ لقوي أمين ﴾ أي على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان : أريد أسرع من ذلك .

﴿ قال الذين عنده علم من الكتاب ﴾ قيل هو جبريل .

وقيل : هو ملك أيد الله به سليمان وقيل هو آصف بن برخيا وكان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى وقيل هو سليمان نفسه لأنه أعلم بني إسرائيل بالكتاب وكان الله قد آتاه علماً وفهماً ، فعلى هذه يكون المخاطب العفريت الذي كلمه فأراد سليمان إظهار معجزة ، فتحداهم أولاً ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الإتيان بالعرش ما لا يتأتى للعفريب قيل : كان الدعاء الذي دعا به : يا ذا الجلال والإكرام وقيل : يا حي يا قيوم .

(192/579)

وروي ذلك عن عائشة وروي عن الزهري قال دعاء الذي عنده علم من الكتاب : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ، ائتني بعرشها ، وقال ابن عباس : إن آصف قال لسليمان حين صلى مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد سليمان عينيه ونظر نحو اليمين ودعا آصف ، فبعث الله الملائكة فحملوا السرير يجرون به تحت الأرض ، حتى نبع من بين يدي سليمان وقيل : خر سليمان ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغاب العرش تحت الأرض حتى ظهر كرسي سليمان فقال : ما قال ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ قال سليمان : هات قال أنت النبي ابن النبي وليس أحد عند الله أوجه منك فإن

دعوت الله كان عندك : قال صدقت ففعل ذلك فجيء بالعرش في الوقت ﴿ فلما رآه ﴾ يعني رأى سليمان العرش ﴿ مستقراً عنده ﴾ أي محولاً إليه من مأرب إلى الشام في قدر ارتداد الطرف ﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني ﴾ يعني لتمكن من حصول المراد ﴿ أأشكر ﴾ أي نعمته علي ﴿ أم أكفر ﴾ فلا أشكرها ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي يعود نفع شكره إليه وهو أن يستوجب به تمام النعمة ، ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة ﴿ ومن كفر فإن ربي غني ﴾ أي عن شكره لا يضره ذلك الكفران ﴿ كريم ﴾ يعني بالإفضال عليه لا يقطع نعمة عنه بسبب إعراضه عن الشكر وكفران النعمة ﴿ قال نكروا لها عرشها ﴾ يعني غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته قيل : هو أن يزاد فيه أو ينقص منه وقيل : إنما يجعل أسفله أعلاه ويجعل مكان الجواهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر ﴿ ننظر أتهتدي ﴾ إلى معرفة عرشها ﴿ أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ إلى معرفته ، وإنما حمل سليمان على ذلك ما قال وهب ومحمد بن كعب ، وغيرهما أن الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفتشي إليه أسرار الجن ، لأن أمها كانت جنية وإذا ولدت ولداً لا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده فاساءوا اثناء عليها ليزهدوه فيها ، وقالوا : إن في عقلها شيئاً وأن رجلها

كحافر الحمار ، وإنها شعراء الساقين فأراد سليمان ، أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح ﴿ فلما جاءت قيل ﴾ لها ﴿ أهكذا عرشك قالت كأنه هو ﴾ قيل : إنها عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبهوا عليها ، وقيل : إنها كانت حكيمة لم تقل نعم خوفاً من الكذب ولا قالت : لا خوفاً من التكذيب أيضاً فقالت : كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها بحيث لم تقر ولم تنكر اشتبه عليها أمر العرش ، لأنها تركته في بيت عليه سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها قيل فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب ثم قالت ﴿ وأوتينا العلم من قبلها ﴾ يعني من قبل الآية في العرش ﴿ وكنا مسلمين ﴾ يعني منقادين مطيعين خاضعين لأمر سليمان وقيل : قوله تعالى وأوتينا العلم أي بالله وبصحة نبوة سليمان بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبلها أي من قبل الآية في العرش ، وكنا مسلمين أو معناه وأوتينا العلم بالله ، وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة وكنا مسلمين ويكون الغرض من هذا شكر نعمة الله عليه أن خصه بمزيد العلم ، والتقدم في الإسلام وقيل معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها طائعة وكنا مسلمين لله .

قوله تعالى ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ﴾ يعني منعتها عبادة الشمس عن التوحيد وعبادة الله وقيل معناه صدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله وحال بينها وبينه ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ أخبر الله أنها كانت من قوم يعبدون الشمس ، فنشأت بينهم ولم تعرف إلا عبادة الشمس ﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ وذلك أن سليمان لما اختبر عقلها بتنكير العرش وأراد أن ينظر إلى قدميها وساقيها من غير أن يسألها كشفهما لما أخبرته الجن أن رجليها كحافر حمار ، وهي شعراء الساقين أمر الشياطين ، فعملوا لها قصراً من الزجاج الأبيض كالماء وقيل : الصرح صحن الدار وأجرى تحته الماء ، وألقى فيه السمك والضفادع وغرهما من دواب البحر ثم وضع سريره في صدر المجلس وجلس عليه وقيل إنما عمل الصرح ليختبر به فهمها كما فعلت في الوصفاء والوصائف . فلما جلس على السرير دعا بلقيس ، ولما جاءت قيل لها ادخلي الصرح ﴿ فلما رأته حسبته لجة ﴾ أي ماء عظيماً ﴿ وكشفت عن ساقيها ﴾ لتخوض الماء إلى سليمان ، فإذا هي أحسن النساء ساقاً وقدماً إلا أنها كانت شعراء الساقين فلما نظر سليمان ذلك صرف بصره عنها ﴿ قال إنه صرح ممرد ﴾ أي مملس ﴿ من قوارير ﴾ زجاج وليس بماء فحينئذٍ سترت ساقيها وعجبت من ذلك وعلمت أن ملك سليمان من الله تعالى واستدلت بذلك على التوحيد والنبوة ﴿ قالت ربي إني ظلمت نفسي ﴾ بعبادة غيرك

﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ أي أخلصت له التوحيد والعبادة ، وقيل : إنها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت : في نفسها إن سليمان يريد أن يغرقني وكان القتل أهون من هذا لما تبين لها خلاف ذلك قالت : رب إني ظلمت نفسي بذلك الظن .

(195/579)

واختلفوا في أمر بلقيس بعد إسلامها ، فقيل انتهى أمرها إلى قولها أسلمت لله رب العالمين ولا عمل لأحد وراء ذلك ، لأنه لم يذكر في الكتاب ولا في خبر صحيح وقال بعضهم : تزوجها سليمان وكره ما رأى من كثرة شعر ساقيها ، فسأل الإنس عما يذهب ذلك فقالوا الموسى .

فقالت المرأة إني لم يمسني حديد قط فكره سليمان الموسى وقال : إنها تقطع ساقيها فسأل الجن فقالوا لا ندري فسأل الشياطين .

فقالوا : نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة ، والحمام فكانت النورة والحمامات من يومئذٍ .

فلما تزوجها سليمان أحبها حباً شديداً ، وأقرها على ملكها وأمر الجن فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها ارتفاعاً وحسناً ، وهي سلحين وبيسنون وغمدان ثم

كان سليمان يزورها في كل شهر مرة ، ويقيم عندها ثلاثة أيام يبكر من الشام إلى اليمن ومن إلى الشام وولدت له ولداً ذكراً .

وقال وهب : زعموا أن بلقيس لما أسلمت قال لها سليمان اختاري رجلاً من قومك حتى أزوجك إياه ، فقالت : ومثلي يا نبي الله ينكح الرجال وقد كان لي من قومي الملك والسلطان ، قال : نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك ولا ينبغي لك أن تحرمي ما أحل الله قالت : فإن كان ولا بد فزوجني ذا تبع ملك همدان فزوجها إياه وذهب بها إلى اليمن ، وملك زوجها ذا تبع على اليمن ، ودعا زوبعة ملك الجن وقال له اعمل لذي تبع ما استعملك فيه فلم يزل يعمل له ما أراد إلى أن مات سليمان وحال الحول ، وعلم الجن موت سليمان ، فأقبل رجل منهم حتى بلغ جوف اليمن وقال بأعلى صوته : يا معشر الجن إن الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرقوا وانقضى ملك سليمان وملك ذي تبع وملك بلقيس ، وبقي الملك لله الواحد القهار قيل إن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة .

(196/579)

قوله : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله ﴾ أي وحدوه لا تشركوا به شيئاً ﴿ فإذا هم فريقان ﴾ أي مؤمن وكافر ﴿ يختصمون ﴾ أي في الدين كل فريق يقول الحق معنا ﴿ قال ﴾ يعني صالحاً للفريق المكذب ﴿ يا قوم لم تستعجلون بالسيئة ﴾ أي بالبلاء والعقوبة ﴿ قبل الحسنة ﴾ أي العافية الرحمة ﴿ لولا ﴾ أي هلا ﴿ تستغفرون الله ﴾ أي بالتوبة إليه من الكفر ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي لا تعذبون في الدنيا ﴿ قالوا اطيرنا ﴾ أي تشاءمنا ﴿ بك وبمن معك ﴾ قيل : إنما قالوا ذلك لتفرق كلمتهم وقيل : الإمساك القطر عنهم قالوا إما أصابنا هذا الضر والشدة من شؤمك وشؤم أصحابك ﴿ قال طائركم عند الله ﴾ أي ما يصيبكم من الخير والشر بأمر الله مكتوب عليكم ، سمي طائراً لأنه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم وقال ابن عباس الشؤم الذي أتاكم من عند الله بكفركم وقيل طائركم أي عملكم ، عند الله ، سمي طائراً لسرعة صعوده إلى السماء ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ قال ابن عباس تختبرون بالخير والشر وقيل معناه تعذبون .

قوله تعالى ﴿ وكان في المدينة ﴾ يعني مدينة ثمود وهي الحجر ﴿ تسعة رهط ﴾ يعني من أبناء أشرافهم ﴿ يفسدون في الأرض ﴾ أي بالمعاصي ﴿ ولا يصلحون ﴾ أي لا يطعيون وهم غواة قوم صالح الذي اتفقوا على عقر الناقة ورأسهم قدار بن سالف ﴿ قالوا تقاسموا بالله ﴾ يعني يقول بعضهم لبيعض احلفوا بالله أيها القوم ﴿ لنبيتنه ﴾ أي لنقتلنه ليلاً ﴿ وأهله ﴾ يعني قومه الذين آمنوا معه ﴿ ثم لنقولن لوليه ﴾ أي لولي دمه ﴿ ما

شهدنا ﴾ يعني ما حضرنا ﴿ مهلك أهله ﴾ أي ما ندري من قتله ولا هلاك أهله ﴿ وإنا لصادقون ﴾ يعني قولنا ما شهدنا ذلك .

(197/579)

﴿ ومكروا مكراً ﴾ أي غدروا غدراً حين قصدوا تبيت صالح وأهله ﴿ ومكرنا مكراً ﴾ يعني جازيناهم على مكرهم بتعجيل العذاب ﴿ وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم ﴾ يعني أهلكناهم أي التسعة قال ابن عباس : أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتت التسعة دار صالح شاهرين سلاحهم ، فرمتهم الملائكة بالحجارة وهم يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم وأهلك الله جميع القوم بالصيحة ﴿ وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ أي بظلمهم وكفرهم ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي لعبرة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي قدرتنا ﴿ وأنجينا الذي آمنوا ، وكانوا يتقون ﴾ يقال إن الناجين كانوا أربعة آلاف .

قوله تعالى ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ﴾ أي الفعلة القبيحة ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ أي تعلمون أنها فاحشة هو من بصر القلب وقيل : معناه يبصر بعضكم بعضاً وكانوا لا يستترون عتواً منهم ﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم

تجهلون ﴾ فإن قلت إذا فسر تبصرون بالعلم وقد قال : بعده ﴿ قوم تجهلون ﴾ فيكون العلم جهلاً .

قلت : معناه تفعلون فعل الجاهلين وتعلمون أنه فاحشة .

وقيل : تجهلون العاقبة وقيل أراد بالجهل السفاهة التي كانوا عليها ﴿ فلما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ يعني من أدبار الرجال ﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴾ أي قضينا عليها بأن جعلناها من الباقين في العذاب ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي الحجارة ﴿ فساء ﴾ أي فبئس ﴿ مطر المنذرين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 143.153 ﴾

(198/579)

وقال النسفى :

فلما فرغ من كلامه ﴿ قال ﴾ سليمان للهدهد ﴿ سننظر ﴾ من النظر الذي هو التأمل ﴿ أصدقت ﴾ فيما أخبرت ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ وهذا أبلغ من "أم كذبت" لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة ، وإذا كان كاذباً اتهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به ، ثم كتب سليمان كتاباً صورته : من عبد الله سليمان بن

داود إلى بلقيس ملكة سبأ : بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فلا تعلوا علي وأتوني مسلمين وطبعه بالمسك وختمه بخاتمه وقال للهدهد :

﴿ اذهب بّكتابي هذا فألقه ﴾ بسكون الهاء تخفيفاً : أبو عمرو وعاصم وحمزة ، ويختلسها كسراً لتدل الكسرة على الياء المحذوفة : يزيد وقالون ويعقوب ، ﴿ فألقهي ﴾ بإثبات الياء : غيرهم ﴿ إليهم ﴾ إلى بلقيس وقومها لأنه ذكرهم معها في قوله ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس ﴾ وبني الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك ﴿ ثمّ تولّ عنهم ﴾ تنح عنهم إلى مكان قريب بحيث تراهم ولا يرونك ليكون ما يقولونه بمسمع منك ﴿ فانظر ماذا يرجعون ﴾ ما الذي يردونه من الجواب .

فأخذ الهدهد الكتاب بمنقاره ودخل عليها من كوة فطرح الكتاب على نحرها وهي راقدة وتوارى في الكوة فانتبهت فزعة ، أو أتاها والجنود حواليها فرفرف ساعة وألقى الكتاب في حجرها وكانت قارئة ، فلما رأت الخاتم .

﴿ قالت ﴾ لقومها خاضعة خائفة ﴿ يا أيّها الملأإنّي ﴾ وبفتح الياء : مدني ﴿ ألقي إليّ كتابٌ كريمٌ ﴾ حسن مضمونه وما فيه أو مختوم .

قال عليه الصلاة والسلام : "كرم الكتاب ختمه" وقيل : من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به ، أو مصدر ببسم الله الرحمن الرحيم أو لأنه من عند ملك كريم ﴿ إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرّحمن الرّحيم ﴾ هو تبيين لما ألقى إليها كأنها لما قالت ﴿ إني ألقي

إلى كتاب كريم ﴾ قيل لها : ممن هو وما هو ؟ فقالت : ﴿ إنه من سليمان ﴾ وإنه كيت وكيت .

(199/579)

و"أن" فيه ﴿ ألاّ تعلوا ﴾ لا تترفعوا ﴿ عليّ ﴾ ولا تتكبروا كما يفعل الملوك مفسرة كقوله ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا ﴾ [ص : 6] يعني أي امشوا ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ مؤمنين أو منقادين وكتب الأنبياء مبنية على الإيجاز والاختصار

﴿ قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ﴾ أشيروا علي في الأمر الذي نزل بي .

والفتوى الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتاء في السن ، والمراد هنا بالفتوى الإشارة عليها بما عندهم من الرأي ، وقصدها بالرجوع إلى استشارتهم تطييب أنفسهم ليمالئوها ويقوموا معها ﴿ ما كنت قاطعةً أمراً ﴾ فاصلة أو ممضية حكماً ﴿ حتّى تشهدون ﴾ بكسر النون ، والفتح لحن لأن النون إنما تفتح في موضع الرفع وهذا في موضع النصب ، وأصله تشهدونني فحذفت النون الأولى للنصب والياء لدلالة الكسرة عليها .

وبالياء في الوصل والوقف : يعقوب أي تحضروني وتشيروني وتشهدوا أنه صواب أي لا

أبت الأمر إلا بمحضركم .

وقيل : كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل واحد على عشرة الاف .

﴿ قالوا ﴾ مجيبين لها ﴿ نحن أولوا قوّةٍ وأولوا بأسٍ شديدٍ ﴾ أرادوا بالقوة قوة الأجساد والآلات وبالبأس النجدة والبلاء في الحرب ﴿ والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ أي موكول إليك ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك كأنهم أشاروا عليها بالقتال ، أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة وأنت ذات الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين نتبع رأيك .

(200/579)

فلما أحست منهم الميل إلى المحاربة مالت إلى المصالحة ورتبت الجواب فزيفت أولاً ما ذكروه وأرتهم الخطأ فيه حيث ﴿ قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً ﴾ عنوة وقهراً ﴿ أفسدوها ﴾ خربوها ﴿ وجعلوا أعزّة أهلها أذلّةً ﴾ أذلوا أعزتها وأهانوا أشرافها وقتلوا وأسروا فذكرت لهم سوء عاقبة الحرب ثم قالت ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ أرادت وهذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير لأنها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت .

ثم ذكرت بعد ذلك حديث الهدية وما رأت من الرأي السديد .

وقيل : هو تصديق من الله لقولها ، واحتج الساعي في الأرض بالفساد بهذه الآية .

ومن استباح حراماً فقد كفر ، وإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين

﴿ وإنّي مرسلةٌ إليهم بهديّةٍ ﴾ أي مرسلة رسلاً بهدية .

﴿ فناظرةٌ ﴾ فمنتظرة ﴿ بم ﴾ أي ب "ما" لأن الألف تحذف مع حرف الجر في الاستفهام ﴿ يرجع المرسلون ﴾ بقبولها أم بردها لأنها عرفت عادة الملوك وحسن مواقع الهدايا عندهم ، فإن كان ملكاً قبلها وانصرف ، وإن كان نبياً ردها ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه .

فبعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن راكبي خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر ، وخمسمائة جارية على رماك في زي الغلمان ، وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت وحقاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب ، وبعثت رسلاً وأمرت عليهم المنذر بن عمرو بدليل قوله تعالى : ﴿ بم يرجع المرسلون ﴾ .

وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدايا وقالت فيه : إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف وأخبر بما في الحق واثقب الدرة ثقباً واسلك في الخرزة خيطاً .

ثم قالت للمنذر : إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك منظره ، وإن رأيته بشاشاً لطيفاً فهو نبي .

فأقبل الهدهد وأخبر سليمان الخبر كله فأمر سليمان الجن فضربوا لبنات الذهب والفضة وفرشوها في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ ، وجعلوا حول الميدان حائطاً شرفه من الذهب والفضة ، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبنات ، وأمر بأولاد الجن وهم خلق كثير فأقيموا عن اليمين واليسار ، ثم قعد على سريره والكراسي من جانبيه ، واصطفت الشياطين صفوفاً فراسخ ، والإنس صفوفاً فراسخ ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك ، فلما دنا القوم ورأوا الدواب تروث على اللبن رموا بما معهم من الهدايا ، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم سليمان بوجه طلق فأعطوه كتاب الملكة فنظر فيه وقال : أين الحق ؟ فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها ، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وقال للمنذر : ﴿ ارجع إليهم ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ﴾ رسولها المنذر بن عمرو ﴿ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ بنونين وإثبات الياء في الوصل والوقف : مكي وسهل ، وافقهما مدني وأبو عمرو في الوصل .

﴿ أتمدوني ﴾ حمزة ويعقوب في الحالين ، وغيرهم بنونين بلا يا ء فيهما ، والخطاب للرسل ﴿ فَمَا ءاتانى الله ﴾ من النبوة والملك والنعمة .

(202/579)

وبفتح الباء : مدني وأبو عمرو وحفص ﴿ خَيْرٌ مّمَّا ءاتاكم ﴾ من زخارف الدنيا ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ الهدية اسم المهدي كما أن العطية اسم المعطي فتضاف إلى المهدي والمهدى له تقول "هذه هدية فلان" تريد هي التي أهداها أو أهديت إليه ، والمعنى إن ما عندي خير مما عندكم وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظ الأوفر والغنى الأوسع ، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه فكيف يرضى مثلي بأن يمد بمال بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فلذلك تفرحون بما تزادون ويهدى إليكم لأن ذلك مبلغ همتكم ، وحالي خلاف حالكم وما أرضي منكم بشيء ولا أفرح به إلا بالإيمان وترك المجوسية .

والفرق بين قولك "أتمدونني بمال وأنا أغنى منكم" وبين أن تقوله بالفاء أني إذا قلته بالواو جعلت مخاطبي عالماً بزيادتي في الغنى وهو مع ذلك يمدني بمال ، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي فأنا أخبره الساعة بما لا أحتاج معه إلى إمداده كأني أقول له : أنكر عليك ما فعلت فإني غني عنه ، وعليه ورد ﴿ فما آتاني الله ﴾ ووجه الإضراب أنه لما

أنكر عليهم الإمداد وعلل إنكاره أضرب عن ذلك إلى بيان السبب الذي حملهم عليه وهو أنهم لا يعرفون سبب رضا ولا فرح إلا أن يهدي إليهم حظ من الدنيا التي يعلمون غيرها .

﴿ ارجع إِلَيْهِمْ ﴾ خطاب للرسول أو الهدهد محملاً كتاباً آخر إليهم ائت بلقيس وقومها ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لا طاقة لهم بها وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة أي لا يقدرون أن يقابلوهم ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا ﴾ من سبأ ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صاغرون ﴾ الذل أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك ، والصغار أن يقعوا في أسر واستعباد .

(203/579)

فلما رجع إليها رسولها بالهدايا وقص عليها القصة قالت : هو نبي وما لنا به طاقة ثم جعلت عرشها في آخر سبعة أبيات وغلقت الأبواب ووكلت به حرساً يحفظونه ، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك لأنظر ما الذي تدعو إليه ، وشخصت إليه في إثني عشر ألف . قيل : تحت كل قيل ألوف فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الملأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به من إجراء العجائب على يده مع إطلاعها على عظم قدرة الله تعالى وعلى ما يشهد لنبوة سليمان ، أو أراد أن يأخذه قبل أن تسلم لعلمه أنها إذا أسلمت لم يحل

له أخذ مالها وهذا بعيد عند أهل التحقيق ، أو أراد أن يؤتى به فينكر ويغير ثم ينظر أتثبته أم تنكره اختباراً لعقلها ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجن ﴾ وهو الخبيث المارد واسمه ذكوان ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ مجلس حكمك وقضائك ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ ﴾ على حمله ﴿ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ آتي به كما هو لا آخذ منه شيئاً ولا أبدله .

فقال سليمان عليه السلام : أريد أعجل من هذا .

﴿ قَالَ الذى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب ﴾ أي ملك بيده كتاب المقادير أرسله الله تعالى عند قول العفريت ، أو جبريل عليه السلام ، والكتاب على هذا اللوح المحفوظ ، أو الخضر أو آصف بن برخيا كاتب سليمان وهو الأصح وعليه الجمهور ، وكان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وهو : يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أو يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً "واحداً" لا إله إلا أنت .

وقيل : كان له علم بمجاري الغيوب إلهاماً ﴿ أنا ءَاتيك به ﴾ بالعرش و ﴿ آتيك ﴾ في الموضعين يجوز أن يكون فعلاً أو اسم فاعل .

ومعنى قوله ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أنك ترسل طرفك إلى شيء فقبل أن ترده أبصرت العرش بين يديك .

ويروى أن آصف قال لسليمان عليه السلام : مد عينيك حتى ينتهي طرفك فمد عينيه فنظر نحو اليمن فدعا آصف فغار العرش في مكانه ثم نبع عند مجلس سليمان بقدرة الله تعالى قبل أن يرتد طرفه ﴿ فَلَمَّا رَءاهُ ﴾ أي العرش ﴿ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ ثابتاً لديه غير مضطرب ﴿ قَالَ هذا ﴾ أي حصول مرادي وهو حضور العرش في مدة ارتداد الطرف ﴿ مِن فَضْلِ رَبّى ﴾ عليّ وإحسانه إلي بلا استحقاق مني بل هو فضل خال من العوض صافٍ عن الغرض ﴿ ليبلونِى ءَأشكر ﴾ ليمتحنني أأشكر إنعامه ﴿ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأنه يحط به عنها عبء الواجب ويصونها عن سمة الكفران ويستجلب به المزيد وترتبط به النعمة ، فالشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة .

وفي كلام بعضهم : إن كفران النعمة بوار وقلما أقشعت نافرة فرجعت في نصابها ، فاستدع شاردها بالشكر ، واستدم راهنها بكرم الجوار .

واعلم أن سبوغ ستر الله تعالى متقلص عما قريب إذا أنت لم ترج لله وقاراً أي لم تشكر لله نعمة ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾ بترك الشكر على النعمة ﴿ فَإِنَّ رَبّى غَنِىٌّ ﴾ عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ بالإنعام على من يكفر نعمته ، قال الواسطي : ما كان منا من الشكر فهو لنا ، وما كان منه من النعمة فهو إلينا وله المنة والفضل علينا .

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ غيروا أي اجعلوا مقدمه مؤخره وأعلاه أسفله ﴿ نَنظُرْ ﴾ بالجزم على الجواب ﴿ أَتَهْتَدِي ﴾ إلى معرفة عرشها أو للجواب الصواب إذا سئلت عنه ﴿ أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءتْ ﴾ بلقيس ﴿ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ "ها" للتنبيه والكاف للتشبيه و "ذا" اسم إشارة ولم يقل "أهذا عرشك" ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقيناً ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ فأجابت أحسن جواب فلم تقل "هو هو" و "لا ليس به" وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل للأمرين ، أو لما شبهوا عليها بقولهم : ﴿ أهكذا عرشك ﴾ شبهت عليهم بقولها ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ مع أنها علمت أنه عرشها ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا ﴾ من كلام بلقيس أي وأوتينا العلم بقدرة الله تعالى وبصحة نبوتك بالآيات المتقدمة من أمر الهدهد والرسل من قبل هذه المعجزة أي إحضار العرش أو من قبل هذه الحالة ﴿ وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لك مطيعين لأمرك ، أو من كلام سليمان وملئه عطفوا على كلامها قولهم : وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها ، أو أوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين موحدين خاضعين .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللهِ ﴾ متصل بكلام سليمان أي وصدها عن العلم بما علمناه أو عن التقدم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين أظهر الكفرة .

ثم بين نشأها بين الكفرة بقوله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كافرين ﴾ أو كلام مبتدأ أي قال الله تعالى وصدها قبل ذلك عما دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل ، أو صدها الله ، أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل .

﴿ قِيلَ لَهَا ادخلى الصرح ﴾ أي القصر أو صحن الدار ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ﴾ ماء عظيماً ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ ﴿ سأقيها ﴾ بالهمزة : مكي .

(206/579)

روي أن سليمان أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه السمك وغيره ، ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس .

وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره وتحقيقاً لنبوته .

وقيل : إن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي إليه بأسرارهم لأنها كانت بنت جنية .

وقيل : خافوا أن يولد له منها ولد يجمع فطنة الجن والإنس فيخرجون من ملك سليمان إلى

ملك هو أشد فقالوا له : إن في عقلها شيئاً وهي شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار ، فاختبر عقلها بتنكير العرش ، واتخذ الصرح ليعرف ساقها ورجلها فكشفت عنهما فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها شعراء فصرف بصره ﴿ قَالَ ﴾ لها ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ مملس مستو ومنه الأمرد ﴿ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ من الزجاج.

وأراد سليمان تزوجها فكره شعرها فعملت لها الشياطين النورة فأزالته فنكحها سليمان وأحبها وأقرها على ملكها وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بعبادة الشمس ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سليمان لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ قال المحققون : لا يحتمل أن يحتال سليمان لينظر إلى ساقيها وهي أجنبية فلا يصح القول بمثله .

(207/579)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب ﴿ صالحا ﴾ بدل ﴿ أَنِ اعبدوا الله ﴾ بكسر النون في الوصل : عاصم وحمزة وبصري ، وبضم النون : غيرهم اتباعاً للباء ، والمعنى بأن اعبدوا الله وحدوه ﴿ فَإِذَا ﴾ للمفاجأة ﴿ هُمْ ﴾ مبتدأ ﴿ فَرِيقَانِ ﴾ خبر ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ صفة وهي العامل في ﴿ إِذَا ﴾ والمعنى فإذا قوم صالح فريقان

مؤمن به وكافر به يختصمون فيقول كل فريق الحق معي وهو مبين في قوله : ﴿ قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ ءامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحا مُّرْسَلٌ مّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي أمنتم به كافرون ﴾ [الأعراف : 75] وقال الفريق الكافر : ﴿ ياصاح ائتنا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ﴾ ﴿ [الأعراف : 77] ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة ﴾ بالعذاب الذي توعدون ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ قبل التوبة ﴿ لَوْلاَ ﴾ هلا ﴿ تَسْتَغْفِرُونَ الله ﴾ تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزول العذاب بكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بالإجابة ﴿ قَالُواْ اطيرنا بِكَ ﴾ تشاءمنا بك لأنهم قحطوا عند مبعثه لتكذيبهم فنسبوه إلى مجيئه .

(208/579)

والأصل ﴿ تَطَيَّرْنَا ﴾ وقريء به فأدغمت التاء في الطاء وزيدت الألف لسكون الطاء ﴿ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ من المؤمنين ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ الله ﴾ أي سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله وهو قدره وقسمته ، أو عملكم مكتوب عند الله فإنما نزل بكم ما نزل عقوبة لكم وفتنة ومنه ﴿ وَكُلَّ إنسان ألزمناه طَئِرَهُ فِى عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] وأصله أن المسافر إذا مر بطائر فيزجره فإن مر سانحاً تيامن ، وإذا مر بارحاً تشاءم ، فلما

نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته ، أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ تختبرون أو تعذبون بذنبكم .

﴿ وَكَانَ فِى المدينة ﴾ مدينة ثمود وهي الحجر ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ هو جمع لا واحد له ولذا جاز تمييز التسعة به فكأنه قيل تسعة أنفس ، وهو من الثلاثة إلى العشرة .

وعن أبي دؤاد : رأسهم قدار بن سالف وهم الذين سعوا في عقر الناقة وكانوا أبناء أشرافهم ﴿ يُفْسِدُونَ فِى الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ يعني أن شأنهم الإفساد البحت لا يخلط بشيء من الصلاح كما ترى بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح .

وعن الحسن يظلمون الناس ولا يمنعون الظالمين من الظلم .

(209/579)

وعن ابن عطاء : يتبعون معايب الناس ولا يسترون عوراتهم ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾ ﴿ تحالفوا ﴾ خبر في محل الحال بإضمار "قد" أي قالوا متقاسمين أو أمر أي أمر بعضهم بعضاً بالقسم ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾ لنقتلنه بياتاً أي ليلاً ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ ولده وتبعه ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ لولي دمه ﴿ لتبيتنه ﴾ بالتاء وبضم التاء الثانية ثم ﴿ لتقولن ﴾ بالتاء وضم اللام : حمزة

وعلي ﴿ ما شهدنا ﴾ ما حضرنا ﴿ مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ حفص ﴿ مهلَك ﴾ أبو بكر وحماد والمفضل من هلك ، فالأول موضع الهلاك ، والثاني المصدر ﴿ مُهلَك غيرهم ، من أهلك وهو الإهلاك أو مكان الإهلاك أي لم نتعرض لأهله فكيف تعرضنا له ؟ أو ما حضرنا موضع هلاكه فكيف توليناه ؟ ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ فيما ذكرنا .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ مكرهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله .

ومكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون ، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة .

روي أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثالث ، فخرجوا إلى الشعب وقالوا : إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم ، فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم ، وعذب الله كلاً منهم في مكانه ونجى صالحاً عليه السلام ومن معه

(210/579)

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة مَكْرِهِمْ أَنَّا دمرناهم ﴾ بفتح الألف : كوفي وسهل ، وبكسرها : غيرهم على الاستئناف ، ومن فتحه رفعه على أنه بدل من العاقبة ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : هي تدميرهم ، أو نصبه على معنى لأنا أو على أنه خبر "كان" أي فكان عاقبة مكرهم الدمار ﴿ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بالصيحة ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط ، أو خالية من الخواء ، وهي حال عمل فيها ما دل عليه ﴿ تلك ﴾ ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ بظلمهم ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ فيما فعل بثمود ﴿ لآيَةً لّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قدرتنا فيتعظون ﴿ وَأَنجَيْنَا الذين ءامَنُواْ ﴾ بصالح ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ترك أوامره وكانوا أربعة الآف نجوا مع صالح من العذاب .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ ﴾ واذكر لوطاً ، و ﴿ إذ ﴾ بدل من ﴿ لوطاً ﴾ أي واذكر وقت قول لوط ﴿ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ أي إتيان الذكور ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها من بصر القلب ، أو يرى ذلك بعضهم من بعض لأنهم كانوا يرتكبونها في ناديهم معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض مجانة وانهماكاً في المعصية ، أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم .

ثم صرح فقال ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ بهمزتين : كوفي وشامي ﴿ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً ﴾ للشهوة ﴿ مّن دُونِ النساء ﴾ أي إن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى فهي مضادة لله في حكمته ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تفعلون فعل الجاهلين

بأنها فاحشة مع علمكم بذلك ، أو أريد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها .

وقد اجتمع الخطاب والغيبة في قوله ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ و ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ فغلب الخطاب على الغيبة لأنه أقوى إذ الأصل أن يكون الكلام بين الحاضرين .

(211/579)

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أي لوطاً ومتبعيه فخبر "كان" ﴿ جواب ﴾ واسمه ﴿ أن قالوا ﴾ ﴿ مّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يتنزهون عن القاذورات ينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم .

وقيل : هو استهزاء كقوله ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ﴾ ﴿ [هود : 87] ﴿ فأنجيناه ﴾ فخلصناه من العذاب الواقع بالقوم ﴿ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته قدرناها ﴾ بالتشديد سوى حماد وأبي بكر أي قدرنا كونها ﴿ مِنَ الغابرين ﴾ من الباقين في العذاب ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ حجارة مكتوباً عليها اسم صاحبها ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ الذين لم يقبلوا الإنذار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 209.217 ﴾

(212/579)

وقال البيضاوى :

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ ﴾

سنعرف من النظر بمعنى التأمل . ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ﴾ أي أم كذبت والتغيير للمبالغة ومحافظة الفواصل .

﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ ثم تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه . ﴿ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ما يرجع بعضهم إلى بعض من القول .

﴿ قَالَتْ ﴾ أي بعد ما ألقى إليها . ﴿ يا أيها الملأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ لكرم مضمونه أو مرسله ، أو لأنه كان مختوماً أو لغرابة شأنه إذ كانت مستلقية في بيت مغلقة الأبواب فدخل الهدهد من كوة وألقاه على نحرها بحيث لم تشعر به .

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ استئناف كأنه قيل لها ممن هو وما هو فقالت إنه ، أي إن الكتاب أو العنوان من سليمان ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي وإن المكتوب أو المضمون . وقرىء بالفتح على الإبدال من ﴿ كِتَابٌ ﴾ أو التعليل لكرمه . ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ .

﴿ أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ ﴾ أن مفسرة أو مصدرية فتكون بصلتها خبر محذوف أي هو أو المقصود أن لا تعلوا أو بدل من ﴿ كِتَابٌ ﴾ . ﴿ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ مؤمنين أو منقادين ، وهذا كلام في غاية الوجازة مع كمال الدلالة على المقصود ، لاشتماله على البسملة الدالة على

ذات الصانع تعالى وصفاته صريحاً أو التزاماً ، والنهي عن الترفع الذي هو أم الرذائل والأمر بالإِسلام الجامع لأمهات الفضائل ، وليس الأمر فيه بالانقياد قبل إقامة الحجة على رسالته حتى يكون استدعاء للتقليد فإن إلقاء الكتاب إليها على تلك الحالة من أعظم الدلالة .

﴿ قَالَتْ يا أيها الملأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ أجيبوني في أمري الفتي واذكروا ما تستصوبون فيه . ﴿ مَا كُنتُ قاطعة أَمْراً ﴾ ما أبت أمراً . ﴿ حتى تَشْهَدُونِ ﴾ إلا بمحضركم استعطفتهم بذلك ليمالئوها على الإِجابة .

(213/579)

﴿ قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ ﴾ بالأجساد والعدد . ﴿ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ نجدة وشجاعة . ﴿ والأمر إِلَيْكِ ﴾ موكول . ﴿ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ من المقاتلة أو الصلح نطعك ونتبع رأيك .

﴿ قَالَتْ إِنَّ الملوك إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ﴾ عنوة وغلبة . ﴿ أَفْسَدُوهَا ﴾ تزييف لما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القوى الذاتية والعرضية ، وإشعار بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خططهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم ، ثم أن الحرب سجال لا تدري عاقبتها . ﴿ وَجَعَلُواْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ بنهب أموالهم

وتخريب ديارهم إلى غير ذلك من الإهانة والأسر . ﴿ وكذلك يَفْعَلُونَ ﴾ تأكيد لما وصفت من حالهم وتقرير بأن ذلك من عاداتهم الثابتة المستمرة ، أو تصديق لها من الله عز وجل .

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ﴾ بيان لما ترى تقديمه في المصالحة ، والمعنى إني مرسلة رسلاً بهدية أدفعه بها عن ملكي . ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ﴾ من حاله حتى أعمل بحسب ذلك .

روي أنها بعثت منذر بن عمرو في وفد وأرسلت معهم غلماناً على زي الجواري وجواري على زي الغلمان ، وحُقاً فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وقالت : إن كان نبياً ميز بين الغلمان والجواري وثقب الدرة ثقباً مستوياً وسلك في الخرزة خيطاً ، فلما وصلوا إلى معسكره ورأوا عظمة شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم ، فلما وقفوا بين يديه وقد سبقهم جبريل بالحال فطلب الحق وأخبر عما فيه ، فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت في الجزعة ، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية .

﴿ فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ ﴾ أي الرسول أو ما أهدت إليه وقرىء "فلما جاؤوا" . ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ خطاب للرسول ومن معه ، أو للرسول والمرسل على تغليب المخاطب . وقرأ حمزة ويعقوب بالإدغام وقرىء بنون واحدة وبنونين وحذف الياء . ﴿ فَمَا ءاتانى الله ﴾ من النبوة والملك الذي لا مزيد عليه ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بفتح الياء والباقون بإسكانها وبإمالتها . الكسائي وحده . ﴿ خَيْرٌ مِّمَّا ءاتاكم ﴾ فلا حاجة لي إلى هديتكم ولا وقع لها عندي . ﴿ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنكم لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا فتفرحون بما يهدى إليكم حباً لزيادة أموالكم ، أو بما تهدونه افتخاراً على أمثالكم ، والإضراب عن إنكار الإمداد بالمال عليه وتقليله إلى بيان السبب الذي حملهم عليه ، وهو قياس حاله على حالهم في قصور الهمة بالدنيا والزيادة فيها .

﴿ ارْجِعْ ﴾ أيها الرسول . ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى بلقيس وقومها . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرىء "بهم" . ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا ﴾ من سبأ . ﴿ أَذِلَّةً ﴾ بذهاب ما كانوا فيه من العز . ﴿ وَهُمْ صاغرون ﴾ أسراء مهانون .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الملأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله تعالى به من العجائب الدالة على عظم القدرة وصدقه في دعوى النبوة ، ويختبر عقلها بأن ينكر

عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره ؟ . ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فإنها إذا أتت مسلمة لم يحل أخذه إلا برضاها .

(215/579)

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ ﴾ خبيث مارد . ﴿ مِّنَ الجِنِّ ﴾ بيان له لأنه يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر أقرانه ، وكان اسمه ذكوان أو صخراً . ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ من مجلسك للحكومة وكان يجلس إلى نصف النهار . ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ ﴾ على حمله . ﴿ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ لا أختزل منه شيئاً ولا أبدله .

﴿ قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ ﴾ آصف بن برخيا وزيره ، أو الخضر أو جبريل عليهما السلام أو ملك أيده الله به ، أو سليمان عليه السلام نفسه فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وأن هذه الكرامة كانت بسببه والخطاب في : ﴿ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ للعفريت كأنه استبطأه فقال له ذلك ، أو أراد إظهار معجزة في نقله فتحداهم أولاً ثم أراهم أنه يتأتى له مالا يتأتى لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم ، والمراد ب ﴿ الكتاب ﴾ جنس الكتب المنزلة أو اللوح ، و ﴿ ءَاتِيكَ ﴾ في الموضعين صالح للفعلية والاسمية ، "والطرف" تحريك الأجفان للنظر فوضع موضعه ولما كان الناظر يوصف

بإرسال الطرف كما في قوله :

وَكُنْت إِذَا أَرْسَلْت طَرْفَكَ رَائِدا . . . لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

(216/579)

وصف برد الطرف والطرف بالارتداد ، والمعنى أنك ترسل طرفك نحو شيء فقبل أن ترده أحضر عرشها بين يديك ، وهذا غاية في الإسراع ومثل فيه . ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ ﴾ أي العرش ﴿ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ حاصلاً بين يديه . ﴿ قَالَ ﴾ تلقياً للنعمة بالشكر على شاكلة المخلصين من عباد الله تعالى ﴿ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ تفضل به عليَّ من غير استحقاق ، والإشارة إلى التمكن من إحضار العرش في مدة إرتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره ، والكلام في إمكان مثله قد مر في آية "الإسراء" . ﴿ لِيَبْلُوَنِى ءَأَشْكُرُ ﴾ بأن أراه فضلاً من الله تعالى بلا حول مني ولا قوة وأقوم بحقه . ﴿ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ بأن أجد نفسي في البين ، أو أقصر في أداء مواجبه ومحلها النصب على البدل من الياء . ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأنه به يستجلب لها دوام النعمة ومزيدها ويحط عنها عبء الواجب ويحفظها عن وصمة الكفران . ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ عن شكره . ﴿ كَرِيمٌ ﴾ بالإنعام عليه ثانياً .

﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ بتغيير هيئته وشكله . ﴿ نَنظُرْ ﴾ جواب الأمر ، وقرىء بالرفع على الاستئناف . ﴿ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى معرفته أو الجواب الصواب ، وقيل إلى الإيمان بالله ورسوله إذا رأت تقدم عرشها وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليها الحراس .

(217/579)

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ تشبيهاً عليها زيادة في امتحان عقلها إذ ذكرت عنده بسخافة العقل . ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ ولم تقل هو لاحتمال أن يكون مثله وذلك من كمال عقلها . ﴿ وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها فقالت : وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصحة نبوتك قبل هذه الحالة ، أو المعجزة مما تقدم من الآيات . وقيل إنه من كلام سليمان عليه السلام وقومه وعطفوه على جوابها لما فيه من الدلالة على إيمانها بالله ورسوله حيث جوزت أن يكون ذلك عرشها تجويزاً غالباً ، وإحضار ثمة من المعجزات التي لا يقدر عليها غير الله تعالى ولا تظهر إلا على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أي وأوتينا العلم بالله وقدرته وصحة ما جاء به عنده قبلها وكنا منقادين لحكمه ولم نزل على دينه ، ويكون

غرضهم فيه التحدث بما أنعم الله عليهم من التقدم في ذلك شكر الله تعالى .

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ الله ﴾ أي وصدها عبادتها الشمس عن التقدم إلى الإسلام ، أو وصدها الله عن عبادتها بالتوفيق للإيمان . ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كافرين ﴾ وقرىء بالفتح على الإبدال من فاعل صدها على الأول ، أي صدها نشؤها بين أظهر الكفار أو التعليل له .

﴿ قِيلَ لَهَا ادخلي الصرح ﴾ القصر وقيل عرصة الدار . ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ روي أنه أمر قبل قدومها ببناء قصر صحنه من الزجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره في صدره فجلس عليه ، فلما أبصرته ظنته ماء راكداً فكشفت عن ساقيها . وقرأ ابن كثير برواية قنبل "سأقيها" بالهمز حملاً على جمعه سؤوق وأسؤق . ﴿ قَالَ إِنَّهُ ﴾ إن ما تظنينه ماء . ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ مملس . ﴿ مّن قَوارِيرَ ﴾ من الزجاج .

(218/579)

﴿ قَالَتْ رَبّ إِنّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ بعبادتي الشمس ، وقيل بظني بسليمان فإنها حسبت أنه يغرقها في اللجة . ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سليمان لِلَّهِ رَبّ العالمين ﴾ فيما أمر به

عباده وقد ، اختلف في أنه تزوجها أو زوجها من ذي تبع ملك همدان .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا أَنِ اعبدوا الله ﴾ بأن اعبدوا الله ، وقرىء بضم النون على اتباعها الباء . ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ففاجئوا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق ، والواو لمجموع الفريقين .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسيئة ﴾ بالعقوبة فتقولون ائتنا بما تعدنا . ﴿ قَبْلَ الحسنة ﴾ قبل التوبة فتؤخرونها إلى نزول العقاب فإنهم كانوا يقولون إن صدق إيعاده تبنا حينئذ . ﴿ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله ﴾ قبل نزوله . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بقبولها فإنها لا تقبل حينئذ .

﴿ قَالُواْ اطيرنا ﴾ تشاءمنا . ﴿ بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ إذ تتابعت علينا الشدائد ، أو وقع بيننا الافتراق منذ اخترعتم دينكم . ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ ﴾ سببكم الذي جاء منه شركم . ﴿ عَندَ الله ﴾ وهو قدره أو عملكم المكتوب عنده . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، والإِضراب من بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي إليه .

﴿ وَكَانَ فِي المدينة تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ تسعة أنفس ، وإنما تمييزاً للتسعة باعتبار المعنى ، والفرق بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو السبعة إلى العشرة ، والنفر من الثلاثة إلى التسعة .

﴿ يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ أي شأنهم الإِفساد الخالص عن شوب الصلاح .

﴿ قَالُواْ ﴾ أي قال بعضهم لبعض . ﴿ تَقَاسَمُواْ بالله ﴾ أمر مقول أو خبر وقع بدلاً أو حالاً بإضمار قد . ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ لنباغتن صالحاً وأهله ليلاً . وقرأ حمزة والكسائي بالتاء على خطاب بعضهم لبعض ، وقرىء بالياء على أن تقاسموا خبر . ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ ﴾ فيه القراءات الثلاث . ﴿ لِوَلِيِّهِ ﴾ لولي دمه . ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ فضلاً أن تولينا إهلاكهم ، وهو يحتمل المصدر والزمان والمكان وكذا "مُهْلِكَ" في قراءة حفص فإن مفعلاً قد جاء مصدراً كمرجع . وقرأ أبو بكر بالفتح فيكون مصدراً . ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ ونحلف إنا لصادقون ، أو والحال ﴿ إِنَّا لصادقون ﴾ فيما ذكرنا لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً ، أو لأنا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم كقولك ما رأيت ثمة رجلاً بل رجلين .

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْراً ﴾ بهذه المواضعة . ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ بأن جعلناها سبباً لإهلاكهم . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك ، روي أنه كان لصالح في الحجر مسجد في شعب يصلي فيه فقالوا : زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه ، فوقع عليهم صخرة حيالهم فطبقت عليهم فم الشعب فهلكوا ثمة وهلك

الباقون في أماكنهم بالصيحة كما أشار إليه قوله :

﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة مَكْرِهِمْ أَنَّا دمرناهم وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ و﴿ كَانَ ﴾ إن جعلت ناقصة فخبرها ﴿ كَيْفَ ﴾ و﴿ أَنَّا دمرناهم ﴾ استئناف أو خبر محذوف لا خبر ﴿ كَانَ ﴾ لعدم العائد ، وإن جعلتها تامة ف ﴿ كَيْفَ ﴾ حال . وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿ أَنَّا دمرناهم ﴾ بالفتح على أنه خبر محذوف أو بدل من اسم ﴿ كَانَ ﴾ أو خبر له و﴿ كَيْفَ ﴾ حال .

(220/579)

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ خالية من خوى البطن إذا خلا ، أو ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط ، وهي حال عمل فيها معنى الإشارة . وقرىء بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف . ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ بسبب ظلمهم . ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فيتعظون .

﴿ وَأَنجَيْنَا الذين ءَامَنُواْ ﴾ صالحاً ومن معه . ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والمعاصي فلذلك خصوا بالنجاة .

﴿ وَلُوطاً ﴾ واذكر لوطاً ، أو وأرسلنا لوطاً لدلالة ولقد أرسلنا عليه . ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ

﴿ بدل على الأول وظرف على الثاني . ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ تعلمون فحشها من بصر القلب واقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح ، أو يبصرها بعضكم من بعض لأنهم كانوا يعلنون بها فتكون أفحش .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً ﴾ بيان لإتيانهم الفاحشة وتعليله بالشهوة للدلالة على قبحه ، والتنبيه على أن الحكمة في المواقعة طلب النسل لاقضاء الوطر . ﴿ مّن دُونِ النساء ﴾ اللاتي خلقن لذلك . ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ تفعلون فعل من يجهل قبحها ، أو يكون سفيهاً لا يميز بين الحسن والقبيح ، أو تجهلون العاقبة والتاء فيه لكون الموصوف به في معنى المخاطب .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي يتنزهون عن أفعالنا ، أو عن الأقذار ويعدون فعلنا قذراً .

﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته قدرناها مِنَ الغابرين ﴾ قدرنا كونها من الباقين في العذاب .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ مر مثله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 265.272 ﴾

(221/579)

وقال الخطيب الشربيني :

ولما فرغ الهدهد من كلامه

﴿ قال ﴾ له سليمان ﴿ سننظر ﴾ أي : نختبر ما قلته ﴿ أصدقت ﴾ فيه فنعذرك ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ أي : معروفاً بالانخراط في سلكهم فإنه لا يجترئ على الكذب عندي إلا من كان غريقاً في الكذب فهو أبلغ من أم كذبت ، وأيضاً لمحافظة الفواصل ، ثم شرع فيما يختبره به فكتب له كتاباً على الفور في غاية الوجازة قصداً للإسراع في إزالة المنكر على تقدير صدق الهدهد بحسب الاستطاعة ، ودل على إسراعه في كتابته بقوله جواباً له . ﴿ اذهب بكتابي هذا ﴾ فكأنه كان مهيأ عنده فدفعه إليه وأمره بالإسراع ، فطار كأنه البرق ولهذا أشار بالفاء في قوله : ﴿ فألقه إليهم ﴾ أي : الذين ذكرت أنهم يعبدون الشمس وذلك للاهتمام بأمر الدين ، وقرأ أبو عمرو وشعبة وخلاد بخلاف عنه فألقه بسكون الهاء ، واختلس الكسرة قالون وهشام بخلاف عنه ، والباقون بإشباع الكسرة . ﴿ ثم ﴾ قال له إذا ألقيته إليهم ﴿ تولّ ﴾ أي : تنحّ ﴿ عنهم ﴾ إلى مكان تسمع فيه كلامهم ولا يصلون معه إليك ﴿ فانظر ماذا يرجعون ﴾ أي : يردّون من الجواب ، وقال ابن زيد في الآية تقديم وتأخير ، مجازها اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ، ثم تولّ عنهم أي : انصرف إليّ ، فأخذ الهدهد الكتاب وأتى إلى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام .

قال قتادة : فوافاها في قصرها وقد غلقت الأبواب وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح فوضعتها تحت رأسها ، فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على قفاها فألقى الكتاب على نحرها ، وقيل نقرها فانتبهت فزعة ، وقال مقاتل : حمل الهدهد الكتاب بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة وحولها القادة والجنود فرفرف ساعة ، والناس ينظرون إليه حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها ، وقال وهب بن منبه وابن زيد : كانت لها كوة مستقبلة الشمس تقع الشمس فيها حين تطلع فإذا نظرت إليها سجدت لها ، فجاء الهدهد إلى الكوّة فسدها بجناحه فارتفعت الشمس ولم تعلم بها ، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر إليها ، فرمى بالصحيفة إليها فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأنّ ملك سليمان كان في خاتمه وعرفت أنّ الذي أرسل الكتاب أعظم ملكاً منها ، وقرأت الكتاب وتأخر الهدهد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد ألف مقاتل ، وعن ابن عباس قال : كان مع بلقيس مائة ألف ، قيل مع كل قيل مائة ألف ، والقيل :

الملك دون الملك الأعظم ، وقال قتادة ومقاتل : كان أهل مشورتها ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً كل رجل منهم على عشرة آلاف ، فلما جاؤوا أخذوا مجالسهم .

(223/579)

﴿ قالت ﴾ لهم بلقيس ﴿ يا أيها الملأ ﴾ وهم أشراف الناس وكبراؤهم ﴿ إني ألقي إليّ ﴾ أي : بإلقاء ملق على وجه غريب ﴿ كتاب ﴾ أي : صحيفة مكتوب فيها كلام وخبر جامع ، قال الزمخشريّ : وكانت كتب الأنبياء جملاً لا يطنبون ولا يكثرون ، ولما حوى هذا الكتاب من الشرف أمراً باهراً لم يعهد مثله وصفته بقولها ﴿ كريم ﴾ وقال عطاء والضحاك : سمته كريماً لأنه كان مختوماً روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "كرامة الكتاب ختمه" ، "وكان عليه السلام يكتب إلى العجم فقيل له إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه خاتم فاصطنع له خاتماً" ، وعن ابن المقنع : من كتب إلى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به ، وقال مقاتل : كريم أي : حسن ، وعن ابن عباس : أي : شريف لشرف صاحبه ، وقيل : سمته كريماً لأنه كان مصدراً ب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، ثم بينت ممن الكتاب فقالت .

﴿ إنه من سليمان ﴾ ثم بينت المكتوب فيه فقالت ﴿ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ .

﴿ ألا تعلو عليّ ﴾ قال ابن عباس : لا تتكبروا عليّ ، وقيل لا تتعظموا ولا تترفعوا عليّ ، أي : لا تمتنعوا عن الإجابة فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر ﴿ وائتوني مسلمين ﴾ أي : منقادين خاضعين فهو من الاستسلام ، أو مؤمنين فهو من الإسلام ، فإن قيل : لم قدم سليمان اسمه على البسملة ؟

(224/579)

أجيب : بأنه لم يقع منه ذلك بل ابتدأ الكتاب بالبسملة وإنما كتب اسمه عنواناً بعد ختمه لأنّ بلقيس إنما عرفت كونه من سليمان بقراءة عنوانه كما هو المعهود ، ولذلك قالت : ﴿ إنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ أي : إنّ الكتاب ، فالتقديم واقع في حكاية الحال ، واعلم أن قوله : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ مشتمل على إثبات الصانع وإثبات كونه عالماً قادراً حياً مريداً حكيماً رحيماً قال الطيبي : وقال القاضي : هذا كلام في غاية الوجازة مع إثبات كمال الصانع وإثبات كمال الدلالة على المقصود لاشتماله على البسملة الدالة على ذات الإله وصفاته صريحاً أو التزاماً ، والنهي عن الترفع الذي هو أمّ الرذائل ، والأمر بالإسلام الذي هو جامع لأمّهات الفضائل ، ولما سكتوا عن الجواب .

﴿ قالت ﴾ لهم ﴿ يا أيها الملأ ﴾ ثم بينت ما داخلها من الرعب من صاحب هذا

الكتاب بقولها ﴿ أفتوني ﴾ أي : تكرّموا عليّ بالإنابة عما أفعله ﴿ في أمري ﴾ هذا الذي أجيب به هذا الكتاب جعلت الشورى فتوى توسعاً ، لأنّ الفتوى الجواب في الحادثة ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو في الوصل بإبدال الهمزة واواً ، والباقون بتحقيقها وفي الابتداء الجميع بالتحقيق .

ثم عللت أمرها لهم بقولها ﴿ ما كنت قاطعة أمراً ﴾ أي : فاعلته وفاصلته غير متردّدة فيه ﴿ حتى تشهدون ﴾ أفادت بذلك أن شأنها دائماً مشاورتهم في كل جليل وحقير فكيف بهذا الأمر الخطير ، وفي ذلك استعطافهم بتعظيمهم وإجلالهم وتكريمهم ودلالة على غزارة عقلها وحسن أدبها ، ثم إنهم أجابوها عن ذلك بأن .

﴿ قالوا ﴾ مائلين إلى الحرب ﴿ نحن أولو قوّة ﴾ أي : بالمال والرجال ﴿ وأولو ﴾ أي : أصحاب ﴿ بأس ﴾ عزم في الحرب ﴿ شديد والأمر ﴾ أي : في كل من المصادمة والمسالمة راجع وموكول ﴿ إليك فانظري ﴾ أي : بسبب أنه لا نزاع معك ﴿ ماذا تأمرين ﴾ فإنا نطيعك ونتبع أمرك ، ولما علمت أن من سخر له الطير على هذا الوجه لا يعجزه شيء يريده .

﴿ قالت ﴾ جواباً لما أحست في جوابهم من ميلهم إلى الحرب والحرب سجال لا يدري عاقبتها ﴿ إن الملوك ﴾ أي : مطلقاً فكيف بهذا النافذ الأمر ، العظيم القدر ﴿ إذا دخلوا ﴾ عنوة بالقهر ﴿ قرية أفسدوها ﴾ أي : بالنهب والتخريب ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أي : أهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر ، ثم أكدت هذا المعنى بقولها ﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل هذا الفعل العظيم الشأن ﴿ يفعلون ﴾ أي : هو خلق لهم مستمرّ في جميعهم فكيف بمن تطيعه الوحوش والطيور وغيرهما .

تنبيه : هذه الجملة من كلامها وهو كما قال ابن عادل الظاهر ، ولهذا جبلت عليه فتكون منصوبة بالقول ، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى تصديقاً لها فهي استئنافية لا محل لها من الإعراب ، وهي معترضة بين قولها . ولما بينت ما في المصادمة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسالمة بقولها .

(226/579)

﴿ وإني مرسلة إليهم ﴾ أي : إلى سليمان وقومه ﴿ بهدية ﴾ وهي العطية على طريق الملاطفة ، وذلك أن بلقيس كانت امرأة كيسة قد سيست وساست فقالت للملأ من قومها إني مرسلة إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه بها عن ملكي فاختبره بها أملك هو أم نبي ؟

فإن يكن ملكاً قبل الهدية وانصرف ، وإن يكن نبياً لم يقبل الهدية ولم يرضها منا إلا أن نتبعه على دينه ، فذلك قولها ﴿ فناظرة بم ﴾ أي : أيّ شيء ﴿ يرجع المرسلون ﴾ فأهدت إليه وصفاً ووصائف ، قال ابن عباس : ألبستهم لباساً واحداً كي لا يعرف ذكراً من أنثى ، وقال مجاهد ألبست الجواري لباس الغلمان وألبست الغلمان لباس الجواري ، واختلف في عددهم : فقال ابن عباس : مائة وصيف ومائة وصيفة ، وقال مجاهد ومقاتل : مائة غلام ومائتا جارية ، وقال قتادة : أرسلت إليه بلبنات من ذهب في حرير وديباج ، وقال ثابت البناني : أهدت إليه صفائح الذهب في أوعية الديباج ، وقيل : كانت أربع لبنات من ذهب ، وقال وهب وغيره : عمدت بلقيس إلى خمسمائة غلام وخمسمائة جارية فألبست الجواري لباس الغلمان الأقبية والمناطق وألبست الغلمان لباس الجواري وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب وفي أعناقهم أطواقاً من ذهب وفي آذانهم أقراطاً وشنوفاً مرصعات بأنواع الجواهر وغواشيها من الديباج الملونة وبعثت إليه خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة من فضة وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت المرتفع وأرسلت المسك والعنبر وعمدت إلى حقة فجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة ، وجذعة لعلها مثقوبة معوّجة الثقب ودعت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل ، وكتبت معهم كتاباً بنسخة الهدية .

وقالت : إن كنت نبياً فميز بين الوصف والوصائف ، وأخبر بما في الحقة قبل أن تفتحها ، واثقب الدرة ثقباً مستوياً ، وأدخل خيطاً في الخرزة المثقوبة من غير علاج إنس ولا جنّ ، وأمرت بلقيس الغلمان : إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء ، وأمرت الجواري أن يكلمنه بكلام فيه غلظة يشبه كلام الرجال ، ثم قالت للرجل انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه ، وإن رأيت الرجل بشاشاً لطيفاً فاعلم أنه نبيّ مرسل ، فتفهم قوله ورد الجواب .

فانطلق الرسول بالهدايا وأقبل الهدهد مسرعاً إلى سليمان فأخبره الخبر كله فأمر سليمان عليه السلام الجنّ أن يضربوا لبنات الذهب ولبنات الفضة ففعلوا ، ثم أمرهم أن يبسطوا من موضعه الذي هو فيه إلى تسعة فراسخ ميداناً واحداً بلبنات الذهب والفضة وأن يجعلوا حول الميادين حائطاً شرفها من الذهب والفضة ففعلوا ، ثم قال أيّ الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر قالوا يا نبيّ الله إنا رأينا دوابّ في مجر كذا وكذا منقطة مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص ، قال عليّ بها الساعة ، فأتوا بها فقال شدّوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة وألقوا لها علوفتها فيها ، ثم قال للجنّ عليّ بأولادكم فاجتمع خلق كثير فأقامهم عن يمين الميدان ويساره ، ثم قعد سليمان في مجلسه

على سريره ووضع له أربعة آلاف كرسي على يمينه ومثلها على يساره وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفاً فراسخ وأمر الإنس فاصطفوا صفوفاً فراسخ وأمر الوحوش والسباع والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه ويساره .

(228/579)

فلما دنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لبن الذهب والفضة تقاصرت أنفسهم ورموا ما معهم من الهدايا ، وفي بعض الروايات أن سليمان لما أمر بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع اللبنات التي معهم فلما رأى الرسل موضع اللبنات خالياً وكل الأرض مفروشة خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك الموضع الخالي فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا ، فقالت لهم الشياطين جوزوا فلا بأس عليكم ، فكانوا يمرّون على كردوس من الجنّ والإنس والطير والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان ، فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طلق وقال : ما وراءكم ؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا له وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه وقال أين الحقة ؟ فأتى بها فحركها وجاء جبريل عليه السلام فأخبره بما في الحقة فقال : إنّ فيها درة ثمينة غير مثقوبة

وجزعة مثقوبة معوّجة الثقب ، فقال الرسول صدقت فاثقب الدرّة وأدخل الخيط في الخرزة ، فقال سليمان عليه السلام من لي بثقبها فسأل سليمان الإنس ثم الجنّ فلم يكن عندهم علم بذلك ثم سأل الشياطين فقالوا أرسل إلى الأرضة فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها فدخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر ، فقال لها سليمان سلي حاجتك قالت تصير رزقي في الشجرة فقال لك ذلك ، وروي أنها جاءت دودة تكون في الصفصاف فقالت أنا أدخل الخيط في الثقب على أن يكون رزقي في الصفصاف فجعل لها ذلك ، فأخذت الخيط بفيها ودخلت الثقب وخرجت من الجانب الآخر ، ثم قال من لهذه الخرزة بسلكها بالخيط فقالت دودة بيضاء أنا لها يا رسول الله فأخذت الدودة الخيط في فيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر فقال لها سليمان سلي حاجتك قالت : تجعل رزقي في الفواكه قال لك ذلك ، ثم ميز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم فجعلت الجارية تأخذ الماء من الآنية

(229/579)

بإحدى يديها ثم تجعله على اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه ، والغلام يأخذ من الآنية بيديه ويضرب بهما وجهه وكانت الجارية تصب الماء على باطن ساعدها ، والغلام على ظاهر

الساعد وكانت الجارية تصبّ الماء صباً ، وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدراً ، فميز بينهم بذلك ، ثم ردّ سليمان الهدية كما قال تعالى:

﴿ فلما جاء ﴾ أي : الرسول الذي بعثته ، والمراد به الجنس ، قال أبو حيان وهو يقع على الجمع والمفرد والمذكر والمؤنث ﴿ سليمان ﴾ ورفع إليه ذلك ﴿ قال ﴾ أي : سليمان عليه السلام للرّسول ولمن في خدمته استصغاراً لما معه ﴿ أتمدّونني ﴾ أي : أنت ومن معك ومن أرسلك ﴿ بمال ﴾ وإنما قصدي لكم لأجل الدين تحقيراً لأمر الدنيا وإعلاماً بأنه لا التفات له نحوها بوجه ولا يرضيه شيء دون طاعة الله تعالى ، وقرأ نافع وأبو عمرو : بإثبات الياء وصلاً لا وقفاً ، وابن كثير : بإثبات الياء وصلاً ووقفاً ، وحمزة بإدغام النون الأولى في الثانية وإثبات الياء وصلاً ووقفاً ، ثم تسبب عن ذلك قوله استصغاراً لما معهم ﴿ فما آتاني الله ﴾ أي : الملك الأعظم من الحكمة والنبوّة والملك ، وهو الذي يغني مطيعه عن كل شيء سواه فمهما سأله أعطاه ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص : بفتح الياء في الوصل ، ولقالون وأبي عمرو وحفص أيضاً إثباتها وقفاً ، والباقون بحذف الياء وقفاً ووصلاً ، وأمالها حمزة والكسائي محضة ، وورش بالفتح وبين اللفظين ﴿ خير ﴾ أي : أفضل ﴿ مما آتاكم ﴾ أي : من الملك الذي لا دين ولا نبوّة فيه ﴿ بل أنتم ﴾ أي : بجهلكم بالدين ﴿ بهديتكم ﴾ أي : بإهداء بعضكم إلى بعض ﴿ تفرحون ﴾ وأمّا أنا فلا أفرح بها

وليست الدنيا من حاجتي لأنّ الله تعالى قد مكنني فيها وأعطاني منها ما لم يعط أحداً ، ومع ذلك أكرمني بالدين والنبوّة ، ثم قال للمنذر بن عمرو أمير الوفد .

(230/579)

﴿ ارجع ﴾ أي : بهديتهم وجمع في قوله ﴿ إليهم ﴾ إكراماً لنفسه وصيانة لاسمها عن التصريح بضميرها وتعظيماً لكل من يهتم بأمرها ويطيعها ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل ﴾ أي : لا طاقة ﴿ لهم بها ﴾ أي : بمقابلتها ﴿ ولنخرجنهم منها ﴾ أي : من أرضهم وبلادهم وهي سبأ ﴿ أذلة وهم صاغرون ﴾ أي : ذليلون لا يملكون شيئاً من المنعة .

فإن قيل : فلنأتينهم ولنخرجنهم قسم فلا بدّ أن يقع ؟

أجيب : بأنه معلق على شرط محذوف لفهم المعنى ، أي : إن لم يأتوني مسلمين ، قال وهب وغيره من أهل الكتب ، لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان قالت لهم قد عرفت والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة فبعثت إلى سليمان أني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك ، ثم أمرت بعرشها فجعلته داخل سبعة أبواب داخل قصرها وقصرها داخل سبعة قصور وأغلقت الأبواب وجعلت عليها حرّاساً يحفظونه ، ثم قالت لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما وكلتك وبسرير ملكي لا

يخلص إليه أحد حتى آتيك ، ثم أمرت منادياً ينادي في أهل مملكتها تؤذنهم بالرحيل وتجهزت للمسير فارتحلت في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يد كل قيل ألوف كثيرة .

قال ابن عباس : كان سليمان رجلاً مهيباً لا يبتدأ بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه ، فخرج يوماً فجلس على سرير ملكه فرأى رهجاً قريباً منه ، فقال ما هذا ؟ قالوا بلقيس وقد نزلت منا على مسيرة فرسخ ، فأقبل سليمان حينئذ على جنوده بأن .

(231/579)

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ يا أيها الملأ ﴾ أي : الأشراف ﴿ أيكم ﴾ وفي الهمزتين ما تقدم ﴿ يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ أي : مؤمنين ، وقال ابن عباس : واختلفوا في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها فقال أكثرهم : لأنّ سليمان علم أنها إن أسلمت يحرم عليه مالها فأراد أن يأخذ سريرها قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها ، وقيل : ليريها قدرة الله تعالى ببعض ما خصه به من العجائب الدالة على عظيم القدرة وصدقه في دعوى النبوّة في معجزة يأتي بها في عرشها ، وقال قتادة : لأنه أعجبته صفته لما وصفه الهدهد بالعظم فأحبّ أن يراه ، وقال ابن زيد : يريد أن يأمر بتنكيره وتغييره فيختبر بذلك عقلها .

﴿ قال عفريت من الجن ﴾ وهو المارد القوي ، قال وهب : اسمه كودي ، وقيل : ذكوان ، وقال ابن عباس العفريت الداهي ، وقال الضحاك : هو الخبيث ، وقال الربيع : الغليظ ، وقال الفراء : القويّ الشديد ، قيل : إنّ الشياطين أقوى من الجنّ وأنّ المردة أقوى من الشياطين وأنّ العفريت أقوى منهما ، قال بعض المفسرين العفريت من الرجال الخبيث المتكبر ، وقيل : هو صخر الجني وكان بمنزلة جبل يضع قدمه عند منتهى طرفه ، وقوله تعالى ﴿ أنا آتيك به ﴾ قرأه في الموضعين نافع بإثبات الألف من أنا وصلاً ووقفاً ، والباقون وصلاً لا وقفاً ، ثم بيّن سرعة إسراعه بقوله ﴿ قبل أن تقوم من مقامك ﴾ أي : الذي تجلس فيه للقضاء ، قال ابن عباس : كان له غداة كل يوم مجلس يقضي فيه إلى نصف النهار ، ثم أوثق الأمر وأكده بقوله ﴿ وإني عليه ﴾ أي : على الإتيان به سالماً ﴿ لقويّ ﴾ أي : على حمله لا يحصل عجزي عنه ﴿ أمين ﴾ أي : على ما فيه من الجواهر وغيرها ، قال سليمان عليه السلام أريد أسرع من ذلك .

(232/579)

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ المنزل وهو علم الوحي والشرائع ، وقيل : كتاب سليمان ، وقيل : اللوح المحفوظ ، والذي عنده علم من الكتاب جبريل ، قال البقاعي ولعله

التوراة والزبور انتهى ، وفي ذلك إشارة إلى أنّ من خدم كتاب الله حق الخدمة كان الله تعالى معه ، كما ورد في شرعنا "كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويديه التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها" ، أي : أنه يفعل له ما يشاء .

واختلفوا في تعيينه : فقال أكثر المفسرين : هو آصف بن برخيا كاتب سليمان ، وقيل اسمه أسطوم وكان صديقاً عالماً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى ، وقيل ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ، وعن ابن لهيعة بلغني أنه الخضر عليه السلام ﴿ أنا آتيك به ﴾ ثم بين فضله على العفريت بقوله ﴿ قبل أن يرتدّ ﴾ أي : يرجع ﴿ إليك طرفك ﴾ أي : بصرك إذا طرفت أجفانك فأرسلته إلى منتهاه ، ثم رددته فالطرف : تحريكك أجفانك إذا نظرت فوضع في موضع النظر ، ولما كان الناظر موصوفاً بإرسال الطرف في نحو قوله:

*وكنت إذا أرسلت طرفك رائداً **لقلبك يوماً أتعبتك المناظر*

(233/579)

وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد ، روي أن آصف قال لسليمان مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك ، فمدّ سليمان عينيه فنظر نحو اليمين ودعا آصف فبعث الله تعالى

الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يجدّون جداً حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان ، وقال الكلبي : خرّ آصف ساجداً ودعا باسم الله الأعظم فغار عرشها تحت الأرض حتى نبع تحت كرسي سليمان بقدرة الله تعالى ، وقيل : كانت المسافة شهرين ، وقال سعيد بن جبير : يعني من قبل أن يرجع إليك أقصى من ترى وهو أن يصل إليك من كان منك على مدّ بصرك ، وقال قتادة : قبل أن يأتيك الشخص من مدّ البصر ، وقال مجاهد : يعني : إدامة النظر حتى يرد البصر خاسئاً ، قال الزمخشري : ويجوز أن يكون هذا مثلاً لاستقصار مدّة المجيء به ، كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة وفي ردّ طرف والتفت ترني وما أشبه ذلك تريد السرعة انتهى .

واختلفوا في الدعاء الذي دعا به آصف : فقال مجاهد ومقاتل : بياذا الجلال والإكرام ، وقال الكلبي : يا حيّ يا قيوم ، وروي ذلك عن عائشة رضي الله عنها ، وروي عن الزهريّ قال دعاء الذي عنده علم من الكتاب يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ائتني بعرشها ، وعن الحسن يا الله يا رحمن ، وقال محمد بن المنكدر إنما هو سليمان قال له عالم من بني إسرائيل آتاه الله تعالى علماً وفهماً أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك قال سليمان هات قال أنت النبيّ ابن النبيّ وليس أحد أوجه عند الله منك فإن دعوت الله كان عندك فقال صدقت ففعل ذلك فجيء بالعرش في الوقت .

قال الرازي وهذا القول أقرب واستدل لذلك بوجوه منها : أنّ سليمان كان أعرف بالكتاب من غيره لأنه هو النبي فكان صرف اللفظ إليه أولى ، ومنها : أنّ إحضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق ، ومنها : أنه قال هذا من فضل ربي فظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان .

﴿ فلما رآه ﴾ أي : رأى سليمان العرش ﴿ مستقرّاً عنده ﴾ أي : حاصلاً بين يديه ﴿ قال ﴾ شاكراً لربه لما آتاه الله تعالى من هذه الخوارق ﴿ هذا ﴾ أي : الإتيان المحقق ﴿ من فضل ربي ﴾ أي : المحسن إليّ لا بعمل أستحق به شيئاً فإنه أحسن إليّ بإخراجي من العدم ونظر إليّ بتوفيقي للعمل فكل عمل نعمة يستوجب عليّ بها الشكر ، ولذلك قال ﴿ ليبلوني ﴾ أي : ليختبرني ﴿ أأشكر ﴾ فاعترف بكونه فضلاً ﴿ أم أكفر ﴾ بظني أني أوتيته باستحقاق .

تنبيه : ههنا همزتان مفتوحتان فنافع يسهل الهمزة الثانية ، وابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه ، وأدخل بينهما ألفاً قالون وأبو عمرو وهشام ، ولم يدخل ورش وابن كثير ، ولورش أيضاً إبدالها ألفا ، والباقون بالتحقيق وعدم الإدخال ، ثم زاد في حث نفسه على الشكر بقوله ﴿ ومن شكر ﴾ أي : أوقع الشكر لربه ﴿ فإنما يشكر لنفسه ﴾ فإن نفعه لها

وهو أن يستوجب تمام النعمة ودوامها لأنّ الشكر قيد للنعمة الموجودة وجلب للنعمة المفقودة ﴿ ومن كفر ﴾ أي : بالنعمة ﴿ فإنّ ربي ﴾ أي : المحسن إليّ بتوفيقي لما أنا فيه من الشكر ﴿ غني ﴾ عن شكره لا يضرّه تركه شيئاً ﴿ كريم ﴾ أي : بإدرار الإنعام عليه فلا يقطعه عنه بسبب عدم شكره ، ولما حصل العرش عنده .

(235/579)

﴿ قال ﴾ عليه السلام ﴿ نكروا ﴾ أي : غيروا ﴿ لها عرشها ﴾ أي : سريرها إلى حالة تنكره إذا رأته ، قال قتادة ومقاتل : هو أن يزاد فيه وينقص ، وروي أنه جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه وجعل مكان الجوهر الأحمر أخضر ومكان الأخضر أحمر اختباراً لعقلها ، كما اختبرتنا بالوصفاء والوصائف والدرة وغير ذلك .

وإليه أشار بقوله ﴿ ننظر أتهتدي ﴾ أي : إلى معرفته فيكون ذلك سبباً لهدايتها في الدين ﴿ أم تكون من الذين ﴾ شأنهم أنهم ﴿ لا يهتدون ﴾ بل هم في غاية الغباوة ولا يتجدّد لهم اهتداء ، وقال وهب ومحمد بن كعب : إنما حمل سليمان على ذلك ، أنّ الشياطين خافت أن يتزوجها سليمان فتفشي له أسرار الجنّ لأنّ أمها كانت جنية وإذا ولدت له ولداً لا ينفكون عن تسخير سليمان وذرّيته من بعده ، فأساؤوا الثناء عليها ليزهدوه فيها ، فقالوا

: إنّ في عقلها شيئاً وإنّ رجليها كحافر الحمار وأنها شعراء الساقين ، فأراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء الصرح ، ثم أشار إلى سرعة مجيئها إشارة إلى خضوعها بالتعبير بالفاء في قوله .

﴿ فلما جاءت ﴾ وكانت قد وضعت عرشها في بيت خلف سبعة أبواب ووكلت به حراساً أشدّاء ﴿ قيل ﴾ لها وقد رأت عرشها بعد تنكيره ﴿ أهكذا عرشك ﴾ أي : مثل هذا عرشك ﴿ قالت كأنه هو ﴾ قال مقاتل : عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها ، وقال عكرمة : كانت حكيمة لم تقل نعم خوفاً من أن تكذب ولم تقل لا خوفاً من التكذيب فقالت كأنه هو فعرف سليمان كمال عقلها حيث لم تقر ولم تنكر ، وقيل : اشتبه عليها أمر العرش لأنها خلفته في بيت خلف سبعة أبواب مغلقة والمفاتيح معها فقيل لها فإنه عرشك فما أغنى عنك إغلاق الأبواب .

(236/579)

وقوله تعالى : ﴿ وأوتينا العلم من قبلها ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه من كلام بلقيس فالضمير في قبلها راجع للمعجزة والحالة الدال عليها السياق ، والمعنى : وأوتينا العلم بنبوّة سليمان من قبل ظهور هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة ، وذلك لما رأت قبل ذلك من أمر

الهدهد ورد الهدية والرسل من قبلها من قبل الآية في العرش ﴿ وكنا مسلمين ﴾ أي : منقادين طائعين لأمر سليمان ، والثاني : أنه من كلام سليمان وأتباعه فالضمير في قبلها عائد على بلقيس فكان سليمان وقومه قالوا : إنها قد أصابت في جوابها وهي عاقلة وقد رزقت الإسلام ، ثم عطفوا على ذلك قولهم ﴿ وأوتينا العلم ﴾ يعني بالله تعالى وبقدرته على ما يشاء من قبل هذه المرأة في مثل علمها وغرضهم من ذلك شكراً لله تعالى في أن خصهم بمزيد التقديم في الإسلام قاله مجاهد ، وقيل : معناه وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين طائعين لله تعالى ، واختلف في فاعل قوله عز وجل .

﴿ وصدّها ما كانت تعبد من دون الله ﴾ على ثلاثة أوجه : أحدها : ضمير البارئ تعالى ، الثاني ضمير سليمان عليه السلام ، أي : منعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس ، وعلى هذا فما كانت تعبد منصوب على إسقاط الخافض ، أي : وصدّها الله تعالى أو سليمان عما كانت تعبد من دون الله قاله الزمخشريّ مجوزاً له ، قال أبو حيان وفيه نظر من حيث إنّ حذف الجار ضرورة كقوله:

تمرّون الديار فلم تعوجوا

وقد تقدم آيات كثيرة من هذا النوع ، والثالث : أنّ الفاعل هو ما كانت أي : صدّها ما كانت تعبد عن الإسلام أي : صدّها عبادة الشمس عن التوحيد وقوله تعالى : ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ استئناف أخبر الله تعالى أنها كانت من قوم يعبدون الشمس ،

فنشأت بينهم ولم تعرف العبادة ولم تعرف إلا عبادة الشمس ، ولما تم ذلك فكأنه قيل : هل كان بعد ذلك اختبار فقيل نعم .

(237/579)

﴿ قيل لها ﴾ أي : قائل من جنود سليمان عليه السلام فلم يمكنها المخالفة ﴿ ادخلي الصرح ﴾ وهو سطح من زجاج أبيض شفاف تحته ماء جار فيه سمك اصطنعه سليمان ، ولما قالت له الشياطين إنّ رجليها كحافر الحمار وهي شعراء الساقين ، فأراد أن ينظر إلى ساقيها من غير أن يسألها كشفهما ، وقيل الصرح صحن الدار أجرى تحته الماء وألقى فيه كل شيء من دواب البحر السمك والضفادع وغيرهما ثم وضع سريره في صدره وجلس عليه وعكف عليه الطير والجنّ والأنس ، وقيل : اتخذ صحناً من قوارير وجعل تحتها تماثيل من الحيتان والضفادع فكان الواحد إذا رآه ظنه ماء ﴿ فلما رأته حسبته لجة ﴾ وهي معظم الماء ﴿ وكشفت عن ساقيها ﴾ لتخوضه فنظر إليها سليمان فرآها أحسن الناس ساقاً وقدماً إلا أنها كانت شعراء الساقين فلما رأى سليمان ذلك صرف نظره عنها ، وناداها بأن .

﴿ قال ﴾ لها ﴿ إنه ﴾ أي : هذا الذي ظننته ماء ﴿ صرح ممرد ﴾ أي : مملس ومنه

الأمرد لملاسة وجهه من الشعر ﴿ من ﴾ أي : كائن من ﴿ قوارير ﴾ أي : زجاج وليس بماء ، ثم إنّ سليمان دعاها إلى الإسلام وكانت قد رأت حال العرش والصرح فأجابت بأن ﴿ قالت رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ إني ظلمت نفسي ﴾ أي : بما كنت فيه من العمى بعبادة غيرك عن عبادتك ﴿ وأسلمت مع سليمان لله ﴾ أي : مقرّة له بالألوهية والربوبية على سبيل الوحدانية ، ثم رجعت إشارة للعجز عن معرفة الذات حق المعرفة إلى الأفعال التي هي بحر المعرفة فقالت ﴿ رب العالمين ﴾ فعممت بعد أن خصت إشارة إلى الترقي من حضيض دركات العمى إلى أوج درجات الهدى ، وقيل : إنها لما بلغت الصرح وظنته لجة قالت في نفسها إنّ سليمان يريد أن يغرقني وكان القتل أهون من هذا ، فقولها ظلمت نفسي أي : بذلك الظنّ .

(238/579)

واختلفوا في أمرها بعد إسلامها هل تزّوجها سليمان عليه السلام ؟ فالذي عليه أكثر المفسرين فيما رأيت أنه تزوّج بها وكره ما رأى من شعر ساقيها فسأل الإنس ما يذهب هذا فقالوا الموس فقالت المرأة لا تمسني حديدة قط ، فسأل الجنّ فقالوا لا ندري ، فسأل الشياطين فقالوا إنا نحتال لك حتى تكون كالفضة البيضاء فاتخذوا النورة والحمام فكانت

النورة والحمامات من يومئذ ، فلما تزوّجها سليمان أحبها حباً شديداً وأقرّها على ملكها وأمر الجنّ فابتنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير الناس مثلها وارتفاعاً وحسناً ، قال الطيبي سلحين ومؤمنة باليمن وغمدان قال في النهاية هم بضم الغين وسكون الميم البناء العظيم ، وكان يزورها في الشهر مرّة ويقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له وقيل : إنها لما أسلمت قال لها سليمان اختاري رجلاً من قومك أن أزوجك له قالت ومثلي يا نبيّ الله ينكح الرجال وقد كان لي في قومي من الملك والسلطان ما كان ، قال نعم إنه لا يكون في الإسلام إلا ذلك ، ولا ينبغي لك أن تحرّمي ما أحل الله ، فقالت إن كان ولا بدّ فزوّجني ذا تبع ملك همدان فزوّجه بها ثم ردّها إلى اليمن وسلطن زوجها ذا تبع على اليمن وأمر زوبعة أمير جنّ اليمن أن يطيعه فبنى له المصانع ولم يزل أميراً حتى مات سليمان عليه السلام ، فلما أن حال الحول وتبينت الجنّ موت سليمان أقبل رجل منهم فسلك تهامة حتى إذا كان في جوف اليمن صرخ بأعلى صوته يا معشر الجنّ إنّ الملك سليمان قد مات فارفعوا أيديكم فرفعوا أيديهم وتفرّقوا وانقضى ملك ذي تبع وملك بلقيس مع ملك سليمان ، وقيل : إنّ الملك وصل إلى سليمان وهو ابن ثلاثة عشر سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فسبحان من يدوم ملكه وبقاؤه .

ولما أتم سبحانه وتعالى قصة سليمان وداود عليهما السلام ذكر قصة صالح عليه السلام وهي القصة الثالثة بقوله تعالى:

﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي : بمالنا من العظمة ﴿ إلى ثمود أخاهم ﴾ أي : من القبيلة ﴿ صالحاً ﴾ ثم ذكر المقصود من الرسالة بما لا أعدل منه ولا أحسن بقوله : ﴿ أن اعبدوا الله ﴾ أي : الملك الأعظم وحده ولا تشركوا به شيئاً ، ثم تعجب منهم بما أشارت إليه الفاء وإذا المفاجأة من المبادرة إلى الافتراق بما يدعو إلى الاجتماع بقوله : ﴿ فإذا هم ﴾ أي : ثمود ﴿ فريقان ﴾ وبين بقوله تعالى : ﴿ يختصمون ﴾ أنهم فرقة افتراق بكفر وإيمان لا فرقة اجتماع في هدى وعرفان ، ففريق صدق صالحاً واتبعه وفريق استمرّ على شركه وكذبه وكل فريق يقول أنا على الحق وخصمي على الباطل ، ثم استعطف صالح عليه السلام على المكذبين بأن .

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ يا قوم لم تستعجلون ﴾ أي : تطلبون العجلة بالإتيان ﴿ بالسيئة ﴾ أي : التي مساءتها ثابتة وهي العقوبة التي أنذرت بها من كفر ﴿ قبل ﴾ الحالة ﴿ الحسنة ﴾ من الخيرات التي أبشركم بها في الدنيا والآخرة إن آمنتم ، والاستعجال : طلب الإتيان بالأمر قبل الوقت المضروب ، واستعجالهم لذلك بالإصرار على سببه وقولهم استهزاءً ﴿ ائتنا بما تعدنا ﴾ وكانوا يقولون إنّ العقوبة التي بعدها صالح إن وقعت على زعمه تبنا حينئذ

واستغفرنا ، فحينئذ يقبل الله تعالى توبتنا ويدفع العذاب عنا ، فخاطبهم صالح عليه السلام على حسب عقولهم واعتقادهم فقال .

﴿ لولا ﴾ أي : هلا ولم لا ﴿ تستغفرون الله ﴾ أي : تطلبون غفرانه قبل نزول العذاب ، فإنّ استعجال الخير أولى من استعجال الشرّ ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ تنبيهاً لهم على الخطأ فيما قالوه فإنّ العذاب إذا نزل بهم لا تقبل توبتهم .

تنبيه : وصف العذاب بأنه سيئة مجازاً إمّا لأن العقاب من لوازمه أو لأنه يشبهه في كونه مكروهاً ، وأمّا وصف الرحمة بأنها حسنة فقيل حقيقة وقيل مجاز ، ثم إنّ صالحاً عليه السلام لما قرّر لهم هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد بأن .

(240/579)

﴿ قالوا ﴾ فظاظة وغلظة ﴿ اطيرنا ﴾ أي : تشاءمنا ﴿ بك وبمن معك ﴾ أي : وبمن آمن بك ، وذلك أن الله تعالى قد أمسك عنهم المطر في ذلك الوقت وقحطوا ، فقالوا حل بنا هذا الضرر والشدّة من شؤمك وشؤم أصحابك ، قال الزمخشري : كان الرجل يخرج مسافراً فيمرّ بطائر فيزجره فإن مرّ سانحاً تيمن وإن مرّ بارحاً تشائم ، قال الجوهريّ : السنيح والسانح ما ولاك ميامنه من ظبي أو طائر وغيرهما وبرح الظبي بروحاً إذا ولاك

مياسره يمرّ من ميامنك إلى مياسرك والعرب تتطير بالبارح وتتفائل بالسانح ، فلما نسبوا الخير والشرّ إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله تعالى وقسمته تنبيه : أصل اطيرنا تطيرنا أدغمت التاء في الطاء واجتلبت همزة وصل .

ثم أجابهم صالح عليه السلام بأن ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ طائركم ﴾ أي : ما يصيبكم من خير وشرّ ﴿ عند الله ﴾ أي : الملك الأعظم المحيط بكل شيء علماً وقدرة وهو قضاؤه وقدره وليس شيء منه بيد غيره ، وسمي طائراً لسرعة نزوله بالإنسان ، فإنه لا شيء أسرع من قضاء محتوم ، وقال ابن عباس : الشؤم أتاكم من عند الله تعالى بكفركم ، وقيل : طائركم عملكم عند الله سمي طائراً لسرعة صعوده إلى السماء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ (الإسراء :)

﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ قال ابن عباس : تختبرون بالخير والشرّ كقوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة ﴾ (الأنبياء :)

وقال محمد بن كعب : تعذبون ، وقيل : يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم بالتطير ، لما أخبر الله تعالى عن عامة هذا الفريق بالشرّ نبه على بعض شرّهم بقوله تعالى:

﴿ وكان في المدينة ﴾ أي : مدينة ثمود وهي الحجر ﴿ تسعة رهط ﴾ أي : رجال وإنما جاز تمييزاً لتسعة بالرهط لأنه في معنى الجماعة فكأنه قيل تسعة أنفس أو رجال كما قدّرته

، والفرق بين الرهط والنفر أنّ الرهط من الثلاثة إلى العشرة أو من السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة .

(241/579)

وأسماؤهم عن وهب : الهذيل بن عبد رب غنم بن غنم ، رياب بن مهرج ، مصدع بن مهرج ، عمير بن كردبة ، عاصم بن مخرمة ، سبيط بن صدقة ، سمعان بن صفي ، قدار بن سالف وهم الذي سعوا في عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء أشرافهم ورأسهم قدار بن سالف وهو الذي تولى عقر الناقة ، وقوله : ﴿ يفسدون في الأرض ﴾ إشارة إلى عموم فسادهم ودوامه وقوله : ﴿ ولا يصلحون ﴾ يحتمل أن يكون مؤكداً للأوّل ويحتمل أن لا يكون وهو الأولى ، لأنّ بعض المفسدين قد يندر منه بعض الصلاح فنفى عنهم ذلك فليس شأنهم إلا الفساد المحض الذي لا يخالطه شيء من الصلاح ، ولما اقتضى السياق السؤال عن بعض حالهم أجاب بقوله:

﴿ قالوا تقاسموا ﴾ أي : قال بعضهم لبعض احلفوا ﴿ بالله ﴾ أي : الملك العظيم ﴿ لنبيتنه ﴾ أي : صالحاً ﴿ وأهله ﴾ أي : من آمن به لنهلكنّ الجميع ليلاً ، فإنّ البيات مباغتة العدوّ ليلاً تنبيه : محل تقاسموا جزم على الأمر ، ويجوز أن يكون فعلاً ماضياً ،

وحينئذ يجوز أن يكون مفسراً لقالوا كأنه قيل : ما قالوا : فقيل تقاسموا ، ويجوز أن يكون حالاً على إضمار قدر أي : قالوا ذلك متقاسمين وإليه ذهب الزمخشريّ .

﴿ ثم لنقولنّ ﴾ أي : بعد إهلاك صالح ومن معه ﴿ لوليه ﴾ أي : المطالب بدمه إن بقي منهم أحد ﴿ ما شهدنا ﴾ أي : ما حضرنا ﴿ مهلك ﴾ أي : إهلاك ﴿ أهله ﴾ أي : أهل ذلك الولي فضلاً عن أن نكون باشرنا أو أهل صالح عليه السلام فضلاً عن أن نكون شهدنا مهلكه أو باشرنا قتله ولا موضع إهلاكه ، وقرأ حمزة والكسائي بعد اللام من لنبيتنه بتاء فوقية مضمومة وبعد الياء التحتية بتاء فوقية مضمومة وبعد اللام من ليقولنّ بتاء فوقية مفتوحة وضمّ اللام بعد الواو ، والباقون بعد اللام من لنقولنّ بنون مفتوحة ونصب اللام من لنقولنّ ، وقرأ عاصم مهلك بفتح الميم ، والباقون بضمها ، وكسر اللام حفص ، وفتحها الباقون .

(242/579)

ولما صمموا على هذا الأمر وظنوا أنفسهم على المبالغة في الحلف بقولهم ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي : في قولنا ما شهدنا مهلك أهله ذلك ، فإن قيل : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟

أجيب : على التفسير الثاني بأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين ، ثم قالوا ما شهدنا مهلك أهله فذكروا أحدهما ، كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما ، وفي هذا دليل قاطع على أنّ الكذب قبيح عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه ولا يخطر ببالهم إلا أنهم قصدوا قتل نبيّ الله ولم يرضوا لأنفسهم أن يكونوا كاذبين حتى سوّوا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون فيها عن الكذب ولما كان منهم عمل من لم يظنّ أنّ الله عالم به قال تعالى محذراً أمثالهم عن أمثال ذلك .

﴿ ومكروا مكراً ﴾ وهو ما أخفوه من تدبيرهم الفتك بصالح وأهله ﴿ ومكرنا مكراً ﴾ أي : جازيناهم على مكرهم بتعجيل العقوبة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي : لا يتجدّد لهم شعور بما قدّرناه عليهم ، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة ، وقيل : إنّ الله تعالى أخبر صالحاً بمكرهم فتحرّز عنهم فذاك مكر الله تعالى في حقهم .

﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ في ذلك ﴿ أنا دمرناهم ﴾ أي : أهلكناهم ﴿ وقومهم أجمعين ﴾ روي أنه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه ، فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاثة فخرجوا إلى الشعب وقالوا إذا جاء يصلي قتلناه ، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من أهضب جبالهم فبادروا إلى الشعب فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فلم

يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل الله تعالى بهم وبقومهم ، وعذب الله تعالى كلاً منهم في مكانه بصيحة جبريل عليه السلام ورمتهم الملائكة بحجارة يرونها ولا يرونهم .

(243/579)

وقال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم ، وقال مقاتل : نزلوا في سفح الجبل ينتظر بعضهم بعضاً ليأتوا دار صالح فحمى عليهم الجبل فأهلكهم وأهلك الله تعالى قومهم بالصيحة .

﴿ فتلك بيوتهم ﴾ أي : ثمود كلهم ﴿ خاوية ﴾ أي : خالية من خوى البطن إذا خلا أو ساقطة منهدمة من خوى النجم إذا سقط تنبيه : خاوية منصوب على الحال ، والعامل فيها معنى اسم الإشارة ، وقرأ الكوفيون أنا دمرناهم بفتح الهمزة إما على حذف حرف الجرّ ، أي : لأنا دمرناهم وإمّا أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي : هي أنا دمرناهم أي : العاقبة تدميرنا إياهم ، وقيل غير ذلك ، والباقون بكسر الهمزة على الاستئناف وهو تفسير للعاقبة ، وقرأ ورش وأبو عمرو وحفص بيوتهم بضم الباء الموحدة ، وكسرها الباقون ، ولما ذكر تعالى هلاكهم اتبعه بقوله تعالى : ﴿ بما ظلموا ﴾ أي : بسبب ظلمهم وهو عبادتهم من

لا يستحق العبادة وتركهم من يستحقها ، ثم زاد في التهويل بقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : هذا الأمر الباهر للعقول الذي فعل بثمود ﴿ لآية ﴾ أي : عبرة عظيمة ولكنها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ قدرتنا فيتعظون أما من لا علم عنده فقد نادى على نفسه في عداد البهائم ، ولما ذكر تعالى الذين أهلكهم أتبعه بذكر الذين نجاهم فقال .

﴿ وأنجينا ﴾ أي : بعظمتنا وقدرتنا ﴿ الذين آمنوا ﴾ وهم الفريق الذين كانوا مع صالح كلهم ﴿ وكانوا يتقون ﴾ أي : متصفين بالتقوى أيضاً فكأنهم مجبولون عليه فيجعلون بينهم وبين ما يسخط الله وقاية من الأعمال الصالحة .

ولما ذكر تعالى قصة صالح عليه السلام أتبعها قصة لوط عليه السلام وهي القصة الرابعة بقوله تعالى:

﴿ ولوطاً ﴾ وهو إما منصوب عطفاً على صالح ، أي : وأرسلنا لوطاً ، وإما عطفاً على الذين آمنوا أي : وأنجينا لوطاً ، وإما باذكر مضمرة ويبدل منه على هذا .

(244/579)

﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قال لقومه ﴾ أي : الذين كان سكن فيهم لما فارق عمه إبراهيم الخليل عليهما السلام وصاهرهم وكانوا يأتون الأحداث منكراً موبخاً ﴿ أتأتون

الفاحشة ﴾ أي : الفعلة المتناهية في الفحش ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ من بصر القلب ، أي : تعلمون فحشها واقتراف القبائح من العالم بقبحها أقبح ، أو يبصرها بعضكم من بعض لأنهم كانوا في ناديهم يرتكبونها معلنين لا يستتر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة وانهماكاً في المعصية ، قال الزمخشري وكان أبا نواس بنى على مذهبهم قوله:

*وبح باسم ما تأتي وذرني من الكنى ** فلا خير في اللذات من دونها ستر*

أو تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم ، فإن قيل : إذا فسر تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء جهلاء ؟ .

أجيب : بأنهم يفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمهم بذلك أو يجهلون العاقبة ، أو أنّ المراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها ، ثم عين ما أبهمه بقوله .

﴿ أئنكم لتأتون ﴾ وقال ﴿ الرجال ﴾ إشارة إلى أنّ فعلتهم هذه مما يعني الوصف ولا يبلغ كنه قبحها ولا يصدّق ذو عقل أنّ أحداً يفعلها ، ثم علل ذلك بقوله ﴿ شهوة ﴾ إنزالاً لهم إلى رتبة البهائم التي ليس فيها قصد ولد ولا إعفاف ، وقال ﴿ من دون النساء ﴾ إشارة إلى أنهم أساؤوا من الطرفين في الفعل والترك ، وقوله : ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ تقدّم في جواب تبصرون تفسيره ، فإن قيل : تجهلون صفة لقوم والموصوف لفظه لفظ الغائب فهلا طابقت الصفة الموصوف ؟

أجيب : بأنه قد اجتمعت الغيبة والمخاطبة فغلبت المخاطبة لأنها أقوى وأرسخ أصلاً من

الغيبة ، وقرأ أئنكم نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية المكسورة كالياء ، وحققها الباقون ، وأدخل بينهما قالون وأبو عمرو ألفاً ، وهشام بخلاف عنه ، لما بين تعالى بجهلهم بين أنهم أجابوا بما لا يصلح أن يكون جواباً بقوله تعالى:

(245/579)

﴿ فما كان جواب قومه ﴾ أي : لهذا الكلام الحسن لما لم يكن لهم حجة ولا شبهة في دفعه ﴿ إلا أن قالوا ﴾ عدولاً إلى المغالبة وتمادياً في الخبث ﴿ أخرجوا آل لوط ﴾ أي : أهله وقولوا ﴿ من قريتكم ﴾ مناً عليه بإسكانه عندهم ، وعللوا ذلك بقولهم ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ أي : يتنزهون عن القاذورات كلها فينكرون هذا العمل القذر ويغيظنا إنكارهم ، وعن ابن عباس : هو استهزاء أي : قالوه تهكماً بهم ، ولما وصولوا في الخبث إلى هذا الحدّ سبب سبحانه وتعالى عن قولهم وفعلهم قوله تعالى:

﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ أي : كلهم من أن يصلوا إليهم بأذى ويلحقهم من عذابنا ﴿ إلا امرأته قدرناها ﴾ أي : قضينا عليها وجعلناها بتقديرنا ﴿ من الغابرين ﴾ أي : الباقين في العذاب ، وقرأ شعبة بتخفيف الدال والباقون بالتشديد .

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ هو حجارة السجيل ، أي : أهلكتهم ولذلك تسبب عنه قوله

﴿ فساء ﴾ أي : فبئس ﴿ مطر المنذرين ﴾ بالعذاب مطرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 102.85 ﴾

(246/579)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/580)

الجزء الثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 59 ﴾ من سورة النمل

وحتى الآية ﴿ 66 ﴾ من نفس السورة

(4/580)

قوله تعالى ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آلَّلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم بهذه القصص استنتاج ما أراد سبحانه من الدليل على حكمته وعلمه ومباينته للأصنام في قدرته وحلمه ، أمر نبيه صلى الله عليه السلام بأن يحمده شكراً على ما علم ويقررهم بعجز أصنامهم رداً لهم عن الجهل بأوضح طريق وأقرب متناول فقال : ﴿ قل ﴾ ما أنتجه ما تقدم في هذه السورة ، وهو ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي مختص بالمستجمع للأسماء الحسنى ، والصفات العلى عند الإعدام كما كان عند الإيجاد ﴿ وسلام ﴾ أي سلامة وعافية وبقاء في هذا الحين وكل حين ، كما كان قبل هذا في غابر السنين ، وأشار بأنه لا وصول للعطب إليهم بأداة الاستعلاء في قوله : ﴿ على ﴾ وأشار إلى شرفهم بقوله : ﴿ عباده ﴾ بإضافتهم إليه ؛ وأكد ذلك بقوله : ﴿ الذين اصطفى ﴾ أي في كل عصر وحين كما أن الحمد لمعبودهم أزلاً وأبداً لا بذين ، وعطب وغضب على من عصى ، وخالف الرسل وأبى كما ترى في أصحاب هذه الأنباء ، والمعنى أن هذا الحكم المستمر بنجاة الرسل وأتباعهم ، وهلاك الكافرين وأشياعهم ، دليل قطعي على أن الإحاطة لله في كل أمر ؛ قال أبو حيان : وكان هذا صدر خطبة لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة ، ومما يتنبه له أنه لم يرد في قصة لوط عليه السلام أكثر من نهيه لهم عن هذه الفاحشة ، فلا يخلو حالهم من أمرين : إما أنهم كانوا لا يشركون بالله تعالى شيئاً ، ولكنهم لما ابتكروا هذه المعضلة وجاهروا بها مصرين عليها ، أخذوا بالعذاب لذلك ولكفرهم بتكذيبهم رسولهم ، كما صرحت به آية الشعراء ، وإما

أنهم كانوا مشركين ، ولكنه عليه السلام لما رآهم قد سفلوا إلى رتبة البهيمية ، رتب داعاءهم منها إلى رتبة الإنسانية ، ثم إلى رتبة الوحدانية ، ويدل على هذا التقدير الثاني قوله مشيراً إلى أن الله تعالى أهلكهم وجميع من كفر من قبلهم ، ولم تغن عنهم معبوداتهم شيئاً ، بقوله : ﴿ الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿ خير ﴾ أي لعباده الذين اصطفاهم فأنجاهم ﴿ أما يشركون ﴾

(5/580)

يا معاشر العرب من الأصنام وغيرها لعباديها ومحبيها فإنهم لا يغنون عنكم شيئاً كما لم يغنوا عمن عبدهم من هؤلاء الذين أهلكناهم شيئاً ، ولا تفزعون عند شدائدهم إلا إلى الله وحده ، هذا على على قراءة الخطاب للجماعة ، والتقدير على قراءة الغيب للبصريين وعاصم : أما يشرك الكفار عامة قديماً وحديثاً لمن أشركوا بهم ، فلم يقدروا على نفعهم عند إحلال البأس بهم ، وأفعل التفضيل لإلزام الخصم والتنبيه على ظهور خطائه المفرط ، وجهله المورط إلى حد لا يحتاج فيه إلى كشف لأعلى بابها .

ولما كان مع هذا البيان من الأمر الواضح أن التقدير زيادة في توبيخ المشركين وتقرير المنكرين : من فعل هذه الأفعال البالغة في الحكمة المتناهية في العلم أم من سميتموه إلهاً ، ولا اثر له

أصلاً ، عاد له بقوله : ﴿ أمَّن ﴾ وكان الأصل : أم هو ، ولكنه عبر باسم موصول أصل وضعه لذي العلم ، ووصله بما لا يصح أن يكون لغيره ليكون كالدعوى المقرونة بالدليل فقال : ﴿ خلق السماوات والأرض ﴾ تنبيهاً بالقدرة على بدء الخلق على القدرة على إعادته ، بل من باب الأولى ، دلالة على الإيمان بالآخرة تخلقاً بأخلاق المؤمنين الذين مضى أول السورة أن هذا القرآن المبين بشرى لهم .

ولما كان الإنبات .

من أدل الآيات ، على إحياء الأموات ، قال : ﴿ وأنزل ﴾ وزاد في تقريعهم وتبكيتهم وتوبيخهم بقوله : ﴿ لكم ﴾ أي لأجلكم خاصة وأنتم تكفرون به وتنسبون ما تفرد به من ذلك لغيره : ﴿ من السماء ماء ﴾ هو للارض كالماء الدافق للأرحام كالماء الذي ينزل آخر الدهور على القبور .

(6/580)

في وجوده وقدرته واختياره لفعل المتباينات في الطعم واللون والريح والطبع والشكل بماء واحد في أرض واحدة واختصاصه بفعل ذلك من غير مشاركة شيء له شيء منه أصلاً ، وهو آيته العظمى على أمر البعث ، عدل إلى التكلم وعلى وجه العظمة فقال :

﴿ فأنبتنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ به حدائق ﴾ أي بساتين محدقة - أي محيطة - بها أشجارها وجدرانها ، والظاهر أن المراد كل ما كان هكذا ، فإنه في قوة أن يدار عليه الجدار وإن لم يكن له جدار ، وعن الفراء أن البستان إن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة .

ولما كان الأولى بجمع الكثرة لما لا يعقل الوصف بالمفرد قال مفيداً أنها كالشيء الواحد في ذلك الوصف : ﴿ ذات بهجة ﴾ أي بهاء وحسن ورونق ، وبشر بها وسرور على تقارب أصولها مع اختلاف أنواعها ، وتباين طعومها وأشكالها ، ومقاديرها وألوانها .

ولما أثبت الإنبات له ، نفاه عن غيره على وجه التأكيد تنبيهاً على تأكد اختصاصه بفعله ، وعلى أنه إن أسند إلى غيره فهو مجاز عن التسبب وأن الحقيقة ليست إلا له فقال : ﴿ ما كان ﴾ أي ما صح وما تصور بوجه من الوجوه ﴿ لكم ﴾ وأنتم أحياء فضلاً عن شركائكم الذين هم أموات بل موات ﴿ أن تنبتوا شجرها ﴾ أي شجر تلك الحدائق .

ولما ثبت أنه المتفرد بالألوهية ، حسن موقع الإنكار والتقرير في قوله : ﴿ أإله ﴾ أي كائن ﴿ مع الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا مثل له .

ولما كان الجواب عند كل عاقل : لا وعزته ! قال معرضاً عنهم للإيذان بالغضب : ﴿ بل هم ﴾ أي في دعائهم معه سبحانه شريكاً ﴿ قوم يعدلون ﴾ أي عن الحق الذي لا مرية فيه إلى غيره ، مع العلم بالحق ، فيعدلون بالله غيره .

ولما فرغ من آية اشترك فيها الخافقان ، ذكر ما تتفرد به الأرض ، لأنها اقرب إليهم وهم بحقيقتها وما لابسوه من أحوالها أعلم منهم بالأمور السماوية ، تعديداً للبراهين الدالة على تفرده بالفعل الدال على تفرده بالإلهية ، فقال مبدلاً من ﴿ أمَّن خلق ﴾ : ﴿ أمَّن ﴾ أي أم فعل ذلك الذي ﴿ جعل الأرض قراراً ﴾ أي مستقرة في نفسها ليقر عليها غيرها ، وكان القياس يقتضي أن تكون هاوية أو مضطربة كما يضطرب ما هو معلق في الهواء .

ولما ذكر قرارها ، أتبعه دليله في معرض الامتنان فقال : ﴿ وجعل خلالها ﴾ أي في الأماكن المنفرجة بين جبالها ﴿ أنهاراً ﴾ أي جارية على حالة واحدة ، فلو اضطربت الأرض أدنى اضطراب ، لتغيرت مجاري المياه بلا ارتياب .

ولما ذكر الدليل ، ذكر سبب القرار فقال : ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ أي كمراسي السفن ، كانت أسباباً في ثباتها على ميزان دبره سبحانه في مواضع من أرجائها بحيث اعتدلت جميع جوانبها فامتنعت من الاضطراب .

ولما أثبت القرار وسببه ، وكان قد جعل سبحانه للأنهار طرقاً تتصرف فيها ولو حبسها عن الجري شيء لأوشك أن تستبحر ، فيصير أكثر الأرض لا ينتفع به في سير ولا نبات ، أو أن تخرق ذلك الحابس بما لها من قوة الجري وشدة النفوذ بلطافة السريان ، لأن من عادة المياه التخلل بين أطباق التراب والتغلغل بما لها من اللطافة والرقة ، والثقل في الأعماق ولو

قليلاً قليلاً ، وكان سبحانه قد سد ما بين البحرين : الرومي والفارسي ، وكان ما بينهما من الأرض إنما هو يسير جداً في بعض المواضع ، وكان بعض مياه الأرض عذباً ، وبعضه ملحاً ، مع القرب جداً من ذلك العذب ، سألهم - تنبيهاً لهم على عظيم القدرة - عن الممسك لعدوان أحدهما على آخر ، ولعدوان كل من خليجي الملح على ما بينهما لئلا يخرقاه فيتصلا فقال : ﴿ وجعل بين البحرين حاجزاً ﴾ أي يمنع أحدهما أن يصل إلى الآخر .

ولما كان من المعلوم أنه الله وحده .

(8/580)

ليس عند عاقل شك في ذلك ، كرر الإنكار في قوله : ﴿ أإله مع الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة .

ولما كان الجواب الحق قطعاً : لا ، وكان قد أثبت لهم في الإضراب الأول علماً من حيث الحكم على المجموع ، وكان كل منهم يدعي رجحان العقل ، وصفاء الفكر ، ورسوخ القدم في العلم بما يدعيه العرب ، قال : ﴿ بل أكثرهم ﴾ أي الخلق الذين ينتفعون بهذه المنافع ﴿ لا يعلمون ﴾ أي ليس لهم نوع من العلم ، بل هم كالبهائم لإعراضهم عن هذا الدليل الواضح .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 436 . 439 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾

القول في خطاب الله عز وجل مع محمد صلى الله عليه وسلم

في هذه الآية قولان : الأول : أنه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على إهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم ونجاهم الثاني : أنه مبتدأ فإنه تعالى لما ذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام وكان محمد صلى الله عليه وسلم كالمخالف لمن قبله في أمر العذاب لأن عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه ، أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم ، وبأن يسلم على الأنبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة .

فأما قوله : ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم ، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لزيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم هذا الكلام تنبيهاً على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرىء ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ بالياء والتاء ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : " بل الله خير

وأبقى وأجل وأكرم "

ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك في عدة فصول :

الفصل الأول : في الرد على عبدة الأوثان ، ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لأصول النعم وفروعها ، فكيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه ألبتة .

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾

النوع الأول ما يتعلق بالسموات

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(10/580)

قال صاحب "الكشاف" : الفرق بين أم وأم في ﴿ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ و ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ﴾ أن الأولى متصلة لأن المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل ، والحديقة البستان عليه سور من الإحداق وهو الإحاطة ، وقيل ﴿ ذَاتُ ﴾ لأن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة ، كما يقال النساء ذهبت والبهجة الحسن ، لأن الناظر يبتهج به ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له وقرىء ﴿ أإلهاً مَعَ الله ﴾ بمعنى (تدعون أو تشركون) .

المسألة الثانية :

أنه تعالى بين أنه الذي اختص بأن خلق السموات والأرض ، وجعل السماء مكاناً للماء ، والأرض للنبات ، وذكر أعظم النعم وهي الحدائق ذات البهجة ، ونبه تعالى على أن هذا الإنبات في الحدائق لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، لأن أحدنا لو قدر عليه لما احتاج إلى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن يخص بالعبادة ، ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ وقد اختلفوا فيه فقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل ، يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية أول سورة الإنعام .

المسألة الثالثة :

يقال ما حكمة الالتفات في قوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ ؟ جوابه : أنه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى ، وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الإنسان ، فإن الإنسان يقول أنا الذي ألقى البذر في الأرض الحرة وأسقيها الماء وأسعى في تشميسها ، وفاعل السبب فاعل للمسبب ، فإذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائماً ، لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ وقال : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ لأن الإنسان قد يأتي بالبذر والسقي والكرب (1) والتشميس ثم لا يأتي على وفق مراده والذي يقع على وفق مراده فإنه يكون جاهلاً بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلاً لها ، فلهذه النكتة حسن

الالتفات ههنا .

---

(1) الكرب هنا معناه إثارة الأرض الزرع بجراثتها .

(11/580)

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾

النوع الثاني ما يتعلق بالأرض

قال صاحب "الكشاف" ﴿ أَمَّن جَعَلَ ﴾ وما بعده بدل من ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ﴾ [النمل : 6] فكان (حكمها) حكمه .

واعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض أموراً أربعة :

المنفعة الأولى : كونها قراراً وذلك لوجوه : الأول : أنه دحاها وسواها للاستقرار الثاني : أنه تعالى جعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الذي يتألم الإنسان بالاضطجاع عليه وليست في الرخاوة كالماء الذي يغوص فيه الثالث : أنه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور ، ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ، ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت الحيوانات الرابع : أنه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من

سمت الرأس ، ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ، ولما حصلت المنافع الخامس : أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فإنها لو كانت متحركة لكانت إما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة ، وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الأرض السادس : أنه سبحانه جعلها كفاتاً للأحياء والأموات وأنه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح .

(12/580)

المنفعة الثانية الأرض : قوله : ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً ﴾ فاعلم أن أقسام المياه المنبعثة عن الأرض أربعة : الأول : ماء العيون السيالة وهي تنبعث من أبخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الأرض بقوة ، ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزءاً الثاني : ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها الثالث : مياه القنى والأنهار وهي متولدة من أبخرة ناقصة القوة على أن تشق الأرض ، فإذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة الرابع : مياه الآبار وهي نبعية كمياه الأنهار إلا أنه لم يجعل له سيل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة في باطنها إذ لولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه

العيون في ظاهرها .

المنفعة الثالثة للأرض : قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ والمراد منها الجبال ، فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما تكون في الجبال أو فيما يقرب منها ، أما العيون فلأن الأرض إذا كانت رخوة نشفت الأبخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به ، فإذن هذه الأبخرة لا تجتمع إلا في الأرض الصلبة والجبال أصلب الأرض ، فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوءاً ماء ، ويكون الجبل في حقنه الأبخرة مثل الأنبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيئاً من البخار يتحلل ونفس الأرض التي تحته كالقرعة والعيون كالأذناب والبخار كالقوابل ، ولذلك فإن أكثر العيون إنما تنفجر من الجبال وأقلها في البراري ، وذلك الأقل لا يكون إلا إذا كانت الأرض صلبة .

(13/580)

وأما أن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة : أحدها : أن في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الأرضين الرخوة وثانيها : أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الأنداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الأرضين وثالثها

: أن الأبخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل ، وإذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لأن المادة فيها ظاهراً وباطناً أكثر ، والاحتقان أشد السبب المحلل وهو الحر أقل ، فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر .

وأما المعدنيات المحتاجة إلى أبخرة يكون اختلاطها بالأرضية أكثر وإلى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شيء لها في هذا المعنى كالجبال .

(14/580)

المنفعة الرابعة للأرض : قوله : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً ﴾ فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط ، وأيضاً فلينتفع بذلك الحاجز ، وأيضاً المؤمن في قلبه بحران بحر الإيمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزاً لكي لا يفسد أحدهما بالآخر ، وقال بعض الحكماء في قوله : ﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 19 ، 20] قال عند عدم البغي ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 22] فعند عدم البغي في القلب يخرج الدين والإيمان بالشكر ، فإن قيل ولم جعل البحر ملحاً ؟ قلنا لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته في الأرض وأحدث الوباء العام ، واعلم أن اختصاص البحر بجانب من الأرض دون جانب أمر غير واجب بل الحق أن

البحر ينتقل في مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن إلى قرن لأن استمداد البحر في الأكثر من الأنهار ، والأنهار تستمد في الأكثر من العيون ، وأما مياه السماء فإن حدوثها في فصل بعينه دون فصل ، ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب أن تتشابه أحوالها في بقاع واحدة بأعيانها تشابهاً مستمراً فإن كثيراً من العيون يغور ، وكثيراً ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من نضوب الأودية والأنهار فيعرض بسبب ذلك نضوب البحار ، وإذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الأنهار هناك فحصلت البحار من ذلك الجانب ، ثم إنه سبحانه لما بين أنه هو المختص بالقدرة على خلق الأرض التي فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالإلهية ، ونبه بقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ على عظم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 179.176 ﴾

(15/580)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ﴾

فيها قولان

: أحدهما : أنها النخل ، قاله الحسن .

الثاني : الحائط من الشجر والنخل ، قاله الكلبي .

﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ فيها قولان

: أحدهما : ذات غضارة ، قاله قتادة .

الثاني : ذات حسن ، قاله الضحاك .

﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ أي ما كان في قدركم أن تخلقوا مثلها

. ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أي ليس مع الله إله ، قاله قتادة .

الثاني : أإله مع الله يفعل هذا ، قاله زيد بن أسلم .

﴿ بَلْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أي يعدلون عن الحق .

الثاني : يشركون بالله فيجعلون له عدلاً أي مثلاً ، قاله قطرب ومقاتل .

قوله : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً ﴾

أي جعلها مستقراً

. ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً ﴾ أي في مسالكها ونواحيها أنهار جارية ينبت بها الزرع

ويحيي به الخلق .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعني جبالاً هي لها ماسكة والأرض بها ثابتة

. ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : بحر السماء والأرض ، قاله مجاهد .

الثاني : بحر فارس والروم ، قاله الحسن .

الثالث : بحر الشام والعراق ، قاله السدي .

الرابع : العذب والمالح ، قاله الضحاك .

والحاجز المانع من اختلاط أحدهما بالآخر فيه وجهان :

أحدهما : حاجزاً من الله لا يبغي أحدهما على صاحبه ، قاله قتادة .

الثاني : حاجزاً من الأرض أن يختلط أحدهما بالآخر ، حكاه قتادة .

﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : لا يعقلون ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا يعلمون توحيد الله ، حكاه النقاش .

الثالث : لا يتفكرون ، حكاه ابن شجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ

﴾

(16/580)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾

قرأ أبو السمال " قلَ " بفتح اللام وكذلك في آخر السورة وهذا ابتداء تقرير وتنبيه لقريش وهو بعد يعم كل مكلف من الناس جميعاً ، وافتتح ذلك بالقول بحمده وتحميده وبالسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوءة والإيمان ، فهذا اللفظ عام لجميعهم من بني آدم ، وكان هذا صدر خطبة للتقرير المذكور . وقال ابن عباس العباد المسلم عليهم هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واصطفاهم لنبيه .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا الاختصاص توبيخ للمعاصرين من الكفار ، وقال الفراء الأمر بالقول في هذه الآية هو للوط عليه السلام .

قال القاضي أبو محمد : وهذه عجمة من الفراء رحمه الله ، ثم وقف قريشاً والعرب على جهة التوبيخ على موضع التباين بين الله عز وجل وبين الأوثان والأنصاب ، وقرأ جمهور الناس " تشركون " بالتاء من فوق ، وحكى المهدوي عن أبي عمرو وعاصم " يشركون " بالياء من تحت ، وفي هذا التفضيل بلفظة ﴿ خير ﴾ أقوال ، أحدها أن التفضيل وقع بحسب معتقد المشركين إذ كانت تعتقد أن في آلهتها خيراً بوجه ما ، وقالت فرقة في الكلام حذف مضاف في موضعين التقدير أتوحيد الله خير أم عبادة ما تشركون ، ف ﴿ ما ﴾ في

هذه الآية بمعنى الذي ، وقالت فرقة " ما " مصدرية وحذف المضاف إنما هو أولاً تقديره أتوحيد الله خير أم شرككم ، وقيل ﴿ خير ﴾ هنا ليست بأفعل إنما هي فعل كما تقول الصلاة خير دون قصد تفضيل .

قال القاضي أبو محمد : وقد تقدم أن هذه الألفاظ التي تعم معاني كثيرة كخير وشر وأحب ونحو ذلك قد يقع التفضيل بها بين أشياء متباينة لأن المتباينات قدر بما اشترك فيها ولو بوجه ضعيف بعيد ، وأيضاً فهذا تقرير والمجادل يقرر خصمه على قسمين أحدهما فاسد ، ليرى وقوعه وقد استوعبنا هذا فيما مضى ، وقالت فرقة تقدير هذه الآية " الله ذو خير أما تشركون " .

(17/580)

قال القاضي أبو محمد : وهذا النوع من الحذف بعيد تأوله ، وقرأ الحسن وقتادة وعاصم " يشركون " بالياء من تحت ، وقرأ أهل المدينة ومكة والكوفة بالتاء من فوق وقوله تعالى .

﴿ أمن خلق ﴾ وما بعدها من التوقيفات ، توبيخ لهم وتقرير على ما لا مندوحة لهم عن الإقرار به ، وقرأ الجمهور " أمّن " بشد الميم وهي " أم " دخلت على " من " ، وقرأ الأعمش " أمَن " بفتح الميم مسهلة وتحتمل هذه القراءة أن تكون " أمن " استفهاماً فتكون في معنى "

أم من " المتقدمة ، ويحتمل أن تكون الألف للاستفهام ومن ابتداء وتقدير الخبر يكفر بنعمته ويشرك به ونحو هذا من المعنى ، و" الحدائق " مجتمع الشجر من الأعناب والنخيل وغير ذلك ، قال قوم لا يقال حديقة إلا لما عليه جدار قد أحدق به ، وقال قوم يقال ذلك كان جداراً أو لم يكن لأن البياض محدق بالأشجار والبهجة الجمال والنضرة ، وقرأ ابن أبي عبلة " ذوات بهَجة " بجمع " ذات " وفتح الهاء من " بهجة " ، ثم أخبر على جهة التوقيف أنه ﴿ ما كان ﴾ للبشر أي ما يتهيأ لهم ولا يقع تحت قدرهم أن ينبتوا شجرها ، لأن ذلك بإخراج شيء من العدم إلى الوجود ، وقد تقدم ترتيب القراءة في الهمزتين من قوله " أ .

(18/580)

لاه " وا . ذا وأ . نك لأنت يوسف " ، قال أبو حاتم القراءة باجتماع الهمزتين محدثة . لا توجد في كلام العرب ولا قرأ بها قارىء عتيق ، و﴿ يعدلون ﴾ يجوز أن يراد به يعدلون عن طريق الحق أن يجورون في فعلهم ، ويجوز أن يراد يعدلون بالله غيره أي يجعلون له عديلاً ومثيلاً ، و﴿ خلالها ﴾ معناه بينها وأثناءها ، و" الرواسي " الجبال ، رسا الشيء يرسو إذا ثبت وتأصل ، و" البحران " الماء العذب بجملته والماء الأجاج بجملته ، و" الحاجز " ما جعل الله بينهما من حواجز الأرض وموانعها على رقتها في بعض المواضع ولطافتها التي لولا

قدرة الله تعالى لغلب الملح العذب وكل ما مضى من القول في تأويل في قوله ﴿ مرج البحرين ﴾ [الفرقان : 53] فهو مترتب ها هنا وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(19/580)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الحمدُ لله ﴾

هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أُمِرَ أن يَحْمَد اللّهَ على هلاك الأمم الكافرة ، وقيل : على جميع نِعَمه ، ﴿ وسلامٌ على عباده ، الذين اصطفى ﴾ فيهم أربعة أقوال .

أحدها : الرسل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

وروى عنه عكرمة ، قال : اصطفى إبراهيم بالخُلَّة ، وموسى بالكلام ، ومحمداً بالرؤية .

والثاني : أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، رواه أبو مالك عن ابن عباس ، وبه قال السدي .

والثالث : أنهم الذين وحَّدوه وآمنوا به ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والرابع : أنه محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ آللّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكونَ ﴾ قال أبو عبيدة : مجازه : أو ما يشركون ، وهذا خطاب للمشركين ؛ والمعنى : آللّه خير لمن عبده ، أم الأصنام لعابديها ؟ ! ومعنى الكلام : أنه لمَّا قصَّ عليهم قصص الأمم الخالية ، أخبرهم أنَّه نجَّى عابديه ، ولم تُغْنِ الأصنام عنهم .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات ﴾ تقديره : أمَّا يشركون خير ، أمَّن خلق السماوات ﴿ والأرضَ وأنزلَ لكم من السماءِ ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ﴾ ؟ ! فأمَّا الحدائق ، فقال ابن قتيبة : هي البساتين ، واحدها : حديقة ، سميت بذلك لأنه يُحْدَقُ عليها ، أي : يُحْظَر ، والبهجة : الحُسن .

قوله تعالى : ﴿ ما كان لكم أن تُنْبِتُوا شجرها ﴾ أي : ما ينبغي لكم ذلك [لأنكم] لا تقدرون عليه .

ثم قال مستفهماً مُنْكِراً عليهم : ﴿ أإله مع الله ﴾ ؟ ! أي : ليس معه إله ﴿ بل هم ﴾ يعني : كفار مكة ﴿ قوم يَعْدِلون ﴾ وقد شرحناه في فاتحة [الأنعام] .

(20/580)

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الأرض قراراً ﴾ أي : مُسْتَقَرّاً لا تَمِيد بأهلها ﴿ وجَعَلَ خلالها ﴾ أي : فيما بينها ﴿ أنهاراً وجعل لها رواسيَ ﴾ أي جبالاً ثوابتَ ﴿ وجعل بين البحرين

حاجزاً ﴾ أي : مانعاً من قدرته بين العذْب والمِلْح ان يختلطا ﴿ بل أكثرهم لا يَعْلَمونَ ﴾ قَدْر عَظَمة الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(21/580)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾

قال الفرّاء قال أهل المعاني : قيل للوط ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على هلاكهم .

وخالف جماعة من العلماء الفرّاء في هذا وقالوا : هو مخاطبة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية .

قال النحاس : وهذا أولى ، لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لم يصح معناه إلا لغيره .

وقيل : المعنى ؛ أي ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ الحمد لِلَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ يعني أمته عليه السلام .

قال الكلبي : اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته .

وقال ابن عباس وسفيان : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده .

وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وإصغائهم إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع .

ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني ، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن .

قوله تعالى : ﴿ الذين اصطفى ﴾ اختار ؛ أي لرسالته وهم الأنبياء عليهم السلام ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَسَلَامٌ على المرسلين ﴾ [الصافات : 181] .

﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ ﴾ وأجاز أبو حاتم "أَأَللَّهُ خَيْرٌ" بهمزتين .

(22/580)

النحاس : ولا نعلم أحداً تابعه على ذلك ؛ لأن هذه المدّة إنما جيء بها فرقاً بين الاستفهام والخبر ، وهذه ألف التوقيف ، و ﴿ خَيْرٌ ﴾ ههنا ليس بمعنى أفضل منك ، وإنما هو مثل قول الشاعر :

أتهجوه ولست له بكفء . . .

فشركما لخيركما الفِداء

فالمعنى فالذي فيه الشر منكما للذي فيه الخير الفداء .

ولا يجوز أن يكون بمعنى من لأنك إذا قلت : فلان شر من فلان ففي كل واحد منهما شر .

وقيل : المعنى ؛ الخير في هذا أم في هذا الذي تشركونه في العبادة ! وحكى سيبويه : السعادة أحب إليك أم الشقاء ؛ وهو يعلم أن السعادة أحب إليه .

وقيل : هو على بابه من التفضيل ، والمعنى : آلله خير أم ما تشركون ؛ أي أثوابه خير أم عقاب ما تشركون .

وقيل : قال لهم ذلك ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خير فخاطبهم الله عز وجل على اعتقادهم .

وقيل : اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر .

وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب : ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ بياء على الخبر .

الباقون بالتاء على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم ؛ فكان النبي صلى الله

عليه وسلم إذا قرأ هذه (الآية) يقول: "بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم".

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ قال أبو حاتم: تقديره؛ آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض؛ وقد تقدّم.

ومعناه: قدر على خلقهن.

وقيل: المعنى؛ أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ فهو مردود على ما قبله من المعنى؛ وفيه معنى التوبيخ لهم، والتنبيه على قدرة الله عز وجل وعجز آلهتهم.

﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ الحديقة البستان الذي عليه حائط.

والبهجة المنظر الحسن.

قال الفراء: الحديقة البستان المحظر عليه حائط، وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة.

وقال قتادة وعكرمة: الحدائق النخل ذات بهجة، والبهجة الزينة والحسن؛ يبهج به من رآه.

(23/580)

﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ ﴿ ما ﴾ للنفي ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا ؛ أي ما كان للبشر ، ولا يتهيأ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم ، أن ينبتوا شجرها ؛ إذ هم عجزة عن مثلها ، لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود .

قلت : وقد يستدلّ من هذا على منع تصوير شيء سواء كان له روح أم لم يكن ؛ وهو قول مجاهد .

ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم : " قال الله عز وجل ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقي فليخلقوا ذرَّة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة " رواه مسلم في "صحيحه" من حديث أبي هريرة ؛ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "قال الله عز وجل" فذكره ؛ فعم بالذم والتهديد والتقبيح كل من تعاطى تصوير شيء مما خلقه الله وضاهاه في التشبيه في خلقه فيما انفرد به سبحانه من الخلق والاختراع وهذا واضح .

وذهب الجمهور إلى أن تصوير ما ليس فيه روح يجوز هو والاكتساب به .

وقد قال ابن عباس للذي سأله أن يصنع الصور : إن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له خرجه مسلم أيضاً .

والمنع أولى والله أعلم لما ذكرنا .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في "سبأ" إن شاء الله تعالى ثم قال على جهة التوبيخ : ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ أي هل معبود مع الله يعينه على ذلك .

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ بالله غيره وقيل : ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ عن الحق والقصد ؛ أي يكفرون .

وقيل : ﴿ إِلَهٌ ﴾ مرفوع ب ﴿ مع ﴾ تقديره : أمع الله ويلكم إله .

والوقف على ﴿ مَعَ اللَّهِ ﴾ حسن .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً ﴾ أي مستقراً .

﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً ﴾ أي وسطها مثل : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ﴾ [الكهف : 33] .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ يعني جبالاً ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً ﴾ مانعاً من قدرته لئلا يختلط الأجاج بالعذب .

(24/580)

وقال ابن عباس : سلطاناً من قدرته فلا هذا يغيّر ذاك ولا ذاك يغيّر هذا والحجز المنع .

﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ أي إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾

لما فرغ من قصص هذه السورة ، أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) بحمده تعالى والسلام على المصطفين ، وأخذ في مباينة واجب الوجود ، الله تعالى ، ومباينة الأصنام والأديان التي أشركوها مع الله وعبدوها .

وابتدأ في هذا التقرير لقريش وغيرهم بالحمدلة ، وكأنها صدر خطبة لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة .

وقد اقتدى بذلك المسلمون في تصانيف كتبهم وخطبهم ووعظهم ، فافتتحوا بتحميد الله ، والصلاة على محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وتبعهم المترسلون في أوائل كتب الفتوح والتهاني والحوادث التي لها شأن .

وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر الرسول عليه السلام بتحميد الله على هلاك الهالكين من كفار الأمم ، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الناجين .

وقيل : ﴿ قل ﴾ ، خطاب للوط عليه السلام أن يحمد الله على هلاك كفار قومه ، ويسلم

﴿ على عباده الذين اصطفى ﴾ .

وعزا هذا القول ابن عطية للفراء ، وقال : هذه عجمة من الفراء .

وقرأ أبو السماك : ﴿ قل الحمد لله ﴾ ، وكذا : قل الحمد لله سيريكم ، بفتح اللام ، وعباده المصطفون ، يعم الأنبياء وأتباعهم .

وقال ابن عباس : العباد المسلم عليهم هم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، اصطفاهم لنبيه ، وفي اختصاصهم بذلك توبيخ للمعاصرين من الكفار .

وقال أبو عبد الله الرازي : لما ذكر تعالى أحوال الأنبياء ، وأن من كذبهم استؤصل بالعذاب ، وأن ذلك مرتفع عن أمة الرسول ، أمره تعالى بحمده على ما خصه من هذه النعمة ، وتسليمه على الأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة .

انتهى ، وفيه تلخيص .

(26/580)

وقوله : ﴿ آلله خير أمّا يشركون ﴾ : استفهام فيه تبكيت وتوبيخ وتهكم بجالهم ، وتنبيه على موضع التباين بين الله تعالى وبين الأوثان ، إذ معلوم عند من له عقل أنه لا شركة في الخيرية بين الله تعالى وبينهم ، وكثيراً ما يجيء هذا النوع من أفعل التفضيل حيث يعلم

ويتحقق أنه لا شركه فيها وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على خطأ مرتكبه .

والظاهر أن هذا الاستفهام هو عن خيرية الذوات ، فقيل : جاء على اعتقاد المشركين حيث اعتقدوا في آلهتهم خيراً بوجه مّا ، وقيل : في الكلام حذف في موضعين ، التقدير : أتوحيد الله خير أم عبادة ما يشركون ؟ فما في أم ما بمعنى الذي .

وقيل : ما مصدرية ، والحذف من الأول ، أي أتوحيد الله خير أم شرككم ؟ وقيل : خير ليست للتفضيل ، فهي كما تقول : الصلاة خير ، يعني خيراً من الخيور .

وقيل : التقدير ذو خير .

والظاهر أن خيراً أفعل التفضيل ، وأن الاستفهام في نحو هذا يجيء لبيان فساد ما عليه الخصم ، وتنبيهه على خطئه ، وإلزامه الإقرار بحصر التفضيل في جانب واحد ، وانتفائه عن الآخر ، وقرأ الجمهور : تشركون ، بتاء الخطاب ؛ والحسن ، وقتادة ، وعاصم ، وأبو عمرو : بياء الغيبة .

وأم في أم ما متصلة ، لأن المعنى : أيهما خير ؟ وفي ﴿ أم من خلق ﴾ وما بعده منفصلة .

ولما ذكر الله خيراً ، عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عدّدها في غير موضع من كتابه ، توقيفاً لهم على ما أبدع من المخلوقات ، وأنهم لا يجدون بداً من الإقرار بذلك لله تعالى .

وقرأ الجمهور : ﴿ أمّن خلق ﴾ ، وفي الأربعة بعدها بشد الميم ، وهي ميم أم أدغمت في

ميم من .

وقرأ الأعمش : بتخفيفها جعلها همزة الاستفهام ، أدخلت على من ، ومن في القراءتين مبتدأ وخبره .

قال ابن عطية : تقديره : يكفر بنعمته ويشك به ، ونحو هذا من المعنى .

(27/580)

وقدره الزمخشري : خير أما يشركون ، فقدّر ما أثبت في الاستفهام الأول ؛ بدأ أولاً في الاستفهام باسم الذات ، ثم انتقل فيه إلى الصفات .

وقال أبو الفضل الرازي في (كتاب اللوامح) له : ولا بد من إضمار جملة معادلة ، وصار ذلك المضمر كالمنطوق به لدلالة الفحوى عليه .

وتقدير تلك الجملة : أمن خلق السموات كمن لم يخلق ، وكذلك أخواتها ، وقد أظهر في غير هذا الموضع ما أضمر فيها لقوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ انتهى .

وتسمية هذا المقدّر جملة ، إن أراد بها جملة من الألفاظ فهو صحيح ، وإن أراد الجملة المصطلح عليها في النحو فليس كذلك ، بل هو مضمر من قبيل المفرد .

وبدأ تعالى بذكر إنشاء مقر العالم العلوي والسفلي ، وإنزال ما به قوام العالم السفلي وقال :

﴿ لكم ﴾ ، أي لأجلكم ، على سبيل الامتنان ، وأن ذلك من أجلكم .

ثم قال : ﴿ فأنبتنا ﴾ ، وهذا التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة دالاً على اختصاصه بذلك ، وأنه لم ينبت تلك الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح بماء واحد إلا هو تعالى .

وقد رشح هذا الاختصاص بقوله : ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ .

ولما كان خلق السموات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، لا شبهة للعاقل في أن ذلك لا يكون إلا لله ، وكان الإنبات مما قد يتسبب فيه الإنسان بالبذر والسقي والتهيئة ، ويسوغ لفاعل السبب نسبة فعل المسبب إليه ، بين تعالى اختصاصه بذلك بطريق الالتفات وتأكيد ذلك بقوله : ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ .

ألا ترى أن المتسبب لذلك قد لا يأتي على وفق مراده ؟ ولو أتى فهو جاهل بطبعه ومقداره وكيفيته ، فكيف يكون فاعلاً لها ؟ والبهجة : الجمال والنضرة والحسن ، لأن الناظر فيها يبتهج ، أي يسر ويفرح .

وقرأ الجمهور : ﴿ ذات ﴾ ، بالإفراد ، ﴿ بهجة ﴾ ، بسكون الهاء ، وجمع التكسير يجري في الوصف مجرى الواحدة ، كقوله : ﴿ أزواج مطهرة ﴾ وهو على معنى جماعة .

(28/580)

وقرأ ابن أبي عبلة ، ذوات ، بالجمع ، بهجة بتحريك الهاء بالفتح .

﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ : قد تقدم أن نفي مثل هذه الكينونة قد يكون ذلك لاستحالة وقوعه كهذا ، أو لامتناع وقوعه شرعاً ، أو لنفي الأولوية .

والمعنى هنا : أن إنبات ذلك منكم محال ، لأنه إبراز شيء من العدم إلى الوجود ، وهذا ليس بمقدور إلا لله تعالى .

ولما ذكر منته عليهم ، خاطبهم بذلك ؛ ثم لما ذكر ذمّهم ، عدل من الخطاب إلى الغيبة فقال : ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ ، إما التفاتاً ، وإما إخباراً للرسول (صلى الله عليه وسلم) بحالهم ، أي يعدلون عن الحق ، أو يعدلون به غيره ، أي يجعلون له عديلاً ومثيلاً .

وقرىء : إلهاً ، بالنصب ، بمعنى : أتدعون أو أتشركون ؟ وقرىء : أإله ، بتخفيف الهمزتين وتليين الثانية ، والفصل بينهما بألف .

ولما ذكر تعالى أنه منشىء السموات والأرض ، ذكر شيئاً مشتركاً بين السماء والأرض ، وهو إنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق بالأرض ، ذكر شيئاً مختصاً بالأرض ، وهو جعلها قراراً ، أي مستقراً لكم ، بحيث يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها ، ولا يديرها الفلك ، قيل : لأنها مضمحلة في جنب الفلك ، كالنقطة في الرحى .

﴿ وجعل خلالها ﴾ : أي بين أماكنها ، في شعابها وأوديتها ، ﴿ أنهاراً وجعل لها

رواسي ﴾ : أي جبالاً ثوابت حتى لا تتكفأ بكم وتميد .

والبحران : العذب والملح ، والحاجز : الفاصل ، من قدرته تعالى ، قاله الضحاك .

وقال مجاهد : بحر السماء والأرض ، والحاجز من الهواء .

وقال الحسن : بحر فارس والروم ، وقال السدّي : بحر العراق والشام ، والحاجز من الأرض .

قال ابن عطية : مختاراً لهذا القول في الحاجز : هو ما جعل الله بينهما من حواجز الأرض وموانعها ، على رقتها في بعض المواضع ، ولطافتها التي لولا قدرته لبلع الملح العذب .

(29/580)

وكان ابن عطية قد قدم أن البحرين : العذب بجملته ، والماء الأجاج بجملته ؛ ولما كانت كل واحدة منه عظيمة مستقلة ، تكرر فيها العامل في قوله : ﴿ وجعل ﴾ ، فكانت من عطف الجمل المستقل كل واحدة منها بالامتنان ، ولم يشرك في عامل واحد فيكون من عطف المفردات .

ولأبي عبد الله الرازي في ذكر هذه الامتنانات الأربع كلام من علم الطبيعة ، والحكماء على

زعمه ، خارج عن مذاهب العرب ، يوقف عليه في كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(30/580)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ الحمدِ لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ ﴾ الآياتِ ، هذا ابتداء تقريرٍ وتنبيهٍ لقريشٍ والعربِ وهو بعدُ يَعُمُّ كلَّ مُكَلَّفٍ من الناس جميعاً ، وافتتح ذلِكَ بالقولِ بحمدِه سبحانَه وتمجيدِه وبالسلام على عباده الذين اصْطَفَاهُمْ للنبوَّة والإيمانِ ، فهذا اللفظُ عَامٌ لجمعيهم من ولد آدم ، وكأنَّ هذا صدرُ خُطْبَةٍ للتقريرِ المذكورِ ، قالتْ فرقة : وفي الآية حذْفُ مضافٍ في موْضِعَيْن التقدير : أتوحيدُ اللّهِ خيرٌ أم عبادةُ ما تشركونَ ف «ما» ، على هذا : موصولةٌ بمعنى : الذي ، وقالت فرقة : «ما» مصدريةٌ ، وحذفُ المضافِ إنما هو أولاً تَقْديرُه : أتوحيدُ اللّه خير أم شرككُمْ .

* ت * : ومِنْ كلاَم الشيخ العارفِ باللّه أَبى الحسن الشاذليّ قَال رحمه اللّه : إن أردتَ أَن لا يصدأَ لكَ قلبٌ ؛ ولا يلحقك همٌّ ؛ ولا كربٌ ؛ ولا يبقَى عليكَ ذنبٌ فأَكْثِرْ من قولك : «سبحان اللّه وبحمده ؛ سبحان اللّه العظيم ، لا إله إلا اللّه ، اللهم ثبِّتْ عِلْمَها في قلبي ،

واغفر لي ذنبي ، واغفر للمؤمنينَ والمؤمناتِ ، وقل الحمد للَّه وسلام على عباده الذين اصطفى» انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ﴾ وما بعدها من التقريراتِ توبيخٌ لهم وتقريرٌ على ما لا مَنْدُوحَةَ عن الإقرارِ به ، و«الحدائق» مُجْتَمع الشجرِ من الأعنابِ والنَّخِيل وغير ذلك ، قال قوم : لا يقال حديقةٌ إلا لِمَا عليه جدارٌ قد أحدق له .

وقال قوم : يقال ذلك كان جدارٌ أو لم يَكُنْ ؛ لأَن البَيَاضَ مُحْدِقٌ بالأشجار ، والبهجةُ الجمالُ والنَّضَارَة .

(31/580)

وقوله سبحانه : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ أي : ليس ذلك في قدرتكم ، و ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ يجوز أن يرادَ به : يعدِلُونَ عن طريق الحقّ ، ويجوز أَنْ يُرَادَ به يَعْدِلُونَ باللّهِ غيرَه ، أي : يجعلون له عَدِيلاً ومَثِيلاً ، و ﴿ خِلاَلَهَا ﴾ مَعْنَاه : بَيْنها ، والرواسي : الجبال ، والبحرانِ : الماءُ العذبُ والماءُ الأجاج ؛ على ما تقدم ، والحاجز : ما جَعَلَ اللّه بيْنَهما مِنْ حَوَاجِزِ الأَرْضِ وموانِعها على رِقَّتِها في بعض المواضع ، ولطافتِها ؛ لولا قدرة اللّه لغلب المالحُ العذبَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلِ الحمدِ للَّهِ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾

إثرَ ما قصَّ الله تعالى على رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام قصصَ الأنبياءِ المذكورينَ عليهم الصَّلاة والسَّلام وأخبارَهم الناطقةَ بكمالِ قُدرته تعالى وعظمِ شأنِه وبما خصَّهم به من الآياتِ القاهرةِ والمعجزاتِ الباهرةِ الدالَّةِ على جلالةِ أقدارِهم وصحَّةِ أخبارِهم وبيَّن على ألسنتهم حقِّيةَ الإسلامِ والتَّوحيدِ وبطلانَ الكفرِ والإشراكِ وأنَّ من اقتدى بهم فقد اهتدَى ومن أعرضَ عنهم فقد تردَّى في مَهاوي الرَّدى وشرح صدرَه عليهِ الصَّلاة والسَّلام بما في تضاعيفِ تلكِ القصص من فنونِ المعارفِ الرَّبانية ونوَّر قلبَه بأنوارِ الملكاتِ السُّبحانية الفائضةِ من عالمِ القدسِ وقرَّر بذلكَ فحوى ما نطقَ به قولُه عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أمرهَ عليه الصَّلاة والسَّلام بأنْ يحمدَه تعالى على ما أفاضَ عليه من تلك النِّعمِ التي لا مطمعَ وراءَها لطامعٍ ولا مطمحَ من دونِها لطامحٍ ويسلِّم على كافَّةِ الأنبياءِ الذين من جُمْلتهم الذين قصَّت عليه أخبارُهم التي هي من جُملة المعارفِ التي أوحيتْ إليهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أداءً لحقِّ تقدمِهم واجتهادِهم في الدِّين . وقيلَ هو أمرٌ

للوطٍ عليه السَّلامُ بأنْ يحمدَه تعالى على إهلاكِ كَفَرة قومِه ويسلِّم على من اصطفَاه بالعصمةِ عن الفواحشِ والنَّجاةِ عن الهلاكِ ولا يخفى بعدُه .

﴿ اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي أَللَّهُ الذي ذُكرتْ شؤونَه العظيمةُ خيرٌ أمْ مَا يشركونَه به تعالى من الأصنامِ .

(33/580)

ومرجعُ الترديدِ إلى التَّعريضِ بتبكيتِ الكفرةِ من جهتِه تعالى وتسفيهِ آرائهم الركيكةِ والتهكمِ بهم إذْ من البيِّن أنْ ليسَ فيما أشركُوه به تعالى شائبةُ خيرٍ ما حتَّى يمكن أنْ يوازنَ بينَهُ وبينَ مَنْ لا خيرَ إلا خيرُه ولا إلَه غيرُه . وقُرِىء تشركونَ بالتَّاءِ الفوقانيَّةِ بطريقِ تلوينِ الخطابِ وتوجيهِه إلى الكفرةِ وهو الأليقُ بما بعدَهُ من سياقِ النَّظمِ الكريمِ المبنيِّ على خطابِهم ، وجعلُه من جملةِ القولِ المأمورِ به يأباهُ قولُه تعالى فأنبتْنا الخ فإنَّه صريحٌ في أنَّ التبكيتَ من قبله عزَّ وجلَّ بالذاتِ ، وحملُه على أنَّه حكايةٌ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لما أمر به بعبارته كما في قولِه تعالى : ﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ تعسفٌ ظاهر من غيرِ داعٍ إليهِ وأمْ في قولِه تعالى : ﴿ أَم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ منقطعةٌ وما فيها من كلمةِ بَلْ على القراءةِ الأولى للاضرابِ والانتقالِ من التبكيت تعريضاً إلى التَّصريحِ به

خطاباً على وجهٍ أظهرَ منه لمزيد التأكيد والتشديدِ وأمَّا على القراءةِ الثَّانية فلتثنية التبكيتِ وتكريرِ الإلزامِ كنظائرِها الآتيةِ . والهمزةُ لتقريرِهم أي حملِهم على الإقرارِ بالحقِّ على وجهِ الاضطرارِ فإنَّه لا يتمالك أحدٌ ممن له أدنى تمييزٍ ولا يقدرُ على أنْ لا يعترفَ بخيريةِ مَن خلقَ جميعَ المخلوقاتِ وأفاضَ على كلٍ منها ما يليقُ به من منافعِه من أخسِّ تلك المخلوقاتِ وأدناها بل بأنْ لا خيريةَ فيه بوجهٍ من الوجوهِ قطعاً . ومَن مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ مع أمِ المُعادِلةِ للهمزةِ تعويلاً على ما سبقَ في الاستفهامِ الأولِ خلا أنَّ تُشركون ههنا بتاءِ الخطابِ على القراءتينِ معاً وهكذا في المواضعِ الأربعةِ الآتية . والمعنى بلْ أمَّن خلقَ قُطري العالمِ الجسمانيِّ ومبدأي منافع ما بينهما ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ التفاتٌ إلى خطابِ الكَفَرةِ على القِراءةِ

(34/580)

الأُولَى لتشديدِ التبكيتِ والإلزامِ أي أنزل لأجلِكم ومنفعتِكم ﴿ مِنَ السماء مَاء ﴾ أي نوعاً منه هو المطرُ .

﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ أي بساتينَ محدقةً ومحاطةً بالحوائطِ ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي ذاتَ حُسنٍ ورَوْنقٍ يبتهجُ به النُّظَّارُ . ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ ﴾ أي ما صحَّ وما أمكنَ لكم ﴿ أَن تُنبِتُواْ

شَجَرَهَا ﴾ فضلاً عن ثمرها وسائرِ صفاتِها البديعةِ خيرٌ أَمْ ما تُشركون . وقُرِىء أَمَنْ بالتَّخفيفِ على أنَّه بدلٌ من الله . وتقديمُ صِلَتى الإنزالِ على مفعولِه لما مرَّ مراراً من التَّشويقِ إلى المؤخَّرِ ، والالتفاتُ إلى التكلمِ في قوله تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ لتأكيدِ اختصاصِ الفعلِ بذاتِه تعالى والإيذانِ بأنَّ إنباتَ تلك الحدائقِ المختلفةِ الأصنافِ والأوصافِ والألوانِ والطُّعومِ والرَّوائحِ والأشكالِ مع ما لها من الحُسنِ البارعِ والبهاءِ الرَّائعِ بماءٍ واحدٍ مِمَّا لا يكادُ يقدرُ عليه إلا هو وحدَهُ حسبما ينبىءُ عنه تقييدُها بقولِه تعالى : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ ﴾ الخ سواء كانت صفةً لها أو حالاً .

(35/580)

وتوحيدُ وصفها الأولِ أعني ذاتَ بهجةٍ لما أنَّ المَعنى جماعةُ حدائقَ ذاتُ بهجةٍ على نهجِ قولِهم النِّساءُ ذهبتْ وكذا الحالُ في ضميرِ شجرِها . ﴿ أءلاه مَّعَ الله ﴾ أي أإلهٌ آخرُ كائنٌ مع الله الذي ذُكرَ بعضُ أفعالِه التي لا يكادُ يقدرُ عليها غيرُه حتَّى يتوهَّم جعلَه شريكاً له تعالَى في العبادةِ وهذا تبكيتٌ لهم بنفي الألوهيةِ عمَّا يُشركونه به تعالى في ضمنِ النَّفي الكليِّ على الطريقةِ البُرهانيةِ بعد تبكيتِهم بنفي الخيريةِ عنْهُ بما ذكرَ من التَّرديدِ ، فإنَّ أحداً ممَّن له تمييزٌ في الجُملةِ كما لا يقدرُ على إنكارِ انتفاءِ الخيريةِ عنه بالمرةِ لا يكادُ يقدرُ على

إنكارِ انتفاءِ الألوهيةِ عنه رأساً لا سيَّما بعد ملاحظةِ انتفاءِ أحكامِها عمَّا سواهُ تعالى وهكذا الحالُ في المواقعِ الأربعةِ الآتيةِ وقيل : المرادُ نفي أنْ يكونَ معه تعالى إلهٌ آخرُ فيما ذكرَ من الخلقِ وما عطف عليه لكن لا على أنَّ التبكيتَ بنفس ذلك النفي فقط كيفَ لا وهم لا يُنكرونَه حسبما ينطقُ به قولُه تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ بل بإشراكِهم به تعالى في العبادةِ ما يعترفون بعدمِ مشاركتِه له تعالى فيما ذكرَ من لوازمِ الألوهيَّةِ كأنَّه قيل أإلهٌ آخرُ مع الله في خواصِّ الألوهيةِ حتَّى يجعلَ شريكاً له تعالى في العبادةِ وقيل المعنى أغيرُه يُقرن به ويجعلُ له شريكاً في العبادةِ مع تفرُّده تعالى بالخلقِ والتَّكوينِ فالإنكارُ للتوبيخِ والتبكيتِ مع تحقيقِ المنكرِ دون النفي كما في الوجهينِ السابقينِ والأولُ هو الأظهرُ الموافقُ لقولِه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إله ﴾ والأوفى بحقِّ المقامِ لإفادتِه نفي وجودِ إلهٍ آخرَ معه تعالى رأساً لا نفيَ معيَّتِه في الخلقِ وفروعِه فقط . وقُرىء آإلهٌ بتوسيطِ مدةٍ بينَ الهمزتينِ وبإخراجِ الثَّانيةِ بينَ بينَ . وقُرىء أإلهاً بإضماء

(36/580)

فعلٍ يناسبُ المقامَ ، مثل أتدعونَ أو أتشركونَ .

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من تبكيتِهم بطريقِ الخطابِ إلى بيانِ سوءِ حالِهم

وحكايتِه لغيرِهم أي بل هُم قومٌ عادتُهم العُدولُ عن طريقِ الحقّ بالكليةِ والإنحرافُ عن الاستقامةِ في كلِّ أمرٍ من الأمورِ فلذلك يفعلونَ ما يفعلونَ من العُدول عن الحقّ الواضحِ الذي هو التَّوحيدُ والعُكوفُ على الباطلِ البيّنِ الذي هو الإشراكُ ، وقيل : يعدلونَ به تعالَى غيرَهُ وهو بعيدٌ خالٍ عن الإفادةِ .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الأرض قَرَاراً ﴾

قيلَ : هو بدلٌ من أَمْ مَنْ خلقَ السمواتِ الخ وكذا ما بعدَه من الجُملِ الثَّلاثِ ، وحكم الكلِّ واحدٌ والأظهرُ أنّ كلَّ واحدةٍ منها إضرابٌ وانتقالٌ من التبكيتِ بما قبلها إلى التبكيتِ بوجهٍ آخرَ أدخلُ في الإلزامِ بجهةٍ من الجهاتِ أي جعلها بحيثُ يستقرُّ عليها الإنسانُ والدوابُّ بإبداءِ بعضِها من الماءِ ودخولها وتسويتِها حسبما تدورُ عليه منافعهُم ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَا ﴾ أوساطَها ﴿ أَنْهَاراً ﴾ جاريةً ينتفعونَ بها ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابتَ تمنعها أنْ تميدَ بأهلها ويتكونُ فيها المعادنُ وينبعُ في حضيضِها الينابيعُ ويتعلقُ بها من المصالح ما لا يُحصى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين ﴾ أي العذابِ والمالحِ أو خليجيْ فارسَ والرومِ ﴿ حَاجِزاً ﴾ برزخاً مانعاً من الممازجةِ وقد مرَّ في سورةِ الفرقانِ ، والجعلُ في المواقعِ الثلاثةِ الأخيرةِ إبداعيٌّ وتأخيرُ مفعولِه عن الظرفِ لما مرَّ مراراً من التَّشويقِ ﴿ أءلاه مَّعَ الله ﴾ في الوجودِ أو في إبداعِ هذه البدائعِ على ما مرَّ . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي شيئاً من

الأشياءِ ولذلك لا يفهمونَ بطلانَ ما هُم عليهِ من الشركِ مع كمالِ ظهورِه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(37/580)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾

إثر ما قص سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم قصص الأنبياء المذكورين وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه سبحانه وبما خصهم به من الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم ، وقد بين على ألسنتهم صحة الإسلام والتوحيد وبطلان الكفر والإشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى في مهاوي الردى ، وشرح صدره الشريف صلى الله عليه وسلم بما في تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية ، ونور قلبه بأنوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس ، وقرر بذلك فحوى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرءان مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : 6] .

أمر صلى الله عليه وسلم أن يحمده بأتم وجه على تلك النعم ويسلم على كافة الأنبياء

عليهم السلام الذين من جملتهم من قصت أخبارهم وشرحت آثارهم عرفاناً لفضلهم وأداءاً لحق تقدمهم واجتهادهم في الدين ، فالمراد بالعباد المصطفين الأنبياء عليهم السلام لدلالة المقام ، وقوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ [الصافات : 181] وقيل : هذا أمر له صلى الله عليه وسلم بحمده تعالى على هلاك الهالكين من كفار الأمم ، والسلام على الأنبياء وأتباعهم الناجين صلى الله عليه وسلم ، والسلام على غير الأنبياء عليهم السلام إذا لم يكن استقلالاً مما لا خلاف في جوازه ، ولعل المنصف لا يرتاب في جوازه على عباد الله تعالى المؤمنين مطلقاً ، وقيل : أمر له عليه الصلاة والسلام بالحمد على ما خصه جل وعلا به من رفع عذاب الاستئصال عن أمته وخالفتهم لمن قبلهم ممن ذكرت قصته من الأمم المستأصلة بالعذاب ، وبالسلام على الأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة .

فالمراد بالمصطفين الأنبياء خاصة ، وأخرج عبد بن حميد .

والبزار .

وابن جرير .

(38/580)

وغيرهم عن ابن عباس أنه قال فيهم : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اصطفاهم الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن جرير عن سفيان الثوري أنه قال في ﴿ وسلام ﴾ الخ : نزلت في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة .

وهذا ظاهر في القول بجواز السلام على غير الأنبياء استقلالاً كما هو مذهب الحنابلة وغيرهم ، والكلام على جميع هذه الأقوال متصل بما قبله ، وجعله الزمخشري من باب الاقتضاب كأنه خطبة متبدأة حيث قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته تعالى وقدرته على كل شيء وحكمته أعني قوله سبحانه : ﴿ الله ﴾ الخ ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده .

وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع ، ولقد توارثت العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب فحمدوا الله تعالى وصلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل موعظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المتراسلون فأجروا عليه أوائل

كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن انتهى ، ولعل جعل ذلك تخلصاً من قصص الأنبياء عليهم السلام إلى ما جرى له صلى الله عليه وسلم مع المشركين أولى ، وأبعد الأقوال القول باتصاله بما قبله ، وجعل ذلك أمراً للوط عليه السلام بأن يحمده تعالى على إهلاك كفرة قومه ، وأن يسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك لعدم ملاءمته لما بعده واحتياجه إلى تقدير وقلنا له ، وعزا هذا القول ابن عطية للفراء ، وقال : هذه عجمة من الفراء ، والظاهر أن ﴿ سلام ﴾ مبتدأ وما بعده خبره ، والجملة معطوفة على ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ داخلة معه في حيز القول .

(39/580)

وقرأ أبو السمال ﴿ الحمد للَّهِ ﴾ بفتح اللام ﴿ الله ﴾ بالمد لقلب همزة الاستفهام ألفاً والأصل أألله .

(40/580)

﴿ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ والظاهر أن ﴿ مَا ﴾ موصولة والعائد محذوف أي ﴿ الله ﴾ الذي ذكرت شؤونه العظيمة خير أم الذي يشركونه من الأصنام ، و ﴿ خَيْرٌ ﴾ أفعل تفضيل ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته عز وجل وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم إذ من البين أن ليس فيما أشركوه به سبحانه شائبة خير حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من هو خير محض ، وقيل : خير ﴿ لَيْسَتِ ﴾ للتفضيل مثلها في قولك : الصلاة خير تعني خيراً من الخيور ، والمختار الأول ، واستظهره أبو حيان ، وقال : كثيراً ما يجيء هذا النوع من أفعل التفضيل حيث يعلم ويتحقق أنه لا شركة هناك ، وإنما يذكر على سبيل إلزام الخصم وتنبيهه على الخطأ ويقصد بالاستفهام في مثل ذلك إلزامه الإقرار بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر ، واستظهر أيضاً كون المراد بالخيرية الخيرية في الذات ، وقيل : الخيرية فيما يتعلق بها ، وفي الكلام حذف في موضعين ، والتقدير أعبادة الله تعالى خير أم عبادة ما يشركون ، وقيل : ما ﴿ مصدرية ﴾ والحدث في موضع واحد ، والتقدير أتوحيد الله خير أم إشراكهم ولا داعي لجميع ذلك ، وأياً ما كان فضمير الغائب لقريش ونحوهم من المشركين ، وقيل : لأولئك المهلكين وليس بشيء ، وقرأ الأكثرون تشركون بالتاء الفوقانية على توجيه الخطاب لمن ذكرنا من الكفرة وهو الأليق بما بعده من سياق النظم الكريم ، وجعل أبو البقاء هذه الجملة من جملة القول المأمور به وتعقب بأنه يأباه قوله تعالى : ﴿ فَأَنْبَتْنَا ﴾ [النمل : 60] الخ فإنه صريح في أن التبكيت من قبله عز وجل

بالذات ، وحمله على أنه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما أمر به بعبادته كما في قوله سبحانه : ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] تعسف ظاهر من غير داع إليه ، وفي بعض الآثار أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : بل الله خير وأبقى وأجل

(41/580)

وأكرم

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

و﴿ أَمْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ منقطعة لا متصلة كالسابقة ، وبل المقدرة على القراءة الأولى وهي قراءة الحسن .

وقتادة .

وعاصم .

(42/580)

وأبي عمرو للإضراب والانتقال من التبكيت تعريضاً إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد ، وأما على القراءة الثانية فلتثنية التبكيت وتكرير الإلزام كنظائرها الآتية ، والهمزة لحملهم على الإقرار بالحق الذي لا محيص لمن له أدنى تمييز عن الإقرار به ، ومن مبتدأ خبره محذوف مع أم المعادلة للهمزة تعويلاً على ما سبق في الاستفهام الأول خلا أن تشركون المقدر ههنا بتاء الخطاب على القراءتين معاً ، وهكذا في المواضع الأربعة الآتية ، والمعنى أم من خلق قطري العالم الجسماني ومبدأي منافع ما بينهما ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ التفات إلى خطاب الكفرة على القراءة الأولى لتشديد التبكيت والإلزام ، واللام تعليلية أي وأنزل لأجلكم ومنفعتكم ﴿ مِنَ السماء مَاء ﴾ أي نوعاً منه وهو المطر ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ ﴾ بمقتضى الحكمة لا أن الإنبات موقوف عليه عقلاً ، وقيل : أي أنبتنا عنده ﴿ حَدَائِقَ ﴾ جمع حديقة وهي كما في البحر البستان سواء أحاط به جدار أم لا ، وهو ظاهر إطلاق تفسير ابن عباس حيث فسر الحدائق لابن الأزرق بالبساتين ولم يقيد ، وقال الزمخشري : هي البستان عليه حائط من الأحداث وهو الإحاطة ، وهو مروي عن الضحاك ، وقال الراغب : هي قطعة من الأرض ذات ماء سميت حديقة تشبيهاً بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها ، ولعل الأظهر ما في "البحر" وكأن وجه تسمية البستان عليه حديقة أن من شأنها أن تحدق بالحيطان أو تصرف نحوها الإحداق وتنظر إليها ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي ذات حسن ورونق يبتهج به الناظر ويسر ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ ﴾ أي ما صح

وما أمكن لكم ﴿ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ فضلاً عن خلق ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير أم ما تشركون ، وتقدير الخبر هكذا هو ما اختاره الزمخشري وتبعه غيره .

(43/580)

وقال ابن عطية : يقدر الخبر يكفر بنعمته ويشرك به ونحو هذا في المعنى ، وقال أبو الفضل الرازي في كتاب "اللوامح" له : ولا بد من إضمار معادل وذلك المضمر كالمنطوق لدلالة الفحوى عليه ، والتقدير أم من خلق السموات والأرض كمن لم يخلق ، وكذلك يقدر في أخواتها ، وقد أظهر في غير هذا الموضع ما أضمر هنا كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] انتهى ، ولعل الأولى ما اختاره جار الله وكذا يقال فيما بعد .

وقرأ الأعمش ﴿ مِن ﴾ بالتخفيف على أن الهمزة للاستفهام ، ومن بدل من الاسم الجليل وتقديم صلتي الإنزال على مفعوله لما مر مراراً من التشويق إلى المؤخر ، والالتفات إلى التكلم بنون العظمة لتأكيد اختصاص الفعل بحكم المقابلة بذاته تعالى والإيذان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع ما لها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد أمر عظيم لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده عز وجل ، ورشح ذلك بقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ ﴾ الخ سواء كان صفة لحدائق أو حالاً أو

استئنافاً ، وتوحيد وصفها السابق أعني ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة ، وهذا شائع في جمع التسكير كقوله تعالى :

﴿ أزواج مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة : 25] .

وكذلك الحال في ضمير شجرها

(44/580)

وقرأ ابن أبي عبلة ذوات بالجمع بهجة بفتح الهاء ﴿ أَئِنَّ مَعَ اللهِ ﴾ أي أإله آخر كائن مع الله تعالى الذي ذكر بعض أفعاله التي لا يكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة ، وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عما يشركونه به عز وجل في ضمن النفي الكلي على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فإن أحداً ممن له أدنى تمييز كما لا يقدر على إنكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لا يكاد يقدر على إنكار انتفاء الألوهية عنه رأساً لا سيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه عز وجل ، وكذا الحال في المواقع الأربعة الآتية ، وقيل : المراد نفي أن يكون معه تعالى إلى آخر في الخلق ، وما عطف عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفي فقط فإنهم لا ينكرونه حسبما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [لقمان :

25] بل بإشراكهم به تعالى ما يعترفون بعدم مشاركته له سبحانه فيما ذكر من لوازم الألوهية كأنه قيل : أإله آخر مع الله في خواص الألوهية حتى يجعل شريكاً له تعالى في العبادة ، وقيل : المعنى أغيره يقرن به سبحانه ويجعل له شريكاً في العبادة مع تفرده جل شأنه بالخلق والتكوين .

فالإنكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفي كما في الوجهين السابقين ، ورجح بأنه الأظهر الموافق لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون : 91] والأوفى بحق المقام لإفادته نفي وجود إله آخر معه تعالى رأساً لا نفي معيته في الخلق وفروعه فقط .

وقرأ هشام عن ابن عامر آآله بتوسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين ، وقرأ أبو عمرو .

ونافع .

وابن كثير أإلهاً بالنصب على إضمار فعل يناسب المقام مثل أتجعلون .

أو أتدعون .

أو أتشركون .

(45/580)

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم و﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ من العدول بمعنى الانحراف أي بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الأمور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذي هو التوحيد والعكوف على الباطل البين الذي هو الإشراك ، وقيل : من العدل بمعنى المساواة أي يساوون به غيره تعالى من آلهتهم ، وروى ذلك عن ابن زيد ، والأول أنسب بما قبله ، وقيل : الكلام عليه خال عن الفائدة .

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً ﴾

(46/580)

أي جعلها بحيث يستقر عليها الإنسان والدواب بإبداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما يدور عليه منافعهم فقراراً بمعنى مستقراً لا بمعنى قارة غير مضطربة كما زعم الطبرسي فإن الفائد على ذلك أتم ، والجعل إن كان تصييرياً فالمنصوبان مفعولان وإلا فالثاني حال مقدرة ، وجملة قوله تعالى : ﴿ أَمَّن جَعَلَ ﴾ الخ على ما قيل : بدل من قوله سبحانه : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات ﴾ [النمل : 60] إلى آخر ما بعدها من الجمل الثلاث

وحكم الكل واحد ، وقال بعض الأجلة : الأظهر أن كل واحدة منها إضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها إلى التبكيت بوجه آخر داخل في الإلزام بجهة من الجهات ، وإلى الإبدال ذهب "صاحب الكشاف" ، وسننقل إن شاء الله تعالى عن "صاحب الكشاف" ما فيه الكشف عن وجهه ﴿ وَجَعَلَ خلالها ﴾ أي أوساطها جمع خلل ، وأصله الفرجة بين الشيئين فهو ظرف حل محل الحال من قوله تعالى : ﴿ أنهارا ﴾ وساغ ذلك مع كونه نكرة لتقدم الحال أو المفعول الثاني لجعل و ﴿ لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ هو المفعول الأول ، والمراد بالأنهار ما يجري فيها لا المحل الذي هو الشق أي جعل خلالها أنهاراً جارية تنتفعون بها ﴿ وَجَعَلَ لَهَا ﴾ أي لصلاح أمرها ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت فإن لها مدخلاً عادياً اقتضته الحكمة في انكشاف المسكون منها وانحفاظها عن الميد بأهلها ؛ وتكون المياه الممدة للأنهار المفضية لنضارتها في حضيضها إلى غير ذلك ، وذكر بعضهم في منفعة الجبال تكوّن المعادن فيها ونبع المنابع من حضيضها ولم يتعرض لمنفعة منعها الأرض عن الحركة والميلان ، وعلل ترك التعرض بأنه لو كان المقصود ذرك لذكر عقب جعل الأرض قراراً ، ومن أنصف رأى أن منع الجبال الأرض عن الحركة والميلان اللذين يخرجان الأرض عن حيز الانتفاع ويجعلان وجودها كعدمها من أهم ما يذكر هنا لأنه مما به صلاح أمرها ورفعة شأنها ، وذكر ﴿ لَهَا ﴾ دون فيها أو عليها ظاهر في أن المراد ما هو من هذا

القبيل من المنافع فتأمل .

وإرجاع ضمير ﴿ لَهَا ﴾ للأنهار ليكون المعنى وجعل لامدادها رواسي ينبع من حضيضها الماء فيمدها لا يخفى ما فيه ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين ﴾ أي العذب والملح عن الضحاك أو بحري فارس والروح عن الحسن أو بحري العراق والشام عن السدي أبو بحري السماء والأرض عن مجاهد ﴿ حَاجِزاً ﴾ فاصلاً يمنع من الممازجة ، وقد مر الكلام في تحقيق ذلك فتذكر ﴿ أَئِلَهٌ مَعَ الله ﴾ في الوجود أو في إبداع هذه البدائع على ما مر ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي شيئاً من الأشياء علماً معتداً به وذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(48/580)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ ﴾

(49/580)

التفسير :

بعد هذا العرض الكاشف ، الذي عرضت فيه السّورة مواقف المشركين والكافرين ، من دعوة الحقّ التي يحملها إليهم رسل اللّه ، ويقدّمون بين

يديها الآيات المحسوسة التي تنطق بقدرة اللّه وعظمته ، وتشهد لرسله بأنهم مؤيدون من عند اللّه ، وأن ما على ألسنتهم هو من كلمات اللّه ، وأن ما بأيديهم هو من آيات اللّه ـ مع هذا ، فقد عميت من الضالين الأبصار ، وزاغت القلوب ، فكان العناد والتحدّى ، ثم التطاول والتعدّى . . وكان ذلك هو الجواب المحمّل بألوان التكذيب ، والتهديد ، الذي تلقاه الرسل من أقوامهم ، إلا قليلا ممن شرح اللّه صدره للإيمان منهم ، فنجا بنفسه ، وكان من المفلحين في الدنيا والآخرة جميعا .

ـ بعد هذا العرض ، جاءت آيات اللّه ، لتعقب على هذه الأحداث ، ولتلفت الأنظار إلى اللّه وعظمته ، وإلى ماله في عباده من آيات . . ففى هذا التعقيب يرى المؤمنون والمشركون جميعا ما تحمل كلمات اللّه ، من بيان ، تتجلّى فيه نعم اللّه عليهم ، ويبين منها فضله الذي أفاضه على هذا الوجود ! .

وقوله تعالى :

« قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » هو خطاب

خاص للنبى ، ثم هو عام إلى كل مؤمن بالله . . وفي هذا الخطاب دعوة إلى ذكر الله بالحمد على نعمه التي لا تحصى ، والتي أجلّها وأعظمها ، هو الإيمان الذي عمرت به قلوب المؤمنين . .

(50/580)

.وفي قوله تعالى : « وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى » ذكر يقترن مع ذكر الله ، بالتسليم على عباد الله الذين اصطفاهم ، واختصهم بالمزيد من فضله ، وهم رسله الكرام ، كما يقول سبحانه : « سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ » (180.182 الصافات) وفي اقتران ذكر الله بالحمد والثناء عليه ، بذكر المرسلين ، والدعاء بالسّلام

عليهم.فى هذا تكريم لرسل الله ، واعتراف بفضلهم على الناس ، إذ كانوا مصابيح هدى ، ودعاة أمن وسلام للعباد . . وهذا من شأنه أن يجعلهم موضع إعزاز ، وحبّ ، وإكرام ، من أقوامهم خاصة ، ومن الإنسانية كلها عامة ، لا أن ترجمهم الأيدى الأثمة ، وتسلقهم الألسنة الفاجرة ، وتزدريهم العيون البلهاء ، كما يفعل السفهاء ، والحمقى ، من أهل الشرك والضلال . . !

ـ وقوله تعالى : « آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ » ـ هو استفهام تقريرى ، يراد به أخذ الجواب من كل لسان ، على هذا السؤال . .

وأصل الاستفهام « أاللّه » قلبت همزة الوصل في لفظ الجلالة ألفا ، للتسهيل ، فصارت مع همزة الاستفهام مدّة . .

و « أمّا » أصلها « أم » حرف العطف الذي يقع بعد همزة التسوية ، « ما » الموصولة . . فأدغمت الميم في الميم . . وجىء باسم الموصول « ما » بدل « من » للإشارة إلى ما يعبد المشركون من معبودات ، لا تعقل ، من الحيوان ، والجماد ، وغيرها ، وذلك أكثر ما يشرك به المشركون .

قوله تعالى :

« أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » .

فى الجواب على الآية السابقة جوابان :

جواب لأهل البصائر وأصحاب العقول . . وهو أن اللّه هو وحده المستحقّ للعبادة . .

وجواب لأهل الشرك ، الذين ران الضلال على قلوبهم . . وهو أنهم يؤثرون آلهتهم التي يعبدونها ، ولا يلتفتون إلى غيرها .

ـ وقد جاءت هذه الآية : « أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ . . . » والآيات التي بعدها ، لتلقى هؤلاء المشركين مع آلهتهم ، ولتضع أمام أعينهم موازنة بينهم ، وبين اللّه سبحانه وتعالى ، لينظروا فيروا إن كان هناك من آلهتهم من يشارك اللّه في هذه الصفات التي للّه سبحانه وتعالى . . فإن كان يقع لأيديهم أو لأبصاهم ، أو لعقولهم شيء من هذا ، فليمسكوا بآلهتهم ، وإلّا فليروا رأيهم فيها ، إن كان لهم ـ مع أهوائهم المتسلطة عليهم ـ رأى . .

ـ فقوله تعالى : « أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً . . » ـ هو معادل لمستفهم عنه محذوف ، وهو الآلهة التي يمسك بها هؤلاء المشركون ، والتقدير : أآلهتهم هذه ، أم من خلق السموات والأرض وأنزل لهم من السماء ماء . . . ؟ .

ـ وفي قوله تعالى : « فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ » ـ هو إلفات إلى ما أودع اللّه سبحانه وتعالى من أسرار في هذا الماء ، الذي ينزله من السماء ، فيحيى به الأرض بعد موتها ، ويكسو عريها حللا زاهية رائعة ، ذات ألوان وأصباغ ، تبهج النفس ، وتشرح الصّدر .

وفي العدول عن ضمير الغائب المفرد فى « أنزل » إلى ضمير المتكلم المعظم ذاته فى « فأنبتنا » ـ إشارة إلى أمرين :

أولهما : أن إنزال المطر عملية ، قد لا يشهدها كثير من الناس ، وإذا شهدوها فإن كثيرا منهم قد لا يلتفتون إليها . . أما هذه الزروع ، وتلك الجنات التي تزين وجه الأرض ، فإنه قل في الناس من لا يشهد هذه الظاهرة ، ويملأ عينيه ، ومشاعره منها ، ومما فيها من حسن وروعة . . فكان من المناسب هنا أن يرى الناس يد القدرة القادرة ، وهي تنسج هذه الحلل الجميلة الرائعة التي تنكسو الأرض ، وتجلوها كما تجلى العروس في ليل زفافها . . ففى قوله تعالى :

« أنبتنا » حضور للّه سبحانه ، فى هذه الزروع والجنات التي تزين وجه الأرض ، وتقع لعينى كل إنسان . .

وثانيهما : أن هذه الزروع وتلك الجنات . . ليست على صورة واحدة ، فهى مختلفة الألوان والأشكال ، متعددة الأنواع والأجناس ، . كما يقول اللّه سبحانه « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلًا وَحَدائِقَ غُلْباً وَفاكِهَةً وَأَبًّا » (24 ـ 31 عبس) فهذه الصور التي لا تكاد تحصى من الزروع والأشجار ، فى مسرح العين ، تبدو وكأن آلافا من الأيدى ، عملت على إخراجها من الأرض ، واستيلادها من بطنها ، وصبغها بهذه الأصباغ . . وإن الأمر لعلى خلاف هذا الظاهر ، فهى يد واحدة قادرة ، هى يد الحكيم العليم ، التي تفردت بكل هذا . .

ومن هنا حسن أن يذكر اللّه سبحانه وتعالى بضمير الحضور ، وبصيغة الجمع ، حيث ترى قدرة اللّه قائمة على كل نبتة ، وكل شجرة . . وليس كذلك الشأن في المطر ، ونزوله . . إنه صورة واحدة في كل أحواله . . !

. وقوله تعالى : « ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها » الضمير « فى شجرها » يعود إلى الحدائق . .

(53/580)

والمعنى ، أن هذه الحدائق ذات الروعة والبهجة ، ليس في مقدور الناس جميعا أن ينبتوا شجرها ، وأن يخرجوه من الأرض ، فضلا عن أن يمسكوا عليه حياته ، ويبلغوا به هذا المدى من النماء ، والإزهار ، والإثمار ، وتنوع الألوان والأشكال . .

. وفي قوله تعالى : « أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ » سؤال تقريرى ، يراد الجواب عليه ، بعد النظر إلى هذه المعارض التي عرضتها الآية الكريمة لبعض قدرة اللّه ، وآثار رحمته !

وجواب أهل العناد والضلال ، هو جواب كل معاند ضال . . وهو العمى عن الحق ، والتشبث بالباطل . . ولهذا جاء قوله تعالى : « بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ » مسجلا عليهم هذا الضلال ، آخذا من أفواههم جوابهم على هذا السؤال . .

وهو أنهم قوم يعدلون عن الحق إلى الباطل ، ويولون وجوههم إلى معبوداتهم التي يعكفون عليها . .

قوله تعالى :

« أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً . . أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ! » وهذه معادلة أخرى ، يوازن فيها المشركون بين اللّه ، وبين آلهتهم . .

أيّ أحق بالألوهة ، وأولى بالعبادة ؟ . أآلهتكم تلك الخرساء الصماء ، أم اللّه الذي جعل الأرض قرارا ؟ أي موضعا صالحا لحياة الإنسان ، واستقراره عليها ، « وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً » أي وأجرى بين شعاب الأرض أنهارا ، تخلل أجزاءها ، بحيث يأخذ كل جزء منها حظه من هذه الأنهار « وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ » أي جبالا راسية ، تمسك بها أن تميد أو تضطرب . . « وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً » أي فصل بين ماء البحار ، وماء الأنهار ، حيث يلتقيان ، فلا يطغى أحدهما على الآخر . . بل يبقى ماء الأنهار عذبا سائغا ، ويظل ماء البحار ملحا أجاجا . .

هذا هو صنع اللّه ، وتلك آيات قدرته ، وسوابغ رحمته . . فأين ما للآلهة التي تعبدونها ، أيها المشركون الضالون ؟

« أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ » . . أجيبوا ! وقد أجابوا جواب الأغبياء الجاهلين ، الذين لا حظّ لهم من علم . . فهم والحيوان على سواء . . ولو أنهم كانوا على شيء من العلم ، لأنار لهم علمهم الطريق إلى الحق ، ولنطقوا بما ينبغي أن ينطق به أهل العلم ، وهو أنه « لا إله إلا اللّه » . . ولكن أتى لهم هذا ، وهم في هذا الجهل المظلم ؟ : « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ » .

وفي الآية الكريمة إعجاز من إعجاز النظم القرآني . . فقد تكررت كلمة « جعل » أربع مرات ، تخللت عشر كلمات ، دون أن يشعر أحد بهذا التكرار ، أو يجد له أي أثر في النطق بهذه الكلمات ، التي تناغم لحنها ، وتوازن نظمها ، فكانت لحنا علوى النغم ، يأسر الآذان بوقعه ، ويملك المشاعر ، بسرّه وجهره . . !

أقرأ الآية الكريمة ورتلها ترتيلا ! « أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً . . وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً . . وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ . . وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ . . . . »

ثم ألا تسجد بعد هذا لهذا الإعجاز من كلام رب العالمين ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

التفسير القرآني للقرآن حـ 10 صـ 160 . 266 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلِ الحمدِ لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ ﴾

لما استوفى غرض الاعتبار والإنذار حقه بذكر عواقب بعض الأمم التي كذبت الرسل وهي أشبه أحوالاً بأحوال المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذي أنزل عليه ، وفي خلال ذلك وحَفَافيه تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من قومه أقبل الله بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يلقنه ماذا يقوله عقب القصص والمواعظ السالفة استخلاصاً واستنتاجاً منها ، وشكر الله على المقصود منها .

فالكلام استئناف والمناسبة ما علمت .

أمر الرسول بالحمد على ما احتوت عليه القصص السابقة من نجاة الرسل من العذاب الحال بقومهم وعلى ما أعقبهم الله على صبرهم من النصر ورفعة الدرجات .

وعلى أن أهلك الأعداء الظالمين كقوله ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام : 45] ونظيره قوله في سورة العنكبوت (63) ﴿ قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ وقوله في آخر هذه السورة (93) ﴿ وقل الحمد لله سيريكم ﴾ الآية .

فأمر الرسول بحمد الله على ذلك باعتبار ما أفاده سوق تلك القصص من الإيماء إلى وعد

الرسول بالنصر على أعدائه .

فقوله قل الحمد لله ﴾ أمر للرسول صلى الله عليه وسلم بإنشاء حمد الله .

وقد تقدمت صيغة الحمد في أول الفاتحة .

وعطف على المأمور بأن يقوله من الحمد أمر بأن يتبعه بالسلام على الرسل الذين سبقوه قدراً لقدر ما تجشموه في نشر الدين الحق .

وأصل ﴿ سلام ﴾ سلمت سلاماً ، مقصود منه الإنشاء فحذف الفعل وأقيم مفعوله المطلق بدلاً عنه .

وعدل عن نصب المفعول المطلق إلى تصييره مبتدأ مرفوعا للدلالة على الثبات والدوام كما تقدم عند قوله ﴿ الحمد لله ﴾ في أول سورة الفاتحة (2) .

والسلام في الأصل اسم يقوله القائل لمن يلاقيه بلفظ : سلام عليك ، أو السلام عليك .

(56/580)

ومعناه سلامة وأمنٌ ثابت لك لا نكول فيه ، لما تؤذن به (على) من الاستعلاء المجازي المراد به التمكن كما في ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] .

وأصل المقصود منه هو التأمين عند اللقاء إذ قد تكون بين المتلاقين إحَن أو يكون من

أحدهما إغراء بالآخر ، فكان لفظ (السلام عليك) كالعهد بالأمان .

ثم لما كانت المفاتحة بذلك تدل على الابتداء بالإكرام والتلطف عند اللقاء ونية الإعانة والقرى ، شاع إطلاق كلمة : السلام عليك ، ونحوها عند قصد الإعراب عن التلطف والتكريم وتنوسي ما فيها من معنى بذل الأمن والسلامة ، فصار الناس يتقاولونها في غير مظان الريبة والمخافة فشاعت في العرب في أحيائهم وبيوتهم وصارت بمنزلة الدعاء الذي هو إعراب عن إضمار الخير للمدعو له بالسلامة في حياته .

فلذلك قال تعالى ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ كما تقدم في سورة النور (61) وصار قول : السلام ، بمنزلة قول : حياك الله ، ولكنهم خصُّوا كلمة : (حياك الله) بملوكهم وعظمائهم فانتقلت كلمة (السلام عليكم) بهذا إلى طور آخر من أطوار استعمالها من عهد الجاهلية وقد قيل إنها كانت تحية للبشر من عهد آدم .

ثم ذكر القرآن السلام من عند الله تعالى على معنى كونه معاملة منه سبحانه بكرامة الثناء وحسن الذكر للذين رضي الله عنهم من عباده في الدنيا كقوله حكاية عن عيسى إذ أنطقه بقوله ﴿ والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ﴾ [مريم : 33] .

وكذلك في الآخرة وما في معناها من أحوال الأرواح بعد الموت كقوله عن عيسى ﴿ ويوم أبعث حياً ﴾ [مريم : 33] ، وقوله عن أهل الجنة ﴿ لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون

سلام قولاً من رب رحيم ﴾ [يس : 57 ، 58] .

وجاء في القرآن السلام على خمسة من الأنبياء في سورة الصافات .

(57/580)

وأيضاً أمر الله الأمة بالسلام على رسولها فقال ﴿ يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ [الأحزاب : 56] أي قولوا : السلام عليك أيها النبي لأن مادة التفعيل قد يُؤتى بها للدلالة على قول منحوب من صيغة التفعيل ، فقوله : ﴿ سلّموا تسليماً معناه : قولوا كلمة السلام .

مثل بسمل ، إذا قال : بسم الله ، وكبر ، إذا قال : الله أكبر .

وفي الحديث تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين .

ومعنى وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ إنشاء طلب من الله أن يسلم على أحد المصطفين ، أي أن يجعل لهم ذكراً حسناً في الملأ الأعلى .

فإذا قال القائل : السلام على فلان ؛ وفلان غائب أو في حكم الغائب كان ذلك قرينة على أن المقصود الدعاء له بسلام من الله عليه .

فقد أزيل منه معنى التحية لا محالة وتعين للدعاء ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم

المسلمين .

عن أن يقولوا في التشهد : السلام على الله السلام على النبي السلام على فلان وفلان .

فقال لهم " إن الله هو السلام " أي لا معنى للسلام على الله في مقام الدعاء لأن الله هو المدعو بأن يسلم على من يطلب له ذلك .

فلما أمر تعالى في هذه السورة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول ﴿ سلام على عباده الذين اصطفى ﴾ فقد عيّن له هذه الجملة ليقولها يسأل من الله أن يكرم عباده الذين اصطفى بالثناء عليهم في الملأ الأعلى وحسن الذكر ، إذ قصارى ما يستطيعه الحاضر من جزاء الغائب على حسن صنيعه أن يبتهل إلى الله أن ينفحه بالكرامة .

والعباد الذين اصطفاهم الله في مقدمتهم الرسل والأنبياء ويشمل ذلك الصالحين من عباده كما في صيغة التشهد : "السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" .

وسيأتي الكلام على التسليم على النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب .

﴿ اصطفى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا ﴾

(58/580)

4 هذا مما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوله فأمر أن يقول : ﴿ الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ تمهيداً لقوله : ﴿ آللَّه خير أما تشركون ﴾ لأن العباد الذين اصطفاهم الله جاؤوا كلهم بحاصل هذه الجملة .

وأمر أن يشرع في الاستدلال على مسامع المشركين فيقول لهم هذا الكلام ، بقرينة قوله ﴿ أما تشركون ﴾ بصيغة الخطاب في قراءة الجمهور ، ولأن المناسب للاستفهام أن يكون موجهاً إلى الذين أشركوا بالله ما لا يخلق ولا يرزق ولا يفيض النعم ولا يستجيب الدعاء ، فليس هذا لقصد إثبات التوحيد للمسلمين .

والاستفهام مستعمل في الإلجاء وإلزام المخاطب بالإقرار بالحق وتنبيهه على خطئه .

وهذا دليل إجمالي يقصد به ابتداء النظر في التحقيق بالإلهية والعبادة .

فهذا من قبيل ما قال الباقلاني وإمام الحرمين وابن فورك إن أول الواجبات أول النظر أو القصد إلى النظر ثم تأتي بعده الأدلة التفصيلية ، وقد ناسب إجماله أنه دليل جامع لما يأتي من التفاصيل فلذلك جيء فيه بالاسم الجامع لمعاني الصفات كلها ، وهو اسم الجلالة .

فقيل : ﴿ آللَّه خير ﴾ .

وجيء فيما بعد بالاسم الموصول لما في صلاته من الصفات .

وجاء ﴿ خير ﴾ بصيغة التفضيل لقصد مجاراة معتقدهم أن أصنامهم شركاء الله في الإلهية بحيث كان لهم حظ وافر من الخير في زعمهم ، فعبّر بـ ﴿ خير ﴾ لإيهام أن المقام

لإظهار رجحان إلهية الله تعالى على أصنامهم استدراجاً لهم في التنبيه على الخطأ مع التهكم بهم إذ آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله .

والعاقل لا يؤثر شيئاً على شيء إلا لداع يدعو إلى إيثاره ، ففي هذا الاستفهام عن الأفضل في الخير تنبيه لهم على الخطأ المفرط والجهل المورط لتنفتح بصائرهم إلى الحق إن أرادوا اهتداء .

والمعنى : ءالله الحقيق بالإلهية أم ما تشركونهم معه .

والاستفهام على حقيقته بقرينة وجود ﴿ أم ﴾ المعادلة للهمزة فإن التهكم يبنى على الاستعمال الحقيقي .

(59/580)

وهذا الكلام كالمقدمة للأدلة الآتية جميعها على هذا الدليل الإجمالي كما ستعلمه .

.

وقرأ الجمهور ﴿ تشركون ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأه أبو عمرو وعاصم ويعقوب بياء الغيبة فيكون القول الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم محكياً بالمعنى روعي فيه غيبة المشركين في مقام الخطاب بالأمر .

و﴿ ما ﴾ موصولة والعائد محذوف .

والتقدير : ما يشركونها إياه ، أي أصنامكم .

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

﴿ أم ﴾ منقطعة بمعنى (بل) للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض مع مراعاة وجود معنى الاستفهام أو لفظه بعدها لأن (أم) لا تفارق معنى الاستفهام .

انتقل بهذا الإضراب من الاستفهام الحقيقي التهكمي إلى الاستفهام التقريري ، ومن المقدمة الإجمالية وهي قوله ﴿ ءالله خير أم ما تشركون ﴾ [النمل : 59] ، إلى الغرض المقصود وهو الاستدلال .

عدد الله الخيرات والمنافع من آثار رحمته ومن آثار قدرته .

فهو استدلال مشوب بامتنان لأنه ذكرهم بخلق السموات والأرض فشمل ذلك كل الخلائق التي تحتوي عليها الأرض من الناس والعجماوات ، فهو امتنان بنعمة إيجادهم وإيجاد ما به قوام شؤونهم في الحياة ، وبسابق رحمته ، كما عددها في موضع آخر عليهم بقوله ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شي سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [الروم : 40] .

و﴿ من ﴾ للاستفهام .

وهي مبتدأ والخبر جملة ﴿ خلق السموات .

.

﴿ الخ وهو استفهام تقريري على أن الله إله واحد لا شريك له ، ولا تقدير في الكلام .

وذهب الزمخشري وجميع متابعيه إلى أن (من) موصولة وأن خبرها محذوف دل عليه قوله فيما تقدم ﴿ ءالله خير ﴾ [النمل : 59] وأن بعد (أم) همزة استفهام محذوفة ، والتقدير : بل أمّن خلق السموات الخ خير أم ما تشركون .

(60/580)

وهو تفسير لا داعي إليه ولا يناسب معنى الإضراب لأنه يكون من جملة الغرض الأول على ما فسر به في "الكشاف" فلا يجدر به إضراب الانتقال .

فالاستفهام تقرير كما دل عليه قوله في نهايته في ﴿ أإله مع الله ، ﴾ فهو تقرير لإثبات أن الخالق والمنبت والرازق هو الله ، وهو مشوب بتوبيخ ، فلذلك ذيل بقوله ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ كما سيأتي ، أي من غرض الدليل الإجمالي إلى التفصيل .

والخطاب بـ ﴿ لكم ﴾ موجه إلى المشركين للتعريض بأنهم ما شكروا نعمة الله .

وذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلقه الله ، ولقطع شبهة أن يقولوا : إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء ، اغتراراً بالسبب فبودروا بالتذكير بأن الله خلق الأسباب وهو خالق

المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب وبتوفير القوى الحاصلة في الأسباب ، وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب ، فقد ينزل الماء بإفراط فيجرف الزرع والشجر أو يقتلهما ، ولذلك جمع بين قوله ﴿ وأنزل ﴾ وقوله ﴿ فأنبتنا ﴾ تنبيهاً على إزالة الشبهة .

ونون الجمع في ﴿ أنبتنا ﴾ إلتفات من الغيبة إلى الحضور .

ومن لطائفه هنا التنصيص على أن المقصود إسناد الإنبات إليه لئلا ينصرف ضمير الغائب إلى الماء لأن التذكير بالمنبت الحقيقي الذي خلق الأسباب أليق بمقام التوبيخ على عدم رعايتهم نعمه .

والإنبات : تكوين النبات .

والحدائق : جمع حديقة وهي البستان والجنة التي فيها نخل وعنب .

سميت حديقة لأنهم كانوا يحدقون بها حائطاً يمنع الداخل إليها صوناً للعنب لأنه ليس كالنخل الذي يعسر اجتناء ثمره لارتفاع شجره فهي بمعنى : محدق بها .

ولا تطلق الحديقة إلا على ذلك .

والبهجة : حسن المنظر لأن الناظر يبتهج به .

ومعنى ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ ليس في ملككم أن تنبتوا شجر تلك الحدائق

، فاللام في ﴿ لكم ﴾ للملك و ﴿ أن تنبتوا ﴾ اسم ﴿ كان ﴾ و ﴿ لكم ﴾ خبرها .

وقدم الخبر على الاسم للاهتمام بنفي ملك ذلك .

(61/580)

وجملة ﴿ أإله مع الله ﴾ استئناف هو كالنتيجة للجملة قبلها لأن إثبات الخلق والرزق والإنعام لله تعالى بدليل لا يسعهم إلا الإقرار به ينتج أنه لا إله معه .

والاستفهام إنكاري .

و ﴿ بل ﴾ للإضراب عن الاستفهام الإنكاري تفيد معنى (لكن) باعتبار ما تضمنه الإنكار من انتفاء أن يكون مع الله إله فكان حق الناس أن لا يشركوا معه في الإلهية غيره فجيء بالاستدراك لأن المخاطبين بقوله ﴿ وأنزل لكم ﴾ وقوله ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ لم ينتفعوا بالدليل مع أنه دليل ظاهر مكشوف ، فهم مكابرون في إعراضهم عن الاهتداء بهذا الدليل ، فهم يعدلون بالله غيره ، أي يجعلون غيره عديلاً مثيلاً له في الإلهية مع أن غيره عاجز عن ذلك فيكون ﴿ يعدلون ﴾ من عدل الذي يتعدى بالباء ، أو يعدلون عن الحق من عدل الذي يعدّى بـ (عن) .

وسُئل بعض العرب عن الحجاج فقال : "قاسط عادل" ، فظنوه أثنى عليه فبلغت كلمته

للحجاج، فقال: أراد قوله تعالى ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ [الجن: 15] أي وذلك قرينة على أن المرار بـ (عادل) أنه عادل عن الحق.

وأياً ما كان فالمقصود توبيخهم على الإشراك مع وضوح دلالة خلق السموات والأرض وما ينزل من السماء إلى الأرض من الماء.

ولما كانت تلك الدلالة أوضح الدلالات المحسوسة الدالة على انفراد الله بالخلق وصف الذين أشركوا مع الله غيره بأنهم في إشراكهم معرضون إعراض مكابرة عدولاً عن الحق الواضح قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان: 25].

والإخبار عنهم بالمضارع لإفادة أنهم مستمرون على شركهم لم يستنيروا بدليل العقل ولا أقلعوا بعد التذكير بالدلائل.

وفي الإخبار عنهم بأنهم قوم إيماء إلى تمكن صفة العدول عن الحق منهم حتى كأنها من مقومات قوميتهم كما تقدم غير مرة.

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ

﴿ أم ﴾ للإضراب الانتقالي مثل أختها السابقة .

وهذا انتقال من الاستدلال المشوب بالامتنان إلى الاستدلال المجرد بدلائل قدرته وعلمه بأن خلق المخلوقات العظيمة وبتدبيره نظامها حتى لا يطغى بعضها على بعض فيختل نظام الجميع .

ولأجل كون الغرض من هذا الاستدلال إثبات عظم القدرة وحكمة الصنع لم يجيء خلاله بخطاب للمشركين كما جاء في قوله في الآية قبلها ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ [النمل : 60] الآية ، وإن كان هذا الصنع العجيب لا يخلو من لطف بالمخلوقات أراده خالقها ، ولكن ذلك غير مقصود بالقصد الأول من سوق الدليل هنا .

والقرار : مصدر قرّ ، إذا ثبت وسكن .

ووصف الأرض به للمبالغة ، أي ذات قرار .

والمعنى جعل الأرض ثابتة قارّة غير مضطربة .

وهذا تدبير عجيب ولا يُدرك تمام هذا الصنع العجيب إلا عند العلم بأن هذه الأرض سابحة في الهواء متحركة في كل لحظة وهي مع ذلك قارّة فيما يبدو لسكانها فهذا تدبير أعجب ، وفيه مع ذلك رحمة ونعمة .

ولولا قرارها لكان الناس عليها متزلزلين مضطربين ولكانت أشغالهم مُعنتة لهم .

ومع جعلها قراراً شقّ فيها الأنهار فجعلها خلالها .

وخلال الشيء : منفرج ما بين أجزائه .

والأنهار تشق الأرض في أخاديد فتجري خلال الأرض .

والرواسي : الجبال ، جمع راسسٍ وهو الثابت .

واللام في ﴿ لها ﴾ لام العلة ، أي الرواسي لأجلها أي لفائدتها ، فإن في تكوين الجبال حكمة لدفع الملاسة عن الأرض ليكون سيرها في الكرة الهوائية معدلاً غير شديد السرعة وبذلك دوام سيرها .

وجعل الحاجز بين البحرين من بديع الحكمة ، وهو حاجز معنوي حاصل من دفع كلا الماءين : أحدهما الآخر عن الاختلاط به ، بسبب تفاوت الثقل النسبي لاختلاف الأجزاء المركب منها الماء الملح والماء العذب .

فالحاحز حاجز من طبعهما وليس جسماً آخر فاصلاً بينهما ، وتقدم في سورة النحل .

وهذا الجعل كناية عن خلق البحرين أيضاً لأن الحجز بينهما يقتضي خلقهما وخلق الملوحة والعذوبة فيهما .

(63/580)

ثم ذيّل بالاستفهام الإنكاري وبالاستدراك بجملة مماثلة لما ذُيل به الاستدلال الذي قبلها على طريقة التكرير تعديداً للإنكار وتمهيداً للتوبيخ بقوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون .

﴾ وأوثر هنا نفي صفة العلم عن أكثر المشركين لقلة من ينظر في دقائق هذه المصنوعات وخصائصها منهم فإن اعتياد مشاهدتها من أول نشأة الناظر يذهله عما فيها من دلائل بديع الصنع .

فأكثر المشركين يجهل ذلك ولا يهتدي بما فيه ، أما المؤمنون فقد نبههم القرآن إلى ذلك فهم يقرأون آياته المتكرر فيها الاستدلال والنظر .

وهذه الدلائل لا تخلو عن نعمة من ورائها كما علمته آنفاً ولكنها سيقت هنا لإرادة الاستدلال لا للامتنان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(64/580)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾

نعرف أن الله تعالى يُحمد على النعمة ، لكن هناك ﴿ الحمد لِلَّهِ ﴾ [النمل : 59]

جاءت بعد نقمة وعذاب وأَخْذ للمكذِّبين . قالوا : الخطاب هنا مُوجَّه لرسول الله صلى

الله عليه وسلم ، وفيه إشارة إلى أن جُنْد الله هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ليطمئن رسول الله ، كما أن تطهير الكون من المفسدين فيه ، وحين تستريح منهم البلاد والعباد ، هذه نعمة تستوجب ﴿ الحمدِ للَّهِ ﴾ [النمل : 59] .

وفي أهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم ، حتى لا يتورطوا في أسباب الهلاك ، وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد .

لذلك أمرنا ربنا تبارك وتعالى أن نحمده إنْ رأينا خيراً نزل بالأخيار ، أو شراً حَلَّ بالأشرار . فالمعنى ﴿ قُلِ الحمدِ للَّهِ ﴾ [النمل : 59] أن الرسل انتصروا وغلبوا ، وأن المفسدين انهزموا واندحروا .

ألاَ ترى قَوْلَ أهل الجنة : ﴿ حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ * وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوَّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر : 7374] .

كذلك حين نرى الشرير الذي شاع شرُّه وكثُرَ فساده حين ينزل به ما يستحق من عقاب الله نقول جميعاً ساعةَ نسمع خبره : الحمد لله ، هكذا بعملية لا شعورية عند الجميع أنْ تلهج ألسنتُهم بالحمد عند نزول النعمة على أصحابها ، والنقمة على مَنْ يستحقها .

ويقول تعالى عن أهل الشر والفساد : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : 4245] .

فبعد أنْ قطع الله دابر الظالمين قال : الحمد لله رب العالمين ، ونلحظ هنا الفرق بين فتح لك ، وفتح عليك ؛ فتح لك يعني : فتح في صالحك ، ومنه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [الفتح : 1] .

أما فتح عليهم يعني : بالسوء نكاية فيهم ، فمعنى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 44] .

أعطاهم الخير ليهلكهم به ، وهم في حال نعمة ومكانة ، حتى إذا أخذهم الله كان أَخْذه أليماً شديداً .

وفي قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنين : 28] .

فحَمْد الله هنا على أمرين : الحمد لله لأنه أغرق الكافرين الظالمين وخلَّصنا منهم ، والحمد

لله لأنه نجَّى المؤمنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَسَلَامٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [النمل : 59] وهم المؤمنون الذين نصرهم الله ، وجعل العاقبة لهم ، والسلام عليهم بعدها لاقوه من عَنَتِ الكفار وعنادهم ، فالحمد لله الذي أهلك المفسدين ، وأتى بالسلام على المهتدين .

ثم يطرح الحق سبحانه قضية ، ويأتي بها في صورة سؤال واستفهام ؛ لتكون أبلغ في النفس من مجرد الإخبار بها : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 59] .

(66/580)

ولو أن الآية قالت : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لأن الله خير وما يشركون به شرٌّ لكان الكلامُ خبراً ، والخبر في ذاته وبصرف النظر عن قائله يحتمل الصدق أو الكذب .

أمَّا حين تُعرض هذه القضية في صورة الاستفهام ، فقد جعلتَ مخاطبك هو الذي ينطق بها ، كما لو أنكر أحد الأصدقاء جميلَك وأياديك عليه ، فبدل أن تخبر أنت : فعلتُ لك كذا وكذا تدَعْه هو الذي يُخبر فتقول : ألم أفعل لك كذا وكذا ؟ ولا يقول هذا إلا واثقٌ ومعتقدٌ أن الإجابة ستكون في صالحه .

فالمعنى : ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 59] قولوا لنا أنتم ونحن نرتضي حكمكم بعدما رأيتُم وسمعتم من هذه القصة : آالله خير أم الذين أشركوا به خير ؟ ولا بد أن تأتي الإجابة : الله خير ؛ لذلك لما نزلت هذه الآية انفعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسرع بالجواب : " بل الله خير وأبقى وأجلُّ وأكرم " .

مما يدل على أن الانفعال بالقرآن واجب ونقصد الانفعال بمعانيه ، لا الانفعال بالصوت والنغمات كالذي نسمعه من هؤلاء (الذكِّيرة) الذي يُشجِّعون المقرئين بالصياح والضجيج الذي لا يتناسب وجلال الآيات ، وهم مع ذلك لا يفهمون المعاني ولا يتأثرون بها ، لدرجة أن منهم مَنْ يسمع آيات العذاب فيقول بأعلى صوته : اللهم زِدْنا .

وقد كان الكتبة من الصحابة ينفعلون بالآيات معنىً ، حتى إن أحدهم ليكمل الآية ويختمها بما يناسبها قبل أن تُملَي عليه ، لماذا ؟ لأنهم فهموا عن الله وتأثروا بالمعنى ، مما يدل على أن القرآن جاء موافقاً للفطرة السليمة ، ومن هذا التوافق قول أحد الصحابة ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المؤمنين : 14] فنزل بها القرآن كما قالها .

(67/580)

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول عن سورة الرحمن " لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، فكانوا كلما قلت ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] .

قالوا : لا بشيء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد " .

إذن : حين نسمع كلام الله علينا أن ننفعل به ، وأنْ نتجاوبَ معه تجاوباً واعياً ، فعند آية التسبيح نُسبِّح ، وعند آية الحمد نحمد الله ، وعند آية الدعاء نقول : آمين ، هذه مواجيد انفعالية لسماع القرآن والتجاوب معه ، لا أنْ نسمعه أو نهذه كهذ الشِّعْر .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾

﴿ أَمَّنْ ﴾ [النمل : 60] هذا استفهام آخر ، وكأن الحق تبارك وتعالى بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أنْ يُربِّب في النفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين خميرة إيمانية ، ومواجيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتصدي لأعداء الدعوة والمناهضين لها .

يقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا أَإِله مَّعَ الله ﴾ [النمل : 60] .

إذن : المسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنين على الكافرين ، فهناك في خلق الله ما

هو أعظم من ذلك ، فلو سألتَهم : مَنْ خلق السموات والأرض يقولون : الله ولئن سألتهم : مَنْ خلقهم يقولون : الله ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكأن الحق تبارك وتعالى يقول لهم : آلله خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء . . أم ما تشركون ؟

(68/580)

وما دام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتتْ له سبحانه إلى أنْ يدَّعيها غيره ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ [النمل : 60] فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو : إما أنه لم يَدْر بهذه الدعوى ، أو دَرَى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفي كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فليأت هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا .

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيري ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتي ، ولم يوجد معارض ، فقد ثبتت له القضية ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم ﴾ [آل عمران : 18] .

فقضية الوحدانية شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة أولو العلم من الخَلْق .

ويقول سبحانه في تأكيد هذا المعنى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] .

أي : لاجتمع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذي أخذ منهم مُلْكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لذهبوا إليه ليتقرَّبوا منه ويتودّدوا إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً ﴾ [النمل : 60] السماء : كلُّ ما علاك فأظلَّك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعني إرادة الكون ، وإرادة الكون في كل كائن تكون من السماء ، ألاَ ترى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ﴾ [الحديد : 25] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ ﴾ [الحديد : 25] ومعلوم أن الحديد يأتي من الأرض ، لكن إرادة كونه تأتي من السماء .

(69/580)

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل : 60] للماء فوائد كثيرة في حياتنا ، بل هو قِوَام الحياة ؛ لذلك اقتصرتْ الآية على ذكْر الحدائق ؛ لأنها قوام حياة الإنسان في الأكل والشرب .

فإنْ قُلْتَ : نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات ، وليس بها مُقوّمات حياتنا . نقول : نعم هي كذلك الآن ، لكن في الماضي كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور

: حديقة ، أو حائط .

وقال ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ [النمل : 60] مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلاً وهو عَصَب القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد والياسمين والفُل مثلاً ، وكأن ربك عز وجل يقول لك : لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أَوْلَى أوفر لك الضروريات .

والحق تبارك وتعالى يريد أن يرتقي بِذوْق عباده وبمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ [الأنعام : 99] يعني : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل في جمالها ومنظرها البديع ، وكأنها دعوة للرقي بالذوق العام والتأمل في بديع صُنْع الله .

أَلاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبح لك الأكل إلاّ مما تملك ؟ لذلك قال : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ ﴾ [الأنعام : 99] فإنْ لم تكونوا تملكونه ، فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه .

ومن هذا الارتقاء الجمالي قوله تعالى بعد أنْ حدّثنا عن الضروريات في الأنعام : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل : 6] .

وقال : ﴿ والخيل والبغال والحميرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] .

(70/580)

فأعطانا ربنا عز وجل ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها . وتأمل دقة الأسلوب في ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ [النمل : 60] فالضمير في ﴿ خَلَقَ ﴾ ضمير الغائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك في (وَأَنزَلَ) أما في (فَأَنْبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم ، فلماذا ؟

قالوا : لأن نِعَم الله فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهة لاشتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزرع والإنبات ، فهو الذي يحرث ويزرع ويسقي . . الخ مما يُوحِي بأن الإنسان هو الذي يُنبت النبات ، فأراد سبحانه أنْ يُزيل هذا التوهم ، فنسب الإنبات صراحة إليه عز وجل ليزيل هذه الشبهة .

وربك سبحانه وتعالى يحترم فعْلَك ، ويذكر لك سَعْيك ، فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [الواقعة : 6364] نعم لك عمل وسعي في هذه المسألة ، لكنك استخدمتَ الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، والبذور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، أما مسألة الإنبات نفسها فلا دَخْلَ لك بها ، فلا تَقُلْ زرعت ؛ لأنها نحن الزارعون حقيقة ، لكن قُلْ : حرثتُ وسقيتُ .

لذلك تجد الرد في آخر الآية نافياً لأيِّ شبهة في أن لك دَخْلاً في مسألة الزرع : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً ﴾ [الواقعة : 65] وأكّد الفعل بلام التوكيد لينفي هذه الشبهة .

على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه ، فيأتي نفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الماء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : 6870] .

(71/580)

ومعنى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : 60] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعة تسمع ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : 60] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم ، لكن لا بُدَّ في مثل هذا اللفظ من تدقيق ؛ لأنه يحمل معاني كثيرة . نقول : عدلَ في كذا يعني : أنصف ، وعدل إلى كذا يعني : مال إليه ، وعدل عن كذا : يعني : تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعني : سوَّى .

فالمعنى هنا ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل : 60] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوّون به غيره ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] .

أي : يسوُّونه سبحانه بغيره .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض ﴾

لما تكلم الحق سبحانه في الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسماء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة .

أما في هذه الآية ، فالكلام عن الأرض ، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيات الأرض ، ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً ﴾ [النمل : 61] معنى : قراراً أي استقراراً ، حيث خلقها سبحانه على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقرَّ عليها الإنسان .

﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً ﴾ [النمل : 61] الماء ينزل من السماء وينتفع به مَنْ سقط عليه مباشرة ، أما ما ينزل على الجبال فيجتمع في الوديان وتُصنع له السدود لينتفع الناس به عند القحط ، ومن الماء المطر ما ينساب في مَجَارٍ تُسمَّى الأنهار .

وتستطيع أنْ تُفرِّق بين النهر والقناة الصناعية ، فالنهر ينساب الماء فيه من أعالي الجبال ، ومن أماكن متفرقة تتتبع المنخفضات والسهل من الأرض الذي يستطيع الماء أنْ يشقَّ مجراه فيه فتراه ملتوياً متعرجاً ، يدور حول الجبال أو الصخور ليشقَّ مجراه .

أما القناة الصناعية ، فتراها على هيئة الاستقامة ، إلا إذا اعترض طريق حفرها مثلاً أحد أصحاب النفوذ ، فيحملهم على تعيير المسار والانحراف به ليتفادى المرور بأرضه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذه الظاهرة إذا تبولْتَ في أرض رملية ونظرتَ إلى مجرى البول ، فتراه يسير متعرجاً حسب طبيعة الأرض التي يمرُّ بها .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ [النمل : 61] الرواسي : هي الجبال الثابتة الراسية ، وفي موضع آخر بيَّن سبحانه الحكمة من هذه الجبال فقال : ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] .

فالحكمة من خَلْق الجبال تثبيت الأرض حتى لا تضطرب ، ولو أنها خُلِقَتْ على هيئة الثبات والاستقرار لما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : هي مخلوقة على هيئة الحركة ، ولا بُدَّ لها من مُثقّلات .

ولا تقتصر الحكمة من خَلْق الجبال على تثبيت الأرض ، إنما لها مهمة أخرى في قوله تعالى :

﴿ والجبال أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [النازعات : 3233] .

فكيف تكون الجبال متاعاً للإنسان وللحيوان ؟

نعم ، هي متاع ؛ لأنها مخزن مياه ، حينما ينقطع المطر نجد المياه التي تساقطت على الجبال ، إما في الأنهار ، وإما في الشلالات ، وخلف السدود بين الوديان ، أو في العيون والآبار مما امتصته الأرض .

وكما أن الجبال هي مخازن للمياه ، هي أيضاً مخازن للخصوبة التي تمدُّ الأرض الزراعية عاماً بعد عام بقدر ، بحيث تستمر خصوبة الأرض ، وسبق أنْ تكلمنا عن ظاهرة التعرية التي تُفتِّت الطبقة العليا من الصخور ، فتنزل إلى الوديان مع ماء المطر ، وتختلط بالتربة الزراعية فتزيد من خصوبتها .

ولولا صلابة الجبال وتماسك صخورها لتفتتتْ في عدة سنوات ، ولفقدنا مصدر الخصوبة بعد ذلك ، فهذه الظاهرة من علامات رحمة الله بخَلْقه ؛ لأنها تتناسب مع الزيادة السكانية بحيث كلما زاد السكان زادتْ الرقعة الخصبة الصالحة للزراعة .

(73/580)

وسبق أنْ قُلْنا : إنك حين تتأمل وضع الجبال مع الوديان تجد أن الجبل مُثلث قاعدته إلى أسفل ، وقمته إلى أعلى ، أما الوديان فعلى عكس الجبال ، فهي مثلث قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، وهكذا نرى أن كل زيادة من طَمْى الجبل والغِرْين الذي يتفتت منه يزيد في مساحة الوادي ، فتزداد الرقعة الخصبة كل عام مع زيادة السكان .

لذلك يقول تعالى عن الجبال : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ

أَقْوَاتَهَا ﴾ [فصلت : 910] .

فجعل الجبال الرواسي هي مخازن القوت من طعام وشراب ، ولك أن تتأمل نيل مصر ووادِيه ، كيف تكوّن من الطمي الذي حملتْه المياه من أعالي الجبال في إفريقيا ، ليُكوِّن هذه المنطقة الخِصْبة في مصر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً ﴾ [النمل : 61] .

البحرين : أي العَذْب والمالح لأن الماء : منه العَذْب ، ومنه المالح ، ومن قدرته تعالى وحكمته أنْ يحجز بينهما ، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب ، لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البَخْر الذي يكوِّن السحاب ، بحيث يسقط المطر الكافي لمعيشة أهل الأرض .

وما أجملَ قول الشاعر المادح :

أهدى لمجلسه الكريم وإنَّما . . . أهدى لَهُ مَا حُزْتَ مَن نَعْمائِهِ

كَالبَحْرِ يُمطِرُهُ السَّحابُ ومَا لَه . . . فَضْلٌ عليْه لأَنَّه مِنْ مَائِهِ

ولكي تعلم فضل الله علينا في إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب ، انظر إلى التكلفة والمشقة التي تعانيها لتقطير عدة سنتميترات من الماء ، في حين أنك لا تدري بعملية التقطير الواسعة التي تسقي البلاد والعباد في كل أنحاء الدنيا .

وقد مثَّلْنا لمسألة اتساع رقعة البَحْر بكوب الماء إذا أرقْتَه على الأرض ، فإنه يجفُّ في عدة دقائق ، أمّا لو تركت الماء في الكوب لعدة أيام ، فإنه لا ينقص منه إلا القليل .

ومن الماء العَذْب ما سلكه الله تعالى ينابيع في الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السطح ، أو سلكه ينابيع في الأرض بمعنى أن يسير العَذْب بجوار المالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرِف عن الماء من خاصية الاستطراق .

وهذه من عجائب قدرة الله الخالق ، فمِنْ قَعْر البحر المالح تخرج عيون الماء العَذْب ؛ لأن لكل منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبغي أحدهما على الآخر ، كما قال تعالى :

﴿ مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ [الرحمن : 1920] .

وكما أن الماء العَذْب يتسرب إلى باطن الأرض ليكوِّن الآبار والعيون ، فكذلك الماء المالح يتسرب في باطن الأرض ليكوِّن من تفاعلاته الأحجار الكريمة ، كالمرمر ، والمعادن كالحديد والمنجنيز والجرانيت . . الخ .

وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصة بالأرض جاء بهذا الاستفهام

﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ [النمل : 60] يعني خلق هذه الأشياء ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : 61] والذين لا يعلمون أعلمناهم ، وقطعنا حُجَّتهم بعدم العلم .

ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيها آيات أخرى غير أنها مُستقرٌّ وسَكَنٌ ، فالأرض كثيفة ، وفيها غبرة ليست صافية البياض ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد لها أنْ تستقبل حرارة الشمس وضوءها ليستفيد منها النبات ، ولو أن الأرض كانت شفافة تعكس الضوء والحرارة لما استفاد منها النبات ؛ لذلك نجد بعض المشروعات تنمو في الصيف ، وأخرى في الشتاء .

(75/580)

ولما أجرَوْا بعض التجارب على النبات ، فوضعوه في مكان مظلم ، ثم جعلوا ثُقْباً في ناحية بحيث يدخل الضوء وجدوا أن النَّبْتة بما أودع الخالق فيها من غريزة تتجه ناحية الضوء لتأخذ حظها من النور والدفء ، فسبحان الذي خلق فسوّى ، والذي قدَّر فهدى .

ومن آيات الله في خَلْق الأرض أنْ جعلها على هيئة الحركة والدوران ، لتأخذ كل مناطقها حظها من الحرارة ومن البرودة ، ويتنوع فيها المناخ بين صيف وشتاء ، وخريف وربيع ، إنها أدوار تتطلبها مُقوِّمات الحياة .

لذلك تجد علماء النبات يُقسِّمون المناطق الزراعية على الأرض يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام البطاطس ، فتجد كل حزام منها يصلح لنوع خاص من المزروعات يناسب سكان هذه المنطقة وبيئتها وجوّها .

لذلك نجد أن كل نوع من المزروعات في مكانه المناسب لا تصيبه الآفات ، أمّا حين يُنقل إلى مكان غير مكانه ، وبيئة غير بيئته لا بُدَّ أنْ يُصاب .

وفي الأرض خاصية أخرى تتعلق بالإنسان تعلقاً مباشراً ، فمن خصائص الأرض وهي من الطين الذي خُلِق منه الإنسان ، فهي في الحقيقة أمه الأولى فإذا مات لا يسعه إلا أحضان أمه حين يتخلى عنه أقرب الناس إليه ، وألصق الناس به ، عندها تستقبله الأم وتحتويه وتستر عليه كُلَّ ما يسوؤه .

ومن خصائص الأرض أنها تمتص فضلات الإنسان والحيوان ومخلَّفاته وتُحوّلها بقدرة الله إلى مُخصِّب تزدهر به المزروعات ، ويزيد به المحصول ، وفي الريف يحملون رَوَثَ الحيوانات ذا الرائحة الكريهة إلى الحقول ، فإذا به ينبت فيه الوردة الجميلة الذكية التي يتشوَّق الإنسان لرائحتها .

إنها عجائب في الخَلْق ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، أتذكرون المثل الذي يقول : (فلان يعمل من الفسيخ شربات) هكذا قدرة الله التي تخلق الأضداد .

أَلاَ تروْن أن أفضل الفاكهة نأكلها الآن من الجبل الأصفر بمصر وهي تُرْوى بماء المجاري .

(76/580)

وبعد أنْ حدّثنا الحق تبارك وتعالى عن هذه المظاهر العامة التي يحتاجها كل الخلق في السماء والأرض والجبال والمطر . . الخ يُحدّثنا سبحانه عن مسائل خاصة يحتاجها إنسان دون آخر ، وفي وقت دون آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(77/580)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى) (النمل : 59) ، إلى قوله : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (النمل : 64) ، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما أعقبت به كل آية منها وإبداء التناسب في ذلك ؟

(78/580)

والجواب ، والله أعلم : أن الآية الأولى لما نبهوا فيها ذكروا بما تشهد العقول بديهياً وتعترف بدلالته – إذ لا إشكال فيه – من أن السماوات والأرض تشهد بإحكام منعتها ، وإتقان خلقها ، وما أودع سبحانه فيها من العجائب والآيات المشاهدة للعيان ، مع انسحاب التغير على جميعها وعلى ما فيها ، بأن لها موجوداً أوجدها وأحكم صنعتها وإتقانها ، وأنه لا يمكن أن أوجدت أنفسها ولا أوجدها غيرها مما يماثلها في شواهد الافتقار وانسحاب التغير ، وذلك ما لا تنفك عنه سائر الموجودات فيشهد العقل بأن لها موجداً من غير جنسها متعالياً عن شبهها . إذ لو شبهها لافتقر إلى موجد آخر ، فلبيان الأمر ما أعقبت هذه الآية الأولى بقوله : (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (النمل : 60) ، أي أن الأمر غير خاف ولكنهم يعدلون عنه ، وكذا قيل لهم في دعائهم إلى الإيمان في أول سورة البقرة حين ذكروا بقوله : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ . . .) (البقرة : 21) إلى قوله : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة : 22) ، فهذا كقوله : (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) من غي فرق ، لما ذكروا في الموضعين بخلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات ، وإنبات الحدائق العجيبة ، وكانوا يتعرفون بخلقه سبحانه جميع ذلك (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (العنكبوت : 61) ، (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (العنكبوت : 63) ،

فاعترافهم بهذا ثم يجعلون له تعالى الند والشريك عدول واضح بعد قيام الحجو عليهم ، فقيل هنا : (بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) .

(79/580)

ثم لما ذكروا بما هو أخفى في قوله تعالى : (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا) (النمل : 61) ، فإن تمهيد الأرض للسكني ، وتفجير الأنهار خلالها ، وحجز ما بين العذب والمالح من مياهها ، ليس مما ظهور الاعتبار به وبيانه في الجلاء والوضوح كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء إلى ما في الآية ، فلما كان التذكير بما في الآية الثانية أخفى أُعقب هذا بقوله : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (النمل : 61) ، ثم تدرج الاعتبار إلى ما هو أخفى فقيل : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) (النمل : 62) ، وخفاء الاعتبار بهذا واضح ، ولا يحصل عليه إلا من أمعن النظر فيما تقدم قبله ، فأعقب هذا لخفائه بقوله : (قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) (النمل : 62) ، ثم أعقب بما لا يمكن أن يتعاطاه أحد مع وضوح الأمر عند تدبره وهو قوله تعالى : (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . . .) (النمل : 63) ، ذلك مما لا يتصور فيه من العاقل التسليم ، فأعقب بحسب ذلك والتفات ما قبله بقوله : (تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (النمل : 63) ، ثم ختم ما قدم من هذه المعتبرات الجليلة بما لا

يحصل الاعتبار إلا بعد إحكام النظر فيما قبله ، والاعتراف بما يجب لله سبحانه من الاتصاف بالعلم والقدرة ، إذ بهما وبقوتها تَتِمُّ وتثبت العدة والبداءة ، إلى ما يجب له سبحانه من الصفات العُلى التي يثمر العلم بثبوتها له سبحانه النظر التام الصحيح والاعتبار بما تقدم في الآيات قبل هذه ، فلما كمل ذكر ما به (يحصل الاعتراف) والإيمان ، ويستوضح منه (أنه) سبحانه المنفرد بالخلق والأمر والمالك للدارين ، أعقب بطلب المعاند بالبرهان على ما يدعيه ، فقيل : (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (النمل : 64) أي إن صدقتم أن لله شريكاً في ملكه تعالى : (تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

(80/580)

يُشْرِكُونَ) (النمل : 63) ، فقد وضح أن كل معقب به آية من هذه الآيات ، المذكر بها من استبصر والقاطعة بكل من أشرك وكفر ، جار على أوضح مناسبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 380.382 ﴾

(81/580)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

وأما السؤال السابع عشر وهو أن قوله قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى النمل 59 هل السلام من الله تعالى فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعا

فالجواب عنه أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح فيرجح كونه داخلا في جملة القول بأمور

منها اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعا على كل واحد منهما هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع ولهذا إذا قلت الحمد لله وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل في المقول

ومنها أنه إذا كان معطوفا على المقول كان عطف خبر على خبر وهو الأصل ولو كان منقطعا عنه كان عطفا على جملة الطلب وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب

ومنها أن قوله قل الحمد وسلام على عباده الذين اصطفى ظاهر في أن المسلم هو القائل الحمد لله ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ولم يقل سلام على عبادي

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور أحدها مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى

بنفسه على عباده الذين اصطفى كقوله سلام على نوح في العالمين سلام على إبراهيم سلام على موسى وهارون سلام على آل ياسين

ومنها أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم أما الأول فقال تعالى سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين الصافات 181 182 وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله

(82/580)

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقا كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه ثم سلم على المرسلين وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد وأعظم ما جاءوا به التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض وما خالفه هو الباطل والكذب المحال وهذا المعنى بعينه في قوله قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى فإنه يتضمن

حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى كما هو في آخر الصافات

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله تعالى قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان الأنبياء 112 وقوله وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين المؤمنون 118 وقوله ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين الأعراف 89 ونظائره كثيرة جدا وفصل الخطاب في ذلك أن يقال الآية تتضمن الأمرين جميعا وتنتظمهما انتظاما واحدا فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه وليس فيه إلا البلاغ والكلام كلام الرب تبارك وتعالى فهو الذي حمد نفسه وسلم على عباده وأمر رسوله بتبليغ ذلك فإذا قال الرسول الحمد لله وسلام على عباده الذي اصطفى كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغا ومن العباد اقتداء وطاعة فنحن نقول كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

(83/580)

ونظير هذا قوله تعالى قل هو الله أحد الإخلاص 1 فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده فإذا قال العبد قل هو الله أحد كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة قل تحقيقا لهذا المعنى وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله والله أعلم

وهذا بخلاف قوله قل أعوذ برب الفلق الفلق 1 و قل أعوذ برب الناس الناس 1 فإن هذا أمر محض بإنشاء الإستعاذة لا تبليغ لقوله أعوذ برب الناس فإن الله لا يستعيذ من أحد وذلك عليه محال بخلاف قوله قل هو الله أحد فإنه خبر عن توحيده وهو سبحانه يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد فتأمل هذه النكتة البديعة والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 2 صـ 170 . 172 ﴾

(84/580)

وقال أيضا :

وكلمة السلام هنا تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية وهي الحمد لله ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معا وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ويكون محلها النصب محكيه بالقول ويحتمل أن تكون جملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب وهذا التقدير أرجح وعليه

يكون السلام من الله عليهم وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه وتعالى على رسله عليهم السلام وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم ولكن يقال على هذا كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما فلا يحسن أن يقال قم وذهب زيد ولا أخرج وقعد عمرو أو يجاب على هذا بأن جملة الطلب قد حكيت بجملة خبرية ومع هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه وهذا نظير قوله تعالى قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون فقوله تعالى وما تغني الآيات ليس معطوفا على القول وهو نظروا بل معطوف على الجملة الكبرى على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون وقوله تعالى وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين والمقصود أنه على هذا القول يكون الله سبحانه وتعالى قد سلم على المصطفين من عباده والرسل أفضلهم وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه أخلصهم بخالصة ذكرى الدار وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه وجعلهم أمناء على رسالته وواسطة بينه وبين عباده وخصهم بأنواع كراماته فمنهم من اتخذه خليلا ومنهم من كلمه تكليما ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ولم يجعل لعباده وصولا إليه إلا من طريقهم ولا دخولا إلى جنته إلا خلفهم ولم يكرم أحدا منهم بكرامة إلا على أيديهم فهم أقرب الخلق إليه وسيلة

(85/580)

وأرفعهم عنده درجة وأحبهم إليه وأكرمهم عليه وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم وبهم عرف الله وبهم عبد وأطيع بهم حصلت محابه تعالى في الأرض وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ طريق الهجرتين صـ 349 ﴾

(86/580)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن

عباس في قوله ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى الله ﴾ قال : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اصطفاهم الله لنبيه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سفيان الثوري في قوله ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ قال : نزلت في أصحاب محمد خاصة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه كان إذا قرأ ﴿ آلله خير أما يشركون ﴾ قال : بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم .

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ

أخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله تعالى ﴿ حدائق ﴾ قال : البساتين . قال : وهل تعرف العرب ذلك قال : نعم . أما سمعت الشاعر يقول ؟ :

بلاد سقاها الله أما سهولها . . . فقضب ودر مغدق وحدائق

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ حدائق ﴾ قال : النخل الحسان ﴿ ذات بهجة ﴾ قال : ذات نضارة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ حدائق ﴾ قال : البساتين تخللها الحيطان ﴿ ذات بهجة ﴾ قال : ذات حسن .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ حدائق ذات بهجة ﴾ قال ﴿ البهجة ﴾ الفقاع . يعني النوار مما يأكل

الناس والأنعام.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ أإله مع الله ﴾ أي ليس مع الله إله.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ قال: يشركون.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ الآلهة التي عبدوها عدلوها بالله. ليس لله عدل، ولا ند، ولا اتخذ صاحبة، ولا ولداً.

(87/580)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ قال: رواسيها: جبالها ﴿ وجعل بين البحرين حاجزاً ﴾ قال: حاجزاً من الله لا يبغي أحدهما على صاحبه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(88/580)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين:

قوله : ﴿ قُلِ الحمدِ للَّهِ ﴾ :

العامَّةُ على كسرِ لام " قُلِ " لالتقاءِ الساكنين . وأبو السَّمَّال بفتحِها تخفيفاً ، وكذا في قولِه : ﴿ وَقُلِ الحمد للَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ [النمل : 93] . و " سلامٌ " مبتدأٌ سَوَّغَ الابتداءَ به كونُه دعاءً .

قوله : " أَمْ ما " " أم " هذه متصلةٌ عاطفةٌ لاستكمالِ شروطِها . والتقديرُ : أيُّهما خيرٌ ؟ و " خيرٌ " : إمَّا تفضيلٌ على رغمِ الكفارِ وإلزامِ الخَصْمِ ، أو صفةٌ لا تفضيلَ فيها . و " ما " في " أَمْ ما " بمعنى الذي . وقيل : مصدرٌ . وذلك على حَذْفِ مضافٍ من الأولِ أي : أتوحيدُ اللهِ خيرٌ أم شِرْكُهم .

وقرأ أبو عمرٍو وعاصم " أَمْ ما يُشْرِكون " بالغَيْبَةِ حَمْلاً على ما قبلَه من قوله . . . .

قوله : ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقَ ﴾ :

أَمْ هذه منقطعةٌ ؛ لعدمِ تقدُّمِ همزةِ استفهامٍ ولا تَسْويةٍ . " ومَنْ خَلَقَ " مبتدأٌ . وخبرُه محذوفٌ ، فَقَدَّره الزمخشري : " خيرٌ أَمْ ما تُشْرِكُون " فَقَدَّرَ ما أَثْبَتَه في الاستفهامِ الأولِ ، وهو حَسَنٌ ، وقدَّره ابنُ عطيةَ : " يُكْفَرُ بنعمتِه ويُشْرك به ، ونحوَ هذا من المعنى " . وقال أبو الفضل الرازي : " لا بُدَّ من إضمارِ جملةٍ معادِلةٍ ، وصار ذلك المضمرُ كالمنطوق [به] لدلالةِ الفحوى عليه . وتقديرُ تلك الجملة : أَمَنْ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ كمَنْ لم يَخْلُقْ ، وكذلك أخواتُها . وقد أظهرَ في غيرِ هذا الموضعِ ما أَضْمَرَ فيها ، كقولِه تعالى : ﴿ أَفَمَن

يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] . قال الشيخ : " وتَسْمِيَةُ هذا المقدَّرِ جملةً : إنْ أراد بها جملةً من الألفاظِ فصحيحٌ ، وإنْ أراد الجملةَ المصطلحَ عليها في النحوِ فليس بصحيحٍ ، بل هو مضمرٌ من قبيلِ المفردِ " .

(89/580)

وقرأ الأعمش : " أمَنْ " بتخفيفِ الميمِ جَعَلَها " مَنْ " الموصولةَ ، داخلةً عليها همزةُ الاستفهام . وفيه وجهان ، أحدهما : أن تكونَ مبتدأةً ، والخبرُ محذوفٌ . وتقديرُه ما تقدَّم من الأوجهِ . ولم يذكُرْ الشيخُ غيرَ هذا . والثاني : أنها بدلٌ من " الله " كأنه قيل : أمَنْ خلَقَ السماواتِ والأرضَ خيرٌ أَمْ ما تُشْركون . ولم يذكُرْ الزمخشريُّ غيره . ويكون قد فَصَل بين البدلِ والمبدلِ منه بالخبرِ وبالمعطوف على المبدل منه . وهو نظيرُ قولك : " أزيدٌ خيرٌ أم عمروٌ أأخوك " على أن يكونَ " أأخوك " بدلاً من " أزيد " ، وفي جوازِ مثلِ هذا نظرٌ .

قوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ هذا التفاتٌ من الغَيْبَةِ إلى التكلمِ لتأكيدِ معنى اختصاصِ الفعلِ بذاتِه ، والإنذارِ بأنَّ إنباتَ الحدائقِ المختلفةِ الألوانِ والطُّعومِ مع سَقْيِها بماءٍ واحدٍ لا يَقْدِرُ عليه إلاَّ هو وحدَه ؛ ولذلك رشَّحه بقولِه : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ .

والحَدائِقُ : جمعُ حديقة ، وهي البستان . وقيل : القطعةُ من الأرضِ ذاتِ الماء . قال

الراغب : " سُمِّيَتْ بذلك تشبيهاً بحَدَقَةِ العين في الهيئة وحُصولِ الماءِ فيه " وقال غيرُه : سُمِّيَتْ بذلك لإحداقِ الجُدْران بها . وليس بشيءٍ لأنها يُطْلَقُ عليها ذلك مع عَدَمِ الجُدْران .

ووقف القراء على " ذات " مِنْ " ذاتَ بَهْجَة " بتاءٍ مجبورة . والكسائي بهاءٍ لأنها تاءُ تأنيثٍ .

قوله : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ ﴾ " أن تُنْبِتُوا " اسمُ/كان ، و " لكم " خبرٌ مقدمٌ " . والجملةُ المنفيةُ يجوزُ أَنْ تكون صفةً ل " حدائق " ، وأن تكونَ حالاً لتخصُّصِها بالصفةِ .

وقرأ ابنُ أبي عبلة " ذواتَ بَهَجة " بالجمعِ وفتحِ هاءِ " بَهَجة " .

(90/580)

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61)

قوله : ﴿ خِلَالَهَآ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ ظرفاً لجَعَلَ بمعنى خَلَقَ المتعديةِ لواحدٍ ، وأَنْ يكونَ في مَحَلِّ المفعولِ الثاني على أنها بمعنى صَيَّر .

قوله : ﴿ بَيْنَ البحرين ﴾ : يجوزُ فيه ما جازَ في " خلالَها " . والحاجزُ : الفاصِلُ . حَجَزَ

بينَهم يَحْجِزُ أي : مَنَعَ وفَصَل .

وقُرِىءَ " أَإِلَهٌ " بتحقيق الهمزتين . وتخفيفِ الثانيةِ وإدخالِ ألفِ بينهما تخفيفاً وتَسْهيلاً .

وهذا كلُّه معروفٌ مِنْ أولِ هذا الموضوعِ . وقُرِىء " أإلهاً " بالنصبِ على إضمارِ :

أَتَدْعُوْنَ أو أَتُشْرِكون إلهاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 629.632﴾

(91/580)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين الحسن والوضاءة والبهجة والطهارة والنظافة وما يخالف ذلك من القبح

والسماجة وغير ذلك

الفرق بين الحسن والوضاءة

أن الوضاءة تكون في الصورة فقط لأنهما تضمن معنى النظافة يقال غلام وضي إذا كان

حسنا نظيفا ومنه قيل الوضوء لأنه نظافة يقال غلام وضي إذا كان حسنا نظيفا ومنه قيل

الوضوء لأنه نظافة ووضؤ الإنسان وهو الشحن أيضا يستعمل في الأفعال واأخلاق ولا

تستعمل الوضاءة إلا في الوضوء والحسن على وجهين حسن في التدبير وهو من صفة

الأفعال وحسن المنظر على السماع يقال صورة حسنة وصوت حسن

الفرق بين الحسن والقسامة

أن القسامة حسن يشتمل على تقاسيم الوجه والقسم المستوى أبعاضه في الحسن والحسن يكون في الجملة والتفصيل والحسن أيضا يكون في الأفعال والأخلاق والقسامة لا تكون إلا في الصور

الفرق بين الحسن والوسامة

أن الوسامة هي الحسن الذي يظهر للناظر ويتزايد عند التوسم وهو التأمل توسمته إذا تأملته وهو على حسب ما ما قال الشاعر من مجزوء الوافر

يزيدك وحها حسنا

إذا ما زدته نظرا

والوسامة أبلغ من الحسن وذلك أنك إذا كررت النظر في الشيء الحسن واكثرت التوسم له نقص حسنه عندك والوسيم هو الذي تزايد حسنة على تكرير النظر

الفرق بين الحسن والبهجة

أن البهجة حسن يفرح به القلب وأصل البهجة السرور ورجل بهج وبهيج مسرور والتهج غذ سر ثم سمي لحسن الذي يبهج القلب بهجة وقد يسمى الشيء باسم سببه والبهجة عند الخليل حسن لون الشيء ونضارته قال ويقال رجل بهج أو مبتهج يسره فأشار إلى ما قلناه

الفرق بين المرحة والصباحة

أن الصباحة إشراق الوجه وصفاء بشرته مأخوذ من الصبح وهو بريق الحديق وغيره وقيل للصبح صبح لبريقه وأما الملاحة فهي أن يكون الموصوف بها حلوا مقبول الجملة وإن لم يكن حسنا في التفصيل قالت العرب الملاحة في الفم والحلاوة في العينين والجمال في الأوف والظرف في اللسان ولهذا قال الحسن إذا كان اللص ظرفا لم يقطع يريد أن يدافع عن نفسه بحلاوة لسانه وبحسن منطقة والمشهور في الملاحة هوا لذي ذكرته

الفرق بين الحسن والجمال

أن الجمال هو ما يشتهر ويرتفع به الإنسان من الإفعال والأخلاق ومن كثرة المال والجسم وليس هو من الحسن في شيء ألا ترى يقال لك في هذا الأمر جمال ولا يقال لك فيه حسن وفي القرآن (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)

يعني الخيل والإبل والحسن في الأصل الصورة ثم استعمل في الأفعال والأخلاق والجمال في الأصل للأفعال والأخلاق والأحوال الظاهرة ثم استعمل في لاصور وأصل الجمال في العربية العظم ومنه قيل الجملة لأنها أعظم من التفاريق والجمل الحبل

الغليظ والجمل سمي جملا لعظم خلقته ومنه قيل للشحم المذاب جميل لعظم نفعه

الفرق بين الجمال والنبل

أن النبل هو ما يرتفع به الإنسان من الرواء ومن المنظر ومن الأخلاق والأفعال ومما يختص به من ذلك في نفسه دون مايضاف يقال رجل نبيل في فعله ومنظره وفرس نبيل في حسنه وتمامه والجمال يكون في ذلك وفي المال وفي العشيرة والأحوال الظاهرة فهو أعم من النبل ألا ترى أنه يقال لك في المال والعشيرة جمال ولا يقال لك في المال نبل ولا هو نبيل في ماله والجمال أيضا يستعمل في موضع الحسن فيقال وجه جميل كما يقال وجه حسن ولا يقال نبيل بهذا المعنى ويجوز أن يكون معنى قولهم وجه جميل أنه يجري فيه السمن ويكون استقاقه من الجميل وهو الشحم المذاب

(93/580)

الفرق بين الجمال والبهاء

أن البهاء جهارة المنظر يقال رجل بهي إذا كان مجهر المنظر وليس هو في شيء من الحسن والجمال قال ابن دريد بهي يبهى بهاء من النبل وقال الزجاج من الحسن والذي قال ابن دريد صحيح ألا ترى أنه يقال شيخ بهي ولا يقال غلام بهي ويقال بهأت بالمرء إذا أنست به وناقه

بهاء إذا أنست بالحالب

الفرق بين الجمال والسرو

أن السرو هو الجودة والسري من كل شيء الجيد منه يقال طعام سري وفرس سري وكل ما فضل جنسه فهو سري وسراة القوم وجوههم لفضلهم عليهم ولا يوصف الله تعالى بالسرو كما لا يوصف بالجودة والفضل

الفرق بين الكمال والتمام

أن قولنا كمال اسم لاجتماع

أبعاض الموصوف به ولهذا قال المتكلمون العقل كمال علوم ضروريات يميمز بها القبيح من الحسن يريدون اجتماع علوم ولايقال تمام علوم لأن التمام اسم للجزء والبعض الذي يتم به الموصوف بأنه تام ولهذا قال أصاحب النظم القافية تمام البيت ولا يقال كمال البيت ويقولون البيت بكماله اي بَإجتماعه والبيت بتمامه أي بقافيته ويقال هذا تمام حقك للبعض الذي يتم به الحق ولا يقال كمال حقك فان قيل لم قلت إن معنى قول المتكلمين كمال علوم اجتماع قلنا لا اختلاف بينهم في ذلك والذي يوضحه أن العقل المحدود با ه كمال علوم هو هذه الجملة واجتماعها ولهذا لا يوصف المراهق بأنه عاقل وإن حصل بعض هذه ا لعلوم أو أكثرها له وإنما يقال له عاقل إذا أجتمت له

الفرق بين البشر والهشاشة والبشاشة

أن البشر أول ما يظهر من السرور بلقى من يلقاك ومنه البشارة وهي أول ما يصل اليك من الخبر السار فإذا وصل إليك ثانيا لم يسم بشارة ولهذا قالت الفقهاء إن من قال من بشرني بمولود من عبيدي فهو حر فإنه يعتق أول من يخبره بذلك والنغية هي الخبر السار وصل أولا أو أخيرا وفي المثل البشر علم من أعلام النجح والهشاشة هي الخفة للمعروف وقد هششت يا هذا بكسر الشين وهو من قولك شيء هش إذا كان سهل المتناول فاذا كان الرجل سهل العطاء قيل هو هش بين الهشاشة والبشاشة إظهار السرور بمن تلقاه وسواء كان أولا أو أخيرا

الفرق بين ذلك وبين طلاقة الوجه

أن طلاقة الوجه خلاف العبوس والعبوس تكره الوجه عند اللقاء والسؤال وطلاقته انحلال ذلك عنه وقد طلق يطلق طلاقه كما قيل صبح صباحة وملح ملاحة وأصل الكلمة السهولة والانحلال وكل شيء تطلقه من حبس أو تحله من وثاق فينصف كيف شاء أو تحلله بعد تحريمه أو بتيحه بعد المنع تقول أطلقته وهو طلق وطليق ومنه طلقت المرأة لأن ذلك تخليص من الحمل

الفرق بين الطهارة والنظافة

أن الطهارة تكون في الخلقة والمعاني لأنها تقتضي منافاة العيب يقال فلان طاهر الأخلاق وتقول المؤمن طاهر مطهر يعني أنه جامع للخصال المحمودة والكافر خبيث لأنه خلاف المؤمن وتقول هو طاهر الثوب والجسد والنظافة لا تكون إلا في الخلق واللباس وهي تفيد منافاة الدنس ولا تستعمل في المعاني وتقول هو نظيف الصورة أي حسنها ونظيف الثوب والجسد ولا تقول نظيف الخلق

الفرق بين القبح والسماجة

أن السماجة فعل العيب والشاهد قول الهذلي فمنهم صالح وسمج وجعل السماجة نقيض الصلاح والصلاح فعل فكذلك ينبغي أن تكون السماجة فلو كانت السماجة قبح الوجه لم يحسن أن يقول ذلك ألا ترى أنه لا يحسن أن تقول فمنهم صالح وقبيح الوجه وقال ابن دريد ربما قيل لما جاء بعيب سمجا ثم اتسع في السماجة فاستعمل مكان قبح الصورة فقيل وجه سميح وسمج قيل قبيح كأنه جاء بعيب لأنه القبح عيب

(95/580)

الفرق بين القبيح والوحش

أن الوحش الهزيل وقد نوحش الرجل إذا هزل وتوهش أيضا إذا تجوع فسمي المنظر باسم

الهزيل لأن الهزيل قبيح ويجوز أن يقال إن الوحش هو المتناهي في القباحة حتى يتوحش الناظر من الناظر إليه ويكون الوحش على هذا التأويل بمعنى الموحش وتوحش الرجل أيضا إذا تعرى ويجوز أن يكون الوحش العاري من الحسن وهو شبيه بما تقدم من ذكر الهزال

الفرق بين السرور والاستبشار

أن الاستبشار هو السرور بالبشارة والاستفعال للطلب والمستبشر بمنزلة من طلب السرور في البشارة فوجد وأصل البشرة من ذلك لظهور السور في بشره الوجه

الفرق بين السرور والفرح

أن السرور لا يكون إلا بما هو نفع أو لذة على الحقيقة وقد يكون الفرح بما ليس بنفع ولا لذة كفرح

الصبي بالرقص والعدو والسباحة وغير ذلك مما يتعبه ويؤذيه ولا يسمى ذلك سرورا ألا ترى أنك تقول الصبيان يفرحون بالسباحة والرقص ولا تقول يسرون بذلك ونقيض السرور الحزن ومعلوم أن الحزن يكون بالمرازىء فينبغي أن يكون السرور بالفوائد وما يجري مجراها من الملاذ ونقيض الفرح الغم وقد يغتم الإنسان بضرر يتوهمه من غير أن يكون له حقيقة وكذلك يفرح بما لا حقيقة له كفرح الحالم بالمنى وغيره ولا يجوز أن يحزن ويسر بما لا حقيقة له

صويفة الفرح والسرور في العربية تنبىء عما قلناه فيهما وهو أن الفرح فعل مصدر فعل فعلا وفعل المطاوعة والانفعال فكانه شيء يحدث في الفرح فعل مصدر فعل فعلا وفعل

المطاوعة والانفعال فكأنه شيء يحدث في النفس من غير سبب يوجبه والسرور اسم وضع موضع المصدر في قولك سر سرورا وهو فعل يتعدى ويقتضي فاعلا فهو مخالف للفرح من كل وجه ويقال فرح إذا جعلته كالنسبة وفارح إذا بنيته على الفعل قال الفراء الفرح الذي يفرح في وقته والفارح الذي يفرح في ما يستقبل مثل طمع وطامع

الفرق بين السرور والجذل

(96/580)

أن الجذل هو السرور الثابت مأخوذ من قولك جاذل منتصب ثابت لا يبرح مكانه وجذل كل شيء أصله ورجل جذلان ولا يقال جاذل إلا ضرورة

الفرق بين السرور والحبور

أن الحبور هو النعمة الحسنة من قولك حبرت الثوب إذا حسنته وفسر قوله تعالى (في روضة يحبرون) أي ينعمون وإنما يسمى السرور حبورا لأنه كيون مع النعمة الحسنة وقيل في المثل ما من دار ملئت حبرة إلا ستملا عبرة قالوا الحبرة ههنا السرور والعبرة الحزن وقال العجاج من شطور الرجز

(الحم لله الذي أعطى الحبر

موالي الحق إن المولى شكر)

وقال الفراء الحبور الكرامة وعندنا أن هذا على جهة الاستعارة والأصل فيه النعمة الحسنة ومنه قولهم للعالم حبر لأنه بأحسن الأخلاق والمداد لأنه يحسن الكتب

الفرق بين الهم والغم

أن الهم هو الفكر في إزالة المكروه واجتلاب المحبوب وليس هو من الغم في شيء ألا ترى أنك تقول لصاحبك أهتم بحاجتي ولا يصح أن تقول أغتم بها والغم معنى ينقبض القلب معه ويكون لوقوع ضرر قد كان أو توقع ضرر يكون أو يتوهمه وقد سمي الحزن الذي تطول مدته حتى يذيب البدن هما وشتقاقه من قولك انهم الشحم إذا ذاب وهمه أذبه

الفرق بين الحزن والكرب

أن الحزن تكاثف الغم وغلظه مأخوذة من الأرض الحزن وهو الغليظ الصلب والكرب تكاثف الغم مع ضيق الصدر ولهذا يقال لليوم الحار يوم كرب أي كرب من فيه وقد كربا لرجل وهو مكروب وقد كربه إذا غمه وضيق صدره

الفرق بين الحزن والكآبة

أن الكآبة أثر الحزن البادي على الوجه ومن ثم يقال علته كآبة ولا يقال علاه حزن أو كرب لأن الحزن لا يرى ولكن دلالته على الوجه وتلك الدلالات تسمى كآبة والشاهد قول النابغة من الطويل

إذا حل بالأرض البرية أصبحت

كئيبة وجه غبها غير طائل

فجعل الكآبة في الوجه

(97/580)

الفرق بين الغم والحسرة والأسف

أن الحسرة غم يتجدد لفوت فائدة فليس كل غم حسرة والأسف حسرة معها غضب أو غيظ والآ الغضبان المتلهف على الشيء ثم كثر ذلك حتى جاء في معنى الغضب وحده في قوله تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم) أي أغضبونا واستعمال الغضب في صفات الله تعالى مجاز وحقيقته إيجاب العقاب للمغضوب عليه

الفرق بين الحزن والبث

أن قولنا الحزن يفيد غلظ اللهم وقولنا البث يفيد أنه ينبث ولا ينكتم من قولك أبثثته ما عند وبثثته إذا أعلمته إياه وأصل الكلمة كثرة التفريق ومنه قوله تعالى (كالفراش المبثوث) وقالى تعالى (إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) فعطف البث على الحزن لما بينهما من الفرق في المعنى وهو ما ذكرناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 276 . 283 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾

هم الذين سَلَّم عليهم في آزاله وهم في كتم العَدَمِ ، وفي متناول علمه ومتعلق قدرته ، ولم يكونوا أعياناً في العَدَم ولا أفادوا ، فلمَّا أظهرهم في الوجود سَلَّم عليهم بذلك السلام ، ويُسْمِعُهم في الآخرة ذلك السلام . والذين سَلَّم عليهم هم الذين سَلِمُوا اليومَ من الشكوك والشُّبَهِ ، ومن فنون البِدَعِ ، ومن وجوه الألم ، ثم من فنون الزَّلَلِ وصنوفِ الخَلَلِ ، ثم من الغيبة والحجبة وما ينافي دوام القربة .

ويقال اصطفاهم ، ثم هداهم ، ثم آواهم ، وسَلَّم عليهم قبل أَنْ خَلَقَهم وأبداهم ، وبعد أن سَلَّم عليهم بودّه لقَّاهم .

ويقال : اصطفاهم بنورِ اليقين وحُلَّةِ الوَصْلِ وكمالِ العَيْش .

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَآ ﴾ .

فثمراتُ الظاهرِ غذاءُ النفوس ، وثمراتُ الباطِن والأسرار ضياءُ القلوبِ ، وكما لا تبقى في وقت الربيع من وحشة الشتاءِ بقيةٌ فلا يبقى في قلوبهم وأوقاتهم من الغيبةِ والحجبةِ والنفرة والتهمةِ شَظِيَّة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ .

نفوسُ العابدين قرارُ طاعتهم ، وقلوبُ العارفين قرار معرفتهم ، وأرواح الواجدين قرار محبتهم ، وأسرار الموحّدين قراب مشاهدتهم ، في أسرارهم أنوار الوصله وعيون القربة ، وبها يسكن ظمأُ اشتياقهم وهيجانُ قَلَقِهم واحتراقِهم .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ من الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

ويقال ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ اليقين والتوكل .

(99/580)

ويقال الرواسي في الأرض الأبدالُ والأولياء والأوتاد ؛ بهم يديم إمساكَ الأرض ، وببركاتهم يَدْفَعُ عن أهلها البلاء .

ويقال الرواسي هم الأئمة الذين يَهْدُون المسترشدين إلى الله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ﴾ بين القلب والنفس لئلا يغلب أحدُهما صاحبَه . ويقال بين العبودية وأحكامها ، والحقيقة وأحكامها ، فلو غَلَبَتْ العبوديةُ كان جَحْداً للحقيقة ، ولو غلبت الحقيقةُ العبوديةَ كانت طَيّاً للشريعة .

ويقال : أَلْسِنَةُ المريدين مَقَرُّ ذكره ، وأسماعُهم مَحلُّ الإدراك الموصِّل إلى الفهم ، والعيون مقر الاعتبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 43 . 44 ﴾

(100/580)

قوله تعالى ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64) قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما دلهم بآيات الآفاق ، وكانت كلها من أحوال السراء ، وكانت بمعرض الغفلة عن الإله ، ذكرهم بما في أنفسهم مما يوجبه تغير الأحوال الدالة بمجردها على الإله ، ويقتضي لكل عاقل صدق التوجه إليه ، وإخلاص النية لديه ، والإقبال عليه ، على ذلك ركزت الطباع ، وانعقد الإجماع ، فلم يقع فيه نزاع ، فقال : ﴿ أمن يجيب المضطر ﴾ أي جنس الملجأ إلى ما لا قبل له به ، الصادق على القليل والكثير إذا أراد إجابته كما تشاهدون ، وعبر فيه وفيما بعده بالمضارع لأنه مما يتجدد ، بخلاف ما مضى من خلق السماوات وما بعده ﴿ إذا دعاه ﴾ أي حين ينسيكم الضر شركاءكم ، ويلجئكم إلى من خلقكم ويذهل المعطل عن مذهبه ويغفله عن سوء أدبه عظيمُ إقباله على قضاء أربه .

ولما كانت الإجابة ذات شقين ، جلب السرور ، ودفع الشرور ، وكان النظر إلى الثاني أشد ، خصه بادئاً به فقال : ﴿ ويكشف السوء ﴾ ثم أتبعه الأول على وجه أعم ، فقال مشيراً إلى عظيم المنة عليهم بجعلهم مسلطين عالين على جميع من في الأرض وما في الأرض مشرفين بخلافته سبحانه ، ولذلك أقبل عليهم ، ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي فيما يخلف بعضكم بعضاً ، لا يزال يجدد ذلك بإهلاك قرن وإنشاء آخر إلى قيام الساعة .

ولما كان هذا أبين ، كرر الإنكار فيه مبكتاً لهم بالنسيان فقال : ﴿ أإله ﴾ أي كائن أو موجود ﴿ مع الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له .

ثم استأنف التبكيت تفظيعاً له ومواجهاً به في قراءة الجماعة لما يؤذن به كشف هذه الأزمات من القرب المقتضي للخطاب ، ولذلك أكد بزيادة " ما " فقال : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ أي بأن من أنجاكم من ذلك وحده حين أخلصتم له التوجه عند اشتداد الأمر هو المالك لجميع أموركم في الرخاء كما كان مالكاً له في الشدة ، وأن الأصنام لا تملك شيئاً بشفاعة ولا غيرها كما لم تملك شيئاً في اعتقادكم عند الأزمات ، واشتداد الكربات ، في الأمور المهمات ، فإن هذا قياس ظاهر ، ودليل باهر ، ولكن من طبع الإنسان نسيان ما كان فيه من الضير ، عند مجيء الخير ، ومن قرأ بالتحتانية وهم أبو عمرو وهشام وروح ، فللإيذان بالغضب الأليق بالكفران ، مع عظيم الإحسان .

ولما ذكر آيات الأرض ، وختم بالمضطر ، وكان المضطر قد لا يهتدي لوجه حيلة ، أتبعها آيات السماء ذاكراً ما هو من أعظم صور الاضطرار فقال : ﴿ أمَّن يهديكم ﴾ أي إذا سافرتم بما رسم لكم من المعالم العلوية والسفلية ﴿ في ظلمات البر ﴾ أي بالنجوم والجبال والرياح ، وهي وإن كانت أضعفها فقد يضطر إليه حيث لا يبدو شيء من ذينك ﴿ والبحر ﴾ بالنجوم والرياح .

ولما كانت الرياح كما كانت من أدلة السير ، كان بعضها من أدلة المطر ، قال : ﴿ ومن يرسل الرياح ﴾ أي التي هي من دلائل السير ﴿ نشراً ﴾ أي تنشر السحاب وتجمعها ﴿ بين يدي

رحمته ﴾ أي التي هي المطر تسمية للمسبب باسم السبب ؛ والرياح التي يهتدي بها في المقاصد أربع : الصبا ، والدبور ، والشمال ، والجنوب ، وهي أضعف الدلائل ؛ قال الإمام أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري في كتاب أسماء الأشياء وصفاتها : الرياح أربع : الشمال ، وهي التي تجيء عن يمينك إذا استقبلت قبلة العراق - يعني : وذلك ما بين مطالع الشمس الصيفية وبنات نعش ، وهي في الصيف حارة ، واسمها البارح ، والجنوب تقابلها ، والصبا من مطلع الشمس وهي القبول ، والدبور تقابلها ، ويقال الجنوب : النعامى والأرنب - انتهى .

(102/580)

وهذه العبارة أبين العبارات في تعيين هذه الرياح ، وقال الإمام أبو العباس أحمد بن أبي أحمد بن القاص الطبري الشافعي في كتابه أدلة القبلة : إن قبلة العراقيين إلى باب الكعبة كله إلى الركن الشامي الذي عند الحجر ، وقال : وقد اختلف أهل العلم بهذا الشأن - أي في التعبير عن مواطن الرياح - اختلافاً متبايناً ، وأقرب ذلك - على ما جربته وتعاهدته بمكة - أن الصبا تهب ما بين مطالع الشمس في الشتاء إلى مطلع سهيل ، وسهيل يمان مسقطه في رأي العين على ظهر الكعبة إذا ارتفع ، وقال صاحب القاموس : والصبا ريح مهبها من

مطلع الثريا إلى بنات نعش ، وقال : والقبول كصبور : ريح الصبا ، لأنها تقابل الدبور ، أو لأنها تقابل باب الكعبة ، أو لأن النفس تقلبها .

وقال الإمام أبو عبد الله القزاز : الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس ، والقبول : الريح التي تهب من مطلع الشمس ، وذلك لأنها تستقبل الدبور ، وقيل : لأنها تستقبل باب الكعبة وهي الصبا ، فقد اتفقت أقولهم كما ترى على خلاف ابن القاص ، وقال ابن القاص : وهي - أي الصبا - ريح معها روح وخفة ، ونسيم تهب مما بين مشرق الشتاء ومطلع سهيل ، ولها برد يقرص أشد من هبوبها ، وتلقح الأشجار ، ولا تهب إلا بليل ، سلطانها إذا أظلم الليل ، إلى أن يسفر النهار وتطلع الشمس ، وأشد ما يكون في وقت الأسحار وما بين الفجرين ، والجنوب تهب ما بين مطلع سهيل إلى مغارب الشمس في الصيف .

وقال في القاموس : والجنوب : ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، وعن ابن هشام اللخمي أن الجنوب هي الريح القبلية .

(103/580)

وفي الجمع بين العباب والمحكم : والجنوب ريح تخالف الشمال تأتي عن يمين القبلة ، وقيل : هي من الرياح ما استقبلك عن شمالك إذا وقفت في القبلة ، قال ابن الأعرابي : ومهب

الجنوب من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، وقال الأصمعي : إذا جاءت الجنوب جاء معها خير وتلقيح ، وإذا جاءت الشمال نشفت ، ويقال للمتصافيين : ريحهما جنوب ، وإذا تفرقا قيل : شملت ريحهما ، وعن ابن الأعرابي : الجنوب في كل موضع حارة إلا بنجد فإنها باردة ؛ وقال ابن القاص : وإذا هبت فقوتها في العلو والهواء أكثر لأنها موكلة بالسحاب ، وتحرك الأغصان ورؤوس الأشجار ، ومع ذلك فتراها تؤلف الغيم في السماء ، فتراه متراكماً مشحوناً ، قال : وسمعت من يقول : ما اشتد هبوبها إلا خيف المطر ، ولا هبت جنوب قط ثم يتبعها دبور إلا وقع مطر ، وهي تهيج البحر وتظهر بكل ندى كامل في الأرض ، وهي من ريح الجنة .

والدبور – قال في القاموس : ريح تقابل الصبا ، وقال القزاز : هي التي تأتي من دبر الكعبة وهي التي تقابل مطلع الشمس ، وقال ابن القاص : تهب ما بين مغارب الشمس في الصيف إلى مطلع بنات نعش ، وقوتها في الأرض أشد من قوتها في الهواء ، وهي إذا هبت تثير الغبار .

وتكسح الأرض .

وترفع الذيول ، وتضرب الأقدام ، وأشد ما تثير الغبار إذا تنكبت ، تراها كأنها تعلب بالتراب على وجه الأرض ، وترى الأشجار في البوادي والرمال لها دوي من ناحية الدبور ، وقد اجتمع في أصلها التراب وما يلي الجنوب عارياً مكشوفاً متحفزاً وقوتها في الأرض –

والله أعلم ، لأن عاداً أوعدت بالتدمير بالرياح ، فحفرت الآبار واستكنت فيها ، فبعث الله الدبور فدخلت الآبار وقذفتهم متدمرين حتى أهلكتهم .

والشمال – قال في القاموس : الريح التي تهب من قبل الحجر ، والصحيح أنه ما مهبه ما بين مطله الشمس وبنات نعش ، أو من مطلع النعش إلى مسقط النسر الطائر ، ولا تكاد تهب ليلاً .

(104/580)

وقال القزاز : هي الريح التي تأتي عن شمالك إذا استقبلت مطلع الشمس ، والعرب تقول : إن الجنوب قالت للشمال : إن لي عليك فضلاً ، أنا أسري وأنت لا تسرين ، فقالت الشمال : إن الحرة لا تسرين ، وقال الصغاني في مجمع البحرين : والشمال : الريح التي تهب من ناحية القطب ، وعن أبي حنيفة : هي التي تهب من جهة القطب الشمالي وهي الجربياء وهي الشامية لأنها تأتيهم من شق الشام ، وفي الجمع بين العباب والمحكم ، والبوارح : شدة الرياح من الشمال في الصيف دون الشتاء كأنه جمع بارحة ، وقيل : البوارح : الرياح الشدائد التي تحمل التراب ، واحدتها بارح ، والجربياء : الريح التي بين الجنوب والصبا ، وقيل : هي النكباء التي تجري بين الشمال والدبور ، وهي ريح تقشع السحاب ، وقيل هي الشمال ،

وجربياؤها بردها – قاله الأصمعي ، وقال الليث : هي الشمال الباردة ، وقال ابن القاص : والشمال تهب ما بين مطلع بنات نعش إلى مطلع الشمس في الشتاء ، وهي تقطع الغيم وتمحوها ، ولذلك سميت الشمال المحوة ، قال : وهذا بأرض الحجاز ، وأما أرض العراق والمشرق فربما ساق الجنوب غيماً واستداره ولم يحلبه حتى تهب الشمال فتحلبه ، والجنوب والشمال متماثلتان ، لأنهما موكلتان بالسحاب ، فالجنوب تطردها وهي مشحونة ، والشمال تردها وتمحوها إذا أفرغت ، قال أبو عبيدة : الشمال عند العرب للروح ، والجنوب للأمطار والندى ، والدبور للبلاء ، وأهونه أن يكون غباراً عاصفاً يقذي العيون ، والصبا لإلقاح الشجر ، وكل ريح من هذه الرياح انحرفت فوقعت بين ريحين فهي نكباء ، وسميت لعدولها عن مهب الأربع اللواتي وصفن قبل – انتهى .

(105/580)

وقال المسعودي في مروج الذهب في ذكر البوادي من الناس وسبب اختيار البدو : إن شخصاً من خطباء العرب وفد على كسرى فسأله عن أشياء منها الرياح فقال : ما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر جنوب ، وما بإزائهما مما يستقبلهما من المغرب شمال ، وما جاء من وراء الكعبة فهي دبور ، وما جاء من قبل ذلك فهي صبا ، ونقل ابن كثير في سورة

النور عن ابن أبي حاتم وابن جرير عن عبيد بن عمير الليثي أنه قال : يبعث الله المثيرة فتقم الأرض قماً ، ثم يبعث الله الناشئة فتنشىء السحاب ، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب .

ولما انكشف بما مضى من الآيات .

ما كانوا في ظلامه من واهي الشبهات ، واتضحت الأدلة ، ولم تبق لأحد في شيء من ذلك علة .

كرر سبحانه الإنكار في قوله : ﴿ أإله مع الله ﴾ أي الذي كمل علمه فشملت قدرته .

ولما ذكر حالة الاضطرار ، وأتبعها من صورها ما منه ظلمة البحر ، وكانوا في البحر يخلصون له سبحانه ويتركون شركاءهم ، نبههم على أن ذلك موجب لاعتقاد كون الإخلاص له واجباً دائماً ، فأتبعه قوله على سبيل الاستعظام ، معرضاً عنهم بإجماع العشرة إعراض من بلغ به الغضب : ﴿ تعالى الله ﴾ أي الفاعل القادر المختار الذي لا كفوء له ﴿ عما يشركون ﴾ ، أي فإن شيئاً منها لا يقدر على شيء من ذلك ، وأين رتبة العجز من رتبة القدرة .

ولما رتب سبحانه هذه الأدلة على هذا الوجه ترقياً من أعم إلى أخص ، ومن أرض إلى سماء ، ختمها بما يعمها وغيرها ، إرشاداً إلى قياس ما غاب منها على ما شوهد ، فلزم من ذلك قطعاً القدرة على الإعادة ، فساقها لذلك سياق المشاهد المسلم ، وعد من أنكره في

عداد من لا يلتفت إليه فقال : ﴿ أمن يبدأ الخلق ﴾ أي كله : ما علمتم منه وما لم تعلموا ، ثم بيده لأن كل شيء هالك إلا وجهه ، له هذا الوصف باعترافكم يتجدد أبداً تعلقه .

(106/580)

ولما كان من اللازم البين لهم الإقرار بالإعادة لاعترافهم بأن كل من أبدى شيئاً قادر على إعادته ، لأن الإعادة أهون ، قال : ﴿ ثم يعيده ﴾ أي بعد ما يبيده .

ولما كان الإمطار والإنبات من أدل ما يكون على الإعادة ، قال مشيراً إليهما على وجه عم جميع ما مضى : ﴿ ومن يرزقكم من السماء ﴾ أي بالمطر والحر والبرد وغيرهما مما له سبب في التكوين أو التلوين ﴿ والأرض ﴾ أي بالنبات والمعادن والحيوان وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله ، وعر عنهما بالرزق لأن به تمام النعمة ﴿ أإله مع الله ﴾ أي الذي له صفات الجلال والإكرام ، كائن ، أو يفعل شيئاً من ذلك .

ولما كانت هذه كلها براهين ساطعة ، ودلائل قاطعة ، وأنواراً لامعة ، وحججاً باهرة ، وبينات ظاهرة ، وسلاطين قاهرة ، على التوحيد المستلزم للقدرة على البعث وغيره من كل ممكن ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ إعراضاً عنهم ، إيذاناً بالغضب في آخرها بأمرهم بالإتيان ببرهان واحد على صحة معتقدهم فقال : ﴿ قل ﴾ أي هؤلاء المدعين للعقول

﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي على نفي شيء من ذلك عن الله تعالى ، أو على إثبات شيء منه لغيره ، لتثبت دعوى الشركة في الخلق فتسمع دعوى الشركة في الألوهية ، وليكن إتيانكم بذلك ناجزاً من غير مهلة ، لأن من يدعي العقل لا يقدر على شيء إلا ببرهان حاضر ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في أنكم على حق في أن مع الله غيره .

وأضاف البرهان إليهم إضافة ما كأنه عنيد ، لا كلام في وجوده وتحققه ، وإنما المراد الإتيان به كل ذلك تهكماً بهم وتنبيهاً على أنهم أبعدوا في الضلال ، وأعرقوا في المحال ، حيث رضوا لأنفسهم بتدين لا يصير إليه عاقل إلا بعد تحقق القطع بصحته ، ولا شبهة في أنه لا شبهة لهم على شيء منه .

(107/580)

ولما كانت مضمونات هذه البراهين متوقفة على علم الغيب ، لأنه لا يخرج الخبء باختراع الخلق وكشف الضر وإحكام التدبير إلا به ، لأنه لا قدرة أصلاً لمن لا علم له ولا تمام لقدرة من لا تمام لعلمه - كما مضى بيانه في طه ، وطالبهم سبحانه آخر هذه البراهين بالبرهان على الشرك ، وكانوا ربما قالوا : سنأتي به ، أمر أن يعلموا أنه لا برهان لهم عليه ، بل البرهان قائم على خلافه ، فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهم أو لكل من يدعي دعواهم : ﴿ لا يعلم ﴾ أحد

، ولكنه عبر بأداة العقلاء فقال : ﴿ من ﴾ لئلا يخصها متعنت بما لا يعقل ، عبر بالظرف تنبيهاً على أن المظروف محجوب ، وكل ظرف حاجب لمظروفه عن علم ما وراءه ، فقال : ﴿ في السماوات والأرض الغيب ﴾ أي الكامل في الغيبة ، وهو الذي لم يخرج إلى عالم الشهادة أصلاً ، ولا دلت عليه أمارة ، ليقدر على شيء مما تقدم في هذه الآيات من الأمور فيعلمه .

ولما كان الله تعالى منزهاً عن أن يحويه مكان .

جعل الاستثناء هنا منقطعاً ، ومن حق المنقطع النصب كما قرأ به ابن أبي عبلة شاذاً ، لكنه رفع بإجماع العشرة بدلاً على لغة بني تميم ، فقيل : ﴿ إلا الله ﴾ أي المختص بصفات الكمال كما قيل في الشعر :

وبلدة ليس بها أنيس . . .

إلا اليعافير وإلا العيس

(108/580)

بمعنى : إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس ، بتاً للقول بخلوها من الأنيس ، فيكون معنى الآية : إن كان الله جل وعلا ممن في السماوات والأرض ففيهم من يعلم الغيب ، يعني إن علم

أحدهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم ، ويصح كونه متصلاً ، والظرفية في حقه سبحانه مجاز بالنسبة إلى علمه وإن كان فيه جمع بين الحقيقة والمجاز ، وعلى هذا فيرتفع على البدل أو الصفة ، والرفع أفصح من النصب ، لأنه من منفي ، وقد عرف بهذا سر كونه لم يقل " لا يعلم أحد الغيب إلا هو " وهو التنبيه على المظروفية والحاجة ، وأن الظرف حجاب ، لا يرتاب فيه مرتاب ، وجعل ابن مالك متعلق الظرف خاصاً تقديره : يذكر ، وجعل غيره " من " مفعولاً والغيب بدل اشتمال ، والاستثناء مفرغاً ، فالتقدير : لا يعلم غيب المذكورين – أي ما غاب عنهم – كلهم غيره .

ولما كان الخبر – الذي لم يطلع عليه أحد من الناس – قد يخبر به الكهان ، أو أحد من الجان ، من أجواف الأوثان ، وكانوا يسمون هذا غيباً وإن كان في الحقيقة ليس به لسماعهم له من السماء بعد ما أبرزه الله إلى عالم الشهادة للملائكة ومن يريد من عباده ، وكانوا ربما تعنتوا به عن العبارة ، وكانت الساعة قد ثبت أمرها ، وشاع في القرآن وعلى لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأصحابهم رضي الله تعالى عنهم ذكرها ، بحيث صارت بمنزلة ما لا نزاع فيه ، وكان علم وقتها من الغيب المحض ، قال : ﴿ وما يشعرون ﴾ أي أحد ممن في السماوات والأرض وإن اجتمعوا وتعاونوا ﴿ أيان ﴾ أي أيّ وقت ﴿ يبعثون ﴾ فمن أعلم بشيء من ذلك على الحقيقة بأن صدقه ، ومن تخرص ظهر كذبه .

ولما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بعث والكفر قد عم الأرض ، وكانوا قد أكثروا في التكذيب بالساعة والقطع بالإنكار لها بعضهم صريحاً ، وبعضهم لزوماً ، لضلاله عن منهاج الرسل وكان الذي ينبغي للعالم الحكيم أن لا يقطع بالشيء إلا بعد إحاطة علمه به ، قال متهكماً بهم كما تقول لأجهل الناس : ما أعلمك ! استهزاء به مستدركاً لنفي شعورهم بها بياناً لكذبهم باضطراب قولهم : ﴿ بل ادّارك ﴾ أي بلغ وتناهي ﴿ علمهم في الآخرة ﴾ أي أمرها مطلقاً : علم وقتها ومقدار عظمتها في هولها وغير ذلك من نعتها لقطعهم بإنكارها وتمالؤهم عليه ، وتنويع العبارات فيه ، وتفريع القول في أمره – هذا في قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، وكذا في قراءة الباقين : ادّارك بمعنى تدارك يعني تتابع واستحكم .

ولما كانوا مع تصريحهم بالقطع في إنكارها كاذبين في قطعهم ، مرتبكين في جهلهم ، وقد يعبرون – دليلاً على أنه لا علم من ذلك عندهم – بالشك ، قال تعالى : ﴿ بل هم في شك ﴾ ولما كانت لشدة ظهورها لقوة أدلتها كأنها موجودة ، عبر بمن ، أي مبتدىء ﴿ منها ﴾ ولما كانوا يجزمون بنفيها تارة ويترددون أخرى ، كانت حقيقة حال من ينكر الشيء تارة على سبيل القطع وأخرى وجه الشك الوصف بالجهل البالغ به قال : ﴿ بل هم ﴾ ولما كان الإنسان مطبوعاً على نقائص موجبة لطغيانه ، ومبالغته في العلو في جميع شأنه ، ولا يوهن تلك النقائص منه إلا الخوف من عرضه على ديانه ، الموجب لجهله .

وتماديه على قبيح فعله ، فقال مقدماً للجار : ﴿ منها عمون ﴾ أي ابتدأ عماهم البالغ الثابت من اضطرابهم في أمرها ، فضلوا فأعماهم ضلالهم عن جميع ما ينفعهم ، فصاروا لا ينتفعون بعقولهم ، بل انعكس نفعها ضراً ، وخيرها شراً ، ونسب ما ذكر لجميع من في السماوات والأرض ، لأن فعل البعض قد يسند إلى الكل لغرض ، وهو هنا التنبيه على عظمة هذا الأمر ، وتناهي وصفه ، وأنه يجب على الكل الاعتناء به ، والوقوف على حقه ، والتناهي عن باطله ، أو لشك البعض وسكوت الباقي لقصد تهويله ، أو أن إدراك العلم من حيث التهويل بقيام الأدلة التي هي أوضح من الشمس ، فهم بها في قوة من أدرك علمه بالشيء ، وهو معرض عنه ، فقد فوّت على نفسه من الخير ما لا يدري كنهه ، ثم نزل درجة أخرى بالشك ثم أهلكها بالكلية ، وأنزلها العمى عن رتبة البهائم التي لا همّ لها إلا لذة البطن والفرج ، وهذا كمن يسمع باختلاف المذاهب وتضليل بعضهم لبعض فيضلل بعضهم من غير نظر في قوله فيصير خابطاً خبط عشواء ، ويكون أمره على خصمه هيناً أو الشك لأجل أن أعمالهم أعمال الشاك ، أو أنهم لعدم علم الوقت بعينة كأنهم في شك بل عمى ، ولأن العقول والعلوم لا تستقل بإدراك شيء من أمرها ، وإنما يؤخذ ذلك عن الله بواسطة

رسله من الملك والبشر .

ومن أخذ شيئاً من علمها عن غيرهم ضل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 446.439 ﴾

(111/580)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

النوع الثالث ما يتعلق باحتياج الخلق إليه سبحانه

اعلم أنه سبحانه نبه في هذه الآية على أمرين : أحدهما : قوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : الضرورة الحالة المحوجة إلى الالتجاء والاضطرار افتعال منها : يقال اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر ، واعلم أن المضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى ، وعن السدي : الذي لا حول له ولا قوة ، وقيل المذنب إذا استغفر ، فإن قيل قد عم المضطرين بقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ وكم من مضطر يدعو فلا يجاب ؟ جوابه : قد بينا في

أصول الفقه أن المفرد المعرف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهية فقط ، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية ، وأيضاً فإنه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال وتمام القول في شرائط الدعاء والإجابة مذكور في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] فأما قوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ فهو كالتفسير للاستجابة ، فإنه لا يقدر أحد على كشف ما دفع إليه من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة وضيق إلى سعة إلا القادر الذي لا يعجز والقاهر الذي لا ينازع وثانيهما : قوله : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأرض ﴾ فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط ، وقرىء ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ بالياء مع الإدغام وبالتاء مع الإدغام وبالحذف وما مزيدة أي يذكرون تذكرا قليلاً ، والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

النوع الرابع ما يتعلق أيضاً باحتياج الخلق ولكنه حاجة خاصة في وقت خاص

اعلم أنه تعالى نبه في هذه الآية على أمرين : الأول : قوله : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ والمراد يهديكم بالنجوم في السماء والعلامات في الأرض إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر الثاني : قوله : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياح ﴾ فإنه سبحانه هو الذي يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه إلى حيث يشاء ، فإن قيل لا نسلم أنه تعالى هو الذي يحرك الرياح ، فإن الفلاسفة قالت الرياح إنما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الأسود المرتفع مما احترق بالنار ، بل كل جسم أرضي يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان قالوا وتولد الرياح من الأدخنة على وجهين أحدهما أكثري ، والآخر أقلي ، أما الأكثري فهو أنه إذا صعدت أدخنة كثيرة إلى فوق فعند وصولها إلى الطبقة الباردة إما أن ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء أو لا ينكسر فإن انكسر فلا محالة يثقل وينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح ، وإن لم ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء فلا بد وأن يتصاعد إلى أن يصل إلى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لا يتمكن من الصعود بسبب حركة النار فترجع تلك الأدخنة وتصير ريحاً ، لا يقال لو كان اندفاع هذه الأدخنة بسبب حركة الهواء العالي لما كانت حركتها إلى أسفل بل إلى جهة حركة الهواء العالي لأنا نقول الجواب من وجهين : أحدهما : أنه ربما أوجبت هيئة صعود تلك الأدخنة وهيئة لحوق المادة بها أن يتحرك إلى خلاف جهة المتحرك المانع ، كالسهم يصيب جسماً متحركاً فيعطفه تارة إلى جهته إن كان الحابس كما يقدر على صرف المتحرك عن متوجهه

يقدر أيضاً على صرفه إلى جهة حركة نفسه وتارة إلى خلاف تلك الجهة إذا كان المفارق يقدر على الحبس ولا يقدر على الصرف الثاني : أنه ربما كان صعود بعض الأدخنة من تحت مانعاً للأدخنة النازلة من فوق إلى أن يتسفل ذلك فلأجل هذا السبب يتحرك إلى سائر الجوانب ، واعلم أن لأهل الإسلام ههنا مقامين : الأول

(113/580)

: أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين : الأول : أن الأجزاء الدخانية أرضية فهي أثقل من الأجزاء البخارية المائية ، ثم إن البخار لما يبرد ينزل على الخط المستقيم مطراً فالدخان لما برد فلماذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة ؟ الثاني : أن حركة تلك الأجزاء إلى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية ، وإذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة ، ثم إن الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الأشجار ورمي الجدار بل الجبال ، فتلك الأجزاء الدخانية عندما تحركت حركتها الطبيعية التي لها وهي الحركة إلى السفل وجب أن تهدم السقف ، ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلاً عن أن يهدمه فثبت فساد ما ذكروه المقام الثاني : هب أن الأمر كما ذكروه ولكن الأسباب

الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى ، فإنه لولا الشمس وتأثيرها في تصعيد الأبخرة والأدخنة ولولا طبقات الهواء ، وإلا لما حدثت هذه الأمور ، ومعلوم أن من وضع أسباباً فأدته إلى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذي فعل تلك المنافع ، فعلى جميع الأحوال لا بد من شهادة هذه الأمور على مدبر حكيم واجب لذاته ، قطعاً لسلسلة الحاجات .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

النوع الخامس ما يتعلق بالحشر والنشر

(114/580)

اعلم أنه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعيدُهُ ﴾ لأن نعم الآخرة بالثواب لا تتم إلا بالإعادة بعد الابتداء والإبلاغ إلى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم ، ومعلوم أنها لا تتم إلا بالأرزاق فلذلك قال : ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مّنَ السماء والأرض ﴾ ، ثم قال : ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ منكراً لما هم عليه ، ثم بين بقوله : ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أن لا برهان لكم فإذن هم مبطلون ، وهذا يدل على أنه لا بد في الدعوى من وعلى فساد التقليد ، فإن قيل كيف قيل لهم : ﴿ أَم

مَّنْ يبدؤ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وهم منكرون للإعادة ؟ جوابه : كانوا معترفين بالابتداء ، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية ، فلما كان الكلام مقروناً بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر في الإنكار ، وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

(115/580)

اعلم أنه تعالى لما بين أنه المختص بالقدرة فكذلك بين أنه هو المختص بعلم الغيب ، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه هو الإله المعبود ، لأن الإله هو الذي يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب ، فإن قيل الاستثناء حكمه إخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية ههنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عمن في السموات والأرض فوجب كونه ممن في السموات والأرض وذلك يوجب كونه تعالى في المكان والجواب : هذه الآية متروكة الظاهر لأن من قال إنه تعالى في المكان زعم أنه فوق السموات ، ومن قال إنه ليس في مكان فقد نزهه عن كل الأمكنة ، فثبت بالإجماع أنه تعالى ليس في السموات والأرض فإذن وجب تأويله فنقول إنه تعالى ممن في السموات والأرض كما يقول

المتكلمون : الله تعالى في كل مكان على معنى أن علمه في الأماكن كلها ، لا يقال إن كونه في السموات والأرض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وإرادة المتكلم بعبارة واحدة ومجازاً غير جائزة ، لأنا نقول كونهم في السموات والأرض ، كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم في الأحياز فكذلك حاصل مجازاً ، وهو كونهم عالمين بتلك الأمكنة فإذا حملنا هذه الغيبة على المعنى المجازي وهو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء .

أما قوله : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ فهو صفة لأهل السموات والأرض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر في جملة الغيب متى البعث بقوله : ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ فأيان بمعنى متى وهي كلمة مركبة من أي والآن وهو الوقت وقرىء ﴿ إِيَّانَ ﴾ بكسر الهمزة .

أما قوله : ﴿ بَلِ ادرك عِلْمُهُمْ فِى الأخرة ﴾ فاعلم أن كلام صاحب "الكشاف" فيه مرتب على ثلاثة أبحاث :

(116/580)

البحث الأول : فيه اثنتا عشرة قراءة بل أدرك بل أدرك بل ادارك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله

بل أدرك على الاستفهام بلى أدرك بلى أأدرك أم تدارك أو أدرك .

البحث الثانث : ادارك أصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وادَّرك افتعل .

البحث الثالث : معنى ادَّرك علمهم انتهى وتكامل وأدرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه :

أحدها : أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها وهم شاكون جاهلون ، وذلك قوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّنْهَا بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾ يريد المشركين ممن في السماوات والأرض لأنهم لما كانوا من جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع كما يقال بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم .

(117/580)

فإن قيل الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وإن العباد لا علم لهم بشيء منه وإن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به ، فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة ؟

والجواب : كأنه سبحانه قال كيف يعلمون الغيب مع أنهم شكوا في ثبوت الآخرة التي دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشيء الظاهر كيف يعلم الغيب الذي هو أخفى الأشياء الوجه الثاني : أن وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس

ما أعلمك على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا في إثبات ما الطريق إليه واضح ظاهر

الوجه الثالث : أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التي عندها تعدم وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك ، أما وجه قراءة من قرأ بل أأدرك على الاستفهام فهو أنه استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم تدارك لأنها أم هي التي بمعنى بل والهمزة وأما من قرأ بلى أدرك فإنه لما جاء ببلى بعد قوله : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم ، فكأنه قال شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها فيرجع إلى نفي الشعور على أبلغ ما يكون ، وأما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها وإذ أنكر علمهم بكونها وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها .

(118/580)

فإن قلت هذه الإضرابات الثلاث ما معناها ؟ قلت ما هي إلا بيان درجاتهم وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون في شك

ومرية ، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وفيه نكتة وهي أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن لأن الفكر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 179.183 ﴾

(119/580)

وقال الماوردى :

قوله ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

وإنما خص إجابة المضطر لأمرين

: أحدهما : لأن رغبته أقوى وسؤاله أخضع .

الثاني : لأن إجابته أعم وأعظم لأنها تتضمن كشف بلوى وإسداء نعمى .

﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : أن يكون عن المضطر بإجابته .

الثاني : عمن تولاه ألاَّ ينزل به .

وفي ﴿ السُّوءَ ﴾ وجهان :

أحدهما : الضر .

الثاني : الجور ، قاله الكلبي .

﴿ وَيَجْعَلَكُمْ خُلَفَآءَ الأَرْضِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدهما : خلفاً من بعد خلف ، قاله قتادة .

الثاني : أولادكم خلفاء منكم ، حكاه النقاش .

الثالث : خلفاء من الكفار ينزلون أرضهم وطاعة الله بعد كفرهم ، قاله الكلبي .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي ما أقل تذكركم لنعم الله عليكم !

قوله ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يرشدكم من مسالك البر والبحر .

الثاني : يخلصكم من أهوال البر والبحر ، قاله السدي .

وفي ﴿ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ وجهان :

أحدهما : أن البر الأرض والبحر الماء .

الثاني : أن البر بادية الأعراب والبحر الأمصار والقرى ، قاله الضحاك .

﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : مبشرة ، قاله ابن عباس وتأويل من قرأ بالباء .

الثاني : منشرة ، قاله السدي وهو تأويل من قرأ بالنون .

الثالث : ملقحات ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ وهو المطر في قول الجميع

. ﴿ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عما أشرك المشركون به من الأوثان .

قوله : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾

وفي صفة علمهم بهذه الصفة قولان

: أحدهما : أنها صفة ذم فعلى هذا في معناه أربعة أوجه :

أحدها : غاب عليهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : لم يدرك علمهم ، قاله ابن محيصن .

الثالث : اضمحل علمهم ، قاله الحسن .

(120/580)

الرابع : ضل علمهم وهو معنى قول قتادة . فهذا تأويل من زعم أنها صفة ذم .

والقول الثاني : أنها صفة حمد لعلمهم وإن كانوا مذمومين فعلى هذا في معناه ثلاثة أوجه :

أحدها : أدرك علمُهم ، قاله مجاهد .

الثاني : اجتمع علمهم ، قاله السدي .

الثالث : تلاحق علمهم ، قاله ابن شجرة .

﴿ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ يعني من الآخرة فمن جعل ما تقدم صفة ذمٍ لعلمهم جعل نقصان علمهم في الدنيا فلذلك أفضى بهم إلى الشك في الآخرة ، ومن جعل ذلك صفة حمد لعلمهم جعل كمال علمهم في الآخرة فلم يمنع ذلك أن يكونوا في الدنيا على شك في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(121/580)

وقال ابن عطية :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

وقفهم في هذه الآية على المعاني التي تبين لكل عاقل أنه لا مدخل لصنم ولا لوثن فيها وهي عبر ونعم ، فالحجة قائمة بها من الوجهين ، وقوله تعالى : ﴿ يجيب المضطر ﴾ معناه بشرط إن شاء على المعتقد في الإجابة ، لكن ﴿ المضطر ﴾ لا يجيبه متى أجيب إلا الله عز وجل ، و ﴿ السوء ﴾ عام في كل ضر يكشفه الله تعالى عن عباده ، وقرأ الحسن " ويجعلكم " بياء على صيغة المستقبل ورويت عنه بنون ، وكل قرن خليف للذي قبله . وقرأ جمهور القراء " تذكرون " بالتاء على المخاطبة ، وقرأ أبو عمرو وحده والحسن

والأعمش بالياء على الغيب ، و" الظلمات " عام لظلمة الليل التي هي الحقيقة في اللغة ولظلمة الجهل والضلال والخوف التي هي مجازات وتشبيهات وهذا كقول الشاعر :

(122/580)

" تجلت عمايات الرجال عن الصبا " . . . وكما تقول أظلم الأمر وأنار ، وقد تقدم اختلاف القراء في قوله ﴿ نشراً ﴾ ، وقرأ الحسن وغيره ، " يشركون " بالياء على الغيبة ، وقرأ الجمهور " تشركون " على المخاطبة ، و" بدء الخلق " اختراعه وإيجاده ، و﴿ الخلق ﴾ هنا المخلوق من جميع الأشياء لكن المقصود بنو آدم من حيث ذكر الإعادة ، و" الإعادة " البعث من القبور ويحتمل أن يريد ب ﴿ الخلق ﴾ مصدر خلق يخلق ويكون في ﴿ يبدأ ﴾ ﴿ ويعيد ﴾ استعارة للإتقان والإحسان كما تقول فلان يبدي ويعيد في أمر كذا وكذا إذا كان يتقنه ، والرزق ﴿ من السماء ﴾ بالمطر ومن ﴿ الأرض ﴾ بالنبات ، هذا مشهور ما يحسه البشر ، وكم لله من لطف خفي ، ثم أمر عز وجل نبيه أن يوقفهم على أن ﴿ الغيب ﴾ مما انفرد الله بعلمه ولذلك سمي غيباً لغيبه عن المخلوقين ، ويروى أن هذه الآية من قولهم ﴿ قل لا يعلم ﴾ ، إنما نزلت لأن الكفار سألوا وألحوا عن وقت القيامة التي يعدهم محمد فنزلت هذه الآية فيها التسليم لله تعالى وترك التحديد ، فأعلم عز وجل أنه لا

يعلم وقت الساعة سواه فجاء بلفظ يعم الساعة وغيرها ، وأخبر عن البشر أنهم لا يشعرون ﴿ أيان يبعثون ﴾ وبهذه الآية احتجت عائشة رضي الله عنها على قولها ومن زعم أن محمداً يعلم الغيب فقد أعظم الفرية ، والمكتوبة في قوله تعالى : ﴿ إلا الله ﴾ بدل من ﴿ من ﴾ ، وقرأ جمهور الناس " أيان " بفتح الهمزة ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي " إيان " بكسرها وهما لغتان ، وقرأ جمهور القراء " بل ادارك " أصله تدارك أدغمت التاء في الدال بعد أن أبدلت ثم احتيج إلى ألف الوصل ، وقرأ أبي بن كعب فيما روي عنه " تدارك " ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " بل ادرك " على وزن افتعل وهي بمعنى تفاعل ، وقرأ سليمان بن يسار وعطاء بن يسار " بلَ ادّرك " بفتح اللام ولا همزة تشديد الدال دون ألف ، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر وأهل مكة ، " بل أدرك " ، وقرأ مجاهد " أم أدرك " بدل

(123/580)

بل " ، وفي مصحف أبي بن كعب " أم تدارك علمهم " ، وقرأ ابن عباس " بل أدرك " وقرأ ابن عباس أيضاً " بل آدارك " بهمزة ومدة على جهة الإستفهام ، وقرأ ابن محيصن " بل آدرك " على الاستفهام ونسبها أبو عمرو الداني إلى ابن عباس والحسن .

فأما قراءة الاستفهام فهي على معنى الهزء بالكفر والتقرير لهم على ما هو في غاية البعد

عنهم أي أعلموا أمر الآخرة وأدركها علمهم ؟ وأما القراءات المتقدمة فتحتمل معنيين أحدهما " بل أدرك علمهم " أي تناهى كما تقول أدرك النبات وغيره وكما تقول هذا ما أدرك علمي من كذا وكذا فمعناه قد تتابع وتناهى علمهم بالآخرة إلى أن لا يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا ، وإنما لهم ظنون كاذبة أو إلى أن لا يعرفوا لها وقتاً وكذلك " ادرك وتدارك " وسواها وإن جملت هذه القراءة معنى التوقيف والإستفهام ساغ وجاء إنكاراً لأن أدركوا شيئاً نافعاً ، والمعنى الثاني " بل أدرك " بمعنى يدرك أي إنهم في الآخرة يدرك علمهم وقت القيامة ، ويرون العذاب والحقائق التي كذبوا بها وأما في الدنيا فلا . وهذا هو تأويل ابن عباس ونحى إليه الزجاج ، فقوله ﴿ في الآخرة ﴾ على هذا التأويل ظرف ، وعلى التأويل الأول ﴿ في ﴾ بمعنى الباء ، و" العلم " قد يتعدى بحرف الجر تقول علمي يزيد كذا ومنه قول الشاعر : [الطويل]

وعلمي بإسدام المياه . . . . . البيت .

ثم وصفهم عز وجل بأنهم ﴿ في شك منها ﴾ ثم أردف بصفة هي أبلغ من الشك وهي العمى بالجملة عن أمر الآخرة ، و ﴿ عمون ﴾ أصله عميون كحذرون وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ يجيب المُضْطَرَّ ﴾

وهو : المكروب المجهود ؛ ﴿ ويَكْشِفُ السُّوء ﴾ يعني الضُّرَّ ﴿ ويجعلُكم خُلَفَاءَ الأرض ﴾ أي : يُهلك قرناً وينشىء آخرين ، و ﴿ تَذَكَّرون ﴾ بمعنى تتَّعظون .

وقرأها أبو عمرو بالياء ، والباقون بالتاء .

﴿ أَمَّنْ يَهديكم ﴾ أي : يُرشدكم إلى مقاصدكم إذا سافرتم ﴿ في ظُلُمات البرِّ والبحر ﴾ وقد بيَّنَّاها في [الأنعام : 63 ، 97] وشرحنا ما يليها من الكلمات فيما مضى [الأعراف : 57 ، ويونس : 4] إلى قوله : ﴿ وما يَشْعُرونَ ﴾ يعني مَنْ في السموات والأرض ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : متى يُبْعَثون بعد موتهم .

قوله تعالى : ﴿ بل أَدْرَكَ عِلْمُهم في الآخرة ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ بل أَدْرَكَ ﴾ قال مجاهد : "بل" بمعنى "أم" والمعنى : لم يُدْرِكْ عِلْمُهم ، وقال الفراء : المعنى : هل أَدرك عِلْمُهم عِلْم الآخرة ؟ فعلى هذا يكون المعنى : إنهم لا يقفون في الدنيا على حقيقة العِلْم بالآخرة .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ بل ادّارَكَ ﴾ على معنى : بل تدارك ، أي : تتابع وتلاحق ، فأُدغمت التاء في الدال ، ثم في معناها قولان .

أحدهما : بل تكامل عِلْمهم يوم القيامة لأنهم مبعوثون ، قاله الزجاج .

وقال ابن عباس : ما جهلوه في الدُّنيا ، عَلِموه في الآخرة .

والثاني : بل تدارك ظَنُّهم وحَدْسهم في الحكم على الآخرة ، فتارة يقولون : إنها كائنة ، وتارة يقولون : لا تكون ، قاله ابن قتيبة .

وروى أبو بكر عن عاصم : ﴿ بل ادّرَكَ ﴾ على وزن افتعل من أدركت .

قوله تعالى : ﴿ بل هم في شَكّ منها ﴾ أي : بل هم اليوم في شك من القيامة ﴿ بل هم منها عَمُونَ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : من عِلْمِها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(125/580)

وقال القرطبى :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود .

وقال السديّ : الذي لا حول له ولا قوّة .

وقال ذون النون : هو الذي قطع العلائق عما دون الله .

وقال أبو جعفر وأبو عثمان النيسابوري : هو المفلس .

وقال سهل بن عبد الله : هو الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها .

وجاء رجل إلى مالك بن دينار فقال : أنا أسألك بالله أن تدعو لي فأنا مضطر ؛ قال : إذاً فاسأله فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

قال الشاعر :

وإِنّي لأدعُو الله والأمرُ ضَيِّقٌ . . .
عليّ فما ينفَكُّ أن يَتفرّجَا
ورُبَّ أخٍ سُدَّتْ عليه وُجوهُهُ . . .
أصاب لَها لَما دعا اللَّهَ مَخْرَجَا

الثانية : وفي مسند أبي داود الطيالسي عن أبي بكرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعاء المضطر : " اللهم رحمتك أرجو فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفة عين وأصلح لي شأني كلَّه لا إله إلا أنت " .

الثالثة : ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ؛ والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص ، وقطع القلب عما سواه ؛ وللإخلاص

عنده سبحانه موقع وذمّة ، وجد من مؤمن أو كافر ، طائع أو فاجر ؛ كما قال تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [يونس : 22] وقوله : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم ، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم .

(126/580)

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [العنكبوت : 65] فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه .

وفي الحديث : " ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن دعوة المظلوم ودعوة المسافر ودعوة الوالد على ولده " ذكره صاحب الشهاب ؛ وهو حديث صحيح .

وفي "صحيح مسلم" عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاذ لما وجهه إلى أرض اليمن : " واتَّق دعوةَ المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب " وفي كتاب الشهاب : " اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام فيقول الله تبارك وتعالى وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد

حين " وهو صحيح أيضاً .

وخرج الآجريّ من حديث أبي ذرٍّ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " فَإني لا أردها ولو كانت من فم كافر " فيجيب المظلوم لموضع إخلاصه بضرورته بمقتضى كرمه ، وإجابة لإخلاصه وإن كان كافراً ، وكذلك إن كان فاجراً في دينه ؛ ففجور الفاجر وكفر الكافر لا يعود منه نقص ولا وهن على مملكة سيده ، فلا يمنعه ما قضى للمضطر من إجابته .

وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه من قهر له ، أو اقتصاص منه ، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره كما قال عز وجل : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً ﴾ [الأنعام : 129] وأكد سرعة إجابتها بقوله : "تُحمل على الغمام" ومعناه والله أعلم أن الله عز وجل يوكِّل ملائكته بتلقي دعوة المظلوم وبحملها على الغمام ، فيعرجوا بها إلى السماء ، والسماء قبلة الدعاء ليراها الملائكة كلهم ، فيظهر منه معاونة المظلوم ، وشفاعة منهم له في إجابة دعوته ، رحمة له .

وفي هذا تحذير من الظلم جملة ، لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره ؛ حيث قال على لسان نبيه في "صحيح مسلم" وغيره : " يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا " الحديث .

(127/580)

فالمظلوم مضطر ، ويقرب منه المسافر ؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن ، منفرد عن الصديق والحميم ، لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا معين لغربته ، فتصدق ضرورته إلى المولى ، فيخلص إليه في اللجاء ، وهو المجيب للمضطر إذا دعاه ، وكذلك دعوة الوالد على ولده ، لا تصدر منه مع ما يعلم من حنَّته عليه وشفقته ، إلا عند تكامل عجزه عنه ، وصدق ضرورته ؛ وإياسه عن بِرِّ ولده ، مع وجود أذيته ، فيسرع الحق إلى إجابته .

قوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السواء ﴾ أي الضر .

وقال الكلبي : الجور .

﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرض ﴾ أي سكانها يهلك قوماً وينشىء آخرين .

وفي كتاب النقاش : أي ويجعل أولادكم خلفاً منكم .

وقال الكلبي : خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم ، وطاعة الله بعد كفرهم .

﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ على جهة التوبيخ ؛ كأنه قال أمع الله ويلكم إله ؛ ف ﴿ إله ﴾ مرفوع ب ﴿ مع ﴾ .

ويجوز أن يكون مرفوعاً بإضمار أإله مع الله يفعل ذلك فتعبدوه .

والوقف على ﴿ مَعَ اللَّهِ ﴾ حسن .

﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب : ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ بالياء على الخبر

، كقوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ و ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فأخبر فيما قبلها وبعدها ؛ واختاره أبو حاتم .

الباقون بالتاء خطاباً لقوله : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرض ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ أي يرشدكم الطريق ﴿ فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار .

وقيل : وجعل مفاوز البر التي لا أعلام لها ، ولجج البحار كأنها ظلمات ؛ لأنه ليس لها علم يهتدى به .

﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي قدام المطر باتفاق أهل التأويل .

﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ يفعل ذلك ويعينه عليه ﴿ تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من دونه .

(128/580)

قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كانوا يقرّون أنه الخالق الرازق فألزمهم الإعادة ؛ أي إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة ، وهو أهون عليه .

﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ يخلق ويرزق ويبدىء ويعيد : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي حجتكم أن لي شريكاً ، أو حجتكم في أنه صنع أحد شيئاً من هذه الأشياء غير الله ﴿ إِن كُنتُمْ

صَادِقِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ .

وعن بعضهم : أخفى غيبه على الخلق ، ولم يَطَّلع عليه أحد لئلا يأمن أحد من عبيده مكره .

وقيل : نزلت في المشركين حين سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة .

و ﴿ مَنْ ﴾ في موضع رفع ؛ والمعنى : قل لا يعلم أحد الغيب إلا الله ؛ فإنه بدل من ﴿ مَن ﴾ قاله الزجاج .

الفراء : وإنما رفع ما بعد ﴿ إلا ﴾ لأن ما قبلها جحد ، كقوله : ما ذهب أحد إلا أبوك ؛ والمعنى واحد .

قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ؛ يعني في الكلام .

قال النحاس : وسمعته يحتج بهذه الآية على من صدّق منجِّماً ؛ وقال : أخاف أن يكفر بهذه الآية .

قلت : وقد مضى هذا في "الأنعام" مستوفى .

وقالت عائشة : من زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ؛ والله تعالى يقول : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ خرجه مسلم .

وروي أنه دخل على الحجاج منجِّم فاعتقله الحجاج، ثم أخذ حصيات فعدّهن، ثم قال: كم في يدي من حصاة؟ فحسب المنجم ثم قال: كذا؛ فأصاب.

(129/580)

ثم اعتقله فأخذ حصيات لم يعدهن فقال: كم في يدي؟ فحسب فأخطأ ثم حسب فأخطأ؛ ثم قال: أيها الأمير أظنك لا تعرف عددها؛ قال: لا.

قال: فإني لا أصيب.

قال: فما الفرق؟ قال: إن ذلك أحصيته فخرج عن حدّ الغيب، وهذا لم تحصه فهو غيب و ﴿ لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ وقد مضى هذا في "آل عمران" والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ هذه قراءة أكثر الناس منهم عاصم وشيبة ونافع ويحيى بن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي.

وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحميد: ﴿ بَلْ أَدْرَكَ ﴾ من الإدراك.

وقرأ عطاء بن يسار وأخوه سليمان بن يسار والأعمش: ﴿ بَلِ ادَّرَكَ ﴾ غير مهموز مشدّداً.

وقرأ ابن محيصن : ﴿ بَلْ أَأَدَّرَكَ ﴾ على الاستفهام .

وقرأ ابن عباس : ﴿ بَلَى ﴾ بإثبات الياء ﴿ أَدَّارَكَ ﴾ بهمزة قطع والدال مشدّدة وألف بعدها ؛ قال النحاس : وإسناده إسناد صحيح ، هو من حديث شُعبة يرفعه إلى ابن عباس .

وزعم هارون القارىء أن قراءة أبيّ ﴿ بَلْ تَدَارَكَ عِلْمُهُمْ ﴾ .

وحكى الثعلبي أنها في حرف أبيّ " أم تدارك " .

والعرب تضع بَلْ موضع (أم) و (أم) موضع بل إذا كان في أول الكلام استفهان ؛ كقول الشاعر :

فوالله لا أدري أسلمى تقولت . . .

أم القول أم كل إلى حبيب

القراءة الأولى والأخيرة معناهما واحد ؛ لأن أصل "ادارك" تدارك ؛ أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل ؛ وفي معناه قولان : أحدهما أن المعنى بل تكامل علمهم في الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وُعِدوا به معاينة فتكامل علمهم به .

والقول الآخر أن المعنى : بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة ؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون .

القراءة الثانية فيها قولان : أحدهما : أن معناه كمل في الآخرة ؛ وهو مثل الأوّل ؛ قال مجاهد

: معناه يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم ؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذِّبين .

(130/580)

والقول الآخر : أنه على معنى الإنكار ؛ وهو مذهب أبي إسحاق ؛ واستدلّ على صحة هذا القول بأن بعده ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أي لم يدرك علمهم علم الآخرة .

وقيل : بل ضلّ وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم .

والقراءة الثالثة : ﴿ بَلِ ادَّرَكَ ﴾ فهي بمعنى ﴿ بَلِ ادَّارَكَ ﴾ وقد يجيء افتعل وتفاعل بمعنى ؛ ولذلك صُحِّح ازدوجوا حين كان بمعنى تزاوجوا .

القراءة الرابعة : ليس فيها إلا قول واحد يكون فيه معنى الإنكار ؛ كما تقول : أأنا قاتلتك ؟! فيكون المعنى لم يدرك ؛ وعليه ترجع قراءة ابن عباس ؛ قال ابن عباس : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ أي لم يدرك .

قال الفرّاء : وهو قول حسن كأنه وجهه إلى الاستهزاء بالمكذبين بالبعث ، كقولك لرجل تكذبه : بَلَى لعمري قد أدركت السَّلَفَ فأنت تَروي ما لا أروي ! وأنت تكذبه .

وقراءة سابعة : ﴿ بَلَ ادَّرَكَ ﴾ بفتح اللام ؛ عدل إلى الفتحة لخفتها .

وقد حكي نحو ذلك عن قطرب في ﴿ قُمَ اللَّيْلَ ﴾ فإنه عدل إلى الفتح .

وكذلك و (بعَ الثوبَ) ونحوه .

وذكر الزمخشري في الكتاب : وقرىء ﴿ بَلْ أَأَدّرَكَ ﴾ بهمزتين ﴿ بَلْ آأَدّرَكَ ﴾ بألف بينهما ﴿ بَلَى أَأَدّرَكَ ﴾ ﴿ أَمْ تَدَارَكَ ﴾ ﴿ أَمْ أَدّرَكَ ﴾ فهذه ثنتا عشرة قراءة ، ثم أخذ يعلل وجوه القراءات وقال : فإن قلت فما وجه قراءة ﴿ بَلْ أَأَدّرَكَ ﴾ على الاستفهام ؟ قلت : هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ : "أَمْ أَدّرَكَ" و"أَمْ تَدَارَكَ" لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة ، وأما من قرأ : ﴿ بَلَى أَأَدّرَكَ ﴾ على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها ، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور وقت كونها ؛ لأن العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن .

﴿ فِي الآخِرَةِ ﴾ في شأن الآخرة ومعناها .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أي في الدنيا .

(131/580)

﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أي بقلوبهم واحد هم عمو .

وقيل : عَمٍ ؛ وأصله عميون حذفت الياء لالتقاء الساكنين ولم يجز تحريكها لثقل الحركة فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(132/580)

وقال أبو حيان :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطرِ إِذَا دَعَاهُ ﴾

والمضطر : اسم مفعول ، وهو الذي أحوجه مرض أو فقر أو حادث من حوادث الدهر إلى الالتجاء إلى الله والتضرع إليه ، فيدعوه لكشف ما اعتراه من ذلك وإزالته عنه .

وقال ابن عباس : هو المجهود .

وقال السدّي : هو الذي لا حول ولا قوة له .

وقيل : هو المذنب إذا استغفر ، وإجابته إياه مقرونة بمشيئته تعالى ، فليس كل مضطر دعا يجيبه الله في كشف ما به .

وقال الزمخشري : الإجابة موقوفة على أن يكون المدعو به مصلحة ، ولهذا لا يحسن الدعاء إلا شارطاً فيه المصلحة .

انتهى ، وهو على طريق الاعتزال في مراعاة المصلحة من الله تعالى .

﴿ ويكشف ﴾ : هو كل ما يسوء ، وهو عام في كل ضر انتقل من حالة المضطر ، وهو خاص إليّ أعم ، وهو ما يسوء ، سواء كان المكشوف عنه في حالة الاضطرار أو فيما دونها .

وخلفاء : أي الأمم السالفة ، أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو خلفاء النبي (صلى الله عليه وسلم) من بعده ، أو خلفاء الكفار في أرضهم ، أو الملك والتسلط ، أقوال .

وقرأ الحسن في رواية : ونجعلكم بنون المتكلم ، كأنه استئناف إخبار ووعد ، كما قال تعالى : ﴿ ليستخلفنهم في الأرض ﴾ .

وقوله : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ : انتقال من حالة المضطر إلى رتبة مغايرة لحالة الاضطرار ، وهي حالة الخلافة ، فهما ظرفان .

وكم رأينا في الدنيا ممن بلغ حالة الاضطرار ثم صار ملكاً متسلطاً .

وقرأ الجمهور : تذكرون ، بتاء الخطاب ؛ والحسن ، والأعمش ، وأبو عمرو : بياء الغيبة ، والذال في القراءتين مشددة لإدغام التاء فيها .

وقرأ أبو حيوة : تتذكرون ، بتاءين .

وظلمة البر هي ظلمة الليل ، وهي الحقيقة ، وتنطلق مجازاً على الجهل وعلى انبهام الأمر

فيقال : أظلم عليّ الأمر .

وقال الشاعر :

تجلت عمايات الرجال عن الصبا . . .

أي جهالات الصبا وهداية البر تكون بالعلامات ، وهداية البحر بالنجوم .

(133/580)

﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ : تقدم تفسير نظير هذه الجملة .

وقرىء : عما تشركون ، بتاء الخطاب .

﴿ أمن يبدأ الخلق ﴾ : الظاهر أن الخلق هو المخلوق ، وبدؤه : اختراعه وإنشاؤه .

ويظهر أن المقصود هو من يعيده الله في الآخرة من الإنس والجن والملك ، لا عموم المخلوق .

وقال ابن عطية : والمقصود بنو آدم من حيث ذكر الإعادة ، والإعادة البعث من القبور ،

ويحتمل أن يريد بالخلق مصدر خلق ، ويكون يبدأ ويعيد استعارة للإتقان والإحسان ، كما

تقول : فلان يبدىء ويعيد في أمر كذا إذا كان يتقنه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف قال لهم أمن يبدأ الخلق ثم يعيده وهم منكرون

الإعادة ؟ قلت : قد أنعم عليهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر في

الإنكار . انتهى .

ولما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً ، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال : ﴿ ومن يرزقكم من السماء ﴾ بالمطر ، ﴿ والأرض ﴾ بالنبات ؟ ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ : أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تدعون من إنكار شيء مما تقدم تقريره ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أن مع الله إلهاً آخر .

فأين دليلكم عليه ؟ وهذا راجع إلى ما تقدم من جميع الاستفهام الذي جيء به على سبيل التقرير ، وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه .

لما ذكر إيجاد العالم العلوي والسفلي ، وما امتن به من إنزال المطر وإنبات الحدائق ، اقتضى ذلك أن لا يعبد إلا موجد العالم والممتن بما به قوام الحياة ، فختم بقوله : ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ ، أي عن عبادته ، أو يعدلون به غيره مما هو مخلوق مخترع .

ولما ذكر جعل الأرض مستقراً ، وتفجير الأنهار ، وإرساء الجبال ، وكان ذلك تنبيهاً على تعقل ذلك والفكر فيه ، ختم بقوله : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ، إذ كان فيهم من يعلم ويفكر في ذلك .

(134/580)

ولما ذكر إجابة دعاء المضطر ، وكشف السوء ، واستخلافهم في الأرض ، ناسب أن يستحضر الإنسان دائماً هذه المنة ، فختم بقوله : ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ ، إشارة إلى توالي النسيان إذا صار في خير وزال اضطراره وكشف السوء عنه ، كما قال : ﴿ نسي ما كان يدعوا إليه من قبل ﴾ ولما ذكر الهداية في الظلمات ، وإرسال الرياح نشراً ، ومعبوداتهم لا تهدي ولا ترسل ، وهم يشركون بها الله ، قال تعالى : ﴿ عما يشركون ﴾ .

واعتقب كل واحدة من هذه الجمل قوله : ﴿ أإله مع الله ﴾ ، على سبيل التوكيد والتقرير أنه لا إله إلا هو تعالى .

قيل : سأل الكفار عن وقت القيامة التي وعدهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وألحوا عليه ، فنزل : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض ﴾ ، الآية .

والمتبادر إلى الذهن أن من فاعل بيعلم ، والغيب مفعول ، وإلا الله استثناء منقطع لعدم اندراجه في مدلول لفظ من ، وجاء مرفوعاً على لغة تميم ، ودلت الآية على أنه تعالى هو المنفرد بعلم الغيب .

وعن عائشة ، رضي الله عنها : من زعم أن محمداً يعلم ما في غد ، فقد أعظم الفرية على الله ، والله تعالى يقول : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض إلا الله ﴾ ، ولا يقال : إنه مندرج في مدلول من ، فيكون في السموات إشارة إلى ظرفاً حقيقياً للمخلوقين فيهما ،

ومجازياً بالنسبة إليه تعالى ، أي هو فيها بعلمه ، لأن في ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز ، وأكثر العلماء ينكر ذلك ، وإنكاره هو الصحيح .

ومن أجاز ذلك فيصح عنده أن يكون استثناء متصلاً ، وارتفع على البدل أو الصفة ، والرفع أفصح من النصب على الاستثناء ، لأنه استثناء من نفي متقدم ، والظاهر عموم الغيب .

وقيل : المراد غيب الساعة .

(135/580)

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي ؟ يعني في كونه استثناء منقطعاً ، إذ ليس مندرجاً تحت من ، ولم أختر الرفع على لغة تميم ، ولم نختر النصب على لغة الحجاز ، قال : قلت : دعت إلى ذلك نكتة سرية ، حيث أخرج المستثنى مخرج قوله : إلا اليعافير ، بعد قوله : ليس بها أنيس ، ليؤول المعنى إلى قولك : إن كان الله ممن في السموات والأرض ، فهم يعلمون الغيب ، يعني أن علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم .

كما أن معنى : ما في البيت إن كانت اليعافير أنيساً ، ففيها أنيس بناء للقول بخلوها عن

الأنيس . انتهى .

وكان الزمخشري قد قدم قوله : فإن قلت : لم أرفع اسم الله ، والله سبحانه أن يكون ممن في السموات والأرض ؟ قلت : جاء على لغة بني تميم ، حيث يقولون : ما في الدار أحد إلا حمار ، كان أحداً لم يذكر ، ومنه قوله :

عشية ما تغني الرماح مكانها . . .

ولا النبل إلا المشرفي المصمم

وقوله : ما أتاني زيد إلا عمرو ، وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه . انتهى .

وملخصه أنه يقول : لو نصب لكان مندرجاً تحت المستثنى منه ، وإذا رفع كان بدلاً ، والمبدل منه في نية الطرح ، فصار العامل كأنه مفرغ له ، لأن البدل على نية تكرار العامل ، فكأنه قيل : قل لا يعلم الغيب إلا الله .

ولو أعرب من مفعولاً ، والغيب بدل منه ، وإلا الله هو الفاعل ، أي لا يعلم غيب من في السموات والأرض إلا الله ، أي الأشياء الغائبة التي تحدث في العالم ، وهم لا يعلمون بحدوثها ، أي لا يسبق علمهم بذلك ، لكان وجهاً حسناً ، وكان الله تعالى هو المخصوص بسابق علمه فيما يحدث في العالم .

وأيان : تقدم الكلام فيها في أواخر الأعراف ، وهي هنا اسم استفهام بمعنى متى ، وهي

معمولة ليبعثون ويشعرون معلق ، والجملة التي فيها استفهام في موضع نصب به .

وقرأ السلمي : إيان ، بكسر الهمزة ، وهي لغة قبيلته بني سليم .

(136/580)

ولما نفى علم الغيب عنهم على العموم ، نفى عنهم هذا الغيب المخصوص ، وهو وقت الساعة والبعث ، فصار منتفياً مرتين ، إذ هو مندرج في عموم الغيب ومنصوص عليه بخصوصه .

وقرأ الجمهور : ﴿ بل ادّارك ﴾ ، أصله تدارك ، فأدغمت التاء في الدال فسكنت ، فاجتلبت همزة الوصل .

وقرأ أبي : أم تدارك ، على الأصل ، وجعل أم بدل .

وقرأ سليمان بن يسار أخوه : بل ادّرك ، بنقل حركة الهمزة إلى اللام ، وشدّ الدال بناء على أن وزنه افتعل ، فأدغم الدال ، وهي فاء الكلمة في التاء بعد قلبها دالاً ، فصار قلب الثاني للأول لقولهم : اثرد ، وأصله اثترد من الثرد ، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام ، أدخلت على ألف الوصل فانحذفت ألف الوصل ، ثم انحذفت هي وألقيت حركتها على لام بل .

وقرأ أبو رجاء والأعرج، وشيبة، وطلحة، وتوبة العنبري: كذلك، إلا أنهم كسروا لام بل ؛ وروي ذلك عن ابن عباس، وعاصم، والأعمش.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأهل مكة: بل أدرك، على وزن أفعل، بمعنى تفاعل، ورويت عن أبي بكر، عن عاصم.

وقرأ عبد الله في رواية، وابن عباس في رواية، وابن أبي جمرة، وغيره عنه، والحسن، وقتادة، وابن محيصن: بل آدرك، بمدة بعد همزة الاستفهام، وأصله أأدرك، فقلب الثانية ألفاً تخفيفاً، كراهة الجمع بين همزتين، وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه الرواية ووجهها.

وقال أبو حاتم: لا يجوز الاستفهام بعد بل، لأن بل إيجاب، والاستفهام في هذا الموضع إنكار بمعنى: لم يكن كقوله تعالى: ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي لم يشهدوا، فلا يصح وقوعهما معاً للتنافي الذي بين الإيجاب والإنكار. انتهى.

وقد أجاز بعض المتأخرين الاستفهام بعد بل، وشبهه بقول القائل: أخبزاً الكت بل أماء شربت؟ على ترك الكلام الأول والأخذ في الثاني.

وقرأ مجاهد: أم أدرك، جعل أم بدل بل، وأدرك على وزن أفعل.

(137/580)

وقرأ ابن عباس أيضاً : بل إدّارك ، بهمزة داخلة على ادارك ، فيسقط همزة الوصل المجتلبة ، لأجل الإدغام والنطق بالساكن .

وقرأ ابن مسعود أيضاً : بل أأدرك ، بهمزتين ، همزة الاستفهام وهمزة أفعل .

وقرأ الحسن أيضاً ، والأعرج : بل أدرك ، بهمزة وإدغام فاء الكلمة ، وهي الدال في تاء افتعل ، بعد صيرورة التاء دالاً .

وقرأ ورش في رواية : بل ادّرك ، بحذف همزة أدرك ونقل حركتها إلى اللام .

وقرأ ابن عباس أيضاً : بلى ادرك ، بحرف الإيجاب الذي يوجب به المستفهم المنفي .

وقرىء : بل آأدرك ، بألف بين الهمزتين .

فأما قراءة من قرأ بالاستفهام ، فقال ابن عباس : هو للتقريع بمعنى لم يدرك علمهم على الإنكار عليهم .

وقال الزمخشري : هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم ، وكذلك قراءة من قرأ : أم ادّرك ، وأم تدارك ، لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة . انتهى .

وقال ابن عطية : هو على معنى الهزء بالكفرة والتقرير لهم على ما هو في غاية البعد عنهم ، أي اعلموا أمر الآخرة وادّركها علمهم .

وأما قراءة من قرأ على الخبر ، فقال ابن عباس : المعنى : بل تدارك علمهم ما جهلوه في الدنيا ، أي علموه في الآخرة ، بمعنى : تكامل علمهم في الآخرة بأن كل ما وعدوا به حق ،

وهذا حقيقة إثبات العلم لهم ، لمشاهدتهم عياناً في الآخرة ما وعدوا به غيباً في الدنيا ، وكونه بمعنى المضي ، ومعناه الاستقبال ، لأن الإخبار به صدق ، فكأنه قد وقع .

وقال ابن عطية : يحتمل معنيين : أحدهما : أنه تناهي علمهم ، كما تقول : أدرك النبات وغيره ، أي تناهى وتتابع علمهم بالآخرة إلى أن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا ، وإنما لهم ظنون كاذبة ؛ أو إلى أن لا يعرفوا لها وقتاً ، وتكون في بمعنى الباء متعلقة بعلمهم ، وقد تعدّى العلم بالباء ، كما تقول : علمي بزيد كذا ، ويسوغ حمل هذه القراءة على معنى التوقيف والاستفهام ، وجاء إنكاراً لأنهم لم يدركوا شيئاً نافعاً .

(138/580)

والثاني : أن أدرك : بمعنى يدرك ، أي علمهم في الآخرة يدرك وقت القيامة ، ويرون العذاب والحقائق التي كذبوا بها ، وأما في الدنيا فلا .

وهذا تأويل ابن عباس ، ونحا إليه الزجاج ، وفي على بابها من الظرفية متعلقة بتدارك .

انتهى ، وفيه بعض تلخيص وزيادة .

وقال الزمخشري : هو على وجهين : أحدهما : أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون ، وذلك

قوله : ﴿ بل هم في شك منها بل هم منه عمون ﴾ ، يريد المشركين ممن في السموات والأرض ، لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع ، كما يقال : بنو فلان فعلوا كذا ، وإنما فعله ناس منهم .

والوجه الثاني : أن وصفهم باستحكامه وتكامله تهكم بهم ، كما تقول لأجهل الناس : ما أعلمك ، على سبيل الهزء به ، وذلك حيث شكوا وعموا عن إتيانه الذي هو طريق إلى علم مشكوك ، فضلاً عن أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته .

وفي ادرك علمهم وادارك وجه آخر ، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفني ، من قولهم : أدركت الثمرة ، لأن تلك غايتها التي عندها تعدم .

وقد فسر الحسن باضمحل علمهم وتدارك ، من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك . انتهى .

وقال الكرماني : العلم هنا بمعنى الحكم والقول ، أي تتابع منهم القول والحكم في الآخرة ، وكثرة منهم الخوض فيها ، فنفاها بعضهم ، وشك فيها بعضهم ، واستبعدها بعضهم .

وقال الفراء : بل ادرك ، فيصير بمعنى الجحد ، ولذلك نظائر ؛ أي لم يعلموا حدوثها وكونها ، ودل على ذلك ﴿ بل هم في شك منها ﴾ ، فصارت في في الكلام بمعنى الباء ، أي لم يدرك علمهم بالآخرة .

قال الفراء : ويقوي هذا الوجه قراءة من قرأ : أدرك ، بالاستفهام . انتهى .

وأما قراءة من قرأ بلى بحرف الجواب بدل بل ، فقال أبو حاتم : إن كان بلى جواباً لكلام تقدم ، جاز أن يستفهم به ، كأن قوماً أنكروا ما تقدم من القدرة ، فقيل لهم : بلى إيجاباً لما نفوا ، ثم استؤنف بعده الاستفهام وعودل بقوله تعالى : ﴿ بل هم في شك منها ﴾ ، بمعنى : أم هم في شك منها ، لأن حروف العطف قد تتناوب ، وكف عن الجملتين بقوله تعالى : ﴿ بل هم منها عمون ﴾ . انتهى .

يعني أن المعنى : ادّرك علمهم بالآخرة أم شكوا ؟ فبل بمعنى أم ، عودل بها الهمزة ، وهذا ضعيف جداً ، وهو أن تكون بل بمعنى أم وتعادل همزة الاستفهام .

قال الزمخشري : فإن قلت : فمن قرأ بلى ادرك ؟ قلت : لما جاء ببلى بعد قوله : ﴿ وما يشعرون ﴾ ، كان معناه : بلى يشعرون ، ثم فسر الشعور بقوله : ادرك علمهم في الآخرة ، على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم ، فكأنه قال : شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون ، كونها ، فيرجع إلى المبالغة في نفي الشعور على أبلغ ما يكون .

وأما من قرأ : بلى أدّرك ، على الاستفهام فمعناه : يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها ، وإذا أنكر علمهم بكونها ، لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها ، لأن العلم بوقت

الكائن تابع للعلم بكون الكائن .

فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاث ما معناها ؟ قلت : ما هي إلا تنزيل لأحوالهم ، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه ، والإزالة مستطاعة ، وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه ، فلذلك عداه بمن دون عن ، لأن العاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يبصرون . انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(140/580)

وقال أبو السعود :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ المضطرِ إِذَا دَعَاهُ ﴾

وهو الذي أحوجتْه شدةٌ من الشّدائدِ وألجأته إى اللجَأِ والضَّراعةِ إلى الله عزَّ وجلَّ ، اسم مفعولٍ من الاضطرارِ الذي هو افتعالٌ من الضّرورةِ . وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما هو المجهودُ وعن السُّدّيِّ رحمه الله تعالى مَن لا حولَ له ولا قوةَ ، وقيل : المذنبُ إذا استغفرَ . واللامُ للجنسِ لا للاستغراقِ حتَّى يلزمَ إجابة كلِّ مضطرٍ . ﴿ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ وهُو الذي يعترِي الإنسانَ مما يسوؤُه ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأرض ﴾ أي خلفاءَ فيها

بأنْ ورّثكم سُكناها والتَّصرفَ فيها ممَّن قبلكم من الأممِ وقيل المرادُ بالخلافةِ الملكُ والتَّسلطُ . ﴿ أءلاه مَّعَ الله ﴾ الذي يُفيض على كافةِ الأنامِ هذه النعمَ الجسامَ ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرونَ ، وما مزيدةٌ لتأكيدِ معنى القلَّةِ التي أريدَ بها العدمُ أو ما يجري مجراه في الحقارةِ وعدمِ الجدوى . وفي تذييلِ الكلامِ بنفي التذكرِ عنهم إيذانٌ بأنَّ مضمونَهُ مركوزٌ في ذهنِ كلِّ ذكيَ وغبيَ وأنَّه من الوضوحِ بحيثُ لا يتوقفُ إلا على التوجهِ إليه وتذكره . وقُرِىء تتذكرونَ على الأصلِ وتذّكرون يذّكرونَ بالتاءِ والياءِ مع الإدغامِ .

(141/580)

﴿ أَم مَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظلمات البر والبحر ﴾ أي في ظلماتِ الليالي فيهما على أنَّ الإضافةَ للملابسةِ أو في مشتبهاتِ الطرقِ يقالُ طريقةٌ ظلماءُ وعمياءُ للتي لا منارَ بها ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ وهي المطرُ ، ولئن صحَّ أن السببَ الأكثريَّ في تكونِ الريحِ معاودةُ الأدخنةِ الصاعدةِ من الطبقةِ الباردةِ لانكسارِ حرّها وتموجِها للهواءِ فلا ريبَ في أنَّ الأسبابَ الفاعليةَ والقابليةَ لذلك كلّه من خلقِ الله عزَّ وجلَّ ، والفاعلُ للسببِ فاعلٌ للمسبَّب قطعاً ﴿ أءلاه مَّعَ الله ﴾ نفيٌ لأنْ يكونَ معه إلهٌ آخرُ . وقولُه تعالى : ﴿ تَعَالَى الله

عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تقريرٌ وتحقيقٌ له ، وإظهار الاسمِ الجليلِ في موضعِ الإضمارِ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ أي تعالَى وتنزه بذاتِه المنفردةِ بالأُلوهيةِ المستتبعةِ لجميعِ صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجمالِ والجلالِ المقتضيةِ لكونِ كلِّ المخلوقاتِ مقهُوراً تحتَ قُدرتِه عمَّا يُشركون أي عنْ وجودِ ما يُشركونَه به تعالَى لا مُطلقاً فإنَّ وجودَه مما لا مردَّ لهُ بلْ عن وجودِه بعُنوانِ كونِه إلهاً وشريكاً له تعالَى أو عن إشراكهم .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي بلْ أمن يبدأُ الخلقَ ثمَّ يُعيده بعد الموتِ بالبعثِ ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ أي بأسبابٍ سماويةٍ وأرضيةٍ قد رتبَّها على ترتيبٍ بديعٍ تقتضيهِ الحكمةُ التي عليها بُني أمرُ التكوينِ خيرٌ أمْ ما تشركونَه به في العبادةِ من جمادٍ لا يتوهم قدرتُه على شيءٍ ما أصلاً .

(142/580)

﴿ أءلاه ﴾ آخرُ موجودٌ ﴿ مَعَ الله ﴾ حتَّى يجُعلَ شريكاً له في العبادةِ وقولُه تعالَى : ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ أمرٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتبكيتِهم إثرَ تبكيتٍ أي هاتُوا بُرهاناً عقلياً أو نقلياً يدلُّ على أنَّ معه تعالى إلهاً لا على أنَّ غيرَه تعالى يقدرُ على شيءٍ ممَّا ذُكر من أفعالِه تعالى كما قيلَ فإنَّهم لا يدعونَهُ صريحاً ولا يلتزمونَ كونَه من لوازمِ الألوهيةِ وإن كان منها

في الحقيقةِ فمطالبتُهم بالبرهانِ عليه لا على صريحِ دعواهم ممَّا لا وجَه له وفي إضافةِ البرُهان إلى ضميرهم تهكمٌ بهم لما فيَها من إيهامٍ أنَّ لهم برهاناً وأنَّى لهُم ذلكَ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في تلك الدَّعوى .

(143/580)

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السموات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ بعد ما حقق تفرده تعالى بالأُلوهيةِ ببيانِ اختصاصِه بعلمِ الغيبِ تكميلاً لما قبله وتمهيداً لما بعدَه من أمرِ البعثِ . والاستثناءُ منقطعٌ ورفعُ المستثنى على اللُّغةِ التميمية للدّلالةِ على استحالةِ علمِ الغيبِ من أهلِ السَّمواتِ والأرضِ بتعليقِه بكونِه سُبحانه وتعالَى منُهم كأنَّه قيلَ : إنْ كانَ الله تعالَى ممن فيهما ففيهم مَن يعلمُ الغيبَ ، أو متصلٌ على أنَّ المرادَ بمن في السَّمواتِ والأَرضِ مَن تعلقَ علمُه بهما واطَّلع عليهما اطِّلاعَ الحاضرِ فيهما فإنَّ ذلكَ معنى مجازيٌّ عامٌّ له تعالَى ولأُولِي العلمِ من خلقِه ، ومَن موصولةٌ أو موصوفةٌ ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي مَتَى يُنشرون من القبورِ مع كونِه ممَّا لا بُدَّ لهم منْهُ ومن أهم الأُمورِ عندهم . وأيَّان مركبةٌ مِنْ أيّ وآن . وقُرِىء بكسرِ الهمزةِ . والضَّميرُ للكفرةِ وإنْ كانَ عدمُ الشُّعورِ بما ذُكر عامَّاً لئلاَّ يلزمَ

التفكيكُ بينَه وبينَ ما سيأتي من الضَّمائِرِ الخاصَّةِ بهم قطعاً . وقيلَ الكُلُّ لمن ، وإسنادُ خواصِّ الكفرةِ إلى الجميعِ من قبيلِ قولِهم بنُو فُلانٍ فعلُوا كَذَا والفاعلُ بعضٌ منُهم .

(144/580)

﴿ بَلِ ادرك عِلْمُهُمْ فِى الأخرة ﴾ لَمَّا نفَى عنهم علمَ الغيبِ وأكَّد ذلكَ بنفِي شعورِهم بوقت ما هو مصيرُهم لا محالةَ بُولغَ في تأكيدِه وتقريرِه بأنْ أضربَ عنْهُ وبيَّن أنَّهم في جهلٍ أفحشَ من جهلِهم بوقت بعثِهم حيثُ لا يعلمونَ أحوالَ الآخرةِ مُطلقاً معَ تعاضدِ أسبابِ معرفتِها على أنَّ معنى ادَّارك علمُهم في الآخرةِ تداركَ وتتابعَ علمُهم في شأنِ الآخرةِ التي ما ذُكر من البعثِ حالٌ مِن أحوالِها حتَّى انقطعَ ولم يبقَ لهم علمٌ بشيءٍ ممَّا سيكونُ فيها قطعاً لكن لا عَلى معنى أنَّه كانَ لهم علمٌ بذلكَ على الحقيقةِ ثمَّ انتفَى شيئاً فشيئاً بلْ على طريقةِ المجازِ بتنزيلِ أسبابِ العلمِ ومباديه من الدَّلائلِ العقليةِ والسَّمعيةِ منزلةَ نفسِه وإجراءِ تساقطِها عن درجةِ اعتبارِهم كلَّما لاحظُوها مُجرى تتابعِها إلى الانقطاعِ ثمَّ أضربَ وانتقلَ عن بيانِ عدمِ علمِهم بها إلى بيانِ ما هُو أسوأُ منه وهو حيرتُهم في ذلكَ حيثُ قيلَ : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّنْهَا ﴾ أي في شكَ مُريبٍ من نفسِ الآخرةِ وتحققها كَمن تحيَّر في أمرٍ لا يجدُ عليه دليلاً فضلاً عن الأمورِ التي ستقعُ فيها ثمَّ أضربَ عن ذلكَ إلى بيانِ أنَّ ما هُم فيه أشدُّ

وأفظعُ من الشكِّ حيثُ قيلَ : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ بحيثُ لا يكادونَ يُدركون دلائلَها لاختلالِ بصائرِهم بالكُليَّة .

(145/580)

وقُرِئَ بل أدّرك علمُهم بمعنى انتهى وفَنِيَ ، وقد فسَّره الحسنُ البصريُّ باضمحلَّ علمُهم ، وقيلَ : كلتَا الصِّيغتينِ على معناهُما الظاهرِ أي تكاملَ واستحكَم أو تمَّ أسبابُ علمِهم بأنها كائنةٌ لا محالةَ من آيات القيامةِ القاطعةِ والحُججِ السَّاطعةِ وتمكَّنُوا من المعرفة فضلَ تمكنٍ وهم جاهلُون في ذلكَ وقولُه تعالَى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ إضرابٌ وانتقالٌ من وصفهم بمطلقِ الجهلِ إلى وصفِهم بالشكِّ . وقولُه تعالَى : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ إضرابٌ من وصفِهم بالشكِّ إلى وصفِهم بما هُو أشدُّ منْهُ وأفظعُ من العَمَى ، وأنتَ خبيرٌ بأنَّ تنزيلَ أسبابِ العلمِ منزلةَ العلمِ سَننٌ مسلوكٌ لكنْ دلالةُ النَّظمِ الكريمِ على جهلِهم حينئذٍ ليستْ بواضحةٍ . وقيلَ : المرادُ بوصفِهم باستحكامِ العلمِ وتكاملِه التَّهكمُ بهم فيكونَ وصفاً لهُم بالجهلِ مُبالَغةً والإضرابانِ على ما ذُكر وأصلُ ادَّارك تَدَارك وبه قرأ أُبَيٌّ ، فأُبدلتِ التَّاءُ دالاً وسُكِّنتْ فتعذَّرَ الابتداءُ فاجتُلبتْ همزةُ الوصلِ فصارَ أدَّارك . وقُرِئ بلِ ادَّرك وأصلُه افتعلَ ، وبلْ أأَدَّرك بهمزتينِ ، وبلْ آأدْرَك بألفٍ بينَهما ، وبلْ دَرَك بالتَّخفيفِ والنَّقلِ ، وبَلَ

ادَّرك بفتحِ اللامِ وتشديدِ الدَّالِ ، وأصلُه بلْ أدّركَ على الاستفهامِ ، وبَلَى ادّركَ ، ، وبَلَى أَأَدْرك ، وأمْ تَدَارك ، وأمِ ادَّرك . فهذهِ ثِنْتا عشرةَ قراءةً فما فيهِ استفهامٌ صريحٌ أو مضمَّنٌ من ذلكَ فهُو إنكارٌ ونفيٌ وما فيهِ بَلَى فإثباتٌ لشعورِهم وتفسيرٌ له بالإدراكِ على وجهِ التَّهكمِ الذي هو أبلغُ وجوهِ النَّفي والإنْكارِ ، وما بعدَهُ إضرابٌ عن التَّفسيرِ مبالغةً في النَّفي ودلالةً على أنَّ شعورَهم بها أنَّهم شاكُّون فيها بلْ إنَّهم منها عَمُون أو ردٌّ وإنْكارٌ لشعورِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(146/580)

وقال الآلوسى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطرِ إذَا دَعَاهُ ﴾

وهو الذي أحوجته شدة من الشدائد وألجأته إلى اللجاء والضراعة إلى الله عز وجل ، فهو اسم مفعول من الاضطرار الذي هو افتعال من الضرورة ، ويرجع إلى هذا تفسير ابن عباس له بالمجهود ، وتفسير السدي بالذي لا حول ولا قوة له ، وقيل : المراد بذلك المذنب إذا استغفر ، واللام فيه على ما قيل : للجنس لا للاستغراق حتى يلزم إجابة كل مضطر وكم من مضطر لا يجاب .

وجوز حمله على الاستغراق لكن الإجابة مقيدة بالمشيئة كما وقع ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء ﴾ [الأنعام : 41] ومع هذا كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول الشخص : اللهم اغفر لي إن شئت ؛ وقال عليه الصلاة والسلام : " إنه سبحانه لا مكره له " ، والمعتزلة يقيدونها بالعلم بالمصلحة لإيجابهم رعاية المصالح عليه جل وعلا ، وقال "صاحب الفرائد" : ما من مضطر دعا إلا أجيب وأعيد نفع دعائه إليه إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وذلك أن الدعاء طلب شيء فإن لم يعط ذلك الشيء بعينه يعط ما هو أجل منه أو إن لم يعط هذا الوقت يعط بعده اه .

(147/580)

وظاهره حمله على الاستغراق من دون تقييد للإجابة ، ولا يخفى أنه إذا فرت الإجابة بإعطاء السائل ما سأله حسبما سأل لا بقطع سؤاله سواء كان بالإعطاء المذكور أم بغيره لم يستقم ما ذكره ، وقال العلامة الطيبي : التعريف للعهد لأن سياق الكلام في المشركين يدل عليه الخطاب بقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء ﴾ والمراد التنبيه على أنهم عند اضطرارهم في نوازل الدهر وخطوب الزمان كانوا يلجأون إلى الله تعالى دون الشركاء والأصنام ، ويدل على التنبيه قوله تعالى : ﴿ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن ﴾ قال

"صاحب المفتاح" : كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله تعالى دون أصنامهم ، فالمعنى إذا حزبكم أمر أو قارعة من قوارع الدهر إلى أن تصيروا آيسين من الحياة من يجيبكم إلى كشفها ويجعلكم بعد ذلك تتصرفون في البلاد كالخلفاء ﴿ مَّعَ اللهِ بَلْ ﴾ فلا يكون المضطر عاماً ولا الدعاء فإنه مخصوص بمثل قضية الفلك ، وقد أجيبوا إليه في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [يونس : 22] الآية اه .

وأنت تعلم أنه بعيد غاية البعد ، ولعل الأولى الحمل على الجنس والتقييد بالمشيئة وهو سبحان لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة ، والدعاء بشيء من قبيل أحد الأسباب العادية له فافهم ﴿ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ أي يرفع عن الإنسان ما يعتريه من الأمر الذي يسوؤه ، وقيل : الكشف أعم من الدفع والرفع ، وعطف هذه الجملة على ما قبلها من قبيل عطف العالم على الخاص ، وقيل : المعنى ويكشف سوءه أي المضطر ، أو ويكشف عنه السوء والعطف من قيل عطف التفسير فإن إجابة المضطر هي كشف السوء عنه الذي صار مضطراً بسببه وهو كما ترى .

﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأرض ﴾ أي خلفاء من قبلكم من الأمم في الأرض بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها بعدهم ، وقيل : المراد بالخلافة الملك والتسلط ، وقرأ الحسن . ونجعلكم .

بنون العظمة ﴿ أَئِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ الذي هذه شؤونه ونعمه تعالى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكراً قليلاً ، أو زماناً قليلاً تتذكرون فقليلا نصب على المصدرية ، أو على الظرفية لأنه صفة مصدر أو ظرف مقدر ، وما مزيدة على التقديرين لتأكيد معنى القلة التي أريد بها العدم ، أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى ، ومفعول ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ محذوف للفاصلة ، فقيل : التقدير تذكرون نعمه ، وقيل : تذكرون مضمون ما ذكر من الكلام ، وقيل : تذكرون ما مر لكم من البلاء والسرور ، ولعل الأولى نعمه المذكورة ، وللإيذان بأن المتذكر في غاية الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه كان التذييل بنفي التذكر ، وقرأ الحسن .

والأعمش .

وأبو عمرو يذكرون بياء الغيبة ، وقرأ أبو حيوة تتذكرون بتاءين .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

أي يرشدكم في ظلمات الليالي في البر والبحر وبالنجوم ونحوها من العلامات ، وإضافة الظلمات إلى البر والبحر للملابسة وكونها فيهما ، وجوز أن يراد بالظلمات الطرق المشبهات مجازاً فإنها كالظلمات في إيجاب الحيرة .

﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ قد تقدم تفسير نظير هذه الجملة ﴿ أَئِلَٰهٌ مَّعَ

الله ﴾ نفي لأن يكون معه سبحانه إله آخر ، وقوله تعالى : ﴿ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تقرير وتحقيق له ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار للاشعار بعلة الحكم أي تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالألوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال ، المقتضية لكون جميع المخلوقات مقهورة تحت قدرته ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن وجود ما يشركونه به سبحانه بعنوان كونه إلهاً وشريكاً له تعالى ، أو تعالى الله عن شركة أو مقارنة ما يشركونه به سبحانه ، ويجوز أن تكون ما مصدرية أي تعالى الله عن إشراكهم ، وقرىء ﴿ عَمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ بتاء الخطاب .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾

(149/580)

أي يوجده مبتدئاً له ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يكرر إيجاده ويرجعه كما كان ، وذلك بعد إهلاكه ضرورة أن الإعادة لا تعقل إلا بعده ، والظاهر أن المراد بهذا ما يكون من الإعادة بالبعث بعد الموت ، فأل في الخلق ليست للاستغراق لأن منه ما لا يعاد بالاجماع ، ومنه ما في إعادته خلاف بين المسلمين ، وتفصيله في محله .

(150/580)

واستشكل الحمل على الإعادة بالبعث بأن الكلام مع المشركين وأكثرهم منكرون لذلك فكيف يحمل الكلام عليه ويخاطبون به خطاب المعترف ؟ وأجيب بأن تلك الإعادة لوضوح براهينها جعلوا كأنهم معترفون بها لتمكنهم من معرفتها فلم يبق لهم عذر في الإنكار ؛ وقيل : إن منهم من اعترف بها ، والكلام بالنسبة إليه وليس بذاك ، وأما تجويز كون أل للجنس وأن المراد بالبدء والإعادة ما يشاهد في عالم الكون والفساد من إنشاء بعض الأشياء وإهلاكها ، ثم إنشاء أمثالها وذلك مما لا ينكره المشركون المنكرون للإعادة بعد الموت فليس بشيء أصلاً كما لا يخفى ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ أي بأسباب سماوية وأرضية قد رتبها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التي عليها بنى أمر التكوين ﴿ ءإله ﴾ آخر موجود ﴿ أَئِنَّ مَعَ الله ﴾ حتى يجعل شريكاً له سبحانه في العبادة ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت أي هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً يدل على أن معه عز وجل إلهاً ، وقيل : أي هاتوا برهاناً على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله عز وجل ، وتعقب بأن المشركين لا يدعون ذلك صريحاً ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها في الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له ، وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً وأنى لهم ذلك ، وقيل : إن الإضافة لزيادة التبكيت كأنه قيل :

نحن نقنع منكم بما تعدونه أنتم أيها الخصوم برهاناً يدل على ذلك وإن لم نعده نحن ولا أحد من ذوي العقول كذلك ، مع هذا أنتم عاجزون عن الإتيان به ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في تلك الدعوى ، واستدل به على أن الدعوى لا تقبل ما لم تنور بالبرهان .

(151/580)

هذا وفي "الكشف" أن مبنى هذه الآيات الترقي لأن الكلام في إثبات أن لا خيرية في الأصنام مع أن كل خير منه تبارك وتعالى ، فأجمل أولاً بذكر اسمه سبحانه الجامع في قوله تعالى : ﴿ أَأَللَّهُ ﴾ [النمل : 59] ثم أخذ في المفصل فجعل خلق السموات والأرض تمهيداً لإنزال الماء وإنبات الحدائق لا بل للأخير ، يدل عليه الالتفات هنالك والتأكيد بقوله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ ﴾ [النمل : 60] كأنه يذكر سبحانه ما فيها من المنافع الكثيرة لوناً وطعماً ورائحة واسترواح ظل .

ولما أثبت أنه فعله الخاص أنكر أن يكون له شريك وجعلهم عادلين عن منهج الصواب أو هعادلين به سبحانه من لا يستحق ، والأول أظهر ، ثم ترقى منه إلى ما هو أكثر لهم خيراً وأظهر في نفعهم من جعل الأرض قراراً وما عقبه ، فذكر جل وعلا ما لا يتم الإنبات المذكور

إلا به مع منافع يتصاغر لديها منفعة الانبات ، وعقبه بجهلهم المطلق المنتج للعدول المذكور ، وأوسأ منه وأسوأ ، ثم بالغ في الترقي فذكر ما هو ليق بهم دون واسطة من دفع أو نفع فخص إجابتهم عند الاضطرار ، وعم بكشف السوء والمشار ، هذا فا يرجع إلى دفعه المحذور وإقامتهم خلفاء في الأرض ينتفعون بها وبما فيها كما أحبوا ، وهذا أتم من الأولين وأعم وأجل موقعاً وأهم ، ولهذا فصل بعدم التذكر وبولغ فيه تلك المبالغات ، وأما ذكر الهداية في ظلمات البر والبحر وذكر إرسال الرياح المبشرة استطراداً لمناسبة حديث الرياح مع الهداية في البحر ، فمن متممات الخلافة وإجابة المضطر وكشف السوء فافهم .

(152/580)

ونبه على هذا بأنه فصل بقوله تعالى : ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 63] ثم ختم ذلك كله بالإضراب عن هذا الأسلوب بتذكير نعمتي الأيجاد والإعادة ، فكل نعمة دونهما لتوقف النعم الدنيوية والأخروية عليها ، وعقبه بإجمال يتضمن جميع ما عدده أولاً وزيادة أعني رزقهم من السماء والأرض ، وأدمج في تأخيره أنه دون النعمتين ولهذا بكتهم بطلب البرهان فيما ليس وسجل بكذبهم دلالة على تعلقه بالكل وأن هذه الخاتمة ختام مسكي ، والمعرض عن تشام نفحاته مسكي ، وعن هذا التقرير ظهر وجه الإبدال

مكشوف النقاب والحمد لله تعالى المنعم الوهاب اه .

وفي "غرة التنزيل" للراغب ما يؤيده ، وقد لخصه الطيبي في "شرح الكشاف" ، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه :

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾

بعد ما تحقق تفرده تعالى بالألوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة والرحمة الشاملة العامة عقب بذكر ما لا ينفك عنه ، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب تكميلاً لما قبله وتمهيداً لما بعده من أمر البعث ، وفي "البحر" قيل : سأل الكفار عن وقت القيامة التي وعدوها الرسول صلى الله عليه وسلم وألحوا عليه عليه الصلاة والسلام فنزل قوله : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ ﴾ الآية ، فمناسبتها على هذا لما قبلها من قوله تعالى : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعيدُهُ ﴾ [النمل : 64] أتم مناسبة ، والظاهر المتبادر إلى الذهن أن من فاعل يعلم وهو موصول أو موصوف ، والغيب مفعوله ، والاسم الجليل مرفوع على البدلية من ﴿ مِنْ ﴾ والاستثناء على ما قيل : منقطع تحقيقاً متصل تأويلاً على حدّ ما في قول الراجز :

وبلدة ليس بها أنيس . . .

إلا اليعافير وإلا العيس

بناءاً على إدخال اليعافر في الأنيس بضرب من التأويل فيفيد المبالغة في نفي علم الغيب عمن في السموات والأرض بتعليق علمهم إياه بما هو بين الاستحالة من كونه تعالى منهم كأنه قيل : إن كان الله تعالى ممن فيهما ففيهم من يعلم الغيب يعني أن استحالة علمهم الغيب كاستحالة أن يكون الله تعالى منهم ، ونظير هذا مما لا استثناء فيه قوله :

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

وقيل : هو منقطع على حد الاستثناء في قوله :

عشية ما تغني الرماح مكانها . . .

ولا النبل إلا المشرفي المصمم

يعني أنه من اتباع أحد المتباينين الآخر نحو ما أتاني زيد إلا عمرو .

وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه ، وقد ذكرهما سيبويه ، وذكر ابن مالك أن الأصل فيهما : ما أتاني أحد إلا عمرو ، وما أعانه أحد إلا إخوانه فجعل مكان أحد بعض مدلوله وهو زيد وإخوانكم ، ولو لم يذكر الدخلاء فيمن نفى عنه الإتيان والإعانة ، ولكن ذكرا توكيداً لقسطهما من النفي دفعاً لتوهم المخاطب أن المتكلم لم يخطر له هذا الذي أكد به ، فذكر تأكيداً ، وعليه يكون الأصل في الآية لا يعلم أحد الغيب إلا الله فحذف أحد وجعل مكانه بعض مدلوله وهو من في السموات والأرض ، والبعض الآخر من ليس فيهما ، ويكفي في

كونه مدلولاً له صدقه عليه ولا يجب في ذلك وجوده في الخارج ، فقد صرحوا أن من الكلي ما يمتنع وجود بعض أفراده أو كلها في الخارج على أن من أجلة الإسلاميين من قال بوجود شيء غير الله عز وجل ، وليس في السموات ولا في الأرض وهو الروح الأمرية فإنها لا مكان لها عندهم على نحو العقول المجردة عند الفلاسفة ، وقال : إن شرط الاتباع في هذا النوع أن يستقيم حذف المستثنى منه والاستغناء عنه بالمستثنى فإن لم يوجد هذا الشرط تعين النصب عند التميم .

(154/580)

والحجازي كما في قوله تعالى : ﴿ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ [هود : 43] فإن الاستغناء فيه بالمستثنى عما قبله ممتنع إلا بتكلف ، وزعم المازني أن اتباع المنقطع من تغليب العاقل على غيره ، ويلزم عليه أن يختص بأحد وشبهه وهو فاسد كما قال ابن خروف لأن ما يبدل منه في هذا الباب غير ما ذكر أكثر من أن يحصى اه .

(155/580)

وكلام الزمخشري يوم صدره أن الاستثناء هنا من قبيل الاستثناء في المثالين اللذين ذكرهما سيبويه ، وفي البيت الذي ذكرناه قبيلهما ، ويفهم عجزه أنه من قبيل الاستثناء في الرجز السابق ، وأن الداعي إلى اختيار المذهب التميمي نكتة المبالغة التي سمعتها ، وقد صرحوا أن إفادة تلك النكتة إنما يتأتى إذا جعل الاستثناء منقطعاً تحقيقاً متصلاً تأويلاً ، ولعل الحق أنه إذا أريد الدلالة على قوة النفي تعين جعل الاستثناء نحو الاستثناء في قوله : ﴿ وبلدة ﴾ الخ ، وإذا أريد الدلالة على عموم النفي تعين جعله نحو الاستثناء في قولهم : ما أعانه إخوانكم إلا إخوانه فتدبر ، وجوز كونه متصلاً كما هو الأصل في الاستثناء على أن المراد بمن في السموات والأرض من اطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما مجازاً مرسلاً أو استعارة ، وأياً مّا كان فهو معنى مجازي عام له تعالى شأنه ولذوي العلم من خلقه وهو المخلص من لزوم ارتكاب الجمع بين الحقيقة والمجاز المختلف في صحته كما فعله بعض القائلين بالاتصال ، وقيل : يعلق الجار والمجرور على ذلك التقدير بنحو يذكر من الأفعال المنسوبة على الحقيقة إلى الله تعالى وإلى المخلوقين لا بنحو استقر مما لا يصح نسبته إليه سبحانه على الحقيقة أي لا يعلم من يذكر في السموات والأرض الغيب إلا الله ، ويجوز تعليقه باستقر أيضاً إلا أنه يجعل مسنداً إلى مضاف حذف وأقيم المضاف إليه مقامه أي لا يعلم من استقر ذكره في السموات والأرض الغيب إلا الله فحذف الفعل والمضاف واستتر الضمير لكونه مرفوعاً ، وهذا ما قبله كما ترى ، واعترض حديث الاتصال بأنه يلزم عليه

التسوية بينه تعالى وبين غيره في إطلاق لفظ واحد وهو أمر مذموم ، فقد أخرج مسلم .

وأبو داود .

(156/580)

والنسائي عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله " ، وأجيب بأن ذلك مما يذم إذا صدر من البشر أما إذا صدر منه تعالى فلا يذم على أن كونه مما يذم إذا صدر من البشر مطلقاً ممنوع ، فقد روى البخاري .

ومسلم .

والترمذي .

والنسائي عن أنس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان من كان الله تعالى ورسوله أحب إليه مما سواهما " الحديث ، ولعل مدار الذم والمدح تضمن ذلك نكتة لطيفة وعدم تضمنه إياها ، وقد قيل في حديث أنس : النكتة في تثنية الضمير الإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين ، والنكتة في إفراده في

حديث عدي الإشعار بأن كلاً من العصيانين مستقل باستلزام الغواية ، وقد مر الكلام في هذا المبحث فتذكر ، وجوز أن يعرب من مفعول يعلم .

والغيب بدل اشتمال منه ، والاسم الجليل فاعل ﴿ لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ويكون استثناءً مفرغاً أي لا يعلم غيب من في السموات والأرض إلا الله ولا يخفى بعده .

(157/580)

والغيب في الأصل مصدر غابت الشمس وغيرها إذا استترت عن العين ، واستعمل في الشيء الغائب الذي لم تنصب له قرينة وكون ذلك غيباً باعتباره بالناس ونحوهم لا بالله عز وجل فإنه سبحانه لا يغيب عنه تعالى شيء لكن لا يجوز أن يقال : إنه جل وعلا لا يعلم الغيب قصداً إلى أنه لا غيب بالنسبة إليه ليقال يعلمه ، وقد شنع الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي المشهور بالإمام الرباني في مكتوباته على من قال ذلك قاصداً ما ذكر أتم تشنيع كما هو عادته جزاه الله تعالى خيراً فيمن لم يتأدب بآداب الشريعة الغراء ، والظاهر عموم الغيب ، وقيل : المراد به الساعة ، وقيل : ما يضمره أهل السموات والأرض في قلوبهم ، وقيل : المراد جنس الغيب ، ويلزم من نفى علم جنسه عن غيره عز وجل نفى علم كل فرد من أفراده عن ذلك الغير ، ولا يضر في ذلك أن الآية لا تدل حينئذٍ على ثبوت علم كل غيب

له عز وجل بل قصارى ما تدل عليه ثبوت علم جنس الغيب له سبحانه لأنه المنفي صريحاً عن المستثنى منه ولا يلزم من ثبوت علم هذا الجنس ثبوت علم كل فرد من أفراده لأنها لم تسق للاستدلال بها على ذلك ، وكم وكم من دليل عقلي ونقلي يدل عليه ، وتعقب بأن الغيب من حيث أنه غيب لا يتفاوت فمتى ثبت العلم ببعض أفراده ثبت العلم بجميعها دفعاً للزوم الترجيح بلا مرجح فتأمل .

واختار بعضهم الاستغراق أي لا يعلم من في السموات والأرض كل غيب إلا الله فإنه سبحانه يعلم كل غيب لأنه الأوفق بالمقام ، واعترض بأنه يلزم أن يكون من أهل السموات والأرض من يعلم بعض الغيوب ، وظاهر كلام كثير من الأجلة يأبى ذلك ، ويؤيده ما أخرجه الشيخان .

والترمذي .

والنسائي .

وأحمد .

(158/580)

وجماعة من المحدثين من حديث مسروق عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم يخبر الناس بما يكون في غد وفي بعض الروايات يعلم ما في غد فقد أعظم على الله تعالى الفرية والله تعالى يقول : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السموات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ ، وجوز بعضهم أن يكون منهم من يعلم بعض الغيوب ، ففي بيان قواطع الإسلام تأليف العلامة ابن حجر بعد الرد على من أكفر من قيل له : أتعلم الغيب ؟ فقال : نعم لأن فيما قاله تكذيب النص وهو قوله تعالى :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : 26 ، 27] ما نصه : وعلى كل فالخواص يجوز أن يعلموا الغيب في قضية أو قضايا كما وقع لكثير منهم واشتهر ، والذي اختص به تعالى إنما هو علم الجميع وعلم مفاتح الغيب المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [الأنعام : 59] الآية ، وينتج من هذا التقرير أن من ادعى علم الغيب في قضية أو قضايا لا يكفر وهو محمل ما في الروضة ، ومن ادعى علمه في سائر القضايا يكفر وهو محمل ما في أصلها إلا أن عبارته لما كانت مطلقة تشمل هذا وغيره ساغ للنووي الاعتراض عليه فإن أطلق فلم يرد شيئاً ، فالأوجه ما اقتضاه كلام النووي من عدم الكفر انتهى .

ولعل الحق أن يقال : إن علم الغيب المنفي عن غيره جل وعلا هو ما كان للشخص لذاته أي بلا واسطة في ثبوته له ، وهذا مما لا يعقل لأحد من أهل السموات والأرض لمكان الإمكان فيهم ذاتاً وصفة وهو يأبى ثبوت شيء لهم بلا واسطة ، ولعل في التعبير عن المستثنى منه بمن في السموات والأرض إشارة إلى علة الحكم ، وما وقع للخواص ليس من هذا العلم المنفي في شيء ضرورة أنه من الواجب عز وجل أفاضه عليهم بوجه من وجوه الإفاضة فلا يقال : إنهم علموا الغيب بذلك المعنى ومن قاله كفر قطعاً ، وإنما يقال : إنهم أظهروا أو اطلعوا بالبناء للفمعول على الغيب أو نحو ذلك مما يفهم الواسطة في ثبوت العلم لهم ، ويؤيد ما ذكر أنه لم يجيء في القرآن الكريم نسبة علم الغيب إلى غيره تعالى أصلاف ، وجاء الإظهار على الغيب لمن ارتضى سبحانه من رسول لا يقال : يجوز على هذا أن يقال : أعلم فلان الغيب بالبناء للمفعول أيضاً على معنى أن الله تعالى أعلمه وعرفه ذلك بطريق من طرق الإعلام والتعريف ، ومتى جاز هذا جاز أن يقال : علم فلان الغيب بقصد نسبة علمه الحاصل من إعلامه إليه لأنا نقول : لا كلام في جواز أعلم بالبناء للمفعول ، وإنما الكلام في قولك : ومتى جاز هذا جاز أن يقال الخ ، فنقول : إن أريد بالجواز في تالي الشرطية الجواز معنى أي الصحة من حيث المعنى فمسلم لكن ليس كل ما جاز معنى بهذا المعنى جاز شرعاً استعماله ، وإن أريد الجواز شرعاً بمعنى عدم المنع من استعماله فهو ممنوع لما فيه من

الإيهام والمصادمة لظواهر الآيات كآية ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السموات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ وغيرها ؛ وقد سمعت عن الإمام الرباني قدس سره النوراني أنه حط كل الحط على من قال الله سبحانه : ﴿ لاَ يَعْلَمَ الغيب ﴾ متأولاً له بما تقدم لما فيه من المصادمة للنصوص القرآنية وغيرها ، وفي ذلك من سوء الأدب ما فيه ، وقد شنعوا أيضاً على من قال : أكره الحق وأحب الفتنة وأفر من

(160/580)

الرحمة مريداً بالحق الموت .

وبالفتنة المال أو الولد .

(161/580)

وبالرحمة المطر لما في ظاهره من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى ، نعم لا يكفر قائل ذلك بذلك القصد ويلزمه التعزير كيلا يعود إلى قوله ، ثم إن علم غير الغيب من المحسوسات والمعقولات وإن كان لا يثبت لشيء من الممكنات بلا واسطة في الثبوت أيضاً إلا أنه في

نسبته لشيء منها لم يعتبر إلا اتصافه به غير مقيد بنفي تلك الواسطة لما أنه لم يرد حصر ذلك العلم به عز وجل ونفيه عمن سواه جل وعلا بل صرح في مواضع أكثر من أن تحصى بنسبته إلى غيره سبحانه ولو ورد فيه ما ورد في علم الغيب لا التزم فيه ما التزم فيه ، وعلى ما تقرر لا يكون علم العقول بما لم يكن بعد من الحوادث على ما يزعمه الفلاسفة من علم الغيب بل هو لو سلم علم حصل لهم من الفياض المطلق جل شأنه بطريق من الطرق التي تقتضيها الحكمة فلا ينبغي أن يقال فيهم : إنهم عالمون بالغيب ، وقائله إما كافر أو مسلم آثم ، وكذا يقال في علم بعض المرتاضين من المسلمين الصوفية والكفرة الجوكية فإن كل ما يحصل لهم من ذلك فإنما هو بطريق الفيض ومراتبه وأحواله لا تحصى ، والتأهل له قد يكون فطرياً ، وقد يكون كسبياً ، وطرق اكتسابه متشعبة لا تكاد تستقصي ، وإفاضة ذلك على كفرة المرتاضين وإن أشبهت إفاضته على المؤمنين المتقين إلا أن بين الأمرين فرقاً عظيماً عند المحققين ، وقد ذكر بعض المتصوفة أنه ما من حق إلا وقد جعل له باطل يشبهه لأن الدار دار فتنة وأكثر ما فيها محنة ، ويلحق بعلم المرتاضين من الجوكية علم بعض المتصوفة المنسوبين إلى الإسلام المهملين أكثر أحكامه الواجبة عليهم المنهمكين في ارتكاب المحظورات في نهارهم وليلهم ، فلا ينبغي اعتقاد أن ذلك كرامة بل هو نقمة مفضية إلى حسرة وندامة ، وأما علم النجومي بالحوادث الكونية حسبما يزعمه فليس من هذا القبيل لأن تلك الحوادث

التي يخبر بها ليست من الغيب بالمعنى الذي ذكرناه إذ هي وإن كانت غائبة عنا إلا أنها على زعمه مما نصب لها قرينة من الأوضاع

(162/580)

الفلكية والنسب النجومية من الاقتران .

والتثليث .

والتسديس .

والمقابلة ونحو ذلك ، وعلمه بدلالة القرائن التي يزعمها ناشىء من التجربة وما تقتضيه طبائع النجوم والبروج التي دل عليها بزعمه اختلاف الآثار في عالم الكون والفساد فلا أرى العلم بها إلا كعلم الطبيب الحاذق إذا رأى صفراوياً مثلاً علم رتبة مزاجه وحققها يأكل مقداراً معيناً من العسل أنه يعتريه بعد ساعة أو ساعتين كذا وكذا من الألم ، وإطلاق علم الغيب على ذلك فيه ما فيه ، وإن أبيت إلا تسمية ذلك غيباً فالعلم به لكونه بواسطة الأسباب لا يكون من علم الغيب المنفي عن غيره تعالى في شيء وكذا كل علم بخفي حصل بواسطة سبب من الأسباب كعلمنا بالله تعالى وصفاته العلية وعلمنا بالجنة والنار ونحو ذلك ، على أنك إذا أنصفت تعلم أن ما عند النجومي ونحوه ليس علماً حقيقياً وإنما هو

ظن وتخمين مبني على ما هو أوهن من بيت العنكبوت كما سنحقق ذلك بما لا مزيد عليه في محله اللائق به إن شاء الله تعالى .

وأقوى ما عنده معرفة زمني الكسوف والخسوف وأزمنة تحقق النسب المخصوصة بين الكواكب وهي ناشئة من معرفة مقادير الحركات للكواكب والأفلاك الكلية والجزئية وهي أمور محسوسة تدرك بالأرصاد والآلات المعمولة لذلك ، وبالجملة علم الغيب بلا واسطة كلاً أو بعضاً مخصوص بالله جل وعلا لا يعلمه أحد من الخلق أصلاً ، ومتى اعتبر فيه نفي الواسطة بالكلية تعين أن يكون من مقتضيات الذات فلا يتحقق فيه تفاوت بين غيب وغيب ، فلا بأس بحمل أل في الغيب على الجنس ، ومتى حملت على الاستغراق فاللائق أن لا يعتبر في الآية سلب العموم بل يعتبر عموم السلب ، ويلتزم أن القاعدة أغلبية .

وكذا يقال في السلب والعموم في جانب الفاعل فتأمل ؛ فهذا ما عندي ولعل ما عندك خير منه ؛ والله تعالى أعلم .

(163/580)

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي متى ينشرون من القبور مع كونه مما لا بد لهم منه ، ومن أهم الأمور عندهم فأيان اسم استفهام عن الزمان ، ولذا قيل : إن أصلها أيّ آن أي أيّ

زمان ، وإن كان المعروف خلافه وهي معمولة ليبعثون ، والجملة في موضع النصب بيشعرون وعلقت ﴿ يَشْعُرُونَ ﴾ لمكان الاستفهام ، وضمير الجمع للكفرة وإن كان عدم الشعور بما ذكر عاماً لئلا يلزم التفكيك بينه وبين ما يذكر بعد من الضمائر الخاصة بهم قطعاً ، وقيل : الكل لمن وإسناد خواص الكفرة إلى الجميع من قبيل بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم ، وفيه بحث .

وقرأ السلمي إيان بكسر الهمزة وهي لغة بني سليم .

﴿ بَلِ ادرك عِلْمُهُمْ فِى الآخرة ﴾

إضراب عما تقدم على وجه يفيد تأكيده وتقريره ، وأصل ﴿ ادرك ﴾ تدارك فأدغمت التاء في الدار فسكنت فاجتلبت همزة الوصل وهو من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك وهو مراد من فسر التدارك هنا بالاضمحلال والفناء ، وإلا فأصل التدارك التتابع والتلاحق مطلقاً ، ﴿ وَفِي الآخرة ﴾ متعلق بعلمهم والعلم يتعدى بفي كما يتعدى بالباء ، وهي حينئذٍ بمعنى الباء كما نص عليه الفراء .

وابن عطية .

وغيرهما ، والمعنى بل تتابع علمهم في شأن الآخرة التي ما ذكر من البعث حال من أحوالها حتى انقطع وفنى ولم يبق لهم علم بشيء مما سيكون فيها قطعاً مع توفر أسبابه فهو ترق عن وصفهم بجهل فاحش إلى وصفهم بجهل أفحش ، وليس تدارك علمهم بذلك على معنى أنه

كان لهم علم به على الحقيقة فانتفى شيئاً فشيئاً ، بل على طريقة المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية والسمعية منزلة نفسه ، وإجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كلما لاحظوها مجرى تتابعها إلى الانقطاع .

(164/580)

وجوز أن يكون الكلام على تقدير مضاف أي ادّارك أسباب علمهم ، والتدارك مجاز عما ذكر من التساقط ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّنْهَا ﴾ إضراب وانتقال عن عدم علمهم بها إلى ما هو أفحش منه على نحو ما مر وهو حيرتهم في ذلك أي بل هم في شك عظيم من نفس الآخرة وتحققها كمن تحير في أمر لا يجد عليه دليلاً فضلاً عن الأمور التي ستقع فيها ، وقوله سبحانه : ﴿ بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾ إضراب وانتقال عن وصفهم بكونهم شاكين إلى وصفهم بما هو أفظع منه وهو كونهم عمياً قد اختلت بصائرهم بالكلية بحيث لا يكادون يدركون طريق العلم بها وهو الدلائل الدالة على أنها كائنة لا محالة ، فالمراد ﴿ عَمُونَ ﴾ عن دلائلها أو عمون عن كل ما يوصلهم إلى الحق ويدخل فيه دلائلها دخولاً أولياً ، و﴿ مِنْهَا ﴾ متعلق بعمون قدم عليه رعاية للفواصل ، ولعل تعديته بمن دون عن لجعل الآخرة بمدأ عما هم ومنشأه ، والكفر بالعاقبة والجزاء يدع الشخص عاكفاً على

تحصيل مصالح بطنه وفرجه لا يتدبر ولا يتبصر فيما عدا ذلك .

وجوز أن يكون ﴿ ادرك ﴾ بمعنى استحكم وتكامل ووصفهم باستحاكم علمهم بذلك وتكامله من باب التهكم بهم كما تقول لأجهل الناس : ما أعلمك على سبيل الهزء ، ومآل التهكم المذكور نفي علمهم بذلك كما في الوجه السابق لكن على الوجه الأبلغ ، والإضرابان من باب الترقي من الوصف بالفظيع إلى الوصف بالأفظع نحو ما تقدم وهو وجه حسن ، ويشعر كلام بعض المحققين بترجيحه على ما ذكرنا أولاً .

وجوز أيضاً أن يكون المراد بالادّراك الاستحكام لكن على معنى استحكم أسباب علمهم بأن القيامة كائنة لا محالة من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون في ذلك ، وفيه أن دلالة النظم الكريم على إرادة وهم جاهلون ليست بواضحة .

(165/580)

وقال الكرماني : التدارك التتابع ، والمراد بالعلم هنا الحكم والقول ؛ والمعنى بل تتابع منهم القول والحكم في الآخرة وكثر منهم الخوض فيها ، فنفاها بعضهم .

وشك فيها بعضهم واستبعدها بعضهم وفيه ما فيه .

وقيل : إن في الآخرة متعلق بادّارك وإليه ذهب الزجاج .

والطبرسي ، واقتضته بعض الآثار المروية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، والمعنى على هذا عند بعضهم بل استحكم في الآخرة علمهم بما جهلوه في الدنيا حيث رأوا ذلك عياناً ، وكان الظاهر يدّارك بصيغة الاستقبال إلا أنه عبر بصيغة الماضي لتحقق الوقوع .

وقيل : التدارك عليه من تداركت أمر فلان إذا تلافيته ، ومفعوله هنا محذوف أي بل تدارك في الآخرة علمهم ما جهلوه في الدنيا أي تلافاه ، وحاصل المعنى بل علموا ذلك في الآخرة حين لم ينفعهم العلم ، والتعبير بصيغة الماضي على ما علمت ، ولا يخفى أن في وجه ترتيب الإضرابات الثلاث حسب ما في "النظم الكريم" على هذين الوجهين خفاءاً فتدبر .

وقرأ أبيّ أم تدارك على الأصل وجعل أم بدل ﴿ بَلِ ﴾ ، وقرأ سليمان بن يسار بل أدرك بنقل حركة الهمزة إلى اللام وشد الدال بناءاً على وزنه افتعل ، فأدغم الدال وهي فاء الكلمة في التاء بعد قلبها دالاً فصار فيه قلب الثاني للأول كما في قولهم : أثرد وأصله اثترد من الثرد ، والهمزة المحذوفة المنقول حركتها إلى اللام هي همزة الاستفهام أدخلت على ألف الوصل فانحذفت ألف الوصل ثم انحذفت هي وألقيت حركتها على لام بل ، وقرأ أبو رجاء .

والأعرج .

وشيبة .

وطلحة .

وتوبة العنبري كذلك إلا أنهم كسروا لام ﴿ بَلِ ﴾ ، وروي ذلك عن ابن عياش .

وعاصم .

والأعمش .

وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو .

وأبو جعفر .

وأهل مكة بل أدرك على وزن أفعل بمعنى تفاعل ، ورويت عن أبي بكر عن عاصم ، وقرأ عبد الله في رواية .

وابن عباس في رواية أبي حيوة .

وغيره عنه .

والحسن .

وقتادة .

(166/580)

وابن محيصن بل آدّرك بمدة بعد همزة الاستفهام ، وأصله أأدرك فقلبت الثانية ألفاً تخفيفاً كراهة الجمع بين همزتين ، وأنكر أبو بكر بن أبي العلاء هذه الرواية ، وقال أبو حاتم : لا يجوز الاستفهام بعد ﴿ بَلِ ﴾ لأن بل للإيجاب ، والاستفهام في هذا الموضع إنكار بمعنى لم يكن كما في قوله تعالى : ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف : 19] أي لم يشهدوا خلقهم فلا يصح وقوعهما معاً للتنافي الذي بين الإيجاب والإنكار اه .

وقد أجاز بعض المتأخرين كما قال أبو حيان الاستفهام بعد ﴿ بَلِ ﴾ وشبهه بقول القائل : أخبزاً أكلت ، بل أماءاً شربت على ترك الكلام الأول والأخذ في الثاني ، وقرأ مجاهد أم أدرك جعل أم بدل ﴿ بَلِ ﴾ وأدرك على وزن أفعل ، وقرأ ابن عباس في رواية أيضاً ﴿ بَلِ ادرك ﴾ بهمزة داخلة على ﴿ ادرك ﴾ فتسقط همزة الوصل المجتلبة لأجل الإدغام والنطق بالساكن ، وقرأ ابن مسعود أيضاً بل أأدرك بهمزتين همزة الاستفهام وهمزة أفعل ، وقرأ الحسن أيضاً .

(167/580)

والأعرج بل أدرك بهمزة ، وإدغام فاء الكلمة وهي الدال في فاء افتعل بعد صيرورة التاء دالاً ، وقرأ ورش في رواية بل ادّرك بحذف همزة أدرك ، ونقل حركتها إلى اللام ، وقرأ ابن

عباس أيضاً بلى أدرك بحرف الإيجاب الذي يوجب به المستفهم المنفي ، وقرأ بل آأدّارك بألف بين الهمزتين ، فهذه عدة قراآت فما فيه منها استفهام صريح أو مضمن فهو إنكار ونفي ، وما فيه بلى فقد قال فيه أبو حاتم : إن كان بلى جواباً لكلام تقدم جاز أن يستأنف بعده كأن قوماً أنكروا ما تقدم من القدرة فقيل لهم : بلى إيجاباً لما نفوا ، ثم استؤنف بعده الاستفهام وعودل بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّنْهَا ﴾ بمعنى أم هم في شكل منها لأن حروف العطف قد تتناوب ، وكف عن الجملتين بقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾ اه ، يعني أن المعنى أأدرك علمهم بالآخرة أم شكوا ؟ فبل بمعنى أم عودل بها الهمزة ، وتعقبه في "البحر" بأن جعل بل بمعنى أم ومعادلتها لهمزة الاستفهام ضعيف جداً ، وقال بعض المحققين : ما فيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإدراك على وجه التهكم الذي هو أبلغ وجوه النفي والإنكار وما بعده من قوله تعالى : ﴿ بْل هُمْ فَى شَكّ ﴾ الخ إضراب عن التفسير مبالغة في النفي ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عمون فهو على منوال .

تحية بينهم ضرب وجيع . . .

أورد إنكار لشعورهم على أن الإضراب إبطالي فافهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (54) ﴾

انتصاب ﴿ لوطاً ﴾ بفعل مضمر معطوف على أرسلنا ، أي وأرسلنا لوطاً ، و ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ ظرف للفعل المقدر ، ويجوز أن يقدر : اذكر ؛ والمعنى : وأرسلنا لوطاً وقت قوله لقومه ﴿ أَتَأْتُونَ الفاحشة ﴾ أي الفعلة المتناهية في القبح والشناعة ، وهم أهل سدوم ، وجملة ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال متضمنة لتأكيد الإنكار أي وأنتم تعلمون أنها فاحشة .

وذلك أعظم لذنوبكم ، على أن ﴿ تبصرون ﴾ من بصر القلب ، وهو العلم ، أو بمعنى النظر ، لأنهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة عتوًّا وتمرّداً ، وقد تقدّم تفسير هذه القصة في الأعراف مستوفى .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً ﴾ فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح بأن تلك الفاحشة هي اللواطة ، وانتصاب ﴿ شهوة ﴾ على العلة أي للشهوة ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي : إتياناً شهوة ، أو أنه بمعنى الحال ، أي مشتهين لهم ﴿ مّن دُونِ النساء ﴾ أي متجاوزين النساء اللاتي هنّ محل لذلك ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ التحريم ، أو العقوبة على هذه المعصية ، واختار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة من أئنكم .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

قرأ الجمهور بنصب ﴿ جواب ﴾ على أنه خبر كان ، واسمها ﴿ إلاّ أن قالوا ﴾ : أي إلاّ قولهم .

وقرأ ابن أبي إسحاق برفع جواب على أنه اسم كان ، وخبرها ما بعده ، ثم علّلوا ما أمروا به بعضهم بعضاً من الإخراج بقولهم : إنهم أناس يتطهرون أي يتنزهون عن أدبار الرجال ! قالوا ذلك استهزاء منهم بهم .

(169/580)

﴿ فأنجيناه وَأَهْلَهُ ﴾ من العذاب ﴿ إِلاَّ امرأته قدرناها مِنَ الغابرين ﴾ أي قدّرنا أنها من الباقين في العذاب ، ومعنى ﴿ قدرنا ﴾ : قضينا ، قرأ الجمهور قدّرنا بالتشديد ، وقرأ عاصم بالتخفيف .

والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَرًا ﴾ هذا التأكيد يدل على شدّة المطر ، وأنه غير معهود ﴿ فَسَاء مَطَرُ المنذرين ﴾ المخصوص بالذم محذوف أي ساء مطر المنذرين مطرهم ، والمراد بالمنذرين : الذين أنذروا ، فلم يقبلوا ، وقد مضى بيان هذا كله في الأعراف والشعراء .

﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ ﴾ قال الفراء : قال أهل المعاني : قيل للوط : قل : الحمد لله على هلاكهم ، وخالفه جماعة فقالوا : إن هذا خطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم ، أي قيل : الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية ، وسلام على عباده ﴿ الذين اصطفى ﴾ قال النحاس : وهذا أولى ؛ لأن القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلّ ما فيه فهو مخاطب به إلاّ ما لم يصحّ معناه إلا لغيره .

قيل : والمراد بعباده الذين اصطفى : أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والأولى حمله على العموم ، فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي آلله الذي ذكرت أفعاله وصفاته الدالة على عظيم قدرته خير أما يشركون به من الأصنام ؟ وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي ، بل هي كقول الشاعر :

أتهجوه ولست له بكفء . . . فشركما لخيركما الفداء

فيكون ما في الآية من باب التهكم بهم ، إذ لا خير فيهم أصلاً .

وقد حكى سيبويه أن العرب تقول : السعادة أحبّ إليك أم الشقاوة ، ولا خير في الشقاوة أصلاً .

وقيل : المعنى : أثواب الله خير ، أم عقاب ما تشركون به ؟ وقيل : قال لهم ذلك جرياً على اعتقادهم ، لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيراً .

وقيل : المراد من هذا الاستفهام : الخبر .

قرأ الجمهور : " تشركون " بالفوقية على الخطاب ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب : ﴿ يشركون ﴾ بالتحتية ، و"أم" في ﴿ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ هي المتصلة ، وأما في قوله : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ فهي المنقطعة .

وقال أبو حاتم : تقديره ءآلهتكم خير أم من خلق السماوات والأرض وقدر على خلقهنّ ؟

وقيل : المعنى : أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير ، أم عبادة من خلق السماوات والأرض ؟ فتكون " أم " على هذا متصلة ، وفيها معنى التوبيخ ، والتهكم كما في الجملة الأولى .

وقرأ الأعمش : " أمن " بتخفيف الميم ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السماء مَاء ﴾ أي نوعاً من الماء ، وهو المطر ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ جمع حديقة .

قال الفراء : الحديقة البستان الذي عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط ، فهو البستان ، وليس بحديقة .

وقال قتادة ، وعكرمة : الحدائق : النخل ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي ذات حسن ، ورونق .

والبهجة : هي الحسن الذي يبتهج به من رآه ، ولم يقل : ذوات بهجة على الجمع ؛ لأن المعنى

: جماعة حدائق ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ أي ما صح لكم أن تفعلوا ذلك ، ومعنى هذا النفي : الحظر ، والمنع من فعل هذا أي ما كان للبشر ، ولا يتهيأ لهم ذلك ، ولا يدخل تحت مقدرتهم لعجزهم عن إخراج الشيء من العدم إلى الوجود .

ثم قال سبحانه موبخاً لهم ، ومقرّعاً ﴿ أإله مَعَ الله ﴾ أي هل معبود مع الله الذي تقدّم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ويجعل شريكاً له في العبادة ، وقرىء : " ءإلها مع الله " بالنصب على تقدير : أتدعون إلها .

ثم أضرب عن تقريعهم وتوبيخهم بما تقدّم ، وانتقل إلى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، فقال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يعدلون بالله غيره ، أو يعدلون عن الحق إلى الباطل .

(171/580)

ثم شرع في الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها ، فقال : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً ﴾ القرار : المستقرّ أي دحاها ، وسوّاها بحيث يمكن الإستقرار عليها .

وقيل : هذه الجملة وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ ، ولا ملجىء لذلك ، بل هي وما بعدها إضراب وانتقال من التوبيخ والتقريع

بما قبلها إلى التوبيخ والتقريع بشيء آخر ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً ﴾ الخلال : الوسط .

وقد تقدّم تحقيقه في قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما نَهَراً ﴾ [الكهف : 33] ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أي جبالاً ثوابت تمسكها ، وتمنعها من الحركة ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً ﴾ الحاجز : المانع ، أي جعل بين البحرين من قدرته حاجزاً .

والبحران هما : العذب والمالح ، فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يدخل في هذا ، وقد مرّ بيانه في سورة الفرقان ﴿ أإله مَعَ الله ﴾ أي إذا ثبت أنه لا يقدر على ذلك إلاّ الله فهل إله في الوجود يصنع صنعه ، ويخلق خلقه ؟ فكيف يشركون به ما لا يضرّ ولا ينفع ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ توحيد ربهم ، وسلطان قدرته .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الإنسان إليه على العموم ، والمضطر اسم مفعول من الاضطرار وهو المكروب المجهود الذي لا حول له ولا قوة .

وقيل : هو المذنب ، وقيل : هو الذي عراه ضرّ من فقر أو مرض ، فألجأه إلى التضرّع إلى الله .

واللام في ﴿ المضطر ﴾ لجنس لا للاستغراق ، فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين إجابة دعائه ، وإلاّ فقد ضمن الله سبحانه إجابة دعاء المضطرّ إذا دعاه ، وأخبر بذلك عن نفسه ، والوجه في إجابة دعاء المضطرّ أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الإخلاص ، وقطع النظر عما سوى الله ، وقد أخبر الله سبحانه بأنه يجيب دعاء المخلصين له الدين ، وإن كانوا كافرين ، فقال : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [يونس : 22] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] فأجابهم عند ضرورتهم ، وإخلاصهم مع علمه بأنهم سيعودون إلى شركهم ﴿ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ أي الذي يسوء العبد من غير تعيين ، وقيل : هو الضرّ ، وقيل : هو الجور ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأرض ﴾ أي يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله بعد انقراضهم ، والمعنى : يهلك قرناً وينشىء آخرين ، وقيل : يجعل أولادكم خلفاً منكم ، وقيل : يجعل المسلمين خلفاً من الكفار ينزلون أرضهم ، وديارهم ﴿ أإله مَعَ الله ﴾ الذي يوليكم هذه النعم الجسام ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكرا قليلاً ما تذكرون .

قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب .

وقرأ أبو عمرو وهشام ويعقوب بالتحتية على الخبر ردّاً على قوله : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ

﴿ واختار هذه القراءة أبو حاتم .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظلمات البر والبحر ﴾ أي يرشدكم في الليالي المظلمات إذا سافرتم في البرّ أو البحر .

(173/580)

وقيل : المراد : مفاوز البرّ التي لا أعلام لها ، ولجج البحار ، وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ والمراد بالرحمة هنا المطر أي : يرسل الرياح بين يدي المطر ، وقبل نزوله ﴿ أإله مَعَ الله ﴾ يفعل ذلك ، ويوجده ﴿ تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزه ، وتقدّس عن وجود ما يجعلونه شريكاً له ﴿ أَم مَّنْ يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كانوا يقرّون بأن لله سبحانه هو الخالق ، فألزمهم الإعادة أي إذا قدر على الإبتداء قدر على الإعادة ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مّنَ السماء والأرض ﴾ بالمطر والنبات أي هو خير أم ما تجعلونه شريكاً له مما لا يقدر على شيء من ذلك ﴿ أإله مَعَ الله ﴾ حتى تجعلونه شريكاً له ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي حجتكم على أن الله سبحانه شريكاً ، أو هاتوا حجتكم أن ثمّ صانعاً يصنع كصنعه ، وفي هذا تبكيت لهم ، وتهكم بهم ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السموات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ أي لا يعلم أحد من المخلوقات

الكائنة في السموات والأرض الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، والاستثناء في قوله إِلاَّ الله منقطع ، أي لكن الله يعلم ذلك ، ورفع ما بعد إلاّ مع كون الاستثناء منقطعاً هو على اللغة التميمية كما في قولهم :

إلاّ اليعافير وإلاّ العيس . . . وقيل : إن فاعل ﴿ يعلم ﴾ هو ما بعد إلاّ ، و ﴿ من في السماوات ﴾ مفعوله ، و ﴿ الغيب ﴾ بدل من " من " أي لا يعلم غيب من في السموات والأرض إلاّ الله ، وقيل : هو استثناء متصل من "من" .

وقال الزجاج : ﴿ إلاّ الله ﴾ بدل من "من" .

قال الفراء : وإنما رفع ما بعد إلاّ لأن ما بعدها خبر كقولهم : ما ذهب أحد إلاّ أبوك ، وهو كقول الزجاج .

قال الزجاج : ومن نصب نصب على الاستثناء ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا يشعرون متى ينشرون من القبور ، وأيان مركبة من أي ، وإن .

(174/580)

وقد تقدّم تحقيقه ، والضمير للكفرة .

وقرأ السلمي : " إيان " بكسر الهمزة ، وهي لغة بني سليم ، وهي منصوبة ب " يبعثون " ،

ومعلقة ل " يشعرون " ، فتكون هي وما بعدها في محل نصب بنزع الخافض ، أي وما يشعرون بوقت بعثهم ، ومعنى أَيَّانَ معنى متى .

﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ ادّارك ﴾ .

وأصل ادارّك : تدارك ، أدغمت التاء في الدال ، وجيء بهمزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن .

وقرأ أبو جعفر وابن كثير وأبو عمر وحميد : " بل أدرك " من الإدراك .

وقرأ عطاء بن يسار وسليمان بن يسار والأعمش : " بل ادّرك " بفتح لام بل ، وتشديد الدال .

وقرأ ابن محيصن : " بل أدرك " على الاستفهام .

وقرأ ابن عباس وأبو رجاء وشيبة والأعمش والأعرج : " بلى أدّارك " بإثبات الياء في بل وبهمزة قطع وتشديد الدال .

وقرأ أبيّ " بل تدارك " ، ومعنى الآية : بل تكامل علمهم في الآخرة ؛ لأنهم رأوا كل ما وعدوا به ، وعاينوه .

وقيل : معناه : تتابع علمهم في الآخرة ، والقراءة الثانية معناها : كمل علمهم في الآخرة مع المعاينة ، وذلك حين لا ينفعهم العلم ؛ لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين .

وقال الزجاج: إنه على معنى الإنكار، واستدلّ على ذلك بقوله فيما بعد: ﴿ بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾ أي لم يدرك علمهم علم الآخرة، وقيل: المعنى: بل ضلّ، وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم، ومعنى القراءة الثالثة كمعنى القراءة الأولى، فافتعل، وتفاعل قد يجيئان لمعنى، والقراءة الرابعة هي بمعنى الإنكار.

قال الفراء: وهو وجه حسن كأنه وجهه إلى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم، وفي الآية قراءات أخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها.

(175/580)

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكّ مّنْهَا ﴾ أي بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة، ثم أضرب عن ذلك إلى ما هو أشدّ منه، فقال: ﴿ بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾ فلا يدركون شيئاً من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الإدراك، وعمون جمع عم: وهو من كان أعمى القلب، والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون إلى شيء مما يوصل إلى العلم بها، فمن قال: إن معنى الآية الأولى أعني ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ أنه كمل علمهم، وتمّ مع المعاينة فلا بدّ من حمل قوله: ﴿ بْل هُمْ فَي شَكّ ﴾ إلخ على ما كانوا عليه في الدنيا، ومن قال: إن معنى الآية الأولى: الاستهزاء بهم، والتبكيت لهم لم يحتج إلى تقييد قوله: ﴿ بْل هُمْ فَي

شَكّ ﴾ إلخ بما كانوا عليه في الدنيا .

وبهذا يتضح معنى هذه الآيات ، ويظهر ظهوراً بينا .

وقد أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ .

قال : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اصطفاهم الله لنبيه ، وروي مثله عن سفيان الثوري .

والأولى ما قدمناه من التعميم فيدخل في ذلك أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم دخولاً أولياً .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي والطبراني ، عن رجل من بلهجيم قال : قلت : يا رسول الله إلى ما تدعو ؟ قال : " أدعو الله وحده الذي إن مسك ضرّ فدعوته كشفه عنك " ، هذا طرف من حديث طويل .

وقد رواه أحمد من وجه آخر فبين اسم الصحابي فقال : حدّثنا عفان ، حدّثنا حماد بن سلمة ، حدّثنا يونس ، حدّثنا عبيد بن عبيدة الهجيمي عن أبيه عن أبي تميمة الهجيمي عن جابر بن سليم الهجيمي .

ولهذا الحديث طرق عند أبي داود والنسائي .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة قالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله الفرية وقالت في آخره : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السموات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ قال : حين لا ينفع العلم .

وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أنه قرأ : " بل أدرك علمهم في الآخرة " قال : لم يدرك علمهم .

قال أبو عبيد : يعني : أنه قرأها بالاستفهام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : " بَلِ ادرك عِلْمُهُمْ فِى الآخرة " يقول : غاب علمهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(177/580)

وقال القاسمى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قال الزمخشريّ : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته . وأن يستفتح بتحميده ، والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما ، على قبول ما يلقى إلى السامعين ، وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المُسْمِع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب . فحمدوا الله عزّ وجلّ ، وصلّوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمام كل علم مفاد ، وقبل كل عظة وتذكرة ، وفي مفتتح كل خطبة . وتبعهم المترسلون . فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم . والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين .

ثم قال : معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه . وإنما هو إلزام لهم وتبكيت وتهكم بحالهم . وذلك أنه آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله . ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء ، إلا لداع يدعوه إلى إيثاره ، من زيادة خير ومنفعة . فقيل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ، ولكن

هوى وعبثاً ، لينبّهوا على الخطأ المفرط ، والجهل المورّط . وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول . وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه عن فرعون : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ [الزخرف : 52] ، مع علمه أنه ليس لموسى مثل أنهاره التي كانت تجري تحته .

(178/580)

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عددها في موضع آخر . ثم قال : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

لطيفة :

قال ابن القيم في " طريق الهجرتين " في هذه الآية : كلمة السلام هنا تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهي : الحمد لله , ويكون الأمر بالقول متناولاً للجملتين معاً . وعلى هذا ، فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ، ويكون محلها النصب محكيّة بالقول .

ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب . وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب .

وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم . وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلّى الله عليهم وسلم .

وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم .

ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما . فلا يحسن أن يقول : قم وذهب زيد ، ولا اخرجْ وقعد عَمْرو .

ويجاب على هذا بأن جملة الطلب ، قد حكيت بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : 101] .

فقوله : ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ ﴾ ليس معطوفاً بالقول وهو انظروا بل معطوف على الجملة الكبرى .

على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [112] ، وقوله : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [118] .

والمقصود أنه على هذا القول ، يكون الله سبحانه قد سلّم على المصطفين من عباده ، والرسل أُفضلهم . انتهى . وقوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

إضراب وانتقال ، من التبكيت تعريضاً ، إلى التصريح به خطاباً على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد . أي : بل من خلق السماوات والأرض ، وأودع فيهما من المنافع ما لا يحصى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ أي : بساتين ذات حسن ورونق يبهج النظار : ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : أَإله آخر كائن مع الله ، الذي ذكر بعض أفعاله ، التي لا يكاد يقدر عليها غيره ، حتى يتوهم جعله شريكاً له تعالى في العبادة ؟ وهذا تبكيت لهم بنفي الألوهية عما يشركون به تعالى ، في ضمن النفي الكليّ على الطريقة البرهانية ، بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد . قال أبو السعود : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : عن طريق الحق . أو به تعالى غيره ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً ﴾ أي : قارة لا تنكفئ بمن عليها . أو مستقراً لمن عليها ، يتمتعون بمنافعها : ﴿ وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ﴾ أي : برزخاً مانعاً من الممازجة : ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ﴾ أي : في الوجود ، أو في إبداع هذه البدائع : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : شيئاً من الأشياء . ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك ، مع

كمال ظهوره : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ وهو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر ، إلى اللجأ والتضرع إلى الله تعالى ، اسم مفعول من الاضطرار الذي هو افتعال من الضرورة وهي الحالة المحوجة إلى اللجأ أي : الالتجاء والاستناد .

(180/580)

قال ابن كثير : ينبّه تعالى أنه المدعوّ عند الشدائد ، الموجود عن النوازل ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : 53] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ، أي : من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟ .

وقال ابن القيم في " الجواب الكافي " : إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف انكساراً بين يدي الرب وذلاًّ له وتضرعاً ورقة ، ثم توسل إليه تعالى بأسمائه وصفاته وتوحيده ، فإن هذا الدعاء لا يكاد يردّ أبداً . ولا سيما إن صادف الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة ، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم . ثم ساقها ابن القيم مسندة .

ثم قال : وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله . أو حسنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنته . أو صادف الدعاء وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجيبت دعوته . فيظن الظانّ أن السر في لفظ ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي . وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً ، في الوقت الذي ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي . فانتفع به . فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده ، كاف في حصول المطلوب ، كان غالطاً . وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس . ومن هذا قد يتفق دعاؤه باضطرار عند قبر فيجاب . فيظن الجاهل أن السر للقبر ولم يعلم أن السر للاضطرار وصدق اللجأ إلى الله . فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله ، كان أفضل وأحب إلى الله . انتهى .

(181/580)

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

أي : كل ما هو يسوء مما يضطر فيه وغيره : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أي : خلفاء فيها . وذلك توارثهم سكانها ، والتصرف فيها قرناً بعد قرن أو أراد بالخلافة الملك

والتسلط . قاله الزمخشري ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : بالنجوم في السماء ، والعلامات في الأرض ، إذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر : ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ وهي المطر : ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

(182/580)

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

أي : بعد الموت بالبعث . فإن قيل : هم منكرون للإعادة ، فكيف خوطبوا بها خطاب المعترف ؟ أجيب بأنها لظهورها ووضوح براهينها ، جعلوا كأنهم معترفون بها ، لتمكنهم من معرفتها – فلم يبق لهم عذر في الإنكار . فلا حاجة إلى القول بأن منهم من اعترف بها ، فالكلام بالنسبة إليه : ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي : مما ينزله من مائها وما يخرجه من نباتها : ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أمرٌ له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم إثر تبكيت . أي : هاتوا برهاناً عقلياً أو نقلياً ، يدل على أن معه تعالى إلَهاً . لا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله تعالى ، فإنهم لا يدعونه صريحاً . وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم ، تهكم بهم . لما فيها من إيهام أن لهم برهاناً .

وأَنَّى لهم ذلك ؟ قاله أبو السعود : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي : فإنه المتفرد بذلك وحده ، كما قال : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] ، في آيات لا تحصى . والاستثناء منقطع ، لاستحالة أن يكون تعالى ممن في السماء والأرض ، أو متصل ، على أن المراد ممن في السماوات والأرض ، من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها مجازاً مرسلاً أو استعارة . فإنه يعمّ الله تعالى وأولي العلم من خلقه : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي : متى ينشرون .

(183/580)

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾

قال السمين : فيه وجهان : أحدهما : أن في على بابها ، وادّارك وإن كان ماضياً لفظاً ، فهو مستقبل معنى ، لأنه كائن قطعاً . كقوله : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل : 1] .

وعلى هذا ففي متعلق بادّارك .

والثاني : أن في بمعنى الباء . أي : بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلق بنفس علمهم . كقولك : علمي بزيد كذا ، انتهى .

والوجه الثاني على الاستفهام . أي : بل هل ادّارك علمهم فيها ، أي : بلغ وانتهى ؟ كلا .

وقد قرئ : بل أءدرك بهمزتين ، بل آءدرك بألف بينهما ، أم أدرك وأم تدارك .

قال الرازيّ : وهي أم التي بمعنى بل والهمزة . فالمعنى على الاستفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم بها ، وأنهم لم يبرحوا في حضيض الجهالة بحقيتها ، مع ما يتلى عليهم من أدلة ثبوتها .

وقد جنح إلى الكلام على تقدير الاستفهام ، السيوطيّ والمهايميّ . وذهب غيرهما إلى إبقاء بل على أصلها من الإضراب الانتقاليّ . وقرروه بما فيه خفاء ودقة ويبعده ما ذكرنا من القراءات الصريحة في الاستفهام . وهي مما يرجع إليها إذا اشتبه المقام . كما تقرر في قواعد التفسير : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أي : مرية ، مع تقرير ما يزيله ويكشف غشاوته : ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أي : في عماية وجهل كبير .

(184/580)

قال الزمخشريّ : فإن قلت : هذه الاضطرابات الثلاثة ما معناها ؟ قلت : ما هي إلا تنزيل لأحوالهم : وَصَفَهُمْ أَولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث . ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة . ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية ، فلا يزيلونه . والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض ، كان أمره أهون ممن سمع بها وهو

جاثم ، لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل ؟ ثم بما هو أسوأ حالاً ، وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه ، وفرجه ، لا يُخْطِر بباله حقاً ولا باطلاً ولا يفكر في عاقبة . وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه . فلذلك عداه بمن دون عن لأن الكفر بالعاقبة والجزاء ، هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 521.525 ﴾

(185/580)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ؟ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ » . .

ومعادلة ثالثة . . بين ما للّه ، وبين ما يكون لهذه المعبودات من دون اللّه . .

أفهذه الآلهة ، التي لا تملك ضرّا ولا نفعا ، أم الإله الواحد ، القادر ،

السميع ، البصير ، الذي تفزعون إليه - أيها الضالون المكذبون - عند كل كرب ، وتدعونه عند كل شدّة ، فيستجيب لكم ، ويكشف الضرّ عنكم . ؟

كما يقول سبحانه : « قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . . تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً

لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ » (63 ـ 64 : الأنعام) أآلهتكم هذه ؟ أم اللّه ربّ العالمين ، الذي أعطاكم هذه الصورة البشرية السويّة ، ومنحكم العقل ، والمنطق ، وأقامكم على هذه الأرض خلفاء للّه فيها ؟ ألا تذكرون فضل اللّه عليكم ، ولا تنظرون إلى نعمه إليكم ؟ ألا تشكرون له أن أخرجكم من العدم إلى الوجود ، ثم أعطاكم من الوجود الأرضى أحسن وأكرم ما خلق فيه ؟

أجيبوا . . أيها الضالون المكذّبون ، الجاحدون ؟

وقد أجابوا بما يجيب به كل جاحد لنعمة اللّه . . لا يذكر اللّه إلا عند الشدّة ، فإذا انجلى الكرب ، وذهبت الشدّة « نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » (8 : الزمر) .

ولهذا جاءت فاصلة الآية : « قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ » لتسجل عليهم هذا التنكر لنعمة اللّه عليهم ، وإحسانه إليهم . . فهم لا يذكرون للّه هذه النعمة ، ولا يتذكرون هذا الإحسان . .

قوله تعالى :

« أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

ومعادلة أو موازنة رابعة . .

آآلهتكم هذه الجاثمة الجامدة ، أم اللّه الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر ، بما أقام لكم من معالم في السماء والأرض ، تتعرفون بها وجهتكم ، فى تنقلكم على ظهر الأرض أو البحر ؟

أآلهتكم هذه المستخزية العاجزة . . أم الإله الذي يرسل الرياح فتثير السحاب ، وتدفعه إلى حيث ينزل ماء من السماء ، فيحيى الأرض ومن عليها ؟

ماذا تقولون ؟

(186/580)

أجيبوا . . أيها اللّاهون الغافلون ! ويجيبون بهذا الصمت الغبي . . ويجيب الوجود كله من حولهم ، بهذا الجواب ، الناطق بوحدانية اللّه ، المنزه للّه عن الشريك ، والصاحبة والولد . .

« تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ »

قوله تعالى : « أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ؟ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » ؟

وهذه معادلة أو موازنة خامسة . .

آآلهتكم هذه العجماء ، الصماء . . أم اللّه الذي يبدأ الخلق ، وينشئه ابتداء على غير مثال

، ثم يعيده خلقا آخر كما بدأه ، بعد أن يبلى ، وتذهب معالمه ؟

ماذا تقولون ؟

أتقولون بعد هذا . . إن مع اللّه إلها ، يصنع ما يصنع اللّه ، ويتصرف معه فى هذا الوجود ، أو يشاطره بعضا منه ؟

« قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ . . إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » .

فأين الحجة على ما بين أيديكم ؟ وأين البرهان على ما تقولون من أن مع اللّه إلها أو آلهة أخرى ؟ إن القول بلا حجة يستند إليها ، وبلا دليل يقوم عليه - هو كلام ، لا معقول له ، ولا حياة فيه ، ولا نفع لمن يتعلق به :

« وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ . . إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ » (117 : المؤمنون) .

(187/580)

وفي هذا العرض الممتد ، المختلف الصور والألوان ، لآيات اللّه في الأرض وفي السماء ، وفي البر والبحر ، لا يجد المكابرون والمعاندون ، سبيلا إلى الإفلات والهروب من الإقرار بوحدانية اللّه . . إذ كانوا كلما أخذوا وجها من وجوه الضلال ، لقيهم معرض من معارض

قدرة اللّه . . حتى إذا كان آخر المطاف كانت كل ظنونهم وأوهامهم في آلهتهم قد ضلت عنهم ، وفرت من بين أيديهم ، فوقفوا في حيرة ، بين الاتجاه إلى اللّه الذي يحجبهم عنه كبرهم وعنادهم ، وبين الجري وراء آلهتهم بعد أن انكشف لهم أمرها . . وهنا لا يطالبهم القرآن بأكثر من أن يستعملوا شيئا من العقل والمنطق ، وأن يحترموا إنسانيتهم ، فلا يؤمنوا إلا بما يقبله العقل ، ويطمئن إليه القلب ، وإلا بما يقوم للعقل منه برهان على أنه الحق ! لقد أقامهم القرآن في هذا العرض مقام الشك ، والشك - كما يقولون - أول مراتب اليقين ،

الآيات : (65 - 78) [سورة النمل (27) : الآيات 65 الى 78]

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

قوله تعالى : « قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » .

هو تعقيب على هذه المعارض ، التي عرضت فيها الآيات السابقة للمشركين وغباءهم وضلالهم ، وآلهتهم وما هي عليه من عجز وضعف ، أمام جلال اللّه وعظمته وقدرته . . وفي هذه الآية عرض للمخلوقات جميعا ، أمام علم الخالق ، المحيط بكل شىء ، وأن من في

السموات والأرض من مخلوقات لا تعلم مما استأثر اللّه سبحانه وتعالى بعلمه شيئا . . فأهل الأرض مهما علموا من علم فإن علمهم

بهذا الكوكب الذي يعيشون فيه ، لا يعدو أن يكون قطرة من محيط الأسرار المودعة في هذا الكوكب ، فكيف علمهم بما في هذا الوجود الذي هم قطرة في محيطه الذي لا حدود له ؟ وكذلك مخلوقات العوالم الأخرى ، علمها كعلم أهل الأرض ، هو محدود محصور في دائرة وجودها . .

(189/580)

وقوله تعالى : « إِلَّا اللَّهُ » إلا هنا ملغاة . . والمعنى أنه لا يعلم الغيب إلا اللّه وحده . . أما من في السموات والأرض فمنفى عنهم هذا العلم . . وإن علموا شيئا فهو بالاضافة إلى علم اللّه ، وإلى ما جهلوه من هذا العلم ـ لا وزن له ، ولا اعتداد به . .

ـ وقوله تعالى : « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » ـ تأكيد لنفى علم الغيب عن أهل السموات والأرض . . وذلك أن الناس وهم أكثر خلق اللّه ادعاء للعلم ، لا يعلمون متى يبعثون من قبورهم إذا ماتوا ، وهذا البعث هو أمر يتصل بهم ، ويعنى كلّ واحد منهم . فإذا جهلوا ما هو من شأنهم فهم لغيره أجهل ، وإذا جهل الناس فغيرهم من المخلوقات أشد جهلا .

ويجوز أن يكون المراد هنا هم الناس وحدهم ، ويكون نفى العلم عنهم بميقات بعثهم حجة قائمة على أنهم لا يعلمون الغيب . . فليؤمنوا إذن بعالم الغيب والشهادة إيمانهم بكل غيب ، وليدعوا هذه الآلهة التي يجسدونها ، ويتعاملون معها ، كما يتعاملون مع أموالهم وأمتعتهم . .

فالله سبحانه وتعالى ، وإن لم يروه ، فإن كثيرا من الحقائق التي بين أيديهم لم يروها ، ولم يقع في علمهم شيء منها . .

إن الإنسان ليستبين كثيرا من الأمور التي لا تقع لحواسة ، بما يلوح للعقل من شواهد عليها . . فلم لا يؤمن المشركون بالله ، وهذا الوجود كله شاهد لله ؟

قوله تعالى : « بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ . . بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها . . بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ » .

(190/580)

هذا تعقيب على قوله تعالى : « وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » . . وذلك أن البعث وإن لم يعلم يومه فإنه آت لا ريب فيه ، وعدم العلم بيومه ، لا يستدعى إنكاره وجحوده . . ولكن ذلك هو الذي فتن كثيرا من الناس ، وأضلهم ، فكفروا بهذا اليوم ، إذ لم يعلموه علما واقعا محققا

. . وهذا غيب من الغيوب التي استأثر اللّه سبحانه وتعالى بعلمها . . فالذين ينكرون يوم البعث ، إنما ينكرون أمرا قامت عليه الأدلة ، وتظاهرت له البراهين ، وإن كان لا يشعر بها الغافلون الضالون ، ولهذا جاء قوله تعالى في الآية السابقة « وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » منبها إلى هذه الغفلة التي عليها هؤلاء المشركون المنكرون ليوم البعث . . إنهم لا يشعرون به ، مع أن كثيرا من الإشارات الدالة عليه تمر بهم ، ولكنهم في غمرة ساهون ! . وقوله تعالى : « بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ » إضراب على الصفة التي وصفوا بها من قبل ، وهي عدم شعورهم بالبعث ، وإلقاء صفة أخرى عليهم فوق هذه الصفة ، وهي أن ما لديهم من علم في شأن الساعة ، كثير ، والشواهد عليه بين أيديهم لا تحصى ، ولكن هذا العلم ، وتلك الشواهد لم تحقق لهم علما بها . . وهذا هو بعض السر . واللّه أعلم . فى تعدية المصدر « علمهم » بحرف الجر فى ، بدلا من الباء . . فى النظم القرآنى « بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ » « فِي الْآخِرَةِ » ولم يجىء هكذا : بل إدراك علمهم بالآخرة . . فالعلم الذي عندهم بالاخرة كثير ، ولكنهم يمارون في هذا العلم ، ويجادلون فيه . .

وقوله تعالى : « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها » هو وصف آخر يضاف إلى أوصافهم التي تكشف عن موقفهم من أمر الآخرة . . « إنهم في شك منها » لا يقيم لهم العلم الذي بين أيديهم عنها ، إلا أوهاما وظنونا .

ومعنى ادّارك علمهم ، أي كثر ، وتتابع ، وجاءهم داركا ، أي متلاحقا . .

تختلف وجوهه في تصورهم ، وتتغاير صوره في عقولهم ، وتتوارد عليهم الخواطر فيه بين الشك واليقين .

وقوله تعالى « بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ » . وصف ثالث يلحق بالوصفين السابقين ، وهو أنهم في عمى وضلال عن الآخرة ، فلا يرون لها وجودا ، ولا يحسون لها أثرا . .

والصورة التي تتمثل من هؤلاء المنكرين ليوم البعث ، هى صورة مائجة مضطربة ، كما يموج السراب في الصحراء . .

فهناك شواهد قائمة على البعث والحساب والجزاء . . ولكن المشركين لا يشعرون بها ، ولا يلتفتون إليها .

وهناك علم كثير ، تحدثهم به آيات اللّه التي يتلوها عليهم رسول اللّه ، فى أمر البعث والحساب والجزاء . . « بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ » وهذا العلم لا يستقبله المشركون إلا بقلوب مريضة ، وعقول ضالة . . فلا تقع منه إلا على ظنون . . « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها » .

وهذه الظنون التي تقع لهم من هذا العلم ، سرعان ما يطغى عليها الضلال والجهل ، فتختفى

، ويختفى معها كل شىء عن هذا اليوم ، وإذا هم في عمى ، فلا يرون للآخرة ظلا ، أو خيالا ، فى أنفسهم . . « بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ » .

وفي تعدية المصدر « عم » ، بمعنى أعمى - بحرف الجر « من » بدلا من « عن » الذي هو للفعل ، إذ يقال : عمى عن الشيء : ولا يقال عمى منه ، إلا إذا كان الشيء هو السبب في العمى ، الذي جاء من جهته . . وهذا - والله أعلم - ما أريد هنا ، وهو أن الآخرة ، كانت سببا في عمى الضالين والمشركين . .

وذلك أن أمر البعث ، والحساب والجزاء ، هو مضلة الضالين ، وغواية الغاوين .

(192/580)

وليس الإيمان بالله هو السبب في تردد المشركين وتوقفهم عن الإيمان . . وإنما كان ترددهم وتوقفهم عن الإيمان بالله ، لأن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالبعث والحساب والجزاء . . وهذا هو الذي يتردد إزاءه المترددون ، ويتوقف عنده المتوقفون . . وإنه ليسير غاية اليسر على المشركين أن يستبدلوا إلها بإله ، وربا برب . . وليس من اليسير أبدا أن يقبلوا ربّا لا يقبلهم إلا إذا آمنوا بالبعث بعد الموت ، ثم الحساب والجزاء . . فذلك هو الذي لا تقبله

عقولهم ولا تتصوره مدركاتهم . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 10 صـ 274.261 ﴾

(193/580)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

ارتقى الاستدلال من التذكير بالتصرف الرباني في ذوات المخلوقات إلى التذكير بتصرفه في أحوال الناس التي لا يخلو عنها أحد في بعض شؤون الحياة وذلك حال الاضطرار إلى تحصيل الخير ، وحال انتياب السوء ، وحال التصرف في الأرض ومنافعها .

فهذه ثلاثة الأنواع لأحوال البشر .

وهي : حالة الاحتياج ، وحالة البؤس ، وحالة الانتفاع .

فالأولى : هي المضمنة في قوله ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ فالمضطر هو ذو الضرورة أي الحالة المحوجة إلى الأشياء العسرة الحصول ، وهذه مرتبة الحاجيات فالمرء محتاج إلى أمور كثيرة بها قوام أوده ليست متصلة بذاته مثل الأقوات والنكاح والملابس اللازمة فالمرء يتطلبها بوجوه من المعاوضات ، وقد يتعسر بعضها وهي تتعسر بقدر وفرة

منافعها وعزة حصولها فيسأل الله أن يعطيها .

والاضطرار : افتعال من الضرورة لا من الضر .

وتقديره : أنه نالته الضرورة فطاوعها .

وليس له فعل مجرد وإنما يقال : اضطره كذا إلى كذا .

واللام في ﴿ المضطر ﴾ لتعريف الجنس المسمى بلام العهد الذهني ، أي يجيب فرداً معهوداً في الذهن بحالة الاضطرار .

والإجابة : إعطاء الأمر المسؤول .

والمعنى : أن المضطر إذا دعا لتحصيل ما اضطر إليه فإنه لا يجيبه إلا الله بقطع النظر عن كونه يجيب بعضاً ويؤخر بعضاً .

وحالة البؤس : هي المشار إليها بقوله ﴿ ويكشف السوء .

والكشف : أصله رفع الغشاء ، فشبه السوء الذي يعتري المضرور بغشاء يحول دون المرء ودون الاهتداء إلى الخلاص تشبيه معقول بمحسوس .

ورُمز إلى المشبه به بالكشف الذي هو من روادف الغشاء .

وهو أيضاً مستعار للإزالة بقرينة تعديته إلى السوء .

والمعنى : من يزيل السوء .

وهذه مرتبة الضروري فإن معظمها أو جميعها حفظ من تطرق السوء إلى مهم أحوال الناس مثل الكليات وهي : حفظ الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسب ، والمال ، والعرض .

(194/580)

والمعنى : إن الله يكشف السوء عن المسوء إذا دعاه أيضاً فحذف من الجملة المعطوفة لدلالة ما ذكر مع الجملة المعطوف عليها ، أي يكشف السوء عن المستاء إذا دعاه .

وظاهر التقييد بالظرف يقتضي ضمان الإجابة .

والواقع أن الإجابة منوطة بإرادة الله تعالى بحسب ما يقتضيه حال الداعي وما يقتضيه معارضه من أصول أخرى ، والله أعلم بذلك .

وحالة الانتفاع : ﴿ هي المشار إليها بقوله ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي يجعلكم تعمرون الأرض وتجتنون منافعها ، فضمن الخلفاء معنى المالكين فأضيف إلى الأرض على تقدير : مالكين لها ، والملك يستلزم الانتفاع بما ينتفع به منها .

وأفاد خلفاء بطريق الإلتزام معنى الوراثة لمن سبق ، فكل حي هو خلف عن سلفه .

والأمة خلف عن أمة كانت قبلها جيلاً بعد جيل .

وهذا كقوله تعالى حكاية لقول نوح ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [هود :

وهذه مرتبة التحسيني .

وقد جمعت الآية الإشارة إلى مراتب المناسب وهو ما يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً وهو من مسالك العلة في أصول الفقه .

ولما اقتضته الخلافة من تجدد الأبناء عقب الآباء والأجيال بعد الأجيال ، وما اقتضته الاستجابة وكشف السوء من كثرة الداعين والمستائين عبر في أفعال الجعل التي تعلقت بها بصيغة المضارع الدال على التجدد بخلاف أفعال الجعل الأربعة التي في الآية قبلها .

ثم استؤنف عقب هذا الاستدلال باستفهام إنكاري تكريراً لما تقدم عقب الأدلة السابقة زيادة في تعداد خطئهم بقوله ﴿ أإله مع الله قليلاً ما تذكرون .

وانتصب قليلاً ﴾ على الحال من ضمير الخطاب في قوله ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي فعل ذلك لكم وأنتم في حال قلة تذكركم ، فتفيد الحال معنى التعجب من حالهم .

والتذكر : من الذُّكر بضم الذال وهو ضد النسيان فهو استحضار المعلوم ، أي قليلاً استحضاركم الافتقار إلى الله وما أنتم فيه من إنعامه فتهتدوا بأنه الحقيق بأن لا تشركوا معه غيره .

فالمقصود من التذكر التذكر المفيد استدلالاً .

و﴿ ما ﴾ مصدرية والمصدر هو فاعل ﴿ قليلاً .

والقليل هنا مكنّى به عن المعدوم لأن التذكر المقصود معدوم منهم ، والكناية بالقليل عن المعدوم مستعملة في كلامهم .

وهذه الكناية تلميح وتعريض ، أي إن كنتم تذكرون فإن تذكركم قليل .

وأصل تذكرون ﴾ تتذكرون فأدغمت تاء التفعل في الذال لتقارب مخرجيهما تخفيفاً وهو إدغام سماعي .

وقرأ الجمهور ﴿ تذكرون ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأه روح عن أبي عمرو وهشام عن ابن عامر بياء الغيبة على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، ففي قراءة الجمهور نكتة توجيه الخطاب إلى المشركين مكافحة لهم ، وفي قراءة روح وهشام نكتة الإعراض عنهم لأنهم استأهلوا الإعراض بعد تذكرهم .

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

(بل) لإضراب الانتقال من نوع دلائل التصرف في أحوال عامة الناس إلى دلائل التصرف في أحوال المسافرين منهم في البر والبحر فإنهم أدرى بهذه الأحوال وأقدر لما في خلالها من النعمة والامتنان .

ذكر الهداية في ظلمات الليل في البرّ والبحر .

وإضافة الظلمات إلى البر والبحر على معنى (في) .

والهُدى في هذه الظلمات بسير النجوم كما قال تعالى ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ [الأنعام : 97] .

فالله الهادي للسير في تلك الظلمات بأن خلق النجوم على نظام صالح للهداية في ذلك ، وبأن ركّب في الناس مدارك للمعرفة بإرصاد سيرها وصعودها وهبوطها ، وهداهم أيضاً بمهاب الرياح ، وخوّلهم معرفة اختلافها بإحساس جفافها ورطوبتها ، وحرارتها وبردها .

وبهذه المناسبة أُدمج الامتنان بفوائد الرياح في إثارة السحاب الذي به المطر وهو المعنيّ برحمة الله .

وإرساله الرياح هو خلق أسباب تكونها .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿ نُشُرا ﴾ بضمتين وبالنون .

وقرأه ابن عامر بالنون بضم فسكون .

وقرأ عاصم ﴿ بُشْراً ﴾ بالموحدة وبسكون الشين مع التنوين .

وقرأه حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين .

وقد تقدم في سورة الفرقان (48) ﴿ وهو الذي أرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته ﴾

وتقدم في سورة الأعراف (57) ﴿ وهو الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته ﴾ ،

وتوجيه هذه القراءات هنالك .

وذُيل هذا الدليل بتنزيه الله تعالى عن إشراكهم معه آلهة لأن هذا خاتمة الاستدلال عليهم بما لا ينازعون في أنه من تصرف الله فجيء بعده بالتنزيه عن الشرك كله وذلك تصريح بما أشارت إليه التذييلات السابقة .

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64)

هذا انتقال إلى الاستدلال بتصرف الله تعالى بالحياة الأولى والثانية وبإعطاء المدد لدوام الحياة الأولى مدة مقدرة .

وفيه تذكير بنعمة الإيجاد ونعمة الإمداد .

والاستفهام تقريري لأنهم لا ينكرون أنه يبدأ الخلق وأنه يرزقهم .

وأدمج في خلال الاستفهام قوله ﴿ ثم يعيده ﴾ لأن تسليم بدئه الخلق يلجئهم إلى فهم إمكان إعادة الخلق التي أحالوها .

ولما كان إعادة الخلق محلّ جدل وكان إدماجها إيقاظاً وتذكيراً أعيد الاستفهام في الجملة التي عطفت عليه بقوله ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ ولأن الرزق مقارن لبدء الخلق فلو عطف على إعادة الخلق لتوهّم أنه يرزق الخلق بعد الإعادة فيحسبوا أن رزقهم في الدنيا من نعم آلهتهم .

وإذ قد كانوا منكرين للبعث ذُيّلت الآية بأمر التعجيز بالإتيان ببرهان على عدم البعث .

والبرهان : الحجة .

وتقدم عند قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم في آخر سورة النساء ﴾ (174) .

وإضافة البرهان إلى ضمير المخاطبين وهم المشركون مشير إلى أن البرهان المُعَجّزين عليه هو برهان عدم البعث ، أي إن كنتم صادقين فهاتوه لأن الصادق هو الذي قوله مطابق للواقع .

(197/580)

والشيء الواقع لا يعدم دليلاً عليه .

وجُماع ما تقدم في هذه الآيات من قوله ﴿ آللّه خير أما تشركون ﴾ [النمل : 59] أنها

أجملت الاستدلال على أحقية الله تعالى بالإلهية وحده ثم فصّلت ذلك بآيات ﴿ أمن خلق السموات والأرض إلى قوله قل ها تو برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ [النمل : 60 64] فابتدأت بدليل قريب من برهان المشاهدة وهو خلق السموات والأرض وما يأتي منهما من خير للناس .

ودليل كيفية خلق الكرة الأرضية وما على وجهها منها ، وهذا ملحق بالمشاهدات .

وانتقلت إلى استدلال من قبيل الأصول الموضوعة وهو ما تمالأ عليه الناس من اللجأ إلى الله تعالى عند الاضطرار .

وانتقلت إلى الاستدلال عليهم بما مكّنهم من التصرف في الأرض إذ جعل البشر خلفاء في الأرض ، وسخر لهم التصرّف بوجوه التصاريف المعينة على هذه الخلافة ، وهي تكوين هدايتهم في البر والبحر .

وذلك جامع لأصول تصرفات الخلافة المذكورة في الارتحال والتجارة والغزو .

وختم ذلك بكلمة جامعة لنعمتي الإيجاد والإمداد وفي مطاويها جوامع التمكن في الأرض .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

لما أبطلت الآيات السابقة إلهية أصنام المشركين بالأدلة المتظاهرة فانقطع دابر عقيدة الإشراك ثني عنان الإبطال إلى أثر من آثار الشرك وهو ادعاء علم الغيب بالكهانة وإخبار الجن ، كما كان يزعمه الكهان والعرافون وسدنة الأصنام .

ويؤمن بذلك المشركون .

وفي "معالم التنزيل" وغيره نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة فما كان سؤالهم عن ذلك إلا لظنهم أن ادعاء العلم بوقتها من شأن النبوءة توصلاً لجحد النبوءة إن لم يعين لهم وقت الساعة فأبطلت الآية هذه المزاعم إبطالاً عاماً معياره الاستثناء بقوله ﴿ إلا الله .

﴾ وهو عام مراد به الخصوص أعني خصوص الكهان وسدنة بيوت الأصنام .

(198/580)

وإنما سلك مسلك العموم لإبطال ما عسى أن يزعم من ذلك ، ولأن العموم أكثر فائدة وأوجز ، فإن ذلك حال أهل الشرك من بين من في السماوات والأرض .

فالقصد هنا تزييف آثار الشرك وهو الكهانة ونحوها .

وإذ قد كانت المخلوقات لا يعدون أن يكونوا من أهل السموات أو من أهل الأرض لانحصار عوالم الموجودات في ذلك كان قوله ﴿ لا يعلم من في السموات والأرض الغيب ﴾ في قوة لا يعلم أحد الغيب ، ولكن أطنب الكلام لقصد التنصيص على تعميم المخلوقات كلها فإن مقام علم العقيدة مقام بيان يناسبه الإطناب .

واستثناء ﴿ إلا الله ﴾ منه لتأويل ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ بمعنى : أحد ، فهو استثناء متصل على رأي المحققين وهو واقع من كلام منفي .

فحق المستثنى أن يكون بدلاً من المستثنى منه في اللغة الفصحى فلذلك جاء اسم الجلالة مرفوعاً ولو كان الاستثناء منقطعاً لكانت اللغة الفصحى تنصب المستثنى .

وبعد فإن دلائل تنزيه الله عن الحلول في المكان وعن مماثلة المخلوقات متوافرة فلذلك يجري استعمال القرآن والسنة على سنن الاستعمال الفصيح للعلم بأن المؤمن لا يتوهم ما لا يليق بجلال الله تعالى .

ومن المفسرين من جعل الاستثناء منقطعاً وقوفاً عند ظاهر صلة ﴿ من في السماوات والأرض ﴾ لأن الله ينزّه عن الحلول في السماء والأرض .

وأما من يتفضل الله عليه بأن يظهره على الغيب فذلك داخل في علم الله قال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ [الجن : 26 ، 27] .

فأضاف (غيب) إلى ضمير الجلالة .

وأردف هذا الخبر بإدماج انتفاء علم هؤلاء الزاعمين علم الغيب أنهم لا يشعرون بوقت بعثهم بل جحدوا وقوعه إثارة للتذكير بالبعث لشدة عناية القرآن بإثباته وتسفيه الذين أنكروه .

فذلك موقع قوله ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ، ﴾ أي أن الذين يزعمون علم الغيب ما

يشعرون بوقت بعثهم .

و﴿ أيان ﴾ اسم استفهام عن الزمان وهو معلِّق فعل ﴿ يشْعرون ﴾ عن العمل في مفعوليه .

(199/580)

وهذا تورّكٌ وتعيير للمشركين فإنهم لا يؤمنون بالبعث بَلْهَ شعورهم بوقته .

و﴿ بل ﴾ للإضراب الانتقالي من الإخبار عنهم بـ ﴿ لا يشعرون أيان يبعثون ﴾ وهو ارتقاء إلى ما هو أغرب وأشد ارتقاء من تعييرهم بعدم شعورهم بوقت بعثهم إلى وصف علمهم بالآخرة التي البعث من أول أحوالها وهو الواسطة بينها وبين الدنيا بأنه علم متدارك أو مدرك .

وقرأ الجمهور ﴿ إدَّارك ﴾ بهمز وصل في أوله وتشديد الدال على أن أصله (تدارك) فأدغمت تاء التفاعل في الدال لقرب مخرجيها بعد أن سكنت واجتُلِب همز الوصل للنطق بالساكن .

قال الفراء وشمر : وهو تفاعل من الدّرك بتفحتين وهو اللحاق .

وقد امتلكت اللغويين والمفسرين حيرة في تصوير معنى الآية على هذه القراءة تثار منه حيرة

للناظر في توجيه الإضرابين اللذين بعد هذا الإضراب وكيف يكونان ارتقاء على مضمون هذا الانتقال ، وذكروا وجوهاً مثقلة بالتكلف .

والذي أراه في تفسيرها على هذا الاعتبار اللغوي أن معنى التدارك هو أن علم بعضهم لَحِق علم بعض آخر في أمر الآخرة لأن العلم ، وهو جنسٌ ، لمّا أضيف إلى ضمير الجماعة حصل من معناه علوم عديدة بعدد أصناف الجماعات التي هي مدلول الضمير فصار المعنى : تداركت علومهم بعضها بعضاً .

وذلك صالح لمعنيين : أولهما : أن يكون التدارك وهو التلاحق الذي هو استعمال مجازي يساوي الحقيقة ، أي تداركت علوم الحاضرين مع علوم أسلافهم ، أي تلاحقت وتتابعت فتلَّقى الخلف عن السلف علمَهم في الآخرة وتقلدوها عن غير بصيرة ولا نظر ، وذلك أنهم أنكروا البعث ويشعر لذلك قوله تعالى عقبه ﴿ وقال الذين كفروا أإذا كنّا تراباً وءاباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وءاباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [النمل : 67 68] .

وقريب من هذا قوله تعالى في سورة المؤمنين (81) ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴾

الوجه الثاني : أن يكون التدارك مستعملاً مجازاً مرسلاً في الاختلاط والاضطراب لأن التدارك والتلاحق يلزمه التداخل كما إذا لحقت جماعة من الناس جماعة أخرى أي لم يرسوا على أمر واختلفت أقوالهم اختلافاً يؤذن بتناقضها ، فهم ينفون البعث ثم يزعمون أن الأصنام شفعاؤهم عند الله من العذاب ، وهذا يقتضي إثبات البعث ولكنهم لا يعذبون ثم يتزودون تارة للآخرة ببعض أعمالهم التي منها : أنهم كانوا يحبسون الراحلة على قبر صاحبها ويتركونها لا تأكل ولا تشرب حتى تموت فيزعمون أن صاحبها يركبها ، ويسمونها البلية ، فذلك من اضطراب أمرهم في الآخرة .

وفعل المضي على هذين الوجهين على أصله .

وحرف (في) على هاذين الوجهين في تفسيرها على قراءة الجمهور مستعمل في السببية ، أي بسبب الآخرة .

ويجوز وجه آخر وهو أن يكون ﴿ ادارك ﴾ مبالغة في (أدْرَك) ومفعوله محذوفاً تقديره : إدراكهم ، أي حصل لهم علمهم بوقت بعثهم في اليوم الذي يبعثون فيه ، أي يومئذ يوقنون بالبعث ، فيكون فعل المضي مستعملاً في معنى التحقق ، ويكون حرف (في) على أصله من الظرفية .

.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿ بل أدرك ﴾ بهمز قطع وسكون الدال ، ومعناه :

انتهى علمهم في الآخرة .

يقال : أدرك ، إذا فني .

وفي ثبوت معنى فني لفعل أدرك خلاف بين أئمة اللغة ، فقد أثبته ابن المظفر في رواية شمّر عنه قال شمّر : ولم أسمعه لغيره ، وأثبته الزمخشري في "الكشاف" في هذه الآية وصاحب "القاموس" .

وقال أبو منصور : هذا غير صحيح في لغة العرب وما علمت أحداً قال : أدرك الشيء إذا فني .

وأقول قد ثبت في اللغة : أدركت الثمار ، إذا انتهى نضجها ، ونسبه في "تاج العروس" لليث ولابن جني وحسبك بإثبات هؤلاء الأثبات .

قال الكواشي في "تبصرة المتذكر" : المعنى فني علمهم في الآخرة من أدركت الفاكهة ، إذا بلغت النضج وذلك مؤذن بفنائها وزوالها .

(201/580)

فحاصل المعنى على قراءة الجمهور ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ وقد تلقى بعضهم عن بعض ما يعلمون في شأن الآخرة وهو ما اشتهر عنهم من إنكار الحياة الآخرة ، أو قد

اضطرب ما يعلمونه في شأن الآخرة وأنهم سيعلمون ذلك لا محالة في يوم الدار الآخرة .

وحاصل المعنى على قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر : ما يشعرون أيّان يبعثون فإنهم لا علم لهم بالحياة الآخرة ، أي جهلوا الحياة الآخرة .

أما عدد القراءات الشاذة في هذه الجملة فبلغت عشراً .

وأما جملة ﴿ بل هم في شك منها ﴾ فهو إضراب انتقال للارتقاء من كونهم اضطرب علمهم في الآخرة ، أو تقلد خلفهم ما لقنه سلفهم ، أو من أنهم انتفى عملهم في الآخرة إلى أن ذلك الاضطراب في العلم قد أثار فيهم شكاً من وقوع الآخرة .

و(من) للابتداء المجازي ، أي في شك ناشىء عن أمر الآخرة .

وجيء بالجملة الاسمية للدلالة على ثبات الخبر ودوامه ، والظرفية للدلالة على إحاطة الشك بهم .

وجملة ﴿ بل هم منها عمون ﴾ ارتقاء ثالث وهو آخر درجات الارتقاء في إثبات ضلالهم وهو أنهم عميان عن شأن الآخرة .

و ﴿ عمون ﴾ : جمع عممٍ بالتنوين وهو فعل من العمى ، صاغوا له مثال المبالغة للدلالة على شدة العمى ، وهو تشبيه عدم العلم بالعمى ، وعادم العلم بالأعمى .

وقال زهير:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله . . .

ولكنني عن علم ما في غدٍ عم

فشبه ضلالهم عن البعث بالعمى في عدم الاهتداء إلى المطلوب تشبيه المعقول بالمحسوس .

و(من) في قوله ﴿ منها عمون ﴾ للابتداء المجازي ، جعل عماهم وضلالهم في إثبات الآخرة كأنه ناشىء لهم من الآخرة إذ هي سبب عماهم ، أي إنكارها سبب ضلالهم .

وفي الكلام مضاف محذوف تقديره : من إنكار وجودها عمون ، فالمجرور متعلق بـ ﴿ عمون ﴾ .

وقدم على متعلقه للاهتمام بهذا المتعلق وللرعاية على الفاصلة .

وصيغت الجملة الاسمية للدلالة على الثبات كما في قوله ﴿ بل هم في شك منها ﴾ .

(202/580)

وترتيب هذه الاضرابات الثلاثة ترتيب لتنزيل أحوالهم ؛ فوصفوا أولاً بأنهم لا يشعرون بوقت البعث ثم بأنهم تلقفوا في شأن الآخرة التي البعث من شؤونها علماً مضطرباً أو جهلاً فخبطوا في شك ومرية ، فأعقبهم عمى وضلالة بحيث إن هذه الانتقالات مندرجة متصاعدة حتى لو قيل : بل أدّارك علمهم في الآخرة فهم في شك منها فهم منها عمون لحصل المراد .

ولكن جاءت طريقة التدرج بالإضراب الانتقالي أجزل وأبهج وأروع وأدل على أن كلاً من هذه الأحوال المترتبة جدير بأن يعتبر فيه المعتبر باستقلاله لا بكونه متفرعاً على ما قبله ، وهذا البيان هو ما أشرت إليه آنفاً عند الكلام على قراءة الجمهور ﴿ أدّارك ﴾ من خفاء توجيه الإضرابين اللذين بعد الإضراب الأول .

وضمائر جمع الغائبين في قوله ﴿ يشعرون ، ويبعثون ، علمهم ، هم في شك ، هم منها عمون ﴾ عائدة إلى (من) الموصولة في قوله تعالى ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ .

و(من) هذه وإن كانت من صيغ العموم فالضمائر المذكورة عائدة إليها بتخصيص عمومها ببعض من في الأرض وهم الذين يزعمون أنهم يعلمون الغيب من الكهان والعرّافين وسدنة الأصنام الذين يستقسمون للناس بالأزلام ، وهو تخصيص لفظي من دلالة السياق وهو من قسم المخصص المنفصل اللفظي .

والخلاف الواقع بين علماء الأصول في اعتبار عود الضمير إلى بعض أفراد العام مخصصاً للعموم يقرب من أن يكون خلافاً لفظياً .

ومنه قوله تعالى ﴿ وبُعُولَتُهنّ أحقّ بردهن ﴾ [البقرة : 228] فإن ضمير ﴿ بعولتهن ﴾ عائد إلى المطلقات الرجعيات من قوله تعالى ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ﴾ [البقرة : 228] الذي هو عام للرجعيات وغيرهن .

وبهذا تعلم أن التعبير بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ [النمل : 67] هنا ليس من الإظهار في مقام الإضمار لأن الذين كفروا أعم من ما صدق (من) في قوله ﴿ لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(203/580)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66) ﴾

أظهر أقوال أهل العلم عندي في هذه الآية الكريمة أن المعنى : بل ادراك علمهم : أي تكامل علمهم في الآخرة ، حين يعاينونها أي يعلمون في الآخرة علماً كاملاً ، ما كانوا يجهلونه في الدنيا ، وقوله : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أي في دار الدنيا ، فهذا الذي كانوا يشكون فيه في دار الدنيا ، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل ، يعلمونه في الآخرة علماً كاملاً لا يخالجه شك ، عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه من البعث ، والجزاء .

وإنما اخترنا هذا القول دون غيره من أقوال المفسرين في الآية لأن القرآن دل عليه دلالة واضحة في آيات متعددة كقوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لكن الظالمون اليوم فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم : 38] فقوله : أسمع بهم ، وأبصر يوم يأتوننا بمعنى ما أسمعهم وما أبصرهم للحق الذي كانوا ينكرونه يوم يأتوننا : أي يوم القيامة ، وهذا يوضح معنى قوله : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ أي تكامل علمهم فيها لمبالغتهم في سمع الحق وإبصاره في ذلك الوقت . وقوله : ﴿ لكن الظالمون اليوم فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم : 38] يوضح معنى قوله : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ لأن ضلالهم المبين اليوم : أي في دار الدنيا ، هو شكهم في الآخرة ، وعماهم عنها . وكقوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] أي علمك اليوم بما كنت تنكره في الدنيا مما جاءتك به الرسل حديد : أي قوي كامل .

(204/580)

وقد بينا في كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] في سورة الشورى ، في الجواب عما يتوهم من التعارض بين قوله تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى : 45] ، وقوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ﴾ [ق : 22] أن المراد بحدة البصر في ذلك اليوم : كمال العلم وقوة المعرفة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 12] فقوله :

إنا موقنون : أي يوم القيامة ، يوضح معنى قوله هنا : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً ﴾ [الكهف : 48] فعرضهم على ربهم صفاً يتدارك به علمهم ، لما كانوا ينكرونه . وقوله : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً ﴾ [الكهف : 48] صريح في أنهم في الدنيا كانوا في شك وعمى عن البعث والجزاء ، كما ترى إلى غير ذلك من الآيات .

واعلم أن قوله : بل ادارك فيه اثنتا عشرة قراءة اثنتان منها فقط سبعيتان ، فقد قرأه عامة السبعة ، غير ابن كثير وأبي عمرو : بل ادارك بكسر اللام من بل وتشديد الدال بعدها ألف والألف التي قبل الدال همزة وصل ، وأصله تدارك بوزن : تفاعل : وقد قدمنا وجه الإدغام ، واستجلاب همزة الوصل في تفاعل وتفعل وأمثلة ذلك في القرآن ، وبعض شواهده العربية في سورة طه في الكلام على قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف : 117] وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو : بل أدرك بسكون اللام من بل ، وهمزة قطع مفتوحة ، مع سكون الدال على وزن : أفعل .

والمعنى على قراءة الجمهور : بل ادارك علمهم : أي تدارك بمعنى : تكامل . كقوله : ﴿ حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً ﴾ [الأعراف : 38] وعلى قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو : بل أدرك .

قال البغوي : أي بلغ ولحق . كما يقال أدركه علمي إذا لحقه وبلغه ، والإضراب في قوله تعالى : ﴿ بَلِ ادارك ﴾ ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ إضراب انتقالين والظاهر أن من في قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ بمعنى عن ، وعمون جمع عم ، وهو الوصف من عمى يعمى فهو أعمى وعم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ [الأعراف : 64] وقول زهير في معلقته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(206/580)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

(يجيب) الإجابة هي تحقيق المطلوب لداعية ، والمضطر : هو الذي استنفد الأسباب ، وأخذ بها فلم تُجْدِ معه ، فليس أمامه إلا أنْ يترك الأسباب إلى المسبِّب سبحانه فيلجأ إليه ؛ ذلك لأن الخالق عز وجل قبل أنْ يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات حياته وضرورياتها

وسخَّرها لخدمته .

لذلك جاء في الحديث القدسي : " يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلي فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له " .

ثم خلق الله لك الطاقة التي تستطيع أن تُسخِّر بها هذه الأشياء وضمن لك القوت الضروري من ماء ونبات ، فإنْ أردتَ أنْ تُرفِّه حياتك فتحرك في الحياة بالأسباب المخلوقة لله ، وبالطاقة الفاعلة فيك ، وفكِّر كيف ترتقي وتُثرِي حركة الحياة من حولك .

فالماء الذي ينساب في داخل البيت حين تفتح الصنبور ، والضوء الذي ينبعث بمجرد أن تضغط على زر الكهرباء ، والسيارة التي تنقلك في بضع دقائق . . كلها ارتقاءات في حركة حياة الناس لما أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله من مادة وعقل وفكر وأسباب ، وهذه كلها يد الله الممدودة لعباده ، والتي لا ينبغي لنا ردّها .

فإذا ما حاولتَ ولم تفلح ، ولم تثمر معك الأسباب ، فعليك أنْ تلجأ مباشرة إلى المسبِّب سبحانه ، لأنه خالقك والمتكفِّل بك .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ [يونس : 12] ويا ليته ساعةَ دعا ربه ولجأ إليه فاستجاب له يجعل له عند ربه رَجْعة ، ويتوقع أنْ يصيبه الضُّر مرة أخرى ؛ لكن إنْ كشف الله عنه سرعان ما يعود كما كان .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 12] .

(207/580)

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ ﴾ [النمل : 62] فالمضطر إذن لا بدَّ أنْ يُجيبه الله ، فمَنْ قال : دعوتُ فلم يُستجب لي . فاعلم أنه غير مضطر ، فليست كل ضائقة تمرُّ بالعبد تُعَدُّ من قبيل الاضطرار ، كالذي يدعو الله أن يسكن في مسكن أفضل مما هو فيه ، أو براتب ودَخْل أوفر مما يأخذه . . الخ ، كلها مسائل لا اضطرارَ فيها ، وربما علم الله أنها الأفضل لك ، ولو زادك عن هذا القدر طغيتَ وتكبرتَ .

كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق : 67] .

فلقد طلبتَ الخير من وجهة نظرك ، وربُّك يعلم أنه لا خيرَ فيه ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء : 11] .

فربُّك يُصحِّح لك هذا الخطأ في فهمك للمسائل فيقول لك : سأحقق لك الخير ، لكن بطريقة أخرى أنسب من هذه ، فلو أجبتُك إلى ما تريد لحدث مَا لا تُحمد عقباه ، وكأن الله عز

وجل وهو ربُّنا والمتولِّي أمرنا يجعل على دعائنا (كنترول) ولو كان الله سبحانه موظفاً يلبي لكل مِنّا طلبه ما استحق أن يكون إلهاً حاشا لله .

فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع ، فلا بُدَّ للرب أن يتدخل في أقدار عبده بما يصلحه ، وأنْ يختار له ما يناسبه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب ، ولكل شيء عنده تعالى موعد وميلاد .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس : 11] .

أَلاَ ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه ، فإنْ عصاها في شيء أو ضايقها تقول رافعةً يديها إلى السماء (إلهي أشرب نارك) أو (إلهي أعمى ولا أشوفك) فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء ؟

إذن : من رحمته تعالى بنا أنْ يختار لنا ما يُصلِحنا من الدعاء ، ويُعافينا من الحمق والعجلة .

(208/580)

وقوله تعالى : ﴿ وَيَكْشِفُ السواء ﴾ [النمل : 62] فكما أنه لا يجيب المضطر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله ، ولو كان هناك إله آخر يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجَّه الناسُ إليه بالدعاء ، لكن حينما يُصاب المرء لا يقول إلا يا رب ، ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن يغشَّ نفسه في حال الضائقة أو المصيبة التي ألمت به .

وقد مثَّلنا لذلك ولله المثل الأعلى بحلاق الصحة في الماضي ، وكان يقوم بعمل الطبيب الآن ، فلما أنشئت كلية الطب وتخرَّج فيها أحد أبناء القرية اتجهتْ الأنظار إليه ، فكان الحلاق يذمُّ في الطب والأطباء ، وأنهم لا خبرةَ لديهم لتبقى له مكانته بين أهل القرية ، لكن لما مرض ابن الحلاق ماذا فعل ؟ إنْ غشَّ الناس فلن يغشَّ نفسه : أخذ الولد في ظلام الليل ولفّه في البطانية ، وذهب به إلى (الدكتور) الجديد .

لذلك يقول كل مضطر وكل مَنْ أصابه سوء : يا رب يا رب حتى غير المؤمن لا بُدَّ أن يقولها ، ولا بُدَّ أنْ يتجه بعينه وقلبه إلى السماء إلى الإله الحق ، فالوقت جِدّ لا مساومة فيه .

ويقول تعالى بعدها : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرض ﴾ [النمل : 62] أي : يخلفُ بعضكم بعضاً فيها ، كما قال : ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأرض كَمَا استخلف الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور : 55] .

فهل يملك هذه المسائل إلا الله : ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ [النمل : 62] والاستفهام هنا ينكر وجودَ إله غير الله يفعل هذا ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : 62] يعني : لو تفكرتُم

وتذكرتُم لعرفتم أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البر ﴾

هذه أيضاً من الأمور الخاصة التي تخصُّ بعض الناس دون بعض ، وكانت قبل تقدُّم العلم ، حيث كانت النجوم هي العلامات التي يهتدي بها الملاحون في البحر والمسافرون في البر ﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : 16] .

(209/580)

وقد برع في علوم الفلك والنجوم وفي علوم البحار علماء من العرب وضَعُوا أُسساً لهذه العلوم ، لا عن علم عندهم ، إنما عن مشاهدة لظواهر الكون ، وتوفيق وهداية من الله عز وجل .

وحين نتأمل ارتقاءات الإنسان في الحياة نجد أنها نتيجة مشاهدة حدثتْ صدفة ، أو حتى بطريق الخطأ ، وإلا فكيف اهتدى الإنسان إلى تخمير العجين ليخرج الخبز على هذه الصورة وبهذا الطعم ؟ لذلك يُسمُّون العجين : فطير وهو المبلط الذي لم يتخمر ، وخمير وهو الذي تخمَّر وارتفع قليلاً وتخلّله الهواء .

وقد نقلوا هذه المعنى للرأي ، يقولون : فلان رأيه فطير يعني : سطحي متعجل ، وفكرة

مختمرة يعني : مدروسة بتأنٍّ ، ومنه الفِطْرة يعني الشيء حين يكون على طبيعته .

وربما اكتشفتْ إحدى النساء مسألة الخمير هذه نتيجة خطأ أو مصادفة حين عجنتْ العجين ، وتأخرت في خَبْزه حتى خمر ، فلما خبزته جاء على هذه الصورة المحببة إلينا ، كذلك الأمر في اكتشاف البنسلين مثلاً ، والغواصات والبخار والعجلة . . الخ .

وتأمل مثلاً : لماذا نطبخ الملوخية ولا نطبخ النعناع ، إنها إذن هداية الله الذي خلق فسوَّى ، والذي قدَّر فهدى .

الحديد تعلمنا طَرْقه بعد إدخاله النار ليلين ؛ لأن الله تعالى علمها لنبيه داود عليه السلام حين قال ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الحديد ﴾ [سبأ : 10] .

إذن : كثير من اكتشافات الكون وارتقاءاته تأتي بهداية الله ، وكلما مرَّ الزمن تكشفتْ لنا أسرار الكون ، كلٌّ في ميعاده وميلاده الذي أراده الله ، إما أنْ يستنطبه الناس بمقدمات إذا جاء ميلاده ، وإلا فيأتي ولو مصادفة .

(210/580)

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : 255] فحين يشاء الله يكشف لك الأشياء ، ويُيسر لك أسبابها ، فإذا لم تنتبه لها أراكها

مصادفة ، ومن وسائل إعلام الله لخَلْقه مثلاً أهل البوادي ، ترى الواحد منهم متكئاً ينظر إلى السماء ويقول لك : السماء ستمطر بعد كم من الساعات ، وليس في السماء سحاب ولا غَيْمٌ يدل على المطر ، لكنه عرفها بالاستقراء والتجربة .

ومن هذه الهداية الإلهية أن ترى البهائم العجماوات وهي تأكل بالغريزة ، تأكل الحشيش الجاف ، ولا تأكل مثلاً النعناع الأخضر ، أو الريحان من أن رائحته جميلة ، لماذا ؟

لأنه جُعِل للرائحة الطيبة ، لكن طعمه غير طيب ، وإذا أكل الحيوان وشبع لا يمكن أن يأكل بعدها أبداً على خلاف الإنسان الذي يأكل حتى التخمة ، ثم الحلو والبارد والساخن ، ويقولون (أَرِهَا الألوان تريك الأركان) . أي : أَرِ معدتك ألوان الطعام وأصنافه ، تريك الأركان الخالية فيها .

لذلك تجد رائحة رَوَث الحيوان أقلّ كراهية من رائحة فضلات الإنسان ؛ لأنها تأكل بالغريزة التي خلقها الله فيها ، ونحن نأكل بالشهوة ، وبلا نظام نلتزم به .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياحَ بُشْرَاً ﴾ [النمل : 63] اي : مُبشّرات بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [النمل : 63] والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ [النمل : 63] أي : لا إله إلا الله يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ولا إله إلا الله يرسل الرياح تبشركم بالمطر ﴿ تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : 63] تنزَّه أن يكون له في كَوْنه شريك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ﴾

مسألة الخَلْق هذه لا يستطيعون إنكارها ، وقد سألهم الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] .

(211/580)

وفي موضع آخر : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] .

لأنهم لا يملكون إنكارها ، وإنْ أنكروها فالردّ جاهز : على مَنْ خلق أولاً أن يُرينا شيئاً جديداً من خَلْقه .

ومعنى ﴿ يَبْدَأُ الخلق ﴾ [النمل : 64] يعني : الخَلْق الأول من العدم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [النمل : 64] لأن الذي خلقنا من عدم كتب علينا الموت ، وأخبرنا بالغيب أننا سنُبعث يوم القيامة ، وسيعاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذين لم يملكوا إنكار الخلق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿ ق والقرآن المجيد * بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 13] .

فاستبعدوا البعث بعد الموت ، وتحلّل الأجساد في التراب . وهذه القضية خَاضَ فيها الفلاسفة بكلام طويل ، وللردّ عليهم نقول : أنتم في القوانين الوضعية تجعلون الثواب لمن أحسن ، والعقوبة لمن قصَّر ، وتُجرِّمون بعض الأعمال بعينها ، وتضعون لها العقوبة المناسبة ، وفي القانون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولم نَرَ في القانون الوضعي جريمة تُرِكت بلا عقوبة ، فإذا كان البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين التي تنظم حياتهم ، أليس رب البشر أوْلَى بقانون الثواب والعقاب ؟ وإذا كنتَ لا ترضي لنفسك أنْ يفلتَ المجرم من العقاب ، فكيف ترضى ذلك لله ؟

ثم ألا تعلم أن كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم في غفلة من القانون ، أو يُعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ، ويُفلِتون من القوانين الوضعية في الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً في الآخرة فهم إذن الفائزون ، وسوف نشجع بذلك كل منحرف خارج عن القانون .

(212/580)

أما إنْ علم أن له رباً قيوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّي على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يُفلِتَ أبداً من عقاب الآخرة إنْ علم ذلك استقام

.

لكن ، ما وجه استبعادهم للبعث ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [ق : 3] .

يقولون : هَبْ إن إنساناً مات ودُفِن وتحلّل جسده إلى عناصر امتصتها الأرض ، ثم غُرِسَت شجرة في هذا المكان وتغذّت على هذه العناصر ، وأكل من ثمارها عدة أشخاص ، وانتقلت جزئيات الميت إلى الثمار ثم إلى من أكل منها ، فحين يُبعث الخَلْق يوم القيامة فلأيِّهما تكون هذه الجزئيات : للأول أم للثاني ؟ إذا بعثتها للأول كانت نقصاً في الثاني ، وإنْ بعثتها للثاني كانت نقصاً في الأول .

وهذا الكلام منهم على سبيل أن الشخص مادة فقط ، لكن التشخيصات مادة ومعنى .

وهَبْ أن شخصاً بديناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض أهزله حتى قَلَّ وزنه إلى خمسين كيلو مثلاً ، ثم عُولج وتحسنت صحته حتى عاد كحالته الأولى .

فهل الجزئيات التي نقصت من وزنه هي نفسها التي دخلتْ فيه بالصحة والتغذية ؟ بالطبع لا ، أتغيرتْ شخصيته بهذا النقص ، أو بهذه الزيادة ؟ لا ، بل هو هو .

إذن : للشخص جزئيات مختلفة التكوين ، وله معنى وروح ، ساعةَ تتجمع هذه الأشياء يأتي الشخص المراد .

لذلك يقول تعالى رداً على هؤلاء المتفلسفين : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4] .

فلماذا تستبعدون الإعادة بعد الموت وقد أقررتُم بالخَلْق الأول واعترفتم بأن الله هو الخالق

، وأليست الإعادة من موجود أهونَ من الخَلْق بدايةً من العدم ؟ ثم إن الإعادة تحتاج إلى قدرة على الإبراز وإلى علم .

أما العلم ، فالحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : 4] يعني : يعلم وزنك ، ويعلم جزئياتك ، لا يغيب منها ذرة واحدة .

(213/580)

أما القدرة ، فقد آمنتُم بها حين أقررتُم بقدرته تعالى على الخَلْق من عدم ، والإعادة أهون من الإنشاء الأول ﴿ وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27]

.

وإنْ كان الخالق عز وجل لا يُقَال في حقه هيِّن وأهْون ، لكنها بعُرْفكم أنتم ، وبما يُقرِّب المسألة إلى أذهانكم .

وفي القدرة أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بالخلق الأول ﴾ [ق : 15] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [النمل : 64] .

الرزق : كلُّ ما يُنتفع به ، وهو إما من السماء وإما من الأرض ، وإما من التقائهما حين ينزل الماء من السماء ، ويختلط بتربة الأرض فيخرج النبات .

﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ [النمل : 64] يكرر نفس الاستفهام السابق لتأكيد أنه لا إله إلا الله يأتيكم بهذه النعم .

﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : 64] أي : هاتوا الدليل على وجود إله آخر يقول : أنا الذي بدأتُ الخَلْق ، وأنا الذي أرزق من السماء والأرض ، فإذا لم يأْتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوة لصاحبها حيث لم يَقُم معارضَ ودَعْك من مسألة الإعادة هذه ، يكفي أن يدعي الخَلْق ؛ لأن القادر على الخَلْق قادر على الإعادة ، فلا يستحيل على الذي خلق من أنْ يُعيد من موجود .

لكن ، ما مناسبة الكلام عن الرزق من السماء والأرض بعد مسألة الإعادة ؟ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقة بينهما ، فللرزق الذي يأتي عن طريق التقاء ماء السماء بتربة الأرض وهو النبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته ، حيث يتغذى الإنسان على نبات الأرض ، ويأخذ منه حاجته من الطاقة والغذاء ، وما تبقى منه يخرج على صورة فضلات تتحلل في الأرض ، حتى ما تبقَّى منها في جسم الإنسان يتحلل بعد موته إلى عناصر الأرض .

(214/580)

فالوردة مثلاً بعد نضارتها وطراوتها وجمالها حيث تُقطف تجفّ ويتبخر ماؤها ، وكذلك اللون والرائحة في الأثير الجوي ، وما تبقى منها من مادة جافة تتحلل في التربة ، فإذا ما زرعنا وردة أخرى ، فإنها تتغذى على ما في التربة من عناصر ، ما في الأثير الجوي من لون ورائحة .

إذن : فعناصر التكوين في الكون لم تَزِدْ ولم تنقص منذ خلق الله الخَلْق ، ولدورة النبات في الطبيعة بدء ونهاية وإعادة أشبه ما تكون بخَلْق الإنسان ، ثم موته ، ثم إعادته يوم القيامة .

وكأن الحق تبارك وتعالى يعطينا الدليل على الإعادة بما نراه من دورة النبات ، دليلاً بما نراه على الغيب الذي لا نراه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات ﴾

كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأنعام : 59] .

والغيب : كلّ ما غاب عن إدراكك وحِسِّك ، لكن مرة يكون الغيب غيباً إضافياً يغيب عنك ، ولا يغيب عن غيرك ، فأنا لا أعرف مثلاً ما في جيوبكم لكن أنتم تعرفون ، والذي سُرِق منه شيء وأخفاه السارق ، فالمسروق منه لا يعلم أين هو ، لكن السارق يعلم .

وإما يكون الغيب غيْباً مطلقاً ، وهو ما غاب عنّا جميعاً وهو قسمان : قسم يغيب عنا جميعاً ، لكن قد نكتشفه ككل الاكتشافات التي اهتدى إليها البشر . وهذه يكون لها

مقدمات تُوصِّل إليها ، وهذا غيب نصف إضافي ؛ لأنه غيب اليوم لكن نراه مشهداً بعد ذلك ، فلا يكون غيباً .

ومثال ذلك : تمرين الهندسة الذي نعطيه للأولاد بمقدّمات ومعطيات ، يُعمِلون فيها عقولهم حتى يتوصلوا إلى الحل المطلوب ، وهذا النوع يقول الله عنه : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : 255] .

(215/580)

فإذا شاء الله وجاء ميلاد هذا الغيب أطلعهم الله تعالى على المقدمات التي توصّل إليه ، إما بالبحث ، وإما حتى مصادفة ، وهذا يؤكده قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفِي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت : 53] .

ومن الغيب المطلق غَيْب حقيقي ، لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله فقد استقبل سبحانه وتفرَّد بمعرفته ، وهذا الغيب يقول تعالى عنه : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن : 2627] .

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ [النمل : 65] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مُقدّمات

وعلامات تدلُّ عليها وتُنبىء بقُرْبها .

قال عنها : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] البعض يظن أن ﴿ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] يعني : أداريها وأسترها ، لكن المعنى ليس كذلك ﴿ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] يعني : أزيل خفاءها ، ففرْق بين خَفي الشيء وأخفاه : خَفَى الشيء عني : ستره وداراه ، أما أخفاه فيعني : أظهره ، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة ، مثل : أعجم الشيء يعني : أزال عُجْمته .

ومنه المعجم الذي يُوضِّح معاني المفردات .

وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتضعيف . نقول : مرض فلان يعني : أصابه المرض ، ومرَّض فلاناً يعني : عالجه وأزال مرضه ، ومنه : قشَّر البرتقالة : يعني أزال قشرها .

فالمعنى ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] أي : أكاد أُظهِرها ، ألاَ ترى أن للساعة علامات كبرى وعلامات صغرى ، نرى بعضها الآن ، وتتكشف لنا من الأيام علامة بعد أخرى .

لكن يظل للقيامة وقتها الذي لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك يقول عنها : ﴿ لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] .

والنبي صلى الله عليه وسلم يفتخر بأنه لا يعلم موعدها ، فيقول حين سُئِل عنها : " ما المسئول عنها بأعلم من السائل " .

فشَرَفٌ لرسول الله ألاَّ يعلم شيئاً استأثر الله بعلمه ، والقيامة غَيْبٌ مطلق لم يُعْطِ الله مفاتحه لأحد حتى الرسل .

وقد يُكرِم الله تعالى بعض خَلْقه ، ويُطلِعه على شيء من الغيب ، ومن ذلك الغيبيات التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يكون لها مُقدّمات توصّل إليها ، فلا بُدَّ أنها أتته في وحي القرآن ، كما في قوله تعالى : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِين ﴾ [الروم : 14] .

وكان الروم أقرب إلى الله ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان الفرس كفاراً يعبدون النار ، لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته يتمنْون انتصار الروم على الفرس ، فنزل الوحي على رسول الله يخبره ﴿ غُلِبَتِ الروم ﴾ [الروم : 2] لكنهم في النهاية ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم : 3] ولولا أن الله تعالى حدد غلبهم ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم : 4] لكان انتصارهم دائماً ، لكن مَنْ يستطيع تحديد مصير معركة بين قوتين عُظميين بعد بضع سنين إلا الله ؟

ولأن انتصار الروم يُفرِح المؤمنين بالله ، قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله ﴾ [الروم : 45] .

وتشاء قدرة الله أنْ يأتيَ انتصار الروم على الفرس في نفس اليوم الذي انتصر فيه المؤمنون على الكافرين في بدر .

ومن الغيب الذي يفيض الله به على عبد من عباده ما حدث من الصِّديق أبي بكر رضي الله عنه وقد أعطى ابنته عائشة رضي الله عنها مالاً ، فلما حضرتْه الوفاة قال لها : هاتي ما عندك من المال ، إنما هما أخواك وأختاك : أخواك هما محمد وعبد الرحمن ، وأختاك : لا نعلم أن لعائشة أختاً غير أسماء ، فمن هي الأخرى ؟

(217/580)

كان الصِّديق قد تزوج من ابنة خالته وكانت حاملاً ، لكن الحق تبارك وتعالى تجلى عليه وألهمه أنها ستُنجب بنتاً تنضم إلى عائشة وأسماء .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل : 65] أي : كما أننا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده ، كذلك لا نشعر بالبعث ، ولا متى سنُبعث .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ ﴾

معنى ﴿ ادارك ﴾ [النمل : 66] أي : تدارك ، يعني : توالى وتتابع الحديث عنها عند كل الرسل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا ادارَكوا فِيهَا ﴾ [الأعراف : 38] يعني :

جُمِع بعضهم على بعض .

إذن : تتابع الإعلام بالآخرة عند كل رسل الله ، فما منهم إلا وقد دعا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأتى بالدليل عليه .

ومع متابعة التذكير بالآخرة قال الله عنهم ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ [النمل : 66] أي : من الآخرة ، فلماذا ؟ يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل : 66] أي : عميتْ أبصارهم وبصائرهم عنها ، فلم يهتدوا ، ولو تفتحتْ عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها .

يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور ﴾ [الحج : 46] .

إذن : هناك شيء موجود بالفعل ، لكني أغفلته ، أو تغافلت عنه بإرادتي ، فآيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة ، لكن الناس عَمُوا عنها فلم يَرَوْها .

ومعنى : ﴿ عَمُونَ ﴾ [النمل : 66] جمع عَمٍ ، وهو الذي عميتْ بصيرته عن دلائل القيامة الواضحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(218/580)

فائدة

قال التستري :

قوله : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ [65]

قال : أخفى غيبه عن المخلوقين بجبروته ، ولم يطلع عليه أحداً ، لئلا يأمن أحد من عبيده مكره ، فلا يعلم أحد ما سبق له منه ، فيكون همهم في إبهام العواقب ومجاري السوابق ، لئلا يدعو ما لا يليق بهم من أنواع الدعاوى في المحبة والمعرفة وغير ذلك .

قال : كان مائة ألف صديق ظاهرين للخلق ، حتى كان لا يسمع أصوات الميازيب بيت المقدس من المجتهدين بالميل ، فلما ظهر شيئان ، سألوا الله تعالى فأماتهم دعوى الحب ودعوى التوكل .

فقيل له في القول قول الحارث حيث قال : سهرت ليلي وأظمأت نهاري .

فقال : يعني لا حاجة لي إلى الكشف ، لأنه حظ الكفار في الدنيا ، فأنا لا أشاركهم في حظهم ، فلذلك قلت : أنا مؤمن .

قيل له : قوم يقولون مثل ما قال الحارث ، فقال : دعواهم باطلة ، وكيف تصح لهم الدعوى ، ولم يدع ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وكانت شعرة في صدرهما أفضل من الحارث ، وإنما قال ذلك الحارث رضي الله عنه لا بنفسه ، وإنما أظهر الله ذلك فتنة لمن بعده من

المدعين ، فكيف يصح لهؤلاء أن يدعوا ذلك لأنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 117 ﴾

(219/580)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

والمُضْطَرُّ : اسمُ مفعولٍ . مأخوذٌ مِنْ اضْطُرَّ ، ولا يُسْتعمل إلاَّ مبنياً للمفعول . وإنما كُرِّر الجَعْلُ هنا ، ولم يُشْرَكْ بين المعمولاتِ في عاملٍ واحد ، لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنْ هذه منه مستقلةٌ فَأَمْرَرَها في جملةٍ مستقلةٍ بنفسِها .

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)

قوله : ﴿ بُشْرًا ﴾ : قد تقدَّم في الأعراف .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

قوله : ﴿ إِلَّا اللهُ ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه فاعلُ "يَعْلَمُ" و "مَنْ" مفعولُه . و "الغيبَ

" بدلٌ مِنْ " مَنْ السماواتِ " أي : لا يعلمُ غيبَ مَنْ في السماواتِ والأرضِ إلاَّ اللهُ أي : الأشياءَ الغائبةَ التي تَحْدُثُ في العالَمِ . وهو وجهٌ غريبٌ ذكره الشيخ . الثاني : أنه مستثنى متصلٌ مِنْ " مَنْ " ، ولكن لا بُدَّ من الجمعِ بين الحقيقةِ والمجازِ في كلمةٍ واحدةٍ على هذا الوجهِ بمعنى : أنَّ عِلْمَه في السماوات والأرضِ ، فيَنْدَرِجُ في ﴿ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ بهذا الاعتبارِ وهو مجازٌ وغيرُه مِنْ مخلوقاتِه في السماواتِ والأرضِ حقيقةٌ ، فبذلك الاندراجِ المُؤَوَّل اسْتُثْنِي مِنْ " مَنْ " وكان الرفعُ على البدلِ أَوْلَى لأنَّ الكلامَ غيرُ موجَبٍ .

(220/580)

وقد رَدَّ الزمخشريُّ هذا : بأنه جَمْعٌ بين الحقيقةِ والمجازِ ، وأوجبَ أن يكونَ منقطعاً فقال : " فإنْ قلتَ : لِمَ رُفِعَ اسمُ اللهِ ، واللهُ يتعالى أن يكونَ مِمَّنْ في السماواتِ والأرض ؟ قلت : جاء على لغةِ بني تميمٍ حيث يقولون : " ما في الدار أحدٌ إلاَّ حمارٌ " يريدون : ما فيها إلاَّ حمارٌ ، كأنَّ " أحداً " لم يُذْكَرْ . ومنه قولُه :

3577 عَشِيَّةَ ما تُغْني الرِّماحُ مكانَها . . . ولا النَّبْلُ إلاَّ المَشْرَفِيُّ المُصَمِّمُ

وقولُهم : " ما أتاني زيدٌ إلاَّ عمروٌ ، وما أعانني إخوانكم إلاَّ إخوانُه " . فإنت قلت : ما الداعي إلى اختيارِ المذهبِ التميمي على الحجازي ؟ قلت : دَعَتْ إليه نُكْتَةٌ سِرِّيَّةٌ حيث

أُخْرِجِ المستثنى مُخْرَجَ قولِه :

3578 إلاَّ اليَعافِيرُ . . . . . بعد قوله :

(221/580)

3579 . . . . . لَيْسَ بها أنيسُ . . . لِيَؤُوْلَ المعنى إلى قولك : إنْ كان اللهُ مِمَّنْ في السماوات والأرضَ فهم يعلمون الغيبَ . يعني : أنَّ عِلْمَهم الغيبَ في استحالتِه كاستحالةِ أن يكونَ اللهُ منهم . كما أنَّ معنى ما في البيت : إنْ كانت اليعافيرُ أَنيساً ففيها أنيسٌ ، بَتَّاً للقولِ بخُلُوِّها من الأنيسِ . فإن قلت : هَلاَّ زَعَمْتَ أن اللهَ مِمَّنْ في السماواتِ والأرضِ ، كما يقول المتكلمون : " إنَّ اللهَ في كلِّ مكان " على معنى : أنَّ عِلْمَه في الأماكن كلها ، فكأنَّ ذاتَه فيها حتى لا يُحْمَل على مذهبِ بني تميمٍ " قلتُ : يأبى ذلك أنَّ كونَه في السمواتِ والأرضِ مجازٌ ، وكونَهم فيهنَّ حقيقةٌ ، وإرادةُ المتكلمِ بعبارةٍ واحدةٍ حقيقةً ومجازاً غيرُ صحيحٍ . على أنَّ قولَك " مَنْ في السماوات والأرض : وجَمْعَك بينه وبينهم في إطلاقِ اسمٍ واحدٍ ، فيه إيهامُ تَسْوِيةٍ ، والإيهاماتُ مُزَالةٌ عنه وعن صفاتِه . ألا ترى كيف " قال عليه السلام لمَنْ قال : " ومَنْ يَعْصِهما فقد غوى " " بِئْسَ خطيبُ القومِ أنت " " قلت : فقد رَجَّحَ الانقطاعَ واعتذر عن ارتكابِ مذهبِ التميمين بما

ذَكَر . وأكثرُ العلماءِ أنه لا يُجْمَعُ بين الحقيقةِ والمجازِ في كلمةٍ واحدة . وقد قال به الشافعيُّ " .

قوله : ﴿ أَيَّانَ ﴾ هي هنا ، بمعنى " متى " / وهي منصوبةٌ ب "يُبْعَثون" فتعلُّقُه ب " يَشْعُرون " فهي مع ما بعدها في محلِّ نصب بإسقاطِ الباءِ أي : ما يَشْعرون بكذا . وقرأ السُّلميُّ " إيَان " بكسرِ الهمزة ، وهي لغةُ قومِه بني سُلَيْم .

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66)

(222/580)

قوله : ﴿ ادارك ﴾ : قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ونافع " أَدْرَكَ " كأَكْرم . والباقون من السبعةِ " ادَّارك " بهمزةِ وَصْلٍ ، وتشديدِ الدالِ المفتوحةِ ، بعدها ألفٌ . والأصلُ : تَدارك وبه قرأ أُبَيٌّ ، فأُريد إدغامُ التاءِ في الدالِ فأُبْدِلَتْ دالاً ، وسُكِّنَتْ فتعذَّر الابتداءُ بها لسكونِها ، فاجْتُلِبَتْ همزةُ الوصلِ فصار ادَّارك كما ترى ، وتحقيقُ هذه قد تقدَّم في رأسِ الحزبِ من البقرة : ﴿ فادارأتم فِيهَا ﴾ [البقرة : 72] . وقراءةُ ابنِ كثير قيل : تَحْتمل أن يكونَ أَفْعَلُ فيها بمعنى تَفاعَلَ فتتَّحِدَ القراءتان . وقيل : أَدْرَكَ بمعنى بَلَغَ وانتهى . وقرأ سليمان وعطاء ابنا يَسار " بل ادَّرَكَ " بفتحِ لامِ " بل " وتشديد الدالِ دونَ ألفٍ بعدَها . وتخريجُها :

أنَّ الأصلَ ادَّرك على وزن افْتَعَل فأُبْدِلَتْ تاءُ الافتعال دالاً لوقوعِها بعد الدال . قال الشيخ : " فصار فيه قَلْبُ الثاني للأولِ كقولِهم : اثَّرَدَ ، وأصلُه اثْتَرَدَ من الثَّرْدِ " . انتهى . قلت : ليس هذا مما قُلِب فيه الثاني للأولِ لأجلِ الإدغام كـ اثَّرَدَ في اثْتَرَدَ ؛ لأنَّ تاءَ الافتعال تُبدَلُ دالاً بعد أحرفٍ منها الدالُ نحو : ادَّان في افْتَعَل من الدَّيْن فالإبدالُ لأجلِ كونِ الدالِ فاءً لا للإدغام ، فليس مثلَ اثَّرَدَ في شيءٍ فتأمَّلْه فإنه حَسَنٌ . فلمَّا أُدْغِمَت الدالُ في الدال أُدْخِلَتْ همزةُ الاستفهامِ فسقَطَتْ همزةُ الوصلِ فصار اللفظُ " أَدْرَكَ " بهمزةِ قطعٍ مفتوحةٍ ، ثم نُقِلَتْ حركةُ هذه الهمزةِ إلى لامِ " بل " فصار اللفظ : " بَلَ دَّرَكَ " .

وقرأ أبو رجاءٍ وشيبةُ والأعمشُ والأعرجُ وابنُ عباس ، وتروى عن عاصم كذلك ، إلاَّ أنَّه بكسرِ لام " بل " على أصلِ التقاءِ الساكنين ، فإنهم لم يَأْتوا بهمزةِ استفهامٍ .

(223/580)

وقرأ عبد الله وابن عباس والحسن وابن محيصن " أادْرَكَ " بهمزةٍ ثم ألفٍ بعدَها . وأصلُها همزتان أُبْدِلَتْ ثانيتُهما ألفاً تخفيفاً . وأنكرها أبو عمرٍو . قلت : وقد تقدَّم أولَ البقرةِ أنه قُرِئَ " أَأَنْذَرْتَهم " بألفٍ صريحةٍ فلهذه بها أسوةٌ . وقال أبو حاتم : " لا يجوزُ الاستفهامُ بعد " بل " لأنَّ " بل " إيجاب ، والاستفهامُ في هذا الموضعِ إنكارٌ بمعنى : لم يكن ، كقولِه تعالى ﴿

أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف : 19] أي : لَم يَشْهدوا ، فلا يَصِحُّ وقوعُهما معاً للتنافي الذي بين الإيجاب والإنكار " . قلت : وفي منع هذا نظرٌ ؛ لأنَّ " بل " لإضراب الانتقال ، فقد أضربَ عن الكلام الأول ، وأَخَذَ في استفهامٍ ثانٍ . وكيف يُنْكَرُ هذا والنَّحْويون يُقَدِّرون " أم " المنقطعة ب بل والهمزة ؟ وعجِبْتُ من الشيخ كيف قال هنا : " وقد أجاز بعضُ المتأخرين الاستفهامَ بعد " بل " وشبهه ؟ يقول القائل : " أخبزاً أكلْتَ ، بل أماءً شرِبْتَ " على تَرْكِ الكلامِ الأولِ والأَخْذِ في الثاني " .

انتهى فتخصيصُه ببعضِ المتأخرين يُؤْذِنُ أن المتقدّمينَ وبعضَ المتأخرين يمنعونه ، وليس كذلك لِما حَكَيْتُ عنهم في " أم " المنقطعةِ .

وقرأ ابنُ مسعودٍ " بل أأَدْرَكَ " بتحقيقِ الهمزتين . وقرأ ورش في رواية " بلَ ادْرَكَ " بالنقل . وقرأ ابنُ عباس أيضاً " بلى ادْرَك " بحرف الإيجاب أختِ نَعَم . و " بَلى آأَدْرك " بألفٍ بين الهمزتين . وقرأ أُبَيٌّ ومجاهد " أم " بدلَ " بل " وهي مخالفةٌ للسَّواد .

(224/580)

قوله : ﴿ فِي الآخرة ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ " في " على بابها و " أَدْرَك " وإن كان ماضياً لفظاً فهو مستقبلٌ معنىً ؛ لأنه كائنٌ قطعاً كقوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1]

وعلى هذا ف "في" متعلقٌ ب "ادّارك" . والثاني : أنَّ "في" بمعنى الباء أي بالآخرة .

وعلى هذا فيتعلَّق بنفسِ عِلْمِهم كقولِك : "عِلْمي بزيدٍ كذا" . وأمَّا قراءةُ مَنْ قرأ "بلى" فقال الزمخشري : "لَمَّا جاء ب "بلى" بعد قولِه : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ كان مَعْناه : "بلى يَشْعُرون" ثم فَسَّر / الشعورَ بقولِه ﴿ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ على سبيلِ التهكمِ الذي معناه المبالغةُ في نَفْيِ العلمِ" ثم قال : و "أمَّا قراءةُ "بلى أأَدْرك" على الاستفهامِ فمعناه : بلى يَشْعُرون متى يُبْعثون . ثم أنكر علمَهم بكونِها ، وإذا أنكر علمَهم بكونِها لم يتحصَّلْ لهم شعورٌ بوقتِ كونِها ؛ لأنَّ العلمَ بوقتِ الكائنِ تابعٌ للعلم بكونِ الكائنِ" ثم قال : "فإنْ قلتَ ما معنى هذه الإضراباتِ الثلاثةِ ؟ قلت : ما هي إلاَّ تنزيلٌ لأحوالِهم ، وَصَفَهم أولاً بأنهم لا يَشْعُرون وقتَ البعثِ ثم بأنَّهم لا يعلمون أنَّ القيامةَ كائنةٌ ثم بأنَّهم يَخْبِطُون في شكٍّ ومِرْيَة" . انتهى .

فإنْ قِيل : "عَمِيَ" يتعدى ب "عن" تقول : عَمِيَ فلانٌ عن كذا فلِمَ عُدِّيَ ب "مِنْ" في قولِه : "مِنْها عَمُوْن" ؟ فالجوابُ : أنه جَعَلَ الآخرةَ مَبْدأ عَماهم ومَنْشَأَه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 632.638 ﴾

(225/580)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ .

فَصَلَ بين الإجابة وبين كَشْفِ السوء ؛ فالإجابةُ بالقَولِ والكشفُ بالطَّوْلِ ، الإجابة بالكلام والكشفُ بالإنعام . ودعاءُ المضطر لا حجابَ له ، وكذلك دعاء المظلوم ولكن ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد : 38] .

ويقال للجناية : سراية ؛ فَمَنْ كان في الجناية مختاراً فليس تسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جُرْمِه الذي سَلَفَ منه وهو مختارٌ فيه ، فأكثر الناس يتوهمون أنهم مضطرون ، وذلك الاضطرار سراية ما بَدَرَ منهم في حال اختيارهم .

وما دام العبدُ يتوهم من نفسه شيئاً من الحَوْلَ والحيلة ، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه أو يستند إليه – فليس بمضطرٍ ، فالمضطرُّ يرى نَفْسَه كالغريق في البحر ، أو الضَّالِّ في المتاهة ، وهو يرى عِنَانَه بيد سَيِّدِه ، وزِمَامه في قبضته ، فهو كالميت بين يدي غاسِله ، وهو لا يرى لنفسه استحقاقاً للنجاة ؛ لاعتقاده في نفسه أنه من أهل السخط ، ولا يقرأ اسمه إلا من ديوان الشقاوة .

ولا ينبغي للمضطر أن يستعين بأحدٍ في أن يدعوَله ، لأنَّ اللَّهَ وَعَدَ الإجابة له . . . لا لمن يدعو له .

ثم كما وَعَدَ المضطرَّ الإجابةَ وكَشْفَ السوء وَعَدَه بقوله : –

﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأَرْضِ أَءِلَه مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

فإنَّ مع العسر يسراً ، ولم يقل : العسر إزالة ، ولكن قال : مع العسرِ يُسْرٌ ؛ فنهارُ اليُسْرِ حاصلٌ بعد ظلام العُسْرِ .

ثم قال : ﴿ أَءِلَه مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ لأنَّ العبدَ إذا زَالَ عُسْرُهُ ، وكُشِفَ عنه ضُرُّه نَسِيَ ما كان فيه ، وكما قال القائل :

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكتسى . . . ولم يَكُ صعلوكاً إذا ما تَمَوَّلاَ

(226/580)

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ .

إذا أظلم الوقتُ على صاحبه في متعارض الخواطر عند استبهام وجه الصواب ، وضاق الأمرُ بسبب وحشة التدبير وظلمات أحوال التجويز ، والتحيُّر عند طلب ترجيح بعض الخواطر على بعضٍ بشواهد العقل . . فَمَنْ الذي يرشدكم لوجه الصواب بتَركِ التدبير ، وللاستسلام لحكم التقدير ، وللخروج من ظلمات مجوَّزات العقول إلى قضايا شهود التقدير ، وتفويض الأمر إلى اختيار الحق ، والاستسلام لما جَرَتْ به الأقسامُ ، وسبَقَت به

الأقدار ؟ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَى رَحْمَتِهِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

مَنْ الذي يُرْسِلُ رياحَ فَضْلِه بين يدي أنوار اختياره فيمحوَ آثارَ اختيارِ نَفْسِك ، ويعجّلَ بحُسنْ الكفاية لك ؟

ويقال : يرسل رياحَ التوكل فيُطَهِّرُ القلوبَ من آثار الاختيار وأوضار التدبير ، ثم يُطْلِعُ شموسَ الرضا فيحصل بَردُ الكفاية فوق المأمول في حال سكينة القلب . . ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ ؟

﴿ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : من إحالة المقادير على الأسباب .

أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (64)

يُظِهرُ ما يُظْهِرُ بقدرته على مقتضى سابق حُكْمِه ، ويخصص ما تعلقت به مشيئته وحقّ فيه قولُه ، وسَبَقَ به قضاؤه وقَدَرُه فإذا زال وانتفى وانعدم بعضُ ما يظهر ويخصص . . فَمَنْ الذي يعيده مثلما بدأه ؟ ومن الذي يضيِّق الرزقَ ويُوَسِّعُه ؟ ومن الذي يقبض في بعض الأوقات على بعض الأشخاص ؟ وفي وقت آخر مَنْ الذي يبسط على قوم آخرين ؟ هل في قدرة أحدٍ غيرِ اللَّهِ ذلك ؟

إِنْ توهمتم شيئاً منذ لك فأَوْضِحُوا عنه حُجَّتَكم . . وإذ قد عجزتم . . فهلاَّ صَدَّقْتُم ؟ وبالتوحيد أقررتم ؟ .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

﴿ الْغَيْبَ ﴾ : ما لا يطلع عليه أحد ، وليس عليه للخلْق دليل ، وهو الذي يستأثر بعلمه الحقُّ ، وعلومُ الخَلْق عنه متقاصرة ، ثم يريد اللَّهُ أن يخصَّ قوماً بعلمه أفردهم به .

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ : فإنه أخفى علَم الساعة عن كل أحدٍ .

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66)

فهم في الجملة يَشُكُّون فيه ؛ فلا ينفونه ولا بالقطع يجحدونه . . وهكذا حُكْمُ كلِّ مريضٍ القلب ، فلا حياةَ له في الحقيقة ، ولا راحةَ له من يأسه ، إذ هو من البعث في شكٍّ ، ومن الحياة الثانية في استبعاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 44 . 47 ﴾

(228/580)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) ﴾

التفسير : لما فرغ من توبيخ المنافقين حث جمع المكلفين على مواساة الرسول وموازرته كما واساهم بنفسه في الصبر على الجهاد والثبات في مداحض الأقدام . والأسوة القدوة وهو المؤتسى به أي المقتدى به ، فالمراد أنه في نفسه كما تقول في البيضة عشرون منا حديداً اي هي في نفسها هذا المبلغ من الحديد .

(229/580)

والمراد أن فيه خصلة هي المواساة بنفسه فمن حقها أن يؤتسى بها وتتبع . قال في الكشاف : قوله ﴿ لمن كان ﴾ بدل من قوله ﴿ لكم ﴾ وضعف بأن بدل الكل لا يقع من ضمير المخاطب فالأظهر أنه وصفة الأسوة . والرجاء بمعنى الأمل أو الخوف . وقوله ﴿ يرجو الله واليوم الآخر ﴾ كقولك : رجوت زيداً وفضله أي رجوت فضل زيد ، أو اريد يرجو ايام الله واليوم الآخر خصوصاً . وقوله ﴿ وذكر ﴾ معطوف على ﴿ كان ﴾ وفيه أن المقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي واظب على ذكر الله وعمل ما يصلح لزاد المعاد . ثم حكى أن ما ظهر من المؤمنين وقت لقاء الأحزاب خلاف حال المنافقين .

وقوله ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى الخطب أو البلاء . عن ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : إن الأحزاب سائرون إليكم تسعاً أو عشراً اي في آخر تسع ليال أو عشر ، فلما رأوهم قد اقبلوا للميعاد قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وقد وقع . ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ في كل وعد ﴿ وما زادهم إلا إيماناً ﴾ بمواعيده إلا فساد همهم بقتل نبيهم . والتقاسم التحالف فإن كان أمراً فظاهر وإن كان خبراً فمحله نصب بإضمار " قد " اي قالوا متقاسمين : والتبييت العزم على إهلاك العدوّ ليلاً . وأشير على الإسكندر بالبيات فقال : ليس من آيين الملوك استراق الظفر . قال في الكشاف " كأنهم اعتقدوا أنهم إذا بيتوا صالحاً وبيتوا أهله فجمعوا بين البياتين . ثم قالوا لولاة دمه : ما شهدنا مهلك أهله فإذا ذكروا أحدهما كانوا صادقين لأنهم فعلوا البياتين جميعاً لا أحدهما . قلت : إنما ارتكب هذا التكليف لأنه استقبح أن يأتي العاقل بالخبر على خلاف المخبر عنه . يروى أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا : زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فخرجوا إلى الشعب مبادرين وقالوا : إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم فهذا مكرهم ، فبعث الله صخرة فطبقت عليهم فم الشعب

فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم ، وعذب الله كلاً في مكانه ونجى صالحاً ومن معه وهذا مكر الله . وقيل : جاؤا بالليل شاهري سيوفهم وقد أرسل الله الملائكة فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولا يرون رامياً . من قرأ ﴿ أنا دمرناهم ﴾ بالفتح فمرفوع المحل بدلاً من العاقبة أو خبراً لمحذوف أي هي تدميرهم ، أو منصوب على أنه خبر "كان" أي كان عاقبة مكرهم الدمار ، أو مجرور تقديره : لأنا وجوز في الكشاف على هذا التقدير أن يكون منصوباً بنزع الخافض . وانتصب ﴿ خاوية ﴾ على الحال والعامل معنى الإشارة في تلك . وإنما قال في هذه السورة ﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ موافقة لما بعده ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ ﴿ وأمطرنا ﴾ وكله على "أفعل" .

وقال في "حم السجدة" ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [فصلت : 18] موافقة لما قبله وما بعده وزينا وقيضنا والله أعلم .

(231/580)

القصة الخامسة قصة لوط ﴿ و ﴾ انتصب ﴿ لوطاً ﴾ بإضمار "اذكر" أو بما دل عليه ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ و "إذ" بدل على الأول بمعنى مجرد الوقت ظرف على الثاني ، و ﴿

يبصرون ﴾ إما من بصر الحاسة فكأنهم كانوا معلنين بتلك المعصية في ناديهم ، أو أراد ترون آثار العصاة قبلكم ، أو من بصر القلب والمراد تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا بمثلها ، وعلى هذا فمعنى قوله ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾ أنكم تفعلون فعل الجاهلية بأنها فاحشة مع علمكم بذلك ، أو اراد جهلهم بالعاقبة ، أو اراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها . أو الخطاب في قوله ﴿ تجهلون ﴾ تغليب ولو قرئ بياء الغيبة نظراً إلى الموصوف وهو قوم لجاز من حيث العربية ، وباقي القصة مذكور في " الأعراف " ﴿ قل الحمد لله ﴾ قيل : هو خطاب للوط عليه السلام أن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة من الذنوب وبالنجاة من العذاب . وقيل : أمر لنبينا صلى الله عليه وسلم بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم وبالتسليم على الأنبياء وأشياعهم الناجين ، والأكثرون على أنه خطاب مستأنف لأنه صلى الله عيله وسلم كان كالمخالف لمن تقدمه من الأنبياء من حيث إن عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه ، فأمره الله سبحانه بأن يشكر ربه على هذه النعمة ويسلم على الأنبياء الذين صبروا على مشاق الرسالة . ثم شرع في الدلالة على الوحدانية والرد على عبدة الأوثان ، وفيه توقيف على أدب حسن وبعث على التيمن بالحمد والصلاة قبل الشروع في كل كلام يعتد به ، ولذا توارثه العلماء خلفاً عن سلف فافتتحوا بهما أمام كل كتاب وخطبة ، وعند التكلم بكل أمر له شأن . قال جار الله : معنى الاستفهام " وأم " المتصلة في قوله ﴿ الله خير أمّا يشركون ﴾ إلزام وتبكيت وتهكم

بحالهم وتنبيه على الخطأ المفرط والجهل المفرط؛ فمن المعلوم أنه لا خير فيما اشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه. قلت: يحمل أن يكون هذا من

(232/580)

قبيل الكلام المنصف. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال: بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم. ثم عدل عن الاستفهام بذكر الذات إلى الاستفهام بذكر الصفات مبتدئاً بما هو أبين الحسيات فقال: ﴿ أمن خلق السموات ﴾ وإنما قال ههنا ﴿ وأنزل لكم ﴾ واقتصر في إبراهيم على قوله ﴿ وأنزل ﴾ [إبراهيم: 32] لأن لفظة ﴿ لكم ﴾ وردت هناك بالآخرة، وليس قوله ﴿ ما كان لكم ﴾ مغنياً عن ذكره لأنه نفي لا يفيد معنى الأول. ومعنى الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله ﴿ فأنبتنا ﴾ تأكيد معنى اختصاص الإنبات بذاته لأن الإنسان قد يتوهم أن له مدخلاً في ذلك من حيث الغرس والسقي.

والحدائق جمع حديقة البستان عليه حائط من الإحداق والإحاطة. والبهجة الحسن والنضارة لأن الناظر يبتهج به. وإنما لم يقل ذوات بهجة على الجمع لأن المعنى جماعة حدائق كما يقال: النساء ذهبت. ومعنى ﴿ أءله مع الله ﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكاً

له . قال في الكشاف : قوله ﴿ بل هم ﴾ بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم . قلت : إنما تعين الغيبة ههنا لأن الخطاب في قوله ﴿ ما كان لكم ﴾ إنما هو لجميع الناس أي ما صح وما ينبغي للإنسان أن يتأتى منه الإنبات . ولو قال بعد ذلك بل أنتم لزم أن يكون كل الناس مشركين وليس كذلك . وقوله ﴿ يعدلون ﴾ من العدل أو من العدول اي يعدلون به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد .

(233/580)

ثم شرع في الاستدلال بأحوال الأرض وما عليها . والقرار المستقر اي دحاها وسواها بحيث يمكن الاستقرار عليها . والحاجز البرزخ كما في " الفرقان " . ثم استدل بحاجة الإنسان إليه على العموم . والمضطر الذي عراه ضر من فقر أو مرض فألجأه إلى التضرع إلى الله سبحانه ، وإنه افتعال من الضر . وعن ابن عباس : هو المجهود . وعن السدي : الذي لا حول له ولا قوة . وقيل : هو المذنب ودعاؤه استغفاره . والمضطر اسم جنس يصلح للكل وللبعض فلا يلزم من الآية إجابة جميع المضطرين ، نعم يلزم الإجابة بشرائط الدعاء كما مر في " البقرة " وفي ادعوني وقوله ﴿ ويكشف السوء ﴾ كالبيان لقوله ﴿ يجيب المضطر ﴾ والخلافة في الأرض إما بتوارث السكنى وإما بالملك والتسلط وقد مر في آخر " الأنعام

" . وقوله ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ معناه تذكرون تذكراً قليلاً ، ويجوز أن يراد بالقلة العدم . ثم استدل لحاجة الناس وخصوصاً الهداية في البر والبحر بالعلامات وبالنجوم ، ثم استدل باحوال المبدأ والمعاد وما بينهما وذلك أنهم كانوا معترفين بالإبداء ودلالة الإبداء على الإعادة دلالة ظاهرة فكأنهم كانوا مقرين بالإعادة أيضاً ، فاحتج عليهم بذلك لذلك . والرزق من السماء الماء ومن الأرض النبات . واعلم أن الله سبحانه ذكر قوله ﴿ أءله مع الله ﴾ في خمس آيات على التوالي وختم الأولى بقوله ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ ثم بقوله ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ثم بقوله ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ ثم بقوله ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾ ثم ﴿ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ والسر فيه أن أول الذنوب العدول عن الحق ، ثم لم يعلموا ولو علموا ما عدلوا ، ثم لم يتذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال فاشركوا من غير حجة وبرهان . قل لهم يا محمد : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين أن مع الله إلهاً آخر . وحين بين اختصاصه بكمال القدرة أراد أن يبين اختصاصه بعلم الغيب . قال في الكشاف : هذا على لغة بني تميم يرفعون المستثنى المنقطع على البدل

(234/580)

إذا كان المبدل منه مرفوعاً يقولون : ما في الدار أحد إلا حمار كأن أحداً لم يذكر كقوله :

وبلدة ليس بها أنيس . . . إلا اليعافير وإلا العيس

(235/580)

والمعنى إن كان الله ممن في السموات والأرض فهم يعلمون الغيب كما أن معنى البيت إن كانت اليعافير أنيساً ففيها أنيس بتاً للقول بخلوها عن الأنيس . قلت : لقائل أن يقول : إن استثناء نقيض المقدم غير منتج فلا يلزم من استحالة كون الله سبحانه في كل مكان ممن في السموات والأرض أنهم لا يعلمون الغيب ، ولا من امتناع كون اليعافير أنيساً القطع بخلوّ البلدة عن الأنيس . وقال غيره : إن الاستثناء متصل لأن الله سبحانه في كل مكان بالعلم فيصح الرفع عند الحجازيين ايضاً . وزيفه في الكشاف بأن كونه في السموات والأرض بالعلم مجاز ، وكون الخلق فيهن حقيقة من حيث حصول ذواتهم في تلك الأحياز ، ولا يصح أن يريد المتكلم بلفظ واحد حقيقة ومجازاً معاً . وأجيب بأنا نحمل كون الخلق فيهن على المعنى المجازي أيضاً لأنهم أيضاً عالمون بتلك الأماكن لا أقل من العلم الإجمالي . وضعفه في الكشاف بأن فيه إيهام تسوية بين الله وبين العبد في العلم وهو خروج عن الأدب . ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم : " بئس خطيب القوم أنت " لمن قال : ومن يعصهما فقد غوى .

والحق أن وقوع اللفظ على الواجب وعلى الممكن بمعنى واحد لا بد أن يكون بالتشكيك إذ هو في الواجب أدل وأولى لا محالة ، فهذا الوهم مدفوع عند العاقل ولا يلزم منه سوء الأدب ، ولهذا جاز إطلاق العالم والرحيم والكريم ونحوهما على الواجب وعلى الممكن معاً من غير محذور شرعي ولا عقلي ، وليس هذا كالجمع بين الضميرين إذا كان يمكن للقائل أن يفرق بينهما فيزداد الكلام جزالة وفخامة . عن عائشة : من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ وعن بعضهم : أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحداً لئلا يأمن الخلق مكره . قال المفسرون : سال المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة فنزلت . وأيان بمعنى متى . إلا أنه لا يسأل به إلا عن أمر ذي بال

(236/580)

وهو " فعال " من أن يئين فلو سمي به لانصرف ، وحين ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب ولا يشعرون البعث الكائن ووقته بين أن عندهم عجزاً آخر أبلغ منه وهو أنهم ينكرون الأمر الكائن مع أن عندهم أسباب معرفته فقال ﴿ بل ادّارك ﴾ أي تدارك . ومن قرأ بغير الألف فهو " افتعل " من الدرك أي تتابع واستحكم . ومعنى أدرك بقطع الهمزة انتهى

وتكامل علمهم في الآخرة أي في شأنها ومعناها ، ويمكن أن يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكماً بهم كما يقول لأجل الناس : ما أعلمك .

وإذا لم يعرفوا نفس البعث يقيناً فلأن لا يعرفوا وقته أول . ويحتمل أن تكون أدرك بمعنى انتهى وفني من قولهم " أدركت الثمرة " لأن تلك غايتها التي عندها تعدم . وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك ، وصفهم أوّلاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث ثم أضرب عن ذلك قائلاً إنهم لا يعلمون القيامة فضلاً عن وقتها ثم إن عدم العلم قد يكون مع الغفلة الكلية فأضرب عن ذلك قائلاً إنهم ليسوا غافلين بالكلية ولكنهم في شك ومرية ، ثم إن الشك قد يكون بسبب عدم الدليل فأضرب عن ذلك قائلاً إنهم عمون عن إدراك الدليل مع وضوحه ، وقد جعل الآخرة مبدأ أعمالهم ومنشأه فلهذا عداه بمن دون " عن " والضمائر تعود إلى من في السموات والأرض . وذلك أن المشركين كانوا في جملتهم فنسب فعلهم إلى الجميع كما يقال : بنو فلان فعلوا . وإنما فعله ناس منهم قاله في الكشاف . قلت : قد تقدّم ذكر المشركين في قوله ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ وغيره فلا حاجة إلى هذا التكلف ولو لم يتقدّم جاز للقرينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 5 صـ 316.311﴾

(237/580)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ صالح القلب بالإلهام الرباني إلى صفات القلب وهو الفريق المؤمن ، وإلى النفس وصفاتها وهو الفريق الكافر . والسيئة طلب الشهوات واللذات الفانية ، والحسنة طلب السعادات الباقية . وكان في مدينة القالب الإنساني ﴿ تسعة رهط ﴾ هم خواص العناصر الأربعة والحواس الخمس ﴿ يفسدون ﴾ في ارض القلب بإفساد الاستعداد الفطري ﴿ تقاسموا ﴾ بالموافقة على السعي في إهلاك القلب وصفاته وأن يقولوا لوليه وهو الحق سبحانه . ما أهلكناهم وما حضرنا مع النفس الأمَّارة حين قصدت هلاكهم ﴿ ومكروا مكراً ﴾ في هلاك القلب بالهواجس النفسانية والوساوس الشيطانية ﴿ ومكرنا مكراً ﴾ بتوارد الواردات الربانية وتجلي صفات الجمال والجلال ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أن صلاحهم في هلاكهم . فمن قتلته فأنا ديته ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ أنا أفنينا خواص التسعة وآفاتها وأفنينا قومهم أجميعن وهم النفس وصفاتها ﴿ فتلك بيوتهم ﴾ وهي القالب والأعضاء التي هي مساكن الحواس خالية عن الحواس المهلكة والآفات الغالبة ﴿ بما ظلموا ﴾ أي وضعوا من نتائج خواص العناصر وآفات الحواس في غير موضعها وهو القلب ، وكان موضعها النفس بأمر الشارع لا بالطبع

لصلاح القالب وبقائه ﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ وهم القلب وصفاته من شر النفس وصفاتها . ولوط الروح ﴿ إذ قال لقومه ﴾ وهم القلب والسر والعقل عند تبدل أوصافهم بمجاورة النفس ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ وهي كل ما زلت به اقدامهم عن الصراط المستيم وأمارتها في الظاهر إتيان المناهي على وفق الطبع ، وفي الباطن حب الدنيا وشهواتها ﴿ وأنتم تبصرون ﴾ تميزون الخير من الشر .

(238/580)

وإتيان الرجال دون النساء عبارة عن صرف الاستعداد فيما يبعد عن الحق لا فيما يقرب منه ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ وهم القلب المريض بتعلق حب الدنيا والسر المكدر بكدورات الرياء والنفاق والعقل المشوب بآفة الوهم والخيال ﴿ أخرجوا ﴾ الصفات الروحانية من قرية الشخص الإنساني ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ من لوث الدنيا وشهواتها ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ وهم السر والعقل وصفاتهما من عذاب تعلق الدنيا ﴿ إلا امرأته ﴾ وهي النفس الأمارة بالسوء ﴿ وأمطرنا ﴾ على النفس وصفاتها مطراً بترك الشهوات ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ أي صعب فإن الفطام من المألوفات شديد وهذه حالة مستدعية للحمد والشكر فلهذا قال ﴿ قل الحمد لله وسلام ﴾ من تعلقات الكونين

وآفات الوجود المجازي ﴿ على عباده ﴾ ﴿ أمن خلق ﴾ سموات القلوب وأرض النفوس وأنزل من سماء القلب ماء نظر الرحمة ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ من العلوم والمعاني والأسرار ﴿ أءله مع الله ﴾ من الهوى ﴿ أمن جعل ﴾ أرض النفس ﴿ قراراً ﴾ في الجسد ﴿ وجعل خلالها أنهاراً ﴾ من دواعي البشرية ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ من القوى والحواس ﴿ وجعل بين ﴾ بحر الروح وبحر النفس ﴿ حاجزاً ﴾ القلب فإن في اختلاطهما فساد حالهما ﴿ أءله مع الله ﴾ كما زعمت الطبائعية ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ في العدم بلسان الحال ﴿ ويجعلكم ﴾ مستعدين لخلافته في الأرض ﴿ أءله مع الله ﴾ كما يزعم أرباب الحلول والاتحاد ﴿ أمن يهديكم في ظلمات ﴾ بر البشرية وبحر الروحانية وإن كانت الروحانية نورانية بالنسبة إلى ظلمة البشرية والمراد يهديكم بإخراجكم من ظلمات البشرية إلى نور الروحانية ، ومن ظلمات خلقته الروحانية إلى نور الربوبية وذلك حين يرسل رياح العناية بين يدي سحاب الهداية ﴿ أءله مع الله ﴾ كما يقول المنجمون : مطرنا بنوء كذا . وكما يقوله قاصروا النظر : هدانا الشيخ والمعلم إلى كذا ﴿ من يبدأ الخلق ﴾ بالوجود المجازي ﴿ ثم يعيده ﴾ بالوجود الحقيقي إلى عالم الوحدة ﴿ ومن

يرزقكم ﴾ من سماء الربوبية لتربية الأرواح ومن أرض بشرية الأشباح ﴿ أءله مع الله ﴾ كائناً من كان دليله أنه لا يعلم الغيب إلا هو ومن جملته علم قيام الساعة والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 316.317 ﴾

(240/580)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/581)

الجزء الحادى والثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 67 ﴾ من سورة النمل

وحتى الآية ﴿ 86 ﴾ من نفس السورة

(4/581)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71) قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير لحكاية كلامهم الذي يشعر ببلوغ العلم ، فقالوا مقسمين جهد أيمانهم : لا تأتينا الساعة ، عطف عليه ما يدل على الشك والعمى ، وكان الأصل : وقالوا ، ولكنه قال : ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي ستروا دلائل التوحيد والآخرة التي هي أكثر من أن تحصى وأوضح من الضياء ، تعليقاً للحكم بالوصف ، مستفهمين استفهام المستبعد المنكر : ﴿ أإذا كنا تراباً وآباؤنا ﴾ وكرروا الاستفهام إشارة إلى تناهي الاستبعاد والجحود ، وعد ما استبعدوه محالاً ، فقالوا : ﴿ أئنا ﴾ أي نحن وآباؤنا الذين طال العهد بهم ، وتمكن البلى فيهم ﴿ لمخرجون ﴾ أي من الحالة التي صرنا إليها من الموت والبلى إلى ما كنا عليه قبل ذلك من الحياة والقوة ، ثم أقاموا الدليل في زعمهم على ذلك فقالوا تعليلاً لاستبعادهم : ﴿ لقد وعدنا ﴾ .

ولما كانت العناية في هذه السورة بالإيقان بالآخرة ، قدم قوله : ﴿ هذا ﴾ أي الإخراج من القبور كما كنا أول مرة – على قوله : ﴿ نحن وآباؤنا ﴾ بخلاف ما سبق في سورة المؤمنون ، وقالوا : ﴿ من قبل ﴾ زيادة في الاستبعاد ، أي أنه قد مرت الدهور على هذا الوعد ، ولم يقع منه شيء ، فلذلك دليل على أنه لا حقيقة له فكأنه قيل : فما المراد به ؟ فقالوا :

﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي ما سطروه كذباً لأمر لا نعرف مرادهم منه .

(5/581)

ولا حقيقة لمعناه ، فقد حط كلامهم هذا كما ترى على أنهم تارة في غاية الإنكار دأب المحيط العلم ، وتارة يستبعدون دأب الشاك ، المركب الجهل ، الجدير بالتهكم كما مضى أنه معنى الإضرابات – والله الموفق .

ولما لم يبق هذا الذي أقامه من دلائل القدرة على كل شيء عموماً ، وعلى البعث خصوصاً ، مقال ، يرد عن الغي إلا التهديد بالنكال ، وكان كلامهم هذه موجباً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الغم والكرب ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، قال سبحانه ملقناً له ومرشداً لهم في صورة التهديد : ﴿ قل سيروا في الأرض ﴾ أي أيها المعاندون أو العمي الجاهلون .

ولما كان المراد الاسترشاد للاعتقاد ، والرجوع عن الغي والعناد ، لكون السياق له ، لا مجرد التهديد ، قال ﴿ فانظروا ﴾ بالفاء المقتضية للإسراع ، وعظم المأمور بنظره بجعله أهلاً للعناية به ، والسؤال عنه ، فقال : ﴿ كيف كان ﴾ أي كوناً هو في غاية المكنة ﴿ عاقبة المجرمين ﴾ أي القاطعين لما أمر الله به أن يوصل من الصلاة التي هي الوصلة بين الله

وبين عباده ، والزكاة التي هي وصلة بين بعض العباد وبعض ، لتكذيبهم الرسل الذين هم الهداة إلى ما لا تستقل به العقول ، فكذبوا بالآخرة التي ينتج التصديق بها كل هدى ، ويورث التكذيب بها كل عمى - كما تقدمت الإشارة إليه في افتتاح السورة ، فإنكم إن نظرتم ديارهم ، وتأملتم أخبارهم ، حق التأمل ، أسرع بكم ذلك إلى التصديق فنجوتم وإلا هلكتم ، فلم تضروا إلا أنفسكم ، وقد تقدم لهذا مزيد بيان في النحل .

ولما دهم النبي - صلى الله عليه وسلم - من الأسف على جلافتهم في عماهم عن السبيل ، الذي هدى إليه الدليل ، ما لا يعلمه إلا الله قال : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي في عدم إيمانهم .

(6/581)

ولما كانوا لا يقتصرون على التكذيب ، بل يبغون للمؤمنين الغوائل ، وينصبون الحبائل ، قال : ﴿ ولا تكن ﴾ مثبتاً للنون لأنه في سياق الإخبار عن عنادهم واستهزائهم مع كفايته سبحانه وتعالى لمكرهم بما أعد لهم من سوء العذاب في الدارين ، فلا مقتضى للتناهي في الإيجاز والإبلاغ في نفي الضيق ، فيفهم إثبات النون الرسوخ ، فلا يكون منهياً عما لا ينفك عنه العسر مما أشار إليه قوله تعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ وإنما ينهى عن التمادي معه في الذكر بخلاف ما مضى في النحل ، فإن السياق هناك للعدل في العقوبة لما

وقع من المصيبة في غزوة أحد المقتضى لتعظيم التسلية بالحمل على الصبر ، ونفي جميع الضيق ليكون ذلك وازعاً عن مجاوزة الحد ، بل حاملاً على العفو ﴿ في ضيق ﴾ أي في الصدر ﴿ مما يمكرون ﴾ فإن الله جاعل تدميرهم في تدبيرهم كطغاة قوم صالح .

ولما أشار إلى أنهم لم يبقوا في المبالغة في التكذيب بالساعة وجهاً ، أشار إلى أنهم بالوعيد بالساعة وغيرها من عذاب الله أشد مبالغة ، فقال : ﴿ ويقولون ﴾ بالمضارع المؤذن بالتجدد كل حين للاستمرار : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ وسموه وعداً إظهاراً للمحبة تهكماً به ، وهو العذاب والبعث والمجازاة ﴿ إن كنتم ﴾ أي أنت ومن تابعك ، كوناً هو في غاية الرسوخ ، كما تزعمون ﴿ صادقين ﴾ فأجابهم على هذا الجواب الغض بجواب الواسع القادر الذي لا يعتريه ضيق ، ولا تنويه عجلة ، مشيراً إلى الاستعداد للدفاع أو الاستسلام لذي الجلال والإكرام ، كما فعلت بلقيس ـ رضى الله عنه ـ ا ، فقال مخاطباً الرأس الذي لا يقدر على هذه التؤده حق القدرة غيره : ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ عسى ﴾ أي يمكن ﴿ أن يكون ﴾ وجدير وخليق بأن يكون ﴿ ردف ﴾ أي تبع ردفاً حتى صار كالرديف ولحق .

(7/581)

ولما قصر الفعل وضمنه معنى ما يتعدى باللام لأجل الاختصاص قال : ﴿ لكم ﴾ أي لأجلكم خاصة ﴿ بعض الذي تستعجلون ﴾ إتيانه من الوعيد ، فتطلبون تعجيله قبل الوقت الذي ضربه الله له ، فعلى تقدير وقوعه ماذا أعددتم لدفاعه ؟ فإن العاقل من ينظر في عواقب أموره ، ويبنيها على أسوأ التقادير ، فيعد لما يتوهمه من البلاء ما يكون فيه الخلاص كما فعلت بلقيس ـ رضى الله عنه ـ ا من الانقياد الموجب للأمان لما غلب على ظنها أن الإباء يوجب الهوان ، لا كما فعل قوم صالح من الآبار ، التي أعانت على الدمار ، وغيرهم من الفراعنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 446 . 448 ﴾

(8/581)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ أيذا ﴾ ﴿ أينا ﴾ بياء مكسورة بعد همزة مفتوحة : ابن كثير ويعقوب غير زيد . مثله ولكن بالمد : ابو عمرو وزيد ﴿ أيذا ﴾ بهمزة مفتوحة ثم ياء مكسورة ﴿ إنا ﴾ بكسر الهمزة وبعدها نون مشددة : سهل ﴿ إذا ﴾ من غير همزة الاستفهام ﴿ آينا ﴾ بهمزة ممدودة بعدها ياء مكسورة : يزيد وقالون ، مثله ولكن من غير مد : نافع غير

قالون ﴿ أئذا ﴾ بهمزتين مفتوحة ثم مكسورة ﴿ إنا ﴾ بهمزة مكسورة بعدها نون مشددة : علي وابن عامر هشام يدخل بينهما مدة ﴿ أئذا ﴾ ﴿ أئنا ﴾ بهمزتين مفتوحة ثم مكسورة فيهما : حمزة وخلف وعاصم . ﴿ ولا يسمع ﴾ بفتح الياء التحتانية ﴿ الصم ﴾ بالرفع : ابن كثير وعباس وكذلك في " الروم " . الآخرون بضم التاء الفوقانية وكسر الميم ونصب الصمّ ﴿ وما أنت تهدي ﴾ على أنه فعل العمى بالنصب وكذلك في " الروم " حمزة . الباقون ﴿ بهادي ﴾ على أنه اسم فاعل العمى بالجر أتوه مقصوراً على أنه فعل ماض : حمزة وخلف وحفص والمفضل . الآخرون بالمد على أنه اسم فاعل بما يفعلون على الغيبة : ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحماد والأعشى والبرجمي والحلواني عن هشام . ﴿ فزع ﴾ بالتنوين : عاصم وحمزة وعلي وخلف ﴿ يومئذ ﴾ بفتح الميم : حمزة وأبو جعفر ونافع ، الباقون بكسرها ﴿ تعملون ﴾ بتاء الخطاب : أبو جعفر ونافع وابن عامر ويعقوب وحفص .

(9/581)

الوقوف : ﴿ لمخرجون ﴾ 5 ﴿ من قبل ﴾ لا تحرزاً عن الابتداء بمقول الكفار ﴿ الأولين ﴾ 5 ﴿ المجرمين ﴾ 5 ﴿ يمكرون ﴾ 5 ﴿ صادقين ﴾ 5 ﴿ تستعجلون

﴿ 5 ﴾ لا يشكرون ﴿ 5 ﴾ وما يعلنون ﴿ 5 ﴾ مبين ﴿ 5 ﴾ يختلفون ﴿ 5 ﴾ للمؤمنين ﴿ 5 ﴾ بحكمه ﴿ ج تعظيماً للابتداء بالصفتين مع اتفاق الجملتين ﴾ العليم ﴿ 5 ج للآية واختلاف الجملتين وللفاء واتصال المعنى اي إذا كان الحكم لله فأسرع اتوكل ﴿ على الله ﴾ ط ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ مدبرين ﴾ 5 ﴿ ضلالتهم ﴾ ط ﴿ مسلمون ﴾ 5 ﴿ تكلمهم ﴾ ج لمن قرأ بكسر الألف فإنه يحتمل أن يكون الكسر للابتداء ولكونها بعد التكليم لأنه في معنى القول ، ومن فتح فلا وقف إذ التقدير تكلمهم بأن ﴿ لا يوقنون ﴾ 5 ﴿ يوزعون ﴾ 5 ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ لا ينطقون ﴾ 5 ﴿ مبصراً ﴾ ط ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ من شاء الله ﴾ ط ﴿ داخرين ﴾ 5 ﴿ السحاب ﴾ ط ﴿ كل شيء ﴾ ط ﴿ تفعلون ﴾ 5 ﴿ خير منها ﴾ لا لأن ما بعده من تتمة الجزاء ﴿ آمنون ﴾ 5 لا لعطف جملتي الشرط ﴿ في النار ﴾ 5 ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ شيء ﴾ ز للعارض وطول الكلام مع العطف ﴿ المسلمين ﴾ 5 لا للعطف ﴿ القرآن ﴾ ج ﴿ لنفسه ﴾ ج ﴿ المنذرين ﴾ 5 ﴿ فتعرفونها ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 318.319 ﴾

(10/581)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

اعلم أنه سبحانه لما تكلم في حال المبدأ تكلم بعده في حال المعاد ، وذلك لأن الشك في المعاد لا ينشأ إلا من الشك في كمال القدرة ، أو في كمال العلم فإذا ثبت كونه تعالى قادراً على كل الممكنات ، وعالماً بكل المعلومات ، ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره ، وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة إليها وإذا ثبت إمكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بين الله تعالى هذين الأصلين فيما قبل هذه الآية ، لا جرم لم يحكه في هذه الآية ، فحكى عنهم أنهم تعجبوا من إخراجهم أحياء وقد صاروا تراباً وطعنوا فيه من وجهين : الأول : قولهم : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وَءابَاؤُنَا ﴾ أي هذا كلام كما قيل لنا فقد قيل لمن قبلنا ، ولم يظهر له أثر فهو إذن من أساطير الأولين يريدون ما لا يصح من الأخبار ، فإن قيل ذكر ههنا ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وَءابَاؤُنَا ﴾ وفي آية أخرى : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءابَاؤُنَا هذا ﴾ [المؤمنون : 83] فما الفرق ؟ قلنا التقديم دليل على أن المقدم هو المقصود الأصلي وأن الكلام سيق لأجله ، ثم إنه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الأصلين ، ومن الظاهر أن كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت أنهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها ، وكان سبب ذلك

الإعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير ، لا جرم اقتصر على بيان أن الدنيا فانية زائلة فقال : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾

وفيه سؤالان :

السؤال الأول : لم لم يقل : كيف كانت عاقبة المجرمين ؟ جوابه : لأن تأنيثها غير حقيقي ولأن المعنى كيف كان آخر أمرهم .

(11/581)

السؤال الثاني : لم لم يقل عاقبة الكافرين ؟ جوابه : الغرض أن يحصل التخويف لكل العصاة ثم إنه تعالى صبر رسوله على ما يناله من هؤلاء الكفار فقال : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ فجمع بين إزالة الغم عنه بكفرهم وبين إزالة الخوف من جانبهم ، وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم وقوله : ﴿ وَلاَ تَكُن فِى ضَيْقٍ ﴾ أي في حرج قلب يقال ضاق الشيء ضيقاً وضيقاً بالفتح والكسر والضيق تخفيف الضيق ، ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم الوجه الثاني : للكفار قولهم : ﴿ متى هذا الوعد ﴾ وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ دل على أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية فأجاب الله تعالى بقوله :

﴿ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ وهو عذاب يوم بدر ، فزيدت اللام

للتأكيد كالباء في ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة : 195] أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ، ومعناه تبعكم ولحقكم ، وقرأ الأعرج ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ بوزن ذهب وهما لغتان ، والكسر أفصح ، وههنا بحثان :

البحث الأول : أن عسى ولعل في وعد الملوك ووعيدهم يدلان على صدق الأمر ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم ، وأنهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده .

(12/581)

الثاني : أنه قد ثبت بالدلائل العقلية أن عذاب الحجاب أشد من عذاب النار ، ولذلك قال : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ [المطففين : 15 ، 16] فقدم الحجاب على الجحيم ، ثم إنهم كانوا محجوبين في الحال ، فكان سبب العذاب بكماله حاصلاً ، إلا أن الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن إدراك ذلك الألم ، كما أن العضو الخدر إذا مسته النار ، فإن سبب الألم حاصل في الحال ، لكنه لا يحصل الشعور بذلك الألم لقيام العائق ، فإذا زال العائق عظم البلاء ، فكذا ههنا إذا زال البدن عظم عذاب الحجاب ، فقوله سبحانه : ﴿ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي

تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعني المقتضي له والمؤثر فيه حاصل ، وتمامه إنما يحصل بعد الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 183.184 ﴾

(13/581)

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

استبعد الكفار أن تبعث الأجساد والرمم من القبور واستملحوا ذلك فذكر ذلك عنهم على جهة الرد عليهم ، وقرأ أبو عمرو وابن كثير " أ . ذا . أ . ن " مهموز ، غير أن أبا عمرو يمد وابن كثير لا يمد ، وقرأ عاصم وحمزة " أإذا أإنا " بهمزتين فيهما ، وقرأ نافع " إذا " مكسورة الألف " أنا . " ممدوة الألف ، وقرأ الباقون " آيذا " ممدودة " إننا " بنونين وكسر الألف ، ثم ذكر الكفار أن هذه المقالة مما قد وعد بها قبل وردوا على جميع الأنبياء وجعلوها من الأساطير ، ثم وعظهم تعالى بحال من كذب من الأمم فأمر نبيه أن يأمرهم بالسير والتطلع على حال مجرمي الأمم وبالحذر أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك ، وهذا التحذير يقتضيه المعنى ، ثم سلى نبيه عليه السلام عنهم ، وهذا بحسب ما كان عنده من الحرص عليهم الاهتمام بأمرهم ، وقرأ ابن كثير " في ضِيق " بكسر الضاد ورويت عن نافع ،

وقرأ الباقون بفتحها و" والضِّيق " و" الضَّيق " مصدران بمعنى واحد ، وكره أبو علي أن يكون " ضيق " كهين ولين مسهلة من ضيق قال : لأن ذلك يقتضي أن تقام الصفة مقام الموصوف ، ثم ذكر استعجال قريش بأمر الساعة والعذاب بقولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ ، على معنى التعجيز للواعد به ، فأمر تعالى نبيه يتوعدهم بأنه عسى أن يأذن الله في أن يقرب منهم بعض ما استعجلوه من الساعة والعذاب .

و ﴿ ردف ﴾ معناه قرب وأزف قاله ابن عباس وغيره ، ولكنها عبارة عما يجيء بعد الشيء قريباً منه ولكونه بمعنى هذه الأفعال الواقعة تعدى بحرف وإلا فبابه أن يتجاوز بنفسه ، وقرأ الجمهور بكسر الدال ، وقرأ الأعرج " ردَف " بفتح الدال ، وقرأ جمهور الناس ، " تُكن " من أكن وقرأ ابن محيصن وابن السميفع " تكن " من كن وهما بمعنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(14/581)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كفروا ﴾

يعني مشركي مكة .

﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ هكذا يقرأ نافع هنا وفي سورة : "العنكبوت" .

وقرأ أبو عمرو باستفهامين إلا أنه خفف الهمزة .

وقرأ عاصم وحمزة أيضاً باستفهامين إلا أنهما حققا الهمزتين ، وكل ما ذكرناه في السورتين جميعاً واحداً .

وقرأ الكسائي وابن عامر ورُويس ويعقوب : ﴿ أَئِذَا ﴾ بهمزتين ﴿ إِنَّا ﴾ بنونين على الخبر في هذه السورة ؛ وفي سورة : "العنكبوت" باستفهامين ؛ قال أبو جعفر النحاس : القراءة ﴿ إِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا آيِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ موافقة للخط حسنة ، وقد عارض فيها أبو حاتم فقال وهذا معنى كلامه : "إِذَا" ليس باستفهام و ﴿ آيِنَّا ﴾ استفهام وفيه ﴿ إنّ ﴾ فكيف يجوز أن يعمل ما في حيز الاستفهام فيما قبله ؟! وكيف يجوز أن يعمل ما بعد ﴿ إنّ ﴾ فيما قبلها ؟! وكيف يجوز غداً إن زيداً خارج ؟! فإذا كان فيه استفهام كان أبعد ، وهذا إذا سئل عنه كان مشكلاً لما ذكره .

(15/581)

وقال أبو جعفر : وسمعت محمد بن الوليد يقول : سألنا أبا العباس عن آية من القرآن صعبة مشكلة ، وهي قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ على رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا

مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ : 7] فقال : إن عمل في ﴿ إذا ﴾ ﴿ ينبئكم ﴾ كان محالاً ؛ لأنه لا ينبئهم ذلك الوقت ، وإن عمل فيه ما بعد ﴿ إنّ ﴾ كان المعنى صحيحاً وكان خطأ في العربية أن يعمل ما قبل ﴿ إنّ ﴾ فيما بعدها ؛ وهذا سؤال بيّن رأيت أن يذكر في السورة التي هو فيها ؛ فأما أبو عبيد فمال إلى قراءة نافع وردّ على من جمع بين استفهامين ، واستدلّ بقوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران : 144] وبقوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34]

وهذا الردّ على أبي عمرو وعاصم وحمزة وطلحة والأعرج لا يلزم منه شيء ، ولا يشبه ما جاء به من الآية شيئاً ؛ والفرق بينهما أن الشرط وجوابه بمنزلة شيء واحد ؛ ومعنى : ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [الأنبياء : 34] أفإن مِتّ خلدوا .

ونظير هذا : أزيد منطلق ، ولا يقال : أزيد أمنطلق ؛ لأنها بمنزلة شيء واحد وليس كذلك الآية ؛ لأن الثاني جملة قائمة بنفسها فيصلح فيها الاستفهام ، والأوّل كلام يصلح فيه الاستفهام ؛ فأما من حذف الاستفهام من الثاني وأثبته في الأول فقرأ : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا إِنَّنَا ﴾ فحذفه من الثاني ؛ لأن في الكلام دليلاً عليه بمعنى الإنكار .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هاذا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ تقدّم في سورة "المؤمنين" .

وكان الأنبياء يقرّبون أمر البعث مبالغة في التحذير ؛ وكل ما هو آت فقريب .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ﴾ أي ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاءِ الكفار ﴿ سِيرُوا ﴾ في بلاد الشام والحجاز واليمن .

﴿ فَانْظُرُواْ ﴾ أي بقلوبكم وبصائركم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المجرمين ﴾ المكذبين لرسلهم .

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على كفار مكة إن لم يؤمنوا ﴿ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ ﴾ في حرج ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ نزلت في المستهزئين الذين اقتسموا عِقاب مكة وقد تقدّم ذكرهم .

وقرىء : ﴿ فِي ضِيقٍ ﴾ بالكسر وقد مضى في آخر "النحل" .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي وقت يجيئنا العذاب بتكذيبنا ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ أي اقترب لكم ودنا منكم ﴿ بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي من العذاب ؛ قاله ابن عباس .

وهو من ردفه إذا تبعه وجاء في أثره ؛ وتكون اللام أدخلت لأن المعنى اقترب لكم ودنا لكم .

أو تكون متعلقة بالمصدر .

وقيل : معناه معكم .

وقال ابن شجرة : تبعكم ؛ ومنه رِدْف المرأة ؛ لأنه تبع لها من خلفها ؛ ومنه قول أبي ذؤيب :

عاد السوادُ بياضاً في مَفَارِقِهِ . . .

لاَ مَرحباً ببياض الشَّيْب إذ رَدِفَا

قال الجوهري : وَأَرْدَفه أمرٌ لغةٌ في رَدِفه ، مثل تَبِعه وأتبعه بمعنى ؛ قال خُزيمة بن مالك بن نَهد :

إذا الجوزاءُ أردفتِ الثُّرَيَّا . . .

ظَننتُ بآل فاطمةَ الظُّنُونَا

يعني فاطمة بنت يَذْكُر بن عَنزة أحدِ القارِظَيْن .

وقال الفراء : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾ دنا لكم ولهذا قال : ﴿ لَكُمْ ﴾ .

وقيل : رَدِفَه ورَدِف له بمعنًى فتزاد اللام للتوكيد ؛ عن الفراء أيضاً .

كما تقول : نقدته ونقدت له ، وكِلْته ووزنته ، وكِلْتُ له ووزنت له ؛ ونحو ذلك .

﴿ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ مِن العذابِ فكان ذلك يوم بدر .

وقيل : عذاب القبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ ﴾

بيانٌ لجهلِهم بالآخرةِ وعَمَهِهم منها بحكايةِ إنكارِهم للبعثِ ، ووضعُ الموصولِ موضعَ ضميرِهم لذمّهم بما في حيّزِ صلته والإشعارِ بعلّةِ حُكمهم الباطلِ في قولِهم ﴿ أَءذَا كُنَّا تُرَاباً وَءابَاؤُنَا أَءنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ أي أنخرجُ من القبورِ إذا كنّا تُراباً كما ينبىءُ عنه مخرجونَ ولا مساغَ لأنْ يكونَ هو العاملَ في إذا لاجتماعِ موانعَ لو تفرّدَ واحدٌ منها لكفَى في المنعِ ، وتقييدُ الإخراجِ بوقتِ كونِهم تُراباً ليس لتخصيصِ الإنكارِ بالإخراجِ حينئذٍ فقط فإنّهم مُنكرون للإحياءِ بعدَ الموتِ مُطلقاً وإنْ كانَ البدنُ على حالِه بل لتقويةِ الإنكارِ بتوجيهِه إلى الإخراجِ في حالةٍ منافيةٍ له . وقولُه تعالَى وآباؤُنا عطفٌ على اسمِ كانَ ، وقامَ الفصلُ مع الخبرِ مقامَ الفصلِ بالتأكيدِ ، وتكريرُ الهمزةِ في أئنا للمبالغةِ والتّشديدِ في الإنكارِ . وتحليةُ الجُملةِ بأنَّ واللامِ لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكارِ التّأكيدِ كما يُوهمه ظاهرُ النّظمِ فإنَّ تقديمَ الهمزةِ لاقتضائِها الصدارةَ كما في قولِه تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ونظائِره عَلَى رأيِ الجُمهورِ فإنَّ المَعْنى عندَهُم تعقيبُ الإنْكارِ لا إنكارُ التّعقيبِ كما هو المشهورُ . وقُرِىءَ إذا كنّا بهمزةٍ واحدةٍ مكسورةٍ ، وقُرِىء إنّا لمخرجُون على الخبرِ .

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا ﴾ أي الإخراجَ ﴿ نَحْنُ وَءابَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ وعدِه عليه

الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وتقديمُ الموعودِ على نحنُ لأنَّه المقصودُ بالذكرِ وحيثُ أُخّرَ قُصد به المبعوثَ والجملةُ استئنافٌ مسوقٌ لتقريرِ الإنكارِ . وتصديرُها بالقسمِ لمزيدِ التأكيدِ . وقولُه تعالى : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ تقريرُ إثرَ تقريرٍ .

(18/581)

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ بسببِ تكذيبِهم للرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما دَعَوهم إليهِ من الإيمانِ بالله عزَّ وجلَّ وحَدهُ وباليومِ الآخرِ الذي تُنكرونَهُ فإنَّ في مشاهدةِ عاقبتِهم ما فيهِ كفايةٌ لأُولي الأبصارِ وفي التعبيرِ عن المُكذبينَ بالمجرمينَ لُطفٌ بالمؤمنينَ في تَرْكِ الجرائم .

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لإصرارِهم على الكُفْرِ والتَّكذيبِ ﴿ وَلاَ تَكُن فِى ضَيْقٍ ﴾ في حَرَجِ صدرٍ ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرِهم فإنَّ الله تعالى يَعصِمُك من النَّاسِ . وقُرِىءَ بكسرِ الضَّادِ وهُو أيضاً مصدرٌ ويجوزُ أنْ يكونَ المفتوحُ مخفَّفاً من ضيّقٍ . وقد قُرِىءَ كذلكَ أي لا تكُن في أمرٍ ضيّقٍ .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي العذابُ العاجلُ الموعودُ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في إخبارِكم بإتيانِه . والجمعُ باعتبارِ شركةِ المُؤمنينَ في الإخبارِ بذلك .

﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ أي تبعكُم ولحقكُم واللَّامُ مزيدةٌ للتأكيدِ كالباءِ في قولهِ تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ أو الفعلُ مضمَّنٌ معنى فعلٍ يُعدَّى باللَّامِ . وقُرِىءَ بفتحِ الدَّالِ وهي لغةٌ فيه ﴿ بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ وهو عذابُ يومِ بدرٍ . وعسَى ولعلَّ وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار وإشعاراً بأنَّ الرَّمزَ من أمثالِهم كالتَّصريحِ ممَّن عداهُم وعلى ذلك مَجرى وعدِ الله تعالى ووعيدِهِ . وإيثارُ ما عليه النَّظمُ الكريمُ على أنْ يُقالَ عَسى أنْ يردفَكم الخ لكونِه أدلَّ على تحققِ الوعدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(19/581)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَءَابَاؤُنَا أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾

كالبيان لجهلهم بالآخرة وعما هم منها ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز صلته والإشعار بعلة حكمهم الباطل الذي تضمنه مقول القول ، وإذا ظرف لمحذوف دل عليه مخرجون أي أنخرج إذا كنا تراباً ولا مساغ لأن يكون ظرفاً ﴿ لَمُخْرَجُونَ ﴾ لأن كلاً من الهمزة وإن اللام على ما قيل : مانعة من عمل ما بعدها فيما قبلها فكيف بها إذا

اجتمعت ، ولم يعتبر بعضهم اللام مانعة بناءاً على ما قرر في النحو من جواز تقدم معمول خبر إن المقرون باللام عليه نحو إن زيداً طعامك لآكل ، ويكفي حينئذٍ مانعان وأظن أن من قال : يتوسع في الظروف ما لا يتوسع في غيرها لا يقول باطراد الحكم في مثل هذا الموضع ومرادهم بالإخراج الإخراج من القبور ، وجوز أن يكون الإخراج من حال الفناء إلى الحياة ، والأول هو الظاهر ، وتقييد الإخراج بوقت كونهم تراباً ليس لتخصيص الإنكار بالإخراج حينئذٍ فقط فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت مطلقاً وإن كان البدن على حاله بل لتقوية الإنكار بتوجيهه إلى الإخراج في حالة منافية له بزعمهم ، وقوله سبحانه : ﴿ وَءَابَاؤُنَا ﴾ عطف على اسم كان واستغنى بالفصل بالخبر عن الفصل بالتأكيد ، وتكرير الهمزة في أئنا للمبالغة والتشديد في الإنكار ، وتحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم ، فإن تقديم الهمزة لأصالتها في الصدارة ، والضمير في أئنا لهم ولآبائهم لأن الكون تراباً قد تنا ولهم وآباءهم ، وقرأ ابن كثير .

وأبو عمرو أئذا .

وأئنا بالجمع بين الاستفهامين ، وقلب الثانية ياءاً وفصل بينهما بألف أبو عمرو .

(20/581)

وقرأ نافع إذا بهمزة واحدة مكسورة فهمزة الاستفهام مقدرة مع الفعل المقدر لأن المعنى ليس على الخبر ، وآينا بهمزة الاستفهام وقلب الثانية ياءاً وبينهما مدة ، وقرأ آخرون أئذا باستفهام ممدود أننا بنونين من غير استفهام .

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا ﴾ أي الإخراج المذكور ﴿ نَحْنُ وَءابَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل وعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وتقديم الموعود على ﴿ نَحْنُ ﴾ هنا للدلالة على أنه هو الذي تعمد بالكلام وقصد به حتى كأن ما سواه مطرح وعلاوة له كما ينبىء عن ذلك ذكر ما صدر منهم أنفسهم مؤكداً مقرراً مكرراً ؛ وتأخيره عنه في آية سورة المؤمنين لرعاية الأصل ، ولا مقتضى للعدول إذ لم يذكر هناك سوى اتباعهم أسلافهم في الكفر وإنكار البعث من غير نعي ذلك عليهم ، والجملة استئناف مسوق لتقرير الإنكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد ، وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الاولين ﴾ تقرير إثر تقرير .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾

بسبب تكذيبهم الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله عز وجل وحده وباليوم الآخر الذي تنكرونه فإن في مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولي الأبصار ، وفي التعبير عن المكذبين بالمجرمين الأعم منه بحسب المفهوم لطف بالمؤمنين في ترك الجرائم لما فيه من إرشادهم إلى أن الجرم مطلقاً مبغوض لله عز وجل .

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لإصرارهم على الكفر والتكذيب ﴿ وَلاَ تَكُن فِى ضَيْقٍ ﴾ .

أي في حرج صدر ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي من مكرهم فإن الله تعالى يعصمك من الناس .

وقرأ ابن كثير ﴿ ضَيْقٍ ﴾ بكسر الضاد وهو مصدر أيضاً ، وجوز أن يكون مفتوح الضاد مخففاً من ضيق ، وقد قرىء كذلك أي لا تكن في أمر ضيق ، وكره أبو علي كون ذلك مخففاً مما ذكر لأنه يقتضي حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، وليس من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطراد ، وفيه بحث .

(21/581)

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي العذاب العاجل الموعود وكأنهم فهموا وعدهم بالعذاب من الأمر بالسير والنظر في عاقبة أمثالهم المكذبون ، ويعلم منه وجه للتعبير يقولون وعدم إجرائه على سنن ما قبله أعني ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ [النمل : 67] وسؤالهم عن وقت إتيان هذا العذاب على سبيل الإستهزاء والإنكار ، ولذا قالوا : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ عانين إن كنتم صادقين في إخباركم بإتيانه فبينوا لنا وقته ، والجمع باعتبار شركة المؤمنين في الإخبار بذلك .

﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

أصل معنى ﴿ رَدِفَ ﴾ تبع والمراد به هنا لحق ، ووصل وهو مما يتعدى بنفسه وباللام

كنصح .

وقيل : اللام مزيدة لتأكيد وصول الفعل إلى المفعول به كما زيدت الباء لذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] ، وقيل : إن اللام لتضمين ﴿ رَدِفَ ﴾ معنى دنا وهو يتعدى باللام كما يتعدى بمن وإلى كما في الأساس ولتضمينه ذلك عدى بمن في قوله :

فلما ردفنا من عمير وصحبه . . .

تولوا سراعاً والمنية تعنق

(22/581)

وقيل : اللام داخلة على المفعول لأجله والمفعول به الذي يتعدى إليه الفعل بنفسه محذوف أي ﴿ رَدِفَ ﴾ الخلق لأجلكم ولا يخفى ضعفه ، وقيل : إن الكلام تم عند ﴿ رَدِفَ ﴾ على أن فاعله ضمير يعود على الوعد ، ثم استأنف بقوله تعالى : ﴿ لَكُم بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ على أن ﴿ بَعْضُ ﴾ مبتدأ ، و ﴿ لَكُمْ ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً له ، ولا يخفى ما فيه من التفكيك للكلام والخروج عن الظاهر لغير داع لفظي ولا معنوي ، والمعنى قل عسى أن يكون لحقكم ووصل إليكم بعض الذي تستعجلون حلوله وتطلبونه

وقتاً فوقتاً ، والمراد بهذا البعض عذاب يوم بدر ، وقيل : عذاب القبر وليس بذاك ، ونسبة استعجال ذلك إليهم بناءاً على ما يقتضيه ما هم عليه من التكذيب والاستهزاء وإلا فلا استعجال منهم حقيقة ، والترجي المفهوم من عسى قيل : راجع إلى العباد .

وقال الزمخشري : إن عسى .

ولعل .

وسوف في وعد الملوك ووعيدهم تدل على صدق الأمر وجده وما لا مجال للشك بعده ، وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم وأن الرمزة إلى الإغراض كافية من جهتهم ، فعلى ذلك جرى وعد الله تعالى ووعيده سبحانه انتهى .

وعليه ففي الكلام استعارة تمثيلية ولا يخفى حسن ذلك ، وإيثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال : عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقق الوعد ، وقرأ ابن هرمز ﴿ رَدِفَ ﴾ بفتح الدال وهو لغة فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(23/581)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

أعقب وصف عماية الزاعمين علم الغيب بذكر شبهتهم التي أرتهم البعث مستحيل الوقوع ، ولذلك أسند القول هنا إلى جميع الذين كفروا دون خصوص الذين يزعمون علم الغيب ، ولذلك عطفت الجملة لأنها غايرت التي قبلها بأنها أعم .

والتعبير عنهم باسم الموصول لما في الموصول من الإيماء إلى علة قولهم هذه المقالة وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين فكأنه قيل وقالوا بكفرهم أإذا كنا تراباً .

.

إلى آخره استفهاماً بمعنى الإنكار .

أتوا بالإنكار في صورة الاستفهام لتجهيل معتقد ذلك وتعجيزه عن الجواب بزعمهم .

والتأكيد بـ ﴿ إنّ ﴾ لمجاراة كلام المردود عليه بالإنكار .

والتأكيد تهكم .

وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿ إذا كنا تراباً ﴾ بهمزة واحدة هي همزة (إذا) على تقدير همزة استفهام محذوفة للتخفيف من اجتماع همزتين ، أو بجعل (إذا) ظرفاً مقدّماً على عامله والمستفهم عنه هو ﴿ إنا لمخرجون ﴾ .

وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بهمزتين في ﴿ أإذا وأإنا ﴾ على اعتبار تكرير همزة

الاستفهام في الثانية لتأكيد الأولى ، إلا أن أبا عمرو خفف الثانية من الهمزتين في الموضعين وعاصماً وحمزة حققاهما .

وهؤلاء كلهم حذفوا نون المتكلم المشارك تخفيفاً من الثقل الناشىء من وقوع نون المتلكم بعد نون (إن) .

وقرأ ابن عامر والكسائي ﴿ أإذا ﴾ بهمزتين و ﴿ إننا ﴾ بهمزة واحدة وبنونين اكتفاء بالهمزة الأولى للاستفهام ، وكلها استعمال فصيح .

وقد تقدم في سورة المؤمنين حكاية مثل هذه المقالة عن الذين كفروا إلا أن اسم الإشارة الأول وقع مؤخراً عن ﴿ نحن في سورة المؤمنين ﴾ (83) ووقع مقدماً عليه هنا ، وتقديمه وتأخيره سواء في أصل المعنى لأنه مفعول ثانٍ ل ﴿ وعدنا ﴾ وقع بعد نائب الفاعل في الآيتين .

وإنما يتجه أن يُسأل عن تقديمه على توكيد الضمير الواقع نائباً على الفاعل .

(24/581)

وقد ناطها في "الكشاف" بأن التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر وبسوق الكلام لأجله .

وبينه السكاكي في "المفتاح" بأن ما وقع في سورة المؤمنين كان بوضع المنصوب بعد المرفوع وذلك موضعه .

وأما ما في سورة النمل فقدم المنصوب على المرفوع لكونه فيها أهم ، يدلك على ذلك أن الذي قبله ﴿ إذا كنا تراباً وءاباؤنا ﴾ والذي قبل آية سورة المؤمنين ﴿ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ﴾ [المؤمنون : 82] فالجهة المنظور فيها هناك (في سورة المؤمنين) هي كون أنفسهم تراباً وعظاماً ، والجهة المنظور فيها هنا في سورة النمل هي كون أنفسهم وكون آبائهم تراباً لا جزء هناك من بناهم (جمع بنية) على أي باقياً صورة نفسه (أي على صورته التي كان عليها وهو حي) .

ولا شبهة أنها أدخل عندهم في تبعيد البعث فاستلزم زيادة الاعتناء بالقصد إلى ذكره فصيره هذا العارض أهم أ هـ .

وحاصل الكلام أن كل آية حكت أسلوباً من مقالهم ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون . . . قالوا أإذا متنا ﴾ [المؤمنون : 81 ، 82] ﴿ لقد وُعدنا هذا نحن وءاباؤنا ﴾ .

وبعد فقد حصل في الاختلاف بين أسلوب الآيتين تفنن كما تقدم في المقدمة السابعة .

والأساطير : جمع أسطورة ، وهي القصة والحكاية .

وتقدم الكلام على ذلك عند قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ في سورة النحل (24) .

والمعنى : ما هذا إلا كلام معاد قاله الأولون وسطّروه وتلقفه من جاء بعدهم ولم يقع شيء منه .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69)

أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم هذه الكلمة ولذلك فصل فعل ﴿ قل ﴾ وتقدم نظيره في سورة الأنعام (11) .

والمناسبة في الموضعين هي الموعظة بحال المكذبين لأن إنكارهم البعث تكذيب للرسول وإجرام .

(25/581)

والوعيد بأن يصيبهم مثل ما أصابهم إلا أنها هنالك عُطفت بـ ﴿ ثم انظروا ﴾ وهنا بالفاء ﴿ فانظروا ﴾ وهما متأيلان .

وذكر هنالك ﴿ عاقبة المكذبين ﴾ [الأنعام : 11] وذكر هنا ﴿ عاقبة المجرمين ﴾ : والمكذبون مجرمون .

والاختلاف بين الحكايتين للتفنن كما قدمناه في المقدمة السابعة .

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)

كانت الرحمة غالبة على النبي صلى الله عليه وسلم والشفقة على الأمة من خلاله ، فلما أُنذر المكذبون بهذا الوعيد تحركت الشفقة في نفس الرسول عليه الصلاة والسلام فربط الله على قلبه بهذا التشجيع أن لا يحزن عليهم إذا أصابهم ما أنذروا به .

وكان من رحمته صلى الله عليه وسلم حرصه على إقلاعهم عما هم عليه من تكذيبه والمكر به ، فألقى الله في روعه رباطة جاش بقوله ﴿ ولا تكن في ضيق مما يمكرون .

والضيق : بفتح الضاد وكسرها ، قرأه الجمهور بالفتح ، وابن كثير بالكسر .

وحقيقته : عدم كفاية المكان أو الوعاء لما يراد حلوله فيه ، وهو هنا مجاز في الحالة الحرجة التي تعرض للنفس عند كراهية شيء فيحس المرء في مجاري نفسه بمثل ضيق عرض لها .

وإنما هو انضغاط في أعصاب صدره .

وقد تقدم عند قوله ﴿ ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ في آخر سورة النحل (127) .

والظرفية مجازية ، أي لا تكن ملتبساً ومحوطاً بشيء من الضيق بسبب مكرهم .

والمكر تقدم عند قوله تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ في سورة آل عمران (54) .

و(ما) مصدرية ، أي من مكرهم .

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71)

عطف على ﴿ وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً ﴾ [النمل : 67] .

والتعبير هنا بالمضارع للدلالة على تجدد ذلك القول منهم ، أي لم يزالوا يقولون .

والمراد بالوعد ما أنذروا به من العقاب .

والاستفهام عن زمانه ، وهو استفهام تهكم منهم بقرينة قوله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ .

(26/581)

وأمر الله نبيه بالجواب عن قولهم لأن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ومن أطلعه على شيء منه من عباده المصطفين .

والجواب جار على الأسلوب الحكيم بحمل استفهامهم على حقيقة الاستفهام تنبيهاً على أن حقهم أن يسألوا عن وقت الوعيد ليتقدموه بالإيمان .

و﴿ عسى ﴾ للرجاء ، وهو مستعمل في التقريب مع التحقيق .

و﴿ ردف ﴾ تبع بقرب .

وعدي باللام هنا مع أنه صالح للتعدية بنفسه لتضمينه معنى (اقترب) أو اللام للتوكيد مثل شكر له .

والمعنى : رجاء أن يكون ذلك قريب الزمن .

وهذا إشارة إلى ما سيحل بهم يوم بدر .

وحذف متعلق ﴿ تستعجلون ﴾ أي تستعجلون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(27/581)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

يريدون أنْ يستدلوا بعدم بعث الآباء على عدم بَعْثهم ، لكن مَنْ قال لهم : إن الآخرة ستأتي مع الدنيا ، ما سُمِّيت الآخرة إلا لأنها تأتي آخراً بعد انقضاء الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا ﴾

أي : من لدن آدم عليه السلام والناس يموتون والأنبياء تذكر بهذا اليوم الآخر ، لكنه لم يحدث ﴿ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ [النمل : 68] أي : كذِب وافتراء ونسج خيال كما في أساطير السابقين ، لكن ما الدافع لهم لأنْ يتهموا الرسل في بلاغهم عن الله هذا الاتهام ؟

قالوا : لأن نفس المرء عزيزة عليه ، وكل مُسْرف على نفسه في المعاصي يريد أنْ يؤمِّن نفسه ، وأنْ يريحها ، وليس له راحة إلا إنْ يقول هذا الكلام كذب ، أو يتمنى أن يكون كذباً ، ولو اعترف بالقيامة وبالبعث والحساب فمصيبته عظيمة ، فليس في جُعْبته إلا كفر بالله

وعصيان لأوامره ، فكيف إذن يعترف بالعبث ؟ فطبيعي أن يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبره به الرسول .

لذلك نجد من هؤلاء مَنْ يقول في القدر : إذا كان الله قد كتب عليَّ المعصية ، فلماذا يُعذِّبني بها ؟ والمنطق يقتضي أن يكلموا الصورة فيقولون : وإذا كتب عليَّ الطاعة ، فلماذا يثيبني عليها ؟ فلماذا ذكرتُم الشر وأغفلتم الخير ؟

إذن : هؤلاء يريدون المنفذ الذي ينجون منه ويهربون به من عاقبة أعمالهم .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69)

يدعوهم الله تعالى إلى السير في مناكب الأرض للنظر وللتأمل لا فيمن بُعِث لأن البعث لم يأتِ بَعْد ، ولكن للنظر في عاقبة المجرمين الذي كَبَّوا رسلهم فيما أَتَوا به ، وكيف أن هزمهم ودحرهم وكتب النصر للرسل .

(28/581)

والبعث مما جاء به الرسل ، فمَنْ كذَّب الرسل كذَّب بالبعث مع أنه واقع لا شكَّ فيه ، لكن الحق تبارك وتعالى يُخفيه لوقته ، كما قال سبحانه : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف : 187] .

ثم يُسلِّي الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ليُخفِّف عنه ألم ما يلاقي في سبيل الدعوة ، فيقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾

وقد خاطب الحق سبحانه رسوله بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] .

والعنى : مُهلِك نفسَك من الحزن ، والبخع كما قلنا : المبالغة في الذبح بحيث توصله إلى البخاع . والحق تبارك وتعالى يوضح أن مهمة الرسول البلاغ عن الله فقط ، ولا عليه آمن مَنْ آمن ، أو كفر مَنْ كفر ، إنما حب النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وحِرْصه على نجاتها جعلاه يحزن ويألم إنْ شرد منه واحدٍ من أمته ، ألم يقُلْ عنه ربه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128]

.

ثم يقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا ﴾

يقول المكذبون بالبعث ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [النمل : 71] أي : بالبعث ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : 71] في أن هناك بَعْثاً .

وسمَّوْا إخبار الله لهم بالبعث وَعْداً ، مع أنه في حقهم وعيد ، وفَرْق بين وَعَد وأوعد : وَعَد للخير وأوعد للشر ، لكن الله تعالى يطمس على ألسنتهم ، وهم أهل الفصاحة

فيقولون ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [النمل : 71] وهو بالنسبة لهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرٍّ وَعْد لك بخير .

(29/581)

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول : لقد وعدنا بأمرين : وعدنا رسلنا بالتأييد والنصرة ، ووعدنا العالم كله بالبعث ، فإذا كنا صادقين في الأولى وهي مُشَاهدة لكم ومُحسَّة فخذوها مقدمة ودليلاً على صِدْقنا في الأخرى ، وقد عاينتُم أن جميع الرسل انتصروا على مُكذِّبيهم ، إما بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب الهزيمة والانكسار .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ ﴾

كلمة ﴿ عسى ﴾ [النمل : 72] تفيد الرجاء ، لكنها من الله تفيد التحقيق ، فلو قُلْت مثلاً : عسى أن يعطيك فلان ، ، لَكَان الرجاء ضعيفاً ، وأقوى منه لو قُلْت : عسى أن أعطيك لأني لا أملك فلاناً ، لكن أملك نفسي ، وأقوى من ذلك أن أقول : عسى أن يُعطيك الله لأن أسبابي أنا قد لا تمكِّني من الوفاء ، أما إنْ قال الله تعالى عسى ، فهي قمة التأكيد والتحقيق في الرجاء ، وهي أعلى مراتبه وأبلغها .

ومعنى ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ [النمل : 72] أي : تبعكم وجاء بعدكم من أردفه إذا أركبه

خلفه على الدابة ، فهو خلفه مباشرة ، وفعلاً أصابهم ما يستعجلون ، فلم يمرّ طويلاً حتى حاقت بهم الهزيمة في بدر ، فصدَقْنا في الأولى حين قلنا : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] وقد عاينتُم ذلك ، فخذوه دليلاً على الغَيْب الذي أخبرناكم به . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(30/581)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

قوله : ﴿ أَإِذَا ﴾ : قد تقدَّم الكلامُ في الاستفهامين إذا اجتمعا في سورةِ الرعدِ وتحقيقُه . والعاملُ في " إذا " محذوفٌ يَدُلُّ عليه " لَمُخْرَجُون " تقديره : نُبْعَثُ ونَخْرُجُ . ولا يجوز أَنْ يعملَ فيها " مُخْرَجُون " لثلاثةِ موانعَ : الاستفهامِ ، و " إنَّ " ، ولامِ الابتداءِ . وفي لامِ الابتداء في خبر " إنَّ " خلافٌ . وتكايَسَ الزمخشري هنا فعَبَّر بعبارةٍ حُلْوة فقال : لأنَّ بينَ يَدَيْ عَمَلِ اسمِ الفاعل فيه عِقاباً ، وهي : همزةُ الاستفهام وإنَّ ولامُ الابتداء ، وواحدةٌ منها كافيةٌ فكيف إذا اجتمَعْنَ ؟ " . وقال أيضاً : " فإنْ قُلْتَ : قَدَّم في هذه الآيةِ " هذا " على ﴿

نَحْنُ وَآبَآؤُنَا ﴾ وفي آيةٍ أخرى قَدَّم ﴿ نَحْنُ وَآبَآؤُنَا ﴾ على " هذا " ! ! قلتُ : التقديمُ دليلٌ على أنَّ المُقَدَّمَ هو المَعْنِيُّ المعتمدُ بالذِّكْرِ ، وأنَّ الكلامَ إنما سِيْق لأجلِه ، ففي إحدى الآيتين دَلَّ على أنَّ إيجادَ البعثِ هو الذي تُعُمِّد بالكلام ، وفي الأخرى على إيجاد المبعوث بذلك الصدد " .

و " آباؤُها عطفٌ على اسمِ كان . وقام الفَصْلُ بالجرِّ مقامَ الفَصْلِ بالتوكيدِ .

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

قوله : ﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ : فيه أوجهٌ ، أظهرُها : أنَّ " رَدِفَ " ضُمِّن معنى فِعْلٍ يتعدَّى باللامِ . أي : دنا وقَرُب وأَزِفَ . وبهذا فسَّره ابنُ عباس و " بعضُ الذي " فاعِلٌ به وقد عُدِّي ب " مِنْ " أيضاً على تَضْمينِه معنى دَنا ، قال :

3580 فلمَّا رَدِفْنا مِنْ عُمَيْرٍ وصَحْبِه . . . تولَّوْا سِراعاً والمنيَّةُ تُعْنِقُ

(31/581)

أي : دَنَوْنَا مِنْ عُمَيْر . والثاني : أنَّ مفعولَه محذوف ، واللامُ للعلةِ أي : رَدِفَ الخَلْقُ لأَجْلكم ولِشُؤْمِكم . والثالث : أنَّ اللامَ مزيدةٌ في المفعولِ تأكيداً لزيادتِها في قولِه :

3581 . . . . . أَنَخْنا

لِلكَلاكِلِ فارْتَمَيْنا

وكزيادةِ الباء في قولِه تعالى : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [البقرة : 195] وعلى هذه الأوجهِ الوقفُ على " تَسْتَعجلون " . والرابع : أنَّ فاعل " رَدِفَ " ضميرُ الوعدِ أي : رَدِفَ الوعدُ أي : قَرُبَ ودَنا مُقْتضاه . و " لكم " خبرٌ مقدمٌ و " بعضُ " مبتدأ مؤخرٌ . والوقفُ على هذا على " رَدِفَ " وهذا فيه تفكيكُ للكلامِ . والخامس : أنَّ الفعلَ محمولٌ على مصدرِه أي : الرَّدافةُ لكم ، و " بعضُ " على تقديرِ : رَدافةِ بعضٍ ، يعني حتى يتطابقَ الخبرُ والمخبرُ عنه . وهذا أضعفُ مِمَّا قبله .

وقرأ الأعرج " رَدَفَ " بفتح الدال وهي لغةٌ ، والكسر أشهرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 638.640 ﴾

(32/581)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

وُعِدَ آباؤنا بذلك من قبل ، ثم لم يكن لهم تحقيق ، وما نحن إلا مِثْلُهم ، وكانوا يسألون متى

الساعة؟

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (71)

فقال الحقُّ: إنه عن قريبٍ سيحل بهم ميقاته.

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73)

لأنهم لا يُميِّزُون بين مِحَنِهم ومِنَحهم. وعزيزٌ مَنْ يَعْرِفُ الفَرْقَ بين ما هو نعمةٌ من الله له وبين ما هو محنة؛ فإذا تقاصرَ عِلْمُ العبدِ عمَّا فيه صلاحه، فعسى أن يحب شيئاً ويظنَّه خيراً وبلاؤه فيه، ورُبَّ شيءٍ يظنُّه العبدُ نعمةً فيشكر عليها ويستديمها، وهي محنةٌ له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله في صَرْفِها! وبعكس هذا كم من شيءٍ يظنه الإنسان بخلاف ما هو به!. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 48﴾

(33/581)

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ

عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير قطعاً : فأن ربك لا يعجل على أهل المعاصي بالانتقام مع القطع بتمام قدرته ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن ربك ﴾ أي المحسن إليك بالحلم عن أمتك وترك المعاجلة لهم بالعذاب على المعاصي ﴿ لذو فضل ﴾ أي تفضل وإنعام ﴿ على الناس ﴾ أي كافة ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ أي لا يوقعون الشكر له بما أنعم عليهم ، ويزيدون في الجهل بالاستعجال .

ولما كان الإمهال قد يكون من الجهل بذنوب الأعداء ، قال نافياً لذلك : ﴿ وإن ربك ﴾ أي والحال أنه أشار بصفة الربوبية إلى إمهالهم إحساناً إليه وتشريفاً له ﴿ ليعلم ﴾ أي علماً لا يشبه علمكم بل هو في غاية الكشف لديه دقيقه وجليله ﴿ ما تكن ﴾ أي تضمر وتستر وتخفي ﴿ صدورهم ﴾ أي الناس كلهم فضلاً عن قومك ﴿ وما يعلنون ﴾ أي يظهرون من عداوتك فلا تخشهم ، وذكر هذا القسم لأن التصريح أقر للنفس والمقام للأطناب ، على أنه ربما كان في الإعلان لغط واختلاط أصوات يكون سبباً للخفاء .

ولما كان ثبات علة الناس في الغالب مقيداً بالكتاب ، قال تقريباً لأفهامهم : ﴿ وما من غائبة ﴾ أي من هنة من الهنات في غاية الغيبوبة ﴿ في السماء والأرض ﴾ أي في أي موضع كان منهما ، وأفردهما دلالة على إرادة الجنس الشامل لكل فرد ﴿ إلا في كتاب ﴾ كتبه قبل إيجادها لأنه لا يكون شيء إلا بعلمه وتقديره ﴿ مبين ﴾ لا يخفى شيء فيه على من تعرف ذلك منه كيفما كان ؛ ثم دل على ذلك بقوله : ﴿ إن هذا القرآن ﴾ أي الآتي به هذا النبي الأمي الذي لم يعرف قبله علماً ولا خالط عالماً ﴿ يقص ﴾ أي يتابع الإخبار ويتلو شيئاً فشيئاً على سبيل القطع الذي لا تردد فيه ، من غير زيادة ولا نقص ﴿ على بني إسرائيل ﴾ أي الذي أخبارهم مضبوطة في كتبهم لا يعرف بعضها إلا قليل من حذاق أخبارهم ﴿ أكثر الذي هم ﴾ أي خاصة لكونه من خاص أخبارهم التي لا علم لغيرهم بها ﴿ فيه يختلفون ﴾ أي من أمر الدين وإن بالغوا في كتمه ، كقصة الزاني المحصن في إخفائهم أن حده الرجم ، وقصة عزير والمسيح ، وإخراج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك من توارتهم ، فصح بتحقيقه على لسان من لم يلم بعلم قط أنه من عند الله ، وصح أن الله تعالى يعلم كل شيء إذ لا خصوصية لهذا دون غيره بالنسبة إلى علمه سبحانه .

ولما بان بهذا دليل علمه ، أتبعه دليل فضله وحلمه ، فقال : ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لهدى ﴾ أي موصل إلى المقصود لمن وفق ﴿ ورحمة ﴾ أي نعمة وإكرام ﴿ للمؤمنين ﴾ أي الذين طبعتهم على الإيمان ، فهو صفة لهم راسخة كما أنه للكافرين وقر في أذانهم وعمى في قلوبهم .

(35/581)

ولما ذكر دليل فضله ، أتبعه دليل عدله ، فقال مستأنفاً لجواب من ظن أن فضله دائم العموم على الفريقين : ﴿ إن ﴾ وقال : ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بجمعه لكل بين العلم والبلاغة والدين والبراعة والدنيا والعفة والشجاعة تسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ يقضي بينهم ﴾ أي بين جميع المخلفين ﴿ بحكمه ﴾ أي الذي هو أعدل حكم وأتقنه وأنفذه وأحسنه مع كفرهم به واستهزائهم برسله ، لا بحكم غيره ولا بنائب يستنيبه ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه هو ﴿ العزيز ﴾ فلا يرد له أمر ﴿ العليم ﴾ فلا يخفى عليه سر ولا جهر ، فلما ثبت له العلم والحكمة ، والعظمة والقدرة ، تسبب عن ذلك قوله : ﴿ فتوكل على الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة بما ثبت علمه وقدرته التي أثبت بها أنك أعظم عباده الذين اصطفى في استهزاء الأعداء وغيره من مصادمتهم ومسالمتهم لتدع الأمور كلها إليه ،

وتستريح من تحمل المشاق ، وثوقاً بنصره ، وما أحسن قول قيس بن الخطيم وهو جاهلي :

متى ما تقد بالباطل الحق يأبه . . .

وأن تقد الأطوار بالحق تنقد

ثم علل ذلك حثاً على التحري في الأعمال ، وفطماً لأهل الإبطال ، عن تمني المحال ، فقال : ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ أي البين في نفسه الموضح لغيره ، فحقك لا يبطل ووضوحه لا يخفى ، ونكوصهم ليس عن خلل في دعائك لهم ، وإنما الخلل في مداركهم ، فثق بالله في تدبير أمرك فيهم ؛ ثم علل هذا الذي أرشد السياق إلى تقديره ، أو استأنف لمن يسأل متعجباً عن وقوفهم عن الحق الواضح بقوله : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ أي لا توجد سمعاً للذين هم كالموتى في عدم الانتفاع بمشاعرهم التي هي في غاية الصحة ، وهم إذا سمعوا الآيات أعرضوا عنها .

ولما كان تشبيههم بالموتى مؤيساً ، قال مرجياً : ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ أي لا تجدد ذلك لهم ، فشبههم بما في أصل خلقهم مما جبلوا عليه من الشكاسة وسوء الطبع بالصم .

(36/581)

ولما كانوا قد ضموا إلى ذلك الإعراض والنفرة فصاروا كالأصم المدبر ، وكان الأصم إذا أقبل ربما بمساعدة بصره وفهمه ، قال : ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ فرجاه في إيجاد الإسماع إذا حصلت لهم حالة من الله تقبل بقلوبهم .

ولما شبههم بالصم في كونهم لا يسمعون إلا مع الإقبال ، مثلهم بالعمى في أنهم لا يهتدون في غير عوج أصلاً إلا براعٍ لا تشغله عنهم فترة ولا ملال ، فقال : ﴿ وما أنت بهادي ﴾ أي بموجد الهداية على الدوام في قلوب ﴿ العمي ﴾ أي في أبصارهم وبصائرهم مزيلاً لهم وناقلاً ومبعداً ﴿ عن ضلالتهم ﴾ عن الطريق بحيث تحفظهم عن أن يزالوا عنها أصلاً ، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الحي القيوم ، والسياق كما ترى يشعر بتنزيل كفرهم في ثلاث رتب : عليا ككفر أبي جهل ، ووسطى كعتبة بن ربيعة ، ودنيا كأبي طالب وبعض المنافقين ، وسيأتي في سورة الروم لهذا مزيد بيان .

ولما كان ربما أوقف عن دعائهم ، رجاه في انقيادهم وارعوائهم بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ تسمع ﴾ أي سماع انتفاع على وجه الكمال ، في كل حال ﴿ إلا من يؤمن ﴾ أي من علمناه أنه يصدق ﴿ بآياتنا ﴾ بأن جعلنا فيه قابلية السمع .

ثم سبب عنه قوله دليلاً على إيمانه : ﴿ فهم مسلمون ﴾ أي في غاية الطواعية لك في المنشط والمكره ، لا خيرة لهم ولا إرادة في شيء من الأشياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 448 . 451 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم إنه سبحانه بين السبب في ترك تعجيل العذاب فقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ والفضل الإفضال ومعناه أنه متفضل عليهم بتأخير العقوبة ، وأكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها ، وهذه الآية تبطل قول من قال إنه لا نعمة لله على الكفار ثم بين سبحانه أنه مطلع على ما في قلوبهم فقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وههنا بحث عقلي ، وهو أنه قدم ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم والسبب أن ما تكنه صدورهم هو الدواعي والقصود ، وهي أسباب لما يعلنون ، وهي أفعال الجوارح ، والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول ، فهذا هو السبب في ذلك التقديم ، قرىء (تكن) يقال كننت الشيء وأكننته إذا سترته وأخفيته ، يعني أنه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم .

أما قوله : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : سمى الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية ، فكانت التاء فيها بمنزلتها في العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة

والرمية في أنها أسماء غير صفات ، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية في قولهم : ويل للشاعر من راوية السوء ، كأنه تعالى قال : وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء ، إلا وقد علمه الله تعالى وأحاط به ، وأثبته في اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) ﴾

(38/581)

اعلم أنه سبحانه لما تمم الكلام في إثبات المبدإ والمعاد ، ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ، ولما كانت العمدة الكبرى في إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن ، لا جرم بين الله تعالى أولاً كونه معجزة من وجوه : أحدها : أن الأقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل مع العلم بأنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً ، وأنه لم يخالط أحداً من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم ، فإذن لا يكون ذلك إلا من قبل الله تعالى ، واختلفوا فقال بعضهم أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا ، وقال آخرون أراد به ما حرفه بعضهم ، وقال بعضهم بل أراد به أخبار الأنبياء ، والأول أقرب وثانيها : قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك لأن بعض الناس قال إنا لما تأملنا القرآن فوجدنا

فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة ، وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شيء من الكتب ، ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها ، وجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت ، فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة على جمع كتاب على هذا الوجه ، فعلمنا أنه ليس إلا من عند الله تعالى ، فكان القرآن معجزاً من هذه الجهة وثالثها : أنه هدى ورحمة للمؤمنين ، لبلوغه في الفصاحة إلى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز ، ثم إنه تعالى لما بين كونه معجزاً دالاً على الرسالة ذكر بعده أمرين : الأول : قوله : ﴿ إِن رَّبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ العزيز العليم ﴾ والمراد أن القرآن وإن كان يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ، لكن لا تكن أنت في قيدهم ، فإن ربك هو الذي يقضي بينهم ، أي بين المصيب والمخطىء منهم ، وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال : ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ أي القادر الذي لا يمنع العليم بما يحكم فلا يكون إلا الحق ، فإن قيل القضاء والحكم شيء واحد فقوله

(39/581)

: ﴿ يَقْضِي بِحُكْمِهِ ﴾ كقوله يقضي بقضائه ويحكم بحكمه والجواب : معنى قوله : ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ أي بما يحكم به وهو عدله ، لأنه لا يقضي إلا بالعدل ، أو أراد بحكمه ، ويدل

عليه قراءة من قرأ (بحكمه) جمع حكمة الثاني : أنه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بأن يتوكل على الله ، ولا يلتفت إلى أعداء الله ، ويشرع في تمشية مهمات الرسالة بقلب قوي ، فقال ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ ثم علل ذلك بأمرين : أحدهما : قوله : ﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ وفيه بيان أن المحق حقيق بنصرة الله تعالى وأنه لا يخذل وثانيهما : قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ وإنما حسن جعله سبباً للأمر بالتوكل ، وذلك لأن الإنسان ما دام يطمع في أحد أن يأخذ منه شيئاً فإنه لا يقوى قلبه على إظهار مخالفته ، فإذا قطع طمعه عنه قوي قلبه على إظهار مخالفته ، فالله سبحانه وتعالى قطع محمداً صلى الله عليه وسلم عنهم بأن بين له أنهم كالموتى وكالصم وكالعمى فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل ، وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على إظهار الدين كما ينبغي ، فإن قيل ما معنى قوله : ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ جوابه : هو تأكيد لحال الأصم ، لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن تولى عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته .

أما قوله تعالى : ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ فالمعنى ما يجدي إسماعك إلا الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته ، أي يصدقون بها فهم مسلمون ، أي مخلصون من قوله : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 112] يعني جعله سالماً لله تعالى خالصاً له ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 184.186 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75) ﴾

التاء في ﴿ غائبة ﴾ للمبالغة ، أي ما من شيء في غائبة الغيب والخفاء ﴿ إلا في كتاب ﴾ عند الله عز وجل وفي مكنون علمه ، ثم نبه تعالى على ﴿ إن هذا القرآن ﴾ أخبر ﴿ بني إسرائيل ﴾ بأكثر الأشياء التي كان بينهم الخلاف في صفتها فجاءت في القرآن على وجهها ، ثم وصفه تعالى بأنه هدى ورحمة للمؤمنين ، كما أنه عمى على الكافرين المحتوم عليهم ومعنى ذلك أن كفرهم استتب مع قيام الحجة ووضوح الطريق فكثر عماهم بهذه الجهة ثم أخبر أن ذلك كله بقضاء من الله وحكم قضاه فيهم وبينهم ، ثم أمره بالتوكل عليه والثقة بالله وبأنه ﴿ على الحق ﴾ أي إنك الجدير بالنصرة والظهور ، ثم سلاه عنهم وشبههم ب ﴿ الموتى ﴾ من حيث الفائدة في القول لهؤلاء وهؤلاء معدومة فشبههم مرة ب ﴿ الموتى ﴾ ومرة ب ﴿ الصم ﴾ ، قال العلماء : الميت من الأحياء هو الذي يلقى الله بكفره .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : واحتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية ، ونظرت هي في الأمر بقياس عقلي ووقفت مع هذه الآية وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " ما أنتم بأسمع منهم "

فيشبه أن قصة بدر هي خرق عادة لمحمد عليه السلام في أن رد الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله ، ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين منهم .

وقد عورضت هذه الآية بالسلام على القبور وبما روي في ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات قالوا : فلو لم يسمع الميت لم يسلم عليه .

(41/581)

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله غير معارض للآية لأن السلام على القبور إنما هو عبادة وعند الله الثواب عليها وهو تذكير للنفس بحالة الموت وبحالة الموتى في حياتهم ، وإن جوزنا مع هذا أن الأرواح في وقت على القبور فإن سمع فليس الروح بميت وإنما المراد بقوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ الأشخاص الموجودة مفارقة لأرواحها ، وفيها تقول خرقت العادة لمحمد عليه السلام في أهل القليب وذلك كنحو قوله صلى الله عليه وسلم في الموتى " إذا دخل عليهم الملكان إنهم يسمعون خفق النعال " ، وقرأ ابن كثير " ولا يسمع " بالياء من تحت " الصمُّ " رفعاً ومثله في الروم ، وقرأ الباقون " تُسمع " بالتاء " الصمَّ " نصباً ، وقرأ جمهور القراء " بهادي العمي " بالإضافة ، وقرأ يحيى بن الحارث وأبو حيوة " بهادٍ العميَ "

بتنوين الدال ونصب " العميَ " ، وقرأ حمزة وحده " وما أنت تهدي العمي " بفعل مستقبل وهي قراءة طلحة وابن وثاب وابن يعمر ، وفي مصحف عبد الله " وما أن تهدي العمي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(42/581)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّ ربَّكَ لَذُو فَضْلٍ على النَّاس ﴾

قال مقاتل : على أهل مكة حين لا يعجل عليهم بالعذاب .

قوله تعالى : ﴿ وإِنَّ ربَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدورهم ﴾ أي : ما تُخفيه ﴿ وما يُعْلِنون ﴾ بألسنتهم من عداوتك وخلافك ؛ والمعنى : أنه يجازيهم عليه .

﴿ وما مِنْ غائبة ﴾ أي : وما من جملة غائبة ﴿ إِلا في كتاب ﴾ يعني اللوح المحفوظ ؛ والمعنى : إِنَّ عِلْم ما يستعجلونه من العذاب بَيِّنٌ عند الله وإِن غاب عن الخَلْق .

﴿ إِنَّ هذا القرآنَ يَقُصُّ على بني إِسرائيل ﴾

وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم ، فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض ، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه ، فلو أخذوا به لسلموا .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يقضي بينهم ﴾ يعني بين بني إسرائيل ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ وقرأ أبو المتوكل ؛ وأبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : ﴿ بِحِكَمِه ﴾ بكسر الحاء وفتح الكاف .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى ﴾ الموتى قال المفسرُون : هذا مَثَلٌ ضربه الله للكفار فشبَّههم بالموتى .

قوله تعالى : ﴿ ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ ﴾ وقرأ ابن كثير : ﴿ ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ ﴾ بفتح ميم ﴿ يَسْمَعُ ﴾ وضم ميم ﴿ الصُّمُّ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِذا ولَّوا مُدْبِرِينَ ﴾ أي : أن الصُّم إذا أدبروا عنك ثم ناديتَهم لم يسمعوا ، فكذلك الكافر ﴿ وما أنتَ بِهَادِ العُمْيِ ﴾ أي : [ما أنت] بمرشِد من أعماه الله عن الهدى ، ﴿ إِنْ تُسْمِعُ ﴾ إسماع إفهام ﴿ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتنا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(43/581)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾

في تأخير العقوبة وإدرار الرزق ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ فضله ونعمه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي تخفي صدورهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون من الأمور .

وقرأ ابن محيصن وحميد ﴿ مَا تَكُنُّ ﴾ من كَننتُ الشيء إذا سترتَه هنا .

وفي "القصص" تقديره : ما تَكُنّ صدورهم عليه ؛ وكأن الضمير الذي في الصدور كالجسم الساتر .

ومن قرأ : ﴿ تُكِنُّ ﴾ فهو المعروف ؛ يقال : أكننت الشيء إذا أخفيته في نفسك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السمآء والأرض إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ قال الحسن : الغائبة هنا القيامة .

وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ؛ حكاه النقاش .

وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم ، وهذا عام .

وإنما دخلت الهاء في ﴿ غَائِبَةٍ ﴾ إشارة إلى الجمع ؛ أي : ما من خَصْلة غائبة عن الخلق إلا والله عالم بها قد أثبتها في أم الكتاب عنده ، فكيف يخفى عليه ما يسرّ هؤلاء وما يعلنونه .

وقيل : أي كل شيء هو مثبت في أم الكتاب يخرجه للأجل المؤجل له ؛ فالذي يستعجلونه من العذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه .

والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيل أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضاً فنزلت .

والمعنى : إن هذا القرآن يبيّن لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به ، وذلك ما حرّفوه من التوراة والإنجيل ، وما سقط من كتبهم من الأحكام .

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خص المؤمنين لأنهم المنتفعون به .

(44/581)

﴿ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ﴾ أي يقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه في الآخرة ، فيجازي المحقّ والمبطل .

وقيل : يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرّفوه .

﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ المنيع الغالب الذي لا يردّ أمره ﴿ العليم ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ أي فوّض إليه أمرك واعتمد عليه ؛ فإنه ناصرك .

﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ أي الظاهر .

وقيل : المظهر لمن تدبر وجه الصواب .

﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ يعني الكفار لتركهم التّدبر ؛ فهم كالموتى لا حسّ لهم ولا عقل .

وقيل : هذا فيمن علم أنه لا يؤمن .

﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء ﴾ يعني الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ ؛ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولّوا كأنهم لا يسمعون ؛ نظيره : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : 18] كما تقدّم .

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق وعباس عن أبي عمرو : ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ ﴾ بفتح الياء والميم ﴿ الصُّمُّ ﴾ رفعاً على الفاعل .

الباقون ﴿ تُسْمِعُ ﴾ مضارع أسمعت ﴿ الصُّمَّ ﴾ نصباً .

مسألة : وقد احتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي صلى الله عليه وسلم أسمع موتى بدر بهذه الآية ؛ فنظرت في الأمر بقياس عقلي ووقفت مع هذه الآية .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أنتم بِأَسْمَعَ مِنْهم " قال ابن عطية : فيشبه أن قصة بدر خرق عادة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أن ردّ الله إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله ولولا إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بسماعهم لحملنا نداءه إياهم على معنى التوبيخ لمن بقي من الكفرة ، وعلى معنى شفاء صدور المؤمنين .

قلت : روى البخاري رضي الله عنه ؛ حدّثني عبد الله بن محمد سمع رَوْح بن عُبادة قال : حدّثنا سعيد بن أبي عَرُوبة عن قتادة قال : ذَكَرَ لَنا أنس بن مالك " عن أبي طلحة أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذِفوا في طَوِيٍّ من أطواء بدر خَبيثٍ مُخْبِث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليومَ الثالث أمر براحلته فشدّ عليها رحلُها ثم مشى وتبعه أصحابُه ، قالوا : ما نُرَى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفير الرَّكِيِّ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؛ فإنا قد وجدنا ما وَعَدنا ربّنا حقًّا فهل وجدتم ما وَعَد ربُّكم حقًّا ؛ قال فقال عمر : يا رسول اللها ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح لها ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم" "

قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونِقمةً وحسرةً وندماً .

خرجه مسلم أيضاً .

قال البخاري : حدّثنا عثمان قال حدّثنا عَبْدة عن هشام عن أبيه عن ابن عمر قال : وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قِليب بدر فقال : "هل وجدتم ما وَعَد ربُّكُمْ حَقًّا" ثم قال : "إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق" ثم قرأتْ ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الموتى ﴾ حتى قرأت الآية .

وقد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور ، وبما روي في ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور في أوقات ، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه ، إلى غير ذلك ؛ فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه .

وهذا واضح وقد بيّناه في كتاب "التذكرة" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضَلالَتِهِمْ ﴾ أي كفرهم ؛ أي ليس في وسعك خلق الإيمان في قلوبهم .

(46/581)

وقرأ حمزة : ﴿ وَمَا أَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ ﴾ كقوله : ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمي ﴾ [يونس : 43] .

الباقون : ﴿ بِهَادِي الْعُمْي ﴾ وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم وفي "الروم" مثله .

وكلهم وقف على ﴿ بِهَادِي ﴾ بالياء في هذه السورة وبغير ياء في "الروم" اتباعاً للمصحف ، إلا يعقوب فإنه وقف فيهما جميعاً بالياء .

وأجاز الفراء وأبو حاتم : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادٍ الْعُمْيَ ﴾ وهي الأصل .

وفي حرف عبد الله ﴿ وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾ .

﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تسمع .

﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ قال ابن عباس : أي إلا من خلقته للسعادة فهم مخلصون في التوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(47/581)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

لما تقدم أنه تعالى منفرد بعلم الغيب ، ومن جملتها وقت الساعة ، وأنهم لا شعور لهم بوقتها ، وأن الكفار في شك منها عمون ، ناسب ذكر مقالاتهم في استبعادها ، وأن ما وعدوا به من ذلك ليس بصحيح ، إنما ذلك ما سطر الأولون من غير إخبار بذلك عن حقيقة .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ أئذا ، أئنا ﴾ بالجمع بين الاستفهامين ؛ وقلب الثانية ياء ، وفصل بينهما بألف أبو عمرو ، وقرأهما عاصم وحمزة : بهمزتين ، ونافع : إذا بهمزة مكسورة ، آينا بهمزة الاستفهام ، وقلب الثانية ياء ، وبينهما مدة ، والباقون : آئذا ، باستفهام ممدود ، إننا : بنونين من غير استفهام ، والعامل في إذا محذوف دل على مضمون الجملة الثانية تقديره : يخرج ويمتنع إعمال لمخرجون فيه ، لأن كلاً من إن ولام الابتداء

والاستفهام يمنع أن يعمل ما بعده فيما قبله ، إلا اللام الواقعة في خبر إن ، فإنه يتقدم معمول الخبر عليها وعلى الخبر على ما قرر في علم النحو .

وآباؤنا : معطوف على اسم كان ، وحسن ذلك الفصل بخبر كان .

والإخراج هنا من القبور أحياء ، مردوداً أرواحهم إلى الأجساد ، والجمع بين الاستفهام في إذا وفي إنا إنكار على إنكار ، ومبالغة في كون ذلك لا يكون ، والضمير في إننا لهم ولآبائهم ، لأن صيرورتهم تراباً ، شامل للجميع .

ثم ذكروا أنهم وعدوا ذلك هم وآباؤهم ، فلم يقع شيء من هذا الموعود ، ثم جزموا وحصروا أن ذلك من أكاذيب من تقدم .

وجاء هنا تقديم الموعود به ، وهو هذا ، وتأخر في آية أخرى على حسب ما سيق الكلام لأجله .

(48/581)

فحيث تأكد الإخبار عنهم بإنكار البعث والآخرة ، عمدوا إليها بالتقديم على سبيل الاعتناء ، وحيث لم يكن ذلك ، عمدوا إلى إنكار إيجاد المبعوث ، فقدموه وأخروا الموعود به ، ثم أمر نبيه أن يأمرهم بالسير في الأرض ؛ وتقدم الكلام في نظير هذه الآية في أوائل

الأنعام .

وأراد بالمجرمين : الكافرين ، ثم سلى نبيه فقال : ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ : أي في كونهم لم يسلموا ولم يذعنوا إلى ما جئت به ، ﴿ ولا تكن في ضيق ﴾ : أي في حرج وأمر شاق عليك ﴿ مما يمكرون ﴾ ، فإن مكرهم لاحق بهم ، لا بك ، والله يعصمك منهم .

وتقدّمت قراءة ضيق ، بكسر الضاد وفتحها ، وهما مصدران .

وكره أبو علي أن يكون المفتوح الضاد ، أصله ضيق ، بتشديد الياء فخفف ، كلين في لين ، لأن ذلك يقتضي حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، وليست من الصفات التي تقوم مقام الموصوف باطراد .

وأجاز ذلك الزمخشري ، قال : ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم .

ولما استعجلت قريش بأمر الساعة ، أو بالعذاب الموعود به هم ، وسألوا عن وقت الموعود به على سبيل الاستهزاء ، قيل له : قل عسى أن يكون ردفكم بعضه : أي تبعكم عن قرب وصار كالرديف التابع لكم بعض ما استعجلتم به ، وهو كان عذاب يوم بدر .

وقيل : عذاب القبر .

وقرأ الجمهور : ردف ، بكسر الدال .

وقرأ ابن هرمز : بفتحها ، وهما لغتان ، وأصله التعدي بمعنى تبع ولحق ، فاحتمل أن يكون مضمناً معنى اللازم ، ولذلك فسره ابن عباس وغيره بأزف وقرب لما كان يجيء بعد

الشيء قريباً منه ضمن معناه ، أو مزيداً اللام في مفعوله لتأكيد وصول الفعل إليه ، كما زيدت الباء في : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم ﴾ قاله الزمخشري ، وقد عدى بمن على سبيل التضمين لما يتعدى بها ، وقال الشاعر :

فلما ردَفنا من عمير وصحبه . . .

تولوا سراعاً والمنية تعنق

أي دنوا من عمير .

وقيل : ردفه وردف له ، لغتان .

وقيل : الفعل محمول على المصدر ، أي الرادفة لكم .

(49/581)

وبعض على تقدير ردافة بعض ما تستعجلون ، وهذا فيه تكلف ينزه القرآن عنه .

وقيل : اللام في لكم داخلة على المفعول من أجله ، والمفعول به محذوف تقديره : ردف الخلق لأجلكم ، وهذا ضعيف .

وقيل : الفاعل بردف ضمير يعود على الوعد ، ثم قال : لكم بعض ما تستعجلون على المبتدأ والخبر ، وهذا فيه تفكيك للكلام ، وخروج عن الظاهر لغير حاجة تدعو إلى ذلك .

﴿ لذو فضل ﴾ : أي إفضال عليهم بترك معاجلتهم بالعقوبة على معاصيهم وكفرهم ، ومتعلق يشكرون محذوف ، أي لا يشكرون نعمه عندهم ، أو لا يشكرون بمعنى : لا يعرفون حق النعمة ، عبر عن انتفاء معرفتهم بالنعمة ، بانتفاء ما يترتب على معرفتها ، وهو الشكر .

ثم أخبر تعالى بسعة علمه ، فبدأ بما يخص الإنسان ، ثم عم كل غائبة وعبر بالصدور ، وهي محل القلوب التي لها الفكر والتعقل ، كما قال : ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ عن الحال فيها ، وهي القلوب ، وأسند الإعلان إلى ذواتهم ، لأن الإعلان من أفعال الجوارح .

ولما كان المضمر في الصدر هو الداعي لما يظهر على الجوارح ، والسبب في إظهاره قدم الإكنان على الإعلان .

وقرأ الجمهور : ﴿ ما تكن ﴾ ، من أكن الشيء : أخفاه .

وقرأ ابن محيصن ، وحميد ، وابن السميفع : بفتح التاء وضم الكاف ، من كن الشيء : ستره ، والمعنى : ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم .

والظاهر عموم قوله : ﴿ من غائبة ﴾ ، أي ما من شيء في غاية الغيبوبة والخفاء إلا في كتاب عند الله ومكنون علمه .

وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض .

وقيل : هو يوم القيامة وأهوالها ، قاله الحسن .

والكتاب : اللوح المحفوظ .

وقيل : أعمال العباد أثبتت ليجازى عليها .

وقال صاحب الغنيان : أي حادثة غائبة ، أو نازلة واقعة .

وقال ابن عباس : أي ما من شيء سرّ في السموات والأرض وعلانية ، فاكتفى بذكر السر عن مقابلة .

(50/581)

وقال الزمخشري : سمي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية ، فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العاقبة والعافية ، ونظيرهما : النطيحة والذبيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات ، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة ، كالرواية في قولهم : ويل للشاعر من رواية السوء ، كأنه قال : وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء ، إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح المبين الظاهر لمن ينظر فيه من الملائكة .

انتهى .

ولما ذكر تعالى المبدأ والمعاد ، ذكر ما يتعلق بالنبوة ، وكان المعتمد الكبير في إثبات نبوّة محمد

(صلى الله عليه وسلم) وهو القرآن .

ومن جملة إعجازه إخباره بما تضمن من القصص ، الموافق لما في التوراة والإنجيل ، مع العلم بأنه أمي لم يخالط العلماء ولا اشتغل بالتعليم .

وبنو إسرائيل هم اليهود والنصارى .

قص فيه أكثر ما اختلفوا فيه على وجهه ، وبينه لهم ، ولو أنصفوا وأسلموا .

ومما اختلفوا فيه أمر المسيح ، تحزبوا فيه ، فمن قائل هو الله ، ومن قائل ابن الله ، ومن قائل ثالث ثلاثة ، ومن قائل هو نبي كغيره من الأنبياء ، وقد عقدوا لهم اجتماعات ، وتباينوا في العقائد ، وتناكروا في أشياء حتى لعن بعضهم بعضاً ، والظاهر عموم المؤمنين .

وقيل لمن آمن من بني إسرائيل والقضاء والحكم ، وإن ظهر أنهما مترادفان ، فقيل : المراد به هنا العدل ، أي بعدله ، لأنه لا يقضي إلا بالعدل ، وقيل : المراد بحكمته والحكم .

قيل : ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه ، بكسر الحاء وفتح الكاف ، جمع حكمة ، وهو جناح بن حبيش .

ولما كان القضاء يقتضي تنفيذ ما يقضي به ، والعلم بما يحكم به ، جاءت هاتان الصفتان عقبه ، وهو العزة : أي الغلبة والقدرة والعلم ، ثم أمره تعالى بالتوكل عليه ، وأخبره أنه على الحق الواضح الذي لا شك فيه ، وهو كالتعليل للتوكل ، وفيه دليل على أن من كان على الحق يحق له أن يثق بالله ، فإنه ينصره ولا يخذله .

ولما كان القرآن وما قص الله فيه لا يكاد يجدي عندهم ، أخبر تعالى عنهم أنهم موتى القلوب ، أو شبهوا بالموتى ، وإن كانوا أحياء صحاح الأبصار ، لأنهم إذا تلي عليهم لا تعيه آذانهم ، فكانت حالهم لانتفاء جدوى السماع كحال الموتى .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا تسمع الصم ﴾ هنا ، وفي الروم بضم التاء وكسر الميم ، الصم بالرفع ، ولما كان الميت لا يمكن أن يسمع ، لم يذكر له متعلق ، بل نفي الإسماع ، أي لا يقع منك إسماع لهم ألبتة لعدم القابلية .

وأما الأصم فقد يكون في وقت يمكن إسماعه وسماعه ، فأتى بمتعلق الفعل وهو الدعاء .

وإذا معمولة لتسمع ، وقيد نفي الإسماع أو السماع بهذا الطرف وما بعده على سبيل التأكيد لحال الأصم ، لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولي مدبراً ، كان أبعد عن إدراك صوته .

شبههم أولاً بالموتى ، ثم بالصم في حالة ، ثم بالعمي ، فقال : ﴿ وما أنت بهادي العمي ﴾ حيث يضلون الطريق ، فلا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويحولهم هداة بصراء إلا الله تعالى .

وقرأ الجمهور : بهادي العمى ، اسم فاعل مضاف ؛ ويحيى بن الحارث ، وأبو حيوة : بهادٍ ، منوناً العمي ؛ والأعمش ، وطلحة ، وابن وثاب ، وابن يعمر ، وحمزة : تهدي ، مضارع هدى ، العمي بالنصب ؛ وابن مسعود : وما أنت تهتدي ، بزيادة أن بعد ما ، ويهتدي مضارع اهتدى ، والعمي بالرفع ، والمعنى : ليس في وسعك إدخال الهدى في قلب من عمي عن الحق ولم ينظر إليه بعين قلبه .

﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ ، وهم الذين علم الله أنهم يصدقون بآياته .

﴿ فهم مسلمون ﴾ : منقادون للحق .

وقال الزمخشري : مسلمون مخلصون ، من قوله : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله ﴾ بمعنى جعله سالماً لله خالصاً . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(52/581)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾

أي لذُو إفضالٍ وإنعامٍ على كافَّة النَّاسِ . ومن جُملةِ إنعاماتِه تأخيرُ عقوبةِ هؤلاءِ على ما يرتكبونَهُ من المَعَاصي التي من جُملتِها استعجالُ العذابِ ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾

لا يعرفون حقَّ النعمةِ فيه فلا يشكرونَهُ بل يستعجلونَ بجهلِهم وقوعَهُ كدأبِ هؤلاءِ .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي ما تُخفيه . وقُرِئَ بفتحِ التَّاءِ من كننتُ الشيءَ إذا سترتُه ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من الأفعالِ والأقوالِ التي مِن جُملتِها ما حُكي عنهم من استعجالِ العذابِ وفيه إيذانٌ بأنَّ لهم قبائحَ غيرَ ما يُظهرونَهُ وأنَّه تعالى يُجازيهم على الكلِّ . وتقديمُ السرِّ على العَلَن قد مرَّ سرُّه في سُورةِ البقرةِ عند قولِه تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السماء والأرض ﴾ أي من خافيةٍ فيهما وهُما من الصِّفاتِ الغالبةِ . والتَّاءُ للمبالغة كما في الرِّوايةِ أو اسمانِ لما يغيبُ ويَخْفى والتَّاءُ للنقلِ إلى الاسميَّةِ ﴿ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أيْ بيِّنٍ أو مُبينٍ لما فيهِ لمنْ يُطالعه وهو اللَّوحُ المحفوظُ ، وقيلَ هُو القضاءُ العدلُ بطريقِ الاستعارةِ .

﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِى إسراءيل أَكْثَرَ الذى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ منْ جُملتِه ما اختلفُوا في شأنِ المسيحِ وتحزَّبُوا فيهِ أحزاباً وركبُوا متنَ العُتوِّ والغلوِّ في الإفراطِ والتَّفريطِ والتَّشبيهِ والتَّنزيهِ ووقعَ بينُهم التَّناكُرُ في أشياءَ حتَّى بلغَ المُشاقَّةَ إلى حيثُ لعنَ بعضُهم بعضاً وقد نزلَ القرآنُ الكريمُ ببيانِ كُنْهِ الأمرِ لو كانُوا في حيِّزِ الإنصافِ .

(53/581)

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على الإطلاقِ فيدخلُ فيهم مَن آمنَ مِن بني إسرائيلَ دُخولاً أوّليا .

﴿ إِن رَّبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أي بينَ بني إسرائيلَ ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ بما يحكمُ بِهِ وهو الحقُّ أو بحكمتِه ويؤيدُه أنَّه قُرِئ بحُكمه ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ فلا يردُّ حكمُه وقضاؤُه ﴿ العليم ﴾ بجميعِ الأشياءِ التي مِنْ جُملتها ما يقضي بِهِ والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ لترتيبِ الأمرِ على ما ذُكر من شؤونِه عزَّ وجلَّ فإنَّها موجبةٌ للتوكلِ عليهِ وداعيةٌ إلى الأمرِ بِهِ أي فتوكَّل عَلى الله الذي هَذا شأنُه فإنَّه موجبٌ على كلِّ أحدٍ أنْ يتوكلَ عليهِ ويفوض جميعَ أمورِه إليهِ وقولُه تعالى :

﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ تعليلٌ صريحٌ للتَّوكلِ عليه تعالَى بكونِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ على الحقِّ البيِّنِ أو الفاصلِ بينَهُ وبينَ الباطلِ أو بينَ المُحقِّ والمُبطلِ فإنَّ كونَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كذلكَ مِمَّا يُوجبُ الوثوقَ بحفظِه تعالى ونُصرتِه وتأييدِه لا محالةَ .

وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ الخ تعليلٌ آخرُ للتَّوكلِ الذي هُو عبارةٌ عن التَّبتلِ إلى الله تعالى وتفويضِ الأمرِ إليهِ والإعراضِ عن التشبثِ بما سِواه وقد عُلِّل أولاً بما يُوجبه من جهتِه تعالى أعني قضاءَهُ بالحقِّ وعزَّتِه وعلمِه تعالى وثانياً بما يُوجبه من جهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أحدِ الوجهينِ أعنِي كونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الحقِّ ومن جهتِه تعالى على الوجهِ الآخرِ أعني إعانتَه تعالى وتأييدَه للحقِّ .

ثم عُلِّل ثالثاً بما يُوجبه لكنْ لا بالذَّاتِ بل بواسطةِ إيجابه للإعراضِ عن التَّشبثِ بما سِواه تعالى فإنّ كونَهم كالمَوتى والصُمِّ والعُمْي موجبٌ لقطعِ الطمعِ عن مشايعتِهم ومعاضدتِهم رأساً وداعٍ إلى تخصيصِ الاعتضادِ به تعالى وهو المعنى بالتَّوكل عليه تعالى وإنَّما شُبِّهوا بالموتى لعدمِ تأثرِهم بما يُتلى عليهم من القوارعِ. وإطلاقُ الإسماعِ عن المفعولِ لبيانِ عدمِ سماعهم لشيءٍ من المسموعاتِ ولعلَّ المرادَ تشبيهُ قلوبِهم بالمَوتى فيما ذُكر من عدمِ الشُّعور فإنَّ القلبَ مَشعرٌ من المشاعرِ أشُير إلى بطلانِه بالمرةِ ثم بُيّن بطلانُ مشعري الأذنِ والعينِ كما في قولِه تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ وإلا فبعد تشبيهِ أنفسِهم بالمَوتى لا يظهر لتشبيههم بالصُّمِّ والعُمي مزيدُ مزيةٍ. ﴿ لاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء ﴾ أي الدَّعوةَ إلى أمرٍ من الأمُور، وتقييدُ النفيِّ بقولِه تعالى ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ لتكميلِ التشبيهِ وتأكيدِ النفيِّ فإنَّهم مع صَمَمِهم عن الدُّعاء إلى الحقِّ معُرضونَ عن الدَّاعي مولُّون على أدبارِهم، ولا ريبَ في أنَّ الأصمَّ لا يسمعُ الدُّعاءَ مع كونِ الدَّاعِي بمقابلةِ صُماخه قريباً فكيفَ إذا كانَ خلفَهُ بعيداً منه. وقُرِىء ولا يَسمعُ الصمُّ الدعاءَ.

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى العمى عَن ضلالتهم ﴾

هدايةً موصّلةً إلى المطلوبِ كما في قولِه تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فإنَّ الاهتداءَ منوطٌ بالبصرِ ، وعن متعلّقةٍ بالهدايةِ باعتبارِ تضمنِه معنى الصَّرفِ وقيل : بالعمى عن كذا وفيهِ بعدٌ . وإيرادُ الجُملةِ الاسميةِ للمُبالغةِ في نَفي الهِداية . وقُرِىء وما أنت تَهدي العُميَ ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تُسمع سماعاً يُجدي السامعَ نفعاً ﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بآياتنا ﴾ أي مَن مِن شأنِهم الإيمانُ بها . وإيرادُ الإسماعِ في النفيِّ والإثباتِ دونَ الهدايةِ مع قُربها بأنْ يقالَ إنْ تُهدي إلا مَن يُؤمن الخ لما أنَّ طريقَ الهدايةِ هو إسماعُ الآياتِ التنزيليَّةِ ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تعليلٌ لإيمانِهم بَها كأنَّه قيلَ فإنَّهم مُنقادونَ للحقِّ . وقيلَ : مُخلصون للّه تعالى من قولِه تعالى : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾

أي لذو إفضال وإنعام كثير على كافة الناس ، ومن جملة إفضاله عز وجل وإنعامه تعالى تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصي ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي لا يشكرون جل وعلا على إفضاله سبحانه عليهم ومنهم هؤلاء ، وقيل : لا يعرفون حق فضله تعالى عليهم تعبيراً عن انتفاء معرفتهم ذلك بانتفاء ما يترتب عليها من الشكر .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي ما تخفيه من الأسرار التي من جملتها عداوتك ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي وما يظهرونه من الأقوال والأفعال التي من جملتها ما حكى عنهم فليس تأخير عقوبتهم لخفاء حالهم عليه سبحانه ، أو فيجازيهم على ذلك ، وفعل القلب إذا كان مثل الحب .

والبغض .

والتصديق .

والتكذيب .

والعزم المصمم على طاعة .

أو معصية فهو مما يجازي عليه ، وفي الآية إيذان بأن لهم قبائح غير ما حكى عنهم ، وتقديم الاكتنان ليظهر المراد من استواء الخفي والظاهر في علمه جل وعلا ، أو لأن مضمرات

الصدور سبب لما يظهر على الجوارح ، وإلى الرمز إلى فساد صدورهم التي هي المبدأ لسائر أفعالهم أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال : وإن ربك ليعلم ما يكنون وما يعلنون .

وقرأ ابن محيصن .

وحميد .

وابن السميقع ﴿ تَكُنْ ﴾ بفتح التاء وضم الكاف من كن الشيء ستره وأخفاه .

(57/581)

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السماء والأرض ﴾ أي من شيء خفي ثابت الخفاء فهيما ؛ على أن ﴿ غَائِبَةٍ ﴾ صفة غلبت في هذا المعنى فكثير عدم إجرائها على الموصوف ودلالتها على الثبوت وإن لم تنقل إلى الإسمية كمؤمن وكافر ، فتاؤها ليست للتأنيث إذ لم يلاحظ لها موصوف تجري عليه كالراوي للرجل الكثير الرواية فهي تاء مبالغة ، ويجوز أن تكون صفة منقولة إلى الاسمية سمي بها ما يغيب ويخفى ، والتاء فيها للنقل كما في الفاتحة ، والفرق بين المغلب والمنقول على ما قال الخفاجي إن الأول يجوز إجراؤه على موصوف مذكر بخلاف الثاني .

والظاهر عموم الغائبة أي ما من غائبة كائنة ما كانت ﴿ أَلَا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بين ، أو مبين لما فيه لمن يطالعه وينظر فيه من الملائكة عليهم السلام وهو اللوح المحفوظ ، واشتماله على ذلك إن كان متناهياً لا إشكال فيه وإن كان غير متناه ففيه إشكال ظاهر ضرورة قيام الدليل على تناهي الأبعاد واستحالة وجود ما لا يتناهى ، ولعل وجود الأشياء الغير المتناهية في علم الله تعالى في اللوح المحفوظ على نحو ما يزعمونه من وجود الحوادث في الجفر الجامع وإن لم يكن ذلك حذو القذة بالقذة .

وقيل : المراد بالكتاب المبين علمه تعالى الأذلي الذي هو مبدأ لإظهار الأشياء بالإرادة والقدرة ، وقيل : حكمه سبحانه الأذلي وإطلاق الكتاب على ما ذكر من باب الاستعارة ولا يخفى ما في ذلك .

وقيل : المراد به القرإن واشتماله على كل غائبة على نحو ما ذكرنا في اشتمال اللوح المحفوظ عليه ، وقد ذكر أن بعض العارفين استخرج من الفاتحة أسماء السلاطين العثمانية ومدد سلطنتهم إلى آخر من يتسلطن منهم أدام الله تعالى ملكهم إلى يوم الدين ووفقهم لما فيه صلاح المسلمين .

(58/581)

وذكر بعضهم في هذا الوجه أنه مناسب لما بعد من وصف القرآن وفيه ما فيه ، وقال الحسن : الغائبة هو يوم القيامة وأهوالها ، وقال "صاحب الغنيان" : الحوادث والنوازل ، وقيل : أعمال العباد ، وقيل : ما غاب من عذاب السماء والأرض ، والعموم أولى ، وروى ذلك عن ابن عباس ، فقد أخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم عنه أنه قال : في الآية يقول سبحانه : ما من شيء في السماء والأرض سراً وعلانية إلا يعلمه سبحانه وتعالى ، وأخذ منه بعضهم حمل الكتاب على العلم الأزلي ، وفيه نظر لجواز أن يكون قد جعل كون ذلك في كتاب مبين كناية عن علمه تعالى به .

وذهب أبو حيان إلى أنه رضي الله تعالى عنه اعتبر في الآية حذف أحد المتقابلين اكتفاءاً بالآخر وكلامه رضي الله تعالى عنه محتل لذلك ، ويحتمل أنه ذكر العلانية في بيان المعنى لأن من علم السر علم العلانية من باب أولى ، ويحتمل أن ذلك لأنه ما من علانية إلا وهي غيب بالنسبة إلى بعض الأشخاص ، فيكون قد أشار رضي الله تعالى عنه ببيان المعنى وذكر السر والعلانية فيه إلى أن المراد بغائبة في الآية ما يشملهما وهو ما اتصف بالغيبة أعم من أن تكون مطلقة أو إضافية كذا قيل فتدبر .

﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِى إسرائيل أَكْثَرَ الذى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

لما ذكر سبحانه ما يتعلق بالمبدأ والمعاد ذكر تعالى ما يتعلق بالنبوة فإن القرآن أعظم ما

تثبت به نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم فذكر جل وعلا أنه يقص على بني إسرائيل ، والمراد بهم كما روى عن قتادة اليهود .

(59/581)

والنصارى أكثر ما تجدد واستمر اختلافهم فيه على وجه ويبين لهم حقيقة الأمر فيه وذلك مما يقتضي إلاسمهم لو تأملوا وأنصفوا لكنهم لم يفعلوا وكابروا مثلكم أيها المشركون ، ومما اختلفوا فيه أمر المسيح عليه السلام ، فمن قائل : هو الله تعالى ، ومن قائل : ابن الله سبحانه ، ومن قائل : ثالث ثلاثة ، ومن قائل : هو نبي كغيره من الأنبياء عليهم السلام ، ومن قائل : هو وحاشاه كاذب في دعواه النبوة وينسب مريم فيه إلى ما هي منزهة عنه رضي الله تعالى عنها وهم اليهود الذين كذبوه ، وأمر النبي المبشر به في التوراة ، فمن قائل : هو يوشع عليه السلام ، ومن قائل : هو عيسى عليه السلام ، ومن قائل : إنه لم يأت إلى الآن وسيأتي آخر الزمان .

ووما اختلفوا فيه أمر الخنزير فقالت اليهود : بحرمة أكله ، وقالت النصارى : بحله إلى غير ذلك .

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ على الإطلاق فيدخل فيهم من آمن من بني إسرائيل

دخولاً أولياً ، وتخصيص المؤمنين بهم كما فعل بعضهم خلاف الظاهر ، وتخصيص المؤمنين بالذكر مع أنه رحمة للعالمين لأنهم المنتفعون به .

(60/581)

﴿ إِن رَّبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أي بين بني إسرائيل الذين اختلفوا أو بين المؤمنين وبين الناس ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ قيل : أي بحكمته جل شأنه ، ويدل عليه قراءة جناح بن حبيش بحكمه بكسر الحاء وفتح الكاف جمع حكمة مضاف إلى ضميره تعالى ، وقيل : المراد بالحكم المحكوم به إطلاقاً للمصدر على اسم المفعول ، والمراد بالمحكوم به الحق والعدل ، وعلى الوجهين لم يبق على المعنى المصدري ، والداعي لذلك أن يقضي بمعنى يحكم فلو بقي الحكم على المعنى المصدري لصار الكلام نحو قولك : زيد يضرب بضربه وهو لا يقال مثله في كلام عربي ، وأورد عليه أنه يصح أن يقال ذلك على معنى يضرب بضربه وهو لا يقال مثله في كلام عربي ، وأورد عليه أنه يصح أن يقال ذلك على معنى يضرب بضربه المعروف بالشدة مثلاً ، فالمعنى هنا يحكم بحكمه المعروف بملابسة الحق ، أو يحكم بحكم نفسه تعالى لا بحكم غيره عز شأنه كالبشر ، وقيل عليه : ليس المانع لصحة مثل هذا القول إضافة المصدر إلى ضمير الفاعل فإنه لا كلام في صحته كإضافته إلى ضمير المفعول في ﴿ سعى

لها سعيها ﴾ [الإسراء : 19] إنما المانع دخول الباء على المصدر المؤكد ، ثم إن المعنى الأول يوهم أن له سبحانه حكماً غير معروف بملابسة الحق ، والثاني إنما يظهر لو قدم بحكمه ، وفيه أنه على ما ذكر ليس بمصدر مؤكد ، وعدم الجواز في المصدر النوعي لا سيما إذا كان من غير لفظه ليس بمسلم ، وأيضاً الظاهر أن المانع بزعم المؤول لزوم اللغوية لو لم يؤول بما ذكر ، والأولى إبقاؤه على المصدرية ، وجل الإضافة للعهد ، وكون المعنى كما قال المورد : يحكم بحكمه المعروف بملابسة الحق وأمر التوهم على طرف الثمام ؛ وأياً ما كان فالضمير المجرور عائد على الرب سبحانه وعوده على القرآن على أن المعنى يحكم بالحكم الذي تضمنه القرآن واشتمل عليه من إثابة المحق وتعذيب المبطل وحينئذ لا يحتاج إلى كثرة القيل والقال لا يخفى ما في من القيل والقال على من له

(61/581)

أدنى تمييز بأساليب المقال ﴿ يَشَاء وَهُوَ العزيز ﴾ فلا يرد حكمه سبحانه وقضاؤه جل جلاله ﴿ العليم ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما يقضي به ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ لترتيب الأمر على ما ذكر من شؤونه عز وجل فإنها موجبة للتوكل عليه تعالى وداعية إلى الأمر به ؛ وفي ذكره تعالى بالاسم الجامع تأييد لذلك أي فتوكل على

الله الذي هذا شأنه فإنه يوجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره إليه جل وعلا ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ تعليل صريح للتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق البين .

أو الفاصل بينه وبين الباطل .

أو بين المحق والمبطل فإنه كونه صلى الله عليه وسلم كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى ونصرته وتأييده لا محالة ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ الخ تعليل آخر للتوكل الذي هو عبارة عن التبتل إلى الله تعالى وتفويض الأمر إليه سبحانه والإعراض عن التشبث بما سواه ، وقد علل أولاً بما يوجبه من جهته تعالى أعني قضاءه عز وجل بالحق وعزته وعلمه تبارك وتعالى ، وثانياً بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعني كونه صلى الله عليه وسلم على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعني إعانته تعالى وتأييده تعالى للمحق ، ثم علل ثالثاً بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التشبث بما سواه تعالى ، فإن كونهم كالموتى .

والصم .

والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأساً ، وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى ، وهو المعنى بالتوكل عليه جل شأنه ، وجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿

إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ ﴾ الخ استئنافاً بيانياً وقع جواباً لسؤال نشأ مما قبله ، أعني إنك على الحق المبين كأنه قيل : ما بالهم غير مؤمنين بمن هو على الحق المبين فقيل : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ الخ .

(62/581)

وتعقيب بأنه يأباه السياق ، واعترض بالمنع وإنما شبهوا بالموتى على ما قيل لعدم تأرهم بما يتلى عليهم من القوارع ، وإطلاق الأسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشيء من المسموعات ، وقيل : لعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فإن القلب مشعر من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة ، ثم بين بطلان مشعري الأذن والعين كما في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 971] وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية وكأنه لهذا في "البحر" : أي موتى القلوب ، أو شبهوا بالموتى لأنهم لا ينتفعون بما يتلى عليهم فقدم احتمال نسبة الموت إلى قلوبهم .

وتعقب بأن ما ذكر تخيل بارد لأن القلب يوصف بالفقه والفهم لا السمع ، وما ذكر أولاً من أنهم أنفسهم شبهوا بالموتى هو الظاهر ، ووجهه أن على طريق التسليم والنظر لأحوالهم

كأنه قيل : كيف تسمعهم الأرشاد إلى طريق الحق وهم موتى وهذا بالنظر لأول الدعوة ولو أحييناهم لم يفد أيضاً لأنهم صم ، وقد ولوا مدبرين وهذا بالنظر لحالهم بعد التبليغ البليغ ونفرتهم عنه ، ثم إنا لو أسمعناهم أيضاً فهم عمى لا يهتدون إلى العمل بما يسمعون ، وهذا خاتمة أمرهم ، ويعلم من هذا ما في ذلك من مزيد المزية الخالية عن التكلف .

وجوز أن يكون التشبهي لطوائف على مراتبهم في الضلال ، فمنهم من هو كالميت .

ومن هو كالأصم .

ومن هو كالأعمى ، وهو وإن كان وجهاً خفيف المؤنة إلا أنه خلاف الظاهر أيضاً .

(63/581)

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ الخ تعليل آخر للتوكل الذي هو عبارة عن التبتل إلى الله تعالى وتفويض الأمر إليه سبحانه والإعراض عن التشبث بما سواه ، وقد علل أولاً بما يوجبه من جهته تعالى أعني قضاءه عز وجل بالحق وعزته وعلمه تبارك وتعالى ، وثانياً بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعني كونه صلى الله عليه وسلم على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعني إعانته تعالى وتأييده تعالى للمحق ، ثم علل ثالثاً بما يوجبه لكن لا بالذات بل بواسطة إيجابه للإعراض عن التشبث بما سواه

تعالى ، فإن كونهم كالموتى .

والصم .

والعمى موجب لقطع الطمع عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأساً ، وداع إلى تخصيص الاعتضاد به تعالى ، وهو المعنى بالتوكل عليه جل شأنه ، وجوز أن يكون قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ ﴾ الخ استئنافاً بيانياً وقع جواباً لسؤال نشأ مما قبله ، أعني ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ [النمل : 79] كأنه قيل : ما بالهم غير مؤمنين بمن هو على الحق المبين فقيل : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ الخ .

وتعقيب بأنه يأباه السياق ، واعترض بالمنع وإنما شبهوا بالموتى على ما قيل لعدم تأرهم بما يتلى عليهم من القوارع ، وإطلاق الأسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشيء من المسموعات ، وقيل : لعل المراد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فإن القلب مشعر من المشاعر أشير إلى بطلانه بالمرة ، ثم بين بطلان مشعري الأذن والعين كما في قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف : 179] وإلا فبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لا يظهر لتشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية وكأنه لهذا في "البحر" : أي موتى القلوب ، أو شبهوا بالموتى لأنهم لا ينتفعون بما يتلى عليهم فقدم احتمال نسبة الموت إلى قلوبهم .

وتعقب بأن ماذكر تخيل بارد لأن القلب يوصف بالفقه والفهم لا السمع ، وما ذكر أولاً من أنهم أنفسهم شبهوا بالموتى هو الظاهر ، ووجهه أن على طريق التسليم والنظر لأحوالهم كأنه قيل : كيف تسمعهم الأرشاد إلى طريق الحق وهم موتى وهذا بالنظر لأول الدعوة ولو أحييناهم لم يفد أيضاً لأنهم صم ، وقد ولوا مدبرين وهذا بالنظر لحالهم بعد التبليغ البليغ ونفرتهم عنه ، ثم إنا لو أسمعناهم أيضاً فهم عمى لا يهتدون إلى العمل بما يسمعون ، وهذا خاتمة أمرهم ، ويعلم من هذا ما في ذلك من مزيد المزية الخالية عن التكلف .

وجوز أن يكون التشبهي لطوائف على مراتبهم في الضلال ، فمنهم من هو كالميت .

ومن هو كالأصم .

ومن هو كالأعمى ، وهو وإن كان وجهاً خفيف المؤنة إلا أنه خلاف الظاهر أيضاً .

﴿ وَلَا تُسْمِعُ الصم الدعاء ﴾ أي الدعوة إلى أمر من الأمور ، وتقييد النفي بقوله تعالى : ﴿ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ لتتميم التشبيه وتأكيد النفي فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعي مولون على أدبارهم ، ولا ريب في أن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه قريباً منه ، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه ، ومثله في التتميم قول امرىء القيس :

حملت ردينيا كأن سنانه . . .

سنا لهب لم يتصل بدخان

وقرأ ابن كثير لا يسمع الصم الدعاء بالياء التحتانية وفتح الميم ورفع الصوت .

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمى عَن ضلالتهم ﴾

أي وما أنت بصارف العمى عن ضلالتهم هادياً لهم هداية موصلة إلى المطلوب لفقد الشرط العادي للاهتداء وهو البصر ، و﴿ عَنْ ﴾ متعلقة بالهداية باعتبار تضمنها معنى الصرف كما أشرنا إليه ، وجوز أبو البقاء أن تعلق بالعمى ويكون المعنى أن العمى صدر عن ضلالتهم وفيه بعد ، وإيراد الجملة الاسمية للمبالغة في نفي الهداية .

وقرأ يحيى بن الحرث .

وأبو حيوة بهاد بالتنوين ﴿ العمى ﴾ بالنصب ، وقرأ الأعمش .

وطلحة .

وابن وثاب .

وابن يعمر .

وحمزة تهدي مضارع هدي ﴿ العمى ﴾ بالنصب ، وقرأ ابن مسعود وما أن تهتدي بزيادة أن بعد ما كما في قول امرىء القيس :

حلفت لها بالله حلفة فاجر . . .

لناموا فما أن من حديث ولا صال

وتهتدي مضارع اهتدى ، و﴿ العمى ﴾ بالرفع ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما تسمع إسماعاً يجدي السامع نفعاً .

﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بآياتنا ﴾ أي من شأنهم الايمان بها وهو الذين ليسوا موتى .

ولا صماً .

ولا عمياً .

وقال بعض الأجلة : أي إلا من هو في علم الله تعالى كذلك ، واعترض بأن صيغة الاستقبال وإن صحت باعتبار تعلق العلم فيما لا يزال إلا أن المناسب صيغة المضي ، واختار المعترض أن المعنى إلا الذين يصدقون أن القرآن كلام الله تعالى إذ حينئذ تثبت نبوته صلى الله عليه وسلم فيقبل قوله ويجدي إسماعه نفعاً ، وتعقب بأنه ينتقض الحصر بالمصدقين في الاستقبال إن كانت الصيغة للحال وبالمصدقين في الحال إن كانت للاستقبال ، وإذا دفع لزوم الانتقاض بجعلها لهما لزم استعمال المشترك في معنييه معاً أو الجمع بين الحقيقة والمجاز ، وأجيب بأن المراد الحال ويدخل غيره فيه بدلالة النص من غير تكليف .

وقال بعض المحققين : قد يراد بالمضارع الاستقبال الشامل لجميع الأزمنة فإن الاستقبال كما يكون بالنظر لزمان الحكم والتكلم على ما حقق في الأصول يجوز أن يكون بالنظر إلى علم القائل أيضاً فيشمل من يؤمن هنا من آمن حالاً كما يشمل من يؤمن استقبالاً فلا غبار في المعنى الذي اختاره ذلك المعترض من هذه الحيثية ، نعم قيل : إن فيه شبه تحصيل الحاصل لأن التصديق بالقرآن هو استماعه النافع ، ولعل من عدل عنه إنما عدل لذلك ، ولم يعبأ بالمغايرة بين ذينك الأمرين الظاهرة بعد النظر الصحيح ، والحق أن ما ذكر من شبه تحصيل الحال على طرف الثمام لظهور الفرق بين الأسماع المراد في الآية والتصديق بأن القرآن كلام الله تعالى كما لا يخفى ، وجوز أن يراد بالآيات المعجزات التي أظهرها الله تعالى على يده عليه الصلاة والسلام الشاملة للآيات التنزيلية والتكوينية وأن يراد بها الآيات التكوينية فقط ، والايمان بها التصديق بكونها آيات الله تعالى وليست من السحر وإذا أريد بالأسماع النافع على هذا إسماع الآيات التنزيلية ليؤتى بما تضمنته من الاعتقادات والأعمال كأن الكلام أبعد وأبعد من أن يكون فهي شبه تحصيل الحاصل إلا أن ذلك لا يخلو عن شيء ، وفي "إرشاد العقل السليم" أن إيراد الأسماع في النفي والإثبات دون الهداية مع قربها بأن

يقال : إن تهدي إلا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو إسماع الآيات التنزيلية فافهم ، وقوله تعالى : ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ قيل : تعليل لإيمانهم بها كأنه قيل : فإنهم منقادون للحق في كل وقت .

وقيل : مخلصون لله تالى من قوله تعالى : ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 112] ، وقيل : هو تعليل لما يدل عليه الكلام من أنهم يسمعون إسماعاً نافعاً لهم ، وفي توحيد الضمير تارة .

وجمعه أخرى رعاية للفظ من ومعناها .

(67/581)

واستدل بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ على أن الميت لا يسمع كلام الناس مطلقاً ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام في ذلك في سورة الروم على أتم وجه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(68/581)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) ﴾

موقع هذا موقع الاستدراك على قوله ﴿ عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ [النمل : 72] أي أن تأخير العذاب عنهم هو من فضل الله عليهم .

وهذا خبر خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم تنبيهاً على أن تأخير الوعيد أثر من آثار رحمة الله لأن أزمنة التأخير أزمنة إمهال فهم فيها بنعمة ، لأن الله ذو فضل على الناس كلهم .

وقد كنا قدمنا مسألة أن نعمة الكافر نعمة حقيقية أو ليست نعمة والخلاف في ذلك بين الأشعري والماتريدي .

والتعبير بـ ﴿ ذو فضل ﴾ يدل على أن الفضل من شؤونه .

وتنكير ﴿ فضل ﴾ للتعظيم .

والتأكيد بـ ﴿ إن ﴾ واللام منظور فيه إلى حال الناس لا إلى حال النبي صلى الله عليه وسلم فالتأكيد واقع موقع التعريض بهم بقرينة قوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ .

و ﴿ لكن ﴾ استدراك ناشىء عن عموم الفضل منه تعالى فإن عمومه وتكرره يستحق بأن يعلمه الناس فيشكروه ولكن أكثر الناس لا يشكرون كهؤلاء الذين قالوا ﴿ متى هذا الوعد ﴾ [النمل : 71] فإنهم يستعجلون العذاب تهكماً وتعجيزاً في زعمهم غير قادرين

قدر نعمة الإمهال .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74)

موقع هذا موقع الاستئناف البياني لأن قوله ﴿ وإن ربّك لذو فضل على الناس ﴾ [النمل : 73] يثير سؤالاً في نفوس المؤمنين أن يقولوا : إن هؤلاء المكذبين قد أضمروا المكر وأعلنوا الاستهزاء فحالهم لا يقتضي إمهالهم ؟ فيجاب بأن الذي أمهلهم مطلع على ما في صدورهم وما أعلنوه وأنه أمهلهم مع علمه بهم لحكمة يعلمها .

وفيه إشارة إلى أنهم يكنون أشياء للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، منها : أنهم يتربصون بهم الدوائر ، وأنهم تخامر نفوسهم خواطر إخراجه وإخراج المؤمنين .

(69/581)

وهذا الاستئناف لما كان ذا جهة من معنى وصف الله بإحاطة العلم عطفت جملته على جملة وصف الله بالفضل ، فحصل بالعطف غرض ثان مهم ، وحصل معنى الاستئناف البياني من مضمون الجملة .

وأما التوكيد بـ ﴿ إن ﴾ فهو على نحو توكيد الجملة التي قبله .

ولكَ أن تجعله لتنزيل السائل منزلة المتردد وذلك تلويح بالعتاب .

و﴿ تكن ﴾ تخفي وهو من (أكن) إذا جعل شيئاً كانّاً ، أي حاصلاً في كن .

والكنّ : المسكن .

وإسناد ﴿ تكن ﴾ إلى الصدور مجاز عقلي باعتبار أن الصدور مكانه .

والإعلان : الإظهار .

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75)

عطف على جملة ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ [النمل : 74] .

وهو في معنى الذيل للجملة المذكورة لأنها ذكر منها علم الله بضمائرهم فذيل ذلك بأن الله يعلم كل غائبة في السماء والأرض .

وإنما جاء معطوفاً لأنه جدير بالاستقلال بذاته من حيث إنه تعليم لصفة علم الله تعالى وتنبيه لهم من غفلتهم عن إحاطة علم الله لما تكن صدورهم وما يعلنون .

والغائبة : اسم للشيء الغائب والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية كالتاء في العافية ، والعاقبة ، والفاتحة .

وهو اسم مشتق من الغيب وهو ضد الحضور ، والمراد : الغائبة عن علم الناس .

استعمل الغيب في الخفاء مجازاً مرسلاً .

والكتاب يعبر به عن علم الله ، استعير له الكتاب لما فيه من التحقق وعدم قبول التغيير .

ويجوز أن يكون مخلوقاً غيبياً يسجل فيه ما سيحدث .

والمبين : المفصل ، لأن الشيء المفصل يكون بيّناً واضحاً .

والمعنى : أن الله لا يعزب عن علمه حقيقة شيء مما خفي على العالمين .

وذلك يقتضي أن كل ما يتلقاه الرسل من جانب الله تعالى فهو حق لا يحتمل أن يكون الأمر بخلافه .

ومن ذلك ما كان الحديث فيه من أمر البعث الذي أنكروه وكذبوا بما جاء فيه .

(70/581)

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

إبطال لقول الذين كفروا ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [النمل : 68] .

وله مناسبة بقوله ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ [النمل : 75] ، فإن القرآن وحي من عند الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فكل ما فيه فهو من آثار علم الله تعالى فإذا أراد الله تعليم المسلمين شيئاً مما يشتمل عليه القرآن فهو العلم الحق إذا بلغت الأفهام إلى إدراك المراد منه على حسب مراتب الدلالة التي أصولها في علم العربية وفي علم أصول الفقه .

ومن ذلك ما اشتمل عليه القرآن من تحقيق أمور الشرائع الماضية والأمم الغابرة مما خبطت

فيه كتب بني إسرائيل خبطاً من جراء ما طرأ على كتبهم من التشتت والتلاشي وسوء النقل من لغة إلى لغة في عصور انحطاط الأمة الإسرائيلية ، ولما في القرآن من الأصول الصريحة في الإلهيات مما يكشف سوء تأويل بني إسرائيل لكلمات كتابهم في متشابه التجسيم ونحوه ، فإنك لا تجد في التوراة ما يساوي قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] .

فالمعنى : نفي أن يكون أساطير الأولين بإثبات أنه تعليم للمؤمنين ، وتعليم لأهل الكتاب . وإنما قص عليهم أكثر ما اختلفوا وهو ما في بيان الحق منه نفع للمسلمين ، وأعرض عما دون ذلك .

فموقع هذه الآية استكمال نواحي هدي القرآن للأمم فإن السورة افتتحت بأنه هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة يعمهون في ضلالهم فلم ينتفعوا بهديه .

فاستكملت هذه الآية ما جاء به من هدي بني إسرائيل لما يهم مما اختلفوا فيه .

والتأكيد بـ ﴿ إن ﴾ مثل ما تقدم في نظائره .

وأكثر الذي يختلفون فيه هو ما جاء في القرآن من إبطال قولهم فيما يقتضي إرشادهم إلى الحق أن يبين لهم ، وغير الأكثر ما لا مصلحة في بيانه لهم .

ومن مناسبة التنبيه على أن القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر ما هم فيه مختلفون ، أن ما قصه مما جرى بين ملكة سبأ مع سليمان كان فيه مما يخالف ما في كتاب الملوك الأول وكتاب الأيام الثاني ففي ذينك الكتابين أن ملكة سبأ تحملت وجاءت إلى أورشليم من تلقاء نفسها محبة منها في الاطلاع على ما بلغ مسامعها من عظمة ملك سليمان وحكمته ، وأنها بعد ضيافتها عند سليمان قفلت إلى مملكتها .

وليس مما يصح في حكم العقل وشواهد التاريخ في تلك العصور أن ملكة عظيمة كملكة سبأ تعمد إلى الارتحال عن بلدها وتدخل بلد ملك آخر غير هائبة ، لولا أنها كانت مضطرة إلى ذلك بسياسة ارتكاب أخف الضرين إذ كان سليمان قد ألزمها بالدخول في دائرة نفوذ ملكه ، فكان حضورها لديه استسلاماً واعترافاً له بالسيادة بعد أن تنصلت من ذلك بتوجيه الهدية وبعد أن رأت العزم من سليمان على وجوب امتثال أمره .

ومن العجيب إهمال كُتّاب اليهود دعوة سليمان بلقيس إلى عقيدة التوحيد وهل يظن بنبي أن يقر الشرك على منتحليه .

وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

هذا راجع إلى قوله في طالع السورة ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ [النمل : 2] ذكر هنا لاستيعاب جهات هدي القرآن .

أما كونه هدى للمؤمنين فظاهر ، وأما كونه رحمة لهم فلأنهم لما اهتدوا به قد نالوا الفوز في الدنيا بصلاح نفوسهم واستقامة أعمالهم واجتماع كلمتهم ، وفي الآخرة بالفوز بالجنة .

والرسالة المحمدية وإن كانت رحمة للعالمين كلهم كما تقدم في قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ في سورة [الأنبياء : 107] فرحمته للمؤمنين أخص .

والتأكيد بـ ﴿ إن ﴾ منظور فيه إلى المعرض كما تقدم في قوله ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ﴾ [النمل : 73] .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)

(72/581)

لما سبق ذكر المشركين بطعنهم في القرآن وتكذيبهم بوعيده ، وذكر بني إسرائيل بما يقتضي طعنهم فيه بأنه لمخالفة ما في كتبهم ، وذكر المؤمنين بأنهم اهتدوا به وكان لهم رحمة فهم موقنون بما فيه ، تمخض الكلام عن خلاصة هي افتراق الناس في القرآن فريقين : فريق طاعن ، وفريق موقن ، فلا جرم اقتضى ذلك حدوث تدافع بين الفريقين .

وهو مما يثير في نفوس المؤمنين سؤالاً عن مدى هذا التدافع ، والتخالف بين الفريقين ومتى ينكشف الحق ، فجاء قوله ﴿ إن ربك يقضي بينهم بحكمه ﴾ استئنافاً بيانياً فيعلم أن

القضاء يقتضي مختلفين .

وأن كلمة (بين) تقتضي متعدداً ، فأفاد أن الله يقضي بين المؤمنين بالقرآن والطاعنين فيه قضاء يبين المحق من المبطل .

وهذا تسلية للنبيء صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن استبطائهم النصر فإن النبي أول المؤمنين ، وإنما تقلد المؤمنون ما أنبأهم به فالقضاء للمؤمنين قضاء له بادىء ذي بدء .

وفيه توجيه الخطاب إلى جناب الرسول صلى الله عليه وسلم وإسناد القضاء إلى الله في شأنه بعنوان أنه رب له إيماء بأن القضاء سيكون مرضياً له وللمؤمنين .

فجعل الرسول في هذا الكلام بمقام المبلغ وجعل القضاء بين أمته مؤمنهم وكافرهم ، وتعجيل لمسرة الرسول بهذا اللإيماء .

وإذا قد أسند القضاء إلى الله وعلق به حكم مضاف إلى ضميره فقد تعين أن يكون المراد من المتعلق غير المتعلق به وذلك يلجيء : إما إلى تأويل معنى إضافة الحكم بما يخالف معنى إسناد القضاء إذا اعتبر اللفظان مترادين لفظاً ومعنى ، فيكون ما تدل عليه الإضافة من اختصاص المضاف بالمضاف إليه مقصوداً به ما اشتهر به المضاف باعتبار المضاف إليه .

وذلك أن الكل يعلمون أن حكم الله هو العدل ولأن المضاف إليه هو الحكم العدل .

فالمعنى على هذا : أن ربك يقضي بينهم بحكمه المعروف المشتهر اللائق بعموم علمه واطراد عدله .

وإما أن يؤول الحكم بمعنى الحكمة وهو إطلاق شائع قال تعالى ﴿ وكلاً ءاتينا حكماً وعلماً ﴾ [الأنبياء : 79] وقال ﴿ وءاتيناه الحكم صبياً ﴾ [مريم : 12] ولم يكن يحيى حاكماً وإنما كان حكيماً نبيئاً فيكون المعنى على هذا : إن ربك يقضي بينهم بحكمته ، أي بما تقتضيه الحكمة ، أي من نصر المحق على المبطل .

ومآل التأويلين إلى معنى واحد وبه يظهر حسن موقع الاسمين الجليلين في تذييله بقوله ﴿ وهو العزيز العليم ﴾ ، فإن العزيز لا يصانع ، والعليم لا يفوته الحق ، ويظهر حسن موقع التفريع بقوله:

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79)

فرعت الفاء على الإخبار بأن رب الرسول عليه الصلاة والسلام يقضي بين المختلفين في شأن القرآن أمراً للرسول بأن يطمئن بالاً ويتوكل على ربه فيما يقضي به فإنه يقضي له بحقه ، وعلى معانده بما يستحقه ، فالأمر بالتوكل مستعمل في كنايته وصريحه فإن من لازمه أنه أدى رسالة ربه ، وأن إعراض المعرضين عن أمر الله ليس تقصيراً من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو معنى تكرر في القرآن كقوله ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ [الكهف : 6]

وقوله ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ [النمل : 70] .

والتوكل : تفعل من وكل إليه الأمر ، إذا أسند إليه تدبيره ومباشرته ، فالتفعل للمبالغة .

وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ في آل عمران (159) ، وقوله ﴿ وعلى الله فتوكّلوا ﴾ في المائدة (23) وقوله ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ في سورة إبراهيم (11) .

وقد وقعت جملة ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ موقعاً لم يخاطب الله تعالى أحداً من رسله بمثله فكان ذلك شهادة لرسوله بالعظمة الكاملة المنزهة عن كل نقص ، لما دل عليه حرف ﴿ على ﴾ من التمكن ، وما دل عليه اسم ﴿ الحق ﴾ من معنى جامع لحقائق الأشياء .

وما دل عليه وصف ﴿ مبين ﴾ من الوضوح والنهوض .

(74/581)

وجاءت جملة ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ مجيء التعليل للأمر بالتوكل على الله إشعاراً بأنه على الحق فلا يترقب من توكله على الحكم العدل إلا أن يكون حكمه في تأييده ونفعه .

وشأن (إن) إذا جاءت في مقام التعليل أن تكون بمعنى الفاء فلا تفيد تأكيداً ولكنها

للاهتمام .

وجيء في فعل التوكل بعنوان اسم الجلالة لأن ذلك الاسم يتضمن معاني الكمال كلها ، ومن أعلاها العدل في القضاء ونصر الحق .

وذلك بعد أن عجلت مسرة الإيماء إلى أن القضاء في جانب الرسول عليه الصلاة والسلام بإسناده القضاء إلى عنوان الرب مضافاً إلى ضمير الرسول كما تقدم آنفاً .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي اقتضاه وجود مقتضي جلب حرف التوكيد لإفادة التعليل فلا يفيد التقديم تخصيصاً ولا تقوياً .

و﴿ المبين ﴾ : الواضح الذي لا ينبغي الامتراء فيه ولا المصانعة للمحكوم له .

وفي الآية إشارة إلى أن الذي يعلم أن الحق في جانبه حقيق بأن يثق بأن الله مظهر حقه ولو بعد حين .

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)

استئناف بياني جواباً عما يخطر في بال السامع عقب قوله ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ [النمل : 79] من التساؤل عن إعراض أهل الشرك لما عليه الرسول من الحق المبين .

وهو أيضاً تعليل آخر للأمر بالتوكل على الله بالنظر إلى مدلوله الكنائي ، فموقع حرف التوكيد فيه كموقعه في التعليل بالجملة التي قبله .

وهذا عذر للرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له ، ولكونه تعليلاً لجانب من التركيب

وهو الجانب الكنائي غير الذي علل بجملة ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ [النمل : 79] لم تعطف هذه الجملة على التي قبلها تنبيهاً على استقلالها بالتعليل .

والإسماع : إبلاغ الكلام إلى المسامع .

و﴿ الموتى ﴾ و ﴿ الصم ﴾ : مستعاران للقوم الذين لا يقبلون القول الحق ويكابرون من يقوله لهم .

(75/581)

شبهوا بالموتى على طريقة الاستعارة في انتفاء فهمهم معاني القرآن ، وشبهوا بالصم كذلك في انتفاء أثر بلاغة ألفاظه عن نفوسهم .

وللقرآن أثران:

أحدهما : ما يشتمل عليه من المعاني المقبولة لدى أهل العقول السليمة وهي المعاني التي يدركها ويسلم لها من تبلغ إليه ولو بطريق الترجمة بحيث يستوي في إدراكها العربي والعجمي وهذا أثر عقلي .

والأثر الثاني : دلالة نظمه وبلاغته على أنه خارج عن مقدرة بلغاء العرب .

وهذا أثر لفظي وهو دليل الإعجاز وهو خاص بالعرب مباشرة ، وحاصل لغيرهم من أهل

النظر والتأمل إذا تدبروا في عجز البلغاء من أهل اللسان الذي جاء به القرآن ، فهؤلاء يوقنون بأن عجز بلغاء أهل ذلك اللسان عن معارضته دال على أنه فوق مقدرتهم ؛ فالمشركون شبهوا بالموتى بالنظر إلى الأثر الأول ، وشبهوا بالصم بالنظر إلى الأثر الثاني ، فحصلت استعارتان .

ونفي الإسماع فيهما ترشيحان للاستعارتين وهما مستعاران لانتفاء معالجة إبلاغهم .

ولأجل اعتبار كلا الأثرين المبنيّ عليه ورود تشبيهين كرر ذكر الترشيحين فعطف ﴿ ولا تسمع الصم ﴾ على ﴿ لا تسمع الموتى ﴾ ، ولم يكتف بأن يقال : إنك لا تسمع الموتى ولا الصم .

وتقييد الصم بزمان توليهم مدبرين لأن تلك الحالة أوغل في انتفاء إسماعهم لأن الأصم إذا كان مواجهاً للمتكلم قد يسمع بعض الكلام بالصراخ ويستفيد بقيته بحركة الشفتين ، فأما إذا ولى مدبراً فقد ابتعد عن الصوت ولم يلاحظ حركة الشفتين فذلك أبعد له عن السمع .

واستدلت عائشة رضي الله عنها بهذه الآية على رد ظاهر حديث ابن عمر : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر وفيه قتلى المشركين فناداهم بأسمائهم وقال : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، قال ابن عمر : فقيل له : يا رسول الله أتنادي أمواتنا فقال : إنهم الآن يسمعون ما أقول لهم" .

فقالت عائشة : إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق ثم قرأت ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ حتى قرأت الآية .

وهذا من الاستدلال بظاهر الدلالة من القرآن ولو باحتمال مرجوح كما بيناه في المقدمة التاسعة .

وإلا فإن الموتى هنا استعارة وليس بحقيقة .

وضميرا ﴿ ولوا مدبرين ﴾ عائدان إلى الصم ، وهو تتميم للتشبيه حيث شبهوا في عدم بلوغ الأقوال إلى عقولهم بصم ولوا مدبرين ، فإن المدبر يبعد عن مكان من يكلمه فكان أبعد عن الاستماع كما تقدم آنفاً .

وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

﴿ مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمى عَن ضلالتهم إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ ﴾ .

كرر تشبيه المشركين في إعراضهم عن الحق بأن شبهوا في ذلك بالعمي بعد أن شبهوا بالموتى وبالصم على طريقة الاستعارة إطناباً في تشنيع حالهم الموصوفة على ما هو المعروف عند البلغاء في تكرير التشبيه كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ في سورة

البقرة (19) .

وحسن هذا التكرير هنا ما بين التشبيهين من الفروق مع اتحاد الغاية ؛ فإنهم شبهوا بالموتى في انتفاء إدراك المعاني الذي يتمتع به العقلاء ، وبالصم في انتفاء إدراك بلاغة الكلام الذي يضطلع به بلغاء العرب .

وشبهوا ثالثاً بالعمي في انتفاء التمييز بين طريق الهدى وطريق الضلال من حيث إنهم لم يتبعوا هدي دين الإسلام .

والغاية واحدة وهي انتفاء اتباعهم الإسلام ففي تشبيههم بالعمي استعارة مصرحة ، ونفي إنقاذهم عن ضلالتهم ترشيح للاستعارة لأن الأعمى لا يبلغ إلى معرفة الطريق بوصف الواصف .

والهدى : الدلالة على طريق السائر بأن يصفه له فيقول مثلاً : إذا بلغت الوادي فخذ الطريق الأيمن .

والذي يسلك بالقوافل مسالك الطرق يسمى هادياً .

والتوصل إلى معرفة الطريق يسمى اهتداء .

(77/581)

وهذا الترشيح هو أيضاً مستعار لبيان الحق والصواب للناس ، والأعمى غير قابل للهداية بالحالتين حالة الوصف وهي ظاهرة ، وحالة الاقتياد فإن العرب لم يكونوا يأخذون العمي معهم في أسفارهم لأنهم يعرقلون على القافلة سيرها .

وقوله ﴿ عن ضلالتهم ﴾ يتضمن استعارة مكنية قرينتها حالية .

شبه الدين الحق بالطريق الواضحة ، وإسناد الضلالة إلى سالكيه ترشيح لها وتخييل ، والضلالة أيضاً مستعارة لعدم إدراك الحق تبعاً للاستعارة المكنية ، وأطلقت هنا على عدم الاهتداء للطريق ، وضمير ﴿ ضلالتهم ﴾ عائد إلى العمي ، ولتأتي هذه الاستعارة الرشيقة عدل عن تعليق ما حقه أن يعلق بالهدي فعلق به ما يقتضيه نفي الهدي من معنى الصرف والمباعدة .

فقيل ﴿ عن ضلالتهم ﴾ بتضمين ﴿ هادي ﴾ معنى صارف .

فصار : ما أنت بهاد ، بمعنى : ما أنت بصارفهم عن ضلالتهم كما يقال : سقاه عن العيمة ، أي سقاه صارفاً له عن العيمة ، وهي شهوة اللبن .

وعدل في هذه الجملة عن صيغتي النفيين السابقين في قوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ﴾ [النمل : 80] الواقعين على مسندين فعليين ، إلى تسليط النفي هنا على جملة اسمية للدلالة على ثبات النفي .

وأكد ذلك الثبات بالباء المزيدة لتأكيد النفي .

ووجه إيثار هذه الجملة بهاذين التحقيقين هو أنه لما أفضى الكلام إلى نفي اهتدائهم وكان اهتداؤهم غاية مطمح الرسول صلى الله عليه وسلم كان المقام مشعراً ببقية من طمعه في اهتدائهم حرصاً عليهم فأكد له ما يقلع طمعه ، وهذا كقوله تعالى ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [القصص : 56] وقوله

﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ [ق : 45] .

وسيجيء في تفسير نظير هذه الآية من سورة الروم توجيه لتعداد التشابيه الثلاثة زائداً على ما هنا فانظره .

وقرأ حمزة وحده ﴿ وما أنت تهدي ﴾ بمثناه فوقيه في موضع الموحدة وبدون ألف بعد الهاء .

﴿ ضلالتهم إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بآياتنا فَهُم ﴾ .

(78/581)

استئناف بياني لترقب السامع معرفة من يهتدون بالقرآن .

والإسماع مستعمل في معناه المجازي كما تقدم .

وأوثر التعبير بالمضارع في قوله ﴿ من يؤمن ﴾ ليشمل من آمنوا من قبل فيفيد المضارع

استمرار إيمانهم ومن سيؤمنون .

وقد ظهر من التقسيم الحاصل من قوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ [النمل : 80] إلى هنا ، أن الناس قسمان منهم من طبع الله على قلبه وعلم أنه لا يؤمن حتى يعاجله الهلاك ، ومنهم من كتب الله له السعادة فيؤمن سريعاً أو بطيئاً قبل الوفاة .

وفرع عليه ﴿ فهم مسلمون ﴾ المفيد للدوام والثبات لأنهم إذا آمنوا فقد صار الإسلام راسخاً فيهم ومتمكناً منهم ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(79/581)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) ﴾

ومن ذلك اختلافهم في عيسى ، فقد قدمنا في سورة مريم ادعاءهم على أمه الفاحشة ، مع أن طائفة منهم آمنت به ، كما يشير قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ كونوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ [الصف : 14] والطائفة التي آمنت قالت الحق

في عيسى ، والتي كفرت افترت عليه ، وعلى أمه . كما تقدم إيضاحه في سورة مريم .

وقد قص الله عليهم في سورة النساء وغيرهما حقيقة عيسى ابن مريم ، وهي : أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، ولما بين لهم حقيقة أمره مفصلة في سورة مريم قال : ﴿ ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحق الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم : 34] وذلك يبين بعض ما دل عليه قوله تعالى هنا : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيل أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

قد قدمنا الآيات الموضحة له في أول سورة الكهف ، في الكلام على قوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] الآية .

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)

اعلم التحقيق الذي دلت عليه القرائن القرآنية واستقراء القرآن ، أن معنى قوله هنا : إنك لا تسمع الموتى لا يصح فيه من أقوال العلماء ، إلا تفسيران :

الأول : أن المعنى : إنك لا تسمع الموتى : أي لا تسمع الكفار ، الذين أمات الله قلوبهم ، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدى وانتفاع ، لأن الله كتب عليهم الشقاء ، فختم على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وجعل على قلوبهم الأكنة ، وفي آذانهم الوقر ، وعلى أبصارهم الغشاوة ، فلا يسمعون الحق سماع اهتداء وانتفاع : ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا أنه جل وعلا قال بعده : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل : 81] .

فاتضح بهذه القرينة أن المعنى : إنك لا تسمع الموتى : اي الكفار هم أشقياء في علم الله إسماع هدى وقبول للحق ما تسمع ذلك الإسماع ، إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ، فمقابلته جل وعلا بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها ، لمن يؤمن بآياته ، فهو مسلم دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية : موت الكفر والشقاء لا موت مفارقة الروح للبدن ، ولو كان المراد بالموت في قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ مفارقة الروح للبدن لما قابل قوله : إنك لا تسمع الموتى بقوله : إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ، بل لقابله بما يناسبه كأن يقال : إن تسمع إلا من لم يمت : أي يفارق روحه بدنه كما هو واضح .

وإذا علمت أن هذه القرينة القرآنية دلت على أن المراد بالموتى هنا الأشقياء الذين لا يسمعون الحق سماع هدى وقبول .

فاعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام : 36] ، وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى في قوله : والموتى يبعثهم الله : الكفار ، يدل له مقابلة الموتى في قوله : والموتى يبعثهم الله بالذين يسمعون في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ ويوضح ذلك قوله تعالى قبله ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن استطعت أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأرض أَوْ سُلَّماً فِي السمآء فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ [الأنعام : 35] أي فافعل ، ثم قال ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن استطعت أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأرض أَوْ سُلَّماً فِي السمآء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَآءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام : 3536] الآية ، وهذا واضح فيما ذكرنا ، ولو كان يراد بالموتى من فارق أرواحهم أبدانهم لقابل الموتى بما يناسبهم كأن يقال : إنما يستجيب الأحياء : أي الذين لم تفارق أرواحهم أبدانهم . وكقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

[الأنعام : 122] .

فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : أو من كان ميتاً : أي كافراً ، فأحييناه : أي بالإيمان والهدى . وهذا لا نزاع فيه ، وفيه إطلاق الموت ، وإرادة الكفر بلا خلاف . وكقوله : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ﴾ [يس : 70] وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ [فاطر : 22] أي لا يستوي المؤمنون والكافرون . ومن أوضح الأدلة على هذا المعنى أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ الآية . وما في معناها من الآيات كلها ، تسلية له صلى الله عليه وسلم ، لأنه يحزنه عدم إيمانهم كما بينه تعالى في آيات كقوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام : 33] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : 97] الآية . وقوله : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الحجر : 88] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ﴾ [المائدة : 68] ، وكقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر : 8] الآية . قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه .

ولما كان يحزنه كفرهم ، وعدم إيمانهم أنزل الله آيات كثيرة تسلية له صلى الله عليه وسلم بين له فيها : أنه لا قدرة له صلى الله عليه وسلم على هدى من أضله الله ، فإن الهدى والإضلال بيده جل وعلا وحده وأوضح له أنه نذير ، قد أتى بما عليه فأنذرهم على أكمل الوجوه وأبلغها وأن هداهم وإضلالهم بيد من خلقهم .

(83/581)

ومن الآيات النازلة تسلية له صلى الله عليه وسلم قوله هنا : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ اي لا تسمع من أضله الله إسماع هدى وقبول ، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا يعني ما تسمع إسماع هدى وقبول ، إلا من هديناهم للإيمان بآياتنا فهم مسلمون .

والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل : 37] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً أُولَئِكَ الذين لَمْ يُرِدِ الله أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : 41] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : 56] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله وَيَجْعَلُ الرجس

عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : 99100] إلى غير ذلك من الآيات ، ولو كان معنى الآية ، وما شابهها : إنك لا تسمع الموتى : أي الذين فارقت أرواحهم أبدانهم لما كان في ذلك تسلية له صلى الله عليه وسلم ، كما ترى .

واعلم أن آية النمل هذه جاءت آيتان أخريان بمعناها :

الأولى منهما : قوله تعالى في سورة الروم : ﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ وَمَآ أَنتَ بِهَادِ العمي عَن ضَلاَلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾

[الروم : 5253] ولفظ آية الروم هذه كلفظ آية النمل التي نحن بصددها ، فيكفي في بيانه آية الروم ما ذكرنا في آية النمل .

(84/581)

والثانية منهما قوله تعالى في سورة فاطر : ﴿ إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ [فاطر : 22] وآية فاطر هذه كآية النمل والروم المتقدمتين ، لأن المراد بقوله : فيها من في القبور الموتى ، فلا فرق بين قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ [النمل : 80] وبين قوله : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ لأن المراد بالموتى ومن في القبور واحد

كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي القبور ﴾ [الحج : 7] أي يبعث جميع الموتى ومن قبر منهم ومن لم يقبر ، وقد دلت قرائن قرآنية أيضاً على أن معنى أية : فاطر هذه كمعنى آية الروم ، منها قوله تعالى قبلها : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ [فاطر : 18] الآية ، لأن معناها : لا ينفع إنذارك إلا من هداه الله ووفقه فصار ممن يخشى ربه بالغيب ، ويقيم الصلاة وما أنت بمسمع من في القبور : أي الموتى أي الكفار الذين سبق لهم الشقاء كما تقدم . ومنها قوله تعالى أيضاً : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ [فاطر : 19] أي المؤمن والكافر . وقوله تعالى قبلها : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ [فاطر : 22] اي المؤمنون والكفار . ومنها قوله تعالى بعده : ﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 23] أي ليس الإضلال والهدى بيدك ما أنت إلا نذير : أي وقد بلغت .

(85/581)

التفسير الثاني : هو أن المراد بالموتى الذين ماتوا بالفعل ، ولكن المراد بالمساع المنفي في قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ خصوص السماع المعتاد الذي ينتفع صاحبه به ، وأن هذا مثل ضرب للكفار ، والكفار يسمعون الصوت ، لكن لا يسمعون سماع قبول بفقه واتباع كما قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة

: 171] ، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفى عنهم جميع أنواع السماع كما لم ينف ذلك عن الكفار ، بل قد انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به ، وأما سماع آخر فلا ، وهذا التفسير الثاني جزم به واقتصر عليه العلامة أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، كما سيأتي إيضاحه إن شاء الله في هذا المبحث .

وهذا التفسير الأخير دلت عليه آيات من كتاب الله جاء فيها التصريح بالبكم والصمم والعمى مسنداً إلى قوم يتكلمون ويسمعون ويبصرون ، والمراد بصممهم صممهم عن سماع ما ينفعهم ، دون غيره ، فهم يسمعون غيره ، وكذلك في البصر والكلام ، وذلك كقوله تعالى في المنافقين : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة : 18] فقد قال فيهم صم بكم مع شدة فصاحتهم ، وحلاوة ألسنتهم كما صرح به في قوله تعالى فيهم : ﴿ يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون : 4] أي لفصاحتهم وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الخوف سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب : 19] فهؤلاء الذين إن يقولوا تسمع لقولهم وإذا ذهب الخوف سلقوا المسلمين بألسنة حداد هم الذين قال الله فيهم

(86/581)

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : 18] ما ذلك ، إن صممهم وبكمهم وعماهم بالنسبة إلى شيء خاص ، وهو ما ينتفع به من الحق ، فهذا وحده هو الذي صموا عنه : فلم يسمعوه ، وبكموا عنه فلم ينطقوا به ، وعملوا عنه فلم يروه مع أنهم يسمعون غيره ويبصرونه ، وينطقون به كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف : 26] الآية ، وهذا واضح كما ترى .

وقد أوضحنا هذا غاية الإيضاح مع شواهده العربية في كتابنا : دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ، في سورة البقرة في الكلام على وجه الجمع بين قوله في المنافقين : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : 18] مع قوله فيهم : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ [البقرة : 20] وقوله فيهم : ﴿ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ [الأحزاب : 19] وقوله فيهم أيضاً : ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون : 4] ، وقد أوضحنا هناك أن العرب تطلق الصمم وعدم السماع على السماع ، الذي لا فائدة فيه ، وذكرنا بعض الشواهد العربية على ذلك .

مسألة تتعلق بهذه الآية الكريمة

اعلم أن الذي يقتضي الدليل رجحانه هو أن الموتى في قبورهم يسمعون كلام من كلمهم ، وأن قول عائشة رضي الله عنها ومن تبعها : إنهم لا يسمعون استدلالاً بقوله تعالى : وما جاء

بمعناها من الآيات غلط منها رضي الله عنها ، وممن تبعها .

وإيضاح كون الدليل يقتضي رجحان ذلك مبني على مقدمتين .

الأولى منهما : أن سماع الموتى ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث متعددة ، ثبوتاً لا مطعن فيه . ولم يذكر صلى الله عليه وسلم أن ذلك خاص بإنسان ولا بوقت .

(87/581)

والمقدمة الثانية : هي أن النصوص الصحيحة عنه صلى الله عليه وسلم في سماع الموتى لم يثبت في الكتاب ولا في السنة شيء يخالفها ، وتأويل عائشة رضي الله عنها بعض الآيات ، على معنى يخالف الأحاديث المذكورة ، لا يجب الرجوع إليه . لأن غيره في معنى الآيات أولى بالصواب منه ، فلا ترد النصوص الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم بتأويل بعض الصحابة بعض الآيات ، وسنوضح هنا إن شاء الله صحة المقدمتين المذكورتين ، وإذا ثبت بذلك أن سماع الموتى ثابت عنه صلى الله عليه وسلم من غير معارض صريح . علم بذلك رجحان ما ذكرنا ، أن الدليل يقتضي رجحانه .

أما المقدمة الأولى وهي ثبوت سماع الموتى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قال البخاري في صحيحه : حدثني عبد الله بن محمد ، سمع روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن

أبي عروبة عن قتادة قال : ذكر لنا أن أنس بن مالك عن أبي طلحة " : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ، ثم مشى واتبعه أصحابه ، وقالوا ما نرى يَنْطَلِقُ إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الرَّكِيِّ ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم :

(88/581)

" يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان : أَيَسُرُّكُمْ أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ " قال فقال عمر : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تكلم من أجساد لا أرواح لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " قال قتادة أحياهم الله له ، حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة ، وندماً ، فهذا الحديث الصحيح أقسم فيه النبي صلى الله عليه وسلم : أن الأحياء الحاضرين ليسوا بأسمع لما يقول صلى الله عليه وسلم من أولئك الموتى بعد ثلاث . وهو نص صحيح صريح في سماع الموتى ، ولم يذكر

صلى الله عليه وسلم في ذلك تخصيصاً ، وكلام قتادة الذي ذكره عنه البخاري اجتهاده منه فيما يظهر .

وقال البخاري في صحيحه أيضاً : حدثني عثمان ، حدثنا عبدة بن هشام ، عن أبيه ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : " وقف النبي صلى الله عليه وسلم على قَلِيب بدر فقال : " هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ " ثم قال : " إنهم الآن يسمعون ما أقول . " فذكر لعائشة فقالت إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم " إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق ثم قرأت : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ حتى قرأت الآية " انتهى من صحيح البخاري .

وقد رأيته أخرج عن صحابيين جليلين ، هما ابن عمر ، وأبو طلحة النبي صلى الله عليه وسلم بأن أولئك الموتى يسمعون ما يقول لهم ، ورد عائشة لرواية ابن عمر بما فهمت من القرآن مردود كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى .

(89/581)

وقد أوضحنا في سورة بني إسرائيل في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ﴾ أن ردها على ابن عمر أيضاً روايته عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أن الميت يعذب ببكاء أهله بما فهمت من الآية مردود أيضاً ، وأوضحنا أن الحق مع ابن عمر في

روايته لا معها فيما فهمت من القرآن . وقال البخاري في صحيحه أيضاً : حدثنا عياش ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا سعيد ، قال : وقال لي خليفة : حدثنا ابن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أن العبد وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال : انظر إلى مقعدك في الجنة "

الحديث ، وقد رأيت في هذا الحديث الصحيح ، تصريح النبي صلى الله عليه وسلم ، بأن الميت في قبره ، يسمع قرع نعال من دفنونه إذا رجعوا ، وهو نص صحيح في سماع الموتى ، ولم يذكر صلى الله عليه وسلم فيه تخصيصاً .

(90/581)

وقال مسلم بن الحجاج رحمه الله في صحيحه : حدثني إسحاق بن عمر بن إسحاق بن عمر بن سليط الهذلي ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال : قال أنس : كنت مع عمر (ح) وحدثنا شيبان بن فروخ واللفظ له : حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع عمر بين مكة والمدينة والمدينة فتراءينا الهلال . الحديث . وفيه

: فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس . يقول هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله . قال : فقال عمر : فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حد رسول الله صلى الله وعليه وسلم ، فجعلوا في بئر بعضهم على بعض ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إليهم ، فقال " يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني الله حقاً . " قال عمر : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ قال : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئاً " حدثنا هداب بن خالد : حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناتي ، عن أنس بن مالك : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثاً ثم أتاهم فقام عليهم فنادهم فقال : " يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعدكم الله حقاً ، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، " فسمع عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يسمعوا ، وأنى يجيبوا وقد جَيَّفُوا ؟ قال : " والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا . ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قَليب بدر " ثم ذكر مسلم بعد هذا رواية أنس عن أبي طلحة ، التي ذكرناها عن البخاري ، فترى هذه الأحاديث الثابتة في الصحيح عن عمر وابنه وأنس وأبي طلحة رضي الله عنهم ، فيها التصريح من النبي صلى الله عليه وسلم ، بأن الأحياء

(91/581)

الحاضرين ليسوا بأسمع من أولئك الموتى لما يقوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أقسم صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يذكر تخصيصاً ، وقال مسلم رحمه الله في صحيحه أيضاً :

حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك قال : قال نبي الله صلى الله عليه وسلم :

" إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه اصحاب إنه ليسمع قرع نعالهم قال يأتيه ملكان فيقعدانه " الحديث . وفيه تصريح النبي صلى الله عليه وسلم بسماع الميت في قبره قرع النعال وهو نص صحيح في سماع الموتى ، وظاهره العموم في كل من دفن وتولى عنه قومه ، كما ترى .

(92/581)

ومن الأحاديث الدالة على عموم سماع الموتى ما رواه مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى التميمي ويحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد : قال : يحيى بن يحيى : وقال الآخران :

حدثنا إسماعيل بن جعفر عن شريك ، وهو ابن أبي نمر ، عن عطاء بن يسار ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كان ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : " السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأتاكم ما توعدون غدا مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل الفرقد " ، ولم يقُمْ قتيبة قوله : وأتاكم ما توعدون ، وفي رواية في صحيح مسلم عنها قالت : كيف أقول لهم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قولي : " السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين . وإنا إن شاء الله بكم للاَحقون " ثم قال مسلم رحمه الله : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، وزهير بن حرب قالا : حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي عن سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريدة ، عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول في رواية أبي بكر : السلام على أهل الديار وفي رواية زهير : " السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية " انتهى من صحيح مسلم . وخطابه صلى الله عليه وسلم لأهل القبور بقوله : " السلام عليكم " وقوله : " وإنا إن شاء الله بكم " ، ونحة ذلك يدل دلالة واضحة على أنهم يسمعون سلامه لأنهم لو كانوا لا يسمعون سلامه وكلامه لكان خطابه لهم من جنس خطاب المعدوم ولا شك أن ذلك ليس من شأن العقلاء فمن العبد جداً صدوره منه صلى

الله عليه وسلم ، وسيأتي إن شاء الله ذكر حديث عمرو بن العاص الدال على أن الميت في قبره يستأنس بوجود الحي عنده .

(93/581)

وإذا رأيت هذه الأدلة الصحيحة الدالة على سماع الموتى ، فاعلم أن الآيات القرآنية كقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ [النمل : 80] وقوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ﴾ [فاطر : 22] لا تخالفها . وقد أوضحنا الصحيح من أوجه تفسيرها وذكرنا دلالة القرائن القرآنية عليه ، وأن استقراء القرآن يدل عليه .

(94/581)

وممن جزم بأن الآيات المذكورة لا تنافي الأحاديث الصحيحة التي ذكرنا أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فقد قال في الجزء الرابع من مجموع الفتاوى من صحيفة خمس وتسعين ومائتين إلى صحيفة تسع وتسعين ومائتين ما نصه : وقد تعاد الروح إلى البدن في غير وقت المسألة كما في الحديث الذي صححه ابن عبد البر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من

رجل يمر بقبر الرجل الذي كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام " وفي سنن أبي داود وغيره عن أوس بن أبي أوس الثقفي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن خير أيامكم يوم الجمعة فأكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة فإن صلاتكم معروضة عليّ قالوا يا رسول الله : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء " وهذا الباب فيه من الأحاديث والآثار ، ما يضيق هذا الوقت عن استقصائه مما يبين أن الأبدان التي في القبور تنعم وتعذب إذا شاء الله ذلك كما يشاء وأن الأرواح باقية بعد مفارقة البدن ومنعمة أو معذبة . ولذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالسلام على الموتى ، كما ثبت في الصحيح والسنن : أنه كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : " السلام عليكم " أهل الديار من المؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم " وقد انكشف لكثير من الناس ذلك حتى سمعوا صوت المعذبين في قبورهم ، ورأوهم بعيونهم ، يعذبون في قبورهم في آثار معروفة ، ولكن لا يجب أن يكون دائماً على البدن في كل وقت ، بل يجوز أن يكون في حال .

(95/581)

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثاً ثم أتاهم فقام عليهم فقال : " يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة : أليس قد وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً . فسمع عمر رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يسمعوا وقد جَيَّفُوا ؟ فقال : والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا ، ثم أمر بهم فسحبوا فألقوا في قَلِيب بدر " وقد أخرجاه في الصحيحين ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر ، فقال :

" هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ وقال إنهم ليسمعون الآن ما أقول . " فذكر ذلك لعائشة فقالت : وهم ابن عمر ، إنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنهم ليعلمون الآن أن الذي قلت لهم هو الحق " ثم قرأت قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ حتى قرأت الآية .

(96/581)

وأهل العلم بالحديث اتفقوا على صحة ما رواه أنس وابن عمر وإن كانا لم يشهدا بدراً ، فإن أنساً روى ذلك عن أبي طلحة ، وأبو طلحة شهد بدراً كما روى أبو حاتم في صحيحه ، عن أنس عن أبي طلحة رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش ، فقذفوا في طوى من أطواء بدر ، وكان إذا ظهر على قوم أحب أن يقيم في عرصتهم ثلاث ليال ، فلما كان اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها فحركها ثم مشى وتبعه أصحابه ، وقالوا ما نراه ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفاء الركي ، فجعل يناديهم بأسمائهم ، وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا بنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تكلم من أجساد ولا أرواح فيها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " ، قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم توبيخاً ، وتصغيراً ، ونقمة ، وحسرة ، وتنديماً . وعائشة ، قالت فيما ذكرته كما تأولت .

(97/581)

والنص الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على تأويل من أصحابه وغيره ، وليس في القرآن ما ينفي ذلك . فإن قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الموتى ﴾ إنما أراد به السماع المعتاد الذي ينفع صاحبه ، فإن هذا مثل ضربه الله للكفار ، والكافر تسمع الصوت ، ولكن لا تسمع قبول بفقه ، واتباع كما قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ [البقرة : 171] ، فهكذا الموتى الذين ضرب بهم المثل لا يجب أن ينفي عنهم جميع أنواع السماع ، بل السماع المعتاد كما لم ينف ذلك عن الكفار ، بل انتفى عنهم السماع المعتاد الذي ينتفعون به . وأما سماع آخر فلا ينفي عنهم . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما أن الميت يسمع خفق نعالهم ، إذا ولوا مدبرين ، فهذا موافق لهذا فكيف يرفع ذلك . انتهى محل الغرض من كلام أبي العباس ابن تيمية رحمه الله ، وقد تراه صرح فيه بأن تأول عائشة لا يرد به النص الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم ، وأنه ليس في القرآن ما ينفي السماع الثابت للموتى في الأحاديث الصحيحة .

وإذا علمت به أن القرآن ليس فيه ما ينفي السماع المذكور ، علمت أنه ثابت بالنص الصحيح ، من غير معارض .

والحاصل : أن تأول عائشة رضي الله عنها بعض آيات القرآن ، لا ترد به روايات الصحابه العدول الصحيحة الصريحة عنه صلى الله عليه وسلم ، ويتأكد ذلك بثلاثة أمور :

الأول : هو ما ذكرناه الآن من أن رواية العدل لا ترد بالتأويل .

الثاني : أن عائشة رضي الله عنها لما أنكرت رواية ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم إنهم ليسمعون الآن ما أقول . قالت : إن الذي قاله صلى الله عليه وسلم : " إنهم ليعلمون الآن أن الذي كنت أقول لهم هو الحق ، " فأنكرت السماع ونفته عنهم ، وأثبتت لهم العلم ، ومعلوم أن من ثبت له العلم صح منه السماع كما نبه عليه بعضهم .

(98/581)

الثالث : هو ما جاء عنها مما يقتضي رجوعها ، عن تأويلها المذكور إلى الروايات الصحيحة .

قال ابن حجر في فتح الباري : ومن الغريب أن في المغازي لابن إسحاق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد ، عن عائشة مثل حديث أبي طلحة وفيه : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم " ، وأخرجه أحمد بإسناد حسن . فإن كان محفوظاً فكأنها رجعت عن الإنكار لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة ، لكونها لم تشهد القصة . انتهى منه . واحتمال رجوعها لما ذكر قوي ، لأن ما يقتضي رجوعها ثبت بإسنادين .

قال ابن حجر : إن أحدهما جيد . والآخر حسن ، ثم قال ابن حجر : قال الإسماعيلي : كان عند عائشة من الفهم والذكاء وكثرة الرواية والغوص على غوامض العلم ، ما لا مزيد

عليه ، لكن لا سبيل إلى رد رواية الثقة إلا بنص مثله يدل على نسخه أو تخصيصه ، أو استحالته . انتهى محل الغرض من كلام ابن حجر .

وقال ابن القيم في أول كتاب الروح : المسألة الأولى : وهي هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم أم لا ؟ قال ابن عبد البر : ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام " فهذا نص في أنه يعرفه بعينه ، ويرد عليه السلام .

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة أنه أمر بقتلى بدر ، فألقوا في قليب ثم جاء وقف عليهم وناداهم بأسمائهم " يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً ، " فقال له عمر : يا رسول الله : ما تخاطب من أقوام قد جيفوا ، فقال : " والذي بعثني بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جواباً " وثبت عنه صلى الله عليه وسلم : أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له إذا انصرفوا عنه ، وقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم لأمته إذا سلموا على أهل القبور ، أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول :

(99/581)

" السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، " وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا ذلك لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم أن الميت يعرف زيارة الحي له ، ويستبشر له : قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا في كتاب القبور :

باب في معرفة الموتى بزيارة الأحياء

حدثنا محمد بن عون ، حدثنا يحيى بن يمان ، عن عبد الله بن سمعان ، عن زيد بن أسلم ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم " حدثنا محمد بن قدامة الجوهري ، حدثنا معن بن عيسى القزاز ، أخبرنا هشام بن سعد ، حدثنا زيد بن أسلم ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : " إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام " .

(100/581)

وذكر ابن القيم رحمه الله في كلام أبي الدنيا وغيره آثاراً تقتضي سماع الموتى ، ومعرفتهم لمن يزورهم ، وذكر في ذلك مرائي كثيرة جداً ثم قال : وهذه المرائي ، وإن لم تصلح بمجردها

لإثبات مثل ذلك ، فهي على كثرتها ، وإنها لا يحصيها إلا الله قد تواطأت على هذا المعنى ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " أرى رؤيا كم قد تواطأت على أنها في العشر الأواخر " يعني ليلة القدر فإذا تواطأت رؤيا المؤمنين على شيء ، كان كتواطئ روايتهم له ، ومما قاله ابن القيم رحمه الله في كلامه الطويل المذكور وقد ثبت في الصحيح : أن الميت يستأنس بالمشيعين لجنازته بعد دفنه ، فروى مسلم في صحيحه من حديث عبد الرحمن بن شماسة المهري قال : " حضرنا عمرو بن العاص ، وهو في سياق الموت ، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار " الحديث ، وفيه : فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فإذا دفنتموني ، فسنُّوا عليّ التراب سنًا ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر الجزور ، ويقسم لحمها ، حتى استأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي " فدل على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم اه .

ومعلوم أن هذا الحديث له حكم الرفع ، لأن استئناس المقبور بوجود الأحياء عند قبره لا مجال للرأي فيه . ومما قاله ابن القيم في كلامه الطويل المذكور ، ويكفي في هذا تسمية المسلم عليها زائراً ، ولولا أنهم يشعرون به لما صح تسميته زائراً ، فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاره ، لم يصح أن يقال : زاره ، وهذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم .

(101/581)

وكذلك السلام عليهم أيضاً ، فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا : " السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين . نسأل الله لنا ولكم العافية " وهذا السلام ، والخطاب ، والنداء لموجود يسمع ، ويخاطب ، ويعقل ، ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد .

ومما قاله ابن القيم في كلامه الطويل قوله : وقد ترجم الحافظ أبو محمد عبد الحق الأشبيلي على هذا فقال : ذكر ما جاء أن الموتى يسألون عن الأحياء ، ويعرفون أقوالهم وأعمالهم ثم قال : ذكر أبو عمر بن عبد البر من حديث ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم " ما من رجل يمر قبر اخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام " .

ويروى من حديث أبي هريرة مرفوعاً قال : " فإن لم يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام " قال ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم " ، واحتج الحافظ أبو محمد في هذا الباب بما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام " ثم ذكر ابن القيم عن عبد الحق وغيره مرائي ، وآثاراً في الموضوع ثم قال في كلامه

الطويل ، ويدل على هذا أيضاً ما جرى عليه عمل الناس قديماً ، وإلى الآن من تلقين الميت في قبره ولولا أنه يسمع ذلك وينتفع به لم يكن فيه فائدة ، وكان عبثاً . وقد سئل عنه الإمام أحمد رحمه الله فاستحسنه ، واحتج عليه بالعمل .

(102/581)

ويروى فيه حديث ضعيف : ذكر الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره فيقول : يا فلان بن فلانه " الحديث . وفيه : " اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة ألا إله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ، وبالقرآن إماماً " الحديث . ثم قال ابن القيم رحمه الله : فهذا الحديث وإن لم يثبت فاتصال العمل به في سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار كاف في العمل به ، وما أجرى الله سبحانه العادة قط ، بأن أمة طبقت مشارق الأرض ومغاربها ، وهي أكمل الأمم عقولاً ، وأوفرها معارف تطبق على مخاطبة من لا يسمع ، وتستحسن ذلك لا ينكره منها منكر بل سنة الأول للآخر ، ويقتدي فيه الآخر بالأول ، فلولا أن الخطاب يسمع لكان ذلك بمنزلة الخطاب للتراب والخشب والحجر والمعدوم ، وهذا وإن استحسنه واحد

فالعلماء قاطبة على استقباحه واستهجانه .

وقد روى أبو داود في سننه بإسناد لا بأس به " أن النبي صلى الله عليه وسلم حضر جنازة رجل فلما دفن قال : سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل " فأخبر أنه يسأل حينئذ ، وإذا كان يسأل فإنه يسمع التلقين ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا ولوا مدبرين ، ثم ذكر ابن القيم رحمه الله قصة الصعب بن جثامة ، وعوف بن مالك ، وتنفيذ عوف لوصية الصعب له في المنام بعد موته ، وأثنى على عوف بن مالك بالفقه في تنفيذه وصية الصعب بعد موته لما علم صحة ذلك القرائن ، وكان في الوصية التي نفذها عوف إعطاء عشرة دنانير ليهودي من تركة الصعب كانت ديناً له عليه ، ومات قبل قضائها .

(103/581)

قال ابن القيم : وهذا من فقه عوف بن مالك رضي الله عنه ، وكان من الصحابة حيث نفذ وصية الصعب بن جثامة بعد موته ، وعلم صحة قوله بالقرائن التي أخبره بها . من أن الدنانير عشرة وهي في القرن ، ثم سأل اليهودي فطابق قوله ما في الرؤيا فجزم عوف بصحة الأمر ، فأعطى اليهودي الدنانير ، وهذا فقه إنما يليق بأفقه الناس وأعلمهم وهم أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعل اكثر المتأخرين ينكر ذلك ، ويقول : كيف جاز لعوف أن ينقل الدنانير من تركه صعب ، وهي لأيتامه وورثته إلى يهودي بمنام ، ثم ذكر ابن القيم رحمه الله تنفيذ خالد وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما وصية ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه بعد موته ، وفي وصيته المذكورة قضاء دين عينه لرجل في المنام ، وعتق بعض رقيقة ، وقد وصف للرجل الذي رآه في منامه الموضع الذي جعل فيه درعه الرجل الذي سرقها ، فوجدوا الأمر كما قال ، وقصته مشهورة .

وإذا كان وصية الميت بعد موته قد نفذها في بعض الصور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك يدل على أنه يدرك ويعقل ويسمع ، ثم قال ابن القيم رحمه الله في خاتمة كلامه الطويل : والمقصود جواب السائل وأن الميت إذا عرف مثل هذه الجزئيات وتفاصيلها ، فمعرفته بزيارة الحي له وسلامه عليه دعائه له أولى وأحرى اه .

(104/581)

فكلام ابن القيم هذا الطويل الذي ذكرنا بعضه جملة وبعضه تفصيلاً فيه من الأدلة المقنعة ما يكفي في الدلالة على سماع الأموات ، وكذلك الكلام الذي نقلنا عن شيخه أبي العباس ابن تيمية رحمهما الله تعالى وفي كلامهما الذي نقلنا عنهما أحاديث صحيحه ، وآثار كثيرة ،

ومرائي متواترة وغير ذلك ، ومعلوم أن ما ذكرنا في كلام ابن القيم من تلقين الميت بعد الدفن ، أنكره بعض أهل العلم ، وقال إنه بدعة ، وأنه لا دليل عليه ، ونقل ذلك عن الإمام أحمد وأنه لم يعمل به إلا أهل الشام ، وقد رأيت ابن القيم رحمه الله استدل له بأدلة : منها : أن الإمام أحمد رحمه الله سئل عنه ، فاستحسنه .

واحتج عليه بالعمل . ومنها : أن عمل المسلمين اتصل به في سائر الأمصار والأعصار من غير إنكار . ومنها : ت أن الميت يسمع قرع نعال الدافنين ، إذا ولوا مدبرين ، واستدلاله رحمه الله بهذا الحديث الصحيح استدلال قوي جداً ، لأنه اذا كان في ذلك الوقت يسمع قرع النعال ، فلأن يسمع الكلام الواضح بالتلقين من أصحاب ، النعال أولى وأحرى ، واستدلال لذلك بحديث أبي داود " سلوا لأخيكم التثبيت فإنه الآن يسأل " له وجه من النظر ، لأنه إذا كان يسمع سؤال السائل فإنه يسمع تلقين الملقن . والله أعلم .

(105/581)

والفرق بين سماعه سؤال الملك وسماعه التلقين من الدافنين محتمل احتمالاً قوياً ، وما ذكره بعضهم من أن التلقين بعد الموت لم يفعله إلا أهل الشام ، يقال فيه : إنهم هم أول من فعله ، ولكن الناس تبعوهم في ذلك كما هو معلوم عند المالكية والشافعية . قال الشيخ الحطاب في

كلامه على قول خليل بن إسحاق المالكي في مختصره ، وتلقينه الشهادة : وجزم النووي باستحباب التلقين بعد الدفن . وقال الشيخ زروق في شرح الرسالة والإرشاد ، وقد سئل عنه أبو بكر بن الطلاع من المالكية ، فقال : هو الذي نختاره ونعمل به ، وقد روينا فيه حديثاً عن أبي أمامة ليس بالقوي ، ولكنه اعتضد بالشواهد ، وعمل أهل الشام قديماً إلى أن قال : وقال في المدخل : ينبغي أن يتفقده بعد انصراف الناس عنه ، من كان من أهل الفضل والدين ، ويقف عند قبره تلقاء وجهه ويلقنه ، لأن الملكين عليهما السلام ، إذ ذاك يسألانه وهو يسمع قرع نعال المنصرفين .

وقد روى أبو داود في سننه عن عثمان رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : " استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل " إلى أن قال : وقد كان سيدي أبو حامد بن البقال ، وكان من كبار العلماء والصلحاء ، إذا حضر جنازة عزى وليها بعد الدفن ، وانصرف مع من ينصرف ، فيتوارى هنيهة حتى ينصرف الناس ، ثم يأتي إلى القبر ، فيذكر الميت بما يجاوب به الملكين عليهما السلام . انتهى محل الغرض من كلام الحطاب . وما ذكره من كلام أبي بكر بن الطلاع المالكي له وجه قوي من النظر ، كما سترى إيضاحه إن شاء الله تعالى ، ثم قال الحطاب :

واستحب التلقين بعد الدفن أيضاً القرطبي والثعالبي وغيرهما ، ويظهر من كلام الأبي في أول

كتاب الجنائز يعني من صحيح مسلم ، وفي حديث عمرو بن العاص في كتاب : الإيمان ميل إليه .

(106/581)

انتهى من الحطاب . وحديث عمرو بن العاص المشار إليه ، هو الذي ذكرنا محل الغرض منه في كلام ابن القيم الطويل المتقدم .

قال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى العنزي ، وأبو معن الرقاشي ، وإسحاق بن منصور ، كلهم عن أبي عاصم واللفظ لابن المثنى : حدثنا الضحاك ، يعني أبا عاصم قال : أخبرنا حيوة بن شريح قال : حدثني يزيد بن أبي حبيب ، عن ابن شماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص ، وهو في سياقه الموت ، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار . الحديث ، وقد قدمنا محل الغرض منه بلفظ في كلام ابن القيم المذكور ، وقدمنا أن حديث عمرو هذ له حكم الرفع ، وأنه دليل صحيح على استئناس الميت بوجود الأحياء عند قبره .

وقال النووي في روضة الطالبين ما نصه : ويستحب أن يلقن الميت بعد الدفن فيقال : يا عبد الله ابن أمة الله اذكر ما خرجت عليه من الدنيا : شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً

رسول الله ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأنت رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن إماماً ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين إخواناً ، ورد به الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

(107/581)

قلت : هذا التلقين استحبه جماعات من أصحابنا ، منهم القاضي حسين ، وصاحب التتمة ، والشيخ نصر المقدسي في كتابه التهذيب ، وغيرهم ، ونقله القاضي حسين عن أصحابنا مطلقاً . والحديث الوارد فيه ضعيف ، لكن أحاديث الفضائل يتسامح فيها عند أهل العلم من المحدثين وغيرهم ، وقد اعتضد هذا الحديث بشواهد من الأحاديث الصحيحة ، كحديث " اسألوا له التثبيت " ووصية عمرو بن العاص : أقيموا عند قبري قدر ما تنحر جزور ، ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأعلم ماذا أراجع به رسل ربي . رواه مسلم في صحيحه ، ولم يزل أهل الشام على العمل بهذا التلقين ، من العصر الأول ، وفي زمن من يقتدي به . اه . محل الغرض من كلام النووي .

وبما ذكر العلامة ابن القيم وابن الطلاع ، وصاحب المدخل من المالكية ، والنووي من

الشافعية ، كما اوضحنا كلامهم تعلم أن التلقين بعد الدفن له وجه قوي من النظر ، لأنه جاء فيه حديث ضعيف ، واعتضد بشواهد صحيحه ، وبعمل أهل الشام قديماً ، ومتابعة غيرهم لهم .

وبما علم في علم الحديث من التساهل في العمل بالضعيف ، في أحاديث الفضائل ولا سيما المعتضد منها بصحيح ، وإيضاح شهادة الشواهد له أن حقيقة التلقين بعد الدفن مركبة من شيئين :

أحدهما : سماع الميت كلام ملقنه بعد الدفن .

والثاني : انتفاعه بذلك التلقين ، وكلاهما ثابت في الجملة ، أما سماعه لكلام الملقن فيشهد له سماعه لقرع نعل الملقن الثابت في الصحيحين ، وليس سماع كلامه بأبعد من سماع قرع نعله كما ترى .

(108/581)

وأما انتفاعه بكلام الملقن فيشهد له انتفاعه بدعاء الحي ، وقت السؤال في حديث " سلوا لأخيكم التثبيت فإنه يسأل الآن " واحتمال الفرق بين الدعاء والتلقين قوي جداً كما ترى ، فإذا كان وقت السؤال ينتفع بكلام الحي الذي هو دعاؤه له ، فإن ذلك يشهد لانتفاعه بكلام

الحي الذي هو تلقينه إياه ، وإرشاده إلى جواب الملكين ، فالجميع في الأول سماع من الميت لكلام الحي ، وفي الثاني انتفاع من الميت بكلام الحي وقت السؤال ، وقد علمت قوة احتمال الفرق بين الدعاء والتلقين .

وفي ذلك كله : دليل على سماع الميت كلام الحي ، ومن أوضح الشواهد للتلقين بعد الدفن السلام عليه ، وخطابه خطاب من يسمع ، ويعلم عند زيارته كما تقدم إيضاحه ، لأن كلا منهما خطاب له في قبره ، وقد انتصر ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة الروم في كلامه على قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الموتى وَلَا تُسْمِعُ الصم ﴾ [الروم : 52] إلى قوله : ﴿ فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ [الروم : 53] لمساع الموتى وأورد في ذلك كثيراً من الأدلة التي قدمنا في كلام ابن القيم ، وابن أبي الدنيا ، وغيرهما وكثيراً من المرائي الدالة على ذلك ، وقد قدمنا الحديث الدال على أن المرائي إذا تواترت أفادت الحجة . ومما قال في كلامه المذكور ، وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الموتى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في روايته مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم القتلى الذين ألقوا في قليب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، إلى أن قال : والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، لما لها من الشواهد على صحتها ، من أشهر ذلك ما رواها ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً " ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه " الحديث .

وقد قدمنا في هذا المبحث مراراً وبجميع ما ذكرنا في هذا المبحث في الكلام على آية النمل هذه تعلم أن الذي يرجحه الدليل : أن الموتى يسمعون سلام الأحياء وخطابهم سواء قلنا : إن يرد عليهم أرواحهم ، حتى يسمعوا خطاب ويردوا الجواب ، أو قلنا : إن الأرواح أيضاً تسمع وترد بعد فناء الأجسام ، لأنا قد قدمنا أن هذا ينبني على مقدمتين ، ثبوت سماع الموتى بالسنة الصحيحة ، وأن القرآن لا يعارضها على التفسير الصحيح الذي تشهد له القرائن القرآنية ، واستقراء القرآن ، وإذا ثبت ذلك بالسنة الصحيحة من غير معارض من كتاب ، ولا سنة ظهر بذلك رجحانه على تأول عائشة رضي الله عنها ، ومن تبعها بعض آيات القرآن كما تقدم إيضاحه ، وفي الأدلة التي ذكرها العلامة ابن القيم في كتاب الروح . على ذلك مقنع للمنصف ، وقد زدنا عليها ما رأيت ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾

فمن فضله تعالى عليكم أنْ يُؤخِّر القيامة لعل الناس يرعوون ، وإلا لفاجأتهم من أول تكذيب ، وهذا يبين أن الله تعالى يُمهل الخَلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان ، أَلاَ ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتُوا جميعاً مرة واحدة في وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا : إن المسلمين الأوائل كانوا في معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لَعلِموا أن الله تعالى نجَّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلام ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة في وجوه الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [النمل : 73] دليل على أن البعض منهم يشكر .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ﴾

ولك أنْ تقول في هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه ، فمن باب أَوْلَى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النمل : 74] ؟

نقول : لأن ما في الصدور غَيْب والله غَيْب ، وقد يقول قائل : ما دام أن الله غيْب فلا يعلم إلا

الغيب . فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلن .

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75)

معنى ﴿ غَآئِبَةٍ ﴾ [النمل : 75] يعني : الشيء الغائب ، ولحقتْ به التاء الدالة على المبالغة ، كما نقول في المبالغة : راوٍ ورواية ، ونسَّاب ونسَّابه ، وعالم وعلامة ، كذلك غائب وغائبة ، مبالغة في خفائها .

(111/581)

و (مِنْ) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته ، ونُنزِّه كلام الله عن الحشو واللغو الذي لا معنى له ، والبعض تأدب مع القرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لأي شيء ؟

إذن : لا بد أن لها معنى لكي نوضحه نقول : إذا أردتَ أنْ تنفي وجود مال معك تقول : ما عندي مال ، وهذا يعني أنه لا مالَ معك يُعتَدّ به ، ولا يمنع أن يكون معك مثلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردتَ نفي المال على سبيل تأصيل العموم في النفس تقول : ما عندي من مال ، يعني بداية مِمَّا يُقال له مال مهما صَغُر ، فمِنْ هنا إذن ليست زائدةً ولا صلةً ، إنما هي للغاية وتأصيل العموم في النفي .

فالمعنى ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السمآء والأرض إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 75] أن الله تعالى يحيط علمه أزلاً بكل شيء ، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : 59] .

كما أن قدرته تعالى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل : 75] أي في أُمِّ الكتاب الذي سجَّل الله فيه كل أحداث الكون ، فإذا ما جاءتْ الأحداث نراها مُوافِقة لما سجّله الله عنها أَزَلاً ، فمثلاً لما ذكر الحق تبارك وتعالى وسائل النقل والمواصلات في زمن نزول القرآن قال : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] .

فلولا تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] لكان فيها مأخذ على القرآن ، وإلاَّ فأين السيارة والطائرة والصاروخ في وسائل المواصلات ؟

(112/581)

إذن : نستطيع الآن أنْ نُدخِل كل الوسائل الحديثة تحت ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] .

وسبق أن قلنا : إن من عظمة الحق سبحانه وتعالى ألاَّ يُعلم بشيء لا اختيار للعبد فيه ، إنما بما له فيه اختيار ويفضحه باختياره ، كما حدث في مسألة تحويل القبلة : ﴿ سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : 142] .

فيعلنها الله تعالى صراحة ، ويُسمِّيهم سفهاء ؛ لأنهم يعادون الله ويعادون رسول الله ، وبعد هذه الخصومة وهذا التجريح قالوا فعلاً ما حكاه القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول : ما دام أن القرآن حكى عنا هذا فلن نقوله ، وفي هذه الحالة يجوز لهم أنْ يتهموا القرآن وينالوا من صِدْقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآية :

﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة : 142] يعني : تركوا التوجه إلى بيت المقدس وتوجهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار .

وهذه المسألة حدثتْ أيضاً في شأن أبي لهب لما قال الله عنه : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد : 13] .

لأنه قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له : تباً لك ألهذا جمعتنا . وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس ولم يكن رسول الله يدري مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب .

فلما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ ﴾ [المسد : 1] كان بإمكانه أنْ يُكذِّبها وأن يؤمن فينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه اختيار ، لكنه لم يفعل .

(113/581)

إذن : من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أنْ يحكم حكماً على مختار كافر به ، وهو قرآن يُتْلَى علانيةً على رؤوس الأشهاد ، ومع ذلك لا يستطيع التصدِّي له ، ويبقى القرآن حُجَّة الله على كل كافر ومعاند .

ولما نتأمل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] نرى أن الحق سبحانه أنزل القرآن وتولَّى حفظه بنفسه سبحانه وتعالى ولم يُوكله إلى أحد ، مع أن في القرآن أشياء وأحداثاً لم توجد بعد ، فكأن الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلها ويعلنها ، لماذا ؟ لأنها ستحدث لا محالة .

فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء ألاَّ تطاوعه ؛ لأنه مالكها ، ألاَ ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيالة) التي له ، ولا يهتم بالتي عليه ؟ أما ربُّنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهي عليه سبحانه وتعالى .

واقرأ إن شئت : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] فالله يُسجِّلها على

نفسه ويحفظها ؛ لأنه القادر على الإنفاذ ، وفعلاً هُزِم الجمع وولَّوْا الأدبار وصدق الله .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

فَرْق بين أن تخاطب خاليَ الذهن ، وأنْ تخاطب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة ، فخالي الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكنْ إنْ سألتَهم عما أخبر به القرآن يقولون : نعم نعرف هذا من كتبنا ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين ﴾ [البقرة : 89] .

(114/581)

لذلك سيدنا عبد الله بن سلام عندما نظر إلى رسول الله علم أنه الرسول الحق ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال : والله إنِّي لأعرف محمداً كمعرفتي بابني ، ومعرفتي بمحمد أشد ، وصدق الله حين قال عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : 146] .

علم عبد الله أن الإسلام هو الطريق الذي يُوصِّله إلى الله والذي ينبغي لكل عاقل أنْ يتبعه ، فلما أراد أنْ يُسلم أحب أنْ يكسب الجولة بإعلان إسلامه وفضيحة المنافقين والكفار وأهل الكتاب ، فقال : يا رسول الله لقد اشتشرفَتْ نفسي للإسلام ، وأخاف إنْ أسملتُ

أن يذمَّني اليهود ويفعلوا بي كذا وكذا ، فاسألهم عنِّي قبل أنْ أُسلِم ، فسألهم رسول الله فقالوا : هو حَبْرنا وابن حَبْرنا . .

وكالوا له الثناء والمديح ، عندها قال عبد الله : أَما وقد قلتم ما قلتم ، فأشهد ألا إلا إله الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل هو شرُّنا وابن شرِّنا . وكالوا له عبارات السب والشتم

.

ثم يصف الحق سبحانه القرآن فيقول : ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾

معنى ﴿ لَهُدًى ﴾ [النمل : 77] أي : هداية دلالة وإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ [النمل : 77] للمؤمنين فقط ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82] وفَرْق بين الشفاء والرحمة ؛ لأن العطف هنا يقتضي المغايرة . الشفاء : من الداء الذي جاء القرآن ليعالجه ، والرحمة ألاَّ يعاودك هذا الداء مرة أخرى .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾

قوله تعالى ﴿ العزيز ﴾ [النمل : 78] أي : الذي يقهر ولا يُقهر ، ويغلب ولا يُغْلب ، ويجير ولا يُجَار عليه ، وهو مع ذلك في عزته ﴿ العليم ﴾ [النمل : 78] فقد يكون عزيزاً لا يُغلب ، لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة في مكانها ، ويضع الذلة في مكانها .

كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير ﴾ [آل عمران : 26] .

وقد وقف العلماء عند قوله تعالى عن نفسه : ﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ [آل عمران : 26]

فاجتهد بعضهم فقال : التقدير : بيدك الخير والشر ، وهذا التقدير يدل على عدم فهْم لمعنى الآية فما عند الله خير في كل الأحوال ؛ لأن إيتاء المُلْك لمن ينصف في الرعية خير ، ونزع المُلْك مِمَّنْ يطغى به ويظلم خير أيضا ؛ لأن الله سلب منه أداة الطغيان حتى لا يتمادى ، ففي كلٍّ خير .

وما دام من صفاته تعالى أنه عزيز عليم حكيم رحيم ذو فضل ، فاطمئن أيها المؤمن بالله ، وتوكل على الله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾

والتوكل : أن تستضعف نفسك في شيء تحاول أن تقضيه بقوة فلا تجدها عندك ، والتوكل الحق لا يكون إلا على الله الحي الذي لا يموت ، أما إن توكلْتَ على بشر مثلك فقد يُفاجِئه الموت قبل أنْ يقضي لك حاجتك .

وقال ﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ [النمل : 79] أي : أنك تتوكل على الله وأنت على الحق وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته ، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة فلا بُدَّ أن يكون نصيركَ ومعينَك .

ثم يُسلِّي الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم ويُعزيه كي لا يألم على مَنْ شردوا منه فلم يؤمنوا : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾

والمعنى : لا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك ، فما عليك إلا البلاغ . والبلاغ كلام له أداة استقبال في السامع هي الأذن ، فإذا تعطلَتْ هذه الأداة لن يسمعوا ، وهؤلاء القوم تعطلَتْ عندهم أداة السمع ، فهم كالموتى والذين أصابهم الصمم ، فآيات الله الكونية كثيرة من حولهم ، لكن لا يروْن ولا يسمعون .

(116/581)

وليت الأمر يقف بهم عند حَدِّ الصمم ، إنما يُولُّون مدبرين من سماع الدعوة ، وهذه مبالغة منهم من الانصراف عن دعوة الحق ؛ لأنهم إنْ جلسوا فلن يسمعوا ، فما بالك إذا ولَّوْا مدبرين يجرُون بعيداً ، وكأن الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصمم وتلتقط أذنه نداء الله ، فيستميله النداء ، وعندها تكون مصيبته كبيرة على حَدِّ زعمهم .

وهذا دليل على أنهم يعلمون أنه حق ، وأنهم لو صَغَوْا إليه لا تبعوه ، ألم يقولوا : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ﴾ [فصلت : 26] .

ذلك لأن القرآن جلالاً وجمالاً ياسِرُ الألباب ؛ لذلك نَهَوْا عن سماعه ، ودَعَوْا إلى التشويش عليه ، حتى لا ينفذ إلى القلوب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَادِي العمي ﴾

فرْق بين سماع قالة أو قضية الصدق ، وانت خالي الذِّهْن ، وبين أن تسمعها وأنت مشغل بنقيضها ، فلكي يُثمِر السماع ينبغي أنْ تستقبل الدعوة بذهن خَالٍ ثم تبحث بعقلك الدعوة وما يناقضها ، فما انجذبتَ إليه واطمأنتْ إليه نفسك فأدخله .

وهذه يُسمُّونها حتى في الماديات نظرية الحيز أي : أن الحيز الواحد لا يتسع لشيئين في الوقت نفسه . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالقارورة حين تملؤها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً على شكل فقاعات ؛ لأن الماء أكثفُ من الهواء .

(117/581)

ومعنى : ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [النمل : 81] ولقائل أن يقول : ما دام تُسمِع مَنْ يؤمن بآياتنا ، فما فائدة السماع وهو مؤمن ؟ نقول : الآيات ثلاثة ؛ مترتبة

بعضها على بعض ، فأولها : الآيات الكونية العقدية التي تشاهدها في الكون وتستدلّ بها على وجود إله خالق قادر فتسأل : مَنْ هذه الإله الخالق فيأتي دور الرسول الذي يُبيّن لك ويحلّ لك هذا اللغز ، ولا بُدَّ له من آيات تدل على صِدْقه في البلاغ عن الله هي المعجزة ، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول ، فقال : ومن آياته كذا وكذا .

فإذا آمنتَ بالآيات الكونية وبآيات المعجزات ، فعليك أنْ تؤمن بآيات الأحكام التي جاءتْ بها معجزة النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(118/581)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

وأخرج أحمد وأبو داود والطبراني عن رجل من بلجهم قال : قلت يا رسول الله إلام تدعو قال " أدعو إلى الله وحده الذي إن نزل بك ضر فدعوته كشف عنك ، والذي إن ضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك ، والذي إن أصابك سنة فدعوته أنزل لك " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ويكشف السوء ﴾ قال : الضر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سحيم بن نوفل قال : بينما نحن عند عبد الله إذ جاءت وليدة إلى سيدها فقالت : ما يحبسك وقد لفع فلان مهرك بعينه فتركه يدور في الدار كأنه في فلك ؟ قم فابتغ راقياً فقال عبد الله : لا تبتغ راقياً ، وانفث في منخره الأيمن أربعاً ، وفي الأيسر ثلاثاً ، وقل : لا بأس اذهب البأس رب الناس . اشف أنت الشافي لا يكشف الضر إلا أنت قال : فذهب ثم رجع إلينا فقال : فعلت ما أمرتني فما جئت حتى راث وبال وأكل .

وأخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه ؛ لأن الله تعالى يقول ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ فالخلافة من الله عز وجل فإن كان خيراً فهو يذهب به ، وإن كان شراً فهو يؤخذ به ، عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله تعالى به " .

(119/581)

وأخرج البغوي في معجمه عن اياد بن لقيط قال : قال جعدة بن هبيرة لجلسائه : إني قد علمت ما لم تعلموا ، وأدركت ما لم تدركوا ، أنه سيجيء بعد هذا – يعني معاوية – أمراء ليس من رجاله ولا من ضربائه ، وليس فيهم أصغر أو أبتر حتى تقوم الساعة . هذا السلطان سلطان الله جعله وليس أنتم تجعلونه . ألا وإن للراعي على الرعية حقاً ، وللرعية

على الراعي حقاً ، فأدوا إليهم حقهم ، فإن ظلموكم فكلوهم إلى الله فإنكم وإياهم تختصمون يوم القيامة ؛ وإن الخصم لصاحبه الذي أدى إليه الحق الذي عليه في الدنيا . ثم قرأ (فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين) [الأعراف : 6] حتى بلغ (والوزن يومئذ القسط) [الأعراف : 8] هكذا قرأ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ قال : خلفاً بعد خلف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ قال : خلفاً لمن قبلكم من الأمم .

وأخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن جريج ﴿ أمن يهديكم في ظلمات البر ﴾ قال : ضلال الطريق ﴿ والبحر ﴾ قال : ضلالة طرقه وموجه وما يكون فيه .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

(120/581)

أخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في

الأسماء والصفات عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : وما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست ، فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي علي ألم يقل الله ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ؟ ! . . ﴾ ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ [النجم : 13] فقالت : أنا أوّل هذه الأمة سأل عن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال جبريل : لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين . رأيته منهبطاً من السماء . ساد أعظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض قالت : أو لم تسمع الله عز وجل يقول ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ [الأنعام : 103] أو لم تسمع الله يقول ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ [الشورى : 51] إلى قوله ﴿ علي حكيم ﴾ . ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله جل ذكره يقول ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ إلى قوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] قالت : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول ﴿ قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ﴾ .

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (66)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة ﴾ قال : حين لم ينفع العلم .

(121/581)

وأخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه قرأ " بل ادرك علمهم في الآخرة " قال : لم يدرك علمهم قال أبو عبيد : يعني أنه قرأها بالاستفهام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس " بل ادرك علمهم في الآخرة " يقول : غاب علمهم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة ﴾ قال : ام ادرك علمهم ﴿ أم هم قوم طاغون ﴾ [الذاريات : 53] بل هم قوم طاغون .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ بل ادارك علمهم ﴾ مثقلة مكسورة اللام على معنى تدارك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة ﴾ قال : تتابع

علمهم في الآخرة بسفههم وجهلهم ﴿ بل هم عنها عمون ﴾ قال : عموا عن الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه كان يقرأ " بل ادرك علمهم في الآخرة " قال : اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة . وفي قوله ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ قال : كيف عذب الله قوم نوح ، وقوم لوط ، وقوم صالح ، والأمم التي عذب الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ عسى أن يكون ردف لكم ﴾ قال : اقترب لكم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ عسى أن يكون ردف لكم ﴾ قال : اقترب منكم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ عسى أن يكون ردف لكم ﴾ قال : عجل لكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ردف لكم ﴾ قال : أزف لكم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ ردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ قال : من العذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ قال : يعلم ما عملوا بالليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وليعلم ما تكن صدورهم ﴾ قال : السر .

(122/581)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب ﴾ يقول : ما من شيء في السماء والأرض سراً وعلانية إلا يعلمه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وما من غائبة ﴾ يقول : ما من قولي ولا عملي في السماء والأرض إلا وهو عنده ﴿ في كتاب ﴾ في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله السموات والأرض .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ يقول : هذا القرآن يبين لهم الذي اختلفوا فيه .

وأخرج الترمذي وابن مردويه عن علي قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن امتك ستفتتن من بعدك . فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سئل ما المخرج منها ؟ فقال "

كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، من ابتغى العلم في غيره أضله الله ، ومن ولي هذا الأمر فحكم به عصمه الله ، وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، فيه خبر من قبلكم ، ونبأ من بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل " .

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ قال : هذا مثل ضربه الله للكافر كما لا يسمع الميت كذلك لا يسمع الكافر ، ولا ينتفع به ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ يقول : لو أن أصم ولى مدبراً ثم ناديته لم يسمع ، كذلك الكافر لا يسمع ولا ينتفع بما يستمع . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(123/581)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (73) ﴾

قوله : ﴿ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ : يجوز أن يكونَ مفعولُه محذوفاً أي : لا يشكرون نِعَمَه . ويجوزُ أَنْ لا يُقدَّرَ ؛ بمعنى : لا يعترفون بنعمهِ ، فعبَّر عن انتفاءِ مَعْرِفتِهم بالنعمةِ بانتفاءِ ما يترتَّبُ على معرفتِها وهو الشكرُ .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74)

قوله : ﴿ مَا تُكِنُّ ﴾ : العامَّةُ على ضمِّ تاءِ المضارعةِ ، مِنْ أَكَنَّ . قال تعالى : ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ ﴾ [البقرة : 235] . وابن محيصن وابن السَّمَيْفع وحُمَيْد بتفحها وضمِّ الكاف . يقال : كَنَنْتُه وأَكْنَنْتُه ، بمعنى : أَخْفَيْتُ وسَتَرْتُ .

قوله : ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ ﴾ :

في هذه التاءِ قولان ، أحدُهما : أنها للمبالغةِ كراوِيَة وعَلاَّمة . والثاني : أنها كالتاءِ الداخلةِ على المصادرِ نحو : العاقِبَة والعافِيَة . قال الزمخشري : " ونظيرُهما : الذَّبيحةُ والنَّطيحةُ والرَّمْيَةُ في أنها أسماءُ غيرُ صفاتٍ " .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)

قوله : ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ : العامَّةُ على ضمِّ الحاءِ وسكونِ الكاف . وجناح بن حبيش بكسرِها وفتحِ الكاف جمعَ " حِكْمة " .

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)

قوله : ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء ﴾ : تقدَّم تحريره في الأنبياء عليهم السلام .

وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

قوله : ﴿ بِهَادِي العمي ﴾ :

(124/581)

العامَّةُ/ على " هادِيْ " مضافاً للعُمْي . وحمزة "يَهْدِي " فعلاً مضارعاً ، و " العمُيَ " نصبٌ على المفعول به ، وكذلك التي في الروم ويحيى بن الحارث وأبو حيوة " بهاد " منوَّناً " العُمْيَ " منصوب به ، وهو الأصلُ .

واتفق القُرَّاء على أَنْ يقفوا على " هاد " في هذه السورةِ بالياءِ ؛ لأَنَّها رُسِمَتْ في المصحفِ ثابتةً . واختلفوا في الروم . فوقف الأخوان عليها بالياءِ أيضاً كهذه . أمَّا حمزةُ فلأنه يقرَؤُها "يَهْدي " فعلاً مضارعاً مرفوعاً فياؤه ثابتة . قال الكسائيُّ : " مَنْ قرأ "يَهْدِي " لَزِمَه أَنْ يقفَ بالياء ، وإنما لزمه ذلك ؛ لأن الفعلَ لا يَدْخُلُه تنوينٌ في الوصلِ تُحذف له الياء فيكونُ في الوقفِ كذلك ، كما يَدْخُلُ تنوينٌ على " هادٍ " ونحوِه فتَذْهبُ الياءُ في الوصل ، فيجري الوقفُ على ذلك كَمَنْ وقف بغير ياءٍ " . انتهى . ويَلْزَمُ على ذلك أَنْ يُوْقَفَ على ﴿ يَقْضِي بالحق ﴾ [غافر : 20] ﴿ وَيَدْعُ الإنسان ﴾ [الإسراء : 11] بإثباتِ الياءِ والواوِ . ولكنْ يَلْزَمُ حمزةَ مخالفةُ الرسمِ دونَ القياسِ . وأمَّا الكسائيُّ فإنه يَقْرَأُ " بهادي " اسمَ فاعلٍ

كالجماعةِ ، فإثباتُه للياءِ بالحَمْلِ على " هادِي " في هذه السورةِ ، وفيه مخالفَةٌ الرسمِ السلفيّ .

قوله : ﴿ عَن ضَلالَتِهِمْ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه متعلق ب "يَهْدي" . وعُدّي ب " عن " لتضمُّنِه معنى يَصْرِفهم . والثاني : أنه متعلقٌ بالعُمْي لأنَّك تقول : عَمِيَ عن كذا ، ذكره أبو البقاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 640.642 ﴾

(125/581)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى السمع)

وهو قوّة فى الأُذُن ، بها تدرِك الأَصوات .

وفِعْله يقال له السّمع أَيضًا .

وقد سَمِع سَمْعًا .

ويعبّر تارة بالسّمع عن الأُذُن نحو : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ .

وتارة عن فعله كالسّماع نحو : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ ، وتارة عن الفهم ، وتارة عن

الطَّاعة ، تقول : اسمع ما أَقول لك .

ولمْ تسمعْ ما قلتُ ، أَى لم تفهم .

وقوله : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ ، أَى فهِمنا ولم نأْتمر لك .

وقوله : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، أَى فهمْنَا وارتسَمْنا .

وقوله : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ ، يجوز أَن يكون معناه : فَهِمْنا وهم لا يعملون بموجَبه ، وإِذا لم يعمل بموجَبه فهو فى حكم مَن لم يسمع ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ ﴾ أَى أَفهمهم بأَن جعل لهم قوَّة يفهمون بها .

وقوله : ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ ، فغير مُسْمَع يقال على وجهين :

أَحدهما : دعاء على الإِنسان بالصّمم .

والثَّانى : أَن يقال أَسمعت فلاناً إِذا سَبَبْتُه .

وذلك متعارَف فى السّبّ .

ورُوى أَن أَهل الكتاب كانوا يقولون [ذلك] للنبىّ صلَّى الله عليه وسلم يوهمون أَنَّهم يعظِّمونه ويَدْعون له ، وهم يدعون عليه بذلك .

وكلّ موضع أُثبت فيه السّمع للمؤمنين أَو نُفى عن الكافرين أَو حُثَّ على تحرّية فالقصد به إِلى تصوّر المعنى والتفكر فيه .

وإِذا وُصف/ الله بالسّمع فالمراد به علمه بالمسموعات وتحرّية للمجازاة به ، نحو : ﴿ قَدْ

سَمِعَ اللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أَى إِنك لا تُفهمهم ؛ لكونهم كالموتى فى افتقادهم – لسوءِ فعلهم – القوّة العاقلة الَّتى هى الحياة المختصة بالإِنسانية .

(126/581)

وقولُه : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أَى (يقوله فيه تعالى) مَن وقف على عجائب حكمته ، ولا يقال فيه : ما أَبصره وما أَسمعه لما تقدم ذكره ، وأَن الله تعالى لا يوصَف إِلاَّ بما ورد به السّمع .

وقولُه فى صفة الكفار : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ معناه : أَنهم يسمعون ويبصرون فى ذلك اليوم ما خَفِىَ عنهم وضلُّوا عنه اليوم ؛ لظلمهم أَنفسهم وتركهم النَّظر .

وقولُه : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أَى يسمعون منك لأَجل أَن يكذِبوا ، ﴿ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ أَى يسمعون لمكانهم .

والاستماع : الإِصغاء .

وقوله : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾ أَى مَن الموجِد لأَسماعهم وأَبصارهم ، والمتولّى بحفظها .

والمسْمَع والمِسْمع : خَرْق الأُذُن .

وفى دعاءِ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : يامن لا يشغله سمعٌ عن سمع ، ويامَن لا تغلّطه المسائل ، ويامن لا يُبرمه إلحاح الملحّين ، ارزقنى بَرْد عفوك ، وحلاوة رحمتك ، ورَوْح قربك .

وقال الشاعر :

*لو يسمعون كما سمعتُ كلامها * خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وسجودًا *

وقد ورد السّمع فى التنزيل على وجوه :

الأَوّل : بمعنى الإفهام : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ أَى لا تفهمهم .

الثانى : بمعنى إجابة الدّعاءِ : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ ﴾ .

الثالث : بمعنى فهم القلب : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ أَى سَمْعِ الفؤاد ، ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أَى سمعنا بقلوبنا ، وأَطعنا بجوارحنا .

الرّابع : بمعنى سماع جارحة الأُذُن : ﴿ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ ، ﴿ نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ ، ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أَى سمعنا بالآذان ، وعصينا بالجَنَان .

(127/581)

الخامس : بمعنى سَمْع الحقّ تعالى المنزّه عن الجارحة والآلة ، المقدّس عن الصِّماخ والمَحارة : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ، ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ .

وقد يكون السميع بمعنى المُسمِع ، قال عمرو بن مَعْدِ يكرِبَ رضى الله عنه :

*أَمِن رَيْحانَةَ الداعى السميعُ * يؤرِّقنى وأَصاحبى هُجُوعُ* . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 257.260 ﴾

(128/581)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) ﴾

لا تَلْتَبِسُ على الله أحوالُهم ؛ فصادِقٌ يستوي ظاهِرُه وباطنُه يعلمه ، ومنافقٌ يخالف باطنُه ظاهرَه يُلَبِّسُ على الناس حالَه . . وهو – سبحانه – يعلمه ، وكافِرٌ يستوي في الجَحْدِ سِرُّه وعَلَنُه يعلمه ، وهو يجازي كلاً على ما عَلِمَه . . كيف لا . . وهو قَدَّره ، وعلى ما عليه قضاه وقَسَمَه ؟ ! .

وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75)

ما من شيء إلاَّ مُثْبَتٌ في اللوح المحفوظ حُكْمُه ، ماضيةٌ فيه مشيئته ، متعلّقٌ به عِلْمُه .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76)

وهم يُخْفُون بعضاً ، وبعضاً يُظْهِرُون ، ومع ما يَهْوَوْن يدورون .

وفي هِذه الآية تخصيص لهذه الأمة بأن حفظ الله كتابَهم ، وعَصَمَ مِنَ التغيير والتبديل ما به يدينون . وهذه نعمةٌ عظيمةٌ قليلٌ منهم مَنْ عليها يشكرون ؛ فالقرآن هدًى ورحمة للمؤمنين ، وليس ككتابهم الذي أخبر الصادق أنهم له مُحَرِّفون مُبَدِّلون .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)

هو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ المُعِزُّ للمؤمنين ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يستحقه كلُّ أحدٍ من الثواب العظيم والعذاب الأليم .

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79)

أي اجتهد في أداء فَرْضِه ، وثِقْ بصدق وعده في نصره ورزقه ، وكفايته وعَوْنه . ولا يهولنَّكَ ما يجري على ظواهرهم من أذًى يتصل منهم بك ، فإنما ذلك كلُّه بتسليطنا إن كان محذوراً ، وبتقييضنا وتسهيلنا إن كان محبوباً . وإنك لَعَلَى حقٍّ وضياءٍ صِدْقٍ ، وهم على شكٍ وظلمةِ شِركٍ .

(129/581)

إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)

الذين أمات اللَّهُ قلوبَهم بالشِّرْكِ ، وأَصَمَّهم عن سماع الحق – فليس في قُدْرَتِكَ أَنْ تَهْدِيَهم للرُّشْدِ أو تنقذهم من أُسْرِ الشكّ .

وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

أنت تهديهم من حيث الدعاء والدلالة ، ولكنك لا تهدي أحداً من حيث إزالة الباطل من القلب وإمالته إلى العرفان ، إذ ليست بقُدْرَتِكَ الإزالة أو الإمالة .

أنت لا تُسْمِعُ إلاّ مَنْ يؤمن بآياتنا ، فلا يَسْمَعُ منك إلاّ مَنْ أسعدناه من حيث التوفيق والإرشاد إلى الطريق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 48 . 50 ﴾

(130/581)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ

مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما فرغ من عظيم زجرهم بتسليته ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أمرهم وختم بالإسلام ، عطف عليه ذكر ما يوعدون مما تقدم استعجالهم له استهزاء به ، وبدأ منه بالدابة التي تميز المسلم من غيره ، فقال محققاً بأداة التحقيق : ﴿ وإذا وقع القول ﴾ أي حان حين وقوع الوعيد الذي هو معنى القول ، وكأنه لعظمه لا قول غيره ﴿ عليهم ﴾ بعضه بالإتيان حقيقة وبعضه بالقرب جداً ﴿ أخرجنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ لهم ﴾ من أشراط الساعة ﴿ دآبة ﴾ وأيّ دابة في هولها وعظمها خلقاً وخلقاً ﴿ من الأرض ﴾ أي أرض مكة التي هي أم الأرض ، لأنه لم يبق بعد إرسال أكمل الخلق بأعلى الكتب إلا كشف الغطاء .

(131/581)

ولما كان التعبير بالدابة يفهم أنها كالحيوانات العجم لا كلام لها قال : ﴿ تكلمهم ﴾ أي بكلام يفهمونه ، روى البغوي من طريق مسلم عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ : قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : " إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس

من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً " ومن طريق ابن خزيمة عن أبي شريحة الغفاري ـ رضى الله عنه ـ أن النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر ، فتخرج خروجاً بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية ، ولا يدخل ذكرها القرية – يعني مكة ، ثم تمكن زماناً طويلاً ، ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية ، ثم بينما الناس يوماً في أعظم المساجد على الله عز وجل حرمة وأكرمها على الله عز وجل – يعني المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو – كذا قال عمرو – يعني ابن محمد العبقري أحد رواة الحديث – ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط ذلك ، فارفض الناس عنها وثبت لها عصابة عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب ، فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ، ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ، ولا يعجزها هارب ، حتى أن الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان ! الآن تصلي ، فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه ، فيتجاور الناس في ديارهم ، ويصطحبون في أسفارهم ، ويشتركون في الأموال ، يعرف الكافر من المؤمن ، فيقال للمؤمن : يا مؤمن ، ويقال للكافر : يا كافر " ؛ ومن طريق الإمام أحمد عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله

عليه وسلم ـ قال : " تخرج الدابة ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان عليهما السلام ، فتجلو وجه المؤمن بالعصا ، وتخطم أنف الكافر بالخاتم ،

(132/581)

حتى أن أهل الخوان ليجتمعون فيقول هذا : يا مؤمن ، وهذا : يا كافر " .

ثم علل سبحانه إخراجه لها بقوله : ﴿ أن الناس ﴾ أي بما هم ناس لم يصلوا إلى أول أسنان الإيمان ، وهو سن ﴿ الذين آمنوا ﴾ بل هم نائسون مترددون مذبذبون تارة ، وتارة ﴿ كانوا ﴾ أي كوناً هو لهم كالجبلة ﴿ بآياتنا ﴾ أي المرئيات التي كتبناها بعظمتنا في ذوات العالم ، والمسموعات المتلوات ، التي أتيناهم بها على ألسنة أكمل الخلق : الأنبياء والرسل ، حتى ختمناهم بإمامهم الذي هو أكمل العالمين ، قطعاً لحجاجهم ، ورداً عن لجاجهم ، ولذا عممنا برسالته وأوجبنا على جميع العقل أتباعه ﴿ لا يوقنون ﴾ من اليقين ، وهو إتقان العلم بنفي الشبه ، بل هم فيها مزلزلون ، فلم يبق بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا كشف الغطاء عما ليس من جنس البشر بما لا تثبت له عقولهم .

(133/581)

ولما كان من فعل الدابة التمييز بين المؤمن والكافر بما لا يستطيعون دفعه ، تلاه بتمييز كل فريق منهما عن صاحبه يجمعهم يوم القيامة في ناحية ، وسوقهم من غير اختلاط بالفريق الآخر ، فقال عاطفاً على العامل في " وإذا وقع القول " : ﴿ ويوم نحشر ﴾ أي نجمع – بما لنا من العظمة – على وجه الإكراه ؛ قال أبو حيان : الحشر : الجمع على عنف ﴿ من كل أمة فوجاً ﴾ أي جماعة كثيرة ﴿ ممن يكذب ﴾ أي يوقع التكذيب للهداة على الاستمرار ، مستهيناً ﴿ بآياتنا ﴾ أي المرئية بعدم الاعتبار بها ، والمسموعة بردها والطعن فيه على ما لها من العظمة بإضافتها إلينا ؛ وأشار إلى كثرتهم بقوله متسبباً عن العامل في الظرف من نحو : يكونون في ذل عظيم : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يكف بأدنى إشارة منه أولهم على – آخرهم ، وأطرافهم على أوساطهم ، ليتلاحقوا ، ولا يشذ منهم أحد ، ولا يزالون كذلك ﴿ حتى إذا جاءوا ﴾ أي المكان الذي أراده الله لتبكيتهم ﴿ قال ﴾ لهم ملك الملوك غير مظهر لهم الجزم بما يعلمه من أحوالهم ، في عنادهم وضلالهم ، بل سائلاً لهم إظهاراً للعدل بإلزامهم بما يقرون به من أنفسهم ، وفيه إنكار وتوبيخ وتبكيت وتقريع : ﴿ أكذبتم ﴾ أي أيها الجاهلون ﴿ بآياتي ﴾ على ما لها من العظم في أنفسها ، وبإتيانها إليكم على أيدي أشرف عبادي ﴿ و ﴾ الحال أنكم ﴿ لم تحيطوا بها علماً ﴾ أي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى الإحاطة بها في معانيها وما أظهرت لأجله حتى تعلموا ما تستحقه ويليق بها بدليل لا

مرية فيه ﴿ أمّاذا كنتم ﴾ أي في تلك الأزمان بما هو لكم كالجبلات ﴿ تعملون ﴾ فيها هل صدقتم بها أو كذبتم بعد الإحاطة بعلمها ؟ أخبروني عن ذلك كله ! ما دهاكم حيث لم تشتغلوا بهذا العمل المهم ؟ فإن هذا – وعزتي – مقام العدل والتحرير ، ولا يترك فيه قطمير ولا نقير ، ولا ظلم فيه على أحد في جليل ولا حقير ، ولا قليل ولا كثير ، والسؤال على هذا الوجه منبه على الاضطرار إلى التصديق أو الاعتراف بالإبطال ، لأنهم إن قالوا :

(134/581)

كذبنا ، فإن قالوا مع عدم الإحاطة كان في غاية الوضوح في الإبطال ، وإن قالوا مع الإحاطة كان أكذب الكذب .

ولما كان التقدير بما أرشد إليه السياق : فأجابوا بما تبين به أنهم ظالمون ، عطف عليه قوله : ﴿ ووقع القول ﴾ أي مضمون الوعيد الذي هو القول حقاً ، مستعلياً ﴿ عليهم بما ظلموا ﴾ أي بسبب ما وقع منهم من الظلم من صريح التكذيب وما نشأ عنه من الضلال ، في الأقوال والأفعال ﴿ فهم لا ينطقون ﴾ أي بسبب ما شغلهم من وقوع العذاب المتوعد به مما أحاط بقواهم ، فهد أركانهم ، وما انكشف لهم من أنه لا ينجيهم شيء .

ولما ذكر الحشر ، استدل عليه بحشرهم كل ليلة إلى المبيت ، والختم على مشاعرهم ،

وبعثهم من المنام ، وإظهار الظلام الذي هو كالموت بعد النور ، وبعث النور بعد إفنائه بالظلام ، فقال : ﴿ ألم يروا ﴾ مما يدلهم على قدرتنا على بعثهم بعد الموت وعلى كل ما أخبرناهم به ﴿ أنا جعلنا ﴾ أي بعظمتنا التي لا يصل أحد إلى مماثلة شيء منها الدالة على تفردنا وفعلنا بالاختيار ﴿ الليل ﴾ أي مظلماً ﴿ ليسكنوا فيه ﴾ عن الانتشار ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي بإبصار من يلابسه ، لينتشروا فيه في معايشهم بعد أن كانوا ماتوا الموتة الصغرى ، وكم من شخص منهم بات سوياً لا قلبة به فمات ، ولو شئنا لجعلنا الكل كذلك لم يقم منهم أحد ، وعدل عن ﴿ ليبصروا فيه ﴾ تنبيهاً على كمال كونه سبباً للإبصار ، وعلى أنه ليس المقصود كالسكون ، بل وسيلة المقصود الذي هو جلب المنافع ، فالآية من الاحتباك : ذكر السكون أولاً دليل على الانتشار ثانياً ، وذكر الإبصار ثانياً دليل على الإظلام أولاً ، ثم عظم هذه الآية حثاً على تأمل ما فيها من القدرة الهادية إلى سواء السبيل فقال : ﴿ إن في ذلك ﴾ أي الحشر والنشر الأصغرين مع آيتي الليل والنهار ﴿ لآيات ﴾ أي متعددة ، بينة على التوحيد والبعث الآخر والنبوة ، لأن من قلب الملوين لمنافع الناس الدنيوية ، أرسل الرسل لمنافعهم في الدراين .

(135/581)

ولما كان من مباني السورة تخصيص الهداية بالمؤمنين ، خصهم بالآيات لاختصاصهم بالانتفاع بها وأن كان الكل مشتركين في كونها دلالة لهم ، فقال : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي قضيت بأن إيمانهم لا يزال يتجدد ، فهم كل يوم في علو وارتفاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 451.454 ﴾

(136/581)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) ﴾

اعلم أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم ، ثم فرع عليهما القول بإمكان الحشر ، ثم بين الوجه في كون القرآن معجزاً ، ثم فرع عليه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم تكلم الآن في مقدمات قيام القيامة ، وإنما أخر تعالى الكلام في هذا الباب عن إثبات النبوة ، لما أن هذه الأشياء لا يمكن معرفتها إلا بقول النبي الصادق وهذا هو النهاية في جودة الترتيب .

واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة ، وتارة الأمور التي تقع عند قيام القيامة ، فذكر أولاً من علامات القيامة دابة الأرض ، والناس تكلموا فيها من وجوه :

أحدها : في مقدار جسمها ، وفي الحديث أن طولها ستون ذراعاً ، وروي أيضاً أن رأسها تبلغ السحاب .

وعن أبي هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب وثانيها : في كيفية خلقتها ، فروي أن لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان .

وعن ابن جريج في وصفها : رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن إيّل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة (بقرة) وذنب كبش وخف بعير وثالثها : في كيفية خروجها عن علي عليه السلام أنه تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها .

(137/581)

وعن الحسن : لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام ورابعها : في موضع خروجها " سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أين تخرج الدابة ؟ فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى المسجد الحرام " وقيل تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية وخامسها : في عدد خروجها فروي أنها تخرج ثلاث مرات ، تخرج بأقصى اليمن ، ثم تكمن ، ثم تخرج بالبادية ، ثم تكمن

دهراً طويلاً ، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ، فقوم يهربون وقوم يقفون (نظارة) .

واعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور ، فإن صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وإلا لم يلتفت إليه .

أما قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله ، والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها ، أما دابة الأرض فقد عرفتها .

وأما قوله : ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ فقرىء (تكْلِمهم) من الكلم وهو الجرح ، روي أن الدابة تخرج من الصفا ومعها عصا موسى عليه السلام وخاتم سليمان ، فتضرب المؤمن بين عينيه بعصا موسى عليه السلام فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه ، وتنكت الكافر في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه .

واعلم أنه يجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضاً على معنى التكثير يقال فلان مكلم ، أي مجرح .

وقرأ أبي (تنبئهم) ، وقرأ ابن مسعود تكلمهم بأن الناس ، والقراءة بإن مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك ، أو هي حكاية لقول الله تعالى بين به أنه أخرج الدابة لهذه العلة .

فإن قيل إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول (بآياتنا) ؟ جوابه : أن قولها حكاية لقول الله تعالى ، أو على معنى بآيات ربنا ، أو لاختصاصها بالله تعالى أضافت آيات الله إلى نفسها ، كما يقال بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا ، وإنما هي خيل مولاه وبلاده ، ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار ، أي تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

وأما قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ فاعلم أن هذا من الأمور الواقعة بعد قيام القيامة ، فالفرق بين من الأولى والثانية ، أن الأولى للتبعيض ، والثانية للتبيين كقوله : ﴿ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [الحج : 30] .

أما قوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار ، وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه ، كما وصفت جنود سليمان بذلك وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ﴾ فهذا وإن احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم ، فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله أجمع أو بشيء منها .

أما قوله : ﴿ وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ فالواو للحال كأنه قال أكذبتم بها ، بادي الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها .

(139/581)

أما قوله : ﴿ أَمَّاذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم ، فأي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك ؟ ا كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل ، ثم قال : ﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات : 35] ثم إنه سبحانه بعد أن خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاماً يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ أما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر في العقول أن التقليب من النور إلى الظلمة ، ومن الظلمة إلى النور ، لا يحصل إلا بقدرة قاهرة عالية .

وأما وجه دلالته على الحشر فلأنه لما ثبتت قدرته تعالى في هذه الصورة على القلب من النور إلى الظلمة وبالعكس ، فأي امتناع في ثبوت قدرته على القلب من الحياة إلى الموت مرة ، ومن الموت إلى الحياة أخرى .

وأما وجه دلالته على النبوة فلأنه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين ، وفي بعثة الأنبياء والرسل إلى الخلق منافع عظيمة ، فما المانع من بعثتهم إلى الخلق لأجل تحصيل تلك المنافع ؟ فقد ثبت أن هذه الكلمة الواحدة كافية في إقامة الدلالة على تصحيح الأصول الثلاثة التي منها منشؤ كفرهم واستحقاقهم العذاب ، ثم في الآية سؤالان :

السؤال الأول : ما السبب في أن جعل الإبصار للنهار وهو لأهله ؟ جوابه : تنبيهاً على كمال هذه الصفة فيه .

السؤال الثاني : لما قال : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ فلم لم يقل والنهار لتبصروا فيه ؟ جوابه : لأن السكون في الليل هو المقصود من الليل ، وأما الإبصار في النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية .

(140/581)

وأما قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خص المؤمنين بالذكر ، وإن كانت أدلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ما تقدم في نظائره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 186 . 188 ﴾

(141/581)

وقال الماوردى :

قوله ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾

فيه أربعة أوجه

: أحدها : وجب الغضب عليهم ، قاله قتادة .

الثاني : إذا حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون ، قاله مجاهد .

الثالث : إذا لم يؤمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم ، قاله ابن عمر وأبو سعيد الخدري .

الرابع : إذا نزل العذاب ، حكاه الكلبي .

﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ فيها قولان

: أحدهما : ما حكاه محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله لها ذنب وإن لها للحية ، وفي هذا القول إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح .

الثاني : وهو قول الجمهور أنها دابة من دواب الأرض ، واختلف من قال بهذا في صفتها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها دابة ذات زغب وريش لها أربع قوائم ، قاله ابن عباس :

الثاني : أنها دابة ذات وبر تناغي السماء ، قاله الشعبي .

القول الثالث : أنها دابة رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن آيِل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان فتنكت في وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء وتنكت في وجه الكافر بخاتم سليمان فيسود وجهه ، قاله ابن الزبير .

وفي قوله ﴿ مِّنَ الأَرْضِ ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : أنها تخرج من بعض أودية تهامة ، قاله ابن عباس .

الثاني : من صخرة من شعب أجياد ، قاله ابن عمر .

الثالث : من الصفا ، قاله ابن مسعود .

الرابع : من بحر سدوم ، قاله ابن منبه .

وفي ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ قراءتان :

الشاذة منهما : ﴿ تَسِمهُم ﴾ بفتح التاء ، وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : تسمهم في وجوههم بالبياض في وجه المؤمن ، وبالسواد في وجه الكافر حتى يتنادى الناس في أسواقهم يا مؤمن يا كافر ، وقد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تَخْرُجُ الدَّآبَّةُ فَتَسِمِ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِم " . الثاني : معناه تجرحهم وهذا مختص بالكافر والمنافق ، وجرحه إظهار كفره ونفاقه ومنه جرح الشهود بالتفسيق ، ويشبه أن يكون قول ابن عباس .

والقراءة الثانية : وعليها الجمهور ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ بضم التاء وكسر اللام من الكلام ، وحكى قتادة أنها في بعض القراءة : ﴿ تُنَبِّئُهُمْ ﴾ وحكى يحيى بن سلام أنها في بعض القراءة : ﴿ تُحَدِّثُهُمْ ﴾ .

وفي كلامها على هذا التأويل قولان :

أحدهما : أن كلامها ظهور الآيات منها من غير نطق ولا لفظ .

والقول الثاني : أنه كلام منطوق به .

فعلى هذا فيما تكلم به قولان :

أحدهما : أنها تكلمهم بأن هذا مؤمن وهذا كافر .

الثاني : تكلمهم بما قاله الله ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ قاله ابن مسعود وعطاء .

وحكى ابن البيلماني عن ابن عمر أن الدابة تخرج ليلة جمع وهي ليلة النحر والناس يسيرون

إلى منى .

قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾

وهم كفارها المكذبون . وفي قوله ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ وجهان :

أحدهما : محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله السدي .

الثاني : جميع الرسل ، وهو قول الأكثرين .

﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : يجمعون ، قاله ابن شجرة .

الثاني : يدفعون ، قاله ابن عباس .

الثالث : يساقون ، قاله ابن زيد والسدي ، ومنه قول الشماخ .

وكم وزعنا من خميس جحفل . . . وكم حبونا من رئيس مسحل

الرابع : يُرَدُّ أولاهم على أُخراهم ، قاله قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(143/581)

وقال ابن عطية :

ومعنى قوله ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض ﴾ ،

إذا انتجز وعد عذابهم الذي تضمنه القول الأزلي من الله تعالى في ذلك أي حتمه عليهم ،

وقضاؤه وهذا بمنزلة قوله تعالى :

﴿ حقت كلمة العذاب ﴾ [الزمر : 71] فمعنى الآية وإذا إراد الله أن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب أخرج لهم دابة من الأرض ، وروي أن ذلك حين ينقطع الخير ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ولا يبقى منيب ولا تائب ، كما أوحى الله إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، ووقع ، عبارة عن الثبوت واللزوم وفي الحديث أن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأشراط وإن لم تعين الأولى وكذلك الدجال .

(144/581)

قال القاضي أبو محمد : وظاهر الأحادث والروايات أن الشمس آخرها لأن التوبة تنقطع معها وتعطي الحال أن الإيمان لا يبقى إلا في أفراد وعليهم تهب الريح التي لا تبقي إيماناً وحينئذ ينفخ في الصور ، ونحن نروي أن الدابة تسم قوماً بالإيمان وتجد أن عيسى ابن مريم يعدل بعد الدجال ويؤمن الناس به وهذه الدابة روي أنها تخرج من جبل الصفا بمكة قاله

عبد الله بن عمر ، وقال عبد الله بن عمرو نحوه ، وقال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لفعلت ، وروي عن قتادة أنها تخرج تهامة ، وروي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنور نوح عليه السلام ، وروى بعضهم عن حذيفة بن اليمان أنها تخرج ثلاث خرجات ، وروي أنها دابة مزغبة شعراء ، وروي عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين وهي في السحاب وقوائمها في الأرض ، وروي أنها جمعت من خلق كل حيوان ، وذكر الثعلبي عن أبي الزبير نحوه ، وروي أنها دابة مبثوث نوعها في الأرض فهي تخرج في كل بلد وفي كل قوم ، فعلى هذا التأويل ﴿ دابة ﴾ إنما هو اسم جنس ، وحكى النقاش عن ابن عباس أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة ، وقرأ جمهور الناس " تكلمهم " من الكلام ، وفي مصحف أبيّ " تنبئهم " ، وفسرها عكرمة بتسمهم قال قتادة : وفي بعض القراءة تحدثهم .

وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جريج " تكلِمهم " بكسر اللام من الكلم وهو الجرح ، قال أبو الفتح : وهي قراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد والجحدري ، وقال ابن عباس : كلا والله تفعل تكلمهم وتكلمهم .

(145/581)

قال القاضي أبو محمد : وروي في هذا أنها تمر على الناس فتسم الكافر في جبهته وتزجره وتشتمه وربما حطمته وتمسح على وجه المؤمن فتبيضه ويعرف بعد ذلك الإيمان والكفر من أثرها ، وقرأ جمهور القراء " إن الناس " بكسر " إن " وقرأ حمزة والكسائي وعاصم " أن " بفتح الألف ، وفي قراءة عبد الله " تكلمهم بأن " وهذا تصديق للفتح ، وعلى هذه القراءة يكون قوله ﴿ إن الناس ﴾ إلى آخر القراءة من تمام كلام الدابة ، وروي ذلك عن ابن عباس ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله عز وجل .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

المعنى واذكر يوم ، وهذا تذكير بيوم القيامة و﴿ نحشر ﴾ نجمع ، و﴿ من كل أمة ﴾ يريد من كل قرن من الناس متقدم ، لأن كل عصر لم يخل من كفرة بالله من لدن تفرق بني آدم ، و" الفوج " الجماعة الكثيرة من الناس والمعنى ممن حاله أنه مكذب بآياتنا ، و﴿ يوزعون ﴾ معناه يكفون في السوق أي يحبس أولهم على آخرهم ، قال قتادة وغيره : ومنه وازع الجيش ، وفيه يقول عبد الشارق بن عبد العزى : [الوافر]

فجاؤوا عارضاً برداً وجئنا . . . كمثل السيل نركب وازعينا

ثم أخبر تعالى عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ ﴿ أكذبتم ﴾ الآية ، ثم قال ﴿ أماذا كنتم تعملون ﴾ على معنى استيفاء الحجج ، أي إن كان لكم عمل أو حجة فهاتوها ، وقرأ أبو حيوة " أماذا كنتم تعملون " بتخفيف الميم ، ثم أخبر عن وقوع

القول عليه أن نفوذ العذاب وحتم القضاء وأنهم ﴿ لا ينطقون ﴾ بحجة لأنها ليست لهم وهذا في موطن من مواطن القيامة وفي فريق من الناس لأن القرآن يقتضي أنهم يتكلمون بحجج في غير هذا الموطن .

(146/581)

ثم ذكر تعالى الآية في ﴿ الليل ﴾ وكونه وقت سكون وانداع لجميع الحيوان والمهم من ذلك بنو آدم ، وكون ﴿ النهار مبصراً ﴾ أي ذا إبصار ، وهذا كما تقول ليل قائم ونهار صائم ، ومعنى ذلك يقام فيه ويصام ، فكذلك هذا ، معناه يبصر فيه فهو لذلك ذو إبصار ، ثم تجوز بأن قيل ﴿ مبصراً ﴾ فهو على النسب كعيشة راضية ، و" الآيات " في ذلك هي للمؤمنين والكافرين ، هي آية لجميعهم في نفسها ، لكن من حيث الانتفاع بها والنظر النافع إنما هو للمؤمنين فلذلك خصوا بالذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(147/581)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإِذا وَقَعَ القَوْلُ عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض ﴾

﴿ وقع ﴾ بمعنى "وجب" .

وفي المراد بالقول ثلاثة أقوال .

أحدها : العذاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : الغضب ، قاله قتادة .

والثالث : الحُجَّة ، قاله ابن قتيبة .

ومتى ذلك ؟ فيه قولان .

أحدهما : إِذا لم يأمروا بمعروف ، ولم ينهَوا عن منكر ، قاله ابن عمر ، وأبو سعيد الخدري .

والثاني : إِذا لم يُرج صلاحُهم ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وهو معنى قول أبي العالية .

والإِشارة بقوله : ﴿ عليهم ﴾ إِلى الكفار الذين تخرج الدابَّة عليهم .

وللمفسرين في صفة الدابَّة أربعة أقوال .

أحدها : أنها ذات وبر وريش ، رواه حذيفة بن اليمان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن عباس : ذات زغب وريش لها أربع قوائم .

والثاني : أن رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن إِيَّل ،

وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرٍّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مَفصِلين اثنا عشر ذراعاً ، رواه ابن جريج عن أبي الزبير .

والثالث : أن وجهها وجه رجل ، وسائر خَلْقها كخَلْق الطَّير ، قاله وهب .

والرابع : أن لها أربع قوائم وزغباً وريشاً وجناحين ، قاله مقاتل .

وفي المكان الذي تخرج منه خمسة أقوال .

أحدها : من الصفا .

روى حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم [أنه] قال : " بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، تضطرب الأرض تحتهم ، وينشقُّ الصَّفا مِمَّا يلي المسعى ، وتخرج الدابَّة من الصَّفا ، أول ما يبدو منها رأسها ، ملمَّعةٌ ذاتُ وَبَر وريش ، لن يدركها طالب ، ولن يفوتها هارب " وفي حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " طولها ستون ذراعاً " ، وكذلك قال ابن مسعود : تخرج من الصفا .

وقال ابن عمر : تخرج من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها .

(148/581)

وقال عبد الله بن عمر : تخرج الدابَّة فيَمَسُّ رأسها السحاب ورِجلاها في الأرض ما خرجتا .

والثاني : أنها تخرج من شِعْب أجياد ، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن ابن عمر مثله .

والثالث : تخرج من بعض أودية تهامة ، قاله ابن عباس .

والرابع : من بحر سَدوم ، قاله وهب بن منبّه .

والخامس : أنها تخرج بتهامة بين الصَّفا والمروة ، حكاه الزجّاج .

وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تخرج الدابَّة معها خاتم سليمان ، وعصا موسى ، فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم ، حتى إن أهل البيت ليجتمعون ، فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر " وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تَسِم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه : مؤمن ، وتَسِم الكافر بين عينيه وتكتب بين عينيه : كافر ، وتصرخ ثلاث صرخات يسمعُها مَنْ بين الخافِقَين "

وقال حُذيفة بن أَسِيد : إن للدابه ثلاث خرجات ، خرجة في بعض البوادي ثم تنكتم ، وخرجة في بعض القرى ثم تنكتم ، فبينما الناس عند أشرف المساجد – يعني المسجد الحرام – إذ ارتفعت الأرض ، فانطلق الناس هِراباً ، فلا يفوتونها ، حتى إنَّها لتأتي الرجل وهو يصلِّي ، فتقول : أتتعوَّذ بالصلاة ، والله ما كنت مِنْ أهل الصَّلاة ، فتَخْطِمُه ، وتجلو

وجه المؤمن .

وقال عبد الله بن عمرو : إنها تَنْكُتُ في وجه الكافر نُكْتَةً سوداء فتفشو في وجهه فيسودُّ وجهُه ، وتَنْكُتُ في وجه المؤمن نُكْتَةً بيضاء فتفشو في وجهه حتَّى يبيضَّ وجهه ، فيعرف الناس المؤمن والكافر ، ولَكَأَنِّي بها قد خرجت في عقب ركب من الحاج .

قوله تعالى : ﴿ تُكَلِّمُهم ﴾ قرأ الأكثرون بتشديد اللام ، فهو من الكلام .

وفيما تكلِّمهم به ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها تقول لهم : إنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، قاله قتادة .

والثاني : تكلِّمهم ببطلان الأديان سوى دين الاسلام ، قاله السدي .

(149/581)

والثالث : تقول : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، حكاه الماوردي .

وقرأ ابن أبي عبلة ، والجحدري : بتسكين الكاف وكسر اللام [وفتح التاء] ، فهو [من] الكَلْم ؛ قال ثعلب : والمعنى : تجرحهم .

وسئل ابن عباس عن القراءتين ، فقال : كل ذلك والله تفعله ، تُكلِّم المؤمن ، وتَكْلِم الفاجر والكافر ، أي : تجرحه .

قوله تعالى : ﴿ أَنَّ الناس ﴾ قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بفتح الهمزة ، وكسرها الباقون ؛ فمن فتح أراد : تكلِّمهم بأن الناس ، وهكذا قرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : ﴿ تكلِّمهم بأنَّ الناس ﴾ بزيادة باء مع فتح الهمزة ؛ ومن كسر ، فلأنّ معنى ﴿ تكلِّمهم ﴾ : تقول لهم : إن الناس ، والكلام قول .

قوله تعالى : ﴿ ويوم نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾

الفوج : الجماعة من الناس كالزُّمرة ، والمراد به : الرؤساء والمتبوعون في الكفر ، حُشروا وأُقيمت الحجة عليهم .

وقد سبق معنى ﴿ يُوزَعون ﴾ [النمل : 17] .

﴿ حتى إذا جاؤوا ﴾ إلى موقف الحساب ﴿ قال ﴾ الله تعالى لهم : ﴿ أكذَّبتم بآياتي ﴾ ؟ ! هذا استفهام إنكار عليهم ووعيد لهم ، ﴿ ولم تُحيطوا بها عِلْماً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لم تعرفوها حقَّ معرفتها .

والثاني : لم تُحيطوا عِلْماً ببطلانها .

والمعنى : إنكم لم تتفكَّروا في صحتها ،

﴿ أم ماذا كنتم تعملون ﴾ في الدنيا فيما أمرتُكم به ونهيتُكم عنه ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ وَوَقَعَ القولُ عليهم ﴾ قد شرحناه آنفاً [النمل : 82] ﴿ بما ظَلَمُوا ﴾ أي : بما أَشركوا ﴿ فهم لا يَنْطِقُون ﴾ بحجة عن أنفسهم .

ثُم احتج عليهم بالآية التي تلي هذه .

ومعنى قوله : ﴿ والنَّهارَ مُبْصِراً ﴾ أي : يُبْصَر فيه لابتغاء الرِّزق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(150/581)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأرض تُكَلِّمُهُمْ ﴾

اختلف في معنى وقع القول وفي الدابة ؛ فقيل : معنى ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ وجب الغضب عليهِم ؛ قاله قتادة .

وقال مجاهد : أي حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون .

وقال ابن عمر وأبو سعيد الخدريّ رضي الله عنهما : إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وجب السخط عليهم .

وقال عبد الله بن مسعود : وقع القول يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن .

قال عبد الله : أكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع ، قالوا هذه المصاحف تُرفَع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال : يُسرَى عليه ليلاً فيصبحون منه قَفْراً ، وينسون لا إله إلا الله ،

ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم ؛ وذلك حين يقع القول عليهم .

قلت : أسنده أبو بكر البزار قال حدّثنا عبد الله بن يوسف الثَّقَفي قال حدّثنا عبد المجيد بن عبد العزيز عن موسى بن عبيدة عن صفوان بن سليم عن ابن لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن أبيه أنه قال : أكثروا من زيارة هذا البيت من قبل أن يُرفَع وينسى الناس مكانه ؛ وأكثروا تلاوة القرآن من قبل أن يُرفَع ؛ قالوا : يا أبا عبد الرحمن هذه المصاحف ترفع فكيف بما في صدور الرجال ؟ قال ؛ فيصبحون فيقولون كنا نتكلم بكلام ونقول قولاً فيرجعون إلى شعر الجاهلية وأحاديث الجاهلية ، وذلك حين يقع القول عليهم .

وقيل : القول هو قوله تعالى : ﴿ ولكن حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [السجدة : 13] فوقوع القول وجوب العقاب على هؤلاء فإذا صاروا إلى حد لا تقبل توبتهم ولا يولد لهم ولد مؤمن فحينئذٍ تقوم القيامة ؛ ذكره القشيري .

(151/581)

وقول سادس : قالت حفصة بنت سيرين سألت أبا العالية عن قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأرض تُكَلِّمُهُمْ ﴾ فقال : أوحى الله إلى نوح : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] وكأنما كان على وجهي غطاء

فكشف .

قال النحاس : وهذا من حسن الجواب ؛ لأن الناس ممتحَنون ومؤخَّرون لأن فيهم مؤمنين وصالحين ، ومن قد علم الله عز وجل أنه سيؤمن ويتوب ؛ فلهذا أمهلوا وأمرنا بأخذ الجزية ، فإذا زال هذا وجب القول عليهم ، فصاروا كقوم نوح حِين قال الله تعالى : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] .

قلت : وجميع الأقوال عند التأمل ترجع إلى معنى واحد .

والدليل عليه آخر الآية ﴿ إِنَّ الناس كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ وقرىء : ﴿ أَنّ ﴾ بفتح الهمزة وسيأتي .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانُها (لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً) طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابّةُ الأرض "

وقد مضى .

واختلف في تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً ؛ قد ذكرناه في كتاب "التذكرة" ونذكره هنا إن شاء الله تعالى مستوفى .

فأوّل الأقوال أنه فصِيل ناقة صالح وهو أصحها والله أعلم لما ذكره أبو داود الطيالسي في مسنده عن حذيفة قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال : " لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج في أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم تكمن زماناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون ذلك فيفشو ذكرها في البادية ويدخل ذكرها القرية " يعني مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة خيرها وأكرمها على الله المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفضّ الناس منها شتًى ومعاً وتثبت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم فجلّت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدريّ وولّت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى إن الرجل ليتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلّي فتقبل عليه فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الأموال ويصطلحون في الأمصار يُعرف المؤمن من الكافر حتى إن المؤمن يقول يا كافر اقض حقي " "وموضع الدليل من هذا الحديث أنه الفصيل قوله : "وهي ترغو" والرغاء إنما هو للإبل ، وذلك أن الفصيل لما قتلت الناقة هرب فانفتح له حجر فدخل في جوفه ثم انطبق عليه ، فهو فيه حتى يخرج بإذن الله عز وجل .

وروي أنها دابة مزغبة شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً ، ويقال إنها الجساسة ؛

وهو قول عبد الله بن عمر .

وروي عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين ؛ وهي في السحاب وقوائمها في الأرض .

وروي أنها جمعت من خلق كل حيوان .

(153/581)

وذكر الماوردي والثعلبي : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعاً الزمخشري : بذراع آدم عليه السلام ويخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتنكت في وجه المسلم بعصا موسى نكتة بيضاء فيبيض وجهه ، وتنكت في وجه الكافر بخاتم سليمان عليه السلام فيسود وجهه ؛ قاله ابن الزبير رضي الله عنهما .

وفي كتاب النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما : إن الدابة الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العُقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة .

وحكى الماورديّ عن محمد بن كعب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن الدابة فقال : أما والله ما لها ذنب وإن لها للحية .

قال الماوردي : وفي هذا القول منه إشارة إلى أنها من الإنس وإن لم يصرح به .

قلت : ولهذا والله أعلم قال بعض المتأخرين من المفسرين : إن الأقرب أن تكون هذه الدابة إنساناً متكلماً يناظر أهل البدع والكفر ويجادلهم لينقطعوا ، فيهلك من هلك عن بينة : ويحيا من حيّ عن بينة .

(154/581)

قال شيخنا الإمام أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي في كتاب المفهم له : وإنما كان عند هذا القائل الأقرب لقوله تعالى : ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ وعلى هذا فلا يكون في هذه الدابة آية خاصة خارقة للعادة ، ولا تكون من جملة العشر الآيات المذكورة في الحديث ؛ لأن وجود المناظرين والمحتجين على أهل البدع كثير ، فلا آية خاصة بها فلا ينبغي أن تذكر مع العشر ، وترتفع خصوصية وجودها إذا وقع القول ، ثم فيه العدول عن تسمية هذا الإنسان المناظر الفاضل العالم الذي على أهل الأرض أن يسمّوه باسم الإنسان أو بالعالم أو بالإمام إلى أن يسمّى بدابة ؛ وهذا خروج عن عادة الفصحاء ، وعن تعظيم العلماء ، وليس ذلك دأب العقلاء ؛ فالأولى ما قاله أهل التفسير ، والله أعلم بحقائق الأمور .

قلت : قد رفع الإشكال في هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه .

واختلف من أي موضع تخرج ، فقال عبد الله بن عمر : تخرج من جبل الصفا بمكة ؛ يتصدع فتخرج منه .

قال عبد الله بن عمرو نحوه وقال : لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لفعلت .

وروي في خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الأرض تنشق عن الدابة وعيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون من ناحية المسعى وأنها تخرج من الصفا فتسم بين عيني المؤمن هو مؤمن سِمةً كأنها كوكب دُرّي وتسم بين عيني الكافر نكتة سوداء كافر "

وذكر في الخبر أنها ذات وبر وريش ؛ ذكره المهدوي .

وعن ابن عباس أنها تخرج من شعْب فتمَسّ رأسها السحاب ورجلاها في الأرض لم تخرجا ، وتخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام .

وعن حذيفة : تخرج ثلاث خرجات ؛ خرجة في بعض البوادي ثم تَكمُن ، وخرجة في القرى يتقاتل فيها الأمراء حتى تكثر الدماء ، وخرجة من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وأفضلها .

الزمخشري : تخرج من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ؛ فقوم يهربون ، وقوم يقفون نظّارة .

وروي عن قتادة أنها تخرج في تهامة .

وروي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تنّور نوح عليه السلام .

وقيل : من أرض الطائف ؛ قال أبو قبيل : ضرب عبد الله بن عمرو أرض الطائف برجله وقال : من هنا تخرج الدابة التي تكلِّم الناس .

وقيل : من بعض أودية تهامة ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : من صخرة من شِعْب أجياد ؛ قاله عبد الله بن عمرو .

وقيل : من بحر سَدُوم ؛ قاله وهب بن منبّه .

ذكر هذه الأقوال الثلاثة الأخيرة الماوردي في كتابه .

وذكر البغويّ أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدّثنا عليّ بن الجعد عن فُضيل بن مرزوق الرقاشي الأغر وسئل عن يحيى بن مَعين فقال ثقة عن عطية العوفي عن ابن عمر قال تخرج الدابة من صدع في الكعبة كجري الفرس ثلاثة أيام لا يخرج ثلثها .

قلت : فهذه أقوال الصحابة والتابعين في خروج الدابة وصفتها ، وهي ترد قول من قال من المفسرين : إن الدابة إنما هي إنسان متكلم يناظر أهل البدع والكفر .

وقد روى أبو أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم " ذكره الماورديّ .

﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ بضم التاء وشدّ اللام المكسورة من الكلام قراءة العامة ؛ يدلّ عليه قراءة

أبيّ ﴿ تُنَبِّئُهُمْ ﴾ .

وقال السديّ : تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام .

وقيل : تكلمهم بما يسوءهم .

وقيل : تكلمهم بلسان ذلق فتقول بصوت يسمعه من قَرُب وبعد ﴿ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ أي بخروجي ؛ لأن خروجها من الآيات .

وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين .

وقرأ أبو زُرْعة وابن عباس والحسن وأبو رجاء : ﴿ تَكْلِمُهُمْ ﴾ بفتح التاء من الكلم وهو الجرح ؛ قال عكرمة : أي تَسِمُهم .

وقال أبو الجوزاء : سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ أو ﴿ تَكْلِمُهُمْ ﴾ ؟ فقال : هي والله تُكَلِّمُهُمْ وتَكْلِمُهُم ؛ تُكلِّم المؤمن وتَكْلِم الكافر والفاجر أي تجرحه .

(156/581)

وقال أبو حاتم : ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ كما تقول تُجَرِّحهم ؛ يذهب إلى أنه تكثير من ﴿ تَكْلِمُهُمْ ﴾ .

﴿ أَنَّ الناس كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ وقرأ الكوفيون وابن أبي إسحاق ويحيى : ﴿ أن

﴿ بالفتح .

وقرأ أهل الحرمين وأهل الشام وأهل البصرة : ﴿ إن ﴾ بكسر الهمزة .

قال النحاس : في المفتوحة قولان وكذا المكسورة ؛ قال الأخفش : المعنى بأنّ وكذا قرأ ابن مسعود ﴿ بأَنَّ ﴾ وقال أبو عبيدة : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها ؛ أي تخبرهم أن الناس .

وقرأ الكسائي والفراء : ﴿ إنَّ النَّاسَ ﴾ بالكسر على الاستئناف .

وقال الأخفش : هي بمعنى تقول إن الناس ؛ يعني الكفار .

﴿ بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ يعني بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيماناً ولا يبق إلا مؤمنون وكافرون في علم الله قبل خروجها ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ أي زمرة وجماعة .

﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ يعني بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق .

﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يُدفعون ويساقون إلى موضع الحساب .

قال الشماخ :

وكَم وَزَعْنَا من خَميسٍ جَحْفلِ . . .

وكَم حَبَوْنَا من رئيسٍ مِسْحَلِ

وقال قتادة : ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ أي يُردّ أولهم على آخرهم .

﴿ حتى إِذَا جَآءُوا قَالَ ﴾ أي قال الله : ﴿ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ﴾ التي أنزلتها على رسلي ، وبالآيات التي أقمتها دلالة على توحيدي .

﴿ وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ أي ببطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدلّين .

﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ أي ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا ما فيها .

﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ أي وجب العذاب عليهم بظلمهم أي بشركهم .

﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ أي ليس لهم عذر ولا حجة .

وقيل : يختم على أفواههم فلا ينطقون ؛ قاله أكثر المفسرين .

(157/581)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي يستقرون فينامون .

﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي يبصر فيه لسعي الرزق .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله .

ذكر الدلالة على إلهيته وقدرته أي ألم يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(158/581)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ :

أي إذا انتجز وعد عذابهم الذي تضمنه القول الأزلي من الله ، كقوله : ﴿ حقت كلمة العذاب ﴾ فالمعنى : إذا أراد الله أن ينفذ في الكافرين سابق علمه فيهم من العذاب ، أخرج لهم دابة تنفذ من الأرض .

ووقع : عبارة عن الثبوت واللزوم والقول ، إما على حذف مضاف ، أي مضمون القول ، وإما أنه أطلق القول على المقول ، لما كان المقول مؤدى بالقول ، وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب .

وقال ابن مسعود : ﴿ وقع القول عليهم ﴾ يكون بموت العلماء ، وذهاب العلم ، ورفع القرآن . انتهى .

وروي أن خروجها حين ينقطع الخبر ، ولا يؤمر بمعروف ، ولا ينهى عن منكر ، ولا يبقى

منيب ولا نائب .

وفي الحديث : " أن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأشراط " ، ولم يعين الأول ، وكذلك الدجال ؛ وظاهر الأحاديث أن طلوع الشمس آخرها ، والظاهر أن الدابة التي تخرج هي واحدة .

وروي أنه يخرج في كل بلد دابة مما هو مثبوت نوعها في الأرض ، وليست واحدة ، فيكون قوله : ﴿ دابة ﴾ اسم جنس .

واختلفوا في ماهيتها ، وشكلها ، ومحل خروجها ، وعدد خروجها ، ومقدار ما تخرج منها ، وما تفعل بالناس ، وما الذي تخرج به ، اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً ، ويكذب بعضه بعضاً ؛ فاطرحنا ذكره ، لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح ، وتضييع لزمان نقله .

والظاهر أن قوله : ﴿ تكلمهم ﴾ ، بالتشديد ، وهي قراءة الجمهور ، من الكلام ؛ ويؤيده قراءة أبيّ : تنبئهم ، وفي بعض القراءات : تحدثهم ، وهي قراءة يحيى بن سلام ؛ وقراءة عبد الله : بأن الناس .

قال السدي : تكلمهم ببطلان سائر الأديان سوى الإسلام .

وقيل : تخاطبهم ، فتقول للمؤمن : هذا مؤمن ، وللكافر : هذا كافر .

وقيل معنى تكلمهم : تجرحهم من الكلم ، والتشديد للتكثير ؛ ويؤيده قراءة ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير ، وأبي زرعة ، والجحدري ، وأبي حيوة ، وابن أبي عبلة : تكلمهم ، بفتح التاء وسكون الكاف مخفف اللام ، وقراءة من قرأ : تجرحهم مكان تكلمهم .

وسأل أبو الحوراء ابن عباس : تكلم أو تكلم ؟ فقال : كل ذلك تفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر . انتهى .

وروي : أنها تسم الكافر في جبهته وتربده ، وتمسح على وجه المؤمن فتبيضه .

وقرأ الكوفيون ، وزيد بن علي : ﴿ أن الناس ﴾ ، بفتح الهمزة ، وابن مسعود : بأن وتقدم ؛ وباقي السبعة : إن ، بكسر الهمزة ، فاحتمل الكسر أن يكون من كلام الله ، وهو الظاهر لقوله : ﴿ بآياتنا ﴾ ، واحتمل أن يكون من كلام الدابة .

وروي هذا عن ابن عباس ، وكسرت إن هذا على القول ، إما على إضمار القول ، أو على إجراء تكلمهم إجراء تقول لهم .

ويكون قوله : ﴿ بآياتنا ﴾ على حذف مضاف ، أو لاختصاصها بالله ؛ كما تقول بعض خواص الملك : خيلنا وبلادنا ، وعلى قراءة الفتح ، فالتقدير بأن كقراءة عبد الله ، والظاهر أنه متعلق بتكلمهم ، أي تخاطبهم بهذا الكلام .

ويجوز أن تكون الباء المنطوق بها أو المقدرة سببية ، أي تخاطبهم أو تجرحهم بسبب انتفاء

إيقانهم بآياتنا .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) ﴾

أي اذكر يوم نحشر ، والحشر : الجمع على عنف .

﴿ من كل أمة ﴾ : أي من الأمم ، ومن هي للتبعيض .

﴿ فوجاً ﴾ : أي جماعة كثيرة .

﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾ : من للبيان ، أي الذين يكذبون .

والآيات : الأنبياء ، أو القرآن ، أو الدلائل ، أقوال .

﴿ فهم يوزعون ﴾ : تقدم تفسيره في أول قصة سليمان من هذه السورة .

وعن ابن مسعود ، أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة : بين يدي أهل مكة ، ولذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار .

(160/581)

﴿ حتى إذا جاؤوا ﴾ : أي إلى الموقف ؛ ﴿ قال أكذبتم بآياتي ﴾ : استفهام توبيخ وتقريع وإهانة ؛ ﴿ ولم تحيطوا بها علماً ﴾ : الظاهر أن الواو للحال ، أي أوقع تكذيبكم بها غير متدبرين لها ولا محيطين علماً بكنهها ؟ ويجوز أن تكون الواو للعطف ، أي

أجحدتموها : ومع جحودها لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها ، فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه إليه ، ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويحيط بمعانيه علماً .

وقيل : ﴿ ولم تحيطوا بها علماً ﴾ ، أي ببطلانها حتى تعرضوا عنها ، بل كذبتم جاهلين غير مستدلين .

وأم هنا منقطعة ، وينبغي أن تقدر ببل وحدها .

انتقل من الاستفهام الذي يقتضي التوبيخ إلى الاستفهام عن عملهم أيضاً على جهة التوبيخ ، أي : أي شيء كنتم تعملون ؟ والمعنى : إن كان لكم عمل أو حجة فهاتوا ، وليس لهم عمل ولا حجة فيما عملوه إلا الكفر والتكذيب .

وماذا بجملته يحتمل أن يكون استفهاماً منصوباً بخبر كان ، وهو تعملون ، وأن يكون ما هو الاستفهام ، وذا موصول بمعنى الذي ، فيكونان مبتدأ وخبراً ، وكان صلة لذا والعائد محذوف ، أي تعملونه .

وقرأ أبو حيوة : أما ذا ، بتخفيف الميم ، أدخل أداة الاستفهام على اسم الاستفهام على سبيل التوكيد .

﴿ ووقع القول ﴾ : أي العذاب الموعود به بسبب ظلمهم ، وهو التكذيب بآيات الله .

﴿ فهم لا ينطقون ﴾ : أي بحجة ولا عذر لما شغلهم من عذاب الله .

وقيل : يختم على أفواههم فلا ينطقون ، وانتفاء نطقهم يكون في موطن من مواطن القيامة ، أو من فريق من الناس ، لأن القرآن يقتضي أنهم يتكلمون بحجج في غير هذا الموطن .

ولما ذكر أشياء من أحوال يوم القيامة ، ليرتدع بسماعها من أراد الله تعالى ارتداعه ، نبههم على ما هو دليل على التوحيد والحشر والنبوة بما هم يشاهدونه في حال حياتهم ، وهو تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة ، ومن ظلمة إلى نور ، وفاعل ذلك واحد ، وهو الله تعالى ، فيجب أن يفرد بالعبادة والألوهية .

(161/581)

وفي هذا التقليب دليل على القلب من حياة إلى موت ، ومن موت إلى حياة أخرى ، وفيه دليل أيضاً على النبوة ، لأن هذا التقليب هو لمنافع المكلفين ، ولهذا علل ذلك الجعل بقوله : ﴿ لتسكنوا فيه ﴾

وبعثة الأنبياء لتحصيل منافع الخلق ؛ وأضاف الإبصار إلى النهار على سبيل المجاز ، لما كان يقع فيه أضافه إليه ، كما تقول : ليلك نائم ، وعلل جعل الليل بقوله : ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ ، أي لأن يقع سكونهم فيه مما يلحقهم من التعب في النهار واستراحة نفوسهم .

قال بعض الرجاز :

النوم راحة القوى الحسية . . .

من حركات والقوى النفسية

ولم يقع التقابل في جعل النهار بالنص على علته ، فيكون التركيب : والنهار لتبصروا فيه ، بل أتى بقوله : ﴿ مبصراً ﴾ ، قيداً في جعل النهار ، لا علة للجعل .

فقال الزمخشري : هو مراعى من حيث المعنى ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف ، لأن معنى مبصراً : لتبصروا فيه طريق التقلب في المكاسب . انتهى .

والذي يظهر أن هذا من باب ما حذف من أوله ما أثبت في مقابله ، وحذف من آخره ما أثبت في أوله ، فالتقدير : جعلنا الليل مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتتصرفوا فيه ؛ فالإظلام ينشأ عنه السكون ، والإبصار ينشأ عنه التصرف في المصالح ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فالسكون علة لجعل الليل مظلماً ، والتصرف علة لجعل النهار مبصراً وتقدم لنا : الكلام على نظير هذين الحذفين مشبعاً في البقرة في قوله : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق ﴾ ﴿ إن في ذلك ﴾ : أي في هذا الجعل ، ﴿ لآيات لقوم يؤمنون ﴾ : لما كان لا ينتفع بالفكر في هذه الآيات إلا المؤمنون ، خصوا بالذكر ، وإن كانت آيات لهم ولغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾

بيانٌ لما أُشير إليه بقوله تعالى : ﴿ بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ من بقيةِ ما يستعجلونَهُ من السَّاعةِ ومباديها ، والمُرادُ بالقولِ ما نطقَ من الآياتِ الكريمةِ بمجيءِ السَّاعةِ وما فيها مِنْ فُنونِ الأَهوالِ التي كانُوا يستعجلُونها وبوقوعِه قيامُها وحصولُها عبَّر عن ذلكَ به للإيذان بشدَّةِ وقعِها وتأثيرِها . وإسنادُه إلى القولِ لما أنَّ المرادُ بيانُ وقوعِها منْ حيثُ إنَّها مصداقٌ للقولِ النَّاطقِ بمجيئها وقد أُريدَ بالوقوعِ دُنوُّه واقترابُه كما في قولِه تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ أي إذا دَنَا وقوعُ مدلولِ القولِ المذكورِ الذي لا يكادُون يسمعونَهُ ومصداقُه ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مّنَ الأرض ﴾ وهي الجسَّاسةُ وفي التَّعبيرِ عنها باسمِ الجنسِ وتأكيدُ إبهامِه بالتَّنوينِ التفخيميِّ من الدّلالةِ على غَرَابةِ شأنِها وخروجِ أوصافِها عن طورِ البيانِ ما لا يخفى . وقد وردَ في الحديثِ أنَّ طولها ستُّون ذراعاً لا يدركها طالبٌ ولا يفوتها هارب . وروي أن لها أربعَ قوائمَ ولها زَغَبٌ وريشٌ وجناحانِ . وعن ابن جُريجٍ في وصفِها رأسُ ثورٍ وعينُ خنزيرٍ وأُذنُ فيل وقرنُ أيلٍ وعنقُ نعامةٍ وصدرُ أسدٍ ولونُ نمرٍ وخاصرةُ هرةٍ وذنَبُ كبشٍ وخُفُّ بعيرٍ وما بين المفصلينِ اثنا عشرَ ذراعاً بذراعِ آدمَ عليهِ السَّلامُ . وقال وهبٌ : وجهُها وجه الرَّجلِ وباقي خَلقِها خَلْقُ الطَّيرِ . ورُوي عن عليَ رضي الله عنه أنَّه قال : ليس بدابةٍ لها

ذنبٌ ولكنْ لها لحيةٌ كأنَّه رجلٌ . والمشهورُ أنَّها دابَّةٌ . وروي لا تخرجُ إلا رأسُها ورأسُها يبلغُ عنانَ السَّماءِ أو يبلغُ السَّحابَ . وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنْهُ فيها كلُّ لونٍ ما بينَ قَرنيها فرسخٌ للرَّاكبِ . وعن الحَسَنِ رضي الله عنه لا يتمُّ خروجُها إلا بعدَ ثلاثةِ أيَّام . وعنْ عليَ رضي الله عنه أنَّها تخرجُ ثلاثَةَ أيَّامٍ والنَّاسُ ينظرونَ فلا يخرجُ كلَّ يومٍ

(163/581)

إلا ثلثُها . وعن النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أنه سُئل من أين تخرجُ الدَّابةُ فقال :

(164/581)

" من أعظمِ المساجدِ حرمةً على الله تعالى " يعني المسجدَ الحرامَ ورُوي أنَّها تخرجُ ثلاثَ خرجاتٍ تخرجُ بأقصى اليمنِ ثم تخرجُ بالباديةِ ثم تنكمنُ دهراً طويلاً فبينا النَّاسُ في أعظمِ المساجدِ حرمةً على الله تعالى وأكرمِها فما يهولُهم إلا خروجُها من بينِ الركنِ حذاءً دار بني مخزومٍ عن يمين الخارجِ من المسجد فقومٌ يهربون وقومٌ يقفون نظارةً ، وقيل : تخرجُ من الصَّفا . ورُوي بينَا عيسى عليه السَّلامُ يطوفُ بالبيتِ ومعه المُسلمون إذْ تضطربُ الأرضُ تحتهم

تحرُّكَ القنديلِ وينشقُّ الصَّفا مَّما يلي المَسْعى فتخرجُ الدَّابةُ من الصَّفا ومعها عصا مُوسى وخاتمُ سليمانَ عليهما السَّلام فتضربُ المؤمنَ في مسجدِه بالعصَا فتنكتُ نُكتةً بيضاءَ فتفشُو حتَّى يضيءَ لها وجهُه وتكتبُ بين عينيهِ مؤمنٌ ، وتنكتُ الكافرَ بالخاتمِ في أنفهِ فتفشُو النكتةُ حتَّى يسودَّ لها وجهُه وتكتبُ بين عينيهِ كافرٌ ثم تقولُ لهم أنتَ يا فلانُ من أهل الجنَّة وأنتَ يا فلانُ من أهلِ النَّارِ . ورُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهُمَا أنَّه قرعَ الصَّفا بعصاه وهو مُحرمٌ وقال إنَّ الدَّابةَ لتسمعُ قرعَ عصايَ هذه . ورَوَى أبو هُريرةَ عن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّه قال بئسَ الشّعبُ شِعبُ أجيادٍ مرتينِ أو ثلاثاً قيلَ : ولم ذاكَ يا رسولَ الله قال تخرجُ منه الدَّابةُ فتصرخُ ثلاثَ صرخاتٍ يسمعُها مَن بين الخافقينِ فتتكلمُ بالعربيةِ بلسانٍ ذلقٍ وذلك قولُه تعالى : ﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ الناس كَانُوا بآياتنا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ أي تُكلمهم بأنَّهم كانُوا لا يُوقنون بأياتِ الله تعالى النَّاطقةِ بمجيء السَّاعة ومباديها أو بجميع آياتِه التي من جُملتِها تلك الآياتُ وقيل : بآياته التي من جُملتها خروجُها بينَ يدي السَّاعةِ والأولُ هو الحقُّ كما سُتحيط به علماً . وقُرىء بأنَّ النَّاس الآيةَ وإضافةُ الآياتِ إلى نُونِ العظمةِ لأنَّها حكايةٌ

(165/581)

منه تعالى لمعنى قولِها لا لعينِ عبارتِها وقيل : لأنَّها حكايةٌ منها لقولِ الله عزَّ وجَلَّ وقيل : لاختصاصِها به تعالى وأثرتِها عنده كما يقولُ بعضُ خواصِّ الملكِ خيلُنا وبلادُنا وإنَّما الخيلُ والبلادُ لمولاهُ وقيل : هناك مضافٌ محذوفٌ أي بآياتِ ربِّنا . ووصفُهم بعدمِ الإيقانِ بها معَ أنَّهم كانُوا جاحدينَ بها للإيذانِ بأنَّه كانَ من حقِّهم أنْ يُوقنوا بها ويقطعُوا بصحتها وقد اتَّصفُوا بنقيضِه . وقُرِىء إنَّ النَّاس بالكسرِ على إضمارِ القولِ أو إجراءِ الكلامِ مَجراهُ . والكلامُ في الإضافةِ كالذي سبقَ وقيل : هو استئنافٌ مَسُوقٌ من جهتِه تعالى لتعليلِ إخراجِها أو تكليمِها ويردُّه الجمعُ بينَ صيغتي المَاضِي والمستقبلِ فإنَّه صريحٌ في كونِه حكايةً لعدمِ إيقانِهم السابقِ في الدُّنيا . والمرادُ بالنَّاسِ إمَّا الكَفَرةُ على الإطلاقِ أو مُشركو مكَّةَ . وقد رُوي عن وهب أنَّها تخبرُ كل مَن تراهُ أنَّ أهلَ مكَّةَ كانُوا بمحمدٍ والقرآنِ لا يوُقنون . وقُرِىء تُكلِّمهم مِن الكَلْمِ الذي هو الجُرْحُ . والمُرادُ به ما نُقلِ من الوسمِ بالعَصَا والخاتمِ وقد جُوِّزَ كونُ القراءةِ المشهورةِ أيضاً منه لمعنى التَّكثيرِ ولا يخفى بعدُه .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾

(166/581)

بيانٌ إجماليٌّ لحال المُكذّبينَ عند قيامِ السَّاعةِ بعد بيانِ بعضِ مَبَاديها . ويومَ منصوبٌ بمضمرٍ خُوطب به النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام . والمرادُ بهذا الحشرِ هو الحشرُ للعذابِ بعدَ الحشرِ الكُليِّ الشَّاملِ لكافَّةِ الخَلْق . وتوجيهُ الأمرِ بالذكرِ إلى الوقتِ مع أنَّ المقصودَ تذكيرُ ما وقعَ فيه من الحوادثِ قد مرَّ بيانُ سرِّه مراراً أي واذكرْ لهم وقتَ حشرنا أي جمعِنا من كلِّ أمةٍ من أممِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام أو من أهلِ كلِّ قَرن من القُرون جماعةً كثيرةً فمن تبعيضيةٌ لأنَّ كلَّ أمةٍ منقسمةٌ إلى مصدِّقٍ ومكذِّبٍ ، وقولُه تعالى : ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بآياتنا ﴾ بيانُ للفوجِ أي فوجاً مكذبين بها ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يُحبس أوَّلُهم على أخرِهم حتىَّ يتلاحقُوا ويجتمعُوا في موقفِ التَّوبيخِ والمُناقشةِ وفيهِ من الدّلالةِ على كثرةِ عددِهم وتباعُدِ أطرافِهم ما لا يَخفي . وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما : أبُو جهلٍ والوليدُ بن المُغيرة وشَيْبةُ بنُ ربيعةَ يُساقون بين يَدَي أهلِ مكَّةَ وهكذا يُحشر قادةُ سائرِ الأُمم بينَ أيديهم إلى النَّارِ .

(167/581)

﴿ حتى إذَا جَاءوا ﴾ إلى موقفِ السُّؤالِ والجَوَابِ والمُناقشةِ والحسابِ ﴿ قَالَ ﴾ أي الله عزَّ وجلَّ موبِّخاً لهم على التَّكذيبِ والالتفاتِ لتربيةِ المهابةِ ﴿ أَكَذَّبْتُم بآياتى ﴾ النَّاطقةِ بلقاءِ يومِكم هذا . وقولُه تعالى ﴿ وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مفيدةٌ

لزيادةِ شَنَاعة التَّكذيبِ وغايةِ قُبْحهِ ومؤكدةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ أي أكذَّبتُم بها بادىءَ الرَّأي غيرَ ناظرينَ فيها نظراً يُؤدّي إلى العلمِ بكُنهِها وأنَّها حقيقةٌ بالتَّصديقِ حَتماً ، وهذا نصٌّ في أنَّ المرادَ بالآياتِ فيما في الموضعينِ هي الآياتُ القُرآنيةُ لأنَّها هيَ المُنطويةُ على دَلائلِ الصِّحةِ وشواهدِ الصِّدقِ التي لم يُحيطوا بها علماً مع وجُوبِ أنْ يتأمَّلوا ويتدبَّروا فيها لا نفسُ السَّاعة وما فيها . وقيلَ : هو معطوف على كذَّبتم أي أجمعتُم بين التكذيب وعدم التَّدبرِ فيها ﴿ أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أمْ أيَّ شيءٍ كنتُم تعملون بها وأمْ أيَّ شيءٍ كنتمُ تعملون غيرَ ذلكَ بمعنى أنَّه لم يكُن لهم عملٌ غيرُ ذلكَ كأنَّهم لم يُخلقوا إلا للكفر والمَعَاصي مع أنَّهم ما خُلقوا إلا للإيمانِ والطَّاعةِ يخُاطبون بذلك تبكيتاً ثم يُكبُّون في النَّار .

وذلك قولُه تعالى : ﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ أي حلَّ بهم العذابُ الذي هو مدلولُ القولِ النَّاطقِ بحلولِه ونزولِه ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ بسببِ ظُلمِهم الذي هو تكذيبُهم بآياتِ الله ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ لانقطاعِهم عن الجوابِ بالكُلّية وابتلائِهم بشغلٍ شاغلٍ من العذابِ الأليمِ .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾

(168/581)

الرؤيةُ قلبيةٌ لا بصريةٌ لأنَّ نفسَ الليلِ والنَّهارِ وإنْ كانَا من المُبصرات لكن جعلُهما كما ذُكر من قبيلِ المعقولاتِ أي ألم يعلموا أنَّا جعلنا الليل بما فيهِ من الإظلامِ ليستريحُوا فيه بالنَّومِ والقرارِ . ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي ليبُصروا بما فيهِ من الإضاءةِ طرقَ التقلبِ في أمورِ المعاش فبُولغَ فيه حيثُ جُعل الإبصارُ الذي هو حالُ النَّاسِ حالاً له ووصفاً من أوصافِه التي جُعل عليها بحيثُ لا ينفكُّ عنها ولم يسلك في الليلِ هذا المسلكَ لما أنَّ تأثيرَ ظلامِ الليَّلِ في السُّكونِ ليس بمثابةِ تأثيرِ ضَوْءِ النَّهارِ في الأبصارِ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ أي في جعلِهما كما وُصفا ، وما في اسمِ الإشارةِ من مَعْنى البُعدِ للإشعارِ ببُعدِ درجتِه في الفضلِ . ﴿ لَأَيَاتٍ ﴾ أي عظيمةً كثيرةً ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ دالةٌ على صحَّةِ البعثِ وصدقِ الآياتِ النَّاطقةِ به دلالةً واضحةً كيف لا وإنَّ مَن تأمَّلَ في تعاقُبِ اللَّيل والنهارِ واختلافِهما على وجوه بديعةٍ مبنيةٍ على حِكَمٍ رائعةٍ تحارُ في فهمِها العقولُ ولا يُحيطُ بها إلا الله عزَّ وجلَّ وشاهدَ في الآفاقِ تبدلَ ظُلمةِ الليلِ المحاكيةِ للموتِ بضياءِ النَّهارِ المُضاهي للحياةِ وعاينَ في نفسِه تبدلَ النَّومِ الذي هو أخوُ الموتِ بالانتباه الذي هو مثلُ الحَيَاةِ قَضَى بأنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها وأنَّ الله يبعثُ مَن في القبورِ قضاءً متقناً وجزمَ بأنَّه تعالى قد جعلَ هذا أُنموذجاً له ودليلاً يستدلُّ به على تحققِه وأنَّ الآياتِ الناطقةَ به وبكونِ حالِ اللَّيل والنهارِ بُرهاناً عليهِ وسائرَ الآياتِ كلِّها حقٌّ نازلٌ من عندِ الله تعالى . انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾

بيان لما أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل : 72] من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها ، والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجيء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها وبوقوعها قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للإيذان بشدة وقعها وتأثيرها ، وإسناد إلى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث أنها مصداق للقول الناطق بمجيئها ، وقد أريد بالوقوع دنوه واقترابه كما في قوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] ففيه مجاز المشارفة أي إذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذي لا يكادون يسمعونه ومصداقه .

﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأرض ﴾ وذلك على ما أخرج ابن مردويه من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً ، وهو .

وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما موقوفاً "حين يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابم مسعود قال : "أكثروا الطواف بالبيت من قبل أن يرفع ، قيل : وكيف يرفع ما في صدور الرجال ؟ قال : يسري عليهم ليلاً فيصبحون منه فقراء وينسون

قول لا إله إلا الله ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم فذلك حين يقع القول عليهم" ، وهذا ظاهر في أن خروج الدابة حين لا يبقى في الأرض خير ، ويقتضي ذلك أن يكون بعد موت عيسى والمهدي وأتباعهما عليهم السلام ، وسيأتي إن شاء الله تعالى من الأخبار ما هو ناطق بأنها تخرج وعيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون .

وأخرج نعيم بن حماد عن وهب بن منبه قال : أول الآيات الروم .

والثانية الدجال .

والثالثة يأجوج ومأجوج .

والرابعة عيسى .

والخامسة الدخان .

والسادسة الدابة ، وصوب السفاريني أنها قبل الدخان ، والحق أنها تخرج وفي الناس مؤمن وكافر ، فالظاهر أن الخبر المذكور عن ابن مسعود غير صحيح ، ويدل على ما ذكرنا من الحق ما أخرج أحمد .

والطيالسي .

ونعم بن حماد .

وعبد بن حميد .

والترمذي وحسنه .

وابن ماجه .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مرودیه .

والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمن عليهما السلام فتجلو وجه المؤمن بالخاتم وتخطم أنف الكافر بالعصا حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن الكافر " وقد اختلفت الروايات فيها اختلافاً كثيراً ، فحكى أبو حيان في البحر .

(171/581)

والدميري في حياة الحيوان رواية أنه يخرج في كل بلد دابة مما هو مبثوث نوعها في الأرض فليست دابة واحدة ، وعليه يراد بدابة الجنس الصادق بالمتعدد ، وأكثر الروايات أنها دابة

واحدة وهو الصحيح ، فالتعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين الدال على التفخيم من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البابن ما لا يخفى ، وعلى كونها واحدة اختلف فيها أيضاً فقيل : هي من الإنس واستؤنس له بما روى محمد بن كعب القرظي قال : سئل علي كرم الله تعالى وجهه عن الدابة فقال : أما والله إنها ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية ، وفي "الميزان" للذهبي عن جابر الجعفي وهو كذاب قال أبو حنيفة : ما لقيت أكذب منه أنه كان يقول : هي من الإنس وانها علي نفسه كرم الله تعالى وجهه ؛ وعلى ذلك جمع من إخوانه الشيعة ولهم في ذلك روايات : منها ما رواه علي بن إبراهيم في "تفسيره" عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : قال رجل لعمار بن ياسر : يا أبا اليقظان آية في كتاب الله تعالى أفسدت قلبي ، قال عمار : وأية آية هي ؟! فقال : قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ الآية فأية دابة هذه ؟ قال عمار : والله ما أجلس ولا آكل ولا أشرب حتى أريكها فجاء عمار مع الرجال إلى أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه وهو يأكل تمراً وزبداً فقال : يا أبا اليقظان هلم فجلس عمار يأكل معه فتعجب الرجل منه فلما قام عمار قال الرجل : سبحان الله حلفت أنك لا تجلس ولا تأكل ولا تشرب حتى ترينيها قال عمار : قد أريتكها إن كنت تعقل ، وروى العياشي هذه القصة بعينها عن أبي ذر أيضاً وكل ما يروونه في ذلك كذب صريح ، وفيه القول بالرجعة التي لا ينتهض لهم عليها دليل .

وفي بعض الآثار ما يعارض ما ذكر ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن النزال بن سبرة قال : قيل لعلي كرم الله تعالى وجهه : إن ناساً يزعمون أنك دابة الأرض ، فقال : والله إن لدابة الأرض لريشا وزغباً ومالي ريش ولا رغب وأن لها لحافراً ومالي من حافر وأنها لتخرج من حفز الفرس الجواد ثلاثاً وما خرج ثلثها ، والمشهور وهو الحق أنها دابة ليست من نوع الإنسان ، فقيل : هي الثعبان الذي كان في جوف الكعب واختطفته العقاب حين أرادت قريش بناء البيت الحرام فمنعهم وأن العقاب التي اختطفته ألقته بالحجون فالتقمته الأرض ، وذكر ذلك الدميري عن ابن عباس ، والأكثرون على أنها غيرها .

أخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن إيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرة وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين إثنا عشر ذراعاً زاد ابن جرير بذراع آدم عليه السلام .

ونقل السفاريني عن كعب أنه قال : صوتها صوت حمار ، وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس أنه قال : الدابة مؤلفة ذات زغب وريش فيها من ألوان الدواب كلها وفيها من كل أمة سيما وسيماها من هذه الأمة أنها تتكلم بلسان عربي مبين ، وعن أبي هريرة أنه قال : فيها من كل

لون وما بين قرنيها فرسخ للراكب ، وفي رواية أخرى عن ابن عباس أن لها عنقاً مشرفاً يراها من بالمشرق كما يراها من بالمغرب ولها وجه كوجه الإنسان ومنقار كمنقار الطير ذات وبر وزغب ، وعن وهب وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير ، وصرح في بعض الروايات بأن لها جناحين ، وذكر بعضهم أن طولها ستون ذراعاً ، واختلف في محل خروجها فقيل : المسجد الحرام لما أخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال :

(173/581)

" ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال حذيفة : يا رسول الله من أين تخرج ؟ قال ؛ من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض من تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسجد فتخرج الدابة من الصفا أول ما يبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها طالب ولن يفوتها هارب تسم الناس مؤمن وكافر : أما المؤمن فيرى وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن .

وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء وتكتب كافر "

وأخرج ابن أبي شيبة .

والخطيب في تالي التلخيص عن ابن عمر قال : تخرج الدابة من جبل جياد في أيام التشريف والناس بمنى ، وأخرج ابن مردويه .

والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تخرج دابة الأرض من جياد فيبلغ صدرها الركن ولم يخرج ذنبها بعد وهي دابة ذات وبر وقوائم "

وأخرج البخاري في "تاريخه" .

وابن ماجه .

وابن مردويه عن ريدة رضي الله تعالى عنها قال : ذهب بي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تخرج الدابة من هذا الموضع فإذا شبر في شبر "

(174/581)

وجاء في بعض الروايات أنها تخرج من أقصى البادية ، وفي بعض من مدينة قوم لوط ، وفي بعض أن لها ثلاث خرجات في الدهر : تخرج في أول خرجة فى أقصى اليمن منتشراً ذكرها بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ، ثم تخرج خرجة أخرى فيعلو ذكرها في البادية ويدخل القرية ، ثم بنيما الناس في أعظم المساجد حرمة لم يرعهم إلا وهي في ناحية

المسجد من الركن الأسود وباب بني مخزوم فيرفض الناس عنها شتى وتثبت عصابة من المسلمين عرفوا أنهم لن يعجزوا الله تعالى فتنتفض عن رأسها التراب فتجلو عن وجوههم حتى كأنهم الكواكب الدرية ، واختلف أيضاً في أنها هل تخلق يوم تخرج أو هي مخلوقة الآن ؟ فقيل : إنها تخلق يوم تخرج ، وقيل : إنها مخلوقة الآن لكن لم تؤمر بالخروج .

واستدل بما روى عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم ، وقال : إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه ، وعليه من يقول : إنها الثعبان ، ومن يقول : إنها الجساسة التي تجسس الأخبار للدجال كما هو المروي عن عبد الله بن العاص ، وزعم بعضهم أنها مخلوقة في عهد الأنبياء المتقدمين عليهم السلام ، فقد أخرج ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن الحسن "أن موسى عليه السلام سأل ربه سبحانه أن يريه الدابة فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن تذهب في السماء لا يرى واحد من طرفيها فرأى عليه السلام منظراً فظيعاً فقال : يا رب ردها فردها ، وجاء في حديث أخرجه نعيم بن حماد في الفتن . والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود أنها إذا خرجت تقتل إبليس عليه اللعنة وهو ساجد وذلك بعد طلوع الشمس من مغربها وتحقق هلاكه عنده ، والأخبار في هذه الدابة كثيرة .

وفي "البحر" أنهم اختلفوا في ماهيتها .

وشكلها .

ومحل خروجها .

وعدد خروجها .

ومقدار ما يخرج منها .

وما تفعل بالناس .

(175/581)

وما الذي تخرج به اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً فاطرحنا ذكره لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح وتضييع لزمان نقله اه ، وهو كلام حق وأنا إنما نقلت بعض ذلك دفعاً لشهوة من يحب الاطلاع على شيء من أخبارها صدقاً كان أو كذباً ، وقد تصدى السفاريني في كتابه البحور الزاهرة للجمع بين بعض هذه الأخبار المتعارضة ولا أظنه أتى بشيء .

ثم إن الأخبار المذكورة أقربها للقبول الخبر الذي حسنه الترمذي ، ومن الأخبار في هذا الباب ما صححه الحاكم وتصحيحه محكوم عليه بين المحدثين بعدم الاعتبار ، وقصارى ما أقول في هذه الدابة أنها دابة عظيمة ذات قوائم ليست من نوع الإنسان أصلاً يخرجها الله تعالى آخر الزمان من الأرض ، وفي تقييد إخراجها بقوله سبحانه : ﴿ مِّنَ الأَرْضِ ﴾ نوع

إشارة على ما قيل : إلى أن خلقها ليس بطريق التوالد بل هو بطريق التولد نحو خلق الحشرات .

وقيل : إنه للإشارة إلى تكونها في جوف الأرض فيكون في إخراجها من الأرض رمز إلى ما يكون في الساعة التي أخرجت هي بين يديها من تشقق الأرض وخروج الناس من جوفها أحياءاً كاملة خلقتهم ، وفي هذا وما قبله ذهاب إلى تعلق ﴿ مّنَ الأرض ﴾ ب ﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ وهو الظاهر الذي ينبغي أن يعول عليه دون كونه متعلقاً بمحذوف وقع صفة لدابة أي دابة كائنة من الأرض .

﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ الناس كَانُوا بآياتنا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ أي تكلمهم بأنهم كانوا لا يتيقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات ، وقيل : بآياته التي من جملتها خروجها بين يدي الساعة وليس بذاك ، وإضافة الآيات إلى نون العظمة لأنها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها .

وقيل : لأنها حكاية منها لقول الله عز وجل ؛ وقيل : لاختصاصها به تعالى وأثرتها عنده سبحانه كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا ، وإنما الخيل والبلاد لمولاه ، وقيل : هناك مضاف محذوف أي بآيات ربنا .

والظاهر أن ضمير الجمع في تكلمهم للكفرة المنكرين للبعث مطلقاً لا للكفرة المحدث عنهم فيما سبق بخصوصهم ضرورة أنهم ليسوا موجودين عند إخراج الدابة لتكلمهم ، وتكليمها إياهم وهم موتى بعيد أو غير معقول ، والرجعة التي يعتقدها الشيعة لا نعتقدها ، والآية الآتية لا تدل كما يزعمون عليها .

ويسهل أمر ذلك أنه ليس مدار الحديث عنهم سوى ما هم عليه من الشرك والكفر بالآيات وإنكار البعث وذلك موجود فيهم وفي الكفرة الموجودين عند إخراج الدابة ، ومثله ضميراً عليهم .

ولهم والمراد بالناس الكفرة الماضون مطلقاً لا مشركو أهل مكة فقط ، والمراد بإخبارها إياهم بذلك التحسر على ما فاتهم من الإيقان بما قرب وقوعه وظهور بطلان ما اعتقدوه فيه ومؤاخذتهم على التكذيب به أشد مؤاخذة ، وفي ذلك استدعاء لأمثالهم إلى ترك ما هم عليه مما شاركوهم به من التذكيب وإنكار البعث ، وجوز أن يراد بالناس مشركو أهل مكة وأمر الأخبار على حاله .

وقيل : يجوز أن تكون الضمائر للناس لا للكفرة منهم خاصة ، ويراد بالناس إما الكفرة المنكرون للبعث ، والمراد بالأخبار التنفير عما كانوا عليه من الإنكار ليثبت المؤمن ويرتدع الكافر ، وإما مشركو أهل مكة والمراد بالأخبار ذلك .

وقيل : المراد به التشنيع عليهم بين أحبائهم وأعدائهم وكان بلسان الدابة ليكون أبلغ لما فيه من ظهور خطئهم عند ما لا يظن إدراكه له فضلاً عن النطق به وإذاعته على سبيل التشنيع ، وكان بين يدي الساعة ليردفه بل كثير فصل ما يشبهه من شهادة الأعضاء عليهم وهي أبعد وقوعاً مع تشنيع الدابة ، وفي وقوعها بعده ما يشبه الترقي من العظيم إلى الأعظم ، وأيد كون الضمائر للناس على الإطلاق وأن المراد بالناس المذكور في النظم الكريم أهل مكة ما روي عن وهب أن الدابة تخبر كل من تراه أن أهل مكة كانوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن لا يوقنون وقيل : ضميراً عليهم .

(177/581)

ولهم لمشركي أهل مكة المحدث عنهم فيما سبق ، ومعنى ﴿ لَهُمْ ﴾ لذمهم أو نحوه ، وضمير ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ للناس الموجودين عند الإخراج أو للكفرة كذلك ، والمراد بالناس المذكور في النظم الكريم أولئك المشركون ، وقيل : غير ذلك ، ولا يخفى عليك بأدنى تأمل ما هو الأول والأظهر في الآية من الأقوال ، وأياً مّا كان فوصف الناس بعدم الإيقان بالآيات مع أنهم كانوا جاحدين لها للإيذان بأنه كان من حقهم أن يوقنوا بها ويقطعوا بصحتها ، وقد اتصفوا بنقيض ذلك وكون التكليم من الكلام هو الظاهر ، ويؤيده قراءة أبي تبنؤهم وقراءة

يحيى بن سلام تحدثهم .

وقيل : هو من الكلم بمعنى الجرح والتفعيل للتكثير ، ويؤيده قراءة ابن عباس .

ومجاه .

وابن جبير .

وأبي زرعة .

والجحدري .

وأبي حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ تكلمنهم ﴾ بفتح التاء وسكون الكاف وتخفيف اللام وقراءة بعضهم تجرحهم وأبي حيوة .

وابن أبي عبلة ﴿ الأرض تُكَلِّمُهُمْ ﴾ بفتح التاء وسكون الكاف وتخفيف اللام وقراءة بعضهم تجرحهم مكان تكلمهم ، وكأنه أريد بالجرح ما هو مقابل التعديل ، ويرجع ذلك إلى معنى التشنيع ورجوع الضمائر عليه على الكفرة المحدث عنهم فيما سبق مما لا غبار عليه ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الناس ﴾ الخ بتقدير بأن الناس ، والمعنى تشنع عليهم بهذا الكلام ، ويراد بالناس فيه أولئك المسنع عليهم ، وظاهر الآية وقوعه في كلامها بهذا اللفظ ، ولعل فهم السامعين كون المراد به مشركي مكة وقت التشنيع بمعونة قرينة تدل على ذلك إذ ذاك ،

ويحتمل أن يكون الواقع فيه بدله مشركي مكة أو نحوه ، لكن جاء في الحكاية بلفظ الناس ، والنكتة فيه على ما قيل : الإيماء إلى كثرتهم .

(178/581)

وقيل : الرمز إلى مزيد قبح عدم الإيقان منهم ، ويعلم مما ذكر وجه العدول عن أنهم إلى ﴿ إِنَّ الناس ﴾ وجوز أن يكون بتقدير حرف التعليل أي لأن الناس الخ ، وهو تعليل من جهته تعالى لجرحها إياهم ، وفيه إقامة الظاهر مقام الضمير الراجع كالضمائر السابقة إلى مشركي مكة ، وجوز أن تقدر الباب على أنها سببية .

وجوز أيضاً أن يكون المراد بالكلم الجرح بمعنى الوسم ، فقد روي أنها تسم جبهة الكافر ، وفي رواية أخرى أنها تحطم أنفه بعصا موسى عليه السلام التي معها ، واختار بعضهم كون المراد به ما ذكر لما في حديث أخرجه نعيم بن حماد .

وابن مردويه عن عمر رضي الله تعالى عنه مرفوعاً ليس ذلك بحديث ولا كلام ولكنه سمة تسم من أمرها الله تعالى ، وسأل أبو الحوراء ابن عباس رضي الله تعالى عنهما هل ما في الآية تكلمهم .

أو تكلمهم ؟ فقال كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر تجرحه ، والظاهر أن الضمائر

على تقدير أن يراد بالكلم الجرح ، والوسم راجعة ءلى الكفرة على الإطلاق دون المحدث عنهم فيما سبق إذ لا معنى لوسمها إياهم ، ويتعين أن يراد بالناس أولئك الكفرة الذين عادت عليهم الضمائر ، ولعل المعنى تسمهم لأنهم كانوا في علمنا بآياتنا لا يوقنون ، وقرأ ابن مسعود بأن وجعلت مؤيدة لكون التكليم من الكلام وهو مبني على الظاهر وإلا فالباء تحتمل أن تكون للسببية فتلائم كونه من الكلم بمعنى الجرح ، وقرأ بعض السبعة إن بكسر الهمزة ، وخرج على إضمار القول .

أو إجراء التكليم من الكلام مجراه ، أو على أن الكلام استئناف مسوق من جهته سبحانه للتعليل فتدبر .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾

(179/581)

بيان إجمالي لحال المكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ، و ﴿ يَوْمٍ ﴾ منصوب بفعل مضمر خوطب به نبينا صلى الله عليه وسلم أي اذكر يوم ، وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مراراً ، والمراد بهذا الحشر الحشر للتوبيخ والعذاب بعد الحسر الكلي الشامل لكافة الخلق وهو المذكور فيما

بعد من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [النمل : 87] إلى آخره ، ولعل تقديم ما تضمن هذا على ما تضمن ذلك دون العكس مع أن الترتيب الوقوعي يقتضيه للإيذان بأن كلاما تضمنه هذا وذاك من الأحوال طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن الكل داهية واحدة قد أمر بذكرها كما مر في سورة البقرة مع أن الأنسي بذكر أن الكفرة لا يوقنون بالآيات المراد به أنهم يكذبون بها أن يذكر بعده ما تضمن التوبيخ منه عز وجل والتعذيب على ذلك التكذيب ، ومن الثانية بيانية جيء بها لبيان ﴿ فَوْجاً ﴾ ، ومن الأولى تبعيضية لأن كل أمة منقسمة إلى مصدق ومكذب ، أي ويوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء عليهم السلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة مكذبة بآياتنا ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة ، وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد أطرافهم ما لا يخفى ، وقيل : ﴿ مِنْ ﴾ الثانية تبعيضية كالأولى ، والمراد بالفوج جماعة من الرؤساء المتبوعين للكفرة ، وعن ابن عباس أبو جهل .

والوليد بن المغيرة .

وشعبة بن ربيعة يشاقون بين يدي أهل مكة .

وهكذا يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم على النار ؛ وهذه الآية من أشهر ما استدل بها الإمامية على الرجعة .

قال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان : واستدل بهذه الآية على صحة الجرعة من ذهب إلى ذلك من الإمامية بأن قال : إن دخول ﴿ مِنْ ﴾ في الكلام يوجب التبعيض فدل بذلك على أنه يحشر قوم دون قوم وليس ذلك صفة يوم القيامة الذي يقول فيه سبحانه ﴿ وحشرناهم فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 47] ، وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد صلى الله عليه وسلم في أن الله تعالى سيعيد عند قيام المهدي قوماً ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقونه من العقاب بالقتل على أيدي شيعته أو الذل والخزي بما يشاهدون من علو كلمته .

ولا يشك عاقل أن هذا مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه وقد فعل الله تعالى ذلك من الأمم الخالية ونطق القرآن بذلك في عدة مواضع مثل قصة عزير وغيره عليه السلام ، وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : " سيكون من أمتي كل ما كان في بني إسرائيل حذو النعمل بالنعمل والقذة حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتموه " ، وتأول جماعة من الإمامية ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهي دون رجوع

الأشخاص وإحياء الأموات ، وأولوا الأخبار الواردة في ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافى التكليف وليس كذلك لأنه ليس فيها ما يلجىء إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح ، والتكليف يصح معها كما يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا ثعباناً وما أشبه ذلك ولأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة فيتطرق التأويل عليها ، وإنما المعول في ذلك إجماع الشيعة الإمامية وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيده انتهى .

(181/581)

وأقول : أول من قال بالرجعة عبد الله بن سبأ ولكن خصها بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وتبعه جابر الجعفي في أول المائة الثانية فقال برجعة الأمير كرم الله تعالى وجهه أيضاً لكن لم يوقتها بوقت ، ولما أتى القرن الثالث ثرر أهله من الإمامية رجعة الأئمة كلهم وأعدائهم وعينوا لذلك وقت ظهور المهدي ، واستدلوا على ذلك بما رووه عن أئمة أهل البيت ، والزيدية كافة منكرون لهذه الدعوى إنكاراً شديداً ، وقد ردّوها في كتبهم على وجه مستوفى بروايات عن أئمة أهل البيت أيضاً تعارض روايات الإمامية ، والآيات المذكورة هنا لا تدل على الرجعة حسبما يزعمون ولا أظن أن أحداً منهم يزعم دلالتها على ذلك ،

بل قصارى ما يقول : إنها تدل على رجعة المكذبين أو رؤسائهم فتكون دالة على أصل الرجعة وصحتها لا على الرجعة بالكيفية التي يذكرونها ، وفي كلام الطبري ما يشير إلى هذا .

وأنت تعلم أنه لا يكاد يصح إرادة الرجعة إلى الدنيا من الآية لافادتها أن الحشر المذكور لتوبيخ المكذبين وتقريعهم من جهته عز وجل بل ظاهر ما بعد يقتضي أنه تعالى بذاته يوبخهم ويقرعهم على تكذيبهم بآياته سبحانه ، والمعروف من الآيات لمثل ذلك هو يوم القيامة مع أنها تفيد أيضاً وقوع العذاب عليهم واشتغالهم به عن الجواب ولم تفد موتهم ورجوعهم إلى ما هو أشد منه وأبقى وهو عذاب الآخرة الذي يقتضيه عظم جنايتهم ، فالظاهر استمرار حياتهم وعذابهم بعد هذا الحشر ، ولا يتسنى ذلك إلا إذا كان حشر يوم القيامة ، وربما يقال أيضاً : مما يأبى حمل الحشر المذكور على الرجعة أن فيه راحة لهم في الجملة حيث يفوت به ما كانوا فيه من عذاب البرزخ الذي هو للمكذبين كيفما كان أشد من عذاب الدنيا ، وفي ذلك إهمال لما يقتضيه عظم الجناية ، وأيضاً كيف تصح إرادة الرجعة منها ، وفي الآيات ما يأبي ذلك ، منه قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ ارجعون لَعَلِّي أَعْمَلُ صالحا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : 99 ، 100] فإن آخر الآية ظاهر في عدم الرجعة مطلقاً وكون الإحياء بعد الإماتة والإرجاع إلى الدنيا من الأمور المقدورة له عز وجل مما لا ينتطح فيه كبشان إلا أن الكلام في وقوعه وأهل السنة ومن وافقهم لا يقولون به ويمنعون إرادته من الآية ويستندون في ذلك إلى آيات كثيرة ، والأخبار التي روتها الإمامية في هذا الباب قد كفتنا الزيدية مؤنة ردها ، على أن الطبرسي أشار إلى أنها ليست أدلة وأن التعويل ليس عليها ، وإنما الدليل إجماعي الإمامية والتعويل ليس إلا عليه ، وأنت تعلم أن مدار حجية الإجماع على المختار عندهم حصول الجزم بموافقة المعصوم ولم يحصل للسنى هذا الجزم من إجماعهم هذا فلا ينتهض ذلك حجة عليه مع أن له إجماعاً يخالفه وهو إجماع قومه على عدم الرجعة الكاشف عما عليه سيد المعصومين صلى الله عليه وسلم ، وكل ما تقوله الإمامية في هذا الإجماع يقول السنى مثله في إجماعهم ، وما ذكر من قوله صلى الله عليه وسلم : "سيكون في أمتي" الحديث لا تعلم صحته بهذا اللفظ بل الظاهر عدم صحته فإنه كان في بني إسرائيل ما لم يذكر أحد أنه يكون في هذه الأمة كنتق الجبل عليهم حين امتنعوا عن أخذ ما آتاهم الله تعالى من الكتاب والبقاء في التيه أربعين سنة قالوا لموسى عليه السلام : ﴿ اذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هاهنا قاعدون ﴾ [المائدة : 24] ونزول المن والسلوى عليهم فيه إلى غير ذلك .

وبالجملة القول بالرجعة تزعم الإمامية مما لا ينتهض عليه دليل ، وكم من آية في القرآن الكريم تأباه غير قابلة للتأويل ، وكأن ظلمة بغضهم للصحابة رضي الله تعالى عنهم حالت بينهم وبين أن يحيطوا علماً بتلك الآيات فوقعوا فيما وقعوا فيه من الضلالات .

(183/581)

﴿ حتى إِذَا جَاءوا ﴾ إلى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب ﴿ قَالَ ﴾ أي الله عز وجل موبخاً لهم على التكذيب لا سائلاً سبحانه وتعالى سؤال استفسار لاستحالته منه عز وجل ، وعدم وقوع الاستفسار عن الذنب يوم القيامة من غيره تعالى من الملائكة عليهم السلام وان كان ممكناً على ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [الرحمن : 39] على أحد التفسيرين ، والالتفات لتربية المهابة ﴿ أَكَذَّبْتُم ﴾ الناطقة بلقاء يومكم هذا ، وقوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ، ومؤكدة للإنكار والتوبيخ أي أكذبتم بها بادي الرأي غير ناظرين فيها نظراً يؤدي إلى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتماً ، وهذا على ما قيل : ظاهر في أن المراد بالآيات فيما تقدم الآيات التنزيلية لأنها المنطوية على دلائل الصحة وشواهدها التي لم يحيطوا بها علماً مع وجوب أن يتأملوا

ويتدبروا فيها لا نفس الساعة وما فيها .

وقال بعض الأجلة : إن التكذيب يأبى بظاهره أن يراد بالآيات الآيات التكوينية كالمعجزات ونحوها إذ ليس فيها نسبة يتعلق بها ذلك ، وإرادة الأعم تستدعي اعتبار التغليب وكون التكذيب بمعنى نفي دلالتها على المراد منها كتصديق النبي صلى الله عليه وسلم في المعجزات ونحوه في نحوها من آيات الأنفس والآفاق خلاف الظاهر ، فالأولى إبقاؤه على الظاهر وحمل الآيات على الآيات التنزيلية ، وقيل : هو معطوف على كذبتم والهمزة لإنكار الجمع والتوبيخ عليه كأنه قيل : أجمعتم بين التكذيب بآياتي وعدم التدبر فيها .

(184/581)

﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي أم ماذا كنتم تعملون بها على أن المراد التبكيت وأنهم لم يعملوا إلا التكذيب وهو أحد وجهين ذكرهما الزمخشري ، وقرره في الكشف بأن ﴿ أَمْ ﴾ متصلة ، والأصل أكذبتم بآياتي أم صدقتم ، والمعادلة بين الفعلين المتعلقين بالآيات لكن جيء بالأول مجيء معلوم محقق ، وبالثاني لا على ذلك النهج تنبيهاً على انتفائه كأنه قيل : أهو ما عهد من التكذيب أم حدث حادث ، ووجه الدلالة أنه جعل العديل مردداً فيه فلم يجعل التصديق مثل التكذيب في الاستفهام عن حاله بل إنما شك في وجود معادل التكذيب

لأن قوله تعالى : ﴿ أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يشمل التكذيب المذكور أولاً وعديله الحقيقي ، وهذه قرينة أنه لم يجأ بالاستفهام جهلاً بالحال بل إنما أريد التبكيت والإلزام على معنى قل لي ويحك إن حدث أمر آخر بتّاً بالقول بأنه لم يحدث ما يضاد الأول وإشعاراً بأنه إذا سئل عن الذي عمله لم يجب إلا بما قدم أولا ، ثم قال : وهذا وجه لائح ، وإنما جاز دخول ﴿ أَمْ ﴾ على ﴿ مَا ﴾ الاستفهامية لهذه النكتة فإنها خرجت عن حقيقة الاستفهام إلى البت بالحكم لا بالمعادل بل بالأول ، وثانيهما أن المعنى ما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله تعالى : ﴿ أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من غير ذلك ، وقرره في الكشف أيضاً بأن ﴿ أَمْ ﴾ على اتصالها ولكن المعادلة بين التكذيب وكل عمل غيره تعلق بالآيات أولاً والإيراد على صيغة الاستفهام للنكتة السابقة فدل على أنه لم يكن لهم عمل إلا التكذيب والكفر كأنهم لم يخلقوا إلا لذلك فلأجله لم يعملوا غيرهر ، وجعل سائر أعمالهم لاستمرار الكفر بهم نفس الكفر أو كلا عمل ، ثم قال : وهذا وجه وجيه بالغ ، ومنه ظهر أن دخول ﴿ أَمْ ﴾ على أسماء الاستفهام غير منكر إذا خرجت عن حقيقة الاستفهام وهو مقاس معنى وإن كانت مراعاة صورة الاستفهام أيضاً منقاسة من حيث اللفظ لكنهم يرجحون في

نحوه جانب المعنى ولا يلتفتون لفت اللفظ اه .

واختار أبو حيان كون ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة فتقدر ببل وحدها وهي للانتقال من توبيخ إلى توبيخ وليس في ذلك شائبة من دخول الاستفهام على الاستفهام ، وما تقدم أبعد مغزى ، و ﴿ مَاذَا ﴾ تحتمل أن تكون بجملتها استفهاماً منصوب المحل بخبر كان وهو ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ أو مرفوعه على الابتداء والجملة بعده خبره والرابط محذوف أي تعملونه ، وتحتمل أن تكون ﴿ مَا ﴾ فيها استفهاماً ، و ﴿ ذَا ﴾ اسم موصول بمعنى الذي ، وهما مبتدأ وخبر والجملة بعد صلة الموصول والعائد إليه محذوف .

وقرأ أبو حيوة أما ذا بتخفيف الميم وفيها دخول الاستفهام على الاستفهام ، وقد سمعت وجهه .

﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ حل بهم العذاب الذي هو مدلول القول الناطق بحلوله وهو كبهم في النار ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ أي بسبب ظلمهم الذي هو تكذيبهم بآيات الله تعالى : ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ بحجة لانتفائها عنهم بالكلية وابتلائهم بما حل بهم من العذاب الأليم ، وقيل : يختم على أفواههم فلا يقدرون على النطق بشيء أصلا .

وفي البحر أن انتفاء نطقهم يكون من موطن من مواطن القيامة أو من فريق من الناس لأن القرآن الكريم ناطق بأنهم ينطقون في بعض المواطن بأعذار وما يرجون به النجاة من النار .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾

الرؤية قلبية لا بصرية لأن نفس الليل والنهار وإن كانا من المبصرات لكن جعلهما كما ذكر من قبيل المعقولات أي ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الاظلام ليستريحوا فيه بالقرار والنوم ، قال بعض الرجاز :

النوم راحة القوى الحسية . . .

من حركات والقوى النفسية

(186/581)

﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب في أمور معاشهم فبولغ حيث جعل الأبصار الذي هو حال الناس حالاله ووصفاً من أوصافه التي جعل عليها بحيث لا ينفك عنها ، ولم يسلك في الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل في السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار في الأبصار ، والمشهور أن في الآية صنعة الاحتباك والتقدير جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه والنهار مبصراً لينتشروا فيه ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ أي في جعلهما كما وصفا وما في اسم الإشارة من معنى البعد للأشعار ببعد درجته في الفضل ﴿ لآيات ﴾ عظيمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنه يدل على التوحيد وتجويز الحشر وبعث الرسل عليهم

السلام لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهرة ليست لما أشركه المشركون ، وأن من قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحد قدر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان ، وأن من جعل الليل والنهار سببين لمنافعهم ومصالحهم لعله لا يخل بما هو مناط جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم وهو بعثة الرسل عليهم السلام .

وفي إرشاد العقل السليم لآيات عظيمة كثيرة لقوم يؤمنون دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وأن من تأمل في تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة مبنية على حكم رائقة تحار في فهمها العقول ولا يحيط بها إلا علم الله جل وعلا وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل ما الحاكية للموت بضياء النهار المضاهى للحياة وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالانتباع الذي هو مثل الحياة قضي بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله تعالى يبعث من في القبور قضاءاً متقناً وجزم بأنه تعالى قد جعل هذا أنموذجاً له ودليلاً يستدل به على تحققه ، وأن الآيات الناطقة به وبكون حال الليل والنهار برهاناً عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى اه .

(187/581)

ولعل الأول أولى لا سيما إذا ضم إلى الاستدلال على جواز الحشر مشابهة النوم واليقظة للموت والحياة لما في هذا من خفاء الدلالة ، وتخصيص المؤمنين بالذكر لما أنهم هم المنتفعون بالآيات ، ووجه ربط هذه الآية بما قبلها أنها كالدليل على صحة ما تضمنته من الحشر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(188/581)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

لما ذكر سبحانه أن المشركين في شكّ من البعث ، وأنهم عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبين غاية شبههم ، وهي مجرّد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم تراباً ، فقال : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَءَابَاؤُنَا أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ .

والعامل في " إذا " محذوف دلّ عليه ﴿ مخرجون ﴾ تقديره : أنبعث ، أو نخرج إذا كنا ، وإنما لم يعمل فيه مخرجون لتوسط همزة الاستفهام ، وإنّ ولام الابتداء بينهما .

قرأ أبو عمرو باستفهامين إلاّ أنه خفف الهمزة .

وقرأ عاصم ، وحمزة باستفهامين ، إلاّ أنهما حققا الهمزتين .

وقرأ نافع بهمزة.

وقرأ ابن عامر وورش ويعقوب ﴿ أإذا ﴾ بهمزتين و ﴿ إننا ﴾ بنونين على الخبر، ورجح أبو عبيد قراءة نافع، وردّ على من جمع بين استفهامين؛ ومعنى الآية: أنهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد أن قد صاروا تراباً، ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث، فقالوا: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا ﴾ يعنون: البعث ﴿ نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل وعد محمد لنا، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الإنكار مصدّرة بالقسم لزيادة التقرير ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ الوعد بالبعث ﴿ إِلاَّ أَساطير الأولين ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة، وقد تقدّم تحقيق معنى الأساطير في سورة المؤمنون.

ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث.

فأمرهم بالنظر في أحوال الأمم السابقة المكذبة للأنبياء وما عوقبوا به، وكيف كانت عاقبتهم، فقال: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة المكذبين ﴾ بما جاءت به الأنبياء من الإخبار بالبعث، ومعنى النظر هو: مشاهدة آثارهم بالبصر فإن في المشاهدة زيادة اعتبار.

وقيل : المعنى : فانظروا بقلوبكم ، وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم ، والأوّل أولى لأمرهم بالسير في الأرض ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لما وقع منهم من الإصرار على الكفر ﴿ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ ﴾ الضيق : الحرج ، يقال : ضاق الشيء ضيقاً بالفتح ، وضيقاً بالكسر قرىء بهما ، وهما لغتان .

قال ابن السكيت : يقال : في صدر فلان ضيق وضيق ، وهو ما تضيق عنه الصدور .

وقد تقدّم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي بالعذاب الذي تعدنا به ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في ذلك .

﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ يقال : ردفت الرجل ، وأردفته : إذا ركبت خلفه ، وردفه : إذا أتبعه ، وجاء في أثره ، والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعكم ، ولحقكم ، فتكون اللام زائدة للتأكيد ، أو بمعنى : اقترب لكم ، ودنا لكم ، فتكون غير زائدة .

قال ابن شجرة : معنى ردف لكم : تبعكم ، قال : ومنه ردف المرأة ؛ لأنه تبع لها من خلفها ، ومنه قول أبي ذؤيب :

عاد السواد بياضاً في مفارقه . . . لا مرحباً ببياض الشيب إذ ردفا

قال الجوهري : وأردفه لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى .

قال خزيمة بن مالك بن نهد :

إذا الجوزاء أردفت الثريا . . . ظننت بآل فاطمة الظنونا

قال الفراء : ردف لكم دنا لكم ، ولهذا قيل : لكم .

وقرأ الأعرج : " ردف لكم " بفتح الدال ، وهي لغة ، والكسر أشهر .

وقرأ ابن عباس " أزف لكم " وارتفاع ﴿ بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أي على أنه فاعل ردف ، والمراد : بعض الذي تستعجلونه من العذاب أي عسى أن يكون قد قرب ودنا وأزف بعض ذلك ، قيل : هو عذابهم بالقتل يوم بدر ، وقيل : هو عذاب القبر .

(190/581)

ثم ذكر سبحانه فضله في تأخير العذاب ، فقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ في تأخير العقوبة ، والأولى أن تحمل الآية على العموم ، ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ فضله وإنعامه ولا يعرفون حق إحسانه .

ثم بين أنه مطلع على ما في صدورهم ، فقال : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي ما تخفيه .

قرأ الجمهور : ﴿ تكن ﴾ بضم التاء من أكنّ .

وقرأ ابن محيصن وابن السميفع وحميد بفتح التاء وضم الكاف ، يقال : كننته بمعنى سترته وخفيت أثره ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وما يظهرون من أقوالهم وأفعالهم .

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السماء والأرض إِلاَّ فِي كتاب مُّبِينٍ ﴾ قال المفسرون : ما من شيء غائب ، وأمر يغيب عن الخلق في السماء والأرض إلاّ في كتاب مبين إلاّ هو مبين في اللوح المحفوظ ، وغائبة هي من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة .

قال الحسن : الغائبة هنا هي : القيامة .

وقال مقاتل : علم ما تستعجلون من العذاب هو مبين عند الله وإن غاب عن الخلق .

وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه ، وغيبه عنهم مبين في أمّ الكتاب ، فكيف يخفى عليه شيء من ذلك ؟ ومن جملة ذلك ما يستعجلونه من العذاب فإنه موقت بوقت ، ومؤجل بأجل علمه عند الله فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له ؟

﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِي إسراءيل أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وذلك لأن أهل الكتاب تفرّقوا فرقاً ، وتحزّبوا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض ، ويتبرأ بعضهم من بعض ، فنزل القرآن مبيناً لما اختلفوا فيه من الحق ، فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرّقهم .

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وإنّ القرآن لهدى ورحمة لمن آمن بالله ، وتابع رسوله ، وخصّ المؤمنين ؛ لأنهم المنتفعون به ، ومن جملتهم من آمن من بني إسرائيل .

﴿ إِن رَّبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ﴾ أي يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بما يحكم به من الحق ، فيجازي المحق ويعاقب المبطل ، وقيل : يقضي بينهم في الدنيا ، فيظهر ما حرّفوه .

قرأ الجمهور : ﴿ بحكمه ﴾ بضم الحاء وسكون الكاف .

وقرأ جناح بكسرها وفتح الكاف جمع حكمة ﴿ وَهُوَ العزيز العليم ﴾ العزيز : الذي لا يغالب ، والعليم بما يحكم به ، أو الكثير العلم .

ثم أمره سبحانه بالتوكل وقلة المبالاة ، فقال : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ والفاء لترتيب الأمر على ما تقدّم ذكره ، والمعنى : فوّض إليه أمرك ، واعتمد عليه فإنه ناصرك .

ثم علل ذلك بعلتين : الأولى : قوله ﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ أي الظاهر ، وقيل : المظهر .

والعلة الثانية : قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ لأنه إذا علم أن حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع ، أو كحال الصمّ الذين لا يسمعون ، ولا يفهمون ، ولا يهتدون صار ذلك سبباً قوياً في عدم الاعتداد بهم ، شبه الكفار بالموتى الذين لا حسّ لهم ولا عقل ، وبالصمّ الذين لا يسمعون المواعظ ، ولا يجيبون الدعاء إلى الله .

ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيده ، فقال : ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ أي إذا أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً ، فإن الأصمّ لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مدبراً .

وظاهر نفي إسماع الموتى العموم ، فلا يخصّ منه إلاّ ما ورد بدليل كما ثبت في الصحيح : أنه صلى الله عليه وسلم خاطب القتلى في قليب بدر ، فقيل له : يا رسول الله إنما تكلم أجساداً لا أرواح لها ، وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له إذا انصرفوا .

وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق : "لا يسمع" بالتحتية مفتوحة ، وفتح الميم ، وفاعله الصمّ .

وقرأ الباقون : ﴿ تسمع ﴾ بضم الفوقية ، وكسر الميم من أسمع .

(192/581)

قال قتادة : الأصمّ إذا ولى مدبراً ، ثم ناديته لم يسمع ، كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان .

ثم ضرب العمى مثلاً لهم ، فقال : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضلالتهم ﴾ أي ما أنت

بمرشد من أعماه الله عن الحق إرشاداً يوصله إلى المطلوب منه وهو الإيمان ، وليس في وسعك ذلك ، ومثله قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : 56] قرأ الجمهور بإضافة هادي إلى العمي .

وقرأ يحيى بن الحارث ، وأبو حيان : " بهاد العمي " بتنوين هادٍ .

وقرأ حمزة : " تهدي " فعلاً مضارعاً ، وفي حرف عبد الله : " وما أن تهدي العمي " .

﴿ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أي ما تسمع إلاّ من يؤمن لا من يكفر ، والمراد بمن يؤمن بالآيات : من يصدّق القرآن ، وجملة : ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ تعليل للإيمان ، أي فهم منقادون مخلصون .

ثم هدّد العباد بذكر طرف من أشراط الساعة وأهوالها : فقال : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ .

واختلف في معنى وقوع القول عليهم ، فقال قتادة : وجب الغضب عليهم .

وقال مجاهد : حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقيل : حق العذاب عليهم ، وقيل : وجب السخط ، والمعاني متقاربة .

وقيل : المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجيء الساعة وما فيها من فنون الأهوال التي كانوا يستعجلونها ، وقيل : وقع القول بموت العلماء ، وذهاب العلم .

وقيل : إذا لم يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر .

والحاصل أن المراد بوقع : وجب ، والمراد بالقول : مضمونه ، أو أطلق المصدر على المفعول أي القول ، وجواب الشرط : ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ .

واختلف في هذه الدابة على أقوال ، فقيل : إنها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب القيامة ويكون من أشراط الساعة .

وقيل : هي دابة ذات شعر ، وقوائم طوال يقال لها : الجساسة .

وقيل : هي دابة على خلقة بني آدم ، وهي في السحاب ، وقوائمها في الأرض .

(193/581)

وقيل : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن إيّل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعاً .

وقيل : هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة ، والمراد : أنها هي التي تخرج في آخر الزمان ، وقيل : هي دابة ما لها ذنب ولها لحية ، وقيل : هي إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع ويراجع الكفار .

وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره ، وقد رجح القول الأوّل القرطبي في تفسيره .

واختلف من أيّ موضع تخرج؟ فقيل : من جبل الصفا بمكة ، وقيل : تخرج من جبل أبي قبيس .

وقيل : لها ثلاث خرجات : خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس ، وتكثر الدماء ثم تكمن ، وتخرج في القرى ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها .

وقيل : تخرج من بين الركن والمقام .

وقيل : تخرج في تهامة .

وقيل : من مسجد الكوفة من حيث فار التنور .

وقيل من أرض الطائف .

وقيل : من صخرة من شعب أجياد .

وقيل : من صدع في الكعبة .

واختلف في معنى قوله : ﴿ تكلمهم ﴾ فقيل : تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام .

وقيل : تكلمهم بما يسوؤهم .

وقيل : تكلمهم بقوله تعالى : ﴿ أَنَّ الناس كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ أي بخروجها ؛ لأن خروجها من الآيات .

قرأ الجمهور : ﴿ تكلمهم ﴾ من التكليم ، ويدلّ عليه قراءة أبيّ : " تنبئهم " ، وقرأ ابن

عباس وأبو زرعة وأبو رجاء والحسن : " تكلمهم " بفتح الفوقية ، وسكون الكاف من الكلم ، وهو الجرح .

قال عكرمة : أي تسمهم وسماً ، وقيل : تجرحهم .

وقيل : إن قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم بفتح الكاف ، وسكون اللام ، وهو الجرح ، والتشديد للتكثير ، قاله أبو حاتم .

(194/581)

قرأ الجمهور : " إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون " بكسر إن على الاستئناف ، وقرأ الكوفيون وابن أبي إسحاق بفتح "أن" .

قال الأخفش : المعنى على قراءة الفتح : " بأن الناس " .

وكذا قرأ ابن مسعود : " بأن الناس " بالباء .

وقال أبو عبيد : موضعها نصب بوقوع الفعل عليها أي : تخبرهم أن الناس ، وعلى هذه القراءة فالذي تكلم الناس به هو قوله : ﴿ أَنَّ الناس كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ كما قدّمنا الإشارة إلى ذلك .

وأما على قراءة الكسر فالجملة مستأنفة كما قدّمنا ، ولا تكون من كلام الدابة .

وقد صرّح بذلك جماعة من المفسرين ، وجزم به الكسائي والفراء .

وقال الأخفش : إن كسر "إن" هو على تقدير القول أي تقول لهم : " إِنَّ الناس " إلخ ، فيرجع معنى القراءة الأولى على هذا إلى معنى القراءة الثانية ، والمراد بالناس في الآية : هم الناس على العموم ، فيدخل في ذلك كل مكلف ، وقيل : المراد الكفار خاصة ، وقيل : كفار مكة ، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ قال : اقترب لكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قال : يعلم ما عملوا بالليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ ﴾ الآية يقول : ما من شيء في السماء والأرض سرًّا ولا علانية إلا يعلمه .

وأخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة ، ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر في قوله : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ الآية قال : إذا لم يأمروا بمعروف ، ولم ينهوا عن منكر .

وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي العالية : أنه فسر ﴿ وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ بما أوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ دَابَّةً مِّنَ الأرض تُكَلِّمُهُمْ ﴾ قال : تحدّثهم .

وأخرج ابن جرير عنه قال : كلامها : تنبئهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي داود نفيع الأعمى قال : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ يعني : هل هو من التكليم باللسان ، أو من الكلم ، وهو الجرح؟ فقال : كل ذلك ، والله تفعل ، تكلم المؤمن وتكلم الكافر أي تجرحه .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس ذلك حديثاً ، ولا كلاماً ، ولكنها سمة تسم من أمرها الله به ، فيكون خروجها من الصفا ليلة منى ، فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ، ولا يجرح جارح ، حتى إذا فرغت مما أمرها الله به فهلك من هلك ، ونجا من نجا ، كان أوّل خطوة تضعها بإنطاكية "

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : الدابة ذات وبر وريش ، مؤلفة فيها من كل لون ، لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابة ، فيقال له : ممن اشتريتها ؟ فيقول : من الرجل المخطم " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس : " إن للدابة ثلاث خرجات " ؛ وذكر نحو ما قدّمنا .

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد رفعه قال : " تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة " وأخرج سعيد بن منصور ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : تخرج من بعض أودية تهامة .

(196/581)

وأخرج الطيالسي وأحمد ونعيم بن حماد والترمذي وحسنه ، وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم ، وتخطم أنف الكافر بالعصا ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر " ، وأخرج الطيالسي ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقي في البعث عن حذيفة بن أسيد

الغفاريّ قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة ، فقال : " لها ثلاث خرجات من الدهر " وذكر نحو ما قدّمنا في حديث طويل .

وفي صفتها ومكان خروجها وما تصنعه ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح ، وبعضها حسن ، وبعضها ضعيف .

وأما كونها تخرج ، وكونها من علامات الساعة ، فالأحاديث الواردة في ذلك صحيحة .

ومنها ما هو ثابت في الصحيح كحديث حذيفة مرفوعاً : " لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات " وذكر منها الدابة فإنه في صحيح مسلم وفي السنن الأربعة ، وكحديث : " بادروا بالأعمال قبل طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، والدابة " فإنه في صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، وكحديث ابن عمر مرفوعاً : " إن أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى " فإنه في صحيح مسلم أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(197/581)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾

هذا انتقال إلى التذكير بالقيامة وما ادخر لهم من الوعيد .

فهذه الجملة معطوفة على الجمل قبلها عطف قصة على قصة .

ومناسبة ذكرها ما تقدم من قوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ إلى قوله ﴿ عن ضلالتهم ﴾ [النمل : 80 ، 81] .

والضمير عائد إلى الموتى والصم والعمي وهم المشركون .

و ﴿ القول ﴾ أريد به أخبار الوعيد التي كذبوها متهكمين باستبطاء وقوعها بقولهم ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [النمل : 71] ، فالتعريف فيه للعهد يفسره المقام .

والوقوع مستعار لحلول وقته وذلك من وقت تهيؤ العالم للفناء إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

والآية تشير إلى شيء من أشراط حلول الوعيد الذي أنذروا به وهو الوعيد الأكبر يعني وعيد البعث ، فتشير إلى شيء من أشراط الساعة وهو من خوارق العادات .

والتعبير عن وقوعه بصيغة الماضي لتقريب زمن الحال من المضي ، أي أشرف وقوعه ، على أن فعل المضي مع (إذا) ينقلب إلى الاستقبال .

والدابة : اسم للحي من غير الإنسان ، مشتق من الدبيب ، وهو المشي على الأرض وهو من خصائص الأحياء .

وتقدم الكلام على لفظ ﴿ دابة ﴾ في سورة الأنعام (38) .

وقد رويت في وصف هذه الدابة ووقت خروجها ومكانه أخبار مضطربة ضعيفة الأسانيد فانظرها في "تفسير القرطبي" وغيره إذ لا طائل في جلبها ونقدها .

وإخراج الدابة من الأرض ليريهم كيف يحي الله الموتى إذ كانوا قد أنكروا البعث .

ولا شك أن كلامها لهم خطاب لهم بحلول الحشر .

وإنما خلق الله الكلام لهم على لسان دابة تحقيراً لهم وتنديماً على إعراضهم عن قبول أبلغ كلام وأوقعه من أشرف إنسان وأفصحه ، ليكون لهم خزياً في آخر الدهر يعيرون به في المحشر .

فيقال : هؤلاء الذين أعرضوا عن كلام رسول كريم فخوطبوا على لسان حيوان بهيم .

(198/581)

على نحو ما قيل : استفادة القابل من المبدإ تتوقف على المناسبة بينهما .

وجملة ﴿ إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ تعليل لإظهار هذا الخارق للعادة حيث لم يوقن المشركون بآيات القرآن فجعل ذلك إلجاء لهم حين لا ينفعهم .

وقرأ الجمهور ﴿ إن الناس ﴾ بكسر همزة (إن) ، وموقع (إن) في مثل هذا التعليل .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ أن الناس ﴾ بفتح الهمزة وهي أيضاً للتعليل لأن فتح

همزة (أن) يؤذن بتقدير حرف جر وهو باء السببية ، أي تكلمهم بحاصل هذا وهو المصدر .

والمعنى : أنها تسجل على الناس وهم المشركون عدم تصديقهم بآيات الله .

وهو تسجيل توبيخ وتنديم لأنهم حينئذ قد وقع القول عليهم ف ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ [الأنعام : 158] .

وحمل هذه الجملة على أن تكون حكاية لما تكلمهم به الدابة بعيد .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

انتصب ﴿ يوم ﴾ على تقدير (اذكر) فهو مفعول به ، أو على أنه ظرف متعلق بقوله ﴿ قال أكذبتم ﴾ مقدم عليه للاهتمام به .

وهذا حشر خاص بعد حشر جميع الخلق المذكور في قوله تعالى بعد هذا ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض ﴾ [النمل : 87] وهو في معنى قوله تعالى ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ [يس : 59] فيحشر من كل أمة مكذبو رسولها .

والفوج : الجماعة من الناس .

و ﴿ من ﴾ الداخلة على ﴿ كل أمة ﴾ تبعيضية وأما (من) الداخلة على ﴿ من يكذب ﴾ فيجوز جعلها بيانية فيكون فوج كل أمة هو جماعة المكذبين منها ، أي يحشر من الأمة كفارها ويبقى صالحوها .

ويجوز جعل (من) هذه تبعيضية أيضاً بأن يكون المعنى إخراج فوج من المكذبين من كل أمة .

وهذا الفوج هو زعماء المكذبين وأيمتهم فيكونون في الرعيل الأول إلى العذاب .

(199/581)

وهذا قول ابن عباس إذ قال : مثل أبي جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة ، وكذلك يساق أمام كل طائفة زعماؤها .

وتقدم تفسير ﴿ فهم يوزعون ﴾ في قصة سليمان من هذه السورة (17) .

والمعنى هنا : أنهم يزجرون إغلاظاً عليهم كما يفعل بالأسرى .

والقول في ﴿ حتى إذا جاءو ﴾ كالقول في ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ﴾ [النمل : 18] ولم يذكر الموضع الذي جاءوه لظهوره وهو مكان العذاب ، أي جهنم كما قال في الآية ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ [فصلت : 20] .

و﴿ حتى ﴾ في ﴿ حتى إذا جاءو ﴾ ابتدائية .

و﴿ إذا ﴾ الواقعة بعد ﴿ حتى ﴾ ظرفية والمعنى : حتى حين جاءوا .

وفعل ﴿ قال أكذبتم بآياتي ﴾ هو صدر الجملة في التقدير وما قبله مقدم من تأخير

للاهتمام .

والتقدير : وقال أكذبتم بآياتي يوم نحشر من كل أمة فوجاً وحين جاءوا .

وفي ﴿ قال ﴾ التفات من التكلم إلى الغيبة .

وقوله ﴿ أكذبتم بآياتي ﴾ قول صادر من جانب الله تعالى يسمعونه أو يبلغهم إياه الملائكة .

والاستفهام يجوز أن يكون توبيخياً مستعملاً في لازمه وهو الإلجاء إلى الاعتراف بأن المستفهم عنه واقع منهم تبكيتاً لهم ، ولهذا عطف عليه قوله ﴿ أم ماذا كنتم تعملون ﴾ .

j فحرف ﴿ أم ﴾ فيه بمعنى (بل) للانتقال ومعادل همزة الاستفهام المقدرة محذوف دل عليه قوله ﴿ ماذا كنتم تعملون ﴾ .

والتقدير : أكذبتم بآياتي أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم تكذبوا فإنكم لم توقنوا فماذا كنتم تعملون في مدة تكرير دعوتكم إلى الإسلام .

ومن هنا حصل الإلجاء إلى الاعتراف بأنهم كذبوا .

ومن لطائف البلاغة أنه جاء بالمعادل الأول مصرحاً به لأنه المحقق منهم فقال ﴿ أكذبتم بآياتي ﴾ وحذف معادله الآخر تنبيهاً على انتفائه كأنه قيل : أهو ما عهد منكم من التكذيب أم حدث حادث آخر ، فجعل هذا المعادل متردداً فيه ، وانتقل الكلام إلى

استفهام.

وهذا تبكيت لهم.

(200/581)

قال في الكشاف" : "ومثاله أن تقول لراعيك وقد علمت أنه راعي سوء : أتأكل نعمي أم ماذا تعمل بها ، فتجعل ما ابتدأت به وجعلته أساس كلامك هو الذي صح عندك من أكله وفساده وترمي بقولك : أم ماذا تعمل بها ، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبهته.

ويجوز أن يكون الاستفهام تقريرياً وتكون ﴿ أم ﴾ متصلة وما بعدها هو معادل الاستفهام باعتبار المعنى كأنه قيل : أكذبتم أم لم تكذبوا فماذا كنتم تعملون إن لم تكذبوا فإنكم لم تتبعوا آياتي".

وجملة ﴿ ولم تحيطوا بها علماً ﴾ في موضع الحال ، أي كذبتم دون أن تحيطوا علماً بدلالة الآيات.

وانتصب ﴿ علماً ﴾ على أنه تمييز نسبة ﴿ تحيطوا ﴾ ، أي لم يحط علمكم بها ، فعدل عن إسناد الإحاطة إلى العلم إلى إسنادها إلى ذوات المخاطبين ليقع تأكيد الكلام بالإجمال في الإسناد ثم التفصيل بالتمييز.

وإحاطة العلم بالآيات مستعملة في تمكن العلم حتى كأنه ظرف محيط بها وهذا تعيير لهم وتوبيخ بأنهم كذبوا بالآيات قبل التدبر فيها .

و ﴿ ماذا ﴾ استفهام واسم إشارة وهو بمعنى اسم الموصول إذا وقع بعد (ما) .

والمشار إليه هو مضمون الجملة بعده في قوله ﴿ كنتم تعملون ﴾ .

ولكون المشار إليه في مثل هذا هو الجملة صار اسم الإشارة بعد الاستفهام في قوة موصول فكأنه قيل : ما الذي كنتم تعملون ؟ فذلك معنى قول النحويين : إن (ذا) بعد (ما) و (من) الاستفهاميتين يكون بمعنى (ما) الموصولة فهو بيان معنىً لا بيان وضع .

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85)

يجوز أن يكون الواو للحال ، والمعنى : يقال لهم أكذبتم بآياتي وقد وقع القول عليهم .

وهذا القول هو القول السابق في آية ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ [النمل : 82] فإن ذلك القول مشتمل على حوادث كثيرة فكلما تحقق شيء منها فقد وقع القول .

(201/581)

والتعبير بالماضي في قوله ﴿ وقع ﴾ هنا على حقيقته ، وأعيد ذكره تعظيماً لهوله ويجوز أن تكون الواو عاطفة والقول هو القول الأول وعطفت الجملة على الجملة المماثلة لها ليبنى

عليها سبب وقوع القول وهو أنه بسبب ظلمهم وليفرع عليه قوله ﴿ فهم لا ينطقون ﴾ .

والتعبير بفعل المضي على هذا الوجه لأنه محقق الحصول في المستقبل فجعل كأنه حصل ومضى .

و ﴿ ما ظلموا ﴾ بمعنى المصدر ، والباء للسببية ، أي بسبب ظلمهم ، والظلم هنا الشرك وما يتبعه من الاعتداء على حقوق الله وحقوق المؤمنين فكان ظلمهم سبب حلول الوعيد بهم ، وفي الحديث " الظلم ظلمات يوم القيامة " فكل من ظلم سيقع عليه القول الموعود به الظالمون لأن الظلم ينتسب إلى الشرك وينتسب هذا إليه كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ في هذه السورة (52) .

وجملة ﴿ فهم لا ينطقون ﴾ مفرعة على ﴿ وقع القول ﴾ أي وقع عليهم وقوعاً يمنعهم الكلام ، أي كلام الاعتذار أو الإنكار ، أي فوجموا لوقوع ما وعدوا به قال تعالى ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ [المرسلات : 35 ، 36] .

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

هذا الكلام متصل بقوله ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا ﴾ [النمل : 85] أي بما أشركوا ، فذكرهم بدلائل الوحدانية بذكر أظهر الآيات وأكثرها تكراراً على حواسهم وأجدرها بأن تكون مقنعة في ارعوائهم عن شركهم .

وهي آية ملازمة لهم طول حياتهم تخطر ببالهم مرتين كل يوم على الأقل .

وتلك هي آية اختلاف الليل والنهار الدالة على انفراده تعالى بالتصرف في هذا العالم؛ فأصنامهم تخضع لمفعولها فتظلم ذواتهم في الليل وتنير في النهار، وفيها تذكير بتمثيل الموت والحياة بعده بسكون الليل وانبثاق النهار عقبه.

(202/581)

والجملة معترضة بين جملة ﴿ ووقع القول عليهم ﴾ [النمل: 85] وجملة ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ [النمل: 87] ليتخلل الوعيد بالاستدلال فتكون الدعوة إلى الحق بالإرهاب تارة واستدعاء النظر تارة أخرى.

والاستفهام مستعمل كناية عن التعجيب من حالهم لأنها لغرابتها تستلزم سؤال من يسأل عن عدم رؤيتهم فهذه علاقة أو مسوغ استعمال الاستفهام في التعجيب، وهي علاقة خفية أشار سعد الدين في "المطول" إلى عدم ظهورها وتصدى السيد الشريف إلى بيانها غاية البيان وأرجعها إلى المجاز المرسل فتأمله.

والرؤية يجوز أن تكون قلبية وجملة ﴿ أنّا جعلنا ﴾ سادة مسد المفعولين، أي كيف لم يعلموا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً مع أن ذلك واضح الدلالة على هذا الجعل.

واختير من أفعال العلم فعل الرؤية لشبه هذا العلم بالمعلومات المبصرة .

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية والمصدر المنسبك من الجملة مفعول الرؤية والمعنى : كيف لم يبصروا جعل الليل للسكون والنهار للإبصار مع أن ذلك بمرأى من أبصارهم .

والجعل مراد منه أثره وهو اضطرار الناس إلى السكون في الليل وإلى الانتشار في النهار .

فجعلت رؤية أثر الجعل بمنزلة رؤية ذلك الجعل وهذا واسع في العربية أن يجعل الأثر محل المؤثر ، والدال محل المدلول .

قال النابغة:

وقد خفت حتى ما تزيد مخافتي . . .

على وعل في ذي المطارة عاقل

أي على مخافة وعل .

والمبصر : اسم فاعل أبصر بمعنى رأى .

ووصف النهار بأنه مبصر من قبيل المجاز العقلي لأن نور النهار سبب الإبصار .

ويجوز أن تكون الهمزة للتعدية من أبصره ، إذا جعله باصراً .

وجملة ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ تعليل للتعجيب من حالهم إذ لم يستدلوا باختلاف الليل والنهار على الوحدانية ولا على البعث .

ووجه كون الآيات في ذلك كثيرة كما اقتضاه الجمع هو أن في نظام الليل آيات على الانفراد بخلق الشمس وخلق نورها الخارق للظلمات ، وخلق الأرض ، وخلق نظام دورانها اليومي تجاه أشعة الشمس وهي الدورة التي تكوّن الليل والنهار ، وفي خلق طبع الإنسان بأن يتلقّى الظلمة بطلب السكون لما يعتري الأعصاب من الفتور دون بعض الدواب التي تنشط في الليل كالهوام والخفافيش وفي ذلك أيضاً دلالة على تعاقب الموت والحياة ، فتلك آيات وفي كل آية منها دقائق ونظم عظيمة لو بسط القول فيها لأوعب مجلدات من العلوم .

وفي جعل النهار مبصراً آيات كثيرة على الوحدانية ودقة صنع تقابل ما تقدم في آيات جعل الليل سكناً .

وفيه دلالة على أن لا إحالة ولا استبعاد في البعث بعد الموت ، وأنه نظير بعث اليقظة بعد النوم ، وفي جليل تلك الآيات ودقيقها عدة آيات فهذا وجه جعل ذلك آيات ولم يجعل آيتين .

ومعنى ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لناس شأنهم الإيمان والاعترف بالحجة ولذلك جعل الإيمان صفة جارية على ﴿ قوم ﴾ لما قلناه غير مرة من أن إناطة الحكم بلفظ (قوم) يومىء إلى أن ذلك الحكم متمكن منهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم ومنه قوله تعالى ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴾ [التوبة : 56] ، أي الفرق من مقومات قوميتهم فكيف يكونون منكم وأنتم لا تفرقون ، أي في ذلك آيات لمن من شعارهم

التدبر والاتصاف ، أي فهؤلاء ليسوا بتلك المثابة .

ولكون الإيمان مقصوداً به أنه مرجو منهم جيء فيه بصيغة المضارع إذ ليس المقصود أن في ذلك آيات للذين آمنوا لأن ذلك حاصل بالفحوى والأولوية ، فصار المعنى : أن في ذلك لآيات للمؤمنين ولمن يرجى منهم الإيمان عند النظر في الأدلة .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ [التكوير : 27 ، 28] .

(204/581)

ولهذا خولف بين ما هنا وبين ما في سورة يونس (67) إذ قال ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ لأن آية يونس مسوقة مساق الاستدلال والامتنان فخاطب بها جميع الناس من مؤمن وكافر فجاءت بصيغة الخطاب ، وجعلت دلالتها لكل من يسمع أدلة القرآن فمنهم مهتد وضال ولذلك جيء فيها بفعل ﴿ يسمعون ﴾ [يونس : 67] المؤذن بالامتثال والإقبال على طلب الهدى .

وأما هذه الآية فمسوقة مساق التعجيب والتوبيخ فجعل ما فيها آيات لمن الإيمان من شأنهم ليفيد بمفهومه أنه لا تحصل منه دلالة لمن ليس من شأنهم الانصاف والاعتراف ولذلك أوثر

فيه فعل ﴿ يؤمنون ﴾ .

وجاء ما في الليل من الخصوصية بصيغة التعليل باللام بقوله ﴿ ليسكنوا فيه ﴾ ، وما في النهار بصيغة مفعول الجعل بقوله ﴿ مبصراً ﴾ تفنناً ، ولما يفيده ﴿ مبصراً ﴾ من المبالغة .

والمعنى على التعليل والمفعول واحد في المآل .

وبهذا قال في "الكشاف" "التقابل مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف" أي ففي الآية احتباك إذ المعنى : جعلنا الليل مظلماً ليسكنوا فيه والنهار مبصراً لينتشروا فيه .

واعلم أن ما قرر هنا يأتي في آية سورة يونس عدا ما هو من وجوه الفروق البلاغية فارجع إليها هنالك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(205/581)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) ﴾

ظاهره هذه الآية الكريمة خصوص الحشر بهذه الأفواج المكذبة بآيات الله ، ولكنه قد دلت

آيات كثيرة على عموم الحشر لجميع الخلائق ، كقوله تعالى بعد هذا بقليل : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : 87] وقوله تعالى : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : 47] وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ [الأنعام : 22] و [يونس : 28] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : 38] إلى غير ذلك من الآيات .

(206/581)

وقد أوضحنا في كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] في آية النمل هذه في الكلام على وجه الجمع بين قوله تعالى فيها : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ [النمل : 83] الآية وبين قوله تعالى : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : 87] ونحوها من الآيات ، وذكرنا قول الألوسي في تفسيره أن قوله : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ في الحشر العام لجميع الناس للحساب والجزاء . وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ الآية . في الحشر الخاص بهذه الأفواج المكذبة ، لأجل التوبيخ المنصوص عليه في قوله هنا : ﴿ حَتَّى إِذَا جَآءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : 84]

الآية . وهذا يدل عليه القرآن كما ترى . وقال بعضهم : هذه الأفواج التي تحشر حشراً خاصاً هي رؤساء أهل الضلال وقادتهم ، وعليه فالآية كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً ﴾ [مريم : 68 69] والفوج : الجماعة من الناس . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ [النصر : 2] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : 83] أي يرد أولهم على آخرهم يجتمعوا ، ثم يدفعون جميعاً كما قاله غير واحد .

حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

(207/581)

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة : أي يسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، ومقصوده بسؤالهم عن اعتقادهم قوله تعالى : ﴿ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ﴾ ، لأن التصديق بآيات الله التي هي هذا القرآن . من عقائد الإيمان ، التي لا بد منها كما هو معلوم في حديث جبريل وغيره ، ومقصوده بسؤالهم عن أعمالهم قوله تعالى : ﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ والسؤال المذكور سؤال توبيخ وتقريع ، فقد وبخهم تعالى فيه على فساد الاعتقاد ، وفساد الأعمال ، والتوبيخ

عليهما معاً المذكور هنا جاء مثله في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى ولكن كَذَّبَ وتولى ﴾ [القيامة : 3132] كما أشار له ابن كثير رحمه الله فقوله تعالى : فلا صدق ، وقوله : ولكن كذب توبيخ على فساد الاعتقاد . وقوله : ولا صلى : توبيخ على إضاعة العمل .

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85)

الظاهر أن القول الذي وقع عليهم هو كلمة العذاب ، كما يوضحه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] ونحو ذلك من الآيات .

(208/581)

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ ، وظاهره أن الكفار لا ينطقون يوم القيامة ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 3536] وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾ [الإسراء : 97] الآية ، مع أنه بينت آيات أخر من كتاب

الله أنهم ينطقون يوم القيامة ، ويعتذرون ، كقوله تعالى عنهم : ﴿ والله ربّنا ما كنّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] وقوله تعالى عنهم : ﴿ فَأَلْقَوُاْ السلم مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء ﴾ [النحل : 28] وقوله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً ﴾ [السجدة : 12] الآية . وقوله تعالى عنهم : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون : 106107] وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْاْ يامالك ﴾ [الزخرف : 77] الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كلامهم يوم القيامة .

(209/581)

وقد بينا الجواب عن هذا في كتابنا [دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب] في سورة المرسلات في الكلام على قوله تعالى : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات : 35] وما ذكرنا من الآيات ، فذكرنا أن من أوجه الجواب عن ذلك ، أن القيامة مواطن ، ففي بعضها ينطقون ، وفي بعضها لا ينطقون ، فإثبات النطق لهم ونفيه عنهم كلاهما منزل على حال وقت غير حال الآخر ووقته . ومنها أن نطقهم المثبت لهم خاص بما لا فائدة لهم فيه ،

والنطق المنفى عنهم : خاص بما لهم فيه فائدة ومنها غير ذلك ، وقد ذكرنا شيئاً من أجوبة ذلك في الفرقان ، طه والإسراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(210/581)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ ﴾

كلمة ﴿ وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ [النمل : 82] أي : سقط : كأنه وبطبيعته يسقط لا يحتاج لَمَنْ يُجبره على السقوط . والسقوط ﴿ عَلَيْهِم ﴾ [النمل : 82] كما في قوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : 26] .

والوقوع هنا يدل على أنهم سيتعرّضون لشدائد ومتاعب ، وبتتبع هذه المادة (وقع) في القرآن نجد أنها جاءت كلها في الشدائد إلا في موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى الله ﴾ [النساء : 100] .

وما داموا لم يسمعوا للآيات ، ولم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصمُّوا عنه آذانهم ، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نُخرج لهم دابة تكلمهم .

﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [النمل : 82] وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التوبيخ : أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر ، ولم تفهموا مَنْ يخاطبكم بلغتكم ، فاسمعوا الآن من الأدنى ، وافهموا عنها ، وفسِّروا قولها .

لكن ماذا ستقول الدابة لهم ؟ وما نوع كلامها ؟ : ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : 82] أي : بآياتنا السابقة لا يؤمنون ، وها أنا ذا أُكلِّمهم ، وعلى الماهر فيهم أن يقول لي : كيف أكلمه .

وقد اختلف الناس في هذه الدابة ، وفي شكلها وأوصافها ، وكيف يأتي القول من غير مألوف القول وهو الدابة ؟ لكن ما دام أن الله تعالى أخبر بها فهي حقٌّ ، لا ينبغي معارضته ، وعلينا أن نأخذ وقوع ما حدَّث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صِدْقه فيما يحدِّث به فيما يكون .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

(211/581)

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول مَنْ يُجمع في هذا الموقف هم العتاة والجبابرة الذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ، يحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار

، كما قال سبحانه عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [هود : 98] .

فكما تقدَّمهم من الضلال في الدنيا يتقدمهم إلى النار في الآخرة ، وحين يرى الضالون إمامهم في الضلال يقدمهم ينقطع أملهم في النجاة ، فربما تعلَّقوا به في هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلِّصهم ، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير .

ومعنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : 83] قلنا في معنى ﴿ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل : 83] أي : يُمنعون ، والمراد يمنعون أن يسبق أولهم آخرهم بحيث يدخلون جميعاً ، فالحق تبارك وتعالى يجمع أولهم على آخرهم (ليشرفوا) سوياً في النار : التابع والمتبوع كلهم سواء في الذلة والمهانة ، فربما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتى لايراه تابعوه ، فيفتضح أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشهاد .

حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

في سورة الأعراف يُورِد الحق تبارك وتعالى مذكرة تفصيلية لهذا الموقف ، ولهذا الحوار الذي يدور في عَرَصات القيامة ، فيقول تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أولئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب حتى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ * قَالَ ادخلوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِّنَ الجن والإنس فِي النار كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : 3739] .

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85)

قوله ﴿ وَوَقَعَ ﴾ [النمل : 85] أي : وجب لهم العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ [النمل : 85] وكأنه شيء محسوس يسقط على رؤوسهم ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [النمل : 85] فقد خرستْ ألسنتهم من هَوْل ما رأوْا ، فلا يجدون كلاماً ينطقون به .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾

ينتقل السياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية ، وهذه سِمَة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية ، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية ، وكأنه يقول : لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله ؛ لأن الآيات موجودة مشاهدة .

لذلك قال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ [النمل : 86] أي : ألم يعلموا ويشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا اليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [النمل : 86] أي : للنوم وللراحة ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ [النمل : 86] أي : بما فيه من الأشعة والضوء الذي يُسبب الرؤيا .

وسبق أنْ بيَّنا دور العالم المسلم ابن الهيثم في تصحيح نظرية رؤية الأشياء ، وكانوا يعتقدون أن الشيء يُرى إذا خرج الشعاع من العين إليه ، والصحيح أن الشعاع يخرج من الشيء المرئي إلى العين ، فكأن الشعاع هو الذي يُبصر ، فهو سبب الرؤيا ، ولولاه لا نرى الأشياء .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النمل : 86] فربك عزّ وجلّ نظَّم لك حركة حياتك بليل تسكن فيه ، وتخلد للراحة ونهار تسعى فيه وتبتغي من فضل الله كما قال تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : 73] .

ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلا إذا سِرْنا على هذا النظام الذي ارتضاه الله لنا ، فإنْ قلبَ الناس هذه الطبيعة فسهروا حتى الفجر ، فلا بُدَّ أنْ يلاقوا عاقبة هذه المخالفة في حركة حياتهم : تكاسلاً وتراخياً وقلة في الإنتاج . . إلخ .

والحق تبارك وتعالى يشرح لنا هذه القضية في موضع آخر : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اليل سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 7172] .

(214/581)

ففي الكلام عن الليل قال : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : 71] وعن النهار قال : ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 72] لماذا ؟ قالوا : لأن حاسة الإدراك في الليل هي السمع ، وفي النهار البصر . وفي هذا إشارة إلى طبيعة كل منهما حتى لا نُغيِّرها نحن ، فنسهر الليل ، وننام النهار .

وفي قوله تعالى ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [القصص : 73] ما يسميه العلماء باللف والنشر ، اي : لفّ المحكوم عليه وهو الليل والنهار معاً ، ثم نشر حكم كل منهم على وجه الترتيب : لتسكنوا فيه وهي تقابل الليل ، ولتبتغوا من فضله ، وهي تقابل النهار .

إذن : بعد أنْ استدل الحق تبارك وتعالى بالموجود فعلاً من آيتي الليل والنهار أراد أنْ يستدل

بعد مهما في ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اليل سَرْمَداً ﴾ [القصص : 71] و ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً ﴾ [القصص : 72] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(215/581)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

وقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ الآية .

هذه الآية يدل ظاهرها على أن الحشر خاص بهؤلاء الأفواج المكذبة ، وقوله –بعد هذا بقليل–: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ .

يدل على أن الحشر عام كما صرحت به الآيات القرآنية عن كثرة .

والجواب عن هذا : هو ما بينه الألوسي في تفسيره من أن قوله: ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ يراد به الحشر العام ، وقوله ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجا ﴾ أي بعد الحشر العام يجمع الله المكذبين للرسل من كل أمة لأجل التوبيخ المنصوص عليه بقوله: ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، فالمراد بالفوج من كل أمة: الفوج المكذب للرسل

يحشر للتوبيخ حشراً خاصاً فلا ينافي حشر الكل لفصل القضاء .

وهذا الوجه أحسن من تخصيص الفوج بالرؤساء كما ذهب إليه بعضهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 227 . 228 ﴾

(216/581)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) ﴾

أخرج ابن مبارك في الزهد وعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة ونعيم بن حماد في الفتن وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر في قوله ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قال : إذا لم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قال : ذاك حين لا يأمرون بمعروف ، ولا

ينهون عن منكر .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قال " إذا تركوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وجب السخط عليهم " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ قال : إذا وجب القول عليهم ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قال : وهي في بعض القراءة تحدثهم تقول لهم ﴿ إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن حفصة بنت سيرين قالت : سألت أبا العالية عن قوله ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ ما وقوع القول عليهم ؟ فقال : ﴿ أوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ [هود : 36] قالت : فكأنما كشف عن وجهي شيئاً .

(217/581)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : أكثروا الطواف بالبيت قبل أن يرفع وينسى الناس مكانه ، وأكثروا تلاوة القرآن قبل أن يرفع . قيل : وكيف يرفع ما في صدور الرجال ؟

قال : يسري عليهم ليلاً فيصبحون منه قفراً وينسون قول لا إله إلا الله ، ويقعون في قول الجاهلية وأشعارهم . فذلك حين يقع القول عليهم .

وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد في قوله ﴿ وقع القول عليهم ﴾ قال : حق عليهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قال : تحدثهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ تكلمهم ﴾ قال : كلامها تنبئهم ﴿ أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي داود ونفيع الأعمى قال : سألت ابن عباس عن قوله ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قال : كل ذلك والله يفعل تكلم المؤمن ، وتكلم الكافر . تجرحه .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ دابة من الأرض تكلمهم ﴾ مشددة من الكلام ﴿ أن الناس ﴾ بنصب الألف .

وأخرج نعيم بن حماد وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان الوعد الذي قال الله ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾ قال : ليس ذلك حديثاً ولا كلاماً ، ولكنه سمة تسم من أمرها الله به . فيكون خروجها من الصفا ليلة منى ، فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ، ولا يخرج خارج ، حتى إذا فرغت مما

أمرها الله فهلك من هلك ، ونجا من نجا ، كان أول خطوة تضعها بانطاكية " .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عمر وقال ﴿ الدابة ﴾ زغباء ذات وبر وريش .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال ﴿ الدابة ﴾ ذات وبر وريش مؤلفة فيها من كل لون ، لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج .

وأخرج عبد بن حميد عن الشعبي قال : إن دابة الأرض ذات وبر تناغي السماء .

(218/581)

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن : أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه الدابة . فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن تذهب في السماء لا يرى واحد من طرفها قال : فرأى منظراً فظيعاً فقال : رب ردها . فردها .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : لا تقوم الساعة حتى يجتمع أهل بيت على الإِناء الواحد ، فيعرفون مؤمنيهم من كفارهم . قالوا : كيف ذاك ؟ قال : إن الدابة تخرج وهي ذامة للناس تمسح كل إنسان على مسجده . فاما المؤمن فتكون نكتة بيضاء . فتفشو في وجهه حتى يبيض لها وجهه ، وأما الكافر فتكون نكتة سوداء فتفشو في وجهه حتى يسود لها وجهه . حتى أنهم ليتبايعون في أسواقهم فيقولون : كيف تبيع هذا

يا مؤمن ؟ وكيف تبيع هذا يا كافر ؟ فما يرد بعضهم على بعض .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : تخرج الدابة بأجياد مما يلي الصفا .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد من طريق سماك عن إبراهيم قال : تخرج الدابة من مكة .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو قال : تخرج الدابة فيفزع الناس إلى الصلاة ، فتأتي الرجل وهو يصلي فتقول : طوّل ما شئت أن تطوّل فوالله لأخطمنك .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تخرج الدابة يوم تخرج وهي ذات عصب وريش تكلم الناس فتنقط في وجه المؤمن نقطة بيضاء فيبيض وجهه ، وتنقط في وجه الكافر نقطة سوداء فيسود وجهه ، فيتبايعون في الأسواق بعد ذلك . بم تبيع هذا يا مؤمن ، وبم تبيع هذا يا كافر ، ثم يخرج الدجال وهو أعور على عينه ظفرة غليظة ، مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن وكافر " .

وأخرج أحمد وسمويه وابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم ، ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابة فيقال : ممن اشتريت ؟ فيقال : من الرجل المخطم " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تخرج دابة الأرض ولها ثلاث خرجات . فأول خرجة منها بأرض البادية . والثانية في أعظم المساجد وأشرفها وأكرمها ، ولها عنق مشرف يراها من بالمشرق كما يراها من بالمغرب ، ولها وجه كوجه انسان ، ومنقار كمنقار الطير ، ذات وبرٍ وزغب ، معها عصا موسى ، وخاتم سليمان بن داود تنادي بأعلى صوتها : ﴿ أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ ثم بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل : يا رسول الله وما بعد ؟ قال : هنات وهنات ، ثم خصب وريف حتى الساعة " .

وأخرج ابن مردويه عن حذيفة بن أسيد أراه رفعه قال " تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة ، فبينما هم قعود بربو الأرض ، فبينما هم كذلك إذ تصدعت قال ابن عيينة : تخرج حين يسري الإِمام من جمع . وإنما جعل سابق بالحاج ليخبر الناس أن الدابة لم تخرج " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه قال : ألا أريكم المكان الذي قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم إن دابة الأرض تخرج منه . فضرب بعصاه قبل الشق الذي في الصفا .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن بين يدي الساعة الدجال ، والدابة ، ويأجوج ومأجوج ، والدخان ، وطلوع الشمس من مغربها " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت : الدابة تخرج من أجياد .

وأخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان قال : " ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال حذيفة : يا رسول الله من أين تخرج ؟ قال " من أعظم المساجد حرمة على الله ، بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض من تحتهم تحرك القنديل ، وتشق الصفا مما يلي المسعى وتخرج الدابة من الصفا ، أوّل ما يبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش ، لن يدركها طالب ، ولن يفوتها هارب ، تسم الناس مؤمن وكافر ، أما المؤمن فيرى وجهه كأنه كوكب دري ، وتكتب بين عينيه مؤمن . وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء كافر " .

(220/581)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في البعث عن ابن عمرو أنه قال وهو يومئذ بمكة : لو شئت لأخذت سيتي هاتين ثم مشيت حتى أدخل الوادي التي تخرج منه دابة الأرض ، وإنها تخرج وهي آية للناس ، تلقى المؤمن فتسمه في وجهه واكية فيبيض لها وجهه ، وتسم الكافر واكية فيسوّد لها وجهه ، وهي دابة ذات زغب وريش فتقول ﴿ أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ونعيم بن حماد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم

والبيهقي في البعث عن ابن عباس : أن دابة الأرض تخرج من بعض أودية تهامة ، ذات زغب وريش لها أربع قوائم ، فتنكت بين عيني المؤمن نكتة يبيض لها وجهه ، وتنكت بين عيني الكافر نكتة يسود بها وجهه .

وأخرج أحمد والطيالسي وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، فتجلو وجه المؤمن بالخاتم ، وتخطم أنف الكافر بالعصا ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر " .

(221/581)

وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال " لها ثلاث خرجات من الدهر . فتخرج خرجة بأقصى اليمن ، فينشر ذكرها بالبادية في أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية – يعني مكة – ثم تكمن زماناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية ، ويدخل ذكرها

القرية – يعني مكة – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها ، المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام ، وتنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتى ، وبقيت عصابة من المؤمنين ثم عرفوا أنهم لن يعجزوا الله فبدأت بهم ، فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري ، وولت في الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى أن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان الآن تصلي . فيقبل عليها فتسمه في وجهه ، ثم ينطلق ويشترك الناس في الأموال ، ويصطحبون في الأمصار ، يعرف المؤمن من الكافر حتى أن المؤمن ليقول : يا كافر أقضني حقي ، وحتى أن الكافر ليقول : يا مؤمن أقضني حقي " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال " قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم : بئس الشعب جياد مرتين أو ثلاثاً قالوا : وبم ذاك يا رسول الله ؟ قال : تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات فيسمعها من بين الخافقين " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله : صلى الله عليه وسلم " تخرج دابة الأرض من جياد فيبلغ صدرها الركن ولم يخرج ذنبها بعد قال : وهي دابة ذات وبر وقوائم " .

(222/581)

وأخرج البخاري في تاريخه وابن ماجة وابن مردويه عن بريدة قال : ذهب بي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" تخرج الدابة من هذا الموضع فإذا شبر في شبر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن النزال بن سبرة قال : قيل لعلي بن أبي طالب : إن ناساً يزعمون أنك دابة الأرض فقال : والله إن لدابة الأرض ريشاً وزغباً ، وما لي ريش ولا زغب ، وإن لها لحافر وما لي من حافر ، وإنها لتخرج حضر الفرس الجواد ثلاثاً ، وما خرج ثلثاها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : تخرج الدابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى ، فتحملهم بين نحرها وذنبها ، فلا يبقى منافق إلا خطمته ، وتمسح المؤمن ، فيصبحون وهم بشر من الدجال .

وأخرج ابن أبي شيبة والخطيب في تالي التلخيص عن ابن عمر قال : تخرج الدابة من جبل جياد في أيام التشريق والناس بمنى قال : فلذلك جاء سائق الحاج بخبر سلامة الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : إن الدابة فيها من كل لون ، ما بين قرنيها فرسخ للراكب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : تخرج الدابة

من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام لم يخرج ثلثها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : تخرج الدابة من تحت صخرة بجياد تستقبل المشرق ، فتصرخ صرخة ثم تستقبل الشام ، فتصرخ صرخة منفذة ، ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان قيل : ثم ماذا ؟ قال : لا أعلم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : الدابة مؤلفة ذات زغب وريش فيها من ألوان الدواب كلها ، وفيها من كل أمة سيما . وسيماها من هذه الأمة أنها تتكلم بلسان عربي مبين ، تكلمهم بكلامها .

(223/581)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين منها اثنا عشر ذراعاً . تخرج معها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتفشو تلك النكتة حتى يسود لها وجهه ؛ حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق : بكم ذا يا مؤمن ، وبكم ذا يا كافر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن صدقة بن مزيد قال : تجيء الدابة إلى الرجل وهو قائم يصلي في المسجد ، فتكتب بين عينيه : كذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة قال : تخرج الدابة مرتين قبل يوم القيامة حتى يضرب فيها رجال ، ثم تخرج الثالثة عند أعظم مساجدكم ، فتأتي القوم وهم مجتمعون عند رجل فتقول : ما يجمعكم عند عدو الله ؟ فيبتدرون فتسم المؤمن حتى أن الرجلين ليتبايعان فيقول هذا : خذ يا مؤمن ، ويقول هذا : خذ يا كافر .

وأخرج نعيم بن حماد في الفتن عن عمرو بن العاص قال : تخرج الدابة من شعب بالأجياد ، رأسها تمس به السحاب وما خرجت رجلها من الأرض ، تأتي الرجل وهو يصلي فتقول : ما الصلاة من حاجتك . . ما هذا إلا تعوذ أو رياء ، فتخطمه .

وأخرج نعيم عن وهب بن منبه قال : أول الآيات الروم ، ثم الدجال ، والثالثة يأجوج ومأجوج ، والرابعة عيسى ، والخامسة الدخان ، والسادسة الدابة .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ قال : زمرة . وفي قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال : يحبس أولهم على آخرهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ يوزعون ﴾ قال : يساقون .

(224/581)

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ ووقع القول ﴾ قال : وجب القول . والقول الغضب وفي قوله ﴿ والنهار مبصراً ﴾ قال : منيراً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(225/581)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول ﴾ :

أي : مضمونُ القول ، أو أَطْلَقَ المصدرَ على المفعولِ أي : المَقُوْلُ .

قوله : ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ العامَّةُ على التشديد . وفيه وجهان ، الأظهر : أنه من الكلامِ والحديث ، ويؤيِّده قراءةُ أُبَيٍّ " تُنَبِّئُهم " وقراءةُ يحيى بن سَلام " تُحَدِّثُهم " وهما تفسيران لها . والثاني : " تَجْرَحُهم " ويَدُلُّ عليه قراءةُ ابن عباس وابن جبير ومجاهد وأبي زُرْعَةَ

والجحدري " تَكْلُمُهم " بفتحِ التاءِ وسكونِ الكافِ وضمِّ اللامِ من الكَلْمِ وهو الجُرْحُ . وقد قُرِىء " تَجْرَحُهم " وفي التفسير أنها تَسِمُ الكافر .

قوله : ﴿ أَنَّ الناس ﴾ قرأ الكوفيون بالفتح ، والباقون بالكسرِ ، فأمَّا الفتحُ فعلى تقديرِ الباءِ أي : بأنَّ الناسَ . ويدلُّ عليه التصريحُ بها في قراءةِ عبدِ الله " بأنَّ الناسَ " . ثم هذه الباء تُحتمل أَنْ تكونَ مُعَدِّيَةً ، وأن تكونَ سببيةً ، وعلى التقديرين : يجوز أَنْ يكونَ " تُكَلِّمهم " بمعنَيَيْه من الحديثِ والجَرْحِ أي : تُحَدِّثهم بأنَّ الناسَ أو بسببِ أنَّ الناسَ ، أو تجرَحهم بأنَّ الناس أي : تَسِمُهم بهذا اللفظِ ، أو تَسِمُهم بسبب انتفاءِ الإيمانِ .

وأمَّا الكسرُ فعلى الاستئناف . ثم هو محتمِلٌ لأَنْ يكونَ من كلامِ الله تعالى وهو الظاهرُ ، وأَنْ يكونَ من كلامِ الدابَّةِ ، فيُعَكِّرَ عليه " بآياتنا " . ويُجاب عنه : إمَّا باختصاصِها ، صَحَّ إضافةُ الآياتِ إليها ، كقولِ أتباعِ الملوكِ : دوابُّنا وخَيْلُنا ، وهي لِمَلِكهم ، وإمَّا على حَذْفِ مضافٍ أي : بآيات ربِّنا . وتُكَلِّمهم إنْ كان من الحديثِ فيجوز أَنْ يكونَ : إمَّا لإجراءِ " تُكَلِّمُهم " مجرى تقولُ لهم ، وإمَّا على إضمارِ القولِ أي : فتقول كذا . وهذا القولُ تفسيرٌ لـ " تُكَلِّمُهم " .

(226/581)

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

قوله: ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾: يجوز أَنْ يكونَ متعلّقاً بالحشر، و "مِنْ" لابتداءِ الغاية، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ "فَوْجاً"؛ لأن يجوز أن يكونَ صفةً له في الأصل. والفَوْجُ: الجماعة كالقوم، وقيَّدهم الراغبُ فقال: الجماعةُ المارَّةُ المسرعةُ" وكأنَّ هذا هو الأصلُ ثم أُطْلِقَ، وإنْ لم يكن مرورٌ ولا إسراعٌ. والجمعُ: أفواجٌ وفُؤُوج. و "مِمَّنْ يُكَذِّبُ" صفةٌ له. و "منْ" في "مِنْ كلِّ" تبعيضيةٌ، وفي "مِمَّن يُكَذِّبُ" تَبْيينيَّة.

حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

والواو في "ولم تُحِيْطُوا" يجوز أَنْ تكونَ العاطفةَ، وأن تكونَ الحاليَّةَ. و "عِلْماً" تمييزٌ.

قوله: "أَمْ ماذا" "أم" هنا منقطعةٌ. وتقدَّم حكمُها و "ماذا" يجوز أَنْ يكونَ برُمَّته استفهاماً منصوباً ب "تَعْمَلون" الواقعِ خبراً عن "كنتم"، وأَنْ تكونَ "ما" استفهاميةً مبتدأً، و "ذا" موصولٌ خبرُه، والصلةُ "كنتمُ تعملون"، وعائدُه محذوفٌ أي: أيَّ شيءٍ الذي كنتم تَعْملونه.

وقرأ أبو حيوةَ "أَمَا" بتخفيفِ الميمِ، جَعَلَ همزةَ الاستفهامِ داخلةً على اسمِه تأكيداً كقولِه:

3582 . . . . . أهَلْ رَأَوْنا بوادي القُفِّ ذي الأَكَمِ

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85)

قوله : ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ : أي : بسببِ ظُلْمِهم . ويَضْعُفُ جَعْلُ " ما " بمعنى الذي .

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

(227/581)

قوله : ﴿ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ : قيل : قد حُذِفَ من الأولِ ما أُثْبت نظيرُه في الثاني ، ومن الثاني ما أُثبتْ نظيرهُ في الأولِ ؛ إذ التقديرُ : جَعَلْنا الليلَ مُظْلماً / لِيَسْكنوا فيه ، والنهارَ مُبْصِراً لِيَتَصَرَّفوا فيه . فحذف " مُظْلِماً " لدلالةِ " مُبْصِراً " ، و " لِيتصَرَّفوا " لدلالة " لِيَسْكُنُوا " . وقولُه " مُبْصِراً " كقولِه : ﴿ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : 12] وتقدَّمَ تحقيقه في الإِسراء . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما للتقابلِ لم يُراعَ في قولِه : " لِيَسْكُنوا " و " مُبْصِراً " حيث كان أحدُهما علةَ والآخرُ حالاً ؟ قلت : هو مُراعَى من حيث المعنى ، وهكذا النظمُ المطبوعُ غيرُ المتكلَّفِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 644.642 ﴾

(228/581)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾

إذا حقَّ الوعدُ بإقامةِ القيامةِ أوضحنا أشراطَها في كلامِ الدَّابةِ المُخْرِجَةِ من الأرضِ وغير ذلك من الآيات .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

وعند ذلك لا ينفع الإيمانُ ولا يُقْبَلُ العُذْرُ .

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (85)

ثم كَرَّرَ ذكر الليل والنهار واختلافهما .

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

أي ليكونَ الليلُ وقتَ سكونِهم ، والنهارُ وقتَ طلبِ معاشِهم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 50 . 51 ﴾

(229/581)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/582)

الجزء الثاني والثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 87 ﴾ من سورة النمل

وحتى الآية ﴿ 93 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/582)

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر هذا الحشر الخاص ، والدليل على مطلق الحشر والنشر ، ذكر الحشر العام ، لئلا يظن أنه إنما يحشر الكافر ، فقال مشيراً إلى عمومهم بالموت كما عمهم بالنوم ، وعمومهم بالإحياء كما عمهم بالإيقاظ : ﴿ ويوم ينفخ ﴾ أي بأيسر أمر ﴿ في الصور ﴾ أي القرن

الذي جعل صوته لإماتة الكل .

ولما كان ما ينشأ عنه من فزعهم مع كونه محققاً مقطوعاً به كأنه وجد ومضى ، يكون في آن واحد ، أشار إلى ذلك وسرعة كونه بالتعبير بالماضي فقال : ﴿ ففزع ﴾ أي صعق بسبب هذا النفخ ﴿ من في السماوات ﴾ .

(5/582)

ولما كان الأمر مهولاً ، كان الإطناب أولى ، فقال : ﴿ ومن في الأرض ﴾ أي كلهم ﴿ إلا من شاء الله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة وعزة وعظمة ، أن لا يفزع ؛ ثم أشار إلى النفخ لإحياء الكل بقوله : ﴿ وكل ﴾ أي من فزع ومن لم يفزع ﴿ أتوه ﴾ أي بعد ذلك للحساب بنفخة أخرى يقيمهم بها ، دليلاً على تمام القدرة في كونه أقامهم بما به أنامهم ﴿ داخرين ﴾ أي صاغرين منكسرين ؛ واستغنى عن التصريح به بما يعلم بالبديهة من أنه لا يمكن إتيانهم في حال فزعهم الذي هو كناية عن بطلان إحساسهم ، هذا معنى ما قاله كثير من المفسرين والذي يناسب سياق الآيات الماضية – من كون الكلام في يوم القيامة الذي هو ظرف لما بين البعث ودخول الفريقين إلى داريهما – أن يكون هذا النفخ بعد البعث وبمجرد صعق هو كالغشي كما أن حشر الأفواج كذلك ، ويؤيده التعبير بالفزع ، ويكون الإتيان بعده بنفخة

أخرى تكون بها الإقامة ، فهاتان النفختان حينئذ هما المراد من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " يصعق الناس يوم القيامة " – الحديث ، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى لفظاً ومعنى ، ويحل ما فيه من إشكال في آخر سورة الزمر .

(6/582)

ولما ذكر دخورهم ، تلاه بدخور ما هو أعظم منهم خلقاً ، وأهول أمراً ، فقال : عاطفاً على ناصب الظرف مما تقديره : كانت أمور محلولة ، معبراً بالمضارع لأن ذلك وإن شارك الفزع في التحقق قد فارقه في الحدوث والتجدد شيئاً فشيئاً : ﴿ وترى الجبال ﴾ أي عند القيام من القبور ، والخطاب إما للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدل ذلك – لكونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنفذ الناس بصراً وأنورهم بصيرة – على عظم الأمر ، وإما لكل أحد لأن الكل صاروا بعد قيامهم أهلاً للخطاب بعد غيبتهم في التراب ﴿ تحسبها جامدة ﴾ أي قائمة ثابتة في مكانها لا تتحرك ، لأن كل كبير متباعد الأقطار لا يدرك مشيته إلا تخرصاً ﴿ وهي تمر ﴾ أي تسير حتى تكون كالعهن المنفوش فينسفها الله فتقع حيث شاء كأنها الهباء المنثور ، فتستوي الأرض كلها بحيث لا يكون فيها عوج ، وأشار إلى أن سيرها خفي وإن كان حثيثاً بقوله : ﴿ مر السحاب ﴾ أي مراً سريعاً لا يدرك على ما هو عليه لأنه إذا

طبق الجو لا يدرك سيره مع أنه لا شك فيه وإن لم تنكشف الشمس بلا لبس ، وكذا كل كبير الجرم أو كثير العد يقصر عن الإحاطة به لبعد ما بين أطرافه بكثرته البصر ، يكون سائراً ، والناظر الحاذق يظنه واقفاً .

ولما كان ذلك أمراً هائلاً ، أشار إلى عظمته بقوله ، مؤكداً لمضمون الجملة المتقدمة : ﴿ صنع الله ﴾ أي صنع الذي له الأمر كله ذلك الذي أخبر أنه كائن في ذلك اليوم صنعاً ، ونحو هذا المصدر إذا جاء عقب كلام جاء كالشاهد بصحته ، والمنادي على سداده ، والصارخ بعلو مقداره ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا هكذا ، ثم زاد في التعظيم بقوله دالاً على تمام الإحكام في ذلك الصنع : ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾ .

(7/582)

ولما ثبت هذا على هذا الوجه المتقن ، والنظام الأمكن ، أنتج قطعاً قوله : ﴿ إنه ﴾ أي الذي أحكم هذه الأمور كلها ﴿ خبير بما يفعلون ﴾ أي لأن الإتقان نتيجة القدرة ، وهي نتيجة العلم ، فمن لم يكن شامل العلم لم يكن تام القدرة ، وعبر بالفعل الذي هو أعم من أن يكون بعلم أو لا ، لأنه في سياق البيان لعماهم ، ونفي العلم عنهم ، وقرىء بالخطاب المؤذن بالقرب المرجي للرضا ، المرهب من الإبعاد ، المقرون بالسخط ، وبالغيبة المؤذنة

بالإعراض الموقع في الخيبة ، وما أبدع ما لاءم ذلك ولاحمه ما بعده على تقدير الجواب لسؤال من كأنه قال : ماذا يكون حال أهل الحشر مع الدخور عند الناقد البصير ؟ فقال : من إتقانه للأشياء أنه رتب الجزاء أحسن ترتيب ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ أي الكاملة وهي الإيمان ﴿ فله ﴾ وهو من جملة إحكامه للأشياء ﴿ خير ﴾ أي أفضل ﴿ منها ﴾ مضاعفاً ، أقل ما يكون عشرة أضعاف إلى ما لا يعلمه إلا الله ، وأكرمت وجوههم عن النار ، وهؤلاء أهل القرب الذين سبقت لهم الحسنى ﴿ وهم من فزع يومئذ ﴾ أي إذا وقعت هذه الأحوال ، العظيمة الأهوال ﴿ آمنون ﴾ أي حتى لا يحزنهم الفزع الأكبر ، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن نظمه وترتيبه ، وأخذ بعضه بحجزة بعض ، كأنما أفزع إفزاعاً واحداً ، ولأمر ما أعجز القوي ، وأخرس الشقاشق والادعاء ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ أي التي لا سيئة مثلها ، وهي الشرك لقوله : ﴿ فكبت ﴾ أي بأيسر أمر ﴿ وجوههم في النار ﴾ مع أنه ورد في الصحيح أن مواضع السجود – التي أشرفها الوجوه – لا سبيل للنار عليها ، والوجه أشرف ما في الإنسان ، فإذا هان كان ما سواه أولى بالهوان ، والمكبوب عليه منكوس .

ولما كانوا قد نكسوا أعمالهم وعكسوها بعبادة غير الله ، فوضعوا الشيء في غير موضعه ، فعظموا ما حقه التحقير ، واستهانوا أمر العلي الكبير .

وكان الوجه محل ظهور الحياء والانكسار ، لظهور الحجة ، وكانوا قد حدقوا الأعين جلادة وجفاء عند العناد ، وأظهروا في الوجوه التجهم والعبوس والارتداد ، بدع قوله بناء على ما تقديره بما دل عليه الاحتباك : وهم من فزع يومئذ خائفون ، وليس لهم إلا مثل سيئتهم : ﴿ هل ﴾ أي مقولاً لهم : هل ﴿ تجزون ﴾ أي بغمس الوجوه في النار ؛ وبني للمفعول لأن المرغب المرهب الجزاء ، لا كونه من معين ، وإشارة إلى أنه يكون بأيسر أمر ، لأن من المعلوم أن المجازي هو الله لا غيره ﴿ إلا ما كنتم ﴾ أي بما هو لكم كالجبلة ﴿ تعملون ﴾ أي تكررون عمله وأنتم تزعمون أنه مبني على قواعد العلم بحيث يشهد كل من رآه أنه مماثل لأعمالكم سواء بسواء ، وهو شامل أيضاً لأهل القسم الأول ، والآية من الاحتباك : ذكر الخيرية والأمن أولاً دليلاً على حذف المثل والخوف ثانياً ، والكب في النار ثانياً دليلاً على الإكرام عنه أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 454.456 ﴾

(9/582)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

اعلم أن هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة .

أما قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ ففيه وجوه : أحدها : أنه شيء شبيه بالقرن ، وأن إسرافيل عليه السلام ينفخ فيه بإذن الله تعالى ، فإذا سمع الناس ذلك الصوت وهو في الشدة بحيث لا تحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى الناقور ﴾ [المدثر : 8] وهذا قول الأكثرين وثانيها : يجوز أن يكون تمثيلاً لدعاء الموت فإن خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة وثالثها : أن الصور جمع الصور وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والأول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه .

أما قوله : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ فاعلم أنه إنما قال (ففزع) ولم يقل فيفزع للإشعار بتحقيق الفزع وثبوته ، وأنه كائن لا محالة لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به والمراد فزعهم عند النفخة الأولى .

أما قوله : ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ فالمراد إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وملك الموت ، وقيل الشهداء ، وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش ، وعن جابر موسى منهم لأنه صعق مرة ومثله قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ [الزمر : 68] وليس فيه خبر مقطوع ، والكتاب إنما يدل على الجملة .

أما قوله : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين ﴾ فقرىء (أتوه) و (أتاه) ودخرين وداخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر ، وقيل معنى الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ، ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمر الله وانقيادهم له .

(10/582)

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

اعلم أن هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهي تسيير الجبال ، والوجه في حسبانهم أنها جامدة فلأن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفية ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مراً حثيثاً .

أما قوله : ﴿ صُنْعَ الله ﴾ فهو من المصادر المؤكدة كقوله : ﴿ وَعَدَ الله ﴾ [النساء : 95] و ﴿ صِبْغَةَ الله ﴾ [البقرة : 138] إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ ، والمعنى أنه لما قدم ذكر هذه الأمور التي لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب

قال القاضي عبد الجبار فيه دلالة على أن القبائح ليست من خلقه وإلا وجب وصفها بأنها

متقنة ولكن الإجماع مانع منه والجواب : أن الإتقان لا يحصل إلا في المركبات فيمتنع وصف الأعراض بها ، والله أعلم .

(11/582)

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) ﴾

اعلم أنه تعالى لما تكلم في علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف إما أن يكون مطيعاً أو عاصياً ، أما المطيع فهو الذي جاء بالحسنة وله أمران : أحدهما : أن له ما هو خير منها وذلك هو الثواب ، فإن قيل الحسنة التي جاء العبد بها يدخل فيها معرفة الله تعالى والإخلاص في الطاعات والثواب ، إنما هو الأكل والشرب فكيف يجوز أن يقال الأكل والشرب خير من معرفة الله جوابه من جوابه : أحدها : أن ثواب المعرفة النظرية الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى ، وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة ، ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الأكل والشرب خيراً من معرفة الله تعالى وأنه باطل وثانيها : أن الثواب خير من العمل من حيث إن الثواب دائم والعمل منقضي ولأن

العمل فعل العبد ، والثواب فعل الله تعالى وثالثها : ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي له خير حاصل من جهتها وهو الجنة .

(12/582)

السؤال الثاني : الحسنة لفظة مفردة معرفة ، وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد ، وإذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأناً وأعلاها درجة وهو الإيمان ، فلهذا قال ابن عباس من أفراد الحسنة كلمة الشهادة ، وهذا يوجب القطع بأن لا يعاقب أهل الإيمان وجوابه : ذلك الخير هو أن لا يكون عقابه مخلداً الأمر الثاني : للمطيع هو أنهم آمنون من كل فزع ، لا كما قال بعضهم إن أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر ، فإن قيل أليس أنه تعالى قال في أول الآية : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ [النمل : 87] فكيف نفى الفزع ههنا ؟ جوابه : أن الفزع الأول هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس لشدة تقع وهو يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه كما قيل ، يدخل الرجل بصدر هياب وقلب وجاب ، وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة ، وأما الثاني فالخوف من العذاب .

أما قراءة من قرأ من فزع بالتنوين فهي تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب ، وأما

ما يلحق الإنسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك منه أحد ، وفي الأخبار ما يدل عليه ، ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف ، وهو خوف النار وأمن يعدي بالجار وبنفسه كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ ﴾ [الأعراف : 99] فهذا شرح حال المطيعين ، أما شرح حال العصاة فهو قوله : ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ قيل السيئة الإشراك وقوله : ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النار ﴾ فاعلم أنه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل فكبوا في النار كقوله : ﴿ فَكُبْكِبُواْ ﴾ [الشعراء : 94] ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذاناً بأنهم يلقون على وجوههم فيها (مكبوبين) .

أما قوله : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجوز فيه الالتفات ، وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 188 .

190 ﴾

(13/582)

وقال الماوردى :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾

وهو يوم النشور من القبور وفيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أن الصور جمع صورة ، والنفخ فيها إعادة الأرواح إليها .

الثاني : أنه شيء ينفخ فيه كالبوق يخرج منه صوت يحيا بن الموتى .

الثالث : أنه مثل ضربه الله لإحياء الموتى في وقت واحد بخروجهم فيه كخروج الجيش إذا أُنذروا بنفخ البوق فاجتمعوا في الخروج وقتاً واحداً .

﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ ﴾ وفي هذا الفزع هنا قولان :

أحدهما : أنه الإجابة والإسراع إلى النداء من قولك فزعت إليه من كذا إذا أسرعت إلى ندائه في معونتك قال الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخٌ فزع . . . كان الصراخ له قرع الظنابيب

فعلى هذا يكون ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء لهم من الإجابة والإسراع إلى النار . ويحتمل من أريد بهم وجهين :

أحدهما : الملائكة الذين أخروا عن هذه النفخة .

والقول الثاني : إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحذر لأنهم أزعجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا وهذا أشبه القولين فعلى هذا يكون قوله ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ ﴾ استثناء لهم من الخوف والفزع .

وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم الملائكة الذين يثبت الله قلوبهم ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أنهم الشهداء . روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم الشهداء ولولا هذا النص لكان الأنبياء بذلك أحق لأنهم لا يقصرون عن منازل الشهداء وإن كان في هذا النص تنبيه عليهم . وقيل إن إسرافيل هو النافخ في الصور .

﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : راغمين ، قاله السدي .

(14/582)

الثاني : صاغرين ، قاله ابن عباس وقتادة ويكون المراد بقوله ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ من فزع ومن استثني من الفزع بقوله ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ ﴾ وهذا يكون في النفخة الثانية ، والفزع بالنفخة الأولى ، وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ عَاماً

" . قوله ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي واقفة

. ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أي لا يرى سيرها لبعد أطرافها كما لا يرى سير السحاب إذا انبسط لبعد أطرافه وهذا مثل ، وفيم ضرب له ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال وهي آخذة

بحظها من الزوال كالسحاب ، قاله سهل بن عبد الله .

الثاني : أنه مثل ضربه الله للإيمان ، تحسبه ثابتاً في القلب وعمله صاعد إلى السماء .

الثالث : أنه مثل للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى القدس .

﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي فعل الله الذي أتقن كل شيء . وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أحكم كل شيء ، قاله ابن عباس .

الثاني : أحصى ، قاله مجاهد .

الثالث : أحسن ، قاله السدي .

الرابع : أوثق ، واختلف فيها فقال الضحاك : هي كلمة سريانية ، وقال غيره : هي عربية مأخوذ من إتقان الشيء إذا أحكم وأوثق ، وأصلها من التقن وهو ما ثقل من الحوض من طينة .

قوله : ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أنها أداء الفرائض كلها .

الثاني : أفضل منها لأنه يعطى بالحسنة عشراً ، قاله زيد بن أسلم .

الثالث : فله منها خير للثواب العائد عليه ، قاله ابن عباس ومجاهد .

﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : وهم من فزع يوم القيامة آمنون في الجنة .

الثاني : وهم من فزع الموت في الدنيا آمنون في الآخرة .

﴿ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ الشرك في قول ابن عباس وأبي هريرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(15/582)

وقال ابن عطية :

ثم ذكر تعالى يوم ﴿ ينفخ في الصور ﴾ ،

وهو القرن في قول جمهور الأمة ، وهو مقتضى الأحاديث ، وقال مجاهد : هو كهيئة البوق ، وقالت فرقة : " الصور " جمع صورة كتمرة وتمر وجمرة وجمر والأول أشهر ، وفي الأحاديث المتداولة أن إسرافيل عليه السلام هو صاحب " الصور " وأنه قد جثا على ركبته الواحدة وأقام الأخرى وأمال خده والتقم القرن ينتظر متى يؤذن له في النفخ ، وهذه النفخة المذكورة في هذه الآية هي نفخة الفزع ، وروى أبو هريرة أن الملك له في الصور ثلاث نفخات : نفخة الفزع وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام من القبور ، وقالت فرقة إنما هي نفختان كأنهم جعلوا الفزع والصعق في نفخة واحدة ، واستدلوا على

ذلك بقوله تعالى ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [الزمر : 68] وقالوا : أخرى لا يقال إلا في الثانية .

قال القاضي أبو محمد : والقول الأول أصح ، و﴿ أخرى ﴾ [الزمر : 68] يقال في الثالثة ومنه قول ربيعة بن مكدم : [الكامل]

" ولقد شفعتهما بآخر ثالث " . . . ومنه قوله تعالى : ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ [النجم : 20] .

وأما قول الشاعر : [مجزوء الكامل]

جعلت لها عودين من . . . نشم وآخر من ثمامه

فيحتمل أن يريد به ثانياً وثالثاً فلا حجة فيه . وقال تعالى : ﴿ ففزع ﴾ وهو أمر لم يقع بعد إشعاراً بصحة وقوعه وهذا معنى وضع الماضي موضع المستقبل ، وقوله تعالى : ﴿ إلا من شاء الله ﴾ استثناء فيمن قضى الله تعالى من ملائكته وأنبيائه وشهداء عبيده أن لا ينالهم فزع النفخ في الصور ، قال أبو هريرة : هي في الشهداء ، وذكر الرماني أنه قول النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال مقاتل : هي في جبريل عليه السلام وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وإذا كان الفزع الأكبر لا ينالهم فهم حريون أن لا ينالهم هذا .

(16/582)

قال القاضي أبو محمد : على أن هذا في وقت ترقب وذلك في وقت أمن إذ هو إطباق جهنم على أهلها ، وقرأ جمهور القراء " وكل آتوه " على وزن فاعلوه ، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم " أتوه " على صيغة الفعل الماضي وهي قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة ، وقرأ قتادة " أتاه " على الإفراد إتباعاً للفظ " كل " وإلى هذه القراءة أشار الزجاج ولم يذكرها ، و" الداخر " المتذلل الخاضع ، قال ابن زيد وابن عباس : " الداخر " الصاغر ، وقرأ الحسن " دخرين " بغير ألف ، وتظاهرت الروايات بأن الاستثناء في هذ الآية إنما أريد به الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهم أهل للفزع لأنهم بشر لكن فضلوا بالأمن من ذلك اليوم .

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

هذا وصف حال الأشياء يوم القيامة عقب النفخ في الصور ، و" الرؤية " هي بالعين وهذه الحال ل ﴿ الجبال ﴾ هي في أول الأمر تسير وتموج وأمر الله تعالى ينسفها ويفتها خلال ذلك فتصير كالعهن ، ثم تصير في آخر الأمد هباء منبثاً ، و" الجمود " ، التضام والتلزز في الجوهر ، قال ابن عباس ﴿ جامدة ﴾ قائمة ، ونظيره قول الشاعر [النابغة] : [الطويل]

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم . . . وقوف لحاج والركاب تهملج

و ﴿ صنع الله ﴾ مصدر معرف والعامل فيه فعل مضمر من لفظه ، وقيل هو نصب على الإغراء بمعنى انظروا صنع الله ، و" الإتقان " الإحسان في المعمولات وأن تكون حساناً وثيقة القوة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " يفعلون " بالياء وقرأ الباقون " تفعلون " بالتاء على الخطاب ، و" الحسنة " الإيمان ، وقال ابن عباس والنخعي وقتادة : " هي لا إله إلا الله ، وروي عن علي بن الحسين أنه قال : كنت في بعض خلواتي فرفعت صوتي ب " لا إله إلا الله " فسمعت قائلاً يقول إنها الكلمة التي قال الله فيها ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ وقوله ﴿ خير منها ﴾ يحتمل أن يكون للتفضيل ، ويكون في قوله ﴿ منها ﴾ حذف مضاف تقديره خير من قدرها واستحقاقها ، بمعنى أن الله تعالى تفضل عليه فوق ما تستحق حسنته ، قال ابن زيد : يعطى بالواحدة عشراً والداعية إلى هذا التقدير أن الحسنة لا يتصور بينها وبين الثواب تفضيل ، ويحتمل أن يكون خبر ليس للتفضيل بل اسم للثواب والنعمة ، ويكون قوله تعالى : ﴿ منها ﴾ لابتداء الغاية ، أي هذا الخير الذي يكون له هو من حسنته وبسببها ، وهذا قول الحسن وابن جريج ، وقال عكرمة : ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله ، وإنما له الخير منها ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر " من

فزع " بالإضافة ، ثم اختلفوا في فتح الميم وكسرها من ﴿ يومئذ ﴾ فقرأ أكثرهم بفتح الميم على بناء الظرف لما أضيف إلى غير متمكن ، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع بكسر الميم على إعمال الإضافة ، وذلك أن الظروف إذا أضيفت إلى غير متمكن جاز بناؤها وإعمال الإضافة فيها .

ومن ذلك قول الشاعر [النابغة الذبياني] : [الطويل]

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . . وقلت ألّما أصحُ والشيب وازع

(18/582)

فإنه يروى " على حين " بفتح النون و" على حينِ " بكسرها ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " من فزعٍ " بالتنوين وترك الإضافة ولا يجوز مع هذه القراءة إلا فتح الميم من " يومَئذ " ، و" السيئة " التي هي في هذه الآية هي الكفر والمعاصي فيمن ختم الله تعالى عليه من أهل المشيئة بدخول النار ، و﴿ كبت ﴾ معناه جعلت تلي النار ، وجاء هذا كباً من حيث خلقتها في الدنيا تعطي ارتفاعها ، وإذا كبت الوجوه فسائر البدن أدخل في النار إذ الوجه موضع الشرف والحواس ، وقوله ﴿ هل تجزون ﴾ بمعنى يقال لهم ذلك وهذا على جهة التوبيخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾

قال ابن عباس : هذه النفخة الأولى .

قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السموات وَمَن فِي الأَرض ﴾ [قال المفسرون : المعنى : فيفزع مَن في السماوات ومن في الارض] ، والمراد أنهم ماتوا ، بلغ بهم الفزع إلى الموت .

وفي قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ شاء اللّهُ ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الشهداء ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير .

والثاني : جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت ، ثم إن الله تعالى يميتهم بعد ذلك ، قاله مقاتل .

والثالث : أنهم الذين في الجنة من الحور وغيرهن ، وكذلك مَن في النار ، لأنهم خُلقوا للبقاء ، ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا .

قوله تعالى : ﴿ وكُلٌّ ﴾ أي : من الأحياء الذين ماتوا ثم أُحيوا ﴿ آتُوه ﴾ وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : ﴿ أَتَوْهُ ﴾ بفتح التاء مقصورة ، أي : يأتون الله يوم القيامة ﴾

داخِرِينَ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : صاغرين .

قال أبو عبيدة : ﴿ كُلٌّ ﴾ لفظه لفظ الواحد ، ومعناه يقع على الجميع ، فهذه الآية في موضع جمع .

قوله تعالى : ﴿ وتَرَى الجبالَ ﴾ قال ابن قتيبة : هذا يكون إذا نُفخ في الصُّور ، تُجمَع الجبالُ وتُسَيَّر ، فهي لكثرتها تُحسب ﴿ جامدة ﴾ أي : واقفة ﴿ وهي تَمُرُّ ﴾ أي : تسير سير السحاب ، وكذلك كلُّ جيش عظيم يحسبه الناظر من بعيد واقفاً وهو يسير ، لكثرته ، قال الجَعْدِيّ يصف جيشاً :

بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ . . .

وُقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكاب تُهَمْلِجُ

قوله تعالى : ﴿ صُنْعَ اللّهِ ﴾ قال الزجاج : هو منصوب على المصدر ، لأن قوله : ﴿ وتَرَى الجبال تحسَبُها جامدةً ﴾ دليل على الصنعة ، فكأنه قال : صنع الله ذلك صنعاً ، ويجوز الرفع على معنى : ذلك صُنْع الله .

فأما الإِتقان ، فهو في اللغة : إِحكام الشيءِ .

(20/582)

قوله تعالى : ﴿ إِنَّه خَبِير بما تَفْعَلون ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ يفعلون ﴾ بالياء .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي بالتاء .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جاءَ بالحسَنة ﴾ قد شرحنا الحسنة والسيِّئة في آخر [الأنعام : 160] .

قوله تعالى : ﴿ فله خير منها ﴾ فيه قولان .

أحدهما : فله خير منها يصل إليه ، وهو الثواب ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة .

والثاني : فله أفضل منها ، لأنه يأتي بحسنة فيُعطى عشر أمثالها ، قاله زيد ابن أسلم .

قوله تعالى : ﴿ وهم من فزع يومئذ ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ﴿ مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ ﴾ مضافاً .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ مِنْ فَزَعٍ ﴾ بالتنوين ﴿ يومَئِذٍ ﴾ بفتح الميم .

وقال الفراء : الإضافة أعجب إليَّ في العربية ، لأنه فزع معلوم ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾ [الانبياء : 103] فصيَّره معرفة ، فإذا أضفت مكان المعرفة كان أحبَّ إليَّ .

واختار أبو عبيدة قراءة التنوين وقال : هي أعمُّ التأويلين ، فيكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم .

قال أبو علي الفارسي : إذا نوّن جاز أن يُعنى به فزعٌ واحدٌ ، وجاز أن يُعنى به الكثرة ، لأنه مصدر ، والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة الألفاظ ، كقوله :

﴿ إِنَّ أنكر الأصوات لَصوتُ الحمير ﴾ [لقمان : 19] ، وكذلك إذا أضيف جاز أن يُعنى به فزع واحد ، وجاز أن يعنى به الكثرة ؛ وعلى هذا القول ، القراءتان سواء ، فإن أريد به الكثرة ، فهو شامل لكل فزع يكون يوم القيامة ، وإن أريد به الواحد ، فهو المشار إليه بقوله : ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء : 103] .

وقال ابن السائب : إذا أطبقت النّارُ على أهلها فَزِعوا فَزْعَةً لم يفزعوا مثلها ، وأهل الجَنَّة آمنون من ذلك الفزع .

(21/582)

قوله تعالى : ﴿ ومَنْ جاء بالسَّيِّئة ﴾ قال المفسرون : هي الشِّرك ﴿ فكُبَّتْ وُجوهُهم ﴾ يقال : كَبَبْتُ الرجل : إذا ألقيتَه لوجهه ؛ وتقول لهم خَزَنَة جهنم : ﴿ هل تُجْزَوْنَ إلاَّ ما كُنتم تَعْمَلونَ ﴾ أي : إلاَّ جزاءَ ما كنتم تعملون في الدُّنيا من الشِّرك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(22/582)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾

أي واذكر يوم أو ذَكِّرهم يوم ينفخ في الصور .

ومذهب الفرّاء أن المعنى : وذلكم يوم ينفخ في الصور ؛ وأجاز فيه الحذف .

والصحيح في الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل .

قال مجاهد : كهيئة البوق .

وقيل : هو البوق بلغة أهل اليمن .

وقد مضى في "الأنعام" بيانه وما للعلماء في ذلك .

﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ قال أبو هريرة قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله لما فرغ من خلق السموات خلق الصُّور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة" قلت : يا رسول الله ما الصُّور ؟ قال : " قَرْن والله عظيم والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فِيهِ كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصَّعْق والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين " وذكر الحديث .

ذكره علي بن معبد والطبري والثعلبي وغيرهم ، وصححه ابن العربي .

وقد ذكرته في كتاب "التذكرة" وتكلمنا عليه هنالك ، وأن الصحيح في النفخ في الصّور أنهما نفختان لا ثلاث ، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما ؛ أي فزعوا فزعاً ماتوا منه ؛ أو إلى نفخة البعث وهو اختيار القشيري وغيره ؛ فإنه قال في كلامه على هذه الآية : والمراد النفخة الثانية أي يحيون فزعين يقولون : ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [ياس : 52] ؛ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم ؛ وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء .

قاله قتادة وقال الماورديّ : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ .

هو يوم النشور من القبور ، قال وفي هذا الفزع قولان : أحدهما : أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك في كذا إذا أسرعت إلى ندائك في معونتك .

(23/582)

والقول الثاني : إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن ؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا .

وهذا أشبه القولين .

قلت : والسنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عمر ويدلّ على أنهما

نفختان لا ثلاث ؛ خرجهما مسلم وقد ذكرناهما في كتاب "التذكرة" وهو الصحيح إن شاء الله تعالى أنهما نفختان ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ فاستثنى هنا كما استثنى في نفخة الفزع فدلّ على أنهما واحدة .

وقد روى ابن المبارك عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بين النفختين أربعون سنة الأولى يميت الله بها كل حيّ والأخرى يحيي الله بها كل ميت " فإن قيل : فإن قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة * تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ [النازعات : 76] إلى أن قال : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [النازعات : 13] وهذا يقتضي بظاهره أنها ثلاث .

قيل له : ليس كذلك ، وإنما المراد بالزجرة النفخة الثانية التي يكون عنها خروج الخلق من قبورهم ؛ كذلك قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن زيد وغيرهم .

قال مجاهد : هما صيحتان : أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله ، وأما الأخرى فتحيي كل شيء بإذن الله .

وقال عطاء : ﴿ الرَّاجِفَةُ ﴾ القيامة و ﴿ الرادِفَةُ ﴾ البعث .

وقال ابن زيد : ﴿ الراجفة ﴾ الموت و ﴿ الرادفة ﴾ الساعة .

والله أعلم .

﴿ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ ثم اختلف في هذا المستثنى مَن هم .

ففي حديث أبي هريرة أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون إنما يصل الفزع إلى الأحياء ؛ وهو قول سعيد بن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش .

وقال القشيري : الأنبياء داخلون في جملتهم ؛ لأن لهم الشهادة مع النبوّة وقيل : الملائكة .

قال الحسن : استثنى طوائف من الملائكة يموتون بين النفختين .

قال مقاتل : يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت .

وقيل : الحور العين .

(24/582)

وقيل : هم المؤمنون ؛ لأن الله تعالى قال عقيب هذا : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ .

وقال بعض علمائنا : والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح والكل محتمل .

قلت : خفي عليه حديث أبي هريرة وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي فليعوّل عليه ؛ لأنه نص في التعيين وغيره اجتهاد .

والله أعلم .

وقيل : غير هذا على ما يأتي في "الزُّمَر" .

وقوله : ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ ماض و ﴿ يُنْفَخُ ﴾ مستقبل فيقال : كيف عطف ماض على مستقبل ؟ فزعم الفراء أن هذا محمول على المعنى ؛ لأن المعنى : إذا نفخ في الصور ففزع .

﴿ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ نصب على الاستثناء .

﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ قرأ أبو عمرو وعاصم والكسائي ونافع وابن عامر وابن كثير : ﴿ آتُوهُ ﴾ جعلوه فعلاً مستقبلاً .

وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة وحفص عن عاصم : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ مقصوراً على الفعل الماضي ، وكذلك قرأه ابن مسعود .

وعن قتادة ﴿ وَكُلٌّ أَتَاهُ دَاخِرِينَ ﴾ .

قال النحاس : وفي كتابي عن أبي إسحاق في القراءات (من قرأ) : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ وحدَّه على لفظ ﴿ كُلّ ﴾ ومن قرأ : ﴿ آتُوهُ ﴾ جمع على معناها ، وهذا القول غلط قبيح ؛ لأنه إذا قال : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ فلم يوحّد وإنما جمع ، ولو وحّد لقال : ﴿ أَتَاهُ ﴾ ولكن من قال : ﴿ أَتَوْهُ ﴾ جمع على المعنى وجاء به ماضياً لأنه رده إلى ﴿ فَفَزِعَ ﴾ ومن قرأ : ﴿ وَكُلٌّ آتَوْهُ ﴾ حمله على المعنى أيضاً وقال : ﴿ آتُوهُ ﴾ لأنها جملة منقطعة من الأول .

قال ابن نصر : قد حكي عن أبي إسحاق رحمه الله ما لم يقله ، ونص أبي إسحاق : ﴿

وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ ويقرأ : ﴿ آتُوهُ ﴾ فمن وحّد فللفظ ﴿ كُلّ ﴾ ومن جمع فلمعناها .

يريد ما أتى في القرآن أو غيره من توحيد خبر ﴿ كلّ ﴾ فعلى اللفظ أو جمع فعلى المعنى ؛ فلم يأخذ أبو جعفر هذا المعنى .

(25/582)

قال المهدوي : ومن قرأ ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ فهو فعل من الإتيان وحمل على معنى ﴿ كل ﴾ دون لفظها ، ومن قرأ : ﴿ وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ ﴾ فهو اسم الفاعل من أتى .

يدلك على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ﴾ [مريم : 95] .

ومن قرأ : ﴿ وَكُلٌّ أَتَاهُ ﴾ حمله على لفظ ﴿ كلّ ﴾ دون معناها وحمل ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ على المعنى ؛ ومعناه صاغرين ؛ عن ابن عباس وقتادة .

وقد مضى في "النحل" .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ قال ابن عباس : أي قائمة وهي تسير سيراً حثيثاً .

قال القتبي : وذلك أن الجبال تُجمع وتُسيَّر ، فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير ؛ وكذلك كل شيء عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر ، لكثرته وبعد ما بين أطرافه ، وهو في حسبان

الناظر كالواقف وهو يسير .

قال النابغة في وصف جيش :

بِأَرْعَنَ مثل الطَّودِ تَحسبُ أَنَّهمْ . . .

وقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكَابُ تُهمِلجُ

قال القشيريّ : وهذا يوم القيامة ؛ أي هي لكثرتها كأنها جامدة ؛ أي واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسها تسير سير السحاب ، والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهي تسير ؛ أي تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء ، فقال الله تعالى ؛ ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] ويقال : إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها ؛ وإبراز ما كانت تواريه ؛ فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة ؛ ثم تصير كالعهن المنفوش ؛ وذلك إذا صارت السماء كالمُهْل ، وقد جمع الله بينهما فقال : ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل * وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ [المعارج : 98] .

والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تنقطع بعد أن كانت كالعهن .

(26/582)

والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدّمة قارّة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز ، فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها .

والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار ، فمن نظر إليها من بعدٍ حسبها لتكاثفها أجساداً جامدة ، وهي بالحقيقة مارّة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة .

والحالة السادسة أن تكون سراباً فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً منها كالسراب .

قال مقاتل : تقع على الأرض فتسوَّى بها .

ثم قيل هذا مثل .

قال الماوردي : وفيما ضُرِب له ثلاثة أقوال : أحدها أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ؛ قاله سهل بن عبد الله .

الثاني : أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب وعمله صاعد إلى السماء .

الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش .

﴿ صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي هذا من فعل الله ، و (ما) هو فعل منه فهو متقَن .

و ﴿ تَرَى ﴾ من رؤية العين ولو كانت من رؤية القلب لتعدت إلى مفعولين .

والأصل تَرْأَى فألقيت حركة الهمزة على الراء فتحرّكت الراء وحذفت الهمزة ، وهذا

سبيل تخفيف الهمزة إذا كان قبلها ساكن ، إلا أن التخفيف لازم لتَرَى .

وأهل الكوفة يقرؤون : ﴿ تَحْسَبُهَا ﴾ بفتح السين وهو القياس ؛ لأنه من حَسِب يحسَب إلا أنه قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافها أنه قرأ بالكسر في المستقبل ، فتكون على فَعِل يفعِل مثل نَعِم ينعِم وبَئِس يبئِس وحكي يَئِس يَيْئِس من السالم ، لا يعرف في كلام العرب غير هذه الأحرف .

(27/582)

﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ تقديره مرّاً مثل مرّ السحاب ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف والمضاف مقام المضاف إليه ؛ فالجبال تُزال من أماكنها من على وجه الأرض ؛ وتُجمع وتُسيَّر كما تُسيّر السحاب ، ثم تُكسّر فتعود إلى الأرض كما قال : ﴿ وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 5] .

﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ عند الخليل وسيبويه منصوب على أنه مصدر ؛ لأنه لما قال عز وجل : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ دلّ على أنه قد صنع ذلك صنعاً .

ويجوز النصب على الإغراء ؛ أي انظروا صنع الله .

فيوقف على هذا على ﴿ السَّحَابِ ﴾ ولا يوقف عليه على التقدير الأوّل .

ويجوز رفعه على تقدير ذلك صنع الله .

﴿ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أي أحكمه ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم :

" رحم الله من عمل عملاً فأتقنه " وقال قتادة : معناه أحسن كل شيء .

والإتقان الإحكام ؛ يقال : رجل تِقْن أي حاذق بالأشياء .

وقال الزهري : أصله من ابن تِقْن ، وهو رجل من عاد لم يكن يسقط له سهم فضرب به المثل ؛ يقال : أَرْمَى من ابن تِقْن ثم يقال لكل حاذق بالأشياء تقن .

﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب قراءة الجمهور .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء .

قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما : الحسنة لا إله إلا الله .

وقال أبو معشر : كان إبراهيم يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ولا يستثني أن الحسنة لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(28/582)

وقال علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم : غزا رجل فكان إذا خلا بمكان قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فبينما هو في أرض الروم في أرض جلفاء وبردى رفع صوته فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فخرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض فقال له : والذي نفسي بيده إنها الكلمة التي قال الله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ .

" وروى أبو ذَرّ قال : قلت يا رسول الله أوصني .

قال : "اتق الله وإذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها "قال قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : "من أفضل الحسنات" وفي رواية قال : "نعم هي أحسن الحسنات" "

ذكره البيهقي .

وقال قتادة : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ ﴾ بالإخلاص والتوحيد .

وقيل : أداء الفرائض كلها .

قلت : إذا أتى بلا إله إلا الله على حقيقتها وما يجب لها على ما تقدّم بيانه في سورة "إبراهيم" فقد أتى بالتوحيد والإخلاص والفرائض .

﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ قال ابن عباس : أي وصل إليه الخير منها ؛ وقاله مجاهد .

وقيل : فله الجزاء الجميل وهو الجنة .

وليس ﴿ خير ﴾ للتفضيل .

قال عكرمة وابن جريج : أما أن يكون له خير منها يعني من الإيمان فلا ؛ فإنه ليس شيء خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير .

وقيل : ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ للتفضيل أي ثواب الله خير من عمل العبد وقوله وذكره ، وكذلك رضوان الله خير للعبد من فعل العبد ؛ قاله ابن عباس .

وقيل : يرجع هذا إلى الإضعاف فإن الله تعالى يعطيه بالواحدة عشراً وبالإيمان في مدّة يسيرة الثواب الأبديّ ؛ قاله محمد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد .

﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ ﴾ بالإضافة .

قال أبو عبيد : وهذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم ، وإذا قال : ﴿ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ صار كأنه فزع دون فزع دون فزع .

(29/582)

قال القشيري : وقرىء : ﴿ مِنْ فَزَعٍ ﴾ بالتنوين ثم قيل يعني به فزعاً واحداً كما قال : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] .

وقيل : عنى الكثرة لأنه مصدر والمصدر صالح للكثرة .

قلت : فعلى هذا تكون القراءتان بمعنى .

قال المهدوي : ومن قرأ : ﴿ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ بالتنوين انتصب ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بالمصدر الذي هو ﴿ فَزَع ﴾ .

ويجوز أن يكون صفة لفزع ويكون متعلقاً بمحذوف ؛ لأن المصادر يخبر عنها بأسماء الزمان وتوصف بها ، ويجوز أن يتعلق باسم الفاعل الذي هو ﴿ آمِنُونَ ﴾ .

والإضافة على الاتساع في الظروف .

ومن حذف التنوين وفتح الميم بناه لأنه ظرف زمان ، وليس الإعراب في ظرف الزمان متمكناً ، فلما أضيف إلى غير متمكن ولا معرب بني .

وأنشد سيبويه :

على حينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ . . .
فَنَدلاً زُرَيْقُ المالِ نَدْلَ الثَّعَالِبِ

قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة ﴾ أي بالشرك ؛ قاله ابن عباس والنَّخعيّ وأبو هريرة ومجاهد وقيس بن سعد والحسن ، وهو إجماع من أهل التأويل في أن الحسنة لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك في هذه الآية .

﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ قال ابن عباس : ألقيت .

وقال الضحاك : طرحت ؛ يقال كببت الإناء أي قلبته على وجهه ، واللازم منه أكب ؛

وقلّما يأتي هذا في كلام العرب .

﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ أي يقال لهم هل تجزون .

ثم يجوز أن يكون من قول الله ، ويجوز أن يكون من قول الملائكة .

﴿ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا جزاء أعمالكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(30/582)

وقال أبو حيان :

﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ :

تقدم القول في الصور في سورة الأنعام ، وهذه النفخة هي نفخة الفزع .

وروى أبو هريرة أن الملك له في الصور ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام من القبور .

وقيل : نفختان ، جعلوا الفزع والصعق نفخة واحدة ، واستدلوا بقوله : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى ﴾ ويأتي الكلام في ذلك إن شاء الله .

وقال صاحب الغنيان : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ للبعث من القبور والحشر ، وعبر هنا بالماضي في قوله : ﴿ ففزع ﴾ ، وإن كان لم يقع إشعاراً بصحة وقوعه ، وأنه كائن لا محالة ، وهذه فائدة وضع الماضي موضع المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ فأوردهم النار ﴾ بعد قوله : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ ﴿ إلا من شاء الله ﴾ : أي فلا ينالهم هذا الفزع لتثبيت الله قلبه .

فقال مقاتل : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت عليهم السلام .

وإذا كان الفزع الأكبر لا ينالهم ، فهم حريون أن لا ينالهم هذا .

وقال الضحاك : الحور العين ، وخزنة النار ، وحملة العرش .

وعن جابر : منهم موسى ، لأنه صعق مرة .

وقال أبو هريرة : هم الشهداء ، ورواه أبو هريرة حديثاً ، وهو : " أنهم هم الشهداء عند ربهم يرزقون " ، وهو قول ابن جبير ، قال : هم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش .

وقيل : هم المؤمنون لقوله : ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ .

قال بعض العلماء : ولم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل .

قال القرطبي : خفي عليه حديث أبي هريرة ، وقد صححه القاضي أبو بكر بن العربي ، فيعول عليه في التعيين ، وغيره اجتهاد .

وهذا النفخ هو حقيقة ، إما في القرن ، وإما في الصور ، وهو قول الأكثرين .

وقيل : يجوز أن يكون تمثيلاً لدعاء الموتى ، فإن خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع الصوت ، فيكون ذلك مجازاً .

والأول قول الأكثرين ، وهو الصواب ، لكثرة ورود النفخ في الصور في القرآن وفي الحديث الصحيح .

(31/582)

وقيل : ففزع ، ليس من الفزع بمعنى الخوف ، وإنما معناه : أجاب وأسرع إلى البقاء .

﴿ وكل أتوه ﴾ : المضاف إليه كل محذوف تقديره : وكلهم .

وقرأ الجمهور : آتوه ، اسم فاعل ؛ وعبد الله ؛ وحمزة ، وحفص : أتوه ، فعلاً ماضياً ، وفي القراءتين روعي معنى كل من الجمع ، وقتادة : أتاه ، فعلاً ماضياً مسنداً الضمير كل على لفظها ، وجمع ﴿ داخرين ﴾ على معناها .

وقرأ الحسن ، والأعمش : دخرين ، بغير ألف .

قيل : ومعنى آتوه : حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية ، ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له .

﴿ ورى الجبال ﴾ : هو من رؤية العين تحسبها حال من فاعل ترى ، أو من الجبال .

وجامدة ، من جمد مكانه إذا لم يبرح منه ، وهذه الحال للجبال عقيب النفخ في الصور ، وهي أول أحوال الجبال ، تموج وتسير ، ثم ينسفها الله فتصير كالعهن ، ثم تكون هباء منبثاً في آخر الأمر .

﴿ وهي تمر مر السحاب ﴾ : جملة حالية ، أي تحسبها في رأي العين ثابتة مقيمة في أماكنها وهي سائرة ، وتشبيه مرورها بمر السحاب .

قيل : في كونها تمر مراً حثيثاً ، كما مر السحاب ، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد ، إذا تحركت لا تكاد تبين حركتها ، كما قال النابغة الجعدي في صفة جيش :

نار عن مثل الطود تحسب أنهم . . .

وقوف لحاج والركاب تهملج

وقيل : شبه مرورها بمر السحاب في كونها تسير سيراً وسطاً ، كما قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها . . .

مر السحابة لا ريث ولا عجل

وحسبان الرائي الجبال جامدة مع مرورها ، قيل : لهول ذلك اليوم ، فليس له ثبوت ذهن في الفكر في ذلك حتى يتحقق كونها ليست بجامدة .

وقال أبو عبد الله الرازي : الوجه في حسبانهم أنها جامدة ، أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمت ، ظن الناظر إليها أنها واقفة ، وهي تمر

مراً حثيثاً . انتهى .

وقيل : وصف تعالى الجبال بصفات مختلفة ، ترجع إلى تفريغ الأرض منها وإبراز ما كانت تواريه .

(32/582)

فأول الصفات : ارتجاجها ، ثم صيرورتها كالعهن المنفوش ، ثم كالهباء بأن تتقطع بعد أن كانت كالعهن ، ثم نسفها ، وهي مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها ، والأرض غير بارزة ، وبالنسف برزت ، ونفسها بإرسال الرياح عليها ، ثم تطييرها بالريح في الهواء كأنها غبار ، ثم كونها سراباً ، فإذا نظرت إلى مواضعها لم تجد فيها منها شيئاً كالسراب .

وقال مقاتل : بل تقع على الأرض فتسوى بها .

وانتصب ﴿ صنع الله ﴾ على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة التي تليها ، فالعامل فيه مضمر من لفظه .

وقال الزمخشري : ﴿ صنع الله ﴾ من المصادر المؤكدة كقوله : ﴿ وعد الله ﴾ و ﴿ صبغة الله ﴾ إلا أن مؤكده محذوف ، وهو الناصب ليوم ينفخ ، والمعنى : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ ، فكان كيت وكيت ، أثاب الله المحسنين ، وعاقب المجرمين ، ثم قال : ﴿ صنع

الله ﴾ ، يريد به الإثابة والمعاقبة ، وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، حيث قال : ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ ، يعني ؛ أن مقابلته الحسنة بالثواب ، والسيئة بالعقاب ، من جملة أحكامه للأشياء وإتقانه لها واجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد ، وبما يستوجبون عليه ، فيكافئهم على حسب ذلك .

ثم لخص ذلك بقوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله ﴾ ، إلى آخر الآيتين .

فانظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن نظمه وترتيبه ، ومكانة إضماده ، ورصانة تفسيره ، وأخذ بعضه بحجزة بعض ، كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ، وما لأمر أعجز القوى وأخرس الشقاشق ، ونحو هذا المصدر ، إذا جاء عقيب كلام ، جاء كالشاهد لصحته ، والمنادى على سداده ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما كان .

(33/582)

ألا ترى إلى قوله : ﴿ صنع الله ﴾ ، و ﴿ صبغة الله ﴾ و ﴿ وعد الله ﴾ و ﴿ فطرة الله ﴾ بعد ما رسمها بإضافتها إليه تسمية التعظيم ، كيف تلاها بقوله : ﴿ الذي أتقن كل شيء ، ومن أحسن من الله صبغة ﴾ ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ ﴿ لا تبديل لخلق

الله ﴾ انتهى .

وهذا الذي ذكر من شقاشقه وتكثيره في الكلام ، واحتياله في إدارة ألفاظ القرآن لما عليه ، من مذاهب المعتزلة .

والذي يظهر أن صنع الله مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة ، وهي جملة الحال ، أي صنع الله بها ذلك ، وهو قلعها من الأرض ، ومرّها مرًّا مثل مر السحاب .

وأما قوله : إلا أن مؤكده محذوف ، وهو الناصب ليوم ينفخ إلى قوله صنع الله ، يريد به الإثابة والمعاقبة ، فذلك لا يصح ، لأن المصدر المؤكد لمضمون الجملة لا يجوز حذف جملته ، لأنه منصوب بفعل من لفظه ، فيجتمع حذف الفعل الناصب وحذف الجملة التي أكد مضمونها بالمصدر ، وذلك حذف كثير مخل .

ومن تتبع مساق هذه المصادر التي تؤكد مضمون الجملة ، وجد الجمل مصرحاً بها ، لم يرد الحذف في شيء منها ، إذ الأصل أن لا يحذف المؤكد ، إذ الحذف ينافي التوكيد ، لأنه من حيث أكد معتنى به ، ومن حيث حذف غير معتنى به .

وقيل : انتصب صنع الله على الإغراء بمعنى ، انظروا صنع الله .

وقرأ العربيان ، وابن كثير : يفعلون بالياء ؛ وباقي السبعة بتاء الخطاب .

ولما ذكر علامات القيامة ، ذكر أحوال المكلفين بعد قيام الساعة .

﴿ والحسنة ﴾ : الإيمان .

وقال ابن عباس ، والنخعي ، وقتادة : هي لا إله إلا الله ، ورتب على مجيء المكلف بالحسنة شيئين : أحدهما : أنه له خير منها ، ويظهر أن خيراً ليس أفعل تفضيل ، ومن لابتداء الغاية ، أي له خير من الخيور مبدؤه ونشؤه منها ، أي من جهة هذه الحسنة ، والخير هنا : الثواب .

وهذا قول الحسن ، وابن جريج ، وعكرمة .

قال عكرمة : ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله ، يريد أنها ليست أفعل التفضيل .

وقيل : أفعل التفضيل .

(34/582)

فقال الزمخشري : ﴿ فله خير منها ﴾ ، يريد الإضعاف ، وأن العمل ينقضي والثواب يدوم ، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد . انتهى .

وقوله : وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد ، تركيب مختلف فيه ، فبعض العلماء منعه ، والصحيح جوازه .

وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون للتفضيل ، ويكون في قوله : ﴿ منها ﴾ ، حذف مضاف تقديره : خير من قدرها واستحقاقها ، بمعنى : أن الله تعالى تفضل عليه فوق ما تستحق

حسنته .

قال ابن زيد : يعطى بالواحدة عشراً ، والداعية إلى هذا التقدير أن الحسنة لا يتصور بينها وبين الثواب تفضيل . انتهى .

وقيل : ثواب المعرفة الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة ، ولذة النظر إلى وجهه الكريم .

وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة ، ولو لم تحمل الآية على ذلك ، لزم أن يكون الأكل والشرب خيراً من معرفة الله تعالى ، وذلك لا يكون .

وقرأ الكوفيون : ﴿ من فزع ﴾ ، بالتنوين ، ﴿ ويومئذ ﴾ ، منصوب على الظرف معمول لقوله : ﴿ آمنون ﴾ ، أو لفزع .

ويدل على أنه معمول له قراءة من أضافه إليه ، أو في موضع الصفة لفزع ، أي كائن في ذلك الوقت .

وقرأ باقي السبعة : بإضافة فزع إلى يومئذ ؛ فكسر الميم العربيان ، وابن كثير ، وإسماعيل بن جعفر ، عن نافع ، وفتحها ، بناء لإضافته إلى غير متمكن ؛ نافع ، في غير رواية إسماعيل .

والتنوين في يومئذ تنوين العوض ، حذفت الجملة وعوض منها ، والأولى أن تكون الجملة المحذوفة ما قرب من الظرف ، أي يوم ، إذ جاء بالحسنة ، ويجوز أن يكون التقدير : يوم إذ

ترى الجبال ، ويجوز أن يكون التقدير : يوم إذ ينفخ في الصور ، ولا سيما إذا فسر بأنه نفخ القيام من القبور للحساب ، ويكون الفزع إذ ذاك واحداً .

وقال أبو عليّ ما معناه : من فزع ، بالتنوين ، أو بالإضافة ، ويجوز أن يراد به فزع واحد ، وأن يراد به الكثرة ، لأنه مصدر .

(35/582)

فإن أريد الكثرة ، شمل كل فزع يكون في القيامة ، وإن أريد الواحد ، فهو الذي أشير إليه بقوله : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ وقال الزمخشري : فإن قلت : ما الفرق بين الفزعين ؟ قلت : الفزع الأول : ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدة نفع ، وهو يفجأ من رعب وهيبة ، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به .

والثاني : الخوف من العذاب . انتهى .

والسيئة : الكفر والمعاصي ممن حتم الله عليه من أهل المشيئة بدخول النار .

وخصت الوجوه ، إذ كانت أشرف الأعضاء ، ويلزم من كبها في النار كب الجميع ، أو عبر بالوجه عن جملة الإنسان ، كما يعبر عنها بالرأس والرقبة ، كما قال :

﴿ فكبكبوا فيها ﴾ فكأنه قيل : فكبوا في النار .

والظاهر من كبت ، أنهم يلقون في النار منكوسين ، قاله أبو العالية ، أعلاهم قبل أسفلهم .

ويجوز أن يكون ذلك كناية عن طرحهم في النار ، قاله الضحاك .

﴿ هل تجزون ﴾ : خطاب لهم على إضمار القول ، أي يقال لهم وقت الكب : هل تجزون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(36/582)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾

إمَّا معطوفٌ على يومَ نحشرُ منصوبٌ بناصبه أو بمضمرٍ معطوفٍ عليه . والصُّور هو القَرْنُ الذي ينفخُ فيه إسرافيلُ عليه السَّلامُ عنْ أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : " لمَّا فرغَ الله تعالى مِن خلْقِ السَّموات والأرضِ خلقَ الصُّور فأعطاهُ إسرافيلَ فهو واضعُه على فيهِ شاخصٌ بصرُه إلى العرشِ متى يُؤمر " قال قلتُ : يا رسولَ الله ما الصُّور ؟ قال : " القَرنُ " قال قلتُ : كيف هُو ؟ قال : " عظيمٌ والذي نفسي بيدِه إنَّ عظَم دارةٍ فيه كعرضِ السماءِ والأرضِ فيُؤمر بالنَّفخِ فيه فينفخُ نفخةً لا يبقى عندها في الحياةِ أحدٌ غيرُ مَن شاء الله تعالى وذلك قولُه تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى

السموات وَمَن فِى الأرض إلاَّ مَن شَاء الله ﴾ ثم يُؤمر بأُخرى فينفخُ نفخةً لا يبقي معها ميتٌ إلا بُعث وقامَ وذلك قولُه تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ "

(37/582)

والذي يستدعيه سباقُ النَّظمِ الكريمِ وسياقُه أنَّ المرادَ بالنَّفخ هَهُنا هي النفخة الثانية وبالفزعِ في قولِه تعالى ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ ما يعتري الكلَّ عند البعثِ والنّشورِ بمشاهدةِ الأمورِ الهائلةِ الخارقةِ للعاداتِ في الأنفس والآفاق من الرُّعبِ والتَّهيبِ الضرورريينِ الجبليينِ . وإيرادُ صيغةِ الماضي مع كونِ المعطوفِ عليه أعني ينفخُ مضارعاً للدّلالةِ على تحقق وقوعِه إثرَ النَّفخِ ، ولعلَّ تأخيرَ بيانِ الأحوالِ الواقعةِ عند ابتداءِ النَّفخةِ عن بيانِ ما يقعُ بعدها من حشرِ المكذبينَ من كلِّ أُمَّة لتثنيةِ التَّهويل بتكريرِ التَّذكيرِ إيذاناً بأنَّ كلَّ واحدٍ منهما طَامةٌ كُبرى وداهيةٌ دهياء حقيقة بالتَّذكيرِ على حيالِها ، ولو رُوعيَ التَّرتيبُ الوقوعيُّ لربما تُوهم أنَّ الكلَّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمر بذكرِها كما مرَّ في قصَّةِ البقرةِ ﴿ إلاَّ مَن شَاء الله ﴾ أي أنْ لا يفزعَ قيلَ : هُم جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وعزرائيلُ عليهم السَّلام ، وقيلَ : الحُورُ والخَزَنةُ وحَمَلةُ العَرْشِ ﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي كلُّ واحدٍ من المبعوثينَ عند النَّفخةِ ﴿ أَتَوْهُ ﴾ حضُروا الموقف بين يدي ربِّ العِزَّة جلَّ جلالُه للسؤالِ والجَوَابِ

والمُناقشةِ والحسَابِ . وقُرِىء أَتَاهُ باعتبارِ لفظِ الكلِّ كَما أنَّ القراءةَ الأُولى باعتبارِ معناهُ .
وقُرِىءَ آتُوه أي حاضِرُوه ﴿ داخرين ﴾ أي صاغِرينَ . وقُرِىء دَخِرينَ .

(38/582)

وقولُه تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال ﴾ عطفٌ على يُنفخ داخلٌ في حكمِ التَّذكيرِ . وقولُه عزَّ وجلَّ ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي ثابتةً في أماكنِها إمَّا بدلٌ منه أو حالٌ من ضميرِ تَرَى أو من مفعولِه . وقولُه تعالى : ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ حالٌ من ضميرِ الجبالِ في تحسبُها أو في جامدةً أي تَرَاها رأيَ العينِ ساكنةً والحالُ أنَّها تمرُّ مرَّ السَّحابِ التي تسيرها الرِّياحُ سيراً حثيثاً ، وذلكَ أنَّ الأجرامَ العظامَ إذا تحركتْ نحوَ سمتٍ لا تكادُ تتبينُ حركتُها وعليهِ قولُ مَن قالَ

بأرعنَ مثلِ الطَّودِ تَحْسَبُ أنَّهم . . . وقوفٌ لحاجٍ والرِّكابُ تُهَمْلِجُ

(39/582)

وقد أُدمج في هذا التشبيهِ تشبيهُ حالِ الجبالِ بحالِ السَّحابِ في تخلخل الأجزاءِ وانتفاشِها كما في قولِه تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ وهذا أيضاً ممَّا يقعُ بعد النَّفخةِ الثَّانيةِ عند حشرِ الخلقِ يُبدِّلُ اللهُ عزَّ وجلَّ الأرضَ غيرَ الأرضِ يُغير هيآتِها ويُسيِّر الجبالَ عن مقارّها على ما ذُكر من الهيئةِ الهائلةِ ليُشاهدَها أهلُ المحشرِ وهيَ وإنِ اندكتْ وتصدعتْ عند النَّفخةِ الأولى لكنْ تسييرُها وتسويةُ الأرضِ إنَّما يكونانِ بعد النَّفخةِ الثانية كما نطقَ به قولُه تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ فإنَّ اتباعَ الدَّاعِي الذي هُو إسرافيلُ عليه السَّلام وبروزَ الخلقِ للهِ تعالى لا يكونُ إلا بعدَ النَّفخةِ الثَّانيةِ وقد قالُوا في تفسيرِ قولِه تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وحشرناهم ﴾ إنَّ صيغةَ الماضِي في المعطوفِ عليه مُستقبلاً للدّلالةِ على تقدمِ الحشرِ على التسييرِ والرؤيةِ كأنَّه قيلَ وحشرناهُم قبلَ ذلك هذا وقد قيلَ إنَّ المرادَ هي النَّفخةُ الأُولى والفزعُ هو الذي يستتبعُ الموتَ لغايةِ شدَّةِ الهولِ كما في قولِه تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ الآيةَ فيختصُّ أثرُها بمنَ كان حيًّا عندَ وقوعِها دُونَ مَن ماتَ قبلَ ذلك من الأُمم . وجُوِّز أنَّ يرادَ بالإتيانِ داخرينَ رجوعُهم إلى أمرِه تعالى وانقيادُهم له ولا ريبَ في أنَّ ذلك ممَّا ينبغي أنْ

تنزه ساحةُ التَّنزيل عن أمثالِه . وأبعدُ مِن هذا ما قِيل إنَّ المرادَ بهذه النَّفخةِ نفخةُ الفزعِ التي تكونُ قبل نفخةِ الصَّعقِ وهي التي

(40/582)

أريدتْ بقولِه تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ هَؤُلآء إِلاَّ صَيْحَةً واحدة مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ فيسيِّرُ الله تعالى عندها الجبالَ فتمرُّ مرَّ السَّحابِ فتكون سراباً وتُرجُّ الأرضُ بأهلِها رجّاً فتكون كالسَّفينةِ الموثقة في البحرِ أو كالقنديلِ المعلَّق ترجحه الأرواحُ فإنَّه ممَّا لا ارتباطَ له بالمقامِ قطعاً ، والحقُّ الذي لا محيدَ عنه ما قدمناه ومَّما هُو نصٌّ في البابِ ما سيأتي من قولِه تعالى : ﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءامِنُونَ ﴾ ﴿ صُنْعَ الله ﴾ مصدرٌ لمضمونِ ما قبله أي صنعَ الله ذلك صُنعاً على أنَّه عبارةٌ عمَّا ذُكر من النَّفخِ في الصُّورِ وما ترتَّب عليهِ جميعاً قُصد به التنبيهُ على عظَمِ شأنِ تلك الأفاعيلِ وتهويلِ أمرِها والإيذانُ بأنَّها ليستْ بطريقِ إخلالِ نظامِ العالمِ وإفسادِ أحوالِ الكائناتِ بالكُلِّية من غيرِ أنْ يدعوَ إليها داعيةٌ أو يكونَ لها عاقبةٌ بل هي من قبيلِ بدائعِ صُنعِ الله تعالى المبنية على أساسِ الحكمةِ المستتبعةِ للغاياتِ الجميلةِ التي لأجلِها رُتبت مقدماتُ الخلقِ ومبادىءُ الإبداعِ على الوجهِ المتينِ والنَّهجِ الرَّصينِ كما يُعرب عنه قولُه تعالى : ﴿ الذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أحكمَ خلقَهُ وسوَّاهُ على ما تقتضيه

الحكمةُ.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ تعليلٌ لكون ما ذُكر صُنعاً مُحكماً له تعالى ببيانِ أنَّ عِلمَهُ تعالى بظواهرِ أفعالِ المُكلفينَ وبواطِنِها مَّما يدعُو إلى إظهارِها وبيانِ كيفيَّاتِها على ما هِيَ عليه من الحُسنِ والسُّوءِ وترتيبِ أجزيتِها عليها بعد بعثِهم وحشرِهم، وجعلُ السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ على وُفقِ ما نطقَ به التَّنزيلُ ليتحققُوا بمشاهدةِ ذلك أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ لا ريبَ فيه. وقُرِىء خبيرٌ بما يفعلونَ.

وقولُه تعالى: ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾

(41/582)

بيانٌ لما أُشير إليه بإحاطةِ علمِه تعالى بأفعالِهم من ترتيبِ أجزيتِها عليها أي مَن جاءَ منكُم أو من أولئكَ الذين أتَوه تعالى بالحسنة فله من الجزاءِ ما هو خيرٌ منها إمَّا باعتبارِ أنَّه أضعافُها وإمَّا باعتبارِ دوامِه وانقضائِها. وقيلَ فلُه خيرٌ حاصلٌ من جهتِها وهو الجنَّةُ. وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: الحسنةُ كلمةُ الشَّهادةِ ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الذينَ جاءوا بالحسناتِ ﴿ مِّن فَزَعٍ ﴾ أي عظيمٍ هائلٍ لا يُقادر قَدرُه وهو الفزعُ الحاصِلُ من مشاهدة العذابِ بعد تمامِ المُحاسبةِ وظهورِ الحَسَنات والسيئاتِ وهُو الذي في قولِه تعالى: ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع

الأكبر ﴾ وعن الحَسَنِ رحَمهُ الله تعالى حينَ يُؤمر بالعبدِ إلى النَّارِ . وقالَ ابنُ جريجٍ : حينَ يذبحُ الموتُ ويُنادِي المنادي : يا أهلَ الجنَّةِ خلودٌ فلا موتَ ويا أهلَ النَّارِ خلودٌ فلا موتَ .

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يومِ إذْ يُنفخ في الصُّور ﴿ ءامِنُونَ ﴾ لا يعتريهم ذلكَ الفزعُ الهائلُ ولا يلحقهم ضررُه أصلاً ، وأما الفزعُ الذي يعتري كلَّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ غيرَ مَن استثناه الله تعالى فإنَّما هو التَّهيبُ والرُّعبُ الحاصلُ في ابتداءِ النَّفخةِ من معاينةِ فنونِ الدَّواهي والأهوالِ ، ولا يكادُ يخلُو منه أحدٌ بحكم الجبلَّةِ وإنْ كان آمِناً من لُحوق الضَّررِ . والأمنُ يُستعمل بالجارِّ وبدونِه كما في قولِه تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ﴾ وقُرِىء من فزعِ يومئذٍ بالإضافةِ مع كسر الميم وفتحِها أيضاً والمرادُ هو الفزعُ المذكورُ في القراءةِ الأُولى لا جميعُ الأفزاعِ الحاصلةِ يومئذٍ . ومدارُ الإضافةِ كونُه أعظمَ الأفزاعِ وأكبرُها كأنَّ ما عداهْ ليس بفزعٍ بالنسبةِ إليهِ .

(42/582)

﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ قيل هو الشركُ ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النار ﴾ أي كُبُّوا فيها على وجوهِهم منكوسين أو كُبَّت فيها أنفسُهم على طريقةِ ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ﴾

﴿ النار هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على الالتفاتِ للتَّشديدِ أو على إضمارِ القولِ أي مقولاً لهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 6 صـ ﴾

(43/582)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾

إما معطوف على ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ [النمل : 83] منصوب بناصبه ، أو منصوب بمضمر معطوف على ذلك الناصب ، والصور على ما في التذكرة قرن من نور ، وذكر البخاري عن مجاهد أنه كالبوق .

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : "جار أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه " ، والمشهور أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام .

وذكر القرطبي أن الأمم مجمعة على ذلك وهو مخلوق اليوم ، فقد أخرج الترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ ؟! فكأن ذلك ثقل على أصحاب

رسول الله : صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام لهم .

قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل " وروي أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً " ما أطرق صاحب الصور مذ وكل به مستعداً بحذاء العرش مخافة أن يأمر بالصيحة قبل أن يرتد طرفه كأن عينيه كوكبان دريان "

(44/582)

وجاء عن أبي هريرة من حديث مرفوع " إن عظم دائرة فيه كعرض السموات والأرض " وهذا مما يؤمن به وتفرض كيفيته إلا علام الغيوب ، وقيل : إن الصور بسكون الواو بمعنى الصور بضم الصاد وفتح الواو جمع صورة وعليه أبو عبيدة والكلام في الوجهين على حقيقته ، وقيل : في الكلام استعارة تمثيلية شبه هيئة انبعاث الموتى من القبور إلى المحشر إذا نودوا بالقيام بهيئة قيام جيش نفخ لهم في المزمار المعروف وسيرهم إلى محل عين لهم ، والأول قول الأكثرين وعليه المعول لأن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرى ﴾ [الزمر : 68] ظاهر في أن الصور ليس جمع صورة وإلا لقال سبحانه : فيها بدل فيه ، وارتكاب التأويل بجعل الكلام من باب التمثيل ظاهر في إنكار أن يكون هناك صور حقيقة ، وهو خلاف ما نطقت به الأحاديث الصحاح ، وقد قال أبو الهيثم على ما نقل عنه القرطبي في تفسيره : من أنكر أن

يكون الصور قرناً فهو كمن أنكر العرش والصراط والميزان وطلب لها تأويلات ، وهذا النفخ قيل : المراد به النفحة الثانية ، وإليه ذهب صاحب الغنيان ، واختاره العلامة أبو السعود وقال : الذي يستدعيه سياق النظم الكريم وسباقه ذلك ، وأن المراد بالفزع في قوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السماوات وَمَن فِى الأرض ﴾ ما يعتري الكل عند البعث والنشور من الرعب والتهيب الضروريين الجبليين بمشاهدة الأمور الهائلّ الخارقة للعادات في الأنفس والآفاق ، ثم قال : وقيل : المراد بالنفخ هي النفخة الأولى ، وبالفزع هو الذي يستتبع الموت لغاية شدة الهول كما في قوله تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ [الزمر : 68] فيختص أثرها بمن كان حياً عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الأمم .

(45/582)

وقيل : إن المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق التي أريدت بقوله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ هَؤُلآء إِلاَّ صَيْحَةً واحدة مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص : 15] وشنع على كلا القولين بما هو مذكور في تفسيره .

وقال العلامة الطيبي الحق أن المراد بقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَفَزِعَ ﴾ هو النفخة

الأولى ، وقوله تعالى الآتي : ﴿ وَكُلٌّ ﴾ الخ إشارة إلى النفخة الثانية ، واعلم أنهم اختلفوا في عدد النفخة فقيل : ثلاث : نفخة الصعق المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ [الزمر : 68] ، ونفخة البعث المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَإِذَا هُم مّنَ الاجداث إلى رَبّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] ونفخة الفزع المذكورة في الآية المذكورة ههنا ، وهو اختيار ابن العربي .

وقيل : اثنتان ، ونفخة الفزع هي نفخة الصعق لأن الأمرين : الفزع بمعنى الخوف .

والصعق بمعنى الموت لا زمان لها ، قال القرطبي : والسنة كحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهو طويل منه مع حذف ثم ينفخ في الصور فأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون .

تدل على أن النفخ مرتين لا ثلاثة وهو الصحيح .

ونفخ الفزع هو نفخ الصعق بعينه لاتحاد الاستثناء في آيتيهما .

وتعقب في الرسالة المسماة بشرح العشر في معشر الحشر المنسوبة لابن الكمال بأنه لا دلالة في الحديث على عدم النفخة الثالثة ، غايته أنه وسائر الأحاديث الواردة على نسقه ساكت عنها ، ولا يلزم من ذلك عدمها ، وكذا لا دلالة في اتحاد الاستثناء في الآيتين أن يكون المذكور فيهام نفخة واحدة ، وهذا ظاهر ، ثم قال : والصحيح عندي ما في القول الأول ، من أن نفخة الفزع غير نفخة الصعق .

فإن حديث الصحيحين لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى عليه السلام أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أو جزي بصعقة الطور : صريح في أن الصعق يوم القيامة ، وأن لا موت فيه فهو فزع بلا موت ، فمن قال : هي ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، ثم نفخة الصعق وهو الموت ، ثم نفخة البعثة فقد أصاب في التفرقة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق .

إلا أنه لم يصب في زعمه أن نفخة الفزع قبل نفخة الصعق .

كيف وقد دل حديث الصحيحين المذكور على عموم حكم نفخة الفزع للأنبياء عليهم السلام الذين ماتوا قبل نفخة الصعق أي الموت ، قال القاضي عياض : إن نفخة الفزع بعد النشر حين تنشق السموات والأرض ، فظهر أن النفخات ثلاث بل أربع : نفخة يميت الله تعالى جميع الخلق بها كما جاء في الحديث وعند ذلك ينادي سبحانه :

﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [غافر : 16] .

وينادي على ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] .

ونفخة البعث كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَإِذَا هُم مّنَ الاجداث إلى رَبّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] ونفخة الصعق وهي نفخة الفزع بعينها وقد سمعت آيتيهما ، ونفخة للإفاقة كما قال تعالى بعد ذكر نفخة الصعق ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] وقد عرفت ما في زعم أن نفخة الصعق هي نفخة الفزع بعينها فتدبر انتهى ، وتعقبه بعضهم بأنه يلزم حينئذ على القول بالمغايرة بين نفخة الفزع ونفخة الصعق أن تكون النفخات خمساً ولم نسمع متنفساً يقول بذلك ، وأيضاً فيه القول بأن نفخة الصعق بعد نفخة البعث ، ويأباه قوله صلى الله عليه وسلم : " أنا أول من تنشق عنه الأرض فأرفع رأسي فإذا موسى متعلق بقائمة من قوائم العرش فما أدري أفاق قبلي أم كان بمن استثنى الله تعالى " فإن انشقاق الأرض عنه صلى الله عليه وسلم بعد نفخة البعث لا محالة فإذا عقبه رفع رأسه عليه الصلاة والسلام ومفاجأة كون موسى عليه السلام متعلقاً بقائمة من قوائم العرش فأين نفخة الصعق .

ولا يخفى أن كون النفخات خمساً لم يسمع هو الغالب على الظن ويتوقف قبول ما ذكره ثانياً على صحة ما ذكره من الخبر ، ولعل القائل بما تقدم من وراء المنع ، وقيل : الأظهر أن النفخات ثلاث : الأولى نفخة الصعق بمعنى الموت كما هو أحد معنييه المدلول عليها بقوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ [الزمر : 68] ،

والثانية نفخة البعث المدلول عليها بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] وقوله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الاجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] والثالثة نفخة الفزع المدلول عليها بما هنا وهي على ما سمعت عن القاضي عياض بعد النشر حين تنشق السموات والأرض .

(48/582)

وأصله كما قال الراغب انقباض ونفار يعترى الشخص من الشيء المخيف والمراد به الرعب الشديد ، ولعل الصعق المذكور في حديث الصحيحين هو غشى يترتب عليه بلا واسطة وعلى النفخ بواسطته وقد نص في الأساس على هذا المعنى له قال يقال صعق الرجل إذا غشى عليه م هدة أو صوت شديد يسمعه ويدل على أنه بمعنى الغشى قوله عليه الصلاة والسلام : "فأكون أول من يفيق" لأن الإفاقة إنما تكون من الغشى دون الموت ولم يعبر هنا بالصعق مرداً به الغشى المذكور في الحديث لئلا يتوهم إرادة معنى الموت منه لخلوه هنا عن القرينة التي في الحديث واقترانه بما يلائم ذلك .

(49/582)

وقد يختار ما هو المشهور من أن النفخة اثنتان ويجلب عما يشعر بالزيادة فالنفخة الأولى نفخة الصعق بمعنى الموت بحال هائلة فبها يموت من في السموات والأرض من الأحياء قبيل ذلك إلا من شاء الله تعالى ، ويدل عليها آية ﴿ ونفخ في الصور فصعق ﴾ [الزمر : 68] الخ ، والنفخة الثانية نفخة البعث المدلول عليها بآية ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] وبينهما في المشهور أربعون سنة ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً "أربعون" بدون ذكر التمييز فقيل أربعون يوماً فقال أبو هريرة أبيت فقيل أربعون شهراً فقال أبيت فقيل أربعون سنة فقال أبيت ، ونفخة الفزع بمعنى الرعب والخوف هي هذه النفخة بعينها ووجه ذلك أنه ينفخ في الصور للبعث فيبعث الخلق وينشرون فإذا تحققوا يوم القيامة وشاهدوا آثار عظمة الله تعالى فزعوا ورعبوا إلا من شاء الله تعالى وترتب الفزع على النفخ بالفاء للإشارة إلى قلة الزمان الفاصل لسرعة تحققهم ومشاهدتهم ما كذر ، والإضافة في قولنا نفخة البعث وقولنا نفخة الفزع من إشافة السبب إلى المسبب إلا أن سببية النفخ للبعث بلا واسطة وسببيته للفزع بواسطة ، وحديث الصحيحين " لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة " الخ ليس فيه سوى إثبات الصعق بمعنى الغشى كما يرشد إليه ذكر الإفاقة للناس يوم القيامة ولا تعرض له لنفخ يترتب عليه ذلك ، نعم التعبير بالصعق على ما ذكروا في معناه يقتضي أن يكون هناك هدة أو صوت

شديد يسمعه من يسمعه فيغشى عليه إلا أنه لا يعين النفخ لجواز أن يكون ذلك من صوت حادث من انشقاق السموات الكائن بعد البعث والفزع من يوم القيامة وما شاهدوا من أهواله .

(50/582)

ومنع بعضهم اقتضاءه ذلك لجواز أن يراد به الغشي لحدوث أمر عظيم من أمور يوم القيامة غير النفخ ، وقيل : هو من فروع النفخ للبعث وذلك أنه ينفخ فتبعث الخلائق فيتحققون ما يتحققون ويشاهدون ما يشاهدون فيفزعون فيغشى عليهم إلا ما شاء الله تعالى ، وحديث الصحيحين مما لا يأبى ذلك واحتياج الإفاقة لنفخة أخرى في حيز المنع ؛ وقيل : في بيان اتحاد نفخة البعث ونفخة الفزع أن المراد بالفزع الإجابة والإسراع للقيام لرب العالمين وقد صرحت الآيات بإسراع الناس عند ا لبعث فقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور هُم مّنَ الاجداث إلى رَبّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : 51] وقال سبحانه : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الاجداث سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : 43] ولا يخفى بعده واحتياج توجيه الاستثناء بعد عليه إلى تكلف فالأولى أن يوجه الاتحاد بما سبق فتأمل ، وإيراد صيغة الماضي مع كون المعطوف أعني ينفخ مضارعاً للدلالة على تحقق الوقوع كما في قوله تعالى :

﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ بعد قوله تعالى :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴾ [هود : 98] ووجه تأخير بيان الأحوال الواقعة في ابتداء هذه النفخة عن بيان ما يقع بعد من حشر المكذبين قد تقدم الكلام فيه فتذكر فما في العهد من قدم ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ استثناء متصل كما هو الظاهر من من ومفعول المشيئة محذوف أي إلا من شاء الله تعالى أن لا يفزع ، والمراد بذلك على ما قيل : من جاء بالحسنة لقوله تعالى فيهم : ﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءامِنُونَ ﴾ [النمل : 89] وتعقب بأن الفزع في تلك الآية غير الفزع المراد من قوله سبحانه : ﴿ فَفَزِعَ ﴾ الخ وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى ، واختلف الذين حملوا النفخ هنا على النفخة الأولى التي تكون للصعق أي الموت في تعيينهم فقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وذوي ذلك عن مقاتل والسدي .

وقال الضحاك : هم الولدان والحور العين وخزنة الجنة وحملة العرش .

(51/582)

وحكى بعضهم هذين القولين في المراد بالمستثنى على تقدير أن يراد بالنفخ النفخة الثانية وبالفزع الخوف والرعب وأورد عليهما أن حملة العرش ليسوا من سكان السموات والأرض لأن السموات في داخل الكرسي ونسبتها إليه نسبة حلقة في فلاة ونسبة الكرسي إلى

العرش كهذه النسبة أيضاً فكيف يكون حملته في السموات وكذا الولدان والحور وخزنة الجنة لأن هؤلاء كلهم في الجنة والجنان جميعها فوق السموات ودون العرش على ما أفصح عنه قوله صلى الله عليه وسلم : " سقف الجنة عرش الرحمن " فما فيها من الولدان والحور والخزنة لا يصح استثناؤهم ممن في السموات والأرض وأما جبرائيل ومن معه من الملائكة المقربين عليهم السلام فهم من الصافين المسبحين حول العرش وإذا كان العرش فوق السموات لا يمكن أن يكون الاصطفاف حوله في السموات ، وأجيب بأنه يجوز أن يراد بالسموات ما يعم العرش والكرسي وغيرهما من الأجرام العلوية فإنه الأليق بالمقام ، وقد شاع استعمال من في السموات والأرض عند إرادة الإحاطة والشمول .

وقيل : لا مانع من حمل السموات على السموات السبع والتزام كون الاستثناء على القولين المذكورين منقطعاً ولا يخفى ما فيه ، وعد بعضهم ممن استثنى موسى عليه السلام ، وأنت تعلم أنه لا يكاد يصح إلا إذا أريد بالفزع الصعق يوم القيامة بعد النفخة الثانية ، أما إذا أريد به ما يكون في الدنيا عند النفخة الأولى فلا ، على أن عده عليه السلام ممن لا يصعق يوم القيامة بعد قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين السابق فلا أدري أفاق قبلي أو جزي بصعقة الطور يحتاج إلى خبر صحيح وارد بعد ذلك .

(52/582)

وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم الشهداء عند ربهم يرزقون وصححه القاضي أبو بكر بن العربي كما قال القرطبي وبه رد على من زعم أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، وإلى ذلك ذهب ابن جبير ولفظه هم الشهداء متقلد والسيوف حول العرش وكذا ذهب إليه الحليمي وقال : هو مروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ثم ضعف غيره من الأقوال .

وقد ذكره غير واحد من المفسرين إلا أن بعضهم ذكره في تفسير من شاء الله في آية الصعق وبعض آخر ذكره في تفسيره في آية الفزع فتدبر .

﴿ وَكُلٌّ ﴾ أي كل واحد من الفازعين المبعوثين عند النفخة ﴿ أَتَوْهُ ﴾ أي حضروا الموقف بين يدي رب العزة جل جلاله للسؤال والجواب والمناقشة والحساب ، وقيل : أي رجعوا إلى أمره تعالى وانقادوا .

وضمير الجمع باعتبار معنى ﴿ كُلٌّ ﴾ وقرأ قتادة أتاه فعلاً ماضياً مسنداً لضمير ﴿ كُلٌّ ﴾ على لفظها .

وقرأ أكثر السبعة آتوه اسم فاعل ﴿ داخرين ﴾ أي أذلاء ، وقرأ الحسن .

والأعمش دخرين بغير ألف وهو على القراءتين نصب على الحال من ضمير ﴿ كُلٌّ ﴾

وقوله سبحانه :

﴿ وَتَرَى الجبال ﴾ عطف على ﴿ ينفخ ﴾ [النمل : 87] داخل في حكم التذكير ؛ وترى من رؤية العين ، وقوله تعالى : ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي ثابتة في أماكنها لا تتحرك حال من فاعل ترى أو من مفعوله ، وجوز أن يكون بدلاً من سابقه ، وقوله عز وجل .

﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ حال من ضمير الجبال في تحسبها ، وجوز أن يكون حالاً من ضميرها في جامدة ومنعه أبو البقاء لاستلزامه أن تكون جامدة ومارة في وقت واحدة أي وترى الجبال رأي العين ساكنة والحال أنها تمر في الجو مر السحاب التي تسيرها الرياح سيراً حثيثاً ، وذلك أن الأجرام المجتمعة المتكاثرة العدد على وجه الالتصاق إذا تحركت نحو سمت لا تكاد تبين حركتها ، وعليه قول النابغة الجعدي في وصف جيش :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم . . .

وقوف لحاج والركاب تهملج

(53/582)

وقيل : شبه مرها بمر السحاب في كونها تسير سيراً وسطاً كما قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها . . .

مر السحائب لا ريث ولا عجل

والمشهور في وجه الشبه السرعة وإن منشأ الحسبان المذكور ما سمعت ، وقيل : إن حسبان الرائي إياها جامدة مع مرورها لهول ذلك اليوم فليس له ثبوت ذهن في الفكر في ذلك حتى يتحقق كونها جامدة وليس بذاك وقد أدمج في التشبيه المذكور تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] واختلف في وقت هذا ، ففي إرشاد العقل السليم أنه مما يقع بعد النفخة الثانية كالفزع المذكور عند حشر الخلق يبدل الله تعالى شأنه الأرض غير الأرض ويغير هيئتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة يشاهدها أهل المحشر وهي وإن اندكت وتصدعت عند النفخة الأولى لكن تسييرها وتسوية الأرض إنما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ [طه : 105 108] ، وقوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : 48] فإن اتباع الداعي الذي هو إسرافيل وبروز الخلق لله تعالى لا يكونان إلا بعد النفخة الثانية وقد قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وحشرناهم ﴾ [الكهف : 47] إن صيغة الماضي في المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلاً للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل : وحشرناهم قبل ذلك اه .

(54/582)

وقال بعضهم إنه مما يقع عند النفخة الأولى وذلك أنه ترجف الأرض والجبال ثم تنفصل الجبال عن الأرض وتسير في الجو ثم تسقط فتصير كثيباً مهيلاً ثم هباءً منبثاً ، ويرشد إلى أن هذه الصيرورة مما لا يترتب على الرجفة ولا تعقبها بلا مهلة العطف بالواو دون الفاء في قوله تعالى :

(55/582)

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ [المزمل : 14] والتعبير بالماضي في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وحشرناهم ﴾ [الكهف : 47] لتحقق الوقوع كما مر آنفاً واليوم في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال ﴾ [طه : 105] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] الخ يجوز أن يجعل اسماً للحين الواسع الذي يقع فيه ما يكون عند النفخة الأولى من النسف والتبديل وما يكون عند النفخة الثانية من اتباع الداعي والبروز لله تعالى الواحد القهار ، وقد حمل اليوم على ما يسع

ما يكون عند النفختين في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ واحدة وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة ﴾ [الحاقة : 13 15] ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ [الحاقة : 18] وهذا كما تقول جئته عام كذا وإنما مجيئك في وقت من أوقاته وقد ذهب غير واحد إلى أن تبديل الأرض كالبروز بعد النفخة الثانية لما في "صحيح مسلم" عن عائشة "قلت يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ [إبراهيم : 48] فأين يكون الناس ؟ قال على الصراط" وجاء في غير خبر ما يدل على أنه قبل النفخة الأولى ، وجمع صاحب الإفصاح بين الإخبار بأن التبديل يقع مرتين مرة قبل النفخة الأولى وأخرى بعد النفخة الثانية ، وحكي في "البحر" أن أول الصفات ارتجاجها ثم صيرورتها كالعهن المنفوش ثم كالهباء بأن تتقطع بعد أن كانت كالعهن ثم نسفها بإرسال الرياح عليها ثم تطييرها بالريح في الجو كأنها غبار ثم كونها سراباً ، وهذا كله على ما يقتضيه كلام السفاريني قبل النفخة الثانية ، ومن تتبع الأخبار وجدها ظاهرة في ذلك ، والآية هنا تحتمل كون الرؤية المذكورة فيها قبل النفخة الثانية وكونها قبلها فتأمل ﴿ صُنْعَ الله ﴾ الظاهر أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة السابقة وهي

جملة الحال والعالم فيه ما دلت عليه من كون ذلك من صنعه تعالى فكأنه قيل : صنع الله تعالى ذلك صنعاً وهذا نحو له على ألف عرفاً ويسمى في اصطلاحهم المؤكد لنفسه وإلى هذا ذهب الزجاج وأبو البقاء .

وقال بعض المحققين : مؤكد لمضمون ما قبله على أنه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور وما ترتب عليه جميعاً قصد به التنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل وتهويل أمرها والإيذان بأنها ليست بطريق إخلال نظام العالم وإفساد أحوال الكائنات بالكلية من غير أن يكون فيه حكمة بل هي من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة للغايات الجميلة التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادىء الإبداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ الذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أتقن خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمة اه ، وحسنه ظاهر .

(57/582)

وقال الزمخشري هو من المصادر المؤكدة إلا أن مؤكدة محذوف وهو الناصب ﴿ ليوم ينفخ ﴾ [النمل : 87] والمعنى ويوم ينفخ في الصور فكان كيت وكيت أثاب الله تعالى المحسنين وعاقب المجرمين ثم قال سبحانه : صنع الله يريد عز وجل به الإثابة والمعاقبة إلى آخر ما

قال ، وهو يدل على أنه فرض اليوم ممتداً شاملاً لزمان النفختين وما بعدهما وجعل المصدر مؤكداً لهذا المحذوف المدلول عليه بالتفصيل في قوله تعالى الآتي : ﴿ من جاء ﴾ [النمل : 89] ﴿ ومن جاء ﴾ [النمل : 90] وباستدعاء ﴿ يوم ينفخ ﴾ [النمل : 87] ناصباً وفرع عليه ما فرع وتعقبه أبو حيان بأن المصدر المؤكد لمضمون الجملة لا يجوز حذف جملته لأنه منصوب بفعل من لفظه فيجتمع حذف الفعل الناصب وحذف الجملة التي أكد مضمونها بالمصدر وذلك حذف كثير مخل ومن تتبع مساق هذه المصادر التي تؤكد مضمون الجملة وجد الجمل مصرحاً بها لم يرد الحذف في شيء منها إذ الأصل أن لا يحذف المؤكد إذ الحذف ينافي التأكيد لأنه من حيث أكد معتنى به ومن حيث حذف غير معتنى به ، وكأن الداعي له إلى العدول عن الظاهر على ما قيل أن الصنع المتقن لا يناسب تسيير الجبال ظاهراً وأنت تعلم أن هذا على طرف الثمام نعم الأحسن جعله مؤكداً لمضمون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده وجيء به للتنبيه على عظم شأن تلك الأفاعيل على ما سمعته عن بعض المحققين .

وقيل هو منصوب على الإغراء بمعنى انظروا صنع الله وهو كما ترى .

واستدل بالآية على جواز إطلاق الصانع على الله عز وجل وهو مبني على مذهب من يرى أن ورود الفعل كاف .

واستدل بعضهم على الجواز المذكور بالخبر الصحيح " إن الله صانع كل صانع وصنعته " وتعقب بأن الشرط أن لا يكون الوارد على جهة المقابلة نحو ﴿ أَأَنتم تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزرعون ﴾ [الواقعة : 64] خلافاً للحليمي على ما يقتضيه قوله يستحب لمن ألقى بذراً في أرض أن يقول الله تعالى الزارع والمنبت والمبلغ ، وما في هذا الحديث من هذا القبيل وأيضاً ما في الخبر بالإضافة فلا يدل على جواز الخالي عنها ألا ترى أن قوله صلى الله عليه وسلم يا صاحب كل نجوى أنت الصاحب في السفر لم يأخذوا منه أن الصاحب من غير قيد من أسمائه تعالى فكذا هو لا يؤخذ منه أن الصانع من غير قيد من أسمائه تعالى فتأمله ، ونحو هذا الاستدلال بخبر مسلم "ليعزم في الدعاء فإن الله تعالى صانع ما شاء لا مكره له" فإن ما فيه من قبيل المضاف أو المقيد والأولى الاستدلال بما صح في حديث الطبراني والحاكم " اتقوا الله تعالى فإن الله تعالى فاتح لكم وصانع "

ولا فرق بين المعرف والمنكر عند الفقهاء لأن تعريف المنكر لا يغير معناه ولذا يجوزون في تكبيرة الإحرام : الله الأكبر .

واستدل القاضي عبد الجبار بعموم قوله سبحانه : ﴿ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ على أن قبائح العبد ليست من خلقه سبحانه وإلا وجب وصفها بأنها متقنة والإجماع مانع منه وأجيب بأن الآية مخصوصة بغير الأعراض لأن الإتقان بمعنى الإحكام وهو من أوصاف المركبات

ولو سلم فوصف كل الأعراض به ممنوع فما من عام إلا وقد خص ولو سلم فالإجماع المذكور ممنوع بل هي متقنة أيضاً بمعنى أن الحكمة اقتضتها ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ جعله بعض المحققين تعليلاً لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعاً محكماً له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يستدعي إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب أخيريتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وتسيير الجبال حسبما نطق به التنزيل .

(59/582)

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾

بياناً لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أخيريتها عليها .

وقال العلامة الطيبي قوله تعالى إن الله الخ استئناف وقع جواباً لقول من يسأل فماذا يكون بعد هذه القوارع فقيل إن الله خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصل ذلك بقوله سبحانه من جاء الخ .

والخطاب في ﴿ تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : 88] لجميع المكلفين وقرأ العربيان وابن كثير ﴿ يَفْعَلُونَ ﴾ بياء الغيبة .

والمراد بالحسنة على ما روي عن ابن عباس .

وابن مسعود .

ومجاهد .

والحسن والنخعي وأبي صالح وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة شهادة أن لا إله إلا الله .

وروى عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة أن النبي صلى الله عليه وسلم فسرها بذلك والمراد بهذه الشهادة التوحيد المقبول وقيل المراد ب الحسنة ما يتحقق بما ذكر وغيره من الحسنات وهو الظاهر ، نظراً إلى أن اللام حقيقة في الجنس .

وقال بعضهم : الظاهر الأول ، لأن الظاهر حمل المطلق على الكامل وأكمل جنس الحسنة التوحيد ولو أريد العموم لكان الظاهر الإتيان بالنكرة ، ويكفي في ترجيح الأول ذهاب أكثر السلف إليه وإذا صح الحديث فيه لا يكاد يعدل عنه .

وكان النخعي يحلف على ذلك ولا يستثنى ، والظاهر أن خيراً للتفضيل وفضل الجزاء على الحسنة كائنة ما كانت .

قيل باعتبار الأضعاف أو باعتبار الدوام .

وزعم بعضهم أن الكلام بتقدير مضاف أي خير من قدرها وهو كما ترى .

وقال بعض الأجلة ثواب المعرفة النظرية والتوحيد الحاصل في الدنيا هي المعرفة الضرورية

على أكمل الوجوه في الآخرة والنظر إلى وجهه الكريم جل جلاله وذلك أشرف السعادات .

وقيل ءن خيراً ليس للتفضيل ومن لابتداء الغاية أي فله خير من الخيور مبدؤه ومنشؤه منها أي من جهة الحسنة .

وروي ذلك عن ابن عباس .

(60/582)

والحسن وقتادة ومجاهد وابن جريج وعكرمة ﴿ وَهُمْ ﴾ أي الذين جاءوا بالحسنة ﴿ مّن فَزَعٍ ﴾ أي فزع عظيم هائل لا يقادر قدره ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ظرف منصوب بقوله تعالى : ﴿ ءامِنُونَ ﴾ وبه أيضاً يتعلق ﴿ مّن فَزَعٍ ﴾ والأمن يستعمل بالجار وبدونه كما في قوله : ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ﴾ [الأعراف : 99] ، وجوز أن يكون الظرف منصوباً بفزع وأن يكون منصوباً بمحذوف وقع صفة له أي من فزع كائن في ذلك الوقت ، وقرأ العربيان .

وابن كثير .

وإسماعيل بن جعفر ، عن نافع فزع يومئذٍ بإضافة فزع إلى يوم ، وكسر ميم يوم ، وقرأ نافع في غير رواية إسماعيل كذلك إلا أنه فتح الميم فتح بناءً لإضافة يوم إلى غير متمكن وتنوين إذ للتعويض عن جملة ، والأولى على ما في "البحر" أن تكون الجملة المحذوفة المعوض هو عنها

ما قرب من الظرف أي يوم إذا جاء بالحسنة ، وجوز أن يكون التقدير يوم إذ ينفخ في الصور لا سيما إذا أريد بذلك النفخ النفخة الثانية ، واقتصر عليه شيخ الإسلام ، وفسر الفزع بالفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيئات وهو الذي في قوله تعالى :

﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الاكبر ﴾ [الأنبياء : 103] وحكي عن الحسن أن ذاك حين يؤمر بالعبد إلى النار ، وعن ابن جريج أنه حين يذبح الموت وينادي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت وهو كذلك في قراءة التنوين وقراءة الإضافة ولا يراد به في القراءة الثانية جميع الأفزاع الحاصلة يومئذٍ ، ومدار الإضافة كون ذلك أعظم الأفزاع وأكبرها كأن ما عداه ليس بفزع بالنسبة إليه وقال تبعاً لغيره إن الفزع المدلول عليه بقوله تعالى : ﴿ فَفَزِعَ ﴾ [النمل : 87] الخ ليس إلا التهيب والرعب الحاصل في ابتداء الإحساس بالشيء الهائل ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وإن كان آمناً من لحاق الضرر به .

(61/582)

وقال أبو علي : يجوز أن يراد بالفزع في القراءتين فزع واحد وأن يراد به الكثرة لأنه مصدر فإنه أريد الكثرة شمل كل فزع يكون في القيامة وإن أريد الواحد فهو الذي أشير إليه بقوله تعالى : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الاكبر ﴾ [الأنبياء : 103] وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً تتمة للكلام في الآية .

(62/582)

﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ وهو الشرك وبه فسرها من فسر ﴿ الحسنة ﴾ [النمل : 89] بشهادة أن لا إله إلا الله وقد علمت من هم ، وقيل : المراد بها ما يعم الشرك وغيره من السيئات : ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النار ﴾ أي كبوا فيها على وجوههم منكوسين ، فإسناد الكب إلى الوجوه مجازي لأنه يقال كبه وأكبه إذا نكسه ، وقيل : يجوز أن يراد بالوجوه الأنفس كما أريدت بالأيدي في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] أي فكبت أنفسهم في النار ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على الالتفات للتشديد أو على إضمار القول أي مقولاً لهم ذلك فلا التفات فيه لأنه في كلام آخر ومن شروط الالتفات اتحاد الكلامين كما حقق في المعاني ، واستدل بعض المرجئة القائلين بأنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة بقوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة

﴿ [النمل : 89] الخ على أن المؤمن العاصي لا يعذب يوم القيامة وإلا لم يكن آمناً من فزع مشاهدة العذاب يومئذٍ وهو خلاف ما دلت عليه الآية الكريمة ، وأجيب بمنع دخول المؤمن العاصي في عموم الآية لأن المراد بالحسنة الحسنة الكاملة وهو الإيمان الذي لم تدنسه معصية ، وذلك غير متحقق فيه أو لأن المتبادر المجيء بالحسنة غير مشوبة بسيئة وهو أيضاً غير متحقق فيه ومن تحقق فيه فهو آمن من ذلك الفزع بل لا يبعد أن يكون آمناً من كل فزع من أفزاع يوم القيامة وإن سلم الدخول قلنا المراد بالفزع الآمن منه من جاء بالحسنة ما يكون حين يذبح الموت وينادي المنادي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت كما سمعت عن ابن جريج أو حين تطبق جهنم على أهلها فيفزعون كما روي عن الكلبي وليس ذلك إلا بعد تكامل أهل الجنة دخولاً الجنة والعذاب الذي يكون لبعض عصاة المؤمنين إنما هو قبل ذلك والآية لا تدل على نفيه بوجه من الوجوه .

(63/582)

وأجاب بعضهم بأنه يجوز أن يكون المؤمن العاصي آمناً من فزع مشاهدة العذاب ، وأن عذب لعلمه بأنه لا يخلد فيعد عذابه كالمشاق التي يتكلفها المحب في طريق وصال المحبوب وهذا في غاية السقوط كما لا يخفى .

واستدل بعض المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالسيئة ﴾ الخ على عدم الفرق بين عذاب الكافر وعذاب المؤمن العاصي لأن ﴿ مَن جَاء بالسيئة ﴾ يعمهما وقد أثبت له الكب على الوجوه في النار فحيث كان ذلك بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود كان بالنسبة إلى المؤمن العاصي كذلك ، وأجيب بأن المراد بالسيئة الإشراك كما روي تفسيرها به عن أكثر سلف الأمة فلا يدخل المؤمن العاصي فيمن جاء بالسيئة ولو سلم دخوله بناءاً على القول بعموم السيئة فلا نسلم أن في الآية دلالة على خلوده في النار وكون الكب في النار بالنسبة إلى الكافر على وجه الخلود لا يقتضي أن يكون بالنسبة إليه كذلك فكثيراً ما يحكم على جماعة بأمر كلي ويكون الثابت لبعضهم نوعاً وللبعض الآخر نوعاً آخر منه وهذا مما لا ريب فيه ، ثم إن الآية من باب الوعيد فيجري فيها على تقدير دخول المؤمن العاصي في عموم من ما قاله الأشاعرة في آيات الوعيد فافهم وتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(64/582)

وقال القاسمى :

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾

أي : حضروا الموقف بين يديه : ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ ﴾ عطف على ينفخ داخل في حكم التذكير : ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي : ثابتة في أماكنها : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أي : في تخلل أجزائها وانتفاشها . كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ [القارعة : 5] ، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي : فيجازيهم عليه .

تنبيه :

ما ذكرناه في تفسير هذه الآية هو ما ذهب إليه كثير . قالوا : المراد بهذه الآية تسيير الجبال الذي يحصل يوم القيامة ، حينما يبيد الله تعالى العوالم ، كما قال : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ : 20] ، وكما قال : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ [المرسلات : 10] ، وقال : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ [القارعة : 5] .

وقال بعض علماء الفلك : لا يمكن أن يكون المراد بهذه الآية ما قالوه ، لعدة وجوه :

الأول : أن قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ لا يناسب مقام التهويل والتخويف إذا أريد بها بما يحصل يوم القيامة . وكذلك قوله : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، لا يناسب مقام الإهلاك والإبادة ، على أن محل هذه الآية على المستقبل ، مع أنها صريحة في إرادة الحال ، شيء لا موجب له . وهو خلاف الظاهر منها .

الثاني : أن سير الجبال للفناء يوم القيامة ، يحصل عند خراب العالم وإهلاك جميع الخلائق وهذا شيء لا يراه أحد من البشر كما قال : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر : 68] ، أي : من الملائكة . فما معنى قوله إذن : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ ؟ .

الثالث : أن تسيير الجبال الذي يحصل يوم القامة ، إذا رآه أحد شعر به . لأنه ما دام وضعها يتغير بالنسبة للإنسان ، فيحسّ بحركتها . وهذا ينافي قوله تعالى : ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي : ثابتة . أما في الدنيا فلا نشعر بحركتها ، لأننا نتحرك معها ولا يتغير وضعنا بالنسبة لها . وهذا بخلاف ما يحصل يوم القيامة . فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنسف نسفاً . وهذا شيء يراه كل واقف عندها .

الرابع : ورود هذه الآية في سياق الكلام على يوم القيامة ، لورود آية : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ المذكورة قبلها في نفس هذا السياق ، والمراد بهما ذكر شيء من دلائل قدرة الله تعالى ، المشاهدة آثارها في هذا العالم الآن من حركة الأرض وحدوث الليل والنهار ، ليكون ذلك دليلاً على قدرته على البعث والنشور يوم القيامة فإن القادر على ضبط حركات هذه الأجرام العظيمة ، لا يصعب عليه أن يعيد الإنسان ، وأن يضبط حركاته وأعماله ويحصيها عليه . ولذلك ختم هذه الآية بقوله : ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا

تَفْعَلُونَ ﴾ فذكر هذه الأشياء في هذا السياق ، هو كذكر الدليل مع المدلول ، أو الحجة مع الدعوى . وهي سنة القرآن الكريم . فإنك تجد الدلائل منبثة بين دعاويه دائماً ، حتى لا يحتاج الإنسان لدليل آخر خارج عنها . وذلك شيء مشاهد في القرآن من أوله إلى آخره . كلامه .

(66/582)

وقال العلامة المرجانيّ في مقدمة كتابه " وفيّة الأسلاف ، وتحيّة الأخلاف " في بحث علم الهيئة ، ما مثاله :

ويدل على حركة الأرض قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ الآية . فإنه خطاب لجناب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإيذان الأمر له بالأصالة مع اشتراك غيره في هذه الرؤية . وحسبان جمود الجبال وثباتها على مكانها ، مع كونها متحركة في الواقع بحركة الأرض ، ودوام مرورها مرّ السحاب في سرعة السير والحركة . قال : وقوله : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ ﴾ من المصادر المؤكدة لنفسها . وهو مضمون الجملة السابقة . يعني أن هذا المرور هو صنع الله . كقوله تعالى : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ [النساء : 122] ، ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : 138] ، ثم الصنع هو عمل الإنسان ،

بعد تدرّب فيه وتروٍّ وتحري إجادة . ولا يسمى كل عمل صناعة ، ولا كل عامل صانعاً حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب إليه . وقوله : ﴿ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ كالبرهان على إتقانه ، والدليل على إحكام خلقته ، وتسويته مروره على ما ينبغي . لأن إتقان كل شيء ، يتناول إتقانه . فهو تثنية للمراد وتكرير له ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عِمْرَان : 97] ، قال : وقد اشتملت هذه الآية على وجوه من التأكيد ، وأنحاء من المبالغة . فمن ذلك تعبيره بالصنع الذي هو الفعل الجميل المتقن المشتمل على الحكمة . وإضافته إليه تعالى تعظيماً له وتحقيقاً لإتقانه وحسن أعماله . ثم توصيفه سبحانه بإتقان كل شيء ، ومن جملته هذه المرور . ثم إيراده بالجملة الاسمية الدالة على دوام هذه الحالة واستمرارها مدى الدهور . ثم التقييد بالحال ، لتدل على أنها لا تنفك عنها دائماً . فإن قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ حال من المفعول به ، وهو الجبال . ومعمول لفعله الذي هو رؤيتها على تلك الحال .

(67/582)

فهذه الآية صريحة في دلالتها على حركة الأرض ومرور الجبال معها في هذه النشأة . وليس يمكن حملها على أن ذلك يقع في النشأة الآخرة ، أو عند قيام الساعة وفساد العالم وخروجه

عن متعاهد النظام . وأن حسبانها جامدة لعدم تبين حركة كبار الأجرام [في المطبوع : الإجرام] إذا كانت في سمت واحد . فإن ذلك لا يلائم المقصود من التهويل على ذلك التقدير . على أن ذلك نقض وإهدام ، وليس من صنع وإحكام . قال : والعجب من حذاق العلماء المفسرين ، عدم تعرضهم لهذا المعنى ، مع ظهوره واشتمال الكتب الحكمية على قول بعض القدماء . مع أنه أولى وأحق من تنزيل محتملات كتاب الله على القصص الواهية الإسرائيلية ، على ما شحنوا بها كتبهم . وليس هذا بخارج عن قدرة الله تعالى ، ولا بعيد عن حكمته ، ولا القول به بمصادم للشريعة والعقيدة الحقة ، بعد أن تعتقد أن كل شيء حادث بقدرة الله تعالى وإرادته وخلقه بالاختيار ، كائناً ما كان ، وهو العليّ الكبير ، وعلى ما يشاء قدير .

واعلم أن هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ ﴾ الآية . اعتراض في تضاعيف ما ساقه من الآيات الدالة على أحوال الحشر وأهوال القيامة ، كاعتراض توصية الإنسان بوالديه في تضاعيف قصة لقمان . ومثل ذلك ليس بعزيز في القرآن . وفائدته هنا ، التنبيه على سرعة تقضّي الآجال ومضيّ الآماد . والتهويل من هجوم ساعة الموت وقرب ورود وقت المعاد . فإن انقضاء الأزمان ، وتقضي الأوان ، إنما هو بالحركة اليومية المارّة على هذه السرعة المنطبقة على أحوال الإنسان . وهذا المرور . وإن لم يكن مبصراً محسوساً ، لكن ما ينبعث منه تبدل الأحوال ، بما يطرأ من تعاقب الليل والنهار

وغيره ، بمنزلة المحسوس المبصَر : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : 2] ، فيكون هذا معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، مخصوصة به ، إذ لم يخبر به غيره من الأنبياء .

(68/582)

فليس بممكن حمل الآية على تسيير الجبال الواقع عند قيام الساعة ووفاء النشأة الآخرة . إذ ليس هو من الصنع في شيء . بل هو إفساد أحوال الكائنات ، وإخلال نظام العالم ، وإهلاك بني آدم . كلام المرجانيّ .

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ أي : لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل . وقرئ : ﴿ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ ﴾ بالإضافة وكسر الميم وفتحها . وفزع منوناً وفتح الميم ، على أنه ظرف لآمنون أو المحذوف هو صفة للفزع . والتنوين في يومئذ عوض عن جملة محذوفة ، أي : يوم إذا جاءوا بالحسنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 533.530 ﴾

(69/582)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ عطف على ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ [النمل : 83] ، عاد به السياق إلى الموعظة والوعيد فإنهم لما ذكروا ب"يوم يحشرون إلى النار" ذكروا أيضاً بما قبل ذلك وهو يوم النفخ في الصور ، تسجيلاً عليهم بإثبات وقوع البعث وإنذاراً بما يعقبه مما دل عليه قوله ﴿ ءاتوه داخرين ﴾ وقوله ﴿ ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ . والنفخ في الصور تقدم في قوله ﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ في سورة الأنعام (73) وهو تقريب لكيفية صدور الأمر التكويني لإحياء الأموات وهو النفخة الثانية المذكورة في قوله تعالى ﴿ ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [الزمر : 68] ، وذلك هو يوم الحساب .

وأما النفخة الأولى فهي نفخة يعنى بها الإحياء ، أي نفخ الأرواح في أجسامها وهي ساعة انقضاء الحياة الدنيا فهم يصعقون ، ولهذا فرع عليه قوله ﴿ ففزع من في السموات ومن في الأرض ﴾ ، أي عقبه حصول الفزع وهو الخوف من عاقبة الحساب ومشاهدة معدات العذاب ، فكل أحد يخشى أن يكون معذباً ، فالفزع حاصل مما بعد النفخة وليس هو فزعاً من النفخة لأن الناس حين النفخة أموات .

والاستثناء مجمل يبينه قوله تعالى بعد ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ

ءامنون ﴾ [النمل : 89] وقوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ إلى قوله ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 101 103] وذلك بأن يبادرهم الملائكة بالبشارة . قال تعالى ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ [الأنبياء : 103] وقال ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [يونس : 64] .

(70/582)

وجيء بصيغة الماضي في قوله ﴿ ففزع ﴾ مع أن النفخ مستقبل ، للإشعار بتحقق الفزع وأنه واقع لا محالة كقوله ﴿ أتى أمر الله ﴾ [النحل : 1] لأن المضي يستلزم التحقق فصيغة الماضي كناية عن التحقق ، وقرينة الاستقبال ظاهرة من المضارع في قوله ﴿ ينفخ ﴾ .

والداخرون : الصاغرون .

أي الأذلاء ، يقال : دَخِرَ بوزن منع وفرِح والمصدر الدخر بالتحريك والدخور .

وضمير الغيبة الظاهر في ﴿ ءاتوه ﴾ عائد إلى اسم الجلالة ، والإتيان إلى الله الإحضار في مكان قضائه ويجوز أن يعود الضمير على ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ على تقدير : ءاتون فيه والمضاف إليه (كل) المعوض عنه التنوين ، تقديره : من فزع ممن في السموات والأرض آتوه

داخرين .

وأما من استثنى الله بأنه شاء أن لا يفزعوا فهم لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة .

وقرأ الجمهور ﴿ آتوه ﴾ بصيغة اسم الفاعل من أتى .

وقرأ حمزة وحفص ﴿ أتوه ﴾ بصيغة فعل الماضي فهو كقوله ﴿ ففزع ﴾ .

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

الذي قاله جمهور المفسرين : إن الآية حكت حادثاً يحصل يوم ينفخ في الصور فجعلوا قوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾ عطفاً على ﴿ ينفخ في الصور ﴾ [النمل : 87] أي ويوم ترى الجبال تحسبها جامدة الخ .

.

وجعلوا الرؤية بصرية ، ومرّ السحاب تشبيهاً لتنقلها بمرّ السحاب في السرعة ، وجعلوا اختيار التشبيه بمرور السحاب مقصوداً منه إدماج تشبيه حال الجبال حين ذلك المرور بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها فيكون من معنى قوله ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] ، وجعلوا الخطاب في قوله ﴿ ترى ﴾ لغير معين ليعم كل من يرى ، وجعلوا معنى هذه الآية في معنى قوله تعالى ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ [الكهف : 47] .

فلما أشكل أن هذه الأحوال تكون قبل يوم الحشر لأن الآيات التي ورد فيها ذكر دك الجبال ونسفها تشير إلى أن ذلك في انتهاء الدنيا عند القارعة وهي النفخة الأولى أو قبيلها ، فأجابوا بأنها تندك حينئذ ثم تسير يوم الحشر لقوله ﴿ فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ إلى أن قال ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ [طه : 105 108] لأن الداعي هو إسرافيل (وفيه أن للاتباع أحوالاً كثيرة ، وللداعي معاني أيضاً) .

وقال بعض المفسرين : هذا مما يكون عند النفخة الأولى وكذلك جميع الآيات التي ذكر فيها نسف الجبال ودكها وبسها .

وكأنهم لم يجعلوا عطف ﴿ وترى الجبال ﴾ على ﴿ ينفخ في الصور ﴾ [النمل : 87] حتى يتسلط عليه عمل لفظ (يوم) بل يجعلوه من عطف الجملة على الجملة ، والواو لا تقتضي ترتيب المعطوف بها مع المعطوف عليه ، فهو عطف عبرة على عبرة وإن كانت المذكورة أولى حاصلة ثانياً .

وجعل كلا الفريقين قوله ﴿ صنع الله ﴾ الخ مراداً به تهويل قدرة الله تعالى وأن النفخ في الصور وتسيير الجبال من عجيب قدرته ، فكأنهم تأولوا الصنع بمعنى مطلق الفعل من غير التزام ما في مادة صنع من معنى التركيب والإيجاد ، فإن الإتقان إجادة ، والهدم لا يحتاج إلى إتقان .

وقال الماوردي : قيل هذا مثل ضربه الله ، أي وليس بخبر .

وفيما ضرب فيه المثل ثلاثة أقوال:

أحدهما : أنه مثل للدنيا يظن الناظر إليها أنها ثابتة كالجبال وهي آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ، قاله سهل بن عبد الله التستري .

الثاني : أنه مثل للإيمان تحسبه ثابتاً في القلب ، وعمله صاعد إلى السماء .

الثالث : إنه مثل للنفس عند خروج الروح ، والروح تسير إلى العرش .

وكأنهم أرادوا بالتمثيل التشبيه والاستعارة .

(72/582)

ولا يخفى على الناقد البصير بعد هذه التأويلات الثلاثة لأنه إن كان ﴿ الجبال ﴾ مشبهاً بها فهذه الحالة غير ثابتة لها حتى تكون هي وجه الشبه وإن كان لفظ ﴿ الجبال ﴾ مستعاراً لشيء وكان مر السحاب كذلك كان المستعار له غير مصرح به ولا ضمنياً .

وليس في كلام المفسرين شفاء لبيان اختصاص هذه الآية بأن الرائي يحسب الجبال جامدة ، ولا بيان وجه تشبيه سيرها بسير السحاب ، ولا توجيه التذليل بقوله تعالى ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ فلذلك كان لهذه الآية وضع دقيق ، ومعنى بالتأمل خليق ،

فوضعها أنها وقعت موقع الجملة المعترضة بين المجمل وبيانه من قوله ﴿ ففزع من في السموات ومن في الأرض ﴾ إلى قوله

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ ءامنون ﴾ [النمل : 87 89] بأن يكون من تخلل دليل على دقيق صنع الله تعالى في أثناء الإنذار والوعيد إدماجاً وجمعاً بين استدعاء للنظر ، وبين الزواجر والنذر ، كما صنع في جملة ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ [النمل : 86] الآية .

أو هي معطوفة على جملة ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ [النمل : 86] الآية ، وجملة ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ [النمل : 87] معترضة بينهما لمناسبة ما في الجملة المعطوف عليها من الإيماء إلى تمثيل الحياة بعد الموت ، ولكن هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في هذا الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة .

وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزة من الجانب العلمي يدركها أهل العلم ، كما كان معجزة للبلغاء من جانبه النظمي كما قدمناه في الجهة الثانية من المقدمة العاشرة .

فإن الناس كانوا يحسبون أن الشمس تدور حول الأرض فينشأ من دورانها نظام الليل والنهار ، ويحسبون الأرض ساكنة .

واهتدى بعض علماء اليونان إلى أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يوم وليلة دورة تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضي تقريباً وضياء النصف الآخر وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار ، ولكنها كانت نظرية مرموقة بالنقد وإنما كان الدال عليها قاعدة أن الجرم الأصغر أولى بالتحرك حول الجرم الأكبر المرتبط بسيره وهي علة إقناعية لأن الحركة مختلفة المدارات فلا مانع من أن يكون المتحرك الأصغر حول الأكبر في رأي العين وضبط الحساب وما تحققت هذه النظرية إلا في القرن السابع عشر بواسطة الرياضي (غاليلي) الإيطالي .

والقرآن يدمج في ضمن دلائله الجمة وعقب دليل تكوين النور والظلمة دليلاً رمز إليه رمزاً ، فلم يتناوله المفسرون أو تسمع لهم ركزاً .

وإنما ناط دلالة تحرك الأرض بتحرك الجبال منها لأن الجبال هي الأجزاء الناتئة من الكرة الأرضية فظهور تحرك ظلالها متناقصة قبل الزوال إلى منتهى نقصها ، ثم آخذة في الزيادة بعد الزوال .

ومشاهدة تحرك تلك الظلال تحركاً يحاكي دبيب النمل أشد وضوحاً للراصد ، وكذلك ظهور تحرك قممها أمام قرص الشمس في الصباح والماء أظهر مع كون الشمس ثابتة في مقرها بحسب أرصاد البروج والأنواء .

ولهذا الاعتبار غير أسلوب الاستدلال الذي في قوله تعالى ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل

ليسكنوا فيه ﴾ [النمل : 86] فجعل هنا بطريق الخطاب ﴿ وترى الجبال ﴾ .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم تعليماً له لمعنى يدرك هو كنهه ولذلك خص الخطاب به ولم يعمم كما عمم قوله

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ [النمل : 86] في هذا الخطاب ، وادخاراً لعلماء أمته الذين يأتون في وقت ظهور هذه الحقيقة الدقيقة .

(74/582)

فالنبي صلى الله عليه وسلم أطلعه الله على هذا السر العجيب في نظام الأرض كما أطلع إبراهيم عليه السلام على كيفية إحياء الموتى ، اختص الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعلم ذلك في وقته وائتمنه على علمه بهذا السر العجيب في قرآنه ولم يأمره بتبليغه إذ لا يتعلق بعلمه للناس مصلحة حنيئذ حتى إذا كشف العلم عنه من نقابه وجد أهل القرآن ذلك حقاً في كتابه فاستلوا سيف الحجة به وكان في قرابة .

وهذا التأويل للآية هو الذي يساعد قوله ﴿ وترى الجبال ﴾ المقتضي أن الرائي يراها في هيئة الساكنة ، وقوله ﴿ تحسبها جامدة ﴾ إذ هذا التأويل بمعنى الجامدة هو الذي يناسب حالة الجبال إذ لا تكون الجبال ذائبة .

وقوله ﴿ وهي تمرّ ﴾ الذي هو بمعنى السير ﴿ مرّ السحاب ﴾ أي مرا واضحاً لكنه لا يبين من أول وهلة .

وقوله بعد ذلك كله ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ المقتضي أنه اعتبار بحالة نظامها المألوف لا بحالة انخرام النظام لأن خرم النظام لا يناسب وصفه بالصنع المتقن ولكنه يوصف بالأمر العظيم أو نحو ذلك من أحوال الآخرة التي لا تدخل تحت التصور .

و ﴿ مر السحاب ﴾ مصدر مبين لنوع مرور الجبال ، أي مروراً تنتقل به من جهة إلى جهة مع أن الرائي يخالها ثابتة في مكانها كما يخال ناظر السحاب الذي يعم الأفق أنه مستقر وهو ينتقل من صوب إلى صوب ويمطر من مكان إلى آخر فلا يشعر به الناظر إلا وقد غاب عنه .

وبهذا تعلم أن المر غير السير الذي في قوله تعالى ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ [الكهف : 47] فإن ذلك في وقت اختلال نظام العالم الأرضي .

وانتصب قوله ﴿ صنع الله ﴾ على المصدرية مؤكداً لمضمون جملة ﴿ تمر مر السحاب ﴾ بتقدير : صنع الله ذلك صنعاً .

وهذا تمجيد لهذا النظام العجيب إذ تتحرك الأجسام العظيمة مسافات شاسعة والناس يحسبونها قارة ثابتة وهي تتحرك بهم ولا يشعرون .

:

والجامدة : الساكنة ، قاله ابن عباس .

وفي "الكشاف" : الجامدة من جمد في مكانه إذا لم يبرح ، يعني أنه جمود مجازي ، كثر استعمال هذا المجاز حتى ساوى الحقيقة والصنع .

قال الراغب : إجادة الفعل فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعاً قال تعالى ﴿ ويصنع الفلك ﴾ [هود : 38] ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ [الأنبياء : 80] يقال للحاذق المجيد : صنع ، وللحاذقة المجيدة : صنّاع .

اه .

وقصر في تفسير الصنع الجوهري وصاحب "اللسان" وصاحب "القاموس" واستدركه في "تاج العروس" .

قلت : وأما قولهم : بئس ما صنعت ، فهو على معنى التخطئة لمن ظن أنه فعل فعلاً حسناً ولم يتفطن لقبحه .

فالصنع إذا أطلق انصرف للعمل الجيد النافع وإذا أريد غير ذلك وجب تقييده على أنه قليل أو تهكم أو مشاكلة .

واعلم أن الصنع يطلق على العمل المتقن في الخير أو الشر قال تعالى ﴿ تلقف ما صنعوا إنما

صنعوا كيد ساحر ﴾ [طه : 69] ، ووصف الله بـ ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾ تعميم قصد به التذييل ، أي ما هذا الصنع العجيب إلا مماثلاً لأمثاله من الصنائع الإلهية الدقيقة الصنع .

وهذا يقتضي أن تسيير الجبال نظام متقن ، وأنه من نوع التكوين والخلق واستدامة النظام وليس من نوع الخرم والتفكيك .

وجملة ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ تذييل أو اعتراض في آخر الكلام للتذكير والوعظ والتحذير ، عقب قوله ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾ لأن إتقان الصنع أثر من آثار سعة العلم فالذي بعلمه أتقن كل شيء هو خبير بما يفعل الخلق فليحذروا أن يخالفوا عن أمره .

ثم جيء لتفصيل هذا بقوله ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ [النمل : 89] الآية فكان من التخلص والعود إلى ما يحصل يوم ينفخ في الصور ، ومن جعلوا أمر الجبال من أحداث يوم الحشر جعلوا جملة ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ استئنافاً بيانياً لجواب سائل : فماذا يكون بعد النفخ والفزع والحضور بين يدي الله وتسيير الجبال ، فأجيب جواباً إجمالياً بأن الله عليم بأفعال الناس ثم فصل بقوله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها .

.

﴾ [النمل : 89] الآية .

قرأ الجمهور ﴿ بما تفعلون ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ يفعلون ﴾ بياء الغائبين عائداً ضميره على ﴿ من في السماوات ومن في الأرض ﴾ [النمل : 87] .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89)

﴿ بِمَا تَفْعَلُونَ * مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بالسيئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النار هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

هذه الجملة بيان ناشىء عن قوله ﴿ ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ [النمل : 87] لأن الفزع مقتضٍ الحشر والحضور للحساب .

و(من) في كلتا الجملتين شرطية .

والمجيء مستعمل في حقيقته .

والباء في ﴿ بالحسنة ﴾ و ﴿ بالسيئة ﴾ للمصاحبة المجازية ، ومعناها : أنه ذو الحسنة أو ذو السيئة .

وليس هذا كقوله ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ في آخر الأنعام (160) .

فالمعنى هنا : من يجيء يومئذ وهو من فاعلي الحسنة ومن جاء وهو من أهل السيئة ، فالمجيء ناظر إلى قوله ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ [النمل : 87] والحسنة والسيئة هنا للجنس وهو يحمل على أكمل أفراده في المقام الخطابي ، أي من تمحضت حالته للحسنات أو كانت غالب أحواله كما يقتضيه قوله ﴿ وهم من فزع يومئذ ءامنون ﴾ ، وكذلك الذي كانت حالته متمحضة للسيئات أو غالبة عليه ، كما اقتضاه قوله ﴿ فكبت وجوههم في النار ﴾ .

و﴿ خير منها ﴾ اسم تفضيل اتصلت به (من) التفضيلية ، أي فله جزاء خير من حسنة واحدة لقوله تعالى في الآية الأخرى ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] أو خير منها شرفاً لأن الحسنة من فعل العبد والجزاء عليها من عطاء الله .

وقوله ﴿ وهم من فزع يومئذ ءامنون ﴾ تبيين قوله آنفاً ﴿ إلا من شاء الله ﴾ [النمل : 87] .

(77/582)

وهؤلاء هم الذين كانوا أهل الحسنات ، أي تمحضوا لها أو غلبت على سيئاتهم غلبة عظيمة بحيث كانت سيئاتهم من النوع المغفور بالحسنات أو المدحوض بالتوبة ورد المظالم .

وكذلك قوله ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ﴾ ، أي غلبت سيئاتهم وغطت على حسناتهم أو تمحضوا للسيئات بأن كانوا غير مؤمنين أو كانوا من المؤمنين أهل الجرائم والشقاء .

وبين أهل هاتين الحالتين أصناف كثيرة في درجات الثواب ودركات العقاب .

وجماع أمرها أن الحسنة لها أثرها يومئذ عاجلاً أو بالآخارة ، وأن السيئة لها أثرها السيء بمقدارها ومقدار ما معها من أمثالها وما يكافئها من الحسنات أضدادها ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ [الأنبياء : 47] .

وقرأ الجمهور ﴿ من فزع يومئذ ﴾ بإضافة ﴿ فزع ﴾ إلى (يوم) من ﴿ يومئذ ﴾ وإضافة (يوم) إلى ﴿ إذ ﴾ ففتحة (يوم) فتحة بناء ، لأنه اسم زمان أضيف إلى اسم غير متمكن ف ﴿ فزع ﴾ معرف بالإضافة إلى (يوم) و (يوم) معرف بالإضافة إلى (إذ) و (إذ) مضافة إلى جملتها المعوض عنها تنوين العوض .

والتقدير : من فزع يوم إذ يأتون ربهم .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين ﴿ فزع ﴾ ، و ﴿ يومئذ ﴾ منصوباً على المفعول فيه فيه متعلقاً بـ ﴿ آمنون ﴾ .

والمعنى واحد على القراءتين إذ المراد الفزع المذكور في قوله

﴿ ففزع من في السماوات ومن في الأرض ﴾ [النمل : 87] فلما كان معيناً استوى

تعريفه وتنكيره .

فاتحدت القراءتان معنى لأن إضافة المصدر وتنكيره سواء في عدم إفادة العموم فتعين أنه فزع واحد .

والكب : جعل ظاهر الشيء إلى الأرض .

وعدي الكب في هذه الآية إلى الوجوه دون بقية الجسد وإن كان الكب لجميع الجسم لأن الوجوه أول ما يقلب إلى الأرض عند الكب كقول امرىء القيس:

يكبّ على الأذقان دوح الكنهبل . . .

وهذا من قبيل قوله تعالى ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ [الأعراف : 116] وقوله ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ [الأعراف : 149] وقول الأعشى:

(78/582)

وأقدِمْ إذا ما أعين الناس تفرق

﴿ فِى النار هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا ﴾ .

تذييل للزواجر المتقدمة ، فالخطاب للمشركين الذين يسمعون القرآن على طريقة الالتفات من الغيبة بذكر الأسماء الظاهرة وهي من قبيل الغائب .

وذكر ضمائرها ابتداء من قوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ [النمل : 80] وما بعده من الآيات إلى هنا .

ومقتضى الظاهر أن يقال : هل يجزون إلا ما كانوا يعملون فكانت هذه الجملة كالتلخيص لما تقدم وهو أن الجزاء على حسب عقائدهم وأعمالهم وما العقيدة إلا عمل القلب فلذلك وجه الخطاب إليهم بالمواجهة .

ويجوز أن تكون مقولاً لقول محذوف يوجه إلى الناس يومئذ ، أي لا يقال لكل فريق : ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

والاستفهام في معنى النفي بقرينة الاستثناء .

وورود ﴿ هل ﴾ لمعنى النفي أثبته في "مغني اللبيب" استعمالاً تاسعاً قال : "أن يراد بالاستفهام بها النفي ولذلك دخلت على الخبر بعدها (إلا) نحو ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] .

والباء في قوله:

ألا هل أخو عيش لذيذ بدائم . . .

وقال في آخر كلامه : إن من معاني الإنكار الذي يستعمل فيه الاستفهام إنكار وقوع الشيء وهو معنى النفي .

وهذا تنفرد به ﴿ هل ﴾ دون الهمزة .

قال الدماميني في "الحواشي الهندية" قوله : يراد بالاستفهام بـ ﴿ هل النفي يشعر بأن ثمة استفهاماً لكنه مجازي لا حقيقي أ هـ .

وأقول : هذا استعمال كثير ومنه قول لبيد :

وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر . . .

وقول النابغة:

وهل عليّ بأن أخشاك من عار . . .

حيث جاء بـ (من) التي تدخل على النكرة في سياق النفي لقصد التنصيص على العموم وشواهده كثيرة .

ولعل أصل ذلك أنه استفهام عن النفي لقصد التقرير بالنفي .

(79/582)

والتقدير : هل لا تجزون إلا ما كنتم تعملون ، فلما اقترن به الاستثناء غالباً والحرف الزائد في النفي في بعض المواضع حذفوا النافي وأشربوا حرف الاستفهام معنى النفي اعتماداً على القرينة فصار مفاد الكلام نفياً وانسلخت (هل) عن الاستفهام فصارت مفيدة النفي .

وقد أشرنا إلى هذه الآية عند قوله تعالى ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ في الأعراف (147) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(80/582)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ، ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول ، وذكرنا في ترجمته أيضاً أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على المعنى ، بكونه هو الغالب في القرآن ، لأن غلبته فيه ، تدل على عدم خروجه من معنى الآية ، ومثلنا لجميع ذلك أمثلة متعددة في هذا الكتاب المبارك ، والأمران المذكوران من أنواع البيان قد اشتملت عليهما معاً آية النمل هذه .

وإيضاح ذلك : أن بعض الناس قد زعم أن قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] يدل على أن الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة : أي واقفة ساكنة غير متحركة ، وهي تمر مر السحاب ، ونحوه قول النابغة

يصف جيشاً :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

والنوعان المذكوران من أنواع البابين يبينان عدم صحة هذا القول .

أما الأول منهما : وهو وجود القرينة الدالة على عدم صحته ، فهو أن قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال ﴾ معطوف على قوله : ففزع ، وذلك المعطوف عليه مرتب بالفاء على قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَفَزِعَ مَن فِي السماوات ﴾ [النمل 87] الآية . أي ويوم ينفخ في الصور ، فيفزع من في السماوات ، وترى الجبال ، فدلت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أن مر الجبال مر السحاب كائن يوم ينفخ في الصور لا الآن .

(81/582)

وأما الثاني : وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح ، لأن جميع الآيات التي فيها حركه الجبال كلها في يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السمآء مَوْراً وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ﴾ [الطور : 910] وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً ﴾ [الكهف : 47] وقوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : 3] وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ صُنْعَ الله

الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 88] جاء نحوه في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [المومنون : 14] وقوله تعالى : ﴿ مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ﴾ [الملك : 3] وتسيير الجبال وإيجادها ونصبها قبل تسييرها كل ذلك صنع متقن . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

قد قدمنا الآيات التي بمعناه في أول سورة هود في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [هود : 5] .

قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ .

اعلم أن الحسنة في هذه الآية الكريمة تشمل نوعين من الحسنات .

الأول حسنة : هي فعل خير من أفعال العبد ، كالإنفاق في سبيل الله ، وبذل النفس والمال في إعلاء كلمة الله ، ونحوه ذلك ومعنى قوله تعالى : ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ بالنسبة إلى هذا النوع من الحسنات ، أن الثواب مضاعف ، فهو خير من نفس العمل ، لأن من أنفق درهماً واحداً في سبيل الله فأعطاه الله ثواب سبعمائة درهم فله عند الله ثواب هو سبعمائة درهم مثلاً ، خير من الحسنة التي قدمها التي هي إنفاق درهم واحد ، وهذا لا إشكال فيه كما ترى .

وهذا المعنى توضحه آيات الله كقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] ومعلوم أن عشر أمثال الحسنة خير منها ، هي وحدها وكقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ [النساء : 40] وقوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 261] الآية .

وأما النوع الثاني من الحسنة : فكقول من قال من أهل العلم : إن المراد بالحسنة في هذه الآية : لا إله إلا الله ، ولا يوجد شيء خير من لا إله إلا الله . بل هي أساس الخير كله ، والذي يظهر على هذا المعنى أن لفظة خير ليست صيغة تفضيل .

وأن المعنى فله خير عظيم عند الله حاصل له منها : أي من قبلها ومن أجلها وعليه فلفظة من في الآية كقوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] أي من أجل خطيآتهم أغرقوا ، فأدخلوا ناراً . وأما على الأول فخير صيغة تفضيل ، ويحتمل عندي . أن لفظة خير على الوجه الثاني صيغة تفضيل أيضاً ، ولا يراد بها تفضيل شيء على لا إله إلا الله ، بل المراد أن كلمة لا إله إلا الله تعبد العبد في دار الدنيا ، وتعبده بها فعله المحض ، وقد أثابه الله في الآخرة على تعبده بها ، وإثابة فعله جل وعلا ، ولا شك أن فعل

الله خير من فعل عبده ، والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ .

(83/582)

دلت على معناه آيات من كتاب الله كقوله تعالى في أمنهم من الفزع ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكة ﴾ [الأنبياء : 103] الآية . وقوله تعالى في أمنهم ﴿ فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة ﴾ [فصلت : 40] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ قرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي بتنوين فزع ، وفتح ميم يومئذ ، وقرأه الباقون بغير تنوين ، بل بالإضافة إلى يومئذ ، إلا أن نافعاً قرأ بفتح ميم يومئذ مع إضافة فزع إليه ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو بإضافة فزع إلى يومئذ مع كسر ميم يومئذ ، وفتح الميم وكسرها من نحو يومئذ قد أوضحناه بلغاته وشواهده العربية مع بيان المختار من اللغات في سورة مريم في الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ [مريم : 15] الآية .

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو هريرة ، وأنس بن مالك رضي الله عنهم ، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النخعي ، وأبو وائل ، وابو صالح ، ومحمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، والزهري ، والسدي ، والضحاك ، والحسن وقتادة ، وابن زيد في قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة ﴾ يعني : الشرك .

وهذه الآية الكريمة تضمنت أمرين :

الأول : أن من جاء ربه يوم القيامة بالسيئة كالشرك يكب وجهه في النار .

(84/582)

والثاني : أن السيئة إنما تجزي بمثلها من غير زيادة ، وهذان الأمران جاءا موضحين في غير هذا الموضع ، كقوله تعالى في الأول منهما : ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [طه : 74] وكقوله تعالى في الثاني منهما : ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام : 160] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : 84] وقوله تعالى : ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ [النبأ : 26] .

وإذا علمت أن السيئات لا تضاعف ، فاعلم أن السيئة قد تعظم فيعظم جزاؤها بسبب حرمة المكان كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : 25] أو حرمة الزمان كقوله تعالى في الأشهر الحرم : ﴿ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : 36] .

(85/582)

وقد دلت آيات من كتاب الله أن العذاب يعظم بسبب عظم الإنسان المخالف ، كقوله تعالى في نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ [الإسراء : 7475] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة : 4446] الآية وكقوله تعالى في أزواجه صلى الله عليه وسلم ﴿ يانسآء النبي مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ﴾ [الأحزاب : 30] الآية ، قد قدمنا طرفاً من الكلام على هذا في الكلام ، على قوله تعالى : ﴿ إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ﴾ [الإسراء : 75] مع تفسير الآية ، ومضاعفة السيئة المشار إليها في هاتين الآيتين ، إن كانت بسبب عظم الذنب ، حتى صار في عظمه كذنبين ، فلا إشكال ، وإن

كانت مضاعفة جزاء السيئة كانت هاتان الآيتان مخصصتين للآيات المصرحة ، بأن السيئة لا تجزي إلا بمثلها ، والجميع محتمل ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(86/582)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

وكأن الله تعالى يقول لي : التفتْ إلى العبرة في الآيات الكونية ، حيث ستنفعك في يوم آت هو يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [النمل : 87] وهو البوق ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ [النمل : 87] والفزع : الخوف الشديد الذي يأخذ كلَّ مَنْ في السموات ، وكل مَنْ في الأرض ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ [النمل : 87] قالوا : هم الملائكة : إسرافيل الذي ينفخ في الصور ، وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل . لذلك لما تكلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مسألة الصعق هذه قال : " فأفيق من الصعقة فأجد أخي موسى ماسكاً بالعرش " ذلك لأن موسى عليه السلام صعق في الدنيا مرة حين تجلَّى ربه للجبل ، كما حكى القرآن : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ

جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ [الأعراف : 143] .

وما كان الله تعالى ليجمع على نبيه موسى عليه السلام صعقتين ، لذلك لم يُصعَق صعقة الآخرة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل : 87] أي : صاغرين أذلاء ، لا يتأبى على الله منهم أحد ، حيث لا قدرةَ له على ذلك ؛ لأن القيامة أنهتْ الاختيار الذي كان لهم في الدنيا ، وبه ملّكهم الله شيئاً من المِلْك : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] .

فأعطى الله تعالى طرفاً من المِلْك ، ووهبه لبعض عباده في دنيا الأسباب والاختيار ، أمَّا في الآخرة فالمِلْك لله تعالى وحده ، لا ينازعه فيه أحد : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

(87/582)

في القيامة يُنزع منك كلّ شيء تملكه وكلّ قدرة لك على ما تملك حتى جوارحك لا قدرةَ لك عليها ، ولا إرادةَ لتنفعل لك ، هي تبع إرادتك في الدنيا ، وبها ترى وتسمع وتمشي وتبطش ، أمَّا في الآخرة فقد سُلِبت منك هذه الإرادة ، بدليل أنها ستشهد عليك ،

وتُحاجّك يوم القيامة .

ثم ينتقل السياق بنا مرة أخرى إلى آية كونية : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا ﴾

قوله تعالى ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ [النمل : 88] اي : تظنها ثابتة ، وتحكم عليها بعدم الحركة ؛ لذلك نسميها الرواسي والأوتاد ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] أي : ليس الأمر كما تظن ؛ لأنها تتحرك وتمر كما يمرّ السحاب ، لكنك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها لأنك تتحرك معها بنفس حركتها .

وهَبْ أننا في هذا المجلس ، أنتم أمامي وأنا أمامكم ، وكان هذا المسجد على رحاية أو عجلة تدور بنا ، أيتغير وضعنا وموقعنا بالنسبة لبعضنا ؟

إذن : لا تستطيع أن تلاحظ هذه الحركة إلا إذا كنتَ أنت خارج الشيء المتحرك ، ألاَ ترى أنك تركب القطار مثلاً ترى أن أعمدة التليفون هي التي تجري وأنت ثابت .

ولأن هذه الظاهرة عجيبة سيقف عندها الخَلْق يزيل الله عنهم هذا العجب ، فيقول ﴿ صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 88] يعني : لا تتعجب ، فالمسألة من صُنع الله وهندسته وبديع خَلْقه ، واختار هنا من صفاته تعالى : ﴿ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 88] يعني : كل خَلْق عنده بحساب دقيق مُتقَن .

البعض فهم الآية على أن مرَّ السحاب سيكون في الآخرة ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] .

وقد جانبه الصواب لأن معنى ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 5] أنها ستتفتت وتتناثر ، لا أنها تمر ، وتسير هذه واحدة ، والأخرى أن الكلام هنا مبنيٌّ على الظن ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ [النمل : 88] وليس في القيامة ظن ؛ لأنها إذا قامتْ أحداثها مُتيقنةٌ .

ثم إن السحاب لا يتحرك بذاته ، وليس له موتور يُحركه ، إنما يُحرِّكه الهواء ، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتيةٌ فيها ، فلم نَرَ جبلاً تحرَّك من مكانه ، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض ؛ لأنها أوتاد عليها ، فحركة الوتد تابعة للموتود فيه .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الجبال قال : ﴿ وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : 15] .

ولو خُلِقتْ الأرض على هيئة السُّكون ما احتاجتْ لما يُثبِّتها ، فلا بُدَّ أنها مخلوقة على هيئة الحركة .

في الماضي وقبل تطور العلم كانوا يعتقدون في المنجِّمين وعلماء الفلك الكفرة أنهم يعلمون الغيب ، أما الآن وقد توصَّل العلماء إلى قوانين حركة الأرض وحركة الكواكب الأخرى في

المجموعة الشمسية واستطاعوا حساب ذلك كله بدقة مكّنتهم من معرفة ظاهرة الخسوف والكسوف مثلاً ونوع كل منهما ووقته وفعلاً تحدث الظاهرة في نفس الوقت الذي حددوه لا تتخلف .

واستطاعوا بحساب هذه الحركة أنْ يصعدوا إلى سطح القمر ، وأن يُطلِقوا مركبات الفضاء ويُسيِّروها بدقة حتى إنَّ إحداها تلتحم بالأخرى في الفضاء الخارجي .

كل هذه الظواهر لو لم تكن مبنية على حقائق مُتيقَّنة لأدتْ إلى نتائج خاطئة وتخلفتْ .

ومن الأدلة التي تثبت صحة ما نميل إليه في معنى حركة الجبال ، أن قوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 88] امتنان من الله تعالى بصنعته ، والله لا يمتنُّ بصنعته يوم القيامة ، إنما الامتنان علينا الآن ونحن في الدنيا .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89)

(89/582)

لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها : فكما أن الآيات الكونية التي أخبر بها الحق تبارك وتعالى حقيقة واقعة ، وتأكدتَ أنت من صِدْقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك ، فكما أخبرناك بهذه الآيات نُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغي أن تصدقها ، وأن تأخذ من

صدْق ما شاهدتَ دليلاً على صِدْق ما غاب عنك ، فربُّك يُخبِرك بأنه ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل : 89] .

الحسنة : فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله في العبادة ، فإن فعلتَ الفعل على مراد الله تعالى كانت لك حسنة ، والحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضِعْف على مقدار طاقة الفاعل من الإخلاص والتجرُّد لله في فعله .

والمعنى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة ﴾ [النمل : 89] أي : في الدنيا ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل : 89] أي : ناشىء عنها في الآخرة .

ونسمع من البعض مَنْ يقول : إذا كان قولنا : لا إله إلا الله حسنة فالثواب عليها خَيْر منها . وهذا القول ناتج عن فَهْم غير دقيق لمعنى الآية ؛ لأن الله تعالى الذي أُقر به في الشهادة هو الذي يهبني هذا الثواب ، فمَنْ جاء بالحسنة له خير ناشىء من هذه الحسنة ومُسبّب عنها . كما لو قلت : مأمور المركز خير من وزير الداخلية : أي خَيْر جاءنا من ناحيته ، ووصل إلينا من طرفه ، أليس هو صاحب قرار تعيينه ؟

ومن ذلك ما يقوله أصحاب الطريق والمجاذيب يقولون : محمد خير من ربه ، وفي مثل هذه الأقوال لعب بأفكار الناس وإثارة لمشاعرهم ، وربما تعرض للإيذاء ، فكيف يقول هذه الكلمة ومحمد مُرْسَل من عند الله ؟ وحين تُمعِن النظر في العبارة تجدها صحيحة ، فمراد الرجل أن محمداً خير جاءنا من عند الله .

أو : يكون المعنى ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل : 89] أن الجزاء على الحسنة خير من الحسنة ؛ لأنك تفعل الحسنة فِعْلاً موقوتاً ، أمّا خيرها والثواب عليها ، فسيظل لك خالداً بلا نهاية .

(90/582)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة ﴾

معنى : ﴿ فَكُبَّتْ ﴾ [النمل : 90] ألقيت بعنف ، وخصّ الوجوه مع أن الأعضاء كلها ستكبُّ ؛ لأنه أشرفها وأكرمها عند صاحبها ، والوجه موضع العزة والشموخ ، فالحق تبارك وتعالى يريد لهم الذلّة والمهانة ، وفي موضع آخر يُبيّن أن كل الأعضاء ستكبُّ في النار ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون ﴾ [الشعراء : 94] .

وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراءً عليهم ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : 90] وكما يقول سبحانه : ﴿ لاَ ظُلْمَ اليوم ﴾ [غافر : 17] فلم نجامل صاحب الحسنة ، ولم نظلم صاحب السيئة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(91/582)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ الآية .

هذه الآية تدل بظاهرها على أن الجبال يظنها الرائي ساكنة وهي تسير ، وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الجبال راسية ، والراسي هو: (الثابت في محل) كقوله تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ .

وقوله: ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ﴾ .

ووجه الجمع ظاهر وهو أن قوله ﴿ أَرْسَاهَا ﴾ ونحوه يعني في الدنيا ، وقوله وهي تمر مر السحاب يعني في الآخرة بدليل قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ ثم عطف على ذلك قوله ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ ﴾ . . . الآية .

ومما يدل على ذلك النصوص القرآنية على أن سير الجبال في يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ وقوله: ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 228 ﴾

فائدة

قال أستاذنا العلامة الشيخ : محمود غريب ـ حفظه الله ـ فى كتابه النفيس سورة الواقعة ومنهجها فى العقائد ما نصه :

وإذا كان سير الجبال ـ فى الدنيا ـ عجيبا فإن سورة النمل ـ التى ذكرت الآية الكريمة فيها ـ هى سورة العجائب ، لقد جاء فيها خبر سليمان مع الطير ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) ﴾ وقصة الهدهد بتمامها يمكن أن نقرأها فى السورة الكريمة ، وهى عجيبة ، وفى السورة حديث النملة مع سليمان ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا ﴾ كما أن السورة الكريمة ذكرت قصة سليمان والعفريت ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) ﴾ ومن الأحداث العجيبة التى ذكرتها السورة الكريمة ، خبر الرجل الذى عنده علم من الكتاب ، وكيف استطاع أن ينقل عرش ملكة اليمن ، فى أقل من طرفة عين : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ وأشارت السورة

الكريمة إلى الجانب الحضارى والعمرانى فى مملكة سليمان . .

عمران لم يشهد العالم مثله فى أرقى دولة . فقد بنى قصرا على أرضية من زجاج أملس ثم دعا ملكة سبأ إلى دخول القصر ، فظنته لجة من ماء راكد ، فكشفت عن ساقيها فأعلمها سليمان بالحقيقة ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) ﴾

(93/582)

ومن الأمور العجيبة التى ذكرتها سورة النمل ، أن الخاطئين من قوم لوط ، حكموا على الأطهار من أهله بالخروج من القرية ، وعللوا الخروج بتعليل عجيب ، قال تعالى ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) ﴾

إن التطهر فى المجتمع القذر جريمة ، يعاقب عليها بالطرد ، وويل للشرفاء فى غياب الفضيلة .

وفى السورة الكريمة جاء ذكر للدابة التى تخرج من الأرض ـ عند قرب موعد الآخرة ـ تكلم الناس معاتبة ، ومسفهة لهم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ

الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) ﴾

فالسورة الكريمة ـ سورة النمل ـ كلها عجائب ، والكون مشحون بأسرار لا يحيط بها علم البشر .

ولما كانت السورة الكريمة تخبر بعجائب الأخبار ، التى لم يألفها الناس ـ فى حياتهم اليومية ـ نرى القرآن قد أكد نزوله من عند الله مرتين ، مرة فى أول السورة قال تعالى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ﴾

وفى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) ﴾

ومرة أخرى ، قال تعالى ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ سورة الواقعة ومنهجها فى العقائد / للعلامة الشيخ محمود غريب صـ 36.35 ﴾ ط 3 دار التراث العربى ـ القاهرة .

(94/582)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

أخرج سعيد بن منصور وابن جرير عن أبي هريرة في قوله ﴿ ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ قال : هم الشهداء .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عاصم أنه قرأ ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ ممدودة مرفوعة التاء على معنى فاعلوه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه قرأ ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ خفيفة بنصب التاء على معنى جاؤوه . يعني بلا مد .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في النمل ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ على معنى جاؤوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ داخرين ﴾ قال : صاغرين .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ، مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : ﴿ الداخر ﴾ : الصاغر الراهب ، لأن المرء إذا فرع إنما همته الهرب من الأمر الذي فزع منه ، فلما نفخ في الصور فزعوا فلم يكن لهم من الله منجا .

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وترى الجبال تحسبها

جامدة ﴾ قال : قائمة ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ قال : احكم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾ قال : ثابتة في أصولها لا تتحرك ﴿ وهي تمر مر السحاب ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ يقول : أحسن كل شيء خلقه وأتقنه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ قال : أحسن كل شيء .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾ قال : أوثق كل شيء .

(95/582)

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾ قال : ألم تر إلى كل دابة كيف تبقى على نفسها .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر " عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ قال : هي لا إله إلا الله ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ﴾ قال : هي الشرك " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الموجبتين قال ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ قال : من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقي الله يشرك به دخل النار " .

وأخرج الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة جاء الايمان والشرك يجثوان بين يدي الرب فيقول الله للإيمان : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة . ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ يعني : قول لا إله إلا الله ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ الشرك ﴿ فكبت وجوههم في النار ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة وأنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يجيء الاخلاص والشرك يوم القيامة ، فيجثوان بين يدي الرب فيقول الرب للاخلاص : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ، ثم يقول للشرك انطلق أنت وأهلك إلى النار ، ثم تلا هذه الآية ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ بشهادة أن لا إله إلا الله ﴿ فله خير منها ﴾ يعني : بالخير الجنة ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ بالشرك ﴿ فكبت وجوههم في النار ﴾ " .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ يعني بها شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ يعني بها الشرك يقال : هذه تنجي . وهذه تردي .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ قال : بلا إله إلا الله ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ قال : بالشرك .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبي قال : كان حذيفة جالساً في حلقة فقال : ما تقولون في هذه الآية ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ﴾ فقالوا : نعم يا حذيفة من جاء بالحسنة ضعفت له عشر أمثالها . فأخذ كفا من حصى يضرب به الأرض وقال : تباً لكم . وكان حديداً وقال : من جاء بلا إله إلا الله وجبت له الجنة ، ومن جاء بالشرك وجبت له النار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ قال : بلا إله إلا الله ﴿ فله خير منها ﴾ قال : فمنها وصل إلى الخير ﴿ ومن جاء

بالسيئة ﴾ قال : الشرك .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ قال : لا إله إلا الله ﴿ من جاء بالسيئة ﴾ قال : الشرك .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن وإبراهيم وأبي صالح وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة ومجاهد . ومثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ فله خير منها ﴾ قال : ثواب .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ قال شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ فله خير منها ﴾ قال يعطي به الجنة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ثمن الجنة لا إله إلا الله " .

(97/582)

وأخرج ابن أبي حاتم عن زرعة بن إبراهيم ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ قال : لا إله إلا الله ﴿ فله خير منها ﴾ قال : لا إله إلا الله خير . ليس شيء أخير من لا إله إلا الله .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ ينون فزع وينصب يومئذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(98/582)

فائدة

قال صاحب الأمثل :

والآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة الله في هذا العالم الواسع ، فتقول: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء) .

فمن يكون قادراً على كل هذا النظم والإبداع في الخلق ، لا ريب في علمه و (إنّه خبير بما تفعلون) .

يعتقد كثير من المفسّرين أن هذه الآية تشير إلى الحوادث التي تقع بين يدي القيامة ، لأننا نعرف أن في نهاية هذه الدنيا تقع زلازل وانفجارات هائلة ، وتتلاشى الجبال وتنفصل بعضها عن بعض ، وقد اشير الى هذه الحقيقة في السور الأخيرة من القرآن كراراً .

ووقوع الآية في سباق آيات القيامة دليل وشاهد على هذا التّفسير .

إلاّ أن قرائن كثيرة في الآية تؤيد تفسيراً آخر ، وهو أن الآية آنفة الذكر من قبيل آيات التوحيد

ودلائل عظمة الله في هذه الدنيا ، وتشير إلى حركة الأرض التي لا نحس بها .

وتوضيح ذلك :

1 ـ إنّ الآية تقول: تحسب الجبال ساكنة وجامدة مع أنّها تمرّ مرّ السحاب . . وهذا التعبير واضح أنّه لا ينسجم مع الحوادث التي تقع بين يدي القيامة . . لأنّ هذه الحوادث من الوضوح بمكان بحيث يعبر عنها القرآن (يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى) .

2 ـ تشبيه حركة الجبال بحركة السحاب يتناسب مع الحركات المتناسقة الهادئة ، ولا يتناسب والإنفجارات العظيمة التي تصطك منها المسامع ! .

(99/582)

---

3 ـ التعبير الآنف الذكر يدلّ على أنّه في الوقت الذي ترى الجبال بحسب الظاهر جامدة ، إلاّ أنّها في الواقع تتحرك بسرعة «على حالتها التي ترى فيها جامدة» أي أن الحالتين تبينان شيئاً واحداً .

4 ـ والتعبير بـ «الإتقان» الذي يعني الإحكام والتنظيم ، يتناسب زمان استقرار نظام العالم ، ولا يتناسب وزمان انهياره وتلاشيه .

5 ـ جملة (إنّه خبير بما تفعلون) مع ملاحظة أنّ «تفعلون» فعل مضارع، تدل على أنّها تتعلق بهذه الدنيا، لأنّها تقول: إن الله خبير بأعمالكم التي تصدر في الحال والمستقبل. ولو كانت ترتبط بانتهاء العالم، لكان ينبغي أن يقال: إنّه خبير بما فعلتم. «فتأملوا بدقّة».

ويستفاد من مجموع هذه القرائن أنّ هذه الآية تكشف عن إحدى عجائب الخلق، وهي في الواقع تشبه ما جاء في الآيتين آنفتي الذكر: (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه).

وبناءً على ذلك فالآيات محل البحث قسم منها في التوحيد، وقسم منها في المعاد!.

وما نستنتجه من هذا التّفسير، هو أن هذه الجبال التي نتصورها ساكنة «جامدة» هي في سرعة مطرّدة في حركتها... ومن المقطوع به أنّه لا معنى لحركة الجبال من دون حركة الأرض المتصلة بها، فيتّضح من الآية أنّ الأرض تتحرك كما يتحرك السحاب!.

ووفقاً لحسابات علماء اليوم فإنّ سرعة حركة الأرض حول نفسها تقرب من (30) كيلومتر في كل دقيقة، وسرعة سيرها في حركتها الإنتقالية حول الشمس أكثر من هذا المقدار...

لكن علام عُني بالجبال دون غيرها؟ لعل ذلك إنّما هو لأنّ الجبال يضرب بها المثل لثقلها وقرارها، وتعدّ مثلاً حسناً لبيان قدرة الله سبحانه، فحيث إن هذه الجبال على عظمتها وما فيها من ثقل، تتحرك كالسحاب بأمر الله «مع الأرض» فقدرته على كل شيء «بينة، وثابتة»!

وعلى كل حال ، فالآية آنفة الذكر تعدّ من معاجز القرآن العلمية . . . لأننا نعلم أن أوّل العلماء الذين اكتشفوا حركة كرة الأرض هو «غاليو» الإيطالي و«كبرنيك» اللذين أظهرا هذه الحقيقة للملأ في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ! بالرغم من أن رجال الكنيسة حكموا عليهما حكماً صارماً ، وتعرضاً لمضايقات كثيرة . .

إلاّ أنّ القرآن كشف الستار عن وجه هذه الحقيقة قبل ذلك بألف عام تقريباً وبيّن حركة الأرض بالأسلوب الآنف الذكر على أنّها بعض أدلة التوحيد !

(100/582)

ويرى بعض فلاسفة الإسلام ، في الوقت الذي يقبلون فيه التّفسير الثاني ، وهو الإشارة إلى حركة الجبال في هذا العالم ، أن الآية ناظرة إلى «الحركة الجوهرية» في الأشياء ، واعتقدوا أنّ الآية منسجمة والنظرية المعروفة بالحركة الجوهرية ومؤيدة لها (1) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الأمثل حـ 12 صـ 151 . 154 ﴾

---

1 . المراد من «الحركة الجوهرية» هو أنّ أشياء عالم المادة بالإضافة إلى ما يحصل فيها من تغييرات مختلفة في الكيفية والكمية والمكان وما أشبه ذلك ! فيها حركة في داخلها «وجوهرها» أي أنّها وجود سيال ومتحرك ، والتغييرات الظاهرية هي انعكاس عن

التغييرات الداخلية لها . . وبتعبير آخر: إن لدينا وجودين مختلفين ذاتاً . . الوجود الثابت «الوجود ماوراء المادي» ، ووجود سيال ومتحرك «الوجود المادي» وأهم دليل على إثبات هذه النظرية مسألة وجود الزمان للموجودات المادية وعدم انفصال التغييرات الظاهرية عن التغييرات الباطنية ، ويطول بنا البحث في هذا الصدد وهو خارج عن موضوعنا هنا .

(101/582)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَفَزِعَ ﴾ :

دونَ فَيَفْزَعُ ؛ لتحقُّقِه كقوله : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الذين ﴾ [الحجر : 2] و ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] .

قوله : ﴿ أَتَوْهُ ﴾ قرأ حمزة وحفص " أَتَوْه " فعلاً ماضياً . ومفعولُه الهاءُ . والباقون " آتُوْه " اسمَ فاعلٍ مضافاً للهاءِ . وهذا حَمْلٌ على معنى " كُل " وهي مضافةٌ تقديراً أي : وكلَّهم . وقرأ قتادةُ " أتاه " مُسْنداً لضميرِ " كُل " على اللفظِ ، ثم حُمِلَ على معناها فقرأ "

داخِرين " . والحسن والأعرج " دَخِرين " بغير ألفٍ .

قوله : ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ :

هذه الجملةُ حاليةٌ مِنْ فاعلِ " ترى " ، أو مِنْ مفعولِه ؛ لأنَّ الرؤيةَ بَصَريةٌ .

قوله : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ ﴾ الجملةُ حاليةٌ أيضاً . وهكذا الأجرامُ العظيمةُ تراها واقفةً وهي مارَّة . قال النابغةُ الجعديُّ يصف جيشاً كثيفاً :

3583 بأَرْعَنَ مثلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أنَّهم . . . وُقوفٌ لِحاجٍ والرِّكابُ تُهَمْلِجُ

و " مرَّ السَّحابِ " مصدرٌ تشبيهيٌّ .

قوله : ﴿ صُنْعَ اللهِ ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملةِ السابقةِ . عاملُه مضمرٌ . أي : صَنَعَ اللهُ ذلك صُنْعاً ، ثم أُضِيف بعد حَذْفِ عامِله . وجعلَه الزمخشريُّ مؤكِّداً للعاملِ في ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [النمل : 87] وقدَّره " ويومَ يُنْفَخُ " وكان كيتَ وكيتَ أثابَ اللهُ المحسنين ، وعاقَبَ المسيئين ، في كلامٍ طويلٍ حَوْماً على مذهبه . وقيل : منصوبٌ على الإغراء أي : انظروا صُنْعَ اللهِ وعليكم به .

والإِتْقانُ : الإتيانُ بالشيءِ على أكملِ حالاتِه . وهو مِنْ قولِهم " تَقَّن أَرْضَه " إذا ساقَ إليها الماءَ الخاثِرَ بالطينِ لتَصْلُحَ للزراعة . وأرضٌ تَقْنَةٌ . والتَّقْنُ : فِعْلُ ذلك بها ، والتَّقْنُ أيضاً : ما رُمِيَ به في الغدير من ذلك أو الأرض .

قوله : ﴿ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرٍو وهشام بالغَيْبة جرْياً على قولِه : " وكلٌّ أَتَوْهُ " . والباقون بالخطاب جَرْياً على قولِه : " وتَرى " لأنَّ المرادَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأمَّتُه .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89)

قوله : ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ : في " خيرٌ " وجهان ، أحدُهما : أنها للتفضيلِ باعتبارِ زَعْمهم ، أو على حَذْفِ مضافٍ أي : خيرٌ مِنْ قَدْرِها واستحقاقِها ف " مِنْها " في محلِّ نصبٍ ، وأَنْ لا تكونَ للتفضيلِ . فيكونَ " منها " في موضعِ رفعٍ صفةً لها .

قوله : ﴿ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ قد تقدَّم في هود فتحُ " يوم " وجَرُّه ، و " إذ " مضافةٌ لجملةٍ حُذِفَتْ وعُوِّض عنها التنوينُ . والأحسنُ أَنْ تُقَدَّرَ : يومَ إذ جاءَ بالحسنةِ . وقيل : يومَ إذ ترى الجبالَ . وقيل : يومَ إذ يُنْفَخُ في الصُّور . والأولُ أَوْلى لقُرْب ما قُدِّر منه .

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

قوله : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ : على إضمار قولٍ ، وهذا القولُ حالٌ مِمَّا قبله أي : كُبَّتْ وجوهُهم مقولاً لهم ذلك القولُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 645 .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

أخبر أن اليومَ الذي يُنْفَخُ فيه في الصور هو يومُ إزهاق الأَرواح ، وإخراجها عن الأجساد ؛ فَمِنْ روحٍ ترقى إلى عِلّيين ، ومِنْ روحٍ تذهب إلى سجّين . . أولئك في حواصل طيرٍ تسرح في الجنة تأوي بالليلِ إلى قناديلَ معلقةٍ من تحت العرش صفتها التسبيح والرّوْح والراحة ، ولبعضها الشهود والرؤية . . . على مقادير استحقاقهم لِمَا كانوا عليه في دنياهم .

وأمّا أرواحُ الكفار ففي النار تُعَذَّب على مقادير أجرامهم .

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

وكثيرٌ من الناس اليومَ من أصحاب التمكين ، هم ساكنون بنفوسهم سائحون في الملكوت بأسرارهم . . قيل : إن الإشارة اليومَ إليهم . كما قالوا : العارف كائنٌ بائنٌ ؛ كائنٌ مع الناس بظاهره ، بائنٌ عن جميع الخَلْق بسرائره .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89)

يحتمل أن يكون ﴿ خير ﴾ ها هنا للمبالغة ؛ لأن الذي له في الآخرة من الثواب خيرٌ مِمَّا منه من القُرَب : ويحتمل فله نصيب خيرٌ أو عاقبة خيرٌ أو ثواب خيرٌ منها . وهم آمنون مِنْ فَزَعِ القيامة . ومن جاء بالسيئة : فكما أن حالَهم اليوم من المطيعين بالعكس فَحُكْمُهم غَداً في الآخرة بالضدِّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 51.52 ﴾

(104/582)

فائدة

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ :

هَذَا تَفْسِيرُ آيَاتٍ أُشْكِلَتْ حَتَّى لَا يُوجَدُ فِي طَائِفَةٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ إلَّا مَا هُوَ خَطَأٌ فِيهَا ، مِنْهَا قَوْله تَعَالَى ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ الْآيَةَ . الْمَشْهُورُ عَنْ السَّلَفِ أَنَّ الْحَسَنَةَ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ السَّيِّئَةَ الشِّرْكُ وَعَنْ السدي قَالَ : ذَلِكَ عِنْدَ الْحِسَابِ أُلْغِيَ بَدَلُ كُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ فَإِنْ بَقِيَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ فَجَزَاؤُهُ النَّارُ إلَّا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ . قُلْت : تَضْعِيفُ الْحَسَنَةِ إلَى عَشْرٍ وَإِلَى سَبْعِمِائَةٍ ثَابِتٌ فِي الصِّحَاحِ وَأَنَّ السَّيِّئَةَ مِثْلُهَا وَأَنَّ الْهَمَّ بِالْحَسَنَةِ حَسَنَةٌ وَالْهَمَّ بِالسَّيِّئَةِ لَا يُكْتَبُ . فَأَهْلُ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ قَالُوهُ لِأَنَّ أَعْمَالَ الْبِرِّ دَاخِلَةٌ فِي

التَّوْحِيدِ ؛ فَإِنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ بِمَا أَمَرَ بِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ الْآيَةَ .

(105/582)

فَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ التَّوْحِيدُ وَهِيَ كَالشَّجَرَةِ وَالْأَعْمَالُ ثِمَارُهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَكَذَلِكَ السَّيِّئَةُ هِيَ الْعَمَلُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَارِثٌ هَمَّامٌ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عَمَلٍ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَقْصُودٍ يَعْمَلُ لِأَجْلِهِ . وَإِنْ عَمِلَ لِلَّهِ وَلِغَيْرِهِ فَهُوَ شِرْكٌ . وَالذُّنُوبُ مِنْ الشِّرْكِ فَإِنَّهَا طَاعَةٌ لِلشَّيْطَانِ . قَالَ : ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ﴾ الْآيَةَ وَقَالَ : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ الْآيَةَ . وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ ﴾ لَكِنْ إذَا كَانَ مُوَحِّدًا وَفِعْلُ بَعْضِ الذُّنُوبِ نَقْصُ تَوْحِيدِهِ كَمَا قَالَ : ﴿ لَا يَزْنِي الزَّانِي ﴾ إلَخْ . وَمَنْ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ فَلَيْسَ بِمُخْلِصٍ وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ ﴾ إلَخْ . وَحَدِيثُ أَبِي بَكْرٍ ﴿ قُلْ : اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أُشْرِكَ بِك شَيْئًا وَأَنَا أَعْلَمُ ﴾ إلَخْ ؛ لَكِنْ إذَا لَمْ يَعْدِلْ بِاللَّهِ غَيْرَهُ فَيُحِبُّهُ مِثْلَ حُبِّ اللَّهِ بَلْ اللَّهُ أَحَبُّ إلَيْهِ وَأَخْوَفُ عِنْدَهُ وَأَرْجَى مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ فَقَدْ خَلَصَ مِنْ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 440 . 441 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتم الدين بذكر الأصول الثلاثة : المبدأ والمعاد والنبوة ، ومقدمات القيامة وأحوالها ، وبعض صفتها وما يكون من أهوالها ، وذلك كمال ما يتعلق بأصول الدين على وجوه مرغبة أتم ترغيب ، مرهبة أعظم ترهيب ، أوجب هذا الترغيب والترهيب لكل سامع أن يقول : فما الذي نعمل ومن نعبد ؟ فأجابه المخاطب بهذا الوحي .

المأمور بإبلاغ هذه الجوامع ، الداعي لمن سمعه ، الهادي لمن اتبعه ، بأنه لا يرضى له ما رضي لنفسه ، وهو ما أمره به ربه ، فقال : ﴿ إنما أمرت ﴾ أي بأمر من لا يرد له أمر ، ولا يعد أن يكون بدلاً من قوله ﴿ الحمد لله وسلام على عباده الذين اصصفى ﴾ فيكون محله نصباً

بقل ، وعظم المأمور به بإحلاله محل العمدة فقال : ﴿ أن أعبد ﴾ أي بجميع ما أمركم به ﴿ رب ﴾ أي موجب ومدبر وملك ؛ وعين المراد وشخصه وقربة تشريفاً وتكريماً بقوله : ﴿ هذه البلدة ﴾ أي مكة التي تخرج الدابة منها فيفزع كل من يراها ، ثم توّمن أهل السعادة ، أخصه بذلك لا أعبد شيئاً مما عدلتموه به سبحانه وادعيتم أنهم شركاء ، وهم من جملة ما خلق ؛ ثم وصف المعبود الذي أمر بعبادة أحد غيره بما يقتضيه وصف الربوبية ، وتعين البلدة التي أشار إليها بأداة القرب لحضورها في الأذهان لعظمتها وشدة الإلف بها وإرادتها بالأرض التي تخرج الدابة منها ، فصارت لذلك بحيث إذا أطلقت البلدة انصرفت إليها وعرف أنها مكة ، فقال : ﴿ الذي حرمها ﴾ تذكيراً لهم بنعمته سبحانه عليهم وتربيته لهم بأن أسكنهم خير بلاده ، وجعلهم بذلك مهابة في قلوب عباده ، بما ألقى في القلوب من أنها حرم ، لا يسفك بها دم ، ولا يظلم أحد ، ولا يباح بها صيد ، ولا يعضد شجرها ، وخصها بذلك من بين سائر بلاده والناس يتخطفون من حولهم وهم آمنون لا ينالهم شيء من فزعهم وهولهم .

ولما كانت إضافتها إليه إنما هي لمحض التشريف ، قال احتراساً عما لعله يتوهم : ﴿ وله كل شيء ﴾ أي من غيرها مما أشركتموه به وغيره خلقاً وملكاً وملكاً ، وليس هو كالملوك الذين ليس لهم إلا ما حموه على غيرهم .

ولما كانوا ربما قالوا : ونحن نعبده بعبادة من نرجوه يقربنا إليه زلفى ، عين الدين الذي تكون به العبادة فقال : ﴿ وأمرت ﴾ أي مع الأمر بالعبادة له وحده ، وعظم المفعول المأمور به بجعله عمدة الكلام بوضعه موضع الفاعل فقال : ﴿ أن أكون ﴾ أي كوناً هو في غاية الرسوخ ﴿ من المسلمين ﴾ أي المنقادين لجميع ما يأمر به كتابه أتم انقياد ، ثابتاً على ذلك غاية الثبات .

ولما بين ما أمر به في نفسه ، أتبعه ما تعم فائدته غيره فقال : ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ أي أواظب على تلاوته وتلوه – أي اتباعه – عبادة لربي ، وإبلاغاً للناس ما أرسلت به إليهم مما لا يلم به ريب في أنه من عنده ، ولأكون مستحضراً لأوامره فأعمل بها ، ولنواهيه فأجتنبها ، وليرجع الناس إيه ويعولوا في كل أمر عليه .

لأنه جامع لكل علم .

ولما تسبب عن ذلك أن من انقاد له نجى نفسه ، ومن استعصى عليه أهلكها ، قال له ربه سبحانه مسلياً ومؤسياً ومرغباً ومرهباً : ﴿ فمن اهتدى ﴾ أي باتباع هذا القرآن الداعي إلى الجنان ﴿ فإنما يهتدي لنفسه ﴾ لأنه يحييها بحوزة الثواب ، ونجاته من العقاب ، فإنما أنا من المبشرين ، أبشره أنه من الناجين ﴿ ومن ضل ﴾ أي عن الطريق التي نهج وبينها من غير ميل ولا عوج ﴿ فقل ﴾ له كما تقول لغيره : ﴿ إنما أنا من المنذرين ﴾ أي المخوفين

له عواقب صنعه ، وإنما فسره ورده فلم أومر به الآن ﴿ وقل ﴾ أي إنذاراً لهم وترغيباً وترجية وترهيباً : ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي الذي له العظمة كلها سواء اهتدى الكل وضل الكل ، أو انقسموا إلى مهتد وضال ، لأنه لا يخرج شيء عن مراده .

(108/582)

ولما كانت نتيجة ذلك القدرة على كل شيء قال : ﴿ سيريكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة بوعد محقق لا شك في وقوعه ﴿ آياته ﴾ أي الرادة لكم عما أنتم فيه يوم يحل لي هذه البلدة الذي حرمها بما أشار إليه جعلي من المنذرين وغير ذلك ما يظهر من وقائعه ويشتهر من أيامه التي صرح أو لوح بها القرآن ، فيأتيكم تأويله فترونه عياناً ، وهو معنى ﴿ فتعرفونها ﴾ أي بتذكركم ما أتوعدكم الآن به وأصفه لكم منها ، لا تشكون في شيء من ذلك أنه على ما وصفته ولا ترتابون ، فتظهر لكم عظمة القرآن ، وإبانة آيات الكتاب الذي هو الفرقان ، وترون ذلك حق اليقين ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ [ص : 88] ، ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ [الأعراف : 53] ، ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ [يس : 52] .

ولما كان قد نفس لهم بالسين في الآجال ، وكان التقدير تسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وما ربك بتاركهم على هذا الحال من العناد لأن ربك قادر على ما يريد ، عطف عليه قوله : ﴿ وما ربك ﴾ أي المحسن إليك بجميع ما أقامك فيه من هذه الأمور العظيمة والأحوال الجليلة الجسيمة ﴿ بغافل عما تعملون ﴾ أي من مخالفة أوامره ، ومفارقة زواجره ، ويجوز أن تكون الجملة حالاً من فاعل ﴿ يرى ﴾ أي ربكم غير غافل ، ومن قرأ بالخطاب كان المعنى : عما تعمل انت وأتباعك من الطاعة .

(109/582)

وهو من المعصية ، فيجازي كلاًّ منكم بما يستحق فيعلي أمرك ، ويشد إزرك ، ويوهن أيدهم ، ويضعف كيدهم ، بما له من الحكمة ، والعلم ونفوذ الكلمة ، فلا يظن ظان أن تركه للمعالجة بعقابهم لغفلة عن شيء من أعمالهم ، إنما ذلك لأنه حد لهم حداهم بالغوه لا محالة لأنه لا يبدل القول لديه ، فقد رجع آخرها كما ترى بإبانة الكتاب وتفخيم القرآن وتقسيم الناس فيه إلى مهتد وضال إلى أولها ، وعانق ختامها ابتداءها بحكمة منزلها ، وعلم مجملها ومفصلها ، إلى غير ذلك مما يظهر عند تدبرها وتأملها – والله الموفق للصواب ، وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 457 . 459 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب ، وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال : قل يا محمد إني أمرت بأشياء : الأول : أني أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكاً ، وأن الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمداً بأن يقول لهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم إن لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد أفادت لي ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها ، فإني مصر عليها غير مرتاب فيها ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين : أحدهما : أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وإنما اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه .

أما قوله : ﴿ الذى حَرَّمَهَا ﴾ فقرىء (التي حرمها) ، وإنما وصفها بالتحريم لوجوه :

أحدها : أنه حرم فيها أشياء على من يحج وثانيها : أن اللاجيء إليها آمن

وثالثها : لا ينتهك حرمتها إلا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وإنما ذكر ذلك لأن العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا أن تلك الفضيلة ليست من الأصنام بل من الله تعالى ، فكأنه قال لما علمت وعلمتم أنه سبحانه هو المتولي لهذه النعم وجب عليَّ أن أخصه بالعبادة وثانيها : وصف الله تعالى بقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىء ﴾ وهذا إشارة إلى ما تقدم من الدلائل المذكورة في هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقاً لجميع النعم فأجمل ههنا تلك المفصلات ، وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول إن كل العالم له وكل الناس في طاعته الثاني : أمر بأن يكون من المسلمين الثالث : أمر بأن يتلو القرآن عليهم ، ولقد قام بكل ذلك صلوات الله عليه أتم قيام فمن اهتدى في هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهي التوحيد والحشر والنبوة ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ أي منفعة اهتدائه راجعة إليه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ فلا علي وما أنا إلا رسول منذر ، ثم إنه سبحانه ختم هذه (السورة) بخاتمة في نهاية الحسن وهي قوله : ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على ما أعطاني من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة وبالإنذار ﴿ سَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ القاهرة ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ لكن حين لا ينفعكم الإيمان

﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ لأنه من وراء جزاء العاملين ، والله أعلم .

تم تفسير السورة والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين على أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 190 . 191 ﴾

(112/582)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾

فيها قولان

: أحدهما : مكة ، قاله ابن عباس .

الثاني : مِنى ، قاله أبو العالية ، وتحريمها هو تعظيم حرمتها والكف عن صيدها وشجرها .

﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ يعني ملك كل شيء مما أحله وحرمه فيحل منه ما شاء ويحرم منه ما شاء لأن للمالك أن يفعل في ملكه ما يشاء .

قوله : ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يريكم في الآخرة فتعرفونها على ما قال في الدنيا ، قاله الحسن .

الثاني : يريكم في الدنيا ما ترون من الآيات في السموات والأرض فتعرفونها أنها حق ، قاله مجاهد .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر فلا بد أن يجازي عليه ، والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(113/582)

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ إنما أمرت ﴾ بمعنى قل يا محمد لقومك ﴿ إنما أمرت ﴾ ، و ﴿ البلدة ﴾ المشار إليها مكة ، وقرأ جمهور الناس " الذي حرمها " ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود " التي حرمها " وأضاف في هذه الآية التحريم إلى الله تعالى من حيث ذلك بقضائه وسابق علمه وأضافه النبي صلى الله عليه وسلم إلى إبراهيم في قوله

" إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة " ، من حيث كان ظهور ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأمته فليس بين الآية والحديث تعارض ، وفي قوله ﴿ حرمها ﴾ تعديد نعمته على قريش في رفع الله تعالى عن بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب ، وقوله ﴿

وله كل شيء ﴾ معناه بالملك والعبودية ، وقرأ جمهور الناس " أن أتلو " عطفاً على قوله ﴿ أن أكون ﴾ وقرأ ابن مسعود " وأن اتل القرآن " بمعنى وقيل لي اتل القرآن و" اتل " معناه تابع بقراءتك بين آياته واسرده وتلاوة القرآن سبب الاهتداء إلى خير كثير ، وقوله ﴿ فمن اهتدى ﴾ معناه من تكسب الهدى والإيمان ونظر نظراً ينجيه ف ﴿ لنفسه ﴾ سعيه . قال القاضي أبو محمد : فنسبة الهدى والضلال إلى البشر في هذه الآية إنما هي بالتكسب والحرص والحال التي يقع عليها الثواب والعقاب والكل أيضاً من الله تعالى بالاختراع ، وقوله ﴿ سيريكم آياته ﴾ توعد بعذاب الدنيا كبدر ، والفتح ، ونحوه وبعذاب الآخرة ، وقرأ جمهور القراء " عما يعملون " ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم عما " تعملون " بالتاء من فوق على مخاطبتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(114/582)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّما أُمِرْتُ ﴾

المعنى : قل للمشركين : إِنَّما أُمِرْتُ ﴿ أَنْ أَعبُد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : ﴿ التي حرَّمها ﴾ ، وهي مكة ، وتحريمها : تعظيم حرمتها

بالمنع من القتل فيها والسبي والكفّ عن صيدها وشجرها ، ﴿ وله كُلُّ شيء ﴾ لأنه خالقه ومالكه ، ﴿ وأُمِرْتُ أن أكون من المسلِمين ﴾ أي : من المخلِصِين لله بالتوحيد ، ﴿ وأن أتلوَ القرآن ﴾ عليكم ﴿ فمن اهتدى فإنَّما يهتدي لنفسه ﴾ أي : فله ثواب اهتدائه ﴿ ومَنْ ضَلَّ ﴾ أي : أخطأ [طريق] الهُدى ﴿ فَقُلْ إنَّما أنا مِنَ المُنْذِرِين ﴾ أي : ليس عليَّ إلا البلاغ ؛ وذكر المفسرون أن هذا منسوخ بآية السيف ، ﴿ وقُلِ الحمدُ لله ﴾ أي : قُلْ لمن ضَلَّ : الحمد لله الذي وفَّقَنا لقَبول ما امتنعتم منه ﴿ سيريكم آياته ﴾ .

ومتى يريهم ؟ فيه قولان .

أحدهما : في الدنيا .

ثم فيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن منها الدخان وانشقاق القمر ، وقد أراهم ذلك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : سيريكم آياته [فتعرفونها] في السماء ، وفي أنفسكم ، وفي الرِّزق ، قاله مجاهد .

والثالث : القتل ببدر ، قاله مقاتل .

والثاني : سيُريكم آياته في الآخرة فتَعْرِفونها على ما قال في الدنيا ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وما ربُّك بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن

عاصم ﴿ تعملون ﴾ بالتاء ، على معنى : قل لهم ، وقرأ الباقون بالياء ، على أنه وعيد لهم بالجزاء على أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(115/582)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا ﴾

يعني مكة التي عظّم الله حرمتها ؛ أي جعلها حرما آمناً ؛ لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصاد فيها صيد ، ولا يعضد فيها شجر ؛ على ما تقدّم بيانه في غير موضع .

وقرأ ابن عباس : ﴿ الَّتِي حَرَّمَهَا ﴾ نعتاً للبلدة .

وقراءة الجماعة ﴿ الَّذِي ﴾ وهو في موضع نصب نعت ل ﴿ رب ﴾ ولو كان بالألف واللام لقلت المحرِّمَها ؛ فإن كانت نعتاً للبلدة قلت المحرِّمها هو ؛ لا بدّ من إظهار المضمر مع الألف واللام ؛ لأن الفعل جرى على غير من هو له ؛ فإن قلت الذي حرمها لم تحتج أن تقول هو .

﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ ﴾ خلقاً وملكاً .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ أي من المنقادين لأمره ، الموحّدين له .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ القرآن ﴾ أي وأمرت أن أتلو القرآن ، أي أقرأه .

﴿ فَمَنِ اهتدى ﴾ فله ثواب هدايته .

﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ فليس عليّ إلا البلاغ ؛ نسختها آية القتال .

قال النحاس : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ ﴾ نصب بأن .

قال الفرّاء : وفي إحدى القراءتين ﴿ وَأَنِ اتْلُ ﴾ وزعم أنه في موضع جزم بالأمر فلذلك حذف منه الواو ، قال النحاس : ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة ، وهي مخالفة لجميع المصاحف .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الحمد للَّهِ ﴾ أي على نعمه وعلى ما هدانا .

﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أي في أنفسكم وفي غيركم كما قال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] .

﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أي دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السموات وفي الأرض ؛ نظيره قوله تعالى : ﴿ وَفِي الأرض آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 20 21] .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ قرأ أهل المدينة وأهل الشام وحفص عن عاصم بالتاء على الخطاب ؛ لقوله : ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ فيكون الكلام على نسق واحد .

الباقون بالياء على أن يرد إلى ما قبله ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ فأخبر عن تلك الآية .

كملت السورة والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

قوله تعالى : ﴿ طسم ﴾ تقدّم الكلام فيه .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ ﴿ تِلْكَ ﴾ في موضع رفع بمعنى هذه تلك و ﴿ آيَاتُ ﴾ بدل منها .

ويجوز أن يكون في موضع نصب ب ﴿ نَتْلُو ﴾ و ﴿ آيَاتُ ﴾ بدل منها أيضاً ؛ وتنصبها كما تقول : زيداً ضربت .

و ﴿ الْمُبِينِ ﴾ أي المبين بركته وخيره ، والمبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ،

وقصص الأنبياء ، ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال : بان الشيء وأبان (اتضح) .

(117/582)

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بالحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون ، واحتج على مشركي قريش ، وبيّن أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره ، وكذلك قرابة قريش لمحمد ، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجبّر ، فكان ذلك من كفره ، فليجتنب العلوّ في الأرض ، وكذلك التعزز بكثرة المال ، وهما من سيرة فرعون وقارون .

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ ﴾ أي يقرأ عليك جبريل بأمرنا ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي من خبرهما و ﴿ من ﴾ للتبعيض و ﴿ مِنْ نَبَإِ ﴾ مفعول ﴿ نَتْلُو ﴾ أي نَتْلو عليك بعض خبرهما ؛ كقوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] .

ومعنى : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب .

﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يصدّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله ؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾ أي استكبر وتجبّر ؛ قاله ابن عباس والسّديّ .

وقال قتادة : علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية .

وقيل : بملكه وسلطانه فصار عالياً على من تحت يده .

"فِي الأَرْضِ" أي أرض مصر .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فرقاً وأصنافاً في الخدمة .

قال الأعشى :

وبلدة يَرْهَبُ الجوّابُ دجلتَها . . .

حتى تراه عليها يَبْتَغي الشّيعَا

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل .

﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ تقدّم القول في هذا في "البقرة" عند قوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [البقرة : 49] الآية ؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له : إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال المنجّمون له ذلك ، أو رأى رؤيا فعبّرت كذلك .

قال الزجاج : العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا معنى للقتل .

وقيل : جعلهم شيعاً فاستسخر كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد .

﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبر .

قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض ﴾ أي نتفضل عليهم وننعم .

وهذه حكاية مضت .

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال ابن عباس : قادة في الخير .

مجاهد : دعاة إلى الخير .

قتادة : ولاة وملوكاً ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ﴾ [المائدة : 20] .

قلت : وهذا أعمّ فإن المِلك إمام يؤتم به ويقتدى به .

﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ لملك فرعون ؛ يرثون ملكه ، ويسكنون مساكن القبط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

ثم أمر تعالى نبيه أن يقول : ﴿ إنما أمرت ﴾ ،

والآمر هو الله تعالى على لسان جبريل ، أو دليل العقل على وحدانية الله تعالى .

﴿ أن أعبد ﴾ : أي أفرده بالعبادة ، ولا أتخذ معه شريكاً ، كما فعلت قريش ، وهذه إشارة تعظيم كقوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ هذا ذكر من معي من حيث هي موطن نبيه ومهبط وحيه .

والبلدة : مكة ، وأسند التحريم إليه تشريفاً لها واختصاصاً ، ولا تعارض بين قوله : ﴿ الذي حرمها ﴾ ، وقوله عليه السلام : " إن إبراهيم حرم مكة وإني حرمت المدينة " ، لأن إسناد ذلك إلى الله من حيث كان بقضائه وسابق علمه ، وإسناده إلى إبراهيم من حيث كان ظهور ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأمته .

وفي قوله : ﴿ حرمها ﴾ ، تنبيه بنعمته على قريش ، إذ جعل بلدتهم آمنة من الغارات والفتن التي تكون في بلاد العرب ، وأهلك من أرادها بسوء .

وقرأ الجمهور : الذي : صفة للرب .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : التي حرمها : صفة للبلدة ، ولما أخبر أنه مالك هذه البلدة ، أخبر أنه يملك كل شيء فقال : ﴿ وله كل شيء ﴾ ، أي جميع الأشياء داخلة في ربوبيته ،

فشرفت البلدة بذكر اندراجها تحت ربوبيته على جهة الخصوص ، وعلى جهة العموم .

﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ : أي من المستسلمين المنقادين لأمر الله ، فاعبده كما أمرني ، أو من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام المشار إليهم في قوله : ﴿ هو سماكم المسلمين ﴾ ، ﴿ وأن أتلوا القران ﴾ ، إما من التلاوة ، أي : وأن أتلو عليكم القرآن ، وهذا الظاهر ، إذ بعده التقسيم المناسب للتلاوة ، وإما من المتلو ، أي : وأن أتبع القرآن ، كقوله : ﴿ واتبع ما يوحى إليك ﴾ وقرأ الجمهور : وأن أتلو .

وقرأ عبد الله : وأن اتل ، بغير واو ، أمراً من تلا ، فجاز أن تكون أن مصدرية وصلت بالأمر ، وجاز أن تكون مفسرة على إضمار : وأمرت أن أتل ، أي اتل .

وقرأ أبي : واتل هذا القرآن ، جعله أمراً دون أن .

(120/582)

﴿ فمن اهتدى ﴾ ، به ووحد الله ونبيه وآمن بما جاء به ، فثمرة هدايته مختصة به .

﴿ ومن ضل ﴾ ، فوبال إضلاله مختص به ، وحذف جواب من ضل لدلالة جواب مقابله عليه ، أو يقدر في قوله : ﴿ فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ ضمير حي يربط الجزاء بالشرط ، إذ أداة الشرط اسم وليس ظرفاً ، فلا بد في جملة الجواب من ذكر يعود عليه ملفوظ به أو

مقدر ، فتكون هذه الجملة هي جواب الشرط ، ويقدر الضمير من المنذرين له ، ليس علي إلا إنذاره ، وأما هدايته فإلى الله .

﴿ وقل الحمد لله ﴾ : أمر أن يقول ذلك ، فيحمد ربه على ما خصه به من شرف النبوة والرسالة ، واختصه من رفيع المنزلة .

﴿ سيريكم آياته ﴾ : تهديد لأعدائه بما يريهم الله من آياته التي تضطرهم إلى معرفتها والإقرار أنها آيات الله .

قال الحسن : وذلك في الآخرة حتى لا تنفعهم المعرفة .

وقال الكلبي : في الدنيا ؛ وهي الدخان وانشقاق القمر وما حل بهم من نقمات الله .

وقيل : يوم بدر .

وقيل : خروج الدابة ، ولو بعد حين .

وقيل : آياته في أنفسكم وفي سائر ما خلق مثل قوله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ وقيل : معجزات الرسول ، وأضافها إليه لأنه هو مجريها على يدي رسوله ، ومظهرها من جهته .

﴿ فتعرفونها ﴾ : أي حقيقتها ، ولا يسعكم جحودها .

وقرأ الجمهور : عما يعملون ، بياء الغيبة ، التفاتاً من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة ؛ ونافع ، وابن عامر : بتاء الخطاب لقوله : ﴿ سيريكم ﴾ .

ولما قسمهم إلى مهتد وضال ، أخبر تعالى أنه محيط بأعمالهم ، غير غافل عنها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(121/582)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذى حَرَّمَهَا ﴾

أُمر عليه الصَّلاة والسَّلام أنْ يقولَ لهم ذلك بعد ما بيَّن لهم أحوالَ المبدأِ والمعادِ وشرحَ أحوالَ القيامةِ تنبيهاً لهم على أنَّه قد أتمَّ أمرَ الدَّعوةِ بما لا مزيدَ عليه ولم يبقَ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعد ذلك شأنٌ سوى الاشتغالِ بعبادةِ الله عزَّ وجلَّ . والاستغراقِ في مُراقبتِهِ غيرَ مُبالٍ بهم ضلُّوا أمْ رشدُوا صلحُوا أو فسدُوا ليحملَهم ذلك على أنْ يهتمُّوا بأمورِ أنفسِهم ولا يتوهَّمُوا من شدَّةِ اعتنائِه عليه الصَّلاة والسَّلام بأمرِ دعوتِهم أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام يُظهر لهم ما يُلجئُهم إلى الإيمانِ لا محالةَ ويشتغلوا بتداركِ أحوالِهم ويتوجَّهُوا نحوَ التَّدبرِ فيما شاهدُوه من الآياتِ الباهرةِ . والبلدةُ هي مكَّةُ المعظمةُ وتخصيصُها بالإضافةِ لتفخيمِ شأنِها وإجلال مكانِها ، والتعرض لتحريمِهِ تعالى إيَّاها تشريفٌ لها بعد تشريفٍ وتعظيمٌ إثرَ تعظيمٍ مع ما فيه من الإشعارِ بعلَّةِ الأمرِ وموجبِ الامتثالِ به كما في قولِه تعالى : ﴿

فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ وَءامَنَهُم مّنْ خوْفٍ ﴾ ومن الرَّمزِ إلى غايةِ شَنَاعةِ ما فعلُوا فيها ألا يَرَى أَنَّهم مع كونِها محرَّمةً من أنْ تنتهكَ حرمتُها باختلاءِ خلاها وعضْدِ شجرِها وتنفيرِ صيدِها وإرادةِ الإلحادِ فيها بوجهٍ من الوجوهِ قد استمرُّوا فيها على تعاطِي أفجرِ أفرادِ الفُجور وأشنعِ آحادِ الإلحادِ حيثُ تركُوا عبادةَ ربِّها ونصبُوا فيها الأوثانَ وعكفُوا على عبادتِها قاتلَهم اللهُ أَنَّى يؤفكون . وقُرِىء حَرَمَها بالتَّخفيفِ . وقولُه تعالى ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىء ﴾ أي خلقاً وملكاً وتصرُّفاً من غيرِ أنْ يشاركَه شيءٌ في شيءٍ من ذلكَ تحقيقٌ للحقِّ وتنبيهٌ على أنَّ إفرادَ مكَّةَ بالإضافةِ لما ذُكر من التَّفخيمِ والتَّشريفِ مع عُمومِ الرُّبوبيةِ لجميعِ الموجُوداتِ . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾

(122/582)

أي أثبت على ما كنتُ عليهِ من كوني من جُملةِ الثَّابتين على ملَّةِ الإسلامِ والتَّوحيدِ أي الذين أسلمُوا وجوهَهم للهِ خالصةً من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ القرءان ﴾ أي أواظبَ على تلاوتِه لتنكشفَ لي حقائقُه الرائعةُ المخزونةُ في تضاعيفِه شيئاً فشيئاً أو على تلاوتِه على النَّاسِ بطريقِ تكريرِ الدَّعوةِ وتثنيةِ الإرشادِ فيكونَ ذلك تنبيهاً على كفايتِه في الهدايةِ والإرشادِ من غيرِ حاجةٍ إلى إظهارِ مُعجزةٍ

أُخرى. فمعنى قولِه تعالى ﴿ فَمَنُ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ حينئذٍ فمن اهتدى بالإيمانِ به والعملِ بما فيهِ من الشّرَائعِ والأحكامِ. وعلى الأولِ فمن اهتدَى باتّباعِه إيّاي فيما ذُكر من العبادةِ والإسلامِ وتلاوةِ القُرآن فإنَّما منافعُ اهتدائهِ عائدةٌ إليهِ لا إليَّ. ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بالكفرِ به والإعراضِ عن العملِ بما فيه أو بمُخالِفتي فيما ذُكر ﴿ فَقُلْ ﴾ في حقّه ﴿ إِنَّمَا أَنَاْ مِنَ المنذرين ﴾ وقد خرجتُ عن عُهدة الإنذارِ فليسَ عليَّ وبالِ ضلالِه شيءٌ وإنَّما هُو عليه فَقَطْ.

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾

(123/582)

أي علَى ما أفاضَ عليَّ من نعمائِه التي أجلُّها نعمةُ النُّبوةِ المستتبعةِ لفنونِ النّعمِ الدّينيةِ والدُّنيويةِ ووفَّقني لتحمل أعبائِها وتبليغِ أحكامِها إلى كافَّةِ الوَرَى بالآياتِ البينةِ والبراهينِ النيرةِ. وقولُه تعالى: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ من جُملةِ الكلامِ المأمورِ به أي سيُريكم ألبتةَ في الدُّنيا آياتِه الباهرةَ التي نطقَ بها القرآنُ كخروجِ الدابةِ وسائرِ الأشراطِ وقد عُدَّ منها وقعةُ بدرٍ ويأباهُ قولُه تعالى: ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أي فتعرفونَ أنَّها آياتُ اللهِ تعالى حينَ لا تنفعُكم المعرفةُ لأنَّهم لا يعترفونَ بكونِ وقعةِ بدرٍ كذلك، وقيل: سيُريكم في الآخرةِ. وقولُه تعالى:

﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كلامٌ مسوقٌ من جهتِه تعالى بطريقِ التَّذييلِ مقررٌ لما قبلَه متضمنٌ للوعدِ والوعيدِ كما يُنبىء عنه إضافةُ الربِّ إلى ضميرِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتخصيصُ الخطابِ أولاً به عليه الصَّلاة والسَّلام وتعميمُه ثانياً للكَفَرةِ تغليباً ، أيْ وما ربُّك بغافلٍ عمَّا تعملُ أنتَ من الحسناتِ وما تعملونَ أنتُم أيُّها الكفرةُ من السيئاتِ فيُجازي كُلاًّ منكم بعملِه لا محالةَ . وقُرِىء عمَّا يعملُون على الغَيبةِ فهُو وعيدٌ محضٌ والمعنى : وما ربُّك بغافلٍ عن أعمالِهم فسيعذبُهم ألبتةَ فلا يحسبُوا أنَّ تأخيرَ عذابِهم لغفلتِه تعالى عن أعمالِهم الموجبةِ له والله تعالى أعلمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 6 صـ ﴾

(124/582)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذى حَرَّمَهَا ﴾

استئناف بتقدير قل قبله وهو أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهؤلاء الكفرة ذلك بعد ما بين لهم أحوال المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة إثارة لهممهم بألطف وجه إلى أن يشتغلوا بتدارك أحوالهم وتحصيل ما ينفعهم والتوجه نحو التدبر فيما قرع أسماعهم من الآيات الباهرة الكافية في إرشادهم والشافية لعللهم والبلدة على ما روي عن ابن عباس

وقتادة وغيرهما هي مكة المعظمة ، وفي تاريخ مكة أنها منى قال حدثنا يحيى بن ميسرة عن خلاد بن يحيى عن سفيان أنه قال : البلدة منى والعرب تسميها بلدة إلى الآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية تفسيرها بذلك أيضاً ، وذكر بعض الأجلة أن أكثر المفسرين على الأول وتخصيصها بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها والتعرض لتحريمه تعالى إياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم إثر تعظيم مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر وموجب الامتثال به كما في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ وَءامَنَهُم مّنْ خوْفٍ ﴾ [قريش : 3 ، 4] ومن الرمز إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها ألا ترى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وإرادة الإلحاد فيها قد استمروا فيها على تعاطي أفظع أفراد الفجور وأشنع آحاد الإلحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الأوثان وعكفوا على عبادتها قاتلهم الله تعالى أنى يؤفكون ، ولا تعارض بين ما في الآية من نسبة تحريمها إليه عز وجل وما في قوله عليه الصلاة والسلام : " إن إبراهيم عليه السلام حرم مكة وأنا حرمت المدينة " من نسبة تحريمها إلى إبراهيم عليه السلام لأن ما هنا باعتبار أنه هو المحرم في الحقيقة وما في الحديث باعتبار أن إبراهيم عليه السلام مظهر لحكمه عز شأنه .

وقرأ ابن عباس وابن مسعود التي صفة للبلدة وقراءة الجمهور أبلغ في التعظيم ، ففي "الكشف" أن إجراء الوصف على الرب تعالى شأنه ، تعظيم لشأن الوصف ولشأن ما يتعلق به الوصف وزيادة اختصاص له بمن أجرى عليه الوصف على سبيل الإدماج وجعل ذلك كالمسلم المبرهن ولا كذلك لو وصفت البلدة بوصف تخصيصاً أو مدحاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىء ﴾ أي خلقاً وملكاً وتصرفاً ، من غير أن يشاركه سبحانه شيء في شيء من ذلك تحقيق للحق ، وتنبيه على أن إفراد مكة بالإضافة لما مر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات ، واستدل به بعض الناس لجواز ما يقوله جهلة المتصوفة شيء لله ، لأنه في معنى كل شيء لله عز وجل ، نحو تمرة خير من جرادة ، وأنت تعلم أنهم لا يأتون به لإرادة ذلك بل يقولون : شيء لله يا فلان لبعض الأكابر من أهل القبور ، إما على معنى أعطني شيئاً لوجه الله تعالى يا فلان ، أو أنت شيء عظيم من آثار قدرة الله تعالى ؛ وقد وجهه بذلك من لم يكفرهم به وهو الحق وإن كان في ظاهره على أول التوجيهين طلب شيء ممن لا قدرة له على شيء نعم الأولى صيانة اللسان عن أمثال هذه الكلمات .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ أي أثبت على ما كنت عليه من كوني من جملة الثابتين على ملة الإسلام والتوحيد أو الذين أسلموا وجوههم لله تعالى خالصة من قوله تعالى : ﴿

وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ﴾ [النساء : 125] .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ القرءان ﴾

(126/582)

أي أواظب على قراءته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنيته الإرشاد لكفايته في الهداية إلى طريق الرشاد ، وقيل أي أواظب على قراءته لينكشف لي حقائقه الرائقة المخزونة في تضاعيفه شيئاً فشيئاً فإن المواظبة على قراءته من أسباب فتح باب الفيوضات الإلهية والأسرار القدسية ، وقد حكي أنه صلى الله عليه وسلم قام ليلة يصلي فقرأ قواله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] فما زال يكررها ويظهر له من أسرارها ما يظهر حتى طلع الفجر ، وقيل أتلو من تلاه إذا تبعه ، أي وأن أتبع القرآن ، وهو خلاف الظاهر ، ويؤيد ما ذكرناه أولاً من المعنى ما في حرف أبي كما أخرجه أبو عبيد .

وابن المنذر عن هارون واتل عليهم القرآن وحكى عنه في "البحر" أنه قرأ واتل هذا القرآن ، ولا تأييد فيه لما ذكرنا .

وقرأ عبد الله وأن أتل بغير واو أمراً من تلا فجاز أن تكون أن مصدرية وصلت بالأمر ،

وجاز أن تكون مفسرة على إضمار أمرت ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ أي بالإيمان بالقرآن والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام ، وقيل أي بالاتباع فيما ذكر من العبادة والإسلام ، وتلاوة القرآن أو اتباعه ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ أي فإنما منافع اهتدائه تعود إليه ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بالكفر به والإعراض عنه ، وقيل بالمخالفة فيما ذكر ﴿ فَقُلْ ﴾ أي له .

(127/582)

﴿ إِنَّمَا أَنَاْ مِنَ المنذرين ﴾ وقد خرجت عن عهدة الإنذار فليس علي من وبال ضلالك شيء وإنما هو عليك فقط ويعلم مما ذكرنا أن جواب الشرط جملة القول وما في حيزه والرابط المشترط في مثله محذوف وقدره بعضهم بعد المنذرين أي من المنذرين إياه ، وجوز أبو حيان كون الجواب محذوفاً أي من ضل فوبال ضلاله مختص به وحذف ذلك لدلالة جواب مقابله عليه ، وجوز بعضهم كون الجملة بعد هي الجواب ولكونها كناية تعريضية عما قدره أبو حيان لم تحتج إلى رابط ثم أن ظاهر التصريح بقل هنا يقتضي أن يكون فمن اهتدى الخ من كلامه عز وجل عقب به أمره صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما قبله ، ولا بعد في كونه من مقول القول المقدر قبل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ [النمل : 91] كما سمعت .

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ أي على ما أفاض علي من نعمائه التي من أجلها نعمة النبوة المستتبعة

لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقني لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها بالآيات البينة والبراهين النيرة ، وقوله تعالى : ﴿ سَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ من جملة الكلام المأمور به أي قل سيريكم آياته سبحانه : ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أي فتعرفون أنها آيات الله تعالى حيث لا تنفعكم المعرفة ، وقيل : أي سيريكم في الدنيا والمراد بالآيات الدخان وما حل بهم من نقمات الله تعالى وعد منها قتل يوم بدر واعتراف المقتولين بذلك بالفعل واعتراف غيرهم بالقوة ، وقيل : هي خروج الدابة وسائر أشراط الساعة والخطاب لجنس الناس لا لمن في عهد النبوة .

(128/582)

وأخرج ابن أبي حاتم وجماعة عن مجاهد أن المراد بالآيات الآيات الأنفسية والآفاقية فالآية كقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءاياتنا فِى الافاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : 53] ؛ وقيل : المراد بها معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم وإضافتها إلى ضميره تعالى لأنها فعله عز وجل أظهرها على يد رسوله عليه الصلاة والسلام للتصديق ، والمراد بالمعرفة ما يجامع الجحود ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كلام مسوق من جهته سبحانه بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبىء عنه إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم وتخصيص الخطاب أولاً : به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانياً :

للكفرة تغليباً أي وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيئات فيجازي كلاً منكم بعمله لا محالة ، وقرأ الأكثر يعملون بياء الغيبة فهو وعيد محض والمعنى وما ربك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته سبحانه عن أعمالهم الموجبة له ومن تأمل في الآيات ظهر له أن هذه الخاتمة مما تدهش العقول وتحير الأفهام ولله تعالى در التنزيل وماذا عسى يقال في كلام الملك العلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(129/582)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) ﴾

ثم ذكر سبحانه طرفاً مجملاً من أهوال يوم القيامة .

فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ العامل في الظرف فعل محذوف خوطب به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والحشر الجمع .

قيل : والمراد بهذا الحشر هو حشر العذاب بعد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق ، و " من " لابتداء الغاية ، والفوج : الجماعة كالزمرة ، و "من" في ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ بيانية

﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يحبس أوّلهم على آخرهم ، وقد تقدّم تحقيقه في هذه السورة مستوفى ، وقيل معناه : يدفعون ، ومنه قول الشماخ :

وسمه وزعنا من خميس جحفل . . . ومعنى الآية : واذكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الأمم جماعة مكذّبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أوّلهم على آخرهم ، أو يدفعون أي اذكر لهم هذا ، أو بينه تحذيراً لهم ، وترهيباً .

(130/582)

﴿ حتى إِذَا جَاءُوا ﴾ إلى موقف الحساب قال الله لهم توبيخاً ، وتقريعاً : ﴿ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ﴾ التي أنزلتها على رسلي ، وأمرتهم بإبلاغها إليكم والحال أنكم ﴿ لَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ بل كذبتم بها بادىء بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها ، ولا مستدلين على صحتها ، أو بطلانها تمرّداً ، وعناداً ، وجرأة على الله وعلى رسله ، وفي هذا مزيد تقريع وتوبيخ ؛ لأن من كذب بشيء ، ولم يحط به علماً فقد كذب في تكذيبه ، ونادى على نفسه بالجهل وعدم الإنصاف ، وسوء الفهم ، وقصور الإدراك ، ومن هذا القبيل من تصدّى لذمّ علم من العلوم الشرعية ، أو لذمّ علم هو مقدّمة من مقدّماتها ، ووسيلة يتوسل بها إليها ، ويفيد زيادة بصيرة في معرفتها ، وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها ، وهي اثنا عشر

علماً ، وعلم أصول الفقه فإنه يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية مع اشتماله على بيان قواعد اللغة الكلية ، وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله ، وسنة رسوله ، فإنه قد نادى على نفسه بأرفع صوت بأنه جاهل مجادل بالباطل طاعن على العلوم الشرعية ، مستحق لأن تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله وضلاله وطعنه على ما لا يعرفه ، ولا يعلم به ، ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره ، وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعاف العقول ، وركاك الأديان ، ورعاع المتلبسين بالعلم زوراً وكذباً .

و" أم " في قوله : ﴿ أَمَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ هي المنقطعة ، والمعنى : أم أيّ شيء كنتم تعملون حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها ، والتفكر في معانيها ؟ وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم .

(131/582)

﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ قد تقدّم تفسيره قريباً ، والباء في ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ للسببية أي وجب القول عليهم بسبب الظلم الذي أعظم أنواعه الشرك بالله ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ عند وقوع القول عليهم ، أي ليس لهم عذر ينطقون به ، أو لا يقدرون على القول لما يرونه من

الهول العظيم .

وقال أكثر المفسرين : يختم على أفواههم فلا ينطقون .

ثم بعد أن خوّفهم بأهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد ، وعلى الحشر ، وعلى النبوّة مبالغة في الإرشاد وإبلاء للمعذرة ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ أي جعلنا الليل للسكون والاستقرار والنوم ، وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فإنهم لا يسعون فيه للمعاش ، والنهار مبصراً ، ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي لا بدّ له منهم ، ووصف النهار بالإبصار ، وهو وصف للناس مبالغة في إضاءته كأنه يبصر ما فيه .

قيل : في الكلام حذف ، والتقدير : وجعلنا الليل مظلماً ليسكنوا ، وحذف مظلماً لدلالة مبصراً عليه ، وقد تقدّم تحقيقه في الإسراء وفي يونس ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي علامات ودلالات ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله سبحانه .

ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ هو معطوف على ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ منصوب بناصبه المتقدّم .

قال الفراء : إن المعنى : وذلكم يوم ينفخ في الصور ، والأوّل أولى .

والصور : قرن ينفخ فيه إسرافيل ، وقد تقدّم في الأنعام استيفاء الكلام عليه .

والنفخات في الصور ثلاث : الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة

البعث .

وقيل : إنها نفختان ، وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة إلى نفخة الصعق ، أو إلى نفخة البعث ، واختار هذا القشيري ، والقرطبي ، وغيرهما .

(132/582)

وقال الماوردي : هذه النفخة المذكورة هنا يوم النشور من القبور ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ أي خافوا وانزعجوا لشدّة ما سمعوا ، وقيل : المراد بالفزع هنا : الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم : فزعت إليك في كذا : إذا أسرعت إلى إجابتك ، والأوّل أولى بمعنى الآية .

وإنما عبر بالماضي مع كونه معطوفاً على مضارع : للدلالة على تحقق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان .

وقال الفراء : هو محمول على المعنى ؛ لأن المعنى إذا نفخ ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ أي إلا من شاء الله أن لا يفزع عند تلك النفخة .

واختلف في تعيين من وقع الاستثناء له ، فقيل : هم الشهداء والأنبياء .

وقيل : الملائكة ، وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وقيل : الحور العين .

وقيل : هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ ويمكن أن يكون الاستثناء شاملاً لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين ﴾ قرأ الجمهور : "آتوه" على صيغة اسم الفاعل مضافاً إلى الضمير الراجع إلى الله سبحانه .

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وحفص عن عاصم : "أتوه" فعلاً ماضياً ، وكذا قرأ ابن مسعود .

وقرأ قتادة : "وكل أتاه" .

قال الزجاج : إن من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل ، ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه ، وهو غلط ظاهر ، فإن كلا القراءتين لا توحيد فيها ، بل التوحيد في قراءة قتادة فقط ، ومعنى ﴿ داخرين ﴾ : صاغرين ذليلين ، وهو منصوب على الحال ، قرأ الجمهور : ﴿ داخرين ﴾ ، وقرأ الأعرج : "دخرين" بغير ألف ، وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل .

﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ معطوف على ﴿ ينفخ ﴾ .

(133/582)

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لكلّ من يصلح للرؤية ، و ﴿ تحسبها جامدة ﴾ في محل نصب على الحال من ضمير ترى أو من مفعوله ؛ لأن الرؤية بصرية .

وقيل : هي بدل من الجملة الأولى ، وفيه ضعف ، وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة ، ومعنى ﴿ تحسبها جامدة ﴾ أي قائمة ساكنة ، وجملة : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ في محل نصب على الحال ، أي وهي تسير سيراً حثيثاً كسير السحاب التي تسيرها الرياح .

قال القتيبي : وذلك أن الجبال تجمع وتسير وهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير .

قال القشيري : وهذا يوم القيامة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] .

قرأ أهل الكوفة تحسبها بفتح السين ، وقرأ الباقون بكسرها ﴿ صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ انتصاب ﴿ صنع ﴾ على المصدرية عند الخليل وسيبويه وغيرهما ، أي صنع الله ذلك صنعاً ، وقيل : هو مصدر مؤكد لقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ .

وقيل : منصوب على الإغراء ، أي انظروا صنع الله ، ومعنى ﴿ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ : الذي أحكمه ، يقال : رجل تقن أي حاذق بالأشياء ، وجملة : ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ تعليل لما قبلها من كونه سبحانه صنع ما صنع ، وأتقن كل شيء ، والخبير : المطلع على الظواهر والضمائر .

قرأ الجمهور بالتاء الفوقية على الخطاب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالتحتية على

الخبر .

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ الألف واللام للجنس ، أي من جاء بجنس الحسنة فله من الجزاء والثواب عند الله خير منها أي أفضل منها ، وأكثر .

وقيل : خير حاصل من جهتها ، والأول أولى .

وقيل : المراد بالحسنة هنا : لا إله إلاّ الله .

وقيل : هي الإخلاص .

وقيل : أداء الفرائض ، والتعميم أولى ولا وجه للتخصيص وإن قال به بعض السلف .

(134/582)

قيل : وهذه الجملة بيان لقوله : ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، وقيل : بيان لقوله : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين ﴾ .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي : ﴿ وهم من فزع ﴾ بالتنوين وفتح ميم ﴿ يومئذٍ ﴾ .

وقرأ نافع بفتحها من غير تنوين ، وقرأ الباقون بإضافة فزع إلى يومئذٍ .

قال أبو عبيد : وهذا أعجب إليّ لأنه أعم التأويلين ؛ لأن معناه : الأمن من فزع جميع ذلك اليوم ، ومع التنوين يكون الأمن من فزع دون فزع .

وقيل : إنه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر ، فتكون القراءتان بمعنى واحد .

وقيل : المراد بالفزع ها هنا هو : الفزع الأكبر المذكور في قوله : ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ﴾ [الأنبياء : 103] .

ووجه قراءة نافع أنه نصب يوم على الظرفية لكون الإعراب فيه غير متمكن ، ولما كانت إضافة الفزع إلى ظرف غير متمكن بني ، وقد تقدّم في سورة هود كلام في هذا مستوفى ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ .

قال جماعة من الصحابة ، ومن بعدهم حتى قيل : إنه مجمع عليه بين أهل التأويل : إن المراد بالسيئة هنا : الشرك ، ووجه التخصيص قوله : ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ ، فهذا الجزاء لا يكون إلاّ بمثل سيئة الشرك ، ومعنى ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ : أنهم كبوا فيها على وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها ، يقال : كببت الرجل : إذا ألقيته لوجهه فانكبّ وأكبّ ، وجملة ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بتقدير القول ، أي يقال ذلك ، والقائل خزنة جهنم ، أي : ما تجزون إلاّ جزاء عملكم .

(135/582)

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا ﴾ لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ ، والمعاد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم هذه المقالة ، أي قل يا محمد : إنما أمرت أن أخص الله بالعبادة وحده لا شريك له ، والمراد بالبلدة : مكة ، وإنما خصها من بين سائر البلاد لكون فيها بيت الله الحرام ، ولكونها أحبّ البلاد إلى رسوله ، والموصول صفة للربّ ، وهكذا قرأ الجمهور .

وقرأ ابن عباس وابن مسعود : " التي حرّمها " على أن الموصول صفة للبلدة ، ومعنى ﴿ حَرَّمَهَا ﴾ : جعلها حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يصطاد صيدها ، ولا يختلى خلالها ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيء ﴾ من الأشياء خلقاً وملكاً وتصرّفاً ، أي ولله كل شيء ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ أي المنقادين لأمر الله المستسلمين له بالطاعة ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه .

والمراد بقوله : ﴿ أَنْ أَكُونَ ﴾ : أن أثبت على ما أنا عليه ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ القرءان ﴾ أي أداوم تلاوته ، وأواظب على ذلك .

قيل : وليس المراد من تلاوة القرآن هنا إلاّ تلاوة الدعوة إلى الإيمان ، والأول أولى ﴿ فَمَنُ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفع ذلك راجع إليه ، أي فمن اهتدى على العموم ، أو فمن اهتدى بما أتلوه عليه ، فعمل بما فيه من الإيمان بالله ، والعمل بشرائعه .

قرأ الجمهور : ﴿ وأن أتلو ﴾ بإثبات الواو بعد اللام على أنه من التلاوة ، وهي القراءة ، أو

من التلوّ، وهو الاتباع.

وقرأ عبد الله: "وأن اتل" بحذف الواو أمراً له صلى الله عليه وسلم وكذا وجهه الفراء.

قال النحاس: ولا نعرف أحداً قرأ هذه القراءة، وهي مخالفة لجميع المصاحف ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ المنذرين ﴾ أي ومن ضلّ بالكفر وأعرض عن الهداية، فقل له: إنما أنا من المنذرين، وقد فعلت بإبلاغ ذلك إليكم، وليس عليّ غير ذلك.

(136/582)

وقيل: الجواب محذوف، أي فوبال ضلاله عليه، وأقيم ﴿ إنما أنا من المنذرين ﴾ مقامه لكونه كالعلة له.

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على نعمه التي أنعم بها عليّ من النبوّة والعلم، وغير ذلك، وقوله: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ هو من جملة ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله، أي سيريكم الله آياته في أنفسكم، وفي غيركم ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أي تعرفون آياته، ودلائل قدرته ووحدانيته، وهذه المعرفة لا تنفع الكفار؛ لأنهم عرفوها حين لا يقبل منهم الإيمان، وذلك عند حضور الموت.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، وهو كلام من جهته سبحانه

غير داخل تحت الكلام الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله ، وفيه ترهيب شديد وتهديد عظيم .

قرأ أهل المدينة والشام وحفص عن عاصم : ﴿ تعملون ﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الباقون بالتحتية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ داخرين ﴾ قال : صاغرين .

وأخرج هؤلاء عنه في قوله : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ قال : قائمة ﴿ صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال : أحكم .

وأخرج ابن أبي جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال : أحسن كل شيء خلقه ، وأوثقه .

(137/582)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قال : " هي : لا إله إلاّ الله " ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ قال : " هي : الشرك " ، وإذا صحّ هذا عن رسول الله صلى

الله عليه وسلم فالمصير إليه في تفسير كلام الله سبحانه متعين ، ويحمل على أن المراد قال : لا إله إلاّ الله بحقها ، وما يجب لها ، فيدخل تحت ذلك كل طاعة ، ويشهد له ما أخرجه الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة : جاء الإيمان والشرك يجثوان بين يدي الله سبحانه ، فيقول الله للإيمان : انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ، ويقول للشرك : انطلق أنت وأهلك إلى النار " ، ثم تلا رسولا الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ ، يعني : قول : لا إله إلاّ الله ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ يعني : الشرك ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ .

وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة وأنس نحوه مرفوعاً .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ مَن جَاء بالحسنة ﴾ يعني : " شهادة أن لا إله إلاّ الله " ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ يعني بالخير : " الجنة " ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ يعني : " الشرك " ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ ، وقال :

" هذه تنجي ، وهذه تردي " وأخرج عبد ابن حميد وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن مسعود : ﴿ مَن جَاء بالحسنة ﴾ قال : لا إله إلاّ الله ، ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ قال : بالشرك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم : ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قال : له منها خير ، يعني : من جهتها .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قال : ثواب .

وأخرج أيضاً عنه أيضاً قال : البلدة : مكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(138/582)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾

أتت هذه السورة على كثير من مطاعن المشركين في القرآن وفيما جاء به من أصول الإسلام من التوحيد والبعث والوعيد بأفانين من التصريح والتضمن والتعريض بأحوال المكذبين السالفين مفصلاً ذلك تفصيلاً ابتداء من قوله ﴿ تلك ءايات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ [النمل : 1 ، 2] إلى هنا ، فلما كان في خلال ذلك إلحافهم على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بما وعدهم أو أن يعين لهم أجل ذلك ويقولون ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ [النمل : 71] .

وأتت على دحض مطاعنهم وتعللاتهم وتوركهم بمختلف الأدلة قياساً وتمثيلاً ، وثبت الله

رسوله بضروب من التثبيت ابتداء من قوله ﴿ إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً ﴾ [النمل : 7] وقوله ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ [النمل : 79] ، وما صاحب ذلك من ذكر ما لقيه الرسل السابقون .

بعد ذلك كله استؤنف الكلام استئنافاً يكون فذلكة الحساب ، وختاماً للسورة وفصل الخطاب ، أفسد به على المشركين ازدهاءهم بما يحسبون أنهم أفحموا الرسول صلى الله عليه وسلم بما ألقوه عليه ويطير غراب غرورهم بما نظموه من سفسطة ، وجاءوا به من خلبطة ، ويزيد الرسول تثبيتاً وتطميناً بأنه أرضى ربه بأداء أمانة التبليغ وذلك بأن أمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول لهم ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ﴾ فهذا تلقين للرسول صلى الله عليه وسلم والجملة مقول قول محذوف دل عليه ما عطف عليه في هذه الآية مرتين وهو ﴿ فقل إنما أنا من المنذرين وقل الحمد لله ﴾ [النمل : 92 ، 93] فإن الأول : مفرّع عليه فهو متصل به .

والثاني : معطوف على أول الكلام .

وافتتاح الكلام بأداة الحصر لإفادة حصر إضافي باعتبار ما تضمنته محاوراتهم السابقة من طلب تعجيب الوعيد ، وما تطاولوا به من إنكار الحشر .

والمعنى : ما أمرت بشيء مما تبتغون من تعيين أجل الوعيد ولا من اقتلاع إحالة البعث من نفوسكم ولا بما سوى ذلك إلا بأن أثبت على عبادة رب واحد وأن أكون مسلماً وأن أتلو

القرآن عليكم ، ففيه البراهين الساطعة والدلالات القاطعة فمن اهتدى فلا يمن علي اهتداءه وإنما نفع به نفسه ؛ ومن ضل فما أنا بقادر على اهتدائه ، ولكني منذره كما أنذرت الرسل أقوامها فلم يملكوا لهم هدياً حتى أهلك الله الضالين .

وهذا في معنى قوله تعالى ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾ [آل عمران : 20] .

(139/582)

وقد أدمج في خلال هذا تنويهاً بشأن مكة وتعريضاً بهم بكفرهم بالذي أسكنهم بها وحرمها فانتفعوا بتحريمها ، وأشعرهم بأنهم لا يملكون تلك البلدة فكاشفهم الله بما تكنه صدورهم من خواطر إخراج الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة وذلك من جملة ما اقتضاه قوله

﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ [النمل : 74] .

فلهذه النكت أجرى على الله صلة حرم تلك البلدة ، دون أن يكون الموصول للبلدة فلذا لم يقل : التي حرمها الله ، لما تتضمنه الصلة من التذكير بالنعمة عليهم ومن التعريض بضلالهم إذ عبدوا أصناماً لا تملك من البلدة شيئاً ولا أكسبتها فضلاً ومزية ، وهذا كقوله ﴿

فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ [قريش : 3] .

والإشارة إلى البلدة التي هم بها لأنها حاضرة لديهم بحضور ما هو باد منها للأنظار .

والإشارة إلى البقاع بهذا الاعتبار فاشية قال تعالى ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ [هود : 60] وقال ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ [العنكبوت : 31] .

والعدول عن ذكر مكة باسمها العلم إلى طريقة الإشارة لما تقتضيه الإشارة من التعظيم .

وتبيين اسم الإشارة بالبلدة لأن البلدة بهاء التأنيث اسم لطائفة من الأرض معينة معروفة محوزة فيشمل مكة وما حولها إلى نهاية حدود الحرم .

ومعنى ﴿ حرمها ﴾ جعلها حراماً ، والحرام الممنوع ، والتحريم المنع .

ويعلم متعلق المنع بسياق ما يناسب الشيء الممنوع .

فالمراد من تحريم البلدة تحريم أن يدخل فيها ما يضاد صلاحها وصلاح ما بها من ساكن ودابة وشجر .

فيدخل في ذلك منع غزو أهلها والاعتداء عليهم وظلمهم وإخافتهم ومنع صيدها وقطع شجرها على حدود معلومة .

وهذا التحريم مما أوحى الله به إلى إبراهيم عليه السلام إذ أمره بأن يبني بيتاً لتوحيده وباستجابته لدعوة إبراهيم إذ قال ﴿ رب اجعل هذا بلداً ءامناً ﴾ [البقرة : 126] .

فالتحريم يكون كمالاً للمحرم ويكون نقصاً على اختلاف اعتبار سبب التحريم وصفته ، فتحريم المكان والزمان مزية وتفضيل ، وتحريم الفواحش والميتة والدم والخمر تحقير لها ، والمحرمات للنسل والرضاع والصهر زيادة في الحرمة .

فتحريم المكان : منع ما يضرّ بالحال فيه .

وتحريم الزمان ، كتحريم الأشهر الحرم : منع ما فيه ضر للموجودين فيه .

وتعقيب هذا بجملة ﴿ وله كل شيء ﴾ احتراس لئلا يتوهم من إضافة ربوبيته إلى البلدة اقتصار ملكه عليها ليعلم أن تلك الإضافة لتشريف المضاف إليه لا لتعريف المضاف بتعيين مظهر ملكه .

وتكرير (أمرت) في قوله ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ للإشارة إلى الاختلاف بين الأمرين فإن الأول أمر يعمله في خاصة نفسه وهو أمر إلهام إذ عصمه الله من عبادة الأصنام من قبل الرسالة .

والأمر الثاني أمر يقتضي الرسالة وقد شمل دعوة الخلق إلى التوحيد .

ولهذه النكتة لم يكرر (أمرت) في قوله ﴿ وأن أتلوا القرءان ﴾ لأن كلاً من الإسلام والتلاوة من شؤون الرسالة .

وفي قوله ﴿ أن أكون من المسلمين ﴾ تنويه بهذه الأمة إذ جعل الله رسوله من آحادها ،

وذلك نكتة عن العدول عن أن يقول : أن أكون مسلماً .

والتلاوة : قراءة كلام معين على الناس ، وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ [البقرة : 121] ، وقوله ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ في سورة البقرة (102) .

وحذف متعلق التلاوة لظهوره ، أي أن أتلوا القرآن على الناس .

وفرع على التلاوة ما يقتضي انقسام الناس إلى مهتد وضال ، أي منتفع بتلاوة القرآن عليه وغير منتفع مبيناً أن من اهتدى فإنما كان اهتداؤه لفائدة نفسه .

وهذا زيادة في تحريض السامعين على الاهتداء بهدي القرآن لأن فيه نفعه كما آذنت به اللام .

(141/582)

وإظهار فعل القول هنا لتأكيد أن حظ النبي صلى الله عليه وسلم ن دعوة المعرضين الضالين أن يبلغهم الإنذار فلا يطمعوا أن يحمله إعراضهم على أن يلح عليهم قبول دعوته .

والمراد بالمنذرين : الرسل ، أي إنما أنا واحد من الرسل ما كنت بدعاً من الرسل وسنتي سنة من أرسل من الرسل قبلي وهي التبليغ ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ [النحل

: 35] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾

كان ما أُمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله للمعاندين مشتملاً على أن الله هداه للدين الحق من التوحيد وشرائع الإسلام وأن الله هدى به الناس بما أنزل الله عليه من القرآن المتلو ، وأنه جعله في عداد الرسل المنذرين ، فكان ذلك من أعظم النعم عليه في الدنيا وأبشرها بأعظم درجة في الآخرة من أجل ذلك أمر بأن يحمد الله بالكلمة التي حمد الله بها نفسه وهي كلمة ﴿ الحمد لله ﴾ الجامعة لمعان من المحامد تقدم بيانها في أول سورة الفاتحة .

وقد تقدم الكلام على قوله ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ في هذه السورة (59) .

ثم استأنف بالاحتراس مما يتوهمه المعاندون حين يسمعون آيات التبرؤ من معرفة الغيب ، وقصر مقام الرسالة على الدعوة إلى الحق من أن يكون في ذلك نقض للوعيد بالعذاب فختم الكلام بتحقيق أن الوعيد قريب لا محالة وأن الله لا يخلف وعده فتظهر لهم دلائل صدق الله في وعده .

ولذلك عبر عن الوعيد بالآيات إشارة إلى أنهم سيحل بهم ما فيه تصديق لما أخبرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم حين يوقنون أن ما كان يقول لهم هو الحق ، فمعنى ﴿

فتعرفونها ﴾ تعرفون دلالتها على ما بلغكم الرسول من النذارة لأن المعرفة لما علقت بها بعنوان أنها آيات الله كان متعلق المعرفة هو ما في عنوان الآيات من معنى الدلالة والعلامة .

(142/582)

والسين تؤذن بأنها إراءة قريبة ، فالآيات حاصلة في الدنيا مثل الدخان ، وانشقاق القمر ، واستئصال صناديدهم يوم بدر ، ومعرفتهم إياها تحصل عقب حصولها ولو في وقت النزع والغرغرة .

وقد قال أبو سفيان ليلة الفتح : لقد علمت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً .

وقال تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ [فصلت : 53] .

فمن الآيات في أنفسهم إعمال سيوف المؤمنين الذين كانوا يستضعفونهم في أعناق سادتهم وكبرائهم يوم بدر .

قال أبو جهل وروحه في الغلصمة يوم بدر "وهل أعمد من رجل قتله قومه" يعني نفسه وهو ما لم يكن يخطر له على بال .

وقوله ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ قرأه نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب

﴿ تعملون ﴾ بتاء الخطاب فيكون ذلك من تمام ما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يقوله للمشركين .

وفيه زيادة إنذار بأن أعمالهم تستوجب ما سيرونه من الآيات .

والمراد : ما يعملونه في جانب تلقي دعوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وقرآنه لأن نفي الغفلة عن الله مستعمل في التعريض بأنه منهم بالمرصاد لا يغادر لهم من عملهم شيئاً .

وقرأ الباقون ﴿ يعملون ﴾ بياء الغيبة فهو عطف على ﴿ قل ﴾ ، والمقصود تسلية الرسول عليه السلام بعد ما أمر به من القول بأن الله أحصى أعمالهم وأنه مجازيهم عنها فلا ييأس من نصر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 19 صـ ﴾

(143/582)

وقال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين وَأَنْ أَتْلُوَ القرآن ﴾

جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الناس إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ولكن أَعْبُدُ الله الذي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : 104] الآية . وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم

مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 34] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين وَأَنْ أَتْلُوَ القرآن ﴾ .

قد قدمنا الآيات التي فيها زيادة إيضاح لقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ في سورة الأنعام في الكلام على قوله تعالى : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ [الأنعام : 14] الآية .

وقد قدمنا الآيات الموضحة لقوله تعالى هنا : وأن أتلوا القرآن في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى : ﴿ واتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ [الكهف : 27] الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ المنذرين ﴾ .

جاء معناه مبيناً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ﴾ [الرعد : 40] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ والله على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : 12] وقوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ [الذاريات : 54] إلى غير ذلك من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الحمد للَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ .

جاء معناه في غير هذا الموضع كقوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ﴾ [فصلت : 53] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(144/582)

جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] إلى غير ذلك من الآيات .

وقرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم : عما تعملون بتاء الخطاب ، وقرأ الباقون عما يعملون بياء الغيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(145/582)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التي تلفتنا إلى قدرته في آياته الكونية ، وذكَّرنا بالآخرة ، وما فيها من الثواب والعقاب ، فما عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به ، فالشرع كما أمرك أمرني .

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة ﴾ [النمل : 91] فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسي به أولاً ؛ لأنني واثق بصدق تبليغي عن الله ؛ لذلك ألزمتُ نفسي به .

والعبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى ؛ لأن ربك خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، ونظّم لك حركة حياتك ، فإنْ كلَّفك فاعلم أن التكليف من أجلك ولصالحك ؛ لأنه رب مُتولٍّ لتربيتك ، فإنْ تركك بلا منهج ، وبلا افعل ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .

إذن : من تمام الربوبية أن يوجهني ربي كما نُوجّه نحن أولادنا الصغار ونُربّيهم ، ومن تمام الربوبية أن توجد هذه الأوامر وهذه النواهي لمصلحة المربِّي ، وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بُدَّ أن تطيعه .

لذلك نلحظ في هذه الآية ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة ﴾ [النمل : 91] ولم يقُلْ : أُمِرت أن أطيع الله ؛ لأن الألوهية تكليف ، أمّا الربوبية فعطاء وتربية ، فالآية تُبيِّن حيثية سماعك للحكم من الله ، وهي أنه تعالى يُربِّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهي ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية .

لذلك ، الصِّديق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يُمرِّر المسألة على عقله ، ولم يفكر في مدى صِدْقها ، إنما قال عن رسول الله : " إن كان قال فقد صدق " فالميزان عنده

أن يقول رسول الله ، ثم يُعلِّل لذلك فيقول : إني لأُصدِّقه في الخبر يأتي من السماء ، فكيف لا أُصدِّقه في هذه .

(146/582)

وقال تعالى : ﴿ رَبَّ هَذِهِ البلدة ﴾ [النمل : 91] أي : مكة وخصّها بالذكْر ؛ لأن فيها بيته ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً ﴾ [آل عمران : 96] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة ﴿ الذي حَرَّمَهَا ﴾ [النمل : 91] فهي مُحرَّمة يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذي يُفضي بكل فريق لأنْ تأخذه العزة ، فلا يجد حلاً إلا في السيف .

وكأن الحق تبارك وتعالى يعطي لخَلْقه فرصة للمداراة وعُذْراً يستترون خلفه ، فلا ينساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حُرْمة المكان في الحرم ، وحُرْمة الزمان في الأشهر الحرم لأن كل فعل لا بُدَّ له من زمان ومكان حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لأحدهم أن يقول : لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعني لفعلْتُ وفعلْتُ ، ويستتر خلف ما شرَّع الله من منع القتال ، إلى أنْ يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة .

ولحرمة مكة كان الرجل يلاقي فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرَّض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد

اتسعتْ هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد شجرها ، ولا يُصاد صَيْدها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ ﴾ [النمل : 91] لأن الله تعالى حين يصطفي من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفي من الأرض أمكنة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء في كل شيء .

فالحق تبارك وتعالى لا يُحَابي أحداً ، فحين يرسل رسولاً يُبلِّغ رسالته للناس كافة ، فيعود نفعه على الجميع ، وكذلك في تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع ؛ لذلك عطف على ﴿ الذي حَرَّمَهَا ﴾ [النمل : 91] فقال ﴿ كُلُّ شَيءٍ ﴾ [النمل : 91] فالتحريم جُعل من أجل هؤلاء .

(147/582)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ [النمل : 91] أي : المنفذين لمنهج الله يعني : لا أعتقد عقائد أخبر بها ولا أُنفِّذها ، وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن فائدة الإيمان أنْ تعملَ به ، كما قال تعالى : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [العصر : 13] .

فالله تعالى يريد أن يُعدِّي الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكاً عملياً في حركة الحياة .

وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92)

أنت حين تقرأ القرآن في الحقيقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ، ومعنى ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ القرآن ﴾ [النمل : 92] يعني : استدم أُنسك بالكتاب الذي كُلِّفت به ، ليدل على أنك من عِشْقك للتكليف ، عشقتَ المكلّف ، فأحببتَ سماعه ، وتلاوة القرآن في ذاتها لذة ومتعة ؟ .

فأنا سآخذ من تلاوته لذةَ ، وأستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد ذلك أنا نموذج أمام أمتي ، كما قال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] .

يعني : شيء يُقتدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مقام للرسول غير الرسالة مَنْ سار على قدم الرسول يأخذ منه ، وكذلك مكان كل إنسان في التقوى ، على قَدْر اعتباره واقتدائه بالأُسْوة ، أما الرسالة فدَعْك منها ؛ لأنك لن تأخذها .

ومعنى ﴿ اهتدى ﴾ [النمل : 92] أي : وصلتْه الدلالة واقتنع بها ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ [النمل : 92] لأن الله سيعطيه المعونة ، ويزيده هدايةً وتوفيقاً ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] .

إذن : فالهداية والتقوى لا تنفع المشرِّع ، إنما تنفع العبد الذي اهتدى .

(148/582)

ثم يذكر المقابل ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ المنذرين ﴾ [النمل : 92] أنا لا يعنيني إلا أنني من المنذرين ، وأنت إنما تضلّ على نفسك ، وتتحمل عاقبة ضلالك .

وبعد أنْ أتممتَ ما خاطبك ربك به بأنْ تعبدَ ربَّ هذه البلدة وكنتَ من المسلمين ، وبعد أنْ تلوتَ القرآن ، واستدمت الأُنس واللذَّة بسماع الله يتكلم ، ثم بلَّغته للناس ، فإذا فعلتَ كل هذا أحمد الله الذي وفَّقك إليه : ﴿ وَقُلِ الحمد للَّهِ ﴾

أي : الحمد لله على نعمه وعلى ما هدانا ، والحمد لله الذي لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه .

والله سيريكم آياته في أنفسكم وفي غيركم ، فتعرفون دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته في أنفسكم ، وفي السماوات والأرض .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : 93] .

بل هو شهيد على كل شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(149/582)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أن أعبد رب هذه البلدة ﴾ قال : مكة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة . مثله .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : زعم الناس أنها مكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : هي منى .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن هرون قال في حرف ابن مسعود " وأن اتل القرآن " على الأمر وفي حرف أُبي بن كعب " واتل عليهم القرآن " .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ قال : في أنفسكم ، وفي السماء ، وفي الأرض ، وفي الرزق .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما كان في القرآن " وما الله بغافل عما تعملون " بالتاء ، وما كان " وما ربك بغافل عما يعملون " بالياء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(150/582)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ الذي حَرَّمَهَا ﴾ :

هذه قراءةُ الجمهورِ صفةً للرَّب . وابن مسعودٍ وابن عباس " التي " صفةً للبَلْدة ، والسياقُ إنما هو للربِّ لا للبلدة ، فلذلك كانتِ العامَّةُ واضحةً .

قوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ القرآن ﴾ :

العامَّةُ على إثباتِ الواوِ بعد اللام . وفيها تأويلان ، أحدُهما وهو الظاهر أنَّه من التلاوةِ وهي القراءةُ ، وما بعدَه يُلائمه . والثاني : من التُّلُوِّ وهو الاتِّباعُ كقولِه : ﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ ﴾ [يونس : 109] . وقرأ عبد الله " أَنْ اتْلُ " أمراً له عليه السلام ، ف " أن " يجوز أَنْ تكونَ المفسِّرة ، وأَنْ تكونَ المصدريةَ وُصِلَتْ بالأمر . وقد تقدَّم ما فيه .

قوله : ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ الجوابُ قولَه : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَآ ﴾ . ولا بُدَّ مِنْ حَذْفِ عائدٍ على اسمِ الشرط . اي : مِنَ المنذِرين له ؛ لِما تَقَدَّم في البقرة . وأَنْ يكونَ الجوابُ محذوفاً ، أي : فوبالُ ضلالِه عليه .

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

قوله : ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : قد تقدَّمَ أنه قُرِىء بالياءِ والتاءِ في آخرِ هود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 647 ﴾

(151/582)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ ﴾ .

أخبر أنه أمره بالدين الحنيفيِّ ، والتبرّي من الشّركِ ؛ الجليِّ منه والخفيِّ ، وبملازمةِ الطريق السَّويِّ . وأخبر أَنَّ مَنْ اتبعه وصَدَّقَه أوجب الحقُّ ذمامه وحقَّه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ . . . ﴾ .

سيريكم – عن قريبٍ – آياته ، فطوبى لِمَنْ رجع قبل وفاته ، والويلُ على مَنْ رجع بعد ذهاب الوقت وفواته ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 52 ﴾

(152/582)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

ثم قال عز وجل : ﴿ قُلِ الحمدِ لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ ﴾

قال بعضهم : معناه قال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلِ الحمدِ لِلَّهِ ﴾ وقال بعضهم : معناه الحمد لله على هلاك كفار الأمم الماضية .

يعني : ما ذكر في هذه السورة من هلاك فرعون وقومه ، وثمود وقوم لوط .

ويقال : قال : الحمد لله الذي علمك ، وبيّن لك هذا الأمر .

ويقال : إن هذا كان للوط حين أنجاه ، أمره بأن يحمد الله تعالى .

ثم قال : ﴿ وسلام على عِبَادِهِ ﴾ يعني : المرسلين ﴿ الذين اصطفى ﴾ يعني : اختارهم الله تعالى للرسالة والنبوة .

وروي عن مجاهد أنه قال : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قال مقاتل .

وقال سفيان الثوري : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال : ﴿ اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يعني : الله تعالى أفضل أم الآلهة التي تعبدونها ، اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به التقرير يعني : الله تعالى خير لهم مما يشركون ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ هذه الآية قال : " بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم " ويقال : معناه أعبادة الله خير أم عبادة ما يشركون به من الأوثان .

وقال القتبي : ﴿ اللهُ خَيْرًا أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

يعني : أم من يشركون ؟ فتكون ما مكان من كما قال : ﴿ والسمآء وَمَا بناها ﴾ [

الشمس : 5] يعني : ومن بناها ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والانثى ﴾ [الليل : 3] يعني : ومن خلق .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السماء مَاء ﴾ يعني : المطر ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ ﴾ يعني : بالمطر ﴿ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ يعني : البساتين واحدها حديقة ، وإنما سميت حديقة لأنها محاطة بالحيطان .

(153/582)

وقال بعضهم : إذا كانت ذا شجر يقال لها : حديقة سواء كان لها حائط ، أو لا ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ ، يعني : ذات حسن ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ يعني : ما كان لمعبودكم قوة .

ويقال : ما كان ينبغي لكم أن تنبتوا شجرها .

ويقال : ما قدرتم عليه ، وقرأ أبو عمرو وعاصم : أما يشركون بالياء على معنى الخبر .

وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ قدرناها ﴾ بتخفيف الدال ، والباقون بالتشديد .

ثم قال : ﴿ مَّعَ الله بَلْ ﴾ يعينه على صنعه اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الإنكار

والزجر ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ يعني : يشركون الأصنام ثم قال عز وجل : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً ﴾ يعني : مستقراً لا تميد بأهلها .

ويقال : قراراً أي سكناً لأهلها ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً ﴾ أي : فجر بسواد الأرض أنهاراً .

ويقال : شقّ بينهما أنهاراً ﴿ وَجَعَلَ لَهَا ﴾ أي خلق لها ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ أي : خلق للأرض الجبال الثوابت ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً ﴾ يعني : العذب والمالح حاجزاً يعني : ستراً مانعاً بقدرته لا يختلطان بعضهما في بعض ﴿ مَّعَ الله بَلْ ﴾ يعينه على صنعه ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : ولكن أكثرهم لا يعلمون بتوحيد الله عز وجل ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ يعني : أمن يستجيب في البلاء للمضْطَّر إذا دعاه ﴿ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ يعني : ومن يكشف الضر ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأرض ﴾ يعني : سكان الأرض بعد هلاك أهلها ﴿ مَّعَ الله قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ أَمَّن ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر في إحدى الروايتين بالياء على معنى الخبر عنهم .

وقرأ الباقون ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

وقرأ حمزة والكسائي بتخفيف الذال .

وقرأ أبو عمرو ونافع في رواية قالون : ﴿ مَّعَ الله بَلْ ﴾ بالهمز والمد .

وقرأ الباقون : بغير مد بهمزتين .

ثم قال عز وجل : ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظلمات البر والبحر ﴾ يعني من يرشدكم في أهوال البر والبحر .

﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني : قدام المطر ﴿ مَّعَ الله تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن ﴾ أي : تعظم الله عما يشركون ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ يعني : خلقهم ، ولم يكونوا شيئاً ، ثم يعيدهم في الآخرة ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء ﴾ يعني : المطر ﴿ والأرض ﴾ يعني : النبات ﴿ مَّعَ الله قُلْ هَاتُواْ برهانكم إِن ﴾ يعني : حجتكم وعلتكم ، بأنه صنع شيئاً من هذا غير الله ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ بأن مع الله آلهة أخرى ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿ لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السموات والأرض ﴾ من الملائكة والناس ﴿ الغيب إِلاَّ الله ﴾ يعني : متى تقوم الساعة إلا الله رفع على معنى البدل ، فكأنه يقول : لا يعلم أحد الغيب إلا الله ، أي لا يعلم ذلك إلا الله ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ يعني : متى يبعثون ومتى يبعثون قوله عز وجل : ﴿ بَلِ ادرك عِلْمُهُمْ فِى الآخرة ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ادرك ﴾ .

قرأ الباقون ﴿ أَدْرَاكَ ﴾ بالألف ، فمن قرأ أدرك ، فمعناه أدرك علمهم علم الآخرة .

وروي عن السدي قال : اجتمع علمهم يوم القيامة ، فلم يشكوا ، ولم يختلفوا ويقال : معناه علموا في الآخرة أن الذين كانوا يوعدون حق ، ولا ينفعهم ذلك .

ومن قرأ ﴿ أَدْرَاكَ ﴾ فأصله تدارك فأدغم التاء في الدال ، وشددت وأدخلت ألف الوصل ، ليسلم السكون للدال ، ومعناه تتابع علمهم ، أي حكمهم على الآخرة ، واستعمالهم الظنون في علم الآخرة ، فهم يقولون تارة : إنها تكون ، وتارة لا تكون الساعة .

ويقال : معناه تدارك ، أي تكامل علمهم يوم القيامة بأنهم يبعثون ، ويشاهدون ما وعدوا ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّنْهَا ﴾ أي : من قيام الساعة في الدنيا ﴿ بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾ يعني : يتعامون عن قيامها .

(155/582)

ويقال : بل هم منها عمون ، أي من علمها جاهلون .

وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ ، ﴿ بَلِ أَدْرَاكَ ﴾ وهذه القراءة أشد إيضاحاً ، للمعنى الذي ذكرناه .

ثم حكى قول الكفار فقال عز وجل : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ أَءذَا كُنَّا تُرَاباً وَءابَاؤُنَا أَءنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ يعني : أحياء من القبور ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا ﴾ يعني : هذا الذي يقول محمد

صلى الله عليه وسلم : ﴿ نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هذا ﴾ الذي يقول ﴿ إِلاَّ أساطير الاولين ﴾ يعني : أحاديث الأولين وكذبهم ، مثل حديث رستم واسفنديار .

ويقال : إن هذا إلاَّ مثل رسل الأولين مما كذبوا .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فَانْظُرُواْ ﴾ يعني : فاعتبروا ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ يعني : آخر أمر المشركين ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ إن لم يؤمنوا ، بل ويقال : ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على تكذيبهم وإعراضهم عنك ﴿ وَلاَ تَكُن فِى ضَيْقٍ ﴾ يعني : لا يضيق صدرك ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ يعني : بما يقولون من التكذيب .

ويقال : ولا يضيق قلبك بمكرهم ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي : وعد العذاب ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أن العذاب نازل بالمكذب .

ويقال : ولا تكن في ضيق مما يمكرون .

بقولهم : فهذا دأبنا ودأبك أيام الموسم ، وهم الخراصون ، فكانوا يأمرون أهل الموسم ، بأن لا يسمعوا كلامه ، ثم قال عز وجل : ﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ يعني : قرب وحضر لكم .

قال القتبي : أي تبعكم واللام زائدة ، فكأنه قال : ردفكم قال وقيل في التفسير دنا منكم ﴿ بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ من العذاب ، وهو عذاب القبر .

ويقال : يعني : القحط .

ويقال : يوم بدر ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ حين لم يأخذهم بالعذاب عند معصيتهم ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ بتأخير العذاب عنهم حتى يتوبوا ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ يعني : ما تسر قلوبهم من عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بألسنتهم من الكفر والشرك .

قوله عز وجل ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ ﴾ يعني : من أمر العذاب .

ويقال : ما من شيء غائب عن العباد ﴿ فِي السموات والأرض إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ يعني : مكتوب في اللوح المحفوظ .

ويقال : أي جملة غائبة عن الخلق إلا في كتاب مبين ﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِى إسراءيل ﴾ قال مقاتل : يعني : أن هذا القرآن يبين للناس أهل الكتاب ﴿ أَكْثَرَ الذى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ يعني : اختلافهم وقال ابن عباس : إن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم ، فصاروا أهواءً وأحزاباً يطعن بعضهم على بعض ، ويبرأ بعضهم من بعض ، فنزل القرآن بتبيان ما اختلفوا فيه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَنَّهُ ﴾ يعني : القرآن ﴿ لَهُدًى ﴾ يعني : لبياناً من الضلالة ﴿

وَرَحْمَةً ﴾ من العذاب ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ يعني : بين المختلفين في الدين ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ أي : بقضائه يوم القيامة ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ يعني : المنيع بالنقمة .

ويقال : العزيز يعني : القوي فلا يرد له أمر ﴿ العليم ﴾ بأحوال خلقه سبحانه ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ يعني : ثق بالله .

ويقال : فوّض أمرك إلى الله ﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ يعني : الدين المبين ، وهو الإسلام .

(157/582)

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ فهذا مثل ضربه للكفار ، أي فكما أنك لا تسمع الموتى ، فكذلك لا تتفقه كفار مكة ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء ﴾ قرأ ابن كثير ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ ﴾ بالياء والنصب ، و ﴿ الصم ﴾ بالرفع ، والباقون بالتاء وضم التاء وكسر الميم ، والصَّم بالنصب ، فمن قرأ بالياء فلا يسمع ، فالفعل للصم ، ومن قرأ بالتاء ، فالخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم إنك لا تسمع الصم الدعاء ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ يعني : أعرضوا عن الحق مكذبين قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمى عَن ضلالتهم ﴾ قرأ حمزة ﴿ تَهْدِي العمى ﴾ بغير ألف وقرأ الباقون بالألف ، فمن قرأ تهدي ، فمعناه ما أنت يا محمد بالذي تهدي الذين عميت بصائرهم عن آياتنا ، ولكن عليك الدعاء ،

ويهدي الله من يشاء ، ومن قرأ ﴿ بِهَادِى ﴾ فإن الباء دخلت لتأكيد النفي ، كقولك ما أنت بعالم ، فالياء لتأكيد النفي ، وخفض العمي للإضافة ثم قال : ﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِى العمى عَن ضلالتهم ﴾ يعني : لا تسمع الهدى إلا من صدق بالقرآن أنه من الله تعالى .

ويقال : بآياتنا يعني : أدلتنا ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ يعني : مخلصون مقرون بها .

ويقال : مسلمون في علم الله تعالى .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ يعني : إذا وجب عليهم العذاب والسخط وذلك حين لا يقبل الله من كافر إيمانه ، ولم يبق إلا من يموت كافراً في علم الله تعالى ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأرض تُكَلِّمُهُمْ ﴾ بما يسوءهم يعني : الدابة التي تكلم الناس ، وخروجها من أول أشراط الساعة .

﴿ إِنَّ الناس ﴾ قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ إن ﴾ بالنصب .

وقرأ الباقون بالكسر ، فمن قرأ بالنصب يكون حكاية قول الدابة .

(158/582)

ومعناه : تكلمهم بأن الناس ﴿ كَانُوا بآياتنا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ أي : لا يؤمنون بآيات ربهم وهو خروج الدابة ، ومن قرأ بالكسر يكون بمعنى الابتداء ، ويتم الكلام عند قوله تكلمهم .

ثم يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ ﴾ يعني : لا يؤمنون .

قال أبو عبيد حدّثنا هشام عن المغيرة أن أبا زرعة بن عمر وابن عباس ، قرأها ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ بنصب التاء ، وكسر اللام ، وبسكون الكاف ، والتخفيف يعني : تسمهم ، فيتبين الكافر من المؤمن قال الفقيه أبو الليث رحمه الله : وحدثني الثقة عن أبي بكر الواسطي ، عن إبراهيم بن يوسف ، عن محمد بن الفضل الضبي ، عن أبيه عن سعيد بن مسروق ، عن ابن عمر رضي الله عنهم قال ألا أريكم المكان الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم تخرج الدابة منه فضرب بعصاه قبل الشق الذي في الصفا وقال : إنها ذات زغب وريش ، وإنها لتخرج تلبها أول ما تخرج ، كحضر الفرس الجواد ثلاثة أيام ولياليهن ، وإنها لتدخل عليهم ؛ وإنهم ليفرون منها إلى المساجد ، فتقول : أترون أن المساجد تنجيكم مني .

وروى مقاتل قال : تخرج الدابة من الصفا ، ولا يخرج إلا رأسها وعنقها ، فتبلغ رأسها السحاب ، فيراه أهل المشرق والمغرب ، ثم تقاد إلى مكانها ، ثم تزلزل الأرض في ذلك اليوم في ست ساعات ، فيمسون خائفين ، فإذا أصبحوا جاءهم الصريخ بأن الدجال قد خرج .

وروي عن أبي هريرة أنه قال : تخرج الدابة ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان عليهما السلام فتجلو وجه المؤمن بعصا موسى ، وتختم وجه الكافر بخاتم سليمان ثم تقول لهم : يا

فلان أنت من أهل الجنة ، ويا فلان أنت من أهل النار ، فترى أهل البيت مجتمعين على خوانهم يقول لهذا يا مؤمن ، ولهذا يا كافر .

(159/582)

وروى ابن جريج عن أبي الزبير قال : رأسها رأس ثور ، وعيناها عينا خنزير ، وأذناها أذنا فيل ، وقرناها أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرة ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين منها اثني عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام تخرج ومعها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، فتنكت على وجه المؤمن حتى يبيض ، وتختم على وجه الكافر بخاتم سليمان حتى يسود ، فيعرف المؤمن من الكافر .

وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال : تنكت في وجه الكافر نكتة سوداء ، فتفشو في وجهه حتى يبيض وجهه ، ويتابعون في الأسواق ، فيعرفون المؤمن من الكافر .

قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ يعني : نوجب عليهم العذاب في يوم نحصر من كل أمة فوجاً .

يعني : من أهل كل دين جماعة .

ويقال : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ يعني : نجمع من كل أمة فوجاً يعني : جماعة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يعني : يحبس أولهم لآخرهم يجتمعوا ﴿ حتى إِذَا ﴾ يعني : اجتمعوا للحشر ﴿ جَاءوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِى ﴾ يعني : قال الله تعالى لهم أكذبتم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ؟ اللفظ لفظ الاستفهام .

والمراد به التقرير .

يعني : قد كذبتم بآياتنا ﴿ وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ اللفظ لفظ النفي ، والمراد به المناقشة في الحساب .

يعني : كذبتم كأنكم لم تعلموا .

ويقال : لم تعرفوها حق معرفتها ثم قال : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ اللفظ لفظ السؤال ، والمراد به التوبيخ ، ومعناه : ماذا كنتم تعملون أن تؤمنوا بالكتاب والرسل ؟ يعني : أي عمل منعكم من ذلك ﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ يعني : نزل عليهم العذاب ، ووجب عليهم ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ يعني : بما أشركوا ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ يعني : لا يمكنهم أن يتكلموا من الهيبة لما ظهر لهم من المعاينة ، ولما تحيروا في ذلك .

(160/582)

ثم وعظ كفار مكة فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ يعني : ألم يعتبروا ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ يعني : مضيئاً ، وأضاف الفعل إلى النهار ، لأن الكلام يخرج مخرج الفاعل ، إذا كان هو سبباً للفعل .

كما قال : ﴿ وَقَالَ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا بَلْ مَكْرُ الليل والنهار إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بالله وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَجَعَلْنَا الاغلال فى أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 33] ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : فيما ذكر من الليل والنهار ، لعبرات لقوم يصدقون بتوحيد الله تعالى .

وقال عز وجل ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ أي : واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأرض ﴾ أي : من شدة الصوت والفزع .

ويقال : ماتوا .

وقال بعضهم : النفخ ثلاثة : أحدها الفزع وهو قوله : ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السموات ﴾ ونفخة أخرى للموت .

وهو قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السماوات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] ونفخة للبعث وهي قوله ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السماوات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : 68] وقال بعضهم : إنما هما نفختان والفزع

والصعق كناية عن الهلاك ، ثم نفخة للبعث ﴿ إِلاَّ مَن شَاء اللهُ ﴾ يعني : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، ثم يموتوا بعد ذلك ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين ﴾ .

روى سفيان بإسناده عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ بغير مد ونصب التاء ، وهي قراءة حمزة وعاصم في رواية حفص .

والباقون بالمد والضم .

(161/582)

ومن قرأ بالمد وضم التاء ، فمعناه كل حاضروه ﴿ داخرين ﴾ أي : صاغرين .

ويقال : متواضعين .

ومن قرأ بغير مد يعني : يأتوا الله ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي : تحسبها واقفة مكانها ويقال : مستقرة ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ حتى تقع على الأرض فتستوي ، أي في أعين الناظرين كأنها واقفة .

قال القتبي : وكذلك كل عسكر غض به الفضاء ، فينظر الناظر ، فيرى أنها واقفة وهي تسير ﴿ صُنْعَ الله الذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ يعني : أحكم خلق كل شيء .

ويقال : الشيء المتقن أن يكون وثيقاً ثابتاً ، فما كان من صنع غيره يكون واهياً ، ولا يكون

متقناً ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ أي : عليم بما فعلتم ﴿ مَن جَاء بالحسنة ﴾ أي : بالإيمان والتوحيد ، وكلمة الإخلاص ، وشهادة أن لا إله إلا الله ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ على وجه التقديم ، وله منها خير أي : حين ينال بها الثواب والجنة .

ويقال : فله خير منها .

أي : خير من الحسنة .

يعني : أكثر منها للواحد عشرة .

ويقال : فله خير منها من الحسنة ، وهي الجنة ، لأن الجنة هي عطاؤه وفضله ، والعمل هو اكتساب العبد ، فما كان من فضله وعطائه ، فهو أفضل ، وهذا تفسير المعتزلة ، والأول قول المفسرين .

﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ أي : من فزع يوم القيامة .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع في رواية ورش ﴿ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ بغير تنوين ، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ ﴾ بكسر الميم ، والباقون بالتنوين ، ونصب الميم .

قال أبو عبيد : وبالإضافة نقرأ ، لأنه أعم التأويلين أن يكون الأمن من جميع ، فزع ذلك اليوم ، وإذا قال : فزع بالتنوين ، صار كأنه قال : فزع دون فزع .

وقال غيره : إنما أراد به الأكبر ، لأن بعض الأفزاع تصيب الجميع .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ بالياء على معنى الإخبار عنهم ، والباقون بالتاء على معنى المخاطبة ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ أي بالشرك ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النار ﴾ ويقال : يكبون على وجوههم ، ويجرون إلى النار ، وتقول لهم خزنة النار : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من الشرك ويقال : فكبت أي : ألقيت وطرحت ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبّ هَذِهِ البلدة ﴾ أي : قل يا محمد لأهل مكة : أمرني الله تعالى أن أستقيم على عبادة رب هذه البلدة .

يعني : مكة الذي حرمها بدعاء إبراهيم عليه السلام وحرم فيها القتل والصيد .

قال بعضهم : كان حراماً أبداً .

قال بعضهم : وهو أصح إن إبراهيم لما دعا ، فجعلها الله حراماً بدعوته .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ، وَأَنَا حَرَّمْتُ المَدِينَةَ ما بَيْنَ لاَبَتَيْهَا " .

ثم روي أنه قد رخص في المدينة ثم قال تعالى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىء ﴾ أي وخلق كل شيء ، ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ ، أي : من المخلصين ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ القرءان ﴾ يعني : أمرت أن أقرأ عليكم القرآن يا أهل مكة ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ أي : آمن بالقرآن ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ أي : يؤمن لنفسه ويثاب عليها ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ ولم يوحد ، ولم يؤمن

بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ المنذرين ﴾ أي : من المخوفين ومن المرسلين ، فليس عليَّ إلا تبليغ الرسالة ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ يعني : الشكر لله على ما هداني ﴿ سَيُرِيكُمْ ﴾ أيها المشركون آياته .

يعني : العذاب في الدنيا ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أنها حق ، وذلك أنه أخبرهم بالعذاب ، فكذبوه فأخبرهم أنهم يعرفونها أنها حق ، وذلك إذا نزل بهم ، وهو القحط والقتل .

(163/582)

ويقال : هو فتح مكة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فهذا وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم .

وقال الزجاج في قوله : ﴿ سَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ أي : سيريكم الله آياته في جميع ما خلق ، وفي أنفسكم .

قرأ نافع وعاصم في رواية حفص ، وابن عامر في إحدى الروايتين ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة .

وقرأ الباقون بالياء على معنى الخبر عنه ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 588.596 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾

قال الفرّاء : قيل للوط : ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على هلاك كفار قومي .

وقال الباقون : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعني و ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على هلاك كفّار الأُمم الخالية ، وقال مقاتل : على ما علّمك هذا الأمر . الآخرون : على جميع نعمه .

﴿ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ لرسالاته وهم الأنبياء (عليهم السلام) ، عن مقاتل دليله قوله : ﴿ وَسَلاَمٌ على المرسلين ﴾ [الصافات : 181] وأخبرني عبد الله بن حامد قال : أخبرنا السدي . قال : حدّثنا أحمد بن نجدة . قال : حدّثنا الحماني . قال : حدّثنا الحكم بن طهر ، عن السدّي ، عن أبي مالك ، عن ابن عباس ﴿ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ قال : أصحاب محمّد (عليه السلام) . وأخبرني عبد الرحيم بن إبراهيم بن محمّد العدل بقراءتي عليه ، قال : أخبرني عبد الله بن محمّد بن مسلم ، فيما أجازه لي أنّ محمّد بن إدريس حدّثهم ، قال : حدّثنا الحميدي . قال : سمعت سفيان سُئل

عن ﴿ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ قال : هم أصحاب محمّد .

وقال الكلبي : هم أُمّة محمّد اصطفاهم الله لمعرفته وطاعته ، ثمّ قال إلزاماً للحجّة : ﴿ ءَآللَّهُ ﴾ القراءة بهمزة ممدودة وكذلك كلّ إستفهام فيه ألف وصل ، مثل قوله : (آلذين وآلآن) جعلت المدّة علماً بين الاستفهام والخبر ، ومعنى الآية : الله الذي صنع هذه الأشياء ﴿ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من الأصنام ، وقرأ عاصم وأهل البصرة (بالياء) ، الباقون (بالتاء) ، وكان النبي (عليه السلام) إذا قرأ هذه الآية قال : "بل الله خيرٌ وأبقى وأجلّ وأكرم" .

﴿ أَمَّنْ ﴾ قال أبو حاتم : فيه إضمار كأنّه قال : آلهتكم خير أم الذي ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ حُسْن .

(165/582)

﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ هو (مَّا) النفي ، يعني ما قدرتم عليه ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ يعينه على ذلك ، ثمّ قال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ يشركون ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً ﴾ لا تميد بأهلها ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ ﴾ وسطها ﴿ أَنْهَاراً ﴾ تطّرد بالمياه ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين ﴾ العذب والملح ﴿ حَاجِزاً ﴾ مانعاً لئلاّ يختلطا ولا يبغي أحدهما على صاحبه ، وقيل : أراد الجزائر ﴿ أإله مَّعَ الله

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ أي المجهود ، عن ابن عباس وقال السدّي : المضطرّ الذي لا حول له ولا قوّة ، ذو النون هو الذي قطع العلائق عمّا دون الله ، أبو حفص وأبو عثمان النيسابوريّان : هو المفلس .

وسمعت أبو القاسم الحسن بن محمّد يقول : سمعت أبا نصر منصور بن عبد الله الأصبهاني يقول : سمعت أبا الحسن عمر بن فاضل العنزي يقول : سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول : ﴿ المضطر ﴾ الذي إذا رفع يديه إلى الله داعياً لم يكن له وسيلة من طاعة قدّمها ﴿ وَيَكْشِفُ السواء ﴾ أي الضرّ ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرض ﴾ يهلك قرناً وينشئ آخرين ﴿ أإله مَّعَ الله قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ إذا سافرتم .

(166/582)

﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرَاً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ قدّام رحمته ﴿ أإله مَّعَ الله تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ للبعث ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء ﴾ المطر ﴿ والأرض ﴾ النبات ﴿ أإله مَّعَ الله قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ حجّتكم على قولكم إنّ مع الله إلها آخر ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾

نزلت في المشركين حيث سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة .

قال الفرّاء : وإنّما رفع ما بعد ﴿ إِلاَّ ﴾ لأنّ قبلها جحداً كما يقال : ما ذهب أحد إلاّ أبوك ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ ﴾ متى ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ قالت عائشة : مَن زعم أنّه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله عزّ وجل يقول : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ .

أخبرنا أبو زكريا الحري قال : أخبرنا أبو حامد الأعمشي قال : حدّثنا علي بن حشرم قال : حدّثنا الفضل بن موسى ، عن رجل قد سمّاه قال : كان عند الحجّاج بن يوسف منجّم ، فأخذ الحجّاج حصيّات بيده قد عرف عددها فقال للمنجّم : كم في يدي ؟ فحسب ، فأصاب المنجّم ، ثمّ اعتقله الحجّاج فأخذ حصيات لم يعددهنّ ، فقال للمنجّم : كم في يدي ؟ فحسب ، فحسب ، فأخطأ ثمّ حسب أيضاً ، فأخطأ ، فقال : أيها الأمير أظنّك لا تعرف عددها في يدك .

قال : فما الفرق بينهما ؟ قال : إنّ ذاك أحصيته فخرج من حدّ الغيب ، فحسبت فأصبت ، وإنّ هذا لم تعرف عددها ، فصار غيباً ، ولا يعلم الغيب إلاّ الله عزّ وجل . ﴿ بَلِ ادارك ﴾ اختلف القرّاء فيه ، فقرأ ابن عباس بلى بإثبات الياء ﴿ ادارك ﴾ بفتح الألف وتشديد الدال على الاستفهام .

روى شعبة عن أبي حمزة قال : قال لي ابن عبّاس : في هذه الآية ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ أي لم يدرك ، قال الفرّاء : وهو وجه جيّد كأنّه يوجّهه إلى الاستهزاء بالمكذّبين بالبعث ، لقولك للرجل تكذّبه : بلى لعمري لقد أدركت السلف فأنت تروي ما لا تروي ، وأنت تكذّبه . وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب والأعمش وشيبة ونافع وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ بَلِ ادارك ﴾ بكسر اللام وتشديد الدال أي تدارك وتتابع ﴿ عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ هل هي كائنة أم لا ؟ وتصديق هذه القراءة أنّها في حرف أُبي أم تدارك ﴿ عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ والعرب تضع بل موضع أم ، وأم موضع بل إذا كان في أوّل الكلام استفهام كقول الشاعر :

فوالله ما أدري أسلمى تغوّلت . . . أم البوم أم كلٌّ إلي حبيب

أي بل كلٌّ إليّ حبيب ، ومعنى الكلام هل تتابع علمهم بذلك في الآخرة ، أي لم يتتابع فصل وغاب علمهم به فلم يبلغوه ولم يدركوه ؛ لأنّ في الاستفهام ضرباً من الجحد ، وقرأ أبو جعفر ومجاهد وحميد وابن كثير وأبو عمرو ﴿ بَلِ ادارك ﴾ من الادّراك أي لم يدرك علمهم علم في الآخرة ، وقال مجاهد : معناه يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم لأنّهم كانوا في (الأنبياء) مكذّبين ، وقيل بل ضلّ وغاب علمهم في الآخرة فليس فيها لهم علم ، ويقال : اجتمع علمهم في الآخرة أنّها كائنة وهم في شكّ من وقتهم .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أي (جهلة) واحدها عمي ، وقرأ سليمان بن يسار وعطاء بن يسار غير مهموزة ، وقرأ ابن محيض ﴿ بل أءدّرك ﴾ على الاستفهام ، أي لم تدرك ، وحمل القول فيه أنّ الله سبحانه أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أنّهم إذا بعثوا يوم القيامة استوى علمهم بالآخرة وما وعدوا فيه من الثواب والعقاب ، وإنْ كانت علومهم مختلفة في الدنيا وإنْ كانوا في شكّ من أمرها بل جاهلون به .

(168/582)

وسمعت بعض العلماء يقول في هذه الآية : إنّ حكمها ومعناها لو ادّارك علمهم في ما هم في شكّ منها حيث هم منها عمون على تعاقب الحروف .

﴿ وَقَالَ الذين كفروا ﴾ يعني مشركي مكة ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ من قبورنا أحياء ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا ﴾ البعث ﴿ نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ وليس ذاك بشيء ﴿ إِنْ هذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ﴾ أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المجرمين * وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ على تكذيبهم إيّاك عنك ﴿ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ نزلت في المستهزئين الذين أقسموا بمكّه وقد مضت قصتّهم .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ أي دَنا وقرب لكم، وقيل: تبعكم.

وقال ابن عباس: حضركم، والمعنى: ردفكم، فأدخل اللام كما أُدخل في قوله: ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: 154] و ﴿ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف: 43] وقد مضت هذه المسألة.

قال الفرّاء: اللام صلة زائدة كما يقول تقديرها به ويقدر له ﴿ بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ من العذاب فحلّ بهم ذلك يوم بدر ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ﴾ تخفي ﴿ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ ﴾ أي مكتوم سرّ وخفيّ أمر، وإنما أدخل الهاء على الإشارة الى الجمع.

﴿ فِي السمآء والأرض إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ.

(169/582)

﴿ إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيل أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني القرآن ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ للمُؤْمِنِينَ * إِن رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ أي بين المختلفين في الدين يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ العزيز ﴾ المنيع فلا يردّ له أمر ﴿ العليم ﴾

بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ البيّن ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ الكفار كقوله ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام : 122] وقوله ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ [فاطر : 22] .

﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعاء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ نظيره ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ [البقرة : 18 ، 171] .

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضَلاَلَتِهِمْ ﴾ قراءة العامة على الاسم ، وقرأ يحيى والأعمش وحمزة يهدي العمى بالياء ونصب الياء على الفعل ههنا وفي سورة النمل ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ وتفهم ﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ بأدلّتنا وحجتنا ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ في علم الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول ﴾ وَجَب العذاب والسخط ﴿ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأرض تُكَلِّمُهُمْ ﴾ قراءة العامة بالتشديد من التكلم وتصديقهم ، وقرأ أُبيّ : تنبئهم .

قال السدي : تكلّمهم ببطلان الاديان سوى دين الإسلام ، وقرأ أبو رجاء العطاردي : تكلمهم بفتح التاء وتخفيف اللام من الكلم وهو الجرح أي تسمهم .

قال أبو الجوزاء : سالت ابن عباس عن هذه الآية يكلّمهم أو تكلمهم فقال : كل ذلك يفعل تكلم المؤمن ويكلم الكافر . ﴿ أَنَّ الناس ﴾ قرأ ابن أبي إسحاق وأهل الكوفة بالنصب

وقرأ الباقون بالكسر .

﴿ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ﴾ قبل خروجها .

ذكر الأخبار الواردة في صفة دابّة الأرض وكيفية خروجها

(170/582)

أخبرنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن حامد الأصبهاني قال : أخبرنا محمد بن إسحاق ، قال حدثنا عبد الله بن محمّد بن رسموية قال : قال : حدثنا الحكم بن بشير بن سليمان ، عن عمرو بن قيس الملائي ، عن عطية ، عن ابن عمر ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأرض تُكَلِّمُهُمْ ﴾ [النمل : 82] قال : حين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر .

وأخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهاني عن أحمد بن عبد الله بن سليمان قال : أخبرني ابو عبد الله بن فنجويه قال : أخبرنا أبو بكر خرجة حدثنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي عن ميثم بن ميناء الجهني عن عمرو بن محمد العبقري عن طلحة بن عمرو عن عبد الله بن عمير الليثي عن أبي شريحة الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال : " يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى اليمن فيفشو ذكرها

بالبادية ولا يدخل ذكرها القرية – يعني مكة – ثم يمر زمناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية – يعني مكة – فبينا الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله سبحانه – يعني المسجد الحرام – لم ترعهم إلاّ وهي في ناحية المسجد تدنو تدنو كذا ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج في وسط من ذلك فيرفض الناس عنهم وتثبت لها عصابة عرفوا أنّهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرّية ثم ولّت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب ، حتى أن الرجل ليقوم فيتعوّذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان الآن تصلّي ، فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه ، ويتجاور الناس في ديارهم ويصلحون في أسفارهم ويشتركون في الأموال يُعرف الكافر من المؤمن فيقال : للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر " .

(171/582)

وأخبرني ابن محمّد بن الحسين الثقفي عن عمر بن أحمد بن القاسم النهاوندي عن محمّد بن عبد الغفّار الزرقاني عن أحمد بن محمّد بن هاني الطائي عن محمّد بن النضر بن محمّد الأودي عن أبيه عن سفيان الثوري عن شهاب بن عبد ربّه الرحمن عن طارق بن

عبد الرحمن عن طارق بن عبد الرحمن عن ربعي بن خراش عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دابّة الأرض طولها سبعون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب تسمّ المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه مؤمن وتسم الكافر بين عينيه وتكتب بين عينيه كافر ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان (عليهما السلام) " .

وأخبرني الحسين بن محمّد قال : أخبرني أبو بكر مالك القطيعي عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبي عن بهز عن حمّاد عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تخرج الدابّة معها عصا موسى وخاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم ، حتى أنّ أهل الخوان يجتمعون فيقولون : هذا يا مؤمن ويقولون هذا يا كافر " .

(172/582)

وأخبرنا الحسين بن محمّد عن عبد الله بن محمّد بن شِنبة عن الحسن بن يحيى عن ابن جريج عن أبي الزبير أنّه وصف الدّابة فقال : رأسها رأس الثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيّل ، وصدرها صدر الأسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّة ، وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم البعير ، وبين كلّ مفصلين إثنا عشر ذراعاً معها عصا

موسى وخاتم سليمان ، ولا يبقي مؤمن إلاّ نكتته في مسجده بعصا موسى نكتة بيضاء فيفشو تلك النكتة حتى يضيء لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلاّ وتنكت وجهه بخاتم سليمان فتفشو تلك النكتة فيسود لها وجهه ، حتى أنّ الناس يبتاعون في الأسواق بِكَمْ يا مؤمن وبكم يا كافر ، ثمّ تقول لهم الدّابّة : يا فلان أنت من أهل الجنّة ويا فلان أنت من أهل النار ، وذلك قول الله عزّ وجل : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً . . ﴾ الآية .

وأخبرنا الحسين بن محمّد عن ابن شنبة عن ابن عمر ، وعن سفيان بن وكيع عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن عبد الملك بن المغيرة الطائفي عن أبي البيلماني عن ابن عمر قال : تخرج الدّابة ليلة جمع والناس يسيرون إلى منى قال : فتحمل الناس بين يديها وعجزها ، لا يبقى منافق إلاّ خطمته ولا مؤمن إلاّ مسحته .

وأخبرني الحسين بن محمّد عن عمر بن الخطاب عن عبد الله بن الفضل عن إبراهيم بن محمد بن عرعرة عن عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي عن فرقد بن الحجّاج القرشي قال : سمعت عقبة بن أبي الحسناء اليماني قال : سمعت أبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" تخرج دابّة الأرض من موضع جياد فيبلغ صدرها الركن ولما يخرج ذنبها بعد قال : وهي دابّة ذات وبر وقوائم " .

وأخبرني الحسن قال : حدّثنا علي بن محمّد بن لؤلؤ قال : أخبرنا أبو عبيد محمّد بن أحمد بن المؤمل قال : حدّثنا أبو جعفر محمّد بن جعفر الأحول قال : حدّثنا منصور بن عمّار قال : حدّثنا ابن لهيعة ، عن أبي قبيل ، عن عبد الله بن عمرو أنّه ضرب أرض الطائف برجله وقال : من هاهنا تخرج الدّابة التي تكلّم الناس ، وأخبرني عقيل بن محمّد الجُرجاني الفقيه قال : حدّثنا أبو الفرج المعافى بن زكريا البغدادى قال : أخبرنا أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري قال : حدّثنا أبو كريب قال : حدّثنا الأشجعي ، عن فضيل بن مرزوق ، عن عطية ، عن ابن عمر قال : تخرج الدابة من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيّام وما خرج ثلثها .

وبه عن محمّد بن جرير قال : حدّثني عصام بن بندار بن الجرّاح قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا سفيان بن سعيد قال : حدّثنا المنصور بن المعتمر ، عن ربعي بن خراش قال : سمعت حذيفة بن اليمان قال : " ذكر رسول الله صلى الله عليه الدابّة ، قلت : يا رسول الله من أين تخرج ؟ قال : "من أعظم المساجد حُرمة على الله ، بينما عيسى يطّوف بالبيت ومعه المسلمون ؛ إذ تضطرب الأرض تحتهم من تحرّك القنديل وينشقّ الصفا ممّا يلي المسعى ، وتخرج الدابة من الصفا أوّل ما يبدو رأسها ملمعة ذات وبر وريش ، لن يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، تسمّي الناس مؤمناً وكافراً ، أمّا المؤمن فتترك وجهه كأنّه كوكب دُرّي ،

وتكتب بين عينيه : مؤمن ، وأمّا الكافر فتترك بين عينيه نكتة سوداء وتكتب بين عينيه : كافر " .

(174/582)

وبه عن محمّد بن جرير قال : حدّثني أبو عبد الرحمن الرقي قال : حدّثنا ابن أبي مزينة قال : حدّثنا ابن لهيعة ويحيى بن أيوب قالا : حدّثنا ابن الهاد ، عن عمرو بن الحكم أنّه سمع عبد الله بن عمر يقول : تخرج الدابة من شعب ، فيمسّ رأسها السحاب ورجلاها في الأرض ما خرجتا ، فتمرّ بالإنسان يصلّي ، فتقول : ما الصلاة من حاجتك ، فتخطمه وقال وهب : وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من رآها أنّ أهل مكّة كانوا بمحمّد والقرآن لا يوقنون ، وفي هذا تصديق لقراءة من فتح أنّ .

وقال كعب : صورتها صورة الحمار ، وروى ابن جريج روح ، عن هشام ، عن الحسن أنّ موسى (عليه السلام) سأل ربّه أن يريه الدّابة ، فخرجت ثلاثة أيّام ولياليهنّ تذهب في السماء ، وأشاره بيده لا يرى واحداً من طرفيها ، فرأى منظراً فظيعاً ، فقال : ربّ ردّها ، فردّها .

قوله عزّ وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ جماعة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ

يُوزَعُونَ ﴾ يحبس أوّلهم على آخرهم ليجتمعوا ثمّ يُساقون إلى النار ، وقال ابن عباس : يوزعون : يدفعون ﴿ حتى إذَا جَآءُوا ﴾ يوم القيامة ﴿ قَالَ ﴾ الله سبحانه لهم ﴿ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ ولم تعرفوا حقّ معرفتها ﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيها من تكذيب أو تصديق ، وقيل : هو توبيخ ، أي ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها ، ولم تتفكّروا فيها ؟

(175/582)

﴿ وَوَقَعَ القول ﴾ ووجب العذاب ﴿ عَلَيهِم بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ أشركوا ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ لأنّ أفواههم مختومة . وقال أكثر المفسّرين : ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ بحجّة وعذر ، نظيره قوله سبحانه : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : 35-36] ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ خلقنا ﴿ الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ مضيئاً يُبصَر فيه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت ﴿ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدّقون فيعتبرون قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ وهي النفخة الأولى .

أخبرنا محمّد عبد الله بن حامد الوزّان قال : أخبرنا محمّد بن جعفر بن يزيد الصيرفي قال : حدّثنا علي بن حرب قال : حدّثنا أسباط قال : حدّثنا سلمان التميمي ، عن أسلم

العجلي ، عن بشر بن شغاف ، عن عبد الله بن عمرو قال : " جاء إعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الصُّور ، فقال : " قرن ينفخ فيه " .

وقال مجاهد : الصُّور كهيئة البوق ، وقيل : هو بلغة أهل اليمن ، وعلى هذا أكثر المفسّرين ، يدلّ عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ينتظر متى يُؤمَر فينفخ " .

وقال قتادة وأبو عبيدة : هو جمع صورة يقال : صورة وصور ، وصور : مثل سور البناء والمسجد ، وجمعها سور وسُور وأنشد أبو عبيدة :

سرت إليها في أعالي السور . . . فمعنى الآية : ونفخ في صور الخلق .

(176/582)

وقد ورد في كيفيّة نفخ الصور حديث جامع صحيح وهو ما أخبرنا الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم المهرجاني قراءة عليه أبو بكر محمّد بن عبد الله بن ابراهيم الشافعي ببغداد ، قال : أخبرني أبو قلابة الرقاشي قال : أخبرني أبو عاصم الضحّاك بن مخلد ، عن إسماعيل بن رافع ، عن محمّد بن كعب القرظي ، عن رجل من الأنصار ، عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ الله عزّ وجلّ لمّا فرغ من خلق

السماوات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل وهو واضعه على فيه ، شاخص بصره إلى العرض ينتظر متى ؟

(177/582)

قال : قلت يا رسول الله : وما الصور ؟ قال : القرن ، قال : قلت : كيف هو ؟ قال : عظيم ، والذي بعثني بالحقّ إنّ أعظم داره فيه كعرض السماء والأرض ، فينفخ فيه بثلاث نفخات : الأُولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لربّ العالمين ، فأمر الله عزّ وجل إسرافيل (عليه السلام) بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفزع فيفزع من في السموات والأرض إلاّ من شاء الله ، فيأمره فيمدّها ويطيلها وهو الذي يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا يَنظُرُ هؤلاء إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ [ص : 15] فيسيّر الله عزّ وجلّ الجبال فيمرّ من السحاب فيكون سراباً ، وترجّ الأرض بأهلها رجّاً فيكون كالسفينة الموثّقة في البحر ، تضربها الأمواج وتلقيها الرياح ، أو كالقنديل المعلّق بالعرش يرجّحه الأرواح وهي التي يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة * تَتْبَعُهَا الرادفة قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات : 6-8] فتمتدّ الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى يأتي الأقطار

فتلقّاها الملائكة تضرب وجوهنا ، فيرجع ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً ، وهو الذي يقول الله عزّ وجلّ ﴿ يَوْمَ التناد * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ [غافر : 32-33] .

فبينا هم كذلك إذ تصدّعت الأرض من قطر إليّ قطروا أو أمراً عظيماً لم يروا مثله ، وأخذهم من الكرب والهول ما الله به عليمٌ ، ثمّ نظروا إلى السماء فهي كالمهل ، ثمّ انشقّت فتناثرت نجومها وانكشفت شمسها وقمرها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والأموات يومئذ يعلمون بشيء من ذلك " " .

(178/582)

قال أبو هريرة : يا رسول الله فمن استثنى الله عزّ وجلّ حيث يقول) ففزع من في السموات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله (.

قال (صلى الله عليه وسلم) (أُولئك هم الشهداء وإنّما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربّهم يرزقون ووقيهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم ، وهو عذاب بعثه الله تعالى إلى شرار خلقه ، وهو الذي يقول الله) يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة الساعة شيءٌ عظيم (إلى قوله) وإنّ عذاب الله شديد (فيمكثون في ذلك البلاء ما شاء الله إلاّ أنّه يطول عليهم ،

ثمّ يأمر الله عزّ وجلّ إسرافيل فينفخ نفخة الصعق) فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلاّ من شاء الله (فإذا اجتمعوا جاء ملك الموت إلى الجبّار ويقول : قد مات أهل السماء والأرض إلاّ من شئت ، فيقول الله سبحانه وهو أعلم من بقي فقال : أي ربّ بقيت أنت الحيّ الذي لا تموت ، وبقي حملة العرش ، وبقي جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، وبقيت أنا فيقول الله عزّ وجل فيموت جبرائيل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول : أي ربّ يموت جبرائل وميكائيل ، فيقول : اسكت إنّي كتب الموت على كلّ من تحت عرشي فيموتان .

ثمّ يأتي ملك الموت فيقول : أي ربّ قد مات جبرائيل وميكائيل فيقول وهو أعلم بمن بقي فيقول : بقيت أنتّ الحيّ الذي لا تموت وبقيتْ حملة عرشك فيقول ليمت حملة عرشي فيموتون ، فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل فيموت .

ثمّ يأتي ملك الموت فيقول : يا ربّ قد مات حملة عرشك فيقول وهو أعلم بمن بقي فيقول : بقيت أنت الحيّ الذي لا تموت وبقيت أنا فقال : أنت خلقٌ من خلقي خلقتك لما رأيت فمتْ فيموت فإذا لم يبق إلاّ الله الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وكان آخراً كما كان أوّلا طوى السموات كطيّ السِجِلِّ للكتب .

(179/582)

ثمّ قال : أنا الجبّار ، لمن الملك اليوم ، ولا يجيبه أحد ، ثمّ يقول تبارك وتعالى جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه : لله الواحد القهّار) يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات مطويّات فيبسطها بسطاً (ثمّ يمدّها مدّ الأديم العكاظي) لا يرى فيها عوجاً ولا أمتاً (.

ثمّ يزجر الله الخلق زجرة واحدة ، فإذا هم في هذه الأرض المبدّلة في مثل ما كانوا فيه من الأوّل ، من كان في بطنها ، كان في بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثمّ ينزل الله سبحانه عليهم ماء من تحت العرش كمني الرجال ، ثمّ يأمر السحاب أن تُنزل بمطر أربعين يوماً حتى يكون) من فوقهم) إثنا عشر ذراعاً ، ويأمر الله سبحانه الأجساد أن تنبت كنبات الطراثيث وكنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت ، قال الله سبحانه : ليَحيَ حملة العرش ، فيحيون . ثمّ يقول الله تعالى : ليَحيَ جبريل وميكائيل . فيحييان ، فيأمر الله إسرافيل ، فيأخذ

(180/582)

الصور فيضعه على فيه ، ثمّ يدعو الله الأرواح فيؤتى بها ، تتوهّج أرواح المؤمنين نوراً والأخرى ظلمة ، فيقبضها جميعاً ثمّ يلقيها على الصور ، ثمّ يأمر الله سبحانه إسرافيل أن ينفخ نفخة للبعث فتخرج الأرواح كأنّها النحل قد ملأت ما في السماء والأرض ، فيقول الله

سبحانه : ليرجعنّ كلّ روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح الخياشم ، ثمّ تمشي في الأجساد كما يمشي السمّ في اللديغ .

ثمّ تنشق الأرض عنهم سراعاً ، فأنا أوّل من ينشق عنه الأرض ، فتخرجون منها إلى ربّكم تنسلون عُراة حفاة عزّلا مهطعين إلى الداعي ، فيقول الكافرون : هذا يومٌ عَسِر) .

قوله عزّ وجل :) فَفَزِعَ (أي فيفزع ، والعرب تفعل ذلك في المواضع التي يصلح فيها أذا ، لأنّ إذا يصلح معها فعل ويفعل كقولك : أزورك إذا زرتني ، وأزورك إذا تزورني .) مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ (أن لا يفزع وقد ذكرنا في الخبر الماضي أنّهم الشهداء) وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين (قرأ الأعمش وحمزة وخلف وحفص) أَتَوْه (مقصوراً على الفعل بمعنى جاءوه عطفاً على قوله :) وفزع (و) أتوه (اعتباراً بقراءة ابن مسعود .

أخبرنا محمّد بن نعيم قال : حدّثنا الحسين بن أيّوب قال : حدّثنا علي بن عبد العزيز قال : حدّثنا أبو عبيد قال : حدّثنا هشام ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، وأخبرنا محمّد بن عبدوس قال : حدّثنا محمّد بن يعقوب قال : حدّثنا محمّد بن الجهم قال : حدّثنا الفرّاء قال : حدّثني عدّة ، منهم المفضل الضبي وقيس وأبو بكر كلّهم عن جحش بن زياد الضبي كلاهما عن تميم بن حذلم قال : قرأت على عبد الله بن مسعود) وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (بتطويل الألف ، فقال :) وكلّ أتوه (قصره وقرأ الباقون بالمدّ وضمّ التاء على مثال فاعلوه كقوله :) وكلّهم آتيه يوم

القيامة فرداً (وهي قراءة عليح) دَاخِرِيْن (صاغرين .

النمل : (88) وترى الجبال تحسبها . . . . .

(181/582)

قوله تعالى :) وَتَرَى الجِبَالَ (يا محمّد) تَحْسَبُهَا جَامِدَةً (قائمة واقفة مستقرّة مكانها .)

وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (حين تقع على الأرض فتستوي بها .

قال القتيبي : وذلك أنّ الجبال تجمع وتسير وهي في رؤية العين كالواقفة وهي تسير ، وكذلك كلّ شيء عظيم وكلّ جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمته ويُعْد ما بين أطرافه فهو في حسبان الناظر واقف وهو يسير ، وإلى هذا ذهب الشاعر في وصف جيش :

يأرعن مثل الطود تحسب أنّهم

وقوف لحاج والركاب تهملج

) صُنْعَ اللهِ (نُصب على المصدر وقيل : على الإغراء أي اعلموا وابصروا) الَّذِي أَتْقَنَ كُلّ

(182/582)

شَيْءٍ (أي أحكم (كلّ شيء ، قتادة) : أحسن .) إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (قرأ أهل الكوفة) تَفْعَلُون (بالتاء . غيرهم بالياء ، واختار أبو عبيدة بقوله :) أَتَوْهُ (إنّما هو خبر عنهم النمل : (89) من جاء بالحسنة . . . . .

) مَن جَاءَ (أي وافى الله) بِالحَسَنَة (بالإيمان . قال أبو معشر : كان إبراهيم يحلف ما يستثني أنّ الحسنة : لا إلهَ إلاّ الله ، قتادة : بالإخلاص .

وأخبرني الحسين بن محمد ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد ابن شنبه قال : حدّثنا عبيد الله بن أحمد بن منصور قال : حدّثنا سهل بن بشر قال : حدّثنا عبدالله بن سليمان قال : حدّثنا سعد بن سعيد قال : سمعت علي بن الحسين يقول : رجل غزا في سبيل الله ، فكان إذا خلا المكان قال : لا إلهَ إلاّ الله وحده لا شريك له ، فبينما هو ذات يوم في أرض الروم في موضع في حلفاء وبرديّ رفع صوته يقول : لا إلهَ إلاّ الله وحده لا شريك له ، خرج عليه رجل على فرس عليه ثياب بيض ، فقال : يا عبدالله ما ذات قلت ؟ قال : قلت الذي سمعت ، والذي نفسي بيده إنّها الكلمة التي قال الله عزّ وجل :) مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ (.

) فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (وأخبرني أبو عبدالله محمّد بن عبدالله العباسي قال : أخبرنا القاضي أبو الحسين محمّد بن عثمان (النصيبي ببغداد) قال : حدّثنا أبو بكر محمّد ابن الحسين السبيعي بحلب قال : حدّثني الحسين بن إبراهيم الجصّاص قال : أخبرنا حسين بن الحكم قال : حدّثنا اسماعيل بن أبان ، عن (فضيل) بن الزبير ، عن أبي داود

السبيعي ، عن أبي عبد الله الهذلي قال : دخلت على علي بن أبي طالب ح ، فقال : يا عبد الله ألا أنبّئك بالحسنة التي من جاء بها أدخله الله الجنّة ، والسيّئة التي من جاء بها أكبّه الله في النار ، ولم يقبل معها عمل ؟

(183/582)

قلت : بلى ، قال : الحسنة حُبّنا والسيّئة بُغضنا) فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها (أي فله من هذه الحسنة خير يوم القيامة ، وهو الثواب والأمن من العذاب ، قال ابن عباس :) فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا (أي فمنها يصل إليه الخير ، الحسن : معناه له منها خير ، عكرمة وابن جريج : أمّا أن يكون له خير من الإيمان فلا ، وإنّه ليس شيء خير من لا إله إلاّ الله ولكن له منها خير ، وعن ابن عباس أيضاً) فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا (يعني الثواب لأنّ الطاعة فعل العبد والثواب فعل الله سبحانه .

وقيل : هو إنّ الله عزّ وجل يقبل إيمانه وحسناته ، وقبول الله سبحانه خيرٌ من عمل العبد ، وقيل :) فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا (يعني رضوان الله سبحانه ، قال الله تعالى :) وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَر .)

وقال محمّد بن كعب وعبد الرحمن بن زيد) فله خيرٌ منها (يعني الإضعاف ، أعطاء الله

الحسنة بالواحدة عشراً صاعداً ، فهذا خيرٌ منها ، وقد أحسن بن كعب وابن زيد في تأويلهما لأنّ للإضعاف خصائص منها أنّ العبد يُسئل عن عمله ولا يُسأل عن الإضعاف ، ومنها أنّ للشيطان سبيلا إلى عمله ولا سبيل له إلى الإضعاف ، ولأنّه لا مطمع للخصوم في الإضعاف ، ولأنّ دار الحسنة الدنيا ودار الإضعاف الجنّة ، ولأنّ الجنّة على استحقاق العبد ، والتضعيف كما يليق بكرم الربّ) وَهُمْ مِن فزع يومئذ آمِنُون (قرأ أهل الكوفة) فزع (منونا ً) يومئذ (بنصب الميم وهي قراءة ابن مسعود ، وسائر القرّاء قرأوا بالإضافة واختاره أبو عبيد قال : لأنّه أعمّ التأويلين أن يكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم ، وإذا قال :) مِن فزع يومئذ (صار كأنّه فزع دون فزع ، وهو اختيار الفرّاء أيضاً ، قال : لأنّه فزع معلوم ، ألا ترى أنّه قال :) لا يحزنهم الفزع الأكبر (فصيّر معرفة ؟ فإذا أضفته كان معرفة فهو أعجب إلي

النمل : (90) ومن جاء بالسيئة . . . . .

) ومن جاء بالسيِّئة (يعني الشرك .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزّان قال : أخبرنا مكّي بن عبدان قال : حدّثنا عبد الله بن

هاشم قال : حدّثنا عبدالرحمن ، عن سفيان ، عن أبي المحجل ، عن أبي معشر ، عن إبراهيم) من جاء بالحسنة (قال : لا إلهَ إلاّ الله .) ومن جاء بالسيِّئة (قال : الشرك .

وأخبرنا عبد بن حامد قال : أخبرنا أبو الحسن محمّد بن شعيب البيهقي قال : حدّثنا بشر ابن موسى قال : حدّثنا روح ، عن حبيب بن الشهيد ، عن الحسن قال : ثمن الجنّة لا إلهَ إلاّ الله .

) فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّار (قال ابن عباس : أُلقيت ، الضحّاك : طرحت ، أبو العالية : قلبت ، وقيل لهم :) هَلْ تُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إنَّمَا أُمِرْتُ (يقول الله سبحانه لنبيّه محمّد (عليه السلام) قل :

النمل : (91) إنما أمرت أن . . . . .

(185/582)

(إنّما أُمرت أنْ أعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا) يعني مكّة جعلها حرما آمناً ، فلا يسفك فيها دم حرام ، ولا يظلم فيها أحد ، ولا يهاج ، ولا يصطاد صيدها ، ولا يختلي خلالها ، وقرأ ابن عباس (التي حرمها) إشارة إلى البلدة .

(وَلَهُ كُلُّ شَيْء) خلقاً ومُلكاً (وَأُمِرْتُ أنْ أكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ)

النمل : (92) وأن أتلو القرآن . . . . .

(وَأَنْ أَتْلُوَ القُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ المُنذِرِينَ) (وما علينا إلاّ البلاغ) نسختها آية القتال

النمل : (93) وقل الحمد لله . . . . .

(وَقُلِ الحَمْدُ للهِ) على نعمه ، (سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) يعني يوم بدر ، نظيرها في سورة الأنبياء : (سأُريكم آياتي فلا تستعجلون)

وقال مجاهد : (سَيُرِيْكُم آياته) في أنفسكم وفي السماء والأرض والرزق ، دليله قوله : (سَنُرِيْهِمْ آيَاتنا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسهم) وقوله : (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم) (فَتَعْرِفُوْنَها وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُوْن) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 231.218 ﴾

(186/582)

وقال الزمخشري :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) ﴾

أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته

وقدرته على كل شيء وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده . وفيه تعليم حسن ، وتوقيف على أدب جميل ، وبعث على التيمن بالذكرين ، والتبرك بهما ، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه ، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع . ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا اللّه عزّ وجل وصلوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمام كل علم مفاد وقبل كل عظة وتذكرة ، وفي مفتتح كل خطبة ، وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن . وقيل : هو متصل بما قبله ، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياعهم الناجين . وقيل : هو خطاب للوط عليه السلام ، وأن يحمد اللّه على هلاك كفار قومه ، ويسلم على من اصطفاه اللّه ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم . معلوم أن لا خير فيما أشركوه أصلا حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه ، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت «1» وتهكم بحالهم ، وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة اللّه ، ولا يؤثر عاقل شيئا على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم ، مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه ، وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثا ، لينبهوا على الخطإ المفرط والجهل المورط وإضلالهم التمييز ونبذهم المعقول وليعلموا أنّ الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد . ونحوه ما حكاه عن فرعون أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ مع علمه أنه ليس

لموسى مثل أنهاره التي كانت تجرى تحته .

ثم عدّد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، كما عدّدها في موضع آخر ثم قال : هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء . وقرئ : يشركون بالياء والتاء .

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أنه كان إذا قرأها يقول «بل اللّه خير وأبقى وأجل وأكرم «2»» .

---

(1) . قال محمود : «معلوم أن لا خير فيما أشركوه حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل خير ومالكه ، وإنما هو إلزام لهم وتبكيت» قال أحمد : كلام مرضى بعد أن تضع خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مكان قوله «خالق كل خير» فانه تخصيص قدرى : أو إشراك خفى . والتوحيد الأبلج : ما قلناه ، واللّه سبحانه وتعالى أعلم .

(2) . كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد . وأخرجه البيهقي في الشعب في الباب التاسع من رواية جابر الجعفي عن أبى جعفر قال «كان على بن الحسين يذكر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا ختم القرآن – فذكر حديثا طويلا – وفيه والحمد للّه وسلام على عباده الذين اصطفى آللّه خير أم ما يشركون ؟ بل اللّه خير وأجل وأبقى وأكرم وأعظم مما يشركون» .

[سورة النمل (27) : آية 60]

أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)

فإن قلت : ما الفرق بين أم وأم في أَمَّا يُشْرِكُونَ وأَمَّنْ خَلَقَ ؟ قلت : تلك متصلة ، لأنّ المعنى : أيهما خير . وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ، لما قال اللّه تعالى : آللّه خير أم الآلهة ؟ قال : بل أمّن خلق السماوات والأرض خير ؟ تقريرا لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء . وقرأ الأعمش : أمن ، بالتخفيف . ووجهه أن يجعل بدلا من اللّه ، كأنه قال : أمّن خلق السماوات والأرض خير أم ما تشركون ؟ فإن قلت : أى نكتة في نقل الإخبار عن الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا ؟ قلت : تأكيد معنى اختصاص الفعل بذاته ، والإيذان بأنّ إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والروائح والأشكال مع حسنها وبهجتها بماء واحد . لا يقدر عليه إلا هو وحده . ألا ترى كيف رشح معنى الاختصاص بقوله ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها ومعنى الكينونة : الانبغاء . أراد أن تأتى ذلك محال من غيره ، وكذلك قوله بَلْ هُمْ بعد الخطاب : أبلغ في تخطئة رأيهم . والحديقة : البستان عليه حائط : من الإحداق وهو الإحاطة . وقيل ذاتَ ، لأنّ المعنى : جماعة حدائق ذات بهجة ، كما يقال : النساء ذهبت . والبهجة : الحسن ، لأنّ الناظر يبتهج به أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ أغيره يقرن به ويجعل شريكا له . وقرئ : أإلها مع اللّه ، بمعنى : أتدعون ،

أو أتشركون . ولك أن تحقق الهمزتين وتوسط بينهما مدّة ، وتخرج الثانية بين بين يَعْدِلُونَ به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد .

[سورة النمل (27) : آية 61]

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61)

أَمَّنْ جَعَلَ وما بعده بدل من أَمَّنْ خَلَقَ فكان حكمهما حكم قَراراً دحاها وسوّاها بالاستقرار عليها حاجزاً كقوله : برزخا .

[سورة النمل (27) : آية 62]

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (62)

الضرورة : الحالة المحوجة إلى اللجإ . والاضطرار : افتعال منها . يقال : اضطرّه إلى كذا .

(188/582)

والفاعل والمفعول : مضطر . والمضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجإ والتضرع إلى اللّه . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : هو المجهود . وعن السدّى :

الذي لا حول له ولا قوة. وقيل: المذنب إذا استغفر. فإن قلت: قد عم المضطرين بقوله يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وكم من مضطرّ يدعوه فلا يجاب»

؟ قلت، الإجابة موقوفة على أن يكون المدعوّ به مصلحة، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطا فيه المصلحة. وأما المضطر فمتناول للجنس مطلقا، يصلح لكله ولبعضه، فلا طريق إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل، وقد قام الدليل على البعض وهو الذي أجابته مصلحة، فبطل التناول على العموم خُلَفاءَ الْأَرْضِ خلفاء فيها، وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرنا بعد قرن. أو أراد بالخلافة الملك والتسلط. وقرئ: يذكرون، بالياء مع الإدغام. وبالتاء مع الإدغام والحذف. وما مزيدة، أى: يذكرون تذكرا قليلا. والمعنى: نفى التذكر، والقلة تستعمل في معنى النفي.

[سورة النمل (27): آية 63]

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)

يَهْدِيكُمْ بالنجوم في السماء، والعلامات في الأرض: إذا جنّ الليل عليكم مسافرين في البر والبحر.

[سورة النمل (27): آية 64]

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ صادِقِينَ (64)

فإن قلت : كيف قيل لهم أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وهم منكرون للإعادة ؟ قلت : قد أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر في الإنكار مِنَ السَّماءِ الماء وَمِنَ الْأَرْضِ النبات إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أنّ مع اللّه إلها ، فأين دليلكم عليه ؟

[سورة النمل (27) : آية 65]

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65)

---

(1) . قال محمود «إن قلت فكم من مضطر لإيجاب ؟ قلت : الاجابة موقوفة على كون المدعو به مصلحة ، ولهذا لا يحسن دعاء العبد إلا شارطا فيه المصلحة» قال أحمد : الصواب أن الاجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة ، وإنما تقف الاجابة على المصلحة عند القدرية ، لايجابهم على اللّه تعالى رعاية المصالح ، فقول الزمخشري : لا يحسن الدعاء من العبد إلا شارطا فيه المصلحة : فاسد فان المشيئة شرط في إجابة الدعاء اتفاقا ، ومع ذلك نهى النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يقول الداعي : اللهم اغفر لي إن شئت .

فإن قلت : لم رفع اسم اللّه ، واللّه يتعالى أن يكون ممن في السماوات والأرض ؟ قلت : جاء على لغة بنى تميم ، حيث يقولون : ما في الدار أحد إلا حمار ، يريدون : ما فيها إلا حمار ، كأنّ أحدا لم يذكر . ومنه قوله :

عشيّة ما تغنى الرّماح مكانها ولا النّبل إلّا المشرفي المصمّم «1»

وقولهم : ما أتانى زيد إلا عمرو ، وما أعانه إخوانكم إلا إخوانه . فإن قلت : ما الداعي إلى اختيار المذهب التميمي على الحجازي ؟ قلت : دعت إليه نكتة سرية «2» . حيث أخرج المستثنى مخرج قوله : إلا اليعافير ، بعد قوله : ليس بها أنيس ، ليؤول المعنى إلى قولك : إن كان اللّه ممن في السماوات والأرض ، فهم يعلمون الغيب ، يعنى : أنّ علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون اللّه منهم ، كما أنّ معنى ما في البيت «3» : إن كانت اليعافير أنيسا ففيها أنيس ، بتا للقول بخلوّها عن الأنيس . فإن قلت : هلا زعمت أنّ اللّه ممن في السماوات والأرض ، كما يقول المتكلمون : اللّه في كل مكان ، على معنى أنّ علمه في الأماكن كلها ، فكأن ذاته فيها حتى لا تحمله على مذهب بنى تميم ؟ قلت : يأبى ذلك أن كونه في السماوات والأرض مجاز ، وكونهم فيهن حقيقة ، وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير صحيحة ، على أنّ قولك : من في السماوات والأرض ، وجمعك بينه وبينهم في إطلاق اسم واحد : فيه إيهام تسوية ، والإيهامات مزالة عنه وعن صفاته تعالى . ألا ترى كيف قال صلى اللّه عليه وسلم لمن قال : ومن يعصهما فقد غوى : «بئس خطيب

القوم أنت «4»» وعن عائشة رضى اللّه عنها : من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على اللّه الفرية «5» ، واللّه تعالى يقول : قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ

---

(1) . النبل : السهام العربية . والمشرفي : السيف ، نسبة لمشارف اليمن . والمصمم : الماضي النافذ لصلابته ، وكانت عادة المتحاربين التناضل بالسهام عند التباعد ، فإذا تقاربوا تحاربوا بالرماح ، فإذا التقوا تضاربوا بالسيوف .

وذكر النبل بعد الرماح لدفع توهم بعد العدو ، فكأن النبل يغنى عن غيره ، فالبيت كناية عن شدة الأمر واختلاط الصفين . وضمير مكانها للحرب أو للسيوف ، والاستثناء منقطع بعد النفي ، ويجب نصبه عند الحجازيين . ويجوز رفعه كما هنا عند التميميين : إما على البدل ، أو على توهم أن المستثنى منه غير مذكور ، وأن العامل مفرغ لما بعد «إلا» .

(2) . قوله «دعت إليه نكتة سرية» لعله بزنة فعيلة ، فيكون بمعنى شريفة . (ع)

(3) . قوله : «معنى ما في البيت» هو قول الشاعر :

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس (ع)

(4) . أخرجه مسلم من حديث عدى بن حاتم .

(5) . متفق عليه من حديثها في أثناء حديث .

وعن بعضهم : أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحدا ، لئلا يأمن أحد من عبيده مكره . وقيل : نزلت في المشركين حين سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن وقت الساعة أَيَّانَ بمعنى متى ، ولو سمى به : لكان فعالا ، من آن يئين ولا نصرف . وقرئ : إيان ، بكسر الهمزة .

[سورة النمل (27) : آية 66]

بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (66)

وقرئ : بل أدّرك . بل ادّراك . بل ادّارك . بل تدارك . بل أأدرك ، بهمزتين . بل آأدرك ، بألف بينهما . بل أدرك ، بالتخفيف والنقل . بل ادّرك ، بفتح اللام وتشديد الدال . وأصله :

بل أدّرك ؟ على الاستفهام . بلى أدرك . بلى أأدرك . أم تدارك . أم أدرك ، فهذه ثنتا عشرة قراءة . وادّارك : أصله تدارك ، فأدغمت التاء في الدال . وادّرك : افتعل . ومعنى أدرك علمهم :

انتهى وتكامل . وادّرك : تتابع واستحكم . وهو على وجهين ، أحدهما : أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيه ، قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته ، وهم شاكون جاهلون ، وهو قوله بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ : يريد المشركين

ممن في السماوات والأرض ، لأنهم لما كانوا في جملتهم نسب فعلهم إلى الجميع ، كما يقال : بنو فلان فعلوا كذا وإنما فعله ناس منهم . فإن قلت : إن الآية سيقت لاختصاص اللّه بعلم الغيب ، وأن العباد لا علم لهم بشيء منه وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به ، فكيف لاءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة ؟

قلت : لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب ، ولا يشعرون بالبعث الكائن ووقته الذي يكون فيه ، وكان هذا بيانا لعجزهم ووصفا لقصور علمهم : وصل به أن عندهم عجزا أبلغ منه ، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بدّ أن يكون – وهو وقت جزاء أعمالهم – : لا يكون ، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به . والوجه الثاني : أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكم بهم ، كما تقول لأجهل الناس : ما أعلمك ! على سبيل الهزؤ ، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك ، فضلا أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته :

وفي : أدرك علمهم ، وادارك علمهم : وجه آخر ، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى ، من قولك : أدركت الثمرة ، لأن تلك غايتها التي عندها تعدم : وقد فسره الحسن رضى اللّه عنه باضمحل علمهم وتدارك ، من تدارك بنو فلان : إذا تتابعوا في الهلاك فإن قلت ، فما وجه قراءة من قرأ : بل أأدرك على الاستفهام ؟ قلت : هو استفهام على وجه الإنكار

لإدراك علمهم ، وكذلك من قرأ : أم أدرك . وأم تدارك ، لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة . فإن قلت : فمن قرأ :

(191/582)

بلى أدرك ، وبلى أأدرك ؟ قلت : لما جاء ببلى ، بعد قوله وَما يَشْعُرُونَ كان معناه : بلى يشعرون ، ثم فسر الشعور بقوله : أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفى العلم ، فكأنه قال : شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها ، فيرجع إلى نفى الشعور على أبلغ ما يكون . وأما من قرأ : بلى أأدرك ؟ على الاستفهام فمعناه : بلى يشعرون متى يبعثون ، ثم أنكر علمهم بكونها ، وإذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها ، لأنّ العلم بوقت الكائن تابع للعلم بكون الكائن فِي الْآخِرَةِ في شأن الآخرة ومعناها فإن قلت ، هذه الاضرابات الثلاث ما معناها ؟ قلت : ما هي إلا تنزيل لأحوالهم : وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة . ألا ترى أن من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض : كان أمره أهون ممن سمع بها وهو جاثم لا يشخص به طلب التمييز بين الحق والباطل ، ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى ، وأن يكون

مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يخطر بباله حقا ولا باطلا .

ولا يفكر في عاقبة . وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عدّاه بمن دون عن ، لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون .

[سورة النمل (27) : الآيات 67 إلى 68]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)

العامل في إِذا ما دلّ عليه أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ وهو نخرج ، لأنّ بين يدي عمل اسم الفاعل «1» فيه عقابا وهي همزة الاستفهام ، وإن ولام الابتداء وواحدة منها كافية ، فكيف إذا اجتمعن ؟

والمراد : الإخراج من الأرض . أو من حال الفناء إلى الحياة ، وتكرير حرف الاستفهام بإدخاله على «إذا» و«إن» جميعا إنكار على إنكار ، وجحود عقيب جحود ، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه . والضمير في إِنَّا لهم ولآبائهم ، لأنّ كونهم ترابا قد تناولهم وآباءهم . فإن قلت : قدّم في هذه الآية هذا على نَحْنُ وَآباؤُنا وفي آية أخرى فدّم نَحْنُ وَآباؤُنا على هذا ؟ قلت .

التقديم دليل على أن المقدّم هو الغرض المتعمد بالذكر ، وإن الكلام إنما سيق لأجله ، ففي إحدى الآيتين دلّ على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام ، وفي الأخرى على أن اتخاذ

المبعوث بذلك الصدد .

---

(1) . قوله «اسم الفاعل فيه عقابا» لعله اسم المفعول وعقابا جمع عقبة . أفاده الصحاح . وعبارة النسفي : لأن اسم الفاعل والمفعول - بعد همزة الاستفهام أو أن أو لام الابتداء - لا يعمل فيما قبله ، فكيف إذا اجتمعن . (ع)

(192/582)

[سورة النمل (27) : الآيات 69 إلى 70]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة ، لأنّ تأنيثها غير حقيقى ، ولأنّ المعنى : كيف كان آخر أمرهم ؟ وأراد بالمجرمين : الكافرين ، وإنما عبر عن الكفر بلفظ الإجرام ليكون لطفا للمسلمين في ترك الجرائم وتخوّف عاقبتها ألا ترى إلى قوله فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ وقوله : مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا . وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ لأنهم لم يتبعوك ، ولم يسلموا فيسلموا وهم قومه قريش ، كقوله تعالى فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً . فِي ضَيْقٍ في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك ، ولا تبال بذلك فإن اللّه يعصمك من

الناس. يقال: ضاق الشيء ضيقا وضيقا، بالفتح والكسر. وقد قرئ بهما. والضيق أيضا: تخفيف الضيق. قال اللّه تعالى ضَيِّقاً حَرَجاً قرئ مخففا ومثقلا ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم.

[سورة النمل (27): الآيات 71 إلى 72]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (71) قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم عَسى أَنْ يَكُونَ ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو: دنا لكم وأزف لكم، ومعناه: وتبعكم ولحقكم، وقد عدى. بمن قال:

فلمّا ردفنا من عمير وصحبه تولّوا سراعا والمنيّة تعنق «1»

يعنى: دنونا من عمير، وقرأ الأعرج: ردف لكم، بوزن ذهب، وهما لغتان، والكسر أفصح. وعسى ولعل وسوف - في وعد الملوك ووعيدهم - يدل على صدق الأمر وجدّه وما لا مجال للشكّ بعده، وإنما يعنون بذلك: إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام، لإدلالهم بقهرهم وغلبتهم ووثوقهم أنّ عدوّهم لا يفوتهم، وأن الرمزة إلى الأغراض كافية من جهتهم، فعلى ذلك جرى وعد اللّه ووعيده.

---

(1). ردف كتبع يتعدى بنفسه، وضمن هنا معنى الدنو فعدى بمن، وأعنق الفرس:

سار سيرا سريعا سهلا.

والعنق: اسم منه يقول: فلما دنونا من عمير وأصحابه للحرب أدبروا مسرعين، والحال أن الموت يسرع خلفهم من جهتنا. شبه المنية بالأسد على طريق المكنية، فأثبت لها العنق تخييلا، كأنهم كانوا تبعوهم برمي النبال. ويجوز أنه استعار المنية لنفسه وقومه على طريق التصريح، أى: ونحن نسرع خلفهم، فذكر العنق تجريد، لأنه يلائم المشبه.

(193/582)

[سورة النمل (27): آية 73]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (73)

الفضل والفاضلة: الإفضال. ولفلان فواضل في قومه وفضول. ومعناه: أنه مفضل عليهم بتأخير العقوبة، وأنه لا يعاجلهم بها، وأكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه، ولكنهم بجهلهم يستعجلون وقوع العقاب: وهم قريش.

[سورة النمل (27): آية 74]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (74)

قرئ تكنّ. يقال: كننت الشيء وأكننته: إذا سترته وأخفيته، يعنى: أنه يعلم ما يخفون

وما يعلنون من عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومكايدهم ، وهو معاقبهم على ذلك بما يستوجبونه .

[سورة النمل (27) : آية 75]

وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (75)

سمى الشيء الذي يغيب ويخفى : غائبة وخافية ، فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العافية والعاقبة .

ونظائرهما : النطيحة ، والرمية ، والذبيحة : في أنها أسماء غير صفات . ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة ، كالراوية في قولهم : ويل للشاعر من رواية السوء ، كأنه قال : وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه اللّه وأحاط به وأثبته في اللوح . المبين : الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة .

[سورة النمل (27) : الآيات 76 إلى 77]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

قد اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزابا ، ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضا ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا ، يريد اليهود والنصارى لِلْمُؤْمِنِينَ لمن أنصف منهم وآمن ، أى : من بنى إسرائيل . أو منهم ومن

غيرهم.

[سورة النمل (27) : آية 78]

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)

بَيْنَهُمْ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به. فإن قلت: ما معنى يقضى بحكمه؟ ولا يقال: زيد يضرب بضربه ويمنع بمنعه؟ قلت: معناه بما يحكم به وهو عدله، لأنه لا يقضى إلا بالعدل، فسمى المحكوم به حكما. أو أراد بحكمته - وتدل عليه قراءة من قرأ بحكمه -: جمع حكمة. وَهُوَ الْعَزِيزُ فلا يردّ قضاؤه الْعَلِيمُ بمن يقضى له وبمن يقضى عليه، أو العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالفصل بينهم وبين المحقين.

(194/582)

[سورة النمل (27) : الآيات 79 إلى 81]

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

أمره بالتوكل على اللّه وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا

يتعلق به الشكّ والظنّ . وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع اللّه وبنصرته . وأن مثله لا يخذل . فإن قلت : إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى يشبه أن يكون تعليلا آخر للتوكل ، فما وجه ذلك ؟ قلت : ؟ وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسببا عما كان يغيظ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من جهة المشركين وأهل الكتاب : من ترك اتباعه وتشييع ذلك بالأذى والعداوة ، فلاءم ذلك أن يعلل توكل متوكل مثله ، بأن اتباعهم أمر قد يئس منه ، فلم يبق إلا الاستنصار عليهم لعداوتهم واستكفاء شرورهم وأذاهم ، وشبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، لأنهم إذا سمعوا ما يتلى عليهم من آيات اللّه - فكانوا أقماع القول لا تعيه آذانهم وكان سماعهم كلا سماع - : كانت حالهم - لانتفاء جدوى السماع - : كحال الموتى الذين فقدوا مصحح السماع وكذلك تشبيههم بالصمّ الذين ينعق بهم فلا يسمعون . وشبهوا بالعمى حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ، وأن يجعلهم هداة بصراء إلا اللّه عز وجل . فإن قلت : ما معنى قوله إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؟ قلت : هو تأكيد لحال الأصم ، لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن يولى عنه مدبرا كان أبعد عن إدراك صوته . وقرئ : ولا يسمع الصمّ ، وما أنت بهاد العمى ، على الأصل . وتهدى العمى . وعن ابن مسعود : وما أن تهدى العمى ، وهداه عن الضلال .

كقولك : سقاه عن العيمة « 1 » أى : أبعده عنها بالسقى ، وأبعده عن الضلال بالهدى إِنْ تُسْمِعُ أى ما يجدى إسماعك إلا على الذين علم اللّه أنهم يؤمنون بآياته ، أى : يصدقون بها

فَهُمْ مُسْلِمُونَ أى مخلصون من قوله بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ يعنى : جعله سالما لله خالصا له .

[سورة النمل (27) : آية 82]

وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (82)

سمى معنى القول ومؤداه بالقول ، وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ، ووقوعه : حصوله . والمراد : مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة . ودابة الأرض :

---

(1) . قوله «سقاه عن العيمة» هي شهوة اللبن كما في الصحاح . (ع)

الجساسة . جاء في الحديث : أنّ طولها ستون ذراعا ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب «1» .

وروى : لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان . وعن ابن جريج في وصفها : رأس ثور ، وعين خنزير ، وأذن فيل ، وقرن إيل ، وعنق نعامة ، وصدر أسد ، ولون نمر ، وخاصرة هرّ ، وذنب كبش ، وخف بعير . وما بين المفصلين : اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام . وروى : لا تخرج إلا رأسها ، ورأسها يبلغ أعنان السماء «2» ، أو يبلغ السحاب . وعن

أبى هريرة :

فيها من كل لون ، وما بين قرنيها فرسخ للراكب . وعن الحسن رضى اللّه عنه : لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام . وعن على رضى اللّه عنه : أنها تخرج ثلاثة أيام ، والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه سئل : من أين تخرج الدابة ؟ فقال «من أعظم المساجد حرمة على اللّه «3»» يعنى المسجد الحرام . وروى : أنها تخرج ثلاث خرجات : تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن ، ثم تخرج بالبادية ثم تتكمن دهرا طويلا ، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على اللّه ، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ، فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة . وقيل : تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسان ذلق «4» فتقول أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ يعنى أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي ، لأنّ خروجها من الآيات ، وتقول : ألا لعنة اللّه على الظالمين . وعن السدى : تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام . وعن ابن عمر رضى اللّه عنه : تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المشرق ، ثم الشام ثم اليمن فتفعل مثل ذلك . وروى : تخرج من أجياد «5» .

وروى : بينا عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل ، وينشق الصفا مما يلي المسعى ، فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتضرب المؤمن في مسجده ، أو فيما بين عينيه بعصا موسى عليه السلام

، فتنكت نكتة

---

(1) . أخرجه الثعلبي من حديث حذيفة دون قوله «وهي الجساسة» وسيأتى بعضه للحاكم وغيره في الذي بعده . [. . . . .]

(2) . قوله «ورأسها يبلغ أعنان السماء» في الصحاح «أعنان السماء» : صفائحها وما اعترض من أقطارها ، كأنه جمع عنن . والعامة تقول : عنان السماء . (ع)

(3) . أخرجه الطبري من طريق ربعي عن حذيفة بن اليمان : «ذكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الدابة فقلت يا رسول اللّه ، من أين تخرج؟ فقال : من أعظم المساجد حرمة على اللّه . . . الحديث» وروى الحاكم والبيهقي في الشعب وإسحاق في مسنده وابن مردويه من حديث أبى الطفيل عن حذيفة عن أسيد رفعه قال «يكون للدابة ثلاث خرجات – إلى أن قال : بينما الناس في أعظم المساجد حرمة وخيرها وأكرمها : المسجد الحرام ، لم يرعهم إلا وهي ترغو بين الركن والمقام . . . الحديث وفيه : ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب . ولا يفوتها هارب» وفي الباب عن ابن عباس : أخرجه ابن مردويه مطولا .

(4) . قوله «بلسان ذلق» أى طلق ، كما في الصحاح . (ع)

(5) . قوله «تخرج من أجياد» جبل بمكة ، سمى بذلك لموضع خيل تبع ، وسمى «قعيقعان» لموضع سلاحه . (ع)

بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه أو فتترك وجهه كأنه كوكب درّى ، وتكتب بين عينيه : مؤمن : وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه ، فتفشو النكتة حتى يسودّ لها وجهه وتكتب بين عينيه : كافر . وروى : فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ، ثم تقول لهم :

يا فلان ، أنت من أهل الجنة . ويا فلان ، أنت من أهل النار . وقرئ : تكلمهم ، من الكلم وهو الجرح . والمراد به : الوسم بالعصا والخاتم . ويجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضا ، على معنى التكثير . يقال : فلان مكلم ، أى مجرّح . ويجوز أن يستدل بالتخفيف على أنّ المراد بالتكليم : التجريح ، كما فسر : لنحرقنه ، بقراءة علىّ رضى اللّه عنه : لنحرقنه ، وأن يستدل بقراءة أبىّ : تنبئهم . وبقراءة ابن مسعود : تكلمهم بأنّ الناس ، على أنه من الكلام . والقراءة بإن مكسورة : حكاية لقول الدابة ، إما لأنّ الكلام بمعنى القول . أو بإضمار القول ، أى :

تقول الدابة ذلك . أو هي حكاية لقوله تعالى عند ذلك . فإن قلت : إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا قلت : قولها حكاية لقول اللّه تعالى . أو على معنى بآيات ربنا .

أو لاختصاصها باللّه وأثرتها عنده ، وأنها من خواص خلقه : أضافت آيات اللّه إلى نفسها ، كما يقول بعض خاصة الملك :

خيلنا وبلادنا ، وإنما هي خيل مولاه وبلاده . ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار ، أى : تكلمهم بأن .

[سورة النمل (27) : آية 83]

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83)

فَهُمْ يُوزَعُونَ يحبس أوّلهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار . وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه ، كما وصفت جنود سليمان بذلك . وكذلك قوله فَوْجاً فإن الفوج الجماعة الكثيرة . ومنه قوله تعالى يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أبو جهل والوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة : يساقون بين يدي أهل مكة ، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار . فإن قلت : أى فرق بين من الأولى والثانية ؟ قلت :

الأولى للتبعيض ، والثانية للتبيين ، كقوله مِنَ الْأَوْثانِ .

[سورة النمل (27) : الآيات 84 إلى 85]

حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (85)

الواو للحال ، كأنه قال : أكذبتم بها بادىء الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها ، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب . أو للعطف ، أى : أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحققها وتبصرها ، فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه ، ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويتفهم مضامينه ويحيط بمعانيه أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

(197/582)

بها للتبكيت لا غير . وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب ، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا قد صدّقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب . ومثاله أن تقول لراعيك – وقد عرفته رويعي سوء – : أتأكل نعمى ، أم ما ذا تعمل بها ؟ فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صحّ عندك من أكله وفساده ، وترمى بقولك : أم ما ذا تعمل بها ، مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل ، لتبهته « 1 » وتعلمه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها ، وأنه لا يقدر أن يدعى الحفظ والإصلاح ، لما شهر من خلاف ذلك . أو أراد : أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات اللّه ، أم ما ذا كنتم تعملون من غير ذلك ؟ يعنى أنه لم يكن لهم عمل غيره ، كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية ، وإنما خلقوا للإيمان والطاعة :

يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكبون فيها ، وذلك قوله وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم . وهو التكذيب بآيات اللّه ، فيشغلهم عن النطق والاعتذار ، كقوله تعالى هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ .

[سورة النمل (27) : آية 86]

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

جعل الإبصار للنهار وهو لأهله . فإن قلت : ما للتقابل لم يراع في قوله لِيَسْكُنُوا ومُبْصِراً حيث كان أحدهما علة والآخر حالا ؟ قلت : هو مراعى من حيث المعنى ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف ، لأن معنى مبصرا : ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب .

[سورة النمل (27) : آية 87]

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (87)

فإن قلت : لم قيل فَفَزِعَ دون فيفزع ؟ قلت : لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، واقع على أهل السماوات والأرض ، لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به . والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ إلا من ثبت اللّه قلبه من الملائكة ، قالوا : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت - عليهم السلام . وقيل : الشهداء . وعن الضحاك : الحور ، وخزنة النار ، وحملة العرش .

وعن جابر : منهم موسى عليه السلام ، لأنه صعق مرّة . ومثله قوله تعالى وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ . وقرئ : أتوه . وأتاه . ودخرين ، فالجمع

---

(1) . قوله «لتبهته» أى تدهشه وتحيره (ع)

على المعنى والتوحيد على اللفظ . والداخر والدخر : الصاغر . وقيل : مع الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية . ويجوز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له .

[سورة النمل (27) : الآيات 88 إلى 90]

وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (88) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

جامِدَةً من جمد في مكانه إذا لم يبرح . تجمع الجبال فتسير كما تسير الريح السحاب ، فإذا نظر إليها الناظر حسبها واقفه ثابتة في مكان واحد وَهِيَ تَمُرُّ مرّا حثيثا كما يمر السحاب . وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد : إذا تحرّكت لا تكاد تتبين حركتها ، كما قال النابغة

في صفة جيش :

بأرعن مثل الطّود تحسب أنّهم وقوف لحاج والرّكاب تهملج «1»

صُنْعَ اللَّهِ من المصادر المؤكدة ، كقوله وَعَدَ اللَّهُ . وصِبْغَةَ اللَّهِ إلا أن مؤكدة محذوف ، وهو الناصب ليوم ينفخ ، والمعنى : ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب اللّه المحسنين وعاقب المجرمين ، ثم قال : صنع اللّه ، يريد به : الإثابة والمعاقبة . وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، حيث قال : صنع اللّه الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ يعنى أنّ مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب : من جملة إحكامه للأشياء وإتقانه لها ، وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه ، فيكافئهم على حسب ذلك . ثم لخص ذلك بقوله مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ إلى آخر الآيتين ، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن نظمه وترتيبه ، ومكانة إضماده ، ورصانة تفسيره ، «2» وأخذ بعضه بحجزة بعض ، كأنما أفرغ إفراغا واحدا ولأمر مّا أعجز القوى وأخرس الشقاشق «3» . ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب

---

(1) . للنابغة . والأرعن : الجبل العالي . والطود : الجبل العظيم ، فاستعار الأرعن للجيش ، ثم شبهه بالطود ليفيد المبالغة في الكثرة . والحاج : اسم جمع واحده حاجة . والركاب : المطي لا واحد له من لفظه . والهملجة :

السير الرهو السهل ، فارسى معرب . والهملاج : السريع . يقول : حاربنا العدو بجيش

عظيم ، تظنهم واقفين لحاجة لكثرتهم ، والحال أن ركابهم تسرع السير .

(2) . قوله «و مكانة إضماده ورصانة تفسيره» الذي في الصحاح «ضمد الجرح ، يضمده ضمدا» : شده بعصابة وفيه «الرصين» المحكم الثابت . وقد رصن - بالضم - رصانة . (ع)

(3) . قوله «و أخرس الشقاشق» في الصحاح «شقشق الفحل شقشقة» : هدر . وإذا قالوا للخطيب : ذو شقشقة ، فإنما يشبه بالفحل . (ع)

(199/582)

كلام ، جاء كالشاهد بصحته والمنادى على سداده ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان .

ألا ترى إلى قوله : صُنْعَ اللَّهِ ، وصِبْغَةَ اللَّهِ ، ووَعَدَ اللَّهُ ، وفِطْرَتَ اللَّهِ : بعد ما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم ، كيف تلاها بقوله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ، لا يخلف الله الميعاد لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ وقرئ : تفعلون ، على الخطاب . فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها يريد الإضعاف وأنّ العمل يتقضى والثواب يدوم ، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد . وقيل : فله خير منها ، أى : له خير حاصل من جهتها وهو الجنة . وعن ابن عباس

، الحسنة كلمة الشهادة. وقرئ:

يَوْمَئِذٍ مفتوحا مع الإضافة، لأنه أضيف إلى غير متمكن. ومنصوبا مع تنوين فزع. فإن قلت: ما الفرق بين الفزعين؟ قلت: الفزع الأوّل: هو ما لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدّة تقع وهول يفجأ، من رعب وهيبة، وإن كان المحسن يأمن لحاق الضرر به، كما يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب «1» وإن كانت ساعة إعزاز وتكرمة وإحسان وتولية.

وأمّا الثاني: فالخوف من العذاب. فإن قلت: فمن قرأ مِنْ فَزَعٍ بالتنوين ما معناه؟ قلت: يحتمل معنيين. من فزع واحد وهو خوف العقاب، وأمّا ما يلحق الإنسان من التهيب والرعب لما يرى من الأهوال والعظائم، فلا يخلون منه، لأنّ البشرية تقتضي ذلك. وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه. ومن فزع شديد مفرط الشدّة لا يكتنهه الوصف: وهو خوف النار. أمن: يعدى بالجار وبنفسه، كقوله تعالى أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ. وقيل: السيئة: الإشراك. يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة، فكأنه قيل: فكبوا في النار، كقوله تعالى فَكُبْكِبُوا فِيها ويجوز أن يكون ذكر الوجوه إيذانا بأنهم يكبون على وجوههم فيها منكوسين هَلْ تُجْزَوْنَ يجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب بإضمار القول.

[سورة النمل (27): الآيات 91 إلى 93]

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

(91) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

أمر رسوله بأن يقول أُمِرْتُ أن أخص اللّه وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكا كما فعلت قريش، وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ من التلاوة أو التلوّ كقوله وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ. والبلدة: مكة حرسها اللّه تعالى: اختصها من بين سائر.

---

(1). قوله «و قلب وجاب» في الصحاح «وجب القلب وجيبا»: اضطرب. (ع)

البلاد بإضافة اسمه إليها، لأنها أحبّ بلاده إليه، وأكرمها عليه، وأعظمها عنده. وهكذا قال النبي صلى اللّه عليه وسلم حين خرج في مهاجره، فلما بلغ الحزورة «1» استقبلها بوجهه الكريم فقال: «إنى أعلم أنك أحب بلاد اللّه إلى اللّه. ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت» «2» وأشار إليها إشارة تعظيم لها وتقريب، دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه. ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها، فأجزل بذلك قسمها في الشرف والعلو، ووصفها بأنها محرّمة لا ينتهك حرمتها إلا ظالم مضادّ لربه وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ لا يختلى خلاها، ولا يعضد شجرها «3»، ولا

ينفر صيدها . واللاجئ إليها آمن . وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما . وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا ملك مثل هذه البلدة عظيم الشأن قد ملكها وملك إليها كل شيء «4» : اللهم بارك لنا في سكناها ، وآمنا فيها شرّ كل ذى شرّ ، ولا تنقلنا من جوار بيتك إلا إلى دار رحمتك . وقرئ : التي حرّمها . واتل عليهم هذا القرآن : عن أبيّ وأن أتل : عن ابن مسعود . فَمَنِ اهْتَدى باتباعه إياى فيما أنا بصدده من توحيد اللّه ونفى الأنداد عنه ، والدخول في الملة الحنيفية ، واتباع ما أنزل عليّ من الوحى ، فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ وَمَنْ ضَلَّ ولم يتبعني فلا عليّ ، وما أنا إلا رسول منذر ، وما على الرسول

---

(1) . قوله «فلما بلغ الحزورة» هي تل صغير كما في الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم وابن أبى شيبة والدارمي وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل . كلهم من رواية الزهري عن أبى سلمة عن عبد اللّه بن عدى بن الخيار قال «رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واقفا على الحزورة وهو يقول : واللّه إنك لخير أرض اللّه إلى اللّه وأحب أرض اللّه إلى اللّه . ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت» هكذا رواه عقيل ويونس وشعيب وصالح بن كيسان عنه . ورواه ابن أخى الزهري عن عمه عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبد اللّه بن عدى بن الخيار : أخرجه الطبراني . وصححه الدارقطني لوجهين . ورواه النسائي

وإسحاق والبزار والبيهقي في الدلائل من رواية معمر عن الزهري عن أبى سلمة عن أبى هريرة. ولفظه للبيهقي «و لولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت» قال البزار: تفرديه معمر هكذا.

وقال البيهقي: وهم فيه معمر وقال الترمذي: رواه محمد بن عمر بن أبى سلمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة. وقول الزهري عن أبى سلمة عن عبد اللّه بن عدى أصح. وقال البيهقي أيضا: ورواية محمد بن عمرو وهم. وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه الترمذي من رواية ابن خثيم عن سعيد بن جبير وأبى الطفيل جميعا فيه نحو «ما أطيبك من بلد وأحبك إلىّ. ولولا أن قومي أخرجونى منك ما سكنت غيرك».

(3). قوله «لا يختلى خلاها . . . الخ»: أى لا يجز حشيشها، ولا يقطع شجرها. (ع)

(4). قال محمود: «المراد بالبلدة مكة وإضافة اسم اللّه تعالى إليها لتشريفها وذكر تحريمها، لأنه أخص أوصافها وأسنده إلى ذاته تأكيدا لشرفها ثم قال: وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ، فجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخول هذه البلدة المعظمة. وفي ذلك إشارة إلى أن ملكا قد ملك هذه البلدة المكرمة وملك إليها كل شيء إنه لعظيم الشأن» قال أحمد: وتحت قوله وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ: فائدة أخرى سوى ذلك، وهي أنه لما أضاف اسمه إلى البلدة المخصوصة تشريفا لها، أتبع ذلك إضافة كل شيء سواها إلى ملكه، قطعا لتوهم

اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها ، وتنبيها على أن الاضافة الأولى إنما قصد بها التشريف ، لا لأنها ملك اللّه تعالى خاصة ، واللّه أعلم .

(201/582)

إلا البلاغ . ثم أمره أن يحمد اللّه على ما خوّله من نعمة النبوّة التي لا توازيها نعمة ، وأن يهدّد أعداءه بما سيريهم اللّه من آياته التي تلجئهم إلى المعرفة ، والإقرار بأنها آيات اللّه . وذلك حين لا تنفعهم المعرفة . يعنى في الآخرة . عن الحسن وعن الكلبي : الدخان ، وانشقاق القمر . وما حلّ بهم من نقمات اللّه في الدنيا . وقيل : هو كقوله سَنُرِيهِمْ آيَاتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ الآية وكل عمل يعملونه ، فاللّه عالم به غير غافل عنه لأنّ ، الغفلة والسهو لا يجوزان على عالم الذات «1» ، وهو من وراء جزاء العاملين . قرئ : تعملون ، بالتاء والياء . عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . «من قرأ طس سليمان : كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ، ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا اللّه» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 3 صـ 375. 390﴾

---

(1) . قال محمود : «لأن العالم بالذات لا يجوز عليه الغفلة» قال أحمد : قد سبق له جحد

صفة العلم ، وإيهام أن سلبها داخل في تنزيه اللّه تعالى ، لأنه يجعل استحالة الغفلة عليه معللة بأنه عالم بالذات لا بعلم ، والحق أن استحالة الغفلة عليه تعالى ، لأن علمه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ، بل هو علم قديم أزلى عام التعليق بجميع الواجبات والممكنات والممتنعات ، ولا يتوقف تنزيهه تعالى على تعطيل صفاته وكماله وجلاله ، تعالى اللّه عما يقول الظالمون علوا كبيرا . [. . . . .]

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه .

(202/582)

وقال ابن جزى :

﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾

أمر الله رسول أن يتلو الآيات المذكورة بعد هذا ، لأنها براهين على وحدانيته وقدرته ، وأن يستفتح ذلك بحمده ، والسلام على من اصطفاه من عباده ، كما تستفتح الخطب والكتب وغيرها بذلك ، تيمناً بذكر الله ، قال ابن عباس : يعني بعباده الذين اصطفى الصحابة ، واللفظ يعم الملائكة والأنبياء والصحابة والصالحين ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ على وجه الرد على المشركين ، فدخلت خير التي يراد بها التفضيل لتبكيتهم وتعنيفهم ، مع أنه

معلوم أنه لا خبر فيما أشركوا أصلاً ، ثم أقام عليهم الحجة بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض ، وبغير ذلك مما ذكره إلى تمام هذه الآيات ، وأعقب كل برهان منها بقوله : ﴿ أإله مَّعَ الله ﴾ على وجه التقرير لهم ، على أنه لم يفعل ذلك كله إلا الله وحده ، فقامت عليهم الحجة بذلك وفيها أيضاً نِعَمٌ يجب شركها فقامت بذلك أيضاً ، وأمَّا في قوله ﴿ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ متصلة عاطفة ، وأم في المواضع التي بعد منقطعة بمعنى بل والهمزة ﴿ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يعدلون عن الحق والصواب أو يعدلون بالله غيره أي يجعلون له عديلاً ومثيلاً ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ يعني الجبال ﴿ البحرين ﴾ ذكر في [الفرقان : 53] .

﴿ يُجِيبُ المضطر ﴾ قيل هو المجهود ، وقيل الذي لا حول له ولا قوّة ، واللفظ مشتق من الضرر : أي الذي أصابه الضّر أو من الضرورة أي الذي ألجأته الضرورة إلى الدعاء ﴿ خُلَفَآءَ الأرض ﴾ أي خلفاء فيها تتوارثون سكناها ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ يعني الهداية بالنجوم والطرقات ﴿ بُشْرَاً ﴾ ذكر في [الأعراف : 75] ﴿ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ الرزق من السماء : المطر ومن الأرض : النبات ﴿ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ تعجيز للمشركين .

(203/582)

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ هذه الآية تقتضي انفراد الله تعالى بعلم الغيب ، وأنه لا يعلمه سواه ، ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أن محمداً يعلم الغيب فقد أعظم الفرية على الله ، ثم قرأت هذه الآية ، فإن قيل : فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بالغيوب وذلك معدود في معجزاته ، فالجواب : أنه صلى الله عليه وسلم قال : " إني لا أعلم الغيب إلا ما علمني الله " ، فإن قيل : كيف ذلك مع ما ظهر من إخبار الكهان والمنجمين ، وأشباههم ، بالأمور المغيبة ؟ فالجواب : أن إخبارهم بذلك عن ظن ضعيف أو عن وهم لا عن علم ، وإنما اقتضت الآية نفي العلم ، وقد قيل : إن الغيب في هذه الآية يراد به متى تقوم الساعة ، لأن سبب نزولها أنهم سألوا عن ذلك ، ولذلك قال : ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ، فعلى هذا يندفع السؤال الأول ، والثاني لأن علم الساعة انفرد به الله تعالى لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله ﴾ [الأحزاب : 63] ولقوله صلى الله عليه وسلم : " في خمس لا يعلمها إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ إلى آخر السورة " ، فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِلاَّ الله ﴾ بالرفع على البدل والبدل ، لا يصح إلا إذا كان الاستثناء متصلاً ، ويكون ما بعد إلا من جنس ما قبلها والله تعالى ليس ممن في السموات والأرض باتفاق ؟ فإن القائلين بالجهة والمكان يقولون إنه فوق السموات والأرض ، والقائلين بنفي الجهة يقولون : إن الله تعالى ليس بهما ولا فوقهما ، ولا

داخلاً فيهما ، ولا خارجاً عنهما ، فهو على هذا استثناء منقطع ، فكان يجب أن يكون منصوباً فالجواب من أربعة أوجه :

(204/582)

الأول أن البدل هنا جاء على لغة بني تميم في البدل ، وإن كان منقطعاً كقولهم ما في الدار أحد إلا حمار بالرفع ، والحمار ليس من الأحدين وهذا ضعيف ، لأن القرآن أنزل بلغة الحجاز لا بلغة بني تميم ، والثاني أن الله في السموات والأرض بعلمه كما قال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : 4] يعني بعلمه ، فجاء البدل على هذا المعنى وهذا ضعيف ، لأن قوله : ﴿ فِي السماوات والأرض ﴾ وقعت فيه لفظة في الظرفية الحقيقية ، وهي في حق الله على هذا المعنى للظرفية المجازية ، ولا يجوز استعمال لفظة واحدة في الحقيقة والمجاز في حالة واحدة عند المحققين ، الجواب الثالث أن قوله : ﴿ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ يراد به كل موجود فكأنه قال من في الوجود فيكون الاستثناء على هذا متصلاً ، فيصح الرفع على البدل ، وإنما قال ﴿ مَن فِي السماوات والأرض ﴾ جرياً على منهاج كلام العرب فهو لفظ خاص يراد به ما هو أعم منه : الجواب الرابع أن يكون الاستثناء متصلاً على أن يتأول من في السموات في حق الله كما يتأول قوله ﴿ أَأَمِنتُمْ مَّن فِي

السمآء ﴾ [الملك : 16] وحديث الجارية وشبه ذلك ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لا يشعرون من في السموات والأرض متى يبعثون ، لأنّ علم الساعة مما انفرد به الله ، روي أن سبب نزول هذه الآية أن قريشاً سألوا النبي صلى الله عليه وسلم متى الساعة ؟ ﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ وزن أدّراك تفاعل ثم سكنت التاء وأدغمت الدال واجتلبت ألف الوصل ، والمعنى تتابع علمهم بالآخرة وتناهى إلى أن يكفروا بها ، أو تناهى إلى أن لا يعلموا وقتها ، وقرئ أدرك بهمزة قطع على وزن أفعل والمعنى على هذا : يدرك علمهم في الآخرة ، أي يعلمون فيها الحق ، لأنهم يشاهدون حينئذ الحقائق ، فقوله : ﴿ فِي الآخرة ﴾ على هذا ظرف ، وعلى القراءة الأولى بمعنى الباء ﴿ عَمُونَ ﴾ جمع عم ، وهو من عمى القلوب .

(205/582)

﴿ رَدِفَ لَكُم ﴾ أي تبعكم ، واللام زائدة ، أو ضمن معنى قرب وتعدى باللام ، ومعنى الآية : أنهم استعجلوا العذاب بقولهم : متى هذا الوعد ، فقيل لهم : عسى أن يكون قرب لكم بعض العذاب الذي تستعجلون ، وهو قتلهم يوم بدر .

﴿ غَآئِبَةٍ ﴾ الهاء فيه للمبالغة : أي ما من شيء في غاية الخفاء ، إلا وهو عند الله في

كتاب .

﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ شبه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى ؛ في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء ، ثم شبههم بالصم وبالعُمي وإن كانوا صحاح الحواس ، وأكد عدم سماعهم بقوله ﴿ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ ، لأن الأصم إذا أدبر وبعد عن الداعي زاد صممه وعدم سماعه بالكلية .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ أي إذا حان وقت عذابهم الذي تضمنه القول الأزلي من الله في ذلك وهو قضاؤه ، والمعنى إذا قربت الساعة أخرجنا لهم دابة من الأرض ، وخروج الدابة من أشراط الساعة ، ورُوي أنها تخرج من المسجد الحرام ، وقيل : من الصفا ، وأن طولها ستون ذراعاً ، وقيل : هي الجساسة التي وردت في الحديث ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ قيل : تكلمهم ببطلان الأديان كلها إلا دين الإسلام ، وقيل : تقول لهم : ألا لعنة الله على الظالمين ، وروي أنها تسم الكافر وتخطم أنفه وتسوّده ، وتبيض وجه المؤمن ﴿ أَنَّ الناس ﴾ من قرأ بكسر الهمزة فهو ابتداء كلام ، ومن قرأ بالفتح فهو مفعول تكلمهم : أي تقول لهم إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، أو مفعول من أجله تقديره تكلمهم ، لأن الناس لا يوقنون ثم حذفت اللام ، ويحتمل قوله : ﴿ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ بخروج الدابة ، ولا يوقنون بالآخرة وأمور الدين ، وهذا أظهر .

﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي يساقون بعنف ﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أم استفهامية ، والمعنى إقامة الحجة عليهم ، كأنه قيل لهم إن كان لكم عمل أو حجة فهاتوها ﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيهِم ﴾ أي حق العذاب عليهم أو قامت الحجة عليهم ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ إنما يسكتون لأن الحجة قد قامت عليهم وهذا في بعض مواطن القيامة ، وقد جاء أنهم يتكلمون في مواطن ﴿ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ذكر في [يونس : 6] ﴿ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ ذكر في [الكهف : 99] ﴿ إِلاَّ مَن شَآءَ الله ﴾ قيل : " هم الشهداء ، وقيل : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين متذللين .

﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ أي قائمة ثابتة ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ﴾ يكون مرورها في أول أحوال يوم القيامة ، ثم ينسفها الله في خلال ذلك فكتون كالعهن ثم تصير هباء منبثاً ﴿ صُنْعَ الله ﴾ مصدر ، والعامل فيه محذوف ، وقيل : هو منصوب على الإغراء : أي انظروا صنع الله .

﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ قيل : إن الحسنة لا إله إلا الله ، واللفظ أعم ، ومعنى : ﴿ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أن له بالحسنة الواحدة عشراً ﴿ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ من نون فزع فتح الميم من ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ ومن أسقط التنوين للإضافة قرأ بفتح الميم على البناء أو بكسرها على الإعراب ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة ﴾ السيئة هنا الكفر ، والمعاصي التي قضى الله بتعذيب فاعلها .

(207/582)

﴿ هَذِهِ البلدة ﴾ يعني مكة ﴿ الذي حَرَّمَهَا ﴾ أي جعلها حرما آمناً ، لا يقاتل فيها أحد ولا ينتهك حرمتها ، ونسب تحريمها هنا إلى الله ؛ لأنه بسبب قضائه وأمره ، ونسبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى إبراهيم عليه السلام في قوله : " إن إبراهيم حرّم مكة " لأن إبراهيم هو الذي أعلمَ الناس بتحريمها ، فليس بين الحديث والآية تعارض وقد جاء في الحديث آخر أن مكة حرمها الله يوم خلق السموات والأرض ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ المنذرين ﴾ إي إنما عليّ الإنذار والتبليغ ﴿ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ وعيد بالعذاب الذي يضطرهم إلى معرفة آيات الله ، إما في الدنيا أو في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 102.98 ﴾

(208/582)

وقال الخازن :

قوله ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

هذا خطاب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يحمد الله على هلاك كفار الأمم الخالية ، وقيل : يحمده على جميع نعمه وسلام على عباده الذين اصطفى يعني الأنبياء والمرسلين وقال ابن عباس : هم أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) وقيل : هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين ﴿ الله خير أما يشركون ﴾ فيه تبكيت للمشركين وإلزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار .

والمعنى آلله خير لمن عبده أم الأصنام لمن عبدها فإن الله خير لمن عبده وآمن به لإغنائه عنه من الهلاك والأصنام ، لم تغن شيئاً عن عابديها عند نزول العذاب ، ولهذا السبب ذكر أنواعاً تدل على وحدانيته وكما قدرته .

فالنوع الأول قوله تعالى : ﴿ أمن خلق السموات والأرض ﴾ ذكر أعظم الأشياء المشاهدة الدالة على عظيم قدرته .

والمعنى الأصنام خير أم الذي خلق السموات والأرض ثم ذكر نعمه فقال ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ يعني المطر ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ أي بساتين جمع حديقة ، وهو البستان المحيط عليه فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة ﴿ ذات بهجة ﴾ أي ذات منظر حسن والبهجة الحسن يبتهج به من يراه ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ يعني ما ينبغي لكم ، لأنكم لا تقدرون على ذلك لأن الإنسان قد يقول : أنا المنبت للشجرة بأن أغرسها وأسقيها الماء فأزال هذه الشبهة بقوله ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ لأن إنبات الحدائق

المختلفة الأصناف ، والطعوم والروائح المختلفة والزروع تسقى بماء واحد ، لا يقدر عليه إلا الله تعالى ؛ ولا يتأتى لأحد وإن تأتى ذلك لغيره محال ﴿ أإله مع الله ﴾ يعني هل معه معبود أعانه على صنعه ﴿ بل ﴾ يعني ليس معه إله ولا شريك ﴿ هم قوم ﴾ يعني كفار مكة ﴿ يعدلون ﴾ يشركون وقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر إلى الباطل .

(209/582)

النوع الثاني قوله ﴿ أمن جعل الأرض قراراً ﴾ أي دحاها وسواها للاستقرار عليها ، وقيل لا تميد بأهلها ﴿ وجعل خلالها أنهاراً ﴾ أي وسطها بأنهار تطرد بالمياه ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ أي جبالاً ثوابت ﴿ وجعل بين البحرين ﴾ يعني العذاب والملح ﴿ حاجزاً ﴾ أي مانعاً لا يختلط أحدهما بالآخر ﴿ أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي توحيد ربهم وقدرته وسلطانه .

النوع الثالث قوله تعالى ﴿ أمن يجب المضطر ﴾ أي المكروب المجهود ، وقيل : المضرور بالحاجة المحوجة من مرض أو نازلة من نوازل الدهر يعني إذا نزلت بأحد بادر إلى الالتجاء والتضرع إلى الله تعالى وقيل : هو المذنب إذا استغفر ﴿ إذا دعاه ﴾ يعني فيكشف ضره ﴿ ويكشف السوء ﴾ أي الضر لأنه لا يقدر على تغيير حال من فقر إلى غنى ، ومن مرض

إلى صحة ومن ضيق إلى سعة إلا القادر ، الذي لا يعجز والقاهر الذي لا يغلب ولا ينازع ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي سكانها ، وذلك أنه ورثهم سكانها والتصرف فيها قرناً بعد قرن وقيل يجعل أولادكم خلفاء لكم وقيل : جعلكم خلفاء الجن في الأرض ﴿ أإله مع الله قليلاً ما تذكرون ﴾ أي تتعظون .

النوع الرابع قوله ﴿ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ﴾ أي يهديكم بالنجوم والعلامات إذا جن عليكم الليل مسافرين في البر والبحر ﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ أي قدام المطر ﴿ أإله مع الله تعالى عما يشركون ﴾

النوع الخامس قوله تعالى : ﴿ أمن يبدأ الخلق ﴾ أي نطفاً في الأرحام ﴿ ثم يعيده ﴾ بعد الموت ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات ﴿ إإلهة مع الله قل هاتوا برهانكم ﴾ أي حجتكم على قولكم إن مع الله إلهاً آخر ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ قوله تعالى ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن وقت الساعة .

(210/582)

والمعنى أن الله هو الذي يعلم الغيب وحده ويعلم متى تقوم الساعة ﴿ ما يشعرون أيان يبعثون ﴾ يعني أن من في السموات وهم الملائكة ومن في الأرض وهم بنو آدم لا يعلمون متى يبعثون والله تعالى تفرد بعلم ذلك ﴿ بل ادارك علمهم ﴾ أي بلغ ولحق علمهم ﴿ في الآخرة ﴾ هو ما جهلوه في الدنيا وسقط عنهم علمه .

وقيل بل علموا في الآخرة حين عاينوها ما شكوا فيه وعلموا عنه في الدنيا وهو قوله تعالى ﴿ بل هم في شك منها ﴾ أي هم اليوم في شك من الساعة ﴿ بل هم منها عمون ﴾ جمع عم وهو أعمى القلب وقيل معنى الآية أن الله أخبر عنهم إذا بعثوا يوم القيامة يستوي علمهم في الآخرة ، وما وعدوا فيها من الثواب والعقاب وإن كانت علومهم مختلفة في الدنيا .

قوله تعالى ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي مشركو مكة ﴿ أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ﴾ أي من قبورنا أحياء ﴿ لقد وعدنا هذا ﴾ أي هذا البعث ﴿ نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أي من قبل محمد صلى الله عليه سلم وليس ذلك بشيء ﴿ إن هذا ﴾ أي ما هذا ﴿ إلا أساطير الأولين ﴾ أي أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها ﴿ قيل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ﴾ أي بتكذيبهم إياك وإعراضهم عنك .

﴿ ولا تكن في ضيق مما يمكرون ﴾ نزلت في المستهزئين الذي اقتسموا عقاب مكة ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف ﴾ أي دنا وقرب ﴿

لكم ﴾ وقيل معناه ردفكم ﴿ بعض الذي تستعجلون ﴾ أي من العذاب فحل بهم ذلك يوم بدر .

(211/582)

قوله ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم ﴾ أي تخفى ﴿ وما يعلنون ﴾ أي من عداوة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وما من غائبة ﴾ أي من جملة غائبة من مكتوم سر وخفي أمر وشيء غائب ﴿ في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ يعني في اللوح المحفوظ ﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل ﴾ أي يبين لهم ﴿ أكثر الذين هم فيه يختلفون ﴾ أي من أمر الدين ، وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه ﴿ وإنه ﴾ يعني القرآن ﴿ لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يفصل بينهم ويحكم بين المختلفين في الدين يوم القيامة ﴿ بحكمة ﴾ أي الحق ﴿ هو العزيز ﴾ الممتنع الذي لا يرد له أمر ﴿ العليم ﴾ أي بأحوالهم فلا يخفى عليه شيء منها .

﴿ فتوكل على الله ﴾ أي فثق به ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ أي البين ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ يعني موتى القلوب وهم الكفار ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء ، فإذا ولو مدبرين ﴾

أي معرضين .

فإن قلت ما معنى مدبرين والأصم لا يسمع صوتاً سواء أقبل أو أدبر ؟ .

قلت : هو تأكيد ومبالغة وقيل : إن الأصم إذا كان حاضراً قد يسمع برفع الصوت ، أو يفهم بالإشارة فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم .

ومعنى الآية إنه لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت الذي لا سبيل إلى سماعه ، وكالأصم الذي لا يسمع ولا يفهم ﴿ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ﴾ معناه ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا ﴾ إلا من يصدق بالقرآن أنه من الله ﴿ فهم مسلمون ﴾ أي مخلصون .

قوله تعالى : ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ يعني إذا وجب عليهم العذاب وقيل : إذا غضب الله عليهم وقيل إذا وجبت الحجة عليهم ، وذلك أنهم لم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر وقيل إذا لم يرج صلاحهم وذلك في آخر الزمان قبل قيام الساعة ﴿ أخرجنا لهم دابة الأرض ﴾ .

(212/582)

(م) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " بادروا بالأعمال قبل ست : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة " (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً " عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه سلم " تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتخطم أنف الكافر بالخاتم : حتى إن أهل الحق ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر " أخرجه الترمذي .

وقال حديث حسن ، وروى البغوي بإسناده عن الثعلبي عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال : " يكون للدابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى اليمن فيفشو ذكرها بالبادية لا يدخل ذكرها القرية ، يعني مكة ثم تمكث زمناً طويلاً ، ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فيفشوا ذكرها بالبادية ، ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم بينا الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة ، وأكرمها على الله يعني المسجد الحرام لم يرعهم ، إلا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو ، كذا قال عمر وما بين الركب الأسود إلى باب بني مخزوم ، عن يمين الخارج في وسط من ذلك فارفض الناس عنها وتثبت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت بهم فجلت وجوههم حتى تركتها

كأنها الكواكب الدرية ، ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى أن الرجل ، ليقوم فيعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه ، فيتجاور الناس في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الأموال يعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر "

(213/582)

وبإسناد الثعلبي عن حذيفة بن اليمان ذكر رسول الله صلى لله عليه وسلم الدابة قلت : يا رسول الله من أين تخرج قال " من أعظم المساجد حرمة على الله فبينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض ، وينشق الصفا مما يلي المسعى وتخرج الدابة من الصفا أول ما يخرج منها رأسها ملمعة ذات وبر وريش لن يدركها الطالب ، ولن يفوتها هارب تسم الناس مؤمناً وكافراً ؛ فأما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دري وتكتب بين عينيه مؤمن ؛ وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء وتكتب بين عينيه كافر " وروي عن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال : إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه وعن ابن عمر قال تخرج الدابة ليلة جمع الناس ويسيرون إلى منى ، وعن أبي هريرة عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال " بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثاً قيل : ولم ذلك يا

رسول الله ؟ قال : تخرج منه الدابة تصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين " وروي عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل وقرنها قرن إيل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً .

وعن عبد الله بن عمرو قال : تخرج الدابة من شعب أجياد فتمس رأسها السحاب ورجلاها في الأرض وروي عن علي قال : ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية وقال وهب : وجهها وجه رجل وسائر خلقها كخلق الطير فتخبر من رآها أن أهل مكة ، كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون ﴿ تكلمهم ﴾ أي بكلام فصيح قيل تقول هذا مؤمن وهذا كافر .

وقيل : تقول ما أخبر الله تعالى ﴿ إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ تخبر الناس عن أهل مكة أنهم لم يؤمنوا بالقرآن والبعث .

وقرىء تكلمهم بتخفيف اللام من الكلم ، وهو الجرح وقال ابن الجوزي : سئل ابن عباس عن هذه الآية تكلمهم فقال : كل ذلك تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر .

(214/582)

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي نحشر من كل قرن جماعة ﴿ ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعون ثم يساقوا إلى النار ﴿ حتى إذا جاؤوا ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ قال ﴾ الله تعالى لهم ﴿ أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً ﴾ أي ولم تعرفوها حق معرفتها ﴿ أم ماذا كنتم تعملون ﴾ أي حين لم تتفكروا فيها وقيل : معنى الآية أكذبتم بآياتي غير عالمين بها ولم تتفكروا في صحتها بل كنتم بها جاهلين ﴿ ووقع القول ﴾ أي وجب العذاب ﴿ عليهم بما ظلموا ﴾ أي بما أشركوا ﴿ فهم لا ينطقون ﴾ أي بحجة قيل إن أفواههم مختومة ﴿ ألم يروا أنا جعلنا ﴾ أي أنا خلقنا ﴿ الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ أي مضيئاً يبصر فيه .

وفي الآية دليل على البعث بعد الموت لأن القادر على قلب الضياء ظلمة ، والظلمة ضياء قادر على الإعادة بعد الموت ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أي يصدقون فيعتبرون .

قوله تعالى ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ هو قرن ينفخ فيه إسرافيل قال الحسن : الصور هو القرن ومعنى كلامه إن الأرواح تجتمع في القرن ثم ينفخ فيه فتذهب في الأجساد فتحيا بها الأجساد ﴿ ففزع ﴾ أي فصعق ﴿ من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي ماتوا .

والمعنى أنه يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا .

وقيل ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات ، نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين ﴿ إلا من شاء الله ﴾ روى أبو هريرة أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) سئل عن

قوله تعالى ﴿ إلا من شاء الله ﴾ قال " هم الشهداء متقلدون أسيافهم حول العرش " وقال ابن عباس : هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل إليهم الفزع .

(215/582)

وقيل : يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل فلا يبقى بعد النفخة إلا هؤلاء الأربعة ويروى أن الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس إسرافيل فيأخذ نفسه ثم يقول : من بقي يا ملك الموت فيقول : سبحانك ربي تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ، وجهك الباقي الدائم بقي جبريل وميكائيل ، وملك الموت فيقول : خذ نفس ميكائيل .

فيأخذ نفس ميكائيل فيقع ، كالطود العظيم فيقول من بقي من خلقي : فيقول : سبحانك ربي تباركت وتعاليت بقي جبريل ، وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول يا جبريل من بقي فيقول : تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام بقي وجهك الدائم الباقي وجبريل ، الميت الفاني فيقول الله : يا جبريل لا بد من موتك فيقع ساجداً يخفق بجناحيه .

فيروى أن فضل خلقه على ميكائيل كفضل الطود العظيم على ظرب من الظراب .

ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حملة العرش ثم روح ملك الموت ، فإذا لم يبق أحد إلا الله تبارك وتعالى طوى السماء كطي السجل للكتاب ثم يقول الله

" أنا الجبار لمن الملك اليوم فلا يجيبه أحد فيقول الله تعالى : لله الواحد القهار " (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من رفع رأسه فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أكان ممن استثنى الله أم رفع رأسه قبلي ، ومن قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " وقيل الذين استثنى الله هم رضوان والحور ومالك والزبانية .

وقوله تعالى ﴿ وكل ﴾ أي وكل الذي أحيوا بعد الموت ﴿ أتوه ﴾ أي جاؤوه ﴿ داخرين ﴾ أي صاغرين .

(216/582)

قوله تعالى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾ أي قائمة واقفة ﴿ وهي تمر مر السحاب ﴾ أي تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتستوي بها وذلك أن كل شيء عظيم وكل جسم كبير وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمه وبعد ما بين أطرافه فهو في حساب الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال يوم القيامة لا يرى لعظمها كما أن سير السحاب لا يرى لعظمه ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ يعني أنه تعالى ، لما قدم هذه

الأشياء كلها التي لا يقدر عليها غيره جعل ذلك الصنع من الأشياء التي أتقنها وأحكمها وأتى بها على وجه الحكمة والصواب ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ أي بكلمة الإخلاص ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وقيل الإخلاص في العمل ، وقيل الحسنة كل طاعة عملها الله ﴿ فله خير منها ﴾ قال ابن عباس فيها يصل إلى الخير بمعنى أن له من تلك الحسنة خير يوم القيامة وهو الثواب والأمن من العذاب أما من يكون له شيء خير من الإيمان فلا ، لأنه لا شيء خير من لا إله إلا الله ، وقيل : هو جزاء الأعمال والطاعات الثواب والجنة وجزاء الإيمان والإخلاص رضوان الله والنظر إليه لقوله ﴿ ورضوان من الله ﴾ وقيل : معنى خير منها الأضعاف أعطاه الله بالواحدة عشر أضعافها ، لأن الحسنة استحقاق العبد والتضعيف تفضيل الرب تبارك وتعالى ﴿ وهم من فزع يومئذٍ آمنون ﴾ فإن قلت كيف نفى الفزع هنا وقد قال قبله ففزع من في السموات ومن في الأرض .

قلت : إن الفزع الأول هو ما لا يخلو عنه أحد عند الإحساس بشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وإن كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر إليه فأما الفزع الثاني فهو الخوف من العذاب فهم آمنون منه .

وأما ما يلحق الإنسان من الرعب عند مشاهدة الأهوال فلا ينفك منه أحد ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ يعني بالشرك ﴿ فكبت وجوههم في النار ﴾ عبر بالوجه عن جميع البدن كأنه قال كبوا وطرحوا جميعهم في النار ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا من الشرك .

وقوله تعالى ﴿ إنما أمرت ﴾ يعني يقول الله تعالى لرسوله قل إنما أمرت ﴿ أن أعبد رب هذه البلدة ﴾ يعني أمرت أن أخص بعبادتي وتوحيدي الله الذي هو رب هذه البلدة يعني مكة ، وإنما خصها من بين سائر البلاد بالذكر لأنها مضافة إليه وأحب البلاد وأكرمها عليه ، وأشار إليها إشارة تعظيم لأنها موطن نبيه ومهبط وحيه ﴿ الذي حرمها ﴾ أي جعلها الله حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاله ولا يدخلها إلا محرم ، وإنما ذكر أنه هو الذي حرمها لأن العرب كانوا معترفين بفضلية مكة ، وأن تحريمها من الله لا من الأصنام ﴿ وله كل شيء ﴾ أي خلقاً وملكاً ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ لله المطيعين له ﴿ وأن أتلوا القرآن ﴾ أي أمرت أن أتلو القرآن ولقد قام (صلى الله عليه وسلم) بكل ما أمر به أتم قيام على ما أمر به ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴾ أي نفع اهتدائه يرجع إليه ﴿ ومن ضل ﴾ أي عن الإيمان وأخطأ طريق الهدى ﴿ فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ أي من المخوفين ، وما علي إلا البلاغ نسختها آية القتال ﴿

وقل الحمد لله ﴾ أي على جميع نعمه ، وقيل : على ما وفقني من القيام بأداء الرسالة والإنذار ﴿ سيريكم الآية ﴾ الباهرة ودلائله القاهرة قيل : هو يوم بدر وهو ما أراهم من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل : آياته في السموات والأرض وفي أنفسكم ﴿ فتعرفونها ﴾ أي فتعرفون الآيات والدلالات ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ فيه وعيد بالجزاء على أعمالهم والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 153 . 161 ﴾

(218/582)

وقال النسفى :

﴿ قُلِ الحمدِ لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾

أمر رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بتحميده ثم بالصلاة على المصطفين من عباده توطئه لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته وقدرته على كل شيء وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما ، أو هو خطاب للوط عليه السلام بأن يحمد الله على هلاك كفار قومه ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ بالياء : بصري وعاصم .

ولا خير فيما أشركوه أصلاً حتى يوازن بينه وبين من هو خالق كل شيء ، وإنما هو إلزام لهم وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لداع يدعوه إلى إيثاره من زيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم مع العلم بأنه لا خير فيما آثروه وأنهم لم يؤثروه لزيادة الخير ولكن هوى وعبثاً لينبهوا على الخطأ المفرط والجهل المورط ، وليعلموا أن الإيثار يجب أن يكون للخير الزائد ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال : " بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم " ثم عدد سبحانه الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله فقال

(219/582)

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ والفرق بين "أم" و "أم" في ﴿ أما يشركون ﴾ و ﴿ أمن خلق السماوات ﴾ أن تلك متصلة إذ المعنى أيهما خير ، وهذه منقطعة بمعنى "بل" والهمزة ، ولما قال الله خير أم الآلهة قال بل أمن خلق السماوات والأرض خير ، تقريراً لهم بأن من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السماء مَاءً ﴾ مطراً ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ صرف الكلام عن الغيبة إلى التكلم تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل بذاته وإيذاناً بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان والطعوم والأشكال مع

حسنها بماء واحد لا يقدر عليه إلا هو وحده ﴿ بِهِ ﴾ بالماء ﴿ حَدَائِقَ ﴾ بساتين ، والحديقة : البستان وعليه حائط من الإحداق وهو الإحاطة ﴿ ذَاتُ ﴾ ولم يقل "ذوات" لأن المعنى جماعة حدائق كما تقول النساء ذهبت ﴿ بَهْجَةٍ ﴾ حسن لأن الناظر يبتهج به .

ثم رشح معنى الاختصاص بقوله ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ ومعنى الكينونة الانبغاء أراد أنّ تأتّي ذلك محال من غيره ﴿ أءلاه مَّعَ الله ﴾ أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ به غيره أو يعدلون عن الحق الذي هو التوحيد و ﴿ بل هم ﴾ بعد الخطاب أبلغ في تخطئة رأيهم .

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض ﴾ وما بعده بدل من ﴿ أمن خلق ﴾ فكان حكمها حكمه ﴿ قَرَاراً ﴾ دحاها وسواها للاستقرار عليها ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَا ﴾ ظرف أي وسطها وهو المفعول الثاني والأول ﴿ أَنْهَاراً ﴾ وبين البحرين مثله ﴿ وَجَعَلَ لَهَا ﴾ للأرض ﴿ رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً تمنعها عن الحركة ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين ﴾ العذب والمالح ﴿ حَاجِزاً ﴾ مانعاً أن يختلطا ﴿ أءلاه مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ التوحيد فلا يؤمنون ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ الاضطرار افتعال من الضرورة وهي الحالة المحوجة إلى اللجأ .

يقال اضطره إلى كذا والفاعل والمفعول مضطر ، والمضطر الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرع إلى الله ، أو المذنب إذا استغفر ، أو المظلوم إذا دعا ، أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد وهو منه على خطر ﴿ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ الضر أو الجور ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأرض ﴾ أي فيها وذلك توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن ، أو أراد بالخلافة الملك والتسلط ﴿ أءلاه مَّعَ الله قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ وبالياء : أبو عمرو ، وبالتخفيف : حمزة وعلي وحفص .

و"ما" مزيدة أي تذكرون تذكراً قليلاً .

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ ﴾ يرشدكم بالنجوم ﴿ فِى ظلمات البر والبحر ﴾ ليلاً وبعلامات في الأرض نهاراً ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياح ﴾ ﴿ الريح ﴾ مكي وحمزة وعلى ﴿ بشرًا ﴾ من البشارة وقد مرّ في "الأعراف" ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ قدام المطر ﴿ أءلاه مَّعَ الله تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ﴾ ينشيء الخلق ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وإنما قيل لهم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وهم منكرون للإعادة لأنه أزيحت علتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار فلم يبق لهم عذر في الإنكار ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء ﴾ أي المطر ﴿ والأرض ﴾ أي ومن الأرض النبات ﴿ أءلاه مَّعَ الله قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ حجتكم على إشراككم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعواكم أن مع الله إلهاً آخر .

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ ﴿ من ﴾ فاعل ﴿ يعلم ﴾ و ﴿ الغيب ﴾ هو ما لم يقم عليه دليل ولا أطلع عليه مخلوق مفعول و ﴿ الله ﴾ بدل مِن ﴿ مَن ﴾ والمعنى لا يعلم أحد الغيب إلا الله .

نعم إن الله تعالى يتعالى عن أن يكون ممن في السماوات والأرض ولكنه جاء على لغة بني تميم حيث يجرون الاستثناء المنقطع مجرى المتصل ويجيزون النصب والبدل في المنقطع كما في المتصل ويقولون ما في الدار أحد إلا حمار .

(221/582)

وقالت عائشة رضي الله عنها : من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِى السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ .

وقيل : نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ وما يعلمون ﴿ أَيَّانَ ﴾ متى ﴿ يُبْعَثُونَ ﴾ ينشرون

﴿ بَلِ ادرك ﴾ ﴿ أدرك ﴾ مكي وبصري ويزيد والمفضل أي انتهى وتكامل من أدركت الفاكهة تكاملت نضجاً ﴿ بَلِ ادارك ﴾ عن الأعشى افتعل .

﴿ بَلِ ادّارك ﴾ غيرهم استحكم وأصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وزيد ألف

الوصل ليمكن التكلم بها ﴿ عِلْمُهُمْ فِى الآخرة ﴾ أي في شأن الآخرة ومعناها ، والمعنى أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وذلك قوله ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكّ مّنْهَا بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾

والإضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم وتكرير لجهلهم ، وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة ، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى .

وقد جعل الآخرة مبتدأ عماهم ومنشأة فلذا عداه ب "من" دون "عن" لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي منعهم عن التدبر والتفكر .

ووجه ملاءمة مضمون هذه الآية وهو وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب وأن العباد لا علم لهم بشيء منه ، أنه لما ذكر أن العباد لا يعلمون الغيب وكان هذا بياناً لعجزهم ووصفاً لقصور علمهم ، وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه وهو أنهم يقولون للكائن الذي لا بد من كونه وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون مع أن عندهم أسباب معرفة كونه واستحكام العلم به .

(222/582)

وجاز أن يكون وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكماً بهم كما تقول لأجهل الناس "ما أعلمك" على سبيل الهزؤ وذلك حيث شكوا عموا عن إثباته الذي الطريق إلى علمه مسلوك فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريق إلى معرفته ، ويجوز أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفني من قولك "أدركت الثمرة" لأن تلك غايتها التي عندها تعدم ، وقد فسرها الحسن بإضمحل علمهم في الآخرة .

وتدارك من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك .

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ أَءذَا كُنَّا تُرَاباً وَءابَاؤُنَا أَءنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ من قبورنا أحياء وتكرير حرف الاستفهام في ﴿ أءذا ﴾ و ﴿ أءنا ﴾ في قراءة عاصم وحمزة وخلف ، إنكار بعد إنكار وجحود عقيب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه .

والعامل في ﴿ إذا ﴾ ما دل عليه ﴿ لمخرجون ﴾ وهو نخرج لأن اسم الفاعل والمفعول بعد همزة الاستفهام ، أو إن "أو لام الابتداء لا يعمل فيما قبله فكيف إذا اجتمعن" ؟

والضمير في "إنا" لهم ولآبائهم لأن كونهم تراباً قد تناولهم وآباءهم لكنه غلبت الحكاية على الغائب ، و ﴿ آباؤنا ﴾ عطف على الضمير في ﴿ كنا ﴾ لأن المفعول جرى مجرى التوكيد ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا ﴾ أي البعث ﴿ نَحْنُ وَءابَاؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

قدم هنا ﴿ هذا ﴾ على ﴿ نحن وآباؤنا ﴾ وفي المؤمنون ﴿ نحن وآباؤنا ﴾ على ﴿ هذا ﴾ ليدل على أن المقصود بالذكر هو البعث هنا وثمة المبعوثون ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى الأرض فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ أي آخر أمر الكافرين.

(223/582)

وفي ذكر الإجرام لطف بالمسلمين في ترك الجرائم كقوله تعالى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ ﴾ [الشمس: 15] وقوله ﴿ مِّمَّا خطيئاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ [نوح: 25] ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لأجل أنهم لم يتبعوك ولم يسلموا فيسلموا ﴿ وَلاَ تَكُن فِى ضَيْقٍ ﴾ في حرج صدر ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم وكيدهم لك فإن الله يعصمك من الناس.

يقال ضاق الشيء ضيقاً بالفتح وهو قراءة غير ابن كثير وبالكسر وهو قراءته ﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ أي وعد العذاب ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أن العذاب نازل بالمكذب.

﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم عسى أن يكون ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ [البقرة: 195] أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام

نحو دنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم ، وعسى ولعل وسوف في وعد الملوك ووعيدهم يدل على صدق الأمر وجده فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ ﴾ أي إفضال ﴿ عَلَى الناس ﴾ بترك المعاجلة بالعذاب ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ أي أكثرهم لا يعرفون حق النعمة فيه ولا يشكرونه فيستعجلون العذاب بجهلهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ﴾ تخفي ﴿ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون من القول فليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالهم ولكن له وقت مقدر ، أو أنه يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه .

(224/582)

وقرى ﴿ تكنّ ﴾ يقال كننت الشيء وأكننته إذا سترته وأخفيته ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السماء والأرض إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ سمى الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية ، والتاء فيهما كالتاء في العاقبة والعافية ونظائرهما الرمية والذبيحة والنطيحة في أنها أسماء غير صفات ، ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية كأنه قال : وما من شيء شديد الغيبوبة إلا وقد علمه الله وأحاط به وأثبته في اللوح المحفوظ .

والمبين الظاهر البيّن لمن ينظر فيه من الملائكة .

﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِى إسراءيل ﴾ أي يبين لهم ﴿ أَكْثَرَ الذى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ فإنهم اختلفوا في المسيح فتحزبوا فيه أحزاباً ووقع بينهم التناكر في أشياء كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً ، وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا يريد اليهود والنصارى

(225/582)

﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإن القرآن ﴿ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لمن أنصف منهم وآمن أي من بني إسرائيل أو منهم ومن غيرهم ﴿ إِن رَّبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم ﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ بعدله لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به حكماً ، أو بحكمته ويدل عليه قراءة من قرأ ﴿ بحكمه ﴾ جمع حكمة ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ فلا يرد قضاؤه ﴿ العليم ﴾ بمن يقضي له وبمن يقضي عليه أو العزيز في انتقامه من المبطلين العليم بالفصل بينهم وبين المحقين ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين ﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج وهو الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك ، وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ

تُسْمِعُ الصم الدعاء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمى عَن ضلالتهم ﴾ لما كانوا لا يعون ما يسمعون ولا به ينتفعون ، شبهوا بالموتى وهم أحياء صحاح الحواس ، وبالصم الذين ينعق بهم فلا يسمعون ، وبالعمي حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم ويجعلهم هداة بصراء إلا الله تعالى .

ثم أكد حال الصم بقوله ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ لأنه إذا تباعد عن الداعي بأن تولى عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته ، ﴿ ولا يسمع الصُّمُّ ﴾ مكي وكذا "في الروم" ﴿ وَمَا أَنتَ تَهْدِي العمى ﴾ وكذا في "الروم" : حمزة ﴿ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بآياتنا ﴾ أي ما يجدي إسماعك إلا على الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أي يصدقون بها ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون من قوله ﴿ بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : 112] يعني جعله سالماً لله خالصاً له .

(226/582)

﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ سمى معنى القول ومؤداه بالقول وهو ما وعدوا من قيام الساعة والعذاب ، ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها وحين لا تنفع التوبة ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ الأرض تُكَلِّمُهُمْ ﴾ هي الجساسة ، في الحديث : طولها

ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب ، ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان .

وقيل : لها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيّل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير ، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية فتقول ﴿ أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ أي لا يوقنون بخروجي لأن خروجها من الآيات وتقول : ألا لعنة الله على الظالمين .

أو تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام ، أو بأن هذا مؤمن وهذا كافر .

وفتح ﴿ أن ﴾ كوفي وسهل على حذف الجار أي تكلمهم بأن ، وغيرهم كسروا لأن الكلام بمعنى القول ، أو بإضمار القول أي تقول الدابة ذلك ويكون المعنى بآيات ربنا أو حكاية لقول الله تعالى عند ذلك .

ثم ذكر قيام الساعة فقال ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ "من" للتبعيض أي واذكر يوم نجمع من كل أمة من الأمم زمرة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ ﴾ "من" للتبيين ﴿ بآياتنا ﴾ المنزلة على أنبيائنا ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون إلى موضع الحساب وهذه عبارة عن كثرة العدد ، وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة ﴿ حتى إِذَا جَآءُو ﴾ حضروا موقف الحساب والسؤال ﴿ قَالَ ﴾ لهم تعالى تهديداً ﴿ أكذبتم بآياتي ﴾ المنزلة على رسلي ﴿ وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ الواو للحال كأنه قال : أكذبتم

بآياتي بادىء الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب ﴿ أَمَّاذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ حيث لم تتفكروا فيها فإنكم لم تخلقوا عبثاً

(227/582)

﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ أي يغشاهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله : ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات : 35]

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ﴾ حال ، جعل الإبصار للنهار وهو لأهله والتقابل مراعى من حيث المعنى لأن معنى ﴿ مبصراً ﴾ ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب ﴿ إِنَّ فِى ذلك لآيات لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون فيعتبرون ، وفيه دليل على صحة البعث لأن معناه ألم يعلموا أنا جعلنا الليل والنهار قواماً لمعاشهم في الدنيا ليعلموا أن ذلك لم يجعل عبثاً بل محنة وابتلاء ولا بد عند ذلك من ثواب وعقاب فإذا لكم يكونا في هذه الدار فلا بد من دار أخرى للثواب والعقاب ﴿ وَيَوْمَ ﴾ واذكر يوم ﴿ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ وهو قرن أو جمع صورة والنافخ إسرافيل عليه السلام ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى السماوات وَمَن فِى

الأرض ﴾ اختير "فزع" على "يفزع" للإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام لأنه صعق مرة ، ومثله ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السماوات وَمَن فِى الأرض إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾) الزمر : 68) ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ حمزة وحفص وخلف ، ﴿ اتوه ﴾ غيرهم وأصله "آتيوه" ﴿ داخرين ﴾ حال أي صاغرين ومعنى الإتيان حضورهم الموقف ورجوعهم إلى أمره تعالى وانقيادهم له .

(228/582)

﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا ﴾ بفتح السين : شامي وحمزة ويزيد وعاصم ، وبكسرها : غيرهم حال من المخاطب ﴿ جَامِدَةً ﴾ واقفة ممسكة عن الحركة من جمد في مكانه إذا لم يبرح ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ تحسبها ﴾ ﴿ مَرَّ السحاب ﴾ أي مثل مر السحاب والمعنى أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة في مكان واحد لعظمها وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب إذا ضربته الريح ، وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تبين حركتها كما قال النابغة في صفة جيش

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم . . .

وقوف الحاج والركاب تهملج

﴿ صُنْعَ الله ﴾ مصدر عمل فيه ما دل عليه ﴿ تمر ﴾ لأن مرورها كمر السحاب من صنع الله فكأنه قيل : صنع الله ذلك صنعاً وذكر اسم الله لأنه لم يذكر قبل ﴿ الذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أي أحكم خلقه ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿ يفعلون ﴾ مكي وبصري غير سهل وأبو بكر غير يحي ، وغيرهم بالتاء أي أنه عالم بما يفعل العباد فيكافئهم على حسب ذلك .

ثم لخص ذلك بقوله

(229/582)

﴿ مَن جَاء بالحسنة ﴾ أي بقول لا إله إلا الله عند الجمهور ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة ، وعلى هذا لا يكون ﴿ خير ﴾ بمعنى أفضل ويكون ﴿ منها ﴾ في موضع رفع صفة ل ﴿ خير ﴾ أي بسببها ﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ ﴾ كوفي أي من فزع شديد مفرط الشدة وهو خوف النار أو من فزع ما وإن قل ، وبغير تنوين غيرهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ كوفي ومدني ، وبكسر الميم غيرهم والمراد يوم القيامة ﴿ ءامِنُونَ ﴾ "أمن"

يعدى بالجار وبنفسه كقوله ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ﴾ [الأعراف : 99] ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ بالشرك ﴿ فَكُبَّتْ ﴾ ألقيت ﴿ وُجُوهُهُمْ فِى النار ﴾ يقال كببت الرجل ألقيته على وجهه أي ألقوا على رؤوسهم في النار ، أو عبر عن الجملة بالوجه كما يعبر بالرأس والرقبة عنها أي ألقوا في النار ويقال لهم تبكيتاً عند الكب ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الشرك والمعاصي

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبّ هَذِهِ البلدة ﴾ مكة ﴿ الذى حَرَّمَهَا ﴾ جعلها حرما آمناً يأمن فيها اللاجيء إليها ولا يختلي خلاها ولا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَىء ﴾ مع هذه البلدة فهو مالك الدنيا والآخرة ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ المنقادين له .

﴿ وَأَنْ أَتلُوَا القرءان ﴾ من التلاوة أو من التلو كقوله : ﴿ واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ مِن رّبّكَ ﴾ [الأحزاب : 2] أمر رسوله بأن يقول أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكاً كما فعلت قريش ، وأن أكون من الحنفاء الثابتين على ملة الإسلام ، وأن أتلو القرآن لأعرف الحلال والحرام وما يقتضيه الإسلام .

(230/582)

وخص مكة من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاده إليه وأعظمها عنده وأشار إليها بقوله ﴿ هذه ﴾ إشارة تعظيم لها وتقريب دالاً على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه ، ووصف ذاته بالتحريم الذي هو خاص وصفها وجعل دخول كل شيء تحت ربوبيته وملكوته كالتابع لدخولها تحتهما ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ باتباعه إياي فيما أنا بصدده من توحيد الله ونفي الشركاء عنه والدخول في الملة الحنيفية واتباع ما أنزل عليّ من الوحي ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ﴾ فمنفعة اهتدائه راجعة إليه لا إليّ ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا أَنَاْ مِنَ المنذرين ﴾ أي ومن ضل ولم يتبعني فلا عليّ وما أنا إلا رسول منذر ﴿ وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ﴾ (العنكبوت) ﴿ وَقُلِ الحمد للَّهِ سَيُرِيكُمْ ءاياته فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ثم أمره أن يحمد الله على ما خوّله من نعمة النبوة التي لا توازيها نعمة ، وأن يهدد أعداءه بما سيريهم الله من آياته في الآخرة فيستيقنون بها .

وقيل : هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء مدني وشامي وحفص ويعقوب خطاب لأهل مكة ، وبالياء غيرهم أي كل عمل يعملونه فإن الله عالم به غير غافل عنه فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 217. 225 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ قُلِ الحمدِ لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾

أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ما قص عليه القصص الدالة على كمال قدرته وعظم شأنه وما خص به رسله من الآيات الكبرى والانتصار من العدا بتحميده والسلام على المصطفين من عباده شكراً على ما أنعم عليهم ، أو علمه ما جهل من أحوالهم وعرفاناً لفضلهم وحق تقدمهم واجتهادهم في الدين ، أو لوطاً بأن يحمده على هلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك . ﴿ الله خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إلزام لهم وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم ، إذ من المعلوم أن لا خير فيما أشركوه رأساً حتى يوازن بينه وبين من هو مبدأ كل خير . وقرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتاء .

﴿ أَمَّن ﴾ بل أمن . ﴿ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ التي هي أصول الكائنات ومبادىء المنافع . وقرأ أمن بالتخفيف على أنه بدل من الله . ﴿ وَأَنزَلَ لَكُمْ ﴾ لأجلكم . ﴿ مِّنَ السماء مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ عدل به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته ، والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره كما أشار إليه بقوله : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ شجر الحدائق وهي البساتين من الإحداق وهو الإحاطة . ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ الله ﴾ أغيره

يقرن به ويجعل له شريكاً ، وهو المنفرد بالخلق والتكوين . وقرىء "أإلهاً" بإضمار فعل مثل أتدعون أو أتشركون وبتوسيط مدة بين الهمزتين وإخراج الثانية بين بين . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ عن الحق الذي هو التوحيد .

(232/582)

﴿ أَمَّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً ﴾ بدل من ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السموات ﴾ وجعلها قراراً بإبداء بعضها من الماء وتسويتها بحيث يتأتى استقرار الإنسان والدواب عليها . ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَا ﴾ وسطها . ﴿ أَنْهَاراً ﴾ جارية . ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالاً تتكون فيها المعادن وتنبع من حضيضها المنابع . ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين ﴾ العذب والمالح ، أو خليجي فارس والروم . ﴿ حَاجِزاً ﴾ برزخاً وقد مر بيانه في سورة "الفرقان" . ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ الحق فيشركون به .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ المضطر الذي أحوجه شدة ما به إلى اللجوء إلى الله تعالى من الاضطرار ، وهو إفتعال من الضرورة واللام فيه للجنس لا للاستغراق فلا يلزم منه إجابة كل مضطر . ﴿ وَيَكْشِفُ السوء ﴾ ويدفع عن الإنسان ما يسوءه . ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرض ﴾ خلفاء فيها بأن ورثكم سكناها والتصرف فيها ممن قبلكم . ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ

الله ﴿ الذي خصكم بهذه النعم العامة والخاصة . ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي تذكرون آلاءه تذكراً قليلاً ، وما مزيدة والمراد بالقلة العدم أو الحقارة المزيحة للفائدة . وقرأ أبو عمرو وهشام وروح بالياء وحمزة والكسائي وحفص بالتاء وتخفيف الذال .

(233/582)

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظلمات البر والبحر ﴾ بالنجوم وعلامات الأرض ، وال ﴿ ظلمات ﴾ ظلمات الليالي وإضافتها إلى ﴿ البر والبحر ﴾ للملابسة ، أو مشتبهات الطرق يقال طريقة ظلماء وعمياء للتي لا منار بها . ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ يعني المطر ، ولو صح أن السبب الأكثر في تكون الرياح معاودة الأدخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لإنكسار حرها وتمويجها الهواء فلا شك أن الأسباب الفاعلية والقابلية لذلك من خلق الله تعالى ، والفاعل للسبب فعل المسبب . ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ الله ﴾ يقدر على مثل ذلك . ﴿ تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تعالى الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق . ﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ والكفرة وإن أنكروا الإعادة فهم محجوجون بالحجج الدالة عليها . ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السماء والأرض ﴾ أي بأسباب سماوية وأرضية . ﴿ أَءِلَهٌ مَّعَ الله ﴾ يفعل ذلك . ﴿ قُلْ هَاتُواْ برهانكم ﴾ على أن غيره يقدر على شيء من ذلك .

﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في إشراككم فإن كمال القدرة من لوازم الألوهية .

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السموات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ لما بين اختصاصه تعالى بالقدرة التامة الفائقة العامة أتبعه ما هو كاللازم له ، وهو التفرد بعلم الغيب والاستثناء منقطع ، ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على أنه تعالى إن كان ممن في السموات والأرض ففيها من يعلم الغيب مبالغة في نفيه عنهم ، أو متصل على أن المراد ممن في السموات والأرض من تعلق علمه بها واطلع عليها اطلاع الحاضر فيها ، فإنه يعم الله تعالى وأولي العلم من خلقه وهو موصول أو موصوف .

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ متى ينشرون مركبة من "أي" "وآن" ، وقرئت بكسر الهمزة والضمير لمن وقيل للكفرة .

(234/582)

﴿ بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ﴾ لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك بنفي شعورهم بما هو مآلهم لا محالة بالغة فيه ، بأن أضرب عنه وبين أن ما انتهى وتكامل فيه أسباب علمهم من الحجج والآيات وهو أن القيامة كائنة لا محالة لا يعلمونه كما ينبغي . ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكّ مّنْهَا ﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً . ﴿ بَلْ هُم مّنْهَا عَمُونَ ﴾ لا يدركون دلائلها

لاختلال بصيرتهم ، وهذا وإن اختص بالمشركين ممن في السموات والأرض نسب إلى جميعهم كما يسند فعل البعض إلى الكل ، والإِضرابات الثلاث تنزيل لأحوالهم ، وقيل الأول إضراب عن نفي الشعور بوقت القيامة عنهم إلى وصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً بهم ، وقيل أدرك بمعنى انتهى واضمحل من قولهم أدركت الثمرة لأن تلك غايتها التي عندها تعدم . وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص "بَلِ أَدْرَاكَ" بمعنى تتابع حتى استحكم ، أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك ، وأبو بكر "أدرك" وأصلهما تفاعل وافتعل . وقرىء "أأدرك" بهمزتين "وآأدرك" بألف بينهما و"بل أدرك" و"بل تدارك" و"بلى أأدرك" و"بلى أأدرك" و"أم إدراك" أو "تدارك" ، وما فيه استفهام صريح أو مضمن من ذلك فإنكار وما فيه بلى فإثبات لشعورهم وتفسير له بالإِدراك على التهكم ، وما بعده إضراب عن التفسير مبالغة في نفيه ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها ﴿ بَلِ ﴾ إنهم ﴿ مّنْهَا عَمُونَ ﴾ أَوْ رَدَّ وإنكار لشعورهم .

(235/582)

﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ أَءِذَا كُنَّا تُرَاباً وَءَابَاؤُنَا أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ كالبيان لعمههم والعامل في إذا ما دل عليه ﴿ أَءِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ ، وهو نخرج لا مخرجون لأن كلاً من الهمزة وإن واللام

مانعة من عمله فيما قبلها ، وتكرير الهمزة للمبالغة في الإنكار ، والمراد بالإخراج الإخراج من الأجداث أو من حال الفناء إلى الحياة ، وقرأ نافع "إذا كنا" بهمزة واحدة مكسورة ، وقرأ ابن عامر والكسائي "إننا لمخرجون" بنونين على الخبر .

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل وعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وتقديم هذا على نحن لأن المقصود بالذكر هو البعث وحيث أخر فالمقصود به المبعوث .

﴿ إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ التي هي كالأسمار .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة المجرمين ﴾ تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم ، والتعبير عنهم ب ﴿ المجرمين ﴾ ليكون لطفاً بالمؤمنين في ترك الجرائم .

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على تكذيبهم وإعراضهم . ﴿ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ ﴾ في حرج صدر ، وقرأ ابن كثير بكسر الضاد وهما لغتان ، وقرىء ضيق أي أمر ضيق . ﴿ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم فإن الله يعصمك من الناس .

﴿ وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد ﴾ العذاب الموعود . ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ .

﴿ قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾ تبعكم ولحقكم ، واللام مزيدة للتأكيد أو الفعل مضمن معنى فعل يتعدي باللام مثل دنا . وقرىء بالفتح وهو لغة فيه . ﴿ بَعْضُ الذى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ حلوله وهو عذاب يوم بدر ، وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك كالجزم

بها وإنما يطلقونها إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأن الرمز منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله تعالى ووعيده .

(236/582)

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ﴾ لتأخير عقوبتهم على المعاصي ، والفضل والفاضلة الأفضال وجميعها فضول وفواضل . ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ لا يعرفون حق النعمة فيه فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ ما تخفيه وقرىء بفتح التاء من كننت أي سترت . ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من عداوتك فيجازيهم عليه .

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السماء والأرض ﴾ خافية فيهما ، وهما من الصفات الغالبة والتاء فيهما للمبالغة كما في الراوية ، أو اسمان لما يغيب ويخفى كالتاء في عافية وعاقبة . ﴿ إِلاَّ فِي كتاب مُّبِينٍ ﴾ بين أو ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ما فيه لما يطالعه ، والمراد اللوح أو القضاء على الاستعارة .

﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِي إسراءيل أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كالتشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح .

﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإنهم المنتفعون به .

﴿ إِن رَّبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم ﴾ بين بني إسرائيل . ﴿ بِحُكْمِهِ ﴾ بما يحكم به وهو الحق ، بحكمته ويدل عليه أنه قرىء بحكمه . ﴿ وَهُوَ العزيز ﴾ فلا يرد قضاؤه . ﴿ العليم ﴾ بحقيقة ما يقضى فيه ، وحكمه .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله ﴾ ولا تبال بمعاداتهم . ﴿ إِنَّكَ عَلَى الحق المبين ﴾ وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره .

﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ تعليل اخر للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طعمه عن مشايعتهم ومعاضدتهم رأساً ، وإنما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم في قوله : ﴿ وَلاَ تُسْمِعُ الصم إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ فإن إسماعهم في هذه الحالة أبعد . وقرأ ابن كثير ﴿ وَلاَ يَسْمَعُ الصم ﴾ .

(237/582)

﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضلالتهم ﴾ حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر . وقرأ حمزة وحده "وما أنت تهدي العمي" . ﴿ إِن تُسْمِعُ ﴾ أي ما يجدي إسماعك . ﴿ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بآياتنا ﴾ من هو في علم الله كذلك . ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ مخلصون من أسلم وجهه لله .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ إذا دنا وقوع معناه وهو ما وعدوا به من البعث والعذاب .

﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأرض ﴾ وهي الجساسة روي أن طولها ستون ذراعاً ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان ، لا يفوتها هارب ولا يدركها طالب . وروي أنه عليه الصلاة والسلام سئل من أين مخرجها فقال :

" من أعظم المساجد حرمة على الله ، يعني المسجد الحرام " . ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ من الكلام ، وقيل من الكلم إذ قرىء ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ . وروي أنها تخرج ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما الصلاة والسلام ، فتنكت بالعصا في مسجد المؤمن نكتة بيضاء فيبيض وجهه ، وبالخاتم في أنف الكافر نكتة سوداء فيسود وجهه . ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُواْ بِآيَاتِنَا ﴾ خروجها وسائر أحوالها فإنها من آيات الله تعالى . وقيل القرآن ، وقرأ الكوفيون أن الناس بالفتح . ﴿ لاَ يُوقِنُونَ ﴾ لا يتيقنون ، وهو حكاية معنى قولها أو حكايتها لقول الله عز وجل أو علة خروجها ، أو تكلمها على حذف الجار .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ﴾ يعني يوم القيامة . ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بآياتنا ﴾ بيان للفوج أي فوجاً مكذبين ، و﴿ مِنْ ﴾ الأولى للتبعيض لأن أمة كل نبي وأهل كل قرن شامل للمصدقين والمكذبين . ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وهو عبارة عن كثرة عددهم وتباعد أطرافهم .

﴿ حتى إِذَا جَاءوا ﴾ إلى المحشر . ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآياتي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ﴾ الواو للحال أي أكذبتم بها بادىء الرأي غير ناظرين فيها نظراً يحيط علمكم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب ، أو للعطف أي أجمعتم بين التكذيب بها وعدم إلقاء الأذهان لتحققها . ﴿ أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أم أي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك ، وهو للتبكيت إذ لم يفعلوا غير التكذيب من الجهل فلا يقدرون أن يقولوا فعلنا غير ذلك .

﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيْهِم ﴾ حل بهم العذاب الموعود وهو كبهم في النار بعد ذلك . ﴿ بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله . ﴿ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ باعتذار لشغلهم بالعذاب .

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ ليتحقق لهم التوحيد ويرشدهم إلى تجويز الحشر وبعثة الرسل ، لأن تعاقب النور والظلمة على وجه مخصوص غير متعين بذاته لا يكون إلا بقدرة قاهر ، وأن من قدر على إبدال الظلمة بالنور في مادة واحدة قدر على إبدال الموت بالحياة في مواد الأبدان ، وأن من جعل النهار ليبصروا فيه سبباً من أسباب معاشهم لعله لا يخل بما هو مناط جميع مصالحهم في معاشهم ومعادهم . ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ بالنوم والقرار . ﴿ والنهار مُبْصِراً ﴾ فإن أصله ليبصروا فيه فبولغ فيه بجعل الإبصار حالاً من

أحواله المجعول عليها بحيث لا ينفك عنها . ﴿ إِنَّ فِي ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لدلالتها على الأمور الثلاثة .

(239/582)

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ في الصور أو القرن ، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ في البوق . ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السموات وَمَن فِي الأرض ﴾ من الهول وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه . ﴿ إِلاَّ مَن شَاء الله ﴾ أن لا يفزع بأن يثبت قلبه . قيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل . وقيل الحور والخزنة وحملة العرش ، وقيل الشهداء ، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام لأنه صعق مرة ولعل المراد ما يعم ذلك . ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ ﴾ حاضرون الموقف بعد النفخة الثانية ، أو راجعون إلى أمره وقرأ حمزة وحفص ﴿ أَتَوْهُ ﴾ على الفعل ، وقرىء "أتاه" على التوحيد للفظ الكل . ﴿ داخرين ﴾ صاغرين وقرىء "دخرين" .

﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ ثابتة في مكانها . ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ في السرعة ، وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت في سمت واحد لا تكاد تبين حركتها . ﴿ صُنْعَ الله ﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو لمضمون الجملة المتقدمة كقوله ﴿ وَعَدَ الله ﴾ ﴿

الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أحكم خلقه وسواه على ما ينبغي . ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ عالم بظواهر الأفعال وبواطنها فيجازيكم عليها كما قال :

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ إذ ثبت له الشريف بالخسيس والباقي بالفاني وسبعمائة بواحدة ، وقيل ﴿ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ أي خير حاصل من جهتها وهو الجنة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمر وهشام "خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ" بالياء والباقون بالتاء . ﴿ وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ يعني به خوف عذاب يوم القيامة ، وبالأول ما يلحق الإنسان من التهيب لما يرى من الأهوال والعظائم لذلك يعم الكافر والمؤمن ، وقرأ الكوفيون بالتنوين لأن المراد فزع واحد من أفزاع ذلك اليوم ، وآمن يتعدى بالجار وبنفسه كقوله ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ ﴾ وقرأ الكوفيون ونافع ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بفتح الميم والباقون بكسرها .

(240/582)

﴿ وَمَن جَاء بالسيئة ﴾ قيل بالشرك . ﴿ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ﴾ فكبوا فيها على وجوههم ، ويجوز أن يراد بالوجوه أنفسهم كما أريدت بالأيدي في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ على الالتفات أو بإضمار القول أي قيل لهم ذلك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا ﴾ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ذلك بعد ما بين المبدأ والمعاد وشرح أحوال القيامة ، إشعاراً بأنه قد أتم الدعوة وقد كملت وما عليه بعد إلا الاشتغال بشأنه والاستغراق في عبادة ربه ، وتخصيص مكة بهذه الإضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها وقرىء "التي حرمها" . ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ ﴾ خلقاً وملكاً . ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ﴾ المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ القرءان ﴾ وأن أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً ، أو اتباعه وقرىء "واتل عليهم" "وأن أتل" . ﴿ فَمَنُ اهتدى ﴾ باتباعه إياي في ذلك ، ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ فإن منافعه عائدة إليه .

﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ بمخالفتي . ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَاْ مِنَ المنذرين ﴾ فلا علي من وبال ضلاله شيء إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغت .

﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ ﴾ على نعمة النبوة أو على ما علمني ووفقني للعمل به . ﴿ سَيُرِيكُمْ ءاياته ﴾ القاهرة في الدنيا كوقعة بدر وخروج دابة الأرض ، أو في الآخرة . ﴿ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أنها آيات الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي بالياء .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة طس كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهوداً وصالحاً وإبراهيم وشعيباً ، ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 272. 281 ﴾

(242/582)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) ﴾

التفسير : لما ذكر أن المشركين في شك من أمر البعث عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبين عامة شبهتهم وهي مجرد استبعاد إحياء الأموات بعد صيرورتهم تراباً عند الحس . قال النحويون : العامل في " إذا " ما دل عليه ﴿ أئنا لمخرجون ﴾ وهو نخرج والمراد الإخراج من الأرض أو من حال الفناء إلى حال الحياة .

(243/582)

وإنما ذهبوا إلى هذا التكلف بناء على أن ما بعد همزة الاستفهام وكذا ما بعد " أن " واللام لا يعمل فيما قبلها لأن هذه الأشياء تقتضي صدر الكلام ، وتكرير حرف الاستفهام في " إذا " و " أن " جميعاً إنكار على إنكار . والضمير في " أنا " لهم ولآبائهم جميعاً وقد مر في سورة المؤمنين تفسير قوله ﴿ لقد وعدنا ﴾ وبيان المتشابه فليذّكر . ثم أوعدهم على عدم قبول قول الأنبياء بالنظر في حال الأمم السالفة المكذبة . ولم تؤنث " كان " لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي ، أو لأن المراد كيف كان عاقبة أمرهم . والمراد بالمجرمين الكافرون لأن الكفر جرم مخصوص وفيه تنبيه على قبح موقع الجرم اياماً كان ؛ فعلى المؤمن أن يتخوّف عاقبتها ويترك الجرائم كلها كيلا يشارك الكفرة في هذا الاسم الشنيع . ومعنى قوله ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ الآية . قد مر في آخر " النحل " . وفي هذه الآي تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كان يناله من قومه . ثم إنهم استعجلوا العذاب الموعود على سبيل السخرية فأمره أن يقول لهم ﴿ عسى أن يكون ﴾ وهذه على قاعدة وعد الملوك ووعيدهم يعنون بذلك القطع بوقوع ذلك الأمر مع إظهار الوقار والوثوق بما يتكلمون . وإن كان على سبيل الرجاء والطمع ولمثل هذا قال ﴿ ردف لكم بعض الذي ﴾ دون أن يقول " ردف لكم الذي " . واللام زائدة للتأكيد كالباء في ﴿ ولا تلقوا بأيديكم ﴾ [البقرة : 195] أو أريد أزف لكم ودنا لكم يتضمن فعل يتعدى بالام ومعناه تبعكم ولحقكم . وقال بعضهم : المقتضي للعذاب والمؤثر فيه حاصل في الدنيا إلا أن الشعور به غير حاصل كما

للسكران أو النائم ، فتمام العذاب إنما يحصل بعد الموت وإن كان طرف منه حاصلاً في الدنيا فلهذا ذكر البعض . ثم ذكر أنه متفضل عليهم بتأخير العقوبة في الدنيا ولكنهم لا يشكرون هذه النعمة فيتسعجلون وقوع العقاب بجهلهم ، وفيه دليل على أن نعمة الله تعم الكافر والمؤمن . ثم بين أنه مطلع على ما في صدورهم مما يخفون كالقصود

(244/582)

والدواعي وعلى ما يظهرون من أفعال الجوارح وغيرها ، ولعل الغرض أنه يعلم مايخفون وما يعلنون من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكايدهم وهو معاقبهم على ذلك . ثم أكد ذلك بأن المغيبات كلها ثابتة في اللوح المحفوظ ، والعاقبة إما مصدر كالعافية ، وإما اسم غير صفة كالذبيحة والربيئة ، وإما صفة والتاء للمبالغة كالرواية في قولهم " ويل للشاعر من راوية السوء " كأنه قيل : وما من شيء شديد الغيبوبة إلا وهو مثبت في الكتاب الظاهر المبين لمن ينظر فيه من الملائكة .

ثم بين لدفع شبه القوم إعجاز القرآن المطابق قصصه لما في التوراة والإنجيل مع كونه صلى الله عليه وسلم أمياً ، والمطابق غرضه لما هو الحق في نفس الأمر ، وقد حرفه بنوا إسرائيل

وجهه كاختلافهم في شأن المسيح في كثير من الشرائع والأحكام ، وذكر أنه هدى ورحمة لمن آمن منهم وأنصف أو منهم ومن غيرهم .

(245/582)

ثم ذكر أن من لم ينصف منهم فالله يقضي بينهم بحكمة أي بما يحكم به وهو عدله لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به حكماً ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يغالب فيما يريد ﴿ العليم ﴾ بما يحكم وبمن يحكم لهم أو عليهم . ثم أمره بالتوكل وقلة المبالاة بأعداء الدين وعلل ذلك بأمرين : أحدهما أنه على الحق الأبلج وفيه أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بنصرة الله ، وثانيهما قوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ لأنه إذا علم أن حالهم لانتفاء جدوى السماع كحال الموتى أو كحال الصم الذين لا يسمعون ولا يفهمون والعمي الذين لا يبصرون ولا يهتدون ، صار ذلك سبباً قوياً في إظهار مخالفتهم وعدم الاعتداد بهم . وقوله ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾ تأكيد لأن الأصم إذا توجه إلى الداعي لم يرج منه سماع فكيف إذا ولى مدبراً وهداه عن الضلالة كقولك " سقاه عن العيمة " . ثم بين أن إسماعه لا يجدي إلا على الذين علم الله أنهم يصدقون بآياته ﴿ فهم مسلمون ﴾ أي مخلصون منقادون لأمر الله بالكلية . ثم هدد المكلفين بذكر طرف من اشراط الساعة وما بعدها فقال ﴿ وإذا وقع

القول ﴿ اي دنا وشارف أن يحصل مؤاده ومفهومه ﴿ عليهم ﴾ وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب ﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض ﴾ وهي الجساسة . وقد تكلم علماء الحديث فيها من وجوه : أحدها في مقدار جسمها . فقيل : إن طولها ستون ذراعاً . وقيل : إن راسها يبلغ السحاب . وعن أبي هريرة : ما بين قرنيها فرسخ للراكب . وثانيها في كيفية خلقتها فروي لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان . وعن ابن جريج في وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هر وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً . وثالثها في كيفية خروجها ؛ عن علي رضي الله عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها . وعن الحسن : لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام . ورابعها مكان خروجها ، " سئل النبي صلى الله عليه وسلم من اين

تخرج الدابة ؟ فقال : من أعظم المساجد حرمة على الله " يعني المسجد الحرام . وقيل : تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية . وخامسها في عدد خروجها ؛ روي أنها تخرج ثلاث مرات تخرج بأقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ، ثم تكمن دهراً طويلاً فبينا الناس في

أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد ، فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة .

وسادسها فيما يصدر عنها من الآثار والعجائب فظاهر الآية أنها تكلم الناس ، وفحوى الكلام ﴿ أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ قال جار الله : معناه أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي لأن خروجها من الآيات . ومن قرأ (إن) مكسورة فقولها حكاية قول الله فلذلك قالت ﴿ بآياتنا ﴾ أو المعنى بآيات ربنا فحذف المضاف أو سبب الإضافة اختصاصها بالله كما يقول بعض خاصة الملك : خيلنا وبلادنا . وإنما هي خيل مولاه وبلاده . عن السدي : تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام . وعن ابن عمر : تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المشرق ثم الشأم ثم اليمن فتفعل مثل ذلك . روي بينا عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون وإذ تضطرب الرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، فتضرب المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعصا موسى فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه ويكتب بين عينيه " مؤمن " وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه ويكتب بين عينيه "كافر" . وروي أنها تقول لهم : يا فلان أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار . وقيل : تكلمهم من الكلم على معنى التبكيت والمراد به الجرح وهو الوسم بالعصا والخاتم .

ثم ذكر طرفاً مجملاً من أهوال يوم القيامة قائلاً ﴿ ويوم ﴾ أي واذكر يوم ﴿ نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي جماعة كثيرة ﴿ ممن يكذب ﴾ هذه للتبيين والأولى للتبعيض وقوله ﴿ بآياتنا ﴾ يحتمل معجزات جميع الرسل أو القرآن خاصة . وقد مر معنى قوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ في وصف جنود سليمان أي يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار . وعن ابن عباس : الفوج أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدي أهل مكة ، وكذلك يحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار . والواو في قوله ﴿ ولم تحيطوا ﴾ للحال كأنه قيل : أكذبتم بآياتي بادي الرأي من غير الوقوف على حقيقتها وأنها جديرة بالتصديق أو بالتكذيب . ويجوز أن تكون الواو للعطف والمعنى أجحدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتفهمها ، فقد يجحد المكتوب إليه كون الكتاب من عند من كتبه ومع ذلك لا يدع تفهم مضمونه وأن يحيط بمعانيه . قال جار الله : ﴿ أمّاذا كنتم تعملون ﴾ للتبكيت لا غير لأنهم لم يعملوا إلا التكذيب ولم يشتهر من حالهم إلا ذلك . وجوّز أن يراد ما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك كأنكم لم تخلقوا إلا لأجله .

وقال غيره : أراد لما لم يشتغلوا بذلك العمل المهم وهو التصديق فأيّ شيء يعملونه بعد ذلك ؟ لأن كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل . قال المفسرون : يخاطبون بهذا قبل كبهم في النار ثم يكبون فيها وذلك قوله ﴿ ووقع القول عليهم ﴾ أي العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار . ثم بعد أن خوّفهم بأهوال القيامة وأحوالها ذكر ما يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوّة مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر فقال ﴿ ألم يروا ﴾ الآية . ووجه دلالته على التوحيد أن التقليب من النور إلى الظلمة وبالعكس لا يتم إلا بقدرة قاهرة ، ودلالته على الحشر أن النوم يشبه الموت والانتباه يشبه الحياة ، ودلالته على النبوّة أن كل هذا لمنافع المكلفين وفي بعثة الرسل إلى الخلق ايضاً منافع جمة ، فما المانع لمفيض الخيرات من إيصال بعض المنافع دون البعض ، أو من رعاية بعض المصالح دون البعض ؟ ووصف النهار بالإبصار إنما هو باعتبار صاحبه وقد مر في " يونس " . والتقابل مراعى في الآية من حيث المعنى كأنه قيل : ليسكنوا فيه وليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب . ثم عاد إلى ذكر علامة أخرى للقيامة فقال ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ وقد تقدم تفسيره في " طه " و "

المؤمنين" . وقوله ﴿ ففزع ﴾ كقوله ﴿ ونادى ﴾ [الأعراف : 48] ﴿ وسيق ﴾ [الزمر : 73] والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿ إلا من شاء الله ﴾ قال أهل التفسير : إلا من ثبت الله قلبه من الملائكة . وهم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل . وقيل : هم الشهداء . وعن الضحاك : الحور وخزنة النار وحملة العرش . وعن جابر أن منهم موسى لأنه صعق مرة . قال أهل البرهان : إنما قال في هذه السورة ﴿ ففزع ﴾ موافقة لقوله ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ وفي "الزمر" قال ﴿ فصعق ﴾ [الزمر : 68] لأن معناه فمات وقد سبق ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] .

(249/582)

ومعنى ﴿ داخرين ﴾ صاغرين أذلاء . وقيل : معنى الإتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية . وجوّز أن يراد رجوعهم إلى أمره وانقيادهم له . قال أهل المناظرة : إن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمت والكيفية ظن الناظر أنها واقفة مع أنها تمر مراً حثيثاً ، فأخبر الله سبحانه أن حال الجبال يوم القيامة كذلك تجمع فتسير كما تسير الريح السحاب ، فإذا نظر الناظر حسبها جامدة أي واقفة في مكان واحد . ﴿ وهي تمرّ مرّ السحاب ﴾ قال جار الله ﴿ صنع الله ﴾ من المصادر المؤكدة

كقوله " وعد الله " إلا أن مؤكدة محذوف وهو الناصب ل ﴿ يوم ينفخ ﴾ والمعنى يوم ينفخ في الصور فكان كيت وكيت ، أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين صنع الله ، فجعل الإثابة والمعاقبة من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على وجه الحكمة والصواب .

(250/582)

قلت : لا يبعد أن يكون الناصب ل ﴿ يوم ينفخ ﴾ هو " اذكر " مقدراً ، ويكون ﴿ صنع الله ﴾ مصدراً مؤكداً لنفسه أي صنع تسيير الجبال ومرها صنع الله . قال القاضي عبد الجبار : في قوله ﴿ أتقن كل شيء ﴾ دلالة على أن القبائح ليست من خلقه وإلا وجب وصفها بأنها متقنة ولكن الإجماع مانع منه . وأجيب بأن الاية مخصوصة بغير الأعراض فإن الأعراض لا يمكن وصفها بالإتقان وهو الإحكام لأنه من أوصاف المركبات . قلت : ولو سلم وصف الأعراض بالإتقان فوصف كل الأعراض به ممنوع فما من عام إلا وقد خص ، ولو سلم فالإجماع المذكور لعله ممنوع يؤيده قوله ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ وإذا كان خبيراً بكل أفعال العباد على كل نحو يصدر عنهم وخلاف معلومه يمتنع أن يقع فقد صحت معارضة الشعري ، وعلى مذهب الحكيم وقاعدته صدور الشر القليل من الحكيم لأجل الخير الكثير لا ينافي الإتقان والله أعلم . ثم فصل أعمال العباد وجزاءها بقوله ﴿ من جاء

بالحسنة فله خير منها ﴾ إلى آخر الآيتين . وبيان الخيرية بالأضعاف وبأن العمل منقض والثواب دائم ، وبأن فعل السيد بينه وبين فعل العبد بون بعيد على أن الأكل والشرب إنما هو جزاء الأعمال البدنية ، وأما الأعمال القلبية من المعروفة والإخلاص فلا جزاء لها سوء الالتذاذ بلقاء الله والاستغراق في بحار الجمال والجلال جعلنا الله أهلاً لذلك . وقيل : المراد فله خير حاصل منها . وعن ابن عباس : أن الحسنة كلمة الشهادة التي هي أعلى درجات الإيمان . واعترض عليه بأنه يلزم منه أن لا يعاقب مسلم . وأجيب بأنه يكفي في الخيرية أن لا يكون عقابه مخلداً . ثم وعد المحسنين أمراً آخر وهو قوله ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ وآمن يعدّى بالجار وبنفسه . والتنوين في فزع في إحدى القراءتين إما للنوع وهو فزع نوع العقاب فإن فزع الهيبة والجلال يلحق كل مكلف وهو الذي أثبته في قوله ﴿ ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ وإما للتعظيم أي من فزع شديد لا

(251/582)

يكتنهه الواصف وهو خوف النار آمنون . وأما حال العصاة فأن تكب في النار فعبر عن الجملة بالوجه لأنه أشرف أو لأنهم يلقون في الجحيم منكوسين . وقوله ﴿ هل تجزون ﴾ الخطاب فيه إما على طريقة الالتفات وإما على سبيل الحكاية بإضمار القول أي يقال لهم

عند الكب هذا القول . ثم ختم السورة بخلاصة ما أمر به رسوله وذلك أشياء منها :

عبادة الرب سبحانه . ثم وصف الرب بأمرين احترازاً من ارباب أهل الشرك أولهما كونه رباً لما هو أقرب في نظر قريش وهو بلدة مكة حرسها الله . وفيه نوع منة عليهم كقوله ﴿ حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾

[العنكبوت : 67] وثانيهما عام وهو قوله ﴿ وله كل شيء ﴾ ومنها أمره بالإسلام وهو الإذعان الكلي لأوامر الله بجميع أعضائه وجوارحه . ومنها أمره بتلاوة القرآن أي بتلوّه اي أتباعه وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ما أمر به أتم قيام حتى خوطب بقوله ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ [طه : 2] ثم لما بين سيرته ذكر أن نفع الاهتداء وبال الضلال لا يعود إلا إلى المكلف أو عليه وليس على الرسول إلا البلاغ والإنذار . ثم جعل ختم الخاتمة الأمر بالحمد كما هو صفة أهل الجنة وبعد أمره بالحمد على نعمة النبوة والرسالة هدّد أعداءه بما سيريهم في الآخرة من الآيات الملجئة إلى الإقرار وذلك حين لا ينفعهم الإيمان . قاله الحسن . وعن الكلبي : هي الدخان وانشقاق القمر وما حل بهم من العقوبات في الدنيا . ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ ولكنه من وراء جزاء العاملين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 319.324 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

ولما أتم سبحانه وتعالى هذه القصص الدالة على كمال قدرته وعظيم شأنه وما خص به رسله من الآيات والانتصار من البعداء أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يحمده على هلاك الأمم الخالية بقوله .

﴿ قل ﴾ يا أفضل الخلق .

﴿ الحمد ﴾ أي : الوصف بالإحاطة بصفات الكمال ﴿ لله ﴾ على إهلاك هؤلاء البعداء البغضاء ، وأن يسلم على من اصطفاه بالعصمة من الفواحش والنجاة من الهلاك بقوله تعالى : ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ أي : اصطفاهم ، واختلف فيهم فقال مقاتل : هم الأنبياء والمرسلون بدليل قوله تعالى : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ (الصافات ،) وقال ابن عباس : في رواية أبي مالك هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : هم كل المؤمنين من السابقين واللاحقين تنبيه : سلام مبتدأ وسوغ الابتداء به كونه دعاء .

(253/582)

ولما بين أنه تعالى أهلكهم ولم تغن عنهم آلهتهم من الله شيئاً قال تعالى : ﴿ آلله ﴾ أي : الذي له الجلال والإكرام ﴿ خير ﴾ أي : لعباده الذين اصطفاهم وأنجاهم ﴿ أم ما يشركون ﴾ أي : الكفار من الآلهة خير لعبادها فإنهم لا يغنون عنهم شيئاً تنبيه : لكل من القراء السبعة في هاتين الهمزتين وجهان : الأوّل : تحقيق همزة الاستفهام وإبدال همزة الوصل ألفاً مع المدّ ، والثاني : تحقيق همزة الاستفهام أيضاً وتسهيل همزة الوصل مع القصر ، وقرأ أبو عمرو وعاصم يشركون بالياء التحتية بالغيبة حملاً على ما قبله من قوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ وما بعده من قوله تعالى : ﴿ بل أكثرهم ﴾ والباقون بالتاء الفوقية على الخطاب ، وهو التفات للكفار ، بعد خطاب نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا تبكيت للمشركين بجالهم لأنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله تعالى ، ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلا لزيادة خير ومنفعة ، فقيل لهم هذا الكلام تنبيهاً لهم على نهاية ضلالهم وجهلهم وتهكماً بهم وتسفيهاً لرأيهم إذ من المعلوم أنه لا خير فيما أشركوه رأساً حتى يوازنون بينه وبين من هو مبتدأ كل خير .

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال : "بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم" ، ثم عدد سبحانه وتعالى أنواعاً من الخيرات والمنافع التي هي آثار رحمته وفضله ، الأوّل منها قوله تعالى:

﴿ أم من خلق السموات والأرض ﴾ أي : التي هي أصول الكائنات ومبادئ المنافع ، فإن قيل : ما الفرق بين أم وأم في ﴿ أم ما يشركون ﴾ و ﴿ أم من خلق السموات ﴾ ؟

(254/582)

أجيب : بأنّ تلك متصلة لأنّ المعنى أيهما خير ، وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة ، لما قال الله خير أم الآلهة قال بل أم من خلق السموات والأرض خير تقريراً لهم بأنّ من قدر على خلق العالم خير من جماد لا يقدر على شيء ﴿ وأنزل لكم ﴾ أي : لأجلكم خاصة وأنتم تكفرون به وتنسبون ما تفرد به من ذلك لغيره ﴿ من السماء ماء ﴾ هو للأرض كالماء الدافق للأرحام ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ جمع حديقة وهي البستان ، وقيل : القطعة من الأرض ذات الماء .

قال الراغب : سميت بذلك تشبهاً بحدقة العين في الهيئة وحصول الماء فيها ، وقال غيره : سميت بذلك لأحداق الجدران بها قاله ابن عادل ، وليس بشيء لأنه يطلق عليها ذلك مع عدم الجدران ﴿ ذات بهجة ﴾ أي : بهاء وحسن ورونق وسرور على تقارب أصولها مع اختلاف أنواعها وتباين طعومها وأشكالها ومقاديرها وألوانها ، ولما أثبت الإنبات له نفاه عن غيره بقوله تعالى : ﴿ ما كان ﴾ أي : ما صح وما تصوّر بوجه من الوجوه ﴿ لكم ﴾

وأنتم أحياء فضلاً عن شركائكم الذين هم أموات بل موات ﴿ أن تنبتوا شجرها ﴾ أي : شجر تلك الحدائق ﴿ أإله مع الله ﴾ أعانه على ذلك ، أي : ليس معه إله ﴿ بل هم ﴾ أي : في ادعائهم معه سبحانه شريكاً ﴿ قوم يعدلون ﴾ أي : عن الحق الذي لا مرية فيه إلى غيره ، وقيل : يعدلون عن هذا الحق الظاهر ، ونظير هذه الآية أوّل سورة الأنعام ، الثاني : منها قوله تعالى:

﴿ أم من جعل الأرض قراراً ﴾ وهو بدل من ﴿ أم من خلق السموات ﴾ وحكمه حكمه ، ومعنى قراراً ألا تميد بأهلها ، وكان القياس يقتضي أن تكون هادئة أو مضطربة كما يضطرب ما هو معلق في الهواء ، ولكن الله تعالى أبدى بعضها من الماء بحيث يتأتى استقرار الإنسان والدواب عليها ﴿ وجعل خلالها ﴾ أي : وسطها ﴿ أنهاراً ﴾ أي : جارية على حالة واحدة فلو اضطربت الأرض أدنى اضطراب لتغيرت مجاري المياه .

(255/582)

ثم ذكر تعالى سبب القرار بقوله تعالى : ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ أي : جبالاً أثبت بها الأرض على ميزان دَبَّرهُ سبحانه وتعالى في مواضع من أرجائها بحيث اعتدلت جميع جوانبها فامتنعت من الاضطراب ، ولما كان بعض مياه الأرض عذباً وبعضها ملحاً مع

القرب جدّاً ، بيّن الله تعالى أن أحدهما لم يختلط بالآخر بقوله تعالى : ﴿ وجعل بين البحرين ﴾ أي : العذب والملح ﴿ حاجزاً ﴾ من قدرته يمنع أحدهما أن يختلط بالآخر ﴿ أإله مع الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة معين له على ذلك ﴿ بل أكثرهم ﴾ أي : الذين ينتفعون بهذه المنافع ﴿ لا يعلمون ﴾ توحيد ربهم بل هم كالبهائم لإعراضهم عن هذا الدليل الواضح تنبيه : في قراءة أإله مثل أئنكم ، الثالث : منها قوله تعالى:

﴿ أم من يجيب المضطرّ ﴾ أي : المكروب وهو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجأ والتضرّع إلى الله تعالى ﴿ إذا دعاه ﴾ وقت اضطراره ، وعن ابن عباس : هو المجهود ، وعن السدي هو الذي لا حول له ولا قوة . فإن قيل : هذا يعم كل مضطرّ وكم مضطرّ يدعو فلا يجاب ؟

أجيب : بأنّ اللام فيه للجنس لا للاستغراق ولا يلزم منه إجابة كل مضطرّ ، وقوله تعالى : ﴿ ويكشف السوء ﴾ كالتفسير للاستجابة وأنه لا يقدر أحد على كشف ما وقع له من فقر إلى غنى ومرض إلى صحة إلا القادر الذي لا يعجزه شيء والقاهر الذي لا ينازع ، والإضافة في قوله تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ بمعنى في أي يخلف بعضكم بعضاً لا يزال يجدّد ذلك بإهلاك قرن وإنشاء آخر إلى قيام الساعة ﴿ أإله مع الله ﴾ أي : الملك الذي لا كفؤ له ثم استأنف التبكيت تفظيعاً له ومواجهاً به بقوله تعالى : ﴿ قليلاً ما

تذكرون ﴾ أي : تتعظون وقرأ أبو عمرو وهشام بالياء ، التحتية على الغيبة ، والباقون بالخطاب وفيه ادغام التاء في الذال وما زائدة القليل ، الرابع منها : قوله تعالى:

(256/582)

﴿ أم من يهديكم ﴾ أي : يرشدكم إلى مقاصدكم ﴿ في ظلمات البر ﴾ أي : بالنجوم والجبال والرياح ﴿ والبحر ﴾ بالنجوم والرياح ﴿ ومن يرسل الرياح ﴾ أي : التي هي دلائل السير ﴿ بُشراً ﴾ أي : تنشر السحاب وتجمعها ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي : التي هي المطر تسمية للمسبب باسم السبب والرياح التي يهتدي بها في المقاصد أربع : التي من تجاه الكعبة الصبا ، ومن ورائها الدبور ، ومن جهة يمينها الجنوب ، ومن شمالها الشمال ولكل منها طبع فالصبا حارة يابسة ، والدبور باردة رطبة ، والجنوب حارة رطبة ، والشمال باردة يابسة وهي ريح الجنة التي تهب على أهلها جعلنا الله ووالدينا ومشايخنا وأصحابنا ومن انتفع بشيء من هذا التفسير ودعا لنا بالمغفرة منهم ، وقرأ حمزة والكسائي وابن كثير الريح بالإفراد ، والباقون بالجمع ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمر ونشراً بضم النون والشين وابن عامر بضم النون وسكون الشين ، وحمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين وعاصم بالباء الموحدة مضمومة وسكون الشين ، ولما انكشف بما مضى من الآيات ما كانوا في

ظلامه من واهي الشبهات واتضحت الأدلة ، ولم يبق لأحد في شيء من ذلك علة ، كرّر سبحانه وتعالى الإنكار في قوله تعالى ﴿ أإله مع الله ﴾ أي : الذي كمل علمه ﴿ تعالى الله ﴾ أي : الفاعل القادر المختار ﴿ عما يشركون ﴾ به غيره ، وأين رتبة العجز من رتبة القدرة ، الخامس : منها قوله تعالى:

﴿ أم من يبدأ الخلق ﴾ أي : كلهم في الأرحام من نطفة ما علمتم منهم وما لم تعلموا ﴿ ثم يعيده ﴾ أي : بعد الموت لأنّ الإعادة أهون ، فإن قيل : كيف قيل : لهم ثم يعيده ؟ أجيب : بأنهم كانوا مقرين بالابتداء ودلالته على الإعادة ظاهرة قوية لأنّ الإعادة أهون عليه من الابتداء ، فلما كان الكلام مقروناً بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لا عذر لهم في إنكار الإعادة لقيام البراهين عليها ، ولما كان الإمطار والإنبات من أدلّ ما يكون على الإعادة قال مشيراً إليهما على وجه عمّ جميع ما مضى .

(257/582)

﴿ ومن يرزقكم من السماء ﴾ أي : بالمطر والحرّ والبرد وغيرها مما له سبب في التكوين أو التلوين ﴿ والأرض ﴾ أي : بالنبات والمعادن والحيوان وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله تعالى : وعبر عنها بالرزق لأنّ به تمام النعمة ﴿ أإله مع الله ﴾ أي : الذي له صفات الجلال والإكرام

، ولما كانت هذه كلها براهين ساطعة ودلائل قاطعة أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إعراضاً عنهم بقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ أي : لهؤلاء المدّعين للعقول ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي : حجتكم على نفي شيء من ذلك عن الله تعالى أو على إثبات شيء منه لغيره ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي : في أنكم على حق في أنّ مع الله تعالى غيره ، وأضاف تعالى البرهان إليهم تهكماً بهم وتنبيهاً على أنهم أبعدوا في الضلال وأغرقوا في المحال ، ثم إنهم سألوه عن وقت قيام الساعة فنزل .

﴿ قل ﴾ أي : لهم ﴿ لا يعلم من في السموات والأرض ﴾ من الملائكة والناس ﴿ الغيب ﴾ أي : ما غاب عنهم وقوله تعالى : ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع أي : لكن الله يعلمه ، ولما كان الله تعالى منزهاً عن أن يحويه مكان جعل الاستثناء هنا منقطعاً ، فإن قيل : من حق المنقطع النصب ؟ .

أجيب : بأنه رفع بدلاً على لغة بني تميم يقولون ما في الدار أحد إلا حمار يريدون ما فيها إلا حمار كأن أحداً لم يذكر ، ومنه قولهم : ما أتاني زيد إلا عمرو ، وما أعانه إخوانكم إلا أخوانه ، فإن قيل : ما الداعي إلى المذهب التميمي على الحجازي ؟

أجيب : بأنه دعت إليه حاجة سرية حيث أخرج المستثنى مخرج قوله إلا اليعافير بعد قوله ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس ليؤل المعنى إلى قولك إن كان الله ممن في السموات والأرض فهم يعلمون الغيب بمعنى أنّ علمهم الغيب في استحالته كاستحالة أن يكون الله

منهم ، كما أنّ معنى ما في البيت أن كانت اليعافير أنيسا ففيها أنيس ، إنباء عن خلوها عن الأنيس .

(258/582)

ويصح أن يكون متصلاً والظرفية في حقه تعالى مجاز بالنسبة إلى علمه وإن كان فيه جمع بين الحقيقة والمجاز كما قال به إمامنا الشافعيّ رضي الله تعالى عنه ، وإن منعه بعضهم ، ومن ذلك قول المتكلمين : الله تعالى في كل مكان على معنى أنّ علمه في الأماكن كلها فكأن ذاته فيها ، وعلى هذا فيرتفع على البدل والصفة ، والرفع أفصح من النصب لأنه منفي ، وعن عائشة رضي الله تعالى عنها من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله تعالى يقول .

﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ وعن بعضهم أخفى غيبه عن الخلق ولم يطلع عليه أحداً لئلا يأمن أحد من عبيده مكره ، وقوله تعالى : ﴿ وما يشعرون ﴾ صفة لأهل السموات والأرض نفي أن يكون لهم علم بالغيب ، وإن اجتمعوا وتعاونوا ﴿ أيان ﴾ أي : أيّ وقت ﴿ يبعثون ﴾ أي : ينشرون ، وقوله تعالى:

﴿ بل ﴾ بمعنى هل ﴿ أدارك ﴾ أي : بلغ وتناهى ﴿ علمهم في الآخرة ﴾ أي : بها حتى

سألوا عن وقت مجيئها ، ليس الأمر كذلك ﴿ بل هم في شك ﴾ أي : ريب ﴿ منها ﴾ كمن تحير في الأمر لا يجد عليه دليلاً ﴿ بل هم منها عمون ﴾ لا يدركون دلائلها لاختلال بصيرتهم ، وهذا وإن اختص بالمشركين بمن في السموات والأرض ، نسب إلى جميعهم كما يسند فعل البعض إلى الكل .

فإن قيل : هذه الاضرابات الثلاثة ما معناها ؟

أجيب : بأنها لتنزيل أحوالهم وصفهم أوّلاً بأنّهم لا يشعرون بوقت البعث ، ثم بأنهم لا يعلمون أنّ القيامة كائنة ، ثم بأنهم يخبطون في شك ومرية فلا يزيلونه والإزالة مستطاعة ، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه لا يخطر بباله حقاً ولا باطلاً ولا يفكر في عاقبة وقد جعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه فلذلك عدّاه بمن دون عن لأنّ الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون ، ووصفهم باستحكام علمهم في أمر الآخرة تهكماً .

(259/582)

وقرأ أبو عمرو وابن كثير بقطع الهمزة مفتوحة وسكون اللام قبلها وسكون الدال بعدها ، والباقون بكسر اللام وإسقاط الهمزة بعدها وتشديد الدال وبعدها ألف بمعنى تتابع حتى

استحكم أو تتابع حتى انقطع من تدارك بنو فلان إذا تتابعوا في الهلاك وقوله تعالى:

﴿ وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا ﴾ أي : نحن وآباؤنا الذين طال العهد بهم

﴿ لمخرجون ﴾ كالنبات ، والعامل في إذا محذوف يدل عليه لمخرجون تقديره نبعث

ونخرج ، لأنّ بين يدي عمل اسم المفعول فيه عقبات وهي همزة الاستفهام وإنا ولام الابتداء

وواحدة منها كافية فكيف إذا اجتمعت ، والمراد الإخراج من الأرض أو من حال الفناء

إلى حال الحياة وتكرير حرف الاستفهام بإدخاله على إذا وأنا جميعاً إنكار على إنكار

وجحود عقب جحود ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه ، والضمير في إنا لهم ولآبائهم لأنّ

كونهم تراباً قد تناولهم وآباؤهم .

تنبيه : آباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل بالخبر مقام الفصل بالتوكيد .

وقرأ نافع بالخبر في إذا وبالاستفهام في أئنا ، وابن عامر والكسائي بالاستفهام في الأوّل والخبر

في الثاني وزادا فيه نوناً ثانية ، وباقي القراء بالاستفهام في الأوّل والثاني وهم على مذاهبهم

من التسهيل والتحقيق والمدّ والقصر ، فمذهب قالون وأبي عمرو التسهيل في الهمزة الثانية

، وإدخال ألف بينها وبين همزة الاستفهام ، ومذهب ورش وابن كثير التسهيل وعدم

الإدخال ومذهب هشام الإدخال وعدمه مع التحقيق ، ومذهب الباقين التحقيق وعدم

الإدخال ، ثم أقام الكفار الدليل في زعمهم على ذلك فقالوا تعليلاً لاستبعادهم .

﴿ لقد وعدنا هذا ﴾ أي : الإخراج من القبور كما كنا أوّل مرّة ﴿ نحن وآباؤنا من قبل ﴾

أي : قبل محمد فقد مرّت الدهور على هذا الوعد ولم يقع منه شيء فذلك دليل على أنه لا حقيقة له ، فكأنه قيل : فما فائدة المراد به فقالوا ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ هذا إلا أساطير الأوّلين ﴾ أي : أحاديثهم وأكاذيبهم التي كتبوها ولا حقيقة لها .

(260/582)

تنبيه : أساطير الأوّلين : جمع أسطورة بالضم أي : ما سطر من الكذب ، فإن قيل : لم قدم في هذه الآية هذا ، على نحن وآباؤنا ، وفي آية أخرى قدم نحن وآباؤنا ، على هذا ؟

أجيب : بأنّ التقديم دليل على أنّ المقدّم هو الغرض المقصود بالذكر وأنّ الكلام إنما سيق لأجله ، ففي إحدى الآيتين دل على أنّ إيجاد البعث هو الذي تعمد بالكلام وفي الأخرى على أنّ إيجاد المبعوث بذلك الصدد ، ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم بما في صورة التهديد بقوله تعالى:

﴿ قل سيروا في الأرض ﴾ أي : أيها العمي الجاهلون ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ بإنكارهم وهي هلاكهم بالعذاب فإنكم إن نظرتم وتأمّلتم أخبارهم حق التأمّل أسرع بكم ذلك إلى التصديق فنجوتم وإلا هلكتم كما هلكوا ، وأراد بالمجرمين الكافرين ، فإن قيل : فلم لم يقل عاقبة الكافرين ؟

أجيب : بأنّ هذا يحصل به التخويف لكل العصاة ، ثم إنّ الله تعالى صبر نبيه صلى الله عليه وسلم على ما يناله من جلافتهم وعماهم عن السبيل الذي هدى إليه الدليل بقوله تعالى:

﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي : في عدم إيمانهم فإنما عليك البلاغ ﴿ ولا تكن في ضيق مما يمكرون ﴾ أي : لا تهتم بمكرهم عليك فأنا ناصرك عليهم وجاعل تدميرهم في تدبيرهم كطغاة قوم صالح ، تنبيه : الضيق الحرج يقال ضاق الشيء ضيقاً وضيقاً بالفتح والكسر ، ولهذا قرأ ابن كثير بكسر الضاد ، والباقون بالفتح ، ولما أشار تعالى إلى أنهم لم يبقوا في المبالغة في التكذيب بالساعة وجهاً أشار تعالى إلى أنهم في التكذيب بالوعيد بالساعة وغيرها من عذاب الله أشدّ مبالغة بقوله تعالى:

﴿ ويقولون ﴾ بالمضارع المؤذن بالتجدّد كل حين والاستمرار ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أي : العذاب والبعث والمجازاة الموعود بها وسموه وعداً إظهاراً لمجيئه تهكماً به ﴿ إن كنتم ﴾ أي : أنت ومن تبعك ﴿ صادقين ﴾ فيه ، ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ لهم ﴿ عسى أن يكون ردف لكم ﴾ أي : تبعكم وردفكم ولحقكم ، فاللام مزيدة على هذا للتأكيد كالباء في قوله ﴿ ولا تلقوا بأيديكم ﴾ (البقرة ،)

ويصح أن يكون تضمن ردف معنى فعل فتعدى باللام نحو دنا وقرب وأردف وبهذا فسره ابن عباس ، وقد عدّي بمن في قول القائل :

*فلما ردفنا من عمير وصحبه ** تولوا سراعاً والمنية تعنق*

يعني دنونا من عمير ﴿ بعض الذي تستعجلون ﴾ أي : فحصل لهم القتل ببدر وباقي العذاب يأتي بعد الموت ، تنبيه : عسى ولعلّ وسوف في مواعيد الملوك كالجزم بها ، وإنما يطلقون إظهاراً لوقارهم وإشعاراً بأنّ الرمز منهم كالتصريح من غيرهم وعليه جرى وعد الله ووعيد ، ولما كان التقدير فإنّ ربك لا يعجل على هذا العاصي بالانتقام مع تمام قدرته عطف عليه .

﴿ وإن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بالحلم على أمّتك ﴿ لذو فضل ﴾ أي : تفضل وإنعام ﴿ على الناس ﴾ أي : كافة ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ أي : لا يعرفون حق النعمة له ولا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم العذاب ، قال ابن عادل : وهذه الآية تبطل قول من قال لا نعمة لله على كافر .

﴿ وإن ربك ﴾ أي : والحال أنه ﴿ ليعلم ما تكنّ ﴾ أي : تضمر وتسرّ وتخفي

﴿ صدورهم ﴾ أي : الناس كلهم فضلاً عن قومك ﴿ وما يعلنون ﴾ أي : يظهرون من عداوتك وغيرها فيجازيهم على ذلك .

(262/582)

﴿ وما من غائبة في السماء والأرض ﴾ أي : في أيّ موضع كان منهما ، وأفردهما دلالة على إرادة الجنس الشامل لكل فرد تنبيه : في هذه التاء قولان : أحدهما : أنها للمبالغة كراوية وعلاّمة في قولهم ويل للشاعر من راوية السوء ، كأنه تعالى قال وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله تعالى ، والثاني : أنها كالتاء الداخلة على المصادر نحو العاقبة والعافية ، قال الزمخشريّ : ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات ﴿ إلا في كتاب ﴾ هو اللوح المحفوظ كتب فيه ذلك قبل إيجاده لأنه لا يكون شيء إلا بعلمه وتقديره ﴿ مبين ﴾ أي : ظاهر لمن ينظر فيه من الملائكة ، ولما تمم تعالى الكلام في إثبات المبدأ والمعاد ذكر بعده ما يتعلق بالنبوّة بقوله تعالى:

﴿ إنّ هذا القرآن ﴾ أي : الآتي به هذا النبيّ الأميّ الذي لم يعرف قبله علماً ولا خالط عالماً ﴿ يقص على بني إسرائيل ﴾ أي : الموجودين في زمان نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ أي : من أمر الدين وإن بالغوا في كتمه كقصة الزاني المحصن في

إخفائهم أنّ حدّه الرجم ، وقصة عزيز والمسيح ، وإخراج النبي صلى الله عليه وسلم ذلك مما في توراتهم فصح بحقيقته على لسان من لم يلمّ بعلم قط نبوّته صلى الله عليه وسلم لأنّ ذلك لا يكون إلا من عند الله ، ثم وصف تعالى فضل هذا القرآن بقوله تعالى:

﴿ وإنه لهدى ﴾ أي : من الضلالة لما فيه من الدلائل على التوحيد والحشر والنشر والنبوّة وشرح صفات الله تعالى ﴿ ورحمة ﴾ أي : نعمة وإكرام ﴿ للمؤمنين ﴾ أي : الذين طبعهم على الإيمان فهو صفة لهم راسخة كما أنه للكافرين وقر في آذانهم وعمى في قلوبهم ، ولما ذكر تعالى دليل فضله أتبعه دليل عدله بقوله تعالى:

(263/582)

﴿ إن ربك ﴾ أي : المحسن إليك بما لم يصل إليه أحد ﴿ يقضي بينهم ﴾ أي : بين جميع المختلفين ﴿ بحكمه ﴾ أي : الذي هو أعدل حكم وأتقنه وأنفذه ، فإن قيل : القضاء والحكم شيء واحد فقوله تعالى : ﴿ يقضي بينهم بحكمه ﴾ أي : بما يحكم به كقوله يقضي بقضائه ويحكم بحكمه ؟

أجيب : بأنّ معنى قوله تعالى : ﴿ بحكمه ﴾ أي : بما يحكم به وهو عدله لأنه لا يقضي إلا بالعدل فسمى المحكوم به حكماً أو أراد بحكمته ﴿ وهو ﴾ أي : والحال أنه هو

﴿ العزيز ﴾ أي : فلا يردّ له أمر ﴿ العليم ﴾ فلا يخفى عليه سرّ ولا جهر ، فلما ثبت له تعالى العلم والحكمة والعظمة والقدرة تسبب عن ذلك قوله تعالى:

﴿ فتوكل على الله ﴾ أي : ثق به لتدع الأمور كلها إليه وتستريح من تحمل المشاق وثوقاً بنصره ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ إنك على الحق المبين ﴾ أي : البين في نفسه الموضح لغيره فصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله تعالى ونصره وقوله تعالى:

﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ تعليل آخر للأمر بالتوكل من حيث إنه يقطع طمعه من معاضدتهم ، وإنما شبهوا بالموتى لعدم انتفاعهم باستماع ما يتلى عليهم كما شبهوا بالصم في قوله تعالى : ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ أي : معرضين ، فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ ولوا مدبرين ﴾ أجيب : بأنه تأكيد الحال الأصم لأنه إذا تباعد عن محل الداعي بأن تولى عنه مدبراً كان أبعد عن إدراك صوته ، وقرأ ابن كثير ولا يسمع بالياء التحتية المفتوحة وفتح الميم الصم برفع الميم ، والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الميم الصم بالنصب ، وسهل نافع وابن كثير وأبو عمرو الهمزة الثانية من الدعاء إذاً كالياء مع تحقيق الأولى ، والباقون بتحقيقهما وهم على مراتبهم في المدّ ، ثم قطع طمعه في إيمانهم بقوله تعالى:

﴿ وما أنت بهادي العمي ﴾ أي : في أبصارهم وبصائرهم مزيلاً لهم وناقلاً ومبعداً ﴿ عن ضلالتهم ﴾ أي : عن الطريق بحيث تحفظهم عن أن يزلوا عنها أصلاً فإنّ هذا لا يقدر عليه إلا الحيّ القيوم ، وقرأ حمزة تهدي بتاء فوقيه وسكون الهاء والعمي بنصب الياء ، والباقون بالباء الموحدة مكسورة وفتح الهاء بعدها ألف والعمي بكسر الياء ، ولما كان هذا ربما أوقف عن دعائهم رجاه في انقيادهم وارعوائهم بقوله تعالى : ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ تسمع ﴾ أي : سماع انتفاع على وجه الكمال في كل حال ﴿ إلا من يؤمن ﴾ أي : من علمنا أنه يصدّق ﴿ بآياتنا ﴾ بأن جعلنا فيه قابلية السمع ، ثم تسبب عنه قوله دليلاً على إيمانه ﴿ فهم مسلمون ﴾ أي : مخلصون في غاية الطواعية لك كما في قوله تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ (البقرة :)

أي : جعله سالماً خالصاً ، ثم ذكر تعالى ما يوعدون مما تقدّم استعجالهم له استهزاء بقوله تعالى:

﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ أي : مضمون القول وهو ما وعدوا به من قيام الساعة والعذاب ، ووقوعه حصوله ، أو أطلق المصدر على المفعول أي : المقول ﴿ أخرجنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ لهم ﴾ حين مشارفة العذاب والساعة وظهور أشراطها حين لا تنفع التوبة ﴿ دابة من الأرض ﴾ وهي الجساسة جاء في الحديث : "إن طولها ستون ذراعاً لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب" وروي : "أنّ لها أربع قوائم وزغباً وهو شعر أصفر على ريش

الفرخ وريشاً وجناحين" .

وعن ابن جريج في وصفها فقال : رأسها رأس الثور ، وعينها عين الخنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وخفها خف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام ، وروي أنها لا تخرج إلا رأسها ورأسها يبلغ عنان السماء أي : يبلغ السحاب ، وعن أبي هريرة فيها من كل لون وما بين قرنيها فرسخ للرّاكب ، وعن الحسن لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام .

(265/582)

وعن علي رضي الله تعالى عنه : أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم "سئل من أين تخرج الدابة فقال : من أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن" حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم : يقفون نظاراً ، وقيل تخرج من الصفا ، ولما كان التعبير بالدابة يفهم أنها كالحيوانات العجم لا كلام لها قال ﴿ تكلمهم ﴾ أي : بالعربية كما قاله مقاتل بكلام يفهمونه بلسان طلق ذلق فتقول ﴿ أنّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ أي : أنّ الناس كانوا لا

يوقنون بخروجي لأنّ خروجها من الآيات ، وتقول ألا لعنة الله على الظالمين ، وعن السدي : تكلمهم ببطلان الأديان كلها سوى دين الإسلام .

وعن ابن عمر : تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المشرق ثم الشأم ثم اليمن فتفعل مثل ذلك ، وروي أنها تخرج من أجياد ، روي بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتضرب المؤمن في مسجده أو فيما بين عينيه بعصا موسى فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه أو تترك وجهه كأنه كوكب دريّ وتكتب بين عينيه مؤمن ، وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسودّ لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ، وروي فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتخطم أنف الكافر بالخاتم ثم تقول لهم يا فلان أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار .

وعن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "بادروا بالأعمال ستاً طلوع الشمس من مغربها والدجال والدخان والدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة" وقال صلى الله عليه وسلم "إنّ أوّل الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها" .

وقال صلى الله عليه وسلم "للدّابة ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خروجاً بأقصى اليمن فيفشو ذكرها في البادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم تكمن زماناً طويلاً ثم تخرج خرجة أخرى قريباً من مكة فيفشو ذكرها بالبادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم بينا الناس يوماً في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها على الله عز وجلّ يعني المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهي في ناحية المسجد تدنو وتدنو ، قال الراوي ما بين الركن الأسود إلى باب بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد في وسط من ذلك فارفض الناس عنها وثبتت لها عصابة عرفوا أنهم لم يعجزوا الله فخرجت عليهم تنفض رأسها من التراب فمرت فجلت عن وجوههم حتى تركتها كأنها الكواكب الدرية ثم ولت في الأرض لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب حتى إنّ الرجل ليقوم فيتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي ، فيقبل عليها بوجهه فتسمه في وجهه فيتجاور الناس في ديارهم ويصطحبون في أسفارهم ويشتركون في الأموال ويعرف الكافر من المؤمن فيقال للمؤمن يا مؤمن وللكافر يا كافر" .

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه أنه قال ليست بدابة لها ذنب ولكن لها لحية يشير إلى أنها رجل ، والأكثرون على أنها دابة ، وعن ابن عباس أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال إنّ الدابة لتسمع قرع عصاي هذه ، وعن أبي هريرة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "بئس

الشعب شعب أجياد مرّتين أو ثلاثاً قيل ولم ذاك يا رسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين" وقال وهب : وجهها وجه الرجل وسائر خلقها خلق الطير فتخبر من يراها أنّ أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون ، وقرأ الكوفيون بفتح الهمزة من أنّ على تقدير الباء أي : بأنّ الناس الخ ، والباقون بكسرها على الاستئناف .

(267/582)

﴿ ويوم نحشر ﴾ أي : الناس على وجه الإكراه ، قال أبو حيان الحشر الجمع على عنف ﴿ من كل أمّة ﴾ أي : قرن ﴿ فوجاً ﴾ أي : جماعة ﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾ أي : وهم رؤساؤهم المتبوعون ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي : يجمعون يرد آخرهم إلى أوّلهم وأطرافهم على أوساطهم ليتلاحقوا ولا يشذ منهم أحد ولا يزالون كذلك .

﴿ حتى إذا جاؤوا ﴾ إلى مكان الحساب ﴿ قال ﴾ أي : الله تعالى لهم ﴿ أكذبتم ﴾ أي : أنبيائي ﴿ بآياتي ﴾ التي جاؤوا بها ﴿ و ﴾ الحال أنكم ﴿ لم تحيطوا بها ﴾ أي : من جهة تكذيبكم ﴿ علماً ﴾ أي : من غير فكر ولا نظر يؤدّي إلى الإحاطة بما في معانيها وما أظهرت لأجله حتى تعلموا ما تستحقه وما يليق بها بدليل الأمر به فيه ، وأم في قوله تعالى :

﴿ أم ماذا ﴾ منقطعة وتقدّم حكمها ، وماذا يجوز أن يكون برمته استفهاماً منصوباً بتعلمون الواقع خبراً عن كنتم ، وأن تكون ما استفهامية مبتدأ وذا موصول خبره والصلة ﴿ كنتم تعلمون ﴾ .

وعائده محذوف أي : أي شيء الذي كنتم تعملونه .

﴿ ووقع القول ﴾ أي : وجب العذاب الموعود ﴿ عليهم بما ظلموا ﴾ أي : بسبب ما وقع منهم من الظلم من صريح التكذيب وما ينشأ عنه من الضلال في الأقوال والأفعال ﴿ فهم لا ينطقون ﴾ قال قتادة : كيف ينطقون ولا حجة لهم نظير قوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ (المرسلات : ،)

وقيل : لا ينطقون لأن أفواههم مختومة ، ثم إنه تعالى لما خوّفهم بأحوال القيامة ذكر كلاماً يصلح أن يكون دليلاً على التوحيد والحشر وعلى النبوّة مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان والمنع من الكفر فقال .

(268/582)

﴿ ألم يروا ﴾ مما يدلهم على قدرتنا على بعثهم بعد الموت وعلى كل ما أخبرناهم به ﴿ أنا جعلنا ﴾ أي : بعظمتنا الدالة على نفوذ مرادنا وفعلنا بالاختيار ﴿ الليل ﴾ أي : مظلماً

﴿ ليسكنوا فيه ﴾ عن الانتشار ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي : يبصر فيه ليتصرفوا فيه ويبتغوا من فضل الله فحذف من الأوّل ما ثبت نظيره في الثاني ، ومن الثاني ما ثبت نظيره في الأول إذ التقدير جعلنا الليل مظلماً كما مرّ ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ليتصرفوا فيه كما مرّ فحذف مظلماً لدلالة مبصراً وليتصرفوا لدلالة لتسكنوا فيه وقوله تعالى : ﴿ مبصراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ آية النهار مبصرة ﴾ (الإسراء :)

وتقدم الكلام على ذلك في الإسراء .

قال الزمخشري فإن قلت ما للتقابل لم يراع في قوله تعالى ليسكنوا ومبصراً حيث كان أحدهما علة والآخر حالاً ؟ قلت : هو مراعى من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف لأنّ معنى مبصراً ليبصروا فيه طرق التقلب في المكاسب ، وأجاب غيره بأنّ السكون في الليل هو المقصود ولأن وسيلة إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية ﴿ إن في ذلك ﴾ أي : هذا المذكور ﴿ لأيات ﴾ أي : دلالات بينة على التوحيد والبعث والنبوّة وغير ذلك وخص المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم المنتفعون به وإن كانت الأدلة للكل كقوله تعالى : ﴿ هدى للمتقين ﴾ (البقرة :)

ولما ذكر تعالى هذا الحشر الخاص والدليل على مطلق الحشر ذكر الحشر العام بقوله تعالى: ﴿ ويوم ينفخ ﴾ أي : بأيسر أمر ﴿ في الصور ﴾ أي : القرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ﴿ ففزع ﴾ أي : فصعق كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ فصعق ﴾ (الزمر ،) ﴿ من في

السموات ومن في الأرض ﴾ أي : كلهم فماتوا والمعنى أنه يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا ، وقيل : ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة القيام لرب العالمين ، فإن قيل : لم قال الله تعالى ففزع ولم يقل فيفزع ؟

(269/582)

أجيب : بأنّ في ذلك نكتة وهي الإشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض لأنّ الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به ، والمراد فزعهم عند النفخة الأولى حين يصعقون ﴿ إلاّ من شاء الله ﴾ أي : المحيط علماً وقدرة وعزة وعظمة أن لا يفزع .

روي أنه صلى الله عليه وسلم "سأل جبريل عنهم فقال هم الشهداء يتقلدون أسيافهم حول العرش" وعن ابن عباس هم الشهداء لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل الفزع إليهم ، وعن مقاتل : هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام ، ويروى أنّ الله تعالى يقول لملك الموت خذ نفس إسرافيل ثم يقول الله تعالى من بقي يا ملك الموت فيقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت بقي جبريل وميكائيل وملك الموت ، فيقول الله تعالى خذ نفس ميكائيل ثم يقول الله تعالى من بقي يا ملك الموت فيقول سبحانك ربي تباركت وتعاليت بقي

جبريل وملك الموت فيقول مت يا ملك الموت فيموت فيقول يا جبريل من بقي فيقول تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام ، وجهك الباقي الدائم وجبريل الميت الفاني قال يا جبريل لا بدّ من موتك فيقع ساجداً يخفق بجناحيه ، فيروى أنّ فضل خلقه على خلق ميكائيل كالطود العظيم ، ويروى أنه يبقى مع هؤلاء الأربعة حملة العرش ثم روح إسرافيل ثم روح ملك الموت ، وعن الضحاك هم رضوان والحور ومالك والزبانية عليهم السلام وقيل : عقارب النار وحياتها ﴿ وكل ﴾ أي : من فزع ومن لم يفزع ﴿ أتوه ﴾ أي : بعد ذلك للحساب بنفخة أخرى يقيمهم بها وفي ذلك دليل على تمام قدرته تعالى في كونه أقامهم بما به أماتهم ﴿ داخرين ﴾ أي : صاغرين .

وقرأ حفص وحمزة بقصر الهمزة وفتح التاء على أنه فعل ماض ومفعوله الهاء فالتعبير به لتحقق وقوعه ، والباقون بمد الهمزة وضم التاء على أنه اسم فاعل مضاف للهاء وهذا حمل على معنى كل وهي مضافة تقديراً أي : وكلهم ، ولما ذكر تعالى دخورهم أتبعه بدخور ما هو أعظم منهم بقوله تعالى:

(270/582)

﴿ وترى الجبال ﴾ أي : تبصرها وقت النفخة والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم لكونه أنفذ الناس بصراً وأنورهم بصيرة أو لكل أحد ﴿ تحسبها ﴾ أي : تظنها ﴿ جامدة ﴾ أي : قائمة ثابتة في مكانها لا تتحرّك لأنّ الأجرام الكبار إذا تحرّكت في سمت واحد لا تكاد تتبين حركتها ﴿ وهي تمرّ ﴾ أي : تسير حتى تقع على الأرض فتسوى بها مبثوثة ثم تصير كالعهن ثم تصير هباءً منثوراً ، وأشار تعالى إلى أن سيرها خفي وإن كان حثيثاً بقوله تعالى : ﴿ مرّ السحاب ﴾ أي : مرّاً سريعاً لا يدرك على ما هو عليه لأنه إذا أطبق الجوّ لا يدرك سيره مع أنه لا شك فيه وإلا لم تنكشف الشمس بلا لبس وكذلك كبير الجرم أو كثير العدد يقصر عن الإحاطة به لبعد ما بين أطرافه ولكثرته البصر والناظر الحاذق يظنه واقفاً .

وقرأ تحسبها بكسر السين نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وفتحها الباقون وقوله تعالى ﴿ صنع الله ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله ، أي : صنع الله ذلك صنعاً ، ثم زاد في التعظيم بقوله دالاً على تمام الإحكام في ذلك الصنع ﴿ الذي أتقن ﴾ أي : أحكم ﴿ كل شيء ﴾ صنعه ولما ثبت هذا على هذا الوجه المتقن والنظام الأمكن أنتج قطعاً قوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ أي : الذي أتقن هذه الأمور ﴿ خبير بما يفعلون ﴾ أي : عالم بظواهر الأحوال وبواطنها ليجازيهم عليها كما قال تعالى:

﴿ من جاء بالحسنة ﴾ أي : الكاملة وهي الإيمان ، وعن ابن عباس الحسنة كلمة الشهادة ﴿ فله خير ﴾ أي : أفضل ﴿ منها ﴾ مضاعفاً أقلّ ما يكون عشرة أضعاف إلى ما لا

يعلمه إلا الله تعالى ، وقيل له خير : حاصل من جهتها وهو الجنة وفسر الجلال المحلي الحسنة بلا إله إلا الله ، وقال في ﴿ فله ﴾ خير منها ، أي : بسببها فليس للتفضيل إذ لا فعل خير منها وهذا يناسب القول الثاني ﴿ وهم ﴾ أي : الجاؤون بها ﴿ من فزع يومئذ ﴾ أي : يومئذ إذ وقعت هذه الأحوال العظيمة ﴿ آمنون ﴾ أي : حتى لا يحزنهم الفزع الأكبر .

(271/582)

وقرأ يفعلون ابن كثير وأبو عمرو وهشام بالياء التحتية على الغيبة ، والباقون بالفوقية على الخطاب ، وقرأ وهم من فزع يومئذ آمنون الكوفيون بتنوين العين ، والباقون بغير تنوين وهم أعمّ فإنه يقتضي الأمن من جميع فزع ذلك اليوم ، وأمّا قراءة التنوين فتحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العذاب ، وأمّا ما يلحق الإنسان من الرعب ومشاهدته فلا ينفك منه أحد ، ومن فزع شديد مفرط الشدّة لا يكتنهه الوصف وهو خوف النار ، وقرأ نافع والكوفيون : بفتح الميم من يومئذ والباقون بكسرها فإن قيل : أليس قال تعالى في أوّل الآية ﴿ ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ (النمل ،) فكيف نفى الفزع ههنا ؟

أجيب : بأنّ الفزع الأوّل لا يخلو منه أحد عند الإحساس بشدّة تقع أو هول يفجأ إلا ما

استثنى وإن كان المحسن آمناً من لحاق الضرر ، وأما الثاني فهو الخوف من العذاب .

﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ أي : التي لا سيئة مثلها وهي الشرك لقوله تعالى ﴿ فكبت ﴾ أي : بأيسر أمر ﴿ وجوههم في النار ﴾ بأن وليتها مع أنه ورد في الصحيح أنّ مواضع السجود التي أشرفها الوجه لا سبيل للنار عليها والوجه أشرف ما في الإنسان فإذا هان كان ما سواه أولى بالهوان ، والمكبوب عليه منكوس ويقال له تبكيتاً ﴿ هل ﴾ أي : ما ﴿ تجزون إلا ﴾ جزاء ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ أي : من الشرك والمعاصي .

تنبيه : جعل مقابلة الحسنة بالثواب والسيآت بالعقاب من جملة أحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة إنه عليم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ، وأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق والادعاء ، ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه .

(272/582)

﴿ إنما أمرت ﴾ أي : بأمر من لا يردّ له أمر ﴿ أن أعبد ﴾ أي : بجميع ما آمركم به ﴿ رب ﴾ أي : موجد ومدبر ﴿ هذه البلدة ﴾ أي : مكة التي تخرج الدابة منها فيفزع كل

من رآها ثم تؤمن أهل السعادة أخصه بذلك لا أعبد شيئاً مما تعبدونه ﴿ الذي حرّمها ﴾ أي : جعلها الله تعالى حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد صيدها ولا يختلي خلاها ولما خصص مكة بهذه الإضافة تشريفاً لها وتعظيماً لشأنها قال احترازاً عما قد يتوهم ﴿ وله كل شيء ﴾ أي : من غيرها مما أشركتموه به وغيره خلقاً وملكاً : ولما كانوا ربما قالوا نحن نعبده بعبادة من نرجوه يقرّبنا إليه زلفى ، عين له الدين الذي تكون به العبادة بقوله : ﴿ وأمرت ﴾ أي : مع الأمر بالعبادة له وحده ﴿ أن أكون ﴾ أي : كوناً هو في غاية الرسوخ ﴿ من المسلمين ﴾ أي : المنقادين لجميع ما يأمر به كتابه أتمّ انقياد ثابتاً على ذلك غاية الثبات .

﴿ وأن ﴾ أي : وأمرت أن ﴿ أتلو القرآن ﴾ عليكم تلاوة الدعوة إلى الإيمان ، أو أن أواظب على تلاوته لتنكشف لي حقائقه في تلاوته شيئاً فشيئاً ﴿ فمن اهتدى ﴾ أي : باتباع هذا القرآن الداعي إلى الجنان ﴿ فإنما يهتدي لنفسه ﴾ أي : لأجلها لأنّ ثواب هدايته له ﴿ ومن ضلّ ﴾ أي : عن الإيمان الذي هو الطريق المستقيم ﴿ فقل ﴾ أي : له كما تقول لغيره ﴿ إنما أنا من المنذرين ﴾ أي : المخوّفين له عواقب صنعه فلا عليّ من وبال ضلاله شيء إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغت .

﴿ وقل ﴾ أي : إنذاراً لهم وترغيباً وترجئة وترهيباً ﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ أي : الذي له العظمة كلها على نعمة النبوّة وعلى ما علمني

ووفقني للعمل به ﴿ سيريكم آياته ﴾ القاهرة في الدنيا كوقعة بدر وخروج دابة الأرض وفي الآخرة بالعذاب الأليم ﴿ فتعرفونها ﴾ أي : فتعرفون أنها آيات الله ولكن حين لا تنفعكم المعرفة .

﴿ وما ربك ﴾ أي : المحسن إليك بجميع ما أقامك فيه من هذه الأمور العظيمة والأحوال الجسيمة .

(273/582)

﴿ بغافل عما تعملون ﴾ أي : فلا تحسبوا أن تأخير عذابكم لغفلته عن أعمالكم ، وقرأ نافع وابن عامر وحفص : بالتاء على الخطاب لأنّ المعنى عما تعمل أنت وأتباعك من الطاعة وهم من المعصية ، والباقون بالياء على الغيبة وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشري : "من أنّ من قرأ طس كان له من الأجر عشرة حسنات بعدد من صدق سليمان وكذب به وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلا الله" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 102 . 118 ﴾

(274/582)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) ﴾

هذا الدرس ختام سورة النمل ، بعد استعراض حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام وهذا الختام متصل بمطلع السورة في الموضوع . والقصص بينهما متناسق مع المطلع والختام . كل قصة تؤدي جانباً من جوانب الغرض الذي يعالجه سياق السورة كلها .

وهو يبدأ بالحمد لله ، وبالسلام على من اصطفاهم من عباده ، من الأنبياء والرسل ، ومنهم الذين ورد قصصهم من قبل . يفتتح بذلك الحمد وهذا السلام جولة عن العقيدة . جولة في مشاهد الكون وأغوار النفس ، وأطواء الغيب ؛ وفي أشراط الساعة ومشاهد القيامة ، وأهوال الحشر ، التي يفزع لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله .

في هذه الجولة يقفهم أمام مشاهدات في صفحة الكون وفي أطواء النفس ، لا يملكون إنكار وجودها ، ولا يملكون تعليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات في إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار الحجة ، وأقطار المشاعر ؛ وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السماوات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ؟ من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ،

وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم في ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفي كل مرة يقرعهم : أ إله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى . لا يملكون أن يقولوا : إن إلهاً مع الله يفعل من هذا كله شيئاً ؛ وهم مع هذا يعبدون أرباباً من دون الله !

(275/582)

وعقب هذه الإيقاعات القوية التي تقتحم القلوب ، لأنها إيقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم ، أو إيقاعات وجدانية يحسونها في قلوبهم . . يستعرض تكذيبهم بالآخرة ، وتخبطهم في أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع . ويرجع بهم في ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر . وكأنما يهز قلوبهم هزاً ويرجها رجاً . . . وفي نهاية الجولة يجيء الختام أشبه بالإيقاع الأخير عميقاً رهيباً . . ينفض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من أمر المشركين المستهزئين بالوعيد ، المكذبين بالآخرة ، وقد وجه

قلوبهم إلى مشاهد الكون وأهوال الحشر ، وعواقب الطائعين والعصاة ويتركهم إلى مصيرهم الذي يختارون ؛ ويحدد منهجه ووسيلته ولمن شاء أن يختار :

﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فقل : إنما أنا من المنذرين ﴾ .

.

ثم يختم الجولة كما بدأها بحمد الله الذي يستأهل الحمد وحده ؛ ويكلهم إلى الله يريهم آياته ؛ ويطلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن :

﴿ وقل : الحمد لله . سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ . .

وتختم السورة بهذا الإيقاع المؤثر العميق .

﴿ قل : الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . آلله خير أم ما يشركون ؟ ﴾ . .

يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول الكلمة التي تليق أن يفتتح بها المؤمن حديثه ودعوته وجداله ، وأن يختمه كذلك : ﴿ قل : الحمد لله ﴾ . . المستحق للحمد من عباده على آلائه ، وفي أولها هدايتهم إليه ، وإلى طريقه الذي يختاره ، ومنهجه الذي يرضاه . ﴿ وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، وبيان منهجه .

وبعد هذا الافتتاح يأخذ في توقيعاته على القلوب المنكرة لآيات الله ، مبتدئاً بسؤال لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، يستنكر به أن يشركوا بالله هذه الآلهة المدعاة :

﴿ آلله خير أم ما يشركون ؟ ﴾ . .

وما يشركون أصنام وأوثان ، أو ملائكة وجن ، أو خلق من خلق الله على أية حال ، لا يرتقي أن يكون شبيهاً بالله سبحانه فضلاً على أن يكون خيراً منه . ولا يخطر على قلب عاقل أن يعقد مقارنة أو موازنة . ومن ثم يبدو هذا السؤال بهذه الصيغة وكأنه تهكم محض ، وتوبيخ صرف ، لأنه غير قابل أن يوجه على سبيل الجد ، أو أن يطلب عنه جواب !

ومن ثم يعدل عنه إلى سؤال آخر ، مستمد من واقع هذا الكون حولهم ، ومن مشاهده التي يرونها بأعينهم :

﴿ أم من خلق السماوات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ﴾ . .

والسماوات والأرض حقيقة قائمة لا يملك أحد إنكار وجودها ، ولا يملك كذلك أن يدعي أن هذه الآلهة المدعاة خلقتها . . وهي أصنام أو أوثان ، أو ملائكة وشياطين ، أو شمس

أو قمر . . فالبداهة تصرخ في وجه هذا الادعاء . ولم يكن أحد من المشركين يزعم أن هذا الكون قائم بنفسه ، مخلوق بذاته ، كما وجد من يدعي مثل هذا الادعاء المتهافت في القرون الأخيرة ! فكان مجرد التذكير بوجود السماوات والأرض ، والتوجيه إلى التفكير فيمن خلقها ، كفيلاً بإلزام الحجة ، ودحض الشرك ، وإفحام المشركين . وما يزال هذا السؤال قائماً فإن خلق السماوات والأرض على هذا النحو الذي يبدو فيه القصد ، ويتضح فيه التدبير ، ويظهر فيه التناسق المطلق الذي لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ، مُلجئ بذاته إلى الإقرار بوجود الخالق الواحد ، الذي تتضح وحدانيته بآثاره . ناطق بأن هناك تصميماً واحداً متناسقاً لهذا الكون لا تعدد في طبيعته ولا تعدد في اتجاهه . فلا بد أنه صادر عن إرادة واحدة غير متعددة .

(277/582)

إرادة قاصدة لا يفوتها القصد في الكبير ولا في الصغير .

﴿ أم من خلق السماوات والأرض ﴾ . . ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ ﴾ . .

والماء النازل من السماء حقيقة كذلك مشهودة يستحيل إنكارها ، ويتعذر تعليلها بغير

الإقرار بخالق مدبر ، فطر السماوات والأرض وفق هذا الناموس الذي يسمح بنزول المطر ، بهذا القدر ، الذي توجد به الحياة ، على النحو الذي وجدت به ، فما يمكن أن يقع هذا كله مصادفة ، وأن تتوافق المصادفات بهذا الترتيب الدقيق ، وبهذا التقدير المضبوط . المنظور فيه إلى حاجة الأحياء وبخاصة الإنسان . هذا التخصيص الذي يعبر عنه القرآن الكريم بقوله : ﴿ وأنزل لكم . . ﴾ والقرآن يوجه القلوب والأبصار إلى الآثار المحيية لهذا الماء المنزل للناس وفق حاجة حياتهم ، منظوراً فيه إلى وجودهم وحاجاتهم وضروراتهم . يوجه القلوب والأبصار إلى تلك الآثار الحية القائمة حيالهم وهم عنها غافلون :

﴿ فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ﴾ . .

حدائق بهيجة ناضرة حية جميلة مفرحة . . ومنظر الحدائق يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية . وتأمل هذه البهجة والجمال الناضر الحي الذي يبعثها كفيل بإحياء القلوب . وتدبر آثار الإبداع في الحدائق كفيل بتمجيد الصانع الذي أبدع هذا الجمال العجيب . وإن تلوين زهرة واحدة وتنسيقها ليعجز عنه أعظم رجال الفنون من البشر . وأن تموج الألوان وتداخل الخطوط وتنظيم الوريقات في الزهرة ليبدو معجزة تتقاصر دونها عبقرية الفن في القديم والحديث . فضلاً على معجزة الحياة النامية في الشجر وهي السر الأكبر الذي يعجز عن فهمه البشر :

﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ وسر الحياة كان وما يزال مستغلقاً على الناس .

سواء أكان في النبات أم في الحيوان أم في الإنسان . فما يملك أحد حتى اللحظة أن يقول : كيف جاءت هذه الحياة ، ولا كيف تلبست بتلك الخلائق من نبات أو حيوان أو إنسان .

ولا بد من الرجوع فيها إلى مصدر وراء هذا الكون المنظور .

وعندما يصل في هذه الوقفة أمام الحياة النامية في الحدائق البهيجة إلى إثارة التطلع والانتباه وتحريك التأمل والتفكير ، يهجم عليهم بسؤال :

﴿ أَإِله مع الله ؟ ﴾ . .

ولا مجال لمثل هذا الادعاء ؛ ولا مفر من الإقرار والإذعان . . وعندئذ يبدو موقف القوم عجيباً ، وهم يسوون آلهتهم المدعاة بالله ، فيعبدونها عبادة الله : ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ . .

ويعدلون . إما أن يكون معناها يسوون . أي يسوون آلهتهم بالله في العبادة . وإما أن يكون معناها : يحيدون . أي يحيدون عن الحق الواضح المبين . بإشراك أحد مع الله في العبادة ؛ وهو وحده الخالق الذي لم يشاركه أحد في الخلق . وكلا الأمرين تصرف عجيب لا يليق !

ثم ينتقل بهم إلى حقيقة كونية أخرى ، يواجههم بها كما واجههم بحقيقة الخلق الأولى :

﴿ أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ ﴾ .

.

لقد كانت الحقيقة الكونية الأولى هي حقيقة خلق السماوات والأرض . أما هذه فهي الهيئة التي خلق عليها الأرض . لقد جعلها قراراً للحياة ، مستقرة مطمئنة صالحة يمكن أن توجد فيها الحياة وتنمو وتتكاثر . ولو تغير وضعها من الشمس والقمر ؛ أو تغير شكلها ، أو تغير حجمها ، أو تغيرت عناصرها والعناصر المحيطة في الجو بها ، أو تغيرت سرعة دورتها حول نفسها ، أو سرعة دورتها حول الشمس ، أو سرعة دورة القمر حولها . . إلى آخر هذه الملابسات الكثيرة التي لا يمكن أن تتم مصادفة ، وأن تتناسق كلها هذا التناسق . . لو تغير شيء من هذا كله أدنى تغيير ، لما كانت الأرض قراراً صالحاً للحياة .

(279/582)

وربما أن المخاطبين إذ ذاك لم يكونوا يدركون من قوله تعالى : ﴿ أم من جعل الأرض قراراً ؟ ﴾ كل هذه العجائب . ولكنهم كانوا يرون الأرض مستقراً صالحاً للحياة على وجه

الإجمال ؛ ولا يملكون أن يدعوا أن أحداً من آلهتهم كان له شريك في خلق الأرض على هذا المنوال . وهذا يكفي . ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحاً للأجيال ؛ وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئاً من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال . وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول ، على توالي الأزمان !

﴿ أم من جعل الأرض قراراً . وجعل خلالها أنهاراً ؟ ﴾ . .

والأنهار في الأرض هي شرايين الحياة ، وهي تنتشر فيها إلى الشرق وإلى الغرب ، وإلى الشمال وإلى الجنوب ، تحمل معها الخصب والحياة والنماء . والأنهار تتكون من تجمع مياه الأمطار وجريانها وفق طبيعة الأرض . والله الذي خلق هذا الكون هو الذي قدر في تصميمه إمكان تكون السحب ، ونزول المطر ، وجريان الأنهار . وما يملك أحد أن يقول : إن أحداً سوى الخالق المدبر قد شارك في خلق هذا الكون على هذا النحو ؛ وجريان الأنهار حقيقة واقعة يراها المشركون . فمن ذا أوجد هذه الحقيقة ؟ ﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ .

﴿ وجعل لها رواسي ﴾ . .

والرواسي : الجبال . وهي ثابتة مستقرة على الأرض . وهي في الغالب منابع الأنهار ، حيث تجري منها مياه الأمطار إلى الوديان ؛ وتشق مجراها بسبب تدفقها من قمم الجبال العالية بعنف وقوة .

والرواسي الثابتة تقابل الأنهار الجارية في المشهد الكوني الذي يعرضه القرآن هنا والتقابل التصويري ملحوظ في التعبير القرآني . وهذا واحد منه . لذلك يذكر الرواسي بعد الأنهار .

﴿ وجعل بين البحرين حاجزاً ﴾ . .

(280/582)

البحر الملح الاجاج ، والنهر العذب الفرات . سماهما بحرين على سبيل التغليب من حيث مادتهما المشتركة وهي الماء . والحاجز في الغالب هو الحاجز الطبيعي ، الذي يجعل البحر لا يفيض على النهر فيفسده . إذ أن مستوى سطح النهر أعلى من مستوى سطح البحر . وهذا ما يحجز بينهما مع أن الأنهار تصب في البحار ، ولكن مجرى النهر يبقى مستقلاً لا يطغى عليه البحر . وحتى حين ينخفض سطح النهر عن سطح البحر لسبب من الأسباب فإن هذا الحاجز يظل قائماً من طبيعة كثافة ماء البحر وماء النهر .

إذ يخف ماء النهر ويثقل ماء البحر فيظل مجرى كل منهما مميزاً لا يمتزجان ولا يبغي أحدهما على الآخر . وهذا من سنن الله في خلق هذا الكون ، وتصميمه على هذا النحو الدقيق . فمن فعل هذا كله ؟ من ؟ ﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ . .

وما يملك أحد أن يدعي هذه الدعوى . ووحدة التصميم أمامه تجبره على الاعتراف بوحدة الخالق . . ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . .

ويذكر العلم هنا لأن هذه الحقيقة الكونية تحتاج إلى العلم لتملي الصنعة فيها والتنسيق ، وتدبر السنة فيها والناموس . ولأن التركيز في السورة كلها على العلم (كما ذكرنا في تلخيص السورة في الجزء الماضي) .

ثم ينتقل بهم من مشاهد الكون إلى خاصة أنفسهم :

﴿ أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ؟ أإله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون ﴾ . .

فيلمس وجدانهم وهو يذكرهم بخوالج أنفسهم ، وواقع أحوالهم .

(281/582)

فالمضطر في لحظات الكربة والضيق لا يجد له ملجأ إلا الله يدعوه ليكشف عنه الضر والسوء ذلك حين تضيق الحلقة ، وتشتد الخنقة ، وتتخاذل القوى ، وتتهاوى الأسناد ؛ وينظر الإنسان حواليه فيجد نفسه مجرداً من وسائل النصرة وأسباب الخلاص . لا قوته ، ولا قوة في الأرض تنجده . وكل ما كان يعده لساعة الشدة قد زاغ عنه أو تخلى ؛ وكل من

كان يرجوه للكربة قد تنكر له أو تولى . . في هذه اللحظة تستيقظ الفطرة فتلجأ إلى القوة الوحيدة التي تملك الغوث والنجدة ، ويتجه الإنسان إلى الله ولو كان قد نسيه من قبل في ساعات الرخاء . فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه . هو وحده دون سواه . يجيبه ويكشف عنه السوء ، ويرده إلى الأمن والسلامة ، وينجيه من الضيقة الآخذة بالخناق . والناس يغفلون عن هذه الحقيقة في ساعات الرخاء ، وفترات الغفلة . يغفلون عنها فيلتمسون القوة والنصرة والحماية في قوة من قوى الأرض الهزيلة . فأما حين تلجئهم الشدة ، ويضطرهم الكرب ، فتزول عن فطرتهم غشاوة الغفلة ، ويرجعون إلى ربهم منيبين مهما يكونوا من قبل غافلين أو مكابرين .

والقرآن يرد المكابرين الجاحدين إلى هذه الحقيقة الكامنة في فطرتهم ، ويسوقها لهم في مجال الحقائق الكونية التي ساقها من قبل . حقائق خلق السماوات والأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وإنبات الحدائق البهيجة ، وجعل الأرض قراراً ، والجبال رواسي ، وإجراء الأنهار ، والحاجز بين البحرين . فالتجاء المضطر إلى الله ، واستجابة الله له دون سواه حقيقة كهذه الحقائق . هذه في الآفاق وتلك في الأنفس سواء بسواء .

ويمضي في لمس مشاعرهم بما هو واقع في حياتهم : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ . . فمن يجعل الناس خلفاء الأرض ؟ أليس هو الله الذي استخلف جنسهم في الأرض أولاً .

ثم جعلهم قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، يخلف بعضهم بعضاً في مملكة الأرض التي جعلهم فيها خلفاء ؟

(282/582)

أليس هو الله الذي فطرهم وفق النواميس التي تسمح بوجودهم في هذه الأرض ، وزودهم بالطاقات والاستعدادات التي تقدرهم على الخلافة فيها ، وتعدهم لهذه المهمة الضخمة الكبرى .

النواميس التي تجعل الأرض لهم قراراً ؛ والتي تنظم الكون كله متناسقاً بعضه مع بعض تتهيأ للأرض تلك الموافقات والظروف المساعدة للحياة . ولو اختل شرط واحد من الشروط الكثيرة المتوافرة في تصميم هذا الوجود وتنسيقه لأصبح وجود الحياة على هذه الأرض مستحيلاً .

وأخيراً أليس هو الله الذي قدر الموت والحياة ، واستخلف جيلاً بعد جيل ؛ ولو عاش الأولون لضاقت الأرض بهم وبالآخرين ؛ ولأبطأ سير الحياة والحضارة والتفكير ، لأن تجدد الأجيال هو الذي يسمح بتجدد الأفكار والتجارب والمحاولات ، وتجدد أنماط الحياة ، بغير تصادم بين القدامى والمحدثين إلا في عالم الفكر والشعور . فأما لو كان القدامى أحياء

لتضخم التصادم والاعتراض ! ولتعطل موكب الحياة المندفع إلى الأمام !

إنها كلها حقائق في الأنفس كتلك الحقائق في الآفاق . فمن الذي حقق وجودها وأنشأها ؟ من ؟

﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ . .

إنهم لينسون ويغفلون . هذه الحقائق كامنة في أعماق النفوس ، مشهودة في واقع الحياة :

﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ !

ولو تذكر الإنسان وتدبر مثل هذه الحقائق لبقي موصولاً بالله صلة الفطرة الأولى . ولما غفل عن ربه ، ولا أشرك به أحداً .

ثم يمضي السياق إلى بعض الحقائق الأخرى الممثلة في حياة الناس ونشاطهم على هذا الكوكب ، ومشاهداتهم التي لا تنكر :

﴿ أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ! ﴾ . .

(283/582)

والناس ومنهم المخاطبون أول مرة بهذا القرآن يسلكون فجاج البر والبحر في أسفارهم ؛ ويسبرون أسرار البر والبحر في تجاربهم . . ويهتدون . . فمن يهديهم ؟ من أودع كيانهم تلك القوى المدركة ؟ من أقدرهم على الاهتداء بالنجوم وبالآلات وبالمعالم ؟ من وصل فطرتهم بفطرة هذا الكون ، وطاقاتهم بأسراره ؟ من جعل لآذانهم تلك القدرة على التقاط الأصوات ، ولعيونهم تلك القدرة على التقاط الأضواء ؟ ولحواسهم تلك القدرة على التقاط المحسوسات ؟ ثم جعل لهم تلك الطاقة المدركة المسماة بالعقل أو القلب للانتفاع بكل المدركات ، وتجميع تجارب الحواس والإلهامات ؟

من ؟ أإله مع الله ؟

﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ ﴾ . .

والرياح ، مهما قيل في أسبابها الفلكية والجغرافية ، تابعة للتصميم الكوني الأول ، الذي يسمح بجريانها على النحو الذي تجري به ، حاملة السحب من مكان إلى مكان ، مبشرة بالمطر الذي تتجلى فيه رحمة الله ، وهو سبب الحياة .

فمن الذي فطر هذا الكون على خلقته ، فأرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ من ؟

﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ . . ﴿ تعالى الله عما يشركون ! ﴾ . .

ويختم هذه الإيقاعات بسؤال عن خلقتهم وإعادتهم ورزقهم من السماء والأرض ، مع التحدي والإفحام :

﴿ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

.

وبدء الخلق حقيقة واقعة لا يملك أحد إنكارها ، ولا يمكن أحداً تعليلها بغير وجود الله ووحدانيته . وجوده لأن وجود هذا الكون ملجئ للإقرار بوجوده ؛ وقد باءت بالفشل المنطقي كل محاولة لتعليل وجود هذا الكون على هذا النحو الذي يظهر فيه التدبير والقصد بغير الإقرار بوجود الله . ووحدانيته لأن آثار صنعته ملجئة للإقرار بوحدانيته ؛ فعليها آثار التقدير الواحد ، والتدبير الواحد ؛ وفيها من التناسق المطلق ما يجزم بالإرادة الواحدة المنشئة للناموس الواحد .

(284/582)

فأما إعادة الخلق فهذه التي كانوا يجادلون فيها ويمارون . ولكن الإقرار ببدء الخلق على هذا النحو الذي يظهر فيه التقدير والتدبير والقصد والتنسيق ملجئ كذلك للتصديق بإعادة الخلق ، ليلقوا جزاءهم الحق على أعمالهم في دار الفناء ، التي لا يتم فيها الجزاء الحق على الأعمال وإن كان يتم فيها أحياناً بعض الجزاء . فهذا التنسيق الواضح في خلقة الكون

يقتضي أن يتم تمامه بالتنسيق المطلق بين العمل والجزاء . وهذا لا يتم في الحياة الدنيا . فلا بد إذن من التصديق بحياة أخرى يتحقق فيها التناسق والكمال . . أما لماذا لم يتم في هذه الأرض ذلك التنسيق المطلق بين العمل والجزاء ؟ فذلك متروك لحكمة صاحب الخلق والتدبير . وهو سؤال لا يجوز توجيهه لأن الصانع أعلم بصنعته . وسر الصنعة عند الصانع . وهو غيب مع غيبه الذي لم يطلع عليه أحداً !

ومن هذا التلازم بين الإقرار بمبدئ الحياة والإقرار بمعيدها يسألهم ذلك السؤال : ﴿ أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ﴾ . . ﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ . .

والرزق من السماء والأرض متصل بالبدء والإعادة سواء . ورزق العباد من الأرض يتمثل في صور شتى أظهرها النبات والحيوان ، والماء والهواء ، للطعام والشراب والاستنشاق ؛ ومنها كنوز الأرض من معادن وفلزات ؛ وكنوز البحر من طعام وزينة . ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء ، وقوى أخرى لا يعلمها بعد إلا الله ؛ ويكشف عن شيء منها لعباده آناً بعد آن .

وأما رزقهم من السماء فلهم منه في الحياة الدنيا : الضوء والحرارة والمطر وسائر ما ييسره الله لهم من القوى والطاقات . ولهم منه في الآخرة عطاء الله الذي يقسمه لهم وهو من السماء بمدلولها المعنوي ، الذي يتردد كثيراً في القرآن والسنة ؛ وهو معنى الارتفاع والاستعلاء .

وقد ذكر رزقهم من السماء والأرض بعد ذكر البدء والإعادة ، لأن رزق السماء والأرض له علاقة بالبدء والإعادة . فعلاقة رزق الأرض بالبدء معروفة فهو الذي يعيش عليه العباد . وعلاقته بالإعادة أن الناس يجزون في الآخرة على عملهم وتصرفهم في هذا الرزق الذي أعطوه في الدنيا . . وعلاقة رزق السماء بالبدء واضحة . فهو في الدنيا للحياة ، وهو في الآخرة للجزاء . . وهكذا تبدو دقة التناسق في السياق القرآني العجيب .

والبدء والإعادة حقيقة . والرزق من السماء والأرض حقيقة . ولكنهم يغفلون عن هذه الحقائق ، فيردهم القرآن إليها في تحد وإفحام :

﴿ أَإِله مع الله ؟ ﴾ . . ﴿ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ . .

وإنهم ليعجزون عن البرهان ، كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن . وهذه طريقة القرآن في الجدل عن العقيدة . يستخدم مشاهد الكون وحقائق النفس ؛ فيجعل الكون كله إطاراً للمنطق الذي يأخذ به القلوب ؛ ويوقظ به الفطرة ويجلوها لتحكم منطقها الواضح الواصل البسيط ؛ ويستجيش به المشاعر والوجدانات بما هو مركوز فيها من الحقائق التي تغشيها الغفلة والنسيان ، ويحجبها الجحود والكفران . . ويصل بهذا المنطق إلى تقرير الحقائق

العميقة الثابتة في تصميم الكون وأغوار النفس ؛ والتي لا تقبل المراء الذي يقود إليه المنطق الذهني البارد ، الذي انتقلت عدواه إلينا من المنطق الإغريقي ، وفشا فيما يسمى علم التوحيد ، أو علم الكلام !

وبعد هذه الجولة في الآفاق وفي أنفسهم لإثبات الوحدانية ونفي الشرك . يأخذ معهم في جولة أخرى عن الغيب المستور الذي لا يعلمه إلا الخالق الواحد المدبر ، وعن الآخرة وهي غيب من غيب الله ، يشهد المنطق والبداهة والفطرة بضرورته ؛ ويعجز الإدراك والعلم البشري عن تحديد موعده :

(286/582)

﴿ قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادّارك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون . وقال الذين كفروا : أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ؟ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين ! قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين . ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون . وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا

يشكرون . وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ .

والإيمان بالبعث والحشر ، وبالحساب والجزاء ، عنصر أصيل في العقيدة ، لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به . فلا بد من عالم مرتقب ، يكمل فيه الجزاء ، ويتناسق فيه العمل والأجر ، ويتعلق به القلب ، وتحسب حسابه النفس ، ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك .

ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفاً عجيباً من قضية البعث والدار الآخرة ، على بساطتها وضرورتها . فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثاً بعد الموت وحياة بعد الدثور . ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التي لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر . ومن ثم كانت تعرض عن نذير الآخرة ، وتستمرئ الجحود والمعصية ، وتستطرد في الكفر والتكذيب .

والآخرة غيب . ولا يعلم الغيب إلا الله .

وهم كانوا يطلبون تحديد موعدها أو يكذبوا بالنذر ، ويحسبوها أساطير ، سبق تكرارها ولم تحقق أبداً !

فهنا يقرر أن الغيب من أمر الله ، وأن علمهم عن الآخرة منته محدود :

﴿ قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون . بل ادّارك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون ﴾ . .

(287/582)

ولقد وقف الإنسان منذ بدء الخليقة أمام ستر الغيب المحجوب ، لا ينفذ إليه علمه ، ولا يعرف مما وراء الستر المسدل ، إلا بقدر ما يكشف له منه علام الغيوب . وكان الخير في هذا الذي أراده الله ، فلو علم الله أن في كشف هذا الستر المسبل خيراً لكشفه للإنسان المتطلع الشديد إلى ما رواءه !

لقد منح الله هذا الإنسان من المواهب والاستعدادات والقوى والطاقات ما يحقق به الخلافة في الأرض ، وما ينهض به بهذا التكليف الضخم . . ولا زيادة . . وانكشاف ستر الغيب له ليس مما يعينه في هذه المهمة . بل إن انطباق أهدابه دونه لما يثير تطلعه إلى المعرفة ، فينقب ويبحث . وفي الطريق يخرج المخبوء في باطن الأرض ، وجوف البحر ، وأقطار الفضاء ؛ ويهتدي إلى نواميس الكون والقوى الكامنة فيه ، والأسرار المودعة في كيانه لخير البشر ، ويحلل في مادة الأرض ويركب ، ويعدل في تكوينها وأشكالها ، ويبتدع في أنماط الحياة ونماذجها . . حتى يؤدي دوره كاملاً في عمارة هذه الأرض ، ويحقق وعد الله بخلافة

هذا المخلوق الإنساني فيها .

وليس الإنسان وحده هو المحجوب عن غيب الله ، ولكن كل من في السماوات والأرض من خلق الله . من ملائكة وجن وغيرهم ممن علمهم عند الله . فكلهم موكلون بأمور لا تستدعي انكشاف ستر الغيب لهم ، فيبقي سره عند الله دون سواه .

﴿ قل : لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ﴾ . .

وهو نص قاطع لا تبقى بعده دعوى لمدع ، ولا يبقى معه مجال للوهم والخرافة .

وبعد هذا التعميم في أمر الغيب يخصص في أمر الآخرة لأنها القضية التي عليها النزاع مع المشركين بعد قضية التوحيد :

﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ . .

ينفي عنهم العلم بموعد البعث في أغمض صوره وهو الشعور . فهم لا يعلمون بهذا الموعد يقينا ، ولا يشعرون به حين يقترب شعوراً . فذلك من الغيب الذي يقرر أن لا أحد يعلمه في السماوات ولا في الأرض . . ثم يضرب عن هذا ليتحدث في موقفهم هم من الآخرة ، ومدى علمهم بحقيقتها :

﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة ﴾ . .

فانتهى إلى حدوده ، وقصر عن الوصول إليها ، ووقف دونها لا يبلغها .

﴿ بل هم في شك منها ﴾ . .

لا يستيقنون بمجيئها ، بله أن يعرفوا موعدها ، وينتظروا وقوعها .

﴿ بل هم منها عمون ﴾ . .

بل هم عنها في عمى ، لا يبصرون من أمرها شيئاً ، ولا يدركون من طبيعتها شيئاً . . وهذه أشد بعداً عن الثانية وعن الأولى :

﴿ وقال الذين كفروا : أإذا كنا تراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون ؟ ﴾ .

.

وهذه كانت العقدة التي يقف أمامها الذين كفروا دائماً : أإذا فارقتنا الحياة ، ورمت أجسادنا وتناثرت في القبور ، وصارت تراباً . . أإذا وقع هذا كله وهو يقع للموتى بعد فترة من دفنهم إلا في حالات نادرة شاذة أإذا وقع هذا لنا ولآبائنا الذين ماتوا قبلنا يمكن أن نبعث أحياء كرة أخرى ، وأن نخرج من الأرض التي اختلط رفاتنا بترابها فصار تراباً ؟

يقولون هذا وتقف هذه الصورة المادية بينهم وبين تصور الحياة الأخرى . وينسون أنهم خلقوا أول مرة ولم يكونوا من قبل شيئاً . ولا يدري أحد أين كانت الخلايا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى . فلقد كانت مفرقة في أطواء الأرض وأعماق البحار وأجواز

الفضاء ، فمنها ما جاء من تربة الأرض ، ومنها ما جاء من عناصر الهواء والماء ، ومنها ما قدم من الشمس البعيدة ، ومنها ما تنفسه إنسان أو نبات أو حيوان ، ومنها ما انبعث مس جسد رمّ وتبخرت بعض عناصره في الهواء ! . . ثم تمثلت هذه الخلايا والذرات في طعام يأكلونه ، وشراب يشربونه ، وهواء يتنفسونه ، وشعاع يستدفئون به . . ثم إذا هذا الشتيت الذي لا يعلم عدده إلا الله ، ولا يحصي مصادره إلا الله ، يتجمع في هيكل إنسان ؛ وهو ينمو من بويضة عالقة في رحم ، حتى يصير جسداً مسجى في كفن . . فهؤلاء في خلقتهم أول مرة ، فهل عجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر في المرة الآخرة ! ولكنهم كانوا هكذا يقولون . وبعضهم ما يزال يقوله اليوم مع شيء من الاختلاف !

(289/582)

هكذا كانوا يقولون . ثم يتبعون هذه القولة الجاهلة المطموسة بالتهكم والاستنكار :

﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل . إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

فهم كانوا يعرفون أن الرسل من قبل قد أنذروا آباءهم بالبعث والنشور . مما يدل على أن العرب لم تكن أذهانهم خالية من العقيدة ، ولا غفلا من معانيها . إنما كانوا يرون أن الوعود لم تتحقق منذ بعيد ؛ فيبنون على هذا استهتارهم بالوعد الجديد قائلين : إنها أساطير

الأولين يرويها محمد صلى الله عليه وسلم غافلين أن للساعة موعدها الذي لا يتقدم لاستعجال البشر ولا يتأخر لرجائهم ، إنما يجيء في الوقت المعلوم لله ، المجهول للعباد في السماوات والأرض سواء . " ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام وهو يسأله عن الساعة : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل " .

وهنا يلمس قلوبهم بتوجيهها إلى مصارع الذين كذبوا قبلهم بالوعيد ويسميهم المجرمين :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ .

وفي هذا التوجيه توسيع لآفاق تفكيرهم ، فالجيل من البشر ليس مقطوعاً من شجرة البشرية ؛ وهو محكوم بالسنن المتحكمة فيها ؛ وما حدث للمجرمين من قبل يحدث للمجرمين من بعد ؛ فإن السنن لا تحيد ولا تحابي .

والسير في الأرض يطلع النفوس على مثل وسير وأحوال فيها عبرة ، وفيها تفتيح لنوافذ مضيئة . وفيها لمسات للقلوب قد توقظها وتحييها . والقرآن يوجه الناس إلى البحث عن السنن المطردة ، وتدبر خطواتها وحلقاتها ، ليعيشوا حياة متصلة الأوشاج متسعة الآفاق ، غير متحجرة ولا مغلقة ولا ضيقة ولا منقطعة .

وبعد أن يوجههم هذا التوجيه يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينفض يديه من أمرهم ، ويدعهم لمصيرهم ، الذي وجههم إلى نظائره ، وألا يضيق صدره بمكرهم ، فإنهم لن يضروه

شيئاً ، وألا يحزن عليهم فقد أدى واجبه تجاههم وأبلغهم وبصرهم .

﴿ ولا تحزن عليهم . ولا تكن في ضيق مما يمكرون ﴾ . .

(290/582)

وهذا النص يصور حساسية قلبه صلى الله عليه وسلم وحزنه على مصير قومه الذي يعلمه من مصائر المكذبين قبلهم ، ويدل كذلك على شدة مكرهم به وبالدعوة وبالمسلمين حتى ليضيق صدره الرحب الكبير .

ثم يمضي في سرد مقولاتهم عن قضية البعث ، واستهانتهم بالوعيد بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة :

﴿ ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ . .

كانوا يقولون هذا كلما خوفوا بمصائر المجرمين قبلهم ، ومصارعهم التي يمرون عليها مصبحين كقرى لوط ، وآثار ثمود في الحجر ، وآثار عاد في الأحقاف ، ومساكن سبأ بعد سيل العرم . . كانوا يقولون مستهزئين : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ متى هذا العذاب الذي تخوفوننا به ؟ إن كنتم صادقين فهاتوه ، أو خبرونا بموعده على التحديد !

وهنا يجيء الرد يلقي ظلال الهول المتربص ، وظلال التهكم المنذر في كلمات قصار :

﴿ قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ . .

بذلك يثير في قلوبهم الخوف والقلق من شبح العذاب . فقد يكون وراءهم رديفاً لهم كما يكون الرديف وراء الراكب فوق الدابة وهم لا يشعرون . وهم في غفلتهم يستعجلون به وهو خلف رديف ! فيالها من مفاجأة ترتعش لها الأوصال . وهم يستهزئون ويستهترون ! ومن يدري . إن الغيب لمحجوب . وإن الستار لمسبل . فما يدري أحد ما وراءه . وقد يكون على قيد خطوات ما يذهل وما يهول ! إنما العاقل من يحذر ، ومن يتهيأ ويستعد في كل لحظة لما وراء الستر المسدول !

﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ . .

وإن فضله ليتجلى في إمهالهم وتأخير العذاب عنهم وهم مذنبون أو مقصرون ، عسى أن يتوبوا إليه ويثوبوا إلى الطريق المستقيم . ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ على هذا الفضل ، إنما يستهزئون ويستعجلون ، أو يسدرون في غيهم ولا يتدبرون .

﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ . .

وهم يمهلهم ويؤخر العذاب عنهم ، مع علمه بما تكنه صدورهم وما تعلنه ألسنتهم وأفعالهم . فهو الإمهال عن علم ، والإمهال عن فضل . وهم بعد ذلك محاسبون عما تكن صدورهم وما يعلنون .

ويختم هذه الجولة بتقرير علم الله الشامل الكامل ، الذي لا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض :

﴿ وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ . .

ويجول الفكر والخيال في السماء والأرض ، وراء كل غائبة . من شيء ، ومن سر ، ومن قوة ، ومن خبر ، وهي مقيدة بعلم الله ، لا تند منها شاردة ، ولا تغيب منها غائبة . والتركيز في السورة كلها على العلم . والإشارات إليه كثيرة ، وهذه واحدة منها تختم بها هذه الجولة .

وبمناسبة الحديث عن علم الله المطلق يذكر ما ورد في القرآن من فصل الخطاب فيما اختلف عليه بنو إسرائيل ، بوصفه طرفاً من علم الله المستيقن ، ونموذجاً من فصل الله وقضائه بين المختلفين . ليكون هذا تعزية لرسوله صلى الله عليه وسلم وليدعهم لله يفصل بينه وبينهم بقضائه الأخير :

﴿ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ؛ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين . إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم . فتوكل على الله إنك على الحق المبين . إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادي العمي

عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ . .

ولقد اختلف النصارى في المسيح عليه السلام وفي أمه مريم .

(292/582)

قالت جماعة : إن المسيح إنسان محض ، وقالت جماعة : إن الأب والإبن وروح القدس إن هي إلا صور مختلفة أعلن الله بها نفسه للناس . فالله بزعمهم مركب من أقانيم ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس (والإبن هو عيسى) فانحدر الله الذي هو الأب في صورة روح القدس وتجسد في مريم إنساناً وولد منها في صورة يسوع ! وجماعة قالت : إن الابن ليس أزلياً كالأب بل هو مخلوق من قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له ! وجماعة أنكروا كون روح القدس أقنوما ! وقرر مجمع نيقية سنة 325 ميلادية ، ومجمع القسطنطينية سنة 381 بأن الإبن وروح القدس مساويان للأب في وحدة اللاهوت ، وأن الإبن قد ولد منذ الأزل من الأب وأن الروح القدس منبثق من الأب . وقرر مجمع طليطلة سنة 589 بأن روح القدس منبثق من الابن أيضاً . فاختلف الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية عند هذه النقطة وظلتا مختلفتين . . فجاء القرآن الكريم يقول كلمة الفصل بين هؤلاء جميعاً . وقال عن المسيح : إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وإنه بشر . . ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا

عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ وكان هذا فصل الخطاب فيما كانوا فيه يختلفون .

واختلفوا في مسألة صلبه مثل هذا الاختلاف . منهم من قال : إنه صلب حتى مات ودفن ثم قام من قبره بعد ثلاثة أيام وارتفع إلى السماء . ومنهم من قال : إن يهوذا أحد حوارييه الذي خانه ودل عليه ألقي عليه شبه المسيح وصلب .

ومنهم من قال : ألقي شبهه على الحواري سيمون وأخذ به . . وقص القرآن الكريم الخبر اليقين فقال : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ وقال : ﴿ يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك . . ﴾ وكانت كلمة الفصل في ذلك الخلاف .

(293/582)

ومن قبل حرف اليهود التوراة وعدلوا تشريعاتها الإلهية ؛ فجاء القرآن الكريم يثبت الأصل الذي أنزله الله : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ﴾ وحدثهم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم ، مجرداً من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم ، مطهراً من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفاً ! . . إبراهيم بزعمهم قدم امرأته لأبيمالك ملك الفلسطينيين ، وإلى فرعون ملك

مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما ! ويعقوب الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب ؛ وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو ! ولوط بزعمهم أسكرته بناته كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر . وكان ما أرادتا ! وداود رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده ، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز بزعمهم بامرأته ! وسليمان مال إلى عبادة (بغل) بزعمهم . مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها !

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم عليه السلام . وهذا القرآن المهيمن على الكتب قبله الذي يفصل في خلافات القوم فيها ، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه هو الذي يجادل فيه المشركون ، وهو الحكم الفصل بين المتجادلين !

﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ . .

(294/582)

﴿ هدى ﴾ يقيهم من الاختلاف والضلال ، ويوحد المنهج ، ويعين الطريق ، ويصلهم بالسنن الكونية الكبرى التي لا تختلف ولا تحيد ، ﴿ ورحمة ﴾ يرحمهم من الشك والقلق والحيرة ، والتخبط بين المناهج والنظريات التي لا تثبت على حال ؛ ويصلهم بالله يطمئنون إلى جواره ويسكنون إلى كنفه ، ويعيشون في سلام مع أنفسهم ومع الناس من حولهم ، وينتهون إلى رضوان الله وثوابه الجزيل .

والمنهج القرآني منهج فريد في إعادة إنشاء النفوس ، وتركيبها وفق نسق الفطرة الخالصة ؛ حيث تجدها متسقة مع الكون الذي تعيش فيه ، متمشية مع السنن التي تحكم هذا الكون في يسر وبساطة ، بلا تكلف ولا تعمل . ومن ثم تستشعر في أعماقها السلام والطمأنينة الكبرى ؛ لأنها تعيش في كون لا تصطدم مع قوانينه وسننه ولا تعاديه ولا يعاديها متى اهتدت إلى مواضع اتصالها به ، وعرفت أن ناموسها هو ناموسه . وهذا التناسق بين النفس والكون ، وذلك السلام الأكبر بين القلب البشري والوجود الأكبر ينبع منه السلام بين الجماعة ، والسلام بين البشر ، وتفيض منه الطمأنينة والاستقرار .

. وهذه هي الرحمة في أشمل صورها ومعانيها . .

وبعد هذه اللمحة إلى فضل الله على القوم بهذا القرآن الذي يفصل بين بني إسرائيل في اختلافاتهم ويقود المؤمنين به إلى الهدى ويسبغ عليهم الرحمة . . يقرر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن ربه سيفصل فيما بينه وبين قومه ، ويحكم بينهم حكمه الذي لا مرد له .

حكمه القوي المبني على العلم اليقين :

﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ . .

وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية كخلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار . سنة لا تتخلف . . قد تبطئ . تبطئ لحكمة يعلمها الله ، وتتحقق بها غايات يقدرها الله . ولكن السنة ماضية . وعد الله لا يخلف الله وعده . ولا يتم الإيمان إلا باعتقاد صدقه وانتظار تحققه . ولوعد الله أجل لا يستقدم عنه ولا يستأخر .

(295/582)

ويمضي في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتأسيته على جموح القوم ولجاجهم في العناد وإصرارهم على الكفر بعد الجهد الشاق في النصح والبيان ، وبعد مخاطبتهم بهذا القرآن . . يمضي في تسليته والتسرية عنه من هذا كله ؛ فهو لم يقصر في دعوته . ولكنه إنما يسمع أحياء القلوب الذين تعي آذانهم فتتحرك قلوبهم ، فيقبلون على الناصح الأمين . فأما الذين ماتت قلوبهم ، وعميت أبصارهم عن دلائل الهدى والإيمان ، فما له فيهم حيلة ، وليس له إلى قلوبهم سبيل ؛ ولا ضير عليه في ضلالهم وشرودهم الطويل :

﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادي العمي عن

ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ . .

والتعبير القرآني البديع يرسم صورة حية متحركة لحالة نفسية غير محسوسة . حالة جمود القلب ، وخمود الروح ، وبلادة الحس ، وهمود الشعور . فيخرجهم مرة في صورة الموتى ، والرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ، وهم لا يسمعون الدعاء ، لأن الموتى لا يشعرون ! ويخرجهم مرة في هيئة الصم مدبرين عن الداعي ، لأنهم لا يسمعون ! ويخرجهم مرة في صورة العمي يمضون في عماهم ؛ لا يرون الهادي لأنهم لا يبصرون ! وتتراءى هذه الصور المجسمة المتحركة ، فتمثل المعنى وتعمقه في الشعور !

وفي مقابل الموتى والعمي والصم يقف المؤمنون . فهم الأحياء ، وهم السامعون ، وهم المبصرون .

﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ . .

إنما تسمع الذين تهيأت قلوبهم لتلقي آيات الله ، بالحياة والسمع والبصر . وآية الحياة الشعور . وآية السمع والبصر الانتفاع بالمسموع والمنظور . والمؤمنون ينتفعون بحياتهم وسمعهم وأبصارهم . وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم هو أن يسمعهم ، فيدلهم على آيات الله ، فيستسلمون لتوهم ولحظتهم ﴿ فهم مسلمون ﴾ .

إن الإسلام بسيط وواضح وقريب إلى الفطرة السليمة ؛ فما يكاد القلب السليم يعرفه ، حتى يستسلم له ، فلا يشاق فيه .

وهكذا يصور القرآن تلك القلوب ، القابلة للهدى ، المستعدة للاستماع ، التي لا تجادل ولا تماري بمجرد أن يدعوها الرسول فيصلها بآيات الله ، فتؤمن لها وتستجيب .

بعد ذلك يجول بهم جولة أخرى في أشراط الساعة ، وبعض مشاهدها ، قبل الإيقاع الأخير الذي يختم به السورة . . جولة يذكر فيها ظهور الدابة التي تكلم الناس الذين كانوا لا يؤمنون بآيات الله الكونية . ويرسم مشهداً للحشر والتبكيت للمكذبين بالآيات وهم واجمون صامتون . ويعود بهم من هذا المشهد إلى آيتي الليل والنهار المعروضتين للأبصار وهم عنها غافلون . ثم يرتد بهم ثانية إلى مشهد الفزع يوم ينفخ في الصور ، ويوم تسير الجبال وتمر مر السحاب ؛ ويعرض عليهم مشهد المحسنين آمنين من ذلك الفزع ، والمسيئين كبت وجوههم في النار :

﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ . ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون . حتى إذا جاءوا قال : أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ .

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب . صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟ ﴾ . .

(297/582)

وقد ورد ذكر خروج الدابة المذكورة هنا في أحاديث كثيرة بعضها صحيح ؛ وليس في هذا الصحيح وصف للدابة . إنما جاء وصفها في روايات لم تبلغ حد الصحة . لذلك نضرب صفحاً عن أوصافها ، فما يعني شيئاً أن يكون طولها ستين ذراعاً ، وأن تكون ذات زغب وريش وحافر ، وأن يكون لها لحية ! وأن يكون رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل . وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير . . . إلخ هذه الأوصاف التي افتن فيها المفسرون !

وحسبنا أن نقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من

علامات الساعة ، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة ؛ وحق القول على الباقين فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك ؛ وإنما يقضى عليهم بما هم عليه . . عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم . والدواب لا تتكلم ، أولا يفهم عنها الناس . ولكنهم اليوم يفهمون ، ويعلمون أنها الخارقة المنبئة باقتراب الساعة . وقد كانوا لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون باليوم الموعود .

ومما يلاحظ أن المشاهد في سورة النمل مشاهد حوار وأحاديث بين طائفة من الحشرات والطير والجن وسليمان عليه السلام . فجاء ذكر " الدابة " وتكليمها الناس متناسقاً مع مشاهد السورة وجوها ، محققاً لتناسق التصوير في القرآن ، وتوحيد الجزئيات التي يتألف منها المشهد العام .

ويعبر السياق من هذه العلامة الدالة على اقتراب الساعة ، إلى مشهد الحشر !

﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ . .

والناس كلهم يحشرون . إنما شاء أن يبرز موقف المكذبين ﴿ فهم يوزعون ﴾ يساقون أولهم على آخرهم ، حيث لا إرادة لهم ولا وجهة لا اختيار .

﴿ حتى إذا جاءوا قال : أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً ؟ أم ماذا كنتم تعملون ؟ ﴾ .

والسؤال الأول للتخجيل والتأنيب . فمعروف أنهم كذبوا بآيات الله . أما السؤال الثاني فملؤه التهكم ، وله في لغة التخاطب نظائر : أكذبتم ؟ أم كنتم تعملون ماذا ؟ فما لكم عمل ظاهر يقال : إنكم قضيتم حياتكم فيه ، إلا هذا التكذيب المستنكر الذي ما كان ينبغي أن يكون . . ومثل هذا السؤال لا يكون عليه جواب إلا الصمت والوجوم ، كأنما وقع على المسؤول ما يلجم لسانه ويكبت جنانه :

﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ . .

وحق عليهم القضاء بسبب ظلمهم في الدنيا ، وهم واجمون صامتون ! ذلك على حين نطقت الدابة قبيل ذلك . وها هم الناس لا ينطقون ! وذلك من بدائع التقابل في التعبير القرآني ، وفي آيات الله التي يعبر عنها هذا القرآن .

ونسق العرض في هذه الجولة ذو طابع خاص ، هو المزاوجة بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ، والانتقال من هذه إلى تلك في اللحظة المناسبة للتأثر والاعتبار .

وهو هنا ينتقل من مشهد المكذبين بآيات الله ، المبهوتين في ساحة الحشر إلى مشهد من مشاهد الدنيا ، كان جديراً أن يوقظ وجدانهم ، يدعوهم إلى التدبر في نظام الكون وظواهره ، ويلقي في روعهم أن هناك إلهاً يرعاهم ، ويهيء لهم أسباب الحياة والراحة ، ويخلق الكون مناسباً لحياتهم لا مقاوماً لها ولا حرباً عليها ولا معارضاً لوجودها أو

استمرارها :

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

ومشهد الليل الساكن ، ومشهد النهار المبصر ، خليقان أن يوقظا في الإنسان وجداناً دينياً يجنح إلى الاتصال بالله ، الذي يقلب الليل والنهار ، وهما آيتان كونيتان لمن استعدت نفسه للإيمان ، ولكنهم لا يؤمنون .

(299/582)

ولو لم يكن هناك ليل فكان الدهر كله نهاراً لانعدمت الحياة على وجه الأرض ؛ وكذلك لو كان الدهر كله ليلاً . لا بل إنه لو كان النهار أو الليل أطول مما هما الآن عشر مرات فقط لحرقت الشمس في النهار كل نبات ، ولتجمد في الليل كل نبات . وعندئذ تستحيل الحياة .

ففي الليل والنهار بحالتهما الموافقة للحياة آيات .

ولكنهم لا يؤمنون .

ومن آيتي الليل والنهار في الأرض ، وحياتهم الآمنة المكفولة في ظل هذا النظام الكوني الدقيق يعبر بهم في ومضة إلى يوم النفخ في الصور ، وما فيه من فزع يشمل السماوات والأرض ومن فيهن من الخلائق إلا من شاء الله . ما فيه من تسيير للجبال الرواسي التي

كانت علامة الاستقرار ؛ وما ينتهي إليه هذا اليوم من ثواب بالأمن والخير ، ومن عقاب بالفزع والكب في النار :

﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ؛ وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خبير بما تفعلون . من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار . هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ . .

والصور البوق ينفخ فيه . وهذه هي نفخة الفزع الذي يشمل كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله أن يأمن ويستقر . . قيل هم الشهداء . . وفيها يصعق كل حي في السماوات والأرض إلا من شاء الله .

ثم تكون نفخة البعث . ثم نفخة الحشر . وفي هذه يحشر الجميع : ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ أذلاء مستسلمين .

ويصاحب الفزع الانقلاب الكوني العام الذي تختل فيه الأفلاك ، وتضطرب دورتها . ومن مظاهر هذا الاضطراب أن تسير الجبال الراسية ، وتمر كأنها السحاب في خفته وسرعته وتناثره . ومشهد الجبال هكذا يتناسق مع ظل الفزع ، ويتجلى الفزع فيه ؛ وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين ، مفزوعة مع المفزوعين ، هائمة مع الهائمين الحائرين المنطلقين بلا وجهة ولا قرار !

﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ .

سبحانه ! يتجلى إتقان صنعته في كل شيء في هذا الوجود . فلا فلتة ولا مصادفة ، ولا ثغرة ولا نقص ، ولا تفاوت ولا نسيان . ويتدبر المتدبر كل آثار الصنعة المعجزة ، فلا يعثر على خلة واحدة متروكة بلا تقدير ولا حساب . في الصغير والكبير ، والجليل والحقير . فكل شيء بتدبير وتقدير ، يدير الرؤوس التي تتابعه وتتملاه .

﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ . .

وهذا يوم الحساب عما تفعلون . قدره الله الذي أتقن كل شيء . وجاء به في موعده لا يستقدم ساعة ولا يستأخر ؛ ليؤدي دوره في سنة الخلق عن حكمة وتدبير ؛ وليحقق التناسق بين العمل والجزاء في الحياتين المتصلتين المتكاملتين ، ﴿ صنع الله الذي أتقن كل شيء . إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا ، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر :

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها . وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ .

والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء . وما بعده فضل من الله ومنة . ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة .

(301/582)

بل أمنهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله .

(ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) . .

وهو مشهد مفزع . وهم يكبون في النار على وجوههم . ويزيد عليهم التبكيت والتوبيخ !

هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ? . .

فقد تنكبوا الهدى , وأشاحوا عنه بوجوهم ; فهم يجزون به كبا لهذه الوجوه في النار وقد أعرضت من قبل عن الحق الواضح وضوح الليل والنهار .

الدرس الرابع: 91 - 93 خلاصة دعوة الرسول ودعوة للاختبار

وفي النهاية تجيء الإيقاعات الأخيرة: حيث يلخص الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعوته ومنهجه في الدعوة ; ويكلهم إلى مصيرهم الذي يرتضونه لأنفسهم بعد ما مضى من بيان ; ويختم بحمد الله كما بدأ , ويدعهم إلى الله يكشف لهم آياته , ويحاسبهم على ما يعملون:

إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها , وله كل شيء , وأمرت أن أكون من

المسلمين , وأن أتلوا القرآن , فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه , ومن ضل فقل:إنما أنا من المنذرين . وقل:الحمد لله , سيريكم آياته فتعرفونها . وما ربك بغافل عما تعملون . .

وهم كانوا يدينون بحرمة البلدة الحرام والبيت الحرام ; وكانوا يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت ; ثم لا يوحدون الله الذي حرمه وأقام حياتهم كلها عليه .

فالرسول (صلى الله عليه وسلم) يقوم العقيدة كما ينبغي أن تقوم , فيعلن أنه مأمور أن يعبد رب هذه البلدة

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

(302/582)

الذي حرمها , لا شريك له ; ويكمل التصور الإسلامي للألوهية الواحدة , فرب هذه البلدة هو رب كل شيء في الوجود (وله كل شيء)ويعلن أنه مأمور بأن يكون من المسلمين .

المسلمين كل ما فيهم له . لا شركة فيهم لسواه . وهم الرعيل الممتد في الزمن المتطاول من الموحدين المستسلمين .

هذا قوام دعوته . أما وسيلة هذه الدعوة فهي تلاوة القرآن:

(وأن أتلو القرآن) . .

فالقرآن هو كتاب هذه الدعوة ودستورها ووسيلتها كذلك . وقد أمر أن يجاهد به الكفار . وفيه وحده الغناء فى جهاد الأرواح والعقول . وفيه ما يأخذ على النفوس أقطارها , وعلى المشاعر طرقها ; وفيه ما يزلزل القلوب الجاسية ويهزها هزا لا تبقى معه على قرار . وما شرع القتال بعد ذلك إلا لحماية المؤمنين من الفتنة , وضمان حرية الدعوة بهذا القرآن , والقيام على تنفيذ الشرائع بقوة السلطان . أما الدعوة ذاتها فحسبها كتابها . . (وأن أتلو القرآن) . .

(فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه . ومن ضل فقل: إنما أنا من المنذرين) . .

وفي هذا تتمثل فردية التبعة في ميزان الله , فيما يختص بالهدى والضلال . وفي فردية التبعة تتمثل كرامة هذا الإنسان , التي يضمنها الإسلام , فلا يساق سوق القطيع إلى الإيمان . إنما هي تلاوة القرآن , وتركه يعمل عمله في النفوس , وفق منهجه الدقيق العميق , الذي يخاطب الفطرة في أعماقها , وفق ناموسها المتسق مع منهج القرآن .

(وقل: الحمد لله) مقدمة لما يتحدث عنه من صنع الله:

(سيريكم آياته فتعرفونها) . .

وصدق الله . ففي كل يوم يري عباده بعض آياته في الأنفس والآفاق . ويكشف لهم عن

بعض أسرار هذا الكون الحافل بالأسرار

(وما ربك بغافل عما تعملون) . .

وهكذا يلقي إليهم في الختام هذا الإيقاع الأخير , في هذا التعبير الملفوف . اللطيف . المخيف . . ثم يدعهم يعملون ما يعملون , وفي أنفسهم أثر الإيقاع العميق : (وما ربك بغافل عما تعملون) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2648 . 2670 ﴾

(303/582)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ قل سيروا ﴾ في أرض البشرية ﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ لأن خواص نفوسهم انموذج من جهنم كما أن خواص أهل القلوب انموذج من الجنة ﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم ﴾ لأنه خمر طينة آدم بيديه اربعين صباحاً ونفخ فيه من روحه فهو مطلع على قالبه وعلى قلبه ولهذا قال ﴿ وما من غائبة ﴾ من الخواص في سماء القلب وأرض القالب ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ وهو علم الله تعالى أن هذا القرآن يقص لأن كل كتاب كان مشتملاً على شرح مقام ذلك النبي ولم يكن لنبي مقام في القرب مثل نبينا ، فلا جرم

لم يكن في كتبهم من الحقائق مثل ما في القرآن ولهذا قال ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ اي بين هذه الأمة وبين أمة كل نبي بحكمه أي بحكمته بأن يبلغ متابعي كل نبي إلى مقام نبيهم ويبلغ متابعي نبينا صلى الله عليه وسلم إلى مقام المحبة . فاتبعوني يحببكم الله ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لعزته لا يهدي كل مثمن إلى مقام حبيبه ﴿ العليم ﴾ بمن يستحق هذا المقام . ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ في دعوة الخلق إلى الله ﴿ وإذا وقع القول عليهم ﴾ وذلك بعد البلوغ ومضى زمان الرعي في مراتع البهيمية ﴿ أخرجنا لهم ﴾ من تحت أرض البشرية ﴿ دابة تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ وهي النفس الناطقة فإنها إلى الآن كانت موصوفة بصفة الصمم والبكم بتبعية النفس الأمارة التي لا توقن هي وصفاتها بالدلائل . ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ من كلامه وهي صفات الروح والقلب وذلك بعد التصفية والمداومة على الذكر والفكر ، حتى إذا رجعوا إلى الحضرة ﴿ قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أماذا كنتم تعملون ﴾ بعد أن كنتم مصدقيها عند خطاب ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] وهذا خطاب فيه استبطاء وعتاب وقع قول يحبهم عليه بدل ما ظلموا فهم لا ينطقون كقوله " من عرف الله كل لسانه " ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ جعلنا ليل

البشرية سبباً لاستجمام القلب ونهار الروحانية بتجلي شمس الربوبية مبصراً يبصر به الحق من الباطل .

﴿ ويوم ينفخ ﴾ إسرافيل المحبة في صور القلب ﴿ ففزع ﴾ من في سموات الروح من الصفات الروحانية ومن في أرض البشرية من الصفات النفسانية ﴿ إلا من شاء الله ﴾ من أهل البقاء الذين أحيوا بحياته وأفاقوا بعد صعقة الفناء وهي النفخة الأولى في بداية تأثير العناية للهداية وإلقاء المحبة التي تظهر القيامة في شخص المحب . وفزع الصفات هيجانها للطلب بتهييج أنوار المحبة ﴿ إلا من شاء الله ﴾ وهو الخفي وهي لطيفة في الروح بالقوة وإنما تصير بالفعل عند طلوع شموع الشواهد وآثار التجلي فلا يصيبه الفزع بالنفخة الأولى ولا تدركه الصعقة بالنفخة الثانية ﴿ وترى ﴾ جبال الأشخاص ﴿ جامدة ﴾ على حالها ﴿ وهي تمر ﴾ بالسير في الصفات وتبديل الأخلاق ﴿ مر السحاب ﴾ ﴿ رب هذه البلدة ﴾ وهي القلب والرب هو الله كما أن رب بلدة القالب هو النفس الأمارة وأنه تعالى حرم بلدة القلب على الشيطان كما قال ﴿ يوسوس في صدور الناس ﴾ [الناس : 5] دون أن يقول " في قلوب الناس " ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ فيه إذا لم ير الآيات لم يمكن عرفانها اللهم اجعلنا من العارفين واكشف عنا غطاءنا بحق محمد وآله صلى الله وسلم عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 324 . 325 ﴾

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات ما قيل : وأنزل من السماء أي سماء القلب ماءً هو ماء نظر الرحمة فأنبتنا به حدائق ذات بهجة من العلوم والمعاني والأسرار والحكم البالغة ، ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ [النمل : 60] أي أصولها لما أن العلوم الإلهية غير اختيارية بل كل علم ليس باختياري في نفسه وإلا لزم تقدم الشيء على نفسه نعم هو اختياري باعتبار الأسباب ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الأرض ﴾ أي أرض النفس قراراً في الجسد ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً ﴾ من دواعي البشرية ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ ﴾ من قوى البشرية والحواس ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين ﴾ بحر الروح وبحر النفس ﴿ حَاجِزاً ﴾ [النمل : 61] وهو القلب ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ المضطر ﴾ وهو المستعد لشيء من الأشياء ﴿ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : 62] بلسان الاستعداد وطلب منه تعالى ما استعد له ، وقال بعضهم : المضطر المستغرق في بحار شوقه تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ القول عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً ﴾ وهي النفس الناطقة والروح الإنساني

﴿ مّنَ الأرض ﴾ [النمل : 82] أي أرض البشرية وعلى هذا النمط تكلموا في سائر

الآيات وساق الشيخ الأكبر قدس سره قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] دليلاً على ما يدعيه من تجدد الجواهر كالأعراض عند الأشعري وعدم بقائها زمانين ، ومبنى ذلك عنده القول بوحدة الوجود وأنه سبحانه كل يوم هو في شأن ، والكلام في صحة هذا المبنى واستلزامه للمدعي لا يخفي على العارض ، وأما الاستدلال بهذه الآية لهذا المطلب فمن أمهات العجائب وأغرب الغرائب . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(306/582)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة النّمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (1) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)

الإعراب :

(آيات) خبر المبتدأ تلك ، مرفوع ، والإشارة إلى آيات السورة (الواو) عاطفة (كتاب)

معطوف على القرآن مجرور .

جملة : " تلك آيات القرآن . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة . . .

(2 - 3) (هدى) خبر ثان مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة " 1 " ، (للمؤمنين) متعلّق ببشرى ، (الذين) اسم موصول في محلّ جرّ نعت للمؤمنين " 2 " ، (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (هم) الثاني في محلّ رفع توكيد

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هي . . . أو حالا من آيات ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة .

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم . . .

للأول (بالآخرة) متعلّق بـ (يوقنون) .

وجملة : " يقيمون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يؤتون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هم . . . يوقنون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " .

وجملة : " يوقنون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) الأول .

البلاغة

1 - التنكير : في قوله تعالى وَكِتَابٍ مُبِينٍ :

نكّر الكتاب المبين ، ليبهم بالتنكير ، فيكون أفخم له ، كقوله تعالى فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ . أما عطفه على القرآن مع أنه هو القرآن نفسه ، فهو من قبيل عطف إحدى الصفتين على الأخرى كقولك : هذا فعل السخي والجواد الكريم ، لأن القرآن هو المنزل المبارك المصدّق لما بين يديه ، فكان حكمه حكم الصفات المستقلة بالمدح .

2 - تكرير الضمير : في قوله تعالى وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل يقيمون ويؤتون .

كرر الضمير ، حتى صار معنى الكلام : ولا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، لأن خوف الآخرة يحملهم على تحمل المشاق .

3 - التعبير بالاسمية والفعلية : في قوله تعالى الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ فإن الإيمان والإيقان بالآخرة أمر ثابت مطلوب دوامه ، ولذلك أتى به جملة اسمية ، وجعل خبرها فعلا مضارعا ، فقال " وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ " ، للدلالة

على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد أما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، مما يتكرر ويتجدد في أوقاتهما المعينة ، ولذلك أتى بهما فعلين ، فقال الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ .

[سورة النمل (27) : الآيات 4 إلى 5]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5)

الإعراب :

(بالآخرة) متعلّق بـ (لا يؤمنون) ، (لهم) متعلّق بـ (زيّنا) ، (الفاء) عاطفة .

جملة : "إنّ الذين . . زيّنا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يؤمنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " زيّنا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هم يعمهون " في محلّ رفع معطوفة على جملة زيّنا . . .

وجملة : " يعمهون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(5) (أولئك) مبتدأ ، خبره (الذين) ، (لهم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (سوء) ، (هم . . . الأخسرون) مثل (هم . . . يوقنون . . .) " 1 " .

وجملة : " أولئك الذين . . . " في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) .

وجملة : " لهم سوء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " هم . . . الأخسرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لهم سوء " 2 " .

[سورة النمل (27) : آية 6]

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

---

(1) في الآية السابقة .

(2) يجوز أن تكون معطوفة على جملة أولئك الذين ، أو معطوفة على الموصول خبر أولئك . [. . . . .]

(309/582)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) هي المزحلقة ، ونائب الفاعل في (تلقّي) ضمير مستتر تقديره أنت (من لدن) متعلّق بـ (تلقّي) .

جملة : " إنّك لتلقّى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تلقّى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ . . .

الصرف :

(تلقّى) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله تلقّي ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، ورسمت قصيرة بياء غير منقوطة لأنها خامسة .

[سورة النمل (27) : الآيات 7 إلى 8]

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (8)

الإعراب :

(إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (لأهله) متعلّق بـ (قال) ، (السين) حرف استقبال (منها) متعلّق بـ (آتيكم) الأول " 1 " ، (بخبر) متعلّق بـ (آتيكم) الأول (بشهاب) متعلّق بـ (آتيكم) الثاني (قبس) بدل من شهاب مجرور " 2 " .

جملة : " قال موسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجملة اذكر المقدرّة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إني آنست . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آنست نارا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو بحال من خبر - نعت تقدّم على المنعوت -

(2) يجوز أن يكون نعتا له من قبيل الوصف بالمصدر .

وجملة : " سآتيكم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " آتيكم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة آتيكم (الأولى) .

وجملة : " لعلّكم تصطلون " لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ – وجملة : " تصطلون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

(2) (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب نودي ، ونائب الفاعل في (نودي) ضمير مستتر تقديره هو أي موسى " 1 " ، (أن) حرف تفسير " 2 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع نائب الفاعل (في النار) متعلّق بمحذوف صلة الموصول (من) ، (من حولها) مثل من في النار ومعطوف عليه ، (الواو) استئنافيّة (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره نسبّح (ربّ) نعت للفظ الجلالة مجرور مثله . . .

وجملة : " جاءها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نودي . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " بورك . . . " لا محلّ لها تفسيريّة . .

وجملة : " (نسبّح) سبحان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . .

---

(1) يجوز أن يكون نائب الفاعل هو المصدر المؤوّل : أن بورك . . . أو هو ضمير المصدر المفهوم من الفعل أي : النداء .

(2) تقدّمها فعل بمعنى القول دون حروفه . . . أو هي حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي بأن بورك ، متعلّق بـ (نودي) . . .

ويجوز أن تكون المخفّفة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف أي بأنّه بورك من في النار . . .

الجدول ج 19 ، ص : 142

الصرف :

(تصطلون) ، فيه إبدال تاء الافتعال طاء ، أصله تصتلون ، فلمّا جاءت التاء بعد الصاد قلبت طاء .

(بورك) ، فيه قلب الألف واوا لسكونها وتحرّك ما قبلها بالضمّ لمناسبة البناء للمجهول .

البلاغة

استعمال " أو " بدل الواو : في قوله تعالى سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ .

آثر "أو" على الواو، لنكتة بلاغية رائعة، فإن "أو" تفيد التخيير، وقد بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار هضما لنفسه واعترافا بقصوره نحو ربه.

الفوائد

- تصطلون:

أصل الكلمة: تصتلون. ولكن حسب القاعدة التي تجنح دائما لتسهيل النطق، فعند ما وقعت التاء بعد الصاد، إحداهما مرققة والثانية مفخمة، وقد نجم عن ذلك صعوبة في الانتقال لبعد المخرجين عن بعضهما اقتضى قلب التاء طاء لتوحد المخرجين أو تقاربهما وبالتالي سهولة النطق بهما فتبصر . . . !

[سورة النمل (27): الآيات 9 إلى 12]

يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (12)

الإعراب:

(موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر في محلّ نصب ، و(الهاء) في (انّه) هو ضمير الشأن في محل نصب اسم إنّ (العزيز) نعت للفظ الجلالة مرفوع (الحكيم) نعت ثان مرفوع.

جملة : " النداء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " إنّه أنا اللّه . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنا اللّه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(312/582)

---

(10) (الواو) عاطفة و(الفاء) كذلك (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب (ولّى) ، (مدبرا) حال منصوبة مؤكّدة لمضمون عاملها (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة ، والثانية نافية (لديّ) ظرف مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (يخاف) المنفيّ . والياء الثانية من المشددة في محلّ جرّ بالإضافة .

وجملة : " ألق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " رآها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تهتزّ . . " في محلّ نصب حال من مفعول رآها .

وجملة : "كأنّها جانّ . . . "في محلّ نصب حال من فاعل تهتزّ" 1 " .

وجملة : "ولّى . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "لم يعقّب . . . "لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة النداء الثانية في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر .

وجملة : "لا تخف . . . "لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : "إنّي لا يخاف . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة وجملة : "لا يخاف . . . المرسلون . . . "في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أو حال ثانية من المفعول .

(313/582)

---

(11) (إلّا) أداة استثناء " 1 " ، (من) اسم موصول في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع " 2 " ، (ثمّ) حرف عطف (حسنا) مفعول به منصوب (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (بدّل) ، (الفاء) تعليليّة (رحيم) خبر ثان مرفوع .

وجملة : "ظلم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : "بدّل" لا محلّ لها معطوفة على جملة ظلم .

وجملة : " إنّي غفور . . . " لا محلّ لها تعليليّة لمقدّر أي فأغفر له فإنّي غفور " 3 " .

(12) (الواو) عاطفة (في جيبك) متعلّق بـ (أدخل) ، (تخرج) مضارع مجزوم جواب الطلب (بيضاء) حال منصوبة (من غير) متعلّق بحال ثانية من فاعل تخرج (في تسع) متعلّق بحال ثالثة من فاعل تخرج أي آية في تسع آيات " 4 " ، (إلى فرعون) متعلّق بحال من تسع آيات " 5 " ، (فاسقين) نعت لـ (قوما) منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة : " أدخل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تخف " 6 " .

وجملة : " تخرج . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن تدخل يدك . . . تخرج . . .

وجملة : " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) أو حرف بمعنى (لكن) .

(2) أو في محلّ رفع بدل من (المرسلون) ، ويجوز أن يكون (من) اسم شرط مبتدأ خبره جملة ظلم . . .

(3) أو هي تعليل لجواب الشرط المقدّر وتقديره فأغفر له .

(4) أو متعلّق بمحذوف تقديره اذهب . . .

(5) يجوز تعليقه في الفعل المقدّر اذهب . . .

(6) وعلى هذا فما بين الجملتين اعتراض .

وجملة : "كانوا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة النمل (27) : الآيات 13 إلى 14]

فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لمّا جاءتهم) مثل لمّا رآها " 1 " ، (مبصرة) حال منصوبة من آياتنا .

وجملة : " جاءتهم آياتنا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هذا سحر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(14) (الواو) عاطفة (بها) متعلّق بـ (جحدوا) ، (الواو) حاليّة (ظلما) مصدر في موضع الحال " 2 " ، منصوب (الفاء) استئنافيّة (كيف) اسم استفهام مبني في محلّ نصب خبر كان .

وجملة : " جحدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

---

(1) في الآية (10) من هذه السورة .

(2) أي ظالمين ، فالعامل فيها فعل جحدوا . . . ويجوز أن يكون (ظلما) مفعولا لأجله أي جحدوا بها لظلمهم .

(314/582)

وجملة : " استيقنتها أنفسهم . . . " في محلّ نصب حال من فاعل جحدوا بتقدير قد .

وجملة : " انظر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول النظر - أو بتقدير الجارّ - وقد علّق الفعل بالاستفهام .

الصرف :

(مبصرة) ، مؤنّث مبصر ، اسم فاعل من أبصر الرباعي في معنى المفعول على طريقة المجاز العقليّ .

البلاغة

الاستعارة المكنية التخييلية : في قوله تعالى فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً .

جعل الأبصار لها ، وهو حقيقة لمتأمليها ، للملابسة بينها وبينهم ، لأنهم إنما يبصرون بسبب تأملهم فيها ، فالإسناد مجازي ، من باب الإسناد إلى السبب .

ويجوز أن تجعل الآيات ، كأنها تبصر فتهدي ، لأن العمي لا تقدر على الاهتداء فضلا أن تهدي غيرها ، فيكون في الكلام استعارة مكنية تخييلية مرشحة .

[سورة النمل (27) : الآيات 15 إلى 26]

(315/582)

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها

عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (24)

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

الإعراب :

(316/582)

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (علما) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (للّه) متعلّق بخبر محذوف للمبتدأ الحمد (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (على كثير) متعلّق بـ (فضّلنا) ، (من عباده) متعلّق بنعت لكثير.

جملة : "القسم المقدّرة . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : "آتينا . . . "لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة : "قالا . . . "لا محلّ لها معطوفة على مقدّر أي : فعملا بما أعطيناهما وقالا الحمد للّه . . .

وجملة : " الحمد للّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " فضّلنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

(16) (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (أيّها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب " 1 " ، (الناس) بدل من أيّ – أو عطف بيان – مرفوع لفظا (منطق) مفعول به ثان منصوب " 2 " (من كلّ) متعلّق بـ (أوتينا) ، (اللام) هي المزحلقة للتوكيد (المبين) نعت للفضل مرفوع .

وجملة : " ورث سليمان . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ورث .

وجملة : " النداء وجوابها : " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " علّمنا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أوتينا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " إنّ هذا لهو الفضل . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " هو الفضل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(17) (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لسليمان) متعلّق بـ (حشر) ، (جنوده) نائب الفاعل مرفوع (من الجنّ) متعلّق بحال من جنوده (الفاء) عاطفة ، والواو في (يوزعون) نائب الفاعل .

وجملة : " حشر . . . جنوده " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال . . .

---

(1) و(ها) للتنبيه لا محل لها . [. . . . .]

(2) المفعول الأول صار نائب فاعل لـ (علمنا) .

(317/582)

وجملة : " هم يوزعون " لا محلّ لها معطوفة على جملة حشر . . .

وجملة : " يوزعون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(18) (حتى) حرف ابتداء (على واد) متعلّق بـ (أتوا) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة للتخفيف (يا أيها النمل) مثل يا أيها الناس (لا) نافية " 1 " ، (يحطمنّكم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع ، والنون نون التوكيد (الواو) واو الحال (لا) نافية .

وجملة : " أتوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالت نملة . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " النداء وجوابه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ادخلوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا يحطمنّكم سليمان " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هم لا يشعرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يشعرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(19) (الفاء) عاطفة (ضاحكا) حال من فاعل تبسّم مؤكّدة لمضمون الفعل " 2 " ، (من قولها) متعلّق بـ (ضاحكا) " 3 " والنون في (أوزعني) نون الوقاية (التي) اسم موصول في محلّ نصب نعت لنعمتك (عليّ) متعلّق بـ (أنعمت) ، وكذلك (على والديّ) لأنه معطوف على الأول .

والمصدر المؤول (أن أشكر . . .) في محلّ نصب مفعول به ثان عامله أوزعني .

---

(1) جاء الفعل بعدها مؤكدا بالنون حملا لها في اللفظ على الناهية .

(2) أو حال مقدّرة لأن التبسّم ابتداء الضحك .

(3) أو متعلّق بـ (تبسّم) .

والمصدر المؤوّل (أن أعمل . . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول .

(برحمتك) متعلّق بحال من مفعول أدخلني أي متلبّسا برحمتك (في عبادك) متعلّق بـ (أدخلني) .

وجملة : " تبسّم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالت نملة .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تبسّم .

وجملة النداء جوابه . . . في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة : " أوزعني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أشكر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أنعمت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

وجملة : " اعمل " لا محل لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " ترضاه . . . " في محلّ نصب نعت لـ (صالحا) .

وجملة : " أدخلني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوزعني .

(20) (الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (لي) .

متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ما) ، (لا) نافية (أم) هي المنقطعة بمعنى بل (من الغائبين) متعلّق بمحذوف خبر كان .

وجملة : " تفقد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال " 2 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تفقّد .

---

(1) يجوز أن تكون جملة النداء اعتراضيّة دعائيّة ، وجملة أوزعني مقول القول .

(2) أو هي استئنافيّة في معرض قصة سليمان عليه السلام .

(319/582)

وجملة : " ما لي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا أرى . . . " في محلّ نصب حال من الياء في (لي) .

وجملة : " كان من الغائبين " لا محلّ لها استئنافيّة .

(21) (اللام) لام القسم لقسم مقدّر في المواضع الثلاثة (أعذّبنه) مثل يحطمنّكم وكذلك (أذبحنّه ، يأتينيّ) ، (عذابا) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر لأنه اسم المصدر (أو) حرف عطف في الموضعين (بسلطان) متعلّق بـ (يأتينّي) " 1 " .

وجملة : " أعذّبنّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " أذبحنّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعذّبنّه .

وجملة : " يأتيني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أعذّبنّه " 2 " .

(22) (الفاء) عاطفة (غير) ظرف زمان أو مكان " 3 " منصوب متعلّق بـ (مكث) ،

(بما) متعلّق بـ(أحطت) " 4 " ، (به) متعلّق بـ(تحط) ، (من سبأ) متعلّق بـ(جئتك) ، (بنبإ) متعلّق بحال من فاعل جئتك أي متلبّسا بنبإ .

---

(1) أو بحال من فاعل يأتيني أي متلبسا بسلطان .

(2) العطف هنا اقتضته الصناعة الإعرابيّة ، أمّا المعنى فإنّ (أو) قبله بمعنى إلّا أي لأعذّبنّه إلّا أن يأتيني ، أو لأذبحنّه إلّا أن يأتينيّ . . .

(3) يجوز أن يكون مفعولا مطلقا نائبا عن المصدر بكونه صفته أي مكثا غير بعيد .

(4) (ما) موصول أو نكرة موصوفة .

(320/582)

وجملة : " مكث . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

فجاء الهدهد فمكث . . .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مكث .

وجملة : " أحطت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم تحط به " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 1 " .

وجملة : " جئتك . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أحطت .

(23) (الواو) عاطفة في الموضعين (من كلّ) متعلّق بـ (أوتيت) ، (لها) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ عرش .

وجملة : " إنّي وجدت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " وجدت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " تملكهم " في محلّ نصب نعت لامرأة .

وجملة : " أوتيت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تملكهم " 2 " .

وجملة : " لها عرش . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تملكهم .

(24) (الواو) عاطفة (قومها) معطوفة على الضمير المفعول في (وجدتها) ، (للشمس) متعلّق بـ (يسجدون) ، (من دون) متعلّق بحال من الشمس (الواو) حاليّة (لهم) متعلّق بـ (زيّن) ، (الفاء) عاطفة (عن السبيل) متعلّق بـ (صدّ) (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (لا) نافية .

وجملة : " وجدتها . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " يسجدون . . . " في محلّ نصب حال من مفعول وجدت وما عطف عليه .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ جرّ نعت لـ (ما) النكرة .

(2) أو في محلّ نصب حال من فاعل تملكهم بتقدير قد .

وجملة : " زيّن لهم الشيطان . . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

وجملة : " صدهم . . . " معطوفة على جملة زيّن . . في محلّ نصب .

وجملة : " هم لا يهتدون " معطوفة على جملة صدّهم . . في محل نصب .

وجملة : " لا يهتدون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(25) (ألّا) حرف مصدريّ ونصب ، ولا النافية " 2 " (للّه) متعلّق بـ (يسجدوا) ، (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (في السموات) متعلّق بالخبء لأنه بمعنى المخبّأ " 3 " . . . (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به .

والمصدر المؤوّل (ألّا يسجدوا) في محلّ نصب بدل من أعمالهم ، أي زيّن لهم الشيطان عدم السجود . . . وما بين البدل والمبدل منه اعتراض .

وجملة : " يسجدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " يخرج . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يخرج .

وجملة : " تخفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف " 4 " .

وجملة : " تعلنون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني والعائد محذوف .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافيّة في حيّز القول .

(2) أو هي زائدة والمصدر المؤوّل في محلّ جرّ بـ (إلى) المقدّر ، متعلّق بـ (يهتدون) ، أي لا يهتدون إلى السجود . [. . . . .]

(3) أو متعلّق بحال منه إذا كان اسما لما يخبّأ من أشياء جامدة .

(4) يجوز أن تكون صلة الموصول الحرفيّ (ما) ، ولا تقدير للعائد .

الجدول ج 19 ، ص : 154

(26) (إلّا) أداة استثناء (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع بدل من الضمير المستكنّ في الخبر المقدّر موجود (ربّ) بدل من الضمير المنفصل مرفوع " 1 " .

وجملة : " اللّه لا إله إلّا هو . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز قول الهدهد .

وجملة : " لا إله إلّا هو " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

الصرف :

(16) منطق : اسم لكلّ لفظ يعبّر به عمّا في الضمير ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين .

(18) النمل : اسم جنس للحيوان المعروف واحدته نملة ، وزنه فعل بفتح فسكون .

---

(1) أو هو خبر ثان للمبتدأ (اللّه) .

---

(19) ضاحكا : اسم فاعل من (ضحك) الثلاثي وزنه فاعل .

(20) الهدهد : اسم جنس للطائر المعروف ، واحده هدهدة بضم الهاءين بينهما دال ساكنة وهدهدة بضم ثم كسر ثم فتح ، وهداهدة بضم الهاء الأولى وكسر الهاء الثانية ، والجمع هداهد زنة عساكر ، وهداهيد زنة مفاتيح ، ووزن الهدهد فعلل بضم الفاء واللام وسكون العين ويصح الضم ثم الفتح ثم الكسر . .

(22) سبأ : اسم علم لبلاد في منطقة اليمن ، وزنه فعل بفتحتين .

(25) الخبء : مصدر خبأ يخبأ باب فتح ، وقصد به في الآية المفعول . . . أو هو اسم لما يخبّأ في أرض أو سماء .

البلاغة

1 – التنكير : في قوله تعالى وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً .

التبعيض والتقليل من التنكير ، وكما يرد للتقليل من شأن المنكر ، فكذلك يرد للتعظيم من شأنه ، فظاهر قوله " وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً " في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه ، كأنه قال : علما أي علم ، وهو كذلك ، فإن علمهما كان مما يستعظم ويستغرب ،

ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات الذي خصهما اللّه تعالى به وكل علم بالاضافة إلى علم اللّه تعالى قليل ضئيل .

2 - استعمال حرف الجر : في قوله تعالى حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ .

فعدّى أتوا بعلى لأن الإتيان كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء . وقد رمق أبو الطيب المتنبي هذه السماء العالية فقال :

فلشد ما جاوزت قدرك صاعدا ولشدّ ما قربت عليك الأنجم

وقال : عليك ، دون : إليك ، لأن قرب الأنجم من جهة العلو .

3 - الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ .

كأنها ، لما رأتهم متوجهين إلى الوادي ، فرت عنهم ، مخافة الهلاك ، فتبعها غيرها ، وصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل فتبعتها . فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم ، ولذلك أجروا مجراهم ، حيث جعلت هي قائلة وما عداها من النمل مقولا له ، فيكون الكلام خارجا مخرج الاستعارة التمثيلية ، ويجوز أن يكون استعارة مكنية .

4 – جناس التصريف : في قوله تعالى وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ :

وجناس التصريف : هو اختلاف صيغة الكلمتين ، بإبدال حرف من حرف ، إما من مخرجه ، أو من قريب من مخرجه ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ ، بشرط أن يجيء مطبوعا ، أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده ولقد جاء هاهنا زائدا على الصحة فحسن ، وبدع لفظا ومعنى . ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبإ بخبر ، لكان المعنى صحيحا ، وهو كما

جاء أصح ، لما في النبأ ، من الزيادة التي يطابقها وصف الحال .

الفوائد

1 – منطق الطير :

قال مقاتل : وأحسبه أخذ قوله من الاسرائيليات : كان سليمان جالسا في معسكره ، وكانت مساحته مائة فرسخ في مائة ، خمسة وعشرون للجن ، وخمسة وعشرون للإنس ، وخمسة وعشرون للطير ، وخمسة وعشرون للوحش ، وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وإبريسم فرسخا في فرسخ ، فرأى بلبلا على شجرة ، فقال لجلسائه : أ تدرون ما يقول هذا الطائر . قالوا : اللّه ونبيه أعلم . قال يقول : أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء . ومر بهدهد فوق شجرة ، فقال : استغفروا اللّه يا مذنبون .

وصاحت أنثى أحد الطيور فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاووس

فقال يقول : كما تدين تدان وصاح خطاف فقال يقول : قدموا خيرا تجدوه ، وصاح طيطوي فقال يقول : سبحان ربي الأعلى وقال الحدأة فجرى يقول : كل شيء هالك إلا وجهه .

والقطاة تقول : من سكت سلم ، والببغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه . والديك يقول :

(324/582)

اذكروا اللّه يا غافلون . والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت . والعقاب يقول : في البعد من الناس أنس . والضفدع يقول : سبحان ربي الأعلى . . . !

2 - سأل سائل : ما الذي أضحك سليمان ؟

وجاء الجواب : الذي أضحكه شيئان :

الأول : اعتراف النملة برحمته ورحمة جنوده ، وقولها وهم لا يشعرون ، إذ لو شعروا لم يفعلوا .

الثاني : سروره بما آتاه اللّه ، من إدراكه لغة النملة ، وهي على ما هي ، من الضالة والقماءة .

3 - الحال قسمان :

مبينه ومؤكده :

أ- الحال المبينة : وهي التي لا يستفاد معناها بدونها ، مثل " جاء خالد راكبا " فلا يستفاد معنى الركوب إلا بذكر الحال " راكبا " .

ب - المؤكدة : وهي التي يستفاد معناها بدون ذكرها ، وهي على أقسام : نتجاوزها ونحيل القارئ على المطولات من كتب النحو .

4 - سبأ :

هي بلاد واقعة جنوب غربي الجزيرة العربية ، في بلاد اليمن . وقد ذكرت في كتب العهد القديم ، وفي مؤلفات العرب واليونان ، وأنها كانت على جانب عظيم من الحضارة ، وأن أهلها كانوا يتعاطون تجارة الذهب والفضة والأحجار الكريمة .

5 - بلقيس : هي ابنة شراحيل بن أبي سرج بن الحارث بن قيس بن صيفي بن سبأ وقيل : كان أبوها من عظماء الملوك .

وسبأ هو أبو قبائل اليمن التي تفرقت بعد حادثة سد مأرب .

6 - اتفق الشافعي وأبو حنيفة ، على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة . واختلفا في سجدة ص وسجدتي الحج .

7 - قصة سيل العرم :

من أساطير العرب : أن سبأ هو أبو قبائل العرب المتفرقة بسبب سد مأرب .

وكانت سبأ من أحسن بلاد اللّه وأخصبها وأكثرها شجرا وماء ، وقد ذكر اللّه أنها كانت جنتين عن يمين وشمال وكانت مسيرة شهر للراكب المجدّ ، يسير في جنان من أولها إلى آخرها ، لا تواجهه الشمس ولا يفارقه الظل ، مع تدفق الماء ، وصفاء الهواء ، واتساع الفضاء ، فمكثوا ما شاء اللّه ، لا يعاندهم ملك إلا قصموه . وكانت بلاده في بدء الزمان تركبها السيول ، فجمع ملك حمير أهل مملكته ، فشاورهم في دفع السيل ، فأجمعوا على حفر مسارب له حتى توصله إلى البحر . فحشد أهل مملكته ، حتى صرف الماء ، واتخذ سدا في موضع جريان الماء من الجبال ، ورصفه بالحجارة والحديد ، وجعل فيه مجاري للماء في استدارة الذراع ، فإذا جاء السيل ، تصرف ماؤه في المجاري إلى جناتهم ومزروعاتهم ، بتقدير يعمهم نفعه . ولما انتهى الملك إلى عمرو بن عامر ، وكان أخوه عمران كاهنا ، فأتته كاهنة تدعى ظريفة ، فأخبرته بدنو فساد السد وفيض السيل ، وأنذرته ، فجمع أهل مأرب ، وصنع لهم طعاما ، وأخبرهم بشأن السيل ، فأجمعوا على الجلاء .

[سورة النمل (27) : الآيات 27 إلى 28]

قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (28)

الإعراب :

(السين) حرف استقبال (الهمزة) للاستفهام (أم) هي المتّصلة معادلة لهمزة الاستفهام (من الكاذبين) متعلّق بخبر كنت .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة " سننظر . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " صدقت . . . " في محلّ نصب مفعول ننظر المعلّق بالاستفهام .

وجملة : " كنت من الكاذبين " في محلّ نصب معطوفة على جملة صدقت .

(326/582)

---

(28) (بكتابي) متعلّق بـ (اذهب) " 1 " ، (هذا) عطف بيان على كتابي - أو بدل منه - في محلّ جرّ (الفاء) عاطفة (إليهم) متعلّق بـ (ألقه) ، (ثم) حرف عطف (عنهم) متعلّق بـ (تولّ) ، (الفاء) عاطفة (ماذا) اسم استفهام

---

(1) أو بمحذوف حال من فاعل اذهب .

مبنيّ في محلّ نصب مفعول به عامله يرجعون " 1 " متضمنا معنى يردون الجواب .

وجملة : " اذهب . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ألقه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اذهب .

وجملة : " تولّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ألقه .

وجملة : " انظر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّ .

وجملة : " يرجعون . . . " في محلّ نصب مفعول به عامله انظر المعلّق بالاستفهام .

الصرف :

(28) تولّ : فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، مضارعه (يتولّى) ، وزنه تفعّ .

[سورة النمل (27) : الآيات 29 إلى 31]

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

الإعراب :

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب . . . وها للتنبيه (الملأ) بدل من

أيّ مرفوع لفظا (إليّ) متعلّق بـ (ألقي) ، (كتاب) نائب الفاعل مرفوع.

جملة : " قالت . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " النداء وجوابه . . في محلّ نصب مقول القول.

---

(1) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ (ذا) اسم موصول خبر ، وجملة يرجعون صلة ، والجملة الاستفهاميّة في محلّ نصب مفعول انظر المعلّق بالاستفهام.

(328/582)

وجملة : " إنّي ألقي . . . " لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة : " ألقي إليّ كتاب . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

(30) (من سليمان) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (بسم) متعلّق بمحذوف تقديره ابتدائي " 1 " . . .

وجملة : " إنّه من سليمان " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " إنّه بسم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّه من سليمان.

وجملة : (ابتدائي) بسم اللّه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

(31) (ألّا) حرف مصدريّ ونصب ، وحرف نفي " 2 " ، (عليّ) متعلّق بـ (تعلوا) ،

(الواو) عاطفة ، والنون في (ائتوني) نون الوقاية (مسلمين) حال منصوبة من فاعل ائتوني .

والمصدر المؤوّل (ألا تعلوا . . .) في محلّ نصب لفعل محذوف تقديره أطلب – مفعول به –

أي : أطلب عدم العلوّ عليّ " 3 " .

وجملة : " تعلوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) " 4 " .

وجملة : " (أطلب) عدم العلوّ " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ائتوني . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف البيانيّ .

---

(1) أو متعلّق بفعل محذوف تقديره (أبدا) .

(2) يجوز أن يكون (أن) حرف تفسير ، و(لا) ناهية ، والمضارع بعدها مجزوم . .

ويستحسن أن يكتبا منفصلين .

(3) يجوز أن يكون في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو .

(4) يجوز أن تكون الجملة تفسيريّة إذا أعربت (لا) ناهية .

الجدول ج 19 ، ص : 161

[سورة النمل (27) : آية 32]

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (32)

الإعراب :

(يأيها الملأ) مرّ إعرابها " 1 " ، والنون في (أفتوني) نون الوقاية (في أمري) متعلّق بـ (أفتوني) ،

(أمرا) مفعول به لاسم الفاعل قاطعة " 2 " ، (حتّى) حرف غاية وجرّ (تشهدون) منصوب بأن مضمرة بعد حتّى ، وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل ، و(النون) للوقاية قبل ياء المتكلّم المحذوفة للفاصلة .

جملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أفتوني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة .

(2) أو منصوب على نزع الخافض ، والأصل قاطعة في أمر أي جازمة به . .

وجملة : " ما كنت قاطعة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة - وجملة : " تشهدون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر والمصدر المؤوّل (أن تشهدوا . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق باسم الفاعل قاطعة .

الصرف :

(قاطعة) ، مؤنّث قاطع ، اسم فاعل من قطع الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

[سورة النمل (27) : آية 33]

قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (33)

الإعراب :

(أولو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو فهو ملحق بجمع المذكّر (أولو) الثاني معطوف على الأول (إليك) متعلّق بخبر المبتدأ الأمر (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (ماذا تأمرين) مثل ماذا يرجعون. " 1 "

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " نحن أولو . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " الأمر إليك . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

وجملة : " انظري . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن عزمت على أمر فانظري.

وجملة : " تأمرين . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام، والفعل بمعنى التفكّر.

البلاغة

---

(1) في الآية (28) من هذه السورة.

الإيجاز : في قوله تعالى قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ماذا تَأْمُرِينَ إيجاز عجيب ، فهو أولا يدل على تعظيم المشورة ، وتعظيم بلقيس أمر المستشار وهو ثانيا يدل على تعظيمهم أمرها وطاعتها . وفي قولهم " وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ " وقولهم " فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ " إيجاز يسكر الألباب قال أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، في كتابه إعجاز القرآن : " فإن الكلام قد يفسده ويعميه التخفيف منه والإيجاز ، وهذا مما يزيده الاختصار بسطا ، لتمكنه ووقوعه موقعه ،

ويتضمن الإيجاز منه تصرفا يتجاوز محله وموضعه . إلى أن يقول : " و أنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد ، وإذا اختصر كمل في بابه وجاد ، وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره ، وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه ، لم يقع إلا على محاسن تتوالى وبدائع تترى " .

الفوائد

1 – أولو . . .

هي جمع بمعنى " ذوو " أي أصحاب ، لا واحد له . وقيل اسم جمع واحده " ذو " بمعنى صاحب ، وهو من حيث إعرابه بالحروف ملحق بجمع المذكر السالم .

ومؤنثه " أولات " ومفرده " ذات " . وقد جرى التنويه عن الملحقات بهذا الجمع ، فعاوده

في موطنه من هذا الكتاب .

2 - ماذا . . .

تقدم الكلام في " ماذا " بأكثر من موضع ، ونعود فنلخص لك قول ابن هشام في هذا الصدد لما له من فائدة :

يرى ابن هشام أن لـ " ماذا " أربعة وجه :

الأول : أن تكون " ما " استفهامية ، و " ذا " اسم إشارة ، نحو " ماذا الوقوف ؟ " .

الثاني : أن تكون " ما " استفهامية و " ذا " موصولة ، كقول لبيد :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحبّ فيقضي أم ضلال وباطل

كقولك : لماذا جئت ؟

الرابع : أن تكون " ماذا " كلها اسم جنس بمعنى شيء ، أو موصولا بمعنى الذي . وقد اختلف في قول الشاعر :

دعي ماذا علمت سأتقيه ولكن بالمغيّب نبيئني

[سورة النمل (27) : الآيات 34 إلى 35]

قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (34)

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35)

الإعراب :

(أذلّة) مفعول به ثان منصوب عامله جعلوا (الواو) عاطفة – أو استئنافيّة – (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله يفعلون " 1 " ، والواو في (يفعلون) يعود على مرسلي الرسالة .

جملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ الملوك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة الشرط وجوابه في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " دخلوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أفسدوها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " جعلوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " يفعلون . . . " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هؤلاء " 2 " والجملة الاسميّة هؤلاء يفعلون في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

---

(1) ويجوز أن يتعلّق بفعل يفعلون أن كان الضمير يعود على الملوك ، والكلام مستأنف من اللّه تعالى

(2) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة إذا كانت من قول اللّه تعالى لا من كلامها .

[. . . . .]

(332/582)

عاطفة (ناظرة) معطوف على مرسلة مرفوع (بم) متعلّق بـ (يرجع) ، وما اسم استفهام حذفت ألفه لدخول حرف الجرّ عليه .

وجملة : " إنّي مرسلة . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " يرجع المرسلون " في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل ناظرة المعلّق بالاستفهام " 1 " .

الصرف :

(أعزّة) ، جمع عزيز ، صفة مشبّهة لفعل عزّ الثلاثيّ باب ضرب ، وزنه فعيل والجمع أفعلة ، وثّمة جموع أخرى هي : عزاز بكسر العين ، وأعزّاء زنة أفعلاء – بتشديد الزاي – .

(35) (الواو) عاطفة (إليهم) متعلّق بمرسلة (بهديّة) متعلّق بمرسلة (الفاء) (مرسلة) ، مؤنّث مرسل ، اسم فاعل من (أرسل) الرباعيّ وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

(ناظرة) ، مؤنث ناظر ، اسم فاعل من (نظر) الثلاثيّ وزنه فاعل .

(هديّة) ، مؤنّث هديّ ، اسم لما يعطى للإكرام وغيره ، جمعه هدايا وهداوى .

[سورة النمل (27) : الآيات 36 إلى 37]

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (37)

---

(1) أي منتظرة رجوع الرسل بأيّ ردّ سيعودون .

الجدول ج 19 ، ص : 166

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قال ، وفاعل (جاء) ضمير يعود على رسول الملكة (سليمان) مفعول به منصوب ، ومنع من التنوين للعلمية وزيادة ألف ونون (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ ، والنون الثانية في (تمدّونن) للوقاية قبل ياء المتكلّم المحذوفة للتخفيف (بمال) متعلّق بفعل تمدّونن (الفاء) تعليليّة (ما) اسم موصول مبتدأ في محلّ رفع ، خبره (خير) ، (ممّا) متعلّق بخير (بل) للإضراب الانتقاليّ (بهديّتكم) متعلّق بـ (تفرحون) .

جملة : " جاء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تمدّونن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما آتاني اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " آتاني اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

(333/582)

وجملة : " آتاكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " أنتم . . . تفرحون " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " تفرحون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

(37) (إليهم) متعلّق بـ (ارجع) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (نأتينّهم) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . . و(النون) نون التوكيد ، و(هم) ضمير مفعول به (بجنود) متعلّق بحال من فاعل نأتينّ (لا) نافية للجنس (قبل) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (لهم) متعلّق بخبر لا ، وكذلك (بها) ، (الواو) عاطفة (لنخرجنّهم) مثل لنأتينّهم (منها) متعلّق بـ (نخرجنّهم) ، (أذلّة) حال منصوبة (الواو) واو الحال . . .

وجملة : " ارجع . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة القسم المقدّرة . . . في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن لم يأتوني مسلمين فو اللّه لنأتينّهم . . .

وجملة : " نأتينّهم . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " لا قبل لهم . . . " في محلّ جرّ نعت لجنود .

وجملة : " نخرجنّهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نأتينّهم .

وجملة : " هم صاغرون " في محلّ نصب حال مؤكّدة .

الفوائد

1 – نونا التوكيد . . .

آ – هما نون التوكيد الثقيلة ، ونون التوكيد الخفيفة . وقد اجتمعتا في قوله تعالى : لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً .

ب – ما يؤكد وما لا يؤكد من الأفعال :

1 – يؤكد الأمر بهما مطلقا ، نحو : أكرمنّ جارك ، والدعاء كقوله " فأنزلن سكينة علينا "

.

2 – ولا يؤكد الماضي بهما مطلقا .

3 – ويؤكد المضارع بهما ، وله في توكيدهما ست حالات ، نحيلك بها على المطولات .

ج – حكم آخر الفعل المؤكد بهما :

1 – إذا أكدنا الفعل بأحد نوني التوكيد ، وكان مسندا إلى اسم ظاهر أو ضمير الواحد المذكر ، فتح آخره لمباشرة النون له ، ولم يحذف منه شيء ، سواء أكان صحيح الآخر أم معتلّة ، نحو " وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ " . إلا أن نون الرفع تحذف للجازم وللناصب في الأفعال الخمسة .

2 – إذا أسند الفعل المؤكد لنون الإناث زيد ألفا بين النونين ، نون النسوة ونون التوكيد .

3 – إذا أسند الفعل المؤكد إلى واو الجماعة أو ياء المؤنثة المخاطبة ، إذا كان صحيحا حذفت نون الرفع للناصب أو الجازم ، وإذا كان مرفوعا حذفت لتوالي الأمثال ، وحذفت واو الجماعة أو ياء المخاطبة لالتقاء الساكنين – نحو : " لتنصرنّ يا قوم " و " لتجلسنّ يا هند " .

د – تنفرد الخفيفة عن الثقيلة بأربعة أحكام :

أولا – لا تقع بعد الألف الفارقة بينها وبين نون الإناث : لالتقاء الساكنين فلا تقول : " اسعينان " .

ثانيا – أنها لا تقع بعد ألف الاثنين بسبب التقاء الساكنين .

ثالثا - أنها تحذف إذا وليها ساكن كقول: الأضبط بن قريع:

لا تهين الفقير علّك أن تركع يوما والدهر قد رفعه

رابعا - أن تعطى في الوقف حكم التنوين، فإذا وقعت بعد فتحة قلبت ألفا نحو "لنفسعا ولنكونا".

وقد ألمحنا لبعض الجزئيات من أحكامها فيما سبق من هذا الكتاب، كما نشير إلى وجود تفصيلات عنهما في المطولات، فعد إليها واتخذ من الصبر جنّة، بغية الفائدة.

[سورة النمل (27): آية 38]

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38)

الإعراب:

(يا أيها الملأ) مرّ إعرابها "1"، (أيكم) اسم استفهام مبتدأ مرفوع (بعرشها) متعلّق بـ (يأتيني)، (قبل) ظرف منصوب متعلّق بـ (يأتيني)، (أن) حرف مصدريّ ونصب، والنون في (يأتوني) نون الوقاية (مسلمين) حال.

---

(1) في الآية (29) من هذه السورة.

والمصدر المؤوّل (أن يأتوني . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أيّكم يأتيني . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يأتيني . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أيّكم) .

وجملة : " يأتوني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

[سورة النمل (27) : آية 39]

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39)

الإعراب :

(من الجن) متعلّق بنعت لعفريت (آتيك) مضارع مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة . . . و(الكاف) مفعول به " 1 " ، (به) متعلّق بـ (آتيك) ، (قبل) ظرف منصوب متعلّق بـ (آتيك) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (من مقامك) متعلّق بـ (تقوم) .

والمصدر المؤوّل (أن تقوم . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الواو) واو الحال (عليه) متعلّق بقويّ ، بحذف مضاف أي على حمله (اللام) المزحلقة للتوكيد (أمين) خبر ثان .

جملة : " قال عفريت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أنا آتيك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آتيك به " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنا) .

---

(1) يجوز أن يكون اسم فاعل خبر مرفوع . . . والكاف مضاف إليه .

(336/582)

وجملة : " تقوم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " إنّي عليه لقوي . . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

الصرف :

(عفريت) ، اسم لواحد الجنّ أو صفة له ، وزنه فعليل بكسر فسكون واشتق من فعل تعفرت .

[سورة النمل (27) : آية 40]

قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)

الإعراب :

(عنده) ظرف منصوب متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ علم (من الكتاب) متعلّق بنعت لعلم (أنا آتيك . . . يرتدّ) مر إعراب نظيرها " 2 " ، (إليك) متعلّق بـ (يرتدّ) .

والمصدر المؤوّل (أن يرتدّ . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الفاء) استئنافيّة (لمّا رآه . . . قال) مثل لمّا جاء . . . قال " 3 " ، (هذا) اسم إشارة مبتدأ (من فضل) جارّ ومجرور خبر (اللام) للتعليل (يبلوني) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والنون للوقاية .

والمصدر المؤوّل (أن يبلوني) في محلّ جرّ باللام متعلّق بالمصدر

---

(1) أو في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

(2) في الآية السابقة (39) .

(3) في الآية (36) من هذه السورة .

فضل أو بفعل محذوف تقديره فضّل . . .

(الهمزة) للاستفهام (أم) حرف عطف معادل للهمزة (الواو) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) كافّة ومكفوفة (لنفسه) متعلّق بـ (يشكر) ، (الواو) عاطفة (من) مثل الأول (الفاء) رابطة لجواب لشرط (كريم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " قال الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عنده علم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أنا آتيك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آتيك به . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنا) .

وجملة : " يرتدّ إليك طرفك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " رآه مستقرّا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(337/582)

وجملة : " هذا من فضل . . . " في محلّ نصب مقول القول الثاني .

وجملة : " يبلوني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أشكر . . . " في محلّ نصب بدل من الياء في (يبلوني) .

وجملة : " أكفر . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أشكر .

وجملة : " من شكر . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " شكر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " إنّما يشكر . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " من كفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من شكر .

وجملة : " كفر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " إنّ ربّي غنّي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

الصرف :

(مستقرّا) ، اسم فاعل من (استقرّ) السداسيّ ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .

كناية عن الاسراع ، والطرف هو تحريك أجفانك إذا نظرت ، فوضع موضع النظر ولما كان الناظر موصوفا بإرسال الطرف وصف برد الطرف ، ووصف الطرف بالارتداد ، وعليه قوله :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك أتعبتك المناظر

[سورة النمل (27) : آية 41]

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (41)

الإعراب :

(لها) متعلّق بـ (نكّروا) ، (ننظر) مضارع مجزوم جواب الطلب ، والفاعل نحن (الهمزة)

للاستفهام (أم) حرف عطف معادل للهمزة (من الذين) متعلّق بمحذوف خبر تكون (لا) نافية.

جملة: "قال . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "نكّروا . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "ننظر . . . "لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي إن تنكّروا ننظر . . .

وجملة: "تهتدي . . . "في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام.

(338/582)

وجملة: "تكون . . . "في محل نصب معطوفة على جملة تهتدي.

وجملة: "لا يهتدون "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

[سورة النمل (27): آية 42]

فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (لمّا جاءت قيل) مثل لمّا رآه . . . قال " 1 "، (الهمزة) للاستفهام

(هكذا) متعلّق بخبر مقدم للمبتدأ عرشك (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع خبر كأنّ

(الواو) عاطفة – أو استئنافيّة – و(نا) ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " ، (العلم)

مفعول به – وهو الثاني في الأصل – (من قبلها) متعلّق بفعل أوتينا (الواو) عاطفة . . .

جملة : " جاءت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قيل . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) في الآية (36) من هذه السورة .

(2) هذا الضمير قد يعود على بلقيس أي تابعت تقول : أوتينا العلم بنبوّة سليمان من قبل

هذه المعجزة . . . وقد يكون عائدا على سليمان ، فالكلام مستأنف .

وجملة : " هكذا عرشك . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " كأنّه هو . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أوتينا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 2 " .

وجملة : " كنّا مسلمين " في محلّ نصب معطوفة على جملة أوتينا .

البلاغة

السر في التشبيه : في قوله تعالى كَأَنَّهُ هُوَ :

تشبيه مرسل ، عدلت إليه عن مقتضى السؤال ، ومقتضاه أن تقول : هو هو لسر دقيق جدا ، وذلك أن "كأنه" عبارة عن قرب الشبه عنده ، حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين ، فكاد يقول : هو هو ، وتلك حال بلقيس . وأما هكذا هو ، فعبارة جازم بتغاير الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير ، فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها .

]

سورة النمل (27) : آية 43]

وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (43)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل صدّ (من دون) متعلّق بحال من العائد المحذوف (من قوم) متعلّق بمحذوف خبر كانت (كافرين) نعت لقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : "صدها . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) هي جملة مقول القول في الأصل .

(2) أو لا محلّ لها استئنافيّة ، وكلّ من الإعرابين بحسب تقدير ضمير المتكلّم في (أوتينا) كما جاء في الحاشية (2) .

الجدول ج 19 ، ص : 175

وجملة : "كانت تعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تعبد . . . " في محلّ نصب خبر كانت .

وجملة : " إنّها كانت . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : "كانت من قوم . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة النمل (27) : آية 44]

قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (44)

الإعراب :

(لها) متعلّق بـ (قيل) ، (الفاء) عاطفة (لجّة) مفعول به ثان منصوب (عن ساقيها) متعلّق بـ (كشفت) وعلامة الجر الياء فهو مثنّى (ممرّد) نعت لصرح مرفوع (من قوارير) متعلّق بنعت ثان لصرح (ربّ) منادى مضاف منصوب وعلّامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و(الياء) مضاف إليه (مع) ظرف منصوب متعلّق بحال من فاعل أسلمت (للّه) متعلّق بـ (أسلمت) ، (ربّ) نعت للفظ الجلالة مجرور .

جملة : " قيل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ادخلي . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 1 " .

وجملة : " رأته . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " حسبته . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) لأنها في الأصل مقول القول .

(340/582)

وجملة : " كشفت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة حسبته .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّه صرح . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء . . . لا محل لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " إنّي ظلمت . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ظلمت نفسي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أسلمت . . . " في محل رفع معطوفة على جملة ظلمت .

الصرف :

(الصرح) ، اسم جامد للقصر أو صحن الدار ، وزنه فعل .

(لجّة) ، اسم للماء أو لموجه ، وزنه فعلة بضمّ فسكون ، جاءت عينه ولامه من حرف واحد .

(ساقيها) ، مثنّى ساق ، اسم للجارحة المعروفة ، وزنه فعل بفتحين ، وفيه إعلال بالقلب أصله سوق بفتح السين والواو ، فلمّا تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا ، جمعه سوق وزنه فعل بضمّ فسكون ، وسيقان وأسوق بفتح الهمزة وضمّ الواو ، والساق مؤنّث اللفظ على الغالب .

(ممرّد) ، اسم مفعول من (مرّد) الرباعيّ أي ملّس ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

(قوارير) ، جمع قارورة ، اسم لإناء الزجاج ، وزنه فاعولة ، ووزن قوارير فواعيل ، وسمّيت بذلك لأن الأشياء تقرّ بداخلها ، وقصد بها في الآية مادّتها أي الزجاج .

(341/582)

البلاغة

التجنيس : وهو تآلف الكلمتين في تأليف حروفهما وهو هنا في قوله تعالى أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ

الفوائد

1 - قيل : إن سليمان تزوج بلقيس ملكة اليمن . . .

وكان يزورها في الشهر مره ، فيقيم عندها ثلاثة أيام . وقد ولدت له ، وقد أمرها على ملكها . . . وقيل غير ذلك . فقد زعموا أن سليمان زوّجها ذا تبع من ملوك اليمن وهم الأذواء . . . !

2 - الصرح . . .

(342/582)

ورد في كتب التفسير ، أن سليمان أمر أن يبني لبلقيس قصرا على طريقها إليه ، وطلب أن يكون هذا القصر من الزجاج الأبيض ، وقد جرى من تحته الماء ، وألقي فيه من دواب البحر السمك وغيره ، ثم وضع لسليمان سريره في صدر المجلس ، فلما رأت الماء لجة خافت ، وظنت أنه يراد إغراقها ، ونظرت إلى كرسي سليمان على الماء ، فدهشت ، ثم

وجدت نفسها مجبرة على اجتياز الماء ، فكشفت عن ساقيها ، وكان يراد من خلال ذلك امتحان عقلها وعرض المعجزات عليها ، وليس كما يزعم بعضهم أن سليمان أراد التحقيق من وجود الشعر على ساقيها ، فإن ذلك لا يليق بمقام النبوة وترفعها عن الدنيات .

[سورة النمل (27) : آية 45]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (45)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (إلى ثمود) متعلّق بـ (أرسلنا) ، (صالحا) عطف بيان على

(أخاهم) ، (أن) حرف تفسير " 1 " وقد حرّك بالكسر لالتقاء الساكنين ، (الفاء) عاطفة (إذا) حرف للفجاءة .

جملة : " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " اعبدوا . . . " لا محلّ لها تفسيريّة " 2 " .

وجملة : " هم فريقان . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم .

وجملة : " يختصمون " في محلّ رفع نعت لـ (فريقان) .

[سورة النمل (27) : آية 46]

قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46)

الإعراب :

---

(1) أو حرف مصدريّ . . . والمصدر المؤوّل (أن اعبدوا . . .) في محلّ جرّ بباء محذوفة ، متعلّق بـ (أرسلنا) .

(2) أو لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(343/582)

(قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف ، و(الياء) مضاف إليه (لم) حرف جرّ واسم استفهام حذفت ألفه في محلّ جرّ متعلّق بـ (تستعجلون) ، (بالسيّئة) متعلّق بفعل تستعجلون ، بحذف مضاف ، أي بطلب السيّئة (قبل) ظرف زمان متعلّق بـ (تستعجلون) ، (لولا) حرف تحضيض (لعلّكم) حرف ترج ونصب ، والواو في (ترحمون) نائب الفاعل .

جملة : " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تستعجلون " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تستغفرون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لعلّكم ترحمون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " ترحمون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة النمل (27) : آية 47]

قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)

الإعراب :

(بك) متعلّق بـ (اطّيّرنا) وكذلك (بمن) ، (معك) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة من (عند) ظرف منصوب متعلّق بخبر المبتدأ (طائركم) ، (بل) للإضراب الانتقاليّ ، والواو في (تفتنون) نائب الفاعل .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اطّيّرنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " طائركم عند اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول الثاني .

وجملة : " أنتم قوم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " تفتنون " في محلّ رفع نعت لقوم .

الفوائد

- قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ . . .

تحدثنا عن الطيرة فيما سبق من هذا الكتاب ، وعن رأي الإسلام فيها ، فلا حاجة للعودة إليها والحديث عنها . فعد إليها في سورة الأعراف من هذا الكتاب .

[سورة النمل (27) : آية 48]

وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (48)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (في المدينة) متعلّق بخبر كان (في الأرض) متعلّق بـ (يفسدون) ، (لا) نافية .

جملة : "كان في المدينة تسعة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يفسدون . . . " في محلّ رفع نعت لـ (تسعة . . .) " 1 " .

وجملة : " لا يصلحون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يفسدون .

البلاغة

التمام أو التتميم : في قوله تعالى وَلا يُصْلِحُونَ وهذا الفن هو أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت منه نقص معناه في ذاته أو في صفاته ولفظه تام .

فإن قوله " وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ " شأنهم الإفساد البحت ، وقد كانوا كما يروى عتاة غلاظا ، وهم الذين أشاروا بعقر الناقة ، لمراغمة صالح ، وإثارة حفيظته ، ومنهم قدار بن سالف المشهور بالشؤم ، وقد تقدم ذكره ، ولكن قوله يفسدون في الأرض لا يدفع أن يندر منهم أو من أحدهم بعض الصلاح ، فتمم الكلام بقوله " وَلَا يُصْلِحُونَ " دفعا لتلك العذرة أن تقع ، أو أن يخالج بعض الأذهان شك في أنها ستقع . وبذلك قطع كل رجاء في إصلاح أمرهم وحسن حالهم .

الفوائد

- تمييز العدد وتذكيره وتأنيثه :

أ- إذا كان مميز العدد - ما بين الثلاثة والعشرة - اسم جنس ، أو اسم جمع الذي ، ليس له مفرد من لفظه ، مثل : قوم ورهط ،

---

(1) أو في محلّ جرّ نعت لرهط . [. . . . .]

فيجرّ بـ " من " ، فنقول : " عشرة من القوم لقيتهم ، وقال تعالى : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ وقد يجرّ بإضافة العدد إليه نحو : " وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ " .

ب – إذا كان مميز العدد " من الثلاثة إلى العشرة وما بينهما " جمعا أضفنا العدد إليه ، فكان مجرورا بالاضافة ، نحو : ثلاثة رجال وثلاث نساء .

ج – أما التذكير والتأنيث فيعتبر مع اسمي الجمع والجنس بحسب حالهما ، باعتبار عود الضمير عليهما تذكيرا وتأنيثا .

فيعطى العدد عكس ما يستحقه ضميرهما من التأنيث والتذكير ، فإذا كان الضمير مؤنثا ذكّر العدد وإن كان مذكر أنّث العدد ، فنقول : ثلاثة من الغنم عندي .

فقد انّثنا العدد لأننا نذكر ضمير الغنم فنقول : غنم كثير ، ونقول : ثلاث من البط لأننا نقول بط كثيرة . ولكن نقول : ثلاث أو ثلاثة من البقر لأن البقر وضميره يجوز تذكيره وتأنيثه د – اسم الجمع حكمه حكم المذكر ، إن كان لمن يعقل . وحكمه حكم المؤنث ، إن كان لما لا يعقل . وفي ذلك نظر .

وعند ما يختلف النحاة نحيلك على المطولات .

ملاحظة هامة :

التذكير والتأنيث مع الجمع يعتبر حسب مفرده ، فإن كان مفرده مذكرا أنثنا العدد وإن كان مفرده مؤنثا ذكرنا العدد .

الرهط : هو النفر من ثلاثة إلى عشرة وقد يجمع على أرهط وأراهط على خلاف بين النحاة .

[سورة النمل (27) : آية 49]

قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (49)

الإعراب :

الفاعل في (قالوا) يعود على بعض القوم يقول لبعض (باللّه) متعلّق بـ (تقاسموا) ، (اللام) لام القسم (نبيتنّه) مضارع مبنيّ على

(346/582)

الفتح في محلّ رفع (أهله) معطوف على الضمير المفعول في (نبيّتنه) ، (ثمّ) حرف عطف (لنقولنّ) مثل لنبيّتنه (لوليّه) متعلّق بـ (نقولنّ) ، (ما) نافية (الواو) عاطفة - أو حاليّة - (اللام) المزحلقة للتوكيد .

جملة : " قالوا " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة .

وجملة : " تقاسموا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نبيّتنّه . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " نقولنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم .

وجملة : " ما شهدنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّا لصادقون " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول " 1 " .

البلاغة

- تقاسموا :

فاعل وتفاعل : صيغتان للمشاركة ، تفيد كل منهما أن أكثر من واحد اشتركا في الفعل ، لذلك دعيت بصيغة المشاركة .

[سورة النمل (27) : الآيات 50 إلى 53]

وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (53)

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل شهدنا .

الإعراب :

(مكرا) مفعول مطلق منصوب في الموضعين للفعلين (الواو) حاليّة (لا) نافية .

وجملة : " مكروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " مكرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هم لا يشعرون " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يشعرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(51) (الفاء) استئنافيّة (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب خبر كان (أنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (الواو) عاطفة (قومهم) معطوف على الضمير المفعول في (دمّرناهم) ، (أجمعين) توكيد معنوي للضمير والقوم ، منصوب وعلامة النصب الياء " 1 " .

وجملة : " انظر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان عاقبة . . " في محلّ نصب مفعول انظر المعلّق بالاستفهام كيف .

وجملة : " دمّرناهم . . . " في محلّ رفع خبر أنّا .

والمصدر المؤوّل (أنّا دمّرناهم . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بعاقبة أي بأنا دمّرناهم " 2 " .

---

(1) يجوز أن يكون حالا منهما .

(2) ويجوز أن يكون بدلا من عاقبة في محلّ رفع . . . أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي والجملة استئناف بيانيّ .

الجدول ج 19 ، ص : 184

(52) (الفاء) عاطفة (تلك) اسم إشارة مبتدأ خبره بيوتهم (خاوية) حال منصوبة من

البيوت والعامل الإشارة (بما) متعلّق بخاوية ، والباء سببيّة ، وما حرف مصدريّ (في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) لام الابتداء للتوكيد (آية) اسم إنّ منصوب (لقوم) متعلّق بآية بمعنى عظة وعبرة .

وجملة : " تلك بيوتهم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة كان عاقبة " 1 " .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " إنّ في ذلك لآية . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يعلمون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

(53) (الواو) عاطفة في الموضعين (الذين) موصول مفعول به في محلّ نصب .

وجملة : " أنجينا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تلك بيوتهم .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " كانوا يتّقون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يتّقون " في محلّ نصب خبر كانوا .

البلاغة

الاستعارة : في قوله تعالى وَمَكَرْنا مَكْراً .

مكر اللّه : إهلاكهم من حيث لا يشعرون . شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة .

---

(1) يجوز أن تكون الجملة استئنافيّة فلا محلّ لها .

الفوائد

3 - فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ . . .

مرّ معنا ذكر تأنيث الفعل وتذكيره ، وفي هذه الآية ذكّر الفعل "كان" رغم أن الفاعل "عاقبة" وهو مؤنث ، إلا أنه لا يعقل وفي هذه الحالة يجوز تأنيث الفعل وتذكيره فتبصّر .

وتأنيث الفعل هو إلحاق تاء التأنيث في آخره إذا كان ماضيا ، وإيجاد تاء المضارعة في أوله إذا كان مضارعا . والتذكير حذفهما . ولتمام هذا الحديث يجب أن تعاوده في مواطنه ، فإنه بحث شائق ، جدير بالدرس والتحقيق .

1 - مرّ معنا منذ قريب قصة الرهط المؤلف من تسعة رجال الذين ائتمروا على أن يقتلوا صالحا فسقط عليهم الكهف فقتلهم جميعا .

2 - الإنسان يمكر ، وأما اللّه فلا يمكر ، وإنما أسند المكر إلى اللّه للمشاكلة ، وهو فن من فنون البلاغة ألمحنا إليه فيما سبق ، وتعريف المشاكلة : هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته

[سورة النمل (27) : الآيات 54 إلى 55]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لوطا) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (إذ) ظرف متعلّق بالفعل المحذوف " 1 " (لقومه) متعلّق بـ (قال) ، (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ (الواو) واو الحال . . .

جملة : " (اذكر) لوطا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تأتون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو بدل من (لوطا) بدل اشتمال على معنى قول لوط في ذلك الحين .

---

(55) (الهمزة) ذكرت لتأكيد الإنكار (اللام) المزحلقة للتوكيد (شهوة) حال منصوبة من الرجال (من دون) متعلّق بحال من الفاعل (بل) للإضراب والابتداء . . .

وجملة : إنّكم لتأتون . . . لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " تأتون الرجال . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أنتم قوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تجهلون . . . " في محلّ رفع نعت لقوم .

وجملة : " أنتم تبصرون . . . " في محل نصب حال .

وجملة : " تبصرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ أنتم .

الفوائد

من قصص القرآن " قصة لوط " . . .

رحل إبراهيم عن مصر ، واصطحب معه في سفره لوطا ، ورجعا من هذه البلاد بمال كثير وخير وفير ، ونزلا بتلك الأرض المقدسة ، ولكن ضاقت بأنعامهما وأغنامهما ، فنزح لوط عن محلة عمه إبراهيم ، واستقر به المقام بمدينة سدوم .

كان أهلها ذوي أخلاق فاسدة ، ونوايا سيئة ، لا يتعفّفون عن معصية ، ولا يتناهون عن منكر . . . وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقوا إليها ، فكانوا يأتون الذاكران ، ويذرون ما خلق اللّه لهن من النساء .

أوحى اللّه إلى لوط ، أن يدعوهم إلى عبادة اللّه ، وأن يذروا ما هم عليه من الفواحش : فجعلوا أصابعهم في آذانهم ، وقد عميت بصائرهم ، وألقي الران في قلوبهم ، فواعدوا لوطا ومن آمن معه ، وعزموا على إبعادهم عن قريتهم .

سأل لوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم الفاسقين ، ويوقع بهم العذاب الأليم .

---

(1) أو في محلّ نصب بدل من جملة تأتون الفاحشة . . .

استجاب اللّه دعاءه ، وبعث ملائكة إلى هذه القرية الظالم أهلها ، لينزلوا بهم سوء العذاب . ومرّ الرسل على إبراهيم أولا ، فأخبروه بمهمتهم ، وبشروه بغلام عليم .

خاف إبراهيم على لوط والذين آمنوا معه ، فطمأنه الرسل ، وأخبره أن لوطا ومن آمنوا معه لن يصيبهم العذاب ، وسيكونون من الناجين .

ونزل الرسل بدار لوط ، وتسامع القوم بهذا الضيف الذي حلّ بدار لوط ، وكان الملائكة بصورة شباب من أنضر الناس عودا ، وأجملهم وجها ، فطمع بهم قوم لوط ، وأحاطوا بدار لوط ، يريدون الوصول إلى ضيفه .

وقد غشيت لوط سحابة من الحزن ، وتملكته ثورة من الغضب ، وقد رأى القوم يقتحمون داره ، ويحاولون الاعتداء على ضيفه .

ولما رأى الملائكة ما عليه لوط من الحزن والوجد ، ردّوا لهفته ، وسكنوا روعته ، وقالوا : يا لوط إنا رسل ربك ، جئنا لإنقاذك ودفع العدوان عنك ، فلن يصل هؤلاء الكفرة إليك .

وأمروه أن يسري هو وأهله ، ويتركوا هذه القرية التي تأذّن اللّه أن يجعل عاليها سافلها .

خرج لوط هو وأهله ، وفارق القرية وأهلها غير آسف عليها ، وجاءها أمر اللّه ، فزلزلت أرضها ، وجعل عاليها سافلها ، ثم غشيت بمطر من سجيل ، فأصبحت دارهم بلقعا ، وبيوتهم خاوية بما ظلموا " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ " .

الجدول ج 20 ، ص : 189

الجزء العشرون

بقية سورة النمل

من الآية 56 - إلى الآية 93 سورة القصص آياتها 88 آية سورة العنكبوت من الآية 1 - إلى الآية 45

[سورة النمل (27) : آية 56]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (ما) نافية (جواب) خبر كان مقدّم (إلّا) أداة حصر (أن) حرف مصدريّ . . .

والمصدر المؤوّل (أن قالوا . . .) في محلّ رفع اسم كان .

الجدول ج 20 ، ص : 190

من قريتكم) متعلّق بـ (أخرجوا) .

جملة : " ما كان جواب . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أخرجوا . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّهم أناس . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يتطهّرون " في محلّ رفع نعت لأناس .

(351/582)

[سورة النمل (27) : الآيات 57 إلى 58]

فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (أهله) معطوفة على الضمير المفعول في (أنجيناه) ، (إلّا) أداة استثناء (امرأته) منصوب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل (من الغابرين) متعلّق بـ (قدّرناها) .

جملة : " أنجيناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قدّرناها . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(58) (الواو) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (أمطرنا) ، (مطرا) مفعول به منصوب " 1 " ،

(الفاء) استئنافيّة (ساء) فعل ماض لإنشاء الذمّ . . .

والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره مطرهم .

وجملة : " أمطرنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ساء مطر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) على معنى الحجارة أو وسائل العذاب . . . أو مفعول مطلق على معنى المصدر .

الفوائد

- من قصص القرآن " قصة لوط " :

رحل إبراهيم عن مصر ، واصطحب معه في سفره لوطا ، ورجعا من هذه البلاد بمال كثير ، وخير وفير ، ونزلا بتلك الأرض المقدسة . ولكن ضاقت بأنعامهما واغنامهما فنزح لوط عن محلة عمه إبراهيم ، واستقر به المقام بمدينة سدوم .

كان أهلها ذوي أخلاق فاسدة ، ونوايا سيئة ، لا يتعفّفون عن معصية ، ولا يتناهون عن منكر . وقد ابتدعوا فاحشة لم يسبقوا إليها ، فكانوا يأتون الذكران ، ويذرون ما خلق اللّه لهن من النساء . أوحى اللّه إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادة اللّه ، وأن يذروا ما هم عليه من الفواحش ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم ، وقد عميت أبصارهم . وألقي الران على قلوبهم .

فتوعدوا لوطا ومن آمن معه ، وعزموا على إبعادهم عن قريتهم .

سأل لوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم الفاسقين ، ويوقع بهم العذاب الأليم .

(353/582)

استجاب اللّه دعاءه ، وبعث ملائكة إلى هذه القرية الظالم أهلها . لينزلوا بهم سوء العذاب

ومرّ الرسل على إبراهيم أولا ، فأخبروه بمهمتهم ، وبشروه بغلام عليم .

خاف إبراهيم على لوط والذين آمنوا معه ، فطمأنه الرسل وأنبأوه أن لوطا ومن آمنوا معه لن يصيبهم العذاب ، وسيكونون من الناجين . ونزل الرسل بدار لوط .

وتسامع القوم بهذا الضيف الذي حلّ بدار لوط ، وكان الملائكة بصورة شباب من أنضر الناس عودا وأجملهم وجها ، فطمع بهم قوم لوط ، وأحاطوا بدار لوط ، يريدون الوصول إلى

ضيفه .

وقد غشيت لوط سحابة من الحزن ، وتملكته ثورة من الغضب ، وقد رأى القوم يقتحمون داره ويحاولون الاعتداء على ضيفه .

ولما رأى الملائكة ما عليه لوط من الحزن والوجد ، ردّوا لهفته ، وسكنوا روعته ، وقالوا : يا لوط إنا رسل ربك جئنا لإنقاذك ودفع العدوان عنك ، فلن يصل هؤلاء الكفرة إليك . وأمروه أن يسري هو وأهله ، ويتركوا هذه القرية التي تأذن اللّه أن يجعل عاليها سافلها .

خرج لوط هو وأهله . وفارق القرية وأهلها غير آسف عليها . وجاءها أمر اللّه ، فزلزلت أرضها ، وجعل عاليها سافلها ، ثم غشيت بمطر من سجيل ، فأصبحت دارهم بلقعا ، وبيوتهم خاوية بما ظلموا " إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ " .

[سورة النمل (27) : الآيات 59 إلى 64]

(354/582)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ

تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (64)

الإعراب :

(للّه) متعلّق بخبر المبتدأ الحمد (الواو) عاطفة (سلام) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (على عباده) خبر المبتدأ (الذين) موصول نعت لعباده

---

(1) الذي سوغ الابتداء به ، وهو نكرة ، دلالته على المدح.

(355/582)

(الهمزة) للاستفهام (أم) هي المتّصلة حرف عطف (ما) حرف مصدريّ " 1 " . . .

والمصدر المؤوّل (ما يشركون) في محلّ رفع معطوف على لفظ الجلالة المبتدأ أي شركهم.

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " الحمد للّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سلام على عباده . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " اصطفى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) ، والعائد محذوف .

وجملة : " يشركون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(60) (أم) هي المنقطعة بمعنى بل والهمزة (من) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره كمن لم يخلق . . . " 2 " ، (لكم) متعلّق بـ (أنزل) ، (من السماء) متعلّق بـ (أنزل) ، (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (أنبت) والباء سببيّة (ذات) نعت لحدائق منصوب " 3 " ، (ما) نافية (لكم) متعلّق بخبر كان (أن) حرف مصدريّ . . .

والمصدر المؤوّل (أن تنبتوا . . . " في محلّ رفع اسم كان .

(الهمزة) للاستفهام الإنكاري (إله) مبتدأ مرفوع " 4 " ، (مع) ظرف منصوب متعلّق بخبر المبتدأ إله (بل) للإضراب الانتقاليّ .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ ، والعائد محذوف .

(2) وقدّر الخبر تقديرات أخرى بحسب المعنى أي : يكفر بنعمته ويشرك به ، أو . . . خير أم ما يشركون . . . إلخ .

(3) أفرد لأن المنعوت جمع غير عاقل .

(4) نكرة معتمدة على الاستفهام .

(356/582)

وجملة : " من خلق . . . (كمن لم يخلق) . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " خلق السموات " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أنزل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أنبتنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل وفي ضمير المتكلّم التفات .

وجملة : " ما كان لكم . . . " في محلّ نصب نعت لحدائق " 1 " .

وجملة : " تنبتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " أ إله مع اللّه " لا محلّ لها استئناف .

وجملة : " هم قوم . . . " لا محلّ لها استئناف .

وجملة : " يعدلون " في محلّ رفع نعت لقوم .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من حدائق لأنه تعرّف بالوصف .

---

(61) (أم) في المواضع الأربعة مثل (أم) السابقة (من جعل) مثل من خلق (قرارا) مفعول به ثان عامله جعل ، (خلالها) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف مفعول ثان عامله جعل الثاني و(لها) مفعول ثان عامله جعل الثالث و(بين) ظرف منصوب متعلّق بمفعول ثان عامله جعل الرابع (أإله مع اللّه) مثل الأولى (بلى) مثل الأول (لا) نافية . . .

وجملة : " من جعل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعل الأرض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " جعل . . . أنهارا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " جعل . . . رواسي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة

الصلة .

وجملة : " جعل . . . حاجزا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أ إله مع اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أكثرهم لا يعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أكثرهم) .

(62) (أم من يجيب . . .) مثل أم من خلق (إذا) ظرف زمان للزمن المستقبل مجرّد من الشرط متعلّق بـ (يجيب) ، (خلفاء) مفعول به ثان عامله يجعلكم (أ إله مع اللّه) مثل الأولى (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته عامله تذكّرون (ما) زائدة لتأكيد القلّة .

وجملة : " من يجيب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يجيب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " دعاه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يكشف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يجعلكم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أ إله مع اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تذكّرون " لا محلّ لها استئنافيّة .

(63) (أم من يهديكم) مثل أم من خلق . . . (في ظلمات) متعلّق بـ (يهديكم) ، (من يرسل . . .) مثل من يهديكم ومعطوفة عليها (بشرا) حال

منصوبة من الرياح (بين) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (بشرا) " 1 " ، (عما) متعلّق بـ (تعالى) ، وما حرف مصدري "

.

وجملة : " من يهديكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يهديكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يرسل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) (الثاني) .

وجملة : " أ إله مع اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعالى اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشركون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(64) (أم من يبدأ . . .) مثل أم من خلق (ثمّ) حرف عطف ، (من يرزقكم) مثل من يبدأ ومعطوف عليه (من السماء) متعلّق بـ (يرزقكم) ، (هاتوا) أمر جامد مبنيّ على حذف النون " 3 " قياسا على نظيره المسند إلى واو الجماعة (كنتم) ماض ناقص مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط (صادقين) خبر كنتم منصوب ، وعلامة النصب الياء .

وجملة : " يبدأ الخلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يعيده . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " يرزقكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " أ إله مع اللّه " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أي قبل المطر . [. . . . .]

(2) أو موصول ، والعائد محذوف .

(3) ليس له مضارع ولا ماض .

(360/582)

وجملة : " هاتوا برهانكم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنتم صادقين " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

الصرف :

(60) حدائق : جمع حديقة اسم للبستان عليه حائط وزنه فعيلة بمعنى مفعولة لأن الحائط أحدق بها .

(بهجة) ، اسم من (بهجه) بمعنى أفرحه باب فتح ، وهو الحسن والنضارة ، وزنه فعلة بفتح فسكون .

(61) حاجزا : اسم فاعل من حجز الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(62) المضطر : اسم مفعول من الخماسيّ اضطرّ ، وزنه مفتعل بضمّ الميم وفتح العين ، وفيه إبدال التاء طاء . . . انظر الآية (126) من سورة البقرة .

البلاغة

الالتفات : في قوله تعالى فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ .

التفات من الغيبة إلى التكلم بنون العظمة ، لتأكيد اختصاص الفعل بحكم المقابلة بذاته تعالى ، والإيذان بأن إنبات تلك الحدائق المختلفة الأصناف والأوصاف والألوان والطعوم والروائح والاشكال – مع مالها من الحسن البارع والبهاء الرائع – بماء واحد أمر عظيم لا يكاد يقدر عليه إلا هو وحده عز وجل .

الفوائد

– همزة الاستفهام :

تحدثنا فيما سبق عن بعض خصائص همزة الاستفهام ، وسنوفي هنا البحث عن هذه الهمزة :

الجدول ج 20 ، ص : 198

- هي أصل أدوات الاستفهام ، بل هي - كما قال - سيبويه " حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه لغيره ، وليس للاستفهام في الأصل غيره . وإنما تركوا - همزة الاستفهام في " من ، ومتى ، وهل ونحوهن " حيث أمنوا الالتباس ، ولهذا خصّت بأحكام : أحدها : جواز حذفها ، سواء تقدمت على " أم " كقول عمر بن أبي ربيعة :

فواللّه ما أدري وإن كنت داريا بسبع رمين الجمر أم بثمان

أراد : أ بسبع .

أم لم تتقدم على أم ، كقول : الكميت :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

الثاني : أنها ترد لطلب التصور نحو :

" أ خالد مقبل أم علي " .

ولطلب التصديق نحو " أ محمد قادم " ؟ وبقية أدوات الاستفهام مختصة بطلب التصديق فقط .

الثالث : أنها تدخل على الإثبات كما تقدم ، وعلى النفي ، نحو " أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ " .

الرابع : تمام التصدير فهي لا تذكر بعد " أم " فلا نقول : أقرأ خالد أم أكتب ؟

ولكن نقول : أقرأ خالد أم هل كتب ؟ وكذلك تقدم على العاطف " الواو أو الفاء أو ثمّ " تنبيها على أصالتها في التصدير ، مثل :

" أولم ينظروا " " أفلم يسيروا " " أثمّ إذا ما وقع آمنتم به " ، أما أخواتها فتتأخر عن حروف العطف ، نحو " وكيف تفكرون ، فأين تذهبون ، فأنى تؤفكون ، فأي الفريقين " .

الخامس : تختلف همزة الاستفهام عن غيرها في أمور كثيرة ، وما يجوز فيها لا يجوز بغيرها :

1 – يجوز أن يأتي بعدها اسم منصوب ، نحو : أعبد اللّه ضربته ، وأعمرا قتلت أخاه ، ففي هذا تضمر بين الهمزة والاسم المنصوب فعلا ، ومثل ذلك : أ زيدا مررت به أم عمرا .

2 – دخول همزة الاستفهام على همزة الوصل : إذا دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل ثبتت همزة الاستفهام وسقطت همزة الوصل ، لأن همزة الاستفهام نابت عن همزة الوصل بالتوصل إلى النطق بالساكن . نحو : أبن زيد أنت ؟

ونحو " أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ " " أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ " " افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً " قال ابن قيس الرقيات :

فقالت أبن قيس ذا وبعض الشيب يعجبها

3 – همزة الاستفهام وا لقسم :

تقول : " آللّه " مستفهما مع التأكيد بالقسم ، وكذلك " ايم اللّه " و " ايمن اللّه " فهمزة الاستفهام نابت عن واو القسم ، وجرّ بها المقسم به ولا تحذف هنا همزة الوصل في لفظ الجلالة أو " ايم " أو " أيمن " وإنما تجعل مدة ، مثلها هنا كمثلها لو دخلت على غير القسم .

فتقول : " آلرجل فعل ذلك " فهمزة الاستفهام هنا حملت معنيين ، الاستفهام ونيابة الواو في القسم ، فإذا قلت " آللّه لتفعلنّ " فكأنك قلت :

" أ تقسم باللّه لتفعلنّ " .

(362/582)

---

4 – دخول همزة الاستفهام على " ال " التعريفية : إذا دخلت همزة الاستفهام على ال التعريف ، أبقيت الأولى همزة ، وحوّلت الثانية إلى مدة ، كقولك : " آلرجل قال ذاك " ونابت الألف في الرسم عن الهمزتين ، نحو " آلساعة جئت " . ومن ذلك قوله تعالى :

"

آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ " " آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ " " آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ " .

5 – خروج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي :

تخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي ، فترد لثمانية معان .

أ- التسوية : سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ .

ب - الإنكار الابطالي : نحو : أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ ؟

ج - الإنكار التوبيخي : أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ ؟

د - التقرير : نحو أنصرت بكرا وأ بكرا نصرت ؟

ه - التهكم نحو : قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا ؟

و - الأمر نحو : " أَأَسْلَمْتُمْ " أي أسلموا .

ز - التعجّب نحو : أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .

ح - الاستبطاء نحو : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ؟

(363/582)

ط - الالتفات في قوله : " فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ " بعد قوله " أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً " فقد انتقل في نقل الإخبار من الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله فأنبتنا ، والسر فيه تأكيد اختصاص فعل الإنبات بذاته تعالى وللإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف وما يبدو فيها من تزاويق الألوان وتحاسين الصور ومتباين الطعوم ، ومختلف الروائح المتفاوتة في طيب العرف والأريج كل ذلك لا يقدر عليه إلا قادر

خالق وهو اللّه وحده ، ولذلك رشح هذا الاختصاص بقوله بعد ذلك " ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها " .

[سورة النمل (27) : الآيات 65 إلى 66]

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (66)

الإعراب :

(لا) نافية (من) اسم موصول فاعل يعلم في محلّ رفع " 1 " (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة من (الغيب) مفعول به منصوب

---

(1) يجوز أن يكون مفعولا به ، و(الغيب) بدلا من الموصول ، وفاعل يعلم هو لفظ

(إلّا) للاستثناء بمعنى غير " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة وإلّا قبله نعت للموصول مرفوع " 2 " ، (الواو) عاطفة (ما) نافية (أيّان) ظرف زمان منصوب عامله (يبعثون) والواو فيه نائب الفاعل .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما يشعرون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " يبعثون " في محلّ نصب مفعول به عامله يشعرون المعلّق بأيّان الاستفهاميّ ، وهو مضمّن معنى يعرفون .

الجلالة ، أي لا يعلم الأشياء التي تحدث في السموات والأرض الغائبة عنّا إلّا اللّه – وهو قول ابن هشام .

(1) أو أداة استثناء بمعنى لكن ليكون الاستثناء منقطعا لأن الاتصال يقتضي أن اللّه من جملة من في السموات والأرض أي له مكان . . . وعلى هذا لفظ الجلالة مبتدأ خبره محذوف تقديره يعلم الغيب .

(2) يجوز أن يكون بدلا من الموصول إذا لم تقدّر إلّا بمعنى غير ، أي لا يعلم الغيب أحد إلّا اللّه .

(365/582)

---

(66) (بل) للإضراب الانتقاليّ في المواضع الثلاثة (في الآخرة) متعلّق بـ (ادّارك) ، (في شكّ) متعلّق بخبر المبتدأ (هم) (منها) متعلّق بنعت لشكّ ، و(منها) الثاني متعلّق بالخبر

(عمون) .

وجملة : " ادّارك علمهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم في شك منها . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم منها عمون " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة النمل (27) : الآيات 67 إلى 68]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (إذا) ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط متعلّق بمحذوف يفسره ما بعده أي أنخرج إذا كنّا . . . (الواو) عاطفة (آباؤنا) معطوف على الضمير المتّصل اسم كان " 1 " مرفوع (الهمزة) مثل الأولى (اللام) المزحلقة للتوكيد .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة الشرط وفعله وجوابه في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنّا . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " إنّا لمخرجون " لا محلّ لها تفسير لجواب الشرط المقدّر .

---

(1) جاز العطف من غير ضمير التأكيد المنفصل لوجود الفاصل (ترابا) .

(366/582)

---

(68) (اللام) لام القسم لقسم مقدّر و(نا) ضمير نائب الفاعل للمبنيّ للمجهول (وعدنا) ، (هذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (نحن) ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد للضمير المتّصل نائب الفاعل (آباؤنا) معطوف على الضمير المتّصل (نا) ، مرفوع (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (وعدنا) ، (إن) نافية (إلّا) أداة حصر (أساطير) خبر المبتدأ (هذا) .

وجملة : " وعدنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : " إن هذا إلّا أساطير . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

[سورة النمل (27) : الآيات 69 إلى 70]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)

الإعراب :

(في الأرض) متعلّق بـ (سيروا) ، (الفاء) عاطفة (انظروا . . . المجرمين) مرّ إعراب شبيهها " 1 " .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سيروا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " انظروا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة سيروا .

وجملة : " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام .

(70) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (عليهم) متعلّق بـ (تحزن) المنفي (في ضيق) متعلّق بخبر تكن (ما) حرف مصدريّ " 2 " والمصدر المؤوّل (ما يمكرون) في محلّ جرّ بـ (من) متعلّق بضيق .

وجملة : " لا تحزن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل .

وجملة : " لا تكن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل .

وجملة : " يمكرون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

---

(1) في الآية (51) من هذه السورة في الجزء التاسع عشر .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي يمكرونه .

الصرف :

(ضيق) ، مصدر ضاق باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة النمل (27) : آية 71]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (71)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (متى) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب على الظرفيّة الزمانية متعلّق بمحذوف خبر مقدم للمبتدأ (هذا) (الوعد) بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان - مرفوع (كنتم) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط .

جملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " متى هذا الوعد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

[سورة النمل (27) : آية 72]

قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72)

الإعراب :

(عسى) فعل ماض تام فاعله المصدر المؤوّل (أن يكون . . .) ، واسم يكون ضمير الشأن محذوف (لكم) متعلّق بـ (ردف) بتضمينه معنى قرب " 1 " ، (بعض) فاعل ردف مرفوع (الذي) موصول مضاف إليه في محلّ جرّ .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عسى أن يكون . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو اللام زائدة ، وضمير الخطاب مفعوله . . . جاء في القاموس ردفه كسمع ونصر تبعه .

وجملة : " يكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ردف . . . بعض . . . " في محلّ نصب خبر يكون .

وجملة : " تستعجلون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

[سورة النمل (27) : الآيات 73 إلى 75]

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ

صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (74) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (75)

الإعراب :

(369/582)

(الواو) استئنافيّة (اللام) المزحلقة للتوكيد (ذو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو (على الناس) متعلّق بفضل (الواو) عاطفة (لا) نافية.

جملة : "إنّ ربّك لذو . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : "لكنّ أكثرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة : "لا يشكرون" في محلّ رفع خبر لكنّ.

(74) (الواو) عاطفة (اللام) مثل الأولى (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ.

نصب مفعول به ، والعائد محذوف (الواو) عاطفة (ما) الثاني مثل الأول ومعطوف عليه . . .

وجملة : "إنّ ربّك ليعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ ربّك لذو . . .

وجملة : "يعلم . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة : "تكنّ صدورهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول.

وجملة : " يعلنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثانيّ .

75 (الواو) عاطفة (ما) نافية (غائبة) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (في السماء) متعلّق بنعت لغائبه (إلّا) أداة حصر (في كتاب) متعلّق بخبر لغائبه . . .

وجملة : " ما من غائبة . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ ربّك لذو . . .

الصرف :

(غائبة) ، قيل هو اسم فاعل من الثلاثيّ غاب زيدت فيه التاء للمبالغة ، وقيل هو مصدر مثل العاقبة والعافية ، وقيل هو اسم وليس صفة كالنطيحة والذبيحة ، والوزن فاعلة .

الفوائد

- أقسام التاء المربوطة التي تلحق الأسماء :

أ- تكون علامة للتأنيث ، ولها أحكام وتفصيلات نتجاوزها للاختصار ، نحو قائم وقائمة . ويستثني من دخول هذه التاء خمسة أوزان :

1 - فعول نحو امرأة جسور 2 - فعيل نحو امرأة جريح 3 - مفعال نحو امرأة منحار .

4 - مفعيل نحو امرأة معطير 5 - مفعل نحو امرأة مغشم ففي سائر هذه الصفات يستوي الرجل والمرأة في تجردهما من هذه التاء .

ب - تكون للفصل . وتاء الفصل تفصل الواحد من جنسه ، نحو " ثمرة " . وتفصل الجنس من واحده ، نحو " كماة " .

ج- تاء العوض : وهي التي تأتي عوضا عن فاء الاسم عند حذفه نحو عدة ، أو عينه نحو إقامة ، أو لامه نحو سنة .

د - تاء التعريب :

وهي تأتي لتعريب الأسماء الأعجمية .

ه - تاء المبالغة : وتلحق الوصف للدلالة على المبالغة فيه ، نحو راوية ونسّابة وعلّامة إلخ .

لكثير الرواية والخبير بالأنساب وكثير العلم وغزيره .

[سورة النمل (27) : الآيات 76 إلى 77]

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77)

الإعراب :

(على بني) متعلّق بـ (يقصّ) ، وعلامة الجرّ الياء ملحق بجمع المذكر (الذي) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (فيه) متعلّق بـ (يختلفون) .

جملة : "إنّ هذا القرآن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقصّ . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هم فيه يختلفون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يختلفون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

(77) (الواو) عاطفة (اللام) المزحلقة للتوكيد (للمؤمنين) متعلّق بـ (رحمة) وجملة : " إنّه لهدى . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

[سورة النمل (27) : الآيات 78 إلى 81]

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)

الإعراب :

(بينهم) ظرف منصوب متعلّق بـ (يقضي) ، (بحكمه) متعلّق بـ (يقضي) ، (الواو) عاطفة - أو حالية - (العليم) خبر ثان للمبتدأ هو . . .

جملة : " إن ربّك يقتضي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقضي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " هو العزيز . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يقضي " 1 " .

(79) (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (على اللّه) متعلّق بـ (توكّل) ، (على الحقّ) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " توكّل . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن أردت الفوز فتوكّل . . .

وجملة : " إنّك على الحق . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(80) (لا) نافية في الموضعين (الدعاء) مفعول به ثان لفعل تسمع الثاني وحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه (ولّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (مدبرين) حال مؤكّدة لمضمون الفعل .

وجملة : " إنّك لا تسمع . . . " لا محلّ لها استئناف فيه تعليل ثان للتوكّل .

وجملة : " لا تسمع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لا تسمع (الثانية) . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا تسمع الأولى .

---

(1) أو في محل نصب حال .

وجملة : " ولّوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

(81) (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنت) ضمير في محلّ رفع اسم ما (هادي) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ما (العمي) مضاف إليه مجرور (عن ضلالتهم) متعلّق بهادي بتضمينه معنى صارف (إن) نافية (إلّا) أداة حصر (من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به (بآياتنا) متعلّق بـ (يؤمن) ، (الفاء) تعليليّة .

وجملة : " ما أنت بهادي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنك لا تسمع .

وجملة : " إن تسمع إلّا من . . . " لا محلّ لها تعليل لما سبق .

وجملة : " يؤمن . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هم مسلمون " لا محلّ لها تعليليّة .

البلاغة

التتميم : في قوله تعالى " إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ " .

تقييد النفي لتتميم التشبيه وتأكيد النفي ، فإنهم – مع صممهم عن الدعاء إلى الحق – معرضون عن الداعي ، مولون على أدبارهم ولا ريب في أن الأصم لا يسمع الدعاء مع كون الداعي بمقابلة صماخه ، قريبا منه ، فكيف إذا كان خلفه أو بعيدا منه .

[سورة النمل (27) : آية 82]

وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (82)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عليهم) متعلّق بـ (وقع) ، (لهم) متعلّق بـ (أخرجنا) ، (من الأرض) متعلّق بفعل أخرجنا (بآياتنا) متعلّق ب

(يوقنون) المنفي .

والمصدر المؤوّل (أنّ الناس كانوا . . .) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف متعلّق بـ (تكلّمهم) أي بأنّ الناس .

جملة : " وقع القول . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أخرجنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تكلّمهم " في محلّ نصب نعت لدابّة .

وجملة : "كانوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " لا يوقنون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الفوائد

- دابة الأرض :

ليس لدينا نص يحدد لنا نوعها وماهيتها ، وليس علينا إلا أن نؤمن بالغيب بما أخبر عنه سبحانه وتعالى ، وهو أعلم بها ، ولا يضيرنا أن نجهلها ، كما لا يفيدنا أن نجري وراء العلم بها ، وحسبنا أن نقول بها وبما يشابهها من المغيبات " اللّه أعلم بذلك " .

[سورة النمل (27) : الآيات 83 إلى 84]

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره أذكر (من كلّ) متعلّق بحال من (فوجا) ، (ممن) متعلّق بما تعلّق به الجارّ (من كلّ) لأنه بدل منه (بآياتنا) متعلّق بـ (يكذّب) ،

(الفاء) عاطفة والواو في (يوزعون) نائب الفاعل .

جملة : " (اذكر) يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نحشر . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يكذّب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " هم يوزعون " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نحشر .

وجملة : " يوزعون " في محلّ رفع خبر (هم) .

(84) (حتّى) حرف ابتداء (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ (بآياتي) متعلّق بـ (كذّبتم) ، (بها) متعلّق بـ (تحيطوا) ، (علما) تمييز منصوب (أم) هي المنقطعة بمعنى بل (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به عامله تعملون " 1 " .

وجملة : " جاؤوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كذّبتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم تحيطوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول " 2 " .

وجملة : " كنتم تعملون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعملون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(فوج) ، اسم جمع بمعنى الجماعة ، وزنه فعل بفتح فسكون ، والجمع أفواج وفؤوج بضمّ الفاء .

---

(1) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ (ذا) اسم موصول خبر ، وجملة كنتم تعملون صلة ذا .

(2) يجوز أن تكون الجملة حاليّة زيادة في التوبيخ أي : أكذّبتم بها من غير فهمها والتأمّل فيها .

(375/582)

[سورة النمل (27) : آية 85]

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (85)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (عليهم) متعلّق بـ (وقع) ، (ما) حرف مصدريّ ، (الباء) حرف جرّ للسببيّة (الفاء) عاطفة ، (لا) نافية .

والمصدر المؤوّل (ما ظلموا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (وقع) .

جملة : " وقع القول . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ظلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " هم لا ينطقون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لا ينطقون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

[سورة النمل (27) : آية 86]

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (أنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (اللام) للتعليل (يسكنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (فيه) متعلّق بـ (يسكنوا) .

والمصدر المؤوّل (أنّا جعلنا . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يروا .

والمصدر المؤوّل (أن يسكنوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعلنا) ، ومفعول جعلنا الثاني محذوف تقديره مظلما " 1 " .

---

(1) يجوز أن يكون الفعل (جعلنا) بمعنى خلقنا ، فلا تقدير حينئذ . [. . . . .]

الجدول ج 20 ، ص : 213

(الواو) عاطفة (النهار مبصرا) معطوفان على المفعولين الأول والثاني " 1 " ، (في ذلك) متعلّق بخبر إنّ (اللام) لام الابتداء للتوكيد (آيات) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الكسرة (لقوم) متعلّق بنعت لآيات .

جملة : " يروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جعلنا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يسكنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ في ذلك لآيات . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يؤمنون . . . " في محلّ جرّ نعت لقوم .

الفوائد

---

(1) أو هما مفعولان لفعل محذوف دلّ عليه الفعل المذكور ، والعطف حينئذ من عطف الجمل .

(376/582)

---

1 - مرّ معنا أن " جعل " في إحدى حالتيها تنصب مفعولين ، وقد اشتملت هذه الآية على حالتي جعل ، ففي قوله تعالى أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ نصبت مفعولا واحدا وهو الليل ، إلا إذا اعتبرنا جملة " لِيَسْكُنُوا فِيهِ " حلّت محل المفعول الثاني ، وقوله تعالى وَالنَّهَارَ مُبْصِراً النهار مفعول أول ، و " مبصرا " مفعول ثان . . . أي " وجعلنا النهار مبصرا " .

2 - يقول الزمخشري في وصف بعض الكلمات التي يسندها اللّه إلى نفسه " ألا ترى إلى قوله " صنع اللّه " و " وعد اللّه " و " فطرة اللّه " بعد ما وسمها بإضافتها إليه بسمة التعظيم ،

كيف تلاها قوله : " الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ " " وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً " ، و " لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ " ، " لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ " .

[سورة النمل (27) : الآيات 87 إلى 90]

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (88) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر " 1 " ، (في الصور) نائب الفاعل لفعل ينفخ (الفاء) عاطفة (في السموات) متعلّق بمحذوف صلة من ، وكذلك (في الأرض) للموصول الثاني (إلّا) أداة استثناء (من) موصول في محلّ نصب على الاستثناء ، وفاعل (شاء) ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (الواو) حاليّة (كلّ) مبتدأ مرفوع " 2 " ،

(داخرين) حال منصوبة من فاعل أتوه .

جملة : " (اذكر) يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ينفخ في الصور . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . .

وجملة : " فزع من . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ينفخ . . .

والماضي في حكم المضارع لتحقّق وقوعه .

وجملة : " شاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثالث .

وجملة : " كلّ أتوه . . . " في محلّ نصب حال ممّن في السموات والأرض .

وجملة : " أتوه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (كلّ) .

---

(1) أو معطوف على الظرف السابق (يوم نحشر . . .) في الآية (83) من هذه السورة .

(2) دلّ على عموم ، وهو على تقدير مضاف إليه أي كلّهم .

---

(88) (الواو) عاطفة (جامدة) مفعول به ثان عامله تحسبها (الواو) حاليّة (مرّ) مفعول مطلق منصوب (صنع) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (ما) حرف مصدريّ " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما تفعلون) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بخبير .

وجملة : " ترى . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ينفخ في الصور .

وجملة : " تحسبها . . . " في محلّ نصب حال من فاعل ترى .

وجملة : " هي تمرّ . . . " في محلّ نصب حال من الضمير المستتر في جامدة .

وجملة : (صنعت) صنع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أتقن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " إنّه خبير . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تفعلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

(89) (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (بالحسنة) متعلّق بحال من فاعل جاء أي متلبّسا بها (الفاء) رابطة لجواب الشرط (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ خير (منها) متعلّق بخير (الواو) حاليّة (من فزع) متعلّق بـ (آمنون) ، (يومئذ) متعلّق بـ (آمنون) .

وجملة : " من جاء . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " جاء بالحسنة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " له خير . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " هم . . . آمنون . . . " في محلّ نصب حال " 2 " .

---

(1) أو اسم موصول في محل جر والعائد محذوف أي تفعلونه .

(2) يجوز عطفها على الاستئنافيّة فلا محلّ لها .

(379/582)

---

(90) (من جاء بالسيّئة) مثل من جاء بالحسنة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (وجوههم) نائب الفاعل لفعل كبّت مرفوع (في النار) متعلّق بـ (كبّت) ، (هل) حرف استفهام للنفي ، و(الواو) في (تجزون) نائب الفاعل (إلّا) أداة حصر (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ، والعائد محذوف أي تعملونه .

وجملة : " من جاء (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة من جاء (الأولى) .

وجملة : " جاء بالسيّئة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : "كبّت وجوههم " في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة الاسميّة في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " هل تجزون . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر ، والقول المقدّر حال من الضمير في وجوههم " 1 " .

وجملة : "كنتم تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تعملون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(88) جامدة : مؤنّث جامد اسم فاعل من الثلاثيّ جمد ، وزنه فاعل وهي فاعلة .

(مرّ) مصدر مرّ الثلاثيّ باب نصر ، وثمّة مصدران آخران هما مرور

---

(1) لأن المضاف هو جزء من المضاف إليه .

و لكنه عدل إلى الماضي للإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، واقع على أهل السموات والأرض ، لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به .

الطباق : في قوله تعالى وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ .

طباق عجيب بين الجمود والحركة السريعة ، فجعل ما يبدو لعين الناظر كالجبل في جموده ورسوخه ولكنه سريع يمر مرورا حثيثا كما يمر السحاب ، وهذا شأن الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها .

وقد وصف الزمخشري هذه الآيات وصفا بليغا فقال :

" فانظر إلى بلاغة هذا الكلام ، وحسن نظمه وترتيبه ، ومكانة إضماده ، ورصانة تفسيره

، وأخذ بعضه بحجزة بعض ، كأنما أفرغ إفراغا واحدا . ولأمر ما أعجز القوى ، وأخرس الشقاشق . ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام ، جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداده ، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان " .

الفوائد

- مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها : يلاحظ في هذه الآية وفي التي تليها أن جواب الشرط جاء مقترنا بالفاء ، وذلك لأن جواب الشرط أتى جملة اسمية . وهذا يدعونا لتكرار مواضع اقتران جواب الشرط بالفاء ، وقد أراحنا بعضهم بجمعها في هذا البيت من الشعر : إذ قال :

اسمية طلبية وبجامد وبما ولن وقد وبالتسويف

[سورة النمل (27) : الآيات 91 إلى 92]

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (التاء) ضمير في محلّ رفع نائب الفاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب

. . .

والمصدر المؤوّل (أن أعبد) في محلّ نصب مفعول به عامله أمرت .

(381/582)

(هذه) اسم إشارة في محلّ جرّ مضاف إليه (البلدة) بدل من اسم الإشارة مجرور (الذي) اسم موصول في محلّ نصب نعت لربّ (الواو) اعتراضيّة (له) متعلّق بخبر محذوف للمبتدأ كلّ (الواو) عاطفة (أن أكون) مثل أن أعبد (من المسلمين) متعلّق بمحذوف خبر أكون .

والمصدر المؤوّل (أن أكون) في محلّ نصب مفعول به عامله أمرت الثاني .

جملة : " أمرت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " أعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " حرّمها . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " له كلّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " أمرت (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة أمرت (الأولى) .

وجملة : " أكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

(92) (الواو) عاطفة (أن أتلو) مثل أن أعبد (الفاء) استئنافيّة (من) اسم شرط جازم في

محلّ رفع مبتدأ (اهتدى) فعل ماض مبنيّ على الفتح

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي قل لهم : إنّما . . .

المقدّر في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) مثل الأولى (لنفسه) متعلّق بـ (يهتدي) ، (الواو) عاطفة (من ضلّ) مثل من اهتدى (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّما) مثل الأولى (من المنذرين) متعلّق بخبر المبتدأ أنا .

والمصدر المؤوّل (أن أتلو . . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل (أن أكون) .

وجملة : " أتلو . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثالث .

وجملة : " من اهتدى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اهتدى . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " إنّما يهتدي . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " من ضلّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من اهتدى .

وجملة : " ضلّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " أنا من المنذرين . . . " في محلّ نصب مقول القول ، والرابط مع الشرط مقدّر أي قل له .

البلاغة

الاحتراس : في قوله تعالى وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ :

احتراس بديع وقد تقدم ذكر هذا الفن ، وأنه يؤتى به دفعا لتوهم يتوجه على الكلام ، فقد أضاف سبحانه اسمه إلى مكة تشريفا لها وذكرا لتحريمها ، ولما أضاف اسمه إلى البلدة والمخصوصة بهذا التشريف أتبع ذلك إضافة كل شيء

سواها إلى ملكه ، قطعا لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها ، وتنبيها على أن الإضافة الأولى إنما قصد بها التشريف ، لا لأنها ملك اللّه تعالى خاصة .

[سورة النمل (27) : آية 93]

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (للّه) خبر المبتدأ الحمد (السين) حرف استقبال (الفاء) عاطفة (الواو) استئنافيّة (ما) نافية عاملة عمل ليس (غافل) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما (ما) الثاني حرف مصدريّ " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما تعملون) في محلّ جرّ بـ (عن) متعلّق بغافل .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّما أمرت " 2 " .

وجملة : " الحمد للّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سيريكم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " تعرفونها . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيريكم .

وجملة : " ما ربّك بغافل . . . " لا محل لها استئنافيّة .

وجملة : " تعملون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الفوائد

(384/582)

- في ختام سورة النمل نحيل القارئ على ما ذكره الباقلاني في تفسير هذه السورة وتحليلها ومواطن الإعجاز فيها ، فقد قال فيها ما يحسن قوله ، وإن كان لا يطال بلاغة القرآن ذو

طول أو حول . فمن شاء فليرجع إلى ما قاله الباقلاني في معرض الحديث عن مواطن البلاغة في هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 19 صـ 137 . 220 ﴾

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي تعملونه .

(2) في الآية (91) من هذه السورة .

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(27) سورة النمل

مكيّة وآياتها ثلاث وتسعون

[سورة النمل (27) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ (1) هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4)

أُولئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ

لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

الإعراب :

)

طس . تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَكِتابٍ مُبِينٍ) طس تقدم الكلام على اعرابها ومعناها في بحث فواتح السور . وتلك مبتدأ وآيات القرآن خبر وكتاب مبين عطف على القرآن ومبين صفة ، وسيأتي سر التنكير والعطف في باب البلاغة . (هُدىً وَبُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ) يجوز في هدى النصب على الحال والعامل فيها ما في تلك من معنى الاشارة أي هاديه ومبشرة ويجوز فيها الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أي هي هدى وبشرى ، ومعنى هداها للمؤمنين وهم مهديون زيادتها في هداهم .

(386/582)

)

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) الذين نعت للمؤمنين ولك أن تقطعه على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي هم الذين وجملة يقيمون الصلاة صلة الذين وجملة يؤتون الزكاة عطف على يقيمون الصلاة وهم الواو للحال وهم مبتدأ أو للعطف وجملة

يوقنون خبره وبالآخرة متعلقان بيوقنون وهم مبتدأ جيء للفصل بين المبتدأ وخبره ليتصل بالخبر في الصورة وسيأتي سر التغيير في النظم في باب البلاغة . (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) كلام مستأنف مسوق لبيان السبب في عدم إيمانهم وتحيرهم وتردّدهم في أعمالهم ، وان واسمها وجملة لا يؤمنون صلة الذين وبالآخرة جار ومجرور متعلقان بيؤمنون وجملة زينا خبر إن وزينا فعل وفاعل ولهم متعلقان بزينا وأعمالهم مفعول به والفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة يعمهون خبره أي يتحيرون ويترددون بين تركها لأنها واضحة البطلان ظاهرة السوء وبين الاستمرار عليها ، وقيل معنى يعمهون يستمرون من غير تردد إذ لم يدر في خلدهم لحظة الإقلاع عنها وهو جميل وقوي ولكن العمه هو كما يقول الزمخشري وغيره من أئمة اللغة التردد والتحير كما يكون حال الضالّ عن الطريق ، وعن بعض الأعراب أنه دخل السوق وما أبصرها قط فقال : رأيت الناس عمهين أراد مترددين في أعمالهم وأشغالهم ، وتكاد تجمع معاجم اللغة على أن العمه مصدر عمه يعمه ويعمه من باب ضرب وفتح عمها وعموها وعموهية وعمهانا أي تحير في طريقه أو أمره وتردد في الضلال فهو عمه وجمعه عمهون وعامه وجمعه عامهون وعمّه .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ) أولئك مبتدأ والذين خبره ولهم خبر مقدم وسوء العذاب مبتدأ مؤخر

و الجملة صلة وهم مبتدأ وفي الآخرة متعلقان بالأخسرون والأخسرون خبره وهم مبتدأ جيء به للفصل بين المبتدأ وخبره ليتصل بالخبر في الصورة وقد تقدم بحثه ، هذا ولا بد من الاشارة إلى أن قوله " الأخسرون " يحتمل أنها على بابها من التفضيل وذلك بالنسبة للكفار ويحتمل أنها للمبالغة لا للتشريك لأن المؤمن لا خسران له في الآخرة البتة . (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ) الواو استئنافية وان واسمها واللام المزحلقة وجملة تلقى خبرها ونائب الفاعل مستتر تقديره أنت والقرآن مفعول به ثان ومن لدن الجار والمجرور متعلقان بتلقى وحكيم مضاف اليه وعليم صفة .

البلاغة :

1- التنكير :

التنكير فقد نكر الكتاب المبين ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له ، ومثله في " مقعد صدق عند مليك مقتدر " أما عطفه على القرآن مع أنه هو القرآن نفسه فهو من قبيل عطف إحدى الصفتين على الأخرى كقولك : هذا فعل السخي والجواد الكريم ولأن المعطوف فيه صفة زائدة على مفهوم المعطوف عليه .

2- تكرير الضمير :

وفي قوله " وهم بالآخرة هم يوقنون " كرر الضمير حتى صار معنى الكلام ولا يوقن بالآخرة

حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لأن خوف الآخرة يحملهم على تحمل المشاق ، وقد سبق لنا أن ذكرنا أن إيقاع الضمير مبتدأ يفيد الحصر كما مر في قوله تعالى : " هم ينشرون " ان معناه لا ينشر إلا هم ، وأما وجه تكراره هنا فهو انه كان أصل الكلام هم يوقنون بالآخرة ثم قدم المجرور على عامله عناية به فوقع فاصلا بين المبتدأ والخبر فأريد أن يلي المبتدأ خبره وقد حال المجرور بينهما فطري ذكره ليلية الخبر ولم يفت مقصود العناية بالجار والمجرور حيث بقي على حاله مقدما ولا يستنكر أن تعاد الكلمة مفصولة له وحدها بعد ما يوجب التطرية .

3- التعبير بالاسمية والفعلية :

(388/582)

قلنا في مواطن من هذا الكتاب إن التعبير يكون أحيانا بالجملة الاسمية وأحيانا بالجملة الفعلية على أن ذلك ليس متروكا إلى الاعتباط وإنما يعدل عن أحد التعبيرين لضرب من التأكيد والمبالغة والاستمرار والانقطاع ، فإن الايمان والإيقان بالآخرة أمر ثابت مطلوب دوامه ولذلك أتى به جملة اسمية وجعل خبرها فعلا مضارعا فقال " وهم بالآخرة هم يوقنون " للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد أما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مما

يتكرر ويتجدد في أوقاتهما المعينة ولذلك أتى بهما فعلين فقال " الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة " .

الفوائد :

أورد الامام الزمخشري سؤالا في هذا الصدد بناء على قاعدته الاعتزالية وهو " فإن قلت : كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان في قوله وزين لهم الشيطان أعمالهم . وقد أجاب بقوله : " قلت : بين الاسنادين فرق وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة وإسناده إلى اللّه عز وجل مجاز ، وله طريقان في علم البيان أحدهما : أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة ، والثاني أن

يكون من المجاز الحكمي ، فالطريق الاول انه لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق وجعلوا إنعام اللّه بذلك عليهم وإحسانه إليهم ذريعة إلى اتباع شهواتهم وبطرهم وإيثارهم الروح والترفه ونفارهم عما يلزمهم فيه من التكاليف الصعبة والمشاق المتعبة فكأنه زين لهم بذلك أعمالهم ، واليه أشارت الملائكة صلوات اللّه عليهم في قوله " ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر " والطريق الثاني أن إمهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فأسند اليه لأن المجاز الحكمي يصححه بعض الملابسات . وقيل هي أعمال الخير التي وجب عليهم أن يعملوها زينها اللّه لهم فعمهوا عنها وضلوا ، ويعزى إلى الحسن .

و قد أجاب أهل السنة بأن هذا الجواب مبني على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح والأصلح وامتناع أن يخلق اللّه تعالى للعبد إلا ما هو مصلحة ، فمن ثم جعل التزيين إلى اللّه تعالى مجازا والى الشيطان حقيقة ولو عكس الجواب لفاز بالصواب ، وتأمل ميله إلى التأويل الآخر من أن المراد أعمال البر على بعده لأنه لا يعرض لقاعدته بالنقض ، على أن التزيين قد ورد في الخير في قوله تعالى : " ولكن اللّه حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم " على أن غالب وروده في غير البر كقوله :

" زين للناس حب الشهوات " ، " زين للذين كفروا الحياة الدنيا " و" كذلك زين للمسرفين " ومما يبعد حمله على أعمال البر إضافة الأعمال إليهم في قوله : أعمالهم ، وأعمال البر ليست مضافة إليهم لأنهم لم يعملوها قط فظاهر الاضافة يعطي ذلك ، ألا ترى إلى قوله تعالى : " ولما يدخل الايمان في قلوبكم " وقوله : " قل لا تمنوا علي إسلامكم بل اللّه يمن عليكم أن هداكم للايمان " فأطلق الايمان في المكانين عن إضافته إليهم لأنه لم يصدر منهم ، وأضاف الإسلام الظاهر إليهم لأنه صدر منهم .

[سورة النمل (27) : الآيات 7 إلى 14]

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ

الْعالَمِينَ (8) يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11)

(390/582)

وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)

اللغة :

(آنَسْتُ) أبصرت من بعيد ، ويقال آنست نارا وآنست فزعا وآنست منه رشدا ، فهو يطلق على المادي والمعنوي .

(بِشِهابٍ قَبَسٍ) يقرأ بالإضافة وتركها كما سيأتي في الاعراب ، والشهاب كل مضيء متولد من النار ، وما يرى كأنه كوكب انقض ، والكوكب عموما ، والسنان لما فيه من البريق ، وجمعه شهب وشهبان

وشهبان وأشهب ، ويقال فلان شهاب حرب إذا كان ماضيا فيها ، والقبس بفتحتين النار

المقبوسة تقول خذ لي قبسا من النار ومقبسا ومقباسا واقبس لي نارا واقتبس ، ومنه ما أنت إلا كالقابس العجلان أي المقتبس وما زورتك إلا كقبسة العجلان ، وتقول ما أنا إلا قبسة من نارك ، وقبضة من آثارك ، وقبسته نارا وأقبسته كقولك بغيته الشيء وأبغيته ومن المجاز قبسته علما وخبرا وأقبست .

(تَصْطَلُونَ) : فيه الابدال لأن أصله تصتلون فلما وقعت تاء الافتعال بعد حرف الاطباق وهو الصاد قلبت طاء على القاعدة وهو من صلي بالنار بكسر اللام وفي المصباح " صلي بالنار وصليها صلى من باب تعب وجد حرها والصلاء بوزن كتاب حر النار وصليت اللحم أصليه من باب رمى : شويته " وفي الأساس : " وصلي النار وصلي بها " " يصلى النار الكبرى " وتصلّاها وتصلّى بها وأصلاه وصلّاه ، وشاة مصليّة : مشوية وقد صليتها "

.

(جَانٌّ) : حية خفيفة الحركة ، وقال في القاموس والتاج :

"

والجانّ اسم جمع للجن ، وحية أكحل العين لا تؤذي كثيرة في الدور " قالوا وهي كبيرة جدا وإن كانت خفيفة في سرعة الحركة .

(وَلَمْ يُعَقِّبْ) : ولم يرجع ، يقال عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار قال :

فما عقبوا إذ قيل هل من معقب ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا

يصف قوما بالجبن وانهم إن قيل : هل من معقب وراجع على عقبه للحرب لم يرجعوا إليها ، ولا نزلوا يوم الحرب منزلا من منازلها ،

وفي المختار : " وتقول : ولى مدبرا ولم يعقب بتشديد القاف وكسرها أي لم يعطف ولم ينتظر " .

(جَيْبِكَ) : طوق قميصك وسمي جيبا لأنه يجاب أي يقطع ليدخل فيه الرأس .

(وَاسْتَيْقَنَتْهَا) : الاستيقان أبلغ من الإيقان فلا معنى لقول بعض المفسرين أن السين لمجرد الزيادة .

الاعراب :

(

إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ : إِنِّي آنَسْتُ ناراً) كلام مستأنف مسوق لذكر قصص خمس من قصص الأولين الأولى قصة موسى وتليها قصة النمل وتليها قصة بلقيس وتليها قصة صالح وتليها قصة لوط . والظرف متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر وقد تقدم كثيرا تقرير ذلك وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها وموسى فاعل ولأهله متعلقان بقال وجملة إني آنست

نارا مقول القول وان واسمها وجملة آنست خبرها ونارا مفعول به . وأهله عبارة عن زوجه بنت شعيب وولده وخادمه وذلك عند فقوله من مدين إلى مصر ليجتمع بأمه وأخيه في مصر وقيل لم يكن معه غير امرأته وقد كنى اللّه عنها بالأهل وتبعا لذلك أورد الخطاب بالجمع . (سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) الجملة استئنافية وآتيكم فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وجاء بسين التسويف للاشارة إلى أنه عائد وإن أبطأ فربما كانت المسافة بعيدة ، ومنها متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لخبر وبخبر متعلقان بآتيكم ، وأو حرف عطف ، وللعدول عن الواو إلى أو سر سيأتي في باب البلاغة ، وآتيكم عطف على آتيكم الأولى وبشهاب متعلقان بآتيكم وقبس بدل من شهاب أو

(392/582)

نعت له على تأويله بالمفعول أي شهاب مقتبس من نار وقرئ بالإضافة لأن الشهاب يكون قبسا وغيره كالكوكب فهو من إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة وثوب خز وهي بمعنى من ، ولعلكم تصطلون جملة الرجاء حالية ولعل واسمها وخبرها أي راجيا تأمين الدفء لكم وتوفيره .

)

فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَها) الفاء عاطفة على محذوف للاختصار ولما ظرفية حينية أو رابطة وجاءها فعل وفاعل مستتر ومفعول به وجملة نودي لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ونائب فاعل نودي ضمير مستتر تقديره هو يعود على موسى ، وأن هي المفسرة لأن في النداء معنى القول دون حروفه والمعنى قيل له بورك ويجوز أن تكون على حالها أي ناصبة للفعل المضارع وقد دخلت على الماضي ، أو مخففة من الثقيلة ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض أي بأن بورك ، وهناك أعاريب أخرى ضربنا عنها صفحا لأنها واهنة ، وبورك فعل ماض مبني للمجهول ومن نائب فاعل وفي النار جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة من أي في مكان النار ، ومن حولها عطف على من في النار والمراد بمن إما اللّه تعالى على حذف أي قدرته وسلطانه وقيل المراد موسى وقيل المراد بمن غير العقلاء وهو النور والأمكنة التي حولها .

(وَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) الواو استئنافية وسبحان مفعول مطلق لفعل محذوف واللّه مضاف اليه ورب العالمين بدل أو نعت .

(يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) يا حرف نداء وموسى منادى مفرد علم وان واسمها والهاء إما ضمير الشأن أو راجعة إلى ما دل عليه ما قبلها يعني ان مكلمك ، وأنا مبتدأ اللّه

خبر والجملة خبر إن والعزيز الحكيم صفتان . (وَأَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ) الواو حرف عطف وألق فعل أمر مبني على حذف حرف

(393/582)

العلة والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والكلام معطوف على بورك لأن المعنى نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك وهذا ما يرجح كون أن مفسرة كما تقدم وعصاك مفعول ، فلما الفاء عاطفة على محذوف أي فألقاها فاستحالت حية فلما ، ولما ظرف بمعنى حين أو رابطة وجملة رآها في محل جر بإضافة الظرف اليه ورآها فعل وفاعل ومفعول به وجملة تهتز في محل نصب على الحال لأن الرؤية هنا بصرية ، وكأنها جان كأن واسمها وخبرها والجملة في محل نصب حال ثانية أو هي حال من ضمير تهتز فهي حال متداخلة وجملة ولى لا محل لها ومدبرا حال من فاعل ولى والواو حرف عطف ولم حرف نفي وقلب وجزم ويعقب فعل مضارع مجزوم بلم . (يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) الجملة مقول قول محذوف لا بد من تقديره أي قال تعالى ويا موسى منادى مفرد علم ولا ناهية وتخف فعل مضارع مجزوم بلا وان واسمها وجملة لا يخاف خبرها والجملة تعليلية للنهي عن الخوف ولدي ظرف متعلق بيخاف والمرسلون فاعل . (إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ

سُوءٍ) إلا أداة استثناء بمعنى لكن لأن الاستثناء منقطع ومن اسم موصول مستثنى في موضع نصب ويجوز أن تكون شرطية فتكون مبتدأ والجملة مستثناة من أعم الأحوال وظلم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ثم بدل عطف على ظلم وحسنا مفعول به وبعد سوء ظرف متعلق بمحذوف صفة لحسنا . (فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) الفاء واقعة في جواب " من " على الوجهين وان واسمها وخبراها .

(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) الواو عاطفة وأدخل عطف على وألق عصاك ويدك مفعول به وفي جيبك متعلقان بأدخل وتخرج فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر وفاعل تخرج ضمير مستتر تقديره هي وبيضاء حال من فاعل تخرج ومن غير سوء

(394/582)

متعلقان ببيضاء لما فيها من معنى الفعل وقد تقدم هذا في " طه " واختار أبو البقاء أن يكون الجار والمجرور حالا أخرى واختار السمين أن يكون صفة لبيضاء . (فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ) كلام مستأنف وحرف الجر يتعلق بالفعل المحذوف أي اذهب في تسع آيات إلى فرعون ، وقدره بعضهم بمحذوف أي مرسلا فيكون محله

النصب على الحال والأول أولى وله نظائر قال :

فقلت إلى الطعام فقال منهم فريق يحسد الإنس الطعاما

وهناك أقوال متشعبة للمعربين سنوردها في باب الفوائد لصقل الأذهان .

وقومه عطف على فرعون وجملة انهم تعليل للأمر بالذهاب وجملة كانوا خبر إن وقوما خبر كانوا وفاسقين صفة وقد تقدمت الآيات التسع .

(فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ) الفاء عاطفة على محذوف وقد تقدم ذلك كثيرا ومبصرة حال وسيأتي معناها في باب البلاغة وجملة قالوا لا محل لها وهذا مبتدأ وسحر خبر ومبين صفة والجملة مقول القول . (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً) وجحدوا عطف على قالوا وبها متعلقان بجحدوا والواو للحال وقد بعدها مضمرة واستيقنتها أنفسهم فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وظلما مفعول لأجله لأنه علة للجحد أو حال من فاعل جحدوا أي ظالمين مستكبرين . (فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) الفاء الفصيحة وأنظر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم لكان وعاقبة المفسدين اسم كان والجملة معلقة لا نظر عن العمل فهي محل نصب بنزع الخافض لأن انظر بمعنى تفكر .

البلاغة :

1- استعمال " أو " بدل الواو :

في قوله : " آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون " آثر " أو " على الواو لنكتة بلاغية رائعة فإن أو تفيد التخيير وقد بنى رجاءه على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعا فلن يعدم واحدة منهما وهما إما هداية الطريق وإما اقتباس النار هضما لنفسه واعترافا بقصوره نحو ربه ، وقد كانت الليلة شاتية مظلمة وقد ضل الطريق وأخذ زوجته المخاض ، وهذا موطن تزلق فيه أقلام الكتاب الذين لا يدركون أسرار البيان وخاصة في استعمال الحروف العاطفة والجارة وقد تقدمت الاشارة إلى هذا الفن .

2- المجاز العقلي :

في إسناد الإبصار إلى الآيات في قوله " فلما جاءتهم آياتنا مبصرة " ويجوز أن يكون المجاز مرسلا والعلاقة السببية لأنها سبب الإبصار وهذا أولى من قول بعضهم إن " مبصرة " اسم فاعل والمراد به المفعول أطلق اسم الفاعل على المفعول إشعارا بأنها لفرط وضوحها وإنارتها كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر .

الفوائد :

أقوال المعربين في " في تسع آيات " :

تشعبت أقوال المعربين في إعراب هذه الآية وهي " في تسع آيات إلى فرعون وقومه " وقد اخترنا لك في الاعراب أمثلها وأسهلها ،

وسنورد بقية الوجوه لأنها واردة ومعقولة لتشحذ ذهنك وتختار منها ما تراه أدنى إلى المنطق فالاعراب منطق قبل كل شيء .

أما الزمخشري فقد اكتفى بالوجه الذي اخترناه في الاعراب قال :

" في تسع آيات كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف والمعنى اذهب في تسع آيات أي في جملة تسع آيات وعدادهن ، ولقائل أن يقول : كانت الآيات احدى عشرة اثنتان منها اليد والعصا ، والتسع :

الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم " .

(396/582)

و قال أبو البقاء : " في تسع " حال ثالثة ، وأراد بالحالين الأولى والثانية قوله بيضاء وقوله من غير سوء ، والى فرعون متعلقة بمحذوف تقديره مرسلا إلى فرعون ويجوز أن يكون صفة لتسع أو لآيات أي واصلة إلى فرعون .

وجعل الزجاج "في" بمعنى "من" وعلقها بألق قال: كما تقول خد لي من الإبل عشرا فيها فحلان أي منها فحلان.

وأما ابن عطية فقد أيد الزجاج في تعليقها بألق وجعل "في" بمعنى "مع" لأن اليد والعصا حينئذ داخلتان في الآيات التسع وقال:

تقديره يمهد لك ذلك وينشره في تسع. وقال آخرون هو كما قال ابن عطية وتكون اليد والعصا خارجتين من التسع.

واختار الجلال أن تتعلق بمحذوف حال أخرى من ضمير تخرج، وقد صرح بهذا المحذوف في سورة "طه" حيث قال هناك: "تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى" فالمعنى هنا حال كونها آية مندرجة في جملة الآيات التسع.

[سورة النمل (27): الآيات 15 إلى 19]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16) وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ

فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (19)

اللغة :

)

(397/582)

مَنْطِقَ الطَّيْرِ) المنطق مصدر نطق ينطق من باب ضرب نطقا ومنطقا ونطوقا أي تكلم بصوت وحروف تعرف بها المعاني ، والمنطق الكلام وقد يستعمل في غير الإنسان يقال : سمعت منطق الطير ، وقال البيضاوي : " والنطق والمنطق في المتعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفردا كان أو مركبا مفيدا كان أو غير مفيد وقد يطلق على كل ما يصوت به على التشبيه أو التبع كقولهم نطقت الحمامة ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد فإن الأصوات الحيوانية من حيث

أنها تابعة للتخيلات منزلة منزلة العبارات لا سيما وفيها ما يتفاوت بتفاوت الأغراض بحيث يفهمها ما هو من جنسه " .

وزاد الزمخشري على ما قاله البيضاوي : " وقد ترجم يعقوب بن السكيت كتابه بإصلاح المنطق وما أصلح فيه إلا مفردات الكلم " .

هذا ويبدو أن الأصل الاشتقاقي لكلمة المنطق يظهرنا على الصلة الوثيقة بين الفكر واللغة فإن الحيوان المفكر هو وحده الحيوان المتكلم وليست اللغة مجرد أداة اصطنعها العقل البشري للتعبير عن أغراضه ومراميه بل هي أيضا وسيلة إلى التجرد عن الأعراض الحسية واصطناع بعض الرموز أو الدلالات المعنوية .

وعلم المنطق هو علم يبحث في صحيح الفكر وفاسده فهو يضع القواعد التي تعصم الذهن من الوقوع في الأخطاء وفي الأحكام كما انه يهتم بالتعرف على المناهج المختلفة في دراساتهم المتعددة وأبحاثهم المتباينة ، حقا ان موضوع المنطق هو التفكير الانساني بصفة عامة ولكن المنطق لا يقتصر على وصف العمليات الذهنية التي نقوم بها حين نفكر أو نحكم أو نجرد أو تتذكر أو نحل مشكلة بل هو يريد أيضا أن يعيننا على التمييز بين الحكم الصحيح والحكم الخاطئ ، بين الاستدلال السليم والاستدلال الفاسد .

(398/582)

و قد اهتم فلاسفة اليونان الأقدمون بدراسة العلاقة بين صورة الفكر ومادته أي بين الناحية الشكلية للأحكام أو القضايا ومضمون التفكير نفسه فنشأت من ذلك مباحث جدلية كانت هي النواة الأولى لعلم المنطق ، وهكذا اهتم سقراط وأفلاطون بالبحث في

مغالطات السوفسطائيين فوضعا للرد عليهم أصول التفكير الجدلي السليم ، ثم جاء أرسطو فاستفاد من دراسات السابقين عليه في تكوين التصورات والقسمة المنطقية وطرق إيراد البرهنة ووضع هذا كله في كتاب مشهور أطلق عليه اسم " التحليلات الأولى " وان كان أرسطو لم يستعمل كلمة المنطق فإن المؤرخين قد أجمعوا على مبايعته بأمارة المنطق .

أما في العصور الحديثة فقد ثار كل من بيكون وديكارت على منطق أرسطو بدعوى أنه منطق صوري مجدب ، ثم فطن المناطقة أخيرا إلى ضرورة تخليص الفكر من سحر الألفاظ وتحريره من سلطان اللغة فحاولوا أن يجعلوا من المنطق علما رياضيا يصوغ العمليات الذهنية في رموز جبرية .

(يُوزَعُونَ) : يحبس أولهم على آخرهم أي توقف سلاف العسكر حتى تلحقهم التوالي وسلاف العسكر يعني متقدميهم كما في الصحاح ، وفي المختار : " وزعه يزعه وزعا مثل وضعه يضعه وضعا أي كفه فانزع هو أي كفّ ، وأوزعه بالشيء أغراه به واستوزعت اللّه شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني والوازع الذي يتقدم الصف فيصلحه ويقدم ويؤخر وجمعه وزعة ، وقال الحسن : لا بد للناس من وازع أي من سلطان يكفهم ، يقال وزعت الجيش إذا حبست أولهم على آخرهم " .

(نَمْلَةٌ) : النمل والنمل بضم الميم : حيوان حريص على جمع الغذاء يتخذ قرى تحت الأرض

فيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات منعطفة يملؤها حبوبا وذخائر للشتاء ، الواحدة نملة ونملة للذكر والأنثى والجمع نمال .

وحكى الزمخشري عن أبي حنيفة أنه وقف على قتادة وهو يقول :

سلوني فأمر أبو حنيفة شخصا سأل قتادة عن نملة سليمان هل كانت

(399/582)

ذكرا أم أنثى فلم يجب فقيل لأبي حنيفة في ذلك فقال كانت أنثى واستدل بلحاق العلامة ، قال الزمخشري : " وذلك أن النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على المذكر والمؤنث فيميز بينهما بعلامة نحو حمامة ذكر وحمامة أنثى " .

ولا أدري أأعجب منه أم من أبي حنيفة ان يثبت ذلك عنه . وذلك أن النملة كالحمامة والشاة تقع على الذكر وعلى الأنثى لأنه اسم جنس يقال نملة ذكر ونملة أنثى كما يقال حمامة ذكر وحمامة أنثى وشاة ذكر وشاة أنثى فلفظها مؤنث ومعناه محتمل فيمكن أن تؤنث لأجل لفظها وان كانت واقعة على ذكر بل هذا هو الفصيح المستعمل ، ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام لا تضحى بعوراء ولا عجفاء ولا عمياء ، كيف أخرج هذه الصفات على اللفظ مؤنثة ولا يعني الإناث من الأنعام خاصة ، فحينئذ قوله تعالى " نملة " روعي فيه تأنيث

اللفظ وأما المعنى فيحتمل على حد سواء . وسيأتي في باب الفوائد مزيد من هذا البحث .

(أَوْزِعْنِي) : ألهمني ، وحقيقته اجعلني أزع شكر نعمتك عندي واكفه وارتبطه لا ينفلت عني حتى لا أنفك شاكرا لك . وقد تقدم شرح هذه المادة .

الاعراب :

(وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً) الواو استئنافية والكلام مستأنف للشروع في القصة الثانية وهي قصة داود وسليمان ، واللام موطئة للقسم وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل وداود مفعول به وسليمان عطف على داود وعلما مفعول به ثان . (وَقالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)

الواو حرف عطف وقالا معطوف على مقدر تقديره فعملا بما أعطيا بالقلب بالعزم وعملا به بالجوارح بالمباشرة وعملا به باللسان فقالا . والحمد مبتدأ ولله خبر والجملة مقول القول والذي اسم موصول صفة لله وجملة فضلنا صلة وعلى كثير متعلقان بفضلنا ومن عباده صفة لكثير والمؤمنين صفة لعباده .

(وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ) الواو استئنافية وورث سليمان داود فعل وفاعل ومفعول به وقال عطف على ورث ويا أيها الناس تقدم اعرابها وعلمنا فعل ماض مبني للمجهول ونا نائب فاعل ومنطق الطير مفعول به ثان . (وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) وأوتينا عطف على علمنا ومن كل شيء متعلقان بأوتينا وإن هذا ان واسمها وهو كلام مستأنف مسوق على سبيل إيراد الشكر والمحمدة واللام المزحلقة وهو ضمير فصل أو مبتدأ والفضل خبر إن أو خبر هو والجملة خبر إن والمبين صفة للفضل .

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) الواو استئنافية وحشر فعل ماض مبني للمجهول ولسليمان متعلقان بحشر وجنوده نائب فاعل ومن الجن والانس والطير حال من جنوده والفاء الفصيحة وهم مبتدأ وجملة يوزعون خبر وسيأتي في باب البلاغة ما يرويه التاريخ عن معسكر سليمان .

)

حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ) حتى حرف غاية لمحذوف تقديره فساروا حتى إذا أتوا ، ويجوز أن يكون غاية ليوزعون لأنه مضمن معنى فهم يسيرون ممنوعا بعضهم من مفارقة بعض حتى إذا أتوا ، وعلى وادي النمل جار ومجرور

متعلقان بأتوا وسيأتي سر تعليقه بأتوا في باب البلاغة ، وجملة قالت نملة لا محل لها ويا أيها النمل تقدم اعرابها وادخلوا مساكنكم فعل

وفاعل ومفعول به على السعة وسيأتي ما قاله السيوطي في الإتقان عن قول النملة . (لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) نهي مستأنف لا تعلق له بما قبله أي لا تكونوا بحيث يحطمونكم ويجوز أن يكون الكلام بدلا من جملة الأمر مثله وهو ادخلوا مساكنكم .

(401/582)

و قد تصدى الزمخشري لهذا التعبير فقال " فإن قلت لا يحطمنكم ما هو ؟ قلت يحتمل أن يكون جوابا للأمر وان يكون نهيا بدلا من الأمر والذي جوز أن يكون بدلا منه أنه في معنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقه لا أرينك ها هنا " ولا ناهية ويحطمنكم فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم بلا والكاف مفعول به وسليمان فاعل وجنوده عطف على سليمان وهم الواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يشعرون خبر والجملة حالية . (فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها) الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق أي فسمع قولها المذكور فتبسم ، وضاحكا حال مؤكدة وسيأتي سر ما أضحكه في باب الفوائد ومن قولها متعلقان بضاحكا . (وَقالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ)

وقال عطف على فتبسم ورب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وحرف النداء محذوف وأوزعني فعل دعاء وفاعل مستتر ومفعول به وأن وما في حيزها مفعول ثان لأوزعني لأنه مضمن معنى الإلهام أو نصب بنزع الخافض أي بأن أشكر نعمتك ، والتي صفة لنعمتك وجملة أنعمت صلة وعليّ متعلقان بأنعمت وعلى والدي عطف على عليّ . (وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ) جملة معطوفة .

(وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ) الواو حرف عطف وأدخلني فعل دعاء وفاعل ومفعول به وبرحمتك متعلقان بمحذوف حال والباء للسببية وفي عبادك متعلقان بأدخلني والصالحين نعت لعبادك .

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على فنون شتى ندرجها فيما يلي :

1 - التنكير وأسراره :

ففي قوله : " وقد آتينا داود وسليمان علما " التنكير وفائدته إفادة التبعيض والتقليل أو إفادة التعظيم والتكثير ، والثاني هو المراد هنا فظاهر قوله في ولقد آتينا داود وسليمان

علما في سياق الامتنان تعظيم العلم الذي أوتياه كأنه قال علما أي علم وهو كذلك فإن علمهما كان مما يستغرب ويستعظم ومن ذلك علم منطق الطير وسائر الحيوانات ، على أن كل علم بالإضافة إلى علم اللّه قليل ضئيل .

قصة رائعة :

ونورد هنا قصة مروية جريا على عادتنا في إدراج القصص المروية لتكون مصدر إلهام للكتاب ومعالم صبح لهم ، قال مقاتل : كان سليمان جالسا في معسكره ، وكانت مساحته مائة فرسخ في مائة ، خمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للطير وخمسة وعشرون للوحش ، وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وإبريسم فرسخا في فرسخ ، فمر به طائر يطوف وفي رواية رأى بلبلا على شجرة فقال لجلسائه : أتدرون ما يقول هذا الطائر ؟ قالوا : اللّه ونبيه أعلم قال : يقول : أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء ، ومر بهدهد فوق شجرة فقال : استغفروا اللّه يا مذنبون ، وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وصاح طاوس فقال يقول :

كما تدين تدان ، وصاح طيطوى فقال يقول : كل حي ميت وكل جديد بال ، وصاح خطاف فقال يقول : قدموا خيرا تجدوه ، وصاح قمري

فأخبر أنه يقول : سبحان ربي الأعلى ، وقال الحدأ يقول : كل شيء هالك إلا وجهه ، والقطاة تقول : من سكت سلم ، والببغاء تقول :

ويل لمن الدنيا همه ، والديك يقول : اذكروا اللّه يا غافلون ، والنسر يقول : يا ابن آدم عش ما شئت آخرك الموت ، والعقاب يقول في البعد من الناس أنس ، والضفدع يقول : سبحان ربي الأعلى .

2- استعمال حرف الجر :

وقال " حتى إذا أتوا على وادي النمل " فعدّى أتوا بعلى لأن الإتيان كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء وقد رمق أبو الطيب المتنبي هذه السماء العالية فقال :

(403/582)

فلشد ما جاوزت قدرك صاعد ولشدّ ما قربت عليك الأنجم

فقد عنى بالأنجم أبيات شعره ويقول : ما أشد ما تجاوزت قدرك حتى بعثت تسألني المديح ومسألتك إياي مدحك تجاوز منك لقدرك حين طلبت أن تهبط الأنجم من سمواتها لتكون قريبة منك ، وهذا البيت من أمض الهجاء وأقذعه وهو من قصيدة لأبي الطيب المتنبي فقد سافر من الرملة يريد أنطاكية فنزل بطرابلس وبها اسحق بن ابراهيم الأعور بن كيغلغ وكان جاهلا يجالسه ثلاثة نفر من بني حيدرة ، وكان بينه وبين أبي الطيب عداوة قديمة فقالوا له أتحب أن يتجاوزك ولا يمدحك ، وجعلوا يغرونه فراسله أن يمدحه فاحتج

عليه بيمين لحقته لا يمدح أحدا إلى مدة ، فعاقه عن طريقه ينتظر المدة ، وأخذ عليه الطريق وضبطها ، ومات النفر الثلاثة الذين كانوا يغرونه في مدة أربعين يوما فهجاه أبو الطيب المتنبي وأملاها على من يثق به ، فلما ذاب الثلج

خرج كأنه يسير فرسه وسار إلى دمشق فأتبعه ابن كيغلغ خيلا ورجلا فأعجزهم وظهرت القصيدة وأولها :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت أني أسلم

ومن أبياته الحكيمة فيها :

ولقد رأيت الحادثات فلا أرى يقظا يميت ولا سوادا يعصم

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناصية الصبيّ ويهرم

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق ينسى الذي يولى وعاف يندم

لا يخدعنّك من عدوّ دمعه وارحم شبابك من عدوّ ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتّى يراق على جوانبه الدّم

والظلم من شيم النفوس فإن تجد داعفة فلعلّة لا يظلم

ثم تطرق إلى هجاء ابن كيغلغ فقال وأقذع :

يحمي ابن كيغلغ الطريق وعرسه ما بين رجليها الطريق الأعظم

أقم المسالح وق شفر سكينة إن المنيّ بحلقتيها خضرم

وارفق بنفسك إنّ خلقك ناقص واستر أباك فإنّ أصلك مظلم

واحذر مناوأة الرجال فإنما تقوى على كسر العبيد وتقدم

(404/582)

و غناك مسألة وطيشك نفخة ورضاك فيشلة وربك درهم

ثم يعود إلى الحكمة الملائمة فيقول :

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهم

يمشي بأربعة على أعقابه تحت العلوج ومن وراء يلجم

وجفونه ما تستقر كأنها مطروفة أو فتّ فيها

حصرم وإذا أشار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز

تلصم يقلى مفارقة الأكفّ قذاله حتى يكاد على يد يت

عمّم وتراه أصغر ما تراه ناطقا ويكون أكذب ما يكون و

يقسم والذل يظهر في الذليل مودة وأودّ منه لمن يودّ ال

أرقم ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع فحسبنا ما أوردناه منها ، ونعود إلى ما نحن بصدده فنقول : ويجوز أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشيء إذا بلغ آخره .

3- التوليد :

وقد اشتملت الآية " قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون " على أحد عشر نوعا من البلاغة يتولد بعضها من بعض وقد ذكرها السيوطي في كتابه " الإتقان " أي قالت قولا مشتملا على حروف وأصوات والمراد قالته على وجه النصيحة وقد اشتمل هذا القول منها على أحد عشر نوعا من البلاغة :

أولها : النداء بيا .

وثانيها : كنّت بأي .

وثالثها : نبّهت بها التنبيه .

ورابعها : سمّت بقولها النمل .

وخامسها : أمرت بقولها ادخلوا .

وسادسها : نصّت بقولها مساكنهم .

وسابعها : حذرت بقولها لا يحطمنكم .

وثامنها : خصّصت بقولها سليمان .

وتاسعها : عمّمت بقولها وجنوده .

وعاشرها : أشارت بقولها وهم .

وحادي عشرها : عذرت بقولها لا يشعرون .

هذا وقد أنشدوا ملغزين في نملة سليمان وبقرة بني إسرائيل :

فما ميت أحيا له الله ميتا ليخبر قوما أنذروا ببيان

وعجفاء قد قامت لتنذر قومها واهل قراها رهبة الحدثان

الفوائد :

(405/582)

1- ما الذي أضحك سليمان ؟ وانما ضحك سليمان من قول النملة لشيئين :

أولهما : ما دل على ظهور رحمته ورحمة جنوده وشفقتهم وذلك قولها وهم لا يشعرون يعني أنهم لو شعروا لم يفعلوا .

وثانيهما : سروره بما آتاه اللّه مما لم يؤت أحدا من إدراك سمعه ما قالته النملة وهي مثل في الضآلة والقماءة ، والإنسان إذا رأى أو سمع ما لا عهد له به ضحك .

2- الحال المبنية والمؤكدة :

الحال ضربان مؤسسة وتسمى أيضا مبينة وهي التي لا يستفاد معناها بدونها كجاء زيد راكبا فلا يستفاد معنى الركوب إلا بذكر راكبا ، ومؤكدة وهي التي يستفاد معناها بدون ذكرها ، وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

آ- مؤكدة لعاملها لفظا ومعنى نحو " وأرسلناك للناس رسولا " فرسولا حال من الكاف وهي مؤكدة لعاملها وهو أرسلنا لفظا ومعنى .

ب- مؤكدة لعاملها معنى فقط واللفظ مختلف نحو " فتبسم ضاحكا " فضاحكا حال من فاعل تبسم وهي مؤكدة لعاملها معنى فقط لأن التبسم نوع من الضحك واللفظ مختلف .

ح- مؤكدة لصاحبها نحو " لآمن من في الأرض كلهم جميعا " فجميعا حال من فاعل آمن وهو من الموصولة مؤكدة لها . وهناك أقسام أخرى للحال المؤكدة يرجع إليها في المطولات .

[سورة النمل (27) : الآيات 20 إلى 26]

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (24)

أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26)

اللغة :

(الْهُدْهُدَ) والهدهد والهدهد طائر ذو خطوط وألوان كثيرة الواحدة هدهدة وهدهدة وهداهدة والجمع هداهد

وهداهيد ، ويقولون أبصر من هدهد لأنهم يزعمون أنه يرى الماء تحت الأرض ، والهدهد أيضا كل ما يقرقر من الطير والحمام الكثير وستأتي قصته مع سليمان في باب الفوائد .

(فَمَكَثَ) : بضم الكاف وفتحها والأول من باب قرب والثاني من باب نصر وفي القاموس وغيره : مكث يمكث من باب نصر مكثا ومكثا ومكوثا ومكثانا ومكّيثى ومكّيثاء بالمكان أقام ولبث فهو ماكث والاسم المكث والمكث ومكث يمكث من باب قرب مكاثة :

لبث ورزن .

(سَبَإٍ) : بلاد واقعة جنوب غربي الجزيرة العربية في اليمن ذكرت في كتب العهد القديم وفي

مؤلفات العرب واليونان والرومان كانت على جانب عظيم من الحضارة ، كان يتعاطى سكانها تجارة الذهب والفضة والأحجار الكريمة .

وقال الزمخشري في الكشاف : " سبأ قرئ بالصرف ومنعه وقد روي بسكون الباء ، وعن ابن كثير في رواية سبأ بالألف كقولهم ذهبوا أيدي سبا وهو سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ، ومن جعله اسما للحي أو الأدب الأكبر صرف

قال :

من سبأ الحاضرين مأرب إذ يبنون من دون سيله العرما

وقال :

الواردون وتيم في ذرا سبأ قد عض أعناقهم جلد الجواميس

ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث كما سميت معافر بمعافر بن أد ويحتمل أن يراد المدينة والقوم " .

معنى ذهبوا أيدي سبا :

هذا ويقال ذهبوا أيدي سبا وفيه لغتان أيدي سبا وأيادي سبا وله حالتان : إما أن تركب الاسمين اسما واحدا وتبنيهما لتضمن حرف العطف كما فعلوا بخمسة عشر والثانية أن تضيف الأول إلى الثاني وموضعهما النصب على الحال والمراد ذهبوا متفرقين ومتبددين ونحوهما ، وإذا اعترض بأن سبا معرفة قيل بأن تركيبهما طاح بمعنى العلمية وصارا اسما واحدا ، وأصل هذا المثل أن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان لما أنذروا بسيل العرم خرجوا من اليمن متفرقين في البلاد فقيل لكل جماعة تفرقت ذهبوا أيدي سبا ، والمراد بالأيدي الأبناء والأسرة لا نفس الجارحة لأن التفرق وقع بهم واستعير اسم الأيدي لأنهم في التقوى والبطش بهم بمنزلة الأيدي .

(الْخَبْءَ) : مصدر بمعنى المخبوء يقال خبأت الشيء أخبؤه خبئًا من باب نفع أي سترته ، والخبء في السموات المطر وفي الأرض النبات .

الاعراب :

(

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) كلام مستأنف للشروع في سرد أمر آخر حدث لسليمان أثناء مسيره الذي كانت فيه قصة النمل . وتفقد فعل ماض وفاعله ضمير مستتر تقديره هو أي سليمان والطير مفعول به فقال عطف على تفقد وما

اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ولي خبره وجملة لا أرى الهدهد حال وأم منقطعة وكان فعل ماض ناقص واسمها ضمير مستتر يعود على الهدهد

(408/582)

و من الغائبين خبر كان . (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ) اللام موطئة للقسم وأعذبنه فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا والهاء مفعول به وعذابا مفعول مطلق وشديدا صفة أو لأذبحنه عطف على لأعذبنه أو ليأتيني عطف عليه أيضا وبسلطان متعلقان بيأتيني ومبين صفة . (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) الفاء استئنافية ومكث فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الهدهد أو على سليمان وغير بعيد ظرف زمان متعلق بمكث أو على الأصح صفة لظرف محذوف نابت عنه أي وقت غير بعيد أو مكانا غير بعيد فهو ظرف مكان ، فقال عطف على مكث وهذا يؤيد عودة الضمير إلى الهدهد وجملة أحطت مقول القول وبما متعلقان بأحطت وجملة لم تحط صلة وبه متعلقان بتحط وجئتك عطف على أحطت ومن سبأ متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لنبأ وبنبإ متعلقان بجئتك ويقين صفة لنبأ . (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ) ان واسمها وجملة وجدت امرأة خبر إني وجملة تملكهم صفة لامرأة وأوتيت الواو عاطفة أو حالية وجملة أوتيت إما معطوفة على جملة تملكهم وساغ عطف الماضي على المضارع لأن المضارع بمعنى الماضي أي ملكتهم وإما حالية من فاعل تملكهم وقد مقدرة ومن كل شيء متعلقان بأوتيت أو بمحذوف هو مفعول أوتيت الثاني والتقدير أيضا من كل شيء ولها خبر مقدم وعرش مبتدأ مؤخر وعظيم صفة .

)

وَجَدْتُها وَقَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) جملة وجدتها بدل من وجدت امرأة فهي داخلة في حيز الخبر ووجدتها هنا تتعدى لواحد لأنها بمعنى لقيتها والهاء مفعول به وقومها عطف على الهاء أو

(409/582)

مفعول معه وجملة يسجدون حال من مفعولها وما عطف عليه وللشمس متعلقان بيسجدون ومن دون اللّه حال . (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ) الواو حرف عطف وزين فعل ماض ولهم متعلقان به والشيطان فاعله وأعمالهم مفعوله فصدهم عطف على زين وعن السبيل متعلقان بصدهم ، فهم الفاء عاطفة وهم

مبتدأ وجملة لا يهتدون خبر . (أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) يجب حذف النون في الرسم اتباعا لسنة المصحف وأن هي حرف مصدري ونصب ولا زائدة والمعنى أن يسجدوا ، وهذا المصدر المؤول معمول لقوله لا يهتدون لكن بنزع الخافض وهو إلى والمعنى فهم لا يهتدون إلى السجود وعلى هذا الاعراب لا يصح الوقوف على يهتدون ، ويجوز أن يكون المصدر بدلا من أعمالهم والتقدير وزين لهم الشيطان أعمالهم عدم السجود ، ويجوز أن يكون بدلا من السبيل ، وقرئ بتخفيف ألا فهي حرف تنبيه واستفتاح ويا حرف نداء والمنادى محذوف واسجدوا فعل أمر فكان حق الخط على هذه القراءة أن يكون يا اسجدوا ولكن الصحابة أسقطوا ألف يا وهمزة الوصل من اسجدوا خطا لما سقطت لفظا ووصلوا يا بسين اسجدوا فصارت صورته يسجدوا كما ترى فاتحدت القراءتان لفظا وخطا واختلفتا تقديرا وسيأتي بحث اختلاف النحويين في " يا " الداخلة على فعل أو حرف في باب الفوائد .

ولله متعلقان بيسجدوا والذي موصول نعت لله وجملة يخرج الخبء صلة وفي السموات والأرض متعلقان بالخبء أي المخبوء في السموات أو بيخرج على أن " في " بمعنى " من " أي يخرجه من السموات والأرض . (وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ) ويعلم عطف على يخرج فهو داخل في حيز الصلة وفاعل يعلم ضمير مستتر يعود على الله وما موصول مفعول به وجملة تخفون صلة وما تعلنون عطف على

ما تخفون . (اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) كلام مستأنف مسوق للثناء على عرش اللّه العظيم بعد الالماع إلى عرش بلقيس وبينهما بون عظيم .

البلاغة :

جناس التصريف :

في قوله " وجئتك من سبأ بنبإ يقين " جناس التصريف وهو اختلاف صيغة الكلمتين بابدال حرف من حرف إما من مخرجه أو من قريب من مخرجه وهو من محاسن الكلام المتعلقة باللفظ شريطة أن يأتي جاريا مع الطبع بعيدا عن التكلف محتفظا بصحة المعنى ، ولقد جاء هنا زائدا على الصحة فحسن ورقّ ، ألا ترى أنه لو قال بخبر بدلا من بنبإ لصح المعنى واستقام ، ولكنه جاء منغوما عذب الجرس لاتفاق سبأ ونبأ وقد تقدم مثله في قوله بسورة الانعام " وهم ينهون عنه وينأون عنه " .

الفوائد :

1 - قصة سليمان والهدهد :

وجريا على عادتنا نورد إحدى الروايات المذكورة عن قصة سليمان والهدهد لما فيها من

جذور قصصية وتمهيدا للنابغين الملهمين من كتاب القصص :

روي أن سليمان حين فرغ من بناء بيت المقدس تجهز للحج

(411/582)

بحشره فوافى الحرم وأقام به ما شاء وكان يقرب كلّ يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال فرأى أرضا حسناء تزهو خضرتها فنزل ليتغدى ويصلي فلم يجدوا الماء وكان الهدهد قناقنه أي دليله الهادي وكان يرى الماء تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة فتفقده لذلك ، وحين نزل سليمان حلق الهدهد فرأى هدهدا آخر واقعا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثني عشر ألف قائد وتحت كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فما رجع إلا بعد العصر وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان فنظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب عليّ به فارتفع العقاب في الهواء حتى نظر إلى الدنيا كالقصعة ثم التفت يمينا وشمالا فرأى الهدهد مقبلا فانقضّ العقاب يريده وعلم الهدهد أن العقاب

يقصده بسوء فقال بحق الذي قواك وأقدرك إلا ما رحمتني فتركه وقال ويلك ثكلتك أمك ،

إن نبيّ اللّه قد حلف ليعذبنك قال :

وما استثنى نبي اللّه ؟ قال بلى قال : أو ليأتيني بسلطان مبين فقال :

نجوت إذن ، فلما قرب من سليمان أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الأرض متواضعا

لسليمان فلما دنا منه أخذ برأسه فمدّه اليه فقال :

يا نبي اللّه اذكر وقوفك بين يدي اللّه فارتعد سليمان وعفا عنه ثم سأله ما الذي أبطأك عني

فقال الهدهد : أحطت بما لم تحط به إلخ . . .

نكتة بيانية :

قال الزمخشري : " فإن قلت قد حلف على أحد ثلاثة أشياء فحلفه

(412/582)

على فعليه لا مقال فيه ولكن كيف صح حلفه على فعل الهدهد ومن أين درى أنه يأتي

بسلطان حتى يقول واللّه ليأتيني بسلطان ؟ قلت : لما نظم الثلاثة بأو في الحكم الذي هو

الحلف آل كلامه إلى قولك ليكونن أحد الأمور ، يعني إن كان الإتيان بسلطان لم يكن تعذيب

ولا ذبح وإن لم يكن كان أحدهما وليس في هذا ادعاء دراية " .

2- من هي بلقيس ؟ :

أما بلقيس فهي ابنة شراحيل بن أبي سرح بن الحارث بن قيس ابن صيغي بن سبأ وقال ابن الكلبي : كان أبوها من عظماء الملوك وستأتي قصتها وذكر الحريري في درة الغواص :

ان صواب لفظ بلقيس أن تكسر باؤه لأن كل أعجمي يعرب فقياسه أن يلحق بأمثلة كلام العرب وعلى ذلك بلقيس ، وفي أخبار سيف الدولة ان الخالديين مدحاه فبعث إليهما وصيفا ووصيفة مع كل واحد منهما بدرة وتخت من ثياب مصر والشام فكتبا اليه :

لم يغد شكرك في الخلائق مطلقا إلا ومالك في النوال حبيس

خولتنا شمسا وبدرا أشرقت بهما لدينا الظلمة الحندس

رشناً أتانا ، وهو حسنا يوسف وغزالة هي بهجة ، بلقيس

هذا ولم تقنع بذاك وهذه حتى بعثت المال وهو

نفيس أتت الوصيفة وهي تحمل بدرة وأتى على ظهر الوصيف ا

لكيس وكسوتنا مما أجادت حوكه مصر وزادت حسنه

تنيس فغدا لنا من جودك المأكول وال مشروب والمنكوح والملبوس

فلما قرأها سيف الدولة قال : أحسنا إلا في لفظ المنكوح إذ لبست مما يخاطب بها الملوك .

هذا وقد كانت قصة بلقيس وصرحها الممرد مصدر إلهام للشعراء ، فقد أورد البحتري ذلك كله في قصيدة له يمدح بها المتوكل ويذكر بناء البركة المشهورة ومنها :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيها

بحسبها أنها في فضل رتبتها تعدّ واحدة والبحر ثانيها

كأن جن سليمان الذين ولوا إبداعها فأدقوا في معانيها

فلو تمر بها بلقيس عن عرض قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها

3- سجدات القرآن :

(413/582)

وعلى ذكر قوله " ألّا يسجدوا للّه " أن أبا حنيفة والشافعي اتفقا على أن سجدات القرآن أربع عشرة وانما اختلفا في سجدة " ص " فهي عند أبي حنيفة سجدة تلاوة وعند الشافعي سجدة شكر وفي سجدتي سورة الحج .

4- قصة سيل العرم وتفرق العرب أيادي سبا :

ونورد هنا بعض الأساطير المروية للطرافة والفائدة :

وسبأ هو أبو قبائل اليمن المتفرقة من سد مأرب الذين مزقهم اللّه كلّ ممزّق وسمي سبأ لأنه أول من سبى السبي وقيل سبأ اسم أمهم ومأرب اسم بلدهم ، وكانت سبأ من أحسن بلاد اللّه وأخصبها وأكثرها شجرا وماء وقد ذكر اللّه أنها كانت جنتين عن يمين وشمال وكانت

مسيرة شهر في شهر للمجدّ الراكب يسير في جنان من أولها إلى آخرها لا تواجهه الشمس ولا يفارقه الظل مع تدفق الماء وصفاء الهواء واتساع الفضاء ، فمكثوا ما شاء اللّه لا يعاندهم ملك إلا قصموه ، وكانت في بدء الزمان تركبها السيول فجمع ملك حمير أهل مملكته فشاورهم في دفع السيل فأجمعوا على حفر مسارب له حتى تؤديه إلى البحر فحشد أهل مملكته حتى صرف الماء واتخذ سدا في موضع جريان الماء من الجبال ورصفه بالحجارة والحديد وجعل فيه مجاري للماء في استدارة

الذراع فإذا جاء السيل تصرف في المجاري إلى جناتهم ومزروعاتهم بتقدير يعمهم نفعه ، وذكر الأعشى في شعره أن حميرا بنته فقال :

رخام بنته لهم حمير إذا جاء ماؤهم لم يرم

وأروى الزروع وأعنابهم على سعة ماؤهم قد قسم

فعاشوا بذلك في غبطة فحاق بهم جارف منهدم

(414/582)

و لما انتهى الملك إلى عمرو بن عامر مزيقياء وسمي بذلك لأنه كان يمزق كل ليلة حلة كبرا من أن تعاد عليه أو يلبسها غيره وقيل سمي بذلك لأنه مزق الأزد في البلاد ، وكان أخوه عمران

كاهنا فأتته كاهنة تدعى ظريفة فأخبرته بدنو فساد السد وفيض السيل وأنذرته ، فجمع أهل مأرب وعمل لهم طعاما فأخبرهم بشأن السيل فأجمعوا على الجلاء فقال لهم عمران أخوه إني أصف لكم بلدانا فاختاروا أيتها شئتم فمن كان منكم ذا هم بعيد وجمل غير شرود فليلحق بالشعب من كرود فلحق به همدان ثم قال ومن كان منكم ذا سياسة ، وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطن مر فلحقت به خزاعة ثم قال : ومن كان منكم يريد الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فنزلها الأوس والخزرج ثم قال ومن كان منكم يريد الخمر والخمير والأمر والتأمير فليلحق ببصرى وسدير وهي من أرض الشام فنزلها غسان ثم قال ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق والذهب والأوراق فليلحق بالعراق فلحق بها مالك بن فهم بن الأزد وتخلف مالك بن اليمان في قومه حتى أخرجهم السيل فنزلوا نجران وانتسبوا إلى مذحج ودخلت جماعة منهم إلى معد فأخرجتهم معد بعد

حروب فنزلوا بجبال الشراة على تخوم الشام فلما تفرقت البلاد هذا التفرق ضربت العرب بهم المثل فقالوا ذهبوا أيدي سبا وأيادي سبا .

[سورة النمل (27) : الآيات 27 إلى 33]

قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ

عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (28) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31)

(415/582)

قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (32) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (33)

اللغة :

(أَفْتُونِي) : أشيروا عليّ والفتوى الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتا في السنّ والمراد بالفتوى ها هنا الاشارة عليها بما عندهم كما ذكرنا فيما حدث لها من الرأي والتدبير . وفي الأساس : " وفلان من أهل الفتوى والفتيا وتعالوا ففاتونا ، وتفاتوا إليه : تحاكموا ، قال الطرماح :

هلمّ إلى قضاة الغوث فاسأل برهطك والبيان لدى القضاة

أنخ بفناء أشدق من عديّ ومن جرم وهم أهل التفاتي

وقال عمر بن أبي ربيعة :

فبتّ أفاتيها فلا هي ترعوي بجود ولا تبدي إباء فتبخلا

أي أسائلها " .

هذا ويجوز ضم الفاء وفتحها كما جاء في أدب الكاتب لابن قتيبة قال : " قالوا : فتوى وفتيا وبقوى وبقيا وثنوى وثنيا ورعوى ورعيا " .

(أُولُوا قُوَّةٍ) : اسم جمع بمعنى أصحاب ، والواحد ذو بمعنى صاحب وقيل جمع ذو على غير لفظه وقد تقدم أنها من الملحقات بجمع المذكر السالم والمؤنث أولات وواحدتها ذات تقول : جاء أولو العلم وأولات الفضل .

الاعراب :

)

(416/582)

قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ) كلام مستأنف مسوق للإجابة عن سؤال نشأ عن حكاية الهدهد وجملة سننظر مقول القول والهمزة للاستفهام وصدقت فعل وفاعل وأم متصلة معادلة للهمزة وكان واسمها ومن الكاذبين خبرها وعدل عن الفعل المطابق لما قبله إلى الاسم لنكتة بلاغية تقدمت الاشارة إليها أكثر من مرة . وهي جعله واحد من الفئة الموسومة بالكذب . (اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ) لا

بد من تقدير كلام محذوف لتتناسق حوادث القصة أي ثم دلهم على الماء فاستخرجوه وارتووا وتوضئوا وصلوا ، ثم كتب سليمان كتابا هذه صورته : من عبد اللّه سليمان إلى بلقيس ملكة سبأ ، بسم اللّه الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ثم ختمه بخاتمه ، ثم قال للهدهد : اذهب ، فالجملة مقول قول محذوف ، واذهب فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وبكتابي متعلقان باذهب وهذا نعت لكتابي أو بدل منه ، فألقه الفاء عاطفة وألقه فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وأنهم متعلقان بألقه ثم حرف عطف وتول فعل أمر على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت وعنهم متعلقان بمحذوف حال أي متجاوزا إياهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك ، فانظر عطف على تول ، وماذا يرجعون : في هذا التعبير وجهان :

أولهما : أن تكون انظر بمعنى تأمل وتفكر فتكون ماذا اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم ليرجعون تقديره أي شيء يرجعون ، أو تجعل ما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول بمعنى الذي خبر ما وجملة يرجعون صلة ذا والعائد محذوف تقديره أي شيء الذي يرجعونه ، وعلى كلا التقديرين فالجملة الاستفهامية قد علق عنها العامل وهو انظر بالاستفهام فمحلها النصب على نزع الخافض أي انظر في كذا وفكر فيه .

و ثانيهما : أن تكون انظر بمعنى انتظر من قوله تعالى : " انظرونا نقتبس من نوركم " فتكون ماذا كلها اسم موصول وهو أحد أوجه ماذا التي ستأتي في باب الفوائد وهي مفعول به أي انتظر الذي يرجعونه وجملة يرجعون صلة والعائد محذوف كما تقدم والمعنى ماذا يردون من الجواب أو ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول .

(قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ) لا بد من تقدير كلام محذوف روعي في حذفه الإيجاز وتقديره كما قال مقاتل : " حمل الهدهد الكتاب بمنقاره وطار حتى وقف على رأس المرأة وحولها الجنود والعساكر فرفرف ساعة والناس ينظرون فرفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها وسيأتي مزيد من الروايات في تقدير هذا المحذوف .

وإني إن واسمها وجملة ألقى خبرها وإليّ متعلقان بألقي وكتاب نائب فاعل وكريم صفة وسيأتي سر هذا الوصف في باب البلاغة .

(إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ) الجملة مستأنفة مسوقة للرد على سؤال مقدر كأنهم قالوا ممن هو ؟ وما هي منطوياته ؟

فقالت أنه من سليمان وان واسمها ومن سليمان خبرها وانه الواو عاطفة وان واسمها وجملة البسملة خبرها وقد تقدم اعراب البسملة في صدر هذا الكتاب . (أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) أن مفسرة والمفسر كتاب لتضمنه معنى القول دون حروفه ولا ناهية وتعلوا فعل مضارع مجزوم بلا والواو فاعل وعليّ متعلقان بتعلوا ويجوز أن تكون أن مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية وأن وما في حيزها مصدر مؤول في محل رفع بدل من كتاب أو خبر لمبتدأ محذوف أي مضمونه أن لا تعلوا أو في محل نصب بنزع الخافض أي بأن لا تعلوا ، وأتوني الواو عاطفة وائتوني فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به ومسلمين حال . (قَالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي) أفتوني فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية

(419/582)

و الياء مفعول به وفي أمري متعلقان بأفتوني . (ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ) ما نافية وكنت قاطعة كان واسمها وخبرها وأمرا مفعول به وحتى حرف غاية وجر وتشهدون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى وعلامة نصب حذف النون والنون الموجودة نون الوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به . (قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ) جملة نحن

مقول القول ونحن مبتدأ وأولو خبر وعلامة رفعه الواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم وقوة مضاف اليه وأولو بأس شديد عطف على ما تقدم . (وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ) الواو حرف عطف والأمر مبتدأ وإليك خبر أي موكول إليك ونحن مطيعون لك ، فانظري الفاء الفصيحة لأنها أفصحت عن مقدر كأنما تصوروا أنها قد تكون راغبة في القتال أو أنهم راغبون فيه فإن أردت ذلك وعزمت على خوض الحرب فنحن أبناء بجدتها وانظري أي فكري وماذا اسم استفهام وقد تقدم اعرابها وستأتي وجوهها وهي هنا في محل نصب مفعول مقدم لتأمرين والاستفهام معلق للنظر .

البلاغة :

في هذه المحاورة التي جرت بين بلقيس وبين الملأ من قومها وفي الوصف لكتاب سليمان بعد ذكر العنوان والتسمية فنون عديدة نورد أهمها فيما يلي :

1 - الاشارة :

وهذا الفن سبقت إليه الاشارة في هذا الكتاب وقد فرعه قدامة

من ائتلاف اللفظ مع المعنى وشرحه فقال : هو أن يكون اللفظ القليل دالا على المعنى الكثير حتى تكون دلالة اللفظ كالإشارة باليد فإنها تشير بحركة واحدة إلى أشياء كثيرة ، والفرق بينه وبين الإيجاز أن الإيجاز بألفاظ المعنى الموضوعة له وألفاظ الإشارة لمحة خاطفة دالة ، فدلالة اللفظ بالإيجاز دلالة مطابقة ودلالة اللفظ في الاشارة إما دلالة تضمن أو دلالة التزام ، والدلالة هنا دلالة تضمن ، فقد وصفت كتاب سليمان بالكرم لأنه من عند ملك كريم أو لأنه مختوم ، وفي الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : "كرم الكتاب ختمه " وعن ابن المقفع من كتب إلى أخيه كتابا ولم يختمه فقد استخف به .

وروي أنها كانت راقدة وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل الهدهد من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وقالت لقومها ما قالت .

2- الإيجاز :

في قولهم : " قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين " إيجاز عجيب فهو أولا يدل على تعظيم المشورة وتعظيم بلقيس أمر المستشار ، وهو ثانيا يدل على تعظيمهم أمرها وطاعتها وفي قولهم " والأمر إليك " وقولهم " فانظري ماذا تأمرين " إيجاز يسكر الألباب ، قال أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني

في كتابه إعجاز القرآن : " فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز

، وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الإيجاز منه تصرفا يتجاوز محله وموضعه " إلى أن يقول : " وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد وإذا اختصر كمل في بابه وجاد وإذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه لم يقع إلا على محاسن تتوالى وبدائع تترى " .

الفوائد :

عقد ابن هشام في المغني فصلا ل " ماذا " نلخصه فيما يلي ونعرب أمثلته :

(421/582)

تأتي ماذا في العربية على أوجه :

1- أن تكون ما استفهامية وذا اشارة نحو ماذا التواني ؟ ماذا الوقوف ؟ فما اسم استفهام مبتدأ وذا خبر والتواني بدل أو عطف بيان أي : أي شيء هذا التواني ؟

2- أن تكون ما استفهامية وذا موصولة كقول لبيد :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضي أم ضلال وباطل

فما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبره وجملة يحاول صلة والهمزة للاستفهام ونحب بدل من ما .

3- أن يكون ماذا كله استفهاما على التركيب كقولك لما ذا جئت وقوله :

يا خزر تغلب ماذا بال نسوتكم لا يستفقن إلى الديرين تحنانا

فماذا اسم استفهام مركب مبتدأ وبال نسوتكم خبر .

4- أن يكون ماذا كله اسم جنس بمعنى شيء أو موصولا بمعنى الذي على خلاف تخريج قول الشاعر :

دعي ماذا علمت سأتقيه ولكن بالمغيّب نبئيني

فالجمهور على أن ماذا كله مفعول دعي ثم اختلف فقيل موصول بمعنى الذي وقيل نكرة بمعنى شيء وهناك وجهان ذكرهما ابن هشام ولم نر حاجة إليهما لأنهما لا يقعان في فصيح الكلام .

[سورة النمل (27) : الآيات 34 إلى 37]

قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35) فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (36) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ (37)

الاعراب :

)

قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها) كلام مستأنف مسوق للرد على مستشاريها أي لم ترض بما أشاروا به وهو خوض الحرب بل مالت للسلام وعقد الصلح وعللت ذلك بقولها إن الملوك . . . وكأنها تلمع لهم بسوء مغبة الحرب وعواقبها المخيفة وآثارها الكثيرة .

فإن واسمها وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة دخلوا في محل جر بإضافة الظرف إليها وقرية مفعول به على السعة وجملة أفسدوها جواب شرط غير جازم لا محل لها وجملة الشرط وجوابه خبر ان . (وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ) الواو عاطفة وجعلوا فعل وفاعل وأعزة أهلها مفعول جعلوا الأول وأذلة مفعول جعلوا الثاني وكذلك الواو عاطفة لأن ذلك من جملة كلامها وكذلك نعت لمصدر محذوف تقدمت له نظائر ، أرادت هذه عاداتهم المستمرة وديدنهم الثابت . (وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ) ان واسمها ومرسلة خبرها وإليهم متعلقان بمرسلة وبهدية متعلقان بمرسلة أيضا فناظرة عطف على مرسلة وبم الباء حرف جر وما الاستفهامية المحذوف ألفها في محل جر بالباء والجار والمجرور بيرجع ولا يجوز تعلقها بناظرة كما أعربها الحوفي لأن الاستفهام له الصدر ، فلا يعمل ما قبله فيه وإلا خرج عما ثبت له ، وللمفسرين كلام طويل في هذه الهدية

لا يحتمل ذكرها صدر هذا الكتاب ، ويرجع المرسلون فعل وفاعل والجملة مفعول به لناظرة .

(423/582)

)

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ : أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ) الفاء عاطفة على محذوف لا بد من تقديره فأعدت الهدية مع رسول بكتاب وسيأتي مزيد بحث عنها في باب البلاغة . ولما ظرفية حينية أو رابطة متضمنة معنى الشرط وجاء سليمان فعل ماض والفاعل مستتر تقديره هو أي الرسول وسليمان مفعول به وجملة قال لا محل لها والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي وتمدونن فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء المحذوفة مفعول به وبمال متعلقان بتمدونن أي تعاونونني بالمال . (فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ) الفاء حرف تعليل لما تقدم من إنكاره عليهم وتوبيخه إياهم وما اسم موصول مبتدأ وجملة آتاني صلة وآتاني اللّه فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر وخير خبر ما وبل حرف إضراب انتقالي لبيان السبب الذي حداهم إلى إمداده بالمال وأنتم مبتدأ وبهديتكم متعلقان بتفرحون وجملة تفرحون خبر . (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ

بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها) الخطاب لأمير الوفد وارجع فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وإليهم متعلقان بارجع وقيل الخطاب للهدهد محملا إياه رسالة أخرى والفاء استئنافية واللام موطئة للقسم ونأتينهم فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر تقديره نحن والهاء مفعول به والميم علامة جمع الذكور وبجنود متعلقان بنأتينهم ولا نافية للجنس وقبل اسمها المبني ولهم خبر وبها متعلقان بقبل لتضمنه معنى المصدر لأن حقيقته المقابلة والمقاومة ، يقال : مالي به قبل أي طاقة ويقال لي قبل فلان دين أي عنده ، وأتاني من قبله أي من

(424/582)

عنده ، فتكون بمعنى المصدر وبمعنى الظرف . (وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَهُمْ صاغِرُونَ) ولنخرجنهم عطف على فلنأتينهم ومنها متعلقان بنخرجنهم والضمير يعود إلى سبأ أي بلادهم وأذلة حال وهم الواو حالية وهم مبتدأ وصاغرون خبر والجملة حال ثانية من الهاء في لنخرجنهم .

البلاغة :

الإيجاز :

في هذه الآيات إيجاز بليغ يحسن بنا أن تتدبره لأن المدار فيه على المعاني دون الألفاظ فرب لفظ قليل ينطوي على معنى كثير وقد تقدم معنا أن الإيجاز قسمان أحدهما إيجاز بالحذف وهو ما يحذف منه المفرد وإيجاز بالقصر ، وفي هذه الآيات إيجاز بالحذف وهو قوله " بم يرجع المرسلون " ثم قوله " فلما جاء سليمان " فقد حذف هنا ما لو أظهر لظهر الكلام غثا لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن ، لأن الخاطر قد يذهب كل مذهب ، وقد يترك العنان للخيال ليجول في آفاق لا نهاية لها ليتصور الهدية التي أعدتها مما يتولى الشرح إظهاره . فقد روي أن بلقيس كانت امرأة عاقلة لبيبة قد ساست الأمور ، وسبرت أغوار الناس وكانت تعرف أن سليمان لو كان نبيا لترفع عن أخذ الهدية ولو كان ملكا لأخذها ، فأحبت أن تتأكد من هذه المسألة ، وروي أيضا أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجواري وحليهن الأساور والأطواق والقرطة راكبي خيل مغشاة بالديباج ومحلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر وخمسمائة جارية على رماك أي إناث الخيل في زي الغلمان وألف لبنة من ذهب وفضة وتاجا مكللا

بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلين من أشراف قومها وهما المنذر بن عمرو وآخر ذا عقل ورأي ثم قالت للمنذر : إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنّك أمره وان رأيته بشا لطيفا فهو نبي ، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان بما تم فأمر سليمان الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه في ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب فربطوها عن يمين الميدان ويساره وأمر أولاد الجن وهم خلق كثير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ثم رد الهدية وقال للمنذر ارجع إليهم ، فقالت هو نبي وما لنا به من طاقة وتجهزت إلى المسير إلى سليمان لتنظر ما يأمرها به فارتحلت في اثنى عشر ألف قيل أي ملك وهو بفتح القاف سمي قيلا لأنه ينفذ كل ما يقول ، إلى أن قربت منه على فرسخ فشعر بها .

هذا والهدية اسم المهدى كما أن العطية اسم المعطى فتضاف إلى المهدي والمهدى اليه ، تقول هذه هدية فلان تريد هي التي أهداها أو أهديت اليه والمضاف اليه في قوله " بل أنتم بهديتكم " هو المهدى اليه .

[سورة النمل (27) : الآيات 38 إلى 44]

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40) قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)

وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (44)

اللغة :

(عِفْرِيتٌ) : العفريت : الخبيث المنكر والنافذ في الأمر مع دهاء وذلك من الانس والجن والشياطين وجمعه عفاريت ومؤنثه عفريتة والعفرية مثله وقد قرئ به ويقال رجل عفرية وعفر وعفير إذا كان صحيحا شديدا مونق الخلق أخذ من عفر الأرض وهو التراب أي من علق به من عفره بالأرض ، ومنه ليث عفرين أي ليث ليوث معفر لفريسته ، قال الخليل ، رجل عفار بين العفارة إذا وصف بالشيطنة ،

و العفير أيضا الظريف الكيس ، ويقال للشيطان عفريت وعفرية وفي الحديث " إن اللّه ليبغض العفريت النفريت " قيل هو الجموع المنوع وقال أبو عثمان النهدي دخل رجل عظيم على النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال له : متى عهدك بالحمى قال : ما أعرفها قال فبالصداع قال :

ما أدري ما هو قال : أفأصبت بمالك قال لا قال : أفرزئت بولدك قال لا فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم ان اللّه ليبغض العفريت النفريت وهو الذي لا يرزأ .

لصَّرْحَ)

: قال في الكشاف : الصرح : " القصر وقيل صحن الدار " وأصله من التصريح وهو الكشف ، وكذب صراح أي ظاهر مكشوف ، ولؤم صراح ، ولبن صريح أي ذهبت رغوته وخلص ، وعربي صريح من عرب صرحاء : غير هجناء ، وكأس صراح : لم تمزج ، وصرحت الخمرة : ذهب عنها الزبد ، ولقيته مصارحة : مجاهرة ، وصرح النهار : ذهب سحابه وأضاءت شمسه ، قال الطرماح في وصف ذئب :

إذا امتلّ يعدو قلت ظلّ طخاءة ذرى الريح في أعقاب يوم مصرح

مُرَدَّدٌ)

: الممرّد : المملّس وسيأتي سر بنائه في باب الفوائد ومنه الأمرد لملاسة وجهه أي نعومته لعدم وجود الشعر به وفي القاموس :

" التمريد في البناء التمليس والتسوية وبناء ممرد : مطول والمارد المرتفع والعاتي " .

وَارِيرَ)

: في المصباح : " القارورة إناء من زجاج والجمع القوارير والقارورة أيضا وعاء الرطب والتمر وهي القوصرة وتطلق

القارورة على المرأة لأن الولد أو المني يقر في رحمها كما يقر الشيء في الإناء أو تشبيها بآنية الزجاج لضعفها ، قال الأزهري : والعرب تكنى عن المرأة بالقارورة والقوصرة " وفي القاموس " والقارورة حدقة العين وما قر فيه الشراب أو نحوه أو يخصّ بالزجاج ، وقوارير من فضة أي من زجاج في بياض الفضة وصفاء الزجاج " .

الاعراب :

)

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) فاعل قال سليمان والخطاب لكل من هو عنده من الجن والانس وغيرهما ، وأيكم مبتدأ وجملة يأتيني بعرشها خبر والظرف متعلق بيأتيني أيضا وأن وما في حيزها مصدر مؤول مضاف اليه ومسلمين حال .

(قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ) قال فعل ماض وعفريت فاعل ومن الجن صفة وأنا مبتدأ وجملة آتيك به خبر والظرف متعلق بآتيك ومن مقامك متعلق بتقوم أي قبل أن تبارح مجلسك الذي تجلس فيه للقضاء من الغداة إلى منتصف النهار .

(وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) الواو عاطفة وان واسمها وعليه متعلقان بقوي واللام المزحلقة وقوي خبر وأمين خبر ثان أي قوي على حمله أمين به لا أختلس منه شيئا ولا أعبث به . (قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) لا بد من تقدير محذوف على طريق الإيجاز كما تقدم وهو قال سليمان أريد أن يتم ذلك في أسرع وقت . وقال فعل ماض والذي فاعل والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم وعلم مبتدأ مؤخر ومن الكتاب صفة لعلم والجملة صلة الموصول وأنا مبتدأ وجملة آتيك به خبر والجملة مقول القول وتقدم اعراب الباقي وسيأتي معنى ارتداد الطرف في باب البلاغة . (فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي)

الفاء عاطفة على محذوف يقدر بحسب المقام ويروى أن آصف بن برخيا وهو الذي عنده علم من الكتاب المنزل قال لسليمان مدّ عينيك حتى ينتهي طرفك فمد سليمان عينيه ونظر نحو اليمين ودعا آصف بالعلم الذي لديه فغار العرش في مكانه بمأرب ثم نبغ بمجلس سليمان ، ولما ظرف بمعنى حين أو رابطة ورآه فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومستقرا حال لأن الرؤية بصرية أي ثابتا والظرف متعلق بمستقرا وجملة قال لا محل لها من الاعراب وهذا مبتدأ ومن فضل ربي خبر .

(لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) اللام للتعليل ويبلوني فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وفاعل يبلوني يعود على ربي والياء مفعول وأ أشكر الهمزة للاستفهام وأشكر فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنا وجملة أأشكر بدل من الياء في يبلوني فهو بمثابة المفعول به وأم أكفر عطف على أأشكر . (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) الواو استئنافية ومن شرطية مبتدأ وشكر فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة لأن الجواب جملة اسمية وان حرف مشبه بالفعل وما مصدرية وهي وما بعدها في تأويل مصدر اسم ان أي فإن ثواب شكره ، ولنفسه هو الخبر وفعل الشرط وجوابه خبر من ومن كفر فإن ربي غني كريم جملة معطوفة على الجملة السابقة مماثلة لها في الاعراب . (قالَ : نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ) نكروا فعل أمر والواو فاعل

ولها متعلقان ينكروا وعرشها مفعول به أي غيّروه ، وننظر فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر وقرئ بالرفع على الاستئناف وجملة أتهتدي في محل نصب على المفعولية لأن الاستفهام علق ننظر عن العمل

(430/582)

و أم حرف عطف معادلة للهمزة وتكون فعل مضارع ناقص معطوف على أتهتدي واسمها مستتر تقديره هي ومن الذين خبر تكون وجملة لا يهتدون صلة الذين . (فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَهكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) الفاء عاطفة على محذوف اقتضاه الإيجاز كما تقدم ، أهكذا : الهمزة للاستفهام والهاء للتنبيه والكاف حرف جر للتشبيه وذا اسم اشارة في محل جر بالكاف والجار والمجرور خبر مقدم وعرشك مبتدأ مؤخر ، والأصل اتصال هاء التنبيه باسم الاشارة فكان مقتضاه أن يقال أكهذا عرشك ؟ وهذا الفصل جائز إذا كان حرف الجر كافا ، فلو قلت أبهذا أمرت أو ألهذا فعلت ؟ لم يجز فيه ذلك الفصل ، فلا يجوز أن تقول أها بذا أمرت ، وأ ها لذا فعلت ؟ وسيأتي السر في الإتيان بكاف التشبيه وعدم الاكتفاء بالقول أهذا عرشك في باب البلاغة . قالت : فعل وفاعل مستتر تقديره هي يعود على بلقيس وكأنه هو وكأن واسمها والضمير هو خبرها وسيأتي السر في عدولها عن

مطابقة الجواب للسؤال في باب البلاغة أيضا .

(وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) الواو عاطفة على كلام محذوف للايجاز أي لما سمعوا قولها كأنه هو قالوا أصابت في الجواب فقال سليمان : وأوتينا وهو فعل ماض مبني للمجهول ونا نائب الفاعل والعلم مفعول أوتينا الثاني ومن قبلها متعلقان بأوتينا وكنا الواو عاطفة وكان واسمها ومسلمين خبرها ، ويحتمل أن يكون وأوتينا من كلام بلقيس فالضمير في قبلها راجع للمعجزة والحالة التي دل عليها سياق الكلام والمعنى وأوتينا العلم بنبوة سليمان من قبل ظهور هذه المعجزة أو من قبل هذه الحالة والأول أرجح .

(431/582)

)

وَصَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ) من جملة كلام سليمان أو من كلام اللّه ، وصدها فعل ماض ومفعول به وما موصول فاعل وجملة كانت صلة واسم كانت مستتر تقديره هي وجملة تعبد خبر ومن دون اللّه حال ويجوز أن تكون ما مصدرية أي وصدّها عبادة الشمس عن الإسلام وجملة إنها تعليل للصد عن الإسلام وعبادة غير اللّه ، وان واسمها وجملة كانت خبرها واسم كانت هي ومن قوم خبرها وكافرين صفة وقرئ أنها

بالفتح على انه بدل من فاعل صدها أو نصب بنزع الخافض . ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾

قيل فعل ماض مبني للمجهول والجملة مستأنفة وجملة ادخلي الصرح مقول القول والصرح مفعول به على السعة وستأتي قصة الصرح في باب الفوائد . ﴿لَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا﴾

الفاء عاطفة على محذوف للايجاز أي فدخلته ، لما حينية أو رابطة وجملة حسبته لا محل لها والهاء مفعول به أول ولجة مفعول به ثان وكشفت عن ساقيها عطف على حسبته . ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾

إن واسمها وصرح خبرها وممرد صفة ومن قوارير صفة ثانية أي إن الذي ظننته ماء فوقه هو صرح ممرد أي مسقف بسطح فمن أراد مجاوزته لم يحتج إلى تشمير ثيابه . ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

رب منادى مضاف محذوف منه حرف النداء وان واسمها وجملة ظلمت نفسي خبرها وأسلمت عطف على ظلمت ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف حال أي كائنة مع سليمان وإنما قدر حالا لأن تعليقه بأسلمت يوهم اتحاد اسلاميهما في الزمان ، ولله متعلقان بأسلمت ورب العالمين بدل من الله أو صفة له .

البلاغة :

1 – الكناية في ارتداد الطرف :

في قوله : " قبل أن يرتد إليك طرفك " كناية عن الاسراع ، والطرف هو تحريك أجفانك إذا نظرت ، فوضع موضع النظر ، ولما كان الناظر موصوفا بإرسال الطرف وصف برد الطرف ووصف الطرف بالارتداد وعليه قوله :

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا لقبلك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لاكله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وهذان البيتان لأعرابية نظرها أعرابي فخاطبها بشعر يسألها عن أحوالها ومحاسنها كأنه يراودها عن نفسها فأجابته بذلك وقيل هو لشاعر حماسي ، وشبه إطلاق البصر نحو المناظر الجميلة بإرسال الرائد أمام الركب يتعرف لهم مكان الخصب على طريق الاستعارة التصريحية ورائدا ترشيح للاستعارة ويوما ظرف له .

2- السر في التشبيه :

وفي قوله " كأنه هو " تشبيه مرسل عدلت إليه عن مقتضى السؤال ، ومقتضاه أن تقول : هو هو لسر دقيق جدا وذلك ان " كأنه " عبارة من قرب الشبه عنده حتى شكك نفسه في التغاير بين الأمرين فكاد يقول هو هو ،

وتلك حال بلقيس ولما كانت هكذا هو عبارة جازم بتغاير الامرين حاكم بوقوع الشبه بينهما لا غير فلهذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها .

3- التجنيس :

وهو تآلف الكلمتين في تأليف حروفهما وهو هنا في قوله " وأسلمت مع سليمان " .

الفوائد :

1- قصة الصرح :

هذا ونلخص ما يروى من قصة الصرح لانها قصة شعرية مجنحة الخيال فقد روي أن سليمان أمر قبل قدومها فبني له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه ، فلما رأت اللجة فزعت وظنت أنه قصد إغراقها وتعجبت من كون كرسيه على الماء ولم يكن لها بد من امتثال الأمر فكشفت عن ساقيها والمقصود من ذلك كله اختبار عقلها وارهاصها بالمعاجز لا ما يروى انه قيل له انها شعراء الساقين ورجلها كحافر الحمار مما لا يتلاءم ووقار النبوة وترفعها عن الصغائر .

2- هل تزوج سليمان بلقيس ؟ :

قيل تزوجها بعد ذلك وأقرها على ملكها وكان يزورها في الشهر مرة فيقيم عندها ثلاثة أيام وولدت له ، وقيل بل زوجها ذا تبع من ملوك اليمن ويقال لهم الأذواء لأن أعلامهم تصدر بكلمة (ذو) والمراد صاحب هذا الاسم .

[سورة النمل (27) : الآيات 45 إلى 53]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (48) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (49)

وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (50) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (53)

اللغة :

(اطَّيَّرْنا) : وتطيرنا : تشاءمنا والطائر هنا : ما تيمنت به أو تشاءمت والمقصود هنا الثاني ، كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فإن مر سانحا تيمن وإن مر بارحا تشاءم

فلما نسبوا الخير أو الشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر اللّه وقسمته أو من عمل العبد ، وقد مر هذا في سورة الأعراف فجدد به عهدا .

(434/582)

)

الْمَدِينَةِ) : البلد من أخذها من مدن بالمكان يمدن إذا قام فيه فهي فعلية والجمع مدائن بالهمز والميم أصلية والياء زائدة ، ومن أخذها من دان يدين فالميم زائدة والياء أصلية وهي مفعولة ويقال دنت الرجل ملكته ودنت له خضعت له وأطعت ويقال للأمة مدينة لأنها مملوكة ، قال الشاعر :

ثوت وثوى في كرمها ابن مدينة يظل على مسحاته يتوكل

وفي معاجم اللغة : مدن بالمكان يمدن من باب نصر مدونا أقام وهو فعل ممات ومدن المدينة أتاها ومدّن المدائن بالتشديد بناها ومصرها ، وتمدّن تخلق بأخلاق أهل المدن وانتقل من الهمجية إلى حالة الانس والظرف ، وتجمع المدينة على مدن بسكون الدال ومدن بضمها ومدائن ، والمدينة علم أطلق على يثرب ومدينة السلام بغداد والمدائن مدينة قرب بغداد كان فيها ايوان كسرى وسميت بالجمع لكبرها والنسبة إليها مدائني .

(رَهْطٍ) : الرهط قوم الرجل وقبيلته وعدد يجمع من الثلاثة إلى العشرة وليس فيهم امرأة ، ولا واحد له من لفظه وجمعه أرهط وأرهاط وجمع الجمع أراهط وأراهيط ، وإذا أضيف إلى الرهط عدد كان المراد به الشخص والنفس نحو عشرون رهطا ، أي شخصا ، ويقال نحن ذوو رهط أي مجتمعون وفي المصباح " الرهط ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة وسكون الهاء أفصح من فتحها وهو جمع لا واحد له من لفظه وقيل الرهط من سبعة إلى عشرة وما دون السبعة إلى الثلاثة نفر وقال أبو زيد : الرهط والنفر ما دون العشرة من الرجال

وقال ثعلب أيضا : الرهط النفر والقوم والمعشر والعشيرة معناهم الجمع لا واحد لهم من لفظهم وهو للرجال دون النساء وقال ابن السكيت :

الرهط والعترة بمعنى ويقال : الرهط ما فوق العشرة إلى الأربعين قاله الأصمعي ونقله ابن فارس أيضا ورهط الرجل قومه وقبيلته الأقربون " وسيأتي مزيد بحث عنه في باب الاعراب .

الاعراب :

)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ) كلام مستأنف مسوق لتقرير القصة الثالثة أو الرابعة إذا استقلت قصة النمل عن قصة سليمان وبلقيس ، وهي قصة صالح .

واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وأرسلنا فعل ماض وفاعل والى ثمود متعلقان بأرسلنا وأخاهم مفعول به وصالحا بدل من أخاهم أو عطف بيان وأن مصدرية وهي ومدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ويصح كونها مفسرة لأن الإرسال يتضمن معنى القول واعبدوا اللّه فعل أمر وفاعل ومفعول به . (فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ) الفاء عاطفة وإذا فجائية تقدم القول فيها وهم مبتدأ وفريقان خبر وجملة يختصمون نعت لفريقان على المعنى نحو قوله تعالى " وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا " لأن كل فريق يضم جماعة . (قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ) يا حرف نداء وقوم منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة ولم اللام حرف جر وما اسم استفهام حذفت ألفه لدخول الجار ، والجار والمجرور متعلقان بتستعجلون وبالسيئة متعلقان بتستعجلون وقبل الحسنة ظرف متعلق بمحذوف حال والمراد بالسيئة العذاب وبالحسنة الرحمة كما سيأتي . (لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

لولا حرف تحضيض بمعنى هلا وتستغفرون اللّه فعل مضارع مرفوع والواو فاعل ولفظ الجلالة مفعوله ولعلكم ترحمون لعل واسمها والجملة خبرها . (قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ)

اطيرنا فعل ماض وفاعل وأصله تطيرنا أدغمت التاء في الطاء واجتلبت همزة الوصل للتوصل إلى النطق بالساكن لأن المدغم ساكن دائما ، وبك متعلقان باطيرنا وبمن عطف على بك ومعك ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة من والجملة مقول قولهم .

)

(436/582)

قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ) طائركم مبتدأ وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف هو الخبر والجملة مقول قوله وبل حرف إضراب فقد أضرب عن بيان طائرهم الذي هو مبدأ ما يحيق بهم إلى ذكر ما هو الداعي اليه وأنتم مبتدأ وقوم خبر وجملة تفتنون نعت لقوم .

(وَكانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ) الواو استئنافية وكان فعل ماض ناقص وفي المدينة جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم وتسعة اسمها المتأخر ورهط مضاف اليه وسيأتي بحث تمييز العدد مفصلا في باب الفوائد وجملة يفسدون صفة لتسعة ولا يصلحون عطف على يفسدون ، وسيأتي سر قوله ولا يصلحون في باب البلاغة . (قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ) تقاسموا فعل أمر أي احلفوا ، ويجوز أن

يكون فعلا ماضيا وحينئذ يجوز أن يكون مفسرا كأنه قيل : ما قالوا ؟ فقيل : تقاسموا ، ويجوز أن يكون مع فاعله جملة في محل نصب على الحال أي قالوا متقاسمين بإضمار قد والتقاسم والتقسم كالتظاهر والتظهر التحالف ، لنبيتنه : اللام واقعة في جواب القسم ونبيتنه من البيات ، وقد تقدم معناه في مكان آخر ، فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر

(437/582)

تقديره نحن والهاء مفعول به أي لنباغتنه ليلا ، وأهله الواو عاطفة وأهله معطوف على الهاء ويجوز أن يعرب مفعولا معه فتكون الواو للمعية . (ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصادِقُونَ) ثم حرف عطف للتراخي واللام موطئة للقسم ونقولن تقدم اعراب مثيلتها ولوليه متعلقان بنقولن أي الذين لهم ولاية دمه ، ومهلك مفعول به وهو إما مصدر ميمي أو اسم زمان أو اسم مكان وقرئ بضم الميم وفتح اللام على أنه من الرباعي وأهله مضاف اليه وإنا الواو عاطفة أو حالية وإنا ان واسمها واللام المزحلقة وصادقون خبر إن .

(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) الواو عاطفة ومكروا فعل وفاعل ومكرا مفعول مطلق ومكرنا مكرا عطف على الجملة السابقة والواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا

يشعرون خبر . (فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) الفاء استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبيان ما يترتب على مكرهم المبيت وتآمرهم الدنيء فإن البيات مما يستكره ، ويروى عن الإسكندر أنه أشير عليه بالبيات فقال ليس من آيين الملوك استراق الظفر أي من عادته وطرائقه .

وكيف خبر كان المقدم وعاقبة اسم كان المؤخر والجملة في محل نصب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بانظر المعلقة عن العمل بالاستفهام وإنا جملة مستأنفة ولذلك كسرت همزة إنا وقرئ بفتحها على أن المصدر بدل من العاقبة أو خبر لمبتدأ محذوف وان واسمها وجملة دمرناهم خبرها وأجمعين تأكيد لكل من المعطوف والمعطوف عليه أي صالح وأهله المؤمنين به وكانوا كما يروى أربعة آلاف .

)

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) الفاء عاطفة والجملة معطوفة على ما قبلها مقررة لها وتلك مبتدأ وبيوتهم خبر

وخاوية حال من بيوتهم والعامل فيها معنى الاشارة وبما ظلموا متعلقان بخاوية وما مصدرية والباء للسببية أي بسبب ظلمهم وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآية اسمها ولقوم صفة لآية وجملة يعلمون صفة لقوم . (وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فعل وفاعل ومفعول به وجملة آمنوا صلة وكانوا يتقون عطف على آمنوا فهو في حيز الصلة وكان واسمها وخبرها .

البلاغة :

1- التمام أو التتميم :

في قوله " ولا يصلحون " فن التمام كما سماه قدامة في نقد الشعر وابن رشيق في العمدة وابن عساكر في الصناعتين ، أو التتميم كما سماه الحاتمي ، وقد تقدم ذكره في البقرة والنحل ، ونعيد تعريفه مختصرا هنا وهو أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت منه نقص معناه في ذاته أو في صفاته ولفظه تام فإن قوله " وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض " شأنهم الإفساد البحت وقد كانوا كما يروى عتاة غلاظا وهم الذين أشاروا بعقر الناقة لمراغمة صالح وإثارة حفيظته ومنهم قدار بن سالف المشهور بالشؤم وقد تقدم ذكره ، ولكن قوله يفسدون في الأرض لا يدفع أن يندر منهم أو من أحدهم بعض الصلاح فتمم الكلام بقوله " ولا يصلحون " دفعا لتلك العذرة أن تقع أو أن يخالج بعض الأذهان شك في أنها ستقع

وبذلك قطع كل رجاء في إصلاح أمرهم وحسن حالهم .

2- المشاكلة :

(439/582)

في قوله " ومكروا مكرا ومكرنا مكرا " فن المشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته لأن اللّه تقدس عن أن يستعمل في حقه المكر ، إلا أنه استعمل هنا مشاكلة وهو كثير في القرآن ومنه " تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك " واللّه تعالى وتقدس لا تستعمل في حقه لفظة النفس ، أما مكرهم فهو ما بيتوه لصالح وما انتووه من إهلاكه وأهله ، وأما مكر اللّه فهو إهلاكهم من حيث لا يشعرون على سبيل الاستعارة المنضمة إلى المشاكلة ، فقد شبه الإهلاك بالمكر في كونه إضرارا في الخفاء لأن حقيقة المكر هو الإيقاع بالآخرين قصدا وعن طريق الغدر والحيلة ، وقد تقدمت قصة إهلاكهم في الشعب .

الفوائد :

1- تمييز العدد :

مميز الثلاثة والعشرة وما بينهما إن كان اسم جنس وهو ما يفرق بينه وبين مفرده بالتاء كشجر وتمر ، أو اسم جمع وهو ما دل على الجمع وليس له مفرد من لفظه كقوم ورهط جرّ

بمن ، تقول ثلاثة من التمر أكلتها وعشرة من القوم لقيتهم وتسعة من الرهط صحبتهم ، قال تعالى :

" فخذ أربعة من الطير " وقد يجر بإضافة العدد إليه فاسم الجمع نحو الآية المتقدمة " وكان في المدينة تسعة رهط " وفي الحديث : " ليس فيما دون خمس ذود صدقة " وقال الشاعر :

ثلاثة أنفس وثلاث ذود لقد جار الزمان على عيالي

والذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العشرة وهي مؤنثة ولا واحد لها من لفظها كما في الصحاح ، والأنفس جمع نفس وهي مؤنثة وإنما أنّث عددها وكان القياس تذكيره لأن النفس كثر استعمالها مقصودا بها الإنسان ، أما اسم الجنس فكقول جندل بن المثنى :

كأن خصييه من التدلدل ظرف عجوز فيه ثنتا حنظل

فحنظل اسم جنس مجرور بالإضافة على حد تسعة رهط ، هذا ويروي بدل التدلدل التهدل وهو أولى ويروى سحق جراب وخص العجوز لأنها لا تستعمل الطيب حتى يكون في ظرفها ما تتزين به والبيت من أقذع الهجاء .

(440/582)

وان كان مميز الثلاثة والعشرة وما بينهما جمعا جر باضافة العدد اليه نحو ثلاثة رجال وثلاث إماء ، ويعتبر التذكير والتأنيث مع اسمي الجمع والجنس بحسب حالهما باعتبار عود الضمير عليهما تذكيرا وتأنيثا فيعطى العدد عكس ما يستحقه ضميرهما ، فإن كان ضميرهما مذكرا أنث العدد وإن كان مؤنثا ذكر ، فتقول في اسم الجنس ثلاثة من الغنم عندي بالتاء في ثلاثة لانك تقول غنم كثير بالتذكير للضمير المستتر في كثير ، وروى صاحب المصباح أنه يجوز في غنم تذكير ضميره وتأنيثه ، وثلاث من البط بترك التاء من ثلاث لأنك تقول بط كثيرة بالتأنيث للضمير المستتر في كثير ، وثلاثة أو ثلاث من البقر لأن ضمير البقر يجوز فيه التذكير والتأنيث وذلك أن في البقر لغتين التذكير والتأنيث ، قال اللّه تعالى : " إن البقر تشابه علينا " بتذكير الضمير وقرئ تشابهت بتأنيثه ، وأما اسم الجمع فحكمه حكم المذكر إن كان لمن يعقل كالقوم

والرهط والنفر وان كان لما لا يعقل فحكمه حكم المؤنث كالجامل والباقر . هذا ما ذكره النحاة ولكن فيه نظرا لأن نسوة اسم جمع وحكمه حكم المؤنث باتفاق فيقال ثلاث نسوة ، والتذكير والتأنيث مع الجمع يعتبران بحال مفرده فان كان مفرده مذكرا أنث عدده وإن كان مؤنثا ذكر عدده فلذلك تقول ثلاثة اصطبلات جمع إصطبل بقطع الهمزة المكسورة وثلاثة حمامات لأن الاصطبل والحمام مذكران ، وتقول ثلاث سحابات بترك التاء اعتبارا بالسحابة فهي مؤنثة ولا يعتبر من حال الواحد حال لفظه حتى يقال ثلاث طلحات بترك

التاء ، ولا يعتبر حال معناه حتى يقال ثلاث أشخص بتركها أيضا يريد نسوة لأن الشخص يقع على المذكر والمؤنث ، بل ينظر إلى ما يستحقه المفرد باعتبار ضميره فيعكس حكمه في العدد فأما قول عمر بن أبي ربيعة :

فكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

(441/582)

فضرورة وكان القياس فيه ثلاثة شخوص بالتاء ولكنه كنى بالشخوص عن النساء والذي سهل ذلك قوله : "كاعبان ومعصر " فاتصل اللفظ بما يعضد المعنى المراد وهو التأنيث ، والكاعب الجارية حين يبدو ثديها للنهود ، والمعصر بضم الميم وكسر الصاد الجارية أول ما أدركت سميت بذلك لكونها دخلت في عصر الشباب كما قال الخليل .

هذا وقد جمح بنا عنان القول فحسبنا ما تقدم أوردناه لاهميته وفائدته ولا بد من الرجوع إلى المطولات لمن أراد المزيد .

2- اعلم أنهم قد كسروا شيئا من الأسماء لا على الواحد المستعمل بل نحملوا لفظا آخر مرادفا له فكسروه على ما لم يستعمل فمن ذلك رهط وأراهط قال الشاعر :

يا بؤس للحرب التي وضعت أراهط فاستراحوا

وليس القياس في رهط أن يجمع على أراهط لأن هذا البناء من جموع الرباعي وما كان على عدته نحو جعفر وجعافر وجدول وجداول وأرنب وأرانب . وليس أرهط بجمع رهط إذ لو كان كذلك لم يكن شاذا ويدل على ذلك أن الشاعر قد جاء به لما احتاج اليه قال :

وفاضح مفتضح في أرهطه من أرفع الوادي ولا من بعثطه

والبعثط والبعثوط : سرّة الوادي وخير موضع فيه .

هذا وقد اختلف النحويون في أراهط ، فزعم قوم منهم أنه جمع أرهط الذي هو جمع رهط وهو النفر من ثلاثة إلى عشرة ، وزعم أكثر النحويين أن أراهط جمع رهط على خلاف القياس . والبيت مطلع قصيدة لسعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة جد طرفة بن العبد الشاعر وبعده :

والحرب لا يبقى لجا حمها التخيل والمراح

إلا الفتى الصبار في النّجدات والفرس الوقاح

والنثرة الحصداء وال . . . بيض المكلّل والرماح

وتساقط الأوشاظ والذّنبات إذ جهد الفضاح

والكر بعد الفر إذ كره التقدم وال

نطاح كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

لفظ الآبين في شعر أبي نواس :

وردت في باب الاعراب كلمة الإسكندر وفيها يقول : ليس من آيين الملوك استراق الظفر ، ونحب أن نورد أبياتا لأبي نواس استعمل فيها كلمة الآيين فجاءت خفيفة ظريفة رغم غرابتها ، قال أبو نواس يصف ما جرى له في دير نهراذان :

بدير نهراذان لي مجلس وملعب وسط بساتينه

رحت إليه ومعي قينة نزوره يوم سعانينه

بكلّ طلاب الهوى فاتك قد آثر الدنيا على دينه

حتى توافينا إلى مجلس تضحك ألوان رياحينه

والنرجس الغض لدى ورده والورد قد خفّ بنسرينه

وجيء بالدن على مرفع وخاتم العلج على طينه

وطاف بالكأس لنا شادن يدميه مس الكف من لينه

يكاد من اشراق خديه أن يختطف الابصار من دونه

فلم يزل يسقي ونلهو به ونأخذ القصف بآيينه

حتى غدا السكران من سكره كالميت في بعض أحايينه

فقوله نأخذ القصف بآينه أي برسومه وقوانينه وشروطه .

[سورة النمل (27) : الآيات 54 إلى 58]

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (54) أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (55) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56) فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (57) وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (58)

الإعراب :

)

(443/582)

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لذكر القصة الخامسة والأخيرة من قصص السورة ، ولوطا مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر أو أرسلنا ، فإن جعلته اذكر كانت إذ ظرفا لما مضى من الزمان متعلقا باذكر ، وان جعلته أرسلنا كانت إذ بدل اشتمال من لوطا وجملة قال مجرورة بإضافة الظرف إليها ، ولقومه جار ومجرور متعلقان بقال ، والهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي وتأتون فعل

مضارع والواو فاعل والفاحشة مفعول به والجملة مقول القول ، وأنتم الواو حالية وأنتم مبتدأ وجملة تبصرون خبر أنتم والمراد بصر القلب أي تعلمون أنها فاحشة ومع ذلك

(444/582)

تفعلونها . (أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي وكرر التوبيخ زيادة في التقبيح واستسماج هذه الفعلة الشنعاء المخالفة لنواميس الطبيعة ، وسيرد في باب الفوائد بحث عن هذه الميول الجنسية الشاذة التي لا يبلغ كنه قبحها ، وان واسمها واللام المزحلقة وجملة تأتون الرجال خبرها وشهوة مفعول لأجله أو حال من الفاعل أو المفعول ومن دون النساء متعلقان بمحذوف حال من الفاعل . (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) بل حرف إضراب وأنتم مبتدأ وقوم خبر وتجهلون صفة لقوم . (فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ) الفاء عاطفة وما نافية وكان فعل ماض ناقص وجواب قومه خبر كان المقدم وإلا أداة حصر وأن قالوا مصدر مؤول في موضع الرفع اسم كان المؤخر وجملة أخرجوا مقول القول وهو فعل أمر وفاعل وآل لوط مفعول به ومن قريتكم متعلقان بأخرجوا وإنهم تعليل لإخراجهم وان واسمها وأناس خبرها وجملة يتطهرون صفة أي يتنزهون عن هذا العمل القذر . (فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ

قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ) الفاء عاطفة على مقدر محذوف يفهم من السياق أي فخرج لوط بأهله من أرضهم بعد أن أحس بمكرهم وكيدهم وتربصهم الدوائر . وأنجيناه فعل ماض وفاعل ومفعول به وأهله عطف على الهاء أو مفعول معه وإلا أداة استثناء وامرأته مستثنى وجملة قدرناها حال وقدرناها فعل ماض وفاعل ومفعول به ومن الغابرين متعلقان بقدرناها أي الباقين في العذاب . (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) الواو عاطفة وأمطرنا فعل وفاعل وعليهم متعلقان بأمطرنا ومطرا مفعول به ، فساء الفاء عاطفة وساء فعل ماض للذم ومطر المنذرين فاعل .

الفوائد :

النرجسية والشذوذ الجنسي :

(445/582)

يرجع الفلاسفة المحدثون ظواهر الشذوذ في غرائز الجنس إلى النرجسية ، ولهذا كان لا بد من أن نشرح هذه النرجسية كما يفهمها المحللون النفسيون :

كان اليونانيون الأقدمون يطلقون اسم نرجس على فتى من فتيان الأساطير بارع الحسن ساحر الشمائل يفتن من يراه ويشقي بجماله وتيهه قلوب العذارى الخفرات ، فلا يلتفت إليهن

ولا يستجيب لضراعتهن ، ولم يزل كذلك حتى ضجت السماء بدعاء عاشقاته وصلواتهن إلى الأرباب أن يصرفوهن عنه أو يصرفوه عنهن واستجابت " نمسي " ربة القصاص والجزاء إلى هذا الدعاء فقضت عليه أن يهيم بحب نفسه ويلقى منها الشقاء الذي تلقاه منه عاشقاته ، قال رواة الأساطير : فما هو إلا أن ذهب يشرب من ينبوع صاف حتى لمح بصورته في مائه فوقف عندها يعجب من جمالها وأذهلته الفتنة عن شأنه فلم يبرح مكانه مطرقا إلى الماء ليتملّى تلك الصورة ويرتوي من النظر إليها فلا يزيده النظر إلا لهفة وشوقا ولا تزيده اللهفة إلا هزالا وذبولا حتى فني ، وذهبت عرائس الماء تطلب رفاته فلم تجد في مكانه غير نرجسة مطرقة ترنو إلى الماء ولا ترفع بصرها إلى السماء ، فالنرجس أبدا مطرق مفتوح العين لا يشبع من النظر إلى خياله على حوافي الجداول والغدران . وهناك روايات أخرى حول هذه الأسطورة تمثل الصدى والحذر والسبات لا تخرج عن هذا الفحوى وتلحق بما تنطوي

(446/582)

عليه آفة النرجسية من الغرائز أو من الميول والأحاسيس ولهذا وقع عليها اختيار المحللين النفسيين فلم يجدوا اصطلاحا أوفق منها لأعراض تلك الظاهرة النفسية مع عراقة

الاصطلاح في اللغة اليونانية التي يختارونها لابتداع الأسماء الجديدة في العلوم ، وأول من أدخل هذا المصطلح في الطب النفسي الدكتور هافلوك أليس رائد المباحث الجنسية المشهور ، ثم توسّع الأطباء النفسيون في دراسة هذه الآفة وتتبعوا أعراضها ولوازمها واستقصوا ما هو من لوازمها الأولية وما هو من لوازمها الثانوية أو التبعية ، وتعنينا هنا من شعابها التي تتصل بدراسة المنحرفين شعبتان :

1- تسمى إحداهما الاشتهاء الذاتي .

2- تسمى ثانيتهما التوثين الذاتي .

فالاشتهاء الذاتي يغلب على الحالات الجسدية التي تقترن باختلال وظائف الجنس في صاحبها ويبلغ من اختلال هذه الوظائف أن المصاب به يمني إذا أطال النظر إلى بدنه عاريا في المرآة وما إليها وأنه يشتهي بدنه كأنه بدن إنسان غريب عنه ولكنها شهوة يبالغ فيها المريض .

والتوثين الذاتي يغلب على الحالات العاطفية والفكرية ، فيتخذ المصاب به من نفسه وثنا يعبده ويعزه ويدلله ، فلازمة التلبيس والتشخيص لاغنى في الشذوذ الجنسي ، وهو عشق الإنسان لذاته من الناحية الشهوية ، فالشاذ في حب جنسه أو حب الجنس الآخر يجد طلبته ويقضي مأربه ، أما الذي يشتهي بدنه فليس في وسعه أن يقضي

مأربه منه بغير الاحتيال لذلك بالتلبيس والتشخيص ، فهو يلبس شخصيته شخصا آخر يتوهم أنه هو ذاته أو يحل محلّ ذاته وكما يفعل جالد عميرة حين يضع أمامه صورة .

(447/582)

هذا ومن المفيد أن يرجع الذي يتوق إلى معرفة تطور النظريات في مسائل الجنس إلى الكتب المؤلفة في هذا الصدد فهي تلقي أضواء على المشكلة ولكنها لا تحلها ، لأنها كلها لم تنته إلى تهوين الفوارق بين الجنسين ولا إلى زعم الزاعمين أن الإنسان مزدوج الجنسين مختلط الذكورة والأنوثة بطبيعته ، وأن الشذوذ الجنسي فيه فطرة عامة تتخذ أطوارها على حسب العمر من الطفولة إلى تمام النمو في الجنسين كما يقول فرويد ومتبعوه .

وقد صور أبو نواس وهو قطب من أقطاب النرجسيين هذه الأطوار خير تمثيل وهو يغشى معاهد الدرس على هذا المثال في عرفه بقوله :

إذا ما وطئ الأمرد للعلم حصى المسجد

فقل حلّ لنا عقدا من الفقه واستفسد

فإن كان عروضيا فقولوا سجد الهدهد

وإن أعجبه النحو فها ذاك له أجود

وإن مال إلى الفقه فللفقه له أفسد

وان كان كلاميا فحرّك طرف المقود

وميله إلى الخير فقيه قرب ما يبعد

وخذه كيفما شئت- اقتضابا أو على موعد وقل : هذا قضاء الله هل يدفع أو يجحد

وانتهى مصرحا :

فيا من وطئ المسجد من ذي بهجة أغيد

أنا قست على نفسي فهذا الأمر لا أجحد

وننتهي من هذا البحث وقد كان أمرا لا بد منه وإن لم يكن هذا موضعه .

تصحيح رواية بيت في الكشاف لأبي نواس :

ذكر الزمخشري في كشافه بصدد الحديث عن قوم لوط قال :

" . . . كانوا في ناديهم يرتكبونها معالنين بها لا يتستر بعضهم من بعض خلاعة ومجانة

وانهما كا في المعصية وكأن أبا نواس بنى على مذهبهم قوله :

وبح باسم ما تأتي وذرني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

وصواب الرواية " وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى " البيت وهو من قصيدة رائعة

أولها :

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

وبعد البيت :

فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة فإن طال هذا عنده قصر العمر

وبعده :

(448/582)

و ما الغرم إلا أن تراني صاحيا وما الغرم إلا أن يتعتعني السكر

ولا نمرّ بك دون أن نقف عند البيت الأول فقد قال " وقل لي هي الخمر " وقد يبدو هذا حشوا للوهلة الأولى ولكن القارئ إذا ذكر أن للانسان خمس حواس علم أن أبا نواس قصد أن يشرك حاسة السمع التي تظل محرومة من لذة الخمر حال شربها فطالب ندمانه أن يخاطبه باسمها ليشرك حاسة سمعه وهذا من أعاجيب فطنته .

[سورة النمل (27) : الآيات 59 إلى 64]

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَجَعَلَ لَها رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61)

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63)

أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (64)

اللغة :

)

(449/582)

حَدائِقَ) : جمع حديقة أي بستان من أحدق بالشيء أحاط به ، ولما كان البستان محوطا بالحيطان سمي حديقة وإلا فلا يسمى بها ، وفي المصباح : " والحديقة البستان يكون عليه حائط فعيلة بمعنى مفعولة لأن الحائط أحدق بها أي أحاط ، ثم توسعوا حتى أطلقوا الحديقة على البستان وإن كان بغير حائط والجمع الحدائق " وفي الصحاح : " الحديقة : كل بستان عليه حائط " ومن أقوالهم : " ورد عليّ كتابك فتنزهت في آنق رياضه ، وبهجة حدائقه " .

الاعراب :

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى) كلام مستأنف مسوق لأمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم بحمده تعالى وبالسلام على

(450/582)

المصطفين الأخيار من خلقه وكأن هذا الحمد براعة استهلال لما سيلقيه من البراهين والدلائل على الوحدانية والعلم والقدرة التي سيرد ذكرها وذلك بعد أن فرغ من قصص هذه السور الخمس . وقل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت أي يا محمد ليكون نموذجا يتأسى به كل كاتب وخطيب ويحتذى على مثاله في كل علم مفاد ، والحمد مبتدأ وللّه خبره وسلام مبتدأ سوغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء وعلى عباده خبر والذين صفة لعباده وجملة اصطفى صلة والعائد محذوف أي اصطفاهم وهم المؤمنون المتأهلون للدنيا والآخرة . (آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) الهمزة للاستفهام واللّه مبتدأ وخير خبر وأم عاطفة وما اسم موصول واقع على آلهتهم وجملة يشركون صلة . (أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ) أم منقطعة لفقدان شرطها وهو تقدم همزة الاستفهام وهي بمعنى بل والإضراب بمعنى التبكيت والتوبيخ ومن مبتدأ وجملة خلق

السموات والأرض صلة وخبر من محذوف تقديره خير أم ما يشركون فيقدر ما أثبت في الاستفهام الأول تعويلا عليه وهذا ما اختاره الزمخشري وهو جميل متناسب مع الكلام ، وقال أبو الفضل الرازي :

" لا بد من إضمار جملة معادلة وصار ذلك المضمر كالمنطوق لدلالة الفحوى عليه وتقدير تلك الجملة : أمن خلق السموات والأرض كمن لم يخلق وكذلك أخواتها وقد أظهر في غير هذه المواضع ما أضمر فيها كقوله تعالى : أفمن يخلق كمن لا يخلق " ولا نرى خلافا بينا بين الوجهين . وأنزل عطف على خلق ولكم حال ومن السماء متعلقان بأنزل وماء مفعول به والفاء عاطفة وأنبتنا عطف على ما تقدم على طريق الالتفات ، وسيأتي في باب البلاغة ، وبه متعلقان بأنبتنا وحدائق مفعول به وذات بهجة صفة لحدائق وسوغ إفراده أن المنعوت جمع كثرة لما لا يعقل .

(451/582)

)

ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها) الجملة نعت ثان لحدائق أو حال منها لتخصصها بالصفة ، وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولكم خبر كان المقدم وأن وما في حيزها اسمها المؤخر

وتنبتوا فعل مضارع منصوب بأن والواو فاعل وشجرها مفعول . (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري المتضمن معنى النفي وإله مبتدأ وساغ الابتداء به لإفادته بسبب الاستفهام ومع الله ظرف متعلق بمحذوف خبر وبل حرف إضراب معناه التبكيت ، وقد تكرر هذا التعبير خمس مرات كما سترى ، وهم مبتدأ وقوم خبر وجملة يعدلون صفة . (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً) تقدم إعراب هذا التركيب فقس عليه ، وقرارا مفعول جعل الثاني ، وجعل خلالها أنهارا عطف على الجملة الأولى ، وخلالها يجوز أن يكون ظرفا لجعل بمعنى خلق المتعدية لواحد وأن يكون في محل المفعول الثاني على أنها بمعنى صيّر وعلى الوجه الأول يكون قرارا حالا . (وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ) جملة معطوفة . (وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الجملة معطوفة على ما تقدم وقد تقدم إعرابها .

)

(452/582)

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) تقدم إعرابها وجملة دعاه في محل جر بإضافة الظرف إليها والمضطر اسم مفعول ، وطاؤه أصلها تاء الافتعال . (وَيَجْعَلُكُمْ

خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ) تقدم إعرابها ، وقليلا نعت لمصدر محذوف أو لوقت محذوف وما زائدة لتقليل القليل وتذكرون فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه والواو فاعل . (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) تقدم إعرابها . (وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) تقدم اعرابها أيضا . (أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ) تقدم اعرابها أيضا . (أَإِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ)

إن شرطية وجوابها محذوف تقديره فهاتوا برهانكم ، وقد قدمنا أن قوله أإله ذكر خمس مرات وختم الأول بقوله " بل هم يعدلون " وختم الثاني بقوله " بل أكثرهم لا يعلمون " والثالث بقوله : " قليلا ما يذكرون " والرابع بقوله :

" تعالى اللّه عما يشركون " والخامس بقوله " قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين " .

البلاغة :

الالتفات في قوله : " فأنبتنا به حدائق ذات بهجة " بعد قوله " أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء " فقد انتقل في نقل الإخبار من الغيبة إلى التكلم عن ذاته في قوله

فأنبتنا ، والسر فيه تأكيد اختصاص فعل الإنبات بذاته تعالى وللإيذان بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف وما يبدو فيها من تزاويق الألوان وتحاسين الصور ، ومتباين الطعوم ، ومختلف الروائح المتفاوتة في طيب العرف والأريج كل ذلك لا يقدر عليه إلا قادر خالق وهو اللّه وحده ، ولذلك رشح هذا الاختصاص بقوله بعد ذلك " ما كان لكم أن تنبتوا شجرها " وقد أدرك أبو نواس هذه الحقيقة فقال :

تأمل في رياض الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لجين شاخصات بأنظار هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

هل تاب أبو نواس ؟ :

هذا ولعلك تعجب من هذه الأبيات تنضح بالإيمان العميق وتصدر عن رجل كأبي نواس لم يظلمه الذين اتهموه ولم تعوزهم الأدلة على اتهامه بالفساد ولكنهم ظلموا الفلسفة فظنوها مدرجة المطلعين عليها إلى الزندقة ومذاهبها ، ولا زندقة هنا عند أبي نواس ولا مذهب غير المجون وحب الظهور ، ولقد كان ابراهيم النظام من أعلم أهل زمانه بما يسمونه علوم الأوائل وكان أبو نواس يحضر عليه فينهاه عن التبذل ويذكره بالوعيد ويقول له : إن من ترقب وعد اللّه فعليه أن يحذر وعيده ، فلا يرعوي عن لغوه ومجونه حتى يئس منه فطرده من مجلسه ، فنظم فيه قصيدته التي اشتهرت بالابراهيمية ومطلعها مشهور متداول :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

وفيها يسخر من النظام :

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

لا تخطر العفو إن كنت امرأ حرجا فإن خطرك بالدين إزراء

فأبو نواس لم يكن سوى ماجن مستهتر وقد كان المجون في

(454/582)

عرف بيئته هو الظرف ، نصح له الأمير أبو العباس محمد أن يتوب عن المجون ، فقال له : أما المجون فما كل أحد يقدر أن يمجن وإنما المجون ظرف ولست أبعد فيه عن حد الأدب أو أتجاوز مقداره ، أما المعاصي فإني أثق فيها بعفو اللّه عز وجل وقوله تعالى :

" يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعا "

وقد تلقف أبو نواس أضاليل المرجئة وقولهم :

" لا يضر مع الإيمان سيئة جلت أو قلت أصلا ولا ينفع مع الشرك حسنة أصلا " فنادى بذلك ويظهر أنه استهواه :

ترى عندنا ما يسخط اللّه كله من العمل المردي الفتى ما خلا الشركا

ثم عدل نظريته بعض الشيء فاكتفى بالقول إن الكبائر لا تسلك صاحبها مع الكفار ولا تحرمه الرجاء بعفو اللّه وقوله مشهور في ذلك :

تكثر ما استطعت من الخطايا فإنك بالغ ربا غفورا

تعض ندامة كفيك مما تركت مخافة النار السرورا

ومن ذلك قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر على أنه تاب في أخريات عمره ، وقد نستشف من أشعاره التي نظمها في تلك السن المشارفة على النهاية صدق توبته ، فقال معترفا بتأخيرها بعد فوات حينها :

دبّ فيّ الفناء سفلا وعلوا وأراني أموت عضوا فعضوا

ذهبت شرّتي وجدة نفسي وتذكرت طاعة اللّه

نضوا ليس من ساعة مضت بي إلا نقصتني بمرها لي

جزوا لهف نفسي على ليال وأيا م سلكتهن لعبا و

لهوا قد أسأنا كل الإساءة يا رب فصفحا عنا إلهي وعفوا

[سورة النمل (27) : الآيات 65 إلى 70]

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (65) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (66) وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُرابًا وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (69) وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (70)

الإعراب :

(قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) شغلت هذه الآية المفسرين والمعربين والنحاة وخاضوا فيها كثيرا وسنختار هنا أسهل أقوالهم على أن نورد في باب الفوائد جميع ما قيل حولها لما في ذلك من رياضة ممتعة للذهن . والجملة مستأنفة مسوقة للرد عليهم وقد سألوه عن وقت قيام الساعة ، ف " لا "

(456/582)

نافية ويعلم فعل مضارع ومن اسم موصول فاعل يعلم وفي السموات والأرض صلة من ، أي لا يعلم الذي ثبت واستقر وسكن في السموات والأرض والغيب مفعول به وإلا أداة استثناء

بمعنى لكن اشارة إلى أن الاستثناء منقطع والله مبتدأ خبره محذوف تقديره يعلم ويصح أن تكون من في محل نصب مفعول به والغيب بدل اشتمال منها والله فاعل يعلم والمعنى قل لا يعلم الأشياء التي تحدث في السموات والأرض الغائبة عنا إلا الله تعالى والواو عاطفة وما نافية ويشعرون فعل مضارع وفاعل وأيان اسم استفهام بمعنى متى وهي منصوبة بيبعثون ومعلقة ليشعرون عن العمل فالجملة المؤلفة منها ومما بعدها في محل نصب بنزع الخافض أي ما يشعرون بذلك . (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ) بل حرف إضراب انتقالي وقال الجلال هي بمعنى هل وهو غريب بالرغم من أن شراح الجلال قالوا ان طريقة الجلال أسهل من الطرق التي سلكها غيره ، وادارك فعل ماض أي لحق وتتابع ، وأورد الزمخشري اثنتي عشرة قراءة لها ، وعلمهم فاعل وفي الآخرة متعلقان بادارك أو بعلمهم وادارك وإن كان ماضيا لفظا فهو مستقبل معنى لأنه كان حتما كقوله " أتى أمر الله " ، بل حرف إضراب انتقالي أيضا وهم مبتدأ وفي شك خبر ومنها صفة لشك وبل حرف إضراب انتقالي أيضا وهم مبتدأ ومنها متعلقان بعمون وعمون خبر هم ، والعمى هنا عمى القلب ، والأصل عميون استثقلت الضمة على الياء فنقلت إلى الميم بعد حذف كسرتها . (وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذا كُنَّا تُراباً وَآباؤُنا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ) الواو للعطف وقال الذين فعل وفاعل وجملة كفروا صلة الذين والهمزة للاستفهام الانكاري وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة

كنا في محل جر بإضافة الظرف إليها وكان واسمها وترابا خبرها وآباؤنا عطف على اسم كان وسوغ العطف عليه الفصل بالخبر والهمزة للاستفهام الإنكاري أيضا وإن واسمها واللام المزحلقة ومخرجون خبر إن والجملة تأكيد للجملة الأولى . (لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَآباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) الجملة تأكيد ثان للجملة السابقة واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ووعدنا فعل ماض مبني للمجهول ونا نائب فاعل وهذا مفعول به ثان لوعدنا ونحن تأكيد لنا وآباؤنا عطف على الضمير البارز في وعدنا وسوغ العطف تأكيده بالضمير المنفصل والفصل بالمفعول الثاني ومن قبل متعلقان بوعدنا والظرف مبني على الضم لانقطاعه على الإضافة لفظا لا معنى أي من قبل مجيء محمد من الرسل السابقين ، وهنا لا بد من تقدير حذف اقتضاه الإيجاز فلو كان الموعود به حقا لحصل وإن نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وأساطير خبر هذا والأولين مضاف إليه .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ) سيروا فعل أمر معناه التهديد لهم على التكذيب والتحذير من أن ينزل بهم ما حاق بالمكذبين من قبلهم وفي الأرض متعلقان بسيروا ، فانظروا عطف على سيروا وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر كان

المقدم وعاقبة المجرمين اسم كان المؤخر . (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) الواو عاطفة على قل ولا ناهية وتحزن فعل مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر تقديره أنت وعليهم متعلقان بتحزن ولا تكن عطف على لا تحزن واسم تكن مستتر تقديره أنت وفي ضيق خبر ومما صفة لضيق وجملة يمكرون صلة .

الفوائد :

(458/582)

منشأ الاضطراب في هذه الآية أنهم – أي النحاة – أعربوا لفظ الجلالة بدلا من " من " وفي ذلك إبدال المستثنى المنقطع وهي لغة مرجوحة لتميم ، ولما كانت القراءة مما اتفق عليه السبعة بالرفع حصل ذلك الاشكال ، وفيما ذكرناه أي إعراب لفظ الجلالة مبتدأ مخلص من هذا كله قالوا : " والله مرفوع على البدلية من " من " لأنه تعالى لا يحويه مكان " .

وجوز الصفاقسي أن يكون الاستثناء متصلا والظرفية في حقه تعالى مجازية وفيه جمع بين الحقيقة والمجاز في الظرفية وعلى هذا فيرتفع على البدل أو عطف البيان . وقد سبق لنا تقرير الجمع بين الحقيقة والمجاز في كلمة وأرجحنا جواز اجتماعهما وعلى ذلك قولهم " القلم أحد اللسانين " وجميع أهل الأصول من أتباع الإمام الشافعي لا يشترطون في المجاز القرينة

المانعة من إرادة المعنى الحقيقي .

وفي الجمع بين الحقيقة والمجاز إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وهو نوع من البديع يسمى التنويع ، وهو ادعاء أن مسمّى اللفظ نوعان : متعارف وغير متعارف على طريق التخيل وهو نوع واسع يجري في أبواب كثيرة ، منه أن ينزل ما يقع في موقع شيء بدلا عنه منزلته بدون تشبيه ولا استعارة كقولهم " تحية بينهم ضرب وجيع " وقولهم عقابه السيف .

وقال ابن الكمال : فإن قلت : كيف استثني اللّه وانه تعالى منزه ومتعال عن أن يكون في السموات والأرض ؟ قلت كما استثني " غير أن سيوفهم " من قوله أي النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

يعني إن كان اللّه تعالى ممن في السموات والأرض كان فيهم من يعلم الغيب ، والغرض المبالغة في نفي العلم بالغيب عنهم وسد الطريق إلى ذلك الاحتمال ، فالاستثناء متصل كما في قوله تعالى : " ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف " فإن شراح الكشاف قاطبة صرحوا بأن الاستثناء فيه متصل .

و العجب أن البيضاوي جوّز اتصال الاستثناء في آية النكاح على الوجه المذكور وجزم هنا بانقطاعه ، والظاهر من كلام الزمخشري أيضا القطع بالانقطاع حيث قال : " جاز رفع اسم اللّه تعالى على لغة بني تميم حيث يقولون : ما في الدار أحد إلا حمار ، كأن أحدا لم يذكر فإنه على تقدير الكلام على النسق المذكور يصح رفع اسم اللّه على لغة أهل الحجاز أيضا .

واعترض بعضهم على الاعراب الثاني أي نصب " من " واعراب الغيب بدلا من " من " بدل اشتمال فقال إن بدل الاشتمال يحتاج إلى ضمير يكون رابطا ولا ضمير هنا وليس البدل بعد أداة الاستثناء ليقال إن قوة المستثنى بالمستثنى منه تغني عنه ، وعلى هذا فالوجه الأول خال من كل محذور .

[سورة النمل (27) : الآيات 71 إلى 78]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (71) قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (72) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (73) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (74) وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (75)

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (77) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (78)

اللغة :

(رَدِفَ) : في القاموس : " ردفه كسمع ونصر تبعه " ولكنه ضمن هنا معنى دنا أو قرب ولذلك عدي باللام أو أن اللام زائدة كما سيأتي في الاعراب وقد عدي بمن أيضا قال :

فلما ردفنا من عمير وصحبه تولوا سراعا والمنية تعنق

(460/582)

ردف كتبع يتعدى بنفسه وضمن هنا معنى الدفو فعدي بمن ، وأعنق الفرس سار سيرا سريعا سهلا والعنق اسم منه ، يقول الشاعر فلما دنونا من عمير وأصحابه للحرب أدبروا مسرعين والحال أن الموت يسرع خلفهم من جهتنا ، شبه المنية بالأسد على طريق الاستعارة المكنية فأثبت لها العنق تخييلا كأنهم كانوا تبعوهم برمي النبال .

ويجوز أنه استعار المنية لنفسه وقومه على طريق التصريح أي ونحن نسرع خلفهم فذكر العنق تجريد لأنه يلائم المشبه والعنق ضرب من سير الدواب كما في الصحاح .

وقال ابن الشجري :

معنى ردف لكم تبعكم ومنه ردف المرأة لأنه تبع لها من خلفها ومنه قول أبي ذؤيب .

عاد السواد بياضا في مفارقه لا مرحبا ببياض الشيب إذ ردفا

قال الجوهري : وأردفه لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه بمعنى قال خزيمة بن مالك بن نهد :

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا

الاعراب :

(وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الواو استئنافية والخطاب للنبي ويقولون فعل مضارع وفاعل ومتى اسم استفهام في محل نصب على الظرفية الزمانية وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم وهذا مبتدأ مؤخر والوعد بدل وإن شرطية وكنتم فعل الشرط وكان واسمها وصادقين خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

(قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ) عسى ولعل وسوف إذا خوطب بها من هو أكبر منك قدرا فهي بمثابة الجزم بمدخولها وإنما يطلقونها للوقار وعسى فعل ماض جامد من أفعال الرجاء واسمها مستتر تقديره هو وان يكون مصدر مؤول خبرها واسم يكون مستتر تقديره هو وردف فعل ماض ضمن فعل يتعدى باللام

(461/582)

و بعض فاعل والذي مضاف اليه وجملة تستعجلون صلة وجملة ردف خبر يكون وقيل إن ردف على بابها بمع تبع واللام زائدة . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ) الواو استئنافية وان واسمها واللام المزحلقة وذو فضل خبرها وعلى الناس

متعلقان بفضل أو صفة له والواو حالية ولكن حرف استدراك ونصب وأكثرهم اسمها وجملة لا يشكرون خبرها . (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وجملة يعلم خبر إن وما مفعول به وجملة تكن صدورهم صلة والعائد محذوف وما يعلنون عطف على ما تكنّ . (وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ) الواو عاطفة وما نافية ومن حرف جر زائد وغائبة مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ وساغ الابتداء بالنكرة لدخول النفي عليها ، والغائبة كل ما يخفى ، سمي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتهما في العافية والعاقبة والنصيحة والرمية والذبيحة في أنها أسماء غير صفات ويجوز أن تكون هذه صفات والتاء فيها للمبالغة كراوية وعلامة ونسابة . وفي السماء والأرض صفة لغائبة وإلا أداة حصر وفي كتاب خبر غائبة ومبين صفة . (إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) الجملة مستأنفة لبيان نوع آخر من ميزات القرآن وان واسمها والقرآن بدل من اسم الاشارة وجملة يقص خبر إن وعلى بني إسرائيل جار ومجرور متعلقان بيقص وأكثر مفعول به والذي مضاف اليه وفيه متعلقان بيختلفون وجملة يختلفون صلة الذي . (وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) عطف على ما تقدم وان واسمها واللام المزحلقة وهدى خبرها ورحمة عطف على هدى وللمؤمنين صفة . (

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ)

إن واسمها وجملة يقضي خبرها والظرف متعلق بمحذوف حال وبحكمه متعلقان بيقضي وهو مبتدأ والعزيز خبر أول والعليم خبر ثان .

الفوائد :

أحكام التاء المتحركة اللاحقة بالأسماء والصفات :

هذه التاء إحدى علامات التأنيث المختصة بالأسماء لأنه لما كان التأنيث فرعا للتذكير احتاج لعلامة تميزه ، على أن العرب قد أنثوا أسماء كثيرة بتاء مقدرة ويستدل على ذلك التقدير بالضمير العائد عليها نحو : " النار وعدها اللّه الذين كفروا " و" حتى تضع الحرب أوزارها " و" إن جنحوا للسلم فاجنح لها " وبالإشارة إليها نحو : " هذه جهنم " وبثبوتها في تصغير الاسم نحو عيينة وأذينة مصغر عين وأذن من الأعضاء المزدوجة فإن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها ، فإن القاعدة المشهورة هي : أن ما كان من الأعضاء مزدوجا فالغالب عليه التأنيث إلا الحاجبين والمنخرين والخدين فإنها مذكرة ، على أن المرجع السماع فإن من المزدوج الكف وهي مؤنثة ، وزعم المبرد أنها قد تذكر وأنشد :

ولو كفي اليمين تقيك خوفا لأفردت اليمين عن الشمال

ولكن هذا وهم من المبرد فإن اليمين بمنزلة اليمنى فهي مؤنثة .

وقال ابن يسعون : على انه رجع إلى التأنيث فقال تقيك . ونعود إلى طرق الاستدلال فنقول ويستدل على التقدير أيضا بثبوتها في فعله نحو :

" ولما فصلت العير " وبسقوطها من عدده كقول حميد الأرقط يصف قوسا عربية :

أرمي عليها وهي فرع أجمع وهي ثلاث أذرع وأصبع

فأذرع جمع ذراع وهي مؤنثة بدليل سقوط التاء من عددها وهو ثلاث والواو في قوله " وهي " فرع للحال يقال قوس فرع إذا عملت من رأس القضيب ولم يرد بقوله وإصبع حقيقة مقدار الإصبع ولكنه أشار بذلك إلى كمال القوس كما تقول : الثوب سبع أذرع وزائد تريد أنها موفاة هذا العدد .

(463/582)

و الغالب في هذه التاء أن تكون لفصل صفة المؤنث من صفة المذكر كقائمة وقائم ، ومن غير الغالب في الأسماء غير الصفات نحو رجل ورجلة وغلام وغلامة وفي الصفات التي تنزل على مقصدين وهي الصفات المختصة بالمؤنث كحائض وطامث فإن قصد بها الحدوث

في أحد الأزمنة لحقتها التاء فقيل حائضة وطامثة وإن لم يقصد بها ذلك لم تلحقها فيقال حائض وطامث بمعنى ذات أهلية للحيض والطمث .

وقال في المفصّل : " للبصريين في نحو حائض وطامث مذهبان :

فعند الخليل انه على النسب كلابن وتامر كأنه قيل ذات حيض وذات طمث ، وعند سيبويه أنه مؤول بانسان أو شيء حائض كقولهم غلام ربعة على تأويل النفس وانما يكون ذلك في الصفة الثابتة وأما الحادثة فلا بد لها من علامة التأنيث فتقول حائضة وطالقة الآن أو غدا " وقد أوضحنا الفرق بين الصفة الحادثة والثابتة في الكلام عن قوله تعالى " يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت " بأن المرضع هي التي من شأنها الإرضاع والمرضعة هي التي في حالة الإرضاع ملقمة ثديها للصبي فانظره هناك .

وقال في المفصل : " إن مذهب الكوفيين ان حذف التاء في حائض للاستغناء عنها " وهذا يوجب اثبات التاء في محل الالتباس كضامر وعاشق وأيم وثيّب وعانس وهذا الاعتراض بيّن ، وأما الاعتراض بإثبات التاء في الصفات المختصة بالإناث من امرأة مصيبة وكلبة مجرية على ما في الصحاح فليس بسديد لأن ما ذكروه مجوز لا موجب لأنهم يقولون الإتيان بالتاء في صورة الاستغناء عن الأصل كحاملة في المرأة ، قال الجوهري في الصحاح : يقال امرأة حامل وحاملة إذا كانت حبلى ، فمن قال حامل قال هذا نعت لا يكون إلا للإناث ، ومن قال حاملة بناء على حملت فهي حاملة ، وأنشد لعمرو بن حسان :

تمخضت المنون له بيوم أتى ولكل حاملة تمام

فإذا حملت شيئا على ظهرها أو على رأسها فهي حاملة لا غير .

هذا ولا تدخل هذه التاء في خمسة أوزان :

(464/582)

1- فعول بفتح الفاء بمعنى فاعل كرجل جسور وامرأة جسور " وما كانت أمك بغيّا " وقد سبق ذكرها في سورة مريم .

2- فعيل بمعنى مفعول نحو رجل جريح وامرأة جريح ، فإن قلت مررت بقتيلة بني فلان ألحقت التاء خشية الالتباس بالمذكر لأنك لم تذكر الموصوف .

3- مفعال بكسر الميم نحو منحار يقال رجل منحار وامرأة منحار .

4- مفعيل بكسر الميم كمعطير من العطر وشذّ امرأة مسكينة وسمع امرأة مسكين على القياس .

5- مفعل كمغشم وهو الذي لا ينتهي عما يريده ويهواه من شجاعته .

تاء الفصل : وتأتي التاء لفصل واحد من الجنس كتمرة وتمر ، أو فصل الجنس من الواحد نحو كماة وليس منه سيارة في قوله تعالى " وجاءت سيارة " فإنها جمع سيار لا من أسماء

الأجناس .

تاء العوض : وتاء العوض وهي التي تأتي عوضا من فاء كعدة ، أو عين كإقامة ، أو لام كسنة ، أو من حرف زائد لغير معنى كزنديق وزنادقة فالتاء عوض من ياء زناديق .

تاء التعريب : وتاء التعريب وهي التي تأتي لتعريب الأسماء الأعجمية كموازجة جمع موزج بفتح الميم وسكون الواو وفتح الزاي بعدها جيم وهو الخف أو الجورب والقياس موازج فدخلت التاء في جمعه لتدل على أن أصله أعجمي فعرب .

تاء المبالغة : وتاء المبالغة في الوصف كراوية لكثير الرواية ونسّابة لكثير العلم بالأنساب .

[سورة النمل (27) : الآيات 79 إلى 82]

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (79) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81) وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (82)

الاعراب :

)

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ) الفاء الفصيحة لأنها تفريع على قوله العزيز العليم أي ان عرفت هذه الصفات للّه تعالى وآمنت بها فتوكل . وتوكل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بتوكل وجملة انك على الحق المبين لا محل لها لأنها تعليل للتوكيل وإن واسمها وخبرها والمبين صفة . (إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) تعليل ثان للأمر بالتوكل ، يقطع طمعه عن متابعتهم . وان واسمها وجملة لا تسمع خبر والموتى مفعول به ولا تسمع الصم عطف على سابقتها والصم مفعول به أول والدعاء مفعول به ثان وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة ولوا مجرورة باضافة الظرف إليها ومدبرين حال . (وَما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ) الواو عاطفة وما نافية حجازية تعمل عمل ليس وأنت اسمها والباء حرف جر زائد وهادي مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ما والعمي مضاف اليه وعن ضلالتهم متعلقان بهادي وعدي بعن لتضمنه معنى تصرفهم ، وأجاز أبو البقاء وجها آخر وهو أن يتعلق بالعمى لأنك تقول عمي عن كذا وهو وجه سائغ مقبول ، ومثل الزمخشري للوجه الأول بقولهم : سقاه عن العيمة أي أبعده عنها بالسقي ، والعيمة شهوة اللبن كما في الصحاح . (إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) إن نافية وتسمع فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره أنت وإلا أداة حصر ومن مفعول به وجملة يؤمن صلة وبآياتنا متعلقان بيؤمن والفاء الفصيحة وهم مبتدأ

ومسلمون خبر .

(وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لبيان بعض أمائر الساعة الدالة عليها والمراد

(466/582)

بالقول ما نطق به القرآن من الآيات التي تنبيء عن الساعة والمراد بوقوعه وهو لم يقع قرب حصوله . وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة وقع القول في محل جر بإضافة الظرف إليها والقول فاعل وقع وعليهم متعلقان بوقع وجملة أخرجنا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ولهم متعلقان بأخرجنا ودابة مفعول به ومن الأرض صفة لدابة وسيأتي ما قيل في دابة الأرض في باب الفوائد .

(تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ) جملة تكلمهم صفة ثانية لدابة أو حال منها لأنها وصفت ، وأن بفتح الهمزة على تقدير الباء أي بأن الناس والجار والمجرور متعلقان بتكلمهم وقرئ بكسرها على الاستئناف ، وان واسمها وجملة كانوا خبر ان وكان واسمها وبآياتنا متعلقان بيوقنون ولا نافية وجملة لا يوقنون خبر كانوا والكلام إما من اللّه تعالى وإما من كلام الدابة ، وقد اختار الزمخشري هذا الوجه وردّ على المعترضين بأن قوله بآياتنا يعكر على

ذلك بأن قولها حكاية لقول اللّه تعالى أو على معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها باللّه وأثرتها عنده وانها من خواص خلقه أضافت آيات اللّه إلى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا وانما هي خيل مولاه وبلاده .

البلاغة :

في قوله " ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين " فن الإيغال وهو أن يستكمل المتكلم معنى كلامه قبل أن يأتي بمقطعه ، فإذا أريد الإتيان به أتى بما يفيد معنى زائدا على معنى ذلك الكلام ، فقد انتهى الكلام عند قوله ولا تسمع الصم الدعاء فما معنى قوله ولوا مدبرين ؟

(467/582)

و الجواب أنه أتى بها وقد أغنى عنها ذكر التولي في الظاهر أما في الحقيقة فهو لم يغن عنها لأن التولي قد يكون بجانب دون جانب كما يكون الاعراض ، ولما أخبر سبحانه بذكر توليهم متمما للمعنى في حال الخطاب لينفي عنهم الفهم الذي يحصل من الاشارة ، فإن الأصم يفهم من الاشارة ما يفهمه السامع من العبارة ، ثم علم سبحانه أن التولي قد يكون بجانب دون جانب كما قدمنا فيجوز أن يلحظ بالجانب الذي لم يتول به فيدرك بعض الاشارة والمراد

نفي كل الاشارة فجاءت الفاصلة " مدبرين " ليعلم أن التولي كان بجميع الجوانب بحيث صار ما كان مستقبلا مستدبرا فاحتجب المخاطب عن المخاطب إذ صار من ورائه فخفيت من غيبه الاشارة كما صمّت أذناه عن العبارة فحصلت المبالغة الكلية في عدم الاسماع البتة ، وهذا تمثيل مثلت به حال هؤلاء القوم أتى مدمجا في الإيغال وهذا الضرب من الإيغال يسمى ايغال الاحتياط .

وهناك ضرب آخر وهو ايغال التخيير وقد مضى شاهده في سورة المائدة ، وقد قدمنا في المائدة ما فيه الكفاية من أمثلة الإيغال ، ونورد هنا نماذج منه : يحكى أن أخوة ليلى لما علموا بحب توبة بن الحميّر العقيلي لها نذروا دمه وارتحلوا بها ، فقال توبة :

وان يمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن يمنعوا عني البكا والقوافيا

فهلا منعتم إذ منعتم حديثها خيالا يوافيني مع الليل هاديا

فقد تم المعنى بقوله مع الليل ، ولما أتى بالقافية زاد على ذلك .

ولأبي تمام :

إن المنازل ساورتها فرقة أخلت من الآرام كل كناس

من كل ضاحكة الترائب أرهفت إرهاف خوط البانة المياس

فإن المعنى قد تمّ قبل إتيانه بالقافية في البيت الثاني فلما أتى بها زاد عليه ، وعلى هذا النحو الجميل يطرد له ذلك فيقول :

فتوح أمير المؤمنين تفتحت لهن أزاهير الربا والخمائل

لقد ألبس الله الإمام فضائلا وتابع فيها باللها والفواضل

فأضحت عطاياه نوازع شردا تسائل في الآفاق عن كل سائل

(468/582)

مواهب جدن الأرض حتى كأنما أخذن بآداب السحاب الهواطل

الفوائد :

دابة الأرض :

دابة الأرض هي الجسّاسة وتنوينها وتنكيرها لإبهام تفخيمها ، لتسترعي الانتباه إليها وتلفت الأنظار إلى ترقب خروجها وقد كثر الحديث عنها في المطولات وهي من الأمور المغيبة التي نؤمن بها ولا يعنينا كنهها ولا حقيقتها .

[سورة النمل (27) : الآيات 83 إلى 88]

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (83) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (87)

وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (88)

اللغة :

(فَوْجاً) : الفوج : الجماعة والطائفة وجمعه أفواج وفئوج

وجمع الجمع أفاوج وأفايج وأفاويج ، والفائجة : الجماعة ومتسع ما بين كل مرتفعين من رمل أو غلط ، وقال الراغب في مفرداته :

" الفوج الجماعة المارة المسرعة وكأن هذا هو الأصل ثم أطلق وإن لم يكن مرور ولا إسراع والجمع أفواج وفئوج " .

(يُوزَعُونَ) : تقدم قريبا في سورة النحل فجدد به عهدا ، أي يحبس أولهم على آخرهم لأجل تلاحقهم .

)

داخِرِينَ) : صاغرين ، وفي القاموس : دخر الشخص كمنع وفرح دخرا ودخورا صغر وذلّ ، وأدخرته بالألف للتعدية . والدال مع الخاء فاء وعينا تفيدان معنا خاصا يدل على التضاؤل والتصاغر وما تنبو عنه النفس وتغثى الطباع ، فالدّخ والدّخ الدخان وهو معروف يعمي العيون ويقذيها وقالت اعرابية لزوجها وكان قد كبر وأسنّ :

لاخير في الشيخ إذا ما اجلخّا وسال غرب عينيه ولخّا

وكان أكلا قاعدا وشخّا تحت رواق البيت يغشى الدّخا

وانثنت الرجل فصارت فخّا وصار وصل الغانيات أخّا

ومعنى يغشى الدخ انه يكثر التردد على النساء عند التنور يقول اطعمني ، ومعنى اجلخ سقط ولم يتحرك وقيل معناه اعوج ، وأخ بفتح الهمزة كلمة تقال عند التأوه كذا قال ابن دريد ثم قال وأحسبها محدثة وقال الصاغاني : يقال للصبي إذا نهي عن فعل شيء قذر إخ بكسر الهمزة بمنزلة قول العجم كخ كأنه زجر وقد تفتح همزته ، ودخدخ الرجل قارب الخطو مسرعا وتدخدخ الرجل انقبض ، ودخس

الشيء في الرماد أدخله ودسه ودخس الحافر أصابه داء الدخس وهو ورم في حافر الدابة والدخس بضم الدال دابة في البحر ، ودخل معروف وهو يفيد التواري والتضاؤل ودخل في عقله بالبناء للمجهول أو جسده ودخل بكسر الخاء دخلا بفتحتين داخله الفساد فهو مدخول عليه والدخل بفتح الدال وسكون الخاء ما دخل عليك من مالك لتختزنه وتواريه

عن العيون والداء والعيب والدخل بفتحتين ما داخل الإنسان من فساد في العقل والجسم والخديعة العيب في الحسب والدخيل من دخل في قوم وانتسب إليهم وليس منهم والجمع دخلاء وكل كلمة أعجمية ويقال داء دخيل أي داخل في أعماق البدن ويقال : إنه لخبيث الدّخلة بكسر الدال المشددة وهي باطن أمره ، ودخمه دخما دفعه بإزعاج ، ودخن الطعام واللحم من باب تعب أصابهما الدخان في حال الطبخ ولا شيء أخبث من طعمه آنذاك ، وكم لهذه اللغة من عجائب .

الاعراب :

(470/582)

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ) الواو استئنافية والظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر وهو كلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الكذابين بصورة اجمالية وجملة نحشر مجرورة بإضافة الظرف إليها ومن كل أمة متعلقان بنحشر و" من " هنا للتبعيض وفوجا مفعول به وممن صفة لفوجا و" من " هنا للتبيين وجملة يكذب صلة من والفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة يوزعون خبر .

(حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) حرف غاية

وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة

جاءوا في محل جر بإضافة الظرف إليها ومتعلق جاءوا محذوف أي إلى مكان الحساب ، وقال فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه تعالى ، أكذبتم : الهمزة للاستفهام التوبيخي التقريعي وكذبتم فعل وفاعل ، وبآياتي متعلقان بكذبتم ولم الواو حالية ولم حرف نفي وقلب وجزم وتحيطوا فعل مضارع مجزوم بلم وبها متعلقان بتحيطوا وعلما تمييز والجملة حالية مؤكدة للإنكار والتوبيخ وإظهار بشاعة التكذيب القائم على الارتجال وعدم التمعن والتبصر والتحقيق ، وأم حرف عطف وهي هنا منقطعة فهي بمعنى بل وما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم موصول خبر أو ماذا كلها اسم استفهام في محل نصب مفعول مقدم لتعملون وكنتم كان واسمها وجملة تعملون خبرها . (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ) الواو عاطفة ووقع القول فعل وفاعل وعليهم متعلقان بوقع وبما ظلموا متعلقان بوقع أيضا أي بسبب ظلمهم وما مصدرية والفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة لا ينطقون خبر .

(471/582)

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الهمزة للاستفهام التقريري والإنكاري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويروا فعل مضارع مجزوم بلم

والرؤية هنا قلبية لا بصرية وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي يروا وأن واسمها وجملة جعلنا خبرها والجعل هنا إن كان بمعنى الخلق لا بمعنى التصيير فتتعدى لواحد والليل مفعول جعلنا واللام للتعليل ويسكنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والجار والمجرور متعلقان بجعلنا على أنه علة له فهو بمثابة المفعول من أجله ، ولكن لا يجوز النصب لاختلاف الفاعل ، وفيه متعلقان بيسكنوا والنهار عطف على الليل ومبصرا حال أو مفعول

به ثان وإن حرف مشبه بالفعل وفي ذلك خبرها المقدم واللام المزحلقة وآيات اسمها المؤخر ولقوم صفة وجملة يؤمنون صفة لقوم .

(وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ) ويوم معطوف على ويوم نحشر منتظم في حكمه وهو الأمر بذكره وجملة ينفخ في محل جر بإضافة الظرف إليها ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وفي الصور متعلقان بينفخ ، ففزع عطف على ينفخ وسيأتي سر التعبير بالماضي في باب البلاغة ، ومن فاعل فزع وفي السموات صلة ومن في الأرض عطف على من في السموات .

(إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ) إلا أداة استثناء ومن مستثنى وجملة شاء اللّه صلة ، وكلّ : الواو للحال أو هي عاطفة وكل مبتدأ وساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم ولأن

تنوينه عوض عن المضاف اليه أي وكلهم بعد احيائهم يوم القيامة ، وجملة أتوه خبر وعبر بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه كأنه وقع فعلا وداخرين حال .

(472/582)

(وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ) الواو حرف عطف وترى الجبال فعل مضارع مرفوع وفاعل مستتر تقديره أنت ومفعول به والرؤية بصرية وجملة تحسبها حال من الجبال والهاء مفعول تحسبها الأول وجامدة مفعول تحسبها الثاني وهي الواو حالية وهي مبتدأ وجملة تمر خبر والجملة حال من جامدة . (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ) صنع مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة قبله وأضيف المصدر إلى فاعله والذي صفة للّه وجملة أتقن صلة وكل شيء مفعول أتقن وان واسمها وخبرها وبما متعلقان بخبير وجملة تفعلون صلة ما .

البلاغة :

في هذه الآيات فنون متعددة نوجزها فيما يلي :

1- المجاز العقلي :

في قوله " والنهار مبصرا " فقد أسند الإبصار إلى الزمان وهو لا يعقل ولم يأت بالكلام مقابلا

لما قبله وهو " ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه " بل جعله أحدهما علة والثاني حالا لأن التقابل قد روعي من جهة المعنى لأن معنى مبصرا ليبصروا فيه طرق التقلب والمكاسب ، وهذا هو النظم المطبوع غير المتكلف .

2- الاخبار بالماضي عن المستقبل :

وأخبر بالماضي عن المستقبل في قوله " ففزع من في السموات ومن في الأرض " وكان السياق يقضي بأن يأتي بالمستقبل أيضا ولكنه عدل إلى الماضي للإشعار بتحقيق الفزع وانه كائن لا محالة لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به .

3- الطباق :

وفي قوله " وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب " طباق عجيب بين الجمود والحركة السريعة فجعل ما يبدو لعين الناظر كالجبل في جموده ورسوخه ولكنه سريع يمر مرورا حثيثا كما يمر السحاب وهذا شأن الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها كما قال النابغة في وصف جيش :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

و هذا بيت رائع فالأرعن الجبل العالي وقد استعاره للجيش ثم شبهه بالطود وهو الجبل العظيم ليفيد المبالغة في الكثرة والحاج اسم جمع واحده حاجة والركاب المطي لا واحد له من لفظه والهملجة السير الرهو السريع فارسي معرب وفي الصحاح : " الهملاج من البراذين واحده الهماليج ومشيها الهملجة فارسي معرب " يقول :

حاربنا العدو بجيش عظيم تظنهم واقفين لحاج لكثرتهم والحال أن ركابهم تسرع السير .

وللزمخشري وصف بليغ لهذه الآيات نورده فيما يلي :

"

فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماده ورصانة تفسيره وأخذ بعضه بحجزة بعض كأنما أفرغ إفراغا واحدا ، ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق ونحو هذا المصدر " أي صنع الله " إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداده وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان ، ألا ترى إلى قوله صنع الله ، ووعد اللّه ، وفطرة اللّه ، بعد ما وسمها بإضافتها اليه بسمة التعظيم كيف تلاها بقوله : الذي أتقن كل شيء ، ومن أحسن من اللّه صبغة ، ولا يخلف اللّه الميعاد ، لا تبديل لخلق اللّه " .

[سورة النمل (27) : الآيات 89 إلى 93]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (90) إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ

الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (93)

الاعراب :

)

(474/582)

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ) كلام مستأنف مسوق للتمهيد لختام السورة بإجمال مصير المحسن والمسيء .

ومن اسم شرط جازم مبتدأ وبالحسنة جار ومجرور متعلقان بجاء أو بمحذوف حال فالباء للملابسة أي جاء ملتبسا بها والفاء رابطة وله خبر مقدم وخير مبتدأ مؤخر ومنها صفة لخير أو متعلق به على أنه اسم تفضيل . وهم مبتدأ ومن فزع متعلقان بآمنون وآمنون خبر ويوم ظرف أضيف إلى مثله وهو متعلق بمحذوف صفة لفزع أي كائن في ذلك اليوم ، وقرئ بإضافة فزع إلى يومئذ .

(وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة

ومن شرطية وجاء بالسيئة فعل الشرط والفاء رابطة داخلة على " قد " محذوفة أي كبت ليصح اقتران الجواب بها ، وكبت فعل ماض مبني للمجهول ووجوههم نائب فاعل وفي النار متعلقان بكبت وجملة فكبت في محل جزم جواب الشرط وهل حرف استفهام وتجزون فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون على طريق الالتفات والواو نائب فاعل والجملة حال أي فكبت وجوههم مقولا لهم هل تجزون ، وإلا أداة حصر وما مفعول به ثان لتجزون وجملة كنتم صلة وكان واسمها وجملة تعملون خبرها .

(475/582)

)

إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها) الجملة مقول قول محذوف أي قل لهم إنما أمرت ، وإنما كافة ومكفوفة وأمرت فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل وأن أعبد في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بأمرت ورب مفعول به وهذه مضاف لرب والبلدة بدل من اسم الاشارة والمراد بها مكة حرسها اللّه والذي نعت لرب هذه البلدة وجملة حرّمها صلة . (وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) الواو للحال وله خبر مقدم وكل شيء مبتدأ مؤخر وسيأتي سر هذا الحال في باب البلاغة ،

وأمرت عطف على أمرت الأولى وأن أكون من المسلمين عطف أيضا على ما تقدم . (وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) وأن أتلو عطف على أن أكون أي وأمرت بأن أتلو والقرآن مفعول به ، فمن الفاء تفريعية ومن شرطية مبتدأ واهتدى فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة ويهتدي فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو والفاء رابطة وإنما كافة ومكفوفة ويهتدي فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو ولنفسه متعلقان بيهتدي . (وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) عطف على الجملة السابقة وهي مماثلة لها في اعرابها ولا بد من تقدير فعل طلبي بعد الفاء أي فقل له إنما أنا من المنذرين . (

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) الواو عاطفة وقل فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت والحمد مبتدأ ولله خبر والجملة مقول القول ، وسيريكم السين حرف استقبال ويريكم فعل مضارع والكاف مفعول به أول وآياته مفعول به ثان ، والجملة من تتمة مقول القول منتظمة في سلكه ، فتعرفونها الفاء عاطفة وتعرفونها فعل مضارع وفاعل ومفعول به والواو حرف عطف وما نافية حجازية وربك اسمها وبغافل

الباء حرف جر زائد وغافل مجرور لفظا منصوب محلا لأنها خبر ما وعما متعلقان بغافل وجملة تعملون صلة .

البلاغة :

الاحتراس :

في قوله تعالى " وله كل شيء " احتراس بديع وقد تقدم ذكر هذا الفن وأنه يؤتى به دفعا لتوهم يتوجه على الكلام ، فقد أضاف سبحانه اسمه إلى مكة تشريفا لها وذكرا لتحريمها ، ولما أضاف اسمه إلى البلدة والمخصوصة بهذا التشريف أتبع ذلك اضافة كل شيء سواها إلى ملكه قطعا لتوهم اختصاص ملكه بالبلدة المشار إليها وتنبيها على أن الاضافة الأولى إنما قصد بها التشريف لا لأنها ملك اللّه تعالى خاصة .

الباقلاني يحلل سورة النمل :

هذا ونحب في ختام هذه السورة أن نشير إشارة سريعة تحليلية إلى كتاب " إعجاز القرآن " لأبي بكر الباقلاني الذي سار ذكره في الناس وهو يجمع إلى روحه الكلامية طابعا أدبيا إذ لم يقتصر في الإعجاز على دراسته من الوجهة الكلامية بل تعرض للناحية البيانية والاسلوبية فقد نشأ الخطيب الباقلاني بارعا في الجدل ، عالي القدر في علوم القرآن والسنة والكلام وتعرض لكثير من المعارضين والمخالفين وقارعهم الحجج ، وجادل علماء الروم مما أثار إعجاب معاصريه به .

فقد أرسله الملك عضد الدولة إلى ملك الروم عام 371 هـ في سفارة رسمية وأدخلوه مرة وهو في عاصمة الروم على بعض القسس فقال القاضي للقسيس : كيف أنت والأهل والأولاد ؟ فتعجب الرومي وقال له : ذكر من أرسلك في كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ومتقدم على علماء الملة ، أما علمت أن المطارنة والرهبان منزهون عن الأهل والأولاد ؟

(477/582)

فأجابه القاضي أبو بكر : رأيناكم لا تنزهون اللّه سبحانه عن الأهل والأولاد فهل المطارنة عندكم أقدس وأجل وأعلى من اللّه سبحانه ، وأراد كبير الروم أن يخزي القاضي فقال له : أخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها ؟ فأجابه هما اثنتان قيل فيهما ما قيل : زوج نبينا ومريم أم المسيح فأما زوج نبينا فلم تلد وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفيها وقد برأهما اللّه مما رميتا به ، فانقطع الرومي ولم يحر جوابا .

خلاصة نظرية الباقلاني في الإعجاز :

1- يبدأ بعرض الفكرة عرضا بسيطا فيثبت صحة ما بين أيدينا من نصّ القرآن وأنه هو حقا كتاب اللّه المنزّل على نبيه وأنه آية محمد ومعجزته الخالدة .

2- يثبت عجز العرب عن الإتيان بمثله على رغم تحديه لهم مرارا .

3- وينتهي من المقدمات السالفة إلى نتيجة عامة هي خلاصة نظريته في الإعجاز وهي " خروج نظم القرآن عن سائر كلام العرب ونظومهم " ثم يشرح هذه النظرية في كتاب الإعجاز فيقول : " والوجه الثالث انه بديع النظم عجيب التأليف ، متناه في البلاغة على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب خاص به ويتميز في فصوله عن أساليب الكلام المعتاد " .

وقبل أن يلج إلى نظم القرآن وتحليل سوره يتناول قصيدة لامرىء القيس وأخرى للبحتري ليرسم طريقته في النقد وتطبيق منهجه وينتقل في كلتا القصيدتين من المطلع إلى النهاية منبها إلى وجوه الجمال ومواطن الضعف ، وفي تحليله لقصيدة امرئ القيس أو معلقته- على الأصح- يوازن بين ما جاء من فنون التعبير والتصرف في القول ونظم الكلام فيها وما جاء شبيها أو مقاربا لها في القرآن منبها إلى تفوق القرآن دائما ، وكثيرا ما تدخل النقد الشخصي في رأي الباقلاني في تحليل معلقة امرئ القيس وإن خالف ذلك الرأي آراء جميع النقاد ، انظر اليه كيف يخطىء الشاعر في قوله :

إذا قامتا تضوع المسك منهما . . .

يقول : " فوجه التكلف فيه بقوله : إذا قامتا تضوع المسك منهما ، ولو أراد أن يجود أفاد أن بهما طيبا على كل حال فأما في حال القيام فقط فذلك تقصير " وهذا تحامل ظاهر من أبي بكر على الشاعر وعلى المعنى الذي تناوله إذ لا شك أن في هذا التعبير لمسة فنية دقيقة ترتكز على كلمة " قامتا " لأنها مبعث الحركة والحياة في الصورة كلها تريك الفتاتين غاديتين أو رائحتين وغلائلهما تبعث الأرج فيسري في الأعطاف ويعبق الجو بشذاه لما تبعثه الحركة في الهواء فيحمل العطر إلى الأنوف لتستافه ولا يتسنى ذلك في القعود والسكون ، ومع هذا لا ننكر بعض ما نبه اليه الباقلاني من هنات في العقيدة بل ونأخذ برأيه

ونقدر له عمقه وحسن استنباطه ، اسمع إلى هذا النقد العجيب الذي يخرس الألسن فقد تناول مطلع المعلقة في البيتين الأولين وهما :

فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من خبوب وشمائل

فقال : " لم يقنع بذكر حد حتى حدده بأربعة حدود كأنه يريد بيع المنزل فيخشى ان أخلّ بحد أن يكون بيعه فاسدا أو شرطه باطلا " .

وفي تحليله لقصيدة البحتري بعض الطرائف الفنية في النقد نلخصها فيما يلي :

1 – الرؤيا الشعرية : فقد أشار إلى اختلالها عند البحتري في في تشبيبه الخيال بالبرق

وذلك في قول البحتري :

أهلا بذلكم الخيال المقبل فعل الذي نهواه أم لم يفعل

برق سرى من بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلل

فقال : " إنه جعل الخيال كالبرق لإشراق مسراه " والخيال

لا يشبه عنده بالبرق لأن البرق سريع خاطف والخيال يسري مسرى النسيم .

2- الحشو : وهو زيادة اللفظ على المعنى المطلوب وهو عيب في النظم .

3- الابتذال في الصورة البيانية كالتشبيه أو الاستعارة أو الكناية .

(479/582)

4- الرونق اللفظي : إذ يرى في بعض أبيات البحتري رونقا وطلاوة ويرى في بعضها الآخر قلة ماء ورونق .

5- الاختلال في المعنى : ومن هذا قوله في نقد بعض الأبيات " وانما جرى ذكر العذال على وجه لا يتصل هذا البيت به ويلائمه ثم الذي ذكره من الانتظار وإن كان مليحا في اللفظ فهو في المعنى متكلف لأن الواقف في الدار لا ينتظر أمرا وانما يقف تحسرا وتذللا وتخيرا "

وهذه الأبيات التي تناولها النقد :

ما الحسن عندك يا سعاد بمحسن فيما أتاه ولا الجمال بمجمل

عذل المشوق وإن من سيما الهوى في حيث تجهله لجاج العاذل

ماذا عليك من انتظار متيم بل ما يضرك وقفة في منزل

إن سيل عيّ عن الجواب فلم يطق رجعا فكيف يكون إن لم يسأل

6- التضمين : وهو عيب معروف عند النقاد العرب .

7- مخالفة بناء القصيدة العربية القديمة .

8- التعقيد وعدم السلاسة في رصف الألفاظ وسبكها وهو عيب في الصياغة والنظم .

9- الاستهلال وصلته بالفصل والوصل .

10- الاشتراك في المعاني بينه وبين غيره من الشعراء مع تفاوت في الحسن .

11- بناء العبارة وتأليفها واختلافها بين النظم السوي والمضطرب .

تحليل سورة النمل :

يتناول الباقلاني السورة جملة : يفسر غريبها ويبين ما فيها من جمال اللفظ والمعنى ويأخذ في تحليلها من أولها فيقول : " بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده " ثم وصل بذلك قصة موسى وانه رأى نارا فقال لأهله " امكثوا إني آنست نارا سآتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون " وقال في سورة طه في هذه القصة :

" لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى " ثم قال : فلما جاءها نودي أن بورك من

في النار ومن حولها وسبحان اللّه رب العالمين " فانظر إلى ما أجرى له الكلام الأول وكيف اتصل بتلك

(480/582)

المقدمة وكيف وصل بها ما بعدها من الأخبار عن الربوبية وما دلّ عليها من قلب الفصاحة وجعله دليلا يدله عليه ومعجزة تهديه إليه وانظر الكلمات المفردة القائمة بنفسها في الحسن وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الوصف ، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية وفي الدلالة آية فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها ثم من قصة إلى قصة ومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبليغ التنزيل " .

ويبين الباقلاني فضل نظم القرآن على الكلام العادي فيدعو واحدا إلى التقليد فلا يصل إلى شيء ويقر بالعجز أمام لفظ القرآن ونظمه ويستطرد في تحليل السورة فيقول " متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه

الكلمة العالية الشريفة " ألّا تعلوا علي وأتوني مسلمين " والخلوص من ذلك إلى ما صارت اليه من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة والكلمات العجيبة ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها : " يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون " وذكر قولهم : " قالوا نحن أولو قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين " لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به وقوله " الأمر إليك " تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع إتقانه في هذا الكلام ، وتمكن الفاصلة وملاءمتها لما قبلها وذلك قوله :

(481/582)

" فانظري ماذا تأمرين " ثم إلى هذا الاختصار والى البيان مع الإعجاز فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز وهذا مما يزيده الاختصار بسطا لتمكنه ووقوعه موقعه " إلى أن يقول : " وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر ولكني قد بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت والنحو الذي قصدت والغرض الذي إليه رميت والسمت الذي إليه دعوت " .

ونحسبك بعد هذا قد ألممت بكتاب الاعجاز فقد أوردنا لك خير ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 7 صـ 162 . 275 ﴾

(482/582)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/583)

الجزء الثالث والثمانون بعد الخمسمائة

(سورة القصص)

(4/583)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القصص)

(5/583)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

رُوِيت الأَحاديث الَّتى لا تُذكر إِلاَّ تنبيها على وَهْنها .

منها حديث أُبيّ : من قرأَ طسم القصص لم يبق ملك فى السموات والأَرض إلا يشهد له يوم القيامة أَنَّه كان صادقاً أَنّ كلَّ شىءٍ هالك إلاَّ وجهه ، والحديث الآخر : مَنْ قرأَ سورة القَصَص كان له من الأَجر بعدد من صدَّق موسى وكذَّبه عشر حسنات ، وحديث علىّ : يا علىَّ من قرأَ طسم القصص أَعطاه الله من الثواب مثلَ ثواب يعقوب ، وله بكلِّ آية قرأَها مدينة عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 358 ﴾

(6/583)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة القصص

(مكية – آياتها ثمان وثمانون)

مقصودها التواضع لله ، المستلزم لرد الأمر كله إليه ، الناشىء عن الإيمان بالآخرة ، الناشىء عن الإيمان بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، الثابتة بإعجاز القرآن ، المظهر للخفايا على لسان من لم يتعلم علماً قط من أحد من الخلق ، المنتج لعلو المتصف به ، وذلك هو المأخوذ من تسميتها بالقصص الذي حكم لأجله شعيب بعلو الكليم عليهما السلام

على من ناوأه ، وقمعه لمن عاداه ، فكان المآل وفق ما قال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 460 ﴾

(7/583)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . طسم . . القصص)

السورة مكّيّة بالاتّفاق .

عدد آياتها ثمان وثمانون وكلماتها أَلف وأَربعمائة وواحدة .

وحروفها خمسة آلاف وثمانمائة الآيات المختلف [فيها] اثنتان : طسم ، يَسْقُون .

فواصل آياتها (لم تر) وسميت سورةَ القَصَص ؛ لاشتمالها عليها فى قوله : ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أَى قصّ موسى على شُعَيب .

مقصود السورة : بيانُ ظلم فرعون بنى إسرائيل ، وولادة موسى ، ومحبة آسية له ، وردّ موسى على أُمّه ، وحديث القبطى ، والإِسرائيلى ، وهجرة موسى من مصر إِلى مَدْيَن ، وسَقْيه لبنات شُعيب ، واستئجار شعيب موسى ، وخروج موسى من مَدْيَن ، وظهور

آثار النبوّة ، واليد البيضاء ، وقلب العصا ، وإمدادُ الله تعالى له بأَخيه هارون ، وحيلة هامان فى معارضة موسى ، وإخبار الله تعالى عمّا جرى فى الطُّور ، ومدح مؤمنى أَهل الكتاب ، وقصّة إهلاك القرون الماضية ، ومناظرة المشركين يوم القيامة ، واختيار الله تعالى ما شاءَ ، وإقامة البرهان على وجود الحق إيّاه بالقهر ، ووعد الرسول صلَّى الله عليه وسلم بالرجوع إلى مكة ، وبيان أَنَّ كلَّ ما دون الحقّ فهو فى عُرْضة الفناء والزَّوال ، وأَنَّ زمام الحكم بيده (تعالى) فى قوله ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

المنسوخ فيها آية واحدة .

﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 353.354 ﴾

(8/583)

فصل

قال الآلوسى :

سورة القصص

مكية كلها على ما روي عن الحسن وعطاء وطاوس

وقال مقاتل : فيها من المدني قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب من قبله إلى قوله تعالى لانبتغي الجاهلين فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا واقعة أحد وفي رواية عنه رضي الله تعالى عنه أن الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه عليه الصلاة والسلام للهجرة وقيل : نزلت بين مكة والجحفة وقال المدائني في كتاب العدد حدثني محمد ثنا عبد الله قال : حدثنا أبي قال : حدثني علي بن الحسين عن أحمد بن موسى عن يحيى بن سلام قال بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي ولدت فيها قال : نعم قال ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد الآية وهي ثمان وثمانون آية بالاتفاق ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمالها على شرح بعض ما أجمل فيه من أمر موسى عليه السلام

(9/583)

قال الجلال السيوطي إنه سبحانه لما حكى في الشعراء قول فرعون لموسى عليه السلام : ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت إلى قول موسى عليه

السلام ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ثم حكى سبحانه في طس قول موسى عليه السلام لأهله إني آنست نارا إلى آخره الذي هو في الوقوع بعد الفرار وكان الأمران على سبيل الإشارة والإجمال فبسط جل وعلا في هذه السورة ما أوجزه سبحانه في السورتين وفصل تعالى شأنه ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما فبدأ عز وجل بشرح تربية فرعون له مصدرا بسبب ذلك من علو فرعون وذبح أبناء بني إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عليه السلام عند ولادته في اليم خوفا عليه من الذبح وبسط القصة في تربيته وما وقع فيها إلى كبره إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي إلى قتل القبطي وهي الفعلة التي فعل إلى المن عليه بذلك الموجب لفراره إلى مدين إلى ما وقع له مع شعيب عليه السلام وتزويجه بانته إلى أن سار بأهله وآنس من جانب الطور نارا فقال لاهله امكثوا إني آنست نارا إلى ما وقع له فيها من المناجات لربه جل جلاله وبعثه تعالى إياه رسولا وما استتبع

(10/583)

ذلك إلى آخر القصة فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في السورتين معا على الترتيب وبذلك عرف وجه الحكمة في تقديم طس على هذه وتأخيرها عن الشعراء في الذكر في

المصحف وكذا في النزول فقد روي عن ابن عباس وجابر بن زيد أن الشعراء نزلت ثم طس ثم القصص وأيضا قد ذكر سبحانه في السورة السابقة من توبيخ الكفرة بالسؤال يوم القيامة ما ذكر وذكر جل شأنه في هذه من ذلك ما أبسط وأكثر مما تقدم وأيضا ذكر عز وجل من أمر الليل والنهار هنا فوق ما ذكره سبحانه منه هناك وقد يقال في وجه المناسبة أيضا : إنه تعالى فصل في تلك السورة أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط وأجمل هنا في قوله تعالى : وكم أهلكنا من قرية الآيات وأيضا بسط في الجملة هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة وأوجز سبحانه هنا حيث قال تعالى : من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون فلم يذكر عز وجل من حال الأولين أمنهم من الفزع ومن حال الآخرين كب وجوههم في النار إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ 41.42 ﴾

(11/583)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة القصص

323 – مسألة :

قوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى)

تقدم في سورة يوسف عليه السلام .

324 – مسألة :

قوله تعالى : (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى) وفى يس : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى) ؟ .

جوابه :

أن الرجل هنا : قصد نصح موسى عليه السلام وحده لما وجده والرجل في يس : قصد من أقصا القرية نصح الرسل ونصح

قومه ، فكان أشد وأسرع داعية فلذلك قدم قاصدا (مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ) لأنه ظاهر صريح في قصده ذلك من أقصا

المدينة .

325 – مسألة :

قوله تعالى : قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا) وبقية السورة (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) ؟

جوابه :

لما تقدم هنا : (وَسَارَ بِأَهْلِهِ) ناسب (امْكُثُوا) أي : عن

السير .

326 – مسألة :

قوله تعالى : (وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) ظاهره جواز عذابهم بما قدمت أيديهم قبل إرسال الرسل ، وقد قال تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15) ؟

.

جوابه :

أن جواب لولا مقدر محذوف تقديره : لولا أنا إذا عذبناهم

بمعاصيهم قبل الرسل يقولون ذلك لعذبناهم بها قبل الرسالة لكن يؤخر العذاب إلى ما بعد إرسال الرسل لأن لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وقوله تعالى : (لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا) أي : بعد إبراهيم كما أرسلت إلى بنى إسرائيل وفرعون ، فألزمهم الحجة بقوله : أو لم يكفر الذين أرسل إليهم موسى به ، وقالوا ساحران والله أعلم .

327 – مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)

وفى حم عسق : (فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ؟ .

جوابه :

أن آية القصص ، تقدمها ذكر الكفار وهم المغترون بزينة

الدنيا من مساكن وأموال وخدم وناسب ذلك

(12/583)

ذكر الزينة وختمها بقوله تعالى : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) وآية

حم تقدمها آيات نعمه على عباده المؤمنين ، وهم لإيمانه

بالآخرة لا يغترون بزينة الدنيا فناسب عدم الزينة ، وختم الآية بقوله تعالى : (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

328 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا)

الآيتين . قدم " الليل " على " النهار " وختم الأول

ب : (تَسْمَعُونَ) ، والثانية ب : (تُبْصِرُونَ) ؟ .

جوابه :

أن الليل هو الأصل السابق على الضياء بالشمس لزواله

لطلوعها . ولأن عموم منافع النهار أعظم من منافع الليل فقدم المنة بالنعمة العظمى . وقوله

تعالى في الأولى :

(تَسْمَعُونَ) لأن عموم المسموعات في النهار لسبب كثرة

الحركات والكلام والمخاطبات والمعاش أكثر من الليل فناسب ذكر السمع . وقوله تعالى في

الثانية : (تُبْصِرُونَ) لأن

ظلام الليل يغشى الأبصار كلها فناسب ختمها بذكر البصر .

329 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) .

وقال

تعالى : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93) ؟ .

جوابه :

أن ذلك في مواطن القيامة ، ففي موطن يسألون وتقام الحجة

عليهم ، وفى موطن "لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون وقد تقدم مستوفى في الحجر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 284 . 288﴾

(13/583)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ ﴾ أَى كمَّل أَربعين سنة .

وقيل : كَمُل عقلُه .

وقيل : خرجت لحيته .

وفى يوسف ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ فحسب ؛ لأَنه أُوحى إِليه فى صِباه .

قوله : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾ ، وفى يس : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ ﴾ قيل : اسمه خربيل مؤمن من آل فرعون ، وهو النجار .

وقيل شمعون وقيل : حبيب .

وفى يس هو هو .

قوله : ﴿ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾ يحتمل ثلاثة أَوجه .

أَحدها أَن يكون (من أَقصى المدينة)

صفة لرجل ، والثانى أَن يكون صلى لجاءَ .

والثالث أَن يكون صلى ليسعى .

والأَظهر فى هذه السّورة أَن يكون وصفاً ، وفى يس أَن يكون صلة .

وخصّت هذه السّورة بالتقديم ؛ لقوله تعالى قبله : ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلاَنِ يَقْتَتِلاَنِ ﴾ ثم قال

: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ وخصّت سورة يس بقوله ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ﴾ لِمَا جاءَ بالتفسير أَنَّه كان يعبد الله فى جبل ، فلمّا سمع خبر الرُّسل سعى مستعجلاً .

قوله ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [وفى الصافات : ﴿ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، لأَنَّ ما هنا من كلام شعيب ، والمعنى : ستجدنى من الصالحين] فى حسن العشرة ، والوفاءِ بالعهد ، وفى الصَّافات من كلام إسماعيل حين قال له أَبوه ﴿ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ فَأَجاب ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أَى على الذبح .

قوله : ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ ﴾ وبعده : ﴿ مَن جَآءَ ﴾ بغير باءٍ .

الأَوّل هو الوجه ؛ لأَن (أَعلم) هذا فيه معنى الفعل ، ومعنى الفعل لا يعمل فى المفعول به ، فزيد بعده باء ؛ تقويةً للعمل .

وخُصَّ الأَوّل بالأَصل ، ثم حذف من الآخر الباءُ ؛ اكتفاءً بدلالة الأَول عليه .

(14/583)

ومحلُّهُ نصب بفعل آخر ، أَى يعلم مَن جاءَ بالهدى .

ولم يقتض تغييراً ، كما قلنا فى الأَنعام ؛ لأَنَّ دلالة الأَول قام مقام التغيير .

وخصّ الثانى ؛ لأَنه فرع .

قوله : ﴿ لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى اله مُوسَى ﴾ وفى المؤْمن ﴿ لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾ ، لأَن قوله ﴿ أَطَّلِعُ إِلَى اله مُوسَى ﴾ فى هذه السّورة خبر لعلَّ ، وفى المؤْمن عطف على خبر ﴿ أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾ وجعل قوله ﴿ أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴾ خبر لعلَّ ، ثم أَبدل منه ﴿ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ ﴾ وانما زاد ليقع فى مقابلة قوله ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادَ ﴾ ، لأَنه زعم أَنَّه إله الأَرض ، فقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ أَى فى الأَرض ؛ أَلا ترى أَنَّه قال : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى اله مُوسَى ﴾ فجاءَ فى كلِّ سورة على ما اقتضاه ما قبله .

قوله : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وفى المؤْمن ﴿ كَاذِبًا ﴾ لأَن التقدير فى هذه السورة : وإنى لأَظنه كاذبا من الكاذبين ، فزيد ﴿ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ لرءُوس الآى ، ثم أَضمر (كاذباً) ؛ لدلالة (الكاذبين) عليه .

وفى المؤْمن جاءَ على الأَصل ، ولم يكن فيه موجب تغيير .

قوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ بالواو ، وفى الشورى ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن ﴾ بالفاءِ ؛ لأَنه لم يتعلق فى هذه السّورة بما قبله أَشدّ تعلّق ، فاقتُصر على الواو ؛ لعطف جملة على جملة ، وتعلَّق فى الشُّورى بما قبلها أَشدّ تعلق ؛ لأَنَّه عقَّب ما لهم من المخافة بما أُوتوه من الأَمنة ، والفاء حرف التّعقيب .

قوله : ﴿ وَزِيْنَتُهَا ﴾ ، وفى الشُّورى ﴿ فَمَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فحسب ؛ لأَنَّ فى هذه السُّورة ذكر جميع ما بسط من الرزق ، وأَعراض الدّنيا ، كلّها مستوعبة بهذين اللفظين .

فالمتاع : ما لا غِنى عنه فى الحياة : من المأكول ، والمشروب ، والملبوس ، والمسكن ، والمنكوح .

والزينة : ماي يتجمَّل به الإِنسانُ ، والأَطعمة الملبّقة .

(15/583)

وأَمّا فى الشورى فلم يقصد الاستيعاب ، بل ما هو مطلوبهم فى تلك الحالة : والأَمْن فى الحياة ، فلم يحتج إلى ذكر الزينة .

قوله ﴿ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً ﴾ وبعده ﴿ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً ﴾ قَدَّم اللَّيل على النهار لأَنَّ ذهاب اللَّيل بطلوع الشَّمس أَكثر فائدة من ذهاب النَّهار بدخول اللَّيل ، ثم ختم الآية الأُولى بقوله : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُوْنَ ﴾ بناءً على اللَّيل ، وختم الأُخرى بقوله : ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُوْنَ ﴾ بناءً على النهار ، والنَّهار مُبصرة .

قوله : ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ ﴿ وَيْكَأَنَّهُ ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنّ كل واحد منهما متصل بغير ما اتَّل به الآخر .

قال ابن عبّاس :

وَيْ صلة .

وإِليه ذهب سيبويه ، فقال : وَيْ : كلمة يستعملها النَّادم بإِظهار ندامته .

وهى مفصولة من ﴿ كَأَنَّهُ ﴾ .

وقال الأَخفش : أَصله ويْكَ ﴿ وَأَنَّ ﴾ بعده منصوب بإِضمار العِلْم ، أَى أَعلم أَنَّ الله . .

. . وقال بعضهم أَصله : ويلك .

وفيه ضعف .

وقال الضَّحّاك : الياءُ والكاف صلة ، وتقديره وأَنَّ الله .

وهذا كلام مزيَّف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 354.358 ﴾

(16/583)

وقال العلامة الكَرْمانى رحمه الله :

سورة القصص

364 - قوله تبارك وتعالى ولما بلغ أشده واستوى 14 أي كمل أربعين سنة وقيل كمل قوله

وقيل خرجت لحيته وفي يوسف ولما بلغ أشده أتيناه 22 لأنه أوحى إليه في صباه

365 – قوله وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى 20 وفي يس وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى 20 اسمه حزبيل من

آل فرعون وهو النجار وقيل شمعون وقيل حبيب وفي يس هو هو وقوله من أقصى المدينة يحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن يكون من أقصى المدينة صفة لرجل والثاني أن يكون صلة لجاء والثالث أن يكون صلة ليسعى والأظهر في هذه السورة أن يكون وصفا وفي يس أن يكون صلة

وخصت هذه السورة بالتقديم لقوله قبله فوجد فيها رجلين يقتتلان 15 ثم قال وجاء رجل 20

وخصت سورة يس بقوله وجاء من أقصى المدينة لما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلا

366 – قوله ستجدني إن شاء الله من الصالحين 27 وفي الصافات من الصابرين 102 لأن ما في هذه السورة من كلام شعيب أي من الصالحين في حسن المعاشرة والوفاء بالعهد وفي الصافات من كلام إسماعيل حين قال له أبوه إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى 102 فأجاب يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين 102

367 – قوله ربي أعلم بمن جاء 37 وبعده من جاء بغير

باء الأول هو أم الأجه لأن أفعل هذا فيه معنى الفعل ومعنى الفعل لا يعمل في المفعول به فزيد

بعده باء تقوية للعمل

وخص الأول بالأصل ثم حذف من الآخر الباء اكتفاء بدلالة الأول عليه ومحله نصب بفعل آخر أي يعلم من جاء بالهدى ولم يقتض تغييرا كما قلنا في الأنعام لأن دلالة الأول قام مقام التغيير

وخص الثاني به لأنه فرع

(17/583)

---

368 - قوله لعلي أطلع إلى إله موسى 38 وفي المؤمن لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى 36 37 لأن قوله أطلع إلى إله موسى في هذه السورة خبر لعلي وجعل قوله أبلغ الأسباب في المؤمن خبر لعلي ثم أبدلت منه أسباب السموات وإنما زادها ليقع في مقابلة قوله أو أن يظهر في الأرض الفساد 40 26 لأنه زعم أنه إله الأرض فقال ما علمت لكم من إله غيري 38 أي في الأرض ألا ترى أنه قال فأطلع إلى إله موسى فجاء على كل سورة ما اقتضاه ما قبله

369 - قوله وإني لأظنه من الكاذبين 38 وفي المؤمن كاذبا 37 لأن التقدير في هذه السورة وإني لأظنه كاذبا من الكاذبين فزيد من لرءوس الآيات ثم أضمر كاذبا لدلالة

الكاذبين عليه وفي المؤمن جاء على الأصل ولم يكن فيه موجب تغيير

370 - قوله وما أوتيتم من شيء 60 بالواو وفي الشورى فما أوتيتم 36 بالفاء لأنه لم يتعلق في هذه السورة بما قبله كبير تعلق فاقتصر على الواو لعطف جملة على جملة وتعلق في الشورى بما قبلها أشد تعلق لأنه عقب ما لهم من المخافة بما أوتوا من الأمنة والفاء حرف للتعقيب

371 - قوله فمتاع الحياة الدنيا وزينتها 60 وفي الشورى فمتاع الحياة الدنيا 36 فحسب لأن في هذه السورة ذكر جميع ما بسط من الرزق وأعراض الدنيا كلها مستوعبة بهذين اللفظين فالمتاع ما لا غنى عنه في الحياة من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن والمنكوح والزينة ما يتجمل به الإنسان وقد يستغنى عنه كالثياب الفاخرة والمراكب الرائقة والدور المجصصة والأطعمة الملبقة

وأما في الشورى فلم يقصد الاستيعاب بل ما هو مطلوبهم في تلك الحالة من النجاة والأمن في الحياة فلم يحتج إلى ذكر الزينة

372 - قوله إن جعل الله عليكم الليل سرمدا 71 وبعده إن جعل الله عليكم النهار سرمدا 72 قدم الليل على النهار لأن ذهاب الليل بطلوع الشمس أكثر فائدة من ذهاب النهار بدخول الليل ثم ختم الآية الأولى بقوله أفلا تسمعون 71 بناء على الليل وختم

الأخرى بقوله أفلا تبصرون 72 بناء على النهار والنهار مبصر وآية النهار مبصرة

373 - قوله ويكأن 82 ويكأنه 82 ليس بتكرار لأن كل واحد منهما متصل بغير ما اتصل به الآخر قال ابن عباس وى صلة وإليه ذهب سيبويه فقال وى كلمة يستعملها النادم بإظهار ندامته وهي مفصولة من كأنه وقال الأخفش أصله ويك وأن الله بعده منصوب بإضمار العلم أي أعلم أن الله وقال بعضهم أصله ويلك وفيه ضعف وقال الضحاك الياء والكاف صلة وتقديره وإن الله وهذا كلام مزيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ ﴾

(19/583)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص

سميت سورة القصص ولا يعرف لها اسم آخر .

ووجه التسمية بذلك وقوع لفظ ﴿ الْقَصَصُ ﴾ فيها عند قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ [القصص : 25] .

فالقصص الذي أضيفت إليه السورة هو قصص موسى الذي قصه على شعيب عليهما السلام فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها .

فلما حكي في السورة ما قصه موسى كانت هاته السورة ذات قصص لحكاية قصص ، فكان القصص متوغلا فيها .

وجاء لفظ ﴿ الْقَصَصُ ﴾ في [سورة يوسف : 3] ولكن سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة .

وهي مكية في قول جمهور التابعين .

وفيها آية ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص : 85] .

قيل نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في الجحفة في طريقه إلى المدينة للهجرة تسلية له على مفارقة بلده .

وهذا لا يناكد أنها مكية لأن المراد بالمكي ما نزل قبل حلول النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة كما أن المراد بالمدني ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكة .

وعن مقاتل وأبن عباس أن قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : 52-55] نزل بالمدينة .

وهي السورة التاسعة والأربعون في عداد نزول سور القرآن ، نزلت بعد سورة النمل وقبل سورة الإسراء ، فكانت هذه الطواسين الثلاث متتابعة في النزول كما هو ترتيبها في المصحف ، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى عليه السلام .

ولعل ذلك الذي حمل كتاب المصحف على جعلها متلاحقة .

وهي ثمان وثمانون آية باتفاق العادين .

(20/583)

أغراضها

اشتملت هذه السورة على التنويه بشأن القرآن والتعريض بأن بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بسورة مثله .

وعلى تفصيل ما أجمل في [سورة الشعراء : 18-19] من قول فرعون لموسى ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون .

وبين فيها سبب زوال ملك فرعون .

وفيها تفصيل ما أجمل في [سورة النمل : 7] من قوله ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ

نَاراً ﴾ ففصلت سورة القصص كيف سار موسى وأهله وأين آنس النار ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكرت دعوة موسى فرعون فكانت هذه السورة أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم أجملت ما بعد ذلك لأن تفصيله في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء .

والمقصود من التفصيل ما يتضمنه من زيادة المواعظ والعبر .

وإذ قد كان سوق تلك القصة إنما هو للعبرة والموعظة ليعلم المشركون سنة الله في بعثة الرسل ومعاملته الأمم المكذبة لرسلها .

وتحدى المشركين بعلم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا خالط أهل الكتاب ، ذيل الله ذلك بتنبيه المشركين إليه وتحذيرهم من سوء عاقبة الشرك وأنذرهم إنذارا بليغا .

وفند قولهم ﴿ لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ [القصص : 48] من الخوارق كقلب العصا حية ثم انتقاضهم في قولهم إذ كذبوا موسى أيضا .

وتحداهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدي التوراة .

وأبطل معاذيرهم ثم أنذرهم بما حل بالأمم المكذبة رسل الله .

وساق لهم أدلة على وحدانية الله تعالى وفيها كلها نعم عليهم وذكرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء .

وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونعمتهم وما لهم بأن ذلك متاع الدنيا وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خير وأبقى .

وأعقبه بضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى .

وتخلص من ذلك إلى التذكير

(21/583)

بأن أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأن العاقبة للمتقين .

وتخلل ذلك إيماء إلى اقتراب مهاجرة المسلمين إلى المدينة ، وإيماء إلى أن الله مظهرهم على المشركين بقوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [القصص : 5] الآية .

وختم الكلام بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيته ووعده بأنه يجعل بلده في قبضته ويمكنه من نواصي الضالين .

ويقرب عندي أن يكون المسلمون ودوا أن تفصل لهم قصة رسالة موسى عليه السلام فكان المقصود انتفاعهم بما في تفاصيله من معرفة نافعة لهم تنظيرا لحالهم وحال أعدائهم .

فالمقصود ابتداء هم المسلمون ولذلك قال تعالى في أولها ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى

وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : 3] أي للمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ 5. 7 ﴾

(22/583)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة القصص

هذه السورة مكية , نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة , والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم , نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود ,هي قوة الله ; وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون , هي قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه , ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة , ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ; ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله , ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا .

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء , وقصة قارون مع قومه – قوم موسى – في الختام . . الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان . قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ; وفي مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة , ولا ملجأ له ولا وقاية

. وقد علا فرعون في الأرض , واتخذ أهلها شيعا , واستضعف بني إسرائيل , يذبح أبناءهم , ويستحيي نساءهم , وهو على حذر منهم , وهو قابض على أعناقهم . ولكن قوة فرعون وجبروته , وحذره ويقظته , لا تغني عنه شيئا ; بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير , المجرد من كل قوة وحيلة , وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية , وتدفع عنه السوء , وتعمي عنه العيون , وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا , فتدفع به إلى حجره , وتدخل به عليه عرينه , بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه , مكفوف الأذى عنه , يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه !

(23/583)

والقصة الثانية تعرض قيمة المال , ومعها قيمة العلم . المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته , وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتعيي العصبة من الرجال الأقوياء . والعلم الذي يعتز به قارون , ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال . ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه , ولا تستخفهم زينته ; بل يتطلعون إلى ثواب الله , ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض , لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه ; وتتدخل تدخلا مباشرا سافرا كما تدخلت

في أمر فرعون , فألقته في اليم هو وجنوده فكان من المغرقين .

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان ; ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال . وكانت النهاية واحدة , هذا خسف به وبداره , وذلك أخذه اليم هو وجنوده . ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة . إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدا للبغي والفساد , حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد .

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا ; ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال . عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية , بلا ستار من الخلق , ولا سبب من قوى الأرض , لتضع حد للشر والفساد .

(24/583)

وبين القصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فها بدلالة القصص – في سورة القصص – ويفتحا أبصارهم على آيات الله المبثوثة في مشاهد الكون تارة , وفي مصارع الغابرين تارة , وفي مشاهد القيامة تارة . . وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص , وتساوقها وتتناسق معها ; وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان .

وقد قال المشركون لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا " . فاعتذروا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم , لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التي من أجلها يخضع الناس لهم , ويعظمون البيت الحرام ويدينون للقائمين عليه .

فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون , تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ; وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله , ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ; وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها .

وعقب على مقالتهم (أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون) . . يذكرهم بأنه هو الذي آمنهم من الخوف فهو الذي جعل لهم هذا الحرم الآمن ; وهو الذي يديم عليهم أمنهم , أو يسلبهم إياه ; ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر : (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا , وكنا نحن الوارثين) .

ويخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا . وقد مضت سنة الله من

قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير: (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا , وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) .

(25/583)

ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد ; فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا ; وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان .

وتنتهي السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارد من المشركين بأن الذي فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه , لا بد راده إلى بلده , ناصره على الشرك وأهله . وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها ; وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذي أخرجه منه المشركون . سيعود آمنا ظافرا مؤيدا . وفي قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكده . فقد عاد موسى - عليه السلام - إلى البلد الذي خرج منه خائفا طريدا . عاد فأخرج معه بني إسرائيل واستنقذهم , وهلك فرعون وجنوده على أيدي موسى وقومه الناجين . .

ويختم هذا الوعد ويختم السورة معه بالإيقاع الأخير:

(ولا تدع مع الله إلها آخر , لا إله إلا هو , كل شيء هالك إلا وجهه , له الحكم , وإليه ترجعون) .

هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2673.2675 ﴾

(26/583)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة القصص

مكية وآياتها ثمان وثمانون آية

بين يدي السورة

* سورة القصص من السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة (التوحيد ، والرسالة ، والبعث) وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي (النمل ، والشعراء) كما أتفقت في جو النزول ، فهي تكمل أو تفضل ما أجمل في السورتين قبلها .

* محور السورة الكريمة يدور حول فكرة (الحق) و(الباطل) ومنطق الإذعان والطغيان ، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن ، وجند الشيطان ، وقد ساقت في سبيل ذلك

قصتين : أولاهما قصة الطغيان بالحكم والسلطان ، ممثلة في قصة " فرعون " الطاغية المتجبر ، الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب ، فذبح الأبناء ، واستحيا النساء ، وتكبر على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية فقال [ما علمت لكم من إله غيري] والثانية : قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في (قارون) مع قومه ، وكلا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة ، سواء بالمال ، أو الجاه ، أو السلطان .

* ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون ، وعلوه وفساده في الأرض ، ومنطق الطغيان في كل زمان ومكان . [إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا . .] الآيات

* ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أمه عليه من بطش فرعون ، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ، ليعيش معززا مكرما في حجر فرعون ، كريحانة زكية تنبت وسط الأشواك والأوحال [وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم . .] الآيات .

(27/583)

---

* ثم تحدثت عن بلوغ (موسى) سن الرشد ، وعن قتله للقبطي ، وعن هجرته إلى أرض مدين ، وتزوجه بابنة شعيب ، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى

الله ، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله في البحر ، وتحدثت عن كفار مكة ، ووقوفهم في وجه الرسالة المحمدية ، وبينت أن مسلك أهل الضلال واحد ! ، ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون ، وبينت الفارق العظيم بين منطق الإيمان ، ومنطق الطغيان [إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ه وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . .] الآيات .

* وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة ، وهو طريق الإيمان الذي دعا إليه الرسل الكرام [من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون] الآيات .

التسمية :

سميت سورة " القصص " لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة ، من حين ولادته إلى حين رسالته ، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيه بوضوح ، عناية الله بأوليائه ، وخذلانه لأعدائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 423 . 424 ﴾

(28/583)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة القصص

نتلو عليك : أي ننزل عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تجبر واستكبر ، شيعا : أي فرقا يستخدم كل صنف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ، ويغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا ، يستضعف : أي يجعلهم ضعفاء مقهورين ، والطائفة هنا هم بنو إسرائيل ، ونمن : أي نتفضل ، والأئمة : واحدهم إمام وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ، ويقال مكّن له إذا جعل له مكانا موطّأ ممهدا يجلس عليه ، والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها ، وهامان وزير فرعون ، يحذرون : أي يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود من بنى إسرائيل

الوحى : الإلهام كما جاء فى قوله : " وَأَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ " والخوف : غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث فى المستقبل ، والحزن : (بفتحتين وبضم فسكون كالرّشد والرّشد والسّقم والسّقم) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل ، واليمّ : البحر ، والمراد هنا نهر النيل ، والالتقاط : أخذ الشيء فجأة من غير طلب له ، والمراد من الخطأ هنا : الخطأ فى الرأى وهو ضد الصواب والمراد به الشرك والعصيان للّه ، وقرت به العين : فرحت به وسرّت ، فارغا : أي خاليا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت

بوقوعه فى يد عدوه نحو ما جاء فى قوله : " وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ " أي خلاء

لا عقول بها ، والإبداء : إظهار الشيء ، والربط على القلب : شده والمراد هنا تثبيته ،

وقصيه : أي اقتفى أثره وتتبعى خبره ، فبصرت به : أي أبصرته ، عن جنب : أي عن بعد ،

لا يشعرون : أي لا يدرون أنها أخته ، حرمنا : أي منعنا ، يكفلون : أي يضمنون رضاعه

والقيام بشئونه ، والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون ما ينفعه فى غذائه وتربيته ،

ولا يقصرون فى خدمته

واحدة الأشد : شدة كأنعم ونعمة ، والشدة : القوة والجلادة ، وبلوغ الأشد :

(29/583)

استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتدّ به ، والاستواء : اعتدال العقل وكماله ،

ويختلف ذلك باختلاف الأقاليم والأزمان والأحوال ، والحكم : الحكمة ، والمدينة : هى

مصر ، على حين غفلة : أي فى وقت لا يتوقعون دخولها فيه ، من شيعته : أي ممن شايعه

وتابعه فى الدين وهم بنو إسرائيل ، من عدوه : أي من مخالفيه فى الدين وهم القبط ،

فاستغاثه أي طلب غوثه ونصره ، فوكزه أي فضربه بجمع يده ، أي بيده ، مجموعة الأصابع ،

فقضى عليه : أي فقتله وأنهى حياته ، من عمل الشيطان : أي من تزيينه ، مبين : أي ظاهر

العداوة والإضلال ، فاغفر لى : أي فاستر ذنوبى ، بما أنعمت علىّ : أي أقسم بنعمك علىّ ، ظهيرا : أي معينا ، يترقب : أي ينتظر ما يناله من أذى ، استنصره : أي طلب نصره ومعونته ، يستصرخه : أي يطلب الاستغاثة برفع الصوت ، غوىّ :

أي ضال ، يبطش : أي يأخذ بصولة وسطوة ، والجبار : هو الذي يفعل ما يفعل دون نظر فى العواقب ، من المصلحين : أي ممن يبغون الإصلاح بين الناس ، ويدفعون التخاصم بالحسنى

أقصى المدينة : أي أبعدها مكانا ، يسعى : أي يسرع ، الملأ : أشراف الدولة ووجوهها ، يأتمرون بك : أي يتشاورون فى أمرك ، قال الأزهرى ائتمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضا كما قال : " وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ " وقال النمر بن تولب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفى كل حادثة يؤتمر

يترقب : أي يلتفت يمنة ويسرة ، توجه إلى الشيء : صرف وجهه إليه ، تلقاء مدين : أي جهتها ، ورد : أي وصل ، والمراد بماء مدين : البئر التي كانوا يستقون منها ، أمة : أي جماعة ، تذودان : أي تطردان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء ، قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدرى بأيّ عصا تذود ؟

ما خطبكما : أي ما شأنكما ولم لا تردان

إلا سحر مفتعل ، وما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، فقال لهم موسى : ربى أعلم بالمهتدي منا ومنكم ، وسيفصل بينى وبينكم ، ويجعل النصر والتأييد للصالحين من عباده هامان : وزير فرعون ، صرحا : أي قصرا عاليا ، أطلع : أي أصعد وأرتقى ، فنبذناهم : أي طرحناهم ، أئمة : واحدهم إمام وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ، يدعون إلى النار : أي إلى ما يوجبها من الكفر والمعاصي ، لعنة : أي طردا من الرحمة ، من المقبوحين : أي المخزيين ، يقال قبحه اللّه : أي نحاه من كل خير ، وقبحت وجهه وقبّحت بمعنى ، قال الشاعر :

ألا قبح اللّه البراجم كلّها وقبّح يربوعا وقبّح دارما

الكتاب : هو التوراة ، القرون الأولى : هم قوم نوح وهود وصالح ، بصائر :

واحدها بصيرة ، وهى نور القلب الذي يميز بين الحق والباطل .

الغربي : هو الجبل الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى اللّه فيه ألواح التوراة لموسى ،

قضينا : أي عهدنا إليه وكلفناه أمرنا ونهينا ، الأمر : أي أمر الرسالة ، الشاهدين :

أي الحاضرين ، فتطاول عليهم العمر : أي بعد الأمد ، ونحوه " فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ " ثاويا : أي مقيما . قال العجّاج :

فبات حيث يدخل الثّوىّ أي الضيف المقيم ، أهل مدين : أي قوم شعيب

عليه السلام ، مصيبة : أي عذاب الدنيا والآخرة ، ولولا الثانية بمعنى هلا وتفيد تمنى حصول ما بعدها والحث عليه .

الحق : أي الأمر الحق وهو القرآن ، سحران : أي ما أوتيه موسى وما أوتيه محمد ، تظاهرا : أي تعاونا وتناصرا ، فإن لم يستجيبوا لك : أي فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به ، والتوصيل : ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض قال شاعرهم :

فقل لبنى مروان ما بال ذمّتى بحبل ضعيف ما يزال يوصّل

والمراد به هنا إنزال القرآن منجّما مفرقا يتصل بعضه ببعض .

(31/583)

مسلمين : أي منقادين خاضعين للّه ، يدرءون أي يدفعون ، واللغو : ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول ، سلام عليكم : أي سلام لكم مما أنتم فيه ، لا نبتغى الجاهلين : أي لا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل ، فنجازيكم على باطلكم بباطل مثله .

الهداية : تارة يراد بها الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير وهى التي أثبتها اللّه لرسوله فى قوله " وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ " وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب كما جاء فى قوله : " أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً " وهى بهذا

المعنى نفيت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى هذه الآية ، يجبى إليه : أي يجمع إليه ، يقال جبى الماء فى الحوض : أي جمعه ، والجابية :

الحوض العظيم ، والخطف : الانتزاع بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد .

بطرت : أي بغت وتجبرت ولم تحفظ حق اللّه ، وأمّها : أكبرها وأعظمها ، وهى قصبتها (عاصمتها) .

من المحضرين : أي الذين يحضرون للعذاب ، وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال : " لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ " وقال : " إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ " لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والإلزام ، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس المكاره والمضار .

حق : أي وجب وثبت ، والقول : أي مدلول القول ومقتضاه وهو قوله : " لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ " والغواية : الضلال ، والفعل غوى يغوى كضرب يضرب ، فلم يستجيبوا لهم : أي فلم يجيبوا ، عميت : أي خفيت ، والأنباء : الحجج التي تنجيهم ، ولا يتساءلون ، أي لا يسأل بعضهم بعضا .

الخيرة والتخير : الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض ، سبحان اللّه : أي تنزيها للّه أن ينازعه أحد فى الاختيار ، تكنّ : أي تخفى ، ويعلنون : أي يظهرون ، الحكم : القضاء النافذ فى كل شىء دون مشاركة لغيره فيه .

أرأيتم : أي أخبرونى ، والسرمد : الدائم المتصل قال طرفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغمّة نهارى ولا ليلى علىّ بسرمد

تسكنون فيه : أي تستقرون فيه من متاعب الأعمال .

ونزعنا : أي أحضرنا من قولهم : نزع فلان بحجة كذا إذا أحضرها وأخرجها ، والشهيد : هو نبى الأمة يشهد عليها بما أجابته حين أرسل إليها ، وضل : أي غاب .

فبغى عليهم : أي تكبّر وتجبر ، والكنز : المال المدفون فى باطن الأرض ، والمراد به هنا المال المدّخر ، ومفاتحه : أي خزائنه واحدها مفتح (بفتح الميم) وتنوء : من ناء به الحمل ينوء : إذا أثقله حتى أماله . قال ذو الرمة :

تنوء بأخراها فلأيا قيامها وتمشى الهوينى عن قريب فتبهر

والعصبة : الجماعة الكثيرة يتعصب بعضهم لبعض بلا تعيين عدد خاص ، والقوة : الشدة ، لا تفرح : أي لا تبطر وتتمسك بالدنيا ولذاتها حتى تتلهى عن الآخرة ، قال بيهس العذرى :

ولست بمفراح إذا الدهر سرّنى ولا جازع من صرفه المتقلّب

والدار الآخرة : أي ثواب اللّه بإنفاق المال فيما يوصل إلى مرضاته ، على علم عندى : أي على حسن تصرف فى المتاجر واكتساب الأموال .

الحظ : البخت والنصيب ، العلم : هو علم الدين وما ينبغى أن يكون عليه المتقون ، ويل :

أصلها الدعاء بالهلاك ، ثم استعملت فى الزجر عن ترك ما لا يرتضى ، وخسف المكان :

أي غار فى الأرض ، وخسف اللّه به الأرض خسفا : غاب به فيها كما قال :

" فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ " وفئة : أي جماعة من المنتصرين .

أي الممتنعين عن عذابه ، يقال : نصره من عدوه فانتصر : أي منعه منه فامتنع ، وى :

كلمة يراد بها التندم والتعجب مما حصل ، يقدر : أي يضيّق .

فرض عليك : أي أوجب عليك ، ومعاد الرجل : بلده ، لأنه يتصرف فى البلاد ثم يعود إليه

، ظهيرا : أي معينا ، هالك : أي معدوم ، وجهه : أي ذاته ، الحكم :

أي القضاء النافذ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 20 صـ 104.31 ﴾ .

باختصار .

(33/583)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة القصص

وهي مكية 1 – من ذلك قوله جل وعز طسم آية 1 قال قتادة طسم اسم من أسماء القرآن 2 – ثم قال جل وعز تلك آيات الكتاب المبين آية 2 أي المبين بركته وخيره والمبين الحق من الباطل والحلال من الحرام وقصص الأنبياء صلوات الله عليهم ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ويقال أبان الشئ وبان وأبان اتضح 3 – ثم قال جل وعز نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق آية 3 النبأ الخبر

4 – وقوله جل وعز إن فرعون علا في الأرض آية 4 قال السدي أي تجبر

5 – ثم قال جل وعز وجعل أهلها شيعا آية 4 قال مجاهد أي فرقهم قال السدي أي فرقهم في الأعمال القذرة وقال قتادة شيعا أي ذبح بعضهم واستحيا بعضهم وقتل بعضهم والشيع عند أهل اللغة جمع شيعة والشيعة الفرقة التي بعضها مساعد لبعض ومؤازر 6 – وقوله جل وعز ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض آية 5 يعني بني إسرائيل صلى الله عليه ونجعلهم أئمة أي

ولاة ونجعلهم الوارثين أي الوارثين فرعون وملأه 7 – وقوله جل وعز ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون آية 6 قال قتادة كان حاز لفرعون والحازي المنجم قال له إنه يولد في هذه السنة مولود يذهب بملكك فأمر فرعون بقتل الولدان في تلك السنة قال فذلك قول الله جل وعز ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون 8 – وقوله

جل وعز وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم آية 7 روى معمر عن قتادة قال قذف في نفسها وقيل هي رؤيا رأتها

(34/583)

وقال غيره بل كان ضمانا من الله عز وجل قال أبو جعفر والوحي في اللغة إعلام في خفاء فلذلك جاز أن يقال للإلهام وحي كما قال تعالى وأوحى ربك إلى النحل وقال وإذ أوحيت إلى الحواريين والقول الثالث يدل على صحته قوله تعالى إنا رادوه إليك وقوله جل وعز ولتعلم أن وعد الله حق واليم البحر 9 - وقوله جل وعز فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا لما كان التقاطهم إياه يئول إلى هذا قيل التقطوه له كما يقال لمن كسب ماله فأوبقه أهل إنما كسبه ليهلكه وهذا مذهب الخليل

وسيبويه ومن يرضى قوله من النحويين وهو كثير في كلام العرب 10 - وقوله جل وعز وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك آية 9 هذا تمام الكلام والدليل على ذلك أنه في قراءة عبد الله بن مسعود وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرة عين لي ولك ومعنى قرة عين قرت عينه من القر وهو البرد أي لم تسخن بالبكاء وقيل قرت من قر في المكان أي لم تبك

11 - وقوله جل وعز وأصبح فؤاد أم موسى فارغا آية 10 قال أبو جعفر فيه أربعة أقوال

أمنها ما حدثنا أحمد بن محمد البراثي قال حدثنا عمرو بن الهيثم عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى وأصبح فؤاد أم موسى فارغا قال فرغ من كل شئ في الدنيا إلا من ذكر موسى صلى الله عليه وسلم ب - قال أبو جعفر وكذا قال ابن عباس وأبو عبيدة وأبو عمران الجوني والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك ج وقال الكسائي فارغا أي ناسيا ذاهلا كما يقال لمن لم تقض حاجته فرغ وللميت قد فرغ وأنكر الكسائي أن يكون المعنى فارغا من كل شئ إلا من ذكر موسى وليس المعنى عليه وقال الأخفش سعيد وأصبح فؤاد أم موسى

(35/583)

فارغا من الوحي إن كادت لتبدي به أي بالوحي د وقال أبو عبيدة وأصبح فؤاد أم موسى فارغا أي من الحزن لما علمت أنه لم يغرق قال أبو جعفر أصح هذه الأقوال الأول والذين قالوه أعلم بكتاب الله جل وعز وإذا كان فارغا من كل شئ إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي وقولهم قد فرغ الميت من هذا أي فرغ مما يجب عليه أن يعلمه

وقول أبي عبيدة فارغا من الغم غلط قبيح لأن بعده إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كادت تقول واإبناه حديث قال أبو جعفر ومعنى ربطنا شددنا وقوينا قال قتادة لولا أن ربطنا على قلبها أي ربطنا على قلبها بالإيمان 12 - وقوله جل وعز وقالت لأخته قصيه آية 11 قال مجاهد أي اتبعي أثره وقال ابن عباس أي قصي أثره واطلبيه 13 - ثم قال جل وعز فبصرت به عن جنب آية 11 قال مجاهد أي عن بعد ومنه الأجنبي قال الشاعر فلا تحرمني نائلا عن جنابة فإني امرؤ وسط القباب غريب والمعنى تبصرته من بعيد لئلا يفطنوا بها

وقال أبو عمرو وقال بعض المفسرين فبصرت به عن جنب أي عن شوق قال وهي لغة الجذام يقولون جنبت إلى لقائك أي اشتقت ثم قال وهم لا يشعرون أي لا يشعرون أنها أخته 14 - ثم قال جل وعز وحرمنا عليه المراضع من قبل آية 12

أي من قبل رده إلى أمه قال قتادة لم يكن يقبل ثديا فقالت أخته هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون قال السدي فاسترابوا عند بها لما قالت لهم وهم له ناصحون فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فدلتهم

(36/583)

على أمه فدفعوه إليها لترضعه لهم في حسبانهم فذلك قوله جل وعز فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق لقوله عز وجل إنا رادوه إليك 15 – وقوله جل وعز ولما بلغ أشده واستوى آية 14 قال مجاهد عن ابن عباس وقتادة لما بلغ أشده أي ثلاثا وثلاثين سنة واستوى بلغ أربعين سنة قال أبو جعفر سيبويه يذهب إلى أن واحد الأشد شدة وقال الكسائي وبعض البصريين الواحد شد وقال أبو عبيدة لا واحد لها

16 – وقوله جل وعز آتيناه حكما وعلما آية 14 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله جل وعز آتيناه حكما قال فقها وعقلا وعلما يعني النبوة

17 – وقوله جل وعز ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها آية 15 قال سعيد بن جبير وقتادة وقت الظهيرة والناس نيام 18 – وقوله جل وعز فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه آية 15 قال أبو مالك أحدهما من بني إسرائيل والآخر قبطي قال أبو جعفر فإن قيل كيف قيل هذا لغائب

فالجواب أن المعنى يقول الناظر إذا نظر إليهما هذا من شيعته وهذا من عدوه 19 – وقوله جل وعز فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى آية 15 عليه فاستغاثه الذي من شيعته يعني الإسرائيلي على الذي من عدوه يعني القبطي فوكزه موسى يعني القبطي قال مجاهد ضربه بجمع كفه وكذلك هو في اللغة يقال وكزه إذا ضربه بجمع كفه في صدره وفي قراءة عبد الله فنكزه موسى والمعنى واحد وكذلك لكمه ولكزه

لأنه ولهزه

وروى معمر عن قتادة قال وكزه بالعصا فقضى عليه أي قتله قال هذا من عمل الشيطان فدل هذا أن قتله كان خطأ وأنه لم يؤمر بقتل ولا قتال 20 - وقوله جل وعز قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين آية 17 أي معينا للمجرمين قال ابن عباس لم يستثن فابتلي أي فابتلي بأن الإسرائيلي كان سبب الإخبار عنه بما صنع وقال الكسائي فلن أكون ظهيرا للمجرمين فيه معنى الدعاء وفي قراءة عبد الله فلا تجعلني ظهيرا للمجرمين

(37/583)

---

21 - وقوله جل وعز فأصبح في المدينة خائفا يترقب آية 18 قال قتادة أي يترقب الطلب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه أي يستغيث به من رجل آخر قال موسى إنك لغوي مبين من أجل أنه كان سبب القتل 22 - وقوله جل وعز فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما آية 19 في معناه قولان أ - فمذهب سعيد بن جبير وأبي مالك أن المعنى فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي توهم الإسرائيلي أن موسى صلى الله عليه وسلم يريده على أن يبطش به لأنه أغلظ له في القول فقال الإسرائيلي يا موسى أتريد أن تقتلني فسمع القبطي الكلام فذهب فأفشى على موسى

ب - وقيل المعنى فلما أراد الإسرائيلي أن يبطش موسى بالذي هو عدو لهما ويروى عن ابن نجيح فلما أن أراد الإسرائيلي أن يبطش بالقبطي نهاه موسى عليه السلام ففرق الإسرائيلي منه فقال أتريد أن تقتلني الآية فسعى به القبطي 23 - وقوله جل وعز وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى آية 20 روى معمر عن قتادة قال هو مؤمن آل فرعون قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك قال أبو عبيدة يأتمرون أي يتشاورون وأنشد

أحار بن عمرو كأني خمر ويعدو على المرء ما يأتمر قال أبو جعفر وهذا القول غلط ولو كان كما قال لكان يتآمرون فيك أي يتشاورون فيك أي يستأمر بعضهم بعضا ومعنى يأتمرون يهمون من قوله جل وعز وائتمروا بينكم بمعروف وكذلك معنى ويعدو على المرء ما يأتمر كما يقال من وسع حفرة وقع فيها 24 - وقوله جل وعز ولما توجه تلقاء مدين آية 22 قال أبو عبيدة أي نحو مدين

(38/583)

---

25 - وقوله جل وعز قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل آية 22 قال مجاهد أي طريق مدين قال أبو مالك فوجه فرعون في طلبه وقال لهم اطلبوه في بنيات الطرق فإن موسى لا يعرف الطريق فجاء ملك راكب فرسا ومعه عنزة فقال لموسى اتبعني فاتبعه

فهداه إلى الطريق 26 – وقوله جل وعز ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون آية 23 أي جماعة ووجد من دونهم امرأتين تذودان وفي قراءة عبد الله ودونهم امرأتان حابستان فسألهما عن حبسهما فقالتا لا نقوى على السقي مع الناس حتى يصدروا

ومعنى تذودان فيما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس تحبسان وروى سفيان بن أبي الهيثم عن سعيد بن جبير تذودان قال حابستان وروى هشيم عن حصين عن أبي مالك ووجد من دونهم

امرأتين تذودان قال تحبسان غنمهما حتى يفرغ الناس فتخلو لهم البئر قال أبو جعفر وهذا قول بين يقال ذاد يذود إذا حبس وذدت يا الشئ حبسته ثم يحذف المفعول إما إيهاما على المخاطب وإما استغناء بعلمه

ومذهب قتادة أنهما كانتا تذودان الناس عن غنمهما والأول أولى لأن بعده قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخر سقيهما إلى أن يصدر الرعاء قال ما خطبكما أي ما حالكما وما أمركما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ومن قرأ بضم الياء يصدر حذف المفعول أي حتى يصدروا غنمهم وأبونا شيخ كبير والفائدة في هذا أنه لا يقدر على السقي لكبره فلذلك خرجنا ونحن نساء

27 – وقوله جل وعز فسقى لهما ثم تولى إلى الظل آية 24 روى عمرو بن ميمون عن عمر

بن الخطاب أنه قال لما

استقى الرعاء غطوا على البئر صخرة لا يقلها إلا عشرة رجال فجاء موسى صلى الله

عليه وسلم فاقتلعها وسقى ذنوبا واحدا لم يحتج إلى غيره فسقى لهما 28 - وقوله جل

وعز ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير آية 24 روى عكرمة عن ابن

عباس قال ما سأل إلا الطعام وقال مجاهد لم يكن له ما يأكل

(39/583)

---

29 - ثم قال جل وعز فجاءته إحداهما تمشي على استحياء آية 25 المعنى فذهبتا إلى

أبيهما قبل وقتهما فخبرتاه لو بخبر موسى وسقيه فأرسل إحداهما فجاءت تمشي على

استحياء قال عمرو بن ميمون قال تمشي ويدها على وجهها حياء ليست بسلفع خراجة

ولاجة 30 - وقوله جل وعز فلما جاءه وقص عليه القصص آية 25 أي قص عليه خبره

وعرفه بقتله النفس وخوفه قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين لأن مدين لم تكن في ملكة

فرعون 31 - وقوله جل وعز قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت

القوي الأمين آية 26 روى عمرو بن ميمون عن عمر قال فقال لها من أين عرفت قوته وأمانته

قالت أما قوته فإنه أقل حجرا لا يحمله إلا عشرة وأما أمانته فإنه لما جاء معي مررت بين

يديه فقال لي كوني خلفي ودليني على الطريق لئلا تصفك الريح لي 32 - وقوله جل وعز قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي ها تين آية 27 وفي الحديث أنه أنكحه الصغيرة منهما واسمها طوريا ثم قال على أن تأجرني ثماني حجج أي تكون لي أجيرا فإن أتممت عشرا فمن عندك أي فذلك تفضل منك قال ذلك بيني وبينك أي لك ما شرطت ولي مثله أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي العدوان المجاوزة في الظلم

33 - وقوله جل وعز فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آية 29 روى الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى فقال أتمهما وأكملهما ومعنى لعلي آتيكم منها بخبر لعلي أعلم لم أوقدت جذوة من النار قال قتادة الجذوة أصل الشجرة فيها نار قال أبو جعفر وكذلك الجذوة بضم الجيم وكسرها وفتحها والجذوة القطعة من الخشب الكبيرة فيها نار ليس فيها لهب

(40/583)

وقال جل وعز في البقعة المباركة من الشجرة لأنه جل وعز كلمه فيها 34 - وقوله جل وعز أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء آية 32 معنى أسلك أدخل 35 - ثم قال جل وعز واضمم إليك جناحك من الرهب آية 32 قال الفراء الجناح ههنا العصا ولم يقل

هذا أحد من أهل التفسير ولا من المتقدمين علمته وحكى أكثر أهل اللغة أن الجناح من أسفل العضد إلى آخر الإبط وربما قيل لليد جناح ولهذا قال أبو عبيدة جناحك أي يدك قال مجاهد من الرهب من الفرق 36 – وقوله جل وعز فذانك برهانان من ربك آية 32 قال مجاهد يعني اليد والعصا والبرهان الحجة قال ابن عباس جناحك يدك وقال أبو زيد العضد هو الجناح حدثني محمد بن أيوب قال أنبأنا عبد الله بن سليمان بن الأشعث قال حدثنا محمد بن عامر عن أبيه عن بشر بن الحصين عن الزبير بن عدي عن الضحاك عن ابن عباس واضمم إليك جناحك من الرهب أي أدخل يدك فضعها على صدرك حتى يذهب عنك الرعب قال فقال ابن عباس ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب 37 – وقوله جل وعز فأرسله معي ردءا يصدقني

الردء العون وقد أرداه ورداه يكون أي أعانه وقوله تعالى سنشد عضدك آية 35 أي سنعينك ونقويك وهو تمثيل لأن قوة اليد بالعضد ونجعل لكما سلطانا قال سعيد بن جبير أي حجة فلا يصلون إليكما بآياتنا أي تمنعان بآياتنا ويجوز أن يكون المعنى ونجعل لكما سلطانا بآياتنا أي بالعصا واليد وما أشبههما 38 – وقوله جل وعز فأوقد لي يا هامان على الطين آية 38 روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال حتى يصير آجرا قال قتادة بلغني أنه أول من صنع الآجر

ثم قال تعالى فاجعل لي صرحا قيل بنيانا مرتفعا 39 - وقوله جل وعز ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر اي بيانا

(41/583)

---

40 - وقوله جل وعز وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر آية 44 قال قتادة هو جبل وقوله وما كنت ثاويا اي مقيما 41 - وقوله جل وعز وما كنت بجانب الطور إذ نادينا آية 46

روى عبد الرزاق عن الثوري عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير رفع الحديث في قوله جل وعز وما كنت بجانب الطور إذ نادينا قال نودوا يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فذلك قوله وما كنت بجانب إذ نادينا 42 - وقوله جل وعز ولكن رحمة من ربك آية 46 أي لم تشهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة لتنذر قوما فتعرفهم هلاك من هلك وفوز من فاز لعلهم يتذكرون 43 - وقوله جل وعز ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم آية 47 أي لولا هذا لم نحتج إلى إرسال الرسل وتواتر الاحتجاج

44 - وقوله جل وعز فلما جاءهم الحق من عندنا آية 48 أي الحجج الظاهرة البينة التي

كان يجوز أن يحتجوا بتأخرها قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى يعني من العصا وانفلاق البحر وما أشبه ذلك وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال أمرت يهود قريشا أن يسألوا صلى الله عليه وسلم مثل ما أوتي موسى محمدا فقال الله جل وعز لمحمد صلى الله عليه وسلم قل لهم يقولوا لهم أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل 45 - ثم قال جل وعز قالوا ساحران تظاهرا آية 48 روى سفيان عن إسماعيل بن أبي خالد قال سمعت سعيد بن جبير يقول قالوا ساحران تظاهرا قال موسى وهارون صلى الله عليهما وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال يعنون موسى وهارون عليهما السلام وروى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس قالوا ساحران تظاهرا قال موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وكذا روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس وكذلك قال الحسن وقرأ عكرمة وعطاء الخرساني وأبو رزين قالوا سحران تظاهرا

(42/583)

قال عكرمة يعني كتابين وقال أبو رزين يعني التوراة والإنجيل وقال الفراء يعني التوراة والقرآن واحتج بعض من يقرأ هذه القراءة بقوله قل فاتوا بكتاب

من عند الله هو أهدى منهما أتبعه والمعنى على القراءة الأولى هو أهدى من كتابيهما 46

- وقوله جل وعز ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون آية 51 أي أتبعنا بعضه بعضا قال مجاهد يعني لقريش

وقرأ الحسن وصلنا مخففا ومعنى إنا كنا من قبله مسلمين أنهم وجدوا صفة النبي صلى الله عليه في كتابهم من قبل أن يبعث فآمنوا به ثم آمنوا به بعد ما بعث 47 - ثم قال الله جل وعز أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا آية 54 يجوز أن يكون المعنى من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وأن يكون من قبل القرآن ومعنى قوله تعالى ويدرءون بالحسنة السيئة أي يدفعون بعملهم الحسنات السيئات التي عملوها 48 - وقوله جل وعز وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه آية 55 أي ما لا يجوز وما ينبغي أن يلغى

قال مجاهد هؤلاء قوم من أهل الكتاب أسلموا فكان المشركون يؤذونهم

ومعنى سلام عليكم قد تاركناكم مع وليس من التحية في شئ وهذا كلام متعارف عند العرب 49 - وقوله جل وعز إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء أية 56

روى الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال جاء أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة إلى أبي طالب في العلة التي مات فيها وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله جل وعز فقال له أبو جهل يا أبا طالب أترغب عن دين عبد المطلب فكان آخر ما قال لهما هو على ملة عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا أدع الاستغفار لك

فأنزل الله جل وعز إنك لا تهدي من أحببت ونزل فيه ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى قال أبو جعفر يجوز أن يكون معنى من أحببت أن تهدي ويجوز أن يكون المعنى من أحببت لقرابته ثم قال جل وعز ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين آية 56

أي الله أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ولله

الحكمة التامة 50 - وقوله جل وعز وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا آية 57 قال الضحاك هذا قول المشركين الذين بمكة وقال غيره قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم نحن نعلم أن ما جئت به حق ولكنا نكره أن نتبعك فتقصد ونتخطف سعيد لمخالفتنا الناس قال الله جل وعز أو لم نمكن لهم حرما آمنا آية 57 أي قد كانوا آمنين قبل الإسلام فلو أسلموا لكانوا أوكد قال قتادة كان أهل الحرم آمنين يخرج أحدهم فإذا عرض له قال أنا من أهل الحرم فيترك وغيرهم يقتل ويسلب

قال مجاهد عن ابن عباس يجبى إليه ثمرات كل شيء آية 57 أي ثمرات الأرضين 51 - وقوله جل وعز وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها آية 58 البطر الطغيان بالنعمة قال أبو

إسحق المعنى بطرت في معيشتها

قال الفراء أبطرتها معيشتها 52 - ثم قال جل وعز فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا

قال الفراء والمعنى أنها خربت فلم يسكن منها إلا القليل والباقي خراب

53 - وقوله جل وعز وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا آية 59 أي في أعظمها وأم القرى مكة 54 - وقوله جل وعز أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا آية 61 يعني به المؤمن والكافر وقيل نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل 55 - وقوله تعالى ثم هو يوم القيامة من المحضرين آية 61 قال مجاهد أي أهل النار أحضروا

(44/583)

---

56 - وقوله جل وعز ويوم يناديهم فيقول أين شركائي آية 62 أي ويوم ينادي الله الإنس أين شركائي أي على قولكم 57 - وقوله جل وعز قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا آية 63 قال قتادة حق عليهم القول يعني الشياطين وقال غيره حق عليهم القول أي وجبت عليهم الحجة فعذبوا

ربنا هؤلاء الذين أغوينا أي دعوناهم إلى الغي أغويناهم كما غوينا أي أضللناهم كما ضللنا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون فبرئ بعضهم من بعض وعاداه كما قال تعالى الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين 58 - وقوله جل وعز فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون آية 64 أي دعوهم فلم يجيبوهم بحجة ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون جواب لو محذوف أي لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم 59 - وقوله جل وعز فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون آية 66 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال الأنباء الحجج

فهم لا يتساءلون قال بالأنساب 60 - وقوله جل وعز وربك يخلق ما يشاء ويختار آية 68 هذا التمام أي ويختار الرسل ما كان لهم الخيرة آية 68 أي ليس برسل من اختاروه هم 61 - وقوله جل وعز قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة آية 72 قال مجاهد سرمدا أي دائما من إله غير الله يأتيكم بضياء أي بنهار تتعيشون فيه ويصلح ثماركم وزرعكم

(45/583)

62 - وقوله جل وعز ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله

آية 73 فيه قولان أحدهما أن المعنى لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله بالنهار والقول

الآخر أن يكون المعنى لتسكنوا فيهما وقال فيه لأن الليل والنهار ضياء وظلمة كما تقول في

المصادر ذهابك ومجيئك يؤذيني فيكون المعنى جعل لكم الزمان لتسكنوا فيه ولتبتغوا من

فضله والقول الأولى أعرف في كلام العرب يأتون بالخبرين ثم يجمعون تفسيرهما إذا كان

السامع يعرف ذاك كما روى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنه قال ما أحسن الحسنات

في إثر السيئات وما أقبح السيئات في إثر

الحسنات وأحسن من ذا وأقبح من ذا السيئات في آثار

السيئات والحسنات في آثار الحس نات قال أبو جعفر فجاء بالتفسير مجملا وهذا فصيح

كثير 63 - وقوله جل وعز ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم آية 75 قال

مجاهد شهيدا أي نبيا فقلنا هاتوا برهانكم قال أي حجتكم بما كنتم تقولون وتعملون فعلموا

أن الحق لله أي أن الله واحد وأن الحق ما جاءت به الأنبياء

وضل عنهم ما كانوا يفترون أي لم ينتفعوا بما عبدوا من دون الله بل ضرهم 64 - وقوله جل

وعز إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم آية 76 قال إبراهيم النخعي كان ابن عمه

65 - وقوله جل وعز فبغى عليهم آية 76 أي تجاوز الحد في مساندة موسى صلى الله

عليه وسلم والتكذيب به 66 - وقوله جل وعز وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء

بالعصبة أولي القوة روى الأعمش عن خيثمة قال كانت مفاتحه من جلود كل مفتاح منها على قدر الإصبع لخزانة يحملها ستون بغلا إذا ركب

(46/583)

وقال مجاهد كانت من جلود الإبل قال أبو صالح كانت تحملها أربعون بغلا وروى علي بن الحكم عن الضحاك قال كانت مفاتيح قارون يحملها أربعون رجلا قال ابن عيينة العصبة أربعون رجلا وقال مجاهد العصبة من العشرة إلى الخمسة عشر قال أبو جعفر العصبة في اللغة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض قال أبو عبيدة لتنوء بالعصبة تأويله أن العصبة لتنوء بها كما قال وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

الضياطرة التباع والأجراء قال أبو جعفر يذهب أبو عبيدة إلى أن هذا من المقلوب وهذا غلط والصحيح فيه ما قال أبو زيد قال يقال نؤت بالحمل إذا نهضت به على ثقل وناءني وفي إذا أثقلني قال أبو العباس سئل الأصمعي عن قوله وتشقى قال نعم هي تشقى بالرجال 67 - ثم قال جل وعز إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين آية 76 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال الفرحين

البطرين الذين لا يشكرون الله جل وعز فيما أعطاهم 68 - وقوله جل وعز ولا تنس

نصيبك من الدنيا آية 77 روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال نصيبه من الدنيا العمل بطاعة الله جل وعز الذي يثاب عليه يوم القيامة وروى أشعث عن الحسن قال أمسك القوت وقدم ما فضل وروى معمر عن قتادة قال ابتغ الحلال قال أبو جعفر قول مجاهد حسن جدا لأن نصيب الإنسان في الدنيا على الحقيقة هو الذي يؤديه إلى الجنة وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ولا تنس نصيبك من الدنيا يقول لا تترك أن تعمل لله جل وعز في الدنيا وقد قيل المعنى ولا تنس شكر نصيبك

69 - وقوله جل وعز قال إنما أوتيته على علم عندي آية 78 يروى أن قارون كان من قراء بني إسرائيل للتوراة والمعنى إنما أوتيته على علم فيما أرى فأما ما روي أنه كان يعمل الكيمياء فلا يصح وقيل المعنى على علم بالوجوه التي تكسب منها الأموال وترك الشكر وقال ابن زيد قال أي قارون لولا رضى الله عني

ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا وهذا اولاها يدل عليه ما بعده

(47/583)

---

202 - وقوله جل وعز ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون آية 78 قال مجاهد هو مثل قوله تعالى يعرف المجرمون بسيماهم زرقا سود الوجوه لا تسأل عنهم الملائكة لأنها تعرفهم وقال

قتادة ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون أي يدخلون النار بغير حساب قال محمد بن كعب ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون أي لا يسأل الآخر لم هلك الأول فيعتبر وقيل لا يسأل عنها سؤال استعلام

71 - وقوله جل وعز فخرج على قومه في زينته آية 79 روى عثمان بن الأسود عن مجاهد قال خرج هو وأصحابه على براذين بيض عليها سروج أرجوان وعليهم المعصفر قال قتادة خرجوا على أربعة آلاف دابة عليها ثياب حمرة منها ألف بغل بيض عليها قطف حمر 72 - وقوله جل وعز ولا يلقاها إلا الصابرون أي لا يلقى هذه الفعلة وهي القول ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا إلا الصابرون

73 - وقوله جل وعز فخسفنا به وبداره الأرض آية 81 قال ابن عباس خسف به إلى الأرض السفلى فما كان له من فئة أي من فرقة 74 - وقوله جل وعز وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون

ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر آية 82 قوله ويكأن قيل هي ويك أن ويك بمعنى ويلك قال أبو جعفر وهذا لا يصح لأن هذه اللام لا تحذف ولو كان هكذا لوجب أن يقال ويلك إنه ولا يجوز أن يضمر إعلم وليس ههنا مخاطبة لواحد والصحيح في هذا ما قال الخليل وسيبويه والكسائي قال الكسائي وي ههنا صلة وفيها معنى التعجب وقال سيبويه سألت الخليل عن قوله جل وعز ويكأنه لا يفلح الكافرون وقوله ويكأن الله فزعم

أنها وي مفصولة من كأن والمعنى وقع على أن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم أو نبهوا فقيل لهم أما يشبه أن يكون ذا عندكم هكذا والله أعلم وأما المفسرون فقالوا معناها ألم تر أن الله

(48/583)

قال قتادة ويكأن المعنى أو لا تعلم قال أبو جعفر وقول الخليل موافق لهذا وأنشد أهل اللغة وي كأن من يكن له نشب * يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر وقد كتبت في المصحف متصلة كأنهم لما كثر استعمالهم إياها جعلوها مع ما بعدها بمنزلة شئ واحد 75 - وقوله جل وعز تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا آلية 83 روى سفيان عن منصور عن مسلم البطين قال العلو

التكبر بغير الحق والفساد أخذ الأموال بغير الحق قال الثوري ولا فسادا المعاصي 76 - وقوله جل وعز إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد آية 75 روى عكرمة عن ابن عباس قال إلى معاد إلى مكة وكذلك روى يونس بن إسحاق عن مجاهد وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إلى الموت وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال إلى أن يحييك يوم القيامة وقال الزهري والحسن المعاد يوم القيامة

قال أبو جعفر وهذا معروف في اللغة يقال بيني وبينك

المعاد أي يوم القيامة لأن الناس يعودون فيه أحياء والقول الأول حسن كثير والله أعلم بما أراد ويكون المعنى إن الذي نزل عليك القرآن وما كنت ترجو أن يلقى إليك لرادك إلى معاد أي إلى وطنك ومعادك يعني مكة ويقال رجع فلان إلى معاده أي إلى بيته 77 - وقوله جل وعز كل شئ هالك إلا وجهه آية 88 قال سفيان أي إلا ما أريد به وجهه قال محمد بن يزيد حدثني الثوري قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى كل شئ هالك إلا وجهه فقال إلا جاهه كما تقول لفلان وجه في الناس أي جاه

وقيل إلا وجهه أي إلا إياه جل وعز وتقول أكرم الله وجهه وفلان وجه القوم وقول سفيان معروف في اللغة أي كل ما فعله العباد يهلك إلا الوجه الذي يتوجهون به إلى الله جل وعز .

تمت صورة القصص انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 5 صـ 155 .

208 ﴾

(49/583)

وقال الفراء :

ومن سورة القصص

قوله : ويرى فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما [6] هكذا قراءة أصحاب «1» عبد اللّه بالياء والرفع .

والناس بعد يقرءونها «2» بالنّون : (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما) بالنصب . ولو قرئت بالياء ونصب فرعون ، يريد : ويرى اللّه فرعون كان الفعل للّه . ولم أسمع أحدا قرأ به .

وقوله : عَدُوًّا وَحَزَناً [8] هذه لأصحاب «3» عبد اللّه والعوامّ (حزنا) وكأن الحزن الاسم والغمّ وما أشبهه ، وكأنّ الحزن مصدر . وهما بمنزلة العدم والعدم .

وقوله : وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ [9] رفعت (قُرَّتُ عَيْنٍ) بإضمار (هو) ومثله فى القرآن كثير يرفع بالضمير .

وقوله : (لا تَقْتُلُوهُ) وفى قراءة عبد اللّه (لا تقتلوه قرّة عين لى ولك) وإنما ذكرت هذا لأنى سمعت الذي يقال له ابن مروان السّدّىّ يذكر عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عبّاس أنه قال : إنها قالت (قرة عين لى ولك لا) وهو لحن «4» . ويقوّيك على ردّه قراءة عبد اللّه .

---

(1) هى قراءة حمزة والكسائي وخلف وافقهم الحسن والأعمش

(2) ا : «يقرءون»

(3) هى قراءة حمزة والكسائي وخلف وافقهم الأعمش .

(4) أي لمخالفته رسم المصحف

وقوله : (وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) يعنى بنى إسرائيل . فهذا وجه «1» . ويجوز أن يكون هذا من قول اللّه . وهم لا يشعرون بأن موسى هو الذي يسلبهم ملكهم .

وقوله : وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً [10] قد فرغ لهمّه ، فليس يخلط همّ موسى شىء

وقوله (إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ) يعنى باسم موسى أنه ابنها وذلك أن صدرها ضاق بقول آل فرعون : هو ابن فرعون ، فكادت تبدى [به] أي تظهره . وفى قراءة عبد اللّه (إن كادت لتشعر به) وحدّثنا أبو العبّاس قال حدّثنا محمد قال حدثنا الفرّاء قال : حدّثنى ابن أبى يحيى بإسناد له أن فضالة بن عبيد الأنصارىّ من أصحاب النبىّ عليه السّلام قرأ (وأصبح فؤاد أمّ موسى فزعا «2») من الفزع .

وقوله : وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ [11] قصّى أثره . (فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ) . يقول : كانت على شاطىء البحر حتّى رأت آل فرعون قد التقطوه . وقوله (وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) يعنى آل فرعون لا يشعرون بأخته .

وقوله : وحرّمنا عليه المراضع يقول : منعناه من قبول ثدى إلّا ثدى أمّه .

وقوله : وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ [15] وإنما قال (على) ولم يقل : ودخل المدينة حين

غفلة ، وأنت تقول : دخلت المدينة حين غفل أهلها ، ولا تقول : دخلتها على حين غفل أهلها . وذلك أنّ الغفلة كانت تجزئ من الحين ، ألا ترى أنك تقول : دخلت على غفلة وجئت على غفلة ، فلمّا كان (حين) كالفضل فى الكلام ، والمعنى : فى غفلة أدخلت فيه (على) ولو لم تكن كان صوابا . ومثله قول اللّه (عَلى فَتْرَةٍ «3» مِنَ الرُّسُلِ) ولو كان على حين فترة من الرسل لكان بمنزلة هذا . ومثله قوله العجير :

. . . . . ومن يكن فتى عام عام الماء فهو كبير

---

(1) ا ، ب : «وجهه»

(2) في الطبري : «فازعا»

(3) الآية 19 سورة المائدة

(51/583)

كذلك أنشدنى العُقَيلىُّ . فالعَام الأول فَضْل .

وقوله: ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ يريد : فَلَكزه . وفى قراءة عبد الله ﴿ فَنكَزَهُ ﴾ ووَهَزه أيضاً لغة . كلٌّ سَوَاء . وقوله ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ يعنى قَتَله .

وندِم موسَى فاستغفر اللهَ فغفر له .

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ . . . ﴾

قال ابن عبّاس: لم يستثن فابتُلِى ، فجعَل (لَنْ) خبَراً لموسَى . وفى قراءة عَبد الله (فَلاَ تَجْعَلْنِى ظَهِيراً) فقد تكون ﴿ لَنْ أَكُونَ ﴾ عَلَى هَذَا المعْنى دُعاءً منْ مُوسَى: اللهمّ لن أكون لَهُمْ ظهيراً فيكونُ دعاءً وذلك أنَّ الذى من شِيعته لقيه رجل بعد قتله الأوّل فتسخّر الذى من شيعة موسى ، فمرّ به موسى عَلَى تلك الحال فاسْتصرخه – يعنى اسْتغاثه – فقال له موسى: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أى قد قتَلتُ بالأمس رجلا فتَدعونى إلى آخر . وأقبل إليهما فظنَّ الذى من شيعتِه أنه يريده . فَقَالَ ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ ولم يكن فرعون علم مَن قتل القبطىّ الأوّل . فترك القبطى الثانى صَاحبَ مُوسى من يده وأخبر بأن موسى القاتلُ . فذلك قول ابن عَبَّاس: فابتلى بأن صَاحبه الذى دَلّ عليه .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ . . . ﴾

يريد : قَصد ماء مَدْيَن . ومَدْين لم تصرف لأنها اسم لتلك البلدة . وقال الشاعر:

رُهبانُ مَدْيَن لو رأوكِ تَنَزَّلُوا * والعُصْمُ من شَعَفِ العقول الفادر

وقوله: ﴿ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴾ : الطريق إلى مَدْين ولم يكن هَادياً لِطريقهَا .

وقوله عزّ وجلّ . ووجد من دونهم امرأتين تذودان [23] : تحبسان غنمهما . ولا يجوز أن تقول ذدت الرجل : حبسته . وإنما كان الذّياد حبسا للغنم لأن الغنم والإبل إذا أراد شىء منها أن يشذّ ويذهب فرددته فذلك ذود ، وهو الحبس . وفى قراءة عبد اللّه (ودونهم امرأتان حابستان) فسألهما عن حبسهما فقالتا : لا نقوى على السقي مع الناس حتى يصدروا . فأتى أهل الماء فاستوهبهم دلوا فقالوا : استق إن قويت ، وكانت الدلو يحملها الأربعون ونحوهم . فاستقى هو وحده ، فسقى غنمهما ، فذلك قول إحدى الجاريتين (إِنَّ خَيْرَ «1» مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) فقوّته إخراجه الدلو وحده ، وأمانته أنّ إحدى الجاريتين قالت : إن أبى يدعوك ، فقام معها فمرّت بين يديه ، فطارت الريح بثيابها فألصقتها بجسدها ، فقال لها : تأخّرى فإن ضللت فدلّينى . فمشت خلفه فتلك أمانته .

وقوله : عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ [27] يقول : أن تجعل ثوابى أن ترعى علىّ غنمى ثمانى حجج (فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ) يقول : فهو تطوّع . فذكر ابن عباس أنه قضى أكثر الأجلين وأطيبهما .

وقوله : أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ [28] فجعل (ما) وهى صلة من صلات الجزاء مع (أىّ) وهى فى قراءة عبد اللّه (أىّ الأجلين ما قضيت فلا عدوان علىّ) وهذا أكثر فى كلام العرب من الأوّل .

وقال الشاعر :

وأيهما ما أتبعنّ فإننى حريص على إثر الذي أنا تابع

وسمع الكسائىّ أعرابيّا يقول : فأيهم ما أخذها ركب على أيهم ، يريد فى لعبة لهم . وذلك جائز أيضا حسن .

وقوله : أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ [29] قرأها عاصم (أو جذوة) بالفتح والقراءة بكسر «2» الجيم

---

(1) فى الآية 26 سورة القصص

(2) الرفع لحمزة وخلف وافقهما الأعمش . والكسر لغير عاصم وهؤلاء .

(53/583)

أو 140 ا برفعها . وهى مثل أوطأتك عشوة وعشوة وعشوة والرّغوة والرّغوة والرّغوة .

ومنه ربوة وربوة وربوة .

وقوله : وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ [32] و(الرّهب) قرأها أهل المدينة (الرّهب) وعاصم «1» والأعمش (الرّهب) .

وقوله : رِدْءاً يُصَدِّقُنِي [34] تقرأ جزما ورفعا «2» . من رفعها جعلها صلة للردء ومن

جزم فعلى الشرط. والرّدء: العون. تقول: أردأت الرجل: أعنته. وأهل المدينة يقولون (ردا يصدّقنى) بغير همز والجزم على الشرط: أرسله معى يصدّقنى مثل (يَرِثُنِي «3» وَيَرِثُ).

وقوله: فَذانِكَ بُرْهانانِ [32] اجتمع القراء «4» على تخفيف النون من (ذانك) وكثير من العرب يقول (فذانّك) و(هذانّ) قائمان (وَالَّذانِ «5» يَأْتِيانِها مِنْكُمْ) فيشدّدون النون.

وقوله: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ) يريد عصاه فى هذا الموضع. والجناح فى الموضع الآخر: ما بين أسفل العضد إلى الرّفع وهو الإبط.

وقوله: فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ [38] يقول: اطبخ لى الآجر وهو الأجور والآجرّ. وأنشد:

كأنّ عينيه من الغوّور قلتان فى جوف صفا منقور

عولى بالطين وبالأجور «6»

وقوله: قالوا سحران تظاهر [48] يعنون التوراة والقرآن، ويقال (ساحران تظاهرا) يعنون محمّدا وموسى صلى اللّه عليهما وسلم. وقرأ عاصم «7» والأعمش (سِحْرانِ).

---

(1) أي فى رواية أبى بكر. فأما فى رواية حفص فيفتح الراء وسكون الهاء

(2) الرفع لحمزة وعاصم. والجزم للباقين

(3) الآية 6 سورة مريم

(4) هذا فيما بلغه. وقد قرأ بالتشديد ابن كثير وأبو عمر ورويس راوى يعقوب

(5) الآية 16 سورة النساء وقد قرأ بالتشديد ابن كثير

(6) هذا الرجز فى وصف بعير. والقلت: النقرة فى الجبل تمسك الماء. والصفا: الحجر الصلد الضخم لا ينبت

(7) وكذا حمزة والكسائي

(54/583)

حدّثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال حدثنا الفراء، قال وحدّثنى غير واحد عن إسماعيل ابن أبى خالد عن أبى رزين أنه قرأ (سحران تظاهرا).

قال: وقال سفيان بن عيينة عن حميد قال: قال مجاهد: سألت ابن عباس وعنده عكرمة فلم يجبنى، فلمّا كانت «1» فى الثالثة قال عكرمة أكثرت عليه (ساحران تظاهرا) فلم ينكر ابن عباس، أو قال: فلو أنكرها لغيّرها. وكان عكرمة يقرأ (سِحْرانِ) بغير ألف ويحتجّ بقوله: (قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ) وقرأها أهل المدينة والحسن (ساحران تظاهرا).

وقوله : أَتَّبِعْهُ [49] رفع «2» لأنها صلة للكتاب لأنه نكرة وإذا جزمت «3» - وهو الوجه - جعلته شرطا للأمر .

وقوله : وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ [51] يقول : أنزلنا عليهم القرآن يتبع بعضه بعضا .

وقوله : إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ [53] يقال : كيف أسلموا قبل القرآن وقبل محمد صلى اللّه عليه وسلم ؟ وذلك «4» أنهم كانوا يجدون صفة النبىّ صلى اللّه عليه وسلم فى كتابهم فصدّقوا به .

فذلك إسلامهم .

و(مِنْ قَبْلِهِ) هذه الهاء للنبى عليه السّلام . ولو كانت الهاء كناية عن القرآن كان صوابا ، لأنهم قد قالوا : إنه الحقّ من ربّنا ، فالهاء هاهنا أيضا تكون للقرآن ولمحمد صلى اللّه عليه وسلم .

وقوله : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ [56] يكون الحبّ على جهتين هاهنا :

إحداهما : إنك لا تهدى من تحبّه للقرابة .

والوجه الآخر يريد : إنك لا تهدى من أحببت أن يهتدى كقولك : إنك لا تهدى من تريد ، كما تراه كثيرا فى التنزيل (وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ) أن يهديه .

---

(1) كأنه يريد : فلما كانت المسألة . [. . . . .]

(2) هذا فى الآية التالية 49 . وفى ا بعد تلاوة الآية : «جزم» يريد الجزم فى «أتبعه»

(3) الرفع قراءة زيد بن على كما فى البحر المحيط . وهى قراءة شاذة . والجزم هو القراءة المعول عليها .

(4) هذا شروع فى الجواب عن السؤال

(55/583)

وقوله : أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَما آمِناً [57] قالت قريش : يا محمد ما يمنعنا أن نؤمن بك ونصدّقك إلّا أن العرب على ديننا ، فنخاف أن نصطلم «1» إذا آمنّا بك . فأنزل اللّه (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ) نسكنهم (حَرَما آمِناً) لا يخاف من دخله أن يقام عليه حدّ ولا قصاص فكيف يخافون أن تستحلّ العرب قتالهم فيه .

وقوله : (يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ) و(تجبى «2») ذكّرت يجبى ، وإن كانت الثمرات مؤنثة لأنك فرقت بينهما بإليه ، كما قال الشاعر :

140 ب إنّ امرأ غرّه منكنّ واحدة بعدي وبعدك فى الدنيا لمغرور

وقال آخر «3» :

لقد ولد الأخيطل أمّ سوء على قمع استها صلب وشام

وقوله : وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها [58] بطرتها : كفرتها وخسرتها ونصبك

المعيشة من جهة قوله (إِلَّا مَنْ «4» سَفِهَ نَفْسَهُ) إنما المعنى والله أعلم - أبطرتها معيشتها كما تقول :

أبطرك مالك وبطرته ، وأسفهك رأيك فسفهته . فذكرت المعيشة لأن الفعل كان لها فى الأصل ، فحوّل إلى ما أضيفت «5» إليه . وكأنّ نصبه كنصب قوله (فَإِنْ طِبْنَ «6» لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً) ألا ترى أن الطيب كان للنفس ، فلمّا حوّلته إلى صاحب النفس خرجت النفس منصوبة لتفسّر معنى الطيب . وكذلك ضقنا به ذرعا إنما كان المعنى : ضاق به ذرعنا .

---

(1) الاصطلام : الاستئصال .

(2) هى قراءة نافع وأبى جعفر ورويس راوى يعقوب

(3) هو جرير يهجو الأخطل . والقمع بزنة عتب وضرب : ما يوضع فى فم السقاء ونحوه ثم يصب فيه الماء والشراب ، استعاره لفرجة الاست . والصلب جمع صليب . والشام جمع شامة وهى علامة تخالف البدن وكانت أم الأخطل كالأخطل نصرانية

(4) الآية 130 سورة البقرة

(5) ا «أضيف»

(6) الآية 4 سورة النساء

وقوله : (لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا) معناه : خربت من بعدهم فلم يعمر منها إلّا القليل ، وسائرها خراب . وأنت ترى اللفظ كأنها سكنت قليلا ثم تركت ، والمعنى على ما أنبأتك به مثله :

ما أعطيتك دراهمك إلّا قليلا ، إنما تريد : إلّا قليلا منها .

وقوله : (حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها) [59] أمّ القرى مكّة . وإنما سمّيت أمّ القرى لأن الأرض – فيما ذكروا – دحيت من تحتها .

وقوله : فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ « 1 » [66] يقول القائل : قال اللّه (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ) كيف قال هنا : (فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ) فإن التفسير يقول : عميت عليهم الحجج يومئذ فسكتوا فذلك قوله (فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ) فى تلك السّاعة ، وهم لا يتكلّمون .

قوله : فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ [67] وكلّ شىء فى القرآن من (عسى) فذكر لنا أنها واجبة .

وقوله : ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ [68] يقال « 2 » الخيرة والخيرة والطّيرة والطّيرة . والعرب تقول : أعطنى الخيرة منهن والخيرة منهن والخيرة وكلّ ذلك الشيء المختار من رجل أو امرأة أو

بهيمة ، يصلح إحدى هؤلاء الثلاث فيه .

وقوله : إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً [71] دائما لانهار معه . ويقولون : تركته سرمدا سمدا ، إتباع .

وقوله : جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ [73] . إن شئت جعلت الهاء راجعة على الليل خاصّة وأضمرت للابتغاء هاء أخرى تكون للنهار ، فذلك جائز . وإن شئت جعلت الليل والنهار كالفعلين لأنهما ظلمة وضوء ، فرجعت الهاء فى (فيه) عليهما جميعا ، كما تقول :

---

(1) الآية 27 سورة الصافات ، والآية 25 سورة الطور

(2) فى اللسان فى نقل عبارة الفراء . قبل هذا الكلام : «أي ليس لهم أن يختاروا على اللّه» وكان هذا من نسخة غير ما وقع لنا .

إقبالك وإدبارك يؤذينى لأنهما فعل والفعل يردّ كثيره وتثنيته إلى التوحيد ، فيكون ذلك صوابا .

وقوله : إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ [76] وكان ابن عمّه (فَبَغى عَلَيْهِمْ)

وبغيه عليهم أنه قال : إذا كانت النبوّة لموسى ، وكان المذبح والقربان الذي يقرّب فى يد هارون فما لى ؟

وقوله : (وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ) نوؤها بالعصبة أن تثقلهم ، والعصبة ها هنا أربعون رجلا ومفاتحه : خزائنه . والمعنى : ما إن مفاتحه لتنىء العصبة أي تميلهم من ثقلها فإذا أدخلت الباء قلت : تنوء بهم وتنىء بهم ، كما قال (آتُونِي «1» أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً) والمعنى : ائتوني بقطر أفرغ عليه ، فإذا حذفت الباء زدت فى الفعل ألفا فى أوّله . ومثله (فَأَجاءَهَا «2» الْمَخاضُ) معناه : فجاء بها المخاض . وقد قال رجل من أهل العربيّة : إن المعنى «3» : ما إن العصبة لتنوء بمفاتحه فحوّل الفعل إلى المفاتح كما قال الشاعر :

إن سراجا لكريم مفخره تحلى به العين إذا ما تجهره «4»

وهو الذي يحلى بالعين . فان كان سمع بهذا أثرا فهو وجه . وإلّا فإنّ الرجل جهل المعنى .

ولقد أنشدنى بعض العرب :

حتى إذا ما التأمت مواصله وناء فى شقّ الثّمال كاهله

يعنى الرامي لمّا أخذ القوس ونزع مال على شقّه . فذلك نوؤه عليها . ونرى أن قول العرب : ما ساءك وناءك من ذلك ، ومعناه ما ساءك وأناءك ، إلّا أنّه ألقى الألف لأنه متبع لساءك ، كما قالت العرب : أكلت طعاما فهنأنى ومرأنى ، ومعناه ، إذا أفردت : وامرأني ، فحذفت

منه الألف لمّا أن أتبع ما لا ألف فيه .

---

(1) الآية 96 سورة الكهف .

(2) الآية 23 سورة مريم .

(3) انظر ص 99 ، 131 من الجزء الأول . [. . . . .]

(4) يريد أنه خرجه على القلب .

وقوله : (إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ) ذكروا أن موسى الذي قال له ذلك لأنه من قومه وإن كان على غير دينه . وجمعه هاهنا وهو واحد كقول اللّه (الَّذِينَ «1» قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ) وإنما كان رجلا من أشجع وقوله (الْفَرِحِينَ) ولو قيل : الفارحين كان صوابا ، كأنّ الفارحين : الذين يفرحون فيما يستقبلون ، والفرحين الذين هم فيه السّاعة ، مثل الطامع والطمع ، والمائت والميّت ، والسّالس والسّلس . أنشدنى بعض بنى دبير ، وهم فصحاء بنى أسد :

ممكورة غرثى الوشاح السّالس تضحك عن ذى أشر عضارس «2»

العضارس البارد وهو مأخوذ من العضرس وهو البرد . يقال : سالس وسلس .

وقوله : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي [78] : على فضل عندى ، أي كنت أهله ومستحقّا له ، إذ أعطيته لفضل علمى . ويقال : (أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ) ثم قال (عِنْدِي) أي كذاك أرى كما قال (إِنَّما أُوتِيتُهُ «3» عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ) .

وقوله : (وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) يقول : لا يسأل المجرم عن ذنبه . الهاء والميم للمجرمين . يقول : يعرفون بسيماهم . وهو كقوله : (فَيَوْمَئِذٍ «4» لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ) ثم بيّن فقال : (يُعْرَفُ «5» الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ)

وقوله : وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ [80] يقول : ولا يلقّى أن يقول ثواب اللّه خير لمن آمن وعمل صالحا إلّا الصابرون . ولو كانت : ولا يلقّاه لكان صوابا لأنه كلام والكلام يذهب به إلى التأنيث والتذكير . وفى قراءة عبد اللّه (بل هى آيات بيّنات) وفى قراءتنا (بل هو «6» آيات) فمن قال

---

(1) الآية 173 سورة آل عمران .

(2) الممكورة : الحسنة الساقين . وغرثى الوشاح : «خميصة البطن دقيقة الخصر» .

والسالس : اللين . والأشر :

تحزيز الأسنان . ويريد بذي أشر ثغرها .

(3) الآية 49 سورة الزمر .

(4) الآية 39 سورة الرحمن .

(5) الآية 41 سورة الرحمن .

(6) الآية 49 سورة العنكبوت .

(59/583)

(هى) ذهب إلى الآيات ، ومن قال (هو) ذهب إلى القرآن . وكذلك (تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ) و(ذِلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ) ومثله فى الكلام : قد غمّنى ذاك وغمّتنى تلك منك .

وقوله : وَيْكَأَنَّ اللَّهَ [82] فى كلام العرب تقرير . كقول الرجل : أما ترى إلى صنع اللّه .

وأنشدنى :

وَيْكأَنْ مَنْ يكن له نَشَبٌ يُحـ * ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِر يعش عيشَ ضُرّ

قال الفراء : وأخبرنى شيخ من أهْل البصرة قال: سَمعت أعرابيَّة تقول لزوجها : أين ابنكَ ويْلكَ ؟ فقال: وَيْكأَنَّهُ وراء البيت . مَعْناه: أَمَا ترينه وراء البيت . وقد يذهب بعض النحوّيينَ إلى أنهما كلمتان يريد وَيْكَ أَنَّه ، أراد ويلكَ ، فحذف اللام وجعل (أنّ) مفتوحةً بفعلٍ مضمرٍ ، كأنه قال: ويلك أعلم أنه وراء البيت ، فأضمر (اعْلم) . ولم نجد العرب تُعمل الظنّ والعلم بإضمارٍ مضمرٍ فى أَنَّ . وذلك أنه يبطل إذا كان بين الْكَلِمَتَين أو فى آخِرِ ب الكلمة ، فلمَّا أضمره جرى مَجْرى الترك ؛ أَلاَ ترى أنه لا يجوز فى الابتداء أن تقول: يا هَذَا

أنكَ قائم ، ولا يا هذا أنْ قمت تريد : عِلمت أو أعلمُ أوظننت أو أظنّ . وأمّا حذف اللام مِنْ (ويْلك) حَتى تصير (ويك) فقد تقوله العرب لكثرتهَا فى الكلام قَالَ عنترة:

ولقد شفى نفسى وَأبرأ سُقمها * قولُ الفوارس وَيْكَ عَنْتَرَ أقدِمِ

(60/583)

وقد قال آخرونَ: أن معنى (وَىْ كأنَّ) أَنّ (وَىْ) منفصلة من (كأنّ) كقولك للرجل: وَىْ ، أمَا ترى ما بين يديكَ ، فقال: وَىْ ، ثم استأنف (كأنّ) يعنى ﴿كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ وهى تعجّب ، و (كأنَّ) فى مذهب الظنّ والعلم . فهذا وجه مُستقيم . ولم تكتبها العرب منفصلةً ، ولو كانت عَلى هذا لكتبوهَا منفصِلةً . وقد يجوز أن تكون كَثُر بها الكلام فوُصِلت بما ليست منه ؛ كما اجتمعَت العرب على كتاب ﴿يا بْنَ أُمَّ﴾ ﴿يابْنَؤُمَّ﴾ قال: وكذا رأيتها فى مُصْحف عَبْدالله . وهى فى مصاحفنا أيضاً .

وقوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ قراءة العامة (لَخُسِفَ) وقد قرأها شَيْبة والحسن – فيما أعْلم – (لَخَسَفَ بنا) وهى فى قراءة عبدالله (لانْخُسِف بِنَا) فهذا حُجّةٌ لمن قرأ ﴿لَخُسِفَ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ . . . ﴾

يقول: أنزَل عَليكَ القرآن ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد ﴾ ذكروا أن جبريل قال يا محمَّد أَشتقت إلى مولدكَ ووطنك ؟ قال: نعم . قال فقال له ما أنزل عليه ﴿ نَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ يعنى إلى مكَّة . والمَعَاد هَا هُنَا إنما أراد به حيث وُلدت وليسَ من العَوْد . وقد يكون أن يجعَل قوله ﴿ لرادُّكَ ﴾ لمصيرك إلى أن تعود إلى مَكَّة مَفتُوحَةً لك فيكون المعاد تَعجّباً ﴿ إلى مَعَادٍ ﴾ أَيما مَعَادٍ ! لِمَا وعده من فتح مكَّة .

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . . ﴾

إلاَّ أن ربَّكَ رحمك ﴿ فأنزل عليك ﴾ فهو استثناء منقطِع . ومعناهُ: وما كنت ترجو أن تعلم كتب الأولينَ وَقِصَصهم تتلوهَا على أهْل مَكَّة ولم تحضُرهَا ولم تشهدها . والشاهد عَلى ذلكَ قوله فى هَذه السُّورة ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عليهم آيَاتِنَا ﴾ أى إنك تتلو على أهل مَكَّة قِصَص مَدْيَن وَمُوسى ولم تكن هنالكَ ثاوياً مقيماً فنراه وتسمعَه . وكذلك قوله ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ ﴾ وهأنت ذا تتلُو قِصَصهم وأمرهم . فهذه الرَّحمة من ربّه .

﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَاهاً آخَرَ لاَ إِلَاهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

﴿

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾

إلاَّ هُوَ.

وَقال الشاعر:

أستغفرُ الله ذنباً لَسْتُ مُحْصِيهُ * رَبّ العِبَاد إليه الوَجْهُ وَالْعَمَلُ

أى إليه أُوَجّه عَمَلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 302.

314 ﴾

(61/583)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة القصص

(شيعاً) [4] فرقاً ، أي: فرق بني إسرائيل ، فجعلهم خولاً للقبط . (ونريد أن نمن) [5] واو الحال ، أي: فقصد فرعون أمراً في حال إرادتنا لضده . (وأوحينا إلى أم موسى) [7] ألهمناها . وقيل: إنه كان رؤيا منام . (فإذا خفت عليه) أي: خفت أن يسمع جيرانك صوته .

وكان موسى ولد في عام القتل ، وهارون في عام الاستحياء ، وذلك أن بني إسرائيل لما تفانوا بالقتل ، قالت القبط: خولنا منهم ، وقد فنيت شيوخهم موتاً ، وأولادهم قتلاً .

[و]في الآية خبران وأمران ونهيان وبشارتان . وحكى الأصمعي [قال]: سمعت جارية معصرة تقول: 896- أستغفر الله لذنبي كله 897- قبلت إنساناً بغير حله 898- مثل الغزال ناعماً في دله 899- فانتصف [الليل] ولم أصله/فقلت: قاتلك الله ما أفصحك . فقالت: أو فصاحة بعد قوله تعالى: ([و]أوحينا إلى أم موسى) . . . الآية . (فالتقطه) [8] أخذه فجأة . قال الراجز: 900- ومنهل وردته التقاطا 901- لم ألق [إذ] وردته [فراطا] . (فراغاً) [10] أي: من كل شيء إلا من ذكر موسى .

وقيل: من موسى أيضاً ، لأن الله أنساها ذكره ، أو ربط على قلبها وآنسه . (إن كادت لتبدي به) [10] لما رأت الأمواج بلعت [التابوت] فكادت تصيح . (قصيه) [11] اتبعي أثره ، لتعلمي أمره . (عن جنب) عن جانب ، كأنها ليست تريده . والجنب والجنابة: البعد . قال:

902- [وإني لظلام] لأشعث [بائس] عرانا [ومقرور] أتانا به الفقر 903- وجار قريب الدار وذي جنابة بعيد محل الدار ليس له [وفر] أي: أظلم الناقة وأنحر فصيلها لأجل هؤلاء . (وحرمنا عليه) [12] تحريم منه لا شرع ، قال امرؤ القيس: 904- جالت لتصرعني فقلت لها اقصري إني امرؤ صرعي [عليك] حرام

أي: ممتنع . (من قبل) أي: من قبل مجيء [أخته] . ومن إلطاف الله لنبيه موسى ، استخدم له عدوه في كفالته وتربيته ، وهو يقتل القتل الذريع لأجله . والأشد : لا واحد له من لفظه . وقيل: [واحده] شدة ، كنعمة وأنعم . أو شد ، كفلس وأفلس ، أو شد كما يقال: هو ودي والجمع أود . (واستوى) [14] استحكم ، وانتهى شبابه . (على حين غفلة) [15] نصف النهار ، في وقت القائلة . (فوكزه) دفعه بجميع كفه . (فقضى عليه) قتله . (هذا من عمل الشيطان) لأن الغضب من [نفخ] الشيطان/ . (فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه) [18] الإسرائيلي الذي خلصه موسى استغاث به ثانياً على آخر من القبط ، فقال له موسى (إنك لغوي) أي: للقبطي . فظن الإسرائيلي أنه عناه ، فقال: (أتريد أن تقتلني كما قتلت [نفساً بالأمس)] وسمعه القبطي ، فعرف قاتل المقتول أمس ، فسعى به . (يأتمرون بك) [20]

يتشاورون في قتلك . وقيل: [يأمر] بعضهم بعضاً . (تذودان) [23] تطردان . وقيل: بل تحسبان ، أي: تمنعان عنهما الورود . كما قال [سويد] بن كراع:

905- أبيت بأبواب القوافي كأنما أذود بها سرباً من الوحش نزعا . (يصدر الرعاء)

[23] ينصرف الرعاة ، و(يصدر) قريب من (يصدر) ، لأن الرعاة إذا صدروا فقد أصدروا ، وإذا أصدروا فقد صدروا . إلا أن المفعول في: (يصدر الرعاء) محذوف ، كما في قوله: (لا نسقي) . (على أن تأجرني) [27] وإن كان الصداق لها ، لأن مال الولد في الإضافة للوالد ، وكذلك استيفاء صداقها إلى والدها [إن] كانت ساكتة .

(جذوة) [29] قطعة ، من جذوت الشيء قطعته ، قال الشاعر: 906- وألقى على قبس من النار جذوة شديداً عليها حميها والتهابها . وقيل: الجذوة: خشبة في رأسها نار ، كما قال ابن مقبل: 907- باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوار ولا دعر

(63/583)

(واضمم إليك جناحك من الرهب) [32] أي: اضمم يدك إلى صدرك يذهب الله ما بك من الفرق . وقيل: إنه على التوطين والتسكين . كما يقال: ليسكن جأشك ، وليفرخ روعك ، لما كان من شأن الخائف أن يرتعد حشاه/ ، ويخفق صدره . كما قال حارثة بن بدر الغداني: 908- وقل للفؤاد إن نزا بك نزوة -من الروع- أفرخ أكثر الروع باطله . وفي الرهب لغات: الرهب والرهب ، كالضعف والضعف . والرهب والرهب ، كالبخل

والبخل .

والرهب والرهب: كالمعز والمعز . وكان الرهب أقوى لاطراده على أصلين . (رداً) [34] عوناً ، وقال مسلم بن جندب: "رداً" زيادة . واستشهد بقول حاتم: 909- تجد فرساً [مثل] العنان وصارماً حساماً إذا ما هز لم يرض بالهبر 910- وأسمر خطياً كأن كعوبه نوى القسب قد أردى ذراعاً على العشر .

أي: زاد . والحكمة في تكرير هذه القصص: أن المواعظ يجب تكريرها على الأسماع ، لتقريرها في الطباع . والثاني: أن فيه التحدي إلى الإتيان بمثله ، ولو بترديد بعض هذه القصص . والثالث: تسلية النبي ، وتحسير الكافرين حالاً بعد حال . والرابع: أن العرب من شأنها أن تورد المعنى الواحد بالألفاظ المختلفة ، وتجلو الأعراض المتفقة في المعارض المختلفة . وبها فضلت على سائر الألسنة . ألا ترى أن الشعراء كيف تداولوا نواظر الغزلان ، وعيون [الجآذر]

بحيث لا يكاد يخلو منها تشبيب ، وكلها مقبول معسول . وهل بين قول امرئ القيس:

911- تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة ، مطفل . وقول عدي:

912- وكأنها بين [النساء] أعارها عينيه جؤذر من جآذر جاسم . إلا اتفاق الغرض من كل الوجوه ، مع اختلاف الكسوة الأنيقة ، والعبارة الرشيقة ، وكل واحد منهما قصد

التشبيه [بشيء] واحد ، هذا بعيون وحش/وجرة ، وذاك بعيون جآذر جاسم ، مع أن الظباء لا يختلف عيونها ، وإن

(64/583)

كانت ربما يختلف بعض أخلاقها وألوانها . (وجعلناهم أئمة) [41] هو من الجعل بمعنى الوصف ، كقولك: جعلته رجل سوء . وقيل: إن ذلك بعد الحشر ، حيث يقدمون الكافرين إلى النار كأنهم يدعونهم ويقودونهم إليها . قال [جبيهاء] الأشجعي: 913- ولو [أشليت] في ليلة رجبية بأوراقها هطل من الماء سافح 915- لجاءت أمام الحالبين وضرعها أمام صفاقيها مبد مكاوح ، فجعلها أماماً لتقدمها .

(من المقبوحين) [42] من الممقوتين . وقيل: المشوهين بسواد الوجوه ، وزرقة العيون ، يقال: قبحه الله وقبحه ، (ولولا أن تصيبهم) [47] جوابه في التقدير: لما أرسلنا رسولاً .

(ساحران تظاهرا) [48]

أي: موسى ومحمد عليهما السلام ، وذلك حين بعث أهل مكة إلى يهود [المدينة] فأخبروه بنعته ، وأوان مبعثه من كتابهم . (من المحضرين) [61] المزعجين . وقيل: من المحضرين للجزاء ، أو إلى النار . (لتنوأ بالعصبة) [76] من الثقل . يقال: ناء إذا مال ، ومنه النوء:

وهو الكوكب إذا مال عن العين عند الغروب . قال الهذلي:

915: [وأربد] يوم الجزع لما أتاكم [وجاركم لم تنذروه] ليحذرا 916- كشفت غطاء الحرب لما رأيتها تنوء على [صغو] من الرأس أصعرا . وقال أبو عبيدة: هو من المقلوب ، أي: العصبة لتنوء بالمفاتح ، أي: تنهض بها ثقيلاً . ومذهب الخليل في النوء هذا ، وهو اختيار الزجاج ، أن النوء اسم المطر الذي يكون مع سقوط النجم ، لأن المطر نهض/مع سقوط الكوكب ، فإذا ثبت ذلك ، فالمقلوب كثير في كلامهم . قال الحطيئة:

917- فلما خشيت الهون والعير ممسك ، على رغمه ما أمسك الحبل [حافره] ، أي: أمسك الحبل حافره ، فقلب ، وقال الآخر: 918- كانت فريضة ما تقول [كما] كان الزناء فريضة الرجم . وقال البعيث: 919- ألا أصبحت خنساء جاذمة الوصل وضنت [علينا] والضنين من البخل .

(65/583)

(إن الله لا يحب الفرحين) [76] أي: البطرين ، قال الغنوي: 920- لقد أردى الفوارس يوم حسي غلاماً غير مناع المتاع 921- ولا فرح بخير إن أتاه ولا جزع من الحدثان لاع . مثله لهدبة بن خشرم: 922- فلست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من ريبه المتقلب

923- ولا أتمنى الشر والشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب . (في زينته) [79]

في موكب على بغلة شهباء بمركب ذهب من لباس أرجواني . (فخسفنا به) [81] [قال] موسى: يا أرض خذيه [فابتلعته] ، وكان ابن عمه ، فقال بنو إسرائيل: أهلكه ليرثه ، فخسف بداره وجميع أمواله . (ويكأن الله) [82] قيل: إن "وي" [مفصول] ، وهو اسم سمي به الفعل ، أي: اعجب . ثم ابتدأ وقال: كأن الله يبسط .

وقيل: إنه "ويك" ومعناه: ألم تر ، أو ألم [تعلم] ، أو معناه: ويح أو ويلك . والمراد بالجميع التنبيه . قال زيد بن عمرو بن نفيل في "وي" مفصولاً: 924- سألتاني الطلاق أن رأتاني قل مالي قد جئتماني بنكر/925- وي كأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر . وقال عنترة في "ويك":

926- ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم . ونظير هذه الكلمة في توجه اللفظ الواحد إلى صورتين ، قول [امرئ] القيس: 927- [نطعنهم] سلكى ومخلوجة كرك لأمين على نابل ، أي: رد لأمين -وهما سهمان- على نابل ، وذلك أن يعترض من صاحب النبل شيئاً منه فيتأمله ، ثم يرده إليه ، فيقع بعضه كذا وبعضه كذا . وفي رواية أخرى: "كر كلامين على نابل" . أي: كما تقول له: ارم-ارم . فالمراد بالرواية الأولى: اختلاف الطعنتين ، والثانية: السرعة والعجلة . والأصمعي ينشد بيت المثقب:

928- أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سألت كأن تبيني . وابن الأعرابي: "ومنعك ما سألتك أن تبيني" . وأبو زيد يقول في قول الشاعر: 929- وأطلس يهديه إلى الزاد أنفه أطاف بنا والليل داجي العساكر 930- فقلت لعمرو صاحبي إذ رأيته ونحن على خوص وذايا عواسر . إنه عوى الذئب فسر أنت . وغيره يقول: إن عواسر صفة "الوذايا" .

وقول الهذلي: 931- فلا والله يا ذى الحي ضيفي هدواً بالمساءة والعلاط . وقيل [فيه] إنه نادى الحي ، وقيل: إنه لا يؤذون ضيفي . ولهذه الأبيات نظائر . وقد كنا أفردنا لها نظمها ونثرها كتاباً . والآن [إذ] أجممنا الطبع بشيء منها عدنا إلى التفسير . (فرض عليك القرآن) [85] أنزل/على لسانك فرائضه . وقيل: حملك تبليغه . (لرادك إلى معاد) أي: مكة .

نزلت بالجحفة حين عسف به الطريق إليها ، فحن . (إلا رحمة) [86] أي: لكن رحمة . (إلا وجهه) [88] إلا ما أريد به وجهه . ومن حمل وجه الشيء على نفسه ، استشهد بقول أحمر بن جندل:

933- ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة فأفلت منها وجهه عتد نهد .

[تمت سورة القصص] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ باهر البرهان صـ 1067.1093 ﴾

(67/583)

وقال الأخفش :

سورة القصص

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾

وقال ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾ على قوله ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [4] ونحن ﴿ نُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ [158] اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أي: فعل هذا فرعون ونحن ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال ﴿ فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أيْ: فارغاً من الوَحْيِ إذْ تَخَوَّفَتْ [157 ب] على موسى إنْ كادَتْ لَتُبْدِي بالوَحْي . أيْ: تُظْهِره .

﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾

[وقال] ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أيْ: قُصِّي أَثَرَهُ.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾

وقال ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً ﴾ كما تقول: "لنْ يكُونَ فلانٌ في الدّارِ مُقِيما" أي: "لا يَكُونَنَّ مُقِيماً".

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وقال ﴿ تَأْجُرَنِي ﴾ في لغة العرب منهم من يقول "أُجِرَ غلامي" فـ"هُوَ مَأْجُورٌ" و"أَجَرْتُهُ" فـ"هُوَ مُؤْجَر" يريد: أَفْعَلْتُهُ" فـ"هو مُفْعَلٌ" وقال بعضهم: "آجَرْتُهُ" فـ"هو مُؤَاجِر" أرَادَ "فَاعَلْتُهُ".

(68/583)

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

وقال ﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ ﴾ جماعة "الشّاطِىء" "الشَواطِىء" وقال بعضهم "شَطّ" والجماعة "شُطُوطٌ".

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾

وقال ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ ﴾ ثقّل بعضهم وهم الذين قالوا ﴿ ذِلكَ ﴾ أَدْخلوا التثقيل للتأكيد كما أَدْخَلُوا اللام في "ذلك" .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

وقال ﴿ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ أيْ: عوناً فيمنعني ويكون في هذا الوجه: "رَدَأْتُهُ": ؛ أعَنْتُه .

[و] ﴿ يُصَدِّقْنِي ﴾ جَزم اذا جعلته شرطا و ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ اذا جعلته من صفة الردء .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ فنصب ﴿ رَحْمَةً ﴾ على "ولكنْ رَحَمَكَ رَبُّكَ رَحْمَةً" .

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾

وقال ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ لأنه من "غَوَى" "يَغْوِي" مثل "رَمَى" "يَرْمِي" .

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾

وقال ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ يريد: إنَّ الذي مفاتحه. وهذا موضع لا يبتدأ فيه "أنّ" وقد قال ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ﴾ وقوله ﴿ تَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ إنَّما العصبة تنوء بها. وفي الشعر: [وهو الشاهد السابع عشر بعد المئة من مجزوء الوافر]:

تَنُوءُ بِهَا فَتُثْقِلُها * عجيزتها . . . . . .

وليست العجيزة تنوء بها ولكنها هي تنوء بالعجيزة. وقال: [من الكامل وهو الشاهد الثالث والستون بعد المئتين]:

ما كُنْتُ في الحَرْبِ العَوانِ مُغَمَّراً * إذْ شَبَّ حَرُّ وَقُودِها أَجْزَالَها

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَّنَّ اللّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

وقال ﴿ وَيْكَأَنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ المفسرون يفسرونها: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله" وقال ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وفي الشعر: [من الخفيف وهو الشاهد الثامن والعشرون بعد المئتين]:

سَالَتَانِي الطَّلاَقَ أَنْ رَأَتَا ما * لِي قَلِيلاً قَدْ جِئْتُمانِي بِنُكْرِ

وَيْكَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْ * بَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً ﴾ استثناء خارج من أول الكلام في معنى "لكنْ" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 469 .

472 ﴾

(70/583)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة القصص

3 - مِنْ نَبَإِ مُوسى أي من خبره .

وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً أي فرقا وأصنافا في الخدمة .

يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يعني : بني إسرائيل .

5 - وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ للأرض .

7 - وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أي ألقينا في قلبها . ومثله : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ [سورة المائدة آية : 111] .

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ أي في البحر .

8 - فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ . لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً لم يلتقطوه في وقتهم ذاك لهذه العلة . وإنّما التقطوه : ليكون لهم ولدا بالتّبني ، فكان عدوّا وحزنا فاختصر الكلام .

10 - وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً قال ابو عبيدة : «فارغا من الحزن لعلمها انه لم يقتل» ، او قال : لم يغرق .

وهذا من اعجب التفسير . كيف يكون فؤادها من الحزن فارغا في وقتها ذاك . واللّه سبحانه يقول : لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها ؟ ! وهل يربط إلا على

قلب الجازع والمحزون ؟ ! والعرب تقول للخائف والجبان : «فؤاده هواء» .

لأنه لا يعي عزما ولا صبرا . قال اللّه وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ [سورة إبراهيم آية : 43] .

وقد خالفه المفسرون إلى الصواب ، فقالوا أصبح فارغا من كل شيء إلا من امر موسى ، كأنها لم تهتمّ بشيء - مما يتهم به الحيّ - إلا امر ولدها .

11 - وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ أي قصّي أثره واتّبعيه . فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ أي عن بعد منها

عنه وإعراض : لئلا يفطنوا لها . و«الجانية» من هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ بها .

12 - وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ أي منعناه ان يرضع [منهن] و«المراضع» : جمع «مرضع» .

يَكْفُلُونَهُ أي يضمّونه إليهم .

14 - وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ قد تقدم ذكره . وَاسْتَوى أي استحكم وانتهي شبابه واستقرّ : فلم تكن فيه زيادة .

15 - وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها يقال : نصف النهار .

هذا مِنْ شِيعَتِهِ أي من أصحابه . يعني : بني إسرائيل .

وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ أي من أعدائه . و«العدوّ» يدل على الواحد ، وعلى الجمع .

فَوَكَزَهُ مُوسى أي لكزه . يقال وكزته ولكزته [ونكزته ونهزته] ولهزته ، إذا دفعته .

فَقَضى عَلَيْهِ أي قتله . وكل شيء فرغت منه : فقد قضيته ، وقضيت عليه .

خائِفاً يَتَرَقَّبُ أي ينتظر سوءا يناله منهم .

فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ أي يستغيث به .

يعني : الإسرائيليّ .

قالَ لَهُ مُوسى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ . يجوز ان يكون هذا القول للإسرائيلي . أي أغويتني بالأمس حتى قتلت بنصرتك رجلا . ويجوز ان يكون لعدوّهما .

يَسْعى أي يسرع [في مشيه] .

قالَ : يا مُوسى ! إِنَّ الْمَلَأَ يعني : الوجوه من الناس والأشراف ، يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ . قال ابو عبيدة : «يتشاورون فيك ليقتلوك» .

واحتج بقول الشاعر :

أحار بن عمرو ! كأني خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

وهذا غلط بين لمن تدبر ، ومضادّة للمعنى . كيف يعدو على المرء ما شاور فيه ، والمشاورة بركة وخير ؟ ! وانما أراد : يعدو عليه ما همّ به للناس من الشر . ومثله : قولهم : «من حفر حفرة وقع فيها» .

وقوله : إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ أي يهمّون بك . يدلّك على ذلك قول النّمر بن تولب :

اعلمن أن كلّ مؤتمر مخطئ في الرّأي أحيانا

فإذا لم يصب رشدا كان بعض اللّوم ثنيانا

يعني : أن كل من ركب هواه ، وفعل ما فعل بغير مشاورة فلا بد من ان يخطيء أحيانا . فإذا لم يصب رشدا لامه الناس مرتين : مرة لركوبه الأمر بغير مشاورة ، ومرة لغلطه .

ومما يدلك على ذلك أيضا قوله عز وجل : وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ [سورة الطلاق آية : 6]

لم يرد تشاوروا ، وإنما أراد : همّوا به ، واعتزموا عليه . وقالوا في تفسيره : هو أن لا تضرّ

المرأة بزوجها ، ولا الزوج بالمرأة .

ولو أراد المعنى الذي ذهب إليه ابو عبيدة ، لكان أولي به ان يقول : «إن

(73/583)

الملأ يتآمرون فيك» أي يستأمر بعضهم بعضا .

22 - تِلْقاءَ مَدْيَنَ أي تجاه مدين ونحوها . وأصله : «اللّقاء» .

زيدت فيه التاء . قال الشاعر :

فاليوم قصر عن تلقائه الأمل أي عن لقائه .

سَواءَ السَّبِيلِ أي قصده .

23 - وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ أي تكفّان غنمهما .

وحذف «الغنم» اختصارا .

وفي تفسير أبي صالح : «تحبس إحداهما الغنم على الأخرى» .

قالَ ما خَطْبُكُما أي ما أمركما ؟ وما شأنكما ؟ .

يُصْدِرَ الرِّعاءُ أي يرجع الرعاء . ومن قرأ : يُصْدِرَ الرِّعاءُ ، أراد : يردّ الرعاء أغنامهم عن الماء .

27 - عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي أي تجازيني عن التّزويج ، والأجر من اللّه إنّما هو : الجزاء على العمل .

28 - أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ ، فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ . قال المفسرون . لا سبيل عليّ . والأصل من «التّعدّي» ، وهو : الظلم . كأنه قال : أي الأجلين قضيت ، فلا تعتد عليّ بأن تلزمني اكثر منه .

29 - أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ أي قطعة منها . ومثلها الجذمة . وفي التفسير : «الجذوة عود قد احترق» .

(74/583)

---

32 - اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ أي أدخل يدك يقال : سلكت يدي وأسلكتها .

(الجناح) : الإبط . والجناح : اليد أيضا .

الرَّهْبِ والرّهب [والرّهب] والرّهبة واحد .

بُرْهانانِ أي حجّتان .

34 - فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً أي معينا . يقال : أردأته على كذا ، أي أعنته .

35 - وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً أي حجة .

38 - فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ أي اصنع لي الآجرّ . فَاجْعَلْ لِي منه صَرْحاً أي قصرا عاليا .

45 - وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ أي مقيما . يقال : ثوبت بالمكان ، إذا أقمت به . ومنه قيل للضيف : الثّويّ .

48 - سِحْرانِ تَظاهَرا أي تعاونا .

51 - وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ أي اتبعنا بعضه بعضا ، فأتّصل عندهم . يعني : القرآن .

57 - أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً أي ألم نسكنهم إيّاه ونجعله مكانا لهم ؟ ! .

58 - بَطِرَتْ مَعِيشَتَها أي أشرت . وكأن المعنى : أبطرتها معيشتها كما تقول : أبطرك مالك ، فبطرت .

59 - فِي أُمِّها رَسُولاً أي في أعظمها .

ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أي : محضري النار .

(75/583)

61 – الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، أي وجبت عليهم الحجة فوجب العذاب .

66 – فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ أي عموا عنها – من شدة الهول يومئذ – فلم يجيبوا .

و«الأنباء» : الحجج هاهنا .

68 – وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ أي يختار للرسالة .

ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ أي لا يرسل الله الرسل على اختيارهم .

71 – (السرمد) : الدائم .

75 – وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً أي أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم .

76 – ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أي تميل بها العصبة – إذا حملتها – من ثقلها . يقال : ناءت بالعصبة ، أي مالت بها . وأناءت العصبة : أمالتها .

ونحوه في المعنى قوله : وَلا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما [سورة البقرة آية : 255] أي لا يثقله حتى يؤوده ، أي يميله .

و«العصبة» : ما بين العشرة إلى الأربعين .

وفي تفسير أبي صالح : ما إِنَّ مَفاتِحَهُ يعني : الكنز نفسه» وقد تكون «المفاتح» : مكان الخزائن . قال في موضع آخر : أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ [سورة النور آية : 61] ، أي ما ملكتموه : من المخزون . وقال :

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ [سورة الأنعام آية : 59] ، نرى : أنها خزائنه .

لا تَفْرَحْ: لا تأشر، ولا تبطر. قال الشاعر:

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني ولا جازع من صرفه المتحوّل

أي لست بأشر. فأمّا السرور فليس بمكروه.

77 - وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا أي لا تترك حظّك منها.

(76/583)

---

78 - قال إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أي لفضل عندي. وروي في التفسير: أنه كان أقرأ بني إسرائيل للتوراة.

وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ قال قتادة: يدخلون النار بغير حساب.

وقال غيره: يعرفون بسيماهم.

80 - وَلا يُلَقَّاها أي لا يوفّق لها. ويقال: يرزقها.

82 - وَيْكَأَنَّ اللَّهَ قال قتادة: هي «ألم تعلم!». وقال ابو عبيدة: سبيلها سبيل «ألم تر؟».

وقد ذكرت الحرف والاختلاف فيه، في كتاب «تأويل المشكل».

85 - إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أي أوجب عليك العمل به.

وقال بعض المفسرين: أنزله عليك. لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قال مجاهد: يعني مكة. وفي تفسير أبي صالح: «أنّ جبريل - عليه السّلام - أتي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فقال: أتشتاق إلى مولدك ووطنك، يعني: مكة؟ قال: نعم. فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية: وهو فيما بين مكة والمدينة».

وقال الحسن والزّهريّ - أحدهما -: «معاده: يوم القيامة»، والآخر: «معاده: الجنة».

وقال قتادة: هذا مما كان ابن عباس يكتمه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 286.280﴾

(77/583)

وقال الغزنوى:

ومن سورة القصص

[73/أ]

4 شِيَعاً: فرقا، أي: فرّق بني إسرائيل فجعلهم خولا للقبط.

5 وَنُرِيدُ: واو الحال «1»، أي: يريد فرعون أمرا في حال إرادتنا لضده. وفيه بيان أن

سننا فيك وفي قومك كهي في موسى وفرعون .

7 وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى : ألهمناها «2» ، ويجوز رؤيا منام «3» .

فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ : أن يسمع جيرانك صوته «4» ، وكان موسى ولد في عام القتل ، وهارون في عام الاستحياء إذ بنو إسرائيل تفانوا بالقتل «5» ،

---

(1) قال أبو حيان في البحر المحيط : 7/ 104 : وَنُرِيدُ : حكاية حال ماضية ، والجملة معطوفة على قوله : إِنَّ فِرْعَوْنَ ، لأن كلتيهما تفسير للبناء ، ويضعف أن يكون حالا من الضمير في يَسْتَضْعِفُ لاحتياجه إلى إضمار مبتدأ ، أي : ونحن نريد ، وهو ضعيف . وإذا كانت حالا فكيف يجتمع استضعاف فرعون وإرادة المنة من اللّه ، ولا يمكن الاقتران» . [. . . . .]

(2) ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 133 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 216 عن ابن عباس ، وقتادة .

(3) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 216 ، وقال : «حكاه أبو عيسى» ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 202 عن الماوردي .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 11/ 262 : «وجملة أمر أم موسى أنها علمت أن الذي وقع في نفسها هو من عند اللّه ووعد منه ، يقتضي ذلك قوله تعالى : فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .

(4) الكشاف : 3/ 165 ، وزاد المسير : 6/ 202 .

(5) في اللسان : 15/ 164 (فنى) : «تفانى القوم قتلا : أفنى بعضهم بعضا ، وتفانوا أي أفنى بعضهم بعضا في الحرب» .

(78/583)

فقالت القبط : خولنا منهم ، وقد فنيت شيوخهم موتا وأولادهم قتلا «1» .

10 فارِغاً : أي : من كلّ شيء إلّا من ذكر موسى «2» ، أو من موسى أيضا لأنّ اللّه أنساها ذكره ، أو ربط على قلبها وآنسه .

والربط على القلب تقويته بإلهام الصّبر «3» .

إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ : لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول : يا ابناه «4» .

11 قُصِّيهِ : اتبعي أثره لتعلمي خبره «5» .

عَنْ جُنُبٍ : عن بعد وجنابة «6» . وقيل : عن جانب كأنها ليست تريده .

12 وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ : تحريم منع لا شرع «7» .

مِنْ قَبْلُ : من قبل أن تجيء أخته»

. ومن أمر اللّه أن استخدم لموسى - عليه السلام - عدوّه في كفالته وهو يقتل العالم لأجله .

---

(1) تفسير ابن كثير : (6/ 231 ، 232) ، والدر المنثور : (6/ 389 ، 390) .

(2) ذكره اليزيدي في غريب القرآن : 289 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (20/ 35 ، 36) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

ورجحه الطبري ، وذكره البغوي في تفسيره : 3/ 437 ، وقال : «هذا قول أكثر المفسرين» .

(3) عن الزجاج في معاني القرآن : 4/ 134 ، وزاد المسير : 6/ 205 .

(4) نص هذا القول في تفسير البغوي : 3/ 437 عن مقاتل .

وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 303 ، وتفسير الطبري : 20/ 37 ، وزاد المسير : 6/ 205 .

(5) معاني القرآن للفراء : 2/ 202 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 98 ، والمفردات للراغب :

404 .

(6) ورد هذا المعنى ، وكذلك القول الذي بعده في أثر ذكره الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما معلقا . انظر صحيح البخاري : 6/ 18 ، كتاب التفسير ، سورة القصص ، الباب الأول .

(7) ينظر تفسير الطبري : 20/ 40 ، وتفسير القرطبي : 13/ 257 .

(8) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 219 ، وقال : «وفي قوله : مِنْ قَبْلُ وجهان أحدهما : ما ذكرناه (أي من قبل مجيء أخته) ، الثاني : من قبل رده إلى أمه» .

(79/583)

---

14 وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ : بلغ نهاية القوة وهي ثلاث وثلاثون سنة «1» .

ويجوز واحد الأشدّ «شدّة» «2» ك «نعمة» و«أنعم» ، وشد ك «فلس» و«أفلس» وشدّ يقال : هو «ودّي» والجمع أودّ «3» .

وَاسْتَوى : استحكم وانتهى شبابه ، وذلك إذا تم له أربعون «4» .

15 عَلى حِينِ غَفْلَةٍ : نصف النهار وقت القائلة .

هذا مِنْ شِيعَتِهِ : إسرائيلي .

فَوَكَزَهُ مُوسى : دفعه بجمع «5» كفه .

فَقَضى عَلَيْهِ : قتله .

هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ : لأنّ الغضب من نفخ الشّيطان .

17 فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً : دخلت الفاء لأنه يدل أنه لا يكون ظهيرا لهم لما أنعم اللّه عليه ، فهو كجواب الجزاء في أن الثاني لأجل الأول «6» .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 20/ 42 عن قتادة ، ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 220 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(2) قال المؤلف – رحمه اللّه – في كتابه وضح البرهان : 2/ 148 : «والأشد لا واحد له من لفظه ، وقيل : واحده شدة . . .» .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 99 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 215 ، واللسان : (3/ 235 ، 236) (شدد) . [. . . . .]

(3) اللسان : 3/ 445 (ودد) .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 20/ 42 عن مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

وانظر هذا المعنى في معاني القرآن للفراء : 3/ 52 ، والمحرر الوجيز : 11/ 273 .

(5) عن مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 99 ، وجمع الكفّ : حين تقبضها ، يقال : ضربوه بإجماعهم إذا ضربوا بأيديهم . وضربته بجمع كفي – بضم الجيم – » .

وانظر الصحاح : 3/ 1198 ، واللسان : 8/ 56 (جمع) .

(6) ينظر إعراب القرآن للنحاس : 3/ 232 ، وتفسير القرطبي : 13/ 263 ، والبحر المحيط :

7/ 110 .

18 فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ : أي : الإسرائيلي الذي خلصه موسى استغاث به ثانيا ، فقال له/ موسى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ ، أي :

للقبطي «1» ، فظنّ الإسرائيليّ أنّه عناه ، فقال : تريد أن تقتلني كما قتلت [نفسا بالأمس] «2» وسمعه القبطيّ فسعى به «3» .

20 وَجاءَ رَجُلٌ : كان نجارا مؤمنا من آل فرعون اسمه حزبيل «4» .

20 يَأْتَمِرُونَ بِكَ : يتشاورون في قتلك ، أي : يأمر بعضهم بعضا .

21 خائِفاً يَتَرَقَّبُ : أن يلحقه من يطلبه .

تَذُودانِ : غنمهما أن تقرب الماء «5» .

يُصْدِرَ «6» الرِّعاءُ : ينصرف الرعاة ، ويُصْدِرَ : قريب من يصدر لأنّ الرعاة إذا صدروا فقد أصدروا ، إلّا أنّ المفعول في يُصْدِرَ

---

(1) وقيل : بل قال ذلك للإسرائيلي . ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 222 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 440 . ووصفه البغوي بأنه أصوب وعليه الأكثرون .

(2) ما بين معقوفين عن «ك» .

(3) أخرج الطبري نحو هذه الرواية في تفسيره : 20/ 48 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وانظر تفسير الماوردي : 3/ 222 ، وتفسير ابن كثير : (6/ 235 ، 236) .

(4) كذا في «ك» ، والذي ورد في التفاسير : «حزقيل» .

ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 223 عن الضحاك ، والكلبي .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 402 وعزا إخراجه إلى ابن المنذر عن ابن جريج .

قال القرطبي في تفسيره : 13/ 266 : «قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون . ذكره الثعلبي» .

(5) قال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 332 : «أي تكفان غنمهما» . وحذف «الغنم اختصارا» .

(6) بفتح الياء وضم الدال ، وهي قراءة ابن عامر ، وأبي عمرو . وقرأ باقي السبعة بضم الياء وكسر الدال .

السبعة لابن مجاهد : 492 ، والتبصرة لمكي : 286 ، والتيسير للداني : 171 .

وانظر توجيه القراءتين في معاني الزجاج : 4/ 139 ، وحجة القراءات : 543 ، والكشف لمكي : 2/ 173 .

محذوف كما هو محذوف في [قوله] «1» : لا نَسْقِي ، وتَذُودانِ .

24 رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ : كان أدركه جوع شديد «2» .

25 نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ : ليس لفرعون سلطان بأرضنا . وكان بين مصر ومدين «3» ثماني ليال نحو ما بين الكوفة والبصرة .

26 الْقَوِيُّ الْأَمِينُ : قوّته سقية الماشية بدلو واحدة وحده .

وأمانته غضّ طرفه وأمره لها أن تمشي خلفه .

27 عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي : تأجر لي ، أي : تكون أجيرا لي «4» ، وإن كان الصداق لها ، إذ مال الولد في الإضافة للوالد ، ولأنّ القبض إليه .

28 وَكِيلٌ : شاهد على عقدنا .

29 جَذْوَةٍ : قطعة من النار «5» . جذوت : قطعت .

31 تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ : انقلاب العصا حيّة دليل أن الجواهر جنس واحد ، إذ لا حال أبعد إلى الحيوان من الخشب .

32 وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ : اضمم يدك إلى صدرك يذهب اللّه ما بك من

فرق «6» ، أي : لأجل الحيّة . أو هو على التوطين والتسكين

---

(1) عن نسخة «ج» .

(2) ينظر تفسير الطبري : (20/ 58 ، 59) ، وتفسير الماوردي : 3/ 225 ، وتفسير البغوي :

3/ 441 .

(3) مدين : بفتح أوله وسكون ثانيه ، وفتح الياء المثناة من تحت ، وآخره نون مدينة على البحر الأحمر محاذية لتبوك ، وهي مدينة شعيب عليه السلام .

معجم البلدان : 5/ 77 ، والروض المعطار : 525 .

(4) هذا قول الزجاج في معانيه : 4/ 141 ، وانظر تفسير البغوي : 3/ 442 ، وزاد المسير :

6/ 215 ، واللسان : 4/ 11 (أجر) . [. . . . .]

(5) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 332 ، وتفسير الطبري : 20/ 69 ، والمفردات : 90 ، واللسان : 14/ 138 (جذا) .

(6) الفرق - بالتحريك - : الخوف والفزع .

الصحاح : 4/ 1541 ، واللسان : 10/ 304 (فرق) ، والنهاية : 3/ 438 .

كما يقال: ليسكن جأشك وليفرخ روعك «1».

والحكمة في تكرر هذه القصص أنّ المواعظ تكرر على الأسماع ليتقرر في الطباع. أو هو التحدي إلى الإتيان بمثله، ولو بترديد بعض هذه القصص، أو تسلية للنّبيّ وتحسيرا للكافرين حالا بعد حال.

41 وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً: من الجعل بمعنى «الوصف»، كقوله: جعلته رجل سوء «2». أو ذلك في الحشر حيث يقدمون أتباعهم إلى النار.

42 مِنَ الْمَقْبُوحِينَ: الممقوتين، قبحه اللّه وقبّحه «3».

قال عمّار لمن تناول عائشة: اسكت مقبوحا منبوحا «4».

---

(1) ينظر ما سبق في تفسير البغوي: 3/ 445، والكشاف: 3/ 175، والمحرر الوجيز:

11/ 298، وزاد المسير: 6/ 219، وتفسير القرطبي: 13/ 284.

(2) ذكر نحوه الزمخشري في الكشاف: 3/ 180، فقال: «معناه: ودعوناهم أئمة دعاة إلى النار، وقلنا: إنهم أئمة دعاة إلى النار كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة، وهو

من قولك : جعله بخيلا وفاسقا إذا دعاه وقال إنه بخيل وفاسق . ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله جعله بخيلا وفاسقا ، ومنه قوله تعالى : وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً اه .

وأورد الفخر الرازي نحو هذا القول في تفسيره : 24/ 254 عن الجبائي ، من أئمة المعتزلة .

وقال الفخر الرازي : «تمسك به الأصحاب في كونه – تعالى – خالقا للخير والشر» .

وأورد أبو حيان في البحر : 7/ 120 نص كلام الزمخشري ، وعقّب عليه بقوله : «وإنما فسر «جعلناهم» بمعنى : دعوناهم لا بمعنى صيّرناهم جريا على مذهبه من الاعتزال لأن في تصييرهم أئمة خلق ذلك لهم ، وعلى مذهب المعتزلة لا يجوزون ذلك من اللّه ولا ينسبونه إليه» .

(3) إذا جعله قبيحا .

انظر تفسير البغوي : 3/ 447 ، والمفردات للراغب : 390 ، وتفسير القرطبي : 13/ 290 .

(4) أي : مبعدا ، وانظر قول عمار رضي اللّه عنه في الفائق : 3/ 402 ، وغريب الحديث لابن الجوزي : 2/ 215 ، والنهاية : 4/ 3 .

[74/ب] ساحران «1» تظاهرا/ : هما موسى ومحمد «2» عليهما السلام، وذلك حين بعث أهل مكة إلى يهود مدينة فأخبروه بنعته وأوان مبعثه من كتابهم، وسِحْرانِ : التوراة والقرآن «3».

49 هُوَ أَهْدى مِنْهُما : من كتابي موسى ومحمد عليهما السلام.

51 وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ : في الخبر عن أمر الدنيا والآخرة «4».

وقيل «5» : بما أهلكنا من القرون قبلهم ليتذكروا.

52 بِهِ يُؤْمِنُونَ : بالقرآن «6».

54 مَرَّتَيْنِ : أي : بإيمانهم بالكتاب قبل محمد وبالإيمان بمحمد صلى اللّه عليه وسلم.

55 سَلامٌ عَلَيْكُمْ : بيننا وبينكم المتاركة والتسليم.

61 مِنَ الْمُحْضَرِينَ : للجزاء أو إلى النار «7».

---

(1) هذه قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي سِحْرانِ بدون ألف قبل الحاء.

ينظر السبعة لابن مجاهد : 495، والتبصرة لمكي : 287، والتيسير للداني : 172.

(2) معاني القرآن للفراء : 2/ 306، وتفسير الطبري : (20/ 83، 84)، ومعاني

الزجاج:

4/ 148 ، والكشف لمكي : 2/ 175 .

(3) معاني القرآن للفراء : 2/ 306 ، وتفسير الطبري : 20/ 84 ، وتفسير الماوردي : 3/ 231 ، وحجة القراءات : 547 .

(4) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره : 20/ 88 عن ابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 231 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 449 عن ابن زيد أيضا .

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 20/ 88 عن قتادة ، وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج:

4/ 148 ، وتفسير الماوردي : 3/ 231 ، وتفسير القرطبي : 13/ 296 .

(6) ذكره الطبري في تفسيره : 20/ 88 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 232 عن يحيى بن سلام .

وانظر تفسير البغوي : 3/ 449 .

(7) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 334 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 20/ 97 عن قتادة ، ومجاهد .

وانظر تفسير الماوردي : 3/ 235 ، وتفسير البغوي : 3/ 451 .

68 وَيَخْتَارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ : أي : الذي هو خير «1» لهم .

ويجوز نفيا «2» ، أي : ما كان لهم الخيرة على اللّه وله الخيرة عليهم .

76 إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى : كان ابن أخته «3» .

بغى عليه «4» : طلب العلو بغير حق .

لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ : يثقلها حتى تمليها كأنه لتميل «5» بالعصبة من الثقل .

ناء : مال ، والنّوء : الكوكب ، مال عن العين عند الغروب «6» .

لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ : البطرين «7» .

---

(1) تكون «ما» على هذا المعنى موصولة .

ذكره الزجاج في معانيه : 4/ 125 ، والنحاس في إعراب القرآن : 3/ 241 ، والزمخشري في الكشاف : 3/ 188 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 7/ 129 ، وهو اختيار الطبري في تفسيره : 20/ 100 . [. . . . .]

(2) رجحه الزجاج في معانيه : (4/ 151 ، 152) ، وانظر هذا القول في البيان لابن الأنباري :

2/ 235 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1024 ، والبحر المحيط : 7/ 129 .

(3) كذا في «ك» ، ولم أقف على هذا القول ، والذي ورد في التفاسير أنه ابن أخيه ، فلعله تصحف هنا .

قال ابن عطية في المحرر الوجيز : 11/ 329 : «واختلف الناس في قرابة قارون لموسى عليه السلام ، فقال ابن إسحاق : هو عمه . وقال ابن جريج ، وإبراهيم النخعي : هو ابن عمه ، وهذا أشهر ، وقيل : ابن خالته ، فهو بإجماع رجل من بني إسرائيل ، كان ممن آمن بموسى ، وحفظ التوراة ، وكان من أقرأ الناس لها ، وكان عند موسى عليه السلام من عبّاد المؤمنين ، ثم لحقه الزهو والإعجاب . . .» .

وانظر الاختلاف في قرابته لموسى عليه السلام في تفسير الطبري : 20/ 105 ، وتفسير البغوي : 3/ 454 ، وتفسير ابن كثير : 6/ 263 .

(4) يريد قوله تعالى : فَبَغى عَلَيْهِمْ [آية : 76] .

(5) في «ج» : تميل .

(6) الصحاح : 1/ 79 ، واللسان : 1/ 176 (نوا) .

(7) غريب القرآن لليزيدي : 293 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 335 ، وتفسير الطبري :

20/ 111 ، وتفسير القرطبي : 13/ 313 .

79 فِي زِينَتِهِ : في موكبه على بغلة شهباء بمركب ذهب في لباس أرجواني «1» .

81 فَخَسَفْنا بِهِ : قال موسى : يا أرض خذيه فابتلعته ، فقيل : أهلكه ليرثه ، فخسف بداره «2» .

82 وَيْكَأَنَّ اللَّهَ : قيل : «وي» مفصول ، وهو اسم سمّي به الفعل ، أي : أعجب ، ثم ابتدأ وقال : «كأن اللّه يبسط» «3» .

وقيل «4» : بأنه «ويك بأنّ اللّه» فحذفت الباء ، ومعناه : ألم تر ؟ أو ألم تعلم ؟ أو معناه : «ويح» أو «ويلك» «5» ، ومعنى الجميع التنبيه .

85 فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ : أنزل على لسانك فرائضه «6» ، أو فرض العمل به «7» أو حملك تبليغه «8» .

---

(1) أخرج نحوه الطبري في تفسيره : 20/ 115 ، عن ابن جريج ، والحسن .

ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 455 عن مقاتل ، وعزاه ابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 243 إلى وهب بن منبه .

قال الزجاج في معاني القرآن : 4/ 156 : «الأرجوان في اللغة صبغ أحمر» .

(2) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره : 3/ 240 عن مقاتل ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 3/ 245 ، والقرطبي في تفسيره : 13/ 317 .

(3) هذا قول الخليل في كتابه : العين 8/ 443 ، وهو عن الخليل أيضا في الكتاب لسيبويه :

2/ 154 ، وتأويل مشكل القرآن : 526 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 157 ، وصحح الزجاج هذا القول .

(4) انظر هذا القول في الكتاب لسيبويه : 2/ 154 ، ومعاني الأخفش : 2/ 654 ، وتفسير الطبري : 20/ 120 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 156 ، والبحر المحيط : 7/ 135 .

(5) ذكره الخليل في العين : 8/ 442 . وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 312 ، ومعاني الزجاج :

4/ 156 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 244 .

(6) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 241 عن ابن بحر .

(7) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 336 ، والزجاج في معانيه : 4/ 157 ، وأورده الماوردي في تفسيره : 3/ 241 ، وقال : «حكاه النقاش» .

ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 458 عن عطاء .

(8) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 241 ، وقال : «حكاه ابن شجرة» . [. . . . .]

(86/583)

لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ : مكة «1» . نزلت ب «الجحفة» حين عسف «2» به الطريق إليها فحنّ .

88 إِلَّا وَجْهَهُ : إلّا ما أريد به وجهه «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 638. 647 ﴾

---

(1) ورد هذا القول في أثر أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : 6/ 18 ، كتاب التفسير ، باب إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وانظر هذا القول في تفسير الطبري : 20/ 125 ، وتفسير الماوردي : 3/ 241 ، وتفسير ابن كثير : 6/ 270 .

(2) قال ابن الأثير في النهاية : 3/ 237 : «العسف في الأصل : أن يؤخذ المسافر على غير طريق ولا جادة ولا علم» .

وفي الصحاح : 4/ 1403 (عسف) : «العسف : الأخذ على غير الطريق» .

(3) ذكره الإمام البخاري في صحيحه : 6/ 17 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة القصص .

وذكره الطبري في تفسيره : 3/ 127 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 242 عن سفيان الثوري ، وأورده ابن الجوزي في تفسيره : 6/ 252 ، وقال : «رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الثوري» .

(87/583)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة القصص

عدد 49 - 28

نزلت بمكة بعد سورة النمل عدا الآيات من 52 إلى 55 والآية 82 فانهن نزلن بالمدينة ، وهي ثمان وثمانون آية ، وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة ، وخمسة آلاف وثمانمائة حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "طسم تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ" 2 تقدم تفسيرها في الشعراء المارة ، وفيها

إشارة إلى آيات هذه السورة وأنه قد بين فيها الحلال والحرام والحدود والأحكام ، والوعود والوعيد ، والإخلاص

(88/583)

و التوحيد ، والقصص ، والأخيار ، والأمثال ، والاعتبار ، مما هو ثابت في اللوح المحفوظ ، فيا أكرم الرسل إنا "نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ" أي من بعض خبرهما كما يفهم من لفظ من ، ولأن نبأ موسى مع فرعون لا ينحصر في هذه السورة كما علمت مما مر وما يمر عليك بعد ، وهذا الإخبار "بِالْحَقِّ" الواقع لنتلوه "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" 3 به فينتفعون بأحكامه ، أما غير المؤمن فلم تنفعه الموعظة ، ثم شرع يقص ذلك النبأ فقال : يا حبيبي "إِنَّ فِرْعَوْنَ" ملك مصر الوليد الرباني "عَلا فِي الْأَرْضِ" تجبر وتكبر وترفع على أهلها وما حولها "وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً" فرقا بقصد إضعافهم وجعلهم صنوفا في خدمته وخدمة زملائه ، قهرا فصاروا يشايعونه على ما يريد بحيث لا يملك أحدهم أمر نفسه ولا يقدر على مخالفته وأنه "يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ" أي بني إسرائيل ولا يعاملهم معاملة القبط قومه ، ولا يعدل بينهم إذ يكرم القبط ويهفي بني إسرائيل ويضيق عليهم ، فيستخدمهم ويسخرهم ويسيء إليهم ، وهم لا يعارضونه بشيء من ذلك ، وقد حدا به العنفوان إلى استرقاقهم وتشغيلهم بأنواع

الخدم الشافة ولم يكتف بذلك حتى صار "يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ" إذلالا لهم "وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ" أي يبقيهن أحياء ليستعملهنّ هو وقومه في مصالحهم وذلك أنه أخبره بعض كهنته بأنه سيولد منهم ولد يكون سببا في خراب ملكه ، ولهذا وقع الخوف في قلبه ، فصار يذبح الذكور ويبقي الإناث ، وقد استكانوا له حذرا من ذبح الكبار ايضا "إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" 4 الراسخين في الفساد لكثرة ما أوقعه فيهم من القتل

(89/583)

بسبب ما تخيله من قول الكاهن زيادة على اعماله القبيحة معهم ، بقصد اصغارهم ، ولذلك جعلهم شيعا لئلا تتفق كلمتهم فينا وئوه ومن هنا أخذت قاعدة (فرق تسد) وصارت الحكومات الغاشمة إذا استولت على غيرها قسمت بلادها إلى حكومات صغيرة ، وأوقعت التنافس بينهم ليشتغلوا بعضهم ببعض ، ويركنوا للمولى عليهم ، قال تعالى "وَنُرِيدُ" بعد أن أظهر فرعون تماديه على الكفر واسترقاق بني إسرائيل "أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا" منهم "فِي الْأَرْضِ" من قبله ونهلكه وقومه ولننعم ونتفضل

(90/583)

عليهم "وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً" أنبياء وملوكا يصلحون ما فسد من أمرهم ويرفعون الظلم عنهم ويساوون بين الناس "وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ" 5 لملك فرعون "وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ" نوطنها لهم ونثبت أقدامهم بها ونجعلها مسكنا لهم ، ليكونوا قادة في الخير وحكاما بالعدل ، يرفعون الجور ويطهرون الأرجاس التي كان يفعلها فيهم "وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ" وزيره وعونه على مظالمه "وَجُنُودَهُما" الذين هم سبب قوتهما وبطشهما ومتانة شكيمتهما "مِنْهُمْ" من بني إسرائيل ، والجار متعلق بنري المتقدم لا بيحذرون ، لأن الصلة لا تتقدم على الموصول "ما كانُوا يَحْذَرُونَ" 6 من خراب ملكهم ، أي نري فرعون ووزيره وجنوده الذين كانوا يقتلون أولادهم لمحافظة دولتهم ، ونحفظ هذا الولد الذي سيكون سببا في ذلك من كيده وتربيته في بيته وعلى يده ، ليعلموا أن حذرهم لا يغني شيئا من اللّه ، وأن لا راد لما أراده ، وسنحقق ما توهموه في قول الكاهن "وَ" بعد أن ولد نبيهم "أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى" يوحاته من نسل لاوي بن يعقوب بعد أن ولدته وحارت في أمرها ماذا تفعل به ، لأن شرطة فرعون يتحرون الدور ويتفقدون الحبالى ليذبحوا الذكور من أولادهم ، واشتد خوفها عليه منهم ، فألهمناها وأشرنا إليها "أَنْ أَرْضِعِيهِ" أي قذفنا في قلبها ما معناه ذلك وقلنا لها "فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ" من اطلاع الشرطة ولم تقدري على دفع ما يحوك في صدرك من الخوف عليه ، فضعيه في صندوق "فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ" وكان هذا الوحي بطريق الإلهام أو الرؤيا أو بواسطة الملك كما

كان يتمثل لمريم عليها السلام ، وعلى كل فلا يسمى وحي رسالة لأن المرأة لا تكون مرسلة من اللّه ، والمراد باليم نيل مصر وكل نهر كبير يسمى يما أي بحرا "وَ" قلنا لها أيضا لتطمئن عليه "لا تَخافِي" عليه من الغرق ، لأنا حافظوه "وَلا تَحْزَنِي" على فراقه بعد أن تلقيه وتحققي "إِنَّا رَادُّوهُ

(91/583)

إِلَيْكِ" قريبا لتربيه بطلب من فرعون عدوه ، وبصورة لطيفة وحالة بديعة "وَجاعِلُوهُ" بعد كبره "مِنَ الْمُرْسَلِينَ" 7 إلى

فرعون وقومه ، فامتثلت ما قذف في روعها من ذلك الإلهام الإلهي ، وبعد أن أرضعته خفية مدة وتحقق خوفها عليه من كثرة التحري من أعوان فرعون رجالا ونساء بلا فتور ، جاءت

بتابوت ودفعته فيه وألقته في النيل كما أمرها اللّه ، فالتقطه آل فرعون ، وذلك أن قسما من النيل يمر في قصره وأخذته الجرية إليه ليتم مراد اللّه و"لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً" في عاقبة أمره ، أي ربّوه لهذه الغاية ، ولو علموا لقتلوه ، ولكن أمر اللّه واقع لا محالة على حد قولهم (للموت ما تلد الوالدة) والوالدة لم تلد ليموت ولدها بل ليحيا ، وهؤلاء التقطوه وفرحوا به ليكون لهم

صاحبا ومفرحا ، لا ليكون عدوا وحزنا "إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ" 8 بعملهم ذلك وهو تصدّيهم لقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل ، لئلا يفوتهم من أخبروا به بأنه سيكون خراب ملكهم على يده ، ولهذا عاقبهم اللّه على فعلهم بأن قدر عليهم أن يربّوا عدوهم الذي يتوقعون منه هلاكهم ، ويتحروه ليل نهار بأيديهم وتحت رعايتهم ، ليكون ندمهم أكثر وتحسرهم أشد ، ويكونوا خاطئين بتربيته لا يشعرون أنه هو ، ولا بدع فإنهم خاطئون فيما يأتون ويذرون ، لأنهم لا يدينون بالإله الواحد ولا يعلمون أن ما يريده اللّه لا بدّ أن يقع ، أرادوا أو أبوا .

(92/583)

وخلاصة القصة قال الأخباريون إن كاهنا من قوم فرعون أخبره بأن هلاكه وملكه سيكون على يد رجل يولد من بني إسرائيل ، وأشار عليه أن يأخذ حذره ، ويستعد لعاقبة الأمر لأنه واقع لا محالة ، وقد رعب فرعون من هذا الخبر ، فرأى غضب اللّه عليه أن يأمر بقتل كل ولد ذكر يولد من بني إسرائيل ، من تاريخ إخباره من قبل الكاهن لسلامة نفسه وملكه ، وهذا من فظاعة عتوه وبغيه وكبير كبريائه وطغيانه وكثير جهله وحمقه لشدة حرصه وطمعه في الدنيا اقتداء بأخيه النمرود حيث فعل فعله هذا حينما أخبره الكاهن بمثل ما

أخبر فرعون ، وصار يقتل الأولاد ويترك الإناث ، ولكن اللّه تعالى لم يسلطه على إبراهيم ، وقد كان هلاكه بسببه كما ستأتي قصته في الآية 83 من سورة الأنعام في ج 2 ، مع أنه يعلم أن لا راد لما قضى اللّه ولا مانع لما أراده ، ولكن تهالكه على الملك أعمى بصره وبصيرته ، وإن أخذه يقول الكاهن دليل على قلة عقله ، لأنه إن صدقه لم ينفعه القتل ، لأنه قال له سيكون ذلك ، وإن كذبه فلا معنى للقتل ، قالوا عين حراسا وقوابل من القبط على نساء بني إسرائيل ، وأمرهم بأن يذبحوا كل مولود

ذكر ويتركوا الأنثى ، وقد أقره وزراؤه على ذلك وعظماء جنوده أيضا ، ولهذا خطأهم اللّه جميعا وعمهم بعذابه ، قالوا ولما حملت أم موسى كتمت أمرها عن جميع الناس حتى عن ذويها ، وكانت إحدى القوابل صاحبة لها فلما جاءها المخاض حضرت فولدتها فرأت ما هالها من نور عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ورجف فؤادها ، فقالت لأمه هذا واللّه عدوّنا الذي أخبر به الكاهن ، لأنها قبطية ، ولكن أحببته حبا شديدا ، فاحتفظي به عن أعين الناس ، وسأكتم أمره ، وخرجت من عندها .

(93/583)

فتسابق لها الحراس وسألوها ، فأنكرت عليهم ، ثم تسارعوا إلى الباب ليروا هل فيه امرأة والدة ، فرأتهم أخته وقالت لأمها ها هم أولاء الحراس بالباب ، فارتبكت ولفته بخرقة وطرحته في التنور ، ومن دهشتها نسيت أن فيه نارا ، فدخل الحراس وتحرّوا فلم يجدوا شيئا ، ورأوا التنور يلتهب نارا ، فقالوا ماذا أدخل عليك القابلة وأنت غير حبلى ؟ قالت إنها صاحبة لي وتزورني أحيانا ، ولما خرجوا بادرت إلى التنور فوجدته يلعب ولم يصبه شيء ، فأخرجته ، وهذا أول دواعي الحفظ الإلهي ، إذ أن القبطية كتمت أمره والنار انقلبت عليه بردا وسلاما ، وصارت ترضعه سرا وهي خائفة وجلة من شرطة فرعون الذين يباشرون التحري صباح مساء ، فألقى اللّه في قلبها أن تفعل بما ألهمت ، فاصطنعت تابوتا عند نجار قريب منها ووضعته فيه وألقته في نهر النيل ، فهمّ النّجار أن يخبر به الشرطة فأمسك اللّه لسانه ، فجعل يشير إليهم بيده فلم يفهموا ، فأوجعوه ضربا ليخبرهم بما يريد وأراد أن يفهمهم بالإشارة فأعماه اللّه ، فأشبعوه ضربا ثم تركوه في الأرض ، ولم يعلموا أن لسانه أمسك وبصره عمي ، فبقي حيران في نفسه ، فقال في قلبه إن رد اللّه علي بصري ولساني لأسعين على حفظه أينما كان ولأكونن في خدمته ، ولأكتمن أمره ، فرد اللّه عليه بصره ولسانه لعلمه بصدق نيته ، فقال يا رب دلني عليه ، فألقى في قلبه أنه في بيت فرعون ، فذهب إليه وآمن به وصدقه بمجرد رؤيته له ، لما تفرس فيه من الخير ، وألقى في قلبه مودته ونصرته ، وهذا هو مؤمن آل فرعون .

وقيل إنه ابن عمه الآتي ذكره في الآية 27 من سورة المؤمن في ج 2 وفي الآية 19 من هذه السورة .

قالوا وكان عند فرعون بنت هي أكرم الناس عليه يقضي لأجلها

(94/583)

في كل يوم ثلاث حاجات وكانت برصاء أعيا الأطباء شفاؤها ، فأخبره السحرة بأنها لا تبرأ إلا بريق شبه إنسان من البحر ، ويكون ذلك في يوم كذا عند شروق الشمس ، وفيه غدا فرعون إلى مجلس له كان على ضفة النهر المار في قصره ، ومعه آسية بنت مزاحم زوجته وبنته المذكورة وجواريها ، فرأى فرعون شيئا طافيا على وجه الماء ، فأمر ملاحته فأتوا به فإذا هو تابوت من خشب ، فعالجوا فتحه فلم يقدروا ، فأخذته آسية ففتحته وإذا فيه صبي يمص رزقه من إصبعه ، والنور ساطع بين جبينه ، ورأت بنت فرعون لعابه بسيل من شدقيه ، فأخذته ولطخت به برصها فبرئ من ساعته ، فأحبّته حبا شديدا ، وصارت تقبله وتضمه إلى صدرها وكذلك آسية ، وسمع ملأ فرعون به ، فقال غواتهم أيها الملك نخشى أن يكون هذا هو المولود الذي أخبرنا به بالنظر لما نتوسم به ، وأشاروا بقتله وأجمعوا على ذلك ، وكانت آسية حين أخرجته من التابوت سمته موسى لأنه كان طافيا

بين الماء والشجر ، الماء بلسان القبط معناه موو الشجر سا ، فقالت إن الذي أخبرتم به من بني إسرائيل ، وهذا لا يعلم أنه منهم ، والذي أخبرتم به من مواليد هذه السنة ، وهذا ابن سنتين وخطأت رأيهم ، واستوهبته لنفسها من فرعون ، فوهبه لها وأجمعت هي وتبنته على حبه ، وهذا مغزى قوله تعالى "وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ" اتركه هو "قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ" قال تركته لك لا لي ، انه عبراني من الأعداء كيف أخطأه الذبّاحون ، وقد جاء في الحديث لو قال كما قالت لهداء اللّه كما هداها ، ولكن من طبع على قلبه لا هادي له ، ثم التفتت آسية إلى الغواة الذين أشاروا بقتله ، وانتهرتهم بما قص اللّه تعالى بقوله "لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً" والتفتت إلى فرعون منتحلة سببا آخر وقالت ، إنك أمرت بذبح أولاد هذه الأرض وقد أتانا من أرض اخرى ، ثم جهلت الوزراء فقالت "وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" 9 انه هو المخبر به من قبل

(95/583)

الكهنة ، وهذه الأسباب الثلاثة مانعة من كونه هو ، لانه لم يعلم انه من بني إسرائيل وهو في ارض غير ارض مصر ، وهو ابن سنتين والمأمور بذبحهم أولاد هذه السنة ، وكان عمره عليه السلام إذ ذاك ثلاثة أشهر ، لكن

الأنبياء يشبون بالشهر شباب الصبي من غيرهم بسنة بحكمة ربانية ، فسكت فرعون وملؤه ، ولم يردوا عليها .

واعلم ان هذا التفسير الذي جرينا عليه أولى من جعل وهم لا يشعرون حالا من آل فرعون ، وجعل جملة إن فرعون وهامان اعتراضية ، وأنسب بالمقام ، وأوفق للسياق ، واشيع للمعنى ، قالوا وكانت آسية من خيار الناس ومن بنات الأنبياء ، ترحم المساكين وتتصدق عليهم ، والقى اللّه محبته في قلب فرعون ايضا فحقق اللّه فيه ظن آسية لما رأت فيه من مخايل البركة ودلائل النجابة ، وقيل في المعنى :

في المهد ينطق عن سعادة جده أثر النجابة ساطع البرهان

وحقق اللّه ظن فرعون وقومه أيضا قال :

إذا لم يكن عون من اللّه للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

قال تعالى "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً" من الصبر ناسيا ما نفث فيه من الإلهام الإلهي خاليا من كل شيء ، ملآن بذكر موسى إذ بلغها أنه وقع بين يدي عدوه ، وانتهكها الندم على ما فعلت بيدها ، حتى أسلمته لعدوه وأنساها عظم بلاء الفقد ما كان عهد إليها من قبل اللّه بحفظه ، وبلغ بها الحال إلى "إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ" تصرح للناس علنا أنه ابنها لما دهمها من الضجر وأنه هو ابن ثلاثة أشهر وإسرائيلي ومن أرض مصر ، وأنها صنعت ما

صنعت من شدة وجلها عليه "لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها" فثبتناه بإلقاء الصبر الجميل فيه ، وربط القلب تقويته بايقاع الصبر فيه "لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" 10 بوعدنا المصدقين فيه .

(96/583)

قال يوسف بن الحسين أمرت أم موسى بشيئين ، ونهيت عن شيئين ، وبشرت بشارتين ، فلم ينفعها الكل حتى تولى اللّه حياطتها ، فربط على قلبها وفي هذه الآية من البلاغة ما لا يخفى

"وَقالَتْ لِأُخْتِهِ" مريم بنت عمران "قُصِّيهِ" تتبعي أثره بدقة واعلمي خبره بسر وأخبريني حاله فذهبت إلى ديار فرعون "فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ" بعد بحيث كأنها لم تنظر إليه ، ولا يهمها شأنه ، وصارت تنظره اختلاسا ، بطرف عينها بحيث تري الغير أنها غير عابئة به وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ 11 "أنها أخته أو أنها تنظر إليه ، ولما أراد اللّه انجاز

وعده برده إلى أمه ، منعه من أن يقبل ثدي المراضع اللاتي أحضرن لإرضاعه قال تعالى "وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ" مجيء أخته ، ولما رأت أخته أن أمره أهمهم لكثرة ما أحضرن له من المرضعات وهو ينقلب من يد زوجة فرعون إلى يد ابنته فيقبلانه ويضمّانه إلى صدرهما ، تسربت بين المرضعات وتقدست "فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ

يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ" 12 بالتربية والغذاء والنظافة والإخلاص فيوضعونه ويضمّونه كما تريدون ، وهذا الطلب على طريق العرض بلين ورفق وتؤدة ، قالوا من هي ؟ قالت أرشدكم إلى امرأة قتل ولدها وأحب شيء لها أن ترضع ولدا ، قالوا وكان هامان يسمع قولها ، فقال إنها عرفته فلتدلني على أهله لأنها قالت وهم له ناصحون ، فأمسكوها ، قالت اني أردت أنهم ناصحون للملك لا له ، وقد قلت هذا رغبة في سرور الملك ، لأني رأيت زوجته وبنته قد أهمهما أمره فيتداولانه ويضمّانه على صدرهما ، وأن الملك قد أخذه وضمه إلى صدره ، وهو يبكي .

(97/583)

وهذا أيضا من أسباب حفظ اللّه تعالى له إذ أنطقها بما أسكتهم : ثم قالت لهم بعنف وشده غضب اعلموا أنا متصلون بالملك يسوءنا ما يسوءه ويسرنا ما يسره ، وأرادت أن تذهب من بينهم حنقا لما سمعت من قول هامان ، فتمسكوا بها وقالوا لها من هي هذه المرأة ؟ قالت هي أمي ، قالوا هل لها ولد ؟ قالت نعم قالوا ما اسمه قالت هارون ولد في السنة الماضية التي لا يقتل فيها الأولاد ، قالوا الآن صدقت ، فأتينا ؟ ؟ ؟ بها فانطلقت مسرعة وأخبرت أمها الخبر كله ، وجاءت بها فأعطوها الولد ، فالتقم ثديها حالا إذ عرفها أنها أمه

من ريحها ، فقالوا لها ولم امتصّ ثديك تواً ؟ ؟ ؟ مع انا أكثرنا عليه المراضع فلم يأخذ ثدي أحد منهم ؟ قالت إني امرأة طيبة اللبن والرائحه لم أوت بصبي لم يقبل ثدي مرضعة إلا وقبل ثديي ، وان شئتم فجربوا ، فأعطوه لها واشترطوا كل يوم دينارا .

مطلب في الرضاع والحكم الشرعي فيه ومعنى الأشد :

وقد جاء في الخبر عن سيد البشر ليس للصبي خير من لبن أمه أو ترضعه امرأة صالحة كريمة الأصل فإن لبن المرأة الحمقاء يسري (في الولد) واثر حمقها يظهر يوما

(98/583)

(أي فيه) وجاء في حديث آخر الرضاع يغير الطباع ، وقالوا العادة جارية بأن من رضع امرأة فالغالب عليه أخلاقها من خير أو شر (الحكم الشرعي) جواز الإرضاع لحاجة ولغير حاجة ، وجواز أخذ الأجرة عليه عدا الأم فلا يجوز أخذ الأجرة على إرضاع ولدها في شريعتنا ، ولا تجبر على إرضاع ابنها إلا إذا كان لا يقبل ثدي غيرها ، ولعله كان في شريعتهم جائزا وهو من قبيل اختلاف الشرائع في الفروع ، وإذا كان لم يجز عندهم أيضا فيكون أخذها الأجرة من قبيل التقية حرصا على إمساك ولدها ، ولئلا يعرفوها أنها أمه ، وبقيت ترضعه إلى الفطام ، وتردد عليه إلى بلوغه المراهقة ، هذا فعل اللّه أيها الناس بحفظ

عباده وإنجاز وعده لهم ، فتأملوا رحمكم اللّه كانت تريد أن تراه وتعطي ما يريدونه منها فأخذته بالأجر ، وكانت هي أحق بإعطاء الأجر ، ألا له الخلق والأمر .

قال :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ثم ؟ ؟ ؟ فالمخاوف كلهن أمان

قال تعالى "فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا" فرحا به "وَلَا تَحْزَنَ" على فراقه ولا يدوم أسفها عليه "وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" إنجازه لا يبدل ولا يغيّر "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" 13 ذلك فيرتابون فيه أو يشكون فيحرمون من إنجازه لعدم تعلقهم باللّه تعلقا خالصا ، لأن منهم الجاحد والمنكر ومنهم المتردد ، وكلهم خاسرون هالكون والناجحون هم المخلصون الموقنون .

وفي هذه الآية تعريض لأم موسى بسبب ما فرط منها من الجزع ، مع أن اللّه تعالى أمتها عليه ، قال تعالى "وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ" وهو ثلاثون سنة "وَاسْتَوَى" كمل عقله واعتدل رأيه ، وبلغ سن الأربعين "آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً" نبوة وسلطانا وفقها ومعرفة في الدين والدنيا "وَكَذَلِكَ" مثل هذا الجزاء الحسن "نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" 14 من سائر الناس كما جازينا أم موسى إذ قبلت أمرنا وألقت ولدها في البحر ، فرددناه عليها وجعلناه رسولا خليلا .

وفي الآية تنبيه على أن أم موسى كموسى كانت محسنة في بداية أمرها ، فجزاها اللّه هذا الجزاء وجعلها أمّا لنبيه وما ذكرنا من معنى الأشد هو الصحيح المعول عليه ، وهو حتما دون الأربعين ، قال تعالى (إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ) وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً

الآية 15 من سورة الأحقاف في ج 2 ، وهذه الآية تدل على أن الأشد دون الأربعين دلالة صريحة ، ولهذا قال هنا استوى والاستواء ما بين الثلاثين إلى كمال الأربعين وبه يظهر معدن الإنسان ، وهو سن الكمال الذي يطبع المرء على ما كان عليه فيه من صلاح أو غيره غالبا ، قال :

إذا المرء جاز الأربعين ولم يكن له دون ما يهواه جاه ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي مضى وان جر أسباب الحياة له العمر

وقال الآخر :

وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت من الأربعين

(100/583)

ثم شرع اللّه يقص علينا ما وقع من موسى وهو عند فرعون قبل ذهابه إلى مدين وتشرفه بالرسالة بدليل العطف بالواو ، لأنها لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، أو أن الواو في قوله تعالى "وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ" واو الاستيناف عن ذكر قصة أخرى تتعلق بموسى بعد أن ختم قصته أمه ، والمراد بالمدينة المدينة التي فيها قصر فرعون غربي النيل بمسافة اثني عشر ميلا من مدينة فسطاط مصر المعروفة بمصر القديمة ، وهي أول بلدة أنشئت بمصر بعد الطوفان واتخذت قصرا لملوك مصر قديما ، ولعلها التي يسمونها الآن (بالاقصر) قالوا وكان فرعون وملؤه لا يريدون أن يخرج منها لانه صار ينتقدهم فيؤنبهم وينكر عليهم عبادتهم ، فتمكن يوما من الخروج من قصره في وقت لا يظن الناس فيه خروجه وفي زمن خلوّ من اجتماع الناس ، يدل عليه قوله تعالى "عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها" أي في وقت لا يتوقعون دخوله فيها ولا يعتاد الخروج فيه لانه وقت الاستراحة ، قيل كان وقت القيلولة او ما بين المغرب والعشاء "فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ" وقريء يقتلان بإدغام التاء بمثلها "هذا مِنْ شِيعَتِهِ" من اتباع موسى وأنصاره قيل هو السامري ، لان ما أظهره في الآية دليل على انه هو "وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ" من القبط وهو طباخ الملك واسمه ثاثون على ما قيل ، وسبب المنازعة ان القبطي كلّف الإسرائيلي حمل حطب لمطبخ الملك ، فأبى على خلاف العادة ، لأن الاسرائيلي لا يمتنع من خدمة القبطي ، لأنهم كالعبيد يأتمرون بأمرهم فيما يكلفونهم به نساء

و رجالا ، إلا أنهم عزّوا بوجود موسى عند فرعون والتفاف زوجته وابنته عليه ، وصاروا يناوئون القبط أحيانا ويعارضونهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه ، لا سيما وان الذليل إذا رأى نفسه تعزز لا يطاق كما هو مشاهد في غير المسترقين فكيف بمن صار الرق له ديدنا ؟ ولهذا فإن مثل هذه المخالفات صارت تجري منهم على غير المعتاد ، وبما أن خصمه طباخ الملك والحطب لمطبخه اغتاظ القبطي وهاجمه بالضرب ، ولما رأى موسى أن القبطي هو المعتدي ضربه بجميع يده ليردعه عن ضرب الإسرائيلي ، ولا يعلم أن ضربته هذه تقضي لموته لأن الأنبياء معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها ، قال تعالى حاكيا حالهما "فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ" أماته خطأ ، والقتل خطأ صغيرة لا كبيرة ، والوكز عادة لا يؤدي للموت لأنه ضربه بجميع يده أو دفعه برؤوس أصابعه ، ولا مظنة فيها للقتلى والقتل بغير آلة مفضية له لا يعدّ جناية مقصودة بالمعنى المراد فيها لا سيما إذا عرت عن النية ، ولكن لما رأى وكزته قضت على حياته ولم يكن يتصور حصول الموت بها ندم عليه السلام قالوا ثم جر جثته ودفنها بالرمل و"قالَ هذا" الذي وقع "مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ" الذي غايته استذلال البشر وإيقاعه في الخطايا "إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ" 15 مظهر العداء والضلال إلى الإنسان ، ثم رفع يديه "قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي" بما فعلت قال هذا على سبيل الاتضاع والاعتراف بالتقصير ، لأن الأنبياء يعدون

ما يقع منهم كبيرا مهما كان بالنسبة لقامهم ، وفعله هذا كان قبل النبوة بكثير يدل عليه قوله تعالى (فَعَلْتُها إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ) الآية 19 من سورة الشعراء المارة "فَاغْفِرْ لِي" ما وقع مني واستره علي ولا تؤاخذني به لئلا يطلع فرعون فينتقم مني "فَغَفَرَ لَهُ" وأجاب دعاءه جزاء اعترافه ووصم نفسه

(102/583)

بالظلم "إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" 16 كثير الرحمة بأوليائه الأبرار وقد ستره اللّه عليه فلم يشاهده أحد عند الضرب ولا عند الدفن "قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ" بالستر والمغفرة ، وأقلت عثرتي وقبلت توبتي "فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً" معاونا ونصيرا أبدا "لِلْمُجْرِمِينَ" 17 الذين يوقعون غيرهم

بالإجرام ، الذين تؤدي معاونتهم إلى إيقاع الجرم ، ويجرونهم إلى الخطأ والهفوات .

واعلم انه عليه السلام انما عرف أن اللّه تعالى غفر له ولم يتنبأ بعد فبإلهام من اللّه قذف في روعه الشريف ، وكان عمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ومن كان في هذا السن لا يعاقب كما مر لك في الآية 19 من الشعراء ، والمادة 40 من قانون الجزاء تنص على هذا ، وما قيل انه برؤيا رآها يستبعدها العطف بالفاء ، ولمّا لم يستثنى ابتلاء اللّه ثانيا ، قال تعالى "فَأَصْبَحَ

فِي الْمَدِينَةِ" التي قتل فيها القبطي "خائِفاً يَتَرَقَّبُ" حلول المكروه من أولياء المقتول أو من فرعون ، ويترصد الأخبار ليعرف هل وقف أحد على فعلته هذه أم لا ، لأنه أمن من الجزاء المعنوي بمغفرة اللّه وبقي الجزاء الحسيّ وقد أشغل فكره ذلك ، إذ صار يتوقع القبض عليه ويترقب المكروه في نفسه "فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ" يستغيث به عن بعد من قبطي آخر معه "قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ" أيها الاسرائيلي "لَغَوِيٌّ مُبِينٌ" 18 مظهر الغواية خال عن الرشد ، إنّك قاتلت رجلا بالأمس فاستغثت بي عليه فقتلته بسببك ، والآن تقاتل غيره ؟

(103/583)

فقال إنه تعدى على أيضا مثل ذلك ، وبما أنه عليه السلام يعلم كثرة تعدي القبط على الاسرائيليين فقد أخذته الغيرة وساقته الحمية على الاسرائيليين لأنهم من دمه ، فظهر عليه الغضب السائق للانتقام "فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما" في الأصل وهو القبطي "قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ" كأنه توهم من قوله للإسرائيلي انك لغوي مبين أنه هو الذي قتل القبطي المار ذكره الذي لم يعرف قاتله لأنهم لما فقدوه تحروا عليه فوجدوه قد دسّ بالرمل ، فأخذوه ولم يعرفوا قاتله .

وهذا التفسير موافق لظاهر الآية وسياقها ولقوله تعالى "إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ" الجبار هو الذي يفعل الفعلة لا يخاف عقباها "وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ" 19 فيها بأن تدفع بالتي هي أحسن ، لأنه يبعد على الاسرائيلي الذي انتصر له أولا وآخرا أن يقول في حق موسى هذا القول وهو وغيره ، عرف أن ما حصل لهم من العزة والمكانة إلا بسبب وجوده ، ويجدر بالقبطي

أن يقول ذلك القول لأنه عرف من فحوى المخاطبة بين موسى والاسرائيلي والاستغاثة به عليه ان قتل القبطي وقع منه ، وكلاهما يعلم أن ما حصل للاسرائلين من المهابة هو لأجل موسى لأنه تربى في بيت الملك ، ويعلمون أن الملك وزوجته وبنته يحبونه حبا جما ، فقال ما قال بحقه ، هذا ، وأن أكثر المفسرين مشوا على أن القائل هو الاسرائيلي لأنه توهم إرادة البطش بدون القبطي ، لأنه سماه غويا فقال ما قال بحق موسى وفشى أمره بين الناس بأنه هو القاتل ، ولذلك قالوا انه ، السامري ، فيكون جزاء موسى منه افتضاح أمره ووصمه بالجبارية وعدم الإصلاح فيصدق عليه قول القائل :

ومن يفعل المعروف في غير أهله يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

(104/583)

أو المثل المشهور (يجازى جزاء سنمار) ويصدق الخبر الوارد : أبت النفس الخبيثة ان تخرج من الدنيا حتى تسيء لمن أحسن إليها ، والخبر الذي نقله الغزالي رحمه اللّه : اتق شر من أحسنت إليه .

وارى التفسير الأول اولى واللّه اعلم .

قالوا وكان اهل المقتول الأول راجعوا فرعون بقضية قتيلهم ، إذ وجدوه ولم يعلموا قاتله ، فقال حققوا واخبروني ، وقد صادف ان حضروا هذه الحادثة الأخيرة وما قاله موسى وما رد عليه به على التفسيرين المارين فتعرفوا ان القاتل هو موسى ، فذهبوا واخبروه هذا ما قصه اللّه علينا في كتابه العظيم من القتل والمقتول والقاتل اما الموجود في التوراة الموجودة الآن هو ان الرجلين الأولين كما قص القرآن اما الآخران فكلاهما من بني إسرائيل ووجه العداوة ان هذا الذي أراد أن يبطش به موسى كان ظالما لمن استصرخه ، فيكون بظلمه عدوا له وعاصيا للّه تعالى ، والعاصي للّه عدو لموسى ، وفيها أيضا ما هو صريح في أن الظالم هو قاتل ذلك ، يعني موسى عليه السلام راجع الاصحاح الثامن من الخروج ص 11 و15 ، ومن المعلوم أن ما يكون في التوراة مخالفا للقرآن لا يلتفت إليه ، وكذلك فيما يخالف السنة ، وذلك بسبب التبديل والتغيير الذي طرأ عليها والنسخ ، وفيما عدا ذلك من أخبار بني إسرائيل وغيرها فلا بأس بأن يستأنس بها لبعض الأمور ، ولا يجب التصديق بها ، ولا ينبغي تكذيبها ، لأن التوراة بالنسبة للعصر الحاضر هو

أول كتاب سماوي موجود في الأرض ، لأن الصحف قبلها درست ولم يبق لها أثر ، وكثير ما فيها من قصة موسى وغيره مخالف لما قصه اللّه في القرآن ، كما يظهر لأول نظرة لمن يطالعها بإتقان ، ويقابل ما بينها وبين القرآن ، لأنك لا تجد فيها ذكرا لمؤمن آل فرعون ونصحه لموسي في هذه القصة البتة ، راجع ما بيناه في تفسير الآية 96 من سورة طه المارة .

مطلب تجوز النميمة والكذب لمصلحة والأخذ بالنصح :

(105/583)

قالوا وكان مؤمن آل فرعون حاضرا حينما جاء أولياء المقتول وأخبروا فرعون وأمر بإحضاره ، وبما أنه آلى على نفسه إدامة النصح لموسى تغيب حالا عن المجلس ، وسار ليخبر موسى ، وهو المعنى بقوله تعالى "وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى " يهرول ويسرع في مشيه ، وكان سلك أقرب الطرق التي سلكته الشرطة للقبض على موسى لينذره بالخطر عليه من بقائه في مصر كلها والمدينة المار ذكرها في الآية 14 ، قالوا ان اسمها منف أو عين شمس أو حابين ، واسم المؤمن حزقيل ، ولما وصل إليه "قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ" الملك ووزراؤه يتشاورون بشأنك "لِيَقْتُلُوكَ" بالقبطي قصاصا ، سمى التشاور ائتمارا ، لأن كلا من المستشير والمستشار يأتمر بأمر صاحبه ، وقد استدل

القرضي وغيره أن النميمة لمصلحة دينية جائزة كما هنا ، وكذلك الكذب لمطلق مصلحة مشروعة "فَاخْرُجْ" الآن "إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ" 20 وكان موسى يعرفه لأنه كان يتفقده دائما وهو واثق به ، وله موقف عال سيأتي في الآية 38 من سورة المؤمن في ج 2

"فامتثل موسى" حالا بدليل قوله "فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً" على نفسه من آل فرعون ، لان العطف بالفاء يدل على التعقيب بلا فاصلة عما قبله "يَتَرَقَّبُ" الطلب لئلا يلحقه فيأخذه إلى فرعون ، وفي هذه الآية دلالة على أن النصح مطلوب والاخذ به كذلك ، والنصيحة بين المسلمين واجبة ، وقد حث عليه الرسول كثيرا ، ولجأ موسى إلى ربه عز وجل لعلمه أن لا ملجأ له إلا إليه "قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" 26 فأجاب دعاءه وأعمى الشرطة عن رؤيته وعن الالتحاق به "وَلَمَّا تَوَجَّهَ" بتوفيق اللّه إياه "تِلْقاءَ مَدْيَنَ" جهتها وقد ساقه اللّه

لطريقها ، وهو لا يعرفه ، لان أهالي مدين من نسل إبراهيم جده عليه السلام ولحكمة أرادها اللّه كما سيأتي ، قالوا وبين مصر ومدين ثمانية أيام ، راجع الآية 40 من سورة طه المارة ، فسار هذه المسافة على قدميه لم يأكل ولم يشرب إلا من نبات الأرض وما يجده من الغدران ، وموتربى تربية ملوكيّة ، وهذا أول بلاء أصابه ، لأنه لما يعرف العناء ، ولما لم

يعرف أين يسير "قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ" 22 الطريق المعدل الموصل إلى ما به النجاة والسواء بمعنى الوسط ، وذلك انه صادف مفترق الطرق فألهمه اللّه أن يسلك الوسط منهما وقيل أن اللّه أرسل ملكا أرشده إليه فسلكه ، قالوا ولما وصل الّذين تعقبوه إلى ذلك المفرق لم يعرفوا أي طريق سلكه كي يتعقّبوه عليه ، فقر رأيهم على أن الخائف لا يسلك الطريق السوي بل يسلك بنياته ، فسلكوا غير الطريق التي سلكها ليتم مراد اللّه الذي أجاب دعاءه بنجاته منهم ، ولذلك فإن الطلب صل مقصوده فرجع خائبا وموسى بلغه "وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ" بئرها المعد لسقي المواشي "وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ" 23 أعناقهم ودوابهم .

(107/583)

واعلم أن لفظ الام من المبهم أحد أقسام البديع ، وله ثمان معان فمعناها في قولك نحن من أمة محمد صلّى اللّه عليه وسلم (الجماعة) وفي رجل جامع للخير يقتدى به كقوله تعالى (إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً) الآية 120 من سورة النحل في ج 2 (الرجل الفذ الجامع) وتأتي بمعنى الحين والزمان في قوله تعالى (إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وقوله (إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ) وقوله (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) وتأتي بمعنى القامة يقال فلان حسن الامة ، وتأتي نعتا للرجل المنفرد بدين قال

صلّى اللّه عليه وسلم يبعث زيد بن عمرو بن تفيل أمة وحده ، ويطلق على الام أيضا

"وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ" بمكان بعيد عنهم أسفل منهم "تَذُودانِ" اغنامهما وتمنعانها من التقرب إلى محل الورود والذود هو المنع فتقرب موسى منهما "قالَ ما خَطْبُكُما" ما شأنكما لا تتركان مواسيكما لتقرب نحو الماء "قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ" مواسيهم عن الماء لأنا لا نستطيع مزاحمتهم حال الورود ، فاذا صدروا عن الماء أسقينا أغنامنا ما يفضل في الحياض ، لأنا لا نقدر أن نستقى بأنفسنا ونخشى القوم

إذا أطلقنا مواشينا على حياضهم ، لذلك نزودها حتى يكتفوا وما لنا أخ "وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ" 24 عاجز لا يقدر أن يحضر إلى محل الماء ، وذكرنا له بأن اسمه شعيب من نسل إبراهيم ، وقرىء رعاء بضم الراء على خلاف القياس ، لأنه من أبنية المصادر والمفردات كنباح وطراح ، وإذا استعمل بمعنى الجمع على القراءة الشاذة فهو اسم جمع لا جمع ، وقيل جمع أصلي والضم فيه بدل من الكسر ، كما أبدل من الفتح في نحو سكارى ، والوارد منه في كلام العرب ألفاظ محصورة ذكرها الخفاجي في شرح درّة الغواص ، والمشهور منها ثمانية نظمها صدر الأفاضل وقيل الزمخشري بقوله :

ما سمعنا كلما غير ثمان هي جمع وهي في الوزن فعال

فرباب وفرار وتؤام وعرام وعراق ودغال

وظؤار جمع ظئر وبساط جمع بسط هكذا فيما يقال

والرباب جمع ربى الشاة الحديثة العهد بالنتاج ، والفرار جمع فرير ولد البقرة الوحشية ، والتؤام جمع توءم المولود مع قرينته ، والعرام بمعنى العراق جمع عرق وهو العظم الذي عليه بقية لحم ، والرفال جمع رفلة الأنثى من أولاد الضأن ، والظؤار جمع ظئر الموضع ، والبساط جمع بسط الناقة التي تخلى مع ولدها ، فاحفظ هذا لعلك لا تجده فتحرم فائدته .

فما سمع كلامهما أخذته الأريحية ، وكان القوم انتهوا من السقي وذهبوا "فَسَقَى لَهُما" أغنامهما ، لا من فضل الحياض بل تقدم إلى البئر ورفع بيده الحجر الذي سدّوا فمه ، وهو لا يرفعه إلا عشرة رجال ، وأخرج ماء جديدا لها ، فشربت حتى صدرت فأخذاها وذهبا ولم يتكلما معه وبقي هو وحده لا يعرف ماذا يفعل "ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ" ظل شجرة قريبة من البئر فاستظل بها من وهج الشمس وقد أحس بالتعب والجوع "فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" 25 أي مطلق خير فأنا محتاج إليه ، ووضع الحاضر موضع المستقبل لشدة ثقته بالله .

قال ابن عباس لقد افتقر موسى إلى شق تمره وهو أكرم الخلق على الله في زمانه ، فما بال

الناس عندهم الكثير ولا يشكرون اللّه الذي أنعم عليهم به ؟ وما قيل إن المراد أنه التجأ إلى ربه عليه

(109/583)

السلام بقوله لما أنزلت إلى من خير الدين صرت محتاجا للدنيا لا أراه لايتأ بحضرته وما احتج به صاحب هذا القول من أنه أراد به إظهار التبجح والشكر غير وجيه واللّه أعلم وفي هذه الآية دليل على جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المنقشفة مستدلين بقوله صلّى اللّه عليه وسلم لا راحة في الدنيا ، لأن المراد من الحديث أنه راحة مطلقة في الدنيا وخاصة لدى الأبرار التشوقين إلى ربهم فإنهم يرون الدنيا كلها تعبا ونصبا ، لا راحة من التعب نفسه ، وقد أنس عليه السلام بالشكوى لما لحقه من الجوع ، ولا نقص فيها عليه بالنسبة لمرتبته ، لأنها إلى مولاه لا إلى غيره ، ومن هذا قول يعقوب عليه السلام جوابا لأولادِهِ نَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

الآية 16 من سورة يوسف ج 2 ، أي لا ينتقد من يشكو همّه لربه .

(110/583)

الحكم الشرعي : جواز الشكوى لمن ألّمت به حاجة وكان عاجزا عن قضائها لمن يأنس منه أنه يجيب شكواه أو يغلب على ظنه ذلك ، هذا ولما وصلتا بأغنامهما إلى دار أبيهما رأى عليه السلام أو اعتقد على القول بأنه أعمى ، وأبصر على القول بأنه بصير وهو الصحيح ، راجع الآية 84 من سورة الأعراف المارة تجد قصة عماه ومعجزاته مفصله هناك أي شاهد الأغنام بطانا بخلاف عادتها ، فسألهما عن ذلك ، فقالتا وجدنا رجلا صالحا فسقى لنا ، فقال لإحداهما اذهبي فادعيه ، فذهبت نحوه قال تعالى "فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ" لأنها جاءت تدعوه لضيافتها ولم تدعه قبلا عند ما سقى لهما ولا تعلم أيجيب دعوتها أم لا ، وكانت مستترة بكم درعها ، مستحية من مخاطبته ، وهذا دليل على إيمانها وشرف عنصرها "قالَتْ" له وهي واضعة يدها على وجهها "إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا" فكره عليه السلام الإجابة إذ كانت بمقابل فعل ، لأنها صرحت له بذلك ، وهي إنّما قالت ذلك لئلا يرتاب بكلامها ، وإذ أسندت الدعوة إلى أبيها وكان عليه السلام بحاجة للراحة والأكل ، أجاب دعوتها ومشى وراءها لأن الدليل عادة يتقدم على المدلول إلا أنه لما رأى الريح تضرب ثوبها فتمثل ردفها ، كره أن يرى ذلك منها لا سيما وقد رأى حياءها وعلم شرفها ، فقال لها تأخري وامشي خلفي ، وإذا أخطأت الطريق فاهديني إليه بكلامك ، فعرفت المغزى من ذلك لما شاهدته من عبث الريح بثوبها ،

فتأخرت وبقيا يمشيان هكذا وهي ترشده بقولها يمينا شمالا حتى وصلا إلى دار شعيب عليه السلام .

(111/583)

قال تعالى "فَلَمَّا جاءَهُ" موسى وجده قد هيأ العشاء وبعد أن تبادلا التحية ، قال شعيب اجلس يا فتى تعشى قال أعوذ بالله ، قال شعيب ولم لست بجائع ؟ قال بلى ولكن أخاف ان هذا الطعام جزاء لما سقيت وإنا أهل ؟ ؟ ؟ لا نطلب على عملنا الأخروي أجرة ، فقال شعيب لا والله ولكن عرفت أنك ؟ ؟ ؟ ريب عن هذه الديار ولا تعرف أحدا ، وكانت عادتي وعادة آبائي إقراء الضيف إطعام الطعام ، فجلس وأكل وتحدث معه وسأله عن مجيئه وسببه ، فذكر له موسى قصته "وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ" من بداية أمره إلى فراره "قالَ" شعيب موسى عليهما السلام "لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" 26 فرعون قومه حيث لا سلطان له على مدين "قالَتْ إِحْداهُما" وهي التي دعته لما سمعت القصة وعرفت أنه لا يقدر أن يرجع إلى بلده "يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ" لرعي غنامنا كي يبقى هنا آمنا من عدوه ، ثم مدحته لترغب أباها به فقالت "إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ" 27 ذكرت قوته لرفعه الحجر عن فم بئر وحده ، وأمانته لأنه أمرها أن تمشي خلفه حتى لا يرى

منها شيئا ، وهاتان لخصلتان مطلوبتان في الأجير ، وجاء الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمين قوي ؟ ؟ ؟ معروف ، وضربت في هذه الآية قياسا من الشكل الأول ، فقول هو قوي أمين ، وكل قوي أمين لائق للاستيجار ، وجعل (خير) في هذه الآية اسما لإن ، سمع أنه ؟ ؟ ؟ اسم معنى لا اسم ذات – للاهتمام بأمر الخبرية ، جاء كذلك على حد قوله :

ألا إن خير الناس حيا وهالكا أسير ثقيف عندهم بالسلاسل

؟ ؟ ؟

(112/583)

العناية سببت التقديم ، وسببت أحقية كون خير خبرا والقوي اسما من حيث صناعة ، وتدل هذه الآية على جواز الإجارة عندهم كما هي عند كل ملة لأنها من روريات الناس ومصلحة الخلطة ، وقد أجمعت الأمة على جوازها عدا ابن عليه الأصم فإنهما لا يجوزانها استبدادا وخرقا للإجماع ، وجاء في الإكليل على هذه الآية ؟ ؟ ؟ على منع الإجارة المتعلقة بالحيوان عشر سنين ، لأنه يتغير غالبا لعل هذه التي لا يجيزانها لا مطلق الإجارة إذ لم يختلف فيها اثنان .

مطلب وفادة موسى على شعيب وفي الإجارة وعقد بنته له :

قال تعالى حاكيا عن نبيه شعيب ما قاله لموسى عليهما السلام "قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي" نفسك لترعى أغنامي مدة "ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ"

تفعلها علي لا واجب عليك "وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ" بالزام العشر إذا لم تتبرع بها عفوا ومعروفا تديه لي ، وأظن أنك في المدة التي تقضيها لدي "سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ" 28 في صحبتك ومعاملتك والوفاء لك .

(113/583)

الحكم الشرعي ينبغي أن يكون المهر مالا متقدّما لقوله تعالى أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ الآية 24 وقوله تعالى (وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ) الآية 3 من سورة النساء في ج 3 وان يشتمل العقد على الإيجاب والقبول ، والإذن من الولي ، ولستئذان المخطوبة وبيانها وأن يكون المسمى بالعقد لها لا لأبيها ، وعليه يكون هذا العقد مخالفا لشريعتنا ، لأن العقد على الرعي لأبيها لا لها ، ولأن الصداق خاص بالزوجية لا بالولي ، إلا أن يقال أن هذا العقد الذي جرى على الشرطين المذكورين في الآية اللذين أحدهما للأب والثاني للزوج ، غير العقد الذي سمي عليه المهر للزوجة بعد انقضاء الأجل وعند الزفاف ، وأنه جائز في شريعتهم ، قال تعالى

(لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً) الآية 52 من المائدة في ج 3 ، ولو أنه شرط رعي الغنم لها لجاز لأنه يكون بمقابلة مال ، وعقد على مدة معلومة ، أو أن قوله الأول عبارة عن الوعد بالزواج لا غير ، ثم عقد له بعد تمام المدة على بنت معينة ، ومهر معلوم إعطاء لها من ماله بمقابلة رعيه أغنامه تلك المدة ، والله أعلم .

مسألة : لو تزوجها على تعليم القرآن أو خدمة لها سنة مثلا صح العقد ووجب مهر المثل لها عليه ، لعدم تقويم التعليم والخدمة ، هذا إذا كان الزوج حرا فإن كان عبدا فلها الخدمة ، لأن خدمة العبد ابتغاء المال فتضمن الخدمة تسليم رقبة الخادم إلى المخدوم ، والأمر ليس كذلك في الحر ، ومسألتنا هذه في الأحرار الأبرار .

"قالَ" موسى لشعيب عليهما السلام "ذِلكَ" الذي عاقدني عليه وعاهدتني فيه قائم ثابت "بَيْنِي وَبَيْنَكَ" فلك ما شرطت علي من الرعي تلك

(114/583)

المدة ، وإليّ ما شرطت على نفسك من التزويج واني "أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ" بالمطالبة بالأكثر إن لم أقضه من نفسي ، أراد عليه السلام أن لا يقيد نفسه بالأكثر حتى إذا أكمله يكون تفضلا منه لا لازما عليه ، وقال كل منهما بعد إقرار هذا العقد

ورضائهما به "وَاللَّهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكِيلٌ" 29 رقيب وشهيد علينا في ذلك ، إذ لا أحد لديهما سوى ابنتين ، ويشترط بشريعتنا لصحة هذا العقد حضور شاهدين ، هذا وكل منهما واثق بصاحبه على ما الزم نفسه من القيام بالشرط ، قال تعالى "فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ" لم يبينه تعالى ولكن ؟ ؟ ؟ العهدية تفيد انه الأكثر ، والله اعلم .

روى البخاري عن سعيد بن جبير قال سألني يهودي من أهل الحيرة ، أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت لا أدري حتى قدم على خير العرب ، فأسأله فقدمت ، فسألت ابن عباس ، فقال قضى أكثرها وأطيبها ، لأن رسول الله إذا قال فعل .

وروي عن أبي ذر مرفوعا إذا سألت ؟ ؟ ؟ المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما ، وهي التي جاءت ، فقالت يا أبت استأجره ، متزوج صغراهما وقضى أوفاهما ، قالوا واسمها صفورا ، ولما تعاقدا قال لابنته أعطيه عصاي يدفع بها السباع عن الغنم ، وكانت من آس الجنة ، وكان حملها آدم عليه السلام ثم توارثها الأنبياء من بعده حتى وصلت إلى شعيب ، ثم قال موسى لزوجته بعد الدخول بها قولي لأبيك يجعل لنا بعض الغنم نتمول بها ، فقالت له قال لكما كل ما يولد في هذا العام أبلق وبلقاء ، فأوحى الله إلى موسى بطريق الإلهام لأنه لم يتنبأ بعد إذ كان عمره اثنتين وعشرين سنة – أن اضرب بعصاك لماء ثم اسق الأغنام ، ففعل فولدت كلها ما بين أبلق وبلقاء ، فعلم شعيب أن هذا ؟ ؟ ؟ ساقه الله لموسى وزوجته ، فوّفى لهما بشرطه وأعطاهما كل ذلك .

وروي ؟ ؟ ؟ شعيبا أوصى موسى مرة أن لا يأخذ غنمه ذات اليمين من محل عينه له وان ؟ ؟ ؟ فيه كلأ كثير ، لأن فيه تنينا آفة كبيرة من الحيات ، فلما ذهب بها إلى ذلك المحل أخذت ذات اليمين ولم يقدر على ردها ، فتركها ومشى في أثرها ، إذا عشب رديف لم ير مثله ، فنام وتركها ، فلما أقبل التنين تلقته العصا فقتلته عادت إلى جنب موسى دامية ، فلما أفاق وأبصر ما وقع ارتاح وأخبر شعيبا

بذلك عند رجوعه ، ففرح وعلم ان سيكون لهذه العصا وموسى شأنا ، وهذه مما عدوه معجزة لشعيب عليه السلام ، لأن القرآن لم يذكر له معجزة – راجع الآية 84 من سورة الأعراف عن معجزات شعيب وما يتعلق بها – قالوا ولما أراد موسى أن يأخذ أهله إلى مصر حيث تفقد أخاه وأمه وأخته بكى شعيب وقال تتركني وقد كبرت وضعفت ووهنت قواي ؟ فقال قد طالت غربتي عن أهلي ولا أعلم ماذا جرى عليهم ، فبسط شعيب يده وقال يا رب بحرمة ابراهيم الخليل وإسماعيل الذبيح واسحق الصفي ويعقوب الكليم ويوسف الصديق ردّ علي قوتي وبصري ، وكان موسى يؤمن على دعائه ، فرد عليه بصره وقوته ، وهنا انتفى القول بعماه ، لأنه كعمى يعقوب كما بيناه مفصلا في الآية المذكورة

من الأعراف المارة ، وله صلة في الآية 84 من سورة يوسف في ج 2 فراجعه ، ثم أذن له بالمسير لمعذرته تلك وأوصاه بابنته ، وذاك بعد تمام ثمانية عشرة سنة بعد زواجها "وَسارَ بِأَهْلِهِ" لجهة مصر .

واعلم أن التشوق الذي حدا بموسى لزيارة أهله حسا وظاهرا بعد ثمان وعشرين سنة هو في الحقيقة تشوق إلى اللّه معنى ، إذ أزف الوقت الذي قدره لتشريفه بالنبوة والرسالة ، ودنت منه أيام القرب والزلفى إلى ربه ، إذ أكمل عمره الأربعين وصار لائقا للتحلي بأنوار النبوة العظمى ، راجع الآية 41 من السورة المارة ، وبأثناء سيره قدر عليه أن يضل الطريق ليكون سببا للهداية ، وكان الوقت ليلا ومظلما ودخل في حيرة ، فما أحسّ إلا وقد

(116/583)

"آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً" أبصر نارا من الجهة التي تلي الطور ، وكان البرد شديدا ، وقد أخذ أهله الطلق فولدت وصار بحاجة ماسة لتدفئتها "قالَ لِأَهْلِهِ" التي لم يعد بإمكانها السير "امْكُثُوا" مكانكم هذا الخطاب لها ولخادمتها وابنها بالتبعية "إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ" عن الطريق "أَوْ جَذْوَةٍ" آتيكم بشعلة "مِنَ النَّارِ" التي رأيتها "لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ" 30 تستدفئون بها ، فامتثلوا أمره ، فتركهم وذهب مسرعا "فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ

مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ" من ضفته اليمنى بالنسبة للمقبل اليه "فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ" بسبب وقوع التكليم فيها ، وقدست تلك البقعة لتشرف موسى بالنبوة فيها "مِنْ"

ناحية "الشَّجَرَةِ" التي أسرق عليها نور الإله العظيم ، فأضاء ما حولها ، وجاءه النداء الإلهي منها قال ابن عباس هي شجرة عناب وقدست أيضا لذلك السبب ثم فسر ذلك النداء بقوله "أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ" 31 فلما دنا منها شملته أنوار القدس وأحاطت به جلابيب الأنس ، ورأى النور في هيئة النار ، وخرطب بألطف خطاب ، وصار مكلما شريفا لحضرة رب الأرباب ، وقد أعطي ماسئل ، وأمن مما خاف ، وحظي بالألطاف ، قيل لموسى عليه السلام كيف عرفت أنه نداء ربك ؟ قال لأني سمعته بجميع أجزائي وعلمت أنه لا يجمع بين النار وخضرة الشجرة إلا الواحد القهار ، والجذوة مثلثة الجيم ، كالجثوة والرغوة والحضرة والصفوة والربوة والعشوة والنشوة والوجنة والخدعة والفلقة ، أي تقرأ بالضم والفتح والكسر ، وهي العود الغليظ سواء كان في رأسه نار كقوله :

وألقى على قيس من النار جذوة شديدا عليها حرها والتهابها

أو لم يكن كقوله :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جذل الجذا غير خوّار ولا دعر

الدعر بفتح الدال وكسر العين وبضم الدال وفتح العين العود إذا دخّن ولم يتّقد والخوار الزناد القداح ، ومن الأولى والثانية لابتداء الغاية أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة و(مِنَ الشَّجَرَةِ) بدل من شاطىء الوادي بدل اشتمال لأن الشجرة ثابتة – فيه ، وبعد أن توطن موسى عليه السلام لكلام ربه عز وجل أراد أن يريه معجزة على نبوته فخاطبه بقوله جل قوله "وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ" فألقاها حالا دون أن يعرف المراد منها ونظر إليها "فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ" حية صغيرة ، راجع تفسير الآية 10 من سورة النمل المارة "وَلَّى" ظهره "مُدْبِراً" عنها "وَلَمْ يُعَقِّبْ" يرجع لأنه رآها كأنها لم تدع شجرة ولا حجرة إلا بلعتها ، وصار يسمع صرير أسنانها وقعقعة الشجر والحجر في جوفها فناداه ربه "يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ" 32 لاينالك مكروه منها ولا من غيرها ، فرجع حالا وقد عادت العصا على حالتها الاولى راجع الآية 21 من سورة طه المارة ، فأخذها بيده ثم قال له ربه "اسْلُكْ

يَدَكَ فِي جَيْبِكَ"

(118/583)

هو فتحة الثوب من حيث يدخل رأسه عند اللبس ، وأراد منه أن يضعها تحت إبطه ليريه معجزة أخري ، بحيث أنّ يده السراء "تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ" برص ، ففعل فإذا هي تبرق كالشمس ، ولم يعرف كيف يتمكن من إعادتها لحالتها الأولى ، إلا أنه لما عرف إعادة العصا لحالتها الأولى حال أخذها من الأرض ، ففعل بيده مثل ما فعل بالعصا بان أعاد يده لإبطه ، ثم أخرجها فإذا هي على حالتها الاولى ، ولما كان عليه السلام لحقه خوف من هاتين المعجزتين ولا سيما العصا ، أراد اللّه أن يعلمه ما يزيله عنه فقال "وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ" الخوف ، ففعل فذهب عنه الروع وعرف من هذا أنه كلما هاله أمر ضم يديه إلى صدره فيزول خوفه بإذن اللّه تعالى ، قال ابن عباس أمر اللّه نبيه أن يضم يده إلى صدره ليذهب عنه الرعب وما من خائف بعد موسى إلا وبضع يده على صدره عند الخوف فيزول خوفه بإذن اللّه تعالى .

(119/583)

قال أبو علي الفارسي هذا أمر منه سبحانه بالعزم على ما أراده منه ، وحض على الجد فيه لئلا يمنعه الجد الذي يغشاه في بعض الأحوال عما أمر بالمضي فيه ، وقيل ان الرهب بلغة حمير هو كم الثوب ، وعليه يكون المعنى واللّه اعلم ، اضمم إليك يدك وأخرجها من كمك

وتناول عصاك ولا تخف ، فان العصا واليد قد عادتا لحالتهما "فَذانِكَ بُرْهانانِ" آيتان عظيمتان ، وحجتان بالغتان ، ودليلان قاطعان ، على صدق نبوتك "مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ" فاذهب إليهم وانما ذكر الضمير مع أنه يعود لمؤنثين مراعاة للخبر الذي هو مذكر ، أي ان قلب العصا حية واليد السمراء بيضاء نقية ميزة على الصورة المارة للمذكر ، برهانان لك ، فإذا طلبوا منك دليلا على دعواك النبوة فاظهرهما إليهم وادعهم للايمان "إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ" 33 خارجين عن الطاعة ، متوغلين في العصيان ، متجاوزين الحدود "قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ" 34 بها والمراد بهذا الخبر طلب الحفظ والتأييد لإبلاغ الرسالة على أكمل وجه لا الاستعفاء عنها ، كما زعمت اليهود بانه استعفى ربه من قبول ذلك ، وجاء في التوراة الموجودة بأيدينا في الإصحاح الرابع من الخروج الآية 14 ما نصه (استمع أيها السيد أرسل بيد من ترسل) وجاء في

(120/583)

بعض النسخ أنه قال (يا ربّ ابعث من أنت باعثه) وهذا من التحريف المحض ، راجع الآية 74 من سورة يونس ج 2 إذ يكذبه قوله تعالى "وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً" بيانا بالنطق بسبب العقدة التي في لسانه ، راجع الآية 13 من الشعراء المارة تعلم أن اللّه أزالها

منه "فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي" بزيادة بيانه وتلخيص الدلائل التي أعرضها عليهم ، والإجابة عن الشبهات التي يلقونها علي بكلام فصيح لا ركاكة فيه ، ويكون عونا لي عليهم ، فأتثبت بالمقام وأوضح الكلام "إِنِّي أَخافُ" إذا ذهبت إليهم وحدي "أَنْ يُكَذِّبُونِ" 34 فيتغلبوا عليّ في المجادلة فيظنوني كاذبا في دعواي ، فلو كان قصده ما زعمته اليهود لقال أرسل هارون لم يقل اجعله عونا لي ولم يستطرد الكلام إلى الفصاحة ، قاتل اللّه اليهود لم يتركوا شيئا حقا الا عمدوا إلى تغييره ، فأجاب اللّه طلبه "قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ" وتقويك به ، وهذا المراد في قوله بصدقي لا أن يقول له صدقت في دعواك كما ذكره الغير ، لأن هذا يقدر عليه الفصيح والأبكم (فسحبان وباقل فيه سواء) لأن موسى يريد بقوله هو أفصح مني إلخ أي يقدر على الرد عليهم في المجادلة ببيان أوضح من بياني ، وهذه سعادة زفت إلى هرون عفوا من اللّه إذ جاءته الرسالة بمطلق طلب أخيه المقدر عليها أزلا ، ويرحم اللّه الأبوصيري إذ يقول :

وإذا سخر الإله سعيدا لأناس فإنهم سعداء

(121/583)

و العضد هو العظم الذي بين الذراع والكتف وبه تشتد اليد لأنه قوامها "وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً" قويا على فرعون وملئه ، وغلبة عظيمة ، اذهبا إليه لا تخافا أبدا "فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما" بسوء قط حيث قوينا كما "بِآياتِنا" هذه وغيرها ، وقضينا في أزلنا ان يكون "أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ" 35 عليهم ، وبهذه الآية استدل على عدم تسليط فرعون على السحرة ، وعدم تمكنه من إنفاذ تهديده لهم ، وهنا انقضت المناجاة الشريفة ، فرجع عليه السلام إلى أهله وأخذهم وسار إلى مصر ، فوصل إليها واجتمع بأمه وأخيه وأخته ، ورآهم على أحسن حال ببركته ، ثم ترك أهله وأخذ أخاه وذهب إلى فرعون بجنان قوي ،

(122/583)

و صار يدعوه إلى اللّه على الوجه المار ذكره في سورة الأعراف وطه والشعراء الآيات 103 و42 و16 فما بعدها ، لأن هذه السورة كالتكملة لما تقدم فيها قال تعالى "فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا" التي لا خفاء فيها "بَيِّناتٍ" وطلب منهما أن يؤمنوا بربّه ، ويصدقوا رسالته ، "قالُوا ما هذا" الذي جئتنا به من اليد والعصا بشيء يركن اليه بأنه من اللّه الذي تصفه وما هو "إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً" مختلق لا صحة له "وَما سَمِعْنا بِهذا" الإله الذي تدعي رسالته وتدعونا لعبادته "فِي" زمن "آبائِنَا الْأَوَّلِينَ" 36 ولا نحن سمعناه من غيرك وأخيك

"وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ" يعني نفسه عليه السلام "وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ" المحمودة في هذه الدنيا لأنها هي التي دعا اللّه إليها عباده وركب فيهم عقولا ترشدهم إليها ، ومكنهم منها وحضّهم على العمل فيها "إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" 37

بمطلوبهم ولا يفوزون بمرغوبهم ، ولا ينجون من محذورهم ، يريد بقوله عليه السلام ربي أعلم منكم بحال من أهله للفلاح الأعظم ، إذ جعله نبيا ، وبعثه بالهدى ، ووعده حسن العاقبة ، ولو كان كما تزعمون كاذبا ساحرا مفتريا لما أهله لذلك ، لأنه غني حكيم لم يرسل الكاذبين ، ولا ينيء الساحرين ، ولا يفلح عنده الظالمون ، فلما سمع فرعون من موسى ما أبهر عقله التفت إلى وزرائه وخاطبهم بقوله "قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي" يقصد الخبيث إنكار إله موسى وما جاء به من الآيات وتعجب ملئه منه لينكروا عليه أيضا مثل ما أنكر هو ، وقال "فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ" كبير وزرائه "عَلَى الطِّينِ" اطبخ لي آجرا وهو أول من طبخه طبخه اللّه في ناره "فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً" ابن لي قصرا عاليا كالبرج مثل المنارة "لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى " قاتله اللّه

(123/583)

أين هو من إله موسى حتى يطلع عليه قاتله اللّه .

أيظن أنه جل جلاله في مكان كي يصعد اليه ، عذبه اللّه في الصعود راجع الآية 17 من المدثر المارة "وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ" 38 في قوله بوجود إله غيري لهذا الخلق ، وأنه أرسله إلي ، قال هذا لملئه ، قاتله اللّه ، مع علمه ببطلانه وعلمه أن له وللكون أجمع إلها قادرا ، ولكنه يموّه عليهم ليستميلهم

إلى هواء ، ويصرفهم هما جاء به موسى من الخطاب الذي هالهم سماعه ، قالوا إن هامان لمتثل أمره حالا ، وجمع خمسين ألف بنّاء مع كل واحد عملة كثيرون ، وأمر بطبخ اللبن وهو الطوب النيء وطبخ الحجر ، فعمل آجرا وكلسا ، ونجر الخشب ، وعمل المسامير ، وضرب الحديد ، وباشر بإسادة البناء ، فأنشأوا له الصرح ، وبالغوا في ارتفاعه إلى حد لم يبلغه منتهى البصر ، وقد سخّر اللّه لهم ذلك ليفتنهم فيه ، فلما فرغوا منه صعده فرعون راكبا على البرذون حتى بلغ رأسه ، وصار يرمي بنشابه نحو السماء ففتنه ربه بأن أعاد له النبل ملطخا بالدم ليغتر ويدعي الإلهية الكبرى ، ولما رأى ذلك نزل وقال قتلت إله السماء الذي يزعم موسى أنه إلهه وأنه أرسله إلينا ، فبينا هو كذلك إذ بعث اللّه جبريل فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاثا ، فطارت منه قطعة في البحر ، وقطعة في الغرب ، وقطعة على معسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف ، ولم يبق أحد ممن عمل فيه شيئا إلا هلك ، هكذا قال القصاص والأخباريون ، إذ لم يرد فيه ما يعتمد عليه من حديث أو خبر في كيفية هذا

الصرح وماهيته وما صار إليه لأن القرآن أثبت وجوده فقط ، قال تعالى "وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ" أرض مصر لأن ملكه لا يتعداها كما تبين من قول

(124/583)

شعيب عليه السلام في الآية 26 المارة ، واستكباره هذا هو وقومه كان "بِغَيْرِ الْحَقِّ" لأنهم يعلمون أن فرعون ليس باله حقيقة وان ربه ورب السموات والأرض ومن فيهما هو اللّه وحده ، ولكنهم جحدوا "وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ" 39 وانا لا نجازيهم على أعمالهم قال تعالى "فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ" على الصورة المبينة في الآية 63 من سورة الشعراء المارة جزاء طغيانهم هذا في الدنيا "فَانْظُرْ" يا سيد الرسل ، واذكر لقومك "كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ" 40 ليعتبروا ويتيقظوا من غفلتهم ، علهم يرجعون عن عنادهم فيؤمنون بك قبل أن يحلّ بهم العذاب المقدر لهم

"وَجَعَلْناهُمْ" فرعون وقومه "أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ" قادة ورؤساء دعاة إليها ، وقد أردنا بإرسال موسى إليهم أن يكونوا قادة إلى الجنة ، فخذلناهم وجعلنا مصيرهم الهلاك غرقا "وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ" 42

أيضا ، بل يخذلون أسد من خذلان الدنيا ، ويعذبون بأفظع من عذابها "وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ

الدُّنْيا لَعْنَةً" طردا وبعدا وخزيا بأن جعلنا الناس تلعنهم خلفا عن سلف ، وصاروا يضربون المثل لكل ظالم بفرعون وملئه ويلعنونهم "وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ" 42 إذ تشوه وجوههم بالسواد وأجسادهم وعيونهم بالزرقة ، وزرقة العين مع السواد قبيحة جدا ، ولذلك ترى زرقة العين في الدنيا عند بيض الأجسام والوجوه ، ولا تجتمع زرقة العين مع سود الجوم البتة ، وقد توجد في بعض السمر قليلا جدا بسبب الاختلاط في المناكحة ، وهي مكروهة أيضا وهذه الكلمة لم تكرر في القرآن .

واعلم أنه لا يجوز لعن واحد بعينه سواء كان مسلما أو كافرا ، إلا من تحقق موته على الكفر ، أما لعن الجنس فيجوز ، بأن تقول لعنة اللّه على الكافرين ، على الظالمين ، راجع الآية 78 من سورة المائدة في ج 3 .

(125/583)

ولهذا البحث صلة في الآية 60 من سورة الإسراء الآتية فراجعه ففيه الكفاية .

قال تعالى "وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى " أقوام هود وصالح وإبراهيم ومن تقدمهم من قوم نوح ، وانما قال تعالى من بعد إهلاك هؤلاء وهو أعلم إشعارا بأنها أي التوراة المعبر عنها بالكتاب ، نزلت بعد مساس الحاجة إليها تمهيدا لما يعقبه من

بيان مساس الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن العظيم على محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، لأن إهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها المؤدين إلى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم المستدعين إلى لزوم إحداث لزوم تشريع جديد بتقرير الأحوال الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المبدّلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الأمم الماضية الخالية الموجبة للاعتبار ، ومن لم يرشد إلى هذا فسّر القرون الاولى بمن لم يؤمن بموسى عليه السّلام وهو ليس بشيء ، وجعل هذا الكتاب وهو التوراة "بَصائِرَ لِلنَّاسِ" نورا لقلوبهم يبصرون بها الحقائق ويميزون بها بين الحق والباطل ، إذ كانوا عميا عن الفهم والإدراك بالكلية ، لأن البصيرة نور القلب الذي به يستضيئون ، ويستبصر بالبصيرة أهل المعرفة ، كما أن البصر العين الذي تبصر الحسيات المادية ، "وَهُدىً" من الضلال إذا عملوا بها "وَرَحْمَةً" لمن

صدّق بها وآمن بمن أنزلت عليه "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" 43 بما فيها من المواعظ ، وقد صح أن عمر رضي اللّه عنه استأذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال انا نسمع أحاديث من يهود فتعجبنا ، فترى انكتب بعضها ؟ فقال صلّى اللّه عليه وسلم أتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو أن موسى حي ما وسعه إلا اتباعي . ومعنى تتهوكون تتحيرون ومعنى بيضاء نقية لا تحتاج إلى شيء آخر .

مطلب في قراءة التوراة وما لعمر رضي اللّه عنه فيها ومناسبة السورة لما قبلها :

وفي رواية استأذنه في جوامع كتبها من التوراة ليقرأها ، فغضب صلّى اللّه عليه وسلم حتى عرف في وجهه ثم قال لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي فرمى بها رضي اللّه عنه من يده ، وندم على ذلك .

وان سبب غضبه صلّى اللّه عليه وسلم هو أن عمر نقلها من التوراة التي بيد اليهود في المدينة ، وكانت جلها محرّفة وفيها الزيادة التي وضعوها وعارية عن النقص الذي حذفوه ، لحاجة حضرة الرسول افتراء على اللّه ، وكان الناس حديثي عهد بالكفر ، فلو فتح حضرة الرسول باب المراجعة إلى التوراة وأجاز لهم مطالعتها في ذلك الزمن لأدى إلى إفساد العقائد ، لأن الإسلام ، حديث عهده ، وجاءت أحكامه ناسخة للتوراة وغيرها من الكتب القديمة الصحيحة ، فكيف بالمحرفة ، وإلا لو كانت التوراة نفسها لما نهى عنها ، لأن القرآن جاء مصدقا لها وللإنجيل وجميع الصحف السماوية ، ومعدلا لبعض أحكامها مما هو في صالح البشر وموافق لعصرهم أما الآن فلا مانع من مطالعتها لمن له ملكة في العلوم ، ومعرفة بكتب اللّه ، وكان قويا في إيمانه وراسخا في عقيدته ، عالما بالشرائع مما هو موافق منها لشرعنا وما هو مخالف له فيجتنب ما فيها مما هو مخالف للقرآن ، ويقول بما فيها مما هو موافق له ويرشد الناس إلى ذلك ، والدليل على جواز هذا قوله تعالى (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ

فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الآية 63 من آل عمران في ج 3 ، وكان عبد اللّه بن سلام وغيره من صادقي الإيمان ينقلون عنها ما ينقلون من الأخبار ، ولم ينكر عليهم أحد ، ولا فرق بين سماع ما ينقل عنهم وبين قراءتها أو أخذه منها ، وقد رجع إليها كثير من العلماء إلى الزام اليهود والاحتجاج عليهم ببعض آياتها في إثبات حقيقة بعثة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، كالعالم الكبير رحمة اللّه الهندي صاحب

(127/583)

كتاب إظهار الحق الذي يحتاج إليه كل من يميل إلى مناظرة أهل الكتابين ، أما ما قاله العلامة ابن حجر في تحفة المحتاج في تحريم مطالعتها لغير عالم فهو للخوف عليه ، لئلا يختلط الأمر فيقع في حيص بيص ، تدبر عليه وإلى هنا انتهت قصة موسى عليه السلام مع فرعون عليه اللعنة وشعيب عليه السلام ، ووجه مناسبة هذه السورة لما قبلها وكونها أتت بعد النمل لا بعد الشعراء على ما ذكره الجلال السيوطي رحمه اللّه هو أنه سبحانه وتعالى كما ذكر في الشعراء قول فرعون لموسى عليه السلام (أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً) الآية 17 إلى قوله (وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) ثم ذكر في سورة النمل قول موسى لأهله في الآية 16 المارة إني آنست نارا إلخ الآيات وكان الأمران على سبيل الإرشاد والإجمال بسط في هذه السورة ما أوجزه في

السورتين المذكورتين ، وفصّل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما فبدأ جل شأنه بشرح تربية فرعون له وعلو شأنه على بني إسرائيل وإقدامه على ذبح أولادهم الموجب لإلقاء موسى في اليم خوفا عليه من الذبح ، وبيّن تربيته وما وقع فيها أي السبب الذي من أجله قتل القبطي والنّم عليه الموجب فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب ومجيئه إلى الطور ، ومناجاته ربه ، وبعثه إلى فرعون ، وكانت هذه السورة شارحة لما جاء في السورتين ومتممة لها ، ولهذه الحكمة قدمت على سورة القصص وأخرت عن الشعراء في النزول وهي كذلك في المصاحف ، فقد روى عن ابن عباس وجابر بن زيد أن سورة الشعراء نزلت ، ثم النمل ، ثم القصص وهكذا فإن أول كل سورة لها مناسبة مع آخر السورة قبلها ، كما أن آخر كل سورة له مناسبة بأولها ، وقد راعى هذه الجهة المفسر الكبير الإمام فخر الدين الرازي وأهمله أكثرهم ، ثم شرع يعدد بعض نعمه على رسوله فخاطبه جل خطابه بقوله "وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ" من الجبل الذي وقعت فيه مناجاة موسى لنا في الميقات الذي وقتناه له "إِذْ

(128/583)

قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ" بإنزال التوراة إليه لاكمال دينه وشرعه بعد أن عهدنا إليه بالرسالة على الصورة التي قصصناها عليك وشرفناه بالتكليم دون سائر الرسل "وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ" 44 ذلك الزمن والمقام ليقول لك قومك افتريته من نفسك ، بل هو يوحينا إليك إذ

لم يشهد ذلك إلا السبعين الذين اختارهم موسى لحضور الميقات كما فصلناه في الآية 154 من سورة الأعراف المارة أما التشريف بالرسالة فلم يشهدها غير موسى ، وأنت أمي لم تخرج من قريتك ، فمن

أين لهم أن يتهموك بأن هذا القرآن سحر وكهانة أو من خرافات الأولين "وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً" بعد موسى متتابعة إلى زمنك هذا كثيرة لا تعلمهم أنت ولا غيرك "فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ" فنسوا عهد اللّه وتركوا أوامره التي من جملتها أخذ العهد عليهم بالإيمان بك واتباعك ولم يوفوا بما عاهدوا اللّه عليه بسبب تمادي الأمد وتغيير الشرائع والأحكام ، فعميت عليهم الأنباء لكثرة عبثهم فيها واغترارهم بما خولناهم من النعم المادية والمعنوية ولا سيما قومك الذين سولت لهم أنفسهم عبادة الأوثان فاقتضت حكمتنا لهذه الأسباب أن ننزل عليك

شرعا جديدا صالحا لعصرك وما بعده إلى يوم القيامة مما كان ثابتا في علمنا قديما ، ونقصّ عليك الأنباء على ما هي عليه عند حدوثها تدريجا بحسب الوقائع كما هي مدونة في أزلنا لتذكرها لقومك وتأمرهم أن يعملوا بمقتضى ما نوحيه إليك مما هو مصدق للكتب القديمة من حيث الأحوال الثلاثة التوحيد والنبوة والمعاد حرفيّا ، ومعدل لبعض الأحكام من حيث الفروع "وَما كُنْتَ" يا أكرم الرسل "ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ" كما كان شعيب قاطنا عندهم وسكن موسى عنده أول أمره كما علمت "تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا" التي فيها قصتهما وتذكرها لقومك واعدا وموعدا كأنّك كنت معهما "وَلكِنَّا" نحن إله الأولين والآخرين "كُنَّا مُرْسِلِينَ" 45 الرسل الهداية الخلق قديما ، كما أرسلناك إلى هؤلاء الآن وقصصنا عليك اخبارهم وأممهم في هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك ، كما قصصنا على كل أمة أخبار من قبلها مع رسلهم ، ولو لا اعلامنا إياك فيه لما علمت شيئا من ذلك "وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ" الجبل الذي وقعت عنده المناجاة "إِذْ نادَيْنا" موسى منه وآتيناه ما آتيناه وقلنا له خذ الكتاب بقوة وهي أعظم ما رأى موسى ، فأخبرناك بها لنقصها على قومك أيضا "وَلكِنْ" رحمناك بها وشرفناك بالوحي والرسالة وأطلعناك

على أخبار الأولين التي لا تعلمها أنت ولا قومك ، وأعلمناك في هذا القرآن أخبار ما كان وما يكون

وجعلناك "رَحْمَةً" لأهل زمانك ومن بعدهم ممن اتبع هداك واسترشد برشدك مخصوصة لك وللناس أجمعين "مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ" يخوفهم عقاب اللّه من بعد جدك إسماعيل .

مطلب أهل الفترة وعدد الأنبياء وتقسيمهم :

ولهذا سموا أهل الفترة إذ لم يرسل إليهم بعده رسولا لان عيسى ومن قبله أرسلوا خاصة لأقوام مخصوصين ، فتطاول عليهم الأمد واندثرت آثار نبوة إسماعيل إذ كان بينها وبين نبوة محمد ما يزيد على ألفين وخمسمائة سنة ، ولذلك لم يبق لها ذكر عند العرب ، لانه لم يترك لهم كتابا يرجعون إليه وانقطعت رسالته بموته عليه السلام ، لهذا أرسلناك إليهم "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" 46 عهدهم الأول ويعترفون برسالتك ، وان ما تأمرهم به هو من عند اللّه لأن ما تذكره لهم في الأمور الغيبية دليل على صدق دعوتك ان كانوا ممن يتذكر فتنفعه الذكرى ، وهذه الفترة خاصّة بالعرب ، أما الفترة العامة للخلق فهي ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، الا أنهم لا يعدون ناجين كأولئك لأن عيسى ترك لهم كتابا كما ترك موسى من قبله قلم تنقطع عنهم آثار النبوة ليعدوا معذورين كالعرب ، تأمل .

ولهذا البحث صلة أول تفسير سورة السجدة في ج 2 والآية 15 من سورة الإسراء الآتية

فراجعه .

قال العزّ بن سلام كل نبي إنما أرسل إلى قومه نسبا أو مصاهرة ليدخل لوط عليه السلام ، الا سيدنا محمد إذ أرسل إلى الناس كافة ، فعلى هذا يكون ما عدا قوم محمد ، إذ لا نبي بعده ، قوم كل نبي من أهل الفترة الا ذرية النبي السابق عليه ، فإنهم يخاطبون ببعثة السابق حتى تدرس شريعته ، فيصير الكل حينئذ من أهل الفترة .

(131/583)

أما قوله تعالى في هذه الآية (ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ) وقوله (ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ) في الآية 6 من سورة يس المارة وقوله (ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ) الآية 3 من سورة السجدة في ج 2 ، فلا تتعارض مع قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ) الآية 44 من سورة فاطر المارة وقوله (وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ) الآية 44 من سورة سبأ في ج 2 ، لأن العرب الأقدمين قبل إبراهيم أنذروا من قبل هود وصالح ، وبعد ابراهيم انذروا من قبل إسماعيل

(132/583)

و شعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فجملة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا ، منهم الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر أو خمسة عشر ، منهم العرب خمسة ، والأنبياء الربانيون أيضا خمسة وهم آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم ، أما إسحاق فمن بعده إلى عيسى عليه السلام فهم اسرائيليون وعبرانيون ، إذ أن الأنبياء العبرانيين بعضهم مثل بعض ، فلا يعد أحد من أتباعهم من أهل الفترة لما ذكرنا أن التوراة بقي العمل بها إلى زمن عيسى ، والإنجيل بقي العمل فيه وبالتوراة عدا ما عدل من أحكامها إلى زمن محمد ، فكل من شذ عن اتباع أحكام التوراة إلى زمن عيسى فهو معذب ، وكل من شذّ عن اتباع أحكام الإنجيل إلى زمن محمد فهو معذّب ، لأن قوله تعالى (وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) الآية 15 من الإسراء الآية لا تشمل هؤلاء لأنهم مكلفون العمل بالكتاب الذي تركه لهم نبيهم ، أما العرب فإن أنبياءهم الأقدمين هود وصالح انقرضت أممهم أو اندثرت آثارهما ، وشعيبا وإسماعيل انقطعت نبوتهما بموتهما ، إذ لم ينزل عليها كتاب من اللّه يتركانه لقومهما ليعملوا به ويتبعوا آثارهما بمراجعته ، ولم يدركا زمن التوراة ، وأن الأنبياء العبرانيين لم يدعوا العرب إلى عبادة اللّه اخصص رسالتهم بقومهم ، فلهذا أن العرب من بعدهما عدّوا أهل فترة إلى زمن بعثة محمد دون غيرهم ، للأسباب المارة ، تدبّر .

(133/583)

ولهذا البحث صلة واسعة في الآية 15 من سورة الإسراء المشار إليها أعلاه ، وقدمنا في سورة فاطر عند تفسير الآية 24 المشار إليها آنفا ما يتعلق في هذا البحث ، وما قيل إن العقل هو الرسول ينقيه قوله تعالى "وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ" بمال أو نفس عقوبة لهم أو انتقاما منهم "بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ" من الأعمال القبيحة "فَيَقُولُوا رَبَّنا" بحذف حرف النداء "لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا" يدلنا عليك ويعرفنا أوامرك ونواهيك "فَنَتَّبِعَ آياتِكَ" المنزلة عليه "وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" 47 به يقول اللّه تعالى يا محمد لو لا أن قومك يحتجون بهذه الحجة لعاجلناهم بالعذاب وأهلكناهم بضيعهم ، ولما بعثناك إليهم ، ولكن لقطع هذا الاحتجاج أرسلناك إليهم ، فمن يقول هذا القول ويحتج بهذه الحجة لا يقال انه لا عقل له حتى يؤول الرسول بآية الإسراء المارة

بالعقل ، وكيف تترك الحقيقة ويصار إلى المجاز دون صارف ملزم بالجنوح إلى المجاز لعدم إمكان استعمال الحقيقة ، وإذ لا فلا ، لذلك فان تأويل الرسول بالعقل على غير ظاهره لا عبرة به ، قال تعالى "فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا" وهو إرسالك إليهم المؤيد بالقرآن

المنزل عليك "قالُوا" هؤلاء العتاة "لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى " من الآيات كالعصا واليد والكتاب المجسم دفعة واحدة لآمنا به ، وإذ لم يؤت شيئا من ذلك فلا نؤمن به تجبرا وعتوا وعنادا بك ، وتكبرا عن الأخذ بما أنزل إليك واعتراضا على اللّه الذي له أن يخص من أنبيائه بما شاء من المعجزات فقل لهم "أَ وَلَمْ يَكْفُرُوا" يجحدوا وينكروا هؤلاء اليهود الذين كلفوا قومك أن يقترحوا عليك هذا الاقتراح "بِما أُوتِيَ مُوسى " من الآيات والكتاب "مِنْ قَبْلُ" إنزال القرآن عليك وكفروا بما جاءهم موسى ولم يمتثلوا الأخذ به إلا قسرا برفع الجبل فوقهم وتهديدهم بأنه إذا لم يقبلوا أحكام التوراة أطبقه اللّه عليهم وأهلكهم به ، راجع الآية 170 من الأعراف المارة "وَقالُوا" هؤلاء الكفرة حين بعثوا إلى رؤوس اليهود في المدينة يسألونهم عن محمد ، فأخبروهم أن قصته موجودة في التوراة ولكنهم لا يعلمون انه هو ، أو أن اليهود لما فشا أمر محمد صلّى اللّه عليه وسلم في مكة أرسلوا إلى قريش بأن يسألوا محمدا أن يظهر لهم معجزات مثل موسى إن كان ما يدعيه حقا ، فأنزل اللّه هذه الآية تبكيتا لهم وتقريعا بهم ، إذا كان عليهم بدلا من أن يسألوه أن يؤمنوا به لأنه مرسل لهدايتهم وإرشادهم "سِحْرانِ تَظاهَرا" أي قال الكفرة من قريش ان ما أنزل إلى موسى وما أنزل إلى محمد عبارة عن سحرين تعاونا لتقوية بعضهم بعضا ، لأن كلا من المنزل عليهما موسى ومحمد يريد إظهار حجته على طريق السحر "وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ" من موسى ومحمد وكتابيهما "كافِرُونَ" 48 جاحدون لا نصدق بأحد منهما ولا بما جاءا به قال تعالى يا أكرم الرسل

"قُلْ" لقومك وأهل الكتاب الذين هم في زمنك الذين تخابروا بشأنك وكتابك إن كنتم تكفرون بكل ذلك "فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما" أي التوراة والإنجيل "أَتَّبِعْهُ" أنا ، أمره ربه أن يتحداهم

(135/583)

بهذا على عجزهم عن الإتيان به "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" 49

بأن المنزل عليهما ساحران ، أو أنهما نفسهما سحر ، إذ توجد قراءة "ساحران تظاهرا) والتي عليها المصاحف كما مر "فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ" يا سيد الرسل ولم يرضخوا إلى ما كلفتهم به "فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ" الفاسدة وما تسوله لهم أنفسهم من اتباع الزيغ المتحكم بهم ، وقد لزمتهم الحجة إذ لا برهان لهم إلا هوى أنفسهم الخبيثة "وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ" لا أحد أضل منه البتة ، لأنه ظلم نفسه بذلك "إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" 50 أنفسهم بانهماكهم في هواهم والإعراض عن الرسل وآياتهم الهادية إلى الحق ، وهؤلاء الظالمون لا يرشدهم اللّه إلى هدى دينه القويم ، لأن من يضلله اللّه لا يتمكن البشر من هدايته

قال تعالى "وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ" لقومك يا محمد "الْقَوْلَ" العظيم المنزل عليك آيات بينات

متتابعة متصلة بلسانهم ، حتى لا يعتذروا بعدم معرفته وتقع عليهم الحجة ، وذكرنا لهم فيه أخبار من سلفهم في الدنيا متواصلة بعضها ببعض وكررناها لهم مرارا حتى كأنهم شاهدوها بأم أعينهم "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" 51 بها وينتبهون إلى خطائهم فيرجعون ويؤمنون بها ، فلم يتّعظوا ولم يلتفتوا إليها .

واصل التوصيل ضم قطع الحبل بعضها ببعض قال الشاعر :

فقل لبني مروان ما نال ذمتي بحبل ضعيف لا يزال بوصّل

وقرأ بعضهم وصلنا بالتخفيف .

مطلب الآيات المدنيات ومحاسن الأخلاق وبمن نزلت :

(136/583)

وهذه الآيات المدنيات الأربع الأول من هذه السورة ذكرت بمناسبة ذكر أهل الكتاب بالآيات المتقدمة ، قال تعالى "الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ" التوراة والإنجيل لأن أل فيه للجنس فيشمل الواحد والمتعدد "مِنْ قَبْلِهِ" قبل محمد وكتابه "هُمْ بِهِ" بمحمد "يُؤْمِنُونَ" 52 لوجود نعمته في كتبهم "وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ" القرآن المنزل عليه "قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ" قبل نزوله "مُسْلِمِينَ" 53 لله مؤمنين به منقادين لأحكام كتبه ومن جملتها الإيمان

بمحمد وكتابه "أُولَئِكَ" القائلون هذا القول

"يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ" يوم القيامة من ربهم "مَرَّتَيْنِ" لإيمانهم برسولهم وكتابهم الأولين ، لأن اليهود آمنوا بموسى والتوراة ، والنصارى آمنوا بعيسى والإنجيل ، ثم أنهما آمنوا الآن بمحمد والقرآن ، أي الرسول الثاني والكتاب الثاني بالنسبة لكل منهما ، ولذلك اعطى كل منهما أجرين ، ولا يضر اليهود عدم إيمانهم بعيسى بعد أن آمنوا بمحمد ، لأن الإيمان به يجب ما قبله من الكفر كله أي يقطعه ويمحو أثره كما أن الكفر يمحق ما بعده ، إذ لا يقبل اللّه عملا مع الكفر على شرط أن يصدقوا برسالة عيسى ، لأن انكار نبوة واحد من الأنبياء كفر لا ينفع معه عمل من أعمال الخير ، ومثل هذا لا ينفعه الإيمان بمحمد وكتابه حتى يذعن ويقر بعيسى وكتابه ويؤمن بهما .

(137/583)

هذا وان اللّه تعالى يعطي إلى هؤلاء هذا الجزاء المضاعف "بِما صَبَرُوا" على ما كلفهم اللّه به من أمور الدين ، وعلى أذى من آذاهم حتى بعث محمد فآمنوا به كما آمنوا قبلا بنبيهم ، روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ، والعبد المملوك إذا أدى حق

اللّه وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة يطأها فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها ثم تزوجها ، فله أجران .

قال تعالى في وصفهم أيضا "وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ" أي أن هؤلاء الأبرار يدفعون العمل السيء بالأحسن ، ويقابلون الشر بالخير ، والقصاص بالعفو ، والأذى بالصفح ، والظلم بالعدل ، والشتم بالدعاء "وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" 54 على الفقراء والمحتاجين فطوبى لهم وسقيا ، ومن جملة ما هم متحلون به أيضا ما وصفهم اللّه به من الفضيلة بقوله جل قوله "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ" الكلام البذيء وفضوله "أَعْرَضُوا عَنْهُ" فلم يخالطوا أهله ولم يبقوا معهم بل يتركوهم "وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا" بمقتضى ديننا "وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ" بحسب ما تدينون به فلا يقاتلونهم ولا يجادلونهم ، وهذا على حد قوله تعالى (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) الآية الأخيرة من سورة الكافرون المارة ، وقوله تعالى (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الآية 24 من سورة سبأ في ج 2 ، ومن صفاتهم أيضا إذا تعدي عليهم قالوا "سَلامٌ عَلَيْكُمْ" أمان منا لكم بعدم المقابلة ، وهذا سلام متاركة لا سلام تحية

(138/583)

مثله ما مر في الآية 63 من سورة الفرقان المارة ، والآية 47 من سورة مريم المارة أيضا ، كقولك لمن تغبر منه سلام عليك وتتركه وتذهب وقالوا أيضا "لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ" 55 لا نطلب مقابلتهم ولا نخاطبهم ولا نصاحبهم ، فهنيئا لهم على هذه الأخلاق الكاملة ، ومن آداب الأبرار كظم الغيظ والسماح لمن يتعدى ويغلظ عليهم ، ولين الجانب لمن يشدد عليهم .

انتهت الآيات المدنيات .

أخرج الطبراني عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنها - أي هذه الآيات الأربع واخر الحديد نزلن في أصحاب النجاشي الذين قدموا منه وشهدوا وقعة أحد ، أي كان نزولها في المدينة السنة الثانية من الهجرة وقال مقاتل : في هذه السورة من المدني (الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ) إلى (لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ) وقيل إن المعنيين في هذه الآيات أبو رفاعة في عشرة من اليهود آمنوا فأوذوا وصبروا .

وأخرج ابن مردويه بسند جيد ، وجماعة عن رفاعة القرطبي ما يؤيده .

وقيل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم وهم أربعون رجلا مع جعفر بن أبي طالب ، فلما رأوا ما بالمسلمين من حاجة وخصاصة قالوا يا رسول اللّه إن لنا أموالا فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بها فواسينا بها المسلمين ، فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين ، وهذا أنسب بالمقام لأن من أهل الإنجيل

ذوي رقة وزهد ، يؤيده قوله تعالى (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) الآية المارة ، وما جاء في الآية 82 فما بعدها من سورة المائدة في ج 2 ، وما قيل إنها في عبد اللّه بن سلام لا يعول عليه لأنه لم يسلم بعد وهي صالحة لكل من القولين أما الأخير فلا ، قال تعالى "إِنَّكَ" يا سيد الرسل "لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ" قريبا كان أو بعيدا "وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" هدايته فيقذف في قلبه نورها فينشرح صدره للإيمان فيهتدي "وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" 56 أزلا .

(139/583)

مطلب ما قاله أبو طالب لحضرة الرسول عند وفاته :

روى مسلم عن أبي هريرة قال إنك لا تهدي من أحببت . .

إلخ نزلت في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم .

حيث راود عمه أبا طالب على الإسلام ، وكان شديد الحرص على إسلامه لكبير حقه عليه ، وكثير محبته له ، وحمايته من قريش وغيرهم ، ولم يجرؤ أحد على الرسول إلا بعد وفاته حتى سمي عامها عام الحزن ، لأن خديجة تلته بعد

ثلاث ليال ، وكان وجوده قوة عظيمة لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وكان يأمل أيمانه ، ولما مات تأثر عليه جدا لجهتين لحبه له وعدم إيمانه به ، وذلك أنه قال له عند الموت :

يا عمّ قل لا إله إلا اللّه أشهد لك بها يوم القيامة ، قال لو لا أن تعيرني قريش فيقولون إنما حمله على ذلك الجزع لا الرغبة في دينك الحق ومسلكك المستقيم لأقررت بها عينك .

ثم أنشد :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

لو لا الملامة أو حذار مسبّة لوجدتني سمحا بذاك قمينا

ولكن على ملة الأشياخ عبد المطلب وعبد مناف .

ثم مات ، فأنزل اللّه هذه الآية ، وذلك في نصف شوال السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنين وأربعة أشهر .

والعبرة بمبدأ السنة هنا رمضان الذي وقعت فيه البعثة سنة 41 من ميلاده الشريف .

وقيل إنه قال يا معشر بني هاشم صدقوا محمدا تفلحوا .

فقال عليه السلام يا عمّ تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ قال فما تريد يا ابن أخي ؟ قال أريد منك أن تقول لا إله الا اللّه أشهد لك بها عند اللّه ، قال يا ابن أخي قد علمت أنك صادق ولكن أكره أن يقال جزع عند الموت ، لأن قومك سيئو الظن لا يؤولون إسلامي على منهج حسن .

هذا وقد ورد

وردت أخبار وأحاديث بإسلامه عند الموت عن ابن عباس وغيره ، وأخبار أخرى بأن اللّه تعالى أحيا لحضرة الرسول أبويه وعمه أبا طالب وآمنوا به ، وان أقوال أبي طالب هذه تدل صراحة على تصديقه لحضرة الرسول وإيمانه به ، أما أبواه فهما من أهل الفترة لأن أباه توفي قبل ولادته بشهرين ، وأمه بعدها بست سنين ، فلم يحضرا البعثة وكل من لم يحضرها فهو من أهل الفترة ، وأهل الفترة كلهم ناجون راجع الآية 46 المارة وما ترشدك إليه من الآيات ، ولبحثها صلة واسعة في الآية 15 من الإسراء الآتية ، ولهذا فالاحسن أن يميل العاقل إلى إسلامه وإسلام أبوي النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، لأن القول بخلافه يؤذي أهل البيت ، وربما يؤذى حضرة الرسول في قبره الشريف ، وما على اللّه بعزيز أن يحييهم حتى يؤمنوا به وصدق من قال : ولاجل عين ألف عين تكرم .

وقدمنا ما يتعلق في هذا آخر الشعراء المارة في الآية 214

هذا ، واعلم بأنّ وفاته محققة بالتاريخ المذكور أعلاه ، وإذا كان كذلك وهو كذلك فإن هذه الآية لم تنزل بحقه ، لان بين نزولها وموته مدة كثيرة ، ويوشك أن حضرة الرسول قرأها عند وفاته لانطباق معناها على ما في قلبه الشريف من محبة هدايته وتكرار أمره له بالإيمان بربه ، وجوابه له بنحو ما ذكر يستدعي تلاوة هذه الآية ، على أن جمهور المفسرين قالوا بنزولها في أبي طالب ، وهذا لا يتجه إلا أن تكون هذه الآية مؤخرة في النزول عن سورتها أو

أنه قرأها في حياته بحضوره ، وعلى هذا تكون نازلة بحقه ، إلا أن أحدا لم يقل به ، هذا والله أعلم .

(141/583)

قال تعالى "قالُوا" كفار مكة "إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ" يا محمد "نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا" وجابهه بهذا القول الحارث بن عثمان بن نوفل إذ قال لرسول الله : إنا نعلم أن الذي تقوله حق ولكن إن اتبعناك نخاف أن تخرجنا العرب من أرض مكة ، فأنزل الله جل إنزاله "أَ وَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً" يأمنون به على أموالهم وأنفسهم دون سائر العرب ؟ لأن الجاهلية كانوا لا يغيرون على أهل مكة ولا يقاتلونهم ولا يسلبونهم لحرمة البيت ، حتى انه من المعروف في ذلك الزمن أن الظباء تأمن فيه من الذئاب ، والحمام من الحدأة ، وهذا لا يستغرب ، لأن الله تعالى الذي ألهم السمك بالخروج يوم السبت وعدم التعرض له (راجع الآية 163 من سورة الأعراف المارة) ألهم الظباء والحمام ذلك أيضا ، وفضلا عن ذلك انه "يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ" من مأكول وملبوس ومشروب وحلي وغيره من جميع بلاد الله ، فيوجد فيها من مصنوعات الهند والسند والصين والشام والعراق والعجم والغرب واليمن والترك والسودان والبلاد الأجنبية ، حتى إنك لتجد فيها ما لا يوجد في أعظم البلاد لأن جل

البلاد تجلب إليها من أحسن مصنوعاتها في الموسم ، وهذا واقع ولا يزال ، وفاء بعهد اللّه لأهل بيته ، وإجابة لدعوة جدّ رسوله محمد إبراهيم عليهما السلام كما سيأتي في الآية 126 من البقرة في ج 3 ، ويرزقون فيه "رِزْقاً" عظيما مختلف النوع والجنس والصفة والقيمة "مِنْ لَدُنَّا" نحن رب البيت العالم بما يكون لأهله من الكرامة "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ" 57 أن رزقهم من عندنا ، وأنا نسوقه إليهم ، لأنا مكلفون بكل الخلق وخاصون أهل مكة بما لا نخص به غيرهم ، أفلا يعلمون أن الخوف والأمن من عندنا نخيف من نشاء ونؤمن من نشاء ، كما نفقر من نشاء ونغني من نشاء ، ونعز من نشاء ونذل من نشاء ، ولكن

(142/583)

لفرط جهلهم وعدم ثقتهم بربهم لا يعلمون ذلك ، وفي قوله تعالى أكثرهم إشارة إلى أن منهم من يعلم ذلك ، قال تعالى "وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ" أي أثرت وطغت ولم تحفظ حق اللّه فتشكر "مَعِيشَتَها" وتحمد اللّه على النعمة ، بل خرجت عن الشكر ولم تحمل نعمة الغنى ، فأهلكها اللّه تعالى "فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا" عند المرور بها لاستراحة فقط ، تشاؤما منها بسبب ما وقع على أهلها من العذاب "وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ"

58 لها لا يملك أحد التصرف بها غيرنا لأنهم كانوا يتمتعون بنعم اللّه ويعبدون غيره ، خير اللّه إليهم نازل وشرهم إليه صاعد ، فما قدّروه بعض قدره ، ولا مجدوه جزءا مما يستحقه ، وفي هذه الآية تخويف لأهل مكة وتهديد بأنهم إذا داوموا على كفرهم تكون عاقبتهم كعاقبتهم فيدمرهم ويترك مساكنهم خاوية عبرة لغيرهم ، كديار قوم هود وصالح ولوط وغيرهم ، قال تعالى "وَما كانَ رَبُّكَ" يا أكرم الرسل في حكمه الأزلي ، ولا في غيبه القديم ، على خاصة ، إذ لا غيب عليه "مُهْلِكَ الْقُرى" الكافر أهلها "حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا" ينذرهم ويخوفهم بأس اللّه ، والمراد بالأم هي البلدة التي ترجع أهالي القرى والقصبات في أمورها إليها ممن يسكن في أطرافها التي يكون فيها الوجهاء والأشراف والقادة ، ومكة شرفها اللّه محل ولادة الرسول ، وقاعدة البلاد العربية ، ومحط أنظار العرب والإسلام ، ومهبط الوحي ، يؤمها القريب والبعيد ، وكل البلاد حولها من أطرافها الأربع يرجعون إليها ، وفيها أشراف قريش وحرّاس بيته ، ولذلك بعث فيها أعظم الأنبياء وخاتمهم "يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا" ويبلغهم وبال العذاب النازل بهم إذا لم يؤمنوا لا محالة "وَما كُنَّا" عفوا بدون ذنب أو سبب "مُهْلِكِي الْقُرى" وما جرت بذلك سنتنا لأنا لا نهلكهم "إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ" 59

(143/583)

متوغلون في الظلم مصرون عليه ، إذ ما صح ولا وقع من لدنا إهلاك غير الظالمين العاكفين على كفرهم وشأننا الآن وبعد كذلك ، أما الذين آمنوا

وضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام فإنا نحفظهم ونزيد في إكرامهم ، ولا نجعلهم عرضة لتسلط أحد عليهم ، بل نحميهم ونرزقهم ونؤمنهم في ديارهم ، قال تعالى "وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ" أيها الناس "فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا" التي تتمتعون بها أياما قليلة "وَزِينَتُها" تتزينون بها لأجل معلوم ، ثم تنقضي هي وما جمعتموه منها "وَما عِنْدَ اللَّهِ" من النعيم الدائم في الدار الباقية "خَيْرٌ" لكم من متاع الدنيا الفانية "وَأَبْقى" وأدوم منه والدائم خير من الفاني "أَ فَلا تَعْقِلُونَ" 60 ذلك قال ابن عباس جعل اللّه أهل الدنيا ثلاثة أصناف : المؤمن والمنافق والكافر ، فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع ، ثم قرأ هذه الآية

(144/583)

قال تعالى "أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً" هو الجنة التي لا أحسن منها ذات النعيم الدائم "فَهُوَ لاقِيهِ" نائله لا محالة ومصادفه في حياته وصائر إليه عند مماته "كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا" القريبة الزوال "ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ" 61 بين يدي اللّه في الموقف العظيم فيحاسب على ما أصابه في الدنيا ، كيف جمعه ، وفيم أنفقه ، ولم أبقاه ولم يؤد حقه ، ثم

يقذف في النار ، وحينئذ يندم ولات ساعة مندم ، ويريد الفرار ولات حين فرار ، ولهذا جاء لفظ المحضرين في خاتمة هذه الآية وفي قوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) الآية 137 من الصافات في ج 2 لدلالتها على هذا المعنى ، ويكون الإحضار في ذلك الموقف لأجل مناقشة الحساب وترتيب العقاب ، قيل إن هذه الآية نزلت في رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وفي أبي جهل لعنه اللّه ، أو في علي وحمزة رضي اللّه عنهما ، وفي أبي جهل ، أو في مطلق مؤمن وكافر ، وهذا أولى ، لأن الصيغة عامة ، وهي من قبيل ضرب المثل ، وحمل اللفظ على عمومه إذا لم يكن هناك مخصص أولى ، حتى أن صيغة آية (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) المارة عامة في كلى من أحب رسول اللّه إيمانه من العرب وأهل الكتابين والصابئين والمجوس أيضا ، لأنه كان يحب الإيمان لأهل الأرض كلهم ، وهي جارية في عمومها إذ لم يثبت ما يخصصها في أبي طالب كما ذكرنا لك آنفا فإنه لو ثبت تخصيصها فرضا فلا ينفي عمومها لغيره ، لأن العبرة دائما لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، قال تعالى "وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ" اللّه

(145/583)

عز وجل أو مناديه المأمور بذلك "فَيَقُولُ" للمشركين "أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" 62 في الدنيا أنهم شركاء معي في ملكي ، وانهم واسطة نفعكم وضركم الذين كنتم تتضرعون

بهم زلفى وتزعمون أن لهم يدا عندنا ، ومفعول زعم الأول محذوف تقديره تزعمونهم ، والثاني محذوف أيضا تقديره شركائي ، لأن زعم يتعدى إلى مفعولين جائز حذفهما ، قال في الكشاف : يجوز حذف المفعولين في باب ظن ولا يصح الاقتصار على أحدهما ، وقال أبو حيان : إذا دل دليل على أحدهما جاز حذفه كقوله :

كان لم يكن بين إذا كان بعده تلاق ولكن لا إخال تلاقيا

(146/583)

أي لا إخال بعد البين تلاقيا ، قال تعالى "قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ" الوارد في الآية ؟ ؟ ؟ من سورة السجدة في ج 2 ، أي الواجب عليهم العذاب بما جنت أيديهم ، وهم المعبودون والرؤساء الكافرون الذين كانوا يأتمرون بأمرهم ، وينتهون بنهيهم "رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا" أي أتباعنا الذين دعوناهم للغواية أَغْوَيْناهُمْ" باختيارهم ورضاهم لا بطريق القسر حتى تؤاخذ عليه ، وذلك أن الضال المضل له كفلان من العذاب ، كفل على ضلاله ، وكفل على إضلاله ، راجع تفسير الآيتين 25 و 18 من سورة النحل في ج 2 ، لذلك تبرأوا منهم وعدوهم كأنفسهم بقولهم "كَما غَوَيْنا" نحن باختيارنا ورغبتنا "تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ" الآن إذ ظهر خطأنا فيه "ما كانُوا" هؤلاء "إِيَّانا يَعْبُدُونَ" 63 بل عبدوا شهواتهم راجع الآية 167 من

سورة البقرة في ج 3 "وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ" من الأصنام والنجوم والنار والحيوان وغيرها "فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ" لأن اللّه ختم على أفواه الناطقين منهم ولم يجعل قوة التكلم في الجمادات منها ، فأيسوا مما كانوا يتوقعونه من شفاعتهم "وَرَأَوُا الْعَذَابَ" المهيأ لهم هناك على سوء أعمالهم وهؤلاء الخاسرون "لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ" 64 في الدنيا لما حل بهم ذلك العذاب ولكنهم ضلوا فحاق بهم ضلالهم "وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ" واذكر يا سيد الرسل لقومك يوم يسألهم في ذلك الموقف "فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ" 65 حين دعوكم إلى الإيمان ورفض الأوثان "فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ" خفيت عليهم

(147/583)

الأخبار واشتبهت عليهم الأعذار ووقعوا في حيرة "يَوْمَئِذٍ" يوم يلقى عليهم هذا السؤال "فَهُمْ" كلهم مشغولون بأنفسهم "لَا يَتَسَاءَلُونَ" 66 بعضهم مع بعض عما وقع منهم بالدنيا ، بل يسكتون يعلوهم الذل والوجل رجاء أن تكون لهم حجة أو عذر عند اللّه يلقى في قلوبهم صورته ، لأن ذلك الموقف يذمل فيه كل الخلق ومنهم الأنبياء لشدة هوله ، فيفوضون فيه الجواب عما يسألون عنه إلى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة السؤال عنه ، فما ظنك بأولئك الضلال ؟ وقرىء فعميّت بالتشديد ، قال تعالى "فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

صالِحاً" في دنياه "فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ" 67 في الدار الآخرة ، وعي هنا للتحقيق أي وجب أن يكونوا من الناجحين السعداء بفضل اللّه وحسن أعمالهم وأما من كان على العكس فوجب أن يكونوا من الخاسرين المعذبين بعدل اللّه وسوء أعمالهم "وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ" من الأعيان والاعراض ، والوقف على يختار لا على يشاء وهو معطوف على يخلق ، فلا يخلق شيئا بلا اختيار ، وهو أعلم بوجود الحكمة فيما يختاره ، وهؤلاء المخلوقون كلهم "ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ" التّخير في شيء من أمرهم ، كالطيرة بمعنى النظير ، بل للّه الخيرة عليهم (لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ) .

مطلب نفي الاختيار عن العبد :

(148/583)

هذا ، وفي ظاهر هذه الآية نفي الاختيار عن العبد رأسا كما يقوله الجبرية ومن أثبت للعبد اختيارا قال إنه لكونه بالدواعي التي لو لم يخلقها اللّه تعالى فيه لم يكن كان في حيز العدم ، وهذا مذهب الأشعري على ما حققه الإمام العلامة الدّواني ، قال الذي أثبته الأشعري هو تعلق قدرة العبد وإرادته الذي هو سبب عادي لخلق اللّه تعالى الفعل فيه وإذا فتشنا عن مبادئ الفعل وجدنا الإرادة منبعثة عن شوق له ورغبة فيه ، وتصور له وقصد ، وهذا

هو الاختيار ، والمعنى والله أعلم ، أن هؤلاء الذين يقترحون عليك الاقتراحات ويتمنون الأماني كما حكى الله عنهم في الآية 6 فما بعدها من سورة الفرقان المارّة وغيرها لا يليق بهم أن يتجاوزوا على الله ويتحكموا في طلباتهم لأن الكلام مسبوق لتجهيل المشركين في اختيارهم ما أشركوه بالله واصطفائهم إياه للعبادة والشفاعة لهم يوم القيامة ، كما يرمز إليه قوله آنفا (ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ) .

أما

(149/583)

ما قيل ان هذه الآية نزلت ردا على قول الوليد بن المغيرة (لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) الآية 31 من الزخرف في ج 2 فغير وجيه لأن هذه الآية لم تنزل بعد ولم يتفوّه بمقالته هذه بعد ، وكذلك ما قيل إنها نزلت ردا لقول اليهود : (لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به) كما سنفصّله في الآية 38 من سورة البقرة في ج 3 ، لأن هذه الآية مكية بالاتفاق وليس بين اليهود وحضرة الرسول أخذ ورد في مكة ، ولا يصح جعل ما في قوله تعالى (ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) موصولة باعتبارها مفعولا ليختار ، أي يجعل الوقف على ما يشاء والابتداء بقوله ويختار وتسليطه على ما باعتبارها مفعولة ، وعليه يكون المعنى

ويختار الذي فيه الخير والصلاح لهم على أن يكون ذلك الاختيار بطريق التفضل والكره عند أهل السنة والجماعة ، وبطريق الوجوب عند المعتزلة ، بل ما في الآية نافية ، لأن اللغة لا تساعد أن تكون الخيرة بمعنى الخير ، ولأن قوله تعالى بعد "سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ" لا يناسب المقام ، كما أنه لا يناسب ما قبله وهو (يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ) على الإطلاق لأن في حصره بالأصلح قيدا والله منزه عن القيد ، ولأن فيه حذف العائد إذا جعلت ما بمعنى الذي ، فيحتاج إلى ضمير يعود اليه ، إذ لا تتم الآية ، ولا يوجد ، ولمخالفته ظاهر الآية ، تدبر ، قال تعالى "وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ" تخفيه من عداوة لك يا محمد "وَما يُعْلِنُونَ" 69 منها فيما بينهم من قولهم هلا اختار الله غير هذا للنبوة ، قاتلهم الله ما كان لهم الخيرة من أمرهم ، فكيف يتمنون على الله الأماني ويعترضون عليه ، راجع تفسير الآية 134 من سورة الأنعام في ج 2 "وَهُوَ اللَّهُ" المستأثر بالإلهية والاختيار وحده وجملة "لا إِلهَ إِلَّا هُوَ" تقرير لاختصاصه بها كقولك القبلة الكعبة لا قبلة غيرها ، لا كقولهم

الحج عرفة ، لأن عرفة معظم الحج لا كله وهذا الإله المنزّه المنفرد بالألوهية المتصرف بجميع ما في الكون ناميه وجامده ، جوهره وعرضه "لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى" أي الدنيا لأنها قبل

الآخرة "وَالْآخِرَةِ" لكونها بعد الدنيا ، أما البرزخ الكائن بينهما فهو حاجز غير حصين لانتهائه بها ، ومن هذا الحمد قول السعداء في الجنة (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) الآية 33

من سورة فاطر المارة و(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ) الآية 36 من سورة الزمر في ج 2 وقوله آخرها (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) وهذا الحمد على طريق التلذّذ لا التكليف لانتهائه بالآخرة "لَهُ الْحُكْمُ" القطعي بين الخلائق فيهما وحده لا رادّ له ولا معقّب "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" كلكم أيها الخلق بعد الموت وتحضرون بين يديه بعد النشور لتفهيم هذا الحكم

فيا أكرم الرسل "قُلْ" لقومك الذين يتدخلون في ما لا يعنيهم "أَ رَأَيْتُمْ" أخبروني أيها الناس "إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً" مطّردا دائما لا نهار معه "إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ" نهار تطلبون فيه معاشكم وتنتشرون فيه لمصالحكم "أَ فَلا تَسْمَعُونَ" 71 قول اللّه فتذعنون إليه وتؤمنون به .

(151/583)

قال بضياء ولم يقل بنهار كالآية الآتية إذ قابل النهار بليل ، لأن منافع الضياء لا تقتصر على التصرف بالمعاش والمصالح بل هي كثيرة ، والظلام ليس بتلك المنزلة ، لذلك قرن بالضياء

السمع لأنه يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ، ووصف فوائده ، ونعت طرائقه ، وهو أفضل منه بدليل تقديمه على البصر في القرآن لأن الأصم لا يستفاد من مجالسته البتة ، بخلاف الأعمى ، وقرن بالليل البصر لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت ، قال تعالى "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً" لا ليل معه مستمرا متتابعا "إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ" تنامون وتستريحون فيه من مشاق النهار وعناء التعب "أَفَلا تُبْصِرُونَ" 72 هذه الشواهد العظيمة الدالة على قدرة الإله القادر ، فتقفوا على معانيها وتفهموا المراد منها وتتيقنوا أن لا أحد يقدر عليها غيره تعالى ، فيتّضح لكم خطأكم بعبادة غيره وترجعون إليه تائبين ، وهو الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عما قبلها "وَمِنْ رَحْمَتِهِ" لكم "أَن جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ" منقطعا عن النهار بقدر معلوم "وَالنَّهارَ" كذلك وجعلهما يتعاقبان بالظلمة والضياء "لِتَسْكُنُوا فِيهِ" أي الليل "وَلِتَبْتَغُوا" في النهار "مِنْ فَضْلِهِ" لتأمين حوائجكم "وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" 73 نعم اللّه المتوالية عليكم فيها ، وتعرفون حق المنعم بها فتؤمنون به ، إذ لو جعل الظلمة متصلة والضياء متصلا لحرمتم منافع ولذات كثيرة ، ولما استقام لكم أمر معاشكم .

وكلمة سرمدا لم تأت إلا في هذه السورة فقط ، ثم كرر النداء للمشركين زيادة في توبيخهم وتقريعا على إصرارهم لعلهم ينتبهون فينتهون بقوله "وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ" على ملاء الأشهاد "فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" 74 تقدم تفسير مثله ، وإن زعم تتعدى لمفعولين كقوله :

وإن الذي قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا

وقد حذف في الآية هذه مفعولي زعم أيضا ، ولك أن تقول فيها كما هو في الآية 64 المارة .

مطلب في أنواع البديع التفسير ولمقابلة وقصة قارون :

وجاء في الآية 73 المارة من أنواع البديع اللف والنّشر المرتب ، ويسمى التفسير من أقسام المعنوي في تحسين وجوه الكلام ، ومنه المقابلة كقوله :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

(153/583)

وجاء مثله في القرآن بقوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى) لآخر الآيات من سورة والليل المارة ، قال تعالى "وَنَزَعْنا" أفردنا وميزنا وأخرجنا "مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ" من الأمم السالفة "شَهِيداً" يشهد عليهم بأنه بلغهم رسالة ربهم ونصحهم ، لأن الأنبياء هم شهداء

الأمم فيما لهم عليهم يوم القيامة "فَقُلْنا لهم" أي نقول للأمم المكذبة يوم القيامة "هاتُوا بُرْهانَكُمْ" على أن للّه شريكا بينوا حجتكم على صحة دعواكم هذه وما كنتم تدينون به في الدنيا فصمتوا ، إذ لا دليل لهم على ذلك ولا امارة "فَعَلِمُوا" حينذاك "أَنَّ الْحَقَّ" في الإلهية كله "لِلَّهِ" وحده "وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ" 75 من دعوى الشرك ، وجاء الفعل هنا بالماضي لتحققه ، وهكذا كل ما هو محقق وقوعه ، وكرر جل شأنه اللائمة على المشركين ، لأنه لا شيء أجلب لغضبه من ادعاء الشرك ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من التوحيد ، قال تعالى "إِنَّ قارُونَ" بن يصهر بن قاهت "كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى " قيل هو ابن عمه ، لأن موسى بن عمران بن قاهت ابن لاوى بن يعقوب عليه السلام ، وكان عالما لا أقرأ منه في التوراة ، ولكنه نافق مثل السامري ، ومثل يهوذا الأسخريوطي من حواري عيسى ، وعبد اللّه بن

أبي بن سلول من أصحاب محمد ، راجع الآية 30 من سورة الفرقان المارة ، والآية 11 من سورة الأنعام في ج 2 "فَبَغى عَلَيْهِمْ" على بني إسرائيل لأنه كان عاملا عليهم "وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ" الذهب والفضة المدّخرة "ما إِنَّ مَفاتِحَهُ" مفاتح خزائنه إذا جعلته جمع مفتح

بكسر الميم وهو ما يفتح به ، وإذا جعلته جمع مفتح بفتحها فيكون مفاتحه خزائنه وهي المحال التي يدخر فيها المال ، وما موصولة في محل نصب بآتيناه ، وأن اسمها وخبرها وهو "لَتَنُوأُ" تثقل لا محل لها من الإعراب صلة الموصول وهو ما ، ولهذا كسرت إن هنا "بِالْعُصْبَةِ" الجماعة الكثيرة "أُولِي الْقُوَّةِ" لا الضعفاء ، والعصبة ما بين الثلاثة إلى الأربعين ، قال ابن عباس كان يحمل مفاتحه أربعون رجلا ، وقال غيره على ستين بغلا ولا يزيد قدر الواحد على الإصبع ، فإذا كانت المفاتيح هكذا فما مقدار تلك الكنوز ؟ وإذا كان عاملا من عمال فرعون عنده هذا القدر فما هو مقدار الذي عند فرعون ؟ ومع هذا كله يناوئون اللّه .

فلذلك أخذهم ، واذكر يا محمد لقومك قصته "إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ" بحطام الدنيا وتبطر على قومك وتمرح بملك ، فإنه زائل والفرح مذموم "إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ" الأشرين الذين لا يشكرون نعم اللّه ، قالوا له ذلك لما رأوا من زيادة تكبره وتعاظمه عليهم وإطالة ثيابه خيلاء ، قال تعالى (وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ) الآية 23 من سورة الحديد ج 3 لأنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن إليها أما من يعلم أنه سيفارقها فلا يفرح بها ، ولقد أحسن أبو الطيب المتنبي في قوله :

أشد الغمّ عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

وقال ابن شمس الخلافة :

وإذا نظرت فان بؤسا زائلا المرء خير من نعيم زائل

والعرب تمدح بترك الفرح عند إقبال الخير ويقولون :

ولست بفرّاح إذا الدهر سرّني ولا جازع من صرفه المتقلب

(155/583)

هذا ويشير نفي محبة اللّه لمثل هؤلاء إلى بغضه لهم وكراهته إياهم ، لأن من لا يحبه اللّه يبغضه ، وينّبه إلى أن عدم المحبة كاف في الزجر عما نهى اللّه عنه

"وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ" من المال في هذه الدنيا "الدَّارَ الْآخِرَةَ" بأن تنفق منه لأجلها مرضاة الذي أعطاكه وشكرا لنعمه "وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا" كي تنجو من عذاب الآخرة .

مطلب في معنى النصيب وفوائد أخرى :

والنصيب هو حظّ الرجل من عمل الدنيا بلاغا للآخرة ، أي اعمل لآخرتك كما تعمل لدنياك ، وقيل النصيب هو الكفن ، وقيل فيه :

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداءان تلوّى فيهما وحنوط

وفي الحقيقة ان آخر ما يأخذه ابن آدم من ماله الذي جمعه من حلال وحرام بكدّ يمينه وعرق جبينه الذي يقدم غدا على المحاسبة عليه أمام الملك العلام هو الكفن وشيء من الطيب لا

غير ، هذا ان قدر له الموت على الفراش ، وإلا فقد لا يحصل على ذلك ان مات غرقا أو حرقا أو أكله السباع ، فالسعيد من أمسك من ماله ما يكفيه وتصدق بالفضل لصلة رحمه وفقراء أمته ليدخر ثوابه في الدار الباقية ، لأن هذه زائلة لا محالة ولو عمّر فيها ما عمر وقبل في المعنى :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

والقول الفصل ما قاله سيد الرسل : عش ما شئت فإنك ميت ، واحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به .

(156/583)

وروى عمرو بن يموت المازني عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ، وهذا الحديث مرسل لأن عمر هذا لم يلق النبي صلّى اللّه عليه وسلم : ألا لا يغتر ابن آدم بالخمس الأول ، فهي وبال عليه إذا لم يصرفها إلى التي خلقت إليها "وَأَحْسِنْ" إلى خلق اللّه مما تفضل به عليك "كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" لتكون من الشاكرين إحسانه فيزيدك إحسانا "وَلا تَبْغِ" وإياك أن تسعى فتطلب "الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ" لتظلم

الناس وتطغى عليهم بسبب نعم اللّه ، فتتعالى وتترفع عليهم فيسلبها اللّه منك قال صلّى اللّه عليه وسلم أشكروا النعم لا تزدروها .

وفي رواية لا تكفروها .

فإنها إن زالت هيهات أن تعود ولذا قالوا بالشكر تدوم النعم .

ومن أقبح القبائح أن تستعمل

نعم اللّه في معصيته ، لأنه جل جلاله تفضل على عباده كي يشكروه ويتفضلوا على عياله الفقراء ، لا أن يبغوا بما تفضل عليهم ، قال تعالى في الحديث القدسي :

الأغنياء وكلائي والفقراء عيالي ، فإن بخل وكلائي على عيالي أذقتهم وبالي ولا أبالي .

(157/583)

ولهذا البحث صلة في الآية 11 من سورة لقمان في ج 2 فراجعه ألا فلينتبه الغافلون المغرورون ليعلموا أنهم ليسوا بأفضل من الفقراء عند اللّه ، وأن اللّه لم يخصهم بالغنى لفضلهم بل ليختبرهم هل يصرفونه مصارفه أم يبخلون به ، كما اختبر ثعلبة الآتي ذكره في الآية 76 من سورة التوبة في ج 3 اما يحمد اللّه هذا الغني ان أغناه اللّه وجعله من المتصدقين على عباده ألا يخشى أن يفقره اللّه ويحوجه للسؤال من الغني ، أما يسرّه أن تكون

يده العليا وقال صلّى اللّه عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى "إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ" 77 في الأرض بظلم أهلها والتسلط عليهم وتشعر عدم المحبة لهذا الصنف بغضبه عليهم وكراهته إياهم ، وهكذا فلا تجد آية صرح اللّه بها بلفظ البغض البتة ، فتعلموا أيها الناس الأدب من أقوال اللّه ورسوله ، فبدل أن تقول لأخيك كذبت قل له غير صحيح ، أو ليس الأمر كذلك ، فهو أدوم للمحبة وأعف للّسان وأطهر للقلب .

واعلم أن الذي لا يحبه اللّه فهو مكروه عنده مبغوض عند خلقه .

(158/583)

وإلى هنا انتهت نصيحة قوم قارون له ، وانظر إلى غروره وطيشه في جوابه لهم "قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ" أي ذلك المال الكثير ليس كما تقولون ، وإنما كان "عَلَى عِلْمٍ" عظيم "عِنْدِي" علمنيه ؟ ؟ ؟ اللّه وفضل استوجبت فيه التفوق عليكم ، فكان ذلك استحقاقا لي فردّ اللّه تعالى عليه بقوله عز قوله "أَوَلَمْ يَعْلَمْ" هذا الخبيث "أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ" من القرون الماضية مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً" على جمع المال وعلما في استخراج الفضة والذهب من المعادن الأرضية واستراحها في الأعمال والتجارات وتعاطي الحرف "وَأَكْثَرُ جَمْعاً" للأموال منه ولم يدع دعوته هذه ، وأراد الملعون بالعلم علم الكيمياء لأنه كان ماهرا فيها ، إذ

يستخرج من الرصاص الفضّة ومن النحاس الذهب ، وكان حاذقا في نموّ المال ، ولهذا ظن أنه أهل لذلك فأعطاه اللّه المال بفضله عليهم ولم يعلم أن تعليمه ذلك كان بتقدير اللّه إياه عليه ، ولولا ذلك لما قدر أن يسقي

نفسه جرعة ماء ، ولكن من غرّه عمله غاب عنه زلله والعياذ باللّه ، وما قيل إنه أراد بالعلم علم التوراة قيل لا قيمة له ، لأنه لو أراد ذلك لما افتخر به على قومه وتفوق عليهم ، لأن فيهم من يعلمها مثله ، ولو كان ، لساقه علمها إلى التواضع ولين الجانب وكثرة الإنفاق ومكارم الأخلاق لأنها هدى ونور أنزلها اللّه على موسى وقومه ليهتدوا بها وينتهوا عما تحلى به قارون من الكبرياء والعظمة ، فكان مجرما عند اللّه تعالى بذلك "وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ" 78 بل يدخلهم النار رأسا من غير حاجة إلى السؤال والاستعذار .

(159/583)

قال تعالى (وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) الآية 36 من المرسلات المارة ، ولا عذر لهم بعد تحقق توغلهم بالجرمية ، فهم معروفون بأعمالهم ، قال تعالى (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ) الآية 41 من سورة الرحمن في ج 3 أي بعلائهم فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ويطرحون في النار ، لأن جوارحهم تنطق بما عملوه في الدنيا قال تعالى "فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ" يوم عيده

مزينا باللباس الباهر متحليا بأنواع الأوسمة المرصعة بالجواهر راكبا على بغلة موشىّ سرّجها بالذهب والدر ، وعن يمينه وشماله وخلفه سبعون الفا من الخدم والجواري ، وكلهم مزّين بأنواع الحلي ومرتد أحسن الثياب ، لا يرى الرائي أحسن منهم في زمنهم ، فلما رأى الناس موكبهم الفخم انقسموا قسمين ، بين للّه الأخس منهما يقوله حكاية عنهم "قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا" قبل كانوا مسلمين ، ولكن قالوا ما قالوا على سبيل الرغبة في اليسار كعادة البشر "يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ" من زخارف الدنيا وبهجتها "إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" 79 فيها إذ أوتي مما لم يؤت أحد مثله لما بهر عقولهم من عظمة ما رأوا من أمارات العز ، ثم بيّن اللّه تعالى الأحسن منهما بما حكى عن حالهم بقوله جل قوله "وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" بما وعد اللّه المتقين في الآخرة لأولئك المتمنين "وَيْلَكُمْ" بما قلتم وتمنيتم ، وهذه كلمة دعاء بالهلاك ثم استعملت للردع والزجر عن ترك غير المرضي ، وهو منصوب محلا أي ألزمكم اللّه الهلاك ، ان هذا الذي ترونه عند قارون ليس بشيء محمود عاقبته ، وهو فان ولكن "ثَوابُ اللَّهِ" الدائم في الآخرة "خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً"

في

دنياء مما أوتي قارون وآله من الزخرفة ، فاصبروا على ما أنتم عليه فالصبر فضيلة عظيمة عند اللّه "وَلاَ يُلَقَّاهَا" أي خصلة الصبر المترتب عليها ثواب اللّه "إِلَّا الصَّابِرُونَ" 80 صبرا حقيقيا لا لسمعة أو رياء بل صبر محض مبرأ من جميع شهوات الدنيا الخسيسة ، فهم الراضون بما قسم اللّه لهم في هذه الدنيا الزائلة من القليل المتيقنون أن ثواب اللّه خير .

وانظر إلى فعل اللّه بمن يشاركه في كبريائه ولا يسمع قول أوليائه

قال تعالى "فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ" التي فيها خزائنه "الْأَرْضَ" فابتلعتها معه لأنه لم يسند نعمه إلى منعمها ، لذلك لم يمتعه بها إلا قليلا وسيرى وبالها غدا لأنه ظن أن علمه أهله لها فلينجه علمه من هذا الخسف ، والخسف الذهاب في الأرض ، يقال خسف المكان أي ذهب في الأرض ، وخسف القمر زال ضوء .

وعين خاسفة إذا عدمت حدقتها قال تعالى "فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ" لا من كان يمشي خلفه ولا غيرهم من جماعته يقدر على حفظها من الخسف الذي حل به أو يحول دونه "وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ" 81 لنفسه فيخلصها ، ولم يكن له عمل صالح فيكون سببا لإنقاذه ، ثم ذكر حال وشأن الفريقين المذكورين أعلاء فقال عز قوله "وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ" اليوم الكائن قبل يومك أي قبل الخسف الذين قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إلخ ، يقولون "وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ" يضيق ويوسع على من يشاء ، وكلمة وي يقولها النادم على الخطأ الذي وقع منه إظهارا لندمه

واعلاما بذلك الخطأ على طريق التعجب "لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا" بما تمنيناه من حالة قارون كما خسف به "وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ" 82 بنعم اللّه ولا ينجون من عذابه ، قالوا هذا مظهرين الندم على ما فرط منهم من التمني .

(161/583)

مطلب كلمة ويكأن وقصة قارون :

هذا وقد كتبت وي هنا متصلة بكأن لكثرة الاستعمال وإلا فهي كلمتان وي للتعجب وكأن للتشبيه ، والقياس أن تكتب منفصلة بعضها عن بعض لجواز الوقف عليها ، وقد كتبت على القياس في قول زيد بن عمرو بن نفيل :

وي كأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وقال الأخفش : الكاف متصلة بها وهي مع الكاف اسم فعل بمعنى أعجب ، والوقف على الكاف منها أي على ويك ، وعليه قول عنترة :

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر اقدم

وذهب السكاكي إلى أن أصلها ويلك وخفّفت بحذف اللام ، فبقيت ويك ، وهي للردع والزجر وللبعث على ترك ما لا يرضي .

وقال أبو حيان هي كلمة تحزّن وأنشد في التحقيق قوله :

ألا ويك المضرة لا تدوم ولا يبقى على البؤس النعيم

وعلى هذا يكون الكاف في موضع جرّ بالإضافة والعامل في أن بعدها على هذا الوجه والوجه الذي قبله فعل العلم المنصور ، أي أي أعلم أن اللّه بسط إلخ ، واعلم أنه لا يفلح إلخ ، لأن أن بعدها مفتوحة الهمزة ، أو بتقدير اللام أي لأن إلخ ، على أنه بيان للسبب الذي قيل لأجله ويك .

وحكى ابن قتيبة أن معى ذلك رحمة لك بلغه حمير .

وقال الفراء ويك بلغة العرب كقول الرجل ألا ترى إلى صنع اللّه تعالى ؟ وقال أبو زيد وجماعة معه ويكأن حرف واحد بجملته ، وهو بمعنى ألم تر ، وهذه رواية عن ابن عباس .

فعلى من يستعمل هذه الكلمة أن لا يتعدى في معناها ولفظها ما ذكرناه ، لأنا لم نبق زيادة لمستزيد .

(162/583)

وخلاصة قصة قارون على ما ذكره ابن عباس وغيره أنه لما نزلت الزكاة على سيدنا موسى بأنها عشر المال صالح قارون على أن يعطيه في كل ألف دينار دينارا ، وفي كل ألف درهم

درهما وفي كل ألف شاة شاة ، وهكذا من كلّ ما عنده ، وذلك بأمر اللّه تعالى لعلمه عز وجل أنه لا يعطي شيئا ، وقد جاراه سيدنا موسى عليه السلام على ما أراد لتحق الكلمة عليه ، فبعد أن رضي حاسب نفسه ، فإذا هي شيء كثير بالنسبة لما عنده ، فلم تسمح نفسه بإعطاء شيء ، ولما علم أن موسى ليس بتاركه جمع بني إسرائيل وقال لهم إن موسى يريد أخذ أموالكم بعد أن أطعتموه في كل شيء وقد أتاهم الخبيث من جهة المال لعلمه بشدة حرصهم عليه لينال قصده ، فقالوا أنت كبيرنا فأمرنا بالذي تراه ، قال ائتوني بالباغية فلانة ، فجاءوا بها حالا ، فجعل لها ألف دينار

وألف درهم وطستا من ذهب على أن تقول زنى بي موسى ، وتعهد لها بأنها إذا قالت ذلك على ملأ الناس لموسى يجعلها كسائر نسائه فطمعت بذلك ورضيت ، ثم قال للذين معه إذا تم هذا الأمر على رءوس الأشهاد فإن بني إسرائيل تخرج عليه ويرفضونه وأبقى لكم أنا أفيض عليكم من مالي .

(163/583)

وهذا كله من حب نفسه الخبيثة رئاسة والمال حسدا لموسى عليه السلام ، وكان نقم عليه قبلا بسبب جعل هرون رئيسا للأحبار على رئاسة المذبح للقرابين ، ولم يجعل له شيئا مع

أن موسى لم يجعلها أخيه إلا بأمر اللّه ، ولأنه أقسره على إعطاء الزكاة ، وهو قد استكثرها وبخل ؟ ؟ ؟ اللّه بها واستغل خبثه أملا بأخذ الرئاسة له وحبّا بالدنيا مع أنه لو عاش ما عاش ؟ ؟ ؟ نوح عليه السلام وأكل الذهب والفضة لما نقذ ما عنده ، وهو أكبر رئيس من جهة دنيا لكثرة ما عنده (قال سهيل ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح أبدا ، والسعيد من عرف بصره عن أقواله وأفعاله ، وفتح له سبيل رؤية منّة اللّه عليه في جميع الأحوال ، والشقي من زين له في عينيه أقواله وأفعاله وأحواله ، ولم يفتح له سبيل ؟ ؟ ؟ منّة اللّه عليه فافتخر بها وادعاها لنفسه فيهلكه شؤمه كما صار في قارون ، ؟ ؟ ؟ ثم جمع قارون بني إسرائيل وأتى بهم إلى موسى ، وقال له إنهم أتوا لتأمرهم ؟ ؟ ؟ تنهاهم ، فخرج إليهم وقام بعضهم فقال من جملة ما قال من سرق قطعنا يده ، من افترى جلدناه ثمانين جلدة ، ومن زنى وليست له امرأت جلدناه مئة جلدة ، من زنى وله امرأت رجمناه إلى أن يموت ، قال قارون نازعا جلباب الحياء لأدب متلبسا بالجرأة والقسوة : وإن كنت أنت يا موسى ؟ قال وإن كنت ؟ ؟ ؟ قال فإن بني إسرائيل وأشار إلى جماعته يزعمون أنك فجرت بفلانة الباغية ، ؟ ؟ ؟ ادعوها وأخذه الغضب ، فجاءت ومثلاث أمامه وهم من بين يديها ومن خلفها ؟ ؟ ؟ على القول ويمنونها بما تعهد به لها قارون ، فقال لها أنشدك باللّه الذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل لهم التوراة إلا صدقت

فتداركها اللّه وحفّها لتوفاق وقالت في نفسها إني أحدث توبة للّه أحسن مما وعدنيه قارون

من المال لعزّ ، فتقدمت وقالت بصوت عال لا واللّه حاشا موسى ، ولكن قارون جعل جعلا على قذفه ووعدني أن أقول إنه فجربي ، أما وقد خلفتني يا موسى

(164/583)

فأنت براء طاهر زكي .

فخرّ موسى ساجدا للّه يبكي ويقول اللهم ان كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى اللّه إليه اني أمرت الأرض أن تطيعك فافعل فيه ما تريد ، فقال يا بني إسرائيل من كان مع قارون فليثبت معه ومن كان معي فليعتزل عنه .

ولما عرفوا أن الغضب أخذ مأخذه منه ، خافوا وتركوا قارون والتحقوا بموسى ولم يبق مع قارون إلا رجلان ، ثم قال يا أرض خنيهم ، فأخذتهم إلى أقدامهم ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ، ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق ، وهم في كل هذا يبكون ويستغيثون ويناشدون موسى اللّه والرحم ويتضرعون له وهو لم يلتفت إليهم ، ثم قال يا أرض خذيهم فأطبقت عليهم الأرض ، فأوحى اللّه إلى موسى ما أغلظ قلبك يستغيث بك قارون سبعين مرة فلم تغثه ، أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرّة واحدة لأغثته ، ولا أجعل الأرض بعدك طوعا لأحد ،

ثم أصبح بنو إسرائيل الخبثاء النذلاء سيئي النية غليظي القلوب ، كافري النعم ، يقولون إنما دعا موسى على قارون ليستبد بأمواله ، فسمع موسى فدعا اللّه فخسف بداره وأمواله كلها .

هذا وإن اللّه تعالى أراد هذا بقارون ورفيقيه ولو لم يرد لوفقهم بالاستغاثة به والتوبة النصوح.

(165/583)

وأقول ما أغلظ قلوبهم أجمعوا على عبادة العجل وهم يعلمون أنه من صنع السامريّ وهو خبيث منافق منهم ، وأجمعوا على عدم الأخذ بالتوراة حتى رفع فوقهم الجبل وأراد أن يسقطه عليهم وهي رحمة لهم ، وأجمعوا على قذف موسى وقد بعث لخلاصهم من الرق ، وحينما نجّاهم اللّه من البحر وأغرق فيه أعداءهم رأوا قوما يعبدون الأصنام فأجمعوا على قولهم لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة وأرجلهم لم تجف بعد من ماء البحر الذي خلقه اللّه معجزة لهم ، وأجمعوا على إنكار معجزات كثيرة أظهرها كالشمس في رابعة النهار ، ثم هم يجمعون على أن موسى إنما فعل ما فعل بقارون بقصد الاستيلاء على أمواله ، قاتلهم اللّه أنى يؤفكون : قال قتادة خسف به فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا

يبلغ قرارها إلى يوم القيامة ، والله أعلم بصحة ذلك ، لأنه مشكل إذا صح ما قاله الفلاسفة في مقدار قطر الأرض الذي سنبينه في الآية

الأولى من سورة الإسراء الآتية في المعجزة الخامسة والثمانين .

وأما الخسف فلا شك فيه ومنكره كافر .

(166/583)

هذا أيها العاقل الكامل مصير الدنيا بأهلها ، أما الآخرة فاسمع ما يقول الله تعالى فيها "تِلْكَ" التي مرّ وصفها غير مرّة هي "الدَّارُ الْآخِرَةُ" الباقية الدائمة ذات الجنات والنعيم الدائم والصحّة والأمان "نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ" على غيرهم ترفعا وتكبرا "وَلَا فَسَادًا" في هذه الدنيا كقارون وأضرابه بل للذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين يعملون لعاقبتهم "وَالْعَاقِبَةُ" المحمودة "لِلْمُتَّقِينَ" 83 الله في الدنيا المتباعدين عن لأحوال المذمومة كالظلم والعسف والخيلاء والتجبر ، الذين يأبون الأعمال السيئة وينكبون على الأعمال الصالحة لأنهم علموا أن "مَنْ جَاءَ" ربه يوم القيامة "بِالْحَسَنَةِ" الواحدة "فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا" عشر أمثالها إلى سبعمئة ، والله يضاعف لمن يشاء "وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ" في دنياهم ولم يقلعوا عنها "إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" 84 أي بمثلها فقط ، وهذا

من لطف اللّه بعباده جلّت رأفته ، فإنه لم يذكر للسيئة جزاء أكثر منها ، وقد ذكر للحسنة جزاء بما لا حدّ له فنعم الرب رب العالمين .

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : إن اللّه كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه له حسنة كاملة ، وان هم بها فعملها كتبها اللّه عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة عاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها اللّه سيئة واحدة .

(167/583)

فانظر يا أخي وفقني اللّه وإياك على عظيم فضل ربك ولطفه ، وتأمل هذه الألفاظ لأن قوله (عنده) إشارة إلى الاعتناء بها وقوله (كاملة) للتأكيد وشدّة الاعتناء ، وقوله في السيئة التي هم بها ولم يعملها كتبها عنده حسنة كاملة ، فأكدها أيضا لأنه إنما تركها خوفا من اللّه مكافأة بذلك ، وان عملها كتبها سيئة واحدة فأكدها لتقليلها ولم يؤكدها بكاملة له الحمد والمنّة هو أهل الثناء والمجد ، سبحانه ما أرحمه بعباده وأكرمه على عباده هذا أول الآيات المدنيات قال تعالى "إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ"

أوجب تلاوته عليك وهو اللّه ربك الذي تكفلك "لَرادُّكَ" كما أخرجك من بيتك "إِلى مَعادٍ" وأيّ معاد لا

يكون مثله لغيرك ، قال ابن عباس إلى مكة ، وأخرجه البخاري عنه وقال البلقيني معاد الرجل بلده لأنه يعود إليه وأطلق المعاد على مكة لأن العرب تعود إليها في كل سنة ، قال الدواني في كتاب العود حدثني عبد اللّه قال حدثني أبي قال حدثني علي بن الحسين عن أحمد بن موسى عن يحيى بن سلام قال : بلغني أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم حين نزل عليه جبريل .

(168/583)

عليه السّلام بالجحفة وهو متوجه من مكة إلى المدينة فقال أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي ولدت فيها ؟ قال نعم ، فأنزل اللّه (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ) إلخ وهذا وعد من اللّه إلى نبيّه بإعادته إلى بلده في الدنيا والآية التي قبلها تضمنت له الوعد بالعاقبة الحسنى بالآخرة ، صرّح حضرة الرسول لأخيه جبريل بأنه مشتاق إلى وطنه ، ولم يمض على مفارقته له ثلاثة أيام ، لأن هذه الآية نزلت بعد الخروج من الغار بالمحل المذكور بين مكة والمدينة ، وهذه أول بشارة من اللّه له وأول خير أخبر به بسبب الهجرة الشريفة التي جعلها اللّه فاتحة لفتح البلاد

وإيمان العباد ، ونصرة الدين ، ولهذا المغزى روي حب الوطن من الإيمان ، فكان صلّى اللّه عليه وسلم يكثر من قوله الوطن الوطن ، قال عمر لولا حب الوطن لخرب بلد السوء ، أي أن أحدا لا يسكن إلّا بالأحسن ، فينشأ منه خرابه ، وتترك البلاد الرديئة المناخ والقرى البعيدة عن العمران ، وتنقطع فائدة الارتباط ويحرم الناس من خير كثير ، إذ قد يوجد فيها ما لا يوجد في المدن الكبرى من خيرات ومعادن ، مما يحتاجه البشر ، لهذا فإنه جل شأنه غرز في قلوب عباده محبة أوطانهم مهما كانت ، وحبب كل محل لأهله بحيث يخيرونه على غيره ، ولا يركنون إلا إليه ، حتى أن أهل القرى الآن لمّا يأتون إلى المدن لا يطيب لهم النوم بها مع أنها أحسن وألطف من قراهم ، وفيها ما لا يوجد عندهم ولا يعرفونه فتراه يصرف جهده لإنجاز عمله ليذهب فينام عند أهله ولو كان الوقت ليلا أو حرا أو بردا ، لحكمة أرادها اللّه ، ولهذا فإن كل خلق يحن إلى وطنه الذي ولد فيه ، وجعل ذلك طبيعة غريزية في خلقه ، فترى الإبل تحن إلى مراحها ، والطير إلى وكرها ، والوحش إلى كناسها ،

والحيتان لمياهها ، والإنسان لوطنه ، ولو كان نفعه ورزقه في غيره ، فالسعيد من يوطن نفسه في حب اللّه وللّه در القائل :

(169/583)

لكل شيء إذا فارقته عوض وليس للّه إن فارقت من عوض

هذا ، وهناك أقوال كثيرة في معنى المعاد ، منها المقام المحمود لأنه المعاد الدائم لحضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، ومنها أنه الجنة ، ومنها أنه بيت المقدس لوقوع الإسراء منه ، ومنها أنّه المحشر لتسميته به ، وهو لا بد لكل أحد من الحضور فيه ، ومنها ، ومنها ، فقد صرفنا النظر عنها واخترنا ما عليه الجمهور منها قال تعالى "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء الذين اضطرّوك للخروج من بلدك قسرا بزعمهم أنك ضللتهم وآلهتهم "رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى" يعني نفسه صلّى اللّه عليه وسلم "وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ" 85 يعني هم القائلون له إنك لفي ضلال عما كان يعبده آباؤك ، قال تعالى "وَما كُنْتَ تَرْجُوا" يا أكرم الرسل "أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ" من ربك ولا كنت تظنّه ولا تتصور أن نرسل إليك عبدنا جبريل بوحينا دون سائر الناس "إِلَّا رَحْمَةً" عظيمة خصصت إلقاءه إليك "مِنْ رَبِّكَ" تفضلا منه بما قدره إليك في أزله "فَلا تَكُونَنَّ" بعد أن شرفناك بوحينا وأقمناك خليفة في الأرض عنا "ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ" 86 بي وبك وبه فتعاونهم على ما يريدون ، ولا شك أن حضرة الرسول يعلم به ربه أنه لا يؤازر الكافرين ، ومن المحال أن يخطر بباله ذلك ، كيف وهو منصرف إلى ربه بكلّيته ، وقد عادى أقاربه وقومه من أجله .

وان ظاهر هذا الخطاب وان كان منصرفا له صلّى اللّه عليه وسلم ، لكن المراد به غيره ، وهذه الآية نزلت على أثر دعاية المشركين له أن يرجع لدين آبائه كي يناصروه ويظاهروه ويعينوه ويملكوه عليهم ولما لم ينجع به ما حاكوه في دار الندوة بأن يقتلوه أو يخرجوه أو يحبسوه ، وهاجر على أثر هذا كما سيأتي تفصيله في بحث الهجرة آخر سورة العنكبوت في ج 2 ، فنزلت هذه الآية بالمحل المار ذكره ردا على ذلك ، وفيها إشارة بأن اللّه تعالى هو ظهيره على قومه الذين أخرجوه ، ومؤازرة لنصرته عليهم ورجوعه لبلده ، وإذ لم يؤمر بعد بقتالهم أشار إليه بأن أعرض عنهم وعن معاونتهم "وَلا يَصُدُّنَّكَ"

مكرهم وكيدهم وتخويفهم لك "عَنْ آياتِ اللَّهِ" والعمل بها "بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ" بعد زمن إنزالها ، لأن إذ يضاف إليه أسماء الزمان كقولك يومئذ ووقتئذ وساعتئذ "وَادْعُ إِلى" توحيد "رَبِّكَ" وعبادته كافة الناس "وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" 87 وحاشاه وهو مجتهد بالدعاء إلى توحيده ورفض الشرك وهو معصوم من أن يدعو إلى غير ربه وان المراد تحذير قومه ونهيهم وتذكيرهم بذلك وإلهاب قلوبهم إلى طاعة ربهم ، وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث وفي عصمة الأنبياء في سورة طه الآية 121 المارة بصورة مفصّلة ، فراجعه ترشد إلى ما يحوك في صدرك من هذا واللّه ولي التوفيق .

وهو الهادي إلى أقوم طريق وأعلم أن أصل فعل يصدنّك يصدونّك ، ولذا لم يفتح آخر الفعل

مع أنه متصل بنون التوكيد الموجبة لذلك ، لأن الضمير للجمع فلو كان للواحد لفتح ، وقد حذف من نون الرفع .

(171/583)

لدخول لا الناهية عليه ، وحذف الواو لالتقاء الساكنين ، أي أعرض عنهم ، لا يمنعنك يا أكرم الرسل ما تراه من عربدتهم "وَلَا تَدْعُ" على أن الخطاب له صلّى اللّه عليه وسلم ، وعلى أن الخطاب لغيره يكتب ولا تدعوا أيها الناس "مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ" لأنه هو وحده المنفرد بالإلهية ، له الخلق والأمر الواحد القهار "لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ" ولا رب غيره ، فعليكم أيها الناس بالانكباب على عبادته .

هذا ، وأرى أن الأجود في هذا الخطاب أن يكون عاما لكل البشر ، وأنما جاء بلفظ المفرد خطابا لحضرة الرسول تعظيما لشأنه ، لأنه هو المبلّغ لأمته كلام ربه ليكون أكثر وقعا في قلوب الناس ، والعصمة لا تمنع النهي ، وهنا يلزم الوقف على كلمة آخر ، لان وصلها بما بعدها يصيّر ما بعدها صفة لها ، وفيه من الفساد ما لا يخفى ، ولذلك أوجب العلماء قراءة علم التجويد وحذروا من لا يعرفه من أن يخطىء في كلام اللّه فقال :

والأخذ بالتجويد حتم لازم من لم يجود القرآن آثم

لأن من لازم علم التجويد معرفة الوقف ، وأنت خبير كم من وقف بغير محله يغير المعنى ، وكم من وصل يفسده ، قال صلّى اللّه عليه وسلم في دعائه (وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني) فإذا كان حضرة الرسول يدعو ربه أن يوفّقه لأن يقرأ القرآن على الوجه الذي يريده ربّه وهو أعلم الناس به فكيف بنا نحن ؟ اللهم وفقنا لهداك وأرشدنا لفهم كلامك ووفق أمة نبيك أن يتعلموا ما به ليفهموه .

(172/583)

ولنا رسالة في علم التجويد تكفي من يطلع عليها لمعرفته صغيرة الحجم كثيرة العلم ، واسمها (أحسن البيان في تجويد القرآن) فعليكم أيها الناس بما يصلح معادكم قبل أن تهلكوا و "كُلُّ شَيْءٍ" من مكونات اللّه تعالى "هالِكٌ" لأن مصيره إلى الزوال والاندراس "إِلَّا وَجْهَهُ" ذاته المقدسة ، وحاشاه وهو الدائم الباقي الذي لا يحول ولا يزول "لَهُ الْحُكْمُ" فصل القضاء بين خلقه مختص به وحده ، وهو الحاكم العدل في الدنيا والآخرة "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" 88 أيها الناس ، فيقضي بينكم قضاء مبرما لا مغيّر ولا مبدل له ، وهناك في تلك الدار الباقية يجزى الخلق حسما يفصل بينهم .

لأهل الخير جنات ونعمى وللكفار إدراك النكال

هذا والله أعلم ، وأستغفر الله العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليما كثيرا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بيان المعاني حـ 2 صـ 350. 407 ﴾

(173/583)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة القصص

مكية إلا قوله تعلى ان الذي فرض عليك القرآن الآية فنزلت بالجحفة وإلا قوله الذين آتيناهم الكتاب إلى الجاهلين فمدني

طسم تقدم الكلام عليه المبين كاف ان جعل تلك مبتدأ وآيات الكتاب خبره هذا ان وقفت على طسم والا فالوقف على المبين تام يؤمنون تام نساءهم كاف من المفسدين حسن الوارثين صالح لانه رأس آية في الأرض حسن لمن قرا ويرى فرعون بالياء وغير حسن لمن قراه بالنون يحذرون تام في اليم جائز ولا تحزني كاف وكذا من المرسلين وحزنا تام خاطئين حسن قرة عين لي ولك صالح لاتقتاه كاف وقيل الوقف على الأول تام وعلى الثاني أتم لا

يشعرون حسن فارغا صالح من المؤمنين حسن قصيه مفهوم لا يشعرون حسن ناصحون
كاف لا يعلمون حسن وعلما كاف المحسنين حسن فقضى عليه كاف الشيطان صالح مبين
حسن فاغفر لي صالح وكذا فغفر له الرحيم حسن وكذا للمجرمين يستصرخه كاف وكذا
مبين وبالأمس في الأرض جائز من المصلحين تام من الناصحين كاف الظالمين حسن وكذا
سواء السبيل يسقون جائز خطبكما كاف وكذا شيخ كبير من خير فقير حسن وقال أبو
عمرو تام على استحياء كاف وكذا سقيت لنا لا تخف جائز الظالمين تام وكذا الأمين ثماني
حجج كاف وكذا فمن عندك أن أشق عليك حسن ومن الصالحين أحسن منه بيني وبينك
كاف وكذا فلا عدوان على وكيل حسن وكذا تصطلون وعصاك ولم يعقب تام من الآمنين
حسن من غير سوء كاف وكذا من الرهب وملئه فاسقين حسن أن يقتلون صالح يصدقني
جائز ان يكذبون حسن بآياتنا تام بناء على تعلقها بيصلون وهو المشهور وقيل متعلقة
بالغالبون فالوقف على اليكما الغالبون حسن وكذا الأولين عاقبة الدار كاف الظالمون
حسن من اله غيري مفهوم إلى اله موسى كاف ولا أحبه لبشاعة الابتداء بما بعده من
الكاذبين حسن لا يرجعون جائز في اليم كاف الظالمين حسن إلى النار كاف وكذا الا
ينصرون وفي هذه الدنيا لعنة من المقبوحين تام وكذا يتذكرون موسى الامر جائز من
الشاهدين صالح عليهم العمر كاف مرسلين تام يتذكرون حسن وكذا من المؤمنين ولولا أن
تصيبهم مصيبة جوابه محذوف أي لم يحتج تام ارسل الرسل أوتي موسى من قبل كاف

تظاهرا جائز كافرون حسن وكذا صادين يتبعون أهواءهم كاف وكذا بغير هدى من الله
الظالمين تام وكذا يتذكرون يؤمنون حسن آمنا به كاف من ربنا صالح مسلمين تام ينفقون
كاف الجاهلين تام من أحببت صالح من يشاء كاف بالمهتدين حسن من أرضنا كاف لا
يعلمون تام وكذا الوارثين وآياتنا وظالمون وزينتها كاف وأبقى صالح يعقلون تام من المحضرين
حسن تزعمون كاف كما غوينا صالح وكذا تبرأنا إليك يعبدون حسن ورأ والعذاب صالح
يهتدون حسن وجواب لو محذوف أي لمار أو العذاب المرسلين كاف وكذا الا يتساءلون من
المفلحين وكذا ما يشاء ويختار ان جعلن ما التي بعدها نافية فان جعلت موصولة فليس
ذلك بوقف ما كان لهم الخيرة تام وكذا يشركون وما يعلنون لا اله إلا هو حسن والآخرة
جائز ترجعون تام بضياء وتسمعون تسكنون فيه كاف أفلا تبصرون حسن وكذا تشركون
تزعمون تام يفترون أتم منه الفرحين حسن في الأرض كاف وكذا المفسدين وعلى علم
عندي وجمعا المجرمون تام وكذا حظ عظيم وعمل صالحا كاف ان كان ما بعده من قول
الذين أوتوا العلم فان كان من قوله تعالى فالوقف على ذلك تام الصابرون تام من دون الله
صالح من المنتصرين حسن ويقدر صالح لخسف بنا كاف لا يفلح الكافرون تام ولا فسادا

حسن وقال أبو عمرو تام للمتقين تام خير منها صالح يعملون تام وكذا إلى معاد ومبين من ربك للكافرين حسن إذا نزلت إليك تام وادع إلى ربك جائز من المشركين حسن الها آخر كاف لا اله إلا هو تام وكذا الا وجهه وقال أبو عمرو فيه كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 577.589 ﴾

(175/583)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة القصص

مكية إلاَّ قوله إنَّ الذي فرض عليك القرآن لرادّك الآية فإنَّها نزلت بالجحفة وإلاَّ قوله الذين آتيناهم الكتاب إلى الجاهلين فمدني وهي ثمان وثمانون آية إجماعاً وكلمها ألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة وحروفها خمسة آلاف وثمانمائة حرف وليس فيها شيء مما يشبه الفواصل

طسم تقدم الكلام عليه

المبين (كاف) إن جعل تلك مبتدأ وآيات الكتاب خبره هذا إن وقفت على طسم وإلا فالوقف على المبين تام

بالحق ليس بوقف لأنَّ اللام بعده من صلة ما قبله

يؤمنون (تام)

شيعاً (صالح) لأنَّ ما بعده يصلح مستأنفاً وحالاً من الضمير في وجعل أو صفة لشيعاً

ويذبح بدلاً من محل يستضعف وأنَّه كان من المفسدين بيان للنبأ

نساءهم (كاف)

من المفسدين (تام)

في الأرض ليس بوقف لأنَّ قوله ونجعلهم أئمة منصوب بالنسق على ما عملت فيه أن وكذا

أئمة لعطف ما بعده على ما قبله

الوارثين (جائز)

ونمكن لهم في الأرض (حسن) على قراءة حمزة والكسائي ويرى فرعون بالياء والإمالة

ورفع فرعون وما بعده ثلاثياً مستأنفاً فكأنه قال ويرى فرعون وهامان وجنودهما وليس

بوقف على قراءة الباقين بالنون المضمومة ونصب فرعون وما بعده لأنَّ الواو في ونرى بمعنى

اللام

ما كانوا يحذرون (تام)

أن أرضعيه (حسن) للابتداء بالشرط

في اليم (جائز)

ولا تخافي ولا تحزني (كاف) للابتداء بإنَّا ومثله من المرسلين أفصح ما في الكتاب وأوحينا إلى أم موسى الآية لأنَّ فيها أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين

وحزناً (كاف)

خاطئين (تام)

(176/583)

قرت عين لي ولك (كاف) وقال الزجاج تام قال الكواشي يحمل قول الزجاج إن لم يرد بقوله تام التام المعروف عند أهل هذا الفن بل أراد الصالح وكأنه يشير إلى استحباب الوقف على لك لئلا يتوهم أنَّ الوقف على لا جائز ومما يقوى هذا أنَّ الزجاج قلما تعرض إلى ذلك الوقف والله أعلم بكتابه اهـ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال الوقف على لا لأنَّ امرأة فرعون قالت قرة عين لي ولك فقال لها فرعون أمَّا لك فنعم وأما لي فلا ليس هو لي قرة عين فكان كما قال قال الفراء وأبو حاتم وجماعة من أهل الكوفة إن هذا لحن ولا وجه لهذا الوقف في العربية لأنَّه لو كان كذلك لقال تقتلونه بنون الرفع إذ لا مقتضى لحذفها لأنَّ حذفها إنَّما كان للنهي فإذا بطل أن يكون نهياً وجب ثبوت النون فلما جاء بغير نون علم أنَّ العامل في الفعل لا فلا يفصل منه وهذا القول أقدام من قائله على مثل ابن عباس وهو الإمام المقدم

في الفصاحة والعربية وأشعار العرب وتأويل الكتاب والسنة قال السدي قال ابن عباس لو أنَّ فرعون قال هو قرة عين لي لكان ذلك إيماناً منه ولهداه الله لموسى كما هدى زوجته ولكنه أبى فحرم ذلك ولقول ابن عباس مذهب سائغ في العربية وهو أن يكون تقتلوه معه حرف جازم قد أضمر قبل الفعل لأنَّ ما قبله يدل عليه فكأنَّه قال قرَّة عين لي ولك لا ثم قال لا تقتلوه عسى أن ينفعنا وتكون لا الأولى قد دلت على حذف الثانية وقد جاء إضمار لا في القرآن في قوله يبين الله لكم أن تضلوا أي لئلا تضلوا وقد جاء في الشعر إضمار الجازم كقول أبي طالب يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم

محمد نفد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر تبالاً

أراد لتفد نفسك ومنه

فقلت ادعى وأدعو أن أندي لصوت أن ينادي داعيان

(177/583)

أراد ولأدعو وقد اتفق علماء الرسم على كتابة قرت عين لي وامرأت فرعون بالتاء المجرورة فيهما وكذا كل امرأة ذكرت مع زوجها فهي بالتاء المجرورة كما تقدم وهذا غاية في بيان هذا الوقف ولله الحمد

أو نتخذه ولداً (حسن)

لا يشعرون (كاف)

فارغاً (جائز)

لتبدي به ليس بوقف لارتباط ما بعده به ومفعول تبدي محذوف أي لتبدي به القول أي

لتظهره

من المؤمنين (كاف)

قصيه (حسن)

لا يشعرون (كاف) ولا وقف إلى ناصحون فلا يوقف على من قبل لمكان الفاء

وناصحون (كاف)

وقوله هل أدلكم على أهل بيت الآية يسمى عند أهل البيان الكلام الموجه لأنَّ أمه لما قالت هل أدلكم فقالوا لها أنَّك قد عرفتيه فأخبرينا من هو فقالت ما أردت إلاَّ وهم ناصحون للملك فتخلصت منهم بهذا التأويل ونظير هذا لما سئل بعضهم وكان بين أقوام بعضهم يحب علياً دون غيره وبعضهم أبا بكر وبعضهم عمر وبعضهم عثمان فقيل لهم أيهم أحب إلى رسول الله فقال من كانت ابنته تحته ولا وقف من قوله فرددناه إلى لا يعلمون فلا يوقف على تقر عينها لعطف ما بعده على ما قبله ولا على تحزن كذلك ولا على حق لحرف الاستدراك بعده لأنَّه يستدرك بها الإثبات بعد النفي والنفي بعد الإثبات

لا يعلمون (كاف) ومثله علماً وكذا المحسنين

من أهلها ليس بوقف لفاء العطف

يقتتلان (جائز) ومثله من عدوّه الأول

فقضى عليه (حسن) ومثله الشيطان

مبين (كاف)

فاغفر لي (حسن)

فغفر له (أحسن منه)

الرحيم (كاف) ومثله للمجرمين

يترقب (حسن) ومثله يستصرخه

مبين (كاف)

لهما ليس بوقف لأنَّ قال جواب لما

بالأمس (حسن)

في الأرض (جائز)

من المصلحين (تام)

ليقتلوك (حسن) ويجوز فاخرج ولا يجمع بينهما

من الناصحين (كاف)

يترقب (حسن)

الظالمين (كاف)

تلقاء مدين ليس بوقف لأنَّ جواب لما لم يأت بعد

سواء السبيل (كاف)

يسقون (جائز)

تذودان (كاف) لعدم العاطف

ما خطبكما (حسن) وكذا الرعاء لأنَّ ما بعده منقطع كأَّنه قال لم خرجتما تعريضاً لموسى

في إعانتهما

(178/583)

وأبونا شيخ كبير (كاف)

فسقى لهما ليس بوقف للعطف بعده ومثله إلى الظل لأنَّ فقال جواب لما

فقير (تام)

على استحياء (كاف) على استئناف ما بعده وقد أغرب بعضهم ووقف على تمشي ثم

ابتدأ على استحياء أي على استحياء قالت نقله السجاوندي عن بعضهم ولعله جعل قوله

على استحياء حالاً مقدمة من قالت أي قالت مستحيية لأنّها كانت تريد أن تدعوه إلى

ضيافتها وما تدري أيجيبها أم لا وهو وقف جيد والأجود وصله

سقيت لنا (حسن)

عليه القصص ليس بوقف لأنَّ جواب لما لم يأت بعده

لا تخف (جائز)

الظالمين (كاف) ومثله الأمين

ثماني حجج (حسن) ومثله فمن عندك وكذا أشق عليك

الصالحين (أحسن) مما قبله

بيني وبينك (كاف)

ثم تبتدئ أيما الأجلين وما زائدة والتقدير أيّ الأجلين فأي شرطية منصوبة بقضيت

وجوابها فلا عدوان عليّ

وعليّ (تام) لأنَّه آخر كلام موسى ثم قال أبو المرأتين نعم والله على ما نقول وكيل

ووكيل (تام) وقيل كاف

ناراً (حسن)

امكثوا (جائز)

ناراً الثاني ليس بوقف لحرف الترجي بعده وهو في التعلق كلام كي وكذلك لا يوقف على من

النار لحرف الترجي لأنَّه في التعلق كلام كي 0

تصطلون (كاف) ولا وقف من قوله فلما أتاها إلى عصاك لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على الأيمن ولا على من الشجرة ولا على رب العالمين لعطف ما بعد الأخير على ما قبله وإن تفسيرية وكسرت إني لاستئناف المفسر للنداء 0

عصاك (حسن) وقيل كاف

ولم يعقب (حسن) ومثله لا تخف فصلاً بين البشارتين وتنبيهاً على النعمتين 0

من الآمنين (حسن) ومثله من غير سوء ومن الرهب وملئه

فاسقين (كاف)

أن يقتلون (حسن)

يصدِّقني (جائز) على القراءتين فالجزم على أنَّه جواب قوله فأرسله والرفع على أنه صفة قوله رد أو بالرفع قرأ حمزة وعاصم وعلى قراءتهما يوقف على رد أو الباقون بالجزم 0

أن يكذبون (كاف)

(179/583)

بآياتنا (تام) إن علقت بآياتنا بيصلون وإن علقت بالغالبون كان الوقف على إليكما ويبتدئ بآياتنا على أنَّ من ليست موصولة أو موصولة واتسع فيه والمعنى أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا فبآياتنا داخل في الصلة تبييناً وهذا غير سديد لأنَّ النحاة يمنعون التفريق بين الصلة والموصول لأنَّ الصلة تمام الاسم فكأنَّك قدمت بعض الاسم وأنت تنوي التأخير وهذا لا يجوز قاله الأخفش ومحمد بن جرير لأنَّ إضافة الغلبة إلى الآيات أولى من إضافة عدم الوصول إليها لأنَّ المراد بالآيات العصا وصفاتها وقد غلبوا بها السحرة وإنَّما يجوز ما قاله لو كان بآياتنا غير داخل في الصلة وتكون تبييناً هذا في تقديم الصلة وتفريقها وأما حذف الموصول وإبقاء صلته عوضاً عنه ودليلاً عليه نحو إنَّ المصدِّقين والمصدِّقات وأقرضوا الله فهو سائغ كقول الشاعر :

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء

يريد ومن يمدحه وأيضاً يجوز الوقف على إليكما ثم يبتدئ بآياتنا إن جعل بآياتنا قسماً وجوابه فلا يصلون مقدماً عليه ورد هذا أبو حيان وقال جواب القسم لا تدخله الفاء وإن جعل جوابه محذوفاً أي وحق آياتنا لتغلبن جاز وقيل متعلقة بنجعل أي ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا وقيل متعلقة بيصلون وهو المشهور وقيل متعلقة بمحذوف أي إذهبا بآياتنا وضعف قول من قال إنَّ في الآية تقديماً وتأخيراً وإنَّ التقدير ويجعل لكما سلطاناً بآياتنا فلا يصلون إليكما لأنَّ لا يقع في كتاب الله إلاَّ بتوقيف أو بدليل قطعي انظر السمين وهذا غاية في بيان

هذا الوقف ولله الحمد 0

الغالبون (تام) ولا وقف من قوله فلما جاءهم موسى إلى الأولين فلا يوقف على بينات لأنَّ

جواب لما لم يأت ولا على مفترى لعطف ما بعده على ما قبله 0

الأولين (تام) على قراءة ابن كثير قال بغير واو جائز على قراءة الباقين بالواو وهو عطف

جملة على جملة 0

عاقبة الدار (كاف)

الظالمون (تام)

(180/583)

غيري (جائز) ولا يوقف على إله موسى لأنَّ ما بعده من مقول فرعون أيضاً ووسمه شيخ

الإسلام بالكافي وعليه فلا كراهة للابتداء بما بعده لأنَّ الوقف على هذا وما أشبهه القارئ

غير معتقد لمعناه وإنما هو حكاية قول قائله حكاه الله عنه هذا هو المعتمد كما تقدم غير

مرة

من الكاذبين (كاف)

لا يرجعون (جائز)

في اليم (حسن)

الظالمين (تام) على استئناف ما بعده 0

إلى النار (حسن)

لا ينصرون (كاف)

لعنة (جائز) وقيل لا يجوز لأنَّ ويوم القيامة نسق على موضع في هذه فكأنَّه قال وألحقوا لعنة

في الدنيا ولعنة يوم القيامة

ويوم القيامة (حسن) ثم يبتدئ هم من المقبوحين وهو تام ومثله يتذكرون 0

إلى موسى الأمر (جائز)

من الشاهدين ليس بوقف لتعلق حرف الاستدراك بما قبله

عليهم العمر (حسن) لاختلاف الجملتين

آياتنا ليس بوقف للعلة المذكورة

مرسلين (كاف)

يتذكرون (تام) للابتداء بلولا ومثله من المؤمنين فلولا الأولى حرف امتناع وأن تصيبهم في

موضع المبتدأ أي لولا أصابتهم المصيبة ولولا الثانية للتخصيص وجوابها فتتبع وجواب لولا

الأولى محذوف تقديره ما أرسلناك منذراً لهم 0

مثل ما أوتي موسى (تام) وقيل حسن للاستفهام بعده 0

من قبل (كاف) لعدم العاطف وللفصل بين الاستفهام والأخبار 0

تظاهرا (جائز) قرأ الكوفيون سحران أي هما أي القرآن والتوراة أو موسى وهرون وذلك على المبالغة جعلوهما نفس السحر أو على حذف مضاف أي ذو سحرين والباقون ساحران تظاهرا مخففاً فعلاً ماضياً صفة لساحران وقرئ تظاهرا بتشديد الظاء فعلاً ماضياً أيضاً أصله تتظاهران فادغم وحذفت نونه تخفيفاً 0

كافرون (تام) ومثله صادقين 0

أهواءهم (كاف) ومثله بغير هدى من الله0

الظالمين (تام) قال قتادة ولقد وصلنا لهم القول أي خبر من مضى بخبر من يأتي لأنَّ الذين آتيناهم الكتاب ليس هم الذين قيل فيهم

لعلهم يتذكرون (تام) لأنَّ الذين آتيناهم مبتدأ وهم به مبتدأ ثان ويؤمنون خبره والجملة خبر الأول0

(181/583)

يؤمنون (كاف) ومثله آمنا به 0

من ربنا (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده داخلاً في القول 0

مسلمين (كاف)

بما صبروا (حسن) قال قتادة يؤتون أجرهم مرتين لأَنَّهم آمنوا بكتابهم ثم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم 0

السيئة (جائز) على استئناف ما بعده 0

ينفقون (كاف)

أعرضوا عنه (حسن) ومثله أعمالكم وكذا سلام عليكم 0

الجاهلين (تام)

من أحببت وصله أولى 0

من يشاء (كاف)

بالمهتدين (تام)

من أرضنا (كاف) للاستفهام بعده 0

من لدنا الأولى وصله 0

لا يعلمون (تام)

معيشتها (حسن) ومثله إلاَّ قليلاً 0

الوارثين (تام)

آياتنا (حسن)

وما كنا مهلكين اتفق علماء الرسم على إثبات الياء وقفاً وحذفاً وصلاً في حالتي النصب والجر والنون محذوفة للإضافة وسقطت الياء من اللفظ لسكونها أو سكون اللام وثبتت في الوقف لأنَّه لم يجتمع معها ساكن يوجب سقوطها نحو معجزي الله وحاضري المسجد الحرام والمقيمين الصلاة والأصل وما كنا مهلكين القرى ومحلين الصيد وغير معجزين الله والمقيمين الصلاة 0

ظالمون (تام)

وزينتها (كاف) فصلاً بين المتضادين 0

وأبقى (كاف)

يعقلون (تام)

فهو لاقيه ليس بوقف لأنَّ التشبيه بعده تمام الكلام 0

الدنيا (جائز)

من المحضرين (كاف) وقيل تام إن نصب يوم بفعل مضمر 0

تزعمون (كاف)

كما غوينا (حسن)

تبرأنا إليك (أحسن) مما قبله لعدم العاطف 0

يعبدون (أحسن) منهما

فلم يستجيبوا لهم (جائز)

العذاب (صالح) وجواب لو محذوف تقديره لو اهتدوا ما لقوا ما لقوا ولو كانوا مؤمنين ما رأو

ا العذاب في الآخرة 0

يهتدون (كاف)

المرسلين (كاف) قرأ العامة فعميت عليهم بفتح العين وتخفيف الميم وقرأ الأخوان وحفص

فعميت بضم العين وتشديد الميم0

لا يتساءلون (تام) وقرأ طلحة لا يساءلون بتشديد السين بإدغام التاء في السين كقوله

تساءلون به والأرحام 0

(182/583)

من المفلحين (تام) ومثله ويختار على أنَّ ما التي بعده نافية لنفي اختيار اختِيار الخلق لا

اختيار الحق أي ليس لهم أن يختاروا بل الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة

فيها ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه قال أبو الحسن الشاذلي فر من مختاراتك كلها إلى

الله تعالى فإنَّ من اختار شيأً لا يدري أيصل إليه أم لا وإذا وصل إليه فلا يدري أيدوم له ذلك

أم لا وإذا دام إلى آخر عمره فلا يدري أفيه خير أم لا فالخيرة فيما اختاره الله تعالى والوقف

على ويختار وهو مذهب أهل السنة وترك الوقف عليه مذهب المعتزلة والطبري من أهل السنة منع أن تكون ما نافية قال لئلا يكون المعنى أنَّه لم تكن لهم الخبرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل وهذا الذي قاله ابن جرير مروي عن ابن عباس وليس بوقف إن جعلت ما موصولة في محل نصب والعائد محذوف أي ما كان لهم الخيرة فيه ويكون يختار عاملاً فيها وكذا إن جعلت مصدرية أي يختار اختيارهم 0

الخيرة (تام) على القولين 0

يشركون (كاف) ومثله يعلنون 0

لا إله إلاَّ هو (حسن) ومثله والآخرة 0

وله الحكم (جائز)

ترجعون (تام)

إلى يوم القيامة ليس بوقف في الموضعين لأنَّ جواب الشرط لم يأت فيهما وهو من وأعاد الاستفهام للتوكيد كما أعاد أنَّ في قوله أيعدكم أنَّكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنَّكم مخرجون0

بضياء (كاف) ومثله تسمعون 0

تسكنون فيه (كاف) ومثله أفلا تبصرون 0

والنهار ليس بوقف لأنَّ ما بعده وهو لتسكنوا فيه علة لما قبله وهو الدليل وقوله ولتبتغوا من

فضله علة للنهار 0

تشكرون (تام) ومثله تزعمون

برهانكم (حسن) ومثله لله

يفترون (تام)

فبغى عليهم (حسن) ومثله أولى القوة إن علق إذ بمقدر ويكون من عطف الجمل وليس

بوقف إن جعل العامل في إذ ما قبله 0

لا تفرح (حسن)

الفرحين (كاف)

الدار الآخرة (حسن) ومثله من الدنيا وكذا كما أحسن الله إليك

(183/583)

في الأرض (كاف) ومثله من المفسدين وكذا على علم عندي وقيل الوقف على علم إن

نصب عندي بفعل مقدر أي علمته من عندي قال سعيد بن المسيب كان موسى يعلم علم

الكيمياء فعلم يوشع بن نون ثلثه وعلم كالب بن يوفنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون

حتى أضاف علمهما إلى علمه وقيل علم عندي أي صنعة الذهب والفضة اهـ نكزاوي 0

وأكثر جمعاً (كاف)

المجرمون (تام)

في زينته (حسن) لعدم العاطف 0

مثل ما أوتي قارون ليس بوقف لأنَّ ما بعده من قول الذين يريدون الحياة الدنيا ولو ابتدأنا به لحكمنا بأَّنه ذو حظ عظيم قاله السجاوندي

عظيم (كاف) ومثله وعمل صالحاً إن كان ما بعده من قول الذين أوتوا العلم فإن كان من قول الله تعالى كان تاماً 0

الصابرون (تام)

الأرض (حسن)

من دون الله (جائز)

من المنتصرين (كاف) وقد اختلف في ويكأنَّ فقيل هما كلمتان وي كلمة وكأنّ كلمة وقيل ويك حرف وأَّنه حرف وقيل وي اسم فعل مضارع وكأَّنه حرف فالأول قول الخليل وسيبويه إنَّهما كلمتان ومعناهما ألم تر أن وقيل وي مختصرة من ويلك فالكاف ضمير المضاف إليه ومعناه أعجب لم فعلت كذا وكان الكسائي يقف على وي ويبتدئ كأنه وهذا هو المشهور وهو كالأول ويشهد له قول الفراء حدثني شيخ من أهل البصرة قال سمعت أعرابية تقول لزوجها أين ابنك ويلك فقال لها ويك إنَّه وراء البيت معناه أما ترينه وراء البيت ومعناهما

هنا أعجب لعدم فلاح الكافرين وما وقع لقارون وقيل الكاف في ويك حرف خطاب خطاب وأنَّه حرف وأصلها ويلك أنَّه فحذفت اللام واتصلت الكاف بأن ورد بأنَّه خطاب للجماعة الذين تعجبوا من زيّ قارون وأصحابه وليس هو خطاباً بالشخص يستحق الويل لأنَّ المتعجبين لم يكونوا يستحقون الويل لأنَّهم كانوا مؤمنين وهم أصحاب موسى عليه الصلاة والسلام ومنه قول عنترة العبسي

(184/583)

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنترة أقدم وقيل وي حرف وكأنَّه حرف وكتبت وي متصلة بكاف التشبيه لكثرة الاستعمال فيكون معنى وي التعجب فإن قيل لم وصلوا الياء بالكاف وجعلا حرفاً واحداً وهما حرفان قيل لمَّا كثر بهما الكلام جعلا حرفاً واحداً كما جعلوا يا ابن أم حرفاً واحداً في المصحف وهما حرفان وهما في المصحف وي كأنَّه حرف واحد ومعنى وي التنبيه وكأنَّه كلمة زجر وحينئذ يسوغ الوقف على وي والمعنى تنبه وانزجر وارجع عما أنت فيه 0

ويقدر (كاف) للابتداء بلولا 0

لخسف بنا (حسن)

لا يفلح الكافرون (تام)

ولا فساداً (حسن)

للمتقين (تام)

خير منها (جائز) وقال يحيى بن نصير النحوي لا يوقف على أحد المزدوجين والمعادلين

حتى يؤتى بالثاني والأولى الفصل بينهما ولا يخلطهما

يعملون (تام)

إلى معاد (كاف) قال ابن عباس أي إلى مكة ظاهراً من غير خوف وقيل إلى الجنة وقيل إلى

الموت 0

مبين (تام)

من ربك (كاف)

للكافرين (حسن) على استئناف ما بعده وليس النهي موجباً شيئاً ومثله فلن أكون ظهيراً

للمجرمين 0

ولا تكونن من المشركين وكذا ولا تدع مع الله إلهاً آخر لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

من الشرك قبل النبوة وبعدها إجماعاً 0

بعد إذ أنزلت إليك (حسن)

وادع إلى ربك (جائز)

من المشركين (كاف) على استئناف ما بعده 0

إلها آخر (حسن) ولا يوصل بما بعده لأنَّ وصله يوهم أن لا إله إلاَّ هو صفة لإلها آخر وليس كذلك 0

لا إله إلاَّ هو (تام) ومثله إلاَّ وجهه والمراد بالوجه الذات 0

آخر السورة (تام) والعامة ببناء ترجعون للمفعول وعيسى على بنائه للفاعل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ منار الهدى صـ 577.589 ﴾

(185/583)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة القصص :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ عمرو بن عبد الواحد : "أَنِ ارْضِعِيهِ" 1 ، بكسر النون ، ولا همز بعدها .

قال أبو الفتح : هذا على حذف الهمزة اعتباطا لا تخفيفا ، كما قرأ ابن محيصن "فَجَاءَتْهُ احْدَاهُمَا" 2 ، بحذف همزة إحداهما : ألبتة . فلما حذف الهمزة على ما ذكرنا كسر النون

من "أن" لسكونها وسكون الراء من بعدها ، كما قال الله سبحانه : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ 3 . ولو كان على التخفيف القياسي لقال : أنَ ارْضِعِيه ، بفتح النون بحركة الهمزة من "ارضيعه" ومثله مما حذف منه الهمزة اعتباطا هكذا لا تخفيفا قياسيا ما أنشده أبو الحسن :

تَضِبُّ لِثاتُ الخَيْلِ في حَجَرَاتِها وتسمَعُ مِنْ تحتِ العَجَاجِ لَها ازْمَلَا 4

يريد : لها أَزْمَلا .

ومن ذلك قراءة فضالة بن عبد الله5 والحسن وأبي الهذيل6 وابن قطيب7 : "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَزِعًا" 8 .

---

1 سورة القصص : 7 .

2 سورة القصص : 25 .

3 سورة طه : 39 .

4 انظر الصفحة 120 من الجزء الأول .

5 هو فضالة الليثي ، وقيل هو ابن عبد الله ، وقيل : ابن وهب بن بجرة بن بجيرة بن مالك بن عامر بن ليث بن بكر بن كنانة ، ويعرف بالزهراني ، له صحبة ورواية . الإصابة : 3 : 202 .

6 قال في الإصابة "4 : 200" : أبو هذيل غير منسوب ، ذكره أبو موسى أيضا ، وقال :

ذكره أبو بكر بن علي ، وساق من طريق أبي الأشعث عن عبد الله بن خداش عن أوسط عن أبي الهذيل ، قال : قال رسول الله "صلى الله عليه وسلم" : ليأكل الرجل من أضحيته .

7 هو يزيد بن قطيب السكوني الشامي ، ثقة . له اختيار في القراءة ينسب إليه ، روى القراءة عن أبي بحرية عبد الله بن قيس صاحب معاذ بن جبل ، وروى القراءة عنه عمران بن عثمان الحمصي ، وحدث عنه صفوان بن عمرو وغيره . طبقات القراء : 2 : 382 .

8 سورة القصص : 10 .

(186/583)

وقرأ : "قَرِعًا" ، بالقاف والراء – ابن عباس .

وحكى قطرب عن بعض أصحاب النبي "صلى الله عليه وسلم" : "فِرْغًا" .

وحكى فيها أيضا : "مؤسى" ، بالهمز .

قال أبو الفتح : أما "فَزِعًا" بالفاء والزاي فمعناه قَلِقًا ، يكاد يخرج من غلافه فينكشف ومنه قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ 1 ، أي : كُشِف عنها .

وأما "قَرِعًا" ، بالقاف والراء فراجع إلى معنى فارغا ، وذلك أن الرأس الأقرع هو الخالي من

الشغر ، وإذا خلا من الشيء فقد انكشف منه وعنه .

وأما "فِرْغًا" فكقولك : هدَرا2 وباطلا ، يؤكد ذلك كله قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾3 . قال :

فَإِنْ تَكُ أَذْوادٌ أُصِبْنَ وَنِسْوَةٌ فَلَنْ تَذْهَبُوا فِرْغًا بِقَتْلِ حِبالِ4

ومعنى فارغا ، أي : خاليا من الحزن ؛ لعلمها أنه لا يغرق ، وقال ابن عباس : فارغا أي : خاليا من كل شيء إلا من ذكر موسى .

وأما همز "موسى" ففيه صنعة تصريفية ؛ ذلك أن الساكن إذا جاور المتحرك فكثيرا ما تقدر العرب أن تلك الحركة كأنها في الساكن ، فكأن5 ضمة "موسى" في الواو . والواو

---

1 سورة سبأ : 34 .

2 في ك : هذرا ، بالذال ، وهو تحريف .

3 من الآية 10 في سورة القصص .

4 لطليحة بن خويلد الأسدي . ويروى "أخذن" مكان "أصبن" والأذواد : جمع ذود وهي من الإبل من الثلاثة إلى العشرة ، مؤنثة ، ولا واحد لها من لفظها . وحيال ، بالكسر : اسم ابن طليحة . وانظر اللسان "فرغ" ومختصر شرح الشواهد للعيني : 194 .

وفي البحر "1077" : وقرأ بعض الصحابة "فِزْغا" ، بالفاء مكسورة ، وسكون الزاي . والغين المنقوطة : ومعناه : ذاهبا هدرا . . . ومنه قول طليحة الأسدي في أخيه حبال :

فإن يك قتلى قد أصيبت نفوسهم فلن تذهبوا فزغا بقتل حبال

ولم نعثر في المعاجم التي بين أيدينا على "فزغ" ، فهي مما فاتها ذكره .

5 في ك : فكما ، وهو تحريف .

(187/583)

إذا انضمت ضما لازما فهمزها جائز ، كأُعِدّ وأُجُوه . وكذلك أيضا 1 قولهم في المرأة والكَمْأة : المرأة والكَمَاة ، فقلبوا الهمزة ألفا ؛ لأنهم قدروا فتحة الهمزة في الراء والميم قبلها ، فصار كأنه المرأة والكَمَأة ، فقيل فيه : مرَاة وكَمَاة ، كما يقال في تخفيف رأس وكأس : رَاسٌ وكَاسٌ ومنه أيضا قول بعضهم في الوقف : هذا بكُرْ ومررت بِبَكِرْ ، فنقلوا الضمة والكسرة إلى الساكن قبل الراء ، وهو الكاف . فكأن الراء محركة بحركة الكاف [121ظ] لأنها تجاورها ففي ذلك شيئان :

أحدهما : الشح على حركة الإعراب أن يستهلكها الوقف .

والآخر : الاستراحة من اجتماع 2 ساكنين ، وهذا ونحوه - مما تركناه تحاميا للإطالة به - يدلك على أن حركة الحرف تحدث معه وأن الحركة إذا جاورت الساكن صارت كأنها فيه ، فعليه جاء همز مُؤسَى . أنشدنا شيخنا أبو علي :

لَحَبَّ المُؤْقِدانِ إلى مُؤْسَى 3

ومن ذلك قراءة النعمان بن سالم 4 : "عَنْ جانب" 5 .

وقرأ : "عَنْ جنْب" 6 الأعرج وقتادة والحسن .

قال أبو الفتح : المعنى فيهما جميعا فَبَصُرَت به مُزْوَرَّة مُخايِلَة ، فالياءُ والفاءُ يلتقيان في هذا المعنى 6 ، لاجتماعهما في كونهما من الشفة . فمن ذلك قولهم : تَجَانَفَ عن الشيء أي : مال عنه ، وفيه جَنَفٌ ، أي : ميل . ومنه قوله :

---

1 سقطت في ك .

2 في ك : التقاء .

3 عجزه :

وجعدة إذ أضاءهما الوقود

وانظر المحتسب : 1 : 47 .

4 هو النعمان بن سالم الطائفي ، روى عن أوس بن أبي أوس وعبد الله بن عمر ، وروى عنه سماك وداود بن أبي هند . وثقه أبو حاتم ، الخلاصة : 345 .

5 سورة القصص : 11 .

6 يستعين بمناظرة الباء بالفاء على تفسير "عن جانب" و"عن جنب" بمزورة .

لَمْ يَرْكَبُوا الخَيْلَ إلا بَعْدَ ما هَرِمُوا فَهُمْ ثِقَالٌ على أَعْجَازِها جُنُفُ

ومن أبيات الكتاب :

تَجَانَفَ عن جَوِّ اليَمَامَةِ نَاقَتِي وما قَصَدَتْ مِن أَهْلِها لِسَوَائِكا 1

وأنشد أبو زيد :

تَجَانَفَ رَضْوَانُ عن ضَيْفِه أَلَمْ يَأْتِ رَضْوَانَ عَنِّي النُّذُرْ 2 ؟

ومن ذلك قراءة ابن محيصن : "فَجَاءَتْهُ احْدَاهُمَا" 3 ، بإسقاط الهمزة .

قال أبو الفتح : قد قدمنا ذكر ضَعف ذلك ، وأنه إنما يجوز في الشعر لا في التنزيل 4

ومن ذلك قراءة الحسن : "أَيمَا الْأَجَلَيْنِ" 5 ، خفيفة الياء .

قال أبو الفتح : في تخفيف هذه الياء طريقان يكادان يَعْذِران :

أحدهما تضعيف الحرف ، وقد امتد عنهم حذف أحد المثلين إذا تجاورا ، نحو أَحَسْت ، ومَسْت ، وظَلْت . وحكى ابن الأعرابي : ظَنْت في ظَنَنْت .

والآخر أن الياء حرف ثقيل منفردةً ، فكيف بها إذا ضُعِّفت ؟ غير أن في واجب الصنعة شيئًا أذكره لك . وذلك أن "أيا" عندنا مما عينه واو ولامه ياء ، وهذا من باب أَوَيْتُ ،

هكذا موجَب القياس والاشتقاق جميعا .

أما القياس فلأن ما عينه واو ولامه ياء أضعاف ما لامه وعينه ياءان ، ألا ترى إلى كثرة باب لَوَّيْت وشَوَيْت وطَوَيْت وعَوَيْت6 يَدَه وزَوَيْت7 جانبه ، إلى قلة باب عَيِيت وحَيِيت ؟

---

1 البيت للأعشى ، وروي "عدلت" مكان "قصدت" . وجو : عاصمة اليمامة ، ويطلق عليها أيضا اسم اليمامة ، وهي بلاد بين نجد واليمن ، تتصل بالبحرين شرقا وبنجد غربا . وانظر ديوان الشاعر : "89" ، والكتاب : 1 : 203 ، واللسان "جنف" .

2 لأشعر الرقبان الأسدي ، من شعراء الجاهلية . وانظر النوادر : 73 ، وسمط اللآلي : 830 .

3 سورة القصص : 25 .

4 انظر الصفحة 120 من الجزء الأول ، و147 من هذا الجزء .

5 سورة القصص : 28 .

6 عويت يده : لويتها .

7 زويت جانبه : نحيته .

فأصل "أيٍّ" على هذا أَوْيٌ ، فاجتمع الواو والياء ، وسبقت الواو بالسكون ؛ فقلبت ياء ، وأدغمت في الياء ؛ فصارت "أيٌّ" ، كقولهم : طَوَيْت الثوب طيًّا ، وزَوَى وجهه زيًّا .

وأما الاشتقاق فلأن "أيًّا" أين وقعت غيرُ مُتبَلَّعٍ 1 بها ؛ فإنها بعض من كل ، كقولنا : أيّ الناس عندك ؟ وأيُّهم قام قمت معه ، وأيُّهم يقوم زيد 2 وبعض الشيء آو إلى جميعه ألا ترى إلى قول العجلي في صفة البعير :

يَأْوِي إلى مُلْطٍ لَهُ وَكَلْكَلٍ 3

أي يتساند إليها ، ويعتمد عليها وهذا في المعنى كقول طفيل :

وَآلَتْ إلى أَجْوَازِهَا وتَقَلْقَلَتْ قَلَائِدُ في أَعْنَاقِها لَمْ تُقَضَّبِ 4

وهذا واضح ، فأصل "أيٌّ" على هذا أَوْي ، ثم أدغمت الواو في الياء على ما مضى ؛ فصارت "أيّ" فإذا حذفت الياء تخفيفا فإنها الثانية . فإذا زالت الثانية أوجب القياس أن تعود الأولى إلى أصلها [122و] وهي الواو ، فيقال : أوْما الأجلين قضيت .

والذي حسُن عندي إظهار العين هنا ياء مع زوال الياء القالبة 5 لها من بعدها – أنها إنما حذفت اللام تخفيفا وهي منوية مرادة معتقدة ؛ فأقرت العين مقلوبة ياء ؛ دلالة على إرادة الياء التي هي لام ، وإشادة بها ، كما صحت الواو الثانية في قوله :

وكَحّلَ العَيْنَيْن بالْعَواوِر 6

دلالة على إرادة الياء في عوَاوِير ، وأنها إنما حذفت استحسانا وتخفيفا ، لا وجوبا

وتصميما . وكما قالوا : اضْتَقَطْتُ النوَى ، فصحّت التاء ، ولم تقلب طاء لوقوع الضاد قبلها ، كما قلبت

---

1 غير متبلع بها : غير متهمل عندها ولا مكتفًى بها ، من قولهم : أبلعني ريقي ، أي : أمهلني مقدار ما أبلعه .

2 أي : أيهم قائما زيد ، أو أيهم زيد قائما .

3 انظر الصفحة 171 من الجزء الأول .

4 الأجواز : جمع الجوز ، وهو من الشيء وسطه ومعظمه . وتقلقلت : تحركت . وتقضب : تقطع .

5 في ك : الغالبة .

6 انظر الصفحة 107 من الجزء الأول .

في اضطراب واضطمر ؛ دلالة على أن الضاد فيها بدل من شين اشْتَقَطْتُ1 ، فقد قالوهما جمعيا : اضْتَقَطْت ، واشْتَقَطْتُ . وكما قالوا : كان من الأمر ذَيْتَ وكَيْت ، فأقروا الياء بحالها دلالة على أن التاء فيها بدل من ياء ذَيَّةَ وكَيَّةَ ؛ فتركت الياء على إرادة التثقيل .

ويجب – على ما قدمنا – أن "ذَيَّةَ" من باب طويت على ما مضى ، فكان يجب إذا حذفت اللام التي هي الياء أن تعاد الواو إلى أصلها ، فيقال : ذَوْتَ ، وكذلك القول في كَيْتَ ، والعلة في الجميع واحدة . وأنشدَنا أبو علي للفرزدق :

تَنَظَّرْتُ نَصْرًا والسِّماكَيْن أيُّهُما عَلَيَّ من الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مُوَاطِرُهْ2

فهذا كقراءة الحسن : "أَيَمَا الْأَجَلَيْنِ" سواء .

ومن ذلك قراءة الحسن : "عُضُدَكَ"3 .

قال أبو الفتح : فيها خمس لغات : عَضُد ، وعَضْد ، وعُضُد ، وعُضْد ، وعَضِد .

وأفصحها وأعلاها عَضُد بوزن رَجُل . وعَضْد مُسَكَّنٌ من عَضُد ، وعُضْد منقول الضمة من الضاد إلى العين ، وعُضُد بالضمتين جميعا كأنه تثقيل عُضْد . وقد شاع عنهم نحو ذلك ، كقولهم في تكسير أحمر : حُمُر ، قال طرفة :

وِرَادًا وَشُقُرْ4

يريد : شُقْرًا .

وأما عَضِد فلغة صريحة غير مصنوعة ، ونظيرها رجل وَقِل5 ووَقْل ، ووظيف عَجِر وعَجُر6 . من العَضُد قولهم : عَضَدْت فلانا إذا قويتَه ؛ وذلك لأن العضد أقوى اليد ، ومنه عِضادتا الباب : جانباه ؛ لأنهما كالعضدين له ، وعليه بقية الباب .

---

1 لم نعثر على هذا الفعل في المعاجم التي بين أيدينا .

2 انظر الصفحة 41 من الجزء الأول .

3 سورة القصص : 35 .

4 من قوله :

أيها الفتيان في مجلسنا جردوا منها ورادا وشقر

وانظر الصفحة 161 من الجزء الأول .

5 رجل وقل : صاعد .

6 الوظيف : مستدق الذراع والساق من الخيل الإبل وغيرها . ووظيف عجر : غليظ .

(191/583)

ومن ذلك قراءَةأبان بن تغلب : "ثُمُرَات" 1 ، بضمتين .

قال أبو الفتح : الواحدة ثَمَرَة ، كخَشَبَة . وثُمُر ، كخُشُب . ومثله أَكَمَة وأُكُم ، ثم ضمت الميم إشباعا وتمكينا ، كقولهم ، في بُرْد : بُرُد 2 ، وفي قُفْل قُفُل . ثم جمع ثُمُر على ثُمُرات جمع التأنيث ؛ لأنه لمّا لم يَعقل جرى مجرى المؤنث . وذلك عندنا لِتَخَضُّع 3 ما لا عقل له ، فلحق بذلك بِضَعْفَة التأنيث ، فعليه قالوا : يا لثارات فلان : جمع ثأر لما لم يكن من ذوي العلم . ونحو قول أبي طالب :

أُسْدٌ تَهُدُّ بِالزَّئِيراتِ الصَّفَا

جمع زئير ، والعلة واحدة . وقد ذكرنا هذا مستقصى في تفسير ديوان المتنبي عند قوله :

فَفِي الناسِ بُوقَاتٌ لَهَا وَطُبُولٌ[4]

ومنه ما أنشده الأصمعي من قول الراجز :

وارْدُدْ إلَى حُورَاتِ حُور شِقَّه

فجمع حُورًا على حُورات لما ذكرنا .

ومن ذلك قراءة بديل بن ميسرة : "مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَيَنُوءُ"[5] ، بالياء .

قال أبو الفتح : ذهب في التذكير [122ظ] إلى ذلك القدر والمبلغ ، فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه ، فقال : "لَيَنُوءُ" . ونحوه قول الراجز :

مِثْلَ الفِراخِ نُتِفَتْ حواصلُه

---

1 سورة القصص : 57 .

2 يحتج لتوالي الضمتين في ثمر وعدم تخفيفه بتسكين الميم كما سكنت الراء في برد على لغة تسكينها .

3 لتخضع ما لا عقل له : يريد لتواضعه ونزول مكانته .

4 صدره :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة

والبيت من قصيدة في مدح سيف الدولة : وانظر الديوان : 2 : 87 .

5 سورة القصص : 76 .

(192/583)

أي : حواصل ذلك ، أو حواصل ما ذكرنا . وأخبرنا شيخنا أبو علي قال : قال أبو عبيدة لرؤبة في قوله :

فِيها خُطُوطٌ من سوادٍ وَبَلَقْ كأَنَّهُ فِي الجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ 1

إن كنت أردت الخطوط فقل : كأنها ، وإن كنت أردت السواد والبَلَق فقل : كأنهما ، فقال رؤبة : أردت : كأن ذاك ، ويلك ! هذا مجموع الحكاية ، وهي مُتَلَقّاة مقبولة ، كما يجب في "ذلك" .

ولو قال قائل : إن الهاء في "كأنه" عائدة على "البَلَق" وحده لكان مصيبا ؛ لأن في "البلق" ما يُحتاج إليه من تشبيهه بالبَهَق ، فلا ضرورة هناك إلى إدخال السواد معه . ونحو القراءة قول الآخر :

أَلّا إنَّ جِيرَانِي العَشِيَّةَ رَائِحٌ

فأخبر عنه بلفظ الواحد ، لأنه أجراه مجراه . وتجاوزوا هذا إلى أن أضافوا 2 إلى لفظ

الجماعة ، فقالوا : أنصاريٌ ؛ لأنه جعل الأنصار جاريا مجرى الأب ، أو الأم ، أو البلد .

وقال الآخر :

مُشَوَّهَ الْخَلْقِ كَلَابِيّ الْخُلُقْ[3]

فنسب إلى جنس الكلاب ، ولولا ذلك لقال : كَلْبِيّ ، وفي الأنصاري : ناصريّ ، كما تقول في الإضافة إلى الفرائض : فَرَضِيٌّ ، وإلى السفائن : سَفَنِيٌّ .

---

1 البلق : سواد وبياض ، والفعل كفرح ، والتوليع : استطالة البلق ، يقال : ثور مولع ، كمعظم . والبهق : بياض رقيق في ظاهر البشرة . وانظر الديوان : 104 ، والأساس "ولع" .

2 أضافوا : نسبوا .

3 للقلاخ بن حزن المنقري يهجو الجليد الكلابي ، وقبله :

أن الجليد زلق زملق

ويروى "مجموع البطن" مكان : "مشوه الخلق" . والزلق : السريع الغضب ، والزملق : الخفيف الطائش . وانظر اللسان "زلق ، زملق" ، والخصائص : 1 : 9 ، والصفحة 104 من هذا الجزء .

ومن ذلك قراءة يعقوب : "وَيْكَ" 1 ، يقف عليها ، ثم يبتدئ فيقول : "أنه" ، وكذلك الحرف الآخر 2 مثله .

قال أبو الفتح : في "وَيْكَأَنَّهُ" ثلاثة أقوال :

منهم من جعلها كلمة واحدة ، فقال : "وَيْكَأَنَّهُ" ، فلم يقف على "وَيْ" .

ومنهم من يقف على "وَيْ" .

ويعقوب . على ما مضى – يقول : ""وَيْكَ"" ، وهو مذهب أبي الحسن .

والوجه فيه عندنا الخليل وسيبويه 3 ، وهو أن "وَيْ" على قياس مذهبهما اسم سمي به الفعل في الخبر ، فكأنه اسم أعجب ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ كَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ وَيْ كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ . فـ"كأن" هنا إخبارٌ عارٍ من معنى التشبيه ، ومعناه : أن الله يبسط الرزق لمن يشاء . و"وَيْ" منفصلة من "كَأَنَّ" وعليه بيت الكتاب :

وَيْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْـ ـبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ 4

ومما جاءت فيه "كأن" عارية من معنى التشبيه ما أنشدَناه أبو علي :

كَأَنَّني حينَ أُمْسِي لا تُكَلِّمُنِي مُتَيَّمٌ يَشْتَهِي ما لَيْسَ مَوْجُودَا 5

أي : أنا حين أمسي "متيم" من حالي كذا وكذا .

ومن قال : إنها "وَيْكَ" فكأنه قال أعجب لأنه لا يفلح الكافرون ، وأعجب لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، وهو قول أبي الحسن . وينبغي أن تكون الكاف هنا حرف

---

1 سورة القصص : 82 .

2 يريد : ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، في آخر الآية السابقة .

3 عبارة سيبويه في الكتاب "1 : 290" : وسألت الخليل عن قوله : ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ وعن قوله : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللهَ ﴾ ، فزعم أنها مفصولة من كان . والمعنى على أن القوم انتبهوا ، فتكلموا على قدر علمهم ، أو نبهوا فقيل لهم : أما يشبه أن يكون ذا عندكم هكذا ؟

4 البيت لزيد بن عمرو بن نفيل ، ويقال : لنبيه بن الحجاج ، وقبله :

سألتاني الطلاق أن رأتاني قلّ مالي قد جئتماني بنكر

انظر الكتاب : 1 : 290 ، وشرح شواهد الشافية : 339 ، واللسان "و1" .

5 البيت ليزيد بن الحكم الثقفي ، يمدح سليمان بن عبد الملك . وقبله :

أمسي بأسماء هذا القلب معمودا إذا أقول صبحا يعتاده عيدا

ويروي "يوم" مكان "حين" ، و"ذو بغية يبتغي" مكان "متيم يشتهي" . وانظر اللسان "عود" .

خطاب لا اسما ، بل هي بمنزلة الكاف في ذلك وأولئك ؛ وذلك أن "وي" ليست مما يضاف ومن وقف على "ويك" ، ثم استأنف فينبغي أن يكون أراد أن يعلم أن الكاف من جملة "وي" ، وليست بالتي في صدر "كأن" ، فوقف شيئا لبيان هذا المعنى . ويشهد لهذا المذهب قول عنترة :

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا قِيلُ الفَوَارِسُ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ1

وقال الكسائي – فيما أظن : أراد : ويلك ، ثم حذف اللام ، وهذا يحتاج إلى خبر نبي ليقبل .

وقول من قال : إن "وَيْكَأَنَّه" كلمة واحدة إنما يريد به أنه لا يفصل بعضه عن بعض .

ومن ذلك قراءة الأعرج وشيبة ومجاهد وعاصم [123و] في رواية أبان والحجاج بن أرطاة2 والحسن وأبي رجاء وسلام ويعقوب وحسن بن حيّ3 وعطية بن سعد 4 وعبد الله بن يزيد 5 "لَخَسَفَ بِنَا" 6 .

---

1 البيت من معلقته . وانظر شرح المعلقات السبع للزوزني 153 .

2 هو الحجاج بن أرطاة النخعي أبو أرطاة الكوفي ، قاضي البصرة ، أحد الأعلام . روى

عن يحيى ابن أبي كثير ولم يسمع منه ، والشعبي ، وعطاء ، وعكرمة . وروى عنه منصور بن المعتمر شيخه . مات سنة 147 . خلاصة تذهيب الكمال" 61 .

3 هو الحسن بن صالح بن صالح بن مسلم ، ولقبه حيّ بن شفي بضم المعجمة ، الهمداني الثوري ، أبو عبد الله الكوفي الفقيه ، أحد الأعلام . روى عن سماك والسدي وعاصم الأحول وغيرهم ، وروى عنه حميد الرؤاسي وعبيد الله بن موسى وإسحاق السلولي . قال ابن معين والنسائي : ثقة ، اجتمع فيه حفظ واتقان وفقه ودين . مات سنة 169 . الخلاصة : 67 .

4 هو عطية بن سعد بن جنادة العوفي ، بفتح المهملة ، وإسكان الواو بعدها فاء ، الجدلي ، بفتح الجيم ، أبو الحسن الكوفي . روى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس ، وروى عنه ابناه والحسن وإسماعيل بن أبي خالد وغيرهم . مات سنة 111 . الخلاصة : 126 .

5 هو عبد الله بن يزيد أبو الأقفال المخرمي البغدادي ، مقرئ ، ثقة ، معروف . أخذ القراءة عرضا عن سليم عن حمزة ، وروى القراءة عن يحيى بن آدم ، وعرض أيضا على خلف . وروى عنه القراءة عرضا محمد بن سعيد البزاز ، وروى عنه القراءة أيضا خلف مع عرضه عليه . طبقات ابن الجزري : 1 : 464 .

6 سورة القصص : 82 .

قال أبو الفتح : الفاعل اسم الله ، والمفعول محذوف ، أي : لخسف الله بنا الأرض ، وقد كررنا ذِكر حُسن حذف المفعول به .

وقرأ : "لانْخُسِف بنا" الأعمش وطلحة ، وكذلك في قراءة ابن مسعود .

قال أبو الفتح : "بنا" من هذه القراءة مرفوعة الموضع ؛ لإقامتها مقام الفاعل ، فهو كقولك : انْقُطِع بالرجل ، وانْجُذِب إلى ما يريد ، وانْقِيد 1 له إلى هواه . وانفعل – وإن لم يتعد إلى مفعول به – فإنه يتعدى إلى حرف الجر ، فيقام حرف الجر مقام الفاعل ، كقولهم : سِيرَ بزيد .

وإن شئت أضمرت المصدر ، لدلالة فعله عليه2 ، فكأنه قال : لَانْخُسِف الانْخِسَافُ بنا ، "فَبِنَا" على هذا منصوبة الموضع ؛ لقيام غيرها وهو المصدر مقام الفاعل ولا يكون للفعل الواحد فاعلان قائمان مقامه إلا على وجه الإشراك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 146.156 ﴾

---

1 في ك : فقيد ، وهو تحريف .

2 كذا في ك ، وفي الأصل : عنه .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة القصص

مكية قيل إلا قوله تعالى الذين آتيانهم الكتاب إلى الجاهلين فمدني وقال ابن سلام إن الذي فرض عليك القرآن بالجحفة وقت الهجرة إلى المدنية وآيها ثمان وثمانون خلافها اثنان طسم كوفي وترك يسقون زاد الجعبري على الطين حمصي وترك أن يقتلون مشبه الفاصلة تذودان وعكسه من خير فقير القراآت قد سبق إمالة طاء طسم لأبي بكر وحمزة والكسائي وخلف كسكت أبي جعفر على حروفها وإظهار نون سين لحمزة ولأبي جعفر أيضا بسبب السكت وإمالة موسى لحمزة والكسائي وخلف وتقليله للأزرق وأبي عمرو بخلفهما ومر اتفاقهم على عدم إمالة علا في الأرض وعن ابن محيصنيذبح) بفتح الياء والباء وسكون الذال

وقرأ (أئمة) الآية 5 في الموضعين هنا بتسهيل الثانية منهما مع القصر قالون والأزرق وابن كثير وأبو عمرو ورويس والأصبهاني كذلك لكن مع المد في ثاني هذه السورة كموضع السجدة ويقرأ الأول كالأزرق وقرأ أبو جعفر بالتسهيل والمد بلا خلف واختلف عن هؤلاء في كيفية التسهيل فالجمهور على أنه بين بين والآخرون على أنه الإبدال ياء خالصة ولا يجوز الفصل بالألف حالة الإبدال عن أحد وقرأ هشام بالتحقيق واختلف عنه في المد فقطع له

به من طرقه أبو العلاء ومن طريق الحلواني أبو العز وروى له القصر المهدوي وغيره وفاقا لجمهور المغاربة وبه قرأ الباقون وتقدم الرد على من طعن في وجه الإبدال

واختلف في ( ) ونري فرعون وهامان وجنودهما (الآية 6 فحمزة والكسائي وخلف بياء مفتوحة وراء مفتوحة ممالة مضارع رأى و (فرعون) بالرفع فاعله ( ) وهامان وجنودهما (بالرفع عطفا عليه وافقهم الحسن والأعمش لكن الحسن لا يميل والباقون بالنون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء عطفا على المنصوب قبله وفرعون بالنصب مفعوله وهامان وجنودهما كذلك عطفا عليه

(197/583)

واختلف في (وحزنا) الآية 8 فحمزة والكسائي وخلف بضم الحاء وإسكان الزاي وافقهم الأعمش والباقون بفتح الحاء والزاي لغة قريش وهما بمعنى كالعدم والعدم

وعلى كل جاء ( ) من الدمع حزنا ( ) و ( ) عيناه من الحزن ( ) ووقف على امرأت فرعون وقرت بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب

وأمال استوى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثله فقضى ويسعى وأقصى وقفا وعن الحسن ﴿ فاستعانه ﴾ بالعين المهملة والنون وعن ابن محيصن بخلفه ضم باء (

رب) المنادى جميع ما في هذه السورة

وقرأ (يبطش) الآية 19 بضم الطاء أبو جعفر ومر بالأعراف وفتح ياء الإضافة من ربي أن نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وتقدم حكم ضم الميم وكسرها وكذا الهاء قبلها من دونهم امرأتين

واختلف في (يصدر) الآية 23 فنافع وابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الياء وكسر الدال مضارع أصدر معدى بالهمزة والمفعول محذوف أي حتى ترد الرعاء مواشيهم وافقهم ابن محيصن والأعمش والأزرق على أصله في ترقيق الراء والباقون بفتح الياء وضم الدال من صدر يصدر كأخذ يأخذ قاصر والرعاء فاعله أي يرجع الرعاء بمواشيهم وسبق بالنساء إشمام صاد يصدر لحمزة والكسائي ورويس وخلف

وأمال فسقى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق

وقرأ (يا أبت) الآية 26 بفتح التاء ابن عامر وأبو جعفر ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وابو جعفر ويعقوب وفتح يائي إني أريد وستجدني إن نافع وابو جعفر وشدد النون من هاتين ابن كثير كما مر بالنساء وعن الحسن أيما الأجلين بياء ساكنة

وقرأ ( ) لأهله امكثوا ( ) بضم الهاء حمزة وفتح ياء ( ) إني آنست ( ) نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وفتح ياء ( ) لعلي آتيكم ( ) من ذكر وابن عامر

واختلف في (جذوة) الآية 29 فعاصم بفتح الجيم وقرأ حمزة وخلف بضمها وافقهما الأعمش والباقون بكسرها وهي لغات ثلاث في الفاء كالرشوة والربوة والجذوة العود الغليظ وإن خلا عن النار أو الذي هي فيه أو الشعلة منها قاله أبو عبيد وليس المراد هنا إلا ما في رأسه نار ووقف حمزة وهشام بخلفه على شاطي بإبدال الهمزة ياء ساكنة على القياسي وياء مكسورة بحركة نفسها على مذهب التميميين فإن سكنت للوقف اتحد مع ما قبله لفظا وإن وقفت بالإشارة وقفت بالروم يصير وجهين والثالث التسهيل بين بين على روم حركة الهمزة وفتح ياء ( ) إني أنا الله (نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر واتفقوا على فتح عصاك لكونها واوية مرسومة بالألف وسهل همزة رآها تهتز الأصبهاني ومر حكم إمالة الراء والهمزة في وإذا رآك بالأنبياء وسبق تفصيله بالأنعام وغيرها

وأمال ﴿ ولي مدبرا ﴾ كقضي حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (الرهب) الآية 32 فابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بضم الراء وسكون الهاء وافقهم الشنبوذي وقرأ حفص بفتح الراء وسكون الهاء والباقون بفتحهما

لغات بمعنى الخوف

وقرأ (فذانك) الآية 32 بتشديد النون وابن كثير وأبو عمرو ورويس ومر بالنساء وأثبت الياء في (يقتلون) في الحالين يعقوب وفتح ياء معي حفص وحده ونقل همز ( ) ردءا ( ) إلى الدال نافع وابو جعفر إلا أنه أبدل من التنوين ألفا في الحالين كنافع في الوقف ومر في النقل واختلف في (يصدقني) الآية 34 فحمزة وعاصم برفع القاف على الاستئناف أو الصفة لرداً أو الحال من الضمير في أرسله والباقون بالجزم جواب لمقدر على الأصح دل عليه أرسله وفتح ياء ( ) إني أخاف (نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر وأثبت الياء في (يكذبون) وصلا ورش وفي الحالين يعقوب وعن الحسن عضدك بفتح الضاد والجمهور بضمها وأمال ﴿ مفتري ﴾ وقفا أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق

(199/583)

واختلف في ( ) وقال موسى (الآية 37 فابن كثير بغير واو على الاستئناف وافقه ابن محيصن والباقون بإثبات الواو عطفا للجملة على ما فيها وفتح ياء ( ) ربي أعلم (معا نافع وابن كثير وأبو عمرو وابو جعفر وقرأ ( ) ومن تكون له ( ) بالياء من تحت حمزة والكسائي

وخلف ومر وجهه بالأنعام وفتح ياء ( ) لعلي أطلع (نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر وقرأ ( ) لا يرجعون (ببنائه للفاعل نافع وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ومر بالبقرة وأما (أئمة) فذكرت أول السورة وأمال الدنيا حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وأبو عمرو وعن الدوري عنه من طريق ابن فرح تمحيضها ومر للأزرق خمس طرق في (الأولى) ونحوها من حيث تثليث البدل والتقليل وعدمه وتقدم حكم حركة الهاء والميم من (عليهم العمر)

واختلف في ﴿ ساحران ﴾ الآية 48 فعاصم وحمزة والكسائي وخلف بكسر السين وسكون الحاء بلا ألف أي القرآن والتوراة أو موسى وهارون أو موسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام على المبالغة أو حذف المضاف وافقهم المطوعي والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء أي موسى وهارون أو موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ورقق الأزرق راءه بخلف عنه والتفخيم من أجل ألف التثنية وعن الحسن (وصلنا) بتخفيف الصاد

واختلف في (يجبى) الآية 57 فنافع وأبو جعفر ورويس بالتاء من فوق والباقون بالياء من تحت ووجههما ظاهر لأن التأنيث في الفاعل مجازي

وقرأ في (أمها) الآية 59 بكسر الهمزة في الوصل حمزة والكسائي كما في النساء

واختلف في ﴿ يعقلون ﴾ الآية 60 فأبو عمرو بخلف عن السوسي بالياء من تحت والباقون بالتاء من فوق وصحح الوجهين في النشر عن أبي عمرو من روايتيه لكنه قال إن الأشهر عنه الغيب وبهما أخذ في رواية السوسي لثبوت ذلك عندي نصا وأداء انتهى ولذلك قصر في طيبته نقل الخلاف عن السوسي وقرأ ( ) ثم هو ( ) بسكون الهاء قالون والكسائي وابو جعفر بخلف عنه وعن قالون ومر بالبقرة أن الخلف عنه عزيز من طريق أبي نشيط وتقدم التنبيه على نحو ( ) عليهم القول ( ) و ( ) عليهم الأنباء (من حيث حركة الهاء والميم وكذا قيل من حيث إشمام القاف كضم هاء (يناديهم) ليعقوب ومر أيضا بهود اتفاقهم على تخفيف (فعميت) هنا وأمال فعسى حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق والدوري عن أبي عمرو بخلفهما وقرأ (ترجعون) بفتح التاء وكسر الجيم مبنيا للفاعل يعقوب وقرأ) قل أرأيتم (معا بتسهيل الهمزة نافع وأبو جعفر وللأزرق وجه آخر إبدالها ألفا ممدودة للساكنين وحذفها الكسائي كما في الأنعام وقرأ (بضياء) بهمزة مفتوحة بعد الضاد قنبل والباقون بالياء ومر في الهمز المفرد

(201/583)

وأمال (فبغى) و (تعالى) حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على (لتنوء) بالنقل على القياس وبالإدغام على جعل الأصلي كالزائد ويجوز عليهما الروم والإشمام فهي ستة ولا يصح غيرها كما في النشر وفتح ياء ( ) عندي أو لم (نافع وابن كثير بخلاف عنه وابو عمرو وابو جعفر قال في النشر وكلاهما صحيح عنه يعني ابن كثير غير أن الفتح عن البزي ليس من طرق الشاطبية والتيسير وكذا الإسكان عن قنبل انتهى وأبدل همز فئة ياء أبو جعفر ووقف على الياء من قوله ( ) ويكأن الله (و (ويكأنه) الكسائي ووقف أبو عمرو على الكاف والباقون على الكلمة كلها وهذا كله في وقف الاختبار والاضطرار والابتداء في قراءة الكسائي بكأن وأبي عمرو بالهمز ومر في الوقف على المرسوم عن النشر أن المختار للجميع الوقف على الكلمة بأسرها لاتصالها رسما بالإجماع

واختلف في (لخسف) الآية 82 فحفص ويعقوب بفتح الخاء والسين مبنيا للفاعل وهو الله وافقهما الحسن والباقون بضم الخاء وكسر السين مبنيا للمفعول وبنا نائب الفاعل وفتح الياء ( ) ربي أعلم (نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وقرأ (ترجعون) بفتح التاء وكسر الجيم على بنائه للفاعل يعقوب

المرسوم روى نافع قالوا سحران بحذف ألف فاعل وكتب فرغا بحذف الأولى اتفاقا وكتب في المكي قال موسى بغير واو وكتبوا أن يهديني بالياء واتفقوا على رسم ألف بعد الواو في لتنؤا وعلى كتابة أقصا المدينة بالألف كموضع يس واتفقوا على وصل ويكأن وويكأنه وعلى كتابة امرأت فرعون بالتاء وكذا قرت عين ياءات الإضافة اثنا عشر ( ) ربي إن (الآية 22 ( ) إني آنست (الآية 29 ( ) إني أنا (الآية 30 ( ) إني أخاف ( ) الآية 34 ( ) ربي أعلم ( ) معا الآية 37 85 (لعلي) معا الآية 29 38 ( ) إني أريد (الآية 27 (ستجدني) الآية 27 ( ) معي ردءا (الآية 34 ( ) عندي أو لم ( ) الآية 78 وفيها زائد تان ( ) أن يقتلون ( ) أن يكذبون (الآية 33 – 34 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ 434. 438﴾

(203/583)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة القصص "

" طسم " سكت أبو جعفر على طا وسين وميم ويلزم من السكت على سين إظهار نونها

وعدم إدغامها في ميم .

" أئمة " تقدم نظيره في سورة الأنبياء .

" ونري فرعون وهامان وجنودهما " قرأ الأخوان وخلف بياء تحتية مفتوحة وبعدها راء مفتوحة وألف بعدها ممالة ورفع نوني فرعون وهامان ورفع دال وجنودهما ، والباقون بنون مضمومة في مكان الياء وبعدها راء مكسورة وبعدها ياء مفتوحة مع نصب النونين والدال .

" أرضعيه " عليه ، فألقيه ، رادوه ، وجاعلوه ، وصل المكي هاء الضمير في جميع ما ذكر .

" وحزنا " قرأ الأخوان وخلف بضم الحاء وإسكان الزاي ، والباقون بفتحهما .

" خاطئين " قرأ أبو جعفر بالحذف مطلقا وحمزة وقفا بالحذف والتسهيل .

" قرت " رسمت بالتاء فوقف عليها بالهاء المكي والبصريان والكسائي ، والباقون بالتاء .

" فؤاد " فيه لورش ثلاثة البدل ، ولحمزة وقفا الإبدال واوا .

" يشعرون " آخر الربع .

الممال

جاء وشاء لابن ذكوان وخلف وحمزة . وترى الجبال وقفا بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش ووصلا بالإمالة للسوسي بخلف عنه ، النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، اهتدى وعسى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه طسم تقدم

أول الشعراء موسى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، ويرى بالإمالة للثلاثة كما تقدم ولا تقليل فيه لورش كما لا إمالة فيه للبصري لأنهما يقرآنه بكسر الراء ، ولا إمالة في علا لكونه واويا .

المدغم

" الصغير " هل تجزون لهشام والأخوين ، طسم بإدغام نون سين في الميم للجميع إلا حمزة فيظهرها .

" الكبير " يكذب بآياتنا ، الليل لتسكنوا ، المبين نتلوا ، ونمكن لهم .

" بيت يكفلونه " فرددناه ، آتيناه ، عليه ، ظلمت ، ظهيرا . يأتمرون ، من خير ، استأجره خيرا ، تأجرني ، كله جلي .

" يبطش " ضم الطاء أبو جعفر ، وكسرها غيره .

" ربي أن " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

(204/583)

" يهديني " أثبت الجميع الياء في الحالين .

" من دونهم امرأتين " مثل : بهم الأسباب .

" يصدر " قرأ البصري والشامي وأبو جعفر بفتح الياء وضم الدال ، والباقون بضم الياء وكسر الدال . ورقق الراء ورش ، وأشم الصاد زايا الأخوان وخلف ورويس وغيرهم بالصاد الخالصة . وإذا وقف البصري ومن معه فخموا الراء ، وإذا وقف غيرهم رققوها .

" فقير " ينبغي الوقف عليه بالروم ليعلم السامع أن الراء مرفوعة .

" يا أبت " فتح الياء الشامي وأبو جعفر ، ووقف بالهاء ابن كثير ، وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب .

" إني أريد " فتح الياء المدنيان ، وأسكنها غيرهما .

" هاتين " قرأ المكي بتشديد النون مع القصر حركتين والتوسط أربعا والمد ستا وصلا ووقفا ، والقصر مذهب الجمهور ، وتجوز الأوجه الثلاثة لغيره حين الوقف .

" ستجدني إن " فتح الياء المدنيان وأسكنها غيرهم .

" على " وقف عليه يعقوب بهاء السكت .

" وكيل " آخر الربع " .

الممال

واستوى ، فقضى . وأقصا لدى الوقف عليه ، ويسعى وعسى وفسقى وتولى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، موسى كله ، إحداهما ، وإحدى لدى الوقف عليه بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، وجاء فجاءته وجاءه وشاء

لابن ذكوان وخلف وحمزة ، الناس لدوري البصري .

المدغم

" الصغير " فاغفر لي للبصري بخلف عن الدوري .

" الكبير " قال رب الثلاثة ، فغفر له ، إنه هو ، قال له ، فقال رب .

قال لا تخف .

ولأهله امكثوا " قرأ حمزة بضم هاء أهله وصلا ، وغيره بالكسر .

" إني أنست " إني أنا الله ، إني أخاف ، ربي أعلم ، فتح الياء في الجميع المدنيان والمكي والبصري ، وأسكنها غيرهم .

" لعلي آتيكم " لعلي أطلع ، فتح الياء المدنيان والمكي والبصري والشامي وأسكنها غيرهم .

" جذوة " فتح الجيم عاصم ، وضمها حمزة وخلف ، وكسرها الباقون .

" شاطئ " فيه لحمزة وهشام وقفا ثلاثة أوجه الإبدال والتسهيل بالروم والإبدال ياء على الرسم مع السكون فيتحد مع الأول والإبدال ياء على الرسم مع الروم .

(205/583)

" مدبرا " من غير ، سحر ، إله غيري ، بصائر ، أنشأنا ، لتنذر ، كافرون ، عليهم العمر ، عليهم آياتنا ، أيديهم ، كله جلي .

" الرهب " قرأ الشامي وشعبة والأخوان وخلف بضم الراء وسكون الهاء ، وحفص بفتح الراء وسكون الهاء ، والباقون بفتح الراء والهاء .

" فذانك " قرأ المكي والبصري ورويس بتشديد النون مع المد المشبع ، والباقون بتخفيفها .

" يقتلون " أثبت الياء مطلقا يعقوب ، وحذفها غيره مطلقا .

" معي " فتح الياء حفص وأسكنها غيره .

" ردءا " قرأ أبو جعفر ونافع بنقل حركة الهمزة إلى الدال مع حذف الهمزة إلا أن أبا جعفر أبدل التنوين ألفا في الحالين وأما نافع فيبدله ألفا عند الوقف فقط ، ووقف عليه حمزة بالنقل أيضا ، والباقون بإسكان الدال وهمزة مفتوحة منونة .

" يصدقني " قرأ عاصم وحمزة برفع القاف ، والباقون بإسكانها وأجمعوا على إسكان يائه في الحالين .

" يكذبون " أثبت الياء ورش وصلا ، ويعقوب في الحالين وحذفها غيرهما كذلك .

" وقال موسى " قرأ المكي بحذف الواو قبل قال ، والباقون بإثباتها .

" ومن تكون " قرأ الأخوان وخلف بالياء التحتية ، والباقون بالتاء الفوقية .

" لا يرجعون " قرأ نافع والأخوان وخلف ويعقوب بفتح الياء وكسر الجيم ، والباقون بضم

الياء وفتح الجيم .

" أئمة " تقدم أول السورة .

" سحران " قرأ الكوفيون بكسر السين وإسكان الحاء ، وغيرهم بفتح السين وألف بعدها مع كسر الحاء ولا يخفى ترقيق الراء لورش .

" الظالمين " آخر الربع .

الممال

(206/583)

" قضى ، وأتاها ، وولى ، وبالهدى " وهدى معا لدى الوقف . وأتاهم وأهدى وهواه بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . وموسى كله والدنيا والأولى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه مفترى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش . النار معا والدار للبصري والدوري بالإمالة ، ولورش بالتقليل . رآها بإمالة الراء والهمزة لشعبة والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه . وبإمالة الهمزة فقط للبصري وبتقليلهما لورش . ولا يخفى ما فيه من البدل له ، جاءهم معا وجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، للناس لدوري البصري .

المدغم

" الكبير " " قال لأهله " النار لعلكم ، قال رب ، ونجعل لكما ، أعلم بمن ، هو وجنوده ، بصائر للناس ، عند الله هو .

" يؤمنون " عليهم ، يؤتون ، وهو ، فهو ، تبرأنا ، وقيل ، بطرت ، خير ، عليهم القول ، عليهم الأنباء ، أرأيتم معا ، إله غيره ، تبصرون ، كله جلي .

" ويدرءون " فيه لورش ثلاثة البدل ، ولحمزة إن وقف التسهيل والحذف .

" يجبى " قرأ المدنيان ورويس بالتاء الفوقية ، وغيرهم بالياء التحتية .

" في أمها " قرأ الأخوان بكسر الهمزة وصلا ، وغيرهما بضمها كذلك والجميع يبتدئون بضم الهمزة ، وأجمعوا على كسر الميم في الحالين .

" تعقلون " قرأ أبو عمرو بياء الغيبة ، والباقون بتاء الخطاب .

" ثم هو " أسكن الهاء أبو جعفر وقالون والكسائي ، وضمها غيرهم .

" يناديهم " الثلاثة أسكن هاءها يعقوب .

" شركائي الذين " لا خلاف بينهم في فتح الياء وصلا وإسكانها وقفا .

" فعميت " لا خلاف بينهم في فتح العين وتخفيف الميم .

" الخيرة " لا ترقيق فيه لورش لفتح الياء .

" ترجعون " قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم وغيره بضم التاء وفتح الجيم .

" بضياء " قرأ قنبل بهمزة مفتوحة بعد الضاد ، وغيره بياء تحتية مفتوحة في مكان الهمزة واتفقوا على إثبات الهمزة التي بعد الألف . ولا يخفى حكم الوقف عليه لهشام وحمزة .

" يفترون " آخر الربع .

الممال

(207/583)

" يتلى " والهدى ويجبى وأبقى فعسى وتعالى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه القربى والدنيا معا والأولى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " " القول لعلهم " قبله هم . أعلم بالمهتدين ، القول ربنا ، الخيرة سبحان به يعلم ما ، جعل لكم ولا إدغام في النهار لتسكنوا لكون الراء مفتوحة بعد ساكن .

" لتنوء " وقف عليه هشام وحمزة بالنقل والإدغام وعلى كل منهما السكون المحض والإشمام والروم فهي ستة أوجه .

" عندي أو لم " فتح الياء المدنيان والبصري وأما المكي فقد بين الشاطبي أن له الخلاف بين الفتح والإسكان وظاهره أن لكل من البزي وقنبل وجهين الفتح والإسكان وليس كذلك ،

بل المقروء به من طريق الحرز أن الإسكان للبزي والفتح لقنبل ، فالخلاف مرتب لا مفرع .

" عن ذنوبهم المجرمون " خير ، الصابرون ، فئة ، الكافرون ، القرآن ظهيرا ، تقدم مثله مرارا .

" ويكأن الله ، ويكأنه " وقف الكسائي على الياء من الكلمتين وأبو عمرو على الكاف والباقون على الكلمة كلها وهذا في وقف الاختبار بالموحدة أو الاضطرار وأما في وقف الاختيار فيتعين الوقف على آخر الكلمة واختار المحقق في النشر الوقف على الكلمة بأسرها لسائر القراء لاتصالها رسما بالإجماع ووقف حمزة عليها بالتسهيل فقط .

" " لخسف بنا " قرأ يعقوب وحفص بفتح الخاء والسين وغيرهما بضم الخاء وكسر السين .

" ربي أعلم " فتح الياء المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" ترجعون " قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم والباقون بضم التاء وفتح الجيم وهو آخر السورة وآخر الربع .

الممال

" موسى " والدنيا معا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . فبغى وآتاك ويلقاها ويجزى لدى الوقف عليه وبالهدى ويلقى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، وبداره وللكافرين بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ووافق رويس على إمالة الكافرين ، جاء كله لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

"الكبير": "قوم موسى" قال له، ويقدر لولا، أعلم من، آخر لا. والله تعالى أعلم. انتهى

انتهى. اهـ ﴿البدور الزاهرة صـ 244. 249﴾

(208/583)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه:

ومن سورة القصص

قوله تعالى ﴿ ونري فرعون وهامان وجنودهما ﴾

يقرأ بالنون والنصب وبالياء والرفع فالحجة لمن قرأه بالنون والنصب أنه رده على قوله تعالى

﴿ ونريد أن نمن ﴾ و ? < أن نرى > ? فأتى بالكلام على سنن واحد ونصب فرعون

ومن بعده بتعدي الفعل إليهم والله هو الفاعل بهم عز وجل لأنه بذلك أخبر عن نفسه

والحجة لمن قرأه بالياء أنه استأنف الفعل بالواو ودل الإخبار عن فرعون ونسب الفعل إليه

فرفعه به وعطف من بعده بالواو عليه

قوله تعالى ﴿ وحزنا ﴾ يقرأ بضم الحاء وإسكان الزاي وبفتحهما معا وقد تقدمت الحجة

فيه فيما سلف مستقصاة

قوله تعالى ﴿ حتى يصدر الرعاء ﴾ يقرأ بفتح الياء وضم الدال وبضم الياء وكسر الدال وبإشمام الصاد الزاي وخلوصها صادا فالحجة لمن ضم الياء أنه جعله فعلا هم فاعلوه يتعدى إلى مفعول معناه حتى يصدر الرعاء مواشيهم والحجة لمن فتح الياء أنه جعله فعلا لهم غير متعد إلى غيرهم والحجة لمن أشم الصاد الزاي أنه قربها بذلك من الدال لسكون الصاد ومجيء الدال بعدها

والرعاء بكسر الراء والمد جمع راع وفيه وجهان آخران راعون على السلامة ورعاة على التكسير وهو جمع مختص به الاسم المعتل فأصله عند البصريين رعية

انقلبت ياؤه ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها وأصله عند الكوفيين رعى فحذفوا حرفا كراهية للتشديد وألحقوا الهاء عوضا مما حذفوا فانقلبت الياء ألفا لأن ما قبل الهاء لا يكون إلا مفتوحا

قوله تعالى ﴿ أو جذوة من النار ﴾

يقرأ بكسر الجيم وفتحها وضمها وهن لغات كما قالوا في اللبن رغوة ورغوة ورغوة والكسر أفصح ومعنى الجذوة عود في رأسه نار

قوله تعالى ﴿ من الرهب ﴾ يقرأ بضم الراء وفتحها وبفتح الهاء وإسكانها فقيل هن لغات ومعناهن الفزع والجناح من الإنسان اليد

والمعنى إنه لما ألقى العصا فصارت جانا فزع منها فأمر بضم يده إلى أضلاعه ليسكن من روعه

(209/583)

وقيل الرهب ها هنا الكم تقول العرب أعطني ما في رهبتك فإن صح ذلك فإسكانه غير واجب لأن العرب تسكن المضموم والمكسور ولا تسكن المفتوح ألا ترى إلى حكاية الأصمعي عن أبي عمرو وقال قلت له أنت تميل في قراءتك إلى التخفيف فلم لم تقرأ يد عوننا رغبا ورهبا بالإسكان فقال لي ويلك أجمل أخف أم جمل

قوله تعالى ﴿ فذانك برهانان ﴾ يقرأ بتشديد النون وتخفيفها قد ذكرت علله في سورة النساء

فأما البرهانان فاليد البيضاء من غير سوء أي من غير برص والعصا المنقلبة جانا

وأما قوله ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ فقيل خمس في الأعراف قوله ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ﴾ واليد والعصا وحل عقد لسانه وفلق البحر له ولأمته

قوله تعالى ﴿ ردءا يصدقني ﴾

يقرأ بإسكان الدال وتحقيق الهمزة وبفتح الدال وتخفيف الهمزة فالحجة لمن حقق أنه أتى بالكلام على أصله ومعناه العون والحجة لمن خفف أنه نقل حركة الهمزة إلى الدال فحركها ولين الهمزة تخفيفا

فأما يصدقني فأجمع على جزمه خمسة من الأئمة جوابا للطلب ورفعه حمزة وعاصم ولهما فيه وجهان أحدهما أنهما جعلاه صلة للنكرة والثاني أنهما جعلاه حالا من الهاء وقد ذكر ذلك مشروحا في اول سورة مريم

قوله تعالى ﴿ وقال موسى ربي أعلم ﴾

يقرأ بإثبات الواو وحذفها فالحجة لمن أثبتها أنه رد بها القول على ما تقدم من قولهم والحجة لمن حذفها أنه جعل قول موسى منقطعا من قولهم

قوله تعالى ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾

يقرأ بالياء والتاء والحجة فيه ما قدمناه في امثاله

قوله تعالى ﴿ لا يرجعون ﴾ يقرأ بضم الياء على معنى يردون وبفتحها على معنى يصيرون

قوله تعالى ﴿ سحران تظاهرا ﴾

يقرأ بإثبات الألف وطرحها فالحجة لمن أثبتها أنهم كنوا بذلك عن موسى ومحمد عليهما السلام والحجة لمن طرحها أنه أراد كنايتهم بذلك عن التوراة والفرقان

قوله تعالى ﴿ يجبى إليه ﴾

يقرأ بالياء والتاء على ما بيناه آنفا

(210/583)

قوله تعالى ﴿ لخسف ﴾

يقرأ بضم الخاء ادلالة على بناء ما لم يسم فاعله وبفتحها دلالة على الإخبار بذلك عن الله عز وجل ومعنى قوله ﴿ ويكأنه ﴾ ألم تر أنه وفيها وجهان فأهل البصرة يختارون الوقف على وي لأنها عندهم كلمة حزن ثم يبتدئون كأنه وأهل الكوفة يختارون وصلها لأنها عندهم كلمة واحدة أصلها ويلك أنه فحذفت اللام ووصلت بقوله أنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 276 . 279 ﴾

(211/583)

وقال ابن زنجلة :

سورة القصص

ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهمن وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون 5 و6

قرأ حمزة والكسائي ويرى بالياء فرعون وهامان وجنودهما

كله بالرفع

وقرأ الباقون ونري بالنون وفتح الياء فرعون وهامان وجنودهما بالنصب أي نحن نري فرعون وهامان وحجتهم أن ما قبله للمتكلم فينبغي أن يكون ما بعده أيضا كذلك ليكون الكلام من وجه والذي قبله ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فأجروا على لفظ ما تقدم ليأتلف الكلام

ومن قرأ يرى بالياء فرعون وهامان وجنودها فالمعنى هم يعاينون والفعل لهم وحجتهم أن المعنيين يتداخلان لأن فرعون ومن ذكر معه إذا أراهم الله من المستضعفين ما كانوا يحذرون رأوا ذلك وإذا رأوه فلا شك أن الله جل وعز أراهموه وهو مثل قوله يدخلون ويدخلون

فالتقطه ءال فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهمن وجنودهما كانوا خطئين 8

قرأ حمزة والكسائي وحزنا بضم الحاء وجزم الزاي وقرأ الباقون بفتح الحاء والزاي وهما لغتان مثل البخل البخل والعجم والعجم وفي التنزيل وابيضت عيناه من الحزن وقال الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقال الفراء كأن الحزن الاسم والحزن المصدر تقول حزن حزنا

قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء 23

قرأ أبوع عمرو وابن عامر حتى يصدر الرعاء بفتح الياء ورفع الدال أي حتى يرجعوا من سقيهم وفي التنزيل يصدر الناس أشتاتا قال أبو عمرو والمراد من ذلك حتى ينصرف الرعاء عن الماء ولو كان يصدر كان الوجه أن يذكر المعفول فيقول حتى يصدر الرعاء ماشيتهم فلما لم يذكر مع الفعل المفعول علم أنه غير واقع وأنه يصدر الرعاء بمعنى ينصرفون عن الماء و الرعاء جمع راع مثل صاحب وصحاب

(212/583)

وقرأ الباقون يصدر بضم الياء وكسر الدال أي حتى يصدر الرعاء غنمهم عن لماء فالمفعول محذوف وحذف المفعول كثير قال الله تعالى ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ولم يذكر مع الإراحة والسرح مفعولا لدلالة الكلام على المفعول لأن المعنى حين تريحون إبلكم وتسرحون إبلكم فكذلك يصدر الرعاء استغني بالإصدار عن المفعول

لعلي ءاتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون 29

قرأ عاصم جذوة من النار بالفتح وقرأ حمزة جذوة بالضم وقرأ الباقون جذوة بالكسر ثلاث لغات مثل ربوة

ربوة ربوة وسمعت الشيخ أبا الحسين يقول سمعنا قديما بعض أهل العلم يقول جذوة قطعة

وجذوة جمرة وجذوة شعلة

واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهنان من ربك 32

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو من الرهب بفتح الراء والهاء وقرأ حفص الرهب بفتح الراء وسكون الهاء وقرأ الباقون من الرهب بضم الراء وسكون الهاء والرهب والرهب لغتان مثل الحزن والحزن والسقم والسقم ومن سكن الهاء مع فتح الراء فإنه ذهب إلى التخفيف مثل شعر وشعر ونهر ونهر

قرأ ابن كثير وأبو عمرو فذانك بالتشديد وقرأ الباقون بالتخفيف

قال الزجاج كأن ذانك بالتشديد تثنية ذلك و ذانك بالتخفيف تثنية ذاك يكون بدل اللام في ذلك تشديد النون في ذانك

وقال بعض النحويين إنما شددت النون في الاثنين للتأكيد لأنهم زادوا على نون الاثنين نونا كما زادوا قبل كاف المشار إليه لاما للتأكيد

فقالوا في ذاك ذلك فلما زادوا في ذاك لاما زادوا في ذانك نونا أخرى فقالوا ذانك وقال آخرون إن الأصل في ذانك ذا انك بألفين فحذفت الألف وجعل التشديد عوضا من الألف المحذوفة التي كانت في ذا ومن العرب من إذا حذف عوض ومنهم من إذا حذف لم يعوض من عوض آثر تمام الكلمة ومن لم يعوض آثر التخفيف ومثل ذلك في تصغير مغتسل منهم من يقول

مغيسل فلا يعوض ومنهم من يقول مغيسيل فيعوض من التاء ياء

فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون 34

(213/583)

قرأ نافع ردا بغير همز الأصل ردءا خفف الهمزة ونقل حركة الهمزة إلى ما قبلها فصار ردا بتحريك الدال

وقرأ الباقون ردءا بالهمز

قرأ عاصم وحمزة يصدقني بالرفع على الابتداء أي هو يصدقني

قال أهل البصرة من رفع لم يجعله جوابا للأمر ولكن جعله حالا وصفة للنكرة والتقدير ردءا مصدقا

وقرأ الباقون يصدقني بالجزم جوابا للمسألة أي أرسله يصدقني

وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عقبة الدار 37

قرأ ابن كثير قال موسى ربي بغير واو كذلك في مصحف أهل مكة وقرأ الباقون وقال بالواو

قرأ حمزة والكسائي من يكون له عاقبة بالياء لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي والثاني أنه قد حجز بين الاسم والفعل حاجز فصار كالعوض من التأنيث

وقرأ الباقون بالتاء لتأنيث العاقبة ذهبوا إلى اللفظ لا إلى المعنى

وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون 39

قرأ نافع وحمزة والكسائي وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون بفتح الياء أي لا يصيرون

وقرأ الباقون لا يرجعون أي لا يردون وحجتهم قوله ثم ردوا إلى الله وحجة الفتح قوله وإنا إليه راجعون

قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي

موسى من قبل قالوا سحران تظهرا 48

قرأ عاصم وحمزة والكسائي قالوا سحران بغير ألف وقرأ الباقون ساحران بالألف

وحجتهم ذكرها اليزيدي فقال السحران كيف يتظاهران إنما يعني موسى وهارون وقيل عنوا موسى وعيسى وقيل عنوا موسى ومحمدا صلى الله عليها وسلم ومن قرأ سحران يعني الكتابين فالكتابان كيف يتظاهران إنما يعني الرجلين فكان تأويل قوله إن التظاهر بالناس وأفعالهم اشبه منه بالكتب كما قال عز وجل وإن تظاهرا عليه وظاهروا على إخراجكم فأسند التظاهر إلى الناس فكذلك أسندوه ها هنا إلى الرجلين وحجة من قرأ سحران ما روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة أنهم تأولوا ذلك بمعنى الكتابين التوراة والقرآن وإنما نسب المعاونة إلى السحرين على الاتساع كأن المعنى أن كل سحر منهما يقوي الآخر

وقول أهل الكوفة أولى بالصواب لأن الكلام جرى عقيب ذكر الكتاب في قوله تعالى لولا أوتي مل ما أوتي موسى فجرت القصة بعد ذلك بذكر الكتاب وهو قوله فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما فهذا على الكتابين اللذين قالوا فيهما سحران فلأن يكون ما بينهما داخلا في قصتهما أولى به

أو لم نمكن لهم حرما ءامنا يجبى إليه ثمرات كل شيء 57

قرأ نافع تجبى إليه بالتاء لتأنيث الثمرات وقرأ الباقون بالياء لأن تأنيث الثمرات غير حقيقي فإذا كان كذلك كان بمنزلة الوعظ والموعظة إذا ذكرت جاز وكذلك إذا أنثت

وما أوتيتم من شيء فمتع الحيوة الدنيا وزينتها أفلا تعقلون 60

قرأ أبو عمرو أفلا يعقلون بالياء على أنه قل لهم يا محمد وما أوتيتم من شيء ثم قال أفلا يعقلون

وقرأ الباقون أفلا تعقلون بالتاء لقوله وما أوتيتم من شيء ثم قال أفلا تعقلون فأجروا على ما تقدمه من الخطاب

ثم هو يوم القيمة من المحضرين 61

قرأ الحلواني وإسماعيل عن نافع والكسائي ثم هو يوم القيامة بتخفيف الهاء وقرأ ابو عمرو بضم الهاء وكذلك الباقون وحجة أبي عمرو في ضم الهاء أن ثم تنفصل من الكتابة ويحسن الوقف عليها وكأن هو مبتدأة في المعنى وإذا كانت مبتدأة لم يجز فيها غير الضم وحجة من سكن الهاء أنها إذا اتصلت بفاء أو واو كانت في قولهم أجمعين ساكنة و ثم أخت الفاء والواو فجرت مجراهما في حكم ما بعدها

لولا أن من الله علينا لخسف بنا 82

قرأ حفص لخسف بنا بفتح الخاء والسين أي لخسف الله بنا

وقرأ الباقون لخسف بنا بضم الخاء على ما لم يسم فاعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 541.549 ﴾

(215/583)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة القصص

مكية أخبرنا محمد بن عبد الله قال أنا أبي قال أنا علي بن الحسن قال أنا أحمد بن موسى

قال أنا يحيى بن سلام قال بلغني أن النبي حين هاجر نزل عليه جبريل وهو بالجحفة موجه من مكة إلى المدينة فقال أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي ولدت بها فقال نعم فقال (﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾)

ونظيرتها في الكوفي ص وفي الشامي الزخرف ولا نظير لها في غيرها

وكلمها ألف وأربع مئة وإحدى وأربعون كلمة

وحروفها خمسة آلاف وثماني مئة حرف

وهي ثمان وثمانون آية في جميع العدد

اختلافها آيتان (﴿ طسم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ من الناس يسقون ﴾) لم يعدها الكوفي وعدها الباقون

وليس فيها شيء مما يشبه الفواصل ورؤوس الآي

المبين

2 يؤمنون

3 المفسدين

4 الوارثين

5 يحذرون

6 المرسلين

7 خاطئين

8 لا يشعرون

9 المؤمنين

10 لا يشعرون

11 ناصحون

12 لا يعلمون

13 المحسنين

14 مبين

15 الرحيم

16 للمجرمين

17 مبين

18 المصلحين

19 الناصحين

20 الظالمين

21

السبيل

22 يسقون

*كبير

23 فقير

24 الظالمين

25 الأمين

26 الصالحين

27 وكيل

28 تصطلون

29 العالمين

30 الآمنين

31 فاسقين

32 يقتلون

33 يكذبون

34 الغالبون

35 الأولين

36 الظالمون

37 الكاذبين

38 لا يرجعون

39 الظالمين

40 لا ينصرون

41 المقبوحين

42 يتذكرون

43 الشاهدين

44 مرسلون

45 يتذكرون

46 المؤمنين

47 كافرون

48 صادقين

49 الظالمين

50 يتذكرون

51 يؤمنون

52 مسلمين

53 ينفقون

54 الجاهلين

55 بالمهتدين

56 لا يعلمون

57 الوارثين

58 ظالمون

59 تعقلون

60 المحضرين

61 تزعمون

62 يعبدون

63 يهتدون

64 المرسلين

65 لا يتساءلون

66 المفلحين

67 يشركون

68 يعلنون

69 ترجعون

70 تسمعون

71 تبصرون

72 تشكرون

73 تزعمون

74 يفترون

75 الفرحين

76 المفسدين

77 المجرمون

78 عظيم

79 الصابرون

80 المنتصرين

81 الكافرون

82 للمتقين

83 يعملون

84 مبين

85 للكافرين

86 المشركين

87 ترجعون

88 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 201 . 202﴾

(217/583)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قد تقدم ذكر الحروف المقطعة والكلام على ذلك .

قوله تعالى (نتلو عليك) مفعوله محذوف دلت عليه صفته تقديره: شيئًا من نبإ موسى ،

وعلى قول الأخفش من زائدة ، و (بالحق) حال من النبأ .

قوله تعالى (يستضعف) يجوز أن يكون صفة لشيعا ، (يذبح) تفسير له ، أو حال من فاعل يستضعف ، ويجوز أن يكونا مستأنفين .

قوله تعالى (منهم) يتعلق بنرى ولا يتعلق ب (يحذرون) لأن الصلة لا تتقدم على الموصول ، و (أن أرضعيه) يجوز أن " تكون " أن مصدرية ، وأن تكون بمعنى أي .

قوله تعالى (ليكون لهم) اللام للصيرورة ، لا لام الغرض ، والحزن والحزن لغتان .

قوله تعالى (قرة عين) أي هو قرة عين و (لى ولك) صفتان لقرة ، وحكى بعضهم أن الوقف على (لا) وهو خطأ لأنه لو كان كذلك لقال تقتلونه: أي أتقتلونه على الإنكار ، ولا جازم على هذا .

قوله تعالى (فارغا) أي من الخوف ، ويقرأ " فرغا " بكسر الفاء وسكون الراء كقولهم ذهب دمه فرغا : أي باطلا: أي أصبح حزن فؤادها باطلا ، ويقرأ " فزعا " وهو ظاهر ويقرأ " فرغا " أي خاليا من قولهم فرغ الفناء إذا خلا ، وإن مخففة من الثقيلة ، وقيل بمعنى ما ، وقد ذكرت نظائره ، وجواب لولا محذوف دل عليه (إن كادت) و (لتكون) اللام متعلقة بربطنا .

قوله تعالى (عن جنب) هو في موضع الحال إما من الهاء في به: أي بعيدا ، أو من الفاعل في بصرت: أي مستخفية ، ويقرأ عن جنب ، وعن جانب ، والمعنى متقارب ، و (المراضع) جمع مرضعة ، ويجوز أن يكون جمع مرضع الذى هو مصدر ، (ولا تحزن) معطوف على تقر ، و (على حين غفلة) حال من المدينة ويجوز أن يكون حالا من الفاعل: أي مختلسا .

قوله تعالى (هذا من شيعته وهذا من عدوه) الجملتان في موضع نصب صفة لرجلين .

قوله تعالى (من عمل الشيطان) أي من تحسينه ، أو من تزيينه .

(218/583)

قوله تعالى (بما أنعمت) يجوز أن يكون قسما ، والجواب محذوف ، و (فلن أكون) تفسير له ، أي لأتوبن ، ويجوز أن يكون استعطافا : أي كما أنعمت على فاعصمني فلن أكون ، و (يترقب) حال مبدلة من الحال الأولى ، أو تأكيدا لها أو حال من الضمير في خائفا ، و (إذا) للمفاجأة وما بعدها مبتدأ ، و (يستصرخه) الخبر أو حال ، والخبر إذا .

قوله تعالى (يصدر) يقرأ بصاد خالصة وبزاي خالصة لتجانس الدال ، ومنهم من يجعلها بين الصاد والزاى لينبه على أصلها ، وهذا إذا سكنت الصاد ، ومن ضم الياء حذف المفعول: أي يصدر الرعاء ماشيتهم ، والرعاء بالكسر جمع راع كقائم ، وقيام ، وبضم الراء وهو اسم للجمع كالتوام والرحال ، و (على استحياء) حال ، و (ما سقيت لنا) أي أجر سقيك فهى مصدرية ، و (هاتين) صفة ، والتشديد والتخفيف قد ذكر في النساء في قوله تعالى " واللذان " ، و (على أن تأجرني) في موضع الحال كقولك: أنكحتك على مائة: أي مشروطا عليك ، أو واجبا عليك ونحو ذلك ، ويجوز أن تكون حالا من

الفاعل ، و (ثمانى) ظرف .

قوله تعالى (فمن عندك) يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف: أي فالتمام ويجوز أن يكون في موضع نصب: أي فقد أفضلت من عندك .

قوله تعالى (ذلك) مبتدأ ، و (بينى وبينك) الخبر ، والتقدير: بيننا ، و (أيما) نصب ب (قضيت) وما زائدة ، وقيل نكرة ، والأجلين بدل منها ، وهى شرطية ، و (فلا عدوان) جوابها .

والجذوة بالكسر والفتح والضم لغات ، وقد قرئ بهن .

قوله تعالى (أن يا موسى) أن مفسرة ، لأن النداء قول ، والتقدير: أي يا موسى وقيل هي المخففة ، والتقدير: بأن يا موسى .

(219/583)

قوله تعالى (من الرهب) " من " متعلقة بولي: أي هرب من الفزع ، وقيل بمدبرا ، وقيل بمحذوف: أي يسكن من الرهب ، وقيل باضمم ، أي من أجل الرهب ، والرهب بفتح الراء والهاء ، وبفتح الراء وإسكان الهاء ، وبضمها وبضم الراء وسكون الهاء لغات ، وقد قرئ بهن (فذانك) بتخفيف النون وتشديدها وقد بين في " واللذان يأتيانها " وقرئ شاذا "

فذانيك " بتخفيف النون وياء بعدها ، قيل هي بدل من إحدى النونين وقيل نشأت عن الإشباع ، و (إلى) متعلقة بمحذوف

أي مرسلا إلى فرعون ، و (رداءا) حال ، ويقرأ بإلقاء حركة الهمزة على الراء وحذفها

(يصدقني) بالجزم على الجواب ، وبالرفع صفة لرداء ، أو حالا من الضمير فيه .

قوله تعالى (بآياتنا) يجوز أن يتعلق بيصلون ، وأن يتعلق ب (الغالبون) ، و (تكون) بالتاء على تأنيث العاقبة ، وبالياء لأن التأنيث غير حقيقي ، ويجوز أن يكون فيها ضمير يعود على من ، و (له عاقبة) جملة في موضع خبر كان ، أو تكون تامة ، فتكون الجملة حالا .

قوله تعالى (ويوم القيامة) الثانية فيه أربعة أوجه: أحدها هو معطوف على موضع في هذه: أي وأتبعناهم يوم القيامة .

والثانى أن يكون حذف المضاف: أي وأتبعناهم لعنة يوم القيامة .

والثالث أن يكون منصوبا ب (المقبوحين) على أن تكون الألف واللام للتعريف لا بمعنى الذى .

والرابع أن يكون على التبيين: أي وقبحوا يوم القيامة ثم فسر بالصلة .

قوله تعالى (بصائر) حال من الكتاب أو مفعول له ، وكذلك (هدى ورحمة) .

قوله تعالى (بجانب الغربي) أصله أن يكون صفة: أي بالجانب الغربي ، ولكن حول عن ذلك وجعل صفة المحذوف ضرورة امتناع إضافة الموصوف إلى الصفة إذ كانت هي الموصوف

في المعنى ، وإضافة الشئ إلى نفسه خطأ ، والتقدير جانب المكان الغربي ، و (إذ) معمولة للجار أو لما يتعلق به (وما كنت من الشاهدين) إي إذ قصينا ، و (تتلوا) في موضع نصب خبرا ثانيا أو حال من الضمير في ثاويا (ولكن رحمة) أي أعلمناك ذاك للرحمة أو أرسلناك .

(220/583)

قوله تعالى (قالوا ساحران) هو تفسير لقوله أو لم يكفروا ، وساحران بالألف:

أي موسى وهرون ، وقيل موسى ومحمد صلى الله وسلم عليهما ، وسحران بغير ألف:

أي القرآن والتوراة (ومن أضل) استفهام في معنى النفى: أي لا أحد أضل ، و (وصلنا) بالتشديد والتخفيف متقاربان في المعنى ، و (الذين) مبتدأ ، و (هم به يؤمنون) خبره ، و (مرتين) في موضع المصدر (أو لم نمكن لهم حرما) عداه بنفسه ، لأن معنى نمكن نجعل ، وقد صرح به في قوله " أو لم يروا أنا جعلنا حرما " و (آمنا) أي من الخسف وقصد الجبابرة ، ويجوز أن يكون بمعنى يؤمن من لجأ إليه ، أو ذا أمن ، و (رزقا) مصدر من معنى يجبى (وكم) في موضع نصب ب (أهلكنا) و (معيشتها) نصب ببطرت لأن معناه كفرت نعمتها ، أو جهلت شكر معيشتها ، فحذف المضاف ، وقيل التقدير: في معيشتها ، وقد ذكر في سفه نفسه ، و (لم تسكن) حال ، والعامل فيها الإشارة ، ويجوز أن تكون في موضع رفع على ما

ذكر في قوله تعالى " وهذا بعلى شيخا " (إلا قليلا) أي زمانا قليلا .

قوله تعالى (ثم هو) من أسكن الهاء شبه ثم بالواو والفاء .

قوله تعالى (فمتاع الحياة الدنيا) أي فالمؤتى متاع .

قوله تعالى (هؤلاء) فيه وجهان: أحدهما هو مبتدأ ، و (الذين أغوينا) صفة لخبر هؤلاء المحذوف: أي هؤلاء هم الذين أغوينا ، و (أغويناهم) مستأنف ذكره أبو على في التذكرة ، قال: ولايجوز أن يكون أغويناهم خبرا ، والذين أغوينا صفة لأنه ليس فيه زيادة على مافى صفة المبتدأ .

فإن قلت: فقد وصله بقوله تعالى "كما غوينا " وفيه زيادة .

قيل: الزيادة بالظرف لا تصيره أصلا في الجملة ، لأن الظروف فضلات .

وقال غيره ، وهو الوجه الثاني: لا يمتنع أن يكون هؤلاء مبتدأ ، والذين صفة ، وأغويناهم الخبر من أجل ما اتصل به ، وإن كان ظرفا لإن الفضلات في بعض المواضع تلزم كقولك: زيد عمرو في داره .

قوله تعالى (ما كانوا إيانا يعبدون) " ما " نافية ، وقيل هي مصدرية ،

والتقدير: مما كانوا يعبدون: أي من عبادتهم إيانا .

قوله تعالى (ما كان لهم الخيرة) " ما " هاهنا نفى أيضا ، وقيل هي مصدرية: أي يختار اختيارهم بمعنى مختارهم .

قوله تعالى (سرمدا) يجوز أن يكون حالا من الليل ، وأن يكون مفعولا ثانيا لجعل ، و (إلى) يتعلق بسرمدا أو يجعل أو يكون صفة لسرمدا .

قوله تعالى (الليل والنهار لتسكنوا فيه) التقدير: جعل لكم الليل لتسكنوا فيها ، والنهار لتبتغوا من فضله ، ولكن مزج اعتماد على فهم المعنى ، و (هاتوا) قد ذكر في البقرة .

قوله تعالى (ما إن مفاتحه) " ما " بمعنى الذى في موضع نصب بآيا تنا ، وأن واسمها وخبرها صلة الذى ، ولهذا كسرت " إن " و (لتنوء بالعصبة) أي تنئ العصبة ، فالباء معدية معاقبة للهمزة في أنأته ، يقال أنأته ونؤت به ، والمعنى: تثقل العصبة ، وقيل هو على القلب: أي لتنوء به العصبة .

ومن (الكنوز) يتعلق بآتينا .

و(إذ قال له) ظرف لآتيناه ، ويجوز أن يكون ظرفا لفعل محذوف دل عليه الكلام: أي بغى إذ قال له قومه .

قوله تعالى (فيما آتاك) " ما " مصدرية بمعنى الذى ، وهى في موضع الحال: أي وابتغ متقلبا فيما آتاك الله أجر الآخرة ، ويجوز أن يكون ظرفا لابتغ قوله تعالى (على علم) هو في موضع

الحال ، و (عندي) صفة لعلم ، ويجوز أن يكون ظرفا لأوتيته: أي أوتيته فيما أعتقد على علم ، و (من قبله) ظرف لأهلك ، و (من) مفعول أهلك .

ومن القرون فيه وجهان: أحدهما يتعلق بأهلك وتكون " من " لابتداء الغاية .

والثانى أن يكون حالا من " من " كقولك: أهلك الله من الناس زيدا .

قوله تعالى (ولا يسئل) يقرأ على ما لم يسم فاعله ، وهو ظاهر ، وبتسمية الفاعل و (المجرمون) الفاعل: أي لا يسألون غيرهم عن عقوبة ذنوبهم لاعترافهم بها ، ويقرأ " المجرمين " أي لا يسألهم الله تعالى .

(222/583)

قوله تعالى (في زينته) هو حال من ضمير الفاعل في خرج ، و (ويلكم) مفعول فعل محذوف: أي ألزمكم الله ويلكم ، و (خير لمن آمن) مثل قوله " وما عند الله خير للأبرار " وقد ذكر (ولا يلقاها) الضمير للكلمة التى قالها العلماء أو للإثابة لأنها في معنى الثواب ، أو للإعمال الصالحة ، و (بالأمس) ظرف لتمنوا .

ويجوز أن يكون حالا من مكانه لأن المراد بالمكان هنا الحالة والمنزلة ، وذلك مصدر .

قوله تعالى (وى كأن الله) " وى " عند البصريين منفصلة عن الكاف ، والكاف متصلة بأن ،

ومعنى " وى " تعجب ، وكأن القوم نبهوا فانتبهوا فقالوا وى كأن الأمر كذا وكذا ، ولذلك فتحت الهمزة من " أن " وقال الفراء : الكاف موصولة بوى : أي ويك أعلم أن الله يبسط ، وهو ضعيف لوجهين : أحدهما أن معنى الخطاب

هنا بعيد .

والثانى أن تقدير وى اعلم لا نظير له ، وهو غير سائغ في كل موضع (لخسف) على التسمية وتركها ، وبالإدغام والإظهار ، ويقرأ بضم الخاء وسكون السين على التخفيف ، والإدغام على هذا ممتنع .

قوله تعالى (تلك الدار) تلك مبتدأ ، والدار نعت ، و (نجعلها) الخبر .

قوله تعالى (أعلم من جاء) " من " في موضع نصب على ما ذكر في قوله تعالى " أعلم من يضل عن سبيله " في الأنعام .

قوله تعالى (إلا رحمة) أي ولكن ألقى رحمة ، أي للرحمة .

قوله تعالى (إلا وجهه) استثناء من الجنس : أي إلا إياه ، أو ما عمل لوجهه سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 176 . 181 ﴾

(223/583)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة القصص

[سورة القصص (28) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2)

سبق إعراب الآيتين في أول سورة الشعراء .

[سورة القصص (28) : آية 3]

نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

"نَتْلُوا" مضارع فاعله مستتر "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "مِنْ نَبَإِ" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول به محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها "مُوسى " مضاف إليه "وَفِرْعَوْنَ" معطوف على موسى "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" لقوم متعلقان بالفعل نتلو ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صفة قوم .

[سورة القصص (28) : آية 4]

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

"إِنَّ فِرْعَوْنَ" إن واسمها "عَلا" ماض فاعله مستتر "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة

خبر إن والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها . "وَجَعَلَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "أَهْلَها" مفعول به أول "شِيَعاً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "يَسْتَضْعِفُ" مضارع فاعله مستتر "طائِفَةً" مفعول به والجملة حال "مِنْهُمْ" متعلقان بصفة طائفة ، "يُذَبِّحُ" مضارع فاعله مستتر "أَبْناءَهُمْ" مفعول به والجملة بدل من سابقتها "وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ" معطوفة على ما قبلها . "إِنَّهُ" إن واسمها "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "مِنَ الْمُفْسِدِينَ" متعلقان بمحذوف خبر كان والجملة خبر إن . والجملة الاسمية تعليلية لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 5]

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (5)

(224/583)

"وَنُرِيدُ" الواو حرف عطف ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنْ نَمُنَّ" مضارع منصوب بأن "عَلَى الَّذِينَ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به ، "اسْتُضْعِفُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة لا محل لها . "وَنَجْعَلَهُمْ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر

"أَئِمَّةً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ" معطوفة على ما قبلها .

[سورة القصص (28) : آية 6]

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (6)

"وَنُمَكِّنَ" مضارع فاعله مستتر "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل أيضا ، والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَنُرِيَ" مضارع فاعله مستتر "فِرْعَوْنَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهامانَ" معطوف على فرعون "وَجُنُودَهُما" معطوفة أيضا "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل نري . "ما" اسم موصول مفعول به ثان "كانُوا" كان واسمها "يَحْذَرُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . صلة ما .

[سورة القصص (28) : آية 7]

وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)

"وَأَوْحَيْنا" الواو حرف عطف وماض وفاعله "إِلى أُمِّ" متعلقان بالفعل "مُوسى" مضاف إليه ، والجملة معطوفة على ما قبلها . "أَنْ" حرف تفسير لا محل لها "أَرْضِعِيهِ" أمر وفاعله ومفعوله "فَإِذا" الفاء حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "خِفْتِ" ماض وفاعله "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "فَأَلْقِيهِ" الفاء رابطة وأمر وفاعله ومفعوله "فِي الْيَمِّ" متعلقان بالفعل ، والجملة لا محل لها لأنها جواب إذا . "وَلا تَخافِي" الواو حرف عطف ومضارع والياء فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَلا تَحْزَنِي" الجملة معطوفة على ما قبلها . "إِنَّا" إن واسمها "رَادُّوهُ" خبرها والهاء مضاف إليه "إِلَيْكِ" متعلقان برادوه والجملة تعليل لا محل لها "وَجاعِلُوهُ" معطوف على رادوه "مِنَ الْمُرْسَلِينَ" متعلقان بجاعلوه .

[سورة القصص (28) : آية 8]

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (8)

"فَالْتَقَطَهُ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله "آلُ" فاعل مضاف إلى "فِرْعَوْنَ" والجملة معطوفة على محذوف مقدر . "لِيَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد اللام واسمه مستتر "لَهُمْ" متعلقان بما بعدهما "عَدُوًّا" خبر يكون "وَحَزَناً" معطوف على عدوا والمصدر المؤول من أن المضمرة وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل

قبلهما . "إِنَّ فِرْعَوْنَ" إن واسمها والجملة تعليلية "وَهامانَ" معطوف على فرعون "وَجُنُودَهُما" معطوف على ما قبله "كانُوا خاطِئِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة الفعلية خبر إن .

[سورة القصص (28) : آية 9]

وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (9)

(226/583)

"وَقالَتِ امْرَأَتُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله "فِرْعَوْنَ" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها . و"قُرَّتُ" خبر لمبتدأ محذوف "عَيْنٍ" مضاف إليه "لِي" متعلقان بمحذوف صفة قرة "وَلَكَ" معطوفان على لي والجملة مقول القول . "لا تَقْتُلُوهُ" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والهاء مفعوله والجملة مقول القول . "عَسى" فعل ماض ناقص واسمه مستتر "أَنْ يَنْفَعَنا" مضارع منصوب بأن ومفعوله والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل خبر عسى "أَوْ" حرف عطف "نَتَّخِذَهُ" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "وَلَداً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَ" الواو حالية "هُمْ"

مبتدأ "لا" نافية "يَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال .

[سورة القصص (28) : آية 10]

وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10)

(227/583)

"وَأَصْبَحَ فُؤادُ" الواو حرف عطف وماض ناقص واسمه "أُمِّ" مضاف إليه "مُوسى" مضاف إليه أيضا "فارِغاً" خبر أصبح والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِنْ" مخففة من الثقيلة لا عمل لها "كادَتْ" ماض ناقص اسمه مستتر "لَتُبْدِي" اللام الفارقة ومضارع فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة خبر كادت "لَوْلا" شرطية غير جازمة "أَنْ رَبَطْنا" أن حرف مصدري وماض وفاعله "عَلى قَلْبِها" متعلقان بالفعل ، والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل رفع مبتدأ خبره محذوف والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها . وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه . "لِتَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل واسمه مستتر "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بمحذوف خبر تكون والمصدر المؤول من أن المضمرة

وما بعدها في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بربطنا .

[سورة القصص (28) : آية 11]

وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11)

"وَقالَتْ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "لِأُخْتِهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "قُصِّيهِ" أمر مبني على حذف النون والياء فاعله والهاء مفعوله والجملة مقول القول . "فَبَصُرَتْ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "عَنْ جُنُبٍ" حال "وَهُمْ" والواو حالية هم مبتدأ "لا" نافية ، "يَشْعُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية حال .

[سورة القصص (28) : آية 12]

وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ (12)

"وَحَرَّمْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "الْمَراضِعَ" مفعول به .

"مِنْ قَبْلُ" متعلقان بمحذوف حال . "فَقالَتْ" أخته الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "هَلْ" حرف استفهام "أَدُلُّكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "عَلى أَهْلِ" متعلقان بالفعل "بَيْتٍ" مضاف إليه والجملة مقول القول .

"يَكْفُلُونَهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ "لَهُ" متعلقان بالخبر "ناصِحُونَ" خبر والجملة الاسمية حال .

[سورة القصص (28) : آية 13]

فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13)

"فَرَدَدْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلى أُمِّهِ" متعلقان بالفعل "كَيْ تَقَرَّ" مضارع منصوب بكي "عَيْنُها" فاعل والهاء مضاف إليه والمصدر المؤول من كي والفعل في محل جر بلام التعليل المقدرة قبل كي ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما "وَلا تَحْزَنَ" والواو حرف عطف ولا نافية وتحزن معطوف على تقر ، "وَلِتَعْلَمَ" الواو حرف عطف ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر ، والمصدر المؤول من أن المضمرة وما بعدها في محل جر بلام التعليل ، والجار والمجرور معطوفان على ما قبلهما .

"أَنَّ وَعْدَ" وأن واسمها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "حَقٌّ" خبرها والمصدر المؤول من

أن واسمها وخبرها سد مسد مفعولي تعلم . "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ" والواو حرف استئناف ولكن واسمها "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة الفعلية خبر لكن ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 14]

(229/583)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)

"وَلَمَّا" الواو حرف استئناف ولما ظرفية شرطية "بَلَغَ" ماض فاعله مستتر "أَشُدَّهُ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "وَاسْتَوى" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "آتَيْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "حُكْماً" مفعول به ثان والجملة جواب لما لا محل لها . "وَعِلْماً" معطوف على حكما . "وَكَذلِكَ" الواو حرف استئناف وكذلك الكاف حرف جر واسم الإشارة في محل جر بالكاف ومتعلقان بصفة مفعول مطلق محذوف "نَجْزِي" مضارع فاعله مستتر "الْمُحْسِنِينَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 15]

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا

مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15)

(230/583)

"وَدَخَلَ" ماض فاعله مستتر "الْمَدِينَةَ" مفعول به ، والجملة معطوفة على ما قبلها "عَلى حِينِ" متعلقان بمحذوف حال "غَفْلَةٍ" مضاف إليه "مِنْ أَهْلِها" متعلقان بمحذوف صفة غفلة ، "فَوَجَدَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "فِيها" متعلقان بالفعل "رَجُلَيْنِ" مفعول به منصوب بالياء لأنه مثنى والجملة معطوفة على دخل "يَقْتَتِلانِ" مضارع مرفوع بثبوت النون والألف فاعله والجملة صفة رجلين . "هذا" مبتدأ "مِنْ شِيعَتِهِ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ ، والجملة صفة ثانية لرجلين ، "وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ" عطف على ما قبله . "فَاسْتَغاثَهُ" الفاء حرف استئناف وماض ومفعوله "الَّذِي" اسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها . "مِنْ شِيعَتِهِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "عَلَى الَّذِي" متعلقان بالفعل قبلهما "مِنْ عَدُوِّهِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول . "فَوَكَزَهُ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله "مُوسى" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَقَضى" ماض فاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل ، والجملة معطوفة على ما قبلها "قالَ" ماض فاعله

مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "هذا" مبتدأ "مِنْ عَمَلِ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "الشَّيْطانِ" مضاف إليه ، والجملة الاسمية مقول القول . "إِنَّهُ" إن واسمها "عَدُوٌّ" خبرها "مُضِلٌّ مُبِينٌ" صفتان لعدو والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة القصص (28) : آية 16]

قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها ، "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة "إِنِّي" إن واسمها "ظَلَمْتُ" ماض وفاعله "نَفْسِي" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملتان الاسمية والندائية مقول القول . "فَاغْفِرْ" الفاء الفصيحة وفعل دعاء فاعله مستتر "لِي" متعلقان بالفعل ، والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها . "فَغَفَرَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "لَهُ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" خبران ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 17]

قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة والجملة الندائية مقول القول . "بِما" الباء حرف جر وما مصدرية والمصدر المؤول مجرور بالباء وهما متعلقان بفعل قسم محذوف "أَنْعَمْتَ" ماض وفاعله "عَلَيَّ" متعلقان بالفعل "فَلَنْ أَكُونَ" الفاء حرف تعليل ومضارع ناقص منصوب بلن واسمه مستتر "ظَهِيراً" خبر أكون "لِلْمُجْرِمِينَ" متعلقان بظهيرا والجملة تعليل لما قبلها لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 18]

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18)

"فَأَصْبَحَ" الفاء حرف استئناف وماض ناقص اسمه مستتر "فِي الْمَدِينَةِ" متعلقان بما بعدهما "خائِفاً" خبر أصبح والجملة مستأنفة لا محل لها . "يَتَرَقَّبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال . "فَإِذَا" الفاء حرف عطف "إذا" الفجائية "الَّذِي" اسم الموصول مبتدأ "اسْتَنْصَرَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة لا محل لها "بِالْأَمْسِ" متعلقان

بالفعل "يَسْتَصْرِخُهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها . "قالَ" ماض مبني على الفتح "لَهُ" متعلقان بالفعل "مُوسى " فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها . "إِنَّكَ" إن واسمها "لَغَوِيٌّ" اللام المزحلقة وخبر إن ، والجملة الاسمية مقول القول . "مُبِينٌ" صفة .

[سورة القصص (28) : آية 19]

فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)

"فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية "أَنْ" زائدة "أَرادَ" ماض فاعله مستتر "أَنْ يَبْطِشَ" مضارع منصوب بأن فاعله مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول به لأراد "بِالَّذِي" متعلقان بالفعل "هُوَ عَدُوٌّ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية صلة الذي "لَهُما" متعلقان بعدو "قالَ" ماض فاعله مستتر

"يا" حرف نداء "مُوسى " منادى "أَتُرِيدُ" الهمزة حرف استفهام "تُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول وجملة قال . . جواب لما لا محل لها . و"أَنْ تَقْتُلَنِي" مضارع

منصوب بأن والنون للوقاية والياء مفعول به والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول تريد "كَما" الكاف حرف تشبيه وجر وما مصدرية "قَتَلْتَ" ماض وفاعله "نَفْساً" مفعول به "بِالْأَمْسِ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف . "أَنْ" نافية "تُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَّا" حرف حصر "أَنْ تَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن واسمه مستتر "جَبَّاراً" خبره والمصدر المؤول من أن وما بعدها مفعول تريد "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بجبارا ، "وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ" معطوفة على ما قبلها وإعرابه واضح .

[سورة القصص (28) : آية 20]

وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)

(234/583)

"وَجاءَ" الواو حرف استئناف "جاءَ رَجُلٌ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها و"مِنْ أَقْصَى" متعلقان بمحذوف صفة لرجل "الْمَدِينَةِ" مضاف إليه "يَسْعى" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة ثانية لرجل . "قالَ" ماض فاعله مستتر "يا" حرف نداء

"مُوسى " منادى والجملة الندائية مقول القول "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الْمَلَأَ" اسمها "يَأْتَمِرُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر إن "بِكَ" متعلقان بالفعل "لِيَقْتُلُوكَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعله والكاف مفعوله . والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيأتمرون ، "فَاخْرُجْ" الفاء الفصيحة "اخرج" أمر فاعله مستتر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "إِنِّي" إن واسمها "لَكَ" متعلقان بالناصحين "مِنَ النَّاصِحِينَ" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 21]

فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

"فَخَرَجَ" الفاء حرف استئناف "خرج" ماض فاعله مستتر "مِنْها" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها "خائِفاً" حال "يَتَرَقَّبُ" مضارع فاعله مستتر والجملة حالية "قالَ" الجملة مستأنفة "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة والجملة الندائية مقول القول "نَجِّنِي" فعل دعاء ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول أيضا "مِنَ الْقَوْمِ" متعلقان بالفعل "الظَّالِمِينَ" صفة لقوم .

[سورة القصص (28) : آية 22]

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (22)

"وَ" الواو حرف استئناف "لَمَّا" ظرفية شرطية "تَوَجَّهَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "تِلْقاءَ" ظرف مكان "مَدْيَنَ" مضاف إليه . "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب لما لا محل لها .

(235/583)

"عَسى " ماض ناقص "رَبِّي" اسمه والياء مضاف إليه "أَنْ يَهْدِيَنِي" مضارع للدعاء منصوب بأن والنون

للوقاية والياء مفعول به والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل خبر عسى "سَواءَ" منصوب بنزع الخافض "السَّبِيلِ" مضاف إليه وجملة عسى مقول القول .

[سورة القصص (28) : آية 23]

وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23)

"وَلَمَّا" الواو حرف عطف ولما ظرفية شرطية "وَرَدَ" ماض فاعله مستتر "ماءَ" مفعول به "مَدْيَنَ" مضاف إليه والجملة في محل جر بالإضافة "وَجَدَ" ماض فاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب لما لا محل لها . "أُمَّةً" مفعول به "مِنَ النَّاسِ" متعلقان

بمحذوف صفة أمة . "يَسْقُونَ" مضارع وفاعله والجملة حال . والواو حرف عطف "وَوَجَدَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على جواب لما لا محل لها . "مِنْ دُونِهِمُ" متعلقان بالفعل "امْرَأَتَيْنِ" مفعول به "تَذُودانِ" مضارع وفاعله والجملة صفة امرأتين . "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "ما" اسم استفهام مبتدأ "خَطْبُكُما" خبر والجملة الاسمية مقول القول . "قالَتا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "لا" نافية و"نَسْقِي" مضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "حَتَّى" حرف غاية وجر "يُصْدِرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى "الرِّعاءُ" فاعل والمصدر المؤول في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما . "وَأَبُونا" الواو حالية ومبتدأ مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة "شَيْخٌ كَبِيرٌ" خبران والجملة الاسمية حال .

[سورة القصص (28) : آية 24]

(236/583)

فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)

"فَسَقى" الفاء حرف استئناف وماض فاعله مستتر "لَهُما" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة "ثُمَّ" حرف عطف "تَوَلَّى" معطوف على سقى "إِلَى الظِّلِّ" متعلقان بالفعل ،

"فَقالَ" الفاء حرف عطف وقال ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوف والجملة مقول القول. "إِنِّي" إن واسمها "لِما" ما موصولية مجرورة باللام متعلقان بفقير "أَنْزَلْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة "إِلَيَّ" متعلقان بالفعل "مِنْ خَيْرٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَقِيرٌ" خبر إن والجملة الاسمية مقول القول.

[سورة القصص (28) : آية 25]

فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)

"فَجاءَتْهُ" الفاء حرف استئناف وماض ومفعوله "إِحْداهُما" فاعل مرفوع بالألف لأنه مثنى والجملة مستأنفة لا محل لها "تَمْشِي" مضارع فاعله مستتر والجملة حال "عَلَى اسْتِحْياءٍ" متعلقان بمحذوف حال "قالَتْ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على جملة جاءته بحرف عطف محذوف. "إِنَّ أَبِي" إن واسمها "يَدْعُوكَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية مقول القول.

(237/583)

"لِيَجْزِيَكَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والكاف مفعول به أول والفاعل مستتر "أَجْرَ" مفعول به ثان والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما "ما" اسم موصول مضاف إليه "سَقَيْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة ما لا محل لها . "لَنا" متعلقان بالفعل . "فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية "جاءَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "وَقَصَّ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "الْقَصَصَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها . "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب لما لا محل لها "لا تَخَفْ" مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر والجملة مقول القول "نَجَوْتَ" ماض وفاعله والجملة حال "مِنَ الْقَوْمِ" متعلقان بالفعل "الظَّالِمِينَ" صفة القوم .

[سورة القصص (28) : آية 26]

قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

"قالَتْ إِحْداهُما" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها . "يا" أداة نداء "أَبَتِ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة والجملة مقول القول . "اسْتَأْجِرْهُ" أمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول . "إِنَّ خَيْرَ" إن واسمها "مَنِ" اسم موصول مضاف إليه "اسْتَأْجَرْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة من "الْقَوِيُّ الْأَمِينُ" خبران لإن والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 27]

قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

(238/583)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "إِنِّي" إن واسمها "أُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "أَنْ أُنْكِحَكَ" مضارع منصوب بأن والكاف مفعول به أول والفاعل مستتر "إِحْدَى" مفعوله الثاني "ابْنَتَيَّ" مضاف إليه والياء مضاف إليه "هاتَيْنِ" الها للتنبيه واسم الإشارة صفة ابنتي والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول أريد "عَلى" حرف جر "أَنْ تَأْجُرَنِي" مضارع منصوب بأن والنون للوقاية والياء مفعول به والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بعلى والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال "ثَمانِيَ" ظرف زمان "حِجَجٍ" مضاف إليه "فَإِنْ" الفاء حرف استئناف وإن حرف شرط جازم "أَتْمَمْتَ" ماض في محل جزم فعل الشرط والتاء فاعله "عَشْراً" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها . "فَمِنْ" الفاء رابطة "من عندك" متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاسمية جواب الشرط. "وَما" الواو

حرف استئناف وما نافية "أُرِيدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "أَنْ أَشُقَّ" مضارع منصوب بأن والفاعل مستتر "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل ، والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول أريد . "سَتَجِدُنِي" السين للاستقبال "وتجدني" مضارع فاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها . و"أَنْ" حرف شرط جازم "شاءَ"

ماض في محل جزم فعل الشرط "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها . "مِنَ الصَّالِحِينَ" متعلقان بالفعل ستجدني وجملة "إِنْ شاءَ اللَّهُ" اعتراضية لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 28]

قالَ ذِلكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّما الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

(239/583)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "ذِلكَ" مبتدأ "بَيْنِي" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية مقول القول . "وَبَيْنَكَ" معطوف على بيني "أَيَّما" أي : اسم شرط جازم في محل نصب مفعول به مقدم لقضيت وما زائدة "الْأَجَلَيْنِ" مضاف إليه "قَضَيْتُ" ماض وفاعله "فَلا" الفاء رابطة ولا تعمل عمل إن "عُدْوانَ" اسمها

المبني على الفتح "عَلَيَّ" متعلقان بمحذوف خبر لا والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "عَلَيَّ" حرف جر "ما" اسم مجرور بعلى وهما متعلقان بوكيل "نَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَكِيلٌ" خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية مستأنفة .

[سورة القصص (28) : آية 29]

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)

(240/583)

"فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية "قَضى" ماض مبني على فتح مقدر "مُوسَى" فاعل "الْأَجَلَ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "وَسارَ" الواو حرف عطف وسار معطوف على قضى "بِأَهْلِهِ" متعلقان بالفعل "آنَسَ" ماض فاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها "مِنْ جانِبِ" متعلقان بالفعل "الطُّورِ" مضاف إليه "ناراً" مفعول به . "قالَ" ماض فاعله مستتر "لِأَهْلِهِ" متعلقان بالفعل ، والجملة مستأنفة لا محل لها "امْكُثُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول . "إِنِّي" إن واسمها "آنَسْتُ ناراً" ماض وفاعله

ومفعوله والجملة خبر إني والجملة الاسمية تعليل لا محل لها . "لَعَلِّي" لعل واسمها "آتِيكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر لعل والجملة الاسمية تعليل أيضا "مِنْها" متعلقان بالفعل "بِخَبَرٍ" متعلقان بالفعل أيضا . "أَوْ" حرف عطف "جَذْوَةٍ" معطوف على ما قبله "مِنَ النَّارِ" صفة جذوة . "لَعَلَّكُمْ" لعل واسمها "تَصْطَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية حال .

[سورة القصص (28) : آية 30]

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (30)

"فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية "أَتاها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "نُودِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "مِنْ شاطِئِ" متعلقان بالفعل "الْوادِ" مضاف إليه "الْأَيْمَنِ" صفة الوادي "فِي الْبُقْعَةِ" متعلقان بالفعل نودي "الْمُبارَكَةِ" صفة

البقعة . وجملة نودي جواب الشرط لا محل لها . "مِنَ الشَّجَرَةِ" بدل من قوله من شاطئ الوادي "أَنْ" مفسرة "يا" حرف نداء "مُوسى" منادى "إِنِّي" إن واسمها "أَنَا" ضمير فصل "اللَّهُ" خبر إن "رَبُّ" خبر ثان "الْعالَمِينَ" مضاف إليه وجملة أن يا موسى مفسرة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 31]

وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

"وَأَنْ" الواو حرف عطف "أَنْ" مفسرة "أَلْقِ" أمر فاعله مستتر "عَصاكَ" مفعول به والكاف مضاف إليه والجملة مفسرة لا محل لها . "فَلَمَّا" الفاء حرف عطف ولما ظرفية شرطية "رَآها" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "تَهْتَزُّ" مضارع فاعله مستتر والجملة حال . "كَأَنَّها" كأن واسمها "جَانٌّ" خبرها والجملة الاسمية حال أيضا "وَلَّى" ماض فاعله مستتر "مُدْبِراً" حال والجملة جواب لما لا محل لها . "وَلَمْ" الواو حرف عطف "يُعَقِّبْ" مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها . "يا" حرف نداء "مُوسى" منادى "أَقْبِلْ" أمر فاعله مستتر والكلام مستأنف "وَلا تَخَفْ" الواو حرف عطف ومضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر "إِنَّكَ" إن واسمها "مِنَ الْآمِنِينَ" خبر إن والجملة تعليل للأمر .

[سورة القصص (28) : آية 32]

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (32)

(242/583)

"اسْلُكْ" أمر فاعله مستتر "يَدَكَ" مفعول به "فِي جَيْبِكَ" متعلقان بالفعل "تَخْرُجْ" مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب والفاعل مستتر "بَيْضاءَ" حال "مِنْ غَيْرِ" متعلقان بمحذوف صفة بيضاء "سُوءٍ" مضاف إليه والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها . "وَاضْمُمْ" معطوف على اسلك "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "جَناحَكَ" مفعول به "مِنَ الرَّهْبِ" متعلقان بالفعل أيضا . "فَذانِكَ" الفاء الفصيحة واسم إشارة مبتدأ "بُرْهانانِ" خبر والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "مِنْ رَبِّكَ" صفة برهانان "إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان بمحذوف حال من الكاف "وَمَلائِهِ" معطوف على فرعون . "إِنَّهُمْ" إن واسمها "كانُوا" كان واسمها "قَوْماً" خبرها "فاسِقِينَ" صفة قوما والجملة الفعلية خبر إنهم والجملة الاسمية تعليل للبرهانين المرسلين .

[سورة القصص (28) : آية 33]

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء

المتكلم المحذوفة "إِنِّي" إن واسمها "قَتَلْتُ" ماض وفاعله "مِنْهُمْ" متعلقان بالفعل "نَفْساً" مفعول به والجملة الفعلية خبر إني . والجملتان الاسمية والندائية مقول القول . "فَأَخافُ" الفاء حرف عطف ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَنْ يَقْتُلُونِ" مضارع منصوب بأن والواو فاعل والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول به .

[سورة القصص (28) : آية 34]

وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)

"وَأَخِي" الواو حرف عطف مبتدأ "هارُونُ" بدل "هُوَ أَفْصَحُ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر أخي "مِنِّي" متعلقان بأفصح "لِساناً" تمييز "فَأَرْسِلْهُ" الفاء الفصيحة وفعل دعاء ومفعوله والفاعل مستتر ، والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "مَعِي" ظرف مكان "رِدْءاً" حال منصوبة "يُصَدِّقُنِي" مضارع فاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة صفة ردءا . "إِنِّي" إن واسمها "أَخافُ" مضارع فاعله مستتر "أَنْ يُكَذِّبُونِ"

مضارع منصوب بأن والواو فاعله والنون للوقاية وياء المتكلم المحذوفة مفعول به وجملة أخاف خبر إني والمصدر المؤول من أن والفعل مفعول أخاف والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 35]

قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (35)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "سَنَشُدُّ" السين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر "عَضُدَكَ" مفعول به "بِأَخِيكَ" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول . "وَنَجْعَلُ" الواو حرف عطف "نَجْعَلُ" مضارع فاعله مستتر "لَكُما" متعلقان بالفعل "سُلْطاناً" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "فَلا" الفاء حرف عطف ولا نافية "يَصِلُونَ" مضارع وفاعله "إِلَيْكُما" متعلقان بالفعل قبلهما "بِآياتِنا" متعلقان بيصلون أيضا "أَنْتُما" مبتدأ "وَمَنِ" الواو حرف عطف "وَمَنِ" معطوف على ما قبله "اتَّبَعَكُمَا" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية صلة "الْغالِبُونَ" خبر المبتدأ

[سورة القصص (28) : آية 36]

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (36)

"فَلَمَّا" الفاء حرف عطف ولما ظرفية شرطية "جاءَهُمْ" ماض ومفعولة "مُوسى" فاعل "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "بَيِّناتٍ" حال والجملة في جر بالاضافة "قالُوا" ماض وفاعله. والجملة جواب الشرط لا محل لها "ما" نافية "هذا" مبتدأ "إِلَّا" حرف حصر "سِحْرٌ" خبر المبتدأ "مُفْتَرىً" صفة سحر والجملة الاسمية مقول القول "وَ" والواو حرف عطف "ما" نافية "سَمِعْنا" ماض وفاعله "بِهذا" متعلقان بالفعل "فِي آبائِنَا" متعلقان بمحذوف حال "الْأَوَّلِينَ" صفة آبائنا والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة القصص (28) : آية 37]

وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)

"وَقالَ مُوسى" الواو حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها. "رَبِّي أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره "بِمَنْ" من اسم موصول مجرور بالباء ومتعلقان بأعلم والجملة مقول القول. "جاءَ" ماض فاعله

مستتر "بِالْهُدى" متعلقان بالفعل والجملة صلة الموصول "مِنْ عِنْدِهِ" متعلقان بمحذوف

حال . "وَمَنْ" الواو حرف عطف ومن معطوفة على سابقتها "تَكُونُ" مضارع ناقص "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر تكون المقدم "عاقِبَةُ" اسمه المؤخر "الدَّارِ" مضاف إليه والجملة صلة الموصول . "إِنَّهُ" إن واسمها "لا" نافية "يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل .

[سورة القصص (28) : آية 38]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (38)

(245/583)

"وَقالَ" الواو حرف استئناف "قالَ فِرْعَوْنُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها . "يا" حرف نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب "ها" للتنبيه "الْمَلَأُ" بدل من أيها "ما" نافية "عَلِمْتُ" ماض وفاعله "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ" حرف جر زائد "إِلهٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول علمت "غَيْرِي" صفة إله والجملتان مقول القول . "فَأَوْقِدْ" الفاء الفصيحة وأمر فاعله مستتر "لِي" متعلقان بالفعل والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "يا هامانُ" منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب "عَلَى

الطِّينِ" متعلقان بالفعل ، والجملة الندائية معترضة . "فَاجْعَلْ لِي" معطوف على فأوقد لي "صَرْحاً" مفعول به . "لَعَلِّي" لعل واسمها "أَطَّلِعُ" مضارع فاعله مستتر "إِلى إِلهِ" متعلقان بالفعل "مُوسى " مضاف إليه والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

"وَإِنِّي" الواو حالية "إِنِّي" إن واسمها "لَأَظُنُّهُ" اللام المزحلقة "أظنه" مضارع ومفعوله الأول والفاعل مستتر "مِنَ الْكاذِبِينَ" متعلقان بالفعل وهما في موضع المفعول الثاني والجملة الفعلية خبر إني والجملة الاسمية حال .

[سورة القصص (28) : آية 39]

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (39)

(246/583)

"وَاسْتَكْبَرَ" الواو حرف عطف "اسْتَكْبَرَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "هُوَ" توكيد للفاعل المستتر "وَ" الواو حرف عطف "جُنُودُهُ" معطوف على الفاعل المستتر "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال "الْحَقِّ" مضاف إليه . "وَ" الواو حرف عطف "ظَنُّوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . "أَنَّهُمْ" أن واسمها والجملة سدت مسد مفعولي ظنوا "إِلَيْنا" متعلقان بالفعل بعدهما "لا" نافية

"يُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر أن .

[سورة القصص (28) : آية 40]

فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)

"فَأَخَذْناهُ" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة لا محل لها

"وَجُنُودَهُ" معطوف على الضمير المنصوب "فَنَبَذْناهُمْ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي الْيَمِّ" متعلقان بالفعل "فَانْظُرْ" الفاء حرف استئناف وأمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "كَيْفَ" اسم استفهام خبر كان المقدم "كانَ" ماض ناقص "عاقِبَةُ" اسم كان

المؤخر "الظَّالِمِينَ" مضاف إليه وجملة كيف كان . . سدت مسد مفعولي انظر .

[سورة القصص (28) : آية 41]

وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (41)

"وَجَعَلْناهُمْ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول "أَئِمَّةً" مفعول به ثان ، والجملة معطوفة على ما قبلها "يَدْعُونَ" مضارع وفاعله "إِلَى النَّارِ" متعلقان بالفعل والجملة صفة أئمة والواو حرف عطف "وَيَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "لا" نافية

"يُنْصَرُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القصص (28) : آية 42]

وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

"وَأَتْبَعْناهُمْ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول "فِي هذِهِ" متعلقان بالفعل "الدُّنْيا" بدل من اسم الإشارة "لَعْنَةً" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَيَوْمَ" الواو حرف عطف وظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "هُمْ" مبتدأ "مِنَ الْمَقْبُوحِينَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القصص (28) : آية 43]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم والمقسم به محذوف "قد" حرف تحقيق "آتَيْنا" ماض وفاعله "مُوسَى" مفعول به أول "الْكِتابَ" مفعول به ثان "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب القسم المقدر لا محل لها . "ما" مصدرية "أَهْلَكْنَا" ماض وفاعله "الْقُرُونَ" مفعول به "الْأُولى" صفة القرون والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالإضافة "بَصائِرَ" حال "لِلنَّاسِ" متعلقان ببصائر "وَهُدىً" معطوف على بصائر

"وَرَحْمَةً" معطوف أيضا . "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَتَذَكَّرُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 44]

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

(248/583)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "كُنْتَ" ماض ناقص واسمه "بِجانِبِ" متعلقان بمحذوف خبر كنت "الْغَرْبِيِّ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها . "إِذْ" ظرف زمان "قَضَيْنا" ماض وفاعله "إِلى مُوسَى" متعلقان بالفعل "الْأَمْرَ" مفعول به والجملة في محل جر بالإضافة "وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ" معطوفة على ما قبلها وإعرابها واضح .

[سورة القصص (28) : آية 45]

وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45)

"وَلكِنَّا" الواو حرف عطف "وَلكِنَّا" لكن واسمها "أَنْشَأْنا" ماض وفاعله "قُرُوناً" مفعول به والجملة

الفعلية خبر لكن ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها . "فَتَطاوَلَ" الفاء حرف عطف وماض مبني على الفتح "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الْعُمُرُ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَما" الواو حرف عطف وما نافية "كُنْتَ" ماض ناقص واسمه "ثاوِياً" خبره والجملة معطوفة على ما قبلها . "فِي أَهْلِ" متعلقان بثاويا "مَدْيَنَ" مضاف إليه "تَتْلُوا" مضارع فاعله مستتر "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "آياتِنا" مفعول به والجملة حال . "وَلكِنَّا" الواو حرف عطف "وَلكِنَّا" لكن واسمها "كُنَّا" ماض ناقص واسمه "مُرْسِلِينَ" خبره والجملة الفعلية خبر لكن . والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة القصص (28) : آية 46]

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "كُنْتَ" ماض ناقص واسمه "بِجانِبِ" متعلقان بمحذوف خبر كنت "الطُّورِ" مضاف إليه ، والجملة مستأنفة لا محل لها "إِذْ" ظرف زمان "نادَيْنا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة . "وَلكِنْ" الواو حرف عطف "لكِنْ"

حرف استدراك مهمل "رَحْمَةً" مفعول مطلق لفعل محذوف "مِنْ رَبِّكَ" صفة رحمة "لِتُنْذِرَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والفاعل مستتر "قَوْماً" مفعول به والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل المقدر المحذوف "ما" نافية "أَتاهُمْ" ماض ومفعوله "مِنْ" حرف جر زائد "نَذِيرٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل أتاهم والجملة صفة قوما "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بنذير "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَتَذَكَّرُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر لعل والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 47]

وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

"وَلَوْلا" الواو حرف استئناف ولولا حرف شرط غير جازم "أَنْ تُصِيبَهُمْ" مضارع منصوب بأن والهاء مفعوله "مُصِيبَةٌ" فاعل ، والمصدر المؤول من أن وما بعدها مبتدأ خبره محذوف "بِما" متعلقان بالفعل "قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ" ماض وفاعله والجملة صلة ما "فَيَقُولُوا" الفاء حرف عطف "يقولوا" مضارع معطوف على تصيبهم "رَبَّنا" منادى مضاف "لَوْلا" حرف تحضيض "أَرْسَلْتَ" ماض وفاعله "إِلَيْنا" متعلقان بالفعل "رَسُولًا" مفعول به والفاء للسببية "نتبع" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء والفاعل مستتر "آياتِكَ" مفعول به ، "وَنَكُونَ"

الواو حرف عطف ومضارع ناقص معطوف على تتبع واسمه مستتر "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بمحذوف خبر نكون .

[سورة القصص (28) : آية 48]

(250/583)

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (48)

"فَلَمَّا" الفاء حرف استئناف ولما ظرفية شرطية "جاءَهُمُ" ماض ومفعوله "الْحَقُّ" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة . "مِنْ عِنْدِنا" متعلقان بمحذوف حال "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط لا محل لها . "لَوْلا" حرف تحضيض "أُوتِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "مِثْلَ" مفعول به "ما" اسم موصول مضاف إليه "أُوتِيَ" ماض مبني للمجهول "مُوسى" نائب فاعل ، والجملة صلة ، "أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري ، والواو حرف استئناف "لَمْ يَكْفُرُوا" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعله "بِما" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها "أُوتِيَ مُوسى" سبق إعرابها "مِنْ قَبْلُ" متعلقان بالفعل . "قالُوا" ماض وفاعله "سِحْرانِ" خبر لمبتدأ محذوف والجملة

الاسمية مقول القول "تَظاهَرا" ماض والألف فاعله والجملة صفة سحران "وَ" الواو حرف عطف "قالُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّا" إن واسمها "بِكُلٍّ" متعلقان بكافرون "كافِرُونَ" خبر إن والجملة الاسمية مقول القول.

[سورة القصص (28) : آية 49]

قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (49)

(251/583)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها. "فَأْتُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله "بِكِتابٍ" متعلقان بالفعل "مِنْ عِنْدِ" متعلقان بمحذوف صفة كتاب "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها. "هُوَ" مبتدأ "أَهْدى" خبر والجملة صفة ثانية لكتاب "مِنْهُما" متعلقان بأهدى "أَتَّبِعْهُ" مضارع مجزوم بجواب الطلب والهاء مفعول به والفاعل مستتر "إِنْ" حرف شرط جازم "كُنْتُمْ" فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمه "صادِقِينَ" خبره والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف.

[سورة القصص (28) : آية 50]

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

"فَإِنْ" الفاء حرف استئناف "إِنَّ" حرف شرط جازم "لَمْ يَسْتَجِيبُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها . "لَكَ" متعلقان بالفعل "فَاعْلَمْ" الفاء رابطة وأمر فاعله مستتر "أَنَّما" كافة ومكفوفة والجملة في محل جزم جواب الشرط "يَتَّبِعُونَ" مضارع وفاعله "أَهْواءَهُمْ" مفعول به وجملة أنما يتبعون . . في تأويل مصدر سد مسد مفعولي اعلم والواو حرف استئناف "وَمَنْ" اسم استفهام مبتدأ "أَضَلُّ" خبره والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "مِمَّنِ" متعلقان بأضل "اتَّبَعَ" ماض فاعله مستتر "هَواهُ" مفعول به والجملة صلة من "بِغَيْرِ" متعلقان بمحذوف حال "هُدىً" مضاف إليه "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بمن وهما متعلقان بمحذوف صفة لهدى . "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "لا" نافية "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر "الْقَوْمَ" مفعول به "الظَّالِمِينَ" صفة القوم والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة .

(252/583)

[سورة القصص (28) : آية 51]

وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)

"وَلَقَدْ" سبق إعرابها في الآية - 43 - "وَصَّلْنا" ماض وفاعله "لَهُمُ" متعلقان بالفعل "الْقَوْلَ" مفعول به ، والجملة جواب القسم المقدر لا محل لها . "لَعَلَّهُمْ" لعل واسمها "يَتَذَكَّرُونَ" مضارع وفاعله .

والجملة الفعلية خبر لعل ، والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 52]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52)

"الَّذِينَ" اسم موصول مبتدأ "آتَيْناهُمُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة الفعلية صلة الذين "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بمحذوف حال "هُمْ" مبتدأ "بِهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "يُؤْمِنُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر هم والجملة الاسمية الذين . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 53]

وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "يُتْلى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب إذا لا محل لها . "آمَنَّا" ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية مقول القول . "إِنَّهُ" إن واسمها "الْحَقُّ" خبر إن "مِنْ رَبِّنا" حال والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

"إِنَّا" إن واسمها "كُنَّا" كان واسمها "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بما بعدهما "مُسْلِمِينَ" خبر كنا وجملة كنا . . خبر إنا وجملة إنا . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 54]

(253/583)

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (54)

"أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ "يُؤْتَوْنَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل "أَجْرَهُمْ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "مَرَّتَيْنِ" نائب مفعول مطلق "بِما" الباء حرف جر وما مصدرية "صَبَرُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بالفعل يؤتون . "وَيَدْرَؤُنَ" والواو حرف عطف ومضارع وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "بِالْحَسَنَةِ" متعلقان بالفعل

"السَّيِّئَةَ" مفعول به والواو حرف عطف "وَمِمَّا" متعلقان بالفعل ينفقون "رَزَقْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة ما . "يُنْفِقُونَ" مضارع وفاعله والجملة معطوفة على جملة يؤتون فهي في محل رفع مثلها .

[سورة القصص (28) : آية 55]

وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (55)

"وَإِذا" الواو حرف استئناف وإذا ظرفية شرطية غير جازمة "سَمِعُوا" ماض وفاعله "اللَّغْوَ" مفعول به والجملة الفعلية في محل جر بالإضافة . "أَعْرَضُوا" ماض وفاعله "عَنْهُ" متعلقان بالفعل والجملة جواب إذا لا محل

لها . وجملة إذا . . مستأنفة لا محل لها . "وَ" الواو حرف عطف "وَقالُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . "لَنا" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "أَعْمالُنا" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مقول القول "وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ" معطوفة على ما قبلها "سَلامٌ" مبتدأ "عَلَيْكُمْ" متعلقان بالخبر والجملة الاسمية مقول القول . "لا" نافية "نَبْتَغِي" مضارع فاعله مستتر "الْجاهِلِينَ" مفعول به والجملة حال .

[سورة القصص (28) : آية 56]

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

"إِنَّكَ" إن واسمها "لا" نافية "تَهْدِي" مضارع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إنك والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "أَحْبَبْتَ" ماض وفاعله والجملة صلة.

"وَلكِنَّ" الواو حرف عطف وحرف مشبه بالفعل "اللَّهَ" لفظ الجلالة اسمه "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به والجملة الفعلية خبر لكن، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر.

والجملة صلة "وَهُوَ أَعْلَمُ" الواو حالية ومبتدأ وخبره "بِالْمُهْتَدِينَ" متعلقان بأعلم، والجملة حال.

[سورة القصص (28) : آية 57]

وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57)

"وَقالُوا" الواو حرف استئناف "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِنْ" حرف شرط جازم "نَتَّبِعِ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "الْهُدى" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها.

"مَعَكَ" ظرف مكان "نُتَخَطَّفْ" مضارع مبني للمجهول مجزوم لأنه جواب الشرط ونائب الفاعل مستتر "مِنْ أَرْضِنا" متعلقان بالفعل وإن وما بعدها مقول القول . "أَوَلَمْ" الهمزة استفهام إنكاري والواو حرف استئناف "نُمَكِّنْ" مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر "لَهُمْ" متعلقان بالفعل "حَرَماً" مفعول به "آمِناً" صفة حرما والجملة مستأنفة لا محل لها . "يُجْبى" مضارع مبني للمجهول "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل "ثَمَراتُ" نائب فاعل "كُلِّ" مضاف إليه "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة صفة ثانية لحرما . "رِزْقاً" مفعول مطلق "مِنْ لَدُنَّا" متعلقان برزقا . "وَلكِنَّ" الواو حرف عطف وحرف مشبه بالفعل "أَكْثَرَهُمْ" اسم لكن "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر لكن والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة القصص (28) : آية 58]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (58)

"وَكَمْ" الواو حرف استئناف "كَمْ" خبرية في محل نصب مفعول به مقدم "أَهْلَكْنا" ماض وفاعله "مِنْ قَرْيَةٍ" جار ومجرور تمييز كم والجملة مستأنفة لا محل لها . "بَطِرَتْ" ماض فاعله

مستتر "مَعِيشَتَها"

مفعول به والجملة صفة قرية "فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ" الفاء حرف عطف ومبتدأ وخبره والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "لَمْ تُسْكَنْ" مضارع مبني للمجهول مجزوم بلم ونائب الفاعل مستتر والجملة حال. "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بالفعل "إِلَّا" حرف استثناء "قَلِيلًا" صفة مفعول مطلق محذوف "وَ" الواو حالية "كُنَّا" كان واسمها "نَحْنُ" ضمير فصل "الْوارِثِينَ" خبرها والجملة حال.

[سورة القصص (28) : آية 59]

(256/583)

وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (59)

"وَما" الواو حرف استئناف ما نافية "كانَ" ماض ناقص "رَبُّكَ" اسمه "مُهْلِكَ" خبره "الْقُرى" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها. "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَبْعَثَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والمصدر المؤول من أن المضمرة وما بعدها في محل جر بحتى. والجار والمجرور متعلقان بمهلك "فِي أُمِّها" متعلقان بالفعل "رَسُولًا" مفعول به

"يَتْلُوا" مضارع فاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "آياتِنا" مفعول به والجملة صفة رسولا . "وَما" الواو حرف عطف "ما" نافية "كُنَّا" كان واسمها "مُهْلِكِي" خبرها "الْقُرى" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" حرف حصر "وَ" الواو حالية "أَهْلُها ظالِمُونَ" مبتدأ وخبره والجملة حال .

[سورة القصص (28) : آية 60]

وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ (60)

"وَما" ما اسم شرط جازم مبتدأ "أُوتِيتُمْ" ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط والتاء نائب فاعل "مِنْ شَيْءٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَمَتاعُ" الفاء رابطة وخبر لمبتدأ محذوف "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ ما "وَزِينَتُها" معطوفة على متاع. "وَما" الواو حرف عطف وما اسم موصول مبتدأ "عِنْدَ" ظرف مكان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَأَبْقى" معطوف على خير "أَفَلا" الهمزة حرف استفهام إنكاري ، والفاء حرف استئناف "لا" نافية "تَعْقِلُونَ" مضارع وفاعله . والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 61]

أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

"أَفَمَنْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري ، والفاء حرف عطف "مِنَ" اسم موصول مبتدأ "وَعَدْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله ، والجملة صلة من . "وَعْداً" مفعول مطلق "حَسَناً" صفة وعدا "فَهُوَ لاقِيهِ" الفاء حرف عطف ومبتدأ وخبره والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها . "كَمَنْ" من موصولية ومتعلقان

بمحذوف خبر المبتدأ من . "مَتَّعْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة من "مَتاعَ" مفعول مطلق "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة . "ثُمَّ" حرف عطف "هُوَ" مبتدأ "يَوْمَ" ظرف زمان "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "مِنَ الْمُحْضَرِينَ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة القصص (28) : آية 62]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

"وَيَوْمَ" الواو حرف عطف "يَوْمَ" مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر يوم . "يُنادِيهِمْ" مضارع

ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة . "فَيَقُولُ" الفاء حرف عطف ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَيْنَ" اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم "شُرَكَائِيَ" مبتدأ مؤخر ، والجملة الاسمية مقول القول . "الَّذِينَ" اسم موصول صفة شركائي "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَزْعُمُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم صلة الموصول لا محل لها ، ومفعولا تزعمون محذوفان لدلالة ما قبلهما عليهما .

[سورة القصص (28) : آية 63]

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (63)

(258/583)

"قالَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "حَقَّ" ماض مبني على الفتح "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الْقَوْلُ" فاعل والجملة صلة الذين "رَبَّنا" منادى مضاف "هؤُلاءِ" مبتدأ "الَّذِينَ" بدل "أَغْوَيْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَغْوَيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية خبر المبتدأ هؤلاء ، "كَما" صفة مفعول مطلق محذوف "غَوَيْنا" ماض

وفاعله "ثم" عاطفة "تَبَرَّأْنا" ماض وفاعله "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل والجملة حال. "ما" نافية "كانُوا" كان واسمها "إِيَّانا" مفعول به مقدم "يَعْبُدُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا وجملة ما كانوا . . حال ثانية.

[سورة القصص (28) : آية 64]

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (64)

"وَقِيلَ" الواو حرف استئناف "قِيلَ" ماض مبني للمجهول "ادْعُوا" أمر وفاعله "شُرَكاءَكُمْ" مفعول به والجملة مقول القول. "فَدَعَوْهُمْ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "فَلَمْ" الفاء حرف عطف "يَسْتَجِيبُوا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله "لَهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها.

"وَرَأَوُا" الواو حرف عطف رأوا ماض وفاعله "الْعَذابَ" مفعول به والجملة معطوفة. "لَوْ" حرف شرط غير جازم "أَنَّهُمْ" أن واسمها "كانُوا" كان واسمها "يَهْتَدُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . خبر أن. والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل رفع فاعل لفعل محذوف.

[سورة القصص (28) : آية 65]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65)

"وَيَوْمَ" الواو حرف عطف يوم مفعول به لفعل محذوف اذكر "يُنادِيهِمْ" مضارع ومفعوله والفاعل

(259/583)

مستتر والجملة في محل جر بالإضافة. "فَيَقُولُ" الفاء حرف عطف ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "ما ذا" اسم استفهام في محل نصب مفعول مطلق "أَجَبْتُمُ" ماض وفاعله "الْمُرْسَلِينَ" مفعول به والجملة مقول القول.

[سورة القصص (28) : آية 66]

فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (66)

"فَعَمِيَتْ" الفاء حرف استئناف عميت ماض مبني للمجهول والتاء للتأنيث "عَلَيْهِمُ" متعلقان بالفعل "الْأَنْباءُ" نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها "يَوْمَئِذٍ" ظرف زمان مضاف إلى مثله "فَهُمْ" الفاء حرف عطف ومبتدأ "لا" نافية "يَتَساءَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها.

[سورة القصص (28) : آية 67]

فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف "أما" أداة شرط وتفصيل "مَنْ" اسم موصول مبتدأ "تابَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة من "وَآمَنَ" معطوف على تاب "وَعَمِلَ" معطوف أيضا "صالِحاً" مفعول به "فَعَسى" الفاء واقعة في جواب الشرط "عسى" فعل ماض جامد اسمه مستتر "أَنْ" حرف ناصب "يَكُونَ" مضارع ناقص منصوب بأن واسمه مستتر "مِنَ الْمُفْلِحِينَ" متعلقان بمحذوف خبر يكون والمصدر المؤول من أن وما بعدها خبر عسى وجملة عسى . . خبر المبتدأ من وجملة أما من . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 68]

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68)

"وَرَبُّكَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "يَخْلُقُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر المبتدأ "ما" مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة ما "وَيَخْتارُ" معطوف على يخلق . "ما" نافية "كانَ" ماض ناقص "لَهُمُ" متعلقان بمحذوف خبره المقدم "الْخِيَرَةُ" اسمه المؤخر والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها . "سُبْحانَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَتَعالى" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة

معطوفة على ما قبلها "عَمَّا" متعلقان بالفعل "يُشْرِكُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة ما .

[سورة القصص (28) : آية 69]

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (69)

"وَرَبُّكَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "ما" اسم موصول مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "تُكِنُّ صُدُورُهُمْ" مضارع وفاعله والجملة صلة ما . "وَما" الواو حرف عطف "ما" معطوفة على ما قبلها "يُعْلِنُونَ" مضارع وفاعله ، والجملة صلة ما .

[سورة القصص (28) : آية 70]

وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

"وَهُوَ اللَّهُ" الواو حرف عطف مبتدأ وخبره ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "إِلهَ" اسمها المبني على الفتح في محل نصب "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ" بدل من الضمير المستكن في خبر لا المحذوف والجملة الاسمية خبر ثان للمبتدأ هو "لَهُ" خبر مقدم "الْحَمْدُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر ثالث للمبتدأ هو "فِي الْأُولى" متعلقان

بالحمد "وَالْآخِرَةِ" معطوفة على الأولى . "وَلَهُ" الواو حرف عطف وخبر مقدم "الْحُكْمُ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَإِلَيْهِ" الواو حرف عطف ومتعلقان بما بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة القصص (28) : آية 71]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (71)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها ، "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة حرف استفهام وماض وفاعله ، والجملة مقول القول ، "إِنْ" حرف شرط جازم "جَعَلَ" ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها . "عَلَيْكُمُ" متعلقان بالفعل "اللَّيْلَ" مفعول به "سَرْمَداً" مفعول به ثان "إِلى يَوْمِ" متعلقان بجعل "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "مَنْ إِلهٌ" مبتدأ وخبره "غَيْرُ" صفة إله "اللَّهُ" لفظ الجلالة مضاف إليه "يَأْتِيكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "بِضِياءٍ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية صفة إله . "أَفَلا" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف استئناف ولا نافية "تَسْمَعُونَ" مضارع وفاعله ، والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 72]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (72)

سبق إعراب مثيلها في الآية السابقة .

[سورة القصص (28) : آية 73]

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)

"وَمِنْ رَحْمَتِهِ" الواو حرف استئناف ومتعلقان بالفعل بعدهما "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "لَكُمُ" متعلقان بالفعل "اللَّيْلَ" مفعول به "وَالنَّهارَ" معطوف على الليل "لِتَسْكُنُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل ، والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل جعل "فِيهِ" متعلقان بالفعل "وَلِتَبْتَغُوا" معطوف على لتسكنوا "مِنْ فَضْلِهِ" متعلقان بالفعل . "وَلَعَلَّكُمْ" الواو حرف عطف ولعل واسمها "تَشْكُرُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر لعل ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها .

[سورة القصص (28) : آية 74]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

سبق إعرابها في الآية رقم - 62 -

[سورة القصص (28) : آية 75]

وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (75)

(263/583)

"وَنَزَعْنا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله "مِنْ كُلِّ" متعلقان بالفعل "أُمَّةٍ" مضاف إليه "شَهِيداً" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها . والفاء حرف عطف "فَقُلْنا" ماض وفاعله ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، "هاتُوا" أمر وفاعله "بُرْهانَكُمْ" مفعول به والجملة مقول القول . "فَعَلِمُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها . "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "الْحَقَّ" اسمه "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام وهما متعلقان بمحذوف خبر والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها سد مسد مفعولي علموا "وَضَلَّ" الواو حرف عطف وماض مبني على الفتح "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "ما" فاعل والجملة

معطوفة على ما قبلها "كانُوا" كان واسمها "يَفْتَرُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . صلة ما .

[سورة القصص (28) : آية 76]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)

(264/583)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "قارُونَ" اسمه "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "مِنْ قَوْمِ" متعلقان بمحذوف خبر كان "مُوسى " مضاف إليه والجملة خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "فَبَغى " الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل ، والجملة معطوفة على ما قبلها ، "وَآتَيْناهُ" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها . "مِنَ الْكُنُوزِ" متعلقان بالفعل "ما" اسم موصول مفعول به ثان "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "مَفاتِحَهُ" اسمه "لَتَنُوأُ" اللام المزحلقة "تنوء" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية صلة ما . "بِالْعُصْبَةِ" متعلقان بالفعل "أُولِي" صفة العصبة "الْقُوَّةِ" مضاف إليه "إِذْ" ظرف زمان "قالَ" ماض مبني على الفتح "لَهُ" متعلقان

بالفعل "قَوْمُهُ" فاعل والجملة في محل جر بالإضافة "لا تَفْرَحْ" مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر والجملة مقول القول "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "اللَّهَ" لفظ الجلالة اسمه "لا" نافية "يُحِبُّ" مضارع فاعله مستتر "الْفَرِحِينَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن ، والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 77]

وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)

(265/583)

"وَابْتَغِ" الواو حرف عطف وأمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر "فِيما" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على جملة لا تفرح "آتاكَ" ماض ومفعوله "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل والجملة صلة ما "الدَّارَ" مفعول ابتغ "الْآخِرَةَ" صفة الدار "وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية "تَنْسَ" مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر "نَصِيبَكَ" مفعول به "مِنَ الدُّنْيا" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها

"وَأَحْسِنْ" أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "كَما" الكاف حرف تشبيه

وجر وما : مصدرية "أَحْسِنْ" ماض مبني على الفتح "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة مفعول مطلق محذوف "وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية "تَبْغِ" مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر "الْفَسادَ" مفعول به "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "اللَّهُ" لفظ الجلالة اسمه "لا" نافية "يُحِبُّ" مضارع فاعله مستتر "الْمُفْسِدِينَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن ، والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 78]

قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

(266/583)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "إِنَّما" كافة ومكفوفة "أُوتِيتُهُ" ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والهاء مفعول به ، والجملة مقول القول "عَلى عِلْمٍ" متعلقان بمحذوف حال "عِنْدِي" ظرف مكان ، "أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو

حرف استئناف ولم حرف جازم "يَعْلَمْ" مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "اللَّهَ" لفظ الجلالة اسم أن "قَدْ" حرف تحقيق "أَهْلَكَ" ماض فاعله مستتر "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بالفعل "مِنَ الْقُرُونِ" متعلقان بالفعل أيضا والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها سد مسد مفعول يعلم "مِنْ" اسم موصول مفعول به "هُوَ أَشَدُّ" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية صلة من "مِنْهُ" متعلقان بأشد "قُوَّةً" تمييز "وَأَكْثَرُ" معطوف على أشد "جَمْعاً" تمييز "وَلا" الواو حرف استئناف ولا نافية "يُسْئَلُ" مضارع مبني للمجهول "عَنْ ذُنُوبِهِمُ" متعلقان بالفعل "الْمُجْرِمُونَ" نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 79]

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79)

(267/583)

"فَخَرَجَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "عَلى قَوْمِهِ" متعلقان بالفعل "فِي زِينَتِهِ" متعلقان بمحذوف حال والجملة معطوفة على جملة قال إنما "قالَ" ماض مبني على الفتح

"الَّذِينَ" فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها "يُرِيدُونَ" مضارع وفاعله "الْحَياةَ" مفعول به "الدُّنْيا" صفة الحياة والجملة صلة الموصول لا محل لها "يا" حرف تنبيه "لَيْتَ" حرف مشبه بالفعل "لَنا" متعلقان بمحذوف خبر ليت المقدم "مِثْلَ" اسمها المؤخر والجملة مقول القول "ما" اسم موصول في محل جر بالإضافة "أُوتِيَ" ماض مبني للمجهول "قارُونُ" نائب فاعل والجملة صلة ما "إِنَّهُ" إن واسمها "لَذُو" اللام المزحلقة "ذو" خبر إن المرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة "حَظٍّ" مضاف إليه "عَظِيمٍ" صفة حظ والجملة الاسمية تعليل لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 80]

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)

"وَقالَ" الواو حرف عطف وماض مبني على الفتح "الَّذِينَ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "أُوتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "الْعِلْمَ" مفعول به والجملة صلة الذين لا محل لها "وَيْلَكُمْ" مفعول مطلق لفعل محذوف "ثَوابُ" مبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "خَيْرٌ" خبر المبتدأ "لِمَنْ" متعلقان بخير والجملة مقول القول . "آمَنَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة من "عَمِلَ" "وَعَمِلَ" معطوف على آمن "صالِحاً" مفعول به "وَلا" الواو استئنافية ولا نافية "يُلَقَّاها" مضارع مبني للمجهول وها مفعول به "إِلَّا" حرف حصر

"الصَّابِرُونَ" نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 81]

(268/583)

فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81)

"فَخَسَفْنا" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل "وَبِدارِهِ" معطوفان على ما قبلهما "الْأَرْضَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها . "فَما" الفاء حرف عطف وما نافية "كانَ" ماض ناقص "لَهُ" متعلقان بمحذوف خبر كان المقدم "مِنْ" حرف جر زائد "فِئَةٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا اسم كان المؤخر "يَنْصُرُونَهُ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة صفة فئة "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَما" الواو حالية "ما" نافية "كانَ" ماض ناقص اسمه مستتر "مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ" خبر كان والجملة حال .

[سورة القصص (28) : آية 82]

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (82)

"وَأَصْبَحَ" الواو حرف عطف وماض ناقص "الَّذِينَ" اسم أصبح "تَمَنَّوْا" ماض وفاعله "مَكانَهُ" مفعول به "بِالْأَمْسِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة الموصول لا محل لها . "يَقُولُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر أصبح وجملة أصبح . . معطوفة على جملة خسفنا . "وي" اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب "كأن" حرف مشبه بالفعل "اللَّهَ" لفظ الجلالة اسمه "يَبْسُطُ" مضارع فاعله مستتر "الرِّزْقَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر كأن "لِمَنْ" متعلقان بالفعل "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بمحذوف حال والجملة صلة من "وَيَقْدِرُ" معطوف على يبسط ، "لَوْلا" حرف شرط غير جازم "أَنْ" حرف مصدري ونصب "مِنْ" ماض مبني على الفتح "اللَّهَ" لفظ الجلالة فاعل "عَلَيْنا" متعلقان بالفعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع مبتدأ والخبر محذوف ، "لَخَسَفَ" اللام واقعة في جواب الشرط وماض فاعله مستتر "بِنا" متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها . "وي" اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب "كأنه" كأن واسمها "لا" نافية "يُفْلِحُ" مضارع مرفوع "الْكافِرُونَ" فاعل والجملة الفعلية خبر كأن .

[سورة القصص (28) : آية 83]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

(270/583)

"تِلْكَ" اسم إشارة مبتدأ "الدَّارُ" بدل "الْآخِرَةُ" صفة الدار "نَجْعَلُها" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر تلك وجملة تلك . . مستأنفة لا محل لها . "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل "لا" نافية "يُرِيدُونَ" مضارع وفاعله والجملة صلة الذين لا محل لها . "عُلُوًّا" مفعول به "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بعلوا ، "وَلا" والواو حرف عطف "لا" نافية "فَساداً" معطوف على علوا "وَالْعاقِبَةُ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "لِلْمُتَّقِينَ" خبر والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 84]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (84)

"مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "جاءَ" ماض فاعله مستتر "بِالْحَسَنَةِ" متعلقان بالفعل "فَلَهُ" الفاء رابطة ومتعلقان بمحذوف خبر مقدم "خَيْرٌ" مبتدأ مؤخر "مِنْها" متعلقان بخير ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط ، وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من

وجملة من . . مستأنفة لا محل لها "وَمَنْ" الواو حرف عطف و"مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "جاءَ" ماض فاعله مستتر "بِالسَّيِّئَةِ" متعلقان بالفعل "فَلا" الفاء رابطة ولا نافية "يُجْزَى" مضارع مبني للمجهول "الَّذِينَ" نائب فاعل والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . . معطوفة على ما قبلها "عَمِلُوا" ماض وفاعله "السَّيِّئاتِ" مفعول به والجملة صلة الذين لا محل لها ، "إِلَّا" حرف حصر "ما" اسم موصول مفعول به "كانُوا" ماض ناقص واسمه "يَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . صلة ما لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 85]

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (85)

(271/583)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "الَّذِي" اسم إن "فَرَضَ" ماض فاعله مستتر "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "الْقُرْآنَ" مفعول به والجملة صلة الذي لا محل لها . "لَرادُّكَ" اللام المزحلقة وخبر إن والجملة الاسمية إن الذي . . مستأنفة لا محل لها . "إِلى مَعادٍ" متعلقان برادك "قُلْ" أمر

فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "رَبِّي" مبتدأ "أَعْلَمُ" خبر والجملة الاسمية مقول القول "مَنْ" اسم موصول مفعول به لأعلم "جاءَ" ماض فاعله مستتر "بِالْهُدى" متعلقان بالفعل والجملة صلة من لا محل لها ، "وَمَنْ" الواو حرف عطف ومن معطوفة على ما قبلها "هُوَ" مبتدأ "فِي ضَلالٍ" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ "مُبِينٍ" صفة ضلال والجملة الاسمية صلة من لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 86]

وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (86)

"وَما" الواو حرف استئناف وما نافية "كُنْتَ" ماض ناقص والتاء اسمه والجملة مستأنفة "تَرْجُوا" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "أَنْ" حرف ناصب "يُلْقى" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "الْكِتابُ" نائب فاعل والمصدر المؤول من أن وما بعدها مفعول به لترجو "إِلَّا" حرف حصر "رَحْمَةً" مفعول لأجله "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بمحذوف صفة رحمة "فَلا" الفاء الفصيحة ولا ناهية "تَكُونَنَّ" مضارع ناقص مبني على الفتح في محل جزم بلا الناهية والنون للتوكيد واسمه ضمير مستتر "ظَهِيراً" خبر تكونن "لِلْكافِرِينَ" متعلقان بظهيرا والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة القصص (28) : آية 87]

وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87)

"وَلا" الواو حرف عطف ولا ناهية "يَصُدُّنَّكَ" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون وواو الجماعة المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل "عَنْ آياتِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "بَعْدَ" ظرف زمان "إِذْ" ظرف في محل جر بالإضافة والجملة معطوفة على ما قبلها "أُنْزِلَتْ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة. و"إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل، "وَ" والواو حرف عطف "ادْعُ" أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلى رَبِّكَ" متعلقان بالفعل "وَ" الواو حرف عطف "وَلا" ناهية "تَكُونَنَّ" مضارع ناقص مبني على الفتح في محل جزم بلا الناهية والنون للتوكيد واسمه ضمير مستتر "مِنَ الْمُشْرِكِينَ" خبر تكون والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة القصص (28) : آية 88]

وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

"وَلا" الواو حرف عطف "لا" ناهية "تَدْعُ" مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر "مَعَ" ظرف مكان "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِلهاً" مفعول به "آخَرَ" صفة إلها والجملة معطوفة على ما قبلها . "لا" نافية للجنس تعمل عمل إن "إِلهَ" اسم لا المبني على الفتح في محل نصب "إِلَّا" حرف حصر "هُوَ" بدل من الضمير المقدر المستكن في خبر لا المحذوف والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "كُلُّ" مبتدأ "شَيْءٍ" مضاف إليه "هالِكٌ" خبر المبتدأ "إِلَّا" حرف استثناء "وَجْهَهُ" مستثنى بإلا والجملة مستأنفة لا محل لها . "لَهُ" خبر مقدم "الْحُكْمُ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . "وَإِلَيْهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها بالواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لـ دعاس حـ 2 صـ 420. 445﴾

(274/583)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْقَصَص

ذكر فِيهَا اثْنَي عشر حَدِيثا

932 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ فِي حَدِيث لَو قَالَ هُوَ قُرَّة عين لِي كَمَا قَالَت امْرَأَته لهداه الله كَمَا هداها

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي سننه الْكُبْرَى فِي تَفْسِير سُورَة طه حَدثنَا عبد الله ابْن مُحَمَّد ثَنَا يزِيد بن هَارُون أَنا أصبغ بن زيد ثَنَا الْقَاسِم بن أبي أَيُّوب أَخْبرنِي سعيد بن جُبَير قَالَ سَأَلت ابْن عَبَّاس عَن قَوْله تَعَالَى لمُوسَى علية السَّلَام وَفَتَنَّاك فُتُونًا فَذكر حَدِيث الْفُتُون بطُولِهِ فَلَمَّا سمع الذَّبَّاحُونَ بِأَمْر مُوسَى اقْبَلُوا بشفارهمْ إِلَى امْرَأَة فِرْعَوْن ليَذْبَحُوهُ فقالت لَهُم أَقروهُ فَإِن هَذَا الْوَاحِد لَا يزِيد فِي بني إِسْرَائِيل حَتَّى آتِي فِرْعَوْن فَأَسْتَوْهبهُ مِنْهُ فَإِن وهبه لي كُنْتُم قد أَحْسَنْتُم وَأَجْمَلْتُمْ وَإِن أَمر بذَبْحه لم أَلمكُم فَأَتَت فِرْعَوْن فَقَالَت لَهُ قُرَّة عين لِي وَلَك فَقَالَ فِرْعَوْن يكون لَك فَأَما أَنا فَلَا حَاجَة لِي فِيهِ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَالَّذِي يحلف بِهِ لَو أقرّ فِرْعَوْن أَن يكون عين كَمَا أقرّت امْرَأَته لهداه الله كَمَا هداها وَلَكِن الله حرمه ذَلِك . . . الحَدِيث بطُولِهِ

933 - الحَدِيث الثَّانِي

يروي أَنه لم يبْعَث نَبِي إِلَّا عَلَى رَأس أَرْبَعِينَ

قلت غَرِيب

934 - الحَدِيث الثَّالِث فِي الحَدِيث يُنَادي مُنَاد يَوْم الْقِيَامَة أَيْن الظلمَة وَأَتْبَاع الظلمَة وَأَعْوَان الظلمَة حَتَّى من لَاق لَهُم دَوَاة أَو بَرَى لَهُم قَلما فَيجْمَعُونَ فِي تَابُوت وَاحِد فَيُرْمَى بِهِ فِي جَهَنَّم

قلت غَرِيب

وَذكره أَبُو شُجَاع الديلمي فِي كتاب الفردوس من حَدِيث أَبي هُرَيْرَة بِلَفْظ الْمنصف سَوَاء

(275/583)

---

935 - الحَدِيث الرَّابِع

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي التَّعْزِيَة أجركُم الله وَرَحِمَكُمْ

قلت رَوَاهُ ابْن أَبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي الْجَنَائِز حَدثنَا وَكِيع عَن عمرَان ابْن أَبي زَائِدَة بن نشيط عَن حُسَيْن بن أَبي عَائِشَة عَن أَبي خَالِد الْوَالِبي أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عزى رجلا فَقَالَ لَهُ يرحمه اللَّهُ ويأجركم انْتَهَى

وَالْمنصف احْتج بِهِ عَلَى أَن قَوْله تَأْجُرني ثَمَانِي حجج من الْأَجر الَّذِي هُوَ الثَّوَاب

وَرَوَاهُ بِلَفْظ الْكتاب أَبُو نعيم الْأَصْبَهَانِيّ فِي تَارِيخ أَصْبَهَان من حَدِيث أَحْمد ابْن الْحسن عرف بِابْن طَبَاطَبَا حَدثنِي أَبي الْحسن حَدثنِي أَبي إِبْرَاهِيم عَن أَبِيه إِسْمَاعِيل عَن أَبِيه

إِبْرَاهِيم بن الْحسن عَن أمه فَاطِمَة بنت الْحُسَيْن عَن أَبِيهَا الْحُسَيْن بن عَلّي قَال كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا عزى قَال أجركُم الله وَرَحِمَكُمْ وَإِذا هَنأ قَال بَارك الله لكم وَبَارك عَلَيْكُم انْتَهَى

وَرَوَى ابْن حبَان فِي كتَاب الضُّعَفَاء من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن يَحْيَى بن عبد الله التَّيْمِيّ أَنا ابْن أبي ذِئْب عَن نَافِع عَن ابْن عمر أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عزى رجلا مُسلما برَجُل ذمّي فَقَال أجرك الله وَأعظم أجرك انْتَهَى وَأعله بِإِسْمَاعِيل

هَذَا وَقَال إِنَّه يروي عَن الثِّقَات الموضوعات لَا تحل الرِّوَايَة عَنهُ وَلَا الِاحْتِجَاج بِهِ بِحَال انْتَهَى

(276/583)

وَأخرج أَبُو دَاوُد عَن عمَارَة بن عَمْرو بن حزم عَن أبي بن كَعْب أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَال لرجل أعْطى فِي زَكَاة مَاله نَاقَة سَمِينَة هَذَا الَّذِي عَلَيْك فَإِن تطَوَّعت بِخَير أجرك الله وَقَبلنَا مِنْك وَفِيه قصَّة قَال النَّوَوِيّ فِي الْخُلَاصَة إِسْنَاده صَحِيح أَو حسن وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده وَزَاد ابْنه عبد الله قَال عمَارَة وَقد وليت الصَّدَقَات فِي زمن مُعَاوِيَة فَأخذت من ذَلِك الرجل ثَلَاثِينَ حقة لِأَلف وَخَمْسمِائة بعير

936 - الْحَدِيث الْخَامِس

فِي حَدِيث كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم شَرِيكي وَكَانَ خير شريك لَا يُدَارِي وَلَا يُمَارِي

قلت رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَابْن ماجة فِي الشّركَة من حَدِيث السَّائِب بن يزِيد أَنه انه قَالَ للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كنت شَرِيكي فَكنت خير شريك لَا تُدَارِي وَلَا تُمَارِي انْتَهَى

937 - الحَدِيث السَّادِس

سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَي الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى قَالَ أبعدهُمَا وأبطأهما وَرُوِيَ أَنه قَالَ قَضَى أَوْفَاهُمَا وَتزَوج صُغْرَاهُمَا

قلت رَوَى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَي الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى قَالَ أبعدهُمَا وأبطأهما انْتَهَى

وَسَاقه من طَرِيقا آخر وَقَالَ أَوْفَاهُمَا ثمَّ قَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

قَالَ ابْن الْقطَّان فِي كِتَابه الْوَهم وَالْإِيهَام هَذَا حَدِيث يرويهِ سُفْيَان بن عُيَيْنَة ثَنَا إِبْرَاهِيم بن يَحْيَى بن أبي يَعْقُوب وَكَانَ رجلا صَالحا عَن الْحسن بن أبان

(277/583)

عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ سُئِلَ . . . الحَدِيث قَالَ وَإِبْرَاهِيم بن يَحْيَى لَا يعرف بِغَيْر هَذَا وَلَا يعرف رُوِيَ عَنهُ إِلَّا ابْن عُيَيْنَة وَلَيْس كل صَالح ثِقَة فِي الحَدِيث بل قيل لَا نرَى الْكَذِب من الصَّالِحين فِي الحَدِيث وَذَلِكَ لِسَلَامَةِ صُدُورهمْ وَتَحْسِينهمْ الظَّن بِمن يُحَدِّثهُمْ وتشاغلهم بِمَا هم فِيهِ عَن ضبط الحَدِيث وَحفظه وَمن لم تثبت عَدَالَته لَا يَصح حَدِيثه وَرَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث عُوَيْد بن عمرَان الْجونِي عَن أَبِيه عَن عبد الله بن الصَّامِت عَن أبي ذر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سُئِلَ أَي الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى قَالَ أَوْفَاهُمَا وَأَبرهمَا قَالَ وَإِن سُئِلت أَي الْمَرْأَتَيْنِ تزوج فَقل الصُّغْرَى مِنْهُمَا انْتَهَى

وَمن طَرِيق الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل وَزَاد فِيهِ وَهِي الَّتِي قَالَت يَا أَبَت اسْتَأْجرهُ إِن خير من اسْتَأْجَرت الْقوي الْأَمين ثمَّ قَالَ هَذَا حَدِيث لَا يَصح قَالَ ابْن معِين عُوَيْد لَيْسَ بِشَيْء وَقَالَ الْبُخَارِيّ مُنكر الحَدِيث انْتَهَى

وَرَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث سُلَيْمَان بن دَاوُد الشَّاذكُونِي ثَنَا عبد الْعَزِيز بن مُحَمَّد الدَّرَاوَرْدِي عَن الْعَلَاء بن عبد الرَّحْمَن عَن أَبِيه عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لِي جِبْرِيل يَا مُحَمَّد إِن سَأَلَك الْيَهُود أَي الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى فَقل أَوْفَاهُمَا وَإِن سَأَلُوا أَيهمَا تزوج فَقل الصُّغْرَى مِنْهُمَا

938 - الحَدِيث السَّابِع

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِيمَا حَكَى عَن ربه الْكِبْرِيَاء رِدَائِي

(278/583)

وَالْعَظَمَة إِزَارِي فَمن نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلقيته فِي النَّار

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه من حَدِيث أبي سعيد وَأبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ الْكِبْرِيَاء رِدَاؤُهُ وَالْعَظَمَة إِزَاره فَمن يُنَازعنِي عَذبته انْتَهَى

وَهُوَ من مُفْرَدَات مُسلم ذكره فِي آخر الْبر والصلة

939 - الحَدِيث الثَّامِن

رُوِيَ أَن أَبَا طَالب قَالَ عِنْد مَوته يَا معشر بني هَاشم أَطِيعُوا مُحَمَّدًا وَصَدقُوهُ تُفْلِحُوا وَترْشُدُوا فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا عَم تَأْمُرهُمْ بالنَّصِيحَة لأَنْفُسِهِمْ وتدعها لنَفسك قَالَ فَمَا تُرِيدُ يَا ابْن أَخي قَالَ أُرِيد مِنْك كلمة وَاحِدَة فَإِنَّك فِي آخر يَوْم من أَيَّام الدُّنْيَا أَن تَقول لَا إِلَه إِلَّا الله أشهد لَك بهَا عِنْد الله قَالَ يَا ابْن أَخي قد علمت إِنَّك لصَادِق وَلَكِنِّي أكره أَن يُقَال جزع عِنْد الْمَوْت وَلَوْلَا أَن يكون عَلَيْك وَعَلَى بني أَبيك غَضَاضَة بعدِي لقلتها ولأقررت بهَا عَيْنك بهَا عِنْد الْفِرَاق لما رَأَى من شدَّة وَجدك وَنَصِيحَتك وَلَكِنِّي سَوف

أَمُوت عَلَى مِلَّة الْأَشْيَاخ عبد الْمطلب وهَاشِم وَعبد مَنَاف قَالَت قُرَيْش وَقيل الْقَائِل الْحَارِث ابْن عُثْمَان بن نَوْفَل نَحن نعلم أَنَّك لعَلَى الْحق وَلَكنَّا نخَاف إِن اتَّبَعْنَاك وَخَالفنَا الْعَرَب بذلك وَإِنَّمَا نَحن أَكلَة رَأس أَي قَلِيلُونَ أَن يتخطفونا من أَرْضنَا

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَهُوَ فِي الصَّحِيحَيْن عَن سعيد بن الْمسيب عَن أَبِيه الْمسيب بن حزن المَخْزُومِي . . . مُخْتَصرا

940 - الحَدِيث التَّاسِع

فِي الحَدِيث أَن أهل الْجنَّة يُلْهمُون التَّسْبِيح وَالتَّقْدِيس

(279/583)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتَاب التَّوْبَة عَن أَبِي سُفْيَان عَن جَابر ابْن عبد الله قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول إِن أهل الْجنَّة يَأْكُلُون فِيهَا وَيَشْرَبُونَ وَلَا يَتْفلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ قَالُوا فَمَا بَال الطَّعَام قَالَ حَشا وَرشح كَرَشْحِ الْمسك يُلْهمُون التَّسْبِيح وَالتَّقْدِيس كَمَا يُلْهمُون النَّفس انْتَهَى

وَفِي لفظ يُلْهمُون التَّسْبِيح وَالتَّكْبِير عَن أَبِي الزُّبَيْر عَنهُ وَلَفْظَة التَّقْدِيس غَرِيبَة

941 - الحَدِيث الْعَاشِر

قيل لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هَل يضر الْغَبْط قَالَ لَا إِلَّا كَمَا يضر الْعضَاة الْخبط

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا أَحْمد بن مُعلى الدّمَشْقِي ثَنَا هِشَام ابْن عمار ثَنَا مُحَمَّد بن سُلَيْمَان بن بلَال بن أبي الدَّرْدَاء حَدَّثتنِي أُمِّي عَن جدَّتهَا أم الدَّرْدَاء قَالَت قلت يَا رَسُول الله هَل يضر الْغَبْط قَالَ نعم كَمَا يضر الشّجر الْخبط انْتَهَى

وَرَوَاهُ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث ثَنَا إِسْحَاق بن إِسْمَاعِيل ثَنَا سُفْيَان عَن رجل مكي عَن ابْن أبي حُسَيْن أَن سَائِلًا سَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَيضرُّ النَّاس الْغَبْط قَالَ نعم كَمَا يضر الْعضَاة الْخبط قَالَ إِرَادَة الْغَبْط السعَة وَالْغِبْطَة السرُور انْتَهَى

وَذكره السَّرقسْطِي فِي غَرِيبه بِلَفْظ الْمُصَنّف إِلَّا انه لم يسْنده وَقَالَ الْمُرَاد بِهِ الْحَسَد

942 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

حَدِيث مُوسَى وَقَارُون لما أذن الله للْأَرْض أَن تطيع مُوسَى فَأمرهَا مُوسَى فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِم طوله الْمُصَنّف

(280/583)

قلت اخْتَصرَهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فَرَوَاهُ من حَدِيث عبد الله بن الْحَارث عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما أَتَى مُوسَى قومه أَمرهم بِالزَّكَاةِ فَجمعهُمْ قَارون فَقَالَ لَهُم جَاءَكُم بِالصَّلَاةِ وَجَاءَكُم

بأَشْيَاء فاحتملتموها فَتَحملُوا أَن تُعْطُونَهُ أَمْوَالكُم فَقَالُوا لَا نَحْتَمِل أَن نُعْطِيه أَمْوَالنَا فَمَا ترَى قَال أَرَى أَن أرسل إِلَى بغي من بني إِسْرَائِيل فَتَرْمِيه بأَنَّهُ أَرْدَاهَا عَلَى نَفسهَا فَدَعَا الله مُوسَى عَلَيْهِم فَأمر الله الأَرْض أَن تطِيعهُ فَقَال مُوسَى للْأَرْض خُذِيهِمْ فَأَخَذتهم إِلَى ركبهمْ فَجعلُوا يَقُولُونَ يَا مُوسَى يَا مُوسَى فَقَال للْأَرْض خُذِيهِمْ فَأَخَذتهم إِلَى أَعْنَاقهم فَجعلُوا يَقُولُونَ يَا مُوسَى يَا مُوسَى فَقَال للْأَرْض خُذِيهِمْ فَأَخَذتهم فَغَيَّبَتْهُمْ فَأَوْحَى الله إِلَى مُوسَى يَا مُوسَى سَأَلَك عبَادي وَتَضَرَّعُوا إِلَيْك فَلم تجبهمْ فَوَعِزَّتِي لو أَنهم دَعوني لَأَجَبْتهمْ قَال ابْن عَبَّاس وَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْض خسف بِهِ إِلَى الأَرْض السُّفْلَى انْتَهَى وَقَال حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ عبد الرازق ثمَّ الطَّبَرِيّ فِي تفسيريهما أخبرنَا جَعْفَر بن سُلَيْمَان عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان قَال سَمِعت عبد الله بن الْحَارث بن نَوْفَل الْهَاشِمِي وَهُوَ مُسْتَند إِلَى الْمَقْصُورَة فَذكر نَبِي الله سُلَيْمَان بن دَاوُد وَمَا آتَاهُ الله من الْملك ثمَّ قَرَأَ هَذِه الْآيَة أَيكُم يأتيني بِعَرْشِهَا حَتَّى بلغ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقرًّا عِنْده قَال

(281/583)

هَذَا من فضل رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أم أكفر) وَلم يقل هَذَا من كَرَامَتِي ثمَّ قَرَأَ إِن رَبِّي غَنِي كريم ثمَّ ذكر قَارون وَمَا أُوتِيَ من الْكُنُوز فَقَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى علم عِنْدِي قَالَ بلغنَا أَنه أُوتِيَ الْكُنُوز وَالْمَال حَتَّى جعل بَاب دَاره من ذهب وَجعل دَاره كلهَا من صَفَائِح الذَّهَب وَكَانَ الْمَلأ من بني إِسْرَائِيل يَغْدُونَ إِلَيْهِ وَيَرُوحُونَ يُطعمهُمْ الطَّعَام وَيَتَحَدَّثُونَ فَكَانَ مُؤْذِيًا لمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام فَلم تَدعه الْقَسْوَة وَالْبَلَاء حَتَّى أرسل إِلَى امْرَأَة من بني إِسْرَائِيل مَذْكُورَة بجَمَال مَعْرُوفَة بِأَفْعَال لَهَا هَل لَك فِي أَن أُمَوِّلك وَأُعْطِيك وَأَخْلِطك بِنسَائِي عَلَى أَن تَأْتِينِي وَالْمَلأ من بني إِسْرَائِيل عِنْدِي فتقولين يَا قَارون أَلا تنْهَى مُوسَى عني فَقَالَت بلَى قَالَ فَلَمَّا جَاءَ أَصْحَابه واجتمعوا عِنْده دَعَاهَا فَقَامَتْ عَلَى رُءُوسهم فَقلب الله قَلبهَا وَرزقهَا التَّوْبَة فَقَالَت مَا أجد الْيَوْم تَوْبَة من أَن أكذب عَدو الله وأبرئ رَسُول الله فَقَالَت إِن قَارون بعث إِلَيّ وَقَالَ لِي كَيْت وَكَيْت وَإِنِّي لم أجد الْيَوْم تَوْبَة فضلا من أَن أكذب عَدو الله وأبرئ رَسُول الله قَالَ فَنَكس قَارون رَأسه وَعرف أَنه قد هلك وَفَشَا الْحَدِيث فِي النَّاس حَتَّى بلغ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام وَكَانَ شَدِيد الْغَضَب فَلَمَّا بلغه ذَلِك تَوَضَّأ وَصَلى وَسجد فَبَكَى وَقَالَ يَا رب عَدوك قَارون كَانَ لِي مُؤْذِيًا وَذكر أَشْيَاء ثمَّ لم ينْتَه حَتَّى أَرَادَ فَضِيحَتِي يَا رب سَلطنِي عَلَيْهِ قَالَ فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ أَن أَمر الْأَرْض بِمَا شِئْت فَتُطِيعك فجَاء مُوسَى يمشي إِلَى قَارون فَرَآهُ قَارون فَعرف الْغَضَب فِي وَجهه فَقَالَ يَا مُوسَى ارْحَمْنِي ثمَّ قَالَ مُوسَى

للْأَرْض خُذِيهِمْ قَالَ فَأَخَذتهم الأَرْض إِلَى أَقْدَامهم وَسَاخَتْ دَاره عَلَى قدر ذَلِك فَقَالَ قَارون يَا مُوسَى ارْحَمْنِي فَقَالَ مُوسَى يَا أَرض خُذِيهِمْ فَأَخَذتهم إِلَى ركبهمْ وَسَاخَتْ دَاره فِي الأَرْض عَلَى قدر ذَلِك وَجعل يَقُول يَا مُوسَى ارْحَمْنِي فَقَالَ مُوسَى يَا أَرض خُذِيهِمْ فَأَخَذتهم إِلَى حُلُوقهمْ وَجعل يَقُول يَا مُوسَى ارْحَمْنِي فَقَالَ مُوسَى يَا أَرض خُذِيهِمْ فَخسف بِهِ وَبِدَارِهِ وَأَصْحَابه فَقيل لَهُ يَا مُوسَى مَا أفضك أما وَعِزَّتِي لَو إِيَّاي دَعَا لِرَحْمَتِهِ انْتَهَى قَوْله

وَفِي الْأَخْبَار والْآثَار مَا يدل عَلَيْهِ يَعْنِي وُقُوع الرعب فِي قُلُوب جَمِيع النَّاس يَوْم الْموقف قلت أما الْأَخْبَار فَمِنْهَا حَدِيث الشَّفَاعَة عِنْد البُخَارِيّ وَمُسلم عَن أبي هُرَيْرَة فِي حَدِيث طَوِيل وَفِيه يجمع الله الْأَوَّلين والآخرين فِي صَعِيد وَاحِد فَيبْصرُهُمْ النَّاظر وَيسْمعهُمْ الدَّاعِي تَدْنُو مِنْهُم الشَّمْس فَيبلغ النَّاس من الْغم وَالْكرب مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يحْتَملُونَ ثمَّ سَاق الرَّاوِي الحَدِيث إِلَى أَن آدم يَقُول نَفسِي نَفسِي وَكَذَا إِبْرَاهِيم وَمُوسَى وَعِيسَى

وَأَخْرَجَاهُ أَيْضا عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يجمع الله النَّاس يَوْم الْقِيَامَة فَيَهْتَمُّونَ لذَلِك فَيَقُولُونَ لَو اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبنَا حَتَّى يُرِيحنَا الحَدِيث بِطُولِهِ

944 - قَوْله

عَن عَلّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ إِن الرجل لَيُعْجِبهُ أَن يكون شِرَاك نَعله أَجود من شِرَاك نعل

صَاحبه يدْخل تحتهَا يَعْنِي قَوْله تَعَالَى تِلْكَ الدَّار الْآخِرَة نَجْعَلهَا للَّذين لَا يُرِيدُونَ علوا فِي الْأَرْض وَلَا فَسَادًا

(283/583)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا ابْن وَكِيع عَن أَبِيه عَن أَشْعَث السمان عَن أبي سَلام الْأَعْرَج عَن عَلّي قَالَ إِن الرجل لَيُعْجبهُ من شِرَاك نَعله أَن يكون أَجود من شِرَاك نعل صَاحبه فَيدْخل فِي قَوْله تَعَالَى تِلْكَ الدَّار الْآخِرَة نَجْعَلهَا للَّذين لَا يُرِيدُونَ علوا فِي الْأَرْض وَلَا فَسَادًا انْتَهَى

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط من طَرِيق إِسْحَاق بن إِبْرَاهِيم ثَنَا وَكِيع عَن أَشْعَث بِهِ

945 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ طسم الْقَصَص كَانَ لَهُ من الْأَجر بِعَدَد من صدق مُوسَى وَكذبه وَلم يبْق ملك فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض إِلَّا شهد لَهُ يَوْم الْقِيَامَة أَنه كَانَ صَادِقا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ بنَقص من طَرِيق ابْن أبي دَاوُد ثَنَا مُحَمَّد بن حواص ثَنَا شَبابَة بن سوار الْفَزارِيّ ثَنَا مخلد بن عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد عَن عَطاء ابْن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ طسم الْقَصَص لم

يبْق ملك فِي السَّمَوَات وَالْأَرْض إِلَّا شهد لَهُ يَوْم الْقِيَامَة أَنه كَانَ صَادِقا إِن كل شَيْء هَالك إِلَّا وَجهه لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ ترجعون انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَد الأول فِي آل عمرَان بِلَفْظ الْمُصَنّف وَبِسَنَدِهِ الثَّانِي بِلَفْظ الثَّعْلَبِيّ

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 27.36 ﴾

(284/583)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة القصص

قوله تعالى : (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ) ، الآية/ 27 .

فيه دليل على جواز جعل منافع الحر صداقا شرعا .

قوله تعالى :

(وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ - إلى قوله - سَلامٌ عَلَيْكُمْ) ، الآية/ 55 .

هو سلام متاركة ، وليس بتحية ، ومثله قوله :

(وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً) «1» .

وقوله تعالى : (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) «2» .

قال إبراهيم : (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) «3» .

---

(1) سورة الفرقان آية 63 .

(2) سورة مريم آية 46 .

(3) سورة مريم آية 47 .

ومن الناس من اقتبس منه جواز مفاتحة الكفار بالسلام ، وليس كذلك ، لما وصفنا من أن السلام يتصرف إلى معنيين .

والمراد به هاهنا ، معنى المتاركة .

وقد روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أنه قال في الكفار :

«لا تبدؤوهم بالسلام ، فإن بدءوكم فابدؤوهم ، وأنه إذا سلّم عليكم أهل كتاب فقولوا :

وعليكم» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 335.

336 ﴾

(286/583)

وقال العلامة القنوجي :

سورة القصص

وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء .

[الآية الأولى]

قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) .

قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ : فيه مشروعية عرض ولي المرأة لها على الرجل ، وهذا سنة ثابتة في الإسلام كما ثبت من عرض عمر لابنته على أبي بكر وعثمان - والقصة معروفة « 1 » - وغير ذلك ، كما وقع في أيام الصحابة وأيام النبوة .

وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم «2» .

عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ : أي على أن تكون أجيرا لي ثمان سنين ترعى غنمي .

فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ : أي تفضلا منك لا إلزاما مني لك ، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام العشرة أعوام موكولا إلى المروءة .

وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ : بإلزامك إتمام العشرة الأعوام واشتقاق المشقة من الشق أي شق بطنه نصفين ، فتارة يقول : أطيق ، وتارة يقول : لا أطيق .

ثم رغبه في قبول الإجارة فقال :

سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) : في حسن الصحبة والوفاء . وقيل : أراد الصلاح على العموم ، فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجارة تحت الآية دخولا أولياء ، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضا للأمر إلى توفيق اللّه ومعونته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 418 ﴾

---

(1) صحيح : رواه البخاري (9/ 175 ، 176 ، 201) ، عن عبد اللّه بن عمر مرفوعا .

(2) صحيح : رواه البخاري (9/ 174) عن أنس مرفوعا .

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة القصص» (28)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«طس» (1) ساكن لأنه جرى مجرى فواتح سائر السور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجي ومجاز موضعه فى المعنى مجاز ابتداء فواتح سائر السور . .

«تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ» (2) مجازها : هذه آيات القرآن بمنزلة قوله :

«الم ذلِكَ الْكِتابُ» (2/ 1 - 2) مجازه : هذا القرآن وقد فرغنا من تلخيصه فى موضعه وفى غير موضع . .

«مِنْ نَبَإِ مُوسى » (2) أي من خبر موسى قال الرّبيع بن زياد العبسي :

إنّى أرقت فلم أغمّض حار جزعا من النبإ الجليل السّارى

«1» [660] جزعا أي فزعا . .

«إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ» (4) أي عظم وشرف وغلب عليها وطغى . .

«وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً» (4) أي فرقا متفرقين ، قال الأعشى :

وبلدة يكره الجوّاب دلجتها حتى تراه عليها يبتغى الشّيعا

«2» [661] أي الأصحاب والجماعات فى تفرقة .

(1) . - 660 : أول بيت من كلمة فى الحماسة 3/ 34 والأغانى 16/ 26 .

(2) . - 661 : ديوانه ص 83 والقرطبي 13/ 284 وشواهد الكشاف ص 177 .

(288/583)

«وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» (9) ومجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير كقولك : هذا قرة عين لى ولك وعلى هذا التفسير وقعت «قُرَّتُ عَيْنٍ» . .

«وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً» (10) مجازه : فارغا من الحزن لعلمها أنه لم يغرق «1» «2» «3» «4» ومنه قولهم دم فرغ أي لا قود فيه ولا دية فيه . .

«وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ» (11) أي ابتغى إثره ، يقال : قصصت آثار القوم . .

«فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ» (11) وأبصرته لغتان ، عن جنب عن بعد وتجنب ، ويقال : ما تأتينا إلا عن جنب وعن جنابة ، قال علقمة بن عبدة :

فلا تحرمنّى نائلا عن جنابة فإنى امرؤ وسط القباب غريب

(151)

---

(1) . - 662 : من كلمة فى شعراء النصرانية 2/ 68 .

(2) . - 663 : فى الجمهرة 3/ 63 .

(3) . - 3 - 4 «فارغا . . . لم يفرق» : روى القرطبي (13/ 255) هذا الكلام عنه .

(4) . - 664 «طليحة» : هو طليحة بن خويلد بن نوفل الأسدى من بنى ثعلبة ، فارس مشهور وبطل مذكور خرج خالد بن الوليد إلى قتاله فى زمن أبى بكر قتل هو وأخوه من أصحاب خالد بن الوليد ثم أسلم وحسن إسلامه ثم شهد القادسية واستشهد بها سنة 11 للهجرة وانظر السيرة ص 452 والكامل لابن الأثير 2/ 260 والعيني 3/ 154 - والبيت فى السيرة واللسان والتاج (فرغ) والعيني 3/ 154 .

(289/583)

وقال الحطيئة :

واللّه يا معشر لاموا امرأ جنبا فى آل لأى بن شمّاس لأكياس

«1» [665] .

«يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ» (12) أي يضمونه . .

«بَلَغَ أَشُدَّهُ» (14) بلغ أي انتهى وموضع أشدّه موضع جميع ولا واحد له من لفظه . قال الفراء والكسائي واحد الأشدّ شدّ على فعل وافعل مثل بحر وأبحر ، أشده مضعف

مشدّد . .

«وَاسْتَوى» (14) أي استحكم وتمّ . .

«فَوَكَزَهُ مُوسى» (15) بمنزلة لهزه فى صدره بجمع كفه ، فهو اللكز «2» «3» واللهز

. .

«فَقَضى عَلَيْهِ» (15) أي فقتله وأتى على نفسه . .

«فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً» (17) أي معينا خائفا . .

«يَتَرَقَّبُ» (18) أي ينتظر .

---

(1) . - 665 : مطلع قصيدة فى ديوانه رقم 20 وهو فى المختارات ص 116 .

[. . . . .]

(2) . - 9 «اللكز» : قال الجوهري : قال أبو عبيدة اللكز الضرب بالجمع على الصدر (لكز) .

واللهز : الضرب بجمع اليد فى الصدر مثل اللكز كما رواه القرطبي (13/ 260) عن أبى عبيدة .

(3) . - 666 : ديوانه فى ص 63 - 65 والعيني 4/ 219 والأولان فقط فى اللسان والتاج (بهز ، ضز) .

«فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ» (18) مجازه فإذا ذلك الذي كان استنصر هذا يستصرخه أي يستصرخ الذي كان بالأمس استنصره وهو من الصارخ يقال: يا آل بنى فلان يا صاحباه . .

«أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما» (19) الطاء مكسورة ومضمومة لغتان . .

«إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ» (20) مجازه يهمون بك ويتوامرون فيك ويتشاورون «1» فيك ويرتئون، قال النّمر بن تولب:

أرى النّاس قد أحدثوا شيمة وفى كل حادثة يؤتمر

«2» [667] وقال ربيعة بن جشم النّمرىّ:

أحار بن عمرو كأنى خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

«3» «4» [668] ما يأتمر: ما يرى لنفسه فيرى أنه رشد فربما كان هلاكه من ذلك.

---

(1) . - 6 «يتشاورون . . . ليقتلوك» الذي ورد فى الفروق: روى ابن قتيبة هذا الكلام وقال: وهذا غلط بين لمن تدبره ومناداة للمعنى كيف يعدو على المرء ما شاور فيه والمشاورة بركة وخير وإنما أراد يعدو عليه ما هم به الناس من الشر . . . (القرطين 2/

.(61

(2) . - 667 : الطبري 20/ 31 والقرطبي 13/ 266 .

(3) . - 668 : من الأبيات المختلف فى عزوها قال فى الخزانة (1/ 180) وأثبت هذه القصيدة له (أي لا مرىء القيس بن حجر) أبو عمرو الشيباني والمفضل وغيرهما ورغم الأصمعى فى روايته عن أبى عمرو بن العلاء أنها لرجل من أولاد النمر بن قاسط يقال له ربيعة بن (جشم) وهو فى ملحق ديوان امرئ القيس من الستة فى 197 والصحاح واللسان والتاج (أمر) والعيني 1/ 95، 4/ 264 .

(4) . - 669 : ديوانه ص 14 .

(291/583)

«وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ» (22) مجازه : نحو مدين ولا تنصرف مدين لأنها اسم مؤنثة ، ويقال : فعل ذلك من تلقاء نفسه ودار فلان تلقاء دار فلان . .

«سَواءَ السَّبِيلِ» (22) مجازه قصد السبيل ووسطه قال :

حتى أغيّب فى سواء الملحد

(61) وهو مفتوح ممدود . .

«وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ» (23) أي جماعة . .

«تَذُودانِ» (23) مجازه : تمنعان وتردان وتطردان قال جرير :

وقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدرى بأى عصا تذود

«1» [670] وقال سعيد بن كراع :

أبيت على باب القوافي كأنما أذود بها سربا من الوحش نزّعا

«2» [671] ويروى الحوش ، والحوش إبل الجنّ يزعمون أنها تضربه فى المهريّة «3» والعمانية فمن ثم هى هكذا .

---

(1) . - 670 : فى قصيدة يهجو بها القتم فى ديوانه ص 160 - 168 والبيت فى الطبري 20/ 33 والقرطبي 13/ 268 .

(2) . - 671 : «سويد بن كراع» : هو من عكل جاهلى إسلامى وكان هجا قومه فاستعدوا عليه عثمان بن عفان رضى اللّه عنه فأوعده عليه ألا يعود انظر ترجمته فى الشعراء ص 403 والأغانى 11/ 121 والإصابة 3/ 173 - والبيت من كلمة فى البيان والتبيين 2/ 11 والشعراء والأغانى وهو فى الطبري 20/ 33 والقرطبي 13/ 268 .

(3) . - 11 «الحوش . . . المهرية» : كما هو فى اللسان (حوش) باختلاف يسير .

«قالَ ما خَطْبُكُما» (23) أي ما أمركما وحالكما وشأنكما ، قال :

يا عجبا ما خطبه وخطبى

(554) .

«عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ» (27) مجازه من الإجارة وهى أجر العمل يقال : أجرت أجيرى أي أعطيته أجره ويفعل منها : «يأجر» تقديره أكل يأكل ومنه قول الناس : أجرك اللّه وهو يأجرك أي أثابك اللّه «1» . .

«أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ» (28) أي الغايتين والشرطين ومجازه أي الأجلين و«ما» من حروف الزوائد فى كلام العرب قال عبّاس بن مرداس :

فأيّى ما وأيك كان شرّا فقيد إلى المقامة لا يراها

(628) .

«فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ» (28) وهو من العدا والتعدي والعدو واحد كله وهو الظلم . .

«آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً» (29) أي أبصر ، قال :

آنس خربان فضاء فانكدر دانى جناحيه من الطور فمرّ

(625) الطور : الجبل . .

«أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ» (29) أي قطعة غليظة من الحطب ليس فيها لهب

---

(1) . - 4 - 5 «يقال . . . أثابك اللّه» : انظر هذا الكلام فى الطبري (20/ 39) . ببعض نقص وزيادة وما رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 4/ 366 ، 8/ 391 .

(293/583)

وهى مثل الجذمة من أصل الشجرة «1» وجماعها الجذا «2» ، قال ابن مقبل :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذا غير خوّار ولا دعر

«3» [672] .

«شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ» (30) شطّ الوادي هو ضغة الوادي وعدوته وعدوتا وعدوتاه «4» ، ومنه شطّ السنام لنصفه . .

«تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ» (31) وفى آية أخرى : «فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى» (20/ 20) فالحيات أجناس فيها الجان وغير ذلك والأفعى والحفّاث ومجازها كأنها جان من الحيّات ومجاز الأخرى فإذا هى حيّة من الجان . .

«وَلَمْ يُعَقِّبْ» (31) أي لم يرجع يقال: عقّب على ما كان فردّه أي رجع عليه . .

«اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ» (32) مجازه: أدخل وهما لغتان سلكته واسلكته وقد فسّرناه فوق هذا .

---

(1) . - 14 - من ص 102 - 2 «قطعة . . . الشجرة»: أخذ الطبري هذا الكلام برمته (20/ 41) .

(2) . - 4 - 9 «والجذوة . . . لم يكن» الذي ورد فى الفروق: رواه القرطبي 13/ 281 .

(3) . - 672: نعله من كلمة فى حماسة البحتري ص 293 وهو فى الطبري 20/ 41 والقرطبي 13/ 281 واللسان (جذو) وشواهد الكشاف 130 .

(4) . - 1 «الشاطبي . . . وعدوناه» الذي ورد فى الفروق: روى ابن حجر هذا الكلام عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 391 . [. . . . .]

(294/583)

«بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» (32) أي من غير برص . .

«وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ» (32) أي يدك . و«الرَّهْبِ» مثل الرّهبة ومعناهما الخوف

والفرق «1» . .

«فَذانِكَ بُرْهانانِ» (32) واحدهما برهان وهو البيان يقال : هات على ما تقول ببرهان ونون قوله «فَذانِكَ» مشددة لأنها أشد مبالغة منه إذا خففتها وقد يخفّف فى الكلام .

وقوله : «هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِساناً» (34) لأن موسى كانت فى لسانه عقدة ويقال للفرس والبعير إذا كان صافى الصهيل وصافى الهدير : إنه لفصيح الصّهيل وإنه لفصيح الهدير . .

«رِدْءاً» (34) أي معينا ويقال : قد أردأت فلانا على عدوه وعلى ضيعته أي أكنفته وأعنته أي صرت له كنفا . .

«سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ» (35) أي سنقوّيك به ونعينك به يقال إذا أعزّ رجل رجلا ومنعه : قد شد فلان على عضد فلان وهو من عاضدته على أمره أي عاونته «2» «3» وآزرته عليه .

---

(1) . - 3 «الخوف والفرق» : كما فى الطبري 20/ 43 .

(2) . - 12 - 14 «سنقويك . . . عاونته» : أخذ الطبري (20/ 44) هذا الكلام برمته .

(3) . - 673 : فى ديوانه 2/ 56 والجمهرة 3/ 158 واللسان والتاج (كنف) .

قال ابن مقبل :

عاضدتها بعنود غير معتلث كأنه وقف عاج بات مكنونا

«1» [674] معتلث يعنى القدح، العنود : السهم ، والمعتلث : تكون السهام من قنا فيكون فيها السهم من غير قنا ، فذاك المعتلث وكذاك الخشب وقف عاج : موقّف فيه طرائق من حسنه والمعتلث يقال : امتلث وافتلث واسم علائة مشتق منه ، وفلان يأكل العليث إذا أكل خبز الشعير والحنطة ، وافتلث واعتلث واحد وهو المختلط يعنى قوسا أنه عاضدها بسهم .

«إن هذا إلّا سحر مفترى» (36) مجازه : ما هذا إلا سحر مفترى يقال إذا افتعل الرجل من قبله شيئا : افتريته . .

«عاقِبَةُ الدَّارِ» (37) وعاقبة الأمر أي آخره .

[«صَرْحاً»] (38) الصرح البناء والقصر ، قال الشاعر :

بهن نعام بناها الرجا ل تحسب أعلامهن الصّروحا

«2» (659)

---

(1) . - 674 : من قصيدة خمسين بيتا فى جمهرة الأشعار ص 160 - 162 ولكن

بين رواية جمهرة الأشعار وبين رواية أبى عبيدة لخلافا حيث إن صدر البيت قد أصبح صدرا لبيت آخر ورواه الطبري (20/ 44) كما هو عند أبى عبيدة.

(2) . - 659 : انظر ما ورد من الخلاف فى هذا البيت فى الرواية التي تقدمت

«فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ» (40) أي فجمعناه وجنوده . .

«فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ» (40) أي فألقيناهم فى البحر فأهلكناهم وغرقناهم قال العجّاج:

كبازخ اليمّ زهاه اليمّ

(256) وقال أبو الأسود الدّؤلىّ:

نظرت إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلا أطلقت من نعالكا

(56) .

«أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» (41) والإمام يكون فى الخير وفى الشر . .

«أَتْبَعْناهُمْ» (42) مجازه ألزمناهم . .

«مِنَ الْمَقْبُوحِينَ» (42) مجازه: المهلكين «1» . .

«بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ» (44) وهو حيث تغرب الشمس والنجوم والقمر . .

«وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً» (45) أي خلقنا قرونا أي أمما . .

«الْعُمُرُ» (45) والعمر واحد وهما لغتان وهما مثل الضّعف والضّعف والمكث والمكث

«2» .

---

(1) . - 9 «المهلكين» : أخذ البخاري تفسير أبى عبيدة هذا وقال ابن حجر هو قول أبى عبيدة أيضا (فتح الباري 8/ 291) ورواه القرطبي عن أبى عبيدة (13/ 290) .

(2) . - 675 : الرواية الأولى وهى رواية الأصمعى فى الجمهرة 2/ 387 ، 3/ 427 واللسان والتاج (عمر) والرواية الثانية فى أمالى القالي 3/ 139 واللسان والتاج (عذر) وأما رواية أبى عبيدة فأشار إليها البكري فى السمط (الذيل ص 65) .

«ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ» (45) أي مقيما ، قال الأعشى :

أثوى وقصّر ليلة ليزوّدا فمضت وأخلف من قتيلة موعدا

«1» [676] ويروى أثوى الثّوىّ الصّيف ، قال العجّاج :

فبات حتى يدخل الثّوىّ مجرمزا وليله قسىّ

«2» [677] .

«وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ» (47) وهى من كل نقمة وعذاب، نقمة بكسر القاف: .

«بما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» (47) مجازه: بما كانوا اكتسبوا وليس ها هنا . .

«لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا» (47) مجازه هلّا، وفى آية أخرى: .

«لَوْلا أُوتِيَ» (48) مجازه: هلّا أوتى.

«ساحران تظاهرا» (48) أي تعاونا . .

«فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ» (50) مجازه: فإن لم يجيبوك، وقال الغنوي:

وداع دعا يا من يجيب إلى النّدى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

(83)

---

(1) . - 676: ديوانه ص 150 والطبري 20/ 47.

(2) . - 677: ديوانه ص 69 والشطر الأول فى القرطبي 13/ 291.

(298/583)

«وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ» (51) أي أتممناه «1»، قال:

جعلت عمامتى صلة لحبلى

«2» [678] وقال الأخطل:

فقل لبنى مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصّل

«3» [679].

«وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ» (53) أي يقرأ عليهم . .

«وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ» (54) مجازه : يدفعون السيّء بالحسن . .

«وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ» (55) مجازه ها هنا الفحش والقبيح . .

«يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ» (57) مجازه يجمع كما يجبى الماء فى الجابية فيجمع للواردة «4» . .

«بَطِرَتْ مَعِيشَتَها» (58) مجازها أنها أشرت وطغت وبغت «5» . .

«وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا» (59) أم القرى مكة وأم الأرضين فى قول العرب وفى آية أخرى : «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها «6»» (6/ 92) .

---

(1) . - 1 «أتممناه» : روى ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 392) وكذا فى القرطبي 13/ 295 .

(2) . - 678 : من كلمة 11 بيتا للقحيف العقيلي العامري فى الأغانى 20/ 142 .

(3) . - 679 : ديوانه ص 10 والطبري 20/ 51 والقرطبي 13/ 295 .

(4) . - 8 «يجمع . . . للواردة» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 392 .

(5) . - 10 «أشرت . . . وبغت» روى ابن حجر تفسير أبى عبيدة هذا فى فتح الباري 8/ 393 . [. . . . .]

(6) . - 12 - 13 «أم . . . حولها» : رواه ابن حجر فى فتح الباري 8/ 393 .

(299/583)

«مِنَ الْمُحْضَرِينَ» (61) أي من المشهدين . .

«وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ» (62) مجازه : يوم يقول لهم . .

«الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» (62) مجازه : وجب عليهم العقاب . .

«إِيَّانا يَعْبُدُونَ» (63) مجازه : مجاز إياك نعبد لأنه بدأ بالكناية قبل الفعل . .

«فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ» (66) مجازه : فخفيت عليهم الأخبار ، يقال : عمى علىّ خبر القوم . .

«وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ» (68) مجازه : عن الذين يشركون به .

«تُكِنُّ صُدُورُهُمْ «1»» (69) أي تخفى ، ويقال : أكننت ذلك فى صدرى ، وكننت الشيء بغير ألف : صنته . .

«إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً» (71) مجازه : دائما لا نهار فيه ، وكل شىء لا ينقطع

من عيش أو رخاء أو غم وبلاء دائم فهو سرمد «2» .

---

(1) . - 8 «تُكِنُّ صُدُورُهُمْ» : وفى البخاري : تكن تخفى ، أكننت الشيء أخفيته وكننته وأظهرته وقال ابن حجر : وقال أبو عبيدة فى قوله «وربك يعلم . . . صدورهم» أي تخفى . . .

بغير ألف وقال فى موضع آخر أكننت وكننت واحد وقال أبو عبيدة أكننته إذا أخفيته وأظهرته وهو من الأضداد (فتح الباري 8/ 393) .

(2) . - 680 : من معلقته وهو فى شرح العشر ص 51 وديوانه من الستة ص 59 والقرطبي 13/ 308 .

(300/583)

«وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» (73) مجازه : لتسكنوا فى الليل ولتبتغوا فى النهار من فضل اللّه . .

«وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً» (75) مجازه : وأحضرنا من كل أمة ، لها موضعان أحدهما : من كل أمة نبىّ ، والآخر : من كل قرن وجماعة وشهيد فى موضع شاهد بمنزلة عليم فى موضع عالم ويقال : نزع فلان بحجته أي أخرجها وأحضرها . .

«ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ» (76) أي مفاتح خزائنه ، ومجازه : ما إنّ العصبة ذوى القوة لتنوء بمفاتح نعمه ويقال فى الكلام : إنها لتنوء بها عجيزتها ، وإنما هى تنوء بعجيزتها كما ينوء البعير بحمله ، والعرب قد تفعل مثل هذا ، قال الشاعر :

فديت بنفسه نفسى ومالى ولا ألوك إلّا ما أطيق

(623) والمعنى فديت بنفسي وبمالى نفسه وقال :

وتركب خيل لا هوادة بينها وتشقى الرماح بالضّياطرة الحمر

«1» [681] الخيل ها هنا الرجال ، وإنما تشقى الضياطرة بالرماح «2» ، وقال أبو زبيد :

---

(1) . - 681 : لخداش بن زهير فى الكامل للمبرد ص 264 والطبري (20/ 64) واللسان (ضطر) وشواهد الكشاف 120 . قال فى اللسان حاكيا عن ابن سيده : يجوز أن يكون عنى أن الرماح تشقى بهم أي أنهم يحسنون حملها وإلا الطعن بها ويجوز أن يكون على القلب أي تشقى الضياطرة الحمر بالرماح يعنى أنهم يقتلون بها ، والهوادة المصالحة والموادعة والضيطار التاجر لا يبرح مكانه .

(2) . - 8 - 14 «ومجازه . . . بالرماح» : روى الطبري (20/ 64) هذا الكلام عن بعض أهل البصرة وهو أبو عبيدة .

والصّدر منه فى عامل مقصود

«1» [682] وإنما الرمح فى الصدر . ويقال : أعرض الناقة على الحوض وإنما يعرض الحوض على الناقة . .

«لا تَفْرَحْ» (76) أي لا تأشر ولا تمرح ، قال هدبة :

ولست بمفراح إذا الدهر سرّنى ولا جازع من صرفه المتقلّب

«2» [683] وقال ابن أحمر :

ولا ينسينى الحدثان عرضى ولا ألقى من الفرح الإزارا

«3» [684] أي لا أبدى عورتى للناس . .

«وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا» (77) مجازه : لا تدع حظّك وطلب الرزق الحلال منها . .

«وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ» (80) مجازه : لا يوقف لها ولا يرزقها ولا يلقاها . .

«فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ» (81) أي من أعوان وظهراء ، قال خفاف «4» :

---

(1) . - 682 : من كلمة فى جمهرة الأشعار ص 138 - 141 وهو فى الشعراء النصرانية 3/ 82 وتمام البيت فى جمهرة الأشعار :

فدعا دعوة المحنق والتلبيب منه فى عامل مقصود .

«لا تأشر» : كما هو فى القرطبي 13/ 313]

(2) . - 683 : «هدبة» : هو هدبة بن خشرم بن كرز بن حجير من سعد هديم وله أخبار وأشعار فى الشعراء ص 434 والكامل للمبرد ص 765 والاشتقاق ص 320 والأغانى 21/ 0169 - والبيت فى الشعراء 437 قال ابن قتيبة أخذه من تأبط شرا . . . وهو فى القرطبي 13/ 313 وشواهد الكشاف ص 35 .

(3) . - 684 : فى الكامل للمبرد ص 27 ، 411]

(4) . - 13 «خفاف» : هو خفاف بن ندبة .

(302/583)

فلم أر مثلهم حيّا لقاحا وجدّك بين قاصية وحجر «1» [685]

أشدّ على صروف الدهر آدا وآمر منهم فيئة بصير

.

«وَيْكَأَنَّ اللَّهَ» (82) مجازه : ألم تر أن اللّه يبسط الرزق ، قال الشاعر :

وى كأنّ من يكن له نشب يحب ومن يفتقر يعش عيش ضرّ

«2» [686].

«إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» (85) مجازه: أنزل عليك . .

«كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» (88) مجازه: إلّا هو وما استثنوه من جميع فهو منصوب وهذا المعنى بين النفختين، فإذا هلك كل شيء من جنّة ونار وملك وسماء وأرض وملك الموت فإذا بقي وحده نفخ فى الصور النفخة الآخرة وأعاد كل جنة ونار وملك وما أراد، فتم خلود أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار. انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 112.97﴾

---

(1). - 685: البيتان فى الطبري (20/ 70) والأول فى معجم ما استعجم 2/ 457 فى رسم خفاف) والسمط ص 752.

(2). - 686: من الأبيات المختلف فى عزوها، فانظر الخلاف فى الخزانة 3/ 65 وهو فى الكتاب 1/ 25 والطبري 20/ 71 والشنتمرى 1/ 290 والقرطبي 13/ 313، وابن يعيش 1/ 535 وشواهد المغني ص 266 وشواهد الكشاف 136.

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة القصص

بدأت سورة القصص بطمأنة المؤمنين على مستقبلهم مؤكدة أن عاقبة الظلم مظلمة ، وأن عاقبة الصبر جميلة ، وأن المستضعفين فى الأرض ستتكسر قيودهم ويستردون حرياتهم . وقد ساقت ماوقع لموسى وقومه مثالا على أن التاريخ يعيد نفسه . " طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون " . وفرعون هو على الأظهر رمسيس الثانى الذى امتد ملكه من نهر الكنج إلى نهر الدانوب ، وبلغ شأوا من العظمة أغراه بالألوهية والاستبداد . " إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين " . وقتل الأبناء واستبقاء النساء حتى لا تكون لهن عزوة ، ويستسلمن لما يراد ب بهن ، ولاشك أن هذا عذاب عظيم ، وفتنة مزعجة . ولكن أيبقى هذا الفتك إلى آخر الدهر ؟ كلا ، لابد لليل من آخر . . " ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين " . وهذا الكلام وإن كان حكاية للماضى إلا أنه يلقى سكينة فى نفوس المسلمين الذين يعانون من بطش المشركين وأذاهم ، ويعلق قلوبهم بغل ! أفضل لاسيما . وقد جاء فى آخر السورة أن المطاردة التى أكرهت المسلمين على التفكير فى ترك مكة سوف

تتلاشى ، " إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين " . قال المفسرون: نزلت فى طريق الهجرة من مكة إلى المدينة ! وقد عاد المهاجرون فاتحين بعد أن خرجوا مكسورين مقهورين . . وسورة القصص التى افتتحت بحال موسى وقومه تضمنت أمورا لم تذكر فى قصة موسى فى السورتين السابقتين:

(304/583)

---

1 - فقد تضمنت ميلاد موسى ، والمحنة التى مربها أول حياته: " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . . " . وتكليف أم أن ترمى وليدها فى البحر شىء عظيم ، ولكنها ثقة فى الله فعلت ما أمرت به . والمتأمل فى الآية يجدها تضمنت أمرين ونهيين وبشارتين ! . وعندما انطلق الصندوق بوديعته الثمينة رمت به الأمواج أمام قصر فرعون ، فكاد فؤاد أم موسى يطير فزعا ، ولكنها تطلعت إلى الله فى أمل ويقين: " وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين " . 2 - وقد كسا الله ملامح الطفل جاذبية تجعل من يراه يعطف عليه ويحبه . وذاك ما جعل امرأة فرعون تقول لزوجها :

" قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا " فبقى الطفل حيا ، ورأته أخته التى كانت بأمر من أمها تتبع أخباره فتقدمت إلى بيت فرعون تعرض عليهم أن تجيئهم بمرضعة ! لأنه أبى أن يرضع ممن اقترين منه ! . وعاد موسى إلى حضن أمه ترضعه ، ولا يدرى أحد ما قصتها ؟ . 3 – وكبر موسى فى قصر فرعون ، وكأنما يسر الله له هذه النشأة حتى لا يشب ذليلا مثل قومه ، وتعهدته الأقدار بما يرشحه لمستقبله الخطير " ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين " . وفى هذه الفترة من شبابه عرضت له حادثة عكرت مقامه بمصر ، فقد شاهد رجلا من بنى جنسه يحاول أحد المصريين تسخيره فى حمل لا صلة له به ، ولا طاقة له عليه ، و اشتعلت الخصومة بينهما " فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه " . وكان موسى على درجة بالغة من القوة ، ولكنه لم يكن يدرى أن لكمته قاتلة ! فدعا الله: " قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له . . . " . فلما أحس أن الله غفر له شكر نعمة الغفران بتعهد منه أن ينصر المظلومين ويخاصم المجرمين ! ويبدو أن حاشية فرعون عرفت بالقصة وذيولها فتآمرت على قتل موسى ،

الذى

عرف من أحد الناصحين بما وقع ، فقرر مغادرة مصر متوجها إلى مدين شمالى جزيرة العرب . .

4 – وفى مدين تزوج موسى من ابنة الرجل الصالح الذى آواه بعد ما عرف قصته وقال له: " لا تخف نجوت من القوم الظالمين " واليهود ينقمون من موسى أنه تزوج من امرأة ليست عبرانية ! ونحن لا نعرف هوية الرجل الصالح الذى أسدى لموسى هذا الجميل ، ولا نظنه النبى شعيبا ، وأيا ما كان هو فقد قال ! لموسى: " إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي ها تين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين" . وهكذا انتقل من أمير قصر ملكى إلى راعى غنم . والرجال العظام لا تزيدهم ولا تنقصهم هذه المناصب ، وإنما تزينهم خلال المروءة والشهامة التى تبدو فى رجولتهم ، ويعرفها الناس من مسيرتهم . ولا شك أن هذه الفترة من حياة موسى كانت فترة تذكر وتأمل فيما عرض له وما يعرض لقومه ، وكأنما جعلها القدر استعدادا للأعباء التى سترمى على كاهله فى المستقبل القريب " فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا . . . " . وكانت هذه النار شارة اجتذبت موسى لقدره الجليل " فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين . . . " . وهكذا

تحول الراعى إلى رسول كريم مكلف بتحرير شعب وتبليغ رسالة . ! ولكن موسى تذكر قصته مع الفراعنة ، وطلب من الله أن يؤازره بأخيه هارون ! فقال الله له: " سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون " . كان لقاء موسى بالسحرة يوما مشهودا ، فقد أبطل كيدهم وأذل كبر فرعون وآله ، وقد شرح هذا اللقاء فى سورة الأعراف وطه والشعراء ، وصار مثلا يضرب ، كما قال الشاعر: إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر ولكن قصة السحرة طويت فى سورة القصص ، وأشير إليها بقوله تعالى: " فلما

جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين " . ولكن شيئا آخر ذكر مكانها ، فإن فرعون طلب من وزيره هامان أن يبحث فى السماء عن إله موسى ! " وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين " ! . إن الأحمق ظن أن الله مع الطيور فى الجو ، أو لعله جالس على السحاب ! ! . وقد تكررت هذه الحماقة فى عصرنا ، فإن واحدا من رواد الفضاء الروس زعم أنه بحث عن الله فى

جو السماء فلم يجده ، بل وجد فقط أحد زملائه الرواد ! ! . وشاء الله أن يحترق ثلاثة من الرواد وهم يهبطون إلى الأرض اختناقا من قلة الهواء فى الجهاز الذى طاروا فيه . . ! ! . أن الكفر ضلال بعيد ، ولست أدرى كيف نبحث عن الله فى الجو ، وهو منبت الغذاء الذى نأكله ، وصانع الهواء الذى نستنشقه . وآياته فى الأرض أقرب إلينا من آياته فى السماء ، ولكنه العمى الذى طمس الأفئدة " وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين " . وانتقل السياق من الكلام عن موسى إلى الكلام عن محمد نبى العقل والنور ، وصاحب الكتاب الذى بنى الإيمان على الفكر والنظر والاستدلال والاستقراء . . لقد ذكر محمد قصة موسى فى أرض مدين وكيف بنى بأهله هناك ، وذكر كيف نودى لتلقى الرسالة ، وكلف بالعودة إلى مصر لدعوة الفراعنة إلى الحق ! . من أين جاءته هذه الأنباء وهو أمى نشأ فى بيئة وثنية ؟ " وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين " . لقد أيد الله نبيه بكتاب جدد الرسالات الأولى وصححها ، فماذا كان موقف الناس منه ؟ طلبوا خوارق كالتى صاحبت رسالة موسى ! فهل آمنوا بموسى عندما شهدوا معجزاته ؟ . إن

اليهود الذين نجوا من الغرق طلبوا من موسى بعد نجاتهم أن يصنع لهم وثنا يعبدونه كسائر الوثنيين ، فأى إيمان هذا ؟ . أما الذين تدبروا القرآن وانتفعت أفئدتهم بالوحى فقد هدموا الأصنام ، وأناروا بالتوحيد المشارق والمغارب ، يقول الله سبحانه فى طلاب الخوارق: " فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون " .

إن فقدان النظر السديد واتباع الهوى الغالب لايقودان إلا إلى البوار ، والواقع أن الوثنية الأولى قاومت الإسلام بكل ما أوتيت من قوة فلم يؤمن إلا من عصم الله . أما أهل الكتاب فقد حاسنهم الوحى وطالبهم بالانصاف ، فمن آمن وجد أعظم ترحيب ، وفيهم يقول الله سبحانه : " الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا . . . " .

وفى الحفاوة بالمؤمنين من أهل الكتاب قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدركنى فآمن بى واتبعنى وصدقنى فله أجران ورجل كانت له أمة ، فغذاها فأحسن غذاءها ، ثم أدبها فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وتزوجها فله أجران . وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده فله أجران " . إن غرب آسيا والشمال الإفريقى كانا مليئين بأهل الكتاب فى ظل الحكم الرومانى ، فدخلوا

الإسلام إثر تعرفهم عليه ، واطمئنانهم إلى حقائقه . أما وثنيو الجزيرة العربية فقد صدوا عن السبيل أول أمرهم ، وأعلنوا على الدين الجديد حربا ضارية ، وقد تألم الرسول لهذا الموقف ، فقال الله له : " إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء " . وقيل : إن هذه الآية نزلت فى أبى طالب الذى كان النبى شديد الرغبة فى إسلامه ، وكان يعلم صدق ابن أخيه ، ولكن انسياقه مع العرف السائد جعله يأبى الدخول فى الإسلام ، وقال: ولقد علمت

بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا لولا الملامة ، أو حذار مسبة لوجدتنى سمحا بذاك مبينا ! ! ومثل ذلك ما روى عن واحد من رجالات قريش: "إنا لنعلم أن الذى تقول حق ، ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة " فنزل قوله تعالى : " وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون " . وقد تهددهم القرآن الكريم بعواقب هذا الكفر : " وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا

وكنا نحن الوارثين " . وتتابعت النصائح تغرى باتباع الحق ، والحذر من شهوات الدنيا : " وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون " ؟ .

(309/583)

المؤسف أن كثيرا من الناس يبيعون الحقيقة بالثمن البخس ، ولايبالون بعواقب الطيش . ما ضر الفرعون الحاكم لو عقل وعدل بدل أن يستكبر ويطغى ويمشى مختالا على رقاب العباد ؟ ماضر الأتباع المسحورين لو أنصفوا وأحسنوا بدل أن يأووا إليه ويسارعوا فى هواه ؟ . إن القرآن الكريم ينعى على الفريقين هذه الوثنية البشرية فيقول جل شأنه للأولين : " ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون * قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون " ويقول للآخرين : " وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون " . وهذا المشهد من مشاهد القيامة عجل بعرضه حتى يرعوى الخادع والمخدوع . . وبعد مشاهد أخرى أو فى خلالها جاء كلام عن الله الحق أنه خالق البشر ، ومنشئ خصائصهم التى يتفاوتون بها ، والتى يصطفى على أساسها من شاء ويؤخر من شاء " وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون " . ثم تحدث عن النظام

الذى خاله لهذا الكون الذى نحيا بين أرضه وسمائه " قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ؟ " . إن الله جعل الظلمات والنور لكدح طويل ، يسأل كل أمرئ بعده عما قدم وأخر ، يستوى فى هذا التساؤل الملوك والصعاليك . . . ، وفى ختام الحديث عن الاستبداد السياسى ، بدأ حديث آخر عن الطغيان الرأسمالى ، أساسه أن النجاة عند الله لا تتم إلا بالبراءة منهما والبعد عنهما . ، ومن ثم شرع القرآن يروى قصة قارون ، الذى بلغ من الغنى حدا هائلا ، والمال ليس فى ذاته شرا ولا خيرا ، إنه أداة تعاب أو تحمد وفق طريقة استعمالها ، فالسلاح فى يد اللص أداة للقتل ، وفى يد الجندى أداة للدفاع أو القصاص . ولذلك قيل لقارون صاحب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة : " . . . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك

(310/583)

من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين " .

إن هناك أغنياء يبذلون ما لديهم بسخاوة نفس ، ويبحثون عن كل خلة ليسدوها ،

ويستقبلون الفقراء بحفاوة ، ويعطونهم قبل أن يسألوا . . ويشكرون الله على ما أعطى وأعان ، ولا يرون المال سبب استعلاء ولا مصدر تطاول على الآخرين . إنه اختبار من الله يؤدى حقه فيه ! . لكن قارون رأى أنه كسب المال بعبقريته وحده ، وأن من حقه أن يشمخ به ويترف فيه وينظر إلى غيره شزرا ! ! " قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون " . إن رسل الله فيهم الغنى والفقير ، فيهم من كان ملكا ، ومن عاش على الكفاف . لكن غنيهم ما بخل ولا طغى ، وفقيرهم ما عجز ولا هان . وفتنة المال فى شتى الحضارات كانت قاسية ، وهى فى الحضارة الحديثة مصدر بلاء كبير ، وقد نشأت نظم ساخطة على التفاوت بين الناس ، فلم تصنع شيئا بل تولت مسخوطا عليها . والعلاج الصحيح يلتمس فى تعاليم الإسلام التى تصلح الأرض بوحى السماء ، وتؤكد للناس حقيقة واحدة هى قوله جل شأنه: "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين" . إن هذه الآية من سورة القصص جاءت بعد ما قص المولى سبحانه تاريخ الفرعونية الحاكمة ، والقارونية الكانزة ، ثم قال ! عن النهج السوى: " من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون " . ينبغى أن نعلم أن الحياة لا تصلح بغير دين ، ولا تستقيم بغير قلب سليم ، وأن التشريعات والنظم الوصفية لا تغنى عن الإيمان باليوم الآخر ، والتأهب له بالعمل

الصالح . . ويحزننى أن هناك متدينين لم يشرفوا الإيمان بسلوكهم ، ولم يحققوا العدالة التى أمروا بإقامتها ، واكتفوا برفع شعار التوحيد على نحو ما قال شاعر المرجئة: كن مسلما ، ومن الذنوب فلا تخف

(311/583)

حاشا المهيمن أن يرى تنكيدا ! ! لو شاء أن يصليك نار جهنم ما كان ألهم قلبك التوحيدا ! ! والإرجاء شائع من أمد طويل بين جماهير المسلمين ، يرون أن العمل نافلة ، وما دام المرء مؤمنا بالله فهو ناج مهما فعل ! وقد هد هذا الفكر دولة الإسلام من قرون .

ولا تعود للمسلمين حضارتهم الأولى إلا بالإيمان والعمل معا . . . لقد ختمت سورة القصص بخطاب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – يزلزل النفوس ، ويبين أن صاحب الرسالة أثقل الناس حملا من التكاليف الشاقة: " وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين * ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو . . . " إن العلم النظرى بوحدانية الله لا يكفى ، فقد كان إبليس يعلم أن الله واحد ، بيد أنه رفض الخضوع له والامتثال لأمره فهوى . وأمتنا لابد أن تجمع بين إيمان واضح ، وعمل صالح ،

حتى يمكن لها ، وتستعد لآخرتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 297 .304﴾

(312/583)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/584)

الجزء الرابع والثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 13 ﴾ من نفس السورة

(4/584)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/584)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة القصص

أقول: ظهر لي بعد الفكرة: أنه سبحانه لما حكى في الشعراء قول فرعون لموسى (أَلَم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عُمرِكَ سنينَ وفعلتَ فِعلتَكَ التي فعلت) إلى قول موسى (ففررتُ مِنكُم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المُرسلين) وقال في طس النمل قول موسى لأهله: (إِني آنست ناراً) إلى آخره، الذي هو في الوقوع بعد الفرار، ولما كان على سبيل الإشارة والإجمال، بسط في هذه السورة ما أوجزه في السورتين، وفصل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما فبدأ بشرح تربية فرعون له، مصدراً بسبب ذلك: من علو رعون، وذبح أبناء بني إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح، وبسط القصة في تربيته، وما وقع فيها إلى كبره، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي، وهي الفعلة التي فعل، إلى الهم بذلك عليه، والموجب لفراره إلى مدين، إلى ما وقع له مع شعيب، وتزوجه بابنته، إلى أن سار بأهله، وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله: (امكثوا إِني آنست ناراً)، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه، وبعثه إياه رسولاً، وما استتبع ذلك، إلى آخر القصة فكانت السورة شارحة لما أجمل في السورتين معاً، على الترتيب وبذلك عرف وجه الحكمة في تقديم (طس) على هذه، وتأخيرها عن الشعراء، فللهِ الحمد على ما ألهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 122. 123﴾

(6/584)

قوله تعالى ﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ طسم ﴾ مشيراً بالطاء المليحة بالطهر والطيب إلى خلاص بني إسرائيل بعد طول ابتلائهم المطهر لهم عظيم ، وبالسين الرامزة إلى السمو والسنا والسيادة إلى أن ذلك يكون بمسموع من الوحي في ذي طوى من طور سيناء قديم ، وبالميم المهيئة للملك والنعمة إلى قضاء من الملك الأعلى بذلك كله تام عميم .

ولما كانت هذه إشارات عالية ، وما بعدها لزوم نظوم لأوضح الدلالات حاوية ، قال مشيراً إلى عظمتها : ﴿ تلك ﴾ أي الآيات العالمية الشأن ﴿ آيات الكتاب ﴾ أي المنزل على قلبك ، الجامع لجميع المصالح الدنيوية والأخروية ﴿ المبين ﴾ أي الفاصل الكاشف الموضح

المظهر ، لأنه من عندنا من غير شك ، ولكل ما يحتاج إليه من ذلك وغيره ، عند من يجعله من شأنه ويتلقاه بقبول ، ويلقي إليه السمع وهو شهيد ؛ ثم أقام الدليل على إبانته .

(7/584)

وأنه يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم يختلفون ، بما أورد هنا في قصة موسى عليه الصلاة والسلام من الدقائق التي قل من يعلمها من حذاقهم ، على وجه معلم بما انتقم به من فرعون وآله ، ومن لحق بهم كقارون ، وأنعم به على موسى عليه الصلاة والسلام وأتباعه ، ولذلك بسط فيها أمور القصة ما لم يبسط في غيرها فقال : ﴿ نتلوا ﴾ أي نقص قصاً متتابعاً متوالياً بعضه في أثر بعض ﴿ عليك ﴾ بواسطة جبريل عليه الصلاة والسلام .

(8/584)

ولما كان المراد إنما هو قص ما هو من الأخبار العظيمة بياناً للآيات بعلم الجليات والخفيات ، والمحاسبة والمجازاة ، لا جميع الأخبار ، قال : ﴿ من نبأ موسى وفرعون ﴾ أي بعض خبرهما العظيم متلبساً هذا النبأ وكائناً ﴿ بالحق ﴾ أي الذي يطابقه الواقع ، فإنا ما أخبرنا

فيه بمستقبل إلا طابقه الكائن عند وقوعه ، ونبه على أن هذا البيان كما سبق إنما ينفع أولى الإذعان بقوله : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي يجددون الإيمان في كل وقت عند كل حادثة لثبات إيمانهم ، فعلم أن المقصود منها هنا الاستدلال على نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمي بالاطلاع على المغيبات ، والتهديد بعلمه المحيط ، وقدرته الشاملة ، وأنه ما شاء كان ولا مدفع لقضائه ، ولا ينفع حذر من قدرة ، فصح أنها دليل على قوله تعالى آخر تلك ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ الآية ، ولذلك لخصت رؤوس أخبار القصة ، فذكرت فيها أمهات الأمور الخفية ودقائق أعمال من ذكر فيها من موسى عليه الصلاة والسلام وأمه وفرعون وغيرهم إلى ما تراه من الحكم التي لا يطلع عليها إلا عالم بالتعلم أو بالوحي ، ومعلوم لكل مخاطب بذلك انتفاء الأول عن المنزل عليه هذا الذكرُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فانحصر الأمر في الثاني ، يوضح لك هذا المرام مع هذه الآية الأولى التي ذكرتها قوله تعالى في آخر القصة ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ ﴿ وما كنت بجانب الطور ﴾ واتباع القصة بقوله تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ فالمراد بهذا السياق منها كما ترى غير ما تقدم من سياقاتها كما مضى ، فلا تكرير في شيء من ذلك – والله الهادي .

(9/584)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمن قوله سبحانه ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها ﴾ - إلى آخر السورة من التخويف والترهيب والإنذار والتهديد لما انجرّ معه الإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام سيملك مكة البلدة ويفتحها الله تعالى عليه ، ويذل عتاة قريش ومتمرديهم ، ويعز أتباع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن استضعفته قريش من المؤمنين ، اتبع سبحانه ذلك بما قصه على نبيه من تطهير ما أشار إليه من قصة بني إسرائيل وابتداء امتحانهم بفرعون ، واستيلائه عليهم ، وفتكه بهم إلى أن أعزهم الله وأظهرهم على عدوهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم ، ولهذا أشار تعالى في كلا القصتين بقوله في الأولى ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ وفي الثانية بقوله : ﴿ وترى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ ثم قص ابتداء أمر فرعون وحذره واستعصامه بقتل ذكور الأولاد ثم لم يغن ذلك عنه من قدر الله شيئاً ، ففي حاله عبرة لمن وفق للاعتبار ، ودليل على أنه سبحانه المتفرد بملكه ، يؤتي ملكه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، لا يزعه وازع ، ولا يمنعه عما يشاء مانع ، ﴿ قل الله مالك الملك ﴾ وقد أصح قوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾ - الآية بما أشار إليه مجمل ما أوضحنا اتصاله من خاتمة النمل وفاتحة القصص ، ونحن نزيده بياناً بذكر لمع من تفسير ما قصد التحامه فنقول : إن قوله تعالى معلماً لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وآمراً ﴿ إنما أمرت أن أعبد ﴾ إلى قوله : ﴿ سيريكم آياته ﴾ لا خفاء بما تضمن

ذلك من التهديد ، وشديد الوعيد ، ثم في قوله : ﴿ رب هذه البلدة ﴾ إشارة إلى أنه عليه الصلاة والسلام سيفتحها ويملكها ، لأنه بلد ربه وملكه ، وهو عبده ورسوله ، وقد اختصه برسالته ، وله كل شيء ، فالعباد والبلاد ملكه ، ففي هذا من الإشارة مثل ما في قوله تعالى : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأن أتلو

(10/584)

القرآن ﴾ أي ليسمعوه فيتذكروا ويتذكر من سبقت له السعادة ، ويلحظ سنة الله في العباد والبلاد ، ويسمع ما جرى لمن عاند وعنى وكذب واستكبر ، فكيف وقصه الله وأخذه ولم يغن عنه حذره ، وأورث مستضعف عباده أرضه ودياره ، ومكن لهم في الأرض وأعز رسله وأتباعهم ﴿ نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ أي يصدقون ويعتبرون ويستدلون ويستوضحون ، وقوله : ﴿ سيريكم آياته ﴾ يشير إلى ما حل بهم يوم بدر ، وبعد ذلك إلى يوم فتح مكة ، وإذعان من لم يكن يظن انقياده ، وإهلاك من طال تمرده وعناده ، وانقياد العرب بجملتها بعد فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً ، وعزة أقوام وذلة آخرين ، بحاكم ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ إلى أن فتح الله على الصحابة رضوان الله عليهم ما وعدهم به نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فكان كما وعد ، فلما

تضمنت هذه الآية ما أشير إليه ، أعقب بما هو في قوة أن لو قيل : ليس عتوكم بأعظم من عتو فرعون وآله ، ولا حال مستضعفي المؤمنين بمكة ممن قصدتم فتنته في دينه بدون حال بني إسرائيل حين كان فرعون يمتحنهم بذبح أبنائهم .

(11/584)

فهلا تأملتم عاقبة الفريقين ، وسلكتم أنهج الطريقين ؟ ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ - إلى قوله : ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ فلو تأملتم ذلك لعلمتم أن العاقبة للتقوى ، فقال سبحانه بعد افتتاح السورة إن فرعون علا في الأرض ، ثم ذكر من خبره ما فيه عبرة ، وذكر سبحانه آياته الباهرة في أمر موسى عليه السلام وحفظه ورعايته وأخذ أم عدوه إياه ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ فلم يزل يذبح الأبناء خيفة من مولود يهتك ملكه حتى إذا كان ذلك المولود تولي بنفسه تربيته وحفظه وخدمته ليعلم لمن التدبير والإمضاء ، وكيف نفوذ سابق الحكم والقضاء ، فهلا سألت قريش وسمعت وفكرت واعتبرت ﴿ أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ ثم أتبع سبحانه ذلك بخروج موسى عليه السلام من أرضه فخرج منها خائفاً يترقب ، وما ناله عليه السلام في ذلك الخروج من عظيم السعادة ، وفي ذلك منبهة لرسول الله - صلى الله عليه

وسلم ـ على خروجه من مكة وتعزية له وإعلام بأنه تعالى سيعيده إلى بلده ويفتحه عليه ، وبهذا المستشعر من هنا صرح آخر السورة في قوله تعالى : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ وهذا كاف فيما قصد - انتهى .

ولما كان كأنه قيل : ما هذا المقصوص من هذا النبأ ؟ قال : ﴿ إن فرعون ﴾ ملك مصر الذي ادعى الإلهية ﴿ علا ﴾ أي بادعائه الإلهية وتجبره على عباد الله وقهره لهم ﴿ في الأرض ﴾ أي لأنا جمعنا عليه الجنود فكانوا معه إلباً واحداً فأنفذنا بذلك كلمته ، وهي وأن كان المراد بها أرض مصر ففي إطلاقها ما يدل على تعظيمها وأنها كجميع الأرض في اشتمالها على ما قل أن يشتمل عليه غيرها .

(12/584)

ولما كان التقدير بما دل عليه العاطف : فكفر تلك النعمة ، عطف عليه قوله :

﴿ وجعل ﴾ بما جعلنا له من نفوذ الكلمة ﴿ أهلها ﴾ أي الأرض المرادة ﴿ شيعاً ﴾ أي فرقاً يتبع كل فرقة شيئاً وتنصره ، والكل تحت قهره وطوع أمره ، قد صاروا معه كالشياع ، وهو دق الحطب ، فرق بينهم لئلا يتمالؤوا عليه ، فلا يصل إلى ما يريده منهم ، فافترقت كلمتهم فلم يحم بعضهم لبعض فتخاذلوا فسفل أمرهم ، فالآية من الاحتباك ، ذكر العلو أولاً

دليلاً على السفول ثانياً ، والافتراق ثانياً دليلاً على الاجتماع أولاً ، جعلهم كذلك حال كونه ﴿ يستضعف ﴾ أي يطلب ويوجد أن يضعف ، أو هو استئناف ﴿ طائفة منهم ﴾ وهم بنو إسرائيل الذين كانت حياة جميع أهل مصر على يدي واحد منهم ، وهو يوسف عليه السلام .

وفعل معهم من الخير ما لم يفعله والد مع ولده ، ومع ذلك كافؤوه في أولاده وإخوته بأن استعبدوهم ، ثم ما كفاهم ذلك حتى ساموهم على يدي هذا العنيد سوء العذاب فيا بأبي الغرباء بينهم قديماً وحديثاً ، ثم بين سبحانه الاستضعاف بقوله : ﴿ يذبح ﴾ أي تذبيحاً كثيراً ﴿ أبناءهم ﴾ أي عند الولادة ، وكل بذلك أناساً ينظرون كلما ولدت امرأة ذكراً ذبحوه خوفاً على ملكه زعم من مولود منهم ﴿ ويستحيي نساءهم ﴾ أي يريد حياة الإناث فلا يذبحهن .

ولما كان هذا أمراً متناهياً في الشناعة ، ليس مأموراً به من جهة شرع ما ، ولا له فائدة أصلاً ، لأن القدر – على تقدير صدق من أخبره – لا يرده الحذر ، قال تعالى مبيناً لقبحه ، شارحاً لما أفهمه ذلك من حاله : ﴿ إنه كان ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ من المفسدين ﴾ أي الذين لهم عراقة في هذا الوصف ، فلا يدع أن يقع منه هذا الجزئي المندرج تحت ما هو قائم به من الأمر الكلي .

ولما كان التقدير كما أرشد إليه السياق لمن يسأل عن سبب فعله هذا العجيب : يريد بذلك زعم دوام ملكه بأن لا يسلبه إياه واحد منهم أخبره بعض علمائه أنه يغلبه عليه ويستنقذ شعبه من العبودية ، عطف عليه قوله يحكي تلك الحال الماضية : ﴿ ونريد ﴾ أو هي حالية ، أي يستضعفهم والحال أنا نريد في المستقبل أن نقويهم .

أي يريد دوام استضعافهم حال إرادتنا ضده من أنا نقطع ذلك بإرادة ﴿ أن نمن ﴾ أي نعطي بقدرتنا وعلمنا ما يكون جديراً بأن نمتن به ﴿ على الذين استضعفوا ﴾ أي حصل استضعافهم وهان هذا الفعل الشنيع ولم يراقب فيهم مولاهم ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض مصر فذلوا وأهينوا ، ونريهم في أنفسهم وأعدائهم وفق ما يحبون وفوق ما يأملون ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ أي مقدمين في الدين والدنيا ، علماء يدعون إلى الجنة عكس ما يأتي من عاقبة آل فرعون ، وذلك مع تصييرنا لهم أيضاً بحيث يصلح كل واحد منهم لأن يقصد للملك بعد كونهم مستعبدين في غاية البعد عنه ﴿ ونجعلهم ﴾ بقوتنا وعظمتنا ﴿ الوارثين ﴾ أي لملك مصر لا ينازعهم فيه أحد من القبط ، ولكل بلد أمرناهم بقصدها ، وهذا إيذان بإهلاك الجميع .

ولما بشر بتمليكهم في سياق دال على مكنتهم ، صرح بها فقال : ﴿ ونمكن ﴾ أي نوقع التمكين ﴿ لهم في الأرض ﴾ أي كلها لا سيما أرض مصر والشام ، بإهلاك أعدائهم

وتأييدهم بكليم الله ، ثم بالأنبياء من بعده عليهم الصلاة والسلام بحيث نسلطهم بسببهم على من سواهم بما نؤيدهم به من الملائكة ونظهر لهم من الخوارق .

(14/584)

ولما ذكر التمكين ، ذكر أنه مع مغالبة الجبابرة إعلاماً بأنه أضخم تمكين فقال عاطفاً على نحو : ونريد أن نأخذ الذين علوا في الأرض وهم فرعون وهامان وجنودهما : ﴿ ونري ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ فرعون ﴾ أي الذي كان هذا الاستضعاف منه ﴿ وهامان ﴾ وزيره ﴿ وجنودهما ﴾ الذين كانا يتوصلان بهم إلى ما يريدانه من الفساد ﴿ منهم ﴾ أي المستضعفين ﴿ ما كانوا ﴾ أي بجد عظيم منهم كأنه غريزة ﴿ يحذرون ﴾ أي يجددون حذره في كل حين على الاستمرار بغاية الجد والنشاط من ذهاب ملكهم بمولود منهم وما يتبع ذلك ، قال البغوي : والحذر : التوقي من الضرر .

والآية من الاحتباك : ذكر الاستضعاف أولاً دليلاً على القوة ثانياً ، وإراءة المحذور ثانياً دليلاً على إرادة المحبوب أولاً ، وسر ذلك أنه ذكر المسلي والمرجي ترغيباً في الصبر وانتظام الفرج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 460 . 465 ﴾

(15/584)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ويرى ﴾ بفتح الياء وإمالة الراء ﴿ فرعون وهامان وجنودهما ﴾ مرفوعات : حمزة وعلي وخلف وهكذا قرؤوا قوله ﴿ وحزناً ﴾ بضم الحاء وسكون الزاي الباقون بفتحها .

الوقوف : ﴿ طسم ﴾ كوفي . ﴿ المبين ﴾ 5 ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ نساءهم ﴾ ط ﴿ المفسدين ﴾ 5 ﴿ الوارثين ﴾ 5 لا للعطف ﴿ يحذرون ﴾ 5 ﴿ أرضعيه ﴾ ج للفاء مع احتمال الابتداء بإذا الشرطية ﴿ ولا تحزني ﴾ ج للابتداء بإن مع أن التقدير فإنا . ﴿ من المرسلين ﴾ 5 ﴿ وحزنا ﴾ ط ﴿ خاطئين ﴾ 5 ﴿ ولك ﴾ ط ﴿ لا تقتلوه ﴾ ق والوجه الوصل لأن الرجاء بعده تعليل للنهي . ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 ﴿ فارغاً ﴾ ط ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ قصيه ﴾ ز بناء على أن التقدير فتبعته فبصرت ﴿ لا يشعرون ﴾ 5 لا بناء على أن الواو للحال أي وقد حرمنا وقوله ﴿ فقالت ﴾ عطف على قوله ﴿ فبصرت ﴾ والحال معترض ﴿ ناصحون ﴾ 5 ﴿ لا يعلمون ﴾ 5 ﴿ وعلماً ﴾ 5 ﴿ المحسنين ﴾ 5 ﴿ يقتتلان ﴾ لا لأن ما بعده صفة الرجلين ظاهراً ولكن مع إضمار أي يقال لهما هذا من شيعته وهذا من عدوّه ، وليس ببعيد أن يكون

مستأنفاً من ﴿ عدوّه ﴾ الأول ج لأن ما يتلوه معطوف على قوله فوجد مع اعتراض عارض من ﴿ عدوّه ﴾ الثاني لا للعطف عليه مع عدم اتحاد القائل ﴿ الشيطان ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ فغفر له ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ 5 ﴿ للمجرمين ﴾ 5 ﴿ يستصرخه ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ ط ﴿ لهما ﴾ لا لأن ما بعده جواب "لما" ﴿ بالأمس ﴾ ط للابتداء بالنفي والوصل أوجه لاتحاد القائل ﴿ المصلحين ﴾ 5 ﴿ يسعى ﴾ ز لعدم العاطف مع اتحاد القول ﴿ من الناصحين ﴾ 5 ﴿ يترقب ﴾ ز لما قلنا في ﴿ يسعى ﴾ ﴿ الظالمين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 327 ﴾

(16/584)

فصل

قال الفخر :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ طسم ﴾ كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها و ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى آيات السورة و ﴿ الكتاب المبين ﴾ هو إما اللوح وإما الكتاب الذي وعد الله إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم فبين أن آيات هذه السورة هي آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه

مبين لأنه بين فيه الحلال والحرام ، أو لأنه بين بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد ، أو لأنه يبين صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو لأنه يبين خبر الأولين والآخرين ، أو لأنه يبين كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال .

(17/584)

أما قوله تعالى : ﴿ نتلو عَلَيْكَ ﴾ أي على لسان جبريل عليه السلام لأنه كان يتلو على محمد حتى يحفظه ، وقوله : ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ فهو مفعول ﴿ نتلو عَلَيْكَ ﴾ أي نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محقين ، كقوله : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] وقوله : ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : أنه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضاً لكنه خص المؤمنين بالذكر لأنهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله : ﴿ هُدًى لّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] ، والثاني : يحتمل أنه تعالى علم أن الصلاح في تلاوته هو إيمانهم وتكون إرادته لمن لا يؤمن كالتبع ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأرض ﴾ قرىء فرعون بضم الفاء وكسرها ، والكسر أحسن وهو كالقسطاس والقسطاس ﴿ عَلاَ ﴾ استكبر وتجبر وتعظم وبغى ، والمراد به قوة الملك والعلو في الأرض يعني أرض مملكته ، ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله : ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم مخالفته

أو يشيع بعضهم بعضاً في استخدامه أو أصنافاً في استخدامه أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطوع أو المراد ما فسره بقوله : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ أي يستخدمهم ﴿ ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾ فهذا هو المراد بالشيع .

قوله : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ تلك الطائفة بنو إسرائيل ، وفي سبب ذبح الأبناء وجوه : أحدها : أن كاهناً قال له يولد مولود في بني إسرائيل في ليلة كذا يذهب ملكك على يده ، فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاماً فقتلهم ، وعند أكثر المفسرين بقي هذا العذاب في بني إسرائيل سنين كثيرة ، قال وهب قتل القبط في طلب موسى عليه السلام تسعين ألفاً من بني إسرائيل .

(18/584)

قال بعضهم في هذا دليل على حمق فرعون ، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وإن كذب فما وجه القتل ؟ وهذا السؤال قد يذكر في تزييف علم الأحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف إن كان زيد في علم الله وفي قضائه من السعداء فلا حاجة إلى الطاعة ، وإن كان من الأشقياء فلا فائدة في الطاعة ، وأيضاً فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته ، وأيضاً فجواب المنجم أن النجوم دلت على أنه يولد ولد لو لم يقتل لصار

كذا وكذا ، وعلى هذا التقدير لا يكون السعي في قتله عبثاً .

واعلم أن هذا الوجه ضعيف لأن إسناد مثل هذا الخبر إلى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل ، ولو جوزناه لبطلت دلالة الأخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو بإجماع المسلمين باطل

وثانيها : وهو قول السدي أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر ، فأمر بقتل الذكور

وثالثها : أن الأنبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني إسرائيل ، وهذا الوجه هو الأولى بالقبول ، قال صاحب "الكشاف" : ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ حال من الضمير في ﴿وَجَعَلَ﴾ أو صفة لشيعا ، أو كلام مستأنف و ﴿يُذَبِّحُ﴾ بدل من ﴿يَسْتَضْعِفُ﴾ وقوله : ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين﴾ يدل على أن ذلك القتل ما حصل منه إلا الفساد ، وأنه لا أثر له في دفع قضاء الله تعالى .

(19/584)

أما قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ فهو جملة معطوفة على قوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأرض ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصاً له ، واللفظ في قوله : ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالاً من ﴿ يَسْتَضْعِفُ ﴾ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم ، فإن قيل كيف يجتمع استضعافهم وإرادة الله تعالى المن عليهم وإذا أراد الله شيئاً كان ولم يتوقف إلى وقت آخر ؟ قلنا لما كان منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم .

أما قوله : ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي متقدمين في الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة إلى الخير وعن قتادة ولاة كقوله : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ﴾ [المائدة : 20] ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ يعني لملك فرعون وأرضه وما في يده .

أما قوله : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأرض ﴾ فاعلم أنه يقال مكن له إذا جعل له مكاناً يقعد عليه (أو يرقد) فوطأه ومهده ، ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام أن ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم وقوله : ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ قرىء ﴿ وَيَرَى فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا ﴾ أي يرون منهم ما كانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 192 . 194 ﴾

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : ببغيه في استعباد بني إسرائيل وقتل أولادهم ، قاله قتادة .

الثاني : بكفره وادعاء الربوبية .

الثالث : بملكه وسلطانه .

وهذه الأرض أرض مصر لأن فرعون ملك مصر ، ولم يملك الأرض كلها ، ومصر تسمى الأرض ولذلك قيل لبعض نواحيها الصعيد .

وفي علوه وجهان :

أحدهما : هو لظهوره في غلبته .

الثاني : كبره وتجبره .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فرقاً . قاله قتادة : فَرّق بين بني إسرائيل والقبط

. ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل بالاستعباد بالأعمال القذرة

. ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ قال السدي : إن فرعون رأى في المنام أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل فسأل علماء قومه عن تأويله ، فقالوا : يخرج من هذا البلد رجل يكون على يده هلاك مصر ، فأمر بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وأسرع الموت في شيوخ بني إسرائيل فقال القبط لفرعون : إن شيوخ بني إسرائيل قد فنوا بالموت وصغارهم بالقتل فاستبقهم لعملنا وخدمتنا أن يستحيوا في عام ويقتلوا في عام فولد هارون في عام الاستحياء وموسى في عام القتل . وطال بفرعون العمر حتى حكى النقاش أنه عاش أربعمائة سنة وكان دميماً قصيراً . وكان أول من خضب بالسواد . وعاش موسى مائة وعشرين سنة .

قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : بنو إسرائيل ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : يوسف وولده ، قاله علي رضي الله عنه .

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : ولاة الأمر ، قاله قتادة .

الثاني : قادة متبوعين ، قاله قتادة .

الثالث : أنبياء لأن الأنبياء فيما بين موسى وعيسى كانوا من بني إسرائيل أولهم موسى وآخرهم عيسى وكان بينهما ألف نبي ، قاله الضحاك .

(21/584)

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنهم بعد غرق فرعون سبَوا القبط فاستعبدوهم بعد أن كانوا عبيدهم

فصاروا وارثين لهم ، قاله الضحاك .

الثاني : أنهم المالكون لأرض فرعون التي كانوا فيها مستضعفين . والميراث زوال الملك عمن

كان له إلى من صار إليه ، ومنه قول عمرو بن كلثوم :

ورثنا مجد علقمة بن سيف . . . أباح لنا حصون المجد دينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت

والعيون حـ 4 صـ ﴾

(22/584)

وقال ابن عطية :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور بما أغنى عن الإعادة ، فمن قال إن هذه الحروف

من أسماء الله تعالى قال إن الطاء من الطول الذي لله تعالى والسين من السلام والميم من المنعم أو الرحيم ونحو هذا ، وقوله تعالى : ﴿ تلك ﴾ يتقدر موضعها بحسب كل قول من الأقوال في الحروف ، فمن جعل ﴿ طسم ﴾ مثالاً لحروف المعجم جاءت الإشارة ب ﴿ تلك ﴾ إلى حروف المعجم ، ومن قطعها قال ﴿ تلك ﴾ في موضع هذه ، وساغ هذا من حيث لم تكن حاضرة عتيدة بل هي أقوال ينقضي بعضها شيئاً فشيئاً فسائغ أن يقال في الإشارة إليها ﴿ تلك ﴾ .

(23/584)

قال القاضي أبو محمد : والأصل أن ﴿ تلك ﴾ إشارة إلى ما غاب و" هذه " إشارة إلى ما حضر ، وقد تتداخل متى كان في الغيبة حصول وثقة به تقوم مقام الحضور – ومتى كان في الحضور بعد ما يقوم مقام الغيبة فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ [طه : 17] لما كان موسى لا يرى ربه تعالى ، فهو وعصاه في منزل غيب ، فساغ ذلك ، ومن النقيض قول المؤلف لكتاب ونحوه هذا كتاب وما جرى هذا المجرى فتتبعه فهو كثير فيشبه في آياتنا هذه أن تكون ﴿ تلك ﴾ بمنزلة هذه ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ ، ويشبه أن تكون متمكنة من حيث الآيات كلها وقت هذه المخاطبة لم تكن عتيدة ، و ﴿ نتلو ﴾ معناه نقص

وتتابع القصص ، وخص تعالى بقوله ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ من حيث هم المنتفعون بذلك دون غيره فخصوا تشريفاً ، و﴿ علا في الأرض ﴾ من علو الطغيان والتغلب ، وقوله ﴿ في الأرض ﴾ يريد في أرض مصر وموضع ملكه ، ومتى جاءت ﴿ الأرض ﴾ هكذا عامة فإنما يراد بها الأرض التي تشبه قصة القول المسوق لأن الأشياء التي تعم الأرض كلها قليلة والأكثر ما ذكرناه ، و" الشيع " الفرق ، وكان هذا الفعل من فرعون بأن جعل القبط ملوكاً مستخدِمين ، وجعل بني إسرائيل عبيداً مستخدَمين ، وهم كانوا الطائفة المستضعفة ، و﴿ يذبح ﴾ مضعف للمبالغة والعبارة عن تكرار الفعل ، وقال قتادة كان هذا الفعل من فرعون بأنه قال له كهنته وعلماؤه إن غلاماً لبني إسرائيل يفسد ملكك ، وقال السدي : رأى في ذلك رؤيا – فأخذ بني إسرائيل يذبح الأطفال سنين فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً ، فولد هارون في عام الاستحياء وولد موسى في عام الذبح ، وقرأ جمهور القراء "يُذبح " بضم الياء وكسر الباء على التكثير ، وقرأ أبو حيوة ، وابن محيصن بفتح الياء وسكون الذال ، قال وهب بن منبه : بلغني أن فرعون ذبح في هذه المحاولة سبعين ألفاً من الأطفال ، وقال النقاش ، جميع ما قتل ستة عشر طفلاً .

(24/584)

قال الفقيه الإمام القاضي : طمع بجهله أن يرد القدر وأين هذا المنزع من قول النبي عليه السلام " فلن تقدر عليه " يعني ابن صياد ، وباقي الآية بين .

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)

المعنى يستضعف فرعون ونحن نريد أن ننعم ونعظم المنة على أولئك المستضعفين ، و" الأئمة " ولاة الأمور قاله قتادة ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ يريد أرض مصر والشام ، وقرأ الأعمش " ولنمكن " بلام ، وقرأ الجمهور " ونُرِيَ فرعون " بضم النون وكسر الراء وفتح الياء ونصب فرعون ، وقرأ حمزة والكسائي " ويرَى " بالياء وفتح الراء وسكون الياء على الفعل الماضي وإسناد الفعل إلى ﴿ فرعون ﴾ ومن بعده والمعنى ويقع فرعون وقومه وجنوده فيما خافوه وحذروه من جهة بني إسرائيل وظهورهم ، ﴿ وهامان ﴾ هو وزير فرعون وأكبر رجاله ، فذكر لمحله من الكفر ولنباهته في قومه فله في هذا الموضع صغار ولعنة لا شرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(25/584)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ طسم ﴾ تقدّم الكلام فيه .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين ﴾ ﴿ تِلْكَ ﴾ في موضع رفع بمعنى هذه تلك و ﴿ آيَاتُ ﴾ بدل منها .

ويجوز أن يكون في موضع نصب ب ﴿ نَتْلُو ﴾ و ﴿ آيَاتُ ﴾ بدل منها أيضاً ؛ وتنصبها كما تقول : زيداً ضربت .

و ﴿ الْمُبِينِ ﴾ أي المبين بركته وخيره ، والمبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وقصص الأنبياء ، ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال : بان الشيء وأبان (اتضح) .

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بالحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون وقارون ، واحتج على مشركي قريش ، وبيّن أن قرابة قارون من موسى لم تنفعه مع كفره ، وكذلك قرابة قريش لمحمد ، وبين أن فرعون علا في الأرض وتجبّر ، فكان ذلك من كفره ، فليجتنب العلوّ في الأرض ، وكذلك التعزز بكثرة المال ، وهما من سيرة فرعون وقارون .

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ ﴾ أي يقرأ عليك جبريل بأمرنا ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي من خبرهما و ﴿ من ﴾ للتبعيض و ﴿ مِنْ نَبَإِ ﴾ مفعول ﴿ نَتْلُو ﴾ أي نَتْلو عليك بعض خبرهما ؛ كقوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] .

ومعنى : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب .

﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يصدّقون بالقرآن ويعلمون أنه من عند الله ؛ فأما من لم يؤمن فلا يعتقد أنه حق .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض ﴾ أي استكبر وتجبّر ؛ قاله ابن عباس والسّديّ .

وقال قتادة : علا في نفسه عن عبادة ربه بكفره وادعى الربوبية .

وقيل : بملكه وسلطانه فصار عالياً على من تحت يده .

"فِي الأَرْضِ" أي أرض مصر .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فرقاً وأصنافاً في الخدمة .

قال الأعشى :

وبلدة يَرْهَبُ الجوّابُ دجلتَها . . .

حتى تراه عليها يَبْتَغي الشّيعَا

﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل .

(26/584)

﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ تقدّم القول في هذا في "البقرة" عند قوله : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [البقرة : 49] الآية ؛ وذلك لأن الكهنة قالوا له : إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه ، أو قال المنجّمون له ذلك ، أو رأى رؤيا فعبّرت كذلك .

قال الزجاج : العجب من حمقه لم يدر أن الكاهن إن صدق فالقتل لا ينفع ، وإن كذب فلا معنى للقتل .

وقيل : جعلهم شيعاً فاستسخر كل قوم من بني إسرائيل في شغل مفرد .

﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي في الأرض بالعمل والمعاصي والتجبر .

قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض ﴾ أي نتفضل عليهم وننعم .

وهذه حكاية مضت .

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال ابن عباس : قادة في الخير .

مجاهد : دعاة إلى الخير .

قتادة : ولاة وملوكاً ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ﴾ [المائدة : 20] .

قلت : وهذا أعمّ فإن المِلك إمام يؤتم به ويقتدى به .

﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ لملك فرعون ؛ يرثون ملكه ، ويسكنون مساكن القبط .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف : 137] .

قوله تعالى : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض ﴾ أي نجعلهم مقتدرين على الأرض وأهلها حتى يُستولَى عليها ؛ يعني أرض الشام ومصر .

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ أي ونريد أن نري فرعون .

وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف : ﴿ وَيَرَى ﴾ بالياء على أنه فعل ثلاثي من رأى ﴿ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ رفعاً لأنه الفاعل .

الباقون ﴿ نُرِيَ ﴾ بضم النون وكسر الراء على أنه فعل رباعي من أرى يُرِي ، وهي على نسق الكلام ؛ لأن قبله ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ وبعده ﴿ وَنُمَكِّنَ ﴾ .

(27/584)

﴿ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ نصباً بوقوع الفعل .

وأجاز الفراء ﴿ وَيُرِيَ فِرْعَوْنَ ﴾ بضم الياء وكسر الراء وفتح الياء بمعنى ويري الله فرعون ﴿ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل فكانوا على وجل ﴿ مِنْهُمْ ﴾ فأراهم الله ﴿ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ .

قال قتادة : كان حَازياً لفرعون والحازي المنجم قال إنه سيولد في هذه السنة مولود يذهب بملكك ؛ فأمر فرعون بقتل الولدان في تلك السنة .

وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(28/584)

وقال أبو حيان :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

هذه السورة مكية كلها ، قاله الحسن وعطاء وعكرمة .

وقال مقاتل : فيها من المدني ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله ﴾ إلى قوله : ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ .

وقيل : نزلت بين مكة والجحفة .

وقال ابن عباس : بالجحفة ، في خروجه عليه السلام للهجرة .

وقال ابن سلام : نزل ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ ، بالجحفة ، وقت الهجرة إلى المدينة .

ومناسبة أول هذه السورة لآخر السورة قبلها أنه أمره تعالى بحمده ، ثم قال : ﴿ سيريكم

آياته ﴾ وكان مما فسر به آياته تعالى معجزات الرسول ، وأنه أضافها تعالى إليه ، إذ كان هو المخبر بها على قدمه فقال : ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ ، إذ كان الكتاب هو أعظم المعجزات وأكبر الآيات البينات ، والظاهر أن الكتاب هو القرآن ، وقيل : اللوح المحفوظ .

﴿ نتلوا ﴾ : أي نقرأ عليك بقراءة جبريل ، أو نقص .

ومفعول ﴿ نتلوا من نبأ ﴾ : أي بعض نبأ ، وبالحق متعلق بنتلو ، أي محقين ، أو في موضع الحال من نبأ ، أي متلبساً بالحق ، وخص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالتلاوة .

﴿ علا في الأرض ﴾ : أي تجبر واستكبر حتى ادّعى الربوبية الإلهية .

والأرض : أرض مصر ، والشيع : الفرق .

ملك القبط واستعبد بني إسرائيل ، أي يشيعونه على ما يريد ، أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته ، أو ناساً في بناء وناساً في حفر ، وغير ذلك من الحرف الممتهنة .

ومن لم يستخدمه ، ضرب عليه الجزية ، أو أغرى بعضهم ببعض ليكونوا له أطوع ، والطائفة المستضعفة بنو إسرائيل .

والظاهر أن ﴿ يستضعف ﴾ استئناف يبين حال بعض الشيع ، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير ، وجعل وأن تكون صفة لشيعاً ، ويذبح تبيين للاستضعاف ، وتفسير أو في موضع الحال من ضمير يستضعف ، أو في موضع الصفة لطائفة .

وقرأ الجمهور : يذبح ، مضعفاً ؛ وأبو حيوة ، وابن محيصن : بفتح الياء وسكون الذال .

﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ : علة لتجبره ولتذبيح الأبناء ، إذ ليس في ذلك إلاّ مجرد الفساد .

﴿ ونريد ﴾ : حكاية حال ماضية ، والجملة معطوفة على قوله : ﴿ إن فرعون ﴾ ، لأن كلتيهما تفسير للبناء ، ويضعف أن يكون حالاً من الضمير في يستضعف ، لاحتياجه إلى إضمار مبتدأ ، أي ونحن نريد ، وهو ضعيف .

وإذا كانت حالاً ، فكيف يجتمع استضعاف فرعون وإرادة المنة من الله ولا يمكن الاقتران ؟ فقيل : لما كانت المنة بخلاصهم من فرعون قرينة الوقوع ، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم .

و ﴿ أن نمن ﴾ : أي بخلاصهم من فرعون وإغراقه .

﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ : أي مقتدى بهم في الدين والدنيا .

وقال مجاهد : دعاة إلى الخير .

وقال قتادة : ولاة ، كقولهم وجعلكم ملوكاً .

وقال الضحاك : أنبياء .

﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ : أي يرثون فرعون وقومه ، ملكهم وما كان لهم .

وعن علي ، الوارثون هم : يوسف عليه السلام وولده ، وعن قتادة أيضاً : ورثوا أرض مصر والشام .

وقرأ الجمهور : ﴿ ونمكن ﴾ ، عطفاً على نمن .

وقرأ الأعمش : ولنمكن ، بلام كي ، أي وأردنا ذلك لنمكن ، أو ولنمكن فعلنا ذلك .

والتمكين : التوطئة في الأرض ، هي أرض مصر والشام ، بحيث ينفذ أمرهم ويتسلطون على من سواهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ ونري ﴾ ، مضارع أرينا ، ونصب ما بعده .

وعبد الله ، وحمزة ، والكسائي : ونرى ، مضارع رأى ، ورفع ما بعده .

﴿ وهامان ﴾ : وزير فرعون وأحد رجاله ، وذكر لنباهته في قومه ومحله من الكفر .

ألا ترى إلى قوله له : ﴿ يا هامان ابن لي صرحاً ﴾ ويحذرون أي زوال ملكهم وإهلاكهم على يدى مولود من بني إسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(30/584)

وقال أبو السعود :

(سورة القصص)

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴾ ﴿ طسم تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب المبين ﴾ قد مرَّ ما يتعلقُ به من الكلام بالإجمال والتَّفصيلِ في أشباهه ﴿ نتلوا عَلَيْكَ ﴾ أي نقرأُ بواسطة جبريلَ عليهِ السَّلامُ ، ويجوز أن تكونَ التّلاوةُ مجازاً من التَّنزيلِ ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ مفعولُ نتلُو أي بعضَ نبئِهما ﴿ بالحق ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعل نتلُو أو من مفعوله أو صفةٌ لمصدرِه أي نتلُو عليكَ بعضَ نبئِهما مُلتبسينَ أو ملتبساً بالحقّ أو تلاوةً ملتبسةً بالحقّ ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ متعلقٌ بنتلو ، وتخصيصُهم بذلكَ مع عُموم الدَّعوةِ والبيانِ للكلِّ لأنَّهم المنتفعونَ بِه .

(31/584)

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأرض ﴾ استئنافٌ جارٍ مجرى التَّفسيرِ للمُجمل الموعودِ ، وتصديرُه بحرف التَّأكيدِ للاعتناء بتحقيقِ مضمُونِ ما بعدَهُ أي أنَّه تجبَّر وطغا في أرضِ مصرَ وجاوزَ الحدودَ المعهودةَ في الظُّلم والعُدوانِ ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فِرقاً يشيّعونه في كلِّ ما يُريده من الشرِّ والفسادِ ، أو يشيّعُ بعضُهم بعضاً في طاعته ، أو أصنافاً في استخدامه

، يستعمل كُلَّ صنفٍ في عملٍ ويُسخِّرُه فيهِ من بناءٍ وحرثٍ وحفرٍ وغيرِ ذلكَ من الأعمالِ الشّاقةِ ومَن لم يستعملْه ضربَ عليه الجزيةَ ، أو فرقاً مختلفةً قد أغرى بينهم العداوةَ والبغضاءَ لئلاَّ تتفقَ كلمتُهم ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنُو إسرائيلَ . والجملةُ إمَّا حالٌ من فاعلِ جعلَ ، أو صفةٌ لشيعاً ، أو استئنافٌ . وقولُه تعالى : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءهُمْ ﴾ بدلٌ منها . وكان ذلكَ لِما أنَّ كاهناً قال له : يُولد في بني إسرائيلَ مولودٌ يذهبُ ملكُك على يدِه وما ذاك إلا لغايةِ حُمقِه إذْ لو صدقَ فما فائدةُ القتلِ وإن كذبَ فما وجهُه ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ أي الرَّاسخينَ في الإفسادِ ولذلكَ اجترأَ على مثل تلك العظيمةِ من قتلِ المعصومينَ من أولادِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام . ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ أي نتفضلُ ﴿ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض ﴾ على الوجهِ المذكورِ بإنجائِهم من بأسِه . وصيغةُ المضارعِ في نُريد حكايةُ حالٍ ماضيةٍ وهو معطوفٌ على إنَّ فرعونَ علا الخ لتناسبُهما في الوقوعِ في حيِّزِ التَّفسيرِ للنبأ ، أو حالٌ من يستضعفُ بتقديرِ المبتدأ أي يستضعفُهم فرعونُ ونحنُ نريدُ أنْ نمنَّ عليهم وليس من ضرورةِ مقارنةِ الإرادةِ للاستضعاف مقارنةُ المرادِ له لما أنَّ تعلُّقَ الإرادةِ للمنِّ تعلُّقٌ استقباليٌّ على أنَّ مِنَّةَ الله تعالى عليهم بالخلاص لمَّا كانتْ في شرفِ

(32/584)

الوقوعِ جازَ إجراؤُها مُجرى الواقعِ المقارنِ له . ووضعُ الموصولِ موضعَ الضميرِ لإبانةِ قدرِ النّعمةِ في المنّة بذكر حالِتهم السَّابقةِ المُباينةِ لها ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يُقتدى بهم في أمور الدِّينِ بعد أنْ كانُوا أتباعاً مسخَّرين لآخرين ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ لجميع ما كان منتظماً في سلك مُلك فرعونَ وقومِه وراثةً معهودةً فيما بينهم كما يُنبىء عنه تعريفُ الوارثينَ . وتأخيرُ ذكرِ وراثتِهم له عن ذكرِ جعلِهم أئمةً مع تقدمِها عليه زماناً لانحطاطِ رُتبتها عن الإمامةِ ولئلاَّ ينفصلَ عنه ما بعده مع كونِه من روادفِه ، أعني قولَه تعالى :

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأرض ﴾ الخ أي نُسلطهم على مصرَ والشامِ يتصرفون فيهما كيفما يشاءون ، وأصلُ التمكينِ أنْ تجعلَ للشيءِ مكاناً يتمكَّنُ فيه ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ ﴾ أي من أولئكَ المُستضعَفين ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ ويجتهدونَ في دفعه من ذهاب مُلكِهم وهُلْكِهم على يدِ مولودٍ منهم . وقُرىء يرى بالياءِ ورفعِ ما بعده على الفاعليةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(33/584)

وقال الآلوسى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسم تِلْكَ ءايات الكتاب المبين ﴾

قد مر ما يتعلق به من الكلام في أشباهه .

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ ﴾

أي نقرأ بواسطة جبرائيل عليه السلام فالإسناد مجازي كما في بني الأمير المدينة .

والتلاوة في كلامهم على ما قال الراغب تختص باتباع كتب الله تعالى المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيه من أمر ونهي وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك وهو أخص من القراءة ، ويجوز أن تكون التلاوة هنا مجازاً مرسلاً عن التنزيل بعلاقة أن التنزيل لازم لها أو سببها في الجملة وأن تكون استعارة له لما بينهما من المشابهة فإن كلاً منهما طريق للتبليغ فالمعنى ننزل عليك ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي من خبرهما العجيب الشأن ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول نتلو المحذوف أي نتلو شيئاً كائناً من نبئهما .

والظاهر أن ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضية ، وجوز بعضهم كونها بيانية وكونها صلة على رأس الأخفش فنبأ مجرور ، لفظاً مرفوع محلاً مفعول نتلو ويوهم كلام بعضهم أن ﴿ مِنْ ﴾ هو المفعول كأنه قيل : نتلو بعض نبأ وفيه بحث ، وأياً ما كان فلا تجوز في كون النبأ متلواً لما أنه نوع من اللفظ ، وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل نتلو أي نتلو

ملتبسين ﴿ بالحق ﴾ أو مفعوله أي نتلو شيئاً من نبئهما ملتبساً بالحق أو وقع صفة ملصدر نتلو أي نتلو تلاوة ملتبسة بالحق ؛ وقوله تعالى : ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ متعلق بنتلو واللام للتعليل وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الدعوة والبيان لأنهم المنتفعون به ، وقد تقدم الكلام في شمول ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ للمؤمنين حالاً واستقبالاً في السورة السابقة ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأَرْضِ ﴾

(34/584)

استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقيق مضمون ما بعده أي ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ تجبر وطغى في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فرقاً يشيعونه في كل ما يريده من الشر والفساد أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه يستعمل كل صنف في عمل من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الأعمال الشاقة ومن لم يعمل ضرب عليه الجزية فيخدمه بأدائها أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ أي يجعلهم ضعفاء مقهورين ؛ والمراد بهذه الطائفة بنو إسرائيل وعدهم من أهلها للتغليب أو لأنهم كانوا فيها زماناً طويلاً ، والجملة أما استئناف نحوي أو

بياني في جواب ماذا صنع بعد ذلك ، وإما حال من فاعل جعل أو من مفعول .

وأما صفة لشيعا والتعبير بالمضارع لحكاية الحال الماضية ، وقوله تعالى :

﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءهُمْ ﴾ بدل من الجملة قبلها بدل اشتمال أو تفسير حال من فاعل يستضعف أو صفة لطائفة أو حال منها لتخصصها بالوصف وكان ذلك منه لما أن كاهناً قال له يولد في بني إسرائيل مولود يذهب ملكك على يده .

وقال السدي : إنه رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل فسأل علماء قومه فقالوا : يخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يده فأخذ يفعل ما يفعل ولا يخفى أنه من الحمق بمكان إذ لو صدق الكاهن أو الرؤيا فما فائدة القتل وإلا فما وجهه ، وفي الآية دليل على أن قتل الأولاد لحفظ الملك شريعة فرعونية .

وقرأ أبو حيوة وابن محيصن ﴿ يُذَبَّحُ ﴾ بفتح الياء وسكون الذال ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ أي الراسخين في الإفساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل من لا جنحة له من ذراري الأنبياء عليهم السلام لتخيل فاسد .

(35/584)

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ أي نتفضل ﴿ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض ﴾ على الوجه المذكور بإنجائهم من بأسه ، وصيغة المضارع في نريد لحكاية الحال الماضية وأما نمن فمستقبل بالنسبة للإرادة فلا حاجة لتأويله وهو معطوف على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ ﴾ [القصص : 4] الخ لتناسبهما في الوقوع في حيز التفسير للنبأ وهذا هو الظاهر .

(36/584)

وجوز أن تكون الجملة حالاً من مفعول ﴿ يستضعف ﴾ [القصص : 4] بتقدير مبتدأ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وقدر المبتدأ ليجوز التصدير بالواو ، وجوز أن يكون حالاً من الفاعل بتقدير المبتدا أيضاً وخلوها عن العائد عليه وما يقوم مقامه لا يضر لأن الجملة الحالية إذا كانت اسمية يكفي في ربطها الواو وضعف بأنه لا شبهة في استهجان ذلك مع حذف المبتدأ ، وتعقب القول بصحة الحالية مطلقاً بأن الأصل في الحال المقارنة والمن بعد الاستضعاف بكثير ، وأجيب بأن الحال ليس المن بل إرادته وهي مقارنة وتعلقها إنما هو بوقوع المن في الاستقبال فلا يلزم من مقارنتها مقارنته على أن منّ الله تعالى عليهم بالخلاص لما كان في شرف الوقوع جاز إجراؤه مجرى الواقع المقارن للاستضعاف وإذا جعلت الحال مقدرة يرتفع القيل والمقال ، وجوز بعضهم عطف ذلك على ﴿ نتلو ﴾ [

القصص : 3] و﴿ يستضعف ﴾ [القصص : 4] ، وقال الزمخشري : هو غير سديد ، ووجه ذلك في الكشف بقوله أما الأول : فلما يلزم أن يكون خارجاً عن المنبأ به وهو أعظمه وأهمه ، وأما الثاني : فلأنه إما حال عن ضمير ﴿ جعل ﴾ [القصص : 4] أو عن مفعوله أو صفة لشيعا أو كلام مستأنف وعلى الأولين ظاهر الامتناع وعلى الثالث : أظهر إذ لا مدخل لذلك في الجواب عن السؤال الذي يعطيه قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ [القصص : 4] والعطف يقتضي الاشتراك لكن للعطف على ﴿ يستضعف ﴾ [القصص : 4] مساغ على تقدير الوصف والمعنى جعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم ونريد أن نمن عليهم منهم أي على الطائفة من الشيع فأقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى الطائفة وحذف الراجع إلى الشيع للعلم كأنه قيل : يستضعفهم ونريد أن نقويهم كما زعم الزمخشري في الوجه الذي جعله حالاً من مفعول يستضعف والحاصل شيعاً موصوفين باستضعاف طائفة وإرادة المن على تلك الطائفة منهم بدفع الضعف .

(37/584)

فإن قلت : يدفعه أن العلم بالصفة الثانية لم يكن حاصلاً بخلاف الأولى قلنا كذلك لم يكن حاصلاً باستضعاف مقيد بحال الإرادة والحق أن الوجهين يضعفان لذلك وإنما أوردناه

على الزمخشري لتجويزه الحال انتهى .

وأورد عليه أن للعطف عليه على تقدير كونه حالاً مساغاً أيضاً بعين ما ذكره فلا وجه للتخصيص بالوصفية وأن عدم حصول العلم بالصفة الثانية بعد تسليم اشتراط العلم بالصفة مطلقاً غير مسلم فإن سبب العلم بالأولى وهو الوحي أو خبر أهل الكتاب ، يجوز أن يكون سبباً للعلم بالثانية ، وأيضاً يجوز أن يخصص جواز حالية ونريد الخ باحتمال الاستئناف والحالية في يستضعف دون الوصف فلا يكون مشترك الإلزام ، وفيه أن احتمال الحالية من المفعول لم يذكره الزمخشري فلذا لم يلتفت صاحب الكشف إلى أن للعطف عليه مساغاً وأن اشتراط العلم بالصفة مما صرح به في مواضع من الكشاف والكلام معه وأن العلم بصفة الاستضعاف لكونه مفسراً بالذبح والاستحياء وذلك معلوم بالمشاهدة وليس سبب العلم ما ذكر من الوحي أو خبر أهل الكتاب وفي هذا نظر ، والانصاف أن قوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص : 4] الخ لا يظهر كونه بياناً لنبأ موسى عليه السلام وفرعون معاً على شيء من الاحتمالات ظهوره على احتمال العطف على ﴿ إن فرعون ﴾ [القصص : 4] وإدخاله في حيز البيان وإلا فالظاهر من إن فرعون الخ بدون هذا المعطوف أنه بيان لنبإ فرعون فقط فتأمل ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ مقتدى بهم في الدين والدنيا على ما في "البحر" ، وقال مجاهد دعاة إلى الخير .

وقال قتادة ولاة كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ﴾ [المائدة : 20] وقال الضحاك أنبياء وأياً ما كان ففيه نسبة ما للبعض إلى الكل ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ لجميع ما كان منتظماً في سلك ملك فرعون وقومه على أكمل وجه كما يومىء إليه التعريف وذلك بأن لا ينازعهم أحد فيه .

(38/584)

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأرض ﴾ أي في أرض مصر ، وأصل التمكين أن يجعل الشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعير للتسليط وإطلاق الأمر وشاع في ذلك حتى صار حقيقة لغوية فالمعنى نسلطهم على أرض مصر يتصرفون وينفذ أمرهم فيها كيفما يشاؤون ، وظاهر كلام بعضهم أن المراد بالأرض ما يعم مصر والشام مع أن المعهود هو أرض مصر لا غير وكأن ذلك لما أن الشام مقر بني إسرائيل .

وقرأ الأعمش ولنمكن بلام كي أي وأوردنا ذلك لنمكن فعلنا ذلك .

﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا ﴾ إضافة إلى الجنود إلى ضميرهما إما للتغليب أو لأنه كان لهامان جند مخصوصون به وإن كان وزيراً أو لأن جند السلطان جند الوزير ، ونرى من الرؤية البصرية على ما هو المناسب للبلاغة ، وجوز أن يكون من الرؤية القلبية التي

هي بمعنى المعرفة ، وعلى الوجهين هو ناصب لمفعولين لمكان الهمزة ففرعون وما عطف عليه مفعول له الأول ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من أولئك المستضعفين متعلق به ، وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ أي يتوقون من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود منهم مفعوله الثاني ، والرؤية على تقدير كونها بصرية لمقدمات ذلك وعلاماته في الحقيقة لكنها جعلت له مبالغة مثله مستفيض بينهم حتى يقال رأى موته بعينه وشاهد هلاكه وعليه قول بعض المتأخرين :

أبكاني البين حتى . . .

رأيت غسلي بعيني

وقيل : المراد رؤية وقت ذلك ، وليس بذاك ، والأمر على تقدير كونها بمعنى المعرفة فظاهر .

لأنهم قد عرفوا ذهاب ملكهم وهلاكهم ، لما شاهدوه من ظهور أولئك المستضعفين عليهم ، وطلوع طلائعه من طرق خذلانهم .

وفسر بعضهم الموصول بظهور موسى عليه السلام ، وهو خلاف الظاهر المؤيد بالآثار وكأن ذلك منه لخفاء وجه تعلق رؤية فرعون ومن معه بذهاب ملكهم وهلكهم عليه وقد علمت وجهه ، وقرأ عبد الله .

وحمزة .

والكسائي ويرى بالياء مضارع رأى ، وفرعون بالرفع على الفاعلية ، وكذا ما عطف عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(39/584)

وقال ابن عاشور :

﴿ طسم (1) ﴾

تقدم القول في نظيره في فاتحة سورة الشعراء .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)

الإشارة في قوله ﴿ تلك ءايات الكتاب المبين ﴾ على نحو الإشارة في نظيره في سورة الشعراء [2] .

فالمشار إليه ما هو مقروء يوم نزول هذه الآية من القرآن تنويهاً بشأن القرآن وأنه شأن عظيم .

وجملة ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

ومهد لنبأ موسى وفرعون بقوله ﴿ نتلو عليك ﴾ للتشويق لهذا النبأ لما فيه من شتى العبر بعظيم تصرف الله في خلقه .

والتلاوة : القراءة لكلام مكتوب أو محفوظ كما قال تعالى ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ [النمل : 92] ، وهو يتعدى إلى من تبلغ إليه التلاوة بحرف (على) وتقدمت عند قوله ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين ﴾ في [البقرة : 102] ، وقوله ﴿ وإذا تليت عليهم ءاياته ﴾ في سورة [الأنفال : 2] .

وإسناد التلاوة إلى الله إسناد مجازي لأنه الذي يأمر بتلاوة ما يوحى إليه من الكلام والذي يتلو حقيقة هو جبريل بأمر من الله ، وهذا كقوله تعالى ﴿ تلك ءايات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ في سورة [البقرة : 252] .

وجلعت التلاوة على النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الذي يتلقى ذلك المتلو .

وعبر عن هذا الخبر بالنبإ لإفادة أنه خبر ذو شأن وأهمية .

واللام في ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لام التعليل ، أي نتلو عليك لأجل قوم يؤمنون فكانت الغاية من تلاوة النبأ على النبي صلى الله عليه وسلم هي أن ينتفع بذلك قوم يؤمنون فالنبي يبلغ ذلك للمؤمنين ؛ فإن كان فريق من المؤمنين سألوا أو تشوّفوا إلى تفصيل ما جاء من قصة موسى وفرعون في سورة الشعراء وسورة النمل وهو الظاهر ، فتخصيصهم بالتعليل واضح وانتفاع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك معهم أجدر وأقوى ، فلذلك لم يتعرض له بالذكر اجتزاء بدلالة الفحوى لأن المقام لإفادة من سأل وغيرهم غير ملتفت إليه في هذا المقام .

وإن لم يكن نزول هذه القصة عن تشوف من المسلمين فتخصيص المؤمنين بالتلاوة لأجلهم تنويه بأنهم الذين ينتفعون بالعِبَر والمواعظ لأنهم بإيمانهم أصبحوا متطلّبين للعلم والحكمة متشوفين لأمثال هذه القصص النافعة ليزدادوا بذلك يقيناً .

وحصول ازدياد العلم للنبيء صلى الله عليه وسلم بذلك معلوم من كونه هو المتلقي والمبلغ ليتذكر من ذلك ما علمه من قبل ويزداد علماً بما عسى أن لا يكون قد علمه ، وفي ذلك تثبيت فؤاده كما قال تعالى ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ [هود : 120] .

فالمراد بقوم يؤمنون قوم الإيمان شأنهم وسجيتهم .

وللإشارة إلى معنى تمكن الإيمان من نفوسهم أجري وصف الإيمان على كلمة (قوم) ليفيد أن كونهم مؤمنين هو من مقومات قوميتهم كما قدمناه غير مرة .

فالمراد : المتلبسون بالإيمان .

وجيء بصيغة المضارع للدلالة على أن إيمانهم موجود في الحال ومستمر متجدد .

وفي هذا إعراض عن العبء بالمشركين في سوق هذه القصة بما يقصد فيها من العبرة والموعظة فإنهم لم ينتفعوا بذلك وإنما انتفع بها من آمن ومن سيؤمن بعد سماعها .

والباء في قوله ﴿ بالحق ﴾ للملابسة ، وهو حال من ضمير ﴿ نتلو ﴾ ، أو صفة للتلاوة

المستفادة من ﴿ نتلو ﴾ .

والحق : الصدق لأن الصدق حق إذ الحق هو ما يحق له أن يثبت عند أهل العقول السليمة والأديان القويمة .

ومفعول ﴿ نتلو ﴾ محذوف دل عليه صفته وهي ﴿ من نبإ موسى وفرعون ﴾ فالتقدير : نتلو عليك كلاماً من نبأ موسى وفرعون .

و ﴿ من ﴾ تبعيضية فإن المتلو في هذه السورة بعض قصة موسى وفرعون في الواقع ألا ترى أنه قد ذكرت في القرآن أشياء من قصة موسى لم تذكر هنا مثل ذكر آية الطوفان والجراد .

وجعل الزمخشري ﴿ من ﴾ اسماً بمعنى (بعض) فجعلها مفعول ﴿ نتلو ﴾ .

وجعل الأخفش ﴿ من ﴾ زائدة لأنه يرى أن ﴿ من ﴾ تزاد في الإثبات ، فجعل ﴿ نبإ موسى ﴾ هو المفعول جُرّ بحرف الجر الزائدة .

(41/584)

والنبأ : الخبر المهم العظيم .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

وهذه الجملة وما عطف عليها بيان لجملة ﴿ نتلو ﴾ [القصص : 3] أو بيان ل ﴿ نبأ موسى وفرعون ﴾ [القصص : 3] فقدم له الإجمال للدلالة على أنه نبأ له شأن عظيم وخطر بما فيه من شتى العبر .

وافتتاحها بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر .

وابتدئت القصة بذكر أسبابها لتكون عبرة للمؤمنين يتخذون منها سنناً يعلمون بها علل الأشياء ومعلولاتها ، ويسيرون في شؤونهم على طرائقها ، فلولا تجبر فرعون وهو من قبيح الخلال من حلّ به وبقومه الاستئصال ، ولما خرج بنو إسرائيل من ذل العبودية .

وهذا مصداق المثل : مصائب قوم عند قوم فوائد ، وقوله تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ [البقرة : 216] .

وصورت عظمة فرعون في الدنيا بقوله ﴿ علا في الأرض ﴾ لتكون العبرة بهلاكه بعد ذلك العلو أكبر العبر .

ومعنى العلوّ هنا الكِبْر ، وهو المذموم من العلو المعنوي كالذي في قوله تعالى ﴿ نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ﴾ [القصص : 83] .

ومعناه : أن يستشعر نفسه عالياً على موضع غيره ليس يساويه أحد ، فالعلو مستعار لمعنى التفوّق على غيره ، غير محقوق لحق من دين أو شريعة أو رعي حقوق المخلوقات معه

فإذا استشعر ذلك لم يعبأ في تصرفاته برعي صلاح وتجنب فساد وضر وإنما يتبع ما تحدوه إليه شهوته وإرضاء هواه ، وحسبك أن فرعون كان يجعل نفسه إلهاً وأنه ابن الشمس .

(42/584)

فليس من العلو المذموم رجحان أحد في أمر من الأمور لأنه جدير بالرجحان فيه جرياً على سبب رجحان عقلي كرجحان العالم على الجاهل والصالح على الطالح والذكي على الغبي ، أو سبب رجحان عادي ويشمل القانوني وهو كل رجحان لا يستقيم نظام الجماعات إلا بمراعاته كرجحان أمير الجيش على جنوده ورجحان القاضي على المتخاصمين .

وأعدل الرجحان ما كان من قبل الدين والشريعة كرجحان المؤمن على الكافر ، والتقي على الفاسق ، قال تعالى ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ [الحديد : 10]

ويترجح في كل عمل أهل الخبرة به والإجادة فيه وفيما وراء ذلك فالأصل المساواة .

وفرعون هذا هو (رعمسيس) الثاني وهو الملك الثالث من ملوك العائلة التاسعة عشرة في اصطلاح المؤرخين للفراعنة ، وكان فاتحاً كبيراً شديد السطوة وهو الذي ولد موسى عليه السلام في زمانه على التحقيق .

و﴿ الأرض ﴾ : هي أرض مصر ، فالتعريف فيها للعهد لأن ذكر فرعون يجعلها معهودة عند السامع لأن فرعون اسم ملك مصر .

ويجوز أن تجعل المراد بالأرض جميع الأرض يعني المشهور المعروف منها ، فإطلاق الأرض كإطلاق الاستغراق العرفي فقد كان ملك فرعون (رعمسيس) الثاني ممتداً من بلاد الهند من حدود نهر (الكنك) في الهند إلى نهر (الطونة) في أوروبا ، فالمعنى أرض مملكته ، وكان علوه أقوى من علو ملوك الأرض وسادة الأقوام .

والشيع : جمع شيعة .

والشيعة : الجماعة التي تشايع غيرها على ما يريد ، أي تتابعه وتطيعه وتنصره كما قال تعالى ﴿ هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ [القصص : 15] ، وأطلق على الفرقة من الناس على سبيل التوسع بعلاقة الإطلاق عن التقييد قال تعالى ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [الروم : 32] .

(43/584)

ومن البلاغة اختياره هنا ليدل على أنه جعل أهل بلاد القبط فرقاً ذات نزعات تتشيع كل فرقة إليه وتعادي الفرقة الأخرى ليتم لهم ضرب بعضهم ببعض ، وقد أغرى بينهم العداوة

ليأمن تألبهم عليه كما يقال "فرّق تحكم" وهي سياسة لا تليق إلا بالمكر بالضد والعدو ولا تليق بسياسة ولي أمر الأمة الواحدة .

وكان (رعمسيس) الثاني قسم بلاد مصر إلى ست وثلاثين إيالة وأقام على كل إيالة أمراء نواباً عنه ليتسنى له ما حكي عنه في هذه الآية بقوله تعالى ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ الواقع موقع الحال من ضمير ﴿ جعل ﴾ وأبدلت منها بدل اشتمال جملة ﴿ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾ لأنه ما فعل ذلك بهم إلا لأنه عدّهم ضعفاء ، أي أذلة فكان يسومهم العذاب ويسخّرهم لضرب اللبن وللأعمال الشاقة .

والطائفة المستضعفة هي طائفة بني إسرائيل ، وضمير ﴿ منهم ﴾ عائد إلى ﴿ أهلها ﴾ لا إلى ﴿ شيعاً ﴾ .

وتقدم الكلام على ذبح أبناء بني إسرائيل في سورة البقرة .

وجملة ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ تعليل لجملة ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ .

وقد علمت مما مضى عند قوله ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة [البقرة : 67] أن الخبر بتلك الصيغة أدل على تمكن الوصف مما لو قيل : أن أكون جاهلاً ، فكذلك قوله ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ دال على شدة تمكن الإفساد من خلقه ولفعل الكون إفادة تمكن خبر الفعل من اسمه .

فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون ، ذلك أن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة .

(44/584)

المفسدة الأولى : التكبر والتجبر فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم ، وسوء ظنه بهم وأن لا يرقب فيهم موجبات فضل سوى ما يرضي شهوته وغضبه ، فإذا انضم إلى ذلك أنه ولي أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم ، وأن يرمقهم بعين الاحتقار فلا يعبأ بجلب الصالح لهم ودفع الضر عنهم ، وأن يبتز منافعهم لنفسه ويسخر من استطاع منهم لخدمة أغراضه وأن لا يلين لهم في سياسة فيعاملهم بالغلظة وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته ، فهذه الصفة هي أمّ المفاسد وجماعها ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها ثم أعقبت بأنه ﴿ كان من المفسدين ﴾ .

المفسدة الثانية : أنه جعل أهل المملكة شيعاً وفرّقهم أقساماً وجعل منهم شيعاً مقربين منه ويفهم منه أنه جعل بعضهم بضد ذلك وذلك فساد في الأمة لأنه يثير بينها التحاسد

والتباغض ، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض ، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى ، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين .

وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فيكون بعضهم لبعض فتنة ، وشأن الملك الصالح أن يجعل الرعية منه كلها بمنزلة واحدة بمنزلة الأبناء من الأب يحب لهم الخير ويقومهم بالعدل واللين ، لا ميزة لفرقة على فرقة ، ويكون اقتراب أفراد الأمة منه بمقدار المزايا النفسية والعقلية .

المفسدة الثالثة : أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى ، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشأوا فيها .

(45/584)

والمراد بالطائفة : بنو إسرائيل وقد كانوا قطنوا في أرض مصر برضى ملكها في زمن يوسف وأعطوا أرض (جاسان) وعمروها وتكاثروا فيها ومضى عليهم فيها أربعمائة سنة ،

فكان لهم من الحق في أرض المملكة ما لسائر سكانها فلم يكن من العدل جعلهم بمنزلة دون منازل غيرهم ، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿ طائفة منهم ﴾ إذ جعلها من أهل الأرض الذين جعلهم فرعون شيعاً .

وأشار بقوله ﴿ طائفة ﴾ إلى أنه استضعف فريقاً كاملاً ، فأفاد ذلك أن الاستضعاف ليس جارياً على أشخاص معيّنين لأسباب تقتضي استضعافهم ككونهم ساعين بالفساد أو ليسوا أهلاً للاعتداد بهم لانحطاط في أخلاقهم وأعمالهم بل جرى استضعافه على اعتبار العنصرية والقبلية وذلك فساد لأنه يقرن الفاضل بالمفضول .

من أجل ذلك الاستضعاف المنوط بالعنصرية أجرى شدته على أفراد تلك الطائفة دون تمييز بين مستحق وغيره ولم يراع غير النوعية من ذكورة وأنوثة وهي :

المفسدة الرابعة : أنه ﴿ يذبح أبناءهم ﴾ أي يأمر بذبحهم ، فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي .

والمراد بالأبناء : الذكور من الأطفال .

وقد تقدم ذكر ذلك في سورة البقرة .

وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة .

المفسدة الخامسة : أنه يستحيي النساء ، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال ، فأطلق

عليهم اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج.

وإذ كان احتقارهن بصد قومه عن التزوج بهن فلم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق.

وقد تقدم آنفاً موقع جملة ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ .

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)

(46/584)

عطفت جملة ﴿ ونريد ﴾ على جملة ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ [القصص : 4] لمناسبة ما في تلك الجملة من نبأ تذبيح الأبناء واستحياء النساء ، فذلك من علو فرعون في الأرض وهو بيان لنبإ موسى وفرعون فإن إرادة الله الخير بالذين استضعفهم فرعون من تمام نبإ موسى وفرعون ، وهو موقع عبرة عظيمة من عِبَر هذه القصة .

وجيء بصيغة المضارع في حكاية إرادة مضت لاستحضار ذلك الوقت كأنه في الحال لأن المعنى أن فرعون يطغى عليهم والله يريد في ذلك الوقت إبطال عمله وجعلهم أمة عظيمة ،

ولذلك جاز أن تكون جملة ﴿ ونريد ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يستضعف ﴾ [القصص : 4] باعتبار أن تلك الإرادة مقارنة لوقت استضعاف فرعون إياهم .

فالمعنى على الاحتمالين : ونحن حينئذ مُريدون أن ننعم في زمن مستقبل على الذين استضعفوا .

والمنّ : الإنعام ، وجاء مضارعه مضموم العين على خلاف القياس .

و ﴿ الذين استضعفوا في الأرض ﴾ هم الطائفة التي استضعفها فرعون .

و ﴿ الأرض ﴾ هي الأرض في قوله ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ [القصص : 4] .

ونكتة إظهار ﴿ الذين استضعفوا ﴾ دون إيراد ضمير الطائفة للتنبيه على ما في الصلة من التعليل فإن الله رحيم لعباده ، وينصر المستضعفين المظلومين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً .

وخص بالذكر من المن أربعة أشياء عطفت على فعل ﴿ نمنّ ﴾ عطف الخاص على العام وهي : جعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين ، والتمكين لهم في الأرض ، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم في نعم أخرى جمة ، ذكر كثير منها في سورة البقرة .

(47/584)

فأما جعلهم أئمة فذلك بأن أخرجهم من ذلّ العبودية وجعلهم أمة حرة مالكة أمر نفسها لها شريعة عادلة وقانون معاملاتها وقوة تدفع بها أعداءها ومملكة خالصة لها وحضارة كاملة تفوق حضارة جيرتها بحيث تصير قدوة للأمم في شؤون الكمال وطلب الهناء ، فهذا معنى جعلهم أئمة ، أي يقتدي بهم غيرهم ويدعون الناس إلى الخير وناهيك بما بلغه ملك إسرائيل في عهد سليمان عليه السلام .

وأما جعلهم الوارثين فهو أن يعطيهم الله ديار قوم آخرين ويحكّمهم فيهم ، فالإرث مستعمل مجازاً في خلافة أمم أخرى .

فالتعريف في ﴿ الوارثين ﴾ تعريف الجنس المفيد أنهم أهل الإرث الخاص وهو إرث السلطة في الأرض بعد من كان قبلهم من أهل السلطان ، فإن الله أورثهم أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والأراميين ، وأحلهم محلهم على ما كانوا عليه من العظمة حتى كانوا يعرفون بالجبابرة قال تعالى ﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ﴾ [المائدة : 22] .

والتمكين لهم في الأرض تثبيت سلطانهم فيما ملكوه منها وهي أرض الشام إن كانت اللام عوضاً عن المضاف إليه .

ويحتمل أن يكون المعنى تقويتهم بين أمم الأرض إن حمل التعريف على جنس الأرض المنحصر في فرد ، أو على العهد ، أي الأرض المعهودة للناس .

وأصل التمكين : الجعل في المكان ، وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ إنا مكّنّا له في الأرض ﴾ في

سورة [الكهف : 84] ، وتقدم الكلام على اشتقاق التمكين وتصاريفه عند قوله تعالى ﴿ مكّناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم ﴾ في سورة [الأنعام : 6] .

و ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ هو زوال ملكهم بسبب رجل من بني إسرائيل حسبما أنذره بذلك الكهان .

ومعنى إراءتهم ذلك إراءتهم مقدماته وأسبابه .

وفرعون الذي أُرِي ذلك هو ملك مصر (منفتاح) الثالث وهو الذي حكم مصر بعد (رعمسيس) الثاني الذي كانت ولادة موسى في زمانه وهو الذي كان يحذر ظهور رجل من إسرائيل يكون له شأن .

و ﴿ هامان ﴾ قال المفسرون : هو وزير فرعون .

(48/584)

وظاهر آيات هذه السورة يقتضي أنه وزير فرعون وأحسب أن هامان ليس باسم علم ولكنه لقب خطة مثل فرعون وكسرى وقيصر ونجاشي .

فالظاهر أن هامان لقب وزير الملك في مصر في ذلك العصر .

وجاء في كتاب "أستير" من كتب اليهود الملحقة بالتوراة تسمية وزير (أحشويروش) ملك

الفرس (هامان) فظنوه علماً فزعموا أنه لم يكن لفرعون وزير اسمه هامان واتخذوا هذا الظن مطعناً في هذه الآية .

وهذا اشتباه منهم فإن الأعلام لا تنحصر وكذلك ألقاب الولايات قد تشترك بين أمم وخاصة الأمم المتجاورة ، فيجوز أن يكون ﴿ هامان ﴾ علماً من الأمان فإن الأعلام تتكرر في الأمم والعصور ، ويجوز أن يكون لقب خطة في مصر فنقل اليهود هذا اللقب إلى بلاد الفرس في مدة أسرهم .

ويشبه هذا الطعن طعن بعض المستشرقين من نصارى العصر في قوله تعالى في شأن مريم حين حكى قول أهلها لها ﴿ يا أخت هارون ﴾ [مريم : 28] فقالوا : هذا وهم انجرّ من كون أبي مريم اسمه عمران فتوهم أن عمران هو أبو موسى الرسول عليه السلام ، وتبع ذلك توهم أن مريم أخت موسى وهارون وهو مجازفة فإن النصارى لا يعرفون اسم أبي مريم وهل يمتنع أن يكون مسمى على اسم أبي موسى وهارون وهل يمتنع أن يكون لمريم أخ اسمه هارون .

وقد تكلمنا على ذلك في سورة مريم .

والجنود جمع الجند .

ويطلق الجند على الأمة قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود ﴾ [البروج : 17 - 18] .

وقرأ الجمهور ﴿ ونُرِيَ ﴾ بنون العظمة ونصب الفعل ونصب ﴿ فرعونَ ﴾ وما عطف عليه .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف ﴿ ويرى ﴾ بياء الغائب مفتوحة وفتح الراء على أنه مضارع رأى ورفع ﴿ فرعونُ ﴾ وما عطف عليه .

ومآل معنى القراءتين واحد .

والجند اسم جمع لا واحد له من لفظه : هو الجماعة من الناس التي تجتمع على أمر تتبعه ، فلذلك يطلق على العسكر لأن عملهم واحد وهو خدمة أميرهم وطاعته . انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(49/584)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) ﴾

قد قدمنا أن قوله هنا : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا ﴾ هو الكلمة في قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ ﴾ [الأعراف : 137] الآية ، ولم يبين

هنا السبب الذي جعلهم به أئمة جمع إمام ، أي قادة في الخير ، دعاة إليه أظهر القولين . ولم يبين هنا أيضاً الشيء الذي جعلهم وارثيه ، ولكنه تعالى بين جميع ذلك في غير هذا الموضع ، فبين السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : 24] فالصبر واليقين ، هما السبب في ذلك ، وبين الشيء الذي جعلهم له وارثين بقوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ﴾ [الدخان : 2528] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : 5759] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(50/584)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

يعني : ما يأتي في هذه السورة آيات الكتاب المبين .

نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

أي : نقص عليك ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ [القصص : 3] والنبأ : الخبر الهام الذي

يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى عليه السلام إلى مَن ادعى الألوهية ؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يَرِدْ فيها ذِكْر آخر إلا لقارون ؛ لأنها تعالج مسألة القمة ، مسألة التوحيد ، وتردّ على مَنِ ادّعى الألوهية ، ونازع الله تعالى في صفاته .

قوله ﴿ بالحق ﴾ [القصص : 3] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ القصص الحق ﴾ [آل عمران : 62] .

والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه ، وقد اشتُهِر به بعض العرب قديماً ، ومهروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة . . ألخ ، وقد اشتُهِرت عندهم قصة الرجل الذي فقد جمله ، وقابل أحد القصاصين ، وسأله عنه فقال : جملك أبتر الذَّنَب ؟ قال : نعم ، قال : أعور ؟ قال : نعم ، قال : أعرج ؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذي أخذ جمله ، فأمسك به وقاضاه .

وفي مجلس القضاء ، قال الرجل : والله ما أخذتُ جملك ، كلني رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه ، أما هذا فيضع بَعْره مرة واحدة ، فعرفتُ أنه مقطوع الذنب ، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثر في الرمل فعرفتُ أنه أعرج ، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفتُ أنه أعور .

والحق تبارك وتعالى حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع ، فقَصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر ؛ لذلك يسميه القصص الحق ، وأحسن القصص ، لأنه يروي الواقع طِبْق الأصل .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا

معنى ﴿ عَلاَ ﴾ [القصص : 4] من العلو أي : استعلى ، والمستعلَى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ، وعلا حتى على الله عز وجل فادَّعى الألوهية ، وهذا منتهى الاستعلاء ، ومنتهى الطغيان والتكبُّر ، وما دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوىً فلا بُدَّ أنْ يستخدمها في إذلال رعيته .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ [القصص : 4] جمع شيعة ، وهي الطائفة التي لها استقلالها الخاص ، والمفروض في المُمَلَّك أنْ يُسوِّي بين رعيته ، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوه عن الأخرى ، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف ، ثم يسلِّط بعضها على بعض ، ويُسخِّر بعضها لبعض .

ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف له مَلْحظ عند الفاعل ، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسي بها ، ثم لما جاءها يوسف عليه السلام واستقرَّ به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخْذ أقواتهم من مصر ، ثم

استقروا بها وتناسلوا إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذوبوا في المجتمع القبطي .

وبالمناسبة يخطىء الكثيرون فيظنون أن القبطيَّ يعني النصراني وهذا خطأ ، فالقبطي يعني المصري كجنس أساسي في مصر ، لكن لما استعمرت الدولةُ الرومانية مصرَ كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا على القبطي (مسيحي) .

لكن ، ما السبب في أن فرعون جعل الناس طوائف ، تستعبد كلٌّ منها الأخرى ؟ قالوا : لأن بني إسرائيل كانوا في خدمة المستعمر الذي أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طُرِد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهد بني إسرائيل ؛ لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيرون في ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبني إسرائيل .

(52/584)

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر في القديم وفي الحديث يُسمِّيهم فراعنة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوتاد ﴾ [الفجر : 10] .

وهنا في قصة موسى عليه السلام قال أيضاً : فرعون : أما في قصة يوسف عليه السلام فلم يأْتِ ذكْر للفراعنة ، إنما قال ﴿ الملك ﴾ [يوسف : 43] وهذه من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ؛ لأن الحكم في مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكُنْ للفراعنة ، حيث

كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة ؛ لذلك في عهد يوسف بالذات قال ﴿ الملك ﴾ [يوسف : 50] فلم يكُنْ للفرعون وجود في عصر يوسف .

فمعنى ﴿ سْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ [القصص : 4] يعني : تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بني إسرائيل لينتقموا منهم جزاءَ موالاتهم لأعدائهم .

وأول دليل على بطلان ألوهية فرعون أن يجعل أمته شِيَعاً ، لأن المألوهين ينبغي أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء ؛ لذلك يقول تعالى في الحديث عن موكب النبوات :

﴿ إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 159] .

ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم مُتمسِّكين بالدين الحق لجعلتُم الناس جميعاً شيعة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلطة زمنية على الآخرين ، فإذا رأيت في الأمة هذه التفرقة وهذا التحزُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون ؛ لأن الإسلام كما قُلْنا في صفائه كالماء الذي لا طعمَ له ، ولا لون ، ولا رائحة .

وهذا الماء يحبه الجميع ولا بُدَّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن نُلوِّن هذا الماء بما نحب ، فأنت تحب البرتقال ، وأنا أحب المانجو . وهذا يحب الليمون . . إلخ إذن : تدخلتْ الأهواء ، وتفرَّق الدين الذي أراده الله مجتمعاً .

لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ستفترق أمتي بِضْع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلُّهم في النار إلا ما أنا عليه وأصحابي " .

فشيعة الإسلام إذن واحدة ، أما أن نرى على الساحة عشرات الفِرَق والشِّيَع والجماعات ، فأيها يتبع المسلم ؟ إذن : ما داموا قد فرَّقوا دينهم ، وكانوا شِيعاً فلسْتَ منهم في شيء .

ثم يُفسِّر الحق سبحانه هذا الاستضعاف ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ [القصص : 4] فيقول ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ [القصص : 4] وقلنا : إن الإفساد أن تأتي على الصالح بذاته فتفسده ، فمن الفساد إذن قتْل الذُّكْران واستحياء النساء ؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذّكْران يمنع استبقاء النوع ، واختار قَتْل الذكْران : لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أمّا النساء فلا شوكة لهُنَّ ، ولا خوفَ منهن ؛ لذلك استبقاهُنَّ للخدمة وللاستذلال .

وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت في مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففي الآية الأولى يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾ [البقرة : 49] .

وفي موضع آخر : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [الأعراف : 141] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى .

أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى عليه السلام حين يُعدّدِ نِعَم الله تعالى على بني إسرائيل ، فيقول :

﴿ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ويُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 6] .

(54/584)

فالواو في ﴿ ويُذَبِّحُونَ ﴾ [إبراهيم : 6] لم ترد في الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردتْ في كلام موسى ؛ لأنه في موقف تَعداد نِعَم الله على قومه وقصده ؛ لأن يُضخِّم نعم الله عليهم ويُذكِّرهم بكل النعم ، فعطف على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ﴾ [إبراهيم : 6] قوله ﴿ ويُذَبِّحُونَ ﴾ [إبراهيم : 6] .

لكن حين يتكلَّم الله تعالى فلا يمتنُّ إلا بالشيء الأصيل ، وهو قتْل الأولاد واستحياء النساء ؛ لأن الحق تبارك وتعالى لا يمتنّ بالصغيرة ، إنما يمتنُّ بالشيء العظيم ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب .

وقوله مرة ﴿ يُذَبِّحُونَ ﴾ [البقرة : 49] ومرة ﴿ يُقَتِّلُونَ ﴾ [الأعراف : 141] لأن قتل الذّكْران أخذ أكثر من صورة ، فمرَّة يُذبِّحونهم ومرة يخنقونهم .

ومعنى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ [الأعراف : 141] من السَّوْم ، وهو أنْ تطلب الماشية المرعى ، فنتركها تطلبه في الخلاء ، وتلتقط رزقها بنفسها لا نقدمه نحن لها ، وتسمى هذه سائمة ، أما التي نربطها ونُقدِّم لها غذاءها فلا تُسمَّى سائمة .

فالمعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ﴾ [الاعراف : 141] يعني : يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بُدَّ أنْ يتفنَّنوا لكم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾

فلن يدوم لفرعون هذا الظلم ؛ لأن الله تعالى كتب ألاّ يفلح ظَلُوم ، وألاَّ يموت ظلوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُريه فيه عاقبة ظلمه ، حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحَسْبك من حادث بامرىء ترى حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

(55/584)

وهنا تُطالعنا غضبة الحق تبارك وتعالى للمؤمنين ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض ﴾ [القصص : 5] والمنة : عطاء مُعوّض ، وبدون مجهود من معطي المنة ، كأنها هِبَة من الحق سبحانه ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته ؛ لأن الحق تبارك وتعالى كما قال الإمام علي : إن الله لا يُسلِم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا

عليه غَارَ هو عليه .

والحق تبارك وتعالى حينما يغَارُ على الذين استُضعِفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب ، وإنما أيضاً ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ [القصص : 5] أئمة في الدين وفي القيم ، وأئمة في سياسة الأمور والملك ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ [القصص : 5] أي : يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم ، فانظر على كم مرحلة تأتي غيرة الله لأهل الحق .

ولولا أن فرعون الذي قوي على المستضعفين وأذَّلهم تأبَّى على الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاشَ هو ورعيته سواء ؟

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد وإنصاف شعوبهم ممَّنْ ظلمهم ، كان عليهم بعد أنْ يقضوا على الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسِد ، ويحققوا العدالة في المجتمع ، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلى أحضانهم ورعايتهم ، ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية في مجتمعهم ، وبذلك نأمن الثورة المضادة .

ثم يقول تعالى استكمالاً لِمنّته : ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض ﴾ [القصص : 6] نعرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدَث ، لأن كل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى : نجعل الأرض مكاناً لممكَّن فيها ، والتمكين يعني : يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها .

وقد شرح الحق سبحانه لنا التمكين في عدة مواضع من القرآن ، ففي قصة يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [يوسف : 54] مكين يعني : لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالُك أحد بشيء ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف : 21] يعني : أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرِّف هذا الخير للآخرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : 6] وهامان هو وزير فرعون ، ولا بد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن : الحرس الجمهوري ، والحرس الملكي ، والجيش .

أو : أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالمِلك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفي هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان . أو : أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون في قوت من الأوقات .

وقد رأينا هذا عندنا في مصر لذلك يقولون في المثل الريفي المعروف : تقول لمن يحاول خداعك (على هامان) ؟ يعني : أنا لا تنطلي عليَّ هذه الحيل .

والضمير في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ [القصص : 6] يعود على المستضعفين ﴿ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : 6] أي : سنريهم الشيء الذي يخافون منه ، والمراد النبوءة التي جاءتهم ، إما

عن طريق الكهنة ، أوعن طريق الرُّؤْيا ، حيث رأى فرعون ناراً تأتي من بيت المقدس ، وتتسلط على القِبْط في مصر ، لكنها لا تؤذي بني إسرائيل ، فلما عبَّروا له هذه الرؤيا قال : لا بد أنه سيأتي من هذه البلد من يسلب مني مُلْكي .

ويُرْوى أنه الكهنة أخبروه أنه سيُولد في هذه السنة مولود يكون ذهاب مُلْكك على يديه .

(57/584)

فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشرونها بأنفسهم ، وسيقع هذا الذي يخافون منه ؛ لذلك أمر فرعون بقتْل الذكْران من بني إسرائيل ليحتاط لأمره ، ويُبقِي على مُلْكه ، لكن هذا الاحتياط لمْ يُغنِ عنه شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(58/584)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه : أن ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى إذا اشتملت على بيوت مصر أحرقت القبط ، وتركت بني إسرائيل ، فدعا السحرة ، والكهنة ، والعافة ، والزجرة . وهم العافة الذين يزجرون الطير فسألهم عن رؤياه فقالوا له : يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه - يعنون بيت المقدس - رجل يكون على وجهه هلاك مصر . فأمر بني إسرائيل أن لا يولد لهم ولد إلا ذبحوه ، ولا يولد لهم جارية إلا تركت ، وقال للقبط : انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فادخلوهم ، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة ، فجعلوا بني إسرائيل في أعمال غلمانهم ، وادخلوا غلمانهم . فذلك حين يقول ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ يقول : تجبر في الأرض ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ حين جعلهم في الأعمال القذرة ، وجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح فلا يكبر صغير .

(59/584)

وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت ، فأسرع فيهم . فدخل رؤوس القبط على فرعون فكلموه فقالوا : إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت ، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا تذبح أبناءهم فلا يبلغ الصغار فيعينون الكبار ، فلو أنك كنت تبقي من أولادهم . فأمر أن يذبحوا سنة ، ويتركوا سنة ، فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد هرون عليه السلام . فترك ، فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت أم موسى بموسى عليه الصلاة والسلام ، فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه ، فلما وضعته أرضعته ثم دعت له نجاراً وجعلت له تابوتاً ، وجعلت مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه ، وألقته في اليم بين أحجار عند بيت فرعون ، فخرجن جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن ، فوجدن التابوت ، فادخلنه إلى آسية وظنن أن فيه مالاً ، فلما تحرك الغلام رأته آسية صبياً ، فلما نظرته آسية وقعت عليه رحمتها وأحبته .

فلما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه ، فلم تزل آسية تكلمه حتى تركه لها وقال : إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل ، وأن يكون هذا الذي على يديه هلاكنا . فبينما هي ترقصه وتلعب به إذ ناولته فرعون وقالت : خذه ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ [القصص : 9] قال فرعون : هو قرة عين لك – قال عبد الله بن عباس : ولو قال هو قرة عين لي إذاً لآمن به ، ولكنه أبى – فلما أخذه إليه أخذ موسى عليه السلام بلحيته فنتفها فقال فرعون : عليَّ بالذباحين هوذا .

قالت آسية : لا تقتله ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ [القصص : 9] إنما هو صبي لا يعقل وإنما صنع هذا من صباه ، أنا أضع له حلياً من الياقوت ، وأضع له جمراً فإن أخذ الياقوت فهو يعقل اذبحه ، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي ، فاخرجت له ياقوتاً ، ووضعت له طستاً من جمر ، فجاء جبريل عليه السلام فطرح في يده جمرة ، فطرحها موسى عليه السلام في فيه فاحرقت لسانه ، فارادوا له المرضعات فلم يأخذ من أحد من النساء ، وجعلن النساء يطلبن ذلك لينزلن عند فرعون في الرضاع فأبى أن يأخذ .

فجاءت أخته فقالت : ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ فأخذوها فقالوا : إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت : ما أعرفه ولكن إنما هم للملك ناصحون . فلما جاءته أمه أخذ منها . وكادت تقول : هو ابني . فعصمها الله فذلك قوله ﴿ إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ قال : قد كانت من المؤمنين ولكن بقول : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ قال السدي : وإنما سمي موسى لأنهم وجدوه في ماء وشجر والماء بالنبطية مو الشجر سى .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ نتلو عليك من نبأ

موسى وفرعون ﴾ يقول : في هذا القرآن نبؤهم ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ أي بغى في الأرض ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أي فرقاً .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ قال : فرق بينهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ قال : يتعبد طائفة ، ويقتل طائفة ، ويستحيي طائفة .

أما قوله تعالى : ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ .

(61/584)

أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال : لقد ذكر لنا أنه كان يأمر بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار ، ثم يصف بعضه إلى بعض ، ثم يؤتى بحبالى من بني إسرائيل فيوقفن عليه ، فيجز أقدامهن حتى أن المرأة منهم لتضع بولدها ، فيقع بين رجليها ، فتظل تطؤه وتتقي به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها . حتى أسرف في ذلك وكان يفنيهم قيل له : أفنيت الناس ، وقطعت النسل ، وإنما هم خولك وعمالك ، فتأمر أن يقتلوا الغلمان عاماً ، ويستحيوا عاماً ، فولد هرون عليه السلام في السنة التي يستحيي فيها

الغلمان ، وولد موسى عليه السلام في السنة التي فيها يقتلون ، وكان هرون عليه السلام أكبر منه بسنة ، فلما أراد الله بموسى عليه السلام ما أراد واستنقاذ بني إسرائيل مما هم فيه من البلاء ، أوحى الله إلى أم موسى حين تقارب ولادها ﴿ أن أرضعيه ﴾ [القصص : 7] .

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ قال : يوسف وولده .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ قال : هم بنو إسرائيل ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ أي هم ولاة الأمر ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ أي يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ﴿ ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ قال : ما كان القوم حذروه .

(62/584)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ قال : يرثون الأرض بعد آل فرعون ، وفي قوله ﴿ ونري فرعون ﴾ الآية قال : كان حازي يحزي لفرعون فقال : إنه يولد في هذا العام غلام يذهب بملككم

وكان فرعون ﴿ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾ حذراً لقول الحازي فذلك قوله ﴿ ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله قال : قال عمر رضي الله عنه : إني استعملت عمالاً لقول الله ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(63/584)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ نَتْلُواْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مفعولُه محذوفاً ، دَلَّتْ عليه صفتُه وهي ﴿ مِن نَّبَإِ موسى ﴾ ، تقديرُه : نَتْلو عليك شيئاً مِنْ نَبأ موسى . ويجوز أَنْ تكونَ " مِنْ " مزيدةً على رَأْيِ الأخفش . أي : نَتْلُو عليك نَبَأ موسى .

قوله : ﴿ بالحق ﴾ يجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعلِ " نَتْلو " أو من مفعولِه أي : مُلْتبسين أو مُلْتبساً بالحقِّ ، أو متعلقٌ بنفسِ " نَتْلو " بمعنى : نَتْلوه بسببِ الحقِّ . و " لقوم " / متعلقٌ بفعلِ التلاوةِ أي : لأجلِ هؤلاء .

قوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ : هذا هو المتلوُّ فجيءَ به في جملةٍ مستأنفةٍ مؤكّدة .

قوله : ﴿ يَسْتَضْعِفُ ﴾ يجوزُ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : أنه مستأنَفٌ ، بيانٌ بحالِ الأهل الذين جَعَلهم فِرَقاً وأصنافاً . الثاني : أنه حالٌ مِنْ فاعلِ " جَعَل " أي : جعَلَهم كذا حالَ كونِه مُسْتَضْعِفاً طائفةً منهم . الثالث : أنه صفةٌ ل " شِيَعاً " .

قوله : ﴿ يُذَبِّحُ ﴾ يجوزُ فيه ثلاثةُ الأوجهِ : الاستئنافُ تفسيراً ل " يَسْتَضْعِفُ " ، أو الحالُ مِنْ فاعِله ، أو صفةٌ ثانيةٌ لطائفة . والعامَّةُ على التشديدِ في " يُذَبِّح " للتكثير . وأبو حيوة وابن محيصن " يَذْبَحُ " مفتوحَ الياءِ والباءِ مضارعَ " ذَبَحَ " مخففاً .

قوله : ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ : فيه وجهان ، أظهرُهما : أنه عطفٌ على قولِه : " إنَّ فرعونَ " ، عطفَ فعليةٍ على اسميةٍ ، لأنّ كلتيهما تفسيرٌ للنبأ . والثاني : أنَّها حالٌ مِنْ فاعلِ " يَسْتَضْعِفُ " . وفيه ضعفٌ من حيث الصناعةُ ، ومن حيث المعنى . أمَّا الصناعةُ فلكونِه مضارعاً مُثْبتاً فحقُّه أن يتجرَّد مِن الواوِ . وإضمارُ مبتدأ قبلَه أي : ونحن نريدُ كقولِه :

3584 . . . . . .

. . . . . وأرْهَنُهُمْ مالِكاً

تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه . وأمَّا المعنى فكيف يَجْتمع استضعافُ فرعونَ وإرادةُ المِنَّةِ من الله ؟ لأنه متى مَنَّ الله عليهم تَعَذَّرَ استضعافُ فرعونَ إياهم . وقد أُجيب عن ذلك . بأنَّه لمَّا كانت المِنَّةُ بخلاصِهم مِنْ فرعونَ سريعةَ الوقوعِ ، قريبتَه ، جُعِلَتْ إرادةُ وقوعِها كأنها مقارِنَةٌ لاستضعافِهم .

قوله : ﴿ وَنُمَكِّنَ ﴾ : العامَّةُ على ذلك مِنْ غير لامِ علةٍ . والأعمش " ولِنُمَكِّنَ " بلامِ العلةِ ، ومتعلَّقُها محذوفٌ أي : ولنمكِّنَ فَعَلْنا ذلك .

قوله : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ ﴾ قرأ الأخوانَ " يرى " بفتح الياءِ والراءِ مضارعَ " رَأى " مسنداً إلى فرعونَ وما عُطِفَ عليه فلذلك رفعوا . والباقون بضمِّ النون وكسرِ الراءِ مضارعَ " أرى " ؛ ولذلك نُصِبَ فرعنن وما عُطِف عليه مفعولاً أولَ . و " ما كانوا " هو الثاني و " منهم " متعلِّقٌ بفعلِ الرؤيةِ أو الإراءة ، لا ب " يَحْذَرون " لأنَّ ما بعد الموصولِ لا يَعْمَلُ فيما قبلَه . ولا ضرورةَ بنا إلى أَنْ نقول : اتُسِعَ فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 651.649 ﴾

(65/584)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة القصص

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم الله اسم عزيز من تعرض لجدواه يسر له دنياه وعقباه ، اسم عزيز من اشتاق إلى لقياه استعذب فيه ما يلقاه من بلواه ، ومن طلب غيره مؤنسا في دنياه أو عقباه (ضل من تدعون إلا إياه) [الإسراء : 67]

قوله جل ذكره : (طسم تلك آيات الكتاب المبين)

" الطاء " تشير إلى طهارة نُفُوسِ العابدين عن عبادة غير الله ، وطهارة قلوب العارفين عن تعظيم غير الله ، وطهارة أرواح الواجدين عن محبة غير الله ، وطهارة أسرار الموحّدين عن شهود غير الله . " والسين " تشير إلى سِرِّ اللَّهِ مع العاصين بالنجاة ، ومع المطيعين بالدرجات ، ومع المحبين بدوام المناجاة . " والميم " تشير إلى مِنَّتِه على كافة المؤمنين بكفاية الأوقات والثبات في سبيل الخيرات .

نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

سماعُ قصةِ الحبيبِ من الحبيبِ يُوجِبُ سلوةَ القلب ، وذهابَ الكَرْبِ ، وبهجةَ السِّرِّ ، وثَلَج الفؤاد . وقد كرَّر ذكر قصة موسى تفخيماً لشأنه وتعظيماً لقَدْرِه ، ثم زيادةً في البيان لبلاغة

القرآن ، ثم إفادةً لزوائدَ في المذكور قولُه في كل موضع يتكرر فيه .

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

تكبَّر فرعونُ بغير حقٍّ فأقماه بحقٍّ ، وتجبَّرَ بغير استحقاق فأذَلَّه الله باستحقاق واستيجاب ، وجعل أهلها شيعاً يذبِّح أبناءَهم بعد ما استضعفهم ، ويستحي نساءَهم ، وأفنى منهم من كان (. . .) ، وبالفساد حَكَمَ فيهم ، واللَّهُ لم يرضَ بتَرْكِ إتلافهم .

(66/584)

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)

نريد أن نَمُنَّ على المستَضْعَفِين بالخلاص من أيديهم ، وأَنْ نجعلَهم أئمةً ، بهم يَهْتَدِي الخَلْقُ ، ومنهم يتعلم الناسُ سلوكَ طريق الصدق ، ونبارك في أعمارهم ، فيصيرون وارثين لأعمار مَنْ يُنَاويهم ، وتصير إليهم مساكنهم ومنازلهم ؛ فهم هُدَاةٌ وأعلامٌ ، وسادةٌ وقَادَةٌ ؛ بهم يُقْتَدَى وبنُورهم يُهْتَدَى .

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ : نُزِيلُ عنهم الخوفَ ، ونرزقهم البسط والاقتدار ، ونمد لَهُمْ في الأجل . ونُرِى فرعونَ وهامانَ وقومهما ما كانوا يحذرون من زوال مُلْكِهم على أيديهم ؛

وأَنَّ الحقَّ يُعْطِي – وإن كان عند الخَلْق أَنَّهُ يُبْطي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 53.54 ﴾

(67/584)

قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فكان ما أردناه ، وطاح ما أراد غيرنا ، فأولدنا من بني إسرائيل الولد الذي كان يحذره فرعون على ملكه ، وكان يذبح أبناء بني إسرائيل لأجله ، وقضينا بأن يسمى موسى ، بسبب أنه يوجد بين ماء وشجر ، ونربيه في بيت الذي يحذره ويحتاط لأجله ، عطف على هذا المعلوم التقدير أول نعمة منّ بها على الذين استضعفوا فقال : ﴿ وأوحينا ﴾ أي أوصلنا بعظمتنا بطريق خفي ، الله أعلم به هل هو ملك أو غيره ، إذ لا

بدع في تكليم الملائكة الولي من غير نبوة ﴿ إلى أم موسى ﴾ أي الذي أمضينا في قضائنا أنه يسمى بهذا الاسم ، وأن يكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يده ، بعد أن ولدته وخافت أن يذبحه الذباحون ﴿ أن أرضعيه ﴾ ما كنت آمنة عليه ، وحقق لها طلبهم لذبحه بقوله : ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ أي منهم أن يصيح فيسمع فيذبح ﴿ فألقيه ﴾ أي بعد أن تضعيه في شيء يحفظه من الماء ﴿ في اليم ﴾ أي النيل ، واتركي رضاعه ، وعرفه وسماه يماً – واليم : البحر – لعظمته على غيره من الأنهار بكبره وكونه من الجنة ، وما يحصل به من المنافع ، وعدل عن لفظ البحر إلى اليم لأن القصد فيه أظهر من السعة ؛ قال الرازي في اللوامع : وهذا إشارة إلى الثقة بالله ، والثقة سواد عين التوكل ، ونقطة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم ، ولها درجات : الأولى درجة الأياس ، وهو أياس العبد من مقاواة الأحكام ، ليقعد عن منازعة الإقسام ، فيتخلص من صحة الإقدام ؛ والثانية درجة الأمن ، وهو أمن العبد من فوت المقدور ، وانتقاص المسطور ، فيظفر بروح الرضى وإلا فبعين اليقين ، وإلا فبطلب الصبر ؛ والثالثة معاينة أولية الحق جل جلاله ، ليتخلص من محن المقصود ، وتكاليف الحمايات ، والتعريج على مدارج الوسائل .

﴿ ولا تخافي ﴾ أي لا يتجدد لك خوف أصلاً من أن يغرق أو يموت من ترك الرضاع وإن طال المدى أو يوصل إلى أذاه ﴿ ولا تحزني ﴾ أي ولا يوجد لك حزن لوقوع فراقه .

ولما كان الخوف عما يلحق المتوقع ، والحزن عما يلحق الواقع ، علل نهيه عن الأمرين ، بقوله في جملة اسمية دالة على الثبات والدوام ، مؤكدة لاستبعاد مضمونها : ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ فأزال مقتضى الخوف والحزن ؛ ثم زادها بشرى لا تقوم لها بشرى بقوله : ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ أي الذين هم خلاصة المخلوقين ، والآية من الاحتباك ، ذكر الإرضاع أولاً دليلاً على تركه ثانياَ ، والخوف ثانياً دليلاً على الأمن أولاً ، وسره أنه ذكر المحبوب لها تقوية لقلبها وتسكيناً لرعبها .

ولما كان الوحي إليها بهذا سبباً لإلقائه في البحر .

وإلقاؤه سبباً لالتقاطه ، قال : ﴿ فالتقطه ﴾ أي فأرضعته فلما خافت عليه صنعت له صندوقاً وقيرته لئلا يدخل إليه الماء وأحكمته وأودعته فيه وألقته في بحر النيل ، وكأن بيتها كان فوق بيت فرعون ، فساقه الماء إلى قرب بيت فرعون ، فتعوق بشجر هناك ، فتلكف جماعة فرعون التقاطه ، قال البغوي : والالتقاط وجود الشيء من غير طلب .

﴿ آل فرعون ﴾ بأن أخذوا الصندوق ، فلما فتحوه وجدوا موسى عليه السلام فأحبوه لما ألقى الله تعالى عليهم ممن محبته فاتخذوه ولداً وسموه موسى ، لأنهم وجدوه في ماء وشجر ، وموبلسانهم : الماء ، وسا : الشجر .

ولما كانت عاقبة أمره إهلاكهم ، وكان العاقل لا سيما المتحذلق ، لا ينبغي له أن يقدم على

شيء حتى يعلم عاقبته فكيف إذا كان يدعي أنه إله ، عبر سبحانه بلام العاقبة التي معناها التعليل ، تهكماً بفرعون – كما مضى بيان مثله غير مرة – في قوله : ﴿ ليكون لهم عدواً ﴾ أي بطول خوفهم منه بمخالفته لهم في دينهم وحملهم على الحق ﴿ وحزناً ﴾ أي بزوال ملكهم ، لأنه يظهر فيهم الآيات التي يهلك الله بها من يشاء منهم ، ثم يهلك جميع أبكارهم فيخلص جميع بني إسرائيل منهم ، ثم يظفر بهم كلهم .

(69/584)

فيهلكهم الله بالغرق على يده إهلاك نفس واحدة ، فيعم الحزن والنواح أهل ذلك الإقليم كله ، فهذه اللام للعلة استعيرت لما أنتجته العلة التي قصدوها – وهي التبني وقرة العين – من الهلاك ، كما استعير الأسد للشجاع فأطلق عليه ، فقيل : زيد أسد .

لأن فعله كان فعله ، والمعنى على طريق التهكم أنهم ما أخذوه إلا لهذا الغرض ، لأنا نحاشيهم من الإقدام على ما يعلمون آخر أمره .

ولما كان لا يفعل هذا الفعل إلا أحمق مهتور أو مغفل مخذول لا يكاد يصيب على ذلك بالأمرين فقال : ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما ﴾ أي كلهم على طبع واحد ﴿ كانوا خاطئين ﴾ أي دأبهم تعمد الذنوب ، والضلال عن المقاصد ، فلا بدع في خطائهم في أن

يربّوا من لا يذبحون الأبناء إلاّ من أجله ، مع القرائن الظاهرة في أنه من بني إسرائيل الذين يذبحون أبناءهم ؛ قال في الجمع بين العباب والمحكم : قال أبو عبيد : أخطأ وخطأ – لغتان بمعنى واحد ، وقال ابن عرفة : يقال : خطأ في دينه وأخطأ – إذا سلك سبيل خطأ عامداً أو غير عامد .

وقال الأموي ، المخطىء من أراد الصواب فصار إلى غيره ، والخاطىء : من تعمد ما لا ينبغي ، وقال ابن ظريف في الأفعال : خطىء الشيء خطأ وأخطأه : لم يصبه .

ولما أخبر تعالى عن آخر أمرهم معه ، تخفيفاً على السامع بجمع طرفي القصة إجمالاً وتشويقاً إلى تفصيل ذلك الإجمال ، وتعجيلاً بالتعريف بخطائهم ليكون جهلهم الذي هو أصل شقائهم مكتنفاً لأول الكلام وآخره ، أخبر عما قيل عند التقاطه فقال عاطفاً على ﴿ فالتقطه ﴾ : ﴿ وقالت امرأة فرعون ﴾ أي لفرعون لما أخرجته من التابوت ، وهي التي قضى الله أن يكون سعادة ، وهي آسية بنت مزاحم إحدى نساء بني إسرائيل – نقله البغوي : ﴿ قرت عين لي ﴾ أي به ﴿ ولك ﴾ أي يا فرعون .

(70/584)

ولما أثبت له أنه ممن تقر به العيون ، أنتج ذلك استبقاءه ، ولذلك نهت عن قتله وخافت أن تقول : لا تقتله ، فيجيبها حاملاً له على الحقيقة ثم يأمر بقتله ، ويكون مخلصاً له عن الوقوع في إخلاف الوعد ، فجمعت قائلة : ﴿ لا تقتلوه ﴾ أي أنت بنفسك ولا أحد ممن تأمره بذلك ، ثم عللت ذلك أو استأنفت فقالت : ﴿ عسى ﴾ أي يمكن ، وهو جدير وخليق ﴿ أن ينفعنا ﴾ أي لما أتخيل فيه النجابة ولو كان له أبوان معروفان ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ إن لم يعرف له أبوان ، فيكون نفعه أكثر ، فإنه أهل لأن يتشرف به الملوك .

ولما كان هذا كله فعل من لا يعلم ، فلا يصح كونه إلهاً ، صرح بذلك تسفيهاً لمن أطاعه في ادعاء ذلك فقال : ﴿ وهم ﴾ أي تراجعوا هذا القول والحال أنهم ﴿ لا يشعرون ﴾ أي لا شعور لهم أصلاً ، لأن من لا يكون له علم إلا بالاكتساب فهو كذلك ، فكيف إذا كان لا يهذب نفسه باكتسابه ، فكيف إذا كان مطبوعاً على قلبه وإذا كانوا كذلك فلا شعور لهم بما يؤول إليه أمرهم معه من الأمور الهائلة المؤدية إلى هلاك المفسدين ليعلموا لذلك أعماله من الاحتراز منه بما ينجيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 465 . 467 ﴾

(71/584)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين ﴾ [القصص : 5] ابتدأ بذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ والكلام في هذا الوحي ذكرناه في سورة طه (37 ، 38) في قوله : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى * إِذْ أَوْحَيْنَا إلى أُمّكَ مَا يوحى ﴾ وقوله : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ كالدلالة على أنها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك ، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ أن يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى اليم ﴾ قال ابن جريج : إنه بعد أربعة أشهر صاح فألقى في اليم والمراد باليم ههنا النيل ﴿ وَلاَ تَخَافِى وَلاَ تَحْزَنِى ﴾ والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله في المستقبل ، والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل في الماضي ، فكأنه قيل ولا تخافي من هلاكه ولا تحزني بسبب فراقه و ﴿ إنا رادّوه إليك ﴾ لتكوني أنت المرضعة له ﴿ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾ إلى أهل مصر والشام وقصة الإلقاء في اليم قد تقدمت في سورة طه .

(72/584)

وقال ابن عباس : (1) إن أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التي وكلهم فرعون بالحبالى مصافية لأم موسى عليه السلام فلما أحست بالطلق أرسلت إليها وقالت لها قد نزل بي ما نزل ولينفعني اليوم حبك إياي فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام إلى الأرض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها ، ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت يا هذه ما جئتك إلا لقتل مولودك ، ولكني وجدت لابنك هذا حباً شديداً فاحتفظي بابنك ، فإنه أراه عدونا ، فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس فلفته ووضعته في تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع ، فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا لم دخلت القابلة عليك ؟ قالت إنها حبيبة لي دخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى أين الصبي ؟ قالت لا أدري فسمعت بكاء في التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً فأخذته ، ثم إن أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في قلبها أن تتخذ له تابوتاً ثم تقذف التابوت في النيل ، فذهبت إلى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتاً فقال لها ما تصنعين به ؟ فقالت ابن لي أخشى عليه كيد فرعون أخبؤه فيه وما عرفت أنه يفشي ذلك الخبر ، فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده ، فضربوه وطردوه فلما عاد إلى

موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد إلى موضعه رد الله نطقه ، فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه ، فجعل لله تعالى أنه إن رد عليه بصره ولسانه فإنه لا يد لهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى وألقته في النيل ، وكان

---

(1) هذا الكلام يفتقر إلى سند صحيح . والله أعلم بحقائق الأمور .

(73/584)

لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الأطباء والسحرة في أمرها ، فقالوا أيها الملك لا تبرأ هذه إلا من قبل البحر يوجد منه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك ، وذلك في يوم كذا في شهر كذا حين تشرق الشمس ، فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على الشاطىء إذ أقبل النيل بتابوت تضربه الأمواج وتعلق بشجرة ، فقال فرعون ائتوني به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه ، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه ، فنظرت آسية فرأت نوراً في جوف

التابوت لم يره غيرها فعالجته وفتحته ، فإذا هي بصبي صغير في المهد وإذا نور بين عينيه فألقى الله محبته في قلوب القوم ، وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون إنا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه رمي في البحر فرقاً منك فهم فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله .

أما قوله : ﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ ﴾ فالالتقاط إصابة الشيء من غير طلب ، والمراد بآل فرعون جواريه .

أما قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ فالمشهور أن هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا وإلا نقض قوله : ﴿ وَقَالَتِ امرأت فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لّى وَلَكَ ﴾ ونقض قوله : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مّنّى ﴾ [طه : 39] ونظير هذه اللام قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ [الأعراف : 179] وقوله الشاعر :

(74/584)

لدوا للموت وابنوا للخراب . . واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب "الكشاف" وهو أن هذه اللام هي لام التعليل على سبيل المجاز ، وذلك لأن مقصود الشيء وغرضه يؤول إليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول إليه الشيء على سبيل التشبيه ، كإطلاق لفظ الأسد

على الشجاع والبليد على الحمار ، قرأ حمزة والكسائي (حزناً) بضم الحاء وسكون الزاي والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السقم والسقم .

أما قوله : كانوا خاطئين ففيه وجهان : أحدهما : قال الحسن معنى ﴿ كَانُواْ خاطئين ﴾ ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون أنه الذي يذهب بملكهم ، وأما جمهور المفسرين فقالوا معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم ، فعاقبهم الله تعالى بأن ربي عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، وقرىء ﴿ خاطين ﴾ تخفيف خاطئين أي خاطين الصواب إلى الخطأ وبين تعالى أنها التقطته ليكون قرة عين لها وله جميعاً ، قال ابن إسحق إن الله تعالى ألقى محبته في قلبها لأنه كان في وجهه ملاحة كل من رآه أحبه ، ولأنها حين فتحت التابوت رأت النور ، ولأنها لما فتحت التابوت رأته يمتص إصبعه ، ولأن ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال ما كان لها ولد فأحبته ، قال ابن عباس لما قالت : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لّى وَلَكَ ﴾ فقال فرعون يكون لك وأما أنا فلا حاجة لي فيه ، فقال عليه السلام

" والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها "

قال صاحب "الكشاف" ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدأ ﴿ وَلاَ تقاتلوهم ﴾ خبراً ولو نصب لكان أقوى ، وقراءة ابن مسعود دليل على أنه خبر ، قرأ

﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ، وذلك لتقديم لا تقتلوه ، ثم قالت المرأة ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ فنصيب منه خيراً ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ لأنه أهل للتبني .

(75/584)

أما قوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ فأكثر المفسرين على أنه ابتداء كلام من الله تعالى أي لا يشعرون أن هلاكهم بسببه وعلى يده ، وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل ، وقال ابن عباس يريد لا يشعرون إلى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام .

وقال آخرون هذا من تمام كلام المرأة أي لا يشعر بنو إسرائيل وأهل مصر أن التقطناه ، وهذا قول الكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 194.196 ﴾

(76/584)

وقال الماوردى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أنه إلهام من الله قد قذفه في قلبها وليس بوحي نبوة ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : أنه كان رؤيا منام ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أنه وحي من الله إليها مع الملائكة كوحيه إلى النبيين ، حكاه قطرب .

﴿ أَنْ أَرْضِعِيه ﴾ قال مجاهد : كان الوحي بالرضاع قبل الولادة ، وقال غيره بعدها .

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ يعني القتل الذي أمر به فرعون في بني إسرائيل

. ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ واليم : البحر وهو النيل

. ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لا تخافي عليه الغرق ، قاله ابن زيد .

الثاني : لا تخافي عليه الضيعة ، قاله يحيى بن سلامة .

﴿ وَلَا تَحْزَنِي ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لا تحزني على فراقه ، قاله ابن زيد .

الثاني : لا تحزني أن يقتل ، قال يحيى بن سلام .

فقيل : إنها جعلته في تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته في البحر بعد أن أرضعته أربعة أشهر وقال آخرون ثمانية أشهر في حكاية الكلبي . وحكي أنه لما فرغ النجار من صنعه التابوت أتى إلى فرعون يخبره فبعث معه من يأخذه فطمس الله على عينه وقلبه فلم يعرف الطريق فأيقن أنه المولود الذي تخوف فرعون

منه فآمن من ذلك الوقت وهو مؤمن آل فرعون .

قال ابن عباس : فلما توارى عنها ندَّمها الشيطان وقالت في نفسها لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب أليّ من إلقائه بيدي إلى دواب البحر وحيتانه ، فقال الله : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ . . . ﴾ الآية ، حكى الأصمعي قال : سمعت جارية أعرابية تنشد :

استغفر الله لذنبي كله . . . قبلت إنساناً بغير حلّه

مثل الغزال ناعماً في دَله . . . فانتصف الليل ولم أُصله

(77/584)

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أوَيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ . . . ﴾ الآية ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قوله ﴿ فَالْتَقَطَهُ ءَآلُ فِرْعَوْنَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه التقطه جواري امرأته حين خرجن لاستسقاء الماء فوجدن تابوته فحملنه إليها ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن امرأة فرعون خرجت إلى البحر وكانت برصاء فوجدت تابوته فأخذته فبرئت

من برصها فقالت : هذا الصبي مبارك ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدوّاً وَحَزَناً ﴾ أي ليكون لهم عَدُوّاً وحزناً في عاقبة أمره ولم يكن لهم في الحال عدوّاً ولا حزناً لأن امرأة فرعون فرحت به وأحبته حباً شديداً فذكر الحال بالمآل كما قال الشاعر :

وللمنايا تربي كل مرضعةٍ . . . ودورنا لخراب الدهر نبنيها .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن أصحاب فرعون لما علموا بموسى جاءوا ليذبحوه فمنعتهم وجاءت به إلى فرعون وقالت : قرة عين لي ولك .

﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ فقال فرعون : قرة عين لك فأما لي فلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوْ أَقَرَّ فِرْعَونُ بِأَنَّهُ يَكُونُ لَهُ قُرَّةُ عَيْنٍ كَمَا أَقَرَّت امْرَأَتُهُ لَهَدَاهُ اللَّهُ بِهِ كَمَا هَدَاهَا وَلَكِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُ ذَلِكَ

" وفي قرة العين وجهان

: أحدهما : أنه بردها بالسرور مأخوذ من القر وهو البرد .

الثاني : أنه قر فيها دمعها فلم يخرج بالحزن مأخوذ من قر في المكان إذا أقام فيه .

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنّ هلاكهم على يديه وفي زمانه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾

وهذا " الوحي " ﴿ إلى أم موسى ﴾ قالت فرقة : كان قولاً في منامها ، وقال قتادة : كان إلهاماً ، وقالت فرقة : كان بملك تمثل لها ، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية ، وإنما إرسال الملك لها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص في الحديث المشهور وغير ذلك مما روي من تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وجملة أمر أم موسى أنها علمت أن الذي وقع في نفسها هو من عند الله ووعد منه ، يقتضي ذلك قوله تعالى بعد : ﴿ رددناه إلى أمه كي تقرَّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ [القصص : 13] وهذا معنى قوله ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ [القصص : 10] أي بالوعد ، وقال السدي وغيره : أمرت أن ترضعه عقب الولادة وتصنع به ما في الآية . لأن الخوف كان عقب كل ولادة ، وقال ابن جريج : أمرت برضاعه أربعة أشهر في بستان فإذا خافت أن يصيح لأن لبنها لا يكفيه ، صنعت به هذا . قال القاضي أبو محمد : والأول أظهر إلا أن الآخر يعضده أمران : أحدهما قوله ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ و " إذا " ظرف لما يستقبل من الزمان ، والآخر أنه لم يقبل المراضع والطفل

إثر ولادته لا يعقل ذلك ، اللهم إلا أن يكون هذا منه بأن الله تعالى حرمها عليه وجعله يأباها بخلاف سائر الأطفال ، وقرأ عمرو بن عبد الواحد " أن ارضعيه " بكسر النون وذلك على حذف الهمزة عبطاً لا تخفيفاً ، والتخفيف القياسي فتح النون قاله ابن جني ، ونسب المهدوي هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه و ﴿ اليم ﴾ جمهور الماء ومعظمه ، والمراد نيل مصر ، وروي في قصص هذه الآية أن أم موسى واسمها يوحانه أخذته ولفته في ثيابه وجعلت له تابوتاً صغيراً وسدته عليه بقفل وعلقت مفتاحة عليه وأسلمته ثقة بالله وانتظاراً لوعده فلما غاب عنها عاودها بثها وأسفت عليه وأقنطها الشيطان فاهتمت به وكادت تفتضح وجعلت الأخت تقصه أي تطلب أثره .

(79/584)

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

" الالتقاط " اللقاء على غير قصد وروية ، ومنه قول الشاعر [نقادة الأسدي] : [الرجز]

ومنهم وردته التقاطا . . . لم ألق إذ وردته فراطا

إلا الحمام القمر والغطاطا . . . فهن يلغطن به إلغاطا

ومنه اللغطة و ﴿ آل فرعون ﴾ أهله وجملته ، وروي أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت

يعوم في اليم فأمرت بسوقه وفتحته فرأت فيه صبياً صغيراً فرحمته وأحبته ، وقال السدي : إن جواريها كان لهن في القصر على النيل فرضة يدخل الماء فيها إلى القصر حتى ينلنه في المرافق والمنافع فبينا هنّ يغسلن في تلك الفرضة إذ جاء التابوت فحملته إلى مولاتهن ، وقال ابن إسحاق : رآه فرعون يعوم فأمر بسوقه وآسية جالسة معه فكان ما تقدم ، وقوله تعالى : ﴿ ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ هي لام العاقبة لا أن المقصد بالالتفاظ كان لأن يكون عدواً ، وقرأ الجمهور " وحَزَناً " بفتح الحاء والزاي .

(80/584)

وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب وطلحة والأعمش " وحُزْناً " بضم الحاء وسكون الزاي ، و" الخاطىء " متعمد الخطأ ، والمخطىء الذي لا يتعمده ، واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ ، فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاط التابوت لما أشعرت فرعون به سبق إلى وهمه أنه من بني إسرائيل وأن ذلك قصد به ليخلص من الذبح فقال عليّ بالذباحين فقالت امرأته ما ذكر فقال فرعون : أما لي فلا ، قال النبي صلى الله عليه وسلم " لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرة عين له " ، وقال السدي : بل ربته حتى درج فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وأخذه في يده فمد موسى

يده ونتف لحية فرعون فهم حينئذ بذبحه وحينئذ خاطبته بهذا وجربته له في الجمرة واليا قوته فاحترق لسانه وعلق العقدة ، وقوله ﴿ لا يشعرون ﴾ أي بأنه الذي يفسد الملك على يديه قال قتادة وغيره ، وقرأ ابن مسعود " لا تقتلوه قرة عين لي ولك " قدم وأخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(81/584)

وقال ابن الجوزى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ طسم ﴾ قد سبق تفسيره [الشعراء] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فرعون علا في الأرض ﴾ أي : طغى وتجبَّر في أرض مصر ﴿ وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً ﴾ أي : فِرَقاً وأصنافاً في خدمته ﴿ يَسْتضعف طائفةً منهم ﴾ وهم بنو إِسرائيل ، واستضعافه إِيّاهم : استعبادُهم ﴿ إِنَّه كان مِنَ المُفْسِدِينَ ﴾ بالقتل والعمل بالمعاصي .

﴿ يُذَبِّحُ أبناءَهم ﴾ وقرأ أبو رزين ، والزهري ، وابن محيصن ، وابن أبي عبلة : ﴿ يَذْبَحُ ﴾ بفتح الياء وسكون الذال خفيفة .

قوله تعالى : ﴿ ونُريدُ أن نَمُنَّ ﴾ أي : نُنْعِم ﴿ على الذين استُضْعِفوا ﴾ وهم بنو إِسرائيل

﴿ ونَجْعَلَهم أئمَّةً ﴾ يُقتدى بهم في الخير؛ وقال قتادة: وُلاةً وملوكاً ﴿ ونجعلَهم الوارِثين ﴾ لمُلك فرعون بعد غرَقه.

قوله تعالى: ﴿ ونُرِيَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف ﴿ ويَرِى ﴾ بياء مفتوحة وإمالة الألف التي بعد الراء ﴿ فرعونُ وهامانُ وجنودُهما ﴾ بالرفع.

ومعنى الآية: أنهم أُخبِروا أن هلاكهم على يَدَي رجل من بني إسرائيل، فكانوا على وَجَل منهم، فأراهم اللّهُ ما كانوا يَحْذَرون.

قوله تعالى: ﴿ وأَوحينا إلى أُمِّ موسى ﴾

فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنَّه إلهام، قاله ابن عباس.

والثاني: أنَّ جبريل أتاها بذلك، قاله مقاتل.

والثالث: أنَّه كان رؤيا منام، حكاه الماوردي.

قال مقاتل: واسم أم موسى "يوخابذ".

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيه ﴾ قال المفسرون : كانت امرأةٌ من القوابل مصافية لأم موسى ، فلمَّا وضعتْه تولَّت أمرها ثم خرجت فرآها بعض العيون فجاؤوا ليدخلوا على أم موسى ، فقالت أخته : يا أُمَّاه هذا الحرس بالباب ، فلفَّت موسى في خرقة ووضعته في التَّنُّور وهو مُسْجَر ، فدخلوا ثم خرجوا ، فقالت لأخته : أين الصبيُّ ، قالت : لا أدري ، فسمعت بكاءه من التَّنُّور فاطَّلعت وقد جعل الله عليه النَّار بَرْداً وسلاماً ، فأرضعته بعد ولادته ثلاثة أشهر ، وقيل : أربعة أشهر ، فلمَّا خافت عليه صنعت له التابوت .

وفي قوله : ﴿ فإذا خِفْتِ عليه ﴾ قولان .

أحدهما : إذا خِفْتِ عليه القتل ، قاله مقاتل .

والثاني : إذا خِفْتِ [عليه] أن يصيح أو يبكي فيُسمع صوتُه ، قاله ابن السائب .

وفي قوله : ﴿ ولا تَخافي ﴾ قولان .

أحدهما : أن يغرق ، قاله ابن السائب .

والثاني : أن يضيع ، قاله مقاتل .

وقال الأصمعي : قلت لأعرابية : ما أفصحكِ ! فقالت : أوَ بعد هذه الآية فصاحة وهي قوله ﴿ وأَوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنَّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ جمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ؟ !

قوله تعالى : ﴿ فالتقَطَه آلُ فرعون ﴾ الالتقاط : إِصابة الشيء من غير طلب ، والمراد بآل فرعون : الذين تولَّوا أخذ التابوت من البحر .

وفي الذين التقطوه ثلاثة أقوال .

أحدها : جواري امرأة فرعون ، قاله السدي .

والثاني : ابنة فرعون ، قاله محمد بن قيس .

والثالث : أعوان فرعون ، قاله ابن إِسحاق .

قوله تعالى : ﴿ لِيَكونَ لهم عدوّاً ﴾ أي : ليصير بهم الأمر إِلى ذلك ، لا أنهم أخذوه لهذا ، وهذه اللام تسمى لام العاقبة ، وقد شرحناه في [يونس : 88] .

وللمفسرين في معنى الكلام قولان .

أحدهما : ليكون لهم عَدُوّاً في دينهم وحَزَناً لِمَا يصنعه بهم .

(83/584)

والثاني : عدوّاً لرجالهم وحَزَناً على نسائهم ، فقتل الرجال بالغرق ، واستعبد النساء .

﴿ وقالت امرأة فرعون ﴾ وهي آسية بنت مزاحم ، وكانت من بني إِسرائيل تزوجها فرعون : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ ﴾ قال الزجاج : رفع ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ ﴾ على إِضمار "هو" .

قال المفسرون : كان فرعون لا يولد له إلا البنات ، فقالت : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فنُصيب منه خيراً ﴿ أو نَتَّخِذَه ولداً ﴾ ، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدها : لا يشعرون أنَّه عدوٌّ لهم ، قاله مجاهد .

والثاني : أنَّ هلاكهم على يديه ، قاله قتادة .

والثالث : لا يشعر بنو إسرائيل أنَّا التقطناه ، قاله محمد ابن قيس .

والرابع : لا يشعرون أنِّي أفعل ما أريد لا ما يريدون ، قاله محمد ابن إسحاق . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(84/584)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

قد تقدّم معنى الوحي ومحامله .

واختلف في هذا الوحي إلى أم موسى ؛ فقالت فرقة : كان قولاً في منامها .

وقال قتادة : كان إلهاماً .

وقالت فرقة : كان بمَلَك يمثَّل لها .

قال مقاتل : أتاها جبريل بذلك ، فعلى هذا هو وحي إعلام لا إلهام .

وأجمع الكل على أنها لم تكن نبية ، وإنما إرسال المَلك إليها على نحو تكليم المَلك للأقرع والأبرص والأعمى في الحديث المشهور ؛ خرجه البخاري ومسلم ، وقد ذكرناه في سورة "براءة" .

وغير ذلك مما روي من تكليم الملائكة للناس من غير نبوّة ، وقد سلمت على عمران بن حصين فلم يكن بذلك نبياً .

واسمها أيارخا وقيل أيارخت فيما ذكر السهيلي .

وقال الثعلبي : واسم أم موسى لوحا بنت هاند بن لاوي بن يعقوب .

﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وقرأ عمر بن عبد العزيز : ﴿ أَنِ ارْضِعِيهِ ﴾ بكسر النون وألف وصل ؛ حذف همزة أرضع تخفيفاً ثم كسر النون لالتقاء الساكنين .

قال مجاهد : وكان الوحي بالرضاع قبل الولادة .

وقال غيره بعدها .

قال السدي : لما ولدت أمّ موسى موسى أمرت أن ترضعه عقيب الولادة وتصنع به بما في الآية ؛ لأن الخوف كان عقيب الولادة .

وقال ابن جريج : أمرت بإرضاعه أربعة أشهر في بستان ، فإذا خافت أن يصيح لأن لبنها لا يكفيه صنعت به هذا .

والأوّل أظهر إلا أن الآخر يعضده قوله : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ و ﴿ إِذَا ﴾ لما يستقبل من الزمان ؛ فيروى أنها اتخذت له تابوتاً من بَرْدى وقيّرته بالقار من داخله ، ووضعت فيه موسى وألقته في نيل مصر .

وقد مضى خبره في "طه" .

قال ابن عباس : إن بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس ، وعملوا بالمعاصي ؛ فسّلط الله عليهم القبط ، وساموهم سوء العذاب ، إلى أن نجاهم الله على يد موسى .

قال وهب : بلغني أن فرعون ذبح في طلب موسى سبعين ألف وليد .

ويقال : تسعون ألفاً .

(85/584)

ويروى أنها حين اقتربت وضَربها الطلق ، وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بني إسرائيل مصافية لها ؛ فقالت : لينفعني حُبُّك اليوم ؛ فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مَفْصِل منها ، ودخل حبّه قلبها ، ثم قالت : ما جئتكِ إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكني وجدت لابنك حبًّا ما وجدت مثله قط ، فاحفظيه ؛ فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنّور مسجور ناراً لم تعلم ما تصنع لما طاش

عقلها ، فطلبوا فلم يلفوا شيئاً ، فخرجوا وهي لا تدري مكانه ، فسمعت بكاءه من التّنور ، وقد جعل الله عليه النار برداً وسلاماً .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخَافِي ﴾ فيه وجهان : أحدهما : لا تخافي عليه الغرق ؛ قاله ابن زيد .

الثاني ؛ لا تخافي عليه الضيعة ؛ قاله يحيى بن سَلاّم .

﴿ وَلَا تحزني ﴾ فيه أيضاً وجهان : أحدهما : لا تحزني لفراقه ؛ قاله ابن زيد .

الثاني : لا تحزني أن يقتل ؛ قاله يحيى بن سَلاّم .

فقيل : إنها جعلته في تابوت طوله خمسة أشبار وعرضه خمسة أشبار ، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته في اليم بعد أن أرضعته أربعة أشهر .

وقال آخرون : ثلاثة أشهر .

وقال آخرون ثمانية أشهر ؛ في حكاية الكلبي .

وحكي أنه لما فرغ النجار من صنعة التابوت نَمَّ إلى فرعون بخبره ، فبعث معه من يأخذه ، فطمس الله عينيه وقلبه فلم يعرف الطريق ، فأيقن أنه المولود الذي يخاف منه فرعون ، فآمن من ذلك الوقت ؛ وهو مؤمن آل فرعون ؛ ذكره الماوردي .

وقال ابن عباس : فلما توارى عنها ندّمها الشيطان وقالت في نفسها : لو ذبح عندي فكفنته وواريته لكان أحب إليّ من إلقائه في البحر ؛ فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ

وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ أي إلى أهل مصر .

حكى الأصمعيّ قال : سمعت جارية أعرابية تنشد وتقول :

أستغفر الله لذنبي كلّه . . .

قَبَّلتُ إنساناً بغير حِلّه

مثل الغزال ناعماً في دَلّه . . .

(86/584)

فانتصف الليل ولم أصلِّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو يعدّ هذا فصاحة مع قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ الآية ؛ فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ لما كان التقاطهم إياه يؤدّي إلى كونه لهم عدوّاً وحزناً ؛ فاللام في ﴿ ليكون ﴾ لام العاقبة ولام الصيرورة ؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرّة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوّاً وحزناً ، فذكر الحال بالمآل ؛ كما قال الشاعر :

وللمنايا تُرَبِّي كلُّ مُرْضِعةٍ . . .

ودُورُنا لخراب الدهر نَبْنِيها

وقال آخر :

فللموت تَغْذُو الوالداتُ سِخَالَهَا . . .

كما لخراب الدهر تُبنَى المساكنُ

أي فعاقبة البناء الخراب وإن كان في الحال مفروحاً به .

والالتقاط وجود الشيء من غير طلب ولا إرادة .

والعرب تقول لما وجدته من غير طلب ولا إرادة : التقطه التقاطاً .

ولقيت فلاناً التقاطاً .

قال الراجز :

ومَنْهَلٍ وردتُه التقاطا . . .

ومنه اللقطة .

وقد مضى بيان ذلك من الأحكام في سورة "يوسف" بما فيه كفاية .

وقرأ الأعمش ويحيى والمفضل وحمزة والكسائي وخلف : ﴿ وَحُزْناً ﴾ بضم الحاء وسكون الزاي .

والباقون بفتحهما واختاره أبو عبيد .

وأبو حاتم قال التفخيم فيه .

وهما لغتان مثل العَدَم والعُدْم ، والسَّقَم والسُّقْم ، والرَّشَد والرُّشْد .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ وكان وزيره من القبط .

﴿ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ ﴾ أي عاصين مشركين آثمين .

(87/584)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امرأة فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ يروى أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في البحر ، فأمرت بسوقه إليها وفتحه ، فرأت فيه صبياً صغيراً فرحمته وأحبته ؛ فقالت لفرعون : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ أي هو قرّة عين لي ولك ف ﴿ قُرَّةُ ﴾ خبر ابتداء مضمر ؛ قاله الكسائي .

وقال النحاس : وفيه وجه آخر بعيد ذكره أبو إسحاق ؛ (قال) : يكون رفعاً بالابتداء والخبر ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ وإنما بَعُد لأنه يصير المعنى أنه معروف بأنه قرّة عين .

وجوازه أن يكون المعنى : إذا كان قرّة عين لي ولك فلا تقتلوه .

وقيل : تم الكلام عند قوله : ﴿ وَلَكَ ﴾ .

النحاس : والدليل على هذا أن في قراءة عبد الله بن مسعود : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لاَ

تَقْتُلُوهُ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ .

ويجوز النصب بمعنى لا تقتلوا قرةَ عين لي ولك .

وقالت : ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ ولم تقل لا تقتله فهي تخاطب فرعون كما يخاطَب الجبّارون ؛ وكما يخبرون عن أنفسهم .

وقيل : قالت : ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ فإن الله أتى به من أرض أخرى وليس من بني إسرائيل .

﴿ عسى أَن يَنْفَعَنَا ﴾ فنصيب منه خيراً ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ وكانت لا تلد ، فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها ، وكان فرعون لما رأى الرؤيا وقصها على كهنته وعلمائه على ما تقدّم قالوا له إن غلاماً من بني إسرائيل يفسد ملكك ؛ فأخذ بني إسرائيل بذبح الأطفال ، فرأى أنه يقطع نسلهم ، فعاد يذبح عاماً ويستحيي عاماً ، فولد هارون في عام الاستحياء ، وولد موسى في عام الذبح .

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى ؛ أي وهم لا يشعرون أن هلاكهم بسببه .

وقيل : هو من كلام المرأة ؛ أي وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه ، ولا يشعرون إلا أنه ولدنا .

واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ فقالت فرقة : كان ذلك عند التقاطه التابوت لما أشعرت فرعون به ؛ ولما أعلمته سبق إلى فهمه أنه من بني إسرائيل ، وأن ذلك قصد به ليتخلص من الذبح فقال : عليّ بالذباحين ؛ فقالت امرأته ما ذُكِر ؛ فقال فرعون : أمّا لي فلا .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لو قال فرعون نعم لآمن بموسى ولكان قرّة عين له " وقال السدّي : بل ربَّته حتى دَرَج ، فرأى فرعون فيه شهامة وظنه من بني إسرائيل وأخذه في يده ، فمدّ موسى يده ونتف لحية فرعون ، فهمّ حينئذٍ بذبحه ، وحينئذٍ خاطبته بهذا ، وجربته له في الياقوتة والجمرة ، فاحترق لسانه وعلق العقدةَ على ما تقدّم في "طه" .

قال الفرّاء : سمعت محمد بن مروان الذي يقال له السدّي يذكر عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ ﴾ ثم قالت : ﴿ تَقْتُلُوهُ ﴾ قال الفرّاء : وهو لحن ؛ قال ابن الأنباري : وإنما حكم عليه باللحن ؛ لأنه لو كان كذلك لكان تقتلونه بالنون ؛ لأن الفعل المستقبل مرفوع حتى يدخل عليه الناصب أو الجازم ، فالنون فيه علامة الرفع .

قال الفرّاء : ويقوّيك على ردّه قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ لاَ تَقْتُلُوهُ

قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ﴾ بتقديم ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(89/584)

وقال أبو حيان :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾

إيحاء الله إلى أم موسى إلهام وقذف في القلب قاله ابن عباس وقتادة أو منام قاله قوم أو إرسال ملك قاله قطرب وقوم وهذا هو الظاهر لقوله إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وأجمعوا على أنها لم تكن نبية فإن كان الوحي بإرسال ملك كما هو الظاهر فهو كإرساله للأقرع والأبرص والأعمى وكما روي من تكليم الملائكة للناس والظاهر أن هذا الإيحاء هو بعد الولادة فيكون ثم جملة محذوفة أي ووضعت موسى أمه في زمن الذبح وخافت عليه وَأَوْحَيْنَا وءانٍ تفسيرية أو مصدرية وقيل كان الوحي قبل الولادة وقرأ عمرو بن عبد الواحد وعمر بن عبد العزيز أن ارضعيه بكسر النون بعد حذف الهمزة على غير قياس لأن القياس فيه نقل حركة الهمزة وهي الفتحة إلى النون كقراءة ورش

فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأولاد فَأَلْقِيهِ فِى اليَمّ قال الجنيد إذا خفت حفظه بواسطة فسلميه إلينا بإلقائه في البحر واقطعي عنك شفقتك وتدبيرك وزمان إرضاعه ثلاثة أشهر أو أربعة أو ثمانية أقوال واليم هنا نيل مصر وَلاَ تَخَافِى أي من غرقه وضياعه ومن التقاطه فيقتل وَلاَ تَحْزَنِى لمفارقتك إياه إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وعد صادق يسكن قلبها ويبشرها بحياته وجعله رسولاً وقد تقدم في سورة طه طرف من حديث التابوت ورميه في اليم وكيفية التقاطه فأغنى عن إعادته واستفصح الأصمعي امرأة من العرب أنشدت شعراً فقالت أبعد قوله تعالى وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمّ مُوسَى الآية فصاحة وقد جمع بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين

(90/584)

فَالْتَقَطَهُ ءال فِرْعَوْنَ في الكلام حذف تقديره ففعلت ما أمرت به من إرضاعه ومن إلقائه في اليم واللام في لِيَكُونَ للتعليل المجازي لما كان مآل التقاطه وتربيته إلى كونه عدواً لهم وَحَزَناً وإن كانوا لم يلتقطوه إلا للتبني وكونه يكون حبيباً لهم ويعبر عن هذه اللام بلام العاقبة وبلام الصيرورة وقرأ الجمهور وحزناً بفتح الحاء والزاي وهي لغة قريش وقرأ ابن وثاب وطلحة والأعمش وحمزة والكسائي وابن سعدان بضم الحاء وإسكان الزاي والخاطىء المتعمد

الخطأ والمخطىء الذي لا يتعمده واحتمل أن يكون في الكلام حذف وهو الظاهر أي فكان لهم عدواً وحزناً أي لأنهم كانوا خاطئين لم يرجعوا إلى دينه وتعمدوا الجرائم والكفر بالله وقال المبرد خاطئين على أنفسهم بالتقاطه وقيل بقتل أولاد بني إسرائيل وقيل في تربية عدوّهم

وأضيف الجند هنا وفيما قبل إلى فرعون وهامان وإن كان هامان لا جنود له لأن أمر الجنود لا يستقيم إلا بالملك والوزير إذ بالوزير تحصل الأموال وبالملك وقهره يتوصل إلى تحصيلها ولا يكون قوام الجند إلا بالأموال وقرىء خاطيين بغير همز فاحتمل أن يكون أصله الهمز

وحذفت ، وهو الظاهر .

وقيل : من خطا يخطو ، أي خاطين الصواب .

ولما التقطوه ، هموا بقتله ، وخافوا أن يكون المولود الذي يحذرون زوال ملكهم على يديه ، فألقى الله محبته في قلب آسية امرأة فرعون ، ونقلوا أنها رأت نوراً في التابوت ، وتسهل عليها فتحه بعد تعسر فتحه على يدي غيرها ، وأن بنت فرعون أحبته أيضاً لبرئها من دائها الذي كان بها ، وهو البرص ، بإخبار من أخبر أنه لا يبرئها إلا ريق إنسان يوجد في تابوت في البحر .

وقرة : خبر مبتدأ محذوف ، أي هو قرة ، ويبعد أن يكون مبتدأ والخبر ﴿ لا تقتلوه ﴾ ؛

وتقدم شرح قرة في آخر الفرقان .

وذكر أنها لما قالت لفرعون : ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ ، قال : لك لا لي .

(91/584)

وروي أنها قالت له : لعله من قوم آخرين ليس من بني إسرائيل ، وأتبعت النهي عن قتله برجائها أن ينفعهم لظهور مخايل الخير فيه من النور الذي رأته ، ومن برإ البرص ، أو يتخذوه ولداً ، فإنه أهل لذلك .

﴿ وهم لا يشعرون ﴾ : جملة حالية ، أي لا يشعرون أنه الذي يفسد ملكهم على يديه ، قاله قتادة ؛ أو أنه عدو لهم ، قاله مجاهد ؛ أو أني أفعل ما أريد لا ما يريدون ، قاله محمد بن إسحاق .

والظاهر أنه من كلام الله تعالى .

وقيل : هو من كلام امرأة فرعون ، أي قالت ذلك لفرعون ، والذين أشاروا بقتله لا يشعرون بمقالتها له واستعطاف قلبه عليه ، لئلا يغروه بقتله .

وقال الزمخشري : تقدير الكلام : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ ، و ﴿ قالت امرأة فرعون ﴾ كذا ، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنهم على خطأ عظيم في التقاطه

ورجاء النفع منه وتبنيه .

وقوله : ﴿ إن فرعون ﴾ الآية ، جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم . انتهى .

ومتى أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير فصل كان أحسن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(92/584)

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ بإلهامٍ أو رُؤيا ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما أمكنك إخفاؤُه ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ بأنْ يحسَّ به الجيرانُ عند بكائِه وينمُّوا عليه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى اليم ﴾ في البحرِ وهو النّيلُ ﴿ وَلاَ تَخَافِى ﴾ عليهِ ضيعةً بالغرقِ ولا شدَّةً ﴿ وَلاَ تَحْزَنِى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عن قريبٍ بحيثُ تأمنينَ عليهِ ﴿ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾ والجملةُ تعليلٌ للنَّهي عن الخوف والحزنِ . وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ وتصديرُها بحرفِ التَّحقيقِ للاعتناء بتحقيق مضمونِها أي إنَّا فاعلونَ لردّه وجعلِه من المُرسلينَ لا محالةَ . رُوي أنَّ بعضَ القَوابلِ المُوكلاتِ من قبلِ فرعونَ بجَبالَى بني إسرائيلَ كانتْ مصافيةً لأمِّ موسى عليه السَّلامُ فقالتْ لها :

لينفعني حبُّكِ اليومَ فعالجتْهَا فلمَّا وقعَ إلى الأرضِ هالها نورٌ بين عينيهِ وارتعشَ كلُّ مفصلٍ منها ودخل حبُّه في قلبها ثم قالتْ : ما جئتكِ إلا لأقبلَ مولودكِ وأُخبر فرعونَ ولكنّي وجدتُ لابنكِ في قلبي محبَّةً ما وجدتُ مثلَها لأحدٍ فاحفظيهِ فلمَّا خرجتْ جاء عيونُ فرعونَ فلفَّته في خرقةٍ فألقتْهُ في تنُّورٍ مسجورٍ لم تعلمْ ما تصنعُ لما طاشَ من عقلِها فطلبُوا فلم يلْقَوا شيئاً فخرجُوا وهي لا تدري مكانَه فسمعتْ بكاءه من التَّنُّور فانطلقتْ إليه وقد جعل الله تعالى النَّار عليه بَرداً وسلاماً فلما ألحَّ فرعونُ في طلب الولدانِ أَوْحى الله تعالى إليها ما أَوْحى . وقد رُوي أنَّها أرضعتْهُ ثلاثةَ أشهرٍ في تابوتٍ من بَرْديَ مطليَ بالقارِ من داخِله . والفاءُ في قولِه تعالى :

(93/584)

﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ ﴾ فصيحةٌ مفصحةٌ عن عطفِه على جملةٍ مترتبةٍ على ما قبلها من الأمرِ بالإلقاءِ قد حُذفتْ تعويلاً على دلالة الحالِ وإيذاناً بكمال سرعةِ الامتثالِ أي فألقتْهُ في اليمِّ بعد ما جعلتْهُ في التَّابوتِ حسبما أُمرت به فالتقطه آلُ فرعونَ أي أخذوه أخذَ اعتناءٍ به وصيانةٍ له عن الضَّياعِ . قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما وغيره : كانَ لفرعونَ يومئذٍ بنتٌ لم يكُن له ولدٌ غيرُها وكانتْ من أكرمِ النَّاسِ إليه وكان بها بَرَصٌ شديدٌ عجزتِ الأطِّباءُ عن

علاجِه فقالُوا : لا تبرأُ إلا من قبل البحرِ يُؤخذ منه شِبهُ الإنسِ يومَ كذا وساعةَ كذا من شهرِ كذا حين تُشرق الشّمسُ فيؤخذُ من ريقِه فيلطخ به برصُها فتبرأُ فلمّا كان ذلك اليومُ غدا فرعونُ في مجلسٍ له على شفيرِ النّيلِ ومعه امرأتُه آسيةُ بنتُ مزاحمِ بنِ عُبيدِ بنِ الرّيّانِ بنِ الوليدِ الذي كان فرعونَ مصرَ في زمنِ يوسفَ الصّدّيقِ عليه السّلامُ . وقيل : كانتْ من بني إسرائيلَ من سبطِ مُوسى عليه الصّلاة والسّلام وقيل : كانتْ عمّتَه حكاه السُّهيليُّ .

وأقبلتْ بنتُ فرعونَ في جَواريها حتّى جلستْ على شاطىءِ النّيلِ فإذا بتابوتٍ في النّيلِ تضربُه الأمواجُ فتعلّق بشجرةٍ فقالَ فرعونُ : ائتوني به فابتدرُوا بالسُّفنِ فأحضرُوه بين يديهِ فعالجُوا فتحَهُ فلم يقدرُوا عليهِ وقصدُوا كسرَه فأعياهم فنظرتْ آسيةُ فرأتْ نُوراً في جوفِ التّابوتِ لم يرَهُ غيرُها فعالجتْهُ ففتحتْهُ فإذا هيَ بصبيَ صغيرٍ في مهدِه وإذا نورٌ بين عينيهِ وهو يمصُّ إبهامَه لبناً فألقى الله تعالى محبّتَه في قلوبِ القومِ وعمدتْ ابنةُ فرعونَ إلى ريقِه فلطّختْ به برصَها فبرأتْ من ساعتِه وقيل : لما نظرتْ إلى وجهه برأتْ فقالتِ الغُواة من قومِ فرعونَ : إنّا نظنُّ أنّ هذا هو الذي نحذرُ منه رُميَ في البحرِ فَرَقاً منك فاقتلْه فهمّ فرعونُ بقتلِه فاستوهبتْهُ

(94/584)

آسيةُ فتركَه كما سيأتي . واللامُ في قولِه تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ لامُ العاقبةِ أُبرز مدخولُها في معرضِ العلَّةِ لالتقاطِهم تشبيهاً له في الترتيبِ عليه بالغرضِ الحاملِ عليه . وقُرِىء حُزْناً ، وهما لغتانِ كالسَّقَمِ والسُّقْمِ . جُعل عليه الصَّلاة والسَّلام نفسَ الحزنِ إيذاناً بقوَّةِ سببيتِه لحزنِهم . ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خاطئين ﴾ أي في كلِّ ما يأتُون وما يذرون فلا غَرو في أنْ قتلُوا لأجلِه أُلوفاً ثم أخذُوه يربُّونَه ليكبرَ ويفعلَ بهم ما كانُوا يحذرون . رُوي أنَّه ذُبح في طلبِه عليه الصَّلاة والسَّلام تسعون ألفَ وليدٍ أو كانُوا مذنبينَ فعاقبهم الله تعالى بأنْ ربَّى عدوَّهم على أيديهم فالجُملة اعتراضيةٌ لتأكيد خُطَّتِهم أو لبيان المُوجب لما ابتلُوا به . وقُرِىء خَاطين على أنَّه تخفيفُ خاطئينَ أو على أنَّه بمعنى مُتعدِّين الصَّوابَ إلى الخطأ .

(95/584)

﴿ وَقَالَتِ امرأت فِرْعَوْنَ ﴾ أي لفرعونَ حينَ أخرجتْهُ من التَّابوتِ ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لّى وَلَكَ ﴾ أي هو قرَّةُ عينٍ لنا لِما أنَّهما لمَّا رأياهُ أحبَّاهُ أو لما ذُكر من بُرءِ ابنتِه من البَرَصِ بريقِه . وفي الحديثِ أنَّه قالَ : "لكِ لا لي" ولو قال : لي كما هُو لكِ لهداهُ الله تعالى كما هداها ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ خاطبتْهُ بلفظِ الجمعِ تعظيماً ليساعدَها فيما تريدُه ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ فإنَّ

فيه مخايلَ اليُمنِ ودلائلَ النَّجابةِ وذلكِ لِمَا رأتْ فيهِ من العلاماتِ المذكورةِ ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أي نتبنَّاهُ فإنَّه خليقٌ بذلكَ ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ حالٌ من آلِ فرعونَ والتَّقديرُ فالتقطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدُواً وحَزناً ، وقالتِ امرأتُه له كيتَ وكيتَ وهُم لا يشعرون بأنَّهم على خطأٍ عظيمٍ فيما صنعُوا من الالتقاط ورجاءِ النَّفعِ منه والتَّبني له . وقولُه تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ الآيةَ ، اعتراضٌ وقعَ بين المعطوفينِ لتأكيدِ خطئِهم ، وقيل : حالٌ من أحدِ ضميريّ نتخذهُ على أنَّ الضَّميرَ للنَّاسِ أيْ وهُم لا يعلمونَ أنَّه لغيرِنا وقد تبنيناهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(96/584)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾

قيل هي محيانة بنت يصهر بن لاوي ، وقيل يوخابذ وقيل يارخا وقيل يارخت ، وقيل غير ذلك .

والظاهر أن الإيحاء إليها كان بإرسال ملك ، ولا ينافي حكاية أبي حيان الإجماع على عدم نبوتها ، لما أن الملائكة عليهم السلام قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم ، وإلى هذا ذهب

قطرب وجماعة .

وقال مقاتل منهم : إن الملك المرسل إليها هو جبريل عليه السلام .

وعن ابن عباس .

وقتادة أنه كان إلهاماً ، ولا يأباه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾

نعم هو أوفق بالأول .

وقال قوم : إنه كان رؤيا منام صادقة قص فيها أمره عليه السلام ، وأوقع الله تعالى في قلبها اليقين .

وحكى عن الجبائي أنها رأيت في ذلك رؤيا ، فقصتها على من تثق به من علماء بني إسرائيل فعبرها لها .

وقيل كان بأخبار نبي في عصرها إياها .

والظاهر أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة ، وفي الأخبار ما يشهد له ، فيكون في الكلام جملة محذوفة ، وكأن التقدير والله تعالى أعلم : ووضعت موسى أمه في زمن الذبح فلم تدر ما تصنع في أمره وأوحينا إليها ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وقيل : كان قبل الولادة ، وأن تفسيرية أو مصدرية ، والمراد أن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه .

وقرأ عمر بن عبد الواحد .

وعمر بن عبد العزيز أن أرضعيه بكسر النون بعد حذف الهمزة على غير قياس لأن

القياس فيه نقل حركتها وهي الفتحة إلى النون كما في قراءة ورش .

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون الأبناء ، أو من الجيران ونحوهم أن ينمو عليه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى اليم ﴾ أي في البحر .

والمراد به النيل ، ويسمى مثله بحراً ، وإن غلب في غير العذب ﴿ وَلاَ تَخَافِى ﴾ عليه ضيعة أو شدة من عدم رضاعه في سن الرضاع ﴿ وَلاَ تَحْزَنِى ﴾ من مفارقتك إياه ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عن قريب بحيث تأمنين عليه ويومىء إلى القرب السياق .

(97/584)

وقيل التعبير باسم الفاعل لأنه حقيقة في الحال ويعتبر لذلك في قوله سبحانه : ﴿ وجاعلوه مِنَ المرسلون ﴾ ولا يضر تفاوت القرين ، والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن ، وإيثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقيق مضمونها أي إنا فاعلون ردّه ، وجعله من المرسلين لا محالة .

واستفصح الأصمعي امرأة من العرب أنشدت شعراً فقالت : أبعد قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ الآية فصاحة وقد جمع بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين .

والفاء في قوله تعالى :

﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ ﴾ فصيحة والتقدير ففعلت ما أمرت به من إرضاعه والقائه في اليم لما خافت عليه ، وحذف ما حذف تعويلاً على دلالة الحال وإيذاناً بكمال سرعة الامتثال .

وروى أنها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بجبالى بني إسرائيل فعالجتها ، وفلما وقع موسى عليه السلام على الأرض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها بحيث منعها من السعابة فقالت لأمه : احفظيه ، فلما خرجت جاء عيون فرعون فلفته في خرقة وألقته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً فخرجوا وهي لا تدري مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فأخذته ، فلما ألح فرعون في طلب الولدان واجتهد العيون في تفحصها أوحى الله تعالى إليها ما أوحى ، وأرضعته ثلاثة أشهر ، أو أربعة ، أو ثمانية على اختلاف الروايات ، فلما خافت عليه عمدت إلى بردى فصنعت منه تابوتاً أي صندوقاً فطلته القار من داخله .

(98/584)

وعن السدي أنها دعت نجاراً ، فصنع لها تابوتاً ، وجعلت مفتاحه من داخل ، ووضعت موسى عليه السلام فيه وألقته في النيل بين أحجار عند بيت فرعون ، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن فوجدنه فأدخلنه إليها وظنن أن فيه مالاً ، فلما فتحنه رأته آسية ووقعت عليه رحمتها فأحبته ، وأراد فرعون قتله فلم تزل تكلمه حتى تركه لها .

وروى عن ابن عباس وغيره أنه كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس إليه ، وكان بها برص شديد أعيا الأطباء ، وكان قد ذكر له أنها لا تبرأ إلا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الإنس يوم كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية وأقبلت بنته في جواريها حتى جلست على شاطىء النيل فإذا بتابوت تضربه الأمواج فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتوني به فابتدروا بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فأعياهم فنظرت آسية فكشف لها عن نور في جوفه لم يره غيرها فعالجته ففتحته فإذا صبي صغير فيه وله نور بين عينيه وهو يمص إبهامه لبنا فألقى الله تعالى محبته عليه السلام في قلبها وقلوب القوم وعمدت بنت فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعتها .

(99/584)

وقيل : لما نظرت إلى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون أنا نظن أن هذا هو الذي نحذر منه رمى في البحر خوفا منك فاقتله فهم أن يقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتي إن شاء الله تعالى والأخبار في هذه القصة كثيرة ، وقد قدمنا منها ما قدمنا ، وآل فرعون أتباعه وقولهم : إن الآل لا يستعمل إلا فيما فيه شرف مبني على الغالب أو الشرف فيه أعم من الشرف الحقيقي والصوري ومعنى التقاطهم إياه عليه السلام أخذهم أياه عليه السلام أخذ اللقطة أي أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ فيه استعارة تهكمية ضرورة أنه لم يدعهم للالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً وإنما دعاهم شيء آخر كالتبني ونفعه إياهم إذا كبر .

(100/584)

وفي تحقيق ذلك أقوال الأول أن يشبه كونه عدوّاً وحزناً بالعلة الغائية كالتبني والنفع تشبيهاً مضمراً في النفس ولم يصرح بغير المشبه ويدل على ذلك بذكر ما يخص المشبه به وهو لام التعليل فيكون هناك استعارة مكنية أصلية في المجرور واللام على حقيقتها ، الثاني أن يشبه أولاً ترتب غير العلة الغائية بترتب العلة الغائية أي يعتبر التشبيه بين الترتبين الكليين

ليسري في جزئياتهما فيتحقق تبعاً تشبيه ترتب كونه عدواً وحزناً أعني الترتب المخصوص على الالتقاط بترتب التبني ونحوه مما هو علة غائية أعني الترتب المخصوص أيضاً عليه ثم يستعمل في المشبه اللام الموضوعة للدلالة على ترتب العلة الغائية الذي هو المشبه به فتكون الاستعارة أولاً في العلية والغرضية وتبعاً في اللام فصار حكم اللام حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه العلة كما استعير الأسد لما يشبه الأسد بيد أن الاستعارة ههنا مكنية تبعية ، الثالث ما أفاده كلام الخطيب الدمشقي في التلخيص والإيضاح وهو أن يقدر التشبيه أولاً لكونه عدواً وحزناً بالعلة الغائية ثم يسري ذلك التشبيه إلى تشبيه ترتبه بترتب العلة الغائية فتستعار اللام الموضوعة لترتب العلة الغائية لترتب كونه عدواً وحزناً من غير استعارة في المجرور وهذا التشبيه كتشبيه الربيع بالقادر المختار ثم إسناد الانبات إليه وهو مفاد كلام الكشاف ، واختار ذلك العلامة عبد الحكيم ، فقال : وو الحق عندي لأن اللام لما كان معناها محتاجاً إلى ذكر المجرور كان اللائق أن تكون الاستعارة والتشبيه فيها تابعاً لتشبيه المجرور لا تابعاً لتشبيه معنى كلي بمعنى كلي معنى الحرف من جزئياته كما ذهب إليه السكاكي وتبعه العلامة التفتازاني انتهى فتأمل .

(101/584)

واستشكل أصل تعليل الالتقاط بأن الالتقاط الوجدان من غير قصد والتعليل يقتضي حقيقة القصد وهو توهم لأن الوجدان من غير قصد لا ينافي قصد أخذ ما وجد لغرض وقد علمت أن المعنى هنا فأخذه أخذ اللقطة أي أخذ اعتناء به آل فرعون ليكون الخ ، والتعليل فيه إنما هو للأخذ ولا إشكال فيه .

وقال بعضهم : يحتمل تعلق اللام بمقدار أي قدرنا الالتقاط فيكون الخ ، وعليه لا تجوز في الكلام إلا عند من يقول : إن أفعال الله تعالى لا تعلل وهو أمر غير ما نحن فيه ، ولا يخفى أن كلام الله سبحانه أجل وأعلى من أن يعتبر فيه مثل هذا الاحتمال ، وفي جعله عليه السلام نفس الحزن ما لا يخفى من المبالغة .

وقرأ ابن وثاب .

والأعمش .

وحمزة .

والكسائي .

وابن سعدان .

حزناً بضم الحاء وسكون الزاي ، وقرأ الجمهور بفتحتين لغة قريش ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خاطئين ﴾ في كل ما يأتون وما يذرون أو من شأنهم الخطأ فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرونه ، روى أنه ذبح

في طلبه عليه السلام تسعون ألف وليد .

و﴿ خاطئين ﴾ على هذا من الخطأ في الرأي ، ويجوز أن يكون من خطىء بمعنى أذنب ، وفي الأساس يقال : خطىء خطأ إذا تعمد الذنب ، والمعنى وكانوا مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم ، والجملة على الأول اعتراض بين المتعاطفين لتأكيد خطئهم المفهوم من قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ فإنه كما سمعت استعارة تهكمية وعلى الثاني ، اعتراض لتأكيد ذنبهم المفهوم من حاصل الكلام ، وقيل : يتعين عليه أن تكون اعتراضاً لبيان الموجب لما ابتلوا به ويحتمل على هذا أن تكون استئنافاً بيانياً إن أريد بما ابتلوا به كونه عدواً وحزناً وهو لا ينافي الاعتراض عندهم ، وقرىء خاطين بغير همز فاحتمل أن يكون أصله الهمز وحذفت وهو الظاهر ، وقيل : هو من خطا يخطو أي خاطين الصواب إلى ضده فهو مجاز .

(102/584)

﴿ وَقَالَتِ امرأت فِرْعَوْنَ ﴾ آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف الصديق عليه السلام وعلى هذا لم تكن من بني إسرائيل ، وقيل : كانت منهم من سبط موسى عليه السلام ، وحكى السهيلي أنها كانت عمته عليه السلام

وهو قول غريب ، والمشهور القول الأول .

والجملة عطف على جملة ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ [القصص : 8] أي وقالت امرأة فرعون له حين أخرجته من التابوت .

(103/584)

﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ أي هو قرة عين كائنة لي ولك على أن قرة خبر مبتدأ محذوف ، والظرف في موضع الصفة له ويبعد كما في البحر أن يكون مبتدأ خبره جملة قوله تعالى : قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ وقالت ذلك لما ألقى الله تعالى من محبته في قلبها أو لما كشف لها فرأته من النور بين عينيه أو لما شاهدته من برء بنت فرعون من البرص بريقه أو بمجرد النظر إلى وجهه ، ولتفخيم شأن القرة عدلت عن لنا إلى لي ولك وكأنها لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها وأن مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه قدمت نفسها عليه فيكون ذلك أبلغ في ترغيبه بترك قتله ، فلا يقال إن الأظهر في الترغيب بذلك العكس وقد يستأنس لكون مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه ما أخرجه النسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها حين قالت له ذلك قال لك لا لي ولو قال لي كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها ، وهذا أمر فرضي فلا ينافي ما ورد من أنه عليه اللعنة طبع كافراً ، والخطاب في لا تقتلوه

قيل : لفرعون وإسناد الفعل إليه مجازي لأنه الآمر والجمع للتعظيم ، وكونه لا يوجد في كلام العرب الموثوق بهم إلا في ضمير المتكلم كفعلنا مما تفرد به الرضى وقلده فيه من قلده وهو لا أصل له رواية ودراية قال أبو علي الفارسي في فقه اللغة من سنن العرب مخاطباً الواحد بلفظ الجمع فيقال للرجل العظيم انظروا في أمري ، وهكذا في سر الأدب وخصائص ابن جني وهو مجاز بليغ وفي القرآن الكريم منه ما التزام تأويله سفه ، وقيل : هو لفرعون وأعوانه الحاضرين ورجح بما روى أن غواة قومه قالوا وقت إخراجه هذا هو الصبي الذي كنا نحذر منه فأذن لنا في قتله .

(104/584)

وقيل : هو له ولمن يخشى منه القتل وإن لم يحضر على التغليب ، واختار بعضهم كونه للمأمورين بقتل الصبيان كأنها بعد أن خاطبت فرعون وأخبرته بما يستعطفه على موسى عليه السلام أمنت منه بإدارة أمن جديد بقتله فالتفتت إلى خطاب المأمورين قبل فنهتهم عن قتله معللة ذلك بقوله تعالى المحكي عنها :

﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وهو أوفق باختلاف الأسلوب حيث فصلت أولاً في قولها : لي ولك وأفردت ضمير خطاب فرعون ثم خاطبت وجمعت الضمير في لا تقتلوه

ثم تركت التفصيل في ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ الخ ولم تأت به على طرز قرة عين لي ولك بأن تقول ؛ عسى أن ينفعني وينفعك مثلاً فتأمل .

ورجاء نفعه لما رأت فيه من مخايل البركة ودلائل النجاة :

في المهد ينطق عن سعادة جده . . .

أثر النجابة ساطع البرهان

واتخاذه ولداً لأنه لائق لتبني الملوك لما فيه من الأبهة وعطف هذا على ما قبله من عطف الخاص على العام أو تعتبر بينهما المغايرة وهو الأنسب بأو ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ حا لمن آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأته له كيت وكيت ، وهم لا يشعرون بأنهم على خطأ عظيم فيما صنعوا .

وقال : قتادة لا يشعرون أنه الذي يفسد ملكهم على يده .

وقال مجاهد أنه عدو لهم .

وقال محمد بن إسحاق : أني أفعل ما أريد لا ما يريدون والتقدير الأول أجمع ، وجوز كونه حالاً من القائلة والمقول له معاً .

(105/584)

والمراد بالجمع اثنان على احتمال كون الخطاب في لا تقتلوه لفرعون فقط وكونه حالاً من القائلة فقط أي قالت امرأة فرعون له ذلك والذين أشاروا بقتله لا يشعرون بمقالتها له واستعطاف قلبها عليه لئلا يغروه بقتله وعلى الاحتمالات الثلاثة هو من كلام الله تعالى ، وجوز كونه حالاً من أحد ضميري نتخذه على أن الضمير للناس لا لذي الحال إذ يكفي الواو للربط أي نتخذه ولداً والناس لا يعلمون أنه لغيرنا وقد تبنيناه فيكون من كلام آسية رضي الله تعالى عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(106/584)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

عطف على جملة ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا ﴾ [القصص : 5] ، إذ الكل من أجزاء النبأ .

وتتضمن هذه الجملة تفصيلاً لمجمل قوله ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا ﴾ ، فإن الإرادة لما تعلقت بإنقاذ بني إسرائيل من الذل خلق الله المنقذ لهم .

والوحي هنا وحي إلهام يوجد عنده من انشراح الصدر ما يحقق عندها أنه خاطر من

الواردات الإلهية .

فإن الإلهام الصادق يعرض للصالحين فيوقع في نفوسهم يقيناً ينبعثون به إلى عمل ما ألهموا إليه .

وقد يكون هذا الوحي برؤيا صادقة رأتها .

وأم موسى لم يعرف اسمها في كتب اليهود ، وذكر المفسرون لها أسماء لا يوثق بصحتها .

وقوله ﴿ أن أرضعيه ﴾ تفسير ل ﴿ أوحينا ﴾ .

والأمر بإرضاعه يؤذن بحمل طويت وهي أن الله لما أراد ذلك قدّر أن يكون مظهر ما أراده هو الجنين الذي في بطن أم موسى ووضعته أمه ، وخافت عليه اعتداء أنصار فرعون على وليدها وتحيرت في أمرها فألهمت أو أريت ما قصه الله هنا وفي مواضع أخرى .

والإرضاع الذي أمرت به يتضمن أن : أخفيه مدة ترضعه فيها فإذا خفت عليه أن يعرف خبره فألقيه في اليمّ .

وإنما أمرها الله بإرضاعه لتقوى بُنيته بلبان أمه فإنه أسعد بالطفل في أول عمره من لبان غيرها ، وليكون له من الرضاعة الأخيرة قبل إلقائه في اليمّ قوت يشد بنيته فيما بين قذفه في اليم وبين التقاط آل فرعون إياه وإيصاله إلى بيت فرعون وابتغاء المراضع ودلالة أخته إياهم على أمه إلى أن أُحضرت لإرضاعه فأرجع إليها بعد أن فارقها بعض يوم .

وحكت كتب اليهود أن أم موسى خبأته ثلاثة أشهر ثم خافت أن يفشو أمره فوضعته في

سفط مقيّر وقذفته في النهر .

وقد بشرها الله بما يزيل همها بأنه راده إليها وزاد على ذلك بما بشرها بما سيكون له من مقام كريم في الدنيا والآخرة بأنه ﴿ من المرسلين ﴾ .

(107/584)

والظاهر أن هذا الوحي إليها كان عند ولادته وأنها أمرت بأن تلقيه في اليم عندما ترى دلائل المخافة من جواسيس فرعون وذلك ليكون إلقاؤه في اليم عند الضرورة دفعاً للضر المحقق بالضر المشكوك فيه ثم ألقي في يقينها بأنه لا بأس عليه .

و﴿ اليم ﴾ : البحر وهو هنا نهر النيل الذي كان يشق مدينة فرعون حيث منازل بني إسرائيل .

واليم في كلام العرب مرادف البحر ، والبحر في كلامهم يطلق على الماء العظيم المستبحر ، فالنهر العظيم يسمى بحراً قال تعالى ﴿ وما يستوي البحران هذا عذاب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴾ [فاطر : 12] ، فإن اليم من الأنهار .

وقد كانت هذه الآية مثالاً من أمثلة دقائق الإعجاز القرآني فذكر عياض في "الشفاء" والقرطبي في "التفسير" يزيد أحدهما على الآخر عن الأصمعي : أنه سمع جارية أعرابية

تنشد :

أستغفر الله لأمري كله . . .

قتلت إنساناً بغير حله

مثل غزال ناعماً في دله . . .

انتصف الليل ولم أُصَلِّه

وهي تريد التورية بالقرآن .

فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك يريد ما أبلغك (وكانوا يسمون البلاغة فصاحة) فقالت له : أو يعد هذا فصاحة مع قوله تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فجمع في آية واحدة خبرين ، وأمرين ، ونهيين ، وبشارتين .

فالخبران هما ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ وقوله ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ لأنه يشعر بأنها ستخاف عليه .

والأمران هما : ﴿ أرضعيه ﴾ و (ألقيه) .

والنهيان : ﴿ ولا تخافي ﴾ و ﴿ لا تحزني ﴾ .

والبشارتان : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ .

والخوف : توقع أمر مكروه ، والحزن : حالة نفسية تنشأ من حادث مكروه للنفس كفوات

أمر محبوب ، أو فقد حبيب ، أو بعده ، أو نحو ذلك .

والمعنى : لا تخافي عليه الهلاك من الإلقاء في اليم ، ولا تحزني على فراقه .

(108/584)

والنهي عن الخوف وعن الحزن نهي عن سببيهما وهما توقع المكروه والتفكر في وحشة الفراق .

وجملة ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ في موقع العلة للنهيين لأن ضمان رده إليها يقتضي أنه لا يهلك وأنها لا تشتاق إليه بطول المغيب .

وأما قوله ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ فإدخال للمسرة عليها .

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)

الالتقاط افتعال من اللقط ، وهو تناول الشيء الملقى في الأرض ونحوها بقصد أو ذهول .

أسند الالتقاط إلى آل فرعون لأن استخراج تابوت موسى من النهر كان من إحدى النساء الحافات بابنة فرعون حين كانت مع أترابها ودایاتها على ساحل النيل كما جاء في الإصحاح الثاني من سفر الخروج .

واللام في ﴿ ليكون لهم عدواً ﴾ لام التعليل وهي المعروفة عند النحاة بلام كي وهي لام جارة مثل كي ، وهي هنا متعلقة بـ (التقطه) .

وحق لام كي أن تكون جارة لمصدر منسبك من (أن) المقدرة بعد اللام ومن الفعل المنصوب بها فذلك المصدر هو العلة الباعثة على صدور ذلك الفعل من فاعله .

وقد استعملت في الآية استعمالاً وارداً على طريقة الاستعارة دون الحقيقة لظهور أنهم لم يكن داعيهم إلى التقاطه أن يكون لهم عدوّاً وحزناً ولكنهم التقطوه رأفة به وحباً له لما أُلقي في نفوسهم من شفقة عليه ولكن لما كانت عاقبة التقاطهم إياه أن كان لهم عدوّاً في الله ومُوجب حزن لهم ، شبهت العاقبة بالعلة في كونها نتيجة للفعل كشأن العلة غالباً فاستعير لترتب العاقبة المشبهة الحرف الذي يدل على ترتيب العلة تبعاً لاستعارة معنى الحرف إلى معنى آخر استعارة تبعية ، أي استعير الحرف تبعاً لاستعارة معناه لأن الحروف بمعزل عن الاستعارة لأن الحرف لا يقع موصوفاً ، فالاستعارة تكون في معناه ثم تسري من المعنى إلى الحرف فلذلك سميت استعارة تبعية عند جمهور علماء المعاني خلافاً للسكاكي .

(109/584)

وضمير ﴿ لهم ﴾ يعود إلى آل فرعون باعتبار الوصف العنواني لأن موسى كان عدواً لفرعون آخر بعد هذا ، أي ليكون لدولتهم وأمتهم عدواً وحزناً فقد كانت بعثة موسى في مدة ابن فرعون هذا .

ووصفه بالحزن وهو مصدر على تقدير متعلق محذوف ، أي حزناً لهم لدلالة قوله لهم السابق .

وليس هذا من الوصف بالمصدر للمبالغة مثل قولك : فلان عدل ، لأن ذلك إذا كان المصدر واقعاً موقع اسم الفاعل فكان معنى المصدر قائماً بالموصوف .

والمعنى هنا : ليكون لهم حزناً .

والإسناد مجاز عقلي لأنه سبب الحزن وليس هو حزناً .

وقرأ الجمهور ﴿ وحزناً ﴾ بفتح الحاء والزاي .

وقرأه حمزة والكسائي وخلف بضم الحاء وسكون الزاي وهما لغتان كالعَدَم والعُدْم .

وجملة ﴿ إن فرعون وهامان ﴾ إلى آخرها في موضع العلة لجملة ﴿ ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ أي قدّر الله نجاة موسى ليكون لهم عدوّاً وحزناً ، لأنهم كانوا مجرمين فجعل الله ذلك عقاباً لهم على ظلمهم بني إسرائيل وعلى عبادة الأصنام .

والخاطىء : اسم فاعل من خَطِىءَ كفرح إذا فعل الخطيئة وهي الإثم والذنب ، قال تعالى ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ [العلق : 16] .

ومصدره الخطء بكسر الخاء وسكون الطاء .

وتقدم في قوله تعالى ﴿ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾

في [الإسراء : 31] .

وأما الخطأ وهو ضد العمد ففعله أخطأ فهو مخطىء ، قال تعالى ﴿ ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم ﴾ [الأحزاب : 5] ، فعلى هذا يتعين أن الفصحاء فرقوا الاستعمال بين مرتكب الخطيئة ومرتكب الخطأ ، وعلى التفرقة بين أخطأ وخطِىءَ درج نفطويه وتبعه الجوهري والحريري .

وذهب أبو عبيد وابن قتيبة إلى أن اللفظين مترادفان وأنهما لغتان ، وظاهر كلام الزمخشري هنا أنه جار على قول أبي عبيد وابن قتيبة فقد فسر هذه الآية بالمعنيين وقال في "الأساس" : "أخطأ في الرأي وخطىء إذا تعمد الذنب .

وقيل : هما واحد" .

(110/584)

ويظهر أن أصلهما لغتان في معنى مخالفة الصواب عن غير عمد أو عن عمد ، ثم غلب الاستعمال الفصيح على تخصيص أخطأ بفعل على غير عمد وخطِىءَ بالإجرام والذنب

وهذا الذي استقر عليه استعمال اللغة .

وإن الفروق بين الألفاظ من أحسن تهذيب اللغة .

فأما محمل الآية هنا فلا يناسبه إلا أن يكون ﴿ خاطئين ﴾ من الخطيئة ليكون الكلام تعليلاً لتكوين حزنهم منه بالأخارة .

وتقدم ذكر هامان آنفاً القصص [6] .

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

يدل الكلام على أن الذين انتشلوه جعلوه بين أيدي فرعون وامرأته فرقت له امرأة فرعون وصرفت فرعون عن قتله بعد أن هم به لأنه علم أن الطفل ليس من أبناء القبط بلون جلوته وملامح وجهه ، وعلم أنه لم يكن حمله النيل من مكان بعيد لظهوره أنه لم يطل مكث تابوته في الماء ولا اضطرابه بكثرة التنقل ، فعلم أن وقعه في التابوت لقصد إنجائه من الذبح .

وكان ذلك وقت انتشاله من الماء وإخراجه من التابوت .

وكانت امرأة فرعون امرأة ملهمة للخير وقدّر الله نجاة موسى بسببها .

وقد قال الله تعالى في شأنها ﴿ وضرب الله مثلاً للذين ءامنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجِّني من فرعون وعمله ونجِّني من القوم الظالمين ﴾ [التحريم : 11] ، وهي لم تر عداوة موسى لآل فرعون ولا حزنت منه لأنها انقرضت قبل بعثة

موسى .

و﴿ امرأة فرعون ﴾ سميت آسية كما في الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم " كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون " ويفيد قولها ذلك أن فرعون حين رآه استحسنه ثم خالجه الخوف من عاقبة أمره فلذلك أنذرته امرأته بقولها ﴿ قرة عين لي ولك لا تقتلوه ﴾ .

وارتفع ﴿ قرة عين ﴾ على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هذا الطفل .

(111/584)

وحذفه لأنه دل عليه حضوره بين أيديهم وهو على حذف مضاف ، أي هو سبب قرة عين لي ولك .

و(قرة العين) كناية عن السرور وهي كناية ناشئة عن ضدها وهو سُخْنة العين التي هي أثر البكاء اللازم للأسف والحزن ، فلما كُني عن الحزن بسخنة العين في قولهم في الدعاء بالسوء : أسخن الله عينه .

وقول الراجز:

أوه أديم عرضه وأسخن . . .

بعينه بعد هجوع الأعين

أتبعوا ذلك بأن كنّوا عن السرور بضد هذه الكناية فقالوا : قرة عين ، وأقر الله عينه ، فحكى القرآن ما في لغة امرأة فرعون من دلالة على معنى المسرّة الحاصلة للنفس ببليغ ما كنّى به العرب عن ذلك وهو ﴿ قرة عين ﴾ ، ومن لطائفه في الآية أن المسرة المعنية هي مسرة حاصلة من مرأى محاسن الطفل كما قال تعالى ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ [طه : 39] .

ويجوز أن يكون قوله ﴿ قرة عين ﴾ قسماً كما يقال : أيمن الله .

فإن العرب يقسمون بذلك ، أي أقسم بما تقرّ به عيني .

وفي الحديث الصحيح : أن أبا بكر الصديق استضاف نفراً وتأخر عن وقت عشائهم ثم حضر ، وفيه قصة إلى أن قال الراوي : فجعلوا لا يأكلون لقمة إلا ربت من أسفلها أكثر منها .

فقال أبو بكر لامرأته : يا أخت بني فراس ما هذا ؟ فقالت : وقُرّة عيني إنها الآن أكثر من قبل .

فتكون امرأة فرعون أقسمت على فرعون بما فيه قرة عينها ، وقرة عينه أن لا يقتل موسى ، ويكون رفع ﴿ قرة عينٍ ﴾ على الابتداء وخبره محذوفاً ، وهو حذف كثير في نص اليمين مثل : لعمرك .

وابتدأت بنفسها في ﴿ قرة عين لي ﴾ قبل ذكر فرعون إدلالاً عليه لمكانتها عنده أرادت أن تبتدره بذلك حتى لا يصدر عنه الأمر بقتل الطفل .

وضمير الجمع في قولها ﴿ لا تقتلوه ﴾ يجوز أن يراد به فرعون نزّلته منزلة الجماعة على وجه التعظيم كما في قوله ﴿ قال رب ارجعون ﴾ [المؤمنون : 99] .

ويجوز أن يراد به خطاب فرعون داخلاً فيه أهل دولته هامان والكهنة الذين ألقوا في نفس فرعون أن فتى من إسرائيل يفسد عليه مملكته .

(112/584)

وهذا أحسن لأن فيه تمهيداً لإجابة سُؤْلها حين أسندت معظم القتل لأهل الدولة وجعلت لفرعون منه حظ الواحد من الجماعة فكأنها تعرّض بأن ذلك ينبغي أن لا يكون عن رأيه فتهوّن عليه عدوله في هذا الطفل عما تقرر من قتل الأطفال .

وقيل ﴿ لا تقتلوه ﴾ التفات عن خطاب فرعون إلى خطاب الموكّلين بقتل أطفال إسرائيل كقوله ﴿ يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ﴾ [يوسف : 29] .

فموقع جملة ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ موقع التمهيد والمقدمة للعرض .

وموقع جملة ﴿ لا تقتلوه ﴾ موقع التفريع عن المقدمة ولذلك فصلت عنها .

وأما جملة ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ فهي في موقع العلة لمضمون جملة ﴿ لا تقتلوه ﴾ فاتصالها بها كاتصال جملة ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ بها ، ولكن نظم الكلام قضى بهذا الترتيب البليغ بأن جعل الوازع الطبيعي عن القتل وهو وازع المحبة هو المقدّمة لأنه أشدّ تعلقاً بالنفس فهو يشبه المعلوم البديهي .

وجعل الوازع العقلي بعد النهي علةً لاحتياجه إلى الفكر ، فتكون مهلة التفكير بعد سماع النهي الممهد بالوازع الطبيعي فلا يخشى جماح السامع من النهي ورفضه إياه .

ويتضمن قولها ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ إزالة ما خامر نفس فرعون من خشية فساد ملكه على يد فتى إسرائيلي بأن هذا الطفل لا يكون هو المخوف منه لأنه لما انضم في أهلهم وسيكون ربيَّهم فإنه يرجى منه نفعهم وأن يكون لهم كالولد .

فأقنعت فرعون بقياس على الأحوال المجربة في علاقة التربية والمعاشرة والتبني والإحسان ، وإن الخير لا يأتي بالشر .

ولذلك وقع بعده الاعتراض بقوله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي وفرعون وقومه لا يعلمون خفي إرادة الله من الانتقام من أمة القبط بسبب موسى .

ولعل الله حقق لامرأة فرعون رجاءها فكان موسى قرة عين لها ولزوجها ، فلما هلكا وجاء فرعون آخر بعدهما كان ما قدّره الله من نصر بني إسرائيل .

واختير ﴿ يشعرون ﴾ هنا لأنه من العلم الخفي ، أي لا يعلمون هذا الأمر الخفي . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(113/584)

وقال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ .

اعلم أن التحقيق إن شاء الله ، أن اللام في قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ لام التعليل المعروفة بلام كي ، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الإنسان : 30] و [التكوير : 29] .

وإيضاح ذلك أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [الإنسان : 30] و [التكوير : 29] صريح في أن الله تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته بمشيئته جل وعلا ، إلى ما سبق به علمه ، وقد صرف مشيئة فرعون ، وقومه بمشيئته جل وعلا ، إلى التقاطهم موسى . ليجعله لهم عدواً وحزناً ، فكأنه يقول : قدرنا عليهم التقاطه بمشيئتنا ليكون لهم عدواً وحزناً ، وهذا معنى واضح ، لا لبس فيه ولا إشكال كما ترى .

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية : ولكن إذا نظر إلى معنى السياق ، فإنه تبقى

اللام للتعليل ، لأن معناه : أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ، ليجعله عدواً لهم وحزناً ، فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه . انتهى محل الغرض من كلامه ، وهذا المعنى هو التحقيق في الآية إن شاء الله تعالى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ كما بينا وجهه آنفاً .

وبهذا التحقيق تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين ، وينشدون له الشواهد من أن اللام في قوله . ليكون : لام العاقبة ، والصيرورة خلاف للصواب ، وأن ما يقوله البيانيون ، من أن اللام في قوله : ليكون فيها استعارة تبعية ، في متعلق معنى الحرف ، خلاف الصواب أيضاً .

(114/584)

وإيضاح مراد البيانين بذلك ، هو أن من أنواع تقسيمهم لما يسمونه الاستعارة التي هي عندهم ، مجاز علاقته المشابهة أنهم يقسمونها إلى استعارة أصلية ، واستعارة تبعية ، ومرادهم بالاستعارة الأصلية : الاستعارة في أسماء الأجناس الجامدة والمصادرة ، ومرادهم باستعارة التبعية قسمان :

أحدهما : الاستعارة في المشتقات كاسم الفاعل والفعل .

والثاني : الاستعارة في متعلق معنى الحرف ، وهو المقصود بالبيان .

فمثال الاستعارة الأصلية عندهم : رأيت أسداً على فرسه ، ففي لفظة أسد في هذا المثال : استعارة أصلية تصريحية عندهم ، فإنه أراد تشبيه الرجل الشجاع بالأسد لعلاقة الشجاعة ، فحذف المشبه الذي هو الرجل الشجاع ، وصرح بالمشبه به الذي هو الأسد ، على سبيل الاستعارة التصريحية ، وصارت أصلية ، لأن الأسد اسم جنس جامد .

ومثال الاستعارة التبعية ، في المشتق عندهم قولك : الحل ناطقة بكذا ، فالمراد عندهم : تشبيه دلالة الحال بالنطق بجامع الفهم ، والإدراك بسبب كل منهما ، فحذف الدلالة التي هي المشبة ، وصرح بالنطق الذي هو المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ، واشتق من النطق اسم الفاعل الذي هو ناطقة ، فجرت الاستعارة التبعية في اسم الفاعل الذي هو ناطقة ، وإنما قيل لها تبعية ، لأنها إنما جرت فيه تبعاً لجريانها في المصدر ، الذي هو النطق ، لأن المشتق تابع للمشتق منه ، ولا يمكن فهمه بدون فهمه ، وهذا التوجيه أقرب من غيره مما يذكرونه من توجيه ما ذكر .

(115/584)

ومثال الاستعارة التبعية عندهم في متعلق معنى الحرف في زعمهم هذه الآية الكريمة ، قالوا : اللام فيها كلفظ الأسد في المثال الأول ، فإنه أطلق على غير الأسد لمشابهة بينهما ، قالوا

: وكذلك اللام أصلها موضوعة للدلالة على العلة الغائية ، وعلة الشيء الغائية : هي ما يحمل على تحصيله ليحصل بعد حصوله : قالوا : والعلة الغائية للالتقاط في قوله تعالى : فالتقطه هي المحبة والنفع والتبني : أي اتخاذهم موسى ولداً ، كما صرحوا بأن هذا هو الباعث لهم على التقاطه وتربيته ، في قوله تعالى عنهم : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [القصص : 9] ، فهذه العلة الغائية عندهم هي التي حملتهم على التقاطه ، لتحصل لهم هذه العلة بعد الالتقاط .

قالوا : ولما كان الحاصل في نفس الأمر بعد الالتقاط ، هو ضد ما رجوه وأملوه ، وهو العداوة والحزن ، شبهت العداوة والحزن الحاصلان بالالتقاط بالمحبة والتبني والنفع ، التي هي عل الالتقاط الغائية بجامع الترتب في كل منهما ، فالعلة الغائية : تترتب على معلولها دائماً ترتب رجاء للحصول ، فتبنيهم لموسى ومحبته كانوا يرجعون ترتبهما على التقاطهم له ، ولما كان المترتب في نفس الأمر على التقاطهم له ، هو كونه عدواً لهم وحزناً ، صار هذا الترتب الفعلي شبيهاً بالترتب الرجائي ، فاستعيرت اللام الدالة على العلة الغائية المشعرة بالترتب الرجائي للترتب الحصولي الفعلي الذي لا رجاء فيه .

وإيضاحه : أن ترتب الحزن والعداوة على الالتقاط أشبه ترتب المحبة والتبني على الالتقاط ، أطلقت لام العلة الغائية في الحزن العداوة ، لمشابهتهما للتبني والمحبة في الترتب ، كما أطلق لفظ الأسد على الرجل الشجاع ، لمشابهتهما في الشجاعة .

وبعض البلاغيين يقول : في هذا جرت الاستعارة الأصلية أولاً بين المحبة والتبني ، وبين العداوة والحزن اللذين حصولهما هو المجرور ، فكانت الاستعارة في اللام تبعاً للاستعارة في المجرور ، لأن اللام لا تستقل فيكون ما اعتبر فيها تبعاً للمجرور ، الذي هو متعلق معنى الحرف ، وبعضهم يقول : فجرت الاستعارة أولاً في العلية والغرضية ، وتبعيتها في اللام ، وهناك مناقشات في التعبية في معنى الحرف تركناها ، لأن غرضنا بيان مرادهم بالاستعارة التبعية في هذه الآية بإيجاز .

وإذا علمت مرادهم بما ذكر ، فاعلم أن التحقيق إن شاء الله هو ما قدمنا ، وقد أوضحنا في رسالتنا المسماة [منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز] أن التحقيق : أن القرآن لا مجاز فيه ، وأوضحنا ذلك بالأدلة الواضحة .

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ ﴾ [القصص : 8] أي مرتكبين الخطيئة التي هي الذنب العظيم كقوله تعالى : ﴿ مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ﴾ [نوح : 25] وقوله تعالى : ﴿ بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته ﴾ [البقرة : 81] الآية .

ومن إطلاق الخاطئ على المذنب العاصي : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ لاَّ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطئون ﴾ [الحاقة : 3637] وقوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق : 16] وقوله : ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ﴾ [يوسف : 29] والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(117/584)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

عجيب أمر فرعون ، فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بني إسرائيل يأتيه في البحر تابوت به طفل رضيع ، فلا يخطر على باله أن أهله ألقوه في البحر لينجو من فرعون ، فكيف فاتتْه هذه المسألة وهو إله ؟ لم يعرفها بألوهيته ، ولا عرفها حتى بذكائه وفِطْنته .

وإذا كان الكهنة أخبروه بأن ذهاب مُلْكه على يد وليد من هؤلاء الأولاد ، وإذا كانت هذه النبوءة صحيحة فلا بُدَّ أن الولد سينجو من القتل ويكبر ، ويقضي على مُلْك فرعون ، وما دام الأمر كذلك فسوف يقتل فرعون الأولاد غير الذي سيكون ذهاب مُلْكه على يديه .

وتشاء إرادة الله أنْ يتربَّى موسى في قصر فرعون ، وأنْ تأتي إليه أمه السيدة الفقيرة لتعيش

معه عيشة الترف والثراء ، ويصير موسى بقدرة الله قُرَّة عَيْن للملكة ، فانظر إلى هذا التغفيل ، تغفيل عقل وطمس على بصيرة فرعون الذي ادَّعى الألوهية .

وبذلك نفهم قول الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : 24] فقلبه يُغطِّي على بصيرته ويُعمِّيها .

قوله تعالى لأم موسى : ﴿ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم ﴾ [القصص : 7] فمَنْ مِنَ النساء تقبل إنْ خافت على ولدها أنْ تُلقيه في اليم ؟ مَنْ ترضى أَنْ تُنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذي أتاها ، والذي لا يؤثر فيه وارد الشيطان .

ثم يهيىء الحق سبحانه كذلك امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهي لموسى فتقول ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : 9] .

فيرد عليها فرعون : بل لك أنت وحدك ، وكأنه يستشعر ما سيحدث ، ولكن إرادة الله لا بُدَّ نافذة ولا بُدَّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنعه شيء ؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا رادّ لإرادته .

(118/584)

فمع ما علمه فرعون من أمر الرؤيا أو النبوءة رُبّي الوليد في بيته ، ولا يخلو الأمر أيضاً من سيطرة المرأة على الرجل في مثل هذا الموقف .

لذلك النبي صلى الله عليه وسلم حينما قُرِئت هذه الآية قال : " والذي يُحلف به ، لو قال فرعون كما قالت امرأته قرة عين لي ولك لهداه الله كما هداها " إنما ردَّ الخير الذي ساقه الله إليه ؛ لذلك أسلمتْ زوجته وماتت على الإيمان .

وهي التي قالت : ﴿ رَبِّ ابن لِي عِندكَ بَيْتاً فِي الجنة ونَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ونَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ [التحريم : 11] أما هو فمات على كفره شرَّ ميتة .

وسبق أنْ تكلّمنا في وحي الله لأم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : 7] وقلنا : إن الوحي في عموم اللغة : إعلام بطريق خفي دون أن تبحث عن الموحِي ، أو الموحَى إليه ، أو الموحَى به .

أما الوَحْي الشرعي فإعلام من الله تعالى لرسوله بمنهج لخَلْقه .

فالله تعالى يوحي للملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ ﴾ [الأنفال : 12] .

ويُوحى إلى الرسل : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [النساء : 163] .

ويُوحي للمؤمنين الصادقين في خدمة رسول : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي

وَبِرَسُولِي ﴾ [المائدة: 111] .

يوحي إلى النحل، بل وإلى الجماد: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ [الزلزلة: 15] .

وقد يكون الإعلام والوحي من الشيطان: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ [الأنعام: 121] .

(119/584)

ويكون من الضالين: ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام: 112] .

فالوَحْي إلى أم موسى كان وَحْياً من المرتبة الرابعة بطريق النَّفْث في الروع، أو الإلهام، أو برؤيا، أو بملَك يُكلّمها، هذا كله يصح .

وهذا الوحي من الله، وموضوعه ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص: 7] وهذا أمر ﴿ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ﴾ [القصص: 7] نهى ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: 7] وهذه بشارة في خبرين . فهذه الآية إذن

جمعتْ لأم موسى أمرين ، ونهيين ، وبشارتين في إيجاز بليغ مُعْجز .

ومعنى ﴿ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : 7] يعني : مدة أمانك عليه ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ [القصص : 7] ولم يقل من أيِّ شيء ليدلّ على أيِّ مخوف تخشاه على وليدها ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ [القصص : 7] ويراعي الحق سبحانه مشاعر الأم وقَلقها على ولدها ، خاصة إذا ألقتْه في البحر فيطمئنها ﴿ وَلاَ تَخَافِي ﴾ [القصص : 7] لأن الله سيُيسِّر له تربية خيراً من تربيتك في ظل بيت الغِنَى والمُلْك .

﴿ وَلاَ تَحْزَنِي ﴾ [القصص : 7] أي : لفراقه ؛ لأن هذا الفراق سيُعوِّضك ، ويُعوِّض الدنيا كلها خيراً ، حين يقضي على هذا الطاغية ، ويأتي بمنهج الله الذي يحكم خَلْق الله في الأرض .

ثم اعلمي بعد هذا أن الله رادُّه إليك ، بل وجاعله من المرسلين ، إذن : أنا الذي أحفظه ، وليس من أجلك فحسب ، إنما أيضاً لأن له مهمة عندي .

(120/584)

يقولون : ظلت أم موسى تُرضِعه في بيتها طالما كانت آمنة عليه من أعين فرعون ، إلى أنْ جاءها أحَد العسس يفتش البيت فخافت على الولد فلفته في خرقة ودسته في فجوة

بجوارها ، كانت هذه الفجوة هي الفُرْن ، ألقتْه فيه وهو مسجور دون أن تشعر يعني من شدة خوفها عليه حتى إذا ما انصرف العَسَس ذهبت إليه ، فإذا به سالماً لم يُصِبْه سوء .

وكأن الله تعالى يريد لها أنْ تطمئن على حِفْظ الله له ، وأن وعده الحق .

وقد وردت مسألة وحي الله لأم موسى في كتاب الله مرتين مما دعا السطحيين من المستشرقين إلى اتهام القرآن بالتكرار الذي لا فائدةَ منه ، وذكروا قوله تعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه : 3839] .

لكن فَرْق بين الوحي الأول والوحي الآخر : الوحي الأول خاص بالرضاعة في مدة الأمان ، أما الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه في اليم .

وتأمل ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ ﴾ [طه : 39] والقذف إلقاء بقوة ، لا أنْ تضعه بحنان ورفق ؛ لأن عناية الله ستحفظه على أي حال ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ [طه : 39] وهذا أمر من الله تعالى لليمِّ أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل ؛ لذلك لم يأت في هذا الوحي ذِكْر لعملية الرضاعة .

فكأن الوحي الأول جاء تمهيداً لما سيحدث ؛ لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل ، ثم جاء الوحي الثاني للممارسة والتنفيذ ، كما تُحدِّث جارك ، وتُحذِّره من اللصوص وتنصحه أنْ

يحتاط لهذا الأمر ، فإذا ما دخل الليل حدث فعلاً ما حذّرتَه منه فَرُحْت تنادي عليه ليسرع إليهم ويضربهم .

(121/584)

لذلك يختلف أسلوب الكلام في الوحي الأول ، فيأتي رتيباً مطمئناً : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : 7] هكذا في نبرة هادئة لأن المقام مقام نصح وتمهيد ، لا مقام أحداث وتنفيذ .

أما الوحي الثاني فيأتي في سرعة ، وبنبرة حادة : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ [طه : 39] فالعَجلة في اللفظ تدلُّ على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً .

وفي الأولى قال ﴿ فَأَلْقِيهِ ﴾ [القصص : 7] ، أما في الثانية فقال ﴿ فاقذفيه ﴾ [طه : 39] والأم لا تقذف وليدها ، بل تضعه بحنان وشفقة ، لكن الوقت هنا ضيّق لا يتسع لممارسة الحنان والشفقة .

والأمر لليمِّ بأن يلقي التابوت بالساحل له حكمة ؛ لأن العمق موضع الحيوانات البحرية المتوحشة التي يُخاف منها ، أمَّا بالقُرْب من الساحل فلا يوجد إلا صغار الأسماك التي لا

خطورة منها ، وكذلك ليكون على مَرْأى العين ، فيطمئن عليه أهله ، ويراه مَنْ ينقذه ليصل إلى البيت الذي قُدِّر له أنْ يتربّى فيه .

وفعلاً ، وصل التابوت إلى الساحل ، وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشاطىء ، فلما أُخرِج لهم التابوت وجدوا فيه الطفل الرضيع ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، مُجعَّد الشعر ، كبير الأنف ، يعني لم يكُنْ عليه السلام جميلاً تنجذب إليه الإنظار ويفرح به مَنْ يراه .

لذلك يمتنُّ الله عليه بقوله : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] أي : ليس بذاتك أن يحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله ، لذلك ساعة رأته آسية أحبَّته وانشرح صدرها برؤيته ، فتمسكَّت به رغم معارضة فرعون لذلك .

(122/584)

كما أن ابنة فرعون ، وكانت فتاة مبروصة أصابها البرص ، ورأت في الرؤيا أن شفاءها سيكون بشيء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه ، وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفِيت في الحال فتشبثتْ به هي أيضاً .

فاجتمع لموسى محبة الزوجة ، ومحبة البنت ، وهما بالذات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون ، بحيث لا يرد لهما طلباً .

وفي انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلٌ على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل ، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه ، والضغط على مراداته .

لذلك يطمئننا الحق تبارك وتعالى على نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ﴾ [الجن : 3] .

ذلك لأن الصاحبة غالباً ما تستميل زوجها بوسيلة أو بأخرى ، أما الولد فيدعو الأب إلى الجبْن والخضوع ، والحق تبارك وتعالى لا يوجد لديه مراكز قوى ، تضغط عليه في أي شيء ، فهو سبحانه مُنزَّه عن كل نقص .

وحكوا في دعابات أبي نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفع له عند الخليفة هارون الرشيد ، فشفع له أبو نواس ، لكن الخليفة لم يُجِبْه إلى طلبه ، وانتظر الرجل دون جدوى ، ففكر في وساطة أخرى ، واستشفع بآخر عند زبيدة زوجة الرشيد ، فلما كلَّمته أسرع إلى إجابة الرجل ، وهنا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد ، لكنه لم يهتم به ، فقال له اسمع إذن :

ليسَ الشَّفِيعُ الذِي يأتِيكَ مُؤتزراً . . . مثْلَ الشَّفِيعِ الذِي يأتِيكَ عُرْيانا

ولهذه العناية الإلهية بموسى عليه السلام نلحظ أنه لما قال له ربه ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 24] خاف موسى من هذه المهمة ، وكان اسم فرعون في هذا الوقت يُلقي الرعب في النفوس ، حتى أن موسى وهارون قالا ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يطغى ﴾ [طه : 45] .

(123/584)

لذلك طلب موسى من ربه ما يُعينه على القيام بمهمته : ﴿ قَالَ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي * واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ [طه : 2537] .

أي : أوتيت كل مسئولك ومطلوبك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ ﴾

اللَّقطُ واللُّقطة : أن تجد شيئاً بدون طلب له ، ومنه اللقيط ، وهو الطفل الرضيع تجده في الطريق دون قَصْد منك ، أو بحث . وكذلك كان الأمر مع التابوت ، فقد جاء آل فرعون

وهم جلوس لم يَسْمعَوْا إليه ، ولم يطلبوه ، فما أنْ رأوه أخذوه ، لكن ما علة التقاطه ؟

الزوجة قالت ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : 9] وقالت في حيثية أخرى : ﴿ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [القصص : 9] فلم يكن لهم بنون ، فأرادوا أخاً للبنت ، وأرادته البنت صيدلية علاج ، لكن هل ظلتْ هذه العلة قائمة ووجدت فعلاً ؟

لا ، إنما التقطوه لتقدير آخر ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] لا ليكون قرة عين ، فاللام هنا في ﴿ لِيَكُونَ ﴾ [القصص : 8] لام العاقبة يعني : كان يفكر لشيء ، فجاءت العاقبة بشيء آخر .

وفي هذا إشارة وبيان لغباء فرعون والطمس على بصيرته وهو الإله ! ! فبعد أنْ حذَّره الكهنة ، وبعد الرُّؤْيا الي رآها وعِلْمه بخطورة هذا المولود على مُلْكه وعلى حياته يرضى أنْ يُربِّيه في بيته ، وهذا دليل صِدْق قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : 24] .

(124/584)

ومعنى ﴿ وَحَزَناً ﴾ [القصص : 8] يعني حُزْن مثل : عَدَم وعُدْم ، وسَقَم وسُقْم ، وبَخَل وبُخْل ، فالمعنى يأتي بالصيغتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ ﴾ [القصص : 8] .

هم خاطئون ؛ لأن تصرفاتهم لا تتناسب مع ما عرفوه من أمر الوليد ، فلم يُقدِّروا المسائل ، ولم يستنبطوا العواقب ، وكان عليهم أن يشكُّوا في أمر طفل جاء على هذه الحالة ، فلا بُدَّ أن أهله قصدوا نجاته من يد فرعون .

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

معنى ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ ﴾ [القصص : 9] مادة قرَّ تقول : قرَّ بالمكان يعني : أقام وثبت به ، ومنه قرور يعني : ثبات ، وتأتي قرَّ بمعنى البرد الشديد ، ومنه قول الشاعر :

أَوْقِدْ فإنَّ اللَيْل لَيْل قُرٌّ . . . والرِّيحُ يَا غُلامُ رِيحٌ صرّ

إنْ جلبْتَ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ . . . إذن : قرة العين إما بمعنى ثباتها وعدم حركتها ، وثبات العين واستقرارها إما يكون ثباتاً حسياً ، أو معنوياً ، والثبات المعنوي : أنْ تستقر العين على منظر أو شيء بحيث تكتفي وتقنع به ، ويغنيها عن التطلُّع لغيره .

ومنه قولهم : فلان ليس له تطلعات أخرى ، يعني اكتفى بما عنده ، ومنه ما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ﴾ [طه : 131] .

لذلك يُسمُّون الشيء الجميل الذي يجذب النظر ، فلا ينظر إلى غيره (قيد النظر) يقول الشاعر :

سَمَّرْتُ عَيْني في القَمَرِ . . . فَنَالَ مِنّي مَنْ نَظَر

يَا لَيْتَ لائمي عذر . . . فحُسْنه قَيْد النَّظَرْ

(125/584)

أما الثبات الحسي فيعني : ثبات العين في ذاتها بحيث لا ترى ، ومنه قول المرأة للخليفة : أقرَّ الله عينك ، وأتم عليك نعمتك . تُوهِم أنها تدعو له ، وهي في الحقيقة تدعو عليه تقصد : أقرَّ الله عينك .

يعني : سكَّنها وجمدها بالعمى ، وأتمَّ عليك نعمتك . وتمام الشيء بداية نقصه على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَيء بَدَا نَقْصُه . . . ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيل تَمّ

أما القرُّ بمعنى البرد ، فمن المعلوم عن الحرارة أن من طبيعتها الاستطراق والانتشار في المكان ، لكن حكمة الله خرقتْ هذه القاعدة في حرارة جسم الإنسان ، حيث جعل لكل عضو فيه حرارته الخاصة ، فالجلد الخارجي تقف حرارته الطبيعية عند 37° ، في حين أن

الكبد مثلاً لا يؤدي مهمته إلا عند 40° .

أما العين فإذا زادتْ حرارتها عن 9° تنصهر ، ويفقد الإنسان البصر ، والعجيب أنهما عضوان في جسم واحد ، فهي آية من آيات الله في الخلق ، لذلك حين ندعو لشخص نقول له : أقرَّ الله عينك يعني : جعلها باردة سالمة ، ألاَ ترى أن الإنسان إذا غَضِب تسخنُ عينه ويحمّر وجهه ؟

فالمعنى هنا ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص : 9] يعني يكون نعمة ومتعة لنا ، نفرح به ونقنع ، فلا ننظر إلى غيره .

وفي موضع آخر يشرح لنا الحق سبحانه قُرَّة العين : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ الله المعوقين مِنكُمْ والقآئلين لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ البأس إِلاَّ قَلِيلاً * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ الخوف رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كالذي يغشى عَلَيْهِ مِنَ الموت ﴾ [الأحزاب : 1819] .

فهؤلاء تدور أعينهم هنا وهناك كما نقول نحن : (فلان عينه لا يجة) يعني : لا تهدأ ، إما من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطراب ، وهذا كله ينافي قُرَّة العين .

(126/584)

وقولها بعد ذلك ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ [القصص : 9] تعني : أنهم فعلاً هَمُّوا بقتله ، ففي بالهم إذن أن هلاك فرعون على يدي هذا الطفل ، وهم على يقين من ذلك .

﴿ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : 9] يعني : لا يشعرون بنفعه لهم أو عدم نفعه ، وهل سيكون لهم ولداً أم عدواً ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(127/584)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ . . . الآية .

الخطاب في قوله: ﴿ وَلَكَ ﴾ يدل على أن المخاطب واحد وفي قوله: ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ يدل على أنه جماعة .

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه .

الأول: أن صيغة الجمع للتعظيم .

الثاني: أنها تعني فرعون وأعوانه الذين هموا معه بقتل موسى فأفردت الضمير في قولها (لك)

؛ لأن كونه قرة عين في زعمها يختص بفرعون دونهم وجمعته في قولها (لا تقتلوه) ؛ لأنهم شركاء معه في الهمّ بقتله .

الثالث: أنها لما استعطفت فرعون على موسى التفت إلى المأمورين بقتل الصبيان قائلة لا تقتلوه معللة ذلك بقولها : ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 229 ﴾

(128/584)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ يقول : ألهمناها الذي صنعت بموسى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ قال : قذف في نفسها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن

أرضعيه ﴾ قال : وحي جاءها عن الله قذف في قلبها ، وليس بوحي نبوة ﴿ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ﴾ قال : فجعلته في تابوت فقذفته في البحر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن الحبلي قال : إن الله أوحى إلى أم موسى حين وضعت ﴿ أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ﴾ فلما خافت عليه جعلته في التابوت ، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته في البحر ، وخرجت امرأة فرعون إلى البحر وابنة لفرعون برصاء ، فرأوا سواداً في البحر ، فأخرج التابوت إليهم ، فبدرت ابنة فرعون وهي برصاء إلى التابوت ، فوجدت موسى في التابوت وهو مولود ، فأخذته فبرأت من برصها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش رضي الله عنه قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : في قوله ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ قال : أن يسمع جيرانك صوته .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ قال : فجعلته في بستان فكانت تأتيه في كل يوم مره فترضعه ، وتأتيه في كل ليله فترضعه فيكفيه ذلك ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ قال : إذا بلغ أربعة أشهر وصاح وابتغى من الرضاع أكثر من ذلك . فذلك قوله ﴿ فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تخافي ﴾ قال : لا تخافي عليه البحر ﴿ ولا تحزني ﴾ يقول : ولا تحزني لفراقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً ﴾ قال : في دينهم ﴿ وحزناً ﴾ قال : لما يأتيهم به .

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس قال : قالت امرأة فرعون ﴿ قرة عين لي ولك لا تقتلوه ﴾ قال فرعون : قرة عين لك ، أما لي فلا قال محمد بن قيس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو قال فرعون قرة عين لي ولك لكان لهما جميعاً " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ﴾ تعني بذلك : موسى عليه السلام ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ قال : ألقيت عليه رحمتها حين ابصرته ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ إن هلاكهم على يديه وفي زمانه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قال : آل فرعون أنه عدوّ لهم .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قال : ما يصيبهم من عاقبة

أمره .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : لا يشعرون أن هلاكهم على يديه والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(130/584)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ :

يجوز أَنْ تكونَ المفسِّرة والمصدريةَ . وقرأ عمر بن عبد العزيز وعمر بن عبد الواحد بكسرِ النونِ على التقاءِ الساكنين كأنه حَذَف همزةَ القطعِ على غيرِ قياسٍ ، فالتقى ساكنان ، فكُسِرَ أَوَّلُهما .

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)

قوله : ﴿ لِيَكُونَ ﴾ : في اللامِ الوجهان المشهوران : العِلِّيَّةُ المجازيةُ بمعنى : أنَّ ذلك لَمَّا كان

نتيجةَ فِعْلِهم وثمرتَه ، شُبِّه بالداعي الذي يفعلُ الفاعلُ الفعلَ لأجله ، أو الصيرورةُ . وقرأ العامَّةُ بفتحِ الحاءِ والزاي وهي لغةُ قريشٍ والأخوان بضمٍ وسكونٍ . وهما لغتان بمعنىً واحدٍ كالعُدْمِ والعَدَم .

قوله : ﴿ خَاطِئِينَ ﴾ : العامَّةُ على الهمزِ . مأخوذٌ من الخَطأ ضدَّ الصواب . وقُرِئَ بياءٍ دونَ همزةٍ ، فاحْتُمِلَ أن يكونَ كالأولِ ولكن خُفِّفَ ، وأَنْ يكونَ مِنْ خطا يَخْطُو ، أي : تجاوزَ الصوابَ .

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

قوله : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ ﴾ : فيه وجهان ، أظهرهما : أنَّه خبرُ مبتدأ مضمرٍ أي : هو قُرَّةُ عينٍ . والثاني : وهو بعيدٌ جداً أَنْ يكونَ مبتدأ ، والخبرُ " لا تَقْتُلوه " . وكأنَّ هذا القائلَ حقُّه أَنْ يُذَكَّر فيقول : لا تقتلوها إلاَّ أنه لمَّا كان المرادُ مذكراً ساغَ ذلك .

(131/584)

والعامَّة من القرَّاء والمفسرين وأهلِ العلم يقفون على " ولَكَ " . ونقل ابن الأنباري بسنده إلى ابن عباس عنه أنه وَقَف على " لا " أي : هو قُرَّةُ عينٍ لي فقط ، ولك لا ، أي ليس هو لك قرةَ

عين ، ثم يَبْتَدِىء بقوله " تَقْتُلُوه " ، وهذا لا ينبغي أن يَصِحَّ عنه ، وكيف يَبْقَى " تَقْتُلُوه " من غيرِ نونِ رفعٍ ولا مُقْتَضٍ لحَذْفِها ؟ ولذلك قال الفراء : " هو لحنٌ .

قوله : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ . وهل هي من كلامِ الباري تعالى وهو الظاهرُ ، أو من كلامِ امرأةِ فرعون ؟ كأنَّها لَمَّا رأَتْ مَلأَه أشاروا بقتلِه قالَتْ له كذا أي : افعل أنتَ ما أقولُ لك ، وقومُك لا يَشْعُرون . وجَعَل الزمخشريُّ الجملةَ مِنْ قولِه : ﴿ وَقَالَتِ امرأَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ معطوفةً على " فالتقطه " ، والجملةَ مِنْ قولِه : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ﴾ إلى " خاطئين " معترضاً بين المتعاطفين/ ، وجَعَل متعلَّقَ الشعور مِنْ جنسِ الجملةِ المعترضةِ أي : لا يَشْعُرون أنهم على خطأ في التقاطِه . قال الشيخ : " ومتى أمكن حَمْلُ الكلامِ على ظاهرِه مِنْ غيرِ فصلٍ كان أحسنَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 651.

653 ﴾

(132/584)

فصل فى منزلة

قال ابن القيم :

منزلة الثقة بالله تعالى

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الثقة بالله تعالى

قال صاحب المنازل: الثقة: سواد عين التوكل ونقطة دائرة التفويض وسويداء قلب التسليم وصدر الباب بقوله تعالى لأم موسى: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص: 7] فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه وجرياته إلى حيث ينتهي أو يقف ومراده: أن الثقة خلاصة التوكل ولبه كما أن سواد العين: أشرف ما في العين وأشار بأنه نقطة دائرة التفويض إلى أن مدار التوكل عليه وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط ونسبة جهات المحيط إليها نسبة واحدة وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها كذلك الثقة هي النقطة التي يدور عليها التفويض

وكذلك قوله: سويداء قلب التسليم فإن القلب أشرف ما فيه سويداؤه وهي المهجة التي تكون بها الحياة وهي في وسطه فلو كان التفويض قلبا لكانت الثقة سويداءه ولو كان عينا لكانت سوادها ولو كان دائرة لكانت نقطتها

وقد تقدم أن كثيرا من الناس يفسر التوكل بالثقة ويجعله حقيقتها ومنهم من يفسره بالتفويض ومنهم من يفسره بالتسليم فعلمت: أن مقام التوكل يجمع ذلك كله فكأن الثقة عند الشيخ هي روح والتوكل كالبدن الحامل لها ونسبتها إلى التوكل كنسبة الإحسان إلى الإيمان والله

أعلم

فصل قال: وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى: درجة الإياس وهو

(133/584)

إياس البعد عن مقاومات الأحكام ليقعد عن منازعة الأقسام ليتخلص من قحة الإقدام

يعني أن الواثق بالله لاعتقاده: أن الله تعالى إذا حكم بحكم وقضى أمرا فلا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه فمن حكم الله له بحكم وقسم له بنصيب من الرزق أو الطاعة أو الحال أو العلم أو غيره: فلا بد من حصوله له ومن لم يقسم له ذلك: فلا سبيل له إليه ألبتة كما لا سبيل له إلى الطيران إلى السماء وحمل الجبال فبهذا القدر يقعد عن منازعة الأقسام فما كان له منها فسوف يأتيه على ضعفه وما لم يكن له منها فلن يناله بقوته والفرق بين قوله: مقاومة الأحكام و: منازعة الأقسام أن مقاومة الأحكام: أن تتعلق إرادته بعين ما في حكم الله وقضائه فإذا تعلقت إرادته بذلك جاذب الخلق الأقسام ونازعهم فيها

وقوله: يتخلص من قحة الإقدام أي يتخلص بالثقة بالله من هذه القحة والجرأة على إقدامه على ما لم يحكم له به ولا قسم له والله سبحانه أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: درجة الأمن وهو أمن العبد من فوت

المقدور وانتقاض المسطور فيظفر بروح الرضى وإلا فبعين اليقين وإلا فبلطف الصبر

يقول: من حصل له الإياس المذكور حصل له الأمن وذلك أن من تحقق بمعرفة الله وأن ما قضاه الله فلا مرد له ألبتة: أمن من فوت نصيبه الذي قسمه الله له وأمن أيضا من نقصان ما كتبه الله له وسطره في الكتاب المسطور فيظفر بروح الرضى أي براحته ولذته ونعيمه لأن صاحب الرضى في راحة ولذة وسرور كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في اليقين والرضى وجعل الهم والحزن في الشك والسخط فإن لم يقدر العبد على روح الرضى ظفر بعين اليقين وهو قوة الإيمان ومباشرته للقلب بحيث لا يبقى بينه وبين العيان إلا كشف الحجاب المانع من مكافحة البصر

(134/584)

فإن لم يحصل له هذا المقام حصل على لطف الصبر وما فيه من حسن العاقبة كما في الأثر المعروف: إن استطعت أن تعمل لله بالرضى مع اليقين فافعل فإن لم تستطع فإن في الصبر ما تكره النفس خيرا كثيرا

فصل قال: الدرجة الثالثة: معاينة أزلية الحق ليتخلص من محن

القصود وتكاليف الحمايات والتعريج على مدارج الوسائل قوله: معاينة أزلية الحق أي متى شهد قلبه تفرد الرب سبحانه وتعالى بالأزلية غاب بها عن الطلب لتيقنه فراغ الرب تعالى من المقادير وسبق الأزل بها وثبوت حكمها هناك فيتخلص من المحن التي تعرض له دون القصود ويتخلص أيضا من تعريجه والتفاته وحبس مطيته على طرق الأسباب التي يتوسل بها إلى المطالب وهذا ليس على إطلاقه فإن مدارج الوسائل قسمان: وسائل موصلة إلى عين الرضى فالتعريج على مدارجها معرفة وعملا وحالا وإيثارا هو محض العبودية ولكن لا يجعل تعريجه كله على مدارجها بحيث ينسى بها الغاية التي هي وسائل إليها وأما تخلصه من تكاليف الحمايات فهو تخلصه من طلب ما حماه الله تعالى عنه قدرا فلا يتكلف طلبه وقد حمي عنه ووجه آخر: وهو أن يتخلص بمشاهدة سبق الأزلية من تكاليف احترازاته وشدة احتمائه من المكاره لعلمه بسبق الأزل بما كتب له منها فلا فائدة في تكلف الاحتماء نعم يحتمي مما نهى عنه وما لا ينفعه في طريقه ولا يعينه على الوصول. انتهى انتهى. اهـ ﴿مدارج السالكين حـ 2 صـ 143. 146﴾

(135/584)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

أي ألقينا في قلبها ، وأوحينا إليها وحيَ إلهامٍ ، فاتخذت خاطرها في ذلك ، وجرى منها ذلك وهي مختارة باختيارٍ أُدْخِلَ عليها .

لَمَّا وضعت أم موسى كانت تخاف قتله ، فإن فرعون قَتَلَ في ذلك اليوم كثيراً من الولدان المولودة لبني اسرائيل ، رجاءَ أن يقتلَ مَنْ رأى في النوم ما عُبِّر له أن ذهابَ مُلْكِه على يدي إسرائيلي . . فألقى الله في قلبها أن تفعل ذلك .

ثم إنه ربَّاه في حِجْرِه ذلك اليومَ – لِيُعْلَمَ أنَّ الأقدارَ لا تُغَالَبُ .

جعلت أم موسى موسى في تابوتٍ ، وألقته في نيل مصر ، فجاء الماءُ به إلى بِرْكَةٍ كان فرعونُ جالساً على حافتها ، فأخذوه وحملوه إليه ، وفتحوا رأسَ التابوت ، فلمَّا رآه فرعون أَخَذَتْ رؤيتُه بمجامع قلبه ، وكذلك تمكَّن حُبَّه من قلب امرأةِ فرعون ، قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ [طه : 39] حيث خَلَقَ الله ملاحةً في عيني موسى ؛ فكان من يقع عليه بَصَرُه لا يتمالك من حُبِّه .

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ

أخبر الله تعالى أنه كان عدواً لهم ، وقالت امرأةُ فرعون :

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

فلم يكن لهما ولد ، وهم لا يشعرون إلى ماذا يؤول أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 55 ﴾

(136/584)

قوله تعالى ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر عن حال من لقيه ، أخبر عن حال من فارقه ، فقال : ﴿ وأصبح ﴾ أي عقب

الليلة التي حصل فيها فراقه ﴿ فؤاد أم موسى ﴾ أي قلبها الذي زاد احتراقه شوقاً وخوفاً وحزناً ، وهذا يدل على أنها ألقته ليلاً ﴿ فارغاً ﴾ أي في غاية الذعر لما جلبت عليه من أخلاق البشر ، قد ذهب منه كل ما فيه من المعاني المقصودة التي من شأنها أن يربط عليها الجأش ؛ ثم وصل بذلك مستأنفاً قوله : ﴿ إن ﴾ أي إنه ﴿ كادت ﴾ أي قاربت ﴿ لتبدي ﴾ أي يقع منها الإظهار لكل ما كان من أمره ، مصرحة ﴿ به ﴾ أي بأمر موسى عليه السلام من أنه ولدها ونحو ذلك بسبب فراغ فؤادها من الأمور المستكنة ، وتوزع فكرها في كل واد ﴿ لولا أن ربطنا ﴾ بعظمتنا ﴿ على قلبها ﴾ بعد أن رددنا إليه المعاني الصالحة التي أودعناها فيه ، فلم تعلن به لأجل ربطنا عليه حتى صار كالجراب الذي ربط فمه حتى لا يخرج شيء مما فيه ؛ ثم علل الربط بقوله : ﴿ لتكون ﴾ أي كوناً هو كالغريزة لها ﴿ من المؤمنين ﴾ أي المصدقين بما وعد الله به من نجاته ورسالته ، الواثقين بذلك .

ولما أخبر عن كتمها ، أتبعه الخبر عن فعلها في تعرف خبره الذي أطار خفاؤه عليها عقلها ، فقال عاطفاً على ﴿ وأصبح ﴾ : ﴿ وقالت ﴾ أي أمه ﴿ لأخته ﴾ أي بعد أن أصبحت على تلك الحالة ، قد خفي عليها أمره : ﴿ قصيه ﴾ أي اتبعي أثره وتشممي خبره براً وبحراً ، ففعلت ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ أي بعد من غير مواجهة ، ولذلك قال : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي ليس لهم شعور لا بنظرها ولا بأنها أخته ، بل هم في صفة الغفلة التي هي في غاية البعد عن رتبة الإلهية .

ولما كان ذلك أحد الأسباب في رده ، ذكر في جملة حالية سبباً آخر قريباً منه فقال : ﴿ وحرمنا ﴾ أي منعنا بعظمتنا التي لا يتخلف أمرها ، ويتضاءل كل شيء دونها ﴿ عليه المراضع ﴾ جمع مرضعة ، وهي من تكترى للرضاع من الأجانب ، أي حكمنا بمنعه من الارتضاع منهن ، استعار التحريم للمنع لأنه منع فيه رحمة ؛ قال الرازي في اللوامع : تحريم منع لا تحريم شرع .

(137/584)

ولما كان قد ارتضع من أمه من حين ولدته إلى حين إلقائه في اليم ، فلم يستغرق التحريم الزمان الماضي ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل أن تأمر أمه أخته بما أمرتها به وبعد إلقائها له ، ليكون ذلك سبباً لرده إليها ، فلم يرضع من غيرها فأشفقوا عليه فأتتهم أخته فقالوا لها : هل عندك مرضعة تدلينا عليها لعله يقبل ثديها ؟ ﴿ فقالت ﴾ أي فدنت أخته منه بعد نظرها له فقالت لهم لما رأتهم في غاية الاهتمام برضاعه لما عرضوا عليه المراضع فأبى أن يرتضع من واحدة منهن : ﴿ هل ﴾ لكم حاجة في أني ﴿ أدلكم على أهل بيت ﴾ ولم يقل : على امرأة ، لتوسع دائرة الظن ﴿ يكفلونه لكم ﴾ أي يأخذونه ويعولونه ويقومون بجميع مصالحه من الرضاع وغيره لأجلكم ، وزادتهم رغبة بقولها :

﴿ وهم له ناصحون ﴾ أي ثابت نصحهم له ، لا يغشونه نوعاً من الغش ؛ قال البغوي : والنصح ضد الغش ، وهو تصفية العمل من شوائب الفساد فكادت بهذا الكلام تصرح بأن المدلول عليها أمه ، فارتابوا من كلامها فاعتذرت بأنهم يعملون ذلك تقرباً إلى الملك وتحبباً إليه تعززاً به ، فظنوا ذلك ، وهذا وأمثاله بيان من الله تعالى لأنه لا يعلم أحد في السماوات والأرض الغيب إلا هو سبحانه ، فلا يصح أن يكون غيره إلهاً ، فلما سكنوا إليها طلبوا أن تدلهم ، فأتت بأمها فأحللنا له رضاعها فأخذ ثديها فقالوا : أقيمي عندنا ، فقالت : لا أقدر على فراق بيتي .

(138/584)

إن رضيتم أن أكفله في بيتي وإلا فلا حاجة لي ، وأظهرت التزهد فيه نفياً للتهمة ، فرضوا بذلك فرجعت به إلى بيتها ، والآية من الاحتباك : ذكر التحريم أولاً دليلاً على الإحلال ثانياً ، واستفهام أخته ثانياً دليلاً على استفهامهم لها أولاً ، وسره أن ذكر الأغرب من أمره الأدل على القدرة ، ولذلك سبب عما مضى قوله : ﴿ فرددناه ﴾ أي مع هذا الظاهر في الكشف لسره الموجب للريبة في أمره ، ومع ما تقدم من القرائن التي يكاد يقطع بها بأنه من بني إسرائيل ، منها إلقاؤه في البحر على تلك الصفة ، ومنها أن المدلول عليها لإرضاعه من بني

إسرائيل ، ومنها أنه قبل ثديها دون غيرها من القبط وغيرهم ، بأيدنا الذي لا يقاويه أيد ، ولا يداني ساحته شيء من مكر ولا كيد ، من يد العدو الذي ما ذبح طفلاً إلا رجاء الوقوع عليه ، والخلاص مما جعل في سابق العلم إليه ﴿ إلى أمه ﴾ وكان من أمر الله – والله هو غالب على أمره – أنه استخدم لموسى – كما قال الرازي – عدوه في كفالته وهو يقتل العالم لأجله ؛ ثم علله بقوله : ﴿ كي تقر عينها ﴾ أي تبرد وتستقر عن الطرف في تطلبه إلى كل جهة وتنام بإرضاعه وكفالته في بيتها ، آمنة لا تخاف ، وقرة العين بردها ونومها خلاف سخنتها وسهرها بإدامة تقليبها ، قرت عينه تقر – بالكسر والفتح – قرة ، وتضم ، وقروراً : بردت سروراً وانقطع بكاؤها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه ، وأقر الله عينه وبعينه ، وعين قريرة وقارة ، وقرتها ما قرت به ، وقر بالمكان يقر – بالفتح والكسر – قراراً وقروراً وقراً وتقرة : ثبت واستكن ، وأصل قرة العين من القر وهو البرد ، أي بردت فصحت ونامت خلاف سخنة عينه ، وقيل : من القرار ، أي استقرت عيني ، وقالوا : دمعة الفرح باردة ، ودمعة الحزن حارة ، فمعنى أقر الله عينك من الفرح وأسخنها من الحزن ، وهذا قول الأصمعي ، وقال أبو عباس : ليس كما ذكر الأصمعي بل كل دمع حار ، فمعنى أقر الله عينك : صادفت سروراً فنامت وذهب

(139/584)

سهرها ، وصادفت ما يرضيك ، أي بلغك الله أقصى أملك حتى تقر عينك من النظر إلى غيره استغناء ورضا بما يديك ، قالوا : ومعنى قولهم : هو قرة عيني : هو رضى نفسي ، فهي تقر وتسكن بقربه فلا تستشرف إلى غيره ﴿ ولا ﴾ أي وكيلاً ﴿ تحزن ﴾ أي بفراقه ﴿ ولتعلم ﴾ أي علماً هو عين اليقين ، كما كانت عالمة به علم اليقين ، وعلم شهادة كما كانت عالمة علم الغيب ﴿ أن وعد الله ﴾ أي الأمر الذي وعدها به الملك الأعظم الذي له الكمال كله في حفظه وإرساله ﴿ حق ﴾ أي هو في غاية الثبات في مطابقة الواقع إياه .

ولما كان العلم هو النور الذي من فقده لم يصح منه عمل ، ولم ينتظم له قصد ، قال عاطفاً على ما تقديره : فعلمت ذلك برده عين اليقين بعد علم اليقين : ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي أكثر آل فرعون وغيرهم ﴿ لا يعلمون ﴾ أي لا علم لهم أصلاً ، فكيف يدعون ما يدعون من الإلهية والكبرياء على من يكون الله معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 468 470. ﴾

(140/584)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾

(141/584)

ذكروا في قوله : ﴿ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ وجوهاً : أحدها : قال الحسن فارغاً من كل هم إلا من هم موسى عليه السلام وثانيها : قال أبو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والإشفاق كقوله : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾ [إبراهيم : 43] ، وثالثها : قال صاحب "الكشاف" فارغاً صفراً من العقل ، والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف ورابعها : قال الحسن ومحمد بن إسحق فارغاً من الوحي الذي أوحينا إليها أن ألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك فجاءها الشيطان فقال لها كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت إهلاكه ، ولما أتاها خبر موسى عليه السلام أنه وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها ، وخامسها : قال أبو عبيدة : فارغاً من الحزن لعلمها بأنه لا يقتل اعتماداً على تكفل الله بمصلحته قال ابن قتيبة : وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغاً من الحزن والله تعالى يقول : ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا

على قَلْبِهَا ﴾ وهل يربط إلا على قلب الجازع المحزون ، ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يمتنع أنها لشدة ثقتها بوعد الله لم تخف عند إظهار اسمه ، وأيقنت أنها وإن أظهرت فإنه يسلم لأجل ذلك الوعد إلا أنه كان في المعلوم أن الإظهار يضر فربط الله على قلبها ، ويحتمل قوله : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ بالوحي فأمنت وزال عن قلبها الحزن ، فعلى هذا الوجه يصح أن يتأول على أن قلبها سلم من الحزن على موسى أصلاً ، وفيه وجه ثالث : وهو أنها سمعت أن امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته إن كادت لتبدي به بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحاً بما سمعت ، لولا أن سكنا ما بها من شدة الفرح والابتهاج ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ الواثقين بوعد الله تعالى لا يتبنى امرأة فرعون اللعين وبعطفها ، وقرىء (قرعاً) أي خالياً من قولهم أعوذ بالله من صفر الإناء وقرع الفناء

(142/584)

وفرغاً من قولهم : دماؤهم بينهم فرغ أي هدر يعني بطل قلبها من شدة ما ورد عليها .

أما قوله : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ ﴾ فاعلم أن على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن ، قد ذكرنا تفسير قوله : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى ﴾ وأما على قول من فسر الفراغ بحصول الخوف فذكروا وجوهاً : أحدها : قال ابن عباس كادت تخبر بأن الذي وجدتموه ابني ، وقال في

رواية عكرمة كادت تقول وا إبناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع ، وقال الكلبي ذلك حين سمعت الناس يقولون إنه ابن فرعون وقال السدي لما أخذ ابنها كادت تقول هو ابني فعصمها الله تعالى ، ثم قال : ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المتفلت ليستقر ويطمئن ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ من المصدقين بوعد الله وهو قوله :

﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ [القصص : 7] .

أما قوله : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي اتبعي أثره وانظري إلى أين وقع وإلى من صار وكانت أخته لأبيه وأمه واسمها مريم ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما أبصرته ، قال المبرد : أبصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله : ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ أي عن بعد وقرىء عن جانب وعن جنب والجنب الجانب أي نظرت نظرة مزورة متجانبة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بحالها وغرضها .

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12)

(143/584)

اعلم أن قوله : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ ﴾ يقتضي تحريمها من قبله فإذا لم يصح بالتعبد والنهي لتعذر التمييز فلا بد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل أنه تعالى مع حاجته إلى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء ، فلذلك لم يرضع أو أحدث في لبنهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع في لبن أمه لذة فلما تعودها لا جرم كان يكره لبن غيرها ، وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع ، وهي المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أي الثدي أو الرضاع وقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل أن رددناه إلى أمه ومن قبل مجيء أخت موسى عليه السلام ، ومن قبل ولادته في حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ أي يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه في تربيته وإغذائه ، ولا يخونونكم فيه والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد ، وقال السدي إنها لما قالت : ﴿ وَهُمْ لَهُ ناصحون ﴾ دل ظاهر ذلك على أن أهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفه ، ولكني إنما قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه ، وكل ما روي في هذا الباب يدل على أن فرعون كان بمنزلة آسية في شدة محبته لموسى عليه السلام ، لا على ما قال من زعم أنها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى : ﴿ فرددناه إلى أُمِّهِ ﴾ بهذا الضرب من اللطف ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ أي فيما كان وعدها من أنه يرده إليها ، ولقد كانت عالمة

بذلك ، ولكن ليس الخبر كالعيان فتحققت بوجود الموعود ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه وجوه أربعة : أحدها : ولكن أكثر الناس في ذلك العهد وبعد لا يعلمون لإعراضهم عن النظر في آيات الله وثانيها : قال الضحاك ومقاتل يعني أهل مصر لا يعلمون أن الله وعدها

(144/584)

برده إليها وثالثها : هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغاً ورابعها : أن يكون المعنى إنا إنما رددناه إليها ﴿ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ والمقصود الأصلي من ذلك الرد هذا الغرض الديني ، ولكن الأكثر لا يعلمون أن هذا هو الغرض الأصلي ، وأن ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع ، قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان إنك لأمه ، قالت لا قال فما بالك قبل ثديك من بين النسوة قالت أيها الملك إني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحي صبي إلا أقبل على ثديي ، قالوا صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 196 . 198 ﴾

(145/584)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ فَارِغًا ﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : فَارِغًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إلَّا مِنْ ذِكْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الثَّانِي : فَارِغًا مِنْ وَحْيِنَا يَعْنِي بِسَبَبِهِ .

الثَّالِثُ : فَارِغًا مِنْ الْعَقْلِ ؛ قَالَهُ مَالِكٌ ؛ يُرِيدُ امْتَلَأَ وَلَهًا ، يُرْوَى أَنَّهَا لَمَّا رَمَتْهُ فِي الْبَحْرِ جَاءَهَا الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهَا : لَوْ حَبَسْتِهِ فَذُبِحَ فَتَوَلَّيْت دَفْنَهُ ، وَعَرَفْت مَوْضِعَهُ ، وَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ قَتَلْتِهِ أَنْتِ .

وَسَمِعَتْ ذَلِكَ ، فَفَرَغَ فُؤَادُهَا مِمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ الْوَحْيِ ، إلَّا أَنَّ اللَّهَ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا بِالصَّبْرِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ أَعْظَمِ آيِ الْقُرْآنِ فَصَاحَةً ؛ إذْ فِيهَا أَمْرَانِ وَنَهْيَانِ وَخَبَرَانِ وَبِشَارَتَانِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ﴾

فيه ستة أوجه

: أحدها : فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى ، قاله ابن عباس وقتادة .

الثاني : فارغاً من وحينا بنسيانه ، قاله الحسن وابن زيد .

الثالث : فارغاً من الحزن لعلمها أنه لم يغرق ، قاله الأخفش .

الرابع : معنى فارغاً أي نافراً ، قاله العلاء بن زيد .

الخامس : ناسياً ، قاله اليزيدي .

السادس : معناه والهاً ، رواه ابن جبير .

وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري وهو صحابي : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَزِعاً ﴾ من الفزع وفي قوله ﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أنها ألقته ليلاً فأصبح فؤادها فارغاً في النهار .

الثاني : أنها ألقته نهاراً ومعنى أصبح أي صار ، قال الشاعر :

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد . . . وأصبحت المدينة للوليد

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : أن تصيح عند إلقائه وا إبناه ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن تقول لما حملت لإرضاعه وحضانته هو ابني ، قاله السدي لأنه ضاق صدرها لما قيل هو ابن فرعون .

الثالث : أن تبدي بالوحي ، حكاه ابن عيسى .

﴿ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ فيه قولان

: أحدهما : بالإيمان ، قاله قتادة .

الثاني : بالعصمة ، قاله السدي .

﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال السدي : قد كانت من المؤمنين ولكن لتكون من المصدقين بأنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي استعلمي خبره وتتبّعي أثره .

قال الضحاك ، واسم أخته كلثمة .

﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ وفيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : عن جانب ، قاله ابن عباس .

الثاني : عن بعد ، قاله مجاهد ومنه الأجنبي قال علقمة بن عبدة :

فلا تحرمنّي نائلاً عن جنابةٍ . . . فإني امرؤ وسط القباب غريب

الثاني : عن شوق ، حكاه أبو عمرو بن العلاء وذكر أنها لغة جذام يقولون جنبت إليك [أي اشتقت] .

(147/584)

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ قال ابن عباس : لا يؤتى بمرضعة فيقبلها وهذا تحريم منع لا تحريم شرع كما قال امرؤ القيس :

جالت لتصرعني فقلت لها اقصِري . . . إني امرؤ صرعي عليك حرام

أي ممتنع

: ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل مجيء أخته وفي قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وجهان

: أحدهما : ما ذكرناه .

الثاني : من قبل ردّه إلى أمه .

﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ الآية . وهذا قول أخته لهم حين رأته لا يقبل المراضع فقالوا لها عند قولها لهم :

﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ وما يُدْرِيك ؟ لعلك تعرفين أهله ، فقالت : لا ولكنهم يحرصون على مسرة الملك ويرغبون في ظئره .

قوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ ﴾ قال ابن عباس انطلقت أخته إلى أمه فأخبرتها فجاءت فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصَّه حتى امتلأ جنباه رياً وانطلق بالبشرى إلى امرأة فرعون قد وجدنا لابنك ظئراً ، قال أبو عمران الجوني : وكان فرعون يعطي أم موسى في كل يوم ديناراً .

وروي أنه قال لأم موسى حين ارتضع منها : كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت : لأني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أكاد أوتى بصبي إلا ارتضع مني . فكان من لطف الله بموسى أن جعل إلقاء موسى في البحر وهو الهلاك سبباً لنجاته وسخر فرعون لتربيته وهو يقتل الخلق من بني إسرائيل لأجله وهو في بيته وتحت كنفه .

﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ في قوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ ﴾ الآية

. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ يعني من قوم فرعون

. ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لا يعلمون ما يراد بهم ، قاله الضحاك .

الثاني : لا يعملون مثل علمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ وأصبح ﴾ عبارة عن دوام الحال واستقرارها وهي كظل ، ومنه قل أبي سفيان للعباس يوم الفتح : لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً يريد استقرت حاله عظيماً .

وقرأ جمهور الناس " فارغاً " من الفراغ واختلف في معنى ذلك فقال ابن عباس : " فارغاً " من كل شيء إلا من ذكر موسى ، وقال مالك : هو ذهاب العقل .

قال الفقيه الإمام القاضي : نحو قوله ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ [إبراهيم : 43] وقالت فرقة " فارغاً " من الصبر ، وقال ابن زيد " فارغاً " من وعد الله تعالى ووحيه إليها أي تناسته بالهم وفتر أثره في نفسها وقال لها إبليس فررت به من قتل لك فيه أجر وقتلته بيدك ، وقال أبو عبيدة " فارغاً " من الحزن إذ لم يغرق ، وقرأ فضالة بن عبد الله ويقال ابن عبيد والحسن " فزعاً " من الفزع بالفاء والزاي ، وقرأ ابن عباس " قرعاً " بالقاف والراء من القارعة وهي الهم العظيم ، وقرأ بعض الصحابه رضي الله عنهم " فِرْغاً " بالفاء المكسورة والراء الساكنة والغين المنقوطة ومعناها ذاهباً هدراً تالفاً من الهم والحزن ، ومنه قول طليحة الأسدي في حبال أخيه : [الطويل]

فإن تك قتلى قد أصيبت نفوسهم . . . فلن يذهبوا فرغاً بقتل حبال

أي هدراً تالفاً لا يتبع ، وقرأ الخليل بن أحمد " فُرُغاً " بضم الفاء والراء . وقوله تعالى : ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي أمر ابنها ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كادت أم موسى أن تقول واإبناه وتخرج صائحة على وجهها " و" الربط على القلب " تأنيسه وتقويته ، ومنه قولهم للشجاع والصابر في المضايق : رابط الجأش ، قال قتادة : وربط على قلبها بالإيمان ، وقوله ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ أي من المصدقين بوعد الله وما أوحى إليها به ، ثم قالت لأخت موسى طمعاً منها وطلباً ، ﴿ قصيه ﴾ ، والقص طلب الأثر ، فيروى أن أخته خرجت في سكك المدينة تبحث مختفية بذلك فرأته عند قوم من حاشية امرأة فرعون يطلبون به امرأة ترضعه حين لم يقبل المراضع ، و﴿ عن جنب ﴾ أي عن ناحية من غير قصد ولا قرب يشعر لها به ، يقال فيه جنب وجناب وجنابة ومن جناب قول الشاعر : [الطويل]

لقد ذكرتني عن جناب حمامة . . . بعسفان أهلي فالفؤاد حزين

ومن جنابة قول الأعشى : [الطويل]

أتيت حريثاً زائراً عن جنابة . . . فكان حريث عن عطائيَ جامدا

قال الفقيه الإمام القاضي : وكأن معنى هذه الألفاظ عن مكان جنب أي عن بعد ومعنى الآية عن بعد لم تدن منه فيشعر لها ، وأنشد أبو عبيدة لعلقمة بن عبدة : [الطويل]

فلا تحرمنّي نائلاً عن جنابة . . . فإني امرؤ وسط القباب غريب

وقرأ قتادة " عن جَنْب " بفتح الجيم وسكون النون وهي قراءة الحسن والإعرج ، وقرأ " عن جانب " النعمان بن سالم ، وقرأ الجمهور " عن جُنُب " بضم الجيم والنون ، وقوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ، معناه أنها أخته وأنها من جملة لطائف الله تعالى له ولأمه حسب الوعد الذي أوحي إليها ، ويقال : بصرت الشيء وأبصرته بمعنى واحد متقارب ، قال المهدوي : وقيل ﴿ عن جنب ﴾ معناه عن شوق وهي لغة لجذام يقولون جنبت إلى لقائك أي اشتقت إليه ، وقال قتادة : معنى ﴿ عن جنب ﴾ أنها تنظر إليه كأنها لا تريده .

(150/584)

قوله تعالى : ﴿ وحرمنا ﴾ يقتضي أن الله تعالى خصه من الامتناع من ثدي النساء بما يشد به عن عرف الأطفال وهو تحريم تنقيص ، و ﴿ المراضع ﴾ جمع مرضع واستعمل دون هاء التأنيث لأنه لا يلتبس بالرجال .

وقوله تعالى : ﴿ من قبل ﴾ معناه من أول أمره ، و ﴿ قبل ﴾ مبني ، والضمير في ﴾

قالت ﴿ لأخت موسى قال النقاش اسمها مريم ، و﴿ يكفلونه ﴾ ، معناه يحسنون تربيته وإرضاعه ، وعلم القوم أن مكلمتهم من بني إسرائيل وكان ذلك عرف بني إسرائيل أن يكونوا مراضع وخدمة ، وقوله ﴿ وهم له ناصحون ﴾ يحتمل أن الضمير يعود على الطفل ويحتمل أن يعود على الملك الذي كان الطفل في ظاهر أمره من جملته ، وقال ابن جريج : إن القوم تأولوا أنها أعادت الضمير على الطفل فقالوا لها إنك قد عرفته فأخبرينا من هو فقالت : ما أردت إلا أنهم ناصحون للملك : فتخلصت منهم بهذا التأويل .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويحتمل أن يعود الضمير على الطفل ولكن يكون النصح له بسبب الملك وحرصاً على التزلف إليه والتقرب منه ، وفي الكلام هنا حذف يقتضيه الظاهر وهو أنها حملتهم إلى أم موسى وكلموها في ذلك فدرت عليه وقبلها وحظيت بذلك وأحسن إليها وإلى أهل بيتها ، و" قرت عينها " أي سرت بذلك ، وروي أن فرعون قال لها : ما سبب قبول هذا الطفل ؟ فقالت إني طيبة الرائحة طيبة اللبن ودمع الفرح بارد ودموع الهم حرّى سخنة فمن هذا المعنى قيل قرت العين وسخنت ، وقرأ يعقوب " نُقِر " بنون مضمومة وكسر القاف ، و﴿ وعد الله ﴾ المشار إليه وهو الذي أوحاه إليها أولاً إما بملك وإنما بمنامة وإما بإلهام حسب اختلاف المفسرين في ذلك ، والقول بالإلهام يضعف أن يقال فيه ﴿ وعد ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أكثرهم ﴾ يريد القبط . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأَصبح فؤادُ أُمِّ موسى فارغاً ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : فارغاً من كل شيء إلا من ذِكْر موسى ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك .

والثاني : أصبح فؤادها فَزِعاً ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهي قراءة أبي رزين ، وأبي العالية ، والضحاك ، وقتادة ، وعاصم الجحدري ، فانهم قرؤوا ﴿ فَزِعاً ﴾ بزاي معجمة .

والثالث : فارغاً من وحينا بنسيانه ، قاله الحسن ، وابن زيد .

والرابع : فارغاً من الحزن ، لِعِلْمها أَنَّه لم يُقتَل ، قاله أبو عبيدة .

قال ابن قتيبة : وهذا من أعجب التفسير ، كيف يكون كذلك واللّهُ يقول : ﴿ لولا أنْ رَبَطْنا على قَلْبها ﴾ ؟ ! وهل يُرْبَطُ إلاّ على قلب الجازع المحزون ؟ !

قوله تعالى : ﴿ إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي به ﴾ في هذه الهاء قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى موسى .

ومتى أرادت هذا ؟ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه حين فارقته ؛ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس [أنه] قال : كادت تقول : يا بُنَيَّاه .

قال قتادة : وذلك من شدة وجدها .

والثاني : حين حُمِلَتْ لِرَضاعه ثم كادت تقول : هو ابني ، قاله السدي .

والثالث : أنَّه لمَّا كَبِر وسَمِعَت الناسَ يقولون : موسى بن فرعون ، كادت تقول : لا بل هو ابني ، قاله ابن السائب .

والقول الثاني : أنها ترجع إلى الوحي ؛ والمعنى : إنْ كادت لتُبْدي بالوحي ، حكاه ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ لولا أنْ رَبَطْنَا على قَلْبِها ﴾ قال الزجاج : المعنى : لولا ربطنا على قلبها ، والرَّبْط : إلهام الصبر وتشديد القلب وتقويته .

قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمِنِينَ ﴾ أي : من المُصَدِّقِين بوعد الله .

﴿ وقالت لأُخته قُصِّيه ﴾ قال ابن عباس : قُصّي أثره واطلُبيه هل تسمعين له ذِكْراً ، [أي] : أحيٌّ هو ، أو قد أكلته الدوابّ ؟ ونسيتْ الذي وعدها الله فيه .

وقال وهب : إِنَّما قالت لأخته : قصِّيه ، لأَنَّها سمعتْ أنَّ فرعون قد أصاب صبيّاً في تابوت .

قال مقاتل : واسم أخته : مريم .

قال ابن قتيبة : ومعنى "قُصِّيه" : قُصِّي أَثَرَه واتبعيه ﴿ فبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ ﴾ أي : عن بُعْدٍ منها عنه وإِعراضٍ ، لئلاَّ يَفْطنوا ، والمجانبة مِن هذا .

وقرأ أُبيُّ ابن كعب ، وأبو مجلز : ﴿ عَنْ جَنَابٍ ﴾ بفتح الجيم والنون وبألف بعدهما .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : ﴿ عَنْ جَانِبٍ ﴾ بفتح الجيم وكسر النون وبينهما ألف .

وقرأ قتادة ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري : ﴿ عَنْ جَنْبٍ ﴾ بفتح الجيم وإِسكان النون من غير ألف .

قوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعُرونَ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : وهم لا يشعُرون أَنَّه عدوٌّ لهم ، قاله مجاهد .

والثاني : لا يشعُرون أَنَّها أختُه ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ وحَرَّمْنا عليه المراضع ﴾ وهي جمع مُرْضِع ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : مِنْ قَبْل أنْ نَرُدَّه على أُمِّه ، وهذا تحريم منع ، لا تحريم شرع .

قال المفسرون : بقي ثمانية أيام ولياليهن ، كلَّما أُتي بمُرْضِع لم يَقْبل ثديها ، فأهمَّهم ذلك واشتدَّ عليهم ﴿ فقالت ﴾ لهم أخته : ﴿ هل أَدُلُّكم على أهل بيت يَكْفُلونه لكم ﴾ فقالوا لها : نعم ، مَنْ تلك ؟ فقالت : أُمِّي ، قالوا : وهل لها لبن ؟ قالت : لبن هارون .

فلمَّا جاءت قَبِل ثديها .

وقيل : إنَّها لمَّا قالت : ﴿ وهم له ناصحون ﴾ قالوا : لعلَّكِ تعرفين أهله ، قالت : لا ، ولكني إنما قلت : وهم للمِلكِ ناصحون .

قوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّه ﴾ قد شرحناه في [طه : 40] .

قوله تعالى : ﴿ ولِتَعْلَمَ أنَّ وعد الله ﴾ بردِّ ولدها ﴿ حَقٌّ ﴾ وهذا عِلْم عِيان ومشاهدة ﴿ ولكنَّ أكثرهم لا يَعْلَمون ﴾ أنّ الله وعدها أن يردَّه إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(153/584)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾

قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وأبو عمران

الجوني وأبو عبيدة : ﴿ فَارِغاً ﴾ أي خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى .

وقال الحسن أيضاً وابن إسحاق وابن زيد : ﴿ فَارِغاً ﴾ من الوحي إذ أوحي إليها حين أمرت أن تلقيه في البحر ﴿ لاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ﴾ والعهد الذي عهده إليها أن يردّه ويجعله من المرسلين ؛ فقال لها الشيطان : يا أم موسى كرهت أن يقتل فرعون موسى فغرّقتيه أنت ! ثم بلغها أن ولدها وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها .

وقال أبو عبيدة : ﴿ فَارِغاً ﴾ من الغمّ والحزن لعلمها أنه لم يغرق ؛ وقاله الأخفش أيضاً .

وقال العلاء بن زياد : ﴿ فَارِغاً ﴾ نافراً .

الكسائي : ناسياً ذاهلاً .

وقيل : والهاً ؛ رواه سعيد بن جبير .

ابن القاسم عن مالك : هو ذهاب العقل ؛ والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهشْ ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : 43] أي جُوف لا عقول لها كما تقدّم في سورة "إبراهيم" .

وذلك أن القلوب مراكز العقول ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج : 46] ويدل عليها قراءة من قرأ : ﴿ فَزِعاً ﴾ .

النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ؛ فإذا كان فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي .

وقول أبي عبيدة فارغاً من الغم غلط قبيح ؛ لأن بعده ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لولا أَن رَبَطْنا على قَلْبِهَا ﴾ .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كادت تقول وابناها وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري رضي الله عنه ومحمد بن السَّمَيْقَع وأبو العالية وابن محيصن : ﴿ فَزِعاً ﴾ بالفاء والعين المهملة من الفزع ؛ أي خائفة عليه أن يقتل .

(154/584)

ابن عباس : "قَرِعاً" بالقاف والراء والعين المهملتين ، وهي راجعة إلى قراءة الجماعة ﴿ فَارِغاً ﴾ ولذلك قيل للرأس الذي لا شعر عليه : أقرع ؛ لفراغه من الشعر .

وحكى قطرب أن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ فِرْغاً ﴾ بالفاء والراء والغين المعجمة من غير ألف ، وهو كقولك : هدراً وباطلاً ؛ يقال : دماؤهم بينهم فِرْغ أي هدر ؛ والمعنى بطل قلبها وذهب وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ وجهان : أحدهما : أنها ألقته ليلاً فأصبح فؤادها في النهار

فارغاً .

الثاني : أنها ألقته نهاراً ومعنى : ﴿ أَصْبَحَ ﴾ أي صار ؛ كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء بالأمر الرشيد . . .

وأصبحت المدينة للوليد

﴿ إِن كَادَتْ ﴾ أي إنها كادت ؛ فلما حذفت الكناية سكنت النون .

فهي ﴿ إِن ﴾ المخففة ولذلك دخلت اللام في ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي لتظهر أمره ؛ من بدا يبدو إذا ظهر .

قال ابن عباس : أي تصيح عند إلقائه : وابناه .

السديّ : كادت تقول لما حُمِلت لإرضاعه وحضانته هو ابني .

وقيل : إنه لما شَبَّ سمعت الناس يقولون موسى بن فرعون ؛ فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول هو ابني .

وقيل : الهاء في ﴿ به ﴾ عائدة إلى الوحي تقديره : إن كانت لتبدي بالوحي الذي أوحيناه إليها أن نردّه عليها .

والأوّل أظهر .

قال ابن مسعود : كادت تقول أنا أمه .

وقال الفرّاء : إِن كادت لتبدي بإسمه لضيق صدرها .

﴿ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ قال قتادة : بالإيمان .

السدّي : بالعصمة .

وقيل : بالصبر .

والربط على القلب : إلهام الصبر .

﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ أي من المصدّقين بوعد الله حين قال لها : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ .

وقال : ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ ولم يقل : لتبديه ؛ لأن حروف الصفات قد تزاد في الكلام ؛ تقول : أخذت الحبل وبالحبل .

وقيل : أي لتبدي القول به .

(155/584)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى : اتبعي أثره حتى تعلمي خبره .

واسمها مريم بنت عمران ؛ وافق اسمها اسم مريم أم عيسى عليه السلام ؛ ذكره السّهيلي والثّعلبي .

وذكر الماورديّ عن الضحاك : أن اسمها كلثمة .

وقال السهيلي : كلثوم ؛ جاء ذلك في حديث رواه الزبير بن بكّار " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : "أشعرت أن الله زوّجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وآسية امرأة فرعون" فقالت : الله أخبرك بهذا ؟ فقال : "نعم" فقالت : بالرفاء والبنين " ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ أي بعد ؛ قاله مجاهد .

ومنه الأجنبي .

قال الشاعر :

فَلاَ تَحْرِمَنّي نَائِلاً عن جَنَابةٍ . . .

فإِنَّي امرؤٌ وسْطَ القِبابِ غَرِيبُ

وأصله عن مكان جنب .

وقال ابن عباس : ﴿ عَنْ جُنُبٍ ﴾ أي عن جانب .

وقرأ النعمان بن سالم : ﴿ عن جانِبٍ ﴾ أي عن ناحية .

وقيل : عن شوق ؛ وحكى أبو عمرو بن العلاء أنها لغة لجذام ؛ يقولون : جنبت إليك أي اشتقت .

وقيل : ﴿ عَنْ جُنُبٍ ﴾ أي عن مجانبة لها منه فلم يعرفوا أنها أمه بسبيل .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه بناحية (كأنها) لا تريده ، وكان يقرأ : ﴿ عَنْ جَنْبٍ ﴾

بفتح الجيم وإسكان النون .

﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنها أخته لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى رأتهم قد أخذوه .

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ ﴾ أي منعناه من الارتضاع من قبل ؛ أي من قبل مجيء أمه وأخته .

و﴿ الْمَرَاضِعَ ﴾ جمع مُرْضِع .

ومن قال مراضيع .

فهو جمع مِرضاع ، ومفعال يكون للتكثير ، ولا تدخل الهاء فيه فرقاً بين المؤنث والمذكر لأنه ليس بجارٍ على الفعل ، ولكن من قال مِرضاعة جاء بالهاء للمبالغة ؛ كما يقال مِطرابة .

قال ابن عباس : لا يؤتى بمرضع فيقبلها .

وهذا تحريم منع لا تحريم شرع ؛ قال امرؤ القيس :

جَالَتْ لِتصرعَني فقلت لها اقْصِري . . .

(156/584)

إنّي امرؤٌ صَرْعِي عليكِ حَرَامُ

أي ممتنع .

فلما رأت أخته ذلك قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ الآية .

فقالوا لها عند قولها : ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ وما يدريك ؟ لعلكِ تعرفين أهله ؟ فقالت : لا ؛ ولكنهم يحرصون على مَسرّة الملك ، ويرغبون في ظِئْره .

وقال السّدي وابن جُرَيج : قيل لها لما قالت : ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ قد عرفتِ أهل هذا الصبي فدلّينا عليهم ؛ فقالت : أردت وهم للملك ناصحون .

فدلتهم على أم موسى ، فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها ، والصبيّ على يد فرعون يعلّله شفقة عليه ، وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه إليها ؛ فلما وجد الصبيّ ريح أمه قبل ثديها .

وقال ابن زيد : استرابوها حين قالت ذلك فقالت : وهم للملك ناصحون .

وقيل : إنها لما قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ وكانوا يبالغون في طلب مرضعة يقبل ثديها فقالوا : من هي ؟ فقالت أمي ؛ فقيل : لها لبن ؟ قالت : نعم ! لبن هارون وكان ولد في سنة لا يقتل فيها الصبيان فقالوا صدقت والله .

﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ أي فيهم شفقة ونصح ؛ فروي أنه قيل لأم موسى حين ارتضع منها : كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أكاد

أوتى بصبيّ إلا ارتضع مني .

قال أبو عِمران الجوني : وكان فرعون يعطي أمّ موسى كل يوم ديناراً .

قال الزمخشري : فإن قلت كيف حلّ لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟ قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربيّ تأخذه على وجه الاستباحة .

قوله تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ ﴾ أي رددناه وقد عطَف الله قلب العدوّ عليه ، ووفينا لها بالوعد .

﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أي بولدها .

﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي بفراق ولدها .

﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي لتعلم وقوعه فإنها كانت عالمة بأن رده إليها سيكون .

(157/584)

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني أكثر آل فرعون لا يعلمون ؛ أي كانوا في غفلة عن التقدير وسِر القضاء وقيل : أي أكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله في كل ما وعد حق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبي حـ 13 صـ ﴾

(158/584)

وقال أبو حيان :

﴿ وأصبح ﴾ : أي صار فارغاً من العقل ، وذلك حين بلغها أنه وقع في يد فرعون ، فدهمها أمر مثله لا يثبت معه العقل ، لا سيما عقل امرأة خافت على ولدها حتى طرحته في اليم ، رجاء نجاته من الذبح ؛ هذا مع الوحي إليها أن الله يرده إليها ويجعله رسولاً ، ومع ذلك فطاش لبها وغلب عليها ما يغلب على البشر عند مفاجأة الخطب العظيم ، ثم استكانت بعد ذلك لموعود الله .

وقرأ أحمد بن موسى ، عن أبي عمر وفؤاد : بالواو .

وقال ابن عباس : فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى .

وقال مالك : هو ذهاب العقل .

وقالت فرقة : فارغاً من الصبر .

وقال ابن زيد : فارغاً من وعد الله ووحيه إليها ، تناسته من الهم .

وقال أبو عبيدة : فارغاً من الحزن ، إذ لم يغرق ، وهذا فيه بعد ، وتبعده القراءات الشواذ التي في اللفظة .

وقرأ فضالة بن عبيد ، والحسن ، ويزيد بن قطيب ، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير : فزعاً ، بالزاي والعين المهملة ، من الفزع ، وهو الخوف والقلق ؛ وابن عباس : قرعاً ، بالقاف وكسر

الراء وإسكانها ، من قرع رأسه ، إذا انحسر شعره ، كأنه خلا من كل شيء إلا من ذكر موسى .

وقيل : قرعاً ، بالسكون ، مصدر ، أي يقرع قرعاً من القارعة ، وهي الهم العظيم .

وقرأ بعض الصحابة : فزغاً ، بالفاء مكسورة وسكون الزاي والغين المنقوطة ، ومعناه : ذاهباً هدراً تالفاً من الهم والحزن .

ومنه قول طليحة الأسدي في أخيه حبال :

فإن يك قتلي قد أصيْبت نفوسهم . . .

فلن تذهبوا فزغاً بقتل حبال

أي : بقتل حبال فزغاً ، أي هدراً لا يطلب له بثأر ولا يؤخذ .

وقرأ الخليل بن أحمد : فرغاً ، بضم الفاء والراء .

﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ : هي إن المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة .

وقيل : إن نافية ، واللام بمعنى إلاّ ، وهذا قول كوفي ، والإبداء : إظهار الشيء .

والظاهر أن الضمير في به عائد على موسى عليه السلام ، فقيل : الباء زائدة ، أي : لتظهره .

وقيل : مفعول تبدي محذوف ، أي لتبدي القول به ، أي بسببه وأنه ولدها .

وقيل : الضمير في به للوحي ، أي لتبدي بالوحي .

وقال ابن عباس : كادت تصيح عند إلقائه في البحر وا ابناه .

وقيل : عند رؤيتها تلاطم الأمواج به ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ .

قال قتادة : بالإيمان .

وقال السدي : بالعصمة .

وقال الصادق : باليقين .

وقال ابن عطاء : بالوحي ، و ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ .

فعلنا ذلك ، أي المصدقين بوعد الله ، وأنه كائن لا محالة .

والربط على القلب كناية عن قراره وإطمئنانه ، شبه بما يربط مخافة الانفلات .

وقال الزمخشري : ويجوز : وأصبح فؤادها فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه .

﴿ إن كادت لتبدي ﴾ بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت ، لولا أنا ظلمنا قلبها وسكّنّا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج .

﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ الواثقين بوعد الله ، لا بتبني فرعون وتعطفه . انتهى .

وما ذهب إليه الزمخشري من تجويز كونه فارغاً من الهم إلى آخره ، خلاف ما فهمه المفسرون من الآية ، وجواب لولا محذوف تقديره : لكادت تبدي به ، ودل عليه قوله : ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ ، وهذا تشبيه بقوله : ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ﴿ وقالت لأخته ﴾ ، طمعاً منها في التعرف بحاله .

﴿ قصيه ﴾ : أي اتبعي أثره وتتبعي خبره .

فروي أنها خرجت في سكك المدينة مختفية ، فرأته عند قوم من حاشية امرأة فرعون يتطلبون له امرأة ترضعه ، حين لم يقبل المراضع ، واسم أخته مريم ، وقيل : كلثمة ، وقيل : كلثوم ، وفي الكلام حذف ، أي فقصت أثره .

﴿ فبصرت به ﴾ : أي أبصرته ؛ ﴿ عن جنب ﴾ ، أي عن بعد ؛ ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بتطلبها له ولا بإبصارها .

وقيل : معنى ﴿ عن جنب ﴾ : عن شوق إليه ، حكاه أبو عمرو بن العلاء وقال : هي لغة جذام ، يقولون : جنبت إليك : اشتقت .

وقال الكرماني : جنب صفة لموصوف محذوف ، أي عن مكان جنب ، يريد بعيد .

(160/584)

وقيل : عن جانب ، لأنها كانت تمشي على الشط ، وهم لا يشعرون أنها تقص .

وقيل : لا يشعرون أنها أخته .

وقيل : لا يشعرون أنه عدو لهم ، قاله مجاهد .

وقرأ الجمهور : عن جنب ، بضمتين .

وقرأ قتادة : فبصرت ، بفتح الصاد ؛ وعيسى : بكسرها .

وقرأ قتادة ، والحسن ، والأعرج ، وزيد بن علي : جنب ، بفتح الجيم وسكون النون .

وعن قتادة : بفتحهما أيضاً .

وعن الحسن : بضم الجيم وإسكان النون .

وقرأ النعمان بن سالم : عن جانب ، والجنب والجانب والجنابة والجناب بمعنى واحد .

وقال قتادة : معنى عن جنب : أنها تنظر إليه كأنها لا تريده .

والتحريم هنا بمعنى المنع ، أي منعناه أن يرضع ثدي امرأة ؛ والمراضع جمع مرضع ، وهي المرأة التي ترضع ؛ أو جمع مرضع ، وهو موضع الرضاع ، وهو الثدي ، أو الإرضاع .

﴿ من قبل ﴾ : أي من أول أمره .

وقيل : من قبل قصها أثره وإتيانه على من هو عنده .

﴿ فقالت هل أدلكم ﴾ : أي أرشدكم إلى ﴿ أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ ، لكونهم فيهم شفقة ورحمة لمن يكفلونه وحسن تربية .

ودل قوله : ﴿ وحرمنا عليه المراضع ﴾ ، أنه عرض عليه جملة من المرضعات ، والظاهر أن الضمير في له عائد على موسى .

قيل : ويحتمل أن يعود على الملك الذي كان الطفل في ظاهر أمْره من جملته .

وقال ابن جريج : تأول القوم أن الضمير للطفل فقالوا لها : إنك قد عرفتيه ، فأخبرينا من هو ؟ فقالت : ما أردت ، إلا أنهم ناصحون للملك ، فتخلصت منهم بهذا التأويل .

وفي الكلام حذف تقديره : فمرت بهم إلى أمه ، فكلموها في إرضاعه ؛ أو فجاءت بأمه إليهم ، فكلموها في شأنه ، فأرضعته ، فالتقم ثديها .

ويروى أن فرعون قال لها : ما سبب قبول هذا الطفل ثديك ، وقد أبى كل ثدي ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح ، طيبة اللبن ، لا أوتي بصبي إلا قبلني ، فدفعه إليها ، وذهبت به إلى بيتها ، وأجرى لها كل يوم ديناراً .

وجاز لها أخذه لأنه مال حربي ، فهو مباح ، وليس ذلك أجرة رضاع .

(161/584)

﴿ فرددناه إلى أمّه ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إنّا رادّوه إليك ﴾ ، ودمع الفرح بارد ، وعين المهموم حرى سخنة ، وقال أبو تمام :

فأما عيون العاشقين فأسخنت . . .

وأما عيون الشامتين فقرت

لما أنجز تعالى وعده في الردّ ، ثبت عندها أنه سيكون نبياً رسولاً .

﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ ، فعلنا ذلك .

ولا يعلمون ، أي أن وعد الله حق ، فهم مرتابون فيه ؛ أو لا يعلمون أن الرد إنما كان لعلمها بصدق وعد الله .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون بأن الرد كان لذلك ، وفي قوله : ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ دلالة على ضعف من ذهب إلى أن الإيحاء إليها كان إلهاماً أو مناماً ، لأن ذلك يبعد أن يقال فيه وعد .

وقوله : ولتعلم وقوع ذلك فهو علم مشاهدة ، إذ كانت عالمة أن ذلك سيكون ، وأكثرهم هم القبط ، ولا يعلمون سرّ القضاء .

وقال الضحاك : لا يعلمون مصالحهم وصلاح عواقبهم .

وقال الضحاك أيضاً ، ومقاتل : لا يعلمون أن الله وعدها رده إليها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾

صفراً من العقلِ لِمَا دهمَها من الخوفِ والحيرةِ حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ لقولِه تعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾ أي خلاءُ لا عقولَ فيها ويعضدُه أنَّه قُرِىء فَرغاً من قولِهم : دماؤهم بينهم فرغٌ أي هَدرٌ وقيل : فارغاً من الهمِّ والحُزن لغايةِ وثوقِها بوعدِ الله تعالى أو لسماعِها أنَّ فرعونَ عطفَ عليه وتبنَّاهُ وقُرِىء مُؤْسى بالهمزِ إجراءً للضَّمة في جارة الواوِ مجرى ضمَّتِها فهمزت كما في وجوهٍ ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي إنَّها كادتْ لتظهرُ بموسى أي بأمرِه وقصَّتِه من فرطِ الحيرةِ والدَّهشةِ أو الفرحِ بتبنيهِ ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ بالصَّبرِ والثَّباتِ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ أي المُصدِّقين بوعدِ الله تعالى أو من الواثقينَ بحفظِه لا بتبنِّي فرعونَ وتعطفِه وهو علَّةُ الرَّبطِ وجوابُ لولا محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليهِ .

(163/584)

﴿ وَقَالَتْ لاخْتِهِ ﴾ مريمَ والتَّعبيرُ عنها بأخوَّته عليه الصَّلاة والسَّلام دونَ أنْ يقال لبنتِها للتَّصريحِ بمدار المحبَّةِ الموجبةِ للامتثالِ بالأمرِ ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي اتبعِي أثرَه وتتبَّعي خبرَه ﴾

فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ أي أبصرتْهُ ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ عن بُعدٍ . وقُرِىء بسكونِ النُّونِ ، وعن جانبٍ . والكلُّ بمعنى ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنَّها تقُصُّه وتتعرفُ حالَه وأنَّها أختُه ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾ أي منعناه أنْ يرتضعَ من المرضعاتِ . والمَراضعُ جمعُ مرضعٍ وهي المرأةُ التي تُرضع أو مُرضع وهو الرَّضاعُ أو موضعُه أعني الثَّديَ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ قصِّها أثرَه ﴿ فَقَالَتْ ﴾ عند رؤيتِها لعدمِ قَبُولِه الثَّديَ واعتناءَ فرعونَ بأمرِه وطلبَهم من يقبلُ ثديَها ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ أي لأجلِكم ﴿ وَهُمْ لَهُ ناصحون ﴾ لا يُقصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه . رُوي أنَّ هامان لمَّا سمعَه منها قال : إنَّها لتعرفُه وأهلَه فخذُوها حتَّى تخبرَ بحالِه فقالتْ : إنَّما أردتُ وهم للملكِ ناصحُون فأمرَها فرعونُ بأنْ تأتيَ بمَن يكفلُه فأتتْ بأمِّه ومُوسى على يدِ فرعونَ يبكِي وهو يُعلله فدفعَه إليها فلمَّا وجدَ ريحَها استأنسَ والتقمَ ثديها فقالَ : مَن أنتِ منه فقد أبى كلَّ ثديٍ إلا ثديكِ فقالتْ : إنِّي امرأةٌ طيبةُ الريحِ طيبةُ اللبنِ لا أُوتى بصبيٍ إلا قبلني فقرَّره في يدِها وأجرى عليها فرجعتْ إلى بيتِها من يومِها وذلكَ قولُه تعالى :

﴿ فرددناه إلى أُمّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بوصولِ ولدِها إليها ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ بفراقِه ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله ﴾ أي جميعَ ما وعدَهُ من ردّه وجعلِه من المُرسلينَ ﴿ حَقّ ﴾ لا خُلفَ فيه بمشاهدةِ بعضِه وقياسِ بعضِه عليه ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنَّ الأمرَ كذلكَ فيرتابونَ فيهِ أو أنَّ الغرضَ الأصليَّ من الردِّ علمُها بذلك وما سواه تبعٌ ، وفيه تعريضٌ بما فَرَط منها حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(165/584)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾

أي صار خالياً من كل شيء غير ذكر موسى عليه السلام أخرجه الفريابي .

وابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والحاكم .

وصححه من طرق عن ابن عباس وروي ذلك أيضاً عن ابن مسعود .

والحسن .

ومجاهد ، ونحوه عن عكرمة .

وقالت : فرقة فارغاً من الصبر وقال ابو زيد : فارغاً من وعد الله تعالى ووحيه سبحانه إليها تناست ذلك من الهم وقال أبو عبيدة : فارغاً من الهم إذ لم يغرق وسمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه كما يقال فلان فارغ البال وقال بعضهم : فارغاً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد عدوه فرعون كقوله تعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾ [إبراهيم : 43] أي خلاء لا عقول فيها واعترض على القولين بأن الكلام عليهما لا يلائم ما بعده وفيه نظر ، وقرأ أحمد بن موسى عن أبي عمرو فواد بالواو وقرأ مؤسى بهمزة بدل الواو ، وقرأ فضالة بن عبيد .

والحسن .

ويزيد بن قطيب .

وأبو زرعة بن عمرو بن جرير فزعاً بالزاي والعين المهملة من الفزع وهو الخوف والقلق ، وابن عباس قرعاً بالقاف وكسر الراء وإسكانها من قرع رأسه إذا انحسر شعره كأنه خلا من كل

شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام ، وقيل : قرعاً بالسكون مصدر أي يقرع قرعاً من القارعة وهو الهم العظيم .

وقرأ بعض الصحابة فزغاً بفاء مكسورة وزاي ساكنة وغين معجمة ومعناه ذاهباً هدراً . والمراد هالكاً من شدة الهم كأنه قتيل لا قود ولا دية فيه ، ومنه قول طليحة الأسدي في أخيه حبال :

فإن يك قبلي قد أصيبت نفوسهم . . .

فلن يذهبوا فزغاً بقتل حبال

(166/584)

وقرأ الخليل بن أحمد فزغاً بضم الفاء والراء ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي أنها كادت الخ على أن إن هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة أو ما كادت إلا تبدى به على أن إن نافية واللام بمعنى إلا وهو قول كوفي والإبداء إظهار الشيء وتعديته بالباء لتضمينه معنى التصريح ، وقيل : المفعول محذوف والباء سببية أي تبدى حقيقة الحال بسببه أي بسبب ما عراها من فراقه ، وقيل : هي صلة أي تبديه وكلا القولين كما ترى ، والظاهر أن الضمير المجرور لموسى عليه السلام ، والمعنى أنها كادت تصرح به عليه السلام وتقول وابناه من

شدة الغم والوجد رواه الجماعة عن ابن عباس ، وروي ذلك أيضاً عن قتادة .

والسدي .

وعن مقاتل أنها كادت تصيح وابناه عند رؤيتها تلاطم الأمواج به شفقة عليه من الغرق ، وقيل : المعنى أنها كادت تظهر أمره من شدة الفرح بنجاته وتبنى فرعون إياه ، وقيل : الضمير للوحي إنها كادت تظهر الوحي وهو الوحي الذي كان في شأنه عليه السلام المذكور في قوله تعالى :

(167/584)

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : 7] الآية وهو خلاف الظاهر ولا تساعد عليه الروايات ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ أي بما أنزلنا عليه من السكينة والمراد لولا أن ثبتنا قلبها وصبرناها ، فالربط على القلب مجاز عن ذلك ، وجواب لولا محذوف دل عليه ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ ﴾ أي لولا أن ربطنا على قلبها لأبدته ، وقيل : لكادت تبدى به ، وقوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ علة للربط على القلب ، والإيمان بمعنى التصديق أي صبرناها وثبتنا قلبها لتكون راسخة في التصديق بوعدنا بأنا رادوه إليها وجاعلوه من المرسلين ، ومن جعل الفراغ من الهم والحزن وكيد ودة الإبداء من الفرح بتبنيه

عليه السلام الذي هو فرح مذموم جعل الإيمان بمعنى الوثوق كما في قولهم على ما حكى أبو زيد ما آمنت أن أجد صحابة أي ما وثقت وحقيقته صرت ذا أمن أي ذا سكون وطمأنينة ، وقال المعنى لولا أن ربطنا على قلبها وسكنا قلقه الكائن من الابتهاج الفاسد لتكون من الواثقين بوعد الله تعالى المبتهجين بما يحق الابتهاج به .

﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ ﴾ مريم وقيل : كلثمة وقيل : كلثوم .

(168/584)

والتعبير عنها بأخوته دون أن يقال لبنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالأمر ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أي اتبعي أثره وتتبعي خبره ، والظاهر أن هذا القول وقع منها بعد أن أصبح فؤادها فارغاً فإن كانت لم تعرف مكانه إذ ذاك فظاهر وإن كانت قد عرفته فتتبع الخبر ليعرف هل قتلوه أم لا ولينكشف ما هو عليه من الحال ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ أي أبصرته والفاء فصيحة أي فقصت أثره فبصرت ، وقرأ قتادة فبصرت بفتح الصاد وعيسى بكسرها ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ أي عن بعد ، وقيل : أي عن شوق إليه حكاه أبو عمرو بن العلاء وقال هي لغة جذام يقولون جنبت إليك أي اشتقت ، وقال الكرماني جنب صفة لموصوف محذوف أي عن مكان جنب أي بعيد وكأنه من الأضداد فإنه يكون بمعنى

القريب أيضاً كالجار الجنب ، وقيل : أي عن جانب لأنها كانت تمشي على الشط ، وقيل : النظر عن جنب أن تنظر إلى الشيء كأنك لا تريده .

وقرأ قتادة .

والحسن .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنه ، والأعرج عن جنب بفتح الجيم وسكون النون وعن قتادة أنه قرأ بفتحهما أيضاً ، وعن الحسن أنه قرىء بضم الجيم وإسكان النون ، وقرأ النعمان بن سالم عن جانب والكل على ما قيل : بمعنى واحد ، وفي البحر" الجنب والجانب والجنابة والجناب بمعنى ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنها تقصه وتتعرف حاله أو أنها أخته .

(169/584)

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾ أي منعناه ذلك فالتحريم مجاز عن المنع فإن من حرم عليه شيء فقد منعه ولا يصح إرادة التحريم الشرعي لأن الصبي ليس من أهل التكليف ولا دليل على الخصوصية ، والمراضع جمع مرضع بضم الميم وكسر الضاد وهي المرأة التي ترضع ، وترك التاء إما لاختصاصه بالنساء أو لأنه بمعنى شخص مرضع ؛ أو جمع مرضع بفتح الميم على أنه مصدر ميمي بمعنى الرضاع وجمع لتعدد مراته أو اسم مكان أي موضع الرضاع

وهو الثدي ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل قصها أو إبصارها أو وروده على من هو عنده ، أو من قبل ذلك أي من أول أمره وظاهر صنيع أبي حيان اختياره ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ أي هل تريدون أن أدلكم ﴿ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ أي يضمنونه ويقومون بتربيته لأجلكم ، والفاء فصيحة أي فدخلت عليهم فقالت ، وقولها : على أهل بيت دون امرأة إشارة إلى أن المراد امرأة من أهل الشرف تليق بخدمة الملوك ﴿ وَهُمْ لَهُ ناصحون ﴾ لا يقصرون في خدمته وتربيته ، وروي أن هامان لما سمع هذا منها قال إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فخلصت بذلك من الشر الذي يجوز لمثله الكذب وأحسنت وليس ببدع لأنها من بيت النبوة فحقيق بها ذلك . واحتمال الضمير لأمرين مما لا تختص به اللغة العربية بل يكون في جميع اللغات على أن الفراعنة من بقايا العمالقة وكانوا يتكلمون بالعربية فلعلها كلمت بلسانهم ويسمى هذا الأسلوب من الكلام الموجه .

(170/584)

﴿ فرددناه إلى أُمِّهِ ﴾ الفاء فصيحة أي فقبلوا ذلك منها ودلتهم على أمه وكلموها في إرضاعه فقبلت فرددناه إليها أو يقدر نحو ذلك ، وروي أن أخته لما قالت ما قالت أمرها

فرعون بأن تأتي بمن يكفله فأتت بأمه وموسى عليه السلام على يد فرعون يبكي وهو يعلله فدفعه إليها فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال : من أنت منه ؟ فقد أبى كل ثدي إلا ثديك فقالت إني امرأة طيبة اللبن لا أوتي بصبي إلا قبلني فقرره في يدها فرجعت به إلى بيتها من يومها وأمر أن يجري عليها النفقة وليس أخذها ذلك من أخذ الأجرة على إرضاعها إياه ولو سلم فلا نسلم أنه كان حراماً فيما تدين وكانت النفقة على ما في "البحر" ديناراً في كل يوم ﴿ كَى تَقَرَّ عَيْنُها ﴾ بوصول ولدها إليها ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ لفراقه ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله ﴾ أي جميع ما وعده سبحانه من رده وجعله من المرسلين ﴿ حَقّ ﴾ لا خلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه وإلا فعلمها بحقية ذلك بالوحي حاصل قبل .

(171/584)

واستدل أبو حيان بالآية على ضعف قول من ذهب إلى أن الإيحاء كان إلهاماً أو مناماً لأن ذلك يبعد أن يقال فيه وعد ، وفيه نظر ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعرفون وعده تعالى ولا حقيته أو لا يجزمون بما وعدهم جل وعلا لتجويزهم تخلفه وهو سبحانه لا يخلف الميعاد ، وقيل : لا يعلمون أن الغرض الأصلي من الرد عليها علمها بذلك وما سواه من قرة

عينها وذهاب حزنها تبع ، وفيه أن الذي يفيده الكلام إنما هو كون كل من قرة العين والعلم كالغرض أو غرضاً مستقلاً ، وأما تبعية غير العلم له لا سيما مع تقدم الغير فلا ، وكون المفيد لذلك حذف حرف العلة من الأول لا يخفى حاله ، وفي قوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس ﴾ الخ قيل : تعريض بما فرط من أمه حين سمعت بوقوعه في يد فرعون من الخوف والحيرة وأنت تعلم أن ما عراها كان من مقتضيات الجبلة البشرية وهو يجامع العلم بعدم وقوع ما يخاف منه ، ونفي العلم في مثل ذلك إنما يكون بضرب من التأويل كما لا يخفى .

ثم إن الاستدراك على ما اختاره مما وقع بعد العلم ، وجوز أن يكون من نفس العلم وذلك إذا كان المعنى لا يعلمون أن الغرض الأصلي من الرد عليها علمها بحقية وعد الله تعالى فتأمل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(172/584)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

الكلام في فاتحة هذه السورة قد مرّ في فاتحة الشعراء وغيرها ، فلا نعيده ، وكذلك مرّ الكلام على قوله : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الكتاب المبين ﴾ فاسم الإشارة مبتدأ خبره ما بعده ، أو

خبر مبتدأ محذوف ، و ﴿ آيات ﴾ بدل من اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون تلك في موضع نصب ب ﴿ نتلو ﴾ ، والمبين : المشتمل على بيان الحق من الباطل .

قال الزجاج : مبين الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، وهو من أبان بمعنى : أظهر ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بالحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي نوحي إليك من خبرهما ملتبساً بالحق ، وخص المؤمنين ؛ لأن التلاوة إنما ينتفع بها المؤمن ، وقيل : إن مفعول نتلو محذوف ، والتقدير : نتلو عليك شيئاً من نبئهما ، ويجوز أن تكون " من " مزيدة على رأي الأخفش أي : نتلو عليك نبأ موسى وفرعون ، والأولى أن تكون للبيان على تقدير المفعول كما ذكر أو للتبعيض ، ولا ملجىء للحكم بزيادتها ، والحق : الصدق ، وجملة : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض ﴾ وما بعدها مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبأ .

قال المفسرون : معنى ﴿ علا ﴾ : تكبر ، وتجبر بسلطانه ، والمراد بالأرض أرض مصر .

(173/584)

وقيل : معنى ﴿ علا ﴾ : ادعى الربوبية ، وقيل : علا عن عبادة ربه ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي فرقاً ، وأصنافاً في خدمته يشايعونه على ما يريد ، ويطيعونه ، وجملة : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان حال الأهل الذين جعلهم فرقاً وأصنافاً ،

ويجوز أن تكون في محلّ نصب على الحال من فاعل جعل ، أي جعلهم شيعاً حال كونهم مستضعفاً طائفة منهم ، ويجوز أن تكون صفة لطائفة ، والطائفة هم بنو إسرائيل ، وجملة : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ ﴾ بدل من الجملة الأولى ، ويجوز أن تكون مستأنفة للبيان ، أو حالاً ، أو صفة كالتي قبلها على تقدير عدم كونها بدلاً منها ، وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم ، ويترك النساء ؛ لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل .

قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقاً عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذباً فلا معنى للقتل ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ في الأرض بالمعاصي والتجبر ، وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الإفساد .

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض ﴾ جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية ، واستحضار صورتها ، أي نريد أن نتفضل عليهم بعد استضعافهم ، والمراد بهؤلاء : بنو إسرائيل ، والواو في ﴿ ونريد ﴾ للعطف على جملة ﴿ إن فرعون علا ﴾ ، وإن كانت الجملة المعطوف عليها اسمية ؛ لأن بينهما تناسباً من حيث أن كل واحدة منهما للتفسير والبيان ، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل ﴿ يستضعف ﴾ بتقدير مبتدأ ، أي ونحن نريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض كما في قول الشاعر :

نجوت وأرهنتهم ملكاً . . . والأوّل أولى ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي قادة في الخير ، ودعاة إليه ، وولاة على الناس ، وملوكاً فيهم ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ لملك فرعون ، ومساكن القبط ، وأملاكهم ، فيكون ملك فرعون فيهم ، ويسكنون في مساكنه ، ومساكن قومه ، وينتفعون بأملاكه وأملاكهم ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض ﴾ أي نجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها مسلطين على ذلك يتصرّفون به كيف شاؤوا .

قرأ الجمهور : ﴿ نمكّن ﴾ بدون لام ، وقرأ الأعمش : " لنمكن " بلام العلة .

﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ نرى ﴾ بنون مضمومة وكسر الراء على أن الفاعل هو الله سبحانه .

وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف : " ويرى " بفتح الياء التحتية والراء ، والفاعل فرعون .

والقراءة الأولى ألصق بالسياق ؛ لأن قبلها نريد ونجعل ونمكّن بالنون .

وأجاز الفراء : " ويري فرعون " بضم الياء التحتية ، وكسر الراء ، أي ويرى الله فرعون ، ومعنى ﴿ مِنْهُمْ ﴾ : من أولئك المستضعفين ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ الموصول هو المفعول الثاني على القراءة الأولى ، والمفعول الأوّل على القراءة الثانية ، والمعنى : أن الله يريهم ، أو يرون هم الذي كانوا يحذرون منه ، ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم وهلاكهم

على يد المولود من بني إسرائيل المستضعفين .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ أي ألهمناها وقذفنا في قلبها ، وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى إلى الرسل ، وقيل : كان ذلك رؤيا في منامها ، وقيل : كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك .

(175/584)

وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية ، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما ، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث الثابت في الصحيح فلم يكن بذلك نبياً ، و " أن " في ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ هي المفسرة ، لأن في الوحي معنى القول ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أي بأن أرضعيه ، وقرأ عمر بن عبد العزيز بكسر نون أن ، ووصل همزة أرضعيه فالكسر لالتقاء الساكنين ، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ ، وهو بحر النيل ، وقد تقدّم بيان الكيفية التي ألقته في اليمّ عليها في سورة طه ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ أي لا تخافي عليه الغرق ، أو الضيعة ، ولا تحزني لفراقه ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾

عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد .

والفاء في قوله : ﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ ﴾ هي الفصيحة ، والالتقاط : إصابة الشيء من غير طلب ، والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فألقته في اليمّ بعد ما جعلته في التابوت ، فالتقطه من وجده من آل فرعون ، واللام في ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ لام العاقبة ، ووجه ذلك : أنهم إنما آخذوه ؛ ليكون لهم ولداً ، وقرّة عين لا ليكون عدوّاً فكان عاقبة ذلك إنه كان لهم عدوًّا وحزناً ، ولما كانت هذه العداوة نتيجة لفعلهم ، وثمرة له شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله ، ومن هذا قول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب . . . قول الآخر :

وللمنايا تربي كل مرضعة . . . ودورنا لخراب الدهر نبنيها

(176/584)

قرأ الجمهور : ﴿ وحزناً ﴾ بفتح الحاء ، والزاي ، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف : " وحزناً " بضم الحاء وسكون الزاي ، واختار القراءة الأولى أبو

عبيدة وأبو حاتم وهما لغتان كالعَدَم والعُدْم ، والرَّشَد والرُّشْد ، والسَّقَم والسُّقْم ، وجملة ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خاطئين ﴾ لتعليل ما قبلها ، أو للاعتراض لقصد التأكيد ؛ ومعنى ﴿ خاطئين ﴾ : عاصين آثمين في كل أفعالهم وأقوالهم ، وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب ، وقرىء : " خاطين " بياء من دون همزة ، فيحتمل أن يكون معنى هذه القراءة معنى قراءة الجمهور ، ولكنها خففت بحذف الهمزة ، ويحتمل أن تكون من خطا يخطو ، أي تجاوز الصواب .

﴿ وَقَالَتِ امرأت فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لّي وَلَكَ ﴾ أي قالت امرأة فرعون لفرعون ، وارتفاع ﴿ قرّة ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قاله الكسائي ، وغيره .

وقيل : على أنه مبتدأ ، وخبره : ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ قاله الزجاج ، والأوّل أولى .

وكان قولها لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل إليها ، وأخرجته من التابوت ، وخاطبت بقولها : ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ فرعون ، ومن عنده من قومه ، أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له .

وقرأ عبد الله بن مسعود : " وقالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرّة عين لي ولك " ، ويجوز نصب " قرّة " بقوله : ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ على الاشتغال .

وقيل : إنها قالت : لا تقتلوه فإن الله أتى به من أرض بعيدة ، وليس من بني إسرائيل .

ثم عللت ما قالته بالترجي منها لحصول النفع منه لهم ، أو التبني له ، فقالت : ﴿ عسى أَن

يَنفَعَنَا ﴾ فنصيب منه خيراً ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ وكانت لا تلد ، فاستوهبته من فرعون فوهبه لها ، وجملة : ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي وهم لا يشعرون أنهم على خطأ في التقاطه ، ولا يشعرون أن هلاكهم على يده ؛ فتكون حالاً من آل فرعون ، وهي من كلام الله سبحانه .

(177/584)

وقيل : هي من كلام المرأة ، أي وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه ، وهم لا يشعرون ، قال الكلبي ، وهو بعيد جداً .

وقد حكى الفراء عن السديّ عن الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس أن قوله : ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ من كلام فرعون ، واعترضه بكلام يرجع إلى اللفظ ، ويكفي في ردّه ضعف إسناده .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ قال المفسرون : معنى ذلك : أنه فارغ من كل شيء إلاّ من أمر موسى كأنها لم تهتمّ بشيء سواه .

قال أبو عبيدة : خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلاّ من ذكر موسى ، وقال الحسن وابن إسحاق ، وابن زيد : فارغاً مما أوحى إليها من قوله : ﴿ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ﴾ ،

وذلك لما سوّل الشيطان لها من غرقه وهلاكه .

وقال الأخفش : فارغاً من الخوف والغمّ لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدّم من الوحي إليها ، وروى مثله عن أبي عبيدة أيضاً .

وقال الكسائي : ناسياً ذاهلاً ، وقال العلاء بن زياد : نافراً .

وقال سعيد بن جبير : والهاً كادت تقول : وا ابناه من شدّة الجزع ، وقال مقاتل : كادت تصيح شفقة عليه من الغرق .

وقيل : المعنى : أنها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع ، والدهش ، قال النحاس : وأصحّ هذه الأقوال الأوّل ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله ، فإذا كان فارغاً من كل شيء إلاّ من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي ، وقول من قال : فارغاً من الغمّ غلط قبيح ؛ لأن بعده : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ وقرأ فضالة بن عبيد الأنصاري ومحمد ابن السميفع وأبو العالية وابن محيصن : " فزعا " بالفاء ، والزاي ، والعين المهملة من الفزع ، أي خائفاً وجلاً ، وقرأ ابن عباس : " قرعا " بالقاف المفتوحة ، والراء المهملة المكسورة ، والعين المهملة من قرع رأسه : إذا انحسر شعره ، ومعنى ﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ : وصار ، كما قال الشاعر :

مضى الخلفاء في أمر رشيد . . . وأصبحت المدينة للوليد

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ "إن" هي : المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، أي إنها كادت لتظهر أمر موسى ، وأنه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش والخوف والحزن ، من بدا يبدو : إذا ظهر ، وأبدى يبدي : إذا أظهر ، وقيل : الضمير في ﴿ به ﴾ عائد إلى الوحي الذي أوحى إليها ، والأوّل أولى .

وقال الفراء : إن كانت لتبدي باسمه لضيق صدرها لولا أن ربطنا على قلبها .

قال الزجاج : ومعنى الربط على القلب : إلهام الصبر ، وتقويته ، وجواب لولا محذوف ، أي لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت ، واللام في : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ متعلق ب ﴿ ربطنا ﴾ ، والمعنى : ربطنا على قلبها ؛ لتكون من المصدّقين بوعد الله ، وهو قوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ قيل : والباء في ﴿ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ زائدة للتأكيد ، والمعنى : لتبديه كما تقول : أخذت الحبل وبالحبل .

وقيل : المعنى : لتبدي القول به ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي : قالت أمّ موسى لأخت موسى ، وهي مريم : قصيه ، أي تتبعي أثره ، واعرفي خبره ، وانظري أين وقع ، وإلى من صار ؟ يقال : قصصت الشيء : إذا اتبعت أثره متعرّفاً لحاله ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ أي أبصرته عن بعد ، وأصله عن مكان جنب ، ومنه الأجنبي .

قال الشاعر :

فلا تحرميني نائلاً عن جنابة . . . فإني امرؤ وسط الديار غريب

وقيل : المراد بقوله : ﴿ عن جنب ﴾ عن جانب ، والمعنى : أنها أبصرت إليه متجانفة مخاتلة ، ويؤيد ذلك قراءة النعمان بن سالم عن جانب ، ومحلّ : ﴿ عن جنب ﴾ النصب على الحال إما من الفاعل ، أي بصرت به مستخفية كائنة عن جنب ، وإما من المجرور ، أي بعيداً منها .

قرأ الجمهور : ﴿ بصرت ﴾ به بفتح الباء وضم الصاد ، وقرأ قتادة بفتح الصاد ، وقرأ عيسى بن عمر بكسرها .

(179/584)

قال المبرّد : أبصرته ، وبصرت به بمعنى ، وقرأ الجمهور : ﴿ عن جنب ﴾ بضمتين ، وقرأ قتادة والحسن والأعرج وزيد بن عليّ بفتح الجيم وسكون النون ، وروي عن قتادة أيضاً أنه قرأ بفتحهما .

وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضم الجيم وسكون النون .

وقال أبو عمرو بن العلاء : إن معنى ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ : عن شوق .

قال : وهي لغة جذام يقولون : جنبت إليك أي : اشتقت إليك ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنها

تقصه وتتبع خبره ، وأنها أخته .

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾ المراضع جمع مرضع ، أي منعناه أن يرضع من المرضعات .

وقيل : المراضع جمع مرضع بفتح الضاد ، وهو الرضاع ، أو موضعه ، وهو الثدي ، ومعنى ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ : من قبل أن نردّه إلى أمه ، أو من قبل أن تأتيه أمه ، أو من قبل قصها لأثره ، وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه ، فلم يرضع من واحدة منهنّ فعند ذلك ﴿ قَالَتْ ﴾ أي أخته لما رأت امتناعه من الرضاع : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ أي : يضمنون لكم القيام به ، وإرضاعه ﴿ وَهُمْ لَهُ ناصحون ﴾ أي مشفقون عليه لا يقصرون في إرضاعه وتربيته .

وفي الكلام حذف ، والتقدير : فقالوا لها : من هم ؟ فقالت : أمي ، فقيل لها : وهل لأمك لبن ؟ قالت : نعم لبن أخي هارون : فدلتهم على أمّ موسى ، فدفعوه إليها ، فقبل ثديها ، ورضع منه ، وذلك معنى قوله سبحانه : ﴿ فرددناه إلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بولدها ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ على فراقه ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله ﴾ أي جميع وعده ، ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ .

﴿ حَقّ ﴾ لا خلف فيه واقع لا محالة ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي أكثر آل فرعون لا يعلمون بذلك ، بل كانوا في غفلة عن القدر وسرّ القضاء ، أو أكثر الناس لا يعلمون بذلك أو لا يعلمون أن الله وعدها بأن يردّه إليها .

وقد أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ قال : فرّق بينهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة : ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ قال : يستعبد طائفة منهم ، ويدع طائفة ويقتل طائفة ويستحيي طائفة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال : يوسف وولده .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض ﴾ قال : هم : بنو إسرائيل ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي ولاة الأمر ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ أي الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ قال : ما كان القوم حذروه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ أي ألهمناها الذي صنعت بموسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش قال : قال ابن عباس في قوله : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾

قال : أن يسمع جيرانك صوته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ قال : فرغ من ذكر كل شيء من أمر الدنيا إلاّ من ذكر موسى .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ قال : خالياً من كل شيء غير ذكر موسى .

وفي قوله : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ قال : تقول : يا ابناه .

(181/584)

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عنه في قوله : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصّيهِ ﴾ أي اتبعي أثره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ قال : عن جانب .

وأخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : " أما شعرت أن الله زوّجني مريم بنت عمران وكلثوم أخت موسى وامرأة فرعون ؟ " قالت : هنيئاً لك يا رسول الله ، وأخرجه ابن عساكر عن ابن أبي روّاد مرفوعاً

بأطول من هذا ، وفي آخره : أنها قالت : بالرفاء والبنين .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس في قوله :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ ﴾ قال : لا يؤتى بمرضع فيقبلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(182/584)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾

﴿ أصبح ﴾ مستعمل في معنى (صار) فاقتضى تحولاً من حالة إلى حالة أخرى ، أي كان فؤادها غير فارغ فأصبح فارغاً .

والفؤاد مستعمل في معنى العقل واللب .

والفراغ مجازي .

ومعنى فراغ العقل من أمر أنه مجاز عن عدم احتواء العقل على ذلك الأمر احتواء مجازياً ، أي عدم جولان معنى ذلك الأمر في العقل ، أي ترك التفكير فيه .

وإذ لم يذكر أن فؤاد أم موسى لماذا أصبح فارغاً احتملت الآية معاني ترجع إلى محتملات

متعلق الفراغ ما هو .

فاختلف المفسرون في ذلك قديماً ، ومرجع أقوالهم إلى ناحيتين : ناحية تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جاشها ، وناحية تؤذن بتطرق الضعف والشك إلى نفسها .

فأما ما يرجع إلى الناحية الأولى فهو أنه فارغ من الخوف والحزن فأصبحت واثقة بحسن عاقبته تبعاً لما ألهمها من أن لا تخاف ولا تحزن فيرجع إلى الثناء عليها .

وهذا أسعد بقوله تعالى بعد ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ لأن ذلك الربط من توابع ما ألهمها الله من أن لا تخاف ولا تحزن .

فالمعنى : أنها لما ألقته في اليم كما ألهمها الله زال عنها ما كانت تخافه عليه من الظهور عليه عندها وقتله لأنها لما تمكنت من إلقائه في اليم ولم يشعر بها أحد قد علمت أنه نجا .

وهذا المحمل يساعده أيضاً ما شاع من قولهم : فلان خلي البال : إذا كان لا هم بقلبه .

وهو تفسير أبي عبيدة والأخفش والكسائي وهذا أحسن ما فسرت به وهو من معنى الثناء عليها بثباتها .

وعن ابن عباس من طرق شتى أنه قال : فارغاً من كل شيء إلا ذكر موسى .

وفي هذا شيء من رباطة جاشها إذ فرغ لبها من كل خاطر يخطر في شأن موسى .

وأما زيادة ما أداه الاستثناء بقوله : إلا ذكر موسى ، فلعله انتزعه من قوله ﴿ إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ وإلا فليس في الآية ما يؤذن بذلك الاستثناء .

وهذا التفسير يقتضي الجمع بين الثناء عليها بحسن ثقتها بالله والإشارة إلى ضعف الأمومة بالتشوق إلى ولدها وإن كانت عالمة بأنه يتقلب في أحوال صالحة به وبها .

وأما الأقوال الراجعة إلى الناحية الثانية فقال ابن عطية والقرطبي عن ابن القاسم عن مالك : الفراغ هو ذهاب العقل .

قال ابن عطية : هو كقوله تعالى ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ [إبراهيم : 43] أي لا عقول فيها .

وفي "الكشاف" : أي لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع .

وقال ابن زيد والحسن وابن إسحاق : أصبح فارغاً من تذكر الوعد الذي وعدها الله إذ خامرها خاطر شيطاني فقالت في نفسها : إني خفت عليه من القتل فألقيته بيدي في يد العدو الذي أمر بقتله .

قال ابن عطية : وقالت فرقة : فارغاً من الصبر .

ولعله يعني من الصبر على فقده .

وكل الأقوال الراجعة إلى هذه الناحية ترمي إلى أن أم موسى لم تكن جلدة على تنفيذ ما

أمرها الله تعالى وأن الله تداركها بوضع اليقين في نفسها .

وجملة ﴿ إن كادت لتُبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ تكون بالنسبة للتفسير الأول استئنافاً بيانياً لما اقتضاه فعل ﴿ أصبح ﴾ من أنها كانت على حالة غير حالة فراغ فبينت بأنها كانت تقارب أن تظهر أمر ابنها من شدة الاضطراب فإن الاضطراب ينم بها .

فالمعنى : أصبح فؤادها فارغاً ، وكادت قبل ذلك أن تبدي خبر موسى في مدة إرضاعه من شدة الهلع والإشفاق عليه أن يقتل .

وعلى تفسير ابن عباس تكون جملة ﴿ إن كادت ﴾ بمنزلة عطف البيان على معنى ﴿ فارغاً ﴾ .

وهي دليل على الاستثناء المحذوف .

فالتقدير : فارغاً إلا من ذكر موسى فكادت تظهر ذكر موسى وتنطق باسمه من كثرة تردد ذكره في نفسها .

وأما على الأقوال الراجعة إلى الناحية الثانية فجملة ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ بيان لجملة : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ ، أي كادت لتُبْدي أمر موسى من قلة ثبات فؤادها .

وعن مجاهد : لما رأت الأمواج حملت التابوت كادت أن تصيح .

(184/584)

والباء في ﴿ به ﴾ إما لتأكيد لصوق المفعول بفعله والأصل : لتبديه ، وإما لتضمين (تبدي) معنى (تبوح) وهو أحسن و ﴿ إن ﴾ مخففة من الثقيلة .

واللام في ﴿ لتبدي ﴾ فارقة بين ﴿ إن ﴾ المخففة و (إن) النافية .

والربط على القلب : توثيقه عن أن يضعف كما يشد العضو الوهن ، أي ربطنا على قلبها بخلق الصبر فيه .

وجواب ﴿ لولا ﴾ هو جملة ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ .

والمراد بالمؤمنين المصدقون بوعد الله ، أي لولا أن ذكّرناها ما وعدناها فاطمأن فؤادها .

فالإيمان هنا مستعمل في معناه اللغوي دون الشرعي لأنها كانت من المؤمنين من قبل ، أو أريد من كاملات المؤمنين .

واللام للتعليل ، أي لتُحرز رتبة المؤمنين بأمر الله الذين لا يتطرقهم الشك فيما يأتيهم من الواردات الإلهية .

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)

ظاهر ترتيب الأخبار أنها على وفق ترتيب مضامينها في الحصول ، وهذا يرجح أن يكون حصول مضمون ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ [القصص : 10] سابقاً على حصول مضمون ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ ، أي قالت لأخته ذلك بعد أن اطمأن قلبها لما

ألهمته من إلقائه في اليم ، أي لما ألقته في اليم قالت لأخته : انظري أين يلقيه اليم ومتى يستخرج منه ، وقد علمت أن اليم لا يلقيه بعيداً عنها لأن ذلك مقتضى وعد الله برده إليها .

وأخت موسى اسمها مريم ، وقد مضى ذكر القصة في سورة طه .

والقصّ : اتباع الأثر ، استعمل في تتبع الذات بالنظر فلذلك عُدي إلى ضمير موسى دون ذكر الأثر .

وقد تقدم في سورة الكهف (64) عند قوله ﴿ فارتدا على ءاثارهما قصصاً ﴾

وبصُر بالشيء صار ذا بصر به ، أي باصراً له فهو يفيد قوة الإبصار ، أي قوة استعمال حاسة البصر وهو التحديق إلى المبصر ، ف (بصر) أشد من (أبصر) .

فالباء الداخلة على مفعوله باء السببية للدلالة على شدة العناية برؤية المرئي حتى كأنه صار باصراً بسببه .

(185/584)

ولك أن تجعل الباء زائدة لتأكيد الفعل فتفيد زيادة مبالغة في معنى الفعل .

وتقدم في قوله تعالى ﴿ قال بصُرتُ بما لم يبصروا به ﴾ في سورة طه (96) .

والجُنُب : بضمتين البعيد .

وهو صفة لموصوف يعرف من المقام ، أي عن مكان جنب .

و﴿ عن ﴾ للمجاوزة والمجرور في موضع حال من ضمير (بصرت) لأن المجاوزة هنا من أحوال أخته لا من صفات المكان .

و﴿ هم ﴾ أي آل فرعون حين التقطوه لا يشعرون بأن أخته تراقب أحواله وذلك من حذق أخته في كيفية مراقبته .

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12)

الواو للحال من ضمير ﴿ لأخته ﴾ [القصص : 11] .

والتحريم : المنع ، وهو تحريم تكويني ، أي قدّرنا في نفس الطفل الامتناع من التقام أثداء المراضع وكراهتها ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مرضع يتقبّل ثديها ؛ لأن فرعون وامرأته حريصان على حياة الطفل ، ومن مقدمات ذلك أن جعل الله إرضاعه من أمه مدة تعود فيها بثديها .

ومعنى ﴿ من قبل ﴾ من قبل التقاطه وهو إيذان بأن ذلك التحريم مما تعلق به علم الله وإرادته في الأزل .

والفاء في قوله ﴿ فقالت ﴾ فاء فصيحة تؤذن بجملة مقدرة ، أي فأظهرت أخته نفسها

كأنها مرت بهم عن غير قصد .

وإنما قالت ذلك بعد أن فشا في الناس طلب المراضع له وتبديل مرضعة عقب أخرى حتى عُرض على عدد كثير في حصة قصيرة ، وذلك بسرعة مقدرة آل فرعون وكثرة تفتيشهم على المراضع حتى ألفوا عدداً كثيراً في زمن يسير ، وأيضاً لعرض المراضع أنفسهن على آل فرعون لما شاع أنهم يتطلبون مرضعاً .

وعرضت سعيها في ذلك بطريق الاستفهام المستعمل في العرض تلطّفاً مع آل فرعون وإبعاداً للظنة عن نفسها .

ومعنى ﴿ يكفلونه ﴾ يتعهدون بحفظه وإرضاعه .

(186/584)

فيدل هذا على أن عادتهم في الإرضاع أن يسلم الطفل الرضيع إلى المرأة التي ترضعه يكون عندها كما كانت عادة العرب لأن النساء الحرائر لم يكن يرضين بترك بيوتهن والانتقال إلى بيوت آل الأطفال الرضعاء .

كما جاء في خبر إرضاع محمد صلى الله عليه وسلم عند حليمة بنت وهب في حي بني سعد بن بكر .

قال صاحب "الكشاف" : فدفعه فرعون إليها وأجرى لها وذهبت به إلى بيتها .

والعدول عن الجملة الفعلية إلى الإسمية في قوله ﴿ وهم له ناصحون ﴾ لقصد تأكيد أن النصح من سجاياهم ومما ثبت لهم فلذلك لم يقل : وينصحون له كما قيل ﴿ يكفلونه لكم ﴾ لأن الكفالة أمر سهل بخلاف النصح والعناية .

وتعليق ﴿ له ﴾ بـ ﴿ ناصحون ﴾ ليس على معنى التقييد بل لأنه حكاية الواقع .

فالمعنى : أن النصح من صفاتهم فهو حاصل له كما يحصل لأمثاله حسب سجيتهم .

والنصح : العمل الخالص الخلي من التقصير والفساد .

فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

تقدم نظير قوله ﴿ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ في سورة [طه : 40] .

وقوله ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ فإنما تأكيد حرف ﴿ كي ﴾ بمرادفه وهو لام التعليل للتنصيص من أول وهلة على أنه معطوف على الفعل المثبت لا على الفعل المنفي .

وضمير ﴿ أكثرهم لا يعلمون ﴾ عائد إلى الناس المفهوم من المقام أو إلى رعية فرعون ، ومن الناس بنو إسرائيل .

والاستدراك ناشىء عن نصب الدليل لها على أن وعد الله حق ، أي فعلمت ذلك وحدها وأكثر القوم لا يعلمون ذلك لأنهم بين مشركين وبين مؤمنين تقادم العهد على إيمانهم

وخلت أقوامهم من علماء يلقنونهم معاني الدين فأصبح إيمانهم قريباً من الكفر .

وموضع العبرة من هذه القصة أنها تتضمن أموراً ذات شأن فيها ذكرى للمؤمنين وموعظة للمشركين .

(187/584)

فأول ذلك وأعظمه : إظهار أن ما علمه الله وقدَّره هو كائن لا محالة كما دل عليه قوله ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ إلى قوله ﴿ يحذرون ﴾ [القصص : 5 - 6] وأن الحذر لا ينجي من القدر .

وثانيه : إظهار أن العلو الحق لله تعالى وللمؤمنين وأن علو فرعون لم يغننِ عنه شيئاً في دفع عواقب الجبروت والفساد ليكون ذلك عبرة لجبابرة المشركين من أهل مكة .

وثالثه : أن تمهيد القصة بعلو فرعون وفساد أعماله مشير إلى أن ذلك هو سبب الانتقام منه والأخذ بناصر المستضعفين ليحذر الجبابرة سوء عاقبة ظلمهم وليرجو الصابرون على الظلم أن تكون العاقبة لهم .

ورابعه : الإشارة إلى حكمة ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ [البقرة : 216] في جانب بني إسرائيل ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ [البقرة :

216] في جانب فرعون إذ كانوا فرحين باستخدام بني إسرائيل وتدبير قطع نسلهم .

وخامسه : أن إصابة قوم فرعون بغتة من قِبَل من أملوا منه النفع أشد عبرة للمعتبر وأوقع حسرة على المستبصر ، وأدل على أن انتقام الله يكون أعظم من انتقام العدو كما قال ﴿ فالتقطه ءال فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [القصص : 8] مع قوله ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ [القصص : 9] .

وسادسه : أنه لا يجوز بحكم التعقل أن تستأصل أمة كاملة لتوقع مفسد فيها لعدم التوازن بين المفسدتين ، ولأن الإحاطة بأفراد أمة كاملة متعذرة فلا يكون المتوقع فساده إلا في الجانب المغفول عنه من الأفراد فتحصل مفسدتان هما أخذ البريء وانفلات المجرم .

وسابعه : تعليم أن الله بالغ أمره بتهيئة الأسباب المفضية إليه ولو شاء الله لأهلك فرعون ومن معه بحادث سماوي ولما قدّر لإهلاكهم هذه الصورة المرتبة ولأنجى موسى وبني إسرائيل إنجاء أسرع ولكنه أراد أن يحصل ذلك بمشاهدة تنقلات الأحوال ابتداء من إلقاء موسى في اليمّ إلى أن ردّه إلى أمه فتكون في ذلك عبرة للمشركين الذين

﴿ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [الأنفال : 32] وليتوسموا من بوارق ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم وانتقال أحوال دعوته في مدارج القوة أن ما وعدهم به واقع بأخَرَة .

وثامنه : العبرة بأن وجود الصالحين من بين المفسدين يخفف من لأواء فساد المفسدين فإن وجود امرأة فرعون كان سبباً في صد فرعون عن قتل الطفل مع أنه تحقق أنه إسرائيلي فقالت امرأته ﴿ لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ [القصص : 9] كما قدمنا تفسيره .

وتاسعه : ما في قوله ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ من الإيماء إلى تذكير المؤمنين بأن نصرهم حاصل بعد حين ، ووعيد المشركين بأن وعيدهم لا مفرّ لهم منه .

وعاشره : ما في قوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ من الإشارة إلى أن المرء يُؤتى من جهله النظر في أدلة العقل .

ولما في هذه القصة من العبر اكتفى مصعب بن الزبير بطالعها عن الخطبة التي حقه أن يخطب بها في الناس حين حلوله بالعراق من قِبَل أخيه عبد الله بن الزبير مكتفياً بالإشارة مع التلاوة فقال ﴿ طسم تلك ءايات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا في الأرض وأشار إلى جهة الشام يريد عبد الملك بن مروان وجعل أهلها شِيَعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين

ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض وأشار بيده نحو الحجاز ، يعني أخاه عبد الله بن الزبير وأنصاره ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما ﴿ وأشار إلى العراق يعني الحجاج منهم ما كانوا يحذرون ﴾ [القصص : 1 - 6] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(189/584)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾

الفؤاد : هو القلب ، لكن لا يُسمى القلب فؤاداً إلا إذا كانت فيه قضايا تحكم حركتك ، فالمعنى : أصبح فؤاد أم موسى ﴿ فَارِغاً ﴾ [القصص : 10] أي : لا شيء فيه مما يضبط السلوك ، فحين ذهبتْ لترمي بالطفل وتذكرت فراقه وما سيتعرض له من أخطار كادت مشاعر الأمومة عندها أن تكشف سِرَّها ، وكادت أنْ تسرقها هذه العاطفة .

﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ [القصص : 10] يعني : تكشف أمره ﴿ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ [القصص : 10] .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان يدرك الأشياء بآلات الإدراك عنده ، ثم يتحول هذا الإدراك

إلى وجدان وعاطفة ، ثم إلى نزوع وعمل ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة التي تراها بعينيك ، ثم تعجب بها ، ثم تنزع إلى قطفها ، وعند النزوع تواجهك قضايا في الفؤاد تقول لك : لا يحق لك ذلك ، فربما رفض صاحب البستان أو قاضاك ، فالوردة ليست مِلْكاً لك .

وكذلك أم موسى ، كان فؤادها فارغاً من القضية التي تُطمئنها على وليدها ، بحيث لا تُفشي عواطفها هذا السر .

ومعنى ﴿ رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ [القصص : 10] أي : ثبَّتْناها ليكون الأمر عندها عقيدة راسخة لا تطفو على سطح العاطفة ، ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض ﴾ [الكهف : 14] .

إذن : الرَّبْط على القلب معناه الاحتفاظ بالقضايا التي تتدخل في النزوع ، فإنْ كان لا يصح أن تفعل فلا تفعل ، وإنْ كان يصح أنْ تفعل فافعل ، فهذه القضايا الراسخة هي التي تضبط التصرفات ، وكان فؤاد أم موسى فارغاً منها .

(190/584)

لذلك نقول لمن يتكلم بالكلام الفارغ الذي لا معنى له : دَعْكَ من هذا الكلام الفارغ أي : الذي لا معنى له ولا فائدةَ منه ، ومن ذلك قولهم : فلان عقله فارغ يعني : من القضايا النافعة

. وإلا فليس هناك شيء فارغ تماماً ، لا بُدَّ أن يكون فيه شيء ، حتى لو كان الهواء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ [إبراهيم : 43] ويقولون في العامية : (فلان معندوش ولا الهوا) ذلك لأن الهواء آخر ما يمكن أن يفرغ منه الشيء .

ومعنى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ [القصص : 10] يعني : قاربت من فراغ فؤادها أن تقول إنه ولدي ﴿ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [القصص : 10] لإن الإيمان هو الذي يجلب لك النفع ، ويمنعك من الضار ، وإنْ كان فيه شهوة عاجلة لك ، فمنعها إيمانُها من شهوة الأمومة في هذا الموقف ، ومن ممارسة العطف والحنان الطبيعيين في الأم ؛ لأن هذه شهوة عاجلة يتبعها ضرر كبير ، فإنْ أحسُّوا أنه ولدها قتلوه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾

قُصِّيه : يعني : تتبعي أثره ، وراقبي سيره إلى إين ذهب ؟ وماذا فُعِل به ؟ وحين سمعت الأخت هذا الأمر سارعتْ إلى التنفيذ ؛ لذلك استخدم الفاء الدالة على التعقيب وسرعة الاستجابة ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ [القصص : 11] ولم يقُلْ : فقصَّته ؛ لأن البصر وإنْ كان بمعنى الرؤية إلا أنه يدل على العناية والاهتمام بالمرئي .

ومعنى : ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ [القصص : 11] من ناحية بحيث لا يراها أحد ، ولا يشعر بتتبعها له ، واهتمامها به . ومن ذلك ما حكاه القرآن من قول السامري : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ﴾ [طه : 96] أي : رأى من حيث لا يطَّلِع أحد عليه .

ونلحظ هنا أن أخت موسى أخذتْ الأمر من أمها ﴿ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : 11] فقط ولم تلفت نظرها إلى هذا الاحتياط ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ [القصص : 11] مما يدلُّ على ذكاء الفتاة وقيامها بمهمتها على أكمل وجه ، وإن لم تُكلَّف بذلك ، وهذا من حكمة المرسَل الحريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح .

ما أجملَ ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

إذَا كُنْتَ فِي حَاجةٍ مُرْسِلاً . . . فأَرسِلْ حَكيماً ولاَ تُوصِهْ

وقوله تعالى : ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ [القصص : 11] يظن البعض أن جنب يعني قريب مني ، وهذا غير صحيح ؛ لأن معنى الجنب ألاَّ تكون في مواجهتي ، لذلك يقول تعالى : ﴿ والجار ذِي القربى والجار الجنب ﴾ [النساء : 36] إذن : الجار الجنب مقابل الجار القريب ، فمعناه الجار البعيد .

فكأن الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التابوت أخذتْ مكاناً بعيداً منه ، حتى لا يفطن أحد إلى متابعتها له .

ومن ذلك قولنا : (فلان تجنّبني ، أو فلان واخد جنب مني) أي : يبتعد عني ، إذن :

البعض يفهم هذه الكلمة على عكس مدلولها .

ألاَ ترى لقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [إبراهيم : 35] وقوله تعالى : ﴿ واجتنبوا قَوْلَ الزور ﴾ [الحج : 3] فالاجتناب يعني : الابتعاد .

وفي تحريم الخمر قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] فطلع علينا مَنْ يقول : هذا ليس نصاً في التحريم ، لأنه لم يقُلْ حرَّمْت عليكم ، فهي مجرد موعظة ونصيحة .

ونقول : لو فهمت معنى ﴿ فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] لعلمتَ أنها أقوى في التحريم من حرمت عليكم ؛ لأن معنى حرَّمتْ عليكم الخمر يعني : لا تشربوها ، أما ﴿ فاجتنبوه ﴾ [المائدة : 90] يعني : ابتعدوا عنها كليةً شُرْباً أو بَيْعاً ، أو شراء ، أو نقلاً ، أو حتى الجلوس في مجالسها .

(192/584)

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الأقدار للأقدار ، فتقول : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾

التحريم هنا لا يعني التحريم بالنسبة للمكلَّف : هذا حلال وهذا حرام ، إنما ﴿ وَحَرَّمْنَا

عَلَيْهِ المراضع ﴾ [القصص : 12] يعني : منعناه أنْ يرضع من المرضعات اللائي يأتونَ بهن لتتقلب عليه المراضع واحدة بعد الأخرى ، إلى أن تأتيه أمه .

و﴿ المراضع ﴾ [القصص : 12] جمع مُرضِع ، ونقول أيضاً : مرضعة ، ولكل من اللفظين مدلول ، على خلاف ما يظنه البعض أنهما بمعنى واحد .

واقرأ أول سورة الحج : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : 2] .

المرضِع : التي من شأنها أنْ تُرضع ، وصالحة لهذه العملية ، لكن المرضعة التي تُرضع الآن فعلاً ، وعلة حِجْرها طفل يلتقم ثديها ، وفي موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هَوْل ما ترى ، إذن : فالتي تذهل هي المرضعة لا المرضع .

والضمير في ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ [القصص : 12] يعود على أخت موسى ؛ لأنها ما زالت في مهمة تتبُّع الولد ، وقد سمعها هامان تقول ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ [القصص : 12] فقال لها : لا بدَّ أنك من أهل هذا الولد ؟ وتعرفين قصَّته ، فقالت : بل ناصحون للملك مخلصون له . وفعلاً وافقوها على ما نصحتْ به ؛ لأنهم معذورون ، فالولد يأبى الرضاعة من الأخريات .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ ﴾

وسبق أنْ وعدها الله : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ [القصص : 7] وها هو أوانُ تحقيق الوعد

الأول ، وهو بُشْرى بتحقُّق الوعد الثاني ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7] لكن هذا في مستقبل الأيام ، وسوف يتحقق أيضاً .

(193/584)

وقوله سبحانه : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ ﴾ [القصص : 13] يدل على أن الاسباب في يد المسبب سبحانه ، فنحن الذين رددناه ، لا أخته ولا فرعون ؛ لأننا نُسيِّر الامور على وَفْق مرادنا ، ونُمهّد لها الطريق حتى أننا نحول بين المرء وقلبه ، ولينفذ قضاؤنا فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 13] يعني : لا يعلمون أن وَعْد الله حق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(194/584)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ قال : فرغ من ذكر كل شيء من أمر الدنيا إلا من ذكر موسى .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ قال : خالياً من كل شيء غير ذكر موسى عليه السلام ، وفي قوله ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ قال : تقول يا ابناه .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ قال : من كل شيء غير هم موسى عليه السلام .

وأخرج الفريابي عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ قال : من كل شيء من أمر الدنيا والآخرة إلا من هم موسى .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ قال : من كل شيء إلا من ذكر موسى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مغيث بن سمي أو عن أبي عبيدة في قوله ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي لتنبىء أنه ابنها من شدة وجدها ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ قال : ربط الله على قلبها بالإيمان .

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)

أخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ أي اتبعي أثره ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ قال : عن جانب .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ أي اتبعي أثره كيف يصنع به ؟ ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ قال عن بعد ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ قال : آل فرعون انه عدو لهم .

(195/584)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ قال : قصي أثره ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ يقول : بصرت به وهي مجانبة لهم ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ انها أخته قال : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : اسم أخت موسى يواخيد ، وأمه يحانذ .

وأخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أبي رواد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال لخديجة رضي الله عنها " اما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران ، وكلثوم أخت موسى ، وآسية امرأة فرعون ، قالت : وقد فعل الله ذلك يا رسول الله قال : نعم . قالت : بالرفاه والبنين " .

وأخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما شعرت أن الله زوجني مريم بنت عمران ، وكلثوم أخت موسى ، وامرأة فرعون فقلت : هنيئاً لك يا رسول الله " .

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12)

أخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ قال : لا يؤتى بمرضع فيقبلها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ قال : لا يقبل ثدي امرأة حتى يرجع إلى أمه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه قال : حين قالت ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ قالوا : قد عرفتيه فقالت : إنما أردت الملك ، هم للملك ناصحون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وحرمنا عليه المراضع ﴾ قال : جعل لا يؤتى بامرأة إلا لم يأخذ ثديها وفي قوله ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ قال : وعدها أنه راده إليها وجاعله من المرسلين ففعل الله بها ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني رضي الله عنه قال : كان فرعون يعطي أم موسى على رضاع موسى كل يوم ديناراً .

وأخرج أبو داود في المراسيل عن جبير بن نفير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مثل الذين يغزون من أمتي ويأخذون الجعل يعني : يتقوّون على عدوهم ؛ مثل أم موسى ، ترضع ولدها وتأخذ أجرها " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(197/584)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَارِغاً ﴾ :

خبرُ " أصبحَ " أي : فارغاً من العقلِ ، أو من الصبرِ ، أو من الحُزْن . وهو أبعدُها . ويَرُدُّه قراءاتٌ تُخالِفهُ : فقرأ فضالةُ والحسنُ " فَزِعاً " بالزاي ، مِنَ الفزعِ . وابن عباس " قَرِعاً " بالقافِ وكسرِ الراء وسكونِها ، مِنْ قَرِعَ رأسُه : إذا انحسَرَ شعرُه . والمعنى : خلا مِنْ كلِّ شيء ، وانحسَر عنه كلُّ شيءٍ ، إلاَّ ذِكْرَ موسى . وقيل : الساكنُ الراءِ مصدرُ قَرَعَ يَقْرَعُ أي : أصيب . وقُرِىء " فِرْغاً " بكسر الفاءِ وسكونِ الراء . والغينِ معجمةً ، أي : هَدْراً . كقوله :

3585 فإنْ يَكُ قَتْلى قد أُصيبَتْ نفوسُهُمْ . . . فلَنْ يَذْهبُوا فَرْغاً بقَتْلِ حِبالِ

" فَرْغاً " حالٌ مِنْ " بِقَتْلِ " . وقرأ الخليلُ " فُرُغاً " بضم الفاء والراء وإعجامِ الغين ، من هذا المعنى .

قوله : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي ﴾ " إنْ " : إمَّا مخففةٌ ، وإمَّا نافيةٌ . واللامُ : إمَّا فارقةٌ ، وإمَّا بمعنى إلاَّ .

قوله : ﴿ لولا أَن رَّبَطْنَا ﴾ جوابُها محذوفٌ أي : لأَبدَتْ ، كقولِه : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لولا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف : 24] . و ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ متعلقٌ ب " رَبَطْنا " . والباء في " به " مزيدةٌ في المفعولِ أي : لِتُظْهِرَه وقيل : ليسَتْ زائدةً بل سببيةٌ . والمفعولُ محذوفٌ أي : لَتُبْديْ القولَ بسببِ موسى أو بسببِ الوَحْي . فالضميرُ يجوزُ عَوْدُه على موسى أو على الوحي .

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)

قوله : ﴿ قُصِّيهِ ﴾ : أي : قُصِّي أثرَه أي : تَتَبَّعيه .

قوله : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ أي : أَبْصَرَتْه ، وقرأ قتادةُ "بَصَرَتْ" بفتح الصاد . وعيسى بكسرِها . وتقدَّم معناه في طه .

(198/584)

قوله : ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ في موضعِ الحال : إمَّا مِنَ الفاعلِ أي : بَصُرَتْ به مُسْتَخْفِيَةً كائنةً عن جُنُبٍ ، وإمَّا مِن المجرورِ ، أي : بعيداً منها . وقرأ العامَّةُ "جُنُبٍ" بضمتين وهو صفةٌ لمحذوفٍ . أي : مِنْ مكان بعيد . وقال أبو عمرو ابن العلاء : "أي : عن شوق" ، وهي لغةُ جُذام يقولون : جَنِبْتُ إليك أي : اشْتَقْتُ . وقرأ قتادة والحسن والأعرج وزيد بن علي بفتح الجيمِ وسكونِ النونِ ، وعن قتادةَ أيضاً بفتحهما . وعن الحسن "جُنْبِ" بالضم والسكونِ . وعن سالم "عن جانب" وكلُّها بمعنى واحد . ومثلُه : الجَنَابُ والجَنابَة .

قوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ جملةٌ حاليةٌ ، ومتعلَّق الشعورِ محذوفٌ أي : أنها تَقُصُّه ، أو أنه سيكونُ لهم عَدُوّاً وحَزَناً .

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

نَاصِحُونَ (12)

قوله : ﴿ المراضع ﴾ : قيل : يجوز أَنْ تكونَ جمعَ مُرْضِع ، وهي المرأة .

وقيل : جمعُ " مَرْضَعْ " بفتح الميمِ والضاد . ثم جَوَّزوا فيه أَنْ يكونَ مكاناً أي : مكان الإِرضاع وهو الثَّدْيُ ، وأَنْ يكونَ مصدراً أي : الإِرْضاعاتِ أي : أنواعَها .

قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي : مِنْ قبلِ قَصِّها أثرَه .

(199/584)

قوله : ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ الظاهرُ أنه ضميرُ موسى . وقيل : لفرعون . ومن طريف ما يحكى : أنها لَمَّا قالَتْ لهم ذلك استنكروا حالَها وتفرَّسوا أنها قَرابَتُه . فقالَتْ : إنما أردْتُ : وهم للمَلِكِ ناصحون . فتخلَّصَتْ منهم . قاله ابن جريج . قلت : وهذا يُسَمَّى عند أهلِ البيانِ " الكلامَ المُوَجَّه " ومثلُه لَمَّا سُئِل بعضُهم وكان بين أقوامٍ ، بعضُهم يُحِبُّ عليّاً دونَ غيرِه ، وبعضُهم أبا بكر ، وبعضُهم عمرَ ، وبعضُهم عثمانَ ، فقيل له : أيُّهم أحبُّ إلى رسول الله ؟ فقال : مَنْ كانت ابنتُه تحته .

فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

قوله : ﴿ وَلاَ تَحْزَنَ ﴾ : عطفٌ على " تَقَرَّ " . ودمعةُ الفرحِ قارَّةٌ ، ودمعة التَّرَحِ حارَّة .

قال أبو تمام :

3586 فأمَّا عيونُ العاشِقين فَأُسْخِنَتْ . . . وأمَّا عيونُ الشامتينَ فَقَرَّتِ

وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في مريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 653.

656 ﴾

(200/584)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا ﴾

لمّا ألقته في الماء سَكَّنَ اللَّهُ قلبَها ، وربط عليه ، وألهمها الصبر ، وأصبح فؤادها فارغاً إن كادت لتبدي به من حيث ضعف البشرية ، ولكن الله ربط على قلبها .

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11)

أمَرَتْ أُمُّ موسى أختَه أن تتبعَ أثره ، وتنظرَ إلى ماذا يؤول أمره ، فلمَّا وجدوه واستمكن حُبُّه من قلوبهم طلبوا مَنْ يُرضِعه .

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12)

أَبى موسى قبولَ ثدِي واحدةٍ ممن عُرِضَ عليهن . . فَمَنْ بالغداة كانوا في اهتمامٍ كيف يقتلونه أمسوا – وهم في جهدهم – كيف يُغَذُونه !

فلمَّا أعياهم أَمرُه ، قالت لهم أخته : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ ؟

فَقَبِلُوا نصيحتها شفقة منهم عليه ، وقالوا : نعم ، فرُّدوه إلى أمه ، فلما وضعت ثديها في فمه ارتضعها موسى فَسُرُّوى بذلك ، وكانوا يَدْعُون أُمَّه حاضنةً ومرضعةً . . ولم يُضِرْها ، وكانوا يقولون عن فرعون : إنه أبوه . . ولم ينفعه ذلك !

ولَّما أخذته أمُّه علمت بتصديق الله ظنها ، وسكن عن الانزعاج قلبُها ، وجرى من قصة فرعون ما جرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 55 . 57 ﴾

(201/584)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/585)

الجزء الخامس والثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 14 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 24 ﴾ من نفس السورة

(4/585)

قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما استقر الحال ، على هذا المنوال ، علم أنه ليس بعده إلا الخير والإقبال ، والعز بتبني فرعون له والجلال ، فترك ما بينه وبين السن الصالح للإرسال ، وقال مخبراً عما بعد ذلك من الأحوال : ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ أي مجامع قواه وكمالاته ﴿ واستوى ﴾ أي اعتدل في السن وتم استحكامه بانتهاء الشباب ، وهو من العمر ما بين إحدى وعشرين سنة إلى اثنتين وأربعين ، فتم بسبب ذلك في الخلال الصالحة التي طبعناه عليها ؛ وقال الرازي : قال الجنيد : لما تكامل عقله ، وصحت بصيرته ، وصلحت نحيرته ، وآن أوان خطابه – أنتهى .

أي وصار إلى الحد الذي لا يزاد الإنسان بعده غريزة من الغرائز لم تكن فيه أيام الشباب ، بل لا يبقى بعد ذلك إلا الوقوف ثم النقصان ﴿ آتيناه ﴾ أي خرقاً للعادة أسوة إخوانه من الأنبياء ابتداء غرائز منحناه إياها من غير اكتساب أصلاً ﴿ حكماً ﴾ أي عملاً محكماً بالعلم ﴿ وعلماً ﴾ أي مؤيداً بالحكمة ، تهيئة لنبوته ، وإرهاصاً لرسالته ، جزيناه بذلك على ما طبعناه عليه من الإحسان ، فضلاً منا ومنه ، واختار الله سبحانه هذا السن للإرسال ليكون – كما أشير إليه – من جملة الخوارق ، لأنه يكون به ابتداء الانتكاس الذي قال الله تعالى فيه ﴿ ومن نعمره – أي إلى اكتمال سن الشباب – ننكسه في الخلق ﴾ أي نوقفه ، فلا يزاد بعد ذلك في قواه الظاهرة ولا الباطنة شيء ، ولا توجد فيه غريزة لم تكن موجودة أصلا عشر سنين ، ثم يأخذ في النقصان – هذه عادة الله في جميع بني آدم إلا الأنبياء ، فإنهم في حد الوقوف يؤتون من بحار العلوم ما يقصر عنه الوصف بغير اكتساب ، بل غريزة يغرزها الله فيهم حينئذ ، ويؤتون من قوة الأبدان أيضاً بمقدار ذلك ، ففي وقت انتكاس غيرهم يكون نموهم ، وكذا من ألحقه الله بهم من صالحي أتباعهم ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة يس من تمام هذا المعنى ما يفتح الله به لمن تأمله أبواباً من العلم ، ولذلك قال الله تعالى عاطفاً على ما تقديره : فعلنا به ذلك وبأمه جزاء لهما على إحسانهما في إخلاصهما فيما يفعلانه اعتماداً على الله وحده من غير أدنى التفات إلى ما

سواه : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي كلهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 470 . 471 ﴾

(6/585)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

اعلم أن في قوله : ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى ﴾ قولين : أحدهما : أنهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية والثاني : وهو الأصح أنهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه : أحدها : وهو الأقرب أن الأشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية ، والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية وثانيها : الأشد عبارة عن كمال القوة ، والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة وثالثها : الأشد عبارة عن البلوغ ، والاستواء عبارة عن كمال الخلقة ورابعها : قال ابن عباس الأشد ما بين الثمان عشرة سنة إلى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة إلى الأربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان ، ومن الأربعين يأخذ في النقصان ، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما حق ، لأن الإنسان يكون في أول

العمر في النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان ، ثم يأخذ في الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر إلى العشرين ومن العشرين إلى الثلاثين يكون التزايد قليلاً والقوة قوية جداً ثم من الثلاثين إلى الأربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الأربعين إلى الستين يأخذ في الانتقاص الخفي ، ومن الستين إلى آخر العمر يأخذ في الانتقاص البين الظاهر ، ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الإنسان منجذباً إليها فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص ، والقوة العقلية في الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي .

المسألة الثانية :

اختلفوا في واحد الأشد ، قال الفراء : الأشد واحدها شد في القياس ولم يسمع لها بواحد .

(7/585)

وقال أبو الهيثم : واحدة الأشد شدة ، كما أن واحدة الأنعم نعمة ، والشدة القوة والجلادة .

أما قوله : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ ففيه وجهان الأول : أنها النبوة وما يقرن بها من العلوم

والأخلاق ، وعلى هذا التقدير ليس في الآية دليل على أن هذه النبوة كانت قبل قتل القبطي أو بعده ، لأن الواو في قوله : ﴿ وَدَخَلَ المدينة ﴾ لا تفيد الترتيب الثاني : آتيناه الحكمة والعلم قال تعالى : ﴿ واذكرن مَا يتلى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءايات الله والحكمة ﴾ [الأحزاب : 34] وهذا القول أولى لوجوه : أحدها : أن النبوة أعلى الدرجات البشرية فلا بد وأن تكون مسبوقة بالكمال في العلم والسيرة المرضية التي هي أخلاق الكبراء والحكماء وثانيها : أن قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ يدل على أنه إنما أعطاه الحكم والعلم مجازاة على إحسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل وثالثها : أن المراد بالحكم والعلم لو كان هو النبوة ، لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ لأن قوله : ﴿ وكذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من الحكم والعلم ، ثم بين إنعامه عليه قبل قتل القبطي .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في المدينة فالجمهور على أنها هي المدينة التي كان يسكنها فرعون ، وهي قرية على رأس فرسخين من مصر ، وقال الضحاك : هي عين شمس .

المسألة الثانية :

اختلفوا في معنى قوله : ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ على أقوال : فالقول الأول : أن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم في دينه ودين آبائه ، علم أن فرعون وقومه على الباطل ، فتكلم بالحق وعاب دينهم ، واشتهر ذلك منه حتى آل الأمر إلى أن أخافوه وخافهم ، وكان له من بني إسرائيل شيعة يقتدون به ويسمعون منه ، وبلغ في الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً ، فدخلها يوماً على حين غفلة من أهلها ، ثم الأكثرون على أنه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون ، وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والأول أولى ، لأنه تعالى أضاف الغفلة إلى أهلها ، وإذا دخل المرء مستتراً لأجل خوف ، لا تضاف الغفلة إلى القوم القول الثاني : قال السدي : إن موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون ، ويلبس مثل ما يلبس ، ويدعى موسى ابن فرعون ، فركب يوماً في أثره فأدركه المقيل في موضع ، فدخلها نصف النهار ، وقد خلت الطرق ، فهو قوله : ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ ﴾ القول الثالث : قال ابن زيد : ليس المراد من قوله : ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ حصول الغفلة في تلك الساعة ، بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره ، فإن موسى حين كان صغيراً ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته ، فأراد فرعون قتله ، فجيء بجمر فأخذه وطرحه في فيه ، فمنه عقدة لسانه ، فقال فرعون : لا أقتله ، ولكن أخرجوه عن الدار والبلد ، فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر

، والقوم نسوا ذكره وذلك قوله : ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ ﴾ ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الروايات على بعض ، لأنه ليس في القرآن ما يدل على شيء منها .

المسألة الثالثة :

(9/585)

قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ قال الزجاج : قال : هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية ، أي وجد فيها رجلين يقتتلان ، إذا نظر الناظر إليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ، ثم اختلفوا فقال مقاتل : الرجلان كانا كافرين ، إلا أن أحدهما من بني إسرائيل ، والآخر من القبط ، واحتج عليه بأن موسى عليه السلام قال له في اليوم الثاني ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : 18] والمشهور أن الذي من شيعته كان مسلماً ، لأنه لا يقال فيمن يخالف الرجل في دينه وطريقه : إنه من شيعته ، وقيل إن القبطي الذي سخر الإسرائيلي كان طباخ فرعون ، استسخره لحمل الحطب إلى مطبخه ، وقيل الرجلان المقتتلان : أحدهما السامري وهو الذي من شيعته ، والآخر طباخ فرعون ، والله أعلم بكيفية الحال ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ، أي سأله أن يخلصه منه واستنصره عليه ، فوكزه موسى عليه السلام ، الوكز الدفع بأطراف

الأصابع ، وقيل بجمع الكف .

وقرأ ابن مسعود : (فلكزه موسى) ، وقال بعضهم : الوكز في الصدر واللكز في الظهر ، وكان عليه السلام شديد البطش ، وقال بعض المفسرين : فوكزه بعصاه ، قال المفضل هذا غلط ، لأنه لا يقال وكزه بالعصا ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ أي أماته وقتله .

المسألة الرابعة :

(10/585)

احتج بهذه الآية من طعن في عصمة الأنبياء عليه السلام من وجوه : أحدها : أن ذلك القبطي إما أن يقال إنه كان مستحق القتل أو لم يكن كذلك ، فإن كان الأول فلم قال : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ ولم قال : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغفر لى فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ولم قال في سورة أخرى ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] ؟ وإن كان الثاني وهو أن ذلك القبطي لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنباً وثانيها : أن قوله : ﴿ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ يدل على أنه كان كافراً حربياً فكان دمه مباحاً فلم استغفر عنه ، والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز ، لأنه يوهم في المباح كونه حراماً ؟ وثالثها : أن الوكز لا يقصد به القتل ظاهراً ، فكان ذلك القتل قتل خطأ ، فلم استغفر منه ؟ والجواب : عن

الأول لم لا يجوز أن يقال إنه كان لكفره مباح الدم .

أما قوله : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ ففيه وجوه : أحدها : لعل الله تعالى وإن أباح قتل الكافر إلا أنه قال الأولى تأخير قتلهم إلى زمان آخر ، فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان وثانيها : أن قوله (هذا) إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه فقوله : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ أي عمل هذا المقتول من عمل الشيطان ، المراد منه بيان كونه مخالفاً لله تعالى مستحقاً للقتل وثالثها : أن يكون قوله (هذا) إشارة إلى المقتول ، يعني أنه من جند الشيطان وحزبه ، يقال فلان من عمل الشيطان ، أي من أحزابه .

أما قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغفر لِى ﴾ فعلى نهج قول آدم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف : 23] والمراد أحد وجهين ، إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه ، وإن لم يكن هناك ذنب قط ، أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب .

(11/585)

أما قوله : ﴿ فاغفر لى ﴾ أي فاغفر لي ترك هذا المندوب ، وفيه وجه آخر ، وهو أن يكون المراد رب إني ظلمت نفسي حيث قتلت هذا الملعون ، فإن فرعون لو عرف ذلك لقتلني به ﴿ فاغفر لى ﴾ أي فاستره علي ولا توصل خبره إلى فرعون ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ أي ستره عن الوصول إلى فرعون ، ويدل على هذا التأويل أنه على عقبه قال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ولو كانت إعانة المؤمن ههنا سبباً للمعصية لما قال ذلك .

وأما قوله : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ فلم يقل إني صرت بذلك ضالاً ، ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافراً في حال القتل نفى عن نفسه كونه كافراً في ذلك الوقت ، واعترف بأنه كان ضالاً أي متحيراً لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يدبر به في ذلك .

أما قوله إن كان كافراً حربياً فلم استغفر عن قتله ؟ قلنا كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراماً في ذلك الوقت ، أو إن كان مباحاً لكن الأولى تركه على ما قررنا ، قوله ذلك القتل كان قتل خطأ ، قلنا لا نسلم فلعل الرجل كان ضعيفاً وموسى عليه السلام كان في نهاية الشدة ، فوكزه كان قاتلاً قطعاً .

ثم إن سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الإسرائيلي من يده بدون ذلك الوكز الذي كان الأولى تركه ، فلهذا أقدم على الاستغفار على أنا وإن سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لا دليل ألبتة على أنه كان رسولاً في ذلك الوقت

فيكون ذلك صادراً منه قبل النبوة ، وذلك لا نزاع فيه .

المسألة الخامسة :

(12/585)

قالت المعتزلة الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصي إلى الله تعالى لأنه عليه السلام قال : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ فنسب المعصية إلى الشيطان ، فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لا من الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشيطان بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ [يوسف : 100] وقول صاحب موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ [الكهف : 63] وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة ﴾ [الأعراف : 27] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 198 . 201 ﴾

(13/585)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قَتَلْت نَفْسًا ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ قَتَلَهُ بِوَكْزِهِ ؛ ثُمَّ قَالَ : ﴿ رَبِّ إنِّي ظَلَمْت نَفْسِي ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَتْلَ بِاللَّطْمَةِ عَمْدٌ ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَقُلْ : إنِّي ظَلَمْت نَفْسِي عَلَى الْإِطْلَاقِ .

وَهَذَا خَطَأٌ ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَقُولَ : ظَلَمْت نَفْسِي بِإِقْدَامِي عَلَى الْوَكْزِ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ ، وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّ الْقَتْلَ عَمْدٌ ؛ إذْ الظُّلْمُ لَا يَخْتَصُّ بِالْقَتْلِ دُونَ الظُّلْمِ ، وَكَانَ صَغِيرَةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(14/585)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ ﴾ طَلَبَ غَوْثَهُ وَنُصْرَتَهُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا

: ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ وَإِنَّمَا أَغَاثَهُ ؛ لِأَنَّ نَصْرَ الْمَظْلُومِ دَيْنٌ فِي الْمِلَلِ كُلِّهَا ، وَفَرْضٌ فِي جَمِيعِ الشَّرَائِعِ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ نَصْرُ الْمَظْلُومِ ﴾ .

وَفِيهِ أَيْضًا : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ﴾ .

فَنَصْرُهُ ظَالِمًا كَفُّهُ عَنْ الظُّلْمِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ لَمْ يَقْصِدْ قَتْلَهُ ؛ وَإِنَّمَا دَفَعَهُ فَكَانَتْ فِيهِ نَفْسُهُ ، وَذَلِكَ قَتْلُ خَطَأٍ ، وَلَكِنَّهُ فِي وَقْتٍ لَا يُؤْمَرُ فِيهِ بِقَتْلٍ وَلَا قِتَالٍ ، فَلِذَلِكَ عَدَّهُ ذَنْبًا .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلِينَ فِي بَابِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(15/585)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾

فيه تسعة أقاويل

: أحدها : أربعون سنة ، قاله الحسن .

الثاني : أربع وثلاثون سنة ، قاله سفيان .

الثالث : ثلاث وثلاثون سنة ، قاله ابن عباس .

الرابع : ثلاثون سنة ، قاله السدي .

الخامس : خمس وعشرون سنة ، قاله عكرمة .

السادس : عشرون سنة ، حكاه يحيى بن سلام .

السابع : ثماني عشرة سنة ، قاله ابن جبير .

الثامن : خمس عشرة سنة ، قاله محمد بن قيس .

التاسع : الحلم . قاله ربيعة ومالك .

والأشد جمع واختلف هل له واحد أم لا ، على قولين :

أحدهما : لا واحد له ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : له واحد وفيه وجهان :

أحدهما : شد ، قاله سيبويه .

الثاني : شدة ، قاله الكسائي .

﴿ وَاسْتَوَى ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : اعتدال القوة ، قاله ابن شجرة .

الثاني : خروج اللحية ، قاله ابن قتيبة .

الثالث : انتهى شبابه ، قاله ابن قتيبة .

الرابع : أربعون سنة ، قاله ابن عباس .

﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾ في الحكم أربعة أقاويل

: أحدها : أنه العقل ، قاله عكرمة .

الثاني : النبوة ، قاله السدي .

الثالث : القوة ، قاله مجاهد .

الرابع : الفقه ، قاله ابن اسحاق .

قوله : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ﴾ فيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها مصر ، قاله ابن شجرة .

الثاني : منف ، قاله السدي .

الثالث : عين الشمس ، قاله الضحاك .

﴿ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : نصف النهار والناس قائلون ، قاله ابن جبير .

الثاني : ما بين المغرب والعشاء ، قاله ابن عباس .

الثالث : يوم عيد لهم وهم في لهوهم ، قاله الحسن .

الرابع : لأنهم غفلوا عن ذكره لبعد عهدهم به ، حكاه ابن عيسى .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ وفيه قولان

: أحدهما : من شيعته إسرائيلي ومن عدوه قبطي ، قاله ابن عباس .

الثاني : من شيعته مسلم ومن عدوه كافر ، قاله ابن إسحاق .

(16/585)

﴿ فاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ حكى ابن سلام أن القبطي سخّر الإسرائيلي ليحمل له حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه فاستغاث بموسى . قال سعيد بن جبير : وكان خبازاً لفرعون ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ قال قتادة : بعصاه وقال مجاهد : بكفه أي دفعه ، الوكز واللكز واحد والدفع . قال رؤبة :

بعدد ذي عُدَّةٍ ووكز . . . إلا أن الوكز في الصدر واللكز في الظهر

. فعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله وانما يريد دفعه .

﴿ فَقَضَى عَلَيهِ ﴾ أي فقتله

. و ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي من إغوائه .

﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ قال الحسن : لم يكن يحل قتل الكافر يومئذٍ في تلك الحال لأنها كانت حال كف عن القتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(17/585)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾

(18/585)

و" الأشد " ، جمع شدة كنعمة وأنعم ، هذا قول سيبويه وقال غيره : " الأشد " جمع شد وقالت فرقة " الأشد " اسم مفرد وليس بجمع ، واختلف في قدر الأشد من السنين ، فقالت فرقة : بلوغ الحلم وهي نحو خمسة عشر عاماً ، وقالت فرقة : ثمانية عشر عاماً ، وقال السدي : عشرون ، وقالت فرقة : خمسة وعشرون ، وقالت فرقة : ثلاثون ، وقال مجاهد وابن عباس : ثلاثة وثلاثون ، وقالت فرقة عظيمة : ستة وثلاثون ، وقال مجاهد وقتادة " الاستواء " أربعون سنة ، وقال مكي وقيل هو ستون سنة وهذا ضعيف ، و"

الأشد " شدة البدن واستحكام أسره وقوته ، و﴿ استوى ﴾ معناه تكامل عقله وحزمه ، وذلك عند الجمهور مع الأربعين ، و" الحكم " الحكمة ، و" العلم " ، والمعرفة بشرع إبراهيم عليه السلام وهي مقدمة نبوته عليه السلام ، واختلف المتأولون في قوله تعالى ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ فقال السدي : كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون وكان يركب مراكبه حتى أنه كان يدعى موسى بن فرعون ، فقالوا فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف ثم علم موسى بركوب فرعون فركب بعده ولحق بتلك المدينة في وقت القائلة وهو حين الغفلة ، قاله ابن عبس وقال أيضاً هو ما بين العشاء والعتمة ، وقال ابن إسحاق بل ﴿ المدينة ﴾ مصر نفسها ، وكان موسى في هذا الوقت قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون فكان مختفياً بنفسه متخوفاً منهم فدخل متنكراً حذراً مغتفلاً للناس ، وقال ابن زيد : بل كان فرعون قد نابذه وأخرجه من المدينة وغاب عنها سنين فنسي أمره وجاء هو والناس على غفلة بنسيانهم لأمره وبعد عهدهم به ، وقيل كان يوم عيد ، وقوله تعالى : ﴿ يقتتلان ﴾ في موضع الحال أي مقتتلين ، و﴿ شيعته ﴾ بنو إسرائيل ، و﴿ عدوه ﴾ القبط ، وذكر الأخفش سعيد " استعانه " بالعين غير معجمة وبالنون وهي تصحيف لا قراءة ، وذكر الثعلبي أن الذي ﴿ من شيعته ﴾ هو السامري وأن الآخر

طباخ فرعون ، وقوله ﴿ هذا ﴾ ﴿ وهذا ﴾ حكاية حال قد كانت حاضرة ولذلك عبر ب ﴿ هذا ﴾ عن غائب ماض ، " والوكز " الضرب باليد مجموعاً كعقد ثلاثة وسبعين ، وقرأ ابن مسعود " فلكزه " والمعنى واحد ، إلا أن اللكز في اللحا ، والوكز على القلب ، وحكى الثعلبي أن في مصحف ابن مسعود " فنكزه " بالنون المعنى واحد ، " وقضى عليه " ، معناه قتله مجهزاً ، وكان موسى عليه السلام لم يرد قتل القبطي لكن وافقت وكزته الأجل وكان عنها موته فندم ورأى أن ذلك من نزغ الشيطان في يده ، وأن الغضب الذي اقترنت به تلك الوكزة كان من الشيطان ومن همزه ، ونص هو عليه السلام على ذلك وبهذا الوجه جعله من عمله وكان فضل قوة موسى ربما أفرط في وقت غضبه بأكثر مما يقصد .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) ﴾

ثم إن ندم موسى حمله على الخضوع لربه والاستغفار عن ذنب باء به عنده تعالى فغفر الله خطأه ذلك . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر .

قال القاضي أبو محمد : ولم يزل عليه السلام يعتمد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر حتى أنه في القيامة يقول " وقتلت نفساً لم أؤمر بقتلها " حسبما صح في حديث الشفاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ ولَمَّا بلغ أشُدَّه ﴾ قد فسرنا هذه الآية في سورة [يوسف : 22] ، وكلامُ المفسرين في لفظ الآيتين متقارب ، إلا أنهم فرّقوا بين بلوغ الأشُدِّ وبي الاستواء ؛ فأما بلوغ الأشُدِّ ، فقد سلف بيانه [الانعام : 152] .

وفي مدة الاستواء لهم قولان .

أحدهما : أنه أربعون سنة ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : ستون سنة ، ذكره ابن جرير .

قال المفسرون : مكث عند أمِّه حتى فطمته ، ثم ردَّته إليهم ، فنشأ في حِجْر فرعون وامرأته واتخذاه ولداً .

قوله تعالى : ﴿ ودخل المدينة ﴾ فيها قولان .

أحدهما : أنها مصر .

والثاني : مدينة بالقرب من مصر .

قال السدي : ركب فرعون يوماً وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى ركب في إثره

فأدركه المَقِيل في تلك المدينة .

وقال غيره : لمَّا توهَّم فرعون في موسى أنَّه عدوُّه أمر باخراجه من مدينته ، فلم يدخل إلا بعد أن كَبِر ، فدخلها يوماً ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ .

وفي ذلك الوقت أربعة أقوال .

أحدها : أنَّه كان يوم عيد لهم ، وكانوا قد اشتغلوا فيه بلهوهم ، قاله عليٌّ عليه السلام .

والثاني : أنه دخل نصف النهار ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد ابن جبير .

والثالث : بين المغرب والعشاء ، قاله وهب بن منبّه .

والرابع : أنَّهم لمَّا أخرجوه لم يدخل عليهم حتى كَبِر ، فدخل على حين غفلة عن ذِكْره ، لأنَّه قد نُسي أمرُه ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ هذا مِنْ شِيعته ﴾ أي : من أصحابه من بني إسرائيل ﴿ وهذا مِنْ عدوِّه ﴾ أي : من أعدائه من القِبط ، والعدوّ يُذْكَر للواحد وللجمع .

قال الزجاج : وإنما قيل في الغائب : "هذا" و "هذا" ، على جهة الحكاية للحضرة ؛ والمعنى : أنه إذا نظر إليهما الناظر قال : هذا مِنْ شِيعته ، وهذا مِنْ عدوِّه .

(21/585)

قال المفسرون : وإنَّ القِبطي كان قد سَخَّر الإسرائيليَّ أن يحمل حطباً إلى مطبخ فرعون ﴿ فاستغاثه ﴾ أي : فاستنصره ، ﴿ فوكزه ﴾ قال الزجاج : الوَكْز : أن يضربه بجميع كفِّه .

وقال ابن قتيبة : ﴿ فوكزه ﴾ أي : لَكَزَهُ ، يقال : وَكَزْتُه ولَكَزْتُه ولَهَزْتُه : إذا دفَعْته ، ﴿ فقضى عليه ﴾ أي : قتله ؛ وكلُّ شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه .

وللمفسرين فيما وكزه به قولان .

أحدهما : كفّه ، قاله مجاهد .

والثاني : عصاه ، قاله قتادة .

فلمَّا مات القِبطي ندم موسى لأنه لم يُرِد قتله ، و ﴿ قال هذا مِنْ عمل الشيطان ﴾ أي : هو الذي هيَّج غضبي ، حتى ضربتُ هذا ، ﴿ إنَّه عَدُوٌّ ﴾ لابن آدم ﴿ مُضِلٌّ ﴾ له ﴿ مُبِينٌ ﴾ عداوته .

ثم استغفر ف ﴿ قال ربِّ إنِّي ظَلَمْتُ نفسي ﴾ أي : بقتل هذا ، ولا ينبغي لنبيّ أن يقتُل حتى يُؤْمَر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(22/585)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾

قد مضى الكلام في الأشد في "الأنعام" .

وقول ربيعة ومالك أنه الحُلُم أولى ما قيل فيه ؛ لقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ﴾ [النساء : 6] فإن ذلك أوّل الأشد ، وأقصاه أربع وثلاثون سنة ؛ وهو قول سفيان الثوري .

و ﴿ اسْتَوَى ﴾ قال ابن عباس : بلغ أربعين سنة .

والحكم : الحكمة قبل النبوّة .

وقيل : الفقه في الدين .

وقد مضى بيانها في "البقرة" وغيرها .

والعلم الفهم في قول السدي .

وقيل : النبوّة .

وقال مجاهد : الفقه .

محمد ابن إسحاق : أي العلم بما في دينه ودين آبائه ؛ وكان له تسعة من بني إسرائيل يسمعون منه ، ويقتدون به ، ويجتمعون إليه ، وكان هذا قبل النبّوة .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ أي كما جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله ، وألقت ولدها في البحر ، وصدّقت بوعد الله ؛ فرددنا ولدها إليها بالتحف والطرف وهي آمنة ،

ثم وهبنا له العقل والحكمة والنبوّة ؛ وكذلك نجزي كل محسن .

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾

قيل : لما عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحق في دينه ، عاب ما عليه قوم فرعون ؛ وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم ، فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفاً مستخفياً .

وقال السدي : كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلق بفرعون ، وكان يركب مراكبه ، حتى كان يدعى موسى ابن فرعون ؛ فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف قال مقاتل على رأس فرسخين من مصر ثم علم موسى بركوب فرعون ، فركب بعده ولحق بتلك القرية في وقت القائلة ، وهو وقت الغفلة ؛ قاله ابن عباس .

وقال أيضاً : هو بين العشاء والعَتَمة .

(23/585)

وقال ابن إسحاق : بل المدينة مصر نفسها ، وكان موسى في هذا الوقت قد أظهر خلاف فرعون ، وعاب عليهم عبادة فرعون والأصنام ، فدخل مدينة فرعون يوماً على حين غفلة من أهلها .

قال سعيد بن جبير وقتادة : وقت الظهيرة والناس نيام .

وقال ابن زيد : كان فرعون قد نابذ موسى وأخرجه من المدينة ، وغاب عنها سنين ، وجاء والناس على غفلة بنسيانهم لأمره ، وبُعْد عهدهم به ، وكان ذلك يوم عيد .

وقال الضحاك : طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها ، فدخلها حين علم ذلك منهم ، فكان منه من قتل الرجل من قبل أن يؤمر بقتله ، فاستغفر ربه فغفر له .

ويقال في الكلام : دخلت المدينة حين غفل أهلها ، ولا يقال : على حين غفل أهلها ؛ فدخلت ﴿ على ﴾ في هذه الآية لأن الغفلة هي المقصودة ؛ فصار هذا كما تقول : جئت على غفلة ، وإن شئت قلت : جئت على حين غفلة ، وكذا الآية .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ والمعنى ؛ إذا نظر إليهما الناظر قال هذا من شيعته ؛ أي من بني إسرائيل ﴿ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي من قوم فرعون .

﴿ فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي طلب نصره وغوثه ، وكذا قال في الآية بعدها : ﴿ فَإِذَا الذي استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أي يستغيث به على قبطيّ آخر .

وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم ، وفرض في جميع الشرائع .

قال قتادة : أراد القبطيّ أن يُسخِّر الإسرائيلي ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فاستغاث بموسى .

قال سعيد بن جبير : وكان خبازاً لفرعون .

﴿ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ قال قتادة : بعصاه .

وقال مجاهد : بكفه ؛ أي دفعه .

والوكز واللَّكْز واللَّهْز واللَّهْد بمعنى واحد ، وهو الضرب بجُمْع الكفّ مجموعاً كعقد ثلاثة وسبعين .

وقرأ ابن مسعود : ﴿ فَلَكَزَهُ ﴾ .

وقيل : اللّكْز في اللحى والوكز على القلب .

وحكى الثعلبي أن في مصحف عبد الله بن مسعود "فَنَكَزَهُ" بالنون والمعنى واحد .

(24/585)

وقال الجوهري عن أبي عبيدة : اللكز الضرب بالجُمْع على الصدر .

وقال أبو زيد : في جميع الجسد ، واللهز : الضرب بجُمْع اليد في الصدر مثل اللّكْز ؛ عن أبي عبيدة أيضاً .

وقال أبو زيد : هو بالجُمْع في اللَّهازِم والرقبة ؛ والرجل مِلْهَز بكسر الميم .

وقال الأصمعي : نَكَزه ؛ أي ضربه ودفعه .

الكسائي : نَهزَه مثل نَكَزه ووكَزَه ، أي ضربه ودفعه .

ولَهَده لَهْداً أي دفعه لذلّه فهو ملهود ؛ وكذلك لَهَّده ؛ قال طَرَفة يذمّ رجلاً :

بطيء عن الدّاعي سريع إلى الخنا . . .

ذُلول بأَجماعِ الرجالِ مُلَهَّدِ

أي مُدفَّع وإنما شدّد للكثرة .

وقالت عائشة رضي الله عنها : فلهَدَني تعني النبي صلى الله عليه وسلم لَهْدة أوجعني ؛

خرجه مسلم .

ففعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه ، وهو

معنى : ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ .

وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه قضيت عليه .

قال :

قَدْ عَضَّهُ فَقَضَى عليه الأَشْجعُ . . .

﴿ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ أي من إغوائه .

قال الحسن : لم يكن يحلّ قتل الكافر يومئذٍ في تلك الحال ؛ لأنها كانت حال كفّ عن القتال .

﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ خبر بعد خبر .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لي فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ندم موسى عليه السلام على ذلك

الوكز الذي كان فيه ذهاب النفس ، فحمله ندمه على الخضوع لربه والاستغفار من ذنبه .

قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ؛ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه ، مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى أنه في القيامة يقول : إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها . وإنما عدده على نفسه ذنباً .

وقال : ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر ، وأيضاً فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم .

قال النقاش : لم يقتله عن عمد مريداً للقتل ، وإنما وكزه وكزة يريد بها دفع ظلمه .

(25/585)

قال وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوّة .

وقال كعب : كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ، وكان قتله مع ذلك خطأ ؛ فإن الوكزة واللكزة في الغالب لا تقتل .

وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق ! ما أسألكم عن الصغيرة ، وأركبكم للكبيرة ! سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الفتنة تجيء من ها هنا وأومأ بيده نحو المشرق من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذي قتل مِن آل فرعون خطأ

فقال الله عز وجل : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ [طه : 40] " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(26/585)

وقال أبو حيان :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾

﴿ المدينة ﴾ ، قال ابن عباس : هي منف .

ركب فرعون يوماً وسار إليها ، فعلم موسى عليه السلام بركوبه ، فلحق بتلك المدينة في وقت القائلة ، وعنه بين العشاء والعتمة .

وقال ابن إسحاق : المدينة مصر بنفسها ، وكان موسى قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فاختفى وخاف ، فدخلها متنكراً حذراً متغفلاً للناس .

وقال ابن زيد : كان فرعون قد أخرجه من المدينة ، فغاب عنها سنين ، فنُسي ، فجاء والناس في غفلة بنسيانهم له وبعد عهدهم به .

وقيل : كان يوم عيد ، وهم مشغولون بلهوهم .

وقيل : خرج من قصر فرعون ودخل مصر .

وقيل : المدينة عين شمس .

وقيل : قرية على فرسخين من مصر يقال لها حايين .

وقيل : الإسكندرية .

وقرأ أبو طالب القارىء : ﴿ على حين ﴾ ، بنصب نون حين ، ووجهه أنه أجرى المصدر مجرى الفعل ، كأنه قال : على حين غفل أهلها ، فبناه كما بناه حين أضيف إلى الجملة المصدرة بفعل ماض ، كقوله :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . .

وهذا توجيه شذوذ .

وقرأ نعيم بن ميسرة : يقتلان .

بإدغام التاء في التاء ونقل فتحتها إلى القاف .

قيل : كانا يقتتلان في الدين ، إذ أحدهما إسرائيلي مؤمن والآخر قبطي .

وقيل : يقتتلان ، في أن كلف القبطي حمل الحطب إلى مطبخ فرعون على ظهر الإسرائيلي ، ويقتتلان صفة لرجلين .

وقال ابن عطية : يقتتلان في موضع الحال . انتهى .

والحال من النكرة أجازه سيبويه من غير شرط .

﴿ هذا من شيعته ﴾ : أي ممن شايعه على دينه ، وهو الإسرائيلي .

قيل : وهو السامري ، وهذا من عدوه ، أي من القبط .

وقيل : اسمه فاتون ، وهذا حكاية حال ، وقد كانا حاضرين حالة وجد أن موسى لهما ، أو لحكاية الحال ، عبر عن غائب ماض باسم الإشارة الذي هو موضوع للحاضر .

وقال المبرد : العرب تشير بهذا إلى الغائب .

قال جرير :

(27/585)

هذا ابن عمي في دمشق خليفة . . .

لو شئت ساقكم إليّ قطينا

وقرأ الجمهور : ﴿ فاستغاثة ﴾ ، أي طلب غوثه ونصره على القبطي .

وقرأ سيبويه ، وابن مقسم ، والزعفراني : بالعين المهملة والنون بدل الثاء ، أي طلب منه الإعانة على القبطي .

قال أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة : والاختيار قراءة ابن مقسم ، لأن الإعانة أولى في هذا الباب .

وقال ابن عطية : ذكرها الأخفش ، وهي تصحيف لا قراءة . انتهى .

وليست تصحيفاً ، فقد نقلها ابن خالويه عن سيبويه ، وابن جبارة عن ابن مقسم والزعفراني .

وروي أنه لما اشتد التناكر بينهما قال القبطي لموسى : لقد هممت أن أحمله عليك ، يعني الحطب ، فاشتد غضب موسى ، وكان قد أوتي قوة ، ﴿ فوكزه ﴾ ، فمات .

وقرأ عبد الله فلكزه ، باللام ، وعنه : فنكزه ، بالنون .

قال قتادة : وكزه بعصاه ؛ وغيره قال : بجمع كفه ، والظاهر أن فاعل ﴿ فقضى ﴾ ضمير عائد على موسى .

وقيل : يعود على الله ، أي فقضى الله عليه بالموت .

ويحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من وكزه ، أي فقضى الوكز عليه ، وكان موسى لم يتعمد قتله ، ولكن وافقت وكزته الأجل ، فندم موسى .

وروي أنه دفنه في الرمل وقال : ﴿ هذا من عمل الشطان ﴾ ، وهو ما لحقه من الغضب حتى أدى إلى الوكزة التي قضت على القبطي ، وجعله من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه ، لأنه أدى إلى قتل من لم يؤذن له في قتله .

وعن ابن جريج : ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر .

وقال كعب : كان موسى إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ، وكان قتله خطأ ، فإن الوكزة في الغالب لا تقتل .

وقال النقاش : كان هذا قبل النبوة ، وقد انتهج موسى عليه السلام نهج آدم عليه السلام إذ قال : ﴿ ظلمنا أنفسنا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(28/585)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾

أي المبلغَ الذي لا يزيدُ عليه نشؤُه وذلك من ثلاثينَ إلى أربعينَ سنة فإنَّ العقلَ يكملُ حينئذٍ . ورُوي أنَّه لم يُبعثْ نبيٌّ إلا على رأسِ الأربعينَ ﴿ واستوى ﴾ أي اعتدلَ قدُّه أو عقلُه ﴿ اتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ أي نبوَّةً ﴿ وَعِلْماً ﴾ بالدِّينِ أو علمَ الحُكماءِ والعُلماءِ وسمَّاهم قبل استنبائِه فلا يقولُ ولا يفعلُ ما يُستجهلُ فيهِ وهو أوفقُ لنظْمِ القصَّةِ لأنَّه تعالى استنبأهُ بعد الهجرةِ في المُراجعةِ ﴿ وكذلك ﴾ ومثلَ ذلكَ الذي فعلنَا بمُوسى وأمِّه ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ على إحسانِهم . ﴿ وَدَخَلَ المدينة ﴾ أي مصرَ من قصرِ فرعونَ وقيل : منفُ أو حايينُ أو عينُ شمسٍ من نواحِيها ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ في وقتٍ لا يُعتادُ دخولُها أو لا يتوقعونَه فيه قيل : كان وقتَ القيلولةِ وقيل : بينَ العشاءينِ ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي ممَّن شايعُه على دينِه وهم بنو إسرائيلَ ﴿ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ

﴿ أي من مخالفيهِ ديناً وهم القِبطُ . والإشارةُ على الحكايةِ ﴿ فاستغاثه الذى مِن شِيعَتِهِ ﴿ أي سأَله أنْ يغيثَه بالإعانة كما ينبىءُ عنه تعديتُه بعَلَى . وقُرِىء استعانَه ﴿ عَلَى الذى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ أي ضرب القبطيَّ بجُمعِ كفِّه . وقُرِىء فلكزَه أي فضربَ به صدرَهُ ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ فقتلَه وأصلُه أنهى حياتَه من قولِه تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ ﴿ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ لأنَّه لم يكُن مأموراً بقتلِ الكفَّار أو لأنَّه كان مأموناً فيما بينهم فلم يكُن له اغتيالُهم . ولا يقدحُ ذلك في عصمتِه لكونِه خطأً وإنما عدَّه من عملِ الشَّيطانِ وسمَّاه ظُلماً واستغفرَ منه جرياً على سُنَنِ المقرَّبينَ في استعظامِ ما فرطَ منهم ولو كانَ من مُحقَّراتِ الصَّغائرِ ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرُ العداوةِ والإضلالِ .

(29/585)

﴿ قَالَ ﴾ توسيطُه بين كلاميهِ عليه الصَّلاة والسَّلام لإبانةِ ما بينهما من المخالفةِ من حيثُ إنَّه مناجاةٌ ودعاءٌ بخلافِ الأولِ ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ أي بقتلِه ﴿ فاغفر لى ﴾ ذَنبي ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ ذلك ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ أي المبالغُ في مغفرةِ ذنوبِ عبادِه ورحمتِهم انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(30/585)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾

أي المبلغ الذي لا يزيد عليه نشؤه ، وقوله تعالى : ﴿ واستوى ﴾ أي كمل وتم تأكيد وتفسير لما قبله كذا قيل : واختلف في زمان بلوغ الأشد والاستواء فأخرج ابن أبي الدنيا من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال الأشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين والاستواء ما بين الثلاثين إلى الأربعين فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان ، وأخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال الأشد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة وهي رواية عن ابن عباس أيضاً وروي نحوه عن قتادة وقال الزجاج مرة بلوغ الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلى الأربعين وأخرى هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين واختاره بعضهم هنا وعلل بأن ذلك لموافقته لقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : 15] لأنه يشعر بأنه منته إلى الأربعين وهي سن الوقوف فينبغي أن يكون مبدؤه مبدأه ولا يخلو عن شيء والحق أن بلوغ الأشد في الأصل هو الانتهاء إلى حد القوة وذلك وقت انتهاء النمو وغايته وهذا مما يختلف باختلاف الأقاليم والأعصار والأحوال ولذا وقع له تفاسير في

كتب اللغة والتفسير ، ولعل الأولى على ما قيل : أن يقال إن بلوغ الأشد عبارة عن بلوغ القدر الذي يتقوى فيه بدنه وقواه الجسمانية وينتهي فيه نموه المعتد به والاستواء اعتدال عقله وكماله ولا ينبغي تعيين وقت لذلك في حق موسى عليه السلام إلا بخبر يعول عليه لما سمعت من أن ذاك مما يختلف باختلاف الأقاليم والأعصار والأحوال نعم اشتهر أن ذلك في الأغلب يكون في سن أربعين وعليه قول الشاعر :

إذا المرأ وافى الأربعين ولم يكن . . .

له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي مضى . . .

وإن جر أسباب الحياة له العمر

(31/585)

وفي قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [الأحقاف : 15] ما يستأنس به لذلك .

وقد مر طرف من الكلام في الأشد في سورة يوسف فتذكر ولا تغفل .

ثم إن حاصل المعنى على ما قيل أخيراً : ولما قوي جسمه ، واعتدل عقله ﴿ اتَيْنَاهُ حُكْمًا

﴿ أي نبوة على ما روي عن السدي أو علماً هو من خواص النبوة على ما تأول به بعضهم كلامه ﴿ وَعِلْماً ﴾ بالدين والشريعة .

وفي "الكشاف" العلم التوراة والحكم السنة وحكمة الأنبياء عليهم السلام سنتهم .

قال الله تعالى : ﴿ واذكرن مَا يتلى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءايات الله والحكمة ﴾ [الأحزاب : 34] وقيل آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث ، فكاه عليه السلام لا يفعل فعلاً يستجهل فيه اه ، ورجح ما قيل بأنه أوفق لنظم القصة مما تقدم ، لأن استنباءه عليه السلام بعد وكز القبطي ، والهجرة إلى مدين ، ورجوعه منها ، وإيتاؤه التوراة كان بعد إغراق فرعون ، فهو بعد الوكز بكثير وبأن قوله تعالى : ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الذي فعلناه بموسى وأمه عليهما السلام ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ على إحسانهم يأبى حمل ما تقدم على النبوة لأنها لا تكون جزاء على العمل ، ومن ذهب إلى الأول جعل هذا بياناً إجمالياً لإنجاز الوعد بجعله من المرسلين بعد رده لأمه ، وما بعد تفصيل له ، والعطف بالواو لا يقتضي الترتيب ، وكون ما فعل بموسى وأمه عليهما السلام جزاء على العمل باعتبار التغليب .

(32/585)

وقد يقال : إن أصل النبوة وإن لم تكن جزاء على العمل إلا أن بعض مراتبها ، وهو ما فيه مزيد قرب من الله تعالى يكون باعتبار مزيد القرب جزاءً عليه ويرجع ذلك إلى أن مزيد القرب هو الجزاء وتفاوت الأنبياء عليهم السلام في القرب منه تعالى مما لا ينبغي أن يشك فيه ، ورجح ما تقدم بكونه أوفق بقوله تعالى : ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ [القصص : 13] واستلزامه حصول النبوة لكل محسن ليس بشيء أصلاً ، ومن ذهب إلى أن هذا الإيتاء كان قبل الهجرة قال : يجوز أن يكون المعنى آتيناه رياسة بين قومه بني إسرائيل بأن جعلناه ممتازاً فيما بينهم ، يرجعون إليه في مهامهم ، ويمتثلونه إذا أمرهم بشيء أو نهاهم عنه ، وعلماً ينتفع به وينفع به غيره ، وذلك إما بمحض الإلهام ، أو بتوفيقه لاستنباط دقائق وأسرار مما نقل إليه من كلمات آبائه الأنبياء عليهم السلام من بني إسرائيل ولا بدع في أن يكون عليه السلام عالماً بما كان عليه آباؤه الأنبياء منهم وبما كانوا يتدينون به من الشرائع بواسطة الإلهام أو بسماع ما يفيده العلم من الأخبار ، ولعل هذا أولى مما نقله في "الكشاف" .

وفي الكلام على أواخر سورة البقرة ما تنفعك مراجعته فيراجع .

﴿ وَدَخَلَ المدينة ﴾ قال ابن عباس على ما في "البحر" : هي منف ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أي في وقت لا يعتاد دخولها ، أو لا يتوقعونه فيه ، وكان على ما روي عن الحبر وقت القائلة .

وفي رواية أخرى عنه بين العشاء والعتمة .

وذلك أن فرعون ركب يوماً وسار إلى تلك المدينة فعلم موسى عليه السلام بركوبه فلحق ودخل المدينة في ذلك الوقت .

وقال ابن إسحاق : هي مصر ، كان موسى عليه السلام قد بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فاختفى وغاب ، فدخلها متنكراً .

وقال ابن زيد : كان فرعون قد أخرجه منها فغاب سنين فنسي فجاء ودخلها وأهلها في غفلة بنسيانهم له ، وبعد عهدهم به .

(33/585)

وقيل : دخل في يوم عيد وهم مشغولون بلهوهم .

وقيل : خرج من قصر فرعون ودخل مصر وقت القيلولة أو بين العشاءين .

وقيل : المدينة عين شمس .

وقيل : قرية على فرسخين من مصر يقال لها : حايين .

وقيل : هي الإسكندرية ، والأشهر أنها مصر ، ولعله هو الأظهر والمتبادر أن على حين متعلق بدخل ، وعليه فالظاهر أن على بمعنى في مثلها في قوله تعالى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ

الشياطين على مُلْكِ سليمان ﴾ [البقرة : 102] على قول .

وقال أبو البقاء : هو في موضع الحال من المدينة ، ويجوز أن يكون في موضع الحال من الفاعل أي مختلساً اه ولعل الذي دعاه إلى العدول عن المتبادر احتياجه إلى جعل على بمعنى في وخفاء نكتة التعبير بها دونها أو الاكتفاء بالظرف وحده عليه والأمر ظاهر لمن له أدنى تأمل ، وقيل : إن الداعي إلى ذلك أن دخول المدينة في حين غفلة من أهلها ليس نصاً في دخولها غافلاً أهلها كما في وجه الحالية من المدينة ولا في دخولها مختلساً كما في وجه الحالية من الضمير فإن وقت الغفلة كوقت القائلة وما بين العشاءين قد لا يغفل فيه وفيه بحث .

و﴿ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ في موضع الصفة لغفلة وما في "النظم الكريم" أبلغ من غفلة أهلها بالإضافة لما في التنوين من إفادة التفخيم ، ولعله عدل عن ذلك إلى ما ذكر لهذا فتدبر ، وقرأ أبو طالب القارىء على حين بفتح النون ووجه بأنه فتح لمجاورة الغين كما كسر في بعض القراآت الدال في ﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة : 2] مجاورة اللام أو بأنه أجرى المصدر مجرى الفعل كأنه قيل : على حين غفل أهلها فنبي حين كما يبنى إذا أضيف إلى الجملة المصدرة بفعل ماض نحو قوله :

على حين عاتبت المشيب على الصبا . . .

وهو كما ترى : ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ ﴾ أي يتحاربان والجملة صفة لرجلين .

وقال ابن عطية : في موضع الحال وهو مبني على مذهب سيبويه من جواز مجيء الحال من النكرة من غير شرط ، وقرأ نعيم بن ميسرة يقتلان بإدغام التاء في التاء ونقل فتحتها إلى القاف ، وقوله تعالى : ﴿ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي ممن شايعه وتابعه في أمره ونهيه أو في الدين على ما قاله جماعة وهم بنو إسرائيل قال في الإتقان : هو السامري ﴿ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ من مخالفيه فيما يريد أو في الدين على ما قاله الجماعة وهم القبط واسمه كما في "الإتقان" أيضاً قانون صفة بعد صفة لرجلين والإشارة بهذا واقعة على طريق الحكاية لما وقع وقت الوجدان كأن الرائي لهما يقوله لا في المحكي لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال المبرد : العرب تشير بهذا إلى الغائب قال جرير :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة . . .

لو شئت ساقكم إليّ قطينا

وهذه الإشارة قائمة مقام الضمير في الربط والعطف سابق على الوصفية ، واختلف في سبب تقاتل هذين الرجلين ، فقيل : كان أمراً دينياً ، وقيل : كان أمراً دنيوياً ، روي أن القبطي كلف الإسرائيلي حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى فاقتتلا لذلك ، وكان القبطي

على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير خبازاً لفرعون .

﴿ فاستغاثه الذى مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي فطلب غوثه ونصره إياه ﴿ عَلَى الذى مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ ولتضمين الفعل معنى النصر عدى بعلى ويؤيده قوله تعالى بعد : ﴿ استنصره بالامس ﴾ [القصص : 18] ، ويجوز أن يكون تعديته بعلى لتضمينه معنى الإعانة ويؤيده أنه قرىء فاستعانه بالعين المهملة والنون بدل الثاء ، وقد نقل هذه القراءة ابن خالويه ، عن سيبويه .

وأبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة عن ابن مقسم .

(35/585)

والزعفراني ، وقول ابن عطية أنه ذكرها الأخفش وهو تصحيف لا قراءة مما لا ثبت له فيه ، وقد حذف من جملة الصلة صدرها أي الذي هو من شيعته والذي هو من عدوه ولو لم يعتبر حذف ذلك صح ﴿ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ أي ضرب القبطي بجمع كفه أي بكفه المضمومة أصابعها على ما أخرجه غير واحد عن مجاهد .

وقال أبو حيان : الوكز الضرب باليد مجموعة أصابعها كعقد ثلاثة وسبعين وعلى القولين يكون عليه السلام قد ضربه باليد ؛ وأخرج ابن المنذر .

وجماعة عن قتادة أنه عليه السلام ضربه بعصاه فكأنه يفسر الوكز بالدفع أو الطعن وذلك

من جملة معانيه كما في "القاموس" ولعله أراد بعصاه عصا كانت له فإن عصاه المشهورة أعطاه إياها شعيب عليه السلام بعد هذه الحادثة كما هو مشهور ، وفي كتب التفاسير مسطور .

وقرأ عبد الله فلكزه باللام وعنده فنكزه بالنون واللكز على ما في "القاموس" الوكز والوجء في الصدر والحنك والنكز على ما فيه أيضاً الضرب والدفع ، وقيل : الوكز والنكز واللكز الدفع بأطراف الأصابع ، وقيل : ا لوكز على القلب واللكز على اللحى .

روي أنه لما اشتد التناكر قال القبطي لموسى عليه السلام : لقد هممت أن أحمله يعني الحطب عليك فاشتد غضب موسى عليه السلام ، وكان قد أوتي قوة فوكزه ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ أي فقتله موسى وأصله أنهى حياته أي جعلها منتهية متقضية وهو بهذا المعنى يتعدى بعلى كما في الأساس فلا حاجة إلى تأويله بأوقع القضاء عليه ، وقد يتعدى الفعل بإلى لتضمينه معنى الإيحاء كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ [الحجر : 66] وعود ضمير الفاعل في قضى على موسى هو الظاهر ، وقيل : هو عائد على الله تعالى أي فقضى الله سبحانه عليه بالموت فقضى بمعنى حكم ، وقيل : يحتمل أن يعود على المصدر المفهوم من وكزه أي فقضى الوكز عليه أي أنهى حياته ﴿ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ أي من تزيينه .

وقيل : من جنس عمله والأول أوفق بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر العداوة على أن مبين صفة ثانية لعدو ، وقيل : ظاهر العداوة والإضلال ، ووجه بأنه صفة لعدو الملاحظ معه وصف الإضلال أو بأنه متنازع فيه لعدو ومضل كل يطلبه صفة له وأياً ما كان فمبين من أبان اللازم .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾

(37/585)

بوكز ترتب عليه القتل ﴿ فاغفر لي ﴾ ذنبي وإنما قال عليه السلام ما قال لأنه فعل ما لم يؤذن له به وليس من سنن آبائه الأنبياء عليهم السلام في مثل هذه الحادثة التي شاهدها وقد أفضى إلى قتل نفس لم يشرع في شريعة من الشرائع قتلها ، ولا يشكل ذلك على القول بأن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الكبائر بعد النبوة وقبلها لأن أصل الوكز من الصغائر ، وما وقع من القتل كان خطأ كما قاله كعب وغيره ، والخطأ وإن كان لا يخلو عن الإثم ، ولذا شرعت فيه الكفارة إلا أنه صغيرة أيضاً بل قيل : لا يشكل أيضاً على القول بعصمتهم عن الكبائر والصغائر مطلقاً لجواز أن يكون عليه السلام قد رأى أن في الوكز دفع ظالم عن مظلوم

ففعله غير قاصد به القتل ، وإنما وقع مترتباً عليه لا عن قصد وكون الخطأ لا يخلو عن إثم في شرائع الأنبياء المتقدمين عليهم السلام كما في شريعة نبينا صلى الله عليه وسلم غير معلوم وكذا مشروعية الكفارة فيه وكأنه عليه السلام بعد أن وقع منه ما وقع تأمل فظهر له إمكان الدفع بغير الوكز وأنه لم يتثبت في رأيه لما اعتراه من الغضب فعلم أنه فعل خلاف الأولى بالنسبة إلى أمثاله فقال ما قال على عادة المقربين في استعظامهم خلاف الأولى ، ثم إن هذا الفعل وقع منه عليه السلام قبل النبوة كما هو ظاهر قوله تعالى حكاية عنه في سورة الشعراء : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ المرسلين ﴾ [الشعراء : 21] وبذلك قال النقاش وغيره وروي عن كعب أنه عليه السلام كان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة ومن فسر الاستواء ببلوغ أربعين سنة وجعل ما ذكر بعد بلوغ الأشد والاستواء وإيتاء الحكم والعلم بالمعنى الذي لا يقتضي النبوة يلزمه أن يقول كان عليه السلام إذ ذاك ابن أربعين سنة أو ما فوقها بقليل .

(38/585)

وزعم بعضهم أنه عليه السلام أراد بقوله : ﴿ ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ إني عرضتها للتلف بقتل هذا الكافر إذ لو عرف فرعون ذلك لقتلني به وأراد بقوله : ﴿ فاغفر لى ﴾ فاستر على

ذلك ، وجعله من عمل الشيطان لما فيه من الوقوع في الوسوسة وترقب المحذور ، ولا يخفى ما فيه ، ويأبى عنه قوله تعالى :

﴿ فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ وترتيب غفر على ما قبله بالفاء يشعر بأن المراد غفر له لاستغفاره وجملة ﴿ أَنَّهُ ﴾ الخ كالتعليل للعلية أي إنه تعالى هو المبالغ في مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم ، ولذا كان استغفاره سبباً للمغفرة له وتوسيط قال بين كلاميه عليه السلام لما بينهما من المخالفة من حيث إن الثاني مناجاة ودعاء بخلاف الأول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(39/585)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

هذا اعتراض بين أجزاء القصة المرتبة على حسب ظهورها في الخارج.

وهذا الاعتراض نشأ عن جملة ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ [القصص : 13] فإن وعد الله لها قد حكي في قوله تعالى ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ [القصص : 7] .

فلما انتهى إلى حكاية رده إلى أمه بقوله ﴿ فرددناه إلى أمه كي تقرَّ عينُها ﴾ [القصص : 13] إلى آخره كمّل ما فيه وفاء وعد الله إياها بهذا الاستطراد في قوله ﴿ ولما بلغ أشدّه واستوى ءاتيناه حكماً وعلماً ﴾ وإنما أوتي الحكم أعني النبوءة بعد خروجه من أرض مدين كما سيجيء في قوله تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله ﴾ [القصص : 29] .

وتقدم نظير هذه الآية في سورة يوسف ، إلا قوله ﴿ واستوى ﴾ فقيل : إن ﴿ استوى ﴾ بمعنى بلغ أشده ، فيكون تأكيداً ، والحق أن الأشد كمال القوة لأن أصله جمع شدة بكسر الشين بوزن نعمة وأنعم وهي اسم هيئة بمعنى القوة ثم عومل معاملة المفرد .

وأن الاستواء : كمال البنية كقوله تعالى في وصف الزرع ﴿ فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ [الفتح : 29] ، ولهذا أريد لموسى الوصف بالاستواء ولم يوصف يوسف إلا ببلوغ الأشد خاصة لأن موسى كان رجلاً طوالاً كما في الحديث "كأنه من رجال شنُؤة" فكان كامل الأعضاء ولذلك كان وكزه القبطي قاضياً على الموكوز .

والحكم : الحكمة ، والعلم : المعرفة بالله .

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا

طويت أخبار كثيرة تنبىء عنها القصة وذلك أن موسى يفع وشب في قصر فرعون فكان معدوداً من أهل بيت فرعون ، وقيل : كان يدعى موسى ابن فرعون .

وجملة ﴿ ودخل المدينة ﴾ عطف على جملة ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضيعه ﴾ [القصص : 7] عطف جزء القصة على جزء آخر منها ، وقد علم موسى أنه من بني إسرائيل ، لعله بأن أمه كانت تتصل به في قصر فرعون وكانت تقص عليه نبأه كله .

(40/585)

والمدينة هي (منفيس) قاعدة مصر الشمالية .

ويتعلق ﴿ على حين غفلة ﴾ بـ ﴿ دخل ﴾ .

و ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي كما في قوله تعالى ﴿ على هدى من ربهم ﴾ [البقرة : 5] ، أي متمكناً من حين غفلة .

وحين الغفلة : هو الوقت الذي يغفل فيه أهل المدينة عما يجري فيها وهو وقت استراحة الناس وتفرقهم وخُلوّ الطريق منهم .

قيل : كان ذلك في وقت القيلولة وكان موسى مجتازاً بالمدينة وحده ، قيل ليلحق بفرعون إذ كان فرعون قد مر بتلك المدينة .

والمقصود من ذكر هذا الوقت الإشارة إلى أن قتله القبطي لم يشعر به أحد تمهيداً لقوله بعد ﴿ قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ [القصص : 19] الآيات

ومقدمة لذكر خروجه من أرض مصر .

والإشارتان في قوله ﴿ هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ تفصيل لما أجمل في قوله ﴿ رجلين يقتتلان ﴾ .

واسم الإشارة في مثل هذا لا يراعى فيه بُعدٌ ولا قُرب ، فلذلك قد تكون الإشارتان متماثلتين كما هنا وكما في قوله تعالى ﴿ لا إلى هؤلاء ﴾ [النساء : 143] .

ويجوز اختلافهما كقول المتلمس:

ولا يقيم على ضيم يراد به . . .

إلا الأذلان غير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته . . .

وذا يشج فلا يرثي له أحد

والشيعة : الجماعة المنتمية إلى أحد ، وتقدم آنفاً في قوله ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ [القصص : 4] .

والعدو : الجماعة التي يعاديها موسى ، أي يُبغضها .

فالمراد بالذي من شيعته أنه رجل من بني إسرائيل ، وبالذي من عدوه رجل من القبط قوم فرعون .

والعدو وصف يستوي فيه الواحد والجمع كما تقدم عند قوله تعالى ﴿ فإنهم عدو لي ﴾

في سورة [الشعراء : 77] .

ومعنى كون ﴿ هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴾ يجوز أن يكون المراد بهذين الوصفين أن موسى كان يعلم أنه من بني إسرائيل بإخبار قصة التقاطه من اليمّ وأن تكون أمه قد أفضت إليه بخبرها وخبره كما تقدم ، فنشأ موسى على عداوة القبط وعلى إضمار المحبة لبني إسرائيل .

(41/585)

وأما وكزه القبطي فلم يكن إلا انتصاراً للحق على جميع التقادير ، ولذلك لما تكررت الخصومة بين ذلك الإسرائيلي وبين قبطي آخر وأراد موسى أن يبطش بالقبطي لم يقل له القبطي : إن تريد إلا أن تنصر قومك وإنما قال ﴿ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾ [القصص : 19] .

قيل : كان القبطي من عملة مخبز فرعون فأراد أن يحمل حطباً إلى الفرن فدعا إسرائيلياً ليحمله فأبى فأراد أن يجبره على حمله وأن يضعه على ظهره فاختصما وتضاربا ضرباً شديداً وهو المعبر عنه بالتقاتل على طريق الاستعارة .

والاستغاثة : طلب الغوث وهو التخليص من شدة أو العون على دفع مشقة .

وإنما يكون هذا الطلب بالنداء فذكر الاستغاثة يؤذن بأن الإسرائيلي كان مغلوباً وأن القبطي اشتد عليه وكان ظالماً إذ لا يجبر أحد على عمل يعمله .

والوكز : الضرب باليد بجمع أصابعها كصورة عقد ثلاثة وسبعين ، ويسمى الجمع بضم الجيم وسكون الميم .

و﴿ فقضى عليه ﴾ جملة تقال بمعنى مات لا تغيّر .

ففاعل (قضى) محذوف أبداً على معنى قضى عليه قاض وهو الموت .

ويجوز أن يكون عائداً إلى الله تعالى المفهوم من المقام إذ لا يقضي بالموت غيره كقوله ﴿ فلما قضينا عليه الموت ﴾ [سبأ : 14] .

وقيل ضمير ﴿ فقضى ﴾ عائد إلى موسى وليس هذا بالبيّن .

فالمعنى : فوكزه موسى فمات القبطي .

وكان هذا قتل خطأ صادف الوكز مقاتل القبطي ولم يرد موسى قتله .

ووقع في سفر الخروج من التوراة في الإصحاح الثاني أن موسى لما رأى المصري يضرب العبراني التفت هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل .

وجملة ﴿ قال هذا من عمل الشيطان ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً كأن سائلاً سأل : ماذا كان من أمر موسى حين فوجىء بموت القبطي .

وحكاية ذلك للتنبيه على أن موسى لم يخطر بباله حينئذ إلا النظر في العاقبة الدينية .

وقوله هو كلامه في نفسه .

(42/585)

والإشارة بهذا إلى الضربة الشديدة التي تسبب عليها الموت أو إلى الموت المشاهد من ضربته ، أو إلى الغضب الذي تسبب عليه موت القبطي .

والمعنى : أن الشيطان أوقد غضبه حتى بالغ في شدة الوكز .

وإنما قال موسى ذلك لأن قتل النفس مستقبح في الشرائع البشرية فإن حفظ النفس المعصومة من أصول الأديان كلها .

وكان موسى يعلم دين آبائه لعله بما تلقّاه من أمه المرأة الصالحة في مدة رضاعه وفي مدة زيارته إياها .

وجملة ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾ تعليل لكون شدة غضبه من عمل الشيطان إذ لولا الخاطر الشيطاني لاقتصر على زجر القبطي أو كفه عن الذي من شيعته ، فلما كان الشيطان عدواً للإنسان وكانت له مسالك إلى النفوس استدل موسى بفعله المؤدي إلى قتل نفس أنه فعل ناشىء عن وسوسة الشيطان ولولاها لكان عمله جارياً على الأحوال

المأذونة .

وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير وأنه الفطرة وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري وهو تخلل نزغ الشيطان في النفس .

ومتعلق ﴿ عدو ﴾ محذوف لدلالة المقام أي عدو لآدم وذرية آدم .

ورتب على الإخبار عنه بالعداوة وصفه بالإضلال لأن العدو يعمل لإلحاق الضر بعدوه و ﴿ مبين ﴾ وصف ل ﴿ مضل ﴾ لا خبر ثان ولا ثالث .

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

بدل اشتمال من جملة ﴿ قال هذا من عمل الشيطان ﴾ [القصص : 15] لأن الجزم بكون ما صدر منه عملاً من عمل الشيطان وتغريره يشتمل على أن ذلك ظلم لنفسه ، وأن يتوجه إلى الله بالاعتراف بخطئه ويفرّع عليه طلب غفرانه .

وسمى فعله ظلماً لنفسه لأنه كان من أثر فرط الغضب لأجل رجل من شيعته ، وكان يستطيع أن يملك من غضبه فكان تعجيله بوكز القبطي وكزة قاتلة ظلماً جرّه لنفسه .

وسمّاه في سورة الشعراء (20) ضلالاً ﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين ﴾

وأراد بظلمه نفسه أنه تسبب لنفسه في مضرة إضمار القبط قتله ، وأنه تجاوز الحد في عقاب القبطي على مضاربته الإسرائيلي .

ولعله لم يستقص الظالم منهما وذلك انتصار جاهلي كما قال وداك بن ثميل المازني يمدح قومه :

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم

لأية حرب أم بأي مكان . . .

وقد اهتدى موسى إلى هذا كله بالإلهام إذ لم تكن يومئذ شريعة إلهية في القبط .

ويجوز أن يكون علمه بذلك مما تلقاه من أمه وقومها من تدين ببقايا دين إسحاق ويعقوب .

ولا التفات في هذا إلى جواز صدور الذنب من النبي لأنه لم يكن يومئذ نبيئاً ، ولا مسألة صدور الذنب من النبي قبل النبوءة ، لأن تلك مفروضة فيما تقرر حكمه من الذنوب بحسب شرع ذلك النبي أو شرع نبيء هو متبعه مثل عيسى عليه السلام قبل نبوءته لوجود شريعة التوراة وهو من أتباعها .

والفاء في قوله ﴿ فغفر له ﴾ للتعقيب ، أي استجاب استغفاره فعجل له بالمغفرة .

وجملة ﴿ فغفر له ﴾ معترضة بين جملة ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي ﴾ وجملة ﴿ قال رب بما أنعمت علي ﴾ [القصص : 17] كان اعتراضها إعلاماً لأهل القرآن بكرامة موسى عليه السلام عند ربه .

وجملة ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ تعليل لجملة ﴿ فغفر له ﴾ ؛ علل المغفرة له بأنه شديد الغفران ورحيم بعباده ، مع تأكيد ذلك بصيغة القصر إيماء إلى أن ما جاء به هو من ظلم نفسه وما حفه من الأمور التي ذكرناها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(44/585)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

الأشُدّ : يعني القوة واكتمال النمو ، وقد حدّدوا لذلك سِنَّ الثامنة عشرة إلى العشرين ﴿ واستوى ﴾ [القصص : 14] الاستواء هو بلوغُ العقلِ مرحلةَ النضج الفكري ، فلما اكتملت لموسى عليه السلام قوة الجسم ونُضْج العقل ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ [القصص : 14] .

ثم يقصُّ الحق سبحانه ، فيقول : ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ ﴾

أراد موسى عليه السلام أن يدخل القرية على حين غفلة من أهلها ، لأن بني إسرائيل كانوا مُضطهدين ، وكان القبط في بعض المدن ذاتَ الكثافة العددية منهم يُحرِّمون على بني

إسرائيل دخول قراهم ؛ لذلك اختار موسى وقت غفلة الناس ، لكنه لم يدخل في الليل لأنه لا يهتدي إلى الطريق ، فقيل : دخلها وقت القيلولة والناس في بيوتهم .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ [القصص : 15] يعني : من بني إسرائيل ﴿ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصص : 15] يعني : الأقباط ﴿ فاستغاثه ﴾ [القصص : 15] أي : طلب منه العَوْن والنجدة ﴿ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ [القصص : 15] يعني : ضربه بجُمْع يديه ، فجاءت نهاية القبطي وأجله مع هذه الضربة ، لا أنه مات بها ، وكثيراً ما تحدثُ هذه المسألة في شجار مثلاً بين شخصين ، فيضرب أحدهما الآخر فيقع ميتاً ، وبتشريح جثته يتبين أنه مات بسبب آخر .

ومثال ذلك : حين تكلّف شخصاً بقضاء حاجة لك ، أو تُوسّطه في أمر ما ، فيدخل عند المسئولين ويسعى إلى أن يقضي لك حاجتك فتقول : " فلان قضالي كذا وكذا " وهو في الحقيقة ما قضى في الأرض إلا بعد أن قضى الله في السماء .

لكن الله تعالى أراد أنْ يُكرم الواسطة ، فجعل قضاءها موافقاً لقضائه سبحانه ، فنقول في هذه الحالة : قضي الله المصلحة معه لا به .

(45/585)

كان القبط كما قُلْنا يكرهون بني إسرائيل ويُعذِّبونهم ، فلما قتلَ موسى القبطي زاد غضبهم وكراهيتهم لبني إسرائيل ؛ لذلك أحسَّ موسى أن هذا العمل من الشيطان ، ليزيد هذه العداوة ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : 15] .

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

يُعلمنا موسى عليه السلام أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ، ويعتقد أنه أذنب لا يكابر ، إنما ينبغي عليه أنْ يعترف بذنبه وظلمه لنفسه ، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لي ﴾ [القصص : 16] يعني : يا ربّ حكْمك هو الحقّ ، وأنا الظالم المعترف بظلمه .

ومن هنا كان الفَرْق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس : آدم عصى واعترف بذنبه وأقرَّ به ، فقال ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف : 23] فقبل الله منه وغفر له . أما إبليس فعلَّل عدم سجوده : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [الإسراء : 61] وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [ص : 76] فردَّ الحكم على الله .

لذلك نقول لمن يُفتي بغير ما شرع الله فيُحلِّل الحرام لسبب ما ، نقول له : احذر أنْ تردَّ على الله حكمه ؛ لأنك إنْ فعلتَ فأنت كإبليس حين ردَّ على الله حُكمه ، لكن أفْتِ بالحكم الصحيح ، ثم تعلَّل بأن الظروف لا تساعد على تطبيقه ، فعلى الأقل تحتفظ بإيمانك ، والمعصية تمحوها التوبة والاستغفار ، أما الكفر فلا حيلةَ معه .

فلما استغفر موسى ربه غفر له ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ [القصص : 16] يُعرف الذنب ، ثم يغفره رحمة بنا ؛ لأن الإنسان حين تصيبه غفلة فيقع في المعصية إذا لم يجد باباً للتوبة وللرجوع يئس وفقد الأمل ، وتمادى في معصيته ونسميه (فاقد) عنده سُعار للجريمة ، ولا مانع لديه من ارتكاب كل الذنوب .

(46/585)

إذن : فمشروعية التوبة الاستغفار تعطي المؤمن أملاً في أنه لن يُطرَدَ من رحمة الله ، لأن رحمة الله واسعة تسَع كل ذنوبه مهما كثُرتْ .

لذلك يقول تعالى في مشروعية التوبة ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا ﴾ [التوبة : 118] والمعنى : شرع لهم التوبة ، وحثَّهم عليها ليتوبوا بالفعل فيقبل منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/585)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والمحاملي في أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولما بلغ أشدّه ﴾ قال : ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿ واستوى ﴾ قال : أربعين سنة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المعمرين من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ولما بلغ اشدّه واستوى ﴾ قال : الاشد ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين والاستواء ما بين الثلاثين والأربعين ، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ولما بلغ أشدّه ﴾ قال : ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿ واستوى ﴾ قال : أربعين سنة ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ قال : الحكم الفقه والعقل ، والعلم قال : النبوّة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي قبيصة رضي الله عنه في الآية قال : يعني بالاستواء : خروج لحيته .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولما بلغ أشدّه ﴾ قال : ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿ واستوى ﴾ قال : أربعين سنة .

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي : إن فرعون ركب مركباً وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى عليه السلام قيل له : إن فرعون قد ركب . فركب في أثره . فأدركه المقيل بأرض يقال لها منف ، فدخلها نصف النهار وقد تغلقت أسواقها ، وليس في طرقها أحد . وهي التي يقول الله تعالى ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة ﴾ قال : نصف النهار .

(48/585)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة ﴾ قال : نصف النهار والناس قائلون .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : دخلها عند القائلة بالظهيرة والناس نائمون . وذلك أغفل ما يكون الناس .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ حين غفلة ﴾ قال : ما بين المغرب والعشاء .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ على حين غفلة ﴾ قال : ما بين المغرب والعشاء عن أناس ، وقال آخرون : نصف النهار ، وقال ابن عباس : أحدهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته ﴾ قال : اسرائيلي ﴿ وهذا من عدوّه ﴾ قال : قبطي ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته ﴾ الاسرائيلي ﴿ على الذي من عدوّه ﴾ القبطي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ قال : فمات قال : فكبر ذلك على موسى عليه الصلاة والسلام .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته ﴾ قال : من قومه من بني إسرائيل . وكان فرعون من فارس من اصطخر ﴿ فوكزه موسى ﴾ قال : بجمع كفه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فوكزه موسى ﴾ قال : بعصا ، ولم يتعمد قتله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : الذي وكزه موسى كان خبازاً لفرعون .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب رضي الله عنه قال : قال الله عز وجل " بعزتي يا ابن عمران لو أن هذه النفس التي وكزت فقتلت ، اعترفت لي ساعة من ليل أو نهار بأني لها

خالق أو رازق ، لأذقتك فيها طعم العذاب . ولكني عفوت عنك في أمرها انها لم تعترف لي ساعة من ليل أو نهار إني لها خالق أو رازق " .

(49/585)

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ إني ظلمت نفسي ﴾ قال : بلغني أنه من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر . فقتله ولم يؤمر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي ﴾ قال : عرف نبي الله عليه السلام من أين المخرج . فأراد المخرج فلم يلق ذنبه على ربه . قال بعض الناس : أي من جهة المقدور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(50/585)

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة موسى عليه السلام] *

[فيها شبه ستة] *

(الأولى) * تمسكوا بقوله تعالى : (فوكزه موسى فقضى عليه) فان ذلك القبطى إما أن يكون مستحقا للقتل أو لا . فان كان الأول فلم قال (هذا من عمل الشيطان) و(رب إنى ظلمت نفسي) الآية و(فعلتها إذن وأنا من الضالين) ؟ وإن كان الثاني كان عاصيا في قتله *

[جوابه] يحتمل أن يقال : إنه لكفره كان مستحقا للقتل وإنه لم يكن لكن موسى قتله خطأ ، وأنه لم يقصد إلا تخليص الذى من شيعته من ذلك القبطى . فتأدى به ذلك إلى القتل من غير قصد * أما الآيات فمن جوز الصغيرة حملها عليه فان الاستغفار والتوبة تجب من الصغيرة كما تجب من الكبيرة ومن أباها فلم يحملها عليه ، وأما قوله : (هذا من عمل الشيطان) ففيه وجهان : [الأول] أن الله تعالى ندبه إلى تأخير قتل أولئك الكفار إلى حال القدرة فلما قتل فقد ترك المندوب ، فقوله : (هذا من عمل الشيطان) معناه إقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان *

[الثاني] أن يكون المراد أن عمل المقتول عمل الشيطان ، والمراد بيان كونه مخالفا لله تعالى

مستحقا للقتل ، ويكون قوله : (هذا) إشارة إلى المقتول بمعنى أنه من جند الشيطان وحزبه ، يقال : فلان من عمل الشيطان أي من أصحابه . فأما قوله : (رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي) فعلى نهج قول آدم : (ظلمنا أنفسنا) والمراد أحد الوجهين إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب قط ، أو من حيث حرم نفسه الثواب على فعل المندوب ، وأما قوله : (فاغفر لي) فالمراد اقبل مني هذه الطاعة والانقطاع اليك . وأما قوله : (فعلتها إذن وأنا من الضالين) فلم يقل : إني صرت بذلك ضالا ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرا إلى حال

(51/585)

القتل نفى عن نفسه كونه كافرا في ذلك الوقت فاعترف بأنه كان ضالا أي متحيرا لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يريده في ذلك والله أعلم *

[الشبهة الثانية] كيف لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه (إنك لغوى مبين) ؟ * (جوابه) * إن قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظا جفاة . ألا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) وكان المراد ذلك * * (الشبهة الثالثة) * لما قال الله تعالى (ان ائت القوم الظالمين فلم قال في جوابه (اني أخاف أن يكذبون ويضيق

صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون) وهذا استغناء عن الرسالة ؟ * (جوابه) * ليس هذا استغناء عن الرسالة ، ولكنه إذن في أن يسأل ضم أخيه إليه في الرسالة على ما ذكره الله تعالى في قوله في سورة طه (وهل أتاك حديث موسى) إلى قوله (واجعل لى وزيرا من أهلى) فقال الله تعالى (قد أوتيت سؤلك يا موسى) وكان في ذلك السؤال مأذونا فاندفع السؤال *

[الشبهة الرابعة] كيف جاز لموسى أن يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصى وذلك سحر وتلبيس وكفر ، والامر بمثله لا يجوز ؟ [جوابه] ذلك الأمر كان مشروطا والتقدير : ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين ، كما في قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) أي إن كنتم قادرين ، وأيضا لما تعين ذلك طريقا إلى كشف الشبهة صار جائزا *

[الشبهة الخامسة] (فأوجس في نفسه خيفة) أو ليس خوفه يقتضى شكه فيما أتى به ؟ [جوابه] لعله خاف لأنه رأى من قوة التلبيس ما أشفق عنده من وقوع الشبهة على بعض الناس فآمنه الله منه وبين أن حجته تتضح للقوم بقوله تعالى (لا تخف إنك أنت الأعلى) *

(52/585)

[الشبهة السادسة]

(وألقى الألواح) الآية فلا يخلو إما أن يكون قد صدر الذنب عن هارون عليه السلام ما استحق به ذلك التأديب أو لم يصدر عنه فان صدر عنه فقد صدر الذنب عن هارون عليه السلام وإن لم يصدر عنه فصدر عن موسى عليه السلام ، وأيضا فلان هرون نهى موسى في قوله (لا تأخذ بلحيتي) فان كان موسى عليه السلام مصيبا فيما فعله كان هارون عاصيا في منعه عن فعل الصواب ، وان كان هارون عليه السلام مصيبا في ذلك المنع كان موسى عليه السلام عاصيا في ذلك الفعل *

[جوابه] أما من جوز الصغائر عليهم فقد حمل الواقعة عليه وزال السؤال . وأما من أباها فله وجهان : [الأول] أن موسى أقبل وهو غضبان على قومه ، فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الانسان بنفسه في مثل ذلك الغضب ، فان المفكر الغضبان قد يعض على شفتيه ويقلب أصابعه ويقبض على لحييه ، فأجرى موسى عليه السلام أخاه مجرى نفسه لأنه كان شريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب . وأما قوله (لا تأخذ بلحيتي) فلا يمتنع أن يكون هارون خاف أن يتوهم بنو إسرائيل بسوء ظنهم أنه منكر عليه معاتب له ، ثم أخذ في شرح القصة ، وقال في موضع آخر (إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل) وفى موضع آخر (يا ابن ام ان القوم استضعفوني) * * (الثاني) * ان بنى اسرائيل كانوا في نهاية سوء الظن بموسى حتى أن هارون عليه السلام غاب عنهم غيبة

فقالوا لموسى : أنت قتلته فلما واعد الله موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له في الالواح من كل شئ رجع فرأى في قومه ما رأى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص كيفية الواقعة فخاف هارون أن يسبق إلى قلوبهم ما لا أصل له ، فقال إشفاقا على موسى عليه السلام (لا تأخذ بلحيتي) لئلا يظن القوم بك ما لا يليق *

(53/585)

[قصة موسى والخضر عليهما السلام ﴾

(وفيها بحثان) (الأول) ما يتعلق بموسى عليه السلام وهو من وجوه : (الأول) أنه عليه السلام قال (لقد جئت شيئا إمرا) و(شيئا نكرا) مع أن ذلك الفعل في نفسه ما كان كذلك ، والحكم على ما ليس بمنكر بأنه منكر خطا ، فكان مخطئا * (الثاني) أنه نعت نفس الغلام بأنها زاكية مع أنها لم تكن كذلك (الثالث) قوله (لا تؤاخذني بما نسيت) وعندنا النسيان غير جائز على الأنبياء *

(الثاني) ما يتعلق بالخضر ، وهو من وجوه [الأول] قوله تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين) والسفينة البحرية تساوى المال العظيم فكيف يسمى مالكها المسكين [الثاني] قوله (وكان وراءهم ملك) ومن كان وراءهم فقد سلموا منه ، وانما كان خوفهم مما كان

قدامهم [الثالث] قوله (فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا) فكيف استباح دم الغلام لاجل الخشية مع أن الخشية لا تقتضي علما ولا يقينا ؟ [الجواب] عن الاول : أما قوله (شيئا إمرا) أي عجبا ، وقيل : منكرا ، فان حملناه على الأول فلا إشكال ، وإن حملناه على الثاني كان الجواب عنه وعن (نكرا) واحدا . وفيه وجوه [الأول] أن ظاهره منكر ومن يشاهده ينكره قبل أن يعرف علته [الثاني] أن يكون حذف حرف الشرط فكأنه قال : إن كنت قتلته ظالما فقد جئت شيئا نكرا [الثالث] أن يكون قوله (نكرا) أي عجيبا ، فانهم يقولون فيما يستغربونه ويجهلون علته : إنه نكر ومنكر * وعن الثاني : انه وصف النفس بكونها زاكية على سبيل الاستفهام لا على سبيل الاخبار ، وأيضا فلانه تكلم بما ذكره اجراءا للامر على ظاهره وذلك جائز لقوله عليه السلام " نحن نحكم بالظاهر " (1)

---

(1) ليس هذا اللفظ معروفا ، والمشهور " أمرت أن أحكم بالظاهر " قال السيوطي في اللآلى : هو غير ثابت بهذا اللفظ . ولعله مروى بالمعنى من أحاديث صحيحة .

وقال السخاوى في المقاصد الحسنة : اشتهر بين الاصوليين والفقهاء ، بل وقع في شرح مسلم للنووي في قوله " إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم " ما نصه : معناه انى أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ولا وجود له في كتب الحديث المشهورة . وجزم العراقى والمزى بأنه لا أصل له .

وعن الثالث أنا لا نجوز عليه النسيان فيما يتعلق بالتبليغ والشرع واما في غيره فجائز * وعن الرابع إن تلك السفينة كانت ملكا لقوم ، فلعل كل واحد منهم كان قليل المال جدا * وعن الخامس إن لفظ الوراء يعبر به عن الخلف والقدام فهى ها هنا بمعنى القدام ، كما في قوله تعالى (ومن ورائهم جهنم) يعنى من قدامهم * وعن السادس : لعل الله أوحى إليه بقتل الشخص فلذلك أقدم عليه (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ عصمة الأنبياء صـ 65 . ﴾ 71

(1) غريب جدا أن يغيب عن المصنف أن ذلك كله إنما كان بوحى من الله بعد ما ورد من النص الصريح على ذلك في قوله (وما فعلته عن أمرى) فهل بعد هذا تصريح بأن الخضر إنما كان نبيا يتلقى الوحى بما فعل من عند الله تعالى . وانما كانت هذه الوقائع بهذه الصورة لأنها درس لموسى عليه السلام يتعلم منه التمهل والتروى . فان سبب ذلك كما جاء في صحيح البخاري وغيره أن موسى عليه السلام قام خطيبا في بنى اسرائيل فسئل من أعلم الناس ؟ فقال : أنا ولم يرد العلم إلى الله فعاتبه الله في ذلك ، وأمره أن يلحق بعبده خضر الخ القصة .

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ ﴾ :

في موضع الحال [إمَّا] من الفاعل : كائناً على حين غَفْلَةٍ أي : مُسْتَخْفِياً ، وإمَّا من المفعول . وقرأ أبو طالبٍ القارىء " على حينَ " بفتح النون . وتكلَّف الشيخُ تخريجَها على أنه حَمَلَ المصدرَ على الفعل في أنه إذا أضيف الظرفُ إليه جاز بناؤه على الفتح كقوله :

3587 على حينَ عاتَبْتُ المشيب على الصِّبا . . . . . .

. . . . . .

و" مِنْ أهلِها " صفةٌ ل " غَفْلَة " أي : صادرةٍ من أهلها .

قوله : ﴿ يَقْتَتِلاَنِ ﴾ صفةٌ ل " رجلين " . وقال ابن عطية : " حال منهما " وسيبويه وإنْ كان جَوَّزَها مِن النكرة/ مُطْلقاً . إلاَّ أنَّ غيرَه وهم الأكثرون يَشْتَرِطون فيها ما يُسَوِّغُ الابتداءَ بها وقرأ نعيم بن ميسرة " يَقَتِّلان " بالإدغام نَقَلَ فتحَةَ التاءِ الأولى إلى القافِ وأدغمَ .

قوله : ﴿ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ في موضعِ الصفةِ ل " رجلين " أو الحالِ من الضمير في " يَقْتَتِلان " وهو بعيدٌ لعدمِ انتقالها .

وقوله : " هذا ، وهذا " على حكايةِ الحالِ الماضيةِ فكأنهما حاضران . وقال المبردُ : " العربُ تُشير ب هذا إلى الغائب وأنشد الجرير :

3588 هذا ابنُ عَمّي في دمشقَ خليفةً . . . لو شِئْتُ ساقَكُمُ إليَّ قَطِينا

قوله : ﴿ فاستغاثه ﴾ هذه قراءةُ العامَّةِ ، من الغَوْثِ أي : طَلَبَ غَوْثَه ونَصْرَه . وقرأ سيبويه وابن مقسم والزعفراني بالعين المهملة ، والنون ، من الإِعانة . قال ابنُ عطية : " هي تصحيفٌ " . وقال ابن جبارة صاحب " الكامل " : " الاختيارُ قراءةُ ابنِ مقسم ؛ لأنَّ الإِعانة أولى في هذا البابِ " . قلت : نسبةُ التصحيفِ إلى هؤلاء غيرُ محمودةٍ ، كما أن تَعالِيَ الهُذَلِيِّ في اختيارِ الشاذِّ غيرُ محمودٍ .

(56/585)

قوله : ﴿ فَوَكَزَهُ ﴾ أي : دَفَعَه بجميع كَفِّه . والفرقُ بين الوَكْزِ واللَّكْزِ : أنَّ الأولَ بجميعِ الكفِّ ، والثانيْ بأطرافِ الأصابعِ وقيل : بالعكسِ . والنَّكْزُ كاللَّكْزِ . قال :

3589 يا أيُّها الجاهِلُ ذو التَّنَزِّي . . . لا تُوْعِدَنِّي حَيَّةً بالنَّكْزِ

وقرأ ابنُ مسعود " فَلَكَزه " و " فَنَكَزَه " باللام والنون .

قوله : ﴿ فقضى ﴾ أي : موسى ، أو الله تعالى ، أو ضميرُ الفعلِ أي : الوَكْزُ

قوله : ﴿ مِنْ عَمَلِ ﴾ : مِنْ وَسْوَسَتِه وتَسْوِيْله والإشارةُ إلى القَتْلِ الصادرِ منه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 656.658 ﴾

(57/585)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

لَمَّا كَمُلَتْ سِنُّه وتمَّ عقلُه ، واستوى كمال خصاله ﴿ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً ﴾ : أي أَتْمَمْنَا له التحصيل ، ووَفَّرْنا له العلم ، وبذلك جَرَتْ سُنَّتُنا مع الأكابر والأنبياء .

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ الآية .

قيل : دخل المدينةَ في وقت الهاجرة ، وتَفَرُّقِ الناس ، فَوَجَدَ فيها رجلين يتخاصمان : أحدهما إسرائيليٌّ من شيعة موسى وعلى دِينه ، والآخرُ قِبطيٌّ مخالفٌ لهما ، فاستغاث الإسرائيليُّ بموسى على القبطي ، فوكَزَه موسى ليَدْفَعَه عن الإسرائيلي ، فمات الرجلُ

بذلك الوَكْز ، ولم يكن موسى يقصد قَتْلَه ، فقال موسى :

﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

فقد تمنَّى موسى أنْ لو دَفَعَه عنه بأَيسَرَ مما دفعه ، ولم ينسب القتل إلى الشيطان ، ولكنَّ دَفْعَهُ عنه بالغلظةِ نَسَبَه إلى الشيطان بأَنْ حَمَلَه على تلك الحِدَّة .

وهكذا . . إذا أراده اللَّهُ أمراً أجرى أسباباً لِيَحْصُلَ بها مرادُه ، ولو أنه أراد فتنةَ موسى لَمَا قَبَضَ روحَ الرجلِ بمثل تلك الوكزة ، فقد يُضْرَبُ الرجلُ الكثيرَ من الضَّرْبِ والسياط ثم لا يموت ؛ فموتُ القبطي بوكزةٍ إجراءٌ لما قضاه وأراده .

قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

تاب موسى عَمَّا جرى على يده ، واستغفر ربَّه ، وأخبر اللَّهُ أنه غَفَرَ له ، ولا عتابَ بعد المغفرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 57 . 58 ﴾

(58/585)

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ

نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر ، بتهيئه لنبوته ، أخبر بما هو سبب لهجرته ، وكأنها سنت بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ ودخل المدينة ﴾ أي مدينة فرعون آتياً من قصره ، لأنه كان عنده بمنزلة الولد ، قال ابن جرير : وهي مدينة منف من مصر ، وقال البغوي : وقيل : عين الشمس .

(59/585)

وقيل غير ذلك ﴿ على حين غفلة ﴾ قبل بعيد : وقيل بغير ذلك ﴿ من أهلها ﴾ أي إحكاماً لما جعلناه سبباً لنقلته منها طهارة من عشرة القوم الظالمين ﴿ فوجد فيها ﴾ أي المدينة ﴿ رجلين يقتتلان ﴾ أي يفعلان مقدمات القتل من الملازمة مع الخنق والضرب ، وهما إسرائيلي وقبطي ، ولذا قال مجيباً لمن كأنه يسأل عنهما وهو ينظر إليهما : ﴿ هذا من شيعته ﴾ أي من بني إسرائيل قومه ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أي القبط ، وكان قد حصل لبني

إسرائيل به عز لكونه ربيب الملك ، مع أن مرضعته منهم ، لا يظنون أن سبب ذلك الرضاع ﴿ فاستغاثه ﴾ أي طلب منه ﴿ الذي من شيعته ﴾ أن يغيثه ﴿ على الذي من عدوه فوكزه ﴾ أي فأجابه ﴿ موسى ﴾ فركز أي فطعن ودفع بيده العدو أو ضربه بجميع كفه ، وكأنه كالكم ، أو دفعه بأطراف أصابعه ، وهو رجل أيد لم يعط أحد من أهل ذلك الزمان مثل ما أعطي من القوى الذاتية والمعنوية ﴿ فقضى ﴾ أي فأوقع القضاء الذي هو القضاء على الحقيقة ، وهو الموت الذي لا ينجو منه بشر ﴿ عليه ﴾ فقتله وفرغ منه وكل شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه وخفي هذا على الناس لما هم فيه من الغفلة ، فلم يشعر به أحد منهم .

ولما كان كأنه قيل : إن هذا الأمر عظيم ، فما ترتب عليه من قول من أوتي حكماً وعلماً ؟ أجيب بالإخبار عنه بأنه ندم عليه في الحال بقوله : ﴿ قال ﴾ أي موسى عليه السلام : ﴿ هذا ﴾ أي الفعل الذي جرك إليه الإسرائيلي ﴿ من عمل الشيطان ﴾ أي لأني لم أومر به على الخصوص ، ولم يكن من قصدي وإن كان المقتول كافراً ؛ ثم أخبر عن حال الشيطان بما هو عالم به ، مؤكداً له حملاً لنفسه على شدة الاحتراس والحذر منه فقال : ﴿ إنه عدو ﴾ ومع كونه عدواً ينبغي الحذر منه فهو ﴿ مضل ﴾ لا يقود إلى خير أصلاً ، ومع ذلك فهو ﴿ مبين ﴾ أي عداوته وإضلاله في غاية البيان ، ما في شيء منهما خفاء .

ولما كان هذا الكافر ليس فيه شيء غير الندم لكونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يأته في قتله إذن خاص ، وكان قد أخبر عنه بالندم ، تشوفت أنفس البصراء إلى الاستغفار عنه ، علماً منهم بأن عادة الأنبياء وأهل الدرجات العلية استعظام الهفوات ، فأجيبوا بالإخبار عن مبادرته إلى ذلك بقوله : ﴿ قال ﴾ وأسقط أداة النداء ، على عادة أهل الاصطفاء ، فقال : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ .

ولما كان حال المقدم على شيء دالة على إرادته فاستحسانه إياه ، أكد قوله إعلاماً بأن باطنه على غير ما دل عليه ظاهرة فقال : ﴿ إني ظلمت نفسي ﴾ أي بالإقدام على ما لم يتقدم إليّ فيه إذن بالخصوص وإن كان مباحاً .

ولما كان المقرب قد يعد حسنة غيره سيئته ، قال مسبباً عن ذلك : ﴿ فاغفر ﴾ أي امح هذه الهفوة عينها وأثرها ﴿ لي ﴾ أي لأجلي لا تؤاخذني ﴿ فغفر ﴾ أي أوقع المحو لذلك كما سأل إكراماً ﴿ له ﴾ ثم علل ذلك بقوله مشيراً إلى أن صفة غيره عدم بالنسبة إلى صفته مؤكداً لذلك : ﴿ إنه هو ﴾ أي وحده ﴿ الغفور ﴾ أي البالغ في صفة الستر لكل من يريد ﴿ الرحيم ﴾ أي العظيم الرحمة بالإحسان بالتوفيق إلى الأفعال المرضية لمقام الإلهية ، ولأجل أن هذه صفته ، رده إلى فرعون وقومه حين أرسله إليهم فلم يقدروا على مؤاخذته بذلك بقصاص ولا غيره بعد أن نجاه منهم قبل الرسالة على غير قياس .

ولما أنعم عليه سبحانه بالإجابة إلى سؤله ، تشوف السامع إلى شكره عليها فأجيب بقوله : ﴿ قال رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ بكل جميل .

ولما كان جعل الشيء عوضاً لشيء أثبت له وأجدر بإمضاء العزم عليه قال : ﴿ بما أنعمت عليّ ﴾ أي بسبب إنعامك عليّ بالمغفرة وغيرها .

(61/585)

ولما كان في سياق التعظيم للنعمة ، كرر حرف السبب تأكيداً للكلام ، وتعريفاً أن المقرون به مسبب عن الإنعام ، وقرنه بأداة النفي الدالة على التأكيد فقال : ﴿ فلن أكون ظهيراً ﴾ أي عشيراً أو خليطاً أو معيناً ﴿ للمجرمين ﴾ أي القاطعين لما أمر الله به أن يوصل ، أي لا أكون بين ظهراني القبط ، فإن فسادهم كثير ، وظلمهم لعبادك أبناء أوليائك متواصل وكبير ، لا قدرة لي على ترك نصرتهم ، وذلك يجر إلى أمثال هذه الفعلة ، فلا أصلح من المهاجرة لهم ، وهذا من قول العرب : جاءنا في ظهرته – بالضم وبالكسر وبالتحريك ، وظاهرته ، أي عشيرته .

ولما ذكر القتل وأتبعه ما هو الأهم من أمره بالنظر إلى الآخرة ، ذكر ما تسبب عنه من أحوال الدنيا فقال : ﴿ فأصبح ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ في المدينة ﴾ أي التي قتل

القتيل فيها ﴿ خائفاً ﴾ أي بسبب قتله له ﴿ يترقب ﴾ أي لازم الخوف كثير الالتفات برقبته ذعراً من طارقة تطرقه في ذلك ، قال البغوي : والترقب : انتظار المكروه .

﴿ فإذا ﴾ أي ففجئه ﴿ الذي استنصره ﴾ أي طلب نصرته من شيعته ﴿ بالأمس ﴾ أي اليوم الذي يلي يوم الاستصراخ من قبله ﴿ يستصرخه ﴾ أي يطلب ما يزيل ما يصرخ بسببه من الضر من قبطي آخر كان يظلمه ، فكأنه قيل : فما قال له موسى بعد ما أوقعه فيما يكره ؟ فقيل : ﴿ قال له ﴾ أي لهذا المستصرخ ﴿ موسى ﴾ .

(62/585)

ولما كان الحال متقضياً أن ذلك الإسرائيلي يمكث مدة لا يخاصم أحداً خوفاً من جريرة ذلك القتيل ، أكد قوله : ﴿ إنك لغوي ﴾ أي صاحب ضلال بالغ ﴿ مبين ﴾ أي واضح الضلال غير خفيه ، لكون ما وقع بالأمس لم يكفك عن الخصومة لمن لا تطيقه وإن كنت مظلوماً ؛ ثم دنا منهما لينصره ؛ ثم قال مشيراً بالفاء إلى المبادرة إلى إصراخه : ﴿ فلما ﴾ وأثبت الحرف الذي أصله المصدر تأكيداً لمعنى الإرادة فقال : ﴿ أن أراد ﴾ أي شاء ، وطلب وقصد مصدقاً ذلك بالمشي ﴿ أن يبطش ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ بالذي هو عدو لهما ﴾ أي من القبط بأخذه بعنف وسطوة لخلاص الإسرائيلي منه

﴿ قال ﴾ أي الإسرائيلي الغوي لأجل ما رأى من غضبه وكلمه به من الكلام الغص ظاناً أنه ما دنا إلا يريد البطش به هو ، لما أوقعه فيه لا بعدوه : ﴿ يا موسى ﴾ ناصاً عليه باسمه العلم دفعاً لكل لبس منكر الفعلة الذي اعتقده لما رآه من دنوه إليهما غضبان وهو يذمه ﴿ أتريد أن تقتلني ﴾ أي اليوم وأنا من شيعتك ﴿ كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ أي من شيعة أعدائنا ، والذي دل على أن الإسرائيلي هو الذي قال له هذا الكلام السياق بكون الكلام معه – بما أشير إليه بدخول المدينة على حين غفلة من أنهم لم يره أحد غير الإسرائيلي ، وبقوله ﴿ عدو لهما ﴾ من ذم الإسرائيلي كما صرح به موسى عليه الصلاة والسلام .

ولما نم عليه وأفشى ما لا يعلمه غيره ، خاف غائلته فزاد في الإغراء به .

مؤكداً بقوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ تريد إلا أن تكون ﴾ أي كوناً راسخاً ﴿ جباراً ﴾ أي قاهراً غالباً ؛ قال أبو حيان : وشأن الجبار أن يقتل بغير حق .

(63/585)

﴿ في الأرض ﴾ أي التي تكون بها فلا يكون فوقك أحد ﴿ وما تريد ﴾ أي يتجدد لك إرادة ﴿ أن تكون ﴾ أي بما هو لك كالجبلة ﴿ من المصلحين ﴾ أي العريقين في الصلاح ، فإن المصلح بين الناس لا يصل إلى القتل على هذه الصورة ، فلما سمع الفرعوني هذا ترك

الإسرائيلي ، وكانوا – لما قتل ذلك القبطي – ظنوا في بني إسرائيل ، فأغروا فرعون بهم فقال : هل من بينة ، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا ينبغي له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت – كما ذكر ذلك في حديث المفتون الذي رواه أبو يعلى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، فلما قال هذا الغوي هذه المقالة تحقق الأمر في موسى عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 471 . 474 ﴾

(64/585)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

ففيه وجوه : أحدها : أن ظاهره يدل على أنه قال إنك لما أنعمت علي بهذا الإنعام فإني لا أكون معاوناً لأحد من المجرمين بل أكون معاوناً للمسلمين ، وهذا يدل على أن ما أقدم عليه من إعانة الإسرائيلي على القبطي كان طاعة لا معصية ، إذ لو كانت معصية ، لنزل الكلام منزلة ما إذا قيل إنك لما أنعمت علي بقبول توبتي عن تلك المعصية فإني أكون مواظباً على مثل تلك المعصية وثانيها : قال القفال : كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرماً ،

والباء للقسم أي بنعمتك علي وثالثها : قال الكسائي والفراء إنه خبر ، ومعناه الدعاء كأنه قال فلا تجعلني ظهيراً ، قال الفراء وفي حرف عبد الله ﴿ فَلاَ تَجْعَلْنِى ظَهِيرًا ﴾ ، واعلم أن في الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة .

وقال ابن عباس : لم يستثن ولم يقل فلن أكون ظهيراً إن شاء الله ، فابتلي به في اليوم الثاني ، وهذا ضعيف لأنه في اليوم الثاني ترك الإعانة ، وإنما خاف منه ذلك العدو فقال : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى الأرض ﴾ [القصص : 19] لا أنه وقع منه .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ

اعلم أن عند موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفاً من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب به ، وخرج على استتار ﴿ فَإِذَا الذى استنصره ﴾ وهو الإسرائيلي ﴿ بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يطلب نصرته بصياح وصراخ ، ﴿ قال له موسى إِنك لَغوى مبِين ﴾ قال أهل اللغة الغوي يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعل أي إنك لمغو لقومي فإني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه بسببك ، ويجوز أن يكون بمعنى الغاوي .

(65/585)

واحتج به من قدح في عصمة الأنبياء عليهم السلام ، فقال كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ؟ الجواب من وجهين : الأول : أن قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظاً جفاة ألا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات ﴿ اجعل لَّنَا إلها كَمَا لَهُمْ ءالِهَةٌ ﴾ [الأعراف : 138] فالمراد بالغوي المبين ذلك الثاني : أنه عليه السلام إنما سماه غوياً لأن من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد .

واختلفوا في قوله تعال : ﴿ قَالَ يَا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ ﴾ أهو من كلام الإسرائيلي أو القبطي ؟ فقال بعضهم لما خاطب موسى الإسرائيلي بأنه غوي ورآه على غضب ظن لما هم بالبطش أنه يريده ، فقال هذا القول ، وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس للرجل إلا هو ، وصار ذلك سبباً لظهور القتل ومزيد الخوف ، وقال آخرون بل هو قول القبطي ، وقد كان عرف القصة من الإسرائيلي ، والظاهر هذا الوجه لأنه تعالى قال : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ يَبْطِشَ بالذى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يا موسى ﴾ فهذا القول إذن منه لا من غيره وأيضاً فقوله : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى الأرض ﴾ لا يليق إلا بأن يكون قولاً للكافر .

واعلم أن الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل المتعظم الذي لا يتواضع لأمر أحد ، ولما وقعت هذه الواقعة انتشر

الحديث في المدينة وانتهى إلى فرعون وهموا بقتله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 201.203 ﴾

(66/585)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : من المغفرة .

الثاني : من الهداية .

﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي عوناً . قال ابن عباس : قال ذلك فابتلي لأن صاحبه الذي أعانه دل عليه .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : خائفاً من قتل النفس أن يؤخذ بها .

الثاني : خائفاً من قومه .

الثالث : خائفاً من الله .

﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يتلفت من الخوف ، قاله ابن جبير .

الثاني : ينتظر .

وفيما ينتظر فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ينتظر الطلب إذا قيل إن خوفه كان من قتل النفس .

الثاني : ينتظر أن يسلمه قومه إذا قيل إن خوفه منهم .

الثالث : ينتظر عقوبة الله إذا قيل إن خوفه كان منه .

﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يعني الإسرائيلي الذي كان قد خلصه بالأمس ووكز من أجله القبطي فقتله ، استصرخه واستغاثه على رجل آخر من القبط خاصمه .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنه قال ذلك للإسرائيلي لأنه قد أغواه بالأمس حتى قتل من أجله رجلاً ويريد أن يغويه ثانية .

الثاني : أنه قال ذلك للقبطي فظن الإسرائيلي أنه عناه فخافه ، قاله ابن عباس .

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا . . . ﴾ وهو القبطي لأن موسى أخذته

الرقة على الإسرائيلي فقال الإسرائيلي :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أن الإسرائيلي رأى غضب موسى عليه وقوله إنك لغوي مبين ، فخاف أن قتله فقال : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ .

(67/585)

الثاني : أن الإسرائيلي خاف أن يكون موسى يقتل القبطي فيقتل به الإسرائيلي فقال ذلك دفعاً لموسى عن قتله ، قاله يحيى بن سلام : قال يحيى : وبلغني أن هذا الإسرائيلي هو السامري .

وخلى الإسرائيلي القبطي فانطلق القبطي وشاع أن المقتول بالأمس قتله موسى .

﴿ . . . إِلاَّ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ ﴾ قال السدي : يعني قتالاً

. قال أبو عمران الجوني : وآية الجبابرة القتل بغير [حق] .

وقال عكرمة : لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين [بغير حق] .

﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ ﴾ أي وما هكذا يكون الإصلاح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ثم قال عليه السلام لربه معاهداً ﴿ رب ﴾ بنعمتك علي وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألا أكون معيناً ﴿ للمجرمين ﴾ هذا أحسن ما تؤول .

وقال الطبري إنه قسم أقسم بنعمة الله تعالى عنده ويضعفه صورة جواب القسم فإنه غير متمكن في قوله ﴿ فلن أكون ﴾ ، والقسم لا يتلقى ب " لن " ، والفاء تمنع أن تنزل " لن " منزلة " لا " أو " ما " فتأمله واحتج الطبري بأن في قراءة عبد الله " فلا تجعلني ظهيراً " .

قال الفقيه الإمام القاضي : واحتج أهل العلم والفضل بهذه الآية في خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيء من أمرهم ورأوا أنها تتناول ذلك ، نص عليه عطاء بن أبي رباح وغيره ، وقوله تعالى ﴿ فأصبح ﴾ عبارة عن كونه دائم الخوف في كل أوقاته كما تقول : أصبح زيد عالماً ، و ﴿ يترقب ﴾ معناه عليه رقبة من فعله في القتل فهو متحسس ، قال ابن عباس : فمر وهو بحالة الترقب وإذا ذلك الإسرائيلي الذي قاتل القبطي بالأمس يقاتل آخر من القبط ، وكان قتل القبطي قد خفي عن الناس واكتتم فلما رأى الإسرائيلي موسى استصرخه بمعنى صاح به مستغيثاً ومنه قول الشاعر [سلامة بن جندل] : [البسيط]

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع . . . كان الصراخ له فزع الظنابيب

فلما رأى موسى قتاله لآخر أعظم ذلك وقال له معاتباً ومؤنباً ﴿ إنك لغوي مبين ﴾

وكانت إرادة موسى مع ذلك أن ينصر الإسرائيلي فلما دنا منهما خشي الإسرائيلي وفزع منه وظن أنه ربما ضربه وفزع من قوته التي رأى بالأمس فناداه بالفضيحة وشهر أمر المقتول .

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ

(69/585)

قرأ جمهور القراء " يبطِش " ، وقرأ الحسن وأبو جعفر بضم الطاء وهما لغتان ، فقال الإسرائيلي لموسى معنى الآية بلسانه وفر منه فشهر أمر القتيل ، والجبابرة شأنهم قتل الناس بغير حق فلذلك جعله الإسرائيلي كذلك ونفى عنه الإصلاح ، قال الشعبي : من قتل رجلين فهو جبار ، ولما اشتهر أن موسى قتل القتيل وكان قول الإسرائيلي يغلب على النفوس تصديقه على موسى مع ما كان لموسى من المقدمات أتى رأي فرعون وملئه على قتل موسى وذبحه ، غلب على نفس فرعون أنه المشار إليه بفساد المملكة فأنفذ فيه من يطلبه

من جنده ويأتي به للقتل فخرج على الطريق الأعظم ، وأخذ رجل يقال إنه مؤمن آل فرعون ويقال إنه غير في بنيات الطريق قصد إلى موضع موسى فبلغه قولهم له ﴿ إن الملأ ﴾ الآية ، و ﴿ يسعى ﴾ معناه يسرع في مشيه قال الزجاج وغيره وهو دون الجري ، وقال ابن جريج : معناه يعمل وليس بالشد .

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذه نزعة مالك رحمه الله في سعي الجمعة والأول عندي أظهر في هذه الآية : و ﴿ يأتمرون ﴾ وزنه يفتعلون ويفتعلون يأتي كثيراً بمعنى يتفاعلون ، ومنه ازدوج بمعنى تزاوج ، وذهل ابن قتيبة إلى أنه بمعنى يأمر بعضهم بعضاً وقال : لو كان ذلك لكان يتأمرون .

قال الفقيه الإمام القاضي : وذهب عنه أن يفتعل بمعنى يتفاعل وفي القرآن ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ [الطلاق : 6] ، وقد قال النمر بن تولب : [المتقارب]

أرى الناس قد أحدثوا شيمة . . . وفي كل حادثة يؤتمر

وأنشد الطبري : [الكامل]

ما تأتمر فينا فأمرك في . . . يمينك أو شمالك

ومنه قول ربيعة بن جشم : [المقارب]

أجار بن كعب كأني خمر . . . ويعدو على المرء ما يأتمر

فخرج موسى عليه السلام وأفلت القوم فلم يجده أحد منهم وخرج بحكم فزعه ومبادرته إلى الطريق المؤدية إلى مدين وهي مدينة قوم شعيب عليه السلام ، وكان موسى لا يعرف تلك الطريق ، ولم يصحب أحداً ، فركب مجهلتها واثقاً بالله تعالى ومتوكلاً عليه ، قال السدي ومقاتل : فروي أن الله تعالى بعث إليه جبريل ، وقيل ملكاً غيره ، فسدده إلى طريق مدين وأعطاه عصا يقال هي كانت عصاه ، وروي أن عصاه إنما أخذها لرعي الغنم في مدين وهو أصح وأكثر ، وبين مدين ومصر مسيرة ثمانية أيام قاله ابن جبير والناس ، وكان ملك مدين لغير فرعون ، وحكى الطبري عن ابن جريج أو ابن أبي نجيح ، شك الطبري أنه قال : إن الذي ﴿ أراد أن يبطش ﴾ هو الإسرائيلي فنهاه موسى عن ذلك بعد أن قال له ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ [القصص : 18] ففزع الإسرائيلي عند ذلك من موسى وخاطبه بالفضح وكان موسى من الندامة والتوبة في حد لا يتصور معه أن يريد البطش بهذا الفرعوني الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(71/585)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قال ربِّ بما أنعمتَ عليَّ ﴾ بالمغفرة ﴿ فلن أكون ظهيراً للمُجْرِمين ﴾ قال ابن عباس : عوناً للكافرين ، وهذا يدلُّ على أن الإِسرائيليَّ الذي أعانه موسى كان كافراً .

قوله تعالى : ﴿ فأصبح في المدينة ﴾ وهي التي قتل بها القِبطيَّ ﴿ خائفاً ﴾ على نفسه ﴿ يترقَّب ﴾ أي : ينتظر سوءاً يناله منهم ويخاف أن يُقتل به ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس ﴾ وهو الاسرائيلي ﴿ يستصرخُه ﴾ أي : يستغيث به على قِبطي آخر أراد أن يسخِّره أيضاً ﴿ قال له موسى ﴾ في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى القِبطي .

والثاني : إلى الإِسرائيليّ ، وهو أصح .

فعلى الأول يكون المعنى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ ﴾ بتسخيرك وظلمك .

وعلى الثاني فيه قولان .

أحدهما : أن يكون الغَوِيُّ بمعنى المُغْوِي ، كالأليم والوجيع بمعنى المؤلِم والموجِع ، والمعنى : إِنَّكَ لَمُضِلٌّ حين قتلتُ بالأمس رجلاً بسببك ، وتَدْعوني اليوم إلى آخر .

والثاني : أن يكون الغوي بمعنى الغاوي ؛ والمعنى : إِنك غاوٍ في قتالك من لا تُطيق دفع شرِّه عنك .

قوله تعالى : ﴿ فلمَّا أن أراد أنْ يَبْطِشَ بالذي هو عدوٌّ لهما ﴾ أي : بالقِبطي ﴿ قال يا موسى ﴾ هذا قول الإِسرائيليّ من غير خلاف علمناه بين المفسرين ؛ قالوا : لمَّا رأى الاسرائيليُّ غضبَ موسى عليه ، حين قال [له] : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِين ﴾ ورآه قد همَّ أن يَبْطِش بالفرعونيِّ ، ظنَّ أنَّه يريده فخاف على نفسه ف ﴿ قال يا موسى أتريد أن تقتُلَني ﴾ وكان قوم فرعون لم يعلموا مَنْ قاتِلُ القِبطي ، إلاَّ أنَّهم أتَوا إلى فرعون فقالوا : إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً مِنَّا فخُذ لَنَا بحقِّنا ، فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه لآخذ لكم حقَّكم ، فبينا هم يطوفون ولا يدرون مَنْ القاتل ، وقعت هذه الخصومة بين الإِسرائيلي والقِبطي في اليوم الثاني ، فلمّا قال الإِسرائيليُّ لموسى : ﴿ أتريد أن تقتُلني كما قَتَلْتَ نفساً بالأمس ﴾ انطلق القبطي إلى فرعون فأخبره أنَّ موسى هو الذي قتل الرجل ، فأمر بقتل موسى ، فعلم بذلك رجل من شيعة موسى فأتاه فأخبره ، فذلك قوله : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ .

فأمَّا الجبَّار ، فقال السدي : هو القتَّال ، وقد شرحناه في [هود : 59] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ أي من المعرفة والحكم والتوحيد ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أي عوناً للكافرين .

قال القشيري : ولم يقل بما أنعمت عليّ من المغفرة ؛ لأن هذا قبل الوحي ، وما كان عالماً بأن الله غفر له ذلك القتل .

وقال الماوردي : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ فيه وجهان : أحدهما : من المغفرة ؛ وكذلك ذكر المهدوي والثعلبي .

قال المهدوي : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ من المغفرة فلم تعاقبني .

الوجه الثاني : من الهداية .

قلت : ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ يدلّ على المغفرة ؛ والله أعلم .

قال الزمخشري قوله تعالى : ﴿ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ يجوز أن يكون قَسَماً جوابه محذوف تقديره ؛ أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبنّ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

وأن يكون استعطافاً كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة فلن أكون إن

عصمتني ظهيراً للمجرمين .

وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته .

وتكثير سواده ، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون ؛ وإما بمظاهرة من أدّت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيليّ المؤدّية إلى القتل الذي لم يحلّ له قتله .

وقيل : أراد إني وإن أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين ، فعلى هذا كان الإسرائيلي مؤمنا ونصرة المؤمن واجبة في جميع الشرائع .

وقيل في بعض الروايات : إن ذلك الإسرائيلي كان كافراً ، وإنما قيل له إنه من شيعته لأنه كان إسرائيلياً ولم يرد الموافقة في الدين ، فعلى هذا ندم لأنه أعان كافراً على كافر ، فقال : لا أكون بعدها ظهيراً للكافرين .

(74/585)

وقيل : ليس هذا خبراً بل هو دعاء ؛ أي فلا أكون بعد هذا ظهيراً ؛ أي فلا تجعلني يا رب ظهيراً للمجرمين .

وقال الفراء : المعنى ؛ اللهم فلن أكون ظهيراً للمجرمين ؛ وزعم أن قوله هذا هو قول ابن

عباس .

قال النحاس : وأن يكون بمعنى الخبر أولى وأشبه بنسق الكلام ؛ كما يقال : لا أعصيك لأنك أنعمت عليّ ؛ وهذا قول ابن عباس على الحقيقة لا ما حكاه الفراء ؛ لأن ابن عباس قال : لم يستثن فابتلي من ثاني يوم ؛ والاستثناء لا يكون في الدعاء ، لا يقال : اللهم اغفر لي إن شئت ؛ وأعجب الأشياء أن الفراء روى عن ابن عباس هذا ثم حكى عنه قوله .

قلت : قد مضى هذا المعنى ملخصاً مبيّناً في سورة "النمل" وأنه خبر لا دعاء .

وعن ابن عباس : لم يستثن فابتلي به مرة أخرى ؛ يعني لم يقل فلن أكون إن شاء الله .

وهذا نحو قوله : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [هود : 113] .

الثانية : قال سلمة بن نُبَيط : بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل بخارى وقال : أعطهم ؛ فقال : أعفني ؛ فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه .

فقيل له ما عليك أن تعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئاً ؟ وقال : لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم .

وقال عبد الله بن الوليد الوَصَّافي قلت لعطاء بن أبي رَبَاح : إن لي أخاً يأخذ بقلمه ، وإنما يحسب ما يدخل ويخرج ، وله عيال ولو ترك ذلك لاحتاج وادَّانَ ؟ فقال : مَن الرأس ؟ قلت : خالد بن عبد الله القَسْري ؛ قال : أما تقرأ ما قال العبد الصالح : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ قال ابن عباس : فلم يستثن فابتلي به ثانية فأعانه الله ، فلا

يعينهم أخوك فإن الله يعينه قال عطاء : فلا يحلّ لأحد أن يعين ظالماً ولا يكتب له ولا يصحبه ، وأنه إن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين .

وفي الحديث :

(75/585)

" ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاَقَ لهم دَوَاة أو بَرَى لهم قلماً فيُجمعون في تابوت من حديد فيُرمى به في جهنم " ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ثبّت الله قدميه على الصراط يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه أزلّ الله قدميه على الصراط يوم تَدْحَض فيه الأقدام " وفي الحديث : " من مشى مع ظالم فقد أجرم " فالمشي مع الظالم لا يكون جرماً إلا إذا مشى معه ليعينه ، لأنه ارتكب نهي الله تعالى في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : 2] .

قوله تعالى : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي المدينة خَآئِفاً ﴾ قد تقدم في "طه" وغيرها أن الأنبياء صلوات الله عليهم يخافون ؛ ردّاً على من قال غير ذلك ، وأن الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه ؛ فقيل : أصبح خائفاً من قتل النفس أن يؤخذ بها .

وقيل : خائفاً من قومه أن يسلموه .

وقيل : خائفاً من الله تعالى .

﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف .

وقيل : ينتظر الطلب ؛ وينتظر ما يتحدّث به الناس .

وقال قتادة : "يَتَرَقَّبُ" أي يترقب الطلب .

وقيل : خرج يستخبر الخبر ولم يكن أحد علم بقتل القبطي غير الإسرائيلي .

و ﴿ أَصْبَحَ ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى صار ؛ أي لما قتل صار خائفاً .

ويحتمل أن يكون دخل في الصباح ؛ أي في صباح اليوم الذي يلي يومه .

و ﴿ خَائِفاً ﴾ منصوب على أنه خبر ﴿ أصبح ﴾ ، وإن شئت على الحال ، ويكون الظرف في موضع الخبر .

﴿ فَإِذَا الذي استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر أراد أن يسخره .

والاستصراخ الاستغاثة .

وهو من الصراخ ؛ وذلك لأن المستغيث يصرخ ويصوّت في طلب الغَوْث .

قال :

كُنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فزِعٌ . . .

كَانَ الصُّراخُ له قرعَ الظَّنَابِيب

(76/585)

قيل : كان هذا الإسرائيليّ المستنصر السامريّ استسخره طباخ فرعون في حمل الحطب إلى المطبخ ؛ ذكره القشيري .

و﴿ الَّذِي ﴾ رفع بالابتداء و ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ في موضع الخبر .

ويجوز أن يكون في موضع نصب على الحال .

وأمس لليوم الذي قبل يومك ، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين ، فإذا دخله الألف واللام أو الإضافة تمكن فأعرب بالرفع والفتح عند أكثر النحويين .

ومنهم من يبنيه وفيه الألف واللام .

وحكى سيبويه وغيره أن من العرب من يجري أمس مجرى ما لا ينصرف في موضع الرفع خاصة ، وربما اضطر الشاعر ففعل هذا في الخفض والنصب ؛ قال الشاعر :

لقد رأيتُ عجباً مُذْ أَمْسَا . . .

فخفض بمذ ما مضى واللغة الجيدة الرفع ، فأجرى أمس في الخفض مجراه في الرفع على اللغة

الثانية .

﴿ قَالَ لَهُ موسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ والغويّ الخائب ؛ أي لأنك تشادّ من لا تطيقه .

وقيل : مضلّ بيّن الضلالة ؛ قتلت بسببك أمس رجلاً ، وتدعوني اليوم لآخر .

والغويّ فعيل من أغوى يُغوي ، وهو بمعنى مُغوٍ ؛ وهو كالوجِيع والأليم بمعنى الموجِع والمؤلم .

وقيل : الغويّ بمعنى الغاوي .

أي إنك لغويّ في قتال من لا تطيق دفع شره عنك .

وقال الحسن : إنما قال للقبطيّ : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ في استسخار هذا الإسرائيليّ وهمّ أن يبطش به .

يقال : بَطَش يَبطُش ويبطِش والضم أقيس لأنه فعل لا يتعدى .

﴿ قَالَ يا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي ﴾ قال ابن جبير .

أراد موسى أن يبطش بالقبطيّ فتوهم الإسرائيليّ أنه يريده ؛ لأنه أغلظ له في القول ؛ فقال : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ﴾ فسمع القبطيّ الكلام فأفشاه .

وقيل : أراد أن يبطش الإسرائيليّ بالقبطيّ فنهاه موسى فخاف منه ؛ فقال : ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ ﴾ .

﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ أي ما تريد .

﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ ﴾ أي قتّالاً ؛ قال عكرمة والشعبي : لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق .

﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ أي من الذين يصلحون بين الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(78/585)

وقال أبو حيان :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾

والباء في ﴿ بما أنعمت ﴾ للقسم ، والتقدير : أقسم بما أنعمت به عليّ من المغفرة ، والجواب محذوف ، أي لأتوبن ، ﴿ فلن أكون ﴾ ، أو متعلقة بمحذوف تقديره : اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة ، ﴿ فلن أكون ﴾ إن عصمتني ﴿ ظهيراً للمجرمين ﴾ . وقيل : ﴿ فلن أكون ﴾ دعاء لا خبر ، ولن بمعنى لا في الدعاء ، والصحيح أن لن لا تكون في الدعاء ، وقد استدل على أن لن تكون في الدعاء بهذه الآية ، وبقول الشاعر :

لن تزالوا كذاكم ثم ما زلت . . .

لهم خالداً خلود الجبال

والمظاهرة ، إما بصحبته لفرعون وانتظامه في جملته وتكثير سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون ، وإما أنه أدت المظاهرة إلى القتل الذي جرى على يده .

وقيل : بما أنعمت عليّ من النبوّ ، فلن أستعملها إلاّ في مظاهرة أوليائك ، ولا أدع قبطياً يغلب إسرائيلياً .

واحتج أهل العلم بهذه الآية على منع معونة أهل الظلم وخدمتهم ، نص على ذلك عطاء بن أبي رباح وغيره .

وقال رجل لعطاء : إن أخي يضرب بعلمه ولا يعدو رزقه ، قال : فمن الرأس ، يعني من يكتب له ؟ قال : خالد بن عبد الله القسري ، قال : فأين قول موسى ؟ وتلا الآية : ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً ﴾ من قبل القبطي أن يؤخذ به ، يترقب وقوع المكروه ، به أو الإخبار هل وقفوا على ما كان منه ؟ قيل : خائفاً من أنه يترقب المغفرة .

وقيل : خائفاً يترقب نصرة ربه ، أو يترقب هداية قومه ، أو ينتظر أن يسلمه قومه .

﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس ﴾ : أي الإسرائيلي الذي كان قتل القبطي بسببه .

وإذا هنا للمفاجأة ، وبالأمس يعني اليوم الذي قبل يوم الاستصراخ ، وهو معرب ، فحركة سينه حركة إعراب لأنه دخلته أل ، بخلاف حاله إذا عري منها ، فالحجاز تنبيه إذا كان

معرفة ، وتميم تمنعه الصرف حالة الرفع فقط ، ومنهم من يمنعه الصرف مطلقاً ، وقد يبنى مع أل على سبيل الندور .

قال الشاعر :

(79/585)

وإني حسبت اليوم والأمس قبله . . .

إلى الليل حتى كادت الشمس تغرب

﴿ يستصرخه ﴾ : يصيح به مستغيثاً من قبطيّ آخر ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع . . .

كان الصراخ له قرع الطنابيب

قال له موسى : الظاهر أن الضمير في له عائد على الذي ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ لكونك كنت سبباً في قتل القبطي بالأمس ، قال له ذلك على سبيل العتاب والتأنيب .

وقيل : الضمير في له ، والخطاب للقبطي ، ودل عليه قوله : يستصرخه ، ولم يفهم الإسرائيلي أن الخطاب للقبطي .

﴿ فلما أن أراد أن يبطش ﴾ : الظاهر أن الضمير في أراد ويبطش هو لموسى .

﴿ بالذي هو عدو لهما ﴾ : أي للمستصرخ وموسى وهو القبطي يوهم الإسرائيلي أن قوله : ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ هو على سبيل إرادة السوء به ، وظن أنه يسطو عليه .

قال ، أي الإسرائيلي : ﴿ يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ ، دفعاً لما ظنه من سطو موسى عليه ، وكان تعيين القائل القبطي قد خفي على الناس ، فانتشر في المدينة أن قاتل القبطي هو موسى ، ونمى ذلك إلى فرعون ، فأمر بقتل موسى .

وقيل : الضمير في أراد ويبطش للإسرائيلي عند ذلك من موسى ، وخاطبه بما يقبح ، وأن بعد لما يطرد زيادتها .

وقيل : لو إذا سبق قسم كقوله :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم . . .

لكان لكم يوم من الشر مظلم

وقرأ الجمهور : يبطش ، بكسر الطاء ؛ والحسن ، وأبو جعفر : بضمها .

﴿ إن تريد إلاّ أن تكون جباراً في الأرض ﴾ : وشأن الجبار أن يقتل بغير حق .

وقال الشعبي : من قتل رجلين فهو جبار ، يعني بغير حق ، ولما أثبت له الجبروتية نفى عنه الصلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(80/585)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾

إمَّا قسمٌ محذوفُ الجوابِ أي أقسمُ بإنعامِك عليَّ بالمغفرةِ لأتوبنَّ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ﴾ بعدَ هذا أبداً ﴿ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ وإمَّا استعطافٌ أي بحقِّ إنعامِكَ عليَّ اعصمنِي فلنْ أكونَ معيناً لمن تؤدي معاونتُه إلى الجُرمِ . وعن ابن عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يستثنِ فابتُلِيَ به مرَّةً أُخرى ، وهذا يؤيدُ الأولَ ، وقيل : معناهُ بما أنعمتَ عليَّ من القوَّةِ أعينُ أولياءكَ فلن استعملَها في مُظاهرةِ أعدائِكَ ﴿ فَأَصْبَحَ فِى الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ يترصَّدُ الاستفادةَ أو الأجنادَ ﴿ فَإِذَا الذى اسْتَنصَرَهُ بِالامس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أي يستغيثُه برفعِ الصَّوتِ من الصُّراخ ﴿ قَالَ لَهُ موسى إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي بيِّنُ الغوايةِ تسببتَ لقتلِ رجلٍ وتُقاتلُ آخرَ ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ ﴾ مُوسى ﴿ أَن يَبْطِشَ بِالذى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ أي لموسى وللإسرائيليِّ إذ لم يكن على دينِهما ولأنَّ القِبطَ كانُوا أعداءً لبني إسرائيلَ على الإطلاقِ . وقُرِىء يبطُش بضمِّ الطَّاءِ ﴿ قَالَ ﴾ أي الإسرائيليِّ ظاناً أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام يبطشُ به حسبما يُوهمه تسميتُه إيَّاه غويّاً ﴿ قَالَ يا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالامس ﴾ قالُوا : لما سمعَ القبطيُّ قولَ الإسرائيليِّ علمَ أنَّ موسى هو الذي قتلَ ذلك الفرعونيَّ فانطلق إلى فرعونَ فأخبرَهُ بذلك وأمرَ فرعونُ بقتلِ مُوسى عليه السَّلامُ وقيل

: قاله القبطيُّ ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ أي ما تريدُ ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى الأَرض ﴾ وهو الذي يفعل كُلَّ ما يريدُه من الضربِ والقتلِ ولا ينظرُ في العواقبِ وقيل : المتعظِّمُ الذي لا يتواضعُ لأمرِ الله تعالى ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ بينَ النَّاسِ بالقولِ والفعلِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(81/585)

وقال الآلوسى :

وأما توسيط قال في قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾

فوجهه ظاهر ، والباء في بما للقسم ، وما مصدرية وجواب القسم محذوف أي أقسم بإنعامك علي لأمتنعن عن مثل هذا الفعل .

وقيل : لأتوبن ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ عطف على الجواب ، ولعل المراد بإنعامه تعالى عليه حفظه إياه من شر فرعون ورده إلى أمه وتمييزه على سائر بني إسرائيل ونحو ذلك .

(82/585)

وقيل المراد به مغفرته له وهو غير بعيد ، ومعرفته عليه السلام أنه سبحانه غفر له إذا كان هذا القول قبل النبوة بإلهام أو رؤيا ، والظهير المعين ، والمجرمين جمع مجرم والمراد به من أوقع غيره في الجرم أو من أدت معاونته إلى جرم كالإسرائيلي الذي خاصمه القبطي فأدت معاونته إلى جرم في نظر موسى عليه السلام فيكون في المجرمين مجاز في النسبة للإسناد إلى السبب ، وجوز أن يراد بذلك الكفار وعنى بهم من استغاثه ونحوه بناءً على أنه لم يكن أسلم ، وقيل : أراد بالمجرمين فرعون وقومه ، والمعنى أقسم بإنعامك علي لأتوبن فلن أكون معيناً للكفار بأن أصحبهم وأكثر سوادهم ، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد وكان يسمى ابن فرعون ولا يخفى أن ما تقدم أنسب بالمقام ، وجوز أن تكون الباء للقسم الاستعطافي على أنها متعلقة بفعل دعاء محذوف ، وجملة فلن أكون الخ متفرعة عليه ، والفاء واقعة في جواب الدعاء أو الشرط المقدر أي بحق إنعامك علي اعصمني فلم أكون الخ أو إن عصمتني فلن أكون الخ والقسم الاستعطافي ما أكد به جملة طلبية نحو قولك بالله تعالى زرني وغير الاستعطافي ما أكد به جملة خبرية نحو والله تعالى لأقومن ، وإلى هذا ذهب ابن الحاجب ، وقيل : القسم الاستعطافي ما كان المقسم به مشعراً بعطف وحنو نحو بكرمك الشامل أنعم علي وهو صادق على ما هنا ، وغير

الاستعطافي ما كان المقسم به أعم من ذلك ، وعلى القولين هما قسمان من مطلق القسم ، وظاهر كلام الزمخشري أن المتبادر من القسم ما يؤكد به الكلام الخبري .

(83/585)

وينعقد منه يمين فما يكون المراد به الاستعطاف قسيم له وجعل بعضهم إطلاق القسم على الاستعطافي تجوزاً ، ويبعد إرادة الاستعطاف هنا ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن موسى عليه السلام لم يستثن أي لم يقل إن شاء الله تعالى فابتلى به أي بالكون ظهيراً للمجرمين مرة أخرى وهو ما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا الذى استنصره ﴾ [القصص : 18] الخ لأن الاستثناء لا يناسب الاستعطاف لكون النفي معلقاً بعصمة الله عز وجل ، وجوز أن تكون الباء سببية متعلقة بفعل مقدر يعطف عليه لن أكون الخ وما موصولة ، والمعنى بسبب الذي أنعمته علي من القوة أشكرك فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك ولا أدع قبطياً يغلب إسرائيلياً وهو إلزام لنفسه بنصرة أوليائه عز وجل كالنذر وليس هناك قسم بوجه خلافاً لمن توهم ذلك ولا يخفى أن هذا وإن لم يبعده الأثر لا يخلو عن بعد نظر إلى السباق ، و ﴿ لَنْ ﴾ على جميع الأوجه المذكورة للنفي وفي "البحر" قيل : إنها للدعاء وحكى ابن هشام رده بأن فعل الدعاء لا يسند إلى المتكلم بل إلى المخاطب أو الغائب نحو

يا رب لا عذبت فلاناً ، ويجوز لا عذب الله تعالى عمراً ثم قال ويرده قوله :

ثم لا زلت لكم خالداً خلود الجبال . . .

، ولا يخفى عليك أن كونها للدعاء على الوجه الأخير في الآية غير ظاهر وعلى الوجه الأول لا يخلو عن خفاء فلعل من جعلها للدعاء حمل بما أنعمت عليّ على الاستعطاف وعلق الجار والمجرور بنحو اعصمني وجعل الفاء تفسيرية ولن أكون الخ تفسيراً لذلك المحذوف كما قيل : في قوله تعالى : ﴿ استجبنا لَهُ فَكَشَفْنَا ﴾ [الأنبياء : 84] فليتدبر ، واحتج أهل العلم بهذه الآية على المنع من معونة الظلمة وخدمتهم .

أخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

(84/585)

وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن الوليد الرصافي أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن أخل له كاتب فقال له : إن أخي ليس له من أمور السلطان شيء إلا أنه يكتب له بقلم ما يدخل وما يخرج فإن ترك قلمه صار عليه دين واحتاج وإن أخذ به كان له فيه غنى قال : لمن يكتب ؟ قال : لخالد بن عبد الله القسري قال : ألم تسمع إلى ما قال العبد الصالح : ﴿ رَبِّ بِمَا

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ فلا يهتم أخوك بشيء وليرم بقلمه فإن الله تعالى سيأتيه برزق ، وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حنظلة جابر بن حنظلة الضبي الكاتب قال : قال رجل لعامر يا أبا عمرو إني رجل كاتب أكتب ما يدخل وما يخرج آخذ رزقاً أستغني به أنا وعيالي قال : فلعلك تكتب في دم يسفك قال : لا .

قال : فلعلك تكتب في مال يؤخذ قال : لا .

قال : فلعلك تكتب في دار تهدم قال : لا .

قال : أسمعت بما قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ قال : أبلغت إلى أيا أبا عمرو والله عز وجل لا أخط لهم بقلم أبداً قال والله تعالى لا يدعك الله سبحانه بغير رزق أبداً .

وقد كان السلف يجتنبون كل الاجتناب عن خدمتهم .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سلمة بن نبيط قال بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك فقال : اذهب بعطاء أهل بخارى فأعطهم فقال أعفني فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه فقال له بعض أصحابه : ما عليك أن تذهب فتعطيهم وأنت لا ترزؤهم شيئاً فقال لا أحب أن أعين الظلمة في شيء من أمرهم وإذا صح حديث ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى بهم في جهنم فليبك من علم أنه من أعوانهم على نفسه وليقلع عما

هو عليه قبل حلول رمسه ، ومما يقصم الظهر ما روي عن بعض الأكابر أن خياطاً سأله فقال : أنا ممن يخيط للظلمة فهل أعد من أعوانهم ؟ فقال : لا .

(85/585)

أنت منهم والذي يبيعك الإبرة من أعوانهم فلا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم ، ويا حسرتا على من باع دينه بدنياه واشترى رضا الظلمة بغضب مولاه .

هذا وقد بلغ السيل الزبى وجرى الوادي فطم على القرى .

﴿ فَأَصْبَحَ فِى المدينة خَائِفاً ﴾ وقوع المكروه به ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ يترصد ذلك أو الأخبار هل وقفوا على ما كان منه وكان عليه السلام فيما يروى قد دفن القبطي بعد أن مات في الرمل ، وقيل : خائفاً وقوع المكروه من فرعون يترقب نصرة ربه عز وجل ، وقيل : يترقب أن يسلمه قومه ، وقيل : يرتقب هداية قومه ، وقيل : خائفاً عن ربع عز وجل يترقب المغفرة ، والكل كما ترى ، والمتبادر على ما قيل : أن في المدينة متعلق بأصبح واسم أصبح ضمير موسى عليه السلام وخائفاً خبرها وجملة يترقب خبر بعد خبر أو حال من المضير في خائفاً .

وقال أبو البقاء : يترقب حال مبتدلة من الحال الأولى أو تأكيد لها أو حال من الضمير في

خائفاً اه .

وفيه احتمال كون أصبح تامة واحتمال كونها ناقصة والخبر في المدينة ولا يخفى عليك ما هو الأولى من ذلك ﴿ فَإِذَا الذى استنصره بالامس ﴾ وهو الإسرائيلي الذي قتل عليه السلام القبطي بسببه ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أي يستغيثه من قبطي آخر برفع الصوت من الصراخ وهو في الأصل الصياح ثم تجوز به عن الاستغاثة لعدم خلوها منه غالباً وشاع حتى صار حقيقة عرفية ، وقيل : معنى يستصرخه يطلب إزالة صراخه ، وإذا للمفاجأة وما بعدها مبتدأ وجملة يستصرخه الخبر .

وجوز أبو البقاء كون الجملة حالاً والخبر إذا ، والمراد بالأمس اليوم الذي قبل يوم الاستصراخ ، وفي الحواشي الشهابية إن كان دخوله عليه السلام المدينة بين العشاءين فالأمس مجاز عن قرب الزمان وهو معرب لدخول أل عليه وذلك الشائع فيه عند دخولها ، وقد بنى معها على سبيل الندرة كما في قوله :

وإني حبست اليوم والأمس قبله . . .

إلى الشمس حتى كادت الشمس تغرب

(86/585)

﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ لَهُ موسى ﴾ أي للإسرائيلي الذي يستصرخه ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ ﴾ ضال ﴿ مُّبِينٌ ﴾ بين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر أو لأن عادتك الجدال ، وأختار هذا بعض الأجلة وقال : إن الأول لا يناسب قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ ﴾ الخ لأن تذكر تسببه لما ذكر باعث الأحجام لا الاقدام .

ورد بأن التذكر أمر محقق لقوله تعالى : ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ والباعث له على ما ذكر شفقته على من ظلم من قومه وغيرته لنصرة الحق ، وقيل : إن الضمير في له والخطاب في إنك للقبطي ، ودل عليه قوله : ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ وهو خلاف الظاهر ، ويبعده الإظهار في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾

فإن الظاهر على ذاك به بدل الذي ؛ والبطس الأخذ بصولة وسطوة ، والتنوين في عدو للتفخيم أي عدو عظيم العداوة ولإرادة ذلك لم يضفه ، والمراد بالذي هو عدو لهما القبطي ، وقد كان القبط أعظم الناس عداوة لبني إسرائيل وقيل : عداوته لهما لأنه لم يكن على دينهما ، وقرأ الحسن .

وأبو جعفر ﴿ يَبْطِشَ ﴾ بضم الطاء .

﴿ قَالَ يَا ءادَمُ موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالامس ﴾ قاله الإسرائيل الذي يستصرخه على ما روي عن ابن عباس وأكثر المفسرين وكأنه توهم إرادة البطش به دون القبطي من تسمية موسى عليه السلام إياه غويا ، وقال الحسن : قاله القبطي الذي هو عدو لهما كأنه توهم من قوله للإسرائيلي ﴿ إنك لغوى ﴾ [القصص : 18] أنه الذي قتل القبطي بالأمس له ولا بعد فيه لأن ما ذكر إما إجمال لكلام يفهم منه ذلك أو لأن قوله ذلك لمظلوم انتصر به خلاف الظاهر فلا بعد للانتقال منه لذلك ، والذي في التوراة التي بأيدي اليهود اليوم ما هو صريح في أن هذين الرجلين كانا من بني إسرائيل ، وأما الرجلان اللذان رآهما بالأمس فأحدهما إسرائيلي والآخر مصري ، ووجه أمر العداوة على ذلك بأن هذا الذي أراد عليه السلام أن يبطش به كان ظالماً لمن استصرخه فيكون عدواً له وعاصياً لله تعالى فيكون عدواً لموسى عليه السلام ، ويحتمل أن تكون عداوته لهما لكونه مخالفاً لما هما عليه من الدين وإن كان إسرائيلياً وفيها أيضاً ما هو صريح في أن الظالم هو قائل ذلك .

وأنت تعلم أن هذه التوراة لا يلتفت إليهما فيما يكذب القرآن أو السنة الصحيحة وهي فيما عدا ذلك كسائر أخبار بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب .

نعم قد يستأنس بها لبعض الأمور ثم إن ما فيها من قصة موسى عليه السلام مخالف لما قصه الله تعالى منها هنا ، وفي سائر المواضع زيادة ونقصاً وهو ظاهر لمن وقف عليها ، ولا يخفى

الحكم في ذلك ، وقد خلت هنا عن ذكر مجيء مؤمن آل فرعون ونصحه لموسى عليه السلام وكذا عن ذكر ما يدل على قوله : ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ أي ما تريد ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى الأرض ﴾ وهو الذي يفعل كل ما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب ، وقيل : المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى وأصله على ما قيل : النخلة الطويلة فاستعير لما ذكر إما باعتبار تعاليه المعنوي أو تعظمه .

(88/585)

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي أنه قال : من قتل رجلين أي بغير حق فهو جبار ، ثم تلا هذه الآية ، وأخرج ابن أبي حاتم نحوه عن عكرمة ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(89/585)

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : في الآية دليل على أن الخوف عند الدواهي الكبار لا ينافي الخصوصية ؛ لأنه أمر جبلّي ، لكنه يخف ويهون أمره ، وفيها دليل على جواز الفرار من مواطن الهلاك ، يفرّ من الله إلى الله ، ولا ينافي التوكل ، وقد اختفى صلى الله عليه وسلم من الكفار بغار ثور ، واختفى الحسن البصري من الحَجَّاج ، عند تلميذه حبيب العجمي .

وفيها أيضاً دليل على أن المعصية قد تكون سبباً في نيل الخصوصية ، كأكل آدم من الشجرة ، كان سبباً في نيل الخلافة ، وعُمْرَةِ الأرض ، وما نشأ من صُلبه من الأنبياء والأولياء وجهابذة العلماء ، وكقتل موسى عليه السلام نفساً لم يُؤمر بقتلها ، كان سبباً في خروجه للتربية عند شعيب عليه السلام ، وتهيئته للنبوة والرسالة والاصطفائية ، فكل ما يُوجب التواضع والانكسار يورث التقريب عند الملك الغفار ، والحاصل : أن من سبقت له العناية ، ونال من الأزل مقام المحبوبية ؛ صارت مساوئه محاسن ، ومن سبق له العكس صارت محاسنه مساوئ . اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت . وفي الحديث : « إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب » .

قال في القوت : واعلم أن مسامحة ، الله عز وجل لأوليائه – يعني : في هفواتهم – في ثلاث مقامات : أن يقيمه مَقَامَ حَبيبٍ صَديقٍ ، لِمَا سبق من قدم صدق ، فلا تنقصه الذنوب ؛

لأنه حبيب . المقام الثاني : أن يقيمه مقام الحياء منه ، بإجلال وتعظيم ، فيسمح له ، وتصغر ذنوبه ؛ للإجلال والمنزلة ، ولا يمكن كشف هذا المقام ، إلا أنَّا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر طائفة فقال : « يدفع عنهم مساوئ أعمالهم بمحاسن أعمالهم » المقام الثالث : أن يقيمه مقام الحزن والانكسار ، والاعتراف بالذنب والإكثار ، فإذا نظر حزنه وهمه ، ورأى اعترافه وغمه ، غفر له ؛ حياء منه ورحمة . انتهى انتهى . اهـ وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 4 صـ 240 . 241 ﴾

(90/585)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) ﴾

إعادة ﴿ قال ﴾ أفاد تأكيداً لفعل ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي ﴾ [القصص : 16] .

أعيد القول للتنبيه على اتصال كلام موسى حيث وقع الفصل بينه بجملتي ﴿ فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [القصص : 16] .

ونظم الكلام : قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، رب بما أنعمت فلن أكون ظهيراً

للمجرمين ، وليس قوله ﴿ قال رب بما أنعمت علي ﴾ مستأنفاً عن قوله ﴿ فغفر له ﴾ [القصص : 16] لأن موسى لم يعلم أن الله غفر له إذ لم يكن يوحى إليه يومئذ .

والباء للسببية في ﴿ بما أنعمت علي ﴾ و (ما) موصولة وحذف العائد من الصلة لأنه ضمير مجرور بمثل ما جرّ به الموصول ، والحذف في مثله كثير .

والتقدير : بالذي أنعمت به عليّ .

ويجوز أن تكون (ما) مصدرية وما صدق الإنعام عليه ، هو ما أوتيه من الحكمة والعلم فتميزت عنده الحقائق ولم يبق للعوائد والتقاليد تأثير على شعوره .

فأصبح لا ينظر الأشياء إلا بعين الحقيقة ، ومن ذلك أن لا يكون ظهيراً وعوناً للمجرمين .

وأراد بالمجرمين من يتوسم منهم الإجرام ، وأراد بهم الذين يستذلون الناس ويظلمونهم لأن القبطي أذل الإسرائيلي بغصبه على تحميله الحطب دون رضاه .

ولعل هذا الكلام ساقه مساق الاعتبار عن قتله القبطي وثوقاً بأنه قتله خطأً .

واقتران جملة ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ بالفاء لأن الموصول كثيراً ما يعامل معاملة اسم الشرط فيقترن خبره ومتعلقه بالفاء تشبيهاً له بجزاء الشرط وخاصة إذا كان الموصول مجروراً مقدّماً فإن المجرور المقدّم قد يقصد به معنى الشرطية فيعامل معاملة الشرط كقوله في الحديث (كما تكونوا يول عليكم) بجزم (تكونوا) وإعطائه جواباً

مجزوماً .

والظهير : النصير .

(91/585)

وقد دل هذا النظم على أن موسى أراد أن يجعل عدم مظاهرته للمجرمين جزاء على نعمة الحكمة والعلم بأن جعل شكر تلك النعمة الانتصار للحق وتغيير الباطل لأنه إذا لم يغير الباطل والمنكر وأقرهما فقد صانع فاعلهما ، والمصانعة مظاهرة .

ومما يؤيد هذا التفسير أن موسى لما أصبح من الغد فوجد الرجل الذي استصرخه في أمسه يستصرخه على قبطي آخر أراد أن يبطش بالقبطي وفاء بوعده ربه إذ قال ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ لأن القبطي مشرك بالله والإسرائيلي موحّد .

وقد جعل جمهور من السلف هذه الآية حجة على منع إعانة أهل الجور في شيء من أمورهم .

ولعل وجه الاحتجاج بها أن الله حكاها عن موسى في معرض التنويه به فاقتضى ذلك أنه من القول الحق .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ

أي أصبح خائفاً من أن يطالب بدم القبطي الذي قتله وهو يترقب ، أي يراقب ما يقال في شأنه ليكون متحفزاً للاختفاء أو الخروج من المدينة لأن خبر قتل القبطي لم يفش أمره لأنه كان في وقت تخلو فيه أزقة المدينة كما تقدم ، فلذلك كان موسى يترقب أن يظهر أمر القبطي المقتول .

و(إذا) للمفاجأة ، أي ففاجأه أن الذي استنصره بالأمس يستنصره اليوم .

والتعريف في (الأمس) عوض عن المضاف إليه ، أي بأمسه إذ ليس هو أمساً لوقت نزول الآية .

والاستصراخ : المبالغة في الصراخ ، أي النداء ، وهو المعبر عنه في القصة الماضية بالاستغاثة فخولف بين العبارتين للتفنن .

وقول موسى له ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ تذمر من الإسرائيلي إذ كان استصراخه السالف سبباً في قتل نفس ، وهذا لا يقتضي عدم إجابة استصراخه وإنما هو بمنزلة التشاؤم واللوم عليه في كثرة خصوماته .

والغوي : الشديد الغواية وهي الضلال وسوء النظر ، أي أنك تشاد من لا تطيقه ثم تروم الغوث مني يوماً بعد يوم ، وليس المراد أنه ظالم أو مفسد لأنه لو كان كذلك لما أراد أن يبطش بعدوه .

والبطش : الأخذ بالعنف ، والمراد به الضرب .

وظاهر قوله ﴿ عدو لهما ﴾ أنه قبطي .

وربما جعل عدواً لهما لأن عداوته للإسرائيلي معروفة فاشية بين القبط وأما عداوته لموسى فلأنه أراد أن يظلم رجلاً والظلم عدو لنفس موسى لأنه نشأ على زكاء نفس هيأها الله للرسالة .

، والاستفهام مستعمل في الإنكار .

والجبار : الذي يفعل ما يريد مما يضر بالناس ويؤاخذ الناس بالشدة دون الرفق .

وتقدم في سورة إبراهيم (15) قوله ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ ، وفي سورة مريم (32) قوله ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾

والمعنى : إنك تحاول أن تكون متصرفاً بالانتقام وبالشدة ولا تحاول أن تكون من المصلحين بين الخصمين بأن تسعى في التراضي بينهما .

ويظهر أن كلام القبطي زجر لموسى عن البطش به وصار بينهما حواراً أعقبه مجيء رجل من أقصى المدينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) ﴾

قوله : ﴿ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ [القصص : 17] يعني : بالمغفرة وعذرتني وتُبْت عليَّ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : 17] أي : عهد الله عليَّ ألاَّ أكون مُعيناً للمجرمين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي المدينة ﴾

أي : بعد أن قتل موسى القبطيَّ صار خائفاً منهم ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : 18] . ينظر في وجوه الناس ، يرقب انفعالاتهم نحوه ، فربما جاءوا ليأخذوه ، كما يقولون : يكاد المريب أنْ يقول : خذوني ، فلو جلس قوم في مكان ، ثم فاجأهم رجال الشرطة تراهم مطمئنين لا يخافون من شيء ، أما المجرم فيفر هارباً .

ومن ذلك ما يقوله أهل الريف : (اللي على راسه بطحة يحسس عليها) .

وهو على هذه الحال من الخوف والترقُّب إذ بالإسرائيلي الذي استغاث به بالأمس ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ [القصص : 18] استصرخ يعني : صرخ ، ونادى على مَنْ يُخلّصه ، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم : 22] .

وسبق أن تكلَّمنا في همزة الإزالة نقول : صرخ فلان يعني استنجد بأحد فأصرخه يعني : أزال سبب صراخه ، فمعنى الآية : أنا لا أزيل صراخكم ، ولا أنتم تزيلون صراخي .

عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الذي أوقعه في هذه الورطة بالأمس ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : 18] تريد أنْ تُغوِيَني بأنْ أفعل كما فعلت بالأمس ، وما كان موسى عليه السلام ليقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه ، فلا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرتين .

(94/585)

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ [القصص : 19] يعني : أن موسى حَنَّ مرة أخرى للذي من شيعته وهو الإسرائيلي وناصره ، ولكن الرجل القبطي هذه المرة واجهه ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ﴾ [القصص : 19] فهو يعرف ما حدث من موسى ، وما داموا قد عرفوا أنه القاتل ، فلا بُدَّ لهم أنْ يطلبوه ، وأن ينتقموا منه .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ [القصص : 19] إنْ هنا نافية يعني : ما تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، فقد قتلتَ نفساً بالأمس ، وتريد أنْ تقتلني اليوم .

إذن : عرفوا أن موسى هو القاتل ، وهناك ولا بُدَّ مَنْ يسعى للإمساك به ، وفي هذا الموقف لحقه الرجل المؤمن : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(95/585)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ قال : معيناً للمجرمين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ قال : إن أعين بعدها ظالماً على فجره .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبيد الله بن الوليد الرصافي رضي الله عنه ؛ أنه سأل عطاء بن أبي رباح عن أخ له كاتب ليس يلي من أمور السلطان شيئاً ، إلا أنه يكتب لهم بقلم ما يدخل وما يخرج ، فإن ترك قلمه صار عليه دين واحتجاج ، وإن أخذ

به كان له فيه غنى قال : يكتب لمن ؟ قال : لخالد بن عبد الله القسري قال : ألم تسمع إلى ما قال العبد الصالح ﴿ رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ ؟ فلا يهتم بشيء وليرم بقلمه فإن الله سيأتيه برزق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حنظلة جابر بن حنظلة الكاتب الضبي قال : قال رجل لعامر : يا أبا عمرو أني رجل كاتب ، أكتب ما يدخل وما يخرج ، آخذ ورقاً استغني به أنا وعيالي قال : فلعلك تكتب في دم يسفك ؟ قال : لا . قال : فلعلك تكتب في مال يؤخذ ؟ قال : لا . قال : فلعلك تكتب في دار تهدم ؟ قال : لا . قال : أسمعت بما قال موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ قال : رضي الله عنه قال : صليت إلى جنب ابن عمر رضي الله عنهما العصر ، فسمعته يقول في ركوعه ﴿ رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ .

(96/585)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سلمة بن نبيط رضي الله عنه قال : بعث عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك فقال : اذهب بعطاء أهل بخارى فاعطهم فقال : اعفني فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه فقال له بعض أصحابه : ما عليك أن تذهب فتعطيهم وأنت لا

ترزؤهم شيئاً ؟ فقال : لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18)

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً ﴾ قال : خائفاً أن يؤخذ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ يترقب ﴾ قال : يتلفت .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ يترقب ﴾ قال : يتوحش .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ﴾ قال : هو صاحب موسى الذي استنصره بالأمس .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الذي استنصره : هو الذي استصرخه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ﴾ قال : الاستصراخ : الاستغاثة . قال : والاستنصار والاستصراخ واحد . ﴿ قال له موسى إنك لغوي مبين ﴾ فاقبل عليه موسى عليه السلام فظن الرجل أنه يريد قتله فقال : يا موسى ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾

قال : قبطي قريب منهما يسمعهما فافشى عليهما .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فلما أن أراد أن يبطش ﴾ قال : ظن الذي من شيعته إنما يريده فذلك قوله ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ أنه لم يظهر على قتله أحد غيره . فسمع قوله ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ عدوّهما فأخبر عليه .

(97/585)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي قال : من قتل رجلين فهو جبار ، ثم تلا هذه الآية ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال : لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عمران الجوني قال : آية الجبابرة القتل بغير حق . والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(98/585)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ بِمَآ أَنْعَمْتَ ﴾ : يجوزُ في الباءِ أن تكونَ قَسَماً ، والجوابُ : لأَتُوبَنَّ مقدراً . ويُفَسِّره " فَلَنْ أكونَ " ، وأَنْ تكونَ متعلقةً بمحذوفٍ ، ومعناها السببيَّةُ . أي : اعْصِمْني بسببِ ما أَنْعَمْتَ به عليَّ ، ويترتَّبُ عليه قولُه : " فلن أكونَ ظَهيراً " . و " ما " مصدريةٌ ، أو بمعنى الذي . والعائدُ محذوفٌ . وقوله : " فلن " نفيٌ على حقيقتِه . وزعمَ بعضُهم أنه دعاءٌ ، وأنَّ " لن " واقعةٌ موقعَ " لا " . وأجاز قومٌ ذلك مُسْتَدِلِّينَ بهذه الآية ، وبقولِ الشاعر :

3590 لَنْ تَزالُوا كذلِكُمْ ثُمَّ لا زِلْـ . . . ـتَ لهمْ خالِداً خُلُوْدَ الجبالِ

وليس فيهما دلالةٌ لظهورِ النفيِ فيهما مِنْ غيرِ تقديرِ دعاءٍ ، وإنْ كان في البيت أقوى .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18)

قوله : ﴿ خَآئِفاً ﴾ : الظاهرُ أنه خبرُ " أَصْبح " و " في المدينة " [متعلِّقٌ] به . ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً ، والخبرُ " في المدينة " . ويَضْعُفُ تمامُ " أصبحَ " أي : دَخَل في الصباح .

قوله : ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وأَنْ يكونَ حالاً ثانيةً ، وأن يكونَ بدلاً من

الحالِ الأولى ، أو الخبر الأول ، أو حالاً من الضميرِ في " خائفاً " فتكونُ متداخلةً . ومفعولُ " يترقَّبُ " محذوفٌ ، أي : يترقَّبُ المكروهَ ، أو الفرجَ ، أو الخبر : هل وصل لفرعونَ أم لا ؟

(99/585)

قوله : ﴿ فَإِذَا الذي ﴾ " إذا " فجائيةٌ . و " الذي " مبتدأ . وخبره : إمَّا " إذا " ، ف " يَسْتَصْرِخُه " حالٌ ، وإمَّا " يَسْتَصْرِخُه " ف " إذا " فَضْلةٌ على بابها . و " بالأمس " معربٌ ؛ لأنه متى دَخَلَتْ عليه أل أو أُضيفَ أُعْرِبَ ، ومتى عَرِيَ منهما فحالُه معروفٌ : الحجازُ تَبْنيه ، والتميميُّون يَمْنعونه الصرفَ كقولِه :

3591 لقد رَأَيْتُ عَجَباً مُذْ أَمْسا . . . على أَنَّه قد يبنى مع أل نُدوراً ، كقوله :

3592 وإنِّي حُبِسْتُ اليومَ والأمسِ قبلَه . . . إلى الشمسِ حتى كادَتِ الشمسُ تَغْرُبُ

يروى بكسر السين .

قوله : ﴿ قَالَ لَهُ موسى ﴾ الضميرُ : قيل : للإسرائيليِّ ؛ لأنه كان سبباً في الفتنةِ الأولى . وقيل : للقبطيِّ .

قوله : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ﴾ : الظاهرُ أنَّ الضميرَيْن لموسى . وقيل : للإسرائيليِّ والعدوُّ هو القِبْطي . والضميرُ في " قال يا موسى " للإسرائيليِّ ، كأنه تَوَهَّم مِنْ موسى

مُخاشَنَةً ، فمِنْ ثَمَّ قال كذلك ، وبهذا فشا خبرُه ، وكان مَشْكوكاً في قاتِله .

و" أنْ " تَطَّرِدُ زيادتُها في موضعين ، أحدُهما : بعد " لَمَّا " كهذِه . والثاني قبل " لو " مسبوقةً بقَسَمٍ كقولِه :

3593 أَمَا واللهِ أنْ وكنتُ حُرّاً . . . . . .

. . . . .

[وقولِه] :

3594 فَأُقْسِمُ أَنْ لو التَقَيْنَا وأنتُمُ . . . لكان لنا يومٌ مِنْ الشَّرِّ مُظْلِمُ

والعامَّةُ على " يَبْطِشُ " بالكسرِ . وضَمَّها أبو جعفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 658.660 ﴾

(100/585)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) ﴾

قال موسى ربِّ بما أنعمت عليَّ من توفيقك لي بالتوبة فلن أعودَ بعد ذلك إلى مثل ما سَلَفَ

مني .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18)

أصبح في المدينة خائفاً على نَفْسه من فرعون لأنه كان يَدَّعي أنه يحكم بالعدل ، وخاف موسى أن ينسبه في قَتْلِ القبطيِّ إلى العَمْدِ والقصد . فهو ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ علم فرعون وأن يُخْبَر بذلك في وقته .

وقيل ﴿ خَآئِفاً ﴾ من الله مما جرى منه . ويقال ﴿ خَآئِفاً ﴾ على قومه حلولَ العذابِ بهم . وقيل ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ نصرة الله إياه . ويقال ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ مُؤْنِساً يَأْنُسُ به .

فإذا الذي استنصره بالأمس يخاصِمُ إنساناً آخَرَ ، ويستعين به لِيُعِينَه ، فَهَمَّ موسى . فأن يعين صاحبَه ، فقال الذي يخاصمه . ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ ؟ : قيل لم يعلم ذلك الرجل أن موسى هو الذي قَتَلَ الرجلَ بالأمس ، ولكن لَمَّا قَصَدَ مَنْعَه عن صاحبه استدلَ على أن موسى هو الذي قتل الرجل بالأمس ، فلما ذكر ذلك شاع في أفواه الناس أنَّ موسى هو الذي قتل القبطيَّ بالأمس ، فأمسك موسى عن هذا الرجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 58 ـ 59 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان تقدير الكلام الذي أرشد إليه السياق : فلما سمع الفرعوني قول الإسرائيلي تركه . ثم رقي الكلام إلى أن بيغ فرعون فوقع الكلام في الأمر بقتل موسى عليه الصلاة والسلام ، عطف عليه قوله : ﴿ وجاء رجل ﴾ أي ممن يحب موسى عليه الصلاة والسلام .

ولما كان الأمر مهماً ، يحتاج إلى مزيد عزم وعظم قوة ، قدم فاعل المجيء على متعلقه بخلاف ما في سورة يس .

ولما كان في بيان الاقتدار على الأمور الهائلة من الأخذ بالخناق حتى يقول القائل : لا خلاص ، ثم الإسعاف بالفرج حتى يقول : لا هلاك ، قال واصفاً للرجل : ﴿ من أقصا المدينة ﴾ أي أبعدها مكاناً ، وبين أنه كان ماشياً بقوله : ﴿ يسعى ﴾ ولكنه اختصر طريقاً وأسرع في مشيه بحيث كان يعدو فسبقهم بإعظامه للسعي وتجديد العزم في كل وقت من أوقات سعيه فكأنه قيل : ما فعل ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ منادياً له باسمه تعطفاً وإزالة للبس : ﴿ يا موسى ﴾ وأكد إشارة إلى أن الأمر قد دهم فلا يسع الوقت الاستفصال فقال : ﴿ إن الملأ ﴾ أي أشراف القبط الذين في أيديهم الحل والعقد ، لأن لهم القدرة على الأمر والنهي ﴿ يأتمرون بك ﴾ أي يتشاورون بسببك ، حتى وصل حالهم في تشاورهم إلى أن كلاً منهم يأمر الآخر ويأتمر بأمره ، فكأنه قيل : لم يفعلون ذلك ؟ فقيل : ﴿ ليقتلوك ﴾ لأنهم سمعوا أنك قتلت صاحبهم ﴿ فاخرج ﴾ أي من هذه المدينة ؛ ثم علل ذلك بقوله على سبيل التأكيد ليزيل ما يطرق من احتمال عدم القتل لكونه عزيزاً عند الملك : ﴿ إني لك ﴾ أي خاصة ﴿ من الناصحين ﴾ أي العريقين في نصحك ﴿ فخرج ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام مبادراً ﴿ منها ﴾ أي المدينة لما علم من صدق قوله مما حفّه من القرائن ، حال كونه ﴿ خائفاً ﴾ على نفسه من آل فرعون ﴿ يترقب ﴾ أي يكثر الالتفات بإدراة رقبته في الجهات ينظر هل يتبعه أحد ؛ ثم وصل به على طريق الاستئناف قوله : ﴿ قال ﴾ أي

موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ بالإيجاد والتربية وغير ذلك من وجوه البر ﴿ نجني ﴾ أي خلصني ، مشتق من النجوة ، وهو المكان العالي الذي لا يصل إليه كل أحد ﴿ من القوم الظالمين ﴾ أي الذين يضعون الأمور في غير مواضعها فيقتلون من لا يستحق القتل مع قوتهم ، فاستجاب الله له فوفقه لسلوك الطريق الأعظم نحو مدين ، فكان ذلك سبب نجاته ، وذلك أن الذين انتدبوا إليه قطعوا بأنه لا يسلك الطريق الأكبر ، جرياً على عادة الخائفين الهاربين في المشي

(103/585)

عسافاً ، أو سلوك ثنيات الطريق فانثنوا فيما ظنوه يميناً وشمالاً ففاتهم .

ولما دعا بهذا الدعاء ، أعلم الله تعالى باستجابته منه مخبراً بجهة قصده زيادة في الإفادة فقال : ﴿ ولما ﴾ أي فاستجاب الله دعاءه فنجاه منهم ووجهه إلى مدين ولما ﴿ توجه ﴾ أي أقبل بوجهه قاصداً ﴿ تلقاء ﴾ أي الطريق الذي يلاقي سالكه أرض ﴿ مدين ﴾ مدينة نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام متوجهاً بقلبه إلى ربه ﴿ قال ﴾ أي لكونه لا يعرف الطريق : ﴿ عسى ﴾ أي خليق وجدير وحقيق .

ولما كانت عنايته بالله أتم لما له من عظيم المراقبة ، قال مقدماً له : ﴿ ربي ﴾ أي المحسن إليّ

بعظيم التربية في الأمور المهلكة ﴿ أن يهديني سواء ﴾ أي عدل ووسط ﴿ السبيل ﴾ وهو الطريق الذي يطلعه عليها من غير اعوجاج.

ولما كان التقدير : فوصل إلى المدينة ، بنى عليه قوله : ﴿ ولما ورد ﴾ أي حضر موسى عليه الصلاة والسلام حضور من يشرب ﴿ ماء مدين ﴾ أي الذي يستقي منها الرعاء ﴿ وجد عليه ﴾ أي على الماء ﴿ أمة ﴾ أي جماعة كثيرة هم أهل لأن يَقْصُدوا ويُقصَدوا ، فلذلك هم عالون غالبون على الماء ؛ ثم بين نوعهم بقوله : ﴿ من الناس ﴾ وبين عملهم أيضاً بقوله : ﴿ يسقون ﴾ أي مواشيهم ، وحذف المفعول لأنه غير مراد ، والمراد الفعل ، وكذا ما بعده فإن رحمته عليه الصلاة والسلام لم تكن لكون المذود والمسقي غنماً بل مطلق الذياد وترك السقي ﴿ ووجد من دونهم ﴾ أي وجداناً مبتدئاً من أدنى مكان من مكانهم الآتي إلى الماء ﴿ امرأتين ﴾ عبر بذلك لما جعل لهما سبحانه من المروءة ومكارم الأخلاق كما يعلمه من أمعن النظر فيما يذكر عنها ﴿ تذودان ﴾ أي توجدان الذود ، وهو الكف والمنع والطرد وارتكاب أخف الضررين ، فتكفان أغنامهما إذا نزعت من العطش إلى الملأ لئلا تخلط بغنم الناس .

(104/585)

ولما كان هذا حالاً موجباً للسؤال عنه ، كان كأنه قيل : فما قال لهما ؟ قيل : ﴿ قال ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام رحمة لهما : ﴿ ما خطبكما ﴾ أي خبركما ومخطوبكما أي مطلوبكما ، وهو كالتعبير بالشأن عن المشؤون الذي يستحق أن يقع فيه التخاطب لعظمه ، في ذيادكما لأغنامكما عن السقي ؛ قال أبو حيان : والسؤال بالخطب إنما يكون في مصاب أو مضطهد .

ولما كان من المعلوم أن سؤاله عن العلة ﴿ قالتا ﴾ أي اعتذاراً عن حالهما ذلك ؛ وتلويحاً باحتياجهما إلى المساعدة : ﴿ لا ﴾ أي خبرنا أنا لا ﴿ نسقي ﴾ أي مواشينا ، وحذفه للعلم به ﴿ حتى يصدر ﴾ أي ينصرف ويرجع ﴿ الرعاء ﴾ أي عن الماء لئلا يخالطهم - هذا على قراءة أبي عمرو وابن عامر بفتح الياء وضم الدال ثلاثياً ، والمعنى على قراءة الباقين بالضم والكسر : يوجدوا الرد والصرف .

ولما كان التقدير : لأنا من النساء ، وكان المقام يقتضي لصغر سنهما أن لهما أباً ، وأن لا إخوة لهما وإلا لكفوهما ذلك ، عطفتا على هذا المقدر قولهما : ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ أي لا يستطيع لكبره أن يسقي ، فاضطررنا إلى ما ترى ، وهذا اعتذار أيضاً عن كون أبيهما أرسلهما لذلك لأنه ليس بمحظور ، فلا يأباه الدين ، والناس مختلفون في ذلك بحسب المروءة ، وعاداتهم فيها متباينة وأحوال العرب والبدو تباين أحوال العجم والحضر ، لا سيما إذا دعت إلى ذلك ضرورة ﴿ فسقى ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ لهما ﴾ لما علم

ضرورتهما ، انتهازاً لفرصة الأجر وكرم الخلق في مساعدة الضعيف ، مع ما به من النصب والجوع ﴿ ثم تولى ﴾ أي انصرف موسى عليه الصلاة والسلام جاعلاً ظهره يلي ما كان يليه وجهه ﴿ إلى الظل ﴾ أي ليقيل تحته ويستريح ، مقبلاً على الخالق بعد ما قضى من نصيحة الخلائق ، وعرفه لوقوع العلم بأن بقعة لا تكاد تخلو من شيء له ظل ولا سيما أماكن المياه ﴿ فقال ﴾ لأنه ليس في الشكوى إلى المولى العلي الغني المطلق نقص ﴿ رب ﴾ .

(105/585)

ولما كان حاله في عظيم صبره حاله من لا يطلب ، أكد سؤاله إعلاماً بشديد تشوقه لما سأل فيه وزيادة في التضرع والرقة ، فقال : ﴿ إني ﴾ ولأكد الافتقار بالإلصاق باللام دون " إلى " فقال : ﴿ لما ﴾ أي لأي شيء .

ولما كان الرزق الآتي إلى الإنسان مسبباً عن القضاء الآتي عن العلي الكبير ، عبر بالإنزال وعبر بالماضي تعميماً لحالة الافتقار ، وتحققاً لإنجاز الوعد بالرزق فقال : ﴿ أنزلت ﴾ ولعله حذف العائد اختصاراً لما به من الإعياء ﴿ إليّ من خير ﴾ أي ولو قل ﴿ فقير ﴾ أي مضرور ، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان قد بلغ من الضر أن اخضر بطنه من أكل البقل وضعف حتى لصق بطنه بظهره .

فانظر إلى هذين النبيين عليهما الصلاة والسلام في حالهما في ذات يدهما ، وهما خلاصة ذلك الزمان ، ليكون لك في ذلك أسوة ، وتجعله إماماً وقدوة ، وتقول : يا بأبي وأمي ! ما لقي الأنبياء والصالحون من الضيق والأهوال في سجن الدنيا ، صوناً لهم منها وإكراماً من ربهم عنها ، رغعة لدرجاتهم عنده ، واستهانة لها وإن ظنه الجاهل المغرور على غير ذلك ، وفي القصة ترغيب في الخير ، وحث على المعاونة على البر ، وبعث على بذل المعروف مع الجهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 474. 477 ﴾

(106/585)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾

قال صاحب "الكشاف" يسعى يجوز ارتفاعه وصفاً لرجل ، وانتصابه حالاً عنه ، لأنه قد تخصص بقوله : ﴿ مِنْ أَقْصَى المدينة ﴾ والائتمار التشاور يقال الرجلان (يتآمران) يأتمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى يتشاورون بسببك .

وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون ، فعلى وجه الإشفاق أسرع إليه

ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك .

أما قوله : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي خائفاً على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ ، ثم التجأ إلى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطي لم يكن ذنباً ، وإلا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم إياه ليقتلوه قصاصاً .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)

(107/585)

اعلم أن الناس اختلفوا في قوله : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ فال بعضهم إنه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه إلى الله تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله تعالى إلى مدين ، وهذا قول ابن عباس ، وقال آخرون لما خرج قصد مدين لأنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وهو كان من بني إسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى ، ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام ، وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدي لما أخذ موسى عليه السلام في المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح ، فقال لا تفعل واتبعني

فاتبعه نحو مدين ، واحتج من قال إنه خرج وما قصد مدين بأمرين : أحدهما : قوله : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ ﴾ ولو كان قاصداً للذهاب إلى مدين لقال ، ولما توجه إلى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال : ﴿ تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ ﴾ علمنا أنه لم يتوجه إلا إلى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب إلى أين ينتهي والثاني : قوله : ﴿ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاء السبيل ﴾ وهذا كلام شاك لا عالم والأقرب أن يقال إنه قصد الذهاب إلى مدين وما كان عالماً بالطريق .

ثم إنه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لأنه يبعد من موسى عليه السلام في عقله وذكائه أن لا يسأل ، ثم قال ابن إسحاق خرج من مصر إلى مدين بغير زاد ولا ظهر ، وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر .

(108/585)

أما قوله : ﴿ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاء السبيل ﴾ فهو نظير قول جده إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلى رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الصافات : 99] وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاماً في الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع إلا ما ذكره إبراهيم عليه السلام ، وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين المطهرين

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ وهو الماء الذي يسقون منه وكان بئراً فيما روي وورده مجيئه والوصول إليه ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي فوق شفيره ومستقاه ﴿ أُمَّةٍ ﴾ جماعة كثيرة العدد ﴿ مِنَ الناس ﴾ من أناس مختلفين ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ في مكان أسفل من مكانهم ﴿ امرأتين تَذُودَانِ ﴾ والذود الدفع والطرد فقوله (تذودان) أي تحبسان ثم فيه أقوال : الأول : تحبسان أغنامهما واختلفوا في علة ذلك الحبس على وجوه : أحدها : قال الزجاج لأن على الماء من كان أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي وثانيها : كانتا تكرهان المزاحمة على الماء وثالثها : لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم ورابعها : لئلا تختلطا بالرجال القول الثاني : كانتا تذودان عن وجوههما نظراً الناظر ليراهما والقول الثالث : تذودان الناس عن غنمهما القول الرابع : قال الفراء تحبسانها عن أن تتفرق وتتسرب ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطباً كما يسمى المشئون شأناً في قولك ما شأنك ﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ وذلك يدل على ضعفهما عن السقي من وجوه : أحدها : أن العادة في السقي للرجال ، والنساء يضعفن عن ذلك وثانيها : ما ظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير وثالثها : قولهما حتى يصدر الرعاء ورابعها : انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء وخامسها : قولهما : ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ ودلالة ذلك على أنه لو كان قوياً حضر ولو حضر لم يتأخر السقي ،

فعند ذلك سقى لهما قبل صدر الرعاء ، وعادتا إلى أبيهما قبل الوقت المعتاد .

قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال ، وقرأ الباقون بضم الياء ، وكسر الدال فالمعنى في القراءة الأولى حتى ينصرفوا عن الماء ويرجعوا عن سقيهم وصدر ضد ورد ، ومن قرأ بضم الياء فالمعنى في القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم .

أما قوله : ﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ أي سقى غنمهما لأجلهما ، وفي كيفية السقي أقوال : أحدها : أنه عليه السلام سأل القوم أن يسمحوا فسمحوا وثانيهما : قال قوم عمد إلى بئر على رأسه صخرة لا يقلها إلا عشرة ، وقيل أربعون ، وقيل مائة فنحاها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر وثالثها : أن القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا إلقاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك في القرآن ، والله أعلم بالصحيح منه ، لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على أنها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ وفيه دلالة على أنه سقى لهما في شمس وحر ، وفيه دلالة أيضاً على كمال قوة موسى عليه السلام ، قال الكلبي : أتى موسى أهل الماء فسألهم دلواً من ماء ، فقالوا له إن شئت ائت الدلو فاستق

لهما قال نعم ، وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلاً حتى يخرجوه من البئر فأخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب في الحوض ودعا بالبركة ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما .

(110/585)

فإن قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية ؟ قلنا ليس في القرآن ما يدل على أن أباهما كان شعيباً والناس مختلفون فيه ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما إن أباهما هو يبرون ابن أخي شعيب وشعيب مات بعدما عمي وهو اختيار أبي عبيد وقال الحسن إنه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب على أنا وإن سلمنا أنه كان شعيباً عليه السلام لكن لا مفسدة فيه لأن الدين لا يأباه ، وأما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر ، لا سيما إذا كانت الحالة حالة الضرورة .

وأما قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فالمعنى إني لأي شيء أنزلت إلي من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير ، وإنما عدى فقيراً باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب .

واعلم أن هذا الكلام يدل على الحاجة ، إما إلى الطعام أو إلى غيره ، إلا أن المفسرين حملوه

على الطعام قال ابن عباس يريد طعاماً يأكله ، وقال الضحاك مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض ، وروي أن موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك ، فإن قيل إنه عليه السلام لما بقي معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم ، فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام ، أليس أنه عليه السلام قال : " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي قوة سوي " ؟ قلنا أما رفع الصوت بذلك لإسماع المرأتين وطلب الطعام فذاك لا يليق بموسى عليه السلام ألبتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى ، وفي الآية وجه آخر كأنه قال رب إني بسبب ما أنزلت إلي من خير الدين صرت فقيراً في الدنيا لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، فقال ذلك رضي بهذا البدل وفرحاً به وشكراً له ، وهذا التأويل أليق بحال موسى عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 203 . 206 ﴾

(111/585)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ إنَّمَا سَأَلَهُمَا شَفَقَةً مِنْهُ عَلَيْهِمَا وَرِقَّةً ؛ وَلَمْ تَكُنْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَوْ فِي ذَلِكَ الشَّرْعِ حَجَبَةٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ يَعْنِي لِضَعْفِنَا لَا نَسْقِي إلَّا مَا فَضَلَ عَنْ الرِّعَاءِ مِنْ الْمَاءِ فِي الْحَوْضِ .

وَقِيلَ : كَانَ الْمَاءُ يَخْرُجُ مِنْ الْبِئْرِ ، فَإِذَا كَمُلَ سَقْيُ الرِّعَاءِ رَدُّوا عَلَى الْبِئْرِ حَجَرَهَا ، فَإِنْ وُجِدَ فِي الْحَوْضِ بَقِيَّةٌ كَانَ ذَلِكَ سَقْيَهُمَا ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ بَقِيَّةٌ عَطِشَتْ غَنَمُهُمَا ؛ فَرَقَّ لَهُمَا مُوسَى ، وَرَفَعَ الْحَجَرَ ، وَكَانَ لَا يَرْفَعُهُ عَشَرَةٌ ، وَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ رَدَّهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُمَا لِأَبِيهِمَا : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(112/585)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾

قال الضحاك : هو مؤمن آل فرعون . وقال شعيب : اسمه شمعون . وقال محمد بن اسحاق

: شمعان . وقال الضحاك والكلبي : اسمه حزقيل بن شمعون . قال الكلبي : هو ابن عم فرعون أخي أبيه .

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ فيه تأويلان

: أحدهما : يتشاورون في قتلك ، قاله الكلبي ، ومنه قول النمر بن تولب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة . . . وفي كل حادثة يؤتمر

الثاني : يأمر بعضهم بعضاً بقتلك ومنه قوله ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [الطلاق : 6] أي ليأمر بعضكم بعضاً وكقول امرىء القيس :

أحارِ بن عمرٍو كأني خَمِرْ . . . ويعدو على المرء ما يأتمر

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾

قال عكرمة : عرضت لموسى أربع طرق فلم يدر أيتها يسلك .

﴿ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴾ وفيه وجهان

: أحدهما : أنه قال ذلك عند استواء الطرق فأخذ طريق مدين ، قاله عكرمة .

الثاني : أنه قال ذلك بعد أن اتخذ طريق مدين فقال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل أي قصد الطريق إلى مدين ، قاله قتادة والسدي . قال قتادة : مدين ماء كان عليه قوم شعيب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ قال ابن عباس : لما خرج موسى من مصر إلى مدين

وبينه وبينهما ثماني ليل ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر وخرج حافياً فما وصل إليها حتى وقع خف قدميه .

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ ﴾ أي جماعة . قال ابن عباس : الأمة أربعون .

﴿ يَسْقُونَ ﴾ يعني غنمهم ومواشيهم .

﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تحبسان ، قاله قطرب ، ومنه قول الشاعر :

أبيتُ على باب القوافي كأنما . . . أذود بها سِرباً من الوحش نُزَّعا

الثاني : تطردان . قال الشاعر :

(113/585)

لقد سلبت عصاك بنو تميم . . . فما تدري بأيِّ عصى تذود

وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهما تحبسان غنمهما عن الماء لضعفهما عن زحام الناس . قاله أبو مالك والسدي .

الثاني : أنهما تذودان الناس عن غنمهما ، قاله قتادة .

الثالث : تمنعان غنمهما أن تختلط بغنم الناس ، حكاه يحيى بن سلام .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما شأنكما ، وفي الخطب تضخيم الشيء ومنه الخطبة لأنها من الأمر المعظم .

﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ والصدور الانصراف ، ومنه الصّدر لأن التدبير يصدر عنه ، والمصدر لأن الأفعال تصدر عنه . والرعاء جمع راع .

وفي امتناعهما من السقي حتى يصدر الرعاء وجهان :

أحدهما : تصوناً عن الاختلاط بالرجال .

الثاني : لضعفهما عن المزاحمة بماشيتهما .

﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ وفي قولهما ذلك وجهان

: أحدهما : أنهما قالتا ذلك اعتذاراً إلى موسى عن معاناتهما سقي الغنم بأنفسهما .

الثاني : قالتا ذلك ترقيقاً لموسى ليعاونهما .

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنه زحم القوم عن الماء حتى أخرجهم عنه ثم سقى لهما ، قاله ابن إسحاق .

الثاني : أنه أتى بئراً عليه صخرة لا يقلها من أهل مدين إلا عشرة فاقتلعها بنفسه وسقى لهما . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ولم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ قال السدي : إلى ظل الشجرة وذكر أنها سَمُرة

. ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : قال موسى ذلك وقد لصق بطنه بظهره من الجوع وهو فقير إلى شق تمرة ولو شاء إنسان لنظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع .

قال الضحاك : لأنه مكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً إلاّ بقل الأرض ؛ فعرض لهما بحاله فقال ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : شبعة من طعام ، قاله ابن عباس .

الثاني : شبعة يومين ، قاله ابن جبير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(114/585)

وقال ابن عطية :

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾

وروى ابن جريج أن اسم الرجل الساعي ﴿ من أقصى المدينة ﴾ شمعون ، وقال ابن إسحاق : شمعان .

قال الفقيه القاضي أبو محمد : والثبت في هذا ونحوه بعيد .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)

ولما خرج موسى عليه السلام فاراً بنفسه منفرداً حافياً لا شيء معه ، رأى حاله وعدم معرفته بالطريق وخلوه من الزاد وغيره فأسند أمره إلى الله تعالى و ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ ، وهذه الأقوال منه تقتضي أنه كان عارفاً بالله تعالى عالماً بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالى ، و ﴿ توجه ﴾ ، رد وجهه إليها ، و ﴿ تلقاء ﴾ معناه ناحية ، أي إلى الجهة التي يلقى فيها الشيء المذكور ، و ﴿ سواء السبيل ﴾ معناه وسطه وقويمه ، وفي هذا الوقت بعث الله تعالى الملك المسدد حسبما ذكرناه قبل وقال مجاهد : أراد ب ﴿ سواء السبيل ﴾ طريق مدين وقال الحسن : أراد سبيل الهدى .

(115/585)

قال القاضي أبو محمد : وهذا أبدع ونظيره قول الصديق عن النبي صلى الله عليه وسلم " هذا الذي يهديني السبيل " الحديث ، فمشى عليه السلام حتى ورد ﴿ مدين ﴾ أي بلغها ، و" وروده الماء " معناه بلغه لا أنه دخل فيه ، ولفظ " الورود " قد تكون بمعنى الدخول في المورود ، وقد تكون الإطلال عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل فيه فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه ، وهذه الوجوه في اللفظة تتأول في قوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] ، و ﴿ مدين ﴾ لا ينصرف إذ هي بلدة معروفة ، و" الأمة " الجمع

الكثير ، و﴿ يسقون ﴾ معناه ماشيتهم ، و﴿ من دونهم ﴾ معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها فوصل إلى " المرأتين " قبل وصوله إلى الأمة وهكذا هما ﴿ من دونهم ﴾ بالإضافة إليه ، و﴿ تذودان ﴾ معناه تمنعان وتحبسان ، ومنه قوله عليه السلام " فليذادن رجال عن حوضي " الحديث ، وشاهد الشعر في ذلك كثير ، وفي بعض المصاحف " امرأتين حابستين تذودان " ، واختلف في المذود ، فقال عباس وغيره ﴿ تذودان ﴾ غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء ، وقال قتادة ﴿ تذودان ﴾ الناس عن غنمهما ، فلما رأى موسى عليه السلام انتزاح المرأتين ﴿ قال ما خطبكما ﴾ أي ما أمركما وشأنكما ، وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب أو مضطهدٍ أو من يشفق عليه أو يأتي بمنكر من الأمر فكأنه بالجملة في شر فأخبرتاه بخبرهما ، وأن أباهما ﴿ شيخ كبير ﴾ فالمعنى أنه لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا يقدران على مزاحمة الأقوياء وأن عادتهما التأني حتى يصدر الناس عن الماء ويخلى ، وحينئذ تردان ، وقالت فرقة كانت الآبار مكشوفة وكان زحم الناس يمنعهما ، فلما أراد موسى أن يسقي لهما زحم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى ، فعن هذا الغلب الذي كان منه ، وصفته إحداهما بالقوة ، وقالت فرقة : بل كانت آبارهم على أفواهها حجارة كبار وكان ورود المرأتين تتبع ما

في صهاريج الشرب من الفضلات التي تبقى للسقاة وأن موسى عليه السلام عمد إلى بئر كانت مغطاة والناس يسقون من غيرها وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة ، قاله ابن زيد ، وقال ابن جريج : عشرة ، وقال ابن عباس : ثلاثون ، وقال الزجاج : أربعون ، فرفعه موسى وسقى للمرأتين ، فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة ، وقيل إن بئرهم كانت واحدة وإنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات ، وقرأ الجمهور " نسقي " بفتح النون ، وقرأ طلحة " نُسقي " بضمها ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر " حتى يَصدُر " بفتح الياء وضم الدال وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وقتادة ، وقرأ الباقون " يُصدِر " بضم الياء وكسر الدال على حذف المفعول تقديره مواشيهم وحذف المفعول كثير في القرآن والكلام ، وهي قراءة الأعرج وطلحة والأعمش وابن أبي إسحاق وعيسى ، و﴿ الرعاء ﴾ جمع راع ، و﴿ تولى ﴾ موسى عليه السلام إلى ظل سمرة قاله ابن مسعود ، وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله ﴿ رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير ﴾ ، ولم يصرح بسؤال ، هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله ، قال ابن عباس : وكان قد بلغ به الجوع واخضر لونه من أكل البقل وضعف حتى لصق بطنه بظهره ، ورئيت خضرة البقل في بطنه وإنه لأكرم الخلق يومئذ على الله ، وروي أنه لم يصل إلى مدين حتى

سقط باطن قدمه ، وفي هذا معتبر وحاكم بهوان الدنيا على الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(117/585)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾

وأقصى المدينة : آخرها وأبعدها ، ويسعى : بمعنى يُسرع .

قال ابن عباس : وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون ، وسيأتي الخلاف في اسمه في سورة [المؤمن : 28] .

فأمّا الملأ ، فهم الوجوه من الناس والأشراف .

وفي قوله : ﴿ يأتمرون بك ﴾ ثلاثة اقوال .

أحدها : يتشاورون فيك ليقتلوك ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : يَهُمُّون بك ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : يأمر بعضهم بعضاً بقتلك ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ فخرج منها ﴾ أي : من مصر ﴿ خائفاً ﴾ وقد مضى تفسيره [القصص

: 18] .

قوله تعالى : ﴿ نجّني مِنَ القومِ الظالمين ﴾ يعني المشركين أهل مصر .

﴿ ولمَّا توجَّه تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ قال ابن قتيبة : أي : تِجَاهَ مَدْيَن ونحوَها وأصله : اللِّقاء ، وزيدت فيه التاء ، قال الشاعر :

[أَمَّلْتُ خَيْرَكَ هل تأتي مَواعِدُهُ] . . .

فاليومَ قَصَّرَ عن تِلْقَائك الأَملُ

أي : عن لقائك .

قال المفسرون : خرج خائفاً بغير زاد ولا ظَهْر ، وكان بين مصر ومَدْيَن مسيرة ثمانية أيام ، ولم يكن له بالطريق عِلْم ، ف ﴿ قال عسى ربِّي أن يَهْدِيَني سَواءَ السَّبيل ﴾ أي : قَصْدَه .

قال ابن عباس : لم يكن له عِلْم بالطريق إلاَّ حُسْن ظنّه بربّه .

وقال السدي : بعث الله له مَلَكاً فدلَّه ، قالوا : ولم يكن له في طريقه طعام إلا ورق الشجر ، فورد ماءَ مَدْيَن وخُضرةُ البقل تتراءى في بطنه من الهُزَال ؛ والأُمَّة : الجماعة ، وهم الرعاة ، ﴿ يَسْقون ﴾ مواشيهم ﴿ ووَجد مِنْ دونهم ﴾ أي من سوى الأُمَّة ﴿ امرأتين ﴾ وهما ابنتا شعيب ؛ قال مقاتل : واسم الكبرى : صبورا والصغرى : عبرا ﴿ تذودان ﴾ قال ابن قتيبة : أي : تكُفَّان غَنَمهما ، فحذف الغنم اختصاراً .

قال المفسرون : وإنما فَعَلَتا ذلك ليَفْرُغ الناس وتخلوَ لهما البئر ، قال موسى : ﴿ ما خَطْبُكما ﴾ أي : ما شأنكما لا تسقيان ؟ ! ﴿ قالتا لا نَسْقِي ﴾ وقرأ ابن مسعود ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر ، وابن السميفع : ﴿ لا نُسقي ﴾ برفع النون ﴿ حتى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو جعفر : "يَصْدُرَ" بفتح الياء وضم الدال ، أي حتى يرجع الرِّعاء .

وقرأ الباقون ﴿ يُصْدِرَ ﴾ بضم الياء وكسر الدال ، أرادوا : حتى يَرُدَّ الرِّعاء غنمهم عن الماء ، والرِّعاء : جمع راعٍ ، كما يقال : صاحب وصِحاب .

وقرأ عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : ﴿ الرُّعَاءُ ﴾ بضم الراء ، والمعنى : نحن امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ لا يَقْدِر أن يَسْقيَ ما شيته من الكِبَر ؛ فلذلك احْتَجْنَا نحن إلى أن نسقيَ ، وكان على تلك البئر صخرة عظيمة ، فإذا فرغ الرِّعاء مِنْ سَقيهم أعادوا الصخرة ، فتأتي المرأتان إلى فضول حياض الرِّعاء فتَسْقيان غنمهما .

﴿ فسقى لهما ﴾ موسى .

وفي صفة ما صنع قولان .

أحدهما : أنه ذهب إلى بئر أُخرى عليها صخرة لا يقتلعها إلا جماعة من الناس ، فاقتلعها

وسقى لهما ، قاله عمر بن الخطاب ، وشُرَيح .

والثاني : أنه زاحم القوم على الماء ، وسقى لهما ، قاله ابن إِسحاق ، والمعنى : سقى غنمهما لأجلهما .

﴿ ثم تولَّى ﴾ أي : انصرف ﴿ إِلى الظِّلِّ ﴾ وهو ظِل شجرة ﴿ فقال ربِّ إِنِّي لِمَا ﴾ اللام بمعنى إِلى ، فتقديره : إِنِّي إِلى ما ﴿ أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وأراد بالخير : الطعام . وحكى ابن جرير : أنه أسمع المرأتين هذا الكلام تعريضاً أن تُطْعِماه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(119/585)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾

قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ؛ ذكره الثعلبيّ .

وقيل : طالوت ؛ ذكره السهيليّ .

وقال المهدويّ عن قتادة : شمعون مؤمن آل فرعون .

وقيل : شمعان ؛ قال الدَّارَقُطْنِيّ : لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون .

وروي أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخبر ؛ ف ﴿ قَالَ يا موسى إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي يتشاورون في قتلك بالقبطيّ الذي قتلته بالأمس .

وقيل : يأمر بعضهم بعضاً .

قال الأزهريّ : ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً ؛ نظيره قوله : ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق : 6] .

وقال النمر بن تولب :

أرى الناسَ قد أحدثوا شِيمةً . . .

وفي كل حادثةٍ يُؤْتَمَرْ

﴿ فاخرج إِنِّي لَكَ مِنَ الناصحين .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي ينتظر الطلب .

﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ .

وقيل : الجبار الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر في العواقب ، ولا يدفع بالتي هي أحسن .

وقيل : المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عسى ربي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السبيل ﴾ لما خرج

موسى عليه السلام فارّاً بنفسه منفرداً خائفاً ، لا شيء معه من زاد ولا راحة ولا حذاء نحو مدين ، للنّسب الذي بينه وبينهم ؛ لأن مدين من ولد إبراهيم ، وموسى من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق ، وخلوه من زاد وغيره ، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله : ﴿ عسى ربي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السبيل ﴾ وهذه حالة المضطر .

قلت : روي أنه كان يتقوّت ورق الشجر ، وما وصل حتى سقط خُفّ قدميه .

قال أبو مالك : وكان فرعون وجّه في طلبه وقال لهم : اطلبوه في ثنيات الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق .

(120/585)

فجاءه ملك راكباً فرساً ومعه عنزة ، فقال لموسى : اتبعني فاتبعه فهداه إلى الطريق ، فيقال : إنه أعطاه العَنَزة فكانت عصاه .

ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعي الغنم من مدين .

وهو أكثر وأصح .

قال مقاتل والسّدي : إن الله بعث إليه جبريل ؛ فالله أعلم .

وبين مدين ومصر ثمانية أيام ؛ قاله ابن جبير والناس .

وكان مُلْك مدين لغير فرعون .

فيه أربع وعشرون مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أي بلغها .

وورودُه الماء معناه بلغه لا أنه دخل فيه .

ولفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في المورود ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل .

فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه ؛ ومنه قول زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمَامُهُ . . .

وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

وقد تقدّمت هذه المعاني في قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] .

ومدين لا تنصرِف إذ هي بلدة معروفة .

قال الشاعر :

رُهبانُ مدينَ لو رأوكِ تَنَزَّلُوا . . .

والعُصْمُ من شَعَفِ الجبالِ الفَادِرِ

وقيل : قبيلة من ولد مدين بن إبراهيم ؛ وقد مضى القول فيه في "الأعراف" .

والأمة : الجمع الكثير .

و﴿ يَسْقُونَ ﴾ معناه ماشيتهم .

و﴿ مِن دُونِهِمُ ﴾ معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها ، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمّة ، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان ، ومنه قوله عليه السلام : " فلَيُذَادَنَّ رجالٌ عن حوضي " وفي بعض المصاحف : ﴿ امرأتين حابستين تذودان ﴾ يقال : ذاد يذود إذا (حبس) .

وذُدت الشيء حبسته ؛ قال الشاعر :

أَبيت على باب القَوَافِي كأَنَّمَا . . .

أذُودُ بها سِرْباً من الوحشِ نُزَّعَا

أي أحبس وأمنع .

وقيل : ﴿ تَذُودَانِ ﴾ تطردان ؛ قال :

لقد سَلبتْ عصاك بنو تميم . . .

فما تَدْرِي بأيِّ عصاً تَذُودُ

أي تطرد وتكفّ وتمنع .

ابن سلام : تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس ؛ فحذف المفعول : إما إيهاماً على المخاطب ، وإما استغناء بعلمه .

قال ابن عباس : تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء .

قتادة : تذودان الناس عن غنمهما ؛ قال النحاس : والأوّل أولى ؛ لأن بعده ﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ ولو كانتا تذودان عن غنمهما الناس لم تخبرا عن سبب تأخير سقيهما حتى يصدر الرعاء .

فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي شأنكما ؛ قال رؤبة :

يا عَجباً ما خَطْبُه وخَطبِي . . .

ابن عطية : وكان استعمال السؤال بالخَطْب إنما هو في مصاب ، أو مضطهد ، أو من يشفق عليه ، أو يأتي بمنكر من الأمر ، فكأنه بالجملة في شر ؛ فأخبرتاه بخبرهما ، وأن أباهما شيخ كبير ؛ فالمعنى : لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه ، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء ، وأن عادتهما التأّني حتى يُصدِر الناسُ عن الماء ويخلى ؛ وحينئذٍ تَرِدان .

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو : ﴿ يَصْدُرَ ﴾ من صَدَرَ ، وهو ضد وَرَدَ أي يرجع الرِّعاء .

والباقون ﴿ يُصْدِرَ ﴾ بضم الياء من أصدر ؛ أي حتى يصدروا مواشيهم من وِرْدهم .

والرِّعاء جمع راع؛ مثل تاجر وتِجار، وصاحب وصِحاب.

قالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زحْم الناس يمنعهما، فلما أراد موسى أن يسقي لهما زَحَم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغَلَب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوّة.

وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فُضَالتهم في الصّهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما، فرَقَّ لهما موسى، فعمد إلى بئر كانت مغطّاة والناس يسقون من غيرها، وكان حَجَرها لا يرفعه إلا سبعة، قاله ابن زيد.

ابن جريج: عشرة.

ابن عباس: ثلاثون.

الزجاج: أربعون؛ فرفعه.

وسقى للمرأتين؛ فعن رفع الصخرة وصفته بالقوّة.

(122/585)

وقيل: إن بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة، إذا كانت عادة المرأتين شرب الفضلات.

روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال ، فجاء موسى فاقتلعها واستقى ذنُوباً واحداً لم تحتج إلى غيره فسقى لهما .

الثانية : إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لابنيته بسقي الماشية ؟ قيل له : ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه ؛ وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك ، والعادة متباينة فيه ، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر ، خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ إلى ظل سَمُرَة ؛ قاله ابن مسعود .

وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله : ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ وكان لم يذق طعاماً سبعة أيام ، وقد لصق بطنه بظهره ؛ فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال ؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله ؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما في هذه الآية ، ويكون بمعنى المال كما قال : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْراً ﴾ [البقرة : 180] وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : 8] ويكون بمعنى القوّة كما قال : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ [الدخان : 37] ويكون بمعنى العبادة كقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ﴾ [الأنبياء : 73] قال ابن عباس : وكان قد بلغ به الجوع ، واخضرّ لونه من أكل البقل في بطنه ، وإنه لأكرم الخلق على الله .

ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه .

وفي هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله .

وقال أبو بكر بن طاهر في قوله : ﴿ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي إني لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنيني بك عمن سواك .

قلت : ما ذكره أهل التفسير أولى ؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(123/585)

وقال أبو حيان :

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ ،

قيل : هو مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون .

قال الكلبي : واسمه جبريل بن شمعون .

وقال الضحاك : شمعون بن إسحاق .

وقيل : هو غير مؤمن آل فرعون .

﴿ يسعى ﴾ : يشتد في مشيه .

ولما أمر فرعون بقتله ، خرج الجلاوزة من الشارع الأعظم ، فسلك هذا الرجل طريقاً أقرب إلى موسى .

ومن أقصى المدينة ، ويسعى : صفتان ، ويجوز أن يكون يسعى حالاً ، ويجوز أن يتعلق من أقصى بجاء .

قال الزمخشري : وإذا جعل ، يعني ، من أقصى حالاً ، لجاء لم يجز في يسعى إلاّ الوصف . انتهى .

يعني : أن رجلاً يكون نكرة لم توصف ، فلا يجوز منها الحال ، وقد أجاز ذلك سيبويه في كتابه من غير وصف .

قال : ﴿ إن الملأ ﴾ ، وهم وجوه أهل دولة فرعون ، ﴿ يأتمرون ﴾ : يتشاورون ، قال الشاعر ، وهو النمر بن تولب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة . . .

وفي كل حادثة يؤتمر

وقال ابن قتيبة : يأمر بعضهم بعضاً بقوله ، من قوله تعالى : ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾

﴿ فاخرج إني لك من الناصحين ﴾ .

ولك : متعلق إما بمحذوف ، أي ناصح لك من الناصحين ، أو بمحذوف على جهة البيان ، أي لك أعني ، أو بالناصحين ، وإن كان في صلة أل ، لأنه يتسامح في الظرف والمجرور ما لا

يتسامح في غيرهما .

وهي ثلاثة أقوال للنحويين فيما أشبه هذا ، فامتثل موسى ما أمره به ذلك الرجل ، وعلم صدقه ونصحه ، وخرج وقد أفلت طالبيه فلم يجدوه .

وكان موسى لا يعرف ذلك الطريق ، ولم يصحب أحداً ، فسلك مجهلاً ، واثقاً بالله تعالى ، داعياً راغباً إلى ربه في تنجيته من الظالمين .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)

﴿ توجه ﴾ : رد وجهه .

و﴿ تلقاء ﴾ : تقدم الكلام عليه في يونس ، أي ناحية وجهه .

(124/585)

استعمل المصدر استعمال الظرف ، وكان هناك ثلاث طرق ، فأخذ موسى أوسطها ، وأخذ طالبوه في الآخرين وقالوا : المريب لا يأخذ في أعظم الطرق ولا يسلك إلاّ بنياتها .

فبقي في الطريق ثماني ليال وهو حاف ، لا يطعم إلا ورق الشجر .

والظاهر من قوله : ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ ، أنه كان لا يعرف الطريق ، فسأل ربه أن يهديه أقصد الطريق بحيث أنه لا يضل ، إذ لو سلك ما لا يوصله إلى المقصود

لتاه .

وعن ابن عباس : قصد مدين وأخذ يمشي من غير معرفة ، فأوصله الله إلى مدين .

وقيل : هداه جبريل إلى مدين .

وقيل : ملك غيره .

وقيل : أخذ طريقاً يأمن فيه ، فاتفق ذهابه إلى مدين .

والظاهر أن سواء السبيل : وسط الطريق الذي يسلكه إلى مكان مأمنه .

وقال مجاهد : سواء السبيل : طريق مدين .

وقال الحسن : هو سبيل الهدى ، فمشى موسى عليه السلام إلى أن وصل إلى مدين ، ولم يكن في طاعة فرعون .

﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ : أي وصل إليه ، والورود بمعنى الوصول إلى الشيء ، وبمعنى الدخول فيه .

قيل : وكان هذا الماء بئراً .

والأمة : الجمع الكثير ، ومعنى عليه : أي على شفيره وحاشيته .

﴿ يسقون ﴾ : يعني مواشيهم .

﴿ ووجد من دونهم ﴾ : أي من الجهة التي وصل إليها قبل أن يصل إلى الأمة ، فهما من دونهم بالإضافة إليه ، قاله ابن عطية .

وقال الزمخشري : في مكان أسفل من مكانهم .

﴿ تذودان ﴾ ، قال ابن عباس وغيره : تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء .

وقال قتادة : تذودان الناس عن غنمهما .

قال الزجاج : وكأنهما تكرهان المزاحمة على الماء .

وقيل : لئلا تختلط غنمهما بأغنامهم .

وقيل : تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما .

وقال الفراء : تحبسانها عن أن تتفرق ، واسم الصغرى عبرا ، واسم الكبر صبورا .

(125/585)

ولما رآهما موسى عليه السلام واقفتين لا تتقدمان للسقي ، سألهما فقال : ﴿ ما خطبكما ﴾ ؟ قال ابن عطية : والسؤال بالخطب إنما هو في مصاب ، أو مضطهد ، أو من يشفق عليه ، أو يأتي بمنكر من الأمر .

قال الزمخشري : وحقيقته : ما مخطوبكما ؟ أي ما مطلوبكما من الذياد ؟ سمى المخطوب خطباً ، كما سمى الشؤون شأناً في قولك : ما شأنك ؟ يقال : شانت شأنه ، أي قصدت

قصده . انتهى .

وفي سؤاله عليه الصلاة والسلام دليل على جواز مكالمة الأجنبية فيما يعنّ ولم يكن لأبيهما أجير ، فكانتا تسوقان الغنم إلى الماء ، ولم تكن لهما قوة الإستقاء ، وكان الرعاة يستقون من البئر فيسقون مواشيهم ، فإذا صدروا ، فإن بقي في الحوض شيء سقتا .

فوافى موسى عليه السلام ذلك اليوم وهما يمنعان غنمهما عن الماء ، فرق عليهما وقال : ﴿ ما خطبكما ﴾ ؟ وقرأ شمر : بكسر الخاء ، أي من زوجكما ؟ ولم لا يسقي هو ؟ وهذه قراءة شاذة نادرة .

﴿ قالتا لا نسقي ﴾ .

وقرأ ابن مصرف : لا نسقي ، بضم النون .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، والحسن ، وقتادة ، والعربيان : يصدر ، بفتح الياء وضم الدال ، أي يصدرون بأغنامهم ؛ وباقي السبعة ، والأعرج ، وطلحة ، والأعمش ، وابن أبي إسحاق ، وعيسى : بضم الياء وكسر الدال ، أي يصدرون أغنامهم .

وقرأ الجمهور : الرعاء ، بكسر الراء : جمع تكسير .

قال الزمخشري : وأما الرعاء بالكسر فقياس ، كصيام وقيام . انتهى .

وليس بقياس ، لأنه جمع راع ؛ وقياس فاعل الصفة التي للعاقل أن تكسر على فعلة ، كقاض وقضاة ، وما سوى جمعه هذا فليس بقياس .

وقرىء : الرعاء ، بضم الراء ، وهو اسم جمع ، كالرخال والثناء .

قال أبو الفضل الرازي : وقرأ عياش ، عن أبي عمرو : الرعاء ، بفتح الراء ، وهو مصدر أقيم مقام الصفة ، فاستوى لفظ الواحد والجماعة فيه ، وقد يجوز أنه حذف منه المضاف .

(126/585)

﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ : اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقي بأنفسهما ، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخه وكبره ، واستعطاف لموسى في إعانتهما .

﴿ فسقى لهما ﴾ : أي سقى غنمهما لأجلهما .

وروي أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا عدد من الرجال ، واضطرب النقل في العدد ، فأقل ما قالوا سبعة ، وأكثره مائة ، فأقله وحده .

وقيل : كانت لهم دلو لا ينزع بها إلا أربعون ، فنزع بها وحده .

وروي أنه زاحمهم على الماء حتى سقى لهما ، كل ذلك رغبة في الثواب على ما كان به من نصب السفر وكثرة الجوع ، حتى كانت تظهر الخضرة في بطنه من البقل .

وقيل : إنه مشى حتى سقط أصله ، وهو باطن القدم ، ومع ذلك أغاثهما وكفاهما أمر

السقي .

وقد طابق جوابهما لسؤاله .

سألهما عن سبب الذود ، فأجاباه : بأنا امرأتان ضعيفتان مستورتان ، لا نقدر على مزاحمة الرجال ، فنؤخر السقي إلى فراغهم .

ومباشرتهما ذلك ليس بمحظور ، وعادة العرب وأهل البدو في ذلك غير عادة أهل الحضر والأعاجم ، لا سيما إذا دعت إلى ذلك ضرورة .

﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ ، قال ابن مسعود : ظل شجرة .

قيل : كانت سمرة .

وقيل : إلى ظل جدار لا سقف له .

وقيل : جعل ظهره يلي ما كان يلي وجهه من الشمس .

﴿ فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ ، قال المفسرون : تعرض لما يطعمه ، لما ناله من الجوع ، ولم يصرح بالسؤال ؛ وأنزلت هنا بمعنى تنزل .

وقال الزمخشري : وعدى باللام فقير ، لأنه ضمن معنى سائل وطالب .

ويحتمل أن يريد ، أي فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين ، وهو النجاة من الظالمين ، لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، قال ذلك رضا بالبدل السني وفرحاً به

وشكراً له.

وقال الحسن: سأل الزيادة في العلم والحكمة.

(127/585)

﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾: في الكلام حذف، والتقدير: فذهبتا إلى أبيهما من غير إبطاء في السقي، وقصتا عليه أمر الذي سقى لهما، فأمر إحداهما أن تدعوه له. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(128/585)

وقال أبو السعود:

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة ﴾

أي كائنٌ من آخِرها أو جاءَ من آخِرها ﴿ يسعى ﴾ أي يسرعُ، صفةٌ لرجلٍ أو حالٌ منه على أنَّ الجارَّ والمجرورَ صفةٌ له لا متعلَّق بجاء فإن تخصصه يلحقه بالمعارفِ قيل: هو مؤمنُ آلِ فرعونَ واسمُه حِزْقيلُ وقيل: شَمعُون وقيل: شَمعانُ ﴿ قَالَ يَا موسى إِنِ الملأَ يَأْتَمِرُونَ

بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أي يتشاورُون بسببكَ فإنّ كلاًّ من المتشاورينَ يأمرُ الآخرينَ ويأتمرُ ﴿ فاخرج ﴾ أي من المدينةِ ﴿ إنّى لَكَ مِنَ الناصحين ﴾ اللامُ لبيانِ لما أنَّ معمولَ الصّلةِ لا يتقدمُها

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ أي من المدينةِ ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوقَ الطَّالبينَ ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ خلّصنِي منهم واحفظنِي من لُحوقِهم .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ ﴾ أي نحوَ مدينَ وهي قريةُ شُعيبٍ عليه السَّلامُ سميت باسمِ مدينَ بنِ إبراهيمَ ولم تكُن تحتَ سلطانِ فرعونَ وكان بينها وبين مصرَ مسيرةُ ثمانيةِ أيّامٍ ﴿ قَالَ عسى ربّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاء السبيل ﴾ توكلاً على الله تعالى وثقةً بحُسنِ توفيقِه وكان لا يعرفُ الطرقَ فعنَّ له ثلاثُ طرائقَ فأخذَ في الوسطى وجاء الطلابُ فشرعُوا في الأُخريين وقيل : خرجَ حافياً لا يعيشُ إلا بورقِ الشَّجرِ فما وصلَ حتَّى سقطَ خفُّ قدمِه وقيل : جاء مَلَكٌ على فرسٍ وبيدِه عنزَةٌ فانطلقَ به إلى مدينَ .

(129/585)

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ أي وصلَ إليهِ وهو بئرٌ كانُوا يسقُون منها ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي فوقَ شفيرِها ﴿ أُمَّةً ﴾ جماعةً كثيفةً ﴿ مّنَ الناس يَسْقُونَ ﴾ أي مواشيَهم ﴿ وَوَجَدَ

مِن دُونِهِمُ ﴾ أي في موضعٍ أسفلَ منهم ﴿ امرأتين تَذُودَانِ ﴾ أي تمنعانِ ما معهما من الأغنامِ عن التقدمِ إلى البئرِ كيلا تختلطَ بأغنامِهم مع عدمِ الفائدة في التَّقدمِ ﴿ قَالَ ﴾ عليه السَّلام لهما حينَ رآهُما على ما هُما عليهِ من التَّأخرِ والذودِ ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ما شأنُكما فيما أنتُما عليه من التَّأخرِ والذَّودِ ولم لا تباشرانِ السقيَ كدأبِ هؤلاءِ ﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعاء ﴾ أي عادتُنا أن لا نسقيَ حتَّى يصرفَ الرُّعاةُ مواشيَهم بعد ريّها عن الماءِ عجزاً عن مساجلتِهم وحذراً عن مخالطةِ الرجالِ لا أنا لا نسقي اليومَ إلى تلك الغايةِ ، وحذفُ مفعولِ السَّقيِ والذَّودِ والإصدارِ لمَا أنَّ الغرضَ هو بيانُ تلك الأفعالِ أنفسِها إذْ هي التي دعتْ مُوسى عليه السَّلامُ إلى ما صنعَ في حقّهما من المعروفِ فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام إنَّما رحمَهما لكونِهما على الذيادِ للعجزِ والعفَّةِ وكونِهم على السقيِ غيرَ مُبالين بهما وما رحمهما لكونِ مذودِهما غنماً ومسقيهم إبلاً مثلاً . وقُرِىء لا نُسقي من الإسقاءِ ويَصدُر من الصُّدورِ والرُّعاء بضمِّ الرَّاءِ وهو اسمُ جمعٍ كالرُّحالِ وأما الرِّعاءِ فجمعٌ قياسيٌّ كصِيامٍ وقِيامٍ . وقولُه تعالى : ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ إبلاءٌ منهما للعُذرِ إليه عليه السَّلامُ في تولّيهما للسَّقيِ بأنفسِهما كأنَّهما قالتَا : إنَّا امرأتانِ ضعيفتانِ مستورتانِ لا نقدرُ على مُساجلةِ الرِّجالِ ومزاحمتِهم وما لنا رجلٌ يقومُ بذلكَ وأبُونا شيخٌ كبيرُ السنِّ قد أضعفَه الكبرُ فلا بدَّ لنا من تأخيرِ السَّقيِ إلى أنْ يقضي النَّاسُ أوطارَهم من الماءِ ﴿ فسقى لَهُمَا ﴾

رحمةً عليهما والكلامُ في حذفِ مفعولِه كما مرَّ آنفاً . رُوي أنَّ الرُّعاةَ كانُوا يضعونَ على رأسِ البئرِ حَجَراً لا يُقلُّه إلا سبعةُ رجالٍ وقيل : عشرةٌ وقيل : أربعون وقيل : مائةٌ فأقلَّه وحدَهُ مع ما كان به من الوصبِ والجراحةِ والجوعِ ولعلَّه عليه الصَّلاة والسَّلام زاحمَهم في السَّقيِ لهما فوضعُوا الحجرَ على البئرِ لتعجيزِه عليه الصَّلاة والسَّلام عن ذلكَ فإنَّ الظاهرَ أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام غبَّ ما شاهدَ حالَهما سارعَ إلى السَّقيِ لهُما وقد رُوي أنَّه دفعهم عن الماءِ إلى أنْ سقى لهُما وقيل : كانت هناك بئرٌ أُخرى عليها الصَّخرةُ المذكورةُ .

ورُوي أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سألَهم دَلْواً من ماءٍ فأعطَوه دلوهُم وقالُوا : استقِ بها وكان لا ينزعُها إلا أربعون فاستقَى بها وصبَّها في الحوضِ ودعا بالبركةِ ، ورَوى غنمَهما وأصدرَهما ﴿ ثُمَّ تولى إلى الظل ﴾ الذي كانَ هُناك ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ ﴾ أيْ أيَّ شيءٍ أنزلتَهُ إليَّ ﴿ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ جلَّ أو قلَّ وحملَه الأكثرونَ على الطعامِ بمعونةِ المقامِ ﴿ فَقِيرٌ ﴾ أي محتاجٌ ولتضمُّنِه معنى السُّؤالِ والطَّلبِ جيءَ بلامِ الدعامةِ لتقويةِ العملِ ، وقيل المَعنى لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ عظيمٍ هو خيرُ الدارينِ صرتُ فقيراً في الدُّنيا لأنَّه كانَ في

سَعَةٍ من العيشِ عندَ فرعونَ قاله عليه الصَّلاة والسَّلام إظهاراً للتبجحِ والشُّكرِ على ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(131/585)

وقال الآلوسى :

ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملائه فهموا بقتل موسى عليه السلام

فخرج مؤمن من آل فرعون هو ابن عم فرعون ليخبره بذلك وينصحه كما قال عز وجل :

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾ الآية ،

واسمه قيل : شمعان ، وقيل : شمعون بن إسحاق ، وقيل : حزقيل ، وقيل : غير ذلك وكون

هذا الرجل الجائي مؤمن آل فرعون هو المشهور ، وقيل : هو غيره ، ويسعى بمعنى يسرع في

المشي وإنما أسرع لبعد محله ومزيد اهتمامه بأخبار موسى عليه السلام ونصحه ، وقيل :

يسعى بمعنى يقصد وجه الله تعالى كما في قوله سبحانه : ﴿ وسعى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ [

الإسراء : 19] وهو وإن كان مجازاً يجوز الحمل عليه لشهرته .

والظاهر أن ﴿ مِنْ أَقْصَى ﴾ صلة ﴿ جَاء ﴾ وجملة ﴿ يسعى ﴾ صفة ﴿ رَجُلٌ ﴾

، وجوز أن يكون ﴿ مِنْ أَقْصَى ﴾ في موضع الصفة لرجل ، وجملة يسعى صفة بعد صفة .

(132/585)

وجوز أن تكون الجملة في موضع الحال من رجل ، أما إذا جعل الجار والمجرور في موضع الصفة منه فظاهر لأنه وإن كان نكرة ملحق بالمعارف فيسوغ أن يكون ذا حال ، وأما إذا كان متعلقاً بجاء فمن ذلك الجمهور وأجازه سيبويه ، وجوز أن يعلق الجار والمجرور بيسعى وهو كما ترى ﴿ قَالَ يا موسى إِنَّ الملأ ﴾ وهم وجوه أهل دولة فرعون ﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي يتشاورن بسببك وإنما سمي التشاور ائتماراً لأن كلا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فاخرج ﴾ من المدينة قبل أن يظفروا بك ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ الناصحين ﴾ اللام للبيان كما في سقياً لك فيتعلق بمحذوف أعني أعني ولم يجوز الجمهور تعلقه بالناصحين لأن أل فيه اسم موصول ومعمول الصلة لا يتقدم الموصول ولا بمحذوف مقدم يفسره المذكور لأن ما لا يعمل لا يفسر عاملاً وعند من جوز تقدم معمول الصلة إذا كان الموصول أل خاصة لكونها على صورة الحرف ، أو إذا كان المتقدم ظرفاً للتوسع فيه ، أو قال إن أل هنا حرف تعريف لإرادة الثبوت تجوز أن يكون لك متعلقاً بالناصحين أو بمحذوف يفسره ذلك .

واستدل القرطبي وغيره بالآية على جواز النميمة لمصلحة دينية .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ أي من المدينة ممتثلاً ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق الطالبين ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ ﴾ أي صرف وجهه ﴿ تِلْقَاء مَدْيَنَ ﴾ أي ما يقابل جانبها ، وتلقاء في الأصل مصدر انتصب على الظرفية .

ومدين قرية شعيب سميت باسم مدين بن إبراهيم عليه السلام لوم يكن في سلطان فرعون ولذا توجه لقريته ، وقيل توجه إليها لمعرفته به ، وقيل لقرابته منه عليهما السلام ، وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان .

(133/585)

﴿ قَالَ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاء السبيل ﴾ أي وسط الطريق المؤدّى إلى النجاة ، وإنما قال عليه السلام ذلك توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه عز وجل ، وكان عليه السلام لا يعرف الطرق فعن ثلاث طرائق فأخذ في الوسطى وأخذ طالبوه في الأخريين وقالوا : المريب لا يأخذ في أعظم الطرق ولا يسلك إلا لأبنياتها فبقي ثماني ليال وهو حاف لا يطعم إلا ورق الشجر .

وعن سعيد بن جبير أنه عليه السلام لم يصل حتى سقط خف قدميه .

وروي أنه عليه السلام أخذ يمشي من غير معرفة فهداه جبريل عليه السلام إلى مدين .

وعن السدى أنه عليه السلام أخذ في بنيات الطريق فجاءه ملك على فرس بيده عنزة فلما رآه موسى عليه السلام سجد له أي خضع من الفرق ، فقال : لا تسجد لي ولكن اتبعني فتبعه وانطلق حتى انتهى به إلى مدين .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ أي وصل إليه وورد .

(134/585)

الورود بمعنى الدخول وبمعنى الشرب وليس شيء منهما مراداً والمراد بماء مدين بئر كانوا يسقون منها ، فهو مجاز من إطلاق الحال وإرادة المحل ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ أي فوق شفيره ومستقاه ﴿ أُمَّةً مِّنَ الناس ﴾ أي جماعة كثيرة مختلفي الأصناف ، ويشعر بالقيد الأول التنوين ، وبالثاني من الناس لشموله للأصناف المختلفة وهي فائدة ذكره ، وقيل فائدته تحقير أولئك الجماعة وأنهم لئام لا يعرفون بغير جنسهم أو محتاجون إلى بيان أنهم من البشر ﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ الظاهر أنهم كانوا يسقون مواشي مختلفة الأنواع بمعنى أن منهم من كان يسقى إبلا ومنهم من كان يسقى غنماً وهكذا ، وتخصص سقيهم بنوع يحتاج إلى توقيف

﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ أي في مكان أسفل من مكانهم ، وقيل من قربهم أو من سواهم أو مما يلي جهته إذا قدم عليهم وإلى هذا الأخير ذهب ابن عطية حيث قال : المعنى ووجد من الجهة التي وصل إليها قبل أن يصل إلى الأمة ﴿ امرأتين ﴾ اسم إحداهما قيل ليا وقيل عبرا وقيل شرفاً ، واسم الأخرى قيل صفورياً وقيل صفوراء وقيل صفيراء ، وفي الكشاف صفيراء اسم الصغرى واسم الكبرى صفراء ﴿ تَذُودَانِ ﴾ كانتا تمنعان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء قاله ابن عباس وغيره ، وقيل تمنعان غنمهما عن التقدم إلى البئر لئلا تختلط بغيرها .

وحكى ذلك عن الزجاج .

وقال قتادة : تمنعان الناس عن غنمهما .

وقال الفراء : تحسبان غنمهما عن أن تتفرق ، وفي جميع هذه الأقوال تصريح بأن المذود كان غنماً ، والظاهر أن ذلك عن توقيف ، ، وقيل تذودان عن وجوههما نظر الناظرين لتسترهما وهذا كما ترى .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي ما مخطوبكما ومطلوبكما مما أنتما عليه من التأخر والذود ولم لا تباشران السقي كغيركما ؟ وأصل الخطب مصدر خطب بمعنى طلب ثم استعمل بمعنى المفعول .

وفي سؤاله عليه السلام إياهما دليلعلى جواز مكالمة الأجنبية فيما يعني .

وقرأ شمر ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ بكسر الخاء ، قال في البحر : أي من زوجكما ؟ ولم لا يسقى هو ؟ .

وهذه قراءة شاذة نادشة اه .

ولا يخفى ما فيه وإباء الجواب عنه .

وقال بعضهم : الخطب فيها بمعنى المخطوب والمطلوب كما في القراءة المتواترة ، ونظيره الحب بكسر الحال المهملة بمعنى المحبوب ﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِى حتى يُصْدِرَ الرعاء ﴾ .

أي عادتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاة مواشيهم بعد ريها عن الماء عجزاً عن مساجلتهم لا أنا لا نسقي اليوم إلى تلك الغاية .

وقرأ ابن مصرف ﴿ لاَ نَسْقِى ﴾ نضم النون من الاسقاء .

وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، والحسن وقتادة ، والعربيان : ابن عامر ، وأبو عمرو ﴿ يُصْدِرَ ﴾ بفتح الياء وضم الدال أي حتى يصدر الرعاة بأغنامهم .

وسأل بعض الملوك عن الفرق بين القراءتين من حيث المعنى .

فأجيب بأن قراءة يصدر بفتح الياء تدل على فرط حيائهما وتواريهما من الاختلاط

بالأجانب .

وقراءة يصدر بضم الياء تدل على إصدار الرعاة المواشي ولم يفهم منها صدورهم عن الماء .

وقرىء بزاي خالصة وبحرف بين الصاد والزاي .

وقرىء الرعاء بضم الراء والمعروف في صيغ الجمال فعال بكسر الفاء كما في قراءة الجمهور ، وأما فعال بالضم فعلى خلاف القياس لأنه من أبنية المصادر والمفردات كنباح وصراخ ، وإذا استعملفي معنى الجمع كما في القراءة الشاذة فقيل هو اسم جمع لا جمع وقيل إنه جمع أصلى وقيل إنه جمع ولكن الأصل فيه الكسر ، والضم فيه بدل من الكسر كما أنه بدل من الفتح في نحو سكارى ، والوارد منه في كلام العرب ألفاظ محصورة ذكرها الخفاجي في شرح درة الغواص والمشهور منها على ما قال ثمانية ، وقد نظمها صدر الأفاضل لا الزمخشري على الأصح بقوله :

ما سمعنا كلما غير ثمان . . .

(136/585)

هي جمع وهي في الوزن فعال فرباب وفرار وتوّام ، وعرام وعراق ورخال وظؤار جمع ظئر وبساط جمع بسط هكذا فيما يقال وذهب أبو حيان إلى أن الرعاء في قراءة الجمهور ليس بقياس أيضاً قال : لأنه جمع راع وقياس فاعل الصفة التي للعاقل أن تكسر على فعلة كقاض وقضاة وما سوى جمعه هذا فليس بقياس ، وقرأ عياش عن أبي عمرو الرعاء بفتح الراء وهو مصدر أقيم مقام الصفة فاستوى لفظ الواحد والجماعة فيه ، وجوز أن يكون مما حذف منه المضاف أي أهل الرعاء ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ ابداء منهما للعذر له عليه السلام في توليهما للسقى بأنفسهما كأنهما قالتا : إنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء ، وذكر بعضهم أنه عليه السلام أخرج السؤال على ما يقتضيه كرمه ورحمته بالضعفاء حيث سألهما عن مطلوبهما من التأخر والذود قصداً لأن يجاب بطلب المعونة إلا أنهما لجلالة قدرهما حملتا قوله على ما يجاب عنه بالسبب وفي ضمنه طلب المعونة لأن إظهارهما العجز ليس إلا لذلك ، وقيل : ليس في الكلام ما يدل على ضعفهما بل فيه أمارات على حيائهما وسترهما ولو أرادتا إظهار العجز لقالتا لا نقدر على السقي ومعنى وأبونا شيخ كبير أنا مع حيائنا إنما تصدينا لهذا الأمر لكبره وضعفه وإلا كان عليه أن يتولاه ، ولعل الأولى أن يقال : إنهما أرادتا إظهار العجز عن المساجلة للضعف ولما جبلا عليه من الحيء ، والكلام وإن لم يكن فيه ما

يدل على ضعفهما فيه ما يشير إليه لمن له قلب ، ويفهم من بيان معنى جوابهما المار آنفاً أن جملة أبونا شيخ كبير عطف على مقدر ، وجوز أن تكون حالاً أي نترك السقي حتى يصدر الرعاء والحال أبونا شيخ كبير وأبوهما عند أكثر المفسرين شعيب عليه السلام .

(137/585)

﴿ فَإِنْ قِيلَ ﴾ كيف ساغ لبني الله تعالى أن يرضى لابنتيه بسقي الغنم .

فالجواب : أن الأمر في نفسه ليس بمحظور فالدين لا يأباه ، وأما المروءة فالناس مختلفون في ذلك والعادات متباينة فيه وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحال حال ضرورة ، وذهب جماعة إلى أنه ليس بشعيب عليه السلام فأخرج سعيد بن منصور .

وابن أبي شيبة .

وابن المنذر .

(138/585)

وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة أنه قال كان صاحب موسى عليه السلام اثرون بن أخي شعيب النبي عليه السلام ، وحكى هذا القول عنه أبو حيان أيضاً إلا أنه ذكر هارون بدل أثرون وحكاه أيضاً عن الحسن إلا أنه رذكر بدله مروان ، وحكى الطبرسي عن وهب وسعيد بن جبير نحو ما حكاه أبو حيان عن أبي عبيدة ، وأخرج ابن المنذر عن ابن مجريج أنه قال بلغني أن أبا الأمرأتين ابن أخي شعيب واسمه رعاويل وقد أخبرني من أصدق أن اسمه في الكتاب يثرون كاهن مدين والكاهن حبر ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال الذي استأجر موسى عليه السلام يثرب صاحب مدين ، وجاء في رواية أخرى عنه أن اسمه يثرون وهو موافق لما نقل عن الكتاب من الاسم ولم يذكر في هاتين الروايتين نسبته إلى شعيب عليه السلام فيحتمل أن المسمى بما فيها ابن أخيه ويحتمل أنه رجل أجنبي عنه فقد قيل : أن أباهما ليس ذا قرابة من شعيب عليه السلام وإنما هو رجل صالح ، وحكى الطبرسي عن بعضهم أن يثرون اسم شعيب وقد أخبرني بعض أهل الكتاب بذلك أيضاً إلا أنه قال هو عندنا يثرون بدون نون في آخره والذي رأيته أنا في الفصل الثاني من السفر الثاني من توراتهم ما ترجمته ولما سمع فرعون بهذا الخبر أي خبر القتل طلب أن يقتل موسى فهرب موسى من بين يديه وصار إلى بلد مدين وجلس على بئر ماء وكان لإمام مدين سبع بنات فجاءت ودلت وملأت الأحواض لسقي غنم أبيهن فلما جاء الرعاة فطرد وهن قام موسى فأغاثهن وسقى غنمهن فلما جئن إلى رعوايل أبيهن قال ما بالكن أسرعتن المجيء اليوم الخ ،

وقد أول الفصل الثالث منه ما ترجمته وكان موسى يرعى غنم يثرو حمية أمام مدين الخ فلا تغفل ، وفي البحر عند الكلام في تفسير ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ [القصص : 25] قيل : كان عمها صاحب الغنم وهو المزوج عبرت عنه بالأب إذ كان بمثابته والظاهر أن هذا القائل يقول : إنهما عنتها بالأب هنا العم ، وأنت تعلم أن هذا وأمثاله مما تقدم مما لا يقال من قبل

(139/585)

الرأي فالمدار في قبول شيء من ذلك خبر يعول عليه والأخبار التي وقفنا عليها في هذا المطلب مختلفة ولم يتميز عندنا ما هو إلا رجح فيما بينها وكأني بك تعول على المشهور الذي عليه أكثر المفسرين وهو أن أباهما على الحقيقة شعيب عليه السلام إلى أن يظهر لك ما يوجب العدول عنه

فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)

(140/585)

والظاهر من قوله تعالى : ﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ أنه عليه السلام سارع إلى السقي لهما رحمة عليهما ومنشأ الترحم كونهما على الذود وكون الأمة من الناس على السقي ولهذا ذهب الشيخ عبد القاهر وصاحب الكشاف إلى أن حذف المفعول في يسقون ﴿ وتذودان ﴾ [القصص : 23] للقصد إلى نفس الفعل وتنزيله منزلة اللازم أي يصدر منهم السقي ومنهما الذود وقال : إن كون المسقي والمذود إبلاً أو غنماً خارج عن المقصود بل يوهم خلافه إذ لو قيل : أو قدر يسقون إبلهم وتذودان غنمهما لتوهم أن الترحم عليهما ليس من جهة أنهما على الذود والناس على السقي بل من جهة أن مذودهما غنم ومسقيهم إبل بناء على أن محط الفائدة في الكلام البليغ هو القيد الأخير وخالفهما في ذلك السكاكي فذهب إلى أن حذف المفعول من يسقون وتذودان لمجرد الاختصار والمراد يسقون مواشيهم وتذودان غنمهما وكذا سائر الأفعال المذكورة في هذه الآية ، واختاره العلامة الثاني فقال : إن هذا أقرب إلى التحقيق لأن الترحم لم يكن من جهة صدور الذود عنهما وصدور السقي من الناس بل من جهة ذودهما غنمهما وسقي الناس مواشيهم حتى لو كانتا تذودان غير غنمهما بل مواشيهم وكان الناس يسقون غير مواشيهم بل غنمهما مثلا لم يصح الترحم ووافقه في ذلك السيد السند وقال في تحقيق المذهبين : إن الشيخين اعتبرا المفعول الذي نزل الفعلان بالنسبة إليه هو الإبل والغنم مثلا أي النوعين من المواشي بدون الإضافة كما يدل عليه قولهما إن كون المسقى والمذود ابلاً أو غنماً الخ وكل منهما مقابل للآخر في نفسه

وجعلا ما يضاف إليه كل في القول أو التقدير المفروض خارجاً عن المفعول من حيث إنه مفعول غير ملحوظ معه فالمفعول عندهما ليس إلا مطلق الإبل والغنم فلو قدر المفعول لأدّى إلى فساد المعنى فإنهما لو كانتا تذودان إبلالهما على سبيل الفرض لكان الترحم باقياً بحاله لأنه إنما كان لعدم قدرتهما على السقي ، والسكاكي نظر إلى أن المفعول هو الغنم

(141/585)

المضافة إليهما والمواشي المضافة إليهم وكل واحد منهما يقابل الآخر من حيث إنه مضاف فلو لم يقدر المفعول يفسد المعنى وهذا أدق نظراً وأصح معنى انتهى ، وتعقبه المولى عبد الحكيم السالكوتي بقوله : وفيه بحث لأن عدم التقدير ان قصد به التعميم أي يسقون مواشيهم وغير مواشيهم وتذودان غنمهما وغير غنمهما يلزم الفساد أما إذا قصد به مجرد السقي والذود من غير ملاحظة التعلق بالمفعول كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : 9] فلا لأن كون طبيعة السقي والذود منشأ الترحم لا يقتضي أن يكون عند تعلقه بمفعول مخصوص كذلك حتى يلزم أن يكون سقي غير مواشيهم وذود غير غنمهم محلا للترحم فتدبر ، فإن منشأ ما ذكره السكاكي عدم الفرق بين الإطلاق والعموم انتهى ، ولا يخفى أنه ينبغي أن يضم إلى طبيعة السقي والذود بعض

الحيثيات كحيثية تحقق طبيعة السقي من أقوياء متغلبين وتحقق طبيعة الذود من امرأتين ضعيفتين مستورتين في موضع هو مجتمع الناس للسقي وإلا فالظاهر أن مجرد طبيعة السقي والذود لا تصلح منشأ الترحم .

(142/585)

وقال بعض الأجلة : ترك المفعول في يسقون ﴿ ويذودان ﴾ [القصص : 23] لأن الغرض هو الفعل لا المفعول إذ هو يكفي في البعث على سؤال موسى عليه السلام وما زاد على المقصود لكنة وفضول ، وأما البعث على المرحمة فليس هذا موضعه فإن له قولهما : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : 23] ومن لم يفرق بين البعثين قال ما قال ورد بأن منشأ السؤال هو المرحمة لحالهما كما صرحوا به فسؤاله عليه السلام للتوسل إلى آعانتهما وبرهما لتفرس ضعفهما وعجزهما ولولاده لم يكن للتكلم مع الأجنبية داع ، وقولهما : ﴿ لَا نَسْقِي ﴾ الخ باعث لمزيد المرحمة لقبولها للزيادة والنقص ، وتعقب بأنه إنما يتم لو سلم أنه عليه السلام تفرس ضعفهما وعجزهما لأمور شاهدها ، وإلا فالذود لا يدل على ذلك إذ يتحقق للضعف ولغيره ، وقد نقل الخفاجي كلام جمع من الفضلاء في هذا المقام منه ما ذكرنا عن بعض الأجلة ورده واعترض بما اعترض ، ثم قال :

وأما ما اعترض به على المرحمة فخيال فاسد ومحط كلامه عليه الرحمة الانتصار لما ذهب إليه الشيخان وقد انتصر لهما ، وقال بقولهما غير واحد .

واعترض بعضهم على تقدير المفعول مضافاً بأن الإضافة تشعر بالملك ولا ملك لأحد من الأمة والأمرأتين فإن الظاهر في الأمة أنهم كانوا رعاء والأغلب أن الرعاء لا يملكون ، والظاهر أن ما في يد الأمرأتين كان ملكاً لأبيهما ، ولا يخفى أن هذا الاعتراض على طرف الثمام ، والله تعالى أعلم ، هذا والظاهر أنه عليه السلام سقي لهما من البئر التي عليها الناس ويدل عليه ما روي أنه عليه السلام دفعهم عن الماء إلى أن سقي لهما وكذا ما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والحاكم .

(143/585)

وصححه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال : إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليها أمة من الناس يسقون فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بامرأتين قال ﴿ ما خطبكما ﴾ [القصص : 23] فحدثتاه فأتى الصخرة فرفعها وحده ثم استسقى فلم يستسقي إلا دلواً واحداً حتى رويت الغنم لكن هذا مخالف لما يقتضيه ظاهر الآية من أنه عليه السلام حين ورد ماء مدين وجد الأمة يسقون ووجد الامرأتين تذودان وهذا ظاهر في مقارنة وجدانهما لوجدانهم وذودهما لسقيهم ولا يكاد يفهم منه أن وجدانهما بعد فراغهم من السقي كما يقتضيه الخبر فلعل الخبر غير صحيح ، وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار وكأن من يقول بصحته يمنع اقتضاء الآية كون وجدان الأمة يسقون ووجدان الامرأتين تذودان في أول وقت الورد فإنه يقال : لما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وجب الصيام ووجبت الزكاة مثلاً مع أن وجوب كل ليس في أول وقت الورود فيجوز أن يكون عليه السلام قد وجد أمة يسقون أول وقت وروده وبعد أن فرغوا من السقي ووضعوا الصخرة على البئر وجد امرأتين تذودان فخاطبهما بما خطبكما فكان ما كان ويحمل ذودهما على منع غنمهما عن التقدم إلى البئر لعلمهما أنها قد أطبق عليها صخرة لا يقدرون على رفعها ويتكلف في توجيه الجواب ما يتكلف أو يقول الآية على ظاهرها ويسلم اقتضاءه اتحاد الوجدانين والذود والسقي بالزمان ويمنع أن يكون في الخبر ما ينافي ذلك لجواز أن يكون

المعنى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان فلما فرغوا أعادوا الصخرة فإذا بالأمرأتين حاضرتان عنده بين يديه فسألهما فحدثتاه الخ فما بعد الفراغ من السقي ليس وجدان الأمرأتين تدودان وإنما هو حضورهما بين يديه والكل كما ترى وكأني بك تعتمد عدم صحة الخبر .

وقيل : إنه عليه السلام سقي لهما من بئر أخرى ، فقد أخرج عبد بن حميد .

(144/585)

وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في خبر طويل أنه عليه السلام لما سأل الامرأتين وأجابتا قال : فهل قربكما ماء ؟ قالتا : لا إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر قال فانطلقا فأريانيها فانطلقا معه فقال : بالصخرة بيده فنحاها ثم استقى بهما سجلاً واحداً فسقى الغنم ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ الذي كان هناك وهو على ما روي عن ابن مسعود ظل شجرة قيل : كانت سمرة ، وقيل : هو ظل جدار لا سقف له .

وقيل : إنه عليه السلام جعل ظهره يلي ما كان يلي وجهه من الشمس ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ وهو كشما ترى ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ ﴾ أي لأي

شيء تنزله من خزائن كرمك إلى .

﴿ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ جل أو قال ﴿ فَقِيرٌ ﴾ أي محتاج وهو خبر إن وبه يتعلق لما ، ولما أشرنا إليه من تضمنه معنى الاحتياج عدى باللام ، وجوز أن يكون مضمناً معنى الطلب واللام للتقوية ، وقيل : يجوز أَن تكون للبيان فتتعلق بأعني محذوفاً ، و﴿ مَا ﴾ على جميع الأوجه نكرة موصوفة ، والجملة بعدها صفتها ، والرابط محذوف ، ومن خير بيان لها ، والتنوين فيه للشيوع ، والكلام تعريض لما يطعمه لما ناله من شدة الجوع ، والتعبير بالماضي بدل المضارع في أنزلت للاستعطاف كالافتتاح برب ، وتأكيد الجملة للاعتناء ، ويدل على كون الكلام تعريضاً لذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سقى موسى عليه السلام للجاريتين ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر "

وأخرج سعيد بن منصور .

وابن أبي شيبة .

وابن أبي حاتم .

(145/585)

والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : "لقد قال موسى عليه السلام رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع" وفي رواية أخرى عنه "أنه عليه السلام سأل فلقا من الخبز يشد بها صلبه من الجوع وكان عليه السلام قد ورد ماء مدين" وأنه كما روي أحمد في الزهد وغيره عن الحبر ليتراءى خضرة البقل من بطنه من الهزال وإلى كون الكلام تعريضاً لذلك ذهب مجاهد ؛ وابن جبير ، وأكثر المفسرين ؛ وكان علي كرم الله تعالى وجهه يقول : والله ما سأل إلا خبزاً يأكله ، وجوز أن تكون اللام للتعليل وما موصولة ومن للبيان والتنكير في خير لإفادة النوع والتعظيم ، وصلة فقير مقدرة أي إني فقير إلى الطعام أو من الدنيا لأجل الذي أنزبته إلى من خير الذين وهو النجاة من الظالمين فقد كان عليه السلام عند فرعون في ملك وثروة وليس الغرض عليه التعريض لما يطعمه ولا التشكي والتضجر بل إظهار التبجح والشكر على ذلك ، ووجه التعبير بالماضي عليه ظاهر .

وأنت تعلم أن هذا خلاف المأثور الذي عليه الجمهور ، ومثله في ذلك ما روي عن الحسن أنه عليه السلام سأل الزيادة في العلم والحكمة ولا يخلو أيضاً عن بعد .

وجاء عن ابن عباس أن الامرأتين سمعتا ما قال فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما فسألهما فاختبرتاه فقال لاحداهما : انطلقي فادعيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾

قد تقدّم الكلام في بلوغ الأشدّ في الأنعام ، وقد قال ربيعة ومالك : هو الحلم لقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً ﴾ [النساء : 6] الآية ، وأقصاه أربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثوري وغيرهما .

وقيل : الأشدّ ما بين الثمانية عشر إلى الثلاثين ، والاستواء : من الثلاثين إلى الأربعين ، وقيل : الاستواء هو بلوغ الأربعين ، وقيل : الاستواء : إشارة إلى كمال الخلقة ، وقيل : هو بمعنى واحد ، وهو ضعيف ؛ لأن العطف يشعر بالمغايرة ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ الحكم : الحكمة على العموم ، وقيل : النبوّة .

وقيل : الفقه في الدين .

والعلم : الفهم ، قاله السديّ .

وقال مجاهد : الفقه .

وقال ابن إسحاق : العلم بدينه ودين آبائه ، وقيل : كان هذا قبل النبوّة ، وقد تقدّم بيان

معنى ذلك في البقرة ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الذي جزينا أمّ موسى لما استسلمت لأمر الله وألقت ولدها في البحر ، وصدّقت بوعد الله نجزي المحسنين على إحسانهم ، والمراد العموم .

﴿ وَدَخَلَ المدينة ﴾ أي ودخل موسى مدينة مصر الكبرى .

وقيل : مدينة غيرها من مدائن مصر ، ومحل قوله : ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ النصب على الحال إما من الفاعل ، أي مستخفياً ، وإما من المفعول .

قيل : لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون ، وفشا ذلك منه ، فأخافوه ، فخافهم ، فكان لا يدخل المدينة إلاّ مستخفياً .

قيل : كان دخوله بين العشاء والعتمة ، وقيل : وقت القائلة .

(147/585)

قال الضحاك : طلب أن يدخل المدينة وقت غفلة أهلها فدخل على حين علم منهم ، فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله : ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي ممن شايعه على دينه ، وهم بنو إسرائيل ﴿ وهذا مِنْ عَدُوّهِ ﴾ أي من المعادين له على دينه ، وهم قوم فرعون ﴿ فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي طلب منه أن ينصره ، ويعينه

على خصمه ﴿ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ فأغاثه ؛ لأن نصر المظلوم واجب في جميع الملل .

قيل : أراد القبطي أن يسخر الإسرائيلي ؛ ليحمل حطباً لمطبخ فرعون ، فأبى عليه ، واستغاث بموسى ﴿ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ الوكز : الضرب بجمع الكف ، وهكذا اللكز واللهز .

وقيل : اللكز على اللحى ، والوكز على القلب .

وقيل : ضربه بعصاه .

وقرأ ابن مسعود " فلكزه " ، وحكى الثعلبي : أن في مصحف عثمان : " فنكزه " بالنون ، قال الأصمعي : " نكزه " بالنون : ضربه ، ودفعه .

قال الجوهري : اللكز الضرب على الصدر .

وقال أبو زيد : في جميع الجسد يعني : أنه يقال له : لكز ، واللهز : الضرب بجميع اليدين في الصدر ، ومثله عن أبي عبيدة ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ أي قتله ، وكل شيء أتيت عليه ، وفرغت منه : فقد قضيت عليه ، ومنه قول الشاعر :

قد عضه فقضى عليه الأشجع . . . قيل : لم يقصد موسى قتل القبطي ، وإنما قصد دفعه ، فأتى ذلك على نفسه ، ولهذا قال : ﴿ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ وإنما قال بهذا القول مع أن المقتول كافر حقيق بالقتل ؛ لأنه لم يكن إذ ذاك مأموراً بقتل الكفار .

وقيل : إن تلك الحالة حالة كفّ عن القتال لكونه مأموناً عندهم ، فلم يكن له أن يغتالهم .

ثم وصف الشيطان بقوله : ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : عدوّ للإنسان يسعى في إضلاله ، ظاهر العداوة والإضلال .

وقيل : إن الإشارة بقوله : ﴿ هذا ﴾ إلى عمل المقتول لكونه كافراً مخالفاً لما يريده الله .

وقيل : إنه إشارة إلى المقتول نفسه يعني : أنه من جند الشيطان وحزبه .

(148/585)

ثم طلب من الله سبحانه : أن يغفر له ما وقع منه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لي فَغَفَرَ ﴾ الله ﴿ لَهُ ﴾ ذلك ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم ﴾ ووجه استغفاره : أنه لم يكن لنبيّ أن يقتل حتى يؤمر ، وقيل : إنه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين ، أو أراد إني ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر ؛ لأن فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به ، ومعنى ﴿ فاغفر لي ﴾ : فاستر ذلك عليّ لا تطلع عليه فرعون ، وهذا خلاف الظاهر فإن موسى عليه السلام ما زال نادماً على ذلك خائفاً من العقوبة بسببه ، حتى إنه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه يقول : إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها ، كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح .

وقد قيل : إن هذا كان قبل النبوّة .

وقيل : كان ذلك قبل بلوغه سنّ التكليف ، وإنه كان إذ ذاك في اثنتي عشرة سنة ، وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الأنبياء ، ولا شك أنهم معصومون من الكبائر ، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة ، لأن الوكزة في الغالب لا تقتل .

ثم لما أجاب الله سؤاله ، وغفر له ما طلب منه مغفرته ، قال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ هذه الباء يجوز أن تكون باء القسم والجواب مقدر أي : أقسم بإنعامك عليّ لأتوبنّ ، وتكون جملة : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرماً .

(149/585)

ويجوز أن تكون هذه الباء هي باء السببية متعلقة بمحذوف ، أي اعصمني بسبب ما أنعمت به عليّ ، ويكون قوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً ﴾ مترتباً عليه ، ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى ، وتوصل إلى إنعامه بإنعامه ، و "ما" في قوله : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ ﴾ إما موصولة ، أو مصدرية ، والمراد بما أنعم به عليه : هو ما آتاه من الحكم والعلم أو بالمغفرة أو بالجميع ، وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون والانتظام في جملته في ظاهر الأمر ، أو مظاهرته على ما فيه إثم .

قال الكسائي ، والفراء : ليس قوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ خبراً بل هو دعاء ، أي فلا تجعلني يا ربّ ظهيراً لهم .

قال الكسائي ، وفي قراءة عبد الله : " فلا تجعلني يا ربّ ظهيراً للمجرمين " وقال الفراء : المعنى : اللهم فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

وقال النحاس : إن جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي المدينة خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي دخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي ، و ﴿ خائفاً ﴾ خبر ﴿ أصبح ﴾ ويجوز أن يكون حالاً ، والخبر : ﴿ في المدينة ﴾ ، و ﴿ يترقب ﴾ يجوز أن يكون خبراً ثانياً ، وأن يكون حالاً ثانية ، وأن يكون بدلاً من ﴿ خائفاً ﴾ ، ومفعول ﴿ يترقب ﴾ محذوف ، والمعنى : يترقب المكروه أو يترقب الفرح ﴿ فَإِذَا الذي استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ إذا هي الفجائية ، والموصول مبتدأ ، وخبره : ﴿ يستصرخه ﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس يقاتل قبطياً آخر ، أراد أن يسخره ويظلمه كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالأمس ، والاستصراخ : الاستغاثة ، وهو من الصراخ ، وذلك أن المستغيث يصوّت ، ويصرخ في طلب الغوث ، ومنه قول الشاعر :

كنا إذا ما أتانا صارخ فزع . . . كان الجواب له قرع الظنابيب

﴿ قَالَ لَهُ موسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي بين الغواية ، وذلك أنك تقاتل من لا تقدر على مقاتلته ، ولا تطيقه .

وقيل : إنما قال له هذه المقالة ؛ لأنه تسبب بالأمس لقتل رجل يريد اليوم أن يتسبب لقتل آخر .

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ أي يبطش بالقبطي الذي هو عدوّ لموسى ، وللإسرائيلي حيث لم يكن على دينهما ، وقد تقدّم معنى يبطش ، واختلاف القراء فيه .

﴿ قَالَ يا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ﴾ القائل هو الإسرائيلي لما سمع موسى يقول له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ورآه يريد أن يبطش بالقبطي ظن أنه يريد أن يبطش به ، فقال لموسى : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ﴾ فلما سمع القبطي ذلك أفشاه ، ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلي ، هكذا قال جمهور المفسرين .

وقيل : إن القائل : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ﴾ هو القبطي ، وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي ، وهذا هو الظاهر ، وقد سبق ذكر القبطي قبل هذا بلا فصل ؛ لأنه هو المراد بقوله عَدُوٌّ لَّهُمَا ، ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم عنه أن المؤمن

بموسى المستغيث به المرّة الأولى ، والمرّة الأخرى هو الذي أفشى عليه ، وأيضاً إن قوله : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض ﴾ لا يليق صدور مثله إلاّ من كافر ، و " إن " في قوله : ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ هي النافية ، أي ما تريد إلاّ أن تكون جباراً في الأرض ، قال الزجاج : الجبار في اللغة : الذي لا يتواضع لأمر الله ، والقاتل بغير حق جبار .

وقيل : الجبار : الذي يفعل ما يريد من الضرب ، والقتل ، ولا ينظر في العواقب ، ولا يدفع بالتي هي أحسن ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ أي الذين يصلحون بين الناس .

(151/585)

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾ قيل : المراد بهذا الرجل : حزقيل ، وهو مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم موسى ، وقيل : اسمه شمعون ، وقيل : طالوت ، وقيل : شمعان .

والمراد بأقصى المدينة : آخرها وأبعدها ، و ﴿ يسعى ﴾ يجوز أن يكون في محل رفع صفة لرجل ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال ، لأن لفظ رجل وإن كان نكرة فقد تخصص بقوله : مِنْ أَقْصَى المدينة ، ﴿ قَالَ يا موسى إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أي يتشاورون في قتلك ، ويتآمرون بسببك .

قال الزجاج : يأمر بعضهم بعضاً بقتلك ، وقال أبو عبيد : يتشاورون فيك ليقتلوك : يعني :

أشراف قوم فرعون .

قال الأزهري : ائتمر القوم وتآمروا ، أي أمر بعضهم بعضاً ، نظيره قوله : ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق : 6] قال النمر بن تولب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة . . . وفي كل حادثة يؤتمر

﴿ فاخرج إِنِّي لَكَ مِنَ الناصحين ﴾ في الأمر بالخروج ، واللام للبيان ؛ لأن معمول المجرور لا يتقدم عليه ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به ، وإدراكهم له ، ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلاً : ﴿ رَبّ نَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ أي خلصني من القوم الكافرين ، وادفعهم عني ، وحلّ بيني وبينهم ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ ﴾ أي نحو مدين قاصداً لها .

قال الزجاج : أي سلك في الطريق الذي تلقاء مدين فيها .

انتهى .

يقال : داره تلقاء دار فلان ، وأصله من اللقاء ، ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون ، ولهذا خرج إليها ﴿ قَالَ عسى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السبيل ﴾ أي يرشدني نحو الطريق المستوية إلى مدين .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ أي وصل إليه ، وهو الماء الذي يستقون منه ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أي وجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون مواشيهم ، ولفظ الورود قد يطلق على الدخول في المورد ، وقد يطلق على البلوغ إليه ، وإن لم يدخل فيه ، وهو المراد هنا ، ومنه قول زهير :

فلما وردنا الماء زرقا حمامه . . . وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] وقيل : مدين اسم للقبيلة لا للقرية ، وهي غير منصرفة على كلا التقديرين .

﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ أي من دون الناس الذين يسقون ما بينهم وبين الجهة التي جاء منها ، وقيل : معناه : في موضع أسفل منهم ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس ، ويخلو بينهما وبين الماء ، ومعنى الذود : الدفع ، والحبس ، ومنه قول الشاعر :

أبيت على باب القوافي كأنما . . . أذود بها سرباً من الوحش نزّعا

أي : أحبس ، وأمنع ، وورد الذود بمعنى الطرد ، ومنه قول الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم . . . فما تدري بأي عصى تذود

أي : تطرد ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي : قال موسى للمرأتين : ما شأنكما لا تسقيان

غنمكما مع الناس ؟ والخطب : الشأن ، قيل : وإنما يقال : ما خطبك لمصاب ، أو مضطهد ، أو لمن يأتي بمنكر ﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعاء ﴾ أي إن عادتنا التأني حتى يصدر الناس عن الماء ، وينصرفوا منه حذراً من مخالطتهم ، أو عجزاً عن السقي معهم .

قرأ الجمهور : ﴿ يصدر ﴾ بضم الياء ، وكسر الدال مضارع أصدر المتعدّى بالهمزة .

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء وضم الدال من صدر يصدر لازماً ، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف ، أي يرجعون مواشيهم ، والرعاء جمع راع .

قرأ الجمهور : ﴿ الرعاء ﴾ بكسر الراء .

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه بفتحها .

(153/585)

قال أبو الفضل : هو مصدر أقيم مقام الصفة ، فلذلك استوى فيه الواحد ، والجمع .

وقرىء : " الرعاء " بالضم اسم جمع .

وقرأ طلحة بن مصرف : " نسقى " بضم النون من أسقى ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ عالي السن ، وهذا من تمام كلامهما ، أي لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر ، فلذلك احتجنا ،

ونحن امرأتان ضعيفتان أن نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك فلما سمع موسى كلامهما ﴿ سقى لهما ﴾ رحمة لهما ، أي سقى أغنامهما لأجلهما ، " ثم " لما فرغ من السقي لهما ﴿ تولى إِلَى الظل ﴾ أي : انصرف إليه ، فجلس فيه .

قيل : كان هذا الظل ظل سمرة هنالك .

ثم قال لما أصابه من الجهد ، والتعب مناديا لربه ﴿ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ أيّ خير كان ﴿ فَقِيرٌ ﴾ أي محتاج إلى ذلك .

قيل : أراد بذلك الطعام ، واللام في : ﴿ لِمَا أَنزَلْتَ ﴾ معناها : إلى .

قال الأخفش : يقال : هو فقير له ، وإليه .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ ، والمحاملي في أماليه من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال : ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿ واستوى ﴾ قال : أربعين سنة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب المعمرين من طريق الكلبي عن أبي صالح عنه قال : الأشد : ما بين الثماني عشرة إلى الثلاثين ، والاستواء : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، فإذا زاد على الأربعين أخذ في النقصان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال : نصف النهار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق ابن جريج عن عطاء الخراساني ، عنه أيضاً في الآية قال : ما بين المغرب والعشاء .

(154/585)

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً ﴿ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ قال : إسرائيلي ﴿ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ قال : قبطي ﴿ فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ ﴾ الإسرائيلي ﴿ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ القبطي ﴿ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ﴾ قال : فمات ، قال : فكبر ذلك على موسى .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ فَإِذَا الذي استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ قال : هو صاحب موسى الذي استنصره بالأمس .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الذي استنصره هو الذي استصرخه .

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال : من قتل رجلين فهو جبار ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض ﴾ ، وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : خرج موسى خائفاً يترقب جائعاً ليس معه زاد حتى انتهى إلى ماء مدين ، و ﴿ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ ، وامرأتان جالستان بشياههما ، فسألهما : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ قال : فهل قربكما ماء ؟ قالتا : لا ، إلاّ بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر ، قال : فانطلقا ، فأريانيها ، فانطلقتا معه ، فقال بالصخرة بيده ، فنحاها ، ثم استقى لهم سجلاً واحداً فسقى الغنم ، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، فسمعتا ، قال : فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما ، فسألهما فأخبرتاه ، فقال لإحداهما : انطلقي فادعيه ، فأتت ، فقالت : ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ فمشت بين يديه ، فقال لها : امشي خلفي ، فإني امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لي أن أرى منك ما حرّم الله عليّ ، وأرشديني الطريق ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ قال لها أبوها : ما رأيت من قوّته وأمانته ؟ فأخبرته بالأمر الذي كان ، قالت : أما قوّته فإنه قلب

الحجر وحده ، وكان لا يقلبه إلاّ النفر .

وأما أمانته فقال : امشي خلفي وأرشديني الطريق لأني امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحلّ لي منك ما حرّمه الله .

قيل لابن عباس : أيّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرّهما وأوفاهما .

(156/585)

وأخرج الفريابي ، وابن أبي شيبة في المصنف ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب قال : إن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلاّ عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين ، قال : ما خطبكما ؟ فحدّثتاه ، فأتى الحجر ، فرفعه وحده ، ثم استقى فلم يستق إلاّ ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم ، فرجعت المرأتان إلى أبيهما ، فحدّثتاه ، وتولى موسى إلى الظلّ فقال : ﴿ ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ .

قال : ﴿ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحياء ﴾ واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء خرّاجة ولاجة ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ فقام معها موسى ، فقال لها : إمشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فإني أكره أن يصيب الريح

ثيابك فتصف لي جسدك ، فلما انتهى إلى أبيها قصّ عليه ، فقالت إحداهما : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين ﴾ قال : يا بنية ما علمك بأمانته وقوّته ؟ قالت : أما قوّته فرفعه الحجر ولا يطيقه إلاّ عشرة رجال ، وأما أمانته فقال : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ؛ فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك ، فتصف لي جسدك ، فزاده ذلك رغبة فيه ، فقال : ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ أي في حسن الصحبة ، والوفاء بما قلت ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ قال : نعم ، قال : ﴿ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ فزوّجه ، وأقام معه يكفيه ويعمل في رعاية غنمه ، وما يحتاج إليه ، وزوجه صفوراً وأختها شرفاً ، وهما اللتان كانتا تذودان .

قال ابن كثير بعد إخراجه لطرق من هذا الحديث : إن إسناده صحيح .

والسلفع من النساء الجريئة السليطة .

(157/585)

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ قال : ورد الماء حيث ورد ، وإنه لتتراءى خضرة البقل في بطنه من الهزال .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : خرج موسى من مصر إلى مدين وبينه وبينها ثماني ليالٍ ، ولم يكن له طعام إلاّ ورق الشجر ، وخرج حافياً ، فما وصل إليها حتى وقع خفّ قدمه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضاً قال : ﴿ تَذُودَانِ ﴾ : تحبسان غنمهما حتى ينزع الناس ، ويخلو لهما البئر .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والضياء في المختارة عنه أيضاً قال : لقد قال موسى : ﴿ ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شقّ تمرة ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدّة الجوع .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : ما سأل إلاّ الطعام .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال : سأل فلقاً من الخبز يشدّ بها صلبه من الجوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(158/585)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾

ظاهر النظم أن الرجل جاء على حين محاورة القبطي مع موسى فلذلك انطوى أمر محاورتهما إذ حدث في خلاله ما هو أهم منه وأجدى في القصة .

والظاهر أن أقصى المدينة هو ناحية قصور فرعون وقومه فإن عادة الملوك السكنى في أطراف المدن توقياً من الثورات والغارات لتكون مساكنهم أسعد بخروجهم عند الخوف .

وقد قيل : الأطراف منازل الأشراف .

وأما قول أبي تمام :

كانت هي الوسط المحمي فاتصلت

بها الحوادث حتى أصبحت طرفا . . .

فذلك معنى آخر راجع إلى انتقاص العمران كقوله تعالى ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة ﴾ (الأحزاب : 13 .

(وبهذا يظهر وجه ذكر المكان الذي جاء منه الرجل وأن الرجل كان يعرف موسى .

و﴿ الملأ ﴾ : الجماعة أولو الشأن ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ أي نوح في [الأعراف : 60] ، وأراد بهم أهل دولة فرعون : فالمعنى : أن أولي الأمر يأتمرون بك ، أي يتشاورون في قتلك .

وهذا يقتضي أن القضية رفعت إلى فرعون وفي سفر الخروج في الإصحاح الثاني : "فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يُقتل موسى" .

ولما علم هذا الرجل بذلك أسرع بالخبر لموسى لأنه كان معجباً بموسى واستقامته .

وقد قيل : كان هذا الرجل من بني إسرائيل .

وقيل : كان من القبط ولكنه كان مؤمناً يكتم إيمانه ، لعل الله ألهمه معرفة فساد الشرك بسلامة فطرته وهيأه لإنقاذ موسى من يد فرعون .

والسعي : السير السريع ، وقد تقدم عند قوله ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ في سورة [طه : 20] .

وتقدم بيان حقيقته ومجازه في قوله ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ﴾ في سورة [الإسراء : 19] .

وجملة ﴿ يسعى ﴾ في موضع الحال من ﴿ رجل ﴾ الموصوف بأنه من ﴿ أقصى المدينة ﴾ .

و ﴿ يأتمرون بك ﴾ يتشاورون .

وضمن معنى (يهمون) فعدي بالباء فكأنه قيل : يأتمرون ويهمّون بقتلك .

وأصل الائتمار : قبول أمر الآمر فهو مطاوع أمره ، قال امرؤ القيس:

ويعدو على المرء ما يأتمر . . .

أي يضره ما يطيع فيه أمر نفسه .

ثم شاع إطلاق الائتمار على التشاور لأن المتشاورين يأخذ بعضهم أمر بعض فيأتمر به الجميع ، قال تعالى ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ [الطلاق : 6] .

وجملة ﴿ قال يا موسى ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ جاء رجل ﴾ لأن مجيئه يشتمل على قوله ذلك .

ومتعلق الخروج محذوف لدلالة المقام ، أي فاخرج من المدينة .

وجملة ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ تعليل لأمره بالخروج .

واللام في قوله ﴿ لك من الناصحين ﴾ صلة ، لأن أكثر ما يستعمل فعل النصح معدى باللام .

يقال : نصحت لك قال تعالى ﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ في سورة [التوبة : 91] ووهماً قالوا : نصحتك .

وتقديم المجرور للرعاية على الفاصلة .

والترقب : حقيقته الانتظار ، وهو مشتق من رقب إذا نظر أحوال شيء .

ومنه سمي المكان المرتفع : مرقبة ومرتقباً ، وهو هنا مستعار للحذر .

وجملة ﴿ قال رب نجني ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ يترقب ﴾ لأن ترقبه يشتمل على

الدعاء إلى الله بأن ينجيه .

والقوم الظالمون هم قوم فرعون .

ووصفهم بالظلم لأنهم مشركون ولأنهم راموا قتله قصاصاً عن قتل خطأ وذلك ظلم لأن الخطأ في القتل لا يقتضي الجزاء بالقتل في نظر العقل والشرع .

ومحل العبرة من قصة موسى مع القبطي وخروجه من المدينة من قوله ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ [القصص : 14] إلى هنا هو أن الله يصطفي من يشاء من عباده ، وأنه أعلم حيث يجعل رسالاته ، وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء هيأ له أسبابه بقدرته فأبرزه على أتقن تدبير ، وأن الناظر البصير في آثار ذلك التدبير يقتبس منها دلالة على صدق الرسول في دعوته كما أشار إليه قوله تعالى ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ [يونس : 16] .

وإن أوضح تلك المظاهر هو مظهر استقامة السيرة ومحبة الحق ، وأن دليل عناية الله بمن اصطفاه لذلك هو نصره على أعدائه ونجاته مما له من المكائد .

(160/585)

وفي ذلك كله مثل للمشركين لو نظروا في حال محمد صلى الله عليه وسلم في ذاته وفي حالهم معه .

ثم ﴿ إن ﴾ في قوله تعالى ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ الآية إيماء إلى أن رسوله صلى الله عليه وسلم سيخرج من مكة وأن الله منجيه من ظالميه .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)

هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم عليه السلام إذ قال ﴿ إني مهاجر إلى ربي ﴾ [العنكبوت : 26] .

وقد ألهم الله موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين إذ يجد فيها نبيئاً يبصره بآداب النبوءة ولم يكن موسى يعلم إلى أين يتوجه ولا من سيجد في وجهته كما دل عليه قوله ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ .

فقوله تعالى ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ عطف على جمل محذوفة إذ التقدير : ولما خرج من المدينة هائماً على وجهه فاتفق أن كان مسيره في طريق يؤدي إلى أرض مدين حينئذ قال ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ .

قال ابن عباس : خرج موسى ولا علم له بالطريق إلا حسن ظن بربه .

و ﴿ توجه ﴾ : ولى وجهه ، أي استقبل بسيره تلقاء مدين .

و ﴿ تلقاء ﴾ : أصله مصدر على وزن التفعال بكسر التاء ، وليس له نظير في كسر التاء إلا تمثال ، وهو بمعنى اللقاء والمقاربة .

وشاع إطلاق هذا المصدر على جهته فصار من ظروف المكان التي تنصب على

الظرفية .

والتقدير : لما توجه جهة تلاقي مدْيَن ، أي جهة تلاقي بلاد مدين ، وقد تقدم قوله تعالى ﴿ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار ﴾ في سورة الأعراف .

(47) و ﴿ مدْيَن ﴾ : قوم من ذرية مدين بن إبراهيم .

وقد مضى الكلام عليهم عند قوله تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ في سورة الأعراف (85) .

(161/585)

وأرض مدين واقعة على الشاطىء الغربي من البحر الأحمر وكان موسى قد سلك إليها عند خروجه من بلد (رعمسيس) أو (منفيس) طريقاً غربية جنوبية فسلك برية تمر به على أرض العمالقة وأرض الأدوميين ثم بلاد النبط إلى أرض مدين .

تلك مسافة ثمانمائة وخمسين ميلاً تقريباً .

وإذ قد كان موسى في سيره ذلك راجلاً فتلك المسافة تستدعي من المدة نحواً من خمسة وأربعين يوماً .

وكان يبيت في البرية لا محالة .

وكان رجلاً جلداً وقد ألهمه الله سواء السبيل فلم يضل في سيره .

والسواء : المستقيم النهج الذي لا التواء فيه .

وقد ألهمه الله هذه الدعوة التي في طيها توفيقه إلى الدين الحق .

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ

يدل قوله ﴿ لما ورد ماء مدين ﴾ أنه بلغ أرض مدين ، وذلك حين ورد ماءهم .

والورود هنا معناه الوصول والبلوغ كقوله تعالى ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : 71] .

والمراد بالماء موضع الماء .

وماء القوم هو الذي تعرف به ديارهم لأن القبائل كانت تقطن عند المياه وكانوا يكنون عن أرض القبيلة بماء بني فلان ، فالمعنى : ولما ورد ، أي عندما بلغ بلاد مدين .

ويناسب الغريب إذا جاء ديار قوم أن يقصد الماء لأنه مجتمع الناس فهنالك يتعرف لمن يصاحبه ويضيفه .

و﴿ لما ﴾ حرف توقيت وجود شيء بوجود غيره ، أي عندما حل بأرض مدين وجد أمة .

والأمة : الجماعة الكثيرة العدد ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ في [البقرة : 213] .

وحذف مفعول ﴿ يسقون ﴾ لتعميم ما شأنه أن يسقى وهو الماشية والناس ، ولأن الغرض لا يتعلق بمعرفة المسقي ولكن بما بعده من انزواء المرأتين عن السقي كما في "الكشاف" تبعاً "لدلائل الإعجاز" ، فيكون من تنزيل الفعل المتعدّي منزلة اللازم ، أو الحذف هنا للاختصار كما اختاره السكاكي وأيده شارحاه السعد والسيد .

وأما حذف مفاعيل ﴿ تَذُودان لا نسقي فسقى لهما ﴾ فيتعين فيها ما ذهب إليه الشيخان .

(162/585)

وأما ما ذهب إليه صاحب "المفتاح" وشارحاه فشيء لا دليل عليه في القرآن حتى يقدر محذوف وإنما استفادة كونهما تذودان غنماً مرجعها إلى كتب الإسرائيليين .

ومعنى ﴿ من دونهم ﴾ في مكان غير المكان الذي حول الماء ، أي في جانب مباعد للأمة من الناس لأن حقيقة كلمة (دون) أنها وصف للشيء الأسفل من غيره .

وتتفرع من ذلك معان مجازية مختلفة العلاقات ، ومنها ما وقع في هذه الآية .

ف (دون) بمعنى جهة يصل إليها المرء بعد المكان الذي فيه الساقون .

شُبّه المكان الذي يبلغ إليه الماشي بعد مكان آخر بالمكان الأسفل من الآخر كأنه ينزل إليه

الماشي لأن المشي يشبه بالصعود وبالهبوط باختلاف الاعتبار .

ويحذف الموصوف بـ (دون) لكثرة الاستعمال فيصير (دون) بمنزلة ذلك الاسم المحذوف .

وحرف ﴿ من ﴾ مع (دون) يجوز أن يكون للظرفية مثل ﴿ إذا نُودِي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ [الجمعة : 9] .

ويجوز أن يكون بمعنى (عند) وهو معنى أثبته أبو عبيدة في قوله تعالى ﴿ لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ [آل عمران : 10] .

والمعنى : ووجد امرأتين في جهة مبتعدة عن جهة الساقين .

و ﴿ تذودان ﴾ تطرُدان .

وحقيقة الذود طرد الأنعام عن الماء ولذلك سموا القطيع من الإبل الذود فلا يقال : ذدت الناس ، إلا مجازاً مرسلاً ، ومنه قوله في الحديث " فَلَيذادن أقوام عن حوضي " الحديث .

والمعنى في الآية : تمنعان إبلاً عن الماء .

وفي التوراة : أن شعيباً كان صاحب غنم وأن موسى رعى غنمه .

فيكون إطلاق ﴿ تذودان ﴾ هنا مجازاً مرسلاً ، أو تكون حقيقة الذود طرد الأنعام كلها عن حوض الماء .

وكلام أئمة اللغة غير صريح في تبيين حقيقة هذا .

وفي سفر الخروج : أنها كانت لهما غنم ، والذود لا يكون إلا للماشية .

والمقصود من حضور الماء بالأنعام سقيها .

(163/585)

فلما رأى موسى المرأتين تمنعان أنعامهما من الشرب سألهما : ما خطبكما ؟ وهو سؤال عن قصتهما وشأنهما إذ حضرا الماء ولم يقتحما عليه لسقي غنمهما .

وجملة ﴿ قال ما خطبكما ﴾ بدل اشتمال من جملة ﴿ ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ .

والخطب : الشأن والحدث المهم ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ [يوسف : 51] ، فأجابتا بأنهما كرهتا أن تسقيا في حين اكتظاظ المكان بالرعاء وأنهما تستمران على عدم السقي كما اقتضاه التعبير بالمضارع إلى أن ينصرف الرعاء .

و﴿ الرعاء ﴾ : جمع راع .

والإصدار : الإرجاع عن السقي ، أي حتى يسقي الرعاء ويصدروا مواشيهم ، فالإصدار جعل الغير صادراً ، أي حتى يذهب رعاء الإبل بأنعامهم فلا يبقى الزحام .

وصدهما عن المزاحمة عادتهما لأنهما كانتا ذواتي مروءة وتربية زكية .

وقرأ الجمهور ﴿ يصدر ﴾ بضم الياء وكسر الدال .

وقرأه ابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ﴿ يصدر ﴾ بفتح حرف المضارعة وضم الدال على إسناد الصدر إلى الرعاء ، أي حتى يرجعوا عن الماء ، أي بمواشيهم لأن وصف الرعاء يقتضي أن لهم مواشي .

وهذا يقتضي أن تلك عادتهما كل يوم سقي ، وليس في اللفظ دلالة على أنه عادة .

وكان قولهما ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ اعتذاراً عن حضورهما للسقي مع الرجال لعدم وجدانهما رجلاً يستقي لهما لأن الرجل الوحيد لهما هو أبوهما وهو شيخ كبير لا يستطيع ورود الماء لضعفه عن المزاحمة .

واسم المرأتين (لَيَّا) و (صَفُّورة) .

وفي سفر الخروج : أن أباهما كاهن مدْين .

وسمّاه في ذلك السفر أول مرة رعْويل ثم أعاد الكلام عليه فسماه يثرون ووصفه بحمي موسى ، فالمسمى واحد .

وقال ابن العِبري في "تاريخه" : يثرون بن رعويل له سبع بنات خرج للسقي منهما اثنتان ، فيكون شُعيب هو المسمى عند اليهود يثرون .

والتعبير عن النبي بالكاهن اصطلاح.

لأن الكاهن يخبر عن الغيب ولأنه يطلق على القائم بأمور الدين عند اليهود .

(164/585)

وللجزم بأنه شعيب الرسول جعل علماؤنا ما صدر منه في هذه القصة شرعاً سابقاً ففرعوا عليه مسائل مبنية على أصل : أن شرع من قبلنا من الرسل الإلهيين شرع لنا ما لم يرد ناسخ .

ومنها مباشرة المرأة الأعمال والسعي في طرق المعيشة ، ووجوب استحيائها ، وولاية الأب في النكاح ، وجعل العمل البدني مهراً ، وجمع النكاح والإجارة في عقد واحد ، ومشروعية الإجارة .

وقد استوفى الكلام عليها القرطبي .

وفي أدلة الشريعة الإسلامية غنية عن الاستنباط مما في هذه الآية إلا أن بعض هذه الأحكام لا يوجد دليله في القرآن ففي هذه الآية دليل لها من الكتاب عند القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا .

وفي إذنه لابنتيه بالسقي دليل على جواز معالجة المرأة أمور مالها وظهورها في مجامع الناس

إذا كانت تستر ما يجب ستره فإن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكاه شرعنا ولم يأت من شرعنا ما ينسخه .

وأما تحاشي الناس من نحو ذلك فهو من المروءة والناس مختلفون فيما تقتضيه المروءة والعادات متباينة فيه وأحوال الأمم فيه مختلفة وخاصة ما بين أخلاق البدو والحضر من الاختلاف .

ودخول ﴿ لما ﴾ التوقيتية يؤذن باقتران وصوله بوجود الساقين .

واقتران فعل (سقى) بالفاء يؤذن بأنه بادر فسقى لهن ، وذلك بفور وروده .

ومعنى ﴿ فسقى لهما ﴾ أنه سقى ما جئن ليسقينه لأجلهما ، فاللام للأجل ، أي لا يدفعه لذلك إلا هما ، أي رأفة بهما وغوثاً لهما .

وذلك من قوة مروءته أن اقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من الإعياء عند الوصول .

والتولي : الرجوع على طريقه ، وذلك يفيد أنه كان جالساً من قبل في ظل فرجع إليه .

ويظهر أن ﴿ تولى ﴾ مرادف (ولى) ولكن زيادة المبنى من شأنها أن تقتضي زيادة المعنى فكيون ﴿ تولى ﴾ أشد من (ولى) ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى ﴿ ولى مدبراً ﴾ في سورة [النمل : 10] .

وقد أعقب إيواءه إلى الظل بمناجاته ربه إذ قال ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ .

لما استراح من مشقة المتح والسقي لماشية المرأتين والاقتحام بها في عدد الرعاء العديد ، ووجد برد الظل تذكر بهذه النعمة نعماً سابقة أسداها الله إليه من نجاته من القتل وإيتائه الحكمة والعلم ، وتخليصه من تبعة قتل القبطي ، وإيصاله إلى أرض معمورة بأمة عظيمة بعد أن قطع فيافي ومفازات ، تذكر جميع ذلك وهو في نعمة برد الظل والراحة من التعب فجاء بجملة جامعة للشكر والثناء والدعاء وهي ﴿ إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ .

والفقير : المحتاج فقوله ﴿ إني لما أنزلت إلي من خير ﴾ شكر على نعم سلفت .

وقوله ﴿ إني لما أنزلت إلي من خير ﴾ ثناء على الله بأنه معطي الخير .

والخير : ما فيه نفع وملاءمة لمن يتعلق هو به فمنه خير الدنيا ومنه خير الآخرة الذي قد يرى في صورة مشقة فإن العبرة بالعواقب ، قال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [التوبة : 85] .

وقد أراد النوعين كما يرمز إلى ذلك التعبير عن إيتائه الخير بفعل ﴿ أنزلت ﴾ المشعر برفعة المعطَى .

فأول ذلك إيتاء الحكمة والعلم .

ومن الخير إنجاؤه من القتل ، وتربيته الكاملة في بذخة الملك وعزته ، وحفظه من أن تتسرب إليه عقائد العائلة التي ربي فيها فكان منتفعاً بمنافعها مجنباً رذائلها وأضرارها .

ومن الخير أن جعل نصر قومه على يده ، وأن أنجاه من القتل الثاني ظلماً ، وأن هداه إلى منجى من الأرض ، ويسر له التعرف ببيت نبوءة ، وأن آواه إلى ظل .

و(ما) من قوله ﴿ لما أنزلت إلي ﴾ موصولة كما يقتضيه فعل المضي في قوله ﴿ أنزلت ﴾ لأن الشيء الذي أنزل فيما مضى صار معروفاً غير نكرة ، فقوله (ما أنزلت إلي) بمنزلة المعرف بلام الجنس لتلائم قوله ﴿ فقير ﴾ أي فقير لذلك النوع من الخير ، أي لأمثاله .

وأحسن خير للغريب وجود مأوى له يطعم فيه ويبيت وزوجة يأنس إليها ويسكن .

(166/585)

فكان استجابة الله له بأن ألهم شعيباً أن يرسل وراءه لينزله عنده ويزوجه بنته ، كما أشعرت بذلك فاء التعقيب في قوله ﴿ فجاءته إحداهما ﴾ [القصص : 25] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(167/585)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾

هو الرجل المؤمن من آل فرعون ، جاء لينصح موسى بالخروج والهرب قبل أنْ يُمسِكوا به فيقتلوه .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

لأنهم يضطهدوننا ويعذبوننا من غير ما جريرة ، فما بالك بعد أنْ وجدوا فرصة وذريعة ليزدادوا ظلماً لنا ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾

معنى ﴿ تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 22] يعني : ناحيتها ، وأراد أنْ يهرب من مصر كلها ، ولم يكُنْ يقصد مدين بالذات ، إنما سار في طريق صادف أنْ يؤدي إلى مدين بلد شعيب عليه السلام .

ولو كانت مَدْيَنُ مقصودة له لما قال بعد توجهه : ﴿ عسى ربي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السبيل ﴾ [القصص : 22] فموسى حينما خرج من مصر خائفاً يريد الهرب لم يفكر في وجهة معينة ، فالذي يُهمه أنْ يخرج من هذه البلدة ، وينجو بنفسه .

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ

عرض القرآن الكريم هذه القصة في إيجاز بليغ ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمة المرأة في مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ، والضرورة التي تُلجىء المرأة للخروج للعمل .

معنى ﴿ وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 23] يعني : جاء عند الماء ، ولا يقتضي الورود أن يكون شَرِب منه . والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] فليس المعنى دخول النار ، ومباشرة حَرِّها ، إنما ذاهبون إليها ، ونراها جميعنا إذن : وردْنا العَيْن . يعني : جئنا عندها ورأيناها ، لكن الشرب منها ، شيء آخر .

(168/585)

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ [القصص : 23] أي : على الماء ﴿ أُمَّةً ﴾ [القصص : 23] جماعة ﴿ يَسْقُونَ ﴾ [القصص : 23] أي : مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ [القصص : 23] يعني : بعيداً عن الماء ﴿ امرأتين تَذُودَانِ ﴾ [القصص : 23] أي : تكفّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة الزحام على الماء ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ [القصص : 23] أي : ما شأنكما ؟

وفي الاستفهام هنا معنى التعجُّب يعني : لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ ، وما أتيتُما إلا

للسُّقْيا ؟

﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : 23] .

وقولهما ﴿ حتى يُصْدِرَ الرعآء ﴾ [القصص : 23] يعني : ينصرفوا عن الماء ، فصدر مقابل ورد ، فالآتي للماء : وارد ، والمنصرف عنه : صادر : نقول : صدر يَصْدُر أي : بذاته ، وأصدر يُصْدر أي : غيره .

فالمعنى : لا نَسْقي حتى يسقي الناس وينصرفوا . و ﴿ الرعآء ﴾ [القصص : 23] جمع رَاعٍ . ثم يذكران العلَّة في خروجهما لِسقْي الغنم ومباشرة عمل الرجال ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : 23] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فسقى لَهُمَا ثُمَّ تولى ﴾

معنا إذن في هذه القصة أحكام ثلاثة ﴿ لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء ﴾ [القصص : 23] أعطَتْ حكماً و ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : 23] أعطتْ حُكْماً و ﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ [القصص : 24] أعطت حكماً ثالثاً .

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة ، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل ، فمن الحكم الأول نعلم أن سَقْي الأنعام من عمل الرجال ، ومن الحكم الثاني نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة ، ولا تؤدي مهمة الرجال إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [القصص : 23] .

أما الحكم الثالث فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنساني إذا رأى المراة قد خرجت للعمل فلا بد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها .

وأذكر أنني حينما سافرت إلى السعودية سنة 1950 ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته ، وفي الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش ، فأخذها ووضعها في السيارة ، ثم سِرْنا فسألْتُه عما يفعل ، فقال : من عاداتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهي تعني أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين ، وتريد مَنْ يخبزه فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها .

وفي قوله تعالى : ﴿ لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء ﴾ [القصص : 23] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل ، وتوفرْت لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم ، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] فكان موسى عليه السلام طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتى أجهده الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جِلْداً على عظم ، وأكل من بقل الأرض ، وبعد أن سقى للمرأتين تولَّى إلى ظلِّ شجرة ليستريح ، وعندها لَهَج بهذا الدعاء ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] .

(170/585)

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الضعيف أنْ يتجه إلى المعونة ، وحين يتجه إليها فلن يفعل هو ، إنما سيفعل الله له ؛ لذلك نلحظ أن موسى في ندائه قال ﴿ رَبِّ ﴾ [القصص : 24] واختار صفة الربوبية ، ولم يقُلْ يا الله ؛ لأن الألوهية تقتضي معبوداً ، له أوامر ونواهٍ ، أمّا الرب فهو المتولِّي للتربية والرعاية ، فقال : يا رب أنا عبدك ، وقد جئتَ بي إلى هذا الكون ، وأنا جائع أريد أن آكل .

ومعنى ﴿ أَنزَلْتَ ﴾ [القصص : 24] أن الخير منك في الحقيقة ، وإنْ جاءني على يد عبد مثلي ؛ ذلك لأنك حين تُسلسل أيَّ خير في الدنيا لا بُدَّ أن ينتهي إلى الله المنعِم الأول ، وضربنا لذلك مثلاً برغيف العيش الذي تأكله ، بدايته نبتة لولا عناية الله ما نبتتْ .

لذلك يقولون في (الحمد لله) صيغة العموم في العموم ، حتى إنْ حمدتَ إنساناً على جميل أسداه إليك ، فأنت في الحقيقة تحمد الله حيث ينتهي إليه كُلُّ جميل .

إذن : فحمْد الناس من باطن حمد الله ، والحمد بكل صوره وبكل توجهاته ، حتى ولو كانت الأسباب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضهم : لا تحمد الله حتى تحمد الناس .

ذلك لأن أَزِمّة الأمور بيده تعالى ، وإنْ جعل الأسباب في أيدينا ، وهو سبحانه القادر وحده على تعطيل الأسباب ، وأذكر أن بعض الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم في محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أنْ ينضج المحصول أصابته جائحة فأهلكته ، فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح في هذا العام .

هذا معنى ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] فالخير منك يا رب ، وإنْ سُقْته إليَّ على يد عبد من عبيدك ، وفقري لا يكون إلا إليك ، وسؤالي لا يكون إلا لك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(171/585)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى) (القصص 20) ، وفي سورة يس : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) (يس : 20) ، للسائل أن يسأل عن تأخير الفاعل عن المجرور في سورة يس ولم يأت متقدماً يلي الفعل كما ورد في سورة القصص ؟

(172/585)

والجواب عن ذلك ، بعد تسليم أن وروده في سورة القصص متقدماً فقيل : (وَجَاءَ رَجُلٌ) وارد فلى ما يجب ، لأن مرتبة الفاعل التقديم ، ولا يتأخر عن ولايته الفعل إلا لعارض من جهة اللفظ أو من جهة المعنى أو اتساعاً ، وذلك غير الأولى أعني إذا كان تأخره لمجرد الاتساع . وإذا تقرر هذا فإنما السؤال عن وجه تأخره في سورة يس ؟ ووجه ذلك – والله أعلم – أن تقديم المجرور الذي هو قوله : (مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) مشيراً إلى إحراز معنى جليل مطلع على حكم السوابق من بعد مسافة عن داعية إلى الهداية ، فلم (يضره) بعد الدار وكفر من باشر الرسل وشافههم فلم ينتفع بقرب الدار ، وذلك بحسب ما قدر لكل من

المكلفين وسبق له ، وحاصل الإخبار من هذه الآيات مثال لحال كفار قريش من أهل مكة ، وحال الأنصار من أهل المدينة ، حين جاء هؤلاء وآمنوا به صلى الله عليه وسلم مع بعد دراهم ، وعاند عتاة قريش (فكفروا) مع لالتحام في النسب واتحاد الدار ، ويوضح هذا أن السورة مكية ، وإنما افتتحت بذكر قريش وهم المعنيون بقوله : (لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ) (يس : 6) إلى ما بعد من الآيات ، والإخبار بأن ذلك لا يجدي عليهم في قوله : (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (يس : 10) ، فهذا الإخبار بحال كفار قريش ، ثم قال تعالى : (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ . . .) (يس : 11) ، أي من انقاد وأصغى إليك وإن بعدت داره وهذا حال الأنصار ، ثم قال : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا) (يس : 13) أي الفريقين ممن كفر مع قرب داره ومن آمن مع بعد داره ، وذكر تعالى أصحاب القرية (وحالهم مع من أرسل إليهم ، وأنهم أرسل إليهم اثنان ثم عززوا بثالث ، فجاوبهم أصحاب القرية) المخاطبون مجاوبة الرد والتكذيب فقالوا : (مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) (يس : 15) كما قالت قريش : (مَالِ هَذَا الرَّسُولِ

يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان : 7) ، ثم ذكر تعالى قول الرسل لأصحاب القرية : (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ *وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (يس : 16 – 17) ، وقول أصحاب القرية : (إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ) (يس : 18) . فلما ذكر سبحانه هذه المخاورة والمراجعة قال تعالى : (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ) (يس : 20) أي ممن لم يحضر معهم ولا شاهد ما طال من مراجعتهم ، فجاء بحسب ما سبق له من السعادة يقول : (يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) (يس : 20) إلى ما أخبر تعالى من قوله ، فمجيئه من أقصى المدينة مثال لمن بعد فلم يضره بعده ، وذكره المراجعين للرسل من أصحاب القرية مثال لمن قرب وطالت مباشرته وشاهد الآيات فلم ينفعه قربه ، فلما قصد في آية يس مثال من ذكر من الفريقين خصت من تقديم المجرور على الفاعل ما يحرز المعنى المقصود ، فهو من قبيل ما قدم للاعتبار والتهمم ، وقد تقدم في مواضع إنشاد سيبويه ، رحمة (الله) عليه :

لتقربن قرباً جلزيا ما دام فيهن فصيل حيا

فلإحراز هذا المعنى قدم هذا المجرور وتأخر الفاعل .

أما آية القصص فلم يقصد فيها شيء من هذا فجاءت على ما يجب ما تقديم الفاعل ، وتناسب هذا كله ، ووضح أن كلاً من الموضوعين لا يناسبه ولا يلائمه غير الوارد فيه ، والله أعلم بما أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 383.384 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ يسعى ﴾ :

يجوز أَنْ يكونَ صفةً ، وأَنْ يكونَ حالاً ؛ لأنَّ النكرةَ قد تَخَصَّصَتْ بالوصفِ بقولِه : ﴿ مِّنْ أَقْصَى المدينة ﴾ فإن جَعَلتْ " مِنْ أَقْصَى " متعلقاً ب " جاء " ف " يَسْعَى " صفةٌ ليس إلاَّ . قاله الزمخشريُّ ، بناءً منه على مذهب الجمهورِ وقد تقدَّم / أنَّ سيبويه يجيز ذلك مِنْ غيرِ شرطٍ . وفي آية يس تقدَّم " مْن أقصى " على " رجل " لأنَّه لم يكنْ مِنْ أقصاها ، وإنما جاء منه ، وهنا وصَفَه بأنه مِنْ أقصاها ، وهما رجلان مختلفان وقِصَّتان متباينتان .

قوله : ﴿ يَأْتَمِرُونَ ﴾ أي : يَتآمَرُوْنَ بمعنى يَتشاورون ، كقولِ النَّمِر ابنِ تَوْلب :

3595 أرى الناسَ قد أَحْدَثُوا شِيْمَةً . . . وفي كلِّ حادثةٍ يُؤْتَمَرْ

وعن ابن قتيبة : يأمرُ بعضُهم بعضاً . أخذه مِنْ قولِه تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق : 6] .

قوله : " لك " يجوز أَنْ يتعلَّقَ بما يَدُلُّ " الناصحين " عليه أي : ناصحٌ لك من الناصحين ، أو بنفسِ " الناصحين " للاتِّساع في الظرف ، أو على جهةِ البيان أي : أعني لك .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

قوله : ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ : أي : يترقَّبُ هِدايتَه وغَوْثَ اللهِ إياه .

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23)

قوله : ﴿ تَذُودَانِ ﴾ : صفةٌ لـ " امرأَتَيْنِ " لا مفعولٌ ثان لأنَّ " وَجَدَ " بمعنى لَقِيَ . والذَّوْدُ : الطَّرْدُ والدَّفْعُ قال :

3596 فَقامَ يَذُوْدُ الناسَ عنها بسَيْفِه . . . . . .

. . . . . .

(175/585)

وقيل : حَبَسَ ، ومفعولُه محذوفٌ أي : تَذُوْدان الناسَ عن غَنَمِهما ، أو غَنَمَهما عن مزاحمةِ الناس . و " مِنْ دونِهم " أي من مكانٍ أسفلَ مِنْ مكانِهم .

قوله : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ قد تقدَّم في طه . وقال الزمخشري هنا : " وحقيقتُه ما مَخْطُوْبُكما ؟ أي : ما مطلوبُكما من الذِّياد ، سمى المخطوبَ خَطْباً ، كما سُمِّي المَشْؤُوْن شأناً في قولك : ما شَأْنُك ؟ يُقال : شَأَنْتُ شَأْنَه أي : قَصَدْتُ قَصْدَه " . وقال ابنُ عطية : " السؤالُ بالخَطْبِ إنما هو في مُصابٍ أو مُضْطَهَدٍ " أو مَنْ يَشْفَقُ عليه ، أو يأتي بمنكرٍ من

الأمرِ " .

وقرأ شمر " خِطْبُكما " بالكَسْر أي : ما زوجُكما ؟ أي : لِمَ تَسْقِيان ولِمَ يَسْقِ زوجُكما ؟ وهي شاذَّةٌ جداً .

قوله : ﴿ يُصْدِرَ ﴾ قرأ أبو عمرٍو وابنُ عامرٍ بفتح الياءِ وضمِّ الدالِ مِنْ صَدَرَ يَصْدُرُ وهو قاصرٌ أي : يَصْدُرون بمواشِيهم . والباقون بضمِّ الياءِ وكسرِ الدالِ مضارعَ أَصْدَرَ مُعَدَّى بالهمزةِ ، والمفعولُ محذوفٌ أي : يُصْدِرون مواشِيَهم . والعامَّةُ على كسرِ الراءِ من " الرِّعاء " وهو جمعُ تكسيرٍ غيرُ مَقيس ؛ لأنَّ فاعِلاً الوصفَ المعتلَّ اللامِ كقاضٍ قياسُه فُعَلَة نحو : قُضَاة ورُمَاة . وقال الزمخشري : " وأما الرِّعاء بالكسرِ فقياسٌ كصِيامٍ وقِيامٍ " وليس كما ذَكَر لما ذَكَرْتُه .

وقرأ أبو عمرٍو في روايةٍ بفتحِ الراءِ . قال أبو الفضل : " هو مصدرٌ أُقيم مُقامَ الصفةِ ؛ فلذلك استوى فيه الواحدُ والجمعُ " ، أو على حَذْفِ مضافٍ . وقُرِىء بضمِّها وهو اسمُ جمعٍ كرُخَال ، وثُناء .

وقرأ ابن مصرف " لا نُسْقي " بضمِّ النونِ مِنْ أسقى ، وقد تقدَّم الفرقُ بين سقى وأسقى في النحل .

قوله : ﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ : مفعولُه محذوفٌ أي : غَنَمَهما لأجلِهما .

قوله : ﴿ لِمَآ أَنزَلْتَ ﴾ متعلقٌ ب " فقيرٌ " . قال الزمخشري : " عَدَّى " فقيرٌ " باللام لأنه ضُمِّن معنى سائلٌ وطالبٌ . ويُحتمل : إني فقيرٌ من الدنيا لأجلِ ما أَنْزَلْتَ إليَّ من خيرِ الدين ، وهو النجاةُ من الظالمين " .

قلت : يعني أنَّ افْتَقَرَ يتعدَّى ب " مِنْ " ، فإمَّا أن تجعلَه من بابِ التضمين ، وإمَّا أَنْ تُعَلِّقَه بمحذوفٍ . و " أَنْزَلْتَ " قيل : ماضٍ على أصلِه . ويعني بالخيرِ ما تقدَّمَ مِنْ خيرِ الدين . وقيل : بمعنى المستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 660.664 ﴾

(177/585)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى فقر)

الفقر : ضدّ الغِنى .

ووقع فى القرآن لفظ الفقر فى أَربعة مواضع :

أَحدها – قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي

الأَرْضِ ﴾ ، أَى الصَّدقاتُ لهؤلاءِ ، وكان فقراءُ المهاجرين نحو أَربعمائة لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشائر ، وكانوا قد حبسوا أَنفسَهم على الجهاد ، وكانوا وَقْفاً على كلِّ سريَّه يبعثها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهم أَهل الصُّفَّة .

هذا أَحد الأَقوال [فى] إِحصارهم فى سبيل الله .

وقيل : هو حبْسهم أَنفسهم فى طاعة الله .

وقيل : حَبَسهم الفقر والعُدْم عن الجهاد .

وقيل : لَمَّا عادَوا أَعداء الله وجاهدوهم أُحصِروا عن الضرب فى الأَرض لطلب المعاش ، فلا يستطيعون ضرباً فى الأَرض .

والصَّحيح أَنه لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضرباً فى الأَرض ، ولِكمَال عفَّتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أَغنياء .

والموضع الثانى – قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الآية .

والموضع الثالث – قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ .

والموضع الرابع – قال الله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

والصّنف الأَول خواصّ الفقراءِ ، والثَّانى فقراءُ المسلمين خاصّهم وعامّهم ، والثالث الفقر العامّ لأَهل الأَرض كلِّهم غنيّهم وفقيرهم ، مؤمِنهم وكافرهم .

والرابع الفقر إِلى الله المشار إِليه بقوله : "اللَّهم أَغْنِنى بالافتقار إِليك" .

وبهذا أَلَمَّ الشاعر :

*ويعجبنى فقرى إليك ولم يكن * ليعجبنى لولا محبَّتُك الفقرُ*

والفقراءُ الموصوفون فى الآية الأُولى يقابلهم أَصحاب الجِدَة ، ومن ليس محصَرًا فى سبيل الله ، ومن لم

يكتم فقرًا وضعفاً .

فمقابلهم أَكثر من مقابل الصّنف الثانى .

(178/585)

والصّنف الثانى يقابل أَصحاب الجِدَة ، ويدخل فيهم المتعفّف وغيره ، والمحصَر وغيره .

والصَّنف الثالث لا مقابل لهم ، بل الله وحده الغنىّ وكلُّ ما سواه فقير إليه .

ومراد المشايخ بالفقر شىء أَخصُّ من هذه كلّها وهو الافتقار إلى الله فى كلِّ حالة .

وهذا المعنى أَجلّ من أَن يسمَّى فقرًا ، بل هو حقيقة العبوديَّة ولُبّها ، وعَزْل النفس عن مزاحمة الرُّبوبيَّة .

وسئل عنه يحيى بن مُعَاذ الرازىّ فقال : حقيقته أَلاَّ يستغنى إلاَّ بالله ، ورَسْمه عدم الأَسباب كلّها .

وقال بعض المشايخ : الفقر سرّ لا يضعه الله إلاَّ عند من يحبّه ، ويسوقه إلى مَن يريد .

وقال : رُوَيم : إرسال النَّفس فى أَحكام الله .

وسئل أَبو حفص بم يقدَم الفقير على ربّه ؟ فقال : ما للفقير أَن يقدَم به على ربّه سوى فقره .

وسئل بعضهم : متى يستحق الفقير اسم الفقر ؟ قال إذا لمّ [يبق] عليه منه بقيّة .

فقيل له : وكيف ذاك ؟ فقال : إذا كان له فليس له ، وإذا لم يكن له فهو له .

وهذه من أَحسن العبارات عن معنى الفقر الذى يشير إليه القوم ، وهو أَن يصير كلُّه لله لا يبقى عليه بقيَّة من نفسه وحظِّه وهواه ، فمن بقى عليه شىء من أَحكام نفسه ففقره مدخول .

ثم فسّر ذلك أَى قوله : إذا كان له فليس له ، أَى إذا كان لنفسه فليس لله ، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله .

فحقيقة الفقر إذاً أَلاَّ تكون لنفسك ولا يكون لها منك شىء بحيث تكون كلُّك لله .

وهذا الفقر الذى يشيرون إليه لا ينافيه الجدَة ولا الأَملاك ، فقد كان رُسُل الله وأَنبياؤه – صَلوات الله وسلامه عليهم – فى ذروة الفقر مع جدتهم وملكهم ، كإبراهيم الخليل عليه السَّلام كان أَبا الضِّيفان ، وكانت له الأَموال والمواشى ، وكذلك كان سليمان وداود ، وكذلك كان نبيّنا صلَّى الله عليه وسلَّم كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَى ﴾ ،

وكانوا أَغنياءَ فى فقرهم ، فقراءَ فى

غناهم .

(179/585)

فالفقر الحقيقىُّ : دوام الافتقار إِلى الله تعالى فى كلِّ حال ، وأَن يشهد العبد فى كلِّ ذرّة من ذرَّاته الظَّاهرة والباطنة فاقة نامية إِلى الله تعالى من كلِّ وجه .

فالفقر ذاتىّ للعبد ، وإِنما يتجدَّد له بشهوده حالاً ، وإِلاَّ فهو حقيقته ؛ كما قال بعض المشايخ :

*الفقر لى وصفُ ذاتٍ لازمٌ أَبدا * كما الغِنَى أَبدا وصفٌ له ذاتى*

وله آثار وعلامات وموجِبات ، أَكثر إِشارات القوم إِليها ، كقول بعضهم الفقير لا يسبق همَّته ، أَى ابن وقته ، فهمَّته مقصورة على وقته لا يتعدَّاه .

وقيل : أَركان الفقر أَربعة : عِلْم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذِكْر يؤنسه .

وقال الشِّبلِىّ : حقيقة الفقر أَلاَّ يستغنى بشىء دون الله .

وسئل سهل : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إِذا لم ير لنفسه غير الوقت الَّذى هو فيه .

وقال أَبو حفص : أَحسن ما يتوسَّل به العبد إِلى الله دوام الافتقار إِليه على جميع الأَحوال ،

وملازمة السُنَّة فى جميع الأَفعال ، وطلب القُوت من وجه حلال .

وقيل : مِن حكم الفقير أَلاَّ يكون له رغبة ، فإِن كان ولا بدّ فلا يجوز رغبتُه كفايتَه .

وقيل : الفقِير من لا يَملك ولا يُمْلَك .

وأَتمّ من هذا : لا يَملك ولا يملكه مالك .

وقيل : من أَراد الفقر لشرفه مات فقيراً ، ومن أَراده لئلا يشتغل عن الله بغيره مات غنيّا .

والفقر له بداية ونهاية ، فبدايته الذلُّ ونهايته العزّ ، وظاهره العُدْم وباطنه الغِنى ، كما قال رجل لآخر ، [الفقر] فقر وذلّ ، فقال ، لا : بل فقر وعِزّ .

فقال : فقر وثرًى .

فقال : لا ، بل فقر وعَرْش .

وكلاهما مصيب .

واتَّفقت كلمةُ القوم على أَن دوام الافتقار إِلى الله مع تخليط خير من دوام الصَّفاء مع رؤية النَّفس والعُجْب ، مع أَنه لا صفاءَ معهما .

(180/585)

وإذا عرفت معنى الفقر عرفت عين الغنى بالله تعالى فلا معنى لسؤال من سأَل : أَيّ الحالين أَكمل ؟ الافتقار إلى الله أَم الاستغناء به ؟ هذه مسأَلة غير صحيحة ، فإِنَّ الاستغناء به هو عين الافتقار إليه .

وأَمَّا مسأَلة الفقير الصَّابر ، والغنيّ الشاكر ، وترجيحُ أَحدهما ، فعند المحقّقين أَن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقْر والغِنَى ، وإنما يرجع إلى الأَعمال والأَحوال والحقائِق .

فالمسْأَلة فاسدة فى نفسها ، وإِنَّ التفضيل عند الله بالتَّقوى وحقائِق الإِيمان ، لا بفقر ولا غِنى ، قال : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ولم يقل : أَفقركم أَو أَغناكم .

ثمّ اعلم أَنَّ الفَقْر والغِنَى ابتلاء لعبده كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَّ ﴾ أَى ليس كلّ من أَعطيتهُ ووسّعت عليه فقد أَكرمته ، ,لا كلُّ من ضيَّقت عليه وقَتَرت عليه الرزق فقد أَهنته والإِكرام أَن يكرم العبد بطاعته ومحبَّته ومعرفته ، والإِهانة أَن يسلبه ذلك .

ولا يقع التفاضل بالغنى والفقر بل بالتقوى .

وقال بعضهم : هذه المسأَلة محال أَيضاً من وجه آخر ، وهو أَنَّ كلًّا من الغنيّ والفقير لا بدّ له من صبر وشكر ، فإِنَّ الإِيمان نصفان : نصفٌ صبر ، ونصفٌ شكر .

بل قد يكون قسط الغنِيّ من الصَّبر أَوفى ، لأَنه يصبر عن قدرة ، فصبره أَتمّ من صبر من

يصبر عن عجز ، ويكون شكر الفقير أَتمّ ، لأَن الشكر هو استفراغ الوسع فى طاعة الله ، والفقير أَعظم فراغا بالشكر من الغنِىّ .

وكلاهما لا يقوم قائمة إيمانه إلا على ساق الصَّبر والشكر .

(181/585)

نعم الَّذى رجع الناس إليه فى المسأَلة أَنَّهم ذكروا نوعا من الشكر ، ونوعا من الصَّبر ، وأَخذوا فى التَّرجيح ، فجردوا غنيًّا مُنفقاً متصدّقاً باذلا ماله فى وجوه القُرَب ، شاكرًا الله عليه ؛ وفقيرا متفرّغاً لطاعة الله ولأوراد العبادات ، صابرًا على فقره ، هل هو أَكمل من ذلك الغنى أَم بالعكس .

فالصَّواب فى مثل هذا أَنّ أَكملهما أَطوعهما ، فإن تساوت طاعتهما درجتهما والله أَعلم .

والعرب تقول : سَدَّ الله مَفاقِره ، أَى وجوه فقره .

ويقال : افتقر فهو مفتقِر وفقير ، ولا يكاد يقال : فَقُر .

وإن كان القياس يقتضيه .

وأَصل الفقير هو المكسور الفَقَار .

عَمِل به الفاقرةَ أَى الدّاهية الّتى كسرت فَقَاره .

وأَفقرك الصَّيدُ : أَمكنك عن فقاره .

أَفْقَرته ناقتى : أَعرته فَقَارها للركوب ، وما أَحسن قول الزَّمخشرى :

*أَلاَ أَفقر الله عبداً أَبَتْ * عليه الدّناءة أَن يُفْقِرَا *

*ومن لا يُعبر قَرا مَرْكَب * فقل كيف يَعقِره للقِرَى *

وما أَحسن فِقَر كلامه ، أَى نُكته ، وهى فى الأَصل حُلِىّ تصاغ على شكل فِقَر الظهر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 204 . 209 ﴾

(182/585)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾

جاء إسرائيليٌّ من معارف موسى يسعى ، وقال إن القوم يريدون قَتْلَكَ ، وأنا واقفٌ على تدبيرهم ، وقد أرادوا إعلامَ فرعون . . فاخرُجْ من هذا البلد ، إني لك من الناصحين .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

خرج من مصر ﴿ خائفاً ﴾ أن يقتفوا أَثَرَه ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أن يدركه الطلب ، وقيل ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ الكفايةَ والنصرةَ من الله ، ودعا الله فقال : ﴿ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)

توجَّه بنفسه تلقاء مدين من غير قصدٍ إلى مدين أو غيره ، بل خرج على الفتوح ، توجَّه بقلبه إلى ربِّه ينتظر أن يهديَه ربُّه إلى النحو الذي هو خيرٌ له ، فقال : عسى ربي أن يهديني إلى أَرْشَدِ سبيلٍ لي .

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ

لَمَّا وافى مدينَ شعيب كان وقت الهاجرة ، وكانت لهم بئر يستقون منها ، فيصبون الماءَ في الحياضِ ، ويسقون أغنامهم ، وكانوا أهل ماشية .

وكان شعيبُ النبيُّ عليه السلام قد كُفَّ بَصَره لكثرة بكائه ؛ ففي القصة أنه بكى فذهب بَصَرَه ، ثم رَدَّ الله عليه بَصَرَه فبكى ، فردَّ الله بصرة فبكى حتى ذهب بَصَرَهُ ، فأوحى الله إليه : لِمَ تبكي يا شعيب . . ؟ إنْ كان بكاؤك لخوف النار فقد أَمَّنْتُكَ ، وإن كان لأَجْلِ الجنة فقد أَتَحْتُها لك .

فقال : ربِّ . . إنما أبكي شوقاً إليك . فأوحى الله إليه لأجل ذلك أَخْدَمْتُكَ نَبِيِّي وكليمي عَشْرَ حجج .

وكانت لشعيب أغنامٌ ، ولم يكن لديه أجير ، فكانت بِنْتاه تسوقان الغنْمَ مكانَ الرعاة ، ولم يكن لهما قدرة على استقاء الماء من البئر ، وكان الرعاة يستقون ، فإذا انقضَوْا فإنْ بَقِيَتْ في الحوضِ بقيةٌ من الماء استقت بنات شعيب .

فلمَّا وافى موسى ذلك اليومَ وشاهَدَ ذلك ورآهما يمنعان غنمهما عن الماء رَقَّ قلبُه لهما وقال : ما خطبكما ؟ فقالتا : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ . وليس لدينا أجير . فلمَّا انصرف الرعاةُ سَقَى لهما ، ثم ولّى إلى ظلِّ جدارٍ بعد ذلك . كان الجوع قد أصابه خلال سَفَرِه ، ولم يكن قد تعوَّد ، قط الرحلةَ والغُرْبَةَ ، ولم يكن معه مالٌ ، فدعا الله :

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ .

قيل طَلَبَ قوةً تُزيل جوعَه ، وقيل طَلَبَ حالاً يستقِلُّ بها . والأحسن أن يقال جاع فطَلَبَ كِسْرَةً يَسُدُّ بها رَمَقَه – والمعرفة توجب سؤالَ ما تحتاج إليه من الله قليلاً أو كثيراً . فلمَّا انصرفت ابنتا شعيب خَرَجَ شعيبُ إلى ظاهر الصحراء على طريق الماشية ليمسَّها بيديه فوجَدَ أثرَ الزيادة في تلك الكرَّة ، فسألَهما فذَكَرَتا له القصة ، وما سمعتا منه حين قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ فقال شعيب : إذاً هو جائع . وبَعَثَ إحداهما لتدعوَه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 59. 61 ﴾

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

التفسير : فاتحة هذه السورة كفاتحة سورة الشعراء . ﴿ نتلو عليك ﴾ على لسان جبرائيل ﴿ من نبأ موسى وفرعون ﴾ أي طرفاً من خبرها متلبساً ﴿ بالحق ﴾ أو محقين ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء . ثم شرع في تفصيل هذا المجمل وفي تفسيره كأن سائلاً سأل : وكيف كان نبؤهما ؟ فقال مستأنفاً ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ أي طغى وتكبر في أرض مملكته ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه أو جعلهم أصنافاً في استخدامه فمن بان وحارث وغير ذلك ، أو فرقاً مختلفة بينهم عداوة ليكونوا له أطوع وهم بنو إسرائيل والقبط . وقوله ﴿ يستضعف ﴾ حال من الضمير في ﴿ جعل ﴾ أو صفة ﴿ شيعاً ﴾ أو مستأنف . و ﴿ يذبح ﴾ بدل منه . وقوله ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ بيان أن القتل من فعل أهل الفساد لا غير لأن الكهنة إن صدقوا فلا فائدة في القتل ، وإن كذبوا فلا وجه للقتل اللهم إلا أن يقال : إن النجوم دلت على أنه يولد ولد

لو لم يقتل لصار كذا وكذا ، وضعفه ظاهر لأن المقدر كائن ألبتة ﴿ ونريد ﴾ حكاية حال ماضية معطوفة على قوله ﴿ إن فرعون علا ﴾ فهذه أيضاً تفسير للنبأ .

(185/585)

وجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ يستضعف ﴾ اي يستضعفهم هو ونحن نريد أن نمنّ عليهم في المآل ، فجعلت إرادة الوقوع كالوقوع . ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ مقدمين في أمور الدين والدنيا . وعن ابن عباس : قادة يقتدى بهم في الخير . وعن مجاهد : دعاة إلى الخير وعن قتادة : ولاة أي ملوكاً . ومعنى الوراثة والتمكين في ارض مصر والشأم هو أن يرثوا ملك فرعون وينفذ فيه أمرهم ، والذي كانوا يحذرون منه هو ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم . يروى أنه ذبح في طلب موسى تسعون ألف وليد . قال ابن عباس : إن أم موسى لما قربت ولادتها أرسلت إلى قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بالحبالى وكانت مصافية لأم موسى وقالت لها : قد نزل بي ما نزل ولينفعني حبك ، فعالجتها فلما وقع على الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأخبر فرعون ولكن وجدت لابنك هذا حباً شديداً فاحفظيه . فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها نفر من بعض العيون فجاء إلى بابها ليدخل على أم موسى فقالت

أخته : يا أماه هذا الحرس فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور لم تعقل ما تصنع لما طاش من عقلها . فدخلوا فإذا التنور مسجور وإذا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا : لم دخلت القابلة عليك ؟ قالت : إنها حبيبة لي دخلت للزيارة . فخرجوا من عندها ورجع إليها عقلها فقالت : يا أخت موسى أين الصبي ؟ فقالت : لا أدري سمعت بكاءه في التنور ، فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً . فلما ألح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها أن يذبح فألهمها الله تعالى أن تتخذ له تابوتاً ثم تقذف التابوت في النيل . فجاءت إلى النجار وأمرته بنجر تابوت طوله خمسة أشبار في عرض خمسة فعلم النجار بذلك فجاء إلى موكل بذبح الأبناء فاعتقل لسانه فرجع ثم عاد مرات فعلم أنه من الله فأقبل على النجر .

(186/585)

وقيل : لما فرغ من صنعة التابوت ثم أتى فرعون يخبره فبعث معه من يأخذه فطمس الله على عينيه وقلبه بألم فلم يعرف الطريق ، وأيقن أنه من الله وأنه هو المولود الذي يخافه فرعون فآمن في القوت وهو مؤمن آل فرعون . وانطلقت أم موسى وألقته في النيل ، وكانت لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها ، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى أبيها ، وكان بها برص شديد

وكان فرعون قد شاور الأطباء والسحرة في أمرها فقالوا : يا أيها الملك لا تبرأ هذه إلا من قبل البحر يوجد منه شبيه الإنس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك في يوم كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس .

فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون في مجلس له على شفير النيل ومع آسية زوجته ، وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على الشاطئ إذ أقبل النيل بتابوت تضربه الأرياح والأمواج وتعلق بشجرة فقال فرعون : ائتوني به ، فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه ، فنظرت آسية فرأت نوراً في جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فإذا هو صبي صغير في مهده يمص إبهامه لبناً ، وإذا نور بين عينيه فألقى الله محبته في قلوب القوم ، وعمدت ابنة فرعون إلى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته إلى صدرها . فقال الأعزة من قوم فرعون : إنا نظن أن هذا هو الذي تحذر منه ، فهمّ فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله .

(187/585)

قال علماء البيان : اللام في قوله ﴿ ليكون لهم عدوّاً ﴾ لام العاقبة وأصلها التعليل إلا أنه وارد هنا على سبيل المجاز استعيرت لما يشبه التعليل من حيث إن العداوة والحزن كان نتيجة التقاطهم كما أن الإكرام مثلاً نتيجة المجيء في قولك " جئتك لتكرمني " وبعبارة أخرى ، إن مقصود الشيء والغرض منه هو الذي يؤل إليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤل إليه الأمر على سبيل التشبيه وإن لم يكن غرضاً . ومعنى كونهم خاطئين هو أنهم أخطؤا في التدبير حيث ربوا عدوّهم في حجرهم أو أنهم اذنبوا وأجرموا ، وكان عاقبة ذلك أن يجعل الله في تربيتهم من على يديه هلاكهم . قال النحويون ﴿ قرة عين ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو قرة عين ولا يقوى أن يجعل مبتدأ و ﴿ لا تقتلوه ﴾ خبراً لأن الطلب لا يقع خبراً إلا بتأويل ، ولو نصب لكان أقوى لأن الطلب من مظان النصب . روي في حديث أن آسية حين قالت ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ قال فرعون : لك لا لي ، ولو قال هو قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها . ثم إنها رأت فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وتوسمت فيه أمارات النجابة فقالت ﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ فإنه أهل للتبني وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء . قال في الكشاف ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ حال من آل فرعون . وقوله ﴿ إن فرعون ﴾ الآية . جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم والتقدير : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً . وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه

وتبنيه . قلت : لا يبعد أن تكون الجملة حالاً من فاعل ﴿ قالت ﴾ أي قالت كذا وكذا في حال عدم شعورهم بالمآل وهو أن هلاكهم على يده وبسببه . وقال الكلبي : اي لا يشعرون بنو إسرائيل وأهل مصر أنا التقطناه .

(188/585)

قوله سبحانه ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ قال الحسن : اي فارغاً من كل هم إلا من هم موسى . وقال أبو مسلم : فراغ الفؤاد هو الخوف والإشفاق كقوله ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ [إبراهيم : 43] أي جوف لا عقول فيها وذلك أنها حين سمعت بوقوعه عند فرعون طار عقلها جزعاً ودهشاً . وقال محمد بن إسحاق والحسن في رواية : أي فارغاً من الوحي الذي أوحينا إليها وذلك قولنا ﴿ فألقيه في اليم ولا تخافي ﴾ الغرق وسائر المخاوف ﴿ ولا تحزني ﴾ والخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع ، والحزن غم يلحقه لواقع فنهيت عنهما جميعاً ، فجاءها الشيطان وقال لها : كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت هلاكه . ولما أتاها خبر موسى أنه وقع إلى يد فرعون أنساها عظيم البلاء ما كان من عهد الله إليها . وقال أبو عبيدة : فارغاً من الخوف فالله تعالى يقول ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ وهل يربط إلا على قلب الجازع المحزون ؟ أما من فسر الفراغ بحصول

الخوف فعنده معنى قوله ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ هو أنها كادت تحدث بأن الذي وجدتموه ابني قاله ابن عباس . وفي رواية عكرمة كادت تقول واإبناه من شدة وجدها به ، وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع . وقال الكلبي : ذلك حين سمعت الناس يقولون إنه ابن فرعون . ثم قال ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ بإلهام الصبر كما يربط على الشيء المتفلت ليستقر ويطمئن ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ المصدّقين بوعد الله وهو قوله ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ . وأما من فسره بعدم الخوف فالمعنى عنده أنها صارت مبتهجة مسرورة حين سمعت أن فرعون تبناه وعطف عليه ، وأن الشأن أنها قاربت أن تظهر أنه ولدها لولا أن ألهمناها الصبر لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لتبني فرعون وتعطفه . والأول أظهر بدليل قوله ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ اي اقتفي اثره وانظري أين وقع وإلى من صار ، وكانت أخته لأبيه وأمه واسمها مريم ﴿ فبصرت به ﴾ أي أبصرته ﴿ عن جنب ﴾ عن بعد أي نظرت إليه مزورّة متجانفة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾

(189/585)

بجمالها وغرضها . والتحريم ههنا لا يمكن حمله على النهي والتعبد ظاهراً فلذلك قيل : إنه مستعار للمنع لأن من حرم عليه شيء فقد منعه . وكان لا يقبل ثدي مرضع إما لأنه تعالى

منع حاجته إلى اللبن وأحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء ، وإما لأنه أحدث في ألبانهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه . وعن الضحاك : أن أمه أرضعته ثلاثة اشهر فعرف ريحها . و ﴿ المراضع ﴾ جمع مرضعة وهي المرأة التي تصلح للإرضاع ، أو جمع مرضع وهو الثدي ، أو الرضاع ، فالأول مكان والثاني مصدر و ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل قصصها أثره ، أو من قبل أن رددناه إلى أمه ، أو من قبل ولادته في حكمنا وقضائنا .

(190/585)

روي أنها لما قالت ﴿ وهم له ناصحون ﴾ قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله ، فقالت : إنما أردت وهم للملك ناصحون . والنصح إخلاص العمل من شائبة الفساد . والمراد أنهم يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه ولا يمنعون ما ينفعه في تربيته وغذائه . فانطلقت إلى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبي يعلله فرعون شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها . فقال لها فرعون : ومن أنت منه فقد ابى كل ثدي إلا ثديك ؟ قالت : إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وعين أجرها . قال في الكشاف : إنما أخذت الأجر على إرضاع ولدها لأنه مال حربي استطابته على وجه الاستباحة . قلت : ولعل ذلك لدفع التهمة فإن مال الحربي لم يكن

مستطاباً بدليل قوله ﴿ وأحلت لي الغنائم ﴾ قالوا : كانت عالمة بأن الله تعالى سينجز وعده ولكن ليس الخبر كالعيان فلهذا قال سبحانه ﴿ ولتلعم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم ﴾ أي أكثر الناس ﴿ لا يعلمون ﴾ حقية وعده في ذلك العهد وبعده لإعراضهم عن النظر في آيات الله . وقال الضحاك ومقاتل : يعني أهل مصر لا يعلمون أن الله وعد رده إليها . قلت : ويؤيد هذا القول أنه اقتصر على الضمير دون أن يقول " ولكن أكثر الناس " كما قال في سورة يوسف ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف : 21] وقيل : هذا تعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت وأصبح فؤادها فارغاً . وعلى هذا يحتمل أن يكون قوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ من جملة ما يعلمها أي ولتعلم حقية وعد الله وهذا الاستدراك . وجوز في الكشاف أن يتعلق الاستدراك بقوله ﴿ ولتعلم ﴾ المقصود أن الرد به إنما كان لهذا الغرض الديني وهو العلم بصدق وعد الله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن هذا هو الغرض الأصلي الذي ما سواه تبع له من قرة العين وذهاب الحزن .

(191/585)

ثم بين سبحانه كمال عنايته في حقه كما بين في قصة يوسف قائلاً : ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ وزاد ههنا قوله ﴿ واستوى ﴾ فقيل : بلوغ الأشد والاستواء بمعنى واحد . والأصح أنهما متغايران . والأشد عبارة عن البلوغ ، والاستواء إشارة إلى كمال الخلقة . وعن ابن عباس : الأشد ما بين الثمانية عشر إلى ثلاثين ، والاستواء من الثلاثين إلى الأربعين . وهو عند الأطباء سن الوقوف . فلعل يوسف أعطى النبوة في سن النمو وأعطى موسى إياها في سن الوقوف . والعلم التوراة ، والحكم السنة ، وحكمة الأنبياء سنتهم - قيل : ليس في الآية دلالة على أن هذه النبوة كانت قبل قتل القبطي أو بعده لأن الواو في قوله ﴿ ودخل المدينة ﴾ لا تفيد الترتيب . قلت : يشبه أن يستدل على أن النبوة كانت بعد قتل القبطي بأنها كانت بعد تزوجه بنت شعيب ، والتزوج كان بعد فراره منهم إلى مدين كما قرره تعالى في هذه السورة .

(192/585)

وقد أجمل ذلك في الشعراء حيث قال حكاية عن موسى ﴿ فعلتها إذا وأنا من الضالين ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً ﴾ [الشعراء : 2021] وعلى هذا يمكن أن يراد بالواو الترتيب ويكون المعنى : آتيناه سيرة الحكماء والعلماء قبل البعث فكان لا

يفعل فعلاً يستجهل فيه . أما المدينة فالجمهور على أنها القرية التي كان يسكنها فرعون عن فرسخين من مصر . وقال الضحا : هي عين شمس . وقيل : هي مصر . وحين غفلتهم بين العشاءين أو وقت القائلة أو يوم عيد اشتغلوا فيه باللهو . وقيل : أراد غفلتهم عن ذكر موسى وأمره ، وذلك أنه حين ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته في الصغر أمر فرعون بقتله فجيء بجمر فأخذه في فيه فقال فرعون لا أقتله ولكن أخرجوه عن الدار والبلد فخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر والقوم نسوا ذكره . قاله السدي . وقيل : إن الغفلة لموسى من اهلها وذلك أنه لما بلغ أشده وآتاه الله الرشد علم أن فرعون وقومه على الباطل فكان يتكلم بالحق ويعيب دينهم وينكر عليهم ، فأخافوه فلا يدخل قرية إلا على تغفل وتستر . قال الزجاج : قوله ﴿ هذا ﴾ ﴿ وهذا ﴾ وهما غائبان على جهة الحكاية أي وجد فيها رجلين يقتتلان إذا نظر الناظر إليهما قال : هذا من شيعته وهذا من عدوه . عن مقاتل : أن الرجلين كان كافرين إلا أن أحدهما من بني إسرائيل والآخر من القبط . واحتج عليه بأن موسى قال له ﴿ إنك لغويّ مبين ﴾ والمشهور أن الذي من شيعته كان مسلماً كأنه قال ممن شايعه على دينه . وإنما وصفه بالغي لأنه كان سبب قتل رجل وهو يقاتل آخر على أن بني إسرائيل فيهم غلظة الطباع فيمكن أن ينسبوا إلى الغواية بذلك الاعتبار ، ألا ترى أنهم قالوا بعد مشاهدة الآيات : اجعل لنا إلهاً . يروى أن القبطي أراد أن يتسخر الإسرائيلي في حمل الحطب إلى مطبخ فرعون . وقيل : إن الإسرائيلي هو السامري ﴿ فاستغاثه ﴾ سأله أن

يخلصه منه ﴿ فوكزه ﴾ أي دفعه بأطراف الأصابع أو بجمع الكف ﴿ فقضى عليه ﴾ أي أماته وقتله .

(193/585)

الطاعنون في عصمة الأنبياء قالوا : إن كان القبطي مستحق القتل فلم قال ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ وقال ﴿ رب إني ظلمت نفسي ﴾ وإن لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنباً ؟ وأيضاً قوله ﴿ هذا من عدوّه ﴾ يدل على أنه كان كافراً حربياً وكان دمه مباحاً والاستغفار من القتل المباح غير جائز .

وأجيب أنا نختار أنه للكفرة كان مباح الدم إلا أن الأولى تأخير قتله إلى زمان آخر . فقوله ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ معناه إقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان ، أو هذا إشارة إلى عمل المقتول وهو كونه مخالفاً الله ، أو هو إشارة إلى المقتول يعني أنه من جند الشيطان هذا الكافر ولو عرف ذلك فرعون لقتلني به ﴿ فاغفر لي ﴾ فاستره على هذا كله .

إذا سلم أنه كان نبياً في ذلك الوقت وفيه ما فيه قالت المعتزلة : في قوله ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ دليل على أن المعاصي ليست بخلق الله . ولقائل أن يقول : الشيطان من خلق

الله فضلاً عما يصدر عن الشيطان على أن المشار إليه يحتمل أن يكون شيئاً آخر كما قررنا .

(194/585)

قوله ﴿ بما أنعمت عليّ ﴾ قيل : أراد به القوة وأنه لن يستعملها إلا في مظاهرة أولياء الله وعلى هذا يكون ما أقدم عليه من إعانة الإسرائيلي على القبطي طاعة ، إذ لو كانت معصية لصار حاصل الكلام بما أ ، عمت عليّ بقبول توبتي فإني أكون مواظباً على مثل تلك المعصية . وقال القفال : الباء للقسم كأنه أقسم بما أنعم الله عليه من المغفرة أن لا يظاهر مجرماً . وأراد بمعاونة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد وكان يسمى ابن فرعون ، وإما مظاهرة من تؤدي مظاهرته إلى ترك الأولى . وقال الكسائي والفراء : إنه خبر ومعناه الدعاء كأ ، ه قال : فلا تجعلني ظهيراً والفاء للدلالة على تلازم ما قبلها وما بعدها . وفي الآية دلالة على عدم جواز إعانة الظلمة والفسقة حتى بري القلم وليق الدواة . عن ابن عباس : أنه لم يستثن أي لم يقل . فلن أكون إن شاء الله فابتلي به مرة أخرى . وفي هذه الرواية نوع ضعف فإنه ترك الإعانة في المرة الثانية ، ولئن صحت فلعله اراد أن جرت صورة تلك القضية عليه إلا أن الله عصمه ، وبعد موت

القبطي من الوكز ﴿ أصبح ﴾ موسى من غد ذلك اليوم ﴿ خائفاً يترقب ﴾ الأخبار وما يقال فيه ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ﴾ يطلب نصرته بصياح وصراخ فنسبه موسى لذلك إلى الغواية ، فإن كثرة المخاصمة على وجه يؤدّي إلى الاستنصار خلاف طريقة الرشد . فغويّ بمعنى غاوٍ . وجوز بعض أهل اللغة أن يكون بمعنى مغوٍ لأنه أوقع موسى فيما أوقع ثم طلب منه مثل ذلك وهو نوع من الإغواء . قال بعضهم : لما خاطب موسى الإسرائيلي بأنه غويّ ورأى فيه الغضب ظن لما هم بالبطش أنه يريده فقال ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ وزعموا أنه لم يعرف قتله بالأمس إلا هو وصار ذلك سبباً لظهور القتل ومزيد الخوف . وقال آخرون : بل هو قول القبطي وقد كان عرف القضية من الإسرائيلي وهذا القول أظهر لأن قوله ﴿ إن تريد إلا أن تكون

(195/585)

جباراً في الأرض ﴾ لا يليق إلا أن يكون قولاً للكافر . قال جار الله : الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن . وقيل : هو العظيم الذي لا يتواضع لأمر الله عز وجل .

وحين وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث في المدينة وهموا بقتل موسى فأخبره بذلك رجل

وهو قوله ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ أي من ابعد مسافاتها إليه . وقوله ﴿ يسعى ﴾ صفة أخرى لرجل أو حال لأنه قد تخصص بالوصف ، وإن جعل الظرف صلة لجاء حتى يكون المجيء من هنالك تعين أن يكون يسعى وصفاً . قال العلماء : الأظهر في هذه السورة أن يكون الظرف وصفاً وفي " يس " أن يكون صلة ، ولذلك خصت بالتقدم ويؤيده ما جاء في التفسير أنه كان يعبد الله في جبل ، فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلاً . والائتمار التشاور لأن كل واحد من المتشاورين يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بامره ومعنى ﴿ يأتمرون بك ﴾ يتشاورون بسببك . وقوله ﴿ لك من الناصحين ﴾ كقوله ﴿ فيه من الزاهدين ﴾ [يوسف : 20] وقد مر أن الجار في مثل هذه الصورة بيان لا صلة . ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ المكروه من جهتهم وأن يلحق به ﴿ قال ﴾ ملتجئاً إلى الله ﴿ رب نجني من القوم الظالمين ﴾ وفيه دليل على أن قتله القبطي لم يكن ذنباً وإلا لم يكونوا ظالمين بطلب القصاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 334.327 ﴾

(196/585)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ إن فرعون ﴾ النفس الأمارة استولى على من في الأرض الإنسانية ﴿ وجعل أهلها ﴾ وهم الروح والسر والعقل أصنافاً في الاستخدام لاستيفاء الشهوات ﴿ يستضعف طائفة ﴾ وهم صفات القلب ، الأبناء الصفات الحميدة المتولدة من ازدواج الروح والقلب ، والنساء الصفات الذميمة المتولدة من ازدواج النفس والبدن ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ للاستعداد الفطري . ﴿ ونرى فرعون ﴾ النفس ﴿ وهامان ﴾ الهوى ﴿ وجنودهما ﴾ من الصفات البهيمية والسبعية ولاشيطانية ﴿ أم موسى ﴾ السر لأن القلب تولد من ازدواج الروح والسر ﴿ أن أرضعيه ﴾ من لبن الروحانية فقد حرم عليه مراضع الحيوانية أو الدنيوية . ﴿ فألقيه في اليم ﴾ في الدنيا في تابوت القالب ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ أي من القلوب المحدّثين كما قال بعضهم : حدثني قلبي عن ربي ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ وهم صفات النفس والقوى البشرية من الجاذبة والماسكة والهاضمة وغيرها فإنها أسباب لتربية الطفل ﴿ ليكون لهم ﴾ في العاقبة ﴿ عدوّاً ﴾ يجادلهم بطريق الرياضات والمخالفات . ﴿ وحزناً ﴾ بترك اللشهوات واللذات وبالدعوة إلى ما لا يلائم هواهم من طاعة الله . ﴿ وقالت امرأة فرعون ﴾ النفس وهي الجثة لا تقتلوا القلب بسيف الشهوات والانهماك في اسباب اللذات الحسيات . ﴿ عسى أن

ينفعنا ﴾ بأن ينجينا من النار . قال أهل التحقيق : لما كان اعتقاد الجثة في تربية موسى القلب أنه يكون قرة عينها وولدها فلا جرم نفعها الله بالنجاة ورفع الدرجات ، وحين لم يكن لفرعون النفس في حقه هذا الاعتقاد بل كان يتوقع الهلاك منه كان هلاكه على يده بسيف الصدق وسم الذكر . ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنه لو لم يوفق لإهلاكهم لكان هلاكه على أيديهم . ﴿ فؤاد أم موسى ﴾ هو سر السر ، أخت موسى القلب هو العقل .

(197/585)

ودخل مدينة القالب ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ وهم الصفات النفسانية ﴿ فوجد فيها رجلين ﴾ صفتين . إحداهما من صفات القلب والأخرى من صفات النفس . وفي قوله ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ إشارة إلى أن قتل كافر صفات النفس بالجهاد معها إن لم يكن بأمر الحق وعلى سبيل المتابعة لم يعتدّ به ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ الذين أجرموا بأن جاهدوا كفار صفات النفس بالطبع والهوى لا بالشرع كالفلاسفة والبراهمة ﴿ إنك لغويّ مبين ﴾ لأنك تنازع ذا سلطان قويّ قبل أوانه وهو فرعون النفس . ﴿ وجاء رجل ﴾ هو العقل ﴿ من أقصى ﴾ مدينة الإنسانية أي من أعلى مرتبة الروحانية ﴿ يسعى ﴾ في طلب نجاة موسى القلب فأخرج من مدينة البشرية إلى صحراء

الروحانية ﴿ خائفاً ﴾ من سطوات فرعون النفس ﴿ يترقب ﴾ مكايدهم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 334.335 ﴾

(198/585)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/586)

الجزء السادس والثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 25 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 32 ﴾ من نفس السورة

(4/586)

قوله تعالى ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان سماعهما لقوله هذا مع إحسانه إليهما سبباً لدعاء شعيب عليه الصلاة والسلام له ، قال بانياً على ما تقديره : فذهبت المرأتان إلى أبيهما فحدثتاه بخبرهما و بإحسانه إليهما ، فأمر بدعائه ليكافئه : ﴿ فجاءته ﴾ أي بسبب قول الأب وعلى الفور ﴿ إحداهما ﴾ أي المرأتين حال كونها ﴿ تمشي ﴾ ولما كان الحياء كأنه مركب لها وهي متمكنة منه ، مالكة لزمامه ، عبر بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ على استحياء ﴾ أي حياء موجود منها لأنها كلفت الإتيان إلى رجل أجنبي تكلمه وتماشيه ؛ ثم استأنف الإخبار عما تشوف إليه السامع من أمرها فقال : ﴿ قالت ﴾ وأكدت إعلاماً بما لأبيها من الرغبة إلى لقائه في قولها : ﴿ إن أبي ﴾ وصورت حاله بالمضارع فقالت : ﴿ يدعوك ليجزيك ﴾ أي يعطيك مكافأة لك ، لأن المكافأة من شيم الكرام ، وقبولها لا غضاضة فيه ﴿ أجر ما سقيت لنا ﴾ أي مواشينا ، فأسرع الإجابة لما بينهما من الملاءمة ، ولذلك قال : ﴿ فلما ﴾ بالفاء ﴿ جاءه ﴾ أي موسى شعيباً عليهما الصلاة والسلام ﴿ وقص ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ عليه ﴾ أي شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ القصص ﴾ أي حدثه حديثه مع فرعون وآله في كفرهم وطغيانهم وإذلالهم لعباد الله ، وتتبع له الأمور على ما هي عليه لما توسم فيه بما آتاه اله من الحكم والعلم من النصيحة والشفقة ، والعلم والحكمة ، والجلال والعظمة .

ولما كان من المعلوم أنه لا عيشة لخائف ، فكان أهم ما إلى الإنسان الأمان ، قدم له التأمين بأن ﴿ قال ﴾ أي شعيب له عليهما الصلاة والسلام : ﴿ لا تخف ﴾ أي فإن فرعون لا سلطان له على ما ههنا ، ولأن عادة الله تعالى جرت أن تواضعك هذا ما كان في أحد إلا قضى الله برفعته ، ولذلك كانت النتيجة : ﴿ نجوت ﴾ أي يا موسى ﴿ من القوم الظالمين ﴾ أي هو وغيره وإن كانوا في غاية القوة والعراقة في الظلم .

(5/586)

ولما اقتضى هذا القول أنه آواه إليه ، علمت انتباه مضمونه ، وكانتا قد رأتا من كفايته وديانته ما يرغب في عشرته ، فتشوفت النفس إلى حالهما حينئذ ، فقال مستأنفاً لذلك : ﴿ قالت إحداهما ﴾ أي المرأتين .

قيل : وهي التي دعته إلى أبيها مشيرة بالنداء بأداة البعد إلى استصغارها لنفسها وجلالة أبيها : ﴿ يا أبت استأجره ﴾ ليكفينا ما يهمنا ؛ ثم عللت قولها فقالت مؤكدة إظهاراً لرغبتها في الخير واغتباطها به : ﴿ إن خير من استأجرت ﴾ لشيء من الأشياء ﴿ القوي ﴾ وهو هذا لما رأيناه من قوته في السقي ﴿ الأمين ﴾ لما تفرسنا فيه من حيائه ، وعفته في نظره ومقاله وفعاله ، وسائر أحواله ؛ قال أبو حيان : وقولها قول حكيم جامع ،

لأنه إذا اجتمعت الأمانة والكفاية في القائم بأمر فقد تم المقصود .

﴿ قال ﴾ أي شعيب عليه الصلاة والسلام ، وهو في التوراة يسمى : رعوئيل - بفتح الراء وضم العين المهملة وإسكان الواو ثم همزة مكسورة بعدها تحتانية ساكنة ولام ، ويثرو - بفتح التحتانية وإسكان المثلثة وضم الراء المهملة وإسكان الواو ﴿ إني أريد ﴾ يا موسى ، والتأكيد لأجل أن الغريب قل ما يرغب فيه أول ما يقدم لا سيما من الرؤساء أتم الرغبة ﴿ أن أنكحك ﴾ أي أزوجك زواجاً ، تكون وصلته كوصلة أحد الحنكين بالآخر ﴿ إحدى ابنتي ﴾ .

(6/586)

ولما كان يجوز أن يكون المنكح منهما غير المسقي لهما ، نفى ذلك بقوله : ﴿ هاتين ﴾ أي الحاضرتين اللتين سقيت لهما ، ليتأملهما فينظر من يقع اختياره عليها منهما ليعقد له عليها ﴿ على أن تأجرني ﴾ أي تجعل نفسك أجيراً عندي أو تجعل أجري على ذلك وثوابي ﴿ ثماني حجج ﴾ جمع حجة - بالكسر ، أي سنين ، أي العمل فيها بأن تكون أجيراً لي أستعملك فيما ينوبني من رعية الغنم وغيرها ، وآجره - بالمد والقصر ، من الأجر والإيجار ، وكذلك أجر الأجير والمملوك وآجره : أعطاهما أجرهما ﴿ فإن أتممت ﴾ أي الثماني

ببلوغ العقد بأن تجعلها ﴿ عشراً ﴾ أي عشر سنين ﴿ فمن ﴾ أي فذلك فضل من ﴿ عندك ﴾ غير واجب عليك ، وكان تعيين الثماني لأنها - إذا أسقطت منها مدة الحمل - أقل سن يميز فيه الولد غالباً ، والعشر أقل ما يمكن فيه البلوغ ، لينظر سبطه إن قدر فيتوسم فيه بما يرى من قوله وفعله ، والتعبير بما هو من الحج الذي هو القصد تفاؤلاً بأنها تكون من طيبها بمتابعة أمر الله وسعة رزقه وإفاضة نعمه ودفع نقمه أهلاً لأن تقصد أو يكون فيها الحج في كل واحدة منها إلى بيت الله الحرام .

(7/586)

ولما ذكر له هذا ، أراد أن يعلمه أن الأمر بعد الشرط بينهما على المسامحة فقال : ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ أي أدخل عليك مشقة في شيء من ذلك ولا غيره لازم أو غير لازم ؛ ثم أكد معنى المساهلة بتأكيد وعد الملاءمة فقال : ﴿ ستجدني ﴾ ثم استثنى على قاعدة أولياء الله وأنبيائه في المراقبة على سبيل التنزل فقال : ﴿ إن شاء الله ﴾ أي الذي له جميع الأمر ﴿ من الصالحين ﴾ أي في حسن الصحبة والوفاء بما قلت وكل ما تريد من خير ﴿ قال ﴾ أي موسى عليه السلام ﴿ ذلك ﴾ أي الذي ذكرت من الخيار وغيره ﴿ بيني وبينك ﴾ أي كائن بيننا على حكم النصفة والعدل والسواء على ما ألزمتني به لازماً ، وما

أشرت إلى التفضل به إحساناً ، وعليك ما ألزمت به نفسك فرضاً وفضلاً ؛ ثم بين وفسر ذلك بقوله : ﴿ أيما الأجلين ﴾ أي أيّ أجل منهما : الثماني أو العشر ﴿ قضيت ﴾ أي عملت العمل المشروط علي فيه خرجت به من العهدة ﴿ فلا عدوان ﴾ أي اعتداء بسبب ذلك لك ولا لأحد ﴿ علي ﴾ أي في طلب أكثر منه لأنه كما لا تجب على الزيادة على العشر لا تجب عليّ الزيادة على الثمان ، وكأنه أشار بنفي صيغة المبالغة إلى أنه لا يؤاخذ لسعة صدره وطهارة أخلاقه بمطلق العدو ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ على ما نقول ﴾ أي كله في هذا الوقت وغيره ﴿ وكيل ﴾ أي شاهد وحفيظ قاهر عليه وملزم به في الدنيا والآخرة ، فما الظن بما وقع بيننا من العهد من النكاح والأجر والأجل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 477.479 ﴾

(8/586)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ربي أن ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . و ﴿ يصدر ﴾ بفتح الياء وضم الدال : ابن عامر ويزيد وأبو عمرو وأبو أيوب . الآخرون بضم الياء

وكسر الدال ﴿ إني أريد ﴾ ﴿ ستجدني ﴾ بفتح ياء المتكلم فيهما : أبو جعفر ونافع ﴿ إني آنست ﴾ ﴿ إني أنا الله ﴾ و ﴿ إني أخاف ﴾ بفتح ياء المتكلم في الكل : ابو جعفر ونافع وأبو عمرو و ﴿ لعلي آتيكم ﴾ بفتح الياء : هم وابن عامر ﴿ جذوة ﴾ بفتح الجيم : عاصم وبضمها حمزة وخلف . الباقون بكسرها . ﴿ من الرهب ﴾ بفتح الراء وسكون الهاء : حفص ، وبفتحهما أبو عمرو وسهل ويعقوب وابو جعفر ونافع وابن كثير . الآخرون بضم الراء وسكون الهاء ﴿ فذاناك ﴾ بتشديد النون : ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو ﴿ معي ﴾ بالفتح : حفص ﴿ ردا ﴾ بغير همز : أبو جعفر ونافع وابن كثير . الآخرون بضم الراء وهمزة في الوقف ﴿ يصدقني ﴾ بالرفع : حمزة وعاصم ﴿ يكذبون ﴾ بالياء في الحالين : يعقوب وافق ورش وسهل وعباس في الوصل ﴿ قال موسى ﴾ بغير واو : ابن كثير ﴿ ربي أعلم ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو . و ﴿ من يكون ﴾ على التذكير : حمزة وعلي وخلف والمفضل ﴿ لا يرجعون ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم : نافع ويعقوب وعلي وخلف .

(9/586)

الوقوف : ﴿ السبيل ﴾ 5 ﴿ يسقون ﴾ 5 لأنه رأس آية عند الأكثرين مع عطف المتفقتين ﴿ تذودان ﴾ ج لعدم العاطف وطول الكلام مع اتحاد الفاعل ﴿ خطبكما ﴾ ط ﴿ الرعاء ﴾ ز لأن ما بعده منقطع لفظاً ومعنى كأنه قال : فلم خرجتما فقالتا تعريضاً بالاستقامة وأبونا شيخ ﴿ كبير ﴾ ط ﴿ فقير ﴾ 5 ﴿ على استحياء ﴾ ز لعدم العاطف مع اتحاد القائل ، ومن وقف على ﴿ تمشي ﴾ ويجعل على استحياء حالاً مقدماً اي قالت مستحيية فلا وجه له في الوقف ﴿ لنا ﴾ ط لأن جواب " لما " منتظر وقبله حذف أي فذهب معها فلما جاءه فكأن الفاء لاستئناف القصص لأن قال جواب " لما " . ﴿ لا تخف ﴾ ز لأن قوله ﴿ نجوت ﴾ غير متصل به نظماً وليفصل بين البشارتين أي لا تخف ضيماً وقد نجوت من ظلم فرعون ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ استأجره ﴾ ج للابتداء بأن مع اتحاد القول واحتمال التعليل ﴿ الأمين ﴾ 5 ﴿ حجج ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ عندك ﴾ ج لابتداء النفي مع الواو ﴿ عليك ﴾ ج ﴿ الصالحين ﴾ 5 ﴿ وبينك ﴾ ج لابتداء الشرط ﴿ عليّ ﴾ ط ﴿ وكيل ﴾ 5 ﴿ ناراً ﴾ 5 لعدم العاطف وطول الكلام مع اتحاد القائل ﴿ تصطلون ﴾ 5 ﴿ العالمين ﴾ 5 لا ﴿ عصاك ﴾ ط لحق الحذف أي فألقاها فحييت فلما رآها ﴿ ولم يعقب ﴾ ط ﴿ لا تخف ﴾ ج لمثل ما مر أي لا تخف باس العصا إنك أمنت بها بأس فرعون ﴿ الآمنين ﴾ 5 ﴿ سوء ﴾ ز لعطف الجملتين المتفقتين مع طول الكلام 5 ﴿ وملئه ﴾ ط ﴿ فاسقين ﴾ 5 ﴿

يقتلون ﴾ 5 ﴿ يصدقني ﴾ ز للابتداء بأن مع اتحاد القول واحتمال التعليل ﴿ يكذبون ﴾ 5 ﴿ بآياتنا ﴾ ج أي لا يصلون إليكما بسبب آياتنا وعلى ﴿ إليكما ﴾ أوجه أي أنتم الغالبون بآياتنا ﴿ الغالبون ﴾ 5 ﴿ الأولين ﴾ 5 ﴿ الدار ﴾ ط ﴿ الظالمون ﴾ 5 ﴿ غيري ﴾ ج لتنويع الكلام ﴿ إلى إله موسى ﴾ لا لأن ما بعده مقوله ايضاً ﴿ الكاذبين ﴾ 5 لا ﴿ يرجعون ﴾ 5 ﴿ في اليم ﴾ ج للابتداء بأمر الاعتبار واختلاف الجملتين مع فاء التعقيب ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ إلى النار ﴾ ج لعطف الجملتين المختلفتين ﴿ لا ينصرون ﴾ 5 ﴿ لعنة ﴾ ط لمثل ذلك ﴿ المقبوحين ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 336 . 337 ﴾

(10/586)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحياء ﴾

فقوله ﴿ عَلَى استحياء ﴾ في موضع الحال أي مستحيية ، قال عمر بن الخطاب قد استترت بكم قميصها ، وقيل ماشية على بعد مائلة عن الرجال وقال عبد العزيز بن أبي

حازم على إجلال له ومنهم من يقف على قوله : ﴿ تَمْشِى ﴾ ثم يبتدىء فيقول : ﴿ عَلَى استحياء ﴾ قالت : ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ ﴾ يعني أنها على الاستحياء قالت هذا القول لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي ، لا سيما المرأة وفي ذلك دلالة على أن شعيباً لم يكن له معين سواهما وروي أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس ، قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا ، فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي ، أما الاختلاف في أن ذلك الشيخ كان شعيباً عليه السلام أو غيره فقد تقدم ، والأكثرون على أنه شعيب .

وقال محمد بن إسحاق في البنتين اسم الكبرى صفورا ، والصغرى ليا ، وقال غيره صفرا وصفيرا ، وقال الضحاك صافورا والتي جاءت إلى موسى عليه السلام هي الكبرى على قول الأكثرين ، وقال الكلبي الصغرى ، وليس في القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل .

(11/586)

أما قوله : ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ففيه إشكالات : أحدها : كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية ، فإن

ذلك يورث التهمة العظيمة ، وقال عليه السلام : " اتقوا مواضع التهم " ؟ وثانيها : أنه سقى أغنامهما تقرباً إلى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الأجرة عليه فإن ذلك غير جائز في المروءة ، ولا في الشريعة ؟ وثالثها : أنه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وأنه عليه السلام كان في نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعي ، فكيف يليق بمروءة مثله طلب الأجرة على ذلك القدر من السقي من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة ؟ ورابعها : كيف يليق بشعيب النبي عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة إلى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفاً أو فاسقاً ؟ والجواب : عن الأول أن نقول : أما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حراً كان أو عبداً ذكراً كان أو أنثى في الأخبار وما كانت إلا مخبرة عن أبيها ، وأما المشي مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع والجواب : عن الثاني ، أن المرأة وإن قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب إليهم طلباً للأجرة بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ ، وروي أنها لما قالت ليجزيك كره ذلك ، ولما قدم إليه الطعام امتنع ، وقال إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ، ولا نأخذ على المعروف ثمناً ، حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا ، وأيضاً فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب : عن الثالث فإن الضرورات تبيح المحظورات والجواب : عن الرابع لعله عليه السلام كان قد علم بالوحي طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها .

أما قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُ ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام يمشي والجارية أمامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام إني من عنصر إبراهيم عليه السلام فكوني من خلفي حتى لا ترفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل لي ، فلما دخل على شعيب فإذا الطعام موضوع ، فقال شعيب تناول يا فتى ، فقال موسى عليه السلام أعوذ بالله قال شعيب ولم ؟ قال لأنا من أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب ولكن عادتي وعادة آبائي إطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل ، وإنما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ، ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾

[الكهف : 77] والفرق أن أخذ الأجر على الصدقة لا يجوز ، أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه .

أما قوله : ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ﴾ فالقصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص ، قال الضحاك لما دخل عليه قال له من أنت يا عبد الله ، فقال أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف

في اليم ، وقتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه ، فقال شعيب : ﴿ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ أي لا سلطان له بأرضنا فلسنا في مملكته وليس في الآية دلالة على أنه قال ذلك عن الوحي أو على ما تقتضيه العادة .

فإن قيل : المفسرون قالوا إن فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب في ألف ألف وستمائة ألف ، فالملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته ؟ قلنا هذا وإن كان نادراً إلا أنه ليس بمحال .

أما قوله : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أبت استأجره إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوى الأمين ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(13/586)

وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقي وبالأمانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها إلى أبيها .

المسألة الثانية :

إنما جعل ﴿ خَيْرَ مَنِ استأجرت ﴾ اسماً و ﴿ القوى الأمين ﴾ خبراً مع أن العكس أولى

لأن العناية هي سبب التقديم .

المسألة الثالثة :

القوة والأمانة لا يكفيان في حصول المقصود ما لم ينضم إليهما الفطنة والكياسة ، فلم أهمل أمر الكياسة ؟ ويمكن أن يقال إنها داخلة في الأمانة ، عن ابن مسعود رضي الله : " أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف وأبو بكر في عمر "

(14/586)

أما قوله : ﴿ قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتى هَاتَيْنِ ﴾ فلا شبهة في أن هذا اللفظ ، وإن كان على الترديد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة في أن العقد وقع على أقل الأجلين ، فكانت الزيادة كالتبرع ، والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهراً كالمال وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ، ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا ، ويدل على أنه قد كان جائزاً في تلك الشريعة أن يشرط للولي منفعة ، وعلى أنه كان جائزاً في تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى أن عقد النكاح لا تفسده الشروط التي لا يوجبها العقد ، ثم قال : ﴿ على أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ ﴾ تأجرني من أجرته إذا كنت له أجيراً وثماني حجج ظرفه أو من أجرته كذا إذا أثبته إياه ومنه أجركم الله ورحمكم وثماني حجج

مفعول به ومعناه رعية ثماني حجج ثم قال : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ وفيه وجهان :

الأول : لا أريد أن أشق عليك بإلزام أثم الرجلين ، فإن قيل ما حقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الأمر ؟ قلنا حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين ، تقول تارة أطيقه وتارة لا أطيقه الثاني : لا أريد أن أشق عليك في الرعي ولكني أساهلك فيها وأسامحك بقدر الإمكان ولا أكلفك الاحتياط الشديد في كيفية الرعي ، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس ، ومنه الحديث "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكي فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري"

ثم قال : ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾

وفيه وجهان :

الأول : يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب

والثاني : يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة ، وإنما قال إن شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته .

فإن قيل فالعقد كيف ينعقد مع هذا الشرط ، فإنك لو قلت امرأتي طالق إن شاء الله لا تطلق ؟ قلنا هذا مما يختلف بالشرائع .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾

فاعلم أن ذلك مبتدأ وبيني وبينك خبره وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام ، يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك ، ثم قال : ﴿ أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ ﴾ من الأجلين أطولهما الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أي لا يعتدي عليَّ في طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعني إن شاء هذا وإن شاء هذا ويكون اختيار الأجل الزائد موكولاً إلى رأيه من غير أن يكون لأحد عليه إجبار ، ثم قال : ﴿ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ والوكيل هو الذي وكل إليه الأمر ولما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عدي بعلي لهذا السبب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 206 ـ 208 ﴾.

(16/586)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ

﴾ .

مِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِذَلِكَ فِي جَوَازِ عَقْدِ النِّكَاحِ عَلَى مَنَافِعِ الْحُرِّ ؛ وَلَيْسَ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى مَا ذَكَرُوا ؛ لِأَنَّهُ شَرَطَ مَنَافِعَهُ لِشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَشْرُطْ لَهَا مَهْرًا ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بِغَيْرِ مَهْرٍ مُسَمًّى وَشَرَطَ لِوَلِيِّهَا مَنَافِعَ الزَّوْجِ مُدَّةً مَعْلُومَةً ، فَهَذَا إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ عَقْدِ النِّكَاحِ مِنْ غَيْرِ تَسْمِيَةِ مَهْرٍ ، وَشَرْطُهُ لِلْمَوْلَى ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَقْدَ النِّكَاحِ لَا تُفْسِدُهُ الشُّرُوطُ الَّتِي لَا يُوجِبُهَا الْعَقْدُ .

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ قَدْ كَانَ النِّكَاحُ جَائِزًا فِي تِلْكَ الشَّرِيعَةِ بِغَيْرِ بَدَلٍ تَسْتَحِقُّهُ الْمَرْأَةُ ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهَذَا مَنْسُوخٌ بِشَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ جَائِزًا فِي تِلْكَ الشَّرِيعَةِ أَنْ يَشْرُطَ لِلْوَلِيِّ مَنْفَعَةً .

وَيُحْتَجُّ بِهِ فِي جَوَازِ الزِّيَادَةِ فِي الْعُقُودِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْت عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِك ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (قَضَى مُوسَى أَتَمَّ الْأَجَلَيْنِ وَأَوْفَاهُمَا) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(17/586)

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾

يَسْتَدِلُّ بِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى أَنَّ لِلزَّوْجِ أَنْ يُسَافِرَ بِامْرَأَتِهِ وَيَنْقُلَهَا إلَى بَلَدٍ آخَرَ وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَبَوَيْهَا ؛ وَلَا دَلَالَةَ فِيهِ عِنْدِي عَلَى ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ فَعَلَ بِرِضَاهَا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(18/586)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَجَاءَتْهُ إحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ : يَا بُنَيَّةُ ، هَذِهِ قُوَّتُهُ ، فَمَا أَمَانَتُهُ ؟ قَالَتْ : إنَّك لَمَّا أَرْسَلْتِنِي إلَيْهِ قَالَ لِي : كُونِي وَرَائِي لِئَلَّا يَصِفَك الثَّوْبُ مِنْ الرِّيحِ ، وَأَنَا عِبْرَانِيٌّ ، لَا أَنْظُرُ إلَى أَدْبَارِ النِّسَاءِ ، وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ يَمِينًا وَيَسَارًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِجَارَةَ بَيْنَهُمْ وَعِنْدَهُمْ مَشْرُوعَةٌ مَعْلُومَةٌ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ فِي كُلِّ مِلَّةٍ ، وَهِيَ مِنْ ضَرُورَةِ الْخَلِيقَةِ ، وَمَصْلَحَةِ الْخُلْطَةِ بَيْنَ النَّاسِ خِلَافًا لِلْأَصَمِّ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ حَيْثُ وَرَدَ فِي مَوَاضِعِهِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ .

(19/586)

اعْلَمُوا ، عَلَّمَكُمْ اللَّهُ الِاجْتِهَادَ ، وَحِفْظَ سَبِيلِ الِاعْتِقَادِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ لَمْ يَذْكُرْهَا الْقَاضِي أَبُو إِسْحَاقَ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ ، مَعَ أَنَّ مَالِكًا قَدْ ذَكَرَهَا ، وَهَذِهِ غَفْلَةٌ لَا تَلِيقُ بِمَنْصِبِهِ ، وَفِيهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ ، وَآثَارٌ مِنْ جِنْسِ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِهَا ، وَنَحْنُ نَحْلُبُ دَرَّهَا ، وَنَنْظِمُ دُرَرَهَا ، وَنَشُدُّ مِئْزَرَهَا إنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَفِيهَا ثَلَاثُونَ مَسْأَلَةً : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ ﴾ فِيهِ عَرْضُ الْمَوْلَى وَلِيَّتَهُ عَلَى الزَّوْجِ ، وَهَذِهِ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ : عَرَضَ صَالِحُ مَدْيَنَ ابْنَتَهُ عَلَى صَالِحِ بَنِي إسْرَائِيلَ ، وَعَرَضَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ابْنَتَهُ حَفْصَةَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، وَعَرَضَتْ الْمَوْهُوبَةُ نَفْسَهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَأَمَّا حَدِيثُ عُمَرَ فَرَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ حِينَ ﴿ تَأَيَّمَتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ

حُذَافَةَ ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَتُوُفِّيَ بِالْمَدِينَةِ قَالَ : فَلَقِيت عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ، فَعَرَضْت عَلَيْهِ حَفْصَةَ ، فَقُلْت : إنْ شِئْت أَنْكَحْتُك حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ .

فَقَالَ : سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي ، فَلَبِثْت لَيَالِيَ ، ثُمَّ لَقِيَنِي ، فَقَالَ : قَدْ بَدَا لِي أَلَّا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا .

قَالَ عُمَرُ : فَلَقِيت أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ، فَقُلْت : إنْ شِئْت أَنْكَحْتُك حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ .

فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ ، فَلَمْ يُرْجِعْ إلَيَّ شَيْئًا ، فَكُنْت عَلَيْهِ أَوْجَدُ

(20/586)

مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ ، فَلَبِثْت لَيَالِيَ ، ثُمَّ خَطَبَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَنْكَحْتهَا إيَّاهُ ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : لَعَلَّك وَجَدْت عَلَيَّ حِينَ عَرَضْت عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أُرْجِعْ إلَيْك شَيْئًا ، فَقُلْت : نَعَمْ .

فَقَالَ : إنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أُرْجِعَ إلَيْك فِيمَا عَرَضْت عَلَيَّ إلَّا أَنِّي كُنْت عَلِمْت أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ ذَكَرَهَا ، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَلَوْ تَرَكَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَبِلْتهَا ﴾ .

وَأَمَّا حَدِيثُ الْمَوْهُوبَةِ فَرَوَى سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ السَّاعِدِيُّ قَالَ ﴿ : إنِّي لَفِي الْقَوْمِ عِنْدَ رَسُولِ

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَتْ امْرَأَةٌ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ جِئْت أَهَبُ لَك نَفْسِي ، فَرَأْيَك .

فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَعَّدَ النَّظَرَ فِيهَا وَصَوَّبَهُ ، ثُمَّ طَأْطَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ ، فَلَمَّا رَأَتْ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا جَلَسَتْ وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إنْ لَمْ تَكُنْ لَك بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا .

فَقَالَ : هَلْ عِنْدَك مِنْ شَيْءٍ ؟ فَقَالَ : لَا وَاَللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَقَالَ : اذْهَبْ إلَى أَهْلِك فَانْظُرْ لَعَلَّك تَجِدُ شَيْئًا .

فَذَهَبَ وَرَجَعَ فَقَالَ : لَا وَاَللَّهِ مَا وَجَدْت شَيْئًا .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ .

(21/586)

فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ : لَا وَاَللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ .

وَلَكِنَّ هَذَا إزَارِي قَالَ سَهْلٌ : مَا لَهُ رِدَاءٌ فَلَهَا نِصْفُهُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِك ؟ إنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ ، وَإِنْ لَبِسْته لَمْ يَكُنْ عَلَيْك مِنْهُ شَيْءٌ فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى طَالَ مَجْلِسُهُ ، ثُمَّ قَامَ فَرَآهُ

رَسُولُ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُوَلِّيًا ، فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ : مَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا ، لِسُوَرٍ عَدَّدَهَا .

قَالَ : تَقْرَأُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِك ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ .

وَفِي رِوَايَةٍ : " زَوَّجْتُكَهَا " .

وَفِي أُخْرَى : " أَنْكَحْتُكَهَا " .

وَفِي رِوَايَةٍ : " أَمْكَنَّاكَهَا " .

وَفِي رِوَايَةٍ : " وَلَكِنْ اشْقُقْ بُرْدَتِي هَذِهِ ، أَعْطِهَا النِّصْفَ وَخُذْ النِّصْفَ " .

فَمِنْ الْحُسْنِ عَرْضُ الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ وَالْمَرْأَةِ نَفْسَهَا عَلَى الرَّجُلِ الصَّالِحِ اقْتِدَاءً بِهَذَا السَّلَفِ الصَّالِحِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : اسْتَدَلَّ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ ﴾ عَلَى أَنَّ النِّكَاحَ مَوْقُوفٌ عَلَى لَفْظِ التَّزْوِيجِ وَالْإِنْكَاحِ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : يَنْعَقِدُ النِّكَاحُ بِكُلِّ لَفْظٍ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَنْعَقِدُ بِكُلِّ لَفْظٍ يَقْتَضِي التَّمْلِيكَ عَلَى التَّأْبِيدِ .

وَلَا حُجَّةَ لِلشَّافِعِيِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْآتِيَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ هَذَا شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا ، وَهُمْ لَا يَرَوْنَهُ حُجَّةً فِي شَيْءٍ ، وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا نَرَاهُ حُجَّةً فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا أَنَّ النِّكَاحَ بِلَفْظِ الْإِنْكَاحِ وَقَعَ ، وَامْتِنَاعُهُ بِغَيْرِ لَفْظِ النِّكَاحِ لَا يُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَلَا يَقْتَضِيهِ بِظَاهِرِهَا ، وَلَا يُنْظَرُ مِنْهَا ؛ وَلَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ : ﴿ قَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ .

وَرُوِيَ ﴿ أَمْكَنَّاكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴾ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا فِي الْبُخَارِيِّ .

وَهَذَا نَصٌّ .

وَقَدْ رَامَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ بِأَنْ يَجْعَلُوا انْعِقَادَ النِّكَاحِ بِلَفْظِهِ تَعَبُّدًا ، كَانْعِقَادِ الصَّلَاةِ بِلَفْظِ اللَّهُ أَكْبَرُ ، وَيَأْبَوْنَ مَا بَيْنَ الْعُقُودِ وَالْعِبَادَاتِ .

وَقَدْ حَقَّقْنَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ الْأَمْرَ وَسَنُبَيِّنُهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : ابْتِدَاؤُهُ بِالرَّجُلِ قَبْلَ الْمَرْأَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أُنْكِحُك ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ الْمُقَدَّمُ فِي الْعَقْدِ ، الْمُلْتَزِمُ لِلصَّدَاقِ وَالنَّفَقَةِ ، الْقَيِّمُ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَصَاحِبُ الدَّرَجَةِ عَلَيْهَا فِي حَقِّ النِّكَاحِ .

وَأَبْيَنُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ .

فَبدَأَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ زَيْنَبَ ؛ وَهُوَ شَرْعُنَا الَّذِي لَا خِلَافَ فِي وُجُوبِ الِاقْتِدَاءِ بِهِ .

(23/586)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَرْضٌ لَا عَقْدٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَقْدًا لَعَيَّنَ الْمَعْقُودَ عَلَيْهَا لَهُ ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَإِنْ كَانُوا قَدْ اخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ الْبَيْعِ إذَا قَالَ لَهُ : بِعْتُك أَحَدَ عَبْدِي هَذَيْنِ بِثَمَنِ كَذَا فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ فِي النِّكَاحِ ؛ لِأَنَّهُ خِيَارٌ ، وَلَا شَيْءَ مِنْ الْخِيَارِ يَلْصَقُ بِالنِّكَاحِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ : أَيَّتُهُمَا تُرِيدُ ؟ قَالَ : الصُّغْرَى .

ثُمَّ قَالَ مُوسَى : لَا ، حَتَّى تُبْرِئَهَا مِمَّا فِي نَفْسِك ، يُرِيدُ حِينَ قَالَتْ : ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْت الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ، فَامْتَلَأَتْ نَفْسُ صَالِحِ مَدْيَنَ غَيْرَةً ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَتْ بَيْنَهُمَا مُرَاجَعَةٌ فِي الْقَوْلِ وَمُؤَانَسَةٌ ، فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ عَلِمْتِ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : أَمَّا قُوَّتُهُ فَرَفْعُهُ الْحَجَرَ مِنْ فَمِ الْبِئْرِ وَحْدَهُ ، وَكَانَ لَا يَرْفَعُهُ إلَّا عَشْرَةُ رِجَالٍ ، وَأَمَّا أَمَانَتُهُ فَحِينَ مَشَيْت قَالَ لِي : كُونِي وَرَائِي ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فَحِينَئِذٍ سَكَنَتْ نَفْسُهُ ، وَتَمَكَّنَ أُنْسُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ ﴾ هَلْ يَكُونُ هَذَا الْقَوْلُ إِيجَابًا أَمْ لَا ؟ وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الِاسْتِدْعَاءِ ، هَلْ يَكُونُ قَبُولًا ؟ كَمَا إذَا قَالَ : بِعْنِي ثَوْبَك هَذَا .

(24/586)

فَقَالَ : بِعْتُك ، هَلْ يَنْعَقِدُ الْبَيْعُ أَمْ لَا ؟ حَتَّى يَقُولَ الْآخَرُ قَبِلْت ، عَلَى قَوْلَيْنِ : فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : يَنْعَقِدُ ، وَإِنْ تَقَدَّمَ الْقَبُولُ عَلَى الْإِيجَابِ بِلَفْظِ الِاسْتِدْعَاءِ لِحُصُولِ الْغَرَضِ مِنْ الرِّضَا بِهِ ، عَلَى أَصْلِنَا ؛ فَإِنَّ الرِّضَا بِالْقَلْبِ هُوَ الَّذِي يُعْتَبَرُ كَمَا وَقَعَ اللَّفْظُ ، فَكَذَلِكَ إذَا قَالَ : أُرِيدُ أَنْ تُنْكِحَنِي ، أَوْ أُنْكِحَك ، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا إيجَابًا حَاصِلًا ؛ فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ ، وَقَالَ الْآخَرُ : نَعَمْ ، انْعَقَدَ الْبَيْعُ وَالنِّكَاحُ .

وَعَلَيْهِ يَدُلُّ ظَاهِرُ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ ﴾ فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَك ﴾ وَهَذَا انْعِقَادُ عَزْمٍ ، وَتَمَامُ قَوْلٍ ، وَحُصُولُ مَطْلُوبٍ ، وَنُفُوذُ عَقْدٍ .

وَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا بَنِي النَّجَّارِ ؛ ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ فَقَالُوا : لَا نَطْلُبُ ثَمَنَهُ ، إلَّا إلَى اللَّهِ ﴾ .

فَانْعَقَدَ الْعَقْدُ ، وَحَصَلَ الْمَقْصُودُ مِنْ الْمِلْكِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْلُهُمْ : إنَّهُ زَوَّجَ الصُّغْرَى .

يُرْوَى عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : ﴿ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنْ سُئِلْت أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى فَقُلْ : خَيْرَهُمَا وَأَوْفَاهُمَا .

وَإِنْ سُئِلْت أَيُّ الْمَرْأَتَيْنِ تَزَوَّجَ فَقُلْ الصُّغْرَى وَهِيَ الَّتِي جَاءَتْ خَلْفَهُ ، وَهِيَ الَّتِي قَالَتْ : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْت الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ﴾ .

(25/586)

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : عَادَةُ النَّاسِ تَزْوِيجُ الْكُبْرَى قَبْلَ الصُّغْرَى ؛ لِأَنَّهَا سَبَقَتْهَا إلَى الْحَاجَةِ إلَى الرِّجَالِ ، وَمِنْ الْبِرِّ تَقْدِيمُهَا عَلَيْهَا .

وَالَّذِي أَوْجَبَ تَقْدِيمَ الصُّغْرَى فِي قِصَّةِ صَالِحٍ مَدْيَنَ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ لَعَلَّهُ آنَسَ مِنْ الْكُبْرَى رِفْقًا بِهِ ، وَلِينَ عَرِيكَةٍ فِي خِدْمَتِهِ .

الثَّانِي : أَنَّهَا سَبَقَتْ الصُّغْرَى إلَى خِدْمَتِهِ ، فَلَعَلَّهَا كَانَتْ أَحَنَّ عَلَيْهِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ تَوَقَّعَ أَنْ يَمِيلَ إلَيْهَا ، لِأَنَّهُ رَآهَا فِي رِسَالَتِهِ ، وَمَا شَاهَا فِي إقْبَالِهِ إلَى أَبِيهَا مَعَهَا ، فَلَوْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْكُبْرَى رُبَّمَا أَظْهَرَ لَهُ الِاخْتِيَارَ ، وَهُوَ يُضْمِرُ غَيْرَهُ ، لَكِنْ عَرَضَ عَلَيْهِ شَرْطَهُ لِيُبْرِئَهَا مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَتَطَرَّقَ الْوَهْمُ إلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ .

فَذَكَرَ لَهُ لَفْظَ الْإِجَارَةِ وَمَعْنَاهَا .

وَقَدْ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي جَعْلِ الْمَنَافِعِ صَدَاقًا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ ، وَكَرِهَهُ مَالِكٌ ، وَمَنَعَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ ، وَأَجَازَهُ غَيْرُهُمَا .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : يُفْسَخُ قَبْلَ الْبِنَاءِ ، وَيَثْبُتُ بَعْدَهُ .

وَقَالَ أَصْبَغُ : إنْ نُقِدَ مَعَهُ شَيْءٌ فَفِيهِ اخْتِلَافٌ ، وَإِنْ لَمْ يُنْقَدْ فَهُوَ أَشَدُّ ، فَإِنْ تَرَكَ مَضَى عَلَى كُلِّ حَالٍ ، بِدَلِيلِ قِصَّةِ شُعَيْبٍ ؛ قَالَهُ مَالِكٌ وَابْنُ الْمَوَّازِ وَأَشْهَبُ ، وَعَوَّلَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ .

(26/586)

قَالَ الْقَاضِي : صَالِحُ مَدْيَنَ زَوَّجَ ابْنَتَهُ مِنْ صَالِحِ بَنِي إسْرَائِيلَ ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ خِدْمَتَهُ فِي غَنَمِهِ ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَدَاقُ فُلَانَةَ خِدْمَةَ فُلَانٍ ، وَلَكِنَّ الْخِدْمَةَ لَهَا عِوَضٌ مَعْلُومٌ عِنْدَهُمْ اسْتَقَرَّ فِي ذِمَّةِ صَالِحِ مَدْيَنَ لِصَالِحِ بَنِي إسْرَائِيلَ ، وَجَعَلَهُ صَدَاقًا لِابْنَتِهِ .

وَهَذَا ظَاهِرٌ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : فَإِنْ وَقَعَ النِّكَاحُ بِجُعْلٍ فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي سَمَاعِ يَحْيَى : لَا يَجُوزُ ، وَلَا كِرَاءَ لَهُ ، وَلَا أُجْرَةَ مِثْلِهِ ، وَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَالْإِسْلَامُ بِخِلَافِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَيْسَ فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ جُعْلٌ ، إنَّمَا فِيهِ إجَارَةٌ ، وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ خِلَافُهُ ؛ بَلْ فِيهِ جَوَازُهُ فِي قِصَّةِ الْمَوْهُوبَةِ ، وَهُوَ يُجَوِّزُ النِّكَاحَ بِعَدَدٍ مُطْلَقٍ ، وَهُوَ مَجْهُولٌ ؛ فَكَيْفَ لَا يَجُوزُ عَلَى تَعْلِيمِ عِشْرِينَ سُورَةً .

وَهَذَا أَقْرَبُ إلَى التَّحْصِيلِ .

وَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد فِي حَدِيثِ الْمَوْهُوبَةِ : ﴿ عَلِّمْهَا عِشْرِينَ سُورَةً ، وَهِيَ امْرَأَتُك ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَنَافِعُ الْحُرِّ صَدَاقًا .

وَيَجُوزُ ذَلِكَ فِي مَنَافِعِ الْعَبْدِ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يَجُوزُ ذَلِكَ كُلُّهُ .

وَنَزَعَ أَبُو حَنِيفَةَ بِأَنَّ مَنَافِعَ الْحُرِّ لَيْسَتْ بِمَالٍ ؛ لِأَنَّ الْمِلْكَ لَا يَتَطَرَّقُ إلَيْهَا ، بِخِلَافِ الْعَبْدِ ، فَإِنَّهُ مَالٌ كُلُّهُ .

(27/586)

وَهَذَا بَاطِلٌ ؛ فَإِنَّ مَنَافِعَ الْحُرِّ مَالٌ ، بِدَلِيلِ جَوَازِ بَيْعِهَا بِالْمَالِ ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ مَالًا مَا جَازَ أَخْذُ الْعِوَضِ عَنْهُ مَالًا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ فِي أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ بِغَيْرِ عِوَضٍ .

وَالصَّدَاقُ بِالْمَنَافِعِ إنَّمَا جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ ؛ فَمَنَافِعُ الْأَحْرَارِ وَمَنَافِعُ الْعَبِيدِ

مَحْمُولَةٌ عَلَيْهِ ، فَكَيْفَ يَسْقُطُ الْأَصْلُ ، وَيُحْمَلُ الْفَرْعُ عَلَى أَصْلٍ سَاقِطٍ ؟ وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

جَوَازُ الصَّدَاقِ إجَارَةً الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : إذَا ثَبَتَ جَوَازُ الصَّدَاقِ إجَارَةً فَفِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ﴾ ذِكْرٌ لِلْخِدْمَةِ مُطْلَقًا .

وَقَالَ مَالِكٌ : إنَّهُ جَائِزٌ ، وَيُحْمَلُ عَلَى الْمَعْرُوفِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ : لَا يَجُوزُ ؛ لِأَنَّهُ مَجْهُولٌ .

وَدَلِيلُنَا أَنَّهُ مَعْلُومٌ ؛ لِأَنَّهُ اسْتِحْقَاقٌ لِمَنَافِعِهِ فِيمَا يُصْرَفُ فِيهِ مِثْلُهُ ، وَالْعُرْفُ يَشْهَدُ لِذَلِكَ ، وَيَقْضِي بِهِ ؛ فَيُحْمَلُ عَلَيْهِ .

وَيُعْضَدُ هَذَا بِظَاهِرِ قِصَّةِ مُوسَى فَإِنَّهُ ذِكْرُ إجَارَةٍ مُطْلَقَةٍ ، عَلَى أَنَّ أَهْلَ التَّفْسِيرِ ذَكَرُوا أَنَّهُ عَيَّنَ لَهُ رَعِيَّةَ الْغَنَمِ ، وَلَمْ يَرْوُوا ذَلِكَ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحَةٍ ، وَلَكِنْ قَالُوا : إنَّ صَالِحَ مَدْيَنَ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَمَلٌ إلَّا رَعِيَّةَ الْغَنَمِ ، فَكَانَ مَا عُلِمَ مِنْ حَالِهِ قَائِمًا مَقَامَ تَعْيِينِ الْخِدْمَةِ فِيهِ .

وَعَلَى كِلَا الْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَنَا ؛ فَإِنَّ الْمُخَالِفَ يَرَى أَنَّ مَا عُلِمَ مِنْ الْحَالِ لَا يَكْفِي فِي صِحَّةِ الْإِجَارَةِ حَتَّى يُسَمَّى .

(28/586)

وَعِنْدَنَا أَنَّهُ يَكْفِي مَا عُلِمَ مِنْ الْحَالِ ، وَمَا قَامَ مِنْ دَلِيلِ الْعُرْفِ ، فَلَا يَحْتَاجُ إلَى التَّسْمِيَةِ فِي الْخِدْمَةِ ، وَالْعُرْفُ عِنْدَنَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الْمِلَّةِ وَدَلِيلٌ مِنْ جُمْلَةِ الْأَدِلَّةِ .

وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ قَبْلُ ، وَفِي مَوْضِعِهِ مِنْ الْأُصُولِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنْ كَانَ آجَرَهُ عَلَى رِعَايَةِ الْغَنَمِ فَالْإِجَارَةُ عَلَى رِعَايَةِ الْغَنَمِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إمَّا أَنْ تَكُونَ مُطْلَقَةً ، أَوْ مُسَمَّاةً بِعِدَّةٍ ، أَوْ مُعَيَّنَةً .

فَإِنْ كَانَتْ مُطْلَقَةً جَازَتْ عِنْدَ عُلَمَائِنَا .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ : إنَّهَا لَا تَجُوزُ لِجَهَالَتِهَا .

وَعَوَّلَ عُلَمَاؤُنَا عَلَى الْعُرْفِ ، وَأَنَّهُ يُعْطِي عَلَى قَدْرِ مَا تَحْتَمِلُ قُوَّتُهُ .

وَزَادَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ حَتَّى يَعْلَمَ الْمُسْتَأْجِرُ قَدْرَ قُوَّتِهِ .

وَهَذَا صَحِيحٌ ؛ فَإِنَّ صَالِحَ مَدْيَنَ قَدْ عَلِمَ

قَدْرَ قُوَّةِ مُوسَى بِرَفْعِ الْحَجَرِ .

وَأَمَّا إنْ كَانَتْ مَعْدُودَةً فَإِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ اتِّفَاقًا .

وَإِنْ كَانَتْ مَعْدُودَةً مُعَيَّنَةً فَفِيهَا تَفْصِيلٌ لِعُلَمَائِنَا .

قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : لَا يَجُوزُ حَتَّى يَشْتَرِطَ الْخَلْفَ إنْ مَاتَتْ ، وَهِيَ رِوَايَةٌ ضَعِيفَةٌ جِدًّا ، قَدْ بَيَّنَّا فَسَادَهَا فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

وَقَدْ اسْتَأْجَرَ صَالِحُ مَدْيَنَ مُوسَى عَلَى غَنَمِهِ ، وَقَدْ رَآهَا وَلَمْ يَشْرِطْ خَلْفًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : قَالَ بَعْضُهُمْ : هَذَا الَّذِي [كَانَ] جَرَى مِنْ صَالِحِ مَدْيَنَ لَمْ يَكُنْ ذِكْرًا لِصَدَاقِ الْمَرْأَةِ ؛ وَإِنَّمَا كَانَ اشْتِرَاطًا لِنَفْسِهِ عَلَى مَا تَفْعَلُهُ الْأَعْرَابُ فَإِنَّهَا تَشْتَرِطُ صَدَاقَ بَنَاتِهَا ، وَتَقُولُ : لِي كَذَا فِي خَاصَّةِ نَفْسِي قُلْنَا : هَذَا الَّذِي تَفْعَلُهُ الْأَعْرَابُ هُوَ حُلْوَانٌ وَزِيَادَةٌ عَلَى الْمَهْرِ ، وَهُوَ حَرَامٌ لَا يَلِيقُ بِالْأَنْبِيَاءِ .

فَأَمَّا إذَا شَرَطَ الْوَلِيُّ شَيْئًا لِنَفْسِهِ ، فَقَدْ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِيمَا يُخْرِجُهُ الزَّوْجُ مِنْ يَدِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي يَدِ الْمَرْأَةِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ جَائِزٌ .

وَالْآخَرُ : لَا يَجُوزُ .

وَالَّذِي يَصِحُّ عِنْدِي فِيهِ التَّقْسِيمُ ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَخْلُو أَنْ تَكُونَ بِكْرًا أَوْ ثَيِّبًا ، فَإِنْ كَانَتْ ثَيِّبًا جَازَ ؛ لِأَنَّ نِكَاحَهَا بِيَدِهَا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ لِلْوَلِيِّ مُبَاشَرَةُ الْعَقْدِ ، وَلَا يَمْتَنِعُ الْعِوَضُ عَنْهُ ، كَمَا يَأْخُذُهُ الْوَكِيلُ عَلَى عَقْدِ الْبَيْعِ .

وَإِنْ كَانَتْ بِكْرًا كَانَ الْعَقْدُ بِيَدِهِ ، فَكَأَنَّهُ عِوَضٌ فِي النِّكَاحِ لِغَيْرِ الزَّوْجَةِ ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ ؛ فَإِنْ وَقَعَ فَسْخٌ قَبْلَ الْبِنَاءِ ، وَثَبَتَ بَعْدَهُ عَلَى مَشْهُورِ الرِّوَايَةِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : لَمْ يَكُنْ اشْتِرَاطُ صَالِحِ مَدْيَنَ عَلَى مُوسَى مَهْرًا ، وَإِنَّمَا كَانَ كُلُّهُ لِنَفْسِهِ ، وَتَرَكَ الْمَهْرَ مُفَوَّضًا .

وَنِكَاحُ التَّفْوِيضِ جَائِزٌ .

(30/586)

قُلْنَا : كَانَتْ بِكْرًا ، وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ ، وَلَا يُظَنُّ بِالْفُضَلَاءِ ، فَكَيْفَ بِالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ : لَمْ يُنْقَلْ مَا كَانَتْ أُجْرَةُ مُوسَى ، وَلَكِنْ رَوَى يَحْيَى بْنُ سَلَّامٍ أَنَّ صَالِحَ مَدْيَنَ جَعَلَ لِمُوسَى كُلَّ سَخْلَةٍ تُوضَعُ خِلَافَ لَوْنِ أُمِّهَا ، فَأَوْحَى اللَّهُ إلَى مُوسَى : أَلْقِ عَصَاكَ بَيْنَهُنَّ يَلِدْنَ خِلَافَ شَبَهِهِنَّ كُلِّهِنَّ .

وَالَّذِي رَوَى عُتْبَةُ بْنُ الْمُنْذِرِ السُّلَمِيُّ وَهُوَ عُتْبَةُ بْنُ عُبَيْدٍ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الْأَجَلَيْنِ أَوْفَى مُوسَى ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَوْفَاهُمَا وَأَبَرُّهُمَا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ مُوسَى لَمَّا أَرَادَ فِرَاقَ شُعَيْبٍ أَمَرَ امْرَأَتَهُ أَنْ تَسْأَلَ أَبَاهَا عَنْ نِتَاجِ غَنَمِهِ مَا يَعِيشُونَ بِهِ .

" .

فَأَعْطَاهَا مَا وَلَدَتْ غَنَمُهُ مِنْ قَالِبِ لَوْنِ ذَلِكَ الْعَامِ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَمَّا وَرَدَتْ الْحَوْضَ وَقَفَ مُوسَى بِإِزَاءِ الْحَوْضِ فَلَمْ تَمُرَّ بِهِ شَاةٌ إلَّا ضَرَبَ جَنْبَهَا بِعَصَا ، فَوَضَعَتْ قَوَالِبَ أَلْوَانٍ كُلِّهَا اثْنَيْنِ وَثَلَاثَةٍ ، كُلُّ شَاةٍ لَيْسَ مِنْهُنَّ فَشُوشٌ وَلَا ضَبُوبٌ وَلَا كَمِيشَةٌ وَلَا ثَعُولٌ " .

الْفَشُوشُ : الَّتِي إذَا مَشَتْ سَالَ لَبَنُهَا .

وَالضَّبُوبُ الَّتِي ضَرْعُهَا مِثْلُ الْمَوْزَتَيْنِ .

وَالْكَمِيشَةُ : الصَّغِيرَةُ الضَّرْعِ الَّتِي لَا يَضْبِطُهَا الْحَالِبُ .

(31/586)

وَالْقَالِبُ لَوْنُ صِنْفٍ وَاحِدٌ كُلُّهُ .

وَلَوْ صَحَّتْ هَذِهِ الرِّوَايَةُ لَكَانَ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : إحْدَاهُمَا : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ : وَهِيَ الْوَحْيُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ الْكَلَامِ ، وَذَلِكَ بِالْإِلْهَامِ ، أَوْ بِأَنْ يُكَلِّمَهُ الْمَلَكُ كَهَيْئَةِ الرَّجُلِ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّهُ هَدَاهُ فِي طَرِيقِهِ لِمَدْيَنَ حِينَ ضَلَّ وَخَافَ ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ بِذَلِكَ نَبِيًّا ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يُكَلِّمُهُ الْمَلَكُ وَيُخْبِرُهُ بِأَمْرٍ مُشْكِلٍ يَكُونُ نَبِيًّا وَقَدْ وَرَدَتْ بِذَلِكَ أَخْبَارٌ

كَثِيرَةٌ .

الثَّانِيَةُ : وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ : الْإِجَارَةُ بِالْعِوَضِ الْمَجْهُولِ ، فَإِنَّ وِلَادَةَ الْغَنَمِ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ ، وَإِنَّ مِنْ الْبِلَادِ الْخِصْبَةِ مَا يُعْلَمُ وِلَادَةُ الْغَنَمِ فِيهَا قَطْعًا ، وَعِدَّتُهَا ، وَسَلَامَةُ سِخَالِهَا ؛ مِنْهَا دِيَارُ مِصْرَ وَغَيْرُهَا ، بَيْدَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ فِي شَرْعِنَا ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ نَهَى عَنْ الْغَرَرِ ﴾ ، وَرُبَّمَا ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا فِي بِلَادِ الْخِصْبِ لَيْسَ بِغَرَرٍ ، لِاطِّرَادِ ذَلِكَ فِي الْعَادَةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : لَيْسَ كَمَا ظَنَنْتَ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا نَهَى عَنْ الْغَرَرِ نَهَى عَنْ الْمَضَامِينِ وَالْمَلَاقِيحِ .

(32/586)

وَالْمَضَامِينُ : مَا فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ وَالْمَلَاقِيحُ : مَا فِي أَصْلَابِ الْفُحُولِ ، أَوْ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ : مَلْقُوحَةٌ فِي بَطْنِ نَابٍ حَامِلٍ عَلَى أَنَّ مَعْمَرَ بْنَ الْأَشَدِّ أَجَازَ الْإِجَارَةَ عَلَى الْغَنَمِ بِالثُّلُثِ وَالرُّبْعِ وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ وَالزُّهْرِيُّ وَعَطَاءٌ ، وَقَتَادَةُ : يَنْسِجُ الثَّوْبَ بِنَصِيبٍ مِنْهُ .

وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ .

وَبَيَانُ ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

وَقَرَأْت بِبَابِ جَيْرُونَ عَلَى الشَّيْخِ الْأَجَلِّ الرَّئِيسِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الرَّزَّاقِ بْنِ فُضَيْلٍ الدِّمَشْقِيِّ ، أَخْبَرَنِي أَبُو عُمَرَ الْمَالِكِيُّ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ حَمَّادِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْحَاقَ الْأَنْصَارِيُّ ، أَنْبَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عِيسَى ، أَخْبَرَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ يَزِيدَ الْحَضْرَمِيُّ عَنْ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ ، ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : آجَرَ مُوسَى نَفْسَهُ بِشِبَعِ بَطْنِهِ وَعِفَّةِ فَرْجِهِ .

فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ : لَك مِنْهَا يَعْنِي مِنْ نِتَاجِ غَنَمِهِ مَا جَاءَتْ بِهِ قَالِبُ لَوْنٍ وَاحِدٌ غَيْرُ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ ، لَيْسَ فِيهَا عَزُورٌ ، وَلَا فَشُوشٌ ، وَلَا كَمُوشٌ ، وَلَا ضَبُوبٌ ، وَلَا ثَعُولٌ ﴾ .

الْعَزُورُ : الَّتِي يَعْسُرُ حَلْبُهَا .

وَالثَّعُولُ : الَّتِي لَهَا زِيَادَةُ حَلَمَةٍ ، وَهُوَ عَيْبٌ فِيهَا .

وَقَدْ كَانَ مَعَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ غُلَامٌ يَخْدِمُهُ ، بِشِبَعِ بَطْنِهِ .

وَجَوَّزَ ذَلِكَ مَالِكٌ ، وَأَبَاهُ غَيْرُهُ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

(33/586)

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ قَالَ لِبِنْتِ صَالِحٍ مَدْيَنَ فِي الْغَنَمِ حِصَّةٌ ، فَلِذَلِكَ صَحَّتْ الْإِجَارَةُ ، صَدَاقًا لَهَا بِمَا كَانَ لَهَا مِنْ الْحِصَّةِ فِيهَا .

قَالَ الْقَاضِي : هَذَا احْتِرَازٌ مِنْ مَعْنًى بِوُقُوعٍ فِي آخَرَ ؛ فَإِنَّ الْغَنَمَ إذَا كَانَتْ بَيْنَ صَالِحٍ مَدْيَنَ وَبَيْنَ ابْنَتِهِ ، وَأَخَذَهَا مُوسَى مُسْتَأْجِرًا عَلَيْهَا ، فَفِي ذَلِكَ جَمَعَ سِلْعَتَيْنِ فِي عَقْدٍ وَاحِدٍ لِغَيْرِ عَاقِدٍ وَاحِدٍ وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ ، وَمَشْهُورُ الْمَذْهَبِ مَنْعُهُ ، لِمَا فِيهِ مِنْ الْجَهْلِ بِالثَّمَنِ فِي حِصَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الشَّرِيكَيْنِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ إلَى جَمْعِ السِّلْعَتَيْنِ ، لَا سِيَّمَا وَيُمْكِنُ التَّوَقِّي مِنْ ذَلِكَ بِأَنْ يَذْكُرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قِيمَةَ سِلْعَتِهِ ، وَيَقَعَ الثَّمَنُ مَقْسُومًا عَلَى الْقِيمَةِ ، فَيَكُونَ مَعْرُوفًا لَا غَرَرَ فِيهِ ، فَلَا يُمْنَعُ الْعَقْدُ حِينَئِذٍ عَلَيْهِمَا .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ : فِي هَذَا اجْتِمَاعُ إجَارَةٍ وَنِكَاحٍ : وَقَدْ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي ذَلِكَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ فِي ثَمَانِيَةِ أَبِي زَيْدٍ : يُكْرَهُ ابْتِدَاءً ؛ فَإِنْ وَقَعَ مَضَى .

الثَّانِي : قَالَ مَالِكٌ وَابْنُ الْقَاسِمِ فِي الْمَشْهُورِ : لَا يَجُوزُ ، وَيُفْسَخُ قَبْلَ الدُّخُولِ ، وَبَعْدَهُ .

الثَّالِثُ : أَجَازَهُ أَشْهَبُ وَأَصْبَغُ .

الرَّابِعُ : قَالَ مُحَمَّدٌ : قَالَ ابْنُ الْمَاجِشُونِ : إنْ بَقِيَ بَعْدَ الْمَبِيعِ ، يَعْنِي مِنْ الْقِيمَةِ ، رُبْعُ دِينَارٍ يُقَابِلُ الْبُضْعَ جَازَ النِّكَاحُ ، وَإِلَّا لَمْ يَجُزْ .

وَقَدْ بَيَّنَّا تَوْجِيهَاتِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ ، وَالصَّحِيحُ جَوَازُهُ ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الْآيَةُ

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ : النِّكَاحُ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْبُيُوعِ ، فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ بَيْعٍ وَإِجَارَةٍ ، أَوْ بَيْنَ بَيْعٍ وَنِكَاحٍ ، وَهُوَ شَبَهُهُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الرَّجُلَيْنِ يَجْمَعَانِ سِلْعَتَهُمَا ، وَإِذَا كَانَتَا لِرَجُلٍ وَاحِدٍ جَازَ ، وَالْعَاقِدُ هُنَا وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ .

الْمَسْأَلَةُ الْمُوفِيَةُ عِشْرِينَ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النِّكَاحَ إِلَى الْوَلِيِّ ، لَا حَظَّ لِلْمَرْأَةِ فِيهِ ، لِأَنَّ صَالِحَ مَدْيَنَ تَوَلَّاهُ .

وَبِهِ قَالَ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَفْتَقِرُ النِّكَاحُ إِلَى وَلِيٍّ ، وَعَجَبًا لَهُ ، مَتَى رَأَى امْرَأَةً قَطُّ عَقَدَتْ نِكَاحَ نَفْسِهَا ، وَمِنْ الْمَشْهُورِ فِي الْآثَارِ : ﴿ لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ نَفْسَهَا بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ ، فَإِنْ مَسَّهَا فَلَهَا الْمَهْرُ بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ فَرْجِهَا ، فَإِنْ اشْتَجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لَا وَلِيَّ لَهُ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَبَ يُزَوِّجُ ابْنَتَهُ الْبِكْرَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْمَارٍ ؛ قَالَ مَالِكٌ .

وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ وَهُوَ ظَاهِرٌ قَوِيٌّ فِي الْبَابِ .

وَقَالَ بِهِ الشَّافِعِيُّ ، وَكَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ .

(35/586)

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إذَا بَلَغَتْ الصَّغِيرَةُ فَلَا يُزَوِّجُهَا أَحَدٌ إلَّا بِرِضَاهَا ؛ لِأَنَّهَا بَلَغَتْ حَدَّ التَّكْلِيفِ ؛ فَأَمَّا إذَا كَانَتْ صَغِيرَةً فَإِنَّهُ يُزَوِّجُهَا بِغَيْرِ رِضَاهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا إذْنَ لَهَا ، وَلَا رِضَاءَ ، بِغَيْرِ خِلَافٍ .

وَالْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : ﴿ الْأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا ، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا ، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ الْأَيِّمُ وَالْيَتِيمَةُ تُسْتَأْمَرُ فِي نَفْسِهَا ﴾ .

فَقَوْلُهُ : " الثَّيِّبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا " دَلِيلٌ قَوِيٌّ فِي الْبَابِ ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ الْعِلَّةَ فِي كَوْنِ الْمَرْأَةِ أَحَقَّ بِنَفْسِهَا كَوْنَهَا أَيِّمًا ؛ وَذَلِكَ لِاخْتِيَارِهَا مَقَاصِدَ فِي النِّكَاحِ .

وَقَدْ حَقَّقْنَا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَتَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ بِكُلِّ فَائِدَةٍ وَلَطِيفَةٍ .

وَاحْتِجَاجُ مَالِكٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُعَوِّلُ عَلَى الإسرائليات ، وَفِيهَا أَنَّهُمَا كَانَتَا بِكْرَيْنِ ، وَبَيَّنَّا ذَلِكَ فِي شَرْحِ الْمُوَطَّأِ وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ .

وَرُبَّمَا ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْبَنَاتِ تَرْكُ النِّكَاحِ ، حَتَّى يَثْبُتَ أَنَّهُنَّ

مُتَزَوِّجَاتٌ .

وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّ الظَّاهِرَ مِنْ النِّسَاءِ النِّكَاحُ ، وَمَتَى اجْتَمَعَ أَصْلٌ وَظَاهِرٌ وَهِيَ مَسْأَلَةٌ أُصُولِيَّةٌ وَقَدْ بَيَّنَّاهَا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

(36/586)

وَكَذَلِكَ يُقَالُ : إنَّ أَبَاهَا لَمَّا قَالَ : إنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَك إحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ، فَأَشَارَ إلَيْهِمَا ، كَانَ هَذَا أَكْثَرَ مِنْ الِاسْتِئْمَارِ أَوْ مِثْلَهُ ؛ فَإِنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْإِشَارَةِ إلَيْهَا بِضَمِيرِ الْحَاضِرِ إسْمَاعٌ لَهَا .

وَإِنَّمَا يَخْرُجُ مِنْ الْآيَةِ مَسْأَلَةٌ ، وَهِيَ الِاكْتِفَاءُ

بِصَمْتِ الْبِكْرِ ، وَهُوَ فِي حَدِيثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَاهِرٌ ، وَفِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ أَبْيَنُ مِنْهُ فِي شَرْعِ مُوسَى ، وَبِهَذِهِ الِاحْتِمَالَاتِ يَتَبَيَّنُ لَك وَجْهُ اسْتِخْرَاجِ الْأَحْكَامِ ، وَمَا يَعْرِضُ عَلَى الْأَدِلَّةِ مِنْ الشُّبَهِ ، فَيُقَابَلُ كُلُّ فَنٍّ بِمَا يَصْلُحُ لَهُ ، وَيُرَجَّحُ الْأَظْهَرُ وَيُقْضَى بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَدْ بَيَّنَّا فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ أَنَّ الْكَفَاءَةَ مُعْتَبَرَةٌ فِي النِّكَاحِ .

وَاخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِيهَا ؛ هَلْ هِيَ فِي الدِّينِ وَالْمَالِ وَالْحَسَبِ ، أَوْ فِي بَعْضِهَا ؟ وَحَقَّقْنَا جَوَازَ نِكَاحِ الْمَوَالِي لِلْعَرَبِيَّاتِ وَلِلْقُرَشِيَّاتِ ، وَأَنَّ الْمُعَوَّلَ عَلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّ أَكْرَمَكُمْ

عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وَقَدْ جَاءَ مُوسَى إلَى صَالِحِ مَدْيَنَ غَرِيبًا طَرِيدًا ، وَحِيدًا جَائِعًا عُرْيَانًا ، فَأَنْكَحَهُ ابْنَتَهُ لَمَّا تَحَقَّقَ مِنْ دِينِهِ ، وَرَأَى مِنْ حَالِهِ ، وَأَعْرَضَ عَمَّا سِوَى ذَلِكَ .

(37/586)

وَلَا خِلَافَ فِي إنْكَاحِ الْأَبِ ؛ وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي اعْتِبَارِ الْكَفَاءَةِ فِي إنْكَاحِ غَيْرِ الْأَبِ مِنْ الْأَوْلِيَاءِ ، إلَّا أَنْ يَطْرَحَهَا الْأَبُ فِي عَارٍ يَلْحَقُ الْقَبِيلَ ، فَفِيهِ خِلَافٌ ، وَتَفْصِيلٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ وَالْفُرُوعِ ، فَلْيُنْظَرْ هُنَالِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ : اخْتَلَفَ النَّاسُ ؛ هَلْ دَخَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ عَقَدَ ؟ أَمْ حِينَ سَافَرَ ؟ فَإِنْ كَانَ دَخَلَ حِينَ عَقَدَ فَمَاذَا نَقَدَ ؟ وَقَدْ مَنَعَ عُلَمَاؤُنَا مِنْ الدُّخُولِ حَتَّى يَنْقُدَ وَلَوْ رُبْعَ دِينَارٍ ؛ قَالَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ .

فَإِنْ دَخَلَ قَبْلَ أَنْ يَنْقُدَ مَضَى ، لِأَنَّ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا قَالُوا : تَعْجِيلُ الصَّدَاقِ أَوْ شَيْءٍ مِنْهُ مُسْتَحَبٌّ ، عَلَى أَنَّهُ إنْ كَانَ الصَّدَاقُ رَعْيَهُ الْغَنَمَ فَقَدْ نَقَدَ الشُّرُوعَ فِي الْخِدْمَةِ .

وَإِنْ كَانَ دَخَلَ حِينَ سَافَرَ أَوْ أَكْمَلَ الْمُدَّةَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : وَطُولُ الِانْتِظَارِ فِي النِّكَاحِ جَائِزٌ ، وَإِنْ كَانَ مَدَى الْعُمْرِ ، بِغَيْرِ شَرْطٍ .

وَأَمَّا إنْ كَانَ بِشَرْطٍ فَلَا يَجُوزُ إلَّا لِغَرَضٍ صَحِيحٍ ، مِثْلِ التَّأَهُّبِ لِلْبِنَاءِ ، أَوْ انْتِظَارِ صَلَاحِيَّةِ الزَّوْجَةِ لِلدُّخُولِ إنْ كَانَتْ صَغِيرَةً .

نَصَّ عَلَيْهَا عُلَمَاؤُنَا .

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ دَخَلَ فِي الْحَالِ .

وَمَا كَانَ صَالِحُ مَدْيَنَ يَحْبِسُهُ عَنْ الدُّخُولِ يَوْمًا ، وَقَدْ عَقَدَهُ عَلَيْهَا حَالًا .

(38/586)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْلُهُ : ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ فَنَصَّ عَلَى عَقْدِ الْإِجَارَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُوسَى مُدَّةً مِنْ ثَمَانِيَةِ أَعْوَامٍ عَلَى رَعْيِهِ الْغَنَمَ وَالْحَيَوَانَ ، فَتَغَيَّرَ فِي الْآمَادِ الطَّوِيلَةِ ، وَلَمْ يَرَ ابْنُ الْمَوَّازِ الْعِشْرِينَ سَنَةً فِي الْعَقْدِ طُولًا ، وَلَا رَأَى فِي الْمُدَوَّنَةِ الْخَمْسَةَ عَشَرَ طُولًا .

وَمَنَعَهَا بَعْضُهُمْ فِي الْعَشْرِ سِنِينَ ، وَهُوَ أَصَحُّ لِسُرْعَةِ التَّغَيُّرِ فِي الْغَالِبِ إلَى الْأَبْدَانِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْتَضِي ثَمَانِيَ سِنِينَ ، وَبَلَغَهَا بِالطَّوْعِ الَّذِي لَا يُلْزَمُ عَشْرًا ، وَهُوَ الْعَدْلُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : لَمَّا ذَكَرَ الشَّرْطَ ، وَأَعْقَبَهُ بِالتَّطَوُّعِ فِي الْعَشْرِ ؛ خَرَجَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى حُكْمِهِ ، وَلَمْ يَلْحَقْ الْآخَرُ بِالْأَوَّلِ ، وَلَا اشْتَرَكَ الْفَرْضُ وَالتَّطَوُّعُ ؛ وَلِذَلِكَ

يُكْتَبُ فِي الْعُقُودِ الشُّرُوطُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ يُقَالُ : وَتَطَوَّعَ بِكَذَا ، فَيَجْرِي الشَّرْطُ عَلَى سَبِيلِهِ ، وَالتَّطَوُّعُ عَلَى حُكْمِهِ .

وَقَدْ أَفْرَطَ بَعْضُهُمْ بِأَنْ قَالَ : يُقَالُ فِي الْعَقْدِ : وَتَطَوَّعَ بَعْدَ كَمَالِ الْعَقْدِ .

(39/586)

وَهَذَا إفْرَاطٌ يَخْرُجُ بِقَائِلِهِ إلَى التَّفْرِيطِ فَإِنَّهُ قَصَرَ نَظَرَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِيهِ ، وَهِيَ أَنَّهُ إذَا قَالَ : عَقَدَ مَعَهُ كَذَا ، وَشَرَطَ كَذَا ، وَتَطَوَّعَ بِكَذَا ، فَقَدْ انْفَصَلَ الْوَاجِبُ مِنْ التَّطَوُّعِ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ التَّطَوُّعَ أَخْرَجَهُ عَنْ لَوَازِمِ الْعَقْدِ ، وَقَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَذَلِكَ بَعْدَ كَمَالِ الْعَقْدِ حَشْوٌ لَا حَاجَةَ إلَيْهِ ، وَتَكْرَارٌ لَا مَعْنَى لَهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْلُهُ : ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ الْمَعْنَى لَيْسَ لَك إنْ وَفَّيْت أَحَدَ الْأَجَلَيْنِ أَنْ تَتَعَدَّى عَلَيَّ بِالْمُطَالَبَةِ بِالزَّائِدِ عَلَيْهِ .

فَلَوْ قَصَّرَ فِي الْعَامَيْنِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِنْ قَصَّرَ فِي الثَّمَانِي لَكَانَ عَلَيْهِ عُدْوَانٌ ، وَهُوَ أَنْ يُعْدِيَ عَلَيْهِ .

وَكَيْفِيَّةُ الْعُدْوَانِ نُبَيِّنُهُ بِأَنْ نَقُولَ : اخْتَلَفَ إذَا اسْتَأْجَرَ عَلَى عَمَلِ حَائِطٍ مَثَلًا يُتِمُّهُ فَلَهُ مِنْ الْأُجْرَةِ بِقَدْرِ مَا عَمِلَ ، إلَّا أَنْ تَكُونَ مُقَاطَعَةً ، فَلَا شَيْءَ لَهُ إلَّا أَنْ يُتِمَّهُ إلَّا أَنْ يَكُونَ الْعُرْفُ

بِالنَّقْدِ فَيَنْقُدُهُ ، وَيَلْزَمُهُ تَمَامُهُ .

وَأَكْثَرُ بِنَاءِ النَّاسِ عَلَى الْمُقَاطَعَةِ ، إذَا سَمَّى لَهُ ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ : اسْتَأْجَرْتُك عَلَى بُنْيَانِ هَذِهِ الدَّارِ شَهْرًا ، أَوْ نِصْفًا ، أَوْ شَهْرَيْنِ ، وَإِنْ أَطْلَقَ الْقَوْلَ وَقَالَ : تَبْنِي هَذِهِ الدَّارَ كُلَّ يَوْمٍ بِدِرْهَمٍ ، فَكُلَّمَا بَنَى أَخَذَ ، أَوْ تَبْنِي هَذَا الْبَابَ ، أَوْ هَذَا الْحَائِطَ ، فَهُوَ مِثْلُهُ .

(40/586)

وَكَذَلِكَ كَانَتْ إجَارَةُ مُوسَى مُقَاطَعَةً ، فَلَهَا حُكْمُ الْمُقَاطَعَةِ ، وَفِي ذَلِكَ تَفْصِيلٌ طَوِيلٌ يَأْتِي فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ .

تَحْرِيرُهُ أَنَّ الْعَمَلَ فِي الْإِجَارَةِ إمَّا يَتَقَدَّرُ بِالزَّمَانِ ، أَوْ بِصِفَةِ الْعَمَلِ الَّذِي يَضْبِطُ ؛ فَإِنْ كَانَ بِالزَّمَانِ فَهُوَ مُقَدَّرٌ بِهِ ، لَازِمٌ فِي مُدَّتِهِ .

وَإِنْ كَانَ بِالْعَمَلِ فَإِنَّهُ يُضْبَطُ بِصِفَتِهِ ، وَيَلْزَمُ الْأَجِيرَ تَمَامُ الْمُدَّةِ ، أَوْ تَمَامُ الصِّفَةِ .

وَلَيْسَ لَهُ تَرْكُ ذَلِكَ ، وَلَا يَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنْ الْأُجْرَةِ إذَا كَانَ هَكَذَا إلَّا بِتَمَامِ الْعَمَلِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ اكْتَفَى الصَّالِحَانِ بِاللَّهِ فِي الْإِشْهَادِ ، وَلَمْ يُشْهِدَا أَحَدًا مِنْ الْخَلْقِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي وُجُوبِ الْإِشْهَادِ فِي النِّكَاحِ عَلَى قَوْلَيْنِ .

أَحَدُهُمَا : أَنَّ النِّكَاحَ لَا يَنْعَقِدُ إِلَّا بِشَاهِدَيْنِ ؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ مَالِكٌ : إِنَّهُ يَنْعَقِدُ دُونَ شُهُودٍ ، وَإِنَّمَا يُشْتَرَطُ فِيهِ الْإِعْلَانُ وَالتَّصْرِيحُ .

وَقَدْ مَهَّدْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي كُتُبِ الْخِلَافِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّهُ عَقْدُ مُعَاوَضَةٍ ، فَلَا يُشْتَرَطُ لِانْعِقَادِهِ الْإِشْهَادُ كَالْبَيْعِ ، وَإِنَّمَا شَرَطْنَا الْإِعْلَانَ لِلْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ الصَّحِيحِ : ﴿ فَرْقُ مَا بَيْنَ النِّكَاحِ وَالسِّفَاحِ الدُّفُّ ﴾ .

وَرُبَّمَا نَزَعَ نَازِعٌ بِأَنَّ الْإِشْهَادَ فِي الْبَيْعِ لَازِمٌ وَاجِبٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(41/586)

وَقَدْ أَخْبَرَنَا أَبُو الْمَعَالِي ثَابِتُ بْنُ بُنْدَارٍ قَالَ : أَخْبَرَنَا الرَّفَّاءُ الْحَافِظُ ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوَزِيّ ، حَدَّثَنَا عَاصِمُ بْنُ عَلِيٍّ ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ ، وَأَخْبَرَنِي مُوسَى بْنُ الْعَبَّاسِ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ ، حَدَّثَنَا آدَمُ ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ رَبِيعَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُرْمُزَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ .

قَالَ : أَتَيْتَنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ ، قَالَ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

قَالَ : أَتَيْتَنِي بِالْكَفِيلِ ، قَالَ : كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا .

قَالَ : صَدَقْت .

فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى .

فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ ، فَقَضَى حَاجَتَهُ ، وَالْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهُ ، لِئَلَّا يَقْدَمَ عَلَيْهِ الْأَجَلُ الَّذِي أَجَّلَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا ، وَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا .

ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِلَى الْبَحْرِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّك تَعْلَمُ أَنِّي تَسَلَّفْت مِنْ فُلَانٍ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَسَأَلَنِي كَفِيلًا ، فَقُلْت لَهُ : كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَسَأَلَنِي شَهِيدًا ، فَقُلْت لَهُ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

فَرَضِيَ بِذَلِكَ ، وَإِنِّي جَهَدْت أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ بِالَّذِي لَهُ ، فَلَمْ أَقْدِرْ ؛ وَإِنِّي قَدْ اسْتَوْدَعْتُكَهَا .

(42/586)

وَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ .

فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ

، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا ، فَلَمَّا

نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ ، وَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا زِلْت أَجْهَدُ فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَك بِمَالِك ، فَمَا وَجَدْت مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْت فِيهِ .

قَالَ : هَلْ كُنْت بَعَثْت إلَيَّ بِشَيْءٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَخْبَرْتُك ، أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُك فِيهِ .

قَالَ : بَلَى ، وَاَللَّهِ ، قَدْ أَدَّى اللَّهُ عَنْك الَّذِي بَعَثْت بِهِ ، فَانْصَرَفَ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَذْهَبَ بِأَهْلِهِ حَيْثُ شَاءَ ، لِمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلِ الْقَوَامِيَّةِ ، وَزِيَادَةِ الدَّرَجَةِ ، إلَّا أَنْ يَلْتَزِمَ لَهَا أَمْرًا فَالْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ ، وَأَحَقُّ الشُّرُوطِ أَنْ يُوفَى بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ .

(43/586)

الْمَسْأَلَةُ الْمُوفِيَةُ ثَلَاثِينَ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : لَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ طَلَبَ الرُّجُوعَ إلَى أَهْلِهِ ، وَحَنَّ إلَى وَطَنِهِ ، وَفِي الرُّجُوعِ إلَى الْأَوْطَانِ تُقْتَحَمُ الْأَغْرَارُ ، وَتُرْكَبُ الْأَخْطَارُ ، وَتُعَلَّلُ الْخَوَاطِرُ ، وَيَقُولُ : لَمَّا طَالَتْ الْمُدَّةُ لَعَلَّهُ قَدْ نُسِيَتْ التُّهْمَةُ ، وَبَلِيَتْ الْقِصَّةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(44/586)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ ﴾

قال ابن عباس : فاستبكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفّلا بطاناً فقال لهما : إن لكما اليوم لشأناً فأخبرتاه بما صنع موسى فأمر إحداهما أن تدعوه فجاءته تمشي على استحياء ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه استتارها بكم درعها ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

الثاني : أنه بعدها من النداء ، قاله الحسن .

وفي سبب استحيائها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها دعته لتكافئه وكان الأجمل مكافأته من غير عناء .

الثاني : لأنها كانت رسولة أبيها .

الثالث : ما قاله عمر لأنها ليست بسلفع من النساء خَرَّاجة ولاّجة .

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ وفي أبيها قولان

: أحدهما : أنه شعيب النبي عليه السلام .

الثاني : أنه يثرون ابن أخي شعيب ، قاله أبو عبيدة والكلبي .

وكان اسم التي دعت موسى وتزوجها : صفوريا . واسم الأخرى فيه قولان :

إحدهما : ليا ، قاله ابن اسحاق .

الثاني : شرفا ، قاله ابن جرير .

﴿ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أي ليكافئك على ما سقيت لنا فمشت أمامه فوصف الريح عجيزتها فقال لها : امشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أي أخبره بخبره مع آل فرعون

. ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قال ابن عباس : يعني أنه ليس لفرعون وقومه عليّ سلطان ولسنا في مملكته .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ والقائلة هي التي دعته وهي الصغرى يعني استأجره لرعي الغنم .

﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : القوي فيما ولي ، الأمين فيما استودع ، قاله ابن عباس .

(45/586)

الثاني : القوي في بدنه ، الأمين في عفافه . وروي أن أباها لما قالت له ذلك دخلته الغيرة فقال لها : وما علمك بقوته وأمانته ؟ قالت : أما قوته فأنه كشف الصخرة التي على بئر آل فلان ولا يكشفها دون عشرة ، وأما أمانته فإنه خلفني خلف ظهره حين مشى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ فروى عبد الرحمن بن زيد أن موسى قال : فأيهما تريد أن تنكحني ؟ قال : التي دعتك ، قال : لا إلا أن تكون تريد ما دخل في نفسك عليها فقال : هي عندي كذلك فزوجه وكانت الصغيرة واسمها صفوريا .

﴿ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حَجَجٍ ﴾ يعني عمل ثماني حجج فأسقط ذكر العمل واقتصر على المدة لأنه مفهوم منها ، والعمل رعي الغنم .

واختلف في هذه الثماني حجج على قولين :

أحدهما : أنها صداق المنكوحة .

الثاني : أنها شرط الأب في إنكاحها إياه وليس بصداق .

﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ قال ابن عباس كانت على نبي الله موسى ثماني حجج واجبة وكانت سنتان عِدة منه فقضى الله عنه عِدته فأتمها عشراً .

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : من الصالحين في حسن الصحبة . قاله ابن إسحاق .

الثاني : فيما وعده به .

حكى يحيى بن سلام أنه جعل لموسى كل سخلة توضع على خلاف شبه أمها فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك في الماء فولدت كلهن خلاف شبههن . وقال غير يحيى : بل جعل له كل بلقاء فولدن كلهن بُلْقاً .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ قال السدي : لا سبيل عليّ .

﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : قول السدي : شهيد .

الثاني : حفيظ ، قاله قتادة .

الثالث : رقيب ، قاله ابن شجرة .

(46/586)

فروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِنَّ مُوسَى أَجَّرَ نَفْسَهُ بِعِفَّةِ فَرْجِهِ وَطُعْمَةِ بَطْنِهِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَيُّ الأَجَلَيْنِ قَضَى ؟ فَقَالَ أَبَرُّهُمَا وَأَوفَاهُمَا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(47/586)

وقال ابن عطية :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾

في هذا الموضع اختصار يدل عليه الظاهر قدره ابن إسحاق فذهبتا إلى أبيهما سريعتين وكانت عادتهما الإبطاء في السقي فحدثتاه بما كان من أمر الرجل الذي سقى لهما فأمر الكبرى من بنتيه ، وقيل الصغرى ، أن تدعوه له فجاءت على ما في هذه الآية ، وروي أن اسم إحداهما ليا والأخرى شرفا ، وروي أن اسم زوجة موسى منهما صفورة ، وقيل إن اسمها صوريا ، وقال وهب : زوجه الكبرى ، وروي عن النبي عليه السلام أنه زوجه الصغرى ، وذكره الثعلبي ومكي من طريق أبي ذر ، وقال النقاش : ويقال كانتا توأمتين ، وولدت الأولى قبل الأخرى بنصف نهار ، وقوله ﴿ تمشي ﴾ حال من ﴿ إحداهما ﴾ ، وقوله ﴿ على استحياء ﴾ أي خفرة قد سترت وجهها بكم درعها قاله عمر بن الخطاب

رضي الله عنه ، وقال عمرو بن ميمون : لم تكن سلفعاً من النساء ولاجة خراجة ، واختلف الناس في الرجل الداعي لموسى عليه السلام من هو ، فقال الجمهور هو شعيب عليه السلام وهما ابنتاه ، وقال الحسن : هو ابن أخي شعيب واسمه ثروان ، وقال أبو عبيدة : يثرون ، وقيل هو رجل صالح ليس من شعيب بنسب ، وقيل إن المرأتين إنما كان مرسلهما عمهما وهو كان صاحب الغنم وهو المزوج ولكن عبر عن العم بالأب في جميع الأمر إذ هو بمثابته ، وروي أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة أجاب فقام يتبعها إلى أبيها فهبت ريح ضمت قميصها إلى بدنها فوصفت عجيزتها فتحرج موسى من النظر إليها فقال لها ارجعي خلفي وأرشديني الطريق ففهمت عنه فذلك سبب وصفها له بالأمانة قاله ابن عباس ، فوصل موسى عليه السلام إلى داعيه فقص عليه أمره من أوله إلى آخره فأنسه بقوله ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون .

(48/586)

فلما فرغ كلامهما قالت الابنة التي ذهبت عنه ﴿ يا أبت استأجره ﴾ الآية ، فما وصفته بالقوة والأمانة قال لها أبوها ومن أين عرفت هذا منه ؟ فقالت : أما قوته ففي رفع الصخرة

وأما أمانته ففي تحرجه من النظر إليَّ وقت هبوب الريح ، قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم ، فقال له عند ذلك الأب ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتيَّ ﴾ قال ابن عباس فزوجه التي دعته ، و" تأجر " ، معناه تثيب وقال مكي في هذه الآية خصائص في النكاح منها أنه لم يعين الزوجة ولا حد أول الأمر وجعل المهر إجارة ودخل ولم ينقد شيئاً .

قال القاضي أبو محمد : أما التعيين فيشبه أنه كان في أثناء حال المراوضة وإنما عرض الأمر مجملاً وعين بعد ذلك ، وأما ذكر أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه فإما رسماه ، وإلا فهو من وقت العقد وإما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهذا أمر قد قرره شرعنا وجرى به في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ، وذهب بعض العلماء إلى أن ذلك خاص ، وبعضهم إلى أنه منسوخ ، ولم يجوز مالك رحمه الله النكاح بالإجارة ، وجوزها ابن حبيب وغيره إذا كانت الأجرة تصل إلى الزوجة قبل ومن لفظ شعيب عليه السلام حسن في لفظ العقود في النكاح ، أنكحه إياها أكثر من أنكحها إياه هذا معترض ، وجعل شعيب " الثمانية الأعوام " شرطاً ووكل العامين إلى المروءة .

(49/586)

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾

لما فرغ كلام شعيب قرره موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج ، و﴿ أيما ﴾ استفهام نصبه ب ﴿ قضيت ﴾ وما صلة للتأكيد ، وقرأ الحسن " أيما " بسكون الياء ، وقرأ ابن مسعود " أي الأجلين ما قضيت " ، وقرأ الجمهور " فلا عُدوان " بضم العين وقرأ أبو حيوة " فلا عِدوان " بكسر العين ، والمعنى لا تبعة علي من قول ولا فعل ، و" الوكيل " الشاهد القائم بالأمر ، قال ابن زيد : ولما كمل هذا النكاح بينهما أمر شعيب موسى أن يسير إلى بيت له فيه عصيّ وفيه هذا العصا ، فروي أن العصا وثبت إلى موسى فأخذها وكانت عصا آدم وكانت من عير ورقة الريحان ، فروي أن شعيباً أمره بردها ففعل وذهب يأخذ غيرها ، فوثبت إليه ، وفعل ذلك ثالثة ، فلما رأى شعيب ذلك علم أنه يرشح للنبوءة فتركها له ، وقيل إنما تركها له لأنه أمر موسى بتركها ، فأبى موسى ذلك فقال له شعيب : نمد إليها جميعاً فمن طاوعته فهي له ، فمد إليها شعيب يده فثقلت ، ومد إليها موسى فخفت ووثبت إليه ، فعلما أن هذا من الترشيح ، وقال عكرمة : إن عصا موسى إنما دفعها إليه جبريل ليلاً عند توجهه إلى مدين . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

---

(1) لا يخفى ما فى هذا الكلام من البعد والأولى الوقوف عند ما ذكره القرآن ، ولا يوجد ما

يعضده من السنة المطهرة ، وسيأتى بعد ذلك أوصاف خيالية لتلك العصا وأنها من آس الجنة فتنبه .

(50/586)

وقال ابن الجوزى :

﴿ فجاءته إِحداهما ﴾

المعنى : فلمّا شربتْ غنمَهُما رَجَعَتا إِلى أبيهما فأخبرتاه خبر موسى ، فبعث إِحداهما تدعو موسى .

وفيها قولان .

أحدهما : الصغرى .

والثاني : الكبرى .

فجاءته ﴿ تمشي على استحياء ﴾ قد سترت وجهها بِكُمِّ دِرْعها .

وفي سبب استحيائها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان من صفتها الحياء ، فهي تمشي مشي مَن لم يعتد الخروج والدخول .

والثاني : لأنها دعته لتكافئَه ، وكان الأجمل عندها أن تدعوَه من غير مكافأة .

والثالث : لأنها رسول أبيها .

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَكَ أجر ما سَقَيْتَ لنا ﴾ قال المفسرون : لَمَّا سمع موسى هذا القول كرهه وأراد أن لا يتبعها ، فلم يجد بُدّاً للجَهْد الذي به من اتّباعها ، فتَبِعها ، فكانت الريح تضرب ثوبها فيصف بعض جسدها ، فناداها : يا أَمَةَ الله ، كوني خلفي ودُلّيني الطريق ، ﴿ فلما جاءه ﴾ أي : جاء موسى شعيباً ، ﴿ وقَصَّ عليه القَصَصَ ﴾ أي : أخبره بأمره مِنْ حين وُلد والسبب الذي أخرجه من أرضه ﴿ قال لا تَخَفْ نجوتَ مِنَ القوم الظَّالِمِينَ ﴾ أي : لا سُلطان لفرعون بأرضنا ولسنا في مملكته .

﴿ قالت إحداهما ﴾ وهي الكبرى : ﴿ يا أبت استأجِرْهُ ﴾ أي : اتَّخِذه أجيراً ﴿ إنَّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾ أي : خير من استعملتَ على عملكَ مَنْ قَوِيَ على عملك وأدَّى الأمانة ؛ وإنَّما سمَّتْه قويّاً ، لرفعه الحجر عن رأس البئر ، وقيل : لأنه استقى بدلو لا يُقِلُّها إلا العدد الكثير من الرجال ، وسمَّته أميناً ، لأنه امرها أن تمشيَ خلفه .

وقال السدي : قال لها شعيب : قد رأيتِ قوَّته ، فما يُدريكِ بأمانته ؟ فحدَّثَتْه .

قال المفسرون : فرغب فيه شعيب ، فقال له : ﴿ إنِّي أُريدُ أنْ أُنْكِحَكَ ﴾ أي : أُزوِّجك ﴿ إحدى ابنتيَّ هاتين على أن تأجُرَني ثمانيَ حِجَج ﴾ قال الفراء : تأجُرني وتأجِرني ، بضم الجيم وكسرها ، لغتان .

قال الزجاج : والمعنى : تكون أجيراً لي ثماني سنين ﴿ فإن أتممتَ عَشْراً فمِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي : فذلك تفضل منكَ ، وليس بواجب عليك .

قوله تعالى : ﴿ وما أُريد أن أشُقَّ عليكَ ﴾ أي : في العَشْر ﴿ ستجدني إن شاء اللّهُ من الصالِحِينَ ﴾ أي : في حُسْن الصُّحبة والوفاء بما قلت .

﴿ قال ﴾ له موسى ﴿ ذلكَ بيني وبَيْنَكَ ﴾ أي : ذلك الذي وصفتَ وشرطتَ عليَّ فلكَ ، وما شرطتَ لي مِنْ تزويج إحداهما فلي ، فالأمر كذلك بيننا .

وتم الكلام هاهنا .

ثم قال ﴿ أيَّما الأجَلَين ﴾ يعني : الثمانيَ والعشر .

قال أبو عبيدة "ما" زائدة .

قوله تعالى : ﴿ قضيتُ ﴾ أي : أتممتُ ﴿ فلا عُدْوانَ عَلَيَّ ﴾ أي : لا سبيل عَلَيَّ ؛ والمعنى : لا تعتد عليَّ بأن تُلْزِمني أكثر منه ﴿ واللّهُ على ما نقول وكيل ﴾ قال الزجاج : أي : واللّهُ شاهِدُنا على ما عقدَ بعضُنا على بعض .

واختلف العلماء في هذا الرجل الذي استأجر موسى على أربعة أقوال .

أحدها : أنه شُعيب نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا أكثر [أهل] التفسير ، وفيه أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم يدل عليه ، وبه قال وهب ، ومقاتل .

والثاني : أنه صاحب مَدْيَن ، واسمه يثرى ، قاله ابن عباس .

والثالث : رجل من قوم شعيب ، قاله الحسن .

والرابع : أنه يثرون ابن أخي شعيب ، رواه عمرو بن مرَّة عن أبي عبيدة ابن عبد الله بن مسعود ، وبه قال ابن السائب .

واختلفوا في التي تزوَّجها موسى من الابنتين على قولين .

أحدهما : الصغرى ، روي عن ابن عباس .

والثاني : الكبرى ، قاله مقاتل .

وفي اسم التي تزوجها ثلاثة أقوال .

أحدها : صفوريا ، حكاه أبو عمران الجوني .

والثاني : صفورة ، قاله شعيب الجبائي .

والثالث : صبورا ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(52/586)

وقال القرطبى :

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحياء ﴾

في هذا الكلام اختصار يدلّ عليه هذا الظاهر ؛ قدّره (ابن) إسحاق : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي ، فحدثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه وقيل الصغرى أن تدعوه له ، ﴿ فَجَاءَتْ ﴾ على ما في هذه الآية .

قال عمرو ابن ميمون : ولم تكن سَلْفَعاً من النساء ، خَرّاجة وَلاّجة .

وقيل : جاءته ساترة وجهها بكم دِرعها ؛ قاله عمر بن الخطاب .

وروي أن اسم إحداهما ليا والأخرى صفوريا ابنتا يثرون ، ويثرون هو شعيب عليه السلام .

وقيل : ابن أخي شعيب ، وأن شعيباً كان قد مات .

وأكثر الناس على أنهما ابنتا شعيب عليه السلام ، وهو ظاهر القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ [الأعراف : 85] كذا في سورة "الأعراف" وفي سورة الشعراء : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة المرسلين .

إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ [الشعراء : 176 177] قال قتادة : بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين .

وقد مضى في "الأعراف" الخلاف في اسم أبيه .

فروي أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة قام يتبعها ، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال ، فهبت ريح فضمت قميصها فوصفت عجيزتها ، فتحرّج موسى من النظر إليها

فقال : ارجعي وأرشديني إلى الطريق بصوتك .

وقيل : إن موسى قال ابتداء : كوني ورائي فإني رجل عبرانيّ لا أنظر في أدبار النساء ، ودلّيني على الطريق يميناً أو يساراً ؛ فذلك سبب وصفها (له) بالأمانة ؛ قاله ابن عباس .

فوصل موسى إلى داعيه فقص عليه أمره من أوّله إلى آخره فآنسه بقوله : ﴿ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ وكانت مدين خارجة عن مملكة فرعون .

(53/586)

وقرب إليه طعاماً فقال موسى : لا آكل ؛ إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً ؛ فقال شعيب : ليس هذا عوض السقي ، ولكن عادتي وعادة آبائي قِرى الضيف ، وإطعام الطعام ؛ فحينئذٍ أكل موسى .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أبت استأجره ﴾ دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة ، وكذلك كانت في كل ملة ، وهي من ضرورة الخليقة ، ومصلحة الخلطة بين الناس ؛ خلافاً للأصم حيث كان عن سماعها أصم .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ إني أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ الآية .

فيه عرض الوليّ ابنته على الرجل ؛ وهذه سنة قائمة ؛ عرض صالح مدين ابنته على صالح

بني إسرائيل ، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته ، والمرأة نفسها على الرجل الصالح ، اقتداء بالسلف الصالح .

قال ابن عمر : لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحك حفصة بنت عمر ؛ الحديث انفرد بإخراجه البخاري .

السابعة : وفي هذه الآية دليل على أن النكاح إلى الوليّ لا حظّ للمرأة فيه ؛ لأن صالح مدين تولاه ، وبه قال فقهاء الأمصار .

وخالف في ذلك أبو حنيفة .

وقد مضى .

الثامنة : هذه الآية تدلّ على أن للأب أن يزوّج ابنته البكر البالغ من غير استئمار ، وبه قال مالك واحتج بهذه الآية ، وهو ظاهر قويّ في الباب ، واحتجاجه بها يدلّ على أنه كان يعوّل على الإسرائيليات ؛ كما تقدّم .

وبقول مالك في هذه المسألة قال الشافعي وكثير من العلماء .

وقال أبو حنيفة : إذا بلغت الصغيرة فلا يزوّجها أحد إلا برضاها ؛ لأنها بلغت حدّ التكليف ؛ فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوّجها بغير رضاها لأنه لا إذن لها ولا رضا ؛ بغير خلاف .

التاسعة : استدل أصحاب الشافعي بقوله : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ ﴾ على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح .

(54/586)

وبه قال ربيعة وأبو ثور وأبو عبيد وداود ومالك على اختلاف عنه .

وقال علماؤنا في المشهور : ينعقد النكاح بكل لفظ .

وقال أبو حنيفة : ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد ؛ أما الشافعية فلا حجة لهم في الآية لأنه شرع من قبلنا وهم لا يرونه حجة في شيء في المشهور عندهم .

وأما أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حيّ فقالوا : ينعقد النكاح بلفظ الهبة وغيره إذا كان قد أشهد عليه ؛ لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية ، قالوا : فكذلك النكاح .

قالوا : والذي خصّ به النبي صلى الله عليه وسلم تعرى البُضْع من العوض لا النكاح بلفظ الهبة ، وتابعهم ابن القاسم فقال : إن وهب ابنته وهو يريد إنكاحها فلا أحفظ عن مالك فيه شيئاً ، وهو عندي جائز كالبيع .

قال أبو عمر : الصحيح أنه لا ينعقد نكاح بلفظ الهبة ، كما لا ينعقد بلفظ النكاح هبة شيء من الأموال .

وأيضاً فإن النكاح مفتقر إلى التصريح لتقع الشهادة عليه ، وهو ضدّ الطلاق فكيف يقاس عليه ! وقد أجمعوا أن النكاح لا ينعقد بقوله : أبحت لك وأحللت فكذلك الهبة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " استحللتم فروجهنّ بكلمة الله " يعني القرآن ، وليس في القرآن عقد النكاح بلفظ الهبة ، وإنما فيه التزويج والنكاح ، وفي إجازة النكاح بلفظ الهبة إبطال بعض خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم .

العاشرة : قوله تعالى : ﴿ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ ﴾ يدلّ على أنه عرض لا عقد ؛ لأنه لو كان عقداً لعيَّن المعقود عليها له ؛ لأن العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع إذا قال : بعتك أحد عبديّ هذين بثمن كذا ؛ فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح ؛ لأنه خيار وشيء من الخيار لا يلصق بالنكاح .

الحادية عشرة : قال مكيّ : في هذه الآية خصائص في النكاح ؛ منها أنه لم يعين الزوجة ولا حدّ أوّل الأمد ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينقد شيئاً .

قلت : فهذه أربع مسائل تضمنتها المسألة الحادية عشرة .

(55/586)

الأولى : من الأربع مسائل ، قال علماؤنا : أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المراوضة ، وإنما عرض الأمر مجملاً ، وعيّن بعد ذلك .

وقد قيل : إنه زوّجه صفوريا وهي الصغرى .

يروى عن أبي ذرّ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأوفاهما وإن سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى وهي التي جاءت خلفه وهي التي قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ "

قيل : إن الحكمة في تزويجه الصغرى منه قبل الكبرى وإن كانت الكبرى أحوج إلى الرجال أنه توقع أن يميل إليها ؛ لأنه رآها في رسالته ، وما شاها في إقباله إلى أبيها معها ، فلو عرض عليه الكبرى ربما أظهر له الاختيار وهو يضمر غيره .

وقيل غير هذا ؛ والله أعلم .

وفي بعض الأخبار أنه تزوّج بالكبرى ؛ حكاه القشيري .

الثانية : وأما ذكر أوّل المدّة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه بل هو مسكوت عنه ؛ فإمّا رسماه ، وإلا فهو من أوّل وقت العقد .

الثالثة : وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر قد قرّره شرعنا ، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ؛ رواه الأئمة ؛ وفي بعض طرقه : فقال له

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما تحفظ من القرآن " فقال : سورة البقرة والتي تليها ؛ قال : " فعلمها عشرين آية وهي امرأتك " واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال : فكرهه مالك ، ومنعه ابن القاسم ، وأجازه ابن حبيب ؛ وهو قول الشافعي وأصحابه ؛ قالوا : يجوز أن تكون منفعة الحرّ صداقاً كالخياطة والبناء وتعليم القرآن .

وقال أبو حنيفة : لا يصح ؛ وجوّز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مال ، وليس خدمتها بنفسه مالاً .

وقال أبو الحسن الكرخي : إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [النساء : 24] .

(56/586)

وقال أبو بكر الرازي : لا يصح لأن الإجارة عقد مؤقت ، وعقد النكاح مؤبد ، فهما متنافيان .

وقال ابن القاسم : ينفسخ قبل البناء ويثبت بعده .

وقال أصبغ : إن نقد معه شيئاً ففيه اختلاف ، وإن لم ينعقد فهو أشد ، فإن ترك مضى على كل حال بدليل قصة شعيب ؛ قاله مالك وابن الموّاز وأشهب .

وعوّل على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة ؛ قال ابن خوَيْزِمَنْدَاد .

تضمّنت هذه الآية النكاح على الإجارة والعقد صحيح ، ويكره أن تجعل الإجارة مهراً ، وينبغي أن يكون المهر مالاً كما قال عز وجل : ﴿ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُمْ مُّحْصِنِينَ ﴾ [النساء : 24] .

هذا قول أصحابنا جميعاً .

الرابعة : وأما قوله : ودخل ولم ينقد فقد اختلف الناس في هذا ؛ هل دخل حين عقد أم حين سافر ؟ فإن كان حين عقد فماذا نقد ؟ وقد منع علماؤنا من الدخول حتى ينقد ولو ربع دينار ؛ قاله ابن القاسم .

فإن دخل قبل أن ينقد مضى ، لأن المتأخرين من أصحابنا قالوا : تعجيل الصداق أو شيء منه مستحب .

على أنه إن كان الصداق رعية الغنم فقد نقد الشروع في الخدمة ؛ وإن كان دخل حين سافر فطول الانتظار في النكاح جائز وإن كان مدى العمر بغير شرط .

(وأما إن كان بشرط) فلا يجوز إلا أن يكون الغرض صحيحاً مثل التأهب للبناء وانتظار صلاحية الزوجة للدخول إن كانت صغيرة ؛ نصّ عليه علماؤنا .

الثانية عشرة : في هذه الآية اجتماع إجارة ونكاح ، وقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة

أقوال : الأوّل : قال في ثمانية أبي زيد : يكره ابتداء فإن وقع مضى .

الثاني : قال مالك وابن القاسم في المشهور : لا يجوز ويفسخ قبل الدخول وبعده ؛ لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة .

الثالث : أجازه أشهب وأصبغ .

قال ابن العربي : وهذا هو الصحيح وعليه تدلّ الآية ؛ وقد قال مالك النكاح أشبه شيء بالبيوع ، فأي فرق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح .

(57/586)

فرع : وإن أصدقها تعليم شعر مباح صحّ ؛ قال المزني : وذلك مثل قول الشاعر :

يقول العبد فائدتي ومالي . . .

وتقوى الله أفضل ما استفادا

وإن أصدقها تعليم شعر فيه هجو أو فحش كان كما لو أصدقها خمراً أو خنزيراً .

الثالثة عشرة : قوله تعالى : ﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ جرى ذكر الخدمة مطلقاً وقال مالك إنه جائز ويحمل على العرف ، فلا يحتاج في التسمية إلى الخدمة ، وهو ظاهر قصة موسى ، فإنه ذكر إجارة مطلقة .

وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يجوز حتى يسمى لأنه مجهول .

وقد ترجم البخاريّ : "باب من استأجر أجيراً فبيّن له الأجل ولم يبيّن له العمل" لقوله تعالى :

﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ .

قال المهلّب : ليس كما ترجم ؛ لأن العمل عندهم كان معلوماً من سقي وحرث ورعي وما شاكل أعمال البادية في مهنة أهلها ، فهذا متعارف وإن لم يبيّن له أشخاص الأعمال ولا مقاديرها ؛ مثل أن يقول له : إنك تحرث كذا من السنة ، وترعى كذا من السنة ، فهذا إنما هو على المعهود من خدمة البادية ، وإنما الذي لا يجوز عند الجميع أن تكون المدّة مجهولة ، والعمل مجهول غير معهود لا يجوز حتى يعلم .

قال ابن العربي : وقد ذكر أهل التفسير أنه عيّن له رعية الغنم ، ولم يرو من طريق صحيحة ، ولكن قالوا : إن صالح مدين لم يكن له عمل إلا رعية الغنم ، فكان ما عُلم من حاله قائماً مقام التعيين للخدمة فيه .

الرابعة عشرة : أجمع العلماء على أنه جائز أن يستأجر الراعي شهوراً معلومة ، بأجرة معلومة ، لرعاية غنم معدودة ؛ فإن كانت معدودة معينة ، ففيها تفصيل لعلمائنا ؛ قال ابن القاسم : لا يجوز حتى يشترط الخلف إن ماتت ، وهي رواية ضعيفة جداً ؛ وقد استأجر صالح مدين موسى على غنمه ، وقد رآها ولم يشترط خلفاً ؛ وإن كانت مطلقة غير مسماة ولا معينة جازت عند علمائنا .

وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تجوز لجهالتها ؛ وعوّل علماؤنا على العرف حسبما ذكرناه آنفاً ؛ وأنه يعطي بقدر ما تحتمل قوّته .

وزاد بعض علمائنا أنه لا يجوز حتى يعلم المستأجر قدر قوّته ، وهو صحيح فإن صالح مدين علم قدر قوّة موسى برفع الحجر .

الخامسة عشرة : قال مالك : وليس على الراعي ضمان وهو مصدَّق فيما هلك أو سرق ؛ لأنه أمين كالوكيل .

وقد ترجم البخاري : "باب إذا أبصر الراعي أو الوكيل شاة تموت أو شيئاً يفسد فأصلح ما يخاف الفساد" وساق حديث كعب بن مالك عن أبيه : أنه كانت لهم غنم ترعى بسَلْع ، فأبصرت جارية لنا بشاة من غنمنا موتاً فكسرت حجراً فذبحتها به ، فقال لهم : لا تأكلوا حتى أسأل النبي أو أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من يسأله وأنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أو أرسل إليه فأمره بأكلها ؛ قال عبد الله : فيعجبني أنها أمة وأنها ذبحت .

قال المهلّب : فيه من الفقه تصديق الراعي والوكيل فيما ائتمنا عليه حتى يظهر عليهما دليل الخيانة والكذب ؛ وهذا قول مالك وجماعة .

وقال ابن القاسم : إذا خاف الموت على شاة فذبحها لم يضمن ويصدق إذا جاء بها مذبوحة .

وقال غيره : يضمن حتى يبين ما قال .

السادسة عشرة : واختلف ابن القاسم وأشهب إذا أنزى الراعي على إناث الماشية بغير إذن أربابها فهلكت فقال ابن القاسم : لا ضمان عليه ؛ لأن الإنزاء من إصلاح المال ونمائه . وقال أشهب : عليه الضمان ؛ وقول ابن القاسم أشبه بدليل حديث كعب ، وأنه لا ضمان عليه فيما تلف عليه باجتهاده ، إن كان من أهل الصلاح ، وممن يعلم إشفاقه على المال ؛ وأما إن كان من أهل الفسوق والفساد وأراد صاحب المال أن يضمنه فعل ؛ لأنه لا يصدق أنه رأى بالشاة موتاً لما عرف من فسقه .

(59/586)

السابعة عشرة : لم ينقل ما كانت أجرة موسى عليه السلام ؛ ولكن روى يحيى بن سلاّم أن صالح مدين جعل لموسى كل سخلة توضع خلاف لون أمها ، فأوحى الله إلى موسى أن ألق عصاك بينهن يلدن خلاف شبههن كلّهن .

وقال غير يحيى : بل جعل له كل بلقاء تولد له ، فولدن له كلهن بُلْقاً .

وذكر القُشيري أن شعيباً لما استأجر موسى قال له : ادخل بيت كذا وخذ عصا من العصيّ التي في البيت ، فأخرج موسى عصا ، وكان أخرجها آدم من الجنة ، وتوارثها الأنبياء حتى صارت إلى شعيب ، فأمره شعيب أن يلقيها في البيت ويأخذ عصا أخرى ، فدخل وأخرج تلك العصا ؛ وكذلك سبع مرات كل ذلك لا تقع بيده غير تلك ، فعلم شعيب أن له شأناً ؛ فلما أصبح قال له : سق الأغنام إلى مفرق الطريق ، فخذ عن يمينك وليس بها عشب كثير ، ولا تأخذ عن يسارك فإن بها عشباً كثيراً وتنّيناً كبيراً لا يقبل المواشي ، فساق المواشي إلى مفرق الطريق ، فأخذت نحو اليسار ولم يقدر على ضبطها ، فنام موسى وخرج التنّين ، فقامت العصا وصارت شعبتاها حديداً وحاربت التنّين حتى قتلته ، وعادت إلى موسى عليه السلام ، فلما انتبه موسى رأى العصا مخضوبة بالدم ، والتنّين مقتولاً ؛ فعاد إلى شعيب عشاء ، وكان شعيب ضريراً فمس الأغنام ، فإذا ، أثر الخِصب بادٍ عليها ، فسأله عن القصة فأخبره بها ، ففرح شعيب وقال : كل ما تلد هذه المواشي هذه السنة قالب لون أي ذات لونين فهو لك ؛ فجاءت جميع السخال تلك السنة ذات لونين ، فعلم شعيب أن لموسى عند الله مكانة .

وروى عُيَيْنة بن حِصن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أجر موسى نفسه بشبع بطنه وعفّة فرجه " فقال له شعيب لك منها يعني من نتاج غنمه ما جاءت به قالب لون ليس

فيها عَزُوزٌ ولا فَشُوشٌ ولا كَمُوشٌ ولا ضَبُوبٌ ولا ثَعُولٌ .

قال الهروي : العزوز البكيئة ؛ مأخوذ من العزَاز وهي الأرض الصلبة ، وقد تعزَّزت الشاة .

(60/586)

والفَشُوشُ التي يَنْفَشُ لبنُها من غير حلب وذلك لسعة الإحليل ، ومثله الفَتُوح والثَّرُورُ .

ومن أمثالهم : (لأَفُشَّنَّكَ فَشَّ الْوَطْبِ) أي لأخرجن غضبك وكبرك من رأسك .

ويقال : فَشَّ السِّقاءَ إذا أخرج منه الريح .

ومنه الحديث : " إن الشيطان يَفُشّ بين أَلْيَتَيْ أحدِكم حتى يُخَيَّلَ إليه أنه أحدث " أي ينفخ نفخاً ضعيفاً .

والكَمُوشُ : الصغيرة الضرع ، وهي الكميشة أيضاً ؛ سميت بذلك لانكماش ضرعها وهو تقلصه ؛ ومنه يقال : رجل كميش الإزار .

والكَشُودُ مثل الكَموش .

والضَّبُوبُ الضيقة ثقب الإحليل .

والضَّبُّ الحَلْب بشدّة العصر .

والثَّعُولُ الشاة التي لها زيادة حلمة وهي الثعل .

والثَّعل زيادة السنّ ، وتلك الزيادة هي (الرَّاءُول) .

ورجل أثعل .

والثعل (ضيق) مخرج اللبن .

قال الهروي : وتفسير قالب لون في الحديث أنها جاءت على غير ألوان أمهاتها .

الثامنة عشرة : الإجارة بالعوض المجهول لا تجوز ؛ فإن ولادة الغنم غير معلومة ، وإن من البلاد الخصبة ما يعلم ولاد الغنم فيها قطعاً وعِدّتها وسلامة سخالها كديار مصر وغيرها ، بيد أن ذلك لا يجوز في شرعنا ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الغَرَر ، ونهى عن المضامين والملاقيح .

والمضامين ما في بطون الإناث ، والملاقيح ما في أصلاب الفحول وعلى خلاف ذلك قال الشاعر :

مَلْقُوحَةٌ في بطنِ نابٍ حامِلِ . . .

وقد مضى في سورة "الحجر" بيانه .

على أن راشد بن معمر أجاز الإجارة على الغنم بالثلث والربع .

وقال ابن سيرين وعطاء : ينسج الثوب بنصيب منه ؛ وبه قال أحمد .

التاسعة عشرة : الكفاءة في النكاح معتبرة ؛ واختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب ، أو في بعض ذلك .

والصحيح جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : 13] .

(61/586)

وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريباً طريداً خائفاً وحيداً جائعاً عرياناً فأنكحه ابنته لما تحقق (من دينه) ورأى من حاله ، وأعرض عما سوى ذلك .

وقد تقدّمت هذه المسألة مستوعبة والحمد لله .

الموفية عشرين : قال بعضهم : هذا الذي جرى من شعيب لم يكن ذكراً لصداق المرأة ، وإنما كان اشتراطاً لنفسه على ما يفعله الأعراب ؛ فإنها تشترط صداق بناتها ، وتقول : لي كذا في خاصة نفسي ، وترك المهر مفوّضاً ؛ ونكاح التفويض جائز .

قال ابن العربي : هذا الذي تفعله الأعراب هو حلوان وزيادة على المهر ، وهو حرام لا يليق بالأنبياء ؛ فأمّا إذا اشترط الوليّ شيئاً لنفسه ، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده ولا يدخل في يد المرأة على قولين : أحدهما : أنه جائز .

والآخر : لا يجوز .

والذي يصح عندي التقسيم ؛ فإن المرأة لا تخلو أن تكون بكراً أو ثيباً ؛ فإن كانت ثيباً جاز

؛ لأن نكاحها بيدها ، وإنما يكون للوليّ مباشرة العقد ، ولا يمتنع أخذ العوض عليه كما يأخذه الوكيل على عقد البيع .

وإن كانت بكراً كان العقد بيده ، وكأنه عوض في النكاح لغير الزوج وذلك باطل ؛ فإن وقع فُسِخ قبل البناء ، وثبت بعده على مشهور الرواية .

والحمد لله .

الحادية والعشرون : لما ذكر الشرط وأعقبه بالطوع في العشر خرج كل واحد منهما على حكمه ، ولم يلحق الآخر بالأوّل ، ولا اشترك الفرض والطوع ؛ ولذلك يكتب في العقود الشروط المتفق عليها ، ثم يقال وتطوّع بكذا ، فيجري الشرط على سبيله ، والطوع على حكمه ، وانفصل الواجب من التطوّع .

وقيل : ومن لفظ شعيب حسن في لفظ العقود في النكاح أنكحه إياها أولى من أنكحها إياه على ما يأتي بيانه في "الأحزاب" .

وجعل شعيب الثمانية الأعوام شرطاً ، ووكل العاشرة إلى المروءة .

(62/586)

الثانية والعشرون : قوله تعالى : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ لما فرغ كلام شعيب قرّره موسى عليه السلام وكرر معناه على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج .

و﴿ أَيَّمَا ﴾ استفهام منصوب ب ﴿ قَضَيْتُ ﴾ و ﴿ الأَجَلَيْنِ ﴾ مخفوض بإضافة ﴿ أي ﴾ إليهما و ﴿ ما ﴾ صلة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ ﴾ وأن ﴿ عدوان ﴾ منصوب ب ﴿ لا ﴾ .

وقال ابن كيسان : ﴿ ما ﴾ في موضع خفض بإضافة ﴿ أي ﴾ إليها وهي نكرة و ﴿ الأَجَلَيْنِ ﴾ بدل منها .

وكذلك في قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله ﴾ [آل عمران : 159] أي رحمة بدل من ما ؛ قال مكي : وكان يتلطف في ألا يجعل شيئاً زائداً في القرآن ، ويخرج له وجهاً يخرجه من الزيادة .

وقرأ الحسن : "أَيمَا" بسكون الياء .

وقرأ ابن مسعود : ﴿ أَيَّ الأَجَلَيْنِ مَا قَضَيْتُ ﴾ .

وقرأ الجمهور : ﴿ عُدْوَان ﴾ بضم العين .

وأبو حَيْوة بكسرها ؛ والمعنى : لا تبعة عليّ ولا طلب في الزيادة عليه .

والعدوان التجاوز في غير الواجب ، والحجج السنون .

قال الشاعر :

لمن الديار بِقنة الحجر . . .

أقوين من حِجج ومن دهر

الواحدة حجة بكسر الحاء .

﴿ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قيل : هو من قول موسى .

وقيل : هو من قول والد المرأة .

فاكتفى الصالحان صلوات الله عليهما في الإشهاد عليهما بالله ولم يشهدا أحداً من الخلق ،

وقد اختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح ؛ وهي :

الثالثة والعشرون : على قولين : أحدهما أنه لا ينعقد إلا بشاهدين .

وبه قال أبو حنيفة والشافعي .

وقال مالك : إنه ينعقد دون شهود ؛ لأنه عقد معاوضة فلا يشترط فيه الإشهاد ، وإنما

يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفرق ما بين النكاح والسفاح الدُّفُّ .

وقد مضت هذه المسألة في "البقرة" مستوفاة .

(63/586)

وفي البخاري عن أبي هريرة : أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلفه ألف دينار فقال ايتني بالشهداء أشهدهم ، فقال كفى بالله شهيداً ؛ فقال ايتني بكفيل ؛ فقال كفى بالله كفيلا .

قال صدقت فدفعها إليه ؛ وذكر الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(64/586)

وقال أبو حيان :

﴿ فجاءته إحداهما ﴾ .

قرأ ابن محيصن : فجاءته إحداهما ، بحذف الهمزة ، تخفيفاً على غير قياس ، مثل : ويل امه في ويل أمه ، ويا با فلان ، والقياس أن يجعل بين بين ، وإحداهما مبهم .

فقيل : الكبرى ، وقيل : كانتا توأمتين ، ولدت الأولى قبل الأخرى بنصف نهار .

وعلى استحياء : في موضع الحال ، أي مستحيية متحفزة .

قال عمر بن الخطاب : قد سترت وجهها بكم درعها ؛ والجمهور : على أن الداعي أباهما هو شعيب عليه السلام ، وهما ابنتاه .

وقال الحسن : هو ابن أخي شعيب ، واسمه مروان .

وقال أبو عبيدة : هارون .

وقيل : هو رجل صالح ليس من شعيب ينسب .

وقيل : كان عمهما صاحب الغنم ، وهو المزوج ، عبرت عنه بالأب ، إذ كان بمثابته .

﴿ ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ ، في ذلك ما كان عليه شعيب من الإحسان والمكافأة لمن عمل له عملاً ، وإن لم يقصد العالم المكافأة .

﴿ فلما جاءه ﴾ : أي فذهب معهما إلى أبيهما ، وفي هذا دليل على اعتماد أخبار المرأة ، إذ ذهب معها موسى ، كما يعتمد على أخبارها في باب الرواية .

﴿ وقص عليه القصص ﴾ : أي ما جرى له من خروجه من مصر ، وسبب ذلك .

﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ : أي قبل الله دعاءك في قولك : ﴿ رب نجني من القوم الظالمين ﴾ ، أو أخبره بنجاته منهم ، فأنسه بقوله : ﴿ لا تخف ﴾ ، وقرب إليه طعاماً ، فقال له موسى : إنا أهل بيت ، لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً ، فقال له شعيب : ليس هذا عوض السقي ، ولكن عادتي وعادة آبائي قري الضيف وإطعام الطعام ؛ فحينئذ أكل موسى عليه السلام .

﴿ قالت إحداهما ﴾ : أبهم القائلة ، وهي الذاهبة والقائلة والمتزوجة ، ﴿ يا أبت استأجره ﴾ : أي لرعي الغنم وسقيها .

ووصفته بالقوة : لكونه رفع الصخرة عن البئر وحده ، وانتزع بتلك الدلو ، وزاحمهم حتى غلبهم على الماء ؛ وبالأمانة : لأنها حين قام يتبعها هبت الريح فلفت ثيابها فوصفتها ، فقال : ارجعي خلفي ودليني على الطريق .

(65/586)

وقولها كلام حكيم جامع ، لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر ، فقد تم المقصود ، وهو كلام جرى مجرى المثل ، وصار مطروقاً للناس ، وكان ذلك تعليلاً للاستئجار ، وكأنها قالت : استأجره لأمانته وقوته ، وصار الوصفان منبهين عليه .

ونظير هذا التركيب قول الشاعر :

ألا إن خير الناس حياً وهالكاً . . .

أسير ثقيف عندهم في السلاسل

جعل خير من استأجرت الاسم ، اعتناء به .

وحكمت عليه بالقوة والأمانة .

ولما وصفته بهذين الوصفين قال لها أبوها : ومن أين عرفت هذا ؟ فذكرت إقلاله الحجر وحده ، وتحرجه من النظر إليها حين وصفتها الريح ؛ وقاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ،

وغيرهم .

وقيل : قال لها موسى ابتداء : كوني ورائي ، فإني رجل لا أنظر إلى أدبار النساء ، ودليني على الطريق يميناً أو يساراً .

وقال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله : ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ وأبو بكر في عمر .

وفي قولها : ﴿ استأجره ﴾ ، دليل على مشروعية الإجارة عندهم ، وكذا كانت في كل ملة ، وهي ضرورة الناس ومصلحة الخلطة ، خلافاً لابن علية والأصم ، حيث كانا لا يجيزانها ؛ وهذا مما انعقد عليه الإجماع ، وخلافهما خرق .

﴿ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ﴾ : رغب شعيب في مصاهرته ، لما وصفته به ، ولما رأى فيه من عزوفه عن الدنيا وتعلقه بالله وفراره من الكفرة .

وقرأ ورش ، وأحمد بن موسى ، عن أبي عمرو : أنكحك إحدى ، بحذف الهمزة .

وظاهر قوله : ﴿ أن أنكحَك ﴾ ، أن الإنكاح إلى الولي لا حق للمرأ فيه ، خلافاً لأبي حنيفة في بعض صوره ، بأن تكون بالغة عالمة بمصالح نفسها ، فإنها تعقد على نفسها بمحضر من الشهود ، وفيه دليل على عرض الولي وليته على الزوج ، وقد فعل ذلك عمر ، ودليل على تزويج ابنته البكر من غير استئمار ، وبه قال مالك والشافعي .

وقال أبو حنيفة : إذا بلغت البكر ، فلا تزوج إلا برضاها .

قيل : وفيه دليل على قول من قال : لا ينعقد إلا بلفظ التزويج ، أو الإنكاح ، وبه قال ربيعة ، والشافعي ، وأبو ثور ، وأبو عبيد ، وداود .

وإحدى ابنتي : مبهم ، وهذا عرض لا عقد .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ إني أريد ﴾ ؟ وحين العقد يعين من شاء منهما ، وكذلك لم يحدّ أول أمد الإجارة .

والظاهر من الآية جواز النكاح بالإجارة ، وبه قال الشافعي وأصحابه وابن حبيب .

وقال الزمخشري : ﴿ هاتين ﴾ ، فيه دليل على أنه كانت له غيرهما . انتهى .

ولا دليل في ذلك ، لأنهما كانتا هما اللتين رآهما تذودان ، وجاءته إحداهما ، فأشار إليهما ، والإشارة إليهما لا تدل على أن له غيرهما .

﴿ على أن تأجرني ﴾ في موضع الحال من ضمير أنكحك ، إما الفاعل ، وإما المفعول .

وتأجرني ، من أجرته : كنت له أجيراً ، كقولك : أبوته : كنت له أباً ، ومفعول تأجرني الثاني محذوف تقديره نفسك .

و ﴿ ثماني حجج ﴾ : ظرف ، وقاله أبو البقاء .

وقال الزمخشري : حجج : مفعول به ، ومعناه : رعيه ثماني حجج .

﴿ فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ : أي هو تبرع وتفضل لا اشتراط .

﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ بإلزام أيم الأجلين ، ولا في المعاشرة والمناقشة في مراعاة الأوقات ، وتكليف الرعاة أشياء من الخدم خارجة عن الشرط .

﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ : وعد صادق مقرون بالمشيئة من الصالحين في حسن المعاملة ووطاءة الخلق ، أو من الصالحين على العموم ، فيدخل تحته حسن المعاملة .

ولما فرغ شعيب مما حاور به موسى ، قال موسى : ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ ، على جهة التقدير والتوثق في أن الشرط إنما وقع في ثماني حجج .

وذلك مبتدأ أخبره بيني وبينك ، إشارة إلى ما عاهده عليه ، أي ذلك الذي عاهدتني وشارطتني قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه ، ثم قال : ﴿ أيما الأجلين ﴾ ، أي الثماني أو العشر ؟ ﴿ فلا عدوان عليّ ﴾ : أي لا يعتدى عليّ في طلب الزيادة ، وأي شرط ، وما زائدة .

(67/586)

وقرأ الحسن ، والعباس ، عن أبي عمرو : أيما ، بحذف الياء الثانية ، كما قال الشاعر :

تنظرت نصراً والسماكين أيما . . .

علي من الغيث استهلت مواطره

وقرأ عبد الله : أي الأجلين ما قضيت ، بزيادة ما بين الأجلين وقضيت .

قال الزمخشري فإن قلت : ما الفرق بين موقع ما المزيدة في القراءتين ؟ قلت : وقعت في المستفيضة مؤكدة الإبهام ، أي زائدة في شياعها وفي الشاذ ، تأكيداً للقضاء ، كأنه قال : أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له ؟ وقرأ أبو حيوة ، وابن قطيب : فلا عدوان ، بكسر العين .

قال المبرد : قد علم أنه لا عدوان عليه في أتمهما ، ولكن جمعهما ، ليجعل الأول كالأتم في الوفاء .

وقال الزمخشري : تصور العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو أقصر ، وهو المطالبة بتتمة العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً ؟ قلت : معناه : كما أني إن طولبت بالزيادة على العشر ، كان عدواناً لا شك فيه ، فكذلك إن طولبت في الزيادة على الثماني . أراد بذلك تقرير الخيار ، وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء ، إما هذا ، وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء .

وأما التتمة فموكولة إلى رأيي ، إن شئت أتيت بها وإلا لم أجبر عليها .

وقيل : معناه فلا أكون متعدياً ، وهو في نفي العدوان عن نفسه ، كقولك : لا إثم عليّ ولا تبعة .

انتهى ، وجوابه الأول فيه تكثير .

﴿ والله على ما نقول ﴾ : أي على ما تعاهدنا عليه وتواثقنا ، ﴿ وكيل ﴾ : أي شاهد .

وقال قتادة : حفيظ .

وقال ابن شجرة : رقيب ، والوكيل الذي وكل إليه الأمر ، فلما ضمن معنى شاهد ونحوه عدى بعلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(68/586)

وقال أبو السعود :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا ﴾

قيل هي كُبراهما واسمُها صفُوراءُ أو صفراءُ وقيل : صُغراهما واسمُها صُفيراءُ أي جاءتْهُ عقيبَ ما رَجَعتا إلى أبيهما . رُوي أنَّهما لما رجعتَا إلى أبيهما قبلَ النَّاسِ وأغنامُهما حُفلٌ بطانٌ قال لهُما ما أعجلَكُما قالتَا وجدنَا رجلاً صالحاً رحمنَا فسقَى لنا فقال لإحداهُما

اذهبي فادعيه لي . وقولُه تعالى : ﴿ تَمْشِى ﴾ حالٌ من فاعل جاءتْ . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى استحياء ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من ضميرِ تمشي أي جاءتْه تمشِي كائنةً على استحياءٍ فمعَناهُ أنَّها كانتْ على حالتي المَشي والمجيءِ معاً لا عندَ المجيءِ فقط . وتنكيرُ استحياءٍ للتفخيمِ ، قيل جاءتْه متخفرةً أي شديدةَ الحياءِ وقيل قد استترتْ بكُمِّ دِرعِها ﴿ قَالَتْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من حكايةِ مجيئِها إيَّاه عليه الصَّلاة والسَّلام كأنَّه قيلَ فماذا قالتْ له عليه الصَّلاة والسَّلام فقيلَ قالتْ ﴿ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أي جزاءَ سقيكَ لنا أسندتِ الدَّعوةَ إلى أبيها وعلَّلتها بالجزاءِ لئلاَّ يُوهمَ كلامُها ريبةً . وفيهِ من الدّلالةِ على كمالِ العقلِ والحياءِ والعفَّةِ ما لا يخفَى . رُوي أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أجابَها فانطلَقا وهي أمامه فألزقتِ الرِّيحُ ثوبَها بجسدِها فوصفتْهُ فقال لها أمشِي خلفي وانعَتي لي الطريقَ ففعلتْ حتَّى أتيا دارَ شُعيب عليهما السَّلامُ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ﴾ أي ما جَرى عليهِ من الخبرِ المقصُوصِ فإنَّه مصدرٌ سُمِّيَ به المفعولُ كالعللِ .

(69/586)

﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ الذي يلوحُ من ظاهرِ النَّظْمِ الكريمِ أنَّ موسى عليه السَّلام إنَّما أجابَ المستدعيةَ من غيرِ تلعثُمٍ ليتبرَّكَ برؤيةِ شعيبٍ عليه السَّلام ويستظهرَ برأيهِ لا يأخذَ بمعروفِه أجراً حسبَما صرَّحتْ به . ألا يُرى إلى ما رُوي أنَّ شُعيباً لما قدَّمَ إليه طعاماً قال إنَّا أهلُ بيتٍ لا نبيع ديننا بطِلاعِ الأرضِ ذهباً ولا نأخذُ على المعروفِ ثمناً ولم يتناولْ حتَّى قال شُعيبٌ عليه السَّلام : هذهِ عادتُنا مع كلِّ مَن ينزلُ بنا فتناولَ بعد ذلكَ على سبيلِ التقبلِ لمعروفٍ مُبتدأٍ كيف لا وقد قصَّ عليه قصصَهُ وعرَّفَهُ أنَّه من بيتِ النُّبوةِ من أولادِ يعقوبَ عليه السَّلامِ ومثله حَقيقٌ بأنْ يُضيَّفَ ويكرَّمَ لا سيَّما في دارِ نبيَ من أنبياءِ الله تعالى عليهم الصَّلاة والسَّلام وقيل ليس بمستنكرٍ منه عليه الصَّلاة والسَّلام أن يقبلَ الأجرَ لاضطرارِ الفقرِ والفاقةِ . وقد رُوي عن عطاءِ بن السَّائب أنَّه عليهِ السَّلامُ رفعَ صوتَهُ بدعائِه ليُسمَعها ولذلك قيلَ له ليجزيَك الخ ولعلَّه عليه السَّلام إنَّما فعلَه ليكونَ ذريعة إلى استدعائِه لاستيفاء الأجرِ .

(70/586)

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ وهي التي استدعتْهُ إلى أبيها وهي التي زوَّجها مِن موسى عليهما السَّلام ﴿ إِحْدَاهُمَا يا أبت استجره ﴾ أيْ لرعي الغنمِ والقيامِ بأمرِها ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ

استجرت القوى الامين ﴾ تعليلٌ جارٍ مجرى الدّليلِ على أنَّه حقيقٌ بالاستئجارِ ، وللمبالغةِ في ذلكَ جُعل خيرَ اسماً لأنَّ ، وذُكر الفعلُ على صيغةِ الماضي للدّلالةِ على أنَّه أمينٌ مجرَّبٌ رُوي أنَّ شُعيباً عليهِ السَّلامُ قال لهَا وما أعلمكِ بقوَّته وأمانتِه فذكرتْ ما شاهدتْ منه عليه السَّلام من إقلالِ الحجر ونزعِ الدَّلو وأنَّه صوَّبَ رأسه حتَّى بلَّغتْهُ رسالتَه وأمَرها بالمشي خلفَهُ ﴿ قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتى هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِى ﴾ أي تكونَ أجيراً لي أو تثيبني من أجرتُ كذا إذا أثبتُه إيَّاه ، فقولُه تعالى : ﴿ ثَمَانِىَ حِجَجٍ ﴾ على الأولِ ظرفٌ وعلى الثَّاني مفعولٌ به على تقديرِ مُضافٍ أي رعيةَ ثماني حججٍ . ونُقل عن المبرِّدِ أنَّه يُقال أجرتُ داري ومملوكي غيرَ ممدودٍ وآجرتُ ممدوداً . والأولُ أكثرُ ، فعَلَى هذا يكون المفعولُ الثَّاني محذوفاً والمعنى على أنْ تأجرني نفسَك ، وقولُه تعالى ثماني حججٍ ظرفٌ كالوجهِ الأولِ : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً ﴾ في الخدمةِ والعملِ ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ أي فهوُ مِن عندك بطريقِ التَّفضلِ لا من عندِي بطريقِ الإلزامِ عليك . وهذا من شُعيبٍ عرضٌ لرأيه على مُوسى عليهما السَّلام واستدعاءٌ منه للعقدِ لا إنشاءٌ وتحقيقٌ له بالفعل . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ بالزامِ إتمامِ العشرِ أو المُناقشةِ في مُراعاةِ الأوقاتِ واستيفاءِ الأعمالِ . واشتقاقُ المشقةِ من الشقِّ فإنَّ ما يصعبُ عليك يشقُّ عليك اعتقادُك في إطاقته ويوزعُ رأيُك في مزاولتِه . ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ في حُسنِ المعاملةِ ولينِ الجانبِ والوفاءِ بالعهدِ .

ومراده عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالاستثناءِ التبرُّكُ بهِ وتفويضُ أمرِه إلى توفيقِه تعالى لا تعليقُ صلاحِه بمشيئتِه تعالى .

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ أي ذلكَ الذي قلتَهُ وعاهدتِني فيه وشارطتِني عليه قائمٌ وثابتٌ بينَنا جميعاً لا يخرجُ عنه واحدٌ منَّا لا أنَا عمَّا شرطتُ علي ولا أنتَ عمَّا شرطتَ على نفسِك . وقولُه تعالى : ﴿ أَيَّمَا الاجلين ﴾ أي أكثرَهما أو أقصرَهما ﴿ قُضِيَتْ ﴾ أي وفيتكَهُ بأداءِ الخدمةِ فيه ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَىَّ ﴾ تصريحٌ بالمرادِ وتقريرٌ لأمرِ الخيرةِ أي لا عُدوانَ عليَّ بطلبِ الزيادةِ على ما قضيتُه من الأجلينِ . وتعميمُ انتفاءِ العُدوانِ لكلا الأجلين بصددِ المُشارطةِ مع عدمِ تحققِ العُدوانِ في أكثرِهما رأساً للقصدِ إلى التَّسويةِ بينهما في الانتفاءِ أي كما لا أطالبُ بالزيادةِ على العشرِ لا أطالبُ بالزيادةِ على الثمانِ أو أيَّما الأجلينِ قضيتُ فلا إثمَ عليَّ يعني كما لا إثمَ عليَّ في قضاءِ الأكثرِ لا إثمَ عليَّ في قضاءِ الأقصرِ فقطْ . وقُرِىء أيَّ الأجلينِ ما قضيتُ فمَا مزيدةٌ لتأكيدِ القضاءِ كما أنَّها في القراءةِ الأُولى مزيدةٌ لتأكيدِ إبهامِ أيَ وشياعِها .

وقُرِىء أيما بسكونِ الياءِ كقولِ مَن قال

تنظَّرتُ نصراً والسماكينِ أيهما . . . عليَّ من الغيثِ استهلتْ مواطرُه

(72/586)

﴿ واللهُ على مَا نَقُولُ ﴾ من الشُّروطِ الجاريةِ بيننا ﴿ وَكِيلٌ ﴾ شاهدٌ وحفيظٌ فلا سبيلَ لأحدٍ منَّا إلى الخروجِ عنه أصلاً وليس ما حُكي عنهما عليهما الصَّلاة والسَّلام تمامَ ما جرى بينهما من الكلامِ في إنشاءِ عقدِ النِّكاحِ وعقدِ الإجارةِ وإيقاعِهما بل هُو بيانٌ لما عزما عليه واتفقا على إيقاعه حسبما يتوقفُ عليه مساقُ القصَّةِ إجمالاً من غيرِ تعرضٍ لبيانِ مواجبِ العقدينِ في تلك الشريعةِ تفصيلاً . رُوي أنَّهما لمَّا أتمَّا العقدَ قال شعيبٌ لموسى عليهما السَّلام ادخُلْ ذلكَ البيتَ فخُذ عصاً من تلكَ العصيِّ وكانت عنده عِصِيُّ الأنبياءِ عليهم الصَّلاة والسَّلام فأخذَ عصا هبطَ بها آدمُ عليه الصَّلاة والسَّلام من الجنَّةِ ولم يزلِ الأنبياءُ يتوارثونَها حتَّى وقعتْ إلى شُعيبٍ عليه السَّلام فمسَّها وكان مكفوفاً فضنَّ بها فقال خُذ غيرَها فما وقعَ في يده إلا هي سبعَ مرَّاتٍ فعلم أنَّ له شأناً وقيل : أخذَها جبريلُ عليه السَّلام بعد موتِ آدمَ عليه السَّلام فكانتْ معه حتَّى لقَي بها مُوسى عليه السَّلام ليلاً . وقيل : أودعها شعيباً ملَكٌ في صورةِ رجلٍ فأمرَ بنتَه أنْ تأتيَه بعصا فأتتْهُ بها فردَّها سبعَ

مرّاتٍ فلم يقعْ في يدها غيرُها فدفعَها إليه ثم ندِمَ لأنَّها وديعةٌ فتبعَه فاختصَما فيها ورضيا إنْ يحكمَ بينهما أولُ طالعٍ فأتاهُما المَلكُ فقال ألقياها فمَن رفعَها فهَي له فعالَجها الشّيخُ فلم يُطِقْها ورفعَها مُوسى عليه السّلام . وعن الحسنِ رضي الله عنه : ما كانتْ إلا عصاً من الشّجرِ اعترضها اعتراضاً . وعن الكلبيّ رحمه الله : الشّجرةُ التي منها نُوديَ شجرةُ العَوسجِ ومنها كانت عصاهُ . ولمَّا أصبحَ قال له شُعيبٌ صلواتُ الله وسلامُه عليهما إذا بلغتَ مفرقَ الطّريقِ فلا تأخذْ على يمينكَ فإنَّ الكلأَ وإنْ كانَ بها أكثرَ إلاَّ أنَّ فيها تِنّيناً أخشاهُ عليكَ وعلى الغنم فأخذتِ الغنمُ ذاتَ

(73/586)

اليمينِ فلم يقدرْ على كفِّها ومشَى على أثرِها فإذا عشبٌ وريف لم يرَ مثلَه فنامَ فإذا بالتّنّينِ قد أقبل فحاربتْهُ العَصا حتَّى قتلتْهُ وعادتْ إلى جنبِ مُوسى عليه السّلامُ داميةً فلما أبصرَها داميةً والتّنّينَ مقتولاً ارتاحَ لذلك ولما رجعَ إلى شُعيبٍ عليهما السّلامُ مسَّ الغنمَ فوجدَها ملأى البُطونِ غزيرةَ اللبنِ فأخبرَه مُوسى عليه السّلام بالشّأنِ ففرحَ وعلَم أنَّ لموسى والعصا شأناً وقال له : إنّي وهبتُ لك من نتاجِ غنمي هذا العامِ كلَّ أدرعَ . ودرعاءَ فأُوحي إليه في المنام أن اضربْ بعصاك مُستقى الغنمِ ففعلَ ، ثم سقَى فما أخطأتْ واحدةٌ إلا

وضعت أَدرعَ ودرعاءَ فوفَّى له بشرطِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(74/586)

وقال الآلوسى :

﴿ فَجَاءتْهُ ﴾ قيل هي الكبرى منهما وقيل الصغرى وكانتا على ما في بعض الروايات توأمتين ولدت احداهما قبل الأخرى بنصف نهار .

وقرأ ابن محيصن ﴿ حداهما ﴾ بحذف الهمزة تخفيفاً على غير قياس مثل ويلمه في ويل أمه ﴿ إِذْ تَمْشِى ﴾ حال من فاعل جاءت .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَى استحياء ﴾ متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشي أي جاءته ماشية كائنة على استحياء فمعناه أنه كانت على استحياء حالتي المشي والمجيء معا لا عند المجيء فقط ، وتنكيراً استحياء للتفخيم .

ومن هنا قيل جاءت متخفرة أي شديدة الحياء .

وأخرج سعيد بن منصور .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم من طريق عبد الله ابن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال جاءت مستترة بكم درعها على وجهها وأخرج ابن المنذر عن أبي الهذيل موقوفاً عليه وفي رفعه إلى عمر رواية أخرى صححها الحاكم بلفظ واضعة ثوبها على وجهها ﴿ قَالَتْ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيئها إياه عليه السلام كأنه قيل : فماذا قالت له عليه السلام ؟ فقيل قالت : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أي جزاء سقيك على أن ما مصدرية ولا يجوز أن تكون موصولة لأن ما يستحق عليه الأجر فعله لا ما سقاه إذ هو الماء المباح وأنسدت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة .

وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياة والعفة ما لا يخفى .

روى أنه عليه السلام أجابها فقام معها فقال لها امشي خلفي وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك ففعلت .

وفي رواية أنه قال لها كوني ورائي فإني رجل لا أنظر إلى أدبار النساء ودليني على الطريق يميناً أو يساراً ، وروى عن ابن عباس .

وقتادة .

وابن زيد وغيرهم أنها مشت أولاً أمامه فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليه السلام .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ﴾ أي ما جرى عليه من الخبر المقصوص ، فإنه مصدر سمي به المفعول كالعلل ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ يريد فرعون وقومه ، وقال ذلك لما أنه لا سلطان لفرعون بأرضه .

ويحتمل أنه قال عن إلهام أو نحوه ، واختلف في الداعي له عليه السلام إلى الإجابة فقيل الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام إنما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر برأيه لا طمعاً بما صرحت به من الأجر ، ألا ترى إلى ما أخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال : لما دخل موسى على شعيب عليهما السلام إذا هو بالعشاء فقال له شعيب : كل .

قال موسى : أعوذ بالله تعالى .

قال : ولم ألست بجائع ؟ قال : بلى ، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وإنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً قال : لا والله ، ولكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام فأكل ، وقيل :

الداعي له ما به من الحاجة وليس بمستنكر منه عليه السلام أن يقبل الأجر لإضرار الفقر والفاقة .

(76/586)

فقد أخرج الإمام أحمد عن مطرف بن الشخير قال أما والله لو كان عند نبي الله تعالى شيء ما تبع مذقتها ولكن حمله على ذلك الجهد ، واستدل بعضهم على أن ذهابه عليه السلام رغبة بالجزاء بما روى عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بقوله : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] ليسمعها ، ولذلك قيل : له ليجزيك الخ ، وأجيب بأنه ليس بنص لاحتمال أنه إنما فعله ليكون ذريعة إلى استدعائه لا إلى استيفاء الأجر ، ولا ضير فيما أرى أن يكون عليه السلام قد ذهب رغبة في سد جوعته وفي الاستظهار برأي الشيخ ومعرفته ، ولا أقول أن الرغبة في سد الجوعة رغبة في استيفاء الأجر على عمل الآخرة أو مستلزمة لها ، ودعوى أن الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أنه عليه السلام إنما أجاب للتبرك والاستظهار بالرأي لا تخلو عن خفاء ، وعمله عليه السلام بقول امرأة لأنه من باب الرواية ، ويعمل بقول الواحد حراً كان أو عبداً ذكراً كان أو أنثى إذا كان كذلك ، ومما شاته امرأة أجنبية مما لا بأس به في نظائر تلك الحال مع ذلك الاحتياط

والتورع .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ وهي التي استدعته إلى أبيها وهي التي زوجها من موسى عليهما السلام ﴿ ياأبت ﴾ أي لرعي الأغنام والقيام بأمرها ، وأصل الاستئجار كما قال الراغب طلب الي ء بالأجرة ثم عبر به عن تناوله بها وهو المراد هنا .

وكذا في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استجرت القوى الامين ﴾ وهو تعليل جار مجرى الدليل على أنه عليه السلام حقيق بالاستئجار المفهوم من طلب استئجاره ، وبعضهم رتب من الآية قياساً من الشكل الأول هكذا هو قوي أمين وكل قوي أمين لائق بالاستئجار ينتج هو لائق بالاستئجار وهو المدعي المفهوم من الطلب ، وتعقب بأن هذا ظاهر لو كان خير خبراً وليس هو كذلك ، وأجيب بأن المعنى على ذلك إلا أنه جعل اسماً للاهتمام بأمر الخيرية لأنها أم الكمال المبني عيها غيرها .

(77/586)

وفي "الكشاف" فإن قيل : كيف جعل خير من استأجرت اسماً لإن والقوى الأمين خبراً ؟

قلت : هل مثل قوله :

ألا إن خير الناس حياً وهالكا . . .

أسير ثقيف عندهم في السلاسل

في أن العناية هي سبب التقديم وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق أن يكون خبراً اسماً وأراد بذلك على ما قيل : أحقية كون خير خبراً من حيث الصاعة ، ووجه بأن خيراً مضاف إلى من وهى نكرة فكذا هو والإخبار عن النكرة بالمعرفة خلاف الظاهر ، وإن جوزوه في اسمي التفضيل والاستفهام ، ولو جعلت موصولة فإضافة أفعل التفضيل لفظية لا تفيد تعريفاً كما هو أحد قولين للنحاة فيها ، وعلى القول بإفادتها التعريق يقال : المعرف باللام أعرف من الموصول وما أضيف إليه .

وتعقب بأن تعريف القوى الأمين للجنس وما فيه تعريف الجنس قد ينزل منزلة النكرة .

وأجيب بأن الموصول إذ أريد به الجنس كذلك وهنا تصح هذه الإرادة ليجيء التعدد الذي يقتضيه خير ، وحيث كان المضاف إلى شيء دونه يكون القوي الأمين أحق بالاسمية وخير أحق بالخبرية .

وإذ قلت بأن أحقية الخبرية لأن سوق التعليل يقتضيها إلا أنه عدل إلى الاسمية للاهتمام خلصت من كثير من المناقشات .

وقال لي الشيخ خليل أفندي الآمدي يوم اجتمعت به وأنا شاب عند وروده إلى بغداد فجرى بحث في هذه الآية الكريمة : إن القياس المأخوذ منها من الشكل الثاني هكذا موسى القوي الأمين وخير من استأجرت القوي الأمين ينتج موسى خير من استأجرت .

فقلت : أظهر ما يرد على هذا أن شرط إنتاج الشكل الثاني بحسب الكيفية اختلاف مقدمتيه بالإيجاب والسلب بأن تكون إحداهما موجبة والأخرى سالبة وهو منتف فيما ذكرت فسكت وأعرض عن البحث حذراً من الفضيحة .

(78/586)

وأنت تعلم أن أدلة القرآن لا يلزم فيها الترتيب الذي وضعه المنطقيون فذلك صناعة أغنى الله تعالى العرب عنها ، وما ذكر من أنجملة خير اسماً للاهتمام هو ما اختاره غير واحد ، وجوز الطيبي أن يكون تقديمه وجعله اسماً من باب اقلب للمبالغة ، والظاهر أن أل في القوى الأمين للجنس فيندرج موسى عليه السلام وهو وجه الاستدلال .

وذكر الاستئجار بلفظ مع أن الظاهر ذكره بلفظ المضارع للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف .

وجوز الطيبي أن يكون المراد بالقوي الأمين موسى عليه السلام فكأنها قالت : إن خير من استأجرت موسى ، والأول أولى .

ثم إن كلامها هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه لأنه إذا اجتمعت الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك .

وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول : استأجره لقوته وأمانته ، ولعمري أن مثل هذا المدح من المرأة للرجل أجمل من المدح الخاص وأبقى للحشمة وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها أن يزوجها منه ، ومعرفتها قوته عليه السلام لما رأت من دفعه الناس عن الماء وحده حتى سقى لهما ، ومعرفتها أمانته من عدم تعرضه لها قبيح مّا مع وحدتها وضعفها .

وروى أنها لما قالت ما قالت قال لها أبوها : ما أعلمك بقوته ؟ فذكرت له أنه عليه السلام أقل صخرة على البئر لا يقلها كذا وكذا وقد مر في حديث عمر رضي الله تعالى عنه أنه لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، والنقل في عدد من يقلها مضطرب فأقل ما قالوا فيه سبعة وأكثره مائة ، وقد مر ما يعلم منه حال الخبر في أصل الإقلال ، وذكرت أنه نزع وحده بدلواً ينزع بها إلا أربعون .

(79/586)

وقال : ما أعلمك بأمانته ؟ فذكرت ما كان من أمره إياها بالمشي وراءه وأنه صوب رأسه حتى بلغته الرسالة ، وقدمت وصف القوة مع أن أمانة الأجير لحفظ المال أهم في نظر المستأجر لتقدم علمها بقوته عليه السلام على علمها بأمانته أو ليكون ذكر وصف الأمانة

بعده من باب الترقي من المهم إلى الأهم ، واستدل بقولها استأجره على مشروعية الإجارة عندهم وكذا كانت في كل ملة وهي من ضروريات الناس ومصلحة الخلطة خلافاً لابن علية .

والأصم حيث كانا لا يجيزانها وهذا مما انعقد عليه الإجماع وخلافهما خرق له فلا يلتفت إليه وهذا لعمري غريب منهما إن كانا لا يجيزان الإجارة مطلقاً ، ورأيت في الأكليل أن في قوله تعالى : ﴿ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتى هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِى ﴾ [القصص : 27] الخ رداً على من منع الإجارة المتعلقة بالحيوان عشر سنين لأنه يتغير غالباً فلعل الإجارة التي لا يجيزانها نحو هذه الإجارة والأمر في ذلك أهون من عدم إجازة الإجارة مطلقاً كما لا يخفى .

﴿ قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتى ﴾

استئناف بياني كأنه قيل : فما قال أبوها بعد أن سمع كلامها ؟ فقيل : قال إني .

وفي تأكيد الجملة إظهار لمزيد الرغبة فيما تضمنته الجملة ، وفي قوله : ﴿ ابنتى هَاتَيْنِ ﴾ إيماء إلى أنه كانت له بنات أخر غيرما ، وقد أخرج ابن المنذر عن مجاهد أن لهما أربع أخوات صغار ، وقال البقاعي : إن له سبع بنات كما في التوراة وقد قدمنا نقل ذلك .

وفي "الكشاف" فيه دليل على ذلك .

واعترض بأنه لا دلالة له فيه على ما ذكر إذ يكفي في الحاجة إلى الإشارة عدم علم المخاطب بأنه ما كانت له غيرهما .

(80/586)

وتعقب بأنه على هذا تكفي الإضافة العهدية ولا يحتاج إلى الإشارة فهذا يقتضي أن يكون للمخاطب علم بغيرهما معهود عندهم أيضاً ، وإنما الإشارة لدفع إرادة غيرهما من ابنتيه الأخريين له من بينهن ؛ ونعم ما قال الخفاجي لا وجه للمشاحة في ذلك فإن مثله زهرة لا يحتمل الفرك .

وقرأ ورش .

وأحمد بن موسى عن أبي عمرو ﴿ أُنكِحَكَ إِحْدَى ﴾ بحذف الهمزة ، وقوله تعالى : ﴿ على أَن ﴾ في موضع الحال من مفعول ﴿ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ أي مشروطاً عليك أو واجباً أو نحو ذلك ، ويجوز أن يكون حالاً من فاعله قاله أبو البقاء ، وتأجرني من أجرته كنت له أجيراً كقولك أبوته كنت له أبا ، وهو بهذا المعنى يتعدى إلى مفعول واحد ، وقوله تعالى : ﴿ ثَمَانِىَ حِجَجٍ ﴾ ظرف له ، ويجوز أن يكون تأجرني بمعنى تثيبني من أجره الله تعالى على ما فعل أي أثابه فيتعدى إلى اثنين ثانيهما هنا ثماني حجج .

والكلام على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي تثيبني رعية ثماني حجج أي تاجعلها ثوابي وأجرى على الإنكاح ويعني بذلك المهر .

وجوز على هذا المعنى أن يكون ظرفاً لتأجرني أيضاً بحذف المفعول أي تعوضني خدمتك أو عملك في ثماني حجج ، ونقل عن المبرد أنه يقال : أجرت داري ومملوكي غير ممدود وآجرت ممدوداً ، والأول أكثر فعلى هذا يتعدى إلى مفعولين ، والمفعول الثاني محذوف ، والمعنى على أن تأجرني نفسك ، وقد يتعدى إلى واحد بنفسه ، والثاني بمن فيقال : أجرت الدار من عمرو ، وظاهر كلام الأكثرين أنه لا فرق بين آجر بالمد وأجر بدونه ، وقال الراغب : يقال أجرت زيداً إذا اعتبر فعل أحدهما ، ويقال : آجرته إذا اعتبر فعلاهما وكلاهما يرجعان إلى معنى ، ويقال كما في "القاموس" أجرته أجراً وآجرته إيجاراً ومؤاجرة .

(81/586)

وفي "تحفة المحتاج" آجره بالمد إيجاراً وبالقصر يأجره بكسر الجيم وضمها أجراً ، وفيها أن الإجارة بتثليث الهمزة والكسر أفصح لغة اسم للآجرة ثم اشتهرت في العقد ، والحجج جمع حجة بالكسر السنة ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً ﴾ في الخدمة والعمل ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ أي

فهو من عندك من طريق التفضل لا من عندي بطريق الإلزام ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ بإلزام إتمام العشر والمناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال ، واشتقاق المشقة وهي ما يصعب تحمله من الشق بفتح الشين وهو فصل الشيء إلى شقين فإن ما يصعب عليه يشق عليه رأيك في أمره لتردده في تحمله وعدمه ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراد شعيب عليه السلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره إلى توفيقه تعالى لا تعليق صلاحه بمشيئته سبحانه بمعنى أنه إن شاء الله تعالى استعمل الصلاح وإن شاء عز وجل استعمل خلافه لأنه لا يناسب المقام .

وقيل : لأن صلاحه عليه السلام متحقق فلا معنى للتعليق ، ونحوه قول الشافعي : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى :

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾

(82/586)

مبتدأ وخبر أي ذلك الذي قلت وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم وثابت بيننا جميعاً لا يخرج عنه واحد منا لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك ، وقوله سبحانه : ﴿ أَيَّمَا الاجلين ﴾ أي أطولهما أو أقصرهما ﴿ قُضِيَتِ ﴾ أي وفيتك بأداء

الخدمة فيه ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ تصريح بالمراد وتقرير لأمر الخيار أي لا عدوان كائن على بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين وتعميم انتفاء العدوان بكلا الأجلين بصدد المشارطة مع تحقق عدم العدوان في أطولهما رأساً للقصد إلى التسوية بينهما في الانتفاء أي كما لا أطالب بالزيادة على العشر لالا أطالب بالزيادة على الثمان أو أيما الأجلين قضيت فلا إثم كائن علي كما لا إثم علي في قضاء الأطول لا إثم علي في قضاء الأقصر فقط .

وقرأ عبد الله ﴿ أَيُّ الاجلين مَا قُضِيَتِ ﴾ فما مزيدة لتأكيد القضاء أي أي الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له كما أنها في القراءة الأولى مزيدة لتأكيد إبهام أي وشياعها ، وجعلها نافية لا يخفى ما فيه ؛ وقرأ الحسن ، والعباس عن أبي عمرو ﴿ أَيَمَا ﴾ بتسكين الياء من غير تشديد كما في قول الفرزدق :

تنظرت نصراً والسماكين أيهما . . .

على من الغيث استهلت مواطره

وأصلها المشددة وحذفت الياء تخفيفاً وهي مما عينه واو ولامه ياء ، ونص ابن جني على أنها من باب أويت قياساً واشتقاقاً وقد نقل كلامه في بيان ذلك العلامة الطيبي في "شرح الكشاف" فليرجع إليه من شاء .

وقرأ أبو حيوة .

وابن قطيب ﴿ فَلاَ عدوان ﴾ بكسر العين ﴿ والله على مَا نَقُولُ ﴾ من الشروط الجارية بيننا ﴿ وَكِيلٌ ﴾ أي شهيد على ما روى عن ابن عباس ، وقال قتادة : حفيظ ، وفي "البحر" الوكيل الذي وكل إليه الأمر ولما ضمن معنى شاهد ونحوه عدي بعلي ومن هنا قيل : أي شاهد حفيظ ، والمراد توثيق العهد وأنه لا سبيل لأحد منهما إلى الخروج عنه أصلاً ، وهذا بيان لما عزما عليه واتفقا على إيقاعه إجمالاً من غير تعرض لبيان مواجب عقدي النكاح والإجارة في تلك الشريعة تفصيلاً .

(84/586)

وقول شعيب عليه السلام : ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ [القصص : 27] الخ ظاهر في أنه عرض لرأيه على موسى عليه السلام واستدعاء منه للعقد لا إنشاء وتحقيق له بالفعل ، ولم يجزم القائلون باتفاق الشريعتين في ذلك بكيفية ما وقع ، فقيل لعلم النكاح جرى على معينة بمهر غير الخدمة المذكورة وهي إنما ذكرت على طريق المعاهدة لا المعاقدة فكأنه قال : أريد أن أنكحك إحدى ابنتي بمهر معين إذا أجرتني ثماني حجج بأجرة معلومة فما تقول في ذلك فرضي فعقد له على معينة منهما ، فلا يريد أن الإبهام في المرأة المزوجة غير صحيح ،

وعلى الخدمة ومنافع الحر عندنا أيضاً خصوصاً إذا قيل : إن مدتها غير معينة وهي أيضاً ليست للزوجة بل لأبيها فكيف صح كونها مهراً ، وقيل : يجوز أن يكون جرى على معينة بمهر الخدمة المذكورة ولا فساد في جعل الرعية مهراً فإنه جائز عند الشافعي عليه الرحمة وكذا عند الحنفية كما يفهم من الهداية ونقل عن "صاحب المدارك" أنه قال : التزوج على رعي الغنم جائز بالإجماع لأنه قيام بأمر الزوجية لا خدمة صرفة ، وفي دعوى الإجماع أن أريد به إجماع الأئمة مطلقاً بحث ، ففي "المحيط البرهاني" لو تزوجها على أن يرعى غنمها سنة لم يجز على رواية الأصل ، وروى ابن سماعة عن محمد أنه يجوز في الرعي ، وفي "الانتصاف" مذهب مالك في ذلك على ثلاثة أقوال المنع والكراهة والجواز ، ويقال على الجواز كانت الغنم للمزوجة لا لأبيها وليس في المدة إبهام إذ هي الحجج الثمان والزائدة قد وعد موسى عليه السلام الوفاء به إن تيسر له على أن الإبهام في المهر يجوز كما هو مبين في الفروع ، وقال بعضهم يجوز أن تكون الشرائع مختلفة في أمر الإنكاح فلعل إنكاح المبهمة جائز في شريعة شعيب عليه السلام ويكون التعيين للولي أو للزوج ، وكذا جعل خدمة الولي صداقاً ونحو ذلك مما لا يجوز في شريعتنا .

(85/586)

ولا يرد أن ما قص من الشرائع السالفة من غير إنكار فهو شرع لنا لأنه على الإطلاق غير مسلم .

وفي الأكليل عن مكي أنه قال : في الآية خصائص في النكاح .

منها أنه لم يعين الزوجة ، ولا حد أول المدة ، وجعل المهر إجارة ، ودخل ولم ينفذ شيئاً .

والذي يميل إليه القلب اختلاف الشرائع في مواجب النكاح وربما يستأنس له بما في الفصل التاسع والعشرين من السفر الأول من التوراة أن يعقوب عليه السلام مضى إلى بلد أهل الشرق فإذا بئر في الصحراء على فمها صخرة عظيمة وعندها ثلاثة قطعان من الغنم فقال لرعاتها : من أين أنتم يا إخوة ؟ قالوا : من حران .

فقال لهم : أتعرفون لأبان بن ناحور ؟ فقالوا : نعم .

فقال : أحي هو ؟ قالوا : نعم وهذه راحيل ابنته مع الغنم .

ثم قال : ليس هذا وقت انضمام الماشية فاسقوا الغنم وامضوا بها فارعوها .

(86/586)

قالوا : لا نطيق ذلك إلى أن تجتمع الرعاة ويدحرجوا الصخرة عن فم البئر فبينما هو يخاطبهم جاءت راحيل مع غنم أبيها فلما رأى ذلك تقدم ودحرج الصخرة وسقى غنم

خاله لأبان ثم قبل راحيل وبكى وأخبرها أنه ابن عمتها ربقاً فأخبرت أباها فخرج للقائه فعانقه وقبله وأدخله إلى منزله ثم قال لأبان له : أما أنت فعظمي ولحمي ومكث عنده شهراً فقال له لأبان : أنت وإن كنت ذا قرابة مني لا أستحسن أن تخدمني مجاناً فأخبرني بما تريد من الأجرة ؟ وكان له ابنتان اسم الكبرى ليا واسم الصغرى راحيل وعينا ليا حسنتان وراحيل حسنة الحلية والمنظر فأحبها يعقوب فقال : أخدمك سبع سنين براحيل فقال : لأبان : إعطائي إياها لك أصلح من إعطائي إياها لرجل آخر فأقم عندي فخدمه براحيل سبع سنين ثم قال : أعطني زوجتي فقد كملت أيامي فجمع لأبان أهل الموضع وصنع لهم مجلساً فلما كان العشاء أخذ ليا بنته فزفها إليه ودخل عليها فأعطاها لأبان أمته زلفا لتكون لها أمة فلما كانت الغداة فإذا هي ليا فقال للأبان : ماذا صنعت بي أليس براحيل خدمتك ؟ قال : نعم لكن لا تزوج الغرى قبل الكبرى في بلدنا فأكمل أسبوع هذه وأعطيك اختها راحيل أيضاً بالخدمة التي تخدمها عندي سبع سنين أخر فكمل يعقوب أسبوع ليا ثم أعطاه ابنته راحيل زوجة وأعطاها أمته بلها لتكون لها أمة ، فلما دخل عليها يعقوب أحبها أكثر من حبه ليا ثم خمه سبع سنين أخر اه .

(87/586)

وأخبرني بعض أهل الكتاب أنه يجوز أن تكون خدمة الأب مهراً لابنته ويلزم الأب إرضاؤها بشيء إذا كانت كبيرة وأن ما التزم من الخدمة لا يجب فعله قبل الدخول ويكفي الالتزام والتعهد ، وأن المهر عندهم كل شيء له قيمة أو ما في حكمها ، وأن تسليم المرأة نفسها للزوج راضية بما يحصل لها منه من قضاء الوطر والانتفاع بدلاً عن المهر قد يقوم مقام المهر ، وأن حل الجمع بين الأختين كان ليعقوب عليه السلام خاصة ، وهذا الأخير مما ذكره علماء الإسلام والله تعالى أعلم بصحة غيره مما ذكر من الكلام ، هذا وللعلماء في الآية استدلالات قال في الإكليل : فيها استحباب عرض الرجل موليته على أهل الخير والفضل أن ينكحوها ، واعتبار الولي في النكاح ، وأن العمى لا يقدح في الولاية فإنه عليه السلام كان أعمى ، واعتبار الإيجاب والقبول في النكاح وقال ابن الغرس : استدل مالك بهذه الآية على إنكاح الأب البكر البالغة بغير استئمار لأنه لم يذكر فيها استئمار .

قال : واحتج بعضهم على جواز أن يكتب في الصداق أنكحه إياها خلافاً لمن اختار أنكحها إياه قائلاً لأنه إنما يملك النكاح عليها لا عليه .

وقال ابن العربي : استدل بها أصحاب الشافعي على أن النكاح موقوف على لفظ الإنكاح والتزويج .

قال : واستدل بها قوم على جواز الجمع بين نكاح وإجارة في صفقة واحدة فعدوه إلى كل صفقة تجمع عقدين وقالوا بصحتها .

قال : واستدل بها علماؤنا على أن اليسار لا يعتبر في الكفاءة فإن موسى عليه السلام لم يكن حينئذ موسراً .

قال : وفي قوله : ﴿ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ اكتفاء بشهادة الله عز وجل إذا لم يشهد أحداً من الخلق فيدل على عدم اشتراط الإشهاد في النكاح اه .

واستدل بها الأوزاعية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك بألف نقداً أو ألفين نسيئة اه ما في الإكليل مع حذف قليل .

ولا يخفى ما في هذه الاستدلالات من المقالات والمنازعات .

(88/586)

ثم إن ما تقدم عن مكي من أنه عليه السلام دخل ولم ينفذ شيئاً مما قاله غيره أيضاً .

وقد روى أيضاً من طريق الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ، وقيل : إنه عليه السلام لم يدخل حتى أتم الأجل ، وجاء في بعض الآثار أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام : ادخل ذلك البيت فخذ عصى من العصي التي فيه وكان عنده عصى الأنبياء عليهم السلام فدخل وأخذ العصا التي هبط بها آدم من الجنة ولم تزل الأنبياء عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فقال له شعيب : خذ غير هذه فما وقع في

يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له شأناً .

وعن عكرمة أنه قال : خرج آدم عليه السلام بالعصا من الجنة فأخذها جبرائيل عليه السلام بعد موته وكانت معه حتى لقى بها موسى ليلاً فدفعها إليه .

وفي "مجمع البيان" عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أنه قال : كانت عصا موسى قضيب آس من الجنة أتاه بها جبرائيل عليه السلام لما توجه تلقاء مدين .

وقال السدي : كانت تلك العصا قد أودعها شعيباً ملك في صورة رجل فأمر ابنته أن تأتي بعصا فدخلت وأخذت العصا فأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فردها سبع مرات فلم يقع في يدها غيرها فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع : فأتاهما الملك فقال ألقياها فمن رفعها فهي له فعالجها الشيخ فلم يقطها ورفعها موسى عليه السلام .

وعن الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً .

وعن الكلبي الشجرة التي نودي منها شجرة العوسج ومنها كانت عصاه .

(89/586)

وروى أنه لما شرع عليه السلام بالخدمة والرعي قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنيناً أخشاه عليك وعلى الغنم ، فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها ومشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع إلى شعيب وجد الغنم ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام بما كان ففرح وعلم أن لموسى العصا شأناً وقال له : إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع وردعاء فأوحى الله تعالى إليه في المنام أن أضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع أو درعاء فوفى له شعيب بما قال .

وحكى يحيى بن سلام أنه جعل له كل سخلة تولد على خلاف شية أمها فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام في المنام أن ألق عصاك في الماء الذي تسقى منه الغنم ففعل فولدت كلها على خلاف شيتها .

وأخرج ابن ماجه .

والبزار .

وابن المنذر .

(90/586)

والطبراني وغيرهم من حديث عتبة السلمي مرفوعاً " أنه عليه السلام لما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى إلى عصاه فسماها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف بإزاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة فأنمت وانثنت ووضعت كلها قوالب ألوان إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش أي واسعة الشخب ولا ضبوب أي طويلة الضرع تجره ولا غزور أي ضيقة الشخب ولا ثعول أي لا ضرع لها إلا كهيئة حلمتين ولا كمشة تفوت الكف أي صغيرة الضرع لا يدرك الكف " وظاهر هذا الخبر أن الهبة كانت لزوجته عليه السلام وأنه كان ذلك لما أراد فراق شعيب عليهما السلام وهو خلاف ما يقتضيه ظاهر ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(91/586)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى استحياء قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ

لَنَا ﴾ .

عرفت أن الفاء تؤذن بأن الله استجاب له فقيّض شعيباً أن يرسل وراء موسى ليضيفه ويزوجه بنته ، فذلك يضمن له أنساً في دار غربة ومأوى وعشيراً صالحاً .

وتؤذن الفاء أيضاً بأن شعيباً لم يتريث في الإرسال وراءه فأرسل إحدى البنتين اللتين سقى لهما وهي (صفورة) فجاءته وهو لم يزل عن مكانه في الظل .

وذكر ﴿ تمشي ﴾ ليبني عليه قوله ﴿ على استحياء ﴾ وإلا فإن فعل (جاءته) مغن عن ذكر ﴿ تمشي ﴾ .

و ﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي مستعارة للتمكن من الوصف .

والمعنى : أنها مستحيية في مشيها ، أي تمشي غير متبخترة ولا متثنية ولا مظهرة زينة .

وعن عمر بن الخطاب أنها كانت ساترة وجهها بثوبها ، أي لأن ستر الوجه غير واجب عليها ولكنه مبالغة في الحياء .

والاستحياء مبالغة في الحياء مثل الاستجابة قال تعالى ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن إلى قوله ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ [النور : 31] .

وجملة ﴿ قالت ﴾ بدل من (جاءته) .

وإنما بيّنت له الغرض من دعوته مبادرة بالإكرام .

والجزاء : المكافأة على عمل حسن أو سيّىء بشيء مثله في الحسن أو الإساءة ، قال تعالى

﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] وقال تعالى ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ﴾ [سبأ : 17] .

وتأكيد الجملة في قوله ﴿ إن أبي يدعوك ﴾ حكاية لما في كلامها من تحقيق الخبر للاهتمام به وإدخال المسرة على المخبر به .

والأجر : التعويض على عمل نافع للمعوض ، ومنه سمي ثواب الطاعات أجراً ، قال تعالى ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ﴾ [محمد : 36] .

وانتصب ﴿ أجر ما سقيت لنا ﴾ على المفعول المطلق لبيان نوع الجزاء أنه جزاء خير ، وهو أن أراد ضيافته ، وليس هو من معنى إجارة الأجير لأنه لم يكن عن تقاول ولا شرط ولا عادة .

والجزاء : إكرام ، والإجارة : تعاقد .

(92/586)

ويدل لذلك قوله عقبه ﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره ﴾ [القصص : 26] فإنه دليل على أن أباها لم يسبق منه عزم على استئجار موسى .

وكان فعل موسى معروفاً محضاً لا يطلب عليه جزاء لأنه لا يعرف المرأتين ولا بيتهما ، وكان

فعل شعيب كرماً محضاً ومحبة لقري كل غريب ، وتضييف الغريب من سُنة إبراهيم فلا غرو أن يعمل بها رجلان من ذرية إبراهيم عليه السلام .

و﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ ما سقيت لنا ﴾ مصدرية ، أي سقيك ، ولام ﴿ لنا ﴾ لام العلة سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ .

كانت العوائد أن يفاتح الضيف بالسؤال عن حاله ومقدمه فلذلك قصّ موسى قصة خروجه ومجيئه على شعيب .

وذلك يقتضي أن شعيباً سأله عن سبب قدومه ، و ﴿ القصص ﴾ : الخبر .

و﴿ قص عليه ﴾ أخبره .

والتعريف في ﴿ القصص ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أي قصصه ، أو للعهد ، أي القصص المذكور آنفاً .

وتقدم نظيره في أول سورة يوسف .

فطمأنه شعيب بأنه يزيل عن نفسه الخوف لأنه أصبح في مأمن من أن يناله حكم فرعون لأن بلاد مدْين تابعة لملك الكنعانيين وهم أهل بأس ونجدة .

ومعنى نهيه عن الخوف نهيه عن ظن أن تناله يد فرعون .

وجملة ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ تعليل للنهي عن الخوف .

ووصف قوم فرعون بالظالمين تصديقاً لما أخبره به موسى من رومهم قتله قصاصاً عن قتل

خطأ .

وما سبق ذلك من خبر عداوتهم على بني إسرائيل .

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

حذف ما لقيه موسى من شعيب من الجزاء بإضافته وإطعامه ، وانتقل منه إلى عَرض إحدى المرأتين على أبيها أن يستأجره للعمل في ماشيته إذ لم يكن لهم ببيتهم رجل يقوم بذلك وقد كبر أبوهما فلما رأت أمانته وورعه رأت أنه خير من يستأجر للعمل عندهم لقوته على العمل وأمانته .

(93/586)

والتاء في ﴿ أبت ﴾ عوض عن ياء المتكلم في النداء خاصة وهي يجوز كسرها وبه قرأ الجمهور .

ويجوز فتحها وبه قرأ ابن عامر وأبو جعفر .

وجملة ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ علة للإشارة عليه باستئجاره ، أي لأن مثله من يستأجر .

وجاءت بكلمة جامعة مرسلة مثلاً لما فيها من العموم ومطابقة الحقيقة بدون تخلف ،

فالتعريف باللام في ﴿ القوي الأمين ﴾ للجنس مراد به العموم .

والخطاب في ﴿ من استأجرت ﴾ موجه إلى شعيب ، وصالح لأن يعم كل من يصلح للخطاب لتتم صلاحية هذا الكلام لأن يرسل مثلاً .

فالتقدير : من استأجر المستأجر .

و﴿ من ﴾ موصولة في معنى المعرف بلام الجنس إذ لا يراد بالصلة هنا وصف خاص بمعين .

وجعل ﴿ خير من استأجرت ﴾ مسنداً إليه بجعله اسماً لأن جعل ﴿ القوي الأمين ﴾ خبراً مع صحة جعل ﴿ القوي الأمين ﴾ هو المسند إليه فإنهما متساويان في المعرفة من حيث إن المراد بالتعريف في الموصول المضاف إليه ﴿ خير ﴾ ، وفي المعرّف باللام هنا العموم في كليهما ، فأوثر بالتقديم في جزأي الجملة ما هو أهم وأولى بالعناية وهو خير أجير ، لأن الجملة سيقت مساق التعليل لجملة ﴿ استأجره ﴾ فوصف الأجير أهم في مقام تعليلها ونفسُ السامع أشد ترقباً لحاله .

ومجيء هذا العموم عقب الحديث عن شخص معين يؤذن بأن المتحدث عنه ممن يشمله ذلك العموم فكان ذلك مصادفاً المحز من البلاغة إذ صار إثبات الأمانة والقوة لهذا المتحدث عنه إثباتاً للحكم بدليل .

فتقدير معنى الكلام : استأجره فهو قوي أمين وإن خير من استأجر مستأجر القوي الأمين .

فكانت الجملة مشتملة على خصوصية تقديم الأهم وعلى إيجاز الحذف وعلى المذهب الكلامي ، وبذلك استوفت غاية مقتضى الحال فكانت بالغة حد الإعجاز .

وعن عمر بن الخطاب أنه قال "أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي" .

يريد : أسأله أن يؤيدني بقوي أمين أستعين به .

(94/586)

والإشارة في قوله ﴿ هاتين ﴾ إلى المرأتين اللتين سقى لهما أن كانتا حاضرتين معاً دون غيرهما من بنات شعيب لتعلق القضية بشأنهما ، أو تكون الإشارة إليهما لحضورهما في ذهن موسى باعتبار قرب عهده بالسقي لهما إن كانت الأخرى غائبة حينئذ .

وفيه جواز عرض الرجل مولاته على من يتزوجها رغبة في صلاحه .

وجعل لموسى اختيار إحداهما لأنه قد عرفها وكانت التي اختارها موسى (صفورة) وهي الصغرى كما جاء في رواية أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم وإنما اختارها دون أختها لأنها التي عرف أخلاقها باستحيائها وكلامها فكان ذلك ترجيحاً لها عنده .

وكان هذا التخيير قبل انعقاد النكاح ، فليس فيه جهل المعقود عليها .

وقوله ﴿ على أن تأجرني ثماني حجج ﴾ حرف ﴿ على ﴾ من صيغ الشرط في

العقود .

و﴿ تأجرني ﴾ مضارع آجره مثل نصره إذا كان أجيراً له .

والحجج : اسم جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة ، مشتقة من اسم الحج لأن الحج يقع كل سنة وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة العربية .

والتزام جعل تزويجه مشروطاً بعقد الإجارة بينهما عرض منه على موسى وليس بعقد نكاح ولا إجارة حتى يرضى موسى .

وفي هذا العرض دليل لمسألة جمع عقد النكاح مع عقد الإجارة .

والمسألة أصلها من السنة حديث المرأة التي عرضت نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يتزوجها وزوّجها من رجل كان حاضراً مجلسه ولم يكن عنده ما يصدقها فزوجه إياها بما معه من القرآن ، أي على أن يعلمها إياه .

والمشهور من مذهب مالك أن الشرط المقارن لعقد النكاح إن كان مما ينافي عقد النكاح فهو باطل ويفسخ النكاح قبل البناء ويثبت بعده بصداق المثل .

وأما غير المنافي لعقد النكاح فلا يفسخ النكاح لأجله ولكن يلغى الشرط .

وعن مالك أيضاً : تكره الشروط كلها ابتداء فإن وقع مضى .

وقال أشهب وأصبغ : الشرط جائز واختاره أبو بكر بن العربي وهو الحق للآية ، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم " أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم عليه الفروج "

وظاهر الآية أيضاً أن الإجارة المذكورة جعلت مهراً للبنت .

ويحتمل أن المشروط التزام الإجارة لا غير ، وأما المهر فتابع لما يعتبر في شرعهم ركناً في النكاح ، والشرائع قد تختلف في معاني الماهيات الشرعية .

وإذا أخذنا بظاهر الآية كانت دالة على أنهما جعلا المهر منافع إجارة الزوج لشعيب فيحتمل أن يكون ذلك برضاها لأنها سمعت وسكتت بناء على عوائد مرعية عندهم بأن ينتفع بتلك المنافع أبوها .

ويحتمل أن يكون لولي المرأة بالأصالة إن كان هو المستحق للمهر في تلك الشريعة ، فإن عوائد الأمم مختلفة في تزويج ولاياهم .

وإذ قد كان في الآية إجمال لم تكن كافية في الاحتجاج على جواز جعل مهر المرأة منافع من إجارة زوجها فيرجع النظر في صحة جعل المهر إجارة إلى التخريج على قواعد الشريعة والدخول تحت عموم معنى المهر ، فإن منافع الإجارة ذات قيمة فلا مانع من أن تجعل مهراً .

والتحقيق من مذهب مالك أنه مكروه ويمضي .

وأجازه الشافعي وعبد الملك بن حبيب من المالكية .

وقال أبو حنيفة : لا يجوز جعل المهر منافع حر ويجوز كونه منافع عبد .

ولم ير في الآية دليلاً لأنها تحتمل عنده أن يكون النكاح مستوفياً شروطه فوقع الإجمال فيها .

ووافقه ابن القاسم من أصحاب مالك .

وإذ قد كان حكم شرع من قبلنا مختلفاً في جعله شرعاً لنا كان حجة مختلفاً فيها بين علماء أصول الفقه فزادها ضعفاً في هذه الآية الإجمال الذي تطرقها فوجب الرجوع إلى أدلة أخرى من شريعة الإسلام .

ودليل الجواز داخل تحت عموم معنى المهر .

فإن كانت المنافع المجعولة مهراً حاصلة قبل البناء فالأمر ظاهر ، وإن كان بعضها أو جميعها لا يتحقق إلا بعد البناء كما في هذه الآية رجعت المسألة إلى النكاح بمهر مؤجل وهو مكروه غير باطل .

(96/586)

وإلى الإجارة بعوض غير قابل للتبعيض بتبعيض العمل فإذا لم يتم الأجير العمل في هذه رجعت إلى مسألة عجز العامل عن العمل بعد أن قبض الأجر .

وقد ورد في الصحيح وفي حديث المرأة التي وهبت نفسها للنبيء صلى الله عليه وسلم

فظهر عليه أنه لم يقبلها وأن رجلاً من أصحابه قال له : إن لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها .

قال : هل عندك ما تصدقها ؟ إلى أن قال له صلى الله عليه وسلم " التمس ولو خاتماً من حديد " قال : ما عندي ولا خاتم من حديد ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : ما معك من القرآن ؟ قال : معى سورة كذا وسورة كذا لسور سماها .

قال له : قد ملكتكها بما معك من القرآن .

وفي رواية أن النبي أمره أن يعلمها عشرين آية مما معه من القرآن وتكون امرأته .

فإن صحت هذه الزيادة كان الحديث جارياً على وفق ما في هذه الآية وكان حجة لصحة جعل الصداق إجارة على عمل ، وإن لم تصح كما هو المشهور في كتب الصحيح فالقصة خصوصية يقتصر على موردها .

ولم يقع التعرض في الآية للعمل المستأجر عليه .

وورد في سفر الخروج أنه رعى غنم يثرون (وهو شعيب) ، ولا غرض للقرآن في بيان ذلك .

ولم يقع التعرض إلى الأجر وقد علمت أن الظاهر أنه إنكاحه البنت فإذا لم نأخذ بهذا الظاهر كانت الآية غير متعرضة للأجر إذ لا غرض فيه من سوق القصة فيكون جارياً على ما هو متعارف عندهم في أجور الأعمال وكانت للقبائل عوائد في ذلك .

وقد أدركت منذ أول هذا القرن الرابع عشر أن راعي الغنم له في كل عام قميص وحذاء

يسمى (بلغة) ونحو ذلك لا أضبطه الآن .

وقوله ﴿ فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ جعل ذلك إلى موسى تفضلا منه أن اختاره ووكله إلى ما تكون عليه حاله في منتهى الحجج الثمان من رغبة في الزيادة .

و(من) ابتدائية .

(97/586)

و (عند) مستعملة في الذات والنفس مجازاً ، والمجرور خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : فإتمام العشر من نفسك ، أي لا مني ، يعني : أن الإتمام ليس داخلاً في العقدة التي هي من الجانبين فكان مفهوم الظرف معتبراً هنا .

واحتج مالك بقوله ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ﴾ على أن للأب إنكاح ابنته البكر بدون إذنها وهو أخذ بظاهرها إذ لم يتعرض لاستئذانها .

ولمن يمنع ذلك أن يقول : إن عدم التعرض له لا يقتضي عدم وقوعه .

وقوله ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ يريد الصالحين بالناس في حسن المعاملة ولين الجانب .

قصد بذلك تعريف خلقه لصاحبه ، وليس هذا من تزكية النفس المنهي عنه لأن المنهي

عنه ما قصد به قائله الفخر والتمدح ، فأما ما كان لغرض في الدين أو المعاملة فذلك حاصل لداع حسن كما قال يوسف ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [يوسف : 55] .

و ﴿ أشق عليك ﴾ معناه : أكون شاقاً عليك ، أي مكلفك مشقة ، والمشقة : العسر والتعب والصعوبة في العمل .

والأصل أن يوصف بالشاق العمل المتعب فإسناد ﴿ أشق ﴾ إلى ذاته إسناد مجازي لأنه سبب المشقة ، أي ما أريد أن أشترط عليك ما فيه مشقتك .

وهذا من السماحة الوارد فيها حديث : " رحم الله امرأ سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى "

وجملة ﴿ قال ذلك بيني وبينك ﴾ حكاية لجواب موسى عن كلام شعيب .

واسم الإشارة إلى المذكور وهو ﴿ أن تأجرني ثماني حجج ﴾ إلى آخره .

وهذا قبول موسى لما أوجبه شعيب وبه تم التعاقد على النكاح وعلى الإجارة ، أي الأمر على ما شرطت علي وعليك .

وأطلق ﴿ بيني وبينك ﴾ مجازاً في معنى الثبوت واللزوم والارتباط ، أي كل فيما هو من عمله .

و ﴿ أيما ﴾ منصوب بـ ﴿ قضيت ﴾ .

و(أي) اسم موصول مبهم مثل (ما) .

وزيدت بعدها (ما) للتأكيد ليصير الموصول شبيهاً بأسماء الشرط لأن تأكيد ما في اسم الموصول من الإبهام يكسبه عموماً فيشبه الشرط فلذلك جعل له جواب كجواب الشرط .

(98/586)

والجملة كلها بدل اشتمال من جملة ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ لأن التخيير في منتهى الأجل مما اشتمل عليه التعاقد المفاد بجملة ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ .

والعدوان بضم العين : الاعتداء على الحق ، أي فلا تعتدي علي .

فنفى جنس العدوان الذي منه عدوان مستأجره .

واستشهد موسى على نفسه وعلى شعيب بشهادة الله .

وأصل الوكيل : الذي وكل إليه الأمر ، وأراد هنا أنه وكل على الوفاء بما تعاقدا عليه حتى إذا أخل أحدهما بشيء كان الله مؤاخذه .

ولما ضمن الوكيل معنى الشاهد عدي بحرف ﴿ على ﴾ وكان حقه أن يعدى بـ (إلى) .

والعبرة من سياقة هذا الجزء من القصة المفتتح بقوله تعالى ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ [القصص : 22] إلى قوله ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ [القصص : 28] هو ما تضمنته

من فضائل الأعمال ومناقب أهل الكمال وكيف هيأ الله تعالى موسى لتلقي الرسالة بأن قلّبه في أطوار الفضائل ، وأعظمها معاشرة رسول من رسل الله ومصاهرته ، وما تضمنه من خصال المروءة والفتوة التي استكنت في نفسه من فعل المعروف ، وإغاثة الملهوف ، والرأفة بالضعيف ، والزهد ، والقناعة ، وشكر ربه على ما أسدى إليه ، ومن العفاف والرغبة في عشرة الصالحين ، والعمل لهم ، والوفاء بالعقد ، والثبات على العهد حتى كان خاتمة ذلك تشريفه بالرسالة وما تضمنته من خصال النبوءة التي أبداها شعيب من حب القرى ، وتأمين الخائف ، والرفق في المعاملة ، ليعتبر المشركون بذلك إن كان لهم اعتبار في مقايسة تلك الأحوال بأجناسها من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم فيهتدوا إلى أن ما عرفوه به من زكي الخصال قبل رسالته وتقويم سيرته ، وزكاء سريرته ، وإعانته على نوائب الحق ، وتزوجه بأفضل امرأة من نساء قومه ، إن هي إلا خصال فاذة فيه بين قومه وإن هي إلا بوارق لانهطال سحاب الوحي عليه .

والله أعلم حيث يجعل رسالاته وليأتسي المسلمون بالأسوة الحسنة من أخلاق أهل النبوءة والصلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(99/586)

وقال الشيخ الشعراوى :

ولم يكَدْ موسى عليه السلام ينتهي من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي ﴾

قوله : ﴿ إِحْدَاهُمَا ﴾ [القصص : 25] أي : أحدى المرأتين ﴿ تَمْشِي عَلَى استحياء ﴾ [القصص : 25] يعني : مُستحية في مجيئها ، مُستحية في مِشْيتها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص : 25] .

لما جاءتْه هذه الدعوة لم يتردد في قبولها ، وانتهز هذه الفرصة ، فهو يعلم أنها استجابة سريعة من ربه حين دعاه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] وهي سبب من الأسباب يَمدُّه الله له ، وما كان له أنْ يردَّ أسباب الله ، فلم يتأبَّ ، ولم يرفض دعوة الأب .

ولم يذكر لنا السياق هنا كيف سار موسى والفتاة أبيها ، لكن يُرْوَى أنهما سارا في وقت تهبُّ فيه الرياح من خلفها ، وكانت الفتاة في الأمام لتدلّه على الطريق ، فلما ضمَّ الهواء ملابسها ، فوصفت عجيزتها ، قال لها : يا هذه ، سيري خلفي ودُلِّيني على الطريق .

وهذا أدب آخر من آدام النبوة .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ﴾ [القصص : 25] أي : سيدنا شعيب عليه السلام ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ﴾ [القصص : 25] أي : ما كان بينه وبين القبطي ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ

القوم الظالمين ﴾ [القصص : 25] يعني : طمأنه وهدّأ من رَوْعه .

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

وهذا حكم رابع نستفيده من هذه الآيات ، نأخذه من قول الفتاة ﴿ يا أبت استأجره ﴾ [القصص : 26] .

وفي قولها دليل على أنها لم تعشق الخروج للعمل ، إنما تطلب مَنْ يقوم به بدلاً عنها ؛ لِتقَرَّ في بيتها .

(100/586)

ثم تذكر البنت حيثيات هذا العرض الذي عرضته على أبيها ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين ﴾ [القصص : 26] وهذان شرطان لا بُدَّ منهما في الأجير : قوة على العمل ، وأمانة في الاداء . وقد تسأل : ومن أين عرفتْ البنت أنه قوي أمين ؟

قالوا : لأنه لما ذهب ليسقي لهما لم يزاحم الناس ، وإنما مال إلى ناحية أخرى وجد بها عُشْباً عرف أنه لا ينبت إلا عند ماء ، وفي هذا المكان أزاح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلا عدة رجال ، ثم سقى لهما من تحت هذا الحجر ، وعرفتْ أنه أمين حينما رفض أن تسير أمامه ، حتى لا تظهر له مفاتن جسمها .

ويأتي دور الأب ، وما ينبغي له من الحزم في مثل هذه المواقف ، فالرجل سيكون أجيراً عنده ، وفي بيته بنتان ، سيتردد عليهما ذهاباً وإياباً ، ليلَ نهار ، والحكمة تقتضي إيجاد علاقة شرعية لوجوده في بيته ؛ لذلك رأى أن يُزوِّجه إحداهما ليخلقَ وَضْعاً ، يستريح فيه الجميع : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ ﴾

في الأمثال نقول : (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك) ذلك لأن كبرياء الأب يمنعه أنْ يعرض ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح وإنْ كان القلة يفعلون ذلك وهذه الحكمة من الأب في أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة ، فكثيراً ما نجد الشاب سويَّ الدين ، سويَّ الأخلاق ، لكن مركزه الاجتماعي كما نقول دون مستوى البنت وأهلها ، فيتهيب أنْ يتقدّم لها فيُرفض .

وفي هذه الحالة على الأب أنْ يُجَرِّئ الشاب على التقدم ، وأن يُلمح له بالقبول إن تقدَّم لابنته ، كأن يقول له : لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن ، وألف بنت تتمناك ؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع .

(101/586)

أما أن نرتقي إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب ﴿ إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ ﴾ [القصص : 27] فهذا شيء آخر ، وأدب عَالٍ من العارض ، ومن المعروض عليه ، وفي مجتمعاتنا كثير من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التشجيع من أولياء أمور النبات .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لنا أن نُعرِّض بالزواج لمن تُوفِّى عنها زوجها ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النسآء ﴾ [البقرة : 235] ولا تخفي علينا عبارات التلميح التي تلفت نظر المرأة للزواج .

وقوله : ﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ [القصص : 27] أي : تكون أجيراً عندي ثماني سنوات ، وهذا مَهْر الفتاة ، أراد به أن يُغلِي من قيمة ابنته ، حتى لا يقول زوجها : إنها رخيصة ، أو أن أباها رماها عليه .

﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القصص : 27] يعني : حينما تعايشني ستجدني طيبَ المعاملة ، وستعلم أنك مُوفّق في هذا النسب ، بل وستزيد هذه المدة محبة في البقاء معنا .

فأجاب موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾

أي : أنا بالخيار ، أقضي ثمانية ، أم عشرة ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : 28] .

وقد أخذ العلماء حُكْماً جديداً من هذه الآية ، وهو أن المطلوب عند عقد الزواج تسمية المهر ، ولا يشترط قبضه عند العقد ، فلَك أنْ تُؤجله كله وتجعله مُؤخّراً ، او تُؤجل بعضه ، وتدفع بعضه .

والمهر ثمن بُضْع المرأة ، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها ، وإذا مات الزوج يُؤخَذ من تركته ، بدليل أن شعيباً عليه السلام استأجر موسى ثماني أو عشر سنين ، وجعلها مهراً لابنته .

(102/586)

ونلحظ أن السياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطعام ، مع أن موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : 24] .

لكن يروي أهل السير أن شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً ، وطلب منه أن يأكل ، فقال : أستغفر الله ، يعني : أنْ آكل من طعام . كأنه مقابل ما سقى للبنتين الغنم ؛ لذلك قال : إنَّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب : كُلْ ، فإنَّا أهل بيت نطعم الطعام ونقري الضيف ، قال : الآن نأكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(103/586)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ قال : مؤمن آل فرعون .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال : كان اسم الذي قال لموسى ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ شمعون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ قال : يعمل ، ليس بالسيد ؛ اسمه حزقيل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : ذهب القبطي فافشى عليه : أن موسى هو الذي قتل الرجل فطلبه فرعون وقال : خذوه فإنه الذي قتل صاحبنا وقال الذين يطلبونه : اطلبوه في ثنيات الطريق ، فإن موسى غلام لا يهتدي للطريق .

وأخذ موسى عليه السلام في ثنيات الطريق ، وقد جاءه الرجل فأخبره ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج . . . ، فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ فلما أخذ في ثنيات الطريق جاءه ملك على فرس بيده عنزة ، فلما رآه موسى عليه السلام

سجد له من الفرق . فقال : لا تسجد لي ، ولكن اتبعني ، فتبعه وهداه نحو مدين .

فانطلق الملك حتى انتهى به إلى المدين ، فلما أتى الشيخ ، وقص عليه القصص ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ [القصص : 25] فأمر احدى ابنتيه أن تأتيه بعصا .

وكانت تلك العصا عصا استودعه إياها ملك في صورة رجل فدفعها إليه ، فدخلت الجاريه فأخذت العصا فأتته بها ، فلما رآها الشيخ قال لابنته : ائتيه بغيرها . فألقتها وأخذت تريد غيرها ، فلا يقع في يدها إلا هي ، وجعل يرددها وكل ذلك لا يخرج في يدها غيرها ، فلما رآى ذلك عهد إليه فأخرجها معه فرعى بها ، ثم إن الشيخ ندم وقال : كانت وديعة فخرج يتلقى موسى عليه السلام فلما رآه قال : أعطني العصا . فقال موسى عليه السلام : هي عصاي ! فأبى أن يعطيه ، فاختصما ، فرضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما .

(104/586)

فاتاهما ملك يمشي ، فقضى بينهما فقال : ضعوها في الأرض فمن حملها فهي له . فعالجها الشيخ فلم يطقها ، وأخذها موسى عليه السلام بيده فرفعها ، فتركها له الشيخ ، فرعى له عشر سنين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ قال : هو مؤمن آل فرعون جاء يسعى وفي قوله ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ قال : أن يأخذه الطلب .

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ قال : عرضت لموسى عليه السلام أربعة طرق فلم يدر أيتها يسلك ، فقال ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ فأخذ طريق مدين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ تلقاء مدين ﴾ قال : مدين ماء كان عليه شعيب .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ قال : قصد السبيل : الطريق إلى مدين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ قال : الطريق المستقيم . قال : فالتقى والله يومئذ خير أهل الأرض . شعيب وموسى بن عمران .

وأخرج أحمد في الزهد عن كعب بن علقمة رضي الله عنه قال : أن موسى عليه السلام لما

خرج هارباً من فرعون قال : رب أوصني قال " أوصيك أن لا تعدل بي شيئاً أبداً إلا اخترتني عليه ، فإني لا أرحم ولا أزكي من لم يكن كذلك قال : وبماذا يا رب ؟ قال : بأمك فانها حملتك وهناً على وهن قال : ثم بماذا يا رب ؟ قال : إن أوليتك شيئاً من أمر عبادي فلا تعيهم إليك في حوائجهم ، فإنك إنما تعي روحي فإني مبصر ومسمع ومشهد " .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾

(105/586)

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج موسى عليه السلام خائفاً جائعاً ليس معه زاد حتى انتهى إلى ماء مدين وعليه أمة من الناس يسقون ، وامرأتان جالستان بشياههما ، فسألهما ما خطبكما ؟ ﴿ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾ قال : فهل قربكما ماء قالتا : لا . . . إلا بئر عليها صخرة قد غطيت بها لا يطيقها نفر قال : فانطلقا فأريانيها . فانطلقتا معه فقلب بالصخرة بيده ، فنحاها ثم استقى لهما سجلاً واحداً فسقى الغنم ، ثم أعاد الصخرة إلى مكانها ، ثم تولى إلى الظل فقال : ﴿ رب إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير ﴾ فسمعتا ما قال ، فرجعتا إلى أبيهما فاستنكر سرعة مجيئهما ، فسألهما فاخبرتاه فقال لإحداهما : انطلقي

فادعيه فأتته فقالت : ﴿ إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ فمشت بين يديه فقال لها : امشي خلفي ، فإني امرؤ من عنصر إبراهيم لا يحل لي أن أنظر منك ما حرم الله علي ، وارشديني الطريق .

﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص . . . ، قالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ قال لها أبوها : ما رأيت من قوّته وأمانته ؟ فأخبرته بالأمر الذي كان قالت : أما قوّته فإنه قلب الحجر وحده ، وكان لا يقلبه إلا النفر . وأما أمانته فإنه قال : امشي خلفي وارشديني الطريق ، لأني امرؤ من عنصر إبراهيم عليه السلام ، لا يحل لي منك ما حرمه الله تعالى . قيل لابن عباس رضي الله عنهما . أي الأجلين قضى موسى عليه السلام ؟ قال : أبرهما وأوفاهما .

(106/586)

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين ﴿ قال ما خطبكما ﴾ فحدثتاه . فأتى

الصخرة فرفعها وحده ثم استسقى ، فلم يستق إلا دلواً واحداً حتى رويت الغنم .

فرجعت المرأتان إلى أبيهما فحدثتاه ، وتولى موسى عليه السلام إلى الظل ﴿ فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ قال : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ واضعة ثوبها على وجهه ليست بسلفع من الناس خراجة ولاجة ﴿ قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ فقام معها موسى عليه السلام فقال لها : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف جسدك . فلما انتهى إلى أبيها قص عليه فقالت احداهما ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ قال : يا بنية ما علمك بأمانته وقوته ؟ قالت : أما قوّته : فرفعه الحجر ولا يطيقه إلا عشرة رجال ، وأما أمانته ، فقال : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك .

فزاده ذلك رغبة فيه فقال ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ﴾ إلى قوله ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ أي في حسن الصحبة والوفاء بما قلت قال موسى عليه السلام ﴿ ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ﴾ قال : نعم . ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ فزوّجه وأقام معه يكفيه ، ويعمل له في رعاية غنمه وما يحتاج إليه ، وزوّجه صفورا ، وأختها شرفا ، وهما التي كانتا تذودان .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله

﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ قال : ورد الماء حيث ورد وأنه لتتراءى خضرة البقل من بطنه من الهزال .

(107/586)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خرج موسى عليه السلام من مصر إلى مدين وبينه وبينها ثمان ليال ، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ، وخرج إليها حافياً فما وصل حتى وقع خف قدمه .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ قال : كان مسيره خمسة وثلاثين يوماً .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أمة من الناس يسقون ﴾ قال : أناساً . وفي قوله ﴿ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير ﴾ قال : من طعام .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ووجد من دونهم امرأتين ﴾ قال : أسماؤهما : ليا ، وصفورا ، ولهما أربع أخوات صغار يسقين الغنم في الصحاف .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ تذودان ﴾ قال : تحبسان .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله ﴿ تذودان ﴾ قال : تحبسان غنمهما حتى يفرغ الناس وتخلو لهما البئر .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴾ قال : تنتظران أن تسقيا من فضول ما في حياضهم .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ حتى يصدر الرعاء ﴾ برفع الياء وكسر الراء في الرعاء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لقد قال موسى عليه السلام ﴿ رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير ﴾ قال : سأل فلقاً من الخبز يشد بها صلبه من الجوع .

(108/586)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما هرب موسى عليه السلام من فرعون أصابه جوع ، كانت ترى أمعاؤه من ظاهر الثياب ﴿ قال : رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما سقى موسى للجاريتين ﴿ ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ قال : إنه يومئذ فقير إلى كف من تمر " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ قال : شبعه يومئذ .

وأخرج الفريابي وأحمد عن مجاهد قال : ما سأل إلا طعاماً يأكله .

وأخرج الفريابي وأحمد عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه ﴿ إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ قال : ما كان معه رغيف ولا درهم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله ﴿ تمشي على استحياء ﴾ قال : جاءت مستترة بكم درعها على وجهها .

وأخرجه ابن المنذر عن ابن أبي الهذيل موقوفاً عليه .

وأخرج أحمد عن مطرف بن الشخير رضي الله عنه قال : أما والله لو كان عند نبي الله

شيء ما تبع مذقتها ، ولكن حمله على ذلك الجهد .

وأخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال : لما دخل موسى عليه السلام على شعيب عليه السلام إذا هو بالعشاء فقال له شعيب عليه السلام : كل . قال موسى عليه السلام : أعوذ بالله ! قال ولم . . . ؟ ! ألست بجائع ؟ قال : بلى . ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبتغي شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً قال : لا والله . . . ولكنها عادتي وعادة آبائي ، نقري الضيف ، ونطعم الطعام . فجلس موسى عليه السلام فأكل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس رضي الله عنه أنه بلغه : أن شعيباً عليه السلام هو الذي قص على موسى القصص .

(109/586)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : يقول ناس : أنه شعيب . وليس بشعيب ولكن سيد الماء يومئذ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة قال : كان صاحب موسى عليه السلام أثرون ابن أخي شعيب عليه السلام .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان اسم ختن موسى يثربي .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الذي استأجر موسى عليه السلام يثرب صاحب مدين .

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه كان يكره الكنية بأبي مرة ، وكانت كنية فرعون ، وكانت صاحبة موسى صفيرا بنت يثرون .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ القوي ﴾ قال : قوته فتح لهما عن بئر حجراً على فيها فسقى لهما ﴿ الأمين ﴾ قال : غض بصره عنهما حين سقى لهما .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال : لما قالت صاحبة موسى ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ قال : غض بصره عنهما حين سقى لهما .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال : لما قالت صاحبة موسى ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ قال : وما رأيت من قوته . قالت : جاء إلى البئر وعليه صخرة لا يقلها كذا وكذا فرفعها قال : وما رأيت من أمانته ؟ قالت : كنت أمشي أمامه فجعلني خلفه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ﴾ قال : بلغني أنه نكح الكبيرة التي دعته واسمها صفورا ، وأبوها ابن أخي شعيب ، واسمه رعاويل . وقد أخبرني من أصدق : أن إسمه في الكتاب يثرون كاهن مدين . والكاهن حبر .

وأخرج ابن المنذر عن نوف الشامي قال : ولدت المرأة لموسى عليه السلام غلاماً ، فسماه جرثمة .

(110/586)

وأخرج ابن ماجة والبزار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عقبة بن المنذر السلمي رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ طس ﴾ حتى بلغ قصة موسى عليه السلام قال : " إن موسى أجر نفسه ثماني سنين أو عشراً على عفة فرجه ، وطعام بطنه ، فلما وفى الأجل قيل : يا رسول الله أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت من غنمه قالب لون من ذلك العام ، وكانت غنمه سوداء حسناء ، فانطلق موسى إلى عصاه فسماها من طرفها ، ثم وضعها في أدنى الحوض ، ثم

أوردها فسقاها ، ووقف موسى بازاء الحوض فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة قال : فأنمت وأثلثت ووضعت كلها قوالب الوان . إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش ، ولا ضبوب ، ولا غزور ، ولا ثفول ، ولا كمشة تفوت الكف . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فلو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم . وهي السامرية " قال ابن لهيعة : الفشوش : التي تفش بلبنها واسعة الشخب ، والضبوب : الطويلة الضرع مجترة ، والغزور : الضيقة الشخب ، والثفول : التي ليس لها ضرع إلا كهيئة حلمتين ، والكمشة : الصغيرة الضرع لا يدركه الكف .

وأخرج ابن جرير عن أنس رضي الله عنه قال : لما دعا موسى عليه السلام صاحبه إلى الأجل الذي كان بينهما قال له صاحبه : كل شاة ولدت على لونها فلك لونها . فعمد فرفع خيالاً على الماء ، فلما رأيت الخيال فزعت ، فجالت جولة فولدت كلهن بلقاء ، إلا شاة واحدة . فذهب بألوانهن ذلك العام .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما . أن رسول الله إذا قال فعل .

(111/586)

وأخرج البزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن يوسف بن سرح " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الأجلين قضى موسى ؟ فسأل جبريل فقال : لا علم لي . فسأل جبريل ملكاً فوقه فقال : لا علم لي . فسأل ذلك الملك ربه فقال الرب عز وجل " أبرهما وأتقاهما وأزكاهما " " .

وأخرج ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : " أن رجلاً سأله أي الأجلين قضى موسى ؟ فقال : لا أدري حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا أدري حتى أسأل جبريل فقال : لا أدري حتى أسأل ميكائيل ، فسأل ميكائيل فقال : لا أدري حتى أسأل الرفيع ، فسأل الرفيع فقال : لا أدري حتى أسأل اسرافيل ، فسأل إسرافيل فقال : لا أدري حتى أسأل ذا العزة ، فنادى إسرافيل بصوته الأشد : يا ذا العزة أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : " أتم الأجلين وأطيبهما عشر سنين " قال علي بن عاصم : فكان أبو هرون إذا حدث بهذا الحديث يقول : حدثني أبو سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عن جبريل ، عن ميكائيل ، عن الرفيع ، عن إسرافيل ، عن ذي العزة تبارك وتعالى " أن موسى قضى أتم الأجلين

وأطيبه ، عشر سنين " " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه " قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي جبريل : يا محمد إن سألك اليهود أي الأجلين قضى موسى ؟ فقل أوفاهما ، وإن سألوك أيهما تزوج ؟ فقال الصغرى منهما " .

(112/586)

وأخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر رضي الله عنه قال " قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى ؟ فقل خيرهما وأبرهما ، وإذا سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما ، وهي التي جاءت فقالت ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ فقال : ما رأيت من قوته ؟ قالت : أخذ حجراً ثقيلاً فألقاه على البئر قال : وما الذي رأيت من أمانته ؟ قالت : قال لي امشي خلفي ولا تمشي امامي " .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " سئل رسول الله صلى الله عليه

وسلم أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبعدهما وأطيبهما " .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي ذر رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أبرهما وأوفاهما . قال : وإن سئلت أي المرأتين تزوج ؟ فقل الصغرى منهما " .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه قال " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : سوف أسأل جبريل ، فسأل قال : سوف أسأل ميكائيل ، فسأله قال : سوف أسأل إسرافيل ، فسأله فقال : سوف أسأل الرب ، فسأله فقال : أبرهما وأوفاهما " .

وأخرج ابن مردويه عن مقسم قال : لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، فقلت له : أي الأجلين قضى موسى . الأول أو الآخر ؟ قال : الآخر .

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ قال : على قول موسى وختنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(113/586)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا ﴾ :

قرأ ابن محيصن " فجاءَتْه حْداهما " بحذفِ الهمزةِ تخفيفاً على غيرِ قياسٍ كقولِهم : يا با فلان ، وقولِه :

3597 يا با المُغيرة رُبَّ أَمْرٍ مُعْضِلٍ . . . فَرَّجْتُه بالمَكْرِ مني والدَّها

و " وَيْلُمِّه " أي : ويلٌ لأمّه . قال :

3598 وَيْلُمِّها خُلَّةً لو أنَّها صَدَقَتْ . . . . . .

و " تَمْشي " حالٌ ، و " على استحياء " حالٌ أُخرى : إمَّا مِنْ " جاءَتْ " ، وإمَّا مِنْ " تَمْشي " .

قوله : ﴿ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ﴾ : رُوِيَ عن أبي عمرٍو : " أُنْكِحك حدى " بحَذْفِ همزةِ " إحدى " ، وهذه تُشْبِهُ قراءةَ ابن محيصن " فجاءَتْه حْداهما " . وتقدَّم التشديدُ في نونِ " هاتَيْن " في سورةِ النساء .

قوله : ﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ : إمَّا من الفاعلِ أو من المفعول أي : مَشْروطاً على ، أو عليك ذلك . " وتَأْجُرَنِي " مضارعُ أَجَرْتُه : كنتُ له أَجيراً . ومفعولُه الثاني محذوفٌ أي : تَأْجُرني نفسَك . و " ثماني حِجَج " ظرفٌ له . ونقل الشيخ عن الزمخشري أنها هي المفعولُ الثاني : قلتُ : الزمخشريُّ لم يَجْعَلها مفعولاً ثانياً على هذا الوجهِ ، وإنما جَعَلَها مفعولاً ثانياً على وجهٍ آخرَ . وأمَّا على هذا الوجهِ فلم يَجْعَلْها غيرَ ظرفٍ . وهذا نصُّه ليتبيَّنَ لك . قال : " تَأْجُرُني مِنْ أَجَرْتُه إذا كنتَ له أَجيراً ، كقولك : أَبَوْتُه إذا كنتَ له أباً . وثماني حِججٍ ظرفٌ ، أو مِنْ آجَرْتُه [كذا] : إذا أَثْبَتَّه [إياه] . ومنه تعزيةُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : " آجَرَكم اللهُ ورَحِمَكم " و " ثمانيَ حِجَجٍ " مفعولٌ به . ومعناه رِعْيَةَ ثمانِي حِججٍ " . فنقل الشيخُ عنه الوجهَ الأولَ من المعنيَيْن المذكورَيْن لـ " تَأْجُرَني " فقط ، وحكى عنه أنه أعربَ " ثمانيَ حِجَج " مفعولاً به . وكيف يَسْتقيم ذلك أو يَتَّجه ؟ وانظر إلى الزمخشريِّ كيف قَدَّر مضافاً ليَصِحَّ المعنى به أي : رَعْيَ ثماني حِجج ؛ لأنَّ العملَ هو الذي تقع الإِثابة عليه لا نفسُ الزمان فكيف تُوَجَّه الإِجازةُ على الزمان ؟

قوله : ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ يجوز أَنْ يكونَ في محلِّ رفع خبراً لمبتدأ محذوفٍ ، تقديرُه : فهي مِنْ عندِك ، أو نصبٍ أي : فقد زِدْتها أو تَفَضَّلْتَ بها مِنْ عندِك .

قوله : ﴿ أَنْ أَشُقَّ ﴾ مفعولُ " أُرِيدُ " . وحقيقةُ قولِهم " شَقَّ عليه " أي : شَقَّ ظَنَّه

نِصْفَيْن ، فتارةً يقول : أُطيق ، وتارة : لا أُطيق . وهو مِنْ أحسنِ مجازٍ .

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

(115/586)

قوله : ﴿ ذَلِكَ ﴾ : مبتدأٌ . والإشارةُ به إلى ما تعاقَدَا عليه ، والظرفُ خبرُه . وأُضِيْفَتْ " بين " لمفردٍ لتكررِها عطفاً بالواوِ . ولو قلتَ : " المالُ بين زيدٍ فعمرٍو " لم يَجُزْ . فأمَّا قولُه :

3599 . . . . . .

. . بين الدَّخولِ فَحَوْمَلِ

فكان الأصمعيُّ يأْباها ويَرْوي " وحَوْمَلِ " بالواو . والصحيحُ بالفاءِ ، وأوَّلَ البيتَ على : " الدَّخولِ وَحَوْمَلِ " مكانان كلٌّ منهما مشتملٌ على أماكنَ ، نحو قولِك : " داري بين مصرَ " لأنه به المكانُ الجامع . والأصل : ذلك بَيْنَنا ، ففرَّق بالعطف .

قوله : ﴿ أَيَّمَا الأجلين ﴾ " أيّ " شرطيةٌ . وجوابُها " فلا عُدْوانَ " عليَّ . وفي " ما " هذه قولان ، أشهرُهما : أنها زائدةٌ كزيادتِها في أخواتِها مِنْ أدواتِ الشرط . والثاني : أنها نكرةٌ . والأَجَلَيْن بدلٌ منها . وقرأ الحسن وأبو عمرٍو في رواية " أَيما " بتخفيفِ الياءِ ، كقوله :

3600 تَنَظَّرْتُ نَصْراً والسِّماكَيْنِ أَيُّهُما . . . عليَّ من الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مواطِرُهْ

وقرأ عبد الله "أَيَّ الأَجَلَيْنِ ما قَضَيْتُ" بإقحام "ما" بين "الأجلين" و "قَضَيْتُ" . قال الزمخشري : "فإنْ قلتَ : ما الفرقُ بين موقعَيْ زيادةِ "ما" في القراءتين ؟ قلت : وقعَتْ في المستفيضة مؤكِّدةً لإبهامِ "أيّ" زائدةً في شِياعِها ، وفي الشاذَّة تأكيداً للقضاءِ كأنه قال : أيَّ الأجلين صَمَّمْتُ على قضائه ، وجَرَّدْت عَزيمتي له" .

(116/586)

وقرأ أبو حيوةَ وابنُ قطيب "عِدْوان" . قال الزمخشري : "فإنْ قلتَ : تَصَوُّرُ العُدْوان إنما هو في أحد الأجلَيْن الذي هو أقصرُهما ، وهو المطالبةُ بتتمَّة العَشْر ، فما معنى تعلُّقِ العُدْوانِ بهما جميعاً ؟ قلت : معناه كما أنِّي إنْ طُوِلْبْتُ بالزيادةِ على العشر [كان عدواناً] لا شك فيه ، فكذلك إنْ طوِلبْتُ بالزيادةِ على الثمان . أراد بذلك تقريرَ أمرِ الخِيارِ ، وأنه ثابتٌ مستقرٌّ ، وأن الأجلَيْنِ على السَّواء : إمَّا هذا وإمَّا هذا" . ثم قال : "وقيل : معناه : فلا أكونُ متعدياً . وهو في نَفْي العدوان عن نفسه كقولِك : لا إثمَ علي ولا تَبِعَةَ" . قال الشيخ : "وجوابُه الأولُ فيه تكثيرٌ" . قلتُ : كأنه أعجبه الثاني ، والثاني لم يَرْتَضِه الزمخشريُّ ؛ لأنه ليس جواباً في الحقيقة ؛ فإن السؤالَ باقٍ أيضاً . وكذلك نَقَلَه عن غيره .

وقال المبرد : " وقد عَلِم أنه لا عُدْوانَ عليه في أَتَمِّهما ، ولكنْ جَمَعَهما ليجعلَ الأولَ كالأَتَمِّ في الوفاء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 664. 668 ﴾

(117/586)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ﴾

قيل إنما استحيَتْ لأنها كانت تخاطِبُ مَنْ لم يكن لها مَحْرَماً .

وقيل لمّا دَعَتْه للضيافة تكلمتْ مستحييةً – فالكريم يستحي من الضيافة .

ويقال لم تَطِبْ نَفْسُ شعيب لمَّا أَحْسَنَ موسى إليه وأنه لم يكافئه – وإن كان موسى لم يُرِدْ مكافأةً منهم ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ : لم يَقُلْ : فلما جاءَه قَدَّم السُّفْرَةَ بل قال : وقصَّ عليه القصص . . وهذا طَرَفٌ من قصته .

ويقال : وَرَدَ بظاهرِه ماءَ مدين ، ووَرَدَ بقلبه مواردَ الأُنْس والرَّوْح . والموارد مختلفة ؛ فمواردُ القلبِ رياضُ البَسطِ بكشوفات المحاضرة فيطربون بأنواع الملاطَفَة ، ومواردُ الأرواح مشاهدُ الأرواح فيُكاشَفون بأنوار المشاهدة ، فيغيبون عن كل إحساسٍ بالنَّفْسِ ،

ومواردُ الأسرارِ ساحاتُ التوحيدِ . . وعند ذلك الولاية لله ، فلا نَفْسَ ولا حِسَّ ، ولا قلبَ ولا أُنْسَ . . استهلاكٌ في الصمدية وفناءٌ بالكليّة !

ويقال كانت الأجنبيةُ والبعد عن المحرميَّة يوجبان إمساكه عن مخاطبتهما ، والإعراضَ والسكونَ عن سؤالهما . . ولكن الذي بينهما من المشاكلة والموافقة بالسِّرِّ استنطقة حتى سألهما عن قصتهما ، كما قيل :

أَجَارَتَنا إنَّا غريبان ها هنا . . . وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

ويقال : لمَّا سألهما وأخبرتا عن ضعفهما لزمه القيامُ بأمرهما ؛ لِيُعْلَمَ أنَّ مَنْ تَفَقَّدَ أمرَ الضعفاء ووقف على موضع فاقتهم لزمه إشكاؤُهم .

(118/586)

ويقال مِنْ كمالِ البلاء على موسى أنَّه وافى الناسَ وكان جائعاً ، وكان مقتضى الرِّفْقِ أَنْ يُطْعِموه ، ولكنه قَبَضَ القلوبَ عنه ، واستقبله مِنْ موجباتِ حُكْمِ الوقتِ أَنْ يعملَ أربعين رجلاً ؛ لأن الصخرة التي نَحَّاها عن رأس البئر – وَحْدَه – كان ينقلها أربعون رجلاً ، فلمَّا عَمِلَ عَمَلَ أربعين رجلاً ، تولَّى إلى الظِّلِّ ، وقال : إنْ رأيتَ أَنْ تُطْعِمَني بعد مُقَاساة اللتيا والتي . . فذلك فَضْلُكَ ! .

قال ذلك بلسان الانبساط ، ولا لسانَ أحلى من ذلك . وسُنَّةُ الشكوى أن تكون إليه لا مِنْكَ . . بل منه إليه .

ويقال : تولَّى إلى ظلِّ الأُنْس ورَوْح البسط واستقلال السِّرِّ بحقيقة الوجود .

ويقال قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ : فَزِدْني فقراً ؛ فإنَّ فقري إليك يوجِبُ استعانتي بك . (1)

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

كان شُعيبُ عليه السلام يحتاج إلى أجير ، ولكن لا يسكن قلبُ إلى أحدٍ ، فلمَّا رأى موسى ، وسمع من ابنته وصفةَ بالقوة والأمانة سأل :

عَرَفْتُ قُوَّتَه . . فكيف عرفْتِ أمانتَه ؟

فقالت : كنتُ أمشي قُدَّامَه فأَخَّرَني عنه في الطريق قائلاً : سيري ورائي واهديني ، لئلا يَقَعَ بَصَرُه عليَّ . . فقال شعيب :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

فرغب موسى وتزوجها على صداقٍ أن يعمل عشر حجج لشعيب .

---

(1) إظهار الضعف آية العبودية فالدعاء هنا ليس من قبيل الشكوى ، ولكنه تعبير عن

ضعف العبد أمام عظمة الربوبية ، فكأنه نوع من التعبد (راجع قصة أيوب إذ نادى ربه . . . .)

(119/586)

وفي القصة أن شعيباً قال لموسى : ادخلْ هذا البيتَ وأخْرِجْ مما فيه من العِصِيِّ عصاً ، وكان البيتُ مظلِماً ، فَدَخَل وأخرج العصا ، تلك التي أظهر الله فيها معجزاته ، ويقال : إنها كانت لآدم عليه السلام ، ووقعت لشعيب من نبيٍّ إلى نبيٍّ . إذ يقال : إنه لما هَبَط آدمُ إلى الأرض صال عليه ما على وجهها من السِّباع ، فأنزل عليه الله عصاً ، وأمَرَه جبريل أنْ يَرُدَّ السباعَ عن نَفْسِه بتلك العصا .

وتوارث الأنبياءُ واحداً بعد الآخر تلك العصا ، فلمَّا أخرج موسى تلك العصا ، قال شعيب : ردَّها إلى البيت ، واطرحها فيه ، وأخْرِجْ عصاً أخرى ، فَفَعَلَ غير مرة ، ولم تحصل كلَّ مرة في يده إلا تلك العصا ، فلمَّ تَكَرَّرَ ذلك عِلِمَ شعيبُ أنَّ له شأناً فأعطاه إياها .

وفي القصة : أنه في اليوم الأول ساق غَنَمه ، وقال له شعيب : إنَّ طريقَكَ يتشعب شِعْبَيْن : على أحدهما كَلأٌ كثيرٌ . . . فلا تَسْلُكْه في الرعي فإنَّ فيه ثعباناً ، واسْلُكْ الشِّعْبَ الآخرَ . فلمَّا بلغ موسى مَفْرِقَ الطريقين ، تَفَرَّقَتْ أغنامُه ولم تطاوعه ، وسامت في الشِّعْبِ الكثيرِ

الكَلأَ ، فَتَبِعَها ، ووقع عليه النومُ ، فلمَّا انتبه رأى الثعبانَ مقتولاً ، فإن العصا قتلته ، ولمَّا انصرف أخبر شعيباً بذلك فَسُرَّ به . وهكذا كان يرى موسى في عصاه آياتٍ كثيرة ، ولذا قال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَئَارِبُ أُخْرَى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 64.61 ﴾

(120/586)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ طسم تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب المبين ﴾

أي : القرآن وهو مبين للأحكام ، وقد ذكرناه قال أبو سعيد الفاريابي في قوله تعالى طا قال : هو طاهر عما يعلوه ، والسين سامع لما وصفوه ، والميم ماجد حين سألوه ، والماجد كثير العطاء .

ويقال : أمجدني فلان إذا أكثر إعطاؤه .

ويقال : طا أي أقسم الله بطالوت ، وسين أقسم الله بسليمان ، وميم أقسم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ ﴾ يعني : ننزل عليك جبريل عليه السلام ، يقرأ عليك ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بالحق ﴾ أي : من خبر موسى وفرعون بالصدق ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية ، وإنما أنزل القرآن لجميع الناس ولكن المؤمنين هم الذين يصدقون ، فكأنه لهم ، وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤذونهم المشركون ، فيشكون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه السورة في شأنهم ، لكي يعرفوا ما نزل في بني إسرائيل من فرعون وقومه ، ليصبروا كصبرهم ، وينجيهم ربهم كما أنجا بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وهذا كقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأساء والضرآء وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين ءَامَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 214] الآية .

(121/586)

ثم أخبر عن فرعون فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأرض ﴾ يعني : اسْتَكْبَرَ وتعظم عن الإيمان ، وخالف أمر موسى في أرض مصر ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ يعني : أهل مصر فرقاً ﴿ يَسْتَضْعِفُ ﴾ يعني : يستقهر ﴿ طَّائِفَةً مّنْهُمْ ﴾ يعني : من أهل مصر ، وهم بنو

إسرائيل ، فجعل بعضهم ينقل الحجارة من الجبل ، وبعضهم يعملون له عمل النجارة ، وبعضهم أعمال الطين ، ومن كان لا يصلح لشيء من أعماله يأخذ منه كل يوم ضريبة درهماً ، فإذا غابت الشمس ، ولم يأت بالضريبة غلت يده اليمنى إلى عنقه ، ويأمره بأن يعمل بشماله ، هكذا شهراً .

ثم قال : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ ﴾ أي يعني : أبناء بني إسرائيل صغاراً .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ يعني : يستخدم نساءهم ، وأصله من الاستحياء .

يعني : يتركهن أحياء .

وروى أسباط عن السدي قال : بلغنا أن فرعون رأى فيما يرى النائم ، كأن ناراً أقبلت من أرض الشام ، فاشتملت على بيوت مصر ، وكانت الشام أرض بني إسرائيل أول ما كانوا ، فأحرقتها كلها إلا بيوت بني إسرائيل ، فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا : يولد في بني إسرائيل مولود ، يكون على يديه هلاك أهل مصر ، فأمر فرعون بأن لا يولد في بني إسرائيل ذكر إلا ذبح ، وعمد إلى ما كان من بني إسرائيل خارج مصر ، فأدخلهم المدينة ، واستعبدهم ، ورفع العمل عن رقاب أهل مصر ، ووضعه على بني إسرائيل ثم قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ يعني : فرعون كان يعمل بالمعاصي .

قوله عز وجل : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض ﴾ يعني : أردنا أن نمن بالنجاة على الذين استضعفوا في الأرض ، وهم بنو إسرائيل ﴿ نَّمُنَّ ﴾ يعني : ننعم عليهم

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يعني : قادة في الخير ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ يعني : أرض مصر ، وملك فرعون ، وقومه بعد هلاك فرعون .

(122/586)

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ ﴾ يعني : نملكهم ويقال : ننزلهم في الأرض ﴿ فِى الأرض ﴾ يعني : في أرض مصر ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهامان ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ وَيَرَى ﴾ بالياء والنصب ، و ﴿ فِرْعَوْنَ وهامان ﴾ ﴿ وَجُنُودَهُمَا ﴾ بالرفع ، كل ذلك قرأ .

والباقون ﴿ وَنُرِىَ ﴾ بالنون والضم و ﴿ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا ﴾ كلها بالنصب ونصب نرى ، لأنه معطوف على قوله : ﴿ أَن نَّمُنَّ ﴾ ، فكأنه قال أن نمن وأن نري ، ونصب فرعون لوقوع الفعل عليه .

ومن قرأ بالياء رفعه ، لأن الفعل منه ثم قال : وهامان وجنودها ﴿ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ يعني : يرون ما كانوا يخافون من ذهاب الملك .

وقوله عز وجل : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ يعني : أُلهمنا أم موسى ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وذلك : أن أم موسى حبلت ، فلم يظهر بها أثر الحبل حتى ولدت موسى وأرضعته ثلاثة أشهر أو أكثر ، فألهمها الله تعالى بقوله : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ يعني : إلى صباحه ﴿

فَأَلْقِيهِ فِى اليم ﴾ يعني : في البحر قال مقاتل وهو النيل فعلمها جبريل .

ويقال : رأت في المنام بأنها تؤمر أن تلقيه في البحر .

ويقال : كان هذا إلهاماً .

(123/586)

ويقال : كانت دلالة حيث علمت بالرؤيا أو شيء خيل لها أن تفعل ما فعلت ، كما أن إبراهيم عليه السلام رأى في المنام ذبح إسحاق وإسماعيل عليهما السلام وذكر أنها كانت تخبز يوماً ، وكان موسى عليه السلام على رأس التنور ، إذ دخل قوم فرعون يطلبون الولد ، فوضعته في التنور ، فدخلوا فلم يجدوا موسى عليه السلام فجاءت إلى التنور ، فوجدته يلعب بأصابعه في الأرض ، فاستيقنت أن الله تعالى يحفظه ، فجعلته في التابوت ، وألقته في النيل ، ثم قال : ﴿ وَلاَ تَخَافِى ﴾ الغرق ﴿ وَلاَ تَحْزَنِى ﴾ أن لا يرد إليك ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾ يعني : رسولاً إلى فرعون وقومه ، فلما ألقته في النيل جاء به الماء ، وكان ممر الماء في دار فرعون ، فوجدته جواري فرعون بين الماء والشجر ، فمن ثم سمي موسى بلفظ القبط موسى ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فالتقطه ءال فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ يعني : إن أخذهم إياه كان سبباً لحزنهم ، فكأنهم أخذوه لذلك ، وإنما

كان أخذهم لم يكن لذلك .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ وَحَزَناً ﴾ بضم الحاء ، وسكون الزاي .

وقرأ الباقون بنصب الحاء والزاي ، وهما لغتان : ومعناهما واحد .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خاطئين ﴾ يعني : مشركين ويقال : عاصين آثمين .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ امرأت فِرْعَوْنَ ﴾ واسمها آسية لفرعون هذا الغلام ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لّى وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ فإنه آتانا به الماء من مصر آخر ، ومن أرض أخرى ، وليس من بني إسرائيل ويقال : إنها قالت إن هذا كبير ، ومولود قبل هذه المدة التي أخبر لك ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ فإنه لم يكن له ولد ذكر .

قال فرعون : فهو قرة عين لك ، فأما أنا فلا .

وروي عن ابن عباس أنه قال : لو قال فرعون أيضاً : هو قرة عين لي لنفعه الله تعالى به ، ولكنه أبى .

(124/586)

ويقال : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لّى ﴾ ، وقد تمّ الكلام .

ثم قالت : ﴿ وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ .

قال : وروى عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقف على ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ثم قال لا تقتلوه ، أي ﴿ لَا تَقْتُلُوهُ ﴾ ، فلا الثاني إضمار في الكلام ، والتفسير الأول أصح ثم قال : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يشعر فرعون وقومه أن هلاكهم على يديه .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ يعني : خالياً من كل ذكر وشغل إلا ذكر موسى عليه السلام .

ويقال : صار قلبها فارغاً حين بعثت أخته لتنظر ، فأخبرتها بأنه قد أخذ في دار فرعون ، فسكنت حيث لم يغرق .

ويقال : صار قلبها فارغاً ، لأنها علمت أنه لا يقتل .

وروي عن فضالة بن عبيد أنه قرأ : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى ﴾ يعني : خائفاً .

وقراءة العامة ﴿ موسى فَارِغاً ﴾ ، وتفسيره ما ذكرناه وقد قيل أيضاً : فارغاً من شغل نفقته ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ يعني : وقد كادت لتظهر به .

قال مقاتل : وذلك أنها لما ألقت التابوت في النيل ، فرأت التابوت يدفعه مرة ، ويضعه أخرى ، فخشيت عليه الغرق ، فعند ذلك فزعت عليه ، وكادت أن تصيح ويقال : إنه لما كبر كان الناس يقولون : هو ابن فرعون ، فكأن ذلك شق عليها ، وكادت أن تظهر أن هذا ولدي ، وليس بولد فرعون .

ويقال : لما دخل الليل ، دخل الغم في قلبها ، حيث لم تدر أين صار ولدها ، فأرادت أن

تظهر ذلك ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ أي : ثبتنا قلبها .

ويقال : قوينا قلبها ، وألهمناها الصبر ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ يعني : من المصدقين بوعد الله تعالى حيث وعد لها بإنا رادوه إليك ، فلم تجزع ، ولم تظهر .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَتْ لاخْتِهِ قُصّيهِ ﴾ يعني : قالت أم موسى ، لأخت موسى وكان اسم أخته مريم ﴿ قُصّيهِ ﴾ يعني : اتبعي أثره .

(125/586)

ويقال : يعني : امشي بجنبه في الحد ، وهو في الماء حتى تعرف من يأخذه ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ يعني : بصرته عن بعد كما قال ﴿ واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إحسانا وَبِذِى القربى واليتامى والمساكين والجار ذِى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وَمَا مَلَكَتْ أيمانكم إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء : 36] يعني : البعيد منهم من قوم آخرين .

ويقال : عن جنب يعني : في جنب ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنها أخت موسى .

ويقال : وهم لا يشعرون يعني : وهم لا يعرفون أنها ترقبه .

قوله عز وجل : ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ ﴾ أي : من قبل مجيء أمه .

ويقال في رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن أم موسى عليها السلام .

قالت لأخته قصيه : أي اطلبي أثره بعد ما أخذه آل فرعون ، ولم يقبل رضع أحد ، وحرمنا عليه المراضع من قبل مجيء أخته .

ويقال : حرمنا عليه المراضع .

يعني : منعنا موسى أن يقبل ثدي مرضع من قبل أن نرده على أمه ﴿ فَقَالَتْ ﴾ أخته حين تعذر عليهم إرضاعه ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ يعني : يضمنون لكم رضاعه .

ويقال : يضمنونه ﴿ وَهُمْ لَهُ ناصحون ﴾ يعني : مشفقون للولد .

ويقال مخلصون شفقة .

فقال هامان : خذوها حتى تخبرنا بقصة هذا الغلام ، فأخذت فألهمها الله تعالى أن قالت عند ذلك : إنما ذكرت النصيحة لفرعون أعني : وهم له ناصحون لفرعون لا لغيره .

فقال هامان : دعوها ، فقد صدقت ، فأرسل إليها ، فلما جاءت أمه وضعت الثدي في فمه ، فأخذ ثديها ، وسكن فذلك قوله تعالى : ﴿ فرددناه إلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ يعني : كائن صدق وهو قوله ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ بأن وعد الله حق .

يعني : أهل مصر .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ .

ثم قال : قال مجاهد يعني : بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة .

﴿ واستوى ﴾ يعني : بلغ أربعين سنة .

قال : وفي رواية الكلبي الأشد ما بين ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة .

ويقال : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ يعني : منتهى قوته ، وهو ما فوق الثلاثين ، ﴿ واستوى ﴾ يعني : بلغ أربعين سنة ﴿ اتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ يعني : علماً وعقلاً .

ويقال : النبوة وعلم التوراة .

وروى مجاهد عن ابن عباس قال : الأشد ثلاثاً وثلاثين سنة ، وأما الاستواء فأربعون سنة ، والعمر الذي أعذر الله تعالى ابن آدم فيه إلى ستين سنة .

يعني قوله : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صالحا غَيْرَ الذى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير فَذُوقُواْ فَمَا للظالمين مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : 37] ثم قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ يعني : المؤمنين .

قوله عز وجل : ﴿ وَدَخَلَ المدينة ﴾ قال مقاتل : يعني : قرية على رأس فرسخين .

وقال غيره : يعني : المصر ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ يعني : نصف النهار وقت القيلولة .

ويقال : ما بين المغرب والعشاء ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ يعني : من بني إسرائيل ﴿ وهذا مِنْ عَدُوّهِ ﴾ يعني : من القبط .

وقال القتبي : ﴿ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي : من أصحابه ، ﴿ وهذا مِنْ عَدُوّهِ ﴾ أي : من أعدائه ، والعدو يدل على الواحد ، والجمع ، وذكر أن خباز فرعون أخذ رجلاً من بني إسرائيل سخرة ، فأمره بأن يحمل الحطب إلى دار فرعون ﴿ فاستغاثه الذى مِن شِيعَتِهِ ﴾ يعني : هذا الذي من شيعة موسى استغاث بموسى ﴿ عَلَى الذى مِنْ عَدُوّهِ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ يعني : ضربه بكفه ضربة في صدره .

(127/586)

وقال القتبي : ﴿ فَوَكَزَهُ ﴾ يعني : لكزه ويقال : لكزته ووكزته إذا دفعته ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ يعني : مات الخباز بضربته ، وكل شيء فرغت منه فقد قضيته ، وقضيت عليه .

فمعنى قوله : ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ ، أي : قتله ، ولم يتعمد قتله ، وكان موسى شديد البطش ، ثم ندم على قتله فقال : إني لم أؤمر بالقتل ، وإن كان كافراً ﴿ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ

الشيطان ﴿ يعني : هو الذي حملني على هذا الفعل ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ يعني : يضل الخلق ﴿ مُّبِينٌ ﴾ يعني : ظاهر العداوة ، ثم استغفر إلى الله تعالى ﴿ فَقَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فاغفر لِى فَغَفَرَ لَهُ ﴾ يعني : غفر الله ذنبه عز وجل ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور ﴾ للذنوب لمن تاب ﴿ الرحيم ﴾ بخلقه

قَالَ موسى ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ يعني : بالمغفرة كقوله ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأرض وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 39] يعني : أما إذا أغويتني ثم قال : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ يعني : أعوذ بالله أن أكون معيناً للكافرين ، لأن الإسرائيلي كان كافراً ، ولم يستثن على كلامه ، فابتلاه الله عز وجل في اليوم الثاني ، بمثل ذلك ، وكانوا لا يعرفون من قتل خباز الملك ، وكانوا يطلبون قاتله ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ موسى ﴿ فِى المدينة خَائِفاً ﴾ أن يؤخذ فيقتل ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ يعني : ينتظر الطلب .

(128/586)

ويقال : ينتظر الأخبار ﴿ فَإِذَا الذى استنصره بالامس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يعني : رأى الإسرائيلي كان يقاتل مع رجل آخر من القبط يستصرخه يعني : يستغيثه كقوله : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِىَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ

عَلَيْكُمْ مِّن سلطان إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِى فَلاَ تَلُومُونِى ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 22] يعني : بمغيثكم ﴿ قَالَ لَهُ موسى ﴾ يعني : للإسرائيلي ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ يعني : ضال بيّن ويقال جاهل بين ويقال : ظاهر الغواية ، وقد قتلت لك الأمس رجلاً ، وتدعوني إلى آخر ، ثم أقبل إليه ، فظن الذي من شيعته أنه يريده ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ يعني : يريد أن يضرب القبطي ، فظن الإسرائيلي أنه يريده بعد ما عاتبه .

قرأ أبو جعفر المدني ﴿ يَبْطِشَ ﴾ بضم الطاء ، وقراءة العامة بالكسر ، ومعناهما واحد ، فظن الإسرائيلي أن موسى يريد ضربه ف ﴿ قَالَ يَاءادَمُ موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالامس ﴾ وقال بعضهم : كان ذلك إبليس تشبه بالرجل الإسرائيلي ، ليظهر أمر موسى .

وقال بعضهم : كان ذلك الرجل بعينه .

فقال ذلك الرجل من الخوف ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ يعني : ما تريد ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى الأرض ﴾ يعني : قتالاً .

قال الكلبي : من قتل رجلين ، فهو جبار .

ويقال : إن من سيرة الجبابرة القتل بغير حق ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ يعني : المطيعين لله تعالى .

(129/586)

فلما قال الإسرائيلي ، هذا ، علم القبطي أن موسى هو قاتل القبطي ، فرجع القبطي ، فأخبرهم أن موسى هو القاتل ، فائتمروا بينهم بقتل موسى .

قال : فأذن فرعون بقتله فجاءه خزيلي ، وهو مؤمن من آل فرعون ، وأخبر موسى بذلك ، فذلك قوله : ﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾ يعني : من وسط المدينة يمشي على رجليه ، ويقال : يسرع ويشتد في مشيته ف ﴿ قَالَ يَاءادَمُ موسى أَنِ الملأ ﴾ يعني : الأشراف من أهل مصر ﴿ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ قال أبو عبيد : يعني : يتشاورون في أمرك .

وقال القتبي : يعني : يهمون بك ليقتلوك ﴿ فاخرج ﴾ من هذه المدينة ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ الناصحين ﴾ قوله عز وجل : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ أي من مصر ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ يعني : ينتظر الطلب ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ يعني : المشركين ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ ﴾ أي : بوجهه نحو مدين ، وذلك أن موسى عليه السلام حين خرج وتوجه نحو مدين

، وكان بينه وبين مدين ثمانية أيام ، كما بين الكوفة والبصرة .

ويقال : تلقاء مدين ، يعني : سلك الطريق الذي تلقاء مدين ويقال : لما قال ﴿ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ استجاب الله تعالى دعاءه ، فجاءه جبريل عليه السلام وأمره بأن يسير تلقاء مدين ، فسار إلى مدين في عشرة أيام وهو قوله : ﴿ قَالَ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاء السبيل ﴾ يعني : يرشدني قصد الطريق إلى مدين .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ ومدين بن إبراهيم عليهما السلام وكانت البير تنسب إليه الماء ، وصار مدين اسم قبيلة ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً ﴾ أي : جماعة ﴿ مِّنَ الناس يَسْقُونَ ﴾ أي وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أنعامهم وأغنامهم .

(130/586)

ويقال : هم أربعون رجلاً ويقال : عشرة رجال ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ يعني : من دون الناس ﴿ امرأتين تَذُودَانِ ﴾ أي : تطردان وقال سعيد بن جبير : يعني : حابستان ويقال تحسبان غنمهما .

وقال القتبي : تذودان ، أي تكفان غنمهما ، وحذف الغنم اختصاراً .

ويقال كانتا تحبسان الغنم لكيلا تختلط بغيرها .

ويقال : تحسبان الغنم لتصدر مواشي الناس ، وتسقيان بفضل الماء ، ومما فضل من أغنام الناس ، وهما ابنتا شعيب النبي عليه السلام ﴿ قَالَ ﴾ لهما موسى ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي : ما شأنكما ترعيان الغنم مع الرجال ، وما بالكما لا تسقيان ﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعاء ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر ﴿ يُصْدِرَ ﴾ بنصب الياء ، وضم الدال . وقرأ الباقون ﴿ يُصْدِرَ ﴾ بضم الياء ، وكسر الدال ، فمن قرأ بالنصب ، فهو من مصدر صدر إذا رجع من الماء ، ومعناه لا نسقي حتى يرجع الرعاء ، ونسقي بفضلهم ، لأنا لا نقدر أن نسقي ، وأن نزاحم الرجال ، إذا صدروا سقينا بفضل مواشيهم ، ومن قرأ ﴿ يُصْدِرَ ﴾ بالضم ، فهو من أصدر يصدر ، والمعنى حتى يصدر الرعاة أغنامهم ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ لم يقدر على الخروج ، وليس له عوناً يعينه غيرنا فرجع الرعاة ووضعوا صخرة على البئر ، فانتهى موسى إلى البئر ، وقد أطبقت عليها الصخرة ، فاقتلعها ثم سقى لهما حتى روتا أغنامهما .

وقال في رواية الكلبي : كان للبئر دلو يجتمع عليه أربعون رجلاً حتى يخرجوه من البئر ، فجاء موسى أهل الماشية ، فسألهم أن يهيئوا له دلواً من الماء .

فقالوا : إن شئت أعطيناك الدلو على أن تسقي أنت .

قال : نعم ، فأخذ موسى عليه السلام الدلو ، فسقى بها وحده ، فصب في الحوض ، ثم قربتا غنمهما فشربت ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ يعني : أغنامهما ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ يعني : تحول إلى ظل الشجرة ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي : لما أنزلت إلي من الطعام ، فأنا محتاج إلى ذلك أنه كان جائعاً ، فسأل ربه ، ولم يسأل الناس ، ففطنت الجاريتان ، فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة .

فقال أبوهما : هذا رجل جائع .

وقال لإحداهما : اذهبي فادعيه ، فلما أتته عظمته ، وغطت وجهها فذلك قوله : ﴿ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى استحياء قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ قوله : ﴿ عَلَى استحياء ﴾ .

يعني : على حياء ، لأنها كانت مقنعة ، ولم تك متبرجة .

ويقال : على استحياء .

يعني : على حياء ، لأنها كانت واضعة يدها على وجهها .

ويقال ﴿ عَلَى استحياء ﴾ ، أي مستترة بكم درعها .

قال : فالوقف على تمشي إذا كان قولها على الحياء ، فأما إذا كان مشيها على الحياء ، فالوقف على استحياء .

والقول بالحياء أشبه من المشي بالحياء ، فكيف ما يقف يجوز بالمعنى .

فقالت : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ، وكان بين موسى وبين أبيها ثلاثة أميال .

ويقال : أقل من ذلك ، فتبعها فلم يجد بداً من أن يتبعها ، لأنه كان بين الجبال خائفاً مستوحشاً ، فلما تبعها هبت الريح ، فجعلت تصفق ثيابها ، وتظهر عجيزتها .

وجعل موسى عليه السلام يعرض مرة ، ويغض أخرى ، فلما عيل صبره ناداها : يا أمة الله كوني خلفي ، وأريني السمت بقولك .

يعني : دليني الطريق ، فلما دخل على شعيب عليه السلام إذا هو بالعشاء مهيأ ، فقال له شعيب : اجلس يا شاب ، فتعش .

فقال موسى : أعوذ بالله .

(132/586)

فقال له شعيب : لم لا تأكل أما أنت جائع ؟ فقال : بلى ، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت ، لا نبيع شيئاً من ديننا بملء الأرض ذهباً .

فقال : لا يا شاب ، ولكنها عادتي وعادة آبائي إنا نقري الضيف ، ونطعم الطعام ، فجلس

موسى فأكل ، وأخبره بقصة القتل والهرب ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ يعني : خرجت من ولاية فرعون ، ولا سلطان له في أرضنا .

وقال في رواية الكلبي : كان هذا الرجل اسمه نيرون ابن أخي شعيب ، وشعيب كان توفي قبل ذلك .

وقال عامة المفسرين : إن هذا كان شعيباً .

قوله عز وجل : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أبت يا أبت استجره ﴾ أي : قالت إحدى الابنتين التي جاءت به .

وقال في رواية مقاتل : هي الكبرى .

وقال في رواية الكلبي : هي الصغرى ﴿ يا أبت ﴾ استأْجر موسى ليرعى لك الغنم ﴿ يا أبت استجره إِنَّ خَيْرَ مَنِ استجرت القوى الامين ﴾ يعني : خير الأجراء من يكون قوياً في العمل ، أميناً على المال والعورة .

ثم قال : إيش تعلمين أنه قوي أمين بماذا ؟ فأخبرته بالقصة .

قال أبو الليث : حدّثنا محمد بن الفضل ، قال حدّثنا محمد بن جعفر ، قال : حدّثنا إبرهيم بن يوسف ، قال حدّثنا أبو معاوية عن الحجاج .

عن الحكم قال : كان سريع لا يفسر شيئاً من القرآن إلا ثلاث آيات ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ الذى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النكاح وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى وَلاَ تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : 237] قال الزوج ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وءاتيناه الحكمة ﴾ [ص : 20] قال : الحكمة الفقه والعلم ، وفصل الخطاب البينة والإيمان ، وقوله : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استجرت القوى الامين ﴾ قال : كانت قوته أن يحمل صخرة لا يقوى على حملها إلا عشرة رجال ، وكانت أمانته أن ابنة شعيب مشت أمامه ، فوصفتها الريح فقال لها : تأخري وصفي لي الطريق ﴿ قَالَ ﴾ شعيب لموسى عليهما السلام : ﴿ إِنّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتى هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ ﴾ يعني : أزوجك إحدى ابنتي على أن ترعى غنمي ثمان سنين ، وهذا الحكم في هذه الأمة جائز أيضاً ، لو تزوج الرجل المرأة على أن يرعى غنمها كذا وكذا سنة ، أو يرعى غنم أبيها ، يجوز النكاح ، ويكون ذلك مهراً لها ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً ﴾ يعني : عشر سنين ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ يعني : فإن أتممت عشر سنين فبفضلك ، وليس ذلك بواجب عليك ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ في السنتين يعني : أنت بالخيار في ذلك .

ويقال : بأن أشرط عليك العشر ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ أي من الوافين بالعهد .

(134/586)

وقال مقاتل : يعني : من المرافقين بك كقوله : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ ميقات رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هارون اخلفنى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ﴾ [الأعراف : 142] يعني : ارفق بهم ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الاجلين قَضَيْتُ ﴾ يعني : ذلك الشرط بيني وبينك أيما الأجلين أتممت لك ، إما الثماني وإما العشر ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَىَّ ﴾ أي : لا سبيل لك علي .

ويقال : لا ظلم علي بأن أطالب أكثر منه ، فإن قيل : كيف تجوز الإجارة بهذا الشرط على أحد الأجلين بغير وقت معلوم ؟ قيل له : العقد قد وقع على الثماني ، وهو قوله : ﴿ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ ﴾ خير في الزيادة والإجازة بهذا الشرط في الشريعة جائزة أيضاً ، ثم قال : ﴿ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ يعني : شهيد فيما بيننا .

ويقال : شاهد على ما نقول ، وعلى عقدنا .

وذكر مقاتل أن رجلاً من الأزد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيما الأجلين قضى

موسى ؟ قال : " اللهُ أَعْلَمُ " حتى سأل جبريل ، فأتاه جبريل ، فسأله .

فقال : الله أعلم ، حتى سأل إسرافيل عليه السلام فقال : الله أعلم ، حتى اسأل رب العزة ، فأوحى الله تعالى إلى إسرافيل عليه السلام أن قد قضى موسى أبرهما وأوفاهما .

وروي عن ابن عباس أنه قال : قضى موسى أتَمَّ الأجلين ، وقد كان شرطه له أن ما ولدت في ذلك العام ولداً أبلق ، فهو له ، فولدت في ذلك العام كلها بلقاً ، فأخذ البلق مثل هذا الشرط في شريعتنا غير واجب ، إلا أن الوعد من الأنبياء عليهم السلام واجب ، فوفاه بوعده ، فلما أراد أن يخرج قال لشعيب عليه السلام : يا شيخ أعطني عصا أسوق بها غنمي .

فقال لابنته : التمسي له عصا ، فجاءت بعصا شعيب .

(135/586)

فقال شعيب عليه السلام : ردي هذه ، وكانت تلك العصا أودعها إياه ملك في صورة إنسان ، وكانت من عود آس الجنة ، فردتها والتمست غيرها ، فلم يقع في يدها غيرها ، فأعطته ، فخرج مع أهله فضل الطريق ، وكانت ليلة باردة مظلمة ، فذلك قوله تعالى : ﴿

فَلَمَّا قضى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 597 .

606 ﴾

(136/586)

وقال الثعلبى :

﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين * نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بالحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ ﴾

قال ابن عباس : استكبر ، السدّي قال : تجبر ، وقال قتادة : بغى ، وقال مقاتل : تعظّم ، ﴿ فِي الأرض ﴾ يعني أرض مصر ، ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ فرقاً وأصنافاً في الخدمة والسحر ، ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ يعني بني إسرائيل ، ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض ﴾ يعني بني إسرائيل .

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قال ابن عباس : قادة في الخير يقتدى بهم ، وقال قتادة : ولاة وملوكاً ، دليله قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ﴾ [المائدة : 20] ، مجاهد دعاة إلى الخير ، ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ بعد هلاك فرعون وقومه يرثونهم ديارهم وأموالهم ، ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ

فِي الأرض ﴾ يعني ويوطِّي لهم في أرض مصر والشام ويُنزلهم إياها ، ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ﴾ قرأ حمزة ويحيى بن وثاب والأعشى والكسائي وخلف بالتاء ، وما بعده رفع على أنّ الفعل ﴿ لَهُمْ ﴾ ، وقرأ غيرهم ﴿ وَنُرِيَ ﴾ بنون مضمومة وياء مفتوحة ، وما بعده نصب بوقوع الفعل عليهم ، ﴿ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ وذلك أنّهم أُخبروا أنّ هلاكهم على يدي رجل من بني إسرائيل ، فكانوا على وجل منهم ، فأراهم الله سبحانه ما كانوا يحذرون .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلى أُمِّ موسى ﴾ قال قتادة : قذفنا في قلبها وليس نبوة ، واسم أُم موسى يوخابد بنت لاوي بن يعقوب ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي ﴾ عليه ، ﴿ وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ .

(137/586)

أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد قال : حدّثنا مخلد بن جعفر الباقرجي قال : حدّثنا الحسين بن علوية قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى قال : حدّثنا إسحاق بن بشر قال : أخبرني ابن سمعان ، عن عطاء عن ابن عباس قال إسحاق : وأخبرني جويبر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : إنّ بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس ،

وعملوا بالمعاصي ، ورق خيارهم أشرارهم ، ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر ، فسلّط الله عليهم القبط ، فاستضعفوهم إلى أن نجّاهم الله تعالى على يدي نبيّه موسى (عليه السلام) .

قال وهب : بلغني أنّه ذبح في طلب موسى تسعين ألف وليد ، قال ابن عباس : إنّ أُم موسى لمّا تقارب (ولادها) ، وكانت قابلة من القوابل التي وكّلهن فرعون بحبالى بني إسرائيل مصافية لأُم موسى ، فلما ضربها الطلق أرسلت إليها ، فقالت : قد نزل بي ما نزل ، ولينفعني حبّك إياي اليوم ، قال : فعالجت قبالها ، فلمّا أن وقع موسى (عليه السلام) على الأرض هالها نورٌ بين عيني موسى (عليه السلام) ، فارتعش كلّ مفصل منها ودخل حبّ موسى (عليه السلام) قلبها ، ثم قالت لها : يا هذه ما جئت إليك حين دعوتني إلاّ ومن رأيي قتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكن وجدت لابنك هذا حبّاً ما وجدت حبّ شيء مثل حبّه ، فاحفضي ابنك ، فإنّي أراه هو عدونا .

(138/586)

فلمّا خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء إلى بابها ليدخلوا على أم موسى ، فقالت أُخته : يا أُماه هذا الحرس بالباب ، فلفّت موسى في خرقة ، فوضعته في

التنور وهو مسجور ، فطاش عقلها ، فلم تعقل ما تصنع ، قال : فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ، ولم يظهر لها لبن ، فقالوا : ما أدخل عليك القابلة ؟ قالت : هي مصافية لي ، فدخلت عليّ زائرة ، فخرجوا من عندها ، فرجع إليها عقلها ، فقالت لأُخت موسى : فأين الصبي ؟ قالت : لا أدري ، فسمعت بكاء الصبي من التنور ، فانطلقت إليه ، وقد جعل الله سبحانه النار عليه برداً وسلاماً فاحتملته .

قال : ثم إنّ أُمّ موسى (عليه السلام) لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها ، فقذف الله سبحانه في نفسها أن تتخذ له تابوتاً ، ثم تقذف بالتابوت في اليمّ وهو النيل ، فانطلقت إلى رجل نجار من أهل مصر من قوم فرعون ، فاشترت منه تابوتاً صغيراً ، فقال لها النجار : ما تصنعين بهذا التابوت ؟

قالت : ابن لي أُخبّئه في التابوت ، وكرهت الكذب ، قال : ولم ؟ قالت : أخشى عليه كيد فرعون ، فلمّا اشترت التابوت وحملته وانطلقت ، انطلق النجار إلى أُولئك الذبّاحين يخبرهم بأمر أُمّ موسى ، فلمّا همّ بالكلام أمسك الله سبحانه لسانه فلم ينطق الكلام ، وجعل يشير بيده ، فلمّا يَدرِ الأُمناء ما يقول ، فلمّا أعياهم أمره قال كبيرهم : اضربوه ، فضربوه وأخرجوه .

فلمّا انتهى النجار إلى موضعه ردّ الله سبحانه عليه لسانه ، فتكلم ، فانطلق أيضاً يريد الأُمناء ، فأتاهم ليخبرهم وأخذ الله سبحانه لسانه وبصره ، فلم ينطق الكلام ، ولم يبصر شيئاً ، فضربوه وأخرجوه ، فوقع في واد تهوى فيه حيران ، فجعل لله عليه إن ردّ لسانه وبصره أن لا يدلّ عليه ، وأن يكون معه لحفظه حيث ما كان ، فعرف الله عزّ وجل منه الصدق ، فردّ عليه بصره ولسانه فخرّ لله ساجداً ، فقال : يا رب دُلّني على هذا العبد الصالح ، فدلّه الله عليه ، فخرج من الوادي ، فآمن به وصدّقه وعلم أنّ ذلك من الله .

فانطلقت أم موسى ، فألقته في البحر ، وكان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها ، وكانت من أكرم الناس عليه ، وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون ، وكان بها برص شديد مسلخة برصاً ، فكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة ، فنظروا في أمرها ، فقالوا له : أيها الملك لا تبرأ إلاّ من قبل البحر يوجد منه شبه الإنسان ، فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك ، وذلك في يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس .

فلمّا كان يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم ، وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريها تلاعبهنّ وتنضح بالماء على وجوههن ، إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج ، فقال فرعون : إنّ

هذا الشيء في البحر قد تعلق بالشجرة ، ائتوني به ، فابتدروه بالسفن من كلّ جانب حتى وضعوه بين يديه ، فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه ، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه .

(140/586)

قال : فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها للذي أراد الله سبحانه أن يكرمها ، فعالجته ففتحت الباب ، فإذا هي بصبي صغير في مهده ، وإذا نور بين عينيه ، وقد جعل الله تعالى رزقه في إبهامه يمصّه لبناً ، فألقى الله سبحانه لموسى (عليه السلام) المحبة في قلب آسية ، وأحبّه فرعون وعطف عليه ، وأقبلت بنت فرعون ، فلمّا أخرجوا الصبي من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما كان يسيل من ريقه ، فلطخت به برصها ، فبرأت فقبّلته وضمّته إلى صدرها .

فقال الغواة من قوم فرعون : أيها الملك إنّا نظن إنّ ذلك المولود الذي نحذر منه من بني إسرائيل هو هذا ، رمي به في البحر فَرَقاً منك فاقتله ، فهمّ فرعون بقتله ، قالت آسية : قرة عين لي ولك ، لا تقتله عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ، وكانت لا تلد ، فاستوهبت موسى من فرعون ، فوهبه لها ، وقال فرعون : أما أنا فلا حاجة لي فيه ، فقال رسول الله (عليه السلام) :

" لو قال فرعون يومئذ هو قرة عين لي كما هو لك مثل قالت امرأته لهداه الله سبحانه كما هداها ، ولكن أحب الله عز وجل أن يحرمه للذي سبق في علم الله " .

فقيل لآسية : سمّيه ، قالت : سميته موشا لأنّا وجدناه في الماء والشجر ، ف (مو) هو الماء ، و (شا) : هو الشجر .

فذلك قوله سبحانه : ﴿ فالتقطه ﴾ أي فأخذه ، والعرب تقول لما وردت عليه فجأة من غير طلب له ولا إرادة : أصبته التقاطاً ، ولقيت فلاناً التقاطاً ، ومنه قول الراجز :

ومنهل وردته التقاطاً . . . لم ألق إذ وردته فراطاً

ومنه اللقطة وهو ما وجد ضالاًّ فأخذ ، ﴿ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ ﴾ هذه اللام تسمى لام العاقبة ، ولام الصيرورة ، لأنّهم إنما أخذوه ليكون لهم قرّة عين ، فكان عاقبة ذلك أنّه كان لهم ، ﴿ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ ، قال الشاعر :

فللموت تغذو الوالدات سخالها . . . كما لخراب الدور تُبنى المساكن

(141/586)

﴿ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ قرأ أهل الكوفة بضم الحاء وجزم الزاي ، وقرأ الآخرون بفتح الحاء والزاي ، واختاره أبو عبيد ، قال : للتفخيم ، واختلف فيه غير عاصم ، وهما لغتان مثل

العدْم والعَدَم ، والسُقْم والسَقَم ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ ﴾ عاصين آثمين .

﴿ وَقَالَتِ امرأة فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ ﴾ أي هو قرّة عين ، ﴿ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ فإنّ الله أتانا به من أرض أُخرى وليس من بني إسرائيل ، ﴿ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بما هو كائن من أمرهم وأمره ، عن مجاهد ، قتادة ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ إنّ هلاكهم على يديه ، محمد بن زكريا بن يسار ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ إنّي أفعل ما أريد ولا أفعل ما يريدون .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا طلحة وعبيد الله قالا : حدّثنا أبو مجاهد قال : حدّثني أحمد بن حرب قال : حدّثنا سنيد قال : حدّثني حجاج ، عن أبي معشر ، عن محمد بن قيس ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يقول : لا يدري بنو إسرائيل إنّا التقطناه ، الكلبي ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ إلاّ وإنّه ولدنا .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ أي خالياً لاهياً ساهياً من كلّ شيء إلاّ من ذكر موسى وهمه ، قاله أكثر المفسّرين ، وقال الحسن وابن إسحاق وابن زيد : يعني فارغاً من الوحي الذي أوحى الله سبحانه وتعالى إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ولا تخاف ولا تحزن ، والعهد الذي عهدنا إليه أن نردّه إليها ونجعله من المرسلين ، فجاءها الشيطان ،

فقال : يا أُمّ موسى كرهتِ أنْ يقتل فرعونُ موسى فتكون لك أجره وثوابه ، وتولّيتِ أنت قتله ، فألقيتِهِ في البحر وغرّقته .

(142/586)

ولمّا أتاها الخبر بأنّ فرعون أصابه في النيل قالت : إنّه وقع في يدي عدوه والذي فررت به منه ، فأنساها عظيم البلاء ما كان من عهد الله سبحانه إليها ، فقال الله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ من الوحي الذي أُوحي إليها ، وقال الكسائي : ﴿ فَارِغاً ﴾ أي ناسياً ، أبو عبيدة : ﴿ فَارِغاً ﴾ من الحزن لعلمها بأنّه لم يغرق ، وهو من قول العرب : دم فرغ إذا كان هدراً لا قِوَد فيه ولا دية .

وقال الشاعر :

فإن تك أذواد أصبن ونسوة . . . فلن تذهبوا فرغاً بقتل حبال

العلاء بن زيد ﴿ فَارِغاً ﴾ : نافراً ، وقرأ ابن محيض وفضالة بن عبيد : (فَزِعاً) بالزاي والعين من غير ألف ، ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ قال بعضهم : الهاء في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ راجعة إلى موسى ومعنى الكلام : إنْ كادت لتبدي به أنّه ابنها من شدة وجدها .

أخبرنا عبد الله بن حامد الوزان ، قال : أخبرنا مكي بن عبدان ، قال : حدّثنا عبد

الرحمن ابن بشر ، قال : حدّثنا سفيان ، عن أبي سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ قال : كادت تقول : وا ابناه ، وقال مقاتل : لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر ، فخشيت عليه الغرق ، فكادت تصيح من شفقها عليه ، الكلبي : كادت تُظهر أنّه ابنها ، وذلك حين سمعت الناس وهم يقولون لموسى بعدما شبّ : موسى بن فرعون ، فشق عليها فكادت تقول : لا ، بل هو ابني ، وقال بعضهم : الهاء عائدة الى الوحي أي ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي ﴾ بالوحي الذي أوحينا إليها أن نردّه عليها .

(143/586)

﴿ لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ قوّينا قلبها فعصمناها وثبّتناها ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ المصدّقين الموقنين بوعد الله عزّوجل ﴿ وَقَالَتْ ﴾ أم موسى ﴿ لأُخْتِهِ ﴾ لأخت موسى واسمها مريم ﴿ قُصِّيهِ ﴾ ابتغي أثره حتى تعلمي خبره ، ومنه القصص لأنّه حديث يتبع فيه الثاني الأول ، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ أبصرته ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ بُعد ، وقال ابن عباس : الجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى الشيء البعيد وهو إلى جنبه لا يشعر به . وقال قتادة : جعلت تنظر إليها كأنّها لا تريده ، وكان يقرأ ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ بفتح الجيم وسكون النون ، وقرأ النعمان بن سالم عن جانب أي عن ناحية ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾

أنها أُخته ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾ وهي جمع المرضع ، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل مجيء أم موسى ، وذلك أنّه كان يؤتى بمرضع بعد مرضع فلا يقبل ثدي امرأة ، فهمّهم ذلك ، فلمّا رأت أُخت موسى التي أرسلتها أُمّه في طلبه ذلك ، وما يصنع به ، فقالت لهم : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ أي يضمنونه ويرضعونه ويضمّونه إليهم ، وهي امرأة قد قتل ولدها ، فأحبّ شيء إليها أن تجد صبياً صغيراً فترضعه ، ﴿ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ والنصح : إخلاص العمل من شائب الفساد ، وهو نقيض الغش ، قالوا : نعم ، فأتينا بها فانطلقت إلى أُمّها فأخبرتها (بحال ابنها) وجاءت بها إليهم ، فلمّا وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها فذلك قوله : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أنّ الله وعدها ردّه إليها .

(144/586)

قال السدي وابن جريج : لما قالت أخت موسى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ أخذوها وقالوا : إنّكِ قد عرفتِ هذا الغلام ، فدلّينا على أهله ، فقالت : ما أعرفه ولكني إنّما قلت : هم للملك ناصحون ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ قال الكلبي : الأَشُدّ : ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة ، وقال سائر المفسّرين : الأشد

ثلاث وثلاثون سنة ، ﴿ واستوى ﴾ أي بلغ أربعين سنة .

أخبرنا أبو محمد المخلدي ، قال : أخبرنا أبو الوفاء المؤمل بن الحسن بن عيسى ، قال : حدّثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، قال : حدّثنا يحيى بن سليم ، قال : أخبرني عبد الله بن عثمان بن خيثم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قول الله سبحانه : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى ﴾ قال : الأشدّ : ثلاث وثلاثون سنة ، والاستواء : أربعون سنة ، والعمر الذي أعده الله إلى ابن آدم ستون سنة ، ثم قرأ ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النذير ﴾ [فاطر : 37] .

﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً ﴾ عقلا وفهماً ، ﴿ وَعِلْماً ﴾ قال مجاهد : قيل : النبوة ، ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ .

﴿ وَدَخَلَ ﴾ يعني موسى ﴿ المدينة ﴾ قال السدي : يعني مدينة منف من أرض مصر ، وقال مقاتل : كانت قرية تدعى خانين على رأس فرسخين من مصر .

(145/586)

﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ قال محمد بن كعب القرظي : دخلها فيما بين المغرب والعشاء ، وقال غيره : نصف النهار عند القائلة ، واختلف العلماء في السبب الذي من

أجله دخل موسى هذه المدينة في هذا الوقت ، فقال السدّي : كان موسى (عليه السلام) حين أمر بركب مراكب فرعون وبلبس مثل ما يلبس ، وكان إنّما يدعى موسى بن فرعون ، ثم إنّ فرعون ركب مركباً وليس عنده موسى (عليه السلام) ، فلمّا جاء موسى قيل له : إنّ فرعون قد ركب ، فركب في أثره ، فأدركه المقيل أرض يقال لها : منف ، فدخلها نصف النهار وقد تقلّبت أسواقها ، وليس في طرقها أحد ، وهو الذي يقول الله سبحانه : ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

وقال ابن إسحاق : كانت لموسى من بني إسرائيل شيعة يسمعون منه ويقتدون به ويجتمعون إليه ، فلمّا اشتد رأيه وعرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه ، فخالفهم في دينه وتكلّم وعادى وأنكر حتى ذكر ذلك منه ، وحتى خافوه وخافهم ، حتى كان لا يدخل قرية إلاّ خائفاً مستخفياً ، فدخلها يوماً ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ .

وقال ابن زيد : لمّا علا موسى فرعون بالعصا في صغره قال فرعون : هذا عدونا الذي قتلت فيه بني إسرائيل ، فقالت امرأته : لا بل هو صغير ، ثم دعت بالجمر والجوهر ، فلمّا أخذ موسى الجمرة وطرحها في فيه حتى صارت عقدة في لسانه ، ترك فرعون قتله وأمر بإخراجه من مدينته ، فلم يدخل عليهم إلاّ بعد أن كبر وبلغ أشدّه ، ﴿ وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ عن موسى أي من بعد نسيانهم خبره وأمره لبُعد عهدهم به .

وقال علي بن أبي طالب " رضي الله عنه " : في قوله : ﴿ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بِلَهْوِهِم ولعبهم ، ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ من أهل دينه من بني إسرائيل ، ﴿ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ من مخالفيه من القبط ، قال المفسرون : الذي هو من شيعته هو السامري ، والذي من عدوّه طباخ فرعون واسمه فليثون .

وأخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا موسى بن محمد ، قال : حدّثنا الحسن بن علوية ، قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى ، قال : حدّثنا المسيب بن شريك قال : اسمه فاثون وكان خباز فرعون ، قالوا : يسخّره لحمل الحطب إلى المطبخ ، روى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لمّا بلغ موسى أشده ، وكان من الرجال لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع ، فبينما هو يمشي ذات يوم في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان أحدهما من بني إسرائيل ، والآخر من آل فرعون ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى واشتد غضبه ؛ لأنّه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس لاّ إنّما ذلك من قبل الرضاعة من أُمّ موسى ، فقال للفرعوني ، خلِّ سبيله ، فقال : إنّما أخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك ، فنازع أحدهما صاحبه ، فقال الفرعوني لموسى : لقد هممت إلى أن أحمله عليك .

وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة والبطش ، ﴿ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ بجمع

كفّه ولم يتعمد قتله ، قال الفرّاء وأبو عبيدة : الوكز : الدفع بأطراف الأصابع ، وفي مصحف عبد الله (فنكزه) بالنون ، والوكز واللكز والنكز واحد ، ومعناها : الدفع ، ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ أي قتله وفرغ من أمره ، وكلّ شيء فرغت منه فقد قضيته ، وقضيت عليه ، قال الشاعر :

أيقايسون وقد رأوا حفاتهم . . . قد عضّه فقضى عليه الأشجع

أي قتله .

(147/586)

فلمّا قتله موسى ندم على قتله ، وقال : لم أومر بذلك ثم دفنه) في الرمل) ﴿ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ بالمغفرة فلم تعاقبني ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً ﴾ عوناً ونصيراً ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ قال ابن عباس : لم يستثن فابتلى ، قال قتادة : يعني فلن أعين بعدها على خطيئة ، أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن خالد ، قال : حدّثنا داود بن سليمان ، قال : أخبرنا عبد بن حميد ، قال : حدّثنا عبيد الله بن موسى ، عن سلمة بن نبيط قال : بعث بعض الأمراء وهو عبد الرحمن بن مسلم إلى الضحاك بعطاء أهل

بخارى ، وقال : أعطهم ، فقال : اعفني ، فلم يزل يستعفيه حتى أعفاه ، فقال له بعض أصحابه : وأنت لا) ترزأ) شيئاً ، فقال : لا أحب أن أعين الظلمة على شيء من أمرهم .

وبه عن عبد الله قال : حدّثنا يعلى ، قال حدّثنا عبيد الله بن الوليد الوصافي قال : قلت لعطاء بن أبي رباح : إنّ لي أخاً يأخذ بقلمه ، وإنّما يكتب ما يدخل وما يخرج ، قال : أخذ بقلمه كان ذلك غنىً وإن تركه احتاج ، وصار عليه دَين وله عيال ، فقال : من الرأس ؟ قلت : خالد بن عبد الله ، قال : اما تقرأ ما قال العبد الصالح : رب بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ، فلا يعينهم فإن الله تعالى سيغنيه .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي المدينة خَآئِفاً ﴾ من قتله القبطي أن يؤخذ فيُقتل به ، ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ ينتظر الأخبار ، ﴿ فَإِذَا الذي استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يستغيثه ، وأصل ذلك من الصراخ ، كما يقال : قال بني فلان : يا صاحباً .

(148/586)

قال ابن عباس : أتى فرعون فقيل له : إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلا منّا ، فخذ لنا بحقّنا ولا ترخص لهم في ذلك ، فقال : أبغوا لي قاتله ومن يشهد عليه ، فلا يستقيم أن يقضى بغير بيّنة ولا ثبت فاطلبوا ذلك ، فبينا هم يطوفون (و) لا يجدون ثبتا إذ مرّ موسى من الغد

فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً آخر يريد أن يسخّره ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى ، وقد ندم على ما كان منه بالأمس من قتله القبطي ، فقال موسى للإسرائيلي : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الغواية حين قاتلت أمس رجلا وقتلته بسببك ، وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه .

وقيل : إنّما قال للفرعوني : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ بتسخيرك وظلمك ، والقول الأول أصوب وأليق بنظم الآية .

قال ابن عباس : ثم مد موسى يده وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس فخاف أن يكون بعد ما قال له : إنك لغوي مبين أراده) ، ولم يكن أراده ، إنّما أراد الفرعوني ، فقال : ﴿ قَالَ يا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض ﴾ بالقتل ظلماً ، قال عكرمة والشعبي : لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين بغير حق .

﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ ثم تتاركا ، فلمّا سمع القبطي ما قال الإسرائيلي علم أنّ موسى قتل ذلك الفرعوني ، فانطلق إلى فرعون ، فأخبره بذلك ، فأمر فرعون بقتل موسى ولم يكن ظهر على قاتل القبطي حتى قال صاحب موسى ما قال .

قال ابن عباس : فلمّا أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الأعظم فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة أي آخرها ، واختصر طريقاً قريباً) وسبقهم فأخبره وأنذره) حتى أخذ طريقاً آخر فذلك قوله : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ واختلفوا فيه ، فقال أكثر أهل التأويل : هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، فقال شعيب الجبائي : اسمه شمعون ، وقيل : شمعان .

﴿ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾ قال الكلبي : يسرع في مشيه لينذره ، مقاتل : يمشي على رجليه ، ﴿ قَالَ يا موسى إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أي يهمّون بقتلك ويتشاورون فيك ، وقيل : يأمر بعضهم بعضاً نظيره قوله عز وجل : ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق : 6] ، وقال النمر بن تغلب :

أرى الناس قد أحدثوا سمة . . . وفي كلّ حادثة يؤتمر

﴿ فاخرج ﴾ من هذه المدينة ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ الناصحين * فَخَرَجَ ﴾ موسى ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من مدينة فرعون ﴿ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ ينتظر الطلب ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ ﴾ أي نحوها وقصدها ماضياً لها ، خارجاً عن سلطان فرعون ، يقال : داره تلقاء دار فلان إذا كانت محاذيتها ، وأصله من اللقاء ، ولم تصرف مدين لأنّها اسم بلدة معروفة . قال الشاعر :

رهبان مدين لو رأوك تنزّلوا . . . والعصم من شغف العقول القادر

وهو مدين بن إبراهيم نُسبتْ البلدة إليه كما نُسبتْ مدائن إلى أخيه مدائن بن إبراهيم ﴿ قَالَ عسى ربي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السبيل ﴾ قصد الطريق إلى مدين ، وإنّما قال ذلك لأنّه لم يكن يعرف الطريق إليها ، فلمّا دعا جاءه ملك على فرس بيده عنزة فانطلق به إلى مدين .

(150/586)

قال المفسّرون : خرج موسى من مصر بلا زاد ولا درهم ولا ظهر ولا حذاء إلى مدين وبينهما مسيرة ثماني ليال نحواً من الكوفة إلى البصرة ، ولم يكن له طعام إلاّ ورق الشجر ، قال ابن جبير : خرج من مصر حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وهو بئر كانت لهم ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ ﴾ مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتين تَذُودَانِ ﴾ تحبسان وتمنعان أغنامهما عن أن تشذ وتذهب ، وقال الحسن : تكفان (أغنامهما) عن أن تختلط بأغنام الناس وترك ذكر الغنم اختصاراً ، قتادة : (تذودان) الناس عن شائهما ، أبو مالك وابن إسحاق : تحبسان غنمهما عن الماء حتى يصدر عنه مواشي الناس ويخلوا لهما البئر ، ثم يسقيان غنمهما لضعفهما ، وهذا القول أولى بالصواب لما بعده ، وهو قوله : ﴿ قَالَ ﴾ يعني موسى ﴿ مَا

خَطْبُكُمَا ﴾ ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس ؟

﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمي والحسن وابن عامر وابن جعفر وأيوب بن المتوكل : بفتح الياء وضم الدال ، جعلوا الفعل الرعاء أي حتى يرجعوا عن الماء ، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الدال أي حتى يصرفوا مواشيهم عن الماء ، والرعاء : جمع راع مثل تاجر وتجار ، ومعنى الآية لا نسقي مواشينا حتى يصدر ﴿ الرعآء ﴾ لأنّا لا نطيق أن نسقي ، ولا نستطيع أن نزاحم الرجال فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض .

﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ لا يقدر أن يسقي مواشيه ، واختلفوا في اسم أبيهما ، فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن : هو شعيب النبي صلى اللّه عليه وعلى جميع الانبياء واسمه شعيب بن بويب بن مدين بن إبراهيم ، قال وهب وسعيد بن جبير وأبو عبيدة بن عبد الله : هو بثرون ابن أخي شعيب ، وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعد ما كفّ بصره ، فدفن بين المقام وزمزم .

(151/586)

وروى حماد بن سلمة ، عن أبي حمزة الضبعي ، عن ابن عباس قال : اسم أبي امرأة موسى صاحب مدين بثرى ، قالوا : فلمّا سمع موسى (عليه السلام) قولهما رحمهما ، واقتلع صخرة على رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلاّ جماعة من الناس . شريح : عشرة رجال ، وقيل : إنّه زاحم القوم عن الماء وأخذ دلوهما وسقى غنمهما ، عن ابن إسحاق ، فذلك قوله سبحانه : ﴿ فسقى لَهُمَا ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ قال السدي : ظلّ شجرة ، وروى عمر بن ميمون ، عن عبد الله قال : أحييت على جمل لي ليلتين حتى صبّحت مدين ، فسألت عن الشجرة التي آوى إليها موسى فإذا شجرة خضراء ترق فما هوى إليها جملي ، وكان جائعاً ، فأخذها فعالجها ساعة فلم يقطعها ، فدعوت الله سبحانه لموسى ثم أنصرفت .

﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ ﴾ قال قطرب : اللام ههنا بمعنى إلى تقول العرب : احتجت له ، واحتجت إليه بمعنى واحد ، ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ أي طعام ﴿ فَقِيرٌ ﴾ محتاج ، قال ابن عباس : لقد قال ذلك وإنّ خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال ما يسأل الله سبحانه إلاّ أكله .

قال الباقر : لقد قالها وإنّه لمحتاج إلى شق تمرة .

قالوا : فلمّا رجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغنامهما حُفّل بطان ، قال لهما : ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحاً رحمنا ، فسقى لنا أغنامنا (قبل الناس) ، فقال

لإحداهما : اذهبي فادعيه لي .

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحياء ﴾ قال عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" : مستترة بكم درعها لوف قد سترت وجهها بيدها ، روى قتادة ، عن طرف ، قال : أما والله لو كان عند نبي الله شيء ما اتبع مذقتها ، ولكنّه حمله على ذلك الجهد .

(152/586)

﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ فانطلق موسى معها يتبعها ، فهبت الريح ، فألزقت ثوب المرأة بردفها ، فكره موسى أن يرى ذلك منها ، فقال لها : امشي خلفي ، وانعتي لي الطريق ، ودلّيني عليها إن أخطأت ، فإنّا بني يعقوب لا ننظر إلى أعجاز النساء ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ﴾ يعني الشيخ ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ﴾ أخبره بأمره والسبب الذي أخرجه من أرضه ﴿ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ يعني فرعون وقومه لا سلطان له بأرضنا .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ وهي التي تزوجها موسى ﴿ يا أبت استأجره ﴾ لرعي أغنامنا ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين ﴾ ، فقال لها أبوها : وما علمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : أما قوته فإنّه لما رآنا حابسي أغنامنا عن الماء ، قال لنا : فهل بقربكما بئر ؟ قلنا :

نعم ، ولكن عليها صخرة لا يرفعها إلاّ أربعون رجلا ، قال : انطلقا بي إليها (فأخذ) الصخرة بيده فنحّاها .

وأما أمانته فإنّه قال لي في الطريق : امشي خلفي ، وإن أخطأت فارمي قدامي بحصاة حتى أنهج نهجها .

﴿ قَالَ ﴾ عند ذلك الشيخ لموسى ﴿ إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ ﴾ واسمهما صفورة ولباني ، قول شعيب الجبّائي قال : امرأة موسى صفورة ، وقال ابن إسحاق : صفورة وشرفا ، وغيرهما : الكبرى صفرا والصغرى صفيرا ﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ﴾ يعني آجرني ، وقالت الأئمة : على أن تثيبني من تزويجها رعيّ ماشيتي ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ سنين واحدتها حجة ، جعل صداقها ذلك ، قال : (يقول العرب) آجرك الله فهو يأجرك بمعنى أثابك ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً ﴾ أي عشر سنين ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ وأنت به متبرع متفضل وليس مما اشترطه عليك في عقد النكاح ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ .

(153/586)

﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ من الوافين بالعهد ، المحسنين الصحبة ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجلين قَضَيْتُ ﴾ الثمان أو العشر ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ واللهُ على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ شهيد وحفيظ .

وقالت العلماء بأخبار الأنبياء : أنّ موسى وصاحبه (عليهما السلام) لما تعاقدا بينهما هذا العقد أمر صهره احدى بنتيه أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه ، واختلفوا في حال تلك العصا ، فقال عكرمة : خرج بها آدم من الجنة وأخذها جبريل بعد موت آدم ، فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلا فدفعها إليه ، وقال آخرون : لم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وصلت إلى شعيب وكانت عصيّ الأنبياء عنده ، فأعطاها موسى .

وقال السدي : كانت تلك العصا استودعها ملك في صورة رجل ، وأمر ابنته أن تأتيه بعصا ، فدخلت الجارية فأخذت العصا فأتته بها ، فلمّا رآها الشيخ قال لابنته ، آتيه بغيرها ، فلمّا رمتها تريد أن تأخذ غيرها فلا تقع في يدها إلاّ هي ، كلّ ذلك تطير في يدها حتى فعلت ذلك مرات ، فأعطاها موسى ، فأخرجها معه ، ثم إنّ الشيخ ندم ، وقال : كانت وديعة ، فخرج يتلقّى موسى ، فلمّا لقيه ، قال : أعطني العصا ، قال موسى : هي عصاي ، فأبى أن يعطيه ، فاختصما حتى رضيا أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما ، فأتاهما ملك يمشي ، فقضى بينهما ، فقال : ضعوها بالأرض فمن حملها فهي له ، فعالجها الشيخ فلم يطقها ، وأخذها موسى بيده فرفعها ، فتركها له الشيخ .

وروى حيان عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس أنّه قال : كان في دار يثرون بيت لا يدخله إلاّ يثرون وابنته التي زوجها موسى ، كانت تكنسه وتنظّفه ، وكان في البيت ثلاث عشرة عصا ، وكان ليثرون أحد عشر ولداً من الذكور ، فكلّما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت وإخراج عصا من تلك العصيّ ، فجعل يحترق الولد حتى هلك كلّهم ، فرجع موسى ذات يوم إلى منزله فلم يجد أهله ، واحتاج إلى عصا لرعيه ، فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصي وخرج بها ، فلمّا علمت بذلك امرأته انطلقت إلى أبيها ، وأخبرته بذلك ، فسُرَّ بها يثرون وقال لها : إنّ زوجك هذا نبي وإنّ له مع هذه العصا لشأناً .

وفي بعض الأخبار أنّ موسى (عليه السلام) لمّا أصبح من الغد بعد العقد وأراد الرعي قال له صهره شعيب : اذهب بهذه الأغنام ، فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإنْ كان الكلأ بها أكثر ، فإنّ هناك تنيناً عظيماً أخشى عليك وعلى الأغنام منه . فذهب موسى بالأغنام ، فلمّا بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين ، فاجتهد موسى على أن يصرفها إلى ذات الشمال فلم تطعه فسار موسى على أثرها ، فرأى

عشباً وريفاً لم ير مثله ، ولم ير التنين ، فنام موسى والأغنام ترعى ، فإذا بالتنين قد جاء ، فقامت عصا موسى وحاربته حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى وهي دامية .

فلمّا استيقظ موسى رأى العصا دامية والتنين مقتولا ، فارتاح لذلك وعلم أنّ لله سبحانه في تلك العصا قدرة وإرادة ، فعاد إلى شعيب ، وكان شعيب ضريراً فمس الأغنام ، فإذا هي أمثل حالا مما كانت ، فسأله ، فأخبره موسى بالقصة ، ففرح بذلك شعيب وعلم أنّ لموسى وعصاه شأناً ، فأراد شعيب أن يجازي موسى على حسن رعيه إكراماً له وصلة لابنته فقال له : إنّي قد وهبت لك (من) الجدايا التي تضعها أغنامي في هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله تعالى إلى موسى أن اضرب بعصاك الماء الذي في مستقى الأغنام .

(155/586)

قال : فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه ، فما أخطأت واحدة منها إلاّ وقد وضعت حملها ما بين بلق وبلقاء ، فعلم شعيب أنّ ذلك رزق ساقه الله إلى موسى وامرأته ، فوفى له بشرطه وسلّم إليه الأغنام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 247.232 ﴾

(156/586)

وقال الزمخشرى :

سورة القصص

مكية ، [إلا من آية 52 إلى غاية آية 55 فمدنية ، وآية 85 فبالجحفة أثناء الهجرة] وآياتها 88 [نزلت بعد النمل] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القصص (28) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ مفعول نتلو ، أى : نتلو عليك بعض خبرهما بِالْحَقِّ محقين ، كقوله تنبت بالدهن لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ لمن سبق في علمنا أنه يؤمن ، لأنّ التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم .

[سورة القصص (28) : آية 4]

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

إِنَّ فِرْعَوْنَ جملة مستأنفة كالتفسير للمجمل ، كأن قائلا قال : وكيف كان نبؤهما فقال :

إنّ فرعون عَلا فِي الْأَرْضِ يعنى أرض مملكته قد طغى فيها وجاوز الحدّ في الظلم والعسف شِيَعاً فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه ، لا يملك أحد منهم أن يلوى عنقه . قال الأعشى :

وبلدة يرهب الجوّاب دلجتها حتّي تراه عليها يبتغى الشّيعا «1»

---

(1) وبلدة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يبتغى الشيعا

كلفت مجهولها نفسي وشايعنى همى عليها إذا ما آلها لمعا

بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أولى لها من أن يقال لعا

للأعشى ، أى : ورب مفازة يخاف الجواب : أى كثير السير ، من جبت الأرض : قطعتها بالسير . والدلجة ، من دلج وأدلج بوزن افتعل ، وأدلج بوزن أكرم : إذا سار ليلا والدلجة : ساعة من الليل ، أى : يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلا حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها ، كلفت نفسي سير المجهول منها ، وعاوننى عزمي على سيرها وقت لمعان آلها ، وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر كأنه ماء ، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل ، ثم قال مع ناقة صاحبة قوة ، ويطلق اللوث على الضعف أيضا ، فهو من الأضداد ، عفرناة : غليظة ، ويقال للعائر : لعا لك ، دعاء له بالانتعاش . وتعسا له : دعاء عليه بالسقوط ، يريد أنها لا تعثر ، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها .

أو يشيع بعضهم بعضا في طاعته . أو أصنافا في استخدامه يتسخر صنفا في بناء وصنفا في حرث وصنفا في حفر ، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية . أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ، وهم بنو إسرائيل والقبط . والطائفة المستضعفة : بنو إسرائيل . وسبب ذبح الأبناء : أنّ كاهنا قال له : يولد مولود في بنى إسرائيل يذهب ملكك على يده . وفيه دليل بين على ثخانة حمق فرعون ، فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن ، وإن كذب فما وجه القتل ؟ وَيَسْتَضْعِفُ حال من الضمير في وَجَعَلَ أو صفة لشيعا . أو كلام مستأنف . ويُذَبِّحُ بدل من يستضعف .

وقوله إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ بيان أنّ القتل ما كان إلا فعل المفسدين فحسب ، لأنه فعل لا طائل تحته ، صدق الكاهن أو كذب .

[سورة القصص (28) : الآيات 5 إلى 6]

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (6)

فإن قلت : علام عطف قوله وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ وعطفه على نَتْلُوا وَيَسْتَضْعِفُ غير سديد ؟

قلت : هي جملة معطوفة على قوله إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ لأنها نظيرة «تلك» في وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون ، واقتصاصا له . وَنُرِيدُ : حكاية حال ماضية . ويجوز أن يكون حالا من يستضعف ، أي يستضعفهم فرعون ، ونحن نريد أن نمنّ عليهم . فإن قلت : كيف يجتمع استضعافهم وإرادة اللّه المنة عليهم ؟ وإذا أراد اللّه شيئا كان ولم يتوقف إلى وقت آخر ، قلت : لما كانت منة اللّه بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع ، جعلت إرادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم أَئِمَّةً مقدّمين في الدين والدنيا ، يطأ الناس أعقابهم . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : قادة يقتدى بهم في الخير . وعن مجاهد رضى اللّه عنه : دعاة إلى الخير ، وعن قتادة رضى اللّه عنه : ولاة ، كقوله تعالى وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً . الْوارِثِينَ يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم . مكن له : إذا جعل له مكانا يقعد عليه أو يرقد ، فوطأه ومهده ونظيره : أرّض له . ومعنى التمكين لهم في الأرض وهي أرض مصر والشام : أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ولا تغث «1» عليهم ، كما كانت في أيام الجبابرة ، وينفذ أمرهم ، ويطلق أيديهم ويسلطهم .

---

(1) . قوله «ولا تغث عليهم» أي : ولا تفسد وتردؤ . أفاده الصحاح . (ع)

وقرئ : ويرى فرعون وهامان وجنودهما ، أى : يرون مِنْهُمْ ما حذروه : من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم .

[سورة القصص (28) : آية 7]

وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7)

اليم : البحر . قيل : هو نيل مصر . فإن قلت : ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر ؟ قلت : أما الأوّل فالخوف عليه من القتل ، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته فينموا عليه . وأما الثاني ، فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان ، وغير ذلك من المخاوف . فإن قلت :

ما الفرق بين الخوف والحزن ؟ قلت : الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع . والحزن : غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به ، فنهيت عنهما جميعا ، وأومنت بالوحي إليها ، ووعدت ما يسليها ويطامن قلبها ويملؤها غبطة وسرورا : وهو ردّه إليها وجعله من المرسلين . وروى : أنه ذبح في طلب موسى عليه السلام تسعون ألف وليد . وروى : أنها حين أقربت وضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت لها : لينفعني حبك اليوم ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ،

ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأقبل مولودك وأخبر فرعون ، ولكني وجدت لابنك حبا ما وجدت مثله فاحفظيه ، فلما خرجت جاء عيون فرعون ، فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور «1» ، لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها ، فطلبوا فلم يلقوا شيئا ، فخرجوا وهي لا تدرى مكانه ، فسمعت بكاءه من التنور ، فانطلقت إليه وقد جعل اللّه النار عليه بردا وسلاما ، فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحى اللّه إليها فألقته في اليم . وقد روى أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من بردي «2» مطلى بالقار من داخله .

[سورة القصص (28) : آية 8]

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (8)

---

(1) . قوله «و وضعته في تنور مسجور» في الصحاح «التنور» : الذي يخبز فيه . وفيه أيضا . سجرت التنور سجرا ، إذا حميته . (ع)

(2) . قوله «تابوت من بردي مطلى بالقار» في الصحاح «البردي» بالفتح : نبات معروف ، فلينظر . (ع)

اللام في لِيَكُونَ هي لام كى التي معناها التعليل ، كقولك : جئتك لتكرمنى سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة ، لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوّا وحزنا ، ولكن : المحبة والتبني ، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته ، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله ، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء ، والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك : ضربته ليتأدّب . وتحريره : أن هذه اللام حكمها حكم الأسد ، حيث استعيرت لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد . وقرئ : وحزنا وهما لغتان : كالعدم والعدم كانُوا خاطِئِينَ في كل شيء ، فليس خطؤهم في تربية عدّوهم ببدع منهم . أو كانوا مذنبين مجرمين ، فعاقبهم اللّه بأن ربى عدوّهم - ومن هو سبب هلاكهم - على أيديهم . وقرئ : خاطين ، تخفيف خاطئين ، أو خاطين الصواب إلى الخطأ .

[سورة القصص (28) : آية 9]

وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (9)

روى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه ، فلم يقدروا عليه ، فعالجوا كسره فأعياهم ، فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نورا ، فعالجته ففتحته ، فإذا بصبىّ نوره بين عينيه وهو

يمصّ إبهامه لبنا فأحبوه ، وكانت لفرعون بنت برصاء ، وقالت له الأطباء : لا تبرأ إلا من ، قبل البحر ، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها ريقه ، فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرأت «1» . وقيل لما نظرت إلى وجهه برأت ، فقالت : إن هذه لنسمة مباركة ، فهذا أحد ما عطفهم عليه ، فقال الغواة من قومه : هو الصبى الذي نحذر منه ، فأذن لنا في قتله ، فهمّ بذلك فقالت آسية قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ فقال فرعون : لك لا لي . وروى في حديث : «لو قال هو قرّة عين لي كما هو لك ، لهداه اللّه كما هداها «2»» وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، أى : لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ، ولأسلم كما أسلمت : هذا - إن صح الحديث - تأويله ، واللّه أعلم بصحته .

وروى أنها قالت له : لعله من قوم آخرين ليس من بنى إسرائيل . قرّة عين : خبر مبتدإ محذوف ولا يقوى أن تجعله مبتدأ ولا تَقْتُلُوهُ خبرا ، ولو نصب لكان أقوى . وقراءة ابن مسعود

---

(1) . قوله «فبرأت» في الصحاح : برئت من المرض برءا بالضم . وأهل الحجاز يقولون : برأت من المرض برءا بالفتح . وأصبح فلان بارئا من مرضه (ع)

(2) . هذا طرف من حديث الفتون الطويل . وقد ذكرنا في طه أن النسائي أخرجه من حديث ابن عباس وفيه فأتت فرعون فقالت : قرة عين لي ولك فقال فرعون : يكون لك

فأما أنا فلا حاجة لي فيه . فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والذي يحلف به ، لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه اللّه كما هداها ولكن اللّه حرمه ذلك» .

(160/586)

رضى اللّه عنه دليل على أنه خبر ، قرأ : لا تقتلوه قرّة عين لي ولك ، بتقديم لا تَقْتُلُوهُ . عَسى أَنْ يَنْفَعَنا فإنّ فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله ، وذلك لما عاينت من النور وارتضاع الإبهام وبرء البرصاء ، ولعلها توسمت في سيماه النجابة المؤذنة بكونه نفاعا . أو نتبناه ، فإنه أهل للتبنى ، ولأن يكون ولدا لبعض الملوك . فإن قلت : وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ حال ، فما ذو حالها ؟ قلت : ذو حالها آل فرعون . وتقدير الكلام : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه . وقوله : إن فرعون . . . الآية : جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه ، مؤكدة لمعنى خطئهم . وما أحسن نظم هذا الكلام عند المرتاض بعلم محاسن النظم .

[سورة القصص (28) : الآيات 10 إلى 11]

وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11)

فارِغاً صفرا من العقل. والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش. ونحوه قوله تعالى وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ أى جوّف لا عقول فيها ومنه بيت حسان:

ألا أبلغ أبا سفيان عنّى فأنت مجوّف نخب هواء «1»

وذلك أنّ القلوب مراكز العقول. ألا ترى إلى قوله فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها ويدل عليه قراءة من قرأ: فرغا. وقرئ: قرعا، أى خاليا من قولهم: أعوذ باللّه من صفر الإناء وقرع الفناء «2». وفرغا، من قولهم: دماؤهم بينهم فرغ، أى هدر، يعنى: بطل قلبها وذهب، وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها لَتُبْدِي بِهِ لتصحر «3» به. والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته، وأنه ولدها لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها بإلهام الصبر، كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ من المصدقين بوعد اللّه، وهو قوله

---

(1). تقدم شرح هذا الشاهد ضمن أبيات في الجزء الثاني صفحة 563 فراجعه إن شئت اه مصححه.

(2). قوله «من صفر الإناء وقرع الفناء» صفر الإناء: خلوه، مصدر: صفر الشيء بالكسر، أى: خلا.

وقرع الفناء: خلوه من الغاشية، مصدر قرع بالكسر، أى: خلا. (ع)

(3) . قوله «لتصحر به» في الصحاح: أصحر الرجل، أى: خرج إلى الصحراء والمراد هنا تجهر به ولا تكتم أمره (ع)

(161/586)

إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ويجوز: وأصبح فؤادها فارغا من الهم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت، لولا أنا طامنا قلبها وسكّنا قلقه الذي حدث به من شدّة الفرح والابتهاج، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد اللّه لا بتبني فرعون وتعطفه. وقرئ: مؤسى، بالهمزة: جعلت الضمة في جارة الواو - وهي الميم - كأنها فيها، فهمزت كما تهمز واو وجوه قُصِّيهِ اتبعى أثره وتتبعى خبره. وقرئ فبصرت بالكسر - يقال بصرت به عن جنب وعن جنابة، بمعنى: عن بعد. وقرئ: عن جانب، وعن جنب. والجنب: الجانب. يقال: قعد إلى جنبه وإلى جانبه، أى: نظرت إليه مزورة متجانفة مخاتلة «1». وهم لا يحسون بأنها أخته، وكان اسمها مريم.

[سورة القصص (28): الآيات 12 إلى 13]

وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

ناصِحُونَ (12) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13)

التحريم : استعارة للمنع لأنّ من حرم عليه الشيء فقد منعه . ألا ترى إلى قولهم : محظور . وحجر ، وذلك لأن اللّه منعه أن يرضع ثديا ، فكان لا يقبل ثدي مرضع قط ، حتى أهمهم ذلك .

والمراضع : جمع مرضع ، وهي المرأة التي ترضع . أو جمع مرضع ، وهو موضع الرضاع يعنى الثدي أو الرضاع مِنْ قَبْلُ من قبل قصصها أثره . روى أنها لما قالت وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله ، فقالت : إنما أردت وهم للملك ناصحون «2» والنصح :

إخلاص العمل من شائب الفساد ، فانطلقت إلى أمها بأمرهم ، فجاءت بها والصبىّ على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكى يطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها ، فقال لها فرعون : ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك ؟ قالت : إنى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن ، لا أوتى بصبى إلا قبلني ، فدفعه إليها وأجرى عليها ، وذهبت به إلى بيتها ، وأنجز اللّه وعده في الردّ ، فعندها ثبت واستقرّ في علمها أن سيكون نبيا . وذلك قوله وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ يريد . وليثبت علمها ويتمكن . فإن قلت : كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها ؟

(1) . قوله «متجانفة مخاتلة» متجانفة : أى مائلة . ومخاتلة : أى مخادعة . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «إنهم اتهموها لما قالت وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ بمعرفة موسى عليه السلام ، فقالت إنما أردت وهم للملك فرعون ناصحون ، فخلصت من التهمة» قال أحمد : أوردت هذه التورية استحسانا لفطنتها ، ولكونها من بيت النبوة ، وأخت النبي ، فحقيق لها ذلك .

(162/586)

قلت : ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ، ولكنه مال حربىّ كانت تأخذه على وجه الاستباحة . وقوله وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ داخل تحت علمها . المعنى : لتعلم أن وعد اللّه حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه حق فيرتابون . ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى ، فجزعت وأصبح فؤادها فارغا يروى أنها حين ألقت التابوت في اليم جاءها الشيطان فقال لها : يا أم موسى ، كرهت أن يقتل فرعون موسى فتؤجرى ، ثم ذهبت فتوليت قتله ، فلما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه قالت : وقع في يد العدوّ ، فنسيت وعد اللّه . ويجوز أن يتعلق وَلكِنَّ بقوله وَلِتَعْلَمَ ومعناه : أن الرّد إنما كان لهذا الغرض الديني ،

وهو علمها بصدق وعد اللّه. ولكنّ الأكثر لا يعلمون بأن هذا هو الغرض الأصلى الذي ما سواه تبع له:

من قرّة العين وذهاب الحزن.

[سورة القصص (28): آية 14]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)

وَاسْتَوى واعتدل وتمّ استحكامه، وبلغ المبلغ الذي لا يزاد عليه، كما قال لقيط:

واستحملوا أمركم للّه درّكمو شزر المريرة لا قحما ولا ضرعا «1»

وذلك أربعون سنة: ويروى: أنه لم يبعث نبىّ إلا على رأس أربعين سنة «2». العلم.

التوراة.

والحكم: السنة. وحكمة الأنبياء: سنتهم. قال اللّه تعالى وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ

---

(1). للقيط. وروى: واستحكموا. والشزر: القتل الشديد، والشيء الشديد، فهو مصدر أو وصف، والمريرة من المرة وهي القوة. والمرير: الحبل المحكم الفتل. والقحم: الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف. والضرع: اللين الذليل، من الضراعة وهي الذلة والخضوع، يقول: قلدوا أمر خلافتكم رجلا محكم العزيمة قوى الهمة، لا هرما مختل الرأى ولا ضعيفا، وللّه دركم: جملة اعتراضية، أى: للّه خيركم وصالح عملكم. وقيل: هذا

البيت ملفق مما رواه أبو العباس المبرد في كامله ، ومنه :

فقلدوا أمركم للّه دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره يكون متبعا طورا ومتبعا

حتى استمرت على شزر مريرته مستحكم الرأى لا قحما ولا ضرعا

ورحب الذراع : طويل الباع واسع الصدر ، أى : شجاع جواد ، واضطلع بكذا : قوى عليه واشتد ، من الضلاعة وهي القوة واحتمال الثقيل ، وشطرت الناقة شطرا : حلبت شطر لبنها وتركت شطره ، أى : نصفه وما هنا مستعار منه ، أى : جربت الدهر ومرت بى ضروبه من خير وشر ، فاكتسبت منه ما يصح به رائي . والأشطر : جمع شطر بدل من الدهر . ويجوز أن حلب يتعدى إلى مفعولين ولو بالتضمين . ومتبع الأول : اسم مفعول ، والثاني : اسم فاعل ، أى : تارة تابع ، وتارة متبوع . واستمرت مريرته : قوى عزمه واستحكم أمره على شزر ، أى قوة وصدق همة ،

(2) . لم أجده . [. . . . .]

وقيل : معناه أتيناه سيرة الحكماء العلماء ، وسمتهم قبل البعث ، فكان لا يفعل فعلا يستجهل فيه .

[سورة القصص (28) : الآيات 15 إلى 17]

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17)

المدينة : مصر . وقيل : مدينة منف من أرض مصر . وحين غفلتهم : ما بين العشاءين . وقيل : وقت القائلة . وقيل : يوم عيد لهم هم مشتغلون فيه بلهوهم . وقيل : لما شبّ وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم ، فأخافوه ، فلا يدخل قرية إلا على تغفل . وقرأ سيبويه : فاستعانه مِنْ شِيعَتِهِ ممن شايعه على دينه من بنى إسرائيل . وقيل : هو السامرىّ مِنْ عَدُوِّهِ من مخالفيه من القبط ، وهو فاتون ، وكان يتسخر الاسرائيلى لحمل الحطب إلى مطبخ فرعون . والوكز : الدفع بأطراف الأصابع . وقيل : بجمع الكف . وقرأ ابن مسعود : فلكزه . باللام فَقَضى عَلَيْهِ فقتله . فإن قلت : لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلما لنفسه واستغفر منه ؟ قلت : لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل ، فكان ذنبا يستغفر

منه . عن ابن جريج : ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر بما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ يجوز أن يكون قسما جوابه محذوف ، تقديره : أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبنّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ «1» وأن يكون استعطافا ، كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة ، فلن أكون - إن عصمتني - ظهيرا للمجرمين . وأراد بمظاهرة المجرمين : إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون . وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له . وعن ابن عباس : لم يستثن فابتلى به مرّة أخرى . يعنى : لم يقل : فَلَنْ أَكُونَ إن شاء اللّه . وهذا نحو قوله وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وعن عطاء : أنّ رجلا قال له : إنّ أخى يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه . قال : فمن الرأس ، يعنى

---

(1) . قوله تعالى قال رَبِّ بما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ قال أحمد : لقد تبرأ من عظيم ، لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده . ويروى : أنه يقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ، فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة أو برى لهم قلما فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار .

من يكتب له؟ قال: خالد بن عبد اللّه القسري: قال فأين قول موسى؟ وتلا هذه الآية.

وفي الحديث: «ينادى مناد يوم القيامة: أين الظلمة وأشباه الظلمة وأعوان الظلمة، حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما، فيجمعون في تابوت من حديد فيرمى به في جهنم» «1»

وقيل معناه. بما أنعمت عليّ من القوّة، فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك.

ولا أدع قبطيا يغلب أحدا من بنى إسرائيل.

[سورة القصص (28): الآيات 18 إلى 19]

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)

يَتَرَقَّبُ المكروه وهو الاستقادة منه، أو الإخبار وما يقال فيه، ووصف الإسرائيلى بالغىّ، لأنه كان سبب قتل رجل، وهو يقاتل اخر. وقرئ: يبطش، بالضم. والذي هو عدوّ لهما: القبطي لأنه ليس على دينهما، ولأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل. والجبار: الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم، لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن: وقيل: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر اللّه، ولما قال هذا: أفشى على موسى فانتشر

الحديث في المدينة ورقى إلى فرعون ، وهموا بقتله .

[سورة القصص (28) : آية 20]

وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20)

قيل : الرجل : مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، ويَسْعى يجوز ارتفاعه وصفا لرجل ، وانتصابه حالا عنه ، لأنه قد تخصص بأن وصف بقوله مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ وإذا جعل صلة لجاء ، لم يجز في يَسْعى إلا الوصف . والائتمار : التشاور . يقال : الرجلان يتآمران ويأتمران ، لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر . والمعنى : يتشاورون بسببك لَكَ بيان ، وليس بصلة الناصحين .

[سورة القصص (28) : آية 21]

فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

---

(1) . ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة .

يَتَرَقَّبُ التعرّض له في الطريق . أو أن يلحق .

[سورة القصص (28) : آية 22]

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (22)

تِلْقاءَ مَدْيَنَ قصدها ونحوها . ومدين : قرية شعيب عليه السلام ، سميت بمدين بن إبراهيم ، ولم تكن في سلطان فرعون ، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان ، وكان موسى لا يعرف إليها الطريق قال ابن عباس : خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه . وسَواءَ السَّبِيلِ وسطه ومعظم نهجه . وقيل : خرج حافيا لا يعيش إلا بورق الشجر ، فما وصل حتى سقط خف قدمه .

وقيل : جاءه ملك على فرس بيده عنزة ، فانطلق به إلى مدين .

[سورة القصص (28) : الآيات 23 إلى 28]

وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ

تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

ماءَ مَدْيَنَ ماءهم الذي يستقون منه ، وكان بئرا فيما روى . وورده : مجيئه والوصول إليه وَجَدَ عَلَيْهِ وجد فوق شفيره ومستقاه أُمَّةً جماعة كثيفة العدد مِنَ النَّاسِ من أناس مختلفين مِنْ دُونِهِمُ في مكان أسفل من مكانهم . والذود : الطرد والدفع وإنما كانتا تذودان ، لأنّ على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي . وقيل : كانتا تكرهان المزاحمة على الماء . وقيل : لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم ، وقيل : تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما ما خَطْبُكُما ما شأنكما . وحقيقته : ما مخطوبكما ، أى : مطلوبكما من الذياد ، فسمى المخطوب خطبا ،

(166/586)

كما سمى المشئون شأنا في قولك : ما شأنك ؟ يقال : شأنت شأنه ، أى : قصدت قصده . وقرئ لا نسقي . ويصدر . والرعاء ، بضم النون والياء والراء . والرعاء : اسم جمع كالرخال والثناء «1» .

وأما الرعاء بالكسر فقياس ، كصيام وقيام كَبِيرٌ كبير السن فَسَقى لَهُما فسقى غنمهما لأجلهما . وروى أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله إلا سبعة رجال . وقيل :

عشرة . وقيل : أربعون . وقيل : مائه ، فأقله وحده . وروى أنه سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا : استق بها ، وكانت لا ينزعها إلا أربعون ، فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة ، وروّى غنمهما وأصدرهما . وروى أنه دفعهم عن الماء حتى سقى لهما . وقيل : كانت بئرا أخرى عليها الصخرة . وإنما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف . والمعنى : أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم ، فما أخطأت همته في دين اللّه تلك الفرصة ، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما ، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده ، وما آتاه اللّه من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتى من البطش والقوّة وما لم يغفل عنه ، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ، ترغيب في الخير ، وانتهاز فرصه ، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم . فإن قلت : لم ترك المفعول غير مذكور في قوله يَسْقُونَ وتَذُودانِ ولا نَسْقِي «2» ؟ قلت : لأن الغرض هو الفعل لا المفعول . ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على

الذياد وهم على السقي ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلا ، وكذلك قولهما لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ المقصود فيه السقي لا المسقى . فإن قلت : كيف طابق جوابهما سؤاله قلت : سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب في ذلك أنا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال «3» ومزاحمتهم ، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا ، وما لنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به : أبلتا إليه عذرهما «4» في توليهما السقي بأنفسهما . فإن قلت : كيف ساغ لنبيّ اللّه الذي هو شعيب عليه السلام أن يرضى لا بنتيه

---

(1) . قوله «لا نسقي ويصدر والرعاء بضم النون والياء والراء . . . الخ» يفيد أن القراءة المشهورة بفتح النون والياء وكسر الراء . والرخال : واحده رخل ، وهي الأنثى من ولد الضأن . والثناء : عقال البعير ونحوه من حبل مثنى ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «و تذودان ولا نسقي» لعل بعده سقطا تقديره : فسقى لهما ، وعبارة النسفي : لا نسقي ، و : فسقى . (ع)

(3) . قوله «لا نقدر على مساجلة الرجال» في الصحاح : «السجل» الدلو إذا كان فيه ماء . والمساجلة : المفاخرة بأن تصنع مثل صنعه في جرى أو سقى ، وأصله من الدلو اه . (ع)

(4) . قوله «أبلتا إليه عذرهما» لعله تحريف ، وأصله : أبدتا ، كعبارة النسفي . (ع)

بسقى الماشية؟ قلت: الأمر في نفسه ليس بمحظور، فالدين لا يأباه. وأما المروءة، فالناس مختلفون في ذلك، والعادات متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة إِنِّي لأى شيء أَنْزَلْتَ إِلَيَّ قليل أو كثير، غث أو سمين لَ فَقِيرٌ «1» وإنما عدى فقير باللام، لأنه ضمن معنى سائل وطالب. قيل: ذكر ذلك وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال، ما سأل اللّه إلا أكلة. ويحتمل أن يريد: إنى فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلىّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة: قال ذلك رضا بالبدل السنى، وفرحا به، وشكرا له، وكان الظل ظل سمرة عَلَى اسْتِحْيَاءٍ في موضع الحال، أى: مستحيية متخفرة «2». وقيل. قد استترت بكم درعها. روى أنهما لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان «3» قال لهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا، فقال لإحداهما:

اذهبي فادعيه لي، فتبعها موسى فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشى خلفي وانعتى لي الطريق، فلما قص عليه قصته قال له. لا تخف فلا سلطان لفرعون

بأرضنا . فإن قلت :

كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة ، وأن يمشى معها وهي أجنبية ؟ قلت : أما العمل بقول امرأة فكما يعمل بقول الواحد حرّا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى في الأخبار ، وما كانت إلا مخبرة عن أبيها بأنه يدعوه ليجزيه . وأما مما شاته امرأة أجنبية فلا بأس بها في نظائر تلك الحال ، مع ذلك الاحتياط والتورّع . فإن قلت : كيف صح له أخذ الأجر على البرّ والمعروف ؟ قلت :

يجوز أن يكون قد فعل ذلك لوجه اللّه وعلى سبيل البر والمعروف . وقيل إطعام شعيب وإحسانه لا على سبيل أخذ الأجر ، ولكن على سبيل التقبل لمعروف مبتدإ . كيف وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت النبوّة من أولاد يعقوب ؟ ومثله حقيق بأن يضيّف ويكرم خصوصا في دار نبىّ من أنبياء اللّه ، وليس بمنكر أن يفعل ذلك لاضطرار الفقر والفاقة طلبا للأجر . وقد روى ما يعضد كلا القولين : روى أنها لما قالت : ليجزيك ، كره ذلك ، ولما قدّم إليه الطعام امتنع وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض «4» ذهبا ، ولا نأخذ على المعروف ثمنا . حتى قال شعيب : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا . وعن عطاء ابن السائب : رفع صوته بدعائه ليسمعهما ، فلذلك قيل له : ليجزيك أجر ما سقيت ، أى ، جزاء سقيك . والقصص : مصدر كالعلل ، سمى

---

(1) . قوله «غث أو سمين لفقير» أى مهزول كما في الصحاح . والمراد : ردىء أو جيد .

(ع)

(2) . قوله «أى مستحيية متخفرة» الخفر : شدة الحياء . ومنه جارية خفرة ومتخفرة ، كذا في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «و أغنامها حفل بطان» في الصحاح : ضرع حافل ، أى ممتلئ لبنا . وفيه : بطن بالكسر يبطن بطنا :

عظم بطنه من الشبع . (ع)

(4) . قوله «لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبا» في الصحاح «طلاع الشيء» : ملؤه . (ع)

(168/586)

به المقصوص . كبراهما : كانت تسمى صفراء ، والصغرى : صفيراء . وصفراء : هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره ، وهي التي تزوجها . وعن ابن عباس : أن شعيبا أحفظته الغيرة « 1 » فقال :

وما علمك بقوّته وأمانته ؟ فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو ، وأنه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه . وقولها إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة في القائم

بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل ، والحكمة أن تقول استأجره لقوّته وأمانته «2» . فإن قلت : كيف جعل خير من استأجرت اسما لإنّ ، والقوى الأمين خبرا ؟ قلت : هو مثل قوله :

ألا إنّ خير النّاس حيّا وهالكا أسير ثقيف عندهم في السّلاسل «3»

---

(1) . قوله «أن شعيبا أحفظته الغبرة» أى أغضبته ، كما في الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «هذا كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ، لأنه إذا اجتمعت القوة والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك ، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي ساقته سياق المثل والحكم عن أن تقول : فانه قوى أمين» قال أحمد : وهو أيضا أجمل في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للحشمة ، وخصوصا إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه ، وما أحسن ما أخذ الفاروق رضى اللّه تعالى عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى اللّه ضعف الأمين وخيانة القوى ، ففي مضمون هذه الشكاية سؤال اللّه تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قويا أمينا يستعين به على ما كان بصدده رضى اللّه عنه . وهذا الإبهام – من ابنة شعيب صلوات اللّه عليه وسلامه – قد سلكته زليخا مع يوسف عليه السلام ، ولكن شتان ما بين الحياء المجبول والمستعمل ، ليس التكحل في العينين كالكحل ، حيث قالت لسيدها : ما جزاء من أراد بأملك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، وهي تعنى ما جزاء يوسف بما أرادنى من السوء إلا أن تسجنه أو تعذبه عذابا أليما

، ولكنها أو همت زوجها الحياء والخفر أن تنطق بالعصمة منسوبا إليها الخنا ، إيذانا بأن هذا الحياء منها الذي يمنعها أن تنطق بهذا الأمر ، يمنعها من مراودة يوسف بطريق الأحرى والأولى ، والله أعلم .

(3) ألا إن خير الناس حيا وميتا أسير ثقيف عندهم في السلاسل

لعمري إن عمرتم السجن خالدا وأوطأتموه وطأة المتثاقل

لقد كان نهاضا بكل ملمة ومعطي اللهى غمرا كثير النوافل

لأبي الشغب العبسي ، يتحزن على خالد بن عبد الله القسري حين أسره يوسف بن عمرو . وخير الناس : أفعل تفضيل ، مضاف إلى المعرف بأل ، وهو اسم إن . وحيا وميتا ، وروى هالكا : حالان منه . وأسير : خبر إن مضاف إلى ثقيف علم القبيلة . والعلم أعرف من المحلى بأل ، فخبر إن المضاف إليه أعرف من اسمها المضاف للمحلى ، ولا مانع منه مع اتحادا لما صدق الذي هو مراد المخبر . وعندهم في السلاسل : حال أو خبر بعد خبر . ولعمري : قسم ، إن عمرتم : أي أدخلتم وأسكنتم خالدا السجن . وأوطأتموه ، أي : صيرتموه يطأ برجله الأرض كوطأة المتثاقل :

الحامل لشيء ثقيل ، لجعل القيد في رجليه ، فهو كناية عن ذلك لقد كان نهاضا جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف ، أي : كان سريع القيام بكل نازلة ثقيلة ، وكان معطي اللهى – بالفتح – : جمع لهاة ، كحصى وحصاة ، بمعنى اللحمة التي في أقصى الفم ، لكنها

هنا بمعنى الفم نفسه . والأوجه أنه بالضم جمع لهوة ، كغرف : جمع غرفة بمعنى العطية من أى نوع كانت ، غمرا : أى عطاء كثيرا غامرا ، وكان كثير الزيادات في العطاء ، وأجرى «معطي» مجرى المرفوع للوزن .

(169/586)

في أن العناية هي سبب التقديم ، وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبرا اسما ، وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف . ومنه قولهم : أهون ما أعملت لسان ممخ «1» . وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف ، في قوله عَسى أَنْ يَنْفَعَنا وأبو بكر في عمر . روى أنه أنكحه صفراء . وقوله هاتَيْنِ فيه دليل على أنه كانت له غيرهما تَأْجُرَنِي من أجرته إذا كنت له أجيرا ، كقولك : أبوته إذا كنت له أبا ، وثَمانِيَ حِجَجٍ ظرفه . أو من أجرته كذا ، إذا أثبته إياه . ومنه : تعزية رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أجركم اللّه ورحمكم «2» . وثماني حجج : مفعول به ، ومعناه :

رعية ثماني حجج فإن قلت : كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز ؟ قلت : لم يكن ذلك عقدا للنكاح ، ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم «3» عليه ، ولو كان عقدا

لقال : قد أنكحتك ولم يقل : إني أريد أن أنكحك . فإن قلت : فكيف صح أن يمهرها إجارة نفسه في رعية الغنم ، ولا بد من تسليم ما هو مال ؟ ألا ترى إلى أبي حنيفة كيف منع أن يتزوج امرأة بأن يخدمها سنة «4» وجوّز أن يتزوّجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ، لأنه في الأول :

مسلم نفسه وليس بمال ، وفي الثاني : هو مسلم مالا وهو العبد أو الدار ، قلت : الأمر على مذهب أبي حنيفة على ما ذكرت . وأما الشافعي : فقد جوّز التزوّج على الإجارة لبعض الأعمال والخدمة ،

---

(1) . قوله «أهون ما أعملت لسان ممخ» في الصحاح : تمخيت من الشيء وأمخيت منه : إذا تبرأت منه اه ، فلعل ممخ : اسم فاعل من أمخيت . (ع) [. . . . .]

(2) . أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان من طريق أحمد بن الحسن بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن على عن آبائه إبراهيم بن الحسن عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها . قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا عزى قال : «آجركم اللّه ورحمكم» وإذا هنأ قال : «بارك اللّه لكم وبارك عليكم» وله شاهد مرسل أخرجه ابن أبي شيبة من رواية ابن خالد الوالبي : أن النبي صلى اللّه عليه وسلم عزى رجلا فقال له : «يرحمه اللّه ويأجركم» وفي الضعفاء لابن حبان عن ابن عمر : أن النبي صلى اللّه عليه وسلم عزى مسلما بذمي مات له ، فقال : «آجرك اللّه وأعظم أجرك» وفي إسناده

إسماعيل بن يحيى التيمي . وهو ساقط

(3) . قوله «ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه» لعله : ومواضعة (ع)

(4) . قال محمود : «نقل من مذهب أبي حنيفة منع النكاح على مثل خدمته بعينه ، وجوازه على مثل خدمة عبده سنة ، وفرق بأنه في الأولى سلم نفسه وليس بمال ، وفي الثانية سلم عبده وهو مال . ونقل عن الشافعي جواز النكاح على المنافع المعلومة مطلقا» قال أحمد : ومذهب ملك على ثلاثة أقوال : المنع ، والكراهة ، والجواز .

والعجب من إجازة أبي حنيفة النكاح على منافع العبد ، بخلاف منافع الزوج ، مع أن الآية أجازت النكاح على منافع الزوج ولم تتعرض لغيره ، وما ذاك إلا لترجيح المعنى الذي أشار إليه الزمخشري . أو تفريعا على أن لا دليل في شرع من قبلنا ، أو غير ذلك ، والله أعلم .

(170/586)

إذا كان المستأجر له أو المخدوم فيه أمرا معلوما ، ولعلّ ذلك كان جائزا في تلك الشريعة . ويجوز أن يكون المهر شيئا آخر ، وإنما أراد أن يكون راعى غنمه هذه المدّة ، وأراد أن ينكحه ابنته ، فذكر له المرادين ، وعلق الإنكاح بالرعية على معنى : إني أفعل هذا إذا فعلت ذاك على وجه المعاهدة لا على وجه المعاقدة . ويجوز أن يستأجره لرعية ثماني

سنين بمبلغ معلوم ويوفيه إياه ، ثم ينكحه ابنته به ، ويجعل قوله عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ عبارة عما جرى بينهما فَإِنْ أَتْمَمْتَ عمل عشر حجج فَمِنْ عِنْدِكَ فإتمامه من عندك .

ومعناه : فهو من عندك لا من عندي ، يعنى : لا ألزمكه ولا أحتمه عليك ، ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع ، وإلا فلا عليك وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ بإلزام أتمّ الأجلين وإيجابه .

فإن قلت : ما حقيقة قولهم : شققت عليه ، وشق عليه الأمر ؟ قلت : حقيقته أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين ، تقول تارة : أطيقه ، وتارة : لا أطيقه . أو وعده المساهلة والمسامحة من نفسه ، وأنه لا يشق عليه فيما استأجره له من رعى غنمه ، ولا يفعل نحو ما يفعل المعاسرون من المسترعين ، من المناقشة في مراعاة الأوقات ، والمداقة في استيفاء الأعمال ، وتكليف الرعاة أشغالا خارجة عن حدّ الشرط ، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام آخذين بالأسمح في معاملات الناس . ومنه الحديث «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شريكي ، فكان خير شريك لا يدارى ولا يشارى ولا يماري» «1» وقوله سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ يدل على ذلك ، يريد بالصلاح : حسن المعاملة ووطأة الخلق ولين الجانب «2» . ويجوز أن يريد الصلاح على العموم .

ويدخل تحته حسن المعاملة ، والمراد باشتراط مشيئة اللّه فيما وعد من الصلاح : الاتكال على توفيقه فيه ومعونته ، لا أنه يستعمل الصلاح إن شاء اللّه ، وإن شاء استعمل خلافه

ذِلكَ مبتدأ ، وبَيْنِي وَبَيْنَكَ خبره ، وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب ، يريد . ذلك

الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعا ، لا نخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت عليّ ولا أنت عما شرطت على نفسك . ثم قال : أي أجل من الأجلين قضيت : أطولهما الذي هو العشر ، أو أقصرهما الذي هو الثمان فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ أي لا يعتدى عليّ في طلب الزيادة عليه . فإن قلت : تصوّر العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعا ؟ قلت : معناه كما أني إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانا لا شك فيه ، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان . أراد بذلك تقرير أمر الخيار ، وأنه ثابت

---

(1) . أخرجه أبو داود ، وابن ماجة من حديث السائب أنه قال للنبي صلى اللّه عليه وسلم : كنت شريكي ، فكنت خير شريك . لا تداري ولا تماري .

(2) . قوله «و وطأة الخلق ولين الجانب» في الصحاح : «شيء وطئ» : بين الوطاءة . (ع)

(171/586)

مستقرّ ، وأن الأجلين على السواء : إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء . وأما التتمة فموكولة إلى رأيي : إن شئت أتيت بها ، وإلا لم أجبر عليها . وقيل : معناه فلا أكون متعدّيا ، وهو في نفي العدوان عن نفسه ، كقولك : لا إثم عليّ ، ولا تبعة عليّ . وفي

قراءة ابن مسعود : أى الأجلين ما قضيت . وقرئ : أيما ، بسكون الياء ، كقوله :

تنظّرت نصرا والسّماكين أيهما علىّ من الغيث استهلّت مواطره «1»

وعن ابن قطيب : عدوان ، بالكسر . فإن قلت : ما الفرق بين موقعى «ما» المزيدة في القراءتين ؟

قلت : وقعت في المستفيضة مؤكدة لإبهام ، أىّ : زائدة في شياعها : وفي الشاذة تأكيدا للقضاء ، كأنه قال : أى الأجلين صممت على قضائه وجردت عزيمتي له . الوكيل : الذي وكل إليه الأمر ، ولما استعمل في موضع الشاهد والمهيمن والمقيت «2» ، عدى بعلى لذلك . روى أنّ شعيبا كانت عنده عصى الأنبياء فقال لموسى بالليل : ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى . فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ، ولم يزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب ، فمسها - وكان مكفوفا ، فضنّ بها فقال : غيرها ، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات ، فعلم أنّ له شأنا . وقيل :

أخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقى بها موسى ليلا . وقيل : أودعها شعيبا ملك في صورة رجل ، فأمر بنته أن تأتيه بعصا ، فأتته بها فردها سبع مرّات فلم يقع في يدها غيرها ، فدفعها إليه ثم ندم لأنها وديعة ، فتبعه فاختصما فيها ، ورضيا أن يحكم بينهما أوّل طالع ، فأتاهما الملك فقال : ألقياها فمن رفعها فهي له ، فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى . وعن الحسن :

ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا . وعن الكلبي : الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج ، ومنها كانت عصاه . ولما أصبح قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك ، فإنّ الكلأ وإن كان بها أكثر ، إلا أنّ فيها تنينا «3» أخشاه عليك وعلى الغنم ، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها ، فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله ، فنام فإذا بالتنين قد أقبل ، فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية . فلما أبصرها دامية

---

(1) . للفرزدق . ونصر : هو ابن سيار ملك العراقين . والسماكان : كوكبان : السماك الأعزل لا نجم أمامه ، والسماك الرامح أمامه نجوم ، وأيهما أصله مشدد فسكن للضرورة ، ثم يحتمل أنه نصب بدل مما قبله ، وأنه معمول لمحذوف : أى لا أعلم أيهما وهو موصول . ويجوز أنه استفهام ، وعليه فهو رفع على الابتداء ، والضمير فيه راجع لنصر والسماكين ، أى : ترقبت نصرا والسماكين أيهما استهلت مواطره على من الغيث ، وأهل السحاب واستهل : اشتد انصبابه . والمواطر : السحائب . والغيث : المطر . وفي قرن نصر بالسماكين : دلالة على تشبيهه بهما في الخير وعلى الاستفهام ، فهو من باب تجاهل العارف ، وكذلك على نفى العلم .

(2) . قوله «والمهيمن والمقيت» أى : المقتدر ، أو الحافظ . (ع)

(3) . قوله «إلا أن فيها تنينا» أى : ثعبانا . (ع)

(172/586)

والتنين مقتولا ارتاح لذلك ، ولما رجع إلى شعيب مسّ الغنم ، فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن ، فأخبره موسى ففرح وعلم أنّ لموسى والعصا شأنا ، وقال له : إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كلّ أدرع ودرعاء»

، فأوحى إليه في المنام : أن اضرب بعصاك مستقى الغنم ، ففعل ، ثم سقى فما أخطأت واحدة إلا وضعت أدرع ودرعاء ، فوفى له بشرطه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 391.407 ﴾

(173/586)

وقال ابن جزى :

﴿ عَلاَ فِي الأرض ﴾

أي تكبر وطغا ﴿ شِيَعاً ﴾ أي فرقاً مختلفين ، فجعل فرعون القبطَ ملوكاً وبني إسرائيل خُداماً عليهم ، وهم الطائفة الذين استضعفهم ، وأراد الله أن يمنّ عليهم ويجعلهم أئمة : أي

ولاة في الأرض أرض فرعون وقومه .

﴿ وَهَامَانَ ﴾ وهو وزير فرعون ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلى أُمِّ موسى ﴾ اختلف هل كان هذا الوحي بإلهام أو منام أو كلام بواسطة الملك ، وهذا أظهر لثقتها بما أوحى إليها وامتثالها ما أمرت به ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ أي إذا خفت عليه أن يذبحه فرعون ؛ لأن كان يذبح أبناء بني إسرائيل ، لما أخبره الكهان أن هلاكه على يد غلام منهم ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ الالتقاط اللقاء من غير قصد ، رُوي أن آسية امرأة فرعون رأت التابوت في البحر ، وهو النيل فأمرت أن يساق لها ، ففتحته فوجدت فيه صبياً فأحبته ، وقالت لفرعون : هذا قرّة عين لي ولك ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً ﴾ اللام لام العاقبة وتسمى أيضاً لام الصيرورة ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ روي أن فرعون همّ بذبحه ، إذ توسم أنه من بني إسارئيل ، فقالت امرأته لا تقتلوه ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يشعرون أن هلاكهم يكون على يديه ، والضمير الفاعل لفرعون وقومه .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ أي ذاهلاً لا عقل معها ، وقيل : فارغاً من الصبر وقيل : فارغاً من كل شيء إلا من همّ موسى ، وقيل : فارغاً من وعد الله : أي نسيت ما أوحى إليها ، وقيل : فارغاً من الحزن إذ لم يغرق ، وهذا بعيد لما بعده . وقيل : فارغاً من كل شيء إلا من ذكر الله ، وقرىء فزعاً بالزاي من الفزع ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي تظهر أمره ، وفي الحديث كادت أمّ موسى أن تقول وابناه وتخرج صائحة على وجهها ﴿

رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ أي رزقناها الصبر ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ أي من المصدّقين بالوعد الذي وعدها الله .

(174/586)

﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي ابتعيه ، والقص طلب الأثر ، فخرجت أخته تبحث عنه في خفية ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ أي رأته من بعيد ، ولم تقرب منه لئلا يعلموا أنها أخته ، وقيل معنى عن جنب ؛ عن شوق إليه ، وقيل : معناه أنها نظرت إليه ، كأنها لا تريده ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أي لا يشعرون أنها أخته .

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾ أي منع بأن بغضها الله له ، والمراضع جمع مرضعة ، وهي المرأة التي ترضع ، أو جمع مرضع فتح الميم والضاد : وهو موضع الرضاع يعني الثدي ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من أول مرة ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ القائلة أخته تخاطب آل فرعون ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ ﴾ لما منعه الله من المراضع وقالت أخته : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ ﴾ الآية : جاءت بأمه فقبل ثديها ، فقال لها فرعون ومن أنت منه بذلكَ ، وعلمت أن وعد الله حق في قوله : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ [القصص : 7] ﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ ذكر في [يوسف : 22] ﴿ واستوى ﴾ أي كمل عقله ، وذلك من الأربعين سنة .

﴿ وَدَخَلَ المدينة ﴾ يعني مصر وقيل : قرية حولها ، والأول أشهر ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ ﴾ قيل : في القائلة وقيل بين العشاءين ، وقيل يوم عيد ، وقيل كان قد جفا فرعون وخاف على نفسه فدخل مختفياً متخوفاً ﴿ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ الذي من شعيته من بني إسرائيل ، والذي من عدوّه من القبط ﴿ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ أي ضربه ، والوكز الدفع بأطراف الأصابع وقيل : بجمع الكف ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ أي قتله ، ولم يرد أن يقتله ولكن وافقت وكزته الأجل ، فندم وقال : هذا من عمل الشيطان أي إن الغضب الذي أوجب ذلك كان من الشيطان ، ثم اعترف واستغفر فغفر الله له ، فإن قيل : كيف استغفر من القتل وكان المقتول كافراً ؟ فالجواب أنه لم يؤذن له في قتله ، ولذلك يقول يوم القيامة : إني قتلت نفساً لم أومر بقتلها .

(175/586)

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ الظهير المعين ، والباء سببية ، والمعنى بسبب إنعامك عليّ : لا أكون ظهيراً للمجرمين ، فهي معاهدة عاهد موسى عليها ربه ، وقيل الباء باء القسم ، هذا ضعيف لأن قوله : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ﴾ لا يصلح لجواب القسم ، وقيل : جواب القسم محذوف تقديره : وحق نعمتك لأتوبن ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً

لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وقيل الباء للتحليف : أي اعصمني بحق نعمتك عليّ ، ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، ويحتج بهذه الآية على المنع من صحبة ولاة الجور .

﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ في الموضعين أي يستحس هل يطلبه أحد ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أي يستغيث به ، لقي موسى الإسرائيليَّ الذي قاتل القبطي بالأمس يقاتل رجلاً آخر في من القبط ، فاستغاث بموسى لينصره كما نصره بالأمس ، فعظم ذلك على موسى وقال له : إنك لغوي مبين ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ الضمير في ﴿ أَرَادَ ﴾ في يبطش لموسى ، وفي قال للإسرائيلي ، والمعنى لما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الذي هو عدوّ له للإسرائيلي ، ظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به إذ قال له ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، فقال الإسرائيلي لموسى : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ﴾ ؟ وقيل : الضمير في أراد للإسرائيلي ، والمعنى فلما أراد الإسرائيلي أن يبطش موسى بالقبطي ، ولم يفعل موسى ذلك لندامته على قتله الآخر بالأمس ، فنصح الإسرائيلي ، فقال له : أتريد أن تقتلني فاشتهر خبر قتله للآخر إلى أن وصل إلى فرعون .

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ ﴾ قيل : إنه مؤمن آل فرعون ، وقيل : غيره ﴿ يسعى ﴾ أي يسرع في مشيه ليدرك موسى فينصحه ﴿ إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ يتشاورون : وقيل : يأمر بعضهم بعضاً بقتلك كما قتلت القبطي .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي قصد بوجهه ناحية مدين وهي مدينة شعيب عليه السلام ﴿ قَالَ عسى ربي أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ السبيل ﴾ أي وسط الطريق يعني طريق مدين ، إذ كان قد خرج فارّاً بنفسه ، وكان لا يعرف الطريق ، وبين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام ، وقيل : أراد سبيل الهدى وهذا أظهر ، ويدل كلامه هذا على أنه كان عارفاً بالله قبل نبوته .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ أي وصل إليه وكان بئراً ﴿ يَسْقُونَ ﴾ أي يسقون مواشيهم ﴿ امرأتين ﴾ روى أن اسمهما ليا وصفوريا ، وقيل : صفيرا وصفرا ﴿ تَذُودَانِ ﴾ أي تمنعان الناس عن غنمهما ، وقيل : تذودان غنمهما عن الماء حتى يسقي الناس ، وهذا أظهر لقولهما : ﴿ لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء ﴾ : أي كانت عادتهما ألا يسقيا غنمهما إلا بعد الناس لقوة الناس ولضعفهما ، أو لكراهتهما التزاحم مع الناس ﴿ يُصْدِرَ ﴾ بضم الياء وكسر الدار فعل متعدّ ، والمفعول محذوف تقديره حتى يصدر الرعاء مواشيهم ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر : يُصْدِرَ بفتح الياء وضم الدال أي ينصرفون عن الماء ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي لا يستطيع أن يباشر سقي غنمه ، وهذا الشيخ هو شعيب عليه السلام في قول الجمهور ، وقيل : ابن أخيه ، وقيل : رجل صالح ليس من شعيب بنسب ﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ أي أدركته شفقته عليهما فسقى غنمهما وروي أنه كان على فم البئر صخرة لا يرفعها

إلا ثلاثون رجلاً فرفعها وحده ﴿ تولى إِلَى الظل ﴾ أي جلس في الظل ، وروي أنه كان ظل سَمُرَة ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتدّ عليه الجوع .

(177/586)

﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا ﴾ قبل هذا كلام محذوف تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي ، أخبرتاه بما كان من أمر سقي الرجل لهما ، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته ، واختلف هل التي جاءته الصغرى أو الكبرى ﴿ عَلَى استحياء ﴾ رُوِيَ أنها سترت وجهها بكُم دِرْعِها والمجرور يتعلق بما قبله وقيل : بما بعده وهو ضعيف ﴿ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ﴾ أي ذكر له قصته ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ أي قد نجوت من فرعون وقومه .

﴿ استأجره ﴾ أي اجعله أجيراً لك ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين ﴾ هذا الكلام حكمة جامعة بليغة ، روي أن أباها قال لها من أين عرفت قوته وأمانته ، قالت أما قوته ففي رفعه الحجر عن فم البئر : وأما أمانته فإنه لم ينظر إليّ .

(178/586)

﴿ قَالَ إِنِي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي ﴾ زوجته التي دعته ، واختلف هل زوّجه الكبرى أو الصغرى ، واسم التي زوجه صفور ، وقيل : صفوريا ، ومن لفظ شعيب حَسُنَ أن يقال في عقود الأنكحة ، أنكحه إياها أكثر من أن يقال أنكحها إياه ﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ أيّ أزوجك بِنتي على أن تخدمني ثمانية أعوام ، قال مكي : في هذه الآية خصائص في النكاح ، منها أنه لم يعين الزوجة ، ولا حدّ أول الأمد ، وجعل المهر إجارة ، قلت : فأما التعيين فيحتمل أن يكون عند عقد النكاح بعد هذه المراودة ، وقد قال الزمخشري : إن كلامه معه لم يمكن عقد نكاح ، وإنما كان مواعدة وأما ذكر أول الأمد ، فالظاهر أنه من حيث العقد ، وأما النكاح بالإجازة فظاهر من الآية ، وقد قرر شرعنا حسبما ورد في الحديث الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم للرجل : " قد زوجكتها على ما معك من القرآن " ؛ أي على أن تعلمها ما عندك من القرآن ، وقد أجاز النكاح بالإجازة الشافعي وابن حنبل وأبو حنيفة للآية والحديث ، ومنعه مالك ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ ﴾ جعل الأعوام الثمانية شرطاً ، ووكل العامين إلى مروءة موسى ، فوفى له العشر ، وقيل : وفي العشرة وعشراً بعدها ، وهذا ضعيف لقوله . ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 102 . 105 ﴾

وقال الخازن :

قوله ﴿ طسم تلك ﴾

إشارة إلى آيات السورة ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ قيل هو اللوح المحفوظ وقيل هو الكتاب الذي أنزله على نبيه (صلى الله عليه وسلم) ووصفه بأنه مبين لأنه بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام .

﴿ نتلو عليك من نبأ ﴾ أي خبر ﴿ موسى وفرعون بالحق ﴾ أي بصدق ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي يصدقون بالقرآن ﴿ إن فرعون علا ﴾ أي تجبر وتكبر ﴿ في الأرض ﴾ أي أرض مصر ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أي فرقاً في أنواع الخدمة والتسخير ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾ سمى هذا استضعافاً لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ أي بالقتل والتجبر في الأرض ﴿ ونريد أن نمن ﴾ أي ننعم ﴿ على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ وجعلهم أئمة ﴾ أي قادة في الخير يقتدى بهم وقيل ولاة ملوكاً ﴿ وجعلهم الوارثين ﴾ يعني أملاك فرعون ، وقومه بأن نجعلهم في مساكنهم ﴿ ونمكن لهم في

الأرض ﴿ أي نوطن لهم أرض مصر والشام ، ونجعلها لهم سكناً ﴿ ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿ أي يخافون وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على يد رجل من بني إسرائيل وكانوا على حذر منه فأراهم الله ما كانوا يحذرون .

(180/586)

قوله تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴿ هو وحي إلهام ، وذلك بأن قذف في قلبها واسمها يوحانذ من نسل لاوي بن يعقوب ﴿ أن أرضعيه ﴿ قيل أرضعته ثمانية أشهر وقيل أربعة وقيل ثلاثة كانت ترضعه ، وهو لا يبكي ولا يتحرك في حجرها ﴿ فإذا خفت عليه ﴿ أي الذبح ﴿ فألقيه في اليم ﴿ أي في البحر وأراد نيل مصر ﴿ ولا تخافي ﴿ أي عليه من الغرق وقيل الضيعة ﴿ ولا تحزني ﴿ أي على فراقه ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴿ قال ابن عباس إن بني إسرئيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس ، وعملوا بالمعاصي ولم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر فسلط القبط فاستضعفوهم إلى أن اجازهم الله على يد نبيه موسى .

ذكر القصة في ذلك

(181/586)

قال ابن عباس : إن أم موسى لما تقاربت ولادتها ، كانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بجبالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت إليها ، وقالت لها : قد نزل بي ما نزل فلينفعني حبك إياي اليوم ، فعالجت قبالها فلما وقع موسى بالأرض هالها نور عيني موسى فارتعشت كل مفصل فيها ، ودخل حب موسى قلبها ثم قالت لها يا هذه ما جئت إليك حين دعوتني إلا مرادي قتل ولدك ، ولكن وجدت لولدك حباً ما وجدت حب شيء مثل حبه فاحفظي ابنك فإني أراه عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا إلى أم موسى ، فقالت أخته : يا أماه هذا الحرس بالباب فلفته بخرقة وألقته في التنور وهو مسجور ، وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع قال فدخلوا فإذا التنور مسجور ورأوا أم موسى ولم يتغير لها لون ، ولم يظهر لها لبن فقالوا ما أدخل القابلة قالت هي مصافية لي فدخلت علي زائرة ، فخرجوا من عندها فرجع إليها عقلها فقالت لأخته فأين الصبي ؟ فقالت : لا أدري فسمعت بكاء الصبي في التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً فاحتملته ، قال : ثم إن أم موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها ، فقذف الله في قلبها أن تتخذ تابوتاً له ثم تقذف التابوت في النيل فانطلقت إلى رجل نجار من قوم فرعون ، فاشترت منه تابوتاً صغيراً فقال النجار ما تصنعين بهذا التابوت ؟ فقالت : ابن لي أخبئه في التابوت ، وكرهت

الكذب قال ولم تقل أخشى عليه كيد فرعون ، فلما اشترت التابوت وحملته ، وانطلقت به انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمر أم موسى فلما هم بالكلام أمسك الله لسانه ، فلم يطلق الكلام وجعل يشير بيديه فلم تدر الأمناء ما يقول ، فلما أعياهم أمره قال كبيرهم : اضربوه فضربوه وأخرجوه فلما انتهى النجار إلى موضعه رد الله عليه لسانه فتكلم فانطلق أيضاً يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله لسانه وبصره فلم يطق

(182/586)

الكلام ، ولم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه ، وبقي حيران فجعل لله عليه إن رد عليه لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه فيحفظه ، حيثما كان فعرف الله صدقه فرد عليه لسانه وبصره فخر لله ساجداً فقال يا رب : دلني على هذا العبد الصالح فدله عليه فآمن به وصدقه وقال وهب لما حملت أم موسى بموسى ، كتمت أمرها عن جميع الناس فلم يطلع على حملها أحد من خلق الله تعالى وذلك شيء ستره الله تعالى لما أراد أن يمن به على بني إسرائيل فلما كانت السنة التي ولد فيها ، بعث فرعون القوابل وتقدم الأمين ففتش النساء تفتيشاً لم يفتش قبل ذلك مثله ، وحملت بموسى ولم يتغير لونها ولم ينب بطنها فكانت القوابل لا تتعرض لها فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها

أحد إلا أخته مريم وأوحى الله إليها ﴿ أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ﴾ فكتمته ثلاثة أشهر فلما خافت عليه عملت تابوتاً ، مطبقاً ، ثم ألقته في اليم وهو البحر ليلاً .

قال ابن عباس وغيره : كان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إليه وكان لها برص شديد كان فرعون قد جمع الأطباء والسحرة فنظروا في أمرها فقالوا : أيها الملك لا تبرأ إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا في ساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غداً فرعون إلى مجلس كان له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على شاطىء البحر مع جاوريها تلاعبهن وتنضح المساء على وجوههن إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج فقال فرعون : إن هذا الشيء في البحر قد تعلق بالشجر أئتوني به فابتدروه بالسفن من كل ناحية حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه .

(183/586)

فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فإذا هي بصبي صغير في التابوت وإذا نور بين عينيه وقد جعل الله رزقه في إبهامه يمص منه لبناً فألقى الله محبته في قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه .

وأقبلت بنت فرعون فلما أخرجوا الصبي من التابوت عمدت إلى ما يسيل من أشداقه من ريقه فلطخت به برصها فبرأت ثم قبلته وضمته إلى صدرها فقالت : الغواة من قوم فرعون أيها الملك إنا نظن أن ذلك المولود الذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا رمي به في البحر فزعاً منك فهم فرعون بقتله فقالت آسية : قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أي فنصيب منه خيراً أو نتخذه ولداً وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها .

وقال فرعون : أما أنا فلا حاجة لي فيه قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لو قال يومئذٍ قرة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها الله " فقيل لآسية سميه فقالت سميته موسى لأنا وجدناه في الماء والشجر لأن موسى هو الماء وهو الشجر .

قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ الالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب ﴿ ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ أي عاقبة أمرهم إلى ذلك لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً وحزناً ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ أي آثمين وقيل : هو من الخطأ ومعناه أنهم لم يشعروا أنه الذي يذهب بملكهم ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ولا يشعرون ﴾ قال وهب لما نظر إليه فرعون قال عبراني من

الأعداء فغاظه ذلك وقال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح وكانت آسية امرأة فرعون من خيار النساء ومن بنات الأنبياء .

وكانت اماً للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وأنت أمرت أن تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي .

(184/586)

وقيل : إنها قالت إنه أتانا من أرض أخرى وليس هو من بني إسرائيل فاستحياه فرعون وألقى الله محبته عليه قال ابن عباس لو أن عدو الله قال في موسى كما قالت آسية عسى أن ينفعنا لنفعه الله ولكنه أبى للشقاء الذي كتبه الله عليه قوله تعالى ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ﴾ أي خالياً من كل شيء إلا من ذكر موسى وهمه وقيل معناه ناسياً للوحي الذي أوحى الله إليه حين أمرها أن تلقيه في اليم ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذي عهد إليها أن يرده إليها ويجعله من المرسلين ، فجاءها الشيطان وقال كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله وألقيته في البحر وأغرقته .

ولما أتاها الخبر بأن فرعون أصابه في النيل قالت إنه قد وقع في يد عدوه الذي فررت منه فأنساه عظم البلاء ما كان من عهد الله إليها ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي لتصرح بأنه ابنها

من شدة وجلها .

قال ابن عباس كادت تقول وا ابناه وقيل لما رأت التابوت ترفعه موجة وتحطه أخرى خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شدة شفقتها عليه .

(185/586)

وقيل كادت تظهر أنه ابنها حين سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون فشق عليها ذلك وكادت تقول هو ابني وقيل كادت تبدي بالوحي الذي أوحى إليها ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ أي بالعصمة والصبر والتثبت ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ أي من المصدقين بوعد الله إياها ﴿ وقالت لأخته ﴾ أي لمريم أخت موسى ﴿ قصيه ﴾ أي اتبعي أثره حتى تعطي خبره ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ أي عن بعد قيل كانت تمشي جانباً وتنظره اختلاساً ترى أنها لا تنظره ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنها أخته وأنها ترقبه ﴿ وحرمنا عليه المراضع ﴾ المراد به المنع قيل مكث موسى ثمان ليال لا يقبل ثدياً قال ابن عباس إن امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد من ترضعه كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم في طلب من يرضعه لهم ﴿ من قبل ﴾ أي قبل مجيء أم موسى وذلك لما رأته أخت موسى التي أرسلتها أمه في طلب ذلك ﴿ فقالت ﴾ يعني أخت موسى ﴿ هل أدلكم على أهل

بيت يكفلونه لكم ﴾ أي يضمونه ويرضعونه وهي امرأة قتل ولدها فأحب ما تدعى إليه أن تجد صغيراً ترضعه ﴿ وهم له ناصحون ﴾ أي لا يمنعونه ما ينفعه من تربيته وغذائه والنصح إخلاص العمل من شوائب الفساد .

قيل لما قالت وهم له ناصحون قالوا : إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله قالت ما أعرفه ولكن قلت وهم للملك ناصحون وقيل : إنها قالت إنما قلت ذلك رغبة في سرور الملك واتصالنا به .

وقيل قالوا من هم قالت أمي قالوا ولأمك ولد قالت نعم هارون وكان هارون ولد في السنة التي لا يقتل فيها قالوا صدقت فأتينا بها فانطلقت إليها وأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه رياً قيل كانوا يعطونها كل يوم ديناراً .

(186/586)

قوله تعالى : ﴿ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ﴾ أي برد موسى إليها ﴿ ولا تحزن ﴾ أي لئلا تحزن ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أي برده إليها ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أن الله وعدها أن يرده إليها ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ قيل الأشد ما بين ثمانية عشر إلى ثلاثين سنة

وقيل الأشد ثلاث وثلاثون سنة ﴿ واستوى ﴾ أي بلغ أربعين سنة قاله ابن عباس : وقيل انتهى شبابه وتكامل ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ أي عقلاً وفهماً في الدين فعلم وحكم موسى قبل أن يبعث نبياً ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ قوله تعالى ﴿ ودخل المدينة ﴾ يعني موسى والمدينة قيل هي منف من أعمال مصر وقيل هي قرية يقال لها حايين على رأس فرسخين من مصر وقيل هي مدينة شمس ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ قيل هي نصف النهار واشتغال الناس بالقيلولة وقيل دخلها ما بين المغرب والعشاء وقيل سبب دخول المدينة في ذلك الوقت أن موسى كان يسمى ابن فرعون وكان يركب في مراكب فرعون ويلبس لباسه فركب فرعون يوماً وكان موسى غائباً فلما جاء قيل له إن فرعون قد ركب فركب موسى في أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها وليس في أطرافها أحد .

وقيل كان لموسى شيعة من بني إسرائيل يسمعون منه ويقتدون به فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينه حتى أنكروا ذلك منه وخافوه وخافهم فكان لا يدخل قرية إلا خائفاً مستخفياً على حين غفلة من أهلها .

وقيل لما ضرب موسى فرعون بالعصا في صغره فأراد فرعون قتله قالت امرأته هو صغير فتركه وأمر بإخراجه من مدينته فأخرج منه فلم يدخل عليهم حتى كبر وبلغ أشده فدخل على حين غفلة من أهلها يعني عن ذكر موسى ونسيانهم خبره ولبعد عهدهم به .

وعن علي أنه كان يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ أي يتخاصمان ويتنازعان ﴿ هذا من شعيته ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾ يعني من القبط وقيل هذا مؤمن وهذا كافر وقيل الذي كان من الشيعة هو السامري والذي من عدوه هو طباخ فرعون واسمه فاتون وكان القبطي يريد أن يأخذ الإسرائيلي يحمله الحطب .

وقال ابن عباس : لما بلغ موسى أشده لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسى لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم فوجد موسى رجلين يقتلان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من القبط ﴿ فاستغاثه الذي من شيعته ﴾ يعني الإسرائيلي ﴿ على الذي من عدوه ﴾ يعني الفرعوني والاستغاثة طلب الغوث والمعنى أنه سأله أن يخلصه منه وأن ينصره عليه فغضب موسى واشتد غضبه لأنه أخذه وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم ولا يعلم الناس إلا أنه من قبل الرضاعة فقال موسى للفرعوني : خلِّ سبيله فقال : إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه فقال الفرعوني لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في القوة ﴿ فوكزه موسى ﴾ يعني ضربه بجميع كفه وقيل الوكز الضرب في الصدر وقيل الوكز الدفع بأطراف الأصابع ﴿ فقضى عليه ﴾ يعني قتله وفرغ

من أمره فندم موسى عليه ولم يكن قصد القتل فدفنه في الرمل ﴿ قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ يعني بين الضلالة وقيل في قوله هذا إشارة إلى عمل المقتول لا إلى عمل نفسه ، والمعنى أن عمل هذا المقتول من عمل الشيطان والمراد منه بيان كونه مخالفاً لله سبحانه وتعالى مستحقاً للقتل وقيل هذا إشارة إلى المقتول يعني أنه من جند الشيطان وحزبه ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي ﴾ يعني بقتل القبطي من غير أمر وقيل هو على سبيل الاتضاع لله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب .

(188/586)

وقوله ﴿ فاغفر لي ﴾ يعني ترك هذا المندوب وقيل يحتمل أن يكون المراد ﴿ رب إن ظلمت نفسي ﴾ حيث فعل هذا فإن فرعون إذا عرف ذلك قتلني به فقال أي فاستره علي ولا توصل خبره إلى فرعون ﴿ فغفر له ﴾ أي فستره عن الوصول إلى فرعون ﴿ إنه هو الغفور الرحيم قال رب بما ﴾ أي بالمغفرة والستر الذي ﴿ أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ معناه فأنا لا أكون معاوناً لأحد من المجرمين قال ابن عباس الكافرين وفيه دليل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً .

قال ابن عباس لم يستثن فابتلي في اليوم الثاني أي لم يقل فلم أكن إن شاء الله ظهيراً للمجرمين ﴿ فأصبح في المدينة ﴾ أي التي قتل فيها القبطي ﴿ خائفاً يترقب ﴾ أي ينتظر سوءاً والترقب انتظار المكروه وقيل ينتظر متى يؤخذ به ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ﴾ أي يستغيث به من بعد .

قال ابن عباس : أتي فرعون فقيل له إن بني إسرائيل قتلوا منا رجلاً فخذ لنا بحقنا فقال اطلبوا قاتله ومن يشهد عليه فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة إذ مر موسى من الغد فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً فاستغاثه على الفرعوني وكان موسى قد ندم على ما كان منه بالأمس من قتل القبطي ﴿ قال له موسى ﴾ للإسرائيلي ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ أي ظاهر الغواية قاتلت رجلاً بالأمس فقتلته بسببك وتقاتل اليوم آخر وتستغيثني عليه .

(189/586)

﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ﴾ وذلك أن موسى أخذته الغيرة والرقة للإسرائيلي فمد يده ليبطش بالقبطي فظن الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لما رأى من غضب موسى وسمع قوله إنك لغوي مبين ﴿ قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ معناه أنه لم يكن علم أحد من قوم فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي حتى

أفشى عليه الإسرائيلي ذلك فسمعه القبطي فأتى فرعون فأخبره بذلك ﴿ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴾ أي بالقتل ظلماً وقيل الجبار هو الذي يقتل ويضرب ولا ينظر في العواقب وقيل هو الذي يتعاظم ولا يتواضع لأمر الله تعالى ﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ ولما فشا أن موسى قتل القبطي أمر فرعون بقتله فخرجوا في طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال إنه مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل وقيل شمعون وقيل سمعان وهو قوله تعالى ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ﴾ أي يسرع في مشيه وأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى وأخبره وأنذره بما سمع ﴿ قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ﴾ يعني يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك ﴾ وقيل يأمر بعضهم بعضاً بقتلك ﴿ فاخرج ﴾ يعني من المدينة ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ يعني في الأمر بالخروج ﴿ فخرج منها ﴾ يعني موسى ﴿ خائفاً ﴾ على نفسه من آل فرعون ﴿ يترقب ﴾ يعني ينتظر الطلب هل يلحقه فيأخذه ثم لجأ إلى الله تعالى لعلمه أنه لا ملجأ إلا إليه ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ يعني الكافرين .

(190/586)

وقوله تعالى ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ يعني قصد نحوها ماضياً قيل إنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأن أهل مدين من ولد إبراهيم وموسى من ولد إبراهيم ومدين هو مدين بن إبراهيم سميت البلد باسمه وبين مدين ومصر مسيرة ثمانية أيام ، قيل خرج موسى خائفاً بلا ظهر ولا زاد ولا أحد ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض حتى رأى خضرته في بطنه وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه قال ابن عباس وهو أول ابتلاء من الله لموسى ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ يعني قصد الطريق إلى مدين وذلك أنه لم يكن يعرف الطريق إليها قيل لما دعا موسى جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به إلى مدين .

قوله ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم ﴿ وجد عليه ﴾ يعني على الماء ﴿ أمة ﴾ يعني جماعة ﴿ من الناس يسقون ﴾ يعني مواشيهم ﴿ ووجد من دونهم ﴾ يعني سوى الجماعة وقيل بعيداً من الجماعة ﴿ امرأتين تذودان ﴾ أي تحبسان وتمنعان أغنامهما عن أن تند وتذهب والقول الأول لما بعده وهو قوله ﴿ قال ﴾ يعني موسى للمرأتين ﴿ ما خطبكما ﴾ أي ما شأنكما لا تسقيان مواشيكما مع الناس ﴿ قالتا لا نسقي ﴾ يعني أغنامنا ﴿ حتى يصدر الرعاء ﴾ أي حتى يرجع الرعاء من الماء والمعنى أنا امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال فإذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل ما بقي منهم من الحوض ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ أي لا يقدر أن يسقي مواشيه فلذلك

احتجنا نحن إلى سقي الغنم ، قيل أبوهما هو شعيب عليه الصلاة السلام .

وقيل هو يرون ابن أخي شعيب وكان شعيب قد مات بعد ما كف بصره وقيل هو رجل ممن آمن بشعيب فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما فاقتلع صخرة من على رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلا جماعة من الناس .

(191/586)

وقيل زاحم القوم ونحاهم كلهم عن البئر وسقى لهما الغنم وقيل لما فرغ الرعاء من السقي غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر فجاء موسى فرفع الحجر ونزع دلواً واحداً فيه بالبركة وسقى الغنم فرويت فذلك قوله ﴿ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل ﴾ يعني عدل إلي رأس الشجرة فجلس في ظلها من شدة الحر وهو جائع ﴿ فقال رب لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ معناه أنه طلب الطعام لجوعه واحتياجه إليه .

قال ابن عباس : إن موسى سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبة وعن ابن عباس قال : لقد قال موسى : ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة وقيل ما سأل إلا الخبز فلما رجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغنامهما حفل

بطان قال لهما ما أعجلكما ؟ قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لإحداهما اذهبي فادعيه إلي .

(192/586)

قال الله تعالى : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ قيل هي الكبرى واسمها صفوراء وقيل صفراء وقيل بل هي الصغرى واسمها ليا وقيل صفيراء وقال عمر بن الخطاب ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء وقيل استحيت منه لأنها دعته لتكافئه وقيل لأنها رسول أبيها ﴿ قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ قيل لما سمع موسى ذلك كره أن يذهب معها ولكن كان جائعاً فلم يجد بداً من الذهاب فمشت المرأة ومشى موسى خلفها فكان الريح تضرب ثوبها فتصف ردفها فكره موسى أن يرى ذلك منها فقال امشي خلفي ودليني على الطريق إذا أخطأت ففعلت ذلك فلما دخل موسى على شعيب إذ هو بالعشاء مهيئاً فقال : اجلس يا فتى فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذاك ألست جائع ؟ قال بلى ولكني أخاف أن يكون هذا عوضاً من الدنيا فقال له شعيب : لا والله يا فتى لكنها عادتي وعادة آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس وأكل فذلك قوله

﴿ فلما جاءه ﴾ أي موسى ﴿ وقص عليه القصص ﴾ أي أخبره بأمره أجمع من خبر ولادته وقتله القبطي وقصد فرعون قتله ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ يعني من فرعون وقومه وإنما قال ذلك لأنه لم يكن لفرعون سلطان على مدين ﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره ﴾ أي اتخذه أجيراً ليرعى أغنامنا ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ يعني إن خير من استعملت من قوي على العمل وأدى الأمانة فقال لها أبوها ما أعلمك بقوته وأمانته ؟ قالت أما قوته فإنه رفع الحجر من على رأس البئر ولا يرفعه إلا عشرة .

(193/586)

وقيل أربعون رجلاً وأما أمانته فإنه قال لي امشي خلفي حتى لا تصف الريح بدنك ﴿ قال ﴾ شعيب عند ذلك ﴿ إني أريد أن أنكحك ﴾ أي أزوجك ﴿ إحدى ابنتي هاتين ﴾ قيل زوجه الكبرى وقال الأكثرون إنه زوجه الصغرى منها واسمها صفوراء وهي التي ذهبت في طلب موسى ﴿ على أن تأجرني ثمان حجج ﴾ أي تكون لي أجيراً ثمان سنين ﴿ فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ أي فإن أتممت العشر سنين فذلك تفضل منك وتبرع ليس بواجب عليك ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ أي ألزمك تمام العشر إلا أن تتبرع ﴾

ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ أي في حسن الصحبة والوفاء بما قلت وقيل يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب وإنما قال إن شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته ﴿ قال ﴾ يعني موسى ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ يعني ما شرطت علي فلك وما شرطت من تزوج إحداهما فلي والأمر بيننا على ذلك ﴿ أيما الأجلين قضيت ﴾ أي أيّ الأجلين أتممت وفرغت منه الثمانية أو العشرة ﴿ فلا عدوان علي ﴾ أي لا ظلم علي بأن أطالب بأكثر منه ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ قال ابن عباس شهيد بيني وبينك (خ) عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت لا أدري حتى أقدم على خير العرب فاسأله فقدمت فسألت ابن عباس : فقال قضى أكثرهما وأطيبهما لأن رسول الله إذا قال فعل وروي عن أبي ذر مرفوعاً : " إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما وإذا سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره فتزوج صغراهما وقضى أوفاهما " .

(194/586)

وقال وهب أنكحه الكبرى وروى شداد بن أوس مرفوعاً بكى شعيب النبيّ (صلى الله عليه وسلم) حتى عمي فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ثم

بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره فقال الله له : ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار فقال : لا يا رب ولكن شوقاً إلى لقائك فأوحى الله إليه إن يكن ذلك فهنيئاً لك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك كليمي موسى ولما تعاقدا هذا العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصاه يدفع بها السباع عن غنمة قيل كانت من آس الجنة حملها آدم معه فتوارثها الأنبياء وكان لا يأخذها غير نبي إلا أكلته فصارت من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى .

ثم إن موسى لما قضى الأجل سلم شعيب إليه ابنته فقال لها موسى اطلبي من أبيك أن يجعل لنا بعض الغنم فطلبت من أبيها ذلك فقال لكما كل ما ولدت هذا العام على غير شيتها وقيل إن شعيباً أراد أن يجازي موسى على حسن رعيه إكراماً وصلة لابنته فقال له : إني قد وهبت لك ولد أغنامي كل أبلق وبلقاء في هذه السنة فأوحى الله تعالى إلى موسى في النوم أن أضرب بعصاك الماء ، ثم اسق الأغنام منه ففعل ذلك فما أخطأت واحدة إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب أن هذا رزق ساقه الله إلى موسى وامرأته فوفى له بشرطه وأعطاه الأغنام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 161 . 172 ﴾

(195/586)

وقال النسفى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسم تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب المبين ﴾

يقال بان الشيء وأبان بمعنى واحد ، ويقال أبنته فأبان لازم ومتعدٍ أي مبين خيره وبركته أو مبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والإخلاص والتوحيد ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ ﴾ نقرأ عليك أي يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول ﴿ نتلو ﴾ ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ أي نتلو عليك بعض خبرهما ﴿ بالحق ﴾ حال أي محقين ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لمن سبق في علمنا أنه مؤمن لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ ﴾ جملة مستأنفة كالتفسير للجمل كأن قائلاً قال : وكيف كان نبؤهما ؟ فقال : إن فرعون ﴿ عَلاَ ﴾ طغى وجاوز الحد في الظلم واستكبر وافتخر بنفسه ونسي العبودية ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرض مملكته يعني مصر ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ فرقاً يشيعونه على ما يريد ويطيعونه .

لا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه أو فرقاً مختلفة يكرم طائفة ويهين أخرى فأكرم القبطي وأهان الإسرائيلي ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مّنْهُمْ ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿ يُذَبّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءهُمْ ﴾ أي يترك البنات أحياء للخدمة ، وسبب ذبح الأبناء أن كاهناً قال له : يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده .

وفيه دليل على حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل ، وإن كذب فما معنى القتل .

ويستضعف حال من الضمير في ﴿ وجعل ﴾ أو صفة ل ﴿ شيعاً ﴾ أو كلام مستأنف و ﴿ يذبح ﴾ بدل من ﴿ يستضعف ﴾ ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ أي إن القتل ظلماً إنما هو فعل المفسدين إذ لا طائل تحته صدق الكاهن أو كذب .

(196/586)

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ نتفضل وهو دليل لنا في مسألة الأصلح ، وهذه الجملة معطوفة على ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون واقتصاصاً له ، أو حال من ﴿ يستضعف ﴾ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وإرادة الله تعالى كائنة فجعلت كالمقارنة لاستضعافهم ﴿ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قادة يقتدى بهم في الخير أو قادة إلى الخير أو ولاة وملوكاً ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ الوارثين ﴾ أي يرثون فرعون وقومه ملكهم وكل ما كان لهم ﴿ وَنُمَكِّنَ ﴾ مكن له إذا جعل له مكاناً يقعد عليه أو يرقد ، ومعنى التمكين ﴿ لَهُمْ فِى الأرض ﴾ أي أرض مصر والشام أن يجعلها بحيث لا تنبو بهم ويسلطهم وينفذ أمرهم ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهامان

وَجُنُودَهُمَا ﴾ بضم النون ونصب فرعون وما بعده ، وبالياء ورفع فرعون وما بعده : علي وحمزة أي يرون منهم ما حذروه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم ، ﴿ ويرى ﴾ نصب عطف على المنصوب قبله كقراءة النون أو رفع على الاستئناف ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من بني إسرائيل ويتعلق ب ﴿ نري ﴾ دون ﴿ يحذرون ﴾ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ الحذر : التوقي من الضرر .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ بالإلهام أو بالرؤيا أو بإخبار ملك كما كان لمريم ، وليس هذا وحي رسالة ولا تكون هي رسولاً ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ "أن" بمعنى أي أو مصدرية ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ من القتل بأن يسمع الجيران صوته فينمو عليه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى اليم ﴾ البحر ، قيل : هو نيل مصر ﴿ وَلاَ تَخَافِى ﴾ من الغرق والضياع ﴿ وَلاَ تَحْزَنِى ﴾ بفراقه ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ بوجه لطيف لتربيته ﴿ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾ وفي هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان .

(197/586)

والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع ، والحزن غم يلحقه لواقع وهو فراقه والإخطار به فنهيت عنهما وبشرت برده إليها وجعله من المرسلين .

ورُوي أنه ذبح في طلب موسى تسعون ألف وليد .

ورُوي أنها حين ضربها الطلق وكانت بعض القوابل الموكلات بجبالى بني إسرائيل مصافية لها فعالجتها فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ودخل حبه قلبها فقالت : ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ولكن وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله فاحفظيه ، فلما خرجت القابلة جاءت عيون فرعون فلفته في خرقة ووضعته في تنور مسجور لم تعلم ما تصنع لما طاش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئاً فخرجوا وهي لا تدري مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله النار برداً وسلاماً ، فلما ألح فرعون في طلب الولدان أوحي إليها بإلقائه في اليم فألقته في اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر

﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ ﴾ أخذه ، قال الزجاج : كان فرعون من أهل فارس من اصطخر ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً ﴾ أي ليصير الأمر إلى ذلك لا أنهم أخذوه لهذا كقولهم للموت ما تلده الوالدة وهي لم تلد لأن يموت ولدها ولكن المصير إلى ذلك كذا قاله الزجاج .

وعن هذا قال المفسرون : إن هذه لام العاقبة والصيرورة .

وقال صاحب الكشاف : هي لام كي التي معناها التعليل كقولك "جئتك لتكرمني" ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء ﴿ وَحَزَناً ﴾ ﴿ وحُزناً ﴾ علي وحمزة وهما لغتان كالعدم والعدم ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ

خاطئين ﴾ ﴿ خاطين ﴾ تخفيف خاطئين : أبو جعفر أي كانوا مذنبين فعاقبهم الله بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم ، أو كانوا خاطئين في كل شيء فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم .

(198/586)

﴿ وَقَالَتِ امرأت فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لّى وَلَكَ ﴾ روي أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه فعالجوا كسره فأعياهم فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً فعالجته ففتحه فإذا بصبي نوره بين عينيه فأحبوه وكانت لفرعون بنت برصاء فنظرت إلى وجهه فبرئت ، فقالت الغواة من قومه : هو الذي نحذر منه فأذن لنا في قتله ، فهمّ بذلك فقالت آسية : قرة عين لي ولك .

فقال فرعون : لك ، لا لي .

وفي الحديث " لو قال كما قالت لهداه الله تعالى كما هداها " وهذا على سبيل الفرض أي لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها وكان أسلم كما أسلمت .

و ﴿ قرة ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو قرة و ﴿ لي ولك ﴾ صفتان لقرة ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ خاطبته خطاب الملوك أو خاطبت الغواة ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ فإن فيه مخايل اليمن

ودلائل النفع وذلك لما عاينت من النور وبرء البرصاء ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أو نتبناه فإنه أهل لأن يكون ولداً للملوك ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ حال ، وذو حالها آل فرعون وتقدير الكلام : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء النفع منه وتبنيه .

وقوله ﴿ إن فرعون ﴾ الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم ، وما أحسن نظم هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان .

﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ وصار ﴿ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ صفراً من العقل لما دهمها من فرط الجزع لما سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ ﴾ لتظهر به والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته وأنه ولدها .

قيل : لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت كادت تصيح وتقول : وا ابناه .

وقيل : لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله فكادت تقول : وا ابناه شفقة عليه .

(199/586)

و "إن" مخففة من الثقيلة أي إنها كادت ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ لولا ربطنا على قلبها والربط على القلب تقويته بإلهام الصبر ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ من المصدقين بوعدنا وهو ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ وجواب "لولا" محذوف أي لأبدته أو فارغاً من الهم حين سمعت أن فرعون تبناه إن كادت لتبدي بأنه ولدها لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت لولا أنا طمأنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون .

قال يوسف بن الحسين : أمرت أم موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت ببشارتين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها

﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ ﴾ مريم ﴿ قُصِّيهِ ﴾ اتبعي أثره لتعلمي خبره ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ ﴾ أي أبصرته ﴿ عَن جُنُبٍ ﴾ عن بعد حال من الضمير في ﴿ به ﴾ أو من الضمير في ﴿ بصرت ﴾ ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنها أخته ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾ تحريم منع لا تحريم شرع أي منعناه أن يرضع ثدياً غير ثدي أمه وكان لا يقبل ثدي مرضع حتى أهمهم ذلك .

والمراضع جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع وهو الثدي أو الرضاع ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل قصها أثره أو من قبل أن نرده على أمه ﴿ فَقَالَتْ ﴾ أخته وقد دخلت بين المراضع ورأته لا يقبل ثدياً ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ أرشدكم ﴿ على أَهْلِ

بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ ﴾ أي موسى ﴿ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصحون ﴾ النصح إخلاص العمل من شائبة الفساد .

رُوي أنها لما قالت ﴿ وهم له ناصحون ﴾ قال هامان : إنها لتعرفه وتعرف أهله فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام ، فقالت : إنما أردت وهم للملك ناصحون .

(200/586)

فانطلقت إلى أمها بأمرهم فجاءت بها والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع ، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها ، فقال لها فرعون : ومن أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني ، فدفعه إليها وأجرى عليها وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله وعده في الرد فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبياً وذلك قوله :

﴿ فرددناه إلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بالمقام معه ﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ بفراقه ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ أي وليثبت علمها مشاهدة كما علمت خبراً .

وقوله ﴿ ولا تحزن ﴾ معطوف على ﴿ تقر ﴾ وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار كل يوم كما قال السدي لأنه مال حربي لا أنه أجرة على إرضاع ولدها ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ

﴿ هو داخل تحت علمها أي لتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون انه حق فيرتابون ، ويشبه التعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى فجزعت .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ بلغ موسى نهاية القوة وتمام العقل وهو جمع شدة كنعمة وأنعم عند سيبويه ﴿ واستوى ﴾ واعتدل وتم استحكامه وهو أربعون سنة .

ويروى أنه : " " لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة " ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ نبوة ﴿ وَعِلْماً ﴾ فقهاً أو علماً بمصالح الدارين ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي كما فعلنا بموسى وأمه نفعل بالمؤمنين .

(201/586)

قال الزجاج : جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين ، والعالم الحكيم من يعمل بعلمه لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 102] فجعلهم جهالاً إذ لم يعملوا بالعلم ﴿ وَدَخَلَ المدينة ﴾ أي مصر ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ حال من الفاعل أي مختفياً وهو ما بين العشاءين أو وقت القائلة يعني انتصاف النهار .

وقيل : لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل المدينة إلا على

تغفل ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ ﴾ ممن شايعه على دينه من بني إسرائيل .

قيل : هو السامري ، وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ﴿ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ من مخالفيه من القبط وهو قانون ، وقيل : فيهما هذا وهذا وإن كانا غائبين على جهة الحكاية أي إذا نظر إليهما الناظر قال : هذا من شيعته وهذا من عدوه ﴿ فاستغاثه ﴾ فاستنصره ﴿ الذى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ ضربه بجمع كفه أو بأطراف أصابعه ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ فقتله ﴿ قَالَ هذا ﴾ إشارة إلى القتل الحاصل بغير قصد ﴿ مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلماً لنفسه واستغفر منه لأنه كان مستأمناً فيهم ولا يحل قتل الكافر الحربي المستأمن ، أو لأنه قتله قبل أن يؤذن له في القتل ، وعن ابن جريج : ليس لنبي أن يقتل ما لم يؤمر ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة

(202/586)

﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ يا رب ﴿ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ بفعل صار قتلاً ﴿ فاغفرلى ﴾ زلتي ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ زلته ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور ﴾ بإقالة الزلل ﴿ الرحيم ﴾ بإزالة الخجل ﴿ قَالَ

رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً ﴾ معيناً ﴿ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ للكافرين و ﴿ بما أنعمت ﴾ على قسم جوابه محذوف تقديره أقسم بإنعامك علي بالمغفرة لأتوبن فلن أكون ظهيراً للمجرمين ، أو استعطاف كأنه قال : رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من المغفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيراً للمجرمين ، وأراد بمظاهرة المجرمين صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد .

﴿ فَأَصْبَحَ فِى المدينة خَائِفاً ﴾ على نفسه من قتله القبطي أن يؤخذ به ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ حال أي يتوقع المكروه وهو الاستقادة منه أو الأخبار أو ما يقال فيه ، وقال ابن عطاء : خائفاً على نفسه يترقب نصرة ربه .

وفيه دليل على أنه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس أنه لا يسوغ الخوف من دون الله ﴿ فَإِذَا الذى ﴾ ﴿ إذا ﴾ للمفاجأة وما بعدها مبتدأ ﴿ استنصره ﴾ أي موسى ﴿ بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يستغيثه والمعنى أن الإسرائيلي الذي خلصه موسى استغاث به ثانياً من قبطي آخر ﴿ قَالَ لَهُ موسى ﴾ أي للإسرائيلي ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ضال عن الرشد ظاهر الغي فقد قاتلت بالأمس رجلاً فقتلته بسببك ، والرشد في التدبير أن لا يفعل فعلاً يفضي إلى البلاء على نفسه وعلى من يريد نصرته .

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ ﴾ موسى ﴿ أَن يَبْطِشَ بالذى ﴾ بالقبطي الذي ﴿ هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ لموسى والإسرائيلي لأنه ليس على دينهما ، أو لأن القبط كانوا أعداء بني إسرائيل ﴿ قَالَ ﴾ الإسرائيلي لموسى عليه السلام وقد توهم أنه أراد أخذه لا أخذ القبطي إذ قال له ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ ﴿ يا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً ﴾ يعني القبطي ﴿ بالأمس إِن تُرِيدُ ﴾ ما تريد ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً ﴾ أي قتالاً بالغضب ﴿ فِى الأرض ﴾ أرض مصر ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ في كظم الغيظ ، وكان قتل القبطي بالأمس قد شاع ولكن خفي قاتله ، فلما أفشى على موسى عليه السلام علم القبطي أن قاتله موسى فأخبر فرعون فهموا بقتله .

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا المدينة ﴾ هو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون ﴿ يسعى ﴾ صفة لرجل أو حال من رجل لأنه وصف بقوله ﴿ من أقصى المدينة ﴾ ﴿ قَالَ يَا موسى أَنِ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ أي يأمر بعضهم بعضاً بقتلك أو يتشاورون بسببك ، والائتمار : التشاور .

يقال الرجلان يتآمران ويأتمران لأن كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر ﴿ فاخرج ﴾ من المدينة ﴿ إِنِّى لَكَ مِنَ الناصحين ﴾ ﴿ لك ﴾ بيان وليس بصلة ﴿ الناصحين ﴾ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول كأنه قال : إني من الناصحين ، ثم أراد أن

يبين فقال : لك كما يقال سقياً لك ومرحباً لك ﴿ فَخَرَجَ ﴾ موسى ﴿ مِنْهَا ﴾ من المدينة ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ التعرض له في الطريق أو أن يلحقه من يقتله ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ القوم الظالمين ﴾ أي قوم فرعون .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ ﴾ نحوها ، والتوجه الإقبال على الشيء ، ومدين قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في سلطان فرعون ، وبينما وبين مصر مسيرة ثمانية أيام .

(204/586)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : خرج ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه ﴿ قَالَ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاء السبيل ﴾ أي وسطه ومعظم نهجه فجاءه ملك فانطلق به إلى مدين

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ ﴾ وصل ﴿ مَاء مَدْيَنَ ﴾ ماءهم الذي يسقون منه وكان بئراً ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ على جانب البئر ﴿ أُمَّةً ﴾ جماعة كثيرة ﴿ مِنَ الناس ﴾ من أناس مختلفين ﴿ يُسْقَوْنَ ﴾ مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ في مكان أسفل من مكانهم ﴿ امرأتين تَذُودَانِ ﴾ تطردان غنمهما عن الماء لأن على الماء من هو أقوى منهما فلا تتمكنان من

السقي أو لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم ، والذود الطرد والدفع ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي ما مطلوبكما من الذياد فسمي المخطوب خطباً ﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِي ﴾ غنمنا ﴿ حتى يُصْدِرَ الرعاء ﴾ مواشيهم ﴿ يصدر ﴾ شامي ويزيد وأبو عمرو أي يرجع والرعاء جمع راعٍ كقائم وقيام ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ ﴾ لا يمكنه سقي الأغنام ﴿ كَبِيرٌ ﴾ في حاله أو في السن لا يقدر على رعي الغنم ، أبدتا إليه عذرهما في توليهما السقي بأنفسهما .

﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ فسقى غنمهما لأجلهما رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف .

روي أنه نحى القوم عن رأس البئر وسألهم دلواً فأعطوه دلوهم وقالوا : استق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة .

وترك المفعول في ﴿ يسقون ﴾ و ﴿ تذودان ﴾ و ﴿ لا نسقي ﴾ و ﴿ فسقى ﴾ لأن الغرض هو الفعل لا المعفول ، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقي ، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلاً ، وكذا في ﴿ لا نسقي ﴾ و ﴿ فسقى ﴾ فالمقصود هو السقي لا المسقى .

(205/586)

ووجه مطابقة جوابها سؤاله أنه سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب في ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ونستحي من الاختلاط بهم فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا .

وإنما رضي شعيب عليه السلام لابنتيه بسقي الماشية لأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور والدين لا يأباه ، وأما المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ أي ظل سمرة ، وفيه دليل جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة ولما طال البلاء عليه أنس بالشكوى إذ لا نقص في الشكوى إلى المولى ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا ﴾ لأي شيء ﴿ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ قليل أو كثير غثٍ أو سمين ﴿ فَقِيرٌ ﴾ محتاج ، وعدي ﴿ فقير ﴾ باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب .

قيل : كان لم يذق طعاماً سبعة أيام وقد لصق بظهره بطنه .

ويحتمل أن يريد أني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلي من خير الدارين وهو النجاة من الظالمين لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة ، قال ذلك رضاً بالبدل السني وفرحاً به وشكراً له .

وقال ابن عطاء : نظر من العبودية إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سره من

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحياء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ على استحياء في موضع الحال أي مستحية ، وهذا دليل كمال إيمانها وشرف عنصرها لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا ، فأتته مستحية قد استترت بكم درعها ، و "ما" في ﴿ ما سقيت ﴾ مصدرية أي جزاء سقيك .

روي أنهما ما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفّل قال لهما : ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا .

(206/586)

فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه لي فتبعها موسى عليه السلام فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ﴾ أي قصته وأحواله مع فرعون ، والقصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ إذ لا سلطان لفرعون بأرضنا ، وفيه دليل جواز العمل بخبر الواحد ولو عبداً أو أنثى والمشي مع الأجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع .

وأما أخذ الأجر على البر والمعروف فقيل : إنه لا بأس به عند الحاجة كما كان لموسى عليه

السلام ، على أنه روي أنها لما قالت ﴿ ليجزيك ﴾ كره ذلك وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها لأن للقاصد حرمة .

ولما وضع شعيب الطعام بين يديه امتنع فقال شعيب : ألست جائعاً ؟ قال : بلى ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سقيت لهما وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا ولا نأخذ على المعروف ثمناً .

فقال شعيب عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فأكل .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أبت استجره ﴾ اتخذه أجيراً لرعي الغنم .

رُوي أن كبراهما كانت تسمى صفراء والصغرى صفيراء ، وصفراء هي التي ذهبت به وطلبت إلى أبيها أن يستأجره وهي التي تزوجها ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استجرت القوى الأمين ﴾ فقال : وما علمك بقوته وأمانته ؟ فذكرت نزع الدلو وأمرها بالمشي خلفه .

وورد الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أن أمانته وقوته أمران متحققان .

وقولها ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ كلام جامع لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ، وقيل : القوي في دينه الأمين في جوارحه .

وقد استغنت بهذا لكلام الجاري مجرى المثل عن أن تقول استأجره لقوته وأمانته .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاث : بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ [يوسف : 21] ﴿ قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ ﴾ أزوجك ﴿ إِحْدَى ابنتى هَاتَيْنِ ﴾ قوله ﴿ هاتين ﴾ يدل على أنه كان له غيرها وهذه مواعدة منه ولم يكن ذلك عقد نكاح إذ لو كان عقداً لقال قد أنكحتك ﴿ على أَن تَأْجُرَنِى ﴾ تكون أجيراً لي من أجرته إذا كنت له أجيراً ﴿ ثَمَانِىَ حِجَجٍ ﴾ ظرف والحجة السنة وجمعها حجج والتزوج على رعي الغنم جائز بالإجماع لأنه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً ﴾ أي عمل عشر حجج ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ فذلك تفضل منك ليس بواجبة عليك ، أو فإتمامه من عندك ولا أحتمه عليك ولكنك إن فعلته فهو منك تفضل وتبرع ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ بإلزام أتم الأجلين ، وحقيقة قولهم : شققت عليه وشق عليه الأمر أن الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول تارة أطيقه وطوراً لا أطيقه ﴿ سَتَجِدُنِى إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ في حسن المعاملة والوفاء بالعهد ، ويجوز أن يراد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة .

والمراد باشتراطه مشيئة الله فيما وعد من الصلاح الاتكال على توفيقه فيه ومعونته لأنه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل ذلك

﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ ذلك ﴾ مبتدأ وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب والخبر ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ يعني ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم بيننا جميعاً لا يخرج كلانا عنه ، لا أنا فيما شرطت علي ولا أنت فيما شرطت على نفسك .

ثم قال ﴿ أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ ﴾ أي أي أجل قضيت من الأجلين يعني العشرة أو الثمانية .

(208/586)

و ﴿ أي ﴾ نصب ب ﴿ قضيت ﴾ و "ما" زائدة ومؤكدة لإبهام ﴿ أي ﴾ وهي شرطية وجوابها ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَىَّ ﴾ أي لا يعتدى علي في طلب الزيادة عليه ، قال المبرد : قد علم أنه لا عدوان عليه في أيهما ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء ، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذا طلب الزيادة على الأقل ﴿ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ هو من وكل إليه الأمر ، وعدي ب "على" لأنه استعمل في موضع الشاهد والرقيب .

رُوي أن شعيباً كانت عنده عصيّ الأنبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل : أدخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ، ولم يزل الأنبياء

عليهم السلام يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسها وكان مكفوفاً فضن بها فقال : خذ غيرهما فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له شأناً .

ولما أصبح قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلأ وإن كان بها أكثر إلا أن فيها تنيناً أخشاه عليك وعلى الغنم ، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على أثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا التنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية ، فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك .

ولما رجع إلى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً وقال له : إني وهبت لك من نتاج غنمي هذا العام كل أدرع ودرعاء فأوحي إليه في المنام أن أضرب بعصاك مستقى الغنم ففعل ثم سقى فوضعت كلهن أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 234.225 ﴾

(209/586)

وقال البيضاوى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ طسم تِلْكَ ءايَاتُ الكتاب المبين ﴾ .

﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ ﴾ نقرؤه بقراءة جبريل ، ويجوز أن يكون بمعنى ننزله مجازاً . ﴿ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ﴾ بعض نبئهما مفعول ﴿ نتلو ﴾ . ﴿ بالحق ﴾ محقين . ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون به .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الارض ﴾ استئناف "مبين" لذلك البعض ، والأرض أرض مصر . ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ فرقاً يشيعونه فيما يريد ، أو يشيع بعضهم بعضاً في طاعته أو أصنافاً في استخدامه استعمل كل صنف في عمل ، أو أحزاباً بأن أغرى بينهم العداوة كي لا يتفقوا عليه . ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾ وهم بنو إسرائيل ، والجملة حال من فاعل ﴿ جَعَلَ ﴾ أو صفة ل ﴿ شِيَعاً ﴾ أو استئناف ، وقوله : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ بدل منها ، كان ذلك لأن كاهناً قال له يولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يده ، وذلك كان من غاية حمقه فإنه لو صدق لم يندفع بالقتل وإن كذب فما وجهه . ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المفسدين ﴾ فلذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد . ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِى الأرض ﴾ أن نتفضل عليهم بإنقاذهم من بأسه ، ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ حكاية حال ماضية معطوفة على ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأرض ﴾ من

حيث إنهما واقعان تفسيرلل ﴿ نَبَأَ ﴾ ، أو حال من ﴿ يَسْتَضْعِفُ ﴾ ولا يلزم من مقارنة الإرادة للاستضعاف مقارنة المراد له ، لجواز أن يكون تعلق الإرادة به حينئذ تعلقاً استقبالياً مع أن منة الله بخلاصهم لما كانت قريبة الوقوع منه جاز أن تجري مجرى المقارن .

﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ مقدمين في أمر الدين . ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ﴾ لما كان في ملك فرعون وقومه .

(210/586)

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأرض ﴾ أرض مصر والشام ، وأصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعير للتسليط . وإطلاق الأمن . ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ ﴾ من بني إسرائيل . ﴿ مَّا كَانُواْ يَحْذَرونَ ﴾ من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ ويري ﴾ بالياء و ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا ﴾ بالرفع .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمّ موسى ﴾ بإلهام أو رؤيا . ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ما أمكنك إخفاؤه . ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ بأن يحس به . ﴿ فَأَلْقِيهِ فِى اليم ﴾ في البحر يريد النيل . ﴿ وَلاَ تَخَافِى ﴾ عليه ضيعة ولا شدة . ﴿ وَلاَ تَحْزَنِى ﴾ لفراقه . ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عن

قريب بحيث تأمنين عليه . ﴿ وجاعلوه مِنَ المرسلين ﴾ روي أنها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بني إسرائيل فعالجتها ، فلما وقع موسى على الأرض هالها نور بين عينيه وارتعشت مفاصلها ودخل حبه في قلبها بحيث منعها من السعاية ، فأرضعته ثلاثة أشهر ثم ألح فرعون في طلب المواليد واجتهد العيون في تفحصها فأخذت له تابوتاً فقذفته في النيل .

﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ تعليل لالتقاطهم إياه بما هو عاقبته ومؤداه تشبيهاً له بالغرض الحامل عليه . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ وَحَزَناً ﴾ . ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خاطئين ﴾ في كل شيء فليس ببدع منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون ، أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم على أيديهم ، فالجملة اعتراض لتأكيد خطئهم أو لبيان الموجب لما ابتلوا به ، وقرىء "خاطين" تخفيف ﴿ خاطئين ﴾ أو "خاطين" الصواب إلى الخطأ .

(211/586)

﴿ وَقَالَتِ امرأت فِرْعَوْنَ ﴾ أي لفرعون حين أخرجته من التابوت . ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لّى وَلَكَ ﴾ هو قرة عين لنا لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه ، أو لأنه كانت له ابنة

برصاء وعالجها الأطباء بريق حيوان بحري يشبه الإنسان فلطخت برصها بريقه فبرئت ، وفي الحديث أنه قال : لك لا لي . ولو قال هو لي كما هو لك لهداه الله كما هداها . ﴿ لاَ تَقْتُلُوهُ ﴾ خطاب بلفظ الجمع للتعظيم . ﴿ عسى أَن يَنفَعَنَا ﴾ فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع ، وذلك لما رأت من نور بين عينيه وارتضاعه إبهامه لبناً وبرء البرصاء بريقه . ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ أو نتبناه فإنه أهل له . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ حال من الملتقطين أو من القائلة والمقول له أي وهم لا يشعرون أنهم على الخطأ في التقاطه أو في طمع النفع منه والتبني له ، أو من أحد ضميري نتخذه على أن الضمير للناس أي ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنه لغيرنا وقد تبنيناه .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ﴾ صفراً من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون كقوله تعالى : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء ﴾ أي خلاء لا عقول فيها ، ويؤيده أنه قرىء "فرغاً" من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أي هدر ، أو من الهم لفرط وثوقها بوعد الله تعالى أو سماعها أن فرعون عطف عليه وتبناه . ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أنها كادت لتظهر بموسى أي بأمره وقصته من فرط الضجر أو الفرح لتبنيه . ﴿ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا ﴾ بالصبر والثبات . ﴿ لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ من المصدقين بوعد الله ، أو من الواثقين بحفظه لا بتبني فرعون وعطفه . وقرىء موسى إجراء للضمة في جوار الواو مجرى

ضمتها في استدعاء همزها همز واو وجوه وهو علة الربط ، وجواب ﴿ لَوْلاَ ﴾ محذوف دل عليه ما قبله .

(212/586)

﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ ﴾ مريم . ﴿ قُصّيهِ ﴾ اتبعي أثره وتتبعي خبره . ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ عن بعد وقرىء "عن جانب" "وعن جنب" وهو بمعناه . ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ أنها تقص أو أنها أخته .

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع ﴾ ومنعناه أن يرتضع من المرضعات ، جمع مرضع أو مرضع وهو الرضاع ، أو موضعه يعني الثدي . ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل قصها أثره . ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ﴾ لأجلكم . ﴿ وَهُمْ لَهُ ناصحون ﴾ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته ، روي أن هامان لما سمعه قال : إنها لتعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله ، فقالت : إنما أردت وهم للملك ناصحون ، فأمرها فرعون أن تأتي بمن يكفله فأتت بأمها وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعلله ، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال لها : من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها وأجرى عليها ، فرجعت به إلى بيتها من يومها ، وهو

قوله تعالى :

﴿ فرددناه إلى أُمّهِ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بولدها .

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ ﴾ بفراقه . ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ﴾ علم مشاهدة . ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن وعده حق فيرتابون فيه ، أو أن الغرض الأصلي من الرد علمها بذلك وما سواه تبع ، وفيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون .

(213/586)

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ مبلغه الذي لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ . وروي أنه لم يبعث نبي إلا على رأس الأربعين سنة . ﴿ واستوى ﴾ قده أو عقله . ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا ﴾ أي نبوة . ﴿ وَعِلْماً ﴾ بالدين ، أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه ، فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه ، وهو أوفق لنظم القصة لأن الاستنباء بعد الهجرة في المراجعة . ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمه . ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ على إحسانهم .

﴿ وَدَخَلَ المدينة ﴾ ودخل مصر آتياً من قصر فرعون وقيل منف أو حائين ، أو عين شمس من نواحيها . ﴿ على حِينِ غَفْلَةٍ مّنْ أَهْلِهَا ﴾ في وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعونه

فيه ، قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين . ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل والآخر من مخالفيه وهم القبط ، والإشارة على الحكاية . ﴿ فاستغاثه الذى مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذى ﴾ هو ﴿ مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ فسأله أن يغيثه بالإعانة ولذلك عدى ب ﴿ على ﴾ وقرىء "استعانه" . ﴿ فَوَكَزَهُ موسى ﴾ فضرب القبطي بجمع كفه ، وقرىء فلكزه أي فضرب به صدره . ﴿ فقضى عَلَيْهِ ﴾ فقتله وأصله فأنهى حياته من قوله ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر ﴾ ﴿ قَالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ﴾ لأنه لم يؤمر بقتل الكفار أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكن له اغتيالهم ، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ ، وإنما عده من عمل الشيطان وسماه ظلماً واستغفر منه على عادتهم في استعظام محقرات فرطت منهم . ﴿ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ بقتله . ﴿ فاغفر لى ﴾ ذنبي . ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ﴾ لاستغفاره . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الغفور ﴾ لذنوب عباده . ﴿ الرحيم ﴾ بهم .

(214/586)

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ قسم محذوف الجواب أي أقسم بإنعامك علي بالمغفرة وغيرها لأتوبن . ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أو استعطاف أي بحق إنعامك على أعصمني فلن أكون معيناً لمن أدت معاونته إلى جرم . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أنه لم يستثن فابتلي به مرة أخرى ، وقيل معناه بما أنعمت علي من القوة أعين أولياءك فلن أستعملها في مظاهرة أعدائك .

﴿ فَأَصْبَحَ فِى المدينة خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ يترقب الاستقادة . ﴿ فَإِذَا الذى استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ يستغيثه مشتق من الصراخ .

﴿ قَالَ لَهُ موسى إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ بين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر .

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأن القبط كانوا أعداء لبني إسرائيل . ﴿ قَالَ يَا موسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس ﴾ قاله الإسرائيلي لأنه لما سماه غوياً ظن أنه يبطش عليه ، أو القبطي وكأنه توهم من قوله أنه الذي قتل القبطي بالأمس لهذا الإسرائيلي . ﴿ إِن تُرِيدُ ﴾ ما تريد . ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِى الأرض ﴾ تطاول على الناس ولا تنظر في العواقب . ﴿ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ﴾ بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن ، ولما قال هذا انتشر الحديث وارتقى إلى فرعون وملئه وهموا بقتله فخرج مؤمن آل فرعون وهو ابن عمه ليخبره كما قال تعالى :

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى المدينة يسعى ﴾ يسرع صفة رجل ، أو حال منه إذا جعل من أقصى المدينة صفة له لا صلة لجاء لأن تخصيصه بها يلحقه بالمعارف . ﴿ قَالَ يَا موسى إِنَّ الملأ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ يتشاورون بسببك ، وإنما سمي التشاور ائتماراً لأن كلاً من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر . ﴿ فاخرج إِنِّى لَكَ مِنَ الناصحين ﴾ اللام للبيان وليس صلة ل ﴿ الناصحين ﴾ لأن معمول الصلة لا يتقدم الموصول .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ من المدينة . ﴿ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ لحوق طالب . ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ﴾ خلصني منهم واحفظني من لحوقهم .

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ قبالة مدين قرية شعيب ، سميت باسم مدين بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ولم تكن في سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمان . ﴿ قَالَ عسى رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاء السبيل ﴾ توكلاً على الله وحسن ظن به ، وكان لا يعرف الطريق فعن له ثلاث طرق فأخذ في أوسطها وجاء الطلاب عقيبه فأخذوا في الآخرين .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ ﴾ وصل إليه وهو بئر كانوا يسقون منها . ﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ ﴾ وجد فوق شفيرها . ﴿ أُمَّةً مِّنَ الناس ﴾ جماعة كثيرة مختلفين . ﴿ يُسْقَوْنَ ﴾

مواشيهم . ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ﴾ في مكان أسفل من مكانهم . ﴿ امرأتين تَذُودَانِ ﴾ تمنعان أغنامهما عن الماء لئلا تختلط بأغنامهم . ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ما شأنكما تذودان . ﴿ قَالَتَا لاَ نَسْقِى حتى يُصْدِرَ الرعاء ﴾ تصرف الرعاة مواشيهم عن الماء حذراً عن مزاحمة الرجال ، وحذف المفعول لأن الغرض هو بيان ما يدل على عفتهما ويدعوه إلى السقي لهما ثم دونه . وقرأ أبو عمرو وابن عامر "يُصْدِرَ" أي ينصرف . وقرىء "الرعاء" بالضم وهو اسم جمع كالرخال . ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ كبير السن لا يستطيع أن يخرج للسقي فيرسلنا اضطراراً .

(216/586)

﴿ فسقى لَهُمَا ﴾ مواشيهما رحمة عليهما . قيل كانت الرعاة يضعون على رأس البئر حجراً لا يقله إلا سبعة رجال أو أكثر فأقله وحده مع ما كان به من الوصب والجوع وجراحة القدم ، وقيل كانت بئراً أخرى عليها صخرة فرفعها واستقى منها . ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ ﴾ لأي شيء أنزلت إلي . ﴿ مِّنْ خَيْرٍ ﴾ قليل أو كثير وحمله الأكثرون على الطعام . ﴿ فَقِيرٌ ﴾ محتاج سائل ولذلك عدى باللام ، وقيل معناه إني لما أنزلت إلى من خير الدين صرت فقيراً في الدنيا ، لأنه كان في سعة عند فرعون

والغرض منه إظهار التبجح والشكر على ذلك .

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحياء ﴾ أي مستحيية متخفرة . قيل كانت الصغرى منهما وقيل الكبرى واسمها صفوراء أو صفراء وهي التي تزوجها موسى عليه اسلام . ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ ﴾ ليكافئك . ﴿ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ جزاء سقيك لنا ، ولعل موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابها ليتبرك برؤية الشيخ ويستظهر بمعرفته لا طمعاً في الأجر ، بل روي أنه لما جاءه قدم إليه طعاماً فامتنع عنه وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا حتى قال له شعيب عليه الصلاة والسلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا . هذا وأن كل من فعل معروفاً فأهدي بشيء لم يحرم أخذه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ﴾ يريد فرعون وقومه .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ﴾ يعني التي استدعته . ﴿ يا أبت استأجره ﴾ لرعي الغنم . ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوى الأمين ﴾ تعليل شائع يجري مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة فيه ، جعل ﴿ خَيْرُ ﴾ اسماً وذكر الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه امرؤ مجرب معروف . روي أن شعيباً قال لها وما أعلمك بقوته فذكرت إقلال الحجر وأنه صوب رأسه حتى بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه .

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِي ﴾ أي تأجر نفسك مني أو تكون لي أجيراً ، أو تثيبني من أجرك الله . ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ ظرف على الأولين ومفعول به على الثالث بإضمار مضاف أي رعية ثماني حجج . ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً ﴾ عملت عشر حجج . ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ فإتمامه من عندك تفضلاً لا من عندي إلزاما عليك . وهذا استدعاء العقد لا نفسه ، فلعله جرى على أجرة معينة ومهر آخر أو برعية الأجل الأول ووعد له أن يوفي الأخير إن تيسر له قبل العقد ، وكانت الأغنام للمزوجة مع أنه يمكن اختلاف الشرائع في ذلك . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ بإلزام إتمام العشر أو المناقشة في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال ، واشتقاق المشقة من الشق فإن ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك في إطاقته ورأيك في مزاولته . ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة .

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي ذلك الذي عاهدتني فيه قائم بيننا لا نخرج عنه . ﴿ أَيَّمَا الأجلين ﴾ أطولهما أو أقصرهما . ﴿ قُضِيَتِ ﴾ وفيتك إياه . ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ لا تعتدي علي بطلب الزيادة فكما لا أطالب بالزيادة على العشر لا أطالب بالزيادة على الثمان ، أو فلا أكون متعدياً بترك الزيادة عليه كقولك لا إثم علي ، وهو أبلغ في إثبات الخيرة وتساوي الأجلين في القضاء من أن يقال إن قضيت الأقصر فلا عدوان علي . وقرىء ﴿

أَيَّمَا ﴾ كقوله :

تَنَظَّرْتَ نَصْراً وَالسماكين أَيَّمَا . . . عَلَيَّ مِنَ الغَيْثِ اسْتَهَلَّتْ مَوَاطِرُه

وأي الأجلين ما قضيت فتكون ما مزيدة لتأكيد الفعل أي : أي الأجلين جردت عزمي لقضائه ، وعدوان بالكسر . ﴿ والله على مَا نَقُولُ ﴾ من المشارطة . ﴿ وَكِيلٌ ﴾ شاهد حفيظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 282 . 290 ﴾

(218/586)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة القصص

مكية إلا قوله تعالى : ﴿ إنّ الذي فرض ﴾

الآية نزلت بالجحفة ﴿ وإلا الذين آتيناهم الكتاب ﴾ إلى ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ وهي سبع أو ثمان وثمانون آية ، وألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة وخمسة آلاف وثمانمائة حرف ، وتسمى سورة موسى عليه السلام لاشتمالها على قصّته فقط من حين ولد إلى أن أهلك الله تعالى فرعون وخُسف بقارون ، كما سميت سورة نوح وسورة يوسف لاشتمالهما على قصتهما ، ولا يقال سميت بذلك لذكر القصص فيها في قوله تعالى :

﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ لأنّ سورة يوسف فيها ذكر القصص مرّتين الأولى : ﴿ نقص عليك أحسن القصص ﴾ والثانية : قوله تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم ﴾ فكانت سورة يوسف أولى بهذا الاسم ، وأيضاً فكانت سورة هود أولى بهذا الاسم ، لأنه ذكر فيها قصص سبعة أنبياء وهذه ليس فيها إلا قصة واحدة فكان ينبغي العكس وأن تسمى سورة هود القصص وهذه سورة موسى .

﴿ بسم الله ﴾ الذي اختص بالكبرياء والعظمة ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بنعمه أهل الإيمان والكفران ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بنعمه بعد البعث أهل الإيمان

﴿ طسم ﴾ تقدّم الكلام على أوائل السور أوّل البقرة .

﴿ تلك ﴾ أي : هذه الآيات العالية الشأن ﴿ آيات الكتاب ﴾ أي : المنزل على قلبك الجامع لجميع المصالح الدنيوية والأخروية والإضافة بمعنى من ﴿ المبين ﴾ أي : المظهر الحق من الباطل .

﴿ نتلو ﴾ أي : نقص قصاً متتابعاً متوالياً بعضه في إثر بعض ﴿ عليك ﴾ بواسطة جبريل عليه السلام ﴿ من نبأ ﴾ أي : خبر ﴿ موسى وفرعون بالحق ﴾ أي : بالصدق الذي يطابقه الواقع .

تنبيه : يجوز أن يكون مفعول نتلو محذوفاً دلت عليه صفته وهي من نبأ موسى ، تقديره نتلو عليك شيئاً من نبأ موسى ، ويجوز أن تكون من مزيدة على رأي الأخفش أي : نتلو عليك نبأ موسى ، وبالحق يجوز أن يكون حالاً من فاعل نتلو ومن مفعوله أي : نتلو عليك بعض خبرهما ملتبسين أو ملتبساً بالحق ، ثم نبه على أن هذا البيان كما سبق إنما ينفع أولي الإذعان بقوله تعالى : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ فغيرهم لا ينتفع بذلك ولما كان كأنه قيل ما المقصود من هذا قال .

﴿ إنّ فرعون ﴾ ملك مصر الذي ادّعى الإلهية ﴿ علا ﴾ أي : بادعاء الإلهية وتجبره على عباد الله وقهره لهم ﴿ في الأرض ﴾ أي : أرض مصر وإطلاقها يدل على تعظيمها وأنها كجميع الأرض لاشتمالها على ما قل أن يشتمل عليه غيرها ﴿ وجعل ﴾ أي : بما جعلنا له من نفوذ الكلمة ﴿ أهلها ﴾ أي : أهل الأرض المرادة ﴿ شيعاً ﴾ أي : فرقاً تتبع كل فرقة شيئاً يتبعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يكون عتيقه ، أو أصنافاً في استخدامه يسخر صنفاً في بناء ، وصنفاً في حفر ، وصنفاً في حرث ، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية ، أو فرقاً مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء وهم بنو إسرائيل والقبط .

وقوله تعالى ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ يجوز فيه ثلاثة أوجه أن يكون حالاً من فاعل جعل أي : جعلهم كذلك حالة كونه مستضعفاً طائفة منهم ، وأن يكون صفة لشيعاً وأن يكون استئنافاً بياناً لحال الأهل الذين جعلهم فرقاً وأصنافاً وهم بنو إسرائيل الذين كانت حياة جميع أهل مصر على يدي واحد منهم وهو يوسف عليه السلام وفعل معهم من الخير ما لم يفعله والد مع ولده ومع ذلك كافؤوه في أولاده وأولاد أخوته بأن استعبدوهم ثم ما كفاهم ذلك حتى ساؤهم على يدي العنيد سوء العذاب ،

قال البقاعي : وهذا حال الغرباء بينهم قديماً وحديثاً ثم بين الاستضعاف بقوله تعالى ﴿ يذبح أبناءهم ﴾ أي : عند الولادة وكَّل بذلك أناساً ينظرون كلما ولدت امرأة ذكراً ذبحوه وسبب ذلك أن كاهناً قال له سيولد مولود في بني إسرائيل يذهب ملكك على يديه فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاماً فقتلهم ، وبقي هذا العذاب في بني إسرائيل سنين كثيرة وكان ذلك من غاية حمق فرعون فإنه إن صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وإن كذب فما وجه القتل ﴿ ويستحيي نساءهم ﴾ أي : يريد حياة الإناث فلا يذبحهنّ ، وقال السدي : إنّ فرعون رأى في منامه ناراً أقبلت من بيت المقدس إلى مصر فأحرقت القبط دون بني

إسرائيل فسأل عن رؤياه فقيل له : يخرج من هذا البلد من بني إسرائيل رجل يكون هلاك مصر على يديه فأمر بقتل الذكور ، وقيل : إنّ الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه فسمع فرعون ذلك فأمر بذبح بني إسرائيل .

﴿ إنه ﴾ أي : فرعون ﴿ كان من المفسدين ﴾ فلذلك اجترأ على قتل خلق كثير من أولاد الأنبياء لتخيل فاسد ، قال وهب : ذبح فرعون في طلب موسى سبعين ألفاً من بني إسرائيل وقوله تعالى:

(221/586)

﴿ ونريد أن نمن ﴾ عطف على قوله : ﴿ إنّ فرعون علا في الأرض ﴾ لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيراً لنبأ موسى وفرعون وقصصاً له ، ونريد حكاية حال ماضية أي : نعطي بقدرتنا وعلمنا ما يكون جديراً أن نمن به ﴿ على الذين استضعفوا ﴾ أي : حصل استضعافهم وأهانهم بهذا الفعل الشنيع ولم يراقب فيهم مولاهم ﴿ في الأرض ﴾ أي : أرض مصر فذلوا وأهينوا ، ونريهم في أنفسهم وأعدائهم فوق ما يحبون وفوق ما يأملون ﴿ ونجعلهم أئمة ﴾ أي : مقدّمين في الدين والدنيا علماء يدعون إلى الجنة عكس ما يأتي من عاقبة آل فرعون ، وقال مجاهد : دعاة إلى الخير ، وقال قتادة : ولاة وملوكاً ، لقوله تعالى

: ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ (المائدة :)

وقيل : يقتدى بهم في الخير ﴿ ونجعلهم ﴾ أي : بعظمتنا وقدرتنا ﴿ الوارثين ﴾ أي : لملك مصر لا ينازعهم فيه أحد من القبط يخلفونهم في مساكنهم .

﴿ ونمكن ﴾ أي : نوقع التمكين ﴿ لهم في الأرض ﴾ أي : كلها لا سيما أرض مصر والشام بإهلاك أعدائهم وتأبيد ملكهم وتأييدهم بكلمة الله ، ثم بالأنبياء من بعده صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بحيث يسلطهم بسببهم على من سواهم بما يؤيدهم به من الملائكة ويظهر لهم من الخوارق ﴿ ونري ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ فرعون ﴾ أي : الذي كان هذا الاستضعاف منه ﴿ وهامان ﴾ وزيره ﴿ وجنودهما ﴾ أي : الذين كانا يتوصلان بهم إلى ما يريد أنه من الفساد فيقوى كل منهم بالآخر في الأرض فعلوا وطغوا ، وقوله تعالى ﴿ منهم ﴾ أي : المستضعفين متعلق بنري أو بنريد لا بيحذرون ، لأنّ ما بعد الموصول لا يعمل فيما قبله ﴿ ما كانوا يحذرون ﴾ أي : من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم .

(222/586)

وقرأ حمزة والكسائي : ويري بالياء مفتوحة وفتح الراء مع الإمالة وسكون الياء بعد الراء ورفع فرعون وهامان وجنودهما مضارع رأى مسند إلى فرعون وما عطف عليه فلذلك رفعوا ، وقرأ الباقون : بالنون مضمومة وكسر الراء وفتح الياء بعدها ونصب الأسماء الثلاثة مضارع أرى فلذلك نصب فرعون وما عطف عليه مفعولاً أوّل وما كانوا هو الثاني ، ثم ذكر تعالى أوّل نعمة منّ بها على الذين استضعفوا بقوله تعالى:

﴿ وأوحينا ﴾ أي : وحي إلهام أو منام ﴿ إلى أمّ موسى ﴾ لا وحي نبوّة ، قال قتادة : قذفنا في قلبها واسمها يوحا وهي بنت لاوي بن يعقوب ، وهذا هو الذي أمضينا في قضائنا أن يُسمى بهذا الاسم وأن يكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يده بعد أن ولدته وخافت أن يذبحه الذابحون ﴿ أن أرضعيه ﴾ ما كنت آمنة عليه ولم يشعر بولادته غير أخته ، قيل أرضعته ثمانية أشهر ، وقيل : أربعة أشهر ، وقيل : ثلاثة أشهر كانت ترضعه في حجرها وهو لا يبكي ولا يتحرّك ، وقد روي أنها أرضعته ثلاثة أشهر في تابوت من برديّ مطليّ من داخله بالقار ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ أي : منهم أن يصيح فيسمع فيذبح ﴿ فألقيه ﴾ أي : بعد أن تضعيه في شيء يقيه من الماء ﴿ في اليمّ ﴾ وهو البحر ولكن أراد هنا النيل ﴿ ولا تخافي ﴾ أي : لا يتجدد لك خوف أصلاً من أن يغرق أو يموت من ترك الرضاع ﴿ ولا تحزني ﴾ أي : ولا يوجد لك حزن لوقوع فراقه ، فإن قيل ما المراد بالخوفين حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر ؟

أجيب : بأنّ الخوف الأوّل هو الخوف عليه من القتل لأنه كان إذا صاح خافت عليه أن يسمع الجيران صوته فينمُّوا عليه ، وأما الثاني ، فالخوف من الغرق ومن الضياع ومن الوقوع في بعض العيون المبعوثة من قبل فرعون في تطلب الولدان وغير ذلك من المخاوف ، فإن قيل ما الفرق بين الخوف والحزن ؟ .

(223/586)

أجيب : بأنّ الخوف غم يلحق الإنسان لمتوقع ، والحزن غم يلحقه لواقع ، وهو فراقه والأخطار به فنيهت عنهما جميعاً وأومنت بالوحي لها ووعدت ما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤها غبطة وسروراً وهو ردّه إليها كما قال تعالى .

﴿ إنا رادّوه إليك ﴾ فأزال مقتضى الخوف والحزن ثم زادها بشرى وأيّ بشرى بقوله تعالى : ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ أي : الذين هم خلاصة المخلوقين ، وروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال : "إنّ بني إسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي ولم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر فسلط الله عليهم القبط فاضعفوهم إلى أن أنجاهم الله تعالى على يد نبيه وكليمه" .

قال ابن عباس : إنّ أم موسى لما تقاربت ولادتها وكانت قابلة من القوابل التي وكلهنّ فرعون

بجبالى بني إسرائيل مصافية لأم موسى فلما ضربها الطلق أرسلت إليها فقالت قد نزل بي ما نزل فلينفعني حبك إياي اليوم قال فعالجت قبالها فلما أن وقع موسى عليه السلام بالأرض هالها نور بين عيني موسى فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى قلبها ، ثم قالت لها يا هذه ما جئت إليك حين دعوتني إلا ومن ورائي قتل مولودك ولكن وجدت لابنك هذا حباً شديداً ما وجدت حب شيء مثل حبه فاحفظي ابنك فإني أراه هو عدوّنا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاؤوا إلى بابها ليدخلوا على أمّ موسى فقالت أخته : يا أماه هذا الحرس بالباب فلفت موسى في خرقة ووضعته في التنور وهو مسجور وطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع قال فدخلوا فإذا التنور مسجور وأمّ موسى لم يتغير لها لون فقالوا ما أدخل عليك القابلة فقالت هي مصافية لي دخلت عليّ زائرة فخرجوا من عندها فرجع إليها عقلها فقالت لأخت موسى فأين الصبي قالت لا أدري فسمعت بكاء الصبي من التنور فانطلقت إليه وقد جعل الله تعالى النار عليه برداً وسلاماً فاحتملته .

(224/586)

قال : ثم إنّ أمّ موسى لما رأت إلحاح فرعون في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله تعالى في نفسها أن تتخذ له تابوتاً صغيراً فقال : لها النجار ما تصنعين بهذا التابوت قالت :

ابن لي أخبؤه في هذا التابوت وكرهت الكذب قال ولم قالت أخشى عليه كيد فرعون فلما اشترت التابوت وحملته انطلقت ، انطلق النجار إلى الذباحين ليخبرهم بأمر موسى عليه السلام فلما همّ بالكلام أمسك الله تعالى لسانه فلم يطق الكلام وجعل يشير بيديه فلم يدر ما يقول فلما أعياهم أمره قال كبيرهم اضربوه فضربوه وأخرجوه فلما أتى النجار إلى موضعه ردّ الله تعالى لسانه فتكلم فانطلق أيضاً يريد الأمناء فأتاهم ليخبرهم فأخذ الله تعالى لسانه وبصره فلم يطق الكلام ولم يبصر شيئاً فضربوه وأخرجوه فوقع في واد يهوي فيه فجعل لله عليه أن ردّ لسانه وبصره أن لا يدل عليه وأن يكون معه يحفظه حيثما كان فعرف الله تعالى منه الصدق فردّ عليه لسانه وبصره فخرّ لله ساجداً فقال يا رب دلني على هذا العبد الصالح فدل عليه فخرج من الوادي وآمن به وصدّقه وعلم أنّ ذلك من الله عز وجل .

وقال وهب بن منبه : لما حملت أم موسى بموسى كتمت أمرها عن جميع الناس فلم يطلع على حبلها أحد من خلق الله وذلك شيء ستره الله لما أراد أن يمنّ به على بني إسرائيل فلما كانت السنة التي يذبح فيها بعث فرعون القوابل وتقدّم إليهنّ وفتشن تفتيشاً لم يفتش قبل ذلك وحملت أمّ موسى فلم تكبر بطنها ولم يتغير لونها ولم يظهر لبنها وكانت القوابل لا يتعرّضن لها فلما كانت الليلة التي ولد فيها ولدته ولا رقيب عليها ولا قابلة ولم يطلع عليها أحد إلا أخته مريم فلما خافت عليه عملت له تابوتاً مطبقاً ثم ألقته في البحر ليلاً .

﴿ فالتقطه ﴾ بالتابوت صبيحة الليل ﴿ آل ﴾ أي : أعوان ﴿ فرعون ﴾ فوضعوه بين يديه ، قال ابن عباس وغيره : كان لفرعون يومئذ بنت ولم يكن له ولد غيرها وكانت من أكرم الناس عليه وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها إلى فرعون وكان بها برص شديد وكان فرعون قد جمع لها أطباء مصر والسحرة فنظروا في أمرها فقالوا له أيها الملك لا تبرأ إلا من قبل البحر يوجد فيه شبه الإنسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك ، وذلك في يوم كذا وساعة كذا حين تشرق الشمس فلما كان يوم الاثنين غدا فرعون إلى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم وأقبلت ابنة فرعون في جواريها حتى جلست على شاطئ النيل مع جواريها تلاعبهنّ وتنضح الماء على وجوههنّ إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج فقال فرعون إنّ هذا لشيء في البحر قد تعلق بالشجر فائتوني به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها فعالجته ففتحت الباب فإذا هي بصبي صغير في مهده وإذا نور بين عينيه وقد جعل الله تعالى رزقه في إبهامه يمصه لبناً فألقى الله تعالى لموسى المحبة في قلب آسية وأحبه فرعون وعطف عليه وأقبلت بنت فرعون فلما أخرجوا الصبي من التابوت عمدت بنت فرعون إلى ما يسيل من ريقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته إلى صدرها فقالت الغواة من

قوم فرعون أيها الملك إنا نظنّ أنّ ذلك المولود الذي تحذر منه من بني إسرائيل هو هذا ، رمي به في البحر فرقاً منك فاقتله فهمّ فرعون بقتله فقالت آسية قرّة عين لي ولك واستوهبت موسى من فرعون وكانت لا تلد فوهبه لها ، وقال فرعون أما أنا فلا حاجة لي فيه .

(226/586)

وفي حديث قال رسول صلى الله عليه وسلم "لو قال يومئذ هو قرّة عين لي كما هو لك لهداه الله كما هداها" قال الزمخشري : وهذا على سبيل الفرض والتقدير أي : لو كان غير مطبوع على قلبه كآسية لقال مثل قولها ولأسلم كما أسلمت هذا إن صح الحديث تأويله والله أعلم بصحته انتهى ، ثم قال لآسية ما تسميه قالت سميته موسى لأنا وجدناه في الماء والشجر فمو هو الماء وسى هو الشجر فذلك قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً ﴾ أي : يطول خوفهم منه بمخالفته لهم في دينهم وحملهم على الحق وقتل رجالهم ﴿ وحزنا ﴾ أي : بزوال ملكهم لأنه يظهر فيهم الآيات التي يهلك الله تعالى بها من يشاء منهم ويستعبد نساءهم ثم يظفر بهم حتى يهلكهم الله تعالى بالغرق على يده إهلاك نفس واحدة فيعم الحزن والنواح أهل ذلك الإقليم كله تنبيه : في هذه اللام الوجهان المشهوران أحدهما : أنها للعلة المجازية دون الحقيقية لأنهم لم يكن داعيهم إلا الالتقاط أن يكون لهم عدوّاً وحزناً

ولكن المحبة والتبني غير أنّ ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتأدّب الذي هو ثمرة الضرب ليتأدّب ، وتحريره أنّ هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما استعير الأسد لمن يشبه الأسد ، والثاني : أنها للعاقبة والصيرورة لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوّاً وحزنا ولكن صار عاقبة أمره إلى ذلك .

(227/586)

وقرأ حمزة والكسائي : بضمّ الحاء وسكون الزاي ، والباقون بفتحهما وهما لغتان بمعنى واحد كالعدم والعدم ، ثم بين تعالى أنّ هذا الفعل لا يفعله إلا أحمق مقهور أو مغفل مخذول لا يكاد يصيب بقوله تعالى : ﴿إنّ فرعون وهامان﴾ وزيره ﴿وجنودهما﴾ أي : كلهم على طبع واحد ﴿كانوا خاطئين﴾ أي : في كل شيء فلا بدع منهم أن قتلوا ألوفاً لأجله ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون ، أو مذنبين فعاقبهم الله تعالى بما ربى عدوّهم على أيديهم .

وقال وهب : لما وضع التابوت بين يدي فرعون فتحه فوجد فيه موسى فلما نظر إليه قال كيف أخطأ هذا الغلام الذبح وكان فرعون قد استنكح امرأة من بني إسرائيل يقال لها آسية

بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الأنبياء عليهم السلام وكانت أماً للمساكين ترحمهم وتتصدّق عليهم وهي المذكورة في قوله تعالى:

﴿ وقالت امرأت فرعون ﴾ أي : له وهي قاعدة لجنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وإنما أمرت أن تذبح الولدان لهذه السنة فدعه ﴿ قرّة عين لي ﴾ أي : به ﴿ ولك ﴾ أي : يا فرعون لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه ، وروي أنها قالت إنه أتانا من أرض أخرى ليس من بني إسرائيل ، ولما أثبتت له أنه ممن تقرّ به العيون قالت ﴿ لا تقتلوه ﴾ أي : لا أنت بنفسك ولا أحد ممن تأمره بذلك ، ثم عللت ذلك واستأنفت بقولها ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ ولو كان له أبوان معروفان فإنّ فيه مخايل اليمن ودلائل النفع وذلك لما رأت من النور بين عينيه وارتضاعه من إبهامه لبناً وبرئه البرصاء بريقه ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أي : إذا كان لم يعرف له أبوان فيكون نفعه أكثر فإنه أهل لأن تتشرّف به الملوك .

تنبيه : التاء في قرّة عين مجرورة ، وقف عليها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالهاء ، والباقون بالتاء وهي خبر مبتدأ مضمر أي : هو قرّة عين ، والعامّة من القراء والمفسرين وأهل العلم على ذلك .

(228/586)

ونقل ابن الأنباري بسنده إلى ابن عباس أنه وقف على لا ، أي : هو قرّة عين لي فقط ولك لا أي : ليس هو لك قرّة عين ثم يبتدئ بقوله تقتلوه ، وقال ابن عادل : وهذا لا ينبغي أن يصح عنه وكيف يبقى تقتلوه من غير نون رفع ولا مقتض لحذفها فلذلك قال الفراء : هو لحن .

وقوله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ جملة حالية من كلام الله تعالى أي : لا شعور لهم أصلاً لأنّ من لا يكون له علم إلا باكتساب فكيف إذا كان مطبوعاً على قلبه وإذا كانوا كذلك فلا شعور لهم بما يؤول إليه أمرهم معه من الأمور الهائلة المؤدّية إلى هلاك المفسدين ، وقيل : إنّ ذلك من كلام امرأة فرعون كأنها لما رأت ملأه أشاروا بقتله قالت له افعل أنت ما أقول لك وقومك لا يشعرون أنا التقطناه ، قال الكلبي ولما أخبر الله تعالى عن حال من لقيه أخبر عن حال من فارقه بقوله تعالى:

﴿ وأصبح ﴾ أي : عقب الليلة التي حصل فيها فراقه ﴿ فؤاد أمّ موسى ﴾ أي : قلبها الذي زاد احتراقه شوقاً وخوفاً وحزناً وهذا يدل على أنها ألقته ليلاً ، واختلف في معنى قوله ﴿ فارغاً ﴾ فقال أكثر المفسرين : خالياً من كل همّ إلا من همّ موسى عليه السلام ، وقال الحسن : أي : ناسياً للوحي الذي أوحاه الله تعالى إليها حين أمرها أن تلقيه في البحر ولا تخاف ولا تحزن والعهد الذي عهد أن يرده إليها ويجعله من المرسلين فجاءها الشيطان وقال : كرهت أن يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجره وثوابه وتوليت أنت قتله فألقيتيه في البحر وأغرقتيه .

وقال الزمخشري : أي : صفراً من العقل والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش ونحوه قوله تعالى : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ (إبراهيم :)

أي : جوف لا عقول فيها وذلك أنّ القلوب مراكز العقول ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ (الحج :)

وقوله تعالى:

(229/586)

﴿ إن ﴾ هي المخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي : إنها ﴿ كادت ﴾ أي : قاربت ﴿ لتبدي ﴾ أي : يقع منها الإظهار لكل ما كان من أمره مصرّحة ﴿ به ﴾ أي : بأمر موسى عليه السلام من أنه ولدها ، وقال عكرمة : عن ابن عباس كادت تقول والله إبناه ، وقال مقاتل لما رأت التابوت يرفعه موج ويضعه آخر خشيت عليه الغرق فكادت تصيح من شفقتها ، وقال الكلبي : كادت تظهر أنه ابنها حين سمعت الناس يقولون لموسى بعدما شب موسى بن فرعون فشق عليها فكادت تقول هو ابني ، وقيل إنّ الهاء عائدة إلى الوحي أي : كادت لتبدي بالوحي الذي أوحى الله تعالى إليها أن يردّه عليها وجواب .

﴿ لولا أن ربطنا ﴾ محذوف أي : لا بدت به كقوله تعالى : ﴿ وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ (يوسف :)

والمعنى لولا أن ربطنا ﴿ على قلبها ﴾ بالعصمة والصبر والتثبت وقوله تعالى ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ متعلق بربطنا أي : من المصدقين بوعد الله تعالى وهو قوله تعالى : ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ ثم أخبر تعالى عن فعلها في تعرّف خبره بعد أن أخبر عن كتمها بقوله تعالى:

﴿ وقالت ﴾ أي : أمّه ﴿ لأخته ﴾ أي : بعد أن أصبحت على تلك الحالة قد خفي عليها أمره ﴿ قصيه ﴾ أي : اتبعي أثره وتشممي خبره براً وبحراً ففعلت ﴿ فبصرت ﴾ أي : أبصرت ﴿ به عن جنب ﴾ أي : مكان بعيد اختلاساً ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ جملة حالية ومتعلق الشعور محذوف أي : أنها أخته وأنها ترقبه بل هم في غاية الغفلة التي هي في غاية البعد عن رتبة الإلهية أو أنها تقصه ، أو أنه سيكون لهم عدوّاً وحزناً ، ثم ذكر تعالى أخذ الأسباب في ردّه بقوله تعالى:

(230/586)

﴿ وحرّمنا ﴾ أي : منعنا بعظمتنا ﴿ عليه المراضع ﴾ جمع مرضعة وهي من تكثري للإرضاع من الأجانب أي : حكمنا بمنعه من الارتضاع منهنّ فاستعير التحريم للمنع لأنه منع

فيه رحمة ، قال الرازي في اللوامع : تحريم منع لا تحريم شرع ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل أن تأمر أمّه أخته بما أمرتها به ، أو قبل قصها أثره أو قبل ولادته في حكمنا وقضائنا وهو أنه تعالى غير طبعه عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرتضع أو أحدث في لبنهنّ طعماً ينفر عنه طبعه أو وضع في لبن أمّه لذة تعوّد بها فكان يكره لبن غيرها ، فلما رأت أخت موسى التي أرسلتها أمّه في طلبه أنه لا يقبل ثدي امرأة وفي القصة أنّ موسى مكث ثمان ليال لا يقبل ثدياً ويصيح فقالوا لها هل عندك مرضعة تدلينا عليها لعله يقبل ثديها ، قال ابن عباس : أنّ امرأة فرعون كان همها من الدنيا أن تجد له مرضعة فكلما أتوه بمرضعة لم يأخذ ثديها ، فدنت أخته منه بعد نظرها له ﴿ فقالت ﴾ لما رأتهم في غاية الاهتمام برضاعه ﴿ هل ﴾ لكم حاجة في أني ﴿ أدلكم على أهل بيت ﴾ ولم تقل على امرأة لتوسع دائرة النظر ﴿ يكفلونه لكم ﴾ أي : يأخذونه ويتولونه ويقومون بجميع مصالحه من الرضاع وغيره لأجلكم ثم أبعدت التهمة عن نفسها فقالت هي امرأة قتل ولدها فأحب شيء إليها أن تجد صغيراً ترضعه ثم زادتهم رغبة بقولها ﴿ وهم له ناصحون ﴾ أي : ثابت نصحهم له لا يغشونه نوعاً من الغش ، قال البغوي : والنصح ضدّ الغش وهو تصفية العمل من شوائب الفساد ، قال السدي : لما قالت ذلك أخذوها وقالوا قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفه وقالت إنما أردت وهم للملك ناصحون فتخلصت منهم بذلك .

قال ابن عادل : وهذا يسمى عند أهل البيان الكلام الموجه ، ومثله لما سئل بعضهم وكان بين أقوام بعضهم يحبّ علياً دون غيره وبعضهم يحبّ أبا بكر وبعضهم عمر وبعضهم عثمان رضي الله تعالى عنهم ، فقيل له أيهم أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من كانت ابنته تحته ، وقيل : لما تفرسوا أنها عرفته قالت إنما قلت هذا رغبة في سرور الملك واتصالنا به وقيل إنها : لما قالت ذلك قالوا لها من ؟ فقالت أمي قالوا ولأمك ابن قالت نعم هارون وكان ولد في سنة لا يقتل فيها قالوا صدقت فائتينا بها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها بحال ابنها وجاءت بها إليهم فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها وجعل يمصه حتى امتلأ جنباه رياً فقالوا أقيمي عندنا فقالت لا أقدر على فراق بيتي إن رضيتم أن أكفله في بيتي وإلا فلا حاجة لي به وأظهرت الزهد فيه نفياً للتهمة فرضوا بذلك فرجعت به إلى بيتها فذلك قوله تعالى:

﴿ فرددناه إلى أمّه ﴾ ثم علله بقوله تعالى : ﴿ كي تقرّ عينها ﴾ أي : تبرد وتستقرّ ، وأصل قرّة العين من القرّ وهو البرد أي : بردت ونامت بخلاف سخنت عينه يقال أقرّ الله تعالى عينك من الفرح وأسخنها من الحزن فلهذا قالوا دمعة الفرح باردة ودمعة الحزن حارّة هذا قول الأصمعي ، قال أبو تمام:

*فأما عيون العاشقين فأسخنت ** وأما عيون الشامتين فقرت*

وقال أبو العباس : ليس كما قال الأصمعيّ بل كل دمع حارّ فمعنى أقرّ الله تعالى عينك صادفت سروراً فنامت وذهب سهرها وصادفت ما يرضيك أي : بلغك الله أقصى أملك حتى تقرّ عينك من النظر إلى غيره استغناء ورضا بما في يديك ﴿ ولا ﴾ أي : وكي لا ﴿ تحزن ﴾ أي : بفراقه ﴿ ولتعلم ﴾ أي : علماً هو عين اليقين كما كانت عالمة به علم اليقين وعلم شهادة كما كانت عالمة به علم غيب ﴿ أن وعد الله ﴾ أي : الأمر الذي وعدها به الذي له الكمال كله في حفظه وإرساله ﴿ حق ﴾ أي : هو في غاية الثبات في مطابقة الواقع ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي : أكثر آل فرعون وغيرهم ﴿ لا يعلمون ﴾ أنّ وعد الله حق فيرتابون فيه أولا يعلمون أنّ الله وعدها ردّه إليها ، قال الضحاك : لما قبل ثديها قال هامان إنك لأمه قالت لا قال فما له قبل ثديك من بين النسوة قالت أيها الملك إني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن فما شم ريحي صبي إلا أقبل على ثديي قالوا صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجوهر وأجرى عليها أجرها .

قال السدي : وكانوا يدفعون إليها كل يوم ديناراً ، فإن قيل : كيف حل لها أن تأخذ الأجر على إرضاع ولدها منه ؟

أجيب : بأنها ما كانت تأخذه على أنه أجر على الرضاع ولكنه مال حربي كانت تأخذه على الاستباحة فمكث عندها إلى أن فطمته واستمرّ عند فرعون يأكل من مأكوله ويشرب من مائه ويلبس من ملبوسه إلى أن كمل كما قال تعالى حكاية عنه في سورة الشعراء ﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ (الشعراء :)

(233/586)

﴿ ولما بلغ أشدّه ﴾ وهو ثلاثون سنة أو وثلاث كما قال مجاهد : وغيره ﴿ واستوى ﴾ أي : بلغ أربعين سنة كما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وقيل : اعتدل في السنّ وتم استحكامه بانتهاء شبابه وهو من العمر ما بين إحدى وعشرين سنة إلى اثنتين وأربعين ﴿ آتيناه ﴾ أي : ابتداء من غير اكتساب أصلاً ، خرقاً للعادة أسوة إخوانه من الأنبياء ﴿ حكماً ﴾ أي : عملاً محكماً بالعلم ﴿ وعلماً ﴾ أي : فقهاً في الدين تهيئة لنبوّته وإرصاداً لرسالته ، وقيل : المراد بالعلم علم التوراة والحكم السنة ، قال الزمخشري : وحكمة الأنبياء سنتهم قال الله تعالى ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة ﴾ (الأحزاب ،) ، وقيل : معناه آتيناه سيرة الحكماء العلماء وسمتهم قبل البعث فكان لا يفعل فعلاً يستجهل فيه .

قال البقاعي : واختار الله تعالى هذا السن للإرسال ليكون من جملة الخوارق لأنّ به يكون ابتداء الانتكاس الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ ومن نعمره ﴾ (يس :)

أي : إلى إكمال سنّ الشباب ﴿ ننكسه في الخلق ﴾ (يس :)

أي : نوقفه فلا يزداد بعد ذلك في قواه الظاهرة ولا الباطنة شيء أولا يوجد فيه غريزة لم تكن موجودة أصلاً عشر سنين ثم يأخذ في النقصان هذه عادة الله في جميع بني آدم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم في حدّ الوقوف يؤتون من بحار العلوم ما يقصر عنه الوصف بغير اكتساب بل غريزة يغرزها الله تعالى فيهم حينئذ ويؤتون من قوّة الأبدان أيضاً بمقدار ذلك ففي انتكاس غيرهم يكون نموهم وكذا من ألحقه الله تعالى بهم من صالحي أتباعهم كما قال تعالى .

﴿ وكذلك ﴾ أي : مثل هذا الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي : كلهم على إحسانهم ، ولما أخبر تعالى بتهيئته للنبوّة أخبر بما هو سبب لهجرته وكأنها سنة بعد إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى:

(234/586)

﴿ ودخل ﴾ أي : موسى عليه السلام ﴿ المدينة ﴾ قال السدي : هي مدينة منف من أرض مصر ، وقال مقاتل : كانت قرية تدعى جابين على رأس فرسخين من مصر ، وقيل : مدينة عين شمس ، وقيل : غير ذلك ﴿ على حين غفلة من أهلها ﴾ وهو وقت القائلة واشتغال الناس بالقيلولة ، وقال محمد بن كعب القرظي : دخلها فيما بين المغرب والعشاء ، وقيل : يوم عيد لهم وهم مشتغلون فيه بلهوهم ، وقيل : لما شب وعقل أخذ يتكلم بالحق وينكر عليهم فأخافوه فلا يدخل قرية إلا على تغفل واختلف في السبب الذي من أجله دخل المدينة في هذا الوقت .

قال السدي : وذلك أن موسى كان يسمى ابن فرعون فكان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ملابسه فركب فرعون يوماً وليس عنده موسى فلما جاء موسى قيل له إن فرعون قد ركب فركب في أثره فأدركه المقيل بأرض منف فدخلها نصف النهار وليس في طرقها أحد .

(235/586)

وقال ابن إسحاق : كان لموسى شيعة من بني إسرائيل يسمعون منه ويقتدون برأيه فلما عرف ما هو عليه من الحق رأى فراق فرعون وقومه فخالفهم في دينهم فأخافوه فكان لا

يدخل قرية إلا خائفاً مستخفياً ، وقال ابن زيد : ولما علا موسى فرعون بالعصا في صغره فأراد فرعون قتله فقالت امرأته هو صغير فترك قتله وأمر بإخراجه من مدينته فلم يدخل عليهم إلا بعد أن كبر وبلغ أشدّه ﴿ فوجد فيها ﴾ أي : المدينة ﴿ رجلين يقتتلان ﴾ أي : يفعلان مقدّمات القتل مع الملازمة من الضرب والخنق وهما إسرائيلي وقبطيّ ، ولهذا قال تعالى مجيباً لمن كان يسأل عنهما وهو ينظر إليهما ﴿ هذا من شيعته ﴾ أي : من بني إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أي : من القبط ، قال مقاتل : كانا كافرين إلا أن أحدهما من القبط والآخر من بني إسرائيل لقول موسى عليه السلام ﴿ إنك لغويّ مبين ﴾ والمشهور أن الإسرائيلي كان مسلماً قيل إنه السامريّ والقبطي طباخ فرعون فكان القبطي يسخر الإسرائيلي ليحمل الحطب إلى المطبخ ، وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس لما بلغ موسى أشدّه لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل بظلم حتى امتنعوا كل الامتناع وكان بنو إسرائيل غزُّواً لمكان موسى لكونه ربيب الملك مع أن مرضعته منهم لا يظنون أن سبب ذلك إلا الإرضاع ﴿ فاستغاثه ﴾ أي : طلب منه ﴿ الذي من شيعته ﴾ أن يغيثه ﴿ على الذي من عدوّه ﴾ فغضب موسى عليه السلام واشتدّ غضبه وقال للفرعوني خل سبيله فقال : إنما أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك فنازعه فقال الفرعوني لقد هممت أن أحمله عليك وكان موسى عليه السلام قد أوتي بسطة في الخلق وشدّة في القوّة والبطش ﴿ فوكزه موسى ﴾ أي : دفعه بجمع كفه ، والفرق بين الوكز واللكز

: أنّ الأوّل : بجمع الكف والثاني : بأطراف الأصابع ، وقيل : بالعكس ، وقيل اللكز في الصدر والوكز في الظهر ﴿ فقضى ﴾ أي : فأوقع القضاء الذي هو القضاء على الحقيقة وهو الموت الذي لا ينجو منه مخلوق ﴿ عليه ﴾ فقتله وفرغ منه ،

(236/586)

وكل شيء فرغت منه

فقد قضيته وقضيت عليه وخفي هذا على الناس لما هم فيه من الغفلة فلم يشعر به أحد فندم موسى عليه السلام عليه ولم يكن قصده القتل فدفنه في الرمل .

﴿ قال هذا ﴾ أي : قتله ﴿ من عمل الشيطان ﴾ أي : لأني لم أومر به على الخصوص ولم يكن من قصدي وإن كان المقتول كافراً حربياً ، ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه بقوله ﴿ إنه عدوّ ﴾ فينبغي الحذر منه ﴿ مضلّ ﴾ لا يقود إلى خير أصلاً ﴿ مبين ﴾ أي : عداوته وإضلاله في غاية البيان ما في شيء منهما خفاء ولما لم يكن في قتله إلا الندم لعدم إذن خاص .

﴿ قال رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ إني ظلمت نفسي ﴾ أي : بالإقدام على ما لم تأمرني به بالخصوص وإن كان مباحاً ﴿ فاغفر لي ﴾ أي : امحُ هذه الهفوة عينها وأثرها

﴿ لي ﴾ أي : لأجلي لا تؤاخذني ﴿ فغفر ﴾ أي : أوقع المحو لذلك كما سأل إكراماً ﴿ له إنه هو ﴾ أي : وحده ﴿ الغفور ﴾ أي : البالغ في صفة الستر لكل من يريد ﴿ الرحيم ﴾ أي : العظيم الرحمة بالإحسان بالتوفيق إلى الأفعال المرضية لمقام الإلهية ولأجل أن هذه صفته ردّه إلى فرعون وقومه حين أرسله إليهم فلم يقدروا على مؤاخذته بذلك بقصاص ولا غيره بعد أن نجا منهم قبل إرساله على غير قياس ، ثم شكر ربه على هذه النعمة التي أنعم بها عليه بأن .

﴿ قال رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ بما أنعمت عليّ ﴾ أي : بسبب إنعامك عليّ بالمغفرة ﴿ فلن أكون ﴾ أي : إن عصمتني ﴿ ظهيراً ﴾ أي : عوناً وعشيراً وخليطاً ﴿ للمجرمين ﴾ قال ابن عباس : للكافرين وهو إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكسيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يسمى ابن فرعون ، وإما مظاهرة من تؤل مظاهرته إلى الجرم والإثم كما في مظاهرة الإسرائيلي المؤدّية إلى القتل الذي لم يؤمر به وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ (هود :)

(237/586)

وعن عطاء أن رجلاً قال له إنّ أخي يضرب بقلمه ولا يعد و رزقه قال فمن الرأس يعني من يكتب له قال خالد بن عبد الله القسري قال فأين قول موسى وتلا هذه الآية .

وفي الحديث : "ينادي مناد يوم القيامة أين الظلمة وأشباه الظلمة حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلماً فيجمعون في تابوت من حديد فيرمي بهم في جهنم" وقول ابن عباس يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى عليه السلام كان كافراً وهو قول مقاتل : وقال قتادة : أني لا أعين بعدها على خطيئة ، وقيل : بما أنعمت عليّ من القوة فلن أستعملها إلا في مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك والإيمان بك ، قال ابن عباس : لم يستثن أي : لم يقل فلن أكون إن شاء الله تعالى فابتلي به في اليوم الثاني كما قال تعالى:

﴿ فأصبح في المدينة ﴾ أي : التي قتل القتيل فيها ﴿ خائفاً ﴾ أي : بسبب قتله له ﴿ يترقب ﴾ أي : ينتظر ما يناله من جهة القتيل ، قال البغويّ : والترقب انتظار المكروه ، وقال الكلبيّ : ينتظر متى يؤخذ به ﴿ فإذا ﴾ أي : ففجأه ﴿ الذي استنصره ﴾ أي : طلب نصرته من شيعته ﴿ بالأمس ﴾ أي : اليوم الذي يلي يوم الاستصراخ ﴿ يستصرخه ﴾ أي : يطلب أن يزيل ما يصرخ بسببه من الضر من قبطيّ آخر كان يظلمه ، فكأنه قيل : فما قال له موسى بعد ما أوقعه فيما يكره فقيل ﴿ قال له ﴾ أي : لهذا المستصرخ ﴿ موسى إنك لغويّ ﴾ أي : صاحب ضلال بالغ ﴿ مبين ﴾ أي : واضح

الضلال غير خفيه لكون ما وقع بالأمس لم يكفك عن الخصومة لمن لا تطيقه وإن كنت مظلوماً ثم دنا منهما لينصره .

(238/586)

﴿ فلما أن أراد ﴾ أي : شاء فإن مزيدة ﴿ أن يبطش ﴾ أي : موسى عليه السلام ﴿ بالذي هو عدوّ لهما ﴾ أي : لموسى والإسرائيلي لأنه لم يكن على دينهما ولأنّ القبط كانوا أعداء بني إسرائيل بأن يأخذه بعنف وسطوة لخلاص الإسرائيلي منه ﴿ قال ﴾ أي : الإسرائيلي الغويّ لأجل ما رأى من غضبه وتكليمه له ظاناً أنه يريد البطش به ﴿ يا موسى ﴾ ناصاً عليه باسمه ﴿ أتريد أن تقتلني ﴾ أي : اليوم وأنا من شيعتك ﴿ كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ أي : من شيعة أعدائنا والذي يدل على أن الإسرائيلي هو الذي قال له هذا الكلام السياق ، وعليه الأكثرون ، لأنه لم يعلم بقتل القبطي غير الإسرائيلي ، وقيل : إنما قال موسى للفرعوني ﴿ إنك لغويّ مبين ﴾ بظلمك ويناسبه قوله ﴿ إن ﴾ أي : ما ﴿ تريد إلا أن تكون جباراً ﴾ أي : قاهراً عالياً فلا يليق ذلك إلا بقول الكافر ، أو أن الإسرائيلي لما ظن قتله فإن ذلك ، وقد قيل في الإسرائيلي أنه كان كافراً ، قال أبو حيان وشأن الجبار أن يقتل بغير حق ﴿ في الأرض ﴾ أي : التي تكون بها فلا يكون فوقك أحد

﴿ وما تريد ﴾ أي : تتخذ ذلك إرادة ﴿ أن تكون ﴾ أي : كوناً هو لك كالجبلة ﴿ من المصلحين ﴾ أي : الغريقين في الصلاح فإنّ الصلح بين الناس لا يصل إلى القتل على هذه الصورة فلما سمع القبطيّ هذا ترك الإسرائيلي وكان القبط لما قتل ذلك القبطي ظنوا في بني إسرائيل فأغروا فرعون بهم وقالوا إنّ بني إسرائيل قتلوا منا رجلاً فخذ لنا بحقنا فقال ابغوا لي قاتله ومن يشهد عليه فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقضي بغير بينة ولا تثبت فلما قال هذا الغوي هذه المقالة علم القبطي أن موسى عليه السلام هو الذي قتل الفرعوني فانطلق إلى فرعون فأخبره بذلك فأمر فرعون بقتل موسى .

قال ابن عباس : فلما أرسل فرعون الذباحين لقتل موسى أخذوا الطريق الأعظم .

(239/586)

﴿ وجاء رجل ﴾ أي : ممن يحب موسى عليه السلام واختلف في اسمه فقيل حزقيل مؤمن آل فرعون ، وقيل شمعون وقيل شمعان ، وكان ابن عمّ فرعون ﴿ من أقصى المدينة ﴾ أي : أبعدها مكاناً ﴿ يسعى ﴾ أي : يسرع في مشيه فأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره حتى أخذ طريقاً آخر ، فكأنه قيل فما قال الرجل له فقيل :

﴿ قال ﴾ منادياً لموسى تعطفاً وإزالة للبس ﴿ يا موسى إنّ الملأ ﴾ أي : أشراف القبط

الذين في أيديهم الحلّ والعقد لأنّ لهم القدرة على الأمر والنهي ﴿ يأتمرون بك ﴾ أي : يتشاورون في شأنك ﴿ ليقتلوك ﴾ حتى وصل حالهم في تشاورهم إلى أن كلاً منهم يأمر الآخر ويأتمر بأمره لأنهم سمعوا أنك قتلت صاحبهم ﴿ فاخرج ﴾ أي : من هذه المدينة ثم علل ذلك بقوله على سبيل التأكيد ليزيل ما يطرقه من احتمال عدم القتل لكونه عزيزاً عند الملك ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ أي : الغريقين في نصحك .

﴿ فخرج ﴾ أي : موسى عليه السلام مبادراً ﴿ منها ﴾ أي : المدينة لما علم صدق قوله مما تحققه من القرائن حال كونه ﴿ خائفاً ﴾ على نفسه من آل فرعون ﴿ يترقب ﴾ أي : يكثر الإلتفات بإدارة رقبته في الجهات ينظر هل يتبعه أحد ثم دعا الله تعالى بأن ﴿ قال رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ بالنجاة وغير ذلك من وجوه البر ﴿ نجني ﴾ أي : خلصني ﴿ من القوم الظالمين ﴾ أي : الذين يضعون الأمور في غير مواضعها فيقتلون من لا يستحق القتل مع قوتهم فاستجاب الله تعالى دعاءه فوفقه لسلوك الطريق الأعظم نحو مدين فكان ذلك سبب نجاته ، وذلك أنّ الذين انتدبوا إليه قطعوا بأنه لا يسلك الطريق الأكبر جرياً على عادة الخائفين الهاربين ، وفي القصة أن فرعون لما بعث في طلبه قال اركبوا ثنيات الطريق فانبثوا فيما ظنوه يميناً وشمالاً ففاتهم .

﴿ ولما توجه ﴾ أي : أقبل بوجهه قاصداً ﴿ تلقاء ﴾ أي : الطريق الذي يلاقي سالكه أرض ﴿ مدين ﴾ قال ابن عباس : خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه إلى الله تعالى ومشى من غير معرفة فهداه الله تعالى إلى مدين ، وقيل : وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم وكان من بني إسرائيل سميت البلدة باسمه فخرج ولم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى ، وقيل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق ، قال ابن اسحق : خرج من مصر إلى مدين خائفاً بلا زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر ﴿ قال عسى ﴾ أي : جدير وحقيق ﴿ ربي ﴾ أي : المحسن إليّ ﴿ أن يهديني سواء ﴾ أي : أعدل ووسط ﴿ السبيل ﴾ أي : الطريق الذي يطلعني الله تعالى عليها من غير اعوجاج وقال ذلك قبل أن يعرف الطريق إليها ، قيل : فلما دعا جاءه ملك بيده عنزة فانطلق به إلى مدين ، قال المفسرون : خرج موسى من مصر ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر والبقل حتى ترى خضرته في بطنه وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه ، قال ابن عباس : وهو أوّل ابتلاء من الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿ ولما ورد ﴾ أي : وصل ﴿ ماء مدين ﴾ وهو بئر كان يسقي منها الرعاة مواشيهم ﴿ وجد عليه ﴾ أي : الماء ﴿ أمّة ﴾ أي : جماعة كثيرة ﴿ من الناس ﴾ مختلفين ﴿ يسقون ﴾ أي : مواشيهم ﴿ ووجد من دونهم ﴾ أي : في مكان سواهم أسفل من

مكانهم ﴿ امرأتين ﴾ عبر بذلك لما جعل لهما سبحانه من المروءة ومكارم الأخلاق كما يعلمه من أمعن النظر فيما يذكر عنهما ﴿ تذودان ﴾ أي : تحبسان وتمنعان أغنامهما إذا فزعت من العطش إلى الماء حتى يفرغ الناس ويخلو لهما البئر ، وقال الحسن : تكفان الغنم لئلا تختلط بغنم الناس ، وقال قتادة : تكفان الناس عن أغنامهما ، وقيل : لئلا يختلطن بالرجال ، وقيل كانتا تذودان عن وجوههما نظر الناظرين لتسترهما ، وقيل غير ذلك فكأنه قيل فما قال موسى لهما قيل ﴿ قال ﴾ لهما رحمة لهما ﴿ ما خطبكما ﴾ أي : ما شأنكما

(241/586)

لا تسقيان مواشيكما مع

الناس ﴿ قالتا لا نسقي ﴾ أي : مواشينا وحذف للعلم به ﴿ حتى يصدر ﴾ أي : ينصرف ويرجع ﴿ الرعاء ﴾ أي : عن الماء خوف الزحام فنسقي ، وقرأ أبو عمرو وابن عامر : بفتح الياء وضم الدال ، والباقون : بضم الياء وكسر الدال مضارع أصدر يعدى بالهمزة تنبيه : المفعول محذوف أي : يصدرون مواشيهم والرعاء جمع راع مثل تاجر وتجار ، أي : نحن امرأتان لا يليق أن نزاحم الرجال فإذا صدروا سقينا مواشينا ما أفضلت

مواشيهم في الحوض ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ أي : لا يستطيع لكبره أن يسقى فاضطررنا إلى ما ترى .

تنبيه : اختلف في أبيهما ، فقال مجاهد والضحاك والسدي والحسن : أبوهما هو شعيب النبيّ عليه السلام وإنه عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوّج بابنته ، وقال وهب وسعيد بن جبير : هو يثرون ابن أخي شعيب وكان شعيب قد مات قبل ذلك بعد ما كف بصره فدفن بين المقام وزمزم ، وقيل : رجل ممن آمن بشعيب قالوا فلما سمع موسى قولهما رحمهما فاقتلع صخرة من رأس بئر أخرى كانت بقربهما لا يطيق رفعها إلا جماعة من الناس ، وقال ابن إسحاق : أنّ موسى زاحم القوم ونحاهم عن رأس البئر فسقى غنم المرأتين ، ويروى أن القوم لما رجعوا بأغنامهم غطوا رأس البئر بحجر لا يرفعه إلا عشرة نفر ، وقيل : أربعون ، وقيل : مائة فجاء موسى ورفع الحجر وحده وسقى غنم المرأتين ويقال : إنه سألهم دلوا من ماء فأعطوه دلوهم وقالوا اسق بها وكانت لا ينزعها إلا أربعون فاستقى بها وصبها في الحوض ودعا فيه بالبركة فروى منه جميع الغنم ، فإن قيل كيف ساغ لنبيّ الله تعالى شعيب أن يرضى لابنتيه الرعي بالماشية ؟ .

أجيب : بأن الناس اختلفوا فيه هل هو شعيب أو غيره ، وإذا قلنا أنه هو كما عليه الأكثر فليس ذلك بمحظور فلا يأباه الدين ، والناس مختلفون في ذلك بحسب المروءة وعادتهم فيها

متباينة وأحوال العرب والبدو تباين أحوال العجم والحضر لا سيما إذا دعت إلى ذلك ضرورة .

(242/586)

﴿ فسقى ﴾ أي : موسى عليه السلام ﴿ لهما ﴾ والمفعول محذوف أي : غنمهما لما علم ضرورتهما انتهازاً لفرصة الأجر وكرم الخلق في مساعدة الضعيف مع ما به من النصب والجوع وسقوط خف القدم ولكنه رحمهما وأغاثهما وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده وما آتاه الله تعالى من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلّة ﴿ ثم تولى ﴾ أي : انصرف جاعلاً ظهره يلي ما كان يليه وجهه ﴿ إلى الظل ﴾ أي : ظل سمرة فجلس في ظلها ليقيل ويستريح مقبلاً على الخالق بعد ما قضى من نصيحة الخلائق وهو جائع ، قال الضحاك : لبث سبعة أيام لم يذق طعاماً إلا بقل الأرض ﴿ فقال رب إني ﴾ وأكد الافتقار بالالصاق باللام دون إلى بقوله ﴿ لما أنزلت إليّ من خير ﴾ قليل أو كثير غث أو سمين ﴿ فقير ﴾ أي : محتاج سائل .

(243/586)

تنبيه : ﴿ لما أنزلت ﴾ متعلق بفقير قال الزمخشري عدّى فقير باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب ويحتمل إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين وليس في الشكوى إلى الغني المطلق نقص ، قال ابن عباس سأل الله تعالى فلقة خبز يقيم بها صلبه ، وقال الباقر : لقد قالها وإنه لمحتاج إلى شق تمرة ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه وإنه كان قد بلغ به من الضر أن اخضرّ بطنه من أكل البقل وضعف حتى لصق بطنه الشريف بظهره وإنما قال ذلك في نفسه مع ربه وهو اللائق به ، وقيل رفع به صوته لاستماع المرأتين وطلب الطعام وهذا لا يليق بموسى عليه السلام فانظر إلى هذا النبيّ عليه السلام وهو خلاصة ذلك الزمان ليكون لك في ذلك أسوة وتجعله إماماً وقدوة وتقول ما لقي الأنبياء والصالحون من الضيق والأهوال في سجن الحياة الدنيا صوناً لهم منها وإكراماً من ربهم عنها رفعة لدرجاتهم واستهانة لها وإن ظنه الجاهل المغرور على غير ذلك وفي القصة ترغيب في الخير وحث على المعاونة على البرّ وبعث على بذل المعروف مع الجهد فلما رجعتا إلى أبيهما سريعاً قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلاً صالحاً رحيماً فسقى لنا أغنامنا فقال لإحداهما اذهبي فادعيه لي .

﴿ فجاءته إحداهما ﴾ ممتثلة أمر أبيها وقوله ﴿ تمشي ﴾ حال ، وقوله ﴿ على استحياء ﴾ حال أخرى ، أي : مستحيية إما من جاءته وإما من تمشي قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : ليست بسلفع من النساء خراجة ولاجة ولكن جاءته مستترة وضعت كمّ درعها على وجهها استحياء ثم استأنف الإخبار بما تشوّف إليه السامع بقوله تعالى : ﴿ قالت ﴾ وأكدت إعلاماً بما لأبيها من الرغبة إلى لقائه ﴿ إن أبي ﴾ وصورت حاله بالمضارع بقولها ﴿ يدعوك ليجزيك ﴾ أي : يعطيك مكافأة لك لأن المكافأة من شيم الكرام ﴿ أجر ما سقيت لنا ﴾ أي : مواشينا ، قال ابن إسحاق : اسم الكبرى صفوراً والصغرى لبنى ، وقيل ليا ، وقال غيره : صفرا وصفيرا ، وقال الضحاك : صافورا ، وقال الأكثرون : التي جاءت لموسى الكبرى ، وقال الكلبيّ هي الصغرى ، قال الرازي وليس في القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل .

فإن قيل : في الآية إشكالات إحداها : كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية فإن ذلك يورث التهمة العظيمة وقال صلى الله عليه وسلم "اتقوا مواضع التهم" ، وثانيها : أنه سقى أغنامهما تقرّبا إلى الله تعالى فكيف يليق به أخذ

الأجرة عليه وذلك غير جائز في الشريعة ، وثالثها : أنه عرف فقرهما وفقر أبيهما وأنه عليه السلام كان في نهاية القوّة بحيث يمكنه الكسب بأقل سعي فكيف يليق بمروءة مثله طلب الأجرة على ذلك القدر من الشيخ الفاني الفقير والمرأة الفقيرة ، ورابعها : كيف يليق بالنبيّ شعيب عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة إلى رجل شاب قبل العلم بكون الرجل عفيفاً أو فاسقاً ؟ .

(245/586)

أجيب عن الأوّل : بأن الخبر يعمل فيه بقول المرأة فإن الخبر يعمل فيه بقول الواحد حرّاً كان أو عبداً ذكرا كان أو أنثى وهي ما كانت مخبرة إلا عن أبيها وأما المشي مع المرأة بعد الاحتياط والتورّع فلا بأس به ، وعن الثاني : بأن المرأة لما قالت ذلك لموسى عليه السلام ما ذهب إليهم طلباً للأجرة بل للتبرّك بذلك الشيخ الكبير ، لما روي أنه لما دخل على شعيب عليه السلام إذا هو بالعشاء مهيئاً فقال اجلس يا شاب فتعش فقال موسى أعوذ بالله فقال شعيب ولم ذلك ألست بجائع قال بلى ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نطلب على عمل من أعمال الآخرة عوضاً من الدنيا ، وفي رواية لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ بالمعروف ثمناً ، فقال له شعيب لا والله يا شاب ولكنها عادتي

وعادت آبائي نقري الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى عليه السلام فأكل ، وأيضاً فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ إلى حيث ما كان يطيق يحمله ففعل ذلك اضطراراً وهو الجواب عن الثالث فإن الضرورات تبيح المحظورات ، وعن الرابع : بأن شعيباً عليه السلام كان يعلم طهارة ابنته وبرائتها إما بوحي أو بغيره فكان يأمن عليها قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : فقام يمشي والجارية أمامه فهبت الريح فوصفت ردفها فكره موسى عليه السلام أن يرى ذلك منها فقال لها امشي خلفي أو قال موسى أني من عنصر إبراهيم فكوني خلفي حتى لا يرفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحلّ ، وفي رواية كوني خلفي ودليني على الطريق برمي الحصا لأن صوت المرأة عورة .

فإن قيل : لِمْ خشى موسى عليه السلام أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم يكره مع الخضر عليه السلام ذلك حين قال لو شئت لتخذت عليه أجراً ؟

(246/586)

أجيب : بأن أخذ الأجرة على الصدقة لا يجوز ، وأما الاستئجار ابتداء فغير مكروه

﴿ فلما جاءه ﴾ أي : موسى شعيباً ﴿ وقص ﴾ أي : موسى عليه السلام ﴿ عليه ﴾ أي : شعيب عليه السلام ﴿ القصص ﴾ أي : حدّثه حديثه مع فرعون وآله في كفرهم

وطغيانهم وإذلالهم لعباد الله تعالى (تنبيه) القصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص ، قال الضحاك : قال : له من أنت يا عبد الله ، قال : أنا موسى بن عمران بن بصهر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم وقتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه ثم إن شعيباً عليه السلام أمنه بأن:

﴿ قال ﴾ له ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أي : فإن فرعون لا سلطان له بأرضنا ، فإن قيل : أن المفسرين قالوا إن فرعون يوم ركب خلف موسى ركب في ألف ألف وستمائة ألف والملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام ؟

أجيب : بأن هذا ليس بمحال وإن كان نادراً ولما أمنه واطمأن .

﴿ قالت إحداهما ﴾ أي : المرأتين وهي التي دعته إلى أبيها مشيرة بالنداء بأداة البعد إلى استصغارها لنفسها وجلالة أبيها ﴿ يا أبت استأجره ﴾ أي : اتخذه أجيراً ليرعى أغنامنا ﴿ إن خير مَنْ استأجرت القويّ الأمين ﴾ أي : خير من استعملت من قوي على العمل لشيء من الأشياء وأداء الأمانة ، قال أبو حيان : وقولها قول حكيم جامع لا يزاد عليه لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول استأجره لقوّته وأمانته ، وإنما جعل خير من استأجرت اسماً والقويّ الأمين خبراً مع أن

العكس أولى لأنّ العناية هي سبب التقديم ، وقد صدقت حتى جعل لها ما هو أحق بأن يكون خبراً اسماً ، وورود الفعل بلفظ الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف .

(247/586)

وعن ابن عباس : أن شعيباً اختطفته الغيرة فقال وما علمك بقوّته وأمانته فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو وإنه صوّب أي : خفض رأسه حين بلغته رسالة أبيها إليه وأمرها بالمشي خلفه ، وعن ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف في قوله ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ وأبو بكر في عمر ولما أعلمته ابنته بذلك .

﴿ قال ﴾ لموسى عليه السلام عند ذلك ﴿ إني أريد ﴾ يا موسى والتأكيد لأن الغريب قلما يرغب فيه أوّل ما يقدم لا سيما من الرؤساء أتم الرغبة ﴿ أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ﴾ أي : الحاضرتين اللتين سقيت لهما ليتأمّلهما فينظر من يقع اختياره عليه منهما ليعقد له عليها ، قال أكثر المفسرين إنه زوجه الصغرى منهما وهي التي ذهبت لطلب موسى واسمها صفورا على خلاف تقدّم في اسمها ، وقوله ﴿ هاتين ﴾ فيه دليل على أنه كان له غيرهما وقوله ﴿ على أن تأجرني ثماني حجج ﴾ إما من أجرته إذا كنت له أجيراً كقولك أبوته إذا كنت له أباً ، وثماني حجج ظرفه ، أي : ترعى غنمي ثماني حجج ، وإما

من أجرته كذا إذا أثبته إياه قاله الفراء أي : تجعل ثوابي من تزويجها أي : تجعل أجري على ذلك وثوابي ثماني حجج ، تقول العرب أجرك الله يأجرك أي : أثابك ، ومنه تعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم "أجركم الله ورحمكم" وثماني حجج مفعول به ، ومعناه رعية ثماني حجج ، فإن قيل : كيف صح أن ينكحه إحدى ابنتيه من غير تمييز ؟

أجيب : بأن ذلك لم يكن عقداً ولكن مواعدة ومواصفة أمر قد عزم عليه ، ولو كان عقداً لقال أنكحتك ولم يقل : إني أريد أن أنكحك ، وقد مرّت الإشارة إلى ذلك ، والحجج ، السنون وإحدها حجة ﴿ فإن أتممت عشراً ﴾ أي : عشر سنين وقوله ﴿ فمن عندك ﴾ يجوز أن يكون في محل رفع خبر المبتدأ محذوف تقديره فهي من عندك ، أو نصب أي : فقد زدتها من عندك أو تفضلت بها من عندك ، وليس ذلك بواجب عليك .

(248/586)

تنبيه : هذا اللفظ يدل على أن العقد وقع على أقلّ الأجلين والزيادة كالتبرّع فالعقد وقع على معين ، ودلت الآية على أن العمل قد يكون مهراً كالمال وعلى أن عقد النكاح لا يفسد بالشروط التي لا يوجبها العقد إن كان وقع شرط هذه الزيادة في العقد ، ولما ذكر له ذلك أراد أن يعلمه أن الأمر بعد الشرط بينهما على المسامحة فقال ﴿ وما أريد أن أشق

عليك ﴾ أي : أدخل عليك مشقة بمناقشة ومراعاة أوقات ولا في إتمام عشر ولا غير ذلك ، ثم أكد معنى المساهلة بقوله ﴿ ستجدني ﴾ وفتح الياء نافع عند الوصل ، والباقون بسكونها ، ثم استثنى على قاعدة : أنبياء الله وأوليائه في المراقبة على سبيل التبرك بقوله ﴿ إن شاء الله ﴾ أي : الذي له جميع الأمر ﴿ من الصالحين ﴾ قال عمر : أي : في حسن الصحبة والوفاء بما قلت ، أي : وكل ما تريد من كل خير ، وقيل : أراد الصلاح على العموم ، فإن قيل : كيف ينعقد العقد بهذا الشرط ولو قلت أنت طالق إن شاء الله لم تطلق ؟ أجيب : بأن هذا إنما يختلف بالشرائع أو أن ذلك ذكر للتبرك .

﴿ قال ﴾ أي : موسى عليه السلام ﴿ ذلك ﴾ أي : الذي ذكرته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه ﴿ بيني وبينك ﴾ أي : قائم بيننا جميعاً لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك .

تنبيه : ذلك مبتدأ ، والظرف خبره ، وأضيفت بين لمفرد لتكرّرها ، وعطفت بالواو ، ولو قلت : المال لزيد فعمرو لم يجز ، والأصل ذلك بيننا كما مرّ ففرق بالعطف ، ثم فسر ذلك بقوله ﴿ أيما ﴾ أي : أيّ ﴿ الأجلين ﴾ فما : زائدة ﴿ قضيت ﴾ أي : فرغت أطولهما الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان ﴿ فلا عدوان ﴾ أي : اعتداء بسبب ذلك لك ولا لأحد ﴿ عليّ ﴾ في طلب أكثر منه لأنه كما لا تجب الزيادة على العشر لا تجب الزيادة على الثمان .

فإن قيل : تصوّر العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو أقصر وهو المطالبة بتتمة العشر فما معنى تعليق العدوان بهما جميعاً ؟

(249/586)

أجيب : بأنّ معناه كما أني إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدواناً لا شك فيه فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمان أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقرّ وأنّ الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء ، وأمّا التتمة فموكلة إلى رأيي إن شئت أتيت بها وإلا لم أجبر عليها ، وكأنه أشار بنفي صيغة المبالغة إلى أنه لا يؤاخذ لسعة صدره وطهارة أخلاقه بمطلق العدوان ﴿ والله ﴾ أي : الملك الأعظم ﴿ على ما نقول ﴾ أي : كله في هذا الوقت وغيره ﴿ وكيل ﴾ قال ابن عباس ومقاتل : شهيد فيما بيني وبينك ، وقيل : حفيظ ، وعن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما .

وروي عن أبي ذرّ مرفوعاً إذا سئلت أي : الأجلين قضى موسى فقل : خيرهما ، وإذا سئلت فأي : المرأتين تزوّج فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت فقالت يا أبت استأجره

فتزوّج صغراهما وقضى أوفاهما ، وقال وهب : أنكحه الكبرى ، وروي عن شدّاد بن أوس مرفوعاً بكى شعيب عليه السلام حتى عمي فردّ الله تعالى عليه بصره ثم بكى حتى عمي فردّ الله تعالى عليه بصره ثم بكى حتى عمي فردّ الله تعالى عليه بصره وقال له : ما هذا البكاء أشوقاً إلى الجنة أم خوفاً من النار ؟ قال لا يا ربّ ولكن شوقاً إلى لقائك فأوحى الله تعالى إليه إن يكن ذلك فهنيأ لك يا شعيب لذلك أخدمتك موسى كليمي ، ولما تم العقد بينهما أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه .

(250/586)

واختلفوا في تلك العصا ؟ فقال عكرمة : خرج بها آدم من الجنة فأخذها جبريل بعد موت آدم فكانت معه حتى لقي بها موسى ليلاً فدفعها إليه ، وقال آخرون كانت من آس الجنة حملها آدم من الجنة فتوارثها الأنبياء وكان لا يأخذها غير نبيّ إلا أكلته فصارت من آدم إلى نوح ثم إلى إبراهيم حتى وصلت إلى شعيب وكانت عصيّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عنده فأعطاها موسى ، وقال السدي : كانت تلك العصا استودعها إياه ملك في صورة رجل فأمر ابنته أن تأتيه بعصا فدخلت فأخذت العصا فأتت بها فلما رآها شعيب قال لها ردّي هذه العصا وأتيه بغيرها فدخلت فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلا يقع في يدها إلا

هي حتى فعلت ذلك ثلاث مرّات فأعطاها موسى فأخذها موسى معه ، ثم إنّ الشيخ ندم فقال : كانت وديعة فذهب في أثره فطلب أن يردّ العصا فأبى موسى أن يعطيه وقال : هي عصاي فرضيا أن يجعلا بينهما أوّل رجل يلقاهما فلقيهما ملك في صورة رجل فحكم أن تطرح العصا فمن حملها فهي له فطرح موسى العصا فعالجها الشيخ فلم يطقها فأخذها موسى بيده فرفعها فتركها له الشيخ .

وروي أنّ شعيباً عليه السلام كان عنده عصيّ الأنبياء فقال لموسى بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصيّ فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة ولم تزل الأنبياء تتوارثها حتى وقعت إلى شعيب فمسها وكان مكفوفاً فضنّ أي : بخل بها فقال غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرّات فعلم أنّ له شأناً .

(251/586)

وعن الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً ، وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي موسى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ، ولما أصبح قال له شعيب إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فإن الكلأ وإن كان بها كثيراً إلا أنّ فيها تنيناً أخشاه عليك فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها فمشى على أثرها فإذا عشب وريف

لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد أقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولاً ارتاح لذلك ، ولما رجع إلى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أنّ لموسى والعصا شأناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 119 . 141 ﴾

(252/586)

وقال القاسمى :

سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسم ﴾ تقدم الكلام على هذه الحروف غير ما مرة : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : نقرأ عليك ، بواسطة الروح الأمين ، تلاوة ملتبسة بالحق . كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : 3] ، ثم استأنف ما يجري مجرى التفسير للمجمل الموعود ، بقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : تكبر وتجاوز الحد في الطغيان ، في أرض مصر : ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ أي : فرقاً وأصناماً في استخدامه وطاعته : ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ﴾

وهم بنو إسرائيل : ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ وذلك إماتة لرجالهم ، وتقليلاً لعددهم ، كيلا يكثروا فينازعوه الملك : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أي : المتمكنين في الإفساد وقهر العباد .

ثم أشار تعالى إلى فرجه الذي جعله لتلك الطائفة ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ [5 – 8] .

(253/586)

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ﴾ أي : نتفضل : ﴿ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي : يقتدى بهم في الدين بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين : ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي : لملك عدوّهم . كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿

يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: 137] ، ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: بالتصرف فيها تصرف الملوك: ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ ﴾ أي: من ألئك المستضعفين: ﴿ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ أي: من هلاكهم وذهاب ملكهم، جزاء إفسادهم وعدم إصلاحهم وطغيانهم: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ أي: إثر ولادته في تلك الشدّة: ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ أي: من أولئك الدباحين الذين بأيديهم الشفار المرهفة العاملة في تلك الأنفس الزكية: ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ أي: في البحر، وهو النيل: ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ أي: في هلاكهم على يديه.

قال أبو السعود: واللام لام العاقبة. أبرز مدخولها في معرض العلة، لالتقاطهم. تشبيهاً له في الترتب عليه، بالغرض الحامل عليه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ أي: مجرمين فعاقبهم الله بأن ربّى عدوّهم، ومَنْ هو سبب هلاكهم، على أيديهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [9 - 11]

.

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : لفرعون ، حين أخرجته من التابوت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : بما سيكون : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ﴾ أي : خالياً من العقل . لما دهمها من فرط الجزع ، وأطار عقلها من الدهش ، لما بلغها وقوعه في يد فرعون : ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أي : بأمره وقصته ، وأنه ولدها : ﴿ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لولا أن ألهمناها الصبر . شبه بربط الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن . ومعنى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : المصدقين بوعد الله . وهو قوله : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ [7] .

قال الزمخشري : ويجوز ، وأصبح فؤادها فارغاً من الهم ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبنّاه . إن كادت لتبدي بأنه ولدها ، لأنها لم تملك نفسها فرحاً وسروراً بما سمعت . لولا أنّا طامنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج ، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله ، لا بتبني فرعون وتعطفه : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أي : اتبعي أثره لتتالي خبره : ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ﴾ بضم النون وسكونها . أي : عن

بعد : ﴿ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : أنها تتعرف حاله .

القول في تأويل قوله تعالى :

(255/586)

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ [12 - 17] .

(256/586)

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل قصّها أثره . والمراضع جمع مرضع بضم الميم وكسر الضاد . وهي المرأة التي ترضع . وترك التاء لاختصاصه بالنساء . أو جمع مرضع بفتح الميم مصدر ميميّ ، جمع لتعدد موادّه . أو اسم موضع الرضاع ، وهو الثدي : ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ أي : في رضاعه وتربيته : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ أي : برؤيته : ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ أي : بفراقه : ﴿ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أي : كمال قوته ﴿ وَاسْتَوَى ﴾ أي : اعتدل مزاجه : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : في أعمالهم . ثم بين تعالى من نبئه عليه السلام ، ما تدرج به إلى ما قدّر له من الرسالة ، بقوله سبحانه : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ﴾ أي : مصر آتياً من قصر فرعون : ﴿ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل وقت القيلولة . وقيل بين العشائين : ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أي : يتنازعان : ﴿ هَذَا ﴾ أي : الواحد : ﴿ مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أي : ممن يشايعه على دينه وهم بنو إسرائيل : ﴿ وَهَذَا ﴾ أي : الآخر : ﴿ مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أي : من خالفه في دينه وهم القبط : ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ ﴾ أي : سأله الإغاثة : ﴿ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ لكونه مظلوماً : ﴿ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ لكونه ظالماً . وإغاثة المظلوم واجبة فوجبت إغاثته من جهتين : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ أي : ضربه بجُمع كفّه : ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ أي :

فقتله : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ يشير إلى تأسفه على ما أفضى وكزه ، من قتله . وسماه ظلماً واستغفر منه بالنسبة إلى مقامه : ﴿ قَالَ رَبِّ

(257/586)

إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أي : بقتله : ﴿ فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف . أي : أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة ، لأتوبنّ ولا أظاهر المجرمين . وأن يكن استعطافاً كأنه قال : رب ! اعصمني بحق ما أنعمت عليّ من المغفرة . فلن أكون ، إن عصمتني ، ظهيراً للمجرمين . وأراد بمظاهرتهم ، إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثير سواده ، وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له . قاله الزمخشريّ .

قال الناصر : لقد تبرأ عليه السلام من عظيم . لأن ظهير المجرمين شريكهم فيما هم بصدده . ويروى أنه تقال يوم القيامة : أين الظلمة وأعوان الظلمة ؟ فيؤتى بهم حتى بمن لاق لهم ليقة ، أو برى لهم قلماً ، فيجعلون في تابوت من حديد ويلقى بهم في النار .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ [18 - 23] .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : الاستقادة أو الأجناد : ﴿ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أي استعانة فقتل من أجله منازعه القبطيّ : ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ أي

: يستغيثه من قبطيّ آخر : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أي : بمخاصمتك الناس مع عجزك ، وجرّك إليهم ما لا تحمد عقباه : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾ أي : لموسى وللإسرائيليّ ، وهو القبطيّ : ﴿ قَالَ ﴾ أي : ذلك العدوّ وهو القبطيّ ، لا الإسرائيليّ كما وهم : ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ أي : بين الناس بالقول والفعل .

(260/586)

قال الزمخشري : الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بظلم ، لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ أي : يسرع لفرط حبه لموسى : ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أي : يتشاورون بسببك : ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أي : من حدّ مملكتهم : ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : لحوق الطالبين : ﴿ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَلَمَّا تَوَجَّهَ ﴾ أي : جعل وجهه : ﴿ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أي : فلا يلحقني فيه الطالبون : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً ﴾ أي : جماعة كثيفة : ﴿ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾

أي : مواشيهم : ﴿ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ أي : تمنعان مواشيهما عن الماء ، لوجود من هو أقوى منهما عنده ، فلا تتمكنان من السقي : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ أي : ما شأنكما في الذود : ﴿ قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أي : عاداتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاة مواشيهم عن الماء ، عجزاً عن مساجلتهم ، وحذراً من مخالطة الرجال : ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أي : فيعجز عن الخروج والسقي . أي : ما لنا رجل يقوم بذلك إلا هو ، وقد أضعفه الكبر ، فاضطرنا الحال إلى ما ترى .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [24 - 25] .

(261/586)

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ أي : فسقى غنمهما ، لأجلهما من غير أجر : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾ أي : الذي كان هناك ، من شدة الحر : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أي : محتاج . والخير أعم من المال أو القوة أو الطعام . وعلى الأخير حمله الأكثرون بمعونة المقام

: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ أي : أخبره بجميع ما جرى عليه إلى خروجه لما تآمروا بقتله : ﴿ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : بالخروج عند حدّ ولايتهم ، إذ لا سلطان لهم بأرضنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [26 - 28] .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ﴾ أي : اجعله أجيرك ليرعى غنمك ، فإنه حقيق بذلك : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ أي : خير من أردت جعله أجيراً ، القويّ على العمل المؤتمن فيه .

قال الزمخشريّ : وقولها : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ كلام حكيم جامع لا يزاد عليه . لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك ، فقد فرغ بالك وتم مرادك . وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل والحكمة ، أن تقول : استأجره لقوّته وأمانته . انتهى .

قال الناصر : وهو أيضاً أجمل في مدح النساء للرجال ، من المدح الخاص . وأبقى للحشمة . وخصوصاً إن كانت فهمت أن غرض أبيها عليه السلام أن يزوجها منه . وما أحسن ما أخذ الفاروق رضي الله عنه هذا المعنى فقال : أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القويّ . ففي مضمون الشكاية سؤال الله تعالى أن يتحفه بمن جمع الوصفين ، فكان قوياً وأميناً : يستعين به على ما كان بصدده رضي الله عنه . انتهى ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ ﴾ أي : لقوتك وأمانتك ، ما يقوّي المودة ويجذب القلوب : ﴿ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ أي : على أن تكون أجيري لرعي المواشي بأجرة على ابنتي ، هي مهرها عليك ، ثماني سنين : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي : فهو من عندك بطريق التفضل : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ أي : بإلزام أتم الأجلين وإيجابه : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي : في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد : ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي : ذاك الذي عاهدتني عليه ، لا نخرج عنه جميعاً : ﴿ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ أي : أتممت : ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ أي : بطلب الزيادة على

ثمان ، أو الخروج بالأهل قبل عشر : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي : شاهد وحفيظ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 536. 541 ﴾

(263/586)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ذكر المضمون هذا من التوراة : قال في أول السفر الثاني منها : وهذه أسماء بني إسرائيل الذين دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام ، دخل كل امرىء وأهل بيته روبيل وشمعون

ولاوي ويهوذا وإيساخار وزيلون وبنيامين ودان ونفتالي وجاد وأشير ، وكان عدد ولد يعقوب الذين خرجوا من صلبه سبعين نفساً مع يوسف عليه الصلاة والسلام الذي كان بمصر ، فتوفي يوسف وجميع إخوانه وجميع ذلك الحقب ، وبنو إسرائيل نموا وولدوا وكثروا واعتزوا جداً جداً ، وامتلأت الأرض منهم ، فملك على مصر ملك جديد لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه : هذا شعب بني إسرائيل قد كثر عددهم فهم أكثر وأعز منا ، هلموا نحتال لهم قبل أن يكثروا ، لعل أعداءنا يأتونا يقاتلونا فيكونوا عوناً ، لأعدائنا علينا فيخرجونا من الأرض ، فولى عليهم ولاة ذوي فظاظة وقساوة ليتعبدوهم ، وجعلوا يبنون قرى لأجران فرعون واهرائه وفي نسخة : وبنوا لفرعون مدناً محصنة فيسترم في الفيوم وفي عين شمس ، وفي نسخة : فيثوم ورعمسيس ، وفي نسخة : وأكوان التي هي مدينة الشمس ، واشتد تعبدهم لهم ، وذلهم أياهم ، وكانوا يزدادون كثرة ويعتزون ، فاشتد غمهم وحزنهم بسبب بني إسرائيل ، وكان المصريون يتعبدون بني إسرائيل بشدة وقساوة ، ويمرون حياتهم بالكد والتعب الصعب الشديد بالطين وعمل اللبن وفي كل عمل الحقل ، وكان تعبدهم إياهم في جميع ما استعملوهم بالشدة والفظاظة والقسوة ، فقال ملك مصر : وجعلنا لقوابل العبرانيات التي تسمى إحداهما فوعا والأخرى شوفرا ، وأمرهما : إذا أنتما قبلتما العبرانيات فانظرا إذا سقط الولد ، فإن كان ذكراً فاقتلاه ، وإن كانت أنثى فاستبقياها فاتقت القابلتان الله ولم يفعلا ما أمرهما به ملك مصر ، وجعلتا تستحييان

الغلمان ، فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما ؟ ما بالكما ؟ جاوزتما أمري وأحييتما الغلمان ؟ فقالتا لفرعون : إن العبرانيات لسن كالمصريات لأنهن قوابل ، ويلدن قبل أن تدخل القابلة عليهن ، فأحسن

(264/586)

الله إلى القابلتين لصنعهما هذا ، فكثر الشعب وعز جداً ، فلما اتقت القابلتان الله أنماهما وجعل لهما بنين ، وفي نسخة : بيوتاً ، فأمر فرعون جميع قومه قائلاً : كل غلام يولد لهم فألقوه في النهر ، وكل جارية تولد فاستبقوها ، فانطلق رجل من آل لاوي فتزوج إحدى بنات لاوي ، فحبلت المرأة فولدت ابناً فرأته حسناً جداً ، فغيبته ثلاثة أشهر ولم تقدر أن تغيبه أكثر من ذلك ، فأخذت تابوتاً من خشب الصنوبر ، وطلته بالقار والزفت ووضعت فيه الغلام ووضعته في الضحضاح على شاطىء النهر ، وقامت أخته من بعيد لتنظر ما يكون من أمره ، فخرجت بنت فرعون تغتسل في النهر ، فنظرت إلى التابوت في المخاضة ، فأرسلت جواريها فأتوا به ففتحته فرأت الغلام ، فإذا هو يبكي فرحمته ، وقالت : هذا من بني العبرانيين ، فقالت أخته لابنة فرعون : هل لك أن أنطلق أدعو لك ظئراً من العبرانيات فترضع هذا الغلام ؟ فقالت لها ابنة فرعون : نعم ! انطلقي ، فانطلقت الفتاة ودعت أم

الغلام ، فقالت لها ابنة فرعون : خذي هذا الصبي فأرضعيه وأنا أعطيك أجرتك ، فأخذت المرأة الغلام فأرضعته فشب الغلام فأتت به إلى ابنة فرعون فتبنته ، وسمته موسى لأنها قالت : إني انتشلته من الماء .

(265/586)

فلما كان بعد تلك الأيام نشأ موسى عليه السلام وخرج إلى إخوته فنظر إلى ذلهم ، فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته من بني إسرائيل ، فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً فقتل المصري ، فمات ودفنه في الرمل ، ثم خرج يوماً آخر فإذا هو برجلين عبرانيين يصطحبان ، فقال للمسيء منهما : ما بالك ؟ تضرب أخاك ؟ فقال له : من جعلك علينا رئيساً وحاكماً ؟ لعلك تريد أن تقتلني كما قتلت المصري أمس ؟ ففرق موسى وقال : حقاً لقد فشا هذا الأمر ، فبلغ فرعون الأمر وأراد موسى ، فهرب موسى من فرعون وانطلق إلى أرض مدين ، وجلس على طوي الماء ، وكان لحبر مدين سبع بنات ، فكن يأتين فيدلن الماء فيملأن الحياض ليسقين غنم أبيهن ، وكان الرعاة يأتون فيطردونهن ، فقام موسى فخلصهن وأسقى غنمهن ، فأتين إلى رعوئيل أبيهن فقال لهن : ما بالكن ؟ أسرعتن السقي اليوم ؟ فقلن له : رجل مصري خلصنا من أيدي الرعاة ، فاستقى لنا الماء ، وسقى غنمنا ، فقال

لبناته : وأين هو ؟ لم تركتن الرجل ، انطلقن وادعونه فيأكل عندنا خبزاً ، ففعلن ذلك ، فأعجب موسى أن ينزل على ذلك الرجل فزوجه صفورا ابنته فتزوجها فولدت له ابناً فسماه جرشون ، لأنه قال : إني صرت ساكناً في أرض غريبة .

وولدت لموسى ابناً آخر ، فسماه اليعازار ، لأنه قال : إن إله آبائي خلصني من حرب فرعون .

وقوله : إن المتخاصمين في اليوم الثاني عبرانيان ، إن أمكن تنزيل ما في القرآن عليه فذاك ، وإلا فهو مما بدلوه ، وقوله : إن بنات شعيب سبع لا يخالف ما في القرآن الكريم ، بل أيده الزمخشري بتعيينهما بقوله " هاتين " لكن تقدم ما يشير إلى أن ذلك غير لازم .

(266/586)

ولما كان من المعلوم أن التقدير : فلما التزم موسى عليه السلام زوجه ابنته كما شرط ، واستمر عنده حتى قضى ما عليه ، بنى عليه قوله : ﴿ فلما قضى ﴾ أي وفى وأتم ، ونهى وأنفذ ﴿ موسى ﴾ صاحبه ﴿ الأجل ﴾ أي الأوفى وهو العشر ، بأن وفى جميع ما شرط عليه من العمل ، فإنه ورد أنه قضى من الأجلين أوفاهما ، وتزوج من المرأتين صغراهما ، وهي التي جاءت فقالت : يا أبت استأجره روى الطبراني في الأوسط معناه

عن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ مرفوعاً ، والظاهر أنه مكث عنده بعد الأجل أيضاً مدة ، لأنه عطف بالواو قوله : ﴿ وسار ﴾ ولم يجعله جواباً للما ﴿ بأهله ﴾ أي امرأة راجعاً إلى أقاربه بمصر ﴿ آنس ﴾ أي أبصر ﴿ من جانب الطور ناراً ﴾ آنسته رؤيتها وشرحته إنارتها ، وكان مضروراً إلى الدلالة على الطريق والاصطلاء بالنار .

ولما كان كأنه قيل : ماذا فعل عندما أبصرها قيل : ﴿ قال لأهله ﴾ ولما كان النساء أعظم ما ينبغي ستره ، أطلق عليها ضمير الذكور فقال : ﴿ امكثوا ﴾ وإن كان معه بنين له فهو على التغليب ، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً ، لاستبعاد أن يكون في ذلك المكان القفر وفي ذلك الوقت الشديد البرد نار : ﴿ إني آنست ناراً ﴾ فكأنه قيل : فماذا تعمل بها ؟ فقال معبراً بالترجي لأنه أليق بالتواضع الذي هو مقصود السورة ، وهو الحقيقة في إدراك الآدميين في مثل هذا ، ولذا عبر بالجذوة التي مدار مادتها الثبات : ﴿ لعلي آتيكم منها ﴾ أي من عندها ﴿ بخبر ﴾ ينفعنا في الدلالة على المقصد ﴿ أو جذوة ﴾ أي عود غليظ ﴿ من النار ﴾ أي متمكنة منه هذه الحقيقة أو التي تقدم ذكرها ؛ ثم استأنف قوله ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي لتكونوا على رجاء من أن تقربوا من النار فتنعطفوا عليها لتدفؤوا ، وهذا دليل على أن الوقت كان شتاء ﴿ فلما أتاها ﴾ أي النار .

ولما كان آخر الكلام دالاً دلالة واضحة على أن المنادي هو الله سبحانه ، بنى للمفعول قوله دالاًّ على ما في أول الأمر من الخفاء : ﴿ نودي ﴾ ولما كان نداؤه سبحانه لا يشبه نداء غيره بل يكون من جميع الجوانب ، وكان مع ذلك قد يكون لبعض المواضع مزيد تشريف بوصف من الأوصاف ، إما بأن يكون أول السماع منه أو غير ذلك أو يكون باعتبار كون موسى عليه الصلاة والسلام فيه قال : ﴿ من ﴾ أي كائناً موسى عليه السلام بالقرب من ﴿ شاطئ ﴾ أي جانب ﴿ الواد ﴾ عن يمين موسى عليه الصلاة والسلام ، ولذلك قال : ﴿ الأيمن ﴾ وهو صفة للشاطىء الكائن أو كائناً ﴿ في البقعة المباركة ﴾ كائناً أول أو معظم النداء أو كائناً موسى عليه الصلاة والسلام قريباً ﴿ من الشجرة ﴾ كما تقول : ناديت فلاناً من بيته ، ولعل الشجرة كانت كبيرة ، فلما وصل إليها دخل النور من طرفها إلى وسطها ، فدخلها وراءه بحيث توسطها فسمع – وهو فيها – الكلام من الله تعالى حقيقة ، وهو المتكلم سبحانه لا الشجرة ، قال القشيري : ومحصل الإجماع أنه عليه الصلاة والسلام سمع تلك الليلة كلام الله ، ولو كان ذلك نداء الشجرة لكان المتكلم الشجرة ، وقال التفتازاني شرح المقاصد أن اختيار حجة الإسلام أنه سمع كلامه الأزلي بلا صوت ولا حرف كما ترى ذاته في الآخرة ، بلا كم ولا كيف ، وتقدم في طه أن المراد ما إلى يمين المتوجه من مصر إلى الكعبة المشرفة ، والشجرة قال البغوي : قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ :

كانت سمرة خضراء تبرق ، وقال قتادة ومقاتل والكلبي : كانت عوسجة ، وقال وهب : من العليق ، وقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إنها العناب .

ثم ذكر المنادي بقوله : ﴿ أن يا موسى ﴾ وأكد لأنه سبحانه لعظمه يحتقر كل أحد نفسه لأن يؤهله للكلام لا سيما والأمر في أوله فقال : ﴿ إني أنا الله ﴾ أي المستجمع للأسماء الحسنى ، والصفات العلى .

(268/586)

ولما كان هذا الاسم غيباً ، تعرف بصفة هي مجمع الأفعال المشاهدة للإنسان فقال : ﴿ رب العالمين ﴾ أي خالق الخلائق أجمعين ومربيهم ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أي لأريك فيها آية .

ولما كان التقدير : فألقاها فصارت في الحال حية عظيمة ، وهي مع عظمها في غاية الخفة ، بنى عليه قوله : ﴿ فلما رآها ﴾ أي العصا ﴿ تهتز كأنها ﴾ أي في سرعتها وخفتها ﴿ جان ﴾ أي حية صغيرة ﴿ ولّى مدبراً ﴾ خوفاً منها ولم يلتفت إلى جهتها ، وهو معنى قوله : ﴿ ولم يعقب ﴾ أي موسى عليه الصلاة والسلام ، وذلك كناية عن شدة التصميم على الهرب والإسراع فيه خوفاً من الإدراك في الطلب فقيل له : ﴿ يا موسى أقبل ﴾ أي

التفت وتقدم إليها ﴿ ولا تخف ﴾ ثم أكد له الأمر لما الآدمي مجبول عليه من النفرة وإن اعتقد صحة الخبر بقوله : ﴿ إنك من الآمنين ﴾ أي العريقين في الأمن كعادة إخوانك من المرسلين ؛ ثم زاد طمأنينته بقوله : ﴿ اسلك ﴾ أي ادخل على الاستقامة مع الخفة والرشاقة ﴿ يدك في جيبك ﴾ أي القطع الذي في ثوبك وهو الذي تخرج منه الرأس ، أو هو الكم ، كما يدخل السلك وهو الخيط الذي ينظم فيه الدرر ، تنسلك على لونها وما هي عليه من أثر الحريق الذي عجز فرعون عن مداواته ، وأخرجها ﴿ تخرج بيضاء ﴾ أي بياضاً عظيماً يكون له شأن خارق للعادات ﴿ من غير سوء ﴾ أي عيب من حريق أو غيره ، فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ، فالآية من الاحتباك .

ولما كان ذلك لا يكون آية محققة لعدم العيب إلا بعودها بعد ذلك إلى لون الجسد قال : ﴿ واضمم إليك ﴾ أي إلى جسدك .

(269/586)

ولما كان السياق للتأمين من الخوف ، عبر بالجناح ، لأن الطائر يكون آمناً عند ضم جناحه فقال : ﴿ جناحك ﴾ أي يديك التي صارت بيضاء ، والمراد بالجناح في آية طه الإبط والجانب لأنه لفظ مشترك ﴿ من الرهب ﴾ أي من خشية أن تظنها معيبة تخرج كما كانت

قبل بياضها في لون جسدك – هذا على أن المراد بالرهب الخوف الذي بهره فأوجب له الهرب ، ويجوز أن يكون المراد بالرهب الكم ، فيكون إدخالها في الفتى – التي ليست موضعها بل الرأس – للبياض ، وإدخالها في الكم – الذي هو لها – لرجوعها إلى عادتها ، وفي البغوي عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن الله تعالى أمره أن يضم يده إلى صدره فذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية ، وقال : وما من خائف بعد موسى عليه الصلاة والسلام إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه .

وأظهر بلفظ الجناح من غير إضمار تعظيماً للمقام وتنبيهاً على أن عودها إلى حالها الأول آية مستقلة ، وعبر عنها بلفظ الجناح تنبيهاً على الشكر بتعظيم نفعها .

ولما تم كونا آية بانقلابها إلى البياض ثم رجوعها إلى لونها قال : ﴿ فذانك ﴾ أي العصي واليد البيضاء ، وشدد أبو عمرو وابن كثير ورويس تقوية لها لتعادل الأسماء المتمكنة ، وذكر لزيادة التقوية ﴿ برهانان ﴾ أي سلطانان وحجتان قاهرتان ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك لا يقدر على مثلهما غيره ﴿ إلى ﴾ أي واصلان ، أو أنت مرسل بهما إلى ﴿ فرعون وملئه ﴾ كلما أردت ذلك وجدته ، لا أنهما يكونان لك هنا في هذه الحفرة فقط ، ثم علل الإرسال إليهم على وجه إظهار الآيات لهم واستمرارها بقوله مؤكداً تنبيهاً على ان إقدامه على الرجوع إليهم فعل من يظن أنهم رجعوا عن غيهم ، وإعلاماً بمنه عليه بالحماية منهم بهذه البراهين : ﴿ إنهم كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ قوماً ﴾ أي أقوياء

﴿ فاسقين ﴾ أي خارجين عن الطاعة ، فإذا رأوا ذلك هابوك ، فلم يقدروا على الوصول إليك بسوء ، وكنت في مقام أن تردهم عن فسقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 480.484 ﴾

(270/586)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾

اعلم أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " تزوج صغراهما وقضى أوفاهما " أي قضى أوفى الأجلين ، وقال مجاهد قضى الأجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءانَسَ ﴾ يدل على أن ذلك الإيناس حصل عقيب مجموع الأمرين ولا يدل على أنه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الأجل ، فبطل ما قاله القاضي من أن ذلك يدل على أنه لم يزد عليه وقوله : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ ليس فيه دلالة على أنه خرج منفرداً معها وقوله : ﴿ امكثوا ﴾ فيه دلالة على الجمع .

أما قوله : ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَاراً ﴾ فقد مر تفسيره في سورة طه والنمل .

أما قوله : ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ففيه أبحاث :

الأول : قال صاحب "الكشاف" الجذوة باللغات الثلاث وقد قرىء بهن جميعاً وهو العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن ، قال الزجاج الجذوة القطعة الغليظة من الحطب .

الثاني : قد حكينا في سورة طه أنه أظلم عليه الليل في الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر فوجدوا برداً شديداً فعنده أبصر ناراً بعيدة فسار إليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله : ﴿ آتيكم منها بخبر ﴾ أو آتيكم من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفي قوله : ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ دلالة على إنه ضل وفي قوله : ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ دلالة على البرد .

(271/586)

أما قوله : ﴿ فَلَمَّا أتاها نُودِىَ مِن شَاطِىء الوادى الأيمن فِى البقعة المباركة مِنَ الشجرة أَن يا موسى إِنِّى أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ فاعلم أن شاطىء الوادي جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطىء الوادي من قبل الشجرة وقوله : ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ بدل من قوله : ﴿ مِن شَاطِىء الوادى ﴾ بدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء كقوله :

﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [الزخرف : 33] وإنما وصف البقعة بكونها مباركة لأنه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى إياه وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

(272/586)

احتجت المعتزلة على قولهم إن الله تعالى متكلم بكلام يخلقه في جسم بقوله : ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ فإن هذا صريح في أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزه أن يكون في جسم فثبت أنه تعالى إنما يتكلم بخلق الكلام في جسم أجاب القائلون بقدم الكلام فقالوا لنا مذهبان الأول : قول أبي منصور الماتريدي وأئمة ما وراء النهر وهو أن الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع إنما المسموع هو الصوت والحرف وذلك كان مخلوقاً في الشجرة ومسموعاً منها ، وعلى هذا التقدير زال السؤال الثاني : قول أبي الحسن الأشعري وهو أن الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعاً ، كما أن الذات التي ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون مرئية فعلى هذا القول لا يبعد أنه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الأمرين ، واحتج أهل السنة بأن محل قوله : ﴿ إِنِّي أَنَا

الله رَبُّ العالمين ﴾ لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة إني أنا الله ، والمعتزلة أجابوا بأن هذا إنما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسألة ، أجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل مني فإني مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله تعالى ، فإن كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قد قال لا تأكل مني فإني مسموم ، وهذا باطل وإن كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت إني أنا الله وكل ذلك باطل .

المسألة الثانية :

(273/586)

يحتمل أن يقال إنه تعالى خلق فيه علماً ضرورياً بأن ذلك الكلام كلام الله ، والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا لأنه لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى لأنه يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى أنه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل أن يقال إنه تعالى لما أسمعه الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت عرف أن مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل أن يقال إن ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى في أنه يعلم أن مثل ذلك لا

يكون إلا من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون المعجز هو أنه رأى النار في الشجرة الرطبة فعلم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة إلا الله تعالى ، ويحتمل أن يصح ما يروى أن إبليس لما قال له كيف عرفت أنه نداء الله تعالى ؟ قال لأني سمعته بجميع أجزائي ، فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء علم أن ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى ، وهذا إنما يصح على مذهبنا حيث قلنا البنية ليست شرطاً .

المسألة الثالثة :

قال في سورة النمل (8) ﴿ نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وقال ههنا ﴿ نودي . . . إِنّى أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ وقال في طه (11 ، 12) : ﴿ نُودِىَ . . . إِنّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ ولا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر الكل إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء .

المسألة الرابعة :

قال الحسن إن موسى عليه السلام نودي نداء الوحي لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ قال الجمهور إن الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى :

﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] وسائر الآيات ، وأما الذي تمسك به الحسن فضعيف لأن قوله : ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ لم يكن بالوحي لأنه لو كان ذلك أيضاً بالوحي لانتهى آخر الأمر إلى كلام يسمعه المكلف لا بالوحي وإلا لزم التسلسل بل المراد من قوله : ﴿ فاستمع لِمَا يُوحَى ﴾ وصيته بأن يتشدد في الأمور التي تصل إليه في مستقبل الزمان بالوحي .

أما قوله : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا موسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الأمنين ﴾ فقد تقدم تفسير كل ذلك ، وقوله ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ صريح في أنه تعالى شبهها بالجان ولم يقل إنه في نفسه جان ، فلا يكون هذا مناقضاً لكونه ثعباناً بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار ، وقد تقدم الكلام في خوفه ، ومعنى ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ لم يرجع ، يقال عقب المقاتل إذا كر بعد الفر ، وقال وهب إنها لم تدع شجرة ولا صخرة إلا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير أسنانها وسمع قعقعة الصخر في جوفها فحينئذ ولى ، واختلفوا في العصا على وجوه :

أحدها : قالوا إن شعيباً كانت عنده عصي الأنبياء عليهم السلام ، فقال لموسى بالليل إذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي ، فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الأنبياء تتوارثها حتى وقعت إلى شعيب عليه السلام فقال أرني العصا فلمسها

وكان مكفوفاً فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له معها شأناً .

(275/586)

وروي أيضاً أن شعيباً عليه السلام أمر ابنته أن تأتي بعصا لأجل موسى عليه السلام فدخلت البيت وأخذت العصا وأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلم يقع في يدها غيرها ، فلما رأى الشيخ ذلك رضي به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه السلام فلما لقيه قال أعطني العصا ، قال موسى هي عصاي فأبى أن يعطيه إياها فاختصما ، ثم توافقا على أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشي فقضى بينهما فقال ضعوها على الأرض فمن حملها فهي له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهولة ، فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين وثانيها : روى ابن صالح عن ابن عباس قال كان في دار بيرون ابن أخي شعيب بيت لا يدخله إلا بيرون وابنته التي زوجها من موسى عليه السلام ، وأنها كانت تكنسه وتنطفه ، وكان في ذلك البيت ثلاث عشرة عصا ، وكان لبيرون أحد عشر ولداً من الذكور فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت وإخراج عصا من تلك العصي فرجع موسى ذات يوم إلى منزله ، فلم

يجد أهله واحتج إلى عصا لرعيه فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصي وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت إلى أبيها وأخبرته بذلك فسر بذلك يبرون وقال لها إن زوجك هذا لنبي ، وإن له مع هذه العصا لشأناً وثالثها : في بعض الأخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعي قال له شعيب عليه السلام اذهب بهذه الأغنام فإذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وإن كان الكلأ بها أكثر فإن بها تنيناً عظيماً فأخشى عليك وعلى الأغنام منه ، فذهب موسى بالأغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الأغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى عشباً كثيراً ، ثم إن موسى عليه السلام نام والأغنام ترعى وإذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عليه السلام فقاتلته حتى قتلته وعادت إلى جنب موسى وهي دامية فلما

(276/586)

استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولاً فارتاح لذلك وعلم أن لله تعالى في تلك العصا قدرة وآية ، وعاد إلى شعيب عليه السلام وكان ضريراً فمس الأغنام فإذا هي أحسن حالاً مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح

بذلك وعلم أن لموسى عليه السلام وعصاه شأناً ، فأراد أن يجازي موسى عليه السلام على حسن رعيه إكراماً وصلة لابنته فقال إني وهبت لك من السخال التي تضعها أغنامي في هذه السنة كل أبلق وبلقاء ، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقي الغنم منه ففعل ثم سقى الأغنام منه فما أخطت واحدة منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء ، فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى إلى موسى عليه السلام وامرأته فوفى له شرطه ورابعها : قال بعضهم تلك العصا هي عصا آدم عليه السلام وإن جبريل عليه السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقي بها موسى عليه السلام ربه ليلاً وخامسها : قال الحسن ما كانت إلا عصا من الشجر اعترضها اعتراضاً أي أخذها من عرض الشجر يقال اعترض إذا لم يتخير ، وعن الكلبي : الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض لأنه ليس في القرآن ما يدل عليها والأخبار متعارضة ، والله أعلم بها .

أما قوله تعالى : ﴿ أَسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ فاعلم أن الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات أحدها : هذه وثانيها : قوله في طه (22) ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء ﴾ وثالثها : قوله في النمل (12) ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ قال العزيزي في غريب القرآن : ﴿ اسلك يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ أدخلها فيه .

أما قوله : ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ﴾ فأحسن الناس كلاماً فيه ، قال صاحب "الكشاف" : فيه معنيان أحدهما : أن موسى عليه السلام لما قلب الله له العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء ، فقيل له إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء ، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى ، والمراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه الثاني : أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعاره من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران ، ومعنى قوله : ﴿ مِنَ الرهب ﴾ من أجل الرهب ، أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك وقوله : ﴿ اسلك يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ على أحد التفسيرين واحد ، ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين ، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرهب ، فإن

قيل قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه ، وذلك قوله : ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ وقوله : ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ [طه : 22] فما التوفيق بينهما ؟ قلنا المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى ، وبالمضموم إليه اليد اليسرى ، وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح ، هذا كله كلام صاحب "الكشاف" وهو في نهاية الحسن .

(278/586)

أما قوله تعالى : ﴿ فَذَانِكَ ﴾ قرىء مخففاً ومشدداً ، فالمخفف مثنى (ذا) ، والمشدد مثنى (ذان) ، قوله : ﴿ برهانان مِن رَّبِّكَ ﴾ حجتان نيرتان على صدقه في النبوة وصحة ما دعاهم إليه من التوحيد ، وظاهر الكلام يقتضي أنه تعالى أمره بذلك قبل لقاء فرعون حتى عرف ما الذي يظهره عنده من المعجزات ، لأنه تعالى حكى بعد ذلك عن موسى عليه السلام أنه قال : ﴿ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص : 33] قال القاضي : وإذا كان كذلك فيجب أن يكون في حال ظهور البرهانين هناك من دعاه إلى رسالته من أهله أو غيرهم ، إذ المعجزات إنما تظهر على الرسل في حال الإرسال لا قبله ، وإنما تظهر لكي يستدل بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف ، لأنه ثبت أنه لا بد في

إظهار المعجزة من حكمة ولا حكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعي ، وأما كونه لا حكمة ههنا فلا نسلم ، فلعل هناك أنواعاً من الحكم والمقاصد سوى ذلك ، لا سيما وهذه الآيات متطابقة على أنه لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 208.212 ﴾

(279/586)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾

يعني العمل الذي شُرِطَ عليه

. ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ أي بزوجته

. ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ أي رأى ، وقد يعبر عن الرؤية بالعلم

. ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُواْ إِنِّي ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بخبر الطريق الذي أراد قصده هل هو على صوبه أو منحرف عنه .

الثاني : بخبر النار التي رآها هل هي لخير يأنس به أو لشر يحذره .

﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ ﴾ فيها أربعة أوجه

: أحدها : الجذوة أصل الشجرة فيها نار ، قاله قتادة .

الثاني : أنها عود في بعضه نار وليس في بعضه نار ، قاله الكلبي .

الثالث : أنها عود فيه نار ليس له لهب ، قاله زيد بن أسلم .

الرابع : أنها شهاب من نار ذي لهب ، قاله ابن عباس . قال الشاعر :

وألقي على قبس من النار جذوة . . . شديدٌ عليها حميها والتهابها .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئون

. قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعني النار أي قرب منها .

﴿ نُودِيَ مِن شَاطِيءِ الْوَادِ الأَيمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ وهي البقعة التي قال الله فيها لموسى ﴿ اخلَعْ نَعْلَيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

واحتمل وصفها بالبركة وجهين :

أحدهما : لأن الله كلم فيها موسى وخصه فيها بالرسالة .

الثاني : أنها كانت من بقاع الخصب وبلاد الريف .

ثم قال تعالى : ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فأحل الله كلامه في الشجرة حتى سمعه موسى منها ، لأنه لا يستطيع أن يسمعه من الله وهذه أعلى منازل الأنبياء أن يسمعوا كلام الله من غير رسول مبلغ وكان الكلام مقصوراً على تعريفه بأنه الله رب العالمين إثباتاً لوحدانيته ونفياً لربوبية غيره ، وصار بهذا الكلام من أصفياء الله من رسله لأنه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة ، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

فإن قيل : فكيف أضاف البركة إلى البقعة دون الشجرة والشجرة بالبركة أخص لأن الكلام عنها صدر ومنها سُمِعَ ؟

قيل : عنه جوابان :

أحدهما : أن الشجرة لما كانت في البقعة أضاف البركة إلى البقعة لدخول الشجرة فيها ولم يخص به الشجرة فتخرج البقعة وصار إضافتها إلى البقعة أعم .

الثاني : أن البركة نفذت من الشجرة إلى البقعة فصارت البقعة بها مباركة فلذلك خصّها الله بذكر البركة ، قاله ابن عباس ، والشجرة هي العليق وهي العوسج .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . . ﴾ الآية وإنما أمره بإلقاء عصاه في هذا الحال ليكون برهاناً عنده بأن الكلام الذي سمعه كلام الله ثم ليكون برهاناً له إلى من يرسل إليه من فرعون وملئه .

فإن قيل : فإذا كانت برهاناً إليه وبرهاناً له فلم ولّى منها هارباً ؟

قيل لأمرين :

أحدهما : رأى ما خالف العادة فخاف .

الثاني : أنه يجوز أن يظن الأمر بإلقائها لأجل أذاها فولَّى هارباً حتى نودي فعلم .

﴿ . . . ولَمْ يُعَقِّبْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : ولم يثبت ، اشتقاقاً من العقب الذي يثبت القدم .

الثاني : ولم يتأخر لسرعة مبادرته .

ويحتمل ثالثاً : أي لم يلتفت إلى عقبه لشدة خوفه وسرعة هربه .

﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : الآمنين من الخوف .

(281/586)

الثاني : من المرسلين لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال ابن بحر : فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول . وعلى التأويل الأول يصير رسولاً بقوله : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِئِهِ ﴾ والبرهانان اليد والعصا .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أن الجناح الجيب جيب القميص وكان عليه مدرعة صوف .

الثاني : أن الجيب جنب البدن .

﴿ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن الرهب الكُمّ ، قاله مورق .

الثاني : أنه من الخوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(282/586)

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ ،

قال سعيد بن جبير سألني رجل من النصارى أي الأجلين قضى موسى ، فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب أعني ابن عباس ، فقدمت عليه فسألته ، فقال قضى أكملهما وأوفاهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال وفى فعدت فأعلمت النصراني ، فقال صدق هذا والله العالم ، وروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين ، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشراً وعشراً بعدها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف وفي قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما قضى الأجل أراد أن يسير بأهله إلى مصر بلده وقومه وقد كان لا محالة أحس بالترشيح للنبوءة فسار وكان رجلاً غيوراً لا يصحب الرفاق ، فلما جاء في بعض طريقه في ليلة مظلمة مردة حرة قال النقاش كانت ليلة جمعة فقدوا النار وأصلد الزند وضلوا الطريق واشتد عليهم الخصر ، فبينا هو كذلك إذ رأى ناراً وكان ذلك نوراً من الله تعالى قد التبس بشجرة قال وهب كانت عليقاً وقال قتادة عوسجاً .

وقيل زعروراً ، وقيل سمرة ، قاله ابن مسعود و" آنس " معناه أحسن والإحساس هنا بالبصر ومن هذه اللفظة قوله تعالى : ﴿ فإن آنستم منهم رشداً ﴾

[النساء : 6] ومنها قول حسان : [المنسرح]

انظر خليلي بباب جلق هل ت . . . ونس دون البلقاء من أحد

وكان هذا الأمر كله في ﴿ جانب الطور ﴾ وهو جبل معروف بالشام ، و ﴿ الطور ﴾ كل جبل ، وخصصه قوم بأنه الذي لا ينبت فلما رأى موسى النار سر فقال لأهله أقيموا فقد رأيت ناراً ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ عن الطريق أين هو ﴿ أو جذوة ﴾ وهي القطعة من النار في قطعة عود كبيرة لا لهب لها إنما هي جمرة ومن ذلك قول الشاعر : [ابن مقبل] : [البسيط]

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها . . . جزل الجذا غير خوار ولا دعر

(283/586)

قال القاضي أبو محمد : وأحسب أن أصل " الجذوة " أصول الشجر وأهل البوادي أبداً يوقدونها ، فتلك هي الجذوة حقيقة ، ومنه قول السلمي يصف الصلى : [الطويل]

حمى حب هذا النار حب خليلتي . . . وحب الغواني فهي دون الحبائب

وبدلت بعد البان والمسك شقوة . . . دخان الجذا في رأس أشحط شاحب

(284/586)

وقرأ الجمهور " جِذوة " بكسر الجيم ، وقرأ حمزة والأعمش " جُذوة " بضمها ، وقرأ عاصم " جَذوة " بفتحها ، وهي لغات والصلى حر النار ، و﴿ تصطلون ﴾ تفتعلون منه أبدلت التاء طاء ، فلما أتى موسى عليه السلام ذلك الضوء الذي رآه وهو في تلك الليلة ابن أربعين سنة نبىء عليه السلام ، فروي أنه كان يمشي إلى ذلك النور فكان يبعد منه تمشي به الشجرة وهي خضراء غضة حتى ﴿ نودي ﴾ ، و" الشاطىء " والشط ضفة الوادي ، وقوله ﴿ الأيمن ﴾ يحتمل أن يكون من اليمن صفة للوادي أو للشاطىء ، ويحتمل أن يكون

المعادل لليسار فذلك لا يوصف به الشاطىء إلا بالإضافة إلى موسى في استقباله مهبط الوادي أو يعكس ذلك وكل هذا وقد قيل ، و" بركة البقعة " هي ما خصت به من آيات الله تعالى وأنواره وتكليمه لموسى عليه السلام ، والناس على ضم الباء من "بُقعة" ، وقرأ بفتحها أبو الأشهب ، قال أبو زيد : سمعت من العرب : هذه بَقعة طيبة بفتح الباء ، وقوله تعالى ﴿ من الشجرة ﴾ يقتضي أن موسى عليه السلام سمع ما سمع من جهة الشجرة ، وسمع وأدرك غير مكيف ولا محدد ، وقوله تعالى ﴿ أن يا موسى ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ أن ﴾ مفسرة ويحتمل أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر ، وقرأت فرقة " أني أنا الله " بفتح " أني " ، ثم أمره الله تعالى ، بإلقاء العصا ، فألقاها فانقلبت حية عظيمة ولها اضطراب " الجانّ " وهو صغير الحيات فجمعت هول الثعبان ونشاط الجانّ ، هذا قول بعضهم ، وقالت فرقة : بل " الجانّ " يعم الكبير والصغير وإنما شبه ب " الجان " جملة العصا لاضطرابها فقط ، وولى موسى عليه السلام فزعاً منها ، ﴿ ولم يعقب ﴾ ، معناه لم يرجع على عقبه ، من توليه فقال الله تعالى ﴿ يا موسى أقبل ﴾ فأقبل وقد آمن بتأمين الله إياه ، ثم أمره أن يدخل يده في جيبه وهو فتح الجبة من حيث يخرج رأس الإنسان ، وروي أن كم الجبة كان في غاية الضيق فلم يكن له جيب تدخل يده إلا في جيبه ، و" سلك " معناه أدخل ومنه

قول الشاعر : [البسيط]

حتى سلكن الشوا منهن في مسك . . . من نسل جوابة الآفاق مهداج

وقوله تعالى : ﴿ من غير سوء ﴾ أي من غير برص ولا مثلة .

وروي أن يده كانت تضيء كأنها قطعة شمس ، وقوله تعالى : ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ ذهب مجاهد وابن زيد إلى أن ذلك حقيقة ، أمره بضم عضده وذراعه وهو الجناح إلى جنبه ليخف بذلك فزعه ، ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في أوقات فزعه أن يقوى قلبه ، وذهبت فرقة إلى أن ذلك على المجاز والاستعارة وأنه أمره بالعزم على ما أمر به وأنه كما تقول العرب اشدد حيازيمك واربط جأشك ، أي شمر في أمرك ودع الرهب ، وذلك لما كثر تخوفه في غير ما موطن قاله أبو علي ، وقوله تعالى ﴿ فذانك برهانان ﴾ قال مجاهد والسدي : هي إشارة إلى العصا واليد ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والناس " الرَّهَب " بفتح الراء والهاء ، وقرأ عاصم وقتادة " الرهْب " بسكون الهاء ، وقرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم أيضاً " الرُّهْب " بضم الراء وسكون الهاء ، وقرأ الجحدري " الرُّهُب " بضم الراء والهاء ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " فذانّك " بشد النون ، وقرأ الباقون " فذانك " بتخفيف النون ، وقرأ شبل عن ابن كثير " فذانيك " بياء بعد النون المخففة ، أبدل إحدى النونين ياء كراهة التضعيف ، وقرأ ابن مسعود " فذانيك " بالياء أيضاً مع شد

النون وهي لغة هذيل ، وحكى المهدوي أن لغتهم تخفيف النون ، و﴿ برهانان ﴾ ، حجتان ومعجزتان ، وباقي الآية بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(286/586)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلمَّا قضى موسى الأجَلَ ﴾

روى ابن عباس رضي الله عنهما " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أيّ الأجلين قضى موسى ، قال : "أوفاهما وأطيبهما" " قال مجاهد : مكث بعد قضاء الأجل عندهم عشراً أُخَر .

وقال وهب بن منبِّه : أقام عندهم بعد أن أدخل عليه امرأته سنين ، وقد سبق تفسير هذه الآية [طه : 10] إلى قوله : ﴿ أو جَذْوَةٍ ﴾ وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : ﴿ جِذْوَةٍ ﴾ بكسر الجيم .

وقرأ عاصم بفتحها .

وقرأ حمزة ، وخلف ، والوليد عن ابن عامر بضمها ، وكلُّها لغات .

قال ابن عباس : الجذوة : قطعة حطب فيها نار ، وقال أبو عبيدة : قطعة غليظة من

الحطب ليس فيها لَهب ، وهي مثل الجِذْمَة من أصل الشجرة ، قال ابن مقبل :

باتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا . . .

جَزْلَ الجِذَا غيرَ خَوَّارٍ ولا دَعِرِ

والدَّعِر : الذي قد نَخِر ، ومنه رجل داعر ، أي : فاسد .

قوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِنْ شاطىء الواد ﴾ وهو : جانبه ﴿ الأيمنِ ﴾ وهو الذي عن يمين موسى ﴿ في البُقْعة ﴾ وهي القطعة من الأرض ﴿ المباركةِ ﴾ بتكليم الله موسى فيها ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ أي : من ناحيتها .

وفي تلك الشجرة قولان .

أحدهما : [أنها] شجرة العنَّاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : عوسجة ، قاله قتادة ، وابن السائب ، ومقاتل .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل : 10] إلى قوله : ﴿ إنك من الآمنين ﴾ أي : من أن ينالك مكروه .

قوله تعالى : ﴿ أُسْلُك يدك ﴾ أي : أَدْخِلها ، ﴿ واضمُمْ إليكَ جناحك ﴾ قد فسرنا الجناح في [طه : 22] إلا ان بعض المفسرين خالف بين تفسير اللفظين ، فشرحناه .

وقال ابن زيد : جناحه : الذِّراع والعضُد والكفُّ .

وقال الزجاج: الجناح ها هنا: العضُد، ويقال لليد كلِّها: جناح.

وحكى ابن الأنباري عن الفراء أنه قال: الجناح ها هنا: العصا.

(287/586)

قال ابن الأنباري: الجناح للانسان مشبَّه بالجناح للطائر، ففي حال تُشبِّه العربُ رِجْلي الإنسان بجناحَي الطائر، فيقولون: قد مضى فلان طائراً في جناحيه، يعنون ساعياً على قدميه، وفي حال يجعلون العضد منه بمنزلة جناحي الطائر، كقوله: ﴿ واضمُمْ يدك إلى جناحك ﴾، وفي حال يجعلون العصا بمنزلة الجناح، لأن الإنسان يدفع بها عن نفسه كدفع الطائر عن نفسه بجناحه، كقوله: ﴿ واضمُمْ إليك جناحك مِنْ الرَّهْب ﴾، وإنما يوقع الجناح على هذه الأشياء تشبيهاً واستعارة، كما يقال: قد قُصَّ جناح الإنسان، وقد قُطعت يده ورجله: إذا وقعت به جائحة أبطلت تصرُّفه؛ ويقول الرجل للرجل: أنت يدي ورِجْلي، أي: أنت مَنْ به أُصِلُ إلى محابِّي، قال جرير:

سَأَشْكُرُ أَنْ رَدَدْتَ إِلَيَّ رِيشي . . .

وأَنْبَتَّ القَوادمَ في جَناحِي

وقالت امرأة من العرب ترثي زوجها الأغرّ:

يا عِصمتي في النّائبات ويا . . .

رُكْني [الأغرّ] ويا يَدي اليمنى

لا صُنْتُ وجهاً كنتُ صَائنه . . .

أبداً ووجهك في الثرى يَبْلى

فأمَّا الرَّهَب ، فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : ﴿ مِنَ الرَّهَب ﴾ بفتح الراء والهاء .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : ﴿ من الرُّهْب ﴾ بضم الراء وسكون الهاء .

وقرأ حفص [وأبان] عن عاصم : ﴿ من الرَّهْب ﴾ بفتح الراء وسكون الهاء [وهي قراءة ابن مسعود ، وابن السميفع] .

وقرأ أُبيّ بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، بضم الراء والهاء .

قال الزجاج : الرُّهْب ، والرَّهَب بمعنى واحد ، مثل الرُّشْد ، والرَّشَد .

وقال أبو عبيدة : الرُّهْب والرَّهْبة بمعنى الخوف والفَرَق .

وقال ابن الأنباري : الرَّهْبُ ، والرُّهُب ، والرَّهَب ، مثل الشَّغْل ، والشُّغْل ، والشَّغَل ، والبَخْل ، والبُخُل ، والبَخَل ، وتلك لغات ترجع إلى معنى الخوف والفَرَق .

وللمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أَنَّه لَمَّا هرب من الحيَّة أمره الله أن يَضُم إليه جناحه ليذهب عنه الفزع .

قال ابن عباس : المعنى : اضمم يدك إلى صدرك من الخوف ولا خوف عليك .

وقال مجاهد : كلُّ مَنْ فَزِع فضَمَّ جناحه إليه ذهب عنه الفَزَع .

والثاني : أَنَّه لَمَّا هاله بياض يده وشعاعها ، أُمِر أن يُدْخِلها في جيبه ، فعادت إلى حالتها الأولى .

والثالث : أن معنى الكلام : سَكِّن رَوْعَك ، وثَبِّت جأْشَك .

قال أبو علي : ليس يراد به الضَّمُّ بين الشيئين ، إنما أُمِر بالعزم [على ما أُمِر به] والجدّ فيه ، ومثله : اشدد حيازيمك للموت .

قوله تعالى : ﴿ فذانك ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : ﴿ فذانِّك ﴾ بالتشديد .

وقرأ الباقون : ﴿ فذانك ﴾ بالتخفيف .

قال الزجاج : التشديد تثنية "ذلك" ، والتخفيف تثنية "ذاك" ، فجعل اللام في "ذلك" بدلاً من تشديد النون في "ذانِّك" ، ﴿ بُرْهانان ﴾ أي : بيانان اثنان .

قال المفسرون : "فذانك" يعني العصا واليد ، حُجَّتان من الله لموسى على صِدْقه ، ﴿ إلى فرعون ﴾ أي : أرسلنا بهاتين الآيتين إلى فرعون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ قال سعيد بن جبير : سألني رجل من النصارى أي الأجلين قضى موسى .

فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله يعني ابن عباس فقدمت عليه فسألته ؛ فقال : قضى أكملهما وأوفاهما .

فأعلمت النصراني فقال : صدق والله هذا العالم .

وروي عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل في ذلك جبريل فأخبره أنه قضى عشر سنين .

وحكى الطبريّ عن مجاهد أنه قضى عشراً وعشراً بعدها ؛ قال ابن عطية : وهذا ضعيف .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل : فيه دليل على أن الرجل يذهب بأهله حيث

شاء ؛ لما لَهُ عليها من فضل القوّامية وزيادة الدرجة إلا أن يلتزم لها أمراً فالمؤمنون عند شروطهم ، وأحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً ﴾ الآية .

تقدّم القول في ذلك في "طه" .

والجِذوة بكسر الجيم قراءة العامة ، وضمها حمزة ويحيى ، وفتحها عاصم والسُّلَمي وزرّ بن حُبيش .

قال الجوهري : الجِذْوة والْجُذْوَة والْجَذْوَةُ الجمرة الملتهبة والجمع جِذاً وجُذاً وجَذاً .

قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار ﴾ أي قطعة من الجمر ؛ قال : وهي بلغة جميع العرب .

وقال أبو عبيدة : والجِذْوة مثل الجِذمة وهي القطعة الغليظة من الخشب كان في طرفها نار أو لم يكن .

قال ابن مقبل :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا . . .

جَزْلَ الْجِذَا غَيْرَ خَوّارٍ ولا دَعِرِ

وقال :

وَأَلْقَى على قَيْسٍ مِنَ النّار جِذْوَةً . . .

شديداً عليها حَمْيُها ولهيبُها

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا ﴾ يعني الشجرة قدم ضميرها عليها .

(290/586)

﴿ نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي ﴾ ﴿ مِن ﴾ الأولى والثانية لابتداء الغاية ، أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة .

و ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ بدل من قوله : ﴿ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ ﴾ بدل الاشتمال ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء ، وشاطىء الوادي وشطه جانبه ، والجمع شُطَّان وشواطىء ، ذكره القشيري .

وقال الجوهري : ويقال شاطىء الأودية ولا يجمع .

وشاطأت الرجل إذا مشيت على شاطىء ومشى هو على شاطىء آخر .

﴿ الأيمن ﴾ أي عن يمين موسى .

وقيل : عن يمين الجبل .

﴿ فِي البقعة المباركة ﴾ وقرأ الأشهب العقيلي : ﴿ فِي الْبَقْعَةِ ﴾ بفتح الباء .

وقولهم بِقعا يدلّ على بَقْعة ؛ كما يقال جَفْنة وجِفَان .

ومن قال بُقْعة قال بُقَع مثل غُرْفة وغُرَف .

﴿ مِنَ الشجرة ﴾ أي من ناحية الشجرة .

قيل : كانت شجرة العلَّيق .

وقيل : سَمُرة وقيل : عَوْسج .

ومنها كانت عصاه ؛ ذكره الزمخشري .

وقيل : عُنَّاب ، والعَوْسج إذا عظم يقال له الغَرْقَد .

وفي الحديث : إنه من شجر اليهود فإذا نزل عيسى وقتل اليهود الذين مع الدّجال فلا يختفي أحد منهم خلف شجرة إلا نطقت وقالت يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال فاقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود فلا ينطق .

خرجه مسلم .

قال المهدوي : وكلم الله تعالى موسى عليه السلام من فوق عرشه وأسمعه كلامه من الشجرة على ما شاء .

ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالانتقال والزوال وشِبه ذلك من صفات المخلوقين .

(291/586)

قال أبو المعالي : وأهل المعاني وأهل الحق يقولون مَن كلمه الله تعالى وخصّه بالرتبة العليا والغاية القصوى ، فيدرك كلامه القديم المتقدس عن مشابهة الحروف والأصوات والعبارات والنغمات وضروب اللغات ، كما أن مَن خصه الله بمنازل الكرامات وأكمل عليه نعمته ، ورزقه رؤيته يرى الله سبحانه منزّهاً عن مماثلة الأجسام وأحكام الحوادث ، ولا مثل له سبحانه في ذاته وصفاته ، وأجمعت الأمة على أن الرب تعالى خصص موسى عليه السلام وغيره من المصطفين من الملائكة بكلامه .

قال الأستاذ أبو إسحاق : اتفق أهل الحق على أن الله تعالى خلق في موسى عليه السلام معنى من المعاني أدرك به كلامه كان اختصاصه في سماعه ، وأنه قادر على مثله في جميع خلقه .

واختلفوا في نبينا عليه السلام هل سمع ليلة الإسراء كلام الله ، وهل سمع جبريل كلامه على قولين ؛ وطريق أحدهما النقل المقطوع به وذلك مفقود ، واتفقوا على أن سماع الخلق له عند قراءة القرآن على معنى أنهم سمعوا العبارة التي عرفوا بها معناه دون سماعه له في عينه .

وقال عبد الله بن سعد بن كلاب : إن موسى عليه السلام فهم كلام الله القديم من أصوات مخلوقة أثبتها الله تعالى في بعض الأجسام .

قال أبو المعالي : وهذا مردود ؛ بل يجب اختصاص موسى عليه السلام بإدراك كلام الله تعالى خرقاً للعادة ، ولو لم يُقَلَ ذلك لم يكن لموسى عليه السلام اختصاص بتكليم الله إياه .

والرب تعالى أسمعه كلامه العزيز ، وخلق له علماً ضرورياً ، حتى علم أن ما سمعه كلام الله ، وأن الذي كلّمه وناداه هو الله رب العالمين .

وقد ورد في الأقاصيص أن موسى عليه السلام قال : سمعت كلام ربي بجميع جوارحي ، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتي .

وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" مستوفى .

﴿ أَن يا موسى ﴾ ﴿ أَنْ ﴾ في موضع نصب بحذف حرف الجر أي ب ﴿ أَنْ يَا مُوسَى ﴾ .

﴿ إني أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ نفى لربوبية غيره سبحانه .

(292/586)

وصار بهذا الكلام من أصفياء الله عز وجل لا من رسله ؛ لأنه لا يصير رسولاً إلا بعد أمره بالرسالة ، والأمر بها إنما كان بعد هذا الكلام .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على ﴿ أَنْ يَا مُوسَى ﴾ وتقدم الكلام في هذا في "النمل" و"طه" .

و ﴿ مُدْبِراً ﴾ نصب على الحال وكذلك موضع قوله : ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ نصب على الحال

أيضاً .

﴿ يا موسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ ﴾ قال وهب : قيل له ارجع إلى حيث كنت .

فرجع فلفَّ دُرَّاعته على يده ، فقال له الملك : أرأيت إن أراد الله أن يصيبك بما تحاذر أينفعك لَفُّك يدك ؟ قال : لا ولكني ضعيف خلقت من ضعف .

وكشف يده فأدخلها في فم الحية فعادت عصا .

﴿ إِنَّكَ مِنَ الآمنين ﴾ أي مما تحاذر .

قوله تعالى : ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ الآية ؛ تقدّم القول فيه .

﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ﴾ ﴿ من ﴾ متعلقة ب ﴿ وَلَّى ﴾ أي ولّى مدبراً من الرهب .

وقرأ حفص والسُّلَميّ وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق : ﴿ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ بفتح الراء وإسكان الهاء .

وقرأ ابن عامر والكوفيون إلا حفص بضم الراء وجزم الهاء .

الباقون بفتح الراء والهاء .

واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [الأنبياء : 90] وكلها لغات وهو بمعنى الخوف .

والمعنى إذا هَالَك أمرٌ يَدِك وشعاعها فأدخلها في جيبك واردها إليه تعد كما كانت .

وقيل : أمره الله أن يضم يده إلى صدره فيذهب عنه خوف الحية .

عن مجاهد وغيره ورواه الضحاك عن ابن عباس ؛ قال : فقال ابن عباس : ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب .

ويحكى عن عمر ابن عبد العزيز رحمه الله : أن كاتباً كان يكتب بين يديه ، فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر ، فقام وضرب بقلمه الأرض .

فقال له عمر : خذ قلمك واضمم إليك جناحك ، وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي .

(293/586)

وقيل : المعنى اضمم يدك إلى صدرك ليذهب الله ما في صدرك من الخوف .

وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون وإما من الثعبان .

وضم الجناح هو السكون ؛ كقوله تعالى : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ [الإسراء : 24] يريد الرفق .

وكذلك قوله : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 215] أي

ارفق بهم .

وقال الفراء : أراد بالجناح عصاه .

وقال بعض أهل المعاني : الرهب الكُمّ بلغة حمير وبني حنيفة .

قال مقاتل : سألتني أعرابية شيئاً وأنا آكل فملأت الكف وأومأت إليها فقالت : هاهنا في رهبي .

تريد في كُمّي .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول لآخر أعطني رهبك .

فسألته عن الرهب فقال : الكُمّ ؛ فعلى هذا يكون معناه اضمم إليك يدك وأخرجها من الكُم ؛ لأنه تناول العصا ويده في كمه وقوله : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ يدلّ على أنها اليد اليمنى ؛ لأن الجيب على اليسار .

ذكره القشيري .

قلت : وما فسروه من ضم اليد إلى الصدر يدلّ على أن الجيب موضعه الصدر .

وقد مضى في سورة "النور" بيانه .

الزمخشري : ومن بدع التفاسير أن الرهب الكُم بلغة حمير وأنهم يقولون أعطني مما في رهبك ، وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضى عربيتهم ، ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية ، وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل ؛ على أن

موسى صلوات الله عليه ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زُرْمَانِقَة من صوف لا كمين لها .

قال القشيري : وقوله : ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ يريد اليدين إن قلنا أراد الأمن من فزع الثعبان .

وقيل : ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ أي شمر واستعد لتحمل أعباء الرسالة .

قلت : فعلى هذا قيل : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ أي من المرسلين ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون ﴾ [النمل : 10] .

قال ابن بحر : فصار على هذا التأويل رسولاً بهذا القول .

(294/586)

وقيل : إنما صار رسولاً بقوله : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾

والبرهانان اليد والعصا .

وقرأ ابن كثير : بتشديد النون وخففها الباقون .

وروى أبو عمارة عن أبي الفضل عن أبي بكر عن ابن كثير ، ﴿ فَذَانِّيكَ ﴾ بالتشديد والياء .

وعن أبي عمرو أيضاً قال لغة هذيل : ﴿ فَذَانِيكَ ﴾ بالتخفيف والياء .

ولغة قريش ﴿ فَذَانِكَ ﴾ كما قرأ أبو عمرو وابن كثير .

وفي تعليله خمسة أقوال : قيل شدّد النون عوضاً من الألف الساقطة في ذانك الذي هو تثنية ذا المرفوع ، وهو رفع بالابتداء ، وألف ذا محذوفة لدخول ألف التثنية عليها ، ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين ؛ لأن أصله فذانك فحذف الألف الأولى عوضاً من النون الشديدة .

وقيل : التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك .

مكي : وقيل إن من شدّد إنما بناه على لغة من قال في الواحد ذلك ، فلما بنى أثبت اللام بعد نون التثنية ، ثم أدغم اللام في النون على حكم إدغام الثاني في الأوّل ، والأصل أن يدغم الأوّل أبداً في الثاني ، إلا أن يمنع من ذلك علّة فيدغم الثاني في الأوّل ، والعلّة التي منعت في هذا أن يدغم الأوّل في الثاني أنه لو فعل ذلك لصار في موضع النون التي تدلّ على التثنية لام مشدّدة فيتغير لفظ التثنية فأدغم الثاني في الأوّل لذلك ؛ فصار نوناً مشدّدة .

وقد قيل : إنه لما تنافى ذلك أثبت اللام قبل النون ثم أدغم الأوّل في الثاني على أصول الإدغام فصار نوناً مشدّدة .

وقيل : شدّدت فرقاً بينها وبين الظاهر التي تسقط الإضافة نونه ؛ لأن ذان لا يضاف .

وقيل : للفرق بين الاسم المتمكن وبينها .

وكذلك العلّة في تشديد النون في ﴿ اللذان ﴾ و ﴿ هذان ﴾ .

قال أبو عمرو : إنما اختص أبو عمرو هذا الحرف بالتشديد دون كل تثنية من جنسه لقلة حروفه فقرأه بالتثقيل .

(295/586)

ومن قرأ : ﴿ فَذَانِيكَ ﴾ بياء مع تخفيف النون فالأصل عنده ﴿ فَذَانِّكَ ﴾ بالتشديد فأبدل من النون الثانية ياء كراهية التضعيف ، كما قالوا : لا أملاه في لا أَمَلُّه فأبدلوا اللام الثانية ألفاً .

ومن قرأ بياء بعد النون الشديدة فوجهه أنه أشبع كسرة النون فتولدت عنها الياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(296/586)

وقال أبو حيان :

﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ :

جاء على النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه وفي أطول الأجلين ، وهو العشر .

وعن مجاهد : وفي عشر أو عشراً بعدها ، وهذا ضعيف .

﴿ وسار بأهله ﴾ : أي نحو مصر بلده وبلد قومه .

والخلاف فيمن تزوّج ، الكبرى أم الصغرى ، وكذلك في اسمها .

وتقدّم كيفية مسيره ، وإيناسه النار في سورة طه وغيرها .

وقرأ الجمهور : جذوة ، بكسر الجيم ؛ والأعمش ، وطلحة ، وأبو حيوة ، وحمزة : بضها ؛ وعاصم ، غير الجعفي : بفتحها .

﴿ لعلكم تصطلون ﴾ : أي تتسخنون بها ، إذ كانت ليلة باردة ، وقد أضلوا الطريق .

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)

من ، في : من شاطىء ، لابتداء الغاية ، ومن الشجرة كذلك ، إذ هي بدل من الأولى ، أي من قبل الشجرة .

والأيمن : يحتمل أن يكون صفة للشاطىء وللوادي ، على معنى اليمن والبركة ، أو الأيمن : يريد المعادل للعضو الأيسر ، فيكون ذلك بالنسبة إلى موسى ، لا للشاطىء ، ولا للوادي ، أي أيمن موسى في استقباله حتى يهبط الوادي ، أو بعكس ذلك ؛ وكل هذه الأقوال في الأيمن مقول .

وقرأ الأشهب العقيلي ، ومسلمة : في البقعة ، بفتح الباء .

قال أبو زيد : سمعت من العرب : هذه بقعة طيبة ، بفتح الباء ، ووصفت البقعة بالبركة ، لما خصت به من آيات الله وأنواره وتكليمه لموسى عليه السلام ، أو لما حوت من الأرزاق والثمار الطيبة .

ويتعلق في البقعة بنودي ، أو تكون في موضع الحال من شاطىء .

والشجرة عناب ، أو عليق ، أو سمرة ، أو عوسج ، أقوال .

وأن : يحتمل أن تكون حرف تفسير ، وأن تكون مخففة من الثقيلة .

(297/586)

وقرأت فرقة : ﴿ إني أنا ﴾ ، بفتح الهمزة ، وفي إعرابه إشكال ، لأن إن ، إن كانت تفسيرية ، فينبغي كسر إني ، وإن كانت مصدرية ، تتقدر بالمفرد ، والمفرد لا يكون خبراً لضمير الشأن ، فتخريج هذه القراءة على أن تكون إن تفسيرية ، وإني معمول لمضمر تقديره : إني يا موسى أعلم إني أنا الله .

وجاء في طه : ﴿ نودي يا موسى إني أنا ربك ﴾ وفي النمل : ﴿ نودي أن بورك من في النار ﴾ وهنا : ﴿ نودي من شاطىء ﴾ ، ولا منافاة ، إذ حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء .

والجمهور : على أنه تعالى كلمه في هذا المقام من غير واسطة .

وقال الحسن : ناداه نداء الوحي ، لا نداء الكلام .

وتقدم الكلام على نظير قوله : ﴿ وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ ، ثم أمره فقال : ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ ، وهو فتح الجبة من حيث تخرج الرأس ، وكان كم الجبة في غاية الضيق .

وتقدّم الكلام على : ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ وفسر الجناح هنا باليد وبالعضد وبالعطاف ، وبما أسفل من العضد إلى الرسغ ، وبجيب مدرعته .

والرهب : الخوف ، وتأتي القراءات فيه .

وقيل : بفتح الراء والهاء : الكم ، بلغة بني حنيفة وحمير ، وسمع الأصمعي قائلاً يقول : اعطني ما في رهبك ، أي في كمك ، والظاهر حمل : ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ على الحقيقة .

قال الثوري : خاف موسى أن يكون حدث به سوء ، فأمره تعالى أن يعيد يده إلى جيبه لتعود على حالتها الأولى ، فيعلم موسى أنه لم يكن سوءاً بل آية من الله .

وقال مجاهد ، وابن زيد : أمره بضم عضده وذراعه ، وهو الجناح ، إلى جنبه ، ليخف بذلك فزعه .

ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يقوي قلبه .

وقيل : لما انقلبت العصا حية ، فزع موسى واضطرب ، فاتقاها بيده ، كما يفعل الخائف من الشيء ، فقيل له : أدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء لتظهر معجزة أخرى ، وهذا القول بسطه الزمخشري ، لأنه كالتكرار لقوله : ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ .

وقد قال هو والجناح هنا اليد ، قال : لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى ، فقد ضم جناحه إليه .

وقيل : المعنى إذا هالك أمر لما يغلب من شعاعها ، فاضممها إليك تسكن .

وقالت فرقة : هو مجاز أمره بالعزم على ما أمره به ، كما تقول العرب : أشدد حيازيمك واربط جأشك ، أي شمر في أمرك ودع الرهب ، وذلك لما كثر تخوفه وفزعه في غير موطن ، قاله أبو علي ، وكأنه طيره الفزع ، وآلة الطيران الجناح .

فقيل له : اسكن ولا تخف ، وضم منشور جناحك من الخوف إليك ، وذكر هذا القول الزمخشري ، فقال والثاني أن يراد بضم جناحه إليه : تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية ، حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف

نشر جناحيه وأرخاهما ، وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران .

ومعنى ﴿ من الرهب ﴾ : من أجل الرهب ، أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية ، فاضمم إليك جناحك .

جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه .

ومعنى : ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ ، وقوله : ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ على أحد التفسيرين واحد ، ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين ، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء ، وفي الثاني إخفاء الرهب .

فإن قلت : قد جعل الجناح ، وهو اليد ، في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه ، وذلك قوله : ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ ، ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ فما التوفيق بينهما ؟ قلت : المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى ، وبالمضموم إليه اليد اليسرى ، وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح .

(299/586)

ومن بدع التفاسير أن الرهب : الكم ، بلغة حمير ، وأنهم يقولون : اعطني ما في رهبك ؛ وليت شعري ؛ كيف صحته في اللغة ؟ وهل سمع من الأثبات الثقات التي ترضي عربيتهم ؟

ثم ليت شعري : كيف موقعه في الآية ؟ وكيف يعطيه الفصل كسائر كلمات التنزيل ؟ على أن موسى ، صلوات الله عليه ، ما كان عليه ليلة المناجاة إلاَّ زرما تقة من صوف ، لا كمين لها . انتهى .

أما قوله : وهل سمع من الأثبات ؟ وهذا مروي عن الأصمعي ، وهو ثقة ثبت .

وأما قوله : كيف موقعه من الآية ؟ فقالوا : معناه أخرج يدك من كمك ، وكان قد أخذ العصا بالكم .

وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو : من الرهب ، بفتح الراء والهاء ؛ وحفص : بفتح الراء وسكون الهاء ؛ وباقي السبعة : بضم الراء وإسكان الهاء .

وقرأ قتادة ، والحسن ، وعيسى ، والجحدري : بضمهما .

﴿ فذانك ﴾ : إشارة إلى العصا واليد ، وهما مؤنثتان ، ولكن ذكرا لتذكير الخبر ، كما أنه قد يؤنث المذكر لتأنيث الخبر ، كقراءة من قرأ : ثم لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا ، بالياء في تكن .

﴿ برهانان ﴾ : حجتان نيرتان .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : فذانك ، بتشديد النون ؛ وباقي السبعة : بتخفيفها .

وقرأ ابن مسعود ، وعيسى ، وأبو نوفل ، وابن هرمز ، وشبل : فذانيك ، بياء بعد النون المكسورة ، وهي لغة هذيل .

وقيل : بل لغة تميم ، ورواها شبل عن ابن كثير ، وعنه أيضاً : فذانيك ، بفتح النون قبل الياء

، على لغة من فتح نون التثنية ، نحو قوله :

على أحوذيين استقلت عشية . . .

وقرأ ابن مسعود : بتشديد النون مكسورة بعدها ياء .

قيل : وهي لغة هذيل .

وقال المهدوي : بل لغتهم تخفيفها .

و﴿ إلى فرعون ﴾ : يتعلق بمحذوف دل عليه المعنى تقديره : اذهب إلى فرعون . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(300/586)

وقال أبو السعود :

والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾

فصيحةٌ ، أي فعقدا العقدينِ وباشر موسى ما التزمه فلما أتمَّ الأجلَ ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾

نحوَ مصرَ بإذنٍ من شُعيبٍ عليهما السَّلامُ . رُوي أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قضَى أبعدَ

الأجلينِ ومكثَ عندَهُ بعد ذلك عشرَ سنينَ ثمَّ عزمَ على العودِ إلى مصرَ فاستأذنَه في ذلكَ

فأذنَ له فخرجَ بأهلِه ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور ﴾ أي أبصرَ من الجهةِ التي تلي الطُّورَ ﴿

نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِنِّى ءانَسْتُ نَاراً لَّعَلِى ءاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي بخبرِ الطّريقِ وقد كانُوا ضلُّوه ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ أي عُودٍ غليظٍ سواء كانتْ في رأسِه نارٌ أو لا ، قال قائلُهم :

باتتْ حواطبُ لَيْلَى يلتمسنَ لها . . . جزلَ الجَذَى غيرَ خوّارٍ ولا دعِرِ

وقال :

وألقى على قبْسٍ من النَّار جذوة . . . شديداً عليها حرُّها والتهابُها

ولذلك بيَّن بقولِه تعالى ﴿ مِنَ النار ﴾ وقُرِىء بكسرِ الجيمِ وبضمِّها ، وكلُّها لغاتٌ ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئونَ .

(301/586)

﴿ فَلَمَّا أتاها ﴾ أي النَّارَ التي آنسَها ﴿ نُودِىَ مِن شَاطِىء الوادى الأيمن ﴾ أي أتاهُ النِّداءُ من الشاطيءِ الأيمنِ بالنسبةِ إلى مُوسى عليهِ السَّلامُ ﴿ فِى البقعة المباركة ﴾ متصلٌ بالشَّاطيء أو صلةٌ لنُوديَ ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ بدلُ اشتمالٍ من شاطيءٍ لأنَّها كانتْ نابتةً على الشَّاطيءِ ﴿ أَن يا موسى إِنِّى أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ وهذا وإنْ خالفَ لفظاً لما في طه والنَّملِ لكنَّه موافقٌ له في المَعنى المرادِ ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطفٌ على أنْ يا مُوسى وكلاهما مفسرٌ لنودِيَ والفاءُ في قولِه تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ فصحيحةٌ

مفصحةٌ عن جُمَلٍ قد حُذفتْ تعويلاً على دلالةِ الحالِ عليها وإشعاراً بغايةِ سرعةِ تحققِ مدلولاتِها أي فألقاهَا فصارتْ ثُعباناً فاهتزتْ فلمَّا رآها تهتزُّ ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ أي في سُرعةِ الحركةِ مع غايةِ عظمِ جُثَّتِها ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ أي مُنهزماً من الخوفِ ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أيْ لم يرجعْ ﴿ يَا موسى ﴾ أي قيلَ يا مُوسى : ﴿ أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الامنين ﴾ من المخاوفِ فإنَّه لا يخافُ لديَّ المُرسلون ﴿ اسلك يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ أي أَدخلْها فيهِ ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ أي عيبٍ ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ أي يديك المبسوطتينِ لتتَّقي بهما الحيَّةَ كالخائفِ الفزعِ بإدخالِ اليمنى تحتَ العضد الأيسرِ واليسرى تحتَ الأيمنِ أو بإدخالِهما في الجيبِ فيكون تكريراً لغرضٍ آخرَ هو أنْ يكونَ ذلك في وجهِ العدوِّ إظهارَ جراءةٍ ومبدأ لظهورِ معجزةٍ ، ويجوزُ أنْ يرادَ بالضمِّ التَّجلدُ والثباتُ عند انقلابِ العَصَا ثعباناً استعارةٌ من حالِ الطَّائرِ فإنَّه إذَا خافَ نشَرَ جناحيه وإذا أمنَ واطمأنَّ ضمَّهما إليهِ ﴿ مِنَ الرهب ﴾ أي من أجلِ الرَّهبِ أي إذا عراكَ الخوفُ فافعلْ ذلك تجلُّداً وضبطاً لنفسكَ . وقُرِىء بضمِّ الراءِ وسكونِ الهاءِ

(302/586)

وبضمّهما ، والكلُّ الغاتٌ ﴿ فَذَانِكَ ﴾ إشارةٌ إلى العَصَا واليدِ . وقُرِىء بتشديدِ النُّونِ فالمخففُ مُثنَّى ذاكَ والمشدَّدُ مثنَّى ذلكَ ﴿ برهانان ﴾ حجَّتانِ نيِّرتانِ . وبُرهانِ فُعلان لقولِهم أبرَهَ الرَّجلُ إذا جاءَ بالبُرهانِ من قولِهم برهَ الرَّجلُ إذا ابيضَّ ويُقال للمرأةِ البيضاءِ برهاءُ وبَرَهْرَهةٌ ، ونظيرُه تسميةِ الحجَّةِ سُلطاناً من السَّليطِ وهو الزَّيتُ لإنارتِها . وقيل : هو فُعلال لقولِهم برهنَ . ومِن في قوله تعالى : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ متعلقةٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لبرهانانِ أي كائنانِ منْهُ تعالى : ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ واصلانِ ومنتهيانِ إليهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ خارجينَ عن حُدودِ الظُّلمِ والعُدوانِ فكانُوا أحِقَّاءَ بأنْ نُرسلَك إليهم بهاتينِ المُعجزتينِ الباهرتينِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(303/586)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾

أي أتم المدة المضروبة لما أراد شعيب منه والمراد به الأجل الآخر كما أخرجه ابن مردويه عن مقسم عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما .

وأخرج البخاري وجماعة عن ابن عباس أنه سئل أي الأجلين قضى موسى عليه السلام ؟

فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال فعل .

وأخرج ابن مردويه من طريق علي بن عاصم عن أبي هرون عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سأله أي الأجلين قضى موسى فقال : لا أدري حتى اسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال : لا أدري حتى أسأل جبريل عليه السلام فسأل جبريل فقال : لا أدري حتى أسأل ميكائيل عليه السلام فسأل ميكائيل فقال : لا أدري حتى أسأل الرفيع فسأل الرفيع فقال : لا أدري حتى أسأل إسرافيل عليه السلام فسأل إسرافيل فقال : لا أدري حتى أسأل ذا العزة جل جلاله فنادى إسرافيل بصوته الأشذ يا ذا العزة أي الأجلين قضى موسى قال : ﴿ فَلَبِثَ فِي السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ قال علي بن عاصم : فكان أبو هرون إذا حدث بهذا الحديث يقول : حدثني أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن ميكائيل عن الرفيع عن إسرافيل عن ذي العزة تبارك وتعالى : ﴿ إن موسى قَضَى فَلَبِثَ فِي السجن بِضْعَ سِنِينَ ﴾ والفاء قيل : فصيحة أي فعقد العقدين وباشر موسى ما أريد منه فلما أتم الأجل ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ قيل : نحو مصر بإذن من شعيب عليه السلام لزيارة والتده وأخيه وأخته وذوي قرابته وكأنه عليه السلام أقدمه على ذلك طول مدة الجنابة وغلبة ظنه خفاء أمره ، وقيل : سار نحو بيت المقدس وهذا أبعد عن القيل والقال .

﴿ ءانَسَ مِن جَانِبِ الطور ﴾ أي أبصر من الجهة التي تلي الطور لا من بعضه كما هو المتبادر ، وأصل الإيناس على ما قيل الإحساس فيكون أعم من الإبصار ، وقال الزمخشري : هو الإبصار البيت الذي لا شبهة فيه ومنه إنسان العين لأنه يبين به الشيء والإنس لظهورهم كما قيل : الجن لاستتارهم ، وقيل : هو إبصار ما يؤنس به .

﴿ نَارًا ﴾ استظهر بعضهم أن المبصر كان نوراً حقيقة إلا أنه عبر عنه بالنار اعتباراً لاعتقاد موسى عليه السلام ، وقال بعض العارفين : كان المبصر في صورة النار الحقيقية وأما حقيقته فوراء طور العقل إلا أن موسى عليه السلام ظنه النار المعروفة ﴿ قَالَ لِاهْلِهِ امكثوا ﴾ أي أقيموا مكانكم وكان معه عليه السلام على قول امرأته وخادم ويخاطب الإثنان بصيغة الجمع ، وعلى قول آخر كان معه ولدان له أيضا اسم الأكبر جيرشوم واسم الأصغر اليعازر ولداً له زمان إقامته عند شعيب وهذا مما يتسنى على القول بأنه عليه السلام دخل على زوجته قبل الشروع فيما أريد منه ، وأما على القول بأنه لم يدخل عليها حتى أتم الأجل فلا يتسنى إلا بالتزام أنه عليه السلام مكث بعد ذلك سنين ، وقد قيل به ، أخرج عبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قضى موسى عشر سنين ثم مكث بعد ذلك عشراً أخرى ، وعن وهب أنه عليه السلام ولد له ولد في الطريق ليلة إيناس النار ، وفي "البحر" أنه عليه السلام خرج بأهله وماله في فصل الشتاء وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته حامل لا يدري أليلاً تضع أم نهاراً فسار في البرية لا يعرف طرقها فالجأه السير إلى جانب الطور المغربي الأيمن في ليلة ملمة مثلجة شديدة البرد ، وقيل : كان لغيرته على حرمه يصحب الرفقة ليلاً ويفارقهم نهاراً فأضل الطريق يوماً حتى أدركه الليل فأخذ امرأته الطلق فقدح زنده فأصلد فنظر فإذا نار تلوح من بعد فقال امكثوا ﴿ إِنِّى ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّى ءَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي بخبر الطريق بأن أجد عندها من يخبرني به وقد كانوا كما سمعت ضلوا الطريق ، والجملة استئناف في معنى التعليل للأمر ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ أي عود غليظ سواء كان في رأسه نار كما في قوله :

وألقى على قيس من النار جذوة . . .

شديداً عليها جرها والتهابها

أو لم تكن كما في قوله :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها . . .

جزل الجذا غير خوار ولا دعر

ولذا بينت كما قال بعض المحققين بقوله تعالى : ﴿ مِنَ النار ﴾ وجعلها نفس النار للمبالغة كأنها لتشبث النا ربها استحالت ناراً ، وقال الراغب : الجذوة ما يبقى من الحطب بعد الالتهاب ، وفي معناه قول أبي حيان : عود فيه نار بلا لهب ، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : هي عود من حطب فيه النار .

وأخرج هو وجماعة عن قتادة أنها أصل شجرة في طرفها النار ، قيل : فتكون من على هذا للابتداء ، والمراد بالنار هي التي آنسها .

وقرأ الأكثر ﴿ جَذْوَةٍ ﴾ بكسر الجيم .

والأعمش .

وطلحة .

وأبو حيوة .

وحمزة بضمها ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون وتتسخنون بها ، وفيه دليل على أنهم أصابهم برد .

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)

﴿ فَلَمَّا ﴾ أي النار التي آنسها .

﴿ أتاها نُودِىَ مِن شَاطِىء الوادى الايمن ﴾ أي أتاه النداء من الجانب الأيمن بالنسبة إلى موسى عليه السلام في مسيره فالأيمن صفة الشاطىء وهو ضد الأيسر ، وجوز أن يكون الأيمن بمعنى المتصف باليمن والبركة ضد الأشأم ، وعليه فيجوز كونه صفة للشاطىء أو الوادي ، و﴿ مِنْ ﴾ على ما اختاره جمع لابتداء الغاية متعلقة بما عندها ، وجوز أن تتعلق بمحذوف وقع حالاً من ضمير موسى عليه السلام المستتر في نودي أي نودي قريباً من شاطىء الوادي ، وجوز على الحالية أن تكون من بمعنى في كما في قوله تعالى : ﴿ مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض ﴾ [الأحقاف : 4] أي نودي كائناً في شاطىء الوادي ، وقوله تعالى : ﴿ فِى البقعة ﴾ في موضع الحال من الشاطىء أو صلة لنودي ، والبقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التي إلى جنبها وتفتح باؤها كما في "القاموس" ، وبذلك قرأ الأشهب العقيلي .

ومسلمة .

ووصفت بالبركة لما خصت به من آيات الله عز وجل وأنواره .

وقيل : لما حوت من الأرزاق والثمار الطيبة وليس بذاك ، وقوله سبحانه : ﴿ المباركة مِنَ الشجرة ﴾ بدل من قوله تعالى : ﴿ مِن شَاطِىء ﴾ أو الشجرة فيه بدل من شاطىء وأعيد الجار لأن البدل على تكرار العامل وهو بدل اشتمال فإن الشاطىء كان مشتملاً على الشجرة إذ كانت نابتة فيه ، و﴿ مِنْ ﴾ هنا لا تحتمل أن تكون بمعنى في كما سمعت في من الأولى ، نعم جوز فيها أن تكون للتعليل كما في قوله تعالى : ﴿ مّمَّا خطيئاتهم أُغْرِقُواْ ﴾ [نوح : 25] متعلقة بالمباركة أي البقعة المباركة لأجل الشجرة ، وقيل : يجوز تعلقها بالمباركة مع بقائها للابتداء على معنى أن ابتداء بركتها من الشجرة ، وكانت هذه الشجرة على ما روي عن ابن عباس عناباً ، وعلى ما روي عن ابن مسعود سمرة ، وعلى ما روي عن ابن جريج .

والكلبي .

ووهب عوسجة .

وعلى ما روي عن قتادة .

ومقاتل عليقة وهو المذكور في التوراة اليوم ، وأن في قوله تعالى : ﴿ أَن يا موسى ﴾ تحتمل

أن تكون تفسيرية وأن تكون مخففة من الثقيلة والأصل بأنه ، والجار متعلق بنودي ، والنداء قد يوصل بحرف الجر أنشد أبو علي :

ناديت باسم ربيعة بن مكدم . . .

أن المنوه باسمه الموثوق

والضمير للشأن وفسر الشأن بقوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ وقرأت فرقة ﴿ إِنّى ﴾ بفتح الهمز ، واستشكل بأن أن إن كانت تفسيرية ينبغي كسر إن وهو ظاهر وإن كانت مصدرية واسمها ضمير الشأن ، فكذلك إذ على الفتح تسبك مع ما بعدها بمفرد وهو لا يكون خبراً عن ضمير الشأن وخرجت على أن أن تفسيرية وأني الخ في تأويل مصدر معمول لفعل محذوف ، والتقدير أي يا موسى اعلم أني أنا الله الخ ، وجاء في سورة [طه : 11 ، 12]

﴿ نُودِىَ يا موسى موسى إِنّى أَنَاْ رَبُّكَ ﴾ وفي سورة [النمل : 8] ﴿ نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النار ﴾ وما هنا غير ذلك بل ما في كل غير ما في الآخر فاستشكل ذلك .

(308/586)

وأجيب بأن المغايرة إنما هي في اللفظ ، وأما في المعنى المراد فلا مغايرة ، وذهب الإمام إلى أنه تعالى حكى في كل من هذه السور بعض ما اشتمل عليه النداء لما أن المطابقة بين ما في المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلف مّا والظاهر أن النداء منه عز وجل من غير توسيط ملك ، وقد سمع موسى عليه السلام على ما تدل عليه الآثار كلاماً لفظياً قيل : خلقه الله تعالى في الشجرة بلا اتحاد وحلول ، وقيل : خلقه في الهواء كذلك وسمعه موسى عليه السلام من جهة الجانب الأيمن أو من جميع الجهات ، وأنا وإن كان كل أحد يشير به إلى نفسه فليس المعنى به محل لفظه .

وذهب الشيخ الأشعري .

والإمام الغزالي إلى أنه عليه السلام سمع كلامه تعالى النفسي القديم بلا صوت ولا حرف ، وهذا كما ترى ذاته عز وجل بلا كيف ولا كم ، وذكر بعض العارفين أنه إنما سمع كلامه تعالى اللفظي بصوت وكان ذلك بعد ظهوره عز وجل بما شاء من المظاهر التي تقتضيها الحكمة وهو سبحانه مع ظهوره تعالى كذلك باق على إطلاقه حتى عن قيد الإطلاق ، وقد جاء في "الصحيح" أنه تعالى يتجلى لعباده يوم القيامة في صورة ، فيقول : أنا ربكم فينكرونه ثم يتجلى لهم بأخرى فيعرفونه ، والله تعالى وصفاته من وراء حجب العزة والعظمة والجلال فلا يحدثن الفكر نفسه بأن يكون له وقوف على الحقيقة بحال من الأحوال .

مرام شط مرمى العقل فيه . . .

ودون مداه بيد لا تبيد

(309/586)

وذكر بعض السلفيين أنه عليه السلام إنما سمع كلامه تعالى اللفظي بصوت منكر الظهور في المظاهر عادّاً القول به من أعظم المناكر ، ولابن القيم كلام طويل في تحقيق ذلك ، وقد قدمنا لك في المقدمات ما يتعلق بهذا المقام فتذكر والله تعالى ولي الأفهام ، وقال الحسن : إنه سبحانه نادى موسى عليه السلام نداء الوحي لا نداء الكلام ولم يرتض ذلك العلماء الأعلام لما فيه من مخالفة الظاهر وأنه لا يظهر عليه وجه اختصاصه باسم الكليم من بين الأنبياء عليهم السلام ، ووجه الاختصاص على القول بأنه سمع كلامه تعالى الأزلي بلا حرف ولا صوت ظاهر ، وكذا على القول بأنه عليه السلام سمع صوتاً دالاً على كلامه تعالى بلا واسطة ملك أو كتاب سواء كان من جانب واحد لكن بصوت غير مكتسب للعباد على ما هو شأن سماعنا أو من جميع الجهات لما في كل من خرق العادة ، وأما وجهه عند القائلين بأن السماع كان بعد التجلي في المظهر فكذلك أيضاً إن قالوا بأن هذا التجلي لم يقع لأحد من الأنبياء عليهم السلام سوى موسى .

ثم إن علمه عليه السلام بأن الذي ناداه هو الله تعالى حصل له بالضرورة خلقاً منه سبحانه فيه ؛ وقيل : بالمعجزة ، وأوجب المعتزلة أن يكون حصوله بها فمنهم من عينها ومنهم من لم يعينها زعماً منهم أن حصول العلم الضروري ينافي التكليف ، وفيه بحث .

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ عطف على ﴿ أن يا موسى ﴾ [القصص : 30] والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ فصيحة مفصحة عن جمل حذفت تعويلاً على دلالة الحال عليها وإشعاراً بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أي فألقاها فصارت حية فاهتزت فلما رآها تهتز وتتحرك ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ هي حية كحلاء العين لا تؤذى كثيرة في الدور ، والتشبيه بها باعتبار سرعة حركتها وخفتها لا في هيئتها وجثتها .

(310/586)

فلا يقال : إنه عليه السلام لما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فكيف يصح تشبيهها بالجان ، وقال بعضهم : يجوز أن يكون المراد تشبيهها بها في الهيئة والجثة ولا ضير في ذلك لأن لها أحوالاً مختلفة تدق فيها وتغلظ ، وقيل : الجان يطلق على ما عظم من الحيات فيراد عند تشبيهها بها في ذلك والأولى ما ذكر أولاً ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ منهزماً من الخوف ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي ولم يرجع ﴿ يا موسى ﴾ أي نودي أو قيل : يا موسى ﴿ أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ

الامنين ﴾ من المخاوف فإنه لا يخاف لدى المرسلون :

﴿ اسلك يَدَكَ ﴾ أي أدخلها ﴿ فِى جَيْبِكَ ﴾ هو فتح الجبة من حيث يخرج الرأس ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ أي عيب ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ﴾ أي من أجل المخالفة ، قال مجاهد .

وابن زيد .

أمره سبحانه بضم عضده وذراعه وهو الجناح إلى جنبه ليخف بذلك فزعه ومن شأن الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يقوى قلبه ، وقال الثوري : خاف موسى عليه السلام أن يكون حدث به سوء فأمره سبحانه أن يعيد يده إلى جنبه لتعود إلى حالتها الأولى فيعلم أنه لم يكن ذلك سوءاً بل آية من الله عز وجل ؛ وقريب منه ما قيل : المعنى إذا هالك أمر لما يغلب من شعاعها فاضممها إليك يسكن خوفك .

(311/586)

وفي "الكشاف" فيه معنيان : أحدهما : أن موسى عليه السلام لما قلب الله تعالى العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك

مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى ، والمراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه ، والثاني : أن يراد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران .

ومعنى من الرهب من أجل الرهب أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك ، جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه ، ومعنى ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ اسلك يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني إخفاء الرعب اه ، وضم الجناح على الثاني كناية عن التجلد والضبط نحو قوله :

اشدد حيازيمك للموت . . .

فإن الموت لاقيك

وهو مأخوذ من فعل الطائر عند الأمن بعد الخوف ، وهو في الأصل مستعار من فعل الطائر عند هذه الحالة ثم كثر استعماله في التجلد وضبط النفس حتى صار مثلاً فيه وكناية عنه

، وعليه يكون تتميماً لمعنى ﴿ إِنَّكَ مِنَ الامنين ﴾ [القصص : 31] وهذا مأخوذ من كلام أبي علي الفارسي فإنه قال : هذا أمر منه سبحانه بالعزم على ما أراده منه وحض على الجد فيه لئلا يمنعه الجد الذي يغشاه في بعض الأحوال عما أمر بالمضي فيه .

وليس المراد بالضم الضم المزيل للفرجة بين الشيئين وهو أبعد عن المناقشة مما ذكره الزمخشري .

(312/586)

ومثله في البعد عن المناقشة ما قاله البقاعي : من أنه أريد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه عند خروج يده بيضاء حتى لا يحذر ولا يضطرب من الخوف .

وأراد بأحد التفسيرين الوجه الأول لأن المعنى عليه أدخل يدك اليمنى تحت عضدك اليسرى ، وقال بعضهم : إن المعنى اضمم يديك المبسوطتين بإدخال اليمنى تحت العضد الأيسر واليسرى تحت الأيمن أو بإدخالهما في الجيب .

وظاهره أنه أريد بالجناح الجناحات ، وقد صرح الطبرسي بذلك في نحو ما ذكر وقال : إنه قد جاء المفرد مراداً به التثنية كما في قوله :

يداك يد إحداهما الجود كله . . .

وراحتك اليسرى طعان تغامره

فإن المعنى يداك يدان بدلالة قوله إحداهما .

في "الكشاف" أيضاً من بدع التفاسير أن الرهب الكم بلغة حمير .

وأنهم يقولون : أعطني ما في رهبك ، وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات التي ترضي عربيتهم ؟ ثم ليت شعري كيف موقعه في الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل ؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة من صوف لا كمين لها اه .

وما أشار إليه من أن ذاك لا يطابق بلاغة التنزيل مما لا ريب فيه فإن الذاهبين إليه قالوا : المعنى عليه واضمم إليك يدك مخرجة من الكم لأن يده كانت في الكم ؛ وهو معنى كما ترى ولفظه أقصر منه في الإفادة .

وأما أمر سماعه عن الأثبات فقد تعقبه في "البحر" بأنه مروى عن الأصمعي وهو ثقة ثبت .

وقال الطيبي : قال محيي السنة : قال الأصمعي : سمعت بعض الأعراب يقول : أعطني ما في رهبك أي ما في كمك .

وزعم بعضهم أن استعمال الرهب في الكم لغة بني حنيفة أيضاً وهو عندهم وكذا عند حمير بفتح الراء والهاء .

والحزم عندي عدم الجزم بثبوت هذه اللغة .

وعلى تقدير الثبوت لا ينبغي حمل ما في "التنزيل الكريم" عليها .

والظاهر أن من الرهب متعلق باضمم وقال أبو البقاء : هو متعلق بولي .

وقيل بمدبراً .

وقيل بمحذوف : أي تسكن من الرهب .

وقيل باضمم .

(313/586)

ولا يخفى ما في تعلقه بسوى اضمم وإن أشار إلى تعلقه بولي أو مدبراً كلام ابن جريج على ما أخرجه عنه ابن المنذر حيث جعل الآية من التقديم والتأخير .

والمراد ولي مدبراً من الرهب .

وقرأ الحرميان : ﴿ مِنَ الرهب ﴾ بفتح الراء والهاء ، وأكثر السبعة بضم الراء وإسكان الهاء .

وقرأ قتادة ، والحسن ، وعيسى ، والجحدري بضمهما والكل لغات ﴿ فَذَانِكَ ﴾ أي العصا واليد والتذكير لمراعاة الخبر وهو قوله تعالى : ﴿ برهانان ﴾ وقيل : الإشارة إلى

انقلاب العصا حية بعد إلقائها وخروج اليد بيضاء بعد إدخالها في الجيب فأمر التذكير ظاهر ، والبرهان الحجة النيرة وهو فعلان لقولهم : أبره الرجل إذا جاء بالبرهان من بره الرجل إذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء : برهاء وبرهرهة .

وقال بعضهم : هو فعلان من البره بمعنى القطع فيفسر بالحجة القاطعة ، وقيل : هو فعلال لقولهم برهن ونقل عن الأكثر أن برهن مولد بنوه من لفظ البرهان ، وقرأ أبو عمرو .

وابن كثير ﴿ فَذَانِكَ ﴾ بتشديد النون وهي لغة فيه ، فقيل : إنه عوض من الألف المحذوفة من ذا حال التثنية لألفها نون وأدغمت ، وقال المبرد : إنه بدل من لام ذلك كأنهم أدخلوها بعد نون التثنية ، ثم قلبت اللام نوناً لقرب المخرج وأدغمت وكان القياس قلب الأولى لكنه حوفظ على علامة التثنية ، وقرأ ابن مسعود .

وعيسى .

وأبو نوفل .

وابن هرمز .

وشبل .

فذانيك بياء بعد النون المكسورة وهي لغة هذيل ، وقيل : بل لغة تميم .

ورواها شبل عن ابن كثير ، وعنه أيضاً فذانيك بفتح النون قبل الياء على لغة من فتح نون التثنية نحو قوله :

على أحوذيين استقلت عشية . . .

فما هي إلا لمحة وتغيب

(314/586)

وعن ابن مسعود أنه قرأ بتشديد النون مكسورة بعدها ياء ، قيل وهي لغة هذيل ، وقال المهدوي : بل لغتهم تخفيفها و﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لبرهانان أي كائنان من ربك و﴿ إلى ﴾ في قوله سبحانه : ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ متعلق بمحذوف أيضاً هو على ما يقتضيه ظاهر كلام بعضهم صفة بعد صفة له أي واصلان إليهم ، وعلى ما يقتضيه ظاهر كلام آخرين حال منه أي مرسلاً أنت بهما إليهم . وفي "البحر" أنه متعلق بمحذوف دل عليه المعنى تقديره اذهب إلى فرعون ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ﴾ أي فرعون وملأه ﴿ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن حدود الظلم والعدوان فكانوا أحقاء بأن نرسلك بهاتين المعجزتين الباهرتين إليهم ، والكلام في كانوا يعلم مما تقدم في نظائره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(315/586)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحياء ﴾

في الكلام حذف يدل عليه السياق .

قال الزجاج : تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي ، فحدّثتاه بما كان من الرجل الذي سقى لهما ، فأمر الكبرى من بنتيه ، وقيل : الصغرى أن تدعوه له ، فجاءته .

وذهب أكثر المفسرين إلى أنهما ابنتا شعيب ، وقيل : هما ابنتا أخي شعيب ، وأن شعيباً كان قد مات .

والأوّل أرجح ، وهو ظاهر القرآن .

ومحلّ ﴿ تَمْشِي ﴾ النصب على الحال من فاعل جاءت ، ﴿ وعلى استحياء ﴾ حال أخرى ، أي كائنة على استحياء حالتي المشي والمجيء فقط ، وجملة : ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا قالت له لما جاءته ؟ ﴿ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ أي جزاء سقيك لنا ﴿ فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ﴾

القصص مصدر سمي به المفعول أي : المقصوص يعني أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتله القبطيّ إلى عند وصوله إلى ماء مدين ﴿ قَالَ ﴾ شعيب : ﴿ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم

الظالمين ﴾ أي فرعون وأصحابه ؛ لأن فرعون لا سلطان له على مدين ، وللرازي في هذا الموضع إشكالات باردة جدًّا لا تستحق أن تذكر في تفسير كلام الله عزّ وجلّ ، والجواب عليها يظهر للمقصر فضلاً عن الكامل ، وأشفّ ما جاء به أن موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقي .

ويجاب عنه : بأنه اتبع سنة الله في إجابة دعوة نبيّ من أنبياء الله ، ولم تكن تلك الإجابة لأجل أخذ الأجر على هذا العمل ، ولهذا ورد أنه لما قدّم إليه الطعام قال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الأرض ذهباً .

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يا أبت استئجره ﴾ القائلة هي التي جاءته ، أي استأجره ليرعى لنا الغنم ، وفيه دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة .

(316/586)

وقد اتفق على جوازها ، ومشروعيتها جميع علماء الإسلام إلا الأصم فإنه عن سماع أدلتها أصمّ ، وجملة : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ استئجرت القوى الأمين ﴾ تعليل لما وقع منها من الإرشاد لأبيها إلى استئجار موسى ، أي إنه حقيق باستئجارك له لكونه جامعاً بين خصلتي القوّة والأمانة .

وقد تقدّم في المرويّ عن ابن عباس ، وعمر : أن أباها سألها عن وصفها له بالقوّة والأمانة فأجابته بما تقدّم قريباً : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ ﴾ فيه مشروعية عرض وليّ المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة ثابتة في الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، والقصة معروفة ، وغير ذلك مما وقع في أيام الصحابة أيام النبوّة ، وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ أي على أن تكون أجيراً لي ثماني سنين .

قال الفراء : يقول : على أن تجعل ثوابي أن ترعى غنمي ثماني سنين ، ومحل : ﴿ على أَن تَأْجُرَنِي ﴾ النصب على الحال ، وهو مضارع أجرته ، ومفعوله الثاني محذوف ، أي نفسك و ﴿ ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ ظرف .

قال المبرد : يقال : أجرت داري ومملوكي غير ممدود وممدوداً ، والأوّل أكثر ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ ﴾ أي إن أتممت ما استأجرتك عليه من الرعي عشر سنين فمن عندك ، أي تفضلاً منك لا إلزاماً مني لك ، جعل ما زاد على الثمانية الأعوام إلى تمام عشرة أعوام ، موكولاً إلى المروءة .

ومحل ﴿ فَمِنْ عِندِكَ ﴾ الرفع على تقدير مبتدأ ، أي : فهي من عندك ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ بإلزامك إتمام العشرة الأعوام ، واشتقاق المشقة من الشقّ ، أي شق ظنه نصفين ، فتارة يقول : أطيق ، وتارة يقول : لا أطيق .

ثم رغبه في قبول الإجارة فقال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصالحين ﴾ في حسن الصحبة والوفاء .

(317/586)

وقيل : أراد الصلاح على العموم ، فيدخل صلاح المعاملة في تلك الإجارة تحت الآية دخولاً أولياً ، وقيد ذلك بالمشيئة تفويضاً للأمر إلى توفيق الله ومعونته .

ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى فقال : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ واسم الإشارة مبتدأ ، وخبره ما بعده ، والإشارة إلى ما تعاقدا عليه ، وجملة : ﴿ أَيَّمَا الأجلين قَضَيْتُ ﴾ شرطية ، وجوابها : ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ ، والمراد بالأجلين : الثمانية الأعوام والعشرة الأعوام ، ومعنى ﴿ قضيَت ﴾ : وفيت به ، وأتممته ، والأجلين مخفوض بإضافة أيّ إليه ، وما زائدة .

وقال ابن كيسان : "ما" في موضع خفض بإضافة أيّ إليها ، والأجلين بدل منها ، وقرأ الحسن : "أيما" بسكون الياء ، وقرأ ابن مسعود : "أيّ الأجلين ما قضيت" ومعنى ﴿ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ﴾ : فلا ظلم عليّ بطلب الزيادة على ما قضيته من الأجلين ، أي كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام لا أطالب بالنقصان على العشرة .

وقيل : المعنى كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الأعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الأعوام ، وهذا أظهر .

وأصل العدوان : تجاوز الحد في غير ما يجب .

قال المبرد : وقد علم موسى أنه لا عدوان عليه إذا أتمهما ، ولكنه جمعهما ؛ ليجعل الأوّل كالأتمّ في الوفاء .

قرأ الجمهور : ﴿ عدوان ﴾ بضم العين .

وقرأ أبو حيوة بكسرها .

﴿ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أي على ما نقول من هذه الشروط الجارية بيننا شاهد وحفيظ ، فلا سبيل لأحدنا إلى الخروج عن شيء من ذلك .

قيل : هو من قول موسى .

وقيل : من قول شعيب ، والأوّل أولى لوقوعه في جملة كلام موسى .

(318/586)

﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ هو أكملهما ، وأوفاهما ، وهو العشرة الأعوام ، كما سيأتي آخر البحث ، والفاء فصيحة ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ إلى مصر ، وفيه دليل على أن

الرجل يذهب بأهله حيث شاء ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ ﴾ أي أبصر من الجهة التي تلي الطور ناراً ، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة طه مستوفًى .

﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِنّي ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِي ءَاتِيكُمْ مّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ وهذا تقدّم تفسيره أيضاً في سورة طه ، وفي سورة النمل .

﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الجيم ، وقرأ حمزة ويحيى بن وثاب بضمها ، وقرأ عاصم ، والسلمي ، وذرّ بن حبيش بفتحها .

قال الجوهري : الجِذوة والجُذوة والجَذوة : الجمرة ، والجمع جِذَى وجُذى وجَذى .

قال مجاهد : في الآية أن الجذوة قطعة من الجمر في لغة جميع العرب .

وقال أبو عبيدة : هي القطعة الغليظة من الخشب كأن في طرفها ناراً ، ولم يكن ، ومما يؤيد أن الجذوة الجمرة قول السلمي :

وبدلت بعد المسك والبان شقوة . . . دخان الجذا في رأس أشمط شاحب

﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئون بالنار ﴿ فَلَمَّا أتاها ﴾ أي : أتى النار التي أبصرها ، وقيل : أتى الشجرة ، والأوّل أولى لعدم تقدّم الذكر للشجرة ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِيء الواد الأيمن ﴾ : " من " لابتداء الغاية ، و ﴿ الأيمن ﴾ صفة للشاطىء ، وهو من اليمن وهو البركة ، أو من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة إلى موسى ، أي الذي يلي يمينه دون يساره ، وشاطىء الوادي : طرفه .

وكذا شطه .

قال الراغب : وجمع الشاطىء أشطاء ، وقوله : ﴿ فِي البقعة المباركة ﴾ متعلق ب ﴿ نودي ﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الشاطىء ، و ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ بدل اشتمال من شاطىء الواد ؛ لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء .

وقال الجوهري : يقول : شاطىء الأودية ولا يجمع .

(319/586)

قرأ الجمهور : ﴿ في البقعة ﴾ بضم الباء ، وقرأ أبو سلمة والأشهب العقيلي بفتحها ، وهي لغة حكاها أبو زيد ﴿ أَن يا موسى إِنّي أَنَا الله ﴾ : "أن" هي المفسرة ، ويجوز أن تكون هي المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن ، وجملة النداء مفسرة له ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿ إني ﴾ على إضمار القول أو على تضمين النداء معناه .

وقرىء بالفتح ، وهي قراءة ضعيفة .

وقوله : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ معطوف على ﴿ أَن يا موسى ﴾ وقد تقدّم تفسير هذا وما بعده في طه والنمل ، وفي الكلام حذف ، والتقدير : فألقاها فصارت ثعباناً فاهتزت

﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ في سرعة حركتها مع عظم جسمها ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ أي منهزماً ، وانتصاب ﴿ مدبراً ﴾ على الحال وقوله : ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ في محل نصب أيضاً على الحال أي لم يرجع ﴿ يا موسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنين ﴾ قد تقدّم تفسير جميع ما ذكر هنا مستوفى فلا نعيده ، وكذلك قوله : ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ جناح الإنسان : عضده ، ويقال لليد كلها : جناح ، أي اضمم إليك يديك المبسوطتين ؛ لتتقي بهما الحية كالخائف الفزع ، وقد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات : الأولى : ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ .

والثانية : ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ .

والثالثة : ﴿ وأدخل يدك في جيبك ﴾ .

ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعباناً .

ومعنى ﴿ مِنَ الرهب ﴾ : من أجل الرهب ، وهو الخوف .

قرأ الجمهور : " الرهب " بفتح الراء والهاء ، واختار هذه القراءة أبو عبيد ، وأبو حاتم وقرأ حفص والسلمي وعيسى بن عمر وابن أبي إسحاق بفتح الراء وإسكان الهاء .

وقرأ ابن عامر والكوفيون إلاّ حفصاً بضم الراء وإسكان الهاء .

وقال الفراء : أراد بالجناح : عصاه ، وقال بعض أهل المعاني : الرهب : الكمّ بلغة حمير وبني حنيفة .

قال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول لآخر : أعطني ما في رهبك ، فسألته عن الرهب ، فقال : الكم .

فعلى هذا يكون اضمم إليك يدك وأخرجها من الكمّ ﴿ فَذَانِكَ ﴾ إشارة إلى العصا واليد ﴿ برهانان مِن رَّبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ ﴾ أي : حجتان نيرتان ودليلان واضحان ، قرأ الجمهور : ﴿ فذانك ﴾ بتخفيف النون ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديدها ، قيل : والتشديد لغة قريش .

وقرأ ابن مسعود وعيسى بن عمر وشبل وأبو نوفل بياء تحتية بعد نون مكسورة ، والياء بدل من إحدى النونين ، وهي لغة هذيل ، وقيل : لغة تميم ، وقوله : ﴿ مِن رّبّكَ ﴾ متعلق بمحذوف ، أي كائنان منه ، وكذلك قوله : ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ ﴾ متعلق بمحذوف ، أي مرسلان ، أو واصلان إليهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ : متجاوزين الحدّ في الظلم ، خارجين عن الطاعة أبلغ خروج ، والجملة تعليل لما قبلها .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن أبي الهذيل عن عمر بن الخطاب في قوله : ﴿ تَمْشِي عَلَى استحياء ﴾ قال : جاءت مستترة بكمّ

درعها على وجهها .

وأخرجه ابن المنذر عن أبي الهذيل موقوفاً عليه .

وأخرج ابن عساكر عن أبي حازم قال : لما دخل موسى على شعيب إذا هو بالعشاء ، فقال له شعيب : كل ، قال موسى : أعوذ بالله ، قال : ولم ؟ ألست بجائع ؟ قال : بلى ، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً عما سقيت لهما ، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، قال : لا والله ، ولكنها عادتي وعادة آبائي ، نقري الضيف ونطعم الطعام ، فجلس موسى فأكل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيباً هو الذي قصّ عليه القصص .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال : كان صاحب موسى أثرون ابن أخي شعيب النبي .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الذي استأجر موسى يثربي صاحب مدين .

(321/586)

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عنه قال : كان اسم ختن موسى يثربي .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : يقول أناس : إنه شعيب ، وليس بشعيب

، ولكنه سيد الماء يومئذٍ .

وأخرج ابن ماجه والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن عتبة بن المنذر السلمي قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ سورة : ﴿ طسم ﴾ حتى إذا بلغ قصة موسى قال : " إن موسى أجر نفسه ثماني سنين أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه ، فلما وفى الأجل " قيل : يا رسول الله ، أيّ الأجلين قضى موسى ؟ قال : " أبرّهما وأوفاهما ، فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته : أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولدت غنمه " الحديث بطوله .

وفي إسناده مسلمة بن علي الحسني الدمشقي البلاطي ضعفه الأئمة .

وقد روي من وجه آخر ، وفيه نظر .

وإسناده عند ابن أبي حاتم هكذا : حدثنا أبو زرعة عن يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدّثني ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال : سمعت عتبة ابن المنذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره .

وابن لهيعة ضعيف ، وينظر في بقية رجال السند .

وأخرج ابن جرير عن أنس طرفاً منه موقوفاً عليه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة في المصنف ، وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس : أنه سئل : أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقال :

قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل .

وأخرج البزار وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه نحوه ، وقوله : " إن رسول الله إذا قال فعل " فيه نظر ؛ فإن موسى لم يقل إنه سيقضي أكثر الأجلين بل قال : ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ﴾ .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن موسى قضى أتمّ الأجلين من طرق .

(322/586)

وأخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذرّ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سئلت أي الأجلين قضى موسى ؟ فقل : خيرهما وأبرهما ، وإن سئلت أيّ المرأتين تزوّج ؟ فقل الصغرى منهما ، وهي التي جاءت فقالت : ﴿ يا أبت استأجره ﴾ " وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال لي جبريل : يا محمد إن سألك اليهود أيّ الأجلين قضى موسى ؟ فقل : أوفاهما ، وإن سألوك أيهما تزوّج ؟ فقل : الصغرى منهما " وأخرج البزار وابن أبن حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه .

قال السيوطي : بسندٍ ضعيف ، عن أبي ذرّ : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل : أيّ

الأجلين قضى موسى ؟ قال : " أبرّهما وأوفاهما " ، قال : " وإن سئلت أيّ المرأتين تزوّج ؟ فقل : الصغرى منهما "

قال البزار : لا نعلم يروي عن أبي ذر إلاّ بهذا الإسناد ، وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويد بن أبي عمران ، وهو ضعيف .

وأما روايات أنه قضى أتمّ الأجلين فلها طرق يقوّي بعضها بعضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدّي قال : قال ابن عباس : لما قضى موسى الأجل سار بأهله ، فضلّ الطريق ، وكان في الشتاء فرفعت له نار ، فلما رآها ظنّ أنها نار ، وكانت من نور الله ﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِنِّي ءَانَسْتُ نَارا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ فإن لم أجد خبراً آتيكم بشهاب قبس ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ من البرد .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه : ﴿ لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ لعلي أجد من يدلني على الطريق ، وكانوا قد ضلوا الطريق .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ قال : شهاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِىء الواد ﴾ قال : كان النداء من السماء الدنيا ، وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضي الله عنه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : ذكرت لي الشجرة التي أوى إليها موسى ، فسرت إليها يومي وليلتي حتى صبحتها ، فإذا هي سمرة خضراء ترف ، فصليت على النبي صلى الله عليه وسلم وسلمت ، فأهوى إليها بعيري وهو جائع ، فأخذ منها ملء فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيغه ، فلفظه ، فصليت على النبيّ وسلمت ، ثم انصرفت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ قال : يدك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(324/586)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الاجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ لِاَهْلِهِ امكثوا ﴾ .

لم يذكر القرآن أي الأجلين قضى موسى إذ لا يتعلق بتعيينه غرض في سياق القصة .

وعن ابن عباس "قضى أوفاهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل" أي أن رسول الله

المستقبل لا يصدر من مثله إلا الوفاء التام ، وورد ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث ضعيفة الأسانيد أنه سئل عن ذلك فأجاب بمثل ما قال ابن عباس .

والأهل من إطلاقه الزوجة كما في الحديث : " والله ما علمت على أهلي إلا خيراً "

وفي سفر الخروج : أنه استأذن صهره في الذهاب إلى مصر لافتقاد أخته وآله .

وبقية القصة تقدمت في سورة [النمل : 7] إلا زيادة قوله : ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾ وذلك مساوٍ لقوله هنا (إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً .

والجذوة مثلث الجيم ، وقرىء بالوجوه الثلاثة ، فالجمهور بكسر الجيم ، وعاصم بفتح الجيم وحمزة وخلف بضمها ، وهي العود الغليظ .

قيل مطلقاً وقيل المشتعل وهو الذي في "القاموس" .

فإن كان الأول فوصف الجذوة بأنها من النار وصف مخصص ، وإن كان الثاني فهو وصف كاشف ، و ﴿ من ﴾ على الأول بيانية وعلى الثاني تبعيضية .

﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادى الأيمن ﴾ .

تقدم مثل هذا في سورة النمل إلا مخالفة ألفاظ مثل ﴿ أتاها ﴾ هنا و ﴿ جاءها هناك ﴾ [النمل : 8] و ﴿ إني أنا الله ﴾ هنا ، و ﴿ إنه أنا الله هناك ﴾ [النمل : 9] بضمير عائد إلى الجلالة هنالك ، وضمير الشأن هنا وهما متساويان في الموقع لأن ضمير الجلالة شأنه عظيم .

وقوله هنا ﴿ رب العالمين ﴾ وقوله هنالك ﴿ العزيز الحكيم ﴾ [النمل : 9] .

وهذا يقتضي أن الأوصاف الثلاثة قيلت له حينئذ .

(325/586)

والقول في نكتة تقديم صفة الله تعالى قبل إصدار أمره له بإلقاء العصا كالقول الذي تقدم في سورة النمل لأن وصف ﴿ رب العالمين ﴾ يدل على أن جميع الخلائق مسخرة له ليثبت بذلك قلب موسى من هول تلقي الرسالة .

و﴿ أن ألق ﴾ هنا و ﴿ ألق هناك ﴾ [النمل : 10] ، و ﴿ اسلك ﴾ هنا ﴿ وأدخل هناك ﴾ [النمل : 12] .

وتلك المخالفة تفنن في تكرير القصة لتجدد نشاط السامع لها ، وإلا زيادة ﴿ من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ وهذا واد في سفح الطور .

وشاطئه : جانبه وضفته .

ووصف الشاطىء بالأيمن إن حمل الأيمن على أنه ضد الأيسر فهو أيمن باعتبار أنه واقع على يمين المستقبل القبلة على طريقة العرب من جعل القبلة هي الجهة الأصلية لضبط الواقع وهم ينعتون الجهات باليمين واليسار يريدون هذا المعنى قال امرؤ القيس:

على قطن بالشيم أيمن صوبه . . .

وأيسره على الستار فيذبل

وعلى ذلك جرى اصطلاح المسلمين في تحديد المواقع الجغرافية ومواقع الأرضين ، فيكون الأيمن يعني الغربي للجبل ، أي جهة مغرب الشمس من الطور .

ألا ترى أنهم سموا اليمن يمناً لأنه على يمين المستقبل باب الكعبة وسموا الشام شاماً لأنه على شآم المستقبل لبابها ، أي على شماله ، فاعتبروا استقبال الكعبة ، وهذا هو الملائم لقوله الآتي ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ [القصص : 44] .

وأما جعله بمعنى الأيمن لموسى فلا يستقيم مع قوله تعالى ﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ [طه : 80] فإنه لم يجر ذكر لموسى هناك .

وإن حمل على أنه تفضيل من اليُمن وهو البركة فهو كوصفه بـ ﴿ المقدس ﴾ في سورة [النازعات : 16] ﴿ إذ ناداه ربه بالوادِي المقدس طُوى ﴾

و ﴿ البقعة ﴾ بضم الباء ويجوز فتحها هي القطعة من الأرض المتميزة عن غيرها .

و ﴿ المباركة ﴾ لما فيها من اختيارها لنزول الوحي على موسى .

(326/586)

وقوله ﴿ من الشجرة ﴾ يجوز أن يتعلق بفعل ﴿ نُودِي ﴾ فتكون الشجرة مصدر هذا النداء وتكون ﴿ من ﴾ للابتداء ، أي سمع كلاماً خارجاً من الشجرة .

ويجوز أن يكون ظرفاً مستقراً نعتاً ثانياً للواد أو حالاً فتكون ﴿ من ﴾ اتصالية ، أي متصلاً بالشجرة ، أي عندها ، أي البقعة التي تتصل بالشجرة .

والعريف في ﴿ الشجرة ﴾ تعريف الجنس وعدل عن التنكير للإشارة إلى أنها شجرة مقصودة وليس التعريف للعهد إذ لم يتقدم ذكر الشجرة ، والذي في التوراة أن تلك الشجرة كانت من شجر العُلَّيق (وهو من شجر العضاه) وقيل : هي عوسجة والعوسج من شجر العضاه أيضاً .

وزيادة ﴿ أقبل ﴾ وهي تصريح بمضمون قوله ﴿ لا تخف ﴾ في سورة [النمل : 10] لأنه لما أدبر خوفاً من الحية كان النهي عن الخوف يدل على معنى طلب إقباله فكان الكلام هنالك إيجازاً وكان هنا مساواة تفنناً في حكاية القصتين ، وكذلك زيادة ﴿ إنك من الآمنين ﴾ هنا ولم يحك في سورة النمل وهو تأكيد لمفاد ﴿ ولا تخف ﴾ .

وفيه زيادة تحقيق أمنه بما دل عليه التأكيد بـ (إن) وجعله من جملة الآمنين فإنه أشد في تحقيق الأمن من أن يقال : إنك آمن كما تقدم في قوله تعالى ﴿ أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة [البقرة : 67] .

وقوله ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ خفي فيه محصل المعنى المنتزع من تركيبه

فكان مجال تردد المفسرين في تبيينه ، واعتكرت محامل كلماته فما استقام محمل إحداها إلا وناكده محمل أخرى .

وهي ألفاظ : جناح ، ورهب ، وحرف ﴿ من ﴾ .

فسلكوا طرائق لا توصل إلى مستقر .

وقد استوعبت في كلام القرطبي والزمخشري .

قال بعضهم : إن في الكلام تقديماً وتأخيراً وإن قوله ﴿ من الرهب ﴾ متعلق بقوله ﴿ ولى مدبراً ﴾ على أن ﴿ من ﴾ حرف للتعليل ، أي أدبر لسبب الخوف ، وهذا لا ينبغي الالتفات إليه إذ لا داعي لتقديم وتأخير ما زعموه على ما فيه من طول الفصل بين فعل ﴿ ولى ﴾ وبين ﴿ من الرهب ﴾ .

(327/586)

وقيل الجناح : اليد ، ولا يحسن أن يكون مجازاً عن اليد لأنه يفضي إما إلى تكرير مفاد قوله ﴿ اسلُك يدك في جيبك ﴾ وحرف العطف مانع من احتمال التأكيد .

وادعاء أن يكون التكرير لاختلاف الغرض من الأول والثاني كما في "الكشاف" بعيد ، أو يؤول بأن وضع اليد على الصدر يذهب الخوف كما عُزي إلى الضحاك عن ابن عباس وإلى

مجاهد وهو تأويل بعيد .

وهذا ميل إلى أن الجناح مجاز مرسل مراد به يد الإنسان .

وللجناح حقيقة ومجازات بين مرسل واستعارة وقد ورد في القرآن وغيره في تصاريف معانيه وليس وروده في بعض المواضع بمعنى بقاض بحمله على ذلك المعنى حيثما وقع في القرآن .

ولذا فالوجه أن قوله ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ تمثيل بحال الطائر إذا سكن عن الطيران أو عن الدفاع جعل كناية عن سكون اضطراب الخوف .

ويكون ﴿ من ﴾ هنا للبدلية ، أي اسكن سكون الطائر بدلاً من أن تطير خوفاً .

وهذا مأخوذ من أحد وجهين ذكرهما الزمخشري قيل : وأصله لأبي علي الفارسي .

و﴿ الرهب ﴾ معروف أنه الخوف كقوله تعالى ﴿ يدعوننا رغباً ورهباً ﴾ [الأنبياء : 90] .

والمعنى : انكفف عن التخوف من أمر الرسالة .

وفي الكلام إيجاز وهو ما دل عليه قوله بعده ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾ [القصص : 33] فقوله ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ في معنى قوله تعالى ﴿ فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] .

وقرأ الجمهور ﴿ الرهب ﴾ بفتح الراء والهاء ، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن

عاصم وخلف بضم الراء وسكون الهاء .

وقرأه حفص عن عاصم بفتح الراء وسكون الهاء وهي لغات فصيحة .

﴿ مِنَ الرهب فَذَانِكَ برهانان مِن رَّبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ ﴾ .

تفريع على قوله ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ والإشارة إلى العصا وبياض اليد .

والبرهان : الحجة القاطعة .

و﴿ من ﴾ للابتداء ، و ﴿ إلى ﴾ للانتهاء المجازي أي حجتان على أن أرسل بهما إليهم .

(328/586)

وجملة ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ تعليل لجملة ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ﴾ لتضمنها أنهم بحيث يقرعون بالبراهين فبين أن سبب ذلك تمكن الكفر من نفوسهم حتى كان كالجبلة فيهم وبه قوام قوميتهم لما يؤذن به قوله ﴿ كانوا ﴾ .

وقوله ﴿ قوماً ﴾ كما تقدم في قوله تعالى ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ في سورة [البقرة : 164] .

والفسق : الإشراك بالله .

وقرأ الجمهور ﴿ فذانك ﴾ بتخفيف النون من (ذانك) على الأصل في التثنية .

وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بتشديد نون ﴿ فذانك ﴾ وهي لغة تميم وقيس .

وعلّلها النحويون بأن تضعيف النون تعويض على الألف من (ذا) و (تا) المحذوفة لأجل صيغة التثنية .

وفي "الكشاف" : أن التشديد عوض عن لام البعد التي تلحق اسم الإشارة فلذلك قال "فالمخفف مثنى ذاك والمشدد مثنى ذلك" .

وهذا أحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(329/586)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ [القصص : 29]

أي : الذي اتفق عليه مع شعيب عليه السلام ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ [القصص : 29] قلنا : إن الأهل تُطلق على الزوجة ، وفي لغتنا العامية نقول : معي أهلي أو الجماعة ونقصد

الزوجة ؛ لذلك لأن الزوجة تقضي لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه إلا جماعة ، بل وتزيد على الجماعة بشيء خاص لا يؤديه عنها غيرها ، وهو مسألة المعاشرة ؛ لذلك حَلَّتْ محلَّ جماعة .

ومعنى ﴿ آنَسَ ﴾ [القصص : 29] يعني : أبصر ورأى أو أحسَّ بشيء من الأُنْس ، ﴿ الطور ﴾ [القصص : 29] اسم الجبل ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا ﴾ [القصص : 29] انتظروا ﴿ إني آنَسْتُ نَاراً ﴾ [القصص : 29] يخبرها بوجود النار ، وهذا يعني أنها لم تَرَها كما رآها هو .

وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يُوقِدها بشر ، وإلا لاستوى أهله معه في رؤيتها ، فهذا إذن أمر خاص به ﴿ لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ [القصص : 29] يعني : رجاءَ أنْ أجد مَنْ يخبرنا عن الطريق ، ويهدينا إلى أين نتوجه ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص : 29] .

الجذوة : قطعة من نار متوهجة ليس لها لَهَب ، ومعنى تصطلون أي : تستدفئون بها ، وفي موضع آخر قال : ﴿ بِشِهَابٍ قَبَسٍ . . . ﴾ [النمل : 7] يعني : شعلة لها لسان ولهب ، فمأربهم – إذن – على هذه الحال أمران : مَنْ يخبرهم بالطريق حيث تاهَتْ بهم الخُطَى في مكان لا يعرفونه ، ثم جذوة نار يستدفئون بها من البرد .

وفي موضع آخر لهذه القصة لم يذكر قوله تعالى : ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ ﴾ [القصص : 29] وهذا

من المآخذ التي يأخذها السطحيون على أسلوب القرآن ، لكن بتأمل الموقف نرى أنه أخذ صورة المحاورة بين موسى وأهله .

(330/586)

فزوجة وزوجها ضَمَّهما الظلام في مكان موحش ، لا يعرفون به شيئاً ، ولا يهتدون إلى طريق ، والجو شديد البرودة ، فمن الطبيعي حين يقول لها : إني رأيت ناراً سأذهب لأقتبس منها أن تقول له : كيف تتركني وحدي في هذا المكان ؟ فربما تضلّ أنت أو أضلّ أنا ، فيقول لها ﴿ امكثوا . . . ﴾ [القصص : 29] إذن : لا بُدَّ أن هذه العبارة تكررتْ على صيغتين كما حكاها القرآن الكريم .

كذلك في : ﴿ سَآتِيكُمْ . . . ﴾ [النمل : 7] وفي مرة أخرى ﴿ لعلي آتِيكُمْ . . . ﴾ [القصص : 29] قالوا : لأنه لما رأى النار قال : ﴿ سَآتِيكُمْ . . . . ﴾ [النمل : 7] على وجه اليقين ، لكن لما راجع نفسه ، فربما طفئت قبل أن يصل إليها استدراك ، فقال ﴿ لعلي آتِيكُمْ . . ﴾ [القصص : 29] على سبيل رجاء غير المتيقن . ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الوادي . . . ﴾ .

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يريد أنْ يعطينا خريطة تفصيلية للمكان ، فهناك مَنْ قال : من

جانب الطور ، والجانب الأيمن من الطور . وهنا : ﴿ مِن شَاطِئِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة . . . ﴾ [القصص : 30] .

ومضمون النداء : ﴿ يا موسى إني أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ [القصص : 30] سمع موسى هذا النداء يأتيه من كل نواحيه ، وينساب في كل اتجاه ؛ لأن الله تعالى لا تحيزه جهة ؛ لذلك لا تقُلْ : من أين يأتي الصوت ؟ وليس له إِلْفٌ بأن يخاطبه الرب – تبارك وتعالى .

ومع النداء يرى النار تشتعل في فرع من الشجرة ، النار تزداد اشتعالاً ، والشجرة تزداد خضرة ، فلا النار تحرق الشجرة بحرارتها ، ولا الشجرة تُطفيء النار برطوبتها . فهي – إذن – مسألة عجيبة يحَارُ فيها الفكر ، فهل يستقبل كُلَّ هذه العجائب بسهولة أم لا بُدَّ له من مراجعة ؟

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ . . . ﴾ .

(331/586)

وفي موضع آخر يسأله ربه ليُؤنسه : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى ﴾ [طه : 17] وقلْنا : إن موسى – عليه السلام – أطال في هذا الموقف ليطيل مُدَّة الأُنْس بربه ، فلما أحسَّ أنه أسرف وأطال قال : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 18] فأطنب أولاً ليزداد أُنْسه

بربه ، ثم أوجز ليظل أدبه مع ربه .

أما هنا فيأتي الأمر مباشرة ليُوظِّف العصا : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ . . ﴾ [القصص : 31] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ . . . ﴾ [القصص : 31] لأنه رأى عجيبة أخرى أعجب مما سبق فلو سلَّمنا باشتعال النار في خُضْرة الشجرة ، فكيف نُسلِّم بانقلاب العصا جاناً يسعى ويتحرك ؟

وكان من الممكن أنْ تنقلبَ العصا الجافة إلى شجرة خضراء من جنس العصا ، وتكون أيضاً معجزة ، أما أنْ تتحول إلى جنس آخر ، وتتعدَّى النباتية إلى الحيوانية والحيوانية المتحركة المخيفة ، فهذا شيء عجيب غير مألوف .

وهنا كلام محذوف ؛ لأن القرآن الكريم مبنيٌّ على الإيجاز ، فالتقدير : فألقى موسى عصاه ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِراً . . . ﴾ [القصص : 31] ذلك ليترك للعقل فرصة الاستنباط ، ويُحرِّك الذِّهْن لمتابعة الأحداث .

والجانُّ ، قُلْنا هو فرخ الحية ، وقد صُوِّرَتْ العصا في هذه القصة بأنها : جانٌّ ، وثعبان ، وحية . وهي صورة ثلاثة للشيء الواحد ، فهي في خفَّتِها جانٌّ ، وفي طولها ثعبان ، وفي غِلَظها حية .

ومعنى ﴿ ولى مُدْبِراً . . ﴾ [القصص : 31] يعني : انصرف خائفاً ، ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ . . ﴾ [القصص : 31] لم يلتفت إلى الوراء ، فناداه ربه : ﴿ يا موسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ . . . ﴾ [القصص : 31] يعني : ارجع ولا تَخَفْ من شيء ، ثم يعطيه القضية التي يجب أن تصاحبه في كل تحركاته في دعوته ﴿ إِنَّكَ مِنَ الآمنين ﴾ [القصص : 31] فلم يقل ارجع فسوف أؤمنك في هذا الموقف إنما ﴿ إِنَّكَ مِنَ الآمنين ﴾ [القصص : 31] . يعني : هي قضية مستمرة ملازمة لك ؛ لأنك في مَعيّة الله ، ومَنْ كان في معية الله لا يخاف ، وإلا لو خِفْتَ الآن ، فماذا ستفعل أمام فرعون .

وهكذا يعطي الحق – سبحانه وتعالى – لموسى – عليه السلام – دُرْبة معه سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دُرْبة مع سبحانه ، ودُرْبة حتى يواجه فرعون وسَحرته والملأ جميعاً دون خوف ولا وَجَل ، وليكون على ثقة من نصر الله وتأييده في جولته الأخيرة أمام فرعون .

وقد انتفع موسى – عليه السلام – بكل هذه المواقف ، وتعلَّم من هذه العجائب التي رآها فزادته ثقةً وثباتاً ؛ لذلك لما كاد فرعون أنْ يلحقَ بجنوده موسى وقومه ، وقالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] استعاد موسى عليه السلام قضية ﴿ إِنَّكَ مِنَ الآمنين ﴾ [القصص : 31] فقال بملء فيه : ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62

] .

فحيثية الثقة عند موسى – عليه السلام – هي معيّة الله له ، قالها موسى ، ويمكن أنْ تكذب في وقتها حالاً ، فهاجم البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم ، لكنها ثقة مَنْ أمَّنه الله ، وجعله في معيَّته وحِفْظه .

وهذا الأمن قد كفله الله تعالى لجميع أنبيائه ورسله ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173] .

(333/586)

وقال : ﴿ يا موسى لاَ تَخَفْ إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المرسلون ﴾ [النمل : 10] .

وقد قُصَّ هذا كله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فانتفع به ووثق في نصر الله ، فلما قال له الصِّديق وهما في الغار : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميْه لرآنَا ، قال صلى الله عليه وسلم : " يا أبا بكر ، ما ظنُّك باثنين ، الله ثالثهما " .

وحكى القرآن قوله صلى الله عليه وسلم لصاحبه : ﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا . . . ﴾ [التوبة : 40] وما دُمْنا في معيَّة مَنْ لا تدركه الأبصار ، فلن تدركنا الأبصار .

ثم ينقل الحق – تبارك – وتعالى – موسى عليه السلام إلى آية أخرى تضاف إلى معجزاته :

﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ . . . ﴾ .

معنى ﴿ اسلك يَدَكَ . . . ﴾ [القصص : 32] يعني : أدخلها ﴿ فِي جَيْبِكَ . . ﴾ [القصص : 32] الجيب : فتحة الثوب من أعلى ، وسَمَّوْها جَيْباً ؛ لأنهم كانوا يجعلون الجيوب مكان حِفْظ الأموال في داخل الثياب حتى لا تُسرق ، فكان الواحد يُدخِل يده في قبَّة الثوب لتصل إلى جيبه .

ونلحظ هنا دقة الأداء القرآني ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ . . . ﴾ [القصص : 32] ولم يقُلْ بصيغة الأمر : وأخرجها كما قال ﴿ اسلك يَدَكَ . . . ﴾ [القصص : 32] وكأن العملية عملية آلية منضبطة بدقة ، فبمجرد أن يُدخِلها تخرج هي بيضاء ، فكأن إرادته على جوارحه كانت في الإدخال ، أما في الإخراج فهي لقدرة الله .

وكلمة ﴿ بَيْضَآءَ . . . ﴾ [القصص : 32] أي : مُنوّرة دون مرض ، والبياض لا بُدَّ أن يكون عجيباً في موسى – عليه السلام – لأنه كان أسمر اللون ؛ لذلك قال ﴿ مِنْ غَيْرِ سواء . . . ﴾ [القصص : 32] حتى لا يظنوا به بَرصاً مثلاً ، فهو بياض طبيعي مُعْجِز .

(334/586)

وقوله تعالى : ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب . . . ﴾ [القصص : 32]

الجناحان في الطائر كاليدين في الإنسان ، وإذا أراد الإنسان أن يعوم مثلاً يفعل كما يفعل الطائر حين يطير ، فالمعنى : اضمُمْ إليك يديك يذهب عنك الخوف .

وهذه العملية يُصدِّقها الواقع ، فنرى المرأة حين ترى ولدها مثلاً يسئ التصرف تضرب صَدْرها وتولول ، وسيدنا ابن عباس يقول : كل من خاف يجب عليه أن يضرب صدره بيديه ليذهب عنه ما يلاقي ، ولك أن تُجرِّبها لتعلم صِدْق هذا الكلام .

ومعنى ﴿ فَذَانِكَ . . . ﴾ [القصص : 32] ذا : اسم إشارة للمفرد ونقول : ذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب ، والمراد : الإشارة لمعجزتي العصا واليد ﴿ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ . . . ﴾ [القصص : 32] أي ربك الحق ﴿ إلى فِرْعَوْنَ . . . ﴾ [القصص : 32] الرب الباطل ، ولا يمكن أنْ يجتمع الحق والباطل ، لا بد للباطل أنْ يزهق ؛ لأنه ضعيف لا يصمد أمام قوة الحق ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : 18] .

والبرهان : هو الحجة والدليل على صِدْق المبرهَن عليه ﴿ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . ﴾ [القصص : 32] لأن فرعون ادَّعى الألوهية ، وملؤه استخفهم فأطاعوه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ [القصص : 32] أي : جميعاً فرعون والملأ ﴿ فَاسِقِينَ ﴾ [القصص : 32] أي : خارجين عن الطاعة من قولنا فسقتِ الرُّطَبة يعني : خرجتْ من قشرتها .

والمراد هنا الحجاب الديني الذي يُغلِّف الإنسان ، ويحميه ويعصمه أنْ يتأثر بعوامل المعصية ، فإذا انسلخ من هذا الثوب ، ونزع هذا الحجاب ، وتمرَّد على المنهج تكشفتْ عورته ، وبانتْ سَوْءَته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(335/586)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا ﴾ . الآية .

﴿ لأَهْلِهِ ﴾ : زوجته بدليل قوله: ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ لأن المعروف أنه سار من عند شعيب بزوجته (ابنة شعيب) ، أو غير شعيب على القول بذلك .

وقوله: ﴿ امْكُثُوا ﴾ خطاب جماعة الذكور فما وجه خطاب المرأة بخطاب جماعة الذكور .

والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه:

الأول: أن الإنسان يخاطب المرأة بخطابة الجماعة تعظيماً لها ونظيره قول الشاعر:

فإن شئت حرمت النساء سواكم

وإن شئت لم أطعم نقاخاً ولا برداً

الثاني: أن معها خادماً والعرب ربما خاطبت الاثنين خطاب الجماعة.

الثالث: أنه كان له مع زوجته ولدان له، اسم الأكبر منهما: (جيرشوم) واسم الأصغر (اليعازر).

والجواب الأول ظاهر والثاني والثالث محتملان؛ لأنهما من الإسرائيليات والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿دفع إيهام الاضطراب صـ 229. 230﴾

(336/586)

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال السمين:

قوله: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾:

قرأ حمزة بضم الجيم. وعاصم بالفتح. والباقون بالكسرِ. وهي لغاتٌ في العُود الذي في رأسِه نارٌ، هذا هو المشهورُ. قال السُّلمي:

3601 حمى حُبِّ هذي النارِ حُبُّ خليلتي ... وحُبُّ الغواني فهو دونَ الحُباحُبِ

وبُدِّلْتُ بعد المِسْكِ والبانِ شِقْوةً ... دخانَ الجُذا في رأسِ أشمطَ شاحبِ

وقيَّده بعضُهم فقال : في رأسِه نارٌ مِنْ غيرِ لَهَبٍ . قال ابن مقبل :

3602 باتَتْ حواطِبُ ليلى يَلْتَمِسْنَ لها . . . جَزْلَ الجُذا غيرَ خَوَّارٍ ولا دَعِرِ

الخَوَّارُ : الذي يتقصَّفُ . والدَّعِرُ : الذي فيه لَهَبٌ ، وقد وَرَدَ ما يقتضي وجودَ اللهبِ فيه . قال الشاعر :

3603 وأُلْقَى على قَبْسٍ من النارِ جَذْوَةً . . . شديداً عليها حَمْيُها والتهابُها

وقيل : الجَذْوَة : العُوْدُ الغليظُ سواءً كان في رأسه نارٌ أم لم يكنْ ، وليس المرادُ هنا إلاَّ ما في رأسِه نارٌ .

قوله : ﴿ مِّنَ النار ﴾ صفةٌ لـ جَذْوَةٍ ، ولا يجوزُ تَعَلُّقُها ب " آتِيْكُمْ " كما تَعَلَّق به " منها " ؛ لأنَّ هذه النارَ ليستْ النارَ المذكورةَ ، والعربُ إذا تقدَّمَتْ نكرةٌ وأرادَتْ إعادَتَها أعادَتْها مضمرةً ، أو معرَّفَةً بأل العهديةِ ، وقد جُمِع الأمران هنا .

قوله : ﴿ مِن شَاطِىءِ ﴾ : " مِنْ " لابتداءِ الغايةِ . والأَيمن صفةٌ للشاطىء أو للوادي . والأَيمن من اليُمْن وهو البركة أو من اليمين المعادِلِ لليسار من العُضْوَيْن . ومعناه على هذا بالنسبة إلى موسى أي : الذي يَلي يمينَكَ دونَ يسارِك . والشاطىء ضفَّةُ الوادي والنهر أي حافَّتُه وطرفُه ، وكذلك الشَّطُّ والسِّيْفُ والساحل كُلُّها بمعنى . وجَمْعُ الشاطىء / أشْطَاء قاله الراغب . وشاطَأْتُ فلاناً : ماشَيْتُه على الشاطىء .

قوله : ﴿ فِي البقعة ﴾ متعلقٌ ب "نُودِيَ" أو بمحذوفٍ على أنها حالٌ من الشاطىء .

وقرأ العامَّةُ بضم الباء وهي اللغةُ العاليةُ . وقرأ مَسْلَمَةُ والأشهبُ العُقيلي بفتحها . وهي لغةٌ حكاها أبو زيدٍ . قال : "سَمِعْتُهم يقولون : هذه بَقْعَةٌ طيِّبةٌ" .

قوله : ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ هذا بدلٌ مِنْ "شاطىء" بإعادةِ العاملِ ، وهو بدلُ اشتمال .

قوله : ﴿ أَن يا موسى ﴾ "أنْ" هي المفسِّرةُ . وجُوِّز فيها أَنْ تكونَ المخففةَ . واسمُها ضميرُ الشأنِ . وجملةُ النداءِ مفسِّرةٌ له . وفيه بُعدٌ .

قوله : ﴿ إني أَنَا الله ﴾ العامَّةُ على الكسرِ على إضمار القولِ ، أو على تضمينِ النداءِ معناه . وقُرِىء بالفتح . وفيه إشكالٌ ؛ لأنه إنْ جُعِلَتْ "أَنْ" تفسيريةً وَجَبَ كسرُ "إنِّي" للاستئنافِ المفسِّر للنداء بماذا كان ؟ وإنْ جَعَلْتَها مخففةً لَزِم تقديرُ "أَنِّي" بمصدرٍ ، والمصدرُ مفردٌ ، وضميرُ الشأن لا يُفَسَّرُ بمفردٍ . والذي ينبغي أَنْ تُخَرَّجَ عليه هذه القراءةُ أَنْ تكون "أَنْ" تفسيريةً و "أني" معمولةٌ لفعلٍ مضمرٍ ، تقديرُه : أنْ يا موسى اعلَمْ أَنِّي أنا الله .

(338/586)

قوله : ﴿ مِنَ الرهب ﴾ : متعلّقٌ بأحدِ أربعةِ أشياء : إمَّا ب " ولى " ، وإمَّا ب " مُدْبِراً " ، وإمَّا ب " اضْمُمْ " ويظهر هذا الثالث إذا فَسَّرنا الرَّهْبَ بالكُمِّ ، وإمَّا بمحذوفٍ أي : [تَسْكُن] من الرَّهْب . وقرأ حفصٌ بفتح الراءِ وإسكانِ الهاء . والأخَوان وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ بالضمِّ والإسكان . والباقون بفتحتين . والحسن وعيسى والجحدريُّ وقتادة بضمتين . وكلُّها لغاتٌ بمعنى الخَوْفِ . وقيل : هو بفتحتين الكُمُّ بلغةِ حِمْير وحنيفة . قال الزمخشري : " هو مِنْ بِدَعِ التفاسير " قال : " وليت شعري كيف صِحَّتُه في اللغةِ ، وهل سُمِع من الثقاتِ الأثباتِ الذين تُرْتَضَى عربيتُهم ؟ ثم ليت شعري كيف موقعُه في الآيةِ وكيف تطبيقُه المفصَّل كسائرِ كلماتِ التنزيل . على أنَّ موسى صلوات الله عليه ليلةَ المُناجاة ما كان عليه إلاَّ رُزْمانِقَةٌ من صوف لا كُمَّيْ لها " الرُّزْمانِقَةُ : المِدْرَعَة .

قال الشيخ : " هذا مرويٌّ عن الأصمعي ، وهو ثقةٌ سمعهم يقولون : أَعْطِني ما رَهْبِك أي : كُمِّك . وأمَّا قولُه كيف موقعُه ؟ فقالوا : معناه أخرِجْ يدَكَ مِنْ كُمِّك " قلت : كيف يَسْتقيم هذا التفسير ؟ يُفَسِّرون اضْمُمْ بمعنى أَخْرِجْ .

وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : قد جُعِل الجناحُ وهو اليدُ في أحد الموضعين مضموماً ، وفي الآخر مضموماً إليه ، وذلك قوله : ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ وقوله ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ فما التوفيقُ بينهما ؟ قلت : المرادُ بالجناحِ المضمومِ [هو] اليدُ اليمنى ، وبالجناح المضمومِ إليه هو اليدُ اليسرى ، وكلُّ واحدةٍ مِنْ يُمْنى اليدين ويُسْراهما جناح " .

قوله : ﴿ فَذَانِكَ ﴾ قد تقدَّمَ قراءةُ التخفيفِ والتثقيلِ في سورة النساء وقرأ ابن مسعود وعيسى وشبل وأبو نوفل بياءٍ بعد نونٍ مكسورةٍ ، وهي لغةُ هُذَيْلٍ . وقيل : تميمٌ . وروى شبل عن ابن كثير بياءٍ بعد نونٍ مفتوحةٍ . وهذا على لغةِ مَنْ يفتح نونَ التثنيةِ ، كقوله :

3604 على أَحْوَذِيَّيْنَ اسْتَقَلَّتْ عَشِيَّةً . . . فما هي إلاَّ لَمْحَةٌ وتَغيبُ

والياءُ بدلٌ من إحدى النونين كـ " تَظَنَّيْت " . وقرأ عبد الله بتشديدِ النون وياءٍ بعدها . ونُسِبَتْ لهُذَيْل . قال المهدوي : بل لغتُهم تخفيفُها . ولا أظنُّ الكسرةَ هنا إلاَّ إشباعاً كقراءةِ هشام ﴿ أَفْئِيدَةً مِّنَ الناس ﴾ [إبراهيم : 37] .

و " ذانِكَ " إشارةٌ إلى العصا واليد وهما مؤنثتان ، وإنما ذُكِّر ما أُشير به إليهما لتذكيرِ خبرِهما وهو برهانان ، كما أنه قد يُؤَنَّثُ لتأنيثِ خبرِه كقراءةِ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ﴾ [الأنعام : 23] فيمَنْ أَنَّث ، ونَصَبَ " فِتْنَتَهم " ، وكذا قولُ الشاعر :

3605 . . . . . فقد خابَ

مَنْ كانَتْ سَرِيْرَتَه الغَدْرُ

وتقدَّم إيضاحُ هذا في الأنعام . والبُرْهان تقدَّم اشتقاقُه .

وقال الزمخشري هنا : " فإنْ قلتَ : لِمَ سُمِّيَتِ الحُجَّةُ بُرْهاناً ؟ قلت : لبياضِها وإنارتِها ، مِنْ قولِهم للمرأةِ البيضاء " بَرَهْرَهَةُ " بتكريرِ العين واللام . والدليلُ على زيادةِ النون قولهم : أَبْرَهَ الرجلُ إذا جاء بالبُرْهان . ونظيرُه تسميتُهم إياها سُلْطاناً ، من السَّليطِ وهو الزيتُ لإنارتِها " .

(340/586)

قوله : ﴿ إلى فِرْعَوْنَ ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ فقدَّره أبو البقاء " مُرْسَلاً إلى فرعونَ " وغيرُه : اذهَبْ إلى فرعون . وهذا المقدَّرُ ينبغي أن يكونَ حالاً مِنْ " برهانان " أي : مُرْسَلاً بهما إلى فرعونَ . والعاملُ في هذه الحالِ ما في اسمِ الإشارةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 668.673 ﴾

(341/586)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الأجل)

وقد ورد فى النصّ على خمسة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى الموت المقدّر : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

الثانى : بمعنى وقت معيّن معتبر ﴿ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ ﴾ إمّا العشر وإمّا الثمانية .

الثالث : بمعنى إهلاك الكفّار : ﴿ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ أَى إهلاكهم .

الرّابع : بمعنى عِدّة النساءِ بعد الطّلاق : ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ .

الخامس : بمعنى العذب والعقوبة : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ أَى عذابه .

والأَجل فى الأَصْل : موضوع للمدّة المضروبة للشئ ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلِتَبْلُغُواْ أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ ويقال للمدّة المضروبة لحياة الإِنسان : أَجَل .

فيقال : دنا أَجله ، عبارة عن دُنوّ الموت .

وأَصله استيفاء الأَجل أَى مدّة الحياة .

وقوله : ﴿ وَبَلَغْنَا آأَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أَى حدّ الموت .

وقيل : حَدّ الهَرَم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ فالأَول البقاءُ فى هذه الدّنيا ، والثانى البقاءُ فى الآخرة .

وقيل : الأَوّل هو البقاءُ فى الدّنيا ، والثانى (مدة) ما بين الموت إِلى النشور ، عن الحسن .

وقيل : الأَوّل للنوم ، والثانى للموت ، إشارة إلى قوله – تعالى – ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مِوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ عن ابن عبّاس رضى الله عنه .

وقيل : الأَجَلان جميعاً : الموت ، فمنهم مَن أَجلُه بعارض ؛ كالسّيف والغَرَق والحرَق وكلّ مخالف ، وغير ذلك من الأَسباب المؤدية إلى الهلاك .

ومنهم من يُوَقّى ويعافى حتى يموت حَتفَ أَنفه .

وهذان المشار إليهما .

(342/586)

مَنْ أَخطأَته سهم الرّزية لم يخطئه سهم المنيّة ؛ وقيل : للنّاس أَجلان ، منهم مَنْ يموت عَبْطة ، ومنهم من يبلغ حدّاً لم يجعل الله فى طبيعة الدنيا أَن يبقى أَحد أَكثر منه فيها .

وإليهما أَشار بقوله : ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ وقصدهما الشاعر بقوله :

*رأَيتُ المنايا خَبْط عَشْواءَ من تُصبْ * تُمِتْهُ ومن تُخْطِئْ يُعَمّر ويهرمِ* . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 108 . 109 ﴾

(343/586)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾

مَضَتْ عَشْرُ حِجَجٍ ، وأراد موسى الخروجَ إلى مصر ، فَحَمَلَ ابنَه شعيب ، وسارَ بأهله متوجّهاً إلى مصر . فكان أهلُه في تسييره وكان هو في تسيير الحقّ ، ولمَّا ظَهَرَ ما ظهر بامرأته من أمر الطِّلْقِ استصعب عليه الوقتُ ، وبينا هو كذلك آنسَ من جانب الطور ناراً – أي أبصر ورأى – فكأنه يشير إلى رؤية فيها نوعُ أُنسٍ : وإنَّ اللَّهَ إذا أراد أمراً أجْرَى ما يليق به ، ولو لم تقع تلك الحالةُ لم يخرج موسى عندها بإيناس النار ، وقد توهم – أول الأمر – أن ما يستقبله في ذلك من جملة البلايا ، ولكنه كان في الحقيقة سَبَبَ تحقيق النبوة . فلولا أسرار التقدير – التي لا يهتدي إليها الخَلْقُ – لما قال لأهله : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ .

ويقال : أراح له ناراً ثم لوَّح له نوراً ، ثم بدا ما بدا ، ولا كان المقصودُ النَّارَ ولا النورَ . وإنما سماع نداء : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن . . . ﴾ الآية .

أخفى تعيين قَدَم موسى على الظنون بهذا الخطاب حيث قال : " من شاطئ الواد الأيمن " ، ثم قال : " في البقعة المباركة " ثم قال " من الشجرة " .

وأخْلِقْ بأن تكون تلك البقعة مباركة ، فعندها سَمِعَ خطابَ مولاه بلا واسطة ؛ وأعِزُّ الأماكنِ في العالمِ مَشْهَدُ الأحباب :

وإني لأهوى الدارَ ما يستعزني . . . لها الود إلا أنها من دياركا

ويقال كم قَدَمٍ وَطَئَتْ لك البقعة ، ولكن لم يسمع أصحابُها بها شيئاً ! . . وكم ليلةٍ جَنَّت تلك البقعة ولم يظهر من تلك النار فيها شعلة ! .

(344/586)

ويقال : شتَّان بين شجرة وشجرة ؛ شجرة آدم عندها ظهور محنتِه وفتنتِه ، وشجرة موسى وعندها افتتاح نُبُوَّتِه ورسالتِه ! .

ويقال لك لم يأتِ بالتفصيل نوعُ تلك الشجرة ، ولا يُدْرَى ما الذي كانت تثمره ، بل هي شجرة الوصلة ؛ وثمرتها القربة ، وأصلُها في أرض المحبة وفَرْعُها باسِقٌ في سماء الصفوة ، وأوراقها الزلفة ، وأزهارها تَنْفَتِقُ عن نسيم الرَّوْح والبهجة :

فلمَّا سمع موسى تغيَّر عليه الحال ؛ ففي القصة : أنه غُشِي عليه ، وأرسل اللَّهُ إليه الملائكة

لِيُرّوحوه بمراوح الأُنس ، وهذا كان في ابتداء الأمر ، والمبتدئ مرفوقٌ به . وفي المرة الأخرى خرَّ موسى صَعِقاً ، وكان يفيق والملائكة تقوله له : يا ابن الحيض . أمثالك مَنْ يسأل الرؤية ؟ ! .

وكذا الحديث والقصة ؛ في البداية لُطْفٌ وفي النهاية عُنْفٌ ، في الأولِ خَتْل وفي الآخرِ قَتْل ، كما قيل :

فلمَّا دارت الصهباءُ . . . دعا بالنَّطع والسيفِ

كذا مَنْ يشرب الراح . . . مع التِّنِّين في الصيفِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ .

يا موسى . . اخْلَعْ نعليكَ وألقِ عصاك ، وأقِمْ عندنا هذه الليلة ، فلقد تَعِبْتَ في الطريق – وذلك إن لم يكن في النقل والآثار فهو مما يليق بتلك الحال .

(345/586)

يا موسى . . كيف كُنْتَ في الطريق ؟ كيف صَعَّدْتَ وكيف صوَّبت وكيف شرَّقْتَ وكيف غرَّبْتَ ؟ ما كنتَ في الطريق وحدكَ يا موسى ! أحصَيْنا خُطَاكَ – فقد أحصينا كلَّ شيءٍ عَدَداً . يا موسى . . تعِبْتَ فاسترحْ ، وبعد ما جِئْتَ فلا تَبْرَحْ – كذلك العبدُ غداً

إذا قطع المسافةَ في القيامةِ ، وتبوّأَ مَنْزِلَه من الجنة ؛ فأقوامٌ إذا دخلوها رجعوا إلى منازلهم ثم يوم اللقاء يستحضرون ، وآخرون يمضون من الطريق إلى بساط الزلفة ، وكذا العبد أو الخادم إذا دَخَلَ بَلَدَ سلطانِه . يبتدئ أولاً بخدمة الشُّدَّةِ العَلِيَّةِ ثم بعدها ينصرف إلى منزله . وكذلك أمرنا ؛ إذا أصبحنا كلَّ يوم : ألا نشتغِلَ بشيءٍ حتى نَفْتَتِحَ النهارَ بالخطاب مع الحقِّ قبل أن نخاطِبَ المخلوق ، نحضر بساط الخدمة – أي الصلاة – بل نحضر بساط الدنوِّ والقربة ، قال تعالى : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ [العلق : 19] : فالمُصَلِّي مُنَاجٍ ربَّه . ولو عَلِمَ المُصَلِّي مَن يناجي ما التفت ؛ أي لم يخرج عن صلاته ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً في التسليم الذي هو التحليل . (1)

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الأَمِنِينَ ﴾ .

عندما انقلبت العصا حَيَّةً وَلَّى موسى مُدْبِراً ولم يعقب ، وكان موضع ذلك أن يقول : حديثٌ أَوَّلُه تسليطُ ثعبان ! مَنْ ذا يُطِيقُ أَوَّلَه ؟ ! .

فقيل له : لا تَخَفْ يا موسى ؛ إن الذي يَقْدِرُ أَنْ يَقْلِبَ العصا حيةً أن يَخْلُقَ لك منها السلامة : ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الأَمِنِينَ ﴾ : ليس المقصودُ مِنْ هذا أنت ، إنما أثبت هذا لأسلطَه على عدوِّك ، فهذه معجزتُك إلى قومك ، وآيتُك على عودِّك .

---

(1) التحليل : الإباحة ، والمقصود هنا أنه عقيب التسليم يحل له أن يخاطب الخلق وأن

يشتغل بشيء بعد ما تمت مناجاته مع الحق ، تلك المناجاة التي يؤثر القشيري دوامها واستمرارها . ومعلوم أن الصوفية إذا أنهوا صلاتهم يستمرون في الذكر والتأمل دون حدود . [. . . . .]

(346/586)

ويقال : شتان بين نبيّنا – صلى الله عليه وسلم – وبين موسى عليه السلام ؛ رجع من سماع الخطاب وأتي بثعبان سَلّطَه على عدوّه ، ونبينا – صلى الله عليه وسلم – رجع بعد ما أُسْرِيَ به إلى السماء ، وأوحى إليه ما أوحى – لِيُوَافِيَ أُمَّتَه بالصلاة التي هي المناجاة ، وقيل له : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فقال : " السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " .

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

قيل له : اسلُكْ يَدَكَ في جيبك ، لأنَّ المدرعةَ التي كانت عليه لم يكن لها كُم . وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على المرء للوصول إلى مراده ومقصوده أن يتشمَّر ، وأن يجدَّ ، وأن يُخْرِجَ يَدَه من كُمِّه . وأنه قال لموسى : أدْخِلْ يَدَكَ في جيبك تخرج بيضاءَ ، وألق عصاكَ نجعلْها ثعباناً ، بلا ضَرْبِكَ بها ، وبلا استعمالِك لها يا موسى : الأمرُ بِنَا لا بِكَ ، وأنا لا أنت .

﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ : يا موسى ، في وصف خضوعك تَجِدني ، وبتبرّيكَ عن حَوْلِكَ وَقُوَّتِك تَصِل إليَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 64.68 ﴾

(347/586)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/587)

الجزء السابع والثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 33 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 47 ﴾ من نفس السورة

(4/587)

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : ما فعل بعد رؤية هذه الخوارق ؟ قيل : ثبت ، علماً منه بصعوبة المقام وخطر الأمر ، فاشترط لنفسه حتى رضي ، وتلك كانت عادته ثباتاً وحزماً ، وحلماً وعلماً ، ألا ترى إلى ما فعل معنا عليه السلام والتحية والإكرام من الخير ليلة الإسراء في السؤال في تخفيف الصلاة ، ولذلك كله ﴿ قال رب ﴾ أي أيها المحسن إليّ ﴿ إني ﴾ أكده لأن إرسال الله سبحانه له فعل من لا يعتبر أن لهم عليه ترة ، فذكر ذلك ليعلم وجه عدم اعتباره ﴿ قتلت منهم ﴾ أي آل فرعون ﴿ نفساً ﴾ وأنت تعلم ما خرجت إلا هارباً منهم من أجلها ﴿ فأخاف ﴾ إن باديتهم ، بمثل ذلك ﴿ أن يقتلون ﴾ لذنبي إليهم ووحدتي وغربتي وثقل لساني في إقامة الحجج .

(5/587)

ولما تسبب عن ذلك طلب الإعانة بشخص فيه كفاية وله عليه شفقة ، وكان أخوه هارون أحق الناس بهذا الوصف ، كان التقدير : فأرسل معي أخي هارون - إلى آخره ، غير أنه قدم ذكره اهتماماً بشأنه فقال : ﴿ وأخي هارون ﴾ والظاهر أن واوه للحال من ضمير موسى عليه الصلاة والسلام ، أو عاطفة على مقول القول ، والمعنى أنه يخاف أن يفوت

مقصود الرسالة إما بقتله أو لعدم بيانه ، فاكتفى بالتلويح في الكفاية من الأول ، لأنه لا طاقة لأحد غير الله بها ، وصرح بما يكفي من الثاني ، فكأن التقدير : إني أخاف أن يقتلون فيفوت المقصود ، ولا يحميني من ذلك إلا أنت ، وإن لساني فيه عقدة ، وأخي - إلى آخره ؛ وزاد في تعظيمه بضمير الفصل فقال : ﴿ هو أفصح مني لساناً ﴾ أي من جهة اللسان للعقدة التي كانت حصلت له من وضع الجمرة في فيه وهو طفل في كفالة فرعون

﴿ فأرسله ﴾ أي بسبب ذلك ﴿ معي ردءاً ﴾ أي معيناً ، من ردأت فلاناً بكذا ، أي جعلته له قوة وعاضداً ، وردأت الحائط - إذا دعمته بخشب أو كبش يدفعه أن يسقط ؛ وقراءة نافع بغير همز من الزيادة .

ولما كان له عليه من العطف والشفقة ما يقصر الوصف عنه ، نبه على ذلك بإجابة السؤال بقوله : ﴿ يصدقني ﴾ أي بأن يلخص بفصاحته ما قتله وبينته ، ويقيم الأدلة عليه حتى يصير كالشمس وضوحاً ، فيكون - مع تصديقه لي بنفسه - سبباً في تصديق غيره لي ؛ ورفعه عاصم وحمزة صفة لردءاً .

ثم علل سؤاله هذا ، وبين أنه هو المراد ، لا أن يقول له : صدقت ، فإن قوله لهذه اللفظة لا تعلق له بالفصاحة حتى يكون سبباً للسؤال فيه ، بقوله مؤكداً لأجل أن من كان رسولاً عن الله لا يظن به أن يخاف : ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ .

ولما كان ما رأى من الأفعال ، وسمع من الأقوال ، مقتضياً للأمن من أن يكذبوه ، وكان عالماً بما هم عليه من القساوة والكبر ، أشار إلى ذلك بالتأكيد ، أي وإذا كذبوني عسرت عليّ المحاججة على ما هو عادة أهل الهمم عند تمالؤ الخصوم على العناد ، والإرسال موجب لكلام كثير وحجاج طويل ، وقريب من هذا قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أمره الله تعالى بإنذار قومه

" إذن يثلغوا رأسي فيجعلوه خبزة " وكأن مراد السادة القادة عليهم الصلاة والسلام والتحية والإكرام الاستعلام عن الأمر هل يجري على العادة أو لا ؟ فإن كان يجري على العادة وطنوا أنفسهم على الموت ، وإلا ذكر لهم الأمر الخارق فيكون بشارة لهم ، ليمضوا في الأمر على بصيرة ، ويسيروا فيه على حسب ما يقتضيه من السيرة .

(7/587)

ولما أكد أمر الطلب بهارون عليهما الصلاة والسلام ، أكد له سبحانه أمر الإجابة بقوله مستأنفاً : ﴿ قال سنشد ﴾ وذكر أولى الأعضاء بمزاولة المكاره فقال : ﴿ عضدك ﴾ أي أمرك ﴿ بأخيك ﴾ أي سنقويك ونعينك به إجابة لسؤالك صلة منك لأخيك ، وعوناً

منه لك ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ أي ظهوراً عظيماً عليهم ، وغلبة لهم بالحجج والهيبة لأجل ما ذكرت من الخوف ﴿ فلا ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أنهم لا ﴿ يصلون إليكما ﴾ بنوع من أنواع الغلبة ﴿ بآياتنا ﴾ أي نجعل ذلك بسبب ما يظهر على أيديكما من الآيات المعظمة بنسبتها إلينا ، ولذلك كانت النتيجة ﴿ أنتما ومن اتبعكما ﴾ أي من قومكما وغيرهم ﴿ الغالبون ﴾ أي لا غيرهم ، وهذا يدل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشيء مما هددهم به ، لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين لأنفسهم في الله ، وكأنه حذف أمرهم هنا لأنه في بيان أمر فرعون وجنوده بدليل ما كرر من ذكرهم ، وقد كشفت العاقبة عن أن السحرة ليسوا من جنوده ، بل من حزب الله وجنده ، ومع ذلك فقد أشار إليهم بهذه الآية والتي بعدها ، وسيأتي في آخر سورة الحديد عن تاريخ ابن عبد الحكم أنهم خلصوا ورجع بعضهم إلى مصر فكانوا أول من ترهب .

(8/587)

شرح ما مضى من التوراة ، قال بعد ما تقدم : وكان من بعد أيام كثيرة مات فرعون ملك مصر فاستراح بنو إسرائيل من شدة تعبدهم ، فصلوا فسمع الله صلاتهم ، وعرف تعبدهم ، وسمع ضجتهم ، وذكر عهده لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فأبصر الله بني إسرائيل ،

وعرف ذلهم ، فكان موسى يرعى غنم يثرو ختنه حبر مدين ، فساق بالشاء إلى طرف البرية وأتى إلى حوريب جبل الله ، فتراءى له ملك الله بلهب النار من جوف العوسج ، تشتعل فيه النار ، ولم يكن العوسج يحترق ، فقال موسى : لأعدلن فأنظر إلى هذه الرؤيا العظيمة ؛ ما بال هذه العوسجة لم تحترق ؟ فرأى الرب أنه قد عدل لينظر ، فدعاه الله من جوف العوسج وقال له : يا موسى يا موسى ! فقال : هأنذا ! قال : لا تدن إلى ههنا ، اطرح خفيك عن قدميك ، لأن المكان الذي أنت واقف عليه مكان طاهر ، وفي نسخة : مقدس ، وقال الله : أنا إله أبيك إبراهيم إله إسحاق إله يعقوب ، فغطى موسى وجهه لأنه فرق أن يمد بصره نحو الرب ، وقال الرب : إني قد رأيت ذل شعبي بمصر ، وسمعت ضجتهم التي ضجوا من تعبدهم ، لأني عارف براءتهم ، فنزلت لأخلصهم من أيدي المصريين ، وأن أصعدهم من تلك الأرض إلى أرض صالحة واسعة ، تغل السمن والعسل : أرض الكنعانيين والحاثانيين والأمورانيين والفرزانيين والحاوانيين واليابسانيين ، والآن هوذا ضجيج بني إسرائيل قد ارتفع إليّ ، ورأيت ضر المصريين لهم ، فهبطت الآن حتى أرسلك إلى فرعون .

(9/587)

وأخرج شعبي بني إسرائيل من مصر ، فقال موسى للّه : من أنا حتى أنطلق إلى فرعون وأخرج بني إسرائيل من مصر ، فقال الله : أنا أكون معك وهذه الآية لك أني أرسلتك : إنك إذا أخرجت الشعب من مصر تعبدون الله في هذا الجبل ، فقال موسى : ها أنذا منطلق إلى بني إسرائيل وأقول لهم : الرب إله آبائكم أرسلني إليكم ، فإن قالوا لي : ما اسمه ؟ ما الذي أقول ؟ فقال الرب لموسى : قل لهم : الأزلي الذي لم يزل ، وفي نسخة : لا يزول ، وقال : هكذا قل لبني إسرائيل : أهيا شر أهيا أرسلني إليكم ، وقال الرب أيضاً لموسى هكذا قل لبني إسرائيل : الله ربكم إله آبائكم إله إبراهيم إله إسحاق إله يعقوب أرسلني إليكم هذا اسمي إلى الأبد ، وهذا ذكري إلى حقب الأحقاب ، انطلق فاجمع أشياخ بني إسرائيل وقل لهم : الرب إله آبائكم اعتلن لي ، وإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب يقول لكم : قد ذكرتكم وذكرت ما صنع بكم بمصر ، ورأيت إخراجكم من تعبد أهل مصر إلى ارض الكنعانيين – ومن تقدم معهم – إلى الأرض التي تعل السمن والعسل ، فإذا قبلوا منك فادخل أنت وأشياخ بني إسرائيل إلى ملك مصر فقولوا له : الرب إله العبرانيين ظهر علينا فننطلق الآن مسيرة ثلاثة أيام في البرية ونذبح الذبائح لله ربنا ، وأنا أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تخرجون ، ولا بيد واحدة شديدة ، حتى أبعث بآفتي وأضرب المصريين بجميع العجائب التي أحدثها فيهم ، ومن بعد ذلك يرسلكم فأجعل للشعب في أعين المصريين رأفة ورحمة ، فإذا انطلقتم فلا تنطلقوا عطلاً صفراً ، بل تستعير المرأة منكم من جاراتها وساكنة بيتها حلي

ذهب وفضة وكسوة ، وألبسوها بنيكم وبناتكم ، وأخربوا أهل مصر ، فأجاب موسى وقال : إنهم لا يصدقونني ، ولا يقبلون قولي ، لأنه يقولون : لم يتراءى لك الرب ، فقال له الرب : ما هذه التي في يدك ؟ فقال : هي عصاي ، فقال : ألقها في الأرض ، فألقاها في الأرض ، فصارت ثعباناً ، فهرب منه موسى ، فقال له الرب : يا موسى ! مد

(10/587)

يدك ، فخذ بذنبها ، فمد يده فأمسكه فتحول في يده عصا ، فقال : لكي يصدقوا أن الله إله آبائهم قد تراءى لك ، إله إبراهيم إله إسحاق إله يعقوب ، وقال الرب لموسى : اردد يدك في ردنك ، وفي نسخة : في كمك ، فأدخلها ثم أخرجها فإذ بيده بيضاء كالثلج ، فقال له : اردد يدك في حضنك ، وفي نسخة : في كمك ، فردها ثم أخرجها فإذا هي مثل جسده ، فإن هم لم يؤمنوا ولم يسمعوا بالآية الأولى فإنهم يؤمنون ويسمعون بالآية الأخرى ، فإن لم يؤمنوا بالآيتين ، ولم يسمعوا قولك فخذ ماء من الأرض ، وفي نسخة : النيل ، فاصببه على الأرض ، فإنه ينقلب ويصير دماً في اليبس ، فقال موسى للرب : أطلب إليك يا رب لست رجلاً ناطقاً منذ أمس ولا قبله ولا من الوقت الذي كلمت عبدك فيه ، لأني ألثغ المنطق عسر اللسان ، فقال له الرب : من الذي خلق المنطق للإنسان ؟ ومن الذي خلق الأخرس

والأصم والمبصر والمكفوف ؟ أليس أنا الرب الذي أصنع ذلك ؟ فانطلق الآن وأنا أكون معك ، وراقباً للسانك وألقنك ما تنطق به ، فقال : موسى أطلب إليك يا رب ! أرسل في هذه الرسالة غيري ، فقال : هذا أخوك هارون اللاوي ، قد علمت أنه ناطق لسن ، وهو أيضاً سيلقاك ، ويشتد فرحه بك ، وأخبره بالأمر ، ولقنه كلامي ، وأنا أكون راقباً على فيك وفيه وأعلمكما ما تصنعان ، وهو يكلم الشعب عنك ؛ فيكون لك مترجماً ، وأنت تكون له إلهاً ، وفي نسخة : أستاذاً ومدبراً ، وخذ في يديك هذه العصا لتعمل بها الآيات ، فرجع موسى منطلقاً إلى ثيرو ختنه وقال له : إني راجع إلى إخوتي بمصر ، وناظر هل هم أحياء بعد ؟ فقال : ثيرو لموسى : انطلق راشداً سالماً ، وقال الرب لموسى في مدين : انطلق راجعاً إلى مصر لأن الرجال الذين كانوا معك يطلبون نفسك قد هلكوا جميعاً – إلى آخر ما مضى في الأعراف ، وفي هذا الفصل ما لا يسوغ إطلاقه في شرعنا على مخلوق ، وهو الإله ، وهو في لغة العبرانيين بمعنى العالم والحاكم ، وفيه أيضاً أن فرعون مات قبل رجوع موسى فإن كان المراد الذي ربى موسى عليه الصلاة والسلام في بيته فهو مما بدلوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 484 . 488 ﴾

(11/587)

فصل

قال الفخر :

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ فَذَانِكَ برهانان مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ [القصص : 32]

تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه ، فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوي قلبه ويزيل خوفه فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾ لأنه كان في لسانه حبسة ، إما في أصل الخلقة ، وإما لأجل أنه وضع الجمرة في فيه عندما نتف لحية فرعون .

أما قوله : ﴿ فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : الردء اسم ما يستعان به ، فعل بمعنى مفعول به ، كما أن الدفء اسم لما يدفأ به ، يقال ردأت الحائط أردؤه إذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط .

البحث الثاني : قرأ نافع (رداً) بغير همز والباقون بالهمز ، وقرأ عاصم وحمزة (يصدقني) برفع القاف ، ويروى ذلك أيضاً عن أبي عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبي عمرو ، فمن رفع فالتقدير ردءاً مصدقاً لي ، ومن جزم كان على معنى الجزاء ، يعني أن أرسلته صدقني ونظيره قوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي ﴾ [مريم : 5 ، 6] بجزم الثاء من يرثني .

وروى السدي عن بعض شيوخه ردءاً كيما يصدقني .

البحث الثالث : الجمهور على أن التصديق لهرون ، وقال مقاتل : المعنى كي يصدقني فرعون والمعنى أرسل معي أخي حتى يعاضدني على إظهار الحجة والبيان ، فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون .

(12/587)

البحث الرابع : ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّى لِسَاناً فَأَرْسِلْهِ مَعِىَ ﴾ وفائدة الفصاحة إنما تظهر فيما ذكرناه لا في مجرد قوله : صدقت .

البحث الخامس : قال الجبائي : إنما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هرون بأمر الله تعالى وإن كان لا يدري هل يصلح هرون للبعثة أم لا ؟ فلم يكن ليسأل مالا يأمن أن يجاب أو لا يكون حكمة ، ويحتمل أيضاً أن يقال إنه سأله لا مطلقاً بل مشروطاً على معنى ، إن اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعي في دعائه .

البحث السادس : قال السدي : إن نبيين وآيتين أقوى من نبي بواحد وآية واحدة .

قال القاضي والذي قاله من جهة العادة أقوى ، فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبي ونبيين ، لأن المبعوث إليه إن نظر في أيهما كان علم ، وإن لم ينظر فالحالة واحدة ، هذا إذا كانت طريقة الدلالة في المعجزتين واحدة ، فإما إذا اختلفت وأمكن في إحداهما إزالة الشبهة ما لا يمكن في الأخرى ، فغير ممتنع أن يختلفا ويصلح عند ذلك أن يقال إنهما بمجموعهما أقوى من إحداهما على ما قاله السدي ، لكن ذلك لا يتأتى في موسى وهرون عليهما السلام ، لأن معجزتهما كانت واحدة لا متغايرة .

أما قوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ فاعلم أن العضد قوام اليد وبشدتها تشتد ، يقال في دعاء الخير شد الله عضدك ، وفي ضده فت الله في عضدك .

ومعنى سنشد عضدك بأخيك سنقويك به ، فإما أن يكون ذلك لأن اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور ، وإما لأن الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة .

(13/587)

أما قوله : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ فالمقصود أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر فإن قيل بين تعالى أن السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون إليهما لأجل الآيات أو

ليس فرعون قد وصل إلى صلب السحرة وإن كانت هذه الآيات ظاهرة ، قلنا إن الآية التي هي قلب العصا حية كما أنها معجزة فهي أيضاً تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهرون عليهما السلام ، لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الأمرين ، فأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صلبوا وليس في القرآن ما يدل عليه وإن سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال : ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ فالمنصوص أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما وإيصال الضرر إلى غيرهما لا يقدح فيه ، ثم قال : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ والمراد إما الغلبة بالحجة والبرهان في الحال ، أو الغلبة في الدولة والمملكة في ثاني الحال والأول أقرب إلى اللفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 24 صـ 213.214 ﴾

(14/587)

وقال ابن الجوزى :

قوله : ﴿ هو أَفْصَحُ مِنّي لساناً ﴾ أي : أحسنُ بياناً ، لأنَّ موسى كان في لسانه أثر الجمرة التي تناولها ، ﴿ فأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً ﴾ قرأ الأكثرون : ﴿ رِدْءاً ﴾ بسكون الدال

وبعدها همزة.

وقرأ أبو جعفر: ﴿ رِدا ﴾ بفتح الدال وألف بعدها من غير تنوين ولا همز؛ وقرأ نافع كذلك، إلا أنه نوّن.

وقال الزجاج: الرِّدْءُ: العون، يقال: ردأتُه أردؤه رِدْءاً: إذا أعنتَه.

قوله تعالى: ﴿ يُصَدِّقُني ﴾ قرأ عاصم، وحمزة: ﴿ يُصَدِّقِني ﴾ بضم القاف.

وقرأ الباقون بسكون القاف.

قال الزجاج: من جزم ﴿ يُصَدِّقْني ﴾ فعلى جواب المسألة: أَرْسِلْهُ يُصَدِّقْني؛ ومن رفع، فالمعنى: رِدْءاً مُصَدِّقاً لي.

وأكثر المفسرين على أنه أشار بقوله: ﴿ يُصَدِّقُني ﴾ إلى هارون؛ وقال مقاتل بن سليمان: لكي يُصَدِّقني فرعون.

قوله تعالى: ﴿ سنَشُدُّ عَضُدكَ بأخيك ﴾ قال الزجاج: المعنى: سنُعينك بأخيك، ولفظ العَضُد على جهة المثل، لأن اليد قِوامُها عَضُدُها، وكل مُعين فهو عَضُد، ﴿ ونَجْعَلُ لكما سُلطاناً ﴾ أي: حُجَّة بيِّنة.

وقيل للزَّيت: السَّليط، لانه يُستضاء به؛ والسُّلطان: أَبْيَن الحُجج.

قوله تعالى: ﴿ فلا يَصِلُونَ إليكما ﴾ أي: بقتل ولا أذى.

وفي قوله ﴿ بآياتنا ﴾ ثلاثة أقوال.

أحدها : أن المعنى : تمتنعان منهم بآياتنا وحُججنا فلا يَصِلُون إليكما .

والثاني : أنَّه متعلِّق بما بعده ، فالمعنى : بآياتنا أنتما ومَنْ اتَّبَعكما الغالبون ، أي : تَغْلِبُون بآياتنا .

والثالث : أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : ونجعل لكما سُلطاناً بآياتنا ، فلا يَصِلُون إليكما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(15/587)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءاً ﴾

يعني معيناً مشتق من أردأته أي أعنته .

والردء العون .

قال الشاعر :

ألم تر أنّ أصْرَمَ كان رِدئي . . .

وخيرَ الناسِ في قُلٍّ ومال

النحاس : وقد أردأه ورداه أي أعانه ؛ وترك همزه تخفيفاً .

وبه قرأ نافع : وهو بمعنى المهموز .

قال المهدوي : ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم أَردى على المائة أي زاد عليها ، وكأن المعنى أرسله معي زيادة في تصديقي .

قاله مسلم بن جندب .

وأنشد قول الشاعر :

وأسمر خَطِّيًا كأنّ كُعوبَه . . .

نوى القَسْب قد أردَى ذراعاً على العَشْر

كذا أنشد الماوردي هذا البيت : قد أردى .

وأنشده الغزنوي والجوهري في الصحاح قد أرمى ؛ قال : والقسب الصلب ، والقسب تمر يابس يتفتت في الفم صلب النواة .

قال يصف رمحاً : وأسمر .

البيت .

قال الجوهري : ردؤ الشيء يردؤ رداءة فهو رديء أي فاسد ، وأردأته أفسدته ، وأردأته أيضاً بمعنى أعنته ؛ تقول ؛ أردأته بنفسي أي كنت له رِدءاً وهو العون .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ .

قال النحاس : وقد حكي ردأته : رِدءاً وجمع ردءٍ أَرْدَاءٌ .

وقرأ عاصم وحمزة : ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ بالرفع .

وجزم الباقون ؛ وهو اختيار أبي حاتم على جواب الدعاء .

واختار الرفع أبو عبيد على الحال من الهاء في ﴿ أَرْسِلْهُ ﴾ أي أرسله ردءاً مصدّقاً حالة التصديق ؛ كقوله : ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء تَكُونُ ﴾ [المائدة : 114] أي كائنة ؛ حال صرف إلى الاستقبال .

ويجوز أن يكون صفة لقوله : ﴿ رِدْءاً ﴾ .

﴿ إِنِي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ إذا لم يكن لي وزير ولا معين ؛ لأنهم لا يكادون يفقهون عني ، ف ﴿ قَالَ ﴾ الله عزّ وجل له : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي نقوّيك به ؛ وهذا تمثيل ؛ لأن قوّة اليد بالعضد .

قال طَرَفة :

بَنِي لُبَيْنَى لستُمُ بيدٍ . . .

إلاّ يداً ليست لها عَضد

(16/587)

ويقال في دعاء الخير : شدّ الله عضدك .

وفي ضدّه : فتّ الله في عضدك .

﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً ﴾ أي حجة وبرهاناً .

﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بالأذى ﴿ بِآيَاتِنَآ ﴾ أي تمتنعان منهم ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ فيجوز أن يوقف على ﴿ إِلَيْكُمَا ﴾ ويكون في الكلام تقديم وتأخير .

وقيل : التقدير ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ بآياتنا .

قاله الأخفش والطبري .

قال المهدوي : وفي هذا تقديم الصلة على الموصول ، إلا أن يقدّر أنتما غالبان بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

وعنى بالآيات سائر معجزاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(17/587)

وقال أبو حيان :

﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً ﴾ :

هو القبطي الذي وكزه فمات ، فطلب من ربه ما يزداد به قوة ، وذكر أخاه والعلة التي تكون

له زيادة التبليغ .

و﴿ أفصح ﴾ : يدل على أنه فيه فصاحة ، ولكن أخوه أفصح .

﴿ فأرسله معي رداً ﴾ : أي معيناً يصدقني ، ليس المعنى أنه يقول لي : صدقت ، إذ يستوي في قول هذا اللفظ العيي والفصيح ، وإنما المعنى : أنه لزيادة فصاحته يبالغ في التبيان ، وفي الإجابة عن الشبهات ، وفي جداله الكفار .

وقرأ الجمهور : رداً ، بالهمزة ؛ وأبو جعفر ، ونافع ، والمدنيان : بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الدال ؛ والمشهور عن أبي جعفر بالنقل ، ولا همز ولا تنوين ، ووجهه أنه أجرى الوصل مجرى الوقف .

وقرأ عاصم ، وحمزة : يصدقني ، بضم القاف ، فاحتمل الصفة لرداً ، والحال احتمل الاستئناف .

وقرأ باقي السبعة : بالإسكان .

وقرأ أبي ، وزيد بن علي : يصدقوني ، والضمير لفرعون وقومه .

قال ابن خالويه : هذا شاهد لمن جزم ، لأنه لو كان رفعاً لقال : يصدقونني .

انتهى ، والجزم على جواب الأمر .

والمعنى في يصدقوني : أرجو تصديقهم إياي ، فأجابه تعالى إلى طلبته وقال : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ .

وقرأ زيد بن علي ، والحسن : عضدك ، بضمتين .

وعن الحسن : بضم العين وإسكان الضاد .

وعن بعضهم : بفتح العين وكسر الضاد ؛ وفتحهما ، قرأ به عيسى ، ويقال فيه : عضد ، بفتح العين وسكون الضاد ، ولا أعلم أحداً قرأ به .

والعضد : العضو المعروف ، وهي قوام اليد ، ويشدتها يشتد .

قال الشاعر :

أبني لبيني لستما بيد . . .

إلا يداً ليست لها عضد

والمعنى فيه : سنقويك بأخيك .

ويقال في الخير : شد الله عضدك ، وفي الشر : فتّ الله في عضدك .

والسلطان : الحجة والغلبة والتسليط .

﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ : أي بسوء ، أو إلى إذايتكما .

(18/587)

ويحتمل ﴿ بآياتنا ﴾ أن يتعلق بقوله : ويجعل ، أو بيصلون ، أو بالغالبون ، وإن كان موصولاً على مذهب من يجوز عنده أن يتقدم الظرف والجار والمجرور على صلة أل ، وإن كان عنده موصولاً على سبيل الاتساع ، أو بفعل محذوف ، أي اذهبا بآياتنا .

كما علق في تسع آيات باذهب ، أو على البيان ، فالعامل محذوف ، وهذه أعاريب منقولة .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون قسماً جوابه ﴿ فلا يصلون ﴾ مقدماً عليه ، أو من لغو القسم . انتهى .

أما أنه قسم جوابه ﴿ فلا يصلون ﴾ ، فإنه لا يستقيم على قول الجمهور ، لأن جواب القسم لا تدخله الفاء .

وأما قوله : أو من لغو القسم ، فكأنه يريد والله أعلم .

إنه لم يذكر له جواب ، بل حذف لدلالة عليه ، أي بآياتنا لتغلبن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(19/587)

وقال أبو السعود :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلتها ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ

أَفْصَحُ مِنّى لِسَاناً فَأَرْسِلْهِ مَعِىَ رِدْءاً ﴾ أي مُعيناً وهو في الأصلِ اسمُ ما يُعان به كالدِّفءِ ، وقُرِىء (رِدَاً) بالتخفيف ﴿ يُصَدِّقُنِى ﴾ بتلخيصِ الحقِّ وتقريرِ الحجَّةِ بتوضيحِها وتزييفِ الشُّبهةِ ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ولسانِي لا يُطاوعني عند المُحاجةِ . وقيل المرادُ تصديقُ القومِ لتقريرِه وتوضيحِه لكنَّه أسندَ إليه إسنادَ الفعلِ إلى السببِ . وقُرِىء يصدقْني بالجزمِ على أنَّه جوابُ الأمرِ ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي سنقويكَ به فإنَّ قوَّةَ الشَّخصِ بشدةِ اليدِ على مُزاولةِ الأمورِ ولذلكَ يعبّرُ عنه باليدِ وشدَّتِها بشدَّةِ العضدِ ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا ﴾ أي تسلطاً وغلبةً وقيل حجَّةً وليس بذاكَ ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ باستيلاءٍ أو محاجة ﴿ بِآيَاتِنا ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ قد صُرِّح به في مواضعَ أُخَرَ أي اذهَبا بآياتِنا ، أو بنجعل أي تسلطكما بآياتِنا أو بمعنى لا يصلون أي تمتنعونَ منهم بها ، وقيل هو قسمٌ وجوابُه لا يصلونَ وقيلَ هو بيانٌ للغالبونَ في قولِه تعالى : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ بمعنى أنَّه صلةٌ لِمَا يبينُه أو صلةٌ له على أنَّ اللامَ للتعريفِ لا بمعنى الذي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(20/587)

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ ﴾

لذلك ﴿ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بمقابلتها ، والمراد بهذا الخبر طلب الحفظ والتأييد لإبلاغ الرسالة على أكمل وجه لا الاستعفاء من الإرسال ، وزعمت اليهود أنه عليه السلام استعفى ربه سبحانه من ذلك .

وفي التوراة التي بأيديهم اليوم أنه قال يا رب ابعث من أنت باعثه وأكد طلب التأييد بقوله :

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾

أي عوناً كما روي عن قتادة وإليه ذهب أبو عبيدة وقال : يقال ردأته على عدوه أعنت .

وقال أبو حيان : الردء المعين الذي يشتد به الأمر فعل بمعنى مفعول فهو اسم لما يعان به كما أن الدفء اسم لما يتدفأ به قال سلامة بن جندل :

وردئي كل أبيض مشرفي . . .

شديد الحد عضب ذي فلول

ويقال : ردأت الحائط أردؤه إذا دعمته بخشبة لئلا يسقط .

وفي قوله : ﴿ أَفْصَحُ مِنّى ﴾ دلالة على أن فيه عليه السلام فصاحة ولكن فصاحة أخيه أزيد من فصاحته ، وقرأ أبو جعفر .

ونافع .

والمدنيان رداً بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الدال .

والمشهور عن أبي جعفر أنه قرأ بالنقل ولا همز ولا تنوين .

ووجهه أنه أجرى الوصل مجرى الوقف .

وجوز في رداً على قراءة التخفيف كونه منقوصاً بمعنى زيادة من رديت عليه إذا زدت ﴿ يُصَدّقُنِى ﴾ أي يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار ، فالتصديق مجاز عن التلخيص المذكور الجالب للتصديق لأنه كالشاهد لقوله ، وإسناده إلى هارون حقيقة ، ويرشد إلى ذلك وأخي هارون الخ لأن فضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لمثل ما ذكر لا لقوله صدقت أو أخي موسى صادق فإن سحبان وباقلا فيه سواء ، أو يصل جناح كلامي بالبيان حتى يصدقني القوم الذين أخاف تكذيبهم فالتصديق على حقيقته وإنما أسند إلى هارون عليه السلام لأنه ببيانه جلب تصديق القوم ، ويؤيد هذا قوله : ﴿ إِنّى أَخَافُ أَن يُكَذّبُونِ ﴾ لدلالته على أن التصديق على الحقيقة .

(21/587)

وقيل : تصديق الغير بمعنى إظهار صدقه ، وهو كما يكون بقول هو صادق يكون بتأييده بالحجج ونحوها كتصديق الله تعالى للأنبياء عليهم السلام بالمعجزات .

والمراد به هنا ما يكون بالتأييد بالحجج ، فالمعنى يظهر صدقي بتقرير الحجج وتزييف الشبه إني أخاف أن يكذبون ولساني لا يطاوعني عند المحاجة .

وعليه لا حاجة إلى ادعاء التجوز في الطرف أو في الإسناد .

وتعقب بأنه لا يخفى أن صدقه معناه إما قال : إنه صادق أو قال له : صدقت ، فإطلاقه على غيره الظاهر أنه مجاز ، وجملة يصدقني تحتمل أن تكون صفة لردءاً ، وأن تكون حالاً ، وأن تكون استئنافاً .

وقرأ أكثر السبعة ﴿ يُصَدِّقُنِى ﴾ بالجزم على أنه جواب الأمر .

وزعم بعضهم أن الجواب على قراءة الرفع محذوف .

ويرد عليه أن الأمر لا يلزم أن يكون له جواب فلا حاجة إلى دعوى الحذف ، وقرأ أبي .

وزيد بن علي رضي الله تعالى عنهم ﴿ يصدقوني ﴾ بضمير الجمع وهو عائد على ﴿ فرعون وملئه ﴾ [القصص : 32] لا على هارون والجمع للتعظيم كما قيل ، والفعل على ما نقل عن ابن خالويه مجزوم فقد جعل هذه القراءة شاهداً لمن جزم من السبعة يصدقني وقال لأنه لو كان رفعاً لقيل يصدقونني ، وذكر أبو حيان بعد نقله أن الجزم على جواب الأمر والمعنى في يصدقون أرج تصديقهم إياي فتأمل .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾

إجابة لمطلوبه وهو على ما قيل راجع لقوله : ﴿ أُرْسِلَهُ مَعِيَ ﴾ [القصص : 34] الخ والمعنى سنقويك به ونعينك على أن شد عضده كناية تلويحية عن تقويته لأن اليد تشتد بشدة العضد وهو ما بين المرفق إلى الكتف والجملة تشتد بشدة اليد ولا مانع من الحقيقة لعدم دخول بأخيك فيما جعل كناية أو على أن ذلك خارج مخرج الاستعارة التمثيلية شبه حال موسى عليه السلام في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بعضد شديد ، وجوز أن يكون هناك مجاز مرسل من باب إطلاق السبب على المسبب بمرتبتين بأن يكون الأصل سنقويك به ثم سنؤيدك ثم سنشد عضدك به ، وقرأ زيد بن علي ، والحسن عضدك بضمتين ، وعن الحسن أنه قرأ بضم العين وإسكان الضاد ، وقرأ عيسى بفتحهما ، وبعضهم بفتح العين وكسر الضاد ، ويقال فيه عضد بفتح العين وسكون الضاد ولم أعلم أحداً قرأ بذلك ، وقوله تعالى : ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا ﴾ أي تسلطاً عظيماً وغلبة راجع على ما قيل أيضاً لقوله : ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص : 34] وقوله سبحانه : ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ تفريع على ما حصل من مراده أي لا يصلون إليكما باستيلاء أو محاجة ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ متعلق بمحذوف قد صرح به في مواضع أخر أي اذهبا بآياتنا أو بنجعل أي نسلطكما بآياتنا أو بسلطاناً لما فيه من معنى التسلط والغلبة أو بمعنى لا يصلون أي تمتنعون منهم بها أو بحرف النفي على قول بعضهم بجواز تعلق الجار به ، وقال الزمخشري : يجوز أن

يكون قسماً جوابه لا يصلون مقدماً عليه أو هو من القسم الذي يتوسط الكلام ويقحم فيه لمجرد التأكيد فلا يحتاج إلى جواب أصلاً ، ويرد على الأول أن جواب القسم لا يتقدمه ولا يقترن بالفاء أيضاً فلعله أراد أن ذلك دال على الجواب وأما هو فمحذوف إلا أنه تساهل في التعبير ، وجوز أن يكون صلة لمحذوف يفسره الغالبون في قوله سبحانه : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ أو صلة له واللام فيه للتعريف

(23/587)

لا بمعنى الذي أو بمعناه على رأي من يجوز تقديم ما في حيز الصلة على الموصول إما مطلقاً أو إذا كان المقدم ظرفاً وتقديمه إما للفاصلة أو للحصر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(24/587)

وقال ابن عاشور :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) ﴾

جرى التأكيد على الغالب في استعمال أمثاله من الأخبار الغريبة ليتحقق السامع وقوعها وإلا فإن الله قد علم ذلك لما قال له ﴿ اضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ [القصص : 32] .

والمعنى : فأخاف أن يذكروا قتلي القبطي فيقتلوني .

فهذا كالاعتذار وهو يعلم أن رسالة الله لا يتخلص منها بعذر ، ولكنه أراد أن يكون في أمن إلهي من أعدائه .

فهذا تعريض بالدعاء ، ومقدمة لطلب تأييده بهارون أخيه .

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)

هذا سؤال صريح يدل على أن موسى لا يريد بالأول التنصل من التبليغ ولكنه أراد تأييده بأخيه .

وإنما عيّنه ولم يسأل مؤيداً ما لعلمه بأمانته وإخلاصه لله ولأخيه وعلمه بفصاحة لسانه .

و﴿ ردى ﴾ بالتخفيف مثل (ردء) بالهمز في آخره : العون .

قرأه نافع وأبو جعفر ﴿ ردى ﴾ مخففاً .

وقرأه الباقون ﴿ ردءاً ﴾ بالهمز على الأصل .

و﴿ يصدقني ﴾ قرأه الجمهور مجزوماً في جواب الطلب بقوله ﴿ فأرسله معي ﴾ .

وقرأه عاصم وحمزة بالرفع على أن الجملة حال من الهاء من ﴿ أرسله ﴾ .

ومعنى تصديقه إياه أن يكون سبباً في تصديق فرعون وملئه إياه بإبانته عن الأدلة التي يلقيها موسى في مقام مجادلة فرعون كما يقتضيه قوله ﴿ هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردى يصدقني ﴾ .

فإنه فرع طلب إرساله معه على كونه أفصح لساناً وجعل تصديقه جواب ذلك الطلب أو حالاً من المطلوب فهو تفريع على تفريع ، فلا جرم أن يكون معناه مناسباً لمعنى المفرع عنه وهو أنه أفصح لساناً .

وليس للفصاحة أثر في التصديق إلا بهذا المعنى .

وليس التصديق أن يقول لهم : صدق موسى ، لأن ذلك يستوي فيه الفصيح وذو الفهاهة .

(25/587)

فإسناد التصديق إلى هارون مجاز عقلي لأنه سببه ، والمصدقون حقيقة هم الذين يحصل لهم العلم بأن موسى صادق فيما جاء به .

وجملة ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ تعليل لسؤال تأييده بهارون ، فهذه مخافة ثانية من التكذيب ، والأولى مخافة من القتل .

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)

استجاب الله له دعوتيه وزاده تفضلاً بما لم يسأله فاستجابة الدعوة الثانية بقوله ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ ، واستجابة الأولى بقوله ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ ، والتفضل بقوله ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ ، فأعطى موسى ما يماثل ما لهارون من المقدرة على إقامة الحجة إذ قال ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ .

وقد دل على ذلك ما تكلم به موسى عليه السلام من حجج في مجادلة فرعون كما في سورة الشعراء ، وهنا وما خاطب به بني إسرائيل مما حكي في سورة الأعراف .

ولم يحك في القرآن أن هارون تكلم بدعوة فرعون على أن موسى سأل الله تعالى أن يحلل عقدة من لسانه كما في سورة طه ، ولا شك أن الله استجاب له .

والشد : الربط ، وشأن العامل بعضو إذا أراد أن يعمل به عملاً متعباً للعضو أن يربط عليه لئلا يتفكك أو يعتريه كسر ، وفي ضد ذلك قال تعالى ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ [الأعراف : 149] وقولهم : فُتَّ في عضده ، وجعل الأخ هنا بمنزلة الرباط الذي يشد به .

والمراد : أنه يؤيده بفصاحته ، فتعليقه بالشد ملحق بباب المجاز العقلي .

وهذا كله تمثيل لحال إيضاح حجته بحال تقوية من يريد عملاً عظيماً أن يشد على يده وهو التأييد الذي شاع في معنى الإعانة والإمداد ، وإلا فالتأييد أيضاً مشتق من اليد .

فأصل معنى (أيد) جعل يداً ، فهو استعارة لإيجاد الإعانة .

والسلطان هنا مصدر بمعنى التسلط على القلوب والنفوس ، أي مهابة في قلوب الأعداء ورعباً منكما كما ألقى على موسى محبة حين التقطه آل فرعون .

(26/587)

وتقدم معنى السلطان حقيقة في قوله تعالى ﴿ فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ في سورة الإسراء .

(33) وفرع على جعل السلطان ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ أي لا يؤذونكما بسوء وهو القتل ونحوه .

فالوصول مستعمل مجازاً في الإصابة .

والمراد : الإصابة بسوء ، بقرينة المقام .

وقوله ﴿ بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ يجوز أن يكون ﴿ بآياتنا ﴾ متعلقاً بمحذوف دل عليه قوله ﴿ إلى فرعون وملائه ﴾ [القصص : 32] تقديره : اذهبا بآياتنا على نحو ما قدّر في قوله تعالى ﴿ في تسع آيات إلى فرعون ﴾ [النمل : 12] وقوله في سورة النمل بعد قوله ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات ﴾

[النمل : 12] أي اذهبا في تسع آيات .

وقد صرح بذلك في قوله في سورة الشعراء (15) ﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾

ويجوز أن يتعلق بـ ﴿ نجعل لكما سلطاناً ﴾ ، أي سلطاناً عليهم بآياتنا حتى تكون رهبتهم منكما آية من آياتنا ، ويجوز أن يتعلق بـ ﴿ لا يصلون إليكما ﴾ أي يصرفون عن أذاكم بآيات منا كقول النبي صلى الله عليه وسلم " نُصِرتُ بالرعب " ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله ﴿ الغالبون ﴾ أي تغلبونهم وتقهرونهم بآياتنا التي نؤيدكما بها .

وتقديم المجرور على متعلقه في هذا الوجه للاهتمام بعظمة الآيات التي سيعطيانها .

ويجوز أن تكون الباء حرف قسم تأكيداً لهما بأنهما الغالبون وتثبيتاً لقلوبهما .

وعلى الوجوه كلها فالآيات تشمل خوارق العادات المشاهدة مثل الآيات التسع ، وتشمل المعجزات الخفية كصرف قوم فرعون عن الإقدام على أذاهما مع ما لديهم من القوة وما هم عليه من العداوة بحيث لولا الصرفة من الله لأهلكوا موسى وأخاه .

(27/587)

ومحل العبرة من هذا الجزء من القصة التنبيه إلى أن الرسالة فيض من الله على من اصطفاه من عباده وأن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كرسالة موسى جاءته بغتة فنودي محمد في غار جبل حراء كما نودي موسى في جانب جبل الطور ، وأنه اعتراه من الخوف مثل ما اعترى موسى ، وأن الله ثبته كما ثبت موسى ، وأن الله يكفيه أعداءه كما كفى موسى أعداءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(28/587)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) ﴾

فما زال موسى – عليه السلام – خائفاً من مسألة قتْل القبطيِّ ؛ لذلك يطلب من ربه أنْ يؤيده ، ويعينه بأخيه .

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)

معنى الرِّدْء : المعين ، وعرفنا من قصة موسى – عليه السلام – وهو صغير في بيت فرعون أنه أصابته لَثْغة في لسانه ، فكان ثقيل النطق لا ينطلق لسانه ؛ لذلك أراد أنْ يستعين

بفصاحة أخيه هارون ليؤيده ، ويُظهر حجته ، ويُزيل عنه الشبهات .

وكان بإمكان موسى أن يطلب من ربه أن يستعين بأخيه هارون ، فيكون هارون من باطن موسى ، لكنه أحب لأخيه أن يشاركه في رسالته ، وأن ينال هذا الفضل وهذه الرِّفْعة ، فقال : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي . . . ﴾ [القصص : 34] يعني : معيناً لي حتى لا يُكذِّبني الناس ، فيكون رسولاً مِثْلي بتكليف من الله .

لذلك نرى الآيات تتحدث عن هارون على أنه رسول شريك لموسى في رسالته ، يقول تعالى في شأنهما : ﴿ اذهبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ﴾ [طه : 43-44] .

فإذا نظرنا إلى وحدة الرسالة فهُما رسول واحد ، وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ﴾ [الشعراء : 16] .

وجاء في قول فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 27] بصيغة المفرد . كما لو بعث رئيس الجمهورية رسالة مع اثنين أو ثلاثة إلى نظيره في دولة أخرى ، نُسمِّي هؤلاء جميعاً (رسول) ؛ لأن رسالتهم واحدة ، فإذا نظرتَ إلى وحدة الرسالة من المرسل إلى المرسَل إليه فهما واحد ، وإذا نظرتَ إلى كلٍّ على حِدَة فهما رسولان .

وقد ورد أيضاً : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ . . . ﴾ [طه : 47] فخاطبهم مرة بالمفرد ، ومرة بالمثنى .

لذلك لما دعا موسى – عليه السلام – على قوم فرعون لما غرَّتهم الأموال ، وفتنتهم زينة الحياة الدنيا قال ﴿ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

المتكلِّم هنا موسى وحده ، ومع ذلك قال تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا . . . ﴾ [يونس : 89] فنظر إلى أنهما رسول واحد ، فموسى يدعو وهارون يُؤمِّن على دعائه ، والمؤمِّن أحد الدَّاعِيَيْن .

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)

أجابه ربه : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ . . . ﴾ [القصص : 35] لأن موسى قال في موضع آخر : ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه : 31–32] وقوله تعالى ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ . . . ﴾ [القصص : 35] تعبير بليغ يناسب المطلوب من موسى ؛ لأن الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلها تقريباً بيديه ، والعضلة الفاعلة في الحمل والحركة هي العَضُد .

لذلك حين نمدح شخصاً بالقوة نقول : فلان هذا (عضل) ، وحين يصاب الإنسان والعياذ بالله بمرض ضمور العضلات تجده هزيلاً لا يقدر على فعْل شيء ، فالمعنى : سنُقوّيك بقوة مادية .

﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً . . . ﴾ [القصص : 35] هذه هي القوة المعنوية ، وهي قوة الحجة والمنطق والدليل ، فجمع لهما : القوة المادية ، والقوة المعنوية .

(30/587)

لذلك قال بعدها ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا . . . ﴾ [القصص : 35] أي : نُنجيكم منهم ، لكن معركة الحق والباطل لا تنتهي بنجاة أهل الحق ، إنما لا بُدَّ من نُصرْتهم على أهل الباطل ، وفَرْق بين رجل يهاجمه عدوه فيغلق دونه الباب ، وتنتهي المسألة عند هذا الحد ، وبين مَنْ يجرؤ على عدوه ويغالبه حتى ينتصر عليه ، فيكون قد منع الضرر عن نفسه ، وألحق الضرر بعدوه .

وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35]

وهكذا أزال الله عنهم سلبية الضرر ، ومنحهم إيجابية الغلبة .

ونلحظ توسط كلمة ﴿ بِآيَاتِنَآ . . . ﴾ [القصص : 35] بين العبارتين : ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ

إِلَيْكُمَا . . . ﴾ [القصص : 35] و ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] فهي إذن سبب فيهما : فبآياتنا ومعجزاتنا الباهرات ننجيكم ، وبآياتنا ومعجزاتنا ننصركم ، فهي كلمة واحدة تخدم المعنيين ، وهذا من وجوه بلاغة القرآن الكريم .

ومن عجائب ألفاظ القرآن كلمة (النجم) في قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ * والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن : 5-6] فجاءت النجم بين الشمس والقمر ، وهما آيتان سماويتان ، والشجر وهو من نبات الأرض ؛ لذلك صلحت النجم بمعنى نجم السماء ، أو النجم بمعنى النبات الصغير الذي لا ساقَ له ، مثل العُشْب الذي ترعاه الماشية في الصحراء .

لذلك قال الشاعر :

أُرَاعِي النَّجْم في سَيْرِي إليكُمْ . . . وَيَرْعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِيَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوي صـ ﴾

(31/587)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) ﴾

قوله : ﴿ هُوَ أَفْصَحُ ﴾ : الفَصاحَةُ لغةً : الخُلوصُ . ومِنْه فَصُحَ اللبنُ وأَفْصَحَ فهو مُفْصِحٌ وفَصيح أي : خَلَصَ من الرَّغْوَة . ورُوِي/ قولُهم :

3606 . . . . . وتحتَ الرَّغْوَةِ اللبنُ الفَصيحُ

ومنه فَصُحَ الرجل : جادَتْ لغتُه . وأَفْصَحَ : تكلَّم بالعربية . وقيل : بالعكس . وقيل : الفصيح الذي يَنْطِقُ . والأعجمُ : الذي لا ينطقُ . وعن هذا اسْتُعير أَفْصَحَ الصبحُ أي : بدا ضَوْءُه . وأفصح النصرانيُّ : دنا فِصْحُه بكسرِ الفاءِ وهو عيدٌ لهم . وأمَّا في اصطلاحِ أهل البيانِ فهي خُلُوصُ الكلمة من تنافرِ الحروفِ كقوله : " ترعى الهِعْخِع " . ومن الغرابةِ . كقوله :

3607 . . . . . ومَرْسِناً مُسَرَّجاً . . . ومِنْ

مخالفةِ القياس اللغوي كقوله :

3608 . . . . . العَلِيِّ الأَجْلَل . . . وخُلوصُ

الكلام من ضعفِ التأليف كقوله :

3609 جزى ربُّه عني عَدِيَّ بنَ حاتمٍ . . . . . .

. . . . . .

ومن تنافرِ الكلماتِ كقولِه :

3610 وقبرُ حربٍ بمكانٍ قَفْرِ . . . وليسَ قربَ قبرِ حَرْبٍ قبرُ

ومن التعقيدِ وهو : إمَّا إخلالُ نظمِ الكلامِ فلا يدرى كيفَ يُتوصَّلُ إلى معناه ؟ كقوله :

3611 وما مثلُه في الناسِ إلاَّ مُمَلَّكاً . . . أبو أمِّه حيٌّ أبوه يُقارِبُهْ

وإمَّا عَدَمُ انتقالِ الذهنِ من المعنى الأول إلى المعنى الثاني ، الذي هو لازِمه والمرادُ به ، ظاهراً كقوله :

3612 سأطلبُ بُعْدَ الدارِ عنكم لِتَقْرُبُوا . . . وتَسْكُبُ عيناي الدموعَ لتَجْمُدا

(32/587)

وخُلوصُ المتكلم من النطقِ بجميع ذلك فصارتِ الفصاحةُ يوصف بها ثلاثةُ أشياءَ : الكلمةُ والكلامُ والمتكلمُ بخلاف البلاغةِ فإنه لا يُوْصَفُ بها إلاَّ الأخيران . وهذا له موضوعٌ يُوَضَّحُ فيه ، وإنما ذكَرْتُ لك ما ينبِّهُك على أصلِه .

و[قوله] : " لِساناً " تمييز .

قوله : " رِدْءاً " منصوبٌ على الحال . والرِّدْءُ : العَوْنُ وهو فِعْلٌ بمعنى مَفْعول كالدِّفْءِ بمعنى

المَدْفوء به . ورَدَأْتُه على عَدُوّه أَعَنْتُه عليه . ورَدَأْتُ الحائط : دَعَمْتُه بخشَبَة كيلا يَسْقُطَ . وقال النحاس : " يقال : " رَدَأْته وأَرْدَأْته " .

وقال سلامة بن جندل :

3613 ورِدْئي كلُّ أبيضَ مَشْرَفيٍّ . . . شَحيذِ الحَدِّ أبيضَ ذي فُلولِ

وقال آخر :

3614 ألم تَرَ أنَّ أَصْرَمَ كان رِدْئي . . . وخيرَ الناسِ في قُلٍّ ومالِ

وقرأ نافع " رِدا " بالنقل ، وأبو جعفر كذلك إلاَّ أنه لم يُنَوِّنْه كأنه أجرى الوصلَ مجرى الوقفِ . ونافعٌ ليس من قاعدتِه النقلُ في كلمةٍ إلاَّ هنا . وقيل : ليس فيه نَقْلٌ وإنما هو مِنْ أردى على كذا . أي : زاد . قال الشاعر :

3615 وأسمرَ خَطِّيّاً كأنَّ كُعُوبَه . . . نوى القَسْبِ قد أردى ذِراعاً على العَشْرِ

أي : زاد [وأنشده الجوهريُّ : قد أربى ، وهو بمعناه] .

قوله : ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ قرأ حمزةُ وعاصمٌ بالرفع على الاستئناف أو الصفةِ لـ " رِدْءاً " أو الحالِ من هاء " أَرْسِلْه " ، أو من الضميرِ في " رِدْءاً " . والباقون بالجزمِ جواباً للأمرِ . وزيد بن علي وأُبَيٌّ " يُصَدِّقوني " أي : فرعونُ ومَلَؤُه . قال ابن خالويه : " وهذا شاهدٌ لِمَنْ جَزَم ؛ لأنه لو كان رفعاً لقال " يُصَدِّقونَني " يعني بنونين " .

وهذا سهوٌ من ابن خالويه ؛ لأنه متى اجتمعَتْ نونُ الرفعِ من نون الوقايةِ جازَتْ أوجهٌ ، أحدها : الحذفُ ، فهذا يجوزُ أن يكونَ مرفوعاً ، وحَذْفُ نونِه لما ذكرْتُ لك . وقد تقدم تحقيقُ هذا في الأنعام وغيرِها . وحكاه الشيخُ عن ابنِ خالَويه ولم يُعْقِبْه بنَكير .

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)

قوله : ﴿ عَضُدَكَ ﴾ : العامَّةُ على فتحِ العينِ وضمِّ الضادِ . والحسن وزيد بن علي بضمِّهما . وعن الحسن بضمةٍ وسكونٍ وعيسى بفتحِهما ، وبعضُهم بفتحِ العينِ وكسرِ الضادِ . وفيه لغةٌ سادسةٌ : فتح العينِ وسكونُ الضادِ . ولا أعلمُها قراءةً . وهذا كنايةٌ عن التقويَةِ له بأخيه .

قوله : ﴿ بِآيَاتِنَآ ﴾ يجوزُ فيه أوجهٌ : أَنْ يتعلَّقَ ب " نَجْعَلُ " أو ب " يَصِلُوْن " ، أو بمحذوفٍ أي : اذْهبا ، أو على البيان ، فيتعلَّقُ بمحذوفٍ أيضاً ، أو ب " الغالبون " ، على أنَّ أل ليست موصولةً ، أو موصولةٌ واتُّسِعَ فيه ما لا يُتَّسَعُ في غيرِه ، أو قَسَمٌ وجوابُه متقدِّمٌ وهو " فلا يَصِلُون " ، أو مِنْ لَغْوِ القسمِ . قالهما الزمخشري . وردَّ عليه الشيخُ بأنَّ جوابَ القسمِ لا تدخُلُه الفاءُ عند الجمهور . ويريدُ بلَغْوِ القسمِ أنَّ جوابَه محذوفٌ أي : وحَقِّ آياتِنا لتَغْلِبُنَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 673. 678 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) ﴾

تَعَلَّلَ بكلِّ وجهٍ رَجَاءَ أن يُعَافَى من مشقةِ التبليغ ومقاساةِ البلاءِ ؛ لأنه عَلِمَ أنَّ النبوةَ فيها مَشَقَّةٌ ، فلم يَجِدْ الرُّخصةَ والإعفاءَ مِمَّا كُلِّفَ ، وأجاب سُؤْلَه في أخيه حيث سأله أنْ يجعلَ له ردْءاً ، وضمن لهما النصرة .

ثم إنهما لَمَّا أتَيَا فرعونَ قابلهما بالتكذيب والجحد ، ورماهما بالخطأ والكذب والسحر ، وجاوباه بالحجة ، ودَعَوَاه إلى سَوَاءِ المحجَّة ، فأَبَى إلَّا الْجَحْدَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 68 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فأتاهم كما أمر الله ، وعاضده أخوه كما أخبر الله ، ودعواهم إلى الله تعالى ، وأظهرا ما أمرا به من الآيات ، بنى قوله مبيناً بالفاء سرعة امتثاله : ﴿ فلما جاءهم ﴾ أي فرعون وقومه .

ولما كانت رسالة هارون عليه الصلاة والسلام إنما هي تأييد لموسى عليه الصلاة والسلام ، أشار إلى ذلك بالتصريح باسم الجائي ، فقال : ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي التي أمرناه بها ، الدالة على جميع الآيات للتساوي في خرق العادة حال كونها ﴿ بينات ﴾ أي في غاية الوضوح ﴿ قالوا ﴾ أي فرعون وجنوده ﴿ ما هذا ﴾ أي الذي أظهره من الآيات ﴿ إلا سحر مفترى ﴾ أي هو خيال لا حقيقة له كجميع أنواع السحر ، متعمداً التخييل به ، لا أنه معجزة من عند الله ﴿ وما سمعنا بهذا ﴾ أي الذي تقوله من الرسالة عن الله ﴿ في آبائنا ﴾ وأشاروا إلى البدعة التي قد أضلت أكثر الخلق ، وهي تحكيم عوائد التقليد ، ولا سيما عند تقادمها على القواطع في قوله : ﴿ الأولين ﴾ وقد كذبوا وافتروا لقد سمعوا

بذلك في أيام يوسف عليه السلام " وما بالعهد من قدم " فقد قال لهم الذي آمن ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ [غافر : 34] - إلى قوله : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبله بالبينات ﴾ [غافر : 34] .

(36/587)

ولما أخبر تعالى بقولهم عطف عليه الإخبار بقول موسى عليه الصلاة والسلام ليوازن السامع بين الكلامين ، ويتبصر بعقله ما الفاسد منهما " فبضدها تتبين الأشياء " هذا على قراءة الجماعة بالواو ، واستأنف جواباً لمن كأنه سأل عن جوابه على قراءة ابن كثير بحذفها ، فإن الموضع موضع بحث عما أجابهم به عند تسميتهم الآيات الباهرات سحراً ، استعظاماً لذلك فقال : ﴿ وقال موسى ﴾ أي لما كذبوه وهم الكاذبون ، مشيراً لذي البصر إلى طريق يميزون به الأمرين في سياق مهدد لهم : ﴿ ربي ﴾ أي المحسن إليّ بما ترون من تصديقي في كل ما ادعيته بإظهار ما لا تقدرون عليه على قوتكم من الخوارق ، ومنع هذا الظالم العاتي المستكبر من الوصول إليّ بسوء ﴿ أعلم بمن جاء ﴾ بالضلال ظلماً وعدواناً ، فيكون مخذولاً لكونه ساحراً فمحرقاً مفترياً على الله ، ويكون له سوء الدار ، وأعلم بحاله ، ولكنه قال " بمن جاء " ﴿ بالهدى ﴾ أي الذي أذن الله فيه ، وهو حق في

نفسه ﴿ من عنده ﴾ ، تصويراً لحاله ، وتشويقاً إلى أتباعه ﴿ ومن تكون له ﴾ لكونه منصوراً مؤيداً ﴿ عاقبة الدار ﴾ أي الراحة والسكن والاستقرار مع الأمن والطمأنينة والسرور والظفر بجميع المطالب في الحالة التي تكون آخر الحالات مني ومنكم ، فيعلم أنه أتى بما يرضي الله وهي وإن كانت حقيقتها ما يتعقب الشيء من خير أو شر ، لكنها لا يراد بها إلا ما يقصد للعاقل حتى تكون له ، وأما عاقبة السوء فهي عليه لا له ؛ ثم علل ذلك بما أجرى الله به عادته ؛ فقال معلماً بأن المخذول هو الكاذب ، إشارة إلى أنه الغالب لكون الله معه ، مؤكداً لما استقر في الأنفس من أن التقوي لا يغلبه الضعيف ﴿ إنه لا يفلح ﴾ أي يظفر ويفوز ﴿ الظالمون ﴾ أي الذين يمشون كما يمشي من هو في الظلام بغير دليل ، فهم لا يضعون قدماً في موضع يثقون بأنه صالح للمشي فيه ، لا تبعة فيه فستنظرون ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 488. 489 ﴾

(37/587)

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُم موسى بآياتنا بينات ﴾

فقد بينا في سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد .

أما قوله : ﴿ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ فقد اختلفوا في مفترى ، فقال بعضهم المراد أنه إذا كان سحراً وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى ، وقال الجبائي المراد أنه منسوب إلى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا إليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بهذا فِى ءابَائِنَا الأولين ﴾ أي ما حدثنا بكونه فيهم ، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا مثله ، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته ، أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به .

واعلم أن هذه الشبهة ساقطة لأن حاصلها يرجع إلى التقليد ولأن حال الأولين لا يخلو من وجهين ، إما أن لا يورد عليهم بمثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة ، فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ﴿ رَّبِّى أَعْلَمُ بِمَن جَاء بالهدى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ فإن من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضاً عليها وإنما لما وجد منه العناد صح أن يقول ربي أعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعاً ومن هو على الباطل ويضم إليه طريق الوعيد والتخويف وهو قوله : ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى :

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عقبى الدار * جنات عَدْنٍ ﴾ [الرعد : 22 ، 23] وقوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ [الرعد : 42] والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت فإن قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار ، لأن الدنيا قد تكون خاتمتها بخير في حق البعض وبشر في حق البعض الآخر ، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر ؟ قلنا إنه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازاً إلى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ليبلغوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق ، فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف ، فإذن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير ، وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار ، ثم إنه عليه السلام أكد ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ والمراد أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية في زجرهم عن العناد الذي ظهر منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 214.215 ﴾

(39/587)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ما هذا إلا سِحْرٌ مفْترىً ﴾

أي : ما هذا الذي جئتَنا به إلا سِحْر افتريتَه مِنْ قِبَل نفسك ولم تُبعَث به ﴿ وما سَمِعْنا بهذا ﴾ الذي تدعونا إليه ﴿ في آبائنا الأوّلين ﴾ ، ﴿ وقال موسى ربّي أعلم ﴾ وقرأ ابن كثير : ﴿ قال موسى ﴾ بلا واو ، وكذلك هي في مصاحفهم ﴿ بمن جاء بالهُدى ﴾ أي : هو أعلم بالمُحِقّ منّا ، ﴿ ومَنْ تكونُ له عاقبة الدّار ﴾ وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، [والمفضل] : "يكون" بالياء ، والباقون بالتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(40/587)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم موسى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ ﴾

أي ظاهرات واضحات ﴿ قَالُواْ مَا هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ مكذوب مختلق ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بهذا في آبَآئِنَا الأولين ﴾ .

وقيل : إن هذه الآيات ما احتج به موسى في إثبات التوحيد من الحجج العقلية .

وقيل : هي معجزاته .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ موسى ﴾ قراءة العامة بالواو .

وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن : ﴿ قَالَ ﴾ بلا واو ؛ وكذلك هو في مصحف أهل مكة .

﴿ ربي أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بالهدى ﴾ أي بالرشاد .

﴿ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ ﴾ قرأ الكوفيون إلا عاصماً : ﴿ يكون ﴾ بالياء والباقون بالتاء .

وقد تقدّم هذا .

﴿ عَاقِبَةُ الدار ﴾ أي دار الجزاء .

﴿ إِنَّهُ ﴾ الهاء ضمير الأمر والشأن ﴿ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(41/587)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا جَاءهُم موسى بآياتنا بينات ﴾

أي واضحات الدّلالةِ على صحّةِ رسالةِ مُوسى عليه السّلام منه تعالى ، والمرادُ بها العَصَا واليدُ إذ هُما اللتانِ أظهرَهُما مُوسى عليه السّلام إذْ ذاكَ ، والتّعبيرُ عنْهمَا بصيغةِ الجمعِ قد مرّ سرُّه في سورةِ طه . ﴿ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي سحرٌ مختلقٌ لم يُفعل قبلَ هذا مثلُه أو سحرٌ تعمله ثم تفتريهِ على الله تعالى أو سحرٌ موصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أصنافِ السّحرِ ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بهذا ﴾ أي السّحرِ أو ادعاءِ النُّبوةِ ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ أي واقعاً في أيّامِهم .

﴿ وَقَالَ موسى رَبّى أَعْلَمُ بِمَن جَاء بالهدى مِنْ عِندِهِ ﴾ يريدُ به نفسَه . وقُرِىء قالَ بغيرِ واوٍ لأنّه جوابٌ عن مقالِهم . ووجهُ العطفِ أنّ المرادَ حكايةُ القولينِ ليوازنَ السّامعُ بينهما فيميّز صحيحَهما من الفاسدِ ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ أي العاقبةُ المحمودةُ في الدّارِ وهي الدُّنيا ، وعاقبتُها الأصليةُ هي الجَنّة لأنّها خُلقتْ مجازاً إلى الآخرةِ ومزرعة لها والمقصودُ بالذاتِ منها الثّوابُ ، وأمّا العقابُ فمن نتائجِ أعمالِ العُصاةِ وسيئاتِ الغُواة . وقُرِىء يكونُ بالياءِ التحتانيّةِ ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ أي لا يفوزونَ بمطلوبٍ ولا ينجون عن محذُورٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(42/587)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا جَاءهُم موسى بِآيَاتِنَا بينات ﴾

أي واضحات الدلالة على صحة رسالته عليه السلام منه عز وجل ، والظاهر أن المراد بالآيات العصا واليد إذ هما اللتان أظهرهما موسى عليه السلام إذ ذاك وقد تقدم في سورة طه سر التعبير عنهما بصيغة الجمع ﴿ قَالُواْ مَا هذا ﴾ الذي جئت به ﴿ إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي سحر تختلقه لم يفعل قبله مثله فالافتراء بمعنى الاختلاق لا بمعنى الكذب أو سحر تتعلمه من غيرك ثم تنسبه إلى الله تعالى كذباً فالافتراء بمعنى الكذب لا بمعنى الاختلاق والصفة على هذين الوجهين مخصصة ، وقيل : المراد بالافتراء التمويه أي هو سحر مموه لا حقيقة له كسائر أنواع السحر .

وعليه تكون الصفة مؤكدة والافتراء ليس على حقيقته كما في الوجه الأول .

والحق أن من أنواع السحر ما له حقيقة فتكون الصفة مخصصة أيضاً ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بهذا ﴾ أي نوع السحر أو ما صدر من موسى عليه السلام على أن الكلام على تقدير مضاف أي بمثل هذا أو الإشارة إلى ادعاء النبوة ونفيهم السماع بذلك تعمد للكذب فقد جاءهم يوسف عليه السلام من قبل بالبينات وما بالعهد من قدم .

ويحتمل أنهم أرادوا نفي سماع ادعاء النبوة على وجه الصدق عندهم وكانوا ينكرون أصل النبوات ولا يقولون بصحة شيء منها كالبراهمة وككثير من الإفرنج ومن لحس من فضلاتهم

اليوم .

والباء كما في "مجمع البيان" إما على أصلها أو زائدة أي ما سمعنا هذا ﴿ فِى ءَابَائِنَا الاولين ﴾ أي واقعاً في أيامهم ، فالجار والمجرور في موضع الحال من هذا بتقدير مضاف والعامل فيه سمعنا .

وجوز أن يكون بهذا على تقدير بوقوع هذا ، ويكون الجار متعلقاً بذلك المقدر ، وأشاروا بوصف آبائهم بالأولين إلى انتفاء ذلك منذ زمان طويل .

﴿ وَقَالَ موسى رَبّى أَعْلَمُ بِمَن جَاء بالهدى مِنْ عِندِهِ ﴾

(43/587)

يريد عليه السلام بالموصول نفسه ، وقرأ ابن كثير ﴿ قَالَ ﴾ بغيروا ولأنه جواب لقولهم : إنه سحر والجواب لا يعطف بواو ولا غيرها ، ووجه العطف في قراءة باقي السبعة أن المراد حكاية القولين ليوازن الناظر المحكي له بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار وهي الدنيا ، وعاقبتها أن يختم للإنسان بها بما يفضي به إلى الجنة بفضل الله تعالى وكرمه ؛ ووجه إرادة العاقبة المحمودة من مطلق العاقبة إنها هي التي دعا الله تعالى إليها عباده ، وركب فيهم عقولاً ترشدهم إليها ومكنهم

منها وأزاح عللهم ووفر دواعيهم وحضهم عليها فكأنها لذلك هي المرادة من جميع العباد والغرض من خلقهم ، وهذا ما اختاره ابن المنير موافقاً لما عليه الجماعة ، وحكي أن بعضهم قال له : ما يمنعك أن تقول فهم عاقبة الخير من إضافة العاقبة إلى ذويها باللام كما في هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الكفار لِمَنْ عُقْبَى الدار ﴾ [الرعد : 42] ، وقوله سبحانه : ﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : 128] إذ عاقبة الخير هي التي تكون لهم ، وأما عاقبة السوء فعليهم لا لهم فقال له : لقد كان لي في ذلك مقال لولا وروده مثل ﴿ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ [الرعد : 25] ، ولم يقل وعليهم فاستعمال اللام مكان على دليل على إلغاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير ، وقد يقال : إن اللام ظاهرة في النفع ويكفي ذلك في انفهام كون المراد بالعاقبة عاقبة الخير ، ويلتزم في نحو الآية التي أوردها ابن المنير كونها من باب التهكم ، وهذا نظير ما قالوا : إن البشارة في الخير ، و ﴿ بشرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : 21] من باب التهكم .

(44/587)

وقال الطيبي انتصاراً للبعض أيضاً : قلت : الآية غير مانعة عن ذلك فإن قرينة اللعنة والسوء مانعة عن إرادة الخير وإنما أتى بلهم ليؤذن بأنهما حقان ثابتان لهم لازمان إياهم ، ويعضده

التقديم المفيد للاختصاص فتدبر وقرأ حمزة ، والكسائي .

﴿ يَكُونَ ﴾ بالياء التحتية ، لأن المرفوع مجازي التأنيث ومفصول عن رافعه .

﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ أي لا يفوزون بمطلوب ولا ينجون عن محذور ، وحاصل كلام موسى عليه السلام ربي أعلم منكم بحال من أهله سبحانه للفلاح الأعظم حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى ، ولو كان كما تزعمون كاذباً ساحراً مفترياً لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبىء الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(45/587)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾

طوي ما بين نداء الله إياه وبين حضوره عند فرعون من الأحداث لعدم تعلق العبرة به .

وأسند المجيء بالآيات إلى موسى عليه السلام وحده دون هارون لأنه الرسول الأصلي الذي تأتي المعجزات على يديه بخلاف قوله ﴿ فاذهبا بآياتنا ﴾ في سورة الشعراء (15) ، وقوله ﴿ بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : 35] إذ جعل تعلق الآيات

بضميريها لأن معنى الملابسة معنى متسع فالمصاحب لصاحب الآيات هو ملابس له .

والآيات البينات هي خوارق العادات التي أظهرها ، أي جاءهم بها آية بعد آية في مواقع مختلفة ، قالوا عند كل آية ﴿ ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين .

والمفترى : المكذوب .

ومعنى كونها سحراً مكذوباً أنه مكذوب ادعاء أنه من عند الله وإخفاء كونه سحراً .

والإشارة في قوله ﴿ وما سمعنا بهذا ﴾ إلى ادعاء الرسالة من عند الله لأن ذلك هو الذي يسمع وأما الآيات فلا تسمع .

فمرجع اسمي الإشارة مختلف ، أي ما سمعنا من يدعو آباءنا إلى مثل ما تدعو إليه فالكلام على حذف مضاف دل عليه حرف الظرفية ، أي في زمن آبائنا .

وقد جعلوا انتفاء بلوغ مثل هذه الدعوة إلى آبائهم حتى تصل إليهم بواسطة آبائهم الأولين ، دليلاً على بطلانها وذلك آخر ملجأ يلجأ إليه المحجوج المغلوب حين لا يجد ما يدفع به الحق بدليل مقبول فيفزع إلى مثل هذه التلفيقات والمباهتات .

وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)

لما قالوا قولاً صريحاً في تكذيبه واستظهروا على قولهم بأن ما جاء به موسى شيء من علمه آباؤهم أجاب موسى كلامهم بمثله في تأييد صدقه فإنه يعلمه الله ، فما عِلْمُ آبائهم في جانب عِلْم الله بشيء ، فلما تمسكوا بعلم آبائهم تمسك موسى بعلم الله تعالى ، فقد احتج موسى بنفسه ولم يكل ذلك إلى هارون .

وكان مقتضى الاستعمال أن يُحكى كلام موسى بفعل القول غير معطوف بالواو شأن حكاية المحاورات كما قدمناه غير مرة ، فخولف ذلك هنا بمجيء حرف العطف في قراءة الجمهور غير ابن كثير لأنه قصد هنا التوازن بين حجة ملأ فرعون وحجة موسى ، ليظهر للسامع التفاوت بينهما في مصادفة الحق ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر ، وبضدها تتبين الأشياء ، فلهذا عطفت الجملة جرياً على الأصل غير الغالب للتنبيه على أن فيه خصوصية غير المعهودة في مثله فتكون معرفة التفاوت بين المحتجين مُحالة على النظر في معناهما .

وقرأ ابن كثير ﴿ قال موسى ﴾ بدون واو وهي مرسومة في مصحف أهل مكة بدون واو على أصل حكاية المحاورات وقد حصل من مجموع القراءتين الوفاء بحق الخصوصيتين من مقتضى حالي الحكاية .

وعبر عن الله بوصف الربوبية مضافاً إلى ضميره للتنصيص على أن الذي يعلم الحق هو الإله

الحق لا آلهتهم المزعومة .

ويظهر أن القبط لم يكن في لغتهم اسم على الرب واجب الوجود الحق ولكن أسماء آلهة مزعومة .

وعبر في جانب ﴿ من جاء بالهدى ﴾ بفعل المضي وفي جانب ﴿ من تكون له عاقبة الدار ﴾ بالمضارع لأن المجيء بالهُدى المحقق والمزعوم أمر قد تحقق ومضى سواء كان الجائي به موسى أم آباؤهم الأولون وعلماؤهم .

وأما كيان عاقبة الدار لمن فمرجو لما يظهر بعد .

ففي قوله ﴿ ربي أعلم بمن جاء بالهدى ﴾ إشهادٌ لله تعالى وكلام منصف ، أي ربي أعلم بتعيين الجائي بالهدى أنحن أم أنتم على نحو قوله تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] .

(47/587)

وفي قوله : ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ تفويض إلى ما سيظهر من نصر أحد الفريقين على الآخر وهو تعريض بالوعيد بسوء عاقبتهم .

و ﴿ عاقبة الدار ﴾ كلمة جرت مجرى المثل في خاتمة الخير بعد المشقة تشبيهاً لعامل العمل

بالسائر المنتجع إذا صادف دار خصب واستقرّ بها وقال الحمد لله الذي أحلّنا دار المُقامة من فضله .

فأصل عاقبة الدار : الدار العاقبة .

فأضيفت الصفة إلى موصوفها .

والعاقبة : هي الحالة العاقبة ، أي التي تعقب ، أي تجيء عقب غيرها ، فيؤذن هذا اللفظ بتبدل حال إلى ما هو خير ، فلذلك لا تطلق إلا على العاقبة المحمودة .

وقد تقدم في سورة [الأنعام : 135] قوله ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ﴾ وفي سورة [الرعد : 22] قوله ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ وقوله ﴿ وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار ﴾ [الرعد : 42] .

وقرأ الجمهور ﴿ تكون ﴾ بالمثناة الفوقية على أصل تأنيث لفظ ﴿ عاقبة الدار ﴾ وقرأ حمزة والكسائي بالتحتية على الخيار في فعل الفاعل المجازيّ التأنيث .

وأيد ذلك كله بجملة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ، دلالة على ثقته بأنه على الحق وذلك يفُتّ من أعضادهم ، ويلقي رعب الشك في النجاة في قلوبهم .

وضمير ﴿ إنه ﴾ ضمير الشأن لأن الجملة بعده ذات معنى له شأن وخطر . انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم موسى بِآيَاتِنَا . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ . . . ﴾ [القصص : 36] أي : بمعجزاتنا واضحات باهرات ، فلما بُهِتوا أمام آيات الله ، وحاروا كيف يخرجون من هذا المأزق ، فقد جاءهم موسى ليهدم عرش الألوهية الباطلة عند فرعون ، ولم يملكوا إلا أنْ قالوا ﴿ مَا هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بهذا في آبَآئِنَا الأولين ﴾ [القصص : 36] .

لذلك يُعلِّم الحق – تبارك وتعالى – موسى عليه السلام مُحَاجَّة هؤلاء ، فكأنه قال له : أنت مُقبل على أُنَاس متمسكين بالباطل ، حريصين عليه ، منتفعين من ورائه ، ولا بُدَّ أنْ يغضبوا إنْ قضيتَ على باطلهم ، وصرفتهم عنه إلى الحق ، فقد أَلِفُوا الباطل ، فإنْ أخرجتَهم مما أَلِفوا إلى ما لا يألفون فلا بُدَّ لك من اللين وألاَّ تُهيِّجهم حين تجمع عليهم قسوة تَرْك ما أَلِفوه مع قسوة الدعوة إلى ما لم يألفوه .

ويكفي أنك ستسلبهم سلطان الألوهية الذي عاشوا في ظله ، فإنْ زِدْتَ في القسوة عليهم ولّدْتَ عندهم لدداً وعناداً في الخصومة .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً . . . ﴾ [طه : 44] يعني : اعذروه فيما يلاقي حين تُسلَب منه ألوهيته ، ويصير واحداً من الرعية .

وإنْ قابلوك هم بالقسوة حين قالوا : ﴿ مَا هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَاذَا فِي آبَآئِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ [القصص : 36] فقابلهم أنت باللين .

وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)

(49/587)

وتأمل هنا اللين وأدب الجدل عند موسى – عليه السلام – فلم يرد عليهم بالقسوة التي سمعها منهم ولم يتهمهم كما اتهموه ، إنما ردّ بهذا الأسلوب اللَّبِق ، وبهذا الإيحاء : ﴿ ربي أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بالهدى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدار . . . ﴾ [القصص : 37] ولم يقُلْ : إني جئت بالهدى .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [القصص : 37] سواء كنا نحن أم أنتم ، ولم يقُلْ : أنتم الظالمون ، لقد أطلق القضية ، وترك للعقول أنْ تميز .

ومعنى ﴿ عَاقِبَةُ الدار . . ﴾ [القصص : 37] الدار يعني : الدنيا وعاقبتها تعني : الآخرة .

وهذا الأدب النبوي في الجدل والحوار رأيناه في سيرة سيدنا رسول الله صلى الله عليه

وسلم مع كفار مكة والمعاندين له ، وقد خاطبه ربه : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ [العنكبوت : 46] .

والعلَّة أنك ستُخرجهم من الباطل الذي أحبوه وأَلفوه إلى الحق الذي يكرهون ، فلا تجمع عليهم شدتين ، لذلك في أشد ما كان إيذاء الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " .

ورحم الله شوقي الذي صاغ هذه المسألة في عبارة موجزة فقال : (النُّصْح ثقيل فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً) فنُصْحك معناه أنك تقول لمن أمامك : أنت على خطأ وأنا على صواب . فلكي يسمع لك لا بُدَّ أنْ تستميله أولاً إليك ليقبل منك ، ولا تجرح مشاعره فيزداد عناداً ومكابرة ، وما أشبه صاحب الخطأ بالمريض الذي يحتاج لمن يأخذ بيده ، ويأسو مرضه .

وقد مثَّلوا لذلك بشخص يغرق ، وصاحبه على الشاطيء يلومه على نزوله البحر ، وهو لا يجيد السباحة ، فقال له : (آسِ ثم انصح) انقذني أولاً وأدركني ، ثم قُلْ ما شئتَ .

وقال آخر : الحقائق مُرَّة ، فاستعيروا لها خِفَّة البيان .

(50/587)

أما إنْ يئس الناصح من استجابة المنصوح كما في قصة نبي الله نوح عليه السلام ، والذي ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فالأمر يختلف . فالنبي صبر على قومه علَّهم يثوبون إلى رشدهم ، أو لعلهم ينجبون الذرية الصالحة التي تقبل ما رفضه الآباء .

فما أطولَ صبر نوح على قومه ، وما أعظمَ أدبه في الحوار معهم وهو يقول لهم وقد اتهموه بالكذب والافتراء : ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود : 35] .

فنسب الإجرام إلى نفسه ليُسوِّي نفسه بهم لعلَّه يستميل قلوبهم ، لكن ، لما كان في علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا ، ولا فائدة منهم ، ولا من أجيالهم المتعاقبة ، وبعد أنْ قضى نوح في دعوتهم هذا العمر المديد أمره الله أن يدعو عليهم ، حيث لا أملَ في هدايتهم ، فقال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ [نوح : 26-27] .

ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول في محاورته مع كفار مكة : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25] .

سبحان الله ما هذا التواضع ، وهذا الأدب الجم في استمالة القوم ، ينسب الإجرام إلى نفسه وهو رسول الله ، وحينما يتكلم عنهم يقول ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ : 25] فيُسمِّي

إجرامهم وإيذاءهم وكفرهم عملاً ، ولو قال كما قال أخوه لكان تواضعاً منه صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(51/587)

فصل

قال صاحب الميزان :

(كلام حول قصص موسى وهارون عليهما السلام)

في فصول

1 – منزلة موسى عند الله وموقفه العبود : كان عليه السلام أحد الخمسة أولى العزم الذين هم سادة الأنبياء ولهم كتاب وشريعة كما خصهم الله تعالى بالذكر في قوله : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) الأحزاب : 7 ، وقال : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) الشورى : 13 .

ولقد امتن الله سبحانه عليه وعلى أخيه في قوله : (ولقد مننا على موسى وهارون) الصافات : 114 وسلم عليهما في قوله : (سلام على موسى وهارون) الصافات :

.120

وأثنى على موسى عليه السلام بأجمل الثناء في قوله : (واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا) مريم : 52 ، وقال : (وكان عند الله وجيها) الاحزاب : 69 ، وقال : (وكلم الله موسى تكليما) النساء : .164

وذكره في جملة من ذكرهم من الأنبياء في سورة الانعام الآية 84 – 88 فأخبر أنهم كانوا محسنين صالحين وأنه فضلهم على العالمين واجتباهم وهداهم الى صراط مستقيم .

وذكره في جملة الأنبياء في سورة مريم ثم ذكر في الآية 58 منها أنهم الذين أنعم الله عليهم .

فاجتمع بذلك له عليه السلام معنى الاخلاص والتقريب والوجاهة والاحسان والصلاح والتفضيل والاجتباء والهداية والانعام وقد مر البحث عن معاني هذه الصفات في مواضع تناسبها من هذا الكتاب وكذا البحث عن معنى النبوة والرسالة والتكليم .

وذكر الكتاب النازل عليه وهو التوراة فوصفها بأنها إمام ورحمة (سورة الاحقاف : 12) وبأنها فرقان وضياء وذكر (الأنبياء : 48) وبأن فيها هدى ونور (المائدة : 44) وقال : (وكتبنا له في الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ) الأعراف : 145 .

غير أنه تعالى ذكر في مواضع من كلامه أنهم حرفوها واختلفوا فيها .

وقصة بختنصر وفتحه فلسطين ثانيا وهدمه الهيكل واحراقه التوراة وحشره اليهود إلى بابل سنة خمسمائة وثمان وثمانين قبل المسيح ثم فتح كورش الملك بابل سنة خمسمائة وثمان وثلاثين قبل المسيح واذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانيا وكتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف في التواريخ وقد تقدمت الاشارة إليه في الجزء الثالث من الكتاب في قصص المسيح عليه السلام .

2 – قصص موسى عليه السلام في القرآن : هو عليه السلام أكثر الأنبياء ذكرا في القرآن الكريم فقد ذكر اسمه – على ما عدوه – مائة وستة وستين موضعا من كلامه تعالى ، وأشير إلى قصته إجمالا أو تفصيلا في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن ، وقد اختص من بين الأنبياء بكثرة المعجزات ، وقد ذكر في القرآن شئ كثير من معجزاته الباهرة كصيرورة عصاه ثعبانا ، واليد البيضاء ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وفلق البحر ، وانزال المن والسلوى ، وانبجاس العيون من الحجر بضرب العصا ، واحياء الموتى ، ورفع الطور فوق القوم وغير ذلك .

وقد ورد في كلامه تعالى طرف من قصصه عليه السلام من دون استيفائها في كل ما دق وجل بل بالاقتصار على فصول منها يهم ذكرها لغرض الهداية والارشاد على ما هو دأب

القرآن الكريم في الاشارة إلى قصص الأنبياء وأممهم .

وهذه الفصول التى فيها كليات قصصه هي : أنه تولد بمصر فى بيت اسرائيلي حينما كانوا يذبحون المواليد الذكور من بنى إسرائيل بأمر فرعون وجعلت أمه اياه في تابوت وألقته في البحر وأخذ فرعون اياه ثم رده إلى أمه للارضاع والتربية ونشأ في بيت فرعون .

ثم بلغ أشده وقتل القبطى وهرب من مصر إلى مدين خوفا من فرعون وملئه أن يقتلوه قصاصا .

ثم مكث في مدين عند شعيب النبي عليه السلام وتزوج إحدى بنتيه .

(53/587)

ثم لما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا وقد ضلوا الطريق في ليلة شاتية فأوقفهم مكانهم وذهب إلى النار ليأتيهم بقبس أو يجد على النار هدى فلما أتاها ناداه الله من شاطئ الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة وكلمه واجتباه وآتاه معجزة العصا واليد البيضاء في تسع آيات واختاره للرسالة إلى فرعون وملئه وانجاء بنى إسرائيل وأمره بالذهاب إليه .

فأتى فرعون ودعاه إلى كلمة الحق وأن يرسل معه بنى إسرائيل ولا يعذبهم وأراه آية العصا

واليد البيضاء فأبى وعارضه بسحر السحرة وقد جاؤا بسحر عظيم من ثعابين وحيأت فألقى عصاه فاذاهى تلقف ما يأفكون فالقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون وأصر فرعون على جحوده وهدد السحرة ولم يؤمن .

(54/587)

فلم يزل موسى عليه السلام يدعوه وملأه ويريهم الآية بعد الآية كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات وهم يصرون على استكبارهم ، وكلما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون .

فأمره الله أن يسرى بنى إسرائيل ليلا فساروا حتى بلغوا ساحل البحر فعقبهم فرعون بجنوده فلما تراءى الفريقان قال أصحاب موسى أنا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين فامر بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر وأتبعهم فرعون وجنوده حتى إذا اداركوا فيها جميعا أطبق الله عليهم الماء فأغرقهم عن آخرهم .

ولما أنجاهم الله من فرعون وجنوده وأخرجهم إلى البر ولا ماء فيه ولا كلاء أكرمهم الله فأنزل عليهم المن والسلوى وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد

علم كل أناس مشربهم فشربوا منها وأكلوا منهما وظللهم الغمام .

ثم واعد الله موسى أربعين ليلة لنزول التوراة بجبل الطور فاختار قومه سبعين رجلا ليسمعوا تكليمه تعالى اياه فسمعوا ثم قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ثم أحياهم الله بدعوة موسى ، ولما تم الميقات أنزل الله عليه التوراة وأخبره أن السامري قد أضل قومه بعده فعبدوا العجل .

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فأحرق العجل ونسفه في اليم وطرد السامري وقال له : اذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وأما القوم فامروا أن يتوبوا ويقتلوا أنفسهم فتيب عليهم بعد ذلك ثم استكبروا عن قبول شريعة التوراة حتى رفع الله الطور فوقهم .

(55/587)

ثم انهم ملوا المن والسلوى وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها فامروا أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لهم فأبوا فحرمها الله عليهم وابتلاهم بالتيه يتيهون في الأرض أربعين سنه .

ومن قصص موسى عليه السلام ما ذكره الله في سورة الكهف من مضيه مع فتاه إلى مجمع

البحرين للقاء العبد الصالح وصحبته حتى فارقه .

3 – منزلة هارون ـ عليه السلام عند الله وموقفه العبودي : أشركه الله تعالى مع موسى عليهما السلام في سورة الصافات في المن وايتاء الكتاب والهداية إلى الصراط المستقيم وفى التسليم وأنه من المحسنين ومن عباده المؤمنين (الصافات : 114 – 122) وعده مرسلا (طه : 47) ونبيا (مريم : 53) وأنه ممن أنعم عليهم (مريم : 58) وأشركه مع من عدهم من الأنبياء في سورة الانعام في صفاتهم الجميلة من الاحسان والصلاح والفضل والاجتباء والهداية (الانعام : 84 – 88) .

وفى دعاء موسى ليلة الطور : (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه في أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا) طه : 35 .

وكان عليه السلام ملازما لاخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامة أمره ويعينه على جميع مقاصده .

ولم يرد في القرآن الكريم مما يختص به من القصص الا خلافته لاخيه حين غاب عن القوم للميقات وقال لاخيه هارون اخلفنى في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا وقد عبدوا العجل ألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بى الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين قال رب اغفر لى ولاخى وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

4 – قصة موسى عليه السلام في التوراة الحاضرة :

قصصه عليه السلام موضوعة فيما عدا السفر الأول من أسفار التوراة الخمسة وهى : سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية تذكر فيها تفاصيل قصصه عليه السلام من حين ولادته إلى حين وفاته وما أوحى إليه من الشرائع والأحكام .

غير أن فيها اختلافات في سرد القصة مع القرآن في أمور غير يسيرة .

ومن أهمها أنها تذكر أن نداء موسى وتكليمه من الشجرة كان في أرض مدين قبل أن يسير بأهله وذلك حين كان يرعى غنم يثرون (1) حمية كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة فناداه الله وكلمه بما كلمه وأرسله إلى فرعون لانجاء بنى إسرائيل (2) .

ومنها ما ذكرت أن فرعون الذى أرسل إليه موسى غير فرعون الذى أخذ موسى ورباه ثم هرب منه موسى لما قتل القبطى خوفا من القصاص (3) .

ومنها أنها لم تذكر ايمان السحرة لما ألقوا عصيهم فصارت حيات فتلقفتها عصا موسى بل تذكر أنهم كانوا عند فرعون وعارضوا موسى في آيتى الدم والضفادع فأتوا بسحرهم مثل

ما أتى به موسى عليه السلام معجزة (4) .

ومنها أنها تذكر أن الذى صنع لهم العجل فعبدوه هو هارون النبي أخو موسى عليهما السلام وذلك أنه لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لان هذا (موسى) الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ؟ فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الشعب التى في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها .

فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالازميل فصبغه عجلا مسبوكا فقالوا أهذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر (5) .

وفى الايات القرآنية تعريضات للتوراة في هذه المواضع من قصصه عليه السلام غير خفية على المتدبر فيها .

---

(1) تسمى التوراة أبا زوجة موسى يثرون كأهن مديان .

(2) الاصحاح الثالثة من سفر الخروج .

(3) سفر الخروج ، الاصحاح الثاني .

الآية 23 .

(4) الاصحاح السابع والثامن من سفر الخروج.

(5) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج.

(57/587)

وهناك اختلافات جزئية كثيرة كما وقع في التوراة في قصة قتل القبطى أن المتضاربين ثانيا كانا جميعا إسرائيليين (1) وأيضا وقع فيها أن الذى ألقى العصا فتلقفت حيات السحرة هو هارون ألقاها بأمر موسى (2) .

وأيضا لم تذكر فيها قصة انتخاب السبعين رجلا للميقات ونزول الصاعقة عليهم واحياءهم بعده.

وأيضا فيها أن الالواح التى كانت مع موسى لما نزل من الجبل وألقاها كانت لوحين من حجر وهما لوحا الشهادة (3) .

إلى غير ذلك من الاختلافات. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الميزان حـ 16 صـ 40. 46 ﴾

---

(1) الاصحاح الثاني من سفر الخروج.

(2) الاصحاح السابع من سفر الخروج.

(3) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج.

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ قال : عشر سنين ، ثم مكث بعد ذلك عشراً أخرى .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي قال عبد الله بن عباس . لما قضى موسى الأجل سار بأهله فضل عن الطريق ، وكان في الشتاء . ورفعت له نار ، فلما رآها ظن أنها نار ، وكانت من نور الله فقال لأهله ﴿ امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ فإن لم أجد خبراً آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون من البرد .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ آنس ﴾ قال : أحس وفي قوله ﴿ إني آنست ناراً ﴾ قال : أحسست .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ قال : لعلي أجد من يدلني على الطريق . وكانوا قد ضلوا الطريق .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ جذوة ﴾ قال : شهاب .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ جذوة ﴾ قال : أصل شجرة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ جذوة ﴾ قال : أصل شجرة في طرفها نار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال ﴿ الجذوة ﴾ عود من حطب فيه النار .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ " أو جذوة " بنصب الجيم .

(59/587)

وأخرج أبو عبيد وابن مردويه وابن عساكر عن أبي المليح قال : أتيت ميمون بن مهران لأودعه عند خروجي في تجارة فقال : لا تيأس أن تصيب في وجهك هذا في أمر دينك أفضل مما ترجو أن تصيب في أمر دنياك ، فإن صاحبة سبأ خرجت وليس شيء أحب إليها من ملكها ، فأخرجها الله إلى ما هو خير من ذلك ، فهداها إلى الإِسلام ، وأن موسى عليه السلام خرج يريد أن يقتبس لأهله ناراً ، فأخرجه الله إلى ما هو خير من ذلك : كلمه

الله تعالى .

وأخرج الخطيب عن عائشة رضي الله عنها قالت : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فإن موسى بن عمران عليه السلام خرج يقتبس ناراً فرجع بالنبوّة .

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ نودي من شاطئ الواد الأيمن ﴾ قال : كان النداء من السماء الدنيا .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ من شاطئ الواد الأيمن ﴾ قال : الأيمن عن يمين موسى عليه السلام عند الطور .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح في الآية قال : كان النداء من أيمن الشجرة . والنداء من السماء . وذلك في التقديم والتأخير .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : نودي عن يمين الشجرة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ من الشجرة ﴾ قال : أخبرت أنها عوسجة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الكلبي ﴿ من الشجرة ﴾ قال : شجرة العوسج .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ذكرت لي الشجرة التي أوى إليها موسى عليه السلام ، فسرت إليها يومي وليلتي حتى صبحتها ، فإذا هي سمرة خضراء ترف ، فصليت على النبي صلى الله عليه وسلم فاهوى إليها بعيري وهو جائع ، فأخذ منها ملء فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه ، فصليت على النبي وسلمت ، ثم انصرفت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن نوف البكالي : أن موسى عليه السلام لما نودي من شاطئ الوادي الأيمن قال : ومن أنت الذي تنادي ؟ قال : أنا ربك الأعلى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر الثقفي قال : أتى موسى عليه السلام الشجرة ليلاً وهي خضراء والنار تتردد فيها ، فذهب يتناول النار فمالت عنه ، فذعر وفزع ، فنودي من شاطئ الوادي الأيمن قال : عن يمين الشجرة فاستأنس بالصوت ، فقال : أين أنت . أين أنت ؟ قيل : الصوت . . أنا فوقك قال : ربي ؟ ! قال : نعم .

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ولى مدبراً . . من الرهب ﴾ قال : هذا من تقديم القرآن .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ قال : يدك .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ قال : كفه تحت عضده ﴿ من الرهب ﴾ قال : من الفرق ﴿ فذانك برهانان ﴾ قال : العصا ، واليد . وفي قوله ﴿ ردءاً ﴾ قال : عوناً وفي قوله ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ قال : الحجة .

(61/587)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولم يعقب ﴾ قال : لم يلتفت من الفرق وفي قوله ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ قال : في جيب قميصك ﴿ تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ قال : من غير برص ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ قال : من الرعب ﴿ فذانك برهانان ﴾ قال : آيتان من ربك . . . ﴿ فأرسله معي ردءاً ﴾ قال : عوناً لي .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ من الرهب ﴾ مخففة مرفوعة الراء وقرأ " فذنك " مخففة .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن كثير وقيس أنهما كانا يقرآن ﴿ فذنك برهانان ﴾ مثقلة النون .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ردءاً يصدقني ﴾ كي يصدقني .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن وهب نبأنا نافع بن أبي نعيم قال : سألت مسلم بن جندب رضي الله عنه عن قوله ﴿ ردءاً يصدقني ﴾ قال : الردء الزيادة أما سمعت قول الشاعر :

واسمر خطى كأن كعوبه . . . نوى القصب قد اردى ذراعاً على عشر

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ سنشد عضدك بأخيك ﴾ قال : العضد : المعين الناصر قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول النابغة :

في ذمة من أبي قابوس منقذة . . . للخائفين ومن ليست له عضد

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال : كان موسى عليه السلام قد ملىء قلبه رعباً من فرعون ، فكان إذا رآه قال : اللهم أدرأ بك في نحره ، وأعوذ بك من شره ، ففزع الله تعالى ما كان في قلب موسى وجعله في قلب فرعون ، فكان إذا رآه بال كما يبول الحمار .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الضحاك رضي الله عنه قال : دعاء موسى حين توجه إلى فرعون ، ودعاء النبي عليه السلام يوم حنين ، ودعاء كل مكروب "كنت وتكون وأنت حي لا تموت ، تنام العيون وتكدر النجوم وأنت حي قيوم ، لا تأخذك سنة ولا نوم ، يا حي يا قيوم" . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(62/587)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَقَالَ موسى ﴾ :

هذه قراءةُ العامَّة بإثباتِ واوِ العطفِ . وابنُ كثيرٍ حَذَفَها ، وكلٌّ وافقَ مصحفَه ؛ فإنها ثابتةٌ في المصاحفِ غيرَ مصحفِ مكةَ . وإثباتُها وحَذْفُها واضحان ، وهو الذي يسميّه أهلُ البيان الوصلَ والفصلَ .

قوله : ﴿ وَمَن تَكُونُ ﴾ قرأ العامَّةُ " تكون " بالتأنيث و " له " خبرُها " وعاقبةُ " اسمُها . ويجوز أَنْ يكونَ اسمُها ضميرَ القصةِ ، والتأنيثُ لأجلِ ذلك ، و ﴿ لَهُ عَاقِبَةُ الدار ﴾ جملةٌ في موضع الخبرِ . وقرىء بالياء مِنْ تحتُ ، على أَنْ تكونَ " عاقبةٌ " اسمَها والتذكيرُ للفصلِ ؛

لأنه تأنيثٌ مجازيٌّ . ويجوزُ أن يكون اسمُها ضميرَ الشأنِ . والجملةُ خبرٌ كما تقدم . ويجوزُ أَنْ تكونَ تامةً ، وفيها ضميرٌ يرجعُ إلى " مَنْ " ، والجملةُ في موضعِ الحالِ . ويجوز أن تكونَ ناقصةً ، واسمُها ضميرُ " مَنْ " / ، والجملةُ خبرُها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 678.679 ﴾

(63/587)

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ وقال فرعون ﴾ جواباً لهذا الترغيب والترهيب بعد الإعذار ، ببيان الآيات الكبار ،

قانعاً في مدافعة ما رأى أنه اجتذب قومه الأغمار الأغبياء عن الجهل من ظهور تلك الآيات البينات بأن يوقفهم عن الإيمان إلى وقت ما ، وكذا كانت عادته كلما أظهر موسى عليه الصلاة والسلام برهاناً ، لأن قومه في غاية الغباوة والعراقة في الميل إلى الباطل والنفرة من الحق وترجيح المظنة على المئنة : ﴿ يا أيها الملأ ﴾ أي الأشراف ، معظماً لهم استجلاباً لقلوبهم ﴿ ما علمت لكم ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ من إله غيري ﴾ نفى علمه بذلك إظهاراً للنصفة ، وأنه ما قصد غشهم ، وذلك منه واضح في أنه قصد تشكيكهم ، إشارة منه إلى أن انتفاء علمه بوجوده ما هو إلا لانتفاء وجوده بعد علمه بأن الحق مع موسى عليه الصلاة والسلام لأنه أنهى ما قدر عليه بعد رؤيتهم لباهر الآيات ، وظاهر الدلالات ؛ ثم زاد في إيقافهم عن المتابعة بأن سبب عن جهله قوله لوزيره معلماً له صنعة الآجر لأنه أول من عمله ، مع أنه هذه العبارة أشبه بهمم الجبابرة من أن يقول : اصنع لي آجراً : ﴿ فأوقد لي ﴾ أضاف الإيقاد إليه إعلاماً بأنه لا بد منه ﴿ يا هامان ﴾ وهو وزيره ﴿ على الطين ﴾ أي المتخذ لبناً ليصير آجراً ؛ ثم سبب عن الإيقاد قوله : ﴿ فاجعل لي ﴾ أي منه

﴿ صرحاً ﴾ أي بناء عالياً يتاخم السماء ، قال الطبري : وكل بناء مسطح فهو صرح كالقصر ، وقال الزجاج : كل بناء متسع مرتفع ﴿ لعلي أطلع ﴾ أي أتكلف الطلوع ﴿ إلى إله موسى ﴾ أي الذي يدعوا إليه ، فإنه ليس في الأرض أحد بهذا الوصف الذي ذكره فأنا أطلبه في السماء موهماً لهم أنه مما يمكن الوصول إليه على تقدير صحة الدعوى بأنه موجود

، وهو قاطع بخلاف ذلك ، ولكنه يقصد المدافعة من وقت إلى وقت ، لعلمه أن العادة جرت بأن أكثر الناس يظنون بالملوك القدرة على كل ما يقولونه ؛ ثم زادهم شكاً بقوله ، مؤكداً لأجل دفع ما استقر في الأنفس من صدق موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وإني لأظنه ﴾

(64/587)

أي موسى ﴿ من الكاذبين ﴾ أي دأبه ذلك ، وقد كذب هو ولبس لعنة الله ووصف أصدق أهل ذلك الزمان بصفة العريقة في العدوان ، وإن كان هذا الكلام منه على حقيقته فلا شيء أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته منه حيث ظن أنه يصل السماء ؛ ثم علل على تقدير الوصول يقدر على الارتقاء على ظهرها ، ثم على تقدير ذلك يقدر على منازعة بانيها وسامكها ومعليها .

ولما قال هذا مريداً به - كما تقدم - إيقاف قومه عن إتباع الحق ، أتبعه تعالى الإشارة إلى أنهم فعلوا ما أراد ، وإن كان ذلك هو الكبر عن الحق فقال تعالى : ﴿ واستكبر ﴾ أي وأوجد الكبر بغاية الرغبة فيه ﴿ هو ﴾ بقوله هذا الذي صدهم به عن السبيل ﴿ وجنوده ﴾ بانصدادهم لشدة رغبتهم في الكبر على الحق والاتباع للباطل ﴿ في

الأرض ﴾ أي أرض مصر ، ولعله عرفها إشارة إلى أنه لو قدر على ذلك في غيرها فعل ﴿ بغير الحق ﴾ أي استكباراً مصحوباً بغير هذه الحقيقة ، والتعبير بالتعريف يدل على أن التعظيم بنوع من الحق ليس كبراً وإن كانت صورته كذلك ، وأما تكبره سبحانه فهو بالحق كله ، وعطف على ذلك ما تفرع عنه وعن الغباوة أيضاً ولذا لم يعطفه بالفاء ، فقال : ﴿ وظنوا ﴾ أي فرعون وقومه ظناً بنوا عليه اعتقادهم في أصل الدين الذي لا يكون إلا بقاطع ﴿ أنهم إلينا ﴾ أي إلى حكمنا خاصة الذي يظهر عنده انقطاع الأسباب ﴿ لا يرجعون ﴾ أي لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فلذلك اجترؤوا على ما ارتكبوه من الفساد . ولما تسبب عن ذلك إهلاكهم قال : ﴿ فأخذناه ﴾ أي بعظمتنا أخذ قهر ونقمة ﴿ وجنوده ﴾ أي كلهم ، وذلك علينا هين ، وأشار إلى احتقارهم بقوله : ﴿ فنبذناهم ﴾ أي على صغرهم وعظمتنا ﴿ في اليم ﴾ فكانوا على كثرتهم وقوتهم كحصيات صغار قذفها الرامي الشديد الذراع من يده في البحر ، فغابوا في الحال ، وما آبوا ولا أحد منهم إلى أهل ولا مال .

(65/587)

ولما سببت هذه الآية من العلوم ، ما لا يحيط به الفهوم ، قال : ﴿ فانظر ﴾ أي أيها المتعرف للآيات الناظر فيها نظر الاعتبار ؛ وزاد في تعظيم ذلك بالتنبيه على أنه مما يحق له أن يسأل عنه فقال : ﴿ كيف كان ﴾ أي كوناً هو الكون ﴿ عاقبة ﴾ أي آخر أمر ﴿ الظالمين ﴾ وإن زاد ظلمهم ، وأعيى أمرهم ، ذهبوا في طرفة عين ، كأن لم يكونوا ، وغابوا عن العيون كأنهم قط لم يبينوا ، وسكتوا بعد ذلك الأمر والنهي فصاروا بحيث لم يبينوا ، فليحذر هؤلاء الذين ظلموا إن استمروا على ظلمهم أن ينقطعوا ويبينوا ، وهذا إشارة عظيمة بأعظم بشارة بأن كل ظالم يكون عاقبته هكذا إن صابره المظلوم المحق ، ورابطه حتى يحكم الله وهو خير الحالكمين .

ولما كان " من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " وكانوا أول من أصر وأطبق في ذلك الزمان على تكذيب الآيات ، وإخفاء الدلالات النيرات ، على تواليها وكثرتها ، وطول زمانها وعظمتها وكانت منابذة العقل واتباع الضلال في غاية الاستبعاد ، لا سيما إن كانت ضامنة للهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، قال تعالى في مظهر العظمة :

﴿ وجعلناهم ﴾ أي في الدنيا ﴿ أئمة ﴾ أي متبوعين في رد ما لا يرده عاقل من هذه الآيات ، أي جعلنا أمرهم شهيراً حتى لا يكاد أحد يجهله ، فكل من فعل مثل أفعالهم من رد الحق والتجبر على الخلق ، فكأنه قد اختار الاقتداء بهم وإن لم يكن قاصداً ذلك ، فأطلق ذلك

عليه رفعاً له عن النسبة إلى أنه يعمل ما يلزمه الاتسام به وهو عاقل عنه كما أنه لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل ، وأحق الناس باتباعهم في باطن اعتقادهم وظاهر اصطناعهم ، وخيبة آمالهم وأطماعهم أهل الإلحاد بمذهب الاتحاد أهلك الله أنصارهم .

(66/587)

وعجل دمارهم ، وكشف هذا المعنى بقوله : ﴿ يدعون ﴾ أي يوجدون الدعاء لمن اغتر بحالهم ، فضل ضلالهم ﴿ إلى النار ﴾ أي وجعلنا لهم أعواناً ينصرونهم عكس ما أردنا لبني إسرائيل – كما سلف أول السورة – وجعلناهم موروثين .

ولما كان الغالب من حال الأئمة النصرة ، وكان قد أخبر عن خذلانهم في الدنيا ، قال : ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي الذي هو يوم التغابن ﴿ لا ينصرون ﴾ أي لا يكون لهم نوع نصرة أصلاً كما كانوا يوم هلاكهم في الدنيا سواء ، ولا هم أئمة ولا لهم دعوة ، يخلدون في العذاب ، ويكون لهم سوء المآب .

ولما أخبر عن هذا الحال ، أخبر عن ثمرته ؛ فقال في مظهر العظمة ، لأن السياق لبيان علو فرعون وآله ، وأنهم مع ذلك طوع المشيئة ﴿ وأتبعناهم في هذه ﴾ ولما كان المراد الإطناب

في بيان ملكهم ، فسر اسم الإشارة فقال : ﴿ الدنيا ﴾ ولم يقل : الحياة ، لأن السياق لتحقير أمرهم ودناءة شأنهم ﴿ لعنة ﴾ أي طرداً وبعداً عن جنابنا ودفعاً لهم بذلك ودعاء عليهم بذلك من كل من سمع خبرهم بلسانه إن خالفهم ، أو بفعله الذي يكون عليهم مثل وزره إن والفهم ﴿ ويوم القيامة هم ﴾ أي خاصة ، ومن شاكلهم ﴿ من المقبوحين ﴾ أي المبعدين أيضاً المخزيين مع قبح الوجوه والأشكال ، والشناعة في الأقوال والأفعال والأحوال ، من القبح الذي هو ضد الحسن ، ومن قولهم : قبحت الشيء - إذا كسرته ، وقبح الله العدو : أبعده عن كل خير ، فيا ليت شعري أي صراحة بعد هذا في أن فرعون عدو الله ، في الآخرة كما كان عدوه في الدنيا ، فلعنة الله على من يقول : إنه مات مؤمناً ، وإنه لا صريح في القرآن بأنه من أهل النار ، وعلى كل من يشك في كفره بعد ما ارتكبه من جلي أمره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 489.492 ﴾

(67/587)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

اعلم أن فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر ههنا شبهتين الأولى : قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ وهذا في الحقيقة يشتمل على كلامين : أحدهما : نفي إله غيره والثاني : إثبات إلهية نفسه ، فأما الأول فقد كان اعتماده على أن ما لا دليل عليه لم يجز إثباته ، أما أنه لا دليل عليه فلأن هذه الكواكب والأفلاك كافية في اختلاف أحوال هذا العالم السفلي فلا حاجة إلى إثبات صانع ، وأما أن ما لا دليل عليه لم يجز إثباته فالأمر فيه ظاهر .

واعلم أن المقدمة الأولى كاذبة فإنا لا نسلم أنه لا دليل على وجود الصانع وذلك لأنا إذا عرفنا بالدليل حدوث الأجسام عرفنا حدوث الأفلاك والكواكب ، وعرفنا بالضرورة أن المحدث لا بد له من محدث فحينئذ نعرف بالدليل أن هذا العالم له صانع ، والعجب أن جماعة اعتمدوا في نفي كثير من الأشياء على أن قالوا لا دليل عليه فوجب نفيه ، قالوا وإنما قلنا إنه لا دليل لأنا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلاً ، فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق إلى أن كل ما لا يعرف عليه دليل وجب نفيه ، وإن فرعون لم يقطع بالنفي بل قال لا دليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذباً في دعواه ، ففرعون على نهاية جهله أحسن حالاً من هذا المستدل .

أما الثاني وهو إثباته إلهية نفسه ، فاعلم أنه ليس المراد منه أنه كان يدعي كونه خالقاً للسموات والأرض والبحار والجبال وخالقاً لذوات الناس وصفاتهم ، فإن العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضي زوال العقل ، بل الإله هو المعبود فالرجل كان ينفي الصانع ويقول لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره ، فهذا هو المراد من ادعائه الإلهية لا ما ظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقاً للسماء والأرض ، لا سيما وقد دللنا في سورة طه (49) في تفسير قوله : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يا موسى ﴾ على أنه كان عارفاً بالله تعالى وأنه كان يقول ذلك ترويجاً على الأغمار من الناس الشبهة الثانية : قوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يا هامان عَلَى الطين فاجعل لّى صَرْحاً لَّعَلّى أَطَّلِعُ إلى إله موسى وَإِنّى لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ وههنا أبحاث :

الأول : تعلقت المشبهة بهذه الآية في أن الله تعالى في السماء قالوا لولا أن موسى عليه السلام دعاه إلى ذلك لما قال فرعون هذا القول والجواب : أن موسى عليه السلام دل فرعون بقوله : ﴿ رَبّ السموات والأرض ﴾ [الشعراء : 24] ولم يقل هو الذي في السماء دون الأرض ، فأوهم فرعون أنه يقول إن إلهه في السماء ، وذلك أيضاً من خبث فرعون ومكره ودهائه .

الثاني : اختلفوا في أن فرعون هل بنى هذا الصرح ؟ قال قوم إنه بناه قالوا إنه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق ، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت في البحر وقطعة في المغرب ، ولم يبق أحد من عماله إلا وقد هلك ، ويروى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت إليهم وهي ملطوخة بالدم ، فقال قد قتلت إله موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه .

(70/587)

ومن الناس من قال إنه لم يبن ذلك الصرح لأنه يبعد من العقلاء أن يظنوا أنهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من على أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الأرض ، ومن شك في ذلك خرج عن حد العقل ، وهكذا القول فيما

يقال من رمى السهم إلى السماء ورجوعه متلطخاً بالدم ، فإن كل من كان كامل العقل يعلم أنه لا يمكنه إيصال السهم إلى السماء ، وأن من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التي حكاها الله تعالى في القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل ، فيصير ذلك مشرعاً قوياً لمن أحب الطعن في القرآن ، فالأقرب أنه كان أوهم البناء ولم يبن أو كان هذا من تتمة قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ يعني لا سبيل إلى إثباته بالدليل ، فإن حركات الكواكب كافية في تغير هذا العالم ولا سبيل إلى إثباته بالحس ، فإن الإحساس به لا يمكن إلا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل إليه ، ثم قال عند ذلك لهامان : ﴿ ابن لِى صَرْحاً أَبْلُغُ بِهِ أسباب السموات ﴾ وإنما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الأشياء قرر أنه لا دليل على الصانع ، ثم إنه رتب النتيجة عليه فقال : ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ فهذا التأويل أولى مما عداه .

الثالث : إنما قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى ياهامان عَلَى الطين ﴾ ولم يقل اطبخ لي الآجر واتخذه لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان ، وهو وزيره بالإيقاد على الطين فنادى باسمه بيا في وسط الكلام دليل على التعظم والتجبر ، والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد .

أما قوله : ﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ فاعلم أن الاستكبار بالحق إنما

هو لله تعالى وهو المتكبر في الحقيقة أي المبالغ في كبرياء الشأن ، قال عليه السلام فيما حكى عن ربه

(71/587)

" الكبرياء ردائي والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار " (1)

وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق .

المسألة الثانية :

قال الجبائي الآية تدل على أنه تعالى ما أعطاه الملك وإلا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب ، لا كما ادعى ملوك بني أمية عند تغلبهم أن ملكهم من الله تعالى فإن الله تعالى قد بين في كل غاصب لحكم الله أنه أخذ ذلك بغير حق ، واعلم أن هذا ضعيف لأن وصول ذلك الملك إليه ، إما أن يكون منه أو من الله تعالى ، أو لا منه ولا من الله تعالى ، فإن كان منه فلم لم يقدر عليه غيره ، فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولي للأمر ؟ وإن كان من الله تعالى فقد صح الغرض ، وإن كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر ؟ واعلم أن هذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل .

أما قوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى إلا

أنهم كانوا ينكرون البعث فلأجل ذلك تمردوا وطغوا . (2)

أما قوله : ﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم ﴾ فهو من الكلام المفحم الذي دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه ، شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم ، وإن كانوا الكبير الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر ونحو ذلك وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شامخات ﴾ [المرسلات : 27] ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة ﴾ [الحاقة : 14] ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : 67] سبحانه وتعالى وليس الغرض منه إلا تصوير أن كل مقدور وإن عظم فهو حقير بالقياس إلى قدرته .

---

(1) لهذا الحديث تتمة وهي «فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في النار ولا أبالي» .

(2) إن تواريخ قدماء المصريين وآثارهم والنقوش التي في معابدهم وأهرامهم تشهد بأنهم كانوا يؤمنون بالرجعة والبعث ، فالمراد بالآية تشبيه حالهم في اتباع الأهواء والانصراف عن الآخرة وعدم العمل لما بعد الموت بحال من ينكر البعث .

أما قوله : ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ فقد تمسك به الأصحاب في كونه تعالى خالقاً للخير والشر ، قال الجبائي المراد بقوله : ﴿ وجعلناهم ﴾ أي بينا ذلك من حالهم وسميناهم به ، ومنه قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ الملئكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثا ﴾ [الزخرف : 19] وتقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله جعله فاسقاً وبخيلاً ، لا أنه خلقهم أئمة لأنهم حال خلقهم لهم كانوا أطفالاً ، وقال الكعبي : إنما قال : ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ من حيث خلى بينهم وبين ما فعلوه ولم يعاجل بالعقوبة ، ومن حيث كفروا ولم يمنعهم بالقسر ، وذلك كقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ﴾ [التوبة : 125] لما زادوا عندها ونظير ذلك أن الرجل يسأل ما يثقل عليه ، وإن أمكنه فإذا بخل به قيل للسائل جعلت فلاناً بخيلاً أي قد بخلته ، وقال أبو مسلم معنى الإمامة التقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين .

واعلم أن الكلام فيه قد تقدم في سورة مريم (83) في قوله : ﴿ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين ﴾ ومعنى دعوتهم إلى النار دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي فإن أحداً لا يدعو إلى النار ألبتة ، وإنما جعلهم الله تعالى أئمة في هذا الباب لأنهم بلغوا في هذا الباب أقصى النهايات ، ومن كان كذلك استحق أن يكون إماماً يقتدى به في ذلك الباب ، ثم بين تعالى أن ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله : ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ أو يكون معناه ويوم القيامة لا ينصرون كما ينصر الأئمة الدعاة إلى

الجنة .

أما قوله : ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هذه الدنيا لَعْنَةً ﴾ معناه لعنة الله والملائكة لهم وأمره تعالى بذلك فيها للمؤمنين ، وبين أنهم يوم القيامة من المقبوحين أي المبعدين الملعونين ، والقبح هو الإبعاد ، قال الليث يقال قبحه الله ، أي نحاه عن كل خير .

(73/587)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من المشوَّمين بسواد الوجه وزرقة العين ، وعلى الجملة فالأولون حملوا القبح على القبح الروحاني وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى ، والباقون حملوه على القبح في الصور .

وقيل فيه إنه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 215.218 ﴾

(74/587)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

قال ابن عباس : كان بينها وبين قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ أربعون سنة .

﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ قال قتادة : هو أول من طبخ الآجر

. ﴿ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً ﴾ الصرح القصر العالي . قال قتادة : هو أول من صنع له الصرح .

﴿ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ الآية . فحكى السدي أن فرعون صعد الصرح ورمى

نشابه نحو السماء فرجعت إليه متلطخة دماً : قد قتلت إله موسى .

قوله تعالى : ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ قال قتادة : بحر يقال له أساف من وراء مصر غرقهم

الله فيه .

قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ يعني فرعون وقومه ، وفيه وجهان :

أحدهما : زعماء يُتْبَعُونَ على الكفر .

الثاني : أئمة يأتم بهم ذوو العبر ويتعظ بهم أهل البصائر .

﴿ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : يدعون إلى عمل أهل النار .

الثاني : يدعون إلى ما يوجب النار .

قوله : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني خزياً وغضباً .

الثاني : طرداً منها بالهلاك فيها .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : من المقبحين بسواد الوجوه وزرقة الأعين ، قاله الكلبي .

الثاني : من المشوهين بالعذاب ، قاله مقاتل .

الثالث : من المهلكين ، قاله الأخفش وقطرب .

الرابع : من المغلوبين ، قاله ابن بحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(75/587)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) ﴾

كان موسى عليه السلام قد امتحن بمخاوف فطلب شد العضد بأخيه ﴿ هارون ﴾ لأنه كان فصيح اللسان سجيح الخلق ، وقرأ الجمهور " ردءاً " بالهمز ، وقرأ نافع وحده " رداً " بتنوين الدال دون همز وهي قراءة أبي جعفر والمدنيين وذلك على التخفيف من ردء ، والردء الوزر المعين والذي يسند إليه في الأمر ، وذهبت فرقة إلى أنها من معنى الزيادة كما

قال الشاعر [القرطبي] : [الطويل]

وأسمر خطّي كأن كعوبه . . . نوى القسب قد أردى ذراعاً على العشر

(76/587)

وهذا على ترك الهمز وأن يكون وزنه فعلا ، وقرأ الجمهور " يصدقْني " بالجزم وذلك على جواب ﴿ فأرسله ﴾ ، وقرأ عاصم وحمزة " يصدقني " أي مصدقاً فهو صفة للردء أو حال ، و" شد العضد " استعارة في المعونة والإنهاض ، وقرأ الحسن بضم العين " عضُد " ، وقرأ عيسى بن عمر بفتح العين والضاد ، و" السلطان " ، الحجة ، وقوله ﴿ بآياتنا ﴾ يحتمل أن تتعلق الباء بقوله ﴿ ونجعل لكما ﴾ أو ب ﴿ يصلون ﴾ وتكون باء السبب ، ويحتمل أن تتعلق بقوله ﴿ الغالبون ﴾ أي تغلبون بآياتنا ، والآيات هي معجزاته عليه السلام ، ولما كذبوه ورموه بالسحر قارب موسى عليه السلام في احتجاجه وراعه تكذيبهم فرد الأمر إلى الله عز وجل وعول على ما سيظهره في شأنهم وتوعدهم بنقمة الله تعالى منهم ، وقرأ ابن كثير " قال موسى " بغير واو ، وقرأ غيره وجميع السبعة " وقال " بواو ، وقرأ الجمهور " تكون " بالتاء ، وقرأ حمزة والكسائي " يكون " بالياء على التذكير إذ هي بمنزلة العاقب فهي كالصوت والصيحة والوعظ والموعظة ، واستمر فرعون في طريق مخرقته على

قومه وأمره ﴿ هامان ﴾ بأن يطبخ له الآجر وأن يبني له ﴿ صرحاً ﴾ أي سطحاً في أعلى الهواء ، وليس الصرح إلا ما له سطح ، ويحتمل أن يكون الإيقاد على الطين كالبرامي ، وترجى بذلك بزعمه أن يطلع في السماء ، فروي عن السدي أنه بناه أعلى ما يمكن ثم صعد فيه ورمى بالنبل فردها الله تعالى إليه مخضوبة بالدم ليزيدهم عمى وفتنة ، فقال فرعون حينئذ : إني قتلت إله موسى ، ثم قال ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ يريد في أن موسى أرسله مرسل ، فالظن على بابه وهو معنى إيجاب الكفر بمنزلة التصميم على التكذيب ، وقرأ حمزة والكسائي ونافع " لا يَرجِعون " ، وقرأ الباقون والحسن وخالد " لا يرجعون " بضم الياء وفتح الجيم .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) ﴾

(77/587)

﴿ نبذناهم ﴾ معناه طرحناهم ، ومنه نبذ النواة ومنه قول الشاعر :

نظرت إلى عنوانه فنبذته . . . كنبذك نعلاً من نعالك باليا

وقوم فرعون وإن كانوا ساروا إلى البحر ودخلوه باختيارهم فإن ما ضمهم من القدر السابق السائق هو نبذ الله تعالى إياهم فيه ، و﴿ اليم ﴾ بحر القلزم في قول أكثر الناس ،

وقالت فرقة : كان غرقهم في نيل مصر والأول أشهر ، وقوله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون ﴾ عبارة عن حالهم وأفعالهم وخاتمتهم ، أي هم بذلك كالداعين إلى النار وهم فيه أئمة من حيث اشتهروا وبقي حديثهم ، فهم قدوة لكل كافر وعات إلى يوم القيامة ، و ﴿ المقبوحين ﴾ الذي يقبح كل أمرهم قولاً له وفعلاً بهم ، قال ابن عباس : هم الذي قبحوا بسواد الوجوه وزرق العيون ، ﴿ ويوم ﴾ ظرف مقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(78/587)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فأَوْقِد لي يا هامانُ على الطِّين ﴾ قال ابن قتيبة : المعنى : اصنع لي الآجُرّ ﴿ فاجْعَلْ لي صَرْحاً ﴾ أي : قصراً عالياً .

وقال الزجاج : الصَّرْح : كل بناءٍ متَّسع مرتفع .

وجاء في التفسير أنَّه لمَّا أمر هامان وهو وزيره ببناء الصَّرْح ، جمع العمَّال والفَعَلة حتى اجتمع خمسون ألف بنَّاء سوى الأتباع ، فرفعوه وشيَّدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد قَطُّ ، فلمَّا تمَّ ارتقى فرعون فوقه ، وأمر بنُشَّابَةٍ فرمى بها نحو السماء ، فرُدَّت وهي

متلطِّخة بالدَّم ، فقال : قد قتلتُ إله موسى ، فبعث الله تعالى جبريلَ فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع ، فوقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلتْ ألف ألف رجل ، ووقعت قطعة أخرى في البحر ، وأخرى في المغرب .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلِّي أطَّلِعُ إلى إله موسى ﴾ أي : أصعد إليه وأُشْرِفُ عليه ﴿ وإنِّي لأظُنُّه ﴾ يعني موسى ﴿ من الكاذبين ﴾ في ادّعائه إلهاً غيري .

وقال ابن جرير : المعنى : أظنُّ موسى كاذباً في ادّعائه أنَّ في السماء ربّاً أرسله .

﴿ واستكبر هو وجنودُه في الأرض ﴾ يعني أرض مصر ﴿ بغير الحق ﴾ أي : بالباطل والظُّلم ﴿ وظنُّوا أنَّهم إلينا لا يُرْجَعون ﴾ بالبعث للجزاء .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : ﴿ يُرْجَعون ﴾ برفع الياء ؛ وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : بفتحها .

قوله تعالى : ﴿ وجعلناهم ﴾ أي : في الدنيا ﴿ أئمَّةً ﴾ أي : قادة في الكفر يأتمُّ بهم العتاة ، ﴿ يَدْعُونَ إلى النَّار ﴾ لأن من أطاعهم دخلها ؛ ﴿ ويُنْصَرون ﴾ بمعنى : يُمْنَعون من العذاب .

وما بعد هذا مفسر في [هود : 60 ، 99] .

قوله تعالى : ﴿ من المقبوحين ﴾ أي : من المُبعَدين الملعونين ؛ قال أبو زيد : يقال : قَبَحَ اللّهُ فلاناً ، أي : أبعده من كل خير .

(79/587)

وقال ابن جريج : معنى الآية : وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة لعنةً أخرى ، ثم استقبل الكلام ، فقال : هم من المقبوحين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(80/587)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾

قال ابن عباس : كان بينها وبين قوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] أربعون سنة ، وكذب عدوّ الله بل علم أن له ثَمَّ رَبّاً هو خالقه وخالق قومه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [الزخرف : 87] .

قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين ﴾ أي اطبخ لي الآجرّ ؛ عن ابن عباس رضي الله عنه .

وقال قتادة : هو أوّل من صنع الآجرّ وبنى به .

ولما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان العمال قيل خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وأمر بطبخ الآجرّ والجص ، ونشر الخشب ، وضرب المسامير ، فبنوا ورفعوا البناء وشيّدوا بحيث لم يبلغه بنيان منذ خلق الله السموات والأرض ، فكان الباني لا يقدر أن يقوم على رأسه ، حتى أراد الله أن يفتنهم فيه .

فحكى السدّي : أن فرعون صعد السطح ورمى بنُشَّابة نحو السماء ، فرجعت متلطخة بدماء ، فقال قد قتلت إله موسى .

فروي أن جبريل عليه السلام بعثه الله تعالى عند مقالته ، فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع ؛ قطعة على عسكر فرعون قتلت منهم ألف ألف ، وقطعة في البحر ، وقطعة في الغرب ، وهلك كل من عمل فيه شيئاً .

والله أعلم بصحة ذلك .

﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ الظن هنا شك ، فكفر على الشك ؛ لأنه قد رأى من البراهين ما لا يُخِيل على ذي فطرة .

قوله تعالى : ﴿ واستكبر ﴾ أي تعظّم ﴿ هُوَ وَجُنُودُهُ ﴾ أي عن الإيمان بموسى .

﴿ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ أي بالعدوان ، أي لم تكن له حجة تدفع ما جاء به موسى .

﴿ وظنوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ أي توهموا أنه لا معاد ولا بعث .

وقرأ نافع وابن محيصن وشيبة وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي : ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بفتح

الياء وكسر الجيم على أنه مسمى الفاعل .

الباقون : ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ على الفعل المجهول .

(81/587)

وهو اختيار أبي عبيد ، والأوّل اختيار أبي حاتم .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ وكانوا ألفي ألف وستمائة ألف .

﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم ﴾ أي طرحناهم في البحر المالح .

قال قتادة : بحر من وراء مصر يقال له إِسَاف أغرقهم الله فيه .

وقال وهب والسدّي : المكان الذي أغرقهم الله فيه بناحية الْقُلْزُم يقال له بطن مُرَيْرَة ، وهو إلى اليوم غضبان .

وقال مقاتل ، يعني نهر النيل .

وهذا ضعيف والمشهور الأوّل .

﴿ فانظر ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾ أي آخر أمرهم .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي جعلناهم زعماء يتبعون على الكفر ، فيكون عليهم وزرهم ووزر من اتبعهم حتى يكون عقابهم أكثر .

وقيل : جعل الله الملأ من قومه رؤساء السّفلة منهم ، فهم يدعون إلى جهنم .

وقيل : أئمة يأتم بهم ذوو العبر ويتّعظ بهم أهل البصائر .

﴿ يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ أي إلى عمل أهل النار ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ .

﴿ وَأَتْبَعْنَاهُم فِي هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً ﴾ أي أمرنا العباد بلعنهم فمن ذكرهم لعنهم .

وقيل : أي ألزمناهم اللعن أي البعد عن الخير .

﴿ وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِّنَ المقبوحين ﴾ أي من المهلَكين الممقوتين .

قاله ابن كيسان وأبو عبيدة .

وقال ابن عباس : المشوَّهين الخلقة بسواد الوجوه وزرقة العيون .

وقيل : من المبعَدين .

يقال : قَبَحه الله أي نحاه من كل خير ، وَقَبَحه وقَبَّحَه إذا جعله قبيحاً .

وقال أبو عمرو : قَبَحت وجهه بالتخفيف معناه قَبَّحت .

قال الشاعر :

أَلاَ قَبَحَ اللَّهُ البراجِمَ كلَّها . . .

وقَبَّح يَرْبوعاً وقبَّح دَارِمَا

وانتصب يوماً على الحمل على موضع ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ﴾ واستغنى عن حرف العطف

في قوله : ﴿ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ كما استغنى عنه في قوله : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] .

(82/587)

ويجوز أن يكون العامل في ﴿ يوم ﴾ مضمراً يدّل عليه قوله : ﴿ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ فيكون كقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : 22] .

ويجوز أن يكون العامل في ﴿ يوم ﴾ قوله : ﴿ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ وإن كان الظرف متقدماً .

ويجوز أن يكون مفعولاً على السعة ، كأنه قال وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ولعنة يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(83/587)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾

﴿ بآياتنا ﴾ : هي العصا واليد .

﴿ بينات ﴾ : أي واضحات الدلالة على صدقه ، وأنه أمر خارق معجز ، كفوا عن مقاومته ومعارضته ، فرجعوا إلى البهت والكذب ، ونسبوه إلى أنه سحر ، لأنهم يرون الشيء على حالة ، ثم يرونه على حالة أخرى ، ثم يعود إلى الحالة الأولى ، فزعموا أنه سحر يفتعله موسى ويفتريه على الله ، فليس بمعجز .

ثم مع دعواهم أنه سحر مفترى ، وكذبهم في ذلك ، أرادوا في الكذب أنهم ما سمعوا بهذا في آبائهم ، أي في زمان آبائهم وأيامهم .

وفي آبائنا : حال ، أي بهذا ، أي بمثل هذا كائناً في أيام آبائنا .

وإذا نفوا السماع لمثل هذا في الزمان السابق ، ثبت أن ما ادّعاه موسى هو بدع لم يسبق إلى مثله ، فدل على أنه مفترى على الله ، وقد كذبوا في ذلك ، وطرق سمعهم أخبار الرسل السابقين موسى في الزمان .

ألا ترى إلى قول مؤمن من آل فرعون : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ ولما رأى موسى ما قابلوه به من كون ما أتى به سحراً ، وانتفاء سماع مثله في الزمان السابق ، ﴿ قال موسى ربي بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ ، حيث أهله للرسالة ، وبعثه بالهدى ، ووعده حسن العقبى ، ويعني بذلك نفسه ، ولو كان كما يزعمون لم يرسله .

ثم نبه على العلة الموجبة لعدم الفلاح ، وهي الظلم .

وضع الشيء غير موضعه ، حيث دعوا إلى الإيمان بالله ، وأتوا بالمعجزات ، فادعوا الإلهية ، ونسبوا ذلك المعجز إلى السحر .

وعاقبة الدار ، وإن كانت تصلح للمحمودة والمذمومة ، فقد كثر استعمالها في المحمودة ، فإن لم تقيد ، حملت عليها .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن ﴾ وقال : ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ وقرأ ابن كثير : قال موسى ، بغير واو ؛ وباقي السبعة : بالواو .

(84/587)

ومناسبة قراءة الجمهور أنه لما جاءهم بالبينات قالوا : كيت وكيت ، وقال موسى : كيت وكيت ؛ فيتميز الناظر فصل ما بين القولين وفساد أحدهما ، إذ قد تقابلا ، فيعلم يقيناً أن قول موسى هو الحق والهدى .

ومناسبة قراءة ابن كثير ، أنه موضع قراءة لما قالوا : كيت وكيت ، قال موسى : كيت وكيت .

ونفى فرعون علمه بإله غيره للملأ ، ويريد بذلك نفي وجوده ، أي ما لكم من إله غيري .

ويجوز أن يكون غير معلوم عنده إله لهم ، ولكنه مظنون ، فيكون النفي على ظاهره ، ويدل

على ذلك قوله : ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ ، وهو الكاذب في انتفاء علمه بإله غيره .

ألا ترى إلى قوله حالة غرقه : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ واستمر فرعون في مخرقته ، ونادى وزيره هامان ، وأمره أن يوقد النار على الطين .

قيل : وهو أول من عمل الآجر ، ولم يقل : أطبخ الآخر ، لأنه لم يتقدم لهامان علم بذلك ، ففرعون هو الذي يعلمه ما يصنع .

﴿ فاجعل لي صرحاً ﴾ : أي ابن لي ، لعل أطلع إلى إله موسى .

أوهم قومه أن إله موسى يمكن الوصول إليه والقدرة عليه ، وهو عالم متيقن أن ذلك لا يمكن له ؛ وقومه لغباوتهم وجهلهم وإفراط عمايتهم ، يمكن ذلك عندهم ، ونفس إقليم مصر يقتضي لأهله تصديقهم بالمستحيلات وتأثرهم للموهمات والخيالات ، ولا يشك أنه كان من قوم فرعون من يعتقد أنه مبطل في دعواه ، ولكن يوافقه مخافه سطوه واعتدائه .

كما رأيناه يعرض لكثير من العقلاء ، إذا حدث رئيس بحضرته بحديث مستحيل ، يوافقه على ذلك الحديث .

ولا يدل الأمر ببناء الصرح على أنه بني ، وقد اختلف في ذلك ، فقيل : بناه ، وذكر من وصفه بما الله أعلم به .

وقيل : لم يبن .

واطلع في معنى : اطلع ، يقال : طلع إلى الجبل واطلع بمعنى واحد ، أي صعد ، فافتعل فيه

بمعنى الفعل المجرد وبغير الحق ، إذ ليس لهم ذلك ، فهم مبطلون في استكبارهم ، حيث ادعى الإلهية ووافقوه على ذلك ؛ والكبرياء في الحقيقة إنما هو لله .

(85/587)

وقرأ حمزة ، والكسائي ، ونافع : لا يرجون ، مبنياً للفاعل ؛ والجمهور : مبنياً للمفعول .

والأرض هنا أرض مصر .

﴿ فنبذناهم في اليم ﴾ : كناية عن إدخالهم في البحر حتى غرقوا ، شبهوا بحصيات .

قذفها الرامي من يده ، ومنه نبذ النواة ، وقول الشاعر :

نظرت إلى عنوانه فنبذته . . .

كنبذك نعلاً من نعالك باليا

وقوم فرعون وفرعون ، وإن ساروا إلى البحر باختيارهم في طلب بني إسرائيل ، فإن ما ضمهم من القدر السابق ، وإغراقهم في البحر ، هو نبذ الله إياهم .

وجعل هنا بمعنى : صير ، أي صيرناهم أئمة قدوة للكفار يقتدون بهم في ضلالتهم ، كما أن للخير أئمة يقتدى بهم ، اشتهروا بذلك وبقي حديثهم .

وقال الزمخشري : وجعلناهم : دعوناهم ، أئمة : دعاة إلى النار ، وقلنا : إنهم أئمة دعاة إلى

النار ، وهو من قولك : جعله بخيلاً وفاسقاً إذا دعاه فقال : إنه بخيل وفاسق .

ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله : جعله بخيلاً وفاسقاً ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ ومعنى دعوتهم إلى النار : دعوتهم إلى موجباتها من الكفر . انتهى .

وإنما فسر جعلناهم بمعنى دعوناهم ، لا بمعنى صيرناهم ، جرياً على مذهبه من الاعتزال ، لأن في تصييرهم أئمة ، خلق ذلك لهم .

وعلى مذهب المعتزلة ، لا يجوّزون ذلك من الله ، ولا ينسبونه إليه ، قال : ويجوز خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر ، ومعنى الخذلان : منع الإلطاف ، وإنما يمنعها من علم أنه لا ينفع فيه ، وهو المصمم على الكفر ، الذي لا تغني عنه الآيات والنذر .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال أيضاً .

﴿ لعنة ﴾ : أي طرداً وإبعاداً ، وعطف يوم القيامة على : ﴿ في هذه الدنيا ﴾ .

﴿ من المقبوحين ﴾ ، قال أبو عبيدة : من الهالكين .

وقال ابن عباس : من المشوهين الخلقة ، لسواد الوجوه وزرقة العيون .

وقيل : من المبعدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(86/587)

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

قاله اللعينُ بعدَ ما جمعَ السَّحرةَ وتصدَّى للمُعارضةِ فكانَ من أمرِهم ما كانَ ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطين ﴾ أي أصنعْ آجرّاً ﴿ فاجعل لّي ﴾ منه ﴿ صَرْحاً ﴾ أي قصراً رفيعاً ﴿ لَّعَلّي أَطَّلِعُ إلى إله موسى ﴾ كأنَّه توهَّم أنَّه لو كان لكان جسماً في السَّماءِ يمكن الرُّقيُّ إليه ثم قال : ﴿ وَإِنّي لاظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ أو أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً يترصَّدُ منه أوضاعَ الكواكبِ فيرى هل فيها ما يدلُّ على بعثةِ رسولٍ وتبدلِ دولتِه . وقيل : المرادُ بنفي العلمِ في المعلومِ كما في قولِه تعالى : ﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السموات وَلاَ فِي الأرض ﴾ فإنَّ معناهُ بما ليس فيهنَّ وهذا من خواصِّ العلومِ الفعليةِ فإنَّها لازمةٌ لتحققِ معلوماتِها فيلزم من انتفائِها انتفاءُ معلوماتِها ولا كذلكَ العلومُ الانفعاليةُ ، قيل أولُ من اتَّخذَ الآجرَّ فرعونُ ولذلك أُمرِ باتخاذِه على وجهٍ يتضمَّنُ تعليمَ الصَّنعةِ مع ما فيهِ من تعظمٍ ، ولذلك نادى هامانَ باسمِه بيا في وسطِ الكلامِ ﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأرض ﴾ أرضِ مصرَ ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ بغيرِ استحقاقٍ ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ بالبعثِ للجزاءِ . وقُرِىء بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ من رجعَ رجُوعاً والأولُ من رجع رجعاً وهو الأنسبُ بالمقامِ .

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ ﴾ عقيبَ ما بلغُوا من الكفرِ والعتُوّ أقصى الغاياتِ ﴿ فنبذناهم فِى اليم ﴾ قد مرّ تفصيلُه وفيه من تفخيمِ شأنِ الأخذِ وتهويلِه واستحقارِ المأخوذينَ المنبوُذينَ ما لا يخفى كأنَّه تعالى أخذَهم مع كثرتهم في كفّ وطرحَهم في البحرِ ، ونظيُره قولُه تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ وبيّنها للنّاسِ ليعتبرُوا بها ﴿ وجعلناهم ﴾ أي صيّرناهم في عهدِهم ﴿ أَئِمَّةً يَدْعُونَ ﴾ النّاسَ ﴿ إِلَى النار ﴾ إلى ما يُؤدّي إليها من الكفرِ والمَعاصي أي قدوةً يَقتدي بهم أَهلُ الضَّلالِ لمَّا صرفُوا اختيارَهم إلى تحصيلِ تلك الحالةِ وقيل سمَّيناهم أئمةً دعاةً إلى النّار كما في قولِه تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ فالأنسبُ حينئذٍ أن يكونَ الجعلُ بعدهم فيما بين الأممِ وتكونَ الدّعوة إلى نفسِ النّارِ وقيل : معنى الجعلِ منعُ الألطافِ الصّارفةِ عن ذلك ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ بدفعِ العذابِ عنهم بوجهٍ من الوجوهِ .

﴿ وأتبعناهم فِى هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً ﴾

طرداً وإبعاداً من الرَّحمةِ ولعناً من اللاعنينَ حيثُ لا يزالُ يلعنُهم الملائكةُ عليهم الصَّلاة والسَّلام والمؤمنون خَلَفاً عن سَلَفٍ ﴿ وَيَوْمَ القيامة هُمْ مّنَ المقبوحين ﴾ من المطرُودينِ المُبعدينَ وقيل من الموسُومين بعلامةٍ منكرةٍ كزرقةِ العُيون وسوادِ الوجهِ قالَه ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما . يُقال قبَّحه الله وقبَحه إذا جعلَه قبيحاً وقال أبُو عُبيدةَ : من المقبُوحين من المُهلكينَ ويومَ القيامةِ إمَّا متعلقٌ بالمقبوحينَ على أنَّ اللامَ للتعريفِ لا بمعنى الذي أو بمحذوفٍ يُفسره ذلك كأنَّه قيل : وقُبحوا يومَ القيامةِ نحو ﴿ لعمِلكم من القالينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(89/587)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مّنْ إله غَيْرِى ﴾

قاله اللعين بعد ما جمع السحرة وتصدى للمعارضة ، والظاهر أنه أراد حقيقة ما يدل عليه كلامه وهو نفي علمه بإله غيره دون وجوده فإن عدم العلم بالشيء لا يدل على عدمه ، ولم يجزم بالعدم بأن يقول : ليس لكم إله غيري مع أن كلاً من هذا وما قاله كذب ، لأن ظاهر قول

موسى عليه السلام له لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر يقتضي أنه كان عالماً بأن إلههم غيره ، وما تركه أوفق ظاهراً بما قصده من تبعيد قومه عن اتباع موسى عليه السلام اختياراً لدسيسة شيطانية وهو إظهار أنه منصف في الجملة ليتوصل بذلك إلى قبولهم ما يقوله لهم بعد في أمر الإله وتسليمهم إياه له اعتماداً على ما رأوا من إنصافه فكأنه قال ما علمت في الأزمنة الماضية لكم إلهاً غيري كما يقول موسى ، والأمر محتمل وسأحقق لكم ذلك .

﴿ فَأَوْقِدْ لِي يا هامان عَلَى الطين ﴾ أي اصنع لي آجراً ﴿ فاجعل لّي ﴾ منه ﴿ صَرْحاً ﴾ أي بناءً مكشوفاً عالياً من صريح الشيء إذا ظهر ﴿ لَّعَلّي أَطَّلِعُ ﴾ أي أطلع وأصعد فأفتعل بمعنى الفعل المجرد كما في "البحر" وغيره .

(90/587)

﴿ إلى إله موسى ﴾ الذي يذكر أنه إلهه وإله العالمين ، كأنه يوهم قومه أنه تعالى لو كان كما يقول موسى لكان جسماً في السماء كون الأجسام فيها يمكن الرقي إليه ثم قال : ﴿ وَإِنّي لاظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ فيما يذكر تأكيداً لما أراد وإعلاماً بأن ترجيه الصعود إلى إله موسى عليه السلام ليس لأنه جازم بأنه هناك ، والأمر بجعل الصرح وبنائه لا يدل على أنه بنى ،

وقد اختلف في ذلك فقيل بناه وذكر من وصفه ما الله عز وجل أعلم به ، وقيل لم يبن وعلى هذا يكون قوله ذلك وأمره للتلبيس على قومه وإيهامه إياهم أنه بصدد تحقيق الأمر ، ويكون ما ذكر ذكراً لأحد طرق التحقيق فيتمكن من أن يقول بعده حققت الأمر بطريق آخر فعلمت أن ليس لكم إله غيري وأن موسى كاذب فيما يقول ، وعلى الأول يحتمل أن يكون صعد الصرح وحده أو مع من يأمنه على سره وبقي ما بقي ثم نزل إليهم فقال لهم : صعدت إلى إله موسى وحققت إن ليس الأمر كما يقول وعلمت أن ليس لكم إله غيري .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : لما بنى له الصرح ارتقى فوقه فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهو متلطخة دماً فقال قتلت إله موسى ، وهذا إن صح من باب التهكم بالفعل ولا أظنه يصح .

وأياً ما كان فالقوم كانوا في غاية الغباوة والجهل وإفراط العماية والبلادة وإلا لما نفق عليهم مثل هذا الهذيان .

ولله تعالى خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص .

ولا يبعد أن يقال كان فيهم من ذوي العقول من يعلم تمويهه وتلبيسه ويعتقد هذيانه فيما يقول إلا أنه نظم نفسه في سلك الجهال ولم يظهر خلافاً لما عليه اللعين بحال من الأحوال وذلك إما للرغبة فيما لديه أو للرهبة من سوطته واعتدائه عليه وكم رأينا عاقلاً وعالماً فاضلاً يوافق لذلك الظلمة الجبابرة ويصدقهم فيما يقولون وإن كان مستحيلاً أو كفراً بالآخرة .

وكان قول اللعين لموسى عليه السلام ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ [الشعراء : 29] بعد هذا القول المحكي ههنا بأن يكون قاله وأردفه بإخبارهم على البت أن لا إله لهم غيره ، ثم هدد موسى بالسجن إن بدا منه ما يشعر بخلافه ، وهذا وجه في الآية لا يخلو عن لطف وإن كان فيه نوع خفاء وفيها أوجه أخر .

الأول أنه أراد بقوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ نفي العلم دون الوجود كما في ذلك الوجه إلا أنه لم ينف الوجود لأنه لم يكن عنده ما يقضي الجزم بالعدم وأراد بقوله إني لأظنه من الكاذبين إني لأظنه كاذباً في دعوى الرسالة من الله تعالى ، وأراد بقوله : يا هامان أوقد لي على الطين الخ إعلام الناس بفساد دعواه تلك بناء على توهمه أنه تعالى إن كان كان في السماء بأنه لو كان رسولاً منه تعالى فهو ممن يصل إليه ، وذلك بالصعود إليه وهو مما لا يقوى عليه الإنسان فيكون من نوع المحال بالنسبة إليه فما بنى عليه وهي الرسالة منه تعالى مثله ، فقوله : ﴿ فاجعل لّى صَرْحاً ﴾ لإظهار عدم إمكان الصعود الموقوف عليه صحة دعوى الرسالة في زعمه ولعل للتهكم .

الثاني : أنه أراد أيضاً نفي العلم بالوجود دون الوجود نفسه لكنه كان في نفي العلم ملبساً

على قومه كاذباً فيه حيث كان يعلم أن لهم إلهاً غيره هو إله الخلق أجمعين ، وهو الله عز وجل وأراد بقوله : ﴿ وَإِنِّى ﴾ الخ إني لأظنه كاذباً في دعوى الرسالة كما في سابقه ، وأراد بقوله يا هامان الخ طلب أن يجعل له ما يزيل به شكه في الرسالة ، وذلك بأن يبني له رصداً في موضع عال يرصد منه أحوال الكواكب الدالة على الحوادث الكونية بزعمه فيرى هل فيها ما يدل على إرسالة الله تعالى إياه .

(92/587)

وتعقب بأنه لا يناسب قوله : ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ إلا أن يراد فأطلع على حكم إله موسى بأوضاع الكواكب والنظر فيها هل أرسل موسى كما يقول أم لا ؟ فيكون الكلام على تقدير مضاف و ﴿ إِلَى ﴾ فيه بمعنى على ، وجوز على هذا الوجه أن يكون قد أراد بإله موسى الكواكب فكأنه قال لعلي أصعد إلى الكواكب التي هي إله موسى فأنظر هل فيها ما يدل على إرسالها إياه أو لعلي أطلع على حكم الكواكب التي هي إله موسى في أمر رسالته وهو كما ترى ، وبالجملة هذا الوجه مما لا ينبغي أن يلتفت إليه .

الثالث : أنه أراد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده وبظنه كاذباً ظنه كاذباً في إثباته إلهاً غيره ويفسر الظن باليقين كما في قول دريد بن الصمة :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج . . .

سراتهم في الفارسي المسرد

فإثبات الظن المذكور لا يدفع إرادة ذلك النفي ، وجوز بعضهم إبقاءه على ظاهره ، وقال في دفع المنافاة : يمكن أن يقال : الظاهر أن كلامه الأول كان تمويهاً وتلبيساً على القوم ، والثاني كان مواضعة مع صاحب سره هامان فإثبات الظن في الثاني لا يدفع أن يكون العلم في الأول لنفي المعلوم ، وفيه أنه يأبى ذلك سوق الآية ، والفاء في فأوقد لي وطلبه بناء الصرح راجياً الصعود إلى إله موسى عليه السلام أراد به التهكم كأنه نسب إلى موسى عليه السلام القول بأن إلهه في السماء فقال : ﴿ فَرْعَوْنُ يا هامان ابن لِى صَرْحاً ﴾ لأصعد إلى إله موسى متهكماً به ، وهذا نظير ما إذا أخبرك شخص بحياة زيد وأنه في داره ، وأنت تعلم خلاف ذلك فتقول لغلامك بعد أن تذكر علمك بما يخالف قوله متهكماً به يا غلام أسرج لي الدابة لعلي أذنب إلى فلان وأستأنس به بل ما قاله فرعون أظهر في التهكم مما ذكر فطلبه بناء الصرح بناء على هذا لا يكون منافياً لما ادعاه أولاً وآخراً من العلم واليقين .

(93/587)

وقال بعضهم : في دفع ما قيل : من المنافاة : إنها إنما تكون لو لم يكن قوله : لعلي أطلع الخ على طريق التسليم والتنزل ، وقال آخر في ذلك : إن اللعين كان مشركاً يعتقد أن من ملك قطراً كان إلهه ومعبود أهله فما أثبته في قوله : ﴿ لَّعَلِّي أَطَّلِعُ ﴾ الخ الإله لغير مملكته وما نفاه إلهها كما يشير إليه قوله لكم ولا يخلو عن بحث .

وفي "الكشاف" القول بالمناقضة بين بناء الصرح وما ادعاه من العلم واليقين إلا أنه قال قد خفيت على قومه لغباوتهم وبلههم أو لم تخف عليهم ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه وإذا فتح هذا الباب جاز إبقاء الظن على ظاهره من غير حاجة إلى دفع التناقض ، والأولى عندي السعي في دفع التناقض فإذا لم يمكن استند في ارتكاب المخذول إياه إلى جهله أو صفهه وعدم مبالاته بالقوم لغباوتهم أو خوفهم منه أو نحو ذلك ، واعترض القول بأنه أراد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده فقال في التحقيق : وذكره غيره أيضاً إنه غير سديد فإن عدم العلم بالشيء لا يدل على عدمه لا سيما عدم علم شخص واحد .

(94/587)

وقال القاضي البيضاوي : هذا في العلوم الفعلية صحيح لأنها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاؤها ولا كذلك العلوم الانفعالية ورد بأن غرض قائل ذلك أن عدم الوجود

سبب لعدم العلم بالوجود في الجملة ولا شك أنه كذلك فأطلق المسبب وأريد السبب لا أن بينهما ملازمة كلية على أنه لما كان من أقوى أسباب عدم العلم لأنه المطرد جاز أن يطلق ويراد به الوجود إذ لا يشترط في فن البلاغة اللزوم العقلي بل العادي والعرفي كاف أيضاً وقد يقول أحد منا لا أعلم ذلك أي لو كان موجوداً لعلمته إذا قامت قرينة وهذا الاستعمال شائع في عرفي العرب والعجم عند العامة والخاصة ومنه قول المزكي : إذا سئل عن عدالة الشهود لا أعلم كيف ، وكان المخذول يدعي الإلهية ، ثم الظاهر أن الكلام على تقدير إرادة نفي الوجود كناية لا مجاز ، وبالجملة ما ذكر وجه وجيه وتعيين الأوجه مفوض إلى ذهنك والله تعالى الموفق .

واستدل بعض من يقول : إن الله تعالى في السماء بالمعنى الذي أراده سبحانه في قوله عز وجل : ﴿ أأمنتم من في السَّمَاء ﴾ [الملك : 16] حسبما يقول السلف بهذه الآية ، ووجه ذلك بأن فرعون لو لم يسمع من موسى عليه السلام أن إلهه في السماء لما قال : فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى فقوله ذلك دليل السماع إلا أنه أخطأ في فهم المراد مما سمعه فزعم أن كونه تعالى في السماء بطريق المظروفية والتمكن ونحوهما مما يكون للأجسام ، وأنت تعلم أن هذا الاستدلال في غاية الضعف وإثبات مذهب السلف لا يحتاج إلى أن يتمسك له بمثل ذلك وفي قول المخذول : أوقد لي على الطين والمراد به اللبن دون اصنع لي آجراً إشارة إلى أن لم يكن لها ما ن علم بصنعة الآجر فأمره باتخاذه على وجه يتضمن التعليم

، وفي الآثار ما يؤيد ذلك ، فقد أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال فرعون أول من أمر بصنعة الآجر وبنائه ، وأخرج هو وجماعة عن قتادة قال بلغني أن فرعون أول من طبخ الآجر وصنع له الصرح .

(95/587)

وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر قال ما علمت إن إحداً بني بالآجر غير فرعون وفي أمره إياه وهو وزيره ورديفه بعمل السفلة من الإيقاد على الطين منادياً له باسمه دون تكنية وتلقيب بيا دون ما يدل على القرب في وسط الكلام دون أوله من الدلالة على تجبره وتعظمه ما لا يخفى .

﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ ﴾ أي رأوا كل م سواهم حقيراً بالإضافة إليهم ولم يروا العظمة والكبرياء إلا لأنفسهم فنظروا إلى غيرهم نظر الملوك إلى العبيد ﴿ فِى الأرض ﴾ الأكثرون على أن المراد في أرض مصر ، وقيل : المراد بها الجرم المعروف المقابل للسماء ، وفي التقييد بها تشنيع عليهم حيث استكبروا فيما هو أسفل الإجرام وكان اللائق بهم أن ينظروا إلى محلهم وتسفله فلا يستكبروا ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ أي بغير الاستحقاق لما أن رؤيتهم تلك باطلة ولا تكون رؤية الكل حقيراً بالإضافة إلى الرائي ورؤية العظمة والكبرياء لنفسه على

الخصوص دون غيره حقاً إلا من الله عز وجل ، ومن هنا قال الزمخشري ؛ الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى وكل مستكبر سواه عز وجل فاستكباره بغير الحق ، وفي الحديث القدسي " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحد منهما ألقيته في النار " ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث للجزاء ، والظن قيل : إما على ظاهره أو عبر عن اعتقادهم به تحقيراً لهم وتمهيلاً ، وقرأ حمزة .

والكسائي .

ونافع ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم .

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِي اليم ﴾ أي ألقيناهم وأغرقناهم فيه ، وقد مر تفصيل ذلك ، وفي التعبير بالنبذ وهو إلقاء الشيء الحقير وطرحه لقلة الاعتداد به ولذلك قال الشاعر :

نظرت إلى عنوانه فنبذته . . .

كنبذك نعلاً من نعالك باليا

(96/587)

استحقار لهم ، وفي الكلام على ما قيل استعارة مكنية وتخييلية وذلك أنهم شبهوا في الحقارة بنعال بالية واستعير لهم اسم النعال ثم حذف المستعار وبقي المستعار له وجعل النبذ قرينة على أنه حقيقة والمجاز في التعلق على نحو ما قيل في أظفار المنية نشبت بفلان ، وقال بعضهم : الأخذ وهو حقيقة في التناول مجاز عن خلق الداعية لهم إلى السير إلى البحر ، والنبذ مجاز عن خلق الداعية لهم إلى دخوله ، وفي "البحر" أنه كناية عن إدخالهم فيه والأولى أن يكون الكلام من باب التمثيل كأنه عز وجل فيما فعل بهم أخذهم مع كصرتهم في كف وطرحهم في اليم ، والظاهر أن الفاء الأولى سببية وليست لمجرد التعقيب وأما الثانية فللتعقيب إذا أبقى الأخذ على معنى التناول أو أريد به خلق الداعية إلى السير أو نحوه أما إذا أريد به الإهلاك فهي للتفسير كما في ﴿ فاستجبنا له فنجيناه ﴾ [الأنبياء : 76] ونحوه ﴿ فانظر ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ وبينها للناس ليعبروا بها .

(97/587)

﴿ وجعلناهم ﴾ أي خلقناهم ﴿ أَئِمَّةَ ﴾ قدوة للضلال بسبب حملهم لهم على الضلال كما يؤذن بذلك قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ أي إلى موجباتها من الكفر والمعاصي على أن النار مجاز عن ذلك أو على تقدير مضاف والمراد جعلهم ضالين مضلين والجعل هنا

مثله في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] والآية ظاهرة في مذهب أهل السنة من أن الخير والشر مخلوقان لله عز وجل وأولها المعتزلة تارة بأن الجعل فيها بمعنى التسمية مثله في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف : 19] أي وسميناهم فيما بين الأمم بعدهم دعاة إلى النار ، وتارة بأن جعلهم كذلك بمعنى خذلانهم ومنعهم من اللطف والتوفيق للهداية والأولى محكي عن الجبائي والثاني عن الكعبي ، وعن أبي مسلم أن المراد صيرناهم بتعجيل العذاب لهم أئمة أي متقدمين لمن وراءهم من الكفرة إلى النار وهذا في غاية التعسف كما لا يخفى ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه .

﴿ وأتبعناهم ﴾ ﴿ فِى هذه الدنيا ﴾ التي فتنتهم ﴿ لَّعْنَةً ﴾ طرداً وإبعاداً أو لعناً من اللاعنين حيث لا تزال الملائكة عليهم السلام تلعنهم وكذا المؤمنون خلفاً عن سلف وذلك إما بدخولهم في عموم من يلعنونهم من الظالمين وإما بالتنصيص عليهم نحو لعن الله تعالى فرعون وجنوده ﴿ وَيَوْمَ القيامة هُمْ مّنَ المقبوحين ﴾ من المطرودين المبعدين يقال : قبحه الله تعالى بالتخفيف أي نحاه وأبعده عن كل خير كما قال الليث ، ولا يتكرر مع اللعنة المذكورة قيل : لأن معناها الطرد أيضاً لأن ذلك في الدنيا وهذا في الآخرة أو ذاك طرد عن رحمته التي في الدنيا وهذا طرد عن الجنة أو على هذا يراد باللعنة فيما تقدم ما تأخر مع أن

المطرودين معناه أنهم من الزمرة المعروفين بذلك وهو أبلغ وأخص ، وقال أبو عبيدة . والأخفش .

(98/587)

من المقبوحين أي من المهلكين ، وعن ابن عباس أي من المشوهين في الخلقة بسواد الوجود وزرقة العيون وهذا المعنى هو المتبادر إلا أن فيه أن فعل قبح عليه لازم فبناء اسم المفعول منه غير ظاهر ، وقد يقال : إذا صح هذا التفسير عن ابن عباس التزم القول بأنه سمع أيضاً ، وجوز أن يكون ذلك تفسيراً بما هو لازم في الجملة ، ويوم القيامة متعلق بالمقبوحين أو بمحذوف يفسره ذلك على ما علمت آنفاً في نظيره ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ، وعبد بن حميد عن قتادة ما هو ظاهر في أنه معطوف على هذه الدنيا وهو عطف على المحل والمروى عن ابن جريج أظهر في ذلك وكلاهما في "الدر المنثور" ، والظاهر ما سمعته أولاً .

وهذه الآية أظهر دليل على عدم نجاة فرعون يوم القيامة وأنه ملعون مبعد عن رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة فإن ضمائر جمع الغائب فيها راجعة إلى فرعون وجنوده ويكاد ينتظم من التزم إرجاعها إلى الجنود في الجنود ، وفي "الفتاوي الحديثية" للعلامة ابن حجر

روى عدي ، والطبراني عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال : " خلق الله تعالى يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً وخلق فرعون في بطن أمه كافر " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(99/587)

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : الأرواح كلها برزت من عالم العز والكبرياء ، وهو عالم الجبروت ، فما هبطت إلى عالم الأشباح ، وكلفت بالعبودية ، وبالخضوع لقهرية الربوبية ، شق عليها ، ونفرت من التواضع والذل ، وبطشت إلى أصلها ؛ لأنها من عالم العز ، فبعث الله الرسل ومشايخ التربية يدلونها على ما فيه سعادتها . من الذل والتواضع والخضوع للحق ، حتى تصل إلى الحق ، فمن سبق له الشقاء ؛ أنف ، وقال : ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، واستكبر وطغى ، فغرق في بحر الردى . ومن سبقت له السعادة ؛ تواضع ، وذل لعظمة مولاه ، فوصله إلى العز الدائم ، في حضرة جماله وسناه . ولذلك قيل : للنفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون ، حيث قال : أنا ربكم الأعلى . وهذه الخاصية هي

أصل نشأتها وبروزها ، حيث برزت من عالم الجبروت ؛ قال تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ولكن لم يفتح لها الباب إلا من جهة العبودية والذل والافتقار ، كما قال الشاعر :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى ؛ لِتَكْسِبَ عِزَّةً . . . فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا المَرْءُ بِالذُّلِّ

إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوى عَزِيزاً ، وَلَمْ تَكُنْ . . . ذَلِيلاً لَهُ ، فَاقْرَ السَّلامَ على الْوَصْلِ

ولا يرضى المحبوب من المحب إلا الأدب ، وهو التذلل والخضوع ، كما قائل القائل :

أَدَبُ الْعَبْدِ تَذَلُّلٌ . . . وَالْعَبْدُ لا يَدَعُ الأَدَبْ

فَإِذَا تَكَامَلَ ذُلُّهُ ؛ . . . نَالَ الْمَوَدَّةَ ، وَاقْتَرَبْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 4 صـ 254.253 ﴾

(100/587)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

كلام فرعون المحكي هنا واقع في مقام غير مقام المحاورة مع موسى فهو كلام أقبل به على خطاب أهل مجلسه إثر المحاورة مع موسى فلذلك حُكي بحرف العطف عطف القصة على القصة .

فهذه قصة محاورة بين فرعون وملئه في شأن دعوة موسى فهي حقيقة بحرف العطف كما لا يخفى .

أراد فرعون بخطابه مع ملئه أن يثبتهم على عقيدة إلهيته فقال ﴿ ما علمتُ لكم من إله غيري ﴾ إبطالا لقول موسى المحكي في سورة [الشعراء : 26] ﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وقوله هناك ﴿ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ [الشعراء : 24] .

فأظهر لهم فرعون أن دعوة موسى لم تَرُجْ عنده وأنه لم يصدق بها فقال ﴿ ما علمت لكم من إله غيري .

والمراد بنفي علمه بذلك نفي وجود إله غيره بطريق الكناية يريهم أنه أحاط علمه بكل شيء حق فلو كان ثمة إله غيره لعلمه .

والمقصود بنفي وجود إله غيره نفي وجود الإله الذي أثبته موسى وهو خالق الجميع .

وأما آلهتهم التي يزعمونها فإنها مما تقتضيه إلهية فرعون لأن فرعون عندهم هو مظهر الآلهة المزعومة عندهم لأنه في اعتقادهم ابن الآلهة وخلاصة سرهم ، وكل الصيد في جوف الفرا .

وحيث قال موسى إن الإله الحق هو رب السموات فقد حسب فرعون أن مملكة هذا الرب السماء تصوراً مختلاً ففرع على نفي إله غيره وعلى توهم أن الرب المزعوم مقره السماء أن

أمر ﴿ هامان ﴾ وزيره أن يبني له صرحاً يبلغ به عنان السماء ليرى الإله الذي زعمه موسى حتى إذا لم يجده رجع إلى قومه فأثبت لهم عدم إله في السماء إثبات معاينة ، أراد أن يظهر لقومه في مظهر المتطلب للحق المستقصي للعوالم حتى إذا أخبر قومه بعد ذلك بأن نتيجة بحثه أسفرت عن كذب موسى ازدادوا ثقة ببطلان قول موسى عليه السلام .

(101/587)

وفي هذا الضغث من الجدل السفسطائي مبلغ من الدلالة على سوء انتظام تفكيره وتفكير ملئه ، أو مبلغ تحيله وضعف آراء قومه .

و ﴿ هامان ﴾ لقب أو اسم لوزير فرعون كما تقدم آنفاً .

وأراد بقوله ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ أن يأمر ﴿ هامان ﴾ العملة أن يطبخوا الطين ليكون آجراً ويبنوا به فكني عن البناء بمقدماته وهي إيقاد الأفران لتجفيف الطين المتخذ آجراً .

والآجرّ كانوا يبنون به بيوتهم فكانوا يجعلون قوالب من طين يتصلب إذا طبخ وكانوا يخلطونه بالتبن ليتماسك قبل إدخاله التنور كما ورد وصف صنع الطين في الإصحاح الخامس من سفر الخروج .

وابتدأ بأمره بأول أشغال البناء للدلالة على العناية بالشروع من أول أوقات الأمر لأن ابتداء البناء يتأخر إلى ما بعد إحضار مواده فلذلك أمره بالأخذ في إحضار تلك المواد التي أولها الإيقاد ، أي إشعال التنانير لطبخ الآجرّ .

وعُبر عن الآجرّ بالطين لأنه قوام صنع الآجرّ وهو طين معروف .

وكأنه لم يأمره ببناء من حجر وكلس قصداً للتعجيل بإقامة هذا الصرح المرتفع إذ ليس مطلوباً طول بقائه بإحكام بنائه على مرّ العصور بل المراد سرعة الوصول إلى ارتفاعه كي يشهده الناس ، ويحصل اليأس ثم يُنقض من الأساس .

وعدل عن التعبير بالآجرّ ، قال ابن الأثير في "المثل السائر" : لأن كلمة الآجرّ ونحوها كالقرمد والطوب كلمات مبتذلة فذكر بلفظ الطين أ هـ .

وأظهر من كلام ابن الأثير : أن العدول إلى الطين لأنه أخف وأفصح .

وإسناد الإيقاد على الطين إلى هامان مجاز عقلي باعتبار أنه الذي يأمر بذلك كما يقولون : بنى السلطان قنطرة وبنى المنصور بغداد .

وتقدم ذكر هامان آنفاً وأنه وزير فرعون .

وكانت أوامر الملوك في العصور الماضية تصدر بواسطة الوزير فكان الوزير هو المنفذ لأوامر الملك بواسطة أعوانه من كتاب وأمراء ووكلاء ونحوهم ، كل فيما يليق به .

والصرح : القصر المرتفع ، وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ في سورة [النمل : 44] .

ورجا أن يصل بهذا الصرح إلى السماء حيث مقر إله موسى .

وهذا من فساد تفكيره إذ حسب أن السماء يوصل إليها بمثل هذا الصرح ما طال بناؤه ، وأن الله مستقر في مكان من السماء .

والاطلاع : الطلوع القوي المتكلف لصعوبته .

وقوله ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ استعمل فيه الظن بمعنى القطع فكانت محاولته الوصول إلى السماء لزيادة تحقيق ظنه ، أو لأنه أراد أن يقنع قومه بذلك .

ولعله أراد بهذا تمويه الأمر على قومه ليلقي في اعتقادهم أن موسى ادعى أن الله في مكان معين يبلغ إليه ارتفاع صرحه .

ثم يجعل عدم العثور على الإله في ذلك الارتفاع دليلاً على عدم وجود الإله الذي ادعاه موسى .

وكانت عقائد أهل الضلالة قائمة على التخيل الفاسد ، وكانت دلائلها قائمة على تمويه الدجالين من زعمائهم .

وقوله ﴿ من الكاذبين ﴾ يدل على أنه يعده من الطائفة الذين شأنهم الكذب كما تقدم في

قوله تعالى ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ [البقرة : 67] .

ولم يذكر القرآن أن هذا الصرح بُني ، وليس هو أحد الأهرام لأن الأهرام بنيت من حجارة لا من آجرّ ، ولأنها جعلت مدافن للذين بنوها من الفراعنة .

واختلف المفسرون هل وقع بناء هذا الصرح وتم أو لم يقع ؛ فحكى بعضهم أنه تم وصعد فرعون إلى أعلاه ونزل وزعم أنه قتل رب موسى .

وحكى بعضهم أن الصرح سقط قبل إتمام بنائه فأهلك خلقاً كثيراً من عملة البناء والجند .

وحكى بعضهم أنه لم يشرع في بنائه .

وقد لاح لي في معنى الآية وجه آخر سأذكره في سورة المؤمن .

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)

الاستكبار : أشد من الكبر ، أي تكبر تكبراً شديداً إذ طمع في الوصول إلى الرب العظيم وصول الغالب أو القرين .

و﴿ جنوده ﴾ : أتباعه .

(103/587)

فاستكباره هو الأصل واستكبار جنوده تبع لاستكباره لأنهم يتّبعونه ويتلقون ما يمليه عليهم من العقائد .

و﴿ الأرض ﴾ يجوز أن يراد بها المعهودة ، أي أرض مصر وأن يراد بها الجنس ، أي في عالم الأرض لأنهم كانوا يومئذ أعظم أمم الأرض .

وقوله ﴿ بغير الحق ﴾ حال لازمة لعاملها إذ لا يكون الاستكبار إلا بغير الحق .

وقوله ﴿ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ معلوم بالفحوى من كفرهم بالله ، وإنما صرح به لأهمية إبطاله فلا يكتفى فيه بدلالة مفهوم الفحوى ، ولأن في التصريح به تعريضاً بالمشركين في أنهم وإياهم سواء فليضعوا أنفسهم في أي مقام من مقامات أهل الكفر ، وقد كان أبو جهل يلقب عند المسلمين بفرعون هذه الأمة أخذاً من تعريضات القرآن .

ومعنى ذلك : ظنوا أن لا بعث ولا رجوع لأنهم كفروا بالمرجوع إليه .

فذكر ﴿ إلينا ﴾ لحكاية الواقع وليس بقيد فلا يتوهم أنهم أنكروا البعث ولم ينكروا وجود الله مثل المشركين .

وتقديم ﴿ إلينا ﴾ على عامله لأجل الفاصلة .

ويجوز أن يكون المعنى : وظنوا أنهم في منعة من أن يرجعوا في قبضة قدرتنا كما دل عليه قوله في سورة [الشعراء : 24 - 25] ﴿ قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون ﴾ استعجاباً من ذلك .

وعلى هذا الاحتمال فالتعريض بالمشركين باق على حاله فإنهم ظنوا أنهم في منعة من الاستئصال فقالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [الأنفال : 32] .

قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ لا يرجعون ﴾ بفتح ياء المضارعة من (رجع) .

وقرأه الباقون بضمها من (أرجع) إذا فعل به الرجوع .

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)

(104/587)

أي ظنوا أنهم لا يرجعون إلينا فعجلنا بهلاكهم فإن ذلك من الرجوع إلى الله لأنه رجوع إلى حكمه وعقابه ، ويعقبه رجوع أرواحهم إلى عقابه ، فلهذا فرع على ظنهم ذلك الإعلام بأنه أخذ وجنوده .

وجعل هذا التفريع كالاعتراض بين حكاية أحوالهم .

وجعل في "الكشاف" هذا من الكلام الفخم لدلالته على عظمة شأن الله إذ كان قوله ﴿ فنبذناهم في اليم ﴾ يتضمن استعارة مكنية : شبه هو وجنوده بحصيات أخذهن في كفه فطرحهن في البحر .

وإذا حمل الأخذ على حقيقته كان فيه استعارة مكنية أيضاً لأنه يستتبع تشبيهاً بقبضة تؤخذ باليد كقوله تعالى ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ [الحاقة : 14] وقوله ﴿ والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ﴾ [الزمر : 67] .

ويجوز أن يجعل جميع ذلك استعارة تمثيلية كما لا يخفى .

وقوله ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ اعتبار بسوء عاقبتهم لأجل ظلمهم أنفسهم بالكفر وظلمهم الرسول بالاستكبار عن سماع دعوته .

وهذا موضع العبرة من سوق هذه القصة ليعتبر بها المشركون فيقيسوا حال دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بحال دعوة موسى عليه السلام ويقيسوا حالهم بحال فرعون وقومه ، فيوقنوا بأن ما أصاب فرعون وقومه من عقاب سيصيبهم لا محالة .

وهذا من جملة محل العبرة بهذا الجزء من القصة ابتداء من قوله تعالى ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ﴾ [القصص : 36] ليعتبر الناس بأن شأن أهل الضلالة واحد فإنهم يتلقون دعاة الخير بالإعراض والاستكبار واختلاق المعاذير فكما قال فرعون وقومه ﴿ ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [القصص : 36] قالت قريش ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾ [الأنبياء : 5] ، وقالوا ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ [ص : 7] أي التي أدركناها .

وكما طمع فرعون أن يبلغ إلى الله استكباراً منه في الأرض سأل المشركون ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ [الفرقان : 21] وظنوا أنهم لا يرجعون إلى الله كما ظن أولئك فيوشك أن يصيبهم من الاستئصال ما أصاب أولئك .

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41)

عطف على جملة ﴿ واستكبر هو وجنوده ﴾ [القصص : 39] أي استكبروا فكانوا ينصرون الضلال ويبثونه ، أي جعلناه وجنوده أئمة للضلالة المفضية إلى النار فكأنهم يدعون إلى النار فكل يدعو بما تصل إليه يده ؛ فدعوة فرعون أمره ، ودعوة كهنته باختراع قواعد الضلالة وأوهامها ، ودعوة جنوده بتنفيذ ذلك والانتصار له .

والأيمة : جمع إمام وهو من يقتدى به في عمل من خير أو شر قال تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ [الأنبياء : 73] .

ومعنى جعلهم أئمة يدعون إلى النار : خلق نفوسهم منصرفة إلى الشر ومعرضة عن الإصغاء للرشد وكان وجودهم بين ناس ذلك شأنهم .

فالجعل جعل تكويني بجعل أسباب ذلك ، والله بعث إليهم الرسل لإرشادهم فلم ينفع ذلك فلذلك أصروا على الكفر .

والدعاء إلى النار هو الدعاء إلى العمل الذي يوقع في النار فهي دعوة إلى النار بالمآل .

وإذا كانوا يدعون إلى النار فهم من أهل النار بالأحرى فلذلك قال ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ أي لا يجدون من ينصرهم فيدفع عنهم عذاب النار .

ومناسبة عطف ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ هي أن الدعاء يقتضي جنداً وأتباعاً يعتزون بهم في الدنيا ولكنهم لا يجدون عنهم يوم القيامة ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ﴾ [البقرة : 167] .

وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

(106/587)

إتباعهم باللعنة في الدنيا جعل اللعنة ملازمة لهم في علم الله تعالى ؛ فقدر لهم هلاكاً لا رحمة فيه ، فعبر عن تلك الملازمة بالاتباع على وجه الاستعارة لأن التابع لا يفارق متبوعه ، وكانت تلك عاقبة تلك اللعنة إلقاءهم في اليم .

ويجوز أن يراد باللعنة لعن الناس إياهم ، يعني أن أهل الإيمان يلعنونهم .

وجزاؤهم يوم القيامة أنهم ﴿ من المقبوحين ﴾ ، والمقبوح المشتوم بكلمة (قبح) ، أي قبحه الله أو الناس ، أي جعله قبيحاً بين الناس في أعماله أي مذموماً ، يقال : قبحه

بتخفيف الباء فهو مقبوح كما في هذه الآية ويقال : قبّحه بتشديد الباء إذا نسبه إلى القبيح فهو مقبّح ، كما في حديث أم زرع مما قالت العاشرة : "فعنده أقول فلا أقبّح" أي فلا يجعل قولي قبيحاً عنده غير مرضي .

والإشارة إلى الدنيا بـ ﴿ هذه ﴾ لتهوين أمر الدنيا بالنسبة للآخرة .

والتخالف بين صيغتي قوله ﴿ وأتبعناهم ﴾ وقوله ﴿ هم من المقبوحين ﴾ ، لأن اللعنة في الدنيا قد انتهى أمرها بإغراقهم ، أو لأن لعن المؤمنين إياهم في الدنيا يكون في أحيان يذكرونهم ، فكلا الاحتمالين لا يقتضي الدوام فجيء معه بالجملة الفعلية .

وأما تقبيح حالهم يوم القيامة فهو دائم معهم ملازم لهم فجيء في جانبه بالاسمية المقتضية الدوام والثبات .

وضمير ﴿ هم ﴾ في قوله ﴿ هم من المقبوحين ﴾ ليس ضمير فصل ولكنه ضمير مبتدأ وبه كانت الجملة اسمية دالة على ثبات التقبيح لهم يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(107/587)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

خشي فرعون من كلام موسى على قومه ، وتصوَّر أنه سيحدث لهم كما نقول (غسيل مخ) فأراد أن يُذكِّرهم بألوهيته ، وأنه لم يتأثر بما سمع من موسى ﴿ يا أَيُّهَا الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي . . . ﴾ [القصص : 38] يعني : إياكم أنْ تصدّقوا كلام موسى ، فأنا إلهكم ، وليس لكم إله غيري .

ثم يؤكد هذه الألوهية فيقول لهامان وزيره : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين فاجعل لِّي صَرْحاً لعلي أَطَّلِعُ إلى إله موسى . . . ﴾ [القصص : 38] وفي موضع آخر قال : ﴿ ياهامان ابن لِي صَرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسباب * أَسْبَابَ السماوات فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى . . . ﴾ [غافر : 36 – 37] .

وكأنه يريد أن يُرضي قومه ، فها هو يريد أنْ يبحث عن الإله الذي يدَّعيه موسى ، وكأنه إنْ بنى صرحا واعتلاه سيرى رب موسى ، لكن هل بنى له هامان هذا الصرح ؟ لم يَبْن له شيئاً ، مما يدل على أن المسألة هَزْل في هَزْل ، وضحك على القوم الذين استخفّهم ولعِب بعقولهم .

وإلا ، فما حاجتهم لحرق الطين ليصير هذه القوالب الحمراء التي نراها ونبني بها الآن وعندهم الحجارة والجرانيت التي بنَوْا بها الأهرامات وصنعوا منها التماثيل ؟ وعملية

حَرْق الطين تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد ، إذن : المسألة كسب الوقت من الخَصْم ، وتخدير الملأ من قومه .

وقوله : ﴿ لعلي أَطَّلِعُ إلى إله موسى . . . ﴾ [القصص : 38] وقبل أنْ يصل إلى حكم فيرى إله موسى أو لا يراه ، يبادر بالحكم على موسى ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ [القصص : 38] ؛ ليصرف ملأه عن كلام موسى .

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39)

(108/587)

أي : تكبروا دون حق ، وبغير مبررات للكِبْر ، فليس لديهم هذه المبررات ؛ لأن الإنسان يتكبَّر حين تكون عظمَته ذاتية فيه ، أمّا العظمة المخلوقة لك من الغير فلا تتكبر بها ، مَنْ يتكبر يتكبَّر بشيء ذاتي فيه ، كما يقولون (اللي يخرز يخرز على وركه) .

وكذلك في دواعي الكِبْر الأخرى : الغِنَى ، القوة ، الجاه ، والسلطان . . . إلخ .

لذلك يكره الله تعالى المتكبرين ، ويقول في الحديث القدسي : " الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما أدخلته جهنم " .

والكبرياء والعظمة صفة جلال وجمال لله تعالى تجعل الجميع أمام كبرياء الله سواء ، فلا

يتكبَّر أحد على أحد (ونرعى جميعاً مساوي) في ظل كبرياء الله الذي يحمي تواضعنا ، فلو تكبَّر أحدنا على الآخر لتكبَّر بشيء موهوب له ، ليس ذاتياً فيه ؛ لذلك ينتصر الله لمن تكبَّرت عليه ، ويجعله أعلى منك ، وعندنا في الأرياف يقولون : (اللي يرمي أخاه بعيب لن يموت حتى يراه في نفسه) .

والمتكبّر في الحقيقة ناقصُ الإيمان ؛ لأنه لا يتكبَّر إلا حين يرى الناس جميعاً دونه ، ولو أنه استحضر كبرياء خالقه لاستحيا أنْ يتكبَّر أمامه ، وهكذا كان استكبار فرعون وجنوده في الأرض بغير حق .

أما إنْ كان الاستكبار من أجل حماية الضعيف ليعيش في ظلاله فهو استكبار بحق ؛ لذلك نقول حين يصف الحق – تبارك وتعالى – نفسه بأنه العظيم المتكبّر نقول : هذا حق . لأنه حماية لنا جميعا من أنْ يتكبَّر بعضنا على بعض .

وقوله تعالى : ﴿ وظنوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 39] فاستكبارهم في الأرض جاء نتيجة ظنهم بأنهم لن يرجعوا إلى الله ، وأنه تعالى خلقهم ورزقهم ، ثم تفلَّتوا منه ، ولن يعودوا إليه ، لكن هيهات ، لا بُدَّ – كما نقول – لهم رَجْعة .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾

كأن الحق سبحانه لم يُمهلهم إلى أن يعودوا إليه يوم القيامة ، إنما عاجلهم بالعذاب في الدنيا قبل عذاب الآخرة ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ . . ﴾ [القصص : 40] أي : جميعاً في قبضة واحدة ، التابع والمتبوع ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم ﴾ [القصص : 40] ألقينا بهم في البحر ، وهذا الأخذ الذي يشمل الجميع في قبضة واحدة يدلُّ على قدرة الآخذ ، وهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله القوي العزيز .

كما قال سبحانه : ﴿ وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : 102] .

ولم يُوصَف أخْذ الإنسان بالقوة إلا في قوله تعالى يحثُّنا على أنْ نأخذ مناهج الخير بقوة : ﴿ خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ . . . ﴾ [البقرة : 93] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾ [القصص : 40] أي : نهايتهم وقد جاءت عجيبة من عجائب الزمن وآية من آيات الله ، فالبحر والماء جُنْد من جنود الله ، تنصر الحق وتهزم الباطل ، وقد ذكرنا كيف أنجى الله موسى – عليه السلام – وأهلك فرعون بالشيء الواحد حين أمر الله موسى أنْ يضرب بعصاه البحر ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم .

فلما أنْ جازه موسى وقومه إلى الناحية الأخرى أراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ؛ ليعود

الماء إلى سيولته واستطراقه فيصُحّح الله له ويأمره أنْ يدَعَهُ على حاله ، فالحق – تبارك – وتعالى – يتابع نبيه موسى خُطْوة بخطوة كما قال له : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] .

وحاشا لله أن يُكلّفه بأمر ثم يتركه ، ولما رأى فرعون الطريق اليابس أمامه عبر بجنوده ، فأطبقه الله عليهم ، فصاروا آية وعبرة ، كما قال سبحانه : ﴿ فاليوم نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً . . . ﴾ [يونس : 92] .

وتأمَّلْ قدرة الله التي أنجَتْ موسى من الغرق ، وقد ألقَتْه أمه بيديها في الماء ، وأغرقتْ فرعون .

(110/587)

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41)

أئمة : جمع إمام ، وهو مَنْ يُؤتَم به ، والمأموم أسيرُ إمامه ، فلو كنا في الصلاة لا نركع حتى يركع ، ولا نرفع حتى يرفع ، فمتابعتنا له واجبة ، فإنْ أخطأ وجب على المأموم أنْ يُنبّهه وأن يُذكّره يقول له : سبحان الله ، تنبه لخطأ عندك ، إذن : نحن مأمومون له في الحق فقط ، فإنْ أخطأ عدّلْنا له .

والإمام أُسْوة وقدوة للمأمومين في الخير ومنهج الحق ، كما قال تعالى في حَقّ نبيه إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . . ﴾ [البقرة : 124] .

وعندها أراد إبراهيم عليه السلام أنْ تظلَّ الإمامة في ذريته من بعده ، فقال ﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي . . . ﴾ [البقرة : 124] فصحَّح الله له وأعلمه أن الإمامة لا تكون إلا في أهل الخير ﴿ قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] .

لذلك لما دعا نوح – عليه السلام – ربه : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي . . . ﴾ [هود : 45] صحح الله له ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . . . ﴾ [هود : 46] .

إذن : أهلية النبوة وأهلية الإمامة عمل وسلوك لا قرابة ولا نَسَب .

وقد تكون الإمامة في الشر ، كهذه التي نتحدث عنها : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار . . . ﴾ [القصص : 41] فهم أُسْوة سيئة وقدوة للشر ، وقد جاء في الحديث الشريف : " من سَنَّ سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة " .

(111/587)

ويقول تعالى في أصحاب القدوة السيئة : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . ﴾ [النحل : 25] .

فكان فرعون وملؤه أسوة في الشر ، وأسوة في الضلال والإرهاب والجبروت ، وكذلك سيكونون في الآخرة أئمة وقادة ، لكن إلى النار ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ [القصص : 41] .

قوله تعالى : ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُم . . . ﴾ [القصص : 42] يعني : جعلنا من خلفهم : ﴿ فِي هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً . . . ﴾ [القصص : 42] فكل مَنْ ذكرهم في الدنيا يقول : لعنهم الله ، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيتْ الدنيا ، وهذا اللعْن والطرد من رحمة الله ليس جزاء أعمالهم ، إنما هو مقدمة لعذاب بَاقٍ وخالد في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . . ﴾ [الطور : 47] .

﴿ وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِّنَ المقبوحين ﴾ [القصص : 42] مادة : قبح ، تقول للشرير : قبَّحك الله ، أي : طردك وأبعدك عن الخير . ولها استعمال آخر : تقول : قَبَحْتُ الدُّمل أي : فتحته ونكأته قبل نُضْجه فيخرج منه الدم مع الصديد ويشوه مكانه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الدُّمَّل إذا تركته للصيدلية الربانية في جسمك حتى يندمل بمناعة الجسم ومقاومته تجده لا يترك أثراً ، أما إنْ تدخلت فيه بالأدوية والجراحة ، فلا بُدَّ أنْ يترك أثراً ، ويُشوِّه المكان .

ويكون المعنى إذن : ﴿ هُمْ مِّنَ المقبوحين ﴾ [القصص : 42] أي : الذين تشوَّهَتْ وجوههم بعد نعومة الجلد ونضارته ، وقد عبَّر القرآن عن هذا التشويه بصور مختلفة .

يقول تعالى : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : 40-41] .

ويقول سبحانه ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ . . . ﴾ [آل عمران : 106] .

(112/587)

ويقول : ﴿ وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمَئِذٍ زُرْقاً ﴾ [طه : 102] .

ومعلوم أن زُرْقة الجسم لا تأتي إلا نتيجة ضربات شديدة وكدَمات تُحدِث تفاعلات ضارة تحت الجلد ، فتُسبِّب زُرْقته ، وكذلك زُرْقة العين ، ومن أمراض العيون المياه الزرقاء ، وهي أخطر من البيضاء .

لذلك يقول الشاعر :

وَلِلْبخيلِ عَلَى أَمْواله عِلَلٌ . . . زُرْق العُيونِ عَلَيْها أَوْجُه سُودُ

لأنه حريص على أمواله ولا يريد إنفاقها .

ويُستخدم اللون الأزرق للتبشيع والتخويف ، وقد كانوا في العصور الوسطى يَطْلُون وجوه الجنود باللون الأزرق لإخافة الأعداء وإرهابهم ، وتعارف الناس أنه لَوْن الشيطان ؛ لذلك

نقول في لغتنا العامية (العفاريت الزرق) ونقول في الذم : (فلان نابه أزرق) .

ويقول الشاعر :

أَيَقْتُلِني والْمشرَفِيُّ مُضاجِعي . . . ومَسْنُونَة زُرْقٌ كأَنْيابِ أغْوالِ

أما السواد فيقُصد به الوجه المشوّه المنفِّر ، وإلا فالسواد لا يُذَم في ذاته كلون ، وكثيرا ما نرى صاحب البشرة السوداء يُشع جاذبية وبشاشة ، بحيث لا تزهد في النظر إليه ، ومعلوم أن الحُسْن لا لونَ له .

والله تعالى يَهبُ الحُسْن والبشاشة ويُشِعّهما في جميع الصور . وقد ترى للون الأسود في بعض الوجوه أَسْراً وإشراقاً ، وترى صاحب اللون الأبيض كالحاً ، لا حيوية فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(113/587)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قال فرعون ﴿ يا أيها الملأ ما

علمت لكم من إله غيري ﴾ قال جبريل عليه السلام : يا رب طغى عبدك فائذن لي في هلاكه قال : يا جبريل هو عبدي ولن يسبقني له أجل قد اجلته حتى يجيء ذلك الأجل . فلما قال ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] قال : يا جبريل قد سكنت روعتك . بغى عبدي وقد جاء أوان هلاكه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كلمتان قالهما فرعون ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وقوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ قال : كان بينهما أربعون عاماً ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ [النازعات : 26] " .

أما قوله تعالى : ﴿ فأوقد لي يا هامان ﴾ الآية .

أخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر قال : حدثنا أسد عن خالد بن عبد الله عن محدث حدثه قال : كان هامان نبطياً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ قال على المدر يكون لبناً مطبوخاً .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : بلغني أن فرعون أول من طبخ الآجر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان فرعون أول من طبخ الآجر ، وصنع له الصرح .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : فرعون أول من صنع الآجر وبنى به .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ قال : أوقد على الطين حتى يكون آجراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : لما بنوا له الصرح ارتقى فوقه ، فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء ، فردت إليه وهي متلطخة دماً فقال : قتلت إله موسى .

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)

(114/587)

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فنبذناهم في اليم ﴾ قال : في البحر . بحر يقال له ساف من وراء مصر غرقهم الله فيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ قال : جعلهم الله أئمة يدعون إلى المعاصي .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ لعنة أخرى ، ثم استقبل فقال ﴿ هم من المقبوحين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة

ويوم القيامة ﴾ قال : لعنوا في الدنيا والآخرة هو كقوله ﴿ وأتبعناهم في الدنيا لعنة ويوم القيامة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(115/587)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) ﴾

قوله : ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ : حالٌ أي : استكبروا مُلتبسينَ بغيرِ الحقِّ .

قوله : ﴿ لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ قرأ نافعٌ والأخوان مبنياً للفاعل . والباقون للمفعول .

قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ أي : صَيَّرْناهم . وقال الزمخشري : " دَعَوْناهم " كأنه فرَّ مِنْ نسبةِ ذلك إلى الله تعالى ، أعني التصييرَ ؛ لأنه لا يوافِقُ مذهبَه . و " يَدْعُون " صفةٌ لـ " أَئمةً " .

قوله : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فيه أوجهٌ ، أحدها : أَنْ يتعلَّقَ بـ " المقبوحين " على أنّ أل ليست موصولةً ، أو موصولةٌ واتُّسِع فيه ، وأن يتعلَّقَ بمحذوفٍ يُفَسِّره المقبوحين ، كأنه قيل : وقُبِّحُوا يومَ القيامةِ نحو : ﴿ لِعَمَلِكُمْ مِّنَ الْقَالِينَ ﴾ [الشعراء : 168] أو يُعْطَفَ على

موضع "في الدنيا " أي : وأَتْبَعْناهم لعنةً يوم القيامة ، أو معطوفةٌ على " لعنةً " على حذفِ مضافٍ أي : ولعنةَ يوم القيامة . والوجهُ الثاني أظهرُها .

والمقبوحُ : المطرودُ . قبَّحه الله : طرده . قال :

3616 ألا قبَّح اللهُ البراجمَ كلَّها . . . وجَدَّعَ يَرْبُوعاً وعَقَّر دارِما

وسُمِّيَ ضِدُّ الحُسْنِ قبيحاً ؛ لأنَّ العينَ تَنْبُو عنه ، فكأنها تطردُه يُقال : قَبُح قَباحةً . وقيل : من المقبوحينَ : من المَوْسومين بعلامةٍ مُنْكَرَةٍ كزُرْقة العيون وسوادِ الوجوهِ . والقبيحُ أيضاً : عَظْمُ الساعدِ مِمَّا يلي النصفَ منه إلى المِرْفَقِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 8 صـ 680.679﴾

(116/587)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾

ادَّعى الانفرادَ بالإلهية فزاد في ضلالِه على عَبَدَةِ الأصنام الذين جعلوا أصنامَهم شركاءَ ، ثم قال لهامان : " ابْن لي صَرْحاً لعلِّي أطلع إلى إله موسى " وكان هذا من زيادة ضلاله ،

حيث تَوَهَّم أن المعبودَ من جهة فوق ، وأنه يمكن الوصول إليه . ولعمري لو كان في جهةٍ لأمكن تقدير الوصول إليه وتجويزه ! .

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) 40)

أَبى إلا أنْ يدومَ جحودُه ، وعُنوده ، فأغرقه اللَّهُ في البحرِ ، كما أغرق قلبَه في بحر الكُفْر .

وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41)

لا لِشَرَفِهم جعلهم أئمة ولكن لسبب تَلَقِهم قَدَّمَهم في الخزي والهوان على كلِّ أمة ، ولكن لم يُرْشدُوا إلاَّ إلى الضلال . ولم يَدُلُّوا الخَلْقَ إلاّ على المُحَال ، وما حصلوا إلا على سوءِ الحال ، وما ذاقوا إلا خِزْيَ الوبال . أفاضوا على مُتَّبِعهم من ظلمات قلوبهم فافتضحوا في خِسَّةِ مطلوبهم .

وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

كانوا في الدينا مُبْعَدين عن معرفته ، وفي الآخرة مُبْعَدين عن مغفرته ، فانقلبوا من طَرْدٍ إلى طرد ، ومن هَجْرٍ إلى بُعْدٍ ، ومن فراقٍ إلى احتراقٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 68.69 ﴾

(117/587)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) ﴾

(118/587)

التفسير : ذهب بعض المفسرين إلى أن موسى خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه إلى الله تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة طريق فأوصله الله إلى مدين . وقد يؤيد هذا التفسير ما روي عن ابن عباس أنه خرج وليس له علم بالطريق إلا حسن ظنه بربه ، ويحتمل أن يكون معنى قول ابن عباس أنه لما خرج قصد مدين لأنه وقع في نفسه أن بينه وبينهم قرابة لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم وهو كان من بني إسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى . أما أنه قصد مدين فلقوله سبحانه ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ اي قصد نحو هذه القرية ولم تكن في سلطان فرعون وبينها وبين مصر مسيرة ثمان . وأما أنه اعتمد على فضل الله فلقوله . ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي وسطه وجادّته نظيره قول جده إبراهيم عليه السلام ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين ﴾ [الصافات : 99] وكذا الخلف الصدق يقتدي بالسلف الصالح فيهتدي . قال السدي : لما

أخذ في المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح فقال : لا تفعل واتبعني فاتبعه نحو مدين . عن ابن جريج أنه خرج بغير زاد ولا ظهر ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر . ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ وكان بئراً فيما روي وورود الماء مجيئه والوصول إليه ضدّ الصدور . ﴿ وجد عليه ﴾ اي على شفيره ومستقاه ﴿ أمة من الناس ﴾ جماعة كثيرة العدد أصنافاً ﴿ يسقون ﴾ مواشيهم ﴿ ووجد من دونهم ﴾ اي في مكان اسفل من مكانهم ﴿ امرأتين تذودان ﴾ أي تدفعان وتطردان أغنامهما لأن على الماء من هو أقوى منهما فلم يتمكنا من السقي ، وكانتا تكرهان المزاحمة على الماء واختلاط أغنامهما بأغنامهم أو اختلاطهما بالرجال . وقيل : تذودان الناس عن غنمهما . وقيل : تذودان عن وجوههما نظر الناظر . وبالجملة حذف مفعول ﴿ تذودان ﴾ لأن الغرض تقرير الذود لا المذود . وكذا في ﴿ يسقون ﴾ و ﴿ لا نسقي ﴾ المقصود هو ذكر السقي لا المسقي ، وكذا في قراءة من قرأ ﴿ حتى يصدر ﴾ من لا إصدار أي حتى يصدر

(119/587)

الرعاء مواشيهم الغرض بيان الإصدار . ﴿ قال ما خطبكما ﴾ هو مصدر بمعنى المفعول أي ما خطوبكما من الذياد ﴿ قالتا لا نسقي ﴾ الآية .

سألهما عن سبب الذود فذكرتا أنا ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يفرغوا وما لنا رجل يقوم بذلك . ﴿ وابونا شيخ ﴾ قد أضعفه الكبر فلا يصلح للقيام به ، وهذه الضرورة هي التي سوغت لنبي الله شعيب أن رضي لابنتيه بسقي الماشية على أن الأمر في نفسه ليس بمحظور ، ولعل العرب وخصوصاً أهل البدو منهم لا يعدّونه قادحاً للمروءة . وزعم بعضهم أن أباهما هو ثيرون ابن أخي شعيب وشعيب مات بعد ما عمي وهو اختيار أبي عبيد ينميه إلى ابن عباس . وعن الحسن أنه رجل مسلم قبل الدين من شعيب . أما قوله ﴿ فسقى لهما ﴾ فمعناه فسقى غنمهما لأجلهما وفيه قولان : أحدهما أنه سأل القوم فسمحوا وكان لهم دلو يجتمع عليها أربعون رجلاً فيخرجونها من البئر فاستقى موسى بها وحده وصب الماء في الحوض ودعا بالبركة ، ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما . والثاني أنه عمد إلى البئر وعليها صخرة لا يقلها إلا سبعة رجال أو عشرة أو أربعون أو مائة –أقوال– فأقلها وحده وسقى أغنامهما ، كل ذلك في شمس وحر . ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ ظل شجرة ﴿ فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ ذهب أكثر المفسرين الظاهريين

ومنهم ابن عباس إلى أنه طلب من الله طعاماً يأكله . وعدي ﴿ فقير ﴾ باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب . وعن الضحاك أنه مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض وإن خضرته تتراءى في بطنه من الهزال ، وبه دليل على أنه نزع الدلو وأقل الصخرة بقوة ربانية . وقال بعض أهل التحقيق : أراد إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير الدين ، وذلك أنه كان عند فرعون في ملك وثروة فأظهر الرضا بهذا الذل شكراً لله . يروى أنهما لما رجعتا إلى ابيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما : ما أعجلكما ؟ قالتا : وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا . فقال لإحداهما : اذهبي فادعيه لي وذلك قوله سبحانه ﴿ فجاءته إحداهما تمشي

(121/587)

على استحياء ﴾ قيل : من جملة حيائها أنها قد استترت بكم درعها ثم ﴿ قالت إن أبي يدعوك ﴾ عن عطاء بن السائب أنه حين قال ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ رفع صوته بدعائه ليسمعهما فلذلك قيل له ﴿ ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ وضعفت الرواية بأن هذا نوع من الدناءة وضعف اليقين بالله فلا يليق بالنبي . وقد روي أنها حين قالت : ليجزيك كره ذلك . ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا

ولا نأخذ على المعروف ثمناً حتى قال شعيب هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا .

سؤال : كيف ساغ لموسى أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية ؟ الجواب : العمل بقول الواحد حراً أو عبداً ذكراً كان أو أنثى سائغ في الأخبار ، والمشي مع الأجنبية لا بأس به في حال الاضطرار مع التورع والعفاف ، ويؤيده ما روي أن موسى تبعها فأزلقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها امشي خلفي وانعتي لي الطريق .

(122/587)

قال الضحاك : لما دخل عليه قال له : من أنت يا عبد الله ؟ قال : أنا موسى بن عمران بن يصهر ابن قاهث بن لاوى بن يعقوب . ﴿ وقص عليه القصص ﴾ أي المقصوص من لدن ولادته إلى قتل القبطيّ وفراره خوفاً من فرعون وملئه ف ﴿ قال ﴾ له شعيب ﴿ لا تخف ﴾ من فرعون أو ضيماً ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ فلا سلطان لفرعون بأرضنا ﴿ قالت إحداهما ﴾ وهي كبراهما اسمها صفراء وكانت الصغرى صفيراء ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين ﴾ قال النحويون : جعل القوي الأمين اسماً لكونه معرفة صريحة أولى من جعل " أفعل " التفضيل المضاف اسماً لكونه قريباً من المعرفة ، ولكن كمال العناية صار سبباً للتقديم . وورود الفعل وهو ﴿ استأجرت ﴾ بلفظ

الماضي للدلالة على أنه أمر قد جرب وعرف . وقال المحققون : إن قولها هذا كلام حكيم جامع لا مزيد عليه لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان أعني الكفاية والأمانة اللتين هما ثمرتا الكياسة والديانة في الذين يقوم بأمرك ، فقد حصل مرادك وكمل فراغك . عن ابن عباس أن شعيباً أحفظته الغيرة فقال : وما علمك بقوّته وأمانته ؟ فذكرت إقلال الحجر ونزع الدلو وأنه صوّب راسه اي خفضه حين بلغته رسالته ، وأنه أمرها بالمشي خلفه فلذلك قال ﴿ أريد أن أنكحك إحدى ابنتي ﴾ وليس هذا عقداً حتى تلزم الجهالة في المعقود عليها ولكنه حكاية عزم وتقرير وعد ولو كان عقداً لقال أنكحتك ابنتي فلانة . وفي قوله ﴿ هاتين ﴾ دليل على أنه كانت له غيرهما . قال أهل اللغة : ﴿ تأجرني ﴾ من أجرته إذا كنت له أجيراً فيكون ﴿ ثماني ﴾ حجج ظرفه أو من اجرته كذا إذا أثبته إياه فيكون المثاني مفعولاً به ثانياً ومعناه رعية ثماني حجج ﴿ فإن أتممت عشراً ﴾ اي عمل عشر حجج ﴿ فمن عندك ﴾ أي فإتمامه من عندك لا من عندي إذ هو تفضل منك وتبرع ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ الزام أتم الأجلين أو بالتكاليف الشاقة في مدة الرعي ، وإنما أعامل معك معاملة الأنبياء يأخذون بالأسمح –بالحاء

(123/587)

لا بالجيم- قال أهل الاشتقاق : حقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الأمر أنه إذا صعب الأمر فكأنه شق عليه ظنه باثنين يقول تارة أطيقة وتارة لا أطيقه . ثم أكد وعد المسامحة بقوله ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ عموماً أو في باب حسن المعاملة . وقوله ﴿ إن شاء الله ﴾ أدب جميل كقول إسماعيل ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ [الصافات : 102] أي على الذبح .

وفيه أن الاعتماد في جميع الأمور على معونة الله والأمر موكول إلى مشيئته . استدل الفقهاء بالآية على أن العمل قد يكون مهراً كالمال ، وعلى أن إلحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ، وعلى أن عقد النكاح لا يفسده الشروط التي لا يوجبها العقد . ويمكن أن يقال : إنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا . وجوّز في الكشاف أن يكون استأجره لرعية ثماني سنين بمبلغ معلوم ووفاه إياه ثم أنكحه ابنته . وجعل قوله ﴿ على أن تأجرني ﴾ عبارة عما جرى بينهما ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ ذلك ﴾ الذي شارطتني عليه قائم ﴿ بيني وبينك أيما الأجلين قضيت ﴾ و " ما " مؤكدة لإبهام أيّ زائدة في شيوعها ﴿ فلا عدوان عليّ ﴾ اي لا يعتدي عليّ في طلب الزيادة فإن قضيت الثماني فلا أطالب بالزيادة وإن قضيت العشر باختياري فلم أطالب بالزيادة أيضاً . وقيل : أراد أيهما قضيت فلا أكون متعدياً . روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تزوّج كبراهما وقيل صغراهما ولا خلاف في أنه قضى أوفى الأجلين .

قال القاضي في قوله ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس ﴾ دليل على أنه لم يزد على العشرة وفيه نظر لأنه لا يفهم من هذا التركيب إلا أن الإيناس حاصل على عقيب مجموع الأمرين ، ولا يدل على أن ذلك حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الأجل ويؤيده ما روي عن مجاهد أنه بعد العشر المشروط مكث عشر سنين أخر . قال أهل اللغة : الجذوة بحركات الجم العود الغليظ كانت في راسه نار أو لم تكن ، وشاطئ الوادي جانبه ، و " من " الأولى والثانية كلتاهما لابتداء الغاية أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة ، فالثانية بدل من الأولى وبدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ ، ووصفت البقعة بالمباركة لأن فيها ابتداء الرسالة والتكلم . احتجت المعتزلة على مذهبهم أن الله تعالى يتكلم بكلام يخلقه في جسم بقوله ﴿ من شجرة ﴾ وقال أهل السنة : مما وراء النهران الكلام القديم القائم بذات الله غير مسموع والمسموع من الشجرة وهو الصوت والحرف دال على كلام الله . وذهب الأشعري إلى أن الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعاً كما أن الذات التي ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون مرئية . روي أن شعيباً كانت عنده عصيّ الأنبياء فقال لموسى بالليل : ادخل البيت فخذ عصا من تلك العصيّ فأخذ عصاً هبد بها آدم من الجنة ولم تزل الأنبياء يتوارثونها حتى وقعت إلى شعيب فمسها وكان مكفوفاً فشعر بها فقال : غيرها ، فما وقع في يده إلا هي سبع

مرات فعلم أن له شأناً . وعن الكلبي : الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ، ولما أصبح قال له شعيب : إذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك وإن كان الكلأ هناك أكثر لأن فيها تنيناً أخشاه عليك وعلى الغنم .

(125/587)

فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على منعها فمشى على اثرها فإذا عشب وريف لم ير مثله فنام فإذا بالتنين قد اقبل فحاربته العصا حتى قتلته وعادت إلى موسى دامية فارتاح لذلك . وحين رجع إلى شعيب مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأناً . قيل : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو فإن موسى ذهب ليقتبس النار فكلمه الملك الجبار وقد مر في النمل تفسير قوله ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ [النمل : 10] إلى قوله ﴿ من غير سوء ﴾ [الآية : 12] أما قوله ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ فذكر جار الله له معنيين : أحدهما حقيقة وهو أنه لما قلب الله العصا حية فزع واضطراب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه نقصان قدرك عند الأعداء فإن ألقيتها ، فكما تنقلب حية فادخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب النقص وإظهار

معجزة أخرى . وثانيهما مجاز وهو أن يراد بضم الجناح التجلد وضبط النفس حتى لا يضطرب فيكون استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف أرخى جناحيه وإلا ضمهما .

ومعنى ﴿ من الرهب ﴾ من أجل الخوف . والفرق بين هذه العبارة وبين قوله ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ أن الغرض هناك خروج اليد بيضاء وههنا الغرض إخفاء الخوف أو اراد بالجناح المضموم ههنا اليد اليمنى وبالجناح المضموم إليه في قوله ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ اليد اليسرى ، وقيل : إن الرهب هو الكم بلغة حمير وزيفه النقاد . من قرأ ﴿ فذانك ﴾ بالتخفيف فمثنى ذاك ، ومن قرأ بالتشديد فمثنى ذلك وأصله ذان لك قلبت اللام نوناً وأدغمت . وسميت الحجة برهاناً لبياضها وإنارتها من قولهم " امرأة برهرهة " أي بيضاء ، واليعن واللام مكررتان . والدليل على زيادة النون قولهم " أبره الرجل " إذا جاء بالبرهان ونظيره " السلطان " من السليط الزيت ، لإنارتها . وظاهر الكلام يقتضي أنه تعالى أمره بذلك قبل لقاء فرعون ، والسر فيه

(126/587)

أن يكون على بصيرة من أمره عند لقاء المعاند اللجوج ، وزعم القاضي أنه في حال أداء الرسالة لأن المعجز إنما يظهر ليستدل المرسل إليه على الرسالة ولا يخفى ضعف هذا

الكلام لأن الحكمة في الإظهار لا تنحصر في الاستدلال بل لعل هناك أنواعاً أخر من الحكم والمقاصد قد ذكرنا واحداً منها . ومما يؤكد أن هذا الكلام قد جرى ولم يكن هناك أحد غير موسى قوله معتذراً ﴿ رب إني قتلت منهم نفساً ﴾ الآية . والردء اسم ما يعان به من ردأته أي أعنته فعل بمعنى مفعول به و ﴿ يصدقني ﴾ بالرفع صفة وبالجزم جواب كما مر في قوله ﴿ ولياً يرثني ﴾ [مريم : 56] والمراد بتصديق أخيه أن يذب ويجادل عنه لا أن يقول : صدقت فإن هذا القدر لا يفتقر إلى البيان والفصاحة لأن سحبان وباقلاً يستويان فيه .

ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ يصدقني ﴾ لفرعون . وجوّز جار الله أن يكون من الإسناد المجازي بناء على أن يصدق مسند إلى هارون وهو بيانه وبلاغته سبب تصديق فرعون يؤيده قوله ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ قال الجبائي : إنما سأل موسى أن يرسل هارون بأمر الله تعالى ولم يكن ليسأل مالا يأمن أن يجاب أولا يكون حكمة . ولقائل أن يقول : لعله ساله مشروطاً على معنى إن اقتضت الحكمة ذلك كما يقول الداعي في دعائه . وقال السدي : علم أن الاثنين أقوى من الواحد فلهذا سأل اعترض القاضي بأن هذا من حيث العادة وأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ، لأن المبعوث إليه في أيهما نظر علم وإن لم ينظر فالحال واحدة . هذا إذا كانت طريقة الدلالة بين المعجزتين واحدة ، فأما إذا اختلف وأمكن في إحداهما من إزالة الشبهة مالا يمكن في الأخرى فغير ممتنع أن يقال :

إنهما بمجموعهما أقوى من واحدة كما قال السدي ، لكن ذلك لا يتأتى في موسى وهارون لأن معجزتهما كانت واحدة .

(127/587)

قال جار الله معنى ﴿ سنشد عضدك ﴾ سنقوّيك بأخيك إما لأن اليد تشتد بشدة العضد وجملة البدن يقوى على مزاولة الأمور بشدة اليد ، وإما لأن الرجل واشتداده بالأخ شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد . والسلطان التسلط والغلبة والحجة الواضحة . وقوله ﴿ بآياتنا ﴾ إما متعلق بمقدر أي اذهبا بآياتنا ، أو متعلق بظاهر وهو ﴿ نجعل ﴾ أو ﴿ لا يصلون ﴾ . ويجوز أن يكون بياناً ل ﴿ لغالبون ﴾ كأنه قيل : بماذا نغلب ؟ فقيل : بآياتنا . وامتنع أن تكون صلة ل ﴿ لغالبون ﴾ لتقدمه ، ويجوز أن تكون قسماً جوابه ﴿ لا يصلون ﴾ مقدماً عليه مثله . ويجوز أن يكون من لغو القسم الذي لا جواب له كقولك " زيد وأبيك منطلق " والمراد الغلبة بالحجة والبرهان في الحال أو بالدولة والمملكة في المآل ، وصلب السحرة بعد تسليم ثبوته لا يقدح في قوله ﴿ ومن اتبعكما الغالبون ﴾ لأن الدولة الباقية أعلى شأناً و ﴿ سحر مفترى ﴾ أي سحر تعمله أنت ثم تنسبه إلى الله فهو كذب من هذا الوجه ، أو سحر ظاهر افتراؤه لا سحر يخفى افتراؤه ، أو سحر موصوف

بالافتراء كسائر أنواع السحر فإن كل سحر ففاعله يوهم خلافه فهو المفترى . ومعنى ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين ﴾ قد مر في سورة المؤمنين . قال جار الله ﴿ في آبائنا ﴾ حال عن ﴿ هذا ﴾ اي كائناً في زمانهم وأيامهم قلت : لا مانع من أن يكون الظرف لغواً ولا خلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا بنحوه ، أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته ، أو أرادوا أن الكهان لم يخبروا بمجيء ما جاء به موسى .

وكل هذه المقالات لا تصدر إلا عن المحجوج اللجوج الذي قصارى أمره التمسك بحبل التقليد .

(128/587)

من قرأ ﴿ قال موسى ﴾ بغير واو فعلى طريقة السؤال والجواب . ووجه قراءة الأكثرين أنهم قالوا ذلك وقال موسى هذا ليوازن العاقل الناظر بين القولين فيتبين له الغث من السمين . وقوله ﴿ ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ إفحام لخصم المعاند إذ لا سبيل إلى دفاعه بالحجة أي يعلم أني محق وأنهم مبطلون . وقوله ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ يعني العاقبة الحميدة كأن المذمومة غير معتدّ بها ضم طريقة الوعيد إلى الإفحام المذكور . وقيل : معناه ربي أعلم بالأنبياء السالفة فهو جواب لقولهم ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾

وقال جار الله : ﴿ ربي أعلم ﴾ بحال من أهله للفلاح حيث جعله نبياً ووعده حسنى العقبى ، ولو كان كاذباً كما يزعمون لم يؤهله لذلك لأنه لا يفلح عنده الظالمون ، واعلم أن فرعون كان من عادته عند ظهور حجة لموسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروّجها على أغمار قومه فذكر ههنا أمرين : الأوّل قوله ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ فكأنه استدل بعدم الدليل على عدم المدلول وهو خطأ من جهة أن الدليل على المدلول وهو وجود الصانع أكثر من أن يحصى ، ومن جهة أن عدم الدليل لا يستلزم عدم المدلول . وأما قوله ﴿ غيري ﴾ فقد تكلف له بعضهم أنه لم يرد به أنه خالق السموات والأرض وما فيهما فإن امتناع ذلك بديهي ، وإنما أراد به نفي الصانع والاقتصار على الطبائع وأنه لا تكليف على الناس إلا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لأمره .

(129/587)

الثاني قوله ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ وقد تكلفوا له ههنا أيضاً فقيل : إنه يبعد من العاقل أن يروم صعود السماء بآلة ، ولكنه أراد أنه لا سبيل إلى إثبات الصانع من حيث العقل كما مر ، ولا من حيث الحس فإن الإحساس به يتوقف على الصعود وهو معتذر ، وإلا فابن يا هامان مثل هذا البناء وإنما قال ذلك تهكماً . فبمجموع هذه الأشياء قرر أنه لا

دليل على الصانع ، ثم رتب النتيجة عليه وهو قوله ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ يحتمل أن يريد لأعلمه من الكاذبين . والأكثرون من المفسرين على أنه بنى مثل هذا البناء جهلاً منه أو تلبيساً على ملئة حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن . يروى أن هامان جمع العمال حتى اجتمع منهم خمسون ألف بناء سوى الأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ مبلغاً لا يقدر الباني أن يقوم عليه ، فبعث الله جبريل عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعت ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل . ووقعت قطعة في البحر ، و قطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك .

وروي في القصة أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردّت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال : قد قتلت إله موسى ، فعند ذلك بعث الله جبرائيل لهدمه . قال أهل البيان : إن صح الحديث ردّ النشابة ملطوخة فقد تهكم به بالفعل كما ثبت التهكم بالقول في غير موضع . وإنما قال ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ ولم يقل : اطبخ لي الآجر . لأن هذه العبارة أحسن ، ولأن هذه العبارة أحسن ، ولأن فيه تعليم الصنعة ، وقد كان أوّل من عمل الآجر فرعون . عن عمر أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر قال : ما علمت أن أحداً بنى الآجر غير فرعون . والطلوع والأطلاع الصعود يقال : طلع الجبل واطلع .

وفي قوله سبحانه ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض ﴾ يعني أرض مصر ﴿ بغير الحق ﴾ إشارة إلى أن الاستكبار بالحق إنما هو لله تعالى كما جاء في الحديث القدسي " الكبرياء ردائي والعظمة إزاري " فهو كقوله ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ [البقرة : 61] وفي قوله ﴿ وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ دليل على أنهم كانوا منكري البعث كالطبائعيين . وفي قوله ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ دلالة على علو شأنه تعالى وعظمة سلطانه وإشارة إلى استحقار فرعون وجنوده وعدده وإن كانوا أكثر من رمال الدهناء كأنه شبههم بحصيات أخذهن أحد في كفه فطرحهن في البحر . استدلت الأشاعرة بقوله ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ أن خالق الشر وجاعل الكفر هو الله سبحانه . وقالت المعتزلة : معنى الجعل التسمية والحكم بذلك كما يقال : جعله بخيلاً وفاسقاً إذا حكم بالبخل والفسق عليه وسماه بالبخيل والفاسق ، أو أراد خذلناهم ومنعناهم الألطاف حتى كانوا أئمة الكفر داعين إلى النار أي إلى موجباتها من الكفر والمعاصي . وقال أبو مسلم : معنى الإمامة التقدم وذلك أنه تعالى عجل لهم العذاب فصاروا متقدمين لمن وراءهم من الكفرة إلى النار . وقال بعضهم : أراد بالإمامة أنهم بلغوا

في ذلك الباب أقصى النهايات حتى أستحقوا أن يقتدى بهم . ثم بين بقوله ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ أن عقاب الآخرة سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه . وقال في الكشاف : اراد وخذلناهم في الدنيا ويوم القيامة هم مخذولون كما قال ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ﴾ اي طرداً وإبعاداً عن الرحمة ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ أي من المطرودين المبعدين : وقالت الليث : قبحه الله قبحاً بالفتح وقبحاً بالضم أي نحاه عن كل خير . وقال ابن عباس : من المشهورين بسواد الوجه وزرقة العين . وعن بعضهم أنه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم فيجمع لهم بين الفضيحتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 337.344 ﴾

(131/587)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : وحين توجه تلقاء مدين عالم الروحانية ﴿ وجد عليه أمة ﴾ من أوصاف الروح ﴿ يسقون ﴾ مواشي أخلاقهم من ماء فيض الإلهي .

﴿ ووجد من دونهم امرأتين ﴾ السر والخفي ابنتا شعيب الروح يمنعان من استقاء ماء

الفيض الإلهي . قال الشيخ الإمام الرباني نجم الدين المعروف بداية : وذلك لأن لمعان أنوار الفيض يرد على الروح في البداية بالتدريج فينشا منه الخفي ، وهو لطيفه ربانية مودعة في الروح بالقوة فلا يحصل بالفعل إلا بعد غلبة الواردات الربانية ليكون واسطة بين الحضرة والروح في قبول تجليات صفات الربوبية والفيوض الإلهية ، فيكون في هذه المدة بمعزل عن الاستقاء . وكذا السر وهو لطيفة روحانية متسوطة بين القلب والروح قابلة لفيض الروح ، مؤدية غلى القلب وهو أيضاً بمعزل عن استقاء ماء فيض الروح عند اشتغال القلب بمعالجات النفس وإصلاح القالب إلى حين توجه موسى القلب إلى مدين عالم الروحانية وذلك قولهما ﴿ لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴾ وهم صفات الروح ويصرفوا مواشيهم وهي الصفات الإنسانية عن ماء الفيض الإلهي ، فإذا صدروا استقينا مواشينا من الأوصاف والأخلاق من أفضله مواشيهم في حوض القوى ﴿ وأبونا ﴾ وهو شعيب الروح لا يقدر على سقيه من الأوصاف الإنسانية إلا بالأجر والوسائط ، وإنا لا نطيق أن نسقي لضعف حالنا ، فسقي موسى القلب مواشيهما بقوّة استفادها من الجسد وقوّة استفادها من الروح لأنه متوسط بين العالمين ولهذا سمي قلباً ﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ إلى العناية فطلب الفيض الإلهي بلا وساطة وهكذا ينبغي أن يكون السالك لا يقنع بما وجد من المعارف أبداً .

﴿ فجاءته إحداهما ﴾ فيه أن القلب يحتاج في الوصول إلى حضرة شعيب الروح أن يستمد من الخفي أو السر . ﴿ لا تخف نجوت ﴾ فيه أن القلب إذا وصل إلى مقام الروح نجا من ظلمات النفس وصفاتها ﴿ إن خير من استأجرت ﴾ من النفس والجسد ﴿ القوي الأمين ﴾ لأن القلب استفاد القوّة من الجسد والأمانة من الروح ﴿ ثماني حجج ﴾ فيه أن الروح في تبليغ القلب إلى مقام الخفي يحتاج إلى تسييره في مقامات صفاته الثمانية المخصوصة به في خلافة الحق وهي : الحياة والإرادة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والبقاء . وتمام ذلك إلى العشرة راجع إلى خصوصيته وهما المحبة والأنس مع الله ﴿ أيما الأجلين قضيت ﴾ في التخلق بأخلاقك اليمانية وفي المحبة والأنس مع الله ﴿ فلا عدوان عليّ ﴾ أي ليس لك أن تمنعني العبور عن المحبة لأنك من خصوصيتك بالخلافة مجبول على تلك الصفات الثمانية . وأما المحبة والأنس مع الله فصفتان مخصوصتان بالحضرة . ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ ولهذا كل إنسان من المؤمن والكافر فإنه مجبول على تلك الأوصاف وليس من زمرة ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ [المائدة : 54] إلا مؤمن موحد . فلما اتصف مسى القلب بالأوصاف الثمانية وغلبت عليه محبة الله واستأنس به وصار بجميع صفاته متوجهاً إلى حضرة القدس ﴿ آنس ﴾ من طور الحضرة نار نور

الإلوهية . وفي قوله ﴿ لأهله امكثوا ﴾ إشارة إلى أن السالك لا بد له من تجريد الظاهر عن الأهل والمال وتفريد الباطن عن تعلقات الكونين .

(133/587)

ويبدو وإذا بدا استمكن شمس طلعت ومن رآها آمن . وفي قوله ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ إشارة إلى أن الأوصاف الإنسانية جامدة من برودة الطبيعة لا تتسخن إلا بجذوة نار المحبة بل بنار الجذبة الإلهية ﴿ من شاطئ الواد الأيمن ﴾ وهو السر في بقعة البدن من شجرة وجود الإنسان ﴿ من الرهب ﴾ أي رهبة من فوات وصال الحضرة ﴿ وأخي هرون ﴾ هو العقل فمن خصوصيته تصديق الناطق بالحق ﴿ قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ﴾ لأن النفس خلقت من اسفل عالم الملكوت ومنكسة ، والقلب خلق وسط عالم الملكوت متوجهاً إلى الحضرة فلهذا ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ [النجم : 11] وما صدقت النفس ما رأت ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ اي في طبائع الكواكب فإنها آباء النفس وأمهاتها العناصر والطبائع منكوسة إلى عالم السفل لا يعرفون مقام الوحدة فلا يعرفون بالتوحيد . ﴿ فأوقد لي يا هامان ﴾ الشيطان ﴿ على الطين ﴾ البشرية بنفخ الوساوس والغرور ﴿ فاجعل لي صرحاً ﴾ من المقدمات الخيالية والوهمية ﴿ فانظر كيف كان عاقبة

المكذبين ﴾ أغرقوا في ماء شهوات الدنيا ويم هممها فأدخلوا نار الحسرة والندامة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 344.346 ﴾

(134/587)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما وعد سبحانه بإمامة بني إسرائيل وقص القصص حتى ختم بإمامة آل فرعون في الدعاء إلى النار إعلاماً بأن ما كانوا عليه تجب مجانبته ومنابذته ومباعدته ، وكان من

المعلوم أنه لا بد لكل إمامة من دعامة ، تشوفت النفس إلى أساس إمامة بني إسرائيل التي يجب العكوف في ذلك الزمان عليها ، والتمسك بها ، والمبادرة إليها ، فأخبر سبحانه عن ذلك مقسماً عليه مع الافتتاح بحرف التوقع ، لأن العرب وإن كانوا مصدقين لما وقع من المنة على بني إسرائيل بإنقاذهم من يد فرعون وتمكينهم بعده ، وإنزال الكتاب عليهم ، فحالهم بإنكار التمكين لأهل الإسلام والتكذيب بكتابهم حال المكذب بأمر بني إسرائيل ، لأنه لا فرق بين نبي ونبي ، وكتاب وكتاب ، وناس وناس ، لأن رب الكل واحد ، فقال : ﴿ ولقد آتينا ﴾ أي بما لنا من الجلال والجمال والمجد والكمال ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي التوراة الجامعة للهدى والخير في الدارين ؛ قال أبو حيان : وهو أول كتاب أنزلت فيه الفرائض والأحكام .

ولما كان حكم التوراة لا يستغرق الزمان الآتي ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعد ما ﴾ إشارة إلى أن إيتاءها إنما هو في مدة من الزمان ، ثم ينسخها سبحانه بما يشاء من أمره ﴿ أهلكنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ القرون الأولى ﴾ أي من قوم نوح إلى قوم فرعون ، ووقتها بالهلاك إشارة إلى أنه لا يعم أمة من الأمم بالهلاك بعد إنزالها تشريفاً لها ولمن أنزلت عليه وأوصلت إليه ؛ ثم ذكر حالها بقوله : ﴿ بصائر ﴾ جمع بصيرة ، وهي نور القلب ، مصابيح وأنواراً ﴿ للناس ﴾ أي يبصرون بها ما يعقل من أمر معاشهم ومعادهم ، وأولاهم وأخراهم ، كما أن نور العين يبصر به ما يحسن من أمور الدنيا .

ولما كان المستبصر قد لا يهتدي لمانع قال : ﴿ وهدى ﴾ أي للعامل بها إلى كل خير .

ولما كان المهتدي ربما حمل على من توصل إلى غرضه ، وكان ضاراً ، قال : ﴿ ورحمة ﴾ أي نعمة هنية شريفة ، لأنها قائدة إليها .

(135/587)

ولما ذكر حالها ، ذكر حالهم بعد إنزالها فقال : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى تذكره ، وهذا إشارة إلى أنه ليس في الشرائع ما يخرج عن العقل بل متى تأمله الإنسان تذكر به من عقله ما يرشد إلى مثله .

ولما بين سبحانه في هذه السورة من غرائب أمر موسى عليه الصلاة والسلام وخفي أحواله ما بين ، وكانت هذه الأخبار لا يقدر أهل الكتاب على إنكارها ، نوعاً من الإنكار ، وكان من المشهور أي اشتهار ، أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يعرفها ولا سواها من غير الواحد القهار ، أشار إلى ذلك سبحانه بقوله حالاً من ضمير ﴿ آتينا ﴾ ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ أي الوادي من الطور الذي رأى موسى عليه السلام فيه النار ، وهو مما يلي البحر منه من جهة الغرب على يمين المتوجه إلى ناحية مكة المشرفة من ناحية مصر ، فناداه منه العزيز الجبار ، وهو ذو طوى ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قضينا ﴾ بكلامنا بما حوى من

الجلال ، وزاد العظمة في رفيع درجاته بالإشارة بحرف الغاية فقال : ﴿ إلى موسى الأمر ﴾ أي أمر إرساله إلى فرعون وقومه ، وما نريد أن نفعل من ذلك في أوله وأثنائه وآخره مجملاً ، فكان كل ما أخبرنا به مطابقاً تفصيله لإجماله ، فأنت بحيث تسمع ذلك الذي قضيناه إليه من الجانب الذي أنت فيه ﴿ وما كنت ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ من الشاهدين ﴾ لتفاصيل ذلك الأمر الذي أجملناه لموسى في ذلك المكان في أوقاته مع من شهده منه من أهل ذلك العصر من السبعين الذين اختارهم أو غيرهم ممن تبعه أو صد عنه حتى تخبر به كله على هذا الوجه الذي أتيناك به في هذه الأساليب المعجزة ، ولا شك أن أمر معرفتك كذلك منحصر في شهودك إياه في وقته أو تعلمك له من الخالق ، أو من الخلائق الذين شاهدوه ، أو أخبرهم به من شاهده ، وانتفاء تعلمه من أحد من الخلائق في الشهرة بمنزلة انتفاء شهوده له في وقته ، فلم يبق إلا تلقيه له من الخالق ، وهو الحق الذي لا شبهة فيه عند منصف .

(136/587)

ولما كان التقدير : وما كنت من أهل ذلك الزمان الحاضرين لذلك الأمر ، وامتد عمرك إلى هذا الزمان حتى أخبرت بما كنت حاضره ، استدرك ضد ذلك فقال : ﴿ ولكنا ﴾ أي

بما لنا من العظمة ﴿ أنشأنا ﴾ أي بعد ما أهلكنا أهل ذلك الزمان الذين علموا هذه الأمور بالمشاهدة والإخبار ، كلهم ﴿ قروناً ﴾ أي ما أخرنا أحداً من أهل ذلك الزمان ، ولكنا أهلكناهم وأنشأنا بعدهم أجيالاً كثيرة ﴿ فتطاول ﴾ بمروره وعلوه ﴿ عليهم العمر ﴾ جداً بتدريج من الزمان شيئاً فشيئاً فنسيت تلك الأخبار ، وحرفت ما بقي منها الرهبان والأحبار ، ولا سيما في زمان الفترة ، فوجب في حكمتنا إرسالك فأرسلناك لتقوم المحجة ، وتقوم بك الحجة ، فعلم أن إخبارك بهذا والحال أنك لم تشاهده ولا تعلمته من مخلوق إنما هو عنا وبوحينا .

ولما نفى العلم بذلك بطريق الشهود ، نفى سبب العلم بذلك فقال : ﴿ وما كنت ثاوياً ﴾ أي مقيماً إقامة طويلة مع الملازمة بمدين ﴿ في أهل مدين ﴾ أي قوم شعيب عليه السلام ﴿ تتلوا ﴾ أي تقرأ على سبيل القص للآثار والأخبار الحق ﴿ عليهم آياتنا ﴾ العظيمة ، لتكون ممن يهتم بأمور الوحي وتتعرف دقيق أخباره ، فيكون خبرهم وخبر موسى عليه الصلاة والسلام معهم وخبره بعد فراقه لهم من شأنك ، لتوفر داعيتك حينئذ على تعرفه ﴿ ولكنا كنا ﴾ أي كوناً أزلياً أبدياً نسبته إلى جميع الأزمنة بما لنا من العظمة ، على حد سواء ﴿ مرسلين ﴾ أي لنا صفة القدرة على الإرسال ، فأرسلنا إلى كل نبي في وقته ثم أرسلنا إليك في هذا الزمان بأخبارهم وأخبار غيرهم لتنشرها في الناس ، واضحة البيان سالمة من الإلباس ، لأنا شاهدين لذلك كله ، لم يغب عنا شيء منه ولا كان إلا بأمرنا .

ولما نفى السبب المبدئي للعلم بذلك الإجمال ثم الفائي للعلم بتفصيل تلك الوقائع والأعمال ، نفى السبب الفائي للعم بالأحكام ونصب الشريعة بما فيها من القصص والمواعظ والحلال والحرام والآصار والأغلال بقوله : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ ﴾ أي حين ﴿ نادينا ﴾ أي أوقعنا النداء لموسى عليه الصلاة والسلام فأعطيناه التوراة وأخبرناه بما لا يمكن الاطلاع عليه إلا من قبلنا أو قبله ، ومن المشهور أنك لم تطلع على شيء من ذلك من قبله ، لأنك ما خالطت أحداً ممن حمل تلك الأخبار عن موسى عليه الصلاة والسلام ، ولا أحد أحملها عمن حملها عنه ، ولكن ذلك كان إليك منا ، وهو معنى قوله : ﴿ ولكن ﴾ أي أنزلنا ما أردنا منه ومن غيره عليك وأوحيناه إليك وأرسلناك به إلى الخلائق ﴿ رحمة من ربك ﴾ لك خصوصاً وللخلق عموماً ﴿ لتنذر ﴾ أي تحذر تحذيراً كبيراً ﴿ قوماً ﴾ أي أهل قوة ونجدة ، ليس لهم عائق من أعمال الخير العظيمة ، لا الإعراض عنك ، وهم العرب ، ومن في ذلك الزمان من الخلق ﴿ ما آتاهم ﴾ وعم المنفي بزيادة الجار في قوله : ﴿ من نذير ﴾ أي منهم ، وهم مقصودون بإرساله إليهم وإلا فقد أتتهم رسل موسى عليه السلام ، ثم رسل عيسى عليه الصلاة والسلام ، وإن صح أمر خالد بن سنان العبسي فيكون نبياً غير رسول

، أو يكون رسولاً إلى قومه بني عبس خاصة ، فدعاؤه لغيرهم إن وقع فمن باب الأمر بالمعروف عموماً ، لا الإرسال خصوصاً ، فيكون التقدير : نذير منهم عموماً ، وزيادة الجار في قوله : ﴿ من قبلك ﴾ تدل على الزمن القريب ، وهو زمن الفترة ، وأما ما قبل ذلك فقد كانوا فيه على دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتى غيره عمرو بن لحي فقد أنذرهم في تلك الأزمان إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم إسماعيل عليه الصلاة والسلام ثم من بعدهم من صالحي ذريتهم إلى زمان عمرو بن لحي ، فهم لأجل عدم النذير عمي ، عن الهدي ، سالكون سبيل الردى ، وقال : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ لمثل ما تقدم من أنهم إذا قبلوا ما جئت

(138/587)

به وتدبروه أذكرهم إذكاراً ظاهراً - بما أشار إليه الإظهار - ما في عقولهم من شواهده وإن كانت لا تستقل بدونه والله الموفق .

ولما كان انتفاء إنذارهم قبله عليه الصلاة والسلام نافياً للحجة في عذابهم بما أوجبه الله - وله الحجة البالغة لا يسأل عما يفعل - على نفسه الشريفة ، فضلاً منه ورحمة ، ذكر أن إرساله مما لا بد منه لذلك فقال : ﴿ ولولا ﴾ أي ولولا هذا الذي ذكرناه ما أرسلناك

لتنذرهم ، ولكنه حذف هذا الجواب إجلالاً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المواجهة به ، وذلك الذي ختم الإرسال هو ﴿ أن تصيبهم ﴾ أي في وقت من الأوقات ﴿ مصيبة ﴾ أي عظيمة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ أي من المعاصي التي قضينا بأنها مما لا يعفى عنه ﴿ فيقولوا ربنا ﴾ أي أيها المحسن إلينا ﴿ لولا ﴾ أي هل لا ولم لا ﴿ أرسلت إلينا ﴾ أي على وجه التشريف لنا ، لنكون على علم بأنا ممن يعتني الملك الأعلى به ﴿ رسولاً ﴾ وأجاب التخصيص الذي شبهوه بالأمر لكون كل منهما باعثاً على الفعل بقوله : ﴿ فنتبع ﴾ أي فيتسبب عن إرسال رسولك أن نتبع ﴿ آياتك ونكون ﴾ أي كوناً هو في غاية الرسوخ ﴿ من المؤمنين ﴾ أي المصدين بك في كل ما أتى به عنك رسولك ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصديقاً بليغاً ، فإذا قالوا ذلك على تقدير عدم الإرسال قامت لهم حجة في مجاري عاداتكم وإن كانت لنا الحجة البالغة . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 492 ـ 496 ﴾

(139/587)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سحران ﴾ عاصم وحمزة وعلي وخلف . الآخرون ﴿ ساحران تظاهرا ﴾ بالتخفيف اتفاقاً ﴿ تجبى إليه ﴾ بتاء التأنيث : أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب . الباقون على التذكير ﴿ يعقلون ﴾ بياء الغيبة ، شجاع واليزيدي الباقون بتاء الخطاب إلا أبا عمرو فإنه مخير ﴿ ثم هو ﴾ بسكون الهاء علي والحلواني عن قالون ﴿ تبرأنا ﴾ مثل ﴿ أنشأنا ﴾ .

(140/587)

الوقوف : ﴿ يتذكرون ﴾ 5 ﴿ الشاهدين ﴾ 5 لا للاستدراك ﴿ العمر ﴾ ج لاختلاف الجملتين مع العطف ﴿ آياتنا ﴾ ج لما مر ﴿ مرسلين ﴾ 5 ﴿ يتذكرون ﴾ 5 ﴿ المؤمنين ﴾ 5 ﴿ ما أوتي موسى ﴾ ط ﴿ من قبل ﴾ ج للفصل بين الخبر والطلب مع اتحاد القائل ﴿ تظاهرا ﴾ ج للتعجب من عنادهم ﴿ كافرون ﴾ 5 ﴿ صادقين ﴾ 5 ﴿ أهواهم ﴾ ط ﴿ من الله ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ 5 ﴿ يتذكرون ﴾ 5 لأن ﴿ الذين ﴾ مبتدأ ﴿ يؤمنون ﴾ 5 ﴿ مسلمين ﴾ 5 ﴿ ينفقون ﴾ 5 ﴿ أعمالكم ﴾ ط لابتداء الكلام مع اتحاد المقول ﴿ عليكم ﴾ ط لذلك ﴿ الجاهلين ﴾ 5 ﴿ من يشاء ﴾ ط لعطف الجملتين المتفقتين ﴿ بالمهتدين ﴾ 5 ﴿ أرضنا ﴾ ط ﴿ لا يعلمون ﴾

5 ﴿ معيشتها ﴾ ج للفصل بين الاستفهام والإخبار مع فاء التعقيب ﴿ قليلاً ﴾ ط ﴿ الوارثين ﴾ 5 ﴿ آياتنا ﴾ ج للعدول مع اتفاق الجملتين ﴿ ظالمون ﴾ 5 ﴿ وزينتها ﴾ ج فصلاً بين المعنيين المتضادّين ﴿ وأبقى ﴾ ط ﴿ تعقلون ﴾ 5 ﴿ المحضرين ﴾ 5 ﴿ تزعومن ﴾ 5 ﴿ أغوينا ﴾ ج ﴿ غوينا ﴾ ج لعدم العاطف مع اتحاد القائل ﴿ إليك ﴾ ج لما قلنا مع زيادة النفي المقتضى للفصل ﴿ يعبدون ﴾ 5 ﴿ العذاب ﴾ ج لجواز تعلق "لو" بمحذوف أي لو اهتدوا لما لقوا ما لقوا ، ويجوز تعلقها ب ﴿ يهتدون ﴾ والوقف على ﴿ لهم ﴾ أي لو كانوا يهتدون لرأوا العذاب بقلوبهم ﴿ يهتدون ﴾ 5 ﴿ المرسلين ﴾ 5 ﴿ لا يتساءلون ﴾ 5 ﴿ المفلحين ﴾ 5 ﴿ ويختار ﴾ ز وقد يوصل على معنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة وفيه بعد ﴿ الخيرة ﴾ 5 ﴿ يشركون ﴾ 5 ﴿ يعلنون ﴾ 5 ﴿ إلا هو ﴾ ط ﴿ والآخرة ﴾ ز لعطف الجمل ﴿ ترجعون ﴾ 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 347 ﴾

(141/587)

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أن الذي يجب التمسك به ما جاء به موسى عليه السلام فقال : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القرون الأولى ﴾ والكتاب هو التوراة ، ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس ، من حيث يستبصر به في باب الدين ، وهدى من حيث يستدل به ، ومن حيث إن المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب ، ووصفه بأنه رحمة لأنه من نعم الله تعالى على من تعبد به .

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما أهلك الله تعالى قرناً من القرون بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل التوراة ، غير أهل القرية التي مسخها قردة "

أما قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فالمراد لكي يتذكروا ، قال القاضي : وذلك يدل على إرادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك أو لم يختره ، ففيه إبطال مذهب المجبرة الذين يقولون ما أراد التذكر إلا ممن يتذكر ، فأما من لا يتذكر فقد كره ذلك منه ، ونص القرآن دافع لهذا القول ، قلنا أليس أنكم حملتم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ ﴾ [الأعراف : 179] على العاقبة ، فلم لا يجوز حمله ههنا على العاقبة ، فإن عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك في الآخرة .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

اعلم أن في الآية سؤالات :

السؤال الأول : الجانب موصوف ، والغربي صفة ، فكيف أضاف الموصوف إلى الصفة ؟

الجواب : هذه مسألة خلافية بين النحويين ، فعند البصريين لا يجوز إضافة الموصوف إلى الصفة إلا بشرط خاص سنذكره ، وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقاً حجة البصريين ، أن إضافة الموصوف إلى الصفة تقتضي إضافة الشيء إلى نفسه ، وهذا غير جائز فذاك أيضاً غير جائز ، بيان الملازمة أنك إذا قلت جاءني زيد الظريف ، فلفظ الظريف يدل على شيء معين في نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة ، فإذا نصصت على زيد عرفنا أن ذلك الشيء الذي حصلت له الظرافة هو زيد ، إذا ثبت هذا ، فلو أضفت زيداً إلى الظريف ، كنت قد أضفت زيداً إلى زيد ، وإضافة الشيء إلى نفسه غير جائزة ، فإضافة الموصوف إلى صفته وجب أن لا تجوز ، إلا أنه جاء على خلاف هذه القاعدة ألفاظ ، وهي قوله تعالى في هذه الآية : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ وقوله : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ [البينة : 5] وقوله : ﴿ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 95] ﴿ وَلَدَارُ الأخرة ﴾ [النحل : 30] ويقال صلاة الأولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء ، فقالوا التأويل فيه جانب المكان الغربي ودين الملة القيمة وحق الشيء اليقين ودار الساعة الآخرة

وصلاة الساعة الأولى ومسجد المكان الجامع وبقلة الحبة الحمقاء ، ثم قالوا في هذه المواضع : المضاف إليه ليس هو النعت ، بل المنعوت ، إلا أنه حذف المنعوت وأقيم النعت مقامه فههنا ينظر إن كان ذلك النعت كالمتعين لذلك المنعوت ، حسن ذلك وإلا فلا ، ألا ترى أنه ليس لك أن تقول عندي جيد على معنى عندي درهم جيد ، ويجوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه ، لأن الفقيه يعلم أنه لا يكون إلا من الناس والجيد قد يكون درهماً وقد يكون غيره ، وإذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربي ، لأن الشيء الموصوف بالغربي الذي يضاف إليه الجانب لا يكون إلا مكاناً أو ما يشبهه ، فلا جرم حسنت هذه الإضافة ، وكذا القول في

(143/587)

البواقي ، والله أعلم .

السؤال الثاني : ما معنى قوله : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمر ﴾ ؟ الجواب : الجانب الغربي هو المكان الواقع في شق الغرب ، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور ، وكتب الله (له) في الألواح والأمر المقضي إلى موسى عليه السلام الوحي الذي أوحى إليه ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يقول : وما كنت حاضراً المكان الذي

أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ، ولا كنت من جملة الشاهدين للوحي إليه أو على (الموحى) إليه ، (وهي لأن الشاهد لا بد وأن يكون حاضراً) ، وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات .

السؤال الثالث : لما قال ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ ثبت أنه لم يكن شاهداً ، لأن الشاهد لا بد أن يكون حاضراً ، فما الفائدة في إعادة قوله : ﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ ؟ الجواب : قال ابن عباس رضي الله عنهما : التقدير لم تحضر ذلك الموضع ، ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع ، فإنه يجوز أن يكون هناك ، ولا يشهد ولا يرى .

السؤال الرابع : كيف يتصل قوله : ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً ﴾ بهذا الكلام ومن أي وجه يكون استدراكاً له ؟ الجواب : معنى الآية : ولكنا أنشأنا بعد عهد موسى عليه السلام إلى عهدك قروناً كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذي أنت فيه ، فاندرست العلوم فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى ، فالحاصل كأنه قال وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ، ولكنا أوحيناه إليك فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب ، فإذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده .

واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال إن في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور

ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله ، دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصحف الأولى ﴾ [طه : 133] .

(144/587)

أما قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ فالمعنى ما كنت مقيماً فيه .

وأما قوله : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءايا تنا ﴾ ففيه وجهان : الأول : قال مقاتل : يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار ، ولولا ذلك لما علمتها الثاني : قال الضحاك : يقول إنك يا محمد لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم الكتاب وإنما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين في كل زمان رسولاً ، فأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء .

أما قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ﴿ ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي علمناك رحمة ، وقرأ عيسى بن عمر بالرفع أي هي رحمة ، وذكر المفسرون في قوله : ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ وجوهاً أخر أحدها : إذ نادينا أي قلنا لموسى ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : 156] إلى قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون ﴾ [الأعراف : 157] .

وثانيها : قال ابن عباس إذ نادينا أمتك في أصلاب آبائهم : " يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني " قال وإنما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلاً لميقات ربه وثالثها : قال وهب : " لما ذكر الله لموسى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال رب أرنيهم قال إنك لن تدركهم وإن شئت أسمعتك أصواتهم قال بلى يا رب فقال سبحانه يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم فأسمعه الله تعالى أصواتهم ثم قال : أجبتكم قبل أن تدعوني " الحديث كما ذكره ابن عباس ورابعها : روى سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ قال كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ثم وضعه على العرش ثم نادى " يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني من لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أدخلته الجنة "

أما قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ فالإنذار هو التخويف بالعقاب على المعصية .

واعلم أنه تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى .

. .

وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ . . .

(146/587)

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور ﴾ فجمع تعالى بين كل ذلك لأن هذه الأحوال الثلاثة هي الأحوال العظيمة التي اتفقت لموسى عليه السلام إذ المراد بقوله : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ إنزال التوراة حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً ﴾ أول أمره والمراد ناديناه وسط أمره وهو ليلة المناجاة ، ولما بين تعالى أنه عليه السلام لم يكن في هذه الأحوال حاضراً بين تعالى أنه بعثه وعرفه هذه الأحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ واختلفوا فيه فقال بعضهم لم يبعث إليهم نذير منهم : وقال بعضهم : حجة الأنبياء كانت قائمة عليهم ولكنه ما بعث إليهم من يجد تلك الحجة عليهم ، وقال بعضهم لا يبعد وقوع الفترة في التكاليف فبعثه الله تعالى تقريراً للتكاليف وإزالة لتلك الفترة .

أما قوله : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ الآية فقال صاحب "الكشاف" : (لولا) الأولى

امتناعية وجوابها محذوف ، والثانية تحضيضية ، والفاء في قوله ﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ للعطف ، (وفي قوله للعطف) .

(147/587)

وفي قوله : ﴿ فَنَتَّبِعَ ﴾ جواب (لولا) لكونها في حكم الأمر من قبل أن الأمر باعث على الفعل ، والباعث والمحضض من واد واحد ، والمعنى لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي : هلا أرسلت إلينا رسولاً ، محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم ، يعني إنما أرسلنا الرسول إزالة لهذا العذر وهو كقوله : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] ﴿ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ﴾ [المائدة : 19] ﴿ لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءاياتك ﴾ واعلم أنه تعالى لم يقل ولولا أن يقولوا هذا العذر لما أرسلنا ، بل قال : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ فَيَقُولُواْ ﴾ هذا العدو لما أرسلنا وإنما قال ذلك لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً وقد عرفوا بطلان دينهم لما قالوا ذلك ، بل إنما يقولون ذلك إذا نالهم العقاب فيدل ذلك على أنهم لم يذكروا هذا العذر تأسفاً على كفرهم ، بل لأنهم ما أطاقوا وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

احتج الجبائي على وجوب فعل اللطف قال لو لم يجب ذلك لم يكن لهم أن يقولوا : هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ، إذ من الجائز أن لا يبعث إليهم وإن كانوا لا يختارون الإيمان إلا عنده على قول من خالف في وجوب اللطف كما مر أن الجائز إذا كان في المعلوم لو خلق له لم يمكن إلا أن يفعل ذلك .

المسألة الثانية :

(148/587)

احتج الكعبي به على أن الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الأمر كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا أنه ليس المراد من قوله : ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء : 23] ما يظنه أهل السنة ، وإذا ثبت أنه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى وإلا لكان للكافر أعظم حجة على الله تعالى .

المسألة الثالثة :

قال القاضي : فيه إبطال القول بالجبر من جهات : إحداها : أن اتباعهم وإيمانهم موقوف على أن يخلق الله ذلك فيهم سواء أرسل الرسول إليهم أم لا وثانيتها : أنه إذا خلق القدرة

على ذلك فيهم وجب سواء أرسل الرسول أم لا وثالثتها : إذا أراد ذلك وجب أرسل الرسول إليهم أم لا ، فأي فائدة في قولهم هذا لو كانت أفعالهم خلقاً لله تعالى ؟ فيقال للقاضي هب أنك نازعت في الخلق والإرادة ولكنك وافقت في العلم فإذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا ، فإن لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وإن وجب لزمك ما أوردته علينا ، واعلم أن الكلام وإن كان قوياً حسناً إلا أنه إذا توجه عليه النقض الذي لا محيص عنه ، فكيف يرضى العاقل بأن يعول عليه ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 218. 221 ﴾

(149/587)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾

فيه قولان

: أحدهما : أنها ست من المثاني التي التي أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس ورواه مرفوعاً .

الثاني : أنها التوراة ، قاله قتادة . قال يحيى بن سلام : هو أول كتاب نزل فيه الفرائض

والحدود والأحكام.

﴿ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى ﴾ قال أبو سعيد الخدري: ما أهلك الله أمة من الأمم ولا قرناً من القرون ولا قرية من القرى بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخهم الله قردة، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى ﴾.

ومعنى قوله: ﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي بينات. ﴿ وَهُدًى ﴾ أي دلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة.

﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا ويثقوا بثوابهم في الآخرة.

قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾

هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: نودي يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني، قاله أبو هريرة.

الثاني: أنهم نودوا في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بُعِثْتَ، قاله مقاتل.

﴿ وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن ما نودي به موسى من جانب الطور من ذكرك نعمة من ربك .

الثاني : أن إرسالك نبياً إلى قومك نعمة من ربك .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يعني العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(150/587)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنا القرونَ الأولى ﴾

يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿ بصائرَ للناس ﴾ أي : ليبصروا به ويهتدوا .

قوله تعالى : ﴿ وما كنتَ بجانب الغربيِّ ﴾ قال الزجاج : أي : وما كنتَ بجانب الجبل الغربيّ .

قوله تعالى : ﴿ إِذ قَضَيْنا إِلى موسى الأَمرَ ﴾ أي : أَحْكَمْنا الأمر معه بارساله إِلى فرعون وقومه ، ﴿ وما كنتَ مِن الشاهدين ﴾ لذلك الأمر ؛ وفي هذا بيان لصحة نبوَّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يعلمون أنه لم يقرأ الكتب ، ولم يشاهِد ما جرى ، فلولا أَنَّه أُوحي إِليه ذلك ، ما علم .

قوله تعالى : ﴿ ولكنَّا أنشأْنا قروناً ﴾ أي : خَلَقْنا أُمماً مِن بعد موسى ﴿ فتَطَاوَلَ عليهم العُمُرُ ﴾ أي : طال إمهالُهم فنسوا عهد الله وتركوا أمره ؛ وهذا يدلُّ على أنه قد عُهد إلى موسى وقومه عهود في أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأُمروا بالإيمان به ، فلمَّا طال إمهالُهم ، أعرضوا عن مراعاة العهود ، ﴿ وما كنتَ ثاوياً ﴾ أي : مقيماً ﴿ في أهل مَدْيَنَ ﴾ فتَعْلَم خبر موسى وشعيب وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة ، ﴿ ولكنَّا كنَّا مرسِلِين ﴾ أرسلناكَ إلى أهل مكة ، وأخبرناك خبر المتقدِّمِين ، ولولا ذلك ما علمتَه .

﴿ وما كنتَ بجانب الطُّور ﴾ أي : بناحية الجبل الذي كُلِّم عليه موسى ﴿ إذ نادَيْنا ﴾ موسى وكلَّمناه ، هذا قول الأكثرين ؛ وقال أبو هريرة : كان هذا النداء : يا أُمَّة محمد ، أعطيتُكم قبل أن تسألوني .

وأستجيب لكم قبل أن تدعوني .

قوله تعالى : ﴿ ولكن رحمةً مِنْ ربِّك ﴾ قال الزجاج : المعنى : لم تُشاهِد قصص الأنبياء ، ولكنَّا أوحينا إليك وقصصناها عليك ، رحمةً من ربِّك .

﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة ﴾ جواب "لولا" محذوف ، تقديره : لولا أنهم يحتجُّون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة .

وقيل : لولا ذلك لم نَحْتَجْ إلى إرسال الرسل ومؤاثرة الاحتجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾

يعني التوراة ؛ قاله قتادة .

قال يحيى بن سلاّم : هو أوّل كتاب يعني التوراة نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام .

وقيل : الكتاب هنا ستّ من المثاني السبع التي أنزلها الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عباس ، ورواه مرفوعاً .

﴿ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى ﴾ قال أبو سعيد الخدري قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمّة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة على موسى غير القرية التي مسخت قردة ألم تر إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى ﴾ " أي من بعد قوم نوح وعاد وثمود .

وقيل : أي من بعد ما أغرقنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون .

﴿ بَصَآئِرَ للنَّاسِ ﴾ أي آتيناه الكتاب بصائر .

أي ليتبصروا ﴿ وَهُدًى ﴾ أي من الضلالة لمن عمل بها ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن بها .

﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي ليذكروا هذه النعمة فيقيموا على إيمانهم في الدنيا ، ويثقوا بثوابهم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ﴾ أي ما كنت يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الغربي ﴾ أي بجانب الجبل الغربيّ قال الشاعر :

أعطاكَ من أعطى الهُدَى النبيَّا . . .

نُوراً يَزِينُ المِنبرَ الغربيَّا

﴿ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَى مُوسَى الأمر ﴾ إذ كلفناه أمرنا ونهينا ، وألزمناه عهدنا .

وقيل : أي إذ قضينا إلى موسى أمرك وذكرناك بخير ذكرٍ .

وقال ابن عباس : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا ﴾ أي أخبرنا أن أمة محمد خير الأمم .

﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ أي من الحاضرين .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً ﴾ أي من بعد موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ حتى نسوا ذكر الله أي عهده وأمره .

نظيره : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : 16] .

وظاهر هذا يوجب أن يكون جرى لنبيّنا عليه السلام ذكر في ذلك الوقت ، وأن الله سيبعثه ، ولكن طالت المدّة ، وغلبت القسوة ، فنسَي القوم ذلك .

وقيل : آتينا موسى الكتاب وأخذنا على قومه العهود ، ثم تطاول العهد فكفروا ، فأرسلنا محمداً مجدداً للدين وداعياً الخلق إليه : وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي مقيماً كمقام موسى وشعيب بينهم .

قال العَجَّاج :

فباتَ حيث يدخلُ الثَّوِيُّ . . .

أي الضيف المقيم .

وقوله : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي تذكرهم بالوعد والوعيد .

﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي أرسلناك في أهل مكة ، وآتيناك كتاباً فيه هذه الأخبار : ولولا ذلك لما علمتها .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي كما لم تحضر جانب المكان الغربي إذ أرسل الله موسى إلى فرعون ، فكذلك لم تحضر جانب الطور إذ نادينا موسى لما أتى الميقات مع السبعين .

وروى عمرو بن دينار يرفعه قال : " نودي يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم

قبل أن تسألوني " فذلك قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ .

وقال أبو هريرة وفي رواية عن ابن عباس إن الله قال : " يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ورحمتكم قبل أن تسترحموني " قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد وأمته قال : يا رب أرنيهم .

فقال الله : "إنك لن تدركهم وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم" قال : بلى يا رب .

فقال الله تعالى : "يا أمة محمد " فأجابوا من أصلاب آبائهم .

فقال : "قد أجبتكم قبل أن تدعوني" ومعنى الآية على هذا ما كنت بجانب الطور إذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وأخبرناه بما كتبناه لك ولأمتك من الرحمة إلى آخر الدنيا .

﴿ ولكن ﴾ فعلنا ذلك ﴿ رَّحْمَةً ﴾ منّا بكم .

قال الأخفش : ﴿ رَحْمَةً ﴾ نصب على المصدر أي ولكن رحمناك رحمة .

(153/587)

وقال الزجاج : هو مفعول من أجله أي فعل ذلك بك لأجل الرحمة .

النحاس : أي لم تشهد قصص الأنبياء ، ولا تليت عليك ، ولكنا بعثناك وأوحيناها إليك

للرحمة .

وقال الكسائي : على خبر كان ؛ التقدير : ولكن كان رحمة .

قال : ويجوز الرفع بمعنى هي رحمة .

الزجاج : الرفع بمعنى ولكن فِعل ذلك رحمة .

﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يعني العرب ؛ أي لم تشاهد تلك الأخبار ، ولكن أوحيناها إليك رحمة بمن أرسلت إليهم لتنذرهم بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولولا أَن تُصِيبَهُم ﴾ يريد قريشاً .

وقيل : اليهود .

﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعاصي .

وخص الأيدي بالذكر ؛ لأن الغالب من الكسب إنما يقع بها .

وجواب ﴿ لَوْلا ﴾ محذوف أي لولا أن يصيبهم عذاب بسبب معاصيهم المتقدّمة ﴿ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لولا ﴾ أي هلا ﴿ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ لما بعثنا الرسل .

وقيل : لعاجلناهم بالعقوبة .

وبعث الرسل إزاحة لعذر الكفار كما تقدّم في "سبحان" وآخر "طه" .

﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ نصب على جواب التحضيض .

﴿ وَنَكُونَ ﴾ عطف عليه .

﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ من المصدّقين .

وقد احتج بهذه الآية من قال : إن العقل يوجب الإيمان والشكر ؛ لأنه قال : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وذلك موجب للعقاب إذ تقرّر الوجوب قبل بعثة الرسل ، وإنما يكون ذلك بالعقل .

قال القشيري : والصحيح أن المحذوف لولا كذا لما احتيج إلى تجديد الرسل .

أي هؤلاء الكفار غير معذورين إذ بلغتهم الشرائع السابقة والدعاء إلى التوحيد ، ولكن تطاول العهد ، فلو عذبناهم فقد يقول قائل منهم طال العهد بالرسل ، ويظن أن ذلك عذر ولا عذر لهم بعد أن بلغهم خبر الرسل ، ولكن أكملنا إزاحة العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك يا محمد إليهم .

وقد حكم الله بأنه لا يعاقب عبداً إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثة الرسل . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(154/587)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى ما آل إليه فرعون وقومه من غضب الله عليهم وإغراقه ، ذكر ما امتن به على

رسوله موسى عليه السلام فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وهو التوراة ، وهو أول كتاب أنزلت فيه الفرائض والأحكام .

﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ : قوم نوح وهود وصالح ولوط ، ويقال : لم تهلك قرية بعد نزول التوراة غير القرية التي مسخ أهلها قردة .

وانتصب بصائر على الحال ، أي طرائق هدي يستبصر بها .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

لما قص الله تعالى من أنباء موسى وغرائب ما جرى له من الحمل به في وقت ذبح الأبناء ، ورميه في البحر في تابوت ، ورده إلى أمّه ، وتبني فرعون له ، وإيتائه الحكم والعلم ، وقتله القبطي ، وخروجه من منشئه فاراً ، وتصاهره مع شعيب ، ورعيه لغنمه السنين الطويلة ، وعوده إلى مصر ، وإضلاله الطريق ، ومناجاة الله له ، وإظهار تينك المعجزتين العظيمتين على يديه ، وهي العصا واليد ، وأمره بالذهاب إلى فرعون ، ومحاورته معه ، وتكذيب فرعون وإهلاكه وإهلاك قومه ، والامتنان على موسى بإيتائه التوراة ؛ وأوحى تعالى بجميع ذلك إلى محمد رسوله (صلى الله عليه وسلم) ؛ ذكره بإنعامه عليه بذلك ، وبما خصه من الغيوب التي كان لا يعلمها لا هو ولا قومه فقال : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ .

والأمر ، قيل : النبوّة والحكم الذي آتاه الله موسى .

وقيل : الأمر : أمر محمد عليه السلام أن يكون من أمته ، وهذا التأويل يلتئم معه ما بعده من قوله : ﴿ ولكنا أنشأنا قروناً ﴾ .

وقيل : الأمر : هلاك فرعون بالماء ، ويحمل بجانب الغربى على اليم ، وبدأ أولاً بنفي شيء خاص ، وهو أنه لم يحضر وقت قضاء الله لموسى الأمر ، ثم ثنى بكونه لم يكن من الشاهدين .

(155/587)

والمعنى ، والله أعلم ؛ من الشاهدين بجميع ما أعلمناك به ، فهو نفي لشهادته جميع ما جرى لموسى ، فكان عموماً بعد خصوص .

وبجانب الغربي : من إضافة الموصوف إلى صفته عند قوم ، ومن حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه عند قوم .

فعلى القول الأول أصله بالجانب الغربي ، وعلى الثاني أصله بجانب المكان الغربي ، والترجيح بين القولين مذكور في النحو .

والغربي ، قال قتادة : غربي الجبل ، وقال الحسن : بعث الله موسى بالغرب ، وقال أبو عبيدة : حيث تغرب الشمس والقمر والنجوم .

وقيل : هنا جبل غربي .

وقيل : الغربي من الوادي ، وقيل : من البحر .

قال ابن عطية : المعنى : لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي تخبر بها ، ولكنها صارت إليك بوحينا ، أي فكان الواجب أن يسارع إلى الإيمان بك ، ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها زمناً زمناً ، فعزبت حلومهم ، واستحكمت جهالتهم وضلالتهم .

وقال الزمخشري : الغرب : المكان الواقع في شق الغرب ، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى من الطور ، وكتب الله له في الألواح .

والأمر المقضي إلى موسى : الوحي الذي أوحى إليه .

والخطاب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يقول : وما كنت حاضراً المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى ، ولا كنت من جملة الشاهدين للوحي إليه ، أو على الوحي إليه ، وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات ، حتى تقف من جملة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته ، وكتب التوراة له في الألواح ، وغير ذلك .

فإن قلت : كيف يتصل قوله : ﴿ ولكنا أنشأنا قروناً ﴾ بهذا الكلام ، ومن أي جهة يكون استدراكاً ؟ قلت : اتصاله به وكونه استدراكاً من حيث أن معناه : ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى عهدك قروناً كثيرة ، فتطاول على آخرهم ، وهو القرن الذي أنت فيهم .

﴿ العمر ﴾ : أي أمد انقطاع الوحي ، واندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وكسبناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى ، كأنه قال : وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ، ولكنا أوحيناه إليك ، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة النظرة ، ودل به على المسبب على عادة الله في اختصاره .

فإذن ، هذا الاستدراك شبيه للاستدراكين بعده .

﴿ وما كنت ثاوياً ﴾ : أي مقيماً في أهل مدين ، هم شعيب والمؤمنون .

﴿ تتلوا عليهم آياتنا ﴾ : تقرأ عليهم تعلماً منهم ، يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه .

ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها .

﴿ إذ نادينا ﴾ ، يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ، ولكن علمناك .

وقيل : ﴿ فتطاول عليهم العمر ﴾ ، وفترت النبوة ، ودرست الشرائع ، وحرف كثير منها ؛ وتمام الكلام مضمر تقديره : وأرسلناك مجدداً لتلك الأخبار ، مميزاً للحق بما اختلف فيه منها ، رحمة منا .

وقيل : يحتمل أن يكون المعنى : وما كنت من الشاهدين في ذلك الزمان ، وكانت بينك وبين موسى قرون تطاولت أعمارهم ، وأنت تخبر الآن عن تلك الأحوال أخبار مشاهدة وعيان

بإيحائنا ، معجزة لك .

وقيل : تتلو حال ، وقيل : مستأنف ، أي أنت الآن تتلو قصة شعيب ، ولكنا أرسلناك رسولاً ، وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار المنسية تتلوها عليهم ، ولولاك ما أخبرتهم بما لم يشاهدوه .

وقال الفراء : ﴿ وما كنت عليهم ﴾ في أهل مدين مع موسى ، فتراه وتسمع كلامه ، وها أنت ﴿ تتلوا عليهم آياتنا ﴾ : أي على أمتك ، فهو منقطع . انتهى .

قيل : وإذا لم يكن حاضراً في ذلك المكان ، فما معنى : ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ ؟

فقال ابن عباس : التقدير : لم تحضر ذلك الموضع ، ولو حضرت ، فما شاهدت تلك الوقائع ، فإنه يجوز أن يكون هناك : ولا يشهد ولا يرى .

وقال مقاتل : لم يشهد أهل مدين فيقرأ على أهل مكة خبرهم ، ولكنا أرسلناك إلى أهل مكة ، وأنزلنا إليك هذه الأخبار ، ولولا ذلك ما علمت .

(157/587)

وقال الضحاك : يقول إنك يا محمد لم تكن الرسول إلى أهل مدين ، تتلو عليهم آيات الكتاب ، وإنما كان غيرك ، ولكنا كنا مرسلين في كل زمان رسولاً ، فأرسلنا إلى مدين شعيباً ،

وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء . انتهى .

وقال الطبري : ﴿ إذ نادينا ﴾ بأن : ﴿ سأكتبها للذين يتقون ﴾ الآية .

وعن أبي هريرة : أنه نودي من السماء حينئذ يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني ، وغفرت لكم قبل أن تسألوني ، فحينئذ قال موسى عليه السلام : اللهم اجعلني من أمة محمد .

فالمعنى : إذ نادينا بأمرك ، وأخبرناك بنبوتك .

وقرأ الجمهور : ﴿ رحمة ﴾ ، بالنصب ، فقدر : ولكن جعلناك رحمة ، وقدر أعلمناك ونبأناك رحمة .

وقرأ عيسى ، وأبو حيوة : بالرفع ، وقدر : ولكن هو رحمة ، أو هو رحمة ، أو أنت رحمة .

﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير ﴾ : أي في زمن الفترة بينك وبين عيسى ، وهو خمسمائة وخمسون عاماً ونحوه .

وجواب ﴿ لولا ﴾ محذوف .

والمعنى : لولا أنهم قائلون ، إذ عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي ، هلا أرسلت إلينا رسولاً ؟ محتجين بذلك علينا ما أرسلنا إليهم : أي إنما أرسلنا الرسل إزالة لهذا العذر ، كما قال : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ أن ﴿ تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ وتقدير الجواب : ما أرسلنا إليهم الرسل ، هو قول الزجاج .

وقال ابن عطية : تقديره : لعاجلناهم بما يستحقونه .

والمصيبة : العذاب .

ولما كان أكثر الأعمال تزاول بالأيدي ، عبر عن كل عمل باجتراح الأيدي ، حتى أعمال القلوب ، اتساعاً في الكلام ، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر ، وتغليب الأكثر على الأقل .

والفاء في ﴿ فيقولوا ﴾ للعطف على نصيبهم ، ولولا الثانية للتحضيض .

وفنتبع : الفاء فيه جواب للتحضيض .

(158/587)

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف استقام هذا المعنى ، وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول لدخول حرف الامتناع عليها دونه ؟ قلت : القول هو المقصود بأن يكون سبباً لإرسال الرسل ، ولكن العقوبة ، لما كانت هي السبب للقول ، فكان وجوده بوجودها ، جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول ، فأدخلت عليها لولا ، وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية ، ويؤول معناها إلى قولك : ولولا قولهم هذا ، ﴿ إذا أصابتهم مصيبة ﴾ لما أرسلنا ، ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكتة ، وهو أنهم لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم ، وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين .

لم يقولوا : لولا أرسلت إلينا رسولاً ، وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير ، لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم .

وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخهم فيه ما لا يخفى ، كقولهم : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(159/587)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾

أي التوراةَ ﴿ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القرون الاولى ﴾ هم أقوامُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهم السَّلام ، والتَّعرض لبيانِ كونِ إيتائها بعدَ إهلاكِهم للإشعارِ بمساسِ الحاجةِ الدَّاعيةِ إليه تمهيداً لما يعقبُه من بيانِ الحاجةِ الدَّاعية إلى إنزالِ القُرآن الكريمِ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فإنَّ إهلاكَ القُرون الأُولى من موجباتِ اندراسِ معالمِ الشَّرائعِ وانطماسِ آثارِها وأحكامِها المؤدينِ إلى اختلالِ نظامِ العالمِ وفسادِ أحوالِ الأُمم المستدعيينَ للتشريعِ الجديدِ بقريرِ الأُصولِ الباقيةِ على مرِّ الدُّهورِ وترتيب الفروعِ المتبدلة بتبدلِ العُصور وتذكيرِ أحوالِ الأُممِ الخاليةِ الموجبةِ للاعتبارِ كأنَّه قيلَ ولقد آتينَا مُوسى التوراةَ على حينِ حاجةٍ إلى إيتائِها

﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي أنواراً لقلوبهم تبصرُ الحقائقَ وتميزُ بين الحقّ والباطلِ حيثُ كانتْ عُمياً عن الفهمِ والإدراكِ بالكُلِّية فإنَّ البصيرةَ نورُ القلبِ الذي به يستبصرُ كما أنَّ البصرَ نورُ العينِ الذي به تبصرُ ﴿ وهدى ﴾ أي هدايةً إلى الشَّرائعِ والاحكامِ التي هي سُبلُ الله تعالى ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ حيثُ ينالُ من عملَ به رحمةَ الله تعالى . وانتصابُ الكلِّ على الحاليَّةِ من الكتابِ على أنَّه نفسُ البصائرِ والهُدى والرَّحمة أو على حذفِ المضافِ أي ذا بصائرَ الخ وقيل على العلَّة أي آتيناهُ الكتابَ للبصائرِ والهُدى والرَّحمةِ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليكونُوا على حالٍ يُرجى منه التَّذكرُ وقد مرَّ تحقيقُ القولِ في ذلك عند قولِه تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ من سُورةِ البقرةِ الآية 21 وقولُه تعالى :

(160/587)

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ شروعٌ في بيانِ أنَّ إنزالَ القرآنِ الكريمِ أيضاً واقعٌ في زمانِ شدَّةِ مساسِ الحاجةِ إليه واقتضاءِ الحكمةِ له ألبتةَ وقد صدرَ بتحقيقِ كونِه وحياً صادقاً من عندِ الله عزَّ وجلَّ ببيانِ أنَّ الوقوفَ على ما فُصِّل من الأحوالِ لا يتسنَّى إلا بالمشاهدةِ أو التعلُّمِ ممَّن شاهدَها وحيثُ انتفى كلاهُما تبينَ أنَّه بوحيٍ من علاَّمِ الغُيُوبِ لا محالةَ على طريقةِ قولِه تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أقلامهم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ الآيةَ أيْ وما

كنتَ بجانبِ الجبلِ الغربّي أو المكانِ الغربيّ الذي وقعَ فيه الميقاتُ على حذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصّفةِ مُقامَهُ أو الجانبِ الغربّي على إضافةِ الموصُوفِ إلى الصّفةِ كمسجدِ الجامعِ . ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ أي عهدنَا إليهِ وأحكمَنا أمرَ نبوّتِه بالوحي وإتياءِ التَّوراةِ ﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ أي من جُملة الشاهدينَ للوحي وهم السبعونَ المختارون للميقاتِ حتَّى تشاهدَ ما جرى من أمرِ مُوسى في ميقاتِه وكتبةِ التَّوراةِ له في الألواحِ فتخبَره للنَّاسِ .

(161/587)

﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً ﴾ أي ولكنَّا خلقنا بين زمانِك وزمانِ مُوسى قُروناً كثيرةً ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ وتمادَى الأمدُ فتغيرتِ الشَّرائعُ والأحكامُ وعَميتْ عليهم الأنباءُ لا سيَّما على آخرِهم فاقتضَى الحالُ التَّشريعَ الجديدَ فأوحينَا إليكَ فحذفَ المستدركَ اكتفاءً بذكرِ ما يُوجبه ويدلُّ عليهِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ نفيٌ لاحتمالِ كونِ معرفتِه عليه الصَّلاة والسَّلام للقصَّةِ بالسَّماعِ ممَّن شاهدَها أي وما كنتَ مُقيماً في أهلِ مدينَ من شُعيبٍ والمؤمنينَ به . وقولُه تعالى : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ أي تقرأُ على أهلِ مدينَ بطريقِ التعلمِ منهم ﴿ ءاياتنا ﴾ الناطقةَ بالقصَّةِ إمَّا حالٌ من المُستكنِّ في ثاوياً

أو خبرٌ ثانٍ لكنتَ ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إيَّاك ومُوحين إليكَ تلك الآياتِ ونظائرَها ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي وقتَ ندائِنا مُوسى حح ﴿ إِنِّى أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ واستنبائنا إيَّاه وإرسالِنا له فرعونَ ﴿ ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ أي ولكنْ أرسلناكَ بالقُرآنِ النَّاطقِ بما ذُكر وبغيرِه لرحمةٍ عظيمةٍ كائنةٍ منَّا لك وللنَّاسِ . وقيل : علمناكَ وقيل : عرَّفناك ذلك وليس بذاكَ كما ستعرفُه . والالتفاتُ إلى اسمِ الربِّ للإشعارِ بعلَّةِ الرَّحمةِ وتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإضافةِ وقد اكتُفي عن ذكرِ المستدركِ هُهنا بذكرِ ما يُوجبه من جهتِه تعالى كما اكتفى عنْهُ في الأولِ بذكرِ ما يُوجبه من جهةِ النَّاسِ وصرَّح به فيما بينُهما تنصيصاً على ما هُود المقصودُ وإشعاراً بأنَّه المرادُ فيهما أيضاً ووِدرُّ شأنِ التَّنزيلِ . وقولُه تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ متعلقٌ بالفعلِ المعلَّلِ بالرَّحمةِ فهُو ما ذكرنا من إرسالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالقُرآنِ حتماً لما أنَّه المعللُ

(162/587)

بالإنذارِ لا تعليمُ ما ذُكر . وقُرِىء رحمةٌ بالرَّفعِ على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وقولُه تعالى : ﴿ مَّا أتاهم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ صفةٌ لقوماً أي لم يأتهم نذيرٌ لوقوعِهم في فترةٍ بينك وبينَ عيسى وهي خمسمائةٌ وخمسونَ سنةً أو بينك وبين إسماعيلَ بناء على أنَّ عوةَ مُوسى وعيسى

عليهما السَّلامُ كانتْ مختصَّةً ببني اسرائيلَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أيْ يتعظونَ بإنذارِك .

وتغييرُ التَّرتيبِ الوقوعيِّ بين قضاءِ الأمرِ والثّراء في أهلِ مدينَ والنّداءِ للتنبيهِ على أنَّ كلاًّ من ذلك برهانٌ مستقلٌّ على أنَّ حكايتَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للقصَّةِ بطريقِ الوحِي الإلهيِّ ولو ذُكر أولاً نفيُ ثوائِه عليه الصَّلاة والسَّلام في أهلِ مدينَ ثمَّ نفيَ حضورُه عليه الصَّلاة والسَّلام عندَ النّداءِ ثم نُفي حضورُه عند قضاءِ الأمرِ كما هو الموافقُ للترتيبِ الوقوعيِّ لربَّما تُوهم أنَّ الكلَّ دليلٌ واحدٌ على ما ذُكر كما في سورة البقرةِ .

(163/587)

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ أي عقوبةٌ ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما اقترفُوا من الكفرِ والمعَاصي ﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ عطفٌ على تُصيبَهم داخلٌ في حيّزِ لولا الامتناعيَّةِ على أنَّ مدارَ انتفاءِ ما يُجاب به هو امتناعُه لا امتناعُ المعطُوفِ عليه وإنما ذكرَه في حيّزِها للإيذانِ بأنَّه السببُ الملجىءُ لهم إلى قولِهم : ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ أي هلاَّ أرسلتَ إلينا رسولاً مؤيداً مِن عندك بالآياتِ ﴿ فَنَتَّبِعَ ءاياتك ﴾ الظَّاهرةَ على يدِه وهو جوابُ لولا الثَّانيةِ ﴿ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ بهَا وجوابُ لولا الأُولى محذوفٌ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليهِ والمَعْنى لولا قولُهم هذا عندَ إصابةِ عقوبةِ جناياتِهم التي قدَّمُوها ما أرسلناكَ لكن لمَّا كانَ

قولُهم ذلكَ محقَّقاً لا محيدَ عنه أرسلناك قطعاً لمعاذيرِهم بالكُلِّيةِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(164/587)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾

أي التوراة وهو على ما قال أبو حيان أول كتاب فصلت فيه الأحكام ﴿ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القرون الاولى ﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للأشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها تمهيداً لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن إهلاك القرون الأولى من موجبات اندراك معالم الشرائع وانطماس آثارها المؤديين إلى اختلاف نظام العالم وفساد أحوال الأمم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على ممر الدهور وترتيب الفروع المتبدل بتبدل العصور وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة للاعتبار ، ومن غفر عن هذا قال : الأولى أن تفسر القرون الأولى بمن لم يؤمن بموسى عليه السلام ويقابلها الثانية وهي من آمن به عليه السلام ، وقيل : المراد بها ما يعم من لم يؤمن بموسى من فرعون

وجنوده والأمم المهلكة من قبل ، وليس بذاك ، وما مصدرية أي آتيناه ذلك بعد إهلاكنا القرون الأولى ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي أنواراً لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عمياً عن الفهم والإدراك بالكلية فإن البصيرة نور القلب الذي به يستبصر كما أن البصر نور العين الذي به تبصر ويطلق على نفس العين ويجمع على أبصار والأول يجمع على بصائر ، والمراد بالناس قيل أمّته عليه السلام ، وقيل : ما يعمهم ومن بعدهم ، وكون التوراة بصائر لمن بعث إليه نبينا صلى الله عليه وسلم لتضمنها ما يشردهم إلى حقية بعثته عليه الصلاة والسلام ، أو يزيدهم علماً إلى علمهم .

(165/587)

وتعقب بأنه يلزم على هذا الحض على مطالعة التوراة والعلم بما فيها ، وقد صح أن عمر رضي الله تعالى عنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوامع كتبها من التوراة ليقرأها ويزداد علمه إلى علمه فغضب صلى الله عليه وسلم حتى عرف في وجهه ثم قال : "لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي" فرمى بها عمر رضي الله تعالى عنه من يده وندم على ذلك .

وأجيب بأن غضبه صلى الله عليه وسلم من ذلك لما أن التوراة التي بأيدي اليهود إذ ذاك

كانت محرفة وفيها الزيادة والنقص وليست عين التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام وكان الناس حديثي عهد بكفر فلو فتح باب المراجعة إلى التوراة ومطالعتها في ذلك الزمان لأدى إلى فساد عظيم فالنهي عن قراءتها حيث الإسلام حديث والخروج عن الكفر جديد لا يدل على أنها ليست في نفسها بصائر مشتملة على ما يرشد إلى حقية بعثته صلى الله عليه وسلم ويزيد علماً بصحة ما جاء به .

ومما يدل على حل الرجوع إليها في الجملة قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : 93] وقد كان المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام . وكعب الأحبار ينقلون منها ما ينقلون من الأخبار ولم ينكر ذلك ولا سماعه أحد من أساطيت الإسلام ولا فرق بين سماع ما ينقلونه منهم وبين قراءته فيها وأخذ منها وقد رجع إليها غير واحد من العلماء في إلزام اليهود والاحتجاج عليهم ببعض عباراتها في إثبات حقيقة بعثته صلى الله عليه وسلم ، والذي أميل إليه كون المراد بالناس بني إسرائيل فإنه الذي يقتضيه المقام .

(166/587)

وأما مطالعة التوراة فالبحث فيها طويل ، وفي تحفة المحتاج للمولى العلامة ابن حجر عليه الرحمن يحرم على غير عالم متبحر مطالعة نحو توراة علم تبدلها أوشك فيه وهو أقرب إلى التحقيق ومن سبر التوراة التي بأيدي اليهود اليوم رأى أكثرها مبدلاً لا توافق بينه وبين ما في القرآن العظيم أصلاً وهو المعول عليه ﴿ وهدى ﴾ أي إلى الشرائع التي هي الطرق الموصلة إلى الله عز وجل ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى : بمقتضى وعده سبحانه فعموم رحمته بهذا المعنى لا ينافي أن من الناس من هو كافر بها وهو غير مرحوم ، وانتصاب المتعاطفات على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف أي ذا بصائر الخ ، وجوز أبو البقاء انتصابها على العلة أي آتيناه الكتاب لبصائر وهدى ورحمة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي كي يتذكروا بناء على أن لعل للتعليل ؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك قال لعل في القرآن بمعنى كي غير آية في [الشعراء : 129] ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ وحكى الواقدي عن البغويّ أنه قال جميع ما في القرآن من لعل للتعليل إلا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ فإنها فيه للتشبيه ، والمشهور أنها للترجي .

(167/587)

ولما كان محالاً عليه عز وجل جعل بعضهم الكلام من باب التمثيل والمراد آتيناه ذلك ليكونوا على حالة قابلة للتذكر كحال من يرجى منه الخير ، وبعض آخر صرف الترجي إلى المخاطبين فهو منهم لا منه تعالى ، وجعل الزمخشري في ذلك استعارة تبعية حيث شبه الإرادة بالترجي لكون كل منهما طلب الوقوع ، ورد بأن فيه لزوم تخلف مراد الله تعالى عن إرادته لعدم تذكر الكل إلا أن يكون من قبيل إسناد ما للبعض إلى الكل ، وأنت تعلم أن ازرادة عند المعتزلة قسمان : تفويضية ، وهي قد يتخلف المراد عنها ، وقسرية وهي لا يتخلف المراد عنها أصلاً ، فمتى أريد القسم الأول منها هنا زال الإشكال إلا أن التقسيم المذكور خلاف المذهب الحق .

(168/587)

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ شروع في بيان أن إنزال القرآن الكريم أيضاً واقع زمان مساس الحاجة إليه واقتضاء الحكمة له البتة متضمناً تحقيق كونه وحياً صادقاً من عند الله تعالى ببيان أن الوقوف على ما فصل من الأحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحي من علام الغيوب لا محالة كذا قيل : ولا يخفى أن تعين كوه بوحي لا يتم إلا بنفي كونه بالاستفاضة وكونه بالتعلم من بعض أهل الكتاب

المعاصرين له صلى الله عليه وسلم كما قال المشركون : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [النحل : 103] ولعله إنما لم يتعرض لنفي ذلك وتعرض لنفي ما هو أظهر انتفاء منه للإشارة إلى ظهور انتفاء ذلك والمبالغة في دعوى ذلك حيث آذن بأن المحتاج إلى الإخبار بانتفائه ذانك الأمران دونه على أنه عز وجل قد نفى في موضع آخر كونه بالتعلم من بعض أهل الكتاب ولعله يعلم منه انتفاء كونه بالاستفاضة وإن قلنا : إنه لا يعلم فدليله ظاهر جداً ، ولذا لم يتشبث بكون الوقوف بها أحد من المشركين فتدبر ، والمعنى على ما ذهب إليه بعضهم وما كنت حاضراً بجانب الجبل الغربي أو المكان الغربي الذي وقع فيه الميقات وأعطى الله تعالى فيه ألواح التوراة لموسى عليه السلام ، والكلام على هذا من باب حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه وهو عند قوم من باب إضافة الموصوف إلى الصفة التي جوزها الكوفيون كما في "مسجد الجامع" ، والأصل في الجانب الغربي فيتحد الجانب والغربي على هذا الوجه وهو بعض من الغربي على الوجه الأول .

﴿ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحي وإيتاء التوراة .

(169/587)

﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ أي من جملة الحاضرين للوحي إليه أو الشاهدين على الوحي إليه عليه السلام وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى في ميقاته فتخبر به الناس ، فالشاهد من الشهادة إما بمعنى الحضور أو بمعناها المعروف واستشكل إرادة المعنى الأول بلزوم التكرار فإنه قد نفى الحضور أولاً في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ وكذا إرادة المعنى الثاني بلزم نحو ذلك لما أن نفي الحضور يستدعي نفي كونه من الشاهدين بذلك المعنى ، ومن هنا قيل : المراد من الأول نفي كونه صلى الله عليه وسلم حاضراً بنفسه لغرض من الأغراض ، ومن الثاني نفي كونه عليه الصلاة والسلام من جماعة جيء بهم ليحضروا فيطلعوا على ما يقع هناك لموسى عليه السلام لأن المراد بالشاهدين جماعة معهودون كان حالهم ذلك .

وقيل : المراد بالشاهدين الملائكة عليهم السلام فقد جاء الشاهد اسماً للملك كما في "القاموس" فكأنه قيل : ما كنت حاضراً بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى أمر نبوته بالوحي وما كنت من الملائكة الذين ينزلون ويصعدون بأمر الله تعالى ووحيه إلى أنبيائه عليهم السلام ولهم من الإطلاع على الحوادث ما ليس لغيرهم من البشر حتى يكون لك علم بما وقع لموسى عليه السلام فتخبر به الناس .

وقال ابن عباس كما في "التفسير الكبير والبحر" : التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت لما شاهدت تلك الوقائع فإنه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى ، وقيل : وهو

مختار أبي حيان إن المعنى وما كنت من الشاهدين بجميع ما أعلمناك به فهو نفي لشهادته عليه الصلاة والسلام جميع ما جرى لموسى عليه السلام فكان عموماً بعد خصوص ، وقيل : المراد وما كنت من الشاهدين ذلك الزمان فيكون نفياً لحضوره ومشاهدته ذلك الزمان أعم من أن يكون بجانب الغربي أو بغيره ، وحاصله نفي الوجود العيني إذ ذاك فكيون ترقياً في النفي .

(170/587)

وقيل : المراد ﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ إذ ذاك منتظماً في سلك من يتصف بالشهادة وهم الموجودون بالوجود العيني أينما كانوا ومآله كمآل ما قبله وإن اختلفا في طريق الإرادة وتعين كون الشهادة فيما قبله بمعنى الحضور .

ولعل ما قبله أظهر منه بل إذا ادعى مدع كونه أظهر من جميع ما قيل لم يبعد هذا ولا يخفى عليك حال تلك الأقوال وما فيها من اليل .

والقال ، وفي القلب من صحة نسبة ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إليه ما فيه فتدبر جميع ذاك ، والله تعالى يتولى هداك .

﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً ﴾ أي ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قروناً كثيرة ﴾

فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ وتمادى الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وعميت عليهم الأنباء لا سيما على آخرهم الذين أنت فهيم فاقتضت الحكمة التشريع الجديد وقص الأنباء على ما هي عليه فأوحينا إليك وقصصنا الأنباء عليك فحذف المستدرك أعني أوحينا اكتفاء بذكر ما بوجبه ويدل عليه من إنشاء القرون وتطاول الأمد ؛ وخلاصة المعنى لم تكن حاضراً لتعلم ذلك ولكن علمته بالوحي والسبب فيه تطاول الزمن حتى تغيرت الشرائع وعميت الأنباء ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً ﴾ أي مقيناً ﴿ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ وهم شعيب عليه السلام والمؤمنون نفي لاحتمال كون معرفته صلى الله عليه وسلم لبعض ما تقدم من القصة بالسماع ممن شاهد ذلك ، وقوله سبحانه : ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ أي تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم كما يقرأ المتعلم الدرس على معلمه ﴿ آيَاتنا ﴾ الناطقة بما كان لموسى عليه السلام بينهم وبما كان لهم معه إما حال من المستكن في ثاوياً أو خبر ثان لكنت ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ لك وموحين إليك تلك الآيات ونظائرها والاستدراك كالاستدراك السابق إلا أنه لا حذف فيه .

(171/587)

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي وقت ندائنا موسى ﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ [القصص : 30] واستنبائنا إياه وإرسالنا له إلى فروعون ﴿ ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِكَ ﴾ أي ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وغيره لرحمة كائنة منالك وللناس .

وقيل : أي علمناك رحمة ولعل الرحمة عليه مفعول ثان لعلم والمراد بها القرآن وليست مفعولاً له والمفعول الثاني ما ذكر من القصة لما ستعرفه قريباً إن شاء الله تعالى ، وأما جعلها منصوبة على المصدرية لفعل محذوف فحاله غني عن البيان والالتفات إلى اسم الرب للاشعار بأن ذلك من آثار الربوبية وتشريفه عليه الصلاة والسلام بالإضافة وقد اكتفى ههنا عن ذكر المستدرك بذكر ما يوجبه من جهته تعالى كما اكتفى في الأول بذكر ما يوجبه من جهة الناس وصرح به فيما بينهما تنصيصاً على ما هو المقصود وإشعاراً بأنه المراد فيهما أيضاً ولله تعالى در شأن التنزيل وقوله سبحانه : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ متعلق بالفعل المعلل بالحرمة وهو يستدعي أن يكون الإرسال بالقرآن أو ما في معناه كتعليم القرآن دون تعليم ما ذكر من القصة إذ لا يظهر حسن تعليله بالإنذار ، وجوز أن يتعلق بالمستدركات الثلاث على التنازل .

(172/587)

وقرأ عيسى ، وأبو حيوة ﴿ رَحْمَةً ﴾ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف والتقدير ولكن هو أو هذا أو هي أو هذه رحمة والضمير أو الإشارة قيل للإرسال المفهوم من الكلام والتذكير والتأنيث باعتبار المرجع والخبر والخلاف في الأولى مشهور ، وجوز أبو حيان أن يكون التقدير ولكن أنت رحمة ولتنذر على هذه القراءة متعلق بما هو صفة لرحمة وقوله جل وعلا : ﴿ مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ صفة لقوما و ﴿ مِنْ ﴾ الأولى مزيدة للتأكيد وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتعظون بإنذارك تعليل للإنذار على القول بأن لعل للتعليل وأما على القول بأنها للترجي حقيقة أو مجازاً فقيل هو في موضع الصفة بتقدير القول أي لتنذر قوماً مقولاً فيهم لعلهم يتذكرون والمراد بهؤلاء القوم قيل العرب ، وظاهر الآية أنهم لم يبعث إليهم رسول قبل نبينا صلى الله عليه وسلم أصلاً وليس بمراد للاتفاق على أن إسماعيل عليه السلام كان مرسلاً إليهم وكأنه لتطاول الأمد بين بعثته عليه السلام وبعثة نبينا عليه الصلاة والسلام إذ بينهما أكثر من ألفي سنة بكثير واندراك شرعه وعدمه وقوف الأكثرين في أغلب هذه المدة على حقيقته قيل : ذلك ، وقيل : إن ذلك لما صرحوا به من أن حكم بعثة إسماعيل عليه السلام قد انقطع بموته وأنه لم يرسل إليهم بعده نبي سوى النبي صلى الله عليه وسلم قال العلامة ابن حجر في المنح المكية : من المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل عليه الصلاة والسلام وأن إسماعيل انتهت رسالته بموته وادعى قبيل هذا الاتفاق على أن إبراهيم عليه السلام ومن بعده أي سوى إسماعيل عليه

السلام لم يرسلوا للعرب ورسالة إسماعيل إليهم انتهت بموته اه ، فكأنه لقلة لبث إسماعيل عليه السلام فيهم وانقطاع حكم رسالته بعد وفاته فيما بينهم وبقائهم الأمد الطويل بغير رسول مبعوث فيهم نفي إتيان النذير إياهم من قبله صلى الله عليه وسلم .

(173/587)

وذكر العلامة ابن حجر في المنح أيضاً ما يفيد أن كل رسول ممن عدا نبينا صلى الله عليه وسلم تنقطع رسالته بموته وليس ذلك خاصاً بإسمعيل عليه السلام ، ويفهم من كلام العز بن عبد السلام في أماليه أن هذا الانقطاع ليس على إطلاقه فقد قال : ﴿ فائدة ﴾ كل نبي إنما أرسل إلى قومه إلا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم فعلى هذا يكون ما عدا قوم كل نبي من أهل الفترة الأذرية النبي السابق عليه فإنهم مخاطبون ببعثة السابق إلا أن تدرس شريعة السابق فيصير الكل من أهل الفترة اه .

وهو وكذا ما نقلناه عن العلامة ابن حجر عندي الآن على إعراف الرد والقبول ، ولعل الله تعالى يشرح صدري بعد لتحقيق الحق في ذلك ، وقيل : إن موسى .

(174/587)

وعيسى عليهما السلام كما أرسلا لبني إسرايل أرسلا للعرب فالمراد بنفي هذا الإتيان الفترة التي بين عيسى ونبينا عليهما الصلاة والسلام ، وزمنها على ما روى البخاري عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه ستمائة سنة وفي كثير من الكتب أنه خمسمائة وخمسون سنة ، ونفي إتيان نبي بين زماني إتيان نبينا وإتيان عيسى عليهما الصلاة والسلام هو ما صححه جمع من العلماء لحديث لا نبي بيني وبين عيسى وقال بعضهم : إن بينهما أربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب وهو خالد بن سنان ، وقيل : غير ذلك ، واختار البعض أن المراد بهؤلاء القوم العرب المعاصرون له صلى الله عليه وسلم إذ هم الذين يتصور إنذاره عليه الصلاة والسلام إياهم دون أسلافهم الماضين ولعله الأظهر ، وعدم إتيان نذير إياهم من قبله صلى الله عليه وسلم على القول بانتهاء حكم رسالة الرسول سوى نبينا عليه الصلاة والسلام بموته ظاهر ، وأما إذا قيل : بعدم انتهائه بذلك وبقائه حكماً لرسالة الرسول يجب على من علمه من ذراري المرسل إليهم الأخذ به من حيث إنه حكم من أحكام ذلك الرسول إلى أن يأتي رسول آخر فيؤخذ به من حيث إنه حكم من أحكام أو على الوجه الذي يأمر به فيه من النسبة إليه أو من نسبته إلى من قبله أو يترك إن جاء الثاني ناسخاً له فالمراد بعدم إتيان النذير إياهم عدم وصول ما أتى به على الحقيقة

إليهم ولا يمكن أن يراد بهؤلاء القوم العرب مطلقاً ويقال : بأنهم لم يرسل إليهم قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أصلاً لظهور بطلانه ومنافاته لقوله تعالى :

(175/587)

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] والعرب أعظم أمة وكذا لقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ [يس : 6] بناء على أن ما فيه ليست نافية وهو على القول بأن ما فيه نافية مؤول بحمل الآباء على الآباء الأقربين ، ولا يكاد يجوز في ما ههنا ما جاز فيها من الاحتمال في آية يس بل المتعين فيها النفي ليس غير ، وتكلف غيره مما لا ينبغي في كتاب الله تعالى ؛ والنذير بمعنى المنذر ، واحتمال كوه مصدراً بمعنى الإنذار مما لا ينبغي أن يلتفت إليه وتغيير الترتيب الوقوعي بين قضاء الأمر بمعنى أحكام أمر نبوة موسى عليه السلام بالوحي وإيتاء التوراة وثوائه عليه السلام في أهل مدين المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : 45] والنداء للتنبيه على أن كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحي الإلهي ولو روعي الترتيب الوقوعي ، ونفي أولا الثواء في أهل مدين ونفي ثانياً الحضور عند النداء ونفي ثالثاً الحضور عند قضاء الأمر لربما توهم أن الكل دليل واحد على ما ذكر كما مر في

قصة البقرة ، ومن الناس من فسر قضاء الأمر بالاستنباء والنداء بالنداء لأخذ التوراة بقوله تعالى : ﴿ خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : 12] رعاية للترتيب الوقوعي بينهما وتعقب بأنه يفوت عليه التنبيه المذكور مع أنه بهذا القدر لا يرتفع تغيير الترتيب الوقوعي بالكلية بين المتعاطفات لأن الثواء في أهل مدين متقدم على القضاء والنداء في الواقع ، وقد وسط في النظم الكريم بينهما ، وأيضاً ما تقدم من تفسير كل من القضاء والنداء بما فسر أنسب بما يلي كلاً من الاستدراك ، ومما يستغرب أن بعض من فسر ما ذكر بما يوافق الترتيب الوقوعي فسر الشاهدين بالسبعين المختارين للميقات ولا يكاد يتسنى ذلك عليه لأنهم إنما كانوا مع موسى عليه السلام لما أعطى التوراة فكان

(176/587)

عليه أن يفسره بغير ذلك وقد تقدم لك عدة تفاسير لا يأبى شيء منها تفسيره ما ذكر بما يوافق الترتيب الوقوعي ، وجوز على التفسير بما يوافق كون المراد بالشاهدين الملائكة عليهم السلام الذين كانوا حول النار فإن الآثار ناطقة بحضورهم حولها عند ما أتاها موسى عليه السلام وكذا قوله تعالى : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِى النار وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل : 8] في قول ، هذا وفي الآيات تفسيرات أخر فقال الفراء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً ﴾ [

القصص : 45] الخ أي وما كنت مقيماف في أهل مدين مع موسى عليه السلام فتراه وتسمع كلامه وها أنت تتلو عليهم أي على أمتك آياتنا فهو منقطع اه ، ونحوه ما روي عن مقاتل فيه وهو أن المعنى لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ولكنا أرسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا إليك هذه الأخبار ولولا ذلك ما علمت ، وقال الضحاك : يقول سبحانه إنك يا محمد لم تكن الرسول إلى أهل مدين تتلو عليهم آيات الكتاب وإنما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين في كل زمان رسولاً فأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء اه .

ولا يخفى أن ما قدمنا أولى بالاعتبار .

وذهب جمع إلى أن النداء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ كان نداء فيما يتعلق بهذه الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية وذكروا عدة آثار تدل على ذلك .

أخرج الفريابي .

والنسائي .

وابن جرير .

وابن أبي حاتم .

والحاكم وصححه .

وابن مردويه .

وأبو نعيم .

والبيهقي معا في الدلائل عن أبي هريرة قال في ذلك نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأستجبت لكم قبل أن تدعوني .

وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً ، وأخرج هو أيضاً .

وأبو نعيم في الدلائل .

وأبو نصر السجزي في الإبانة .

(177/587)

والديلمي عن عمرو بن عيينة قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِكَ ﴾ ما كان الندار وما كانت الرحمة ؟ قال كتاب كتبه الله تعالى قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ثم وضعه على عرشه ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي أعطيتكم قبل أن تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة .

وأخرج الختلي في الديباج عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً مثله ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما قرب الله تعالى موسى إلى طور سيناء نجيا قال : أي رب هل أجد أكرم عليك مني ؟ قربتني نجيا وكلمتني تكليماً قال : نعم .

محمد عليه الصلاة والسلام أكرم على منك .

قال : فإن كما محمد صلى الله عليه وسلم أكرم عليك مني فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل ؟ فلقت البحر لهم وأنجيتهم من فرعون وعمله وأطعمتهم المن والسلوى .

قال : نعم .

أمة ممد عليه الصلاة والسلام أكرم على من بنى إسرائيل .

قال : إلهي أرنيهم .

قال : إنك لن تراهم وإن شئت أسمعتك صوتهم قال : نعم إلهي .

فنادى ربنا أمة محمد صلى الله عليه وسلم أجيبوا ربكم .

قال : فأجابوا وعم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا : لبيك أنت ربنا حقاً ونحن عبيدك حقاً .

قال : صدقتم أنا ربكم حقاً وأنتم عبيدي حقاً قد عفوت عنكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة "

قال ابن عباس فلما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أراد أن يمن عليه بما أعطاه وبما أعطى أمته فقال يا محمد : وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، واستشكل ذلك بأنه معنى لا يناسب المقام ولا تكاد ترتبط الآيات عليه ، ولا بد لصحة هذه الأخبار من دليل ، وتصحيح الحاكم لا يخفى حاله .

(178/587)

وقال بعض : يمكن أن يقال على تقدير صحة الأخبار إن المراد وما كنت حاضراً مع موسى عليه السلام بجانب الطور لتقف على أحواله فتخبر بها الناس ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بذلك وبغيره رحمة منا لك وللناس ، والتقويت بنداء أمته ليس لكون المخبر به ما كان من ذلك بل لإدخال المسرة عليه عليه الصلاة والسلام فيما يعود إليه وإلى أمته وفيه تسلية له صلى الله عليه وسلم مما يكون من أمة الدعوة من الكفر به عليه الصلاة والسلام والآباء عن شريعته وتلويح ما إلى مضمون ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ [الأنعام : 89] وحينئذ ترتبط الآيات بعضها ببعض ارتباطاً ظاهراً فتأمل .

(179/587)

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ أي عقوبة وهي على ما نقل عن أبي مسلم عذاب الدنيا والآخرة ، وقيل : عذاب الاستئصال ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بما اقترفوا من الكفر والمعاصي ويعبر عن كل الأعمال وإن لم تصدر عن الأيدي باجتراح الأيدي وتقديم الأيدي لما أن أكثر الأعمال تزاول بها ﴿ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ أي هلا أرسلت إلينا رسولاً مؤيداً من عندك بالآيات ﴿ فَنَتَّبِعَ ءايَاتِكَ ﴾ الظاهرة على يده ﴿ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ بما جاء به ، ولولا الثانية تحضيضية كما أشرنا إليه ، وقوله تعالى : ﴿ فَنَتَّبِعَ ﴾ جوابها ولكون التحضيض طلباً كالأمر أجيبت على نحو ما يجاب ، وأما الأولى فامتناعية وجوابها محذوف ثقة بدلالة الحال عليه ، والتقدير لما أرسلناك ، والفاء في ﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ عاطفة ليقول على تصيبهم ، والمقصود بالسببية لانتفاء الجواب والركن الأصيل فيها قولهم ذلك إذا أصابتهم مصيبة ، المعنى لولا قولهم إذا عوقبوا بما اقترفوا هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبعه ونكون من المؤمنين لما أرسلناك إليهم ، وحاصله سببية القول المذكور لارساله صلى الله عليه وسلم إليهم قطعاً لمعاذيرهم بالكلية ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت كأنها سبب الإرسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية ، ونكتة إيثار هذا الأسلوب وعدم جعل العقوبة قيداً مجرداً أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى

العلم اليقين لم يقولوا ﴿ لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ [طه : 134] ، وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم ، وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لعادوا لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] هذا

(180/587)

ما أراده صاحب الكشاف ، وليس في الكلام عليه تقدير مضاف كما هو الظاهر .

وذهب بعضهم إلى أن الكلام على تقدير مضاف أي كراهة أن تصيبهم الخ ، فالسبب للإرسال إنما هو كراهة ذلك لما فيه من إلزام الحجة ولله تعالى الحجة البالغة ، وهذه الكراهة مما لا ريب في تحققها الذي تقتضيه لولا ودفعوا بهذا التقدير لزوم تحقق الإصابة والقول المذكور وانتفاء عدم الإرسال كما هو مقتضى لولا ، وفي ذلك ما فيه ، وقال ابن المير : التحقيق عندي أن لولا ليست كما قال النحاة تدل على أن ما بعدها موجود أو أن جوابها ممتنع والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها عكس لو ، ثم المانع قد يكون موجوداً وقد يكون مفروضاً وما في الآية من الثاني فلا إشكال فيها ، واستدل بالآية على أن قول من لم يرسل إليه رسول ان عذب : ربي لولا أرسلت إلى رسولاً مما يصلح

للاحتجاج وإلا لما صلح لأن يكون سبباً للإرسال وفي ذلك دلالة على أن العقل لا يغني عن الرسول ، والبحث في ذلك شهير ، والكلام فيه كثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(181/587)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) ﴾

لما سمع موسى قول الله سبحانه : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ طلب منه سبحانه أن يقوّي قلبه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً ﴾ يعني القبطي الذي وكزه فقضى عليه ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بها .

﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾ لأنه كان في لسان موسى حبسة كما تقدّم بيانه ، والفصاحة لغةً : الخلوص ، يقال : فصح اللبن ، وأفصح : فهو فصيح ، أي خلص من الرغوة ، ومنه فصح الرجل : جادت لغته ، وأفصح : تكلم بالعربية .

وقيل : الفصيح : الذي ينطق ، والأعجم : الذي لا ينطق .

وأما في اصطلاح أهل البيان فالفصاحة : خلوص الكلمة عن تنافر الحروف والغرابة

ومخالفة القياس .

وفصاحة الكلام : خلوصه من ضعف التأليف ، والتعقيد .

وانتصاب ﴿ رِدْءاً ﴾ على الحال ، والردء : المعين ، من أردأته ، أي أعنته ، يقال : فلان ردء فلان : إذا كان ينصره ، ويشدّ ظهره ، ومنه قول الشاعر :

ألم تر أن أصرم كان ردئي . . . وخير الناس في قلّ ومال

وحذفت الهمزة تخفيفاً في قراءة نافع ، وأبي جعفر ، ويجوز أن يكون ترك الهمز من قولهم : أردى على المائة : إذا زاد عليها ، فكان المعنى : أرسله معي زيادة في تصديقي ، ومنه قول الشاعر :

وأسمر خطياً كأن كعوبه . . . نوى القسب قد أردى ذراعاً على العشر

وروي البيت في الصحاح بلفظ قد أربى ، والقسب : الصلب ، وهو الثمر اليابس الذي يتفتت في الفم ، وهو صلب النواة .

﴿ يُصَدّقُنِي ﴾ قرأ عاصم وحمزة : ﴿ يصدقني ﴾ بالرفع على الاستئناف ، أو الصفة ل ﴿ ردءاً ﴾ ، أو الحال من مفعول أرسله ، وقرأ الباقون بالجزم على جواب الأمر ، وقرأ أبي وزيد بن عليّ : " يصدقون " أي فرعون وملؤه ﴿ إِنّي أَخَافُ أَن يُكَذّبُونِ ﴾ إذا لم يكن معي هارون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي نقويك به ، فشدّ العضد كناية عن التقوية ، ويقال في دعاء الخير : شدّ الله عضدك ، وفي ضدّه : فتّ الله في عضدك .

قرأ الجمهور : ﴿ عضُدك ﴾ بفتح العين .

وقرأ الحسين وزيد ابنا عليّ بضمها .

وروي عن الحسن أيضاً أنه قرأ بضمة وسكون .

وقرأ عيسى بن عمر بفتحهما .

﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا ﴾ أي حجة وبرهاناً ، أو تسلطاً عليه ، وعلى قومه ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بالأذى ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة ، و ﴿ بئاياتنا ﴾ متعلق بمحذوف ، أي تمتنعان منهم بآياتنا ، أو اذهبا بآياتنا .

وقيل : الباء للقسم ، وجوابه ﴿ يصلون ﴾ وما أضعف هذا القول .

وقال الأخفش وابن جرير : في الكلام تقديم ، وتأخير ، والتقدير : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ بآياتنا ، وأوّل هذه الوجوه أولاها ، وفي : ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ تبشير لهما ، وتقوية لقلوبهما .

﴿ فَلَمَّا جَاءهُم موسى بئاياتنا بينات ﴾ البينات : الواضحات الدلالة ، وقد تقدّم وجه إطلاق الآيات ، وهي جمع على العصا ، واليد في سورة طه ﴿ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ سِحْرٌ

مُّفْتَرًى ﴾ أي مختلق مكذوب اختلقته من قبل نفسك ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بهذا ﴾ الذي جئت به من دعوى النبوّة ، أو ما سمعنا بهذا السحر ﴿ فِي آبَآئِنَا الأولين ﴾ أي كائناً ، أو واقعاً في آبائنا الأوّلين .

﴿ وَقَالَ موسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بالهدى مِنْ عِندِهِ ﴾ يريد نفسه ، وإنما جاء بهذه العبارة ؛ لئلا يصرّح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة ، والله أعلم .

قرأ الجمهور : ﴿ وقال موسى ﴾ بالواو ، وقرأ مجاهد وابن كثير وابن محيصن : " قال موسى " بلا واو ، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة .

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً : " ومن يكون عاقبة الدار " بالتحتية على أن اسم يكون عاقبة الدار .

(183/587)

والتذكير لوقوع الفصل ؛ ولأنه تأنيث مجازي ، وقرأ الباقون : ﴿ تكون ﴾ بالفوقية ، وهي أوضح من القراءة الأولى ، والمراد بالدار هنا : الدنيا ، وعاقبتها : هي الدار الآخرة ، والمعنى : لمن تكون له العاقبة المحمودة ، والضمير في : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ للشأن أي : إن الشأن أنه لا يفلح الظالمون أي لا يفوزون بمطلب خير ، ويجوز أن يكون المراد بعاقبة

الدار خاتمة الخير .

وقال فرعون : ﴿ يا أَيُّهَا الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ : تمسك اللعين بمجرّد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه منه ، وقد كان يعلم أنه ربه الله عزّ وجلّ ، ثم رجع إلى تكبره ، وتجبره ، وإيهام قومه بكمال اقتداره فقال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين ﴾ أي : اطبخ لي الطين حتى يصير آجرًا ﴿ فاجعل لّي صَرْحاً ﴾ أي اجعل لي من هذا الطين الذي توقد عليه حتى يصير آجرًا صرحاً ، أي قصراً عالياً ﴿ لَّعَلّي أَطَّلِعُ إلى إله موسى ﴾ أي أصعد إليه ﴿ وَإِنّى لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ والطلوع والإطلاع واحد ، يقال : طلع الجبل واطلع ﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ المراد بالأرض : أرض مصر ، والاستكبار : التعظم بغير استحقاق ، بل بالعدوان ؛ لأنه لم يكن له حجة يدفع بها ما جاء به موسى ، ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ أي فرعون ، وجنوده ، والمراد بالرجوع البعث والمعاد .

قرأ نافع ، وشيبة وابن محيصن وحميد ويعقوب وحمزة والكسائي : "لاَ يَرْجِعُونَ" بفتح الياء وكسر الجيم مبنياً للفاعل .

وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الجيم مبنياً للمفعول ، واختار القراءة الأولى أبو حاتم ، واختار القراءة الثانية أبو عبيد .

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ ﴾ بعد أن عتوا في الكفر ، وجاوزوا الحدّ فيه ﴿ فنبذناهم فِي اليم ﴾ أي طرحناهم في البحر ، وقد تقدّم بيان الكلام في هذا ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ الخطاب لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أي انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين حين صاروا إلى الهلاك ؟ ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ أي صيرناهم رؤساء متبوعين مطاعين في الكافرين ، فكأنهم بإصرارهم على الكفر والتمادي فيه يدعون أتباعهم إلى النار ؛ لأنهم اقتدوا وسلكوا طريقتهم تقليداً لهم .

وقيل : المعنى : إنه يأتمّ بهم أي : يعتبر بهم من جاء بعدهم ، ويتعظ بما أصيبوا به ، والأول أولى ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ أي لا ينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب الله ﴿ وأتبعناهم فِي هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً ﴾ أي : طرداً وإبعاداً ، أو أمرنا العباد بلعنهم ، فكل من ذكرهم لعنهم ، والأوّل أولى .

﴿ وَيَوْمَ القيامة هُمْ مِّنَ المقبوحين ﴾ المقبوح : المطرود المبعد .

وقال أبو عبيدة وابن كيسان : معناه : من المهلكين الممقوتين .

وقال أبو زيد : قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحاً أبعده من كل خير .

قال أبو عمرو : قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد ، ومثله قول الشاعر :

ألا قبح الله البراجم كلها . . . وقبح يربوعاً وقبح دارما

وقيل : المقبوح المشوّه الخلقة ، والعامل في يوم محذوف يفسره من المقبوحين ، والتقدير : وقبحوا يوم القيامة .

أو هو معطوف على موضع في هذه الدنيا ، أي وأتبعناهم لعنة يوم القيامة ، أو معطوف على لعنة على حذف مضاف ، أي ولعنة يوم القيامة .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ يعني : التوراة ﴿ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القرون الأولى ﴾ أي : قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم .

وقيل : من بعد ما أهلكنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون .

(185/587)

وانتصاب ﴿ بَصَائِرَ للنَّاسِ ﴾ على أنه مفعول له أو حال ، أي آتيناه الكتاب لأجل يتبصر به الناس ، أو حال كونه بصائر للناس يبصرون به الحق ويهتدون إليه وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به .

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لهم من الله رحمهم بها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ هذه النعم ، فيشكرون الله ، ويؤمنون به ، ويجيبون داعيه إلى ما فيه خير لهم .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : ﴿

رِدْءاً يُصَدِّقُنِي ﴾ كي يصدقني .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه قال : لما قال فرعون ﴿ يا أَيُّهَا الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ قال جبريل : يا ربّ طغى عبدك فائذن لي في هلكه ، فقال : يا جبريل هو عبدي ، ولن يسبقني ، له أجل قد أجلته حتى يجيء ذلك الأجل ، فلما قال : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ قال الله : يا جبريل سبقت دعوتك في عبدي وقد جاء أوان هلاكه .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كلمتان قالهما فرعون : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ﴾ وقوله : ﴿ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات : 24] " قال : "كان بينهما أربعون عاماً ﴿ فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الآخرة والأولى ﴾ " [النازعات : 25] .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : بلغني أن فرعون أوّل من طبخ الآجرّ .

وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج .

وأخرج البزار وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة ، ألم تر إلى قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القرون الأولى ﴾ " وأخرجه البزار وابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عن أبي سعيد موقوفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(187/587)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾

المقصود من الآيات السابقة ابتداء من قوله ﴿ فلما آتاها نودي ﴾ [القصص : 30] إلى هنا الاعتبار بعاقبة المكذبين القائلين ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [القصص : 36] ليقاس النظير على النظير ، فقد كان المشركون يقولون مثل ذلك يريدون إفحام الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه لو كان الله أرسله حقاً لكان أرسل إلى الأجيال من قبله ، ولما كان الله يترك الأجيال التي قبلهم بدون رسالة رسول ثم يرسل إلى الجيل الأخير ، فكان

قوله ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ إتماماً لتنظير رسالة محمد صلى الله عليه وسلم برسالة موسى عليه السلام في أنها جاءت بعد فترة طويلة لا رسالة فيها ، مع الإشارة إلى أن سبق إرسال الرسل إلى الأمم شيء واقع بشهادة التواتر ، وأنه قد ترتب على تكذيب الأمم رسلهم إهلاك القرون الأولى فلم يكن ذلك موجباً لاستمرار إرسال الرسل متعاقبين بل كانوا يجيئون في أزمنة متفرقة ؛ فإذا كان المشركون يحاولون بقولهم ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [القصص : 36] إبطال رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعلة تأخر زمانها سفسطة ووهماً فإن دليلهم مقدوح فيه بقادح القلب بأن الرسل قد جاءوا إلى الأمم من قبل ثم جاء موسى بعد فترة من الرسل .

(188/587)

وقد كان المشركون لما بهرهم أمر الإسلام لاذوا باليهود يسترشدونهم في طرق المجادلة الدينية فكان المشركون يخلطون ما يلقنهم اليهود من المغالطات بما استقر في نفوسهم من تضليل أئمة الشرك فيأتون بكلام يلعن بعضه بعضاً ، فمرة يقولون ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [القصص : 36] وهو من مجادلات الأميين ، ومرة يقولون ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] وهو من تلقين اليهود ، ومرة يقولون ﴿ ما أنزل الله على

بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] ، فكان القرآن يدمغ باطلهم بحجة الحق بإلزامهم تناقض مقالاتهم .

وهذه الآية من ذلك فهي حجة بتنظير رسالة محمد برسالة موسى عليهما الصلاة والسلام والمقصود منها ذكر القرون الأولى .

وأما ذكر إهلاكهم فهو إدماج للنذارة في ضمن الاستدلال .

وجملة ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ تخلص من قصة بعثة موسى عليه السلام إلى تأييد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم والمقصود قوله (من بعد القرون الأولى) .

ثم إن القرآن أعرض عن بيان حكمة الفِتَر التي تسبق إرسال الرسل ، واقتصر على بيان الحكمة في الإرسال عقبها لأنه المهم في مقام نقض حجة المبطلين للرسالة أو اكتفاء بأن ذلك أمر واقع لا يستطاع إنكاره وهو المقصود هنا ، وأما حكمة الفصل بالفِتر فشيء فوق مراتب عقولهم .

فأشار بقوله ﴿ بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ إلى بيان حكمة الإرسال عقب الفترة .

وأشار بقوله ﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ إلى الأمم التي استأصلها الله لتكذيبها رسل الله .

فتأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لوقوع ذلك حتى يحتاج معهم إلى التأكيد بالقسم ، فموقع التأكيد هو قوله ﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ .

و﴿ الكتاب ﴾ : التوراة التي خاطب الله بها موسى عليه السلام .

والبصائر : جمع بصيرة ، وهي إدراك العقل .

(189/587)

سُمي بصيرة اشتقاقاً من بصر العين ، وجُعل الكتاب بصائر باعتبار عدة دلائله وكثرة بيّناته ، كما في الآية الأخرى قال ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ [الإسراء : 102] .

و﴿ القرون الأولى ﴾ : قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط .

والقرن : الأمة ، قال تعالى ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ [الأنعام : 6] .

وفي الحديث " خير القرون قرني " .

والناس هم الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل وقوم فرعون ، ولمن يريد أن يهتدي بهديه مثل الذين تهودوا من عرب اليمن ، و ﴿ هدى ورحمة ﴾ لهم ، ولمن يقتبس منهم

قال تعالى ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ [المائدة : 44] .

ومن جملة ما تشتمل عليه التوراة تحذيرها من عبادة الأصنام .

وضمير ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ عائد إلى الناس الذين خوطبوا بالتوراة ، أي فكذلك إرسال محمد لكم هدى ورحمة لعلكم تتذكرون .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

لما بطلت شبهتهم التي حاولوا بها إحالة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم نُقل الكلام إلى إثبات رسالته بالحجة الدامغة ؛ وذلك بما أعلمه الله به من أخبار رسالة موسى مما لا قبل له بعلمه لولا أن ذلك وحي إليه من الله تعالى .

فهذا تخلص من الاعتبار بدلالة الالتزام في قصة موسى إلى الصريح من إثبات نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم

وجيء في الاستدلال بطريقة المذهب الكلامي حيث بُني الاستدلال على انتفاء كون النبي عليه الصلاة والسلام موجوداً في المكان الذي قضى الله فيه أمر الوحي إلى موسى ، لينتقل منه إلى أن مثله ما كان يعمل ذلك إلا عن مشاهدة لأن طريق العلم بغير المشاهدة له مفقود منه ومن قومه إذ لم يكونوا أهل معرفة بأخبار الرسل كما كان أهل الكتاب ، فلما انتفى طريق العلم المتعارف لأمثاله تعين أن طريق علمه هو إخبار الله تعالى إياه بخبر موسى .

ولما كان قوله ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ نفياً لوجوده هناك وحضوره تعين أن المراد من الشاهدين أهل الشهادة ، أي الخبر اليقين ، وهم علماء بني إسرائيل لأنهم الذين أشهدهم الله على التوراة وما فيها ، ألا ترى أنه ذمهم بكتمهم بعض ما تتضمنه التوراة من البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ [البقرة : 140] .

والمعنى ما كنت من أهل ذلك الزمن ولا ممن تلقى أخبار ذلك بالخبر اليقين المتواتر من كتبهم يومئذ فتعين أن طريق علمك بذلك وحي الله تعالى .

والأمر المقضي : هو أمر النبوءة لموسى إذ تلقاها موسى .

وقوله ﴿ بجانب الغربي ﴾ هو من إضافة الموصوف إلى صفته ، وأصله بالجانب الغربي ، وهو كثير في الكلام العربي وإن أنكره نحاة البصرة وأكثروا من التأويل ، والحق جوازه .

والجانب الغربي هو الذي ذكر آنفاً بوصف ﴿ شاطىء الواد الأيمن ﴾ [القصص : 30] أي على بيت القبلة .

وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45)

خفي اتصال هذا الاستدراك بالكلام الذي قبله وكيف يكون استدراكاً وتعقيباً للكلام الأول برفع ما يتوهم ثبوته .

(191/587)

فبيانه أن قوله ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ [القصص : 43] مسوق مساق إبطال تعجب المشركين من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حين لم يسبقها رسالة رسول إلى آبائهم الأولين ، كما علمت مما تقدم آنفاً ، فذكرهم بأن الله أرسل موسى كذلك بعد فترة عظيمة ، وأن الذين أرسل إليهم موسى أثاروا مثل هذه الشبهة فقالوا ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [القصص : 36] فكما كانت رسالة موسى عليه السلام بعد فترة من الرسل كذلك كانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى : فكان المشركون حقيقين بأن ينظروا رسالة محمد برسالة موسى ولكن الله أنشأ قروناً أي أمماً بين زمن موسى وزمنهم فتطاول الزمن فنسي المشركون رسالة موسى فقالوا ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ [ص : 7] .

وحذف بقية الدليل وهو تقدير : فنسوا ، للإيجاز لظهوره من قوله ﴿ فتطاول عليهم العمر ﴾ كما قال تعالى عن اليهود حين صاروا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴿ ونسوا حظاً مما

ذكروا به ﴾ [المائدة: 13] ، وقال عن النصارى ﴿ أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ [المائدة: 14] وقال لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ [الحديد: 16] ، فضمير الجمع في قوله ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى المشركين لا إلى القرون.

فتبين أن الاستدراك متصل بقوله ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ [القصص: 43] وأن ما بين ذلك وبين هذا استطراد.

وهذا أحسن في بيان اتصال الاستدراك مما احتفل به صاحب "الكشاف".

ولله دره في استشعاره، وشكر الله مبلغ جهده.

وهو بهذا مخالف لموقع الاستدراكين الآتيين بعده من قوله ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ وقوله ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ [القصص: 46].

و﴿ العمر ﴾ الأمد كقوله ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ [يونس: 16].

(192/587)

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءايَاتِنَا وَلَكِنَّا مرسلين ﴾.

هذا تكرير للدليل بمثل آخر مثل ما في قوله ﴿ وما كنت بجانب الغرب ﴾ [القصص: 44

] أي ما كنت مع موسى في وقت التكليم ولا كنت في أهل مدين إذ جاءهم موسى وحدث بينه وبين شعيب ما قصصنا عليك .

والثواء : الإقامة .

وضمير ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى المشركين من أهل مكة لا إلى أهل مدْين لأن النبي صلى الله عليه وسلم يتلو آيات الله على المشركين .

والمراد بالآيات ، الآيات المتضمنة قصة موسى في أهل مدين من قوله ﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ إلى قوله ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله ﴾ [القصص : 22 - 29] .

وبمثل هذا المعنى قال مقاتل وهو الذي يستقيم به نظم الكلام ، ولو جعل الضمير عائداً إلى أهل مدين لكان أن يقال : تشهد فيهم آياتنا .

وجملة ﴿ تتلو عليهم آياتنا ﴾ على حسب تفسير مقاتل في موضع الحال من ضمير ﴿ كنت ﴾ وهي حال مقدرة لاختلاف زمنها مع زمن عاملها كما هو ظاهر .

والمعنى : ما كنت مقيماً في أهل مدين كما يقيم المسافرون فإذا قفلوا من أسفارهم أخذوا يحدثون قومهم بما شاهدوا في البلاد الأخرى .

والاستدراك في قوله ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ ظاهر ، أي ما كنت حاضراً في أهل مدين فتعلم خبر موسى عن معاينة ولكنا كنا مرسلينك بوحينا فعلّمناك ما لم تكن تعلمه أنت ولا

قومك من قبل هذا .

وعدل عن أن يقال : ولكنا أوحينا بذلك ، إلى قوله ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ لأن المقصد الأهم هو إثبات وقوع الرسالة من الله للرد على المشركين في قولهم وقول أمثالهم ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ [القصص : 36] وتعلم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بدلالة الالتزام مع ما يأتي من قوله ﴿ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ﴾ [القصص : 46] الآية فالاحتجاج والتحدي في هذه الآية والآية التي قبلها تحد بما علمه النبي عليه الصلاة والسلام من خبر القصة الماضية .

(193/587)

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

جانب الطور : هو الجانب الغربي ، وهو الجانب الأيمن المتقدم وصفه بذينك الوصفين ، فعري عن الوصف هنا لأنه صار معروفاً ، وقيد الكون المنفي بظرف ﴿ نادينا ﴾ أي بزمن ندائنا .

وحذف مفعول النداء لظهور أنه نداء موسى من قبل الله تعالى وهو النداء لميقات أربعين

ليلة وإنزال ألواح التوراة عقب تلك المناجاة كما حكي في الأعراف وكان ذلك في جانب الطور إذ كان بنو إسرائيل حول الطور كما قال تعالى ﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ [طه : 80] وهو نفس المكان الذي نودي فيه موسى للمرة الأولى في رجوعه من ديار مدين كما تقدم ، فالنداء الذي في قوله هنا ﴿ إذ نادينا ﴾ غير النداء الذي في قوله ﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن ﴾ إلى قوله ﴿ أن يا موسى إني أنا الله ﴾ [القصص : 30] الآية لئلا يكون تكراراً مع قوله : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ [القصص : 44] .

وهذا الاحتجاج بما علمه النبي صلى الله عليه وسلم من خبر استدعاء موسى عليه السلام للمناجاة .

وتلك القصة لم تذكر في هذه السورة وإنما ذكرت في سورة أخرى مثل سورة الأعراف .

وقوله ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ كلمة ﴿ لكن ﴾ بسكون النون هنا باتفاق القراء فهي حرف لا عمل له فليس حرف عطف لفقدان شرطيه : تقدم النفي أو النهي ، وعدم الوقوع بعد واو عطف .

وعليه فحرف ﴿ لكن ﴾ هنا لمجرد الاستدراك لا عمل له وهو معترض .

والواو التي قبل ﴿ لكن ﴾ اعتراضية .

والاستدراك في قوله ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ ناشىء عن دلالة قوله ﴿ وما كنت

بجانب الطور ﴾ على معنى : ما كان علمك بذلك لحضورك ، ولكن كان علمك رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك .

(194/587)

فانتصاب ﴿ رحمة ﴾ مؤذن بأنه معمول لعامل نصب مأخوذ من سياق الكلام : إما على تقدير كون محذوف يدل عليه نفي الكون في قوله ﴿ وما كنت بجانب الطور ﴾ ، والتقدير : ولكن كان علمك رحمة منا ؛ وإما على المفعول المطلق الآتي بدلاً من فعله ، والتقدير : ولكن رحمناك رحمة بأن علمناك ذلك بالوحي رحمة ، بقرينة قوله ﴿ لتنذر قوماً ﴾ .

ويجوز أن يكون ﴿ رحمة ﴾ منصوباً على المفعول لأجله معمولاً لفعل ﴿ لتنذر ﴾ فيكون فعل ﴿ لتنذر ﴾ متعلقاً بكون محذوف هو مصب الاستدراك .

وفي هذه التقادير توفير معان وذلك من بليغ الإيجاز .

وعدل عن : رحمة منا ، إلى ﴿ رحمة من ربك ﴾ بالإظهار في مقام الإضمار لما يشعر به معنى الرب المضاف إلى ضمير المخاطب من العناية به عناية الرب بالمربوب .

ويتعلق ﴿ لتنذر قوماً ﴾ بما دل عليه مصدر ﴿ رحمة ﴾ على الوجوه المتقدمة .

واللام للتعليل .

والقوم : قريش والعرب ، فهم المخاطبون ابتداءً بالدين وكلهم لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وأما إبراهيم واسماعيل عليهما السلام فكانا نذيرين حين لم تكن قبيلة قريش موجودة يومئذ ولا قبائل العرب العدنانية ، وأما القحطانية فلم يرسل إليهم إبراهيم لأن اشتقاق نسب قريش كان من عدنان وعدنان بينه وبين إسماعيل قرون كثيرة .

وإنما اقتصر على قريش أو على العرب دون سائر الأمم التي بعث إليها النبي صلى الله عليه وسلم لأن المنة عليهم أوفى إذ لم تسبق لهم شريعة من قبل فكان نظامهم مختلاً غير مشوب بإثارة من شريعة معصومة ، فكانوا في ضرورة إلى إرسال نذير ، وللتعريض بكفرانهم هذه النعمة ، وليس في الكلام ما يقتضي تخصيص النذارة بهم ولا ما يقتضي أن غيرهم ممن أنذرهم محمد صلى الله عليه وسلم لم يأتهم نذير من قبله مثل اليهود والنصارى وأهل مدين .

وفي قوله ﴿ لتنذر ﴾ مع قوله ﴿ ما أتاهم من نذير ﴾ إشارة إلى أنهم بلغوا بالكفر حداً لا يتجاوزه حلم الله تعالى .

(195/587)

والتذكر : هو النظر العقلي في الأسباب التي دعت إلى حكمة إنذارهم وهي تناهي ضلالهم فوق جميع الأمم الضالة إذ جمعوا إلى الإشراك مفاسد جمة من قتل النفوس ، وارتزاق بالغارات وبالمقامرة ، واختلاط الأنساب ، وانتهاك الأعراض .

فوجب تذكيرهم بما فيه صلاح حالهم .

وتقدم آنفاً نظير قوله ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ .

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

هذا متصل بقوله ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ [القصص : 46] ، لأن الإنذار يكون بين يدي عذاب .

و ﴿ لولا ﴾ الأولى حرف امتناع لوجود ، أي انتفاء جوابها لأجل وجود شرطها وهو حرف يلزم الابتداء فالواقع بعده مبتدأ والخبر عن المبتدأ الواقع بعد ﴿ لولا ﴾ واجب الحذف وهو مقدر بكون عام .

والمبتدأ هنا هو المصدر المنسبك من ﴿ أن ﴾ وفعل ﴿ تصيبهم ﴾ والتقدير : لولا إصابتهم بمصيبة ، وقد عقب الفعل المسبوك بمصدر بفعل آخر وهو ﴿ فيقولوا ﴾ ، فوجب أن يدخل هذا الفعل المعطوف في الانسباك بمصدر ، وهو معطوف بفاء التعقيب .

فهذا المعطوف هو المقصود مثل قوله تعالى ﴿ أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى

﴾ [البقرة : 282] فالمقصود هو "أن تذكر إحداهما الأخرى" .

وإنما حيك نظم الكلام على هذا المنوال ولم يقل : ولولا أن يقولوا ربنا الخ حين تصيبهم مصيبة إلى آخره ، لنكتة الاهتمام بالتحذير من إصابة المصيبة فوضعت في موضع المبتدأ دون موضع الظرف لتساوي المبتدأ المقصود من جملة شرط ﴿ لولا ﴾ فيصبح هو وظرفه عمدتين في الكلام ، فالتقدير هنا : ولولا إصابتهم بمصيبة يعقبها قولهم ﴿ ربنا لولا أرسلت ﴾ الخ لما عبأنا بإرسالك إليهم لأنهم أهل عناد وتصميم على الكفر .

(196/587)

فجواب ﴿ لولا ﴾ محذوف دل عليه ما تقدم من قوله ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ إلى قوله ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ [القصص : 44 46] ، أي ولكنا أعذرنا إليهم بإرسالك لنقطع معذرتهم .

وجواب ﴿ لولا ﴾ محذوف دل عليه الكلام السابق ، أي لولا الرحمة بهم بتذكيرهم وإنذارهم لكانوا مستحقين حلول المصيبة بهم .

و ﴿ لولا ﴾ الثانية حرف تحضيض ، أي هلا أرسلت إلينا قبل أن تأخذنا بعذاب فتصلح أحوالنا وأنت غني عن عذابنا .

وانتصب ﴿ فنتبع ﴾ (بأن) مضمرة وجوباً في جواب التحضيض .

وضمير ﴿ تصيبهم ﴾ عائد إلى القوم الذين لم يأتهم نذير من قبل .

والمراد ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ ما سلف من الشرك .

والمصيبة : ما يصيب الإنسان ، أي يحل به من الأحوال ، وغلب اختصاصها بما يحل بالمرء من العقوبة والأذى .

والباء في ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ للسببية ، أي عقوبة كان سببها ما سبق على أعمالهم السيئة .

والمراد بها هنا عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ في سورة [النساء : 62] .

وهي ما يجترجونه من الأعمال الفاحشة .

و(ما قدمت أيديهم) ما اعتقدوه من الإشراك وما عملوه من آثار الشرك .

والأيدي مستعار للعقول المكتسبة لعقائد الكفر .

فشبه الاعتقاد القلبي بفعل اليد تشبيه معقول بمحسوس .

وهذه الآية تقتضي أن المشركين يستحقون العقاب بالمصائب في الدنيا ولو لم يأتهم رسول لأن أدلة وحدانية الله مستقرة في الفطرة ومع ذلك فإن رحمة الله أدركتهم فلم يصبهم بالمصائب حتى أرسل إليهم رسولاً .

ومعنى الآية على أصول الأشعري وما بينه أصحاب طريقته مثل القشيري وأبي بكر ابن العربي : أن ذنب الإشراك لا عذر فيه لصاحبه لأن توحيد الله قد دعي إليه الأنبياء والرسل من عهد آدم بحيث لا يعذر بجهله عاقل فإن الله قد وضعه في الفطرة إذ أخذ عهده به على ذرية آدم كما أشار إليه قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ كما بيناه في سورة [الأعراف : 172] .

ولكن الله يرأف بعباده إذا طالت السنون وانقرضت القرون وصار الناس مظنة الغفلة فيتعهدهم ببعثة الرسل للتذكير بما في الفطرة وليشرعوا لهم ما به صلاح الأمة .

فالمشركون الذين انقرضوا قبل البعثة المحمدية مؤاخذون بشركهم ومعاقبون عليه في الآخرة ولو شاء الله لعاقبهم عليه بالدنيا بالاستئصال ولكن الله أمهلهم ، والمشركون الذين جارتهم الرسل ولم يصدقوهم مستحقون عذاب الدنيا زيادة على عذاب الآخرة ، قال تعالى ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ [السجدة : 21] .

وأما الفِرَق الذين يُعدّون دليل توحيد الله بالإلهية عقلياً مثل الماتريدية والمعتزلة فمعنى الآية على ظاهره ، وهو قول ليس ببعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(198/587)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى . . . ﴾ [القصص : 43]

قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، يعني : أن موسى – عليه السلام – جاء بَرْزخاً وواسطة بين رسل كذَّبتهم أممهم ، فأخذهم الله بالعذاب ، ولم يقاتل الرسل قبل موسى ، إنما كان الرسول منهم يُبلِّغ الرسالة ويُظهر الحجة ، وكانوا هم يقترحون الآيات ، فإنْ أجابهم الله وكذَّبوا أوقع الله بهم العذاب .

كما قال سبحانه :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : 40] .

وهذا كله عذاب استئصال ، لا يُبقي من المكذبين أحداً .

ثم جاء موسى – عليه السلام – برزخاً بين عذاب الاستئصال من الله تعالى للمكذِّبين دون تدخُّل من الرسل في مسألة العذاب ، وبين رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث أمره الله بقتال الكفار والمكذّبين دون أن ينزل بهم عذاب الاستئصال ، ذلك لأن رسالته عامة في الزمان وفي المكان إلى أن تقوم الساعة ، وهو صلى الله عليه وسلم مأمون على حياة الخَلْق أجمعين .

(199/587)

لذلك يقول تعالى في مسألة القتال في عهد موسى عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإِ مِن بني إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ موسى . . . ﴾ [البقرة : 246] إنما في عهده وعصره ﴿ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : 246] .

وقد ورد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ما عذَّب الله قوماً ولا قرناً ، ولا أمة ، ولا أهل قرية منذ أنزل الله التوراة على موسى " .

كأن عذاب الاستئصال انتهى بنزول التوراة ، ولم يستثْن من ذلك إلا قرية واحدة هي (أيلة) التي بين مدين والأردن .

والحق – تبارك وتعالى – يعطينا أول تجربة لمهمة ، وتدخّل الرسل في قصة موسى عليه السلام .

وروُى عن أبي أمامة أنه قال : وإني لتحت رَحْل رسول الله – يعني : ممسكاً برحْل ناقة الرسول – يوم الفتح ، فسمعته يقول كلاماً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : " أُيما رجل من أهل الكتاب يؤمن بي فَلَهُ أجران – أي : أجر إيمانه بموسى ، أو بعيسى ، وأجر إيمانه بي – له ما لنا وعليه ما علينا " .

وهذا يعني أن القتال لم يكُنْ قد كُتِب عليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب . . . ﴾ [القصص : 43] أي التوراة : ﴿ مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى . . ﴾ [القصص : 43] أي : بدون تدخُّل الأنبياء ﴿ بَصَآئِرَ للنَّاسِ .

(200/587)

. . ﴾ [القصص : 43] أي : آتيناه الكتاب ليكون نوراً يهديهم ، وبصيرة ترشدهم ، وتُنير قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً . . . ﴾ [القصص : 43] هدى إلى طريق الخير ورحمة تعصم المجتمع من فساد المناهج الباطلة ، وتعصمهم أن يكونوا من أهل النار ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : 43] .

والتذكر يعني : أنه كان لديك قضية ، ثم نسيتها فاحتجْتَ لمن يُذكرك بها ، فهي ليست جديدة عليك ، هذه القضية هي الفطرة :

﴿ فِطْرَتَ اللهِ التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا . . . ﴾ [الروم : 30] .

لكن هذه الفطرة السليمة تنتابها شهوات النفس ورغباتها ، وتطرأ عليها الغفلة والنسيان ؛ لذلك يذكِّر الحق سبحانه الناس بما غفلوا عنه من منهج الحق ، إذن : في الفطرة السليمة المركوزة في كل نفس مُقوِّمات الإيمان والهداية ، لولا غفلة الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي . . . ﴾ .

قوله : ﴿ بِجَانِبِ الغربي . . . ﴾ [القصص : 44] أي : الجانب الغربي من البقعة المباركة من الشجرة ، وهو المكان الذي كلَّم الله فيه موسى وأرسله ﴿ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَى مُوسَى الأمر . . . ﴾ [القصص : 44] يعني : أمرناه به أمراً مقطوعاً به ، وهو الرسالة

.

﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ [القصص : 44] .

ولك أنْ تسأل : إذا لم يكُنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً لهذه الأحداث ، فمَنْ أخبره بها ؟ نقول : أخبره الله تعالى ، فإنْ قُلْت فربما أخبره بها شخص آخر ، أو قرأها في كتب السابقين .

نقول : لقد شهد له قومه بأنه أُميٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يُعْلَم عنه أنه جلس في يوم من الأيام إلى مُعلِّم ، كذلك كانوا يعرفون سيرته في حياته وسفرياته ورحلاته ، ولم يكُنْ فيها شيء من هذه الأحداث .

(201/587)

لذلك لما اتهموا رسول الله أنه جلس إلى معلم ، وقالوا : كما حكى القرآن : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . ﴾ [النحل : 103] ردَّ القرآن عليهم في بساطة : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : 103] .

وكانوا يقصدون بذلك حدادين روميين تردد عليهما رسول الله . وكذلك كانت الأمة التي بُعِث فيها رسول الله أمة أمية ، فمَّمن تعلَّم إذن ؟

وإذا كانت الأمية صفة مذمومة ننفر منها ، حتى أن أحد سطحيي الفهم يقول : لا تقولوا لرسول الله أميٌّ ونقول : إن كانت الأمية مَذمَّة ، فهي ميزة في حق رسول الله صلى الله عليه

وسلم ؛ لأن الأمي يعني المنسوب إلى الأم وما يزال على طبيعته لا يعرف شيئاً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً . . . ﴾ [النحل : 78] ونقول في المثل (فلان زي ما ولدته أمه) يعني : لا يعرف شيئاً ، وهذه مذمة في عامة البشر ؛ لأنه لم يتعلم ممَّنْ حوله ، ولم يستفِدْ من خبرات الحياة .

أما الأمية عند رسول الله فشرف ؛ لأن قصارى المتعلِّم في أيِّ أمة من الأمم أنْ يأخذ بطرفٍ من العلم من أمثاله من البشر ، فيكون مديناً له بهذا العلم ، أمَّا رسول الله فقد تعلم من العليم الأعلى ، فلم يتأثر في علمه بأحد ، وليس لأحد فضل عليه ولا منة .

لذلك تعجب الدنيا كلها من أمة العرب ، هذه الأمة الأمية المتبدية التي لا يجمعها قانون ، إنما لكل قبيلة فيها قانونها الخاص ، يعجبون : كيف سادتْ هذه الأمةُ العالمَ ، وغزتْ حضارتهم الدنيا في نصف قرن من الزمان .

(202/587)

ولو أن العرب أمة حضارة لقالوا عن الإسلام قفزة حضارية ، كما قالوا بعد انتصارنا في أكتوبر ، وبعد أن رأى رجالنا أشياء غير عادية تقاتل معهم ، حتى أنهم لم يشكُّوا في أنها تأييد من الله تعالى لجيش بدأ المعركة بصيحة الله أكبر ، لكن ثالث أيام المعركة طلع علينا في

جرائدنا من يقول : إنه نصر حضاري ، وفي نفس اليوم فُتحت الثغرة في (الدفرسوار) .

وعجيب أمر هؤلاء من أبناء جلدتنا ؛ لماذا تردُّون فضل الله وتنكرون تأييده لكم ؟ وماذا يضايقكم في نصر جاء بمدد من عند الله ؟ ألم تقرأوا : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [المدثر : 31] وبعد أن فُتحت الثغرة ماذا قدمتم لسدِّها ، تعالوا بفكركم الحضاري وأخرجونا من هذا المأزق .

وإذا ثَقُلَ على هؤلاء الاعتراف بجنود الله بين صفوفهم ، أليس المهندس الذي اهتدى إلى فكرة استخدام ضغط الماء في فتح الطريق في (بارليف) لينفذ منه الجنود ، أليس من جنود الله ؟

لقد أخذتْ منَّا هذه الفكرة كثيراً من الوقت والجهد دون فائدة ، إلى أن جاء هذا الرجل الذي نوَّر الله بصيرته وهداه إلى هذه العملية التي لم تَأْتِ اعتباطاً ، إنما نتيجة إيمان بالله وقُرْب منه سبحانه وتضرُّع إليه ، فجزاه الله عن مصر وعن الإسلام خيراً .

ومن العجيب ، بعد نهاية الحرب أنْ يُجروا للحرب بروفة تمثيلية ، فلم يستطيعوا اجتياز خط بارليف ، وهم في حال أمْن وسلام .

نعود إلى قضية الأمية ونقول لمن ينادي بمحو الأمية عند الناس بأن يعلمهم من علم البشر ؛ ليتكم قُلْتُم نمحو الأمية عندهم لنعلمهم عن الله .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إِلى مُوسَى الأمر وَمَا كنتَ مِنَ

الشاهدين ﴾ [القصص : 44] يعني : ما رأى محمد هذه الأحداث ولا حضرها ، ومنه قوله تعالى عن شهر رمضان : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ . . . ﴾ [البقرة : 185] يعني : حضره .

(203/587)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ . . . ﴾ .

أهل مدين هم قوم شعيب عليه السلام ، وكان لهم شُغُل بالقراءة ، لذلك قال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً . . . ﴾ [القصص : 45] أي : مقيماً ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا . . . ﴾ [القصص : 45] أي : تلاوة المتعلم كما يتلو التلميذ على أستاذه ليُصحّح له ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص : 45] أي : أن الرسالات كلها منا : مَنْ كان يقرأ ، ومن كان أمياً .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا . . . ﴾ [القصص : 46] أي : موسى عليه السلام ﴿ ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . . ﴾ [القصص : 46] أي : أنك يا محمد ما شهدت هذه الأحداث ، إنما جاءتْك بالفضل من الله ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : 46] يتذكَّرون ما غفلوا عنه من الفطرة

السليمة التي فطر الله الناس عليها .

وكلمة (وما كنت) في مواضع عدة في القرآن تدل على أن رسول الله جاء بأخبار لم يقرأها في كتاب ، ولم يسمعها من مُعلِّم ؛ لأنه لا يقرأ ، ولم يُعرف عنه أنه جلس إلى مُعلِّم ، وأهل الكتاب هم الذين يعرفون صدْق هذه الأخبار ؛ لأنها ذُكِرت في كتبهم ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ . . ﴾ [الأنعام : 20] .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ [الأعلى : 18-19] .

(204/587)

ومن علامات النبوة أن يخرق الحق سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم حُجُب الغيب ، والشيء يغيب عنك إما لأنه ماضٍ ، ولا وسيلة لك إليه ، وهذا هو حجاب الزمن الماضي ، وهو لا يُعرف إلا بواسطة القراءة في كتاب أو التعلم من مُعلِّم ، وقد نفى الله تعالى هذا بالنسبة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يكون الحجابُ الزمن المستقبل والأحداث التي لم تأْتِ بعْد ، ولا يستطيع أن يخبرك بها إلا الذي يعلمها أزَلاً .

لذلك يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6]

فكان النجم من القرآن ينزل على رسول الله فلما يُسرى عنه يُمليه على أصحابه ، كل آية في مكانها وترتيبها من السورة ، ثم يقرؤها بعد ذلك كما أُنزلت ، وكما أملاها .

وسبق أنْ قُلْنا : تستطيع أن تتحدَّى أيَّ شخص بأن يتكلم مثلاً لمدة ثُلث الساعة ، ثم يعيد ما قال ، ولن يستطيع ، أما المسألة مع سيدنا رسول الله فتختلف ؛ لأنها من الله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] .

وقلنا : إن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول نزول القرآن عليه كان يُردد الآية خلف جبريل عليه السلام مخافة أن ينساها ، فإنْ قال جبريل : ﴿ والضحى ﴾ [الضحى : 1] قال رسول الله ﴿ والضحى ﴾ [الضحى : 1] وهكذا ، فأنزل الله عليه : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة : 16-18] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ . . . ﴾ [طه : 114] .

أي : أرح نفسك يا محمد ، ولا تَخْشَ النسيان ، وانتظر حتى تنتهي الآيات ، وسوف تعيدها كما هي ، لا تَنْسى منها حرفاً واحداً .

ومن كشف حُجُب الغيب المستقبل قوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحميرِ لتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً . . . ﴾ [النحل : 8] ولو انتهتْ الآية إلى هذا الحدّ لقالوا : ذكر القرآن البدائيات ، ولم يذكر شيئاً عن السيارة والصاروخ . . إلخ .

لكن الحق – تبارك وتعالى – يكمل الآية

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 8] ليجعل في القرآن رصيداً لكل ما يستجد من وسائل المواصلات والانتقال إلى يوم القيامة .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : 36] فكلُّ شيء في الوجود قائم على الزوجين ذكورةً وأنوثة حتى الجمادات التي لا نرى فيها حياة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ . . . ﴾ [الروم : 1–4]

فمَنْ يستطيع أن يحكم على نتيجة معركة بعد سبع سنين ؟ وبعد ذلك يُصدّقه الله ، وتنتصر الروم ، وكانوا أهل كتاب على الفرس ، وكانوا يعبدون النار ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله . . . ﴾ [الروم : 4–5] .

ولما تشوّق الصحابة لأداء العمرة ونزل على رسول الله قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المسجد

الحرام إِن شَآءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح : 27] .

(206/587)

" فخرج بهم رسول الله حتى بلغوا الحديبية على بُعْد 22 كيلو من مكة تعرَّضَتْ لهم قريش ، ومنعتهم من العمرة ، واشترطوا عليهم العودة في العام المقبل ، وقد كتبوا وثيقة تعاهدوا فيها ، فلما أملى رسول الله على الكاتب : هذا ما تعاهد عليه محمد رسول الله ، قام عمرو بن سهيل فقال : لو كنا نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ولا رددناك ، إنما اكتب : هذا ما تعاهد عليه محمد بن عبد الله .

وعندها ثار صحابة رسول الله وغضبوا حتى راجعوا رسول الله فقال عمر : يا رسول الله ألسْنا على الحق ؟ قال : بلى ، قال : أليسوا على الباطل ؟ قال : بلى قال : فَلِمَ نعطى الدَّنية في ديننا ، فقال الصِّديق : الزم غَرْزَهُ يا عمر ، يعني قف عند حدّك – إنه رسول الله .

ولما أصر علي بن أبي طالب أن يكتب محمد رسول الله نظر إليه رسول الله ، وقال : " يا علي ستُسام مثلها فتقبل " ومرَّتْ الأيام والسنون ، وقُبض رسول الله ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، فلما تولّى عليٌّ الخلافة وحدثت الفتنة بينه وبين معاوية ، وقامت بينهما

حرب الجمل ثم صفِّين حتى اضطر عليّ لأنْ يكتب مع معاوية وثيقة لإنهاء القتال أملى عليّ : هذا ما تعاهد عليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ، فقالوا له : لو أنك أمير المؤمنين ما حاربناك ، فاسترجع عليٌّ قول رسول الله : " سَتُسام مثلها فتقبل " .

إذن : خرق الله لرسوله حجاب الزمن الماضي ، والزمن المستقبل ، فماذا عن الزمن الحاضر ؟ وكيف يكون خرق الحجاب فيه ؟ هذا في مثل قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ . . . ﴾ [المجادلة : 8] فأطلعه الله على ما في نفوس القوم .

(207/587)

وفي غزوة مؤتة ، وهي الغزوة الوحيدة التي لم يحضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك سُمِّيت غزوة – لأن الغزوة لا تُقَال إلا للمعركة التي حضرها رسول الله ، أما في مؤتة فقد حضرها وشاهدها وهو في المدينة ، حيث كشف الله له حجاب الحاضر ، فصار يخبر أصحابه في المدينة بما يجري في مؤتة وكأنها رَأْيُ العين .

ويومها تولى القيادة جماعة من كبار الصحابة : زيد بن حارثة ، وابن رواحة ، وجعفر بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول : قُتِل فلان وسقطت

الراية ، فأخذها فلان وقُتِل وحملها فلان . . إلخ فلما عادوا من الغزوة أخبروا بنفس ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ولولا أَن تُصِيبَهُم . . . ﴾ .

المعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمَتْ أيديهم لَعذَّبناهم فاحتجوا قائلين : ﴿ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [القصص : 47] فلو عذَّبهم الله دون أن يرسل إليهم رسولاً لكانت حجة لهم .

وسبق أنْ قُلْنا : إنه لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ولا نصَّ إلا بإعلام ، لذلك تُنشر الأحكام في الوقائع الرسمية ليعرفها الجميع ، فتلزمهم الحجة ، ولا يُعْذَر أحد بالجهل بالقانون ، ولا يُعفى من العقاب .

إذن : قطع الله عليهم الحجة ، حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذي يدلهم على الخير والثواب عليه في الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه في النار ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل . . . ﴾ [النساء : 165] .

إذن : الحكمة من إرسال الرسول إقامة الحجة على المرسَل إليهم مجرد إقامة الحجة ؛ لأن قضايا الدين قضايا حقٍّ فطري يهتدي إليها العقل السليم بفطرته ؛ لذلك وقف المستشرقون طويلاً عند شخصية عمر – رضي الله عنه – .

يقولون : تذكرون عمر في كل شيء : في العدل تقولون عمر ، وفي القوة تقولون عمر ، وفي وجود رسول الله تقولون نزل القرآن موافقاً لكلام عمر ، أليس عندكم إلا عمر ؟

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يدلُّنا بشخصية عمر إلى أنه سبحانه لم يُكلِّفنا بقضايا تنفر منها الفطرة ، إنما بقضايا تقبلها فطرتنا السليمة ، وتهتدي إليها بطبيعتها السوية الخالية من الهوى ، وهذا عمر لم يكُنْ نبياً ولا رسولاً ، لكن كان يصل إلى الحق بما فيه من فطرة إيمانية وعقلية سالمة من الأهواء ، حتى وصلت به الفطرة السليمة إلى أنْ ينطق القرآن بنفس ما نطق به .

وكلمة ﴿ ولولا . . . ﴾ [القصص : 47] تأتي بأحد معنيين : إنْ دخلتْ على الجملة الاسمية فهي حرف امتناع لوجود ، كما لو قلت : لولا زيد عندك لَزرتُكَ ، فامتنعتْ الزيارة لوجود زيد ، ومن هذه قوله تعالى : ﴿ ولولا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ . . . ﴾ [القصص : 47] والتقدير : لولا إصابتهم .

فإنْ دخلتْ (لولا) على الجملة الفعلية أفادتْ الحثَّ والحضَّ ، كما تقول لولدك : لولا ذاكرتَ دروسك ، وكذلك لولا الثانية في الآية ﴿ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ [القصص : 47] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن يصيبوا بها المصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل وهذا هو فصل الخطاب وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم أن القبح ثابت للفعل في نفسه وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة وهذه النكتة هي التي فاتت المعتزلة والكلابية كليهما فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى لعدم جمعهما بين هذين الأمرين فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل وترتيبهم العقاب على مجرد القبح

العقلي وأحسنوا في رد ذلك عليهم واستطالت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح واستواء الأفعال في أنفسها وأحسنوا في رد هذا عليهم فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب وأما من سلك هذا المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ولا الظفر عليه أصلا فانه موافق لكل طائفة على ما معها من الحق مقرر له مخالف في باطلها منكر له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفتاح دار السعادة حـ 2 صـ 7 . 8 ﴾

(210/587)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ بَصَآئِرَ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مفعولاً له ، وأن يكونَ حالاً : أمَّا على حَذْفِ مضافٍ أي : ذا بصائرَ أو على المبالغة .

قوله : ﴿ بِجَانِبِ الغربي ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مِنْ حَذْفِ الموصوف وإقامةِ صفتِه مُقامَه أي : بجانبِ المكانِ الغربيِّ ، وأَنْ يكونَ من إضافةِ الموصوفِ لصفتِه ، وهو مذهبُ الكوفيين . ومثلُه : " بَقْلَةُ الحمقَاء ، ومَسْجد الجامع " .

قوله : ﴿ وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا ﴾ : وجهُ الاستدارِكِ : أنَّ المعنى وما كنتَ شاهداً لموسى ما جَرَى عليه ، ولكنَّا أَوْحَيْناه إليك . فذكر سببَ الوَحْيِ الذي هو إطالةُ الفترةِ ، ودَلَّ به على المسَبَّب ، على عادةِ الله تعالى في اختصاراته . فإذن هذا الاستدارك هو شبيهُ بالاستدراكَيْن بعده . قاله الزمخشري بعد كلامٍ طويل .

قوله : ﴿ ثَاوِياً ﴾ أي : مُقيماً يقال : ثوى يَثْوِي ثَواءً وَثَوِّياً ، فهو ثاوٍ ومَثْوِيٌّ . قال ذو الرمة :

3617 لقد كانَ في حَوْلٍ ثَواءٍ ثوَيْتُه . . . تَقَضِّي لُباناتٍ ويُسْأَمُ سائِمُ

وقال آخر :

3618 طال الثَّواءُ على رُسومِ المنزلِ . . . . . .

. .

وقال العجاج :

3619 فباتَ حيث يَدْخُلُ الثَّوِيُّ . . . يعني : الضيفَ المقيم .

قوله : ﴿ تَتْلُواْ ﴾ يجوز أن يكونَ حالاً مِن الضميرِ في " ثاويا " ، وأَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وأنْ يكونَ هو الخبرَ و " ثاوياً " حالٌ . وجعله الفراء منقطعاً مِمَّا قبلَه أي : مستأنفاً كأنه قيل : وها أنت تَتْلُو على أمَّتِك . وفيه بُعدٌ .

قوله : ﴿ مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ ﴾ : في موضع الصفةِ ل " قوماً " .

[قوله :] ﴿ ولكن رَّحْمَةً ﴾ أي : أَرْسَلْناك رحمةً أو أَعْلمناك بذلك رحمةً . وقرأ عيسى وأبو حيوةَ بالرفع أي : أنت رحمةٌ .

(211/587)

قوله : ﴿ ولولا أَن تُصِيبَهُم ﴾ : هي الامتناعيةُ . وأنْ وما في حَيِّزها في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ . أي : ولولا إصابتُهم المصيبةَ . وجوابُها محذوفٌ فقدَّره الزجاج : " ما أرْسَلْنا إليهم رُسُلاً " يعني : أنَّ الحاملَ على إرسالِ الرسلِ إزاحةُ عِلَلِهم بهذا القولِ فهو كقولِه : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] . وقدَّره ابنُ عطية : " لعاجَلْناهم " ولا معنى لهذا .

و " فَيَقولوا " عطفٌ [على] " تُصيبَهم " ، و " لولا " الثانيةُ تحضيضٌ و " فنَتَّبِعَ " جوابُه ، فلذلك نُصِبَ بإضمار " أَنْ " . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : كيف استقامَ هذا المعنى ، وقد جُعِلَتْ العقوبةُ هي السببية لا القولُ ؛ لدخولِ حرفِ الامتناعِ عليه دونَه ؟ قلت : القولُ هو المقصودُ بأَنْ يكونَ سبباً للإرسال ولكنَّ العقوبةَ لَمَّا كانت هي السببَ للقولِ ، وكان وجودُه بوجودِها جُعِلَتِ العقوبةُ كأنها سببٌ للإرسالِ بواسطة القولِ فأُدْخلَتْ عليها " لولا " . وجيءَ بالقول معطوفاً عليها بالفاءِ المُعْطِيَةِ معنى السببية ، ويَؤُول معناه إلى قولِك : "

ولولا قولُهم هذا إذا أصابَتْهم مصيبةٌ لَمَا أَرْسَلْنا " ولكن اخْتِيْرَتْ هذه الطريقةُ لنُكتةٍ : وهي أنهم لو لم يُعاقَبوا مثلاً على كفرِهم وقد عاينوا ما أُلْجِئوا به إلى العلمِ اليقين لم يقولوا : لولا أَرْسَلْتَ إلينا رسولاً ، وإنما السببُ في قولِهم هذا هو العقابُ لا غيرَ ، لا التأسُّفُ على ما فاتهم من الإيمان بخالِقهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 680.

682 ﴾

(212/587)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾

إنما تطيب المنازلُ إذا خَلَتْ من الأجانب ، وأطيبُ المساكنِ ما كانت زينتُها بِفَقْدِ الرُّقباءِ وغَيْبَتِهم ، فلمّا أهلك اللَّهُ فرعونَ وقومَه ، وأورث بني إسرائيل أموالَهم وديارَهم ، ومحا عن جميعِها آثارَهم – طابَ لهم العيشُ وطَلَعَتْ عليهم شموسُ السعادة .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

لم تكن حاضراً فتعرف ذلك مشاهدةً ، ولكنهم رأوا انَّ إخبارَك عنهم بحيث لا يكذبك

كتابُهم ، وبالضرورة عرفوا حالَكَ ، وكيف أنّك لم تَعْلَمْ هذا من أحدٍ ، ولا قرأْتَه من كتاب ، لأنّكَ أُمّيٌّ لا تُحْسِنُ القراءة ، وإذاً فليس إخبارُكَ إلا بتعريفنا إياك ، وإطلاعنا لَكَ على ذلك .

ويقال ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ : وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى ، وكَلَّمْنَاه ، وخاطبناه في بابِكَ وبابِ أُمَّتِكَ ، ولم تقدح غَيْبَتُكُم في الحال ، وكَوْني لكم خيرٌ من كَوْنِكم لكم .

(213/587)

ويقال : لَمَّا خَاطَبَ موسى وكَلَّمَه سأله موسى : ؛ إِنِّي أرى في التوراة أُمَّةً صفتهم كذا وكذا . . مَنْ هم ؟ وسأل عن أوصاف كثيرة ، وعن الجميع كان يُجابُ بأنّها أمة أحمد ، فاشتاق موسى إلى لقائنا ، فقال له : إنه ليس اليومَ وقتُ ظهورِهم ، فإنْ شئْتَ أَسمعتُكَ كلامَهم ، فأراد أن يسمعَ كلامنا ، فنادانا وقال : يا أمةَ أحمد . . . ، فأجاب الكلُّ من أصلاب آبائهم ، فَسمِعَ موسى كلامَهم ولم يُدْرِكْهُم . والغنيُّ إذا سأله فقيرٌ وأجابه لا يرضى بأن يردَّه من غير إحسان إليه . (وفي رواية عن ابن عباس) أن الله قال : " يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ،

ورحمتكم قبل أن تسترحموني " .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ .

ومما كان موسى عليه السلام يتلوه عليهم من الآيات ذِكْرُ نبيّنا صلى الله عليه وسلم بالجميل . وذكر أمته بحسن الثناء عليهم ، فنحن في الوجود مُحْدَثٌ مخلوقٌ وفي ذكره متعلق لا باستفتاح . ولم نكن في العَدَم أعياناً ، ولا أشياء ، ولكنا كنا في متعلق القدرة ومتناول العلم والمشيئة . وذكرنا في الخطاب الأزليّ ، والكلام الصمديّ والقول الأبديّ .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

ما طلبه موسى لأمته جعلناه لأمتك ، وكما نادينا موسى – وهو في الوجود والظهور – ناديناكم وأنتم في كتم العَدَمِ ، أنشدوا :

كُنْ لي كما كُنْتَ . . . في حالِ لم أكُنِ

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

تمنوا في زمانِ الفترة أن يبعث اللَّهُ إليهم رسولاً ليهتدوا به ، ووعدوا من أنفسِهم الإيمانَ والإجابة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 70 . 72 ﴾

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) ﴾

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة :

﴿ طا . سين . ميم . . تلك آيات الكتاب المبين ﴾ . .

تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين ، البعيدة الرتبة ، المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف ، في لغة البشر الفانين :

﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ . .

فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر ، وهم لا يستطيعونه ؛ إنما هو الوحي الذي يتلوه الله على عبده ، ويبدو فيه إعجاز صنعته ، كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة في الكبير والصغير :

﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ . .

فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب ؛ يربيهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج ، ويشق لهم

الطريق . وهذا القصص المتلو في السورة ، مقصود به أولئك المؤمنين ، وهم به ينتفعون . وهذه التلاوة المباشرة من الله ، تلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ؛ وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة . وكيف ؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم ، ولهم ؛ بصفتهم هذه التي تؤهلهم لتلك العناية الكريمة : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ .

(215/587)

وبعد هذا الافتتاح يبدأ في عرض النبأ . نبأ موسى وفرعون . يبدأ في عرضه منذ أول حلقة في القصة حلقة ميلاده ولا تبدأ مثل هذا البدء في أية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها . ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى ، والظروف القاسية التي ولد فيها ؛ وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة ؛ وضعف قومه واستذلالهم في يد فرعون . . ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيسي ؛ ويبرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر ؛ وتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر ؛ وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة ؛ وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية . وهو المعنى الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتثبيته ؛ وكانت لكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته

واستيقانه .

ولقد كنت قصة موسى عليه السلام تبدأ غالباً في السور الأخرى من حلقة الرسالة لا من حلقة الميلاد حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي ؛ ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية . فأما هنا فليس هذا المعنى هو المقصود ؛ إنما المقصود أن الشرّ حين يمتحض يحمل سبب هلاكه في ذاته ؛ والبغي حين يتمرد لا يحتاج إلى من يدفعه من البشر ؛ بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم ، فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم ، وتربيهم ، وتجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوارثين .

فهذا هو الغرض من سوق القصة في هذه السورة ؛ ومن ثم عرضت من الحلقة التي تؤدي هذا الغرض وتبرزه ، والقصة في القرآن تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد من هذا العرض . فهي أداة تربية للنفوس ، ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ . وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه ، وتتعاون في بناء القلوب ، وبناء الحقائق التي تعمر هذه القلوب .

والحلقات المعروضة من القصة هنا هي : حلقة مولد موسى عليه السلام وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته . وحلقة فتوته وما آتاه الله من الحكم والعلم ، وما وقع فيها من قتل القبطي ، وتآمر فرعون وملئه عليه ، وهربه من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه فيها ، وقضاء سنوات الخدمة بها . وحلقة النداء والتكليف بالرسالة . ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى وهارون . والعاقبة الأخيرة الغرق مختصرة سريعة .

ولقد أطال السياق في عرض الحلقة الأولى والحلقة الثانية وهما الحلقتان الجديدتان في القصة في هذه السورة لأنهما تكشفان عن تحدي القدرة السافرة للطغيان الباغي . وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ : ﴿ ونرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

وعلى طريقة القرآن في عرض القصة ، قسمها إلى مشاهد ؛ وجعل بينها فجوات فنية يملؤها الخيال ، فلا يفوت القارئ شيء من الأحداث والمناظر المتروكة بين المشهد والمشهد ، مع الاستمتاع الفني بحركة الخيال الحية .

وقد جاءت الحلقة الأولى في خمسة مشاهد . والحلقة الثانية في تسعة مشاهد والحلقة الثالثة في أربعة مشاهد . وبين الحلقة والحلقة فجوة كبيرة أو صغيرة . وبين كل مشهد ومشهد ، كما يسدل الستار ويرفع عن المنظر أو المشهد .

وقبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث ، والظرف الذي يجري فيه القصص ، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث ، والتي من أجلها يسوق هذا القصص . . وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصة . تساوق موضوعها وأهدافها في هذا الموضع من القرآن :

(217/587)

﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ . .

وهكذا يرسم المسرح الذي تجري فيه الحوادث ، وتنكشف اليد التي تجريها . وتنكشف معها الغاية التي تتوخاها . وانكشاف هذه اليد ، وبروزها سافرة بلا ستار منذ اللحظة الأولى مقصود في سياق القصة كلها ، متمش مع أبرز هدف لها .

ومن ثم تبدأ القصة هذا البدء . وذلك من بدائع الأداء في هذا الكتاب العجيب .

ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده ،

فالتحديد التاريخي ليس هدفاً من أهداف القصة القرآنية ؛ ولا يزيد في دلالتها شيئاً .

ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف عليه السلام الذي استقدم أباه وإخوته .

وأبوه يعقوب هو " إسرائيل " وهؤلاء كانوا ذريته . وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعباً كبيراً .

فلما كان ذلك الفرعون الطاغية ﴿ علا في الأرض ﴾ وتكبر وتجبر ، وجعل أهل مصر شيعاً ، كل طائفة في شأن من شئونه . ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل ، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه ؛ فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب ؛ ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف ، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله واحد ؛ وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعاً .

(218/587)

وكذلك أحس الطاغية أن هناك خطراً على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة في مصر ؛ ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف ، فقد يصبحون إلباً عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب ، فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعبده ولا

تعتقد بألوهيته ، تلك هي تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال ، واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب . وبعد ذلك كله تذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم ، واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم . وبذلك يضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث ، فوق ما يصبه عليهم من نكال وعذاب .

وروي أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بني إسرائيل ، ليبادر بذبح الذكور ، فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة ، التي لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة .

هذه هي الظروف التي تجري فيها قصة موسى عليه السلام عند ولادته ، كما وردت في هذه السورة :

﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم . إنه كان من المفسدين ﴾ . .

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون ؛ ويقدر غير ما يقدر الطاغية . والطغاة البغاة تخدعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم ، فينسون إرادة الله وتقديره ؛ ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون ، ويختارون لأعدائهم ما يشاءون . ويظنون أنهم على هذا وذاك قادرون .

والله يعلن هنا أرادته هو ، ويكشف عن تقديره هو ؛ ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما ، بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتيلاً :

﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

(219/587)

فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير ، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، ويسومهم سوء العذاب والنكال . وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه ؛ فيبث عليهم العيون والأرصاد ، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار ! هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد ؛ وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيداً ولا تابعين ؛ وأن يورثهم الأرض المباركة (التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح) وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين . وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما ، وما يتخذون الحيطة دونه ، وهم لا يشعرون !

هكذا يعلن السياق قبل أن يأخذ في عرض القصة ذاتها . يعلن واقع الحال ، وما هو مقدر في المآل . ليقف القوتين وجهاً لوجه : قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التي تبدو للناس قادرة على الكثير . وقوة الله الحقيقية الهائلة التي تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التي ترهب

الناس !

ويرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ في عرضها . والقلوب معلقة بأحداثها ومجرياتها ، وما ستنتهي إليه ، وكيف تصل إلى تلك النهاية التي أعلنها قبل البدء في عرضها .

ومن ثم تنبض القصة بالحياة ؛ وكأنها تعرض لأول مرة ، على أنها رواية معروضة الفصول ، لا حكاية غبرت في التاريخ . هذه ميزة طريقة الأداء القرآنية بوجه عام .

ثم تبدأ القصة . ويبدأ التحدي وتنكشف يد القدرة تعمل سافرة بلا ستار :

لقد ولد موسى في ظل تلك الأوضاع القاسية التي رسمها قبل البدء في القصة ؛ ولد والخطر محدق به ، والموت يتلفت عليه ، والشفرة مشرعة على عنقه ، تهم أن تحتز رأسه . .

(220/587)

وها هي ذي أمه حائرة به ، خائفة عليه ، تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين ، وترجف أن تتناول عنقه السكين . ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة ، عاجزة عن حمايته ، عاجزة عن إخفائه ، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه ؛ عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة . . ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة .

هنا تتدخل يد القدرة ، فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة ، وتلقي في روعها كيف تعمل ، وتوحي إليها بالتصرف :

﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ﴾ . .

يا لله ! يا للقدرة ! يا أم موسى أرضعيه . فإذا خفت عليه وهو في حضنك . وهو في رعايتك . إذا خفت عليه وفي فمه ثديك ، وهو تحت عينيك . إذا خفت عليه ﴿ فألقيه في اليم ﴾ ! !

﴿ ولا تخافي ولا تحزني ﴾ إنه هنا . . في اليم . . في رعاية اليد التي لا أمن إلا في جوارها ، اليد التي لا خوف معها . اليد التي لا تقرب المخاوف من حماها . اليد التي تجعل النار برداً وسلاماً ، وتجعل البحر ملجأ ومناما .

اليد التي لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا جبابرة الأرض جميعاً أن يدنوا من حماها الآمن العزيز الجناب .

﴿ إنا رادوه إليك ﴾ . . فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده . . ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ . . وتلك بشارة الغد ، ووعد الله أصدق القائلين .

هذا هو المشهد الأول في القصة . مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح . وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور برداً

وسلاماً . ولا يذكر السياق كيف تلقته أم موسى ، ولا كيف نفذته . إنما يسدل الستار عليها ، ليرفعه فإذا نحن أمام المشهد الثاني :

﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ . .

أهذا هو الأمن ؟ أهذا هو الوعد ؟ أهذه هي البشارة ؟

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون ؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف أمره لآل فرعون ؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع في أيدي آل فرعون ؟

(221/587)

نعم ! ولكنها القدرة تتحدى . تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة . تتحدى فرعون وهامان وجنودهما . إنهم ليتتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفاً على ملكهم وعرشهم وذواتهم . ويبثون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكر . . فها هي ذي يد القدرة تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر . وأي طفل ؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم أجمعين ! ها هي ذي تلقيه في أيديهم مجرداً من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزاً عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد ! ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر ، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل ، وفي أحضان

نسائهم الوالدات !

ثم ها هي ذي تعلن عن مقصدها سافرة متحدية :

﴿ ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ .

ليكون لهم عدواً يتحداهم وحزناً يدخل الهم على قلوبهم :

﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ . .

ولكن كيف ؟ كيف وها هو ذا بين أيديهم ، مجرداً من كل قوة ، مجرداً من كل حيلة ؟ لندع السياق يجيب :

﴿ وقالت امرأة فرعون : قرة عين لي ولك ، لا تقتلوه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ؛ وهم لا يشعرون ﴾ . .

لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته ، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه .

لقد حمته بالمحبة .

ذلك الستار الرقيق الشفيف . لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال . حمته بالحب الحاني في قلب امرأة . وتحدت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره . . وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف !

﴿ قرة عين لي ولك ﴾ . .

وهو الذي تدفع به القدرة إليهم ليكون لهم فيما عدا المرأة عدواً وحزناً ! ﴿ لا تقتلوه

﴿ . .

وهو الذي على يده مصرع فرعون وجنده !

﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ . .

وهو الذي تخبئ لهم الأقدار من ورائه ما حذروا منه طويلاً !

﴿ وهم لا يشعرون ﴾ .

.

فيا للقدرة القادرة التي تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون !

وينتهي المشهد الثاني ويسدل الستار عليه إلى حين .

(222/587)

ذلك شأن موسى . فما بال أمه الوالهة وقلبها الملهوف ؟

﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً . إن كادت لتبدي به . لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته : قصيه ﴾ . .

لقد سمعت الإيحاء ، وألقت بطفلها إلى الماء . ولكن أين هو يا ترى وماذا فعلت به الأمواج ؟ ولعلها سألت نفسها : كيف ؟ كيف أمنت على فلذة كبدي أن أقذف بها في

اليم ؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أمٌ ؟ كيف طلبت له السلامة في هذه المخافة ؟ وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟

والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية : ﴿ فارغاً ﴾ . . لا عقل فيه ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصريف !

﴿ إِن كادت لتبدي به ﴾ . . وتذيع أمرها في الناس ، وتهتف كالمجنونة : أنا أضعته . أنا أضعت طفلي . أنا ألقيت به في اليم اتباعاً لهاتف غريب !

﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ . . وشددنا عليه وثبتناها ، وأمسكنا بها من الهيام والشرود .

﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ . . المؤمنين بوعد الله ، الصابرين على ابتلائه ، السائرين على هداه .

ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة !

﴿ وقالت لأخته : قصيه ﴾ . . اتبعي أثره ، واعرفي خبره ، إن كان حياً ، أو أكلته دواب البحر أو وحوش البر . . أو أين مقره ومرساه ؟

وذهبت أخته تقص أثره في حذر وخفية ، وتتلمس خبره في الطرق والأسواق . فإذا بها تعرف أين ساقته القدرة التي ترعاه ؛ وتبصر به عن بعد في أيدي خدم فرعون يبحثون له عن ثدي للرضاع :

﴿ فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل . فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟ ﴾ . .

(223/587)

إن القدرة التي ترعاه تدبر أمره ، وتكيد به لفرعون وآله ؛ فتجعلهم يلتقطونه ، وتجعلهم يحبونه ، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه ، وتحرم عليه المراضع ، لتدعهم يحتارون به ؛ وهو يرفض الثديّ كلما عرضت عليه ، وهم يخشون عليه الموت أو الذبول ! حتى تبصر به أخته من بعيد ، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع ، فتقول لهم : ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ ؟ فيتلقفون كلماتها ، وهم يستبشرون ، يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب !

وينتهي المشهد الرابع ؛ فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير في هذه الحلقة . وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة . معافى في بدنه ، مرموقاً في مكانته ، يحميه فرعون ، وترعاه امرأته ، وتضطرب المخاوف من حوله وهو آمن قرير . وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب :

﴿ فرددناه إلى أمه ، كي تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا

يعلمون ﴾ . .

ويسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى عليه السلام والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله .

فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه . ولا كيف تربى في قصر فرعون . ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة . ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شب وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية في الحلقة الثانية . ولا كيف كانت عقيدته ، وهو الذي يصنع على عين الله ، ويعد لوظيفته ، في وسط عباد فرعون وكهنته . .

يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى ، فقد آتاه الله الحكمة والعلم ، وحزاه جزاء المحسنين :

﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلما . وكذلك نجزي المحسنين ﴾ . .

(224/587)

وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية . والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي . وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين . فهل ظل موسى في قصر فرعون ، ربيباً ومتبنى لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن ؟ أم إنه افترق عنهما ، واعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة

في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة كنفس موسى عليه السلام ؟ وبخاصة أن أمه لا بد أن تكون قد عرّفته من هو ومن قومه وما ديانته .

وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع ، والبغي اللئيم ؛ وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم .

ليس لدينا من دليل . ولكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئاً من هذا كما سيجيء ؛ والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ يشي كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم :

﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان : هذا من شيعته وهذا من عدوه ؛ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ؛ فوكزه موسى فقضى عليه . قال : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال : رب إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم . قال : رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ . .

ودخل المدينة . . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ . . فمن أي مكان جاء فدخلها ؟ وهل كان من القصر في عين شمس ؟ أم إنه كان قد اعتزل القصر والعاصمة ، ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها ، في وقت الظهيرة مثلاً حين تغفو العيون ؟

لقد دخل المدينة على كل حال ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان . هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴾ . .

(225/587)

وقد كان أحدهما قبطياً يقال إنه من حاشية فرعون ، ويقال إنه طباخ القصر . والآخر إسرائيلي . وكانا يقتتلان . فاستغاث الإسرائيلي بموسى مستنجداً به على عدوهما القبطي . فكيف وقع هذا ؟ كيف استغاث الإسرائيلي بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال فرعون ؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال في القصر ، متبنى ، أو من الحاشية .

إنما يقع إذا كان الإسرائيلي على ثقة من أن موسى لم يعد متصلاً بالقصر ، وأنه قد عرف أنه من بني إسرائيل . وأنه ناقم على الملك والحاشية ، منتصر لقومه المضطهدين . وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى عليه السلام فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء في مستنقع الشر والفساد . .

﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ . .

والوكز الضرب بجمع اليد . والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطي .

مما يشي بقوة موسى وفتوته ، ويصور كذلك انفعاله وغضبه ؛ ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به .

ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي ، ولم يعمد إلى القضاء عليه . فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته ، وعزاها إلى الشيطان وغوايته ؛ فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان :

﴿ قال : هذا من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين ﴾ . .

ثم استطرد في فزع مما دفعه إليه الغضب ، يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر ، ويتوجه إلى ربه ، طالباً مغفرته وعفوه :

﴿ قال : رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ . .

واستجاب الله إلى ضراعته ، وحساسيته ، واستغفاره :

﴿ فغفر له . إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . .

(226/587)

وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز في حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له .

والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء ، فور الدعاء ، حين يصل إرهافه

وحساسيته إلى ذلك المستوى ؛ وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد . . وارتعش وجدان موسى عليه السلام وهو يستشعر الاستجابة من ربه ، فإذا هو يقطع على نفسه عهداً ، يعده من الوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه :

﴿ قال : رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ . .

فهو عهد مطلق ألا يقف في صف المجرمين ظهيراً ومعيناً . وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها . حتى ولو كانت اندفاعاً تحت تأثير الغيظ ، ومرارة الظلم والبغي . ذلك بحق نعمة الله عليه في قبول دعائه ؛ ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم التي آتاه الله من قبل .

وهذه الارتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف ، تصور لنا شخصية موسى عليه السلام شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع . وسنلتقي بهذه السمة البارزة في هذه الشخصية في مواضع أخرى كثيرة .

بل نحن نلتقي بها في المشهد الثاني في هذه الحلقة مباشرة :

﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ؛ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى : إنك لغوي مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ . .

لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء على القبطي ، وندم موسى على فعلته ، وتوجهه إلى ربه ، واستغفاره إياه ، ومغفرته له ، وعهده على نفسه ألا يكون ظهيراً للمجرمين .

(227/587)

ومر يوم وأصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى . ولفظ ﴿ يترقب ﴾ يصور هيئة القلق الذي يتلفت ويتوجس ، ويتوقع الشر في كل لحظة . . وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك . والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، كما أنه يضخمها بكلمتي ﴿ في المدينة ﴾ فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة ، فإذا كان خائفاً يترقب في المدينة ، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر ! وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن في هذا الوقت من رجال القصر . وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم والطغيان ! وما كان ليخشى شيئاً فضلاً على أن يصبح ﴿ خائفاً يترقب ﴾ لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره . وبينما هو في هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع : ﴿ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ﴾ !

إنه صاحبه الإسرائيلي الذي طلب بالأمس نصرته على القبطي . إنه هو مشتبكاً مع

قبطي آخر ؛ وهو يستصرخ موسى لينصره ؛ ولعله يريد منه أن يقضي على عدوهما المشترك بوكزة أخرى !

ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذي يتوقع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال :

﴿ قال له موسى : إنك لغوي مبين ﴾ . .

غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكاته التي لا تثمر إلا أن تثير الثائرة على بني إسرائيل . وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعفاء . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تفيد .

(228/587)

ولكن الذي حدث أن موسى بعد ذلك انفعلت نفسه بالغيظ من القبطي ، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس ! ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها ، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى عليه السلام بالغيظ من الظلم ، والنقمة على البغي ، والضيق بالأذى الواقع على بني

إسرائيل ، والتوفز لرد العدوان الطاغي ، الطويل الأمد ، الذي يحتفر في القلب البشري مسارب من الغيظ وأخاديد .

﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ، قال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ . .

وإنه ليقع حينما يشتد الظلم ، ويفسد المجتمع ، وتختل الموازين ، ويخيم الظلام ، أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذي يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ؛ ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه ، ويرون البغي فلا تجيش نفوسهم لدفعه ؛ بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ؛ ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره ﴿ جباراً في الأرض ﴾ كما قال القبطي لموسى .

ذلك أنهم ألفوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون ، حتى وهموا أن هذا هو الأصل ، وأن هذا هو الفضل ، وأن هذا هو الأدب ، وأن هذا هو الخلق ! وأن هذا هو الصلاح !

فإذا رأوا مظلوماً يدفع الظلم عن نفسه ، فيحطم السياج الذي أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التي يقوم عليها . . إذا رأوا مظلوماً يهب لتحطيم ذلك السياج المصطنع الباطل ولولوا ودهشوا ، وسمّوا هذا المظلوم الذي يدفع الظلم سفاكاً أو جباراً ، وصبوا عليه لومهم

ونقمتهم . ولم ينل الظالم الطاغي من نقمتهم ولومهم إلا القليل ! ولم يجدوا للمظلوم عذراً حتى على فرض تهوره من ضيقه بالظلم الثقيل !

(229/587)

ولقد طال الظلم ببني إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى عليه السلام حتى رأيناه يندفع في المرة الأولى ويندم ، ثم يندفع في المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله ، ويهم أن يبطش بالذي هو عدو له ولقومه .

لذلك لم يتخل الله عنه ، بل رعاه ، واستجاب له ، فالله العليم بالنفوس يعلم أن للطاقة البشرية حداً في الاحتمال . وأن الظلم حين يشتد ، وتغلق أبواب النصفة ، يندفع المضطهد إلى الهجوم والاقتحام . فلم يهول في وصف الفعلة التي فعلها موسى ، كما تهول الجماعات البشرية التي مسخ الظلم فطرتها بإزاء مثل هذا العمل الفطري مهما تجاوز الحدود تحت الضغط والكظم والضيق .

وهذه هي العبرة التي تستشف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين وما تلاهما ، فهو لا يبرر الفعلة ولكنه كذلك لا يضخمها . ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية . وهو المختار ليكون رسول الله ، المصنوع على عين الله . .

أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان ؛ والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها ، حيث لا تجدي تلك الاشتباكات الفردية الجانبية في تغيير الأوضاع . كما كف الله المسلمين في مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان .

ويبدو أن رائحة فاحت عن قتيل الأمس ، وأن شبهات تطايرت حول موسى . لما عرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملئه ، إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلي سراً بين قومه ، ثم تفشى بعد ذلك خارج بني إسرائيل .

نرجح هذا لأن قتل موسى لأحد رجال فرعون في معركة بينه وبين إسرائيلي في مثل هذه الظروف يعد حدثاً مريحاً لنفوس بني إسرائيل ، يشفى بعض غيظهم ، فيشيع عادة وتتناقله الألسنة في همس وفرح وتشف ، حتى يفشو ويتطاير هنا وهناك . وبخاصة إذا عرف عن موسى من قبل نفرته من البغي ، وانتصاره للمظلومين .

(230/587)

فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الثاني واجهه هذا بالتهمة ، لأنها عندئذ تجسمت له حقيقة ، وهو يراه يهم أن يبطش به ، وقال له تلك المقالة : ﴿ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ ﴾ .

أما بقية عبارته : ﴿ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ . . فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له في الحياة مسلكاً يعرف به أنه رجل صالح مصلح ، لا يحب البغي والتجبر . فهذا القبطي يذكره بهذا ويورِّي به ؛ ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه . يريد أن يكون جباراً لا مصلحاً ، يقتل الناس بدلاً من إصلاح ذات البين ، وتهدئة ثائرة الشر . وطريقة خطابه له وموضوع خطابه ، كلاهما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوباً من رجال فرعون . وإلا ما جرؤ المصري على خطابه بهذه اللهجة ، ولما كان هذا موضوع خطابه .

ولقد قال بعض المفسرين : إن هذا القول كان من الإسرائيلي لا من القبطي ، لأنه لما قال له موسى : ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ ، ثم تقدم نحوه وهو غاضب ليبطش بالذي هو عدو لهما ، حسب الإسرائيلي أنه غاضب عليه هو ، وأنه يتقدم ليبطش به هو ، فقال مقالته ، وأذاع بالسر الذي يعرفه وحده . . وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك السر كان مجهولاً عند المصريين .

ولكن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال ما قال . وقد عللنا شيوع ذلك السر . وأنها قد تكون فراسة أو حدساً من المصري بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع .

والظاهر أن موسى لم يقدم بعد إذ ذكره الرجل بفعلة الأمس ، وأن الرجل أفلت لينهي إلى الملأ من قوم فرعون أن موسى هو صاحبها . فهنا فجوة في السياق بعد المشهد السابق . ثم

إذا مشهد جديد . رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة ، يحذره ائتمار الملأ من قوم فرعون به ، وينصح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته :

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . قال : يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك . فاخرج إني لك من الناصحين ﴾ . .

إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة ، لتتم مشيتها !

(231/587)

لقد عرف الملأ من قوم فرعون ، وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر . فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد ، والانتصار لبني إسرائيل . وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التآمر . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحقت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحداً من الملأ . الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه ، والذي جاء ذكره في سورة (غافر) انتدبته ليسعى إلى موسى ﴿ من أقصى المدينة ﴾ في جد واهتمام ومسارعة ، ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك : ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إني لك من الناصحين ﴾ . .

﴿ فخرج منها خائفاً يترقب . قال : رب نجني من القوم الظالمين ﴾ .

.

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية . التوفز والتلفت . ونلمح معها ، التوجه المباشر بالطلب إلى الله ، والتطلع إلى حمايته ورعايته ، والالتجاء إلى حماه في المخافة ، وترقب الأمن عنده والنجاة :

﴿ رب نجني من القوم الظالمين ﴾ . .

ثم يتبعه السياق خارجاً من المدينة ، خائفاً يترقب ، وحيداً فريداً ، غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه ؛ والتوجه إليه طالباً عونه وهداه :

﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ . .

ونلمح شخصية موسى عليه السلام فريداً وحيداً مطارداً في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالي الحجاز . مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لا زاد ولا استعداد ، فقد خرج من المدينة خائفاً يترقب ، وخرج منزعجاً بنذارة الرجل الناصح ، لم يتلبث ، ولم يتزود ولم يتخذ دليلاً . ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه ، مستسلمة له ، متطلعة إلى هداه : ﴿ عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ . .

ومرة أخرى نجد موسى عليه السلام في قلب المخافة ، بعد فترة من الأمن . بل من الرفاهية والطراءة والنعمى . ونجده وحيداً مجرداً من قوى الأرض الظاهرة جميعاً ، يطارده فرعون وجنده ، ويبحثون عنه في كل مكان ، لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلاً . ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا ، ولا تسلمه لأعدائه أبداً . فها هو ذا يقطع الطريق الطويل ، ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء :

﴿ ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال : ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل ، فقال : رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ . .

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين . وصل إليه وهو مجهود مكدود . وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى عليه السلام وجد الرعاة الرجال يوردون أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً ، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

ولم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف . بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب :

﴿ قال : ما خطبكما ؟ ﴾ . .

﴿ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾ . .

فأَطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود . إنه الضعف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال ! وثارت نخوة موسى عليه السلام وفطرته السليمة . فتقدم لإقرار الأمر في نصابه . تقدم ليسقي للمرأتين أولاً ، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة .

(233/587)

وهو غريب في أرض لا يعرفها ، ولا سند له فيها ولا ظهير . وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد . وهو مطارد ، من خلفه أعداء لا يرحمون . ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس :

﴿ فسقى لهما ﴾ . .

مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله . كما يشي بقوته التي ترهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبته أكثر من

قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب .

﴿ ثم تولى إلى الظل ﴾ . .

مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ، وأن السفرة كانت في ذلك القيظ والحر .

﴿ فقال : رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ . .

إنه يأوي إلى الظل المادي البليل بجسمه ، ويأوى إلى الظل العريض الممدود . ظل الله الكريم المنان . بروحه وقلبه : ﴿ رب . إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ . رب إني في الهاجرة . رب إني فقير . رب إني وحيد . رب إني ضعيف . رب إني إلى فضلك ومنك وكرمك فقير محووج .

ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن ، والركن الركين ، والظل الظليل . نسمع المناجاة القريبة والهمس الموحي ، والانعطاف الرفيق ، والاتصال العميق : ﴿ رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ . .

وما نكاد نستغرق مع موسى عليه السلام في مشهد المناجاة حتى يعجل السياق بمشهد الفرج ، معقباً في التعبير بالفاء ، كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الضارع الغريب .

﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء . قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ . .

يا فرج الله : ويا لقربه ويا لنداه ! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير . دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان . دعوة تحملها : ﴿ إحداهما ﴾ وقد جاءته ﴿ تمشي على استحياء ﴾ مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال . ﴿ على استحياء ﴾ . في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله ، يحكيه القرآن بقوله : ﴿ إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ . فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ؛ لا التلجلج والتعثر والربكة . وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم ، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب . الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج ؛ إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب ، ولا تزيد .

وينهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه ، ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة ، والاستجابة من موسى . ثم إذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الكبير . الذي لم ينص على اسمه . وقيل : إنه ابن أخي شعيب النبي المعروف . وإن اسمه يثرون .

﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال : لا تخف .

نجوت من القوم الظالمين ﴾ . .

فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ؛ كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد . ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور : ﴿ لا تخف ﴾ فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقي في قلبه الطمأنينة ، ويشعره بالأمان . ثم بين وعلل : ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ فلا سلطان لهم على مدين ، ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار .

ثم نسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة :

﴿ قالت : إحداهما : يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ .

(235/587)

إنها وأختها تعانيان من رعي الغنم ، ومن مزاحمة الرجال على الماء ، ومن الاحتكاك الذي لا بد منه للمرأة التي تزاول أعمال الرجال . وهي تتأذى وأختها من هذا كله ؛ وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت ؛ امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى . والمرأة العفيفة الروح ، النظيفة القلب ، السليمة الفطرة ، لا تستريح لمزاحمة الرجال ، ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة .

وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوي أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء

فيفسحون له الطريق ويسقي لهما . وهو غريب . والغريب ضعيف مهما اشتد . ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته . فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوي على العمل ، أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه . وهي لا تتلعثم في هذه الإشارة ولا تضطرب ، ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهي بريئة النفس ، نظيفة الحس ؛ ومن ثم لا تخشى شيئاً ، ولا تتمتم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها .

ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى . كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه فيما قالوا إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل . فالبئر لم يكن مغطى ، إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين ، أو سقى لهما مع الرعاء .

ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة : امشي خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها . أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها . .

فهذا كله تكلف لا داعي له ، ودفع لريبة لا وجود لها . وموسى عليه السلام عفيف النظر نظيف الحس ، وهي كذلك ، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة . فالعفة تتضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع !

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته . ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة ، وميلاً فطرياً سليماً ، صالحاً لبناء أسرة .

والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغايتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثماني سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به .

﴿ قال : إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ، على أن تأجرني ثماني حجج . فإن أتممت عشراً فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك . ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ .

وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد ولعله كان يشعر كما أسلفنا أنها محددة ، وهي التي وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها في غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحاً لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل ، ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة ، تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ؛

وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم ، أولا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة ! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نية نكاح . فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح ، فيهبط الخجل المصطنع ، وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة !

(237/587)

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي صلى الله عليه وسلم أو من يرغب في تزويجهن منهم . كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل ، لا تخدش معه كرامة ولا حياء . . عرض عمر رضي الله عنه : ابنته حفصة على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر ، فلما أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا طيب خاطره ، عسى أن يجعل الله لها نصيباً فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها صلى الله عليه وسلم وعرضت امرأة نفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذر لها . فألقت إليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء . فزوجها رجلاً لا يملك إلا سورتين من القرآن ، علمها إياهما فكان هذا صداقها .

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه . في غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء .

وهكذا صنع الشيخ الكبير صاحب موسى فعرض على موسى ذلك العرض واعداً إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل ؛ راجياً بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه .

وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله . فهو لا يزكي نفسه ، ولا يجزم بأنه من الصالحين . ولكن يرجو أن يكون كذلك ، ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله .

وقبل موسى العرض وأمضى العقد ؛ في وضوح كذلك ودقة ، وأشهد الله :

﴿ قال : ذلك بيني وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ . والله على ما نقول وكيل ﴾ .

(238/587)

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ، ولا اللعثمة ، ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض ، ويبرم العقد ، على ما عرض الشيخ من الشروط . ثم يقرر هذا ويوضحه : ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ﴾ . . سواء قضيت ثماني سنوات

أو أتممت عشراً ، فلا عدوان في تكاليف العمل ، ولا عدوان في تحتيم العشر ؛ فالزيادة على الثمانية اختيار . . ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ . فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيلاً .

بين موسى عليه السلام هذا البيان تمشياً مع استقامة فطرته ، ووضوح شخصيته ، وتوفية بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوي أن يوفي بأفضل الأجلين كما فعل . " فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر أنه : قضى أكثرهما وأطيبهما . "

وهكذا اطمأن بموسى عليه السلام المقام في بيت حميه ؛ وقد أمن من فرعون وكيده . ولحكمة مقدرة في علم الله كان هذا الذي كان . . فلندع الآن هذه الحلقة تمضي في طريقها حتى تنقضي . فقد سكت السياق فيها عند هذا الحد وأسدل الستار . .

وتمضي السنوات العشر التي تعاقد عليها موسى عليه السلام لا يذكر عنها شيء في سياق السورة ، ثم تعرض الحلقة الثالثة بعد ما قضى موسى الأجل وسار بأهله ، عائداً من مدين إلى مصر ، يسلك إليها الطريق الذي سلكه منذ عشر سنوات وحيداً طريداً . ولكن جو العودة غير جو الرحلة الأولى . . إنه عائد ليتلقى في الطريق ما لم يخطر له على بال . لينادي ربه ويكلمه ، ويكلفه النهوض بالمهمة التي من أجلها وقاه ورعاه ، وعلمه ورباه . مهمة الرسالة إلى فرعون وملئه ، ليطلق له بني إسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحداً ؛ ويرثون

الأرض التي وعدهم ليمكن لهم فيها ؛ ثم ليكون لفرعون وهامان وجنودهما عدواً وحزناً ، ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقاً :

(239/587)

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً ، قال لأهله : امكثوا ، إني آنست ناراً ، لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة : أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ؛ وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف ، إنك من الآمنين .

اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين . قال : رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون . وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون . قال : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ . .

وقبل أن نستعرض هذين المشهدين في هذه الحلقة نقف قليلاً أمام تدبير الله لموسى عليه

السلام في هذه السنوات العشر ، وفي هذه الرحلة ذهاباً وجيئة ، في هذا الطريق . .

لقد نقلت يد القدرة خطى موسى عليه السلام خطوة خطوة . منذ أن كان رضيعاً في المهد حتى هذه الحلقة . ألقت به في اليم ليلتقطه آل فرعون . وألقت عليه المحبة في قلب امرأته لينشأ في كنف عدوه . ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفساً . وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها . وصاحبته في الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد . وجمعته بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر . ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف . .

(240/587)

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه ، ومن التلقي والتجريب ، قبل النداء وقبل التكليف . . تجربة الرعاية والحب والتدليل . وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس ، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار . وتجربة الخوف والمطاردة والفزع . وتجربة الغربة والوحدة والجوع . وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور . وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة ، والمشاعر المتباينة ، والخوالج والخواطر ، والإدراك والمعرفة . . إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات ؛ يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي ، إلى جانب هبة الله اللدنية ، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير .

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر عدا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر ، أعتى ملوك الأرض في زمانه ، وأقدمهم عرشاً ، وأثبتهم ملكاً ، وأعرقهم حضارة . وأشدهم تعبداً للخلق واستعلاء في الأرض .

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه ، فمردوا عليه واستكانوا دهراً طويلاً . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن ؛ ويذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العفن والنتن والرجس والدنس .

فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير .

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة ؛ انحرفوا عنها ، وفسدت صورتها في قلوبهم . فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة ؛ ولا هي باقية على عقيدتها القديمة .

ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة . والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسراً .

وهو في اختصار مرسل لإعادة بناء أمة ، بل لإنشائها من الأساس . فلأول مرة يصبح بنو

إسرائيل شعباً مستقلاً ، له حياة خاصة ، تحكمها رسالة . وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير .

(241/587)

ولعله لهذا المعنى كانت عناية القرآن الكريم بهذه القصة ، فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة ، وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية . وما يعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل .

فأما تجربة السنوات العشر فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى عليه السلام وحياة الجهد الشاق في الدعوة وتكاليفها العسيرة .

إن لحياة القصور جواً خاصاً ، وتقاليد خاصة ، وظلالاً خاصة تلقيها على النفس وتطبعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية . والرسالة معاناة لجماهير من الناس فيهم الغني والفقير ، والواجد والمحروم ، وفيهم النظيف والوسخ ، والمهذب والخشن ؛ وفيهم الطيب والخبيث والخير والشرير . وفيهم القوي والضعيف ، والصابر والجزوع . . وفيهم وفيهم . . وللفقراء عادات خاصة في أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيهم ، وطريقة فهمهم للأمور ، وطريقة تصورهم للحياة ، وطريقة حديثهم وحركتهم ،

وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم . . وهذه العادات تثقل على نفوس المنعمين ومشاعر الذين تربوا في القصور ؛ ولا يكادون يطيقون رؤيتها فضلاً على معاناتها وعلاجها ، مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مستعدة للصلاح ، لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم في قلوب أهل القصور !

وللرسالة تكاليفها من المشقة والتجرد والشظف أحياناً . . وقلوب أهل القصور مهما تكن مستعدة للتضحية بما اعتادته من الخفض والدعة والمتعة لا تصبر طويلاً على الخشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها في واقع الحياة .

(242/587)

فشاءت القدرة التي تنقل خطى موسى عليه السلام أن تخفض ما اعتادته نفسه من تلك الحياة ؛ وأن تزج به في مجتمع الرعاة ، وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون راعي غنم يجد القوت والمأوى ، بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع . وأن ينزع من حسه روح الاشمئزاز من الفقر والفقراء ، وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم ؛ وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثاثة هيئتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم . وأن تلقي به في خضم الحياة كثيراً بعد ما ألقت به في خضم الأمواج صغيراً ، ليمرن على تكاليف دعوته

قبل أن يتلقاها . .

فلما أن استكملت نفس موسى عليه السلام تجاربها ، وأكملت مرانتها ودربتها ، بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة ، قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه ، ومقر أهله وقومه ، ومجال رسالته وعمله ، سالكة به الطريق التي سلكها أول مرة وحيداً طريداً خائفاً يتلفت . فما هذه الجيئة والذهوب في ذات الطريق ؟ إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق .

الطريق الذي سيقود فيه موسى خطى قومه بأمر ربه ، كي يستكمل صفات الرائد وخبرته ، حتى لا يعتمد على غيره ولو في ريادة الطريق . فقومه كانوا في حاجة إلى رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة ، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير ؛ حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير .

وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله ، وكيف أعدته القدرة لتلقي التكليف .

فلنتبع خطى موسى تنقلها يد القدرة الكبرى ، في طريقه إلى هذا التكليف .

﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً . قال لأهله : امكثوا إني آنست ناراً ، لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ . .

ترى أي خاطر راود موسى ، فعاد به إلى مصر ، بعد انقضاء الأجل ، وقد خرج منها

خائفاً يترقب ؟ وأنساه الخطر الذي ينتظره بها ، وقد قتل فيها نفساً ؟ وهناك فرعون الذي كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه ؟

(243/587)

إنها اليد التي تنقل خطاه كلها ، لعلها قادته هذه المرة بالميل الفطري إلى الأهل والعشيرة ، وإلى الوطن والبيئة ، وأنسته الخطر الذي خرج هارباً منه وحيداً طريداً . ليؤدي المهمة التي خلق لها ورعي منذ اللحظة الأولى .

على أية حال ها هو ذا عائد في طريقه ، ومعه أهله ، والوقت ليل ، والجو ظلمة ؛ وقد ضل الطريق ، والليلة شاتية ، كما يبدو من أنسه بالنار التي شاهدها ، ليأتي منها بخبر أو جذوة . . هذا هو المشهد الأول في هذه الحلقة .

فأما المشهد الثاني فهو المفاجأة الكبرى :

﴿ فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ . .

فها هو ذا يقصد إلى النار التي آنسها ، وها هو ذا في شاطئ الوادي إلى جوار جبل الطور ، الوادي إلى يمينه ، ﴿ في البقعة المباركة ﴾ . . المباركة ، منذ هذه اللحظة . . ثم هذا هو الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوي الآتي لموسى ﴿ من الشجرة ﴾ ولعلها كانت

الوحيدة في هذا المكان :

﴿ أن يا موسى إني انا الله رب العالمين ﴾ :

وتلقى موسى النداء المباشر . تلقاه وحيداً في ذلك الوادي العميق ، في ذلك الليل الساكن . تلقاه يتجاوب به الكون من حوله ، وتمتلئ به السماوات والأرضون . تلقاه لا ندري كيف وبأية جارحة وعن أي طريق . تلقاه ملء الكون من حوله ، وملء كيانه كله . تلقاه وأطاق تلقيه لأنه صنع على عين الله حتى تهيأ لهذه اللحظة الكبرى .

وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوي ؛ وبوركت البقعة التي تجلى عليها ذو الجلال ؛ وتميز الوادي الذي كرّم بهذا التجلي ، ووقف موسى في أكرم موقف يلقاه إنسان .

واستطرد النداء العلوي يلقي إلى عبده التكليف :

﴿ وأن ألق عصاك ﴾ . .

وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه ؛ ولكن ماذا ؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلاً ، والتي يعرفها معرفة اليقين . إنها حية تدب في سرعة ، وتتحرك في خفة ، وتتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى :

﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ .

.

إنها المفاجأة التي لم يستعد لها ؛ مع الطبيعة الانفعالية ، التي تأخذها الوهلة الأولى . . ﴿ ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ ولم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها ؛ وليتأمل هذه العجيبة الضخمة . وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تتجلى في موعدها !

ثم يستمع إلى ربه الأعلى :

﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ . .

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعاً على هذه النفس ، ويتعاورانها في مراحل حياتها جميعاً . إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها ؛ وإن هذا الانفعال الدائم المقصود في تلك النفس ، مقدر في هذه الحياة ، لأنه الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل ، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل . وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق .

﴿ أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ . .

وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه ، ومن ترعاه عين الله ؟

﴿ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ . .

وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها . فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة . إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهدها أدماء تضرب إلى السمرة . إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل .

وأدركت موسى طبيعته . فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المتتابعة . ومرة أخرى تدركه الرعاية الحانية بتوجيه يرده إلى السكينة . ذلك أن يضم يده على قلبه ، فتخفض من دقاته ، وتطامن من خفقاته :

﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ . .

وكأنما يده جناح يقبضه على صدره ، كما يطمئن الطائر فيطبق جناحه . والرفرفة أشبه بالخفقان ، والقبض أشبه بالاطمئنان . والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن .

والآن وقد تلقى موسى ما تلقى ، وقد شاهد كذلك ما شاهد ، وقد رأى الآيتين الخارقتين ، وقد ارتجف لهما ثم اطمأن . . الآن يعرف ما وراء الآيات ، والآن يتلقى التكليف الذي كان يعد من طفولته الباكرة ليتلقاه . .

(245/587)

﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه . إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ . .

وإذن فهي الرسالة إلى فرعون وملئه . وإذن فهو الوعد الذي تلقته أم موسى وهو طفل رضيع : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ . . الوعد اليقين الذي انقضت عليه السنون . وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين .

هنا يتذكر موسى أنه قتل منهم نفساً ، وأنه أخرج من بينهم طريداً ، وأنهم تآمروا على قتله فهرب منهم بعيداً . وهو في حضرة ربه . وربه يكرمه بلقائه ، ويكرمه بنجائه ، ويكرمه بآياته ، ويكرمه برعايته ، فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتنقطع رسالته :

﴿ قال : رب إن قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾ . .

يقولها لا ليعتذر ، ولا ليتقاعس ، ولا لينكص ؛ ولكن ليحتاط للدعوة ، ويطمئن إلى مضيها في طريقها ، لو لقي ما يخاف .

وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين :

﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي ردءاً يصدقني ، إني أخاف أن يكذبون ﴾ .

إن هارون أفصح لساناً فهو أقدر على المنافحة عن الدعوة . وهو ردء له معين ، يقوي دعواه ، ويخلفه إن قتلوه .

وهنا يتلقى موسى الاستجابة والتطمين :

﴿ قال : سنشد عضدك بأخيك ، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ . .

لقد استجاب ربه رجاءه ؛ وشد عضده بأخيه . وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين :

﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ . . فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار . إنما يذهبان إليه

مزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان ؛ ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار : ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ . . وحولكما من سلطان الله سياج ، ولكما منه حصن وملاذ . ولا تقف البشارة عند هذا الحد . ولكنها الغلبة للحق . الغلبة لآيات الله التي يجبهان بها الطغاة . فإذا هي وحدها السلاح والقوة ، وأداة النصر والغلبة : ﴿ بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ .

(246/587)

فالقدرة تتجلى سافرة على مسرح الحوادث ؛ وتؤدي دورها مكشوفاً بلا ستار من قوى الأرض ، لتكون الغلبة بغير الأسباب التي تعارف عليها الناس ، في دنيا الناس ، وليقوم في النفوس ميزان جديد للقوى والقيم . إيمان وثقة بالله ، وما بعد ذلك فعلى الله .

وينتهي هذا المشهد الرائع الجليل ؛ ويطوي الزمان ويطوي المكان ، فإذا موسى وهارون في مواجهة فرعون ، بآيات الله البينات ؛ وإذا الحوار بين الهدى والضلال ؛ وإذا النهاية الحاسمة في هذه الدنيا بالغرق ، وفي الحياة الأخرى باللعنة . في سرعة واختصار :

﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . وقال موسى : ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ومن تكون له عاقبة

الدار ، إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون : يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون ؛ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ . .

إن السياق هنا يعجل بالضربة القاضية ؛ ويختصر حلقة السحرة التي تذكر في سور أخرى بتفصيل أو إجمال . يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك . ثم لا يقف عند الأخذ في الدنيا ، بل يتابع الرحلة إلى الآخرة . . وهذا الإسراع في هذه الحلقة مقصود ، متناسق مع اتجاه القصة في السورة : وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر ، فما إن يواجه موسى فرعون حتى يعجل الله بالعاقبة ، وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة ، بلا تفصيل في المواجهة أو تطويل .

﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ .

. .

وكأنما هي ذات القولة التي يقولها المشركون لمحمد صلى الله عليه وسلم في مكة يومذاك . .

﴿ ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ . . فهي المماراة في الحق الواضح الذي لا يمكن دفعه . المماراة المكرورة حيثما واجه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب . إنهم يدعون أنه سحر ، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم ، لم يسمعوا به في آبائهم الأولين !

وهم لا يناقشون بحجة ، ولا يدلون ببرهان ، إنما يلقون بهذا القول الغامض الذي لا يحق حقاً ولا يبطل باطلاً ولا يدفع دعوى . فأما موسى عليه السلام فيحيل الأمر بينه وبينهم إلى الله . فما أدلوا بحجة ليناقشها ، ولا طلبوا دليلاً فيعطيهم ، إنما هم يمارون كما يماري أصحاب الباطل في كل مكان وفي كل زمان ، فالاختصار أولى والإعراض أكرم ، وترك الأمر بينه وبينهم إلى الله :

﴿ وقال موسى : ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

وهو رد مؤدب مهذب ، يلمح فيه ولا يصرح . وفي الوقت ذاته ناصع واضح ، مليء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل . فربه أعلم بصدقه وهداه ، وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى ، والظالمون في النهاية لا يفلحون . سنة الله التي لا تتبدل . وإن

بدت ظواهر الأمور أحياناً في غير هذا الاتجاه. سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبي قومه.

وكان رد فرعون على هذا الأدب وهذه الثقة ادعاء وتطاولا، ولعبا ومداورة، وتهكماً وسخرية:

﴿ وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري. فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى، وإني لأظنه من الكاذبين ﴾..

(248/587)

يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري.. كلمة فاجرة كافرة، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم. ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة. ثم على القهر، الذي لا يدع لرأس أن يفكر، ولا للسان أن يعبر. وهم يرونه بشراً مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب!

ثم يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى، وهو يلهو ويسخر: ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى ﴾.. في السماء كما يقول! وبلهجة التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك في صدق موسى، ولكنه مع هذا الشك

يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة : ﴿ وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ !

وفي هذا الموضع كانت حلقة المباراة مع السحرة . وهي محذوفة هنا للتعجيل بالنهاية :

«وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ» . .

فلما توهموا عدم الرجعة إلى اللّه استكبروا في الأرض بغير الحق ، وكذبوا بالآيات والنذر (التي جاء ذكرها في مطلع هذه الحلقة ، ووردت بالتفصيل في سور أخرى) .

«فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ» .

هكذا في اختصار حاسم . أخذ شديد ونبذ في اليم . نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى بالحجر . اليم الذي ألقي في مثله موسى الطفل الرضيع ، فكان مأمنا وملجأ . وهو ذاته الذي ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة . فالأمن إنما يكون في جناب اللّه ، والمخافة إنما تكون في البعد عن ذلك الجناب .

«فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ» . .

فهي عاقبة مشهودة معروضة للعالمين . وفيها عبرة للمعتبرين ، ونذير للمكذبين . وفيها يد القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين في مثل لمح البصر ، وفي أقل من نصف سطر ! وفي لمحة

أخرى يجتاز الحياة الدنيا ويقف بفرعون وجنوده في مشهد عجيب . . يدعون إلى النار ، ويقودون إليها الأتباع والأنصار :

«وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» . .

فيا بئساها دعوة ! ويا بئساها إمامة ! «وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ» . .

فهي الهزيمة في الدنيا ، وهي الهزيمة في الآخرة ، جزاء البغي والاستطالة . وليست الهزيمة وحدها ، إنما هي اللعنة في هذه الأرض ، والتقبيح في يوم القيامة :

«وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ» .

ولفظة «الْمَقْبُوحِينَ» ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع ، وجو التقزز والاشمئزاز . ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض ، وفتنة الناس بالمظهر والجاه ، والتطاول على الله وعلى عباد الله .

(250/587)

ويعبر السياق هنا مرحلة الخروج ببني إسرائيل من مصر ، وما حدث خلالها من أحداث ، ليعجل بعرض نصيب موسى بعد عرض نصيب فرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2675 . 2695 ﴾

(251/587)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/588)

الجزء الثامن والثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 48 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 50 ﴾ من نفس السورة

(4/588)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : ولكنا أرسلناك بالحق لقطع حجتهم هذه ، بنى عليه قوله : ﴿ فلما جاءهم ﴾ أي أهل مكة ﴿ الحق ﴾ الذي هو أعم من الكتاب والسنة وما يقاس عليهما ، وهو في نفسه جدير بأن يقبل لكونه في الذروة العليا من الثبات ، فكيف وهو ﴿ من

عندنا ﴾ على ما لنا من العظمة ، وعلى لسانك وأنت أعظم الخلق ! ﴿ قالوا ﴾ أي أهل الدعوة من العرب وغيرهم تعنتاً كفراً به : ﴿ لولا أوتي ﴾ من الآيات ، أي هذا الآتي بما يزعم أنه الحق ، وبني للمفعول لأن القصد مطلق الإيتاء لأنه الذي يترتب عليه مقصود الرسالة ، مع أن المؤتى معلوم ﴿ مثل ما أوتي موسى ﴾ أي من اليد والعصا وغيرهما من الآيات التي لا يقدر على إتيانها إلا القادر على كل شيء .

(5/588)

ولما كان الإتيان بمثل ما أتى به موسى عليه الصلاة والسلام لا يكون موجباً للإيمان على زعمهم إلا بأن يكون أعظم مما أتى به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أو يكون الناس لم يتوقفوا في الإيمان به ، وكان كل من الأمرين منتفياً بأن أهل زمانه كفروا به ، وهو لما سألوا اليهود عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمروهم أن يمتحنوه بالروح وقصتي أهل الكهف وذي القرنين وجاء في كل من ذلك بما لزمهم تصديقه ، فامتنعوا وأصروا على كفرهم ، وكان في ذلك كفرهم به وبموسى عليهما الصلاة والسلام ، فعلم أن التقدير : ألم يكفروا بما أتاهم به من الآيات الباهرة مع أنه مثل ما أتى به موسى عليهما الصلاة والسلام ، بل أعظم منه ﴿ أولم يكفروا ﴾ أي العرب ومن بلغتهم الدعوة من بني إسرائيل أو من شاء الله منهم أو أبناء

جنسهم ومن كان مثلهم في البشرية والعقل في زمن موسى عليه السلام ﴿ بما أوتي موسى ﴾ .

ولما كان كل من إتيانه وكفرهم لم يستغرق زمان القبل ، أثبت الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل مجيء الحق على لسان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليهم .

ولما كان كأنه قيل : ما كان كفرهم به ؟ قيل : ﴿ قالوا ﴾ أي فرعون وقومه ومن كفر من بني إسرائيل كقارون ومن تبعه .

(6/588)

ولما كان قد تقدم هنا قريباً أن المظاهر له أخوه ، فكان المراد واضحاً ، أضمرهما فقال : ﴿ ساحران ﴾ أي هو وأخوه ﴿ تظاهرا ﴾ أي أعان كل منهما صاحبه على سحره حتى صار سحرهما معجزاً فغلبا جميع السحرة ، وتظاهر الساحرين من تظاهر السحرين – على قراءة الكوفيين ، ويجوز – وهو أقرب أن يكون الضمير لمحمد و موسى عليهما الصلاة والسلام ، وذلك لأنه روي أن قريشاً بعثت إلى يهود فسألوهم عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبروهم أن نعته في كتابهم ، فقالوا هذه المقالة ، فيكون الكلام استئنافاً لجواب من كأنه قال : ما كان كفرهم بهما ؟ فقيل : قالوا – أي العرب : الرجلان ساحران ،

أو الكتابان سحران ، ظاهر أحدهما الآخر مع علم كل ذي لب أن هذا القول زيف .

لأنه لو كان شرط إعجاز السحر التظاهر ، لكان سحر فرعون أعظم إعجازاً ، لأنه تظاهر عليه جميع سحرة بلاد مصر وعجزوا عن معارض ما أظهر موسى عليه الصلاة والسلام من آية العصا ، وأما محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد دعا أهل الأرض من الجن والإنس إلى معارضة كتابه وأخبرهم أنهم عاجزون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً فعجزوا .

ولما تضمن قولهم ذلك الكفر ، صرحوا به في قولهم : ﴿ وقالوا ﴾ أي كفار قريش أو المتقدمون من فرعون وأضرابه : ﴿ إنا بكل ﴾ من الساحرين أو السحرين اللذين تظاهرا بهما ، وهما ما أتيا به من عند الله ﴿ كافرون ﴾ جرأة على الله وتكبراً على الحق .

(7/588)

ولما قالوا ذلك ، كان كأنه قيل : فماذا فعل ؟ قال : ﴿ قل ﴾ إلزاماً لهم إن كنتم صادقين في أني ساحر وكتابي سحر وكذلك موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ فأتوا بكتاب ﴾ وأشار بالتعبير في وصفه بعند دون لدن إلى أنه يقنع منهم بكونه حكيماً خارقاً للعادة في حكمته وإن لم يبلغ الذروة في الغرابة بأن انفك عن الإعجاز في نظمه كالتوراة فقال : ﴿ من عند الله ﴾ أي الملك الأعلى ، ينطق بأنه نم عنده أحواله وحكمته وجلاله ﴿ هو ﴾ أي

الذي أتيتم به ﴿ أهدى منهما ﴾ أي مما أتيت به ومما أتى به موسى ﴿ أتبعه ﴾ أي واتركهما .

ولما أمرهم بأمره بالإتيان ، ذكر شرطه من باب التنزل ، لإظهار النصفة ، وهو في الحقيقة تهكم بهم فقال : ﴿ إن كنتم ﴾ أيها الكفار ! كوناً راسخاً ﴿ صادقين ﴾ أي في أنا ساحران ، فائتوا ما ألزمتكم به .

ولما كان شرط صدقهم ، بين كذبهم على تقدير عدم الجزاء فقال : ﴿ فإن لم يستجيبوا ﴾ أي الكفار الطالبون للأهدى في الإتيان به .

ولما كانت الاستجابة تتعدى بنفسها إلى الدعاء ، وباللام إلى الداعي ، وكان ذكر الداعي أدل على الاعتناء به والنظر إليه ، قال مفرداً لضميره ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه لا يفهم المقايسة في الأهدوية غيره : ﴿ لك ﴾ أي يطلبوا الإجابة ويوجدوها في الإيمان أو الإتيان بما ذكرته لهم ودعوتهم إليه مما هو أهدى ، من القرآن والتوراة ليظهر صدقهم ﴿ فاعلم ﴾ أنت ﴿ أنما يتبعون ﴾ أي بغاية جهدهم فيما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿ أهواءهم ﴾ أي دائماً ، وأكثر الهوى مخالف للهدى فهم ظالمون غير مهتدين ، بل هم أضل الناس ، وذلك معنى قوله : ﴿ ومن أضل ﴾ أي منهم ، ولكنه قال : ﴿ ممن اتبع ﴾ أي بغاية جهده ﴿ هواه ﴾ تعليقاً للحكم بالوصف ؛ والتقييد وبقوله : ﴿ بغير هدى ﴾ أي بيان وإرشاد

﴿ من الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له جميع صفات الكمال دليل على أن الهوى قد يوافق الهدى ، والتعبير بالافتعال دليل على أن التابع وإن كان ظالماً قد لا يكون أظلم .

(8/588)

ولما كانت متابعة الهوى على هذا الصورة ظلماً ، وصل به قوله مظهراً لئلا يدعى التخصيص بهم : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا راد لأمره ﴿ لا يهدي ﴾ وأظهر موضع الإضمار للتعميم فقال : ﴿ القوم الظالمين ﴾ أي وإن كانوا أقوى الناس لاتباعهم أهوائهم ، فالآية من الاحتباك : أثبت أولاً اتباع الهوى دليلاً على حذفه ثانياً ، وثانياً الظلم دليلاً على حذفه أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 496 . 499 ﴾

(9/588)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ، بين أيضاً أنه بعد الإرسال إلى أهل مكة قالوا ﴿ لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ موسى ﴾ فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون بأخرى ، فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد .

أما قوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ أي جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن أن الله كلمه وكتب له في الألواح وغيرها من الآيات فجاؤا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود : 12] وما أشبه ذلك .

(10/588)

واعلم أن الذي اقترحوه غير لازم لأنه لا يجب في معجزات الأنبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل إليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد إذ الصلاح قد يكون في إنزاله مجموعاً كالتوراة ومفرقاً كالقرآن ، ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ أَوَلَمْ

يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ ﴾ إلى من يعود ، وذكروا وجوهاً : أحدها : أن اليهود أمروا قريشاً أن يسألوا محمداً أن يؤتى مثل ما أوتي موسى عليه السلام فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِيَ موسى ﴾ يعني أو لم تكفروا يا هؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة وثانيها : أن الذين أوردوا هذا الاقتراح كفار مكة ، والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام إلا أنه تعالى جعلهم كالشيء الواحد لأنهم في الكفر والتعنت كالشيء الواحد وثالثها : قال الكلبي إن مشركي مكة بعثوا رهطاً إلى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشأنه فقالوا إنا نجده في التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط إليهم وأخبروهم بقول اليهود قالوا إنه كان ساحراً كما أن محمداً ساحر ، فقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِيَ موسى ﴾ ورابعها : قال الحسن قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أو لم يكفر آباؤهم بأن قالوا في موسى وهرون ساحران وخامسها : قال قتادة أو لم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا ساحران وسادسها : وهو الأظهر عندي أن كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم إنهم لما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ بل بما أوتي جميع الأنبياء من قبل ، فعلمنا أنه لا غرض لكم في هذا

الاقتراح إلا التعنت ، ثم إنه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتي موسى من وجهين : الأول : قولهم : ﴿ ساحران تَظَاهَرَا ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأهل المدينة (ساحران) بالألف وقرأ أهل الكوفة بغير ألف وذكروا في تفسير الساحرين وجوهاً : أحدها : المراد هرون وموسى عليهما السلام تظاهرا أي تعاونا وقرىء (اظاهرا) على الإدغام وسحران بمعنى ذوي سحر وجعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله : ﴿ سِحْرَانِ ﴾ بأن المراد هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالألف لأن المظاهرة بالناس وأفعالهم أشبه منها بالكتب وجوابه : إنا بينا أن قوله : ﴿ سِحْرَانِ ﴾ يمكن حمله على الرجلين وبتقدير أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوي الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز تعاونا كما تقول تظاهرت الأخبار وهذه التأويلات إنما تصح إذا حملنا قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِىَ موسى ﴾ إما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام ولا شك أن ذلك أليق بمساق الآية الثاني : قولهم : ﴿ إِنَّا بِكُلٍّ كافرون ﴾ أي بما أنزل على محمد وموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق إلا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة في أنهم مع كثرة

آيات موسى عليه السلام كذبوه فما الذي يمنع من مثله في محمد صلى الله عليه وسلم وإن ظهرت حجته ، ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله ، قال الزجاج (أتبعه) بالجزم على الشرط ومن قرأ (أتبعه) بالرفع فالتقدير أنا أتبعه ، ثم قال : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ قال ابن عباس يريد فإن لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج ، وقال مقاتل فإن لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب أفضل

(12/588)

منهما وهذا أشبه بالآية فإن قيل الاستجابة تقتضي دعاء فأين الدعاء ههنا ؟ قلنا قوله : ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ ﴾ أمر والأمر دعاء إلى الفعل ثم قال : ﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ ﴾ يعني قد صاروا ملزمين ولم يبق لهم شيء إلا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله ﴾ وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد وأنه لا بد من الحجة والاستدلال ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ وهو عام يتناول الكافر لقوله : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

[لقمان : 13] واحتج الأصحاب به في أن هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين .

وقالت المعتزلة : الألطاف منها ما يحسن فعلها مطلقاً ومنها ما لا يحسن إلا بعد الإيمان والدليل عليه قوله : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد : 17] فقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ محمول على القسم الثاني ولا يجوز حمله على القسم الأول ، لأنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم ، فبأن يكون عدم الهداية عذراً لهم أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 222 .

﴿ 224

(13/588)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ . . . قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾

قرأ الكوفيون سحران ، فمن قرأ ساحران ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام ، وهذا قول مشركي العرب ، وبه قال ابن عباس والحسن .

الثاني : موسى وهارون عليهما السلام وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة ، قاله ابن جبير ومجاهد وأبو زيد .

الثالث : عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا قول اليهود اليوم ، وبه قال قتادة .

ومن قرأ سحران ففيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها التوارة والقرآن ، قاله عاصم الجحدري والسدي .

الثاني : التوراة والإنجيل ، قاله إسماعيل وأبو مجلز .

الثالث : الإنجيل والقرآن ، قاله قتادة .

﴿ قَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ يعني بما ذكره على اختلاف الأقاويل وفي قائل ذلك قولان :

إحداهما : اليهود .

الثاني : قريش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(14/588)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

وقوله تعالى : ﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾

إخبار بأنه أنزل التوراة على موسى بعد هلاك فرعون قومه وبعد هذه الأمم التي قد تقدم ذكرها من عاد وثمود وقرية قوم لوط وغيرها ، والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش بما تقدم في غيرها من الأمم ، وقالت ، فرقة : إن الآية مضمنة أن إنزال التوراة على موسى هو

بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأمم فلم تعذب أمة بعد نزول التوراة إلا القرية التي مسخت قردة ، فيما روي ، وقوله ﴿ بصائر ﴾ نصب على الحال ، أي طرائق هادية ، وقوله تعالى : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي على ترجى البشر وما يعطيه تأميل من أمل الأمر ، وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال : ما أهلك الله تعالى أمة بعذاب منذ أنزل إلى الأرض غير القرية التي مسخت قردة وهم الذي تعدوا في السبت ، وهذا التعذيب من سبب شرع موسى فكأنه لا ينقص فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأرض .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) ﴾

المعنى ولم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي تخبر بها ولكنها صارت إليك بوحينا أي فكان الواجب أن يسارع إلى الإيمان بك ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها زمناً زمناً فعزبت حلومهم واستحكمت جهالتهم وضلالتهم ، و ﴿ قضينا ﴾ معناه أبعدنا وصيرنا ، و ﴿ الأمر ﴾ يعني النبوءة ، وقالت فرقة : يعني ما أعلمه به من أمر محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تأويل حسن يلتئم معه ما بعده من قوله : ﴿ ولكنا أنشأنا قروناً ﴾ ، و" الثاوي " المقيم ، وقوله ﴿ وما كنت بجانب الطور ﴾ يريد وقت إنزال التوراة إلى موسى .

وقوله تعالى : ﴿ إذ نادينا ﴾ ، روي عن أبي هريرة أنه نودي يومئذ من السماء يا أمة محمد استجبت لكم قبل أن تدعوني وغفرت لكم قبل أن تسألوني ، فحينئذ قال موسى عليه السلام : اللهم اجعلني من أمة محمد ، فالمعنى ﴿ إذا نادينا ﴾ بأمرك وأخبرنا بنبوتك وقوله ﴿ رحمة ﴾ نصب على المصدر أو مفعول من أجله ، وقوله ﴿ لكن ﴾ مرتبط بقوله ﴿ وما كنت ﴾ أي ﴿ ولكن ﴾ جعلناك وأنفذنا أمرك قديماً ﴿ رحمة من ربك ﴾ أو يكون المعنى ﴿ ولكن ﴾ أعلمناك ونبأناك ﴿ رحمة ﴾ منا لك وإفضالاً ، وقرأ الناس " رحمةً " بالنصب ، وقرأ عيسى " رحمة " بالرفع ، ويريد بالقوم الذين لم يأتهم نذير معاصر به من العرب ، وباقي الآية بين ، وقال الطبري : معنى قوله ﴿ إذ نادينا ﴾ بأن سأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) ﴾

" المصيبة " عذاب في الدنيا على كفرهم ، وجواب ﴿ لولا ﴾ محذوف يقتضيه الكلام تقديره لعاجلناهم بما يستحقونه ، وقال الزجاج : تقديره لما أرسلنا الرسل ، وقوله ﴿ جاءهم الحق ﴾ يريد القرآن ومحمداً عليه السلام ، والمقالة التي قالتها قريش ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ كانت من تعليم اليهود لهم قالوا لهم لم لا يأتي بآية باهرة كالعصا واليد ونتق الجبل وغير ذلك ، فعكس الله عليهم قولهم ووقفهم على أنه قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاء في هذه ، فالضمير في ﴿ يكفروا ﴾ لليهود ، وقرأ الجمهور " ساحران " والمراد بهما موسى وهارون قاله مجاهد ، وقال الحسن : موسى وعيسى وقال ابن عباس : موسى ومحمد ، وقال الحسن أيضاً : عيسى ومحمد عليهما السلام ، والأول أظهر ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم " سحران " والمراد بهما التوراة والإنجيل ، قال عكرمة ، وقال ابن عباس : التوراة والقرآن ، وقرأ ابن مسعود " سحران اظاهرا " وهي قراءة طلحة والضحاك .

(17/588)

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يريد ب ﴿ ما أوتي موسى ﴾ أمر محمد الذي في التوراة كأنه يقول وما يطلبون بأن يأتي ب ﴿ مثل ما أوتي موسى ﴾ وهم قد كفروا في التكذيب بك بما أوتيه موسى من الإخبار بك ، وقوله ﴿ إنا بكل كافرون ﴾ يؤيد هذا التأويل ، و ﴿ تظاهرا ﴾ معناه تعاونا ، وقوله تعالى : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله ﴾ الآية ، هذه حجة أمره الله تعالى أن يصدع بها ، أي أنتم أيها المكذبون بهذه الكتب التي قد تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق ونهت عن الكفر والنقائص ووعد الله تعالى مع ذلك الثواب عليها الجزيل إن كان تكذيبهم لمعنى وبحال صحة ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله ﴾ يهدي أكثر من هدي هذه أتبعه معكم ، ثم قال تعالى ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ وهو قد علم أنهم لا يستجيبون على معنى الإيضاح لفساد حالهم ، وسياق القياس البيان لأنهم متبعون لأهوائهم ، ثم عجب تعالى من ضلال من تبع هواه بغير هداية ولغير مقصد نير وقرر على ذلك على جهة البيان أي لا أحد أضل منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(18/588)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلمَّا جاءهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ الحقُّ مِنْ عندنا ﴾ وهو محمد عليه السلام والقرآن ﴿ قالوا لولا ﴾ أي : هلاَّ ﴿ أُوتيَ ﴾ محمد من الآيات ﴿ مِثْلَ ما أُوتيَ موسى ﴾ كالعصا واليد .

قال المفسرون : أمرت اليهودُ قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أُوتيَ موسى ، فقال الله تعالى : ﴿ أو لم يَكْفُروا بما أُوتيَ موسى ﴾ أي : فقد كفروا بآيات موسى ، و ﴿ قالوا ﴾ في المشار إليهم قولان .

أحدهما : اليهود .

والثاني : قريش .

﴿ سحران ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [ساحران ﴾ .

﴿ تَظَاهَرا ﴾ أي : تعاونا .

وروى العباس الانصاري عن أبي عمرو : ﴿ تَظَّاهَرا ﴾ بتشديد الظاء .

وفيمن عَنَوا ثلاثة أقوال .

أحدها : موسى ومحمد ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ؛ فعلى هذا هو من قول مشركي العرب .

والثاني : موسى وهارون ، قاله مجاهد ؛ فعلى هذا هو من قول اليهود لهما في ابتداء

الرسالة.

والثالث: محمد وعيسى، قاله قتادة؛ فعلى هذا هو من قول اليهود الذين لم يؤمنوا بنبيِّنا.

وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿ سِحْران ﴾ وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: التوراة والفرقان، قاله ابن عباس، والسدي.

والثاني: الإنجيل والقرآن، قاله قتادة.

والثالث: التوراة والإنجيل، قاله أبو مجلز، وإسماعيل ابن أبي خالد.

ومعنى الكلام: كلُّ سِحْر منهما يقوِّي الآخر، فنُسب التظاهر إلى السِحْرين توسُّعاً في الكلام، ﴿ وقالوا إنَّا بكلٍّ كافرون ﴾ يعنون ما تقدَّم ذِكْره على اختلاف الأقوال، فقال الله لنبيِّه ﴿ قُلْ ﴾ لكفَّار مكة ﴿ فأْتُوا بكتابٍ مِنْ عِنْدِ الله هو أهدى منهما ﴾ أي: من التوراة والقرآن، ﴿ إن كنتم صادِقين ﴾ أنَّهما ساحران.

(19/588)

﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي: فإن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن، ﴿ فاعلم أنَّما يَتَّبعون أهواءهم ﴾ أي: أنَّ ما ركبوه من الكفر لم يحملهم عليه حُجَّة، وإنما آثروا فيه الهوى ﴾

ومَنْ أضَلُّ ﴾ أي : ولا أحد أضل ، ﴿ مِمَّن اتَّبع هواه بغير هُدىً ﴾ أي : بغير رشاد ولا بيان جاء ﴿ من الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(20/588)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾

يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني كفار مكة ﴿ لولا ﴾ أي هلا ﴿ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ موسى ﴾ من العصا واليد البيضاء ، وأنزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة ، وكان بلغهم ذلك من أمر موسى قبل محمد ؛ فقال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ قَالُواْ سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ أي موسى ومحمد تعاونا على السحر .

قال الكلبي : بعثت قريش إلى اليهود وسألوهم عن بعث محمد وشأنه فقالوا : إنا نجده في التوراة بنعته وصفته .

فلما رجع الجواب إليهم ﴿ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ .

وقال قوم : إن اليهود علَّموا المشركين ، وقالوا قولوا لمحمد لولا أوتيت مثل ما أوتي موسى ، فإنه أوتي التوراة دفعة واحدة .

فهذا الاحتجاج وارد على اليهود ، أي أو لم يكفر هؤلاء اليهود بما أوتي موسى حين قالوا في موسى وهارون هما ساحران و ﴿ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ أي وإنا كافرون بكل واحد منهما .

وقرأ الكوفيون : ﴿ سِحْرَانِ ﴾ بغير ألف ؛ أي الإنجيل والقرآن .

وقيل : التوراة والفرقان ؛ قاله الفرّاء .

وقيل : التوراة والإنجيل .

قاله أبو رزين .

الباقون ﴿ سَاحِرَانِ ﴾ بألف .

وفيه ثلاثة أقاويل .

أحدها : موسى ومحمد عليهما السلام .

وهذا قول مشركي العرب .

وبه قال ابن عباس والحسن .

الثاني : موسى وهارون .

وهذا قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة .

وبه قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد .

فيكون الكلام احتجاجاً عليهم .

وهذا يدلّ على أن المحذوف في قوله : ﴿ لَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ لما جدّدنا بعثة الرسل ؛ لأن اليهود اعترفوا بالنبوّات ولكنهم حرّفوا وغيّروا واستحقوا العقاب ، فقال : قد أكملنا إزاحة عذرهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

الثالث : عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

وهذا قول اليهود اليوم .

وبه قال قتادة .

(21/588)

وقيل : أولم يكفر جميع اليهود بما أوتي موسى في التوراة من ذكر المسيح ، وذكر الإنجيل والقرآن ، فرأوا موسى ومحمداً ساحرين والكتابين سحرين .

قوله تعالى : ا ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهدى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ أي قل يا محمد إذ كفرتم معاشر المشركين بهذين الكتابين ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهدى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ ليكون ذلك عذراً لكم في الكفر ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أنهما سحران .

أو فأتوا بكتاب هو أهدى من كتابي موسى ومحمد عليهما السلام .

وهذا يقوي قراءة الكوفيين ﴿ سِحْرَانِ ﴾ .

﴿ أَتَّبِعْهُ ﴾ قال الفرّاء : بالرفع ؛ لأنه صفة للكتاب وكتاب نكرة .

قال : وإذا جزمت وهو الوجه فعلى الشرط .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ يا محمد أن يأتوا بكتاب من عند الله ﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ أي آراء قلوبهم وما يستحسنونه ويحببه لهم الشيطان ، وأنه لا حجة لهم .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله ﴾ أي لا أحد أضل منه ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(22/588)

وقال أبو حيان :

﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾

﴿ والحق ﴾ : هو الرسول ، محمد (صلى الله عليه وسلم) ، جاء بالكتاب المعجز الذي قطع معاذيرهم .

وقيل : القرآن ، ﴿ مثل ما أوتي موسى ﴾ .

﴿ من قبل ﴾ : أي من قبل الكتاب المنزل جملة واحدة ، وانقلاب العصا حية ، وفلق

البحر ، وغيرها من الآيات .

اقترحوا ذلك على سبيل التعنت والعناد ، كما قالوا : لولا أنزل عليه كنز ، وما أشبه ذلك من المقترحات لهم .

وهذه المقالة التي قالوها هي من تعليم اليهود لقريش ، قالوا لهم .

ألا يأتي بآية باهرة كآيات موسى ، فرد الله عليهم بأنهم كفروا بآيات موسى ، وقد وقع منهم في آيات موسى ما وقع من هؤلاء في آيات الرسول .

فالضمير في : ﴿ أو لم يكفروا ﴾ لليهود ، قاله ابن عطية : وقيل : قائل ذلك العرب بالتعليم ، كما قلنا .

وقيل : قائل ذلك اليهود ، ويظهر عندي أنه عائد على قريش الذين قالوا : ﴿ لولا أوتي ﴾ : أي محمد ، ﴿ ما أوتي موسى ﴾ ، وذلك أن تكذيبهم لمحمد (صلى الله عليه وسلم) تكذيب لموسى عليه السلام ، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى ، إذ الأنبياء هم من وادٍ واحد .

فمن نسب إلى أحد من الأنبياء ما لا يليق ، كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء .

وتتناسق الضمائر كلها في هذا ، في قوله : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله ﴾ وإن كان الظاهر من القول إنه النطق اللساني ، فقد ينطلق على الاعتقاد وهم من حيث إنكار النبوات ، معتقدون أن ما ظهر على أيدي الأنبياء من الآيات إنما هو من باب السحر .

وقال الزمخشري : ﴿ أو لم يكفروا ﴾ ، يعني آباء جنسهم ، ومن مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم ، وهم الكفرة في زمن موسى ﴿ بما أوتي موسى ﴾ .

وعن الحسن : قد كان للعرب أصل في أيام موسى ، فمعناه على هذا : أو لم يكفر آباؤهم ؟

قالوا في موسى وهارون : ﴿ ساحران تظاهرا ﴾ ، أي تعاوناً . انتهى .

ومن قبل : يحتمل أن يتعلق بيكفروا ، وبما أوتي .

وقرأ الجمهور : ساحران .

(23/588)

قال مجاهد : موسى وهارون .

وقال الحسن : موسى وعيسى .

وقال ابن عباس : موسى ومحمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال الحسن أيضاً : عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

وقرأ عبد الله ، وزيد بن علي ، والكوفيون : سحران .

قال ابن عباس : التوراة والقرآن .

وقيل : التوراة والإنجيل ، أو موسى وهارون جعلا سحرين على سبيل المبالغة .

﴿ تظاهرا ﴾ : تعاونا .

قرأ الجمهور : تظاهرا : فعلاً ماضياً على وزن تفاعل .

وقرأ طلحة ، والأعمش : اظاهرا ، بهمزة الوصل وشد الظاء ، وكذا هي في حرف عبد الله ، وأصله تظاهرا ، فأدغم التاء في الظاء ، فاجتلبت همزة الوصل لأجل سكون التاء المدغمة .

وقرأ محبوب عن الحسن ، ويحيى بن الحارث الذماري ، وأبو حيوة ، وأبو خلاد عن اليزيدي : تظاهرا بالتاء ، وتشديد الظاء .

قال ابن خالويه : وتشديده لحن لأنه فعل ماض ، وإنما يشدد في المضارع .

وقال صاحب اللوامح : ولا أعرف وجهه .

وقال صاحب الكامل في القراءات : ولا معنى له . انتهى .

وله تخريج في اللسان ، وذلك أنه مضارع حذفت منه النون ، وقد جاء حذفها في قليل من الكلام وفي الشعر ، وساحران خبر مبتدأ محذوف تقديره : أنتما ساحران تتظاهران ؛ ثم أدغمت التاء في الظاهر وحذفت النون ، وروعي ضمير الخطاب .

ولو قرئ : يظاهرا ، بالياء ، حملاً على مراعاة ساحران ، لكان له وجه ، أو على تقدير هما ساحران تظاهرا .

﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ : أي بكل من الساحرين أو السحرين ، ثم أمره تعالى أن

يصدع بهذه الآية ، وهي قوله : ﴿ قل فأتوا ﴾ : أي أنتم أيها المكذبون ، بهذه الكتب التي تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق ، ونهت عن الكفر والنقائص ، ووعد الله عليها الثواب الجزيل .

إن كان تكذيبكم لمعنى ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله ﴾ يهدي أكثر من هدي هذه ، أتبعه معكم .

(24/588)

والضمير في منها عائد على ما أنزل على موسى ، وعلى محمد صلى الله عليهما وسلم ، وتعليق إتيانهم بشرط الصدق أمر متحقق متيقن ، أنه لا يكون ولا يمكن صدقهم ، كما أنه لا يمكن أن يأتوا بكتاب من عند الله يكون أهدى من الكتابين .

ويجوز أن يراد بالشرط التهكم بهم .

وقرأ زيد بن علي : أتبعه ، برفع العين الاستئناف ، أي أنا أتبعه .

﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ ، قال ابن عباس : يريد فإن لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج ، ولم يمكنهم أن يأتوا بكتاب هو أفضل ، والاستجابة تقتضي دعاء ، وهو (صلى الله عليه وسلم) يدعو دائماً إلى الإيمان ، أي فإن لم يستجيبوا لك بعد ما وضح لهم من المعجزات التي

تضمنها كتابك الذي أنزل ، أو يكون قوله : ﴿ فأتوا بكتاب ﴾ ، هو الدعاء إذ هو طلب منهم ودعاء لهم بأن يأتوا به .

ومعلوم أنهم لا يستجيبون لأن يأتوا بكتاب من عند الله ، فاعلم أنه ليس لهم إلا اتباع هوى مجرد ، لا اتباع دليل .

واستجاب : بمعنى أجاب ، ويعدى للداعي باللام ودونها ، كما قال : ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى ﴾ ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ وقال الشاعر :

فلم يستجبه عند ذاك مجيب . . .

فعداه بغير لام .

وقال الزمخشري : هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء وإلى الداعي باللام ، ويحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعي في الغالب ، فيقال : استجاب الله دعاءه ، واستجاب له ، فلا يكاد يقال استجاب له دعاءه .

وأما البيت فمعناه : فلم يستجب دعاء ، على حذف المضاف . انتهى .

﴿ ومن أضل ﴾ : أي لا أحد أضل ، و ﴿ بغير هدى ﴾ : في موضع الحال ، وهذا الحال قيد في اتباع الهوى ، لأنه قد يتبع الإنسان ما يهواه ، ويكون ذلك الذي يهواه فيه هدى من الله ، لأن الأهواء كلها تنقسم إلى ما يكون فيه هدى وما لا يكون فيه هدى ، فلذلك قيد بهذه الحال .

وقال الزمخشري : يعني مخذولاً مخلى بينه وبين هواه .

انتهى ، وهو على طريق الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(25/588)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ ﴾ أي أهلَ مكَّةَ ﴿ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ وهو القرآنُ المنزلُ عليهِ عليهِ الصَّلاة والسَّلام ﴿ قَالُواْ ﴾ تعنُّتاً واقتراحاً ﴿ لَوْلا أُوتِىَ ﴾ يعنونَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ﴿ مِثْلَ مَا أُوتِىَ موسى ﴾ من الكتابِ المنزَّلِ جملةً وأمَّا اليدُ والعَصَا فلا تعلُّقَ لهما بالمقامِ كسائرِ معجزاتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ . قولُه تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِىَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ ردٌّ عليهم وإظهارٌ لكونِ ما قالُوه تعنُّتاً محضاً لا طلباً لما يُرشدهم إلى الحقِّ أي ألم يكفُروا من قبلِ هذا القولِ بما أُوتيَ موسى من الكتابِ كما كفرُوا بهذا الحقِّ . وقولُه تعالى : ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ كُفرِهم المستفادِ من الإنكارِ السَّابقِ وبيانِ كيفيَّتِه . وقولُه تعالى : ﴿ سِحْرَانِ ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هُما يعنونَ ما أُوتي محمدٌ وما أُوتي مُوسى عليهما السَّلام سحرانِ ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ أي تعاوَنا بتصديقِ كلِّ واحدٍ منهُما الآخرَ وذلك أنَّهم بَعثوا رهطاً منهم إلى رؤساءِ اليَهودِ في عيدٍ لهم فسألُوهم عن شأنِه عليه الصَّلاةُ

والسَّلامُ فقالُوا : إنَّا نجدُه في التَّوارةِ بنعتِه وصفتِه فلمَّا رجعَ الرَّهطُ وأخبرُوهم بما قالتِ اليَهودُ قالُوا ذلكَ . وقولُه تعالى : ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ ﴾ أي بكلِّ واحدٍ من الكتابينِ ﴿ كافرون ﴾ تصريحٌ بكفرِهم بهما وتأكيدٌ لكفرِهم المفهومِ من تسميتِهما سحراً وذلك لغايةِ عُتوهم وتمادِيهم في الكفرِ والطُّغيانِ . وقُرِىء ساحرانِ تظاهَرا يعنون مُوسى ومحمَّداً صلَّى الله عليهما وسلم . هذا هُو الذي تستدعيهِ جَزالةُ النَّظمِ الجليلِ فتأمَّلْ ودَعْ عنكَ ما قيلَ وقيلَ . ألا ترى إلى قولِه تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ ممَّا أُوتياه من التَّوراةِ والقُرآنِ وسمَّيتُموهما سحرينِ فإنَّه نصٌّ فيما

(26/588)

ذُكر . وقوله تعالى : ﴿ أَتَّبِعْهُ ﴾ جوابٌ للأمرِ أي إنْ تأتُوا به أتَّبعْهُ ومثلُ هذا الشَّرطِ ممَّا يأتِي من يدلُّ بوضوحِ حُجَّتِه وسُنوحِ محجَّتِه لأنَّ الإتيانَ بما هو أهدى من الكتابينِ أمرٌ بيِّنُ الاستحالةِ فيوسع دائرةَ الكلامِ للتَّبكيتِ والإفحامِ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في أنَّهما سحرانِ مختلقانِ ، وفي إيرادِ كلمةِ إنْ مع امتناعِ صدقِهم نوعُ تهكُّمٍ بهم .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ أي فإنْ لم يفعلُوا ما كلَّفتهم من الإتيانِ بكتابٍ أهدى منهما كقولِه تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ ﴾ وإنَّما عبَّر عنه بالاستجابةِ إيذاناً بأنَّه عليه الصَّلاة

والسَّلام على كمالِ أمنٍ من أمرِه كأنَّ أمرَه عليه الصَّلاة والسَّلام لهم بالإتيانِ بما ذُكر دعاءٌ لهم إلى أمرٍ يريدُ وقوعَه . والاستجابةُ تتعدَّى إلى الدُّعاءِ بنفسِه وإلى الدَّاعِي باللامِ فيحذف الدُّعاء عندَ ذلكَ غالباً ، ولا يكادُ يقال : استجابَ اللهُ له دعاءَه ﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ ﴾ الزَّائغةَ من غيرِ أنْ يكونَ لهم متمسَّكٌ ما أصلاً إذ لو كان لهم ذلكَ لأَتَوا به ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ للنَّفيِ أيْ لا أضلَّ ممَّن اتَّبع هواهُ ﴿ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ أي هو أضلُّ من كلِّ ضالَ وإنْ كانَ ظاهرُ السَّبكِ لنفيِ الأصلِ لا لنفيِ المُساوي كما هُو في نظائرِه مراراً . وتقييدُ اتِّباعِ الهَوَى بعدمِ الهُدى من اللهِ تعالى لزيادةِ التَّقريعِ والإشباعِ في التَّشنيعِ والتَّضليلِ وإلا فمقارنتُه لهدايتِه تعالى بينةُ الاستحالةِ ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ الذين ظلمُوا أنفسَهم بالانهماكِ في اتباعِ الهَوَى والإعراضِ عن الآياتِ الهاديةِ إلى الحقِّ المُبينِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(27/588)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ ﴾

أي أولئك القوم ، والمراد بهم هنا أهل مكة الموجودون عند البعثة وضمائر الجمع الآتية كلها

راجعة إليهم .

﴿ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ أي الأمر الحق وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُواْ ﴾ تعنتا واقتراحاً ﴿ لَوْلا أُوتِىَ ﴾ يعنونه عليه الصلاة والسلام ﴿ مِثْلَ مَا أُوتِىَ موسى ﴾ عليه السلام من الكتاب المنلز جملة وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِىَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ رد عليهم وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ متعلق بيكفروا وتعلقه بأوتي لا يظهر له وجه لائح إذ هو تقييد بلا فائدة لأنه معلوم أن ما أوتي موسى عليه السلام من قبل محمد صلى الله عليه وسلم أو من قبل هؤلاء الكفرة .

نعم أمر الرد عليه على حاله أي ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتي موسى عليه السلام كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الإنكار السابق وبيان كيفيته وقوله تعالى : ﴿ سِحْرَانِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هما يعنون ما أوتي نبينا وما أوتي موسى عليهما الصلاة والسلام سحران ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ أي تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وتأييده إياه ، وذلك أن أهل مكة بعثوا رهطاً منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا : إن نجده في التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ ﴾ أي بكل واحد من الكتابين ﴿ كافرون ﴾ تصريح

بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحراً وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في الكفر والطغيان .

وقرأ الأكثرون ﴿ ساحران ﴾ وأراد الكفرة بهما نبينا وموسى عليهما الصلاة والسلام .

وقرأ طلحة .

(28/588)

والأعمش ﴿ الظاهرا ﴾ بهمزة الوصل وشد الظاء وكذا هي في حرف عبد الله وأصله تظاهراً فلما قلبت التاء ظاء وأدغمت سكنت فاجتلبت همزة الوصل ليبتدأ بالساكن .

وقرأ محبوب عن الحسن .

ويحيى بن الحرث الذماري .

وأبو حيوة .

وأبو خلاد عن اليزيدي تظاهراً بالتاء وتشديد الظاء .

قال ابن خالويه : وتشديده لحن لأنه فعل ماض وإنما يشدد في المضارع .

وقال صاحب اللوامح : لا أعرف وجهه .

وقال صاحب الكامل في القراآت لا معنى له .

وخرج ذلك أبو حيان على أنه مضارع حذفت منه النون بدون ناصب أو جازم ، وجاء حذفها كذلك في قليل من الكلام وفي الشعر ، و﴿ ساحران ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، وأصل الكلام أنتما ساحران تتظاهران فحذف أنتما وأدغمت التاء في الظاء وحذفت النون وروعي الخطاب ولو قرىء يظاهرا بالياء حملاً على مراعاة ساحران أو على تقديرهما لكان له وجه وكأنهم خاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وأرادوه وموسى عليهما الصلاة والسلام بأنتما على سبيل التغليب ، هذا وتفسير الآية بما ذكر مما لا تكلف فيه ولعله هو الذي يستدعيه جزالة النظم الجليل ويقتضيه اقتضاء ظاهر قوله تعالى :

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾

أي مما أوتياه من القرآن والتوراة ﴿ أَتَّبِعْهُ ﴾ أي إن تأتوا به أتبعه فالفعل مجزوم بجواب الأمر ومثل هذا الشرط يأتي به من يدل بوضوح حجته لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإلزام وإيراد كلمة ﴿ إن ﴾ في قوله تعالى :

﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي في أنهما سحران مختلقان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم ، وقرأ زيد بن علي أتبعه بالرفع على الاستئناف أي أنا أتبعه .

(29/588)

وقال الزمخشري : الحق الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات يعني أن المقام مقام أن يقال فلما جاءهم أي الرسول أو فلما جاءهم الرسول لكن عدل عن ذلك لإفادة تلك المعاني وما أوتي موسى بما هو أعم من الكتاب المنزل جملة واحدة واليد والعصا وغيرهما من آياته عليه السلام ، وتعقب بأنه لا تعلق للمعجزات من اليد ونحوها بالمقام وكذا لا تعلق لغير القرآن من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم به ويرشد إلى ذلك ظاهر قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ ﴾ الخ .

وجوز أن يكون ضميراً جَاءهُمُ و﴿ قَالُواْ ﴾ [القصص : 48] اجعين إلى أهل مكة الموجودين وضمير ﴿ يَكْفُرُواْ ﴾ وكذا ضمير ﴿ قَالُواْ ﴾ في الموضعين راجع إلى جنس الكفرة المعلوم من السياق والمراد بهم الكفرة الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام و﴿ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص : 48] متعلق بيكفروا لا بأوتي لعدم ظهور الفائدة والمراد بسحرين أو ساحران موسى وهارون عليهما السلام كما روي عن مجاهد ، واطلاق سحرين عليهما للمبالغة أو هو بتقدير ذوا سحرين ، والمعنى أو لم يكفر أبناء جنسهم من قبلهم بما أوتي موسى عليه السلام كما كفروا هم بما أوتيته وقال أولئك الكفرة هما أي موسى وهارون سحران أو ساحران تظاهرا ، وقيل : يجوز أن تكون الضمائر راجعة إلى الموجودين والكفر والقول المذكور لأولئك السابقين حقيقة وإسنادهما إلى الموجودين مجازي لما بين الطائفتين من الملابسة .

وقيل بناء على ما روي عن الحسن : من أنه كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام إن المعنى أو لم يكفر آباؤهم من قبل أن يرسل محمد صلى الله عليه وسلم بما أوتي موسى قالوا هما أي موسى وهارون سحران أو ساحران تظاهرا فهو على أسلوب ﴿ وَإِذْ نجيناكم مّنْ ءالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة : 49] ونحوه ويفيد الكلام عليه أن قدمهم في الكفر من الرسوخ بمكان ، ولهم في العناد عرق أصيل وكون العرب لهم أصل في أيام موسى عليه السلام مما لا شبهة فيه حتى قيل : إن فرعون كان عربياً من أولاد عاد لكن في حسن تخريج الآية على ذلك كلام ، وأنت تعلم أن كل هذه الأوجه ليست مما ينشرح له الصدر وفيها من التكلف ما فيها .

وادعى أبو حيان ظهور رجوع ضمير ﴿ يكفروا ﴾ [القصص : 48] وكذا ضمير قالوا إلى قريش الذين قالوا ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] وأن نسبة ذلك إليهم لما أن تكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم تكذيب لموسى عليه السلام ونسبتهم السحر للرسول نسبتهم إياه لموسى وهارون عليهما السلام إذ الأنبياء عليهم السلام من واد واحد فمن نسب إلى أحد منهم ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميعهم فلا يحتاج إلى توسيط

حكاية الرهط في أمر النسبة ، وعليه يجوز أن يراد بكل كل واحد من الأنبياء عليهم السلام ، ولا يخفى أن ما ادعاه من ظهور رجوع الضمير إلى ما ذكر أمر مقبول عند منصفي ذوي العقول ، لكن توجيه نسبة الكفر والقول المبين لكيفيته مما ذكر مما يبعد قبوله ، وكأنه إنما احتاج إليه لعدم ثبوت حكاية الرهط عنده ، وعن قتادة أنه فسر السحران بالقرآن والإنجيل ؛ والساحر أن بمحمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام وجعل ذلك القول قول أعداء الله تعالى اليهود ، وتفسير الساحرين بذلك مروي عن الحسن ، وروي عنه أيضاً أنه فسرهما بموسى وعيسى عليهما السلام والكل كما ترى ، وتفسيرهما بمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام مما رواه البخاري في تاريخه وجماعة عن ابن عباس .

(31/588)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصم الجحدري أنه كان يقرأ سحران ويقول هما كتابان الفرقان والتوراة ألا تراه سبحانه يقول : ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ . ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ أي فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب أهدى منهما ، وإنما عبر عنه بالاستجابة إيذاناً بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره ، كان أمره صلى الله عليه وسلم لهم بالاتيان بما ذكر دعاء لهم إلى أمر يريد وقوعه .

وقيل : المراد فإن لم يستجيبوا دعاءك إياهم إلى الإيمان بعد ما وضح لهم من المعجزات التي تضمنها كتابك الذي جاءهم فالاستجابة على ظاهرها لأن الإيمان أمر يريد صلى الله عليه وسلم حقيقة وقوعه منهم وهي كما في البحر بمعنى الإجابة وتتعدى إلى الداعي باللام كما في هذه الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فاستجاب لَهُ رَبُّهُ ﴾ [يوسف : 34] ، وقوله سبحانه : ﴿ فاستجبنا لَهُ ﴾ [الأنبياء : 76] وبنفسها كما في بيت الكتاب :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا . . .

فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وقال الزمخشري : هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ويحذف الدعاء إذا عدي إلى الداعي في الغالب فيقال : استجاب الله تعالى دعاءه أو استجاب له ولا يكاد يقال : استجاب له دعاءه ، وقوله في البيت فلم يستجبه على حذف مضاف أي فلم يستجب دعاءه انتهى ، ولو جعل ضمير يستجبه للدعاء المفهوم من داع لم يحتج إلى تقدير ، وجعل المفعول هنا محذوفاً لذكر الداعي ، ووجهه على ما قيل : أنه مع ذكر الداعي والاستجابة يتعين أن المفعول الدعاء فيصير ذكره عبثاً ، وجوز كون الحذف للعلم به من فعله لا لأنه ذكر الداعي ، وهذا حكم الاستجابة دون الإجابة لقوله تعالى : ﴿ أجيبو داعي الله ﴾ [الأحقاف : 31]

﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ ﴾ الزائغة من غير أن يكون لهم متمسك ما أصلا إذا لو كان لهم ذلك لأتوا به ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ ﴾ استفهام إنكاري للنفي أي لا أضل ممن اتبع هواه ﴿ بِغَيْرِ هُدًى مّنَ الله ﴾ أي هو أضل من كل ضال وإن كان ظاهر السبك لنفي الأضل لا لنفي المساوي كما مر في نظائره مراراً ، وقوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ هُدًى ﴾ في مضوع الحال من فاعل اتبع ، وتقييد الاتباع بذلك لزيادة التقرير والإشباع في التشنيع والتضليل وإلا فمقارنته لهدايته تعالى بينة الاستحالة ، وقيل : للاحتراز عما يكون فيه هدى منه تعالى فإن الإنسان قد يتبع هواه ويوافق الحق ، وفيه بحث ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم فانهمكوا في اتباع الهوى والاعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(33/588)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾

الفاء فصيحة كالفاء في قول عباس بن الأحنف:

قالوا خراسان أقصى ما يُراد بنا . . .

ثم القفول فقد جئنا خراسانا

وتقدير الكلام : فإن كان من معذرتهم أن يقولوا ذلك فقد أرسلنا إليهم رسولاً بالحق فلما جاءهم الحق لفقوا المعاذير وقالوا : لا نؤمن به حتى نؤتى مثل ما أوتي موسى .

و﴿ الحق ﴾ : هو ما في القرآن من الهدى .

وإثبات المجيء إليه استعارة بتشبيه الحق بشخص وتشبيه سماعه بمجيء الشخص ، أو هو مجاز عقلي وإنما الجائي الرسول الذي يبلغه عن الله ، فعبر عنه بالحق لإدماج الثناء عليه في ضمن الكلام .

ولما بهرتهم آيات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجدوا من المعاذير إلا ما لقنهم اليهود وهو أن يقولوا : ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ ، أي بأن تكون آياته مثل آيات موسى التي يقصها عليهم اليهود وقص بعضها القرآن .

وضمير ﴿ يكفروا ﴾ عائد إلى القوم من قوله ﴿ لتنذر قوماً ﴾ [القصص : 46] لتتناسق الضمائر من قوله ﴿ ولولا أن تصيبهم ﴾ [القصص : 47] وما بعده من الضمائر أمثاله .

فيشكل عليه أن الذين كفروا بما أوتي موسى هو قوم فرعون دون مشركي العرب فقال بعض المفسرين هذا من إلزام المماثل بفعل مثيله لأن الإشراك يجمع الفريقين فتكون أصول تفكيرهم

واحدة ويتحد بهتانهم ، فإن القبط أقدم منهم في دين الشرك فهم أصولهم فيه والفرع يتبع أصله ويقول بقوله ، كما قال تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ [الذاريات : 52 - 53] أي متماثلون في سبب الكفر والطغيان فلا يحتاج بعضهم إلى وصية بعض بأصول الكفر .

(34/588)

وهذا مثل قوله تعالى ﴿ غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيغلبون ﴾ [الروم : 2 - 3] ثم قال ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ [الروم : 4 - 5] أي بنصر الله إياهم إذ نصر المماثلين في كونهم غير مشركين إذ كان الروم يومئذ على دين المسيح .

فقولهم ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ من باب التسليم الجدلي ، أو من اضطرابهم في كفرهم فمرة يكونون معطلين ومرة يكونون مشترطين .

والوجه أن المشركين كانوا يجحدون رسالة الرسل قاطبة .

وكذلك حكاية قولهم ﴿ ساحران تظاهرا ﴾ من قول مشركي مكة في موسى وهارون لما سمعوا قصتهما أو في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

وهو الأظهر وهو الذي يلتئم مع قوله بعده ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ﴾ [القصص : 48 49] .

وقرأ الجمهور ﴿ ساحران ﴾ تثنية ساحر .

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿ قالوا سِحْران ﴾ على أنه من الإخبار بالمصدر للمبالغة ، أي قالوا : هما ذوا سحر .

والتظاهر : التعاون .

والتنوين في ﴿ بكل ﴾ تنوين عِوض عن المضاف إليه فيقدر المضاف إليه بحسب الاحتمالين إما بكل من الساحرين ، وإما أن يقدر بكل من ادعى رسالة وهو أنسب بقول قريش لأنهم قالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [الأنعام : 91] .

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49)

أي أجب كلامهم المحكي من قولهم ﴿ ساحران ﴾ [القصص : 48] وقولهم ﴿ إنا بكل كافرون ﴾ [القصص : 48] .

ووصف (كتاب] بـ ﴿ من عند الله ﴾ إدماج لمدح القرآن والتوراة بأنهما كتابان من عند الله .

والمراد بالتوراة ما تشتمل عليه الأسفار الأربعة المنسوبة إلى موسى من كلام الله إلى موسى

أو من إسناد موسى أمراً إلى الله لا كل ما اشتملت عليه تلك الأسفار فإن فيها قصصاً وحوادث ما هي من كلام الله .

(35/588)

فيقال للمصحف هو كلام الله بالتحقيق ولا يقال لأسفار العهدين كلام الله إلا على التغليب إذ لم يدع ذلك المرسلان بكتابي العهد .

وقد تحداهم القرآن في هذه الآية بما يشتمل عليه القرآن من الهدى ببلاغة نظمه .

وهذا دليل على أن مما يشتمل عليه من العلم والحقائق هو من طرق إعجازه كما قدمناه في المقدمة العاشرة .

فمعنى ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ إن لم يستجيبوا لدعوتك ، أي إلى الدين بعد قيام الحجة عليهم بهذا التحدي ، فاعلم أن استمرارهم على الكفر بعد ذلك ما هو إلا اتباع للهوى ولا شبهة لهم في دينهم .

ويجوز أن يراد بعدم الاستجابة عدم الإتيان بكتاب أهدى من القرآن لأن فعل الاستجابة يقتضي دعاء ولا دعاء في قوله ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ﴾ بل هو تعجيز ، فالتقدير : فإن عجزوا ولم يستجيبوا لدعوتك بعد العجز فاعلم أنما يتبعون

أهواءهم ، أي لا غير .

واعلم أن فعل الاستجابة بزيادة السين والتاء يتعدى إلى الدعاء بنفسه ويتعدى إلى الداعي باللام ، وحينئذ يحذف لفظ الدعاء غالباً فقلما قيل : استجاب الله له دعاءه ، بل يقتصر على : استجاب الله له ، فإذا قالوا : دعاه فاستجابه كان المعنى فاستجاب دعاءه .

وهذا كقوله ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾ في سورة [هود : 14] .

و ﴿ أنما ﴾ المفتوحة الهمزة تفيد الحصر مثل (إنما) المكسورة الهمزة لأن المفتوحة الهمزة فرع عن المكسورتها لفظاً ومعنى فلا محيص من إفادتها مفادها ، فالتقدير فاعلم أنهم ما يتبعون إلا أهواءهم .

وجيء بحرف (إن) الغالب في الشرط المشكوك على طريقة التهكم أو لأنها الحرف الأصلي .

وإقحام فعل ﴿ فاعلم ﴾ للاهتمام بالخبر الذي بعده كما تقدم في قوله تعالى ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ في سورة [الأنفال : 24] .

(36/588)

وقوله ﴿ أتبعه ﴾ جواب ﴿ فأتوا ﴾ أي إن تأتوا به أتبعه ، وهو مبالغة في التعجيز لأنه إذا وعدهم بأن يتبع ما يأتون به فهو يتبعهم أنفسهم وذلك مما يوفر دواعيهم على محاولة الإتيان بكتاب أهدى من كتابه لو استطاعوه فإن لم يفعلوا فقد حق عليهم الحق ووجبت عليهم المغلوبية فكان ذلك أدل على عجزهم وأثبت في إعجاز القرآن .

وهذا من التعليق على ما تحقق عدم وقوعه ، فالمعلق حينئذ ممتنع الوقوع كقوله ﴿ قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين ﴾ [الزخرف : 81] .

ولكونه ممتنع الوقوع أمر الله رسوله أن يقوله .

وقد فهم من قوله ﴿ فإن لم يستجيبوا ﴾ ومن إقحام ﴿ فاعلم ﴾ أنهم لا يأتون بذلك البتة وهذا من الإعجاز بالإخبار عن الغيب .

وجاء في آخر الكلام تذييل عجيب وهو أنه لا أحد أشد ضلالاً من أحد اتبع هواه المنافي لهدى الله .

و ﴿ من ﴾ اسم استفهام عن ذات مبهمة وهو استفهام الإنكار فأفاد الانتفاء فصار معنى الاسمية الذي فيه في معنى نكرة في سياق النفي أفادت العموم فشمل هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم وغيرهم .

وبهذا العموم صار تذييلاً وهو كقوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ في سورة [البقرة : 140] .

وأطلق الاتباع على العمل بما تمليه إرادة المرء الناشئة عن ميله إلى المفاسد والأضرار تشبيهاً للعمل بالمشي وراء السائر ، وفيه تشبيه الهوى بسائر ، والهوى مصدر لمعنى المفعول كقول جعفر بن عُلبة :

هواي مع الركب اليمانين مصعد

وقوله ﴿ بغير هدى من الله ﴾ الباء فيه للملابسة وهو في موضع الحال من فاعل ﴿ اتبع هواه ﴾ وهو حال كاشفة لتأكيد معنى الهوى لأن الهوى لا يكون ملابساً للهدى الرباني ولا صاحبه ملابساً له لأن الهدى يرجع إلى معنى إصابة المقصد الصالح .

وجعل الهدى من الله لأنه حق الهدى لأنه وارد من العالم بكل شيء فيكون معصوماً من الخلل والخطأ .

(37/588)

ووجه كونه لا أضل منه أن الضلال في الأصل خطأ الطريق وأنه يقع في أحوال متفاوتة في عواقب المشقة أو الخطر أو الهلاك بالكلية ، على حسب تفاوت شدة الضلال .

واتباع الهوى مع إلغاء إعمال النظر ومراجعته في النجاة يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضرّ بدون تحديد ولا انحصار .

فلا جرم يكون هذا الاتباع المفارق لجنس الهدى أشد الضلال فصاحبه أشد الضالين ضلالاً .

ثم ذيل هذا التذييل بما هو تمامه إذ فيه تعيين هذا الفريق المبهم الذي هو أشد الضالين ضلالاً فإنه الفريق الذين كانوا قوماً ظالمين ، أي كان الظلم شأنهم وقوام قوميتهم ولذلك عبر عنهم بالقوم .

والمراد بالظالمين : الكاملون في الظلم ، وهو ظلم الأنفس وظلم الناس ، وأعظمه الإشراك وإتيان الفواحش والعدوان ، فإن الله لا يخلق في نفوسهم الاهتداء عقاباً منه على ظلمهم فهم باقون في الضلال يتخبطون فيه ، فهم أضل الضالين ، وهم مع ذلك متفاوتون في انتفاء هدى الله عنهم على تفاوتهم في التصلب في ظلمهم ؛ فقد يستمر أحدهم زماناً على ضلاله ثم يقدر الله له الهدى فيخلق في قلبه الإيمان .

ولأجل هذا التفاوت في قابلية الإقلاع عن الضلال استمرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم للإيمان في عموم المدعوين إذ لا يعلم إلا الله مدى تفاوت الناس في الاستعداد لقبول الهدى ، فالهدى المنفي عن أن يتعلق بهم هنا هو الهدى التكويني .

وأما الهدى بمعنى الإرشاد فهو من عموم الدعوة .

وهذا معنى قول الأيمة من الأشاعرة أن الله يخاطب بالإيمان من يعلم أنه لا يؤمن مثل أبي جهل لأن التعلق التكويني غير التعلق التشريعي .

وبين ﴿ هواه ﴾ و ﴿ هدى ﴾ جناس محرف وجناس خط . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(38/588)

وقال الشيخ الشعراوى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا . . . ﴾ [القصص : 48]

أي : الرسول الذي طلبوه ﴿ قَالُواْ لولا أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ موسى . . . ﴾ [القصص : 48] سبحان الله ، إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً ، لقد طلبتم مجرد الرسول ولم تطلبوا معه معجزة معينة فقلتم : ﴿ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً . . . ﴾ [القصص : 47] والآن تطلبون آيات حِسيّة كالتي أرسل بها موسى من قبل .

والمتأمل يجد أن الآيات قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانت آيات حِسيّة كونية ، مثل سفينة نوح عليه السلام ، وناقة صالح عليه السلام ، وعصا موسى عليه السلام ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام . وهذه كلها معجزات حسية تنتهي بانتهاء وقتها ، فهي مناسبة للرسل المحدودي الزمن ، والمحدودي المكان .

أما الرسول الذي أُرسِلَ للناس كافَّة في الزمان وفي المكان ، فلا تناسبه الآية الحسيّة الوقتَية ؛ لأنها ستكون معجزة لزمانها ، وتظل العصور فيما بعد بلا معجزة ، لذلك جاء الحق – تبارك وتعالى – على يد محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة باقية خالدة محفوظة بحِفْظ الله إلى يوم القيامة .

وقلنا : إن الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم كان الرسول يأتي بمعجزة تثبت صِدْق بلاغه عن الله ، ومعه كتاب يحمل منهجه ، فالكتاب غير المعجزة ، أما محمد صلى الله عليه وسلم فجاءت معجزته هي عَيْن الكتاب والمنهج الذي أُرسِل به ليظل الدليل على صِدْقه باقياً مع المنهج الذي يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله معجزته هي عَيْن الكتاب والمنهج الذي أُرسل به ليظل الدليل على صِدقْه باقياً مع المنهج الذي يطالب الناس به ، وإلى أن تقوم الساعة نظل نقول : محمد رسول الله وهذه معجزته .

(39/588)

أمَّا إخوانه من الرسل السابقين فنقول فلان ، وكانت معجزته كذا على سبيل الإخبار ، والخبر يحتمل الصِّدْق ويحتمل الكذب .

وقد صدّقنا بهذه المعجزات كلها ؛ لأن الله أخبرنا بها في القرآن الكريم ، فللقرآن الذي جاء معجزة ومنهجاً الفضل في إبقاء هذه المعجزات ؛ لأنه أخبر بها وخلَّد ذكرها .

ثم يرد الله عليهم : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ . . . ﴾ [القصص : 48]

ثم يحكي ما قالوا عن معجزة موسى ، وعن معجزة محمد ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا . . . ﴾ [القصص : 48] أي : أن موسى جاء بسحر ، ومحمد جاء بسحر آخر ، وقد ﴿ تَظَاهَرَا . . ﴾ [القصص : 48] علينا يعني : تعاونا ، وهي مأخوذة من الظهر كأنك قُلْت : أعطني ظهرك مع ظهري لنحمل الحِمْل معاً ، والظهْر محلُّ الحمل .

والرد على هذا الاتهام يسير ، فمعجزة موسى وإنْ كانت من جنس السحر إلا أنها ليست سحْراً ، فالسحر يُخيِّل لك أن الحبال حية تسعى ، أمّا ما فعله موسى فكان قلب العصا إلى حية حقيقية تسعى وتبتلع سحرهم ، لذلك أُلقي السحرة ساجدين ؛ لأنهم رأوا معجزة ليستْ من جنس ما نبغوا فيه فآمنوا من فورهم .

أما الذين قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم : إنه ساحر فالردُّ عليهم بسيط : فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً كما سحر المؤمنين به ؟

ثم يؤكدون كفرهم بكل من الرسولين : موسى ومحمد : ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ [القصص : 48] .

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49)

معنى ﴿ قُلْ . . . ﴾ [القصص : 49] أي : في الردّ عليهم ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَآ . . . ﴾ [القصص : 49] أي : أهدى من التوراة التي جاء بها موسى ، وأهدى من القرآن الذي جاء به محمد ما دام أنهما لم يُعجباكم ﴿ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص : 49] يعني : لو جئتُمْ به لاتبعته .

وهذا يعني منهجين : منهج حقٍّ جاء به محمد ، ومنهج باطل يُصرون هم عليه ، وهذا التحدي من سيدنا رسول الله للكفار يعني أنه لا يوجد كتاب أهدى مما جاء به ، لا عند القوم ، ولا عند مَنْ سيأتي من بعدهم ، وحين يُقر لهم رسول الله بإمكانية وجود كتاب أَهْدى من كتابه يطمعهم في طلبه ، فإذا طلبوه لم يجدوا كتاباً أهدى منه ، فيعرفوا هم الحقيقة التي لم ينطق بها رسول الله ، وهل يستطيع بشر أن يضع للناس منهجاً أهدى من منهج الله ؟ إذن : يقول لهم : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [القصص : 49] وهو يعلم أنهم غير صادقين ، لأن الله تعالى جعل محمداً صلى الله عليه وسلم خاتَم الرسل ، فلن يأتي رُسُل بعده ، بحيث يأتي الرسول فتستدركوا عليه فيأتي آخر بكتاب جديد ، وأنتم لن تستطيعوا أنْ تأتوا بكتاب من عند أنفسكم ؛ لأن كل مُقنّن سيأتي الذي يخدم مذهبه ، ويُرضي هواه .

لذلك نقول : ينبغي في المقنِّن ويُشترط فيه :

أولاً : أن يكون على علم واسع ، بحيث لا يُسْتدرك عليه فيما بعد ، وهذه لا تتوفر في أحد من البشر ، بدليل أن القوانين التي وُضِعت في الماضي لم تَعُدْ صالحة الآن ينادي الناس كثيراً بتعديلها ، حيث طرأتْ عليهم مسائل جديدة غابتْ عن ذِهْن المشرِّع الأول ، فلما جدَّتْ هذه المسائل أتعبت البشر بالتجربة ، فَطالبوا بتعديلها .

(41/588)

ثانياً : يشترط في المشرِّع ألاَّ يكون له هوى فيما يُشرِّع للناس ، ونحن نرى الرأسماليين والشيوعيين ، وغيرهم كُلٌّ يشرع بما يخدم مذهبه وطريقته في الحياة ؛ لذلك يجب ألاَّ يُسند التشريع للناس لأحد منهم ؛ لأنه لا يخلو من هوى .

ثالثاً : يُشترَط فيه ألاَّ يكون منتفعاً بشيء مما يشرع .

وإذا اقتضت مسائل الحياة وتنظيماتها أنْ نُقنّن لها ، فلا يُقنِّن لنا من البشر إلا أصحاب العقل الناضج والفكر المستقيم ، بحيث يتوفر لهم نُضْج التقنين ، لكن إلى أنْ يوجد عندهم نضج التقنين أيّ منهج يسيرون عليه ؟

فإنْ حدثتْ فجوة في التشريع عاش الناس بلا قانون ، وإلاَّ فما الذي قنَّنَ لأول مُقنِّن ؟ الذي

قنّن لأول مُقنِّن هو الذي خلق أول مَن خُلق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فاعلم أَنَّمَا . . . ﴾ .

وهذا يعني أن الله تعالى لم يطاوعهم إلى ما أرادوا ، فلم يَأْتِهم بكتاب آخر ، لكن كيف كان سيأتيهم هذا الكتاب ؟ يجيب الحق – تبارك وتعالى – على هذا السؤال بقوله تعالى : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] .

إذن : الكلام عندهم ليس في الكتاب ، إنما فيمن أُنزِل عليه الكتاب ، وهذا معنى : ﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ . . . ﴾ [القصص : 50] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ . . . ﴾ [القصص : 50] يعني لا أضل ﴿ مِمَّنِ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله . . . ﴾ [القصص : 50] أي : أتبع هوى نفسه ، أما إنْ وافق هواه هوى المشرِّع ، فهذا أمر محمود أوضحه رسول الله في الحديث الشريف : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " .

(42/588)

فنحن في هذه الحالة لا نتبع الهوى إنما نتبع الشرع ؛ لذلك يقول أحد الصالحين الذين أفنوا عمرهم في الطاعة والعبادة : اللهم إنِّي أخشى ألاَّ تثيبني على طاعتي ؛ لأنك أمرتنا أنْ

نحارب شهوات أنفسنا ، وقد أصبحت أحب الطاعة حتى صارت شهوة عندي .

وأضلُّ الضلال أن يتبع الإنسان هواه ؛ لأن الأهواء متضاربة في الخَلْق تضارب الغايات ، لذلك المتقابلات في الأحداث موجودة في الكون .

وقد عبَّر المتنبي عن هذا التضارب ، فقال :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغي الحياةَ لنفسهِ . . . حَرِيصاً عَليها مُسْتهاماً بها صبَّا

فحبُّ الجبانِ النفس أوردَهُ التقى . . . وحُبُّ الشجاع النفسَ أَوردَهُ الحَربَا

فنحن جميعاً نحب الحياة ونحرص عليها ، لكن تختلف وسائلنا ، فالجبان لحبه الحياة يهرب من الحرب ، والشجاع يُلقي بنفسه في معمعتها مع أنه مُحِبٌّ للحياة ، لكنه محب لحياة أخرى أبقى ، هي حياة الشهيد .

وآخر يقول :

كُلُّ مَنْ في الوُجودِ يطلبُ صَيْداً . . . غير أنَّ الشباك مُختلِفَات

فالرجل الذي يتصدق بما معه رغم حاجته إليه ، لكنه رأى مَنْ هو أحوج منه ، وفيه قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . ﴾ [الحشر : 9] .

نقول : هذا آثر الفقير على نفسه ، لكنه من ناحية أخرى يبغي الأجر ويطمع في عَشْرة أمثال ما أنفق ، بل يطمع في الجنة ، إذن : المسألة فيها نفعية ، فالدين عند المحققين أنانية ، لكنها أنانية رفيعة راقية ، ليست أنانية حمقاء ، الدين يرتقي بصاحبه ، ويجعله إيجابياً نافعاً

للآخرين ، ولا عليه بعد ذلك أن يطلب النفع لنفسه .

فالشرع حين يقول لك : لا تسرق . وحين يأمرك بغضِّ بصرك ، وغير ذلك من أوامر الشرع ، فإنما يُقيِّد حريتك وأنت واحد ، لكن يُقيِّد من أجلك حريات الآخرين جميعاً ، فقد أعطاك أكثر مما أخذ منك ، فإذا نظرت إلى ما أخذ منك باتباعك للمنهج الإلهي فلا تَنْسَ ما أعطاك .

(43/588)

لذلك حين " تتأمل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج داءات النفوس حينما أتاه شاب من الأعراب الذين آمنوا ، يشتكي إليه ضَعْفه أمام النساء ، وقلة صبره على هذه الشهوة ، حتى قال له : يا رسول الله ائذن لي في الزنا ، ومع ذلك لم ينهره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل علم أنه أمام مريض يحتاج إلى مَنْ يعالجه ، ويستل من نفسه هذه الثورة الجامحة ، خاصة وقد صارح رسول الله بما يعاني فكان صادقاً مع نفسه لم يدلس عليها .

لذلك أدناه رسول الله ، وقال له : يا أخا العرب ، أتحب ذلك لأمك ؟ أتحب ذلك لزوجتك ؟ أتحب ذلك لأختك ؟ أتحب ذلك لابنتك ؟ والشاب في كل هذا يقول : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِداك .

عندها قال صلى الله عليه وسلم : "كذلك الناس يا أخا العرب لا يحبون ذلك لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لأخواتهم ولا لبناتهم" .

فانصرف الشاب وهو يقول : والله ما شيء أبغض إليَّ من الزنا بعد ما سمعتُ من رسول الله ، وكلما هَمَّتْ بي شهوة ذكرتُ قول رسول الله في أمي ، وزوجتي ، وأختي ، وابنتي .

فالذي يُجرِّيء الناس على المعصية والولوع بها عدم استحضار العقوبة وعدم النظر في العواقب ، وكذلك يزهدون في الطاعة لعدم استحضار الثواب عليها .

وسبق أن قلنا لطلاب الجامعة : هَبُوا أن فتى عنده شَرَه جنسي ، فهو شرهٌ منطلق يريد أنْ يقضي شهوته في الحرام ، ونريد له أن يتوب فقلنا له : سنوفر لك كل ما تريد على أنْ تُلقي بنفسك في هذا (الفرن) بعد أن تُنهي ليلتك كما تحب ، ماذا يصنع ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [القصص : 50] وفي مواضع أخرى : ﴿ لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 108] ، ﴿ لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 264] ، وكلها دلَّتْ على أن الله لا يصنع عدم الهداية والتقوى – وإلاَّ فقد هدى الله الجميع هداية الدلالة والإرشاد فلم يأخذ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(44/588)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾

أخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أهلك الله قوماً ولا قرناً ولا أمة ، ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة . ألم تر إلى قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ وأخرجه البزار وابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عن أبي سعيد موقوفاً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ بصائر للناس ﴾ قال : بَيِّنَةٌ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : البصائر ، الهدى . بصائر ما في قلوبهم لذنوبهم .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ قال : جانب غربي الجبل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ وما كنت ثاوياً ﴾ قال : الثاوي ، المقيم .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ

قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

أخرج الفريابي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال : نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، واستجبت لكم قبل أن تدعوني . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً .

(45/588)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال " إن رب العزة نادى يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي " ثم أنزل هذه الآية في سورة موسى وفرعون ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل وأبو نصر السجزي في الابانة والديلمي عن عمرو بن عبسة قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك ﴾ ما كان النداء ؟ وما كانت الرحمة ؟ قال " كتاب كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى : يا أمة محمد سبقت رحمتي غضبي ، أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، فمن لقيني

منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً أدخلته الجنة " .

وأخرج الحلي في الديباج عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً ، مثله .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته قبل أن يسألني . وذلك في قوله ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال : نودوا يا أمة محمد ما دعوتمونا إلا استجبنا لكم ، ولا سألتمونا إلا أعطيناكم " .

(46/588)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لما قرب الله موسى إلى طور سينا نجيا قال : أي رب هل أحد أكرم عليك مني ؟ قربتني نجيا ، وكلمتني تكليماً ، قال : نعم . محمد أكرم علي منك . قال : فإن كان محمد أكرم عليك مني فهل أمة محمد أكرم من بني إسرائيل ؟ فلقت لهم البحر ، وأنجيتهم من فرعون وعمله ، وأطعمتهم المن والسلوى . قال : نعم . أمة محمد أكرم علي من بني إسرائيل . قال : إلهي أرنيهم قال : إنك لن تراهم ، وإن شئت أسمعتك صوتهم . قال : نعم . إلهي فنادى ربنا : أمة محمد أجيبوا ربكم ، فاجابوا وهم في أصلاب آبائهم ، وأرحام امهاتهم إلى يوم القيامة .

فقالوا : لبيك . . . أنت ربنا حقاً ، ونحن عبيدك حقاً ، قال : صدقتم ، وأنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً قد غفرت لكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أراد أن يمن عليه بما اعطاه وبما أعطى امته فقال : يا محمد ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نصر السجزي في الابانة عن مقاتل ﴿ وما كنت بجانب الطور ﴾ يقول : وما كنت أنت يا محمد بجانب الطور إذ نادينا أمتك وهم في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال : إذ نادينا موسى ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي مما قصصنا عليك .

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

(47/588)

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " " الهالك في الفترة يقول : رب لم يأتني كتاب ولا رسول . ثم قرأ هذه الآية ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ قال : هم أهل الكتاب . يقول بالكتابين التوراة والفرقان فقال الله ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ قال : يهود تأمر قريشاً أن تسأل محمداً ﴿ مثل ما أوتي موسى . . . من قبل ﴾ يقول الله لمحمد : قل لقريش يقولون لهم ﴿ أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا ﴾ قال : قول يهود لموسى وهارون ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ قال : يهود تكفر أيضاً بما أوتي محمد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ قال : من قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الطبراني عن ابن الزبير رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ قال : موسى وهارون .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ " ساحران تظاهرا " بالألف قال : يعني موسى ومحمداً عليهما السلام .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ سحران تظاهرا ﴾ قال : هما كتابان .

(48/588)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ يقول : التوراة والفرقان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ قالوا ساحران تظاهرا ﴾ قال : التوراة والفرقان حين صدق كل واحد منهما صاحبه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عاصم الجحدري أنه كان يقرأ ﴿ سحران تظاهرا ﴾ يقول : كتابان التوراة والفرقان . ألا تراه يقول ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه قال : لو كان يريد النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ﴾ إنما أراد الكتابين .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن أبي رزين رضي الله عنه أنه كان يقرأها ﴿ سحران تظاهرا ﴾ يقول : كتابان التوراة والإِنجيل .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ قال : ذلك اعداء الله اليهود للإِنجيل والقرآن قال : ومن قرأها " ساحران " يقول : محمد وعيسى .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الكريم أبي أمية قال : سمعت عكرمة يقول ﴿ سحران ﴾ فذكرت ذلك لمجاهد فقال : كذب العبد قرأتها على ابن عباس " ساحران " فلم يُعِبْ علي .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن مجاهد قال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما وهو بين الركن والباب والملتزم وهو متكىء على يدي عكرمة فقلت : أسحران تظاهرا ، أم ساحران ؟ فقلت ذلك مراراً فقال عكرمة " ساحران تظاهرا " اذهب أيها الرجل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ يقول : بالتوراة والقرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ قال : الذي جاء به موسى ، والذي جاء به عيسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(49/588)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾

قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ : إمَّا أَنْ يتعلَّقَ بيَكْفروا ، أو ب " أُوْتِي " أي : مِنْ قبلِ ظهورِك .

قوله : ﴿ سِحْرَانِ ﴾ قرأ الكوفيون " سِحْران " أي : هما . أي : القرآن/ والتوراة ، أو موسى وهارون وذلك على المبالغةِ ، جعلوهما نفسَ السِّحْرِ ، أو على حَذْفِ مضافٍ أي : ذَوا سِحْرَيْن . ولو صَحَّ هذا لكانَ يَنبغي أن يُفْرَدَ " سِحْر " ولكنه ثُنِّيَ تنبيهاً على التنويع . وقيل : المرادُ موسى ومحمدٌ عليهما السلام أو التوراةُ والإنجيلُ . والباقون " ساحران " أي : موسى وهارون أو موسى ومحمدٌ كما تقدَّم .

قوله : ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ العامَّةُ على تخفيفِ الظاءِ فعلاً ماضياً صفةً ل " سِحْران " أو " ساحران " أي : تَعاوَنا . وقرأ الحسن ويحيى بن الحارث الذِّماري وأبو حيوة واليزيدي

بشديدِها . وقد لحَّنهم الناسُ . قال ابن خالويه : " تشديدُه لَحْنٌ ؛ لأنه فعلٌ ماضٍ . وإنما يُشَدَّد في المضارع " . وقال الهُذَلي : " لا معنى له " وقال أبو الفضل : " لا أعرفُ وجهَه " .

وهذا عجيبٌ من هؤلاءِ وقد حُذِفَتْ نونُ الرفع في مواضعَ ، حتى في الفصيح ، كقولِه عليه السلام : " لا تَدْخلوا الجنةَ حتى تؤْمِنوا ولا تُؤْمنوا حتى تحابُّوا " ولا فرقَ بين كونِها بعد واوٍ وألفٍ أو ياءٍ ، فهذا أصلُه " تَتَظاهران " فأُدْغِم وحُذِفت نونُه تخفيفاً .

وقرأ الأعمش وطلحة وكذا في مصحف عبد الله " اظَّاهَرا " بهمزةِ وصلٍ وشدِّ الظاءِ ، وأصلُها " تَظاهرا " كقراءةِ العامةِ ، فلمَّا أُريد الإدغامُ سَكَّنْتَ الأولَ فاجْتُلِبَتْ همزةُ الوصل .

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49)

(50/588)

قوله : ﴿ أَتَّبِعْهُ ﴾ : جوابُ الأمرِ وهو " فَأْتُوا " . " منهما " أي : من التوراةِ والقرآنِ ، وهو مؤيدٌ لقراءة " سِحْران " ، أو مِنْ كتابَيْهِما على حذف مضافٍ ، وهو مؤيد لقراءةِ " ساحِران " . وزيد بن علي " أَتَّبعُه " بالرفع استئنافاً أي : فأنا أَتَّبعُه .

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

[قوله] : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ : استجاب بمعنى أجاب . قال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما الفرقُ بين فعلِ الاستجابة في الآيةِ وبينه في قولِه :

3620 . . . . . فلم يَسْتَجِبْه عند ذاك مُجِيْبُ

حيثُ عُدِّيَ بغيرِ لامٍ ؟ قلت : هذا الفعلُ يتعدى إلى الدعاء بنفسِه وإلى الداعي باللام ، ويُحْذَفُ الدعاء إذا عُدِّي إلى الداعي في الغالب ، فيقال : " استجاب اللهُ دعاءَه " أو " استجاب له " ، ولايكاد يُقال : استجاب له دعاءَه . وأمَّا البيتُ فمعناه : فلم يَسْتَجِبْ دعاءَه على حذفِ المضاف " . قلت : قد تقدَّم تقريرُ هذا في البقرة ، وأنَّ استجابَ بمعنى أجاب . والبيتُ الذي أشار إليه هو :

وداعٍ دَعا يا مَنْ يُجيب إلى الندى . . . فلم يَسْتَجِبْه عند ذاك مُجيبُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 682.684 ﴾

(51/588)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى

فلمَّا أتاهم الرسول كُذَبوه ، وقالوا : هلاّ خُصَّ بمثل معجزات موسى في الظهور ، وكان ذلك منهم خطأً ، واقتراحاً في غير موضع الحاجة ، وتَحكُّماً بعد إزاحة العِلّةِ :

وكذا الملول إذا أراد قطيعةً . . . مَلَّ الوصالَ وقال كان وكانا

ثم قال : أفلا تَذْكُرُون كيف كفروا بموسى وأخيه ورموهما بالسحر ؟

وقال : إنْ ارتبتم أنَّ هذا الكتاب من عند الله فَأْتوا بكتابٍ مِثْله ، واستعينوا بشركائكم .

ومِنْ وقته إلى يومنا هذا لم يأتِ أحدٌ بسورة مِثْله ، وإلى القيامة لا يأتون بكتابٍ مثله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 72 ﴾

(52/588)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾

يعني : بِامرأتِهِ ﴿ آنَسَ ﴾ يعني : أبصر ﴿ مِن جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ لِاهْلِهِ امكثوا ﴾ يعني : قفوا مكانكم ﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الاجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ءانَسَ ﴾ أي : خبر الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مّنَ النار ﴾ قرأ عاصم ﴿ جَذْوَةٍ ﴾ بنصب الجيم ، وقرأ حمزة بضم الجيم ، وقرأ الباقون بالكسر ، فهذه لغات معناها واحد ، وهو قطعة من النار .

ويقال : شعلة ، وهو عود قد احترق ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : لكي تصطلوا من البرد ، فترك امرأته في البرية وذهب .

﴿ فَلَمَّا أتاها ﴾ يعني : النار ﴿ نُودِىَ مِن شَاطِىء الوادى الايمان ﴾ يعني : من جانب الواد الأيمن عن يمين موسى عليه السلام ﴿ فِى البقعة المباركة ﴾ يعني : من الموضع المبارك الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام ﴿ مِنَ الشجرة أَن يا موسى موسى إِنّى أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ يعني : الذي يناديك رب العالمين .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقّبْ ﴾ وقد ذكرناه .

قال الله تعالى : ﴿ يُعَقّبْ يا موسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الامنين ﴾ يعني : من الحية يعني : قد آمنت أن ينالك منها مكروه ﴿ اسلك يَدَكَ ﴾ أي : أدخل يدك ﴿ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوء واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ﴾ أي : يدك .

قال بعضهم : هذا ينصرف إلى قوله ولم يعقب من الرهب ، أي : لم يلتفت من الخوف .

ويقال : كان خائفاً ، فأمره بأن يضم يده إلى صدره ، ففعل حتى سكن عن قلبه الرعب .

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿ مِنَ الرهب ﴾ بنصب الراء والهاء ، وقرأ عاصم في رواية حفص بنصب الراء ، وجزم الهاء ، والباقون ﴿ الرهب ﴾ بضم الراء ، وجزم الهاء .

ومعنى ذلك كله واحد ، وهو الخوف .

وقال بعضهم : هو الكريم .

(53/588)

ثم قال : ﴿ فَذَانِكَ برهانان مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني : اليد والعصا آيتان وعلامتان من ربك وحجتان لنبوتك .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو .

﴿ فَذَانِكَ ﴾ بتشديد النون .

وقرأ الباقون بالتخفيف ، وهما لغتان ، وهو الإشارة إلى شيئين .

يقال للواحد : ذلك وذاك ، والاثنين ذانك وذاناك .

﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ ومعناه : أرسلناك إلى فرعون بهاتين الآيتين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ يعني : عاصين ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن

يَقْتُلُونِ ﴾ به ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسَاناً ﴾ يعني : أبين مني لساناً وكانت في لسان موسى عقدة من النار التي أدخلها فاه ﴿ فَأَرْسِلْهِ مَعِيَ رِدْءاً ﴾ أي عوناً ﴿ يُصَدّقُنِي ﴾ يعني : لكي يصدقني ، ويعبر عن كلامي .

قرأ نافع ﴿ رداً ﴾ بغير همز ، والباقون بالهمز ، فمن قرأ بالهمز ، فهو الأصل ، ومن قرأ بغير همز ، فإنما ألقى فتحة الهمزة على الدال ، وليّن الهمزة .

وقرأ عاصم وحمزة ﴿ رِدْءاً يُصَدّقُنِي ﴾ بضم القاف ، والباقون بالجزم ، فمن قرأ بالجزم جعله جواب الأمر ، ومن قرأ بالضم جعله صفة ردءاً أي ردءاً مصدقاً ثم قال : ﴿ إِنّي أَخَافُ أَن يُكَذّبُونِ ﴾ أي فرعون وقومه ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي : نقويك بأخيك ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا ﴾ يعني : حجة ثانية ، وهي اليد والعصا ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بايا تنا ﴾ يعني : لا يقدرون على قتلكما ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ يعني : من آمن بكما الغالبون في الحجة .

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمّا جَاءهُم موسى بآيا تنا بينات ﴾ يعني : جاء إلى فرعون وقومه بعلاما تنا ، وذكر في رواية مقاتل أن فرعون لم يأذن لهما إلى سنة .

(54/588)

وقال في رواية السدي وغيره : أنه لما جاء إلى الباب ، لم يأذن له البواب ، فضرب عصاه على باب فرعون ضربة ، ففزع من ذلك فرعون وجلساؤه ، فدعا البواب وسأله ، فأخبره أن بالباب رجلاً يقول : أنا رسول رب العالمين ، فأذن له .

فدخل فأدى الرسالة وأراهم العلامة .

فقالوا هذا سحر ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعني : ما هذا الذي جئت به إلا كذب مختلق يعني : الذي جئت به ما هو إلا سحر قد اختلقته من ذات نفسك ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بهذا فِى ءابَائِنَا الاولين وَقَالَ مُوسَى ﴾ قرأ ابن كثير بغير واو . وقرأ الباقون بالواو ، فمن قرأ بالواو ، فهو عطف جملة على جملة ، ومن قرأ بغير واو ، فهو استئناف قال موسى : ﴿ رَّبِّى أَعْلَمُ بِمَن جَاء بالهدى مِنْ عِندِهِ ﴾ يعني : أنا جئت بالهدى من عند الله ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ يعني : هو أعلم بمن تكون له الجنة والنار .

ويقال : بمن يكون له عاقبة الأمر والدولة .

قرأ حمزة والكسائي ، ﴿ وَمَنْ يَكُونَ ﴾ بلفظ التذكير وقرأ الباقون ﴿ تَكُونُ ﴾ بلفظ التأنيث .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ يعني : لا يأمن الكافرون من عذابه ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لأهل مصر ﴿ فِرْعَوْنُ يا أيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ فلا تطيعوا موسى وهذه

إحدى كلمتيه التي أخذه الله بهما .

والأخرى .

﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الاعلى ﴾ [النازعات : 24] .

ثم قال : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين ﴾ أي : أوقد النار على اللبن حتى يصير آجراً .

(55/588)

قال مقاتل : وكان فرعون أول من طبخ الآجر وبنى به ﴿ فاجعل لّي صَرْحاً ﴾ أي : قطراً طويلاً منه ، وهو المنارة ﴿ لَّعَلّي أَطَّلِعُ ﴾ السماء ﴿ إلى إله موسى ﴾ يعني : وأقف عليه ، فبنى الصرح ، وكان بلاطه خبث القوارير ، وكان الرجل لا يستطيع القيام عليه من طوله مخافة أن تنسفه الرياح ، وكان طوله في السماء خمسة آلاف ذراع ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع ، فلما فرغ من بنائه جاء جبريل عليه السلام فضرب جناحه على الصرح ، فهدمه ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنّي لاظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ أي : أحسب موسى بما يقول أن في السماء إلهاً من الكاذبين .

قوله عز وجل : ﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأرض ﴾ يعني : استكبر فرعون عن الإيمان

هو وقومه ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ يعني : بغير حجة ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ ﴾ يعني : وحسبوا أنهم ﴿ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ بعد الموت .

قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ بنصب الياء ، وكسر الجيم .

وقرأ الباقون بضم الياء ، أي : لا يردون بمعنى التعدي قول الله تعالى : ﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ ﴾ يعني : عاقبناه وجنوده ﴿ فنبذناهم فِى اليم ﴾ يعني : أغرقناهم في البحر وقال مقاتل في النيل ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ يعني : المشركين ﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ يعني : خذلناهم حتى صاروا قادة ورؤساء للضلال والجهال ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ يعني : إلى عمل أهل النار .

ويقال : إلى الضلالة التي عاقبتها النار ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ يعني : لا يمنعون من عذابي ﴿ وأتبعناهم فِى هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً ﴾ أي : عقوبة وهو الغرق ﴿ وَيَوْمَ القيامة هُمْ مِّنَ المقبوحين ﴾ أي : من المهلكين .

والعرب تقول : قبحه الله أهلكه الله .

ويقال : ﴿ وأتبعناهم فِى هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً ﴾ وذلك أنهم لما أهلكوا لعنوا ، فهم يعرضون على النار غدوة وعشية إلى يوم القيامة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين الممقوتين المهلكين .

ويقال : ﴿ مّنَ المقبوحين ﴾ ، أي : من المعذبين ويقال : إنه قبح صورتهم .

ويقال : ﴿ مّنَ المقبوحين ﴾ ، أي من : المشوهين .

قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ يعني : أعطيناه التوراة ﴿ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القرون الاولى ﴾ بالعذاب أي : من بعد قوم نوح وعاد وثمود ﴿ بَصَائِرَ للنَّاسِ ﴾ يعني : هلاكهم بصيرة للناس وغيرهم .

ويقال : بصائر .

يعني : الكتاب بياناً لبني إسرائيل ، ومعناه : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب بَصَائِرَ ﴾ أي مبيناً للناس ﴿ وهدى ﴾ من الضلالة لمن عمل به ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن آمن به من العذاب ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : لكي يتعظوا ، فيؤمنوا بتوحيد الله ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ أي : ما كنت يا محمد بناحية الجبل من قبل المغرب ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ يعني : إذ عهدنا إليه بالرسالة .

ويقال : أحكمنا معه ، وعمدنا إليه بأمرنا ونبينا ﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ يعني : حاضرين لذلك الأمر ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ أي الأجل فنسوا عهد الله ونسوا أمره ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي مقيماً في أهل مدين ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ يعني : تتلو على أهل مكة القرآن يعني : أن الله تعالى أعلمك أخبار الأمم

الماضية من حديث موسى وشعيب عليهما السلام ليكون علامة لنبوتكم حيث يخبرك بخبر موسى ، ولم تكن حاضراً هناك ، ولم تكن تقرأ القرآن ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إليك لتخبرها بخبر أهل مدين ، وبخبر موسى .

ويقال : ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ يعني : أرسلناك رسولاً ، وأنزلنا هذه الأخبار ، لتخبرهم لولا ذلك لما علمتها .

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور ﴾ يعني : بناحية الجبل الذي كلّم الله به موسى .

يعني : عن يمين موسى ، ولولا ذلك ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ يعني : كلمنا موسى .

(57/588)

ويقال : إذ نادينا أمتك ، وذلك أن الله تعالى لما وصف نعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأحب موسى أن يراهم قال الله تعالى لموسى : إنك لن تراهم وإن أحببت أسمعتك كلامهم ، فأسمعه الله تعالى كلامهم ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه معنى قوله : ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ يعني : نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، واستجبت لكم قبل أن تدعوني .

وروى أن عمر عن ابن مدرك عن أبي زرعة قال : نرفع الحديث في قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ

بِجَانِبِ الطورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ .

قال : نودي يا أمة محمد قد أجبتكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني .

وعن عمرو بن شعيب قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ما كانَ النّداءُ ، وَمَا كَانَتِ الرَّحْمَةُ قَالَ : "كِتَابٌ كَتَبَهُ اللهُ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ بِأَلْفَيْ عَامٍ ، وَسِتّمائَةِ عَامٍ عَلَى وَرَقَةِ أَمْنٍ ، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى عَرْشِهِ ، ثُمَّ نَادَى يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي ، أَعْطَيْتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي ، وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي ، فَمَنْ لَقِيَنِي مِنْكُمْ ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَدْخَلْتُهُ الجَنَّةَ" .

ثم قال : ﴿ ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِكَ ﴾ يعني : القرآن نعمة من ربك حيث اختصصت به نصب رحمة ، لأن معناه فعلنا ذلك للرحمة ، كقوله : فعلت ذلك ابتغاء الخير ، يعني : لابتغاء الخير ثم قال : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهم ﴾ يعني : لم يأتهم ﴿ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يعني : لم يأتهم رسول من قبلك ، وهم أهل مكة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : لكي يتعظوا .

(58/588)

قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ يعني : عقوبة ونقمة ، وفي الآية تقديم ومعناها لولا أن يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ، فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين لعذبوا في الدنيا ، ولأصابتهم مصيبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ وهذا هو قول مقاتل .

ويقال : معناه لولا أن يصيبهم عذاب ﴿ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ لعذبوا في الدنيا ، فيكون جوابه مضمراً .

ويقال : معناه لو إني أهلكتهم قبل إرسالي ، لقالوا يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءايَاتِكَ ﴾ أي : يقولوا : ولولا ذلك لم نحتج إلى إرسال الرسل ، فأرسلناك لكي لا يكون لهم حجة علي ، ثم قال عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ يعني : الكتاب والرسل ﴿ قَالُواْ لَوْلا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ موسى ﴾ من قبل يعني هلا أعطي محمد صلى الله عليه وسلم القرآن جملة واحدة ، كما أعطي موسى التوراة جملة يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِىَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ يعني : بالتوراة ، فقد كفروا بآيات موسى ، كما كفروا بآيات محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تظاهرا ﴾ يعني : تعاونا ، وذلك أن أهل مكة سألوا اليهود عنه فأخبروهم أنهم يجدون في كتبهم نعته وصفته فأمروهم بأن يسألوه عن أشياء فلما أجابهم .

قالوا : ساحران تظاهرا ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ كافرون ﴾ يعني : جاحدين قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿ سِحْرَانِ ﴾ بغير ألف ، عنوا محمداً وموسى عليهما السلام ويقال

: التوراة والفرقان .

ويقال : التوراة والإنجيل .

وقال سعيد بن جبير : يعني موسى وهارون عليهما السلام ويقال : موسى وعيسى عليهما السلام واحتج من يقرأ بغير ألف بما في سياق الآية .

(59/588)

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ واحتج من قرأ بالألف بقوله تعالى : ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ تعاونا ، والتظاهر يكون بالناس يقول الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم قل لهم فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ، يعني : من التوراة ، والقرآن أتبعه ، أي أعمل به ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ بأنهما ساحران ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ يعني : إن لم يجيبوك إلى الإثبات بالكتاب ﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ ﴾ بعبادة الأوثان . ويقال : يؤثرون أهواءهم على الدين ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ يعني : ومن أضر بنفسه ﴿ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله ﴾ يعني : بغير بيان من الله ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ يريد كفار مكة يعني : لا يرشدهم إلى دينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 612.606 ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾

أي أتمه وفرغ منه .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون قال : أخبرنا مكي بن عبدان عن عبد الرحمن ، قال : حدّثنا عبد الرحمن بن بشر ، قال : حدّثنا موسى بن عبد العزيز ، قال : حدّثنا الحكم بن أبان ، قال : حدّثني عكرمة ، قال : قال ابن عباس : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : " أبعدهما وأطيبهما " .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله المزني ، قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن سليمان ، قال : حدّثنا محمد بن عبد الجبار الهمذاني ، قال : حدّثنا يحيى بن بكير قال : حدّثنا ابن لهيعة ، عن الحارث بن زيد ، عن علي بن رباح ، عن عتبة بن التيب وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يسكن الشام ، ومات في زمن عبد الملك قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : " أبرهما وأوفاهما " .

وروى محمد بن إسحاق ، عن حكم بن جبير ، عن سعيد بن جبير ، قال : قال لي يهودي بالكوفة وأنا أتجهز للحج : إنّي أراك رجلا تتبع العلم ، أخبرني أي الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أعلم ، وأنا الآن قادم على حبر العرب يعني ابن عباس فسأسأله عن ذلك ، فلمّا قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إنّ النبي إذا وعد لم يخلف ، قال سعيد : فقدمت العراق ، فلقيت اليهودي فأخبرته ، فقال : صدق ، ما أنزل على موسى هذا والله العالم . وقال وهب : أنكحه الكبرى ، وقد روي أنّ النبي (عليه السلام) قال : " تزوج صغراهما وقضى أوفاهما " فإن صح هذا الخبر فلا معدل عنه .

(61/588)

وقال مجاهد : لما قضى موسى الأجل ومكث بعد ذلك عند صهره عشراً أخرى ، فأقام عنده عشرين سنة ، ثم إنّه استأذنه في العودة إلى مصر لزيارة والدته وأخيه ، فأذن له ، فسار بأهله وماله ، وكانت أيام الشتاء وأخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام ، وامرأته في شهرها لا يدري أليلا تضع أم نهاراً ، فسار في البرية غير عارف بطرقها فألجأه المسير إلى جانب الطور الغربي الأيمن في ليلة مظلمة شديدة البرد ، وأخذ امرأته الطلق ، فقدح زنداً

فلم تور (المقدحة شيئاً) ، فآنس من جانب الطور ناراً ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ قطعة وشعلة ﴿ مِّنَ النار ﴾ وفيها ثلاث لغات : فتح الجيم وهي قراءة عاصم ، وضمها وهي قراءة حمزة ، وكسرها وهي قراءة الباقين ، وقال قتادة ومقاتل : الجذوة : العود الذي قد احترق بعضه ، وجمعها جُذيّ ، قال ابن مقبل : باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجُذي غير خوار ولا دعر ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي تستدفئون وتستحمّون بها من البرد ﴿ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ ﴾ جانب ﴿ الوادى الأيمن ﴾ عن يمين موسى ﴿ فِي البقعة المباركة ﴾ وقرأ أشهب العقيلي ﴿ فِي البقعة ﴾ بفتح الباء ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ أي من ناحية الشجرة ﴿ أَن يا موسى إني أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ قال عبد الله بن مسعود : كانت الشجرة سمرة خضراء ترق ، قتادة ، عوسجة ، وهب : علّيق .

(62/588)

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ وهي الحيّة الصغيرة من سرعة حركته ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ هارباً منها ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع ، فنودي ﴿ يا موسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنين (*) اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ

سواء ﴾ فخرجت كأنّها مصباح ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ﴾ قرأ حفص بفتح الراء وجزم (الهاء) ، وقرأ أهل الكوفة والشام بضمّ (الراء) وجزم (الهاء) ، غيرهم بفتح (الراء) و (الهاء) ، دليلهم قوله سبحانه : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ [الأنبياء : 90] وكلّها لغات بمعنى الخوف والفَرَق .

ومعنى الآية إذا هالك أمر يدك وما ترى من شعاعها ، فأدخلها في جيبك تعد إلى حالتها الأولى ، وقال بعضهم : أمره الله سبحانه وتعالى أن يضم يده إلى صدره ليذهب الله عز وجل ما ناله من الخوف عند معاينة الحية ، وقيل : معناه سكّنْ روعك واخفض عليك جأشك لأنّ من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه ، وضم الجناح هو السكون ، ومثله قوله سبحانه ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ [الإسراء : 24] يريد الرفق ، وقوله سبحانه : ﴿ واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الشعراء : 215] أي ارفق بهم وألن جانبك لهم ، وقال الفرّاء : أراد بالجناح عصاه .

وقال بعض أهل المعاني : الرهب ، الكُم بلغة حمير وبني حنيفة ، وحُكي عن الأصمعي أنّه سمع بعض الأعراب يقول لآخر : عطني ما في رهبك ، قال : فسألته عن الرهب ؟ فقال : الكُم ، ومعناه على هذا التأويل : اضمم إليك يدك وأخرجها من الكُم ؛ لأنّه تناول العصا ويده في كُمّه .

﴿ فَذَانِكَ ﴾ قراءة العامة بتخفيف (النون) ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتشديد (النون) وهي لغة قريش ، وفي وجهها أربعة أقوال : قيل : شدّد النون عوضاً من (الألف) الساقطة ولم يلتفت إلى التقاء الساكنين لأنّ أصله ﴿ فَذَانِكَ ﴾ فحذفت الألف الأُولى لالتقاء الساكنين .

وقيل : التشديد للتأكيد كما أدخلوا اللام في ذلك . وقيل : شُدّدت فرقاً بينها وبين التي تسقط للإضافة ؛ لأنّ ذان لا تضاف . وقيل : للفرق بين تثنية الاسم المتمكن وبينها . قال أبو عبيد : وكان أبو عمرو يخص هذا الحرف بالتشديد دون كلّ تثنية في القرآن ، وأحسبه فعل ذلك لقلة الحروف في الاسم ، فقرأه بالتثقيل .

ومعنى الآية ﴿ فَذَانِكَ ﴾ يعني العصا واليد البيضاء ﴿ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (*) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (*) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾ وأحسن بياناً ، وإنّما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً ﴾ معيناً ، يقال : أردأته أي أعنته ، وترك همزه عيسى بن عمر وأهل المدينة طلباً للخفّة ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ قرأه العامة بالجزم ، ورفعه عاصم وحمزة ، وهو اختيار أبو عبيد ، فمن جزمه فعلى جواب الدعاء ، ومن رفعه فعلى الحال ، أي ردءاً مصدقاً حاله التصديق كقوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَآءِ تَكُونُ ﴾ [

المائدة : 114] أي كائنة حال صرف إلى الاستقبال .

﴿ إني أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ ﴾ أن نقويك ونعينك ﴿ بِأَخِيكَ ﴾ وكان هارون يومئذ بمصر ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً ﴾ قوة وحجة وبرهاناً ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ .

(64/588)

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم موسى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بهذا ﴾ الذي تدعونا إليه ﴿ فِي آبَآئِنَا الأولين * وَقَالَ موسى ﴾ قراءة العامة بالواو ، وقرأ أهل مكة بغير واو ، وكذلك هو في مصاحفهم ﴿ ربي أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بالهدى مِنْ عِندِهِ ﴾ بالحق من المبطل ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ ﴾ (قرأ) بالياء أهل الكوفة والباقون بالتاء . ﴿ عَاقِبَةُ الدار ﴾ أي العقبى المحمودة في الدار الآخرة ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ لا ينجح الكافرون .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين ﴾ فاطبخ لي الآجر ، وقيل : إنّه أول من اتخذ الآجر وبنى به .

قال أهل التفسير : لمّا أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح ، جمع هامان العمال

والفعلة حتى اجتمع خمسون ألف بنّاء سوى الأتباع والأُجَراء ومن يطبخ الآجر والجص ، وينجر الخشب والأبواب ، ويضرب المسامير ، فرفعوه وشيّدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق منذ خلق الله السموات والأرض ، أراد الله سبحانه أن يفتنهم فيه ، فلمّا فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه ، فأمر بنشابه فرمى بها نحو السماء ، فردّت إليه وهي ملطّخة دماً .

فقال : قد قتلتُ إله موسى ، قالوا : لو كان فرعون يصعده على البراذين ، فبعث الله سبحانه جبريل (عليه السلام) (عند) غروب الشمس ، فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع ، فوقعت قطعة منها على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف رجل ، ووقعت قطعة منها في البحر ، وقطعة في المغرب ، ولم يبق أحد ممن عمل فيه بشيء إلاّ هلك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يا هامان عَلَى الطين ﴾ ، ﴿ فاجعل لِّي صَرْحاً ﴾ قصراً ﴿ لعلي أَطَّلِعُ إلى إله موسى ﴾ أنظر إليه وأقف على حاله .

(65/588)

﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ ﴾ يعني موسى ﴿ مِنَ الكاذبين ﴾ في ادعائه كون إله غيري وأنّه رسوله ﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وظنوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ

وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ فألقيناهم ﴿ فِي اليم ﴾ يعني البحر ، قال قتادة : هو بحر من وراء مصر يقال له : أساف ، غرّقهم الله فيه ﴿ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ﴾

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً ﴾ قادة ورؤساء ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النار وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُم فِي هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً ﴾ حزناً وعذاباً ﴿ وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِّنَ المقبوحين ﴾ الممقوتين ، وقال أبو عبيدة وابن كيسان : المهلكين ، وقال ابن عباس : يعني المشوّهين الخلقة بسواد الوجه وزرقة العيون ، قال أهل (اللغة) يقال : قبحه الله ، وقبّحه إذا جعله قبيحاً

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى بَصَآئِرَ للنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

أخبرنا شعيب بن محمد قال : أخبرنا مكي بن عبدان قال : حدّثنا أحمد بن الأزهر ، قال : حدّثنا روح بن عبادة ، عن عوف ، عن أبي نصرة ، عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال :

" ما أهلك الله عز وجل قوماً ولا قرناً ولا أُمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل الله سبحانه التوراة على وجه الارض غير القرية التي مسخوا قردة ، ألم تر أنّ الله سبحانه قال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى ﴾ الآية " .

﴿ وَمَا كُنتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِجَانِبِ الغربي ﴾ أي غربي الجبل ﴿ إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر ﴾ أي أخبرناه بأمرنا ونهينا ، وألزمناه عهدنا ﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ الحاضرين هناك تذكرة من ذات نفسك ﴿ وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا ﴾ أحدّثنا وخلقنا ﴿ قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ فنسوا عهد الله سبحانه وتركوا أمره ، نظيره ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : 16] ، ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً ﴾ مقيماً ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ يعني أرسلناك رسولا وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار ، فتتلوها عليهم ولولا ذلك لما علمتها ولما أخبرتهم) بما تشاهده ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا موسى : خذ الكتاب بقوة .

قال وهب بن منبه : قال موسى يا رب أرني محمد صلى الله عليه وسلم قال : إنّك) لن تصل إلى ذلك ، وإن شئت ناديت أمّته فأسمعتك صوتهم ، قال : "بلى يا رب" ، فقال الله سبحانه : يا أُمّة محمد ، فأجابوه من أصلاب آبائهم .

وأخبرنا عبد الله بن حامد الأصفهاني ، قال أخبرنا محمد بن جعفر المطري ، قال : حدّثنا الحماد بن الحسن ، قال : حدّثنا أبو بكر ، قال : حدّثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي مدرك ، عن أبي زرعة يعني ابن عمرو بن جرير ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ قال : قال : يا أُمّة محمد قد أجبتكم من قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم من قبل أن تسألوني .

وأخبرني عبد الله بن حامد الوزان ، قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن شاذان ، قال : حدّثنا جيعويه بن محمد ، قال : حدّثنا صالح بن محمد ، قال : وأخبرنا عثمان بن أحمد ، قال : حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الجبلي ، قال : حدّثنا محمد بن الصباح بن عبد السلم ، قال : حدّثنا داود أبو سلمان كلاهما ، عن سلمان بن عمرو ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ قال : "كتب الله عزّوجل كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام في ورقة آس ، ثم وضعها على العرش ، ثم نادى : يا أُمّة محمد إنّ رحمتي سبقت غضبي ، أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، من لقيني منكم يشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبدي ورسولي أدخلته الجنّة" .

﴿ ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ قراءة العامة بالنصب على الخبر ، تقديره : ولكن رحمناك رحمة ، وقرأ عيسى بن عمر ﴿ رَّحْمَةٌ ﴾ بالرفع يعني (ولكنه رحمة من ربك) إذا أطلعك عليه وعلى الأخبار الغائبة عنك ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ يعني أهل مكة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ ولولا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ عقوبة ونقمة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والمعصية ﴿ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ وجواب لولا محذوف أي لعاجلناهم بالعقوبة ، وقيل معناه : لما أرسلناك إليهم رسولا ، ولكنا بعثناك إليهم ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ يعني محمد (عليه السلام) ﴿ قَالُواْ ﴾ يعني كفار مكة ﴿ لولا أُوتِيَ ﴾ محمد ﴿ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ موسى ﴾ كتاباً جملة واحدة .

(68/588)

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ قال الكلبي : وكانت مقالتهم تلك حين بعثوا الرهط منهم إلى رؤوس اليهود بالمدينة في عيد لهم ، فسألوهم عن محمد (عليه السلام) فأخبروهم أنّه نعته وصفته ، وأنّه في كتابهم التوراة ، فرجع الرهط إلى قريش ، فأخبروهم بقول اليهود ، فقالوا عند ذلك ﴿ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿ سِحْرَانِ ﴾ بغير ألف وهي قراءة ابن مسعود ، وبه قرأ عكرمة ، واحتج بقوله : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ الله هُوَ أهدى مِنْهُمَآ ﴾ وقرأ الآخرون (ساحران) بالألف ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيدة ، لأن معنى التظاهر بالناس وأفعالهم

أشبه منه بالكتب ، فمن قرأ ﴿ سِحْرَانِ ﴾ أراد التوراة والقرآن ، ومن قرأ (ساحران) أراد موسى ومحمداً (عليهما السلام) .

﴿ وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهدى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ ولم يأتوا به ﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 247.253 ﴾

(69/588)

وقال الزمخشرى :

﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾

سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقال : أبعدهما وأبطأهما «2» .

وروى أنه قال : قضى أوفاهما ، وتزوّج صغراهما . وهذا خلاف الرواية التي سبقت .

الجذوة - باللغات الثلاث . وقرئ بهنّ جميعا - : العود الغليظ ، كانت في رأسه نار أو لم

تكن ، قال كثير :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذى غير خوّار ولا دعر «3»

---

(1) . قوله «كل أدرع ودرعاء» لعله «كل أردع وردعاء» وفي الصحاح : به ردع من زعفران أو دم ، أى : لطخ وأثر .

وردعته بالشيء فارتدع ، أى : لطخته به فتلطخ اه ، فالأردع : شبيه المتلطخ بلون آخر .

ولفظ الخازن : أبلق وبلقاء . (ع)

(2) . أخرجه الحاكم من طريق ابن عيينة عن إبراهيم بن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس بهذا قلت . وإبراهيم مجهول . وقوله : وروى أنه قال قضى أوفاهما وتزوج من صغراهما : أخرجه الطبراني والبزار من طريق عويد بن أبى عمران الجونى عنه عن أبيه عن عبد اللّه بن الصامت عن أبى ذر «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سئل : أى الأجلين قضى موسى ؟ قال : أوفاهما وأبرهما ، قال وسئل أى المرأتين تزوج ؟ قال الصغرى منهما» وعويد ضعيف وفي ابن مردويه من حديث أبى هريرة رفعه «قال لي جبريل : إن سألك اليهودي : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقل أوفاهما وإن سألك أيهما تزوج ؟ فقل الصغرى منهما» وفي إسناده سليمان الشاذكوني وهو ضعيف .

(3) . لابن مقبل . والحواطب : الجواري يطلبن الحطب ، والالتماس - بحسب الأصل - : من اللمس . » ثم اتسع فيه . والجذل : الحطب الغليظ اليابس : والجذى : جمع جذوة

بتثليث الجيم فيهما وهي العود الغليظ في رأسه نار أولا . والخوار : الضعيف . والخور معيب ، إلا في قولهم : ناقة خوارة ، أى كثيرة اللبن . ونخلة خوارة : كثيرة الحمل . ودعر العود دعرا كتعب كثر دخانه ، فهو دعر كحذر . والدعر أيضا : السوس والفساد . والدعار : الفسق والخبث ، وغير خوار : حال من جزل الجذى .

(70/588)

وقال :

وألقى على قبس من النّار جذوة شديدا عليه حرها والتهابها «1»

مِنْ الأولى والثانية لابتداء الغاية ، أى : أتاه النداء من شاطئ الوادي من قبل الشجرة . ومِنَ الشَّجَرَةِ بدل من قوله : من شاطئ الوادي ، بدل الاشتمال ، لأنّ الشجرة كانت نابتة على الشاطئ ، كقوله تعالى لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ وقرئ : الْبُقْعَةِ بالضم والفتح .

والرَّهْبِ بفتحتين ، وضمتين ، وفتح وسكون ، وضم وسكون : وهو الخوف . فإن قلت : ما معنى قوله وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ؟ قلت : فيه معنيان ، أحدهما : أنّ

موسى عليه السلام لما قلب اللّه العصا حية : فزع واضطرب ، فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء ، فقيل له :

إنّ اتقاءك بيدك فيه غضاضة «2» عند الأعداء . فإذا ألقيتها فكما تنقلب «3» حية ، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى . والمراد بالجناح : اليد ، لأنّ يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر . وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى ، فقد ضمّ جناحه إليه . والثاني : أن يراد بضم جناحه إليه : تجلده وضبطه نفسه . وتشدّده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر ، لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما . وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران . ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أنّ كاتبا له كان يكتب بين يديه ، فانفلتت منه فلتة ريح ، فخجل وانكسر ، فقام وضرب بقلمه الأرض ، فقال له عمر : خذ قلمك ، واضمم إليك جناحك ، وليفرخ روعك «4» ، فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي . ومعنى قوله مِنَ الرَّهْبِ من أجل الرهب ، أى : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك : جعل الرهب الذي كان يصيبه سببا وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه . ومعنى : وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ، وقوله اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ على أحد التفسيرين : واحد . ولكن خولف بين العبارتين ، وإنما كرّر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين ، وذلك

أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء

---

(1) . الجذوة في الأصل ، العود الغليظ في رأسه نار أولا ، ولكن خصها الوصف بما في رأسه نار ، ثم إنها استعارة تصريحية للرمح أو للسيف ، والحر والالتهاب : ترشيح لها . وشديد : خبر المبتدأ الذي بعده .

(2) . قوله «فيه غضاضة» أى : ذلة ومنقصة ، كما في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «فكما تنقلب حية» أى : فعند ما تنقلب . (ع) [. . . . .]

(4) . قوله «و ليفرخ روعك» أى ليذهب فزعك . أفاده الصحاح . (ع)

(71/588)

وفي الثاني : إخفاء الرهب . فإن قلت : قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما إليه ، وذلك قوله وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ وقوله وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ فما التوفيق بينهما ؟ قلت : المراد بالجناح المضموم . هو اليد اليمنى ، وبالمضموم إليه : اليد اليسرى وكلّ واحدة من يمنى اليدين ويسراهما : جناح . ومن بدع التفاسير : أنّ الرهب : الكم ، بلغة حمير وأنهم يقولون : أعطنى مما في رهبك ، وليت شعري كيف صحته في اللغة ؟ وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترتضي عربيتهم ؟ ثم ليت

شعري كيف موقعه في الآية؟ وكيف تطبيقه المفصل «1» كسائر كلمات التنزيل؟ على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة «2» من صوف لا كمى لها فَذانِكَ قرئ مخففا ومشدّدا، فالمخفف مثنى ذاك. والمشدّد مثنى ذلك، بُرْهانانِ حجتان بينتان نيرتان. فإن قلت: لم سميت الحجة برهانا؟ قلت: لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء. برهرهة، بتكرير العين واللام معا. والدليل على زيادة النون قولهم: أبره الرجل، إذا جاء بالبرهان. ونظيره تسميتهم إياها سلطانا من السليط وهو الزيت، لإنارتها.

[سورة القصص (28): الآيات 33 إلى 34]

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)

يقال: ردأته: أعنته. والردء: اسم ما يعان به، فعل بمعنى مفعول كما أن الدفء اسم لما يدفأ به. قال سلامة بن جندل:

وردئى كل أبيض مشرفي شحيذ الحدّ عضب ذى فلول «3»

وقرئ: ردا على التخفيف، كما قرئ: الخب رِدْءاً يُصَدِّقُنِي بالرفع والجزم صفة وجواب، نحو وَلِيًّا يَرِثُنِي سواء. فإن قلت: تصديق أخيه ما الفائدة فيه؟ قلت: ليس الغرض بتصديقه أن يقول له: صدقت، أو يقول للناس: صدق موسى، وإنما هو أن يلخص بلسانه

الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار ، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة ، فذلك جار مجرى التصديق المفيد ، كما يصدّق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنّي لِسانا فَأَرْسِلْهُ مَعِي

---

(1) . قوله «وكيف تطبيقه المفصل» لعله تطبيقه على المفصل (ع)

(2) . قوله «زرمانقة من صوف» في الحديث : أن موسى عليه السلام لما أتى فرعون أتاه وعليه زرمانقة ، يعنى : جبة صوف . قال أبو عبيد : أراها عبرانية ، كذا في الصحاح . (ع)

(3) . لسلامة بن جندل . يقول : وردئى الذي أتوقى به المكاره كل سيف أبيض ، وعبر بكل ، لأن المراد بيان الجنس لا الشخص ، مشرفي : نسبة إلى مشارف اليمن قرى منها ، وقيل : من الشام ، شحيذ الحد : مرهفه ، من شحذ المدية : حددها . عضب : قاطع ، والفلول : جمع فل - بالفتح : وهو كسر في حد السيف وانثلام ، أى : به فلول من قراع الكتائب .

، وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله : صدقت ، فإنّ سحبان وباقلا «1» يستويان فيه ، أو يصل جناح كلامه بالبيان ، حتى يصدّقه الذي يخاف تكذيبه ، فأسند التصديق إلى هرون ، لأنه السبب فيه إسنادا مجازيا . ومعنى الإسناد المجازى : أن التصديق حقيقة في المصدّق ، فإسناده إليه حقيقة وليس في السبب تصديق ، ولكن استعير له الإسناد لأنه لابس التصديق بالتسبب كما لابسه الفاعل بالمباشرة . والدليل على هذا الوجه قوله : إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وقراءة من قرأ : ردءا يصدقوني . وفيها تقوية للقراءة بجزم يصدقني .

[سورة القصص (28) : آية 35]

قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (35)

العضد : قوام اليد ، وبشدّتها تشتد . قال طرفة :

أبنى لبينى لستمو بيد إلّا يدا ليست لها عضد «2»

ويقال في دعاء الخير : شدّ اللّه عضدك . وفي ضده ، فت اللّه في عضدك . ومعنى سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ سنقويك به ونعينك ، فإمّا أن يكون ذلك لأن اليد تشتد بشدة العضد . والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور . وإمّا لأنّ الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد ، فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة سُلْطاناً غلبة وتسلطا . أو حجة

واضحة بِآياتِنا متعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات ، أى اذهبا بآياتنا . أو بنجعل لكما سلطانا ، أى : نسلطكما بآياتنا . أو بلا يصلون ، أى : تمتنعون منهم بآياتنا . أو هو بيان للغالبون لا صلة ، لامتناع تقدم الصلة على الموصول . ولو تأخر : لم يكن إلا صلة له . ويجوز أن يكون قسما جوابه :

لا يصلون ، مقدما عليه . أو من لغو القسم .

---

(1) . قوله «فان سحبان وباقلا يستويان فيه» مثل في الفصاحة . وباقل : مثل في الفهاهة والعي . (ع)

(2) أبنى لبينى لستم بيد إلا يدا ليست لها عضد

أبنى لبينى لا أحقكم وجد الاله بكم كما أجد

لطرفة بن العبد . وقيل : لأوس بن حجر . والهمزة للنداء . ولبينى : اسم أمة كناية عن أنهم أرقاء . واليد استعارة تصريحية للأقوياء . أو تشبيه بليغ ، أى : لستم مثل يد من الأيدى في القوة ، إلا مثل يد لا عضد لها ، فهي صعبة . ويروى إلا يدا مخبولة العضد ، يقال : خبلت يده أشللتها ، ففي القافية الاقواء ، وفيه استتباع الذم بما يشبه المدح للمبالغة في الذم ، وكرر النداء لزيادة التعبير ، وحقه يحقه : خصمه يخصمه ، وأثبته ، وأوجبه أيضا ، أى : لا أثبتكم . أو لستم أهلا لمخاصمتى إياكم . ووجد عليه : غضب . ووجد به : حزن ،

أى : غضب اللّه بسببكم كما أغضب أنا . أو كرهكم كما يكره الحزين ما يحزنه . وهذا دعاء عليهم بالإهلاك .

(73/588)

[سورة القصص (28) : آية 36]

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَرًى وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (36)

سِحْرٌ مُفْتَرًى سحر تعمله أنت ثم تفتريه على اللّه . أو سحر ظاهر افتراؤه . أو موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند اللّه فِي آبائِنَا حال منصوبة عن هذا ، أى : كائنا في زمانهم وأيامهم ، يريد : ما حدثنا بكونه فيهم ، ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك ، وقد سمعوا وعلموا بنحوه . أو يريدوا أنهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته . أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى ومجيئه بما جاء به . وهذا دليل على أنهم حجوا وبهتوا ، وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات إلا قولهم هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثلها .

[سورة القصص (28) : آية 37]

وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ (37)

يقول : رَبِّي أَعْلَمُ منكم بحال من أهله اللّه للفلاح الأعظم ، حيث جعله نبيا وبعثه بالهدى ، ووعده حسن العقبى : يعنى نفسه ، ولو كان كما تزعمون كاذبا ساحرا مفتريا لما أهله لذلك ، لأنه غنى حكيم لا يرسل الكاذبين ، ولا ينبئ الساحرين ، ولا يفلح عنده الظالمون . وعاقِبَةُ الدَّارِ هي العاقبة المحمودة . والدليل عليه قوله تعالى أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ وقوله وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ والمراد بالدار : الدنيا ، وعاقبتها وعقباها : أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت . فإن قلت : العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار ، لأنّ الدنيا إمّا أن تكون خاتمتها بخير أو بشر ، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر ؟ قلت : قد وضع اللّه سبحانه الدنيا مجازا إلى الآخرة ، وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ، وما خلقهم إلا لأجله ليتلقوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق ، ومن عمل فيها خلاف ما وضعها اللّه فقد حرف ، فإذا عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير . وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار «1» . وقرأ ابن كثير : قالَ مُوسى بغير

---

(1) . قال محمود : «العاقبة هي العاقبة المحمودة ، والدليل عليه قوله عز وجل أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ وقوله وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ والمراد دار الدنيا وعاقبتها أن يختم للإنسان فيها بالرحمة والرضوان وتتلقاه الملائكة بالبشرى عند الموت .

قال : فان قلت العاقبة المحمودة والمذمومة كلاهما يصح أن يسمى عاقبة لأن الدنيا إما أن تكون خاتمتها خيرا أو شرا ، فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر ؟ قلت : لأن اللّه سبحانه وتعالى وضع الدنيا مجازا للآخرة وأراد لعباده فيها أن يعبدوه ولا يعملوا إلا الخير وما خلقهم إلا لأجله ، كما قال :

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ فمن عمل في الدنيا على خلاف ذلك فقد حرف ، لأن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير ، وأما عاقبة الشر فلا اعتداد بها لأنها من تحريف الفجار» قال أحمد : وقد تقدم من قواعد أهل الحق ما يستضاء به في هذا المقام ، والقدر الذي يحتاج إلى تجديده هاهنا : أن استدلاله على أن عاقبة الخير وعبادة اللّه تعالى هي المرادة له لا سواها بقوله تعالى وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ معارض بأمثاله في أدلة أهل السنة على عقائدهم ، مثل قوله وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ الآية .

والمراد واللّه أعلم : ولقد جعلنا لعذاب جهنم خلقا كثيرا من الثقلين . ومن ذلك ما يروى عن الفاروق رضى اللّه عنه أنه قال : وإنكم آل المغبرة ذرء النار ، أى : خلقها ، فلئن دلت آية الذاريات ظاهرا على أن اللّه تعالى إنما خلق الثقلين لتكون عاقبتهم الجنة جزاء وثوابا على عبادتهم له ، فقد دلت آية الأعراف على أنه خلق كثيرا من الثقلين لتكون عاقبتهم جهنم جزاء على كفرهم .

وحينئذ يتعين الجمع بين الآيتين ، وحمل عموم آية الذاريات على خصوص الآية الأخرى ،

وإن المراد : وما خلقت السعداء من الثقلين إلا لعبادتي ، جمعا بين الأدلة ، فقد ثبت أن العاقبتين كلتيهما مرادة للّه تعالى : هذا بعد تظافر البراهين العقلية على ذلك ، فوجه مجيء العاقبة المطلقة كثيرا وإرادة الخير بها : أن اللّه تعالى هدى الناس إليها ووعدهم ما ورد في سلوك طريقها من النجاة والنعيم المقيم ، ونهاهم عن ضدها وتوعدهم على سلوكها بأنواع العذاب الأليم ، وركب فيهم عقولا ترشدهم إلى عاقبة الخير ، ومكنهم منها ، وأزاح عللهم ووفر دواعيهم ، فكان من حقهم أن لا يعدلوا عن عاقبة الخير ولا يسلكوا غير طريقها ، وأن يتخذوها نصب أعينهم ، فأطلقت العاقبة والمراد بها الخير تفريعا على ذلك ، واللّه أعلم .

والحاصل : أنها لما كانت هي المأمور بها والمحضوض عليها ، عوملت معاملة ما هو مراد وإن لم تكن مرادة من كثير من الخلق ، وقال لي بعضهم : ما يمنعك أن تقول لم يفهم كون العاقبة المطلقة هي عاقبة الخير من إطلاقها ، ولكن من إضافتها إلى ذويها باللام في الآي المذكورة ، كقوله مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ فأفهمت اللام أنها عاقبة الخير ، إذ هي لهم وعاقبة السوء عليهم لا لهم ، كما يقولون : الدائرة لفلان ، يعنون : دائرة الظفر والنصر . والدائرة على فلان ، يعنون : دائرة الخذلان والسوء ، فقلت : لقد كان لي في ذلك مقال لولا ورود أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ولم يقل عليهم ، فاستعمال اللام مكان «على» دليل على إيفاء الاستدلال باللام على إرادة عاقبة الخير ، واللّه أعلم .

واو ، على ما في مصاحف أهل مكة ، وهي قراءة حسنة ، لأنّ الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة : سحرا مفترى . ووجه الأخرى :

أنهم قالوا ذلك ، وقال موسى عليه السلام هذا ، ليوازن الناظر بين القول والمقول ، ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر :

وبضدّها تتبيّن الأشياء «1»

وقرئ تكون : بالياء والتاء .

[سورة القصص (28) : آية 38]

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (38)

---

(1) من يظلم القرناء في تكليفهم أن يصبحوا وهم له أكفاء

ويذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الأشياء

لأبى الطيب المتنبي ، بمدح هارون بن عبد العزيز ، أى : أنه تظلم أقرانه في تكليفهم أن يكونوا

مساوين له ، وفي ذلك مشقة عليهم : كناية عن أنه لا يساويه أحد . وقوله : وبضدها إلى آخره : دليل على ما قبله . ويروى :

تتبين الأشياء ، والمعنى واحد ، أي : الأشياء تعرف بمعرفة معنى أضدادها .

(75/588)

روى أنه لما أمر ببناء الصرح ، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير ، فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق ، فكان الباني لا يقدر أن يقف على رأسه يبنى ، فبعث اللّه تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس ، فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع : وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ، ووقعت قطعة في البحر وقطعة في المغرب ، ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك . ويروى في هذه القصة : أنّ فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابة نحو السماء ، فأراد اللّه أن يفتنهم فردّت إليه وهي ملطوخة بالدم فقال : قد قتلت إله موسى ، فعندها بعث اللّه جبريل عليه السلام لهدمه ، واللّه أعلم بصحته . قصد بنفي علمه بإله غيره : نفى وجوده ، معناه :

ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي كما قال اللّه تعالى قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا

فِي الْأَرْضِ معناه بما ليس فيهن ، وذلك لأنّ العلم تابع للمعلوم لا يتعلق به إلا على ما هو عليه ، فإذا كان الشيء معدوما لم يتعلق به موجود . فمن ثمة كان انتفاء العلم بوجوده لا انتفاء وجوده . وعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده « 1 » . ويجوز أن يكون على ظاهره ، وأنّ إلها غيره غير معلوم عنده ،

---

(1) . قال محمود : «عبر عن نفى المعلوم بنفي العلم ، وإنما كان كذلك لأن العلم لا يتعلق بالمعلوم إلا على ما هو عليه إن موجودا فموجود وإن معدوما فمعدوم ، فمن ثم عبر عن نفى كونه موجودا بنفي كونه معلوما » قال أحمد :

لشدة ما بلغ منه الوهم ، لم يتأمل كيف سقوط السهم ، وإنما أتى من حيث أن اللّه تعالى عبر كثيرا عن نفى المعلوم بنفي العلم في مثل قوله : قل أتنبئون اللّه بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ، أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ، فلما اطرد ذلك عنده توهم أن هذا التعبير عن نفى المعلوم بنفي العلم يشمل كل علم ، ولو لم يتعلق بالمعلوم على ما هو به ، وليس هو كذلك ، بل هذا التعبير لا يسوغ إلا في علم اللّه تعالى لأمر يخص العلم القديم وهو عموم تعلقه حتى لا يعزب عنه أمر ، فما لم يتعلق العلم بوجوده يلزم أن لا يكون موجودا ، إذ لو كان موجودا لتعلق به بخلاف علم الخلق ، فلا تلازم بين نفى الشيء ونفى العلم الحادث بوجوده ، ولا كذلك العلم القديم ، فان بين نفى معلومه ونفى تعلقه بوجوده تلازما سوغ التعبير المذكور ، ولكن المعلوم أن فرعون كان يدعى الالهية ويعامل علمه معاملة علم اللّه تعالى في أنه لا يعزب عنه

شيء ، فمن ثم طغى وتكبر . وعبر بنفي علمه عن نفى المعلوم ، تدليسا على ملئه ، وتلبيسا على عقولهم السخيفة – والله أعلم – ويناسب تعاظمه هذا قوله فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ ولم يقل : فاطبخ لي آجرا ، وذلك من التعاظم ، كما قال تعالى – وله العظمة والكبرياء ، ومن ارتدى بردائهما قصمه – : وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ فذكر هذه العبارة الجامعة لأنواع الكفر على وجه الكبرياء تهاونا بها ، وذلك من تجبر الملوك – جل الله وعز – ومن تعاظم فرعون أيضا : نداؤه لوزيره باسمه ، وبحرف النداء وتوسيط ندائه خلال الأمر ، وبناؤه الصرح ورجاؤه الاطلاع : دليل على أنه لم يكن مصمما على الجحود . قال الزمخشري : وذلك مناقض لما أظهر من الجحد الجازم في قوله ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فاما أن يخفى هذا التناقض على قومه لغباوتهم وكآبة أذهانهم . وإما أن يتفطنوا لها ويخافوا نقمته فيصروا .

قال أحمد : ولقائل – والله أعلم – أن يحمل قوله ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي على الشك ، ونفى علمه خاصة ، وإجرائه مجرى سائر علوم الخلق في أنه لا يلزم من نفى تعلقه بوجود أمر نفى ذلك الأمر ، لجواز أن يكون موجودا عازبا عن علمه . وحينئذ لا يكون تناقضا ، ولو لم يكن حمله هذا هو الأصل لما سوغنا أن يرفع التناقض عن كلامه ، لأنه أحقر من ذلك .

ولكنه مظنون بدليل قوله وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ ، وإذا ظنّ موسى عليه السلام كاذبا في إثباته إلها غيره ولم يعلمه كاذبا ، فقد ظنّ أن في الوجود إلها غيره ، ولو لم يكن المخذول ظانا ظنا كاليقين ، بل عالما بصحة قول موسى عليه السلام لقول موسى له لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ بَصائِرَ لما تكلف ذلك البنيان العظيم ، ولما تعب في بنائه ما تعب ، لعله يطلع بزعمه إلى إله موسى عليه السلام ، وإن كان جاهلا مفرط الجهل به وبصفاته ، حيث حسب أنه في مكان كما كان هو في مكان ، وأنه يطلع إليه كما كان يطلع إليه إذا قعد في عليته ، وأنه ملك السماء كما أنه ملك الأرض . ولا ترى بينة أثبت شهادة على إفراط جهله وغباوته وجهل ملئه وغباوتهم : من أنهم راموا نيل أسباب السماوات بصرح يبنونه ، وليت شعري ، أكان يلبس على أهل بلاده ويضحك سن عقولهم ، حيث صادفهم أغبى الناس وأخلاهم من الفطن وأشبههم بالبهائم بذلك ؟ أم كان في نفسه بتلك الصفة ؟ وإن صحّ ما حكى من رجوع النشابة إليه ملطوخة بالدم ، فنهكم به بالفعل ، كما جاء التهكم بالقول في غير موضع من كتاب اللّه بنظرائه من الكفرة . ويجوز أن يفسر الظن على القول الأوّل باليقين ، كقوله :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجّج «1»

ويكون بناء الصرح مناقضة لما ادعاه من العلم واليقين ، وقد خفيت على قومه لغباوتهم

وبلههم .

أو لم تخف عليهم ، ولكن كلا كان يخاف على نفسه سوطه وسيفه ، وإنما قال فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ

---

(1) وكل تباريح المحب لقيتها سوى أنثى لم ألق حتفي بمرصدى

نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بنى السوداء والقوم شهدى

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارس المسرد

لدريد بن الصمة ، ينذر قومه بهجوم العدو . ودريد : هو معاوية بن الحرث بن بكر بن علقمة الجشمى : قتل مشركا يوم حنين ، أى : كل الشدائد التي يلقاها المحب من محبوبه لقيتها .

والحتف : الهلاك . والمرصد ، والمرصاد :

الطريق ، وفي إضافته لنفسه معنى لطيف ، أى : لم أسلك طريقا فيه حتف لي ، بل أسلك غيره فطر بقي لا ضرر فيه . ونصحه ونصح له : خلص وصفا . والشهد – بالتشديد : جمع شاهد . ودججه تدجيجا : غطاه تغطية . والدجة – بالتشديد – : الظلمة . والدج : المشي بتؤدة . والمدجج : التام السلاح . وقيل : هو بالفتح : الفرس ، وبالكسر : الفارس . والسراة : السادة الأشراف بفتح السين ، وهي في الأصل : أعلى ظهر الحيوان ، فاستعيرت لهم ، وقد تضم ، فوزنها «فعلة» جمع سرى وزن فعيل على غير قياس ، إذ قياسه أفعلاء ، وهو في الأصل : النهر الصغير :

استعير للخير الرئيس ، والفارس : الدروع المعمولة بفارس . والسرد والتسريد : متابعة النسج ، يقول : أيقنوا بهجوم جيش عظيم . والألفان : كناية عن الكثرة ، أى : جيش كثير مغطى بالسلاح ، أشرافه في الدروع الفارسية المتتابعة النسج . والظرفية دالة على سبوغ الدروع لهم . ويروى المسود بالواو وليس بذاك .

(77/588)

عَلَى الطِّينِ ولم يقل : اطبخ لي الآجر واتخذه ، لأنه أوّل من عمل الآجر ، فهو يعلمه الصنعة ، ولأن هذه العبارة أحسن طباقا لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته وأشبه بكلام الجبابرة . وأمر هامان وهو وزيره وردفه بالإيقاد على الطين منادى باسمه بيا فى وسط الكلام : دليل التعظيم «1» والتجبر . وعن عمر رضى اللّه عنه أنه حين سافر إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر فقال :

ما علمت أن أحدا بنى بالآجر غير فرعون . والطلوع والإطلاع : الصعود . يقال : طلع الجبل وأطلع : بمعنى .

[سورة القصص (28) : الآيات 39 إلى 40]

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْناهُ

وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)

الاستكبار بالحق: إنما هو للّه تعالى، وهو المتكبر على الحقيقة، أى: المتبالغ في كبرياء الشأن. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما حكى عن ربه: «الكبرياء ردائي والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته في النار» «2». وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق يُرْجَعُونَ بالضم والفتح فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ من الكلام الفخم الذي دل به على عظمة شأنه وكبرياء سلطانه. شبههم استحقارا لهم واستقلالا لعددهم «3»، وإن كانوا الكثر الكثير والجم الغفير، بحصيات أخذهنّ آخذ في كفه فطرحهنّ في البحر. ونحو ذلك قوله وَجَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ، وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً، وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ وما هي إلا تصويرات وتمثيلات لاقتداره، وأن كل مقدور وإن عظم وجل، فهو مستصغر إلى جنب قدرته.

[سورة القصص (28): الآيات 41 إلى 42]

وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

فإن قلت: ما معنى قوله وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ؟ قلت: معناه: ودعوناهم أئمة

---

(1). قوله «دليل التعظيم» لعله التعظيم. (ع)

(2) . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وأبى سعيد عن النبي صلى اللّه عليه وسلم عن ربه .

(3) . عاد كلامه . قال : «و قوله تعالى فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ مقابلة لاستكباره بفعل عبر عنه بما صورته أخذ حصيات ممتهنات ، ثم نبذها ، أى : طرحها في اليم بهوان ، فذلك تمثيل لاستهانته به وإهلاكه بهذا النوع من الهلاك . واللّه أعلم .

(78/588)

دعاة إلى النار «1» ، وقلنا : إنهم أئمة دعاة إلى النار ، كما يدعى خلفاء الحق أئمة دعاة إلى الجنة . وهو من قولك : جعله بخيلا وفاسقا ، إذا دعاه وقال : إنه بخيل وفاسق «2» . ويقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله : جعله بخيلا وفاسقا . ومنه قوله تعالى وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً ومعنى دعوتهم إلى النار : دعوتهم إلى موجباتها من الكفر والمعاصي وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ كما ينصر الأئمة الدعاة إلى الجنة . ويجوز : خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر . ومعنى الخذلان :

منع الألطاف ، وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه ، وهو المصمم على الكفر الذي لا تغنى عنه الآيات والنذر ، ومجراه مجرى الكناية ، لأنّ منع الألطاف يردف التصميم ، والغرض

بذكره :

التصميم نفسه ، فكأنه قيل : صمموا على الكفر حتى كانوا أئمة فيه دعاة إليه وإلى سوء عاقبته .

فإن قلت : فأى فائدة في ترك المردوف إلى الرادفة ؟ قلت : ذكر الرادفة يدل على وجود المردوف فيعلم وجود المردوف مع الدليل الشاهد بوجوده ، فيكون أقوى لإثباته من ذكره . ألا ترى أنك تقول : لولا أنه مصمم على الكفر مقطوع أمره مثبوت حكمه لما منعت منه الألطاف ، فبذكر منع الألطاف يحصل العلم بوجود التصميم على الكفر وزيادة ، وهو قيام الحجة على وجوده .

وينصر هذا الوجه قوله وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ كأنه قيل . وخذلناهم في الدنيا وهم يوم القيامة مخذولون ، كما قال وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً أى طردا وإبعادا عن الرحمة وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ أى من المطرودين المبعدين .

[سورة القصص (28) : آية 43]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

بَصائِرَ نصب على الحال . والبصيرة : نور القلب الذي يستبصر به ، كما أن البصر نور العين الذي تبصر به ، يريد : آتيناه التوراة أنوارا للقلوب ، لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف

(1) . قوله «و دعوناهم أئمة دعاة إلى النار» هذا التأويل وما يأتي بعده في قوله : ويجوز خذلناهم . . . إلى آخره :

مبنيان على أنه تعالى يجب عليه الصلاح ولا يجوز عليه خلق الشر ، وهذا مذهب المعتزلة . أما مذهب أهل السنة فهو أنه لا يجب عليه تعالى شيء ، ويجوز عليه خلق الشر كالخير . وقد حقق في التوحيد فلا داعي إلى تأويل الآية بمثل هذا التكلف . (ع)

[. . . . .]

(2) . قال محمود : «معناه دعوناهم أئمة دعاة إلى النار ، كما تقول : جعلته بخيلا فاسقا إذا دعوته بذلك» قال أحمد : لا فرق عند أهل السنة بين قوله تعالى وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ وبين هذه الآية ، فمن حمل الجعل على التسمية فيما نحن فيه فرارا من اعتقاد أن دعاءهم إلى النار مخلوق للّه تعالى ، فهو بمثابة من حمله على التسمية في قوله تعالى «و جعلنا الليل والنهار آيتين» : فرارا من جعل الليل والنهار مخلوقين للّه تعالى ، فلا فرق بين نفي مخلوق واحد عن قدرته تعالى ونفي كل مخلوق ، نعوذ باللّه من ذلك .

(79/588)

حقا من باطل . وإرشادا ، لأنهم كانوا يخبطون في ضلال وَرَحْمَةً لأنهم لو عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ إرادة أن يتذكروا . شبهت الإرادة بالترجى فاستعير لها . ويجوز أن يراد به ترجى موسى عليه السلام «1» لتذكرهم ، كقوله تعالى لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ .

[سورة القصص (28) : آية 44]

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44)

الْغَرْبِيِّ المكان الواقع في شق الغرب ، وهو المكان الذي وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب اللّه له في الألواح . والأمر المقضى إلى موسى عليه السلام : الوحى الذي أوحى إليه ، والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : وما كنت حاضرا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ، ولا كنت مِنَ جملة الشَّاهِدِينَ للوحى إليه ، أو على الوحى إليه ، وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات ، حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى عليه السلام في ميقاته . وكتبة التوراة له في الألواح ، وغير ذلك .

[سورة القصص (28) : آية 45]

وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45)

فإن قلت : كيف يتصل قوله وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً بهذا الكلام ؟ ومن أى وجه يكون

استدراكا له؟ قلت: اتصاله به وكونه استدراكا له، من حيث أن معناه: ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى إلى عهدك قرونا كثيرة فَتَطاوَلَ على آخرهم: وهو القرن الذي أنت فيهم الْعُمُرُ أى أمد انقطاع الوحى واندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، فأرسلناك وكسبناك «2» العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى عليهم السلام، كأنه قال: وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحينا إليك. فذكر سبب الوحى الذي هو إطالة الفترة، ودلّ به على المسبب على عادة اللّه عز وجل في اختصاراته، فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده وَما كُنْتَ ثاوِياً أى مقيما فِي أَهْلِ مَدْيَنَ وهم شعيب والمؤمنون به تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا تقرؤها عليهم تعلما منهم، يريد: الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه،

---

(1). قال محمود: «معناه إرادة تذكرهم، لأن الارادة تشبه الترجي، فاستعير لها. أو يراد به ترجى موسى عليه السلام» قال أحمد: الوجه الثاني هو الصواب، واحذر الأول فانه قدرى.

(2). قوله «وكسبناك العلم» كسب يتعدى إلى مفعولين، فيقال: كسبت أهلى خيرا، وكسبت الرجل مالا، كما في الصحاح. (ع)

ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها .

[سورة القصص (28) : آية 46]

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

إِذْ نادَيْنا يريد مناداة موسى عليه السلام ليلة المناجاة وتكليمه ، ولكِنْ علمناك رَحْمَةً وقرئ : رحمة ، بالرفع : أى هي رحمة ما أَتاهُمْ من نذير في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهي خمسمائة وخمسون سنة ، ونحوه قوله لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ .

[سورة القصص (28) : آية 47]

وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

لَوْلا الأولى امتناعية وجوابها محذوف ، والثانية تحضيضية ، وإحدى الفاءين للعطف ، والأخرى جواب لولا ، لكونها في حكم الأمر ، من قبل أن الأمر باعث على الفعل ، والباعث والمحضض من واد واحد . والمعنى : ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدّموا من الشرك والمعاصي : هلا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين علينا بذلك : لما أرسلنا إليهم ، يعنى : أن إرسال الرسول إليهم إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها ، كقوله لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ، لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً

فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ . فإن قلت : كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول ، لدخول حرف الامتناع عليها دونه ؟ قلت : القول هو المقصود بأن يكون سببا لإرسال الرسل ، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها ، جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول ، فأدخلت عليها لولا ، وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية « 1 » ، ويؤول معناه إلى قولك : ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم

---

(1) . قال محمود : «لولا الأولى امتناعية ، والثانية تحضيضية . والفاء الأولى عاطفة والثانية جواب لولا .

والمعنى : لولا أنهم قائلون إذا عوقبوا : لولا أرسلت إلينا رسولا ، محتجين بذلك لما أرسلت إليهم أحدا . فان قلت :

كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة سببا في الإرسال لا القول ، لدخول حرف الامتناع عليها دونه ؟

قلت : العقوبة سبب القول ، وهي سبب السبب ، فجعلت سببا وعطف السبب الأصلى عليها بالفاء السببية» قال أحمد :

وذلك مثل قوله تعالى أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى والسر في جعل سبب السبب سببا ، وعطف السبب الأصلى عليه أمران ، أحدهما : أن مزيد العناية يوجب

التقديم ، وهذا هو السر الذي أبداه سيبويه . الثاني أن في هذا النظم تنبيها على سببية كل واحد منهما : أما الأول فلاقترانه بحرف التعليل ، وهو «أن» وأما الثاني ، فلاقترانه بفاء السبب ، ولا يتعاطى هذا المعنى إلا من قولك أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ لا من قول القائل : أن تذكر إحداهما الأخرى إذا ضلت ، وكان بعض النحاة يورد هذه الآية إشكالا على النحاة وعلى أهل السنة من المتكلمين ، فيقول : «لولا» عند أهل الفن تدل على امتناع جوابها لوجود ما بعدها ، وحينئذ يكون الواقع بعدها في الآية موجودا وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل ، وجوابها المحذوف غير واقع وهو عدم الإرسال ، لأنه ممتنع بالأولى . ومتى لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعا ضرورة ، فيشكل الواقع بعدها على أهل السنة ، لأنهم يقولون : لا ظلم قبل بعثه الرسل ، فلا تتصور العقوبة بتقدير عدم البعثة ، وذلك لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع ، فان لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة . ويشكل الجواب على النحاة ، لأنه يلزم أن لا يكون واقعا وهو عدم بعثة الرسل ، لكن الواقع بعدها يقتضي وقوعه ، ثم كان مورد هذا الاشكال يجيب عنه بتقدير محذوف . والأصل : ولولا كراهة أن تصيبهم مصيبة وحينئذ يزول الاشكال عن الطائفتين .

والتحقيق عندي في الجواب خلاف ذلك ، وإنما جاء الاشكال من حيث عدم تجويز النحاة لمعنى لولا أن يقولون :

أنها تدل على أن ما بعدها موجود وأن جوابها ممتنع به ، والتحرير في معناها أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها ، عكس «لو» فان معناها لزوم جوابها لما بعدها ، ثم المانع قد يكون موجودا وقد يكون مفروضا ، والآية من قبيل فرض وجود المانع ، وكذلك اللزوم في «لو» قد يكون الشيء الواحد لازما لشيئين ، فلا يلزم نفيه من نفي أحد ملزوميه . وعلى هذا التحرير يزول الاشكال الوارد على «لو» في قوله : نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه ، فتأمل هذا الفصل فتحته فوائد للمتأمل ، واللّه الموفق .

(81/588)

مصيبة لما أرسلنا ، ولكن اخترت هذه الطريقة لنكتة : وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما ألجئوا به إلى العلم اليقين : لم يقولوا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم . وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى ، كقوله تعالى وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ . ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدى : جعل كل عمل معبرا عنه باجتراح الأيدى وتقديم الأيدى وإن كان من أعمال القلوب ، وهذا من الاتساع في الكلام وتصيير الأقل تابعا للأكثر وتغليب الأكثر على الأقل .

[سورة القصص (28) : آية 48]

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (48)

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ وهو الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات وقطعت معاذيرهم وسدّ طريق احتجاجهم قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ، ومن قلب العصا حية وفلق البحر وغيرهما من الآيات ، فجاءوا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد ، كما قالوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، وما أشبه ذلك أَوَلَمْ يَكْفُرُوا يعنى أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم ، وهم الكفرة في زمن

(82/588)

موسى عليه السلام بِما أُوتِيَ مُوسى وعن الحسن رحمه اللّه : قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام ، فمعناه على هذا : أو لم يكفر آباؤهم قالُوا في موسى وهرون سِحْرانِ تَظاهَرا أى تعاونا . وقرئ إظهارا على الإدغام . وسحران ، بمعنى : ذوا سحر . أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر . أو أرادوا نوعان من السحر بِكُلٍّ بكل

واحد منهما .

فإن قلت : بم علقت قوله من قبل في هذا التفسير ؟ قلت : بأ ولم يكفروا ، ولي أن أعلقه بأوتي ، فينقلب المعنى إلى أن أهل مكة الذين قالوا هذه المقالة كما كفروا بمحمد صلى اللّه عليه وسلم وبالقرآن فقد كفروا بموسى عليه السلام وبالتوراة ، وقالوا في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام :

ساحران تظاهرا . أو في الكتابين : سحران تظاهرا ، وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فأخبروهم أنه نعته وصفته ، وأنه في كتابهم ، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود ، فقالوا عند ذلك : ساحران تظاهرا .

[سورة القصص (28) : آية 49]

قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (49)

هُوَ أَهْدى مِنْهُما مما أنزل على موسى عليه السلام ومما أنزل عليّ . هذا الشرط من نحو ما ذكرت أنه شرط المدل بالأمر المتحقق لصحته ، لأنّ امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين أمر معلوم متحقق لا مجال فيه للشكّ . ويجوز أن يقصد بحرف الشكّ : التهكم بهم .

[سورة القصص (28) : آية 50]

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

فإن قلت : ما الفرق بين فعل الاستجابة في الآية ، وبينه في قوله :

فلم يستجبه عند ذاك مجيب «1»

حيث عدّى بغير اللام ؟ قلت : هذا الفعل يتعدّى إلى الدعاء بنفسه وإلى الداعي باللام ، ويحذف الدعاء إذا عدّى إلى الداعي في الغالب ، فيقال ، استجاب اللّه دعاءه أو استجابة له ، ولا يكاد يقال : استجاب له دعاءه . وأما البيت فمعناه : فلم يستجب دعاءه ، على حذف المضاف . فإن قلت :

فالاستجابة تقتضي دعاء ولا دعاء هاهنا . قلت : قوله فأتوا بكتاب أمر بالإتيان والأمر بعث على الفعل ودعاء إليه ، فكأنه قال : فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى ، فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ، ثم قال وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ لا يتبع في

---

(1) . قوله «فلم يستجبه عند ذاك مجيب» صدره :

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى

اه عليان .

قلت : وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 456 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(83/588)

دينه إلا هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ أى مطبوعا على قلبه ممنوع الألطاف إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي أى لا يلطف بالقوم الثابتين على الظلم الذين اللاطف بهم عابث . وقوله بغير هدى في موضع الحال ، يعنى : مخذولا مخلى بينه وبين هواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 421.407 ﴾

(84/588)

وقال ابن جزى :

﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾ .

أي الأجل المذكور ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ الأهل هنا الزوجة مشى بها إلى مصر ﴿ جَذْوَةٍ ﴾ أي قطعة ، ويجوز كسر الجيم وضمها ، وقد ذكر آنس ، والطور ، وتصطلون .

﴿ شَاطِىءِ الوادي ﴾ جانبه والأيمن صفة للشاطئ اليمين ، ويحتمل أن يكون من اليمن فيكون صفة للوادي ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ روي : أنها كانت عوسجة ﴿ جَآنٌّ ﴾ ذكر من النمل ﴿ اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ أي أدخلها فيه ، والجيب هو فتح الجبة من يحث يخرج الإنسان رأسه ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ الجناح اليد أو الإبط أو العضد ، أمره الله لما خاف من الحية أن يضمه إلى جنبه ليخفَّ بذلك خوفه ، فإن من شاء الإنسان إذا فعل ذلك في وقت فزعه أن يخف خوفه ، وقيل : ذلك على وجه المجاز ، والمعنى أنه أمر بالعزم على ما أمر به : كقوله اشدد حيازيمك واربط جأشك .

﴿ مِنَ الرهب ﴾ أي من أجل الرَّهْب ، وهو الخوف ، وفيه ثلاثة لغات : فتح الراء والهاء ، وفتح الراء وإسكان الهاء ، وضم الراء وإسكان الهاء ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ ﴾ أي حجتان والإشارة إلى العصا واليد ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ ﴾ يتعلق بفعل محذوف يقتضيه الكلام .

﴿ رِدْءاً ﴾ أي معيناً ، وقرئ بالهمز وبغير همز على التسهيل من المهموز أو يكون من : أرديت أي زدت ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ استعارة في المعونة ﴿ بِآيَاتِنَآ ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله : نجعل أو يصلون أو بالغالبون .

﴿ فَأَوْقِدْ لِي يا هامان عَلَى الطين ﴾ أي اصنع الآجر لبنيان الصرح الذي رام أن يصعد منه إلى السماء ، ورُوي أنه أول من عمل الآجر ، وكان هامان وزير فرعون وانظر ضعف عقولهما وعقول قومهما ، وجهلهم بالله تعالى في كونهم طمعوا أن يصلوا إلى السماء ببنيان الصرح ، وقد روي أنه عمله وصعد عليه ورمى بسهم إلى السماء فرجع مخضوباً بدم ، وذلك فتنة له ولقومه وتهكم بهم ، ثم قال ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ يعني في دعوة الرسالة ، والظن هنا يحتمل أن يكون على بابه أو بمعنى اليقين .

﴿ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ أي كانوا يدعون الناس إلى الكفر المودجب للنار ﴿ مِّنَ المقبوحين ﴾ من المطرودين المبعدين ، وقيل : قبحت وجوههم ، وقيل : قبح ما فعل بهم وما يقال لهم .

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي ﴾ خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والمراد به إقامة حجة لإخباره بحال موسى ، وهو لم يحضره والغربي المكان الذي في غربي الطور ، وهو المكان الذي كلم الله فيه موسى ، والأمر المقضي إلى موسى هو النبوة . ومن الشاهدين : معناه من الحاضرين هناك .

﴿ وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ المعنى لم تحضر يا محمد للاطلاع على هذه الغيوب التي تخبر بها ، ولكنها صارت إليك بوحينا فكان الواجب على الناس المسارعة

إلى الإيمان بك ، ولكن تطاول الأمر على القرون التي أنشأناها ، فغابت عقولهم واستحكمت جهالتهم ، فكفروا بك ، وقيل : المعنى لكنا أنشأنا قروناً بعد زمان موسى فتطاول عليهم العمر ، وطالت الفترة فأرسلناك على فترة من الرسل ﴿ ثَاوِياً ﴾ أي مقيماً .

﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ يعني تكليم موسى ، والمراد بذلك إقامة حجة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لإخباره بهذه الأمور مع أنه لم يكن حاضراً حينئذ ﴿ ولكن رَّحْمَةً ﴾ انتصب على المصدر ، أو على أنه مفعول من أجله والتقدير : ولكن أرسلناك رحمة منا لك ورحمة للخلق بك .

(86/588)

﴿ ولولا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ لو هنا حرف امتناع ولولا الثانية عرض وتحضيض ، والمعنى لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل ، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة عليهم ، لئلا يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق ﴾ يعني القرآن ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قَالُواْ لولا أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ موسى ﴾ يعنون إنزال الكتاب عليه من السماء جملة

واحدة ، وقلب العصا حية وفلق البحر وشبه ذلك ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ هذا ردّ عليهم فيما طلبوه ، والمعنى أنهم كفروا بما أوتي موسى فلما آتينا محمداً مثل ذلك لكفروا به ، ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ على هذا يتعلق بقوله : ﴿ أُوتِيَ موسى ﴾ ، ويحتمل أن يتعلق بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ ﴾ ، إن كانت الآية في بني إسرائيل ، والأول أحسن ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ يعنون موسى وهارون ، أو موسى ومحمداً صلى الله عليه وسلم والضمير في ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ ﴾ وفي ﴿ قَالُواْ ﴾ لكفار قريش وقيل : لآبائهم ، وقيل لليهود والأول أظهر وأصح لأنهم المقصودون بالرد عليهم .

﴿ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ ﴾ أمر على وجه التعجيز لهم ﴿ أهدى مِنْهُمَآ ﴾ الضمير يعود على كتاب موسى وكتاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ ﴾ قد علم أنهم لا يستجيبون للاتيان بكتاب هو أهدى منهما أبداً ، ولكنه ذكره بحرف إن مبالغة في إقامة الحجة عليهم : كقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ [البقرة : 24] ، فاعلم أنما يتبعون أهواهم : المعنى إن لم يأتوا بكتاب فاعلم أن كفرهم عناد واتباع أهوائهم ، لا بحجة وبرهان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 105 . 108 ﴾

(87/588)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾

أي أتمه وفرغ منه ﴿ وسار بأهله ﴾ قيل مكث موسى بعد الأجل عند شعيب عشر سنين أخرى ثم استأذنه في العود إلى مصر فأذن له فسار بأهله أي زوجته قاصداً إلى مصر ﴿ آنس ﴾ أي أبصر ﴿ من جانب الطور ناراً ﴾ وذلك أنه كان في البرية في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق ﴿ قال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ أي عن الطريق لأنه كان قد أخطأ الطريق ﴿ أو جذوة من النار ﴾ أي قطعة وشعلة من النار وقيل : الجذوة العود الذي اشتعل بعضه ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون ﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن ﴾ يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى ﴿ في البقعة المباركة ﴾ جعلها الله مباركة لأن الله تعالى كلم موسى هناك وبعثه نبياً وقيل يريد البقعة المقدسة ﴿ من الشجرة ﴾ يعني من ناحية الشجرة قال ابن مسعود : كانت سمرة خضراء تبرق وقيل كانت غوسجة وقيل كانت من العليق وعن ابن عباس إنها العناب ﴿ أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ قيل إن موسى لم رأى النار في الشجرة الخضراء علم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة إلا الله تعالى فعلم بذلك أن المتكلم هو الله تعالى .

وقيل : إن الله تعالى خلق في نفس موسى علماً ضرورياً بأن المتكلم هو الله وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى .

(88/588)

وقيل : إنه قيل لموسى كيف عرفت أنه نداء الله قال إني سمعته بجميع أجزائي فلما وجد حس السمع من جميع الأجزاء علم بذلك أنه لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ يعني فألقاها ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ يعني تتحرك ﴿ كأنها جان ﴾ هي الحية الصغيرة والمعنى أنها في سرعة حركتها كالحية السريعة الحركة ﴿ ولى مدبراً ﴾ يعني هارباً منها ﴿ ولم يعقب ﴾ يعني ولم يرجع قال وهب إنها لم تدع شجرة ، ولا صخرة إلا بلعتها حتى إن موسى سمع صرير أسنانها وقعقعة الشجر والصخر في جوفها فحينئذ ولى مدبراً ولم يعقب فنودي عند ذلك ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ .

قوله ﴿ اسلك يدك ﴾ يعني أدخل يدك ﴿ في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ يعني برص والمعنى أنه أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ يعني من الخوف والمعنى إذا هالك أمر يدك وما تراه من شعاعها فأدخلها في جيبك تعد إلى حالتها الأولى وقال ابن عباس : أمر الله موسى أن يضم يده إلى

صدره فيذهب عنه ما ناله من الخوف عند معاينة الحية وما من خائف بعد موسى إلا إذا وضع يده صدره زال خوفه .

وقيل المراد من ضم الجناح السكون أي سكن روعك واخفض عليك جناحك لأن من شأن الخائف أن يضطرب قلبه ويرتعد بدنه .

(89/588)

وقيل الرهب الكم بلغة حمير ومعناه اضمم إليك يدك وأخرجها من كمك لأنه تناول العصا ويده في كمه ﴿ فذانك ﴾ يعني العصا واليد البيضاء ﴿ برهانان ﴾ يعني آيتان ﴿ من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ يعني خارجين عن الحق ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ يعني به ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ يعني بياناً وإنما قال ذلك للعقدة التي كانت في لسانه من وضع الجمرة في فيه ﴿ فأرسله معي ردءاً ﴾ يعني عوناً ﴿ يصدقني ﴾ يعني فرعون وقيل تصديق هارون هو أن يخلص الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل الكفار فهذا هو التصديق المفيد ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ يعني فرعون وقومه ﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ﴾ يعني سنقويك به وكان هارون بمصر ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ يعني حجة وبرهاناً ﴾

فلا يصلان إليكما ﴾ أي بقتل ولا سوء ﴿ بآياتنا ﴾ قيل معناه نعطيكما من المعجزات فلا يصلون إليكما ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ يعني لكما ولأتباعكما الغلبة على فرعون وقومه .

﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات ﴾ يعني واضحات ﴿ قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ﴾ يعني مختلق ﴿ وما سمعنا بهذا ﴾ يعني بالذي تدعونا إليه ﴿ في آبائنا الأولين وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ يعني أنه يعلم المحق من المبطل ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ يعني العقبى المحمودة في الدار الآخرة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ يعني الكافرون ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ فيه إنكار لما جاء به موسى من توحيد الله وعبادته ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين ﴾ يعني اطبخ لي الآجر قيل إنه أول من اتخذ آجراً وبنى به ﴿ فاجعل لي صرحاً ﴾ أي قصراً عالياً وقيل منارة .

(90/588)

قال أهل السير لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع هامان المال والفعلة حتى اجتمع عنده خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء وطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير ، وأمر بالبناء فبنوه ورفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان

أحد من الخلق وأراد الله أن يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه ، وأمر نشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهي ملطخة دماً فقال : قد قتلت إله موسى وكان فرعون يصعده راكباً على البراذين فبعث الله جبريل عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقعت قطعه منه على عسكره فقتلت منه ألف رجل ووقعت قطعه منه في البحر وقطعة في المغرب فلم يبق أحد عمل شيئاً فيه إلا هلك فذلك قوله ﴿ لعلي أطلع إلى إله موسى ﴾ يعني أنظر إليه وأقف على حاله ﴿ وإني لأظنه ﴾ يعني موسى ﴿ من الكاذبين ﴾ يعني في زعمه أن للأرض والخلق إلهاً غيري وأنه أرسله ﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض ﴾ يعني تعظموا عن الإيمان ولم ينقادوا للحق بالباطل والظلم ﴿ بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ يعني للحساب والجزاء ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ يعني فألقيناهم في البحر وهو القلزم ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ يعني حين صاروا إلى الهلاك ﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ يعني قادة ورؤساء ﴿ يدعون إلى النار ﴾ أي الكفر والمعاصي التي يستحقون به النار لأن من أطاعهم ضل ودخل النار ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ يعني لا يمنعون من العذاب ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ﴾ يعني خزياً وبعداً وعذاباً ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ يعني المبعدين وقيل المهلكين .

وقال ابن عباس من المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون .

وقوله ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ممن كانوا قبل موسى ﴿ بصائر للناس ﴾ ليبصروا ذلك فيهتدوا به ﴿ وهدى ﴾ يعني من الضلالة لمن عمل به ﴿ ورحمة ﴾ يعني لمن آمن به ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ يعني بما فيه من المواعظ ﴿ وما كنت ﴾ الخطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي وما كنت يا محمد ﴿ بجانب الغربي ﴾ يعني بجانب الجبل الغربي قال ابن عباس يريد حيث ناجى موسى ربه ﴿ إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ يعني عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ يعني الحاضرين ذلك المقام الذي أوحينا إلى موسى فيه فتذكره من ذات نفسك ﴿ ولكنا أنشأنا قروناً ﴾ يعني خلقنا بعد موسى أمماً ﴿ فتطاول عليهم العمر ﴾ يعني طالت عليهم المدة فنسوا عهد الله وتركوا أمره وذلك أن الله عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد والإيمان به فلما طال عليهم العمر وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها ﴿ وما كنت ثاوياً ﴾ أي مقيماً ﴿ في أهل مدين ﴾ أي كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿ تتلوا عليهم آياتنا ﴾ يعني تذكرهم بالوعد والوعيد وقيل معناه لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ أي أرسلناك رسولاً وأنزلنا إليك كتاباً فيه هذه الأخبار لتتلوها عليه ولولا ذلك لما علمتها أنت ولم تخبرهم بها .

﴿ وما كنت بجانب الطور ﴾ أي بناحية الجبل الذي كلم الله موسى عليه ﴿ إذ نادينا ﴾ أي موسى خذ الكتاب بقوة وقال وهب قال موسى : يا رب أرني محمداً وأمته قال إنك لن تصل إلى ذلك ولكن إن شئت ناديت أمته وأسمعتك صوتهم قال بلى يا رب قال الله تعالى : يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم .

وقال ابن عباس قال الله تعالى : يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء والأرحام أي أرحام الأمهات لبيك اللهم لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

(92/588)

قال الله تعالى : يا أمة محمد إن رحمتي سبقت غضبي وعفوي سبق عقابي قد أعطيتكم قبل أن تسألوني وقد أجبتكم قبل أن تدعوني وقد غفرت لكم قبل أن تستغفروني ومن جاءني يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة وإن كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي رحمناك رحمة بإرسالك والوحي إليك وإطلاعك على الأخبار الغائبة عنك ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ يعني أهل مكة ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ اعلم أن الله تعالى لما بين قصة موسى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) فجمع بين هذه الأحوال الثلاثة العظيمة التي اتفقت لموسى ؛ فالمراد بقوله

: " إذ قضينا إلى موسى الأمر " هو إنزال التوراة عليه حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين ﴾ أول أمر موسى والمراد بقوله إذ نادينا ليلة المناجاة فهذه أعظم أحوال موسى ولما بينها لرسوله ولم يكن في هذه الأحوال حاضراً بين الله أنه بعثه وعرفه هذه الأحوال الدالة على نبوته (صلى الله عليه وسلم) ومعجزته كأنه قال في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة دلالة ظاهرة على نبوتك .

قوله تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة ﴾ أي عقوبة ونقمة ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ يعني من الكفر والمعاصي ﴿ فيقولوا ربنا لولا ﴾ أي هلاّ ﴿ أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ ومعنى الآية لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة على كفرهم وقيل معناه لما بعثناك إليهم رسولاً ولكنا بعثناك إليهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا ﴾ يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) ﴿ قالوا ﴾ يعني كفار مكة ﴿ لولا ﴾ أي هلا ﴿ أوتي ﴾ محمد ﴿ مثل ما أوتي موسى ﴾ يعني من الآيات كالعصا واليد البيضاء .

(93/588)

وقيل : أوتي كتاباً جملة واحدة كما أوتي موسى التوراة قال الله تعالى ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ قيل إن اليهود أرسلوا إلى قريش أن يسألوا محمداً مثل ما أوتي موسى فقال الله تعالى : ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ يعني اليهود الذي استخرجوا هذا السؤال ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ يعني التوراة والقرآن يقوي كل واحد منهما الآخر وقيل ساحران يعني محمداً وموسى .

وقيل إن مشركي مكة بعثوا على رؤوس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد (صلى الله عليه وسلم) فأخبروهم أن نعته في كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهرا ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ يعني بالتوراة والقرآن وقيل بمحمد وموسى ﴿ قال ﴾ يا محمد ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ﴾ يعني من التوراة والقرآن ﴿ أتبعه ﴾ يعني الكتاب الذي تأتون به من عند الله وهذا تنبيه على عجزهم عن الإتيان بمثله ﴿ إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي فإن لم يأتوا بما طلبت ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ يعني أن ما ركبوه من الكفر لا حجة لهم فيه وإنما آثروا أتباعهم ما هم عليه من الهوى ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 172 . 176 ﴾

(94/588)

وقال النسفى :

﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل ﴾

قال عليه السلام " قضى أوفاهما وتزوج صغراهما " وهذا بخلاف الرواية التي مرت ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ بامرأته نحو مصر .

قال ابن عطاء : لما تم أجل المحنة ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة سار بأهله ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِنِّى ءَانَسْتُ نَاراً لَّعَلِي ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ عن الطريق لأنه قد ضل الطريق ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أتاها نُودِىَ مِن شَاطِىء الواد الأيمن ﴾ بالنسبة إلى موسى ﴿ فِى البقعة المباركة ﴾ بتكليم الله تعالى فيها ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ العناب أو العوسج ﴿ أَن يا موسى ﴾ "أن" مفسرة أو مخففة من الثقيلة ﴿ إِنِّى أَنَا الله رَبُّ العالمين ﴾ قال جعفر : أبصر ناراً دلته على الأنوار لأنه رأى النور في هيئة النار ، فلما دنا منها شملته أنوار القدس وأحاطت به جلابيب الأنس فخوطب بألطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلماً شريفاً أعطى ما سأل وأمن مما خاف ، والجذوة باللغات الثلاث وقريء بهن ، فعاصم بفتح الجيم ، وحمزة وخلف بضمها ، وغيرهم بكسرها .

العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن ، و "من" الأولى والثانية لابتداء الغاية أي أتاه

النداء من شاطيء الوادي من قبل الشجرة .

و﴿ من الشجرة ﴾ بدل ﴿ من شاطىء الواد ﴾ بدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطىء أي الجانب

(95/588)

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ونودي أن ألق عصاك فألقاها فقلبها الله ثعباناً ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ تتحرك ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ حية في سعيها وهي ثعبان في جثتها ﴿ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ يرجع فقيل له ﴿ يا موسى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنين ﴾ أي أمنت من أن ينالك مكروه من الحية ﴿ اسلك ﴾ أدخل ﴿ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ جيب قميصك ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاء ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوء ﴾ برص .

﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ﴾ حجازي بفتحتين وبصري .

﴿ الرَّهب ﴾ حفص ﴿ الرُّهب ﴾ غيرهم ومعنى الكل الخوف والمعنى : واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما بك من فرق أي لأجل الحية .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه .

وقيل : معنى ضم الجناح أن الله تعالى لما قلب العصا حية فزع موسى واتقاها بيده كما يفعل

الخائف من الشيء فقيل له : إن اتقاءك بيدك غضاضة عند الأعداء فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى .

والمراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه ، أو أريد بضم جناحه إليه تجلده وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب ، استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران .

ومعنى ﴿ من الرهب ﴾ من أجل الرهب أي إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك ، جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه .

ومعنى ﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ و ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين لاختلاف الغرضين إذ الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء ، وفي الثاني إخفاء الرهب .

(96/588)

ومعنى ﴿ واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾ [طه : 22] في "طه" أدخل يمناك تحت يسراك ﴿ فَذَانِكَ ﴾ مخففاً مثنى "ذاك" ومشدداً : مكي وأبو عمرو مثنى ذلك فإحدى النونين عوض من اللام المحذوفة والمراد اليد والعصا ﴿ برهانان ﴾ حجتان نيرتان بينتان وسميت الحجة برهاناً لإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة ﴿ مِن رَّبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيهِ ﴾ أي أرسلناك إلى فرعون وملئه بهاتين الآيتين ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فاسقين ﴾ كافرين .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ به بغير ياء وبالياء : يعقوب ﴿ وَأَخِى هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَاناً فَأَرْسِلْهِ مَعِىَ ﴾ حفص ﴿ رِدْءاً ﴾ حال أي عونا يقال ردأته أعنته ، وبلا همز : مدني ﴿ يُصَدِّقُنِى ﴾ عاصم وحمزة صفة أي رداً مصدقاً لي ، وغيرهما بالجزم جواب ل ﴿ أرسله ﴾ ومعنى تصديقه موسى إعانته إياه بزيادة البيان في مظان الجدال إن احتاج إليه ليثبت دعواه لا أن يقول له صدقت ، ألا ترى إلى قوله ﴿ هو أفصح مني لساناً فأرسله ﴾ وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت فسحبان وباقل فيه يستويان ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ .

﴿ يكذبوني ﴾ في الحالين : يعقوب ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ سنقويك به إذ اليد تشد بشدة العضد لأنه قوام اليد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الأمور ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا ﴾ غلبة وتسلطاً وهيبة في قلوب الأعداء ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا

بآياتنا ﴾ الباء تعلق ب ﴿ يصلون ﴾ أي لا يصلون إليكما بسبب آياتنا وتم الكلام ، أو ب ﴿ نجعل لكما سلطاناً ﴾ أي نسلطكما بآياتنا أو بمحذوف أي إذهبا بآياتنا ، أو هو بيان ل ﴿ الغالبون ﴾ لا صلة ، أو قسم جوابه ﴿ لا يصلون ﴾ مقدماً عليه ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾

(97/588)

واضحات ﴿ قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ أي سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله ، أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بهذا فِى ءابَائِنَا الأولين ﴾ حال منصوبة عن هذا أي كائناً في زمانهم يعني ما حدثنا بكونه فيهم ﴿ وَقَالَ موسى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَن جَاء بالهدى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ أي ربي أعلم منكم بحال من أهله الله للفلاح الأعظم حيث جعله نبياً وبعثه بالهدى ووعده حسن العقبى يعني نفسه ، ولو كان كما تزعمون ساحراً مفترياً لما أهله لذلك لأنه غني حكيم لا يرسل الكاذبين ولا ينبيء الساحرين ولا يفلح عنده الظالمون . وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة لقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عقبى الدار جنات عَدْنٍ ﴾ [الرعد : 22] والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي

الملائكة بالبشرى والغفران .

﴿ قال موسى ﴾ بغير واو : مكي وهو حسن لأن الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم موسى عند تسميتهم مثل تلك الآيات العظام سحراً مفترى ، ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك وقال موسى هذا ليوازن الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد أحدهما وصحة الآخر .

ربي أعلم حجازي وأبو عمرو و ﴿ من يكون ﴾ حمزة وعلي .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ قصد بنفي علمه بإله غيره نفي وجوده أي ما لكم من إله غيري أو هو على ظاهره وأن إلهاً غيره غير معلوم عنده ﴿ فَأَوْقِدْ لِى يا هامان عَلَى الطين ﴾ أي اطبخ لي الآجر واتخذه .

(98/588)

وإنما لم يقل مكان الطين هذا لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة بهذه العبارة ، ولأنه أفصح وأشبه بكلام الجبابرة إذ أمر هامان وهو وزيره بالإيقاد على الطين منادى باسمه ب "يا" في وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر ﴿ فاجعل لّى صَرْحاً ﴾ قصراً عالياً ﴿ لَّعَلّي أَطَّلِعُ ﴾ أي أصعد والاطلاع الصعود ﴿ إلى إله موسى ﴾ حسب أنه تعالى في مكان كما

كان هو في مكان ﴿ وَإِنِّى لأَظُنُّهُ ﴾ أي موسى ﴿ مِنَ الكاذبين ﴾ في دعواه أن له إلهاً وأنه أرسله إلينا رسولاً .

وقد تناقض المخذول فإنه قال ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ ثم أظهر حاجته إلى هامان ، وأثبت لموسى إلهاً وأخبر أنه غير متيقن بكذبه وكأنه تحصن من عصا موسى عليه السلام فلبّس وقال ﴿ لعلى أطلع إلى إله موسى ﴾ روي أن هامان جمع خمسين ألف بناء وبنى صرحاً لم يبلغه بناء أحد من الخلق ، فضرب الصرح جبريل عليه السلام بجناحه فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ، وقطعة في البحر ، وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا هلك

﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ ﴾ تعظم ﴿ فِى الأرض ﴾ أرض مصر ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ أي بالباطل ، فالاستكبار بالحق لله تعالى وهو المتكبر على الحقيقة أي المتبالغ في كبرياء الشأن كما حكى رسولنا عن ربه : ﴿ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار ﴾ وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ يَرجعون ﴾ نافع وحمزة وعلي وخلف ويعقوب ﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم ﴾ من الكلام المفخم الذي دل به على عظمة شأنه شبههم استقلالاً لعددهم وإن كانوا الجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ بكفه فطرحهن في البحر ﴿ فانظر ﴾ يا محمد ﴿

كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ وحذر قومك فإنك منصور عليهم .

﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ قادة ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ أي عمل أهل النار .

(99/588)

قال ابن عطاء : نزع عن أسرارهم التوفيق وأنوار التحقيق فهم في ظلمات نفوسهم لا يدلون على سبيل الرشاد .

وفيه دلالة خلق أفعال العباد ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ من العذاب

﴿ وأتبعناهم فِى هَذِهِ لَعْنَةً ﴾ ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة .

وقيل : هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بعدهم ﴿ وَيَوْمَ القيامة هُمْ مِّنَ المقبوحين ﴾ المطرودين المبعدين أو المهلكين المشوهين بسواد الوجوه وزرقة العيون ﴿ ويوم ﴾ ظرف ل ﴿ المقبوحين ﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ التوراة ﴿ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القرون الأولى ﴾ قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام ﴿ بَصَائِرَ للنَّاسِ ﴾ حال من ﴿ الكتاب ﴾ والبصيرة نور القلب الذي يبصر به الرشد والسعادة كما أن البصر نور العين الذي يبصر به الأجساد .

يريد آتيناه التوراة أنواراً للقلوب لأنها كانت عمياء لا تستبصر ولا تعرف حقاً من باطل ﴿

وهدى ﴾ وإرشاداً لأنهم كانوا يخبطون في ضلال ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لمن اتبعها لأنهم إذا عملوا بها وصلوا إلى نيل الرحمة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون .

(100/588)

﴿ وَمَا كُنْتَ ﴾ يا محمد ﴿ بِجَانِبِ ﴾ الجبل ﴿ الغربى ﴾ وهو المكان الواقع في شق الغرب وهو الذي وقع فيه ميقات موسى ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ أي كلمناه وقربناه نجياً ﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ من جملة الشاهدين للوحي إليه حتى تقف من جهة المشاهدة على ما جرى من أمر موسى في ميقاته ﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا ﴾ بعد موسى ﴿ قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ أي طالت أعمارهم وفترت النبوة وكادت الأخبار تخفى واندرست العلوم ووقع التحريف في كثير منها ، فأرسلناك مجدداً لتلك الأخبار مبيناً ما وقع فيه التحريف ، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى كأنه قال : وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحيناه إليك ، فذكر سبب الوحي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب اختصاراً فإذا هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً ﴾ مقيماً ﴿ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ تقرؤها عليهم تعلماً منهم يريد الآيات التي فيها قصة شعيب وقومه .

و﴿ تَتْلُو ﴾ في موضع نصب خبر ثانٍ أو حال من الضمير في ﴿ ثاويا ﴾ ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ ولكنا أرسلناك وأخبرناك بها وعلمناكها

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى أن خذ الكتاب بقوة ﴿ ولكن ﴾ أعلمناك وأرسلناك ﴿ رَحْمَةً ﴾ للرحمة ﴿ مّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَلَوْلا تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ﴾ عقوبة ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من الكفر والظلم.

(101/588)

ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي نسبت الأعمال إلى الأيدي وإن كانت من أعمال القلوب تغليباً للأكثر على الأقل عند العذاب ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءاياتك وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ "لولا" الأولى امتناعية وجوابها محذوف، والثانية تحضيضية، والفاء الأولى للعطف والثانية جواب "لولا" لكونها في حكم الأمر إذ الأمر باعث على الفعل والباعث والمحضض من وادٍ واحد، والفاء تدخل في جواب الأمر والمعنى: ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي هلا أرسلت إلينا رسولاً محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم يعني أن إرسال الرسول إنما هو ليلزموا الحجة ولا يلزموها كقوله: ﴿

لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] فإن قلت : كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول لدخول "لولا" الامتناعية عليها دونه ؟ قلت : القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال ولكن العقوبة لما كانت سبباً للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال فأدخلت عليها "لولا" وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية ، ويؤول معناه إلى قولك : ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا .

(102/588)

﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا ﴾ أي القرآن أو الرسول المصدق بالكتاب المعجز ﴿ قَالُواْ ﴾ أي كفار مكة ﴿ لَوْلا أُوتِىَ ﴾ هلا أعطي ﴿ مِثْلَ مَا أُوتِىَ موسى ﴾ من الكتاب المنزل جملة واحدة ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ ﴾ يعني أبناء جنسهم ومن مذهبهم مذهبهم وعنادهم عنادهم وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام ﴿ بِمَا أُوتِىَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ من قبل القرآن ﴿ قَالُواْ ﴾ في موسى وهارون ﴿ سِحْرانِ تَظَاهَرَا ﴾ ﴿ ساحران تظاهرا ﴾ تعاونا ﴿ سِحْرَانِ ﴾ كوفي أي ذوا سحر أو جعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلّ ﴾ بكل واحد منهما ﴿ كافرون ﴾ وقيل : إن أهل

مكة كما كفروا بمحمد عليه السلام وبالقرآن فقد كفروا بموسى والتوراة وقالوا في موسى ومحمد .

ساحران تظاهرا ، أو في التوراة والقرآن سحران تظاهرا ، وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد فأخبروهم أنه في كتابهم فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بقول اليهود فقالوا عند ذلك : ساحران تظاهرا .

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ مما أنزل على موسى ومما أنزل على ﴿ أَتَّبِعْهُ ﴾ جواب ﴿ فأتوا ﴾ ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في أنهما سحران ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ ﴾ فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فاعلم أنهم قد ألزموا ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله ﴾ أي لا أحد أضل ممن اتبع في الدين هواه و ﴿ بغير هدى ﴾ حال أي مخذولاً يخلى بينه وبين هواه ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 234.240 ﴾

(103/588)

وقال البيضاوى :

﴿ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾

بامرأته . روي أنه قضى أقصى الأجلين ومكث بعد ذلك عنده عشراً أخرى ثم عزم على الرجوع . ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً ﴾ أبصر من الجهة التي تلي الطور . ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِنِّى ءانَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ بخبر الطريق . ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ عود غليظ سواء كان في رأسه نار أو لم يكن .

قال :

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا . . . جَزْلَ الجذى غَيْرَ خوارٍ وَلاَ دَعِرِ

وقال آخر :

وَأَلْقَى عَلى قَبس مِنْ النَّارِ جَذْوَة . . . شَدِيداً عَلَيْهِ حَرُّهَا وَالتِهَابُهَا

ولذلك بينه بقوله : ﴿ مِنَ النار ﴾ وقرأ عاصم بالفتح وحمزة بالضم وكلها لغات . ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ تستدفئون بها .

﴿ فَلَمَّا أتاها نُودِىَ مِن شَاطِىء الواد الأيمن ﴾ أتاه النداء من الشاطىء الأيمن لموسى . ﴿ فِى البقعة المباركة ﴾ متصل بالشاطىء أو صلة ل ﴿ نُودِىَ ﴾ . ﴿ مِنَ الشجرة ﴾ بدل من شاطىء بدل الاشتمال لأنها كانت ثابتة على الشاطىء . ﴿ أَن يا موسى ﴾ أي

يا موسى . ﴿ إِنِّى أَنَا اللهُ رَبُّ العالمين ﴾ هذا وإن خالف ما في "طه" "والنمل" لفظاً فهو طبقه في المقصود .

(104/588)

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ أي فألقاها فصارت ثعباناً واهتزت ﴿ فَلَمَّا رَءاهَا تَهْتَزُّ ﴾ . ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ في الهيئة والجثة أو في السرعة . ﴿ ولى مُدْبِراً ﴾ منهزماً من الخوف . ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يرجع . ﴿ يَا موسى ﴾ نودي يا موسى . ﴿ أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمنين ﴾ من المخاوف ، فإنه لا ﴿ يَخَافُ لَدَىَّ المرسلون ﴾ ﴿ اسلك يَدَكَ فِى جَيْبِكَ ﴾ أدخلها . ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ عيب . ﴿ واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ يديك المبسوطتين تتقي بهما الحية كالخائف الفزع بإدخال اليمنى تحت عضد اليسرى وبالعكس ، أو بإدخالهما في الجيب فيكون تكريراً لغرض آخر وهو أن يكون ذلك في وجه العدو إظهار جراءة ومبدأ لظهور معجزة ، ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا حية استعارة من حال الطائر فإنه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه . ﴿ مِنَ الرهب ﴾ من أجل الرهب أي إذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلداً وضبطاً لنفسك . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر بضم

الراء وسكون الهاء ، وقرىء بضمهما ، وقرأ حفص بالفتح والسكون والكل لغات . ﴿ فَذَانِكَ ﴾ إشارة إلى العصا واليد ، وشدده ابن كثير وأبو عمرو ورويس . ﴿ برهانان ﴾ حجتان وبرهان فعلان لقولهم أبره الرجل إذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل إذا ابيض ، ويقال برهاء وبرهرهة للمرأة البيضاء وقيل فعلال لقولهم برهن . ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ مرسلاً بهما . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ فكانوا أحقاء بأن يرسل إليهم .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بها .

(105/588)

﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً ﴾ معيناً وهو في الأصل اسم ما يعان به كالدفء ، وقرأ نافع "ردا" بالتخفيف . ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ بتخليص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهة . ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ ولساني لا يطاوعني عند المحاجة ، وقيل المراد تصديق القوم لتقريره وتوضيحه لكنه أسند إليه إسناد الفعل إلى السبب ، وقرأ عاصم وحمزة ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ بالرفع على أنه صفة والجواب محذوف .

﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ سنقويك به فإن قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الأمور ، ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد . ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سلطانا ﴾ غلبة

أو حجة. ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ باستيلاء أو حجاج. ﴿ بآياتنا ﴾ متعلق بمحذوف أي اذهبا بآياتنا، أو ب ﴿ نَجْعَلِ ﴾ أي نسلطكما بها، أو بمعنى "لا يصلون" أي تمتنعون منهم، أو قسم جوابه "لا يصلون"، أو بيان ل ﴿ الغالبون ﴾ في قوله: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ﴾ بمعنى أنه صلة لما بينه أو صلة له على أن اللام فيه للتعريف لا بمعنى الذي.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ موسى بآياتنا بينات قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّفْتَرًى ﴾ سحر تختلقه لم يفعل قبل مثله، أو سحر تعمله ثم تفتريه على الله؛ أو سحر موصوف بالإفتراء كسائر أنواع السحر.

﴿ وَمَا سَمِعْنَا بهذا ﴾ يعنون السحر أو ادعاء النبوة. ﴿ فِي ءَابَآئِنَا الأَوَّلِينَ ﴾ كائناً في أيامهم.

(106/588)

﴿ وَقَالَ موسى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَن جَاء بالهدى مِنْ عِندِهِ ﴾ فيعلم أني محق وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير "قال" بغير واو لأنه قال ما قاله جواباً لمقالهم، ووجه العطف أن المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما فيميز صحيحهما من الفاسد. ﴿ وَمَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار

﴿ العاقبة المحمودة فإن المراد بالدار الدنيا وعاقبتها الأصلية هي الجنة لأنها خلقت مجازاً إلى الآخرة ، والمقصود منها بالذات هو الثواب والعقاب إنما قصد بالعرض . وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يَكُونَ ﴾ بالياء . ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسن العاقبة في العقبى .

(107/588)

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يا أيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِى ﴾ نفى علمه بإله غيره دون وجوده إذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه ، ولذلك أمر ببناء الصرح ليصعد إليه ويتطلع على الحال بقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِى ياهامان عَلَى الطين فاجعل لّي صَرْحاً لَّعَلِّى أَطَّلِعُ إلى إله موسى ﴾ كأنه توهم أنه لو كان لكان جسماً في السماء يمكن الترقي إليه ثم قال : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين ﴾ أو أراد أن يبني له رصداً يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها ما يدل على بعثة رسول وتبدل دولة ، وقيل المراد بنفي العلم نفي المعلوم كقوله تعالى : ﴿ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السموات وَلاَ فِى الأرض ﴾ فإن معناه بما ليس فيهن ، وهذا من خواص العلوم الفعلية فإنها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها لك انتفاؤها ، ولا كذلك العلوم الانفعالية ، قيل أول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك أمر باتخاذه على وجه

يتضمن تعليم الصنعة مع ما فيه من تعظم ؛ ولذلك نادى هامان باسمه ب ﴿ يا ﴾ في وسط الكلام . ﴿ واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الأرض بِغَيْرِ الحق ﴾ بغير استحقاق . ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ﴾ بالنشور . وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم .

﴿ فأخذناه وَجُنُودَهُ فنبذناهم فِى اليم ﴾ كما مر بيانه ، وفيه فخامة وتعظيم لشأن الآخذ واستحقار للمأخوذين كأنه أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ﴿ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مطويات بِيَمِينِهِ ﴾ ﴿ فانظر ﴾ يا محمد . ﴿ كَيْفَ كَانَ عاقبة الظالمين ﴾ وحذر قومك عن مثلها .

(108/588)

﴿ وجعلناهم أَئِمَّةً ﴾ قدوة للضلال بالحمل على الإضلال ، وقيل بالتسمية كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إناثا ﴾ أو بمنع الألطاف الصارفة عنه . ﴿ يَدْعُونَ إِلَى النار ﴾ إلى موجباتها من الكفر والمعاصي . ﴿ وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ﴾ بدفع العذاب عنهم .

﴿ وأتبعناهم فِى هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً ﴾ طرداً عن الرحمة ، أو لعن اللاعنين يلعنهم الملائكة

والمؤمنون. ﴿ وَيَوْمَ القيامة هُمْ مِّنَ المقبوحين ﴾ من المطرودين، أو ممن قبح وجوههم.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا موسى الكتاب ﴾ التوراة. ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا القرون الأولى ﴾ أقوام نوح وهود وصالح ولوط. ﴿ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أنواراً لقلوبهم تتبصر بها الحقائق وتميز بين الحق والباطل. ﴿ وهدى ﴾ إلى الشرائع التي هي سبل الله تعالى. ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لأنهم لو عملوا بها نالوا رحمة الله سبحانه وتعالى. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر، وقد فسر بالإرادة وفيه ما عرفت.

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى ﴾ يريد الوادي، أو الطور فإنه كان في شق الغرب من مقام موسى، أو الجانب الغربي منه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي ما كنت حاضراً. ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ إذ أوحينا إليه الأمر الذي أردنا تعريفه. ﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ للوحي إليه أو على الوحي إليه، وهم السبعون المختارون الميقات، والمراد الدلالة على أن إخباره عن ذلك من قبيل الإخبار عن المغيبات التي لا تعرف إلا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله:

(109/588)

﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ أي ولكنا أوحينا إليك لأنا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى فتطاولت عليهم المدد ، فحرفت الأخبار وتغيرت الشرائع واندرست العلوم ، فحذفت المستدرك وأقام سببه مقامه . ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً ﴾ مقيماً . ﴿ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ شعيب والمؤمنين به . ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ تقرأ عليهم تعلماً منهم . ﴿ ءايا تنا ﴾ التي فيها قصتهم . ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ إياك ومخبرين لك بها .

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ لعل المراد به وقت ما أعطاه التوراة وبالأول حين ما استنبأه لأنهما المذكوران في القصد . ﴿ ولكن ﴾ علمناك . ﴿ رَحْمَةً مّن رَّبِّكَ ﴾ وقرئت بالرفع على هذه ﴿ رَحْمَةً مّن رّبِّكَ ﴾ . ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً ﴾ متعلق بالفعل المحذوف . ﴿ مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى ، وهي خمسمائة وخمسون سنة ، أو بينك وبين إسماعيل ، على أن دعوة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام كانت مختصة ببني إسرائيل وما حواليهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يتعظون .

(110/588)

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ ﴿ لَوْلاَ ﴾ الأولى امتناعية والثانية تحضيضية واقعة في سياقها ، لأنها إنما أجيبت بالفاء

تشبيهاً لها بالأمر مفعول يقولوا المعطوف على تصيبهم بالفاء المعطية معنى السببيّة المنبهة على أن القول هو المقصود بأن يكون سبباً لانتفاء ما يجاب به ، وأنه لا يصدر عنهم حتى تلجئهم العقوبة والجواب محذوف والمعنى : لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين ، ما أرسلناك أي إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجة عليهم . ﴿ فَنَتَّبِعَ ءاياتك ﴾ يعني الرسول المصدق بنوع من المعجزات . ﴿ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ موسى ﴾ من الكتاب جملة واليد والعصا وغيرها اقتراحاً وتعنتاً .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ يعني أبناء جنسهم في الرأي والمذهب وهم كفرة زمان موسى ، أو كان فرعون عربياً من أولاد عاد . ﴿ قَالُواْ سَاحِران ﴾ يعني موسى وهارون ، أو موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام . ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا ﴾ تعاوناً بإظهار تلك الخوارق أو بتوافق الكتابين . وقرأ الكوفيون "سحران" بتقدير مضاف أو جعلهما سحرين مبالغة ، أو إسناد تظاهرهما إلى فعلهما دلالة على سبب الإعجاز . وقرىء ظاهراً على الإدغام . ﴿ وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ كافرون ﴾ أي بكل منهما أو بكل الأنبياء .

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ مما أنزل على موسى وعلى محمد صلى الله عليه وسلم وإضمارهما لدلالة المعنى ، وهو يؤيد أن المراد بالساحرين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام . ﴿ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ إنا ساحران مختلفان ، وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام والتبكيت ، ولعل مجيء حرف الشك للتهكم بهم . ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فحذف المفعول للعلم به ، ولأن فعل الاستجابة يعدى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي ، فإذا عدي إليه حذف الدعا غالباً كقوله :

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَا . . . فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ إذ لو اتبعوا حجة لأتوا بها . ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتبع هَوَاهُ ﴾ استفهام بمعنى النفي . ﴿ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ في موضع الحال للتأكيد أو التقييد ، فإن هوى النفس قد يوافق الحق . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 297.291 ﴾

(112/588)

وقال الخطيب الشربيني :

﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾

أي : أتمه وفرغ منه وزوّجه ابنته ، قال مجاهد مكث بعد ذلك عند صهره عشراً أخرى فأقام عنده عشرين سنة ، ثم إنّ شعيباً عليه السلام أراد أن يجازي موسى على رعيته إكراماً له وصلة لابنته فقال له إني وهبت لك من الجداء التي تضعها أغنامي هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله تعالى إلى موسى في المنام أن اضرب بعصاك الماء الذي في مستقى الأغنام قال فضرب موسى بعصاه الماء ثم سقى الأغنام منه فما أخطأت واحدة منها إلا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب أنّ ذلك رزق ساقه الله عز وجلّ إلى موسى وامرأته فوفى له بشرطه وسلم الأغنام إليه ، ثم إنّ موسى استأذنه في العود إلى مصر فأذن له فخرج ﴿ وسار بأهله ﴾ أي : امرأته راجعاً إلى أقاربه بمصر ﴿ آنس ﴾ أي : أبصر من بعيد ﴿ من جانب الطور ﴾ اسم جبل ﴿ ناراً ﴾ آنسته رؤيتها وكان في البرية في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق حينئذ ﴿ قال لأهله امكثوا ﴾ أي : ههنا ، وقرأ حمزة في الوصل بضم الهاء قبل همزة الوصل ، وعبر موسى عليه السلام بضمير الذكور فلعل كان معه بنون فغلبهم على امرأته ، وقد ذكرت غير ذلك في السورة التي قبل هذه ، ثم علل ذلك بقوله مؤكداً لاستبعاد أن يكون في ذلك المكان القفر وفي ذلك الوقت الشديد البرد ناراً

﴿ إني آنست ناراً ﴾ فتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو ، وسكنها الباقون ، كأنه قيل فماذا تعلم بها فقال معبراً بالترجي لأنه أليق بالتواضع ﴿ لعلى آتيكم منها ﴾ أي : من عندها ﴿ بخبر ﴾ أي : عن الطريق لأنه كان قد أخطأها ﴿ أوجذوة ﴾ أي : قطعة وشعلة ﴿ من النار ﴾ وقال قتادة ومقاتل : هو العود الذي احترق بعضه تنبيه : من النار صفة لجذوة ولا يجوز تعلقها بآتيكم كما تعلق به منها لأنّ هذه النار هي النار المذكورة ، والعرب إذا قدمت نكرة وأرادت إعادتها أعادتها مضمرة أو معرفة بأل العهدية وقد جمع الأمرين هنا ، وقرأ عاصم بفتح الجيم وحمزة بضمها ، والباقون بالكسر وكلها لغات وجمعها جذى ، ثم

(113/588)

استأنف قوله ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي : لتكونوا على رجاء من أن تقربوا من النار فتعطفوا عليها للتدفؤ ، وهذا دليل على أنّ الوقت كان شتاء .

﴿ فلما أتاها ﴾ أي : النار ، وبنى ﴿ نودي ﴾ للمفعول لأنّ آخر الكلام يدلّ دلالة واضحة على أنّ المنادي هو الله تعالى ولما كان نداؤه تعالى لا يشبه نداء غيره بل يكون من جميع الجوانب ومع ذلك قد يكون لبعض المواضع مزيد شرف بوصف من الأوصاف إمّا بأن

يكون أوّل السماع منه أو غيره ذلك أو يكون باعتبار موسى عليه السلام قال ﴿ من شاطئ الواد ﴾ فمِنْ : لابتداء الغاية ، وقوله تعالى ﴿ الأيمن ﴾ صفة للشاطئ أو للوادي ، والأيمن من اليمن وهو البركة أو من اليمين المعادل لليسار من العضوين ومعناه على هذا بالنسبة إلى موسى أي : الذي يلي يمينك دون يسارك ، والشاطئ ضفة الوادي والنهر أي : حافته وطرفه وكذا الشط والسيف والساحل كلها بمعنى ، وجمع الشاطئ أشطأ قاله الراغب وشاطأ فلاناً ماشيته سار بها على الشاطئ ، وقوله تعالى ﴿ في البقعة المباركة ﴾ متعلق بنودي أو بمحذوف على أنه حال من الشاطئ ومعنى المباركة جعلها الله تعالى مباركة لأنّ الله تعالى كلم موسى عليه السلام هناك وبعثه نبياً ، وقال عطاء : يريد المقدسة وقوله تعالى : ﴿ من الشجرة ﴾ بدل من شاطئ الوادي بإعادة الجار بدل اشتمال لأنّ الشجرة كانت ثابتة على الشاطئ ، قال البقاعي : ولعلّ الشجرة كانت كبيرة فلما وصل إليها دخل النور من طرفها إلى وسطها فدخلها وراءه بحيث توسطها فسمع وهو فيها الكلام من الله تعالى حقيقة وهو المتكلم سبحانه وتعالى لا الشجرة .

قال القشيري : وحصل الإجماع على أنه عليه السلام سمع تلك الليلة كلام الله تعالى ولو كان ذلك نداء الشجرة لكان المتكلم الشجرة وقال التفتازانيّ : في شرح المقاصد إنّ اختيار حجة الإسلام أنه سمع كلامه الأزليّ بلا صوت ولا حرف كما ترى ذاته في الآخرة بلا كمّ ولا كيف .

واختلف في الشجرة ما هي ؟ فقال ابن مسعود : كانت سمرة خضراء ، وقال قتادة ومقاتل والكلبي : كانت عوسجة ، وقال وهب : من العليق ، وعن ابن عباس أنها العناب ، ثم ذكر المنادى به بقوله تعالى : ﴿ أن يا موسى ﴾ فأَنْ هي مفسرة لا مخففة ﴿ إنّي أنا الله ﴾ أي : المستجمع للأسماء الحسنى والصفات العليا ، وفتح الياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وسكنها الباقون ثم وصف نفسه سبحانه تعالى بقوله ﴿ رب العالمين ﴾ أي : خالق الخلائق أجمعين ومربيهم ، قال البيضاوي : هذا وإن خالف ما في طه والنمل في اللفظ فهو طبقه في المقصود انتهى ، وقال ابن عادل : واعلم أنه تعالى قال في سورة النمل ﴿ نودي أن بورك من في النار ومن حولها ﴾ (النمل :)

وقال ههنا ﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ وقال في سورة طه ﴿ إني أنا ربك ﴾ ولا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر الكل إلا أنه تعالى حكى في كل سورة ما اشتمل عليه ذلك النداء ، ثم إنّ الله تعالى أمره أن يلقي عصاه ليريه آية بقوله تعالى:

﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أي : لأريك فيها آية فألقاها فصارت في الحال حية عظيمة وهي مع عظمها في غاية الخفة ﴿ فلما رآها ﴾ أي : العصا ﴿ تهتز ﴾ أي : تتحرّك كأنها في

سرعتها وخفتها ﴿ جانّ ﴾ أي : حية صغيرة ﴿ ولى مدبراً ﴾ خوفاً منها ولم يلتفت إلى جهتها وهو معنى قوله تعالى ﴿ ولم يعقب ﴾ أي : موسى عليه السلام وذلك كناية عن شدّة التصميم على الهرب والإسراع فيه خوفاً من الإدراك في الطلب فقيل له ﴿ يا موسى أقبل ﴾ أي : التفت وتقدّم إليها ﴿ ولا تخف ﴾ ثم أكد له الأمر لما الآدميُّ مجبول عليه من النفرة وإن اعتقد صحة الخبر بقوله تعالى : ﴿ إنك من الآمنين ﴾ أي : العريقين في الأمن كعادة إخوانك من المرسلين فإنه لا يخاف لديّ المرسلون ثم زاد طمأنينة بقوله تعالى:

(115/588)

﴿ اسلك ﴾ أي : ادخل على الاستقامة مع الخفة والرشاقة ﴿ يدك في جيبك ﴾ أي : القطع الذي في ثوبك وهو الذي يخرج منه الرأس أو هو الكم كما يدخل السلك وهو الخيط الذي ينظم فيه الدرّ ﴿ تخرج بيضاء ﴾ بياضاً عظيماً يكون له شأن خارق للعادات ﴿ من غير سوء ﴾ أي : عيب من أثر الحريق الذي عجز فرعون عن مداواته أو غيره فخرجت ولها شعاع كشعاع الشمس يعشي البصر تنبيه : قد ذكر هذا المعنى بثلاث عبارات إحداها هذه وثانيتها : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك ﴾ (طه :) وثالثتها : ﴿ وأدخل يدك في جيبك ﴾ (النمل ،) .

﴿ واضمم إليك جناحك ﴾ أي : يديك المبسوطتين تتقي بهما الحية كالخائف الفزع بإدخال اليمنى تحت عضد اليسرى وبالعكس ، أو بإدخالهما في الجيب فيكون تكريراً لغرضٍ آخر وهو أن يكون ذلك في وجه العدو أظهر جراءة ومبدأ لظهور معجزة ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا حية استعارة من حال الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه ، ومنه ما يحكي عن عمر بن عبد العزيز : أن كاتباً له كان يكتب بين يديه فانفلتت منه فلتة ريح فخجل وانكسر فقام وضرب بقلمه الأرض فقال له عمر : خذ قلمك واضمم إليك جناحك وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي .

ومعنى قوله تعالى ﴿ من الرهب ﴾ من أجل الرهب أي : إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك تجلداً وضبطاً لنفسك ، جعل الرهب الذي كان يصيبه سبباً وعلة فيما أمر به من ضم جناحه إليه ، قال الفراء : أراد بالجناح العصا ومعناه اضمم إليك عصاك ، قال البغويّ : وقيل الرهب الكمّ بلغة حمير ، قال الأصمعي : سمعت بعض الأعراب يقول أعطني ما في رهبك أي : في كمك ومعناه اضمم إليك يدك وأخرجها من الكمّ لأنه تناول العصا ويده في كمه انتهى ، قال الزمخشريّ معترضاً هذا القول:

ومن بدع التفاسير أن الرهب الكمّ بلغة حمير وأنهم يقولون أعطني ما في رهبك وليت شعري كيف صحته في اللغة وهل سمع من الأثبات الثقات الذين ترضى عربيتهم ثم ليت شعري كيف وقعه في الآية وكيف تطبيقه المفصل كسائر كلمات التنزيل على أن موسى عليه السلام ما كان عليه ليلة المناجاة إلا زرمانقة من صوف لا كمين لها انتهى .

ويحتمل أن يكون لها كمّ قصير فمن نفى نظر إلى قصره ومن أثبت نظر إلى أصله وحينئذٍ لا تعارض ، وفي البغوي عن ابن عباس : أن الله تعالى أمره أن يضم يده إلى صدره ليذهب عنه الروع وما ناله من الخوف عند معاينة الحية وقال : وما من خائف بعد موسى عليه السلام إلا إذا وضع يده على صدره زال خوفه ، وقال مجاهد : وكل من فزع فضمّ جناحه إليه ذهب عنه الفزع ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الراء والهاء وحفص بفتح الراء وسكون الهاء ، والباقون بضمّ الراء وسكون الهاء ، والكل لغات ، ولما تم كونه آية بانقلابها إلى البياض ثم رجوعها إلى لونها قال الله تعالى : ﴿ فذانك ﴾ أي : العصا واليد البيضاء ، وشدد ابن كثير وأبو عمرو النون ، وخففها الباقون ﴿ برهانان ﴾ أي : سلطانان وحجتان قاهرتان مرسلان ﴿ من ربك ﴾ أي : المحسن إليك لا يقدر على مثلهما غيره ﴿ إلى فرعون وملإيه ﴾ أي : وأنت مرسل بهما إليهم كلما أردت ذلك وجدته لأنهما يكونان لك هنا في هذه الحضرة فقط ، فإن قيل لم سميت الحجة برهاناً ؟

أجيب : بأنّ ذلك لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة بتكرير العين واللام معاً والدليل على زيادة النون قولهم أبره الرجل إذا جاء بالبرهان ونظيره تسميتهم إياها سلطاناً من السليط وهو الزيت لإنارتها ، ثم علل الإرسال إليهم على وجه إظهار الآيات لهم واستمرارها بقوله:

ا

(117/588)

﴿ إنهم كانوا ﴾ أي : جبلة وطبعاً ﴿ قوماً ﴾ أي : أقوياء ﴿ فاسقين ﴾ أي : خارجين عن الطاعة فكانوا أحقاء أن يرسل إليهم ، ولما قال تعالى : ﴿ فذانك برهانان ﴾ إلى آخره تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من يعينه بأن ﴿ قال رب ﴾ أي : أيها المحسن إليّ ﴿ إني قتلت منهم نفّساً ﴾ هو القبطي السابق وأنت تعلم أني ما خرجت إلا هارباً منهم لأجلها ﴿ فأخاف ﴾ إن بدأتهم بمثل ذلك ﴿ أن يقتلون ﴾ به لوحدتي وغربتي وثقل لساني في إقامة الحجج فأخاف أن يفوت المقصود بقتلي ولا يحمي من ذلك إلا أنت وإنّ لساني فيه عقدة .

﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ أي : من جهة اللسان للعقدة التي كانت حصلت

له من وضع الجمرة في فيه وهو طفل في كفالة فرعون ، وقيل كانت من أصل الخلقة والفصاحة لغةً الخلوص ومنه فصح اللبن خلص من رغوته وفصح الرجل جادت لغته ، وأفصح تكلم بالعربية ﴿ فأرسله ﴾ أي : بسبب ذلك ﴿ معي رِدْءاً ﴾ أي : معيناً من ردأت فلاناً بكذا أي : جعلته له قوّة وعاضداً وردأت الحائط إذا دعمته بخشب أو كبش يدفعه أن يسقط ، وقرأ نافع بنقل حركة الهمزة إلى الدال وحذف الهمزة ، والباقون بسكون الدال وتنوين الهمزة بعدها ، ولما كان له عليه من العطف والشفقة ما يقصر الوصف عنه نبه على ذلك بإجابة السؤال بقوله ﴿ يصدّقني ﴾ أي : بأن يخلص بفصاحته ما قلته ويبينه ويقيم الأدلة عليه حتى يصير كالشمس وضوحاً فيكون مع تصديقه لي بنفسه سبباً في تصديق غيره لي .

(118/588)

وقرأ عاصم وحمزة بضم القاف على الاستئناف أو الصفة لردءاً والباقون بالسكون جواباً للأمر ، قال الرازي : ليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وإنما هو أن يخلص بلسانه الفصيح وجوب الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ، وفائدة الفصاحة إنما تظهر في ذلك لا في مجرّد قوله

صدقت ، قال السدي : نبيان وآيتان أقوى من نبي واحد وآية واحدة وهذا ظاهر من جهة العادة وأما من جهة الدلالة فلا فرق بين معجز ومعجزين ، ثم علل سؤاله هذا بقوله ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ أي : فرعون وقومه ولساني لا يطاوعني عند المحاجة .

﴿ قال ﴾ الله تعالى له مجيباً لسؤاله ﴿ سنشدّ عضدك ﴾ أي : أمرك ﴿ بأخيك ﴾ أي : سنقويك ونعينك به ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ أي : ظهوراً عظيماً وغلبة لهم بالحجج والهيبة لأجل ما ذكرت من الخوف ﴿ فلا ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أنهم لا ﴿ يصلون إليكما ﴾ بنوع من أنواع الغلبة ﴿ بآياتنا ﴾ أي : نجعل ذلك بسبب ما يظهر على أيديكما من الآيات العظيمة بنسبتها إلينا ولذلك كانت النتيجة ﴿ أنتما ومن اتبعكما ﴾ من قومكما وغيرهم ﴿ الغالبون ﴾ أي : لا غيركم وهذا يدل على أنّ فرعون لم يصل إلى السحرة بشيء مما هددهم به لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين أنفسهم في الله تعالى وليس في القرآن ما يدل على أنه فعل بهم ما أوعدهم به .

قال البقاعي : وكأنه حذف أمرهم هنا لأنه في بيان أمر فرعون وجنوده بدليل ما كرّر من ذكرهم وقد كشفت العاقبة عن أنّ السحرة ليسوا من جنوده بل من حزب الله تعالى وجنده ، ومع ذلك فقد أشار إليهم بهذه الآية والتي بعدها . اه ولما كان التقدير فأتاهم كما أمره الله تعالى وعاضده أخوه كما أخبر الله تعالى ودعاهم إلى الله تعالى وأظهرا ما أمرا به من الآيات بنى عليه مبيناً بالفاء سرعة امتثاله .

﴿ فلما جاءهم ﴾ أي : فرعون وقومه ولما كانت رسالة هارون عليه السلام إنما هي تأييد لموسى عليه السلام أشار إلى ذلك بالتصريح باسم الجائي بقوله تعالى : ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي : التي أمرناه بها الدالة على جميع الآيات للتساوي في خرق العادة حال كونها ﴿ بينات ﴾ أي : في غاية الوضوح ﴿ قالوا ﴾ أي : فرعون وقومه ﴿ ما هذا ﴾ أي : الذي أظهرته من الآيات ﴿ إلا سحر مفترى ﴾ أي : مختلق لا أنه معجزة من عند الله ثم ضموا إليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم ﴿ وما سمعنا ﴾ أي : ما حدّثنا ﴿ بهذا ﴾ أي : الذي تدعونا إليه وتقوله من الرسالة عن الله تعالى ﴿ في آبائنا ﴾ وأشاروا إلى البدعة التي أضلت كثيراً من الخلق وهي تحكيم عوائد التقليد لا سيما عند تقادمها على القواطع في قولهم ﴿ الأولين ﴾ وقد كذبوا وافتروا لقد سمعوا بذلك على أيام يوسف عليه السلام .

وما بالعهد من قدم

﴿ فقد قال لهم الذي آمن ﴾ يا قوم أني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب إلى قوله ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ .

﴿ و ﴾ لما كذبوه وهم الكاذبون ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ربي ﴾ أي : المحسن إليّ

﴿ أعلم ﴾ أي : عالم ﴿ بمن جاء بالهدى ﴾ أي : الذي أذن الله تعالى فيه وهو حق في نفسه ﴿ من عنده ﴾ فيعلم أني محق وأنتم مبطلون ، وقرأ ابن كثير بغير واوٍ قبل القاف لأنه قاله جواباً لمقالهم ، والباقون بالواو لأنّ المراد حكاية القولين ليوازن الناظر بينهما ليميز صحيحهما من فاسدهما ﴿ ومن تكون له ﴾ أي : لكونه منصوراً مؤيداً ﴿ عاقبة الدار ﴾ أي : الراحة والسكن والاستقرار ، فإن قيل : العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسميا عاقبة الدار لأنّ الدنيا إما أن تكون خاتمتها بخير أو بشر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمها بالشرّ ؟ .

(120/588)

أجيب : بأنّ الله تعالى قد وضع الدنيا مجازاً إلى الآخرة وأراد بعباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ، وما خلقهم إلا لأجله ليبلغوا خاتمة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تخويف الفجار ، وقرأ حمزة والكسائيّ بالياء على التذكير ، والباقون بالتاء على التأنيث ، ثم علل ذلك بما أجرى الله تعالى به عادته فقال معلماً بأنّ المخذول هو الكاذب إشارة إلى أنه الغالب لكون الله تعالى معه مؤكداً لما استقرّ في الأنفس من أنّ القويّ لا يغلبه الضعيف ﴿ إنه لا يفلح ﴾ أي : لا يظفر ولا يفوز ﴿ الظالمون ﴾ أي : الكافرون الذين

يمشون كما يمشي من هو في الظلام بغير دليل .

﴿ وقال فرعون ﴾ جواباً لهذا الترغيب والترهيب ﴿ يا أيها الملأ ﴾ أي : الأشراف معظماً لهم استجلاباً لقلوبهم ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ فتضمن كلامه نفي إلهية غيره وإثبات إلهية نفسه فكأنه قال : ما لكم من إله إلا أنا كما قال الله تعالى ﴿ قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ (يونس :)

أي : بما ليس فيهنّ وذلك أنّ العلم تابع للموجود لا يتعلق به إلا على ما هو عليه فإذا كان الشيء معدوماً لم يتعلق به موجود فمن ثم كان انتفاء العلم بوجوده انتفاء لوجوده ، فعبر عن انتفاء وجوده بانتفاء العلم بوجوده ، ويجوز أن يكون على ظاهره وأنّ إلهاً غير معلوم عنده ولكنه مظنون بدليل قوله ﴿ وأني لأظنه من الكاذبين ﴾ وإذا ظنه كاذباً في إثباته إلهاً غيره ولم يعلمه كاذباً فقد ظنّ أنّ في الوجود إلهاً غيره ولو لم يكن المخذول ظاناً ظناً كاليقين بل عالماً بصحة قول موسى لقول موسى له .

(121/588)

﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ ثم تسبب عن جهله قوله لوزيره معلماً له صنعة الآجر لأنه أوّل من عمله ، قال عمر رضي الله تعالى عنه حين سافر

إلى الشام ورأى القصور المشيدة بالآجر ما علمت أنّ أحداً بنى بالآجر غير فرعون ﴿ فأوقد لي ﴾ وأضاف الإيقاد إليه إعلاماً بأنه لا بدّ منه ﴿ يا هامان ﴾ وهو وزيره ﴿ على الطين ﴾ أي : المتخذ لبناً ليصير آجراً ، ثم تسبب عن الإيقاد قوله ﴿ فاجعل لي ﴾ أي : منه ﴿ صرحاً ﴾ أي : قصراً عالياً ، وقيل : منارة ، وقال الزجاج : هو كل بناء متسع مرتفع ﴿ لعلي أطلع ﴾ أي : أتكلف الطلوع ﴿ إلى إله موسى ﴾ أي : الذي يدعو إليه فإنه ليس في الأرض أحد بهذا الوصف الذي ذكره فأنا أطلبه في السماء موهماً لهم أنه مما يمكن الوصول إليه وهو قاطع بخلاف ذلك ولكنه يقصد المدافعة من وقت إلى وقت .

قال أهل السير : لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع العمال والفعلة حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ومن يطبخ الآجر والجص وينجر الخشب ويضرب المسامير فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد من الخلق أراد الله تعالى أن يفتنهم فيه فلما فرغوا منه ارتقى فرعون فوقه فأمر بنشابه فضرب بها نحو السماء فردّت إليه وهي ملطخة دماً فقال : قد قتلت إله موسى وكان فرعون يصعد على البراذين فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام فضرب الصرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع فوقع منها قطعة على عسكر فرعون فقتلت منهم ألف ألف رجل ، ووقعت قطعة في البحر ، وقطعة في المغرب ولم يبق أحد ممن عمل فيه بشيء إلا هلك ثم زادهم شكاً بقوله مؤكداً لأجل رفع ما استقرّ في الأنفس من صدق موسى عليه السلام ﴿ وإني لأظنه ﴾ أي : موسى عليه

السلام ﴿ من الكاذبين ﴾ أي : دأبه ذلك وفرعون هو الذي قد لبس وكذب ووصف أصدق أهل ذلك الزمان بصفة نفسه الغريقة في العدوان .

(122/588)

﴿ واستكبر ﴾ أي : أوجد الكبر بغاية الرغبة فيه ﴿ هو ﴾ بقوله هذا الذي صدّهم به عن السبيل ﴿ وجنوده ﴾ بإعراضهم لشدّة رغبتهم في الكبر على الحق والاتباع للباطل ﴿ في الأرض ﴾ أي : أرض مصر قال البقاعي : ولعله عرّفها إشارة إلى أنه لو قدر على ذلك في غيرها فعل ﴿ بغير الحق ﴾ أي : بغير استحقاق قال البقاعي : والتعبير بالتعريف يدل على أنّ التعظيم بنوع من الحق ليس بكبر وإن كانت صورته كذلك وأما تكبره سبحانه فهو بالحق كله قال صلى الله عليه وسلم فيما حكاه عن ربه : "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار" ﴿ وظنوا ﴾ أي : فرعون وجنوده ظناً بنوا عليه اعتقادهم في أصل الدين الذي لا يكون إلا بقاطع ﴿ أنهم إلينا ﴾ أي : إلى حكمنا خاصة الذي يظهر عند انقطاع الأسباب ﴿ لا يرجعون ﴾ بالنشور ، وقرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح الياء وكسر الجيم والباقون بضمّ الياء وفتح الجيم ، ولما تسبب عن ذلك إهلاكهم قال تعالى:

﴿ فأخذناه وجنوده ﴾ كلهم أخذ قهر ونقمة وذلك علينا هيّن وأشار تعالى إلى احتقارهم بقوله تعالى : ﴿ فنبذناهم ﴾ أي : طرحناهم ﴿ في اليم ﴾ أي : البحر المالح فغرقوا فكانوا على كثرتهم وقوّتهم كحصيات صغار قذفها الرامي الشديد الدرء من يده في البحر ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات ﴾ (المرسلات ،)

وقوله تعالى ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ (الحاقة :)

ولما تسبب عن هذه الآيات من العلوم ما لا تحيط به الفهوم قال تعالى:

(123/588)

﴿ فانظر ﴾ أي : أيها المعتبر بالآيات الناظر فيها نظر اعتبار ﴿ كيف كان عاقبة ﴾ أي : آخر أمر ﴿ الظالمين ﴾ حيث صاروا إلى الهلاك فحذِّر قومك عن مثلها وفي هذا إشارة إلى أنّ كل ظالم تكون عاقبته هكذا إن صابره المظلوم المحق ورابطه ﴿ حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ ولما كان : "من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة" قال الله تعالى:

﴿ وجعلناهم ﴾ أي : في الدنيا ﴿ أئمة ﴾ أي : قدوة للضلال بالحمل على الإضلال ،

وقيل بالتسمية كقوله تعالى ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ (الزخرف :)

أو بمنع الألطاف الصارفة عنه ﴿ يدعون ﴾ أي : يوجدون الدعاء لمن اغتر بحالهم فضل بضلالهم ﴿ إلى النار ﴾ أي : إلى موجباتها من الكفر والمعاصي ، وأمّا أئمة الحق فإنما يدعون إلى موجبات الجنة من فعل الطاعات والنهي عن المنكرات : جعلنا الله تعالى وأحبابنا معهم بمحمد وآله ، ولما كان الغالب من حال الأئمة النصرة وقد أخبر عن خذلانهم في الدنيا قال تعالى : ﴿ ويوم القيامة ﴾ أي : الذي هو يوم التغابن ﴿ لا ينصرون ﴾ أي : لا يكون لهم نوع نصرة تدفع العذاب عنهم .

﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ﴾ أي : طرداً عن الرحمة ودعاء عليهم بذلك من كل من سمع خبرهم بلسانه إن خالفهم أو بفعله الذي يكون عليهم مثل وزره إن وافقهم ، وإنما قال الله تعالى : ﴿ الدنيا ﴾ ولم يقل الحياة ، قال البقاعي : لأنّ السياق لتحقير أمرهم ودناءة شأنهم .

(124/588)

﴿ ويوم القيامة هم ﴾ أي : خاصة ومن شاكلهم ﴿ من المقبوحين ﴾ أي : المبعدين أيضاً المخزيين مع قبح الوجوه والأشكال والشناعة في الأقوال والأفعال والأحوال من القبح الذي هو ضد الحسن من قولهم : قبح الله العدو أبعده عن كل خير ، وقال أبو عبيدة : من المهلكين ، قال البقاعي : فيا ليت شعري أي : صراحة بعد هذا في أنّ فرعون عدوّ الله في الآخرة كما كان عدوّ الله في الدنيا فلعنة الله على من يقول إنه مات مؤمناً وأنه لا صراحة في القرآن بأنه من أهل النار وعلى من يشك في كفره بعدما ارتكبه من جلي أمره انتهى ، وقد قدّمت الكلام في سورة يونس على قول فرعون وأنا من المسلمين .

ثم إنه تعالى أخبر عن أساس إمامة بني إسرائيل مقسماً عليه مع الافتتاح بحرف التوقع بقوله .

﴿ ولقد آتينا ﴾ أي : بما لنا من الجلال والكمال ﴿ موسى الكتاب ﴾ أي : التوراة الجامعة للهدى والخير في الدارين ، قال أبو حيان : وهو أوّل كتاب نزلت فيه الفرائض والأحكام .

﴿ من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ﴾ أي : من قوم نوح إلى قوم فرعون وقوله تعالى ﴿ بصائر للناس ﴾ حال من الكتاب جمع بصيرة وهي نور القلب أي : أنوار القلوب فيبصر بها الحقائق ويميز بين الحق والباطل كما أنّ البصر نور العين الذي تبصر به ﴿ وهدى ﴾ أي : للعامل بها إلى كل خير ﴿ ورحمة ﴾ أي : نعمة هنيئة شريفة لأنها قائدة إليهما ، ولما ذكر حالها ذكر حالهم بعد إنزالها بقوله تعالى : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي : ليكون حالهم حال من يرجى تذكره ، ثم إنّ الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى:

﴿ وما كنت ﴾ أي : يا أفضل الخلق ﴿ بجانب الغربي ﴾ قال قتادة : بجانب الجبل الغربي ، وقال الكلبي : بجانب الوادي الغربي أي : الوادي من الطور الذي رأى موسى عليه السلام فيه النار وهو ما يلي البحر من جهة الغرب على يمين المتوجه إلى ناحية مكة المشرّفة من ناحية مصر فناداه فيه العزيز الجبار وهو ذو طوى ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ قضينا ﴾ أي : أوحينا ﴿ إلى موسى الأمر ﴾ أي : أمر الرسالة إلى فرعون وقومه وما يريد أن يفعل من ذلك في أوّله وأثنائه وآخره مجملاً فكان كل ما أخبرنا به مطابقاً تفصيله لإجماله ﴿ وما كنت ﴾ أي : بوجه من الوجوه ﴿ من الشاهدين ﴾ لتفاصيل ذلك الأمر الذي أجملناه لموسى عليه السلام حتى تخبر به كله على هذا الوجه الذي آتيناك به في هذه الأساليب المعجزة ، ولا شك أنّ معرفتك لذلك من قبيل الأخبار عن المغيَّبات التي لا تعرف إلا بالوحي ولذلك استدرك عنه بقوله تعالى:

﴿ ولكنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ أنشأنا ﴾ بعد ما أهلكنا أهل ذلك الزمان الذين علموا هذه الأمور بالمشاهدة وهم السبعون المختارون للميقات أو بالإخبار كلهم ﴿ قروناً ﴾ أي : أمماً كثيرة بعد موسى عليه السلام ﴿ فتطاول ﴾ أي : بمروره وعلوه

﴿ عليهم العمر ﴾ أي : ولكنا أوحينا إليك أنا أنشأنا قروناً مختلفة بعد موسى عليه السلام فتطاولت عليهم المدد فنسوا العهود واندرست العلوم وانقطع الوحي فحذف المستدرك وهو أوحينا وأقام سببه وهو الإنشاء مقامه على عادة الله تعالى في اختصاراته فهذا الاستدراك شبيه بالاستدراكين بعده ، فإن قيل : ما الفائدة في إعادة قوله تعالى : ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ بعد قوله : ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ لأنه ثبت بذلك أنه لم يكن شاهداً لأنّ الشاهد لا بدّ أن يكون حاضراً ؟

أجيب : بأنّ ابن عباس قال : التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت ما شاهدت تلك الوقائع فإنه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى .

(126/588)

وقرأ أبو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم ، وحمزة والكسائي بضمّ الهاء والميم ، وحمزة في الوقف بضمّ الهاء وسكون الميم ، والباقون في الوصل بكسر الهاء وضمّ الميم ، ولما نفى العلم عن ذلك بطريق الشهود نفي سبب العلم بذلك بقوله تعالى : ﴿ وما كنت ثاوياً ﴾ أي : مقيماً إقامة طويلة مع الملازمة بمدين ﴿ في أهل مدين ﴾ أي : قوم شعيب عليه السلام كمقام موسى وشعيب فيهم ﴿ تتلوا ﴾ أي : تقرأ ﴿ عليهم ﴾ تعلماً منهم ﴿ آياتنا ﴾

العظيمة التي منها قصتهما لتكون ممن يهتم بأمور الوحي ويتعرّف دقيق أخباره فيكون خبرهم وخبر موسى عليه السلام معك ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ إياك رسولاً وأنزلنا عليك كتاباً فيه هذه الأخبار تتلوها عليهم ولولا ذلك ما علمتها ولم تخبرهم بها .

﴿ وما كنت بجانب الطور ﴾ أي : بناحية الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ﴿ إذ ﴾ أي : حين ﴿ نادينا ﴾ أي : أوقعنا النداء لموسى عليه السلام فأعطيناه التوراة وأخبرناه بما لا يمكن الاطلاع عليه إلا من قبلنا أو من قبله ، ومن المشهور أنك لم تطلع على شيء من ذلك من قبله لأنك ما خالطت أحداً ممن حمل تلك الأخبار عن موسى عليه السلام ولا أحداً حملها ممن حملها عنه ولكن كان ذلك إليك منا ، وهو معنى قوله تعالى ﴿ ولكن ﴾ أي : أنزلنا ما أردنا وأرسلناك به ﴿ رحمة من ربك ﴾ لك خصوصاً وللخلق عموماً .

(127/588)

وقيل : إذ نادينا موسى خذ الكتاب بقوّة ، وقال وهب : قال موسى يا رب أرني محمداً قال إنك لن تصل إلى ذلك وإن شئت ناديت أمّته وأسمعتك صوتهم قال : بلى يا رب فقال الله تعالى : يا أمّة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم ، وقال أبو زرعة : نادى يا أمّة محمد قد

أجبتكم قبل أن تدعوني وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، وروي عن ابن عباس ورفعه بعضهم : قال الله تعالى يا أمّة محمد فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الأمّهات لبيك اللهمّ لبيك إن الحمد لله والنعمة لك والملك لا شريك لك ، قال الله تعالى يا أمّة محمد إنّ رحمتي سبقت غضبي وعفوي عقابي قد أعطيتكم قبل أن تسألوني وقد أجبتكم من قبل أن تدعوني وقد غفرت لكم من قبل أن تستغفروني من جاء يوم القيامة بشهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبدي ورسولي دخل الجنة وإن كانت ذنوبه أكثر من زبد البحر .

تنبيه : قال البيضاوي : لعل المراد به أي : بقوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ (القصص :)

وقت ما أعطاه التوراة وبالأول أي : قوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا ﴾ حيث استنبأناه لأنهما المذكوران في القصة وقوله تعالى ﴿ لتنذر ﴾ أي : لتحذر تحذيراً كثيراً ﴿ قوماً ﴾ أي : أهل قوّة ونجدة ليس بهم عائق عن أعمال الخير العظيمة إلا الإعراض عنك ، وهم العرب ومن في ذلك الزمان من الخلق يتعلق بالفعل المحذوف ﴿ ما أتاهم ﴾ وعمم النفي بزيادة الجار في قوله تعالى : ﴿ من نذير ﴾ وزيادة الجار في قوله تعالى ﴿ من قبلك ﴾ يدل على الزمن القريب وهو زمن الفترة بينه وبين عيسى عليهما الصلاة والسلام وهو خمسمائة وخمسون سنة ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ (يس :)

وقيل : ليس المراد زمن الفترة بل ما بينه وبين إسماعيل عليهما السلام على أنّ دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني إسرائيل وما حولهم ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي : يتعظون .

(128/588)

﴿ ولولا أن تصيبهم ﴾ أي : في وقت من الأوقات ﴿ مصيبة ﴾ أي : عظيمة ﴿ بما قدّمت أيديهم ﴾ أي : من المعاصي التي قضينا بأنها مما لا يعفى عنها ﴿ فيقولوا ربنا ﴾ أي : أيها المحسن إلينا ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ولم لا ﴿ أرسلت إلينا ﴾ أي : على وجه التشريف لنا لنكون على علم بأنا ممن يعتني الملك الأعلى به ﴿ رسولاً ﴾ وأجاب التحضيض الذي شبهوه بالأمر ليكون كل منهما باعثاً على الفعل بقوله تعالى : ﴿ فنتبع ﴾ أي : فيتسبب عن إرسال رسولك أن نتبع ﴿ آياتك ونكون ﴾ أي : كوناً هو في غاية الرسوخ ﴿ من المؤمنين ﴾ أي : المصدقين لك في كل ما أتى به عنك رسولك تنبيه (لولا) الأولى : امتناعية وجوابها محذوف تقديره كما قال الزجاج ما أرسلنا إليهم رسولاً يعني أنّ الحامل على إرسال الرسل إزاحة عللهم بهذا القول فهو كقوله تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (النساء :)

والثانية : تحضيضية وتتبع جوابها كما مرّ فلذلك أضمر أن ، فإن قيل : كيف استقام هذا

المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول لدخول حرف الامتناع عليها دونه؟ .d

أجيب : بأنّ القول هو المقصود بأن يكون سبباً للإرسال ولكنّ العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب للإرسال بواسطة القول فأدخلت عليها (لولا) وجيء بالقول معطوفاً عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويؤول معناه إلى قولك ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكتة وهي أنهم لو لم يعاقبوا مثلاً على كفرهم وقد عاينوا ما ألجؤا به إلى العلم اليقيني ببطلان دينهم لم يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً بل إنما يقولون إذا نالهم العقاب ، وإنما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان بخالقهم عز وجل وفي هذا من الشهادة القوية على استحاكم كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفي وهو كقوله تعالى : ﴿ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ (الأنعام :)

(129/588)

ولما كان التقدير ولكنا أرسلناك بالحق لقطع حجتهم هذه بنى عليه .

﴿ فلما جاءهم ﴾ أي : أهل مكة ﴿ الحق ﴾ أي : الذي هو أعم من الكتاب والسنة وما

يقاس عليهما وهو في نفسه جدير بأن يقبل لكونه في الذروة العليا من الثبات فكيف وهو ﴿ من عندنا ﴾ على مالنا من العظمة وهو على لسانك وأنت أعظم الخلق ﴿ قالوا ﴾ أي : أهل الدعوة من العرب وغيرهم تعنتا وكفراً به ﴿ لولا ﴾ أي : هلا ولم لا ﴿ أوتي ﴾ أي : هذا الآتي بما يزعم أنه الحق من الآيات ﴿ مثل ما أوتي موسى ﴾ من الآيات كاليد البيضاء والعصا وغيرهما من كون الكتاب أنزل عليه جملة واحدة قال الله تعالى : ﴿ أو لم يكفروا ﴾ أي : العرب ومن بلغته الدعوة من بني إسرائيل ومن كان مثلهم في البشرية والعقل في زمن موسى ﴿ بما أوتي موسى ﴾ عليه السلام من قبل أي : من قبل مجئ الحق على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ولما كان كأنه قد قيل ما كان كفرهم به قيل ﴿ قالوا ﴾ أي : فرعون وقومه ومن كفر من بني إسرائيل ﴿ ساحران ﴾ أي : موسى وأخوه عليهما السلام ﴿ تظاهرا ﴾ أي : أعان كل منهما صاحبه على سحره حتى صار سحرهما معجزاً فغلبا جميع السحرة وتظاهر الساحرين من تظاهر السحرين على قراءة الكوفيين بكسر السين وسكون الحاء ، وقرأ الباقون بفتح السين وكسر الحاء وألف بينهما .

(130/588)

تنبيه : يجوز أن يكون الضمير لمحمد وموسى عليهما الصلاة والسلام ، قال البقاعي : وهو أقرب وذلك لأنه روي أن قريشاً جاءت إلى اليهود فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أنّ نعته في كتابهم فقالوا هذه المقالة فيكون الكلام استئنافاً لجواب من كأنه قال : ما كان كفرهم بهما ؟ فقيل قالوا أي : العرب : الرجلان ساحران أو الكتابان ساحران ظاهر أحدهما الآخر مع علم كل ذي لب أنّ هذا القول زيف لأنه لو كان شرط إعجاز السحر التظاهر لكان سحر فرعون أعجز إعجازاً لأنه تظاهر عليه جميع سحرة بلاد مصر وعجزوا عن معارضة ما أظهر موسى عليه السلام من آياته كالعصا ، وأمّا محمد صلى الله عليه وسلم فقد دعا أهل الأرض من الجنّ والأنس إلى معارضة كتابه وأخبرهم أنهم عاجزون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً فعجزوا عن آخرهم ، ولما تضمن قولهم ذلك الكفر صرّحوا به ﴿ وقالوا ﴾ أي : كفار قريش ﴿ إنا بكل ﴾ أي : من الساحرين أو السحرين اللذين تظاهرا بهما وهما ما أتيا به من عند الله ﴿ كافرون ﴾ جراءة على الله تعالى وتكبراً على الحق ثم قال الله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : لهم إلزاماً إن كنتم صادقين في أني ساحر وكتابي سحر وكذلك موسى عليه السلام ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله ﴾ أي : الملك العلي الأعلى ﴿ هو ﴾ أي : الذي تأتون به ﴿ أهدى منهما ﴾ أي : من الكتابين وقوله ﴿ أتبعه ﴾ أي : وأتركهما جواب الأمر وهو فأتوا ﴿ إن كنتم ﴾ أي : أيها الكفار ﴿ صادقين ﴾ أي : في أنا ساحران فأتوا بما ألزمتكم

به ، قال البيضاوي : وهذا من الشروط التي يراد بها الإلزام والتبكيت ولعل مجيء حرف الشك للتهكم بهم .

﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي : دعاءك إلى الكتاب الأهدى فحذف المفعول للعلم به ولأن فعل الاستجابة يتعدّى بنفسه إلى الدعاء وباللام إلى الداعي فإذا عدي إليه حذف الدعاء غالباً كقول القائل:

*وداعٍ دعا يا من يجيب إلى الندا ** فلم يستجبه عند ذاك مجيب*

وداعٍ (أي : ورب داع) .

(131/588)

الشاهد في يستجبه حيث عدّاه إلى الداعي وحذف الدعاء والتقدير فلم يستجب دعاءه ﴿ فاعلم ﴾ أنت ﴿ أنما يتبعون ﴾ أي : بغاية جهدهم فيما هم عليه من الكفر والتكذيب ﴿ أهواءَهم ﴾ أي : دائماً وأكثر الهوى مخالف للهدى فهم ضالون غير مهتدين بل هم أضلّ الناس وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ ومن أضلّ ممن اتبع ﴾ أي : بغاية جهده ﴿ هواه ﴾ أي : لا أحد أضل منه فهو استفهام بمعنى النفي وقوله تعالى : ﴿ بغير هدى من الله ﴾ في موضع الحال للتوكيد والتقييد فإن هوى النفس قد يوافق الهدى ﴿ إنّ الله لا يهدي القوم

الظالمين ﴾ أي : وإن كانوا أقوى الناس لاتباعهم أهواءهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 142.155 ﴾

(132/588)

وقال القاسمي :

﴿ فَلَمَّا قَضَى ﴾ أي : أتم : ﴿ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ﴾ أي : من الطريق ، من ضوئها ، أو ممن عندها : ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ ﴾ مثلثة الجيم ، وقد قرئ بها كلها ، أي : عود فيه شيء : ﴿ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أي : تستدفئون : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ أي : قرب منها : ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ ﴾ أي : جانب : ﴿ الْوَادِ الْأَيْمَنِ ﴾ أي : المبارك . يقال : يمن فهو ميمون وأيمن . وتفسيره بخلاف الأيسر بعيد ، لأن ألفاظ التنزيل وآية يفسر بعضها بعضاً . وقد جاء في غير آية توصيف الوادي بالمقدس ، وبقعته بالمباركة ، والمعنى واحد . وإن أدهش التفنن في التعبير عنه ببديع تلك المباني : ﴿ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ ﴾ أي : التي بورك مكانها بالتجلي الإلهيّ : ﴿ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ ﴾ أي : تتحرك : ﴿ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ أي : حية صغيرة ، في سرعة الحركة : ﴿

وَلَّى مُدْبِراً ﴾ أي : أعرض بوجهه عنها . جاعلاً ظهره إليها : ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي : لم يرجع : ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ أي : من المخاوف .

القول في تأويل قوله تعالى :

(133/588)

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [32 - 35] .

(134/588)

﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ أي : ادخلها فيه : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي : عيب : ﴿ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ ﴾ أي : يدك : ﴿ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ أي : الخوف . قرئ

بفتحتين ، وضمتين ، وفتح وسكون ، وضم وسكون . قال ابن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية قال ابن كثير : والظاهر أن المراد أعم من هذا . وهو أنه أمر عليه السلام ، إذا خاف من شيء ، أن يضم إليه يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما استعمل أحد ذلك ، على سبيل الاقتداء ، فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخفّ إن شاء الله تعالى . وبه الثقة ﴿ فَذَانِكَ ﴾ إشارة إلى العصا واليد : ﴿ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾ أي : فيكون أحسن بياناً . ولا يتحمل ذلك ما لم يكلف بمثل ما كلفت به : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً ﴾ أي : معيناً : ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ أي : لنشاط قلبي : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ أي : يتفقوا على تكذيبي المؤدي إلى أنواع الأذيات .

(135/588)

قال الزمخشري : فإن قلت : تصديق أخيه ، ما الفائدة فيه ؟ قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له : صدقت ، أو يقول للناس : صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ويبسط القول فيه ويجادل به الكفار ، كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة . فذلك جار

مجرى التصديق المفيد ، كما يصدق القول بالبرهان . ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ ﴾ وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك . لا لقوله صدقت . فإن سحبان وباقلاً يستويان فيه . أو يصل جناح كلامه بالبيان حتى يصدقه الذي يخاف تكذيبه . فأسند التصديق إلى هارون لأنه السبب فيه ، إسناداً مجازياً . انتهى ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أي : سنقويك به ونعينك .

قال الشهاب : والشد التقوية ، والعضد من اليد معروف . فهو إما كناية تلويحية عن تقويته ، لأن اليد تشد بشدة العضد ، والجملة تشتد بشدة اليد ، ولا مانع من الحقيقة كما توهم . أو استعارة تمثيلية . شبّه حال موسى في تقويته بأخيه عليهما السلام ، بحال اليد في تقويتها بيد شديدة ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً ﴾ أي : غلبة ومهابة في قلوبهم أو حجة : ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ أي : بإيذاء ، فضلاً عن القتل : ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ متعلق بمحذوف أي : اذهبا بآياتنا . أو بنجعل أي : نسلطكما بها أو بمعنى : لا يصلون أي : تمتنعون منهم بها . أو قسم ، جوابه لا يصلون مقدر . أو صلة للغالبون في قوله : ﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ وتقدمه ، إما للفاصلة أو للحصر . أي : الغالبون عليهم ، وإن غلبوكم وغلبوا العالمين قبلكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [36 - 38] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى ﴾ أي : مبتدع لم يسبق له نظير . أو تفتريه على الله بنسبته له ، وأنت تعلمته من غيرك ، فالافتراء بمعنى الاختلاق أو الكذب : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا ﴾ أي : السحر أو ادعاء النبوة ، أو بأن للعالم إلهاً يرسل الرسل بالآيات : ﴿ فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : كائناً في أيامهم . قال الشهاب : وهذا إما تعمد للكذب وعناد بإنكار النبوات ، وإن كان عهد يوسف قريباً منهم . أو لأنهم لم يؤمنوا به أيضاً : ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ قال المهايميّ : معناه : كفى دليلاً على كونها آيات ، أنها خوارق ولم يسبق لها نظير . مع أن ما جئت به هدى . والساحر لا يدعو في العموم إلى هدى . فإن لم تعترفوا بكونه هدى ، فربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ، ويعلم ذلك بالعاقبة,

فإن الله يحسن عاقبة أهل الهدى لا محالة . لأنه يعلم من تكون له عاقبة الدار . وهي العاقبة المحمودة . والمراد بالدار : الدنيا . وعاقبتها وعقباها : أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان . وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت . وهذه لا تكون للساحر إذا ادعى النبوة ، لأنه ظالم ، فلا يفلح بالعاقبة الحميدة كما قال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : بالدار وإن وجدوا بعض مقاصدهم أولاً استدراجاً ، فلا يفوزون بالعقبى الحميدة . وإنما غاية أمرهم انقطاع أثرهم وسوء ذكرهم . وقد حقق الله هذا الوعد فجعل عاقبة قوم موسى رفيعة . ونهاية أعدائه وضيعة : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ هذا حكاية لتمرده وعتوّه وطغيانه في تفوهه بتلك العظيمة . كما واجه موسى عليه السلام بها في قوله : ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [29] ، وكما قال تعالى عنه : ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ [النازعات : 23 – 26] ، يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم معلناً بذلك . فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾ أي : ناراً ، فأتخذ منه آجرّاً .

قال الزمخشري : ولم يقل : اطبخ لي الآجرّ واتخذه , لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلوّ طبقته ، وأشبه بكلام الجبابرة . وهامان وزيره ومدبّر رعيته : ﴿ فَاجْعَلْ لِي ﴾ أي : من الآجرّ : ﴿ صَرْحاً ﴾ أي : قصراً رفيعاً إلى السماء : ﴿ لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ يعني العليّ الأعلى ، تبارك و تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي : في دعواه الألوهية ، والعلوّ لباري الأرض والسموات .

(138/588)

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [39 - 43] .

﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ ﴾ أي : بدعوى الألوهية لنفسه ، ونفيها عن الله تعالى ، وقصد الاطلاع إلى الله سبحانه ، وادعاء العمل الكليّ لنفسه مع جهله بربه : ﴿ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

الْحَقِّ ﴾ أي : بل بالفساد وردّ الحق ، والصدّ عن سبيل الله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ ﴾ بضم الياء وفتحها قراءتان : ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أي : يلعنهم كل مؤمن يسمعهم : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ أي : من المطرودين ، المبعدين : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : أنوارا للقلوب : ﴿ وَهُدىً ﴾ أي : إلى الاعتقادات الصحيحة ودلائلها : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أي : بالإرشاد إلى العمل الصالح : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : فيتعظون به ويهتدون بسببه .

(139/588)

ثم أشار تعالى إلى كون التنزيل وحياً من علاّم الغيوب ، ببيان أنه ما فصّل من هذه الأنباء [في المطبوع : الأنبياء] لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ، وكلاهما معلوم الانتفاء ، فتحقق صدق الإيحاء . وذلك قوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا

أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [44 - 46] .

(140/588)

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ أي : الوادي الغربي الذي كوشف فيه موسى عن المناجاة : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا ﴾ أي : قدرنا وأنهينا : ﴿ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ أي : أمر الإرسال والإنباء : ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً ﴾ أي : بين زمانك وزمان موسى : ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ أي : أمد انقطاع الوحي ، واندرست معالم الهدى ، وعم الضلال والبغي والردى ، فاقتضت رحمتنا إرسالك لنخرجهم من الظلمات إلى النور : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً ﴾ أي : مقيماً : ﴿ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي : لك ، وموحين إليك تلك الآيات . أي : ما كان الإنباء بها إلا وحياً مصدره الرسالة : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي : وقت ندائنا موسى : ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بما ذكر وبغيره ، لرحمةٍ عظيمة كائنة منّا لك وللناس : ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي : من نذير في زمان

الفترة بينك وبين عيسى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : يتعظون بإنذارك .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ [47 - 48] .

(141/588)

﴿ وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ أي : عقوبة : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : من الكفر والفساد : ﴿ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بها . وجواب : ﴿ لَوْلاَ ﴾ الأولى محذوف ، ثقة بدلالة الحال عليه . أي : ما أرسلناك . لكن قولهم هذا عند عقوبتهم محقق . ولذا أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم .

(142/588)

قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تزاول بالأيدي ، جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي ، وتقديم الأيدي ، وإن كان من أعمال القلوب . وهذا من الاتساع في الكلام ، وتصيير الأقل تابعاً للأكثر ، وتغليب الأكثر على الأقل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى ﴾ أي : من قلب العصا حية ، وفلق البحر ، وغيرهما من الآيات . تعنتاً وعناداً ، كما قالوا : ﴿ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ [هود : 12] ، وما أشبه ذلك . وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ﴾ رد عليهم ، وإظهار لكون ما قالوه تعنتاً محضاً ، لا طلباً لما يرشدهم إلى الحق . أي : أو لم يكفر أبناء جنسهم ، ومَنْ مذهبهم مذهبهم ، وعنادهم عنادهم وهم القبط ، بما أوتي موسى من الكتاب : ﴿ قَالُوا ﴾ أي : في موسى وهارون عليهما السلام ساحران : ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ أي : تعاونا . وقرئ : ﴿ سِحْرَانِ ﴾ أي : ذوا سحرين ؛ أو جعلوهما سحرين مبالغة : ﴿ وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴾ ثم أشار تعالى إلى أن الآية العظمى للنبيّ صلوات الله عليه ، هي الآيات النفسية العلمية ، لا الكونية الآفاقية التي كانت لغيره ، جرياً على سنة الارتقاء . فإن النوع الإنساني كان ، لما جاء الإسلام قد استعد إلى معرفة الحق من الباطل بالبرهان ، والتمييز بين الخير والشر بالدليل والحجة . وكان لا بد له في هذا الطور من معلّم ومرشد ، كما في الأطوار الأخرى ، أرسل الله إليه رسولاً يهديه إلى طرق النظر والاستدلال ، ويأمره بأن يرفض التقليد البحت والتسليم الأعمى . وأن لا يأخذ شيئاً إلا بدليل وبرهان ، يوصل

إلى العلم . فكانت عمدته صلى الله عليه وسلم في الاستدلال على نبوّته ورسالته نفسه الكريمة ، ما جاء به من النور والهدى ، كالطبيب الذي يستدل على إتقانه صناعة الطب ، بما يبديه من العلم

(143/588)

والعمل الناجح فيها . وقد بسط هذا في مواضعه . وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ أي : لهؤلاء الجاحدين : قد مضى دور الخوارق التي تقترحونها ، ونسخ تعالى من تلك الآيات بما أتى بخير منها ، وهو آية الهداية التي تصلح بها قلوب العالمين . والذكرى التي تزع النفوس عن الشر ، وتحملها على الخير . بحيث يظهر أثرها الحسن في المؤمنين ، ويحق الشقاء على الجاحدين المعاندين . فإن يك هذا سحراً ، ولديكم ما هو أهدى : ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا ﴾ أي : من التوراة والقرآن : ﴿ أَتَّبِعْهُ ﴾ أي : ولا أعاندكم مثل ما تعاندونني : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي : في أنهما سحران مختلقان . أو في أنه يمكن الإتيان بما هو أهدى منهما .

قال أبو السعود : ومثل هذا الشرط مما يأتي به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته . لأن

الإتيان بما هو أهدى من الكتابين ، أمر بيّن الاستحالة . فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإفحام . انتهى . أي : لا للشك والتردد .

(144/588)

قال الشهاب : وهذا جواب عما يقال أن عدم إتيانهم به معلوم . وهذا كما يقول المدّل : إن كنت صديقك القديم ، فعاملني بالجهل . وكذا في إيراد كلمة إن مع امتناع صدقهم ، نوع تهكم بهم : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أي : فلم يأتوا بذلك الكتاب ، ولم يتابعوا الكتابين : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي : الزائغة من غير برهان : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ الاستفهام إنكاري للنفي . أي : لا أحد أضل منه . كيف لا ؟ وهو أظلم الظلمة . بتقديم هواه على هدى الله . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى ، والإعراض عن الآيات الهادية إلى الحق المبين .

قال الرازيّ : وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد ، وأنه لا بد من الحجة والاستدلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 542.549 ﴾

(145/588)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

الإعراب :

(عليك) متعلّق بـ (نتلو) ، وكذلك (من نبأ) " 1 " ، (بالحقّ) متعلّق بحال من فاعل نتلو أو من مفعوله (لقوم) متعلّق بـ (نتلو) أي من أجل . . .

جملة : " تلك آيات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " نتلو . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

---

(1) من لابتداء الغاية ، ويجوز أن تكون تبعيضيّة فالجارّ نعت للمفعول المقدّر أي شيئا من نبأ موسى . . .

(2) أو في محلّ رفع خبر المبتدأ (تلك) ، والرابط مقدّر أي نتلوها . . . و(آيات) بدل من

الإشارة، أو هي خبر ثان . . . ويجوز أن تكون في محلّ نصب حال من آيات والعامل الإشارة.

(146/588)

وجملة: "يؤمنون . . . "في محلّ جرّ نعت لقوم.

[سورة القصص (28) : الآيات 4 إلى 13]

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (6) وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (8)

وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (9) وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها

لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ (12) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13)

الإعراب :

(في الأرض) متعلّق بـ (علا) ، (شيعا) مفعول به ثان عامله جعل (منهم) متعلّق بنعت لطائفة (من المفسدين) متعلّق بمحذوف

الجدول ج 20 ، ص : 223

خبر كان .

(147/588)

جملة : " إنّ فرعون علا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة .

وجملة : " علا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " جعل . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة علا .

وجملة : " يستضعف . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " يذبّح . . . " لا محلّ لها بدل من جملة يستضعف .

وجملة : " يستحيي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يذبّح . . .

وجملة : " إنّه كان . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ - .

وجملة : " كان من المفسدين " في محلّ رفع خبر إنّ .

(5) (الواو) عاطفة (أن) حرف مصدريّ ونصب (على الذين) متعلّق بـ (نمنّ) ، (في الأرض) متعلّق بـ (استضعفوا) .

والمصدر المؤوّل (أن نمنّ) في محلّ نصب مفعول به عامله نريد .

(الواو) عاطفة في الموضعين (نجعلهم) منصوب معطوف على (نمنّ) في الموضعين (أئمّة) مفعول به ثان منصوب عامله نجعلهم الأول ، وكذلك (الوارثين) عامله نجعلهم الثاني .

وجملة : " نريد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّ فرعون علا .

وجملة : " نمنّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " استضعفوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " نجعلهم (الأولى) " لا محلّ لها معطوفة على جملة نمنّ .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل جعل ، ويتبعها في المحل جملة يذبح . . .

وجملة : " نجعلهم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة نجعلهم الأولى .

(الواو) عاطفة (نمكّن) منصوب معطوف على (نمنّ) ، (لهم) متعلّق بـ (نمكّن) ، (في الأرض) مثل لهم (نري) منصوب معطوف على (نمكّن) بالواو (منهم) متعلّق بـ (يحذرون) ، (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ثان عامله نري ، والعائد محذوف .

وجملة : " نمكّن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نمنّ .

وجملة : " نري . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نمنّ .

وجملة : " كانوا يحذرون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(149/588)

وجملة : " يحذرون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا . .

(الواو) عاطفة (إلى أمّ) متعلّق بـ (أوحينا) ، (أن) تفسيريّة " 1 " ، (الفاء) عاطفة (عليه) متعلّق بـ (خفت) (الفاء) رابطة لجواب الشرط (في اليمّ) متعلّق بـ (ألقيه) ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (لا) ناهية جازمة في الموضعين (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (إليك) متعلّق بـ (رادّوه) ، (من المرسلين) متعلّق بمحذوف مفعول به لاسم الفاعل جاعلوه . . .

وجملة : "أوحينا . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة نريد . . .

وجملة : "أرضعيه "لا محلّ لها تفسيريّة . . .

وجملة : "خفت عليه . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : "ألقيه . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : "لا تخافي . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب

---

(1) يجوز أن تكون مصدريّة ، ! والمصدر المؤوّل (أن أرضعيه . . .) في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (أوحينا) .

(150/588)

الشرط .

جملة : "لا تحزني . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تخافي . . .

وجملة : "إنّا رادّوه . . . "لا محلّ لها تعليل للنهي المتقدّم . . .

(8) (الفاء) عاطفة (اللام) لام العاقبة (لهم) متعلّق بمحذوف حال من (عدوا) خبر (يكون) المنصوب بأن مضمرة .

والمصدر المؤوّل (أن يكون . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (التقطه) .

وجملة : " التقطه آل . . . " لا محلّ معطوفة على استئناف مقدّر أي :

فوضعته في التابوت وألقته في اليم فقذفه الموج إلى الساحل فالتقطه آل . . .

وجملة : " يكون لهم عدوّا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمرة .

وجملة : " إنّ فرعون . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة بين المتعاطفين .

وجملة : " كانوا خاطئين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(151/588)

---

(9) (الواو) عاطفة (قرّة) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (لي) متعلّق بنعت لقرّة عين (لك) مثل لي ومعطوف عليه (لا) ناهية جازمة (عسى) فعل ماض تام (أن) حرف مصدريّ ونصب . . .

والمصدر المؤوّل (أن ينفعنا . . .) في محلّ رفع فاعل عسى .

(أو) حرف عطف (نتّخذه) منصوب معطوف على (ينفعنا) ، (ولدا) مفعول به ثان منصوب (الواو) حاليّة ، والضمير (هم) يعود على آل فرعون (لا) نافية .

وجملة : " قالت امرأة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة التقطه آل . . .

وجملة : " (هو) قرّة . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تقتلوه . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " عسى أن ينفعنا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " ينفعنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " نتّخذه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ينفعنا .

وجملة : " هم لا يشعرون . . . " في محلّ نصب حال " 1 " .

وجملة : " لا يشعرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(10) (الواو) عاطفة (إن) مخففّة من الثقيلة مهملة وجوبا (اللام) هي الفارقة (به) متعلّق بـ (تبدي) و(الباء) سببيّة – أي تبدي القول بسببه – (لولا) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مصدريّ (على قبلها) متعلّق بـ (ربطنا) .

والمصدر المؤوّل (أن ربطنا . . .) في محلّ رفع مبتدأ ، والخبر محذوف أي لولا ربطنا . . . موجود . (اللام) للتعليل (تكون) مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد اللام (من المؤمنين) خبر تكون .

والمصدر المؤول (أن تكون . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (ربطنا) .

وجملة : " أصبح فؤاد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالت امرأة . . .

وجملة : " كادت لتبدي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

وجملة : " تبدي به " في محلّ نصب خبر كادت .

---

(1) وهي حال من فاعل لفعل مقدّر أي : أطاعوها وهم لا يشعرون بعاقبة أمرهم معه .

[. . . . .]

(152/588)

وجملة : " لولا ربطنا (موجود) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ ، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي لأبدت قولها .

وجملة : " ربطنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تكون من المؤمنين " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(11) (الواو) عاطفة (لأخته) متعلّق بـ (قالت) ، والضمير في (قصّيه) يعود على موسى (به) متعلّق بـ (بصرت) ، (عن جنب) متعلّق بحال من فاعل بصرت أو الهاء في (به) ، (الواو) حاليّة (لا) نافيّة . . .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أصبح فؤاد . . .

وجملة : " قصّيه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " بصرت . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر .

وجملة : " هم لا يشعرون . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لا يشعرون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(12) (الواو) عاطفة (عليه) متعلّق بـ (حرّمنا) (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (حرّمنا) (الفاء) عاطفة ، وفاعل (قالت) ضمير مستتر يعود على أخت موسى (هل) حرف استفهام (على أهل) متعلّق بـ (أدلكم) (لكم) متعلّق بـ (يكفلونه) ، (الواو) حاليّة (له) متعلّق بالخبر (ناصحون) .

وجملة : " حرّمنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالت . . .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة حرّمنا .

وجملة : " هل أدلّكم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يكلفونه . . . " في محلّ جرّ نعت لأهل بيت .

وجملة : " هم له ناصحون . . . " في محلّ نصب حال .

(13) (الفاء) عاطفة (إلى أمّه) متعلّق بـ (رددناه) ، (كي) حرف مصدريّ ونصب (الواو) عاطفة (لا) نافية (تحزن) منصوب معطوف على (تقرّ) . . .

والمصدر المؤوّل (كيّ تقرّ . . .) في محلّ جرّ بلام مقدّرة متعلّق بـ (رددناه) . .

(الواو) عاطفة (اللام) لام العلّة (تعلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (الواو) حاليّة و(لا) نافية.

وجملة: "رددنا . . . "لا محلّ لها معطوفة على محذوف مستأنف أي: فأجيبت فجاءت بأمّه فأذن لها فأرضعته فرددناه . . .

وجملة: "تقرّ عينها . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (كي).

وجملة: "لا تحزن . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة تقرّ.

وجملة: "تعلم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

والمصدر المؤوّل (أن تعلم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (رددناه) فهو معطوف على المصدر السابق.

والمصدر المؤوّل (أنّ وعد اللّه حقّ) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي تعلم.

وجملة: "لكنّ أكثرهم . . . "في محلّ نصب حال.

وجملة: "لا يعلمون . . . "في محلّ رفع خبر لكنّ.

الصرف:

(7) خفت: فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون، أصله خافت بسكون الفاء، فلمّا التقى ساكنان حذف حرف العلّة، وكسرت الخاء لمناسبة حركة عين الفعل

فهو من الباب الرابع ،

وزنه فلت بكسر الفاء .

(8) حزنا : مصدر حزن الثلاثيّ بمعنى أحزن – أحزن باب نصر ، وزنه فعل بفتحتين ،

واستعمل المصدر بمعنى اسم الفاعل أي محزنا لهم .

(7) ألقيه : فيه إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين بدءا من المضارع تلقين . . .

التقت ياء الفعل مع ياء المخاطبة – وكلاهما ساكن – فحذفت لام الكلمة ، وزنه أفعيه .

(10) فارغا : اسم فاعل من الثلاثيّ فرغ ، وزنه فاعل .

(12) المراضع : جمع مرضع – أو مرضعة – اسم فاعل من أرضع الرباعيّ ، وزنه مفعل

بضمّ الميم وكسر العين .

البلاغة

الاسناد المجازي : في قوله تعالى إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ .

(154/588)

حيث أسند الذبح إلى فرعون ، وليس هو الفاعل الحقيقي ، وإنما هو مجرد آمر بالذبح ، وجنود فرعون هم الفاعل الحقيقي ، فإسناد كلمة الذبح إلى فرعون مجازي .

الاطناب : في قوله تعالى وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .

هذا قسم نادر من أجمل أقسام الاطناب ، وهو أن يذكر الشيء فيؤتى به بمعان متداخلة ، إلا أن كل معنى مختص بخصيصة ليست للآخر ، فالخوف غم يلحق الإنسان لمتوقّع ، والحزن غم يلحقه لواقع ، وهو فراقه والأخطار المحدقة به ، فنهيت عنها جميعا ، وآمنت بالوحي إليها ، وعدت بما يسليها ويطمئن قلبها ، ويلمؤه غبطة وسرورا .

الاستعارة : في قوله تعالى وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ .

التحريم : استعارة للمنع ، لأنّ من حرم عليه الشيء فقد منعه ، ألا ترى إلى قولهم : محظور وحجر ، وذلك لأن اللّه منعه أن يرضع ثديا ، فكان لا يقبل ثدي مرضع قط ، حتى أهمهم ذلك .

الفوائد

1 - رسم القرآن :

قلنا فيما سبق أن رسم القرآن الكريم مغاير في كثير من كلماته الرسم المصطلح عليه في كتابة اللغة العربية ، ونسوق على ذلك هذه الأمثلة من هذه الآية :

" ايت ، تتلوا ، همن " .

ففي الأولى حذف الألف ، وفي الثانية وضع الألف بعد الواو وحقها أن لا توضع لأن الواو من أصل الكلمة . وفي الثالثة حذفت الألف الساكنة . وذلك كثير في القرآن الكريم ، وهو بحاجة لمن يستقرئه ويخرجه في رسالة .

2 – جدّة التعبير أ – أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً .

ب – لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها .

ج – فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ .

هذه الأمثلة الثلاثة من التعبير القرآني ، وغيرها كثير في القرآن الكريم ، تقدم لنا صورة واضحة من الإبداع والابتكار في الأسلوب العربي ، مما لم يصل إليه ، ولم يدن منه من قريب أو بعيد كاتب ولا شاعر . إنه الوحي والتنزيل من رب العالمين ، ليقدم صورة من الإعجاز للناس ، علّهم يؤمنون به ، وما كان أكثر الناس بمؤمنين .

(155/588)

---

3 – فرعون وهامان :

اسمان أعجميان ممنوعان من الصرف . والمانع لهما العلمية والعجمي . ولذلك يجران بالفتحة . وقد نوهنا سابقا أن الاسم لا يمنع من الصرف إلا أن يشتمل على

علتين من العلل المانعة من الصرف ، إلا في حالتين ، فتكفى علّة واحدة ، والحالتان هما :

صيغتا منتهى الجموع مفاعل ومفاعيل ، وألف التأنيث سواء الممدودة أم المقصورة مثل حمراء وسلوى وليلى .

أ- ملاحظة هامة : صيغة منتهى الجموع تمنع من الصرف سواء أكانت جمعا حقيقيا أم كانت اسما لمفرد جاء على صيغة منتهى الجموع نحو : " شراحيل وسراويل " .

ب - العلل المانعة من الصرف :

أ- صيغة منتهى الجموع .

ب - ألف التأنيث الممدودة والمقصورة .

ج - العلمية وهي ذات سبعة مواضع .

1 - المؤنث بالتاء المربوطة ، أو المؤنث تأنيثا معنويا . الأول كفاطمة ، والثاني كسعاد .

2 - العلم الأعجمي ، مثل إبراهيم وانطون .

3 - العلم الموازن للفعل ، مثل يشكر ويزيد .

4 - العلم المركب تركيبا مزجيا ، نحو بعلبك .

5 - العلم المزيد بالألف والنون ، نحو عثمان .

6 - العلم المعدول على وزن (فعل) نحو عمر .

7 - العلم المزيد في آخره ألف للإلحاق ، مثل : أرطى وذفرى .

د – الصفة وهي ذات ثلاثة مواضع .

1 – أن تكون الصفة على وزن " أفعل " مثل " أحمر وأفضل " .

2 – أن تكون الصفة على وزن " فعلان " مثل " عطشان وسكران " .

3 – أن تكون الصفة " معدولة " وذلك في موضعين :

أ – في الاعداد مثل " أحاد وموحد " وثناء ومثنى ، وثلاث ومثلث إلخ .

ب – والثاني " أخر " نحو مررت بنساء أخر .

4 – لام العاقبة :

أنكر البصريون تسميتها لام العاقبة ، وأطلق عليها الزمخشري " لام العلة "

(156/588)

و العلة فيها مجاز وليست حقيقة . ذلك أن الدافع إلى الالتقاط لم يكن ليكون لهم عدوا وحزنا ، ولكن لمحبتهم له ، وبغية تنبيه . كمن يقول " ضربته ليتأدب " والحقيقة أنهم التقطوه للمحبة . فكانت عاقبته للعداوة . ولذلك سمّيت اللام " لام العاقبة " .

5 – موسى وفرعون :

ورد في تعريب كلمة " موسى " أن " مو " هي الماء و " سا " هي الشجر ، ولعلهم شبهوا "

موسى " بالماء والشجر اللذين ينبتان من الأرض ، لأنهم التقطوه من النهر ، ولم يعلموا له أبا وأمّا ، وإنما وجدوه بينهم ، وهو موسى بن عمران ، ويتصل نسبه بـ " يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " .

(157/588)

وبقيت إسرائيل في مصر من عهد يوسف إلى عهد موسى ، أي عهد فرعون الذي بعث موسى إليه ، وكان فرعون هذا على جانب كبير من العتو والغلظة وطول العمر ، واسمه " الوليد بن مصعب " وقد اتخذ بني إسرائيل بمثابة العبيد ، يبنون له ويحرثون ، ويتقاضى من باقيهم الجزية وقد رأى في المنام نارا أتت من جانب القدس ، فأحرقت القبط ، فسأل تعبير رؤياه فقيل له : يخرج من بني إسرائيل رجل يكون على يده هلاك مصر ، فأمر بقتل كل مولود يلد لبني إسرائيل حتى كاد يفنيهم ، ثم عدل عن ذلك ، وراح يقتل أبناءهم عاما ويتركهم عاما ، فولد هارون في السنة التي لا يقتل فيها الأبناء ، وولد موسى في السنة التي يقتلهم فيها . فلما وضعته أمه حزنت ، فأوحى اللّه إليها أن ضعيه في تابوت ، ثم ألقيه في اليم . فصنعت تابوتا ، ووضعته فيه ، وألقته في النيل ، وقالت لأخته قصيّه ، فحمله الماء حتى أدخله بين أشجار متكاثفة تحت قصر فرعون ، فخرجت جواري فرعون يغتسلن ،

فوجدن التابوت ، فأدخلناه إلى آسية امرأة فرعون ، فلما رأته أحبته وأخبرت به فرعون فأراد ذبحه ، وخشي أن يكون المولود الذي حذر منه ، فلم تزل به آسية حتى تركه لها .

وذلك قوله تعالى فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً وسوف نتابع رواية القصة على ضوء الآيات التالية إن شاء اللّه .

[سورة القصص (28) : الآيات 14 إلى 15]

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب آتيناه (حكما) مفعول به ثان منصوب (الواو) اعتراضيّة (كذلك) متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله نجزي .

جملة : " بلغ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . وجملة الشرط وفعله وجوابه لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " استوى . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بلغ أشدّه .

وجملة : " آتيناه . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " نجزي . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

(15) (الواو) عاطفة (على حين) حال من فاعل دخل (من أهلها) متعلّق بنعت لغفلة (فيها) متعلّق بـ (وجد) (من شيعته) خبر للمبتدأ هذا ، وكذلك (من عدوّه) ، (الفاء) عاطفة (من شيعته) الثاني متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذي (على الذي) متعلّق بـ (استغاثه) بتضمينه معنى استنصره (من عدوّه) الثاني متعلّق بمحذوف صلة الموصول الذي الثاني (الفاء) عاطفة في الموضعين (عليه) متعلّق بـ (قضى) ، (من عمل) خبر المبتدأ هذا (مضلّ) خبر ثان (مبين) نعت لمضلّ . . .

وجملة : " دخل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " وجد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة دخل .

وجملة : " يقتتلان . . . " في محلّ نصب نعت لرجلين .

وجملة : " هذا من شيعته " في محلّ نصب حال من فاعل يقتتلان " 1 " .

وجملة : " هذا من عدوّه " في محلّ نصب معطوفة على جملة هذا من شيعته .

وجملة : " استغاثة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وجد .

وجملة : " وكزه موسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استغاثة . . .

وجملة : " قضى عليه . " لا محلّ لها معطوفة على جملة وكزه موسى .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " هذا من عمل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّه عدوّ . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ . -

الصرف :

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

(159/588)

(استغاث) فيه إعلال بالقلب أصله استغيث ، نقلت فتحة الياء إلى الغين ثم قلبت الياء ألفا .

الفوائد

- إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ :

سبق لنا وتعرضنا لتعداد الخبر وتكراره . ونعيد لأذهان القارئ ما قلناه :

لا يكون الخبر متعددا إذا كان التعدد ينبئ عن صفة مشتركة ، كما إذا قلنا : فلان طويل قصير أي إنه " مربوع " أو " متوسط القامة ففي هذه الحالة لا نقول " بـ " تعدد الخبر " ومن التعدد قوله تعالى : إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ .

– تتمة قصة موسى وفرعون :

لقد تبنّى فرعون موسى ، فأصبح ابن فرعون ، وقد نشدوا له المرضعات فصدّ عن اثدائهن جميعها ، وكانت أخته تقتفي أثره ، فلما رأت إضرابه عن الرضاعة عرضت عليهم أن تأتيهم بامرأة ترضعه ، فأتتهم بأمه ، فأعطته ثديها فأخذ يرضعه ، وكادت أمه أن تظهرهم على أمره وأمرها " لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها " .

وبعد حين عرضته آسية على فرعون ، فراح موسى ينتف في لحيته ، فراع ذلك فرعون ، ودعا بالذباحين ليذبحوه ، فما زالت زوجة فرعون تستعطف زوجها ، وقد قدمت له ثمرة وجمرة فمد يده إلى الجمرة وأخذها ووضعها في فمه فأحرقته ، وبذلك أدرك فرعون عدم إدراكه فعفا عنه ، فلما أصبح يافعا كان يركب مع فرعون ويذهب معه حيث يذهب .

وقد علم موسى أن فرعون قد ركب إلى بلدة ، فلحق به وقد أخليت له فرأى إسرائيليا وقبطيا يقتتلان ، فاستغاثه الاسرائيلي ، فوكز موسى القبطي فقضى عليه فندم موسى على فعلته ، وقال : إن هذا من عمل الشيطان " إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ " . . .

وللقصة تتمة نأتي عليها في الآيات القادمة بإذن اللّه .

[سورة القصص (28) : آية 16]

قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16)

الإعراب :

(160/588)

(ربّ) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر ، والثانية عاطفة (لي) متعلّق بـ (اغفر) ، (له) متعلّق بـ (غفر) ، (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (الرحيم) خبر ثان مرفوع.

---

(1) أو هو توكيد للضمير المتّصل في (إنّه) ، في محلّ نصب على سبيل الاستعارة.

(161/588)

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة النداء وجوابها . . . في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " إنّي ظلمت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " ظلمت . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " اغفر . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كنت مذنبا بهذا فاغفر .

وجملة : " غفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " إنّه هو الغفور . . . " لا محلّ لها استئناف تعليليّ .

وجملة : " هو الغفور . . . " في محلّ رفع خبر إنّ . . .

[سورة القصص (28) : آية 17]

قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17)

الإعراب :

(قال ربّ) مثل السابقة " 1 " ، (الباء) سببيّة (ما) حرف مصدريّ " 2 " ، (عليّ) متعلّق بـ (أنعمت) .

والمصدر المؤوّل (ما أنعمت . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بفعل محذوف تقديره اعصمني . . . وفيه حذف مضاف أي بحقّ إنعامك عليّ بالمغفرة اعصمني . . .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (للمجرمين) متعلّق بـ (ظهيرا) .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول " 3 " .

---

(1) في الآية (16) .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والعائد محذوف أي : أنعمته عليّ .

(3) يجوز أن تكون الجملة الندائيّة اعتراضيّة للدعاء لا محلّ لها ، وجملة (اعصمني) بما أنعمت . . . مقول القول .

(162/588)

وجملة : (اعصمني) بما أنعمت . . . لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لن أكون ظهيرا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن تعصمني فلن أكون . . .

[سورة القصص (28) : الآيات 18 إلى 19]

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (في المدينة) متعلّق بالخبر (خائفا) ، واسم أصبح ضمير مستتر يعود على موسى (الفاء) عاطفة (إذا) فجائيّة (بالأمس) متعلّق بـ (استنصره) ، (له) متعلّق بـ (قال) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد .

جملة : " أصبح . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يترقّب . . . " في محلّ نصب خبر ثان لـ (أصبح) " 1 " .

وجملة : " الذي استنصره . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أصبح .

وجملة : " استنصره . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " يستصرخه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذي) .

وجملة : " قال له موسى . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّك لغويّ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) يجوز أن تكون حالا من الضمير المستتر في (خائفا) ، ويجوز أن تكون بدلا من (خائفا) .

(19) (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قال : (أن) حرف مصدريّ ونصب (بالذي) متعلّق بـ (يبطش) ، (لهما) متعلّق بنعت لعدوّ " 1 " . . .

والمصدر المؤوّل (أن يبطش) في محلّ نصب مفعول به عامله أراد .

وفاعل (قال) ضمير مستتر يعود على الذي من شيعته " 2 " ، (موسى) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (أن تقتلني) مثل أن يبطش (ما) حرف مصدريّ (بالأمس) متعلّق بـ (قتلت) .

والمصدر المؤوّل (أن تقتلني . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله تريد . . .

والمصدر المؤوّل (ما قتلت . . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله تقتلني .

(إن) نافية (إلّا) أداة حصر (أن تكون) مثل أن يبطش (في الأرض) متعلّق بـ (جبّارا) الخبر .

والمصدر المؤوّل (أن تكون . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله تريد ، وكذلك المصدر المؤوّل (أن تكون من المصلحين) مفعول تريد الثاني ، و(ما) نافية . . .

وجملة : " أراد . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يبطش . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " هو عدوّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

---

(1) أو متعلّق بـ (عدو) معنى معاد .

(2) قال بعض المعربين إنّ الضمير يعود على القبطيّ توهّما منه أنّه قاتل الرجل بالأمس .

الجدول ج 20 ، ص : 239

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة النداء وجواب . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تريد " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تقتلني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " قتلت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " إن تريد " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " تكون جبارا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثالث .

وجملة : " ما تريد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن تريد . . .

الصرف :

(غويّ) ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ غوى يغوي باب ضرب ، وزنه فعيل أدغمت ياء فعيل مع لام الكلمة وهي الياء .

الفوائد

- زيادة "أن" :

تطرد زيادة "أن" بعد "لمّا" الحينية، وقبل "لو" مسبوقة بقسم، كقول الشاعر :

(164/588)

فأقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكم يوم من الشر مظلم

ومثل ذلك قوله سبحانه : "فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ" . ووجود "أن" يشير إلى الإبطاء وعدم التسرّع.

[سورة القصص (28) : الآيات 20 إلى 21]

وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من أقصى) متعلّق بـ (جاء) ، (بك) متعلّق بـ (يأتمرون) ، (اللام) للتعليل (يقتلوك) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . .

والمصدر المؤوّل (أن يقتلوك . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يأتمرون) .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لك) متعلّق بالناصحين (من الناصحين) متعلّق بخبر

إنّ .

جملة : " جاء رجل . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يسعى . . . " في محلّ رفع نعت لرجل .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . .

وجملة : " يا موسى إنّ الملأ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ الملأ . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يأتمرون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ . . .

وجملة : " يقتلوك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " اخرج . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن أردت السلامة فاخرج .

وجملة : " إنّي لك من الناصحين . . . " لا محلّ لها تعليليّة . . .

(21) (الفاء) عاطفة (منها) متعلّق بـ (خرج) ، (خائفا) حال منصوبة من فاعل خرج (قال ربّ) مرّ إعرابها " 1 " .

---

(1) في الآية (16) من هذه السورة .

و(النون) في (نجّني) للوقاية (من القوم) متعلّق بـ (نجّني) . . .

وجملة : " خرج . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال .

وجملة : " يترقّب . . . " في محلّ نصب حال ثانية " 1 " .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . .

وجملة : " ربّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام .

وجملة : " نجّني . . . " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(أقصى) ، اسم تفضيل من الثلاثي قصا يقصو باب نصر ، وزنه أفعل وفيه إعلال بالقلب لمجيء ما قبل الواو مفتوحا .

[سورة القصص (28) : الآيات 22 إلى 25]

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب قال

(تلقاء) ظرف مكان منصوب متعلّق

---

(1) وانظر الآية (18) من هذه السورة .

الجدول ج 20 ، ص : 242

ب (توجّه) ، (مدين) مضاف إليه مجرور ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث (عسى) فعل ماض ناقص - ناسخ - (أن) حرف مصدريّ ونصب ، والنون في (يهديني) للوقاية (سواء) مفعول به ثان منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن يهديني . . .) في محلّ نصب خبر عسى .

جملة الشرط وفعله وجوابه . . . لا محلّ لها استئنافيّة . .

وجملة : " توجّه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(166/588)

وجملة : " قال " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " عسى ربّي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يهديني . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

(23) (الواو) عاطفة (لمّا ورد . . وجد) مثل لمّا توجّه . . . قال (عليه) متعلّق بـ (وجد) ، (من الناس) متعلّق بنعت لأمة (من دونهم) متعلّق بـ (وجد) " 1 " ، (ما) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ خبره (خطبكما) (لا) نافية (حتّى) حرف غاية وجرّ (يصدر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (الواو) عاطفة . . .

والمصدر المؤوّل (أن يصدر) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (نسقي) .

وجملة : " ورد ماء . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " وجد . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يسقون . . . " في محلّ نصب نعت لأمة " 2 " .

وجملة : " وجد (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة وجد (الأولى) .

---

(1) وهو متعدّ لواحد في كلا الموضعين بمعنى لقي .

(2) أو حال من أمّة لأنه وصف .

وجملة : " تذودان . . . " في محلّ نصب نعت لامرأتين .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما خطبكما . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قالتا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا نسقي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يصدر الرعاء " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أبونا شيخ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا نسقي .

(24) (الفاء) عاطفة (لهما) متعلّق بـ (سقى) ، (ثمّ) حرف عطف (إلى الظلّ) متعلّق بـ (تولّى) ، (الفاء) عاطفة (قال ربّ) مرّ إعرابها " 1 " ، (ما) اسم موصول في محلّ جرّ متعلّق بفقير بتضمينه معنى محتاج ، والعائد محذوف (إليّ) متعلّق بـ (أنزلت) ، (من خير) متعلّق بحال من العائد المحذوف أي أنزلته من خير " 2 " ، (فقير) خبر إنّ .

---

(1) في الآية (16) من هذه السورة .

(2) أو هو تمييز للموصول (ما) . [. . . . .]

وجملة : " سقى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالتا . . .

وجملة : " تولّى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سقى . . .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تولّى .

وجملة النداء : " ربّ . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام .

وجملة : " إنّي . . . فقير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أنزلت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(25) (الفاء) عاطفة (على استحياء) حال من فاعل تمشي (اللام) لام التعليل (يجزيك) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (ما) حرف مصدريّ (لنا) متعلّق بـ (سقيت) . . .

والمصدر المؤوّل (أن يجزيك) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يدعوك) .

والمصدر المؤوّل (ما سقيت . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(الفاء) عاطفة (لمّا جاءه . . . قال) مثل لمّا توجّه . . . قال (عليه) متعلّق بـ (قصّ) ، (لا) ناهية جازمة (من القوم) متعلّق بـ (نجوت) . . .

وجملة : " جاءته إحداهما . . . " لا محلّ لها معطوفة على مقدّر مستأنف أي فرجعتا فأخبرتا أباهما . . . فقال لإحداهما ادعيه . . .

فجاءته . . .

وجملة : " تمش . . . " في محلّ نصب حال من فاعل جاءته .

وجملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ أبي يدعوك . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يدعوك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يجزيك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " سقيت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " جاءه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قصّ . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة جاءه .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لا تخف . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نجوت . . . " لا محلّ لها تعليليّة . . .

الصرف :

(23) يسقون : فيه إعلال بالحذف أصله يسقيون – بياء مضمومة قبل الواو – استثقلت الضمّة على الياء فسكنت ونقلت

الحركة إلى القاف – إعلال بالتسكين – والتقى ساكنان الياء والواو فحذفت الياء فأصبح يسقون ، وزنه يفعون .

(الرعاء) ، جمع راع اسم فاعل من الثلاثيّ رعى ، وفيه إعلال بالحذف لمناسبة التنوين – التقاء الساكنين – وزنه فاع ، وفي رعاء إبدال الياء همزة أصله الرعاي ، فلمّا جاءت الياء متطرّفة بعد ألف ساكنة قلبت همزة ، ووزن الرعاء فعال بكسر الفاء " 1 " .

(25) استحياء : مصدر قياسيّ لفعل استحيى السداسيّ ، وزنه استفعال . . . وفيه إبدال لام المصدر – وهي الياء – همزة لمجيئه متطرفا بعد ألف ساكنة ، أصله استحياي .

البلاغة

الكناية : في قوله تعالى وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ :

فقد أرادتا أن تقولا له : إننا امرأتان ضعيفتان مستورتان ، لا نقدر على مزاحمة الرجال ، ومالنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ طاعن في السن ، قد أضعفه الكبر وأعياه ، فلا بد لنا من تأخير السقي إلى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء .

الاشارة : في قوله تعالى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ :

فقد أشار بلمح خاطف ، يشبه لمح الطرف ، وبلغة هي لغة النظر ، إلى وصف جمالها

الرائع الفتان ، باستحياء لأن الخفر من صفات الحسان ، ولأن التهادي في المشي من أبرز سماتهن .

---

(1) الزمخشري جعل هذا الجمع قياسيّا مثل صيام وقيام ، وقال بعضهم إنّه جمع على غير القياس ، فقياس جمع المنقوص المعتلّ اللام هو فعلة كقضاة ورماة ، بضمّ الأول وفتحتين .

(170/588)

الفوائد

1 - إحدى :

العدد الواحد والاثنان يوافقان المعدود ، فيذكران مع المذكر ، ويؤنثان مع المؤنث ، ولكن ثمة فارق بين العددين ، فالواحد تأنيثه بوجود الألف المقصورة " احدى " ، وتذكيره بحذف هذه الألف المرسومة ياء . " أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً " . أمّا " الاثنان " فتأنيثها بإلحاق التاء " اثنتان " وتذكيرها بحذف التاء " اثنان " ومثل الأولى في حالة التأنيث " ثنتان " بحذف الألف من أولها .

2 - لفظة " خير " :

ترد " خير " اسما صريحا يطلق على كل شيء حسن ، وهو نقيض " الشر " ، كما هو في

هذه الآية " رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ " . كما ترد " اسم تفضيل " كما في كلامه تعالى على لسان إبليس : " أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ " أي أفضل منه .

[سورة القصص (28) : آية 26]

قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

الإعراب :

(أبت) منادى مضاف منصوب ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل ياء المتكلم ، ونقلت الكسرة - كسرة المناسبة - إلى التاء المبدلة من ياء المتكلّم . . . و(التاء) عوض من ياء المتكلّم المحذوفة و(الياء) المحذوفة مضاف إليه (من) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه ، والعائد محذوف أي استأجرته (الأمين) خبر ثان لـ (إن) .

جملة : " قالت . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يا أبت استأجره . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " استأجره . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " إنّ خير . . . " لا محلّ لها تعليليّة . .

وجملة : " استأجرت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

الجدول ج 20 ، ص : 247

البلاغة

الكلام الجامع المانع : في قوله تعالى : إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ .

(171/588)

كلام حكيم جامع لا يزاد عليه ، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان ، أعني القوة والأمانة ، في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ، وقد استغني بإرسال هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل ، والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته .

[سورة القصص (28) : آية 27]

قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

الإعراب :

(أن) حرف مصدريّ ونصب (أنكحك) مضارع منصوب (إحدى) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة (هاتين) عطف بيان على ابنتيّ مبنيّ على الياء في محلّ جرّ " 1 " ، (أن) مثل الأول (ثماني) ظرف زمان منصوب وعلامة النصب الفتحة متعلّق بـ (تأجرني) ، ومفعول تأجرني محذوف أي : تأجرني نفسك . . .

والمصدر المؤوّل (أن أنكحك . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أريد .

والمصدر المؤوّل (أن تأجرني . . .) في محلّ جرّ بـ (على) متعلّق بحال من فاعل أنكحك أو من مفعوله أي مستأجرا – بكسر الجيم – أو مستأجرا – بفتحها – .

---

(1) ثمّة خلاف بين المعربين حول بناء اسم الإشارة المثنّى وإعرابه ، والرأي الغالب أنّه مبنيّ .

(172/588)

(الفاء) عاطفة (أتممت) ماض مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط (عشرا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (أتممت) " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (من عندك) خبر لمبتدأ مقدّر أي : التمام من عندك (الواو) عاطفة (ما) نافية (أن أشقّ) مثل أن أنكحك (عليك) متعلّق بـ (أشقّ) . . .

والمصدر المؤوّل (أن أشقّ . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله أريد .

(السين) حرف استقبال ، و(النون) في (تجدني) للوقاية (شاء) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط (من الصالحين) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله تجدني . . .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّي أريد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أريد . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أنكحك . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تأجرني . . . " لا محل لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " أتممت . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " (التمام) من عندك . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ما أريد . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة أتممت .

---

(1) والتمييز محذوف دلّ عليه ما قبله أي عشر حجج .

الجدول ج 20 ، ص : 249

وجملة : " أشقّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثالث .

وجملة : " ستجدني . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " إن شاء اللّه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

الصرف :

(حجج) ، جمع حجّة ، اسم للعام ، وزنه فعلة بكسر فسكون .

[سورة القصص (28) : آية 28]

قالَ ذِلكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

الإعراب :

(بيني) ظرف منصوب متعلّق بخبر المبتدأ ذلك " 1 " ، (بينك) مثل بيني ومعطوف عليه (أيّما) اسم شرط جازم مفعول به مقدّم منصوب . . . وما زائدة (قضيت) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية للجنس (عدوان) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (عليّ) متعلّق بمحذوف خبر لا (ما) حرف مصدريّ " 2 " . . .

والمصدر المؤوّل (ما نقول . . .) في محلّ جرّ متعلّق بالخبر وكيل .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ذلك بيني . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قضيت . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

---

(1) أي ذلك الشرط قائم بيني وبينك .

(2) أو اسم موصول في محلّ جرّ . . . والعائد محذوف أي نقوله .

وجملة : " لا عدوان عليّ . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " اللّه . . . وكيل " لا محلّ لها معطوفة على جملة قضيت .

وجملة : " نقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الفوائد

1 - أيما الأجلين :

ترد " أي " هذه على خمسة أوجه :

أ - أن تكون شرطا نحو " أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ " و " ما " المتصلة بها زائدة للتوكيد .

ب - أن تكون استفهامية : " أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً " .

ج - أن تكون موصولة : " مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ " .

د - أن تكون دالة على معنى الكمال ، وتكون صفة للنكرة ، نحو " عليّ رجل أيّ رجل " أي كامل صفات الرجال كما تكون حالا بعد المعرفة نحو " مررت بعبد اللّه أيّ رجل " .

ه - تكون وصلة لنداء ما فيه " أل " : نحو " يا أيها الرجل " .

[سورة القصص (28) : آية 29]

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب آنس (بأهله) متعلّق بـ(سار) و(الباء) للمصاحبة (من جانب) متعلّق بحال من (نارا) " 1 " ، (لأهله) متعلّق بـ(قال) ، (آتيكم) خبر لعلّ مرفوع " 2 " ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (منها) متعلّق

---

(1) متعلق بـ(آنس) .

(2) قد يكون اسم فاعل من أتى ، أو مضارع (آتي) .

(174/588)

ب (آتيكم) " 1 " ، بخبر) متعلّق بـ(آتيكم) ، (جذوة) معطوف على خبر بحرف العطف أو مجرور (من النار) متعلّق بنعت لجذوة . . .

وجملة : " سار . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قضى . . .

وجملة : " آنس . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " امكثوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّي آنست . . . " لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ – وجملة : " آنست

. . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " لعليّ آتيكم . . . " لا محلّ لها استئناف بياني " 2 " .

وجملة : " لعلّكم تصطلون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " تصطلون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ . . .

الصرف :

(سار) فيه إعلال بالقلب أصله سير تحركت الياء بعد فتح قلبت ألفا وزنه فعل .

(خبر) ، اسم لما ينقل من حديث وغيره ، وزنه فعل بفتحتين .

(جذوة) ، اسم للعود الذي في رأسه نار أو للعود مطلقا ، وزنه فعلة بفتح فسكون - مثلّث الفاء - .

[سورة القصص (28) : الآيات 30 إلى 32]

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (32)

---

(1) يجوز أن يكون متعلقا بحال من خبر .

(2) يجوز أن تكون في محلّ نصب حال من فاعل آنست أي راجيا المجيء بخبر . . .

هذا إذا صحّ مجيء الحال في الجملة الإنشائيّة .

الجدول ج 20 ، ص : 252

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لمّا أتاها) مثل لمّا قضى . . . " 1 " ،

(175/588)

(من شاطئ) متعلّق بـ (نودي) وكذلك (في البقعة) (من الشجرة) بدل من الشاطئ بدل اشتمال بإعادة الجارّ (أن) حرف تفسير ، (موسى) منادى مفرد علم مبني على الضمّ المقدّر في محلّ نصب (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 2 " ، (ربّ) نعت للفظ الجلالة مرفوع .

جملة : " أتاها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نودي . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يا موسى . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " إنّي أنا اللّه . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أنا اللّه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(31) (الواو) عاطفة (أن) مثل الأولى (الفاء) عاطفة (لمّا رآها . . .) مثل لمّا قضى " 3 " ، (مدبرا) حال منصوبة (الواو) عاطفة في الموضعين (يا موسى) مثل الأولى (لا) ناهية جازمة (من الآمنين) متعلّق بخبر إنّ .

وجملة : " ألق . . . " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " رآها . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تهتزّ . . . " في محلّ نصب حال من مفعول رآها .

وجملة : " كأنّها جانّ . . . " في محلّ نصب حال من فاعل تهتزّ .

(1 ، 3) في الآية السابقة (29) .

(2) أو توكيد للضمير المتصل في (إني) ، وأستعير لمحلّ النصب .

(176/588)

وجملة : " ولّى . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لم يعقّب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة النداء الثانية لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " أقبل . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " لا تخف . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أقبل .

وجملة : " إنّك من الآمنين . . . " لا محلّ لها تعليليّة . . .

(32) (في جيبك) متعلّق بـ (اسلك) ، (تخرج) مضارع مجزوم جواب الطلب (بيضاء) حال منصوبة من فاعل تخرج ، (من غير . . .) متعلّق بحال من الضمير في بيضاء (إليك) متعلّق بـ (اضمم) ، (من الرهب) متعلّق بـ (اضمم) أي من أجله (الفاء) استئنافيّة (ذانك) اسم إشارة مبنيّ على الألف في محلّ رفع مبتدأ خبره برهانان (من ربّك) متعلّق بنعت للخبر (إلى فرعون) متعلّق بفعل محذوف تقديره اذهب " 1 " . . .

وجملة : " اسلك . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

وجملة : " تخرج . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء أي : إن تسلك يدك تخرج . . .

وجملة : " اضمم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اسلك .

وجملة : " ذانك برهانان . . . " لا محلّ لها استئناف في معرض النداء .

وجملة : " إنّهم كانوا . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كانوا قوما . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(شاطئ) اسم للبر الملاصق للبحر على وزن فاعل

---

(1) أو بمحذوف نعت ثان لـ (برهانان) تقديره مرسلان .

(2) أو بدل من جملة أقبل .

الجدول ج 20 ، ص : 254

وأصله الوادي .

(الأيمن) : صفة مشتقّة على وزن أفعل ، وهو الجانب مما يلي اليمين من الإنسان ، وقد يكون من اليمن أي البركة ، ولم يقصد به التفضيل .

(البقعة) ، اسم للجزء من الأرض ، مما يكون فيه الإنسان واقفا ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

(32) (ذانك) ، اسم إشارة للمثنى وهو مبني على الألف على الأرجح - وبعضهم يجعله معربا بالحروف .

البلاغة

التكرير : في قوله تعالى : اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين ، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء ، وفي الثاني إخفاء الرعب .

الكناية : في قوله تعالى وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ .

ضم الجناح كناية عن التجلد والضبط ، وهو مأخوذ من فعل الطائر عند الأمن بعد الخوف ، وهو في الأصل مستعار من فعل الطائر عند هذه الحالة ، ثم كثر استعماله في التجلد وضبط النفس ، حتى صار مثلا فيه وكناية عنه .

ونضيف إلى ما تقدم ما أورده الإمام الزمخشري بأسلوبه الساحر وهذا نصه :

" فإن قلت قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما إليه وذلك قوله : " وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ " وفي طه " وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ " فما التوفيق بينهما ؟ قلت : المراد الجناح المضموم وهو اليد اليمنى والمضموم إليه هو اليد اليسرى وكل واحدة في يمنى اليدين ويسراهما جناح " .

[سورة القصص (28) : الآيات 33 إلى 34]

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34)

الإعراب :

(قال ربّ) مرّ إعرابها " 1 " ، (منهم) متعلّق بحال من (نفسا) ، (الفاء) عاطفة (أن)

حرف مصدريّ و(النون) في (يقتلون) نون الوقاية وردت قبل ياء المتكلّم المحذوفة لمناسبة فواصل الآي، وهي مفعول به.

جملة: "قال . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ربّ . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة للاسترحام.

وجملة: "إنّي قتلت . . . "في محلّ نصب مقول القول.

وجملة: "قتلت" في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "أخاف" في محلّ رفع معطوفة على جملة قتلت "2" .

وجملة: "يقتلون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

والمصدر المؤوّل (أن يقتلون . . .) في محلّ نصب مفعول به لفعل الخوف.

(34) (الواو) عاطفة (هارون) عطف بيان على أخي مرفوع (هو) ضمير

---

(1) في الآية (16) من هذه السورة. [. . . . .]

(2) أو لا محلّ لها معطوفة على جملة النداء.

منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره أفصح (منّي) متعلّق بأفصح (لسانا) تمييز منصوب (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (معي) ظرف منصوب متعلّق بفعل أرسله (ردءا) حال منصوبة من مفعول أرسله ، و(النون) في (يصدّقني) للوقاية (أن يكذّبون) مثل أن يقتلون . والمصدر المؤوّل (أن يكذّبون) في محلّ نصب مفعول به عامله أخاف .

الصرف :

(أفصح) ، اسم تفضيل من الثلاثيّ فصح ، وزنه أفعل .

(ردءا) ، مصدر ردأته بمعنى أعنته ، وهو بمعنى المفعول ، وزنه فعل بكسر فسكون .

البلاغة

الاسناد المجازي : في قوله تعالى رِدْءاً يُصَدِّقُنِي .

ليس الغرض بتصديقه أن يقول له : صدقت ، أو يقول الناس صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص الحق بلسانه ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار ، فذلك جار مجرى التصديق المفيد ، فأسند التصديق إلى هارون ، لأنه السبب فيه ، إسنادا مجازيا ومعنى الاسناد المجازي : أن التصديق حقيقة في المصدق فإسناده إليه حقيقة ، وليس في السبب تصديق ، ولكن أستعير له الإسناد لأنه لابس التصديق بالتسبب ، كما لابسه الفاعل بالمباشرة .

والدليل على هذا الوجه قوله : إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

الفوائد

1 - أخاف أن يقتلون :

هذه النون في " يقتلون " للوقاية ، وأما نون الرفع فهي محذوفة ، وحذفت أيضا ياء المتكلم للوقف على الآية ، ولكمال النظم القرآني الذي تحدثنا عنه مرارا .

2 - فقه اللغة :

اتفق علماء اللغة وفقهاؤها على أن الحرفين " العين والضاد " إذا وقعا فاء وعينا للفعل دلّا على القوة والصلابة . رغم أنها ليست كثيرة في عالم الأفعال أو الأسماء .

من ذلك " العضل ، والعضد ، وعضّ ، وعضد ، وعضب ، وعضل . كل هذه الزمرة من الأفعال إنما تتضمن معنى القوة والصلابة . وهذا سرّ آخر من اسرار لغتنا العجيبة ذات الخصائص والأسرار .

[سورة القصص (28) : آية 35]

(179/588)

قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (35)

الإعراب :

(بأخيك) متعلّق بـ (نشدّ) ، وعلامة الجرّ الياء (لكما) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله نجعل (الفاء) عاطفة (لا) نافية (إليكما) متعلّق بـ (يصلون) ، (بآياتنا) متعلّق بمحذوف تقديره اذهب " 1 " ، (أنتما) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (من) اسم موصول في محلّ رفع معطوف على الضمير المنفصل بالواو (الغالبون) خبر .

جملة : " قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سنشدّ . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نجعل . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " لا يصلون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة نجعل .

وجملة : " (اذهب) بآياتنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

---

(1) وقد صرح بالفعل في آية أخرى . . . ويجوز تعليقه بـ (نجعل) أو بـ (يصلون) ، أو بحال من ضمير الخطاب . . .

وجملة : " أنتما . . . الغالبون . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ - وجملة : " اتّبعكما . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

البلاغة

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .

شبه حال موسى عليه السّلام ، في تقويته بأخيه ، بحال اليد في تقويتها بعضد شديد ،

ويجوز أن يكون هناك مجاز مرسل ، من باب اطلاق السبب على المسبب بمرتبتين ، بأن

يكون الأصل سنقويك به ثم نؤيّدك ثم سنشد عضدك به .

[سورة القصص (28) : الآيات 36 إلى 37]

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (لمّا جاءهم موسى) مثل لمّا قضى موسى " 1 " ، (بآياتنا) متعلّق بحال من موسى (بيّنات) حال منصوبة من آياتنا (ما) نافية مهملة (إلّا) أداة حصر (سحر) خبر المبتدأ هذا (ما) مثل الأولى (بهذا) متعلّق بـ (سمعنا) ، (في آبائنا) متعلّق بحال من هذا بحذف مضاف أي : في أيام آبائنا الأولين .

جملة : " جاءهم موسى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

(1) في الآية (29) من هذه السورة.

الجدول ج 20 ، ص : 259

وجملة : " ما هذا إلّا سحر . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " ما سمعنا . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول.

(37) (الواو) عاطفة (بمن) متعلّق بأعلم (بالهدى) متعلّق بحال من فاعل جاء (من عنده) متعلّق بـ (جاء) ، (الواو) عاطفة (من) موصول في محلّ جرّ معطوف على الموصول الأول من (له) متعلّق بخبر تكون " 1 " ، الهاء في (إنّه) هو ضمير الشأن اسم إنّ (لا) نافية . . .

وجملة : " قال موسى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا.

وجملة : " ربّي أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول.

وجملة : " جاء بالهدى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة : " تكون له عاقبة . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني.

وجملة : " إنّه لا يفلح الظالمون " لا محلّ لها استئناف ، إمّا في حيّز القول أو من قول اللّه تعالى.

وجملة : " لا يفلح الظالمون . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

[سورة القصص (28) : الآيات 38 إلى 42]

(1) أو متعلّق بـ (تكون) إذا كان تاما ، و(عاقبة) فاعل .

(181/588)

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الملأ) بدل من أيّ تبعه في الرفع لفظا (ما) نافية (لكم) متعلّق بحال من إله " 1 " (إله) مجرور لفظا منصوب محلّا مفعول به عامله علمت (غيري) نعت لإله " 2 " تبعه في الجرّ لفظا وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على ما قبل الياء . . . و(الياء) مضاف إليه (الفاء) استئنافيّة (لي) متعلّق بـ (أوقد) ، (هامان) منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (على الطين) متعلّق بـ (أوقد) وعلى بمعنى في (الفاء) عاطفة (لي) متعلّق بمفعول به ثان عامله اجعل (إلى إله)

متعلّق بـ(أطّلع) (الواو) اعتراضيّة – أو عاطفة – (اللام) المزحلقة للتوكيد (من الكاذبين) متعلّق بمفعول به ثان عامله أظنّه .

جملة : " قال فرعون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " ما علمت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أوقد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) هذا إذا كان الفعل علمت متعدّيا إلى واحد ، وإذا كان متعدّيا إلى اثنين فالجارّ متعلّق بمفعول به ثان .

(2) أو هو مفعول به ثان إذا تعدّى فعل علمت إلى اثنين ، ولكم حال .

(182/588)

وجملة النداء : " يا هامان . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " اجعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أوقد . . .

وجملة : " لعلّي أطّلع . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة –

وجملة : " أطّلع . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

وجملة : " إنّي لأظنّه . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة – أو معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " أظنّه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

(39) (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع توكيد للضمير المستتر فاعل استكبر (جنوده) معطوف على الضمير المستتر فاعل استكبر (في الأرض) متعلّق بـ (استكبر) ، (بغير) متعلّق بحال من الفاعل وما عطف عليه (إلينا) متعلّق بـ (يرجعون) المنفي ، و(الواو) في (يرجعون) نائب الفاعل .

وجملة : " استكبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال فرعون .

وجملة : " ظنّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استكبر .

وجملة : " لا يرجعون . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّهم إلينا لا يرجعون) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّوا .

(40) (الفاء) عاطفة (جنوده) معطوف على ضمير الغائب المفعول في (أخذناه) ، (في اليمّ) متعلّق بـ (نبذناهم) (الفاء) استئنافيّة (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب خبر كان . . .

وجملة : " أخذناه . . . " لا محل لها معطوفة على جملة ظنّوا . . .

وجملة : " نبذناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذناه .

وجملة : " انظر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به عامله فعل النظر المعلّق بالاستفهام كيف .

(183/588)

---

(41) (الواو) عاطفة (أئمة) مفعول به ثان منصوب عامله جعلناهم (إلى النار) متعلّق بـ (يدعون) ، (الواو) عاطفة (يوم) ظرف منصوب متعلّق بـ (ينصرون) المنفي ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

وجملة : " جعلناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نبذناهم .

وجملة : " يدعون . . . " في محلّ نصب نعت لأئمة .

وجملة : " لا ينصرون . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يدعون .

(42) (الواو) عاطفة (في هذه) متعلّق بحال من لعنة ، وهو المفعول الثاني (الواو) عاطفة (يوم) مثل الأول متعلّق بالمقبوحين " 1 " ، (من المقبوحين) متعلّق بمحذوف خبر هم .

وجملة : " أتبعناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جعلناهم . . .

وجملة : " هم من المقبوحين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتبعناهم . . .

الصرف :

(هامان) ، اسم علم لوزير فرعون لفظ أعجميّ ، وزنه فاعال إن كان من أصل عربي .

(المقبوحين) ، جمع المقبوح ، اسم مفعول من (قبح) الثلاثيّ باب كرم ، ضدّ حسن بمعنى طرد ونبذ ، وزنه مفعول .

البلاغة

الإطناب : في قوله تعالى فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ .

---

(1) النحويّون لا يقرّون هذا التعليق بدعوى أنّ (ال) الموصولة لا يعمل ما بعدها في ما قبلها ، فيعلّقون الجار بمحذوف ، يفسّره قوله : (من المقبوحين) أي قبحوا يوم القيامة . . . ولكن الشواهد القرآنية بجواز التعليق كثيرة . . . ويجوز عطفه على موضع (في هذه) بحذف مضاف أي ولعنة يوم القيامة .

(184/588)

لم يقل : اطبخ لي الآجر واتخذه ، وذلك ليتفادى ذكر كلمة الآجر ، لأن تركيبها - على سهولة لفظه - ليس فصيحا ، وذلك أمر يقرره الذوق وحده ، فهذه العبارة أحسن طباقا لفصاحة القرآن ، وعلوّ طبقته ، وأشبه بكلام الجبابرة .

[سورة القصص (28) : آية 43]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (الكتاب) مفعول به ثان عامله آتينا (من بعد) متعلّق بـ (آتينا) ، (ما) حرف مصدريّ (بصائر) حال منصوبة من الكتاب بحذف مضاف أي ذا بصائر " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما أهلكنا . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

(للناس) متعلّق ببصائر " 2 " ، (هدى ، رحمة) اسمان معطوفان على بصائر منصوبان .

جملة : " آتينا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " لعلّهم يتذكّرون . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يتذكّرون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ . . .

[سورة القصص (28) : الآيات 44 إلى 48]

---

(1) أو هو مفعول لأجله .

(2) أو بنعت لبصائر .

وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (48)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (بجانب) متعلّق بخبر كنت (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بخبر كنت (إلى موسى) متعلّق بـ (قضينا) بتضمينه معنى أوحينا (ما) مثل الأولى (من الشاهدين) خبر كنت.

جملة: "ما كنت بجانب . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "قضينا . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " ما كنت من الشاهدين " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(45) (الواو) عاطفة وكذلك (الفاء) (عليهم) متعلّق بـ (تطاول) ، (ما) مثل الأولى (في أهل) متعلّق بـ (ثاويا) (عليهم) متعلّق بـ (تتلو) . . .

وجملة : " لكنّا أنشأنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(186/588)

وجملة : " أنشأنا . . . " في محلّ رفع خبر لكنّا .

وجملة : " تطاول . . . العمر " في محلّ رفع معطوفة على جملة أنشأنا .

وجملة : " ما كنت ثاويا " لا محلّ لها معطوفة على جملة لكنّا . . .

وجملة : " تتلو . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (ثاويا) " 1 " .

وجملة : " لكنّا كنّا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لكنّا أنشأنا .

وجملة : " كنّا مرسلين " في محلّ رفع خبر لكنّا . . .

(46) (الواو) عاطفة (ما كنت . . . نادينا) مثل ما كنت . . . قضينا (الواو) عاطفة (لكن) للاستدراك (رحمة) مفعول لأجله لفعل محذوف تقديره أرسلناك (من ربّك) متعلّق بنعت لرحمة (اللام) للتعليل (تنذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (ما) نافية (نذير)

مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل أتى (من قبلك) متعلّق بـ (أتاهم) .

والمصدر المؤوّل (أن تنذر . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بالفعل المقدّر أرسلناك .

وجملة : " ما كنت بجانب . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كنت ثاويا .

وجملة : " نادينا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " (أرسلناك) رحمة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كنت . . .

وجملة : " تنذر . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ما أتاهم " في محلّ نصب نعت لـ (قوما) .

---

(1) أو في محلّ نصب خبر ثان لـ (كان) .

الجدول ج 20 ، ص : 266

وجملة : " لعلّهم يتذكّرون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يتذكّرون " في محلّ رفع خبر لعلّهم .

(47) (الواو) عاطفة (لولا) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مصدريّ ونصب (ما) اسم موصول في محلّ جرّ بالباء – للسببيّة – متعلّق بـ (تصيبهم) ، (الفاء) عاطفة (يقولوا) منصوب معطوف على (تصيبهم) ، وعلامة النصب حذف النون .

والمصدر المؤوّل (أن تصيبهم) في محلّ رفع مبتدأ خبره محذوف تقديره موجود .

(ربّنا) منادى مضاف منصوب (لولا) حرف تحضيض (إلينا) متعلّق بـ (أرسلت) ، (الفاء) فاء السببيّة (نتّبع) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء ، والفاعل نحن (نكون) ناقص منصوب معطوف على (نتّبع) بالواو (من المؤمنين) خبر نكون .

والمصدر المؤوّل (أن نتّبع) في محلّ رفع معطوف على مصدر مأخوذ من التحضيض السابق أي : هلّا ثمة إرسال فاتّباع الآيات . . .

وجملة : " لولا (الإصابة) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كنت . . . وجواب الشرط محذوف تقديره ما أرسلنا رسلا إليهم " 1 " .

وجملة : " تصيبهم مصيبة " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " قدّمت أيديهم . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد مقدّر .

وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تصيبهم

---

(1) أي لولا قولهم ، بإصابتهم مصيبة ، هلّا أرسلت رسولا ما أرسلنا رسولا .

مصيبة .

وجملة النداء وجوابه . . . في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لولا أرسلت . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " نتّبع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " نكون من المؤمنين " لا محلّ لها معطوفة على جملة نتّبع .

(48) (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب قالوا (من عندنا) متعلّق بـ (جاءهم) ، (لولا) مثل الأخير ، ونائب الفاعل لفعل (أوتي) ضمير مستتر تقديره هو يعود على محمد صلّى اللّه عليه وسلّم (مثل) مفعول به – وهو المفعول الثاني في الأصل – (ما) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه والعائد محذوف أي أوتيه (موسى) نائب الفاعل لفعل (أوتي) الثاني ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يكفروا) ، والعائد محذوف (قبل) اسم ظرفيّ مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (أوتي) ، (سحران) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هما " 1 " ، (الواو) عاطفة (إنّا) مشبّه بالفعل واسمه (بكلّ) متعلّق بالخبر (كافرين) .

وجملة : " جاءهم الحقّ . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه . . . والشرط وفعله وجوابه

معطوفة على الاستئناف السابق .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " لولا أوتي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أوتي موسى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) أي التوراة والقرآن .

الجدول ج 20 ، ص : 268

وجملة : " لم يكفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أصدقوا ولم يكفروا

. . .

وجملة : " أوتي موسى . . . (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " (هما) سحران " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تظاهرا . . . " في محلّ رفع نعت لـ (سحران) .

وجملة : " قالوا (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا (الأولى) .

وجملة : " إنّا بكلّ كافرون " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(45) ثانيا : اسم فاعل من الثلاثيّ ثوى ، وزنه فاعل .

البلاغة

جناس التحريف : في قوله تعالى وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .

(189/588)

وجناس التحريف : الذي يكون الضبط فيه فارقا بين الكلمتين أو بعضهما .

الفوائد

- انتقاء الألفاظ .

رأينا أن نشير إشارة عابرة إلى مكانة انتقاء الألفاظ في البلاغة والأدب . والحق الذي لامراء فيه أن اختيار اللفظة ووضعها في موضعها حسب المقام ومقتضى الحال تلك موهبة لا تنال بالمراس وحده وملكة لا يؤتاها ألا القليل من الناس . لا سيما وأنت أمام لغة كثرت مفرداتها المترادفة ولكل منها مقام يحدده الذوق وملكة أدبية لا تخضع لقياس . ولا توزن بميزان ولعل كثرة الاطلاع وتعهد النماذج الأدبية الرفيعة بالقراءة

وكثرة المداولة مما ينمي هذه الملكة ويهذبها حتى تكتمل أو تدنو من الكمال .

وهي في القرآن الكريم في أعلى مرتبة من حسن الانتقاء وملكة الاختيار .

[سورة القصص (28) : الآيات 49 إلى 50]

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بكتاب) متعلّق بـ (ائتوا) ، وكذلك (من عند) ، (منهما) متعلّق بأهدى (أتّبعه) مضارع مجزوم جواب الطلب (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ في محلّ جزم فعل الشرط . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ائتوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن كنتم صادقين في ما تقولون فأتوا . . . وجملة الشرط المقدّر مقول القول .

وجملة : " هو أهدى . . . " في محلّ جرّ نعت لكتاب .

وجملة : " أتّبعه . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " كنتم صادقين " لا محلّ لها تفسيريّة ، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله .

(190/588)

(50) (الفاء) عاطفة ، والثانية رابطة لجواب الشرط (يستجيبوا) مجزوم فعل الشرط ، وعلامة الجزم حذف النون (لك) متعلّق بـ (يستجيبوا) ، (أنّما) كافّة ومكفوفة (الواو) استئنافيّة (من) اسم استفهام مبتدأ خبره (أضل) (ممّن) متعلّق بأضلّ (بغير) حال من فاعل اتّبع (من اللّه) متعلّق بنعت لهدى (لا) نافية . . .

وجملة : " لم يستجيبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل .

وجملة : " اعلم . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " يتّبعون . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل العلم المعلّق " 1 " .

وجملة : " من أضلّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّبع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إنّ اللّه لا يهدي . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لا يهدي " في محلّ رفع خبر إنّ .

الفوائد

- اسم التفضيل :

رغم أننا تعرضنا لهذه الصيغة من قبل ، وإنما نؤثر العودة إليها لبيان بعض الخصائص الهامة فيها :

أ- لاسم التفضيل وزن واحد ، وهو " أفعل " ، ومؤنثه " فعلى " ، نحو أفضل وفضلي . وقد

حذفت همزة " أفعل " في ثلاث كلمات ، وهي " خير وشر وحبّ " كقول الشاعر :

منعت شيئًا فأكثرت الولوع به وحبّ شيء إلى الإنسان ما منعا

وأصل هذه الثلاثة : أخير وأشرّ وأحبّ ، وحذفت همزتها لكثرة استعمالها .

---

(1) أو نقول : المصدر المؤوّل أَنَّما يَتَّبِعُونَ . . . في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلم . ولا عبرة بـ (ما) الكافة إذ يبقى (أنّ) على مصدريته . . . وانظر الآية (52) من سورة إبراهيم .

(191/588)

ب – شروط صياغته :

لا يصاغ اسم التفضيل إلا من الفعل الثلاثي المثبت ، المتصرف ، المبني للمعلوم ، التام ، القابل للتفضيل ، على أن لا يكون دالا على لون أو عيب أو حلية .

ج – إذا أردنا صياغة اسم التفضيل من فعل لم يستوف الشروط ، أتينا بمصدره منصوبا بعد " أشدّ أو أكثر أو نحوها " نحو فلان أكثر سوادا من فلان .

د – حالات وروده :

يرد اسم التفضيل على حالات أربع :

1 - مجردا من "أل والاضافة" .

2 - معرفا بـ "ال" .

3 - مضافا إلى معرفة .

4 - مضافا إلى نكره .

ملاحظة قد يرد اسم التفضيل مجردا من معنى المفاضلة ، نحو :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأفضل

أي عزيزة طويلة وحول اسم التفضيل استثناءات وملاحظات وتفصيلات تجاوزناها لتعود إليها في المطولات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 20 صـ 221. 271﴾

(192/588)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(28) سورة القصص

مكيّة وآياتها ثمان وثمانون

[سورة القصص (28) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (6)

اللغة :

(شِيَعاً) في القاموس والتاج وغيرهما من كتب اللغة : " شيعة الرجل أتباعه وأنصاره والجمع شيع وأشياع ، والشيعة : الفرقة وتقع على الواحد والاثنين والجمع مذكرا ومؤنثا وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار لهم اسما خاصا

الواحد شيعي " وقال الزمخشري : " شيعا : فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم أن يلوي عنقه ، قال الأعشى :

وبلدة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يبتغي الشيعا

أو يشيع بعضهم بعضا في طاعته أو أصنافا في استخدامه يتسخر صنفا في بناء وصنفا في حرث وصنفا في حفر ، ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقا مختلفة ، قد أغرى بينهم العداوة " ومعنى البيت الذي أورده الزمخشري للأعشى : ربّ مفازة يخاف الجواب أي كثير السفر من جبت الأرض إذا قطعتها بالسير والدلجة من دلج وأدلج وادّلج إذا سار ليلا

والدلجة ساعة من الليل أي يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلا حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها وبعد البيت قوله :

(193/588)

كلفت مجهولها نفسي وشايعني همّي عليها إذا ما آلها لمعا

بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أولى لها من أن يقال لعا

يقول : كلفت نفسي سير المجهول منها وعاودني عزمي على سيرها وقت لمعان آلها وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر كأنه ماء مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل ثم قال مع ناقة صاحبة قوة ويطلق اللوث على الضعف أيضا فهو من الأضداد ، وعفرناة : غليظة ويقال للعاثر : لعا لك دعاء له بالانتعاش وتعسا له دعاء عليه بالسقوط يريد أنها لا تعثر ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها .

(وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ) : يبقيهن أحياء لقول بعض الكهنة له إن مولودا يولد في بني إسرائيل يكون سبب زوال ملكك .

(هامانَ) : وزير فرعون المذكور هنا وهامان عدو اليهود وزير احشويروش الفارسي ذكر في سفر استير من كتب العهد القديم .

الاعراب :

)

(194/588)

طسم تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ) تقدم القول فيها وتلك مبتدأ وآيات الكتاب المبين خبرها .
(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) نتلو فعل مضارع مرفوع وفاعل مستتر تقديره نحن وعليك متعلقان بنتلو ومن نبأ صفة لمفعول به محذوف أي شيئا من قصة موسى وفرعون وفيه حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه وبالحق حال من فاعل نتلو أي حال كوننا ملتبسين بالحق والصدق أو من المفعول أي حال كونه ملتبسا بالحق والصدق ولقوم متعلقان بنتلو فهو بمثابة التعليل له أي لأجل قوم وجملة يؤمنون صفة لقوم . (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً) كلام مستأنف مسوق لبيان قصة فرعون أو جملة تفسيرية لنبأ موسى وكلتاهما لا محل لهما من الاعراب وإن واسمها وجملة علا خبرها وفاعل علا ضمير مستتر جوازا تقديره هو أي فرعون وفي الأرض متعلقان بعلا وجعل أهلها فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول وشيعا مفعول به ثان . (يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) جملة يستضعف

حالية من فاعل جعل أو صفة لشيعا ولك أن تجعله كلاما مستأنفا وفاعل يستضعف هو وطائفة مفعول به ومنهم صفة لطائفة ويذبح بدل اشتمال من يستضعف لأن الاستضعاف مشتمل على الذبح والاستحياء معا وأبناءهم مفعول يذبح ويستحيي نساءهم عطف على يذبح أبناءهم وجملة إنه تعليل لهذه الأعمال وان واسمها وجملة كان خبرها واسم كان مستتر تقديره هو ومن المفسدين خبر كان . وإنما كان فرعون يذبح أبناءهم ويترك النساء لأن المنجمين في ذلك العصر أخبروه أنه يذهب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل . قال الزجاج : " والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذي أخبره بذلك إن كان صادقا عنده فما ينفع القتل وان كان كاذبا فلا معنى للقتل " .

(195/588)

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ) الواو عاطفة أو حالية فإن جعلتها عاطفة عطفت الكلام على قوله إن فرعون علا في الأرض لأنها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرا لنبأ موسى وفرعون وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ، وإن جعلتها حالية فالجملة حال من يستضعف أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم . وأن وما في حيزها مفعول نريد وعلى الذين متعلقان بنمن وجملة استضعفوا صلة وفي الأرض متعلقان

باستضعفوا أو بمحذوف حال أي حالة كونهم على الأرض ولعله أولى . (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ) ونجعلهم عطف على نمنّ والهاء مفعول به أول وأئمة مفعول به ثان ونجعلهم الوارثين عطف على نجعلهم أئمة . (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ) ونمكن عطف على نجعل وفاعله مستتر تقديره نحن ولهم متعلقان بنمكن وفي الأرض حال ونري عطف أيضا وفرعون مفعول به وهامان عطف على فرعون

وجنودهما عطف على فرعون وهامان ومنهم متعلقان بنري أي ونري فرعون وهامان وجنودهما من بني إسرائيل ما كانوا يحذرون أي يخافونه منهم وقد وقع على يد مولود منهم ، وما مفعول به ثان لنري وجملة كانوا صلة وكان واسمها وجملة يحذرون خبر كانوا .

[سورة القصص (28) : الآيات 7 إلى 13]

(196/588)

وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (8) وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا

تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (9) وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (11)

وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ (12) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (13)

اللغة :

(وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي) : الخوف هو غم يلحق الإنسان لأمر مكروه متوقع والحزن غم يلحقه لأمر مكروه واقع وسيأتي تقرير ذلك في باب البلاغة وما ورد من الاعتراض على هذا العطف .

(قُصِّيهِ) : اتبعي أثره وتتبعي خبره وبابه نصر . وسيأتي المزيد من شرح هذه المادة .

)

جُنُبٍ) بضمتين : مكان بعيد ، يقال بصرت به عن جنب وعن جنابة بمعنى عن بعد .

الاعراب :

(وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ) الواو عاطفة وجملة أوحينا عطف على قوله ان فرعون علا في الأرض وكلتا الجملتين داخلة في حكم تفسير النبأ وأوحينا فعل وفاعل والى أم موسى متعلقان بأوحينا وأن مفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه ويجوز أن تكون مصدرية على بابها وهي مع مدخولها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بأوحينا وأرضعيه فعل أمر وفاعل ومفعول به . (فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) الفاء عاطفة وخفت فعل وفاعل وعليه متعلقان بخفت ، فألقيه الفاء رابطة وألقيه فعل أمر مبني على حذف النون والياء فاعل والهاء مفعول به وفي اليم جار ومجرور متعلقان بألقيه وأراد باليم النيل . (وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتخافي فعل

مضارع مجزوم بلا ولا تحزني عطف على لا تخافي وجملة إنا رادوه تعليل للأمر والنهي وان واسمها ورادوه خبرها وإليك متعلقان برادوه وجاعلوه عطف على رادوه وقد أضيف اسم الفاعل إلى مفعوله الأول ومن المرسلين في محل نصب مفعوله الثاني . (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً) الفاء عاطفة على محذوف للايجاز تقديره فأرضعته وألقته في نهر النيل في تابوت أعدته له وجرى به النيل إلى قبالة قصر فرعون المطل عليه فالتقطه آل فرعون ، ويعبرون عنها بالفصيحة أيضا . وهو فعل ماض ومفعول به مقدم

وفاعل مؤخر وليكون اللام قيل للتعليل وقيل للعاقبة وسيأتي تفصيل ذلك وبحث هذه اللام في باب الفوائد ، ويكون على كل حال فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد اللام واسم يكون مستتر تقديره هو وعدوا خبر يكون وحزنا عطف على عدوا .

(198/588)

(إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ) كلام لا محل له من الاعراب لأنه تعليل لما سبق من أمور وقيل هو كلام معترض بين معطوف عليه وهو فالتقطه آل فرعون ومعطوف وهو وقالت امرأة فرعون . وان واسمها وهامان وجنودهما عطف على فرعون وجملة كانوا خبر إن وكان واسمها وخاطئين خبرها . (وَقالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ : قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ) الواو عاطفة وقالت عطف على فالتقطه آل فرعون وامرأة فرعون فاعل قالت وهي آسية بنت مزاحم وسيأتي ذكرها في قصة موسى وفرعون ، وقرة عين خبر لمبتدأ محذوف أي هو قرة عين ولي ولك صفتان للقرة وقد خبط بعض المعربين خبطا عجيبا في إعراب هذه الآية سنلمع إليه في باب الفوائد . (لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) لا ناهية وتقتلوه فعل مضارع

(199/588)

مجزوم بلا والواو فاعل والهاء مفعول به وعسى فعل ماض من أفعال الرجاء وهي تعمل عمل كان ، واسمها مستتر تقديره هو وأن ينفعنا مصدر مؤول في محل نصب خبر عسى أو نتخذه عطف على ينفعنا والهاء مفعول به أول وولدا مفعول به ثان ، وهم : الواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يشعرون خبر والجملة حال من آل فرعون وهي من كلام اللّه تعالى ويبعد أن تكون من كلام آسية . (وَأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً) الواو استئنافية وأصبح فعل ماض ناقص وفؤاد أم موسى اسمها وفارغا خبرها وسيأتي تفسير هذا الكلام في باب البلاغة . (إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) إن مخففة من الثقيلة وكادت فعل ماض من أفعال المقاربة واسمها مستتر تقديره هي واللام الفارقة وجملة تبدي خبر كادت وبه متعلقان بتبدي وإذا أعملت " إن " كان اسمها ضمير شأن محذوف وجملة كادت خبرها والأولى إهمالها ، ومعنى لتبدي به أي تظهر القول به والضمير لموسى وقيل الباء زائدة والهاء في محل نصب مفعول به والأول أضبط ولولا حرف امتناع لوجود وأن مصدرية وهي مع مدخولها مصدر في محل رفع مبتدأ محذوف الخبر أي لولا ربطنا على قلبها حاصل ، وعلى قلبها متعلقان بربطنا وجواب لولا محذوف أي لأبدت به ولتكون اللام للتعليل وتكون فعل مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد اللام والجار والمجرور متعلقان بربطنا أيضا ومن المؤمنين خبر تكون .

(وَقالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) الواو عاطفة وقالت فعل ماض وفاعل مستتر تقديره هي أي أم موسى ولأخته متعلقان بقالت وقصيه فعل أمر مبني على حذف النون والياء فاعل والهاء مفعول به ، فبصرت الفاء عاطفة على محذوف أي فذهبت ترتاده

(200/588)

و تقص آثاره ، وبه متعلقان ببصرت وعن جنب في موضع الحال من فاعل بصرت أي بصرت به مستخفية كائنة عن جنب أو من المجرور وهو به أي بعيدا والواو حالية وهم مبتدأ وجملة لا يشعرون خبر .

(وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ ناصِحُونَ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في بيان سبب رده إلى أمه ، وحرمنا فعل وفاعل وعليه متعلقان بحرمنا والمراضع مفعول به ومن قبل حال- والمراضع جمع مرضع وهي التي تمارس الإرضاع ولم تباشره أو جمع مرضع بفتح الميم والضاد اسم مكان الرضاع يعني الثدي- فقالت الفاء الفصيحة أي لما رأت أخته ذلك قالت وهل حرف استفهام وأدلكم فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به وعلى أهل

بيت متعلقان بأدلكم وجملة يكفلونه صفة لأهل بيت ولكم متعلقان بيكفلونه والواو حالية وهم مبتدأ وله متعلقان بناصحون وناصحون خبر .

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) الفاء عاطفة ورددناه فعل وفاعل ومفعول به والى أمه متعلقان برددناه وكي حرف تعليل ونصب وتقر فعل مضارع منصوب بكي ولا تحزن عطف على تقر ، ودمع الفرح بارد وعين المهموم حرى سخينة . (وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) الواو عاطفة واللام للتعليل وتعلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وأن وما بعدها سدت مسد مفعولي تعلم وان واسمها وحق خبرها والواو حالية ولكن أكثرهم لكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها .

البلاغة :

1- معنى الخوف والحزن :

(201/588)

لقائل أن يقول : ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر في قوله " ولا تخافي ولا تحزني " ؟ ثم أليس من التناقض أن يثبت الخوف في قوله " فإذا خفت عليه " ثم ينفيه بقوله " ولا تخافي " والجواب على التناقض المزعوم أن الخوف الأول المثبت هو غرقه في

النيل والثاني هو خوف الذبح فاندفع ما يتوهم من تناقض ، وأما الاعتراض الاول فهو مندفع بأن هذا من باب الاطناب بل هو قسم نادر من أجمل أقسامه ، وهو أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخلة إلا أن كل معنى مختص بخصيصة ليست للآخر ، فقد قلنا في باب اللغة أن الخوف هو غم يصيب الإنسان الأمر يتوقع نزوله في المستقبل أما الحزن فهو غم يصيبه لأمر وقع فعلا ومضى فنهيت عنهما جميعا ومنه قول أبي تمام وقد كان بارعا فيه :

قطعت إليّ الزابيين هباته والتاث مأمول السحاب المسبل

من منة مشهورة وصنيعة بكر وإحسان أغر محجل

فقوله منة مشهورة ، وصنيعة بكر ، وإحسان أغر محجل تداخلت معانيه ، إذ المنة والصنيعة والإحسان متقارب بعضه من بعض وليس ذلك بتكرير كما يتوهم لأنه لو اقتصر على قوله منة وصنيعة وإحسان لجاز أن يكون تكريرا ولكنه وصف كل واحدة من هذه الثلاث بصفة أخرجتها عن حكم التكرير فقال " منه مشهورة " فوصفها بالاشتهار لعظم شأنها و" صنيعة بكر " فوصفها بالبكارة أي أنها لم يؤت بمثلها من قبل و" احسان أغر محجل " فوصفه بالغرة والتحجيل

أي هو ذو محاسن متعددة فلما وصف هذه المعاني المتداخلة التي تدل على شيء واحد بأوصاف متباينة صار ذلك إطنابا ولم يكن تكريرا .

و قد اشتملت هذه الآية " وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين " على أمرين وهما " أرضعيه ، فألقيه " ونهيين وهما " لا تخافي ، ولا تحزني " وخبرين وهما : " إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين " وبشارتين في ضمن الخبرين وهما رده إليها وجعله من المرسلين .

2- الكناية :

وذلك في قوله " وأصبح فؤاد أم موسى فارغا " فإن ذلك كناية عن فقدان العقل وطيش اللب والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طاش صوابها وطار عقلها لما انتابها من فرط الجزع والدهش ومثله قوله تعالى " وأفئدتهم هواء " أي جوف لا عقول فيها ومنه بيت حسان :

ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوّف نخب هواء

وهذا البيت من قصيدة مطولة لحسان بن ثابت يهجو بها أبا سفيان قبل إسلامه وبعده :

بأن سيوفنا تركت عبيدا وعبد الدار سادتها الإماء

هجوت محمدا فأجبت عنه وعند اللّه في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء فشرّكما لخيركما الفداء

أمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره

سواء فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

(203/588)

و ألا أداة للتنبيه والاستفتاح والمأمور بالإبلاغ غير معين ، ثم التفت ليثير غيظ أبي سفيان ، وكان مقتضى السياق أن يقول " فإنه " أي أبا سفيان لكن مخاطبته ومشافهته بالذم أمض للنفس وأقذع في الهجاء ، والمجوف والنخب والهواء خالي الجوف أو فارغ القلب من العقل والشجاعة واسناد الترك للسيوف مجاز عقلي لأنها آلة للفعل وعبيد بالتصغير قبيلة وكذلك عبد الدار سادتها مبتدأ والإماء خبره والجملة في محل المفعول الثاني لتركت أي صيرت عبيدا لا سادة لها إلا النساء وصيرت عبد الدار كذلك وأتهجوه الاستفهام إنكاري توبيخي والواو بعده للحال أي لا ينبغي لك ذلك وشر وخير اسما تفضيل واختصا بحذف همزتهما تخفيفا لكثرة استعمالهما لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان وجملة فشر كما لخير كما الفداء دعائية دعا عليه أن يكون فداء لرسول الله وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الانصاف في الكلام ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا هذا أنصف بيت قالته العرب وأمن يهجو استفهام انكاري أي ليس من يهجوه منكم ومن يمدحه

وينصره منا مستويين ويحتمل أن الهمزة للتنبيه أو للنداء والمنادى محذوف أي يا قوم أبي سفيان إن الذي يهجو رسول اللّه منكم والذي يمدحه وينصره منكم مستويان في عدم الاكتراث بهما والوقاء ما يتوقى به المكروه وزان الحزام والرباط فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم آلة.

الفوائد :

1- قصة موسى وفرعون :

(204/588)

نلخص هنا قصة موسى وفرعون كما رويت لطرافتها وكما جرينا عليه في هذا الكتاب ، فموسى معناه ماء وشجر لأن مو بالقبطية هو الماء وشا هو الشجر فعربت وسمي موسى لأنهم وجدوه بينهما ، وهو موسى بن عمران يمت بالنسبة إلى يعقوب بن اسحق بن إبراهيم ولم يزل بنو إسرائيل من عهد يوسف تحت أيدي الفراعنة حتى كان فرعون الذي بعث موسى اليه ، ولم يكن منهم فرعون أعتى منه ولا أطول عمرا وكان شديد الغلظة واسمه الوليد بن مصعب وكان قد اتخذ بني إسرائيل خولا فصنف منهم يبنون ، وصنف يحرثون ومن لا عمل له وظف عليه الجزية ، فرأى في منامه أن نارا أقبلت من المقدس فأحرقت

القبط فسأل عن رؤياه فقيل له : يخرج من هذا البلد أي الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك مصر فأمر بقتل كل مولود حتى كاد يفنيهم فقيل له إنما هم خولك وإنك إن تفنهم ينقطع النسل فأمر بقتل الغلمان عاما واستحيائهم عاما فولد هرون في السنة التي يستحيون فيها وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها فلما وضعته حزنت فأوحى اللّه إليها أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم فعملت تابوتا جعلته فيه وألقته في اليم وهو النيل وقالت لأخته قصيه فحمله الماء حتى أدخله بين أشجار متكاثفة تحت قصر فرعون فخرجت جواري فرعون يغتسلن فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية امرأة فرعون فلما رأته أحبته وأخبرت به فرعون فأراد ذبحه وخشي أن يكون المولود الذي حذر منه فلم تزل به آسية حتى تركه لها وذلك قوله " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " وستأتي تتمة القصة .

2- لام العاقبة أو الصيرورة :

(205/588)

و اللام في " ليكون " للعاقبة وقد أبرز مدخولها في معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له في الترتب عليه بالغرض الحامل له وتسمى لام الصيرورة ولام المآل ، وقد أنكر البصريون لام

العاقبة قال الزمخشري : " والتحقيق أنها لام العلة وأن التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكن المحبة والتبني ، غير أن ذلك لما كانت نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك ضربته ليتأدب وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد " .

3- أعاريب في " قرة أعين " :

تفادينا في هذا الكتاب إيراد الأعاريب المرجوحة بله المتهافتة لأننا آثرنا اختيار أفضل الوجوه وأمثلها ، غير أننا لا نرى إغفال بعض الأعاريب المتهافتة التي تبناها بعض المعربين فقد قلنا إن قرة أعين خبر مبتدأ مضمر ولي ولك صفتان ، وقد أجاز بعضهم وجها لا يجوز إيراده البتة وهو أن تكون قرة أعين مبتدأ والخبر جملة لا تقتلوه لأن فيه الإخبار بالانشاء عن الخبر وهذا هين بالنسبة لمخالفة الضمير لأنه يجب أن يقول لا تقتلوها واحتجوا بأنه لما كان المراد مذكرا ساغ ذلك ، وما أغناها عن ذلك التمحّل الذي لا يليق بالقرآن ، ونقل ابن الانباري بسنده إلى ابن عباس انه وقف على " لا " أي هو قرة عين لي فقط ولك لا ، أي ليس هو قرة عين ، ثم يبتدىء بقوله تقتلوه وهذا مضحك لا يمكن أن ينسب إلى ابن عباس ولا إلى ابن الأنباري نفسه وكيف يبقى تقتلوه من غير نون رفع ولا مقتضى لحذفها

ولذلك قال الفراء :

هو لحن .

[سورة القصص (28) : الآيات 14 إلى 17]

(206/588)

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17)

الإعراب :

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) الواو استئنافية والكلام مستأنف مسوق لتتمة قصة يوسف بعد بلوغه الأشد ، ولما حينية أو رابطة وقد تقدم ذلك وبلغ فعل ماض وفاعله مستتر تقديره وهو وأشده مفعول به ، وقد مضى تفسير الأشد والأقوال فيه أكثر من مرة ، واستوى عطف على بلغ ،

و المراد انه انتهى شبابه وتكامل عقله ، وجملة آتيناه لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وآتيناه فعل ماض وفاعل ومفعول به أول وحكما مفعول به ثان وعلما عطف على حكما وكذلك نعت لمصدر محذوف ونجزي المحسنين فعل مضارع وفاعل ومفعول به .

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها) ودخل المدينة عطف على محذوف أي وغاب عن فرعون مدة طويلة لأنه أقام في مصر ثلاثين سنة ثم ذهب إلى مدين وأقام فيها عشر سنين ، ودخل المدينة فعل وفاعل ومفعول على السعة ، قيل المراد بالمدينة منف بضم فسكون وهي ممنوعة من الصرف للعلمية والعجمة وقيل غير ذلك ، وعلى حين غفلة حال من المدينة أو من فاعل دخل أي مختلسا ومن أهلها صفة لغفلة قيل كان الوقت بين العشاءين وقيل وقت القائلة وقيل يوم عيد ومعنى " على " هنا الظرفية أي على حين . (فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَهذا مِنْ عَدُوِّهِ) فوجد عطف على دخل وفيها متعلقان بوجد ورجلين مفعول به وجملة يقتتلان صفة لرجلين وهذا مبتدأ ومن شيعته خبر والجملة صفة ثانية لرجلين وقيل حال ، والحال من النكرة أجازه سيبويه من غير شرط ، وهذا من عدوه عطف عليها . والعرب تشير بهذا إلى الغائب لأنها حكاية حال ماضية ، فعبر عن

غائب ماض باسم الاشارة .

(فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) الفاء عاطفة واستغاثه فعل ماض ومفعول به والذي فاعل ومن شيعته متعلقان بمحذوف صلة واستغاث يتعدى بنفسه تارة كما هنا وتارة بالباء .

(فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) فوكزه عطف أيضا أي دفعه بجمع كفه ، وقال الكسائي لكمه ، وموسى فاعل فقضى عليه عطف على فوكزه ، قال فعل ماض والجملة

(208/588)

مستأنفة وهذا مبتدأ ومن عمل الشيطان خبر والجملة مقول القول ، وجملة إنه عدو تعليل ، ولا يقدح ذلك في عصمته لكونه خطأ ولكونه غير مقصود وإنما عدّه من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفر منه هضما لنفسه واستعظام الهنات اليسيرة التي تبدر منهم ، وان واسمها وعدو خبرها ومضل صفة ومبين صفة ثانية . (قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة وإن واسمها وجملة ظلمت نفسي خبر إن فاغفر لي الفاء عاطفة واغفر فعل دعاء ولي متعلقان باغفر

فغفر له عطف وان واسمها وهو ضمير فصل والغفور خبر والرحيم خبر ثان ، ويجوز أن تعرب هو مبتدأ والغفور الرحيم خبران لهو والجملة خبر ان .

(قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ) بما الباء حرف قسم وجر وجواب القسم محذوف تقديره أقسم بإنعامك عليّ بالمغفرة لأتوبن ، وما مصدرية والمصدر في محل جر بباء القسم والفاء عاطفة على الجواب المحذوف ولن حرف نفي ونصب واستقبال وأكون فعل مضارع ناقص واسمها مستتر تقديره أنا وظهيرا خبرها وللمجرمين متعلقان بظهيرا ويجوز أن يكون الكلام استعطافا كأنه قال رب اعصمني بحق ما أنعمت علي من الكفرة فلن أكون إن عصمتني ظهيرا للمجرمين فتتعلق الباء ومدخولها باعصمني المقدر ولا تحتاج إلى جواب وتكون الفاء في فلن أكون هي الفصيحة لأنها جواب شرط مقدر كما ذكرنا ، هذا وهناك أقوال أخرى كلها سديدة موعدنا بها باب الفوائد .

الفوائد :

1 - تتمة قصة موسى :

واتخذه فرعون ولدا وارتادوا له المرضعات فلم يقبل ثدي

واحدة منهن ولما غاب أمره عن أمه كاد قلبها يطير وجدا عليه فبعثت أخته كأنها تلتمس رضاعه فلما رأت أسفهم عليه حيث لم يقبل على مرضعة قالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم فأجابوا ملتمسها فذهبت فجاءت بأمه وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها فأعطته ثديها فأخذ يرضعه فربته في قصر فرعون ثم عرضته آسية على فرعون فلما أخذه مد موسى يده إلى لحيته فنتفها فقال فرعون عليّ بالذباحين فإنما هو هذا فقالت آسية هو قرة عين لي ولك لا تقتلوه فإنه صبي لا يعقل ودعت له بجمر وياقوت فطرح جبريل يده في النار فوضعها موسى في فمه فأحرقته فتركه فرعون فكبر في حجره فلما ترعوع تبناه فكان يركب مراكبه ويلبس ملابسه ويدعى ابن فرعون ، ثم ان موسى أخبر أن فرعون قد ركب فركب أثره فأدركه ببلدة منف فدخلها وقد أخليت لفرعون وليس في طرقها أحد فرأى إسرائيليا مع قبطي يقتتلان فاستغاثه الاسرائيلي فوكز القبطي فقضى عليه فكان من قصتهما ما قص اللّه تعالى في سورة القصص حتى خرج خائفا يترقب إلى مدين وستأتي البقية قريبا .

2- اختلاف المعربين في " بما أنعمت عليّ " :

أوردنا الوجهين الراجحين في إعراب هذه الآية وهي " قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين " وقد اختارهما الزمخشري أيضا قال : " وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه في جملته وتكثيره سواده حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد

وكان يسمى ابن فرعون وأما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة

الاسرائيلي المؤدية إلى القتل الذي لم يحل له "

وكذلك اختارهما أبو البقاء في كتابه "إعراب القرآن" وقيل ليس هذا خبرا بل هو دعاء أي

فلا أكون بعد هذا ظهيرا أي فلا تجعلني يا رب ظهيرا للمجرمين.

[سورة القصص (28) : الآيات 18 إلى 21]

(210/588)

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)

الإعراب:

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ) الفاء عاطفة وأصبح فعل ماض ناقص أو تام وعلى

الاول اسمها مستتر تقديره هو وفي المدينة حال وخائفا خبر أصبح أو في المدينة خبر أصبح وخائفا حال ، وعلى الثاني يكون فاعل أصبح مستترا تقديره هو وفي المدينة متعلقان به وخائفا حال وجملة يترقب على الوجهين حال ثانية أو خبر ثان أو حال من الضمير في خائفا فتكون حالا متداخلة ومفعول يترقب محذوف أي

يترقب المكروه ويبعد أن يترقب الفرج لأن السياق يستبعده .

)

(211/588)

فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ) الفاء عاطفة وإذا فجائية وقد تقدم القول في ظرفيتها أو حرفيتها والذي مبتدأ وجملة استنصره صلة وبالأمس متعلقان باستنصره وجملة يستصرخه خبر الذي ومتعلق يستصرخه محذوف أي على قبطي آخر . (قَالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ) قال فعل ماض وله متعلقان به وموسى فاعل وانك إن واسمها واللام المزحلقة وغوي مبين خبران لإن . (فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وأن زائدة وتطرد زيادتها بعد لما وقبل لو مسبوقة بقسم كقول الشاعر :

فأقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكم يوم من الشر مظلم

وإنما زاد " أن " للاشعار بأن موسى لم تكن مسارعته إلى قتل الثاني كما كانت مسارعته إلى قتل الأول بل كان عنده إبطاء في بسط يده إليه فعبر القرآن عن ذلك الإبطاء بزيادة أن وقد تقدم في سورة يوسف ما يماثل هذا في قوله تعالى " فلما أن جاءه البشير ألقاه على وجهه " فجدد به عهدا .

وأراد فعل ماض وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول أراد وبالذي متعلقان ببطش وهو مبتدأ وعدو خبر ولهما صفة والجملة صلة الذي . (قالَ يا مُوسى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ) قال فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو يعود على الاسرائيلي المستغيث قال ذلك وقد ظن أن موسى يريد أن يبطش به ، وقيل يعود على القبطي وليس ببعيد ورجحه زاده في حاشيته على البيضاوي ، وكأنه توهم من زجر موسى الاسرائيلي انه هو الذي قتل الرجل بالأمس ، أتريد

(212/588)

الهمزة للاستفهام الانكاري وتريد فعل مضارع مرفوع وان وما في حيزها مفعول تريد وكما قتلت نعت لمصدر محذوف وقد تقدمت له نظائر ونفسا مفعول به وبالأمس متعلقان

بقتلت . (إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ) إن نافية وتريد فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنت وإلا أداة حصر وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول تريد وجبارا خبر تكون وفي الأرض صفة لجبارا وما تريد أن تكون من المصلحين عطف على الجملة المماثلة السابقة . (وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى) الواو عاطفة على محذوف يقدر من سياق الكلام أي فذهب القبطي الذي سمع ما قاله الإسرائيلي وقد علم أن موسى هو قاتل القبطي الأول إلى فرعون وأخبره بجلية الأمر فغضب فرعون وأمر بقتل موسى وإلقاء القبض عليه . وجاء رجل فعل وفاعل وهو مؤمن من آل فرعون وردت الإشارة إليه في مكان آخر من القرآن قيل هو ابن عم فرعون ومن أقصى المدينة صفة لرجل وجملة يسعى صفة ثانية أو حال لأن قوله " رجل " تخصص بالوصف كما هي القاعدة المشهورة ، ويجوز تعليق من أقصى المدينة بجاء فتكون جملة يسعى صفة فقط .

(قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) إن الملأ إن واسمها وجملة يأتمرون خبر وبك متعلقان بيأتمرون أي يتشاورون والائتمار التشاور يقال : الرجلان يتآمران ويأتمران بمعنى واحد لأن كل واحد فيهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر وقيل معناه يأمر بعضهم بعضا بقتلك ولعل هذا أوضح وقد أورد صاحب التاج

المعنيين قال : " ائتمروا وتآمروا : تشاوروا وائتمروا بفلان هموا به وأمر بعضهم بعضا بقتله "

وبك متعلقان بيأتمرون وليقتلوك اللام تعليلية والمضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ،

(213/588)

فاخرج الفاء الفصيحة أي إن سمعت نصيحتي فاخرج وإني تعليل لأمره بالخروج وإن واسمها ولك متعلقان بمحذوف حال وعليه اقتصر الزمخشري ومنع تعليقه بالناصحين وأجاز غيره . أن يتعلق بالناصحين للاتساع في الظروف أو بما يدل عليه لفظ الناصحين أي ناصح لك من جملة الناصحين . (فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الفاء عاطفة على محذوف أي فعمل موسى بنصيحته فخرج ومنها متعلقان بخرج وخائفا حال وجملة يترقب حال ثانية ومفعول يترقب محذوف أي الشر أو لحوقهم به وقيل يترقب غوث اللّه والأول أنسب بالسياق ورب منادى ونجني فعل دعاء والياء مفعول به ومن القوم متعلقان بنجني والظالمين صفة .

[سورة القصص (28) : الآيات 22 إلى 25]

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا

نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25)

اللغة :

(تِلْقاءَ) : تقدم ذكر المصادر التي وردت على هذا الوزن والمعنى هنا الجهة .

)

(214/588)

مَدْيَنَ) : بلدة في مصر تقع على بحر القلزم محاذية لتبوك فيها البئر التي استقى منها موسى ومدين اسم قبيلة ذكرها ياقوت ، قال الجلال : " وهي قرية شعيب مسيرة ثمانية أيام من مصر سميت بمدين ابن ابراهيم ولم يكن يعرف طريقها " .

(سَواءَ السَّبِيلِ) : وسطه ومعظم نهجه من إضافة الصفة للموصوف أي الطريق الوسط .

(تَذُودانِ) : تدفعان أغنامهما عن الماء . ومنه قول الشاعر :

أبيت على باب القوافي كأنما أذود بها سربا من الوحش نزّعا

(ما خَطْبُكُما) : ما شأنكما قال الزمخشري : " وحقيقته ما مخطوبكما أي مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبا كما سمي المشئون شأنا في قولك ما شأنك ؟ يقال شأنت شأنه أي قصدت قصده " وفي القاموس وشرحه " الخطب مصدر والشأن يقال : ما خطبك ؟ أي ما شأنك وما الذي حملك عليه والخطب : الأمر صغر أو عظم وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه " ولهذه المادة معان كثيرة يرجع إليها في المعاجم المطولة ولكثرتها نظم بعضهم هذه المعاني بقوله :

ومرّة الوعظ تسمى خطبة ثم التماس للنكاح الخطبة

وما به يخطب فهو الخطبة وحمرة أي في سواد الشعر

فحمرة في كدرة تدعى خطب وخطبة النكاح جمعها خطب

وجمع خطبة بمنبر خطب والخطب سهل أي سبيل الأمر

فالأمر مع صرف الزمان خطب والخطبة الخاطب كل خطب

جمع لأخطب وخطبا خطب في كل ذي اختلاف لون يجري

وفي الوعظ قل وفي النكاح خطبا نعم وفي كدرة لون خطبا

وإن ترد صار خطيبا خطبا أتى بسجع في الكلام النثر

(يُصْدِرَ الرِّعاءُ) : الصدر عن الشيء : الرجوع عنه ، يقال في فعله صدر من باب نصر وضرب ، والصدر بفتحتين اسم مصدر منه

ويتعدى بنفسه فيقال صدره غيره أي رجعه أي رده ، ويستعمل رباعيا فيقال أصدره غيره . والرعاء : جمع راع على غير القياس لأن فاعلا الوصف المعتل اللام كقاض قياسه فعله كقضاة ورماة خلافا للزمخشري في قوله إنه جمع راع على فعال قياس كصيام وقيام ، أما جمع فعال فيطرد في ستة أنواع نوردها فيما يلي :

1- اسم أو صفة ليست عينهما ياء على وزن فعل أو فعلة ، فالاسم ككعب وكعاب وثوب وثياب ونار ونيار وقصعة وقصاع وجنة وجنان ، والصفة كصعب وصعبة وصعاب وضخم وضخمة وضخام ، وندر مجيئه من معتل العين : كضيعة وضياع وضيف وضياف .

2- اسم صحيح اللام غير مضاعف على وزن فعل أو فعلة كجمل وجمال وجبل وجبال ورقبة ورقاب وثمرة وثمار .

3- اسم على وزن فعل كذئب وذئاب وظل وظلال وبئر وبئار .

4- اسم على وزن فعل ليست عينه واوا ولا لامه ياء كرمح ورماح وريح ورياح ودهن ودهان ، وأما الدهان في قوله تعالى :

" فكانت وردة كالدهان " فسيأتي انه اسم مفرد ومعناه الجلد الأحمر .

5- صفة صحيحة اللام على وزن فعيل أو فعيلة ككريم وكريمة وكرام ومريض ومريضة ومراض وطويل وطويلة وطوال .

6- صفة على وزن فعلان أو فعلى أو فعلانة أو فعلانة كعطشان وعطشى وعطاش وريان وريا ورواء وندمان وندمى وندام وخمصان وخمصانة وخماص .

وما جمع على فعال من غير ما ذكر فهو على غير القياس وذلك كراع وراعية ورعاء وقائم وقائمة وقيام وصائم وصائمة وصيام وأعجف وعجفاء وعجاف وخيّر وخيار وجيّد وجياد وجواد وجياد وأبطح وبطاح وقلوص وقلاص وأنثى وإناث ونطفة ونطاف وفصيل وفصال وسبع وسباع وضبع وضباع ونفساء ونفاس وعشراء وعشار .

هذا ولا ندري كيف ند هذا عن الزمخشري فقال في كشافه :

" وأما الرعاء بالكسر فقياس كصيام وقيام " .

)

(216/588)

اسْتِحْياءٍ) : الاستحياء والحياء الحشمة والانقباض والانزواء قال في المصباح : " يقال استحيت بياء واحدة وبياء واحدة وبياءين ويتعدى بنفسه وبالحرف فيقال استحيته واستحيت منه " .

(الْقَصَصَ) بفتحتين : مصدر بمعنى المقصوص وقد سمي به فيما بعد المقصوص يقال قص عليه الخبر حدثه به ومصدره قصص بفتحتين أما القصص بكسر القاف فهو جمع قصة .

الاعراب :

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ) الواو استئنافية ولما حينية أو رابطة وتوجه فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وتلقاء مدين ظرف مكان متعلق بتوجه وتلقاء يستعمل مصدرا واسما للقاء ومكانا له وقد ذكرنا فيما مضى أن لدينا عشرة مصادر أتت مخالفة فجاءت بكسر أولها ، وجعله شارح القاموس اسما للمصدر فقال تعليقا على القاموس " قوله والاسم التلقاء أي اسم

المصدر ولكن يعكر عليه قوله ولا نظير له غير التبيان إذ لم يقل أحد بأن التبيان اسم مصدر بل هو مصدر نادر " وعبارة المحكم : " التلقاء اسم مصدر لا مصدر وإلا لفتحت التاء

وقيل مصدر لا نظير له غير التبيان " ومدين مضاف إليه ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث وجملة قال لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وعسى فعل ماض جامد من أفعال الرجاء وربي اسمها وان وما في حيزها خبرها وسواء السبيل مفعول ثان أو منصوب بنزع الخافض . (وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ) وجد فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو وعليه متعلقان بوجد لأن وجد بمعنى لقي وأمة مفعول به أي جماعة كثيفة ومن الناس صفة لأمة وجملة يسقون صفة ثانية أو حال ومفعول يسقون محذوف للعلم به أي مواشيهم . (وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ) ووجد عطف على وجد الأولى ومن دونهم متعلقان بوجد أيضا أي في مكان أسفل منهم ، وامرأتين مفعول به أول وجملة تذودان صفة لامرأتين . (قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ) ما اسم استفهام مبتدأ وخطبكما خبر والجملة مقول القول ، قالتا فعل ماض والتاء تاء التأنيث الساكنة وحركت بالفتح لمناسبة ألف التثنية والألف فاعل وجملة لا نسقي مقول قولهما وحتى حرف غاية وجر ويصدر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والرعاء فاعل والواو حالية وأبونا مبتدأ وشيخ خبر وكبير صفة وسيأتي في باب البلاغة سر الجملة الحالية . (فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ) الفاء عاطفة على محذوف مقدر يفهم من سياق الكلام وسقى فعل ماض ولهما متعلقان به والمفعول به محذوف أي غنمهما لأجلهما ، ثم حرف عطف وتولى فعل ماض والى الظل متعلقان بتولي أي إلى ظل

شجرة كانت هناك . (

فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) رب منادى

(218/588)

و ان واسمها ولما اللام حرف جر وما نكرة بمعنى شيء أو اسم موصول أي لأي شيء أو للذي أنزلت والجار والمجرور متعلقان بفقير وأنزلت فعل وفاعل والجملة إما صفة لما إن كانت نكرة أو صلة وإليّ متعلقان بأنزلت ومن خير حال وفقير خبر إن وعدي فقير بحرف الجر لأنه ضمن معنى سائل أو طالب وإلا فهو يتعدى بإلى .

(فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ) الفاء عاطفة على محذوف يفهم من سياق الكلام أي فرجعتا إلى أبيهما في زمن أقل مما كانتا تستنز فانه في السقي فسألهما عن سبب ذلك فأخبرتاه بقصة من سقى لهما فقال لإحداهما أدعية لي فجاءته ، وإحداهما فاعل وجملة تمشي حال من الفاعل وعلى استحياء حال من الفاعل المضمر في تمشي أي مستحيية خفرة وقيل واضعة كم درعها على وجهها حياء منه .

(قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا) إن واسمها وجملة يدعوك خبر وليجزيك اللام للتعليل ويجزيك فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والجار والمجرور

متعلقان بيدعوك والكاف مفعول به أول وأجر مفعول به ثان وما مصدرية وهي وما بعدها في تأويل مصدر مضاف لأجر أي أجر سقايتك ولنا متعلقان بسقيت .

)

فَلَمَّا جاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الفاء عاطفة على محذوف والتقدير فأجابها لا ليأخذ الأجر ولكن لأجل التبرك بأبيها لما سمع منهما انه شيخ كبير ، فمشت أمامه فجعلت الريح تضرب ثوبها فتكشف ساقيها أو ألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته فقال لها : امشي خلفي ودليني على الطريق ففعلت إلى أن دخل عليه فلما جاءه وقص عليه ، قص فعل ماض وعليه متعلقان بقص والقصص مفعول به وجملة قال لا محل لها ولا ناهية وتخف فعل مضارع مجزوم

(219/588)

بلا ونجوت فعل وفاعل ومن القوم متعلقان بنجوت والظالمين صفة وإنما هدأ روعه وطمأنه لأن مدين لم تكن في سلطان فرعون .

البلاغة :

1- الإيجاز :

كثر الإيجاز في هذه الآيات فقد حذف المفعول به في أربعة أماكن أحدها مفعول يسقون أي مواشيهم والثاني مفعول تذودان أي مواشيهما والثالث لا نسقي أي مواشينا والرابع فسقى لهما أي مواشيهما وعلة الحذف أن الغرض هو أن يعلم انه كان من الناس سقي ومن البنتين ذود وأنهما قالتا لا نسقي أي لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء وانه كان من موسى سقي فأما كون المسقي غنما أو إبلا أو غير ذلك فذلك أمر خارج عن نطاق الغرض .

2- الكناية :

في قوله " وأبونا شيخ كبير " فقد أرادتا أن تقولا له : إننا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ومالنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ طاعن في السن قد أضعفه الكبر وأعياه فلا مندوحة لنا عن ترك السقيا وأرجائها إلى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء وبذلك طابق جوابهما سؤاله لأنه سألهما عن علة الذود فقالتا ما قالتاه وإنما ساغ لنبي اللّه شعيب أن يرضى لابنتيه بامتهان سقيا الماشية على ما فيها من تبذل واطراح حشمة لأن الضرورات تبيح المحظورات مع أن الأمر في حد ذاته ليس بمحظور فالدين لا يأباه

(220/588)

والعادات متباينة ومذهب أهل البدو غير مذهب أهل الحضر خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة .

3- الإشارة :

وذلك في قوله " على استحياء " فقد أشار بلمح خاطف يشبه لمح الطرف وبلغة هي لغة النظر إلى وصف جمالها الرائع الفتان باستحياء لأن الخفر من صفات الحسان ولأن التهادي في المشي من أبرز سماتهن ، قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

وأبدع ابن الرومي ما شاء له الإبداع إذ قال :

جرت تدافع من وشي لها حسن تدافع الماء في وشي من الجب

وان رمق سماء امرئ القيس بقوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

وعمر بن أبي ربيعة في رائيته البديعة :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيح شبت بالعشي وأنور

وغاب قمير كنت أرجو غيابه وروّح رعيان وهوّم سمر

وخفض عني الصوت أقبلت مشية الحباب وركني خيفة القوم ازور

[سورة القصص (28) : الآيات 26 إلى 28]

قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (28)

الإعراب :

(221/588)

(قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ) قالت إحداهما فعل وفاعل وهي الكبرى التي تزوجها موسى فيما بعد ، ويا أبت تقدم إعرابه كثيرا واستأجره فعل أمر وفاعل ومفعول به (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) الجملة لا محل لها لأنها تعليل للأمر قبلها وسيأتي معنى هذا الكلام الجامع المانع في باب البلاغة ، وإن واسمها ومضاف إليه وجملة استأجرت لا محل لها لأنها صلة الموصول والقوي خبر أول

والأمين خبر ثان . (قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ) إن واسمها وجملة أريد خبرها والجملة مقول القول وأن أنكحك في تأويل مصدر مفعول أريد وفاعل أنكحك ضمير مستتر تقديره أنا والكاف مفعول به أول وإحدى ابنتي مفعول به ثان وابنتي مضاف لإحدى

وهاتين صفة لابنتي والاشارة لتمييزها من بين بقية أخواتهما فقد كان له كما يروى سبع بنات . (عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ) على حرف جر دخل على أن وما يليها والجار والمجرور متعلقان بمحذوف في موضع الحال إما من الفاعل أو من المفعول أي مشروطا عليّ أو عليك ذلك وتأجرني فعل مضارع من أجرته إذا كنت له أجيرا كقولك أبوته أي كنت له أبا ومفعول تأجرني الثاني محذوف أي نفسك وثماني حجج ظرف لتأجرني وحجج أعوام ، وتكلف الزمخشري وجها ما أدري كيف استقام له وهو أن يكون ثماني مفعولا ثانيا لتأجرني ، وقد احتاج إلى تقدير مضاف أي رعي ثماني حجج ولا داعي لهذا التكلف ، هذا فضلا عن أن المعنى لا يستقيم معه لأن العمل هو الذي تقع به الإثابة لا الزمان فكيف يوجه الاجارة على الزمان ؟

)

(222/588)

فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ) الفاء عاطفة وإن شرطية وأتممت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وعشرا مفعول به والفاء رابطة للجواب لأنه جملة اسمية ومن عندك جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف أي فالتمام من عندك وليس في الأمر إلزام

وتحتيم .

(وَما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) الواو عاطفة وما نافية وأريد فعل مضارع وفاعل مستتر تقديره أنا وأن وما في حيزها مفعول أريد وعليك متعلقان بأشق ، ستجدني فعل مضارع مرفوع والفاعل مستتر تقديره أنت والنون للوقاية والياء مفعول به

وجملة إن شاء اللّه اعتراضية لا محل لها وجواب ان محذوف ومن الصالحين متعلقان بتجدني ومعنى أشق عليك أجعل الأمر صعبا ، قال الزمخشري : " فإن قلت : ما حقيقة شققت عليه وشق عليه الأمر ؟

قلت : حقيقته ان الأمر إذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول تارة أطيقه وتارة لا أطيقه " وسيأتي مزيد من ذلك في باب البلاغة .

(قالَ ذِلكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّما الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ) ذلك مبتدأ وبيني وبينك خبره أي ذلك الذي عاهدتني وشارطتني عليه قائم وثابت بيننا لا نحيد عنه كلانا ، وأيما الأجلين :

أي اسم شرط جازم في محل نصب مفعول مقدم لقضيت وما زائدة للإبهام وسيأتي بحث مستفيض عن أي في باب الفوائد وقيل ان " ما " نكرة بمعنى شيء والأجلين بدل منها وقضيت فعل وفاعل والفاء رابطة للجواب ولا نافية للجنس وعدوان اسمها المبني على

الفتح وعلي خبر لا واللّه مبتدأ وعلى ما نقول متعلقان بوكيل ووكيل خبر اللّه .

البلاغة :

1 - الكلام الجامع المانع :

(223/588)

في قوله تعالى : " إن خير من استأجرت القوي الأمين " في هذه الآية فنون عديدة ولذلك أطلق عليها علماء البلاغة أنها من الكلام الجامع المانع الحكيم الذي لا يزاد عليه لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان في القائم بأمرك والمتعهد لشئونك وهما الكفاية والأمانة فقد فرغ بالك وتم أمرك وسهل مرادك ، ولأنه ذهب مذهب المثل المضروب ليذهب في مرّ العصور وقادمات الدهور ، وفيه التعميم

الذي هو أجمل وأليق في مدح النساء للرجال من المدح الخاص وأبقى للتحشم والتصوّن وخصوصا بعد أن فهمت غرض أبيها وهو تزويجها منه وقد كان عمر بن الخطاب يعجب بهذا التعبير ويرمق سماءه في دعائه فيقول : " أشكو إلى اللّه ضعف الأمين وخيانة القوي "

.

وهذا الإيهام من ابنة شعيب قد سلكته زليخا مع يوسف ولكن شتان ما بين الحياء المجبول

والحياء المستعمل ، ليس التكحل في العينين كالكحل حيث قالت : " ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم " وهي تعني ما جزاء يوسف مما أرادني من السوء إلا أن تسجنه أو تعذبه عذابا أليما ، ولكنها أوهمت زوجها الحياء والخفر وأن تنطق بالعصمة منسوبا إليها الخنا إيذانا منها بأن هذا الحياء منها الذي يمنعها أن تنطق بهذا الأمر من مراودة يوسف بطريق الأحرى والأولى ، ففي هذه الآية كما رأيت الإيجاز والمثل والتعميم والإيهام وفيها أيضا التقديم فقد قدم ما هو أولى بالتقديم وجعل اسما ل " إن " وهو خير وورد بلفظ الفعل الماضي للدلالة على أن الأمر ليس بدعا وانه معروف مبتوت فيه قد جرب وتعورف . ومن التقديم البديع قول أبي الشغب العبسي يتحزّن على خالد بن عبد اللّه القسري حين أسره يوسف بن عمرو .

ألا إن خير الناس حيا وهالكا أسير ثقيف عندهم في السلاسل

لعمري لئن عمرتم السجن خالدا وأوطأتموه وطأة المتثاقل

لقد كان نهّاضا بكل ملمة ومعطي اللهى غمرا كثير النوافل

(224/588)

وخير الناس اسم تفضيل مضاف إلى المعرف بأل وهو اسم إن وحيا وهالكا حالان منه وأسير ثقيف خبر إن ، وثقيف علم القبيلة والعلم أعرف من المحلى بأل فخبر إن المضاف اليه أعرف من اسمها المضاف المحلّى بأل وقد قدم الاسم للاهتمام به ، وعندهم في السلاسل حال أو خبر بعد خبر ، ولعمري قسم إن عمرتم أي أدخلتم وأسكنتم خالدا السجن وأوطأتموه أي صيرتموه يطأ الأرض برجله كوطأة المتثاقل أي الحامل لشيء ثقيل لجعل القيد في رجليه فهو كناية عن ذلك ، لقد كان نهاضا جواب القسم وجواب الشرط محذوف أي كان سريع القيام بكل نازلة ثقيلة وكان معطى اللهى بالفتح جمع لهاة كحصى وحصاة أي اللحمة في أقصى الفم لكنها هنا بمعنى الفم نفسه ويجوز أن يكون اللهى بضم اللام جمع لهوة كغرف وغرفة بمعنى العطية من أي نوع كانت .

2- الإيجاز :

وفي قوله " وما أريد أن أشق عليك " إيجاز بليغ فقد ذكرنا معنى شق عليه الأمر وانه مترجح بين اليأس والرجاء ، وفيه إيماء إلى أولئك المعاسرين الذين يكلفون عمالهم أعمالا تربو على طوقهم وتتجاوز حدود قدرتهم المعهودة ، وعلى هذا درجت الشرائع في حسن المعاملة والأخذ بالأسهل والأيسر ومنه الحديث "كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شريكي فكان لا يداري ولا يشاري ولا يماري " .

الفوائد :

"أيّ" المشددة :

تأتي "أيّ" المشددة على خمسة أوجه :

1- أن تكون شرطا نحو "أيما الأجلين قضيت" وقد تزاد ما بعدها للتوكيد .

2- أن تكون استفهامية : "أيكم زادته هذه إيمانا" .

3- موصولة : "ثم لننزعنّ من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا" .

4- أن تكون دالة على معنى الكمال فتقع صفة للنكرة نحو زيد رجل أي رجل أي كامل في صفات الرجال وحالا من المعرفة كمررت بعبد اللّه أي رجل ، قال أبو العتاهية وقد وردت صفة :

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده

5- أن تكون وصلة إلى نداء ما فيه أل نحو يا أيها الرجل .

(225/588)

هذا وقد أورد صاحب المغني بيتا لأبي الطيب فيه "أي" وهو :

أي يوم سررتني بوصال لم ترعني ثلاثة بصدود

وقال : "ليست فيه أي موصولة لأن الموصولة لا تضاف إلا إلى المعرفة ، قال أبو علي في

التذكرة في قوله :

أرأيت أي سوالف وخدود برزت لنا بين اللوى فزرود

لا تكون أي فيه موصولة لإضافتها إلى نكرة " وتابع صاحب المغني كلامه فقال : ولا شرطية لأن المعنى حينئذ إن سررتني يوما بوصالك آمنتني ثلاثة أيام من صدودك ، وهذا عكس المعنى المراد وإنما هي للاستفهام الذي يراد به النفي كقولك لمن ادعى أنه أكرمك : أي يوم أكرمتني ؟ والمعنى ما سررتني يوما بوصالك إلا روعتني ثلاثة بصدودك ، والجملة الأولى مستأنفة قدم ظرفها لأن له الصدر والثانية اما في موضع جر صفة لوصال على حذف العائد أي لم ترغني بعده كما حذف في قوله تعالى : " واتقوا يوما لا تجزي نفس " الآية ، أو نصب حالا من فاعل سررتني أو مفعوله والمعنى أي يوم سررتني غير رائع لي أو غير مروع منك وهي حال مقدرة مثلها في " طبتم فادخلوها خالدين " أو لا محل لها على أن تكون معطوفة على الأولى بفاء محذوفة كما قيل في " وإذ قال موسى لقومه إن اللّه يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا : أتتخذنا هزوا قال أعوذ باللّه " وكذا في بقية الآية وفيه بعد ، والمحققون في الآية على أن الجمل مستأنفة بتقدير : فما قالوا له ؟ فما قال لهم ؟ ومن روى ثلاثة بالرفع لم يجز عنده كون الحال من فاعل سررتني لخلو ترعني من ضمير ذي الحال .

وقال أبو البقاء العكبري في شرحه لديوان المتنبي : " أي نصب وهو استفهام خرج مخرج

النفي كما تقول لمن يدعي أنه أكرمك : أي يوم أكرمتني قط كما قال الهذلي :

اذهب فأي فتى في الناس أحرزه من حتفه ظلم دعج ولا جبل

(226/588)

ولا يجوز أن تكون " أي " شرطية تتعلق الجملة بالجملة تعلق الجزاء بالشرط ، وإذا حملته على الشرط كان مناقضا للمعنى الذي أراده فكأنه يقول : إن سررتني يوما بوصالك أمنتني ثلاثة من صدودك وهذا عكس مراده .

وهذا البيت من جملة أبيات غزلية استهل بها أبو الطيب قصيدة قالها في صباه ونورد هنا الأبيات الغزلية لنفاستها ونعرب بعض ما فيه فائدة منها :

كم قتيل كما قتلت شهيد بياض الطّلى وورد الخدود

وعيون المها ولا كعيون فتكت بالمتيم المعمود

درّ درّ الصّبا أأيام تجر . . . . ير ذيولي بدار أثلة عودي

عمرك اللّه هل رأيت بدورا طلعت في براقع وعقود

راميات بأسهم ريشها الهد . . . . ب تشقّ القلوب قبل الجلود

يترشّفن في فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

كلّ خمصانة أرقّ من الخم . . . . ر بقلب أقسى من الجلمود ذات فرع كأنما ضرب العن

. . . . بر فيه بماء ورد وعود حالك كالغداف مثل دجو . . . . جيّ أثيث جعد بلا

تجعيد تحمل المسك عن غدائرها الري . . . . ح وتفتّر عن شتيت برود جمعت بين جسم

أحمد والسق . . . . م وبين الجفون والتسهيد أهل ما بي من الضنى بطل صي . . . . د

بتصفيف طرّة وبجيد

كل شيء من الدماء حرام شربه ما خلا دم العنقود

فاسقنيها فدى لعينيك نفسي من غزال وطارفي وتليدي

شيب رأسي وذلتي ونحولي ودموعي على هواك شهودي

أي يوم سررتني . . . (البيت) إعراب بعض الكلمات :

)

(227/588)

كم) خبرية وتمييزها مجرور بالإضافة إليها أو بمن وقد تقدم القول فيها مطولا وهي هنا في محل رفع مبتدأ خبره ببياض ، وكما قتلت نعت لمصدر محذوف ، هذا ولهم في العشق حديث طويل ، وخبره عند أرباب التصوف معقول قال الجنيد : " العشقة ألفة رحمانية

وإلهام شوقي أوجبهما كرم اللّه على كل ذي روح لتحصل به اللذة العظمى التي لا يقدر على مثلها إلا بتلك الألفة وهي موجودة في الأنفس مقدرة مراتبها عند أربابها فما أحد إلا عاشق لأمر يستدل به على قدر طبقته من الخلق ولأجل ذلك كان أشرف المراتب في الدنيا مراتب الذين زهدوا فيها مع كونها معاينة ومالوا إلى الآخرة مع كونها مغيبة عنهم " وقد وصف اللّه تعالى نفسه بالحب فقال : " يحبهم ويحبونه " وقد تقدم القول فيه مطولا ، وأما العشق فلم يرد في لسان الشرع ، وقال الفضيل بن عياض كلاما جميلا منه : " لو رزقني اللّه تعالى دعوة مجابة لدعوته تعالى أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية لا اختيارية ، وما أحسن قول أبي فراس الحمداني :

وكم في الناس من حسن ولكن عليك لشقوتي وقع اختياري

وقال رجل من العرب لبعض بني عذرة : ما لأحدكم يموت عشقا في هوى امرأة ألفها وليس ذلك إلا ضعف نفس أو خور تجدونه ، يا بني عذرة فقال : أما واللّه لو رأيتم الحواجب الزّجّ ، فوق النواظر الدعج ، تحتها المباسم الفلج ، لاتخذتموها اللات والعزى " هذا وقد استند أبو الطيب في قوله " شهيد " إلى حديث يروونه هو : " إن من عشق وعف وكتم فمات مات شهيدا " .

)

عمرك اللّه) : مصدر يقال : أطال اللّه عمرك وعمرك بالضم والفتح وهما وإن كانا مصدرين بمعنى إلا أنه استعمل أحدهما في القسم وهو المفتوح العين فإذا أدخلت عليه لام الابتداء رفعته بالابتداء والخبر محذوف والتقدير لعمر اللّه قسمي فإن لم تأت باللام نصبته نصب المصادر وقلت عمر اللّه ما فعلت كذا وعمرك اللّه ما فعلت كذا فكأنك قلت بتعميرك اللّه أي باقرارك له بالبقاء ، ومنه قول عمر ابن أبي ربيعة :

أيها المنكح الثّريا سهيلا عمرك اللّه كيف يلتقيان

يريد سألت اللّه أن يطيل عمرك وهو في قول أبي الطيب مصدر ومعناه : سألت اللّه أن يعمرك تعميرا .

(أحلى من التوحيد) قال الواحدي : "كنّ يمصصن ريقي لحبهنّ إياي فكانت الرشفات في فمي أحلى من كلمة التوحيد وهي لا إله إلا اللّه وهذا إفراط وتجاوز حد " .

قال ابن القطاع : ذهب كثير من الناس إلى أن لفظة أفعل من كذا توجب تفضيل الأول على الثاني في جميع المواضع وذلك غلط والصحيح أن أفعل يجيء في كلام العرب على خمسة أوجه :

أحدها : أن يكون الأول من جنس الثاني ولم يظهر لأحدهما حكم يزيد على الأول به زيادة يقوم عليها دليل من قبل التفضيل فهذا يكون حقيقة في الفضل لا مجازا وذلك كقولك زيد

أفضل من عمرو وهذا السيف أصرم من هذا .

والثاني : أن يكون الأول من جنس الثاني أو قريبا منه ومحتملا للحاق به وقد سبق للثاني حكم أوجب له الزيادة بالدليل الواضح فهذا يكون على المقاربة في التشبيه لا التفضيل نحو قولك الأمير أكرم من حاتم وأشجع من عمرو ، وبيت المتنبي من هذا القبيل أي يترشفن من فمي رشفات هنّ قريب من التوحيد .

والثالث : أن يكون الأول من جنس الثاني أو قريبا منه والثاني دون الاول فهذا يكون على الإخبار المحض نحو قولك : الشمس أضوأ من القمر والأسد أجرأ من النمر .

(229/588)

و الرابع : أن يكون الأول من غير جنس الثاني وقد سبق للثاني حكم أوجد له الزيادة واشتهر الأول من جنسه بالفضيلة فيكون هذا على سبيل التشبيه المحض والغرض أن يحصل للأول بعض ما يحصل للثاني نحو قولك : زيد أشجع من الأسد وأمض من السيف .

والخامس : أن يكون الأول من غير جنس الثاني والأول دون الثاني في الصفة جدا فيكون هذا على المبالغة المحضة نحو قامته أتمّ من الرمح ووجهه أضوأ من الشمس وجاء في الحديث : " ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر " ذهب من لا

يعرف معاني الكلام أن أبا ذر أصدق العالم أجمع وليس الأمر كذلك وإنما

نفى عليه الصلاة والسلام أن يكون أحد أعلى منه رتبة في الصدق ولو أراد ما ذهبوا إليه

لقال: أبو ذر أصدق من كل من أظلت وأقلت.

(كل خمصانة): يجوز فيه الرفع على البدل من الضمير في يترشفن وعلى هذا يرفع أرق حملا

على كل، ويجوز نصب كل حملا على النعت لقوله بدورا أو على البدلية منها والخمصانة

الضامرة والذكر خمصان.

(أهل ما بي من الضنى بطل) أهل مبتدأ خبره بطل أو خبر لمبتدأ محذوف والمعنى أنا أهل

ما بي وحقيق به وأنا بطل صيد.

(ما خلا دم العنقود): إذا قلت جاء القوم ما خلا زيدا فليس إلا النصب لأن خلا يتحتم

كونها فعلا لدخول ما المصدرية عليها، وإذا قلت جاء القوم خلا زيد كان الجر لا غير.

[سورة القصص (28): الآيات 29 إلى 32]

(230/588)

فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي

آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتاها

نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (32)

الاعراب :

(فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً) الفاء عاطفة على محذوف يفهم من السياق والتقدير فتم العقد بينهما على الإجارة والنكاح ومارس المهمة التي أنيطت به على أحسن وجه وأكمله فلما . ولما حينية أو رابطة وجملة قضى موسى الأجل لا محل لها وسار عطف على قضى وبأهله جار ومجرور متعلقان بسار وجملة آنس لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ومن جانب الطور متعلقان بآنس ونارا مفعول به ولك أن تجعل من جانب الطور حالا لأنه كان صفة لنارا وتقدم عليها . (قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً) لأهله متعلقان بقال وجملة امكثوا مقول القول وجملة إني تعليل للأمر بالمكث وإن واسمها وجملة آنست خبرها ونارا مفعول به .

)

لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) جملة الرجاء حال أي راجيا ولعل واسمها وجملة آتيكم خبرها والكاف مفعول به ومنها حال لأنه كان صفة لخبر وبخبر متعلقان بآتيكم وأو حرف عطف وجذوة عطف على خبر وهي مثلثة الجيم : الشعلة من النار والقطعة من الحطب وجمعها جذا ، قال ابن مقبل :

باتت حواطب ليلى يلتمسن لها جزل الجذا غير خوار ولا ذعر

ومن النار نعت لجذوة وجملة الرجاء حال أيضا ولعل واسمها وجملة تصطلون خبرها .

(فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق أي فسار نحوها فلما أتاها ، وجملة نودي لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ومن شاطىء الوادي متعلقان بنودي والأيمن صفة لشاطيء وفي البقعة حال من الشاطئ والمباركة صفة للبقعة ومن الشجرة بدل من قوله من شاطىء الوادي بدل الاشتمال لأن الشجرة كانت نابتة على الشاطئ وقد تقدم نظيره في قوله : " لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم " أي أتاه النداء من شاطىء الوادي من قبل الشجرة .

)

أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ) أن مفسرة لأن النداء قول والتقدير أي يا موسى ، وأجاز أبو البقاء وغيره أن تكون مخففة من الثقيلة واسمها محذوف يفسره جملة النداء أي نودي بأنه أي الشأن ، وإني إن واسمها وهي مكسورة الهمزة باتفاق القراء لأن النداء قول وأنا ضمير فصل أو مبتدأ والله خبر إن أو خبر أنا والجملة خبر إن ورب العالمين نعت لله أو بدل منه . (وَأَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ) الواو عاطفة وأن مفسرة معطوفة على سابقتها وألق فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وعصاك مفعول به ، فلما الفاء عاطفة على مقدر يقتضيه السياق أي فألقاها فصارت ثعبانا ورآها فعل وفاعل مستتر ومفعول به وجملة تهتز حالية وجملة كأنها جان حال من فاعل تهتز وكأن واسمها وجان خبرها وجملة ولى لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وفاعل ولى مستتر تقديره هو ومدبرا حال والواو عاطفة وجملة لم يعقب عطف على ولى أي ولم يرجع . (يا مُوسى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) أقبل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ولا تخف لا ناهية وتخف فعل مضارع مجزوم بلا وإن واسمها ومن الآمنين خبرها والجملة تعليل للأمر بالإقبال والنهي عن الخوف . (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) اسلك يدك فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وفي جيبك متعلقان باسلك من سلك الشيء في الشيء أنفذه فيه ، وتخرج فعل مضارع مجزوم لأنه

جواب الطلب والفاعل مستتر تقديره هي وبيضاء حال ومن غير سوء متعلقان ببيضاء وقد تقدم تعليل ذلك في سورة طه فجدد به عهدا . (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)

قال الزمخشري :

" فإن قلت ما معنى قوله واضمم إليك جناحك من الرهب ؟ قلت :

(233/588)

فيه معنيان أحدهما أن موسى عليه السلام لما قلب العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقاءك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى . والمراد بالجناح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه ، والثاني أن يراد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدّده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعاره من فعل الطائر لأنه إذا خوّف نشر جناحيه وأرخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران .

ومنه ما يحكى عن عمر بن عبد العزيز أن كاتبا له كان يكتب بين يديه فانفلت منه فلتة ريح ،

فخجل وانكسر فقام وضرب بقلمه الأرض فقال له عمر خذ قلمك واضمم إليك جناحك وليفرخ روعك فإني ما سمعتها من أحد أكثر مما سمعتها من نفسي " .

واضمم فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وإليك متعلقان باضمم وجناحك مفعول به ومن الرهب متعلقان باضمم بمثابة التعليل له أي من أجل الرهب وقيل بولي أي هرب من الفزع ، وقيل بمدبرا ، وقيل بمحذوف أي يسكن من الرهب ، والرهب بفتح الراء والهاء وبفتح الراء واسكان الهاء . وسيأتي مزيد تفصيل في باب البلاغة .

)

(234/588)

فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ) الفاء الفصيحة أي إذا تأملت بذلك واستيقنت منه فذانك ، وذانك اسم إشارة وهي تثنية ذاك ومن قرأ ذانّك بالتشديد جعلها تثنية ذلك بلام البعد ويكون التشديد عوضا عنها وبرهانان خبر ومن ربك صفة لبرهانان أي مرسلان من ربك والى فرعون متعلقان بمرسلان وملئه عطف على فرعون وجملة إنهم تعليل لإرسال البرهانين وان واسمها وجملة كانوا خبرها وكان واسمها وقوما خبرها وفاسقين صفة لقوما .

البلاغة :

تقدم معظم ما في هذه الآيات من فنون البلاغة من استعارة واحتراس ، ونضيف إلى ما تقدم ما أورده الامام الزمخشري بأسلوبه الساحر وهذا نصه : " فإن قلت قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما إليه وذلك قوله : " واضمم إليك جناحك " وفي طه " واضمم يدك إلى جناحك " فما التوفيق

بينهما ؟ قلت : المراد الجناح المضموم هو اليد اليمنى والمضموم اليه هو اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح " .

وقال الزمخشري أيضا : " فإن قلت لم سميت الحجة برهانا ؟

قلت لبياضها وإنارتها من قولهم للمرأة البيضاء برهرهة بتكرير العين واللام معا " وهذا تعليل لطيف لا يحسن استنباطه غير هذا الامام ومعنى ذلك أن النون في البرهان زائدة ، يقولون أبره الرجل إذا جاء بالبرهان ونظيره تسميتهم الحجة أيضا سلطانا من السليط وهو الزيت لإنارتها ، وفي معاجم اللغة : وأبره أتى بالبرهان أو بالعجائب وغلب الناس وهذا هو قول الزمخشري والمحققين ، وزعم صاحب القاموس في أحد قوليه أن النون أصلية قال وبرهن عليه أقام البرهان ، والبرهان بالضم الحجة فتدبر .

الفوائد :

عصا موسى أيضا :

قدمنا في سورة طه بحثا مستفيضا عن العصا ونضيف هنا ما يتعلق بعصا موسى خاصة ، روى التاريخ أن شعيبا كانت عنده عصي الأنبياء فقال لموسى بالليل ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي فأخذ عصا كان شعيب مفتونا بها وكان مكفوفا فضن بها فقال :

غيرها فما وقع في يده إلا هي سبع مرات فعلم أن له شأنا ، وقيل أمر شعيب ابنته أن تعطي موسى عصا يدفع بها السباع عن غنمه فوقعت في يدها سبع مرات كما تقدم وفي كتب التفسير طرائف عن تلك العصا لا مجال لها في كتابنا .

[سورة القصص (28) : الآيات 33 إلى 37]

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (35) فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ

إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37)

اللغة :

(رِدْءاً) : معينا ، يقال ردأته : أعنته والرّدء اسم ما يعان به فعل بمعنى مفعول به كما أن الدفء اسم لما يدفأ به . قال سلامة ابن جندل :

وردئي كل أبيض مشرفي شحيذ الحدّ عضب ذي فلول

أي وردئي الذي أتوقى به المكاره كل سيف أبيض ، وعبّر بكل لأن المراد بيان الجنس لا الشخص ومشرفي نسبة إلى مشارف اليمن وهي قرى منها وقيل من الشام ، وشحيذ الحد مرهفه من شحذ المدية أي حددها ، والعضب : القاطع ، والفلول : جمع فلّ وهو كسر

في حد السيف وانثلام أي به فلول من قراع الكتائب . وقال النحاس :

يقال ردأته وأردأته .

(العضد) : بفتح العين وضم الضاد وبالضم وبالكسر : غليظ الذراع وهو من المرفق إلى الكتف جمعه أعضاد وأعضد وهو قوام اليد وبشدته تشتد . قال طرفة ، وقيل لأوس ابن حجر :

أبني لبيني لستمو بيد إلا يدا ليست لها عضد

وللعين مع الضاد فاء وعينا للكلمة خاصة القوة والصلابة والاصطلام تقول عضه يعضه عضا أمسكه بأسنانه ويقال أيضا عض به وعض عليه وعضه الزمان اشتد عليه وأعضّ السيف بساق البعير ، قال لبيد :

ولكنا نعض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم

وعضته الحرب ، قال الأخطل :

ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم وقيس عيلان من عاداتها الضجر

وملك عضوض : غشوم ، وعن أبي بكر : " سترون بعدي ملكا عضوضا وأمة شعاعا "

وبئر عضوض : بعيدة القعر كأنها تعض الماتح بما تشق عليه ، وعضبته بلساني شتمته ، ورجل عضّاب : شتام ، وعضبته عن حاجة : قطعته ، ومالك تعضبني عما أنا فيه ، والعضب بالسيف القاطع والرجل الحديد الكلام ، وعضبر الكلب : استأسد والعضبارة : حجر الرحى وصخرة يقصر القصّار الثوب عليها ،

والمعضاد : سكين كبير للقصاب يقطع به العظام ، وأعضل الأمر :

اشتد وبه داء عضال ، وقد أعيا الأطباء وأعضلهم ، وتزوج ذو الإصبع فأتى حيه يسألهم مهرها فمنعوه فقال :

واحدة أعضلكم أمرها فكيف لو درت على أربع

وفلان عضلة من العضل : داهية من الدواهي وعضلت على فلان : ضيقت عليه أمره وحلت بينه وبين ما يريد ، ومنه " ولا تعضلوهن " ورماه بالعضيهة أي الافك ، وقال عليه السلام :

" لا تعضية على أهل الميراث " أي لا يدخل عليهم الضرر بقسمة نحو السيف والخاتم .

الاعراب :

)

(237/588)

قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) رب منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة كما تقدم وان واسمها وجملة قتلت خبرها ومنهم حال لأنه كان في الأصل صفة وتقدمت ونفسا مفعول به ، فأخاف الفاء عاطفة وأخاف فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا وان وما في حيزها مفعول أخاف ويقتلون منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والنون للوقاء وياء المتكلم المحذوفة مفعول به . (وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ) الواو عاطفة وأخي مبتدأ وهارون بدل أو عطف بيان وهو مبتدأ وأفصح خبر هو والجملة خبر أخي

ومني متعلقان بأفصح ولسانا تمييز ، فأرسله الفاء الفصيحة وأرسله فعل أمر للدعاء وفاعله أنت والهاء مفعول به ومعي ظرف متعلق بأرسله وردءا حال

وسيأتي معنى التصديق في باب البلاغة ويصدقني فعل مضارع مرفوع ولو جزم لجاز وقرئ به على أنه جواب للطلب والنون للوقاية والياء مفعول به والجملة مستأنفة أو صفة لردءا أو حال من مفعول أرسله وجملة إني أخاف تعليل للملتمس وان واسمها وجملة أخاف خبر ان وأن وما في حيزها مفعول أخاف . (قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً)

جملة سنشد مقول القول وفاعل نشد نحن وعضدك مفعول به وبأخيك جار ومجرور متعلقان بنشد ونجعل عطف على سنشد ولكما في محل نصب مفعول ثان لنجعل وسلطانا مفعول نجعل الأول أي غلبة وحجة واضحة وقد مر تفسيره في باب اللغة .

)

(238/588)

فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ) الفاء عاطفة ولا نافية ويصلون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وإليكما متعلقان بيصلون وبآياتنا يجوز فيه أن يتعلق بنحو ما تعلق به في تسع آيات أي اذهبا بآياتنا أو بنجعل أو بيصلون أو بسلطانا أي نسلطكما بآياتنا

أو بمحذوف حال أو من لغو القسم ولا أرى موجبا للترجيح في هذه الأوجه فاختر منها ما ترى ترجيحه ، وأنتما مبتدأ ومن اسم موصول معطوف على أنتما وجملة اتبعكما صلة من والغالبون خبر أنتما .

(فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً) الفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق ولما ظرفية حينية أو رابطة وجاءهم موسى فعل ومفعول وفاعل وبآياتنا متعلقان بجاءهم أو بمحذوف حال وبينات حال أي واضحات الدلالة وجملة قالوا جواب لما وما نافية وهذا مبتدأ وإلا أداة حصر وسحر خبر ومفترى صفة .

(وَما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ) الواو عاطفة وما نافية وسمعنا فعل وفاعل وبهذا متعلقان بسمعنا وفي آبائنا حال من هذا فهو متعلق

بمحذوف تقديره كائنا والأولين نعت لآبائنا . (وَقالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ) ربي مبتدأ وأعلم خبره وبمن متعلقان بأعلم وجملة جاء بالهدى صلة من ومن عنده حال . (وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) الواو عاطفة ومن عطف على من الأولى وتكون فعل مضارع ناقص وله خبرها المقدم وعاقبة الدار اسمها المؤخر ، ويجوز أن يكون اسم تكون ضمير الشأن أو ضمير القصة وله خبر مقدم وعاقبة الدار مبتدأ مؤخر والجملة خبر تكون ، ويجوز أن تكون تامة فتكون جملة له عاقبة الدار حالا وفاعل تكون ضمير يعود على من وان واسمها وجملة لا يفلح الظالمون خبرها .

البلاغة :

1- الاسناد المجازي :

(239/588)

في قوله " فأرسله معي ردءا يصدقني " إسناد مجازي ، فقد أسند اليه التصديق لأنه السبب فيه ، ومعنى الإسناد المجازي أن التصديق حقيقة في المصدق فاسناده حقيقة وليس في السبب تصديق لكن استعير له الاسناد لأنه لابس التصديق بالتسبب كما لابسه الفاعل بالمباشرة والدليل على ذلك قوله " إني أخاف أن يكذبون " فليس الغرض من قوله يصدقني أن يقول صدقت أو يقول للناس صدق أخي وانما طريق تصديقه أن يلخص الحق بلسانه ، ويجادل الكفار ببيانه وأن يقرر الحجة ويورد البرهان مدعوما بالأرقام كما يفعل الرجل المنطيق ذو العارضة ، ألا ترى إلى قوله : " وأخي هارون هو أفصح مني لسانا " وفي هذا دليل على سمو البيان وشرفه وإنافته على الكلام العادي الذي لا يصيب المحز ولا يتغلغل إلى أغوار النفوس .

2- المجاز المرسل :

وفي قوله " سنشد عضدك بأخيك " مجاز مرسل على طريق إطلاق السبب وإرادة

المسبب بمرتبتين تتبع إحداهما ثانيتهما فإن شدة العضد سبب مستلزم لشدة اليد وشدة اليد مستلزمة لقوة الشخص في المرتبة الثانية واختار الشهاب في حاشيته على البيضاوي أن يكون كناية تلويحية قال : " الشد التقوية فهو اما كناية تلويحية عن تقويته لأن اليد تشد بشد العضد والجملة تشد بشد اليد أو استعارة تمثيلية شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بالعضد " وليس ببعيد .

[سورة القصص (28) : الآيات 38 إلى 42]

(240/588)

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42)

اللغة :

(أَطَّلِعُ) : الطلوع والاطلاع : الصعود ، يقال طلع الجبل واطلع بمعنى وإن نفسك لطلعة إلى

هذا الأمر وانها لتطّلع إليه أي تنازع .

(الْمَقْبُوحِينَ) : المقبوح : المطرود وقبحه اللّه : طرده ، وفي المصباح : " قبح الشيء قبحا فهو قبيح من باب قرب وهو خلاف حسن وقبحه اللّه يقبحه بفتحتين : نحاه اللّه عن الخير

وفي التنزيل :

" وهم من المقبوحين " أي المبعدين عن الفوز والتثقيل مبالغة وقبح عليه فعله تقبيحا " .

وقال أبو زيد : قبح اللّه فلانا قبحا وقبوحا أبعده من كل خير ، وقال أبو عمرو : قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبّحت بالتشديد ومثله قول الشاعر :

ألا قبح اللّه البراجم كلها وقبح يربوعا وقبح دارما

الاعراب :

)

وَقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي) الواو عاطفة على مقدر يقتضيه السياق أي وقال فرعون بعد ما جمع السحرة لمعارضته وكان بينهم وبين موسى ما كان ، ويا حرف نداء وأيها منادى نكرة مقصودة بني على الضم في محل نصب والهاء للتنبيه والملأ بدل وما نافية وعلمت فعل وفاعل ولكم حال ومن حرف جر زائد وإله

مجرور لفظا بمن منصوب محلا لأنه مفعول به وغيري صفة لإله .

(فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً) الفاء الفصيحة وأوقد فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ويا حرف نداء وهامان منادى مفرد علم وعلى الطين متعلقان بأوقد ، فاجعل عطف على أوقد ولي في محل نصب مفعول ثان لاجعل وصرحا مفعول أول .

(لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ) لعل واسمها وجملة أطلع خبرها والى إله موسى متعلقان بأطلع وإني الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة وجملة أظنه خبر والهاء مفعول به أول ومن الكاذبين في موضع المفعول الثاني . (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) عطف على وقال فرعون وهو فاعل استكبر أو توكيد للفاعل لأن استتار الفاعل في الغائب جائز وجنوده عطف على هو وفي الأرض متعلقان باستكبر وبغير الحق حال من فاعل استكبر أي ملتبسين بغير الحق .

)

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ) وظنوا عطف على استكبر وأن وما يليها سدت مسد مفعولي ظنوا وإلينا متعلقان بيرجعون ولا نافية وجملة لا يرجعون خبر أن . (فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) فأخذناه عطف على ما تقدم وأخذناه فعل وفاعل ومفعول به وجنوده عطف على الهاء في أخذناه أو مفعول معه فنبذناهم

عطف على فأخذناه وفي اليم متعلقان بنبذناهم ، فانظر الفاء الفصيحة وانظر فعل أمر وكيف خبر مقدم لكان وعاقبة الظالمين اسمها المؤخر . (وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ) وجعلناهم فعل وفاعل ومفعول به أول وأئمة مفعول به ثان وجملة يدعون صفة لأئمة والى النار متعلقان بيدعون ويوم القيامة الواو عاطفة ويوم القيامة ظرف متعلق بينصرون ولا نافية وينصرون

(242/588)

فعل مضارع مبني للمجهول ولك أن تجعل الواو حالية والجملة حال .

(وَأَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً) وأتبعناهم عطف على ما تقدم وفي هذه الدنيا حال والدنيا بدل من هذه ولعنة مفعول به ثان .

(وَيَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) الظرف متعلق بمحذوف دل عليه قوله المقبوحين كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة وإنما قدرنا محذوفا لأن تعليقه بالمقبوحين وهو الظاهر يمنع منه وجود أل الموصولية ، على أنهم قد اتسعوا في ذلك فعلقوه بمدخولها ولا مانع من ذلك ولك أن تعطفه على موضع في هذه الدنيا أي وأتبعناهم لعنة يوم القيامة وهم مبتدأ ومن المقبوحين خبره .

البلاغة :

في قوله " فأوقد لي يا هامان على الطين " إطناب بديع وذلك أنه لم يقل اطبخ لي الآجر وذلك ليتفادى ذكر كلمة الآجر لأن تركيبها – على سهولة لفظه – ليس فصيحا وذلك أمر يقرره الذوق وحده ، ألا ترى إلى هذه الكلمة وقد وقعت في بيت للنابغة الذبياني من قصيدته الدالية التي أولها :

من آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

والبيت هو :

أو دمية من مرمر مرفوعة بنيت بآجر يشاد بقرمد

فلفظة آجر في البيت قلقة نابية لابتذالها ، فإن شئت أن تعلم شيئا من سر الفصاحة التي تضمنها القرآن فانظر إلى هذا الموضع فإنه

لما جيء فيه بذكر الآجر لم يذكره بلفظه ولا بلفظ القرمد أيضا لكنه ذكر في القرآن على وجه آخر فعبر عن الآجر بالوقود على الطين ، ثم ان هذه العبارة أحسن مطابقة لفصاحة القرآن وعلو طبقته وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادى باسمه " يا " في وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر وقد اشتملت هذه العبارة على الكثير من ألفاظ الجبابرة العتاة وذلك على الوجه التالي :

1 – نادى وزيره بحرف النداء .

2- توسيط ندائه خلال الأمر وبناء الصرح.

3- رجاؤه الاطلاع إلى اللّه.

(243/588)

4- الغباء الذي يلازم الجبابرة العتاة إذ يقعون في التناقض من حيث لا يشعرون فقد صرح قبل هنيهة بقوله " ما علمت لكم من إله غيري " فعبر عن نفي المعلوم بنفي العلم وأعلن تصميمه على الجحود ثم ما عتم أن أعلن رجاءه الاطلاع فهل كان مصمما على الجحود أم لم يكن.

فصل في اختيار الألفاظ:

هذا وقد عني علماء البيان باللفظة وسر اختيارها وخلاصة ما يقال فيه: أن حسن الألفاظ وقبحها أمر يعود إلى الذوق وحده فما استحسنه كان حسنا وما استقبحه كان قبيحا، فالاستعمال ليس بدليل الحسن، وهذا طريق يضل فيه غير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الألفاظ واختيارها فإنه معذور في أن يقول ما قال:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

والصاحب بن عباد الذي كان من المفتونين بأبي الطيب ، والذي كان يستعمل أشعاره في كتاباته ويقتبس منها ، عند ما حصلت بينه وبين أبي الطيب المتنبي الجفوة بسبب ترفع هذا عن مجاوبته فقد ذكروا أن الصاحب أبا القاسم طمع في زيارة المتنبي إياه بأصبهان وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وهو إذ ذاك شاب ولم يكن قد استوزر بعد ، وقد كتب الصاحب اليه يلاطفه في استدعائه ويضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزنا ولم يجبه إلى كتابه ولم يحقق مراده ، وقصد المتنبي بعد ذلك إلى حضرة عضد الدولة بشيراز فأسفرت سفرته – كما يقول أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر – عن بلوغ الأمنية ، وورود مشروع المنية ، وذلك أن المتنبي قتل عند مغادرته إياه محملا بالعطايا والهبات .

قال الثعالبي : " واتخذه الصاحب غرضا يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ، وهو أعرف الناس بحسناته ، وأحفظهم لها ، وأكثرهم استعمالا إياها وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته " .

(244/588)

وقد عمل الصاحب رسالة فيما أخذه على المتنبي ، وإذا فرضنا أن الذي دعا الصاحب إلى عمل هذه الرسالة هو استياؤه من المتنبي حيث تعاظم عن مدحه فإنا نجده لم يتحامل

عليه بالباطل في شيء منها ولم يظلمه بحرف واحد جاء فيها ولم يعبه إلا بما هو عيب ولم يستطع

أن ينال منه إلا من طريق الألفاظ وحدها . ونورد هنا نماذج من هذه الرسالة .

1- أخذ الصاحب على المتنبي التفاصح بالألفاظ الشاذة فمن ذلك قوله :

أيفطمه التوراب قبل فطامه ويأكله قبل البلوغ إلى الأكل

قال : " وما أرى كيف عشق التوراب حتى جعله عوذة أشعاره " والتوراب : التراب .

ومعنى البيت : أيفطمه التوراب قبل أن تفطمه أمه ويأكله التراب قبل أن يبلغ سن الآكل .

2- وأخذ عليه لفظة ترنج بقوله :

شديد البعد من شرب الشمول ترنج الهند أو طلع النخيل

قال الصاحب ساخرا : " فلا أدري أاستهلال الأبيات أحسن ؟ أم المعنى أبدع ؟ أم قوله ترنج أفصح " ولقد أصاب الصاحب فاللغة الفصيحة هي أترج وأترجة ومنه الحديث مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، وحكى أبو زيد ترنج وترنجة ، يقول أبو الطيب : ترنج الهند وطلع النخيل شديد بعدهما عن محلك من شرب الخمر وإن كان غيرك يتخذهما لذلك لأن هذه الحال غير مظنونة

بك وانما استحضارك لهما ولما يشاكلهما من الرياحين استمتاعا بحسن ذلك .

3- وانتقد الصاحب جمع الآخاء في شعره إذ قال .

كل آخائه كرام بني الدنيا ولكنه كريم الكرام قال : " ولو وقع الآخاء " في رائية الشمّاخ لاستثقل فكيف مع أبيات منها :

قد سمعنا ما قلت في الأحلام وأنلناك بدرة في المنام

والكلام إذا لم يتناسب زيّفه جها بذته ، وبهرجه نقاده " .

وعلى هذا النحو يمضي في كشف مساوئ المتنبي وكلها أمور ترجع إلى اللفظة وحدها وسيرد معنا الكثير منها فلنكتف بما ذكرناه الآن منها .

(245/588)

وعاب النقاد القوافي الملتاثة ، فعابوا على أبي تمام قافيته الثائية في قصيدته التي مطلعها :

قف بالطلول الدارسات علاثا أصخت حبال قطينهن رثاثا

وعلاثا منادى مرخم وأصله يا علاثة . وعابوا على أبي الطيب قافيته الشينية في قصيدته التي مطلعها :

مبيتي من دمشق على فراش حشاه لي بحرّ حشاي حاش

وعابوا على ابن هانىء الأندلسي قافيته الخائية في قصيدته التي مطلعها :

سرى وجناح الليل أقتم أفتخ حبيب ضجيع بالعبير مضمّخ

والأقتم : المظلم ، والأفتخ : المستطيل .

وحسبنا ما تقدم فقد كدنا نخرج بالكتاب عن موضوعه .

[سورة القصص (28) : الآيات 43 إلى 46]

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

اللغة :

(بَصائِرَ) : البصيرة : العقل والفطنة والعبرة والشاهد والحجة يقال : جوارحه بصيرة عليه أي شهود وفراسة ذات بصيرة أي صادقة والجمع بصائر وقوله " بصائر للناس " أي أنوارا لقلوبهم تبصر بها الحقائق وتميز بها بين الحق والباطل بعد أن كانت عميا عن الفهم والإدراك بالكلية فالبصيرة نور القلب الذي به يستبصر كما أن البصر نور العين الذي به تبصر وسيأتي المزيد من معناها في باب الاعراب .

(ثاوِياً) : مقيما ، يقال ثوى يثوي من باب ضرب ثواء وثويا المكان وفيه وبه أقام وثوى الرجل مات قال عبيد بن الأبرص في مطلع معلقته :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يملّ منه الثواء

الاعراب :

)

وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى) الواو استئنافية واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وآتينا فعل وفاعل وموسى مفعول به أول والكتاب مفعول به ثان ومن بعد متعلقان بآتينا وما مصدرية وأهلكنا فعل وفاعل والقرون مفعول به والأولى صفة . (بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) بصائر حال من الكتاب أو مفعول لأجله ، وعلى الحالية لا بد من تقدير مضاف أي ذا بصائر ، أو على المبالغة ، وللناس نعت لبصائر وهدى ورحمة عطف على بصائر ولعلهم يتذكرون لعل واسمها وجملة يتذكرون خبرها . (وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ) الواو عاطفة أو استئنافية وما نافية وكنت كان واسمها وبجانب خبرها والغربي مضاف إليه أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي فيكون من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، واختاره الزجاج ، وقال الكلبي بجانب الوادي الغربي أي

حيث ناجى موسى ربه ، وإذ ظرف لما مضى متعلق بالاستقرار الذي تعلق به الجار والمجرور وجملة قضينا مجرورة بإضافة الظرف إليها والأمر مفعول به والواو حرف عطف وما نافية وكنت كان واسمها ومن الشاهدين خبرها والأمر المقضي هو الوحي الذي أوحي إليه .

)

(247/588)

وَلكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ) الواو عاطفة ولكن واسمها وجملة أنشأنا خبرها ونا فاعل وقرونا مفعول به فتطاول عطف على أنشأنا وعليهم متعلقان بتطاول والعمر فاعل . (وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَلكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) الواو عاطفة وما نافية وكنت كان واسمها وثاويا خبرها وفي أهل مدين متعلقان بثاويا وجملة تتلو في موضع نصب خبر ثان لكنت أو حال من الضمير في ثاويا ، ولكنا الواو حالية أو عاطفة ولكن واسمها وجملة كنا خبرها وكان واسمها وجملة مرسلين خبرها .

(وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَلكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) الواو عاطفة وما نافية وكنت كان واسمها وبجانب خبر كنت والطور مضاف اليه والظرف متعلق بالاستقرار الذي تعلق به

الخبر وهو بجانب والخطاب في الآيتين لمحمد صلى اللّه عليه وسلم أي وما كنت حاضرا المكان الذي أوحينا فيه إلى موسى عليه السلام ولا كنت من الشاهدين الوحي ولا كنت بجانب الطور حين ناديناه ليأخذ التوراة ، وجملة

نادينا في محل جر بإضافة الظرف إليها ، ولكن الواو عاطفة ولكن حرف استدراك مهمل لأنه خفف ورحمة مفعول لأجله أي أرسلناك وعلمناك هذا كله رحمة ومن ربك صفة لرحمة . (لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) لتنذر اللام للتعليل وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازا بعد لام التعليل والجار والمجرور متعلقان بأرسلناك المحذوفة وإنما جر المفعول لأجله باللام لاختلاف الفاعل وقوما مفعول به ومن حرف جر زائد ونذير مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل ومن قبلك صفة لنذير ولعل واسمها وجملة يتذكرون خبرها .

البلاغة :

1- جناس التحريف :

في قوله : " ولكنا كنا مرسلين " جناس التحريف الذي يكون الضبط فيه فارقا بين الكلمتين أو بعضهما وقد مرت له نظائر وستمر نظائر كثيرة ومثاله في الشعر قول أبي العلاء المعري :

والحسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وله أيضا :

لغيري زكاة من جمال فإن تكن زكاة جمال فاذكري ابن سبيل

فالتجنيس في الأول بين " الشعر " و" الشعر " وفي الثاني بين " جمال " و" جمال " وما ألطف قول بهاء الدين زهير :

زها ورد خديك لكنه بغير النواظر لم يقطف

وقد زعموا أنه مضعف وما علموا أنه مضعفي

2- الاشارة :

وقد تقدم بحث هذا الفن أكثر من مرة وتتناوله الآن بصورة مسهبة كما تتناول الرمز الذي شاع في العصر الحديث ليكون كتابنا جامعا لأفانين الأدب ، أما الإشارة في الآية فهي : ما أشارت اليه كلمة " الأمر " من قوله " وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر " فقد أشارت إلى ابتداء نبوة موسى وخطاب الحق له وإعطائه الآيات البينات من إلقاء العصا لتصير ثعبانا وإخراج يده بيضاء وإرساله إلى فرعون ، وسؤاله شدّ عضده بأخيه هارون ، إلى جميع ما جرى في ذلك المقام ، وأمثال هذه المواضيع إذا تقصاها الباحث

خرجت عن حد الحصر في الكتاب العزيز .

الاشارة في الشعر :

وقد قدمنا نماذج شعرية من هذا الفن ، ويرى قدامة أن أفضل بيت في الإشارة قول زهير :

وإني لو لقيتك فاجتمعنا لكان لكل منديه لقاء

فقد أشار له بقبح ما كان يصنع لو لقيه . وأنشد الحاتمي عن علي بن هارون عن أبيه عن حماد عن أبيه اسحق بن ابراهيم الموصلي :

جعلنا السيف بين الخدّ منه وبين سواد لمته عذارا

(249/588)

فأشار إلى هيئة الضربة التي أصابه بها دون ذكرها إشارة لطيفة دلت على كيفيتها وانما وصف أنهم ضربوا عنقه . ومن أنواع الاشارة التفخيم والإيماء فأما التفخيم فكقول اللّه تعالى " الحاقة ما الحاقة " وقول كعب بن سعد الغنوي :

أخي ما أخي لا فاحش عند بيته ولا ورع عند اللقاء هيوب

وأما الإيماء فكقوله تعالى " فغشيهم من اليم ما غشيهم " فأوماً إلى ما غشيهم وترك التفسير وتقدم ذكره بعنوان الإبهام ، وقال كثير صاحب عزة :

تجافيت عني حين لا لي حيلة وخلفت ما خلفت بين الجوانح

فقوله " خلفت ما خلفت " إيماء مليح .

ومن أنواع الاشارة الرمز كقول أحدهم يصف امرأة قتل زوجها وسبيت :

عقلت لها من زوجها عدد الحصى مع الصبح أو مع جنح كل أصيل

يريد أني لم أعطها عقلا ولا قودا بزوجها إلا الهم الذي يدعوها إلى عدّ الحصى ، وأصل العقل أخذ الدية ، وعدد الحصى مفعول عقلت وأصله من قول امرئ القيس :

ظللت ردائي فوق رأسي قاعدا أعد الحصى ما تنقضي عبراتي

يريد أنه لما غشي ديار الحي فلم يجد أحدا وضع رداءه فوق رأسه وجلس مفكرا يعد الحصى ودموعه لا ترقأ ، ومن مليح الرمز قول أبي نواس يصف كئوسا ممزوجة فيها صور منقوشة وقد تقدم ذكر هذه الأبيات ومنها هنا :

قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدّريها بالقسيّ الفوارس

فللخمر ما زرّت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس

يقول : ان حدّ الخمر من صور هذه الفوارس التي في الكئوس إلى التراقي والنحور وزيد الماء فيها مزاجا فانتهى الشراب إلى فوق رءوسها ، ويجوز أن يكون انتهاء الحباب إلى ذلك الموضع لما مزجت فأزبدت ، والأول أملح ، وفائدته معرفة حدها صرفا من معرفة حدها

ممزوجة وهذا عندهم مما سبق اليه أبو نواس .

الرمزية في الشعر الحديث :

(250/588)

كان نشوء الرمزية رد فعلّ ضد الواقعية التي أسرفت في التأثر بالعلم والبعد عن الخيال الشعري وكما استطاعت الواقعية أن تزحزح الرومانتيكية عن مكانتها كان نشوء الرمزية إيذانا بتراجع الواقعية لتحل محلها تلك الحركة الجديدة التي احتلت الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

والشعر عند أصحاب هذا المذهب- كما يقول بعضهم- " نشوة وحلم يحملان الإنسان إلى حيز اللاوعي حيث يلمح هناك من الحقائق ما لا يستطيع رؤياها عن طريق العقل والمنطق في العالم الواعي وهو لا يجد في العالم الباطني صورا تامة الوضوح يستطيع التعبير عنها تعبيرا صريحا ولكنه يعبر عنها بالرمز حتى يستطيع أن يوحي للقارىء بنفس الاحساس وينقله إلى نفس الحالة " .

ومن هنا جاء الغموض في الرمزية ، ثم أمعنوا في الإبهام وغلفوا الشعر بغلاف من الضباب ، فأسقطوا حروف التشبيه واعتمدوا على الكلمة في ايحائهم يقدمونها ويؤخرونها عن

موضعها عن قصد حتى تزيد من اشعاعاتها الموحية ، وكذلك طابقوا بين الحروف والألوان وبين الألوان والمعاني فاللون الأحمر يرمز للحياة الصاخبة والدم وشهوة الحبّ والأعاصير . والأخضر يمثل الكون والطبيعة والبحر ، والأزرق يمثل الانطلاق إلى ما وراء المادة الكونية حيث عالم الملائكة والموسيقى التي تبلغ الأعماق . واللون البنفسجي لون الرؤى الصوفية ، والأصفر للحزن والتحفز نحو عالم أفضل ، والأبيض يشف عن الهدوء والسكينة والطهر . ويعبر بودلير الشاعر الفرنسي الرمزي عن العلاقة بين الألوان والعطور والأصوات في قصيدته التي يتناول فيها وحدة الطبيعة فيقول :

الطبيعة معبد ذو أعمدة حية تنبعث منه أحيانا كلمات غامضة فيمر الإنسان من خلال غابات الرموز تحدق فيه بنظرات ألفته .

(251/588)

وتتمازج الأصداء الطويلة البعيدة الغموض في وحدة مظلمة عميقة رحبة كالليل وكالضياء وتتجاوب العطور والألوان والأصوات وحسبنا ما أوردناه ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتب في هذا الصدد وهو كثير .

3- الاحتراس :

وفي هذه الآية نفسها فن الاحتراس وقد تقدم ذكره كثيرا ، ولعل الاحتراس الذي وقع في هذه الآية أعجب احتراس وقع في القرآن فالخطاب كما قلنا موجه إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، ولما نفى تبارك وتعالى عن رسوله الكريم كونه بالمكان الذي قضى لكليمه موسى الأمر عرّف المكان بالجانب الغربي ولم يصفه باليمين كما قال في الإخبار عن موسى عليه السلام : " وناديناه من جانب الطور الأيمن " أدبا منه سبحانه مع نبيه أن ينفي عنه كونه في الجانب الأيمن ووصف سبحانه الجانب ها هنا باليمين إذ أخبر أنه نادى منه كليمه موسى تشريفا له .

هذا ولا بد من الإلماع إلى أن قوله " بجانب الغربي " أصله أن يكون صفة أي بالجانب الغربي ولكن حول عن ذلك وجعله صفة لمحذوف ضرورة امتناع إضافة الموصوف إلى الصفة إذ كانت هي الموصوف في المعنى وإضافة الشيء إلى نفسه خطأ والتقدير جانب المكان الغربي .

[سورة القصص (28) : الآيات 47 إلى 50]

وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

الإعراب :

(وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) الواو عاطفة ولو لا حرف امتناع لوجود وأن وما في حيزها مبتدأ خبره محذوف

كما هي القاعدة المشهورة أي ولو لا إصابتهم المصيبة لهم وجوابها محذوف تقديره لما أرسلنا رسولا ومصيبة فاعل وبما متعلقان بتصيبهم وجملة قدمت صلة . (فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الفاء عاطفة ويقولوا عطف على أن تصيبهم وربنا منادى مضاف ولو لا تحضيضية بمعنى هلا وأرسلت فعل وفاعل وإلينا متعلقان بأرسلت ورسولا مفعول به ، فنتبع الفاء فاء السببية ونتبع فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية وفاعل نتبع مستتر تقديره نحن وآياتك مفعول به ونكون عطف

على نتبع واسم نكون ضمير مستتر تقديره نحن ومن المؤمنين خبره .

هذا وقد شغلت هذه الآية المفسرين والمعربين قال الزمخشري :

(253/588)

" فإن قلت كيف استقام هذا المعنى وقد جعلت العقوبة هي السبب في الإرسال لا القول لدخول حرف الامتناع عليها دونه ؟ قلت : القول هو المقصود بأن يكون سببا لإرسال الرسل ، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال بواسطة القول فأدخلت عليها لولا ، وجيء بالقول معطوفا عليها بالفاء المعطية معنى السببية ويئول معناه إلى قولك ولولا قولهم هذا إذا أصابتهم مصيبة لما أرسلنا ولكن اختيرت هذه الطريقة لنكتة وهم أنهم لو لم يعاقبوا مثلا على كفرهم وقد عاينوا ما الجئوا به إلى العلم اليقين لم يقولوا : " لولا أرسلت إلينا رسولا " وانما السبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الايمان بخالقهم ، وفي هذا من الشهادة القوية على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم ما لا يخفى " .

(254/588)

و السر في جعل سبب السبب سبا وعطف السبب الأصلي عليه أمران : أحدهما أن مزيد العناية يوجب التقديم وهذا هو السر الذي أبداه سيبويه والثاني أن في هذا النظم تنبيها على سببية كل واحد منهما ، أما الاول فلاقترانه بحرف التعليل وهو أن وأما الثاني فلاقترانه بفاء السبب ، وكان بعض النحاة يورد إشكالا بهذه الآية فيقول " لولا " عند أهل الفن تدل على امتناع جوابها لوجو ما بعدها وحينئذ يكون الواقع بعدها في الآية موجودا وهو عقوبة هؤلاء المذكورين بتقدير عدم بعثة الرسل وجوابها المحذوف غير واقع وهو عدم الإرسال لأنه ممتنع بالأولى . ومتى لم يقع عدم الإرسال كان الإرسال واقعا ضرورة فيشكل الواقع بعدها إذ لا ظلم قبل بعثة الرسل فلا تتصور العقوبة بتقدير عدم البعثة وذلك لأنها واقعة جزاء على مخالفة أحكام الشرع فإن لم يكن شرع فلا مخالفة ولا عقوبة ، ويشكل الجواب على النحاة لأنه يلزم أن لا يكون واقعا وهو عدم بعثة الرسل لكن الواقع بعدها يقتضي وقوعه والتحرير في معنى لولا أنها تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها عكس " لو " فإن معناها لزوم جوابها لما بعدها ثم المانع قد يكون موجودا وقد يكون مفروضا والآية من قبيل فرض وجود المانع وكذلك اللزوم في " لو " قد يكون الشيء الواحد لازما لشيئين فلا يلزم نفيه من نفي أحد ملزوميه وعلى هذا التحرير يزول الاشكال .

(فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى) الفاء عاطفة ولما

حينية أو رابطة وجاءهم الحق فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر ومن عندنا متعلقان بجاءهم وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب لما ولولا حرف تحضيض أي هلا وأوتي

(255/588)

فعل ماض ونائب الفاعل مستتر تقديره هو أي محمد صلى اللّه عليه وسلم ومثل مفعول به ثان وما اسم موصول مضاف لمثل وجملة أوتي صلة وموسى نائب فاعل . (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريري والواو عاطفة على مقدر يقتضيه السياق ولم حرف نفي وقلب وجزم ويكفروا فعل مضارع مجزوم بلم وبما متعلقان بيكفروا وجملة أوتي موسى صلة ومن قبل متعلقان بأ ولم يكفروا أو بأوتي فيكون المعنى أن أهل مكة الذين قالوا هذه المقالة كما كفروا بمحمد وبالقرآن فقد كفروا بموسى وبالتوراة . (قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَقالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ) فجملة قالوا مفسرة وسحران خبر لمبتدأ محذوف أي هما ساحران وجملة تظاهرا نعت لسحران أي تعاونا بتصديق أحدهما الآخر وقالوا عطف على قالوا وإنا ان واسمها وبكل متعلقان بكافرون وكافرون خبر انا والجملة مقول القول . (قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت والفاء الفصيحة وأتوا فعل أمر وبكتاب متعلقان بفأتوا ومن

عند اللّه متعلقان بمحذوف صفة وهو مبتدأ وأهدى خبر ومنهما متعلقان بأهدى والجملة صفة ثانية لكتاب وأتبعه فعل مضارع مجزوم لأنه جواب الأمر والفاعل مستتر تقديره أنا والهاء مفعول به وإن شرطية وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط والتاء اسمها وصادقين خبرها وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي فأتوا والأمر هنا للتعجيز المشوب بالتوبيخ والتقريع . (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ) الفاء عاطفة وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم ويستجيبوا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل ولك متعلقان بيستجيبوا والفاء رابطة لجواب الشرط واعلم فعل أمر وأنما كافة

(256/588)

ومكفوفة لإفادة الحصر ويتبعون فعل مضارع مرفوع وفاعل وأهواءهم مفعول وإنما وما في حيزها سدت مسد مفعولي أعلم .

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) الواو عاطفة ومن اسم استفهام معناه النفي والإنكار في محل رفع مبتدأ وأضل خبره وممن متعلقان بأضل وجملة اتبع هواه صلة من وبغير هدى حال ومن اللّه صفة لهدى وجملة إن اللّه تعليل لما تقدم وان واسمها وجملة لا يهدي القوم الظالمين خبرها .

الفوائد :

نظرا لانغلاق التراكيب الواردة في الآية المتقدمة وهي قوله تعالى " ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين " .

وسمو إعجازه نورد بالإضافة إلى ما قدمناه في الاعراب ما قاله الشهاب الخفاجي في حاشيته الممتعة على البيضاوي ففيه إيضاح لما أوضحناه ، قال ما ملخصه : ان الآية تقتضي وجود إصابتهم ووجود قولهم المذكور ، والواقع انهم لم يصابوا ولم يقولوا القول المذكور فحينئذ يشكل هذا الترتيب من حيث أن لولا حرف امتناع لوجود فيصير المعنى أرسلناك إليهم لنزول المصيبة بهم ووجود قولهم المذكور وهذا غير صحيح ، وتكلف بعضهم الجواب بأن في الكلام حذف المضاف والتقدير ولولا كراهة أن تصيبهم إلخ ، فالمحقق في الموجود انما هو كراهة مصيبتهم المترتب عليها قولهم المذكور فيكون المعنى أرسلناك إليهم لأجل كراهة أن يصابوا فيقولوا ما ذكر وقيل إن التحقيق أن

لولا إنما تدل على أن ما بعدها مانع من جوابها والمانع قد يكون موجودا وقد يكون مفروضا وما هنا من الثاني فلا إشكال فيه وان لم يقدر المضاف اه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 7 صـ 276 . 350 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثمانون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والثمانون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 51 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 67 ﴾ من نفس السورة

(4/589)

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبلغ في هذه الأساليب في إظهار الخفايا ، وأكثر من نصب الأدلة على الحق وإقامة على وجوب اتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكانوا بإعراضهم عن ذلك كله كأنهم منكرون لأن يكون جاءهم شيء من ذلك ، قال ناسقاً على ما تقديره : فلقد آتيناك في هذه الآيات

بأعظم البينات ، منبهاً بحرف التوقع المقترن بأداة القسم على أنه مما يتوقع هنا أن يقال :

﴿ ولقد وصلنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي مقتضاها أن يكفي أدنى إشارة منها

﴿ لهم ﴾ اي خاصة ، فكان تخصيصهم بذلك منة عظيمة يجب عليهم شكرها

﴿ القول ﴾ أي أتبعنا بعض القول – الذي لا قول في الحقيقة سواه – بعضاً بالإنزال منجماً ، قطعاً بعضها في أثر بعض ، لتكون جواباً لأقولهم ، وحلاًّ لإشكالهم ، فيكون أقرب إلى الفهم ، وأولى بالتدبر ، مع تنويعه في وعد ووعيد ، وأخبار ومواعظ ، وحكم ونصائح ، وأحكام ومصالح ، وأكثرنا من ذلك حتى كانت آياته المعجزات وبيناته الباهرات كأنها أفراس الرهبان ، يوم استباق الأقران ، في حومة الميدان ، غير أن كلاًّ منهما سابق في العيان .

ولما بكتهم بالتنبيه بهذا التأكيد على مبالغتهم في الكذب بالقول أو بالفعل في أنه ما أتاهم ما يقتضي التذكير أتبع ذلك التوصيل عليه فقال : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي ليكون حالهم حال الذين يرجى لهم أن يرجعوا إلى عقولهم فيجدوا فيما طبع فيها ما يذكرهم بالحق تذكيراً ، بما أشار إليه الإظهار .

(5/589)

ولما كان من التذكر ما دل عليه مجر العقل ، ومنه ما انضم إليه مع ذلك العقل ، وكان صاحب هذا القسم أجدر بأن يتبصر ، وكان كأنه قيل : هل تذكروا ؟ قيل : نعم أهل الكتاب الذين هم أهله حقاً تذكروا حقاً ، وذلك معنى قوله : ﴿ الذين آتيناهم ﴾ أي بعظمتنا التي حفظناهم بها ﴿ الكتاب ﴾ أي العلم من التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الأنبياء ، وهم يتلون ذلك حق تلاوته ، في بعض الزمان الذي كان ﴿ من قبله ﴾ أي القرآن ﴿ هم ﴾ أي خاصة ﴿ به ﴾ أي القرآن ، لا بشيء مما يخالفه ﴿ يؤمنون ﴾ أي يوقعون الإيمان به في حال وصوله إليهم إيماناً لا يزال يتجدد ؛ ثم أكد هذا المعنى بقوله : ﴿ وإذا يتلى ﴾ أي تتجدد تلاوته ﴿ عليهم قالوا ﴾ مبادرين : ﴿ آمنا به ﴾ ثم عللوا ذلك بقولهم الدال على غاية المعرفة ، مؤكدين لأن من كان على دين لا يكاد يصدق رجوعه عنه ، فكيف إذا كان أصله حقاً من عند الله ، ﴿ إنه الحق ﴾ أي الكامل الذي ليس وراءه إلا الباطل ، مع كونه ﴿ من ربنا ﴾ المحسن إلينا ، وكل من الوصفين موجب للتصديق والإيمان به ؛ ثم عللوا مبادرتهم إلى الإذعان منبهين على أنهم في غاية البصيرة من أمره بأنهم يتلون ما عندهم حق تلاوته ، لا بألسنتهم فقط ، فصح قولهم الذي دل تأكيدهم له على اغتباطهم به الموجب لشكره : ﴿ إنا كنا ﴾ أي كوناً هو في غاية الرسوخ ؛ وأشار إلى أن من صح إسلامه ولو في زمن يسير أذعن لهذا الكتاب ، بإثبات الجار ، فقال : ﴿ من قبله مسلمين ﴾ أي منقادين غاية الانقياد لما جاءنا من عند الله من وصفه وغير وصفه وافق هوانا وما

ألفناه أو خالفه ، لا جرم كانت النتيجة : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة ﴿ يؤتون ﴾ بناه للمفعول لأن القصد الإيتاء ، والمؤتى معروف ﴿ أجرهم مرتين ﴾ لإيمانهم به غيباً وشهادة ، أو بالكتاب الأول ثم الكتاب الثاني ﴿ بما صبروا ﴾ على ما كان من الإيمان قبل العيان ، بعد ما هزهم إلى النزوع عنه إلف دينهم الذي كان ، وغير ذلك من امتحان الملك الديان .

(6/589)

ولما كان الصبر لا يتم إلا بالاتصاف بالمحاسن والانخلاع من المساوىء ، قال عاطفاً على ﴿ يؤمنون ﴾ مشيراً إلى تجديد هذه الأفعال كل حين : ﴿ ويدرءون بالحسنة ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿ السيئة ﴾ أي من ذلك كله فيمحونها بها .

ولما كان بعض هذا الدرء لا يتم إلا بالجود قال : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي بعظمتنا ، لا بحول منهم ولا قوة ، قليلاً كان أو كثيراً ﴿ ينفقون ﴾ معتمدين في الخلق على الذي رزقه ؛ قال البغوي : قال سعيد بن جبير : قدم مع جعفر رضي الله تعالى عنه من الحبشة أربعون رجلاً ، يعني : فأسلموا ، فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة استأذنوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أموالهم ، فأتوا بها فواسوا بها المسلمين .

ولما ذكر أن السماح بما تضن النفوس به من فضول الأموال من أمارات الإيمان ، أتبعه أن حزن

ما تبذله الألسن من فضول الأقوال من علامات العرفان ، فقال : ﴿ وإذا سمعوا اللغو ﴾ أي ما لا ينفع في دين ولا دنيا من شتم وتكذيب وتعبير ونحوه ﴿ أعرضوا عنه ﴾ تكرماً عن الخنا ﴿ وقالوا ﴾ أي وعظاً وتسميعاً لقائله : ﴿ لنا ﴾ أي خاصة ﴿ أعمالنا ﴾ لا تثابون على شيء منها ولا تعاقبون ﴿ ولكم ﴾ أي خاصة ﴿ أعمالكم ﴾ لا نطالب بشيء منها ، فنحن لا نشتغل بالرد عليكم لأن ذمكم لنا لا ينقصنا شيئاً من أجرنا ولا الاشتغال برده ينقصنا .

ولما كان معنى هذا أنهم سالمون منهم ، صرحوا لهم به فقالوا : ﴿ سلام عليكم ﴾ أي منا .

ولما جرت العادة بأن مثل هذا يكسر اللاغي ، ويرد الباغي ، أشاروا لهم إلى قبح حالهم ، رداً على ضلالهم ، بقولهم تعليلاً لما مضى من مقالهم : ﴿ لا نبتغي ﴾ أي لا نكلف أنفسنا أن نطلب ﴿ الجاهلين ﴾ أي نريد شيئاً من أحوالهم أو أقوالهم ، أو غير ذلك من خلالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 499. 501 ﴾

(7/589)

فصل

قال الفخر :

ولما بين تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدلالة قال : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول ﴾ وتوصيل القول هو إتيان بيان بعد بيان ، وهو من وصل البعض بالبعض ، وهذا القول الموصل يحتمل أن يكون المراد منه إنا أنزلنا القرآن منجماً مفرقاً يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك أقرب إلى التذكير والتنبيه ، فإنهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب إلى التذكر ، وعلى هذا التقدير يكون هذا جواباً عن قولهم هلا أوتي محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتي موسى كتابه كذلك ، ويحتمل أن يكون المراد وصلنا أخبار الأنبياء بعضها ببعض وأخبار الكفار في كيفية هلاكهم تكثيراً لمواضع الاتعاظ والانزجار ويحتمل أن يكون المراد : بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزاً مرة بعد أخرى لعلهم يتذكرون .

(8/589)

ثم إنه تعالى لما أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل القرآن أسلموا بمحمد فمن لا يعرف الكتب أولى بذلك ، واختلفوا في

المراد بقوله : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ وذكروا فيه وجوهاً : أحدها : قال قتادة إنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمداً آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام وثانيها : قال مقاتل نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل وهم أصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر وثالثها : قال رفاعة بن قرظة نزلت في عشرة أنا أحدهم ، وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل من حصل في حقه تلك الصفة كان داخلاً في الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد إيمانهم وهو قولهم : ﴿ آمنا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ فقوله : ﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا ﴾ يدل على التعليل يعني أن كونه حقاً من عند الله يوجب الإيمان به وقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ بيان لقوله : ﴿ آمنا به ﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده ، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم وذلك لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه ، ثم إنه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ وذكروا فيه وجوهاً : أحدها : أنهم يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبعد بعثته وهذا هو الأقرب لأنه تعالى لما بين أنهم آمنوا به بعد البعثة وبين أيضاً أنهم كانوا به قبل مؤمنين البعثة ثم أثبت الأجر مرتين وجب أن ينصرف إلى ذلك وثانيها : يؤتون الأجر مرتين مرة بإيمانهم بالأنبياء

الذي كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومرة أخرى بإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وثالثها : قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا

(9/589)

بمحمد صلى الله عليه وسلم شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم أجران أجر على الصف وأجر على الإيمان ، يروى أنهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه ، قال السدي اليهود عابوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول سلام عليكم ثم قال : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة ﴾ والمعنى (يدفعون) بالطاعة المعصية المتقدمة ، ويحتمل أن يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الأذى ، ويحتمل أن يكون المراد من الحسنة امتناعهم من المعاصي لأن نفس الامتناع حسنة ويدفع به ما لولاه لكان سيئة ، ويحتمل التوبة والإنابة والاستقرار عليها ، ثم قال : ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ .

(10/589)

واعلم أنه تعالى مدحهم أولاً بالإيمان ثم بالطاعات البدنية في قوله : ﴿ وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة ﴾ ثم بالطاعات المالية في قوله : ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ قال القاضي دل هذا المدح على أن الحرام لا يكون رزقاً جوابه : أن كلمة من للتبعيض فدل على أنهم استحقوا المدح بإنفاق بعض ما كان رزقاً ، وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله ، ثم لما بين كيفية اشتغالهم بالطاعات والأفعال الحسنة بين كيفية إعراضهم عن الجهال فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ واللغو ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه إعراضاً جميلاً فلذلك قال تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم سلام عَلَيْكُمْ ﴾ وما أحسن ما قال الحسن رحمه الله في أن هذه الكلمة تحية بين المؤمنين ، وعلامة الاحتمال من الجاهلين ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] ثم أكد تعالى ذلك بقوله حاكياً عنهم ﴿ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ والمراد لا نجازيهم بالباطل على باطلهم ، قال قوم نسخ ذلك بالأمر بالقتال وهو بعيد لأن ترك المسافهة مندوب ، وإن كان القتال واجباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 24 صـ 224 . 225 ﴾

(11/589)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ الْآيَةَ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : (كَانَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَسْلَمُوا ، فَآذَاهُمْ الْمُشْرِكُونَ فَصَفَحُوا عَنْهُمْ ، يَقُولُونَ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذَا سَلَامُ مُتَارَكَةٍ وَلَيْسَ بِتَحِيَّةٍ ، وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ وَقَالَ : إبْرَاهِيمُ ﴿ سَلَامٌ عَلَيْك سَأَسْتَغْفِرُ لَك رَبِّي ﴾ .

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا يَجُوزُ عَلَى جَوَازِ ابْتِدَاءِ الْكَافِرِ بِالسَّلَامِ .

وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، لِمَا وَصَفْنَا مِنْ أَنَّ السَّلَامَ يَنْصَرِفُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدِهِمَا : الْمُسَالَمَةُ الَّتِي هِيَ الْمُتَارَكَةُ ، وَالثَّانِي : التَّحِيَّةُ الَّتِي هِيَ دُعَاءٌ بِالسَّلَامَةِ وَالْأَمْنِ ، نَحْوَ تَسْلِيمِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ سِتٌّ أَحَدُهَا أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِ إذَا لَقِيَهُ ﴾ ، وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْكُفَّارِ : ﴿ لَا تَبْدَءُوهُمْ بِالسَّلَامِ وَإِنَّهُ إذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ : أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنْ الْيَهُودِ أَسْلَمُوا ، فَكَانَ الْيَهُودُ يَلْقَوْنَهُمْ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ ، فَيُعْرِضُونَ عَنْهُمْ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الثَّانِي : قَوْمٌ مِنْ الْيَهُودِ أَسْلَمُوا ، فَكَانُوا إذَا سَمِعُوا مَا غَيَّرَهُ الْيَهُودُ مِنْ التَّوْرَاةِ وَبَدَّلُوهُ مِنْ نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَتِهِ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَذَكَرُوا الْحَقَّ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُمْ الْمُسْلِمُونَ إذَا سَمِعُوا الْبَاطِلَ لَمْ يَلْتَفِتُوا إلَيْهِ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُمْ أُنَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ يَكُونُوا يَهُودًا وَلَا نَصَارَى ، وَكَانُوا عَلَى دِينِ اللَّهِ ، وَكَانُوا يَنْتَظِرُونَ بَعْثَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا سَمِعُوا بِهِ بِمَكَّةَ قَصَدُوهُ ، فَعُرِضَ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ ، فَأَسْلَمُوا ؛ فَكَانَ الْكُفَّارُ مِنْ قُرَيْشٍ يَقُولُونَ لَهُمْ : أُفٍّ لَكُمْ مِنْ قَوْمٍ اتَّبَعْتُمْ غُلَامًا كَرِهَهُ قَوْمُهُ ، وَهُمْ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ يُرِيدُ لَنَا حَقُّنَا ، وَلَكُمْ بَاطِلُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : لَيْسَ هَذَا بِسَلَامِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ اذْهَبْ بِسَلَامٍ أَيْ تَارِكْنِي وَأَنَا تَارِكُك .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ تِبْيَانِ الْحَالِ لِلتَّحِيَّةِ بِالسَّلَامِ ، وَاخْتِصَاصِهَا بِالْمُسْلِمِينَ ، وَخُرُوجِ الْكُفَّارِ عَنْهَا ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(13/589)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه بيَّنا لهم القول ، قاله السدي .

الثالث : أتبعنا بعضه بعضاً ، قاله علي بن عيسى .

وفي ﴿ الْقَوْلَ ﴾ وجهان :

أحدهما : أن الخبر عن الدنيا والآخرة ، قاله ابن زيد .

الثاني : إخبارهم بمن أهلكنا من قوم نوح بكذا وقوم صالح بكذا وقوم هود بكذا .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : يتذكرون محمداً فيؤمنوا به ، قاله ابن عباس .

الثاني : يتذكرون فيخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ، قاله ابن عيسى .

الثالث : لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأوثان ، حكاه النقاش .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : يعني الذين آتيناهم التوراة والإنجيل من قبل القرآن هم بالقرآن يؤمنون ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : الذي آتيناهم التوراة والإنجيل من قبل محمد هم بمحمد يؤمنون ، قاله ابن شجرة .

وفيمن نزلت قولان :

أحدهما : نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها ، قاله قتادة .

الثاني : أنها نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه

وثمانية قدموا من الشام . منهم بحيراً وأبرهة والأشراف وعامر وأيمن وإدريس ونافع فأنزل الله فيهم هذه الآية ، والتي بعدها إلى قوله ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ قال قتادة : [بإيمانهم] بالكتاب الأول وإيمانهم بالكتاب الآخر .

وفي قوله بما صبروا ثلاثة أوجه :

أحدها : بما صبروا على الإيمان ، قاله ابن شجرة .

الثاني : على الأذى ، قاله مجاهد .

الثالث : على طاعة الله وصبروا عن معصية الله ، قاله قتادة .

(14/589)

﴿ . . . وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ فيه خمسة أوجه

: أحدها : يدفعون بالعمل الصالح ما تقدم من ذنب ، قاله ابن شجرة .

الثاني : يدفعون بالحلم جهل الجاهل ، وهذا معنى قول يحيى بن سلام .

الثالث : يدفعون بالسلام قبح اللقاء ، وهذا معنى قول النقاش .

الرابع : يدفعون بالمعروف المنكر ، قاله ابن جبير .

الخامس : يدفعون بالخير الشر ، قاله ابن زيد .

ويحتمل سادساً : يدفعون بالتوبة ما تقدم من المعصية .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : يؤتون الزكاة احتساباً ، قاله ابن عباس .

الثاني : نفقة الرجل على أهله وهذا قبل نزول الزكاة ، قاله السدي .

الثالث : يتصدقون من أكسابهم ، قاله قتادة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم قوم من اليهود أسلموا فكان اليهود يتلقونهم بالشتم والسب فيعرضون عنهم ، قاله مجاهد .

الثاني : أنهم قوم من اليهود أسلموا فكانوا إذا سمعوا ما غَيّره اليهود من التوراة وبدلوه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم وصفته أعرضوا عنه وكرهوا تبديله ، قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

الثالث : أنهم المؤمنون إذا سمعوا الشرك أعرضوا عنه ، قاله الضحاك ومكحول .

الرابع : أنهم أناس من أهل الكتاب لم يكونوا يهوداً ولا نصارى وكانوا على دين أنبياء الله وكانوا ينتظرون بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سمعوا بظهوره بمكة قصدوه ، فعرض عليهم القرآن وأسلموا .

وكان أبو جهل ومن معه من كفار قريش يلقونهم فيقولون لهم : أفٍّ لكم من قوم منظور إليكم

تبعتم غلاماً قد كرهه قومه وهم أعلم به منكم فإذا ذلك لهم أعرضوا عنهم ، قاله الكلبي .

﴿ قَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لنا ديننا ولكم دينكم ، حكاه النقاش .

الثاني : لنا حلمنا ولكم سفهكم .

(15/589)

﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ رَدّوا خيراً واستكفوا شراً ، وفيه تأويلان

: أحدهما : لا نجازي الجاهلين ، قاله قتادة .

الثاني : لا نتبع الجاهلين ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(16/589)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) ﴾

الذين وصل ﴿ لهم القول ﴾ هم قريش قاله مجاهد وغيره ، وقال أبو رفاعة القرظي :

نزلت في اليهود في عشرة أنا أحدهم ذكره الطبري ، وقال الجمهور : معناه واصلنا لهم في القرآن وتابعناه موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزجر والدعاء إلى الإسلام ، قال الحسن وفي ذكر الأمم المهلكة وصلت لهم قصة بقصة حسب مرور الأيام ، وذهب مجاهد أن معنى ﴿ وصلنا ﴾ فصلنا أي جعلناه أوصالاً من حيث كان أنواعاً من القول في معان مختلفة ، ومعنى اتصال بعضه ببعض حاصل من جهة أخرى لكن إنما عدد عليهم هاهنا تقسيمه في أنواع من القول ، وذهب الجمهور إلى أن هذا التوصيل الذي وصل لهم القول معناه وصل المعاني من الوعظ والزجر وذكر الآخرة وغير ذلك ، وذهبت فرقة إلى أن الإشارة بتوصيل القول إنما هي إلى الألفاظ أي إلى الإعجاز ، فالمعنى ﴿ ولقد وصلنا لهم ﴾ قولاً معجزاً على نبوتك .

(17/589)

قال القاضي أبو محمد : والمعنى الأول تقديره ﴿ ولقد وصلنا لهم ﴾ قولاً تضمن معاني من تدبرها اهتدى ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " ولقد وصَلنا " بتخفيف الصاد ، وقوله ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي في طمع البشر ، وظاهر الأمر عندهم وبحسبهم ، ثم ذكر تعالى القوم الذين آمنوا من أهل الكتاب مباهياً بهم قريشاً ، واختلف إلى من الإشارة ، فقيل إلى

جماعة من اليهود أسلمت وكانت تلقى من الكفار أذى ، وقيل إلى بحيرا الراهب ، وقال الزهراوي : إلى النجاشي : وقيل : إلى سلمان وابن سلام ، وأسند الطبري عن علي بن أبي رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب فيهم أبو رفاعة يعني أباه فأسلموا فأوذوا فنزلت فيهم هذه الآية ، والضمير في ﴿ قبله ﴾ يحتمل أن يعود على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن يعود على القرآن ، وما بعد يؤيد هذا ، قوله ﴿ وإذا يتلى عليهم ﴾ وقولهم ﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ يريدون الإسلام المتحصل لهم من شريعة موسى وعيسى عليهما السلام ، و﴿ أجرهم مرتين ﴾ معناه على ملتين وبحظوة شريعتين ، وهذا المعنى هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة يؤتيهم أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي ، والعبد الناصح في عبادة ربه وخدمة سيده ، ورجل كانت له أمة فأدبها وعلمها ثم أعتقها وتزوجها " وقوله تعالى : ﴿ بما صبروا ﴾ عام في صبرهم على ملتهم ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك من أنوع الصبر ، وقوله تعالى : ﴿ ويدرؤون ﴾ معناه يدفعون هذا وصف لمكارم الأخلاق أي يتعاقبون ومن قال لهم سوءاً لا ينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه ، وهذه آية مهادنة وهي في صدر الإسلام وهي مما نسخته آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاها أمة محمد إلى يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ مدح لهم

بالنفقة في الطاعات وعلى رسم الشرع ، وفي ذلك حض على الصدقات ونحوها ، و ﴿ اللغو ﴾ سقط القول ،

(18/589)

والقول يسقط لوجوه يعز حصرها ، فالفحش لغو ، والسب لغو ، واليمين لغو حسب الخلاف فيها ، وكلام مستمع الخطبة لغو ، والمراد من هذا في هذه الآية ما كان سباً وأذى فأدب أهل الإسلام الإعراض عنه ، والقول على جهة التبري ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ وقال ابن زيد ﴿ اللغو ﴾ ها هنا ما كان بنو أسرائيل كتبوه في التوراة مما ليس من عند الله .

قال القاضي أبو محمد : فهذه المهادنة هي لبني إسرائيل الكفار منهم ، و ﴿ سلام عليكم ﴾ في هذا الموضع ليس المقصود بها التحية ، لكنه لفظ التحية قصد به المتاركة ، وهو لفظ مؤنس مستنزل لسامعه إذ هو في عرف استعماله تحية .

قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بقتال ، و ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ معناه لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمسابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(19/589)

وقال ابن الجوزى :

﴿ ولقد وصَّلْنَا لهم القَولَ ﴾

وقرأ الحسن ، وأبو المتوكل ، وابن يعمر : ﴿ وصَلْنَا ﴾ بتخفيف الصاد .

وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم قريش ، قاله الأكثرون ، منهم مجاهد .

والثاني : اليهود ، قاله رفاعة القرظي .

والمعنى : أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضاً ، ويُخْبِر عن الأمم الخالية كيف عُذِّبوا لعلَّهم يتَّعظون .

﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ وفيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم مؤمنو أهل الكتاب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : مسلمو أهل الإنجيل ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قَدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدوا معه أُحُداً ، فنزلت فيهم هذه الآية .

والثالث : مسلمو اليهود ، كعبد الله بن سلام وغيره ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْله ﴾ أي : من قبل القرآن ، ﴿ هُمْ به ﴾ في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن ذِكْره كان مكتوباً [عندهم] في كتبهم ، فآمنوا به .

والثاني : إلى القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وإذا يُتْلى عليهم ﴾ يعني القرآن ﴿ قالوا آمَنَّا به ﴾ ، ﴿ إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْله ﴾ أي : من قبل نزول القرآن ﴿ مُسْلِمِين ﴾ أي : مُخْلِصِين لله مصدّقين بمحمد ، وذلك لأن ذِكْره كان في كتبهم فآمنوا به ﴿ أولئك يؤتَوْن أجرهم مَرَّتين ﴾ .

في المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنَّهم مؤمنو أهل الكتاب ، وهذا قول الجمهور ، وهو الظاهر ، وفيما صبروا عليه قولان .

أحدهما : أنهم صبروا على الكتاب الأوَّل ، وصبروا على اتِّباع محمداً ، قاله قتادة ، وابن زيد .

والثاني : أنهم صبروا على الإيمان بمحمد قبل أن يُبْعَث ، ثم على اتِّباعه حين بُعث ، قاله الضحاك .

والقول الثاني : انهم قوم من المشركين أسلموا ، فكان قومهم يؤذونهم ، فصبروا على الأذى ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ ويدرؤون بالحسنة السَّيئة ﴾ فيه أقوال قد شرحناها في [الرعد : 22] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا سَمِعُوا اللَّغو ﴾ فيه ثلاث أقوال .

أحدها : الاذى والسَّبّ ، قاله مجاهد .

والثاني : الشِّرك ، قاله الضحاك .

والثالث : أنهم قوم من اليهود آمنوا ، فكانوا يسمعون ما غيَّر اليهود من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيَكرهون ذلك ويُعْرِضون عنه ، قاله ابن زيد .

وهل هذا منسوخ ، أم لا ؟ فيه قولان .

وفي قوله : ﴿ وقالوا لنا أعمالُنا ولكم أعمالكم ﴾ قولان .

أحدهما : لنا دِيننا ولكم دِينكم .

والثاني : لنا حِلْمُنا ولكم سَفَهُكم .

﴿ سلام عليكم ﴾ قال الزجاج : لم يريدوا التحيَّة ، وإنَّما أرادوا : بيننا وبينكم المُتَارَكة ، وهذا قبل أن يؤمَر المسلمون بالقتال ، وذكر المفسرون أنَّ هذا منسوخ بآية السيف .

وفي قوله : ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : لا نبتغي دِين الجاهلين .

والثاني : لا نطلُب مجاورتهم .

والثالث : لا نريد أن نكون جُهَّالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(21/589)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول ﴾

أي أتبعنا بعضه بعضاً ، وبعثنا رسولاً بعد رسول .

وقرأ الحسن : ﴿ وَصَلْنَا ﴾ مخففاً .

وقال أبو عبيدة والأخفش : معنى ﴿ وصلنا ﴾ أتممنا كصلتك الشيء .

وقال ابن عُيَيْنة والسدّي : بيّنا .

وقال ابن عباس .

وقال مجاهد : فصلنا .

وكذلك كان يقرؤها .

وقال ابن زيد : وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم في الآخرة في الدنيا .

وقال أهل المعاني : وَالَينا وتابعنا وأنزلنا القرآن تبع بعضه بعضاً : وعداً ووعيداً وقصصاً

وعبراً ونصائح ومواعظ إرادة أن يتذكروا فيفلحوا .

وأصلها من وصل الحبال بعضها ببعض .

قال الشاعر :

فقل لبني مروان ما بال ذِمّةٍ . . .

وحبلٍ ضعيفٍ ما يزال يُوَصَّلُ

وقال امرؤ القيس :

دريرٍ كَخُذروفِ الوليدِ أَمَرَّهُ . . .

تَقَلَّبُ كفَّيه بخيطٍ مُوَصَّلِ

والضمير في ﴿ لهم ﴾ لقريش ؛ عن مجاهد .

وقيل : هو لليهود .

وقيل : هو لهم جميعاً .

والآية رد على من قال هلا أوتي محمد القرآن جملة واحدة .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يتذكرون محمداً فيؤمنوا به .

وقيل : يتذكرون فيخافوا أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم ؛ قاله علي بن عيسى .

وقيل : لعلهم يتعظون بالقرآن عن عبادة الأصنام .

حكاه النقاش .

قوله تعالى : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾

أخبر أن قوماً ممن أوتوا الكتاب من بني إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن ؛ كعبد الله بن سَلام وسلمان .

ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلاً ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة ، وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى : منهم بحيراء الراهب وأبرهة والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع .

كذا سماهم الماوردي وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها ﴿ أولئك يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ قاله قتادة .

(22/589)

وعنه أيضاً : أنها نزلت في عبد الله بن سَلاَم وتميم الداريّ والجارود العبديّ وسلمان الفارسيّ ، أسلموا فنزلت فيهم هذه الآية .

وعن رفاعة القرظي : نزلت في عشرة أنا أحدهم .

وقال عروة بن الزبير : نزلت في النجاشي وأصحابه ووجه باثني عشر رجلاً فجلسوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكان أبو جهل وأصحابه قريباً منهم ، فآمنوا بالنبيّ صلى الله

عليه وسلم ، فلما قاموا من عنده تبعهم أبو جهل ومن معه ، فقال لهم : خيبكم الله من ركب ، وقبحكم من وفد ، لم تلبثوا أن صدقتموه ، وما رأينا ركباً أحمق منكم ولا أجهل ؛ فقالوا : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ لم نأل أنفسنا رشدا ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ وقد تقدّم هذا في "المائدة" عند قوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ﴾ [المائدة : 83] مستوفى .

وقال أبو العالية : هؤلاء قوم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث وقد أدركه بعضهم .

﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل القرآن .

وقيل : من قبل محمد عليه السلام ﴿ هُم بِهِ ﴾ أي بالقرآن أو بمحمد عليه السلام ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ قالوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَآ ﴾ أي إذا قرىء عليهم القرآن قالوا صدقنا بما فيه ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزوله ، أو من قبل بعثة محمد عليه السلام ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ أي موحدين ، أو مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن .

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54)

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ ثبت في "صحيح مسلم" عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبيّ صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدّقه فله أجران وعبد مملوك أدّى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوّجها فله أجران " قال الشعبي للخراساني : خذ هذا الحديث بغير شيء ، فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة وخرجه البخاري أيضاً .

قال علماؤنا : لما كان كل واحد من هؤلاء مخاطباً بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين ؛ فالكتابي كان مخاطباً من جهة نبيه ، ثم أنه خوطب من جهة نبيّنا فأجابه واتبعه فله أجر الملتين ، وكذلك العبد هو مأمور من جهة الله تعالى ومن جهة سيده ، ورب الأمة لما قام بما خوطب به من تربيته أمته وأدبها فقد أحياها إحياء التربية ، ثم إنه لما أعتقها وتزوّجها أحياها إحياء الحرّية التي ألحقها فيه بمنصبه ، فقد قام بما أمر فيها ، فأجر كل واحد منهما أجرين .

ثم إن كل واحد من الأجرين مضاعف في نفسه ، الحسنة بعشر أمثالها فتتضاعف الأجور .

ولذلك قيل : إن العبد الذي يقوم بحق سيده وحق الله تعالى أفضل من الحرّ ، وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وغيره .

وفي "الصحيح" عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للعبد المملوك المصلح أجران " والذي نفس أبي هريرة بيده لولا الجهاد في سبيل الله والحج وبر أمي لأحببت أن أموت وأنا مملوك .

قال سعيد بن المسيّب : وبلغنا أن أبا هريرة لم يكن يحج حتى ماتت أمّه لصحبتها .

وفي "الصحيح" أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعمّا للمملوك أن يُتوفَّى يحسن عبادة الله وصحابة سيده نعمّا له " .

(24/589)

الثانية : قوله تعالى : ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ عام في صبرهم على ملتهم ، ثم على هذه وعلى الأذى الذي يلقونه من الكفار وغير ذلك .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون .

درأت إذا دفعت ، والدرء الدفع .

وفي الحديث : " ادرؤوا الحدود بِالشبهات " قيل : يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى .

وقيل : يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب ؛ وعلى الأوّل فهو وصف لمكارم الأخلاق ؛ أي من قال لهم سوءاً لاينوه وقابلوه من القول الحسن بما يدفعه .

فهذه آية مهادنة ، وهي من صدر الإسلام ، وهي مما نسختها آية السيف وبقي حكمها فيما دون الكفر يتعاطاه أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

ومنه قوله عليه السلام لمعاذ : " وأتبعِ السيئة الحسنة تمحها وخالقِ الناس بخلق حسن "

ومن الخلق الحسن دفع المكروه والأذى ، والصبر على الجفا بالإعراض عنه ولين الحديث .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أثنى عليهم بأنهم ينفقون من أموالهم في الطاعات وفي رسم الشرع ، وفي ذلك حض على الصدقات .

وقد يكون الإنفاق من الأبدان بالصوم والصلاة ؛ ثم مدحهم أيضاً على إعراضهم عن اللغو ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] أي إذا سمعوا ما قال لهم المشركون من الأذى والشتم أعرضوا عنه ؛ أي لم يشتغلوا به ﴿ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي متاركة ؛ مثل قوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] أي لنا ديننا ولكم دينكم .

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أَمْناً لكم منا فإنا لا نحاربكم ، ولا نسابّكم ، وليس من التحية في شيء .

قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال .

﴿ لا نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة والمشاتمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(25/589)

وقال أبو حيان :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) ﴾

قرأ الجمهور : ﴿ وصّلنا ﴾ ، مشدد الصاد ؛ والحسن : بتخفيفها ، والضمير في لهم لقريش .

وقال رفاعة القرظي : نزلت في عشرة من اليهود ، أنا أحدهم .

قال الجمهور : وصلنا : تابعنا القرآن موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزجر والدعاء إلى الإسلام .

وقال الحسن : وفي ذكر الأمم المهلكة .

وقال مجاهد : جعلناه أوصالاً من حيث كان أنواعاً من القول في معان مختلفة .

وقال ابن زيد : وصلنا لهم خبر الآخرة بخبر الدنيا ، حتى كأنهم عاينوا الآخرة .

وقال الأخفش : أتممنا لوصلك الشيء بالشيء ، وأصل التوصل في الحبل ، يوصل بعضه ببعض .

وقال الشاعر :

فقل لبني مروان ما بال ذمتي . . .

بحبل ضعيف لا يزال يوصل

وهذه الأقوال معناها : توصيل المعاني فيه بها إليهم .

وقالت فرقة : التوصيل بالنسبة إلى الألفاظ ، أي وصلنا لهم قولاً معجزاً دالاً على نبوتك .

وأهل الكتاب هنا جماعة من اليهود أسلمت ، وكان الكفار يؤذونهم .

أو بحيرا الراهب ، أو النجاشي ، أو سلمان الفارسي .

وابن سلام ، وأبو رفاعة ، وابنه في عشرة من اليهود أسلموا .

أو أربعون من أهل الإنجيل كانوا مؤمنين بالرسول قبل مبعثه ، اثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب ، وثمانية قدموا من الشام : بحيرا ، وأبرهة ، وأشرف ، وأربد ، وتمام ، وإدريس ، ونافع ، ورادأ ابن سلام ، وتميم الداري ، والجارود العبدي ، وسلمان ، سبعة أقوال آخرها لقتادة .

والظاهر أنها أمثلة لمن آمن منهم ، والضمير في به عائد على القول ، وهو القرآن .

وقال الفراء : عائد على الرسول ، وقال أيضاً : إن عاد على القرآن ، كان صواباً ، لأنهم قد قالوا : إنه الحق من ربنا . انتهى .

﴿ إنه الحق من ربنا ﴾ : تعليل للإيمان به ، لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن نؤمن به .

(26/589)

﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ : بيان لقوله : ﴿ آمنا به ﴾ ، أي إيماننا به متقادم ، إذ كان الآباء الأقدمون إلى آبائنا قرأوا ما في الكتاب الأول ، وأعلموا بذلك الأبناء ، فنحن مسلمون من قبل نزوله وتلاوته علينا ، والإسلام صفة كل موحد مصدق بالوحي .

وإيتاء الأجر مرتين ، لكونه آمن بكتابه وبالقرآن ؛ وعلل ذلك بصبرهم : أي على تكاليف الشريعة السابقة لهم ، وهذه الشريعة وما يلقون من الأذى .

وفي الحديث : " ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي " ، الحديث .

﴿ ويدرأون ﴾ : يدفعون ، ﴿ بالحسنة ﴾ : بالطاعة ، ﴿ السيئة ﴾ : المعصية المتقدمة ، أو بالحلم الأذى ، وذلك من مكارم الأخلاق .

وقال ابن مسعود : يدفعون بشهادة أن لا إله إلاّ الله الشرك .

وقال ابن جبير : بالمعروف المنكر .

وقال ابن زيد : بالخير الشر .

وقال ابن سلام : بالعلم الجهل ، وبالكظم الغيظ .

وفي وصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لمعاذ : " أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن "

و ﴿ اللغو ﴾ : سقط القول .

وقال مجاهد : الأذى والسب .

وقال الضحاك : الشرك .

وقال ابن زيد : ما غيرته اليهود من وصف الرسول ، سمعه قوم منهم ، فكرهوا ذلك وأعرضوا .

﴿ ولكم أعمالكم ﴾ : خطاب لقائل اللغو المفهوم ذلك من قوله : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ .

﴿ سلام عليكم ﴾ ، قال الزجاج : سلام متاركة لإسلام تحية .

﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ : أي لا نطلب مخالطتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول ﴾

وقُرِىء بالتَّخفيف أي أنزلنا القرآنَ عليهم متواصلاً بعضَه إثرَ بعضٍ حسبما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ أو متتابعاً وعداً ووعيداً قصصاً وعبراً ومواعظَ ونصائحَ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون بما فيه ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبلِ إيتاءِ القُرآنِ ﴿ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم مُؤمنو أهلِ الكتابِ وقيل : أربعون من أهلِ الإنجيلِ اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفرٍ من الحبشةِ وثمانيةٌ من الشامِ ﴿ وَإِذَا يتلى ﴾ أي القرآنُ ﴿ عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا ﴾ أي الحقُّ الذي كنَّا نعرفُ حقِّيتَه وهو استئنافٌ لبيانِ ما أوجب إيمانَهم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ ﴾ أي مِن قبلِ نزولِه ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ بيانٌ لكونِ إيمانِهم به أمراً متقادمَ العهدِ لما شاهدوا ذكرَه في الكتبِ المتقدمةِ وأنَّهم على دينِ الإسلامِ قبل نزولِ القرآنِ ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذُكر من المنعوتِ ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ مرةً على إيمانِهم بكتابِهم ومرةً على إيمانِهم بالقرآنِ ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرِهم وثباتِهم على الإيمانينِ أو على الإيمانِ بالقرآنِ قبل النزولِ وبعدَه أو على أذى من هاجرَهم من أهلِ دينِهم

ومن المشركين ﴿ وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعونَ بالطَّاعةِ المعصيةَ لقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ : " وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها " ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ في سبيلِ الخيرِ .

(28/589)

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو ﴾ من اللاغينَ ﴿ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ عن اللَّغو تكرماً كقولِه تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ باللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ ﴿ وَقَالُواْ ﴾ لهم ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم سلام عَلَيْكُمْ ﴾ بطريقِ المُتاركةِ والتَّوديعِ ﴿ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ لا نطلبُ صحبتَهم ولا نريدُ مخالطتَهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(29/589)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول ﴾

الضمير لأهل مكة ، وأصل التوصيل ضم قطع الحبل بعضها ببعض قال الشاعر :

فقل لبني مروان ما نال ذمتي . . .

بحبل ضعيف لا يزال يوصل

والمعنى ولقد أنزلنا القرآن عليهم متواصلاً بعضه أثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة أو متتابعاً وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ومواعظ ونصائح ، وقيل : جعلناه أوصالا أي أنواعاً مختلفة وعداً ووعيداً الخ ، وقيل : المعنى وصلنا لهم خبر الآخرة بخبر الدنيا حتى كأنهم عاينوا الآخرة وعن الأخفش أتممنا لهم القول ، وقرأ الحسن ﴿ وَصَّلْنَا ﴾ بتخفيف الصاد والتضعيف في قراءة الجمهور للتكثير ومن هنا قال الراغب في تفسير ما في الآية عليها أي أكثرنا لهم القول موصولاً بعضه ببعض ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون بما فيه .

﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ قبل القرآن على أن الضمير للقول مراداً به القرآن أو للقرآن المفهوم منه وأياً ما كان فالمراد من قبل إيتائه ﴿ هُمْ ﴾ لا هؤلاء الذين ذكرت أحوالهم ﴿ بِهِ ﴾ أي بالقرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقيل : الضميران للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بالموصول على ما روي عن ابن عباس مؤمنو أهل الكتاب مطلقاً ، وقيل : هم أبو رفاعة في عشرة من اليهود ، آمنوا فأوذوا ، وأخرج ابن مردويه بسند جيد وجماعة عن رغاعة القرظي ما يؤيده وقيل : أربعون من أهل الإنجيل كانوا مؤمنين بالرسول صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه اثنان وثلاثون من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وثمانية قدموا من الشام بحيراً وأبرهة وأشرف وعامروا يمن وادريس ونافع وتميم ، وقيل : ابن سلام .

وتميم الداري .

والجارود العبدي .

وسلمان الفارسي .

ونسب إلى قتادة واستظهر أبو حيان الإطلاق وأن ما ذكر من باب التمثيل لمن آمن من أهل الكتاب .

(30/589)

﴿ وَإِذَا يتلى ﴾ أي القرآن ﴿ عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءامَنَّا بِهِ ﴾ أي بأنه كلام الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا ﴾ أي الحق الذي كنا نعرف حقيته ، وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به ، وجوز أن تكون الجملة مفسرة لما قبلها وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزوله ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ بيان لكون إيمانهم به أمراً متقادم العهد لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة وأنهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن ويكفي في كونهم على دين الإسلام قبل نزوله إيمانهم به إجمالاً .

وفي الكشاف والبحر أن الإسلام صفة كل موحد مصدق بالوحي والظاهر عليه أن الإسلام ليس من خصوصيات هذه الأمة من بين الأمم .

وذهب السيوطي عليه الرحمة إلى كونه من الخصوصيات وألف في ذلك كراسة وقال في ذيلها : لما فرغت من تأليف هذه الكراسة واضطجعت على الفراش للنوم ورد على قوله تعالى : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ [القصص : 52] الآية فكأنما ألقى على جبل لما أن ظاهرها الدلالة للقول بعدم الخصوصية وقد أفكرت فيها ساعة ولم يتجه له فيها شيء فلجأت إلى الله تعالى ورجوت أن يفتح بالجواب عنها فلما استيقظت وقت السحر إذا بالجواب قد فتح فظهر عنها ثلاثة أجوبة : الأول أن مسلمين اسم فاعل مراد به الاستقبال كما هو حقيقة فيه دون الحال والماضي والتمسك بالحقيقة هو الأصل وتقدير الآية إنا كنا من قبل مجيئه عازمين على الإسلام به إذا جاء لما كنا نجده في كتبنا من بعثه ووصفه ويرشح هذا أن السياق يرشد إلى أن قصدهم الأخبار بحقية القرآن وأنهم كانوا على قصد الإسلام به إذا جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وليس قصدهم الثناء على أنفسهم في حد ذاتهم بأنهم كانوا بصفة الإسلام أو لا لنبو المقام عنه كما لا يخفى ، الثاني أن يقدر في الآية إنا كنا من قبله مسلمين به فوصف الإسلام سببه القرآن لا التوراة والإنجيل

ويرشح ذلك ذكر الصلة فيما قبل حيث قال سبحانه : ﴿ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : 52] فإنه يدل على أن الصلة مرادة هنا أيضاً إلا أنها حذفت كراهة التكرار .

(32/589)

الثالث أن هذا الوصف منهم بناء على ما هو مذهب الأشعري من أن من كتب الله تعالى أن يموت مؤمناً فهو يسمى عنده تعالى مؤمناً ولو كان في حال الكفر وإنما لم نطلق نحن هذا الوصف عليه لعدم علمنا بما عنده تعالى ، فهؤلاء لما ختم الله تعالى لهم بالدخول في الإسلام أخبروا عن أنفسهم أنهم كانوا متصفين به قبل لأن العبرة في هذا الوصف بالخاتمة ووصفهم بذلك أولى من وصف الكافر الذي يعلم الله تعالى أنه يموت على الإسلام به لأنهم كانوا على دين حق وهذا معنى دقيق استفدناه في هذه الآية من قواعد علم الكلام انتهى .

ولا يخفى ضعف هذا الجواب وكذا الجواب الأول وأما الجواب الثاني فهو بمعنى ما ذكرناه في الآية وقد ذكره البيضاوي وغيره وجوز أن يراد بالإسلام الإنقياد أي إنا كنا من قبل نزوله منقادين لأحكام الله تعالى الناطق بها كتابه المنزل إلينا ومنها وجوب الإيمان به فنحن مؤمنون به قبل نزوله .

﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بما ذكر من النعوت ﴿ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ مرة على إيمانهم

بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي بصبرهم وثباتهم على الإيمانين أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم وعاداهم من أهل دينهم ومن المشركين ﴿ وَيَدْرَءُونَ ﴾ أي يدفعونَ ﴾ بالحسنة ﴾ أي بالطاعة ﴿ ﴾ بالحسنة ﴾ أي بالطاعة ﴿ ﴾ أي بالطاعة ﴿ السيئة ﴾ أي المعصية فإن الحسنة تمحو السيئة قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وقيل : أي يدفعون بالحلم الأذى وقال ابن جبير : بالمعروف المنكر وقال ابن زيد : بالخير الشر وقال ابن سلام : بالعلم اجلهل وبالكظم الغيظ وقال ابن مسعود : بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ أي في سبيل الخير كما يقتضيه مقام المدح.

(33/589)

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو ﴾ سقط القول وقال مجاهد : الأذى والسب وقال الضحاك : الشرك وقال ابن زيد : ما غيرته اليهود من وصف الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أي عن اللغو تكرماً كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] ﴿ وَقَالُواْ ﴾ لهم أي للاغين المفهوم من ذكر اللغو ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ متاركة لهم كقوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : 6] ﴿

سلام عَلَيْكُمُ ﴾ قالوه توديعاً لهم لا تحية أو هو للمتاركة أيضاً كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] وأياً ما كان فلا دليل في الآية على جواز ابتداء الكافر بالسلام كما زعم الجصاص إذ ليس الغرض من ذلك إلا المتاركة أو التوديع .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الكفار " لا تبدءوهم بالسلام وإذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم " نعم روي عن ابن عباس جواز أن يقال للكافر ابتداء السلام عليك على معنى الله تعالى عليك فيكون دعاء عليه وهو ضعيف ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ بيان للداعي للمتاركة والتوديع أي لا تطلب صحبة الجاهلين ولا نريد مخالطتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(34/589)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) ﴾

عطف على جملة ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ [القصص : 47] الآية ، وما عطف عليها من قوله ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما

أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] .

والتوصيل : مبالغة في الوصل ، وهو ضم بعض الشيء إلى بعض يقال : وصل الحبل إذا ضم قطعه بعضها إلى بعض فصار حبلاً .

والقول مراد به القرآن قال تعالى ﴿ إنه لقول فصل ﴾ [الطارق : 13] وقال ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ [الحاقة : 40] ، فالتعريف للعهد ، أي القول المعهود .

وللتوصيل أحوال كثيرة فهو باعتبار ألفاظه وصل بعضه ببعض ولم ينزل جملة واحدة ، وباعتبار معانيه وصل أصنافاً من الكلام : وعداً ، ووعيداً ، وترغيباً ، وترهيباً ، وقصصاً ومواعظ وعبراً ، ونصائح يعقب بعضها بعضاً وينتقل من فن إلى فن وفي كل ذلك عون على نشاط الذهن للتذكر والتدبر .

واللام و (قد) كلاهما للتأكيد رداً عليه إذ جهلوا حكمة تنجيم نزول القرآن وذُكرت لهم حكمة تنجيمه هنا بما يرجع إلى فائدتهم بقوله ﴿ لعلهم يذَّكَرون= ﴾ .

وذكر في آية سورة [الفرقان : 32] حكمة أخرى راجعة إلى فائدة الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنُثبِّت به فؤادك ﴾ وفهم من ذلك أنهم لم يتذكروا .

وضمير ﴿ لهم ﴾ عائد إلى المشركين .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52)

لّما أفهم قوله ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ [القصص : 51] أنهم لم يفعلوا ولم يكونوا عند رجاء الراجي عقب ذلك بهذه الجملة المستأنفة استئنافاً بيانياً لأنها جواب لسؤال من يسأل هل تذكر غيرهم بالقرآن أو استوى الناس في عدم التذكر به .

فأجيب بأن الذين أوتوا الكتاب من قبل نزول القرآن يؤمنون به إيماناً ثابتاً .

(35/589)

والمراد بالذين أوتوا الكتاب طائفة معهودة من أهل الكتاب شهد الله لهم بأنهم يؤمنون بالقرآن ويتدبرونه وهم بعض النصارى ممن كان بمكة مثل ورقة بن نوفل ، وصهيب ، وبعض يهود المدينة مثل عبد الله بن سلام ورفاعة بن رفاعة القرظي ممن بلغته دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يهاجر النبي إلى المدينة فلما هاجر أظهروا إسلامهم .

وقيل : أريد بهم وفد من نصارى الحبشة اثنا عشر رجلاً بعثهم النجاشي لاستعلام أمر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فجلسوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا به وكان أبو جهل وأصحابه قريباً منهم يسمعون إلى ما يقولون فلما قاموا من عند النبي صلى الله عليه وسلم تبعهم أبو جهل ومن معه فقال لهم : خيَّبكم الله من ركب وقبحكم من وفد لم تلبثوا أن صدقتموه ، فقالوا : سلام عليكم لم نأل أنفسنا رشداً لنا أعمالنا ولكم أعمالكم .

وبه ظهر أنهم لما رجعوا أسلم النجاشي وقد أسلم بعض نصارى الحبشة لما وفد إليهم أهل الهجرة إلى الحبشة وقرأوا عليهم القرآن وأفهموهم الدين .

وضمير ﴿ من قبله ﴾ عائد إلى القول من ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ [القصص : 51] ، وهو القرآن .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في ﴿ هم به يؤمنون ﴾ لتقوي الخبر .

وضمير الفصل مقيد للقصر الإضافي ، أي هم يوقنون بخلاف هؤلاء الذين وصلنا لهم القول .

ومجيء المسند مضارعاً للدلالة على استمرار إيمانهم وتجدده .

وحكاية إيمانهم بالمضي في قوله ﴿ آمنا به ﴾ مع أنهم يقولون ذلك عند أول سماعهم القرآن : إما لأن المضي مستعمل في إنشاء الإيمان مثل استعماله في صيغ العقود ، وإما للإشارة إلى أنهم آمنوا به من قبل نزوله ، أي آمنوا بأنه سيجيء رسول بكتاب مصدق لما بين يديه ، يعني إيماناً إجمالياً يعقبه إيمان تفصيلي عند سماع آياته .

وينظر إلى هذا المعنى قوله ﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ ، أي مصدقين بمجيء رسول الإسلام .

ويجوز أن يراد بـ ﴿ مسلمين ﴾ موحدين مصدقين بالرسل فإن التوحيد هو الإسلام كما قال إبراهيم ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : 132] .

وجملة ﴿ إنه الحق من ربنا ﴾ في موقع التعليل لجملة ﴿ آمنا به ﴾ .

وجملة ﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ بيان لمعنى ﴿ آمنا به ﴾ .

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54)

التعبير عنهم باسم الإشارة هنا للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيذكر بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي ذكرت قبل اسم الإشارة مثل ما تقدم في قوله ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ في سورة [البقرة : 5] .

عَدَّ الله لهم سبع خصال من خصال أهل الكمال:

إحداها : أخروية ، وهي ﴿ يؤتون أجرهم مرتين ﴾ أي أنهم يؤتون أجرين على إيمانهم ، أي يضاعف لهم الثواب لأجل أنهم آمنوا بكتابهم من قبل ثم آمنوا بالقرآن ، فعبر عن مضاعفة الأجر ضعفين بالمرتين تشبيهاً للمضاعفة بتكرير الإيتاء وإنما هو إيتاء واحد .

وفائدة هذا المجاز إظهار العناية حتى كأن المثيب يعطي ثم يكرر عطاءه ففي ﴿ يؤتون أجرهم مرتين ﴾ تمثيلة .

وفي الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيئه وأدركني فآمن بي واتبعني وصدقني فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده فله أجران ، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران " رواه الشعبي وقال لعطاء الخراساني : خذه بغير شيء فقد كان الرجل يرحل فيما دون هذا إلى المدينة .

والثانية : الصبر ، والصبر من أعظم خصال البر وأجمعها للمبرات ، وأعونها على الزيادة والمراد بالصبر صبرهم على أذى أهل ملتهم أو صبرهم على أذى قريش ، وهذا يتحقق في مثل الوفد الحبشي .

(37/589)

ولعلهم المراد من هذه الآية ولذلك أتبع بقوله ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ وقوله ﴿ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ﴾ .

والخصلة الثالثة : درؤهم السيئة بالحسنة وهي من أعظم خصال الخير وأدعاها إلى حسن المعاشرة قال تعالى ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي

بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ [فصلت : 34] ، فيحصل بذلك فائدة دفع مضرة المسيء عن النفس ، وإسداء الخير إلى نفس أخرى ، فهم لم يردوا جلافة أبي جهل بمثلها ولكن بالإعراض مع كلمة حسنة وهي ﴿ سلام عليكم ﴾ .

وأما الإنفاق فلعلهم كانوا ينفقون على فقراء المسلمين بمكة ، وهو الخصلة الرابعة ولا يخفى مكانها من البر .

والخصلة الخامسة : الإعراض عن اللغو ، وهو الكلام العبث الذي لا فائدة فيه ، وهذا الخلق من مظاهر الحكمة ، إذ لا ينبغي للعاقل أن يشغل سمعه ولُبّه بما لا جدوى له وبالأولى يتنزه عن أن يصدر منه ذلك .

والخصلة السادسة : الكلام الفصل وهو قولهم ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ﴾ وهذا من أحسن ما يجاب به السفهاء وهو أقرب لإصلاحهم وأسلم من تزايد سفههم .

ولقد أنطقهم الله بحكمة جعلها مستأهلة لأن تُنظم في سلك الإعجاز فألهمهم تلك الكلمات ثم شرّفها بأن حيكت في نسج القرآن ، كما ألهم عمر قوله

﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ [التحريم : 5] الآية .

ومعنى ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أن أعمالنا مستحقة لنا كناية عن ملازمتهم إياها وأما قولهم ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ فهو تتميم على حد ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ [الكافرون : 6] .

والمقصود من السلام أنه سلام المتاركة المكنى بها عن الموادعة أن لا نعود لمخاطبتكم قال الحسن : كلمة : السلام عليكم ، تحية بين المؤمنين ، وعلامة الاحتمال من الجاهلين .

(38/589)

ولعل القرآن غير مقالتهم بالتقديم والتأخير لتكون مشتملة على الخصوصية المناسبة للإعجاز لأن تأخير الكلام الذي فيه المتاركة إلى آخر الخطاب أولى ليكون فيه براعة المقطع .

وحذف القرآن قولهم : لم نأل أنفسنا رشداً ، للاستغناء عنه بقولهم ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ .

السابعة : ما أفصح عنه قولهم ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ من أن ذلك خلقهم أنهم يتطلبون العلم ومكارم الأخلاق .

والجملة تعليل للمتاركة ، أي لأنا لا نحب مخالطة أهل الجهالة بالله وبدين الحق وأهل خُلق الجهل الذي هو ضد الحلم ، فاستعمل الجهل في معنييه المشترك فيها ولعله تعريض بكنية أبي جهل الذي بذا عليهم بلسانه .

والظاهر أن هذه الكلمة يقولونها بين أنفسهم ولم يجهروا بها لأبي جهل وأصحابه بقرينة قوله

﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ وقوله ﴿ سلام عليكم ﴾ وبذلك يكون القول المحكي قولين : قول وجهوه لأبي جهل وصحبه ، وقول دار بين أهل الوفد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(39/589)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) ﴾

كلمة ﴿ وَصَّلْنَا . . ﴾ [القصص : 51] تُشعر بأشياء ، انفصل بعضها عن بعض ، ونريد أنْ نُوصّلها ، فقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : 51] أي : وصَّلنا لهم الرسالات ، فكلما انقضى عهد رسول وكفر الناس أتاهم الله برسالة أخرى ليظلَّ الخَلْق مُتصِلين بهدي الخالق وبمنهجه ، أو : أن الأمر خاصٌّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى وصَّلنا له الآيات ، فكلما نزل عليه نجم من القرآن وصَّلنا بنجم آخر حسب الأحداث .

لذلك كانت هذه المسألة من الشبهات التي أثارها خصوم رسول الله ، حين قالوا كما حكى عنهم القرآن ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً . . . ﴾ [الفرقان :

32] فردَّ عليهم القرآن ليبين لهم حكمة نزوله مُنجَّماً : ﴿ كَذَلِكَ . . . ﴾ [الفرقان : 32] أي : أنزلناه كذلك مُنجَّماً ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : 32]

.

فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان التثبيت لرسول الله مرة واحدة ، وهو محتاج إلى تثبيت مستمر مع الأحداث التي سيتعرَّض لها ، فيوصل الله له الآيات ليظل على ذِكْر من سماع كلام ربه كلما اشتدتْ به الأحداث ، فيأتيه النجم من القرآن لِيُسلِّيه ، ويُسرِّي عنه ما يلاقي من خصومه .

وحكمة أخرى في قوله : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان : 32] فكلما نزل قِسْط من القرآن سَهُلَ عليهم حفظه وترتيبه والعمل به ، كما أن المؤمنين المأمورين بهذا المنهج ستستجد عليهم قضايا ، وسوف يسألون فيها رسول الله ، فكيف سيكون الجواب عليها إنْ نزل القرآن جملة واحدة .

(40/589)

لا بُدَّ أن يتأخر الجواب إلى أنْ يطرأ السؤال ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [الفرقان : 33] .

وقد ورد الفعل يسألونك في القرآن عدة مرات في سور شتى ، فكيف تتأتى لنا الإجابة لو جاء القرآن كما تقولون جملة واحدة ، ثم سبحان الله هل اطقتموه مُنجمّاً حتى تطلبوه جملة واحدة ؟

ثم تختم الآية بحكمة أخرى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : 51] فكلما نزل نجم من القرآن ذكَّرهم بما غفلوا عنه من منهج الله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ . . . ﴾ .

كأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : سأجعل خصومك من أهل الكتاب هم الذين يشهدون بصِدْقك ؛ لأنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وما جاء في كتابك ذُكِرَ في كتبهم وذُكِرت صورتك وأوصافك عندهم .

لذلك تجد آيات كثيرة من كتاب الله تُعوِّل على أهل الكتاب في معرفة الحق الذي جاء به القرآن ، يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الذين كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ [الرعد : 43] .

فهم أيضاً شهداء على صدق رسول الله بما عندهم من الكتب السابقة فاسألوهم .

ويقول تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا * والآخرة خَيْرٌ وأبقى * إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ﴾ [الأعلى : 16-19] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ

خَاشِعِينَ لِلَّهِ . . . ﴾ [آل عمران : 199] .

وإلا ، فلماذا أسلم عبد الله بن سلام وغيره من علماء اليهود ؟

(41/589)

إذن : أهل الكتاب الصادقون مع أنفسهم ومع كتبهم لا بُدَّ أنْ يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الذين لم يؤمنوا فحجبتهم السلطة الزمنية والحرص على السيادة التي كانت لهم قبل الإسلام ، سيادةً في العلم ، وفي الحرب ، وفي الثروة .

وكان من هؤلاء عبد الله بن أُبَيٍّ ، وكان أهل المدينة يستعدون لتنصيبه مَلِكاً عليهم ، فلما هاجر سيدنا رسول الله إليها أفسد عليهم ما يريدون ، ونزع منهم هذه السيادة ، والسلطة الزمنية حينما تتدخل تعني أن يشترك هوى الناس فيستخدمون مرادات الله لخدمة أهوائهم ، لا لخدمة مرادات الله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ . . . ﴾ .

هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب إذا يُتْلَى عليهم القرآن قالوا : آمنا به ، وشَهِدوا له أنه الحق من عند الله ، وأنهم لم يزدادوا بسماع آياته إيماناً ، فهم كانوا من قبله مسلمين ، فقد آمنوا أولاً بكتبهم ، وآمنوا كذلك بالقرآن .

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54)

الحق – سبحانه وتعالى – يريد أنْ يُعلِّمنا أن الذي يريد ديناً حقاً لا بُدَّ أن ينظر إلى دين يأتي بعده بمعجزة ، لأنه إذا كان قد آمن حين يجيء بعد عيسى رسول ، فوجب عليه أنْ يبحث في الدين الجديد ، وأنْ ينظر أدلة تبرر له إيمانه بهذا الدين .

هذا إذا كان الدين الأول لم يتبدَّل ، فإذا كان الدين الأول قد تبدَّل ، فالمسألة واضحة ؛ لأن التبديل يُحدث فجوة عند مَنْ يريد ديناً ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة . . . ﴾ [الأعراف : 157] .

آمنوا به ؛ لأنهم وجدوا نَعْته ، ووجدوا العقائد التي لا تتغير موجودة في كتابه ، وهو أُميٌّ لم يعرف شيئاً من هذا ، فأخذوا من أميته دليلاً على صِدْقه .

(42/589)

فقوله تعالى : ﴿ أولئك . . . ﴾ [القصص : 54] أي : أهل الكتاب الذين يؤمنون بالقرآن وهم خاشعون لله ، والذين سبق وصفهم ﴿ أولئك يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ . . . ﴾ [القصص : 54] أجر لإيمانهم برسلهم ، وأجر لإيمانهم بمحمد صلى

الله عليه وسلم .

لذلك جاء في الحديث الشريف : " ثلاثة يُؤْتَوْن أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه مثل آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وأدى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَة – جارية – فأدَّبها فأحسن تأديبها ، فأعتقها بعد ذلك ، ثم تزوجها " .

وهؤلاء الذين آمنوا برسلهم ، ثم آمنوا برسول الله استحقوا هذه المنزلة ، ونالوا هذين الأجرين لأنهم تعرضوا للإيذاء ممَّنْ لم يؤمن في الإيمان الأول ، ثم تعرَّضوا للإيذاء في الإيمان الثاني ، فصبروا على الإيذاءين ، وهذه هي حيثية ﴿ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ . . . ﴾ [القصص : 54] .

وكما أن الله تعالى يُؤتي أهلَ الكتاب الذين آمنوا بمحمد أجرهم مرتين ، كذلك يُؤتي بعض المسلمين أجرهم مرتين ، ومنهم – كما بيَّن سيدنا رسول الله : " عبد مملوك أدى حق الله ، وأدَّى حق أوليائه ، ورجل عنده أَمَةٌ . . . " .

ولا يُحرم هذا الأجر الدين الذي باشر الإسلام ، وأتى قبله ، وهو المسيحية ، فلهم ذلك أيضاً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ . . . ﴾ [الحديد : 25] وأهم هذه المنافع ﴿ وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بالغيب . . . ﴾ [الحديد : 25] وذكر الحديد ، لأن منه سيصنع سلاح الحرب .

إذن : أنزل الله القرآن لمهمة ، وأنزل الحديد لمهمة أخرى ؛ لذلك يقول الشاعر :

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْي أَوْحَدٌ مُرْهَف . . . يُقيم ظباه أَخْدعَيْ كلِّ مائلٍ

(43/589)

فَهَذا دَوَاءُ الدَّاء من كُلِّ عَاقِلٍ . . . وذَاك دَوَاءُ الدَّاءِ من كُلِّ جاهل

ولي أنا شخصياً ذكريات ومواقف مع هذه الآية ﴿ أولئك يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ . . . ﴾ [القصص : 54] وقد كنا في بلد بها بعض من إخواننا المسيحيين ، وكان من بينهم رجل ذو عقل وفكر ، كان دائماً يُواسي المسلمين ، ويحضر مآتمهم ويستمع للقرآن ، وكانت تعلَق بذهنه بعض الآيات ، فجاءني مرة يقول : سمعت المقريء يقرأ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : 107] .

فألسنا من العالمين ، قلت له : نعم أُرسِل محمد رحمة للعالمين جميعاً ، فمَنْ آمن به نالته رحمته ، ومَنْ لم يؤمن به حُرِم منها ، ومع ذلك لو نظرتَ في القرآن نظرة إمعانٍ وتبصُّر تجد أنه رحِم غير المؤمن ، قال : كيف ؟ فقرأتُ له قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس . . . ﴾ [النساء : 105] ولم يقل بين المؤمنين ﴿ بِمَا أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] .

فمن رحمة الرسول بغير المؤمنين أنْ يُنصف المظلوم منهم ، وأنْ يردَّ عليه حقَّه ، ثم ﴿ واستغفر الله إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 106] لأن الله لا يحب الخوّان الأثيم ولو كان مسلماً .

ثم ذكرتُ له سبب نزول هذه الآية وهي قصة الدرع الذي أودعه اليهودي زيد بن السمين أمانة عند طعمة بن أبيرق المسلم ، وكان الدرع قد سُرِق من قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة ذهب يبحث عنه ، وكان قد وضعه في كيس من الدقيق ، فتتبع أثر الدقيق حتى ذهب إلى بيت زيد بن السمين اليهودي فاتهمه بسرقته ، وأذاع أمره بين الناس ، فقصَّ اليهودي ما كان من أمر طُعْمة بن أبيرق ، وأنه أودع الدرع عنده على سبيل الأمانة ؛ لأنه يخشى عليه أنْ يُسرق من بيته .

(44/589)

وهنا أحب المسلمون تبرئة صاحبهم ؛ لأنه حديث عهد بإسلام ، وكيف ستكون صورتهم لو شاع بين الناس أن أحدهم يسرق ، ومالوا إلى إدانة اليهودي ، وفعلاً عرضوا وجهة نظرهم هذه على رسول الله ليرى فيه حلاً يُخرجه من هذا المأزق ، مع أنهم لا يستبعدون أنْ يسرق ابن أبيرق .

وجلس رسول الله يفكر في هذا الأمر ، لكن سرعان ما نزل عليه الوحي ، فيقول له : هذه المسألة لا تحتاج إلى تفكير ولا بحث : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] .

فأدانت الآية ابن أبيرق ، ودلَّتْ على أن هذه ليست الحادثة الأولى في حقّه ، ووصفتْه بأنه خوّان أي : كثير الخيانة وبرّأتْ اليهودي ، وصححتْ وجهة نظر المسلمين الذين يخافون من فضيحة المسلم بالسرقة ، وغفلوا عن الأثر السيء لو قلبوا الحقائق ، وأدانوا اليهودي .

فالآية وإنْ أدانت المسلم ، إلا أنها رفعتْ شأن الإسلام في نظر الجميع : المسلم واليهودي وكل من عاصر هذه القصة بل وكل من قرأ هذه الآية ، ولو انحاز رسول الله وتعصَّب للمسلم لاهتزتْ صورة الإسلام في نظر الجميع . ولو حدث هذا ماذا سيكون موقف اليهود الذين يراودهم الإسلام ، وقد أسلموا فعلاً بعد ما حدث ؟

وما أشبهَ هذه المسألة بشاهد الزور الذي يسقط أول ما يسقط من نظر صاحبه الذي شهد لصالحه ، حتى قالوا : مَنْ جعلك موضعاً للنقيصة فقد سقطت من نظره ، وإنْ أعَنْتَه على أمره ، فشاهد الزور يرتفع رأسُك على الخصم بشهادته ، وتطأ قدمُك على كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة . . . ﴾ [القصص : 54] هذه أيضاً من خصالهم أن يدفعوا السيئة بالحسنة ، فمن صفاتهم العفو والصفح كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [القصص : 54] النفقة الواجبة على نفسه وعلى آله ، والنفقة الواجبة للفقراء وهي الزكاة ، ثم نفقة المروءات للمساكين وأهل الخصاصة .

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (55)

هذه صفة أخرى من صفات المؤمنين ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ . . . ﴾ [القصص : 55] واللغو : هو الكلام الذي لا فائدة منه ، فلا ينفعك إنْ سمعتَه ، ولا يضرك عدم سماعه ، وينبغي على العاقل أنْ يتركه ، فهو حقيق أنْ يُترك وأنْ يُلْغى .

ولذلك كان من صفات عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] أي : لا يلتفتون إليه .

وسبب نزول هذه الآية : لما استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم رُسُل النجاشي وكانوا جماعة من القساوسة ، فلما جلسوا أسمعهم سورة (يس) ، فتأثروا لها حتى بكَوْا جميعاً ، ثم آمنوا برسول الله ، ولما انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم وقال : خيَّبكم الله

من رَكْب – وهم الجماعة يأتون في مهمة – أرسلكم من خلفي – يعني : النجاشي – لتعلموا له أخبار الرجل ، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتُم ، والله ما رأينا رَكْباً أحمق منكم ، فما كان منهم إلا أنْ أعرضوا عنه .

هذا معنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ . . . . ﴾ [القصص : 55] .

(46/589)

وهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام ، وأعرضوا عنه ، فلم يلتفتوا إليه ، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو إنما قالوا : ﴿ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ [القصص : 55] لنا أعمالنا الخيِّرة التي يجب أنْ نُقبل عليها ، ولكم أعمالكم الباطلة التي ينبغي أنْ تُترك ، فكلٌّ مِنَّا له شأْن يشغله .

﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ . . ﴾ [القصص : 55] والسلام إما سلام تحية كما هو شائع بيننا ، وإما سلام للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك في جدل ، فلما رأيتَ أنه سيطول وربما تعدَّيتَ عليه فتقول له تاركاً : سلام عليكم . تعني : إنني ليس لديَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة .

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – وبين عمّه ، فبعد أنْ ناقشه ولم يَصل معه إلى نتيجة قال له : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي . . . ﴾ [مريم : 47] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/589)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو القاسم البغوي في معجمه والباوردي وابن قانع الثلاثة في معاجم الصحابة والطبراني وابن مردويه بسند جيد عن رفاعة القرظي رضي الله عنه قال : نزلت ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ في عشرة رهط : انا أحدهم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ولقد وصلنا لهم ﴾ قال : لقريش ﴿ القول ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ قال : بَيَّنا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ قال : وصل الله لهم القول في هذا القرآن يخبرهم كيف يصنع بمن مضى ، وكيف صنعوا ، وكيف هو صانع .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي رفاعة رضي الله عنه قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب – منهم أبو رفاعة – إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا ، فأوذوا ، فنزلت ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ .

وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر عن علي بن رفاعة رضي الله عنه قال : كان أبي من الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ، وكانوا عشرة ، فلما جاؤوا جعل الناس يستهزئون بهم ، ويضحكون منهم ، فأنزل الله ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ قال : في مسلمة أهل الكتاب .

(48/589)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ قال : كنا نحدث أنها أنزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها ، وينتهون إليها ، حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وصبرهم على ذلك قال : وذكر لنا أن منهم سلمان ، وعبد الله بن سلام .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ قال : يعني من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب .

وأخرج ابن مردويه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : تداولتني الموالي حتى وقعت بيثرب ، فلما يكن في الأرض قوم أحب إلي من النصارى ، ولا دين أحب إلي من النصرانية ، لما رأيت من اجتهادهم ، فبينا أنا كذلك إذ قالوا : قد بعث في العرب نبي ، ثم قالوا : قدم المدينة فاتيته فجعلت أسأله عن النصارى قال : لا خير في النصارى ، ولا أحب النصارى قال : فاخبرته أن صاحبي قال : لو أدركته فأمرني أن أقع النار لوقعتها قال : وكنت قد استهترت بحب النصارى ، فحدثت نفسي بالهرب ، وقد جرد رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف ، فأتاني آتٍ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك فقلت : اذهب حتى أجيء وأنا أحدث نفسي بالهرب قال لي : لن افارقك حتى أذهب بك إليه ، فانطلقت به فلما رآني قال : يا سلمان قد أنزل الله عذرك ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من

قبله هم به يؤمنون ﴾ .

وأخرج الطبراني والخطيب في تاريخه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : أنا رجل من أهل رام هرمز ، كنا قوماً مجوساً ، فأتانا رجل نصراني من أهل الجزيرة ، فنزل فينا واتخذ فينا ديراً ، وكنت في كتاب في الفارسية ، وكان لا يزال غلام معي في الكتاب يجيء مضروباً يبكي قد ضربه أبواه .

(49/589)

فقلت له يوماً : ما يبكيك ؟ قال : يضربني أبواي قلت : ولم يضربانك ؟ قال : آتي صاحب هذا الدير ، فإذا علما ذلك ضرباني ، وأنت لو أتيته سمعت منه حديثاً عجيباً قلت : فاذهب بي معك ، فاتيناه فحدثنا عن بدء الخلق ، وعن بدء مغلق السموات والأرض ، وعن الجنة والنار . فحدثنا باحاديث عجب ، وكنت أختلف إليه معه ، ففطن لنا غلمان من الكتاب ، فجعلوا يجيئون معنا .

فلما رأى ذلك أهل القرية أتوه فقالوا : يا هذا إنك قد جاورتنا فلم نر من جوارك إلا الحسن ، وإننا لنا غلماننا يختلفون إليك ، ونحن نخاف أن تفسدهم علينا ، أخرج عنا قال : نعم .

فقال لذلك الغلام الذي كان يأتيه : اخرج معي . قال : لا أستطيع ذلك قد علمت شدة

أبوي علي قلت : لكنني أخرج معك ، وكنت يتيماً لا أب لي ، فخرجت معه فأخذنا جبل رام هرمز ، فجعلنا نمشي ونتوكل ونأكل من ثمر الشجر حتى قدمنا الجزيرة ، فقدمنا نصيبين فقال لي صاحبي : يا سلمان ان ههنا قوماً عباد الأرض ، وأنا أحب أن ألقاهم .

فجئنا إليهم يوم الأحد وقد اجتمعوا ، فسلم عليهم صاحبي فحيوه وبشوا به وقالوا : أين كان غيبتك ؟ قال : كنت في اخوان لي من قبل فارس ، فتحدثنا ما تحدثنا ثم قال لي صاحبي : قم يا سلمان انطلق قلت : لا ، دعني مع هؤلاء قال : إنك لا تطيق ما يطيق هؤلاء ، يصومون الأحد إلى الأحد ، ولا ينامون هذا الليل ، فإذا فيهم رجل من أبناء الملوك ترك الْمُلْكَ ودخل في العبادة ، فكنت فيهم حتى أمسينا ، فجعلوا يذهبون واحداً واحداً إلى غاره الذي يكون فيه ، فلما أمسينا قال : ذاك الذي من أبناء الملوك هذا الغلام ما تصنعونه ؟ ليأخذه رجل منكم فقالوا : خذه أنت .

(50/589)

فقال لي : قم يا سلمان فذهب بي حتى أتى غاره الذي يكون فيه فقال لي : يا سلمان هذا خبز ، وهذا أدم ، فكل إذ غرثت ، وصم إذا نشطت ، وصَلِ ما بدا لك ، ونم إذا كسلت ، ثم قام في صلاته فلم يكلمني ولم ينظر الي ، فأخذني الغم تلك السبعة الأيام لا يكلمني أحد ،

حتى كان الأحد فانصرف إلي ، فذهبت إلى مكانهم الذي كانوا يجتمعون ، وهم يجتمعون كل أحد يفطرون فيه ، فيلقى بعضهم بعضاً ، فيسلم بعضهم على بعض ، ثم لا يلتقون إلى مثله .

فرجعت إلى منزلنا فقال لي : مثل ما قال لي أول مرة : هذا خبز وهذا أدم فكل منه إذا غرثت ، وصم إذا نشطت ، وصلِّ ما بدا لك ، ونم إذا كسلت ، ثم دخل في صلاته فلم يلتفت إلي ولم يكلمني إلى الأحد الآخر ، فاخذني غم ، وحدثت نفسي بالفرار ، فقلت : اصبر أحدين أو ثلاثة ، فلما كان الأحد رجعنا إليهم ، فافطروا واجتمعوا فقال لهم : إني أريد بيت المقدس . فقالوا له : وما تريد إلى ذاك ؟ قال : لا عهد به قالوا : إنا نخاف أن يحدث بك حدث فيليك غيرنا ، وكنا نحب أن نليك قال : لا عهد به .

(51/589)

فلما سمعته يذكر ذاك فرحت قلت : نسافر ونلقى الناس فيذهب عني الغم الذي كنت أجد ، فخرجت أنا وهو وكان يصوم من الأحد إلى الأحد ، ويصلي الليل كله ، ويمشي بالنهار ، فإذا نزلنا قام يصلي . فلم يزل ذاك دأبه حتى نزلنا بيت المقدس ، وعلى الباب رجل مقعد يسأل الناس فقال : اعطني . فقال : ما معي شيء ، فدخلنا بيت المقدس ،

فلما رآه أهل بيت المقدس بشوا به واستبشروا به فقال لهم : غلامي هذا فاستوصوا به ، فانطلقوا بي فاطعموني خبزاً ولحماً ، ودخل في الصلاة فلم ينصرف إلي حتى كان يوم الأحد الآخر ، ثم انصرف فقال لي : يا سلمان إني أريد أن أضع رأسي ، فإذا بلغ الظل مكان كذا وكذا فايقظني . فبلغ الظل الذي قال فلم أوقظه رحمة له مما رأيت من اجتهاده ونصبه ، فاستيقظ مذعوراً فقال : يا سلمان ألم أكن قلت لك إذا بلغ الظل مكان كذا وكذا فأيقظني ؟ قلت : بلى . ولكن إنما منعني رحمة لك لما رأيت من دأبك قال : ويحك يا سلمان . . ! إني أكره أن يفوتني شيء من الدهر لم أعمل فيه لله خيراً .

ثم قال لي : يا سلمان اعلم أن أفضل ديننا اليوم النصرانية . قلت : ويكون بعد اليوم دين أفضل من النصرانية ؟ كلمة ألقيت على لساني . قال : نعم . يوشك أن يبعث نبي يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فإذا أدركته فاتبعه وصدقه قلت : وإن أمرني أن أدع النصرانية ؟ قال : نعم . فإنه نبي الله لا يأمر إلا بالحق ، ولا يقول إلا حقاً ، والله لو أدركته ثم أمرني أن أقع في النار لوقعتها .

ثم خرجنا من بيت المقدس ، فمررنا على ذلك المقعد فقال له : دخلت فلم تعطني وهذا تخرج فاعطني .

(52/589)

فالتفت فلم ير حوله أحداً قال : فاعطني يدك ، فأخذ بيده فقال : قم باذن الله . فقام صحيحاً سوياً ، فتوجه نحو أهله ، فاتبعته بصري تعجباً مما رأيت ، وخرج صاحبي فأسرع المشي ، وتبعته فتلقاني رفقة من كلب اعراب ، فسبوني فحملوني على بعير ، وشدوني وثاقاً فتداولني البياع حتى سقطت إلى المدينة ، فاشتراني رجل من الأنصار ، فجعلني في حائط له من نخل ، فكنت فيه ومن ثم تعلمت الخوص ، أشتري خوصاً بدرهم فاعلمه فابيعه بدرهمين ، فأرد درهماً إلى الخوص واستنفق درهماً أحب أن آكل من عمل يدي ، " فبلغنا ونحن بالمدينة أن رجلاً خرج بمكة يزعم أن الله أرسله ، فمكثنا ما شاء الله أن نمكث ، فهاجر إلينا وقدم علينا فقلت : والله لأجربنه فذهبت إلى السوق ، فاشتريت لحم جزور ثم طحنته ، فجعلت قصعة من ثريد ، فاحتملتها حتى أتيته بها على عاتقي حتى وضعتها بين يديه فقال : ما هذه . . أصدقة أم هدية ؟ قلت : بل صدقة فقال لأصحابه : كلوا بسم الله . وأمسك ولم يأكل ، فمكثت أيام ، ثم اشتريت لحماً أيضاً بدرهم ، فاصنع مثلها فاحتملتها حتى أتيته بها ، فوضعتها بين يديه فقال : ما هذه . . . صدقة أم هدية ؟ فقلت : بل هدية . فقال لأصحابه : كلوا بسم الله وأكل معهم . قلت : هذا – والله – يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، فرأيت بين كتفيه خاتم النبوّة مثل بيضة الحمامة ، فاسلمت . فقلت له ذات يوم : يا رسول الله أي قوم النصارى ؟ قال : لا خير فيهم ولا فيمن يحبهم قلت

في نفسي : أنا – والله – أحبهم . قال : وذاك حين بعث السرايا وجرد السيف . فسرية تخرج وسرية تدخل والسيف يقطر قلت : يحدث بي الآن أني أحبهم ، فيبعث إلي فيضرب عنقي ، فقعدت في البيت فجاءني الرسول ذات يوم فقال : يا سلمان أجب رسول الله قلت : هذا – والله – الذي كنت أحذر قلت : نعم . اذهب حتى ألحقك قال : لا والله حتى تجيء ، وأنا أحدث نفسي أن لو ذهب فأفر .

(53/589)

فانطلق بي حتى انتهيت إليه ، فلما رآني تبسم وقال لي : يا سلمان ابشر فقد فرج الله عنك ، ثم تلا على هؤلاء الآيات ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ إلى قوله ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ قلت : يا رسول الله – والذي بعثك بالحق – سمعته يقول : لو أدركته فأمرني أن أقع في النار لوقعتها ، إنه نبي لا يقول إلا حقاً ، ولا يأمر إلا بالحق " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ قال : " نزلت في عبد الله بن سلام لما أسلم أحب أن يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بعظمته في اليهود ، ومنزلته فيهم ، وقد ستر بينه وبينهم ستراً فكلمهم ودعاهم فأبوا فقال : أخبروني عن عبد الله بن سلام كيف هو فيكم ؟ قالوا : ذاك سيدنا وأعلمنا قال : أرأيتم

إن آمن بي وصدقني أتؤمنون بي وتصدقوني ؟ قالوا : لا يفعل ذاك . هو أفقه فينا من أن يدع دينه ويتبعك ، قال أرأيتم إن فعل ؟ قالوا : لا يفعل قال : أرأيتم إن فعل ؟ قالوا إذاً نفعل . . قال : أخرج يا عبد الله بن سلام فخرج فقال : أبسط يدك أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فبايعه ، فوقعوا به وشتموه وقالوا : والله ما فينا أحد أقل علماً منه ، ولا أجهل بكتاب الله منه قال : ألم تثنوا عليه آنفاً ؟ قالوا : انا استحينا أن تقول اغتبتم صاحبكم من خلفه . فجعلوه يشتمونه فقام إليه أمين بن يامين فقال : أشهد أن عبد الله بن سلام صادق ، فابسط يدك فبايعه ، فأنزل الله فيهم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ يعني إبراهيم واسمعيل وموسى وعيسى وتلك الأمم وكانوا على دين محمد صلى الله عليه وسلم " .

(54/589)

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنيس رضي الله عنه في قوله ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ قال : هؤلاء قوم كانوا في زمان الفترة متمسكين بالإِسلام ، مقيمين عليه ، صابرين على ما أوذوا ، حتى أدرك رجال منهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : لما أتى جعفر وأصحابه

النجاشي أنزلهم ، واحسن إليهم ، فلما أرادوا أن يرجعوا قال من آمن من أهل مملكته : ائذن لنا فلنصحب هؤلاء في البحر ، ونأتي هذا النبي فنحدث به عهداً ، فانطلقوا فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشهدوا معه أحداً وخيبر ولم يصب أحد منهم فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ائذن لنا فلنأت أرضنا فإن لنا أموالاً فنجيء بها فننفقها على المهاجرين ، فانا نرى بهم جهداً ، فأذن لهم فانطلقوا ، فجاؤوا بأموالهم فانفقوها على المهاجرين ، فأنزلت فيهم الآية ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

وأخرج ابن ابن أبي شيبة وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه قال : إن قوماً من المشركين أسلموا فكانوا يؤذونهم ، فنزلت هذه الآية فيهم ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه . . . ﴾ قال : أناس من أهل الكتاب أسلموا فكان أناس من اليهود إذا مروا عليهم سبوهم ، فأنزل الله هذه الآية فيهم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ قال : لا يجاورون أهل الجهل والباطل في باطلهم ، أتاهم من الله ما وقذهم عن ذلك .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأول والكتاب الآخر . ورجل كانت له أمة فأدبها وأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها . وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ، ونصح لسيده " .

وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أسلم من أهل الكتاب فله أجره مرتين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(56/589)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ وَصَّلْنَا ﴾ :

العامَّةُ على التشديد : إمَّا من الوصلِ ضدِّ القطع أي : تابَعْنا بعضَه ببعض . وأصلُه مِنْ

وَصْلِ الحَبْل . قال الشاعر :

3621 فَقُلْ لبني مروانَ ما بالُ ذِمَّتي . . . بحبلٍ ضعيفٍ لا يَزال يُوَصَّل

وإمَّا : جَعَلْناه أَوْصالاً ، أي : أنواعاً من المعاني . قاله مجاهد . والحسن قرأ بتخفيفِ الصاد . وهو قريبٌ مِمَّا تقدَّم .

قوله : ﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ ﴾ : مبتدأٌ ، و " هم " مبتدأ ثانٍ ، و " يؤْمِنون " خبرُه . والجملةُ خبرُ الأولِ و " به " متعلِّقٌ ب " يُؤْمِنون " . وقد يُعَكِّر على الزمخشريِّ وغيرِه مِنْ أهل البيانِ حيث قالوا : التقديمُ يُفيد الاختصاصَ وهنا لا يتأَتَّى ذلك ، لأنهم لو خَصُّوا إيمانَهم بهذا الكتابِ فقط لَزِمَ كفرُهم بما عَداه ، وهو عكسُ المرادِ ، وقد أبدى أهلُ البيانِ هذا في قوله : ﴿ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك : 29] فقالوا : لو قَدَّم " به " لأَوْهَمَ الاختصاصَ بالإيمان بالله وحدَه دونَ ملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخر ، وهذا بعينِه جارٍ هنا . والجوابُ : أنَّ الإيمانَ بغيرِه معلومٌ فانصَبَّ الغرضُ إلى الإيمانِ بهذا .

أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (54)

قوله : ﴿ مَّرَّتَيْنِ ﴾ : منصوبٌ على المصدرِ . و ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ " ما " مصدريةٌ . والباءُ تتعلَّق ب " يُؤْتَوْن " أو بنفسِ الأَجْر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 685 ﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى وصل)

وصلَ الشَّىْءَ بغَيْرِه فاتَّصَلَ .

ووَصَّلَ الحِبالَ وغيرها تَوْصِيلاً : وَصَلَ بعضَها ببَعْضٍ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ أَى أَكْثَرْنا لهم القَوْلَ موصولاً بعضُه ببعضٍ .

وخَيْطٌ مُوَصَّلٌ : فيه وَصْلٌ كثيرٌ .

وغُصْنٌ مُوَصَّلٌ : فيه غُصْنٌ غَرِيبٌ ، قال :

*وإذا ما نَكَحْت فانْكح غَرِيباً * ومن الأَقْرَبِين لا يَتَوَصَّلْ*

*فالَّذُ الثِّمار حُسْناً وطِيباً * ثَمرٌ غُصْنُه غَرِيبٌ مُوَصَّلْ*

ووَصْلَنِى بعد الهَجْر وواصَلَنِى ، وصَرَمَنى بعد الوَصْل والصِّلة والوِصال .

ووَصَلَت شَعْرَها بشَعر آخر ، "ولَعَنَ اللهُ الواصِلةَ والمستوصِلَةَ" .

وقطع اللهُ أَوْصالَه ، أَى مَفاصِلَه .

والوَصْل يكون فى الأَعْيان وفى المَعانِى قال الله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ ﴾ أَى يَنْتَسِبُون ، يقال : فلانٌ مُتَّصِلٌ بفلان : إذا كان بيْنَهما نِسْبة أَو مُصاهرة .

وقولُه تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ ﴾ قيل هى التى وَصَلَت أَخالها من أَولاد الغنم فلم تُذْبَح .

كان إذا وَلَدَت لهم شاةٌ ذَكَراً وأُنْثَى قالوا وَصَلَتْ أَخاها .

وقيل : الوَصِيلة : الناقةُ التَّى وَصَلَتْ بين عشرة أَبْطُن ، ومن الشاءِ التَّى وَلَدَت سبعَة أَبْطُن عَناقَيْن عناقَيْن ، فإن ولدت فى السَّابعة عَناقاً وجَدْياً قيل : وصلت أَخاها فلا يَشْرَب لَبَنَ الأُمّ إلاَّ الرّجالُ دون النّساءِ ، ويجرى مجرى السّائبَةِ .

وقيل : الوَصِيلَةُ خاصّة بالغَنَم ، كانت الشّاةُ إذا ولدت الأُنْثَى فهى لهم ، وإذا وَلَدَت ذكراً جعلوه لآلِهَتهم ، فإن ولدت ذكراً وأُنْثى قالوا : وصلت أَخاها فلم يَذْبَحُوا الذَكَر لآلهتهم .

(58/589)

وقيل : الوصيلةُ : شاةٌ وَلَدت ذكراً ثم ولدت أُنْثَى ، فتصل أَخاها فلا يذبحون أَخاها من أَجْلِها ،

فإذا ولدت ذكراً قالوا هذا قُرْبانٌ لآلهتنا .

وَوَصِيلُك : من يَدْخُلُ مَعَكَ ويَخْرُجُ معك .

والاتّصال ضدّ الانفصال ، وهو عند العارفين على ثلاث مراتب :

اتصال العلم والعمل ، واتصال الحال والمعرفة ، واتصال الوِجْدانِ والوُجود ، وهو أَنْ يَجِدَ العبدُ رَبَّه بعد أَن كان فاقداً ، فهو بمنزلة من كان يطلُب كَنْزاً ولا وُصُول له إليه فظفر به بعد ذلك ووَجَدَه واستَغْنَى به غايةَ الغِنى ، فهذا اتّصال الوجود ، كما فى الأَثر : "اطْلُبْنى تَجِدْنى ، فإِنّ وَجَدْتَنِى وَجَدْت كُلَّ شَىْءٍ ، وإِنْ فُتُّكَ فاتَكَ كلُّ شَىء" .

وهذا الوُجود من العبد لِرَبّه يتنوّع بحسب حال العبد ومَقامه ، فالتائب الصّادق فى تَوْبته إذا تاب إليه وَجَد غفوراً رحيماً ، والمتوكّل إذا صَدَقَ فى تَوَكُّله وَجَده كَافِياً حسيباً ، والدّاعِى إذا صَدَقَ فى الرَّغْبة إليه وَجَده قريباً مُجيباً ، والمحبّ إذا صَدَقَ فى مَحَبَّتِهِ وَجَده وَدُوداً حبيباً ، والملهوف إذا صَدَقَ فى الاستِعانة وَجَده كَاشِفاً للكرْب مُخَلِّصاً منه ، والمضطرُّ إذا صَدَقَ فى الاضْطِرار إليه وَجَده رَحِيماً مُعِيناً ، والخائفُ إذا صَدَقَ فى اللَّجإِ إليه وَجَده مُؤَمِّناً من الخوف ، والراجى / إذا صَدَقَ فى رَجائه وَجَده عند ظَنّه به ؛ فمُحِبُّه وطالِبُه ومريدُه ومن لا يَبْتَغِى به بَدَلاً ولا يرضَى بسِواهُ عِوَضاً إذا صَدَقَ فى محبّته

وإرادتِه وجَده أَيضاً وُجُوداً أَخصّ من تلك الوجودات ، فإِنَّه إذا كان المُريدُ منه يَجدهُ فكيف مُرِيدُه ومُحِبُّه ! فيظفر هذا الواجدُ بنَفْسِه وبرَبّه ، أَمَّا ظَفَرُهُ بنَفْسه فتَصِير مُنقادةً له ، مطيعةً تابعةً مَرْضاتِه ، غيرَ أَبِيَّةٍ ولا أَمَّارة ، بل تَصِير خادمةً له ومملوكةً بعد أَنْ كانت مخدومةً مالكةً .

(59/589)

وأَمّا ظَفَرُه بربّهِ فقُرْبُه منه وأُنْسُه به ، وعِمارَةُ سِرِّه به ، وفَرَحُهُ وسُرُورُه أَعظم فَرَح وسرور .

فهذا

حقيقة اتصال الوُجود .

وأَمّا اتصالُ العِلْمِ والعملِ قد يُسَمُّونَه اتَّصال الاعْتِصام ، فهو بتصحيح القَصْ ، ثمَّ تصفيته الإِرادة ، ثم تحقيق الحال .

وتصحيح القصد يكون بشيئين : إِفرادُ المقصود ، وجمعُ الهمّ عليه ؛ وحقيقته توحيدُ القصد والمقصود ، فمتى انْقسم قصده أَو مقصوده لم يكن اتّصاله صحيحاً .

وأَمّا تصفية الإِرادة فهو تخليصُها من الشوائب وتعلُّقِها بالسّوى أَو بالأَعْراض ، بل قيل هى

التى وَصَلَت أَخاها من أَولاد الغنم فلم تُذْبَح .

كان إذا وَلَدَت لهم شاةٌ ذَكَراً وأُنْثى قالوا وَصَلَتْ أَخاها .

وقيل : الوَصِيلة : الناقةُ التَّى وَصَلَتْ بين عشرة .

أَبْطُن ، ومن الشاءِ الَّتى وَلَدَت سبعة أَبْطُن عَناقَيْن عناقَيْن ، فإن ولدت فى السّابعة عَناقاً وجَدْياً قيل : وصلت أَخاها فلا يَشْرَب لَبَنَ الأُمِّ إلاَّ الرّجالُ دون النّساءِ ، ويجرى مجرى السّائبَةِ .

وقيل : الوَصِيلَةُ خاصّة بالغَنَم ، كانت الشّاةُ إذا ولدت الأُنْثَى فهى لهم ، وإذا وَلَدَت الأُنْثَى فهى لهم ، وإذا وَلَدَت ذكراً جعلوه لآلِهَتِهم ، فإن ولدت ذكراً وأُنْثى قالوا : وصلت أَخاها فلم يَذْبَحُوا الذَكَرَ لآلهتهم .

وقيل : الوصلةُ : شاةٌ وَلَدت ذكراً ثم ولدت أُنْثَى ، فتصل أَخاها فلا يذبحون أَخاها من أَجْلِها ، فإذا ولدت ذكراً قالوا هذا قُرْبانٌ لآلهتنا .

وَوَصِيلُك : من يَدْخُلُ مَعَكَ ويَخْرُجُ معك .

والاتِّصال ضدّ الانفصال ، وهو عند العارفين على ثلاث مراتب :

اتصال العلم والعمل ، واتصال الحال والمعرفة ، واتصال الوِجْدانِ والوُجود ، وهو أَنْ يَجِدَ العبدُ رَبَّه بعد أَنْ كان فاقداً ، فهو بمنزلة من كان يطلُب كَنْزاً ولا وُصُول له إليه فظفر به بعد ذلك ووَجَدَه واستَغْنَى به غايةَ الغِنى ، فهذا اتّصال الوجود ، كما فى الأَثر : "اطْلُبْنى تَجِدْنى ، فإِنْ وَجَدْتَنِى وَجَدْت كُلَّ شَىْءٍ ، وإِنْ فُتُّكَ فاتَكَ كلُّ شَىء" .

وهذا الوُجود من العبد

لِرَبِّهِ يتنوّع بحسب حال العبد ومَقامه ، فالتّائب الصّادق فى تَوْبته إذا تاب إليه وَجَده غفوراً رحيماً ، والمتوكّل إذا صَدَقَ فى تَوَكُّله وَجَده كافِياً حسيباً ، والدّاعِى إذا صَدَقَ فى الرَّغْبة إليه وَجَده قرِيباً مُجيباً ، والمحبّ إذا صَدَقَ فى مَحَبَّتِهِ وَجَده وَدُوداً حبيباً ، والملهوف إذا صَدَقَ فى الاستِعانة وَجَده كَاشِفاً للكرْب مُخَلِّصاً منه ، والمضطرُّ إذا صَدَقَ فى الاستِعانة إليه وَجَده رَحِيماً مُعِيناً ، والخائفُ إذا صَدَقَ فى اللَّجَإِ إليه وَجَده مُؤَمِّناً من الخوف ، والراجي/ إذا صَدَقَ فى رَجائه وَجَده عند ظَنّه ؛ فمُحِبُّه وطالِبُه ومريدُه ومن لا يبْتَغِى سبه بَدَلاً ولا يرضَى بسِواهُ عِوَضاً إذا صَدَقَ فى محبّته وإرادتِه وجَده أَيضاً وُجُوداً أَخصّ من تلك الوجودات ، فإِنَّه إذا كان المُريدُ منه يَجدُه فكيف مُرِيدُه ومُحِبُّه ! فيظفر هذا الواجدُ بنَفْسِه وبرَبِّه ، أَمَّا ظَفَرُهُ بنَفْسه فتَصِير مُنقادةً له ، مطيعةً تابعةً مَرْضاتِه ، غيرَ أَبِيَّةٍ ولا أَمَّارة ، بل تَصِير خادمةً له ومملوكةً بعد أَنْ كانت مخدومة مالكةً .

وأَمّا ظَفَرُه بربّهِ فقُرْبُه منه وأُنْسُه به ، وعِمارَةُ سِرِّه به ، وفَرَحُهُ وسُرُورُه أَعظم فَرَح

وسرور .

فهذا حقيقة اتصال الوُجود .

وأَمّا اتصالُ العِلْمِ والعملِ قد يُسَمُّونَه اتَّصال الاعْتِصام ، فهو بتصحيح القَصْد ، ثمَّ تصفيته الإِرادة ، ثم تحقيق الحال .

(61/589)

وتصحيح القصد يكون بشيئين : إِفرادُ المقصود ، وجمعُ الهمّ عليه ؛ وحقيقته توحيدُ القصد والمقصود ، فمتى انْقسم قصده أَو مقصوده لم يكن اتّصاله صحيحاً .

وأَمّا تصفية الإِرادة فو تخليصُها من الشوائب وتعلُّقِها بالسّوى أَو بالأَعْراض ، بل تكون إِرادةً صافية عن ذلك كله ، بحيث يكون تعلُّقه بالله وبمراده الدّينىّ الشرعىّ .

ثم تحقيق الحال بأَن يكون له حالٌ محقَّق لا يكتفى بمجرّد العِلْم حتَّى يصحبَهُ العملُ ، ولا لمجرّد العملِ حتى تصحبَه الحالُ ، فتصير الإِرادة والمحبَّةُ والإِنابةُ والتوكُّلُ وحقائقُ الإِيمان حالاً لقلبه ، بحيث لو انقطعت جوارحهُ كان قَلْبُه فى العمل والسَّيْر إِلى الله ، وربّما يكون عملُ قلبه أَقْوَى من عملِ جَوارحِه .

وأَمّا اتَّصالُ الحال والمعرفة الَّتى يسمّونه اتصالَ الشهُود ، فهو الخَلاصُ من الاعْتِلال ، والفَناءُ

عن الاستِدْلال ، وهذه المنزلة أَعْلَى من اتّصال الاعْتصام ، لأَنَّ الأُولَى اتصالٌ بصحة المقصود والأَعمال ، وهذا اتّصالُ برؤيةِ مَنِ العَمَلُ له ، فيتخلَّصُ العبدُ بذلك مِنْ عِلَل الأَعمالِ واستِكْبارها واسْتحْسانها والسُّكون إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 225 . 228 ﴾

(62/589)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

أتبعنا رسولاً بعد رسول ، وأردفنا كتاباً بعد كتاب ، فما ازدادوا إلا كفراً وثبوراً ، وجحداً وعتواً . . . فلا إلى الحقّ رجعوا ، ولا إلى الاستقامة جنحوا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

مَنْ أكحلنا بصيرتهم بنور الهداية صَدَّقوا بمقتضى مساعدة العناية ، ومَنْ أعميناه عن شهود التحقيق ولم تساعده لطائف التوفيق انتكس في غوايته ، وانهمك في ضَلالته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ

﴾ .

إذا سمعوا دعوتنا قابلوها بالتصديق ، وانقادوا بِحُسْنِ الاستسلام ، فلا جَرَمَ يُؤْتَوْن أجرَهم مرتين بما صبروا على الأوامر وصبروا على المحارم في عاجلهم وآجالهم ، مرةً في الآخرة وهي المثوبة وأخرى في الدنيا وهي لطائف القربة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

﴿ اللَّغْوَ ﴾ : ما يُلْهِي عن الله . ويقال ﴿ اللَّغْوَ ﴾ ما لا يوجِب وسيلةً عند الله ، ويقال ما لا يكون بالحقّ للحقِّ ، ويقال هو ما صَدَرَ عن قلبٍ غافلٍ ، ويقال هو ما يوجِب سماعُه السَّهو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 72 . 73 ﴾

(63/589)

قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58) وَمَا كَانَ

رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من المعلوم أن نفس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ – لما جبلت عليه من الخير والمحبة لنفع جميع العباد ، لا سيما العرب ، لقربهم منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لاسيما أقربهم منه صلة للرحم تتأثر بسبق أهل الكتاب لقومه ، وكان ربما ظن ظان أن عدم هدايتهم لتقصير في دعائه أو إرادته لذلك ، وأنه لو أراد هدايتهم وأحبها ، وعلق همته العلية بها لاهتدوا ، أجيب عن هذا بقوله تعالى في سياق التأكيد إظهاراً لصفة القدرة والكبرياء والعظمة : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ أي نفسه أو هدايته بخلق الإيمان في قلبه ، وإنما في يدك الهداية التي هي الإرشاد والبيان .

(64/589)

ولما كان ربما ظن من أجل الإخبار بتوصيل القول وتعليله ونحو ذلك من أشباهه أن شيئاً من أفعالهم يخرج عن القدرة ، قال نافياً لهذا الظن مشيراً إلى الغلط في اعتقاده بقوله : ﴿ ولكن

الله ﴾ المتردي برداء الجلال والكبرياء والكمال وله الأمر كله ﴿ يهدي من يشاء ﴾ هدايته بالتوفيق إلى ما يرضيه ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ أعلم بالمهتدين ﴾ أي الذين هيأهم لتطلب الهدى عند خلقه لهم ، فيكونوا عريقين فيه سواء كانوا من أهل الكتاب أو العرب ، أقارب كانوا أو أباعد ، روى البخاري في التفسير عن سعيد بن المسيب عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ : " قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيره ، فقال : أي عم ! قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فأنزل الله عز وجل ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ – الآية – "

انتهى وقال في كتاب التوحيد : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ قال سعيد بن المسيب عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ : نزلت في أبي طالب ، وفي مسلم عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن

النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمره بالتوحيد فقال : لولا أن تعيرني نساء قريش لأقررت بها عينك فأنزل الله الآية .

(65/589)

ولما عجب من حال قريش في طلبهم من الآيات مثل ما أوتي موسى عليه الصلاة والسلام ثم كفرهم به وبما هو أعظم منه ، وختم بأنه أعلم بأهل الخير وأهل الشر ، إشارة إلى الإعراض عن الأسف على أحد ، والإقبال على عموم الدعاء للقريب والبعيد على حد سواء ، قال دليلاً على ذلك لأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، عاطفاً على قالوا ﴿ لولا أوتي ﴾ ﴿ وقالوا إن نتبع ﴾ أي غاية الاتباع ﴿ الهدى ﴾ أي الإسلام فنوحد الله من غير إشراك ﴿ معك ﴾ أي وأنت على ما أنت عليه من مخالفة الناس ﴿ نتخطف ﴾ أي من أي خاطف أردنا ، لأنا نصير قليلاً في كثير .

من غير نصير ﴿ من أرضنا ﴾ كما تتخطف العصافير لمخالفة كافة العرب لنا ، وليس لنا نسبة إلى كثرتهم ولا قوتهم فيسرعوا إلينا فيتخطفونا ، أي يتقصدون خطفنا واحداً واحداً ، فإنه لا طاقة لنا على إدامة الاجتماع وأن لا يشذ بعضنا عن بعض ؛ قال البغوي : والاختطاف : الانتزاع بسرعة .

ولما كان التقدير في الرد على هذا الكلام الواهي : ألم نحمك ومن اتبعك منهم وقد جئتموهم من الخلاف بمثل ما يخالفون هم ، به العرب أو أشد ، ولا نسبة لكم إلى عددهم ولا جلدهم ، عطف عليه قوله : ﴿ أولم نمكن ﴾ أي غاية التمكين ﴿ لهم ﴾ في أوطانهم ومحل سكناهم بما لنا من القدرة ﴿ حرماً آمناً ﴾ أي ذا أمن يأمن فيه كل خائف حتى الطير من كواسرها والوحش من جوارحها ، حتى أن سيل الحل لا يدخل الحرم ، بل إذا وصل إليه عدل عنه ؛ قال ابن هشام في استيلاء كنانة وخزاعة على البيت : وكانت مكة في الجاهلية لا تقر فيها ظلماً ولا بغياً ، لا يبغي فيها أحد إلا أخرجته - انتهى .

(66/589)

وكان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه فيها فلا يهيجه ولا يعرض له بسوء ؛ وروى الأزرقي في تأريخ مكة بسنده عن حويطب بن عبد العزى - رضى الله عنه - قال : كانت في الكعبة حلق يدخل الخائف يده فيها فلا يريبه أحد ، فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلت يده ، فلقد رأيته في الإسلام وإنه لأشل ، وروي عن ابن جريج قصة العرب من غير قريش في أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا إن أعارتهم قريش ثياباً ، فجاءت امرأة فطافت عريانة وكان لها جمال فرآها رجل فأعجبته فدخل فطاف إلى جنبها ، فأدنى عضده من

عضدها ، فالتزقت عضده بعضدها ، فخرجا من المسجد هاربين على وجوههما فزعين لما أصابهما من العقوبة ، فلقيهما شيخ من قريش فأفتاهما أن يعودا إلى المكان الذي أصابا فيه الذنب ، فيدعوان ويخلصان أن لا يعودا ، فدعوا وأخلصا النية ، فافترقت أعضادهما فذهب كل واحد منهما في ناحية ، وبسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : أخذ رجل ذود ابن عم له فأصابه في الحرم فقال : ذودي : فقال اللص : كذبت ، قال : فاحلف ، فحلف عند المقام ، فقام رب الذود بين الركن والمقام باسطاً يديه يدعو ، فما برح مقامه يدعو حتى ذهب عقل اللص وجعل يصيح بمكة : ما لي ، وللزود ، ما لي ، ولفلان – رب الزود ، فبلغ ذلك عبد المطلب فجمع الزود فدفعه إلى المظلوم ، فخرج به وبقي الآخر متولهاً حتى وقع من جبل فتردى فأكلته السباع .

(67/589)

وعن أيوب بن موسى أن امرأة في الجاهلية كان معها ابن عم لها صغير فقالت له : يا بني : إني أغيب عنك وإني أخاف أن يظلمك أحد ، فإن جاءك ظالم بعدي فإن لله بمكة بيتاً لا يشبهه شيء من البيوت ، وعليه ثياب ولا يقاربه مفسد ، فإن ظلمك ظالم يوماً فعذبه ، فإن له رباً سيمنعك ، فجاءه رجل فذهب به فاسترقه ، قال : وكان أهل الجاهلية يعمرون

أنعامهم فأعمر سيده ظهره ، فلما رأى الغلام البيت عرف الصفة فنزل يشتد حتى تعلق بالبيت ، وجاءه سيده فمد يده إليه ليأخذه ، فيبست يده ، فمد الأخرى فيبست ، فاستفتى فأفتى أن ينحر عن كل واحدة من يدية بدنة ، ففعل فأطلقت يداه ، وترك الغلام وخلى سبيله .

وعن عبد العزيز بن أبي رواد أن قوماً انتهوا إلى ذي طوى ، فإذا ظبي قد دنا منهم ، فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه فقال له أصحابه : ويحك ! أرسله ، فجعل يضحك ويأبى أن يرسله ، فبعر الظبي وبال ؛ ثم أرسله ، فناموا في القائلة فانتبهوا ، فإذا بحية منطوية على بطن الرجل الذي أخذ الظبي ، فلم تنزل الحية عنه حتى كان منه من الحديث مثل ما كان من الظبي .

وعن مجاهد قال : دخل قوم مكة نجاراً من الشام في الجاهلية فنزلوا ذا طوى فاختبزوا ملة لهم ولم يكن معهم إدام ، فرمى رجل منهم ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى فقاموا إليها فسلخوها وطبخوا لحمها ليأتدموا به ، فبينما قدرهم على النار تغلي بلحمة إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعاً ولم تحترق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التي كانوا تحتها .

وفي سيرة أبي ربيع بن سالم الكلاعي أن رجلاً من كنانة بن هذيل ظلم ابن عم له فخوفه بالدعاء في الحرم ، فقال : هذه ناقتي فلانة اركبها فاذهب إليه فاجتهد في الدعاء ، فجاء الحرم في الشهر الحرام ، فقال : اللهم إني ادعوك جاهداً مضطراً على ابن عمي فلان ترميه بداء لا دواء له ، ثم انصرف فوجد ابن عمه قد رمي في بطنه فصار مثل الزق ، فما زال ينتفخ حتى انشق ، وأن عمر ـ رضى الله عنه ـ سال رجلاً من بني سليم عن ذهاب بصره ، فقال : يا أمير المؤمنين ! كنا بني ضبعاء عشرة ، وكان لنا ابن عم فكنا نظلمه فكان يذكرنا بالله ، وبالرحم ، فلما رأى أنا لا نكف عنه انتهى إلى الحرم في الأشهر الحرم فجعل يرفع يديه يقول :

لا همّ أدعوك دعاء جاهداً . . .

اقتل بني الضبعاء إلا واحدا

ثم اضرب الرجل ودعه قاعداً . . .

أعمى إذا قيد يعيي القائدا

قال : فمات إخوتي التسعة في تسعة أشهر في كل شهر واحد ، وبقيت أنا فعميت ، ورماني الله عز وجل في رجلي ، فليس يلائمني قائد ، فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ : سبحان الله إن هذا لهو العجب ، جعل الله هذا في الجاهلية إذ لا دين حرمة حرمها وشرفها ، لينتكب

الناس عن انتهاك ما حرم مخافة تعجيل العقوبة ، فلما جاء الدين ، صار الموعد الساعة ، ويستجيب الله لمن يشاء ، فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين – انتهى .

وكأنه لمثل ذلك عبر بالتمكين ويتخطف الناس من حولهم كما يأتي تأكيده في التي بعدها ، وقد كان قبل ذلك بقعة من بقاع الأرض لا مزية له على غيره بنوع مزية ، فالتقدير : إنما فعلنا ذلك بعد سكنى إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، توطئة لما أردنا من الحكم والأحكام ، أو ليس الذي قدر على ذلك وفعله لمن يعبد غيره بقادر على حماية من يدخل في دينه ، وقد صار من حزبه بأنواع الحمايات ، وإعلائه على كل من يناويه إلى أعلى الدرجات ، كما فعل في حمايتكم منهم ومن غيرهم من سائر المخالفين أعداء الدين .

(69/589)

ولما وصفه بالأمن ، أتبعه ما تطلبه النفس بعده فقال : ﴿ يجبى ﴾ أي يجمع ويجلب مما لا يرجونه ولا قدرة لهم على استجلابه ﴿ إليه ﴾ أي خاصة ، دون غيره من جزيرة العرب ﴿ ثمرات كل شيء ﴾ من النبات الذي بأرض العرب من ثمر البلاد الحارة كالبسر والرطب والموز والنبق ، والباردة كالعنب والتفاح والرمان والخوخ ، وفي تعبيره بالمضارع وما بعده إشارة إلى الاستمرار وأنه يأتي إليه بعد ذلك من كل ما في الأرض من المال ، ما لم يخطر لأحد

منهم في بال ، وقد صدق الله فيما قال كما تراه – ومن أصدق من الله قيلاً .

ولما كان مجموع ما رزقهم في هذا الحرم من الأمن بأسبابه من الإسراع باصابة من آذى فيه بأنواع العقوبات ، وجباية هذه الثمرات ، في غاية الغرابة في تلك الأراضي اليابسة الشديدة الحر ، المحفوفة من الناس بمن لا يدين ديناً ، ولا يخشى عاقبة ، ولا له ملك قاهر من الناس يرده ، ولا نظام من سياسة العباد يمنعه ، عبر عنه سبحانه مع مظهر العظمة بلدان فقال : ﴿ رزقاً من لدنا ﴾ أي من أبطن ما عندنا وأغربه ، لا صنع لأحد فيه كما تعلم ذلك أنت ومن أتبعك ومن فيه قابلية الهداية منهم ، وكل ذلك إنما هو لأجلك بحلولك في هذا الحرم مضمراً في الأصلاب ، ومظهراً في تلك أشعاب ، توطئة لنبوتك ، وتمهيداً لرسالتك ، ومتى غبت عنهم غاب عنهم ذلك كله وسينظرون .

(70/589)

ولما كان هذا الذي أبدوه عذراً عن تخلفهم عن الهدى يظنونه من نفائس العلم ، رده تعالى نافياً عمن لم يؤمن منهم جميع العلم الذي بنفيه ينتفي أن يكون هذا الفرد علماً ، فقال في أسلوب التأكيد لذلك : ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي أهل مكة وغيرهم ممن لا هداية له ﴿ لا يعلمون ﴾ أي ليس لهم قابلية للعلم حتى يعلموا أنا نحن الفاعلون لذلك بترتيب أسبابه حتى

تمكن ذلك وتم فلا قدرة لأحد على تغييره ، وإنا قادرون على أن نمنعهم – إذا تابعوا أمرنا – ممن يريدهم ، بل نسلطهم على كل من ناواهم ، كقدرتنا على ما مكنا لهم وهو خارج عن القياس على ما يقتضيه عقول الناس ، وإنا قادرون على سلب ذلك كله عنهم لإصرارهم على الكفر ، ولا بد أن نذيقهم ذلك أجمع بعد هجرتك ليعلموا أنه إنما نالهم ذلك ببركتك ، ولو علموا ذلك لشكروا ، ولكنهم جهلوا فكفروا ، ولذلك أنذروا ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

(71/589)

ولما أخبر تعالى أنه قادر على التأمين والإنجاء والتمكين مع الضعفة ، أتبعه الإعلام بقدرته على الإخافة والإهلاك مع القوة ، ترغيباً لهم – إن آمنوا – بإهلاك أضدادهم ، وترهيباً – إن أصروا – من المعاملة بعكس مرادهم ، فقال في مظهر العظمة عاطفاً على معنى الكلام : ﴿ وكم أهلكنا ﴾ ويجوز أن يكون حالاً من ضمير نمكن أي فعلنا بهم ما ذكرنا من النعمة مع ضعفهم وعجزهم ، والحال أنا كثيراً ما أهلكنا الأقوياء ، وأشار إلى تأكيد التكثير مع تمييز المبهم بقوله : ﴿ من قرية ﴾ ، وأشار إلى سبب الإهلاك بقوله : ﴿ بطرت معيشتها ﴾ أي وقع منها البطر في زمان عيشها الرخي الواسع ، فكان حالهم كحالكم في

الأمن وإدرار الرزق ، فلما بطروا معيشتهم أهلكناهم ، ومعنى بطرهم لها أنهم شقوها بمجاوزة الحد في المرح ، والأشر والفرح ، إلى أن تعدوها فأفسدوها وكفروها فلم يشكروها ، بل فعلوا في تلقيها فعل الحائر المدهوش ، فلم يحسنوا رعايتها ، وقل احتمالهم لحق النعمة فيها ، فطغوا في التقلب عند مصاحبتها وتكبروا بها ، وتمادوا في الغي قولاً وفعلاً ، من أجل ما عمهم من الرفاهية عن تقييدها وساء احتمالهم للغنى بها ، وطيب العيش فيها ، فأبطلوها بهذه الخصائل ، وأذهبوها هدراً من غير مقابل ، وذلك من قول أهل اللغة : البطر : الأشر ، وقلة احتمال النعمة ، والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة ، والفعل من الكل كفرح ، وبطر الحق أن يتكبر عنه فلا يقبله ، وبطره كنصره وضربه : شقه ، والبطور : الصخاب الطويل اللسان ، والمتمادي في الغي ، وأبطره ذرعه : حمله فوق طاقته ، وذهب دمه بطراً – بالكسر ، أي هدراً وبطرهم لها أنهم عصوا من خولهم فيها ، فخالفوا أمره ، وأنساهم الكبر بما أعطاهم ذكره .

(72/589)

ولما تسبب عن هذا الإخبار تشوف النفس إلى آثار هذه الديار ، سبب عنه الإشارة بأداة البعد إلى منازلهم ، تنبيهاً على كثرتها وسهولة الوصول إليها في كل مكان ، لكونها بحيث

يشار إليها وعلى بعد رتبتها في الهلاك دليلاً على الجملة التي قبلها فقال : ﴿ فتلك مساكنهم ﴾ .

ولما كان المعنى أنها خاوية على عروشها وصل به قوله : ﴿ لم تسكن ﴾ أي من ساكن ما مختار أو مضطر .

ولما كان المراد إفهام نفي قليل الزمان وكثيره ، أثبت الجار فقال : ﴿ من بعدهم ﴾ بعد أن طال ما تغالوا فيها ونمقوها ، وزخرفوها وزوقوها ، وزفوا فيها الأبكار ، وفرحوا بالأعمال الكبار ، ﴿ إلا ﴾ سكوناً ﴿ قليلاً ﴾ بالمارة عليها ساعة من ليل أو من نهار ، ثم يصير تباباً موحشة كالقفار ، بعد أن كانت متمنعة القبا ، ببيض الصفاح وسمر القنا .

ولما صارت هذه الأماكن بعد الخراب لا متصرف فيها ظاهراً إلا الله ، ولا حاكم عليها فيما تنظره العيون سواه ، وكان هذا أمراً عظيماً ، وخطباً جسيماً ، لأنه لا فرق فيه بين جليل وحقير ، وصغير وكبير ، وسلطان ووزير ، دل على ضخامته بقوله مكرراً لمظهر العظمة : ﴿ وكنا ﴾ أي أزلاً وأبداً ﴿ نحن ﴾ لا غيرنا ﴿ الوارثين ﴾ لم يستعص علينا أحد وإن عظم ، ولا تأخر عن مرادنا لحظة وإن ضخم ، فليت شعري ! أين أولئك الجبارون وكيف خلا دورهم ، وعطل قصورهم ؟ المتكبرون أفنتهم والله كؤوس الحمام منوعة أشربة المصائب العظام ، وأذلتهم مصارع الأيام ، بقوة العزيز العلام ، فيا ويح من لم يعتبر بأيامهم ، ولم يزدجر عن مثل آثامهم .

ولما أظهر سبحانه سوط العذاب بيد القدرة ، دل على وطأ العدل بثمرة الغنى ، ولكونه في سياق الرحمة بالإرسال عبر بالربوبية فقال : ﴿ وما كان ﴾ أي كوناً ما ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بالإحسان بإرسالك إلى الناس ﴿ مهلك القرى ﴾ أي هذا الجنس كله بجرم وإن عظم ﴿ حتى يبعث في أمها ﴾ أي أعظمها وأشرفها ، لأن غيرها تبع لها ، ولم يشترط كونه من أمها فقد كان عيسى عليه الصلاة والسلام من الناصرة ، وبعث في بيت المقدس ﴿ رسولاً يتلوا عليهم ﴾ أي أهل القرى كلهم ﴿ آياتنا ﴾ الدالة – بما لها من الجري على مناهيج العقول ، على ما ينبغي لنا من الحكمة ، وبما لها من الإعجاز – على تفرد الكلمة ، باهر العظمة ، إلزاماً للحجة ، وقطعاً للمعذرة ، لئلا يقولوا ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴾ ولذلك لما أردنا عموم الخلق بالرسالة جعلنا الرسول من أم القرى كلها ، وهي مكة البلد الحرام ، وفيها لأنها مع كونها مدينة تجري فيها الأمور على قانون الحكمة هي في بلاد البوادي تظهر فيها الكلمة ، فجمعت الأمرين لأن المرسل إليها جامع ، وجازت الأثرين لأن الختام به واقع ، وكان السر في جعل المؤيد لدينه عيسى عليهما الصلاة والسلام من البادية كثرة ظهور الكلمة على يديه .

ولما غيّى الإهلاك بالإرسال تخويفاً ، ضرب له غاية أخرى تحريراً للأمر وتعريفاً ، ولكونه في سياق التجرؤ من أهل الضلال ، على مقامه العال ، بانتهاك الحرمات ، عبر بأداة العظمة فقال : ﴿ وما كنا ﴾ أي بعظمتنا وغنانا ﴿ مهلكي القرى ﴾ أي كلها ، بعد الإرسال ﴿ إلا وأهلها ظالمون ﴾ أي عريقون في الظلم بالعصيان ، بترك ثمرات الإيمان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 501.507 ﴾

(74/589)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

اعلم أن في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ مسائل :

المسألة الأولى :

هذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب ثم قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال عند موته يا معشر بني عبد مناف أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال عليه السلام " يا عم تأمرهم بالنصح لأنفسهم

وتدعها لنفسك ! قال فما تريد يا ابن أخي ؟ قال أريد منك كلمة واحدة ، فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا إله إلا الله ، أشهد لك بها عند الله تعالى ، قال يا أخي قد علمت أنك صادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني إبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك ، ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف " .

المسألة الثانية :

أنه تعالى قال في هذه الآية : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وقال في آية أخرى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] ولا تنافي بينهما فإن الذي أثبته وأضافه إليه الدعوة والبيان والذي نفى عنه هداية التوفيق ، وشرح الصدر وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ [الأنعام : 122] الآية .

المسألة الثالثة :

احتج الأصحاب بهذه الآية في مسألة الهدى والضلال ، فقالوا : قوله ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ يقتضي أن تكون الهداية في الموضعين بمعنى واحد لأنه لو كان المراد من الهداية في قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى ﴾ شيئاً وفي قوله : ﴿ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ شيئاً آخر لاختل النظم ، ثم إما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة أو الدعوة إلى الجنة أو تعريف طريق الجنة أو خلق المعرفة في القلوب على سبيل الإلجاء أو خلق المعرفة في القلوب لا على سبيل الإلجاء لا جائز أن يكون المراد بيان الأدلة لأنه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهي غير الهداية التي نفى الله عمومها ، وكذا القول في الهداية بمعنى الدعوة إلى الجنة ، وأما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهي أيضاً غير مرادة من الآية لأنه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لأنه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقاً على المشيئة فمن وجب عليه أداء عشرة دنانير ، لا يجوز أن يقول إني أعطي عشرة دنانير إن شئت ، وأما الهداية بمعنى الإلجاء والقسر فغير جائز لأن ذلك عندهم قبيح من الله تعالى في حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه في المشيئة ، ولما بطلت الأقسام لم يبق إلا أن المراد أنه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ، ولا يسأل عما يفعل ، ومتى أوردت الكلام على هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضي عذراً عن ذلك .

أما قوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ فالمعنى أنه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي ، ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر شبههم وأجاب عنها بالأجوبة الواضحة ، وبين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم إليه هداية الله تعالى ، حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهي قولهم : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [القصص : 57] قال المبرد : الخطف ، الانتزاع بسرعة ، روى أن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن الذي تقوله حق ، ولكن يمنعنا من ذلك تخطفنا من أرضنا ، أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من أرضنا ، فأجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه الأول : قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءامِناً ﴾ أي أعطيناكم مسكناً لا خوف لكم فيه ، إما لأن العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون ألبتة لسكانه ، فإنه يروى أن العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة ، وما كانوا يتعرضون ألبتة لسكان الحر ، أو لقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءامِناً ﴾ [آل عمران : 97] وأما قوله : ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خالياً عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ، ومعنى : ﴿ يجبى ﴾ يجمع من

قولهم : جبيت الماء في الحوض إذا جمعته ، قرأ أهل المدينة تجبى بالتاء ، وأهل الكوفة ، وأبو عمرو بالياء ، وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي ، فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ، ومعنى الكلية الكثرة كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] وحاصل الجواب : أنه تعالى لما جعل الحرم آمناً وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان ، فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى ، قال القاضي : ولو أن الرسول قال لهم إن الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقاً

(77/589)

لم يكن عذراً لكم في أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا ، أو قال لهم إن تخطفهم لكن بالقتل وغيره ، وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضاً ، ولو قال لهم ما قدر مضرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي أخوفكم منه إن بقيتم على كفركم لانقطعوا ، لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم في أنهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة ، أن ذلك لا يجري إن آمنوا ، ومثل ذلك إذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا ، فلذلك قدمه الله تعالى ، والآية دالة على صحة الحجاج الذي

يتوصل به إلى إزالة شبهة المبطلين .

بقي ههنا بحثان :

الأول : قال صاحب "الكشاف" في انتصاب رزقاً إن جعلته مصدراً جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله ، لأن معنى يجبى إليه ثمرات كل شيء ، ويرزق ثمرات كل شيء واحد ، وأن يكون مفعولاً له ، وإن جعلته بمعنى مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصيصها بالإضافة ، كما ينتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة .

الثاني : احتج الأصحاب بقوله : ﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ في أن فعل العبد خلق الله تعالى ، وبيانه أن تلك الأرزاق إنما كانت تصل إليهم ، لأن الناس كانوا يحملونها إليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقاً لله تعالى لما صحت تلك الإضافة ، فإن قيل سبب تلك الإضافة أنه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي في قلوب من ذهب بتلك الأرزاق إليهم ، قلنا تلك الدواعي إن اقتضت الرجحان ، فقد بينا في غير موضع أنه متى حصل الرجحان ، فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود ، وإن لم يحصل الرجحان انقطعت الإضافة بالكلية .

(78/589)

واعلم أنه تعالى إنما بين أن تلك الأرزاق ما وصلت إليهم إلا من الله تعالى ، لأجل أنهم متى علموا ذلك صاروا بحيث لا يخافون أحداً سوى الله تعالى ولا يرجون أحداً غير الله تعالى ، فيبقى نظرهم منقطعاً عن الخلق متعلقاً بالخالق ، وذلك يوجب كمال الإيمان والإعراض بالكلية عن غير الله تعالى والإقبال بالكلية على طاعة الله تعالى .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58)

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني : عن تلك الشبهة ، وذلك لأنه تعالى لما بين لأهل مكة ما خصوا به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالأمم الماضية الذين كانوا في نعم الدنيا ، فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود أن الكفار لما قالوا إنا لا نؤمن خوفاً من زوال نعمة الدنيا ، فالله تعالى بين لهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل هذه النعم ، لا الإقدام على الإيمان ، قال صاحب "الكشاف" : البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها إما بحذف الجار واتصال الفعل كقوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها ، وإما تضمين بطرت معنى كفرت .

فأما قوله : ﴿ فَتِلْكَ مساكنهم لَمْ تُسْكَن مّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ففي هذا الاستثناء وجوه

أحدها : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة .

(79/589)

وثانيها : يحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها ، وإذا لم يبق للشيء مالك معين قيل إنه ميراث الله لأنه الباقي بعد فناء خلقه ، ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها ، فكأن سائلاً أورد السؤال من وجهين الأول : لماذا ما أهلك الله الكفار قبل محمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد ؟ الثاني : لماذا ما أهلكهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مع تمادي القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأجاب عن السؤال الأول بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ وحاصل الجواب أنه تعالى قدم بيان أن عدم البعثة يجري مجرى العذر للقوم ، فوجب أن لا يجوز إهلاكهم إلا بعد البعثة ، ثم ذكر المفسرون وجهين أحدهما : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ أي في القرية التي هي أمها وأصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها رسولاً

لإلزام الحجة وقطع المعذرة الثاني : وما كان ربك مهلك القرى التي في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة رسولاً وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، ومعنى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ يؤدي ويبلغ ، وأجاب عن السؤال الثاني بقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فإن بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 3.6 ﴾

(80/589)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : من أحببت هدايته .

الثاني : من أحببته لقرابته ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والحسن : نزلت في أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو هريرة أن النبي قال لعمه أبي طالب " قُل لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِندَ اللَّهِ تَعَالَى

يَوْمَ الْقِيَامَةِ " فقال : لولا أن تعيرني بها قريش لأقررت عينيك بها .

وروى مجاهد أنه قال : يا ابن أخي ملة الأشياخ ، فنزلت الآية تعني أبا طالب .

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ قاله قتادة : يعني العباس

. ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ قال مجاهد : يعني بمن قدر له الهدى والضلالة

. قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ قيل إن هذه الآية نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشي قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا لنعلم أن قولك حق ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا يعني بمكة فإنما نحن أكلة رأس العرب ولا طاقة لنا بهم ، فأجاب الله عما اعتل به فقال :

﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءَامِناً ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أنه جعله آمناً بما طبع النفوس عليه من السكون إليه حتى لا ينفر منه الغزال والذئب والحمام والحدأة .

الثاني : أنه جعله آمناً بالأمر الوارد من جهته بأمان من دخله ولاذ به ، قاله يحيى بن سلام . يقول كنتم آمنين في حرمي تأكلون وتعبدون غيري أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي .

﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي تجمع إليه ثمرات كل أرض وبلد . وحكى مجاهد أن كتاباً وجد عند المقام فيه : إني أنا الله ذو بكة ، وضعتها يوم خلقت الشمس والقمر ، وحرمتها يوم خلقت السموات والأرض ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء ، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل ، مبارك لأهلها في الماء واللحم ، أول من يحلها أهلها .

﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي عطاء من عندنا

. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لا يعقلون ، قاله الضحاك .

الثاني : لا يتدبرون ، قاله ابن شجرة .

قوله : ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ والبطر الطغيان بالنعمة . وفيه وجهان

: أحدها : يعني بطرت في معيشتها ، قاله الزجاج .

الثاني : أبطرتها معيشتها ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : في أوائلها ، قاله الحسن .

الثاني : في معظم القرى من سائر الدنيا ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : أن أم القرى مكة ، قاله قتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(82/589)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56) ﴾

(83/589)

أجمع جل المفسرين على أن قوله تعالى ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ إنما نزلت في شأن أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو هريرة وابن المسيب وغيرهما : إن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه وهو يجود بنفسه فقال له : " أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله " ، وكان بحضرته عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل بن هشام فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب يا أبا طالب ؟ فقال أبو طالب : يا محمد لولا أني أخاف أن يعير بها ولدي من بعدي لأقررت بها عينك ، ثم قال أبو طالب : أنا على ملة عبد المطلب والأشياخ ، فتفجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج عنه فمات أبو طالب على كفره فنزلت هذه الآية ، قال أبو روق : قوله تعالى : ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ،

إشارة إلى العباس ، والضمير في قوله ﴿ وقالوا ﴾ لقريش ، قال ابن عباس والمتكلم بذلك فيهم الحارث بن نوفل وقصد الإخبار بأن العرب تنكر عليهم رفض الأوثان وفراق حكم الجاهلية فتخطفهم من أرضهم ، وقوله و ﴿ الهدى ﴾ معناه على زعمك ، وحكى الثعلبي أنه قال له إنا لنعلم أن الذي تقول حق ولكن إن اتبعناك تخطفنا العرب فقطعهم الله تعالى بالحجة ، أي أليس كون الحرم لكم مما يسرناه وكففنا عنكم الأيدي فيه فكيف بكم لو أسلمتم واتبعتم ديني وشرعي ، وروي عن أبي عمرو " تتخطفُ " بضم الفاء ، و" أمن الحرم " هو أن لا يغزى ولا يؤذى فيه أحد ، وقوله تعالى ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ أي تجمع وتجلب ، وقرأ نافع وحده " تجبى " بالتاء من فوق ، وقرأ الباقون " يجبى " بياء من تحت ، ورويت التاء من فوق عن أبي عمرو وأبي جعفر وشيبة بن ناصح ، وقوله تعالى : ﴿ كل شيء ﴾ ، يريد مما به صلاح حالهم وقوام أمرهم ، وليس العموم فيه على الإطلاق ، وقرأ أبان بن تغلب " ثُمُرات " بضم الثاء والميم ، ثم توعد تعالى قريشاً بضرب المثل بالقرى المهلكة ، أي فلا تغتروا بالحرم والأمن والثمرات التي تجبى ، فإن الله تعالى

يهلك الكفرة على ما سلف في الأمم ، و﴿ بطرت ﴾ معناه سفهت وأشرت وطغت قاله ابن زيد وغيره ، و﴿ معيشتها ﴾ نصب على التفسير مثل قوله ﴿ سفه نفسه ﴾ [البقرة : 130] وقال الأخفش هو إسقاط حرف الجر أي ﴿ بطرت ﴾ في ﴿ معيشتها ﴾ ثم أحالهم على الاعتبار في خراب ديار الأمم المهلكة كحجر ثمود وغيره وباقي الآية بين .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59)

إن كانت الإرادة ب ﴿ القرى ﴾ المدن التي في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ف " أم القرى " مكة ، وإن كانت الإرادة ﴿ القرى ﴾ بالإطلاق في كل زمن ف ﴿ أمها ﴾ في هذا الموضع أعظمها وأفضلها الذي هو بمثابة مكة في عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت أم القرى كلها أيضاً من حيث هي أول ما خلق من الأرض ومن حيث فيها البيت ، ومعنى الآية أن الله تعالى يقيم الحجة على عباده بالرسل فلا يعذب إلا بعد نذارة وبعد أن يتمادى أهل القرى في ظلم وطغيان ، و" الظلم " هنا يجمع الكفر والمعاصي والتقصير في الجهاد وبالجملة وضع الباطل موضع الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدي مَنْ أحببتَ ﴾

قد ذكرنا سبب نزولها عند قوله : ﴿ ما كان للنَّبيِّ والذين آمنوا أن يَسْتَغْفِروا للمُشْرِكين ﴾ [التوبة : 113] ، وقد روى مسلم فيما انفرد به عن البخاري من حديث أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمّه "قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة" ، فقال : لولا أن تُعيِّرني نساءُ قريش ، يقلن : إنَّما حمله على ذلك الجزع ، لاقررتُ بها عينك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّك لا تهدي مَنْ أحببت ﴾ " قال الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي طالب .

وفي قوله : ﴿ مَنْ أحببتَ ﴾ قولان .

أحدهما : من أحببتَ هدايته .

والثاني : من أحببتَه لقرابته .

﴿ ولكنَّ الله يهدي من يشاء ﴾ أي : يُرْشِد لِدينه من يشاء ﴿ وهو أعلمُ بالمهتدين ﴾ أي : من قدَّر له الهُدى .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا إِنْ نَتَّبِعِ الهُدى معكَ ﴾ قال ابن عباس في رواية العوفي : هم ناس من قريش قالوا ذلك .

وقال في رواية ابن أبي مُلَيْكة : إِنَّ الحارث بن عامر بن نوفل قال ذلك .

وذكر مقاتل أن الحارث بن عامر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّا لَنعلم أنَّ الذي تقول حق ، ولكن يمنعنا ان نتَّبع [الهُدى] معك مخافة أن تتخطَّفنا العرب من أرضنا ، يعنون مكة .

ومعنى الاية : إِن اتَّبعناك على دينك خِفْنا العرب لمخالفتنا إِياها .

(86/589)

والتَّخَطُّف : الانتزاع بسرعة ؛ فردَّ اللّهُ عليهم قولهم ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لهم حَرَماً ﴾ أي : أَوَلَمْ نُسْكِنْهم حَرَماً ونجعله مكاناً لهم ، ومعنى ﴿ آمِناً ﴾ : ذو أمن يأمن فيه الناس ، وذلك أن العرب كان يُغِير بعضُها على بعض ، وأهل مكة آمنون في الحرم من القتل والسَّبي والغارة ، أي : فكيف يخافون إِذا أسلموا وهم في حرم آمن ؟ ! ﴿ يُجْبي ﴾ [قرأ نافع : ﴿ تُجْبي ﴾ بالتاء] ، أي : تُجْمَع إِليه وتُحمل من [كل] النواحي الثمرات ، ﴿ رزْقاً مِنْ لَدُنَّا ﴾ أي : مِنْ عندنا ﴿ ولكنَّ أكثرهم ﴾ يعني أهل مكة ﴿ لا يَعْلَمون ﴾ أنَّ الله هو

الذي فعل بهم ذلك فيشكرونه .

ومعنى الآية : إذا كنتم آمنين في حرمي تأكلون رزقي وتعبُدون غيري ، فكيف تخافون إذا عَبَدتموني وآمنتم بي ؟ ! ثم خوّفهم عذاب الأمم الخالية فقال : ﴿ وكم أَهْلَكْنَا من قرية بَطِرَتْ مَعِيشتَها ﴾ قال الزجاج : ﴿ معيشتَها ﴾ منصوبة باسقاط "في" ، والمعنى : بَطِرَتْ في معيشتها ، والبطر : الطُّغيان في النّعمة .

قال عطاء : عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام .

قوله تعالى : ﴿ فتلك مساكنُهم لَمْ تُسْكَن مِنْ بَعدهم إلاَّ قليلاً ﴾ قال ابن عباس : لم يسكُنْها إلاَّ المسافرون ومارُّ الطريق يوماً أو ساعة ، والمعنى : لم تُسْكَن من بعدهم إلا سُكُوناً قليلاً ﴿ وكُنَّا نحن الوارثين ﴾ أي : لم يَخْلُفهم أحد بعد هلاكهم في منازلهم ، فبقيتْ خراباً غير مسكونة .

﴿ وما كان ربُّك مُهْلِكَ القُرى ﴾

يعني القرى الكافر أهلها ﴿ حتَّى يَبْعَثَ في أُمِّها ﴾ أي : في أعظمها ﴿ رسولاً ﴾ ، وإنما خصَّ الأعظم ببعثة الرسول ، لأن الرسول إنَّما يُبعث إلى الأشراف ، وأشراف القوم ملوكهم ، وإنما يسكُنون المواضع التي هي أُمُّ ما حولها .

وقال قتادة : أُم القرى : مكة ، والرسول : محمد .

قوله تعالى : ﴿ يَتْلو عليهم آياتنا ﴾ قال مقاتل : يخبرهم الرسول أنَّ العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ وما كُنَّا مُهْلِكي القرى إلاَّ وأهلها ظالمون ﴾ أي : بظلمهم أُهلكهم .

وظلمهم : شركهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(88/589)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب .

قلت : والصواب أن يقال أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو نص البخاري ومسلم ، وقد تقدّم ذلك في "براءة" .

وقال أبو روق قوله : ﴿ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ إشارة إلى العباس .

وقاله قتادة .

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ قال مجاهد : لمن قدّر له أن يهتدي .

وقيل : معنى ﴿ مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي من أحببت أن يهتدي .

وقال جبير بن مطعم : لم يسمع أحد الوحي يلقى على النبيّ صلى الله عليه وسلم إلا أبا بكر الصدّيق فإنه سمع جبريل وهو يقول : يا محمد اقرأ : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾

هذا قول مشركي مكة .

قال ابن عباس : قائل ذلك من قريش الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف القرشيّ قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنا لنعلم أن قولك حقّ ، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك ، ونؤمن بك ، مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا يعني مكة لاجتماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم .

وكان هذا من تعللاتهم ؛ فأجاب الله تعالى عما اعتلّ به فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً ﴾ أي ذا أمن .

وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضاً ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم ، فأخبر أنه قد أمّنهم بحرمة البيت ، ومنع عنهم عدوّهم ، فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم .

والتخطف الانتزاع بسرعة ؛ وقد تقدّم .

قال يحيى بن سَلام يقول : كنتم آمنين في حرمي ، تأكلون رزقي ، وتعبدون غيري ، أفتخافون إذا عبدتموني وآمنتم بي .

﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي يُجمع إليه ثمراتُ كل أرض وبلد ؛ عن ابن عباس وغيره .

(89/589)

يقال : جبى الماء في الحوض أي جمعه .

والجابية الحوض العظيم .

وقرأ نافع : ﴿ تُجْبَى ﴾ بالتاء ؛ لأجل الثمرات .

الباقون بالياء ؛ لقوله : ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ واختاره أبو عبيد .

قال : لأنه حال بين الاسم المؤنث وبين فعله حائل ، وأيضاً فإن الثمرات جمع ، وليس بتأنيث حقيقي .

﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي من عندنا .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعقلون ؛ أي هم غافلون عن الاستدلال ، وأن من رزقهم وأمّنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ، ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم .

و﴿ رِزْقاً ﴾ نصب على المفعول من أجله .

ويجوز نصبه على المصدر بالمعنى ؛ لأن معنى : ﴿ تُجْبَى ﴾ ترزق .

وقرىء ﴿ يُجْنَى ﴾ بالنون من الجنا ، وتعديته بإلى كقولك يجني إلى فيه ويجنى إلى الخافَة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ بيّن لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب أن الخوف في ترك الإيمان أكثر ؛ فكم من قوم كفروا ثم حلَّ بهم البوار ، والبطر الطغيان بالنعمة ؛ قاله الزجاج ﴿ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي في معيشتها فلما حذف في تعدّى الفعل ؛ قاله المازني .

الزجاج كقوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً ﴾ [الأعراف : 155] .

الفرّاء : هو منصوب على التفسير .

قال كما تقول : أبطرت مالك وبطرته .

ونظيره عنده : ﴿ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] وكذا عنده .

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً ﴾ [النساء : 4] ونصب المعارف على التفسير محال عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير والتمييز أن يكون واحداً نكرة يدلّ على الجنس .

وقيل : انتصب ب ﴿ بَطِرَتْ ﴾ ومعنى : ﴿ بَطِرَتْ ﴾ جهلت ؛ فالمعنى : جهلت شكر معيشتها .

﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي لم تسكن بعد إهلاك أهلها إلا قليلاً من المساكن وأكثرها خراب .

(90/589)

والاستثناء يرجع إلى المساكن أي بعضها يسكن ؛ قاله الزجاج .

واعترض عليه ؛ فقيل : لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل ؛ لأنك تقول : القوم لم تضرب إلا قليل ؛ ترفع إذا كان المضروب قليلاً ، وإذا نصبت كان القليل صفة للضرب ؛ أي لم تضرب إلا ضرباً قليلاً ، فالمعنى إذاً : فتلك مساكنهم لم يسكنها إلا المسافرون ومن مرّ بالطريق يوماً أو بعض يوم ، أي لم تُسْكن من بعدهم إلا سكوناً قليلاً .

وكذا قال ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافر أو مارّ الطريق يوماً أو ساعة .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ أي لما خلّفوا بعد هلاكهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾

أي القرى الكافر أهلها .

﴿ حتى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ قرىء بضم الهمزة وكسرها لإتباع الجر يعني مكة و ﴿ رَسُولاً ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقيل : ﴿ فِي أُمِّهَا ﴾ يعني في أعظمها ﴿ رَسُولاً ﴾ ينذرهم .

وقال الحسن : في أوائلها .

قلت : ومكة أعظم القرى لحرمتها وأوّلها ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 96] وخصت بالأعظم لبعثة الرسول فيها ؛ لأن الرسل تبعث إلى الأشراف وهم يسكنون المدائن وهي أمّ ما حولها .

وقد مضى هذا المعنى في آخر سورة "يوسف" .

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ ﴿ يَتْلُوا ﴾ في موضع الصفة أي تاليا أي يخبرهم أن العذاب ينزل بهم إن لم يؤمنوا .

﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى ﴾ وسقطت النون للإضافة مثل ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [النحل : 28] .

﴿ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ أي لم أهلكهم إلا وقد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم وفي هذا بيان لعدله وتقدّسه عن الظلم .

أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم .

ونزّه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال عز من قائل : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : 117] فنصّ في قوله ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ على أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلماً لهم منه ، وأن حاله في غناه وحكمته منافية للظلم ، دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : 143] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(92/589)

وقال أبو حيان :

﴿ إنك لا تهدي ﴾ من أحببت : أي لا تقدر على خلق الهداية فيه ، ولا تنافي بين هذا وبين قوله : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ لأن معنى هذا : وإنك لترشد .

وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب ، وحديثه مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حالة أن مات ، مشهور .

وقال الزمخشري : لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت ، لأنك لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ، ولكن الله يدخل في الإسلام من يشاء ، وهو الذي علم أنه غير مطبوع على

قلبه ، وأن الألطاف تنفع فيه ، فتقرب به ألطافه حتى يدعوه إلى القبول .

﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ : بالقابلين من الذين لا يقبلون .

انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال في أمر الألطاف .

وقالوا : الضمير في وقالوا لقريش .

وقيل ، القائل الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف : إنك على الحق ، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ، فذلك وإنما نحن أكلة رأس ، أي قليلون أن يتخطفونا من أرضنا .

وقولهم : ﴿ الهدى معك ﴾ : أي على زعمك ، فقطع الله حجتهم ، إذ كانوا ، وهم كفار بالله ، عباد أصنام قد أمنوا في حرمهم ، والناس في غيره يتقاتلون ، وهم مقيمون في بلد غير ذي زرع ، يجيء إليهم ما يحتاجون من الأقوات ، فكيف إذا آمنوا واهتدوا ؟ فهو تعالى يمهد لهم الأرض ، ويملكهم الأرض ، كما وعدهم تعالى ، ووقع ما وعد به ؛ ووصف الحرم بالأمن مجاز ، إذ الآمنون فيه هم ساكنوه .

و ﴿ ثمرات كل شيء ﴾ : عام مخصوص ، يراد به الكثرة .

وقرأ المنقري : يتخطف ، برفع الفاء ، مثل قوله تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم ﴾ برفع الكاف ، أي فيدرككم ، أي فهو يدرككم .

وقوله : من يفعل الحسنات الله يشكرها : أي فيتخطف ، وفالله يشكرها ، وهو تخريج شذوذ .

وقرأ نافع وجماعة ، عن يعقوب ؛ وأبو حاتم ، عن عاصم : تجبى ، بتاء التأنيث ، والباقون بالياء .

وقرأ الجمهور : ثمرات ، بفتحتين ؛ وأبان بن تغلب : بضمتين ؛ وبعضهم : بفتح الثاء وإسكان الميم .

(93/589)

وانتصب رزقاً على أنه مصدر من المعنى ، لأن قوله : ﴿ يجبى إليه ثمرات ﴾ : أي برزق ثمرات ، أو على أنه مفعول له ، وفاعل الفعل المعلل محذوف ، أي نسوق إليه ثمرات كل شيء ، وإن كان الرزق ليس مصدراً ، بل بمعنى المرزوق ، جاز انتصابه على الحال من ثمرات ، ويحسن لك تخصيصاً بالإضافة .

و ﴿ أكثرهم لا يعلمون ﴾ : أي جهلة ، بأن ذلك الرزق هو من عندنا .

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش ، فعظموا النعمة ، وقابلوها بالأشر والبطر ، فدمرهم الله وخرب ديارهم .

و﴿ معيشتها ﴾ منصوب على التمييز ، على مذهب الكوفيين ؛ أو مشبه بالمفعول ، على مذهب بعضهم ؛ أو مفعول به على تضمين ﴿ بطرت ﴾ معنى فعل متعد ، أي خسرت معيشتها ، على مذهب أكثر البصريين ؛ أو على إسقاط في ، أي في معيشتها ، على مذهب الأخفش ؛ أو على الظرف ، على تقدير أيام معيشتها ، كقولك : جئت خفوق النجم ، على قول الزجاج .

﴿ فتلك مساكنهم ﴾ : أشار إليها ، أي ترونها خراباً ، تمرون عليها كحجر ثمود ، هلكوا وفنوا ، وتقدم ذكر المساكن .

و﴿ تسكن ﴾ ، فاحتمل أن يكون الاستثناء في قوله : ﴿ إلا قليلاً ﴾ من المساكن ، أي إلا قليلاً منها سكن ، واحتمل أن يكون من المصدر المفهوم من قوله : ﴿ لم تسكن ﴾ : أي إلاّ سكنى قليلاً ، أي لم يسكنها إلاّ المسافر ومار الطريق .

﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ : أي لتلك المساكن وغيرها ، كقوله : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ﴾ خلت من ساكنيها فخربت .

تتخلف الآثار عن أصحابها . . .

حيناً ويدركها الفناء فتتبع

والظاهر أن القرى عامة في القرى التي هلكت ، فالمعنى أنه تعالى لا يهلكها في كل وقت .

حتى يبعث في أم تلك القرى ، أي كبيرتها ، التي ترجع تلك القرى إليها ، ومنها يمتارون ، وفيها عظيمهم الحاكم على تلك القرى .

(94/589)

﴿ حتى يبعث في أمها رسولاً ﴾ ، لإلزام الحجة وقطع المعذرة .

ويحتمل أن يراد بالقرى : القرى التي في عصر الرسول ، فيكون أم القرى : مكة ، ويكون الرسول : محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، خاتم الأنبياء ، وظلم أهلها : هو بالكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(95/589)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى ﴾ هدايةً موصّلةً إلى البُغيةِ لا محالةَ ﴿ مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ من النَّاس ولا تقدرُ على أنْ تدخلَه في الإسلامِ وإنْ بذلت فيه غايةَ المجهودِ وجاوزتَ في السعيِ كلَّ حدَ معهودٍ ﴿ ولكن اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ أنْ يهديَه فيدخلَه في الإسلامِ ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ

بالمهتدين ﴾ بالمستعدّينَ لذلك ، والجمهورُ على أنَّها نزلتْ في أبي طالبٍ فإنَّه لما احتُضر جاءه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال له : " يا عمّ قُل لا إله إلا الله كلمةً أحاجُّ بها لك عندَ الله " قال له : يا ابنَ أخِي قد علمتُ إنَّك لصادقٌ ولكنّي أكرَه أنْ يقال خرعَ عند الموتِ ولولا أنْ يكونَ عليك وعلى بني أبيكَ غضاضةٌ بعدي لقُلتها ولأقررتُ بها عينَك عندَ الفراقِ لما أَرَى من شدّةَ وَجْدِك ونصيحتِك ولكنّي سوفَ أموتُ على ملَّةِ الأشياخِ عبدِ المطَّلبِ وهاشمٍ وعبدِ منافٍ ﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ نزلتْ في الحارث بنِ عثمانَ بنِ نوفلِ بنِ عبدِ منافٍ حيثُ أتَى النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام فقال : نحنُ نعلم أنَّك على الحقّ ولكنَّا نخافُ إنِ اتَّبعناك وخالفنَا العربَ وإنما نحنُ أكلةُ رأسٍ أنْ يتخطَّفونا من أرضِنا فردَّ عليهم بقولِه تعالى : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمناً ﴾ أي ألم نعصمْهم ولم نجعلْ مكانَهم حرماً ذا أمنٍ لحرمةِ البيتِ الحرامِ الذي تتناحرُ العربُ حولَه وهم آمنونَ ﴿ يجبى إِلَيْهِ ﴾ وقُرِئ تُجبى أي يُجمع ويُحمل إليه ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من كلِّ أوب . والجملةُ صفةٌ أخرى لحَرماً دافعةٌ لمَا عَسَى يُتوهَّم من تضررِهم بانقطاعِ الميرةِ ﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ فإذا كان حالُهم ما ذُكر وهم عبدةُ أصنامٍ فكيف يخافونَ التخطفَ إذا ضمُّوا إلى حُرمةِ البيتِ حُرمةَ التَّوحيدِ ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ أي جهلةٌ لا يتفطَّنون له ولا يتفكَّرون

ليعلمُوا ذلك وقيل : هو متعلقٌ بقولِه تعالى : ﴿ مّن لَّدُنَّا ﴾ أي قليلٌ منهم يتدبَّرون فيعلمونَ أنَّ ذلك رزقٌ من عندِ الله تعالى إذ لو علمُوا لما خافُوا غيرَه ، وانتصابُ رزقاً على أنَّه مصدرٌ مؤكدٌ لمعنى تُجبى أو حالٌ من ثمراتُ على أنَّه بمعنى مرزوقٍ لتخصصها بالإضافةِ ثم بيَّن أنَّ الأمرَ بالعكسِ وأنَّهم أحقَّاءُ بأنْ يخافوا بأسَ الله تعالى بقوله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾

(97/589)

أي وكثيرٌ من أهلِ قريةٍ كانت حالُهم كحالِ هؤلاءِ في الأمنِ وخفضِ العيشِ والدَّعةِ حتَّى أشِرُوا فدمَّرنا عليهم وخرَّبنا ديارَهم ﴿ فَتِلْكَ مساكنهم ﴾ خاويةٌ بما ظلمُوا ﴿ لَمْ تُسْكَن مّن بَعْدِهِمْ ﴾ من بعدِ تدميرِهم ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا زماناً قليلاً إذْ لا يسكنُها إلا المارَّةُ يوماً أو بعضَ يومٍ أو لم يبقَ من يسكنُها إلا قليلاً من شؤمِ معاصيهم ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحدٌ يتصرَّفُ تصرَّفَهم في ديارِهم وسائرِ ذاتِ أيديهم .

وانتصابُ معيشتَها بنزعِ الخافضِ أو بجعلِها ظرفاً بنفسِها كقولِك : زيدٌ ظنّي مقيمٌ أو بإضمارِ زمانٍ مضافٍ إليه أو بجعلِه مفعولاً لبطرتْ بتضمينِ معنى كفرتْ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ

مُهْلِكَ القرى ﴾ بيانٌ للعنايةِ الربَّانيةِ إثرَ بيانِ إهلاكِ القُرى المذكورةِ أي وما صحَّ وما استقامَ بل استحال في سنَّتِه المبنيةِ على الحكمِ البالغةِ أو ما كان في حكمِه الماضِي وقضائِه السَّابق أنْ يُهلكَ قبلَ الإنذارِ بل كانتْ عادتُه أنْ لا يهلكَها ﴿ حتى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا ﴾ أي في أصلِها وقُصبتِها التي هي أعمالُها وتوابعُها لكون أهلِها أفطنَ وأنبلَ ﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ الناطقةَ بالحقِّ ويدعُوهم إليه بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ وذلك لإلزامِ الحجَّة وقطعِ المعذرةِ بأنْ يقولوا : لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتبعَ آياتِك . والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ . وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القرى ﴾ عطفٌ على ما كانَ ربُّك . وقولُه تعالى : ﴿ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوالِ أي وما كنَّا مهلكينَ لأهلِ القُرى بعد ما بعثنا في أمِّها رسولاً يدعُوهم إلى الحقِّ ويُرشدهم إليه في حالٍ من الأحوالِ إلا حالَ كونِهم ظالمينَ بتكذيبِ رسولِنا والكفرِ بآياتِنا فالبعثُ غايةٌ لعدمِ صحَّة الإهلاكِ

(98/589)

بموجبِ السنَّة الإلهية لا لعدمِ وقوعِه حتَّى يلزمَ تحققُ الإهلاكِ عقيبَ البعثِ وقد مرَّ تحقيقُه في سورةِ بني إسرائيلَ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(99/589)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى ﴾

هداية موصلة إلى البغية لا محالة ﴿ مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي كل من أحببته طبعاً من الناس قومك وغيرهم ولا تقدر أن تدخله في الإسلام وان بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت في السعي كل حد معهود ، وقيل : من أحببت هدايته .

﴿ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ هدايته فيدخله في الإسلام ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ بالمستعدين لذلك وهم الذين يشاء سبحانه هدايتهم ومنهم الذي ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب ، وأفعل للمبالغة في علمه تعالى .

(100/589)

وقيل : يجوز أن يكون على ظاهره ، وأفاد كلام بعضهم أن المراد أنه تعالى أعلم بالمهتدي دون غيره عز وجل ، وحيث قرنت هداية الله تعالى بعلمه سبحانه بالمهتدي وأنه جل وعلا

العالم به دون غيره دل على أن المراد بالمهتدي المستعد دون المتصف بالفعل فيلزم أن تكون هدايته إياه بمعنى القدرة عليها ، وحيث كانت هدايته تعالى لذلك بهذا المعنى ، وجيء بلكن متوسطة بينها وبين الهداية المنفية عنه صلى الله عليه وسلم لزم أن تكون تلك الهداية أيضاً بمعنى القدرة عليها لتقع لكن في موضعها ، ولذا قيل : المعنى إنك لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره ولكن الله تعالى يقدر على أن يدخل من يشاء إدخاله وهو الذي علم سبحانه أنه غير مطبوع على قلبه ، وللبحث فيه مجال ، وظاهر عبارة الكشاف حمل نفي الهداية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ على نفي القدرة على الإدخال في الإسلام وإثباتها في قوله سبحانه : ﴿ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ على وقوع الادخال في الإسلام بالفعل ، وهذا وإثباتها في قوله سبحانه : ﴿ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ على وقوع الإدخال في الإسلام بالفعل ، وهذا ما اعتمدناه في تفسير الآية ، ووجهه أن مساق الآية لتسليته صلى الله عليه وسلم حيث لم ينجع في قومه الذين يحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص انذاره عليه الصلاة والسلام إياهم وما جاء به إليهم من الحق بل أصروا على ما هم عليه ، وقالوا : ﴿ لَوْلا أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ موسى ﴾ [القصص : 48] ثم كفروا به وبموسى عليهام الصلاة والسلام فكانوا على عكس قوم هم أجانب عنه صلى الله عليه وسلم حيث آمنوا بما جاء به من الحق وقالوا : ﴿ إنه الحق من ربنا ﴾ [القصص : 53] ثم صرحوا بتقادم إيمانهم به وأشاروا

بذلك إلى إيمانهم بنبيهم وبما جاءهم به أيضاً فلو لم يحمل إنك لا تهدي من أحببت على نفي القدرة على إدخال من أحبه

(101/589)

عليه الصلاة والسلام في الإسلام بل حمل على نفي وقوع ادخاله صلى الله عليه وسلم إياه فيه لبعد الكلام عن التسلية وقرب إلى العتاب فإنه على طرز قولك لمن له أحباب لا ينفعهم إنك لا تنفع أحبابك وهو إذ لم يؤول بأنك لا تقدر على نفع أحبابك فإنما يقال على سبيل العتاب أو التوبيخ أو نحوه دون سبيل التسلية ، ولما كان لهدايته تعالى أولئك الذين أوتوا الكتاب مدخلاً فيما يستدعي التسلية كان المناسب إبقاء ﴿ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ على ظاهره من وقوع الهداية بالفعل دون القدرة على الهداية وإثبات ذلك له تعالى فرع إثبات القدرة ففي إثباته إثباتها لا محالة فيصادف الاستدراك المحز ، وحمل المعتدين على المستعدين للهداية لا يستدعي حمل يهدي على يقدر على الهداية فما ذكر من اللزوم ممنوع ؛ ويجوز أن يراد بالمهتدين المتصفون بالهداية بالفعل ، والمراد بعلمه تعالى بهم مجازاته سبحانه على اهتدائهم فكأنه قيل : وهو تعالى أعلم بالمهتدين كأولئك الذين ذكروا من أهل الكتاب فيجازيهم على اهتدائهم بأجر أو بأجرين فتأمل ، والآية على ما نطقت به كثير من الأخبار

نزلت في أبي طالب .

أخرج عبد بن حميد .

ومسلم .

والترمذي .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة فقال : لولا أن يعيروني قريش يقولون : ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الآية .

وأخرج البخاري .

ومسلم .

وأحمد .

والنسائي .

(102/589)

وغيرهم ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه نحو ذلك ، وأخرج أبو سهل السري بن سهل من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ الخ نزلت في أبي طالب الخ النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلم فأبى فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد روي نزولها فيه عنه أيضاً ابن مردويه ، ومسألة إسلامه خلافية ، وحكاية إجماع المسلمين أو المفسرين على أن الآية نزلت فيه لا تصح فقد ذهب الشيعة وغير واحد من مفسريهم إلى إسلامه وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك وإن أكثر قصائده تشهد له بذلك ؛ وكأن من يدعي إجماع المسلمين لا يعتد بخلاف الشيعة ولا يعول على رواياتهم ، ثم إنه على القول بعدم إسلامه لا ينبغي سبه والتكلم فيه بفضول الكلام فإن ذلك مما يتأذى به العلويون بل لا يبعد أن يكون مما يتأذى به النبي عليه الصلاة والسلام الذي نطقت الآية بناءاً على هذه الروايات بحبه إياه ، والاحتياط لا يخفى على ذي فهم .

ولأجل عين ألف عين تكرم . . .

﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾

(103/589)

أي نخرج من بلادنا ومقرنا ، وأصل الخطف الاختلاس بسرعة فاستعير لما ذكر ، والآية نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد الله تعالى عليهم خوف التخطف بقوله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءامِناً ﴾ أي ألم نعصمهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت الذي فيه تتاجر العرب حوله وهم آمنون فيه ، فالعطف على محذوف و ﴿ نُمَكِّن ﴾ مضمن معنى الجعل ، ولذا نصب حرماً وآمناً للنسب كلابن وتامر ، وجعل أبو حيان الإسناد فيه مجازياً لأن الآمن حقيقة ساكنوه فيستغني عن جعله للنسب وهو وجه حسن ﴿ يجبى إِلَيْهِ ﴾ أي يحمل إليه ويجمع فيه من كل جانب وجهة ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي ثمرات أشياء كثيرة على أن كل للتكثير وأصل معناه الإحاطة وليست بمرادة قطعاً ، والجملة صفة أخرى لحرماً دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم إن اتبعوا الهدى بانقطاع الميرة ، وقوله تعالى : ﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ نصب عن المصدر من معنى يجبى لأن مآله يرزقون ، أو الحال من ثمرات بمعنى مرزوقاً وصح مجيء الحال من النكرة عند من لا يراه لتخصصها بالإضافة هنا ، أو على أنه مفعول له بتقدير نسوق إليه ذلك رزقاً .

وحاصل الرد أنه لا وجه لخوف من التخطف إن أمنوا فإنهم لا يخافون منه وهم عبدة أصنام فكيف يخافون إذا أمنوا وضموا حرمة الإيمان إلى حرمة المقام ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ

يَعْلَمُونَ ﴾ جهلة لا يتفطنون ولا يتفكرون ليعلموا ذلك فهو متعلق بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن ﴾ الخ .

(104/589)

وقيل : هو متعلق بقوله سبحانه : من لدنا أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله عز وجل إذ لو علموا لما خافوا غيره ، والأول أظهر ، والكلام عليه أبلغ في الذم ، وقرأ المنقري ﴿ نُتَخَطَّفْ ﴾ بالرفع كما قرىء في قوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت ﴾ [النساء : 78] برفع يدرك وخرج بأنه بتقدير فنحن نتخطف وهو تخريج شذوذ .

وقرأ نافع وجماعة عن يعقوب .

وأبو حاتم عن عاصم ﴿ تجبى ﴾ بتاء التأنيث ، وقرىء ﴿ تجنى ﴾ بالنون من الجنى وهو قطع الثمرة وتعديته بإلى كقولك يجنى إلى فيه ويجنى إلى الخافة وقرأ أبان بن تغلب عن عاصم ﴿ وَمِن ثمرات ﴾ بضم الثاء والميم ، وقرأ بعضهم ﴿ ثمرات ﴾ بفتح الثاء وإسكان الميم ، ثم إنه تعالى بعد أن رد عليهم خوفهم من الناس بين أنهم أحقاء بالخوف من بأس الله تعالى بقوله :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾

أي وكثيراً من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الأمن وخفض العيش والدعة حتى بطروا واعتروا ولم يقوموا بحق النعمة فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم ﴿ فَتِلْكَ مساكنهم ﴾ التي تمرون عليها في أسفاركم كحجر ثمود خاوية بما ظلموا حال كونها .

﴿ لَمْ تُسْكَن مّن بَعْدِهِمْ ﴾ من بعد تدميرهم ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم أو إلا سكناً قليلاً وقلته باعتبار قلة الساكنين فكأنه قيل : لم يسكنها من بعدهم إلا قليل من الناس .

(105/589)

وجوز أن يكون الاستثناء من المساكن أي إلا قليلاً منها سكن وفيه بعد ، ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر ذات أيديهم ، وفي "الكشاف" أي تركناها على حال لا يسكنها أحد أو خربناها وسويناها بالأرض وهو مشير إلى أن الوراثة إما مجرد انتقالها من أصحابها وإما إلحاقها بما خلقه الله تعالى في البدء فكأنه رجع إلى أصله ودخل في عداد خالص ملك الله تعالى على ما كان أولاً وهذا معنى الإرث ، وانتصاب معيشتها على التمييز على مذهب الكوفيين ، أو مشبه بالمفعول به على

مذهب بعضهم ، أو مفعول به على تضمين بطرت معنى فعل متعد أي كفرت معيشتها ولم ترع حقها على مذهب أكثر البصريين أو على إسقاط ﴿ فِى ﴾ أي في معيشتها على مذهب الأخفش ، أو على الظرف نحو جئت خفوق النجم على قول الزجاج .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾

بيان للعناية الربانية إثر بيان إهلاك القرى المذكورة أي وما صح وما استقام أو ما كان في حكمه الماضي وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الإنذار بل كانت سنته عز وجل أن لا يهلكها ﴿ حتى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا ﴾ أي في أصلها وكبيرتها التي ترجع تلك القرى إليها ﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ الناطقة بالحق ويدعهم إليه بالترغيب والترهيب ، وإنما لم يهلكهم سبحانه حتى يبعث إليهم رسولاً لإلزام الحجة وقطع المعذرة بأن يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ، وإنما كان البعث في أم القرى لأن في أهل البلدة الكبيرة وكرسي المملكة ومحل الأحكام فطنة وكيساً فهم أقبل للدعوة وأشرف .

وأخرج عبد بن حميد .

(106/589)

وابن أبي حاتم عن قتادة أن أم القرى مكة والرسول محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد بالقرى القرى التي كانت في عصره عليه الصلاة والسلام والأولى أولى ، والالتفات إلى نون العظمة في آياتنا لتربية المهابة وإدخال الروعة وقرىء ﴿ فِى أُمِّهَا ﴾ بكسر الهمزة اتباعاً للميم ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القرى ﴾ عطف على ﴿ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾ ﴿ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ استثناءً مفرغ من أعم الأحوال أي وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد ما بعثنا في أمها رسولاً يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إليه في حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالبعث غاية لعدم صحة الإهلاك بموجب السنة الإلهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الإهلاك عقيب البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(107/589)

فائدة

قال ابن عجيبة :

الإشارة : الآية ليست خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، بل هي عامة لكل من يريد الهداية لأحد من خاصته ، كتب شيخ أشياخنا ، سيدي « أحمد بن عبد الله » ، إلى

شيخه ، سيدي « أحمد بن سعيد الهبري » ؛ يشكو له ابنه ؛ حيث لم ير منه ما تقر به عينه ، فكتب إليه : أخبرني : ما الذي بَنَيْتَ فيه ؟ دع الدار لبانيها ، إن شاء هدمها وإن شاء بناها . انتهى انتهى . اهـ وفي اللباب – بعد كلام – : قد رضي الله على أقوام في الأزل ، فاستعلمهم في أسباب الرضا من غير سبب ، وسَخِطَ على أقوام في الأزل ، فاستعملهم في أسباب السَّخَطِ بلا سبب . ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ [الأنعام : 125] الآية .

وهذه الآية تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولها : ﴿ إنك لا تَهْدي من أحببت ﴾ ، والحكم عام في كل أحد ، وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بأتم الفضائل وأعلى الوسائل ، حتى لم يُسْبَقْ لفضيلة ، ولم يَحْتَجْ لوسيلة ، وليس في ذلك نظر ، بل سابقة السعادة أيدته ، والخصوصية قرَّبته ، ولو كان له في التقدير نظر ما مُنع من الشفاعة في عمه أبي طالب ، ومن الاستغفار لأبيه . ولو كانت الهداية بيد آدم لهدى قابيل ، ولو كانت بيد نوح لهدى ولده كنعان ، أو بيد إبراهيم لهدى أباه آزر ، أو بيد محمد صلى الله عليه وسلم لأنقذ عمه أبا طالب ، جذبت العنايةُ سلمان من فارس ، وصاحت على بلال من الحبشة ، وأبو طالب على الباب ممنوع من الدخول . سبحان من أعطى ومنع ، وضر ونفع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 4 صـ 262 . 263 ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي ﴾

هذا شروع في بيان إنزال القرآن ، أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربيّ ، فيكون من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، واختاره الزجاج .

وقال الكلبي : بجانب الوادي الغربيّ ، أي حيث ناجى موسى ربه ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ أي عهدنا إليه وأحكمنا الأمر معه بالرسالة إلى فرعون وقومه ﴿ وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ لذلك حتى تقف على حقيقته ، وتحكيه من جهة نفسك .

وإذا تقرّر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشاهدة لها منه ، وانتفى بالأدلة الصحيحة أنه لم يتلقّ ذلك من غيره من البشر ، ولا علمه معلم منهم كما قدّمنا تقريره ، تبين أنه من عند الله سبحانه بوحي منه إلى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك ، فهذا الكلام هو على طريقة : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أقلامهم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : 44] وقيل : معنى ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر ﴾ : إذ كلفناه وألزمناه .

وقيل : أخبرناه أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الأمم ، ولا يستلزم نفي كونه بجانب

الغربي نفي كونه من الشاهدين ، لأنه يجوز أن يحضر ولا يشهد .

قيل : المراد بالشاهدين : السبعون الذين اختارهم موسى للميقات .

(109/589)

﴿ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً ﴾ أي خلقنا أمماً بين زمانك يا محمد وزمان موسى ﴿ فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ﴾ طالت عليهم المهلة وتمادى عليهم الأمد فتغيرت الشرائع والأحكام وتنوسيت الأديان فتركوا أمر الله ، ونسوا عهده ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : 16] ، وقد استدلّ بهذا الكلام على أن الله سبحانه قد عهد إلى موسى عهوداً في محمد صلى الله عليه وسلم وفي الإيمان به فلما طال عليهم العمر ، ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود ، وتركوا الوفاء بها ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ أي مقيماً بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم وتقصّ عليهم من جهة نفسك .

يقال : ثوى يثوي ثواء وثويا فهو ثاوٍ .

قال ذو الرمة :

لقد كان في حول ثواء ثويته . . . تقضي لبانات ويسأم سائم

وقال العجاج:

فبات حيث يدخل الثوّى . . . يعني: الضيف المقيم.

وقال آخر:

طال الثواء على رسوم المنزل . . . ﴿ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءايا تنا ﴾ أي تقرأ على أهل مدين آيا تنا، وتتعلم منهم، وقيل: تذكرهم بالوعد والوعيد، والجملة في محل نصب على الحال أو خبر ثان، ويجوز أن تكون هذه الجملة هي الخبر، و ﴿ ثاوياً ﴾ حال.

وجعلها الفراء مستأنفة كأنه قيل: وها أنت تتلو على أمتك ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أي أرسلناك إلى أهل مكة، وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها.

قال الزجاج: المعنى: أنك لم تشاهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكنا أوحيناها إليك وقصصناها عليك.

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل المسمى بالطور إذ نادينا موسى لما أتى إلى الميقات مع السبعين.

وقيل: المنادى هو أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

(110/589)

قال وهب : وذلك أن موسى لما ذكر الله له فضل محمد ، وأمته قال : يا رب أرنيهم ، فقال الله : إنك لن تدركهم ، وإن شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم ، قال : بلى يا ربّ ، فقال الله : يا أمة محمد ، فأجابوا من أصلاب آبائهم ، فيكون معنى الآية على هذا : ما كنت يا محمد بجانب الطور إذ كلمنا موسى ، فنادينا أمتك ، وسيأتي ما يدلّ على هذا ويقوّيه ويرجحه في آخر البحث إن شاء الله ﴿ ولكن رَّحْمَةً مّن رَّبِكَ ﴾ أي ولكن فعلنا ذلك رحمة منا بكم ، وقيل : ولكن أرسلنا بالقرآن رحمة لكم ، وقيل : علمناك .

وقيل : عرفناك .

قال الأخفش : هو منصوب يعني : رحمة ، على المصدر ، أي ولكن رحمناك رحمة .

وقال الزجاج : هو مفعول من أجله ، أي فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة .

قال النحاس : أي لم تشهد قصص الأنبياء ولا تليت عليك ، ولكن بعثناك وأوحيناها إليك للرحمة .

وقال الكسائي : هو خبر لكان مقدّرة ، أي ولكن كان ذلك رحمة ، وقرأ عيسى بن عمر ، وأبو حيوة : " رحمة " بالرفع على تقدير : ولكن أنت رحمة .

وقال الكسائي : الرفع على أنها اسم كان المقدّرة ، وهو بعيد إلاّ على تقدير أنها تامة ، واللام في : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أتاهم مّن نَّذِيرٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ متعلق بالفعل المقدّر على الاختلاف في تقديره .

والقوم : هم أهل مكة ، فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله صلى الله عليه وسلم ، وجملة ﴿ ما أتاهم ﴾ إلخ ، صفة ل ﴿ قوماً ﴾ ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي يتعظون بإنذارك .

﴿ وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ لولا هذه هي الامتناعية ، وأن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء وجوابها محذوف .

(111/589)

قال الزجاج : وتقديره : ما أرسلنا إليهم رسلاً : يعني : أن الحامل على إرسال الرسل هو إزاحة عللهم ، فهو كقوله سبحانه : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [النساء : 165] وقدّره ابن عطية : لعاجلناهم بالعقوبة ، ووافقه على هذا التقدير الواحدي فقال : والمعنى : لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم ، وقوله : ﴿ فَيَقُولُواْ ﴾ عطف على تصيبهم ، ومن جملة ما هو في حيز لولا ، أي فيقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ ولولا هذه الثانية هي التحضيضية أي : هلا أرسلت إلينا رسولاً من عندك ، وجوابها هو : ﴿ فَنَتَّبِعَ ءاياتك ﴾ وهو منصوب بإضمار أن لكونه جواباً للتحضيض ، والمراد بالآيات : الآيات التنزيلية الظاهرة الواضحة ، وإنما عطف القول على تصيبهم ؛ لكونه هو السبب للإرسال ، ولكن العقوبة لما كانت هي

السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها هي السبب لإرسال الرسل بواسطة القول ﴿ وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ﴾ بهذه الآيات ، ومعنى الآية : أنا لو عذبناهم لقالوا : طال العهد بالرسل ، ولم يرسل الله إلينا رسولاً ، ويظنون أن ذلك عذر لهم ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل ، ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة وأتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم .

(112/589)

﴿ فَلَمَّا جَاءهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ موسى ﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحقّ من عند الله ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وما أنزل عليه من القرآن قالوا تعنتاً منهم وجدالاً بالباطل : هلا أوتي هذا الرسول مثل ما أوتي موسى من الآيات التي من جملتها التوراة المنزلة عليه جملة واحدة ؟ فأجاب الله عليهم بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَا أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا القول ، أو من قبل ظهور محمد ؛ والمعنى : أنهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد ، وجملة : ﴿ قَالُواْ سِاحْرَانِ تظاهرا ﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم ، وعنادهم ، والمراد بقولهم : ﴿ ساحران ﴾ موسى ومحمد ، والتظاهر : التعاون ، أي تعاونا على السحر ، والضمير في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ

﴿ لكفار قريش ، وقيل : هو لليهود ، والأوّل أولى ، فإن اليهود لا يصفون موسى بالسحر إنما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم إلاّ أن يراد من أنكر نبوّة موسى كفرعون وقومه ، فإنهم وصفوا موسى وهارون بالسحر ، ولكنهم ليسوا من اليهود ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد ، فإن الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر ، والذين كفروا بمحمد وصفوه أيضاً بالسحر .

وقيل : المعنى : أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد .

قرأ الجمهور : ﴿ ساحران ﴾ وقرأ الكوفيون : ﴿ سحران ﴾ يعنون التوراة والقرآن .

وقيل : الإنجيل والقرآن .

قال بالأوّل الفراء ، وقال بالثاني أبو زيد .

وقيل : إن الضمير في : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ ﴾ لليهود ، وأنهم عنوا بقولهم : ﴿ ساحران ﴾ عيسى ومحمداً .

﴿ وَقَالُواْ إِنَّا بِكُلٍّ كافرون ﴾ أي بكلّ من موسى ومحمد ، أو من موسى وهارون ، أو من موسى وعيسى على اختلاف الأقوال ، وهذا على قراءة الجمهور ، وأما على القراءة الثانية فالمراد : التوراة والقرآن أو الإنجيل والقرآن .

وفي هذه الجملة تقرير لما تقدّمها من وصف النبيين بالسحر ، أو من وصف الكتابين به وتأكيد لذلك .

ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولاً يظهر به عجزهم ، فقال : ﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ ﴾ أي قل لهم يا محمد : فأتوا بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن ، و ﴿ أتبعه ﴾ جواب الأمر ، وقد جزمه جمهور القراء لذلك .

وقرأ زيد ابن عليّ برفع : " أَتَّبِعُهُ " على الاستئناف ، أي فأنا أتبعه .

قال الفراء : إنه على هذه القراءة صفة للكتاب ، وفي هذا الكلام تهكم به .

وفيه أيضاً دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور ؛ لأنه رجع الكلام إلى الكتابين لا إلى الرسولين ، ومعنى ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ : إن كنتم فيما وصفتم به الرسولين أو الكتابين صادقين .

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ أي لم يفعلوا ما كلفتهم به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين ، وجواب الشرط : ﴿ فاعلم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ ﴾ أي آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلا حجة ، ولا برهان ، وقيل : المعنى : فإن لم يستجيبوا لك بالإيمان بما جئت به ، وتعدية ﴿ يستجيبوا ﴾ باللام هو أحد الجائزين ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ ﴾ أي لا أحد أضلّ منه ، بل هو الفرد الكامل في الضلال ﴿ إِنَّ اللهَ

لاَيَهْدِي القوم الظالمين ﴾ لأنفسهم بالكفر وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات الله .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وصلنا ﴾ بتشديد الصاد ، وقرأ الحسن بتخفيفها ، ومعنى الآية : أتبعنا بعضه بعضاً وبعثنا رسولاً بعد رسول .

وقال أبو عبيدة والأخفش : معناه : أتممنا .

وقال ابن عيينة ، والسديّ : بينا .

وقال ابن زيد : وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ، والأولى أولى ، وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض ، ومنه قول الشاعر :

(114/589)

قل لبني مروان ما بال ذمتي . . . بحبل ضعيف لا تزال توصل

وقال امرؤ القيس :

يقلب كفيه بخيط موصل . . . والضمير في : ﴿ لهم ﴾ عائد إلى قريش .

وقيل : إلى اليهود .

وقيل : للجميع ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيكون التذكر سبباً لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن قبلهم .

﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل القرآن ، والموصول مبتدأ ، وخبره : ﴿ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أخبر سبحانه أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد الله بن سلام وسائر من أسلم من أهل الكتاب ، وقيل : الضمير في ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والأوّل أولى .

والضمير في ﴿ به ﴾ راجع إلى القرآن على القول الأوّل ، وإلى محمد على القول الثاني .

﴿ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءامَنَّا بِهِ ﴾ أي وإذا يتلى القرآن عليهم قالوا : صدّقنا به ﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا ﴾ أي الحق الذي نعرفه المنزل من ربنا ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ أي مخلصين لله بالتوحيد ، أو مؤمنين بمحمد وبما جاء به لما نعلمه من ذكره في التوراة والإنجيل من التبشير به ، وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ إلى الموصوفين بتلك الصفات ، والباء في ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ للسببية أي بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمان بالكتاب الأول والكتاب الآخر ، وبالنبيّ الأوّل والنبيّ الآخر ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة ﴾ الدرء : الدفع ، أي يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن ما يلاقونه من الأذى .

وقيل : يدفعون بالطاعة المعصية .

وقيل : بالتوبة ، والاستغفار ، من الذنوب .

وقيل : بشهادة أن لا إله إلاّ الله الشرك ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ أي ينفقون أموالهم في الطاعات وفيما أمر به الشرع .

(115/589)

ثم مدحهم سبحانه بإعراضهم عن اللغو ، فقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ تكرّماً وتنزّهاً وتأدّباً بآداب الشرع ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّواْ كِراماً ﴾ [الفرقان : 72] واللغو هنا هو ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم والاستهزاء بهم ﴿ وَقَالُواْ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ لا يلحقنا من ضرر كفركم شيء ، ولا يلحقكم من نفع إيماننا شيء ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ؛ ولكن المراد به : سلام المتاركة ؛ ومعناه : أمنة لكم منا وسلامة ، لا نجاريكم ولا نجاوبكم فيما أنتم فيه .

قال الزجاج : وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ أي لا نطلب صحبتهم .

وقال مقاتل : لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه .

وقال الكلبي : لا نحبّ دينكم الذي أنتم عليه .

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ من الناس ، وليس ذلك إليك ﴿ ولكن الله يَهْدِي مَن

يَشَاء ﴾ هدايته ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ أي القابلين للهداية المستعدّين لها ، وهذه الآية نزلت في أبي طالب كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ، وقد تقدّم ذلك في براءة .

قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب ، وقد تقرّر في الأصول أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فيدخل في ذلك أبو طالب دخولاً أولياً .

﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أي قال مشركو قريش ، ومن تابعهم : إن ندخل في دينك يا محمد نتخطف من أرضنا ، أي يتخطفنا العرب من أرضنا يعنون مكة ولا طاقة لنا بهم ، وهذا من جملة أعذارهم الباطلة ، وتعللاتهم العاطلة ، والتخطف في الأصل : هو الانتزاع بسرعة .

قرأ الجمهور : ﴿ نتخطف ﴾ بالجزم جواباً للشرط ، وقرأ المنقري بالرفع على الاستئناف .

(116/589)

ثم ردّ الله ذلك عليهم ردًّا مصدّراً باستفهام التوبيخ والتقريع فقال : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً ﴾ أي ألم نجعل لهم حرماً ذا أمن ؟ قال أبو البقاء : عدّاه بنفسه ؛ لأنه بمعنى جعل كما صرّح بذلك في قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ﴾ [العنكبوت : 67] ، ثم وصف

هذا الحرم بقوله : ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي تجمع إليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الأراضي المختلفة وتحمل إليه .

قرأ الجمهور : ﴿ يجبى ﴾ بالتحتية اعتباراً بتذكير كل شيء ووجود الحائل بين الفعل وبين ثمرات ، وأيضاً ليس تأنيث ثمرات بحقيقيّ ، واختار قراءة الجمهور أبو عبيد لما ذكرنا ، وقرأ نافع بالفوقية اعتباراً بثمرات .

وقرأ الجمهور أيضاً : ﴿ ثمرات ﴾ بفتحتين ، وقرأ ﴿ أبان ﴾ بضمتين ، جمع ثمر بضمتين ، وقرىء بفتح الثاء وسكون الميم ﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ منتصب على المصدرية ؛ لأن معنى ﴿ يجبى ﴾ : نرزقهم ، ويجوز أن ينتصب على أنه مفعول له لفعل محذوف ، أي نسوقه إليهم رزقاً من لدنا ، ويجوز أن ينتصب على الحال ، أي رازقين ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لفرط جهلهم ومزيد غفلتهم وعدم تفكرهم في أمر معادهم ورشادهم ؛ لكونهم ممن طبع الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

وقد أخرج الفريابي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن أبي هريرة في قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ قال : نودوا : يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني ، واستجبت لكم قبل أن تدعوني .

وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعاً .

وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن عساكر عنه من وجه آخر بنحوه .

(117/589)

وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل ، وأبو نصر السجزي في الإبانة ، والديلمي عن عمرو بن عبسة قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ : ما كان النداء ، وما كانت الرحمة ؟ قال : "كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفي عام ، ثم وضعه على عرشه ، ثم نادى : يا أمة محمد ، سبقت رحمتي غضبي ، أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، فمن لقيني منكم يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبدي ورسولي صادقاً ، أدخلته الجنة " وأخرج الختلي في الديباج عن سهل بن سعد الساعدي مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن حذيفة في قوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ﴾ مرفوعاً ، قال : " نودوا : يا أمة محمد ما دعوتمونا إذ استجبنا لكم ، ولا سألتمونا إذ أعطيناكم " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً : " إن الله نادى : يا أمة محمد أجيبوا ربكم " ، قال : " فأجابوا وهم في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم إلى يوم القيامة فقالوا :

لبيك ، أنت ربنا حقاً ونحن عبيدك حقاً ، قال : صدقتم أنا ربكم وأنتم عبيدي حقاً ، قد عفوت عنكم قبل أن تدعوني ، وأعطيتكم قبل أن تسألوني ، فمن لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلاّ الله دخل الجنة " وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الهالك في الفترة يقول : ربّ لم يأتني كتاب ولا رسول " ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَالُواْ سِحْرَانِ تظاهرا ﴾ إلخ .

قال : هم أهل الكتاب ﴿ إِنَّا بِكُلٍّ كافرون ﴾ يعني : بالكتابين : التوراة والفرقان .

(118/589)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو القاسم البغوي والباوردي وابن قانع الثلاثة في معاجم الصحابة ، والطبراني وابن مردويه بسندٍ جيد عن رفاعة القرظي قال : نزلت : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ في عشرة رهط أنا أحدهم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال

: يعني من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين : رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الأوّل والآخر ، ورجل كانت له أمة ، فأدّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوّجها ، وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ، ونصح لسيده " وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث المسيب ومسلم وغيره من حديث أبي هريرة أن قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ نزلت في أبي طالب لما امتنع من الإسلام .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : أن ناساً من قريش قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إن نتبعك يتخطفنا الناس ، فنزلت : ﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلّ شَىْء ﴾ قال : ثمرات الأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(119/589)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

لما ذكر معاذير المشركين وكفرهم بالقرآن ، وأعلم رسوله أنهم يتبعون أهواءهم وأنهم مجردون عن هدى الله ، ثم أثنى على فريق من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، وكان ذلك يحزن النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرض قريش وهم أخص الناس به عن دعوته أقبل الله على خطاب نبيئه صلى الله عليه وسلم بما يسلي نفسه ويزيل كمده بأن ذكّره بأن الهدى بيد الله .

وهو كناية عن الأمر بالتفويض في ذلك إلى الله تعالى .

والجملة استئناف ابتدائي .

وافتتاحها بحرف التوكيد اهتمام باستدعاء إقبال النبي عليه السلام على علم ما تضمنته على نحو ما قررناه آنفاً في قوله ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ [القصص : 50] .

ومفعول ﴿ أحببت ﴾ محذوف دل عليه ﴿ لا تهدي ﴾ .

والتقدير : من أحببت هديه أو اهتداءه .

وما صدق ﴿ من ﴾ الموصولة كل من دعاه النبي إلى الإسلام فإنه يحب اهتداءه .

وقد تضافرت الروايات على أن من أول المراد بذلك أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتم لموته على غير الإسلام كما في الأحاديث

الصحيحة .

قال الزجاج : أجمع المسلمون أنها نزلت في أبي طالب .

وقال الطبري : وذكر أن هذه الآية نزلت من أجل امتناع أبي طالب عمه من إجابته إذ دعاه إلى الإيمان بالله وحده .

قال القرطبي : وهو نص حديث البخاري ومسلم وقد تقدم ذلك في براءة .

وهذا من العام النازل على سبب خاص فيعمه وغيره وهو يقتضي أن تكون هذه السورة نزلت عقب موت أبي طالب وكانت وفاة أبي طالب سنة ثلاث قبل الهجرة ، أو كان وضع هذه الآية عقب الآيات التي قبلها بتوقيف خاص .

(120/589)

ومعنى ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أنه يخلق من يشاء قابلاً للاهتداء في مدى معين وبعد دعوات محدودة حتى ينشرح صدره للإيمان فإذا تدبر ما خلقه الله عليه وحدده كثر في علمه وإرادته جعل منه الاهتداء ، فالمراد الهداية بالفعل .

وأما قوله تعالى ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : 52] فهي الهداية بالدعوة والإرشاد فاختلف الإطلاقان .

ومفعول فعل المشيئة محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي من يشاء اهتداءه ، والمشيئة تعرف بحصول الاهتداء وتتوقف على ما سبق من علمه وتقديره .

وفي قوله ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ إيماء إلى ذلك ، أي هو أعلم من كل أحد بالمهتدين في أحوالهم ومقادير استعدادهم على حسب ما تهيأت إليه فطرهم من صحيح النظر وقبول الخير واتقاء العاقبة والانفعال لما يلقى إليها من الدعوة ودلائلها .

ولكل ذلك حال ومدى ولكليهما أسباب تكوينية في الشخص وأسلافه وأسباب نمائه أو ضعفه من الكيان والوسط والعصر والتعقل .

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

هذه بعض معاذيرهم قالها فريق منهم ممن غلبه الحياء على أن يكابر ويجاهر بالتكذيب ، وغلبه إلف ما هو عليه من حال الكفر على الاعتراف بالحق ، فاعتذروا بهذه المعذرة ، فروي عن ابن عباس أن الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وناساً من قريش جاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال الحارث "إنا لنعلم أن قولك حق ولكنا نخاف إن اتبعنا الهدى معك ونؤمن بك أن يتخطفنا العرب من أرضنا ولا طاقة لنا بهم وإنما نحن أكلة رأس" (أي أن جمعنا يشبعه الرأس الواحد من الإبل وهذه الكلمة كناية عن القلة) فهؤلاء اعترفوا في ظاهر الأمر بأن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الهدى .

والتخطف : مبالغة في الخطف ، وهو انتزاع شيء بسرعة ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ تخافون أن يتخطفكم الناس ﴾ في سورة الأنفال (26) .

(121/589)

والمراد : يأسرنا الأعداء معهم إلى ديارهم ، فرد الله عليهم بأن قريشاً مع قلتهم عدّاً وعدة أتاح الله لهم بلداً هو حرم آمن يكونون فيه آمنين من العدو على كثرة قبائل العرب واشتغالهم بالغارة على جيرتهم وجبى إليهم ثمرات كثيرة قروناً طويلة ، فلو اعتبروا لعلموا أن لهم منعة ربانية وأن الله الذي أمنهم في القرون الخالية يؤمنهم إن استجابوا لله ورسوله .

والتمكين : الجعل في مكان ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ مكّنّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ في سورة الأنعام (6) ، وقوله في أول هذه السورة (6) ﴿ ونمكن لهم في الأرض ﴾ واستعمل هنا مجازاً في الإعداد والتيسير .

والجبي : الجمع والجلب ومنه جباية الخراج .

والاستفهام إنكار أن يكون الله لم يمكن لهم حرماً .

ووجه الإنكار أنهم نزلوا منزلة من ينفي أن ذلك الحرم من تمكين الله فاستفهموا على هذا النفي استفهام إنكار .

وهذا الإنكار يقتضي توبيخاً على هذه الحالة التي نزلوا لأجلها منزلة من ينفي أن الله مكن لهم حرماً .

والواو عطفت جملة الاستفهام على جملة ﴿ وقالوا ﴾ .

والتقدير : ونحن مكنا لهم حرماً .

و ﴿ كل شيء ﴾ عام في كل ذي ثمرة وهو عموم عرفي ، أي ثمر كل شيء من الأشياء المثمرة المعروفة في بلادهم والمجاورة لهم أو استعمل ﴿ كل ﴾ في معنى الكثرة .

و ﴿ رزقاً ﴾ حال من ﴿ ثمرات ﴾ وهو مصدر بمعنى المفعول .

ومعنى ﴿ من لدنا ﴾ من عندنا ، والعندية مجاز في التكريم والبركة ، أي رزقاً قدرناه لهم إكراماً فكأنه رزق خاص من مكان شديد الاختصاص بالله تعالى .

وقد حصل في خلال الرد لقولهم إدماج للامتنان عليهم بهذه النعمة ليحصل لهم وازعان عن الكفر بالمنعم : وازع إبطال معذرتهم عن الكفر ، ووازع التذكير بنعمة المكفور به .

(122/589)

وموقع الاستدراك في قوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أنه متعلق بالكلام المسوق مساق الرد على قولهم ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ إذ التقدير : أن تلك نعمة

ربانية ولكن أكثرهم لا علم لهم فلذلك لم يتفطنوا إلى كُنه هذه النعمة فحسبوا أن الإسلام مفضٍ إلى اعتداء العرب عليهم ظنّاً بأن حرمتهم بين العرب مزيّة ونعمة أسداها إليهم قبائل العرب .

وفعل ﴿ لا يعلمون ﴾ منزّل منزلة اللازم فلا يقدّر له مفعول ، أي ليسوا ذوي علم ونظر بل هم جهلة لا يتدبّرون الأحوال .

ونُفِي العلم عن أكثرهم لأن بعضهم أصحاب رأي فلو نظروا وتدبروا لما قالوا مقالتهم تلك .

ولو قدر لفعل ﴿ يعلمون ﴾ مفعول دل عليه الكلام ، أي لا يعلمون تمكين الحرم لهم وأن جلب الثمرات إليهم من فضلنا لما استقام إسناد نفي العلم إلى أكثرهم بل كان يسند إلى جميعهم لإطباق كلمتهم على مقالة ﴿ إن نتبع الهُدى معك نُتَخطَّف من أرضنا ﴾ .

وقرأ نافع وأبو جعفر ورويس عن يعقوب ﴿ تُجْبَى ﴾ بالمثناة الفوقية .

وقرأ الباقون بالياء التحتية مراعاة للمضاف إليه وهو ﴿ كل شيء ﴾ فأكسب المضاف تأنيثاً .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا

عطف على جملة ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لهم حرماً آمناً ﴾ [القصص : 57] باعتبار ما تضمنته من الإنكار والتوبيخ ، فإن ذلك يقتضي التعرض للانتقام شأن الأمم التي كفرت بنعم الله فهو تخويف لقريش من سوء عاقبة أقوام كانوا في مثل حالهم من الأمن والرزق فغمِطوا النعمة

وقابلوها بالبطر .

والبطَر : التكبر .

وفعله قاصر من باب فَرِح ، فانتصاب ﴿ معيشتها ﴾ بعد ﴿ بطرت ﴾ على تضمين ﴿ بطرت ﴾ معنى (كفرت) لأن البَطر وهو التكبر يستلزم عدم الاعتراف بما يُسدى إليه من الخير .

والمراد : بطِرت حالة معيشتها ، أي نعمة عيشها .

(123/589)

والمعيشة هنا اسم مصدر بمعنى العيش والمراد حالته فهو على حذف مضاف دل عليه المقام ، ويعلم أنها حالة حسنة من قوله : ﴿ بطرت ﴾ وهي حالة الأمن والرزق .

والإشارة بـ (تلك) إلى ﴿ مساكنهم ﴾ الذي بيّن به اسم الإشارة لأنه في قوة تلك المساكن .

وبذلك صارت الإشارة إلى حاضر في الذهن منزّل منزلة الحاضر بمرأى السامع ، ولذلك فقوله : ﴿ لم تُسكن من بعدهم ﴾ خبر عن اسم الإشارة والتقدير : فمساكنهم لم تُسكَن من بعدهم إلا قليلاً .

والسكنى : الحلول في البيت ونحوه في الأوقات المعروفة بقصد الاستمرار زمناً طويلاً .

ومعنى ﴿ لم تُسكْن من بعدهم ﴾ لم يتركوا فيها خلفاً لهم .

وذلك كناية عن انقراضهم عن بكرة أبيهم .

وقوله ﴿ إلا قليلاً ﴾ احتراس أي إلا إقامة المارين بها المعتبرين بهلاك أهلها .

وانتصب ﴿ قليلاً ﴾ على الاستثناء من عموم أزمان محذوفةٍ .

والتقدير : إلا زماناً قليلاً ، أو على الاستثناء من مصدر محذوف .

والتقدير : لم تسكن سكناً إلاّ سكناً قليلاً ، والسّكْن القليل : هو مطلق الحلول بغير نية إطالة فهي إلمام لا سكنى .

فإطلاق السكنى على ذلك مشاكلة ليتأتى الاستثناء ، أي لم تسكن إلا حلول المسافرين أو إناخة المنتجعين مثل نزول جيش غزوة تبوك بحجر ثمود واستقائهم من بئر الناقة .

والمعنى : فتلك مساكنهم خاوية خلاء لا يعمرها عامر ، أي أن الله قدر بقاءها خالية لتبقى عبرة وموعظة بعذاب الله في الدنيا .

وبهذه الآية يظهر تأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم حين مرّ في طريقه إلى تبوك بحجْر ثمود فقال : " لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبك مثل ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين " أي خائفين أي اقتصاراً على ضرورة المرور لئلا يتعرضوا إلى تحقق حقيقة السكنى التي قدر الله انتفاءها بعد قومها فربما قدر إهلاك من يسكنها تحقيقاً لقدره .

وجملة ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ عطف على جملة ﴿ لم تُسكن من بعدهم ﴾ وهو يفيد أنها لم تسكن من بعدهم فلا يحلُّ فيها قوم آخرون بعدهم فعُبِّر عن تداول السكنى بالإرث على طريقة الاستعارة .

وقصْر إرث تلك المساكن على الله تعالى حقيقي ، أي لا يرثها غيرنا .

وهو كناية عن حرمان تلك المساكن من الساكن .

وتلك الكناية رمز إلى شدة غضب الله تعالى على أهلها الأولين بحيث تجاوز غضبه الساكنين إلى نفس المساكن فعاقبها بالحرمان من بهجة المساكن لأن بهجة المساكن سكانها ، فإن كمال الموجودات هو به قوام حقائقها .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا

أعقب الاعتبار بالقرى المهلكة ببيان أشراط هلاكها وسببه ، استقصاء للإعذار لمشركي العرب ، فبين لهم أن ليس من عادة الله تعالى أن يهلك القرى المستأهلة الإهلاك حتى يبعث رسولا في القرية الكبرى منها لأن القرية الكبرى هي مهبط أهل القرى والبوادي المجاورة لها فلا تخفى دعوة الرسول فيها ولأن أهلها قدوة لغيرهم في الخير والشر فهم أكثر استعداداً

لإدراك الأمور على وجهها فهذا بيان أشراط الإهلاك .

و﴿ القرى ﴾ : هي المنازل لجماعات من الناس ذوات البيوت المبنية ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴾ في [البقرة : 58] .

وخصت بالذكر لأن العبرة بها أظهر لأنها إذا أهلكت بقيت آثارها وأطلالها ولم ينقطع خبرها من الأجيال الآتية بعدها ويعلم أن الحلل والخيام مثلها بحكم دلالة الفحوى .

وإفراغ النفي في صيغة ما كان فاعلاً ونحوه من صيغ الجحود يفيد رسوخ هذه العادة واطرادها كما تقدم في نظائره منها قوله تعالى ﴿ ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم ﴾ في سورة [آل عمران : 79] وقوله ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ في سورة يونس (37) .

(125/589)

وقرى بلاد العرب كثيرة مثل مكة وجدة ومنى والطائف ويثرب وما حولها من القرى وكذلك قرى اليمن وقرى البحرين .

وأم القرى هي القرية العظيمة منها وكانت مكة أعظم بلاد العرب شهرة وأذكرها بينهم وأكثرها مارة وزواراً لمكان الكعبة فيها والحج لها .

والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها .

وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى أن شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثراً في القرى .

وإسناد الخبر إلى الله بعنوان ربوبيته للنبيء صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن المقصود بهذا الإنذار هم أمة محمد الذين كذبوا فالخطاب للنبيء عليه السلام لهذا المقصد .

ولهذا وقع الالتفات عنه إلى ضمير المتكلم في قوله ﴿ ءاياتنا ﴾ للإشارة إلى أن الآيات من عند الله وأن الدين دين الله .

وضمير ﴿ عليهم ﴾ عائد إلى المعلوم من القرى وهو أهلها كقوله ﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ [يوسف : 82] ، ومنه قوله ﴿ فليدع ناديه ﴾ [العلق : 17] .

وقد حصل في هذه الجملة تفنن في الأساليب إذ جمعت الاسم الظاهر وضمائر الغيبة والخطاب والتكلم .

ثم بين السبب بقوله ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ أي ما كان من عادتنا في عبادنا أن نهلك أهل القرى في حالة إلا في حالة ظلمهم أنفسهم بالإشراك ، فالإشراك سبب الإهلاك وإرسال رسول شرطه ، فيتم ظلمهم بتكذيبهم الرسول .

وجملة ﴿ وأهلها ظالمون ﴾ في موضع الحال ، وهو حال مستثنى من أحوال محذوفة

اقتضاها الاستثناء المفرغ ، أي ما كنا مهلكي القرى في حال إلا في حال ظلم أهلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(126/589)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56) ﴾

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة : أن نبيه صلى الله عليه وسلم لا يهدي من أحب هدايته ، ولكنه جل وعلا هو الذي يهدي من يشاء هداه ، وهو أعلم بالمهتدين .

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية جاء موضحاً في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ إِن تَحْرِصْ على هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل : 37] الآية . وقوله : ﴿ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الذين لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة : 41] إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم إيضاحه .

وقوله : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ جاء معناه موضحاً في آيات كثيرة كقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهتدى ﴾ [النجم : 30] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ [الأنعام : 117] والآيات

بمثل ذلك كثيرة ، وقد أوضحنا سابقاً أن الهدى المنفى عنه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى هنا : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ هو هدى التوفيق ، لأن التوفيق بيد الله وحده ، وأن الهدى المثبت له صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لتهدي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] هو هدى الدلالة على الحق والإرشاد إليه ، ونزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ في أبي طالب مشهور ومعروف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(127/589)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

هذا خطاب لسيدنا رسول الله ، خاصٌّ بدعوته لعمه أبي طالب الذي ظلَّ على دين قومه ، ولكنه كان يحمي رسول الله حماية عصبية قربى وأهل ، لا محبة في الإسلام ، ولله تعالى حكمة في أنْ يظلَّ أبو طالب على الكفر ؛ لأنه بذلك كسب قريشاً ونال احترامهم ، حيث أعجبهم عدم إيمانه بمحمد وعدم مجاملته له ، وأعجبهم أن يظل على دين الآباء ، فاحترموا حمايته لابن أخيه ، وهذا منع عن رسول الله إيذاءهم ، وحمى الدعوة من كثير من

الاعتداءات عليها .

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على أنْ يردَّ له هذا الجميل ، وردُّ رسول الله للجميل لا يكون بعرَض من الدنيا ، إنما بشيء باقٍ خالد ، فلما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا عم ، قُلْ لا إله إلا الله كلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة " فقال : يا ابن أخي ، لولا أن قريشاً تُعيِّرني بهذه الواقعة ، ويقولون ما آمن إلا جزعاً من الموت لأقررت عينك بها .

لكن يُروى أنه بعد ما انتقل أبو طالب ، جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا محمد ، إن الكلمة التي طلبتَ من عمّك أنْ يقولها قالها قبل أن يموت وأنا أشهد بها .

ونلاحظ هنا دقة الأداء من العباس ، حيث لم يقُلْ : إن هذه الكلمة لا إله إلا الله ، بل سماها (الكلمة) لماذا ؟ لأنه لم يكن قد أسلم بعد .

وسبق أنْ تكلَّمنا في معنى الهداية ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . ﴾ [القصص : 56] وقلنا : إنها تأتي بأحد معنيين : بمعنى الإرشاد والدلالة ، وبمعنى المعونة لمن يؤمن بالدلالة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17] أي : سمعوا الدلالة وأطاعوها ، فزادهم الله هداية أخرى ، هي هداية الإيمان والمعونة .

يقول تعالى في هذه المسألة : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت : 17] يعني : دللناهم ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ [فصلت : 17] ؛ لذلك حُرموا هداية المعونة .

إذن : الهداية المنفية عن سيدنا رسول الله ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ . . . ﴾ [القصص : 56] هي هداية المعونة والتوفيق للإيمان ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم هدى الجميع هداية الدالة والإرشاد ، وكان مما قال : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف : 10] .

فهداية الدلالة صدرت أولاً عن الله تعالى ، ثم بالبلاغ من رسوله صلى الله عليه وسلم ثانياً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وقالوا إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ . . . ﴾ .

وهذه المقولة ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ . . . ﴾ [القصص : 57] قالها الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ، فقد ذهب إلى سيدنا رسول الله ، وقال : إننا نعلم أنك جئتَ بالحق ، ولكن نخاف إنْ آمنا بك واتبعنا هواك أنْ نُتخطّف من أرضنا ، ولا بُدَّ أنه كان يتكلم بلسان قومه الذين ائتمروا على هذا القول .

والخطْف : هو الأخْذ بشدة وسرعة .

إذن : فهم يُقرُّون للرسول بأنه جاء بالحق ، وأنه على الهدى ، لكن علة امتناعهم أنْ يتخطفوا ، وكان عليهم أنْ يقارنوا بعقولهم بين أن يكونوا مع رسول الله على الحق وعلى الهدى ويُتخطَّفوا وبين أنْ يظلُّوا على كفرهم .

فقصارى ما يصيبهم إنْ اتبعوا رسول الله أن يتخطفهم الناس في أموالهم أو في أنفسهم – على فرض أن هذا صحيح – قصارى ما يصيبهم خسارة عَرَض فانٍ من الدنيا لو استمر لك لتمتعتَ به مدة بقائك فيها ، وهذا الخير الذي سيفوتك من الدنيا محدود على مقتضى قوة البشر ، ولا يضيرك هذا إنْ كنتَ من أهل الآخرة حيث ستذهب إلى خير بَاقٍ دائم ، خير يناسب قدرة المنعم سبحانه .

(129/589)

أما إنْ ظلُّوا على كفرهم ، فمتاع قليل في الدنيا الفانية ، ولا نصيبَ لهم في الآخرة الباقية .

إذن : فأيُّ الطريق أهدى ؟ إن المقارنة العقلية ترجح طريق الهدى واتباع الحق الذي جاء به رسول الله ، هذه واحدة .

ثم مَنْ قال إنكم إن اتبعتم الهدى مع رسول الله تُتخطَّفوا وتُضطهدوا ؟ لذلك يرد الله عليهم

: قُلْ لهم يا محمد : كذبتم ، فلن يتخطفكم أحد بسبب إسلامكم ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : 57] .

فقد أنعم الله عليكم وأنتم كافرون مشركون به ، تعبدون الأصنام في جاهلية ، ومكَّن لكم حياة آمنة في رحاب بيته الحرام ، ووفّر لكم رَغَد العيش وأنتم بوادٍ غير ذي زرع حيث يُجْبي إليه الثمرات من كل مكان ، فالذي صنع معكم هذا الصنيع أيترككم ويتخلى عنكم بعد أنْ آمنتم به ، واهتديتم إلى الحق ؟ كيف يكون منكم هذا القياس ؟

ومعنى : ﴿ نُمَكِّن لَّهُمْ . . . ﴾ [القصص : 57] نجعلهم مكينين فيه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض . . . ﴾ [يوسف : 21] والتمكين يدل على الثبات ؛ لأن ظرف المكان ثابت على خلاف ظرف الزمان .

وقال : ﴿ حَرَماً آمِناً . . ﴾ [القصص : 57] مع أن الأمن لمن في المكان ، لكن أراد سبحانه أن يُؤمّن نفس المكان ، فيكون كل ما فيه آمناً ، حتى القاتل لا يُقتصّ منه في الحرم ، والحيوان لا يُثار فيه ولا يُصَاد ، والنبات لا يُعضد حتى الحجر في هذا المكان آمن ، ألاَ تراهم يرجمون حجراً في رمي الجمرات في حين يُكرِّمون الحجر الأسود ويُقبّلونه .

وحينما نتأمل الحرم منذ أيام الخليل إبراهيم – عليه السلام – نجد أن له خطة ، وأن الحق سبحانه يُعدُّه ليكون حرماً آمناً ، فلما جاءه إبراهيم قال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . . ﴾ [إبراهيم : 37] .

هذا يعني أن المكان ليس به من مقومات الحياة إلا الهواء ، لأن نفي الزرع يعني عدم وجود الماء ؛ لذلك اعترضت السيدة هاجر على هذا المكان القفر ، فلما علمتْ أنه اختيار الله لهم قالت : إذن لن يضيعنا .

وقد رأتْ بنفسها أن الله لم يُضيِّعهم ، فلما احتاجت الماء لترضع وليدها وسعتْ في طلبه بين الصفا والمروة سبعة أشواط على قَدْر ما أطاقتْ لم تجد الماء في سَعْيها ، ولو أنها وجدته لكان سعيها سبباً إنما أراد الله أنْ يُصدِّقها في كلمتها ، وأن يثبت لها أنه سبحانه لن يُضيِّعهم من غير أسباب لتتأكد أن كلمتها حق ، ثم شاءتْ قدرة الله أن يخرج الماء من تحت قدم الوليد ، وهو يضرب بقدمه الأرض ، ويبكي من شدة الجوع والعطش ، وانبجستْ زمزم .

ولما أسكن إبراهيم أهله في هذا المكان المقْفر أراده لهم سكناً دائماً ، لا مجرد استراحة من عناء السفر ؛ لذلك قال : ﴿ رَّبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات . . . ﴾ [إبراهيم : 37] .

وكأنه – عليه السلام – يريد أن يطمئن على إقامة أهله في هذا المكان ، وأن يكون البيت مُصلًّى لله ، لا تنقطع فيه الصلاة ، وهذا هو الفرق بين بيت الله باختيار الله وبيت الله باختيار عباد الله .

فالبيت الذي نبنيه لله تعالى قد يُغلق حتى في أوقات الفروض ، أما بيت الله الذي اتخذه لنفسه فلا يخلو من الطواف والصلاة في أيِّ وقت من ليل أو نهار ، ولا ينقطع منه الطواف إلا لصلاة مكتوبة ، فإذا قُضيتْ الصلاة رأيتهم يُهرعون إلى الطواف .

(131/589)

وقد رأيت الحرم في إحدى السنوات وقد دهمه سيل جارف حتى ملأ ساحته ، ودخل الماء الكعبة وغطَّى الحجر الأسود ، فكان الناس يطوفون سباحة ، ورأينا أناساً يغطسون عند الحجر ليُقبِّلوه ، وكأن الحق – سبحانه وتعالى – يريد أن يظلَّ الطواف حول بيته لا ينقطع على أيِّ حال .

كذلك نفهم من قوله تعالى : ﴿ تهوي إِلَيْهِمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 37] .

من الفعل هَوَى يهوي ، يعني : سقط ؛ لأن الذي يسقط لا إرادةَ له في عدم السقوط ، كذلك مَنْ يأتي بيت الله أو يجلب إليه الخيرات يجد دافعاً يدفعه كأنه لا إرادة له .

كما نفهم منها معنى آخر ، فكل تكاليف الحق سبحانه ربما تكاسل الناس في أدائها ، فمنّا مَنْ لا يصلي أو لا يُزكّي . إلا الحج حيث قال الله فيه : ﴿ وَأَذِّن فِي الناس بالحج يَأْتُوكَ رِجَالاً . . . ﴾ [الحج : 27] فمجرد أن تؤذن يأتوك .

لذلك نجد من غير القادرين على نفقات الحج من يجوع ويُمسك على أهله ليوفّر تكاليف الحج ، فهو – إذن – الفريضة الوحيدة التي يتهافت عليها مَنْ لم تطلب منه .

ونلحظ أن إبراهيم – عليه السلام – دعا بالأمن للحرم مرتين : مرة في قوله : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً . . . ﴾ [البقرة : 126] يعني : اجعل هذا المكان بلداً آمناً ، كأيّ بلد آمن لا تُقام إلا في مكان يُؤَمّنون فيه كل مُقوّمات الحياة ، فأيّ بلد لا تُبنى حتى من الكافر إلا إذا كان آمناً فيها ، فالطلب الأول أنْ يتحول هذا المكان الخالي إلى بلد آمن ، كما يأمن كل بلد حين ينشأ ، وهذا أمن عام .

ثم يدعو مرة أخرى ﴿ رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً . . . ﴾ [إبراهيم : 35] بعد أن أصبحتْ مكة بلداً آمناً يطلب لها مزيداً من الأمن ، وهذا أمن خاص ، حيث جعلها بلداً حراماً ، يأمن فيها الإنسان والحيوان والنبات ، بل والجماد .

وقد وقف البعض عند قوله تعالى :

﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . ﴾ [آل عمران : 97] .

وقالوا : أين هذا الأمن ، وقد حدث في الحرم الاعتداء والقتل وترويع الآمنين ، كما حدث في أيام القرامطة لما دخلوا الحرم ، وقتلوا الناس فيه ، وأخذوا الحجر ، وفي العصر الحديث نعرف حكاية جهيمان ، وما حدث فيها من قَتْل في الحرم .

وهذه الآية : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . . ﴾ [آل عمران : 97] جملة خبرية غرضها الأمر والحثّ ، كأنه تعالى قال : أمِّنوا من دخل الحرم . وهذه ليست قضية كونية ، إنما قضية شرعية ، وفرْق بين القضيتين : الكونية لا بُدَّ أن تحدث ، أما الشرعية فأمر ينفذه البعض ، ويخرج عليه البعض ، فمَنْ أطاع الأمر الشرعي لله وأراد أنْ يجعل أمر الله صادقاً يُؤمِّن أهل الحرم ، ومَنْ أراد أنْ يكذِّب ربه يهيج الناس ويروعهم فيه .

ومن الآيات التي كثيراً ما يُسأل عنها في هذا الصدد قوله تعالى : ﴿ الخبيثاتِ لِلْخَبِيثِينَ والخبيثونِ لِلْخَبِيثَاتِ والطيباتِ لِلطَّيِّبِينَ والطيبونِ لِلطَّيِّبَاتِ . . . ﴾ [النور : 26]

يقولون : كثيراً ما يتزوج خبيث من طيبة ، أو طيبة من خبيث ، فالواقع لا يتفق مع الآية .

نقول أيضاً هنا : هذه قضية شرعية تحمل أمراً قد يُطاع وقد يُعْصَى ، وليست قضية كونية لا بُدَّ أنْ تأتي كما أخبر الله تعالى بها ، ولا يتخلّف مدلولها .

فالمعنى في الآية : إن زوجتُم فزوِّجوا الخبيث للخبيثة ، والطيب للطيبة ؛ ليتحقق التكافؤ بين الزوجين ويحدث بينهما الوفاق ، حتى إنْ عيَّر الخبيث زوجته كانت مثله تستطيع أنْ

تردّ عليه ، لا بُدَّ من وجود التكافؤ حتى في (القباحة) ، وإلا فكيف تفعل الطيبة مع الخبيث ، أو الخبيث مع الطيبة ؟

إذن : فالآية وأمثالها قضية شرعية في صيغة الخبر ، وإنْ كانت تعني الأمر ، كما تقول عن الميت : رحمه الله بصيغة الماضي ، وأنت لا تدري رحمه الله ، أو لم يرحمه ، إذن : لا بُدَّ أن المعنى دعاء : فليرحمه الله ، قلتها أنت بصيغة الماضي ، رجاء أن تكون له الرحمة .

(133/589)

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً . . . ﴾ [القصص : 57] ونلحظ هذا التمكين وهذا الأمن من قصة الفيل ، حيث جاء أبرهة ليهدم الكعبة ، ويتقدّم الجيش فيل ضخم يقال له محمود ، فلما قالوا في أذنه (أبرُكْ محمود وارجع راشداً) يعني : انفد بجلدك (فإنك ببلد الله الحرام) فبرك الفيل واستجاب .

ثم جاءت معركة الطير الأبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول .

هذا كله من الأمن الذي جعله الله لقريش فجعلهم كعصف مأكول . هذا كله من الأمن الذي جعله الله لقريش سكان حرمه ؛ لتظل الكعبة مسكونة بهم ، وما داموا هم سكان الحرم والناس تأتيهم من كل الأنحاء للحج كل عام ، فسوف يظل لهم الأمن بين القبائل ، ولا

يجرؤ أحد على الأعتداء عليهم ، أو التعرُّض لقوافلهم في رحلة الشتاء والصيف ، وأيُّ أمن ، وأيُّ مهابة بعد هذا ؟

ومع الحجيج يُجلب الطعام وتُجلب الأرزاق ، وصدق الله العظيم : ﴿ لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 1-4] .

وكيف بعد هذا الأمن والأمان يخاف مَنْ يؤمن بمحمد أنْ يُتخطَّف من أرضه ؟ إنها مقولة لا مدلولَ لها .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58)

كلمة ﴿ وَكَمْ . . ﴾ [القصص : 58] كم هنا خبرية تفيد الكثرة ، كأنك تركتَ الجواب ليدل بنفسه على الكثرة ، كما تقول لمن ينكر جميلك ، ولا تريد أنْ تُعدد أياديك عليه : كم أحسنتُ إليك ، يعني : أنا لن أُعدِّد ، وسوف أرضى بما تقوله أنت لأنك واثق أن الإجابة سوف تكون في صالحك ، وعندها لا يملك إلا أن يقول : نعم هي كثيرة . فكم هنا تعني الكثرة ، وينطق بها المخاطب لتكون حجة عليه .

ومعنى : ﴿ مِن قَرْيَةٍ . . . ﴾ [القصص : 58] من للعموم أي : من بداية ما يُقال له قرية ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : 58] البطر : أن تنسى شُكْر المُنعم على نعمه ، أي : أنه سبحانه لم يرد ذكره على بالك وأنت تتقلَّبَ في نِعمه ، أو يكون البطر باستخدام النعمة في معصية المنعم عز وجل .

ومن البطر أن يتعالى المرء على النعمة ، أو يستقلها ويراها أقلّ من مستواه ، كالولد الذي تأتي له أمه مثلاً بطبق العدس فيتبرَّم به ، وربما لا يأكل ، فتقول الأم كما نقول في العامية ؛ أنت (بتتبطر) على نعمة ربنا ؟ كلمة في لغتنا العامية لكن لها أصل في الفصحى .

إذن : من البطر أنْ تتجبَّر ، أو تتكبر ، أو تتعالى على نعمة الله ، فلا ترضي بها ، وتطلب أعلى منها .

ومعنى ﴿ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : 58] أي : أسباب معيشتها ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ [القصص : 58] فما داموا قد بطروا نعمة الله فلا بُدَّ أن يسلبها من أيديهم ، وإنْ سُلبتْ نِعم الله من بلد هلكوا ، أو رحلوا عنها ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [القصص : 58] هم الذين يقيمون بعد هلاك ديارهم .

﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ [القصص : 58] نرثهم لأنهم لم يتركوا مَنْ يرثهم ، وإذا تُرِك مكان بلا خليفة يرثه آل ميراثه إلى الله تعالى .

وفي آية أخرى يعالج الحق سبحانه هذه القضية بصورة أوسع ، يقول تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ . . . ﴾ [النحل : 112] يعني : بطرت بنعمه تعالى ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف . . . ﴾ [النحل : 112] .

(135/589)

ومعنى الكفر بالله : سَتْر وجود الله ، والسَّتْر يقتضي مستوراً ، فكأن الأصل أن الله تعالى موجود ، لكن الكافر يستر هذا الوجود ، وهكذا يكون الكفر نفسه دليلاً على الإيمان ، فالإيمان هو الأصل والكفر طارئ عليه .

ومثال ذلك قولنا : إن الباطل جُنْدي من جنود الحق ، فحين يستشري الباطل يذوق الناس مرارته ، ويكتوون بناره ، فيعودون إلى الحق وإلى الصواب ، ويطلبون فيه المخرج حين تعضُّهم الأحداث .

وكذلك نقول بنفس المنطق : الألم أول جنود الشفاء ؛ لذلك نجد أن أخطر الأمراض هو المرض الذي يتلصص على المريض دون أنْ يُشعره بأيِّ ألم ، فلا يدرى به إلا وقد استفحل أمره ، وتفاقم خطره وعزَّ علاجه ، لذلك نسميه – والعياذ بالله – المرض الخبيث .

ففي قوله تعالى : ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ . . . ﴾ [النحل : 112] .

دليل على وجود النعم ، ومع ذلك كفروا بها أي : ستروها ، إما بعدم البحث في أسبابها ، والتكاسل عن استخراجها ، أو ستروها عن المستحق لها وضنُّوا لها على العاجز الذي لا يستطيع الكسب ؛ لذلك يسلبهم الله هذه النعم ويحرمهم منها رغم قدرتهم .

وهناك أشياء لو ظلت موجودة لأعطتْ رتابة ، ربما فهموا منها أن هذه الأشياء إنما تأتيهم تلقائياً بطبيعة الأشياء ، وحين يسلب الله منهم نعمه ويطقع هذه الرتابة ، فإنما ليفهموا أن الرتابة في التكليفات تُضعِف الحكمة من التكليف ، كيف ؟

نقول : الحق – تبارك وتعالى – حرَّم علينا أشياء وأحلَّ لنا أشياء ، فمثلاً حرَّم الله علينا الخمر حتى أصبحنا لا نشربها ولا حتى تخطر ببالنا ، فأصبحت عادة رتيبة عندنا ، والله تعالى يريد أنْ يُديم على الإنسان تكليف العبادة ، حتى لا يعتادها فيفعلها بالعادة ، فيكسر هذه العادة مثلاً في صوم رمضان .

(136/589)

ويُحرِّم عليك ما كان حلالاً لك طوال العام ، وقد اعتدْتَ عليه ، فيأتي رمضان وتكليف الصيام ليُحرِّم عليك الطعام الذي كنت تأكله بالأمس ، ذلك لتظل حرارة العبادة موجودةً

تُشوّق العبد إليها ، وتُعوّده الانضباط في أداء التكاليف .

ثم يذكر العقاب على الكفر بنعمة الله ﴿ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجوع والخوف . . . ﴾ [النحل : 112] والجوع له مظهران : أنْ تطلبه البطن في أول الأمر ، فإنْ زاد الجوع ضعُفَتْ الجوارح ، وتألمتْ الأعضاء كلها ، وذاقتْ ألم الجوع ، والله تعالى يريد أنْ يُرينا إحاطة هذا الألم ، فشبَّهه باللباس الذي يحيط بالجسم كله ، ويلفّه من كل نواحيه .

وهذه سُنَّة الله في القُرى الظالمة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى . . . ﴾ .

إذن : لا بُدَّ أن نُعْلِم بالمنهج ، ويأتي رسول يقول : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، حتى إذا حَلَّ العذاب بالكافرين يكون بالعدْل ، وبعد إلزامهم الحجة ، لا أنْ نترك الناس يذنبون ، ثم نقول لهم : هذا حرام .

وسبق أنْ قُلْنا ما قاله القانون : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ بإعلام .

وما كان الله ليهلك قرية ظلماً ، إنما عقوبةً لهم على ما فعلوا .

والقرية لها تسلسل فنقول : (نَجْع) وهو المكان الذي تسكنه أسرة واحدة ، و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهي الحضر أو العاصمة ، وقد نزل القرآن في أمة مُتبدية ، تعيش على الترحال ، وتقيم في الخيام تتنقل بها بين منابت الكلأ ، فقالوا (أم القرى) للمكان الذي تجد به القرى ، وتتوفر فيه من مقومات الحياة ما لا يوجد في النجوع والكفور والقرى

الصغيرة ، كما يعيش الآن أهل الريف على قضاء حوائجهم من (البندر) ، كأنّ أُمّ القرى لها حنان ، يشمل صغار البلاد حولها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(137/589)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾

قد قدمنا أن وجه الجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أن الهدى المنفي عنه صلى الله عليه وسلم هو: منح التوفيق ، والهدى المثبت له هو: إبانة الطريق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 230 ﴾

(138/589)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذي وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال " يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة " . فقال : لولا أن تعيرني قريش يقولون : ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك فأنزل الله عليك ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي عن ابن المسيب نحوه ، وتقدم في سورة براءة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ قال : نزلت هذه الآية في أبي طالب .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود في القدر والنسائي وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد بن رافع قال : قلت لابن عمر ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ أفي أبي طالب نزلت ؟ قال : نعم .

وأخرج ابن عساكر عن أبي سعيد بن رافع قال : سألت ابن عمر رضي الله عنهما ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ أفي أبي جهل وأبي طالب ؟ قال : نعم .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد

رضي الله عنه في قوله ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ قال : " قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب : قل كلمة الاخلاص أجادل عنك بها يوم القيامة قال : يا ابن أخي ملة الأشياخ ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ قال : ممن قدر الهدى والضلالة " .

(139/589)

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ قال : " ذكر لنا أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : التمس منه عند موته أن يقول لا إله إلا الله كيما تحل له الشفاعة ، فأبى عليه " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ يعني أبا طالب ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ قال : العباس .

وأخرج أبو سهل السري بن سهل الجنديسابوري في الخامس من حديثه من طريق عبد القدوس عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ قال : نزلت في أبي طالب . ألح عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلم فأبى . فأنزل الله ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ أي لا تقدر تلزمه الهدى وهو كاره له إنما أنت نذير ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ للايمان .

وأخرج أيضاً من طريق عبد القدوس عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ قال : " نزلت في أبي طالب عند موته ، والنبي صلى الله عليه وسلم عند رأسه وهو يقول : يا عم قل لا إله إلا الله أشفع لك بها يوم القيامة . قال أبو طالب : لا . يعيرني نساء قريش بعدي إني جزعت عند موتي ، فأنزل الله ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ يعني لا تقدر أن تلزمه الهدى وهو يهوى الشرك ، ولا تقدر تدخله الإِسلام كرهاً حتى يهواه ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أن يقهره على الهدى كرهاً لفعل وليس بفاعل حتى يكون ذلك منه . فاخبر الله بقدرته وهو كقوله ﴿ لعلك باخع نفسك أَلاَّ يكونوا مؤمنين ، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [الشعراء : 3-4] فأخبر بقدرته أنه لا يعجزه شيء " .

(140/589)

وأخرج العقيلي وابن عدي وابن مردويه والديلمي وابن عساكر وابن النجار عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بعثت داعياً ومبلغاً وليس الي من الهدى شيء ، وخلق إبليس مزيناً ومبلغاً وليس إليه من الضلالة شيء " .

﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن ناساً من قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن نتبعك يتخطفنا الناس ، فأنزل الله تعالى ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك . . . ﴾ الآية .

وأخرج النسائي وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الحارث بن عامر بن نوفل الذي قال : ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمنا ﴾ قال : كان أهل الحرم آمنين يذهبون حيث شاءوا فإذا خرج أحدهم قال : إنا من أهل الحرم لم يعرض له أحد ، وكان غيرهم من الناس إذا خرج أحدهم قتل وسلب .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً ﴾ قال : أو لم يكونوا آمنين في حرمهم لا يغزون فيه ، ولا يخافون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ نتخطف ﴾ قال : كان بعضهم يغير على بعض .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ قال : ثمرات الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً ﴾ قال : في أوائلها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً ﴾ قال : أم القرى : مكة . بعث الله إليهم رسولاً محمداً صلى الله عليه وسلم .

(141/589)

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ قال : قال الله لم نهلك قرية بإيمان ، ولكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها ، ولو كانت مكة آمنوا لم يهلكوا مع من هلك ، ولكنهم كذبوا وظلموا فبذلك هلكوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(142/589)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ﴾

قوله : ﴿ تُتَخَطَّفْ ﴾ : العامَّةُ على الجزمِ جواباً للشرطِ . والمنقَري بالرفعِ على حَذْفِ الفاءِ كقوله :

3622 مَنْ يَفْعَلِ الحسناتِ اللهُ يَشْكرها . . . . . .

. . . . . .

وكقراءة "يُدْرِككُمْ" [النساء : 78] بالرفع أو على التقديم ، وهو مذهب سيبويه .

قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ﴾ قال أبو البقاء : "عَدَّاه بنفسه لأنه بمعنى جَعَلَ . وقد صَرَّح به في قولِه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ﴾ [العنكبوت : 67] ومَكَّن متعدٍّ بنفسِه مِنْ غيرِ أنْ يُضَمِّنَ معنى "جَعَلَ" كقوله : ﴿ مَكَّنَّاهم ﴾ . وقد تقدَّم تحقيقُه في الأنعام .

و"آمِناً" قيل : بمعنى مُؤَمَّن/ أي : يُؤَمَّن مَنْ دخله . وقيل : هو على حَذْفِ مضافٍ أي : آمناً أهلُه . وقيل : فاعِل بمعنى النَّسبِ أي : ذا أَمنٍ .

قوله : ﴿ يجبى ﴾ قرأ نافعٌ بتاءِ التأنيثِ مراعاةً للفظِ "ثَمَرات" . والباقون بالياء للفَصْلِ ، ولأنه تأنيثٌ مجازيٌ . والجملةُ صفةٌ لـ "حرماً" أيضاً . وقرأ العامَّةُ "ثَمَرات" بفتحَتَيْن . وأبان بضمتين جمع ثُمُر بضمتَيْن . وبعضُهم بفتحٍ وسكونٍ .

قوله : "رِزْقاً" إنْ جَعَلْتَه مصدراً جاز انتصابُه على المصدر المؤكِّد ؛ لأنَّ معنى "يجبى إليه" : يَرْزُقهم ، وأَنْ ينتصِبَ على المفعولِ له . والعاملُ محذوفٌ أي نَسُوْقه إليه رِزْقاً ، وأَنْ

يكونَ في موضعِ الحالِ مِنْ " ثَمَرات " لتخصيصِها بالإِضافةِ ، وإنْ جَعَلْتَه اسماً للمرزوقِ انتصبَ على الحالِ مِنْ " ثَمَرات " .

(143/589)

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58)

قوله : ﴿ مَعِيشَتَهَا ﴾ : فيه أوجهٌ : مفعولٌ به على تضمينِ بَطِرَتْ خَسِرَت ، أو على الظرف أي : أيام معيشتها قاله الزجاج أو على حذف " في " أي : في معيشتِها ، أو على التمييز ، أو على التشبيه بالمفعول به وهو قريبٌ مِنْ ﴿ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] .

قوله : ﴿ لَمْ تُسْكَن ﴾ جملةٌ حاليةٌ ، والعاملُ فيها معنى " تلك " . ويجوزُ أَنْ يكونَ خبراً ثانياً .

قوله : ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي : إلاَّ سَكَناً قليلاً كسكونِ المسافر ونحوِه ، أو إلاَّ زمناً قليلاً ، أو إلاَّ مكاناً قليلاً . يعني أن القليلَ منها قد سكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 686.687 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

الهداية في الحقيقةِ إمالةُ القلبِ من الباطلِ إلى الحقِّ ، وذلك من خصائص قدرة الحقِّ – سبحانه – وتطلق الهداية بمعنى الدعاء إلى الحق – توسُّعاً ، وذلك جائزٌ بل واجبٌ في صفته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : 52] .

ويقال : لَكَ شَرَفُ النبوَّةِ ، ومنزلةُ الرسالةِ ، وجمالُ السفارةِ ، والمقامُ المحمودُ ، والحوض المورود ، وأنت سيد ولد آدم . . ولكنك لا تهدي من أحببت ؛ فخصائصُ الربوبيةِ لا تصلح لِمَنْ وَصْفُه البشرية .

وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا

قالوا نخاف الأعرابَ على أنفسنا إنْ صَدَّقْنَاكَ ، وآمَنَّا بكَ ، لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم فقال الله تعالى : " وكيف تخافونهم وترون اللَّهَ أظفركم على عدوِّكم ،

وحَكَمْنا بتعظيم بيتكم ، وجعلنا مكةَ تُجْبَى إليها ثمراتُ كل شيءٍ من أقطار الدنيا " ؟

ويقال من قام بحقِّ الله – سبحانه – سَخّر له الكونَ بجملته ، ومَنْ اشتغل برعاية سِرّه لله ، وقام بحقِّ الله ، واستفرغ أوقاته في عبادة الله مُكِّنَ من التصرّف بهمته في مملكة الله ؛ فالخَلْقَ مُسَخّرٌ له ، والوقتُ طَوعُ أمرِه ، والحقُّ – سبحانه – متولٍ أيامَه وأعماله يُحَقّقُ ظنَّه ، ولا يُضَيِّعُ حقّه .

أمَّا الذي لا يطيعه فيهلك في أودية ضلاله ، ويتيه في مفازات خِزْيِه ، ويبوء بوِزْرِ هواه .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا

(145/589)

لم يعرفوا قَدْرَ نعمتهم ، ولم يشكروا سلامة أحوالهم ، وانتظامَ أمورهم ، فهاموا في أودية الكفران على وجوهِهم ، فَخَرُّوا في أودية الصغار على أذقانهم ، وأذاقهم اللَّهُ من كاساتِ الهوان ما كسر خمارَ بَطَرِهم ؛ فما كنهم منهم خالية ، وسقوفُها عليهم خاوية ، وغِربانُ الدمار ناعية .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ : بالتكليف يأمرهم . ويأمر التكوين – على ما يريد – يقفهم . وهو – سبحانه – يبعث الرسلَ إنذاراً ويعمي السُّبُلَ

عليهم اقتداراً ؛ يُوَضِّحُ الحجةَ بحيث لا شبهة ، ولكنه لا يهدي إلا مَنْ سَبَقَت له السعادة بحكم القسمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 73 . 75 ﴾

(146/589)

قوله تعالى ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما اعتلوا في الوقوف عن الإيمان بخوف التخطف ، فذكرهم نعمته عليهم بإقامة أسباب

الأمن وإدرار الرزق ، وعرفهم أنه هو وحده الذي تخشى سطواته ، ويتقي أخذه لمن خالفه وبطشاته ، وكان خوفهم من عواقب المتابعة إما على أنفسهم وإما على ما بأيديهم من المتاع ، علم من ذلك كله قطعاً أن التقدير بما سبب التخويف من عواقب الظلم بمثل مصارع الأولين : فأنفسكم في خطر من خوف الهلاك من القادر عليكم كقدرته على من قبلكم بسبب التوقف عن المتابعة أشد من خطر الخوف من التخطف بسبب المتابعة ، أو يكون التقدير : فما خفتم منه التخطف غير ضائركم ، وكفكم عن المتابعة لأجله غير مخلدكم ، فما إهلاككم على الله بأي وجه كان – بعزيز ، فعطف على هذا الذي أرشد السياق إلى تقديره قوله : ﴿ وما أوتيتم ﴾ أي من أي مؤت كان ﴿ من شيء ﴾ أي من هذه الأشياء التي بأيدكم وغيرها ﴿ فمتاع ﴾ أي فهو متاع ﴿ الحياة الدنيا ﴾ وليس يعود نفعه إلى غيرها ، فهو إلى نفاد وإن طال زمن التمتع به ﴿ وزينتها ﴾ أي وهو زينة الحياة الدنيا التي هي كلها – فضلاً عن زينتها – إلى فناء ، فليست هي ولا شيء منها بأزلي ولا أبدي ﴿ وما عند الله ﴾ أي الملك الأعلى مما تثمره لكم المتابعة من الثواب الذي وعدكموه في الدار الآخرة التي دل عليها دلالة واضحة إطباقكم على وصف هذه بالدنيا ، ومن أصدق وعداً منه ﴿ خير ﴾ على تقدير مشاركة ما في الدنيا له في الخيرية في ظنكم ، لأن الذي عنده أكثر وأطيب وأظهر ، وأحسن وأشهى ، وأبهج وأزهى ، ﴿ و ﴾ هو مع ذلك كله ﴿ أبقى ﴾ لأنه وإن شارك متاع الدنيا في أنه لم يكن أزلياً فهو أبدي .

فلما بان أنه لا يقدم على خطر المخالفة المذكور خوفاً من خطر المتابعة الموصوف عاقل ، توجه الإنكار عليهم في قوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ .

(147/589)

ولما كان هذا سبباً لأن ظهر كالشمس بون عظيم بين حال المخالف والمؤالف ، سبب عنه وأنتج قوله ، مقرراً لما ذكر من الأمرين موضحاً لما لهما من المباينة ، منكراً على من سوى بينهما ، فكيف بمن ظن أن حال المخالف أولى : ﴿ أفمن وعدناه ﴾ على عظمتنا في الغنى والقدرة والصدق ﴿ وعداً ﴾ وهو الإثابة والثواب ﴿ حسناً ﴾ لا شيء أحسن منه في موافقته لأمنيته وبقائه ﴿ فهو ﴾ بسبب وعدنا الذي لا يخلف ﴿ لاقيه ﴾ أي مدركه ومصيبه لا محالة ﴿ كمن متعناه ﴾ أي بعظمتنا ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ فلا يقدر أحد غيرنا على سلبه منه بغير إذن منا ، ولا يصل أحد إلى جعله باقياً ، وهو مع كونه فانياً وإن طال زمنه مشوب بالأكدار ، مخالط بالأقذار والأوزار ﴿ ثم هو ﴾ مع ذلك كله ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو يوم التغابن ، من خسر فيه لا يربح أصلاً ، ومن هلك لا يمكن عيشه بوجه ﴿ من المحضرين ﴾ أي المقهورين على الحضور إلى مكان يود لو افتدى منه بطلاع الأرض ذهباً ، فإن كل من يوكل به لحضور أمر يتنكد على حسب مراتب التوكيل كائناً من

كان في أي أمر كان .

ولما كان اليوم وإن كان واحداً يتعدد بتعدد أوصافه ، بما يقع في أثناءه وأضعافه ، على يوم القيامة تهويلاً لأمره ، وتعظيماً لخطره وشره ، قوله مقرراً لعجز العباد ، عن شيء من الإباء في يوم العباد : ﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي ينادي الله هؤلاء الذين يغرون بين الناس ويصدون عن السبيل ، ويتعللون في أمر الإيمان ، وتوحيد المحسن الديان ﴿ فيقول ﴾ أي الله : ﴿ أين شركاءي ﴾ أي من الأوثان وغيرهم ؛ ثم بين أنهم لا يستحقون هذا الاسم بقوله : ﴿ الذين كنتم ﴾ أي كوناً أنتم عريقون فيه ﴿ تزعمون ﴾ ليدفعوا عنكم أو عن أنفسهم .

(148/589)

ولما كان اسم الشريك يقع على من سواه الإنسان بآخر في شيء من الأشياء ، وكان الأتباع قد سووا المتبوعين الذين عبدوهم من الشياطين وغيرهم بالله تعالى في الخضوع لهم ، والطواعية في عبادة الأوثان ، ومعاندة الهداة ومعاداتهم ، والصد عن أتباعهم ، فكان اسم الشريك متناولاً لهم ، وكان بطش من وقع الإشراك به يكون أولاً بمن عد نفسه شريكاً ثم بمن أنزله تلك المنزلة ، فتشوفت النفس إلى مبادرة الرؤساء بالجواب خوفاً من حلول العقاب بهم وزيادتهم بقيادتهم عليهم ، فقيل : قالوا – هكذا الأصل ، ولكنه أظهر إعلاماً

بالوصف الذي أوجب لهم القول فقال : ﴿ قال الذين حق ﴾ أي ثبت ووجب ﴿ عليهم القول ﴾ أي وقع عليهم معنى هذا الاسم وتناولهم ، وهو العذاب المتوعد به بأعظم القول ، وهم أئمة الكفر ، وقادة الجهل ، بإنزالهم أنفسهم منزلة الشركاء ، وأفهم بإسقاط الأداة كعادة أهل القرب والتعبير بوصف الإحسان أنهم وصلوا بعد السماجة والكبر إلى غاية الترقق والذل ، فقال معبراً عن قولهم : ﴿ ربنا هؤلاء ﴾ إشارة إلى الأتباع ﴿ الذين أغوينا ﴾ أي أوقعنا الإغواء وهو الإضلال بهم بما زينا لهم من الأقوال التي أعاننا على قبولهم أنها منا ، مع كونها ظاهرة العوار ، واضحة العار ، ما خولتنا فيه في الدنيا من الجاه والمال ؛ ثم استأنفوا ما يظنون أنه يدفع عنهم فقالوا : ﴿ أغويناهم ﴾ أي فغووا باختيارهم ﴿ كما غوينا ﴾ أي نحن لما أغوانا بما زين لنا من فوقنا حتى تبعناهم ، لم يكن هناك إكراه منا ولا إجبار ، مع ما أتاهم من الرسل ولهم من العقول ، كما غوينا نحن باختيارنا ، لم يكن ممن فوقنا إجبار لنا كما قال إبليس

(149/589)

﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ [إبراهيم : 22] - فالآية من الاحتباك : حذف أولاً ﴿ فغووا ﴾ لدلالة ﴿ غوينا ﴾ عليه ، وثانياً " لما أغوانا

، من قبلنا " لدلالة ﴿ أغويناهم ﴾ عليه ومرادهم ، بقولهم هذا السفساف أنه لا لوم علينا في الحقيقة بسببهم ، وهذا معنى قولهم : ﴿ تبرأنا إليك ﴾ أي من أمرهم ، فلا يلزمنا عقوبة بسببهم ، فهو تقرير لما قبل وتصريح به .

ولما كان يعلمون أنهم غير مؤمنين من أمرهم ، تبرؤوا من انفرادهم بإضلالهم ، فقالوا لمن كأنه قال : ما وجه براءتكم وقد أقررتم باغوائهم ؟ : ﴿ ما كانوا إيانا ﴾ أي خاصة ﴿ يعبدون ﴾ بل كانوا يعبدون الأوثان بما زينت لهم أهواؤهم وإن كان لنا فيه نوع دعاء لهم إليه وحث عليه ، فأقل ما نريد أن يوزع العذاب على كل من كان سبباً في ذلك كما في الآية الأخرى ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ وضل عن الجهلة أن هذا لا يغنيهم عن الله شيئاً ، فإن الكل في العذاب وليس يغني أحد منهم عن أحد شيئاً ، قال ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

ولما لم يلتفت إلى هذا الكلام منهم بل عد عدماً ، لأنه لا طائل تحته ، أشير إلى الإعراض عنه لأنه لا يستحق جواباً كما قيل " رب قول جوابه في السكوت " بقوله : ﴿ وقيل ﴾ أي ثانياً للأتباع تهكماً بهم وإظهاراً لعجزهم الملزوم لتحسرهم وعظم تأسفهم ، وعبر بصيغة المجهول ، إظهاراً للاستهانة بهم ، وأنهم من الذل والصغار بحيث يجيبون كل أمر كائناً من كان : ﴿ ادعوا ﴾ أي كلكم ﴿ شركاءكم ﴾ أي الذين ادعيتم جهلاً شركتهم ليدفعوا عنكم .

وأضافهم هنا إليهم إشارة إلى أنهم لم يستفيدوا زعمهم أنهم شركاء الله – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً – إلا أن أشركوهم فيما صرفوا إليهم من أموالهم وأقوالهم، وأزمانهم وأحوالهم ﴿ فدعوهم ﴾ تعللاً بما لا يغني، وتمسكاً بما يتحقق أنه لا يجدي، لفرط الغلبة واستيلاء الحيرة والدهشة ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ كما يحق لهم بما لهم من وصف عدم الإدراك، والعجز والهلاك ﴿ ورأوا ﴾ أي كلهم ﴿ العذاب ﴾ عالمين بأنه مواقعهم لا مانع له عنهم، فكان الحال حينئذ مقتضياً لأن يقال من كل من يراهم: ﴿ لو أنهم كانوا ﴾ أي كوناً هو لهم صفة راسخة ﴿ يهتدون ﴾ أي يحصل منهم هدى ساعة من الدهر، تأسفاً على أمرهم، وتمنياً لخلاصهم، أو لو أن ذلك كان في طبعهم لنجوا من العذاب، أو لما رأوه أصلاً، أو لما اتبعوهم.

(151/589)

ولما أشار إلى أنه لا خلاص من ذلك الردى إلا بالهدى، أتبعه الإعلام بأنه لا يمكن أحداً هناك أن يفعل ما قد يروج على سائله كما يفعل في هذه الدار من إظهار ما لم يكن مكرراً لتهويل ذلك اليوم وتبشيعه وتعظيمه وتفظيعه، سائلاً عن حق رسله عليهم الصلاة والسلام

بعد السؤال عن حقه سبحانه ، منادياً بعجز الشركاء في الأخرى كما كانوا عاجزين في الأولى ﴿ ويوم يناديهم ﴾ وهم بحيث يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، قد برزوا لله جميعاً من كان منهم عاصياً ومن كان مطيعاً في صعيد واحد ، قد أخذ بأنفاسهم الزحام ، وتراكبت الأقدام على الأقدام ، وألجمهم العرق ، وعمهم الغرق ﴿ فيقول ماذا ﴾ أي أوضحوا أو عينوا جوابكم الذي ﴿ أجبتم المرسلين ﴾ أي به ، ولما لم يكن لهم قدم صدق ولا سابق حق بما أتتهم الرسل به من الحجج ، وتابعت عليهم من الأدلة ، لم يكن لهم جواب إلا السكوت ، وهو المراد بقوله : ﴿ فعميت ﴾ أي خفيت وأظلمت في غواية ولجاج ﴿ عليهم الأنباء ﴾ أي الأخبار التي هي من العظمة بحيث يحق لها في ذلك اليوم أن تذكر ، وهي التي يمكن أن يقع بها الخلاص ، وعداه بعلى إشارة إلى أن عماها وقع عليهم ، فعم الكل العمى فصاروا بحيث لا تهتدي الأنباء لعماها إليهم لتجددها ، ولا يهتدون إليها لانتشار عماها إليهم ، وهذا كله إشارة إلى أنهم لم يقدموا عملاً في إجابة الرسل بحق أن يذكر في ذلك اليوم ، بل أسلفوا من التكذيب والإساءة ما يودون لو أن بينهم وبينه أمداً بعيداً ، وقال : ﴿ يومئذ ﴾ تكريراً لتخويف ذلك اليوم وتهويله ، وتقريراً لتعظيمه وتبجيله .

(152/589)

ولما تسبب عن هذا السؤال السكوت علماً منهم بأنه ليس عند أحد منهم ما يغني في جوابه من حسن القول وصوابه ، وأنهم لا يذكرون شيئاً من المقال إلا عاد عليهم بالوبال ، قال مترجماً عن ذلك : ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ أي لا يسأل أحد منهم أحداً عن شيء يحصل به خلاص ، لعلمهم أنه قد عمهم الهلاك ، ولات حين مناص ، ولأن كل منهم أبغض الناس في الآخر .

ولما علم بهذه الآيات حال من أصر على كفره وعمل سيئاً بطريق العبارة ، وأشير إلى حال من تاب فوعد الوعد الحسن ألطف إشارة تسبب عن ذلك التشوف إلى التصريح بحالهم ، فقال مفصلاً مرتباً على ما تقديره : هذا حال من أصر على كفره ﴿ فأما من تاب ﴾ أي عن كفره وقال : ﴿ وآمن ﴾ تصريحاً بما علم التزاماً ، فإن الكفر والإيمان ضدان ، لا يمكن ترك أحدهما إلا بأخذ الآخر ﴿ وعمل ﴾ تصديقاً لدعواه باللسان ﴿ صالحاً ﴾ .

ولما كانت النفس نزاعة إلى النقائص ، مسرعة إلى الدنايا ، أشير إلى صعوبة الاستمرار على طريق الهدى إلا بعظيم المجاهدة بقوله : ﴿ فعسى ﴾ أي فإنه يتسبب عن حاله هذا الطمع في ﴿ أن يكون ﴾ أي كوناً هو في غاية الثبات ﴿ من المفلحين ﴾ أي الناجين من شر ذلك اليوم ، الظافرين بجميع المراد ، باستمرارهم على طاعتهم إلى الموت ، وإنما لم يقطع له بالفلاح وإن كان مثل ذلك في مجاري عادات الملوك قطعاً ، إعلاماً بأنه لا يجب سبحانه شيء ليدوم

حذره ، ويتقي قضاؤه وقدره ، فإن الكل منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 512.507 ﴾

(153/589)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾

(154/589)

اعلم أن هذا هو الجواب الثالث : عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى ، أما أنه خير فلوجهين أحدهما : أن المنافع هناك أعظم وثانيهما : أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى فلأنها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً فكيف ونصيب كل أحد بالقياس إلى

منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر ، فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة ألبتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجاً عن حد العقل ، ورحم الله الشافعي حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية ، ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة راجحة عليها ، وهذا هو المراد بقوله : ﴿ أَفَمَن وعدناه وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ [الصافات : 57] فهو يكون كمن أعطاه الله قدراً قليلاً من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب ، والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال الله لهم لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم ، وأورد هذا الكلام على لفظ

الاستفهام ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى : ﴿ لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ [الصافات : 57] ﴿ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات : 127] وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام ، وذلك لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء أحدها : قوله : ﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكاً في العبادة وتزعمون أنه يشفع ؟ أين هو لينصركم ويخلصكم من هذا الذي نزل بكم .

(156/589)

ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول ، والمراد من القول هو قوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] ومعنى حق عليه القول أي حق عليه مقتضاه ،

واختلفوا في أن الذين حق عليهم هذا القول من هم ؟ فقال بعضهم الرؤساء الدعاة إلى الضلال ، وقال بعضهم الشياطين قوله : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء الذين أَغْوَيْنَا ﴾ هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع إلى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غياً مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعني أن إغواءنا لهم ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين بالإقدام على تلك العقائد والأعمال ، وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان أنه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ ووعَدتكمْ فأَخلفتكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَليكُمْ من سلْطان إلا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاستجبتم لى فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم : 22] وقال تعالى لإبليس : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ﴾ [الحجر : 42] فقوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ اتبعك ﴾ [الحجر : 42] يدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لا من قبل إلجاء الشيطان إلى ذلك ، ثم قال تبرأنا إليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا إيانا يعبدون إنما كانوا يعبدون أهواءهم ، والحاصل أنهم يتبرءون منهم كما قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا ﴾ [البقرة : 166] وأيضاً فلا يمتنع في قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ أن يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فإنهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزله الشريك لله تعالى ، وإذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا

إلهنا هؤلاء ما عبدونا إنما عبدوا أهواءهم الفاسدة وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ

(157/589)

فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ والأقرب أن هذا على سبيل التقرير لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم لهم ، فالمراد أنهم لو دعوهم لم يوجد منهم إجابة في النصرة وأن العذاب ثابت فيهم ، وكل ذلك على وجه التوبيخ ، وفي ذكره ردع وزجر في دار الدنيا ، فأما قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوهاً أحدها : قال الضحاك ومقاتل يعني المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة وثانيها : لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا لعلموا أن العذاب حق وثالثها : ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون ورابعها : لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب وخامسها : قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون إذا رأوا العذاب ويؤكد ذلك قوله تعالى :

(158/589)

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [الشعراء : 201] وعندي أن الجواب غير محذوف وفي تقريره وجوه أحدها : أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله : ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً فقال تعالى : ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ شيئاً أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيئاً لا جرم ما رأوا العذاب وثانيها : أنه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهي الأصنام أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقهم ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم ما رأت العذاب فإن قيل قوله : ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب ﴾ ضمير لا يليق إلا بالعقلاء فكيف يصح عوده إلى الأصنام ؟ قلنا هذا كقوله : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ [الكهف : 52] وإنما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا وثالثها : أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقية هذا العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فإن ذلك يقتضي تفكيك النظم من الآية الأمر الثالث : من الأمور التي يسأل الله الكفار عنها قوله : ﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنباء ﴾ أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعاً لا تهتدي إليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضاً كما

يتساءل الناس في المشكلات لأنهم يتساوون جميعاً في عمي الأنباء عليهم والعجز عن الجواب ، وقرىء فعميت وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك يتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ، ويفوضون الأمر إلى علم الله وذلك قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ علام

(159/589)

الغيوب ﴾ [المائدة : 109] فما ظنك بهؤلاء الضلال ، قال القاضي هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لأن فعلهم لو كان خلقاً من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والإرادة لما عميت عليهم الأنباء ولقالوا إنما أتينا في تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك ، فكانت حجتهم على الله تعالى طاهرة وكذلك القول فيما تقدم لأن الشيطان كان له أن يقول إنما أغويت بخلقك في الغواية ، وإنما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم في ذلك قوية والعذر ظاهراً والجواب : أن القاضي لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب إلا ويعيد استدلاله بها ، وكما أن وجه استدلاله في الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الإيمان مع وقوع الإيمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الإيمان إذا أمر بإدخال الإيمان في الوجود فقد

أمر بالجمع بين الضدين ، والذي اعتمد القاضي عليه في دفع هذا الحرف في كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول إنه يمكن وخطأ قول من يقول إنه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب إلا السكوت ، فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهراً فثبت أن الإشكال مشترك ، والله أعلم .

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

(160/589)

اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجري عليهم من التوبيخ أتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيباً في التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ صالحا فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ﴾ وفي عسى وجوه : أحدها : أنه من الكرام تحقيق والله أكرم الأكرمين وثانيها : أن يراد ترجي التائب وطمعه كأنه قال فليطمع في الفلاح وثالثها : عسى أن يكونوا كذلك إن داموا على التوبة والإيمان لجواز أن لا يدوموا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 6.9 ﴾

(161/589)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾

فيه قولان

: أحدهما : هو حمزة بن عبد المطلب والوعد الحسن الجنة و ﴿ لاَقِيهِ ﴾ دخولها ، قاله السدي .

الثاني : هو النبي صلى الله عليه وسلم والوعد الحسن النصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، قاله الضحاك .

﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال السدي والضحاك : هو أبو جهل

. ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : من المحضرين للجزاء ، قاله ابن عباس .

الثاني : من المحضرين في النار ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : من المحضرين : المحمولين ، قاله الكلبي .

قوله : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : الحجج ، قاله مجاهد .

الثاني : الأخبار ، قاله السدي .

﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه

: أحدها : لا يسألون بالأنساب ، قاله مجاهد .

الثاني : لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحتمل من ذنوبه ، حكاه ابن عيسى .

الثالث : لا يسأل بعضهم بعضاً عن حاله ، حكاه ابن شجرة .

الرابع : لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجة ، وهذا قول الضحاك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(162/589)

وقال ابن عطية :

ثم خاطب تعالى قريشاً محقراً لما كانوا يفخرون به من مال وبنين وغير ذلك من قوة لم تكن عند محمد صلى الله عليه وسلم ولا عند من آمن به فأخبر تعالى قريشاً أن ذلك متاع الدنيا الفاني وأن الآخرة وما فيها من النعم التي أعدها الله لهؤلاء المؤمنين ﴿ خير وأبقى ﴾ ، ثم وبخهم بقوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ، وقرأ الجمهور " أفلا يعقلون " بالياء ، وقرأ أبو عمرو وحده بالتاء من فوق ، وروي عنه بالياء ، كذا قال أبو علي في الحجة ، وذلك خلاف

ما حكى أبو حاتم والناس ، فإن نافعاً يقرأ بالتاء من فوق وهي قراءة الأعرج والحسن وعيسى ، ثم زادهم توبيخاً بقوله ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً ﴾ الآية ، وقوله ﴿ أفمن وعدناه ﴾ يعم معناها جميع العالم لكن اختلف الناس فيمن نزلت ، فقال مجاهد : الذي وعد الوعد الحسن هو محمد عليه السلام وضده أبو جهل ، وقال مجاهد أيضاً : نزلت في حمزة وأبي جهل ، وقيل في علي وأبي جهل ، وقال قتادة : نزلت عامة في المؤمن والكافر كما معناها عام .

قال القاضي أبو محمد : ونزولها عام بين الاتساق بما قبله من توبيخ قريش ، و ﴿ من المحضرين ﴾ ، معناه في عذاب الله قاله مجاهد وقتادة ، ولفظة ﴿ محضرين ﴾ مشيرة إلى سوق بجبر ، وقرأ طلحة " أمن وعدناه " بغير فاء ، وقرأ مسروق " أفمن وعدناه نعمة منا فهو لاقيها " .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

التقدير واذكر يوم ، وهذا النداء يحتمل أن يكون بواسطة ، ويحتمل بغير ذلك ، والضمير المتصل ب ﴿ ينادي ﴾ لعبدة الأصنام والإشارة إلى قريش وكفار العرب وقوله ﴿ أين ﴾ ، على جهة التقريع والتوبيخ وقوله ﴿ شركائي ﴾ أي على قولكم وزعمكم .

قال القاضي أبو محمد : ولما كان هذا السؤال مسكتاً له مبهتاً فكأنه لا متعلق لجمهور الكفرة إلا ب " المغوين " لهم والأعيان ، والرؤوس منهم وبالشياطين المغوين فكأن هذه الصنيفة المغوية إنما أتت الكفرة على علم فالقول عليها متحقق وكلمة العذاب ماضية لكنهم طمعوا في التبري من كل أولئك الكفرة الأتباع فقالوا ﴿ ربنا هؤلاء ﴾ إنما أضللناهم كما ضللنا نحن باجتهاد لنا ولهم وأرادوا هم اتباعنا وأحبوا الكفر كما أحببناه .

فنحن نتبرأ إليك منهم وهم لم يعبدونا إنما عبدوا غيرنا .

قال القاضي أبو محمد : فهذا التوقيف يعم جميع الكفرة ، والمجيبون هم كل مغو داع إلى الكفر من الشياطين ومن الإنس الرؤساء ، والعرفاء والسادة في الكفر ، وقرأ الجمهور " غوَينا " بفتح الواو ، يقال غوى الرجل يغوى بكسر الواو ، وروي عن ابن عامر وعاصم " غوِينا " بكسر الواو ، ثم أخبر تعالى أنه يقال للكفرة العابدين للأصنام الذين اعتقدوهم آلهة ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ أي الأصنام التي كنتم تزعمون أنهم شركاء الله ، وأضاف الشركاء إليهم لما كان ذلك الاسم بزعمهم ودعواهم ، فيهذا القول من الاختصاص أضاف الشركاء إليهم ، ثم أخبر أنهم دعوهم فلم يكن في الجمادات ما يجيب ورأى الكفار العذاب ، وقوله تعالى : ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ ذهب الزجاج وغيره من المفسرين إلى أن جواب ﴿ لو ﴾ محذوف تقديره لما نالهم العذاب ولما كانوا في الدنيا عابدين للأصنام ففي الكلام على

هذا التأويل تأسف عليهم ، وذلك محتمل مع تقديرنا الجواب لما كانوا عابدين للأصنام وفي مع تقديرنا الجواب لما نالهم العذاب نعمة منا ، وقالت فرقة ﴿ لو ﴾ متعلقة بما قبلها تقديره فودّوا ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65)

(164/589)

هذا النداء أيضاً كالأول في احتماله الواسطة من الملائكة ، وهذا النداء أيضاً للكفار يوقفهم على ما أجابوا به ﴿ المرسلين ﴾ الذين دعوهم إلى الله تعالى فتعمى ﴿ عليهم الأنباء ﴾ أي أظلمت لهم الأمور فلم يجدوا خبراً يخبرون به مما لهم فيه نجاة ، وساق الفعل في صيغة المضي لتحقق وقوعه وأنه يقين ، والماضي من الأفعال متيقن فلذلك توضع صيغته بدل المستقبل المتقين وقوعه وصحته ، و" عميت " معناه أظلمت جهاتها وقرأ الأعمش " فعُمّيت " بضم العين وشد الميم ، وروي في بعض الحديث : كان الله في عماء ، وذلك قبل أن يخلق الأنوار وسائر المخلوقات ، و﴿ الأنباء ﴾ جمع نبأ ، وقوله تعالى ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ معناه فيما قال مجاهد وغيره بالأرحام والمتات الذي عرفه في الدنيا أن يتساءل به لأنهم قد أيقنوا أن كلهم لا حيلة له ولا مكانة .

ويحتمل أن يريد أنهم لا يتساءلون عن الأنباء ليقين جميعهم أنه لا حجة لهم ، ثم انتزع تعالى من الكفرة ﴿ من تاب ﴾ من كفره ﴿ وآمن ﴾ بالله ورسوله ﴿ وعمل ﴾ بالتقوى ، ورجى عز وجل فيهم أنهم يفوزون ببغيهم ويبقون في النعيم الدائم وقال كثير من العلماء " عسى " من الله واجبة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ظن حسن بالله تعالى يشبه فضله وكرمه واللازم من " عسى " أنها ترجية لا واجبة ، وفي كتاب الله عز وجل ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ [التحريم : 5] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(165/589)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وما أُوتيتم من شيء ﴾

أي : ما أُعطيتم من مال وخير ﴿ فمتاعُ الحياة الدُّنيا ﴾ تتمتَّعون به أيام حياتكم ثم يفنى وينقضي ، ﴿ وما عند الله ﴾ من الثواب ﴿ خير وأبقى ﴾ أفضل وأَدْوَم لأهله ﴿ أفلا تَعْقِلون ﴾ أَنَّ الباقي أفضل مِنَ الفاني ؟ !

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْناه وَعْداً حَسَناً ﴾ اختُلف فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي جهل .

والثاني : في عليّ وحمزة عليهما السلام ، وأبي جهل .

والقولان مرويان عن مجاهد .

والثالث : في المؤمن والكافر ، قاله قتادة .

والرابع : في عمَّار والوليد بن المغيرة ، قاله السدي .

وفي الوعد الحسن قولان .

أحدهما : الجنة .

والثاني : النصر .

قوله تعالى : ﴿ فهو لاقِيه ﴾ أي : مُصيبه ومُدْرِكه ﴿ كَمَنْ مَتَّعْناه متاع الحياة الدنيا ﴾ أي : كمن هو ممتَّع بشيء يفنى ويزول عن قريب ﴿ ثُمَّ هو يومَ القيامة من المُحْضَرِين ﴾ فيه قولان .

أحدهما : من المُحْضَرِين في عذاب الله ، قاله قتادة .

والثاني : من المُحْضَرِين للجزاء ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم ﴾

أي : ينادي اللّهُ تعالى المشركين يومَ القيامة ﴿ فيقول أين شركائيَ ﴾ هذا على حكاية قولهم ؛ والمعنى : أين شركائي في قولكم ؟ ! ﴿ قال الذين حَقَّ عليهم القول ﴾ أي : وجب

عليهم العذاب ، وهم رؤساء الضلالة ، وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم رؤوس المشركين .

والثاني : أنهم الشياطين ﴿ ربَّنا هؤلاء الذين أَغْوَينا ﴾ يعنون الأتباع ﴿ أَغْوَيناهم كما غَوَيْنا ﴾ أي : أضللناهم كما ضَلَلْنا ﴿ تبرَّأْنا إليكَ ﴾ أي : تبرَّأنا منهم إليك ؛ والمعنى : أنهم يتبرَّأُ بعضهم من بعض ويصيرون أعداءاً .

(166/589)

﴿ وقيل ﴾ لكُفَّار بني آدم ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ أي : استغيثوا بآلهتكم لتُخَلِّصكم من العذاب ﴿ فدعَوْهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي : فلم يجيبوهم إلى نصرهم ﴿ ورأَوُا العذاب لو أَنَّهم كانوا يَهْتَدون ﴾ قال الزجّاج : جواب "لو" محذوف ؛ والمعنى : لو [أنهم] كانوا يهتدون لَمَا اتَّبَعوهم ولَمَا رأَوُا العذاب .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي : ينادي اللّهُ الكفار ويسألهم ﴿ فيقولُ ماذا أجبتم المرسَلِين ﴾ .

﴿ فَعَمِيَت عليهم الأنباءُ ﴾ وقرأ أبو رزين العقيلي ، وقتادة ، وأبو العالية ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري : ﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾ برفع العين وتشديد الميم .

قال المفسرون : خفيت عليهم الحُجج ، وسمّيت أنباءً ، لأنها أخبار يُخبرَ بها .

قال ابن قتيبة : والمعنى : عَمُوا عنها من شدة الهول فلم يُجيبوا ، و ﴿ الأنباءُ ﴾ ها هنا : الحُجج .

قوله تعالى : ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحُجَّة ، قاله الضحاك .

والثاني : أن المعنى : سكتوا فلا يتساءلون في تلك الساعة ، قاله الفراء .

والثالث : لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه شيئاً من ذنوبه ، حكاه الماوردي .

﴿ فأمَّا مَنْ تاب ﴾ من الشّرك ﴿ وآمَنَ ﴾ أي : صدّق بتوحيد الله ﴿ وعَمِل صالحاً ﴾ أدّى الفرائض ﴿ فعسى أن يكون من المُفْلِحِين ﴾ و ﴿ عسى ﴾ من الله واجب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(167/589)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾

يا أهل مكة ﴿ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ﴾ أي تتمتعون بها مدّة حياتكم ، أو مدّة في

حياتكم ، فإما أن تزولوا عنها أو تزول عنكم .

﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى ﴾ أي أفضل وأدوم ، يريد الدار الآخرة وهي الجنة .

﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقي أفضل من الفاني .

قرأ أبو عمرو : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ بالياء .

الباقون بالتاء على الخطاب وهو الاختيار لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ يعني الجنة وما فيها من الثواب ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحياة الدنيا ﴾ فأعطي منها بعض ما أراد .

﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ أي في النار .

ونظيره قوله : ﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ [الصافات : 57] قال ابن عباس : نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وفي أبي جهل بن هشام .

وقال مجاهد : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل .

وقال محمد بن كعب : نزلت في حمزة وعليّ ، وفي أبي جهل وعمارة بن الوليد .

وقيل : في عمار والوليد بن المغيرة ؛ قاله السدي .

قال القشيري : والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم .

الثعلبي : وبالجملة فإنها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله في الآخرة الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي ينادي الله يوم القيامة هؤلاء المشركين ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ﴾ بزعمكم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم .

﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب وهم الرؤساء ؛ قاله الكلبي .

وقال قتادة : هم الشياطين .

﴿ رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ ﴾ أي دعوناهم إلى الغيّ .

فقيل لهم : أغويتموهم ؟ قالوا : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ .

(168/589)

يعنون أضللناهم كما كنا ضالين .

﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي تبرأ بعضنا من بعض ، والشياطين يتبرؤون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرؤون ممن قبل منهم ؛ كما قال تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين ﴾ [الزخرف : 67] .

قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ﴾ أي للكفار ﴿ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ﴾ أي استغيثوا بآلهتكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم .

﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أي استغاثوا بهم .

﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ أي فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم .

﴿ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ قال الزجاج : جواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف ؛ والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم الهدى ، ولما صاروا إلى العذاب .

وقيل : أي لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم .

وقيل المعنى : ودّوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا إذا رأوا العذاب يوم القيامة .

﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ أي يقول الله لهم ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء يَوْمَئِذٍ ﴾ أي خفيت عليهم الحجج ؛ قاله مجاهد ؛ لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة .

و"الأَنْبَاءُ" الأخبار ؛ سَمَّى حججهم أنباء لأنها أخبار يخبرونها .

﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج ؛ لأن الله تعالى أدحض حججهم ؛ قاله الضحاك .

وقال ابن عباس : ﴿ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي لا ينطقون بحجة .

وقيل : ﴿ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ في تلك الساعة ، ولا يدرون ما يجيبون به من هول تلك الساعة

، ثم يجيبون بعد ذلك كما أخبر عن قولهم : ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] .

وقال مجاهد : لا يتساءلون بالأنساب .

وقيل : لا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل من ذنوبه شيئاً ؛ حكاه ابن عيسى .

(169/589)

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ أي من الشرك ﴿ وَآمَنَ ﴾ أي صدّق ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ أدى الفرائض وأكثر من النوافل ﴿ فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ﴾ أي من الفائزين بالسعادة .

وعسى من الله واجبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(170/589)

وقال أبو حيان :

﴿ وما أوتيتم من شيء ﴾ : أي حسن يسركم وتفخرون به ، ﴿ فمتاع الحياة الدنيا

وزينتها ﴾ : تمتعون أياماً قلائل ، ﴿ وما عند الله ﴾ : من النعيم الدائم الباقي المعد للمؤمنين ، ﴿ خير ﴾ .

من متاعكم ، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ : توبيخ لهم .

وقرأ أبو عمرو : يعقلون ، بالياء ، إعراض عن خطابهم وخطاب لغيرهم ، كأنه قال : انظروا إلى هؤلاء وسخافة عقولهم .

وقرأ الجمهور : بالتاء من فوق ، على خطابهم وتوبيخهم ، في كونهم أهملوا العقل في العاقبة .

ونسب هذه القراءة أبو علي في الحجة إلى أبي عمرو وحده ، وفي التحرير والتحبير بين الياء والتاء ، عن أبي عمرو .

وقرىء : متاعاً الحياة الدنيا ، أي يمتعون متاعاً في الحياة الدنيا ، فانتصب الحياة الدنيا على الظرف .

﴿ أفمن وعدناه ﴾ : يذكر تفاوت ما بين الرجلين من وعد ، ﴿ وعداً حسناً ﴾ ، وهو الثواب ، فلاقاه ، ومن متع في الحياة الدنيا ، ثم أحضر إلى النار .

وظاهر الآية العموم في المؤمن والكافر .

قيل : ونزلت في الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأبي جهل .

وقيل : في حمزة وأبي جهل .

وقيل : في عليّ وأبي جهل .

وقيل : في عمار والوليد بن المغيرة .

وقيل : نزلت في المؤمن والكافر ، وغلب لفظ المحضر في المحضر إلى النار كقوله : ﴿ لكنت من المحضرين ﴾ ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ والفاء في : ﴿ أفمن ﴾ ، للعطف ، لما ذكر تفاوت ما بين ما أوتوا من المتاع والزينة ، وما عند الله من الثواب ، قال : أفبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا ؟ والفاء في : ﴿ فهو لاقيه ﴾ ، للتسبيب ، لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخبر ، وثم للتراخي حال الإحضار عن حال التمتع بتراخي وقته عن وقته .

وقرأ طلحة : أمن وعدناه ، بغير فاء .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

(171/589)

لما ذكر أن الممتعين في الدنيا يحضرون إلى النار ، ذكر شيئاً من أحوال يوم القيامة ، أي واذكر حالهم يوم يناديهم الله ، ونداؤه إياهم يحتمل أن يكون بواسطة وبغير واسطة ؛ ﴿ فيقول أين شركائي ﴾ ؟ أي على زعمكم ، وهذا الاستفهام على جهة التوبيخ والتقريع ؛ والشركاء هم من عبدوه من دون الله ، من ملك ، أو جنّ ، أو إنس ، أو كوكب ، أو صنم ، أو غير

ذلك .

ومفعولا ﴿ تزعمون ﴾ محذوفان ، أحدهما العائد على الموصول ، والتقدير : تزعمونهم شركاء .

ولما كان هذا السؤال مسكتاً لهم ، إذ تلك الشركاء التي عمدوها مفقودون ، هم أوجدوا هم في الآخرة حادوا عن الجواب إلى كلام لا يجدي .

﴿ قال الذين حق عليهم القول ﴾ : أي الشياطين ، وأئمة الكفر ورؤوسه ؛ وحق : أي وجب عليهم القول ، أي مقتضاه ، وهو قوله : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ و ﴿ هؤلاء ﴾ : مبتدأ ، و ﴿ الذين أغوينا ﴾ : هم صفة ، و ﴿ أغويناهم كما غوينا ﴾ : الخبر ، و ﴿ كما غوينا ﴾ : صفة لمطاوع أغويناهم ، أي فغووا كما غوينا ، أي تسببنا لهم في الغي فقبلوا منا .

وهذا الإعراب قاله الزمخشري .

وقال أبو عليّ : ولا يجوز هذا الوجه ، لأنه ليس في الخبر زيادة على ما في صفة المبتدأ .

قال : فإن قلت : قد وصلت بقوله : ﴿ كما غوينا ﴾ ، وفيه زيادة .

قيل : الزيادة بالظرف لا تصيره أصلاً في الجملة ، لأن الظروف صلات ، وقال هو : ﴿ الذين أغوينا ﴾ هو الخبر ، و ﴿ أغويناهم ﴾ : مستأنف .

وقال غير أبي علي : لا يمتنع الوجه الأول ، لأن الفضلات في بعض المواضع تلزم ، كقولك :

زيد عمرو قائم في داره . انتهى .

والمعنى : هؤلاء أتباعنا آثروا الكفر على الإيمان ، كما آثرناه نحن ، ونحن كنا السبب في كفرهم ، فقبلوا منا .

وقرأ أبان ، عن عاصم وبعض الشاميين : كما غوينا ، بكسر الواو .

قال ابن خالويه : وليس ذلك مختاراً ، لأن كلام العرب : غويت من الضلالة ، وغويت من البشم .

(172/589)

ثم قالوا : ﴿ تبرأنا إليك ﴾ ، منهم ما كانوا يعبدوننا ، إنما عبدوا غيرنا ، و ﴿ إيانا ﴾ : مفعول ﴿ يعبدون ﴾ ، لما تقدّم الفصل ، وانفصاله لكون يعبدون فاصلة ، ولو اتصل ، ثم لم يكن فاصلة .

وقال الزمخشري : إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم ؛ وإخلاء الجملتين من العاطف ، لكونهما مقرونين لمعنى الجملة الأولى . انتهى .

﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ : لما سئلوا أين شركاؤكم وأجابوا بغير جواب ، سئلوا ثانياً فقيل : ادعوا شركاءكم ، وأضاف الشركاء إليهم ، أي الذين جعلتموهم شركاء لله .

وقوله : ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ ، على سبيل التهكم بهم ، لأنه يعلم أنه لا فائدة في دعائهم ، ﴿ فدعوهم ﴾ ، هذا لسخافة عقولهم في ذلك الموطن أيضاً ، إذ لم يعلموا أن من كان موجوداً منهم في ذلك الموطن لا يجيبهم ، والضمير في ﴿ ورأوا ﴾ .

قال الضحاك ومقاتل : هو للتابع والمتبوع ، وجواب لو محذوف ، والظاهر أن يقدر مما يدل عليه مما يليه ، أي لو كانوا مؤمنين في الدنيا ، ما رأوا العذاب في الآخرة .

وقيل : التقدير : لو كانوا مهتدين بوجه من وجوه الحيل ، لدفعوا به العذاب .

وقيل : لعلموا أن العذاب حق .

وقيل : لتحيروا عند رؤيته من فظاعته ، وإن لم يعذبوا به ، وقيل : ما كانوا في الدنيا عابدين الأصنام .

وقال أبو عبد الله الرازي : وعندي أن الجواب غير محذوف ، وفي تقريره وجوه : أحدها : أن الله إذا خاطبهم بقوله : ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ ، اشتدّ خوفهم ولحقهم شيء بحيث لا يبصرون شيئاً ، لا جرم ما رأوا العذاب .

وثانيها : لما ذكر الشركاء ، وهي الأصنام ، وأنهم لا يجيبون الذين دعوهم ، قال في حقهم : ﴿ ورأوا العذاب ﴾ ، لو كانوا من الأحياء المهتدين ، ولكنها ليست كذلك ، ولا جرم ما رأت العذاب .

والضمير في رأوا ، وإن كان للعقلاء ، فقد قال : ودعوهم وهم للعقلاء .

انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

(173/589)

وقد أثنى على هذا الذي اختاره ، وليس بشيء ، لأنه بناه على أن الضمير في رأوا عائد على المدعوين ، قال : وهم الأصنام .

والظاهر أنه عائد على الداعين ، كقوله : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين أتبعوا ورأوا العذاب ﴾ ولأن حمل مهتدين على الأحياء في غاية البعد ، لأن ما قدره هو جواب ، ولا يشعر به أنه جواب ، إذ صار التقدير عنده : لو كانوا من الأحياء رأوا العذاب ، لكنها ليست من الأحياء ، فلا ترى العذاب .

ألا ترى إلى قوله : فلا جرم ما رأت العذاب ؟

﴿ ويوم يناديهم ﴾ : هذا النداء أيضاً قد يكون بواسطة من الملائكة ، أو بغير واسطة .

حكى أولاً ما يوبخهم من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله رؤوس الكفر عند توبيخهم ، ثم استعانتهم بشركائهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزالة العلل .

وقرأ الجمهور : ﴿ فعميت ﴾ بفتح العين وتخفيف الميم .

وقرأ الأعمش ، وجناح بن حبيش ، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير : بضم العين وتشديد الميم ، والمعنى : أظلمت عليهم الأمور ، فلم يستطيعوا أن يخبروا بما فيه نجاة لهم ، وأتى بلفظ الماضي لتحقق وقوعه .

﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ ، وقرأ طلحة : يساءلون ، بإدغام التاء في السين : أي لا يسأل بعضهم بعضاً فيما يتحاجون به ، إذا أيقنوا أنه لا حجة لهم ، فهم في عمى وعجز عن الجواب .

والمراد بالنبأ : الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله .

ولما ذكر تعالى أحوال الكفار يوم القيامة ، وما يكون منهم فيه ، أخبر بأن من تاب من الشرك وآمن وعمل صالحاً ، فإنه مرجو له الفلاح والفوز في الآخرة ، وهذا ترغيب للكافر في الإسلام ، وضمان له للفلاح .

ويقال : إن عسى من الله واجبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(174/589)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾

من أمور الدُّنيا ﴿ فمتاع الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ﴾ أي فهو شيءٌ شأنه أنْ يتمتَّعَ ويتزينَ به أياماً قلائل ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ ﴾ وهو الثَّوابُ ﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسِه من ذلك لأنَّه لذَّةٌ خالصةٌ عن شوائبِ الألم وبهجةٌ كاملة عارية عن سِمةِ الهمِّ ﴿ وأبقى ﴾ لأنَّه أبديّ ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ ألا تتفكرونَ فلا تعقلون هذا الأمرَ الواضحَ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ .

وقُرِىء بالياءِ على الالتفات المبنيِّ على اقتضاء سوء صنيعهم الإعراضَ عن مخاطبتِهم .

﴿ أَفَمَن وعدناه وَعْداً حَسَناً ﴾ أي وَعداً بالجنَّة فإنَّ حسنَ الوعدِ بحسن الموعودِ ﴿ فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ أي مدركُه لا محالةَ لاستحالةِ الخُلفِ في وعدِه تعالى ولذلك جيء بالجملة الاسميةِ المفيدة لتحققِه ألبتةَ وعُطفت بالفاء المنبئةِ عن معنى السببيةِ ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ متاع الحياة الدنيا ﴾ الذي هو مشوبٌ بالآلامِ منغصٌ بالأكدارِ مستتبع للتَّحسرِ على الانقطاعِ .

ومعنى الفاءِ الأُولى ترتيبُ إنكارِ التَّشابهِ بين أهلِ الدُّنيا وأهلِ الآخرةِ على ما قبلها من ظهورِ التَّفاوتِ بين متاعِ الحياة الدُّنيا وبين ما عندَ الله تعالى ، أي أبعدَ هذا التَّفاوت الظاهرِ يسوَّى بين الفريقين . وقولُه تعالى : ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ عطفٌ على متَّعناه داخلٌ معه في حيِّز الصِّلةِ مؤكدٌ لإنكارِ التَّشابهِ مقررٌ له كأنَّه قيل : كمن متَّعناه متاعَ الحياةِ الدُّنيا ثم نحضرُه أو أحضرناه يومَ القيامةِ النَّارَ أو العذابَ . وإيثارُ الجملة الاسميَّةِ للدلالةِ على

التحققِ حتماً ، وفي جعله من جُملة المحضرينَ من التَّهويلِ ما لا يخفى . وثمَّ للتَّراخي في الزَّمانِ أو في الرُّتبةِ . وقُرِىء ثم هْو بسكونِ الهاءِ تشبيهاً للمنفصلِ بالمتَّصلِ .

(175/589)

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ منصوبٌ بالعطفِ على يومَ القيامةِ لاختلافهما عُنواناً وإنِ اتَّحدا ذاتاً أو بإضمارِ اذكُر ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تفسيرٌ للنّداءِ ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي الذينَ كنتُم تزعمونَهم شركائي ، فحُذف المفعولانِ معاً ثقةً بدلالةِ الكلامِ عليهما ﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على حكايةِ السُّؤالِ كأنَّه قيل : فماذا صدرَ عنهُم حينئذٍ ؟ فقيل : قالَ : ﴿ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ وهو شركاؤهم مِن الشَّياطينِ أو رؤساؤهم الذين اتَّخذوهم أرباباً من دونِ الله تعالى بأنْ أطاعوهم في كلِّ ما أمروهم به ونهَوا عنه ، ومعنى حقَّ عليهم القول أنه ثبتَ مُقتضاه وتحقَّق مؤدَّاه وهو قوله تعالى : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ وغيره من آياتِ الوعيد . وتخصيصُهم بهذا الحكم مع شمولِه للأتباع أيضاً لأصالتِهم في الكفرِ واستحقاقِ العذابِ حسبما يشعرُ به قولُه تعالى : ﴿ لاَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ ومسارعتُهم إلى الجوابِ مع كون السؤال للعَبَدة إما لتفطُّنهم أنَّ السؤال عنهم لاستحضارِهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأنَّ العَبَدةَ سيقولون : هؤلاءِ أضلُّونا

وإمَّا لأنَّ العبَدَة قد قالوه اعتذاراً وهؤلاء إنَّما قالوا ما قالوا ردّاً لقولِهم إلا أنَّه لم يُحكَ قولُ العَبَدة إيجازاً لظهوره ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء الذين أَغْوَيْنَا ﴾ أي هم الذين أغويناهُم فحذف الرَّاجع إلى الموصولِ ومرادُهم بالإشارة بيانُ أنَّهم يقولون ما يقولون بمحضرٍ منهم وأنَّهم غيرُ قادرينَ على إنكارِه وردِّه وقوله تعالى : ﴿ أغويناهم كَمَا غَوَيْنَا ﴾ هو الجوابُ حقيقةً وما قبله تمهيدٌ له أي ما أكرهناهم على الغيِّ وإنما أغويناهم بطريقِ الوسوسةِ والتَّسويل لا بالقسر والإلجاء فغَووا باختيارِهم غيّاً مثل غيِّنا باختيارِنا ويجوز أن يكون الذين صفةً لاسم الإشارة وأغويناهم

(176/589)

الخبرَ ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ ومنهم وممَّا اختارُوه من الكفرِ والمَعَاصي هو منهم وهو تقريرٌ لما قبله ولذلك لم يعطف عليهِ وكذا قولُه تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ أي ما كانُوا يعبدوننا وإنَّما كانوا يعبدون أهواءَهم ، وقيل : ما مصدريةٌ متَّصلة بقوله تعالى : ﴿ تَبَرَّأْنَا ﴾ أي تبرأنا من عبادتِهم إيَّانا .

﴿ وَقِيلَ ادعوا شُرَكَاءكُمْ ﴾ إما تهكُّماً أو تبكيتاً لهم ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ لفرطِ الحيرةِ ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ ضرورةَ عدمِ قُدرتهم على الاستجابةِ والنُّصرة ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب

﴿ قد غشيهم ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ لوجهٍ من وجوهِ الحيلِ يدفعون به العذابَ أو إلى الحقِّ لما لقُوا ما لقُوا وقيل : "لو" للتَّمنِّي أي تمنَّوا لو أنَّهم كانُوا مهتدين .

(177/589)

﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ عطفٌ على ما قبله سُئلوا أولاً عن إشراكِهم وثانياً عن جوابِهم للرُّسلِ الذين نَهَوهم عن ذلك ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الانباء يَوْمَئِذٍ ﴾ أي صارتْ كالعَمَى عنهم لا تهتدي إليهم وأصله فعَمُوا عن الأنباءِ وقد عكس للمبالغةِ والتنبيهِ على أنَّ ما يحضر الذهن يفيضُ عليه ويصل إليه من خارجٍ فإذا أخطأ لم يكُن له حيلةٌ إلى استحضارِه . وتعديةُ الفعلِ بعلى لتضمنه معنى الخفاءِ والاشتباهِ ، والمرادُ بالأنباءِ إمَّا ما طلب منهم ممَّا أجابُوا به الرُّسلَ أو جميعُ الأنباءِ وهي داخلةٌ فيه دخولاً أولياً وإذا كانتِ الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام يفوِّضون العلمَ في ذلك المقامِ الهائلِ إلى علاَّم الغُيوب مع نزاهتِهم عن غائلةِ المسؤول فما ظنُّك بأولئكَ الضُّلاَّل من الأممِ ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن الجوابِ لفرطِ الدَّهشة أو العلمِ بأنَّ الكلَّ سواءٌ في الجهل ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشركِ ﴿ وَامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أي جمعَ بين الإيمانِ والعملِ الصَّالح ﴿ فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ﴾ أي الفائزينَ بالمطلوبِ عنده تعالى النَّاجينَ عن المهروبِ ،

وعسى للتَّحقيقِ على عادةِ الكرامِ أو للترجّي من قبلِ التَّائبِ بمعنى فليتوقعِ الإفلاحَ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(178/589)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾

أي أي شيء أصبتموه من أمور الدنيا وأسبابها ﴿ فمتاع الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ﴾ فهو شيء شأنه أن يتمتع به ويتزين به أياماً قلائل ويشعر بالقلة لفظ المتاع وكذا ذكر ﴿ أبقى ﴾ في المقابل وفي لفظ الدنيا إشارة إلى القلة والخسة ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ ﴾ في الجنة وهو الثواب ﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خالصة وبهجة كاملة ﴿ وأبقى ﴾ لأنه أبدى وأين المتناهي من غير المتناهي ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أي ألا تتفكرون فلا تفعلون هذا الأمر الواضح فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير وتخافون على ذهاب ما أصبتموه من متاع الحياة الدنيا وتمتنعون عن اتباع الهدى المفضي إلى ما عند الله تعالى لذلك فكأن هذا رد عليهم في منع خوف التخطف إياهم من اتباعه صلى الله عليه وسلم على تقدير تحقق وقوع ما يخافونه .

وقرأ أبو عمرو يعقلون بياء الغيبة على الالتفات وهو أبلغ في الموعظة لإشعاره بأنهم لعدم عقلهم لا يصلحون للخطاب ، فالالتفات هنا لعدم الالتفات زجراً لهم وقرىء ﴿ وأبقى قَالُواْ لَن ﴾ أي فتتمتعون به في الحياة الدنيا فنصب متاعاً على المصدرية والحياة على الظرفية .

(179/589)

﴿ أَفَمَن وعدناه وَعْداً حَسَناً ﴾ أي وعداً بالجنة وما فيها من النعيم الصرف الدائم فإن حسن الوعد بحسن الموعود ﴿ فَهُوَ ﴾ أي مدركاً لا محالة لاستحالة الخلف في وعده تعالى ولذلك جيء بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة وعطفت بالفاء المنبئة عن السببية ﴿ كَمَنْ مَّتَّعْنَاهُ متاع الحياة الدنيا ﴾ الذي هو مشوب بالآلام منغص بالأكدار مستتبع بالتحسر على الانقطاع ، ومعنى الفاء الأولى ترتيب إنكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله تعالى أي أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوى بين الفريقين وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ عطف على متعناه داخل معه في حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه مقوله كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو أحضرناه يوم القيامة للنار أو العذاب وغلب لفظ

المحضر في المحضر لذلك والعدول إلى الجملة الاسمية قيل للدلالة على التحقق حتماً ولا يضر كون خبرها ظرفاً مع العدول وحصول الدلالة على التحقق لو قيل أحضرناه لا ينافي ذلك ، وقد يقال : إن فيما ذكر في "النظم الجليل" شيء آخر غير الدلالة على التحقيق ليس في قولك ثم أحضرناه يوم القيامة كالدلالة على التقوى أو الحصر والدلالة على التهويل والإيقاع في حيرة ، ولمجموع ذلك جيء بالجملة الاسمية ، ويوم متعلق بالمحضرين المذكور ، وقدم عليه للفاصلة أو هو متعلق بمحذوف وقد مر الكلام في مثل ذلك ، وثم للتراخي في الرتبة دون الزمان وإن صح وكان فيه إبقاء اللفظ على حقيقته لأنه أنسب بالسياق وهو أبلغ وأكثر إفادة وأرباب البلاغة يعدلون إلى المجاز ما أمكن لتضمنه لطائف النكات .

وقرأ طلحة ﴿ مِن وعدناه ﴾ بغير فاء ، وقرأ قالون .

(180/589)

والكسائي ﴿ ثُمَّ هُوَ ﴾ بسكون الهاء كما قيل : عضد وعضد تشبيهاً للمنفصل وهو الميم الأخير من ثم بالمتصل ، والآية نزلت على ما أخرج ابن جرير عن مجاهد في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل .

وأخرج من وجه آخر عنه أنها نزلت في حمزة وأبي جهل ، وقيل : نزلت في علي كرم الله

تعالى وجهه وأبي جهل ونسب إلى محمد بن كعب .

والسدي ، وقيل : في عمار رضي الله تعالى عنه .

والوليد بن المغيرة ، وقيل : نزلت في المؤمن والكافر ملطقاً .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ عطف على ﴿ يوم القيامة ﴾ [القصص : 61] لاختلافهما عنواناً وإن اتحدا ذاتاً أو منصوب بإضمار اذكر ونداؤه تعالى إياهم يحتمل أن يكون بواسطة وأن يكون بدونها وهو نداء إهانة وتوبيخ ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تفسير للنداء ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي فإن زعم مما يتعدى إلى مفعولين كقوله :

وأن الذي قد عاش يا أم مالك . . .

يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلاً

وحذف هنا المفعولان معاً ثقة بدلالة الكلام عليهما نحو من يسمع يخل .

وفي "الكشاف" يجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يصح الاقتصار على أحدهما ، وادعى بعضهم أن عدم صحة الاقتصار هو الأصح وأنه الذي ذهب إليه الأكثرون .

وقال الأخفش : إذا دخلت هذه الأفعال ظن وأخواتها على أن نحو ظننت أنك قائم فالمفعول الثاني منهما محذوف والتقدير ظننت قيامك كائناً لأن المفتوحة بتأويل المفرد .

وسيبويه يرى في ذلك أن أن مع ما بعدها سدت مسد المفعولين ، وأجاز الكوفيون الاقتصار على الأول إذا سد شيء مسد الثاني كما في باب المبتدأ نحو أقائم أخواك فيقولون هل

ظننت قائماً أخواك ؟ وقال أبو حيان : إذا دل دليل على أحدهما جاز حذفه كقوله :

كأن لم يكن بين إذا كان بعده . . .

تلاق ولكن لا أخال تلاقياً

(181/589)

أي لا أخال بعد البين تلاقياً وقال صاحب التحفة : يجوز الاقتصار في باب كسوت على أحد المفعولين بدليل وبغير دليل لأن الأول فيهما غير الثاني وأجاز بعضهم حذف الأول إذا كان هو الفاعل معنى نحو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ ﴾ [النور : 57] أي ولا يحسبن الذين كفروا إياهم أي أنفسهم معجزين ، وقال الطيبي : في عدم الحذف فيما عدا ما ذكر .

وجواز الحذف فيه لعل السر أن هذه الأفعال قيود للمضامين يتدخل على الجمل الاسمية لبيان ما هي عليه لأن النسبة قد تكون عن علم وقد تكون عن ظن فلو اقتصر على أحد طرفي الجملة لقيام قرينة توهم أن الذي سيق له الكلام والذي هو مهتم بشأنه الطرف المذكور وليس غير المذكور مما يعتني به ، نعم إذا كان الفاعل والمفعول لشيء واحد يهون الخطب ، وذكر عن صاحب الإقليد ما يؤيده وقد أطال طيب الله تعالى مرقده الكلام في هذا المقام ،

وادعى ابن هشام أن الأولى أن يقدر هنا الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي لأنه لم يقع الزعم في التنزيل على المفعولين الصريحين بل على أن وصلتها كقوله تعالى : ﴿ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء ﴾ [الأنعام : 94] وفيه نظر .

والظاهر أن المراد بالشركاء من عبد من دون الله تعالى من ملك أو جن أو إنس أو كوكب أو صنم أو غير ذلك .

(182/589)

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على حكاية السؤال كأنه قيل : فماذا كان بعد هذا السؤال فقيل قال : ﴿ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي ثبت عليهم مقتضى القول وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 119] وغيره من آيات الوعيد ، والمراد بالموصول الشركاء الذين كانوا يزعمونهم شركاء من الشياطين ورؤساء الكفر ، وتخصيصهم بما في حيز الصلة مع شمول مضمونها الاتباع أيضاً لأصالتهم في الكفر واستحقاق العذاب ، والتعبير عنهم بذلك دون الذين زعموهم شركاء لإخراج مثل عيسى وعزير والملائكة عليهم السلام لشمول الشركاء على ما سمعت له ، ومسارعتهم إلى الجواب مع كون السؤال للعبدة لتفطنهم إن السؤال منهم سؤال توبيخ وإهانة وهو يستدعي

استحضارهم وتوبيخهم بالإضلال وجزمهم بأن العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا ، وقيل : يجوز أن يكون العبدة قد أجابوا معتذرين بقولهم هؤلاء أضلونا ثم قال الشركاء ما قص الله تعالى رداً لقولهم ذلك إلا أنه لم يحك إيجازاً لظهوره ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء الذين أَغْوَيْنَا ﴾ تمهيد للجواب والإشارة إلى العبدة لبيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم وأنهم غير قادرين على إنكاره ورده و ﴿ هَؤُلاء ﴾ مبتدأ خبره الموصول بعده ، وجملة أغوينا صلة الموصول والعائد محذوف للتصريح به فيما بعد أي الذين أغويناهم ، وقوله تعالى :

﴿ أغويناهم كَمَا غَوَيْنَا ﴾ هو الجواب حقيقة أي ما أكرهناهم على الغي وإنما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والإلجاء فغووا باختيارهم غياً مثل غينا باختيارنا ، ويجوز أن يكون الموصول صفة اسم الإشارة والخبر جملة أغويناهم كما غيونا ومنع ذلك أبو علي في التذكرة بأنه يؤدي إلى أن الخبر لا يكون فيه فائدة زائدة لأن إغواءهم إياهم قد علم من الوصف .

(183/589)

ورد بأن التشبيه دل على أنهم غووا باختيار لا أن الإغواء إلجاء وقوله : إن كما غوينا فضلة فلا تصير ذاك أصلاً في الجملة ليس بشيء لأن الفضلات قد تلزم في بعض المواضع نحو زيد

عمرو قائم في داره وقرأ أبان عن عاصم وبعض الشاميين ﴿ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ بكسر الواو ، قال ابن خالويه : وليس ذلك مختاراً لأن كلام العرب غويت من الضلالة وغويت بالكسر من البشم ﴿ تَبَرَّأْنَا ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هوى من أنفسهم موجهين التبرؤ ومهيئين له ﴿ إِلَيْكَ ﴾ والجملة تقرير لما قبلها لأن الإقرار بالغواية تبرؤ في الحقيقة ولذا لم تعطف عليه وكذا قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون في نفس الأمر والمآل أهواءهم ، وقيل : ما مصدرية متصلة بقوله تعالى : ﴿ تَبَرَّأْنَا ﴾ وهناك جار مقدر أي تبرأنا من عبادتهم إياناً وجعلها نافية على أن المعنى ما كانوا يعبدوننا باستحقاق وحجة ليس بشيء وأياً ما كان فإيانا مفعول يعبدون قدم للفاصلة .

﴿ وَقِيلَ ﴾ تقريعاً لهم وتهكماً بهم ﴿ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ الذين زعمتم ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ لفرط الحيرة وإلا فليس هناك طلب حقيقة للدعاء ، وقيل : دعوهم لضرورة الامتثال على أن هناك طلباً ، والغرض من طلب ذلك منهم تفضيحهم على رؤوس الأشهاد بدعاء من لا نفع له لنفسه قيل : والظاهر من تعقيب صيغة الأمر بالفاء في قوله تعالى : ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أنها لطلب الدعاء وإيجابه والأول أبلغ في تهويل أمر أولئك الكفرة والإشارة إلى سوء حالهم وأمر التعقيب بالفاء سهل ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ ضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة ، وجوز أن يكون المراد فلم يجيبوهم لأنهم في شغل شاغل عنهم ولعلهم

ختم على أفواههم إذ ذاك ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب ﴾ الظاهر أن الضمير للداعين وقال الضحاك : هو للداعين والمدعوين جميعاً ، وقيل : هو للمدعوين فقط وليس بشيء .

(184/589)

والظاهر أن الرؤية بصرية ورؤية العذاب إما على معنى رؤية مباديه أو على معنى رؤيته نفسه بتنزيله منزلة المشاهد ، وجوز أن تكون علمية والمفعول الثاني محذوف أي رأوا العذاب متصلاً بهم أو غاشياً لهم أو نحو ذلك .

وأنت تعلم أن حذف أحد مفعولي أفعال القلوب مختلف في جوازه وتقدم آنفاً عن البعض أن الأكثرين على المنع فمن منع وقال في بيان المعنى ورأوا العذاب متصلاً بهم جعل متصلاً حالاً من العذاب ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ لو شرطية وجوابها محذوف أي لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب لدفعوا به العذاب أو لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين مؤمنين لما رأوا العذاب .

واعترض بأن الدال على المحذوف رأوا العذاب وهو مثبت فلا يقدر المحذوف منفياً وهو غير وارد لأن الالتفات إلى المعنى وإذا جاز الحذف لمجرد دلالة الحال فإذا انضم إليها شهادة المقال كان أولى وأولى ، وجوز أن تكون ﴿ لَوْ ﴾ للتمني أي تمنوا لو أنهم كانوا مهتدين فلا

تحتاج إلى الجواب وقال صاحب التقريب : فيه نظر إذ حقه أن يقال لو كنا إلا أن يكون على الحكاية كاقسم ليضربن أو على تأويل رأوا متمنين هدايتهم .

وجوز على تقدير كونها للتمني أن يكون قد وضع لو أنهم كانوا مهتدين موضع تحيروا لرؤيته كان كل أحد يتمنى لهم الهداية عند ذلك الهول والتحير ترحماً عليهم أو هو من الله تعالى شأنه على المجاز كما قيل : في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُواْ واتقوا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ ﴾ [البقرة : 103] ، وجعل الطيبي وضعه موضعه من إطلاق المسبب على السبب لأن تحيرهم سبب حامل على هذا القول .

(185/589)

وقال عليه الرحمة : إن النظم على هذا الوجه ينطبق ، واختار الإمام الرازي أنها شرطية إلا أنه لم يرتض ما قالوه في تقدير الجواب فقال بعد نقل ما قالوه : وعندي أن الجواب غير محذوفة ، وفي تقريره وجوه أحدها : أن الله تعالى إذا خاطبهم بقوله سبحانه : ﴿ ادعوا شُرَكَاءكُمْ ﴾ فهناك يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسدر والدوار فيصيرون بحيث لا يبصرون شيئاً ، فقال سبحانه : ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يبصرون شيئاً على معنى أنهم لم يروا العذاب لأنهم صاروا بحيث لا يبصرون شيئاً ، وثانيها : أنه تعالى لما ذكر عن

الشركاء وهي الأصنام إنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقهم : ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ أي هذه الأصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الأحياء المهتدين ، ولكنها ليست كذلك ، والإتيان بمضير العقلاء على حسب اعتقاد القوم بهم ، وثالثها : أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقية هذا العذاب لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فإن ذلك يقتضي تفكيك نظم الآية اه ولعمري أنه لم يأت بشيء وما يرد عليه أظهر من أن يخفى على من له أدنى تمييز بين الحي واللي .

﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾

عطف على الأول سئلوا أولاً عن إشراكهم لأنه المقصود من ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ [القصص : 62] ، وثانياً عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنباء يَوْمَئِذٍ ﴾

(186/589)

أصله فعموا عن الأنباء أي لم يهتدوا إليها ، وفيه استعارة تصريحية تبعية حيث استعير العمى لعدم الاهتداء ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم وضمن العمى معنى

الخفاء فعدى بعلى ولولاه لتعدى بعن ولم يتعلق بالأنباء لأنها مسموعة لا مبصرة ، وفي هذا القلب دلالة على أن ما يحضر الذهن يفيض عليه ويصل إليه من الخارج ونفس الأمر إما ابتداءً وإما بواسطة تذكر الصورة الواردة منه بأماراتها الخارجية فإذا أخطأ الذهن الخارج بأن لم يصل إليه لانسداد الطريق بينه وبينه بعمى ونحوه لم يمكنه إحضار ولا استحضار ، وذلك لأنه لما جعل الأنباء الواردة عليهم من الخارج عمياً لا تهتدي دل على أنهم عمي لا يهتدون بالطريق الأولى لأن اهتداءهم بها فإذا كانت هي في نفسها لا تهتدي فما بالك بمن يهتدي بها كذا قيل : فليتدبر ، وجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية تخيلية أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم ، والمراد بالأنباء إما ما طلب منهم مما أجابوا به الرسل عليهم السلام أو ما يعمها وكل ما يمكن الجواب به ، وإذا كانت الرسل عليهم السلام يتتعتعون في الجواب عن مثل ذلك في ذلك المقام الهائل ويفوضون العلم إلى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤول فما ظنك بأولئك الضلال من الأمم .

وقرأ الأعمش .

وجناح بن حبيش .

وأبو زرعة بن عمرو بن جرير ﴿ فَعُمِّيَتْ ﴾ بضم العين وتشديد الميم .

﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً لفرط الدهشة أو العلم بأن الكل سواء في

الجهل ، والفاء إما تفصيلية أو تفريعية لأن سبب العمى فرط الدهشة .

وقرأ طلحة ﴿ لا ﴾ بإدغام التاء في السين .

(187/589)

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ أي من الشرك ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ أي جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ﴾ أي الفائزين بالمطلوب عنده عز وجل الناجين عن المهروب و ﴿ عَسَى ﴾ للتحقيق على عادة الكرام أو للترجي من قبل التائب المذكور بمعنى فليتوقع أن يفلح ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ﴾ قيل لتفصيل المجمل الواقع في ذهن السامع من بيان ما يؤول إليه حال المشركين ، وهو أن حال من تاب منهم كيف يكون ، والدلالة على ترتب الإخبار به على ما قبله فالآية متعلقة بما عندها .

وقال الطيبي : هي متعلقة بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن وعدناه وَعْداً حَسَناً ﴾ [القصص : 61] والحديث عن الشركاء مستطرد لذكر الإحضار ، وتعقبه في "الكشف" بأن الظاهر أنه ليس متعلقاً به بل لما ذكر سبحانه حال من حق عليه القول من التابع والمتبوع قال تعالى شأنه حثاً لهم على الإقلاع : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ مِنْهُمْ وَآمَنَ ﴾ فكأنه قيل : ما ذكر لمصيرهم فأما من تاب فكلا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 20 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾

لما ذكرهم الله بنعمه عليهم تذكيراً أدمج في خلال الرد على قولهم ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ [القصص : 57] بقوله ﴿ تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴾ [القصص : 57] أعقبه بأن كل ما أوتوه من نعمة هو من متاع الحياة الدنيا كالأمن والرزق ، ومن زينتها كاللباس والأنعام والمال ، وأما ما عند الله من نعيم الآخرة من ذلك وأبقى لئلا يحسبوا أن ما هم فيه من الأمن والرزق هو الغاية المطلوبة فلا يتطلبوا ما به تحصيل النعيم العظيم الأبدي ، وتحصيله بالإيمان .

ولا يجعلوا ذلك موازناً لاتباع الهدى وإن كان في اتباع الهدى تفويت ما هم فيه من أرضهم وخيراتها لو سلم ذلك .

هذا وجه مناسبة هذه الآية لما قبلها .

و﴿ من شيء ﴾ بيان ل ﴿ ما أوتيتم ﴾ والمراد من أشياء المنافع كما دل عليه المقام لأن الإيتاء شائع في إعطاء ما ينفع .

وقد التفت الكلام من الغيبة من قوله ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لهم حرماً ﴾ [القصص : 57] إلى الخطاب في قوله ﴿ أوتيتم ﴾ لأن ما تقدم من الكلام أوجب توجيه التوبيخ مواجهة اليهم .

والمتاع : ما ينتفع به زمناً ثم يزول .

والزينة : ما يحسن الأجسام .

والمراد بكون ما عند الله خيراً ، أن أجناس الآخرة خير مما أوتوه في كمال أجناسها ، وأما كونه أبقى فهو بمعنى الخلود .

وتفرع على هذا الخبر استفهام توبيخي وتقريري على عدم عقل المخاطبين لأنهم لما لم يستدلوا بعقولهم على طريق الخير نزّلوا منزلة من أفسد عقله فسئلوا : أهم كذلك ؟ .

وقرأ الجمهور ﴿ تعقلون ﴾ بتاء الخطاب .

وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿ يعقلون ﴾ بياء الغيبة على الالتفات عن خطابهم لتعجب المؤمنين من حالهم ، وقيل : لأنهم لما كانوا لا يعقلون نزلوا منزلة الغائب لبعدهم عن مقام الخطاب .

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

أحسب أن موقع فاء التفريع هنا أن مما أوما إليه قوله ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ [القصص : 60] ما كان المشركون يتبجحون به على المسلمين من وفرة الأموال ونعيم الترف في حين كان معظم المسلمين فقراء ضعفاء قال تعالى ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين ﴾ [المطففين : 31] أي منعمين ، وقال ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ [المزمل : 11] فيظهر من آيات القرآن أن المشركين كان من دأبهم التفاخر بما هم فيه من النعمة قال تعالى ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾ [هود : 116] وقال ﴿ وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ﴾ [الأنبياء : 13] فلما أنبأهم الله بأن ما هم فيه من الترف إن هو إلا متاع قليل ، قابل ذلك بالنعيم الفائق الخالد الذي أعد للمؤمنين ، وهي تفيد مع ذلك تحقيق معنى الجملة التي قبلها لأن الثانية زادت الأولى بياناً بأن ما أوتوه زائل زوالاً معوضاً بضد المتاع والزينة وذلك قوله ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ .

فما صدق ﴿ من ﴾ الأولى هم الذين وعدهم الله الوعد الحسن وهم المؤمنون ، وما صدق ﴿ من ﴾ الثانية جمع هم الكافرون .

والاستفهام مستعمل في إنكار المشابهة والمماثلة التي أفادها كاف التشبيه فالمعنى أن الفريقين ليسوا سواء إذ لا يستوي أهل نعيم عاجل زائل وأهل نعيم آجل خالد .

وجملة ﴿ فهو لاقيه ﴾ معترضة لبيان أنه وعد محقق ، والفاء للتسبب .

وجملة ﴿ ثم هو ﴾ الخ عطف على جملة ﴿ متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ فهي من تمام صلة الموصول .

و ﴿ ثم ﴾ للتراخي الرتبي لبيان أن رتبة مضمونها في الخسارة أعظم من مضمون التي قبلها ، أي لم تقتصر خسارتهم على حرمانهم من نعيم الآخرة بل تجاوزت إلى التعويض بالعذاب الأليم .

(190/589)

ومعنى ﴿ من المحضرين ﴾ أنه من المحضرين للجزاء على ما دل عليه التوبيخ في ﴿ أفلا تعقلون ﴾ [القصص : 60] .

والمقابلة في قوله ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً ﴾ المقتضية أن الفريق المعين موعودون بضد الحسن ، فحذف متعلق ﴿ المحضرين ﴾ اختصاراً كما حذف في قوله ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ [الصافات : 57] وقوله ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين ﴾ [الصافات : 127 - 128] .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

تخلص من إثبات بعثة الرسل وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى إبطال الشركاء لله ، فالجملة معطوفة على جملة ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً ﴾ [القصص : 61] مفيدة سبب كونهم من المحضرين ، أي لأنهم اتخذوا من دون الله شركاء ، وزعموا أنهم يشفعون لهم فإذا هم لا يجدونهم يوم يحضرون للعذاب ، فلك أن تجعل مبدأ الجملة قوله ﴿ يناديهم ﴾ فيكون عطفاً على جملة ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ [القصص : 61] أي يحضرون و ﴿ يناديهم فيقول : أين شركائي ﴾ الخ .

ولك أن تجعل مبدأ الجملة قوله ﴿ يوم يناديهم ﴾ .

ولك أن تجعله عطف مفردات فيكون ﴿ يوم يناديهم ﴾ عطفاً على ﴿ يوم القيامة من المحضرين ﴾ [القصص : 61] فيكون ﴿ يوم يناديهم ﴾ عين ﴿ يوم القيامة ﴾ وكان حقه أن يأتي بدلاً من ﴿ يوم القيامة ﴾ لكنه عدل عن الإبدال إلى العطف لاختلاف حال ذلك اليوم باختلاف العنوان ، فنزل منزلة يوم مغاير زيادة في تهويل ذلك اليوم .

ولك أن تجعل ﴿ يوم يناديهم ﴾ منصوباً بفعل مقدر بعد واو العطف بتقدير : اذكر ، أو بتقدير فعل دل عليه معنى النداء .

واستفهام التوبيخ من حصول أمر فظيع ، تقديره : يوم يناديهم يكون ما لا يوصف من الرعب .

وضمير ﴿ يناديهم ﴾ المرفوع عائد إلى الله تعالى .

وضمير الجمع المنصوب عائد إلى المتحدث عنهم في الآيات السابقة ابتداء من قوله ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ [القصص : 57] فالمنادون جميع المشركين كما اقتضاه قوله تعالى ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ .

والاستفهام بكلمة ﴿ أين ﴾ ظاهره استفهام عن المكان الذي يوجد فيه الشركاء ولكنه مستعمل كناية عن انتفاء وجود الشركاء المزعومين يومئذ ، فالاستفهام مستعمل في الانتفاء .

ومفعولا ﴿ تزعمون ﴾ محذوفان دل عليهما ﴿ شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ أي تزعمونهم شركائي ، وهذا الحذف اختصار وهو جائز في مفعولي (ظن) .

وجردت جملة ﴿ قال الذين حق عليهم القول ﴾ عن حرف العطف لأنها وقعت في موقع المحاورة فهي جواب عن قوله تعالى ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ .

والذين تصدوا للجواب هم بعض المنادين بـ ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ علموا أنهم الأحرياء بالجواب .

وهؤلاء هم أئمة أهل الشرك من أهل مكة مثل أبي جهل وأمية بن خلف وسدنة أصنامهم

كسادن العزى .

ولذلك عبّر عنهم بـ ﴿ الذين حقّ عليهم القول ﴾ ولم يعبر عنهم بـ (قالوا) .

ومعنى ﴿ حق عليهم القول ﴾ يجوز أن يكون ﴿ حق ﴾ بمعنى تحقق وثبت ويكون القول قولا معهوداً وهو ما عهد للمسلمين من قوله تعالى ﴿ وحقَّ القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ [السجدة : 13] وقوله ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب ﴾ [الزمر : 19] فالذين حق عليهم القول هم الذين حل الإبان الذي يحق عليهم فيه هذا القول .

والمعنى : أن الله ألجأهم إلى الاعتراف بأنهم أضلوا الضالين وأغووهم .

ويجوز أن يكون ﴿ حق ﴾ بمعنى وجب وتعين ، أي حق عليهم الجواب لأنهم علموا أن قوله تعالى ﴿ فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ موجه إليهم فلم يكن لهم بد من إجابة ذلك السؤال .

(192/589)

ويكون المراد بالقول جنس القول ، أي الكلام الذي يقال في ذلك المقام وهو الجواب عن الاستفهام بقوله ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ وعلى كلا الاحتمالين فالذين حق

عليهم القول هم أئمة الكفر كما يقتضيه قوله تعالى ﴿ هؤلاء الذين أغوينا . . .

﴾ الخ .

والتعريف في ﴿ القول ﴾ الأظهر أنه تعريف الجنس وهو ما دل عليه ﴿ قال ﴾ ، أي قال الذين حق عليهم أن يقولوا ، أي الذين كانوا أحرى بأن يجيبوا لعلمهم بأن تبعة المسؤول عنه واقعة عليهم لأنه لما وجه التوبيخ إلى جملتهم تعين أن يتصدى للجواب الفريق الذين ثبتوا العامة على الشرك وأضلوا الدهماء .

وابتدأوا جوابهم بتوجيه النداء إلى الله بعنوان أنه ربهم ، نداء أريد منه الاستعطاف بأنه الذي خلقهم اعترافاً منهم بالعبودية وتمهيداً للتنصل من أن يكونوا هم المخترعين لدين الشرك فإنهم إنما تلقوه عن غيرهم من سلفهم ، والإشارة بـ ﴿ هؤلاء ﴾ إلى بقية المنادين معهم قصداً لأن يتميزوا عمن سواهم من أهل الموقف وذلك بإلهام من الله ليزدادوا رُعباً ، وأن يكون لهم مطمع في التخليص .

و ﴿ الذين أغوينا ﴾ خبر عن اسم الإشارة وهو اعتراف بأنهم أغووهم .

وجملة ﴿ أغويناهم كما غوينا ﴾ استئناف بياني لجملة ﴿ الذين أغوينا ﴾ لأن اعترافهم بأنهم أغووهم يثير سؤال سائل متعجب كيف يعترفون بمثل هذا الجرم فأرادوا بيان الباعث لهم على إغواء إخوانهم وهو أنهم بثوا في عامة أتباعهم الغواية المستقرة في نفوسهم وظنوا أن ذلك الاعتراف يخفف عنهم من العذاب بقرينة قولهم ﴿ تبرّأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون

﴾ .

وإنما لم يقتصر على جملة ﴿ أغويناهم ﴾ بأن يقال : هؤلاء الذين أغويناهم كما غوينا ، لقصد الاهتمام بذكر هذا الإغواء بتأكيده اللفظي ، وبإجماله في المرة الأولى وتفصيله في المرة الثانية ، فليست إعادة فعل ﴿ أغوينا ﴾ لمجرد التأكيد .

قال ابن جني في كتاب "التنبيه" على إعراب الحماسة عند قول الأحوص :

فإذا تزول تزول عن متخمط

(193/589)

تخشى بوادره على الأقران . . .

إنما جاز أن يقول : فإذا تزول تزول ، لما اتصل بالفعل الثاني من حرف الجر المفاد منه الفائدة ، ومثله قول الله تعالى ﴿ هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ﴾ ولو قال : هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم لم يُفد القول شيئاً ، لأنه كقولك : الذي ضربته ضربته ، والتي أكرمتها أكرمتها ، ولكن لما اتصل بـ ﴿ أغويناهم ﴾ الثانية قوله ﴿ كما غوينا ﴾ أفاد الكلام كقولك : الذي ضربته ضربته لأنه جاهل .

وقد كان أبو علي امتنع في هذه الآية مما اخترناه غير أن الأمر فيها عندي على ما عرفتك" أ

هـ .

وقد تقدم بيان كلامه عند قوله تعالى ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ في سورة الاسراء (7) ، وقوله ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ في سورة الشعراء (130) ، وقوله

﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ في سورة الفرقان (72) ، فإن تلك الآيات تطابق بيت الأحوص لاشتمالهن على (إذا) .

و﴿ كما غوينا ﴾ صفة لمصدر ، أي إغواء يوقع في نفوسهم غيّاً مثل الغي الذي في قلوبنا . ووجه الشبه في أنهم تلقوا الغواية من غيرهم فأفاد التشبيه أن المجيبين أغواهم مُغوون قبلهم ، وهم يحسبون هذا الجواب يدفع التبعة عنهم ويتوهمون أن السير على قدم الغاوين يبرر الغواية ، وهذا كما حكى عنهم في سورة الشعراء (96 ، 99) ﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا إلا المجرمون ﴾

وحذف مفعول فعل ﴿ أغوينا ﴾ الأول وهو العائد من الصلة إلى الموصول لكثرة حذف أمثاله من كل عائد صلة هو ضمير نصب متصل وناصبه فعل أو وصف شبيه بالفعل ، لأن اسم الموصول مغن عن ذكره ودال عليه فكان حذف العائد اختصاراً .

وذكر مفعول فعل ﴿ أغويناهم ﴾ الثاني اهتماماً بذكره لعدم الاستغناء عنه في الاستعمال .

وجملة ﴿ تبرأنا إليك ﴾ استئناف .

والتبرؤ : تفعل من البراءة وهي انتفاء ما يصم ، فالتبرؤ : معالجة إثبات البراءة وتحقيقها .

(194/589)

وهو يتعدى إلى من يحاول إثبات البراءة لأجله بحرف (إلى) الدال على الانتهاء المجازي ؛ يقال : إني أبرأ إلى الله من كذا ، أي أوجه براءتي إلى الله ، كما يتعدى إلى الشيء الذي يَصِم بحرف (من) الاتصالية التي هي للابتداء المجازي قال تعالى ﴿ فبراه الله مما قالوا ﴾ [الأحزاب : 69] .

وقد تدخل (من) على اسم ذات باعتبار مضاف مقدر نحو قوله تعالى ﴿ وقال إني بريء منكم ﴾ [الأنفال : 48] أي من كفركم .

والتقدير : من أعمالكم وشؤونكم إما من أعمال خاصة يدل عليها المقام أو من عدة أعمال .

فالمعنى هنا تحقق التبرؤ لديك والمتبرأ منه هو مضمون جملة ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ فهي بيان لإجمال التبرؤ .

والمقصود : أنهم يتبرؤون من أن يكونوا هم المزعوم أنهم شركاء وإنما قصارى أمرهم أنهم

مضلون وكان هذا المقصد إلجاء من الله إياهم ليعلنوا تنصلهم من ادعاء أنهم شركاء على رؤوس الملأ ، أو حملهم على ذلك ما يشاهدون من فظاعة عذاب كل من ادعى المشركون له الإلهية باطلاً لما سمعوا قوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون عن دون الله حصب جهنم ﴾ [الأنبياء : 98] .

هذا ما انطوت عليه هذه الآية من المعاني .

وتقديم ﴿ إيانا ﴾ على ﴿ يعبدون ﴾ دون أن يقال يعبدوننا للاهتمام بهذا التبرؤ مع الرعاية على الفاصلة .

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64)

هذا موجه إلى جميع الذين نودوا بقوله ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ [القصص : 62] فإن ذلك النداء كان توبيخاً لهم على اتخاذهم آلهة شركاء لله تعالى .

فلما شعروا بالمقصد من ندائهم وتصدى كبراؤهم للاعتذار عن اتخاذهم أتبع ذلك بهذا القول .

وأسند فعل القول إلى المجهول لأن الفاعل معلوم مما تقدم ، أي وقال الله .

والأمر مستعمل في الإطماع لتعقب الإطماع باليأس .

وإضافة الشركاء إلى ضمير المخاطبين لأنهم الذين ادعوا لهم الشركة كما في آية الأنعام (94) ﴿ الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ والدعاء دعاء الاستغاثة حسب زعمهم أنهم شفعاؤهم عند الله في الدنيا .

وقوله فلم يستجيبوا لهم ﴾ هو محل التأييس المقصود من الكلام .

وأما قوله تعالى ﴿ ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ فيحتمل معاني كثيرة فرضها المفسرون : وجماع أقوالهم فيها أخذاً ورداً أن نجمعها في أربعة وجوه:

أحدها : أن يكون عطفاً على جملة ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ .

والرؤية بصرية ، والعذاب عذاب الآخرة ، أي أحضر لهم آلة العذاب ليعلموا أن شركاءهم لا يغنون عنهم شيئاً .

وعلى هذا تكون جملة ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ مستأنفة ابتدائية مستقلة عن جملة ﴿ ورأوا العذاب ﴾ .

الثاني : أن تكون الواو للحال والرؤية أيضاً بصرية والعذاب عذاب الآخرة ، أي وقد رأوا العذاب فارتبكوا في الاهتداء إلى سبيل الخلاص فقيل لهم : ادعوا شركاءكم لخلاصكم ، وتكون جملة ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ كذلك مستأنفة ابتدائية .

الثالث : أن تكون الرؤية علمية ، وحذف المفعول الثاني اختصاراً ، والعذاب عذاب

الآخرة .

والمعنى : وعلموا العذاب حائقاً بهم ، والواو للعطف أو الحال .

وجملة ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً كأن سائلاً سأل : ماذا صنعوا حين تحققوا أنهم معذبون ؟ فأجيب بأنهم لو أنهم كانوا يهتدون سبيلاً لسلكوه ولكنهم لا سبيل لهم إلى النجاة .

وعلى هذه الوجوه الثلاثة تكون ﴿ لو ﴾ حرف شرط وجوابها محذوفاً دل عليه حذف مفعول ﴿ يهتدون ﴾ أي يهتدون خلاصاً أو سبيلاً .

والتقدير : لتخلصوا منه .

وعلى الوجوه الثلاثة ففعل ﴿ كانوا ﴾ مزيد في الكلام لتوكيد خبر (أنّ) أي لو أنهم يهتدون اهتداء متمكناً من نفوسهم ، وفي ذلك إيماء أنهم حينئذ لا قرارة لنفوسهم .

وصيغة المضارع في ﴿ يهتدون ﴾ دالة على التجدد فالاهتداء منقطع عنهم وهو كناية عن عدم الاهتداء من أصله .

(196/589)

الوجه الرابع : أن تكون ﴿ لو ﴾ للتمني المستعمل في التحسر عليهم .

والمراد اهتداؤهم في حياتهم الدنيا كيلا يقعوا في هذا العذاب ، وفعل ﴿ كانوا ﴾ حينئذ في موقعه الدال على الاتصاف بالخبر في الماضي ، وصيغة المضارع في ﴿ يهتدون ﴾ لقصد تجدد الهدى المتحسر على فواته عنهم فإن الهدى لا ينفع صاحبه إلا إذا استمر إلى آخر حياته .

ووجه خامس عندي : أن يكون المراد بالعذاب عذاب الدنيا ، والكلام على حذف مضاف تقديره : ورأوا آثار العذاب .

والرؤية بصرية ، أي وهم رأوا العذاب في حياتهم أي رأوا آثار عذاب الأمم الذين كذبوا الرسل وهذا في معنى قوله تعالى في سورة إبراهيم (45) ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾ ؛ وجملة ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ شرط جوابه محذوف دل عليه ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أي بالاتعاظ وبالاستدلال بحلول العذاب في الدنيا على أن وراءه عذاباً أعظم منه لاهتدوا فأقلعوا عن الشرك وصدقوا النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لأنه يفيد معنى زائداً على ما أفادته جملة ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ .

فهذه عدة معان يفيدها لفظ الآية ، وكلها مقصودة ، فالآية من جوامع الكلم .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65)

هو ﴿ يوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ [القصص : 62] .

كرر الحديث عنه باعتبار تعدد ما يقع فيه لأن مقام الموعظة يقتضي الإطناب في تعداد ما يستحق به التوبيخ .

وكررت جملة ﴿ يوم يناديهم ﴾ لأن التكرار من مقتضيات مقام الموعظة .

وهذا توبيخ لهم على تكذيبهم الرسل بعد انقضاء توبيخهم على الإشراك بالله .

والمراد : ماذا أجبتم المرسلين في الدعوة إلى توحيد الله وإبطال الشركاء .

(197/589)

والمراد بـ ﴿ المرسلين ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى في سورة [سبأ : 45] ﴿ فكذبوا رسلي ﴾ وله نظائر في القرآن منها قوله ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين ءامنوا ﴾ يريد محمداً صلى الله عليه وسلم في سورة [يونس : 103] وقوله ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ الآيات في سورة [الشعراء : 105] ، وإنما كذب كل فريق من أولئك رسولاً واحداً .

والذي اقتضى صيغة الجمع أن جميع المكذبين إنما كذبوا رسلهم بعلة استحالة رسالة البشر إلى البشر فهم إنما كذبوا بجنس المرسلين ، ولام الجنس إذا دخلت على (جميع) أبطلت منه

معنى الجمعية .

والاستفهام بـ ﴿ ماذا ﴾ صوري مقصود منه إظهار بلبلتهم .

و(ذا) بعد (ما) الاستفهامية تعامل معاملة الموصول ، أي ما الذي أجبتم المرسلين ، أي ما جوابكم .

و ﴿ الأنباء ﴾ : جمع نبأ ، وهو الخبر عن أمر مهم ، والمراد به هنا الجواب عن سؤال ﴿ ماذا أجبتم المرسلين ﴾ لأن ذلك الجواب إخبار عما وقع منهم مع رسلهم في الدنيا .

والمعنى : عميت الأنباء على جميع المسؤولين فسكتوا كلهم ولم ينتدب زعماؤهم للجواب كفعلهم في تلقي السؤال السابق : ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ [القصص : 62] .

ومعنى ﴿ عميت ﴾ خفيت عليهم وهو مأخوذ من عمى البصر لأنه يجعل صاحبه لا يتبين الأشياء ، فتصرفت من العمى معان كثيرة متشابهة يبينها تعدية الفعل كما عدي هنا بحرف (على) المناسب للخفاء .

ويقال : عمي عليه الطريق .

إذا لم يعرف ما يوصل منه ، قال عبد الله بن رواحة:

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا . . .

به موقنات أن ما قال واقع

والمعنى : خفيت عليهم الأنباء ولم يهتدوا إلى جواب وذلك من الحيرة والوهل فإنهم لما نودوا ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ [القصص : 62] انبرى رؤساؤهم فلفقوا جواباً عدلوا به عن جادة الاستفهام إلى إنكار أن يكونوا هم الذين سنوا لقومهم عبادة الأصنام ، فلما سئلوا عن جواب دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم عيوا عن الجواب فلم يجدوا مغالطة لأنهم لم يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرسول فإن الرسول بعث إليهم أنفسهم .

ولهذا تفرع على (عميت عليهم الأنباء) قوله ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً لاستخراج الآراء وذلك من شدة البهت والبغت على الجميع أنهم لا متنصل لهم من هذا السؤال فوجموا .

وإذ كان الاستفهام لتمهيد أنهم محقوقون بالعذاب علم من عجزهم عن الجواب عنه أنهم قد حق عليهم العذاب .

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

تخلل بين حال المشركين ذكر حال الفريق المقابل وهو فريق المؤمنين على طريقة الاعتراض

لأن الأحوال تزداد تميزاً بذكر أضدادها ، والفاء للتفريع على ما أفاده قوله ﴿ فعميت عليهم الأنباء ﴾ [القصص : 66] من أنهم حق عليهم العذاب .

ولما كانت (أما) تفيد التفصيل وهو التفكيك والفصل بين شيئين أو أشياء في حكم فهي مفيدة هنا أن غير المؤمنين خاسرون في الآخرة وذلك ما وقع الإيماء إليه بقوله ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ [القصص : 66] فإنه يكتفى بتفصيل أحد الشيئين عن ذكر مقابله ومنه قوله تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ [النساء : 175] أي وأما الذين كفروا بالله فبضد ذلك .

والتوبة هنا : الإقلاع عن الشرك والندم على تقلده .

(199/589)

وعطف الإيمان عليها لأن المقصود حصول إقلاع عن عقائد الشرك وإحلال عقائد الإسلام محلها ولذلك عطف عليه ﴿ وعمل صالحاً ﴾ لأن بعض أهل الشرك كانوا شاعرين بفساد دينهم وكان يصدهم عن تقلد شعائر الإسلام أسباب مغرية من الأعراض الزائلة التي فتنوا بها .

و(عسى) ترج لتمثيل حالهم بحال من يرجى منه الفلاح .

و﴿ أن يكون من المفلحين ﴾ أشد في إثبات الفلاح من : أن يفلح ، كما تقدم غير مرة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(200/589)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾

معنى : ﴿ مِّن شَيْءٍ . . . ﴾ [القصص : 60] من أيِّ شيء من مُقوّمات الحياة ، ومن كمالياتها ﴿ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا . . . ﴾ [القصص : 60] فمهما بلغ هذا من السُّمو ، فإنه متاع عمره قليل ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : 77] .

لذلك طلبنا منكم ألاَّ تنشغلوا بهذا المتاع ، وألاَّ تجعلوه غايةً ، لأن بقاءك فيها مظنون ، ومتاعك فيها على قَدْر نشاطك وحركتك .

وسبق أنْ قلنا : إن آفة النعيم في الدنيا إما أن يتركك أو تتركه ، وأن عمرك في الدنيا ليس هو عمر الدنيا ، إنما مدة بقائك أنت فيها ، ومهما بلغتَ من الدنيا فلا بُدَّ من الموت .

لذلك يدلُّنا ربنا – عَزَّ وجَلَّ – على حياة أخرى باقية مُتيقَّنة لا يفارقك نعيمها ولا تفارقه .

﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص : 60] .

﴿ خَيْرٌ . . . ﴾ [القصص : 60] لأن النعيم فيها ليس على قَدْر نشاطك ، إنما على قَدْر الله وعطائه وكرمه ، ﴿ وأبقى . . ﴾ [القصص : 60] لأنه دائم لا ينقطع ، فلو قارن العاقل بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

لذلك ، فإن الصحابي الذي حدَّثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أجر الشهيد ، وتيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل في سبيل الله ، وكان في يده تمرات يأكلها فألقاها ، ورأى أن مدة شغله بمضغها طويلة ؛ لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينال الشهادة . لماذا ؟ لأنه أجرى مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة .

(201/589)

والحق – سبحانه وتعالى – حين يُجري هذه المقارنة بين الكفار وبين المؤمنين يقول : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين . . . ﴾ [التوبة : 52] إما أن ننتصر عليكم ونُذلكم ، ونأخذ خيراتكم ، وإما ننال الشهادة فنذهب إلى خير مما تركنا ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا . . . ﴾ [التوبة : 52] .

إذن : لا تتربصون بنا إلا خيراً ، ولا نتربّص بكم إلا شراً .

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا * والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [الأعلى : 16 – 17] لذلك ذيّل الآية هنا بقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص : 60] لأن العقل لو قارن بين الدنيا والآخرة لابُدَّ أنْ يختار الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ . . . . ﴾

.

تُعد هذه الآية شرحاً وتأكيداً لما قبلها ، والوعد : بشارة بخير ، وإذا بشَّرك مُساوٍ لك بخير أتى خيره على قدر إمكاناته ، وربما حالت الأسباب دون الوفاء بوعده ، فإنْ كان الوعد من الله جاء الوفاء على قدر إمكاناته تعالى في العطاء ، ثم إنَّ وعده تعالى لا يتخلف ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله . . . ﴾ [التوبة : 111] .

لذلك قال ﴿ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ . . . ﴾ [القصص : 61] أي : حتماً ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ [القصص : 61] أي : للعذاب .

وهذه الكلمة ﴿ المحضرين ﴾ [القصص : 61] لا تستعمل في القرآن إلا للعذاب ، وربما الذي وضع كلمة (مُحضر) قصد هذا المعنى ؛ لأن المحضر لا يأتي أبداً بخير .

ويقول تعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات : 158] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ [الصافات : 57] ثم يقول سبحانه مُؤكّداً هذا الإحضار يوم القيامة حتى لا يظن الكافر أن بإمكانه الهرب : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ . . . ﴾ .

والسؤال هنا للذين أشركوا ، لا لمن أُشرك بهم ، وكلمة ﴿ وَيَوْمَ . . . ﴾ [القصص : 62] منصوبة على الظرفية ، لا بُدَّ أن نُقدّر لها فعلاً يناسبها ، فالتقدير : واذكر يوم يناديهم ، والأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن لمن يذكره رسول الله ؟ يذكره للكافرين بهذا اليوم يوم القيامة .

والآية تعطينا لقطة من لقطات هذا اليوم الذي هو يوم الواقعة التي لا واقعةَ بعدها ، ويوم الحاقَّة أي الثابتة التي لا تَزَحْزُحَ عنها ، ويوم الصَّاخة أي : التي تصخّ الآذان التي انصرفتْ عنها في الدنيا ، ويوم الطامة التي تطمُّ ، ويوم الدين ، أي : الذي ينفع فيه الدين .

والحق سبحانه يذكر هذه اللقطة لأمرين :

الأول : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عُودي وأُوذِي وهزِيء به وسُخِر منه ، واجتمعت عليه كل وسائل النكالَ من خصومة فبيَّتوا به بمكر ، وصنعوا له سحراً . . إلخ .

وحين تجد دعوة تُقابَل بهذه الشراسة ، فاعلم أنها ما قُوبلت هذه المقابلة إلا لأنها ستهدم

فساداً ينتفع به قوم ترهبهم كلمة الإصلاح؛ لأنها تصيبهم في مصالحهم وفي شهواتهم وفي جاههم وعنجهيتهم وطغيانهم، فطبيعي أن يقفوا في وجهها .

لذلك نجد كثيراً من الغربيين يعرفون عظمة الإسلام من شراسة عداوة خصومه، يقولون: لو لم يكُنْ هذا الدين ضد فسادهم ما ائتمروا عليه، ولو كان أمراً هيّناً لتركوه للزمن يمحوه، لكنهم أيقنوا أنه الحق الذي سيُذهِب باطلهم، ويقضي على طغيانهم .

(203/589)

فالحق سبحانه يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يذكر ذلك اليوم يذكره لنفسه، ويذكره لقومه ليعتبروا، فربما إذا سمعوا ما في هذا اليوم من القسوة والخزي والنكال ربما راجعوا أنفسهم فتابوا إلى الله .

إذن: ليس حظ الله تعالى من هذا العمل أنْ يُرهبهم إنما ليحذرهم، لئلا يقع منهم الكفر الذي يُوقِفهم هذا الموقف، كما تُبشّع لولدك عاقبة الإهمال، وتُحذِّره من الرسوب لينفر من أسبابه، ويبحث عن أسباب النجاح .

يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ . . . ﴾ [القصص: 62] وقد ناداهم في الدنيا: يا أيها الناس، يا بني آدم فصمُّوا آذانهم، وأعرضوا عن نداء الله، واليوم يناديهم نداءً لا يملكون أنْ

يصمُّوا آذانهم عنه ؛ لأنه ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] فكأن الحق يُذكِّرهم بهذا اليوم ، لعلهم يرعوون ، ولعلهم يرجعون .

الأمر الثاني : أن الآية جاءت تسلية لسيدنا رسول الله يقول له ربه : لا تيأس مما يصنعون معك ، ولا يحزنك كيدهم وعنادهم ؛ لأنني سأصنع بهم كيت وكيت . وأنت تستطيع أن تدرك سِرَّ هذا الإيعاز النفسي في نفس المضطهد وفي نفس المظلوم حين يشكو لك ولدك أن أخاه ضربه أو أهانه فتقول أنت لتُرضيه : انتظر سوف أفعل به كذا وكذا ، فترى الولد ينبهر بهذه العقوبة المسموعة ويسعد بها ، وكذلك حين يسمع رسول الله العقوبة التي تنال أعداءه على ما حدث منهم يسعد بها ، وتُسرِّي عن نفسه ما يلاقي .

ومضمون النداء ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : 62] فلم يقُلْ شركائي ويسكت ، إنما وصفهم ﴿ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : 62] لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، وهؤلاء شركاء في زعمهم فقط ، والزعم كما يقولون : مطية الكذب ؛ لذلك لن يجدوا جواباً لهذا السؤال ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : 62] .

ولو كان أمامهم شركاء لقالوا : ها هم الذين أضلُّونا ، فأذِقْهم يا رب العذاب ضِعْفين ، لكنهم لم يجيبوا فهذا دليل على أنهم غَير موجودين ، لقد وقف هؤلاء المشركين حائرين ، لا يدرون جواباً كما قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَآء . . . ﴾ [القصص : 66] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول . . . ﴾ .

والكلام هنا للشركاء الذين أضلوا المشركين وأغَووْهم ، ومعنى ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ . . . ﴾ [القصص : 63] أي : ثبت ووقع ، فهو أمر لا محالة منه ، ولم يعد هناك مجال لزحزحته عنهم ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴾ [الصافات : 31] .

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَوَقَعَ القول عَلَيهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ﴾ [النمل : 85] .

لكن ، ما هو القول الذي وقع وثبت لهم وحَقَّ عليهم ؟ القول : أن كلَّ واحد له مكان عندي في الجنة على فَرْض أنكم جميعاً آمنتم ، وكل واحد له مكان في النار على فَرْض أنكم جميعاً كفرتم .

وماذا قالوا ؟ قالوا : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . ﴾ [القصص : 63] سبحان الله الآن تقولون ربنا وتعترفون بربوبيته تعالى ، كما قال تعالى في شأن فرعون : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 91] .

الآن تعترفون بعد أنْ سُلِب منكم الاختيار ، ولم تعُد لكم إرادة حتى على جوارحكم وأبعاضكم ، فيدُكَ التي كنت تبطش بها ، ورِجْلك التي كنت تسعى بها ولسانك . . كلها خرجت عن إرادتك وطَوْع أمرك ؛ لأنها الآن طَوْعٌ لأمر الله ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور : 24] .

(205/589)

ومعنى ﴿ هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ . . . ﴾ [القصص : 63] أي : المشركين ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . ﴾ [القصص : 63] أي : لنكون سواء ، هذه عِلَّة غوايتهم ، أن يكونوا في الخُسْران سواء ، وإلا فأهل الباطل يسعون جاهدين للإيقاع بأهل الحق ليشاركوهم باطلهم ، وليكونوا أمثالهم .

وهذه المسألة تعطينا السيال النفسي لكل منحرف حين يرى ملتزماً مستقيماً ، لا يشاركه فساده وانحرافه ، فيعزّ عليه أنْ يكون في الهاوية وحده ، ولماذا يمتاز عنه الآخرون ؟ واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً . . . ﴾ [النساء : 89] .

ألا ترى أهل الباطل والفساد والفجور يهزءُون من أهل الحق ويسخرون منهم ، ليُزهدوهم في الخير والصلاح ، وليغروهم بما هم فيه ، حتى أصبح الإنسان الملتزم بدينه وشرع ربه لا

يسلَم من ألسنتهم ، كما يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : 29 – 30] .

وليت الأمر ينتهي عند الغَمْز واللمز ، إنما يتمادى هؤلاء ، فيجعلون من سخريتهم بأهل الإيمان والطاعة مادةً للمسامرة والتسلية ﴿ وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين : 31] يعني : فرحين مسرورين بما نالوه من أهل الطاعة ، مما يدلّ على أنهم جميعاً تُسعِدهم هذه المسألة وتُرضي شيئاً في نفوسهم المريضة الحاقدة .

لكن المؤمن من طبيعته يحب أنْ يُكرم ، وأنْ ينأى بنفسه عن مجاراة هؤلاء ، لذلك يتولَّى ربه – عز وجل – الدفاع عنه يقول له : لا تحزن فسوف نقتصُّ لك ، ونسخر منهم ، ونجعلهم أضحوكة في يوم بَاقٍ لا ينتهي فيه عذابهم : ﴿ فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

[المطففين : 34–36] .

(206/589)

وكأن الحق – تبارك وتعالى – يسترضي عباده المؤمنين : أيعجبكم ما آلوا إليه ؟ أقَدرْنا أن نجازيهم على ما اقترفوه في حقكم ؟ نعم يا رب ، فسخرية الكفار من أهل الإيمان في دار

الباطل الفانية انقلبت سخرية منهم في دار الحق الباقية ، وهي سخرية دائمة لا نهاية لها .

إذن : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . ﴾ [القصص : 63] يعني : حتى نكون سواء ، لا يكون أحدنا أحسن من الآخر ، ومن هذا المنطلق أغوى إبليس آدمَ ، لأنه لما طغى وطُرد من رحمة الله ، ومن الصفائية التي كان ينعمَ بها مع الملائكة . أراد أنْ يأخذ آدم بل وذريته إلى هذا المصير ، فقد حَزَّ في نفسه أن يلاقي هذا المصير وحده ، في حين ينعَم آدم وذريته برحمة الله ورضوانه .

لذلك نجد إبليس – لعنه الله – لا يكتفي بأن تُغوي ذريته ذرية آدم ، إنما يطلب من الله أنْ يُنظره إلى يوم البعث ليباشر بنفسه هذه الغواية ، فهو (المعلم) الكبير ، وكأنه يحذر أن إمكانات ذريته في الغواية قد لا ترضيه ؛ لذلك يتولى بنفسه هذه المهمة فيقول : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ﴾ [الأعراف : 16] .

والبعض يفهم قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف : 14-15] أن الله تعالى أجاب إبليس إلى ما طلب ، لكن ﴿ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف : 15] ليست إجابةً ، إنما تقرير لشيء حادث بالفعل قبل أن يطلب ، فالمعنى أن سؤالك ليس له معنى ؛ لأنك من المنظرين فعلاً ، لماذا ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يظلَّ إبليس الذي أغوى آدم وأخرجه من الجنة باقياً أمام ذريته ليُذكِّرهم دائماً : هذا الذي أغوى أباكم آدم .

وقولهم : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . ﴾ [القصص : 63] لنا وقفة مع ﴿ هؤلاء ﴾ [القصص : 63] وهي اسم إشارة للجمع بنوعيه ، تقول : هؤلاء الرجال ، وهؤلاء النساء ، وهي عبارة عن : الهاء للتنبيه ، وأولاء اسم إشارة ، وكذلك في هذا ، هذه ، هذان ، هاتان ، فالهاء فيها للتنبيه لتنبيه السامع أنك ستتكلم ليعطيك سمعه ، ويهتم بما تقول ، فلا يفوته من كلامك شيء .

هذا حين تخاطب مثلك لأنه يحتاج إلى تنبيه ، أما إذا خاطبت ربك – عز وجل – فمن سوء الأدب أنْ تستخدم في خطابه أداة التنبيه ، كما استخدمها المشركون ، فما داموا قد قالوا ﴿ رَبَّنَا . . . ﴾ [القصص : 63] فليس من الأدب أن يقولوا ﴿ هؤلاء . . . ﴾ [القصص : 63] أيُنبِّهون الله عز وجل ؟

لذلك نلحظ هذا الأدب في خطاب نبي الله موسى – عليه السلام – فيما حكاه عنه القرآن : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يا موسى * قَالَ هُمْ أولاء على أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ﴾ [طه : 84] فقال (أولاء) بدون هاء التنبيه تأدُّباً مع ربه عَزَّ وجَلَّ .

ونلحظ أنك لا تجد خطاباً من الكفار إلا باستخدام هؤلاء : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا . . .

﴿ [الأعراف : 38] ﴿ رَبَّنَا هؤلاءآء شُرَكَآؤُنَا ﴾ [النحل : 86] أما المؤمن فلا يليق به أبداً أن يُنبِّه الله تعالى ، بل ولا تصدر من مؤمن لمؤمن لأنه دائماً منتبه .

(208/589)

ثم يقولون : ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] الآن ينكُصون كما قالوا من قبل ﴿ رَبَّنَا . . . ﴾ [القصص : 63] يقولون الآن ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ . . ﴾ [القصص : 63] لكن هيهات تنفعهم هذه البراءة ، لقد انتهى وقتها ، ومضى زمن التكليف والاختيار ، والآن وقت الحساب وسلَبْ الإرادة والاختيار ، وما أشبههم بفرعون حين قال الله له : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ﴾ [يونس : 91] .

وقولهم : ﴿ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] يقول الشركاء : ما كان معنا قوة قهر نحملكم بها على عبادتنا ، ولا قوة سلطان أو حجة نقنعكم بها ، إنما كنتم في انتظار إشارة منا ، كما قال كبيرهم إبليس : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . . ﴾ [إبراهيم : 22] .

إذن : فهؤلاء المشركون كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم ؛ لأن الشركاء كانوا أصناماً أو غيرها ، وليس لهم منهج يتكلَّمون به ، ويدْعُون الناس إلى عبادتهم به ، وإلا فماذا قالت

الأصنام أو الشمس أو النجوم لمن عبدها ؟ بِمَ أمرتهم ، وعمَّ نهتْهم ؟

إذن : هو إله بلا منهج وبلا تكليف ، وهذا ما يريده المشركون ؛ لأن الذي يُتعب الناس في قضية الإيمان بالألوهية ما تقتضيه من تكاليف ، وما تفرضه من أمر أو نهي يحول بين النفس البشرية وما تشتهي ، ويُوقفها عند حدود لا تتعداها .

إذن : ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص : 63] بل يعبدون ذواتهم ، ويعبدون شهواتهم ورغباتهم ، وما أسهل أن يعبد الإنسان آلهة لا تلزمه بشيء ، فيسير في حياته على هواه ، وهذه هي التي روجَتْ لعبادة هذه الآلهة .

(209/589)

لذلك فإن الحق سبحانه يريد أنْ يلزم الإنسان حجة أن نفسه هي الوسيلة الأولى لشهواته ، وإلا فلو أن المسألة كلها وسوسة شيطان ، فمَن أغوى إبليس بالعصيان أولاً على حَدِّ قَوْل الشاعر :

إبليسُ لما عَصى مَنْ كان وسْوَسَهُ ؟ . . . إذن : فهي كبرياء النفس ورغباتها ، وليس للشيطان إلا أنْ يُلوِّح لها فتقع ؛ لذلك جاء في الحديث الشريف : " إذا أقبل رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النار ، وسُلْسلت الشياطين " .

وما دامت الشياطين سُلسلت ، فليس لها حركة مع الإنس ؛ لأن الله تعالى يعلم منّا أنَّا نُعلّق كل معاصينا على الشيطان ، فكأنه سبحانه يقول : ها هي الشياطين صُفِّدت وسُلْسِلت ، فمَنْ أغواكم وزيّن لكم حال سَلْسلتها ؟ إذن : هي نفسك التي تَوسوس لك ؛ لذلك نقول : كل معصية تقع في رمضان ليس للشيطان فيها نصيب ، إنما هي شهوة النفس .

وسبق أنْ بيّنا كيف نُفرِّق بين المعصية متى تكون من الشيطان ؟ ومتى تكون شهوة نفس ؟ إنْ كانت المعصية تُوقفك عندها لا تتزحزح عنها إلى غيرها ، فاعلم أنها من نفسك ، أما إنْ عزَّتْ عليك معصية ففكَّرْتَ في غيرها ، فهي من الشيطان ؛ لأنه والعياذ بالله يريدك عاصياً على أي وجه ، وبأيِّ طريقة فينقلك إلى معصية أخرى يستطيع أنْ يُوقِعك فيها ، على خلاف شهوة النفس ، فهي تريد شيئاً بذاته لا تريد غيره .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقِيلَ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ . . . ﴾ .

وسبق أن ناداهم ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص : 62] أي : في زعمكم ؛ لأنه سبحانه ليس له شركاء ، وهنا يقول لهم ﴿ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : 64] ولم يقُلْ شركائي ، مع أنهم اتخذوهم شركاء لله .

فمعنى ﴿ شُرَكَآءَكُمْ . . . ﴾ [القصص : 64] أفي دعوى الألوهية ؟ لا ، لأنهم تابعون لهم ، إذن : فما معنى ﴿ شُرَكَآءَكُمْ . . . ﴾ [القصص : 64] ؟ قالوا : الإضافة تأتي بمعَانٍ ثلاثة : إما بمعنى (من) مثل : أردب قمح أي : من قمح ، أو بمعنى (في) مثل : مكر الليل أي : مكر في الليل ، أو : بمعنى (لام) الملكية مثل : قلم زيد أي : قلم لزيد .

فالمعنى هنا ﴿ شُرَكَآءَكُمْ . . . ﴾ [القصص : 64] أي : من جنسكم أو فيكم يعني : لا يتميز عنكم بشيء ، والإله لا بُدَّ أن يكون من جنس أعلى ، فإنْ كان من جنسكم ، فهو مُسَاوٍ لكم ، لا يصلح أن تتخذوه إلهاً .

ومعنى ﴿ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ . . ﴾ [القصص : 64] يعني : نادوهم لينصروكم ، ويشفعوا لكم ، كما قلتم : ﴿ هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ﴾ [يونس : 18] .

وقلتم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] .

إذن : فنادوهم ليُقربوكم من الله ، وليشفعوا لكم ، والذي يقوم بهذه المهمة لا بُدَّ أنْ يكون له منزلة عند الله يضمنها ، وهل يضمن هؤلاء الشركاء منزلة عند الله ؟ كيف وهم لا يضمنونها لأنفسهم ؟

﴿ فَدَعَوْهُمْ . . . ﴾ [القصص : 64] يا شركاءنا ، يا مَنْ قُلْتم لنا كذا وكذا أدركونا ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ . . . ﴾ [القصص : 64] لأنهم مشغولون بأنفسهم ﴿ وَرَأَوُاْ

العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : 64] يعني : لو كانوا يهتدون بهَدْي الله ، وهَدْي رسوله ، ويروْن العذاب الذي أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لَمَا حدث لهم هذا ، ولما واجهوا هذه العاقبة .

أو : أنهم لما رأوا العذاب حقيقة في الآخرة تمنَّوا لو أنهم كانوا مهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ . . . ﴾ .

(211/589)

قال هنا أيضاً ﴿ يُنَادِيهِمْ . . . ﴾ [القصص : 65] فما الغرض من كل هذه النداءات ؟ إنها للتقريع وللسخرية منهم ، وممَّنْ عبدوهم واتبعوهم من دون الله ، ومضمون النداء : ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ [القصص : 65] والإجابة : موافقة المطلوب من الطالب ، فماذا كانت إجابتكم لهم بعد أن آمنتم بإله ، أأخذتُم بما جاءوا به من أحكام ؟ أعلمتم منهم علماً يقينياً حقاً ؟

وهذا الاستفهام للتعجيز ؛ لأنهم إنْ حاولوا الإجابة فلن يجدوا إجابة فيخزون ويخجلون ؛ لذلك يقول بعدها ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء . . . ﴾ [القصص : 66] أي : خفِيَتْ عليهم الحجج والأعذار وعموا عنها فلم يروْهَا ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص : 66]

لا يملكون إلا السكوت كما قالوا : جواب ما يكره السكوت ، وكما قال سبحانه : ﴿ وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴾ [المعارج : 10] .

وهؤلاء لا يتساءلون ؛ لأنهم في الجهل سواء ، وفي الضلال شركاء ، وكل منهم مشغول بنفسه ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : 34-37] .

وكما سُئِل المشركون : ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ [القصص : 65] في موضع آخر يسأل الرسل : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ . . . ﴾ [المائدة : 109] أي : فيما علمتم من العلم ، وأوله : علم اليقين الأعلى ، وثانيها : علم الأحكام ، فبماذا أجابكم الناس ؟

وتأمل هنا أدب الرسل ومدى فهمهم في مقام الجواب لله ، وهم يعلمون تماماً بماذا أجاب أقوامهم ، وأن منهم مَنْ آمن بهم ، وتفانى في خدمة دعوتهم وضحّى واستشهد ، ومنهم مَنْ كفر وعاند ، ومع ذلك يقولون : ﴿ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [المائدة : 109] .

فكيف يقولون : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَآ . . ﴾ [المائدة : 109] وهم يعلمون ؟ قالوا : لأنهم غير واثقين أن مَنْ آمن آمن عن عقيدة أم لا ، فهم يأخذون بظواهر الناس ، أما بواطنهم فلا يعلمها إلا الله ، كأنهم يقولون : أنت يا ربنا تسأل عن إجابة الحق لا عن إجابة النفاق ، وإجابة الحق نحن لا نعرفها ، وأنت سبحانك علاَّم الغيوب .

إذن : جعلوا الحق – تبارك وتعالى – هو السُّلْطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية في محكمة العدل الإلهي التي سيُعلن فيها على رؤوس الأشهاد ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم . . . ﴾ [غافر : 16] .

والسؤال عند العرب يُطلق ، إما للمعرفة حيث تسأل لتعرف ، كما يسأل التلميذ أستاذه ، أو يكون السؤال للإقرار بما تعرف ، كما يسأل الأستاذ تلميذه ليقرّ على نفسه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 39] أي : سؤالَ علم ؛ لأننا نعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : 24] أي : سؤال إقرار منهم ، وإنْ كان كلامي يوم القيامة حجة ، لأنه لا مردَّ له ، لكن مع ذلك نسألهم ليقروا هم ، وليشهدوا على أنفسهم .

والحق – تبارك وتعالى – يدلُّك على أنه تعالى يُبشِّع مظاهر يوم القيامة على الكافرين ، لا لأنه كاره لهم ، بل يريدهم أنْ يستحضروا هذه الصورة البشعة لعلّهم يرعوون ويتوبون ؛ لذلك

يفتح لهم باب التوبة لأنه رب ورحيم .

لذلك جاء في الحديث القدسي : " قالت الأرض : يا رب إئذن لي أنْ أخسف بابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . وقالت الجبال : يا رب إئذن لي أنْ أخِرَّ على ابن آدم فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعوني وخلقي لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دعوهم فإنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وأنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم " .

(213/589)

أعالجهم بالترغيب مرة ، وبالترهيب أخرى ، أشوِّقهم إلى الجنة ، وأخوِّفهم من النار ، وأفتح باب التوبة ، وفتْح باب التوبة ليس رحمة من الله للتائب فقط ، ولكن رحمة لكل مَنْ يشقى بعصيان غير التائب .

ولو أغلق باب التوبة في وجه العاصي ليئس وتحول إلى (فاقد) يشقى به المجتمع طوال حياته ، إذن : ففتْح باب التوبة رحمة بالتائب ، ورحمة بمجتمعه ، بل وبالإنسانية كلها ، رحمة بالعاصي وبمَنِ اكتوى بنار المعصية .

فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

لماذا استخدم هنا (عسى) الدالة على الرجاء بعد أنْ قال ﴿ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ

صَالِحاً . . . ﴾ [القصص : 67] ولم يقل : يكون من المفلحين فيقطع لهم بالفلاح ؟

قالوا : لأنه ربما تاب ، لكن عسى أن يستمر على توبته ليستديم الفلاح أو نقول أن (عسى) من الله تدل على التحقيق ، وسبق أنْ قُلْنا : إن الرجاءات على درجات : فالرجاء في المتكلم أقوى من الرجاء في الغائب ، فإنْ كان الرجاء في الله فهو أقوى الرجاءات كلها .

لذلك يقول سبحانه في خطابه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء : 79] فأيُّ رجاء أقوى من الرجاء في الله ؟

إذن : (عسى) رجاء حين تصدر ممن لا يملك إنفاذ المرجو ، وتحقيق حين تصدر ممَّنْ يملك إنفاذ المرجو ، وهو الحق سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(214/589)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (القصص : 60) ، وفي سورة الشورى : (فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (الشورى : 36) ، يسأل عن

زيادة قوله : (وَزِينَتِهَا) في الأولى ؟ وعن تعقيبها بقوله : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) وتعقيب الثانية بقوله : (لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ؟

(215/589)

والجواب عن الأول : أن سورة القصص تضمنت ذكر قارون وما أتيه من المال الذي هو زينة الحياة الدنيا ، قال تعالى : (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) (القصص : 76) ، ثم أخبر تعالى عن زهوه واختياله بماله وظنه استحقاقه إياه ، قال تعالى : (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) (القصص : 79) حتى قال من غفل عن آخرته ولم يعلم ما أعد الله فيها للمؤمنين : (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) (القصص : 79) ، فقدم سبحانه للمعتبرين من عباده المؤمنين وتنبيهاً للغالفين لتحصل السلامة للسعداء ممن عصم بما ابتلى به قالرون فقال تعالى : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ) – أي المؤمنين – (خَيْرٌ وَأَبْقَى) (القصص : 60) ، وقد أخبرهم سبحانه في موضع آخر أن الدنيا وحياتها غرور ، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار ، وبعد تحذير المؤمنين وردت قصة قارون فالتحمت الآية بتلك القصة ، وقيل هنا : (وزينتها) كما قيل في تلك : (فَخَرَجَ عَلَى

قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) (القصص : 79) ، ومن الذي يعدل عما عند الله سبحانه إلى ما جعله تعالى سبباً لإهلاك المشركين ؟ فتناسب هذا كله وتلاءم .

(216/589)

ولم يقع في آية الشورى ذكر (وزينتها) إذ لم يرد فيها ما ورد هنا مما استدعى هذه المناسبة ، ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها ذكر بسط حال دنياوي لأحد ، بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها ، وأنه مقدور غير مبسوط ، وتلك حال الأكثر ، فقال تعالى : (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ) (الشورى : 27) ، وقال عند ذكر من اختار الدنيا ومال إليها : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا) (الشورى : 20) ، فقال : (منها) بأداة التبعيض ، فلم يقع في هذه السورة ما يستدعي ذكر الزينة المالية ، فلذلك لم تذكر ، والله أعلم

والجواب عن السؤال الثاني أن قوله تعالى في آية القصص (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) ملتحم أوضح التحام بما اتصل به من قوله : (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) (القصص : 61) ، فكأن قد قيل بعد قوله : (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) فكأن قد قيل : أفلا تعقلون ما بين الأمرين ، ثم أخبر بقوله : (أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ

وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) في العذاب الذي لا أخر له ، فقوله : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) من تمام ما قبله وذلك بين التناسب .

(217/589)

ولما ورد قبل آية الشورى : (وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) (الشورى : 7) ، قوله : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا) (الشورى : 13) إلى قوله : (فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) (الشورى : 15) . وقوله : (أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) (الشورى : 18) ، قوله : (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ) (الشورى : 22) ، وقوله : (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (الشورى : 31) ، ناسب هذا المتقدم من التخويف ما ينبئ المؤمنين المستجيبين بأصناف قوله : (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى) بقوله تعالى : (لِلَّذِينَ آمَنُوا) أي صدقوا بكل هذا وعلى انفراده سبحانه بالخلق والأمر فتوكلوا عليه ، فأعقبت كل آية منها بما يناسبها ووردت على ما يجب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 384.386 ﴾

(218/589)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا ﴾ [60] قال : من أخذ من الدنيا بشهوة منه حرمه الله في الدنيا والآخرة ما هو خير منها ، ومن أخذ منها لضرورة دخلت بنفسه أو لحق لزمه لم يحرم ما هو خير في الدنيا ، لذة العبادة ومحبة الحق عز وجل ، وفي الآخرة الدرجات العلى .

وقيل لعامر بن عبد قيس : لقد رضيت من الدنيا باليسير .

قال : أفلا أخبركم بمن رضي بدون ما رضيت ؟ قالوا : بلى .

قال : من رضي الدنيا حظاً من الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 118 ﴾

(219/589)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ ﴾

أخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ قال : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل .

وأخرج ابن جرير من وجه آخر عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن وعدناه . . . ﴾ الآية . قال : نزلت في حمزة . وأبي جهل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه ﴾ قال : حمزة بن عبد المطلب ﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ قال : أبو جهل بن هشام .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه ﴾ قال : هو المؤمن . سمع كتاب الله فصدق به ، وآمن بما وعد فيه من الخير والجنة ﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ قال : هو الكافر . ليس كالمؤمن ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ قال : من المحضرين في عذاب الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن مسروق رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيها ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ من المحضرين ﴾ قال : أهل النار أحضروها .

وأخرج البخاري في تاريخه عن عطاء بن السائب قال : كان ميمون بن مهران إذا قدم ينزل على سالم البراد ، فقدم قدمة فلم يلقه فقالت له امرأته : إن أخاك قرأ ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه ﴾ قالت : فشغل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من استطاع منكم أن يضع كنزه حيث لا يأكله السوس فليفعل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب رضي الله عنه قال : مكتوب في التوراة : ابن آدم ضع كنزك عندي فلا غرق ، ولا حرق ، أدفعه إليك أفقر ما تكون إليه يوم القيامة .

(220/589)

وأخرج مسلم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، فيقول : رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، فأما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ، ويقول : يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني ، فيقول : رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول تبارك وتعالى : أما علمت أن عبدي فلاناً استسقاك فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي . قال : ويقول : يا ابن

آدم استطعمتك فلم تطعمني : فيقول : أي رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : أما علمت أن عبدي فلاناً استطعمك فلم تطعمه ، أما أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ".

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد الله بن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال : " يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا ، وأعطش ما كانوا ، وأعرى ما كانوا ، فمن أطعم لله عز وجل أطعمه الله ، ومن كسا لله عز وجل كساه الله ، ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ، ومن كان في رضا الله كان الله على رضاه أقدر " .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ قال : هؤلاء بنو آدم ﴿ قال الذين حق عليهم القول ﴾ قال : هم الجن ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم . . . ﴾ الآية . وقيل لبني آدم ﴿ ادعو شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ ولم يردوا عليهم خيراً .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65)

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد والنسائي والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من أحد إلا سيخلو الله به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر فيقول : يا ابن آدم ما غرك بي ، يا ابن آدم ماذا عملت فيما عملت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ فعميت عليهم الأنباء ﴾ قال : الحجج ﴿ يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ قال : بالأنساب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(222/589)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَمَتَاعُ ﴾ :

أي : فهو مَتَاعُ . وقُرِىء " فمتاعاً الحياةَ " بنصبِ " متاعاً " على المصدر أي : يتمتَّعون متاعاً ، و " الحياةَ " نصبٌ على الظرف .

قوله : ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ قرأ أبو عمرو بالياءِ مِنْ تحتُ التفاتاً . والباقون بالخطاب جَرْياً على ما

تقدَّم .

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

وقرأ طلحة " أمَنْ وَعَدْناه " بغيرِ فاءٍ .

قوله : ﴿ ثُمَّ هُوَ ﴾ : الكسائي وقالون بسكونِ الهاءِ إجراءً ل ثم مجرى الواو والفاء . والباقون بالضمِّ على الأصل .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

قوله : ﴿ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ : مفعولاه محذوفان أي : تزعمونهم شركاءَ .

قوله : ﴿ هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما ، أنه مبتدأ ، و " الذين أَغْوَيْنا " صفةٌ للمبتدأ . والعائدُ محذوفٌ أي : أَغْويناهم ، والخبر " أَغْوَيْناهم " . و ﴿ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوف . ذلك المصدرُ مطاوِعٌ لهذا الفعلِ أي : [أَغْوَيناهم] فَغَوَوْا غَيّاً كما غَوَيْنا . قاله الزمخشريُّ . وهذا الوجهُ مَنعه أبو علي قال : " لأنه ليس في الخبر زيادةُ فائدةٍ على ما في صفتِه " . قال : " فإنْ قلتَ : قد وُصِل بقوله ﴿ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ وفيه زيادةٌ . قلت : الزيادةُ في الظرفِ لا تُصَيِّره أصلاً في الجملة لأنَّ الظروفَ صِلاتٌ " ثم أعرب هو " هؤلاء " مبتدأً و " الذين أَغْوَيْناهم " خبرَه . و " أَغْوَيْناهم " مستأنف . وأجابَ أبو البقاء وغيرُه عن الأول : بأنَّ الظرفَ قد يَلْزَمُ كقولك : " زيد عمرٌو في دارِه " .

قوله : ﴿ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ "إيَّانا " مفعولُ "يَعْبُدون " قدّمِ لأجلِ الفاصلةِ . وفي " ما " وجهان ، أحدهما : هي نافيةٌ ، والثانيةُ مصدريةٌ . ولا بُدَّ مِنْ تقديرِ حرفِ جرٍّ أي : تَبَرَّأْنا مِنْ ما كانوا أي : مِنْ عبادتِهم إيانا . وفيه بُعدٌ .

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64)

قوله : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا ﴾ : جوابُها محذوفٌ أي : لَمَا رَأَوَا العذابَ أو لَدَفعوه .

قوله : ﴿ فَعَمِيَتْ ﴾ : العامَّةُ على تخفيفها . وقرأ الأعمشُ وجناح بن حبيش بضمِّ العينِ وتشديدِ الميم . وقد تقدَّمت القراءتان للسبعةِ في هود . وقرأ طلحة " لا يَسَّاءَلُوْن " بتشديدِ السينِ على إدغامِ التاءِ في السينِ كقراءةِ ﴿ تَسَّآءَلُونَ بِهِ والأرحام ﴾ [النساء : 1] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 687. 689 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾

الدنيا حلوة خَضِرَة ، ولكنها في التحقيق مُرَّةٌ مَذِرَة ، فَبِشْرُها يُوهِمُ أنها صَفْوٌ ولكن مِن وراءِ صَفْوِها حَسُوٌ ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ .

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

الدنيا سمومُ حَنْظَلِها تتلو طمومَ عَسَلِها ، وتَلَفُ ما يحصل من شربها يغلب لُطْفَ ما يظهر من أربها ، وليس من أُكْرِمَ بوجدان نعيم عقباه كَمَنْ مُنِيَ بالوقوع في جحيم دنياه .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

إنما يكون ذلك على جهة التهويل وإبطال كيد أهل التضليل . . وإلاَّ فَمِنْ أين لهم الجواب فضلاً عن الصواب ! والذي يسألُهم هو الذي على ما شاء جَعَلَهم ؛ فما وَرَدَ فِعْلٌ إلا على فِعْلِهِ ، وما صَدَرَ ما صَدَرَ إلا من أصْلِه . وإذْ تَبَرَّأَ بعضُهم من بعض بَيَّنَ أنه لم يكن للأصنام استحقاقُ العبودية ولا لأحدٍ من النفي والإثبات بالإيجاد والإحداثِ ذَرَّةَ أو منه شظيَّة . . كلاّ بل هو الواحد القهار .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65)

يسألهم سؤالَ هيبةٍ ؛ فلا يَبْقَى لهم تمييزٌ ، ولا قوةُ عقلٍ ، ولا مُكْنَةُ جوابٍ ، قال جلّ ذكره :

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ .

إذ استولت عليهم الحَيْرَةُ ، واستمكن منهم الدهشُ ؛ فلا نُطْقَ ولا عقلَ ولا تمييز ولا فهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 75 . 76 ﴾

(225/589)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/590)

الجزء التسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 68 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 75 ﴾ من نفس السورة

(4/590)

قوله تعالى ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : ما لأهل القسم الأول لا يتوخون النجا من ضيق ذلك البلا ، إلى رحب هذا الرجا ، وكان الجواب : ربك منعهم من ذلك ، أو ما لم يقطع لأهل هذا القسم بالفلاح كما قطع لأهل القسم الأول بالشقاء ؟ وكان الجواب : إن ربك لا يجب عليه شيء عطف عليه – إشارة إليه قوله ﴿ وربك ﴾ أي المحسن إليك ، بموافقة من وافقك ومخالفة منخالفك لحكم كبار ، دقت عن فهم أكثر الأفكار ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ من الهدى الضلال وغيرهما ، لأنه المالك المطلق لا مانع له من شيء من ذلك ﴿ ويختار ﴾ أي يوقع الاختيار ، لما يشاء فيريد الكفر للأشرار ، والإيمان للأبرار ، لا اعتراض عليه ، فربما ارتد أحد ممن أظهر المتاب ، لما سبق عليه من الكتاب ، فكان من أهل التباب فلا تأس على من فاتك كائناً من كان ، واعلم أنه ما ضر إلا نفسه ، ومن فاتنا يكفيه أنا نفوته .

ولما أفهم هذا أن غيره سبحانه إذا أراد شيئاً لم يكن إلا أن يوافق مراده تعالى ، صرح به بقوله : ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ أي أن يفعلوا أو يفعل لهم كل ما يختارونه من إتيان الرسول بمثل ما أتى به موسى عليه الصلاة والسلام أو غيره ، اسم من الاختيار ، يقام مقام المصدر ، وهو أيضاً اسم المختار ، فهو تعبير بالمسبب عن السبب لأنه إذا خلى عنه كان عقيماً فكان عدماً ، قال الرازي في اللوامع : وفيه دليل على أن العبد في اختياره غير مختار ، فلهذا أهل الرضى حطوا الرحال بين يدي ربهم ، وسلموا الأمور إليه بصفاء التفويض ، يعني فإن أمرهم أو نهاهم بادروا ، وإن أصابهم بسهام المصائب العظام صابروا ، وإن أعزهم أعزوا أنفسهم

وأكرموا ، وإن أذلهم رضوا وسلموا ، فلا يرضيهم إلا ما يرضيه ، ولا يريدون إلا ما يريده فيمضيه :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي . . .

متأخر عنه ولا متقدم

أجد الملامة في هواك لذيذة . . .

حباً لذكرك فليلمني اللوم

وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً . . .

ما من يهون عليك ممن أكرم

(5/590)

ولما كان إيقاع شيء على غير مراده نقصاً ، وكان وقوع الشرك سفولاً وعجزاً ، قال تعالى مشيراً إلى نتيجة هذه الآيات في نفي ذلك عنه : ﴿ سبحان الله ﴾ أي تنزه الجامع لصفات الكمال عن أن يختار أحد شيئاً لا يريده فيص إليه أو يقع بوجه عليه ﴿ وتعالى ﴾ أي علا علو المجتهد في ذلك ، فعلوُّه لا تبلغ العقول بوجه كنه هداه ﴿ عما يشركون ﴾ لأنه لا إرادة لما ادعوهم شركاء ، ولو كانت لهم إرادة لتوقف إنفادها لعجزهم على إيجاد الخالق .

ولما كانت القدرة لا تتم إلا بالعلم ، قال : ﴿ وربك ﴾ أي المحسن إليك المتولي لتربيتك ، كما هو بالغ القدرة ، فهو شامل العلم ﴿ يعلم ما تكن ﴾ أي تخفي وتستر ﴿ صدورهم ﴾ من كونهم يؤمنون على تقدير أن تأتيهم آيات مثل آيات موسى أو لا يؤمنون ، ومن كون ما أظهر من أظهر منهم الإيمان بلسانه خالصاً أو مشوباً .

ولما كان علم الخفي لا يستلزم علم الجلي إما لبعد أو لغط أو اختلاط أصوات يمنع تمييز بعضه عن بعض أو غير ذلك قال : ﴿ وما يعلنون ﴾ أي يظهرون ، كل ذلك لديه سواء ، فلا يكون لهم مراد إلا بخلقه .

(6/590)

ولما كان علمه بذلك إنما هو لكونه إلهاً ، وكان غيره لا يعلم من علمه إلا ما علمه ، عبر عن ذلك بقوله : ﴿ وهو الله ﴾ أي المستأثر بالإلهية الذي لا سمي له ، الذي لا يحيط الوصف من عظمته بأكثر من أنه عظيم على الإجمال ، وأما التفاصيل كلها أو أقلها فهيهات هيهات ؛ ثم شرح معنى الاسم الأعظم بقوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ له ﴾ أي وحده ﴿ الحمد ﴾ أي الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ في الأولى والآخرة ﴾ وليس ذلك لشيء سواه إن آمنوا أو كفروا ﴿ وله ﴾ أي وحده ﴿ الحكم ﴾ أي إمضاء القضاء على

الإطلاق ، فلو أراد لقسرهم على الإيمان ﴿ وإليه ﴾ أي لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ أي بأيسر أمر يوم النفخ في الصور ، لبعثرة القبور ، بالبعث والنشور ، ومع أنكم الآن أيضاً راجعون في جميع أحكامكم إليه ومقصورون عليه ، إن شاء أمضاها ، وإن أراد ردها ولواها ، ففي الايات غاية التقوية لقلوب المطيعين ، ونهاية الزجر والردع للمتمردين ، بالتنبيه على كونه قادراً على جميع الممكنات ، علماً بكل المعلومات ، منزهاً عن النقائص والآفات يجزي الطائعين والعاصين بالقسط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 512 . 513 ﴾

(7/590)

فصل

قال الفخر :

(8/590)

واعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة أخرى ويقولون : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ ﴾ والمراد أنه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لا اعتراض عليه ألبتة ، وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أنه كل ما فعله كان حكمة وصواباً فليس لأحد أن يعترض عليه وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر والخيرة أيضاً اسم للمختار يقال محمد خيرة الله في خلقه إذا عرفت هذا فنقول في الآية وجهان : الأول : وهو الأحسن أن يكون تمام الوقف على قوله : ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ويكون ما نفياً ، والمعنى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ ﴾ ليس لهم الخيرة إذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل والثاني : أن يكون ما بمعنى الذي فيكون الوقف عند قوله : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ ثم يقول : ﴿ ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ ، قال أبو القاسم الأنصاري وهذا متعلق المعتزلة في إيجاب الصلاح والأصلح عليه ، وأي صلاح في تكليف من علم أنه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله ، فإن قيل لما كلفه استوجب على الله ما هو الأفضل لأن المستحق أفضل من المتفضل به قلنا إذا علم قطعاً إنه لا يحصل ذلك الأفضل فتوريطه في العقاب الأبدي لا يكون رعاية للمصلحة ، ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لأن ذلك التفاوت إنما يحصل في حق من يستنكف من تفضله ، أما الذي ما

حصل الذات والصفات إلا بخلقه وبفضله وإحسانه فكيف يستنكف من تفضله ، ثم قال : ﴿ سبحان الله وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والإعزاز والإذلال مفوض إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من

(9/590)

عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره في النبوة ، ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال : ﴿ وَهُوَ الله لا إله إلاّ هُوَ ﴾ وفيه تنبيه على كونه قادراً على كل الممكنات ، وعالماً بكل المعلومات ، منزهاً عن النقائص والآفات يجازي المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين ، ويحتمل أيضاً أن لما بين فساد طريق المشركين من قوله :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فيقول أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ [القصص : 62] ختم الكلام في ذلك بإظهار هذا التوحيد وبيان أن الحمد والثناء لا يليق إلا به .

(10/590)

أما قوله : ﴿ لَهُ الحمد فِى الأولى والأخرة ﴾ فهو ظاهر على قولنا لأن الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلاً وإحساناً فله الحمد في الأولى والآخرة ، ويؤكد ذلك قول أهل الجنة ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 34] ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [الزمر : 74] ﴿ وآخر دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [يونس : 10] أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة ، وأما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم ، قال القاضي إنه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضاً بما فعله بهم في الدنيا من التمكين والتيسير والإلطاف وسائر النعم ، لأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر ، وهذا فيه نظر ، لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فإذا علموا بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة أن الاشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن بذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم في استحقاق الثواب أفترى أن الإنسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة ؟ كلا ، بل لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر ، ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب .

أما قوله : ﴿ وَلَهُ الحكم ﴾ فهو إما في الدنيا أو في الآخرة فأما في الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه ، فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم

زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول ، فهو الحاكم في الحقيقة ، وأما في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم ، لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة ، فينتصف للمظلومين من الظالمين .

(11/590)

أما قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون ، فإن كلمة إلى لانتهاء الغاية وهو تعالى منزه عن المكان والجهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 10.9 ﴾

(12/590)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : أن قوماً كانوا يجعلون خير أموالهم لأهليهم في الجاهلية فقال ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا

يَشَاءُ ﴾ من خلقه ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ من يشاء لطاعته ، وهو معنى قول ابن عباس .

الثاني : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ من الخلق ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ من يشاء لنبوته ، قاله يحيى بن سلام .

الثالث : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ الأنصار لدينه حكاه النقاش .

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ وفيه وجهان

: أحدهما : معناه ويختار للمؤمنين ما كان لهم فيه الخيرة فيكون ذلك إثباتاً .

الثاني : معناه ما كان للخلق على الله الخيرة ، فيكون ذلك نفياً . ومن قال بهذا فلهم في المقصود به وجهان :

أحدهما : أنه عنى بذلك قوماً من المشركين جعلوا لله ما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فنزل ذلك فيهم ، قاله ابن شجرة .

الثاني : أنها نزلت في الوليد بن المغيرة حين قال ما حكاه الله عنه في سورة الزخرف ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ ﴾ الآية [الزخرف : 31] يعني نفسه وعروة بن مسعود الثقفي فقال الله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أن يتخيروا على الله الأنبياء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ الآية ،

قيل سببها ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي صلى الله عليه وسلم وقول بعضهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] فنزلت هذه الآية بسبب تلك المنازع ، ورد الله تعالى عليهم وأخبر أنه يخلق من عباده وسائر مخلوقاته ما يشاء وأنه يختار لرسالته من يريد ويعلم فيه المصلحة ثم نفى أن يكون الاختيار للناس في هذا ونحوه ، هذا قول جماعة من المفسرين أن ﴿ ما ﴾ نافية أي ليس لهم تخير على الله تعالى فتجيء الآية كقوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ﴾ الآية [الأحزاب : 36] .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن يريد و ﴿ يختار ﴾ الله تعالى الأديان والشرائع وليس له الخيرة في أن يميلوا إلى الأصنام ونحوها في العبادة ، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ ، وذهب الطبري إلى أن ﴿ ما ﴾ في قوله تعالى و ﴿ يختار ما كان ﴾ مفعولة ب ﴿ يختار ﴾ قال : والمعنى أن الكفار كانوا يختارون من أموالهم لأصنامهم أشياء فأخبر الله تعالى أن الاختيار إنما هو له وحده يخلق ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس لا كما يختارون هم ما ليس إليه ويفعلون ما لم يؤمروا به .

قال القاضي أبو محمد : واعتذر الطبري عن الرفع الذي أجمع القراء عليه في قوله تعالى : ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ بأقوال لا تتحصل وقد رد الناس عليه في ذلك ، وذكر عن الفراء أن القاسم بن معن أنشده بيت عنترة : [البسيط]

أمن سمية دمع العين تذريف . . . لو كان ذا منك قبل اليوم معروف

(14/590)

وقرن الآية بهذا البيت والرواية في البيت لو أن ذا ولكن على ما رواه القاسم يتجه في بيت عنترة أن يكون الأمر والشأن مضمراً في كان وذلك في الآية ضعيف ، لأن تفسير الأمر والشأن لا يكون بجملة فيها مجرور وفي هذا كله نظر ، والوقف على ما ذهب إليه جمهور الناس في قوله ﴿ ويختار ﴾ وعلى ما ذهب إليه الطبري لا يوقف على ذلك ويتجه عندي أن يكون ﴿ ما ﴾ مفعولة إذا قدرنا ﴿ كان ﴾ تامة أي أن الله تعالى يختار كل كائن ولا يكون شيء إلا بإذنه ، وقوله تعالى : ﴿ لهم الخيرة ﴾ جملة مستأنفة معناها تعديد النعمة عليهم في اختيار الله تعالى لهم لو قبلوا وفهموا .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69)

ذكر تعالى في هذه الآيات أموراً يشهد عقل كل مفطور بأن الأصنام لا شركة لها فيها ، فمنها

علم ما في النفوس وما يجيش بالخواطر ، و﴿ تكن ﴾ معناه تستر ، وقرأ ابن محيص " تَكُن " بفتح التاء وضم الكاف ، وعبر عن القلب ب " الصدر " من حيث كان محتوياً عليه ، ومعنى الآية أن الله تعالى يعلم السر والإعلان ، ثم أفرد نفسه بالألوهية ونفاها عن سواه ، وأخبر أن الحمد له في الدنيا والآخرة إذ له الصفات التي تقضي ذلك ، و﴿ الحكم ﴾ في هذا الموضع القضاء والفصل في الأمور ، ثم أخبر بالرجعة إليه والحشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(15/590)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وربُّكَ يَخْلُقُ ما يشاء ويختار ﴾

روى العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وربُّكَ يَخْلُقُ ما يشاء ويختار ﴾ قال : كانوا يجعلون لآلهتهم خير أموالهم في الجاهلية .

وقال مقاتل : نزلت في الوليد ابن المغيرة حين قال : ﴿ لولا نُزِّلَ هذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القريتين عظيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] ؛ والمعنى : أَنَّه لا تُبْعَث الرسل باختيارهم .

قال الزجاج : والوقف الجيِّد على قوله : "ويختار" وتكون "ما" نفياً ؛ والمعنى : ليس لهم أن

يختاروا على الله ؛ ويجوز أن تكون "ما" بمعنى "الذي" ، فيكون المعنى : ويختار الذي لهم فيه الخِيَرة مِمَّا يتعبَّدهم به ويدعوهم إليه ؛ قال الفراء : والعرب تقول لِمَا تختاره : أعطِني الخِيْرَة والخِيَرة والخَيْرة ، قال ثعلب : كلها لغات .

قوله تعالى : ﴿ ما تُكِنُّ صُدورُهم ﴾ أي : ما تُخفي من الكفر والعداوة ﴿ وما يُعْلِنون ﴾ بألسنتهم .

قوله تعالى : ﴿ له الحَمْد في الأُولى والآخرة ﴾ [أي] : يَحْمَدُه أولياؤُه في الدنيا ويَحْمَدونه في الجنة ﴿ وله الحُكْم ﴾ وهو الفصل بين الخلائق .

والسَّرمد : الدائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(16/590)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾

هذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم للشفاعة ؛ أي الاختيار إلى الله تعالى في الشّفعاء لا إلى المشركين .

وقيل : هو جواب الوليد بن المغيرة حين قال : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين

عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] يعني نفسه زعم ، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف .

وقيل : هو جواب اليهود إذ قالوا لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به .

قال ابن عباس : والمعنى ؛ وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار منهم من يشاء لطاعته .

وقال يحيى بن سلاّم : والمعنى : وربك يخلق ما يشاء من خلقه ويختار من يشاء لنبوّته .

وحكى النقاش : أن المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه يعني محمداً صلى الله عليه وسلم ، ويختار الأنصار لدينه .

قلت : وفي كتاب البزّار مرفوعاً صحيحاً عن جابر : " إن الله تعالى اختار أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار لي من أصحابي أربعة يعني أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً فجعلهم أصحابي وفي أصحابي كلهم خير واختار أمّتي على سائر الأمم واختار لي من أمتي أربعة قرون " وذكر سفيان بن عُيَيْنة عن عمرو بن دينار عن وهب بن منبّه عن أبيه في قوله عز وجل : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ قال : من النعم الضأن ، ومن الطير الحمام .

والوقف التام ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ .

وقال عليّ بن سليمان : هذا وقف التمام ولا يجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ في موضع نصب ب ﴿ يَخْتَارُ ﴾ لأنها لو كانت في موضع نصب لم يعد عليها شيء .

قال وفي هذا رد على القدرية .

قال النحاس : التمام ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ أي ويختار الرسل .

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ أي ليس يرسل من اختاروه هم .

قال أبو إسحاق : ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ هذا الوقف التام المختار ، ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ في موضع نصب ب ﴿ يختار ﴾ ويكون المعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخِيرَة .

(17/590)

قال القشيري : الصحيح الأوّل لإطباقهم (على) الوقف على قوله ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ .

قال المهدوي : وهو أشبه بمذهب أهل السنة و ﴿ ما ﴾ من قوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيْرَةُ ﴾ نفي عام لجميع الأشياء أن يكون للعبد فيها شيء سوى اكتسابه بقدرة الله عز وجل .

الزمخشري : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيَرَةُ ﴾ بيان لقوله ﴿ وَيَخْتَار ﴾ ؛ لأن معناه يختار ما يشاء ؛ ولهذا لم يدخل العاطف ، والمعنى ؛ إن الخيرة لله تعالى في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها أي ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه .

وأجاز الزجاج وغيره أن تكون ﴿ ما ﴾ منصوبة ب ﴿ يَخْتَارُ ﴾ .

وأنكر الطبريّ أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ؛ لئلا يكون المعنى إنهم لم تكن لهم الخيرة فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل ، ولأنه لم يتقدّم كلام بنفي .

قال المهدوي : ولا يلزم ذلك ؛ لأن ﴿ ما ﴾ تنفي الحال والاستقبال كليس ولذلك عملت عملها ؛ ولأن الآي كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم على ما يسأل عنه ، وعلى ما هم مصرون عليه من الأعمال وإن لم يكن ذلك في النص .

وتقدير الآية عند الطبري : ويختار لولايته الخيرة من خلقه ؛ لأن المشركين كانوا يختارون خيار أموالهم فيجعلونها لآلهتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ للهداية من خلقه من سبقت له السعادة في علمه ، كما اختار المشركون خيار أموالهم لآلهتهم ، ف ﴿ ما ﴾ على هذا لمن يعقل وهي بمعنى الذي و ﴿ الْخِيَرَةُ ﴾ رفع بالابتداء و ﴿ لَهُمُ ﴾ الخبر والجملة خبر ﴿ كان ﴾ .

وشبهه بقولك : كان زيد أبوه منطلق وفيه ضعف ؛ إذ ليس في الكلام عائد يعود على اسم كان إلا أن يقدر فيه حذف فيجوز على بعد .

وقد روي معنى ما قاله الطبري عن ابن عباس .

قال الثعلبي : و ﴿ ما ﴾ نفي أي ليس لهم الاختيار على الله .

(18/590)

وهذا أصوب كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 36] .

قال محمود الورّاق :

توكّل على الرحمن في كل حاجةٍ . . .

أردتَ فإن الله يقضي ويقدِر

إذا ما يرِدْ ذو العرش أمراً بعبده . . .

يصبْه وما للعبد ما يتخير

وقد يهلك الإنسانُ من وجهِ حِذْره . . .

وينجو بحمد الله من حيث يحذر

وقال آخر :

العبدُ ذو ضَجَرٍ والربُّ ذو قَدَرٍ . . .

والدّهرُ ذو دُولٍ والرِّزْقُ مقسومُ

والخيرُ أجمعُ فيما اختار خالقُنا . . .

وفي اختيار سواه اللَّومُ والشُّومُ

قال بعض العلماء لا ينبغي لأحد أن يقدُم على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك ؛ بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة : ﴿ قُلْ يا

أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] وفي الركعة الثانية ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1].

واختار بعض المشايخ أن يقرأ في الركعة الأولى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ الآية ، وفي الركعة الثانية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ وكلٌّ حسن .

(19/590)

ثم يدعو بهذا الدعاء بعد السلام ، وهو ما رواه البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلّمنا السورة من القرآن ؛ يقول : "إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدِر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فَاقْدُره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه اللهم وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني

به"قال : ويسمي حاجته "

وروت عائشة عن أبي بكر رضي الله عنهما : " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمراً قال : "اللهم خِرْ لي واختر لي" " وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ثم انظر إلى ما يسبق قلبك فإن الخير فيه " قال العلماء : وينبغي له أن يفرّغ قلبه من جميع الخواطر حتى لا يكون مائلاً إلى أمر من الأمور ، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه ، فإن الخير فيه إن شاء الله .

وإن عزم على سفر فيتوخى بسفره يوم الخميس أو يوم الاثنين اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم نزه نفسه سبحانه بقوله الحق ؛ فقال : ﴿ سُبْحَانَ الله ﴾ أي تنزيهاً .

﴿ وتعالى ﴾ أي تقدّس وتمجد ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ يظهرون .

وقرأ ابن محيصن وحميد : "تَكُنُّ" بفتح التاء وضم الكاف .

وقد تقدم هذا في "النمل" .

(20/590)

تمدح سبحانه بأنه عالم الغيب والشهادة لا يخفى عليه شيء ﴿ وَهُوَ اللهُ لا إله إِلاَّ هُوَ لَهُ الحمد فِي الأولى والآخرة وَلَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تقدم معناه ، وأنه المنفرد بالوحدانية ، وأن جميع المحامد إنما تجب له ، وأن لا حكم إلا له وإليه المصير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(21/590)

وقال أبو حيان :

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ :

نزلت بسبب ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقول بعضهم : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾

وقائل ذلك الوليد بن المغيرة .

قال القرطبي : هذا متصل بذكر الشركاء الذين دعوهم واختاروهم للشفاعة ، أي الاختيار إلى الله تعالى في الشفعاء ، لا إلى المشركين .

وقيل : هو جواب لليهود ، إذ قالوا : لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل ، لأمنا به ، ونص الزجاج ، وعليّ بن سليمان ، والنحاس : على أن الوقف على قوله : ﴿ ويختار ﴾ تام ،

والظاهر أن ما نافية ، أي ليس لهم الخيرة ، إنما هي لله تعالى ، كقوله : ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ من أمرهم .

وذهب الطبري إلى أن ما موصولة منصوبة بيختار ، أي ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس ، كما لا يختارون هم ما ليس إليهم ، ويفعلون ما لم يؤمروا به .

وأنكر أن تكون ما نافية ، لئلا يكون المعنى : إنه لم تكن لهم الخير فيما مضى ، وهي لهم فيما يستقبل ، ولأنه لم يتقدّم كلام ينفي .

وروي عن ابن عباس معنى ما ذهب إليه الطبري ، وقد رد هذا القول تقدّم العائد على الموصول ، وأجيب بأن التقدير : ما كان لهم فيه الخيرة ، وحذف لدلالة المعنى .

قال الزمخشري : كما حذف من قوله : ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ يعني : أن التقدير أن ذلك فيه لمن عزم الأمور .

وأنشد القاسم ابن معن بيت عنترة :

أمن سمية دمع العين تذريف . . .

لو كان ذا منك قبل اليوم معروف

وقرن الآية بهذا البيت .

والرواية في البيت : لو أن ذا ، ولكن على ما رواه القاسم يتجه في بيت عنترة أن يكون في كان ضمير الشأن .

فأما في الآية ، فقال ابن عطية : تفسير الأمر والشأن لا يكون بجملة فيها محذوف .

قال ابن عطية : ويتجه عندي أن تكون ما مفعولة ، إذا قدرنا كان تامة ، أي أن الله تعالى يختار كل كائن ، ولا يكون شيء إلا بإذنه .

(22/590)

وقوله : ﴿ لهم الخيرة ﴾ : جملة مستأنفة معناها : تعديد النعمة عليهم في اختيار الله لهم ، لو قبلوا وفهموا . انتهى .

يعني : والله أعلم خيرة الله لهم ، أي لمصلحتهم .

والخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، يستعملان بمعنى المصدر ؛ والجمل التي بعد هذا تقدم الكلام عليها .

والحمد في الآخرة قولهم : ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ والتحميد هنالك على سبيل اللذة ، لا التكليف .

وفي الحديث : " يلهمون التسبيح والتقديس " وقرأ ابن محيصن : ما تكن ، بفتح التاء وضم الكاف .

﴿ وله الحكم ﴾ : أي القضاء بين عباده والفصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(23/590)

وقال أبو السعود :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ أنْ يخلقَه ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ما يشاءُ اختيارَه من غيرِ إيجابٍ عليه ولا منعٍ له أصلاً ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ أي التَّخيُّرُ كالطِّيرةِ بمعنى التَّطيرِ ، والمرادُ نفيُ الاختيارِ المؤثرِ عنهم وذلك ممَّا لا ريبَ فيه . وقيل : المرادُ أنَّه ليس لأحدٍ من خلقِه أنْ يختارَ عليه ولذلك خَلا عن العاطفِ ويؤيدُه ما رُوي أنَّه نزل في قولِ الوليدِ بنِ المُغيرةِ ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ والمعنى لا يبعثُ الله تعالى الرُّسلَ باختيارِ المرسَلِ إليهم وقيل : معناه ويختار الذي كان لهم فيه الخيرُ والصَّلاحُ ﴿ سبحان الله ﴾ أي تنزَّه بذاتِه تنزُّهاً خاصّاً به من أنْ ينازعَه أحدٌ أو يزاحم اختيارَه اختيارٌ ﴿ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن إشراكِهم أو عن مشاركةِ ما يشركونَه به .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ كعداوة رسولِ لله صلى الله عليه وسلم وحقدِه ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ كالطَّعنِ فيه ﴿ وَهُوَ الله ﴾ أي المستحقُّ للعبادة ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ لا

أحدَ يستحقُّها إلا هو ﴿ لَهُ الحمد فِى الاولى والآخرة ﴾ لأنَّه المولى للنّعم كلّها عاجِلها وآجِلها على الخلق كافةً يحمَده المؤمنون في الآخرةِ كما حمِدُوه في الدُّنيا بقولِهم : الحمدُ لله الذي أذهبَ عنَّا الحزنَ الحمدُ لله الذي صدقنا وعدَه ابتهاجاً بفضلِه والتذاذاً بحمدِه ﴿ وَلَهُ الحكم ﴾ أي القضاءُ النّافذُ في كلِّ شيءٍ من غيرِ مشاركةٍ فيه لغيرِه ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعثِ لا إلى غيرِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(24/590)

وقال الآلوسى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾

خلقه من الأعيان والأعراض ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ عطف على يخلق ، والمعنى على ما قيل يخلق ما يشاؤه باختياره فلا يخلق شيئاً بلا اختيار ، وهذا مما لم يفهم مما يشاء فليس في الآية شائبة تكرار ، وقيل في دفع ما يتوهم من ذلك غير ما ذكر مما نقله ورده الخفاجي ولم يتعرض للقدح في هذا الوجه ، وأراه لا يخلو عن بعد ولي وجه في الآية سأذكره بعد إن شاء الله تعالى .

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ أي التخير كالطيرة بمعنى التطير وهما والاختيار بمعنى ، وظاهر

الآية نفي الاختيار عن العبد رأساً كما يقوله الجبرية ، ومن أثبت للعبد اختياراً قال : إنه لكونه بالدواعي التي لو لم يخلقها الله تعالى فيه لم يكن كان في حيز العدم ، وهذا مذهب الأشعري على ما حققه العلامة الدواني قال : الذي أثبته الأشعري هو تعلق قدرة لعبد وإرادته الذي هو سبب عادي لخلق الله تعالى الفعل فيه ، وإذا فتشنا عن مبادىء الفعل وجدنا الإرادة منبعثة عن شوق له وتصور أنه ملائم وغير ذلك من أمور ليس شيء منها بقدرة العبد واختياره ، وحقق العلامة الكوراني في بعض رسائله المؤلفة في هذه المسألة أن مذهب السلف أن للعبد قدرة مؤثرة بإذن الله تعالى وأن له اختياراً لكنه مجبور باختياره وأدعى أن ذلك هو مذهب الأشعري دون ما شاع من أن له قدرة غير مؤثرة أصلاً بل هي كاليد الشلاء ونفي الاختيار عنه على هذا نحوه على ما مر فإنه حيث كان مجبوراً به كان وجوده كالعدم ، وقيل : إن الآية أفادت نفي ملكهم للاختيار ويصدق على المجبور باختياره بأنه غير مالك للاختيار إذ لا يتصرف فيه كما يشاء تصرف المالك في ملكه ، وقيل : المراد لا يليق ولا ينبغي لهم أن يختاروا عليه تعالى أي لا ينبغي لهم التحكم عليه سبحانه بأن يقولوا لم لم يفعل الله تعالى كذا .

(25/590)

ويؤيده أن الآية نزلت حين قال الوليد بن المغيرة ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] أو حين قال اليهود لو كان الرسول إلى محمد صلى الله عليه وسلم غير جبريل عليه السلام لآمنا به على ما قيل ، والجملة على هذا الوجه مؤكدة لما قبلها أو مفسرة له إذ معنى ذلك يخلق ما يشاء ويختار ما يشاء أن يختاره لا ما يختاره العباد عليه ولذا خلت عن العاطف وهي على ما تقدم مستأنفة في جواب سؤال تقديره فما حال العباد أو هل لهم اختيار أو نحوه ؟ فقيل : إنهم ليس لهم اختيار ، وضعف هذا الوجه بأنه لا دلالة على هذا المعنى في "النظم الجليل" وفيه حذف المتعلق وهو على الله تعالى من غير قرينة دالة عليه ، وكون سبب النزول ما ذكر ممنوع ، والقول الثاني فيه يستدعي بظاهره أن يكون ضمير لهم لليهود وفيه من البعد ما فيه ، وقيل : ﴿ مَا ﴾ موصولة مفعول يختار والعائد محذوف ، والوقف على يشاء لا نافية ، والوقف على يختار كما نص عليه الزجاج.

وعلي بن سليمان .

والنحاس كما في الوجهين السابقين أي ويختار الذي كان لهم فيه الخير والصلاح ، واختياره تعالى ذلك بطريق التفضل والكرم عندنا وبطريق الوجوب عند المعتزلة ، وإلى موصولية ما وكونها مفعول يختار ذهب الطبري إلا أنه قال في بيان المعنى عليه : أي ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيرة للناس ، وأنكر أن تكون نافية لئلا يكون المعنى أنه لم تكن لهم الخيرة

فيما مضى وهي لهم فيما يستقبل ، وادعى أبو حيان أنه روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما معنى ما ذهب إليه ، واعترض بأن اللغة لا تساعده لأن المعروف فيها أن الخيرة بمعنى الاختيار لا بمعنى الخير وبأنه لا يناسب ما بعده من تعالى قوله : ﴿ سبحان الله ﴾ الخ ، وكذا لا يناسب ما قبله من قوله سبحانه : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ ، وضعفه بعضهم بأن فيه حذف العائد ولا يخفى أن حذفه كثير .

(26/590)

وأجيب عما اعترض به الطبري بأنه يجوز أن يكون المراد بمعونة المقام استمرار النفي ؛ أو يكون المراد ما كان لهم في علم الله تعالى ذلك ، وهذا بعد تسليم لزوم كون المعنى ما ذكره لو أبقى الكلام على ظاهره .

وقال ابن عطية : يتجه عندي أن يكون ما مفعول يختار إذا قدرنا كان تامة أي إن الله تعالى يختار كل كائن ولا يكون شيء إلا بإذنه وقوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الخيرة ﴾ جملة مستأنفة معناها تعديد النعمة عليهم في اختيار الله سبحانه لهم لو قبلوا وفهموا اه .

يعني والله تعالى أعلم أن المراد خيرة الله تعالى لهم أي اختياره لمصلحتهم .

وللفاضل سعدي جلبي نحو هذا إلا أنه قال في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الخيرة ﴾ إنه في معنى

ألهم الخيرة بهمزة الاستفهام الإنكاري ، وذكر أن هذا المعنى يناسبه ما بعد من قوله سبحانه : ﴿ سبحان الله ﴾ الخ فإنه إما تعجيب عن إثبات الاختيار لغيره تعالى أو تنزيه له عز وجل عنه ، ولا يخفى ضعف ما قالاه لما فيه من مخالفة الظاهر من وجوه .

ويظهر لي في الآية غير ما ذكر من الأوجه ، وهو أن يكون يختار معطوفاً على يخلق والوقف عليه تام كما نص عليه غير واحد وهو من الاختيار بمعنى الانتقاء والاصطفاء وكذا الخيرة بمعنى الاختيار بهذا المعنى والفعل متعد حذف مفعوله ثقة بدلالة ما قبله عليه أي ويختار ما يشاء ، وتقديم المسند إليه في كل من جانبي المعطوف والمعطوف عليه لإفادة الحصر ، وجملة ما كان لهم الخيرة مؤكدة لما قبلها حيث تكفل الحصر بإفادة النفي الذي تضمنته ، والكلام مسوق لتجهيل المشركين في اختيارهم ما أشركوه واصطفائهم إياه للعبادة والشفاعة لهم يوم القيامة كما يرمز إليه

(27/590)

﴿ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ [القصص : 64] وللتعبير بما وجه ظاهر ، والمعنى وربك لا غيره يخلق ما يشاء خلقه وهو سبحانه دون غيره ينتقي ويصطفي ما يشاء انتقاءه واصطفاءه فيصطفي مما يخلقه شفعاء ويختارهم للشفاعة ويميز بعض مخلوقاته جل جلاله

على بعض ويفضله عليه بما شاء ما كان لهؤلاء المشركين أن ينتقوا ويصطفوا ما شاءوا ويميزوا بعض مخلوقاته تعالى على بعض ويجعلوه مقدماً عنده عز وجل على غيره لأن ذلك يستدعي القدرة الكاملة وعدم كون فاعله محجوراً عليه أصلاً وأنى لهم ذلك فليس لهم إلا اتباع اصطفاء الله تعالى وهو جل وعلا لم يصطف شركاءهم الذين اصطفوهم للعبادة والشفاعة على الوجه الذي اصطفوهم عليه فما هم إلا جهال ضلال صدوا عما يلزمهم وتصدوا لما ليس لهم بحال من الأحوال ، وإن شئت فنزل الفعل منزلة اللازم وقل المعنى وربك لا غيره يخلق ما يشاء خلقه وهو سبحانه لا غيره يفعل الاختيار والاصطفاء فيصطفي بعض مخلوقاته لكذا وبعضاً آخر لكذا ويميز بعضاً منها على بعض ويجعله مقدماً عنده تعالى عليه فإنه سبحانه قادر حكيم لا يسأل عما يفعل وهو جل وعلا أعظم من أن يعترض عليه وأجل ، ويدخل في الغير المنفي عنه ذلك المشركون فليس لهم أن يفعلوا ذلك فيصطفوا بعض مخلوقاته للشفاعة ويختاروهم للعبادة ويجعلوهم شركاء له عز وجل ويدخل في الاختيار المنفي عنهم ما تضمنه قولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] فإن فيه انتقاء غيره صلى الله عليه وسلم من الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي وتمييزه بأهلية تنزيل القرآن عليه فإن صح ما قيل : في سبب نزول هذه الآية من أنه القول المذكور كان فيها رد ذلك عليهم أيضاً إلا أنها لتضمنها تجهيلهم باختيارهم الشركاء واصطفائهم إياهم آلهة وشفعاء كتضمنها الرد المذكور جيء

بها هنا متعلقة بذكر الشركاء وتقريع المشركين على شركهم ، وربما يقال : إنها لما تضمنت تجهيلهم فيما له نوع تعلق به

(28/590)

تعالى كاتخاذ الشركاء له سبحانه وفيما له نوع تعلق بخاتم رسله عليه الصلاة والسلام كتمييزهم غيره عليه الصلاة والسلام بأهلية الإرسال إليه وتنزيل القرآن عليه جيء بها بعد ذكر سؤال المشركين عن إشراكهم وسؤالهم عن جوابهم للمرسلين الناهين لهم عنه الذين عين أعيانهم وقلب صدر ديوانهم رسوله الخاتم لهم صلى الله عليه وسلم فلها تعلق بكلا الأمرين إلا أن تعلقها بالأمر الأول أظهر وأتم وخاتمتها تقتضيه على أكمل وجه وأحكم .

(29/590)

وربما يقال أيضاً : إن لها تعلقاً بجميع ما قبلها ، أما تعلقها بالأمرين المذكورين فكما سمعت ، وأما تعلقها بذكر حال التائب فمن حيث أن انتظامه في سلك المفلحين يستدعي اختيار الله تعالى إياه واصطفاءه له وتمييزه على من عداه ، ولذا جيء بها بعد الأمور الثلاثة وذكر

انحصار الخلق فيه تعالى وتقديمه على انحصار الاختيار والاصطفاء مع أن مبنى التجهيل والرد إنما هو الثاني للإشارة إلى أن انحصار الاختيار من توابع انحصار الخلق ، وفي ذكره تعالى بعنوان الربوبية إشارة إلى أن خلقه عز وجل ما شاء على وفق المصلحة والحكمة وإضافة الرب إليه صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام وهي في غاية الحسن إن صح ما تقدم عن الوليد سبباً للنزول ، ويخطر في الباب احتمالات أخر في الآية فتأمل فإني لا أقول ما أبديته هو المختار كيف وربك جل شأنه يخلق ما يشاء ويختار ﴿ سبحان الله ﴾ أي تنزه تعالى بذاته تنزهاً خاصاً به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره عز شأنه ﴿ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن إشراكهم على أن ما مصدرية ويحتمل أن تكون موصولة بتقدير مضاف أي عن مشاركة ما يشركونه به كذا قيل ، وجعل بعضهم ﴿ سبحان الله ﴾ تعجيباً من إشراكهم من يضرهم بمن يريد لهم كل خير تبارك وتعالى وهو على احتمال كون ﴿ مَا ﴾ فيما تقدم موصولة مفعول يختار ، والمعنى ويختار ما كان لهم فيه الخير والصلاح ، ويجوز أن يكون تعجيباً أيضاً من اختيارهم شركاءهم الذين أعدوهم للشفاعة وإقدامهم على ما لم يكن لهم وذلك بناءً على ما ظهر لنا وظاهر كلام كثير أن الآية ليست من باب الإعمال ، وجوز أن تكون منه بأن يكون كل من سبحان وتعالى طالباً عما يشركون والأفيد على ما قيل أن لا تكون منه .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾

أي ما يكنون ويخفون في صدورهم من الاعتقادات الباطلة ومن عداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحو ذلك ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ وما يظهرونه من الأفعال الشنيعة والطعن فيه عليه الصلاة والسلام وغير ذلك ، ولعله للمبالغة في خباثة باطنهم لأن ما فيه مبدأ لما يكون في الظاهر من القبائح لم يقل ما يكنون كما قيل : ما يعلنون .

وقرأ ابن محيصن ﴿ تَكُنْ ﴾ بفتح التاء وضم الكاف .

﴿ وَهُوَ الله ﴾ أي وهو تعالى المستأثر بالألوهية المختص بها ، وقوله سبحانه : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ تقرير لذلك كقولك : الكعبة القبلة لا قبلة إلا هي .

﴿ لَهُ الحمد فِى الاولى والاخرة ﴾ أي له تعالى ذلك دون غيره سبحانه لأنه جل جلاله المعطي لجميع النعمب الذات وما سواه وسائط ، والمراد بالحمد هنا ما وقع في مقابلة النعم بقرينة ذكرها بعده بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ [القصص : 71] الخ .

وزعم بعضهم أن الحمد هنا أعم من الشكر ، واعتبر الحصر بالنسبة إلى مجموع حمدي الدارين زاعماً أن الحمد في الدنيا وإن شاركه فيه غيره تعالى لكن الحمد في الآخرة لا يكون إلا له تعالى ، وفيه أن الحمد مطلقاً مختص به تعالى لأن الفضائل والأوصاف الجميلة كلها

بخلقه تعالى فيرجع الحمد عليها في الآخرة له تعالى لأنه جل وعلا مبديها ومبدعها ، ولو نظر إلى الظاهر لم يكن حمد الآخرة مختصاً به سبحانه أيضاً فإن نبينا صلى الله عليه وسلم يحمده الأولون والآخرون عند الشفاعة الكبرى ، وفسر غير واحد حمده تعالى في الآخرة يقول المؤمنين : ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [الزمر : 74] وقولهم : ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 34] .

وقولهم : ﴿ الحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ [الزمر : 75] ، وقالوا : التحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة ، وفي حديث رواه مسلم .

(31/590)

وأبو داود ، عن جابر في وصف أهل الجنة يلهمون التسبيح والتهليل كما يلهمون النفس ﴿ وَلَهُ الحكم ﴾ أي القضاء النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره تعالى ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي له الحكم بين عباده تعالى فيحكم لأهل طاعته بالمغفرة والفضل ولأهل معصيته بالشقاء والويل ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ سبحانه لا إلى غيره .

﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(32/590)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾

أي من أهل قرية كانوا في خفض عيش ودعة ورخاء ، فوقع منهم البطر ، فأهلكوا .

قال الزجاج : البطر الطغيان عند النعمة .

قال عطاء : عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام .

قال الزجاج ، والمازني : معنى ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ : بطرت في معيشتها ، فلما حذفت "في" تعدّى الفعل كقوله : ﴿ واختار موسى قَوْمَهُ ﴾ [الأعراف : 155] .

وقال الفراء : هو منصوب على التفسير كما تقول : أبطرك مالك وبطرته ، ونظيره عنده قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [البقرة : 130] ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين ؛ لأن معنى التفسير : أن تكون النكرة دالة على الجنس .

وقيل : إن معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى : جهلت ﴿ فَتِلْكَ مساكنهم لَمْ تُسْكَن مّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي لم يسكنها أحد بعدهم إلاّ زمناً قليلاً ، كالذي يمرّ بها مسافراً فإنه يلبث فيها يوماً أو بعض يوم ، أو لم يبق من يسكنها فيها إلاّ أياماً قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم .

وقيل : إن الاستثناء يرجع إلى المساكن ، أي لم تسكن بعد هلاك أهلها إلاّ قليلاً من المساكن

، وأكثرها خراب ، كذا قال الفراء ، وهو قول ضعيف ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ منهم لأنهم لم يتركوا وارثاً يرث منازلهم وأموالهم ، ومحلّ جملة : ﴿ لَمْ تُسْكَن ﴾ الرفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال .

(33/590)

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي وما صحّ ، ولا استقام أن يكون الله مهلك القرى الكافرة ، أي الكافر أهلها حتى يبعث في أمها رسولاً ينذرهم ، ويتلوا عليهم آيات الله الناطقة بما أوجبه الله عليهم ، وما أعدّه من الثواب للمطيع والعقاب للعاصي ، ومعنى ﴿ أُمِّهَا ﴾ : أكبرها وأعظمها ، وخص الأعظم منها بالبعثة إليها ؛ لأن فيها أشراف القوم ، وأهل الفهم والرأي ، وفيها الملوك والأكابر ، فصارت بهذا الاعتبار كالأم لما حولها من القرى .

وقال الحسن : أمّ القرى أوّلها .

وقيل : المراد بأمّ القرى هنا : مكة ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 96] الآية ، وقد تقدّم بيان ما تضمنته هذه الآية في آخر سورة يوسف ، وجملة : ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ في محل نصب على الحال ، أي تالياً عليهم ومخبراً لهم أن العذاب

سينزل بهم إن لم يؤمنوا ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، أي وما كنا مهلكين لأهل القرى بعد أن نبعث إلى أمها رسولاً يدعوهم إلى الحق إلاّ حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم ، وتأكيد الحجة عليهم كما في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود : 117] .

(34/590)

ثم قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن شَيْءٍ فمتاع الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ﴾ الخطاب لكفار مكة ، أي وما أعطيتم من شيء من الأشياء فهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به مدّة حياتكم أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه ، أو يزول عنكم ، وعلى كل حال فذلك إلى فناء ، وانقضاء ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ من ثوابه وجزائه ﴿ خَيْرٌ ﴾ من ذلك الزائل الفاني ؛ لأنه لذّة خالصة عن شوب الكدر ﴿ وأبقى ﴾ لأنه يدوم أبداً ، وهذا ينقضي بسرعة ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقي أفضل من الفاني ، وما فيه لذّة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البدن والقلب ، وقرىء بنصب : " متاع " على المصدرية ، أي : فتمتعون متاع الحياة ، قرأ أبو عمرو : " يعقلون " بالتحتية ، وقرأ الباقون بالفوقية على

الخطاب وقراءتهم أرجح لقوله : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم ﴾ .

﴿ أَفَمَن وعدناه وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ أي وعدناه بالجنة ، وما فيها من النعم التي لا تحصى فهو لاقيه ، أي مدركه لا محالة فإن الله لا يخلف الميعاد ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ متاع الحياة الدنيا ﴾ فأعطي منها بعض ما أراد مع سرعة زواله ، وتنغيصه ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ هذا معطوف على قوله : ﴿ مَّتَّعْنَاهُ ﴾ داخل معه في حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ، ومقرّر له ، والمعنى : ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار ، وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا للعذاب اقتضاه المقام ، والاستفهام للإنكار ، أي ليس حالهما سواء ، فإن الموعود بالجنة لا بدّ أن يظفر بما وعد به مع أنه لا يفوته نصيبه من الدنيا ، وهذا حال المؤمن .

(35/590)

وأما حال الكافر فإنه لم يكن معه إلاّ مجرّد التمتيع بشيء من الدنيا يستوي فيه هو والمؤمن ، وينال كل واحد منهما حظه منه ، وهو صائر إلى النار ، فهل يستويان ؟ قرأ الجمهور : ﴿ ثم هو ﴾ بضم الهاء ، وقرأ الكسائي وقالون بسكون الهاء إجراء ل ﴿ ثم ﴾ مجرى الواو ، والفاء .

وانتصاب "يوم" في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ بالعطف على يوم القيامة ، أو بإضمار اذكر ، أي يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين ﴿ فَيَقُولُ ﴾ لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم ، ومفعولا يزعمون محذوفان ، أي تزعمونهم شركائي لدلالة الكلام عليهما ﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي حقت عليهم كلمة العذاب ، وهم رؤساء الضلال الذين اتخذوهم أرباباً من دون الله ، كذا قال الكلبي .

وقال قتادة : هم الشياطين ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء الذين أَغْوَيْنَا ﴾ أي دعوناهم إلى الغواية يعنون الأتباع ﴿ أغويناهم كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي أضللناهم كما ضللنا ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ منهم ، والمعنى : أن رؤساء الضلال ، أو الشياطين تبرّؤوا ممن أطاعهم .

قال الزجاج : برىء بعضهم من بعض ، وصاروا أعداء كما قال الله تعالى : ﴿ الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الزخرف : 67] ، و ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ ، ﴿ والذين أغوينا ﴾ صفته ، والعائد محذوف ، أي أغويناهم ، والخبر : ﴿ أغويناهم ﴾ ، و ﴿ كما غوينا ﴾ نعت مصدر محذوف .

وقيل : إن خبر هؤلاء هو الذين أغوينا ، وأما ﴿ أغويناهم كما غوينا ﴾ فكلام مستأنف لتقرير ما قبله ، ورجح هذا أبو عليّ الفارسي ، واعترض الوجه الأوّل ، وردّ اعتراضه أبو البقاء .

﴿ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ وإنما كانوا يعبدون أهواءهم .

وقيل : إن "ما" في ﴿ ما كانوا ﴾ مصدرية ، أي تبرأنا إليك من عبادتهم إيانا ، والأول أولى .

(36/590)

﴿ وَقِيلَ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي قيل للكفار من بني آدم هذا القول ، والمعنى : استغيثوا بآلهتكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ عند ذلك ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ ولا نفعوهم بوجه من وجوه النفع ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب ﴾ أي التابع والمتبوع قد غشيهم ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ قال الزجاج : جواب لو محذوف ، والمعنى : لو أنهم كانوا يهتدون لأنجاهم ذلك ، ولم يروا العذاب .

وقيل : المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون ما دعوهم : وقيل : المعنى : لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا أن العذاب حق .

وقيل : المعنى : لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب .

وقيل : قد آن لهم أن يهتدوا لو كانوا يهتدون .

وقيل : غير ذلك .

والأوّل أولى ، ويوم في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ معطوف على

ما قبله ، أي ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين لما بلغوكم رسالاتي .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنباء يَوْمَئِذٍ ﴾ أي خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون ، والأصل فعموا عن الأنباء ، ولكنه عكس الكلام للمبالغة ، والأنباء الأخبار ، وإنما سمى حججهم أخباراً ؛ لأنها لم تكن من الحجة في شيء ، وإنما هي أقاصيص ، وحكايات ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً ، ولا ينطقون بحجة ولا يدرون بما يجيبون ، لأن الله قد أعذر إليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ، ولا حجة يوم القيامة .

قرأ الجمهور : (عميت) بفتح العين ، وتخفيف الميم .

وقرأ الأعمش وجناح بن حبيش بضم العين وتشديد الميم .

(37/590)

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءامَنَ وَعَمِلَ صالحا فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ﴾ أن تاب من الشرك وصدّق بما جاء به الرسل ، وأدّى الفرائض واجتنب المعاصي فعسى أن يكون من المفلحين ، أي الفائزين بمطالبهم من سعادة الدارين ، وعسى وإن كانت في الأصل للرجاء فهو من الله واجب على ما هو عادة الكرام .

وقيل : إن الترجي هو من التائب المذكور لا من جهة الله سبحانه .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي يخلقه ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ما يشاء أن يختاره .

﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم ، واختاروهم أي الاختيار إلى الله ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ أي التخير ، وقيل : المراد من الآية : أنه ليس لأحد من خلق الله أن يختار ، بل الاختيار هو إلى الله عزّ وجلّ .

وقيل : إن هذه الآية جواب عن قولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وقيل : هذه الآية جواب عن اليهود حيث قالوا : لو كان الرسول إلى محمد غير جبريل لآمنا به .

قال الزجاج : الوقف على ﴿ ويختار ﴾ تام على أن " ما " نافية .

قال : ويجوز أن تكون "ما" في موضع نصب ب ﴿ يختار ﴾ ، والمعنى : ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة .

والصحيح الأوّل لإجماعهم على الوقف .

وقال ابن جرير : إن تقدير الآية : ويختار لولايته الخيرة من خلقه ، وهذا في غاية من الضعف .

وجوّز ابن عطية أن تكون "كان" تامة ، ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة .

وهذا أيضاً بعيد جداً .

وقيل : إن "ما" مصدرية ، أي : يختار اختيارهم ، والمصدر واقع موقع المفعول به ، أي ويختار مختارهم ، وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير ، والراجح أوّل هذه التفاسير ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة ﴾ [الأحزاب : 36] والخيرة : التخير كالطيرة فإنها التطير ، اسمان يستعملان استعمال المصدر ، ثم نزّه سبحانه نفسه ، فقال : ﴿ سبحان الله ﴾ أي تنزّه تنزّهاً خاصاً به من غير أن ينازعه منازع ، ويشاركه مشارك ﴿ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي عن الذين يجعلونهم شركاء له ، أو عن إشراكهم .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي تخفيه من الشرك ، أو من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي يظهرونه من ذلك .

قرأ الجمهور : ﴿ تكن ﴾ بضم التاء الفوقية وكسر الكاف .

وقرأ ابن محيصن وحميد بفتح الفوقية وضم الكاف .

ثم تمدح سبحانه وتعالى بالوحدانية والتفرّد باستحقاق الحمد ، فقال : ﴿ وَهُوَ الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَهُ الحمد فِي الأولى ﴾ أي الدنيا ﴿ والآخرة ﴾ أي الدار الآخرة ﴿ وَلَهُ الحكم ﴾ يقضي بين عباده بما شاء من غير مشارك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث ، فيجازي المحسن

بإحسانه والمسيء بإساءته ، لا ترجعون إلى غيره .

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ قال : قال الله : لم نهلك قرية بإيمان ، ولكنه أهلك القرى بظلم إذا ظلم أهلها ، ولو كانت مكة آمنت لم يهلكوا مع من هلك ، ولكنهم كذبوا ، وظلموا فبذلك هلكوا .

وأخرج مسلم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عزّ وجلّ : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني " الحديث بطوله .

(39/590)

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال : " يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا ، وأعطش ما كانوا ، وأعرى ما كانوا ، فمن أطعم لله عزّ وجلّ أطعمه الله ، ومن كسا لله عزّ وجلّ كساه الله ، ومن سقى لله عزّ وجلّ سقاه الله ، ومن كان في رضا الله كان الله على رضاه " وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنباء ﴾ قال : الحجج ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ قال : بالأنساب .

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح تعليم الاستخارة وكيفية صلاتها ودعائها ، فلا نطول بذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(40/590)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾

هذا من تمام الاعتراض وهي جملة ﴿ فأما من تاب وءامن وعمل صالحاً ﴾ [القصص : 67] وظاهر عطفه على ما قبله أن معناه آيل إلى التفويض إلى حكمة الله تعالى في خلق قلوب منفتحة للاهتداء ولو بمراحل ، وقلوب غير منفتحة له فهي قاسية صماء ، وأنه الذي اختار فريقاً على فريق .

وفي "أسباب النزول" للواحدي "قال أهل التفسير نزلت جواباً للوليد بن المغيرة حين قال فيما أخبر الله عنه ﴿ وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] أ هـ .

يعنون بذلك الوليد بن المغيرة من أهل مكة وعروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف .

وهما المراد بالقريتين .

وتبعه الزمخشري وابن عطية .

فإذا كان كذلك كان اتصال معناها بقوله ﴿ ماذا أجبتم المرسلين ﴾ [القصص : 65] ، فإن قولهم ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ هو من جملة ما أجابوا به دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى : أن الله يخلق ما يشاء من خلقه من البشر وغيرهم ويختار من بين مخلوقاته لما يشاء مما يصلح له جنس ما منه الاختيار ، ومن ذلك اختياره للرسالة من يشاء إرساله ، وهذا في معنى قوله ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ [الأنعام : 124] ، وأن ليس ذلك لاختيار الناس ورغباتهم ؛ والوجهان لا يتزاحمان .

والمقصود من الكلام هو قوله ﴿ ويختار ﴾ فذكر ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ إيماء إلى أنه أعلم بمخلوقاته .

وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي يفيد القصر في هذا المقام إن لوحظ سبب النزول أي ربك وحده لا أنتم تختارون من يرسل إليكم .

وجوز أن يكون ﴿ ما ﴾ من قوله ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ موصولة مفعولاً لفعل ﴿ يختار ﴾ وأن عائد الموصول مجرور بـ (في) محذوفين .

والتقدير : ويختار ما لهم فيه الخير ، أي يختار لهم من الرسل ما يعلم أنه صالح بهم لا ما يشتهونه من رجالهم .

وجملة ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ استئناف مؤكد لمعنى القصر لئلا يتوهم أن الجملة قبله مفيدة مجرد التقوي .

وصيغة ﴿ ما كان ﴾ تدل على نفي للكون يفيد أشد مما يفيد لو قيل : ما لهم الخيرة ، كما تقدم في قوله تعالى ﴿ وما كان ربك نسيّاً ﴾ في سورة مريم (64) .

والابتداء بقوله ﴿ وربك يخلق ما يشاء ﴾ تمهيد للمقصود وهو قوله ﴿ ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ أي كما أن الخلق من خصائصه فكذلك الاختيار .

و ﴿ الخيرة ﴾ بكسر الخاء وفتح التحتية : اسم لمصدر الاختيار مثل الطيرة اسم لمصدر التطير .

قال ابن الأثير : ولا نظير لهما .

وفي "اللسان" ما يوهم أن نظيرهما : سبي طيبة ، إذا لم يكن فيه غدر ولا نقض عهد .

ويحتمل أنه أراد التنظير في الزنة لا في المعنى ، لأنها زنة نادرة .

واللام في ﴿ لهم ﴾ للملك ، أي ما كانوا يملكون اختياراً في المخلوقات حتى يقولوا ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] .

ونفي الملك عنهم مقابل لقوله ﴿ ما يشاء ﴾ لأن ﴿ ما يشاء ﴾ يفيد معنى ملك الاختيار .

وفي ذكر الله تعالى بعنوان كونه رباً للنبيء صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنه اختاره لأنه ربه وخالقه فهو قد علم استعداده لقبول رسالته .

﴿ لَهُمُ الخيرة سبحان الله وتعالى ﴾ .

استئناف ابتدائي لإنشاء تنزيه الله وعلوه على طريقة الثناء عليه بتنزهه عن كل نقص وهي معترضة بين المتعاطفين .

و﴿ سبحان ﴾ مصدر نائب مناب فعله كما تقدم في قوله ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا ﴾ في سورة البقرة (32) .

وأضيف ﴿ سبحان ﴾ إلى اسمه العلم دون أن يقال : وسبحانه ، بعد أن قال ﴿ وربك يعلم ﴾ [القصص : 69] لأن اسم الجلالة مختص به تعالى وهو مستحق للتنزيه بذاته لأن استحقاق جميع المحامد مما تضمنه اسم الجلالة في أصل معناه قبل نقله إلى العلمية .

والمجرور يتنازعه كلا الفعلين .

(42/590)

ووجه تقييد التنزيه والترفيع بـ (ما يشركون) أنه لم يجترىء أحد أن يصف الله تعالى بما لا يليق به ويستحيل عليه إلا أهل الشرك بزعمهم أن ما نسبوه إلى الله إنما هو كمال مثل اتخاذ

الولد أو هو مما أنبأهم الله به ، و ﴿ إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ [الأعراف : 28] .

وزعموا أن الآلهة شفعاؤهم عند الله .

وقالوا في التلبية : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

وأما ما عدا ذلك فهم معترفون بالكمال لله ، قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان : 25] .

و ﴿ ما ﴾ مصدرية أي سبحانه وتعالى عن إشراكهم .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69)

عطف على ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ [القصص : 68] أي هو خالقهم ومركبهم على النظام الذي تصدر عنه الأفعال والاعتقادات فيكونون مستعدين لقبول الخير والشر وتغليب أحدهما على الآخر اعتقاداً وعملاً ، وهو يعلم ما تخفيه صدورهم ، أي نفوسهم وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم .

فضمير ﴿ صدورهم ﴾ عائد إلى ﴿ ما ﴾ من قوله ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ [القصص : 68] باعتبار معناها ، أي ما تكنّ صدور المخلوقات وما يعلنون .

وحيث أجريت عليهم ضمائر العقلاء فقد تعين أن المقصود البشر من المخلوقات وهم المقصود من العموم في ﴿ ما يشاء ﴾ [القصص : 68] فبحسب ما يعلم منهم يختارهم

ويجازيهم فحصل بهذا إيماء إلى علة الاختيار وإلى الوعد والوعيد .

وهذا منتهى الإيجاز .

وفي إحضار الجلالة بعنوان ﴿ وربك ﴾ إيماء إلى أن مما تكنه صدورهم بغض محمد صلى الله عليه وسلم وتقدم ﴿ ما تُكِنُّ صدورهم وما يعلنون ﴾ آخر [النمل : 74] .

﴿ وَهُوَ الله لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ .

عطف على جملة ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ [القصص : 68] الآية .

(43/590)

والمقصود هو قوله ﴿ وله الحكم ﴾ وإنما قدم عليه ما هو دليل على أنه المنفرد بالحكم مع إدماج صفات عظمته الذاتية المقتضية افتقار الكل إليه .

ولذلك ابتدئت الجملة بضمير الغائب ليعود إلى المتحدث عنه بجميع ما تقدم من قوله ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ [القصص : 58] إلى هنا ، أي الموصوف بتلك الصفات العظيمة والفاعل لتلك الأفعال الجليلة .

والمذكور بعنوان ﴿ ربك ﴾ [القصص : 69] هو المسمى الله اسماً جامعاً لجميع معاني الكمال .

فضمير الغيبة مبتدأ واسم الجلالة خبره ، أي فلا تلتبسوا فيه ولا تخطئوا بادعاء ما لا يليق باسمه .

وقريب منه قوله ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ [يونس : 32] .

وقوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ خبر ثان عن ضمير الجلالة ، وفي هذا الخبر الثاني زيادة تقرير لمدلول الخبر الأول فإن اسم الجلالة اختص بالدلالة على الإله الحق إلا أن المشركين حرفوا أو أثبتوا الإلهية للأصنام مع اعترافهم بأنها إلهية دون إلهية الله تعالى فكان من حق النظر أن يعلم أن لا إله إلا هو ، فكان هذا إبطالاً للشرك بعد إبطاله بحكاية تلاشيه عن أهل ملته يوم القيامة بقوله ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ [القصص : 64] .

وأخبر عن اسم الجلالة خبراً ثانياً بقوله ﴿ له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ وهو استدلال على انتفاء إلهية غيره بحجة أن الناس مؤمنهم وكافرهم لا يحمدون في الدنيا إلا الله فلا تسمع أحداً من المشركين يقول : الحمد للعزى ، مثلاً .

فاللام في ﴿ له ﴾ للملك ، أي لا يملك الحمد غيره ، وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص وهو اختصاص حقيقي .

وتعريف ﴿ الحمد ﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق ، أي له كل حمد .

و﴿ الأولى ﴾ هي الدنيا وتخصيص الحمد به في الدنيا اختصاص لجنس الحمد به لأن

حمد غيره مجاز كما تقدم في أول الفاتحة .

وأما الحمد في الآخرة فهو ما في قوله ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾ [الإسراء : 52] .

(44/590)

واختصاص الجنس به في الآخرة حقيقة .

وقوله ﴿ وله الحكم ﴾ اللام فيه أيضاً للملك .

والتقديم للاختصاص أيضاً .

و﴿ الحكم ﴾ : القضاء وهو تعيين نفع أو ضر للغير .

وحذف المتعلق بالحكم لدلالة قوله ﴿ في الأولى والآخرة ﴾ عليه ، أي له الحكم في الدارين .

والاختصاص مستعمل في حقيقته ومجازه لأن الحكم في الدنيا يثبت لغير الله على المجاز ، وأما الحكم في الآخرة فمقصور على الله .

وفي هذا إبطال لتصرف آلهة المشركين فيما يزعمونه من تصرفاتها وإبطال لشفاعتها التي يزعمونها في قولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [يونس : 18] أي في الآخرة إن كان ما

زعمتم من البعث .

وأما جملة ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فمسوقة مساق التخصيص بعد التعميم ، فبعد أن أثبت لله كل حمد وكل حكم ، أي أنكم ترجعون إليه في الآخرة فتمجدونه ويُجري عليكم حكمه .

والمقصود بهذا إلزامهم بإثبات البعث .

وتقديم المجرور في ﴿ وإليه ترجعون ﴾ للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بالانتهاء إليه أي إلى حكمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(45/590)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾

كنا ننتظر أنْ يُخبرنا السياق بما سيقع على المشركين من العذاب ، لكن تأتي الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ . . . ﴾ [القصص : 68] وكأن الحق سبحانه يقول : أنا الذي أعرف أين المصلحة ، وأعرف كيف أُريحكم من شرِّهم ، فدعوني أخلق ما أشاء ، وأختار ما أشاء ، فأنا الرب المتعهد للمربي بالتربية التي تُوصله إلى المهمة منه .

والمربِّي قسمان : إما مؤمن وإما كافر ، ولا بُدَّ أنْ يشقى المؤمن بفعل الكافر ، وأنْ يمتد هذا الشقاء إنْ بقي الكافر على كفره ؛ لذلك شَرعتُ له التوبة ، وقَبِلْتُ منه الرجوع ، وهذا أول ما يريح المؤمنين .

ومعنى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة . . . ﴾ [القصص : 68] يعني : لا خيار لكم ، فدعوني لأختار لكم ، ثم نفِّذوا ما أختاره أنا .

أو : أن هذه الآية ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ . . . ﴾ [القصص : 68] قيلت للردِّ على قولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] . يقصدون الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي ، فردَّ الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . . . ﴾ [الزخرف : 32] .

فكيف يطمعون في أنْ يختاروا هم وسائل الرحمة ، ونحن الذين قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، فجعلنا هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً ، فمسائل الدنيا أنا متمكن منهم فيها ، فهل يريدون أنْ يتحكموا في مسائل الآخرة وفي رحمة الله يوجِّهونها حسب اختيارهم ؟ ! !

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة . . ﴾ [القصص : 68] أي : الاختيار في مثل هذه المسائل .

ويجوز ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة . . . ﴾ [القصص : 68] أي : المؤمنون ما كان لهم أنْ يعترضوا على قبول توبة الله على المشركين الذين آذوهم ، يقولون : لماذا تقبل منهم التوبة وقد فعلوا بنا كذا وكذا ، وقد كنا نود أن نراهم يتقلبون في العذاب ؟

والحق تبارك وتعالى يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وحين يقبل التوبة من المشرك لا يرحمه وحده ، ولكن يرحمكم أنتم أيضاً حين يُريحكم من شرِّه .

وقوله : ﴿ سُبْحَانَ الله وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص : 68] أي : تعالى الله وتنزَّه عما يريدون من أنْ يُنزِلوا الحق سبحانه على مرادات أصحاب الأهواء من البشر ، ولو أن الحق سبحانه نزل على مرادات أصحاب الأهواء من البشر – وأهواؤهم مختلفة – لفسدتْ حياتهم جميعاً .

ألا ترى أن البشر مختلفون جميعاً في الرغبات والأهواء ، بل وفي مسائل الحياة كلها ، فترى الجماعة منهم في سنٍّ واحدة ، وفي مركز اجتماعي واحد ، فإذا توجَّهوا لشراء سلعة مثلاً اختار كل منهم نوعاً ولوناً مختلفاً عن الآخر .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69)

ما تُكنُّ صدورهم أي : السر ﴿ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ﴾ [طه : 7] والسر : ما تركته في نفسك محبوساً ، وأسررْتَه عن الخَلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر : ما أسررت به إلى الغير ،

وساعتها لن يبقى سِراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك ، فصدر غيرك أضيق .

وإذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بأن علمه واسع يعلم السر ، فهو يعلم الجهر من باب أَوْلَى ؛ لأن الجهر يشترك فيه جميع الناس ويعرفونه . أما الأخفى من السر ، فلأنه سبحانه يعلم ما تُسِره في نفسك قبل أنْ يوجد في صدرك ، وهو وحده الذي يعلم الأشياء قبل أن توجد .

(47/590)

ولك أن تسأل : إذا كان من صفاته تعالى أنه يعلم السر وما هو أخفى من السر ، فماذا عن الجهر وهو شيء معلوم للجميع ؟ وهذه المسألة استوقفتْ بعض المستشرقين وأتباعهم من المسلمين (المنحلين) الذين يجارونهم .

وحين نستقرئ آيات القرآن نجد أن الله تعالى سوَّى في علمه تعالى بين السر والجهر ، فقال سبحانه : ﴿ سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ . . . ﴾ [الرعد : 10] .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ . . . ﴾ [الملك : 13] .

والآية التي معنا : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص : 69] وفي هذه الآيات قدّم السر على الجهر ، أما في قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى * إِلاَّ مَا شَآءَ الله إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ﴾ [الأعلى : 6-7] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : 110] فقدَّم العلم بالجهر على العلم بالسرِّ ، ولا يقدم الجهر إلا إذا كان له ملحظية خفاء عن السر ، وهذه الملحظية غفل عنها السطحيون ، فأخطأوا في فهم الآية .

فأنت مثلاً لو أسررتَ في نفسك شيئاً ، فربما ظهر في سقطات لسانك أو على ملامح وجهك ، وربما خانك التعبير فدلَّ على ما أسررتْه ، ألم يقل الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . . ﴾ [محمد : 30] .

إذن : هناك قرائن وعلامات نعرف بها السر ، أما الجهر وهو من الجماعة ليس جهراً واحداً ؛ لأنه مقابل بالجمع : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ [الأنبياء : 110] فالمعنى : ويعلم ما تجهرون وما تكتمون .

(48/590)

ولك أن تتابع مظاهرة لجمع غفير من الناس ، يهتف كل منهم هتافاً ، أتستطيع أن تميز بين هذه الهتافات ، وأنْ تُرجع كلاً منها إلى صاحبها ؟ هذا هو اللغز في الجهر والملحظ الذي فاتهم تدبُّره ، لذلك امتن الله علينا بعلمه للجهر من القول الذي لا نعلمه نحن مهما أوتينا من آلات فَرْز الأصوات وتمييزها .

لذلك يقولون : لا تستطيع أنْ تُحدّد جريمة في جمهور من الناس ؛ لأن الأصوات والأفعال مختلطة ، يستتر كلٌّ منها في الآخر كما يقولون : الفرد بالجمع يُعْصَم .

ويقولون : الجماهير ببغائية ، كما قال شوقي في مصرع كليوباترا ، لما انهزموا في يوم (أكتيوما) وأشاعوا أنهم انتصروا ، لكن هذه الحيلة لا تنطلي على العقلاء من القوم ، فيقول أحدهم للآخر عن غوغائية الجماهير :

اسْمع الشَّعْبَ دُيُونُ . . . كَيْفَ يُوحُون إليْهِ

مَلأ الجوَّ هتافاً . . . بحيَاتيْ قَاتليْهِ

أَثَّر البهتانُ فيه . . . وَانْطلى الزُّور عليْه

يَا لَهُ مِنْ ببغاء . . . عقلُه في أُذُنَيْه

إذن : فَعِلْم الجهر هنا مَيْزة تستحق أنْ يمتنَّ الله بها ، كما يمتنُّ سبحانه بعلم السر .

وقال سبحانه ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ . . . ﴾ [القصص : 69] ليُطمئن رسول الله ؛ لأنه سبحانه ربه ، والمتولي لتربيته والعناية به ، يقول له : لا تحزن مما يقولون ، فأنا أعلم سِرَّهم وجهرهم ، فإنْ كنتَ لا تعرف ما يقولون فأنا أعرفه ، وسوف أخبرك به ، ألم يقل سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ . . . ﴾ [المجادلة : 8] .

فأخبره ربه بما يدور حتى في النفوس ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إياك أن تظن أنني

سأؤاخذهم بما عرفتَ من أفعالهم فحسب ، بل بما لا تعلم مما فعلوه ، ليطمئن رسول الله أنه سبحانه يُحصي عليهم كل شيء .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ اللهُ لا إله إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ .

(49/590)

الله : هو المعبود بحقٍّ ، وله صفات الكمال كلها ، وهو سبحانه ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [القصص : 70] وما دام هو وحده سبحانه ، فلا أحد يفتن عليه ، أو يستدرك عليه بشيء ، وسبق أن قال لهم : هاتوا شركاءكم لنفصل في مسألة العبادة علانية و (نفاصل) من صاحب هذه السلعة : أي يوم القيامة .

ومعنى : ﴿ الأولى . . . ﴾ [القصص : 70] أي : الخَلْق الذي خلقه الله ، والكون الذي أعدَّه لاستقبال خليفته في الأرض : الشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال والماء والهواء والأرض ، فقبل أنْ يأتي الإنسان أعدَّ الله الكونَ لاستقباله .

لذلك حينما يتكلم الحق سبحانه عن آدم لا يقول : إنه أول الخَلْق ، إنما أول بني آدم ، فقد سبقه في الخلق عوالم كثيرة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ هَلْ أَتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴾ [الإنسان : 1] أي : لم يكن له وجود .

وإعداد الكون لاستقبال الإنسان جميل يستوجب الحمد والثناء ، فقد خلق الله لك الكون كله ، ثم جعلك تنتفع به مع عدم قدرتك عليه أو وصولك إليه ، فالشمس تخدمك ، وأنت لا تقدر عليها ولا تملكها ، وهي تعمل لك دون صيانة منك ، ودون أن تحتاج قطعة غيار ، وكذلك الكون كله يسير في خدمتك وقضاء مصالحك ، وهذا كله يستحق الحمد .

وبعد أنْ خلقك الله في كون أُعِدّ لخدمتك تركك ترتع فيه ، ذرة في ظهر أبيك ، ونطفة في بطن أمك إلى أنْ تخرج للوجود ، فيضمك حضنها ، ولا يكلفك إلا حين تبلغ مبلغ الرجال وسِنّ الرشد ، ومنحك العقل والنضج لتصبح قادراً على إنجاب مثلك ، وهذه علامة النضج النهائي في تكوينك كالثمرة لا تخرج مثلها إلا بعد نُضْجها واستوائها .

(50/590)

لذلك نجد في حكمة الله تعالى ألاَّ يعطي الثمرة حلاوتها إلا بعد نُضْج بذرتها ، بحيث حين تزرعها بعد أكْلها تنبت مثلها ، ولو أُكلت قبل نُضْجها لما أنبتت بذرتها ، ولا نُقرض هذا النوع ؛ لذلك ترى الثمرة الناضجة إذا لم تقطفها سقطت لك على الأرض لتقول لك : أنا جاهزة .

لذلك نلحظ عندنا في الريف شجرة التوت أو شجرة المشمس مثلاً يسقط الثمر الناضج

على الأرض ، ثم ينبت نباتاً جديداً ، يحفظ النوع ، ولو سقطت الثمار غير ناضجة لما أنبتت .

وكذلك الإنسان لا ينجب مثله إلا بعد نُضْجه ، وعندها يُكلِّفه الله ويسأله ويحاسبه . إذن : على الإنسان أنْ يسترجع فضل الله عليه حتى قبل أنْ يستدعيه إلى الوجود ، وأنْ يثق أن الذي يُكلِّفه الآن ويأمره وينهاه هو ربُّه وخالقه ومُربِّيه ، ولن يكلِّفه إلا بما يُصلحه ، فعليه أنْ يسمع ، وأنْ يطيع .

وقوله تعالى : ﴿ والآخرة . . . ﴾ [القصص : 70] يعني : له الحمد في القيامة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [يونس : 10] فيحمد الله في الآخرة ؛ لأنه كان يمتعني في الدنيا إلى أمد ، ويمتعني في الدنيا على قَدْر إمكاناتي ، أما في الآخرة فيعطيني بلا أمد ، وعلى قَدْر إمكاناته هو سبحانه ، فحين نرى هذا النعيم لا نملك إلا أنْ نقول : الحمد لله ، وهكذا اجتمع لله تعالى الحمد في الأولى ، والحمد في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 70] لأن الآخرة ما كانت إلا للحكم وللفصل في الخصومات ، حيث يعرف كلٌّ ما له وما عليه ، فلا تظن أن الذين آذوْك وظلموك سيُفلِتون من قبضتنا .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 70] أي : للحساب ، وفي قراءة (تَرْجعون) لأنهم

سيرجعون إلينا ويأتوننا بأنفسهم ، كأنهم مضبوطون على ذلك ، كالمنبه تضبطه على الزمن ، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يسوقهم أحد .

(51/590)

وعلى قراءة ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 70] إياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أن تتأَّبوْا علينا ، كما تأَّبيتُم على رسُلنا في الدنيا ؛ لأن الداعي في الدنيا كان يأخذكم بالرفق واللين ، أما داعي الآخرة فيجمعكم قَسْراً ورَغْماً عنكم ، ولا تستطيعون منه فكاكا ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(52/590)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ :

فيه أوجهٌ، أحدها: أن "ما" نافيةٌ فالوقفُ على "يَخْتار". والثاني: "ما" مصدريةٌ أي: يختار اختيارَهم، والمصدرُ واقعٌ موقعَ المفعولِ به أي: مُختارهم.

الثالث: أَنْ تكونَ بمعنى الذي، والعائدُ محذوفٌ أي: ما كان لهم الخيرةُ فيه كقولِه: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى: 43] أي: منه.

وجَوَّزَ ابنُ عطية أَنْ تكونَ "كان" تامةً و "لهم الخِيَرَةُ" جملةٌ مستأنفةٌ. قال: "ويَتَّجه عندي أن تكون "ما" مفعولةً إذا قدَّرْنا كان التامةَ أي: إنَّ اللهَ يختار كلِّ كائنٍ. و "لهم الخيرةُ" مستأنفٌ. معناه تعديدُ النِّعمِ عليهم في اختيار الله لهم لو قَبلوا". وجعل بعضُهم في "كان" ضميرَ الشأن/ وأنشد:

3633 أَمِنْ سُمَيَّةَ دَمْعُ العين تَذْرِيْفُ . . . لو كان ذا منك قبل اليوم معروفُ

ولو كان "ذا" اسمَها لقال: "معروفاً". وابنُ عطيةَ منع ذلك في الآية قال: "لأنَّ تفسيرَ الأمرِ والشأنِ لا يكون بجملةٍ فيها محذوف". قلت: كأنه يريد أنَّ الجارَّ متعلقٌ بمحذوفٍ. وضميرُ الشأنِ لا يُفَسَّر إلاَّ بجملةٍ مصرَّح بجزْأَيها. إلاَّ أنَّ في هذا نظراً إنْ أراده؛ لأن هذا الجارَّ قائمٌ مقامَ الخبرِ. ولا أظنُّ أحداً يمنعُ "هو السلطان في البلد" و "هي هندٌ في الدار".

.

والخِيَرَةُ مِنَ التخيير ، كالطِّيَرَةِ من التَّطَيُّرِ فيُستعملان استعمالَ المصدر . وقال الزمخشري : " ما كان لهم الخيرةُ بيانٌ لقولِه " ويختار " لأنَّ معناه : ويختار ما يشاءُ ، ولهذا لم يَدْخُلِ العاطفُ . والمعنى : أنَّ الخِيَرَةَ للهِ تعالى في أفعالِه ، وهو أعلمُ بوجوهِ الحكمة فيها ليس لأحدٍ مِنْ خَلْقِه أَنْ يختار عليه " . قتل : لم يَزَلِ الناسُ يقولون : إن الوقفَ على " يختار " ، والابتداءَ ب " ما " على أنها نافيةٌ هو مذهبُ أهلِ السنةِ . ونُقِل ذلك عن جماعةٍ كأبي جعفرٍ وغيرِه ، وأنَّ كونَها موصولةً متصلةً ب " يختار " غيرَ موقوفٍ عليه مذهبُ المعتزلة . وهذا الزمخشريُّ قد قَرَّرَ كونَها نافيةً ، وحَصَّل غرضَه في كلامِه ، وهو موافقٌ لكلامِ أهلِ السُّنةِ ظاهراً ، وإنْ كان لا يريده . وهذا الطبريُّ مِنْ كبار أهل السنة مَنَعَ أَنْ تكونَ [ما] نافيةً قال : لئلا يكون المعنى : أنَّه لم تكنْ لهم الخيرةُ فيما مضى ، وهي لهم فيما يُستقبل ، وأيضاً فلم يتقدَّمْ نفيٌ " . وهذا الذي قاله ابنُ جريرٍ مَرْوِيٌّ عن ابن عباس . وقال بعضُهم : ويختار لهم ما يشاء من الرسلِ ، ف " ما " على هذا واقعةٌ على العقلاء . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 690. 691 ﴾

(54/590)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾

يختار ما يشاء ومَنْ يشاء من جملة ما يخلق . ومَنْ ليس إليه شيءٌ من الخَلْقِ . . فما له والاختيار ؟ !

الاختيار للحقِّ استحقاقُ عِزٍّ يوجِبُ أن يكون ذلك له ، لأَنَّه لو لم يُنَفِّذْ مشيئَتَه واختيارَه لم يكن بوصف العِزِّ ، فَمَنْ بَقِيَ عن مُرادِه لا يكون إلاَّ ذليلاً ؛ فالاختيارُ للحقِّ نعتُ عِزٍّ ، والاختيارُ للخَلْقِ صفةُ نَقْصٍ ونعتُ بلاءٍ وقصور ؛ فاختيارُ العَبْدِ غيرُ مُبارَكٍ عليه لأَنَّه صفةٌ هو غيرُ مُسْتَحِقٍّ لها ، ومَنْ اتصف بما لا يليق به افتضح في نَفْسِه ، قال قائلُهم :

ومعالٍ إذا ادَّعاها سواه . . . لَزِمَتْه جِنَايةُ السُّرَّاقِ

والطينةُ إذا ادَّعَتْ ما هو صفة الحقِّ أظهرت رعونتَها ، فما للإنسان والاختيار ؟ ! وما للمملوكِ والمِلْك ؟ ! وما للعبيدِ والتصدُّر في دَسْتِ الملوك ؟ !

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69)

ولِمَ لا وقد قال : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : 14] ؟ فالعِلْمُ – الذي لا يَعْزُبُ عنه معلومٌ – نعتُ من لم يَزَلْ ، والإبداع من العَدَمِ إلى الوجود ينفرِدُ بالقدرة

عليه لم يَزَلْ .

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

(55/590)

﴿ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ : تَوَحَّدَ بِعِزِّ هيبته ، وتَفَرَّدَ بجلال ربوبيته ، لا شبيهَ يساويه ، ولا نظيرَ يُضاهيه . ﴿ لَهُ الْحَمْدُ ﴾ استحقاقاً على عَطِيَّته ، وله الشكر استيجاباً على نعمته ؛ ففي الدنيا المحمودُ اللَّهُ ، وفي العقبى المشكورُ اللَّهُ ؛ فالإحسان من اللَّهِ لأن السلطانَ للَّهِ ، والنعمةُ من اللَّهِ لأنَّ الرحمةَ للَّهِ ، والنصرةُ من اللَّهِ لأنَّ القدرةَ للَّهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 77 . 78 ﴾

(56/590)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى

وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43) ﴾

التفسير : إنه سبحانه بعد تتميم قصة موسى أراد أن يبين إعجاز نبينا صلى الله عليه وسلم فذكر أوّلاً أنه أعطى موسى الكتاب بعد إهلاك فرعون وقومه حال كون الكتاب أنواراً للقلوب وإرشاداً لأهل الضلال وسبباً لنيل الرحمة إرادة أن يتذكروا ، ويجوز أن يعود ترجي التذكر إلى موسى . ثم أجمل عظائم أحوال موسى وبين أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن هناك فقال ﴿ وما كنت بجانب الغربي ﴾ اي بجانب المكان الواقع في شق الغرب وهو ناحية الشأم التي فيها قضى إلى موسى أمر الوحي والاستنباء . ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ على ذلك فقد يكون الشخص حاضراً ولا يكون شاهداً ولا مشاهداً . قال ابن عباس : التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع فإنه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى . ثم قال ﴿ ولكنا أنشأنا ﴾ بعد عهد موسى إلى عهدك ﴿ قروناً فتطاول عليهم العمر ﴾ فاندرست العلوم والشرائع ووجب إرسالك إلى خرهم قرناً وهو القرن الذي أنت فيه ، فأرسلناك وعرّفناك أحوال الأنبياء .

(57/590)

وحاصل الآية أنه ذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة ودل به على المسبب والغرض بيان إعجازه كأنه قال : إن في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله ، دلالة ظاهرة على نبوّتك . ثم فصل ما أجمل فذكر أوّل أمر موسى وبين أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن هناك وهو قوله ﴿ وما كنت ثاوياً ﴾ مقيماً ﴿ في أهل مدين ﴾ وهم شعيب والمؤمنون به ﴿ تتلوا عليهم آياتنا ﴾ قال مقاتل : أي لم تشهد أهل مدين وأنت تقرأ على أهل مكة خبرهم ، ولكنا ارسلناك إلى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الأخبار ولولا ذلك ما علمتها . وقال الضحاك : يقول يا محمد : إنك لم تكن رسولاً إلى أهل مدين تتلو عليهم الكتاب وإنما الرسول غيرك ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ في كل زمان رسولاً فأرسلنا إلى أهل مدين شعيباً وأرسلناك إلى العرب لتكون خاتم الأنبياء . ثم ذكر أوسط أمر موسى وأشرف أحواله وبين أنه لم يكن هناك فقال ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ الأظهر أنه يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه . وعن بعض المفسرين أنه اراد قوله ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها ﴾ [الإعراف : 156] إلى قوله ﴿ المفلحون ﴾ [الأعراف : 157] وقال ابن عباس : إذ نادينا أمتك في أصلاب آبائهم يا أمة محمد أجيبكم قبل أن تدعوني وأعطيكم قبل أن تسألوني وأغفر لكم قبل أن تستغفروني . قال : وإنما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى سبعين رجلاً لميقات ربه . وقال وهب : لما ذكر الله لموسى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال : يا رب أرنيهم . قال : إنك لن تردكهم

وإن شئت أسمعتك أصواتهم . قال : بلى يا رب . فقال : يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم فقال سبحانه : أجبتكم قبل أن تدعوني الحديث كما ذكر ابن عباس . وروى سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال : "كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يا أمة محمد :

(58/590)

إن رحمتي سبقت غضبي ، أعطيتكم قبل أن تسألوني ، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني ، من لقيني منكم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أدخله الجنة " قوله ﴿ ولكن رحمة ﴾ أي ولكنا علمناك ﴿ رحمة من ربك ﴾ ثم فسر الرحمة بقوله ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ أي في زمان الفترة بينك وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة . وقيل : كانت حجة الأنبياء قائمة عليهم ولكنه ما بعث إليهم من يجدد تلك الحجة عليهم ، فبعثه الله تعالى تقريراً لتلك التكاليف وإزالة لتلك الفترة .

قوله ﴿ ولولا أن تصيبهم ﴾ هي امتناعية وجوابها مح1ذوف . والفاء في قوله ﴿ فيقولوا ﴾ للعطف على أن تصيبهم ، وقوله ﴿ لولا أرسلت ﴾ هي تحضيضية . والفاء في ﴿

فنتبع ﴾ جواب " لولا " ، وذلك أن التحضيض في حكم الأمر لأن كلاً منهما بعث على الفعل . والمعنى : ولولا أنهم قائلون إذا عوقبوا على ما قدّموا من الشرك والمعاصي هلا أرسلت إلينا رسولاً محتجين علينا بذلك لما أرسلنا إليهم . والحاصل أن إرسال الرسول لجل إزالة هذا العذر . قال اصحاب البيان : القول هو المقصود بأن يكون سبباً لإرسال الرسل ، ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول أدخلت عليها " لولا " وجيء بالقول معطوفاً عليها بفاء السببية تنبيهاً على أنهم لو لم يعاقبوا على كفرهم ولم يعاينوا العذاب لم يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولاً ، فالسبب في قولهم هذا هو العقاب لا غير لا التأسف على ما فاتهم من الإيمان ، وفي هذا بيان استحكام كفرهم وتصميمهم . قال الجبائي : في الآية دلالة على وجوب اللطف وإلا لم يكن لهم أن يقولوا لولا أرسلت . وقال الكعبي : فيه دليل على أنه تعالى يقبل حجة العباد فلا يكون فعل العبد بخلق الله وإلا لكان للكافر أعظم حجة على الله تعالى . وقال القاضي : فيه إبطال الجبر لأن اتباع الآيات لو كان موقوفاً على خلق الله فأيّ فائدة في قولهم هذا . ومعارضة الأشاعرة بالعلم والداعي معلومة .

(59/590)

ثم بين أنهم قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون بأخرى فلا مقصود لهم إلا العناد فقال ﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ اي الرسول المصدّق بالكتاب المعجز ﴿ قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ من الكتاب المنزل جملة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر ، فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بقوله ﴿ أولم يكفروا ﴾ وفيه وجوه : أحدها أن اليهود أمروا قريشاً أن يسألوا محمداً مثل ما أوتي موسى فقال تعالى : ﴿ أولم يكفروا ﴾ هؤلاء اليهود الذين اقترحوا هذا السؤال بموسى مع تلك الآيات الباهرة . والذين أوردوا هذا الاقتراح يهود مكة ، والذين كفروا بموسى من قبل أو بما أوتي موسى من قبل هم الذين كانوا في زمن موسى إلا أنه تعالى جعلهم كالشيء الواحد لتجانسهم في الكفر والعنت . وقال الكلبي : إن مشركي مكة بعثوا رهطاً إلى يهود المدينة يسألهم عن محمد وشأنه فقالوا : إنا نجده في التوراة بنعته وصفته ، فلما رجه الرهط إليهم فأخبروهم بقول اليهود قالوا : إنه كان ساحراً كما أن محمداً ساحر فقال الله تعالى في حقهم ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ . وقال الحسن : قد كان للعرب أصل في أيام موسى فالتقدير : أولم يكفر آباؤهم بأن قالوا في موسى وهارون ساحران تظاهرا أي تعاونا .

(60/590)

وقال قتادة : أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليه السلام ف ﴿ قالوا ساحران ﴾ والأظهر أن كفار مكة وقريش كانوا منكرين لجميع النبوات . ثم إنهم طلبوا من محمد معجزات موسى فقال الله تعالى : ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى ﴾ بل بما أوتي جميع الأنبياء من قبل ؟ فعلم أنه لا غرض لهم في هذا الاقتراح إلا التعنت . من قرأ ﴿ ساحران ﴾ بالألف فظاهر ، وأما من قرأ ﴿ سحران ﴾ فإما بمعنى ذوي سحر أو على جعلهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر ، أو على إرادة نوعين من السحر ، أو على أن المراد هو القرآن والتوراة . وضعفه أبو عبيدة بأن المظاهرة بالناس وأفعالهم اشبه منها بالكتب . وأجيب بأن الكتابين لما كان كل واحد منهما يقوّي الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز تعاونا كما يقال تظاهرت الأخبار . وفي تكرار ﴿ قالوا ﴾ وجهان : أحدهما قالوا ساحران مرة ﴿ وقالوا إنا بكل ﴾ من موسى ومحمد أو بكل من الكتابين ﴿ كافرون ﴾ مرة . وثانيهما أن يكون قوله ﴿ وقالوا ﴾ معطوفاً على ﴿ أولم يكفروا ﴾ ثم عجزهم بقوله ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ﴾ اي مما أنزل على موسى ومما أنزل عليّ . قال ابن عباس ﴿ فإِن لم يستجيبوا لك ﴾ معناه فإن لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج . وقال مقاتل : فإن لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب أفضل منهما . وهذا اشبه بالآية ، وهذا الشرط شرط يدل بالأمر المتحقق لصحته وإلا فالظاهر أن لو قيل فإذا لم يستجيبوا . ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهكم . وإنما لم يقل " فإن لم يأتوا

"لأن قوله ﴿ فأتوا ﴾ أمر والأمر دعاء إلى الفعل فناسب الاستجابة والتقدير : فإن لم يستجيبوا دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى فاعلم أنهم صاروا محجوبين ولم يق لهم شيء إلا اتباع الهوى . وفي قوله ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه ﴾ حال كونه ﴿ بغير هدى من الله ﴾ إشارة إلى فساد طريقة التقليد . استدلت الأشاعرة بقوله ﴿ إن الله لا يهدي القوم

(61/590)

الظالمين ﴾ اي الذين وضعوا الهوى مكان الهدى على أن هداية الله تعالى خاصة بالمؤمن . وقالت المعتزلة : الألطاف منها ما يحسن فعلها مطلقاً ومنها ما لا يحسن إلا بعد الإيمان وإليه الإشارة بقوله ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ [محمد : 17] والآية محمولة على القسم الثاني دون الأول وإلا كان عدم الهداية عذراً لهم . ثم أجاب عن قولهم هلا أوتي محمد كتابه دفعة واحدة بقوله ﴿ ولقد وصلنا ﴾ أي أنلزنا عليهم القرآن إنزالاً متصلاً بعضه في أثر بعض ليكون ذلك اقرب إلى التذكر والتذكير والتنبيه فإنهم يطلعون في كل يوم على فائدة زائدة وحكمة جديدة . ويجوز أن يراد بتوصيل القول جعل بيان على إثر بيان والمعنى أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً ووعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً إلى غير ذلك من

معاني القرآن إرادة أن يتعظوا فيفلحوا .

ويحتمل أن يكون المراد : بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزاً مرة بعد أخرى .

(62/590)

وحين أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بقوله ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله ﴾ أي من قبل القرآن ﴿ هم به يؤمنون ﴾ قال قتادة : إنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها ، فلما بعث الله محمداً آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام . وقال مقاتل : نزلت في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من ارض الحبشة في السفينة ، وثمانية جاؤا من الشام . وعن رفاعة بن قرظة : نزلت في عشرة أنا أحدهم . والتحقيق أن كل من حصل في حقه هذه الصفة يكون داخلاً في الآية لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ثم حكى عنهم ما يدل على تأكد إيمانهم وقوله ﴿ إنه الحق من ربنا ﴾ تعليل للإيمان به لأن كونه حقاً من الله يوجب الإيمان به . وقوله ﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ بيان لقولهم آمنا به لأن إيمانهم احتمل أن يكون قريب العهد وأن يكون بعيده فأخبروا أن إيمانهم به متقادم ، وذلك لما وجدوا في كتب الأنبياء من البشارة بمقدمه فأذعنوا له وتلقوه بالقبول كما هو شأن كل مسلم ، ومعنى ﴿ من قبله ﴾ أي من

قبل وجوده ونزوله . وفي قوله ﴿ يؤتون أجرهم مرتين ﴾ أقوال بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن أو بصبرهم على أذى المشركين وعلى أذى أهل الكتاب ، أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وعلى الإيمان به بعد نزوله وهذا أقرب ، لأنه لما بين أنهم آمنوا بعد البعثة وبين أنهم كانوا مؤمنين به قبل البعث ثم اثبت لهم الأجر مرتين وجب أن ينصرف إلى ذلك . ﴿ ويدرؤن بالحسنة ﴾ وهي الطاعة ﴿ السيئة ﴾ وهي المعاصي المتقدمة أي يدفعون بالحلم الأذى . يروى أنهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه . وقال السدي : عاب اليهود عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول : سلام عليكم . مدحهم بالإيمان ثم بالطاعات البدنية ومكارم الأخلاق ، ثم بالطاعات المالية وهو الإنفاق مما رزقهم ، ثم بالتحمل والتواضع . وإنما يجب أن يقوله الحليم في معارضة

(63/590)

السفيه وهو قوله ﴿ وإذا سمعوا اللغو ﴾ وهو كل ما ينبغي أن يلقى ويترك ﴿ أعرضوا عنه وقالوا ﴾ لأهل ذلك اللغلو ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ﴾ سلام توديع ومتاركة ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ لا نطلب مخالطتهم وعشرتهم ولا نجازيهم بالباطل على باطلهم وهذا خلق مندوب إليه ولو بعد الأمر بالقتال فلا نسخ . ثم ذكر أن الهداية إنما تتعلق

بمشيئة الله . قال الزجاج : أجمع المسلمون على أنها نزلت في ابي طالب وذلك أنه قال عند موته : يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ قال : فما تريد يا ابن أخي ؟ قال : أريد منك كلمة واحدة أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله .

(64/590)

قال : قد علمت أنك صادق ولكني أكره أن يقال جبن عند الموت . وقد مر مثل هذا النقل في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى ﴿ وهم ينهون وينأون عنه ﴾ [الأنعام : 26] . واعلم أنه لا منافاة بين هذه الآية وبين قوله ﴿ وانك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : 52] لأن الذي نفاه هداية التوفيق وشرح الصدر والتي أثبتها هداية الدعوة والبيان ، وبحث الأشاعرة والمعتزلة ههنا معلوم . وحيث بين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم إليه هداية الله سبحانه حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بالدنيا وذلك أنهم ﴿ قالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ يروى أن الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا لنعلم أن الذي تقوله حق ولكن يمنعنا من ذلك أن تسلبنا العرب بسرعة أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا ، فأجاب الله

سبحانه عن شبهتهم بقوله ﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً ﴾ يروى أن العرب كانوا يشتغلون بالنهب والغارة خارج الحرم وما كانوا يتعرضون ألبتة لسكان الحرم وقد زاد الله حرمته بقوله ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ [آل عمران : 97] وبين مزيته بقوله ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ قالوا : الكل ههنا بمعنى الأكثر . قلت : يحتمل أن يكون على أصله . وانتصب ﴿ رزقاً ﴾ على أنه مصدر لأن ﴿ يجبى ﴾ بمعنى يرزق ، أو على أنه مفعول لأجله . وإن جعلته بمعنى مرزوق كان حالاً من الثمرات لتخصصها بالإضافة . وحاصل الجواب أنه لما جعل الحرم آمناً وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان ، فبقاء هذه الحالة مع الإيمان أولى . ولا يخفى أن التخطف على تقدير وقوعه لا يصلح عذراً لعدم الإيمان فإن درجة الشهادة أعلى وأجل ، ومضرة التخطف أهون من العقاب الدائم إلا أنه تعالى احتج عليهم بما هو معلوم من عادة العرب وهو أنهم كانوا لا يتعرضون لقطان الحرم والأمر البين للحس أولى بأن يفحم به الخصم فلذلك قدمه الله تعالى . وفي

الآية دلالة على صحة المحاجة . لإزالة شبهة المبطلين . قالت الشاعرة : الأرزاق إنما تصل إليهم على ايدي الناس وقد اضاف الرزق إلى نفسه فدل ذلك على أن افعال العباد مستندة إلى الله . ومن تأمل في الآية علم أن العبد يجب أن لا يخاف ولا يرجو إلا من الله .

ثم أجاب عن شبهتهم بحديث آخر مخلوط بالوعيد . وانتصب ﴿ معيشتها ﴾ بنزع الخافض كقوله ﴿ واختار موسى قومه ﴾ [الأعراف : 155] أو على أنه ظرف مكان مجازاً كأن النظر استقر في المعيشة ، أو على حذف المضاف أي بطرت أيام معيشتها كخفوق النجم ، أو بتضمين بطرت معنى كفرت وعطلت ، والبطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله فيه .

(66/590)

ومعنى ﴿ إلا قليلاً ﴾ قال ابن عباس : أي لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يوماً أو ساعة . ويجوز أن يكون شؤم معاصيهم بقي في ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يسكن إلا قليلاً . ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ كقوله ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ [آل عمران : 180] لأنه الباقي بعد فناء خلقه . ثم كان لسائل أن يقول : ما بال الكفرة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم لم يهلكوا مع تماديهم في الغي ؟ فقال ﴿ وما كان ربك

مهلك القرى حتى يبعث في أمها ﴾ اي في القرية التي هي قصبتها وأصلها وغيرها من توابعها وأعمالها ﴿ رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ بوحي وتبليغ وذلك لتأكيد الحجة وقطع المعذرة . قال في الكشاف : يحتمل أن يراد وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى - يعني مكة - رسولاً وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . وكان لقائل أن يقول : ما بال الكفار بعد مبعث محمد لم يهلكهم الله مع تكذيبهم وجحودهم فقال ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فمنهم من قد آمن ومنهم من سيؤمن ومنهم من يخرج من نسله من يؤمن . ثم اجاب عن شبهتهم بجواب ثالث وذلك أن حاصل شبهتهم أن قالا : تركنا الدين لأجل الدنيا . فبين تعالى بقوله ﴿ وما أوتيتم من شيء ﴾ الآية . أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى لأنه أكثر وأدوم . ونبه على جهلهم بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ويرحم الله الشافعي حيث قال : إذا أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى ، لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير . نظير الاية قوله صلى الله عليه وسلم " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت " قال البرهان : إنما السورة " وما أوتيتم " الواو وفي الشورى ﴿ فما أوتيتم ﴾ [الآية : 36] بالفاء لأنه لم يتعلق بما قبله ههنا كثير تعلق ، وقد تعلق في الشورى بما قبلها أشد تعلق ، ولأنه عقب ما لهم من

المخافة ما أوتوه من الأمنة والفاء حرف التعقيب والواو والمجرد العطف . وإنما زاد في هذه السورة ﴿ وزينتها ﴾ . لأن المراد ههنا جميع أعراض الدنيا من الضرورات ومن الزين ، فالمتاع مالا غنى عنه من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن والمنكوح ، والزينة وغيرها كالثياب الفاخرة والمراكب الرائعة والدور المشيدة . وأما في " الشورى " فلم يقصد الاستيعاب بل ما هو مطلوبهم في تلك الحالة من النجاة والأمن في الحياة فلم يحتج إلى ذكر الزينة . ثم زاد البيان المذكور تأكيداً بقوله ﴿ افمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه ﴾ لأن وعد الله يترتب عليه الإنجاز البتة وصاحبه يلقى الموعود لا محالة .

(68/590)

وتقدير الكلام : أبعد التفاوت المذكور بين ما عند الله وبين متاع الحياة الدنيا يسوّي بين أهل الجنة وبين أبناء الدنيا ؟ ومعنى " ثم " في قوله ﴿ ثم هو يوم القيامة ﴾ تراخي حال الإِحضار عن حال التمتع ، لا تراخي وقته عن وقته . وتخصيص لفظ ﴿ المحضرين ﴾ بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن . قال الله تعالى ﴿ لكنت من المحضرين ﴾ [الصافات : 57] ﴿ فإنهم لمحضرون ﴾ [الصافات : 127] ويمكن أن يقال : إن في

اللفظ إشعاراً به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام وذلك لا يليق بمجالس اللذة والأنس وإنما يليق بمواضع الإكراه والوحشة . قيل : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل . وقيل : في علي وحمزة وأبي جهل . وقيل : في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة . ثم ذكر من وصف القيامة قائلاً ﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي فاذكر ذلك اليوم . ومعنى الاستفهام في ﴿ أين ﴾ التوبيخ والتهكم . ومفعولا ﴿ تزعمون ﴾ محذوفان تقديره تزعمونهم شركائي . ﴿ قال الذين حق عليهم القول ﴾ أي وجب وثبت وهو مفهوم لأملأن جهنم وهم اشياطين ورؤساء الكفر . و ﴿ هؤلاء ﴾ مبتدأ و ﴿ الذين أغوينا ﴾ صفته والعائد إلى الموصول محذوف والخبر ﴿ أغويناهم ﴾ والتقدير : هؤلاء الذين أغويناهم أغويناهم فغووا غياً مثل ما غوينا . قال أهل السنة : أرادوا كما أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر وإلجاء فنحن أيضاً أغويناهم بالوسوسة والتسويل وبكل ما أمكن حتى غووا . وقالت المعتزلة : يعنون أنا ما غوينا إلا باختيارنا فكذلك هم ما غووا إلا باختيارهم وإن أغواءنا ما ألجأهم إلى الغواية بل كانوا مختارين في الإقدام على تلك العقائد والأعمال فيكون كما حكي عن الشيطان ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ [إبراهيم : 22] ثم قالوا ﴿ تبرأنا إليك ﴾ منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ إنما كانوا يعبدون هؤلاء أهواءهم الفاسدة . وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة

الأولى .

وحين حكى التوبيخ المذكور ثم ما يقوله الشياطين أو أئمة الكفر اعتذاراً ذكر ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم وهو قوله : ﴿ وقيل ادعوا شركاءهم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ زعم جم غفير من المفسرين أن جواب " لو " محذوف . فقال الضحاك ومقاتل : يعني المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة ولعلموا أن العذاب حق ، أو لو كانوا يهتدون بوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب . وقيل : ارا ورأوا العذاب لو كانوا يبصرون شيئاً ولكنهم صاروا مبهوتين بحيث لا يبصرون شيئاً فلا جرم ما رأوه . وقيل : الضمير للأصنام أي كانوا أحياء مهتدين لشاهدوا العذاب . وقيل : " لو " للتمني أي تمنوا لو كانوا مهتدين . ثم بكتهم بالاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل .

ومعنى ﴿ عميت عليهم الأنباء ﴾ أن أخبار المرسلين والمرسل إليهم صارت كالعمى عليهم جميعاً لا يهتدون إليهم فهم لا يتساءلون كما يسال بعض الناس بعضاً في المشكلات لأنهم متساوية الأقدام في العجز عن الجواب ، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتلعثمون في الجواب عن مثل هذا السؤال كما قال سبحانه ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا ﴾ [المائدة : 109] فما ظنك بضلال أممهم ؟ ! قال القاضي : الآية تدل على بطلان قول المجبرة ، لأن فعلهم لو كان خلقاً من الله تعالى وجب وقوعه بالقدرة والإرادة ولما عميت عليهم الأنباء ولقالوا : إنما كذبنا الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم ومن جهة القدرة الموجبة لذلك . وكذا القول فيما تقدّم لأن الشيطان كان له أن يقول : إنما أغويت لخلقك فيّ الغواية ، وإنما قبل من دعوته لمثل ذلك لتكون الحجة لهم على الله قوية والعذر ظاهراً . وعارضته الأشاعرة بالعلم والداعي . والذي اعتمد عليه القاضي في دفع هذا المشكل المعضل في كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول إنه يمكن وخطأ قول من يقول إنه لا يمكن فالواجب السكوت . وزيفه الأشعري بأن الكافر لو اورد هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب إلا السكوت فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهراً . ولقائل أن يقول : السكوت عن جواب الكافر جواب كما قيل : جواب الأحمق السكوت . وحين فرغ من توبيخ الكفار وتهديدهم اتبعة ذكر التائبين وأنهم من المفلحين . و " عسى " من الكريم تحقيق أو الترجي عائد إلى التائب . ثم إن القوم كانوا يذكرون شبهة أخرى وهي قولهم ﴿

لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] فأجاب الله تعالى عنها بقوله ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ لأنه المالك المطلق المنزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء . وعلى مذهب المعتزلة هو حكيم فلا يفعل إلا الحكمة والخير . وقوله ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ بيان لقوله ﴿ ويختار ﴾ والخيرة من

(71/590)

التخير كالطيرة من التطير في أنه اسم مستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وهو بمعنى المتخير كقولهم " محمد خيرة الله من خلقه " . وقد مر في الوقف أن بعضهم يقف على ﴿ ما يشاء ﴾ ثم يقول ﴿ ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ قال أبو القاسم الأنصاري : يعلم من هذا متعلق المعتزلة في إيجاب الصلاح والأصلح عليه ، واي صلاح في تكليف من علم أنه لا يؤمن بالله ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله . فإن قيل : إنما كلفه ليستوجب على الله ما هو الأفضل لأن المستحق أفضل من المتفضل به قلنا : إذا علم أن ذلك الأفضل لا يحصل فتوريطه للعقاب الأبدي لا يكون رعاية للمصلحة . ثم قولهم " المستحق خير من المتفضل به " ممنوع لأن ذلك التفاوت إنما يحصل في حق من يستنكف من تفضله ، أما الذي حصل ذاته وصفاته بإحسانه فكيف يستنكف من تفضله ؟ قلت : لقائل أن يقول : مجرد

الاستبعاد لا يصلح للمنع على أن لذة الأجر يستحيل أن تحصل بدون الأجر .

ثم نزه نفسه بقوله ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ والغرض أن الخلق والاختيار والإِعزاز والإِذلال والإِهانة والإِجلال كلها مفوض وجوبها إليه ليس لأحد فيه شركة ومنازعة . ثم اكد ذلك بقوله ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم ﴾ من عداوة نبيه ﴿ وما يعلنون ﴾ من مطاوعتهم فيه .

(72/590)

ويحتمل أن يكون عاماً يشمل السرائر والظواهر كلها وهو المستأثر بالإلهية . و ﴿ لا إله إلا هو ﴾ تقرير لما قبله ﴿ له الحمد في ﴾ الدار ﴿ الأولى ﴾ على نعمه الفائضة على البر والفاجر ﴿ و ﴾ في الدار ﴿ الآخرة ﴾ كقولهم ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ [فاطر : 34] ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] والتحميد هناك على وجه اللذة لا التكليف . قال أهل السنة : الثواب يستحق عند المعتزلة فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة ، وأما أهل النار فلم ينعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم . والجواب ما ذكرناه أن تحميدهم يجري مجرى التنفس . قال القاضي : إنه يستحق الحمد من أهل النار أيضاً بما فعل بهم في الدنيا من التمكين والتيسير والألطاف

وسائر النعم ، وأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله به عليه من أن يوجب الشكر . وقال في التفسير الكبير : فيه نظر ، لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فإذا علموا أن التوبة واجبة القبول وأن الشكر مما يوجب الثواب فلا بد أن يتوبوا ويشتغلوا بالشكر ليستحقوا الثواب ويتخلصوا من العقاب . ولقائل أن يقول : لا يلزم من وجوب قبول التوبة واستحقاق الجزاء على العمل في دار التكاليف أن يكون الأمر كذلك في غير دار التكاليف . ثم بين بقوله ﴿ وله الحكم ﴾ أن القضاء بين العباد مختص به فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ، ولا على الزوجة حكم زوجها ، ولا على الابن حكم ابيه ، ولا على الرعية حكم سلطانهم ، ولا على الأمة حكم رسولهم وإلى محل حكمه وقضائه يرجع كل عبيده وإمائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 347.356 ﴾

(73/590)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ولقد آتينا موسى ﴾ القلب مقام القرب والوحي والمكالمة وكشف العلوم بعد هلاك فرعون النفس وصفاتها ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ إذ كانوا في عالم الأرواح مستمعين

خطاب ﴿ ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] ﴿ وما كنت ﴾ في غرب العدم بل كنت في شرق الوجود في عالم الأرواح ﴿ إذ قضينا إلى موسى ﴾ أمر اتخاذ العهد منه أن يؤمن بك كقوله ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ [آل عمران : 81] وما كنت في عالم الشهادة ﴿ ولكنا أنشأنا قروناً ﴾ في عالم الشهادة ﴿ فتطاول عليهم العمر ﴾ فاحتجوا بالنفس وصفاتها ونسوا تلك العهود والمواثيق ﴿ وما كنت ﴾ مقيماً ﴿ في أهل مدين ﴾ كشعيب وموسى ، إذ أخذت منهما الميثاق أن يؤمنا بك ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ للرسل الذين أخذنا الميثاق منهم .

(74/590)

ولولا أن تصيبهم التقدير ، ولولا أن مقتضى العناية الأزلية في حق هذه الأمة ودفع حجتهم علينا فإنا ناديناهم وهم في العدم فأسمعناهم نداءنا ولم نوفقهم للإِجابة ﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ يعني محمداً . وفي أن له رتبة أن يقول أنا الحق لفنائه عن نفسه بالكلية وبقائه بربه وكل من سواه فليس له أن يقول ذلك إلا بطريق المتابعة ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي ﴾ لولم يكونوا محتجبين بكفرهم عن رؤية كماله لقالوا : لولا أوتي مثل ما أوتي محمد من مقام المحبة ومقام لي مع الله وقت ﴿ بكتاب من عند الله هو أهدى منهما ﴾ يعني الكتاب المشتمل

على العلم اللدني فإنه أهدى إلى الحضرة من الكتب الموقوفة على السماع والمطالعة ، ومن لم تكن له هذه الرتبة فإنه محجوب عن الحضرة بهوى نفسه كما قال ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ ﴿ الذين آتيناهم ﴾ حقيقة ﴿ الكتاب ﴾ في عالم الرواح ﴿ من قبل ﴾ نزوله في عالم الأشباح ﴿ هم به يؤمنون ﴾ في عالم الصورة ولهذا قالوا ﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ ولذلك قال ﴿ يؤتون أجرهم مرتين ﴾ أي في العالمين ﴿ بما صبروا ﴾ على مخالفات الهوى وموافقات الشرع ﴿ ويدرؤن ﴾ بالأعمال الصالحات ظلمة المعاصي ، أو بحسنة الذكر صدأ حب الدنيا عن مرآة القلوب ، أو بحسنة نفي ما سوى الله شرك الوجود المجازي ﴿ ومما رزقناهم ﴾ من الوجود المجازي ﴿ ينفقون ﴾ في طلب الوجود الحقيقي : ﴿ وإذا سمعوا اللغو ﴾ وهو طلب ما سوى الله ﴿ أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ﴾ في طلب الوجود الحقيقي ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ في طلب الفاني ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ وذلك أن للقلب بابين : أحدهما إلى النفس والجسد وهو مفتوح ابداً ، والآخر إلى الروح والحضرة وهو مغلوق لا يفتحه إلا الفتاح الذي بيده كل مفتاح كما قال ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد : 24] وقال : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ [الفتح : 1] ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ الذين اصابهم رشاش النور ﴿ وقالوا إن نتبع

الهدى معك تتخطف ﴾ بجذبات الألوهية من ارض الأنانية ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً ﴾ في مقام الهوية ﴿ يجبى إليه ثمرات ﴾ حقائق ﴿ كل شيء رزقاً ﴾ من العلوم اللدنية ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ذوق العلم اللدني ﴿ لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ أي لم تسكن في قرى القلوب الفاسد استعدادها ﴿ إلا قليلاً ﴾ من نور الإسلام بعبور الخواطر الروحانية في الأحايين ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ بأن رجع نور الإسلام إلى الحضرة بعد فساد الاستعداد ﴿ حتى يبعث في أمها ﴾ اي روحها لأن القلب من متولدات الروح ﴿ رسولاً ﴾ من وارد نفحات الحق الوعد الحسن للعوام الجنة ، وللخواص الرؤية وللأخص الوصول والوصال كما أوحى إلى عيسى " تجوّع ترنى تجرد تصل إلي " ﴿ أغويناهم كما غوينا ﴾ راعوا طريقة الأدب ولم يقولوا كما أغويتنا مثل ما قال إبليس ﴿ فبما أغويتني ﴾ [الأعراف : 16] أي ﴿ أغويناهم ﴾ بتقديريك ﴿ كما أغوينا ﴾ بقضائك وهذا من خصوصية تكريم بني آدم بحفظ البعداء طريقة الأدب كما يحفظها أهل القرب على بساط الكرامة ﴿ ورأوا العذاب ﴾ يعني ﴿ لو كانوا يهتدون ﴾ لرأوا عذاب الفطام عن المألوفات والشهوات والله أعلم بالخفيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 356 . 358 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قامت على القدرة الشاملة والعلم التام وأنه الإله وحده إن وحدوا أو الحدوا هذه الأعلام على هذا النظام ، أقام دليلاً دالاًّ على ذلك كله بما اجتمع فيه من العلم والحكمة وتمام القدرة ، منبهاً على وجوب حمده مفصلاً لبعض ما يحمد عليه ، فقال مقدماً الليل لأن آيته عدمية ، وهي أسبق : ﴿ قل ﴾ لمن ربما عاندوا في ذلك ، منكراً عليهم ملزماً لهم ، وعبر بالجمع لأنه أدل على الإلزام ، أعظم في الإفحام ، فقال : ﴿ أرءيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن جعل الله ﴾ أي الملك الأعلى نظراً إلى مقام العظمة والجلال ﴿ عليكم الليل ﴾ الذي

به اعتدال حر النهار ﴿ سرمداً ﴾ أي دائماً ، وقال : ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ تنبيهاً على أنه مما لا يتوجه إليه إنكار ﴿ من إله غير الله ﴾ العظيم الشأن الذي لا كفوء له .

(77/590)

ولما كان النور نعمة في نفسه ، ويعرف به خالقه ، صرح به وطوى أثره فقال : ﴿ يأتيكم بضياء ﴾ أي يولد نهاراً تنتشرون فيه ، ولقوة إعلامه بالقدرة وتعريفه بالله عبر بهذا دون يؤتيكم ضياء ، ولما كان الليل محل السكون ومجمع الحواس ، فهو أمكن للسمع وأنفذ للفكر ، قال تعالى : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ أي ما يقال لكم إصغاء وتدبر ، كما يكون لمن هو في الليل فينتفع بسمعه من أولي العقل ﴿ قل أرءيتم إن جعل الله ﴾ أي الذي له الأمر كله بجلاله وباهر كماله ﴿ عليكم النهار ﴾ الذي توازن حرارته رطوبة الليل فيتم بهما صلاح النبات ، وغير ذلك من جميع المقدرات ﴿ سرمداً ﴾ أي دائماً ، من السرد ، وهو المتابعة بزيادة الميم مبالغة فيه ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ أي الذي لا يسمع عاقلاً إنكاره ﴿ من إله غير الله ﴾ الجليل الذي ليس له مثيل ، وهو على كل شيء وكيل .

ولما كان الظلام غير مقصود في نفسه ، وكان بعد الضياء في غاية التعريف بموحده ، عدل عن اسمه فقال معبراً لمثل ما مضى : ﴿ يأتيكم بليل ﴾ أي ينشأ من ظلام ؛ ثم بين بما يدل

على ما حذفه من الأول فقال : ﴿ تسكنون فيه ﴾ فالآية من الاحتباك : ذكر الضياء أولاً دليلاً على حذف الظلام ثانياً ، والليل والسكون ثانياً دليلاً على حذف النهار والانتشار أولاً .

ولما كان الضياء مما ينفذ فيه البصر قال : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي بالبصر والبصيرة كيف تنقشع جلابيب الظلام ، عن وجوه الضياء الغر الكرام ، ثم تتقنع بسواد أردية الحياء ، وجوه الأنوار والضياء قال ابن هبيرة : قال المبرد : سلطان السمع في الليل وسلطان البصر في النهار .

(78/590)

ولما كان التقدير : فمن حكمته جعل لكم السمع والأبصار ، لتتدبروا آياته ، وتتبصروا في مصنوعاته ، عطف عليه ﴿ ومن رحمته ﴾ أي التي وسعت كل شيء لا من غيرها من خوف أو رجاء أو تعلق غرض من الأغراض ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ آيتين عظيمتين دبر فيهما وبهما جميع مصالحكم ، وادخر معظم رحمته إلى الآخرة ، ومحا آية الليل ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي فلا تسعوا في معاشكم ﴿ و ﴾ جعل آية النهار مبصرة ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ بأن تسعوا في معاشكم بجهدكم ، فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً السكون دليلاً

على حذف السعي في المعاش ثانياً ، والابتغاء ثانياً دليلاً على حذف عدم السعي في المعاش أولاً .

ولما ذكر هذه النعمة التي أسبغها من هذه الرحمة ، وذكر علة جعله لها على الصفة المذكورة ، ذكر علة أخرى هي المقصودة بالذات لأنها نتيجة السمع والبصر اللذين ، قدم الحث على استعمالهما فقال : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي وليكون حالكم حال من يرجى منه الشكر بما يتجدد لكم بتقبلهما من النعم المتوالية المذكورة بالمنعم ، وبما دبر لكم رفقاً بكم فيما كفلكم به في دار الأسباب من أمر المعاش والمعاد من الراحة بالسكون إثر ما أفادكم من الأرباح والمنح بالانتشار والتقلب ، وأما الآخرة فلما كانت غير مبينة على الأسباب ، وكان الجنة لا تعب فيها بوجه من الوجوه ، كان لا حاجة فيها إلى الليل .

(79/590)

ولما ذكر ما للمفلح من الرجاء في يوم الجزاء ، وأتبعه الإعلام بأن الهداية إلى الفلاح إنما هي به ، ودل على ذلك إلى أن ذكر ايام الدنيا المشتملة على الليل والنهار على وجه دال على وحدانيته ، معلم بالقدرة على البعث بعد الموت بتكرير إيجاد كل من الملوين بعد إعدامه وتكرير إماتة الناس بالنوم ، ثم نشرهم باليقظة ، وختم ذلك بالشكر إشارة إلى أنه سبب

الفلاح ، عاد إلى يوم الجزاء الذي تظهر فيه ثمرة ذلك كله ، مقرعاً على الإشراك مع ظهور هذه الدلائل على التوحيد ، وعدم شبهة قائمة على الشرك غير محض التقليد ، فقال منبهاً على عجزهم عن البرهان عند استحقاق البرهان في يوم التناد ، لمحضر من الأشهاد ، مع ما فيه من التأكيد للتهويل بالتكرير ، والتاطيد للتهليل والتقرير : ﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي هؤلاء الذي يظنون أنهم معجزون ﴿ فيقول ﴾ بلسان الغضب والإخزاء والتوبيخ وقد جمعوا جمعاً : ﴿ أين شركاءي ﴾ وكرر الإشارة إلى أن إشراكهم إنما هو بالاسم لا معنى فيه أصلاً فقال : ﴿ الذين كنتم ﴾ أي بغاية جهدكم حتى صار لكم ذلك لمكة ﴿ تزعمون ﴾ بلا شبهة لكم في ذلك عند التحقق أصلاً .

ولما ذكر الدليل الأول من الدليل على إبطال الشركة أن الشركاء لم يستجيبوا لهم ولا كانت لهم قدرة على نصرهم ولا نصر أنفسهم ، وكان ربما قيل : إن ذلك الشيء عبر العجز ، دل هنا على الإشراك لا شبهة دليل فقال صارفاً بقول إلى مظهر التكلم بأسلوب العظمة لأنه مجرد فعال ﴿ ونزعنا ﴾ أي أفردنا بقوة وسطوة ﴿ من كل أمة شهيداً ﴾ أي وهو رسولهم ، فشهد عليهم بأعمالهم وما كانوا فيه من الارتباك في أشراك الإشراك .

(80/590)

ولما تسبب عن ذلك سؤالهم عن سندهم في إشراكهم قال : ﴿ فقلنا ﴾ أي للأمم : ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم القطعي الذي فزعتم في الدنيا إليه ، وعولتم في شرككم عليه ، كما هو شأن ذوي العقول أنهم لا يبنون شيئاً على غير أساس ﴿ فعلموا ﴾ بسبب هذا السؤال لما اضطروا ففتشوا واجتهدوا فلم يجدوا لهم سنداً أصلاً ﴿ أن الحق ﴾ أي في الإلهية ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ولا مكافىء له ، لا شركة لشيء معه ﴿ وضل ﴾ أي غاب وبطل غيبة الشيء الضائع ﴿ عنهم ما كانوا ﴾ أي كوناً هو كالجبلة لهم ﴿ يفترون ﴾ أي يقولونه قول الكاذب المتعمد للكذب لكونه لا دليل عليه ولا شبهة موجبة للغلط فيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 514.516 ﴾

(81/590)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ عندي أولم ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن فليح وأبو عمرو وخزاعي عن أصحابه وابن مجاهد وأبو عون والسرندي عن قنبل . الباقون بالإسكان ﴿ ويكأن ﴾ ﴿ ويكأنه ﴾ الوقف على الياء : أبو عمرو ويعقوب ﴿ ويك ﴾ الوقف على الكاف

و ﴿ ويكأنه ﴾ موصولة : روى السوسي عن السرندي وهو مذهب حمزة . الباقون كلاهما موصلان ﴿ لخسف ﴾ على البناء للفاعل : سهل ويعقوب وحفص ﴿ ربي أعلم ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو .

الوقوف : ﴿ بضياء ﴾ ط ﴿ تسمعون ﴾ 5 ﴿ فيه ﴾ ط ﴿ تبصرون ﴾ 5 ﴿ تشكرون ﴾ 5 ﴿ تزعمون ﴾ 5 ﴿ يفترون ﴾ 5 ﴿ عليهم ﴾ ص لأن الواو للحال أي وقد آتينا مع طول الكلام ﴿ القوّة ﴾ ط بناء على أن التقدير و " أذكر " إذ قال : وقال في الكشاف : إنه متعلق ب ﴿ تنوء ﴾ فلا وقف ﴿ الفرحين ﴾ 5 ﴿ في الأرض ﴾ ط ﴿ المفسدين ﴾ 5 ﴿ عندي ﴾ ط ﴿ جمعاً ﴾ ط ﴿ المجرمون ﴾ 5 ﴿ في زينته ﴾ ط لعدم العاطف واختلاف القائل . ﴿ قارون ﴾ لا لأن ما بعده تعليل التمني ولو ابتدأنا لحكمنا بأنه ذو حظ ﴿ عظيم ﴾ 5 ﴿ صالحاً ﴾ ج لأن ما بعده احتمل أن يكون ابتداء إخبار من الله ، واحتمل أن يكون من قول أهل العلم ﴿ الصابرون ﴾ 5 ﴿ من دون الله ﴾ ق قد قيل : لتفصيل الاعتبار ﴿ المنتصرون ﴾ 5 ﴿ ويقدر ﴾ ج للابتداء بلولا مع اتحاد المقول ﴿ لخسف بنا ﴾ ط ﴿ الكافرون ﴾ 5 ﴿ ولا فساداً ﴾ ط ﴿ للمتقين ﴾ 5 ﴿ منها ﴾ ج لعطف جملة الشرط ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ معاد ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ 5 ﴿ للكافرين ﴾ 5 ز للآية مع العطف ﴿ المشركين ﴾ 5 للآية وخلو المعطوف عن نون التأكيد التي خلت المعطوف عليه مع اتفاق الجملتين آخراً احترازاً من

إيهام كون ما بعده صفة ﴿ آخر ﴾ 5 ﴿ لا إله إلا هو ﴾ ط ﴿ وجهه ﴾ ط ﴿ ترجعون ﴾ 5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 359 ﴾

(82/590)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الإجمال بقوله : ﴿ وَهُوَ الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَهُ الحمد فِى الأولى والآخرة وَلَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 70] فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَدا إِلى يَوْمِ القيامة ﴾ فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء في الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ، ولأجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه ، فأما

في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات ، فبين تعالى أنه لا قادر على ذلك إلا الله تعالى ، وإنما قال : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبي قوله : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله : ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ، قال صاحب "الكشاف" السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ، ومنه قولهم في الأشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد ، فإن قيل هلا قال : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل : بليل تسكنون فيه ؟ قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ، وإنما قرن بالضياء أفلا تسمعون ، لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل أفلا تبصرون لأن غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ، ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة لتسكنوا

(83/590)

في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضله في الآخر وهو النهار ولأداء الشكر على المنفعتين معاً .

واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً وابتغاء فضل الله بالليل ممكناً إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين ، أولاً ثم ذكر التوحيد ودلائله ، ثانياً عاد إلى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم في الآخرة فقال : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ أي القيامة ﴿ فيقول أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ والمعنى أين الذين ادعيتم إلهيتهم لتخلصكم ، أو أين قولكم تقربنا إلى الله زلفى وقد علموا أن لا إله إلا الله فيكون ذلك زائداً في غمهم إذا خوطبوا بهذا القول .

أما قوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ فالمراد ميزنا واحداً ليشهد عليهم ، ثم قال بعضهم هم الأنبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا في إيضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائداً في غمهم ، وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ويدخل في جملتهم الأنبياء وهذا أقرب لأنه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الأحوال التي لم يوجد فيها النبي وهي أزمنة الفترات والأزمنة التي حصلت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فعلموا حينئذٍ أن الحق لله

ولرسله ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ غاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من الباطل والكذب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 12.11 ﴾

(84/590)

وقال الماوردى:

قوله: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾

فيه وجهان

: أحدهما: أخرجنا من كل أمة رسولاً مبعوثاً إليها.

الثاني: أحضرنا من كل أمة رسولاً يشهد عليها أن قد بلغ رسالة ربه إليها، قاله قتادة.

﴿ فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما: حجتكم، قاله أبو العالية.

الثاني: بينتكم، قاله قتادة.

﴿ فَعَلِمُواْ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها: أن العدل لله، قاله ابن جبير.

الثاني: التوحيد لله، قاله السدي.

الثالث : الحجة لله .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ يعني في القيامة

. ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ في الدنيا من الكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(85/590)

وقال ابن عطية :

ثم أمر تعالى نبيه أن يوقفهم على أمر الليل والنهار وما منح الله فيهما من المصالح والمرافق وأن يوقفهم على إيجاده تعالى بتقليب الليل والنهار ، وأنه لو مد أحدهما ﴿ سرمداً ﴾ لما وجد من يأتي بالآخر ، و" السرمد " من الأشياء الدائم الذي لا ينقطع ، وقرأت فرقة هي الجمهور " بضياء " بالياء ، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل " بضئاء " بهمزتين وضعفه أبو علي ، ثم ذكر عز وجل انقسام الليل والنهار على السكون وابتغاء الفضل بالمشي والتصرف وهذا هو الغالب في أمر الليل والنهار ، فعدد النعمة بالأغلب وإن وجد من يسكن بالنهار ويبتغي فضل الله بالليل فالشاذ النادر لا يعتد به ، وقال بعض الناس : قوله تعالى ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ إنما عبر به عن الزمان لم يقصد لتقسيم ، أي في هذا الوقت الذي هو ليل ونهار

يقع السكون وابتغاء الفضل ، وقوله ﴿ ولعلكم ﴾ أي على نظر البشر من يرى هذا التلطف والرفق يرى أن ذلك يستدعي الشكر ولا بد .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

التقدير " واذكر يوم يناديهم " وكرر هذا المعنى إبلاغاً وتحذيراً وهذا النداء هو عن ظهور كل ما وعد الرحمن على ألسنة المرسلين من وجوب الرحمة لقوم والعذاب لآخرين من خضوع كل جبار وذلة الكل لعزة رب العالمين .

فيتوجه حينئذ توبيخ الكفار ﴿ فيقول ﴾ الله تعالى لهم : ﴿ أين شركائي ﴾ على معنى التقريع ، ثم أخبر تعالى أنه يخرج في ذلك اليوم ﴿ من كل أمة شهيداً ﴾ يميز بينه وبين الناس وهذا هو النزع أن يميز بين شيئين فينتزع أحدهما من الآخرة ، وقال مجاهد : أراد ب " الشهيد " النبي الذي يشهد على أمته وقال الرماني : وقيل أراد عدولاً من الأمم وخياراً .

(86/590)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهم حملة الحجة الذين لا يخلو منهم زمان ، و" الشهيد " على هذا التأويل ، اسم الجنس وفي هذا الموضع حذف يدل عليه الظاهر تقديره يشهد على الأمة بخيرها وشرها فيحق العذاب على من شهد عليه بالكفر ويقال لهم على جهة

استبراء الحجة والاعذار في المحاورة ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ على حق بأيديكم إن كان لكم ، فيسقط حينئذ في أيديهم ويعلمون ﴿ أن الحق ﴾ متوجه ﴿ لله ﴾ عليهم في تعذيبهم ، وينتلف لهم ما كانوا بسبيله في الدنيا من كذب مختلق وزور في قولهم هذه آلهتنا للأصنام وفي تكذيبهم للرسل وغير ذلك ، ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إرادة الحكم أبقيت لك حجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(87/590)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أفلا تَسْمَعون ﴾

أي : سماع فَهْم وقَبول ، فتستدلُّوا بذلك على وحدانية الله تعالى ؟ ! ومعنى ﴿ تَسْكُنون فيه ﴾ : تستريحون من الحركة والنَّصَب ﴿ أفلا تُبْصِرون ﴾ ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة ؟ ! ثم أخبر أن اللَّيل والنهار رحمة منه .

وقوله ﴿ لتَسْكُنوا فيه ﴾ يعني في الليل ﴿ ولِتَبْتَغوا مِنْ فَضْله ﴾ أي : لتلتمسوا من رزقه بالمعاش في النهار ﴿ ولعلَّكم تَشْكُرون ﴾ الذي أَنْعَم عليكم بهما .

قوله تعالى : ﴿ ونَزَعْنا مِنْ كلِّ أُمَّة شهيداً ﴾ أي : أخرجْنا من كل أُمَّة رسولها الذي يشهد

عليها بالتبليغ ﴿ فقُلنا هاتوا بُرهانكم ﴾ أي : حُجَّتكم على ما كنتم تعبُدون من دوني ﴿ فعَلِموا أنَّ الحق لله ﴾ أي : عَلِموا أنَّه لا إله إلا هو ﴿ وضَلَّ عنهم ﴾ أي : بَطَل في الآخرة ﴿ ما كانوا يَفْتَرون ﴾ في الدنيا من الشركاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(88/590)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً ﴾

أي دائماً ؛ ومنه قول طرفة :

لعمرُك ما أمري عليّ بغُمَّةٍ . . .

نهاري ولا ليلي عليّ بسَرْمدِ

بيّن سبحانه أنه مهد أسباب المعيشة ليقوموا بشكر نعمه .

﴿ مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ ﴾ أي بنور تطلبون فيه المعيشة .

وقيل : بنهار تبصرون فيه معايشكم وتصلح فيه الثمار والنبات .

﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ سماع فهم وقبول .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أي تستقرّون فيه من النصب .

﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ما أنتم فيه من الخطأ في عبادة غيره ؛ فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على إيتاء الليل والنهار غيره فلمَ تشركون به .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي فيهما .

وقيل : الضمير للزمان وهو الليل والنهار .

﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي لتطلبوا من رزقه فيه أي في النهار فحذف .

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

أعاد هذا الضمير لاختلاف الحالين ، ينادون مرة فيقال لهم : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ فيدعون الأصنام فلا يستجيبون ، فتظهر حيرتهم ، ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون .

وهو توبيخ وزيادة خزي .

والمناداة هنا ليست من الله ؟ لأن الله تعالى لا يكلم الكفار لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القيامة ﴾ [البقرة : 174] لكنه تعالى يأمر مَن يوبخهم ويبكتهم ، ويقيم الحجة عليهم في مقام الحساب .

وقيل : يحتمل أن يكون من الله وقوله : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ حين يقال لهم ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : 108] وقال : ﴿ شُرَكَائِيَ ﴾ لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ أي نبياً ؛ عن مجاهد .

وقيل : هم عدول الآخرة يشهدون على العباد بأعمالهم في الدنيا .

والأوّل أظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] وشهيد كل أمة رسولها الذي يشهد عليها .

والشهيد الحاضر .

أي أحضرنا رسولهم المبعوث إليهم .

﴿ فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي حجتكم .

﴿ فعلموا أَنَّ الحق لِلَّهِ ﴾ أي علموا صدق ما جاءت به الأنبياء .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي ذهب عنهم وبطل .

﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلقونه من الكذب على الله تعالى من أن معه آلهة تعبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(90/590)

وقال أبو حيان :

و﴿ أرأيتم ﴾ : بمعنى أخبروني ، وقد يسلط على الليل ﴿ أرأيتم ﴾ و﴿ جعل ﴾ ، إذ كل منهما يقتضيه ، فأعمل الثاني .

وجملة أرأيتم الثانية هي جملة الاستفهام ، والعائد على الليل محذوف تقديره : من إله غير الله يأتيكم بضياء بعده ، ولا يلزم في باب التنازع أن يستوي المتنازعان في جهة التعدي مطلقاً ، بل قد يختلف الطلب ، فيطلبه هذا على جهة الفاعلية ، وهذا على جهة المفعولية ، وهذا على جهة المفعول ، وهذا على جهة الظرف .

وكذلك أرأيتم ثاني مفعولية جملة استفهامية غالباً ، وثاني جعل إن كانت بمعنى صير لا يكون استفهاماً ، وإن كانت بمعنى خلق وأوجد وانتصب ما بعد مفعولها ، كان ذلك المنتصب حالاً .

و﴿ سرمداً ﴾ ، قيل : من السرمد ، فميمه زائدة ، ووزنه فعمل ، ولا يزاد وسطاً ولا

آخراً بقياس ، وإنما هي ألفاظ تحفظ مذكورة في علم التصريف .

وأتى ﴿ بضياء ﴾ ، وهو نور الشمس ، ولم يجيء التركيب بنهار يتصرفون فيه ، كما جاء ﴿ بليل تسكنون فيه ﴾ ، لأن منافع الضياء متكاثرة ، ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة ، ومن ثم قرن بالضياء .

﴿ أفلا تسمعون ﴾ ؟ لأن السمع يدرك ما يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل .

﴿ أفلا تبصرون ﴾ ؟ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ، قال الزمخشري .

و﴿ من رحمته ﴾ ، من هنا للسبب ، أي وبسبب رحمته إياكم ، ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ ، ثم علل جعل كل واحد منهما ، فبدأ بعلة الأول ، وهو الليل ، وهو : ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ ، ثم بعلة الثاني وهو : ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ ، ثم بما يشبه العلة لجعل هذين الشيئين وهو : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ، أي هذه الرحمة والنعمة .

وهذا النوع من علم البديع يسمى التفسير ، وهو أن تذكر أشياء ثم تفسرها بما يناسبها ، ومنه قول ابن جيوش :

ومقرطق يغني النديم بوجهه . . .

عن كأسه الملأى وعن إبريقه

فعل المدام ولونها ومذاقها . . .

(91/590)

في مقلتيه ووجنتيه وريقه

والضمير في ﴿ فيه ﴾ عائد على الليل ، وفي ﴿ فضله ﴾ يجوز أن يكون عائداً على الله ، والتقدير : من فضله ، أي من فضل الله فيه ، أي في النهار ؛ وحذف لدلالة المعنى ، ولدلالة لفظ فيه السابق عليه .

ويحتمل أن يعود على النهار ، أي من فضل النهار ، ويكون أضافه إلى ضمير النهار على سبيل المجاز .

لما كان الفضل حاصلاً فيه ، أضيف إليه ، كقوله : ﴿ بل مكر الليل والنهار .

﴾

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

تقدم الكلام على قوله : ﴿ ويوم يناديهم ﴾ : وكرر هنا على جهة الإبلاغ والتأكيد .

﴿ ونزعنا ﴾ : أي ميزنا وأخرجنا بسرعة من كل أمة من الأمم .

﴿ شهيداً ﴾ : وهو نبي تلك الأمة ، لأنه هو الشهيد عليها ، كما قال : فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ؟ وقيل : عدولاً وخياراً .

والشهيد على هذا اسم الجنس ، والشهيد يشهد على تلك الأمّة بما صدر منها ، وما أجابت به لما دعيت إلى التوحيد ، وأنه قد بلغهم رسالة ربهم .

﴿ فقلنا ﴾ : أي للملأ ، ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ : أي حجتكم فيما كنتم عليه في الدنيا من الكفر ومخالفة هذا الشهيد ، ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ ، لا لأصنامهم وما عبدوا من دون الله .

﴿ وضل عنهم ﴾ : أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ، ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من الكذب والباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(92/590)

وقال الثعالبى :

* ت * : وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ الآيةُ معناها بيِّنٌ ، وينبغي للعَاقِل أَلاَّ يجعل لَيلَهُ كُلَّهُ نَوْماً ؛ فَيَكونَ ضَائِعَ العُمْرِ جيفَةً بالليلِ بطَّالاً بالنَّهَارِ ، كما قيل : [الطويل]

نَهَارُكَ بَطَّالٌ وَلَيْلُكَ نَائِم . . . كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ البَهَائِمُ

فإنْ أرَدْتَ أيُّهَا الأخ؛ أن تكونَ من الأَبرَارِ فعليكَ بالقيامِ في الأَسْحَارِ ، وقد نقل صاحبُ «الكوكب الدري» عن البزار ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أَتَدْرُونَ مَا قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمَانَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا بُنَيَّ ، لاَ تُكْثِرِ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ ، يَدَعُ الرَّجُلَ فَقِيراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ " ، انتهى . وابتغاء الفضل : هو بالمَشي والتصرُّفِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ أي : عُدُوْلَ الأممِ وأخيارَهَا ، فيشهدوْنَ على الأمم بخيرِها وشرِّها ، فيحقُّ العذابُ عَلى مَنْ شُهِدَ عليه بالكُفْرِ ، وقيل له : على جهة الإعذار في المحاورة : ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ ومن هذه الآيةِ ، انْتُزِعَ قولُ القاضِي عند إرادة الحكم : أَبَقِيَتْ لك حجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(93/590)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ تقريراً لما ذُكر ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً ﴾ دائماً من السَّرد وهو المتابعةُ والاطِّرادِ والميمُ مزيدةٌ كما في دلامص من الدّلاص يقال : درع دلاصٌ أي ملساءُ لينةٌ ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ بإسكانِ الشَّمس تحت الأرضِ أو

تحريكها حول الأُفقِ الغائر ﴿ مَّنْ إله غَيْرُ الله ﴾ صفةٌ لإله ﴿ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء ﴾ صفةٌ أخرى لها عليها يدورُ أمرُ التبكيتِ والإلزامِ كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مّنَ السماء والأرض ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ ونظائرِهما خلا أنَّه قُصدَ بيانُ انتفاءِ الموصوفِ بانتفاءِ الصِّفة ولم يُقل : هل إله الخ لإيرادِ التَّبكيت والإلزامِ على زعمِهم . وقُرِىء بضَّاءٍ بهمزتينِ ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ هذا الكلامَ الحقَّ سماعَ تدبُّرٍ واستبصارٍ حتَّى تُذعنوا له وتعملوا بموجبه . ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة ﴾ بإسكانِها في وسطِ السَّماء أو بتحريكِها على مدارٍ فوقَ الأُفق ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ استراحةً من متاعبِ الأشغالِ ، ولعلَّ تجريدَ الضِّياءِ عن ذكرِ منافعِه لكونِه مقصوداً بذاتِه ظاهرَ الاستتباعِ لما نيطَ به من المنافعِ ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ هذه المنفعةَ الظَّاهرةَ التي لا تَخْفى على مَن له بصرٌ .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي في الليلِ ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ في النَّهارِ بأنواعِ المكاسبِ ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تشكرُوا نعمتَه تعالى فعلَ ما فعلَ أو لكي تعرفُوا نعمتَه تعالى وتشكروه عليها .

(94/590)

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ منصوبٌ باذكُر ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تقريعٌ إثرَ تقريعٍ للإشعارِ بأنَّه لا شيء أجلبُ لغضبِ الله عزَّ وجلَّ من الإشراكِ كما لا شيءَ أدخلُ في مرضاتِه من توحيدِه سبحانَه. وقولُه تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ عطفٌ على يُناديهم. وصيغةُ الماضي للدّلالةِ على التَّحققِ أو حالٌ من فاعله بإضمارِ قد. والالتفاتُ إلى نونِ العظمةِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بشأنِ النَّزعِ وتهويلِه أي أخرجنَا ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأممِ ﴿ شَهِيداً ﴾ نبياً يشهدُ عليهم بما كانُوا عليه كقولِه تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ ﴿ فَقُلْنَا ﴾ لكلِّ أمَّةٍ من تلك الأُمم ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ على صحَّة ما كنتُم تدينون به ﴿ فَعَلِمُواْ ﴾ يومئذٍ ﴿ أَنَّ الحق لِلَّهِ ﴾ في الإلهية لا يشاركه فيها أحدٌ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي غابَ عنهم غيبةَ الضَّائعِ ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ في الدُّنيا من الباطلِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 7 صـ ﴾

(95/590)

وقال الآلوسى:

﴿ قُلْ ﴾ تقريراً لما ذكر ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني، وقرأ الكسائي ﴿ أريتم ﴾ بحذف الهمزة ﴿ تُرْجَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ ﴾ أي دائماً وهو عند البعض من السرد

وهو المتابعة والاطراد والميم مزيدة لدلالة الاشتقاق عليه فوزنه فعمل ونظيره دلامص من الدلاص ، يقال : درع دلاص أي ملساء لينة .

(96/590)

واختار بعض النحاة أن الميم أصلية فوزنه فعلل لأن الميم لا تنقاس زيادتها في الوسط ، ونصبه إما على أنه مفعول ثان لجعل أو على أنه حال من الليل ، وقوله تعالى : ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ إما متعلق بسرمداً أو بجعل ؛ وجوز أبو البقاء أيضاً تعلقه بمحذوف وقع صفة لسرمداً وجعله تعالى كذلك بإسكان الشمس تحت الأرض مثلاً وقوله تعالى : ﴿ مِنْ إِلَهٍ ﴾ مبتدأ وخبر ، وقوله سبحانه : ﴿ غَيْرُ الله ﴾ صفة لإله ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء ﴾ صفة أخرى له عليها يدور أمر التبكيت والإلزام كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مّنَ السماء والأرض ﴾ [يونس : 31] وقوله سبحانه : ﴿ فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاء مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] ونظائرهما خلا إنه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ، ولم يؤت بهل التي هي لطلب التصديق المناسب بحسب الظاهر للمقام ، وأتى بمن التي هي لطلب التعيين المقتضى لأصل الوجود لإيراد التبكيت والإلزام على زعمهم فإنه أبلغ كما لا يخفى ، وجملة ﴿ مِنْ إِلَهٍ ﴾ الخ قال أبو حيان : في موضع المفعول الثاني لأرأيتم وجعل الليل

مما تنازع فيه أرأيتم وجعل وقال : إنه أعمل فيه الثاني فيكون المفعول الأول للأول محذوفاً ، وحيث جعلت تلك الجملة في موضع مفعوله الثاني لا بد من تقدير العائد فيها أي من إله غيره يأتيكم بضياء بدله مثلاً ، وجواب إن محذوف دل عليه ما قبله ، وكذا يقال في الآية بعد ، وعن ابن كثير أنه قرأ ﴿ بضآء ﴾ بهمزتين ﴿ بِضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ سماع فهم وقبول الدلائل الباهرة والنصوص المتظاهر لتعرفوا أن غير الله تعالى لا يقدر على ذلك .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة ﴾

(97/590)

بإسكان الشمس في وسط السماء مثلاً ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ استراحة من متاعب الأشغال ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة لتقفوا على أن غير الله تعالى لا قدرة له على ذلك ، ويعلم مما ذكرنا أن كلاً من جملتي ﴿ أفلا تسمعون ﴾ [القصص : 71] وأفلا تبصرون تذييل للتوبيخ الذي يعطيه قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ ﴾ [القصص : 71] الخ قبله ، وأفاد الزمخشري أن ظاهر التقابل يقتضي ذكر النهار والتصرف فيه إلا أن العدول عن ذلك إلى الضياء وهو ضوء الشمس للدلالة على أنه يتضمن منافع كثيرة منها التصرف فلو أتى بالنهار لاستدعى

القصر على تلك المنفعة من ضرورة التقابل ولأن المنافع للضياء لا للنهار على أن النهار أيضاً من منافعه ، ثم استشعر أن يقال : فلم لم يؤت بالظلام بدل الليل في الآية الثانية لتتم المقابلة من هذا الوجه ؟ وأجاب بأنه ليس بتلك المنزلة فلا هو مقصود في ذاته كالضياء ولا أن المنافع من روادفه مع ما فيهما من الاستئناس والاشمئزاز ، بل لو تأمل حق التأمل وجد حكم بأن الليل من منافع الضياء أيضاً والظلام من ضرورات كون الشمس المضيئة تحت الأرض وإلقاء ظل الليل ، ثم أفاد أن التفصلة وهو التذييل المذكور فيها إرشاد إلى هذه النكتة فءن قوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : 71] يدل على أن التوبيخ بعدم التأمل في الضياء أكثر من حيث إن مدرك السمع أكثر .

(98/590)

والمراد ما يدركه العقل بواسطة السمع فلا يرد أن مدركه الأصوات وحدها ومدرك البصر أكثر من ذلك ، وذلك أن ما لا يدرك بحس أصلاً يدرك بواسطة السمع إذا عبر عنه المعبر بعبارة مفهمة ، وأما ما يدرك بالبصر فمن مشاهدة المبصرات وهي قليلة ، وأما المطالعة من الكتب فإنها أضيق مجالاً من السمع وقرعه كذا في "الكشف" ، والعلامة الطيبي قرر عبارة الكشاف بما قرر ثم قال : الأبعد من التكلف أن يجعل أفلا تسمعون تذييلاً للتوبيخ المستفاد

من أرأيتم الخ قبله وكذا ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ على ما في المعالم أفلا تسمعون سماع فهم وقبول أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ ليجتمع لهم الصمم والعمى من الإعراض عن سماع البراهين والإغماض عن رؤية الشواهد .

ولما كانت استدامة الليل أشق من استدامة النهار لأن النوم الذي هو أجل الغرض فيه شبيه الموت والابتغاء من فضل الله تعالى الذي هو بعض فوائد النهار شبيه بالحياة قيل في الأول أفلا تسمعون أي سماع فهم وفي الثاني أفلا تبصرون أي ما أنتم عليه من الخطأ ليطابق كل من التذييلين الكلام السابق من التشديد والتوبيخ ، وذكر في حاصل المعنى ما ذكرناه أولاً ثم قال : وفيه أن دلالة النص أولى وأقدم من العقل ، وصاحب الكشف قرر العبارة بما سمعت وذكر أن ذلك لا ينافي ما في المعالم بل يؤكده ويبين فائدة التوبيخين ، ونقل الطيبي عن الراغب في غرة التنزيل أنه قال : إن نسخ الليل بالنير الأعظم أبلغ في المنافع وأضمن للمصالح من نسخ النهار بالليل ، ألا ترى أن الجنة نهارها دائم لا ليل معه لاستغناء أهلها عن الاستراحة فتقديم ذكر الليل لانكشافه عن النهار الذي هو أجدى من تفاريق العصا ومنافع ضوء شمسه أكثر من أن تحصى أحق وأولى ، ومعنى قوله تعالى :

﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : 71] أفلا تسمعون سماع من يتدبر المسموه ليستدرك منه قصد القائل ويحيط بأكثر ما جعل الله تعالى في النهار من المنافع فإن عقيب السماع استدراك المراد بالمسموع إذا كان هناك تدبر وتفكر فيه ومعنى ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أتستدركون من ذلك ما يجب استدراكه انتهى .

(100/590)

وفي "الكشف" أنه مؤيد لما ذكره صاحب الكشاف ، وربما يقال ذكر سبحانه أولاً : فرضية جعل الليل سرمداً وثانياً : فرضية جعل النهار كذلك لأن الليل كما قالوا مقدم على النهار شرعاً وعرفاً وأيضاً ذلك أوفق بقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص : 69] ففي المثل الليل أخفى للويل وكذا بقوله تعالى سبحانه : ﴿ لَهُ الحمد فِى الاولى والاخرة ﴾ [القصص : 70] ففي الأثر كان الخلق في ظلمة فرش الله تعالى عليهم من نوره ، ولعله لاعتبار الأولية والآخرية ذيلت الآية الأولى بقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ بناءً على أن المعنى أفلا تسمعون ممن سلف من آبائكم أو مما سلف منا أن آلهتكم لا تقدر على مثل ذلك والثانية بقوله سبحانه : ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ بناءً على أن المعنى أفلا تبصرون أنتم عجزها عن مثل ذلك وجيء بالضياء غير موصوف في الآية

الأولى وبالليل موصوفاً في الثانية لما أفاده الزمخشري وقيل في وجه تذييل الآية الأولى بقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ دون قوله سبحانه : ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أن المفروض لو تحقق بقي معه السمع دون الإبصار إذ ظلمة الليل لا تحجب السمع وتحجب البصر ، وفي وجه تذييل الثانية بقوله تعالى : ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ دون ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ أن تحقق المفروض وعدمه سيان في أمر السمع دون الإبصار إذ لضياء النهار مدخل في الإبصار وليس له مدخل في السمع أصلاً وهو كما ترى ﴿ واعلم ﴾ أن ههنا إشكالاً وهو أن جعل الليل سرمداً إلى يوم القيامة أن تحقق لم يتصور الإتيان بضياء أصلاً وكذا جعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة إن تحقق لم يتصور الإتيان بليل كذلك ، أما من غيره تعالى فظاهر لأنه معدن العجز عن كل شيء ، وأما منه عز وجل فلاستلزامه اجتماع الليل والنهار إذا لو لم يجتمعا لم يتحقق الليل مستمراً إلى يوم القيامة وكذا جعل النهار كذلك وهو خلاف المفروض

(101/590)

واجتماعهما محال والمحال لا صلاحية له لتعلق القدرة فلا يراد .

وأجيب بأن المراد إن أراد سبحانه ذلك فمن إله غيره تعالى يأتيكم بخلاف مراده سبحانه بأن يقطع الاستمرار فيأتي بنهار بعد ليل وليل بعد نهار ، واعترض بأنه يفهم من الآية حينئذٍ

أنه جل وعلا هو الذي إن أراد ذلك يأتيهم بخلاف مراده تعالى فيقطع الاستمرار وهو مشكل أيضاً لأن إتيانه تعالى بخلاف مراده جل وعلا مستلزم لتخلف المراد عن الإرادة هو محال فإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئاً على وجه إرادة لا تعليق فيها لا يمكن أن يريده على خلاف ذلك الوجه ، وأجيب بأنه يجوز أن يكون المراد إن أراد الله تعالى ذلك غير معلق له على إرادته عز شأنه خلافه لا يأتيكم بخلافه غيره عز وجل ولم يصرح بالقيد لدلالة العقل الصريح على أن الإرادة غير المعلقة لا يمكن الإتيان بخلاف موجبها أصلاً ، ومن الناس من ذهب إلى أنه سبحانه لا يبت إرادته فجميع ما يريده جل شأنه معلق ، وقيل : الأولى أن يقال : ليس المراد سوى أن آلهتهم لا يقدرون على الإتيان بنهار بعد ليل وليل بعد نهار إذا أراد الله تعالى شأنه استمرار أحدهما ، وإنما القادر على الإتيان بذلك هو الله سبحانه وحده من غير نظر إلى كون ذلك الإتيان مقيداً بتلك الإرادة فتدبر .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي بسبب رحمته جل شأنه ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار بالسعي بأنواع المكاسب ففي الآية ما يقال له اللف والنشر ويسمى أيضاً التفسير كقول ابن حيوش :

ومقرطق يغني النديم بوجهه . . .

عن كأسه الملأى وعن إبريقه

فعل المدام ولونها ومذاقها . . .

في مقلتيه ووجنتيه وريقه

(102/590)

وضمير فضله لله تعالى ؛ وجوز أبو حيان كونه للنهار على الإسناد المجازي وهو خلاف الظاهر ، وفيها إشارة إلى مدح السعي في طلب الرزق وقد ورد ﴿ إِنِّى عَبْدُ الله ﴾ وهو لا ينافي التوكل وأن ما يحصل للعبد بواسطته فضل من الله عز وجل وليس مما يجب عليه سبحانه ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولكي تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل أو لتعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ منصوب باذكر .

﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تقريع إثر تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده عز وجل ، أو أن الأول لبيان فساد رأيهم كما يشير إليه قوله تعالى هناك : ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ [القصص : 63] ، وهذا لبيان أن إشراكهم لم يكن عن سند بل عن محض هوى كما يشير إليه قوله تعالى بعد : ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ [القصص : 75] أو الأول إحضار للشركاء بعدم

الصلوح لقوله سبحانه بعده : ﴿ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ [القصص : 64] وهذا تحسير بأنهم لم يكونوا في شيء من اتخاذهم ألا ترى قوله تعالى : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص : 75] .

(103/590)

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ عطف على ﴿ يناديهم ﴾ [القصص : 74] وصيغة الماضي للدلالة على التحقق أو حال من فاعله بإضمار قد أو بدونه والالتفات إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بشأن النزع وتهويله أي أخرجنا بسرعة ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿ شَهِيداً ﴾ شاهداً يشهد عليهم بما كانوا عليه وهو نبي تلك الأمة كما روي عن مجاهد ، وقتادة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] وهذا في موقف من مواقف يوم القيامة فلا يضر كون الشهيد في موقف آخر غير الأنبياء عليهم السلام وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم أو الملائكة عليهم السلام لقوله تعالى : ﴿ وَجِيء بالنبيين والشهداء ﴾ [الزمر : 69] فإنه دال في الظاهر على مغايرة الشهداء للأنبياء عليهم السلام .

وقيل : يجوز اتحاد الموقف والدلالة على المغايرة غير مسلمة ولو سلمت فشهادة الأنبياء

عليهم السلام لا تنافي شهادة غيرهم معهم ، وقوله تعالى : ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ وإفراد شهيد ظاهر فيما تقدم ، ومن هنا قال في البحر" قيل : أي عدولاً وخياراً ، والشهيد عليه اسم جنس ﴿ فَقُلْنَا ﴾ لكل من تلك الأمم ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به .

﴿ فَعَلِمُواْ ﴾ ، يومئذٍ ، ﴿ أَنَّ الحق لِلَّهِ ﴾ ، في الألوهية لا يشاركه سبحانه فيها أحد .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع فضل مستعار لمعنى غاب استعارة تبعية .

﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ، في الدنيا من الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(104/590)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ » السرمد : الدائم ، والنسبة إليه سرمدى . .

والآية وما بعدها ، استعراض لقدرة اللّه سبحانه وتعالى ، وإحسانه إلى خلقه ، وفضله

عليهم ، ورحمته بهم . . فلو شاء سبحانه أن يجعل الليل قائما على هذه الأرض ، لا يعقبه نهار أبدا ، لاستولى الظلام على هذا الكوكب ، وعلى من فيه وما فيه ، ولما كان لأحد أن يغير هذا الوضع القائم أبدا . .

- وفي قوله تعالى : « أَفَلا تَسْمَعُونَ » إشارة إلى أن الحاسة العاملة في الإنسان ، عند الظلام ، هى حاسة السمع ، حيث يبطل عمل البصر ، ويتحول المجال الحسى للإنسان كله ، إلى أذن تسمع ! . . فالناس في عالم الظلام ، تتجمع حواسهم في سمعهم . . ومع هذا ، فإن هؤلاء المشركين لا يسمعون ، حتى حين يكون السمع هو الوسيلة الوحيدة للإنسان في اتصاله بالحياة . . !

قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ »

(105/590)

وكما في قدرة اللّه سبحانه ، أن يحبس الليل ، فلا يتحول عن مكانه من الأرض ، كذلك في قدرته جل شأنه أن يجعل من النهار سلطانا قائما على الأرض لا يتحول عنها أبدا ، ولا يجد الناس - ولا الكائنات الحية - هذا الليل الذي يلف الوجود بردائه ، ويريح الكائنات على

صدره . .

ـ وقوله تعالى : « أَفَلا تُبْصِرُونَ » ـ إشارة إلى أن حاسة البصر في هذا النور الدائم الذي لا ينقطع أبدا ، تكون هي الأداة العاملة في الإنسان . . ومع هذا ، فإن المشركين ، لا يبصرون في هذا النور الغامر ، الساطع ، الدائم . .

قوله تعالى : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » هو تعقيب على الآيتين السابقتين ، ورد على ما سئل عنه المشركون ، وأعياهم الجواب عنه . .

فالله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الليل سرمدا ، أو النهار سرمدا ، بل جعل الليل والنهار ، ووصل بعضهما ببعض ، ولم يجعل لأحدهما وجودا بغير الآخر . . وجعل ذلك رحمة منه سبحانه ، بعباده ، وإحسانا إليهم . .

ـ وقوله تعالى : « لِتَسْكُنُوا فِيهِ » الضمير فى « فيه » يعود إلى الليل . وفي ذلك إشارة إلى أن الليل ـ وإن كان ظلاما ـ فإنه يحمل معه السكن ، والهدوء والاستقرار ، ولراحة ، بعد عمل النهار . .

والضمير في قوله تعالى : « مِنْ فَضْلِهِ » يعود إلى لفظ الجلالة ، أي من فضل الله . .

والابتغاء من فضل الله ، يكون في كل وقت ، فى النهار ، وفي الليل . ولهذا لم يقيّد بظرف ،

كما قيّد السّكن .

قوله تعالى : «وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » هو تذكير

(106/590)

بقوله تعالى في مطلع الآيات السابقة : « وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » (الآية : 62) . . وبهذا يكون ما بين هاتين الآيتين واقعا في حيز التهديد للمشركين ، وسؤالهم يوم القيامة عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون اللّه . . وهو سؤال تعجيز ، يراد به وضعهم موضع الاتهام ، وما يلقون فيه من تعنيف وتأنيب . .

وفي تصدير الآيات بهذا السؤال التعجيزي ، ثم ختامها به ـ فى هذا ما يشير إلى أهمية هذه القضية ، التي جاءت الآيات للفصل فيها ، وهي قضية التوحيد باللّه ! قوله تعالى : « وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ » نزعنا : أي أخرجنا من كل أمة شهيدا ، وهو الرسول المرسل إليهم . .

كما يقول سبحانه : « فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً » « النساء : 41 » .

ـ وقوله تعالى : « فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ » أي هاتوا حجتكم ، ودليكم على دينكم الذي

تدينون به . .

ـ وقوله تعالى : « فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ » ـ أي فجاء كل إنسان ببرهانه وحجته ، على دينه الذي يدين به ، والإله الذي يعبده ، :

وهنا ظهر الحق ، وزهق الباطل . . فأما من كانوا يعبدون اللّه ، ويؤمنون برسل اللّه وكتبه ، فقد جاءوا بالبرهان المبين ، على أنهم على الدين الحق ، فقبلهم اللّه سبحانه في ملكوته ، وتقبل أعمالهم الطيبة ، وتجاوز عن سيئاتهم . وأما من كانوا يعبدون غير اللّه ، فقد ضل عنهم آلهتهم ، وتركوهم ليلقوا مصيرهم الشئوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 10 صـ 378 . 380 ﴾

(107/590)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾

انتقال من الاستدلال على انفراده تعالى بالإلهية بصفات ذاته إلى الاستدلال على ذلك ببديع مصنوعاته ، وفي ضمن هذا الاستدلال إدماج الامتنان على الناس وللتعريض بكفر

المشركين جلائل نعمه .

ومن أبدع الاستدلال أن اختير للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرر كل يوم مرتين ، والذي يستوي في إدراكه كل مميز ، والذي هو أجلى مظاهر التغير في هذا العالم فهو دليل الحدوث وهو مما يدخل في التكيف به جميع الموجودات في هذا العالم حتى الأصنام فهي تظلم وتسود أجسامها بظلام الليل وتشرق وتضيء بضياء النهار ، وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائماً ، لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كل يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما ، ولأن النعمة بتعاقبهما دوماً أشد من الأنعام بأفضلهما وأنفعهما لأنه لو كان دائماً لكان مسؤوماً ولحصلت منه طائفة من المنافع ، وفقدت منافع ضده .

فالتنقل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقلاً إلى ما هو دون .

وسيق إليهم هذا الاستدلال بأسلوب تلقين النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لهم اهتماماً بهذا التذكير لهذا الاستدلال ولاشتماله على ضدين متعاقبين ، حتى لو كانت عقولهم قاصرة عن إدراك دلالة أحد الضدين لكان في الضد الآخر تنبيه لهم ، ولو قصروا عن حكمة كل واحد منهما كان في تعاقبهما ما يكفي للاستدلال .

وجيء في الشرطين بحرف ﴿ إن ﴾ لأن الشرط مفروض فرضاً مخالفاً للواقع .

وعلم أنه قصد الاستدلال بعبرة خلق النور ، فلذلك فرض استمرار الليل ، والمقصود ما

بعده وهو قوله ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ .

والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع .

(108/590)

قال في "الكشاف" : من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحُرم : ثلاثة سرد وواحد فرد .

والميم مزيدة ووزنه فعمل ، ونظيره دُلامص من الدلاص أ هـ .

دُلامص (بضم الدال وكسر الميم) من صفات الدرع وأصلها دِلاص (بدال مكسورة) أي براقة .

ونسب إلى صاحب "القاموس" وبعض النحاة أن ميم سرمد أصلية وأن وزنه فعلل .

والمراد بجعل الليل سرمداً أن لا يكون الله خلق الشمس ويكون خلق الأرض فكانت الأرض مظلمة .

والرؤية قلبية .

والاستفهام في ﴿ أرأيتم ﴾ تقريري ، والاستفهام في ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ إنكاري وهم معترفون بهذا الانتفاء وأن خالق الليل والنهار هو الله تعالى لا غيره .

والمراد بالغاية في قوله ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ إحاطة أزمنة الدنيا وليس المراد انتهاء جعله سرمداً .

والإتيان بالضياء وبالليل مستعار للإيجاد ؛ شبه إيجاد الشيء الذي لم يكن موجوداً بالإجاءة بشيء من مكان إلى مكان ، ووجه الشبه المثول والظهور .

والضياء : النور .

وهو في هذا العالم من شعاع الشمس قال تعالى

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء ﴾ وتقدم في سورة يونس (5) .

وعُبر بالضياء دون النهار لأن ظلمة الليل قد تخف قليلاً بنور القمر فكان ذكر الضياء إيماء إلى ذلك .

وفي تعدية فعل ﴿ يأتيكم ﴾ في الموضعين إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى أن إيجاد الضياء وإيجاد الليل نعمة على الناس .

وهذا إدماج للامتنان في أثناء الاستدلال على الانفراد بالإلهية .

وإذ قد استمر المشركون على عبادة الأصنام بعد سطوع هذا الدليل وقد علموا أن الأصنام لا تقدر على إيجاد الضياء جعلوا كأنهم لا يسمعون هذه الآيات التي أقامت الحجة الواضحة على فساد معتقدهم ، ففرع على تلك الحجة الاستفهام الإنكاري عن انتفاء سماعهم بقوله ﴿ أفلا تسمعون ﴾ أي أفلا تسمعون الكلام المشتمل على التذكير بأن الله

هو خالق الليل والضياء ومنه هذه الآية .

وليس قوله ﴿ أفلا تسمعون ﴾ تذييلاً .

(109/590)

وكرر الأمر بالقول في مقام التقرير لأن التقرير يناسبه التكرير مثل مقام التوبيخ ومقام التهويل .

وعُكس الاستدلال الثاني بفرض أن يكون النهار وهو انتشار نور الشمس ، سرمداً بأن خلق الله الأرض غير كروية الشكل بحيث يكون شعاع الشمس منتشراً على جميع سطح الأرض دوماً .

ووصف الليل بـ ﴿ تسكنون فيه ﴾ إدماج للمنة في أثناء الاستدلال للتذكير بالنعمة المشتملة على نعم كثيرة وتلك هي نعمة السكون فيه فإنها تشمل لذة الراحة ، ولذة الخلاص من الحر ، ولذة استعادة نشاط المجموع العصبي الذي به التفكير والعمل ، ولذة الأمن من العدوّ .

ولم يوصف الضياء بشيء لكثرة منافعه واختلاف أنواعها .

وتفرع على هذا الاستدلال أيضاً تنزيلهم منزلة من لا يبصرون الأشياء الدالة على عظيم صنع الله وتفرده بصنعها وهي منهم بمرأى الأعين .

وناسب السمع دليل فرض سرمدة الليل لأن الليل لو كان دائماً لم تكن للناس رؤية فإن رؤية الأشياء مشروطة بانتشار شيء من النور على سطح الجسم المرئي ، فالظلمة الخالصة لا تُرى فيها المرئيات .

ولذلك جيء في جانب فرض دوام الليل بالإنكار على عدم سماعهم ، وجيء في جانب فرض دوام النهار بالإنكار على عدم إبصارهم .

وليس قوله ﴿ أفلا تبصرون ﴾ تذييلاً .

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)

تصريح بنعمة تعاقب الليل والنهار على الناس بقوله ﴿ لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ ، وذلك مما دلت عليه الآية السابقة بطريق الإدماج بقوله ﴿ يأتيكم ﴾ [القصص : 71] وبقوله ﴿ تسكنون فيه ﴾ [القصص : 72] كما تقدم آنفاً .

وجملة ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ الخ معطوفة على جملة ﴿ أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً ﴾ [القصص : 71] .

(110/590)

و ﴿ من ﴾ تبعيضية فإن رحمة الله بالناس حقيقة كلية لها تحقق في وجود أنواعها وآحادها العديدة ، والمجرور بـ ﴿ من ﴾ يتعلق بفعل ﴿ جعل لكم الليل ﴾ ، وكذلك يتعلق به ﴿ لكم ﴾ ، والمقصود إظهار أن هذا رحمة من الله وأنه بعض من رحمته التي وسعت كل شيء ليتذكروا بهما نعماً أخرى .

وقدم المجرور بـ ﴿ من رحمته ﴾ على عامله للاهتمام بمنة الرحمة .

وقد سلك في قوله ﴿ لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ طريقة اللف والنشر المعكوس فيعود ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ إلى الليل ، ويعود ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ إلى النهار ، والتقدير : ولتبتغوا من فضله فيه ، فحذف الضمير وجاره إيجازاً اعتماداً على المقابلة .

والابتغاء من فضل الله : كناية عن العمل والطلب لتحصيل الرزق قال تعالى ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ [المزمل : 20] .

والرزق : فضل من الله .

وتقدم في قوله تعالى ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ في سورة البقرة (198) .

ولام ﴿ لتسكنوا ﴾ ولام ﴿ ولتبتغوا ﴾ للتعليل ، ومدخولاهما علتان للجعل المستفاد من فعل ﴿ جعل ﴾ .

وعُطف على العلتين رجاء شكرهم على هاتين النعمتين اللتين هما من جملة رحمته بالناس

فالشأن أن يتذكروا بذلك مظاهر الرحمة الربانية وجلائل النعم فيشكروه بإفراده بالعبادة .

وهذا تعريض بأنهم كفروا فلم يشكروا .

وقرأ الجمهور ﴿ أرأيتم ﴾ [القصص : 71] بألف بعد الراء تخفيفاً لهمزة رأى .

وقرأ الكسائي بحذف الهمزة زيادة في التخفيف وهي لغة .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

كررت جملة ﴿ يوم يناديهم ﴾ مرة ثانية لأن التكرير من مقتضيات مقام التوبيخ فلذلك لم يقل : ويوم ننزع من كل أمة شهيداً ، فأعيد ذكر أن الله يناديهم بهذا الاستفهام التقريعي وينزع من كل أمة شهيداً ، فظاهر الآية أن ذلك النداء يكرر يوم القيامة .

(111/590)

ويحتمل أنه إنما كررت حكايته وأنه نداء واحد يقع عقبه جواب الذين حق عليهم القول من مشركي العرب ويقع نزع شهيد من كل أمة عليهم فهو شامل لمشركي العرب وغيرهم من الأمم .

وجيء بفعل المضي في ﴿ نزعنا ﴾ : إما للدلالة على تحقيق وقوعه حتى كأنه قد وقع ، وإما لأن الواو للحال وهي يعقبها الماضي بـ (قد) وبدون (قد) أي يوم يكون ذلك النداء

وقد أخرجنا من كل أمة شهيداً عليهم وأخرجنا من هؤلاء شهيداً وهو محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ [النحل : 89] .

وشهيد كل أمة رسولها .

والنزع : جذب شيء من بين ما هو مختلط به واستعير هنا لإخراج بعض من جماعة كما في قوله تعالى ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمان عتياً ﴾ في سورة مريم (69) .

وذلك أن الأمم تأتي إلى المحشر تتبع أنبياءها ، وهذا المجيء الأول ، ثم تأتي الأنبياء مع كل واحد منهم من آمنوا به كما ورد في الحديث " يأتي النبي معه الرهط والنبي وحده ما معه أحد " .

"

والتُفت من الغيبة إلى التكلم في ﴿ ونزعنا ﴾ لإظهار عظمة التكلم ، وعطف ﴿ فقلنا ﴾ على ﴿ ونزعنا ﴾ لأنه المقصود .

والمخاطب بـ ﴿ هاتوا ﴾ هم المشركون ، أي هاتوا برهانكم على إلهية أصنامكم .

و ﴿ هاتوا ﴾ اسم فعل معناه ناولوا ، وهات مبني على الكسر .

وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ في سورة البقرة (111

) ، واستعيرت المناولة للإظهار .

والأمر مستعمل في التعجيز فهو يقتضي أنهم على الباطل فيما زعموه من الشركاء ، ولما علموا عجزهم من إظهار برهان لهم في جعل الشركاء لله أيقنوا أن الحق مستحق لله تعالى ، أي علموا علم اليقين أنهم لا حق لهم في إثبات الشركاء وأن الحق لله إذ كان ينهاهم عن الشرك على لسان الرسول في الدنيا ، وأن الحق لله إذ ناداهم بأمر التعجيز في قوله ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ .

(112/590)

و ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ يشمل ما كانوا يكذبونه من المزاعم في إلهية الأصنام وما كانوا يفترون له الإلهية من الأصنام ، كل ذلك كانوا يفترونه .

والضلال : أصله عدم الاهتداء إلى الطريق .

واستعير هنا لعدم خطور الشيء في البال ولعدم حضوره في المحضر من استعمال اللفظ في مجازيه .

و ﴿ عنهم ﴾ متعلق بفعل ﴿ ضل ﴾ .

والمراد : ضل عن عقولهم وعن مقامهم ؛ مثلوا بالمقصود للسائر في طريق حين يخطىء

الطريق فلا يبلغ المكان المقصود .

وعلق بالضلال ضمير ذواتهم ليشمل ضلال الأمرين فيفيد أنهم لم يجدوا حجة يروجون بها زعمهم إلهية الأصنام ، ولم يجدوا الأصنام حاضرة للشفاعة فيهم فوجموا عن الجواب وأيقنوا بالمؤاخذة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(113/590)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾

يُعدِّد الحق – تبارك وتعالى – نعمه على عبيده في شيئين يتعلقان بحركة الحياة وسكونها ، فالحركة تأتي بالخير للناس ، والسكون يأتي بالراحة للمتعَب من الحركة ، والإنسان بطبيعته لا يستطيع أن يعطي ويتعب إلا بعد راحة ، والذي يتحدَّى هذه الطبيعة فيسهر الليل ويعمل بالنهار لا بُدَّ أنْ ينقطع ، وأن تُنهَك قواه فلا يستمر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ والليلِ إذَا يغشى * والنهارِ إذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 1–4] .

فكلٌّ من الليل والنهار له مهمة ، وكذلك الرجل والمرأة ، فإياكم أنْ تخلطوا هذه المهام ، وإلا فسدت الحياة وأتعبتكم الأحداث ، فقبل الكهرباء ودخول (التليفزيون والفيديو) المنازل كان يومنا يبدأ في نشاط مع صلاة الفجر ، لأننا كنا ننام بعد صلاة العشاء ، أما الآن فالحال كما ترى ، كنا نستقبل يومنا بحركة سليمة نشطة ؛ لأننا نستقبل الليل بسكون سليم وهدوء تام .

والحق سبحانه في معرض تعداد نعمه علينا يقول ﴿ أَرَأَيْتُمْ . . . ﴾ [القصص : 71] يعني : أخبروني ماذا تفعلون ﴿ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة . . . ﴾ [القصص : 71] يعني : طوال حياتكم ﴿ مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ . . . ﴾ [القصص : 71] والسرمد : الدائم المستمر .

وقال ﴿ بِضِيَآءٍ . . . ﴾ [القصص : 71] ولم يقل بنور ؛ لأن النور قد يأتي من النجوم ، وقد يأتي من القمر ، أمّا الضياء وهو نور وأشعة وحرارة ، فلا يأتي إلا من الشمس .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً . . . ﴾ [يونس : 5] .

(114/590)

وقال : ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ . . . ﴾ [القصص : 71] ولم يقُلْ : مَنْ يأتيكم بضياء ليلفت نظرنا إلى أن هذه المسألة لا يقدر عليها إلا إله ، ولا إله إلا الله ، وفي الضياء تبصرون الأشياء ، وتسيرون على هُدىً ، فتؤدون حركات حياتكم دون اصطدام أو اضطراب ، وبالضياء أعايش الأشياء في سلامة لي ولها ، وإلاَّ لو سرْنا في الظلام لتحطمنا أو حطّمنا ما حولنا ؛ لأنك حين تسير في الظلام إمّا أنْ تحطم ما هو أقل منك ، أو يحطمك ما هو أقوى منك .

وكما يكون الضياء في الماديات يكون كذلك له دور في المعنويات ، وضياء المعنويات القيم التي تحكم حركة الحياة وتعدلها ، وتحميك أنْ تُحطِّم مَنْ هو أضعف منك ، أو أنْ يُحطمك الأوقى منك ؛ لذلك كان منطقياً أن يقول تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور . . . . ﴾ [الأحزاب : 43] .

والمراد : من ظلمات المعاني إلى نور القيم ، لا ظلمات المادة لأنني لا أستغني عنه لراحتي ، فله مهمة عندي لا تقلّ عن مهمة النور لذلك يقول تعالى في وصفه لنوره عز وجل ﴿ نُّورٌ على نُورٍ . . . ﴾ [النور : 35] .

نور مادي تُبصرون به الأشياء من حولكم ، فلا تتخبطون بها ، فتسلَم حركتكم ، وهذا النور المادي يشترك فيه المؤمن والكافر ، وينتفع به المطيع والعاصي ، فلم يضِنّ به على أحد من خَلْقه ، أما النور المعنوي نور الهداية ونور اليقين والقيم ، فهذا يرسله الله على يدَيْ رسُله

، فإذا أخذ المؤمن النورين انتفع بهما في الدنيا ، وامتد نفعه بهما إلى يوم القيامة ؛ لذلك قال بعدها :

﴿ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ . . . ﴾ [النور : 35] .

ولأن الآية الكريمة بدأت بقُلْ ، فمن المناسب أنْ تختم بقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ . . . ﴾ [القصص : 71] يعني : اسمعوا ما أقول لكم وتدبروه .

(115/590)

ثم يمتنُّ الله تعالى بالآية المقابلة لليل ، وهي آية النهار : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القيامة . . . ﴾ [القصص : 72] يعني : دائم لا نهاية له ﴿ مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 72] .

تلحظ أن هاتين الآيتين على نَسَق واحد ، لكن تذييلهما مختلف ، مما يدلُّ على بلاغة وإعجاز القرآن ، فلكلِّ معنىً ما يناسبه ، ففي آية الليل قال ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : 71] وفي آية النهار قال : ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 72] ذلك لأن العين لا عملَ لها في الليل إنما للأذن ، فأنت تسمع دون أنْ ترى ، وبالأذن يتمُّ الاستدعاء .

أما في النهار وفي وجود الضوء ، فالعمل للعين حيث تبصر ، فهو إذن ختام حكيم للآيات

يضع المعنى فيما يناسبه .

ثم يُجمل الله تعالى هاتين الآيتين في قوله سبحانه : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ . . . ﴾ .

بعد أنْ فصَّل الله تعالى القولَ في الليل والنهار كلّ على حدة جمعهما ؛ لأنهما معاً مظهر من مظاهر رحمة الله ، وفي الآية ملمح بلاغي يسمونه " اللف والنشر " ، فبعد أن جمع الله تعالى الليل والنهار أخبر عنهما بقوله : ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . ﴾ [القصص : 73] ثقة منه تعالى بفطْنة السامع ، وأنه سيردُّ كلاً منهما إلى ما يناسبه ، فالليل يقابل ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [القصص : 73] ، والنهار يقابل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [القصص : 73] .

فاللفُّ أي : جَمْع المحكوم عليه معاً في جانب والحكم في جانب آخر ، والنشرْ : ردّ كلِّ حكم إلى صاحبه .

وضربنا لذلك مثلاً بقول التيمورية :

قَلْبي وجَفْني واللسَانُ وخَالِقي . . . رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُور

(116/590)

فجمعتْ المحكوم عليه في الشطر الأول والحكم في الشطر الثاني ، وعليك أنْ تعيد كلَّ حكم إلى صاحبه .

والليل والنهار آيتان متكاملتان ، وبهما تنتظم حركة الحياة ؛ لأنك إنْ لم ترتح لا تقوى على العمل ؛ لأن لك طاقة ، وفي جسمك مُولِّدات للطاقة ، فساعةَ تتعب تجد أن أعضاءك تراخَتْ وأُجهدَتْ ، وهذا إنذار لك ، تُنبِّهك جوارحك لم تَعُدْ صالحاً للحركة ، ولا بُدَّ لك من الراحة لتستعيد نشاطك من جديد .

والراحة تكون بقدر التعب ، فربما ترتاح حين تقف مثلاً في حالة السير ، فإنْ لم يُرِحْك الوقوف تجلس أو تضطجع ، فإنْ زاد التعب غلبك النوم ، وهو الرَّدْع الذاتي الذي يكبح جماح صاحبه إنْ تمرد على الطبيعة التي خلقها الله فيه .

ومن عجب أن البعض يخرج عن هذه الطبيعة ، فيأخذ مُنشِّطات حتى لا يغلبه النوم ، ويأخذ مُهدِّئات لينام ، ولو أسلم نفسه لطبيعتها ، فنام حينما يحضره النوم ، وعمل حينما يجد في نفسه نشاطاً للعمل لأراحَ نفسه من كثير من المتاعب .

لذلك يقولون : النوم ضيف إنْ طلبك أراحك ، وإنْ طلبته أعْنتك ، وحتى الآن ، ومع تقدُّم العلوم لم يصلوا إلى سرِّ النوم ، وكيف يأخذ الإنسان في هدوء ولُطْف دون أنْ يشعر ماهيتَه ، وأتحدى أن يعرف أحد منا كيف ينام .

لذلك جعل الله النوم آية من آياته تعالى ، مثل الليل والنهار والشمس والقمر ، فقال سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار . . . ﴾ [الروم : 23] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ . . . ﴾ .

تقدمت المناداة قبل ذلك مرتين ومع ذلك لا يوجد تكرار لهذا المعنى ؛ لأن كلَّ نداء منها له مقصوده الخاص ، فالنداء في الأولى خاص بمَنْ أشركوهم مع الله وما قالوه أمام الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا . . . ﴾ [القصص : 63] .

(117/590)

أما الثانية ، فالنداء فيها للمشركين ﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ [القصص : 65] .

أما هنا ، فيهتم النداء بمسألة الشهادة عليهم . إذن : فكلمة (أين) و (شركائي) و (الذين كنتم تزعمون) قَدْر مشترك بين الآيات الثلاثة ، لكن المطلوب في كل قَدْر غير المطلوب في القَدْر الآخر ، فليس في الأمر تكرار ، إنما توكيد في الكل .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا . . . ﴾ .

أي : أخرجنا من كل أمة نبيّها ، وأحضرناه ليكون شاهداً عليها ﴿ فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ . . ﴾ [القصص : 75] أرونا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم ؟ لكن هيهات ، فقد اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم ؟ لكن هيهات

، فقد ضلَّوا عنهم ، وهربوا منهم .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص : 66] .

إذن : غاب شركاؤكم ، وغاب شهودكم ، لكن شهودنا موجودون ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً . . . ﴾ [القصص : 75] يشهد أنه بلَّغهم منهج الله فإنْ قُلْتم : لقد أغوانا الشيطان وأغوانا المضلون من الإنس ، نردّ عليكم بأننا ما تركناكم لإغوائهم ، فيكون لكم عذر ، إنما أرسلنا إليكم رسلاً لهدايتكم ، وقد بلّغكم الرسل .

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] .

فماذا يكون موقفهم يوم تشهد أنت عليهم بأنك بلَّغت ، وأعذرتَ في البلاغ ، وأنك اضطهدت منهم ، وأوذيت ، وقد ضلَّ عنهم شركاؤهم ، ولم يجدوا مَنْ يشهد لهم أو يدافع عنهم ؟ عندها تسقط أعذارهم وتكون المحكمة قد (تنوَّرت) .

(118/590)

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ . . . ﴾ [القصص : 75] أي : قولوا : إن رسلنا لم يُبلِّغوكم منهجنا ، وهاتوا حجة تدفع عنكم ، فلما تحيَّروا وأُسقط في أيديهم حيث

غاب شهداهم وحضر الشهداء عليهم ﴿ فعلموا أَنَّ الحق لِلَّهِ . . . ﴾ [القصص : 75] .

وفوجئوا كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ . . . ﴾ [النور : 39] .

وقال : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً . . . ﴾ [الكهف : 49] .

فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به ، لكن ما وجه هذه المفاجأة ، وقد أخبرناهم بها في الدنيا وأعطيناهم مناعة كان من الواجب أنْ يأخذوا بها ، وأنْ يستعدوا لهذا الموقف ، فالعاقل حين تُحذره من وعورة الطريق الذي سيسلكه وما فيه من مخاطر وأهوال حين يحتاط لنفسه أنْ يكون ناصحه كاذباً ، على حَدِّ قول الشاعر :

زَعَم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهُما . . . لا تُبعَثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُما

إن صَحَّ قولكُمَا فلسْتُ بخاسِرٍ . . . أوْ صَحَّ قَوْلي فالخسَار عليكُما

وما عليك إنْ حملتَ بندقية في هذا الطريق المخوف ، ثم لم تجد شيئاً يخيفك ؟ إذن : أنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا شيئاً ، ونحن إنْ لم نكسب لن نخسر .

وقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ . . . ﴾ [القصص : 75] أي : غاب ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص : 75] من ادّعاه الشركاء .

بعد أن أعطانا الحق – تبارك وتعالى – لقطة من لقطات يوم القيامة ، والقيامة لا تخيف إلا

مَنْ يؤمن بها ، أما مَنْ لا يؤمن بالآخرة والقيامة فلا بُدَّ له من رادع آخر ؛ لأن الحق سبحانه يريد أنْ يحمي صلاح الكون وحركة الحياة .

ولو اقتصر الجزاء على القيامة لعربد غير المؤمنين واستشرى فسادهم ، ولَشقي الناس بهم ، والله تعالى يريد أنْ يحمي حركة الحياة من المفسدين من غير المؤمنين بالآخرة ، فيجعل لهم عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة .

(119/590)

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ . . . ﴾ [الطور : 47] يعني : قبل عذاب الآخرة .

فالذي يقع للكفار في الدنيا رَدْع لكل ظالم يحاول أنْ يعتدي ، وأنْ يقف في وجه الحق ؛ لذلك يعطينا ربنا – عز وجل – صورة لهذا العذاب الدنيوي للمفسدين في الأرض ، فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(120/590)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ) (القصص : 71) ، ثم قال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (القصص : 72) ، للسائل أن يسأل لم قدن الليل ؟ ولم ختمت الأولى بقوله : (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) ، والثانية بقوله : (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ؟

والجواب عن الأول أن تقديم الليل على النهار جار على ما بنت العرب عليه حساب شهورها من تقديم الليل وجعل النهار تابعاً له ، ولم يرد في كتاب الله تعالى على كثرة ترداده إلا ذلك .

والجواب عن السؤال الثاني : أن قوله تعالى في آية الأولى : (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) مناسب للمدرك ليلاً من ضربي ما يعتبر به من المسموعات والمبصرات ، إذ الليل حائل دون المبصرات ، وإنما تدرك فيه المسموعات لأن ظلمة الليل غير مانعة من إدراكها ، فجيء بما يناسب ، وجيء مع ذكر النهار بما يناسب أيضاً ، فقيل : (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ، لأن المبصرات تدرك نهاراً

ولا تدرك ليلاً ، فجيء مع كل بما يناسب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ386 ﴾

(121/590)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾

وأخرج ابن أبي حاتم عن أرطاة قال : ذكرت لأبي عون الحمصي شيئاً من قول القدر فقال : ما تقرأون كتاب الله تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ﴾ ؟ .

وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمر كما يعلمنا السورة من القرآن . يقول : " إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ، ومعاشي ، وعاقبة أمري ، وعاجل أمري

وآجله ، فاقدره لي ، ويسره لي . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ، ومعاشي ، وعاقبة أمري ، وعاجل أمري وآجله ، فاصرفه عني ، واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، وأرضني به . ويسمى حاجته باسمها " .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إن جعل الله عليكم الليل سرمداً ﴾ قال : دائماً .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ سرمداً ﴾ قال : دائماً لا ينقطع .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ سرمداً إلى يوم القيامة ﴾ قال : دائماً ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ قال . بنهار .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ﴾ قال : في الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ قال : في النهار .

(122/590)

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ﴾ قال : رسولاً ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ قال : هاتوا حجتكم بما كنتم تعبدون وتقولون .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ﴾ قال : شهيدها : نبيها . ليشهد عليها أنه قد بلغ رسالات ربه ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ قال : بَيِّنَتَكُمْ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وضلّ عنهم ﴾ في القيامة ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ يكذبون في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(123/590)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ :

" أَرَأَيْتُمْ " و " جَعَلَ " تنازعا في " الليلَ " وأعملَ الثاني . ومفعولُ " أَرَأَيْتُم " هي جملةُ الاستفهامِ بعده . والعائدُ منها على " الليل " محذوفٌ ، وتقديرُه : بضياءٍ بعدَه . وجوابُ

الشرطِ محذوفٌ . وتحريرُ هذا قد مَضَى في الأنعام فهو نظيرُه .

و" سَرْمَداً " مفعولٌ ثانٍ ، إنْ كان الجَعْلُ تصييراً ، أو حالٌ إن كان خَلْقاً وإنشاءً . والسَّرْمَدُ : الدائمُ الذي لا ينقطعُ . قال طرفة :

3624 لَعَمْرُكَ ما أَمْرِيْ عليَّ بغُمَّةٍ . . . نهاري ولا لَيْلي عَلَيَّ بسَرْمَدِ

والظاهرُ أنَّ ميمَهُ أصليةٌ ، ووزنُه فَعْلَل كجَعْفَر . وقيل : هي زائدةٌ . واشتقاقُه من السَّرْد ، وهو تتابُعُ الشيءِ على الشيءِ ، إلاَّ أنَّ زيادةِ الميمِ وَسَطاً وأخيراً لا يَنْقاسُ نحو : دُلامِص ، وزُرْقُم ، من الدِّلاص والزُّرْقَة .

قوله : ﴿ إلى يَوْمِ ﴾ متعلقٌ ب " جَعَل " ، أو ب " سَرْمداً " ، أو بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل " سَرْمَداً " .

قوله : ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ ﴾ : من باب اللَّفِّ والنشر . ومنه :

3625 كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابساً . . . لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 691.692 ﴾

(124/590)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾

إن دامت ليالي الفترة فَمَنْ الذي يأتي بنهار التوبة غيرُ اللَّهِ ؟

وإنْ دامت ليالي الطَّلَبِ فَمَنْ الذي يأتي بصُبْحِ الوجودِ غيرُ اللَّهِ ؟

وإن دامت ليالي القبض فمن الذي يأتي بصبح البسط غيرُ اللَّهِ ؟

وإن دام ليل الفراق فمن الذي يأتي بصبح الوصال غيرُ الله ؟

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72)

إنْ دام في الوصلة نهارُكم فأيُّ سبيل للواشين إلى تنغيص سروركم ؟

وإن دام نهارُ معاشكم ووقتُ اشتغالكم بحظوظكم فَمَنْ إلهٌ غيرُ اللَّهِ يأتيكم بليلٍ تَسْكُنون فيه إلى الله إلا الله ، وتستريحون من أشغالكم بالخلوة مع اللَّهِ إلا الله . (1)

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)

الأوقات ظروفٌ لما يحصل فيها من الأفعال والأحوال ؛ فالظروفُ من الزمان متجانسة ،

وإنما الاختلافُ راجعٌ إلى أعيان ما يحصل فيها ؛ فليالي أهل الوصال ساداتُ الليالي ، أهل الفراق أسوأ الليالي ؛ فأهلُ القُرْبِ لياليهم قِصَارٌ وكذلك أيامُهم ، وأربابُ الفراقِ لياليهم طوال وكذلك جميع أوقاتهم في ليلهم ونهارهم ، يقول قائلهم :

والليالي إذا نأيتِ طوالٌ . . . وأراها إذا دَنَوْتِ قِصَار

وقال آخر :

والليلُ أطولُ وقتٍ حين أفقدها . . . والليل أقصر وقتٍ حين ألقاها

وقال ثالث :

يطولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه . . . وحَوْلٌ نلتقي فيه – قصيرُ

---

(1) منذ أشرقت على القشيري آية : «وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . .»

ولفظ الجلالة لا يكاد يغيب عنا في إشاراته ، مما يدل – والله أعلم – على أن الرجل ذاكر أخذته حالة انمحاء فى المذكور . . وقد حرصنا أن نلفت نظر القارئ إلى هذا الملحظ ليشعر بالفرق بين المفسر التقليدى والمفسر الإشارى . . إن الكلمات هنا أشبه بالتسابيح الوافدة من عالم بعيد !

(125/590)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

كلا . . . لا حُجَّة لهم ، ولا جوابَ يعذرهم ، ولا شفيعَ يرحمهم ، ولا ناصِرَ يُعينهم .

اشتهرت ضلالتُهم ، واتضحت للكافة جهالتُهم ؛ فدامَ عذابُ الأبد ، وحاقَ بهم وبالُ

السَّرمَد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 78 . 79 ﴾

(126/590)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

أي : بينا لهم في القرآن خبر الأمم الماضية ، كيف عذبوا لعلهم يتذكرون ، أي لكي يخافوا

فيؤمنوا بما في القرآن ويقال : ولقد وصلنا لهم القول ، أي : وصلنا لهم الكتب بعضها ببعض

، يعني بعضها على إثر بعض .

ويقال : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا ﴾ أي : أوصلنا لهم القول .

يعني : أنزلنا لهم القرآن آية بعد آية أنه هداية ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : لكي يتعظوا .

ثم وصف مؤمني أهل الكتاب فقال : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ يعني : من قبل

القرآن ﴿ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : مؤمني أهل الكتاب ، وهم أربعون رجلاً من أهل الإنجيل ، كانوا مسلمين قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم اثنان وثلاثون من أهل أرض الحبشة ، قدموا مع جعفر الطيار ، وثمانية من أهل الشام .

ويقال : إنهم ثمانية عشر رجلاً ﴿ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : القرآن ﴿ قَالُواْ ءامَنَّا بِهِ ﴾ أي صدقنا ﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا ﴾ يعني : القرآن ، وذلك أنهم عرفوا بما ذكر في كتبهم من نعت النبي صلى الله عليه وسلم وصفته وكتابه فقالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ يعني : من قبل هذا القرآن ، ومن قبل محمد صلى الله عليه وسلم كنا مخلصين ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ يعني : يعطون ثوابهم ضعفين مرة بكتابهم ، ومرة بإيمانهم بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ يعني : بصبرهم على ما أوتوا .

ويقال : بما صبروا ، أي بصبرهم على دينهم الأول ، وبما صبروا على أذى المشركين ، فصدقوا وثبتوا على إيمانهم .

حيث قال لهم أبو جهل وأصحابه : ما رأينا أحداً أجهل منكم ، تركتم دينكم ، وأخذتم دينه .

(127/590)

فقالوا : ما لنا لا نؤمن بالله ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بالحسنة السيئة ﴾ أي : يدفعون قول المشركين بالمعروف .

ويقال : يدفعون الشرك بالإيمان .

ويقال : يدفعون بالكلام الحسن الكلام القبيح .

ويقال : يدفعون ما تقدم لهم من السيئات بما يعملون من الحسنات ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ يعني : يتصدقون .

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ يعني : إذا سمعوا الشتم والأذى والكلام القبيح لم يردوا عليهم ، ولم يكافئوهم به ولم يلتفتوا إليه ، يعني : إذا شتمهم الكفار لم يشتغلوا بمعارضتهم بالشتم ﴿ وَقَالُواْ لَنَا أعمالنا ﴾ يعني : ديننا ﴿ وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ يعني : دينكم ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ يعني : وردوا معروفاً عليهم ليس هذا تسليم التحية ، وإنما هو تسليم المتاركة والمسالمة ، أي : بيننا وبينكم المتاركة والمسالمة ، وهذا إن يؤمر المسلمون بالقتال .

ويقال : السلام عليكم .

يعني : أكرمكم الله تعالى بالإسلام ﴿ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ أي : لا نطلب دين الخاسرين ، ولا نصحبهم .

ويقال : هذه الآية مدنية نزلت في شأن عبد الله بن سلام .

وروى أسباط عن السدي قال : لما أسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه فقال يا رسول الله : ابعث إلى قومي فاسألهم عني فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فستر بينهم وبينه ستراً .

وقال : " أَخْبِرُونِي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ كَيْفَ هُوَ فِيكُمْ ؟ " قالوا : ذاك سيدنا وأعلمنا .

قال : " أَرَأَيْتُمْ إِنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي أَتُؤْمِنُونَ بِي وَتُصَدِّقُونِي ؟ " قالوا : هو أفقه من أن يدع دينه ويتبعك .

قال : " أَرَأَيْتُمْ إِنْ فَعَلَ ؟ " قالوا : لا يفعل .

قال : " أَرَأَيْتُمْ إِنْ فَعَلَ ؟ " قالوا : إنه لا يفعل ، ولو فعل إذاً نفعل .

فقال عليه السلام : " أَخْرُجْ يا عَبْدَ اللهِ " .

فخرج .

(128/590)

فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فوقعوا فيه ، وشتموه وقالوا : ما فينا أحد أقل علماً ، ولا أجهل منك .

قال : " أَلَمْ تُثْنُوا عَلَيْهِ آنِفاً ؟ " قالوا : إنا استحينا أن نقول اغتبتم صاحبكم ، فجعلوا

يشتمونه وهو يقول : ﴿ سلام عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ فقال : ابن يامني ، وكان من رؤساء بني إسرائيل أشهد أن عبد الله بن سلام صادق ، فابسط يدك يا محمد ، فبسط يده ، فبايع ابن يامني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ وإلى قوله : ﴿ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ يعني : لا ترشد من أحببته إلى الهدى .

ويقال : من أحببت هدايته إلى دينك ، وذلك أن أبا طالب لما حضرته الوفاة ، دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يَا عَمَّاهُ قُلْ لا إله إلا الله كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله تَعَالَى " .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ، فلم يزالا يكلمانه ويكلمه النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات على الكفر فنزل ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ بهدايته ﴿ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ يعني : يرشد من يشاء إلى دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ يعني : بمن قدر له الهدى .

(129/590)

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني : مشركي مكة ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ ﴾ يعني : الإيمان بك ﴿ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ يعني : نسبى ونخرج من مكة لإجماع العرب على خلافنا ، وهذا قول الحارث بن عامر النوفلي حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما كذبت كذبة قط ، فنتهمك اليوم ، ولكن متى ما نؤمن بك فتحسنا العرب من أرضنا يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ ﴾ يعني : أولم ننزلهم مكة حرماً أميناً يعني : كان الحرم أمناً لهم في الجاهلية من القتل والسبي ، وهم يعبدون غيري ، فكيف يخافون إن أسلموا أن لا يكون الحرم أمناً لهم ؟ فذلك قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ ﴾ يعني أولم ننزلهم مكة حرماً آمناً من الغارة والسبي ﴿ يجبى إِلَيْهِ ﴾ بالياء يعني : يحمل إليه ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي : من ألوان الثمرات قرأ نافع ﴿ تجبى ﴾ بالتاء لأن الثمرات مؤنثة .

وقرأ الباقون بالياء لتقديم الفعل ثم قال : ﴿ شَىْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي : من عندنا ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يأكلون رزقي ، ويعبدون غيري ، وهم آمنون في الحرم ويقال لا يعلمون أن ذلك من فضل الله عليهم .

ثم خوفهم فقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ ﴾ فيما مضى ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ كفرت برزق ربها ذكر القرية ، وأراد به أهل القرية يعني : أنهم كانوا ينقلبون في رزق الله تعالى : فلم يشكروه في نعمته .

ويقال : بطرت معيشتها يعني : طغوا في نعمة الله ، فأهلكهم الله تعالى بالعذاب في الدنيا .

ويقال : عاشوا في البطر وكفران النعم ﴿ فَتِلْكَ مساكنهم ﴾ يعني : انظروا واعتبروا في بيوتهم وديارهم بقيت خالية ﴿ لَمْ تُسْكَن مّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ وهم المسافرون ينزلون بها يوماً أو ساعة ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ أي : نرث الأرض ومن عليها ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾ يعني : لم يعذب أهل القرى ﴿ حتى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ يعني : معظمها ويقال : في أكبر قراها .

ويقال : أم القرى مكة .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ فِى أُمِّهَا ﴾ بكسر الألف .

والباقون بالضم ، ومعناهما واحد يبعث في أمها رسولاً ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ يعني : القرآن ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ يعني : لم نهلكها إلا بظلم أهلها .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن شَىْءٍ ﴾ يعني ما أعطيتم من مال .

ويقال : ما أعطيتم من الدنيا ، فهو ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ يعني : فهو متاع الحياة الدنيا ، ينتفعوا بها أيام حياتهم ﴿ وَزِينَتَهَا ﴾ يعني : وزهراتها ولا تبقى دائماً ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ من الثواب والجنة ﴿ خَيْرٌ وأبقى ﴾ يعني : أفضل وأدوم لأهله مما أعطيتم في الدنيا ﴿ أَفَلاَ

تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقي خير من الفاني .

قرأ عمرو ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ بالياء على معنى الخبر عنهم .

وقرأ الباقون بالتاء على معنى المخاطبة .

(131/590)

قوله عز وجل : ﴿ أَفَمَن وعدناه وَعْداً حَسَناً ﴾ يعني : الجنة ﴿ فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ يعني : مدركه ومصيبه ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ متاع الحياة الدنيا ﴾ بالمال ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ في النار هل يستوي حالهما ؟ قال في رواية الكلبي : نزل في عمار بن ياسر ، وأبي جهل بن هشام وقال غيره : هذا في جميع المؤمنين ، وجميع الكافرين ويقال نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أبي جهل ، يعني : من كان له في هذه الدنيا عدة مع دين الله ، خير ممن كان له سعة وفرج مع الشرك ، ثم هو يوم القيامة من المحضرين .

يعني : من المعذبين في النار .

وقال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ يعني : واذكر يوم يدعوهم يعني : المشركين ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين ﴾ يعني : المشركين : ﴿ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ لهم شركاتي في الدنيا ﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ وجبت عليهم الحجة فوجب عليهم العذاب ويقال وجب

عليهم القول وهو قوله ﴿ قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : 18] ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء الذين أَغْوَيْنَا أغويناهم ﴾ يعني : القادة يقولون ربنا هؤلاء الذين أضللنا يعني : السفلة أغويناهم ﴿ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي : أضللناهم كما كنا ضالين .

ويقال : يقول الكافرون ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء الذين أَغْوَيْنَا ﴾ يعني : الشياطين .

فقالت الشياطين : أغويناهم .

(132/590)

يعني : أضللناهم كما غوينا ، أي أضللنا ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ من عبادتهم ﴿ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ يعني : ما كانوا يأمرونا بعبادة الآلهة ﴿ وَقِيلَ ﴾ للكفار ﴿ ادعوا شُرَكَائِكُمْ ﴾ يعني آلهتكم التي تعبدون من دون الله ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ يقول الله عز وجل : ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعني : يودون لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا .

ويقال : يودون أن لم يكونوا اتبعوهم .

فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، أي : لم يجيبوهم بحجة تنفعهم فيودون أنهم لم يعبدوهم لما رأوا

العذاب .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ يعني : يسألهم يوم القيامة ﴿ فَيَقُولُ مَاذَا لَمِنَ المرسلين ﴾ في التوحيد ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الانباء ﴾ يعني : ألبست عليهم الحجج ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ من الهول ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ يعني : لا يسأل بعضهم بعضاً عما يحتجون به ، رجاء أن يكون عنده من الحجة ما لم يكن عند غيره ، لأن الله تعالى أدحض حجتهم ، وفي الدنيا إذا اشتبهت عليه الحجة ، ربما يسأل عن غيره ، فيلقنه الحجة ، وفي الآخرة آيس من ذلك .

ثم قال الله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءامَنَ ﴾ يعني : من الشرك ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فيما بينه وبين الله تعالى ﴿ فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ﴾ أي : من الناجين الفائزين بالخير .

قوله عز وجل : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ ﴾ وذلك أن الوليد بن المغيرة كان يقول : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] يعني به نفسه وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف فقال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ ﴾ للرسالة من يشاء ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ يعني : ليس [الخيار إليهم .

(133/590)

ويقال : هو ربك يخلق ما يشاء ، ويختار لهم ما يشاء ، ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ ، أي ما كان لهم طلب الخيار ، والأفضل .

ويقال : ما كان لبعضهم على بعض فضل ، والله تعالى هو الذي يختار .

وقال الزجاج : الوقف على قوله ، ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ .

والمعنى وربك يخلق ما يشاء ، ويختار .

ثم قال : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ ، أي لم يكن لهم أبداً يختاروا على الله ، ويكون ما للنفي .

قال : ووجه آخر أن تكون بمعنى الذي يعني ، وربك يخلق ما يشاء ، ويختار الذين لهم الخيرة أن يدعوهم إليه من عبادته ، ما لهم فيه الخيرة .

ويقال : ما كان لهم الخيرة .

يعني : ليس لهم أن يختاروا على الله عز وجل ، وليس إليهم الاختيار ، والمعنى لا نرسل الرسل إليهم على اختيارهم .

ثم قال : ﴿ سبحان الله ﴾ أي تنزيهاً لله ﴿ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يعني : ما تضمر وتسر قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من القول ﴿ وَهُوَ الله لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني : لا خالق ولا رازق غيره ﴿ لَهُ الحمد فِى الاولى والآخرة ﴾ أي : في الدنيا والآخرة ، وقال مقاتل : يعني يحمده أولياؤه في الدنيا ، ويحمدونه في الجنة ويقال : له الألوهية في الدنيا والآخرة ، وله الحكم ، يعني نفاذ الحكم ، والقضاء يحكم في الدنيا والآخرة بما يشاء ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

في الآخرة ، فيجازيكم بأعمالكم .

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله ﴾ يعني : ألا تنظرون إلى نعمة الله تعالى في خلق الليل والنهار لمصلحة الخلق ، فلو جعل ﴿ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً ﴾ أي دائماً ﴿ إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ المواعظ ، وتعتبرون بها .

(134/590)

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة ﴾ يعني : دائماً ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ يعني : تقرّون تريحون فيه ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ من يفعل ذلك بكم ، لأن العيش لا يصلح إلا بالليل والنهار ، فأخبر عن صنعه لمصلحة الخلق ، ليشكروه ويوحدوه ويعبدوه فقال : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أي ومن نعمته وفضله ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ يعني : في الليل وجعل لكم النهار ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ يعني : لتطلبوا من رزقه في النهار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : تشكرون رب هذه النعمة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ يعني : ﴿ أَنذَرَهُمْ ﴾ بذلك اليوم ويقال : معناه اذكر ذلك اليوم الذي يناديهم أي : يدعوهم ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أنها لي

شريك ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ أي : أخرجنا من كل أمة نبيها ورسولها ﴿ شَهِيداً ﴾ بالرسالة والبلاغ ﴿ فَقُلْنَا ﴾ للمشركين ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ أي : حجتكم بأن معي شريكاً ، فلم يكن لهم حجة ﴿ فَعَلِمُواْ أَنَّ الحق لِلَّهِ ﴾ يعني : أن عبادة الله هي الحق .

ويقال : علموا أن التوحيد لله .

ويقال : إن الحق ما دعا إليه الله ، وأتاهم به الرسول ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يعني : اشتغل عنهم بأنفسهم ما كانوا يفترون ، يعني : يكذبون في الدنيا يعني : الأصنام .

ويقال : يعني الشياطين .

ويقال : وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ، يعني : تشفعوا بما عبدوه من دون الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 612.617 ﴾

(135/590)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول ﴾

ابن عباس ومجاهد : فصّلنا ، ابن زيد : وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنّهم

عاينوا الآخرة في الدنيا ، وقال أهل المعاني : أي والينا وتابعنا ، وأصلة من وصل الجبال بعضها إلى بعض ، قال الشاعر :

فقل لبني مروان ما بال ذمّة . . . وحبل ضعيف ما يزال يوصّل

وقرأ الحسن ﴿ وَصَّلْنَا ﴾ خفيفة ، وقراءة العامة بالتشديد على التكثير ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل محمد (عليه السلام) ﴿ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني القرآن ﴿ قالوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ لإيمانهم بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ على دينهم ، قال مجاهد : نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا فأُوذوا ﴿ وَيَدْرَؤُنَ ﴾ ويدفعون ﴿ بالحسنة السيئة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو ﴾ القبيح من القول ﴿ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ أي دين الجاهلين عن الكلبي ، وقيل : محاورة الجاهلين ، وقيل : لا نريد أن نكون جهالا .

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي من أحببت هدايته ، وقيل : من أحببته ، نزلت في أبي طالب .

حدّثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي إملاءً قال : أخبرنا أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن الحافظ ، قال : حدّثنا عبد الرحمن بن بشر ، قال : حدّثنا يحيى بن سعيد ، عن زيد بن كيسان ، قال : حدّثني أبو حازم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمّه : " قل لا إله إلاّ الله أشهد لك بها يوم القيامة " قال : لولا أن تعيّرني نساء قريش يقلن : إنّه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك ، فأنزل الله سبحانه ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ، ﴿ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ .

وأخبرنا عبد الله بن حامد الوزان قال : أخبرنا مكي بن عبدان ، قال : حدّثنا محمد بن يحيى وأحمد بن يوسف قالا : حدّثنا عبد الرزاق قال : وأخبرنا محمد بن الحسين ، قال : حدّثنا أحمد بن يوسف السلمي ، قال : حدّثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا أبو سعيد بن حمدون ، قال : أخبرنا ابن الشرقي ، قال : حدّثنا محمد بن يحيى ، قال : حدّثنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه دخل على عمّه أبي طالب في مرضه الذي مات فيه وعنده أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية فقال : " يا عمي قل : لا إله إلاّ الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله " .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية : يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبد المطلب ؟ فقال : بل

على ملّة عبد المطلب .

فأنزل الله سبحانه ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ .

(137/590)

﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد ابن مالك ، قال : حدّثنا محمد بن إبراهيم الطيالسي ، قال : حدّثنا الحسين بن علي بن يزيد المدايني ، قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا الفضل بن العباس الهاشمي ، قال : حدّثنا عبد الوهاب ابن عبد المجيد الثقفي ، قال : حدّثنا يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن الزهري ، عن محمد بن (جبير عن) مطعم ، عن أبيه قال : لم يستمع أحد الوحي يلقى على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ أبو بكر الصديق ، فإنّه أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجده يوحى إليه فسمع ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ .

﴿ وقالوا إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَك ﴾ الآية نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك أنّه قال للنبي (عليه السلام) أنّا لنعلم إنّ الذي تقول حقّ ، ولكن يمنعنا إتباعك أنّ العرب تتخطّفنا من أرضنا ، لإجماعهم على خلافنا ولا طاقة لنا بهم ، فأنزل الله سبحانه

﴿ وقالوا إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ مكة .

قال الله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً ﴾ وذلك أنّ العرب في الجاهلية كان يغير بعضهم على بعض ، فيقتل بعضهم بعضاً ، وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ ﴾ يجلب ويجمع ، قرأ أهل المدينة ويعقوب (تجبى) بالتاء لأجل الثمرات واختاره أبو حاتم وقرأ غيرهم بالياء كقوله ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ واختاره أبو عبيد قال : لأنّه قد حال بين الاسم المؤنث والفعل حائل ﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

(138/590)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ ، أي أشرت وطغت ، فكفرت بربّها ، قال عطاء بن رباح : أي عاشوا في البطر والأشر وأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام ، وجعل الفعل للقرية وهو في الأصل للأهل وقد مضت هذه المسألة ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ يعني فلم يعمر منها إلاّ أقلها ، وأكثرها خراب ، قال ابن عباس : لم يسكنها إلاّ المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ نظيره قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ [مريم : 40] وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض ﴾ [آل عمران : 180] .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾ بكفر أهلها ﴿ حتى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا ﴾ يعني مكة ﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ كافرون ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وأبقى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ بالياء أبو عمرو ، يختلف عنه الباقون بالتاء .

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً ﴾ يعني الجنة ﴿ فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ مدركه ومصيبه ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحياة الدنيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ في النار ، نظيره قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المحضرين ﴾ [الصافات : 57] قال مجاهد : نزلت في النبي (عليه السلام) وفي أبي جهل بن هشام . محمد بن كعب : في حمزة وعلي وفي أبي جهل . السدي : عمار والوليد بن المغيرة .

(139/590)

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ في الدنيا أنهم شركائي ﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ وجب عليهم العذاب وهم الرؤوس عن الكلبي ، غيره : الشياطين ﴿ رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ منهم ﴿ مَا كانوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ﴾ لبني آدم الكفار ﴿ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ

وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ جواب (لو) مضمر ، أي لو كانوا يهتدون لما رأوا العذاب ، وقيل معناه : ودّوا إذا رأوا العذاب لو أنّهم كانوا يهتدون .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين * فَعَمِيَتْ ﴾ فخفيت واشتبهت ﴿ عَلَيْهِمُ الأنبآء ﴾ يعني الأخبار والأعذار والحجج ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ لأنّ الله سبحانه قد أعذر إليهم في الدنيا ، فلا يكون لهم حجة ولا عذر يوم القيامة ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يجيبون ، قتادة : لا يحتجّون ، وقيل : يسكتون ، لا يسئل بعضهم بعضاً ، مجاهد : لا يتساءلون بالأنساب كما كانوا يفعلون في الدنيا ، نظيره قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : 101] .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين * وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ وهذا جواب لقول الوليد بن المغيرة : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] أخبر الله سبحانه أنّه لا يبعث الرسل باختيارهم .

وهذا من الجواب المفصول ، وللقراء في هذه الآية طريقان :

أحدهما : أن يمرّ على قوله : ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ، ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ ويجعل (ما) إثباتاً بمعنى الذي ، أي ويختار لهم ما هو الأصلح والخير .

والثاني : أن يقف على قوله : ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ويجعل ما نفياً أي ليس إليهم الاختيار ، وهذا القول أصوب وأعجب إليّ كقوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : 36] ، وأنشدني أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب ، قال : أنشدني أبو جعفر محمد بن صالح ، قال : أنشدنا حماد بن علي البكراوي لمحمود بن الحسن الوراق :

توكل على الرحمن في كلّ حاجة . . . أردت فإنّ الله يقضي ويقدر

إذا ما يردْ ذو العرش أمراً بعبده . . . يصبْه وما للعبد ما يتخيّر

وقد يهلك الإنسان من جه حذره . . . وينجو بحمد الله من حيث يحذر

وأنشدني الحسين بن محمد ، قال : أنشدني أبو الفوارس حنيف بن أحمد بن حنيف الطبري :

العبد ذو ضجر والربّ ذو قدر . . . والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خالقنا . . . وفي اختيار سواه اللؤم والشوم

روى سعيد بن المسيب ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ الله عز وجل اختار أصحابي على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين ، واختار من أصحابي أربعة : أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي " رضوان الله عليهم أجمعين " فجعلهم

خير أصحابي ، وفي كلّ أصحابي خير ، واختار أُمتي على سائر الأمم ، واختار لي من أمتي أربعة قرون بعد أصحابي : القرون الأول والثاني والثالث تترى والرابع فردي " .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شيبة ، قال : حدّثنا جعفر بن أحمد الواسطي ، قال : حدّثنا محمد بن عبيد قال : حدّثنا يوسف بن يعقوب السلمي ، قال : حدّثنا سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن وهب بن منبه ، عن أخيه في قوله : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ قال : اختار من الغنم الضأن ومن الطير الحمام .

(141/590)

﴿ سُبْحَانَ الله وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَهُ الحمد فِي الأولى والآخرة وَلَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة ﴾ دائماً لا نهار معه .

﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إِلى يَوْمِ القيامة ﴾ لا ليل فيه ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ * وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا ﴾ وأخرجنا

وأحضرنا ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ فعلموا ﴾ حينئذ ﴿ أَنَّ الحق لِلَّهِ ﴾ يعني التوحيد والصدق والحجة البالغة ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 254.259 ﴾

(142/590)

وقال الزمخشرى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) ﴾

قرئ وَصَّلْنا بالتشديد والتخفيف . والمعنى : أن القرآن أتاهم متتابعا متواصلا ، وعدا ووعيدا ، وقصصا وعبرا ، ومواعظ ونصائح : إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . أو نزل عليهم نزولا متصلا بعضه في أثر بعض ، كقوله وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ .

[سورة القصص (28) : آية 52]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52)

نزلت في مؤمنى أهل الكتاب وعن رفاعة بن قرظة : نزلت في عشرة أنا أحدهم . وقيل : في أربعين من مسلمي أهل الإنجيل : اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من أرض الحبشة ، وثمانية

من الشام.

والضمير في مِنْ قَبْلِهِ للقرآن.

[سورة القصص (28) : آية 53]

وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53)

فإن قلت: أى فرق بين الاستئنافين إنه وإنا؟ قلت: الأوّل تعليل للإيمان به، لأن كونه حقا من اللّه حقيق بأن يؤمن به. والثاني: بيان لقوله آمَنَّا بِهِ لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم، لأنّ آباءهم القدماء قرءوا في الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم مِنْ قَبْلِهِ من قبل وجوده ونزوله مُسْلِمِينَ كائنين على دين الإسلام، لأن الإسلام صفة كل موحد مصدّق للوحى.

[سورة القصص (28) : آية 54]

أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (54)

بِما صَبَرُوا بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن. أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله. أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. ونحوه يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ، بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ بالطاعة المعصية المتقدمة. أو بالحلم الأذى.

[سورة القصص (28) : آية 55]

وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (55)

(143/590)

سَلامٌ عَلَيْكُمْ توديع ومتاركة . وعن الحسن رضى اللّه عنه : كلمة حلم من المؤمنين لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم فإن قلت : من خاطبوا بقولهم وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ ؟ قلت :

اللاغين الذين دل عليهم قوله وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ .

[سورة القصص (28) : آية 56]

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ، لأنك عبد لا تعلم المطبوع على قلبه من غيره وَلكِنَّ اللَّهَ يدخل في الإسلام مَنْ يَشاءُ وهو الذي علم أنه غير مطبوع على قلبه ، وأن الألطاف ننفع فيه ، فيقرن به ألطافه حتى تدعوه إلى القبول وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ بالقابلين من الذين لا يقبلون . قال الزجاج : أجمع المسلمون أنها نزلت في أبى طالب ، وذلك أن أبا طالب قال عند موته : يا معشر بنى

هاشم ، أطيعوا محمدا وصدّقوه تفلحوا وترشدوا ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم :

تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك ؟ قال : فما تريد يا ابن أخى ؟ قال : أريد منك

كلمة واحدة فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا : أن تقول لا إله إلا اللّه ، أشهد لك بها عند اللّه .

قال : يا ابن أخى ، قد علمت إنك لصادق ، ولكنى أكره أن يقال : خرع عند الموت «1» ،

ولولا أن تكون عليك وعلى بنى أبيك غضاضة»

ومسبة بعدي ، لقلتها ، ولأقررت بها عينك عند الفراق ، لما أرى من شدّة وجدك

ونصيحتك ، ولكنى سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

[سورة القصص (28) : آية 57]

وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57)

قالت قريش «3» ، وقيل : إن القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف : نحن نعلم

أنك على الحق ، ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك - وإنما نحن أكلة رأس ، أى

: قليلون - أن يتخطفونا من أرضنا ، فألقمهم اللّه الحجر . بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه

بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته ، وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناحرون

، وهم آمنون في حرمهم لا يخافون ، وبحرمة البيت هم قارّون بواد غير ذى زرع ، والثمرات

والأرزاق تجبى إليهم من كل

(1) . قوله «أكره أن يقال خرع عند الموت» في الصحاح: خرع الرجل - بالكسر - : ضعف، فهو خرع. (ع)

(2) . قوله «غضاضة» أي: مذلة ومنقصة. (ع)

(3) . لم أجده، وقصة وفاة أبي طالب في الصحيحين عن سعيد بن المسيب عن ابنه بغير هذا السياق أو أخصر منه.

(144/590)

أوب، فإذا خولهم اللّه ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخوّف والتخطف، ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام. وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة، وإلى الحرم مجاز يُجْبى إِلَيْهِ تجلب وتجمع. قرئ:

بالياء والتاء. وقرئ: تجنى، بالنون، من الجنى. وتعديته بإلى كقوله: يجنى إلىّ فيه، ويجنى إلى الخافة «1». وثمرات: بضمتين وبضمة وسكون. ومعنى الكلية: الكثرة كقوله وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ متعلق بقوله مِنْ لَدُنَّا أي قليل منهم يقرون بأنّ ذلك رزق من عند اللّه، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ولا يفطنون له، ولو علموا

أنه من عند اللّه لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به وخلعوا أنداده .

فإن قلت : بم انتصب رزقا ؟ قلت : إن جعلته مصدرا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله ، لأنّ معنى يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ ويرزق ثمرات كل شيء : واحد ، وأن يكون مفعولا له . وإن جعلته بمعنى : مرزوق ، كان حالا من الثمرات لتخصصها بالإضافة ، كما تنتصب عن النكرة المتخصصة بالصفة .

[سورة القصص (28) : آية 58]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (58)

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام اللّه عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش ، فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر ، «2» فدمرّهم اللّه وخرّب ديارهم . وانتصبت مَعِيشَتَها إمّا بحذف الجار وإيصال الفعل ، كقوله تعالى وَاخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ وإمّا على الظرف بنفسها ، كقولك : زيد ظنى مقيم «3» . أو بتقدير حذف الزمان المضاف ، أصله : بطرت أيام معيشتها ، كخفوق النجم ، ومقدم الحاج : وإمّا بتضمين بَطِرَتْ معنى :

كفرت وغمطت . وقيل : البطر سوء احتمال الغنى : وهو أن لا يحفظ حق اللّه فيه إِلَّا قَلِيلًا

من السكنى . قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : لم يسكنها إلا المسافر ومارّ الطريق يوما أو ساعة ويحتمل أنّ شؤم معاصى المهلكين بقي أثره في ديارهم ، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا

---

(1) . قوله «ويجنى إلى الخافة» في الصحاح «الخافة» : خريطة من أدم يشتار فيها بعسل . وفيه «يشتار» :

يجتنى . (ع)

(2) . قوله «فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر» أى بطروها وحقروها . والأشر والبطر : شدة المرح والمرح : شدة الفرح ، كذا في الصحاح . (ع)

(3) . قوله «كقولك زيد ظنى مقيم» أى : في ظنى . (ع)

قليلا وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ لتلك المساكن من ساكنيها ، أى : تركناها على حال لا يكنها أحد ، أو خرّبناها وسوّيناها بالأرض .

تتخلّف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع «1»

[سورة القصص (28) : آية 59]

وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (59)

وما كانت عادة ربك أن يهلك القرى في كل وقت حَتَّى يَبْعَثَ فِي القرية التي هي أمّها ، أى : أصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها رَسُولًا لإلزام الحجة وقطع المعذرة ، مع علمه أنهم لا يؤمنون ، أو وما كان في حكم اللّه وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى - يعنى مكة - رسولا وهو محمد صلى اللّه عليه وسلم خاتم الأنبياء . وقرئ : أمها ، بضم الهمزة وكسرها لاتباع الجرّ ، وهذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم ، حيث أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الهلاك بظلمهم «2» ، ولا يهلكهم مع كونهم ظالمين إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا يجعل علمه بأحوالهم حجة عليهم ، ونزه ذاته أن يهلكهم وهم غير ظالمين ، كما قال تعالى وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ فنصّ في قوله بِظُلْمٍ أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، وأنّ حاله في غناه وحكمته منافية للظلم ، دلّ على ذلك بحرف النفي مع لامه ، كما قال اللّه تعالى وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ .

---

(1) أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

لأبى الطيب حين دخل مصر ورأى الأهرام التي بناها الملك سورند . وقيل : سنان بن

مشلشل . وقيل : إدريس عليه السلام . والهرمان : تثنية هرم - كسبب - وأراد بهما القريبين من مصر ، ويومه : هو زمن ملكه ، ويجوز أنه يوم موته ، كما أن المصرع مكان الموت ، والاستفهام عن هذا بعد الاستفهام عن قومه لاستحضار الصورتين والفرق بين الحالتين ، ثم قال : تتخلف ، أى : تتأخر الآثار من البنيان والأشجار وغير ذلك زمنا طويلا بعد أصحابها .

ثم يلحقها الفناء فتتبع أصحابها ولو طال زمن تخلفها . ويجوز أن المعنى : حينا قليلا ، فالتنوين للتكثير أو التقليل .

(2) . قال محمود : «هذا بيان لعدله وتقدسه عن الظلم حتى أخبر بأنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا العذاب ولا يستحقوا حتى تتأكد عليهم الحجة ببعثة الرسل» قال أحمد : هذا إسلاف من الزمخشري لجواب ساقط عن سؤال وارد على القدرية لا جواب لهم عنه ، ينشأ السؤال في هذه الآية فيقال : لو كانت العقول تحكم عن اللّه تعالى بأحكام التكليف ، لقامت الحجة على الناس وإن لم يكن بعث رسل ، إذ العقل حاكم ، فلا يجدون للخلاص من هذا السؤال سبيلا .

(146/590)

[سورة القصص (28) : آية 60]

وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ (60)

وأى شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياما قلائل ، وهي مدة الحياة المتقضية وَما عِنْدَ اللَّهِ وهو ثوابه خَيْرٌ في نفسه من ذلك وَأَبْقى لأنّ بقاءه دائم سرمد وقرئ : يعقلون ، بالياء ، وهو أبلغ في الموعظة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن اللّه خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف : المؤمن ، والمنافق ، والكافر : فالمؤمن يتزوّد ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع .

[سورة القصص (28) : آية 61]

أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61)

هذه الآية تقرير وإيضاح للتي قبلها . والوعد الحسن : الثواب ، لأنه منافع دائمة على وجه التعظيم والاستحقاق ، وأى شيء أحسن منها ، ولذلك سمى اللّه الجنة بالحسنى . ولاقِيهِ كقوله تعالى . ولقاهم نضرة وسرورا ، وعكسه فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا . مِنَ الْمُحْضَرِينَ من الذين أحضروا النار . ونحوه لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ، فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ قيل : نزلت في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأبى جهل . وقيل : في على وحمزة وأبى جهل . وقيل :

في عمار ابن ياسر والوليد بن المغيرة. فإن قلت: فسر لي الفاءين وثم، وأخبرني عن مواقعها. قلت:

قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند اللّه وتفاوتهما، ثم عقبه بقوله أَفَمَنْ وَعَدْناهُ على معنى: أبعد هذا التفاوت الظاهر يسوّى بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا، فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها. وأمّا الثانية فللتسبيب لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد الذي هو الضمان في الخير. وأمّا «ثم» فلتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع، لا لتراخي وقته عن وقته.

وقرئ ثُمَّ هُوَ بسكون الهاء، كما قيل عضد في عضد، تشبيها للمنفصل بالمتصل، وسكون الهاء في:

فهو، وهو، ولهو: أحسن لأنّ الحرف الواحد لا ينطق به وحده فهو كالمتصل.

[سورة القصص (28): آية 62]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

شُرَكائِيَ مبنى على زعمهم، وفيه تهكم. فإن قلت: زعم يطلب مفعولين، كقوله:

... ولم أزعمك عن ذاك معزلا «1»

---

(1) وإن الذي قد عاش يا أم مالك يموت ولم أزعمك عن ذاك معزلا

يقول. وإن كل حي - وإن طال عمره - يموت. ولم أظنك يا أم مالك معزلا عن ذلك الحكم

أو الموت ، والمعزل :

مكان العزلة والانفراد ، أى : لم أظنك في معزل عنه ، أو ذات معزل ، أو معتزلة ، أو نفس المقول مبالغة . [. . . . .]

(147/590)

فأين هما ؟ قلت : محذوفان ، تقديره : الذين كنتم تزعمونهم شركائى . ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ، ولا يصح الاقتصار على أحدهما .

[سورة القصص (28) : آية 63]

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (63)

الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ الشياطين أو أئمة الكفر ورءوسه . ومعنى حق عليهم القول : وجب عليهم مقتضاه وثبت ، وهو قوله لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ وهؤُلاءِ مبتدأ ، والَّذِينَ أَغْوَيْنا صفته ، والراجع إلى الموصول محذوف ، وأَغْوَيْناهُمْ الخبر .

والكاف صفة مصدر محذوف ، تقديره : أغويناهم ، فغووا غيا مثل ما غوينا ، يعنون : أنا لم نغو إلا باختيارنا ، لا أن فوقنا مغوين أغرونا بقسر منهم وإلجاء . أو دعونا إلى الغىّ وسوّلوه

لنا ، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم ، لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلا لا قسرا وإلجاء ، فلا فرق إذا بين غينا وغيهم . وإن كان تسويلنا داعيا لهم إلى الكفر ، فقد كان في مقابلته دعاء اللّه لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل ، وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر وداعيا إلى الإيمان . وهذا معنى ما حكاه اللّه عن الشيطان إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ واللّه تعالى قدّم هذا المعنى أوّل شيء ، حيث قال لإبليس إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ . تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ منهم ومما اختاروه من الكفر بأنفسهم ، هوى منهم للباطل ومقتا للحق ، لا بقوّة منا على استكراههم ولا سلطان ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ إنما كانوا يعبدون أهواءهم ويطيعون شهواتهم . وإخلاء الجملتين من العاطف ، لكونهما مقرّرتين لمعنى الجملة الأولى .

[سورة القصص (28) : الآيات 64 إلى 66]

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (66)

لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب . أو لو أنهم كانوا مهتدين

مؤمنين ، لما رأوه . أو تمنوا لو كانوا مهتدين . أو تحيروا عند رؤيته وسدروا «1» فلا يهتدون طريقا . حكى أوّلا ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله الشياطين أو أئمتهم عند توبيخهم لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة ، اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم وزينوا لهم عبادتها ، ثم ما يشبه الشماتة بهم من استغاثتهم آلهتهم وخذلانهم لهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكتون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ فصارت الأنباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدى إليهم فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس في المشكلات ، لأنهم يتساوون جميعا في عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب . وقرئ :

فعميت ، والمراد بالنبإ : الخبر عما أجاب به المرسل إليه رسوله ، وإذا كانت الأنبياء لهول ذلك اليوم يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ، ويفوّضون الأمر إلى علم اللّه ، وذلك قوله تعالى يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ ؟ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ فما ظنك بالضلال من أممهم .

[سورة القصص (28) : آية 67]

فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

فَأَمَّا مَنْ تابَ من المشركين من الشرك ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فَعَسى أَنْ يفلح عند اللّه ، و«عسى» من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد : ترجى التائب وطمعه ، كأنه قال : فليطمع أن يفلح .

[سورة القصص (28) : آية 68]

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68)

الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير : تستعمل بمعنى المصدر هو التخير ، وبمعنى المتخير كقولهم : محمد خيرة اللّه من خلقه ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ بيان لقوله وَيَخْتارُ لأنّ معناه : ويختار ما يشاء ، ولهذا لم يدخل العاطف . والمعنى : أنّ الخيرة للّه تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه . قيل : السبب فيه قول الوليد بن المغيرة :

لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ يعنى : لا يبعث اللّه الرسل باختيار المرسل إليهم . وقيل : معناه ويختار الذي لهم فيه الخيرة ، أى : يختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح ، وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، من قولهم في الأمرين : ليس فيهما خيرة لمختار . فإن قلت : فأين الراجع من الصلة إلى الموصول إذا جعلت ما موصولة ؟ قلت : أصل الكلام : ما كان لهم فيه

(1) . قوله «وسدروا» أى تحيروا . أفاده الصحاح. (ع)

الخيرة ، فحذف «فيه» كما حذف «منه» في قوله إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ لأنه مفهوم سُبْحانَ اللَّهِ أى اللّه بريء من إشراكهم وما يحملهم عليه من الجرأة على اللّه واختيارهم عليه ما لا يختار .

[سورة القصص (28) : الآيات 69 إلى 70]

وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ من عداوة رسول اللّه وحسده وَما يُعْلِنُونَ من مطاعنهم فيه .

وقولهم : هلا اختير عليه غيره في النبوّة وَهُوَ اللَّهُ وهو المستأثر بالإلهية المختص بها ، ولا إِلهَ إِلَّا هُوَ تقرير لذلك ، كقولك : الكعبة القبلة ، لا قبلة إلا هي . فإن قلت : الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة ؟ قلت : هو قولهم الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ والتحميد هناك على وجه اللذة لا الكلفة . وفي الحديث : يلهمون التسبيح والتقديس «1» وَلَهُ الْحُكْمُ القضاء بين عباده .

[سورة القصص (28) : الآيات 71 إلى 73]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)

أَرَأَيْتُمْ وقرئ أريتم : بحذف الهمزة ، وليس بحذف قياسي . ومعناه : أخبرونى من يقدر على هذا ؟ والسرمد : الدائم المتصل ، من السرد وهو المتابعة . ومنه قولهم في الأشهر الحرم : ثلاثة سرد ، وواحد فرد ، والميم مزيدة . ووزنه فعمل . ونظيره . دلامص ، من الدلاص «2» . فإن قلت :

هلا قيل : بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل : بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ قلت ذكر الضياء وهو ضوء

---

(1) . أخرجه مسلم من حديث جابر في أثناء حديث في صفة أهل الجنة : وفيه «يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس» وفي رواية له «التسبيح والتكبير» .

(2) . قوله «و نظيره دلامص من الدلاص» في الصحاح ، الدلاص : اللين البراق .

والدلامص : البراق . يقال :

دلصت الدرع - بالفتح . (ع)

الشمس : لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ، ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة ، ومن ثمة قرن بالضياء أَفَلا تَسْمَعُونَ لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل أَفَلا تُبْصِرُونَ لأنّ غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره . وأنت من السكون ونحوه وَمِنْ رَحْمَتِهِ زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة : لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل اللّه في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم .

[سورة القصص (28) : آية 74]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74)

وقد سلكت بهذه الآية طريقة اللف في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء : إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب اللّه من الإشراك به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده . اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك ، فأدخلنا في الناجين من وعيدك .

[سورة القصص (28) : آية 75]

وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا

يَفْتَرُونَ (75)

وَنَزَعْنا وأخرجنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً وهو نبيهم : لأن أنبياء الأمم شهداء عليهم ، يشهدون بما كانوا عليه فَقُلْنا للأمة هاتُوا بُرْهانَكُمْ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول فَعَلِمُوا حينئذ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ولرسوله ، لا لهم ولشياطينهم وَضَلَّ عَنْهُمْ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانُوا يَفْتَرُونَ من الكذب والباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 3 صـ 429.421 ﴾

(151/590)

وقال ابن جزى :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول ﴾

الضمير لكفار قريش ، وقيل : لليهود والأول أظهر ؛ لأن الكلام من أوله معهم ، والقول هنا القرآن ، و ﴿ وَصَّلْنَا لَهُمُ ﴾ : أبلغناه لهم ، أو جعلناه موصلاً بعضه ببعض .

﴿ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ يعني من أسلم من اليهود ، وقيل : النجاشي وقومه ، وقيل : نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهم عشرون رجلاً فآمنوا به ، والضمير في قبله القرآن ، وقولهم إنه الحق : تعليل لإيمانهم ،

وقولهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ : بيان لأن إسلامهم قديم ، لأنهم وجدوا ذكر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم قبل أن يبعث .

﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب ثم آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأعتقها وتزوّجها " ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ يعني صبرهم على إذاية قومهم لهم لما أسلما أو غير ذلك من أنواع الصبر ﴿ وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون ، ويحتمل أن يريد بالسيئة ما يقال لهم من الكلام القبيح ، وبالحسنة ما يجاوبون به من الكلام الحسن ، أو يريد سيئات أعمالهم وحسناتهم كقوله : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ﴾ [هود : 114] .

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو ﴾ يعني ساقط الكلام ﴿ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ هذا على وجه التبري والبعد من القائلين للغو ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ معناه هنا ، المتاركة والمباعدة لا التحية ، أو كأنه سلام الانصراف والبعد ﴿ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ﴾ أي لا نطلبهم للجدال والمراجعة في الكلام .

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ " نزلت في أبي طالب إذ دعاه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول عند موته : لا إله إلا الله فقال : لولا أن يعايرني بها قريش لأقررت بها عينك ومات على الكفر " ، ولفظ الآية مع ذلك على عمومه ﴿ ولكن اللهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ لفظ عام ، وقيل : أراد به العباس بن عبد المطلب .

﴿ وقالوا إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ القائلون لذلك قريش ، وروي أن الذي قالها منهم : الحارث بن عامر بن نوفل ، والهدى هو الإسلام ، ومعناه الهدى على زعمك ، وقيل : إنهم قالوا : قد علمنا أن الذي تقول حق ، ولكن إن اتبعناك تخطفتنا العرب : أي أهلكونا بالقتال لمخالفة دينهم ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً ﴾ هذا ردّ عليهم فما اعتذروا به من تخطف الناس لهم ، والمعنى أن الحرم لا تتعرض له العرب بقتال ، ولا يمكن الله أحداً من إهلاك أهله ، فقد كانت العرب يغير بعضهم على بعض ، وأهل الحرم آمنون من ذلك ﴿ يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي تجلب إليه الأرزاق مع أنه واد غير ذي زرع .

﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ معنى بطرت طغت وسفهت ، ومعيشتها : نصب على التفسير مثل : سفه نفسه ، أو لعى إسقاط حرف الجرّ تقديره : بطرت في معيشتها أو يتضمن معنى بطرت : كفرت ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ يعني : قليلاً من السكنى ، أو قليلاً من الساكنين : أي لم يسكنها بعد إهلاكها إلا مارّاً على الطريق ساعة .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً ﴾ أم القرى مكة لأنها أول ما خلق الله في الأرض ، ولأن فيها بيت الله ، والمعنى أن الله أقام الحجة على أهل القرى ؛ بأن بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أم القرى ، فإن كفروا أهلكهم بظلمهم بعد البيان لهم ، وإقامة الحجة عليهم .

(153/590)

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ الآية : تحقير للدنيا وتزهيد فيها وترغيب في الآخرة ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ ﴾ الآية : إيضاح لما قبلها من البون بين الدنيا والآخرة ، والمراد بمن وعدناه للمؤمنين ، وبمن متعناه الكافرين ، وقيل : سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم وأبو جهل ، وقيل حمزة وأبو جهل ، والعموم أحسن لفظاً ، ومعنى من المحضرين أي من المحضرين في العذاب .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ العامل في الظرف مضمر ، وفاعل ينادي : الله تعالى ، ويحتمل أن يكون نداؤه بواسطة أو بغير واسطة ، والمفعول به المشركون ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ﴾ توبيخ للمشركين ونسبهم إلى نفسه على زعمهم ، ولذلك قال : ﴿ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ، فحذف المفعول وتقديره : تزعمون أنهم شركاء لي أو تزعمون أنهم شفعاء لكم .

(154/590)

﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول رَبَّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ ﴾ معنى ﴿ حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ : وجب عليهم العذاب ، والمراد بذلك رؤساء المشركين وكبراؤهم ، والإشارة بقولهم : ﴿ هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ ﴾ : إلى أتباعهم من الضعفاء ، فإن قيل : كيف الجمع بين قولهم ﴿ أَغْوَيْنَآ ﴾ وبين قولهم : ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ، فإنهم اعترفوا بإغوائهم ، وتبرأوا مع ذلك منهم ؟ فالجواب إن إغوائهم لهم هو أمرهم لهم بالشرك ، والمعنى أنا حملناهم على الشرك كما حملنا أنفسنا عليه ، ولكن لم يكونوا يعبدوننا إنما كانوا يعبدون غيرنا ، من الأصنام وغيرها فتبرأنا إليك من عبادتهم لنا ، فتحصل من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم أغووا الضعفاء ، وتبرأوا من أن يكونوا هم آلهتهم فلا تناقض في الكلام ، وقد قيل في معنى الآية غير هذا مما هو تكلف بعيد ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ فيه أربعة أوجه : الأول أن المعنى لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لم يعبدوا الأصنام ، والثاني لو أنهم كانوا يهتدون لم يعذبوا والثالث لو أنهم كانوا يهتدون في الآخرة لحيلة يدفعون بها العذاب لفعلوا ، فلو على هذه الأقوال حرف امتناع وجوابها محذوف ، والرابع أن يكون للتمني : أي تمنوا لو كانوا مهتدين .

﴿ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ﴾ أي هل صدقتم المرسلين أو كذبتموهم ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء يَوْمَئِذٍ ﴾ عميت عبارة عن حيرتهم ، و ﴿ الأنبآء ﴾ الأخبار أي أظلمت عليهم الأمور ، فلم

يعرفوا ما يقولون ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن الأنباء لأنهم قد تساووا في الحيرة والعجز عن الجواب .

(155/590)

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ قيل : سببها استغراب قريش لاختصاص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، فالمعنى أن الله يخلق ما يشاء ، ويختار لرسالته من يشاء من عباده ، ولفظها أعم من ذلك ، والأحسن حمله على عمومه : أي يختار ما يشاء من الأمور على الاطلاق ، ويفعل ما يريد ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ ما نافية ، والمعنى ما كان للعباد اختيار إنما الاختيار ، والإرادة لله وحده . فالوقف على قوله ويختار ، وقيل : إن ما مفعولة بيختار ، ومعنى الخيرة على هذا الخير والمصلحة ، وهذا يجري على قول المعتزلة ، وذلك ضعيف ؛ لرفع الخيرة على أنها اسم كان ، ولو كانت ما مفعولة : لكان اسم كان مضمراً يعود على ما ؛ وكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان ، وقد اعتذر عن هذا من قال : إن ما مفعولة بأن يقال : تقدير الكلام : يختار ما كان لهم الخيرة فيه ، ثم حذف الجار والمجرور وهذا ضعيف ، وقال ابن عطية : يتجه أن تكون ما مفعولة إذا قدرنا كان تامة ، ويوقف على قوله ما كان : أي يختار كل كائن ، ويكون " لهم الخيرة " جملة مستأنفة ، وهذا

بعيد جداً .

﴿ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ أي ما تخفيه قلوبهم وعبر عن القلب بالصدر ، لأنه يحتوي عليه .

﴿ لَهُ الحمد فِي الأولى والآخرة ﴾ قيل إن الحمد في الآخرة قولهم : ﴿ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [الزمر : 74] أو قولهم : ﴿ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 34] وفي ذكر الأولى مع الآخرة مطابقة ﴿ سَرْمَداً ﴾ أي دائماً ، والمراد بالآيات إثبات الوحدانية وإبطال الشرك ، فإن قيل : كيف قال ﴿ يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ ﴾ ، وهلا قال : يأتيكم بنهار في مقابلة قوله ﴿ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ ﴾ فالجواب أنه ذكر الضياء لجملة ما فيه من المنافع والعبر ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار ، ففي الآية لف ونشر .

(156/590)

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ أي أخرجنا من كل أمة شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهو نبيهم ، لأن كل نبي يشهد على أمته ﴿ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي هاتوا حجتكم

على ما كنتم عليه من الكفر ، وذلك إعذار لهم وتوبيخ وتعجيز . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 3 صـ 108 . 111 ﴾

(157/590)

وقال الخازن :

قوله ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾

قال ابن عباس : بينا وقيل أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً ، وقيل بينا لكفار مكة بما في القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم ، وقيل وصلنا لهم خبر الدنيا بخبر الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتعظون ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبلة ﴾ أي من قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) وقيل من قبل القرآن ﴿ هم به يؤمنون ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل بل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبيّ (صلى الله عليه وسلم) وهم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب فلما رأوا ما بالمسلمين من الحاجة والخاصة قالوا : يا رسول الله إن لنا أموالاً فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فأذن لهم فانصرفوا فأتوا فواسوا بها المسلمين .

فنزلت هذه الآيات إلى قوله ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وقال ابن عباس : نزلت في ثمانين من أهل الكتاب وأربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ثم وصفهم الله تعالى فقال ﴿ وإذا يتلى عليهم ﴾ يعني القرآن ﴿ قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ﴾ وذلك أن ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ أي من قبل القرآن مخلصين لله التوحيد ومؤمنين بمحمد (صلى الله عليه وسلم) إنه نبي حق .

(158/590)

﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين ﴾ يعني بإيمانهم بالكتاب الأول والكتاب الآخر ﴿ بما صبروا ﴾ أي على دينهم وعلى أذى المشركين (ق) عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد (صلى الله عليه وسلم) والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها ثم تزوجها فله أجران " ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ قال ابن عباس : يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله وقيل يدفعون ما سمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو ﴿ ومما

رزقناهم ينفقون ﴾ أي في الطاعة ﴿ وإذ سمعوا اللغو ﴾ أي القول القبيح ﴿ أعرضوا عنه ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل مكة ويقولون تباً لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم ﴿ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي لنا ديننا ولكم دينكم ﴿ سلام عليكم ﴾ ليس المراد منه التحية ولكن سلام المتاركة والمعنى سلمتم منا لا نعارضكم بالشتم ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ يعني لا نحب دينكم الذي أنتم عليه .

وقيل : لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال ثم نسخ ذلك بالقتال .

قوله تعالى ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ أي هدايته وقيل أحببته لقرابته ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وذلك أن الله تعالى يقذف في القلب نور الهداية فينشرح الصدر للإيمان ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي بمن قدر له الهدى (م) عن أبي هريرة قال " إنك لا تهدي من أحببت ، نزلت في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث راود عمه أبا طالب على الإسلام وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لأبي طالب عند الموت : " يا عم قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك " ثم أنشد :

ولقد علمت بأن دين محمد . . .

من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة . . .

لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

ولكن على ملة الأشياخ عبد المطلب وعبد مناف ثم مات فأنزل الله هذه الآية ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ يعني نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف وذلك أنه قال للنبي (صلى الله عليه وسلم) : إنا لنعلم أن الذي تقول حق ولكن إن اتبعناك على دينك خفنا أن تخرجنا العرب من أرض مكة قال الله تعالى ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمناً ﴾ وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضاً وأهل مكة آمنون حيث كانوا لحرمة الحرم .

ومن المعروف أنه كان تأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ﴿ يجبى إليه ﴾ يعني يجلب ويجمع إليه ويحمل إلى الحرم من الشام ومصر والعراق واليمن ﴿ ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني أن أكثر أهل مكة لا يعلمون ذلك .

قوله ﴿ وكم أهلكنا من قرية ﴾ يعني من أهل قرية ﴿ بطرت معيشتها ﴾ أي أشرت

وطغت وقيل عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام ﴿ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ قال ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافرون سكوناً قليلاً وقيل لم يعمروا منها إلا أقلها وأكثرها خراب ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ يعني لم يخلفهم فيها أحد بعد هلاكهم وصار أمرها إلى الله تعالى لأنه الباقي بعد فناء الخلق ﴿ وما كان ربك مهلك القرى ﴾ يعني الكافرة أهلها ﴿ حتى يبعث في أمها رسولاً ﴾ ينذرهم وخص الأم ببعثة الرسول لأنه يبعث إلى الأشراف وهم سكان المدن وقيل حتى يعبث في أمر القرى وهي مكة رسولاً يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) لأنه خاتم الأنبياء ﴿ يتلو عليهم آياتنا ﴾ أي أنه يؤدي إليهم ويبلغهم وقيل يخبرهم أن العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ أي مشركون .

(160/590)

قوله ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ أي تتمتعون بها أيام حياتكم ثم هي إلى فناء وانقضاء ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ لأن منافع الآخرة خالصة عن الشوائب وهي دائماً غير منقطعة ومنافع الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر العظيم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أن الباقي خير من الفاني وقيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل .

ولهذا قال الشافعي : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله لأن أعقل الناس من أعطي القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بطاعة الله تعالى ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً ﴾ يعني الجنة ﴿ فهو لاقيه ﴾ أي مصيبه وصائر إليه ﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ أي وتزول عنه عن قريب ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ أي في النار ، قيل هذا من المؤمن والكافر وقيل نزلت في النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي جهل ، وقيل في علي وحمزة وأبي جهل وقيل في عمار بن ياسر والوليد بن المغيرة .

(161/590)

قوله : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ أي في الدنيا أنهم من شركائي ﴿ قال الذين حق عليم القول ﴾ أي وجب عليهم العذاب وهم رؤوس الضلالة ﴿ ربنا هؤلاء الذي أغوينا ﴾ أي دعوناهم إلى الغي وهم الأتباع ﴿ أغويناهم كما غوينا ﴾ أي أضللناهم كما ضللنا ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ معناه تبرأ بعضهم من بعض وصاروا أعداء ﴿ وقيل ﴾ يعني الكفار ﴿ ادعوا شركاءكم ﴾ أي الأصنام لتخلصكم من العذاب ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي لم يجيبوهم ﴿ ورأوا العذاب

لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ معناه لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما رأوا العذاب في الآخرة ﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي يسأل الكفار ﴿ فيقول ما أجبتم المرسلين ﴾ أي ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين ﴿ فعميت عليهم ﴾ أي خفيت واشتبهت عليهم ﴿ الأنباء ﴾ يعني الأخبار والأعذار والحجج ﴿ يومئذ ﴾ فلم يكن لهم عذر ولا حجة ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ أي لا يجيبون ولا يحتجون وقيل يسكتون فلا يسأل بعضهم بعضاً ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ أي من السعداء الناجين وعسى من الله واجب .

قوله تعالى ﴿ وربكم يخلق ما يشاء ويختار ﴾ نزلت هذه الآية جواباً للمشركين حين قالوا ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ يعني الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي أخبر الله تعالى أنه لا يبعث الرسل باختيارهم لأنه المالك المطلق وله أن يخص ما يشاء بما يشاء لا اعتراض البتة ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ أي ليس لهم الاختيار ، أو ليس لهم أن يختاروا على الله .

(162/590)

وقيل معناه ويختار الله ما كان هو الأصلح والخير لهم فيه ، ثم نزه الله تعالى نفسه فقال ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن ﴾ أي تخفي ﴿ صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يظهرون ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ أي يحمده أولياؤه في الدنيا ويحمدونه في الآخرة في الجنة ﴿ وله الحكم ﴾ أي فصل القضاء بين الخلق وقال ابن عباس يحكم لأهل طاعته بالمغفرة ولأهل المعصية بالشقاوة ﴿ وإليه ترجعون ﴾ قوله ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة ﴿ أرأيتم ﴾ يعني أخبروني ﴿ إن جعل الله عليكم الليل سرمداً ﴾ أي دائماً ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ لا نهار فيه ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ أي بنهار تطلبون فيه المعيشة ﴿ أفلا تسمعون ﴾ أي سماع فهم وقبول ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ﴾ أي لا ليل فيه ﴿ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ أي ما أنتم عليه من الخطأ قيل إن من نعمة الله تعالى على الخالق أن جعل الله والنهار يتعاقبان لأن المرء في حال الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى التعب ليحصل ما يحتاج إليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولأجله يحصل الاجتماع فتمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالراحة والسكون بالليل فلا بد منهما فأما من الجنة فلا تعب ولا نصب فلا حاجة بهم إلى الليل ولذلك يدوم لهم الضياء أبداً فبين الله تعالى أنه القادر على ذلك ليس غيره فقال ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ﴾ أي يتعاقبان بالظلمة والضياء ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي في الليل ﴿ ولتبتغوا من

فضله ﴿ أي بالنهار ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي نعم الله فيهما ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ كرر ذلك النداء للمشركين لزيادة التقريع والتوبيخ ﴿ ونزعنا ﴾ يعني أخرجنا وقيل ميزنا ﴿ من كل أمة شهيداً ﴾ يعني رسولهم يشهد عليهم بأنه بلغهم رسالة ربهم ونصح لهم ﴿ فقلنا ﴾ يعني للأمم المكذبة لرسلهم ﴾

(163/590)

هاتوا برهانكم ﴾ أي حجتكم بأن معي شريكاً ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ أي التوحيد لله ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي يختلقون في الدنيا من الكذب على الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 176 . 181 ﴾

(164/590)

وقال النسفى :

﴿ ولقد وصّلنا لهم القول لعلّهم يتذكّرون ﴾

التوصيل وتكريره يعني أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً

ومواعظ ليتذكروا فيفلحوا ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ ﴾ من قبل القرآن وخبر ﴿ الذين ﴾ ﴿ هُم بِهِ ﴾ بالقرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿ وَإِذَا يتلى ﴾ القرآن ﴿ عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ ﴾ من قبل نزول القرآن ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ كائنين على دين الإسلام ، مؤمنين بمحمد عليه السلام ، وقوله ﴿ إنه ﴾ تعليل للإيمان به لأن كونه حقاً من الله حقيق بأن يؤمن به ، وقوله ﴿ إنا ﴾ بيان لقوله ﴿ آمنا ﴾ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد وبعيده فأخبروا بأن إيمانهم به متقادم ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن ، أو بصبرهم على الإيمان بالقرآن قبل نزوله وبعد نزوله ، أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب ﴿ وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة ﴾ يدفعون بالطاعة المعصية أو بالحلم الأذى ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ يزكون ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو ﴾ الباطل أو الشتم من المشركين ﴿ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ ﴾ للاغين ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم سلام عَلَيْكُمْ ﴾ أمان منا لكم بأن نقابل لغوكم بمثله ﴿ لاَ نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ لا نريد مخالطتهم وصحبتهم .

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم ﴿ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ يخلق فعل الاهتداء فيمن يشاء ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ بمن يختار الهداية ويقبلها ويتعظ بالدلائل والآيات .

قال الزجاج : أجمع المفسرون على أنها نزلت في أبي طالب ، وذلك أنه قال عند موته : يا معشر بني هاشم صدقوا محمداً تفلحوا .

(165/590)

فقال عليه السلام : " "يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك" " قال : فما تريد ابن أخي ؟ قال : " "أريد منك أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله" " قال : يا ابن أخي أنا قد علمت أنك صادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت .

وإن كانت الصيغة عامة ، والآية حجة على المعتزلة لأنهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدل أن وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء وإعطاء التوفيق والقدرة

﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءامِناً ﴾ قالت قريش : نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب بذلك أن يتخطفونا من أرضنا ، فألقمهم الله الحجر بأنه مكن لهم في الحرم الذي أمنه بحرمة البيت وأمن قطانه بحرمته ، والثمرات تجبى إليه من كل أوب وهم كفرة ، فأنّى يستقيم أن يعرضهم للتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام ؟ وإسناد الأمن إلى

أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز ﴿ يجبى إِلَيْهِ ﴾ وبالتاء : مدني ويعقوب وسهل أي تجلب وتجمع ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ معنى الكلية الكثرة كقوله ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : 23] ﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ هو مصدر لأن معنى ﴿ يجبى إليه ﴾ يرزق أو مفعول له أو حال من الثمرات إن كان بمعنى مرزوق لتخصصها بالإضافة كما تنصب عن النكرة المتخصصة بالصفة ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ متعلق ب ﴿ من لدنا ﴾ أي قليل منهم يقرون بأن ذلك رزق من عند الله وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك ، ولو علموا أنه من عند الله لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ولما خافوا التخطف إذا آمنوا به .

(166/590)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم بإنعام الله عليهم فلم يشكروا النعمة وقابلوها بالبطر فأهلكوا .

و﴿ كم ﴾ نصب ب ﴿ أهلكنا ﴾ و ﴿ معيشتها ﴾ بحذف الجار وإيصال الفعل أي في معيشتها ، والبطر سوء احتمال الغني وهو أن لا يحفظ حق الله فيه ﴿ فَتِلْكَ مساكنهم ﴾ منازلهم باقية الآثار يشاهدونها في الأسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم ﴿ لَمْ تُسْكَن ﴾ حال والعامل فيها الإشارة ﴿ مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ من السكنى أي لم يسكنها إلا

المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ لتلك المساكن من ساكنيها أي لا يملك التصرف فيها غيرنا

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾ في كل وقت ﴿ حتى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا ﴾ وبكسر الهمزة : حمزة وعلي أي في القرية التي هي أمها أي أصلها ومعظمها ﴿ رَسُولاً ﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة أو وما كان في حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى في الأرض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة لأن الأرض دحيت من تحتها رسولاً ، يعني محمداً عليه السلام ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ أي القرآن ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ أي وما أهلكناهم للانتقام إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم وهو إصرارهم على كفرهم وعنادهم ومكابرتهم بعد الاعذار إليهم ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن شَىْءٍ فمتاع الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ﴾ وأي شيء أصبتموه من أسباب الدنيا فما هو إلا تمتع وزينة أياماً قلائل وهي مدة الحياة الفانية ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ وهو ثوابه ﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسه من ذلك ﴿ وأبقى ﴾ لأنه دائم ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ أن الباقي خير من الفاني .

وخيّر أبو عمرو بين الياء والتاء والباقون بالتاء لا غير .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما .

إن الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف : المؤمن والمنافق والكافر .

فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع .

ثم قرر هذه الآية بقوله :

﴿ أَفَمَن وعدناه وَعْداً حَسَناً ﴾ أي الجنة فلا شيء أحسن منها لأنها دائمة ولذا سميت الجنة بالحسنى ﴿ فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ أي رائيه ومدركه ومصيبه ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ متاع الحياة الدنيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ من الذين أحضروا النار ونحوه فكذبوه فإنهم لمحضرون .

نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي جهل لعنه الله ، أو في علي وحمزة وأبي جهل ، أو في المؤمن والكافر ، ومعنى الفاء الأولى أنه لما ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقبه بقوله ﴿ أفمن وعدناه ﴾ أي أبعد هذا التفاوت الجلي يسوي بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة ، والفاء الثانية للتسبيب لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد .

و"ثم" لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع ثم هو عليّ كما قيل عضدّ في عضد شبه المنفصل بالمتصل

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ ينادي الله الكفار نداء توبيخ وهو عطف على ﴿ يَوْمُ القيامة ﴾ أو منصوب ب "ذكر" ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ﴾ بناء على زعمهم ﴿ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

ومفعولا ﴿ تزعمون ﴾ محذوفان تقديره : كنتم تزعمونهم شركائي ، ويجوز حذف المفعولين في باب ظننت ولا يجوز الاقتصار على أحدهما ﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ أي الشياطين أو أئمة الكفر .

(168/590)

ومعنى حق عليهم القول وجب عليه مقتضاه وثبت وهو قوله : ﴿ لأَمْلاَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : 13] ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء ﴾ مبتدأ ﴿ الذين أَغْوَيْنَا ﴾ أي دعوناهم إلى الشرك وسولنا لهم الغي صفة والراجع إلى الموصول محذوف والخبر ﴿ أغويناهم ﴾ والكاف في ﴿ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غياً مثل ما غوينا يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأن إغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم ، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث إليهم من الرسل وأنزل عليهم من الكتب وهو كقوله ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الامر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق ﴾ إلى قوله ﴿ وَلُومُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم : 22] ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ منهم ومما اختاروه من الكفر ﴿ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ بل يعبدون أهواءهم

ويطيعون شهواتهم ، وإخلاء الجملتين من العاطف لكونهما مقررتين لمعنى الجملة الأولى .

﴿ وَقِيلَ ﴾ للمشركين ﴿ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أي الأصنام لتخلصكم من العذاب ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ فلم يجيبوهم ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ وجواب "لو" محذوف أي لما رأوا العذاب ﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ الذين أرسلوا إليكم .

(169/590)

حكى أولاً ما يوبخهم به من اتخاذهم له شركاء ثم ما يقوله الشياطين أو أئمة الكفر عند توبيخهم ، لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين هم الذين استغووهم ، ثم ما يشبه الشماتة بهم لاستغاثتهم آلهتهم وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبكون به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنباء يَوْمَئِذٍ ﴾ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار .

وقيل : خفي عليهم الجواب فلم يدروا بماذا يجيبون إذ لم يكن عندهم جواب ﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن العذر والحجة رجاء أن يكون عنده عذر وحجة لأنهم يتساوون في العجز عن الجواب ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشرك ﴿ وءامن ﴾ بربه

وبما جاء من عنده ﴿ وَعَمِلَ صالحا فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ﴾ أي فعسى أن يفلح عند الله .

و"عسى" من الكرام تحقيق ، وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام وترغيب للكافرين على الإيمان .

ونزل جواباً لقول الوليد بن المغيرة : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] يعني نفسه أو أبا مسعود .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء ﴾ وفيه دلالة خلق الأفعال ، ويوقف على ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ أي وربك يخلق ما يشاء وربك يختار ما يشاء ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ أي ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً ما وله الخيرة عليهم .

ولم يدخل العاطف في ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ لأنه بيان لقوله ﴿ ويختار ﴾ إذ المعنى أن الخيرة لله وهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه .

ومن وصل على معنى ويختار الذي لهم فيه الخيرة فقد أبعد بل "ما" لنفي اختيار الخلق تقريراً لاختيار الحق ، ومن قال : ومعناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل إلى الاعتزال .

والخيرة من التخير يستعمل بمعنى المصدر وهو التخير وبمعنى المتخير كقولهم "محمد خيرة الله من خلقه" ﴿ سبحان الله وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي الله بريء من إشراكهم وهو منزه عن أن يكون لأحد عليه اختيار

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ﴾ تضمر ﴿ صُدُورُهُمْ ﴾ من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسده ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير عليه غيره في النبوة ﴿ وَهُوَ الله ﴾ وهو المستأثر بالإلهية المختص بها ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ تقرير لذلك كقولك "القبلة الكعبة لا قبلة إلا هي" .

﴿ لَهُ الحمد فِى الأولى ﴾ الدنيا ﴿ والآخرة ﴾ هو قولهم ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر : 34] ﴿ الحمد للَّهِ الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ [الزمر : 74] ﴿ وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الزمر : 75] والتحميد ثمة على وجه اللذة لا الكلفة ﴿ وَلَهُ الحكم ﴾ القضاء بين عباده ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالبعث والنشور .

وبفتح التاء وكسر الجيم : يعقوب .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أريتم محذوف الهمزة : علي ﴿ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً ﴾ هو مفعول ثان ل ﴿ جعل ﴾ أي دائماً من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحرم

"ثلاثة سرد وواحد فرد" والميم مزيدة ووزنه فعمل ﴿ إِلَى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ والمعنى أخبروني من يقدر على هذا

(171/590)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ولم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قال ﴿ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ بل ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثم قرن بالضياء ﴿ أفلا تسمعون ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل ﴿ أفلا تبصرون ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي لتسكنوا بالليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار فيكون من باب اللف والنشر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على نعمه .

وقال الزجاج : يجوز أن يكون معناه لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من فضل الله فيهما ، ويكون المعنى جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله فيه ﴿ وَيَوْمَ يناديهم

فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ كرر التوبيخ لاتخاذ الشركاء ليؤذن أن لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ وأخرجنا ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ يعني نبيهم لأن الأنبياء للأمم شهداء عليهم يشهدون بما كانوا عليه ﴿ فَقُلْنَا ﴾ للأمم ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسل ﴿ فَعَلِمُواْ ﴾ حينئذ ﴿ أَنَّ الحق لِلَّهِ ﴾ التوحيد ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من ألوهية غير الله والشفاعة لهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 240.244 ﴾

(172/590)

وقال البيضاوى:

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول ﴾

أتبعنا بعضه بعضاً في الإنزال ليتصل التذكير، أو في النظم لتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون ويطيعون.

﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وقيل في أربعين من أهل الانجيل اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام،

والضمير في ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ للقرآن كالمستكن في :

﴿ وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ قَالُواْ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ أي بأنه كلام الله تعالى . ﴿ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَا ﴾ استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به . ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ استئناف آخر للدلالة على أن إيمانهم به ليس مما أحدثوه حينئذٍ ، وإنما هو أمر تقادم عهده لما رأوا ذكره في الكتب المتقدمة وكونهم على دين الإِسلام قبل نزول القرآن ، أو تلاوته عليهم باعتقادهم صحته في الجملة .

﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن . ﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ بصبرهم وثباتهم على الإِيمانين ، أو على الإِيمان بالقرآن قبل النزول وبعده ، أو على أذى المشركين ومن هاجرهم من أهل دينهم . ﴿ وَيَدْرَءونَ بالحسنة السيئة ﴾ ويدفعون بالطاعة المعصية لقوله صلى الله عليه وسلم " أتبع السيئة الحسنة تمحها " ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ في سبيل الخير .

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ ﴾ تكرماً . ﴿ وَقَالُواْ ﴾ للاغين . ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم سلام عَلَيْكُمْ ﴾ متاركة لهم وتوديعاً ، أو دعاء لهم بالسلامة عما هم فيه . ﴿ لا نَبْتَغِى الجاهلين ﴾ لا نطلب صحبتهم ولا نريدها .

﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ لا تقدر على أن تدخلهم في الإِسلام. ﴿ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ فيدخله في الإِسلام. ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ بالمستعدين لذلك.

والجمهور على " أنها نزلت في أبي طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، قال: يا ابن أخي قد علمت إنك لصادق ولكن أكره أن يقال خدع عند الموت "

﴿ وَقَالُواْ إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ نخرج منها. نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب وإنما نحن أكلة رأس أن يتخطفونا من أرضنا فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً ءَامِناً ﴾ أو لم نجعل مكانهم حرماً ذا أمن بحرمة البيت الذي فيه يتناحر العرب حوله وهم آمنون فيه. ﴿ يجبى إِلَيْهِ ﴾ يحمل إليه ويجمع فيه، وقرأ نافع ويعقوب في رواية بالتاء. ﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من كل أوب. ﴿ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ﴾ فإذا كان هذا حالهم وهم عبدة الأصنام فكيف نعرضهم للتخوف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة التوحيد. ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموه، وقيل إنه متعلق بقوله ﴿ مِّن لَّدُنَّا ﴾ أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم لا يعلمون إذ لو علموا لما خافوا

غيره ، وانتصاب ﴿ رِزْقاً ﴾ على المصدر من معنى ﴿ يجبى ﴾ ، أو حال من ال ﴿ ثمرات ﴾ لتخصصها بالإِضافة ، ثم بين أن الأمر بالعكس فإنهم أحقاء بأن يخافوا من بأس الله على ما هم عليه بقوله :

(174/590)

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي وكم من أهل قرية كانت حالهم كحالهم في الأمن وخفض العيش حتى أشروا فدمر الله عليهم وخرب ديارهم . ﴿ فَتِلْكَ مساكنهم ﴾ خاوية . ﴿ لَمْ تُسْكَن مّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ من السكنى إذ لا يسكنها إلا المارة يوماً أو بعض يوم ، أو لا يبقى من يسكنها من شؤم معاصيهم . ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم في ديارهم وسائر متصرفاتهم ، وانتصاب ﴿ مَعِيشَتَهَا ﴾ بنزع الخافض أو بجعلها ظرفاً بنفسها كقولك : زيد ظني مقيم ، أو بإضمار زمان مضاف إليها أو مفعولاً على تضمين بطرت معنى كفرت .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ ﴾ وما كانت عادته .

﴿ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا ﴾ في أصلها التي هي أعمالها ، لأن أهلها تكون أفطن وأنبل . ﴿ رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءاياتنا ﴾ لإلزام الحجة وقطع المعذرة . ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى

القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون ﴾ بتكذيب الرسل والعتو في الكفر .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مّن شَىْء ﴾ من أسباب الدنيا . ﴿ فمتاع الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ﴾ تتمتعون وتتزينون به مدة حياتكم المنقضية . ﴿ وَمَا عِندَ الله ﴾ وهو ثوابه . ﴿ خَيْرٌ ﴾ في نفسه من ذلك لأنه لذة خاصة وبهجة كاملة . ﴿ وأبقى ﴾ لأنه أبدى . ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ فتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة .

(175/590)

﴿ أَفَمَن وعدناه وَعْداً حَسَناً ﴾ وعداً بالجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود . ﴿ فَهُوَ لاَقِيهِ ﴾ مدركه لا محالة لامتناع الخلف في وعده ، ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية . ﴿ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ متاع الحياة الدنيا ﴾ الذي هو مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب بالتحسر على الانقطاع . ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ﴾ للحساب أو العذاب ، و﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي في الزمان أو الرتبة ، وقرأ نافع وابن عامر في رواية والكسائي ﴿ ثُمَّ هُوَ ﴾ بسكون الهاء تشبيهاً للمنفصل بالمتصل ، وهذه الآية كالنتيجة للتي قبلها ولذلك رتبت عليها بالفاء .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ عطف على يوم القيامة أو منصوب باذكر . ﴿ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ

الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي ، فحذف المفعولان لدلالة الكلام عليهما .

﴿ قَالَ الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول ﴾ بثبوت مقتضاه وحصول مؤداه وهو قوله تعالى : ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ﴾ وغيره من آيات الوعيد . ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الذين أَغْوَيْنَا ﴾ أي ﴿ هَؤُلاء الذين ﴾ أغويناهم فحذف الراجع إلى الموصول . ﴿ أغويناهم كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي ﴿ أغويناهم ﴾ فغووا غياً مثل ما غوينا ، وهو استئناف للدلالة على أنهم غووا باختيارهم وأنهم لم يفعلوا بهم إلا وسوسة وتسويلاً ، ويجوز أن يكون ﴿ الذين ﴾ صفة و ﴿ أغويناهم ﴾ الخبر لأجل ما اتصل به فإفادة زيادة على الصفة وهو إن كان فضلة لكنه صار من اللوازم . ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ منهم ومما اختاره من الكفر هوى منهم ، وهو تقرير للجملة المتقدمة ولذلك خلت عن العاطف وكذا . ﴿ مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ أي ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم . وقيل ﴿ مَا ﴾ مصدرية متصلة ب ﴿ تَبَرَّأْنَا ﴾ أي تبرأنا من عبادتهم إيانا .

(176/590)

﴿ وَقِيلَ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ من فرط الحيرة . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ لعجزهم عن الإجابة والنصرة . ﴿ وَرَأَوُاْ العذاب ﴾ لازماً بهم . ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ لوجه من الحيل يدفعون به العذاب ، أو إلى الحق لما رأوا العذاب ﴿ لَوْ ﴾ للتمني أي تمنوا أنهم كانوا مهتدين .

﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين ﴾ عطف على الأول فإنه تعالى يسأل أولاً عن إشراكهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياء .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنباء يَوْمَئِذٍ ﴾ فصارت الأنباء كالعمي عليهم لا تهتدي إليهم ، وأصله فعموا عن الأنباء لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يقبض ويرد عليه من خارج فإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره ، والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل أو ما يعمها وغيرها ، فإذا كانت الرسل يتعتعون في الجواب عن مثل ذلك من الهول ويفوضون إلى علم الله تعالى فما ظنك بالضلال من أممهم ، وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء .

﴿ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والعلم بأنه مثله في العجز .

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ ﴾ من الشرك . ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ . وجمع بين الإيمان والعمل الصالح . ﴿ فعسى أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ﴾ عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام ، أو ترج من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ لا موجب عليه ولا مانع له . ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ﴾ أي التخير كالطيرة بمعنى التطير ، وظاهرة نفي الاختيار عنهم رأساً والأمر كذلك عند التحقيق ، فإن اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها ، وقيل المراد أنه ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ولذلك خلا عن العاطف ، ويؤيده ما روي أنه نزل في قولهم ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ وقيل ﴿ مَا ﴾ موصولة مفعول ل ﴿ يختار ﴾ والراجع إليه محذوف والمعنى : ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي الخير والصلاح . ﴿ سبحان الله ﴾ تنزيه له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار . ﴿ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ عن إشراكهم أو مشاركة ما يشركونه .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ كعداوة الرسول وحقده . ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ كالطعن فيه .

﴿ وَهُوَ الله ﴾ المستحق للعبادة . ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ لا أحد يستحقها إلا هو . ﴿ لَهُ الحمد فِى الأولى والآخرة ﴾ لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا بقولهم ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ ﴿ الحمد للَّهِ

الذى صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ ابتهاجاً بفضله والتذاذاً بجمده . ﴿ وَلَهُ الحكم ﴾ القضاء النافذ في كل شيء . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالنشور .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اليل سَرْمَداً ﴾ دائماً من السرد وهو المتابعة والميم مزيدة كميم دلامص . ﴿ إلى يَوْمِ القيامة ﴾ بإسكان الشمس تحت الأرض أو تحريكها حول الأفق الغائر . ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ كان حقه هل إله فذكر ب ﴿ مِنْ ﴾ على زعمهم أن غيره آلهة . وعن ابن كثير "بضئاء" بهمزتين . ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واستبصار .

(178/590)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة ﴾ باسكانها في وسط السماء أو تحريكها على مدار فوق الأفق . ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ استراحة عن متاعب الأشغال ، ولعله لم يصف الضياء بما يقابله لأن الضوء نعمة في ذاته مقصود بنفسه ولا كذلك الليل ، ولأن منافع الضوء أكثر مما يقابله ولذلك قرن ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ و﴿ باليل ﴾ . ﴿ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ لأن استفادة العقل من السمع اكثر من استفادته من البصر .

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ في النهار بأنواع المكاسب . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ولكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها .

﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به ، أو الأول لتقرير فساد رأيهم والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند وإنما كان محض تشه وهوى .

﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ وأخرجنا . ﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا عليه . ﴿ فَقُلْنَا ﴾ للأمم . ﴿ هَاتُواْ برهانكم ﴾ على صحة ما كنتم تدينون به . ﴿ فَعَلِمُواْ ﴾ حينئذ . ﴿ أَنَّ الحق لِلَّهِ ﴾ في الألوهية لا يشاركه فيها أحد . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ وغاب عنهم غيبة الضائع . ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ من الباطل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 297 . 303 ﴾

(179/590)

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ ولقد وصلنا ﴾

قال ابن عباس : بيّنا ، وقال الفراء : أنزلنا آيات القرآن يتبع بعضها بعضاً ﴿ لهم ﴾ أي : خاصة فكان تخصيصهم بذلك منّة عظيمة يجب عليهم شكرها ﴿ القول ﴾ أي : القرآن ، قال مقاتل : بيَّنا لكفار مكة بما في القرآن من أخبار الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم وقال ابن زيد : وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي : ليكون حالهم حال من يرجى لهم أن يرجعوا إلى عقولهم فيجدوا فيما طبع فيها ما يذكرهم بالحق ، ثم كأنه قيل هل تذكر منهم أحد ؟ قيل نعم أهل الكتاب الذين هم أهله حقاً تذكروا وذلك معنى قوله تعالى:

﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله ﴾ أي : قبل القرآن أو قبل محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ هم به ﴾ أي : بما تقدّم ﴿ يؤمنون ﴾ أيضاً : نزل في جماعة أسلموا من اليهود عبد الله بن سلام وأصحابه ، وقال مقاتل هم أهل الإنجيل الذين قدموا من الحبشة وآمنوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن جبير هم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر من الحبشة على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة قالوا له يا نبيّ الله إنّ لنا أموالاً فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين فأذن لهم فانصرفوا فأتوا بأموالهم فواسوا بها المسلمين فنزل فيهم ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وعن ابن عباس : نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام ، ثم وصفهم الله تعالى بقوله تعالى:

﴿ وإذا يتلى ﴾ أي : تتجدّد تلاوة القرآن ﴿ عليهم قالوا ﴾ أي : مبادرين لذلك ﴿ آمنا به ﴾ ثم عللوا ذلك بقولهم ﴿ إنه الحق ﴾ أي : الكامل الذي ليس وراءه إلا الباطل مع كونه ﴿ من ربنا ﴾ أي : المحسن إلينا ثم عللوا مبادرتهم بقولهم ﴿ إنا كنا من قبله ﴾ أي : القرآن ﴿ مسلمين ﴾ أي : منقادين غاية الانقياد مخلصين لله بالتوحيد مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه نبيّ حق .

﴿ أولئك ﴾ أي : العالو الرتبة ﴿ يؤتون أجرهم مرّتين ﴾ أي : لإيمانهم به غيباً وشهادة أي : بالكتاب الأوّل ثم بالكتاب الثاني ﴿ بما صبروا ﴾ أي : بسبب صبرهم على دينهم ، وقال مجاهد : نزلت في قوم من أهل الكتاب أسلموا فأوذوا ، وعن أبي بردة عن أبي موسى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين رجل كانت له جارية فأدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوّجها ، ورجل كان من أهل الكتاب آمن بكتابه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وعبد أحسن عبادة الله تعالى ونصح لسيده" ولما كان الصبر لا يتم إلا بالاتصاف بالمحاسن والانخلاع من المساوي قال تعالى عاطفاً على يؤمنون مشيراً إلى تجديد هذه الأفعال كل حين ﴿ ويدرؤن ﴾ أي : يدفعون ﴿ بالحسنة ﴾ من الأقوال

والأفعال ﴿ السيئة ﴾ أي : فيمحونها بها ، وقال ابن عباس : يدفعون بشهادة أن لا إله إلا الله الشرك ، وقال مقاتل : يدفعون بها ما سمعوا من الأذى والشتم من المشركين أي : بالصفح والعفو .

﴿ ومما رزقناهم ﴾ أي : بعظمتنا لا بحول منهم ولا قوّة قليلاً كان أو كثيراً ﴿ ينفقون ﴾ أي : يتصدّقون معتمدين في الخلف على الذي رزقه ، ولما ذكر الله أنّ السماح بما تضنّ النفوس به من فضول الأموال من أمارات الإيمان أتبعه أنّ خزن ما تبذله الأنفس من فضول الأقوال من علامات العرفان بقوله تعالى:

(181/590)

﴿ وإذا سمعوا اللغو ﴾ أي : ما لا ينفع في دين ولا دنيا من شتم وتكذيب وتعيير ونحوه ﴿ أعرضوا عنه ﴾ تكرّماً عن الخنا ، وقيل اللغو : القبيح من القول ؛ وذلك أنّ المشركين كانوا يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون لهم تباً لكم تركتم دينكم فيعرضون عنهم ولا يردون عليهم ﴿ وقالوا ﴾ وعظاً وتسميعاً لقائله ﴿ لنا ﴾ خاصة ﴿ أعمالنا ﴾ لا تثابون على شيء منها ولا تعاقبون ﴿ ولكم ﴾ أي : خاصة ﴿ أعمالكم ﴾ لا نطالب بشيء منها فنحن لا نشتغل بالرد عليكم ﴿ سلام عليكم ﴾ متاركة لهم وتوديعاً ودعاء لهم بالسلامة

عما هم فيه ، لا سلام تحية وإكرام ، ونظير ذلك ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (الفرقان ،) ثم أكد ذلك تعالى بقوله تعالى : حاكياً عنهم ﴿ لا نبتغي ﴾ أي : لا نكلف أنفسنا أن نطلب ﴿ الجاهلين ﴾ أي : لا نريد شيئاً من أموالهم وأقوالهم أو غير ذلك من خلالهم ، وقيل لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه قيل نسخ ذلك بالأمر بالقتال وهو بعيد لأنّ ترك المسافهة مندوب إليه وإن كان القتال واجباً ، ونزل في حرصه صلى الله عليه وسلم على إيمان عمه أبي طالب ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ أي : نفسه أو هدايته بخلق الإيمان في قلبه ، روى سعيد بن المسيب عن أبيه أنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال : أي : عمّ قل لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها ويصدانه بتلك الكلمة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأستغفرنّ لك ما لم أنه عن ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ (التوبة :)

وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ الآية ، وفي مسلم عن أبي هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم "أمره بالتوحيد فقال له لولا أن تعيرني قريش تقول إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله تعالى الآية" وروي أنّ أبا طالب قال عند موته يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصدّقوه تفلحوا وترشدوا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم يا عمّ تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخي قال أريد منك كلمة واحدة فإنك في آخر يوم من أيام الدنيا تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله قال يا ابن أخي قد علمت أنك صادق ولكني أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة وسبة بعدي لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدّة وجدك ونصيحتك ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وعبد مناف فإن قيل قال الله تعالى في هذه الآية ﴿ أنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ (الشورى :)

أجيب : بأنه لا تنافي بينهما فإن الذي أثبته وأضافه إليه الدعوة والذي نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدور وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ (الأنعام :)

﴿ وهو أعلم ﴾ أي : عالم ﴿ بالمهتدين ﴾ أي : الذين قد هيأهم لتطلب الهدى عند خلقه

لهم سواء كانوا من أهل الكتاب أم من العرب أقارب كانوا أم أباعد ، ثم حكى الله تعالى عن كفار قريش شبهة تتعلق بأحوال الدنيا بقوله تعالى:

(183/590)

﴿ وقالوا إن نتبع الهدى ﴾ أي : الإسلام فنوحد الله تعالى من غير إشراك ﴿ معك ﴾ وأنت على ما أنت عليه من مخالفة الناس ﴿ نتخطف ﴾ أي : من أيّ خاطف أرادنا لأنا نصير قليلاً في كثير من غير نصير ﴿ من أرضنا ﴾ كما تتخطف العصافير لمخالفة كافة العرب لنا وليس لنا نسبة إلى كثرتهم ولا قوّتهم فيسرعوا إلينا فيتخطفونا ، أي : يتقصدون خطفنا واحداً واحداً فإنه لا طاقة لنا على إدامة الاجتماع وأن لا يشذ بعضنا عن بعض . قال المبرد : والخطف الانتزاع بسرعة نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي صلى الله عليه وسلم إنا لنعلم أن الذي تقوله حق ولكنا إن اتبعناك على دينك وخالفنا العرب بذلك وإنما نحن أكلة رأس خفنا أن تخرجنا العرب من أرضنا مكة ، ثم ردّ الله تعالى عليهم هذه الشبهة وألقمهم الحجر بقوله تعالى : ﴿ أو لم نمكن ﴾ أي : غاية التمكين ﴿ لهم ﴾ أي : في أوطانهم ومحلّ سكناهم بما لنا من القدرة ﴿ حرماً آمنا ﴾ أي : ذا أمن يأمن فيه كل خائف حتى الطير من كواسرها والوحش من جوارحها حتى إن سيل الحلّ لا

يدخل الحرم بل إذا وصل إليه عدل عنه ، وروي أنّ مكة كانت في الجاهلية لا يعرضها ظلم ولا بغي ولا يبغي فيها أحد إلا أخرجته وكان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه فيها فلا يهيجه ولا يتعرّض له بسوء ، وروى الأزرقي في تاريخ مكة عن حويطب بن عبد العزى قال : كان في الكعبة حلق يدخل الخائف يده فيها فلا يريبه أحد فجاء خائف ليدخل يده فاجتذبه رجل فشلت يده فلقد رأيته في الإسلام وإنه لأشلّ .

وعن ابن عباس قال : أخذ رجل ذود ابن عمّ له فأصابه في الحرم فقال : ذودي فقال اللص : كذبت قال فاحلف فحلف عند المقام فقام ربّ الذود بين الركن والمقام باسطاً يديه يدعو فما برح مقامه يدعو حتى ذهب عقل اللص وجعل يصيح بمكة مالي ولفلان رب الذود فبلغ ذلك عبد المطلب فجمع الذود ودفعه إلى المظلوم فخرج به وبقي الآخر حتى وقع من جبل فتردّى فأكلته السباع .

(184/590)

وعن ابن جريج : أنّ غير قريش من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة إلا إن أعارتهم قريش ثياباً فجاءت امرأة لها جمال فطافت عريانة فرآها رجل فأعجبته فدخل فطاف إلى جنبها فأدنى عضده من عضدها فالتزقت عضده بعضدها فخرجا من المسجد هاربين فزعين

على وجوههما لما أصابهما من العقوبة فلقيهما شيخ من قريش فأفتاهما أن يعودا إلى المكان الذي أصابا فيه الذنب فيدعوان ويخلصان أن لا يعودا فعادا ودعوا وأخلصا النية فافترقت أعضادهما فذهب كل واحد منهما في ناحية .

وعن عبد العزيز بن رواد أنّ قوماً انتهوا إلى ذي طوى فإذا ظبي قد دنا منهم فأخذ رجل منهم بقائمة من قوائمه فقال له أصحابه : ويحك أرسله فجعل يضحك وأبى أن يرسله فبعر الظبي وبال ثم أرسله فناموا في القائلة ثم انتبهوا فإذا بحية متطوّقة على بطن الرجل الذي أخذ الظبي فلم تنزل الحية عنه حتى كان منه من الحدث مثل ما كان من الظبي .

وعن مجاهد قال : دخل قوم مكة تجاراً من الشام في الجاهلية فنزلوا ذا طوى فاختبزوا ملة لهم ولم يكن معهم إدام فرمى رجل منهم ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى فقاموا إليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها فبينما قدرهم على النار يغلي لحمه إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعاً ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم .

وعن أيوب بن موسى أنّ امرأة في الجاهلية كان معها ابن عمّ لها صغير فقالت له : يا بني إني أغيب عنك وإني أخاف أن يظلمك أحد فإن جاءك ظالم بعدي فإنّ لله بمكة بيتاً سيمنعك فجاءه رجل فاسترقه فلما رأى الغلام البيت عرفه بالصفة فنزل يشتد حتى تعلق بالبيت فجاءه سيده فمدّ يده إليه ليأخذه فيبست يده فمدّ الأخرى فيبست فاستفتى فأفتي أن ينحر عن كل واحدة من يديه بدنة ففعل فأطلقت يداه وترك الغلام وخلى سبيله .

وعن أبي ربيع بن سالم الكلاعي أنّ رجلاً من كنانة بن هذيل ظلم ابن عمّ له فخوّفه بالدعاء في الحرم فقال هذه ناقتي فلانة اركبها فاذهب إليه فاجتهد في الدعاء في الحرم فجاء في الحرم في الشهر الحرام فقال اللهمّ إني أدعوك جاهداً مضطرّاً على ابن عمي فلان ترميه بداء لا دواء له ثم انصرف فوجد ابن عمه قد رمي في بطنه فصار مثل الزق فما زال ينتفخ حتى انشق .

وعن عمر رضي الله عنه أنه سأل رجلاً من بني سليم عن ذهاب بصره فقال يا أمير المؤمنين كنا بني ضبعاء عشرة وكان لنا ابن عمّ فكنا نظلمه فكان يذكرنا الله والرحم فلما رأى أنا لا نكف عنه انتهى إلى الحرم في الأشهر الحرم فجعل يرفع يديه ويقول:

*لا همّ أدعوك دعاء جاهداً **اقتل بني ضبعاء إلا واحداً*

*ثم اضرب الرجل ودعه قاعداً **أعمى إذا قيد يعيي القائداً*

قال فمات أخوتي التسعة في تسعة أشهر في كل شهر واحد وبقيت أنا فعميت ورماني الله عز وجل في رجلي فليس يلائمني قائد فقال عمر رضى الله تعالى عنه جعل الله هذا في الجاهلية إذ لا دين حرمة حرمها وشرفها ليرجع الناس عن انتهاك ما حرم مخافة تعجيل

العقوبة فلما جاء الدين صار التوعد للساعة ويستجيب الله تعالى لمن يشاء فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين وإنما أكثرت من هذه الحكايات ليكون الداخل للحرم على حذر فإنّ الله تعالى حماه ومكّن أهله في الحرم الذي أمنّه بحرمة البيت وأمن قطانه بحرمته وكانت العرب في الجاهلية حولهم يتغاورون ويتناجدون وهم آمنون في حرمهم لا يخافون وبحرمة البيت هم قارّون بواد غير ذي زرع والثمرات والأرزاق تجبى إليهم كما قال تعالى:

(186/590)

﴿ يجبى ﴾ أي : يجمع ويحمل ﴿ إليه ﴾ أي : خاصة دون غيره من جزيرة العرب ﴿ ثمرات كل شيء ﴾ من النبات الذي بأرض العرب من ثمر البلاد الحارة كالبسر والرطب والنبق ، والباردة كالعنب والتفاح والرمّان والخوخ ، فإذا خولهم الله تعالى ما خوّلهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام فكيف يستقيم أن يعرّضهم للخوف والتخطف ويسلبهم الأمن إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام وإسناد الأمن إلى أهل الحرم حقيقة وإلى الحرم مجاز .

تنبيه : معنى الكلية هنا الكثرة كقوله تعالى : ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ (النمل :) ولكن في تعبيره بالمضارع وما بعده إشارة إلى الاستمرار وأنه يأتي إليه بعد ذلك من كل ما

في الأرض من المال ما لم يخطر لأحد منهم في بال ، وقرأ نافع بالتاء الفوقية ، والباقون بالياء التحتية ، وأمال حمزة والكسائي محضة ، وورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح ، ثم إنه تعالى بين أنّ الرزق من عنده بقوله تعالى : ﴿ رزقاً من لدنا ﴾ أي : فلا صنع لأحد فيه بل هو محض تفضل .

تنبيه : انتصاب رزقاً على المصدر من معنى يجبى أو الحال من ثمرات لتخصيصها بالإضافة كما تنصب عن النكرة المخصصة وإن جعلته اسماً للمرزوق انتصب على الحال من ثمرات ﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أي : أهل مكة وغيرهم ممن لا هداية له ﴿ لا يعلمون ﴾ أي : ليس لهم قابلية للعلم حتى يعلموا أنا نحن الفاعلون لذلك بل هم جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ، وقيل : إنه متعلق بقوله تعالى : ﴿ من لدنا ﴾ أي : قليل منهم يتدبرون فيعلمون أنّ ذلك رزق من عند الله إذ لو علموا لما خافوا غيره ، ثم بين تعالى أنّ الأمر بالعكس فإنهم أحقّاء بأن يخافوا من بأس الله تعالى على ما هم عليه بقوله تعالى:

(187/590)

﴿ وكم أهلكنا من قرية ﴾ أي : من أهل قرية وأشار إلى سبب الإهلاك بقوله تعالى : ﴿ بطرت معيشتها ﴾ أي : وقع منها البطر في زمن عيشها الرخيّ الواسع فكان حالهم

كحالكم في الأمن وإدرار الرزق فلما بطروا معيشتهم أهلكناهم ، ومعنى بطرهم لها قال عطاء : أنهم أكلوا رزق الله وعبدوا غيره ، وقيل : البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه .

تنبيه : انتصاب معيشتها إما بحذف الجار واتصال الفعل كما في قوله تعالى : ﴿ واختار موسى قومه ﴾ (الأعراف :)

أو بتقدير حذف ظرف الزمان وأصله بطرت أيام معيشتها ، وإما بتضمين بطرت معنى كفرت أو خسرت ، أو على التمييز ، أو على التشبيه بالمفعول به وهو قريب من سفه نفسه ﴿ فتلك مساكنهم ﴾ خاوية ﴿ لم تسكن من بعدهم ﴾ بعد أن طال ما تعالوا فيها ونمَّقوها وزخرفوها وزفوا فيها الأبكار وفرحوا بالأعمال الكبار ﴿ إلا ﴾ سكوناً ﴿ قليلاً ﴾ قال ابن عباس : لم يسكنها إلا المسافرون ومارّوا الطريق يوماً أو ساعة من ليل أو نهار ثم تصير يباباً موحشة كالقفار بعد أن كانت متمنعة الفناء ببيض الصفاح وسمر القنا ، قال الزمخشري : ويحتمل أنّ شؤم معاصي المهلكين بقي في أثره ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً ﴿ وكنا ﴾ أي : أزلاً وأبداً ﴿ نحن ﴾ لا غيرنا ﴿ الوارثين ﴾ منهم إذ لم يخلفهم أحد يتصرّف تصرّفهم في ديارهم وسائر متصرّفاتهم قال القائل:

*تتخلف الآثار عن أصحابها **حيناً ويدركها الفناء فتتبع*

﴿ وما كان ربك ﴾ أي : المحسن إليك بالإحسان بإرسالك إلى الناس ﴿ مهلك القرى ﴾ أي : هذا الجنس كله بجرم وإن عظم ﴿ حتى يبعث في أمّها ﴾ أي : أعظمها وأشرفها ﴿ رسولاً ﴾ لأنّ غيرها تبع لها ولم يشترط كونه من أمها فقد كان عيسى عليه السلام من الناصرة وبعث إلى بيت المقدس ﴿ يتلوا عليهم ﴾ أي : أهل القرى كلهم ﴿ آياتنا ﴾ الدالة على ما ينبغي لنا من الحكمة وبما لها من الإعجاز على نفوذ الكلمة وباهر العظمة إلزاماً للحجة وقطعاً للمعذرة لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ، ولذلك لما أردنا عموم الخلق بالرسالة جعلنا الرسول وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء من أم القرى كلها وهي مكة البلد الحرام ﴿ وما كنا مهلكي القرى ﴾ أي : كلها بعد الإرسال ﴿ إلا وأهلها ظالمون ﴾ أي : غريقون في الظلم بالعصيان بترك ثمرات الإيمان وتكذيب الرسل .

(189/590)

﴿ وما أوتيتم من شيء ﴾ أي : من أسباب الدنيا ﴿ فمتاع ﴾ أي : فهو متاع ﴿ الحياة الدنيا ﴾ تتمتعون بها أيام حياتكم وليس يعود نفعه إلى غيرها فهو آيل إلى فساد وإن طال زمن التمتع به ﴿ وزينتها ﴾ أي : فهو زينة الحياة الدنيا التي هي كلها فضلاً عن زينتها إلى

فناء فليست هي ولا شيء بأزلي ولا أبدي ﴿ وما عند الله ﴾ أي : الملك الأعلى وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ﴿ خير ﴾ على تقدير مشاركة ما في الدنيا له فالخيرية في ظنكم لأنّ الذي عنده أطيب وأكثر وأشهى وأزهى ﴿ و ﴾ هو مع ذلك كله ﴿ أبقى ﴾ لأنه وإن شارك متاع الدنيا في أنه لم يكن أزلياً فهو أبدي وهذا جواب عن شبههم فإنهم قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى أنّ ذلك خطأ عظيم لأنّ ما عند الله خير وأبقى من وجهين : الأوّل : أنّ المنافع هناك أعظم ، والثاني : أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر ، وأما أنها أبقى فلإنها دائمة غير منقطعة ومن قابل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً فظهر بهذا أنّ منافع الدنيا لا نسبة لها إلى منافع الآخرة فلا جرم نبه على ذلك بقوله تعالى : ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أنّ الباقي خير من الفاني فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير فمن لم يرجّح منافع الآخرة على منافع الدنيا فإنه يكون خارجاً عن حدّ العقل ، قال ابن عادل ورحم الله الشافعيّ حيث قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى لأنّ أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة ، فكأنه رحمه الله تعالى إنما أخذه من هذه الآية انتهى ، وقرأ أبو عمرو بالياء وهو أبلغ في الموعظة لاشتماله على الالتفات للإعراض به عن خطابهم ، والباقون بالتاء على الخطاب جرياً على ما تقدّم .

﴿ أفمن وعدناه ﴾ على عظمتنا في الغنى والقدرة والصدق ﴿ وعداً حسناً ﴾ لا شيء أحسن منه في موافقته للأمنية وبقائه وهو الجنة فإن حسن الوعد بحسن الموعود ولذلك سمى الله تعالى الجنة بالحسنى ﴿ فهو لاقيه ﴾ أي : مدركه لامتناع الخلف في وعده ولذلك عطفه بالفاء المعطية معنى السببية ﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ أي : الذي هو مشوب بالآلام مكدر بالمتاعب مستعقب للتحسر على الانقطاع ، وعن ابن عباس أن الله تعالى خلق الدنيا وجعل أهلها ثلاثة أصناف : المؤمن والمنافق والكافر فالمؤمن يتزوّد والمنافق يتزين والكافر يتمتع ﴿ ثم هو ﴾ مع ذلك كله ﴿ يوم القيامة ﴾ الذي هو يوم التغابن من خسر فيه لم يربح أصلاً ﴿ من المحضرين ﴾ أي : المقهورين على الحضور إلى مكان يود لو افتدى منه بملء الأرض ذهباً لم يقبل منه ، قال قتادة يحضره المؤمن والكافر ، قال مجاهد : نزلت في النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبي جهل ، وقال محمد بن كعب نزلت في حمزة وعلي وفي أبي جهل ، وقال السدّي : نزلت في عمار والوليد بن المغيرة .

تنبيه : ثم لتراخي حال الإحضار عن حال التمتع في الزمان أو الرتبة ، وقرأ ثم هو قالون والكسائي بسكون الهاء ، والباقون بالضم .

﴿ ويوم ﴾ أي : واذكر يوم ﴿ يناديهم ﴾ أي : ينادي الله هؤلاء الذين يضلون الناس ويصدّون عن سبيل الله ﴿ فيقول ﴾ أي : الله تعالى ﴿ أين شركائي ﴾ من الأوثان وغيرهم ثم بين أنهم لا يستحقون هذا الاسم بقوله تعالى : ﴿ الذين كنتم ﴾ أي : كوناً غريقين فيه ﴿ تزعمون ﴾ أنها تشفع ليدفعوا عنكم وعن أنفسهم فيخلصكم من هذا الذي نزل بكم ، تنبيه : تزعمون مفعولاه محذوفان أي : تزعمونهم شركائي ﴿ قال الذي حق ﴾ أي : ثبت ووجب ﴿ عليهم القول ﴾ أي : بدخول النار وهم رؤوس الضلالة وهو قوله تعالى : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (هود ،) وغيره من آيات الوعيد وقولهم ﴿ ربنا هؤلاء ﴾ إشارة للإتباع ﴿ الذين أغوينا ﴾ أي : أوقعنا الأغواء وهو الإضلال بهم صفته والعائد حذف وقولهم ﴿ أغويناهم ﴾ أي : فغووا باختيارهم ﴿ كما غوينا ﴾ أي : نحن فهؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع إلى الموصول محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره أغويناهم فغووا غياً مثل ما غوينا يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا لا أنّ فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء ، أو دعونا إلى الغي وسوّلوه لنا فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم لأنّ أغواءنا لهم لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً لا قسراً وإلجاء فلا فرق إذاً بين غينا وغيهم وإن كان تسويلنا لهم داعياً إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله تعالى لهم إلى الإيمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وبما بعث إليهم من الرسل

وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر وداعياً إلى الإيمان ، وهذا معنى ما حكاه الله تعالى عن الشيطان : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ (إبراهيم ،) .

(192/590)

تنبيه : اعترض أبو علي على الزمخشريّ في هذا الإعراب بأن الخبر ليس فيه زيادة فائدة على ما في صفته ، فإن قلت قد وصل الخبر بقوله كما غوينا وفيه زيادة قلت الزيادة بالظرف لا تصيّره أصلاً في الجملة لأنّ الظروف فضلات ، ثم إنه أعرب هو هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا خبره وأغويناهم مستأنف ، وأجاب أبو البقاء وغيره بأن الظروف قد تلزم كقولك زيد عمرو قائم في داره ثم أشاروا بقولهم ﴿ تبرأنا إليك ﴾ أي : من أمورهم إلى أنه لا لوم علينا في الحقيقة بسببهم فهو تقرير للجملة الأولى ولهذا خلت عن العاطف وعلى تقدير إغوائنا لهم ﴿ ما كانوا إيانا ﴾ أي : خاصة ﴿ يعبدون ﴾ بل كانوا يعبدون الأوثان بما زينت لهم أهواؤهم وإن كان لنا فيه نوع دعاء إليه وحث عليه فأقل ما نريد أن يوزع العذاب على من كان سبباً في ذلك ، وقيل ما مصدرية متصلة بتبرأنا أي : تبرأنا من عبادتهم إيانا ،

ولما لم يلتفت إلى هذا الكلام منهم بل عدّ عدماً لأنه لا طائل تحته أشير إلى الإعراض عنه لأنه لا يستحق جواباً كما قيل رب قول جوابه السكوت ، بقوله تعالى:

(193/590)

﴿ وقيل ﴾ أي : ثانياً للأتباع تهكماً بهم وإظهاراً لعجزهم الملزوم لتحيرهم وعظم تأسفهم وذكر ذلك بصيغة المجهول للأستهانة بهم وأنهم من الذل والصغار بحيث يجيبون كل آمر كائناً من كان ﴿ ادعوا ﴾ أي : كلكم ﴿ شركاءكم ﴾ أي : الذين ادعيتم جهلاً شركتهم ليدفعوا عنكم العذاب ﴿ فدعوهم ﴾ تعللاً بما لا يغني وتمسكاً بما يتحقق أنه لا يجدي لفرط الغلبة واستيلاء الحيرة والدهشة ﴿ فلم يستجيبوا لهم ﴾ أي : لم يجيبوهم لعجزهم عن الإجابة والنصرة ، قال ابن عادل : والأقرب أنّ هذا على سبيل التقريع لأنهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم ﴿ ورأوا ﴾ أي : هم ﴿ العذاب ﴾ عالمين بأنه مواقعهم لا مانع له عنهم فكان الحال حينئذ مقتضياً لأن يقال من كل من يهواهم ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أي : تحصل منهم هداية ساعة من الدهر تأسفاً على أمرهم وتمنياً لخلاصهم ولو أن ذلك كان في طاقتهم وجواب لو محذوف أي : لنجوا من العذاب ولما رأوه أصلاً ، قال الضحاك ومقاتل : يعني المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة .

﴿ ويوم يناديهم ﴾ أي : الله تعالى وهم بحيث يسمعهم الداعي وينفذهم البصر قد برزوا لله جميعاً من كان منهم عاصياً ومن كان منهم مطيعاً في صعيد واحد قد أخذنا بأنفاسهم الزحام وتراكب الأقدام على الأقدام وألجمهم العرق وعمهم الغرق ﴿ فيقول ماذا ﴾ أي : أوضحوا وعينوا جوابكم الذي ﴿ أجبتم المرسلين ﴾ إليكم ، تنبيه : ويوم معطوف على الأوّل فإنه تعالى يسأل عن إشراكهم به ثم تكذيبهم الأنبياء ولما لم يكن لهم قدم صدق ولا سابق حق بما أتتهم الرسل به من الحجج لم يكن لهم جواب إلا السكوت وهو المراد بقوله تعالى:

(194/590)

﴿ فعميت ﴾ أي : خفيت وأظلمت ﴿ عليهم الأنباء ﴾ أي : الأخبار المنجية ﴿ يومئذ ﴾ التي هي من العظمة بحيث يحق لها في ذلك اليوم أن تذكر ، تنبيه : الأصل فعموا عن الأنباء لكنه عكس مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج وإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره وإذا كان الرسل عليهم الصلاة والسلام في ذلك اليوم يفوّضون إلى علم الله تعالى فما ظنك بالضلال فلهذا قال تعالى : ﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ أي : لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة أو للعلم بأنه

مثله هذا حال من أصر على كفره .

﴿ فأما من تاب ﴾ عنه وقوله تعالى : ﴿ وآمن ﴾ تصريح بما علم التزاماً فإن الكفر والإيمان ضدّان لا يمكن ترك أحدهما إلا بأخذ الآخر وقوله تعالى : ﴿ وعمل صالحاً ﴾ لأجل أن يكون مصدقاً لدعواه باللسان ﴿ فعسى ﴾ إذا فعل ذلك ﴿ أن يكون من المفلحين ﴾ عند الله وعسى تحقيق على عادة الكرام ، أو ترجّ من التائب بمعنى فليتوقع أن يفلح ، ولما كان كأنه قيل ما لأهل القسم الأوّل لا يتوخون النجاة من ضيق ذلك البلاء إلى رحب هذا الرجاء وكان الجواب ربك منعهم من ذلك ، وما له لم يقطع لهذا القسم بالفلاح كما قطع لأهل القسم الأوّل بالشقاء كان الجواب .

(195/590)

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ لا موجب عليه ولا مانع له ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ أي : أن يفعلوا يفعل لهم كل ما يختارونه ، تنبيه : الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير ، وظاهره نفي الاختيار عنهم رأساً ، قال البيضاوي والأمر كذلك عند التحقيق فإن اختيار العبيد مخلوق منوط بدواع لا اختيار لهم فيها ، وقال الرازي في اللوامع : وفيه دليل على أنّ العبد في اختياره غير مختار فلهذا أهل الرضا حطوا الرحال بين يدي ربهم وسلموا الأمور

إليه بصفاء التفويض يعني فإن أمرهم أو نهاهم بادروا وإن أصابهم سهام المصائب العظام صابروا وإن أعزهم أعزوا أنفسهم وأكرموا وإن أذلهم رضوا وسلموا فلا يرضيهم إلا ما يرضيه ولا يريدون إلا ما يريده فيمضيه ، قال القائل:

*وقف الهوى لي حيث أنت فليس لي ** متأخر عنه ولا متقدّم

*أجد الملامة في هواك لذيذة ** حباً لذكرك فليلمني اللوّم

*وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً ** ما من يهون عليك ممن يكرم*

وقيل ما موصولة مفعول ليختار والراجع محذوف ، والمعنى ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة أي : الخير والصلاح ﴿ سبحان الله ﴾ تنزيهاً له أن يزاحمه أحد أو ينازع اختياره وتعالى : أي : علا علواً لا تبلغ العقول توجيه كنه مداه ﴿ عما يشركون ﴾ أي : عن إشراكهم أو مشاركة ما يشاركونه به ، ولما كانت القدرة لا تتم إلا بالعلم قال تعالى:

(196/590)

﴿ وربك ﴾ أي : المحسن إليك المتولي أمر تربيتك ﴿ يعلم ما تكنّ ﴾ أي : تخفي وتستر ﴿ صدورهم ﴾ من كونهم يؤمنون على تقدير أن تأتيهم آيات مثل آيات موسى عليه السلام ، أو لا يؤمنون ومن كون ما أظهر من أظهر الإيمان بلسانه خالصاً أو مشوباً ، ومن كونهم

يخفون عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وما يعلنون ﴾ أي : يظهرون من ذلك كل ذلك لديه سواء فلا يكون لهم مراد إلا يخلقه ، فإن قيل هلا اكتفى بقوله تعالى : ﴿ ما تكنّ صدورهم ﴾ عن قوله : ﴿ وما يعلنون ﴾ أجيب : بأنّ علم الخفي لا يستلزم علم الجليّ إما لبعد أو لغط أو اختلاط أصوات يمنع تمييز بعضه عن بعض أو غير ذلك ، ولما كان علمه تعالى بذلك إنما هو لكونه إلهاً واحداً فرداً صمداً وكان غيره لا يعلم من علمه إلا ما علمه قال تعالى:

﴿ وهو الله ﴾ أي : المستأثر بالإلهية الذي لا سميّ له الذي لا يحيط الواصفون بكنه عظمته ، ثم شرح معنى الاسم الأعظم بقوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ وهذا تنبيه على كونه قادراً على كل الممكنات عالماً بكل المعلومات منزهاً عن النقائص والآفات ، ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ له ﴾ أي : وحده ﴿ الحمد ﴾ أي : الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ في الأولى والآخرة ﴾ لأنه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا ، فإن قيل الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة ؟

أجيب : بأنهم يحمدونه بقولهم ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ (فاطر :)

﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ (الزمر :)

﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (يونس :)

والتوحيد هناك على وجه اللذة لا الكلفة ، وفي الحديث يلهمون التسبيح والتقديس ﴿ وله الحكم ﴾ أي : القضاء النافذ في كل شيء وقال ابن عباس : حكم لأهل الطاعة بالمغفرة ولأهل المعصية بالشقاء ﴿ وإليه ﴾ لا إلى غيره ﴿ ترجعون ﴾ أي : بأيسر أمر يوم النفخ في الصور لبعثرة ما في القبور ، بالبعث والنشور مع أنكم الآن راجعون في جميع أحكامكم إليه ، ومقصورون عليه إن شاء أمضاها وإن أراد ردّها ولواها ففي الآية غاية التقوية لقلوب المطيعين ونهاية الزجر والردع للمتمردين ، ثم بين سبحانه وتعالى بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه بقوله تعالى:

﴿ قل ﴾ أي : يا أفضل الخلق لأهل مكة ﴿ أرأيتم ﴾ أي : أخبروني ﴿ إن جعل الله ﴾ أي : الملك الأعلى ﴿ عليكم الليل ﴾ أي : الذي به اعتدال حرّ النهار ﴿ سرمداً ﴾ أي : دائماً ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ لا نهار معه ﴿ من إله غير الله ﴾ أي : العظيم الشأن الذي لا كفء له ﴿ يأتيكم بضياء ﴾ أي : بنهار تطلبون فيه المعيشة ﴿ أفلا تسمعون ﴾ أي : ما يقال لكم سماع إصغاء وتدبر .

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله ﴾ أي : الذي له الأمر كله ﴿ عليكم النهار ﴾ أي : الذي توازن حرارته برطوبة الليل فيتمّ بها صلاح النبات وغير ذلك من جميع المقدّرات ﴿ سرمداً ﴾ أي : دائماً ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ لا ليل فيه ﴿ من إله غير الله ﴾ أي : الجليل الذي ليس له

مثل ﴿ يأتيكم بليل ﴾ أي : ينشأ منه ظلام ﴿ تسكنون فيه ﴾ استراحة عن متاعب الأشغال ، فإن قيل هلا قيل بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه ؟

(198/590)

أجيب : بأنه تعالى ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لأنّ المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعايش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثمّ قرن بالضياء ﴿ أفلا تسمعون ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدرك البصر من ذلك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل ﴿ أفلا تبصرون ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ، قال البقاعي : فالآية من الاحتباك ذكر الضياء أولاً دليلاً على حذف الظلام ثانياً والليل والسكون ثانياً دليلاً على حذف النهار والانتشار أوّلاً ولما كان التقدير ومن رحمته جعل لكم السمع والأبصار لتتدبروا آياته وتبصروا في مصنوعاته عطف عليه .

﴿ ومن رحمته ﴾ أي : التي وسعت كل شيء لا من غيرها من خوف أو رجاء أو تعلق غرض من الأغراض ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ آيتين عظيمتين دبر فيها وبهما جميع مصالحكم فجعل آية الليل ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ فلا تسعوا فيه لمعاشكم ﴿ و ﴾ جعل آية النهار مبصرة ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ بأن تسعوا في معاشكم بجهدكم ، قال البقاعي : فالآية

من الاحتباك ذكر أوّلاً السكون دليلاً على حذف السعي في المعاش ثانياً وذكر الابتغاء من فضله ثانياً دليلاً على حذف عدم السعي في المعاش أوّلاً ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي : وليكون حالكم حال من يرجى منه الشكر لما يتجدد لكم من تقلبهما من النعم المتوالية التي لا يحصرها إلا خالقها ، وأما الآخرة فلما كانت غير مبنية على الأسباب وكانت الجنة لا تعب فيها بوجه كان لا حاجة فيها لليل .

(199/590)

﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ تقريع بعد تقريع للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك به كما أنه لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده ، اللهمّ فكما أدخلتنا في أهل توحيدك فأدخلنا في الناجين من وعيدك ومتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين ، ويحتمل أن يكون الأوّل لتقرير فساد رأيهم والثاني لبيان أنه لم يكن عن سند وإنما كان محض تَشَهِّ : وهوى ، أو أنه ذكر الثاني كما قال الجلال المحلي ليبنى عليه .

﴿ ونزعنا ﴾ أي : أخرجنا وأفردنا بقوّة وسطوة ﴿ من كل أمة شهيداً ﴾ أي : وهو رسولهم يشهد عليهم بما قالوه ﴿ فقلنا ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أن قلنا للأمم ﴿ هاتوا

برهانكم ﴾ أي : دليلكم القطعي الذي فزعتم في الدنيا إليه وعوّلتم في شرككم عليه كما هو شأن ذوي العقول أنهم لا يبنون شيئاً على غير أساس ﴿ فعلموا ﴾ أي : بسبب هذا السؤال لمَّا اضطروا ولم يجدوا لهم سنداً ﴿ أن الحق ﴾ في الإلهية ﴿ لله ﴾ أي : الملك الذي له الأمر كله لا يشاركه فيه أحد ﴿ وضل عنهم ﴾ أي : غاب غيبة الضائع ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي : يقولونه قول الكاذب المتعمد للكذب لكونه لا دليل عليه ولا شبهة للغلط فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 156 . 169 ﴾

(200/590)

وقال القاسمي :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

أي : أنزلنا عليهم القرآن متواصلاً ، بعضه إثر بعض ، وعداً ووعيداً ، وقصصاً وعبراً ، ومواعظ ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إرادة أن يتذكروا فيفلحوا . وقرئ وصّلنا بالتشديد والتخفيف : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي : القرآن : ﴿ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم مؤمنو أهل الكتاب وأولياؤهم : ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ أي : القرآن : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي : من قبل نزوله : ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ أي :

منقادين له ، لما عندنا من المبشّرات به . أو على دين الإسلام ، وهو إخلاص الوجه له تعالى بدون شرك : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي : الموصوفون بما ذكر من النعوت : ﴿ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ يعني مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي : بصبرهم وثباتهم على الإيمانيْن . أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده . أو على أذى من نابذهم : ﴿ وَيَدْرَأُونَ ﴾ أي : يدفعون : ﴿ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي : بالحكمة الطيبة ، ما يسوؤهم : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أي : للبؤساء والفقراء ، وفي سبيل البرّ والخير ، فراراً عن وصمة الشحّ ، وتنبهاً لآفاته .

(201/590)

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ ﴾ أي : من الجهال . وهو كل ما حقه أن يلغى ويترك ، من العبث وغيره : ﴿ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أي : تكريماً للنفس عن ملابسة الأدنياء ، وتشريفاً للسمع عن سقط باطلهم : ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي : لهم : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : بطريق التوديع والمتاركة ؛ وعن الحسن رضي الله عنه : كلمة حلم المؤمنين : ﴿ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أي : لا نريد مخالطتهم وصحبتهم ، ولا نريد مجازاتهم بالباطل على باطلهم . قال الرازيّ : قال قوم : نسخ ذلك بالأمر بالقتال . وهو بعيد . لأن ترك المسافهة

مندوب . وإن كان القتال واجباً .

تنبيه :

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : إنها نزلت في سبعين من القسيسين . بعثهم النجاشي . فلما قدموا النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم : ﴿ يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ [يّس : 1 2] ، حتى ختمها . فجعلوا يبكون وأسلموا .

(202/590)

وقال محمد بن إسحاق في " السيرة " : ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة . فوجدوه في المسجد . فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه . ورجال من قريش في أنديتهم . حول الكعبة . فلما فرغوا من مساءلة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا ، دعاهم إلى الله تعالى وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع . ثم استجابوا لله وآمنوا به ، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش . فقالوا لهم : خَيّبكم الله من ركب . بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم ، لتأتوهم بخبر الرجل . فلم

تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال . ما نعلم ركباً أحمق منكم . أو كما قالوا لهم . فقالوا لهم : سلام عليكم . لا نجاهلكم . لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً .

قال : ويقال إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أي : ذلك كان .

قال : ويقال ، والله أعلم ، إن فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ .

قال : وسألت الزهري عن الآيات فيمن نزلت ؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنهم . والآيات اللاتي في سورة المائدة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً ﴾ [المائدة : 82] ، إلى قوله : ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : 83] .

القول في تأويل قوله تعالى :

(203/590)

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً

مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ [56 - 58] .

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أي : لا تقدر أن تدخل في الإسلام كل من أحببت أن يدخل فيه من قومك وغيرهم : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : أن يهديه فيدخله في الإسلام بعنايته : ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أي : القابلين للهداية . لاطلاعه على استعدادهم وكونهم غير مطبوع على قلوبهم .

تنبيه :

روى البخاري في " صحيحه " في تفسير هذه الآية عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة . فقال : أي : عم ! قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاجّ لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، ويعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

(204/590)

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < والله ! لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك > .

فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] ، وأنزل الله في أبي طالب ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [56] .

قال ابن كثير : وهكذا رواه مسلم في صحيحه والترمذي أيضاً من حديث يزيد بن كَيْسان عن أبي حازم ، عن أبي هريرة . والإمام أحمد من حديثه أيضاً ، وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبيّ وقتادة : إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه الإسلام . انتهى .

وقال ابن حجر في " فتح الباري " : لم تختلف النقلة في أنها نزلت في أبي طالب . انتهى .

وقدمنا مراراً معنى قولهم نزلت الآية في كذا . فانظر المقدمة ، وغير موضع بعدها .

(205/590)

ثم ذكر تعالى من تعنتهم ، شبهة استروح بها الحارث بن عامر بن نوفل ، فيما رواه النسائي ، قوله سبحانه : ﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ ﴾ أي : ونخالف العرب : ﴿ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أي : مكة . فرد عليهم تعالى بقوله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً ﴾ أي : ألم

نعصمهم من عدوّهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمَن ، لحرمة البيت الحرام ، الذي تتناجز العرب حوله وهم آمنون : ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : جهلة لا يتفكرون . ولو علموا أن ذلك رزق من عند الله ، لعلموا أن الخوف والأمن من عنده ، ولما خافوا التخطف إذ آمنوا به وخلعوا أنداده ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أي : كفرت بها فلم تحفظ حق الله فيها فدمرت : ﴿ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ أي : منهم . إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم . وموصوف قليلاً المستثنى ، إما زمان أي : إلا زماناً قليلاً ، إذ لا يسكنها إلا المارّة يوماً أو بعض يوم . وإما مكان أي : إلا مكاناً قليلاً يصح لسكنى البعض ، واندثر الباقي . أو مصدر أي : سكناً قليلاً من شؤم معاصيهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

(206/590)

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [59 - 62] .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أي : الناطقة بالحق . ويدعوهم إليه بالترغيب والترهيب . وذلك لإلزام الحجة وقطع المعذرة : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ أي : بالكفر بالآيات وتكذيب الرسل سعياً بالفساد ، وإباء عن سبيل الصلاح والرشاد : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ أي : فهو مما يتمتع ويتزين به أياماً قلائل . وهي مدة الحياة المقتضية : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي : متاعاً وزينة في نفسه ، لخلوّه عن شوائب الألم : ﴿ وَأَبْقَى ﴾ لأنه أبدي لا يزول : ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً ﴾ أي : بإيمانه وعمله الصالح : ﴿ فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ أي : من الذين أحضروا للحساب أو للنار أو العذاب .

(207/590)

قال الشهاب : وقد غلب لفظ المحضر في القرآن في المعذَّب . وإليه أشار الزمخشريّ ، وصرح به في البحر : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [63 - 68] .

(208/590)

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي : وجب وثبت مقتضاه . وهو لحوق الوعيد بهم . والمراد بهم ، رؤساء الضلال ، وقادة الكفر والفساد : ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾ أي : أضللناهم .

قال أبو السعود : ومرادهم بالإشارة ، بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم . وأنهم غير قادرين على إنكاره وردّه : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾ أي : أضللناهم بالوسوسة والتسويل ، كما ضللنا باختيارنا ، وإيثار ما يفنى على ما يبقى : ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي : من الكفر والشرك والمعاصي . أو منهم ومما اختاروه : ﴿ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ أي :

بل كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ ليشفعوا لكم : ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ أي : تمنوا ذلك لينقذوا من العذاب العظيم : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : الداعين إلى الهداية وإصلاح الأعمال والأخلاق : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : فصارت الأنباء كالعُمي عليهم لا تهتدي إليهم . وأصله فعموا عن الأنباء لكنه عكس مبالغة . قال الشهاب : ففيه استعارة تصريحية تبعية . استعير العمى لعدم الاهتداء فهم لا يهتدون للأنباء . ثم قلب للمبالغة . فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم . وضمن معنى الخفاء . فعدّى بعلى . ففيه أنواع من البلاغة . الاستعارة والقلب والتضمين . والمراد بالأنباء ما أجابوا به الرسل . أو ما يعمّها وغيرها منكل ما يمكن الجواب به : ﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي : لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب ، لفرط الدهشة . أو لعلمه بأنه مثله في العجز عن الجواب . أو لعجزهم عن النطق وكونهم مختوماً على أفواههم . ثم إن هذا العيد لاحقٌ للمصرّ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ ﴾ أي : من الشرك : ﴿

وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أي : أن يفلح عند الله . وعسى من الكرام تحقيق . ويجوز أن يراد ترجي التائب وطمعه . كأنه قال : فليطمع أن يفلح . قاله الزمخشري : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أي : بمقتضى مشيئته وعنايته ، ما يريد : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ أي : في ذلك . بل الخيرة له في أفعاله وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه .

قال الزمخشري : الخيرة من التخير ، كالطيرة من التطير ، تستعمل بمعنى المصدر وهو التخير ، وبمعنى المتخير . كقولهم : محمد خيرة الله من خلقه . والقصد تقرير انفراده بالألوهية وحده . ولذا قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ من الأصنام والأنداد التي لا تخلق شيئاً ولا تختار .

تنبيه :

(210/590)

للإمام ابن القيّم في مقدمة " زاد المعاد " مقالة في هذه الآية الكريمة ، جديرة بأن تؤثر عنه .

قال رحمه الله : وبعد . فإن الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات . قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ وليس المراد هاهنا بالاختيار ، الإرادة

التي يشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار ، وهو سبحانه كذلك . وليس المراد بالاختيار هنا هذا المعنى . وهذا الاختيار داخل في قوله : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ فإنه لا يخلق إلا باختياره . وداخل في قوله تعالى : ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ فإن المشيئة هي الاختيار . وإنما المراد بالاختيار هنا الاجتباء والاصطفاء . فهو اختيار بعد الخلق . والاختيار العام اختيار قبل الخلق . فهو أعم وأسبق . وهذا أخص وهو متأخر . فهو اختيار من الخلق والأول اختيار للخلق . وأصح القولين أن الوقف التام على قوله : ﴿ وَيَخْتَارُ ﴾ ويكون : ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ نفياً . أي : ليس هذا الاختيار إليهم ، بل هو إلى الخالق وحده . فكما أنه هو المتفرد بالخلق ، فهو المتفرد بالاختيار منه . فليس لأحد أن يخلق ولا يختار سواه . فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره ومحالّ رضاه ، وما يصلح للاختيار مما لا يصلح له . وغيره لا يشاركه في ذلك بوجه . وذهب بعض من لا تحقيق عنده ولا تحصيل ، إلى أن ما في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ موصولة وهي مفعول يختار أي : ويختار الذي لهم الخيرة . وهذا باطل من وجوه :

(211/590)

أحدها : أن الصلة حينئذ تخلو من العائد . لأن الخيرة مرفوع بأنه اسم كان ولهم خبره . فيصير المعنى : ويختار الذي كان الخيرة لهم . وهذا التركيب محال من القول . فإن قيل : يمكن تصحيحه بأن يكون العائد محذوفاً ، ويكون التقدير : ويختار الذي كان لهم الخيرة فيه . أي : ويختار الأمر الذي كان لهم الخيرة في اختياره . قيل : هذا يفسد من وجه آخر . وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد . فإنه إنما يحذف مجروراً إذا جر بحرف جر الموصول بمثله ، مع اتحاد المعنى نحوه قوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ ونظائره . ولا يجوز أن يقال جاءني الذي مررت ، ورأيت الذي رغبت ، ونحوه .

الثاني : أنه لو أريد هذا المعنى لنصب الخيرة وشغل فعل الصلة بضمير يعود على الموصول . فكأنه يقول : ويختار ما كان لهم الخيرة . أي : الذي كان هو عين الخيرة لهم . وهذا لم يقرأ به أحد البتة . مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير .

(212/590)

الثالث : أن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم أن يكون الخيرة لهم . ثم ينفي هذا سبحانه عنهم ، ويبيِّن تفرده بالاختيار ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا

نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : 31 - 32] ، فأنكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه . وأخبر أن ذلك ليس إليهم . بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم ومدد آجالهم . وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل ، على حسب علمه بمواقع الاختيار ، ومن يصلح له ممن لا يصلح . وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات . وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل . فهو القاسم ذلك وحده لا غيره . وهكذا هذه الآية . بيّن فيها انفراده بالخلق والاختيار . فالله سبحانه أعلم بمواقع اختياره كما قال : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] ، أي : الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته وتخصيصه بالرسالة والنبوة ، دون غيره .

الرابع : أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم من اقتراحهم واختيارهم فقال : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولم يكن شركهم مقتضياً لإثبات خالق سواه ، حتى نزه نفسه عنه . فتأمله فإنه في غاية اللطف .

الخامس : إن هذا نظير قوله في الحج : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [73 – 74] ، ثم قال : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [75 – 76] ، وهذا نظير قوله في القصص : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [69] ، ونظير قوله في الأنعام : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : 124] ، فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محالّ اختياره ، بما خصصها به بعلمه ، بأنه يصلح له دون غيره فتقدير السياق في هذه الآيات تجده متضمناً لهذا المعنى دائراً عليه . والله أعلم .

السادس : إن هذه الآية مذكورة عقيب قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ فكما خلقهم وحده سبحانه ، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فكانوا صفوته من عباده ، وخيرته من خلقه ، وكان هذا الاختيار راجعاً إلى حكمته وعلمه سبحانه ، لمن هو أهل له . لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم . فسبحان الله وتعالى عما يشركون .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى : " فصل " فإذا تأملت أحوال هذا الخلق رأيت هذا الاختيار والتخصيص فيه ، دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته وكمال حكمته وعلمه وقدرته . وأنه الله الذي لا إله إلا هو ، فلا شريك له يخلق كخلقه ، ويختار كاختياره ، ويدبر كتدبيره . فهذا الاختيار والتدبير والتخصيص ، المشهور أثره في هذا العالم ، من أعظم آيات ربوبيته ، وأكبر شواهد وحدانيته ، وصفات كماله وصدق رسوله . فنشير منه إلى شيء يسير يكون منبهاً على ما وراءه ، دالّاً على ما سواه . فخلق الله السموات سبعاً . فاختار العليا منها فجعلها مستقرَّ المقربين من ملائكته واختصها بالقرب من كرسيّه ومن عرشه . وأسكنها من شاء من خلقه . فلها مزية وفضل على سائر السموات . ولو لم يكن إلا قربها منه تبارك و تعالى . وهذا التفضيل والتخصيص ، مع تساوي مادة السموات ، من أبين الأدلة على كمال قدرته وحكمته ، وأنه يخلق ما يشاء ويختار . ومن هذا تفضيله سبحانه جنة الفردوس على سائر الجنان ، وتخصيصها بأن جعل عرشه سقفها . وفي بعض الآثار : إن الله سبحانه غرسها بيده واختارها لخيرته من خلقه . ومن هذا اختياره من الملائكة ، المصطفين منهم على سائرهم . كجبريل وميكائيل وإسرافيل .

وكذلك اختياره سبحانه للأنبياء من ولد آدم . واختيار الرسل منهم واختياره أولي العزم منهم . واختياره منهم الخليلين إبراهيم ومحمدا صلى الله عليهم وسلم . ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس أنواع بني آدم . ثم اختار منهم بني كنانة بن خزيمة . ثم اختار من ولد كنانة قريشاً . ثم اختار من قريش بني هاشم . ثم اختار من بني هاشم ، سيد ولد آدم محمداً صلى الله عليه وسلم . وكذلك اختار أصحابه من جملة العالمين . واختار منهم السابقين الأولين . واختار منهم أهل بدر وأهل بيعة الرضوان . واختار لهم من الدين أكمله ، ومن الشرائع أفضلها ، ومن الأخلاق أزكاها وأطيبها وأطهرها . واختار أمته

(215/590)

صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم . ومن هذا اختياره سبحانه و تعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها . وهي البلد الحرام . فإنه سبحانه اختاره لنبيّه ، وجعله مناسك لعباده . وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق . فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين ، كاشفي رؤوسهم ، متجردين عن لباس أهل الدنيا .

وجعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم ، ولا تعضد به شجرة ، ولا ينفر له صيد ولا يختلى خلاه

، ولا يلتقط لُقَطته للتملك . بل للتعريف ليس إلا . ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض . فخير الأيام عند الله يوم النحر . وهو يوم الحج الأكبر كما في " السنن " . وأفضل الشهور شهر رمضان . وعشره الأخير أفضل الليالي . وليلة القدر أفضل من ألف شهر . ويوم الجمعة أفضل أيام الأسبوع . ويوم عرفة ويوم النحر أفضل أيام العام . انتهى ملخصاً .

وقد أوسع المقال وجوّد الاستدلال . فرحمه الله ورضي عنه وأرضاه . وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللهِ ﴾ أي : تنزيهاً لله الذي لا يزاحم اختياره اختيارٌ : ﴿ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴾ [69 - 71] .

(216/590)

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ ﴾ أي : تخفي : ﴿ صُدُورُهُمْ ﴾ أي : من الكيد المكر : ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : من الأقوال والأفعال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : وهو المستحق للألوهية والعبادة وحده : ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ أي : لأنه المولى للنعم كلها في الدارين : ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي : القضاء النافذ في كل شيء . يقهر كل شيء على مقتضى مشيئته . ويحكم عليه بموجب إرادته : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : بالبعث للجزاء : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴾ أي : هذا الكلام الحق ، سماع تدبر .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ أي : هذه المنفعة فتقوموا بشكرها : ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي : في الليل : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي : في النهار : ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي : نعمه الظاهرة والباطنة ، والجسمانية والروحانية ، باستعمالها فيما وجب من طاعته . وذلك فيما خلقت له .

(217/590)

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ وَنَزَعْنَا ﴾ أي : وأخرجنا : ﴿ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ أي : نبيّاً يشهد عليهم بما كانوا عليه . كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ [النساء : 41] ، ﴿ فَقُلْنَا ﴾ أي : لكل أمة من تلك الأمم : ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أي : على ما أنتم عليه . أحق هو أم لا ؟ فعجزوا عن آخرهم . وظهر برهان النبيّ ، كما قال تعالى : ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أي : في الألوهية ، لا يشاركه فيها أحد : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي : غاب عنهم غيبة الضائع : ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : من الباطل والمذاهب المختلفة ، والطرق المتشعبة المتفرقة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 549.558 ﴾

(218/590)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) ﴾

مضت قصة موسى عليه السلام بدلالاتها التي وضحت في الدرس الماضي . فأما في هذا الدرس فتبدأ التعقيبات عليها ؛ ثم يمضي السياق في طريقه على محور السورة الأصيل ،

يبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ؛ ويجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير . يجول معهم جولات شتى في مشاهد الكون ، وفي مشاهد الحشر ، وفيما هم فيه من الأمر ؛ بعد أن يعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم صلى الله عليه وسلم وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود . وهو رحمة لهم من العذاب ، لو أنهم كانوا يتذكرون .

والتعقيب الأول على القصة يدور حول دلالتها على صدق دعوى الوحي . فرسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصها شاهد العيان ؛ وما كان حاضر أحداثها ، ولكنه الوحي يقصها عليه من لدن عليم خبير ، رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من الشرك ، ﴿ فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ . .

(219/590)

﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ؛ ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ؛ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من

نذير من قبلك لعلهم يتذكرون . ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتي مثلما أوتي موسى ! أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ قالوا : سحران : تظاهرا . وقالوا : إنا بكل كافرون . قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ . .

والغربي هو الجانب الغربي للطور الذي جعله الله ميقاتاً مع موسى عليه السلام بعد أجل محدد . . ثلاثين ليلة ، أتمها بعشر . فكانت أربعين ليلة (على ما ذكر في سورة الأعراف) وفي هذا الميقات قضي الأمر لموسى في الألواح ، لتكون شريعته في بني إسرائيل . وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً لهذا الميقات ، حتى يعلم نبأه المفصل ، كما ورد في القرآن الكريم . وإن بينه وبين هذا الحادث لقروناً من الناس أي أجيالاً متطاولة : ﴿ ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ﴾ . فتلك دلالة على أن الذي نبأه به هو العليم الخبير ، الذي يوحي إليه بالقرآن الكريم .

ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مدين ، ومقام موسى عليه السلام بها وتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان مقيماً في أهل مدين ، يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك

التفصيل الذي جاءت فيه : ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ بهذا القرآن وما فيه من أنباء السابقين .

(220/590)

كذلك صوَّر القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ وما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم النداء ، وما سجل في وقتها تفصيلاته . ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء ، أن قص عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم فيما يدعوهم إليه ، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله فقد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم ، ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل ، منذ أبيهم إسماعيل : ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ . .

فهي رحمة الله بالقوم ، وهي حجته كذلك عليهم ، كي لا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة ، وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم بالعذاب وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب فأراد الله أن يقطع حجتهم ، وأن يعذر إليهم ، وأن يقفهم أمام نفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان :

﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ،

فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين ! ﴾ . .

كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول . ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات ما يلزم الحجة . ولكنهم حين جاءهم الرسول ، ومعه الحق الذي لا مرية فيه لم يتبعوه :

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : لولا أوتي مثلما أوتي موسى ! أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ قالوا : سحران تظاهرا ، وقالوا : إنا بكل كافرون ﴾ . .

وهكذا لم يذعنوا للحق ، واستمسكوا بالتعلات الباطلة : ﴿ قالوا : لولا أوتي مثلما أوتي موسى ﴾ إما من الخوارق المادية ، وإما من الألواح التي نزلت عليه جملة ، وفيها التوراة كاملة .

(221/590)

ولكنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم ، ولا مخلصين في اعتراضهم : ﴿ أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ ﴾ ولقد كان في الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب ، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة . ولقد علموا أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة ، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق ، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ؛ فلم يذعنوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن

القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويصدق أحدهما الآخر :

﴿ قالوا : سحران تظاهرا . وقالوا : إنا بكل كافرون ﴾ !

فهو المراء إذن واللجاجة ، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ، ولا ضعف الدليل .

ومع هذا فهو يسير معهم خطوة أخرى في الإفحام والإحراج . يقول لهم : إن لم يكن يعجبكم القرآن ، ولم تكن تعجبكم التوراة ؛ فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدى من التوراة والقرآن فأتوا به أتبعه :

﴿ قل : فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين ﴾ !

وهذه نهاية الإنصاف ، وغاية المطاولة بالحجة ، فمن لم يجنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر ، الذي لا يستند إلى دليل :

﴿ فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . .

إن الحق في هذا القرآن لبين ؛ وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصده . وإنهما لطريقان لا ثالث لهما : إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى ، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم . وإما مماراة في الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق . ولا حجة من غموض في العقيدة ، أو ضعف في الحجة ، أو نقص

في الدليل . كما يدعي أصحاب الهوى المغرضون .

﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ . .

(222/590)

وهكذا جزما وقطعا . كلمة من الله لا راد لها ولا معقب عليها . . إن الذين لا يستجيبون لهذا الدين مغرضون غير معذورين . متجنون لا حجة لهم ولا معذرة ، متبعون للهوى ، معرضون عن الحق الواضح :

﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ﴾ . .

وهم في هذا ظالمون باغون :

﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . .

إن هذا النص ليقطع الطريق على المعتذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن ، ولم يحيطوا علماً بهذا الدين . فما هو إلا أن يصل إليهم ، ويعرض عليهم ، حتى تقوم الحجة ، وينقطع الجدل ، وتسقط المعذرة . فهو بذاته واضح واضح ، لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه ، ولا يكذب به إلا متجن يظلم نفسه ، ويظلم الحق البين ولا يستحق هدى الله . ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

ولقد انقطع عذرهم بوصول الحق إليهم ، وعرضه عليهم ، فلم يعد لهم من حجة ولا دليل . .

﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ . .

وحين تنتهي هذه الجولة ، فيتبين منها التواؤهم ومراؤهم ، يأخذ معهم في جولة أخرى تعرض عليهم صورة من استقامة الطبع وخلوص النية . تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم ، وطريقة استقبالهم للقرآن المصدق لما بين أيديهم :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ؛ وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به ، إنه الحق من ربنا ، إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ، ويدرأون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ؛ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم ، لا نبتغي الجاهلين ﴾ .

.

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم : ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ؛ ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . . . إلخ ﴾ . .

وروى محمد بن إسحاق في السيرة : " ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى ، حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد ، فجلسوا إليه وكلموه ، وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلة النبي صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى ، وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام ، في نفر من قريش ، فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ! بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؟ ما نعلم ركباً أحمق منكم ! فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه ، لم نأل أنفسنا خيراً " .

قال : ويقال : إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أي ذلك كان . قال : ويقال والله أعلم : إن فيهم نزلت هذه الآيات : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . . إلخ ﴾ .

قال : وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ قال : ما زلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه رضي الله عنه والآيات اللاتي في سورة المائدة : ﴿ ذلك بأن

منهم قسيسين ورهباناً . . . ﴾ إلى قوله ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ وأياً من كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات ، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع ، يعلمونه ولا ينكرونه . كي يقفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن ، وتطمئن إليه ، وترى فيه الحق ، وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب . ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا من كبرياء ؛ وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء ، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء .

(224/590)

﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ . .

وهذه إحدى الآيات على صحته ، فالكتاب كله من عند الله ، فهو متطابق ، من أوتي أوله عرف الحق في آخره ، فاطمأن له ، وآمن به ، وعلم أنه من عند الله الذي نزل الكتاب كله .

﴿ وإذا يتلى عليهم قالوا : آمنا به . إنه الحق من ربنا .

إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ . . .

فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا الحق من قبل أنه من ذلك المعين ، وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذي لا يكذب . ﴿ إنه الحق من ربنا

﴿ . . ﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ . والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين .

هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل ، ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه :

﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ . .

الصبر على الإسلام الخالص . إسلام القلب والوجه . ومغالبة الهوى والشهوة . والاستقامة على الدين في الأولى والآخرة . أولئك يؤتون أجرهم مرتين ، جزاء على ذلك الصبر ، وهو عسير على النفوس ، وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء والانحراف . وهؤلاء صبروا عليها جميعاً ، وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية ، وكما يقع دائماً للمستقيمين على دينهم في المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة في كل زمان ومكان :

﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ . .

وهذا هو الصبر كذلك . وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية . إنه الاستعلاء على كبرياء النفس ، ورغبتها في دفع السخرية ، ورد الأذى ، والشفاء من الغيظ ، والبرد بالانتقام ! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله . درجة السماحة الراضية . التي ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان ؛ وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه ، فيلقون ما يلقون من

الناس راضين مطمئنين .

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . .

(225/590)

وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال ، عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان . فهما من منبع واحد : منبع الاستعلاء على شهوة النفس ، والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض . الأولى في النفس ، والثانية في المال . وكثيراً ما يردان متلازمين في القرآن .

وصفة أخرى من صفة النفوس المؤمنة الصابرة على الإسلام الخالصة للعقيدة :

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم . لا نبتغي الجاهلين ﴾ . .

واللغو فارغ الحديث ، الذي لا طائل تحته ، ولا حاصل وراءه . وهو الهذر الذي يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زاداً جديداً ، ولا معرفة مفيدة . وهو البذيء من القول الذي يفسد الحس واللسان ، سواء : أوجه إلى مخاطب أم حكي عن غائب .

والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو ، ولا تستمع إلى ذاك الهذر ، ولا تعنى بهذا البذاء . فهي مشغولة بتكاليف الإيمان ، مرتفعة بأشواقه ، متطهرة بنوره :

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ . .

ولكنهم لا يهتاجون ولا يغتاظون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله ، ولا يدخلون معهم في جدل حوله ، لأن الجدل مع أهل اللغو لغو ؛ إنما يتركونهم في موادعة وسلام .

﴿ وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم ﴾ . .

هكذا في أدب ، وفي دعاء بالخير ، وفي رغبة في الهداية . . مع عدم الرغبة في المشاركة :

﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ . .

ولا نريد أن ننفق معهم وقتنا الثمين ، ولا أن نجاريهم في لغوهم أو نسمع إليه صامتين !

إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها .

تفيض بالترفع عن اللغو . كما تفيض بالسماحة والود . وترسم لمن يريد أن يتأدب الله طريقه واضحاً لا لبس فيه . فلا مشاركة للجهال ، ولا مخاصمة لهم ، ولا موجدة عليهم ، ولا ضيق بهم . إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسيء .

(226/590)

هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب لم يزد الرسول صلى الله عليه وسلم في جهاده معهم للإيمان على أن يتلو عليهم القرآن . ووراءه من قومه من جهد جهده ليؤمن ؛ ومن أحب بكل

نفسه أن يهديه للإسلام . فلم يقدر الله له ذلك لأمر يعلمه من نفسه . وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليهدي من يحب . إنما يهدي الله من يعلم من نفسه ما يستحق به الهدى ومن هو مستعد للإيمان . .

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين ﴾ . .

ورد في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان يحوطه وينصره ، ويقف دونه في وجه قريش ، ويحميه حتى يبلغ دعوته ، ويحتمل في سبيل ذلك مقاطعة قريش له ولبني هاشم وحصارهم في الشعب . ولكنه إنما يفعل ذلك كله حباً لابن أخيه ، وحمية وإباء ونخوة . فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والدخول في الإسلام ، فلم يكتب الله له هذا ، لما يعلمه سبحانه من أمره . .

قال الزهري : حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب بن حزن المخزومي رضي الله عنه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية ابن المغيرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عم قل : لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله " فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال : على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لأستغفرن لك ما لم

أنه عنك " فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ . وأنزل في أبي طالب : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ . . . (أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري) .

(227/590)

ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال :

" لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عماه . قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة " فقال : لولا أن تعيرني بها قريش يقولون : ما حمله عليها إلا جزع الموت لأقررت بها عينك . لا أقولها إلا لأقر بها عينك " . ونزل قول الله تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

وروى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة أنها نزلت في أبي طالب . وكان آخر ما قاله : هو على ملة عبد المطلب .

وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذاً بصرامة هذا الدين واستقامته . فهذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكافله وحاميه والذائد عنه ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة

حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حب رسول الله له أن يؤمن . ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة ، ولم يقصد إلى العقيدة . وقد علم الله هذا منه ، فلم يقدر له ما كان يحبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرجوه . فأخرج هذا الأمر أمر الهداية من حصة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعله خاصاً بإرادته سبحانه وتقديره . وما على الرسول إلا البلاغ . وما على الداعين بعده إلا النصيحة . والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن ، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو الضلال .

(228/590)

والآن يجيء السياق إلى قولتهم التي قالوها للرسول صلى الله عليه وسلم معتذرين عن اتباعه مخافة أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة ، التي تعظم الكعبة ، وتدين لسدنتها ، وتعظم أصنامها ، فتتخطفهم تلك القبائل ، أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة دون أن تساندهم هذه القبائل . فيبين لهم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من واقعهم التاريخي ، ومن حاضرهم الذي يشهدونه ، بعد ما أبان لهم في هذه السورة عن ذلك في قصة موسى وفرعون . ويجول معهم جولة في مصارع الغابرين تكشف لهم كذلك عن

أسباب الهلاك الحقيقية ممثلة في البطر وقلة الشكر والتكذيب بالرسل والإعراض عن الآيات . ثم جولة أخرى أبعد تكشف عن حقيقة القيم وتبدو فيها ضآلة الحياة الدنيا كلها ومتاعها إلى جوار ما عند الله .

﴿ وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون . وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون .

وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ؟ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ ﴾ . .

إنها النظرة السطحية القريبة ، ويغري بهم الأعداء ، ويفقدهم العون والنصير ، ويعود عليهم بالفقر والبوار :

﴿ وقالوا : إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ . .

فهم لا ينكرون أنه الهدى ، ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم ينسون الله ، وينسون أنه وحده الحافظ ، وأنه وحده الحامي ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تتخطفهم وهم في حمى الله ؛ وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله . ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم ، ولو خالطهم لتبدلت نظرتهم للقوى ، ولاختلف تقديرهم للأمور ، ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله ، وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة ؛ وأن هذا ليس وهماً وليس قولاً يقال لطمأنة القلوب . إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه ، والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة . فالله خالق هذا الكون ومدبره وفق الناموس الذي ارتضاه له . والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة ، ويأوي إلى ركن شديد ، في واقع الحياة .

إن هدى الله منهج حياة صحيحة . حياة واقعة في هذه الأرض . وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية . وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ؛ ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطهما معاً برباط واحد : صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة ، وعمارة

جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها . بشرط اتباع هدى الله . والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه .

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف ؛ بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة . أمانة الخلافة في الأرض تصريف الحياة .

(230/590)

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم ، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم ، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ . فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان .

وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم .

فمن الذي وهبهم الأمن ؟ ومن الذي جعل لهم البيت الحرام ؟ ومن الذي جعل القلوب تهوي إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعاً ؟ تتجمع في الحرم من كل أرض ، وقد تفرقت في مواطنها

ومواسمها الكثيرة :

﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ؟ ﴾ . .

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله ، والله هو الذي مكن لهم هذا الحرم الآمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ؟ أفمن أمنهم وهم عصاة ، يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ؟ !

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ . .

لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله .

فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقاً ، وأن يأمنوا التخطف حقاً ، فها هي ذي علة الهلاك فليتقوها :

﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ، وكنا نحن الوارثين ﴾ . .

إن بطر النعمة ، وعدم الشكر عليها ، هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ؛ فليحذروا إذن أن يبطروا ، وألا يشكروا ، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها ، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية . . ﴿ لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ . وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها . وتروي قصة البطر بالنعمة ؛ وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحداً ، ولم يرثها بعدهم أحد ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ .

على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولاً . فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده :

﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ . .

وحكمة إرسال الرسول في أم القرى أي كبراها أو عاصمتها أن تكون مركزاً تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم في مكة أم القرى العربية . فهو ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير . ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ . . يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين !

على أن متاع الحياة الدنيا بكامله ، وعرض الحياة الدنيا جميعه ، وما مكنهم الله فيه من الأرض ، وما وهبهم إياه من الثمرات ، وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة ، إن هو إلا شيء ضئيل زهيد ، إذا قيس بما عند الله :

﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها . وما عند الله خير وأبقى . أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ؛ ولا لما يمن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ؛ ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده .

إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ ، وحتى لو كمل ، وحتى لو دام ، فلم يعقبه الهلاك والدمار . إنه كله ﴿ متاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ . . ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ خير في طبيعته وأبقى في مدته .

﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ . .

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك . ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار !

وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة ، ولمن شاء أن يختار :

﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟ ﴾ . .

فهذه صفحة من وعده الله وعداً حسناً فوجده في الآخرة حقاً وهو لا بد لاقيه . وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد ، ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضاراً للحساب . والتعبير يوحي بالإكراه ﴿ من المحضرين ﴾ الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين ، لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد !

وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم : ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين ! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين ، ومعه العطاء في الآخرة والأمان ؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون . ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن . وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار .

وعندما يصل بهم إلى الشاطئ الآخر يجول بهم جولة أخرى في مشهد من مشاهد القيامة ، يصور مغبة ما هم فيه من الشرك والغواية :

﴿ ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل : ادعوا شركاءكم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ، ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ .

﴿ ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون . فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً ، فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ . .

والسؤال الأول للتوبيخ والتأنيب :

﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ ﴾ . .

والله يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء ، وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئاً ، ولا يستطيعون إليهم سبيلاً . ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد .

(233/590)

ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال ، فليس المقصود به هو الجواب ! إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم ، وصدهم عن هدى الله ، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم ، فيقولون :

﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا ؛ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ !

ربنا إننا لم نغوهم قسراً ، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم ؛ إنما هم وقعوا في الغواية عن رضى منهم واختيار ، كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار .

﴿ تبرأنا إليك ﴾ من جريمة إغوائهم . ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ إنما كانوا يعبدون

أصناماً وأوثاناً وخلقاً من خلقك ، ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة ، ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة !

عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التي حولوا الحديث عنها . مخزاة الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله :

﴿ وقيل : ادعوا شركاءكم ﴾ . .

ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم ! ادعوهم ليلبوكم وينقذوكم ! ادعوهم فهذا يومهم وهذه فائدتهم ! والبائسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم ، ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين :

﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ . . .

ولم يكن منتظراً غير ذاك ، ولكنه الإذلال والإعنات !

﴿ ورأوا العذاب ﴾ . .

رأوه في هذا الحوار . ورأوه ماثلاً وراءه . فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب .

وهنا في اللحظة التي يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذي يرفضونه ، وهو أمنية المتمني في ذلك الموقف المكروب : وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون :

﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ . .

ثم يعود بهم إلى ذلك المشهد المكروب :

﴿ ويوم يناديهم فيقول ، ماذا أجبتم المرسلين ؟ ﴾ . .

وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصمت . ذهول المكروب وصمت الذي لا يجد ما يقول :

﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ .

(234/590)

والتعبير يلقي ظل العمى على المشهد والحركة . وكأنما الأنباء عمياء لا تصل إليهم ، وهم لا يعلمون شيئاً عن أي شيء ! ولا يملكون سؤالاً ولا جواباً . وهم في ذهولهم صامتون ساكتون !

﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ . .

وهذه هي الصفحة المقابلة . ففي الوقت الذي يبلغ الكرب ذروته بالمشركين ، يتحدث عمن تاب وآمن وعمل صالحاً ، وما ينتظره من الرجاء في الفلاح . ولمن شاء أن يختار . وفي الوقت فسحة للاختيار !

ثم يرد أمرهم وأمر كل شيء إلى إرادة الله واختياره ؛ فهو الذي يخلق كل شيء ، ويعلم كل شيء ، وإليه مرد الأمر كله في الأولى والآخرة ، وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم في الدنيا وله الرجعة والمآب . وما يملكون أن يختاروا لأنفسهم ولا لغيرهم ، فالله يخلق ما يشاء

ويختار :

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ . .

وهذا التعقيب يجيء بعد حكاية قولهم : ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ وبعد استعراض موقفهم يوم الحساب على الشرك والغواية . . يجيء لتقرير أنهم لا يملكون الاختيار لأنفسهم فيختاروا الأمن أو المخافة ! ولتقرير وحدانية الله ورد الأمر كله إليه في النهاية .

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار . ما كان لهم الخيرة ﴾ . .

(235/590)

إنها الحقيقة التي كثيراً ما ينساها الناس ، أو ينسون بعض جوانبها . إن الله يخلق ما يشاء ؛ لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئاً ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئاً ، ولا أن يعدل أو يبدل في خلقه شيئاً . وإنه هو الذي يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ؛ ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصاً ولا حادثاً ولا

حركة ولا قولاً ولا فعلاً . . ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ لا في شأن أنفسهم ولا في شأن غيرهم ، ومرد الأمر كله إلى الله في الصغير والكبير . .

هذه الحقيقة لو استقرت في الأخلاد والضمائر لما سخط الناس شيئاً يحل بهم ، ولا استخفهم شيء ينالونه بأيديهم ، ولا أحزنهم شيء يفوتهم أو يفلت منهم . فليسوا هم الذين يختارون ، إنما الله هو الذي يختار .

وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإرادتهم ونشاطهم . ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع بعد أن يبذلوا ما في وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار بالرضى والتسليم والقبول . فإن عليهم ما في وسعهم والأمر بعد ذلك لله .

ولقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة ؛ والله وحده هو الخالق المختار لا شريك له في خلقه ولا في اختياره . .

﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ . .

﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ . .

فهو مجازيهم بما يعلم من أمرهم ، مختار لهم ما هم له أهل ، من هدى أو ضلال .

﴿ وهو الله لا إله إلا هو ﴾ . . فلا شريك له في خلق ولا اختيار .

﴿ له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ . . على اختياره ، وعلى نعمائه ، وعلى حكمته وتدبيره ، وعلى عدله ورحمته ، وهو وحده المختص بالحمد والثناء .

﴿ وله الحكم ﴾ . . يقضي في عباده بقضائه ، لا راد له ولا مبدل لحكمه .

﴿ وإليه ترجعون ﴾ . . فيقضي بينكم قضاءه الأخير . . .

(236/590)

وهكذا يطوقهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته في هذا الوجود واطلاعه على سرهم وعلانيتهم فلا تخفى عليه منهم خافية ؛ وإليه مرجعهم فلا تشرد منهم شاردة . فكيف يشركون بالله بعد هذا وهم في قبضته لا يفلتون ؟

ثم يجول بهم جولة في مشاهد الكون الذي يعيشون فيه غافلين عن تدبير الله لهم ، واختياره لحياتهم ومعاشهم ؛ فيوقظ مشاعرهم لظاهرتين كونيتين عظيمتين . ظاهرتي الليل والنهار ، وما وراءهما من أسرار الاختيار والشهادة بوحدانية الخالق المختار :

﴿ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ﴾ . .

والناس لطول ما اعتادوا من كر الجديدين ينسون جدتهما المتكررة التي لا تبلى .

ولا يروعهم مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلاً . ولا يهزهم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادراً . ولا يتدبرون ما في تواليهما من رحمة بهم وإنقاذ من البلى والدمار ، أو التعطل والبوار ، أو الملل والهمود .

والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة ، ويلفتهم إلى تملي الكون من حولهم ومشاهده العظيمة ؛ وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبداً أو النهار أبداً ، وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك . وما يشعر الإنسان بقيمة الشيء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان .

﴿ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ ﴾ . .

(237/590)

والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلاً في أيام الشتاء ، ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب ! فكيف بهم لو فقدوا الضياء . ولو دام عليهم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ؟ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار ، لو لم يطلع عليها النهار !

﴿ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ﴾ . .

والناس يستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار . ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات في الصيف . ويجدون في ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار . والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار .

فكيف بالناس لو ظل النهار سرمداً إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار !

ألا إن كل شيء بقدر . وكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون بتدبير . وكل شيء عنده بمقدار :

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . .

فالليل سكينة وقرار ، والنهار نشاط وعمل ، والمتجه فيه إلى فضل الله . فما يعطي الناس شيئاً إلا من فضله ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة ، وما دبره لكم واختاره من توالي الليل والنهار ، ومن كل سنن الحياة التي لم تختاروها ، ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تغفلون عنها لطول الإلف والتكرار .

ويختم هذه الجولات بمشهد سريع من مشاهد القيامة يسألهم فيه سؤال استنكار عما

زعموا من شركاء . ويقفهم وجهاً لوجه أمام أباطيلهم المدعاة ، حيث تتذاوب وتتهاوى في موقف السؤال والحساب :

﴿ ويوم يناديهم فيقول : أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا : هاتوا برهانكم . فعلموا أن الحق لله ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ . .

(238/590)

وتصوير يوم النداء ، وما فيه من سؤال عن الشركاء ، قد سبق في جولة ماضية . فهو يعاد هنا لتوكيده وتثبيته بمناسبة المشهد الجديد الذي يعرض هنا .

مشهد نزع شهيد من كل أمة . وهو نبيها الذي يشهد بما أجابته وما استقبلت به رسالته . والنزع حركة شديدة ، والمقصود إقامته وإبرازه وإفراده من بينهم ليشهده قومه جميعا وليشهد قومه جميعا . وفي مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا وما فعلوا . وليس لديهم برهان ولا سبيل لهم يومئذ إلى المكابرة :

«فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ» . . الحق كله خالصا لا شبهة فيه ولا ريبة .

وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» . . من شرك ومن شركاء ، فما هو بواجدهم وما هم بواجديه ! في وقت حاجتهم إليه في موقف الجدل والبرهان ! بهذا تنتهي التعقيبات على

قصة موسى وفرعون . وقد طوفت بالنفوس والقلوب في تلك الآفاق والعوالم والأحداث والمشاهد . وردتها من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الآخرة إلى الدنيا . وطوقت بها في جنبات الكون وفي أغوار النفس ، وفي مصارع الغابرين ، وفي سنن الكون والحياة . متناسقة كلها مع محور السورة الأصيل . ومع القصتين الرئيسيتين في السورة : قصة موسى وفرعون . وقصة قارون . وقد مضت الأولى . فلنستعرض الثانية بعد تلك التعقيبات وهذه الجولات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2695 . 2709 ﴾

(239/590)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/591)

الجزء الحادى والتسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 76 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 83 ﴾ من نفس السورة

(4/591)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ

الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دل على عجزهم في تلك الدار ، وعلمهم أن المتصرف في جميع الأقدار ، إنما هو الواحد القهار ، دل على أن ذلك له أيضاً في هذه الدار وقوع العلم به بإهلاك أولي البطر ، والمرح والأثر ، من غير أن يغنوا عمن أضلوا ، أو يغني عنهم من أضلهم من ناطق ، وما أضلهم من صامت ، تطبيقاً لعموم ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ على بعض الجزئيات ، تخويفاً لمن كذب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لا سيما من نسبه إلى السحر ، وإعلاماً بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يقاطعون الأشقياء وإن كانوا أقرب الأقرباء ، لأنه سبحانه عذب قارون ومن كان معه بعذاب لم يسبقهم فيه أحد ، وهم من بني إسرائيل ومن أقرب بني إسرائيل إلى موسى عليه الصلاة والسلام ، فعلم كان من كان اغتر بما أوتيه أن الحق لله في كل ما دعت إليه رسله ، ونطقت به كتبه ، وضل عنهم ما كانوا يفتقرون ، ولم يغن عنهم شيئاً ما اعتمدوا عليه ، فكان معبودهم في الحقيقة مما جمعوه من حطام الدنيا فاعتدوا أنهم نالوا به السعادة الدائمة والعز الباقي ، فكان مثله – كما يأتي في التي بعده – كمثل العنكبوت

اتخذت بيتاً ، وكل ذلك بمرأى من موسى عليه الصلاة والسلام حين كذبه ونسبه إلى السحر وتكبر عليه ، فلم يسأل الله تعالى فيه لخروجه باستكباره من الوعد بالمنة على الذين استضعفوا في الأرض ، وكان ذلك العذاب الذي عذبوا به من جنس ما عذب به فرعون في الصورة من حيث إنه تغييب وإن كان ذلك في مائع ، وهذا صلب جامد ، ليعلم أنه قادر على ما يريد ، ليدوم منه الحذر ، فيما سبق منه القضاء والقدر ، ونزع موسى عليه الصلاة والسلام من كل سبط من أسباط بني إسرائيل شهيداً من عصبهم وقال لهم : هاتوا برهانكم فيها ، فعلموا بإبراق عصا هارون عليه الصلاة والسلام دون عصيهم أن الحق لله في أمر الحبورة وفي جميع أمره فقال : ﴿إن قارون﴾ ويسمى في التوراة قورح ، ثم بين سبب التأكيد بقوله : ﴿كان﴾ أي كوناً متمكناً ﴿من قوم

(5/591)

موسى﴾ تنبيهاً على أنه جدير بأن ينكر كونه كذلك لأنه فعله معهم لا يكاد يفعله أحد مع قومه ، وذلك أنه كان من الذين آمنوا به وقلنا فيهم ﴿ونريد أن نمن على الذين﴾ إلى آخره ، لأنه ابن عم موسى عليه الصلاة والسلام على ما حكاه أبو حيان وغيره عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿فبغى عليهم﴾ أي تجاوز الحد في احتقارهم بما خولناه فيه من هذا

الحطام المتلاشي ، والعرض الفاني ، فقطع ما بينه وبينهم من الوصلة ، ووصل ما بينه وبين فرعون وأضرابه ، من الفرقة ، فأخرجه ذلك من حوزة المنة والأمانة والوراثة إلى دائرة الهلاك والحقارة والخيانة ، كما بغى عليهم فرعون ؛ وكان أصل " بغى " هذه : أراد ، لكن لما كان العبد لا ينبغي أن يكون له إرادة ، بل الإرادة لسيده كما نبه عليه ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ ، جعلت إرادته تجاوز الحد ، وعديت ب " على " المقتضية للاستعلاء تنبيهاً على خروجها عن أصلها .

ولما ذكر بغيه ، ذكر سببه الحقيقي ، فقال : ﴿ وآتيناه ﴾ أي ومع كوننا أنعمنا عليه بجعله من حزب أصفيائنا آتيناه بعظمتنا ﴿ من الكنوز ﴾ أي الأموال المدفونة المدخرة ، فضلاً عن الظاهرة التي هي بصدد الإنفاق منه لما عساه يعرض من المهمات ﴿ ما ﴾ أي الذي أو شيئاً كثيراً لا يدخل تحت حصر حتى ﴿ إن مفاتحه ﴾ أي مفاتح الأغلاق التي هو مدفون فيما وراء أبوابها ﴿ لتنوء ﴾ أي تميل بجهد ومشقة لثقلها ﴿ بالعصبة ﴾ أي الجماعة الكثيرة التي يعصب – أي يقوي – بعضهم بعضاً ، وفي المبالغة بالتعبير بالكنوز والمفاتيح والنوء والعصبة الموصوفة ما يدل على أنه أوتي من ذلك ما لم يؤته أحد ممن هو في عداده ، وكل ذلك مما تستبعده العقول ، فلذلك وقع التأكيد ﴿ أولي القوة ﴾ أي تميلهم من أثقالها إياهم ، والنوء : الميل ، قال الرازي : والنوء : الكوكب مال عن العين عند الغروب ، يقال : ناء بالحمل – إذا نهض به مثقلاً ، وناء به الحمل – إذا أماله لثقله .

ولما ذكر بغيه ، ذكر وقته ، والوقت قد يكون واسعاً كما نقول : جرى كذا عام كذا ، وفيه التعرض للسبب فقال : ﴿ إذ قال له ﴾ وقال : ﴿ قومه ﴾ إشارة إلى تناهي بغيه بافتخاره وكبره على أقاربه الذين جرت العادة أن لا يغضب كلامهم ولا يؤرث التعزر عليهم ولا يحمل إلا على النصح والشفقة ، وساغت نسبة القول للكل وإن كان القائل البعض ، بدليل ما يأتي ، إما عداً للساكت قائلاً لرضاه به لأنه مما لا يأباه أحد ، وإما لأن أهل الخير هم الناس ، ومن عداهم عدم : ﴿ لا تفرح ﴾ أي لا تسر سروراً يحفر في قلبك فيتغلغل فيه فيحرفك إلى الأشر والمرح ، فإن الفرح بالعرض الزائل يدل على الركون إليه ، وذلك يدل على نسيان الآخرة ، وذلك على غاية الجهل والطيش وقلة التأمل للعواقب ، فيجر إلى المرح فيجر إلى الهلاك ، قال الرزاي : ومن فرح بغير مفروح به استجلب حزناً لا انقضاء له ، وعللوا نهيهم له بما يفهم أشد الشفقة والمحبة فقالوا مؤكدين لاستبعاد من يرى تواصل النعم السارة على أحد أن يكون غير محبوب : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال فلا شيء أجل منه ، فبه ينبغي أن يفرح ﴿ لا يحب ﴾ أي لا يعامل معاملة المحبوب ﴿ الفرحين ﴾ أي الراسخين في الفرح بما يفنى ، فإن فرحهم يدل على سفول الهمم .

ولما كان ترك الفرح سبباً للزهد ، وهو سبب القرب إلى الله ، كان كأن قيل : وازهد فيه إن الله يحب الزاهدين ﴿ وابتغ ﴾ أي اطلب طلباً تجهد نفسك فيه ﴿ فيما آتاك الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الأمر كله من هذه الأموال حال تمكنك ﴿ الدار الآخرة ﴾ بإنفاقه فيما يحبه الله بحيث يكون ابتغاؤك ذلك مظروفاً له فيكون كالروح والمؤتى كالجسد ليكون حياً بذلك الابتغاء ، فلا يكون منه شيء بغير حياة ، فإن فعلك لذلك يذكرك أن هذه الدار دار قلعة وارتحال ، وكل ما فيها إلى زوال ، وذلك يوجب الزهد في جميع ما فيها من الأموال .

(7/591)

ولما كان ذلك شديد المشقة على النفوس مع ما فيه من شائبة الاتهام قالوا : ﴿ ولا تنس ﴾ أي تترك ترك الناسي ﴿ نصيبك من الدنيا ﴾ ترك المنسي ، بل استعمل المباحات من المآكل والملابس والمناكح والمساكن وما يلائمها ، وليكن استعمالك لذلك – كما دل عليه السياق – من غير إسراف ولا مخيلة توجب ترك الاتصاف بالإنصاف ؛ وعن علي ـ رضى الله عنه ـ : ولا تنس صحتك وقوتك ونشاطك وغناك أن تطلب به الآخرة .

ولما أطلق له الاقتصاد في التمتع بالزاد ، وكانت النفس مجبولة على الشره ، فإذا أذن لها من

الدنيا في نقير جعلته أكبر كبير ، أتبعوا ذلك ما لعله يكف من شرهها فقالوا : ﴿ وأحسن ﴾ أي أوقع الإحسان بدفع المال إلى المحاويج ، والإنفاق في جميع الطاعات ﴿ كما أحسن الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ، المتردي برداء العظمة والجلال ﴿ إليك ﴾ بأن تعطي عطاء من لا يخاف الفقر كما أوسع عليك .

ولما كانت النفس من شأنها إن لم تزم بزمام الشرع الإسراف والإجحاف ، قالوا : ﴿ ولا تبغ ﴾ أي لا ترد إرادة ما ﴿ الفساد في الأرض ﴾ بتقتير ولا تبذير ، ولا تكبر على عباد الله ولا تحقير ، ثم أتبع ذلك علته مؤكداً لأن أكثر المفسدين يبسط لهم في الدنيا ، وأكثر الناس يستبعد أن يبسط فيها لغير محبوب ، فقيل : ﴿ إن الله ﴾ أي العالم بكل شيء ، القدير على كل شيء ﴿ لا يحب المفسدين ﴾ أي لا يعاملهم معاملة من يحبه ، فلا يكرمهم .

ولما كان مما قالوه أن الذي أعطاه ذلك إنما هو الله ، وكان قد أبطرته النعمة حتى على خالقه حتى حصل التشوف إلى جوابه فقيل في أسلوب التأكيد لأن كل أحد يعلم من نفسه العجز ، وأن غيره ينكر عليه فيما يدعي أنه حصله بقوته : ﴿ قال إنما أوتيته ﴾ أي هذا المال ﴿ على علم ﴾ حاصل ﴿ عندي ﴾ فأنا مستحق لذلك ، وذلك العلم هو السبب في حصوله ، لا فضل لأحد عليّ فيه – بما يفيده التعبير بإنما ، وبناء الفعل للمجهول إشارة إلى عدم علمه بالمؤتى من هو ، وقد قيل : إن ذلك العلم هو الكيمياء .

ولما كان التقدير : ألا يخاف أن يسلبه الله – عقوبة له على هذا – علمه وماله ونفسه ؟ ألم يعلم أن ذلك إنما هو بقدرة الله ؟ لا صنع له في الحقيقة في ذلك أصلاً ، لأن الله قد أفقر من هو أجل منه حيلة وأكثر علماً ، وأعطى أكثر منه من لا علم له ولا قدرة ، فهو قادر على إهلاكه ، وسلب ما معه وإفنائه ، كما قدر على إيتائه ، عطف عليه قوله منكراً عليه : ﴿ أولم يعلم أن الله ﴾ أي بما به من صفات الجلال والعظمة والكمال ﴿ قد أهلك ﴾ ونبه على أنه لم يتعظ مع مشاهدته للمهلكين الموصوفين مع قرب الزمان بإدخال من في قوله : ﴿ من قبله ﴾ ولو حذفها لاستغرق الإهلاك على ذلك الوصف جميع ما تقدمه من الزمان ﴿ من القرون ﴾ أي الذين هم في الصلابة كالقرون ﴿ من هو أشد منه ﴾ أي قرون ﴿ قوة ﴾ أي في البدن ، والمعاني من العلم وغيره ، والأنصار والخدم ﴿ وأكثر جمعاً ﴾ في المال والرجال ، آخرهم فرعون الذي شاوره في ملكه ، وحقق أمره يوم مهم هلكه ، وكان يستعبده أمثالة ويسومهم سوء العذاب ، ولم يعاملهم معاملة من يحبه ولا امتنع عليه ذلك لعلم عند أحد منهم ولا جمع ، بل أخذهم لبغيهم وقبح تقلبهم وسعيهم .

(9/591)

ولما كانت عادة أهل الدنيا أنهم إذا غضبوا من أحد فأرادوا إهلاكه عاتبوه ، فتارة يحلف على نفي الذنب فيقبل منه وإن كان كاذباً ، وتارة يكشف الحال عن أن باطن أمره على خلاف ما ظهر من شره ، فيكون له عذر خفي ، أشار سبحانه إلى أن ذلك لا يفعله إلا جاهل بحقائق الأمور ومقادير ما يستحق على كل ذنب من العقوبة ، وأمل المطلع على بواطن الضمائر وخفايا السرائر فغني عن ذلك ، فقال تعالى ذاكراً لحال المفعول وهو ﴿ من ﴾ : ﴿ ولا ﴾ أي أهلكهم والحال أنهم لا يسألون – هذا الأصل ، ولكنه قال : ﴿ يسأل ﴾ أي من سائل ما ﴿ عن ذنوبهم المجرمون ﴾ فأظهر لإفادة أن الموجب للإهلاك الإجرام ، وهو قطع ما ينبغي وصله بوصل ما ينبغي قطعه ، ولهذا سبب وعقب عن وعظهم الحسن وجوابه الخشن قوله سبحانه دليلاً على إجرامه ، وطغيانه في آثامه : ﴿ فخرج على قومه ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 516.520 ﴾

(10/591)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾

اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام ، وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد أمن به ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة ، قال الكلبي : إنه كان ابن عم موسى عليه السلام ، لأنه كان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى ، وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن إسحق إنه كان عم موسى عليه السلام ، لأن موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون بن يصهر بن قاهث .

وعن ابن عباس أنه كان ابن خالته ، ثم قيل إنه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ، إلا أنه نافق كما نافق السامري .

(11/591)

أما قوله : ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ ففيه وجوه أحدها : أنه بغى بسبب ماله ، وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الإيمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله والثاني : أنه من الظلم ، قيل ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم الثالث : قال القفال : بغى عليهم ، أي طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده الرابع : قال الضحاك : طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوفقهم في أمر الخامس : قال ابن عباس : تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم السادس : قال شهر بن حوشب : بغيه عليهم أنه زاد عليهم في الثياب شبراً ، وهذا يعود إلى التكبر السابع : قال

الكلبي : بغيه عليهم أنه حسد هرون على الحبورة ، يروى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون ، فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح ، وكان لموسى الرسالة ، فوجد قارون من ذلك في نفسه ، فقال يا موسى لك الرسالة ، ولهرون الحبورة ، ولست في شيء ولا أصبر أنا على هذا ، فقال موسى عليه السلام : والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له ، فقال والله لا أصدقك أبداً حتى تأتيني بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهرون ، قال فأمر موسى عليه السلام رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه ، فجاءوا بها ، فألقاها موسى عليه السلام في قبة له ، وكان ذلك بأمر الله تعالى ، فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك ، فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز ، فقال موسى : يا قارون أما ترى ما صنع الله لهرون ! فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر ، فاعتزل قارون ومعه ناس كثير ، وولى هرون الحبورة والمذبح والقربان ، فكان بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هرون فيضعها في المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها ، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بني إسرائيل ، فما كان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه ، وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال :

" كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى " .

أما قوله : ﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ أُوْلِى القوة ﴾ ففيه أبحاث :

الأول : قال الكعبي : ألستم تقولون إن الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله : ﴿ وَءاتَيْنَاهُ ﴾ وأجاب بأنه لا حجة في أنه كان حراماً ، ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك ، وكان هذا الظفر طريق التملك ، أو وصل إليه بالإرث من جهات ، ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملاً .

البحث الثاني : المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو ما يفتح به ، وقيل هي الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم ، ويقال ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها ، فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم .

(13/591)

إذا عرفت معنى الألفاظ فنقول : ههنا قولان أحدهما : أن المراد بالمفاتح المفاتيح وهي التي يفتح بها الباب ، قالوا كانت مفاتيحه من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع ، وكان لكل خزانة مفتاح ، وكان إذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلاً ، ومن الناس من طعن في هذا القول من وجهين الأول : أن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ، ولو أنا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح ، فأي حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح الثاني : أن الكنوز هي الأموال المدخرة في الأرض ، فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح والجواب : عن الأول أن المال إذا كان من جنس العروض ، لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة إلى هذا الحد ، وأيضاً فهذا الذي يقال إن تلك المفاتيح بلغت ستين حملاً ، ليس مذكوراً في القرآن فلا تقبل هذه الرواية ، وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة ، وكان كل واحد منها معيناً لشيء آخر ، فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها ، وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد ، وعن الثاني أن ظاهر الكنز وإن كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق القول الثاني : وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشبهة أبعد .

(14/591)

قال ابن عباس : كانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء ، وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف القول الثالث : وهو اختيار أبي مسلم : أن المراد من المفاتح العلم والإحاطة كقوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [الأنعام : 59] والمراد آتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولي القوة والهداية ، أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها ، ثم إنه تعالى بين أنه كان في قومه من وعظه بأمور أحدها : قوله : ﴿ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ والمراد لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلاً ، وقال بعضهم : إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن إليها ، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبي :

أشد الغم عندي في سرور . . تيقن عنه صاحبه انتقالا

(15/591)

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى : ﴿ لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ [الحديد : 23] قال ابن عباس : كان فرحه ذلك شركاً ، لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى وثانيها : قوله : ﴿ وابتغ فِيمَا ءاتَاكَ الله الدار الأخرة ﴾ والظاهر أنه

كان مقراً بالآخرة ، والمراد أن يصرف المال إلى ما يؤديه إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع وثالثها : قوله : ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ وفيه وجوه أحدها : لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا فلأجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك وثانيها : لما أمره الواعظ بصرف المال إلى الآخرة بين له بهذا الكلام أنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة وثالثها : المراد منه الإنفاق في طاعة الله فإن ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب قال عليه السلام : " فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار " ورابعها : قوله : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ لما أمره بالإحسان بالمال أمره بالإحسان مطلقاً ويدخل فيه الإعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر ، وإنما قال : ﴿ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ تنبيهاً على قوله : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] وخامسها : قوله : ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض ﴾ والمراد ما كان عليه من الظلم والبغي وقيل إن هذا القائل هو موسى عليه السلام ، وقال آخرون بل مؤمنو قومه ، وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما لو قيل لم يكن عليه مزيد ، لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال : إنما أوتيته على علم عندي وفيه وجوه : أحدها : قال قتادة ومقاتل والكلبي : كان قارون أقرأ بني إسرائيل للتوراة فقال : إنما أوتيته لفضل علمي واستحقاقي

لذلك وثانيها : قال سعيد بن المسيب والضحاك : كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهباً وثالثها : أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات ورابعها : أن يكون قوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ أي الله أعطاني ذلك مع كونه عالماً بي وبأحوالي فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله : ﴿ عِندِى ﴾ أي عندي أن الأمر كذلك ، كما يقول المفتى عندي أن الأمر كذلك أي مذهبي واعتقادي ذلك ، ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ وفيه وجهان : الأول : يجوز أن يكون هذا إثباتاً لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له : أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته الثاني : يجوز أن يكون نفياً لعلمه بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندي فتصلف بالعلم وتعظم به ، قيل أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا

العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ؟ .

أما قوله : ﴿ وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ فالمعنى أكثر جمعاً للمال أو أكثر جماعة وعدداً ، وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم ، وأنه تعالى إذا أراد إهلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافاً .

(17/591)

فأما قوله : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ فالمراد أن الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها ، لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به إلى السؤال ، فإن قيل كيف الجمع بينه وبين قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] قلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه ، وذكر أبو مسلم وجهاً آخر فقال : السؤال قد يكون للمحاسبة ، وقد يكون للتقرير والتبكيت ، وقد يكون للاستعتاب ، وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله : ﴿ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل : 84] ﴿ هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (المرسلات 35 ، 36) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 12.15 ﴾

(18/591)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي مَعْنَى النَّصِيبِ : وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : لَا تَنْسَ حَظَّك مِنْ الدُّنْيَا أَيْ لَا تَغْفُلْ أَنْ تَعْمَلَ فِي الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عُمَرَ : " احْرُثْ لِدُنْيَاك كَأَنَّك تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِك كَأَنَّك تَمُوتُ غَدًا " .

الثَّانِي : أَمْسِكْ مَا يَبْلُغُك ، فَذَلِكَ حَظُّ الدُّنْيَا .

وَأَنْفِقْ الْفَضْلَ ، فَذَلِكَ حَظُّ الْآخِرَةِ .

الثَّالِثُ : لَا تَغْفُلْ شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْك .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إلَيْك ﴾

ذُكِرَ فِيهِ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ ، جِمَاعُهَا اسْتَعْمِلْ نِعَمَ اللَّهِ فِي طَاعَتِهِ وَقَالَ مَالِكٌ : مَعْنَاهَا تَعِيشُ وَتَأْكُلُ وَتَشْرَبُ غَيْرَ مُضَيِّقٍ عَلَيْك فِي رَأْيٍ .

قَالَ الْقَاضِي : أَرَى مَالِكًا أَرَادَ الرَّدَّ عَلَى مَنْ يَرَى مِنْ الْغَالِينَ فِي الْعِبَادَةِ التَّقَشُّفَ وَالتَّقَصُّفَ وَالْبَأْسَاءَ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْكُلُ الْحَلْوَى ، وَيَشْرَبُ الْعَسَلَ ، وَيَسْتَعْمِلُ الشِّوَاءَ ، وَيَشْرَبُ الْمَاءَ الْبَارِدَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْحَسَنُ : أُمِرَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ مَالِهِ قَدْرَ عَيْشِهِ ،

وَيُقَدِّمَ مَا سِوَى ذَلِكَ لِآخِرَتِهِ .

وَأَبْدَعُ مَا فِيهِ عِنْدِي قَوْلُ قَتَادَةَ : وَلَا تَنْسَ الْحَلَالَ ، فَهُوَ نَصِيبُكَ مِنْ الدُّنْيَا ، وَيَا مَا أَحْسَنَ هَذَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 3 صـ ﴾

(19/591)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى ﴾

قال ابن عباس : كان ابن عمه ، قاله قتادة : ابن عم موسى أخي أبيه وكان قطع البحر مع بني إسرائيل وكان يسمى : المنور ، من حسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري .

﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ فيه ستة أقاويل

: أحدها : بغيه عليهم أنه كفر بالله ، قاله الضحاك .

الثاني : أنه زاد في طول ثيابه شبراً ، قاله شهر بن حوشب .

الثالث : أنه علا عليهم بكثرة ماله وولده ، قاله قتادة .

الرابع : أنه صنع بغياً ، حين أمر الله موسى برجم الزاني فعمد قارون إلى امرأة بغي

فأعطاها مالاً وحملها على أن ادعت عليه أنه زنى بها وقال : فأنت قد زنيت . وحضرت البغي فادّعت ذلك عليه فعظم على موسى ما قالت وأحلفها بالله الذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلاّ صدقت فقالت : أشهد أنك بريء وأن قارون أعطاني مالاً وحملني على أن قلت وأنت الصادق وقارون الكاذب فكان هذا بغيه ، قاله ابن عباس ، قال السدي : وكان اسم البغي شجرتا وبذلك لها قارون ألفي درهم .

الخامس : أنه كان غلاماً لفرعون فتعدى على بني إسرائيل وظلمهم ، قاله يحيى بن سلام

. السادس : أنه نسب ما آتاه الله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ، قاله ابن بحر .

﴿ وَءَاتَيْنَهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ فيه قولان

: أحدهما : أنه أصاب كنزاً من كنوز يوسف عليه السلام ، قاله عطاء .

الثاني : أنه كان يعمل الكيمياء ، قاله الوليد .

﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ فيه أربعة أقاويل

: أحدها : خزائنه ، قاله السدي وأبو رزين .

الثاني : أوعيته ، قاله الضحاك .

الثالث : مفاتيح خزائنه وكانت من جلود يحملها أربعون بغلاً .

الرابع : أن مفاتيح الكنوز إحاطة علمه بها ، حكاه ابن بحر لقول الله ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ [الأنعام : 59] .

﴿ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ ﴾

فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : لتثقل العصبة ، قاله ابن عباس وأبو صالح والسدي .

الثاني : لتميل بالعصبة ، قاله الربيع بن أنس مأخوذ من النأي وهو البعد قال الشاعر :

ينأوْن عنا وما تنأى مودتهم . . . والقلب فيهم رهين حيثما كانوا

الثالث : لتنوء به العصبة كما قال الشاعر :

إنّا وجدنا خلفاً بئس الخلف . . . عبداً إذا ما ناء بالحمل خضف

والعصبة الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض واختلف في عددهم على سبعة أقاويل :

أحدها : سبعون رجلاً ، قاله أبو صالح .

الثاني : أربعون رجلاً ، قاله الحكم وقتادة والضحاك .

الثالث : ما بين العشرة إلى الأربعين ، قاله السدي .

الرابع : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر ، قاله مجاهد .

الخامس : ستة أو سبعة . قاله ابن جبير .

السادس : ما بين الثلاثة والتسعة وهم النفر ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

السابع : عشرة لقول إخوة يوسف ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] قاله الكلبي ومقاتل .

وزعم أبو عبيدة أن هذا من المقلوب تأويله : إن العصبة لتنوء بالمفاتح .

﴿ أُوْلِي الْقُوَّةِ ﴾ قال السدي أولي الشدة

. ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه قول المؤمنين منهم ، قاله السدي .

الثاني : قول موسى ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه

: أحدها : لا تبغ إن الله لا يحب الباغين ، قاله مجاهد .

الثاني : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين ، قاله ابن بحر .

الثالث : لا تبطر إن الله لا يحب البطرين ، قاله السدي ، وقال الشاعر :

ولست بمفراحٍ إذا الدهر سَرَّني . . . ولا جازعٍ من صرفه المتغلب

قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : طلب الحلال في كسبه ، قاله الحسن .

الثاني : أنه الصدقة وصلة الرحم ، قاله السدي .

ويحتمل ثالثاً : وهو أعم أن يتقرب بنعم الله إليه ، والمراد بالدار الآخرة الجنة .

(21/591)

﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

. أحدها : لا تنس حظك من الدنيا أن تعمل فيها لآخرتك ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا تنس استغناك بما أحل الله لك عما حرمه عليك ، قاله قتادة .

الثالث : لا تنس ما أنعم الله عليك أن تشكره عليه بالطاعة وهذا معنى قول ابن زيد .

الثاني : وأحسن فيما افترض الله عليك كما أحسن في إنعامه عليك ، وهذا معنى قول يحيى بن سلام .

الثالث : أحسن في طلب الحلال كما أحسن إليك في الإحلال .

﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يحتمل وجهين

: أحدهما : لا عمل فيها بالمعاصي .

الثاني : لا تقطع .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لا يحب أعمال المفسدين ، قاله ابن عباس .

الثاني : لا يقرب المفسدين ، قاله ابن قتيبة .

قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي . . . ﴾

فيه خمسة أوجه

: أحدها : أي بقوتي وعلمي ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : على خير وعلم عندي ، قاله قتادة .

الثالث : لرضا الله عني ومعرفته باستحقاقي ، قاله ابن زيد .

الرابع : على علم بوجه المكاسب ، قاله ابن عيسى .

الخامس : العلم بصنعة الكيمياء .

حكى النقاش أن موسى عليه السلام علّم قارون الثلث من صنعة الكيمياء ، وعلم يوشع بن نون الثلث ، وعلم ابني هارون الثلث فخدعهما قارون وكان على إيمانه حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء فكثرت أمواله .

وفي قوله تعالى : ﴿ . . . وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أربعة تأويلات :

أحدها : يعذبون ولا يحاسبون ، قاله قتادة .

الثاني : لا يسألون عن إحصائها ويعطون صحائفها فيعرفون ويعترفون بها ، قاله الربيع .

الثالث : لأن الملائكة تعرفهم بسيماهم فلا تسأل عنهم ، قاله مجاهد .

الرابع : أنهم لا يُسألون سؤال استعتاب : لِمَ لَمْ يؤمنوا ، قاله ابن بحر كما قال

﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم : 57] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ

﴾

(22/591)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ قارون ﴾ اسم أعجمي فلذلك لم ينصرف واختلف الناس في قرابة ﴿ قارون ﴾ من ﴿ موسى ﴾ عليه السلام فقال ابن إسحاق هو عمه ، وقال ابن جريج وإبراهيم النخعي هو ابن عمه لحّاً ، وهذ أشهر ، وقيل هو ابن خالته ، وهو بإجماع رجل من بني إسرائيل كان ممن أمن بموسى وحفظ التوراة وكان من أقرأ الناس لها ، وكان عند موسى من عباد المؤمنين ثم إنه لحقه الزهو والإعجاب فبغى على قومه بأنواع من البغي من ذلك كفره بموسى واستخفافه به ومطالبته له فيما قال ابن عباس بأنه عمد إلى امرأة مومسة ذات جمال وقال لها أنا أحسن إليك وأخلطك بأهلي على أن تجيئي في ملإ بني إسرائيل عندي فتقولي يا قارون اكفني أمر موسى فإنه يعترضني في نفسي ، فجاءت المرأة فلما وقفت على الملإ

أحدث الله تعالى لها توبه ، فقالت يا بني إسرائيل إن قارون قال لي كذا وكذا ، ففضحته في جميع القصة ، وبرأ الله تعالى موسى من مطالبته ، وقيل بل قالت المرأة ذلك عن موسى فلما بلغه الخبر وقف المرأة بمحضر ملإ من بني إسرائيل فقالت يا نبي الله كذبت عليك وإنما دعاني قارون إلى هذه المقالة وكان من بغيه أنه زاد في ثيابه شبراً على ثياب الناس ، قاله شهر بن حوشب ، إلى غير ذلك مما يصدر عمن فسد اعتقاده ، وكان من أعظم الناس مالاً وسميت أمواله "كنوزاً" إذ كان ممتنعاً من أداء الزكاة وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أول عداوته ، و"المفاتح" ظاهرها أنها التي يفتح بها ويحتمل أن يريد بها الخزائن والأوعية الكبار ، قاله الضحاك لأن المفتح في كلام العرب الخزانة .

قال القاضي أبو محمد : وأكثر المفسرون في شأن ﴿ قارون ﴾ فروي عن خيثمة أنه قال : نجد في الإنجيل مكتوباً أن مفاتيح قارون كانت من جلود الإبل وكان المفتاح من نصف شبر وكانت وقر ستين بعيراً أو بغلاً لكل مفتاح كنز .

(23/591)

قال الفقيه الإمام القاضي : وروي غير هذا مما يقرب منه ذلك كله ضعيف والنظر يشهد بفساد هذا ومن كان الذي يميز بعضها عن بعض وما الداعي إلى هذا وفي الممكن أن ترجع

كلها إلى ما يحصى ويقدر وعلى حصره بسهولة وكان يلزم على هذا المعنى أن تكون " مفاتيح " بياء وهي قراءة الأعمش والذي يشبه إنما هو أن تكون " المفاتيح " من الحديد ونحوه وعلى هذا ﴿ تنوء بالعصبة ﴾ إذا كانت كثيرة لكثرة مخازنه وافتراقها من المواضع أو تكون " المفاتيح " الخزائن ، قال أبو صالح كانت خزائنه تحمل على أربعين بغلاً وأما قوله ﴿ تنوء ﴾ فمعناه تنهض بتحامل واشتداد ومن ذلك قول الشاعر : [الطويل]

ينؤن ولم يكسبن إلا قنازعاً . . . من الريش تنواء النعاج الهزائل

ومنه قول الآخر يصف رامياً : [الرجز]

حتى إذا ما اعتدلت مفاصله . . . وناء في شق الشمال كاهله

والوجه أن يقال إن العصبة تنوء بالمفاتح المثقلة لها وكذلك قال كثير من المتأولين المراد هذا لكنه قلب كما تفعل العرب كثيراً ، فمن ذلك قول الشاعر : [الوافر]

فديت بنفسه نفسي ومالي . . . وما آلوك إلا ما أطيق

ومن ذلك قول الآخر [خداش بن زهير] : [الطويل]

وتركب خيل لا هوادة بينها . . . وتشفي الرماح بالضياطرة الحمر

وهذا البيت لا حجة فيه إذ يتجه على وجهه فتأمله ، ومن ذلك قول الآخر :

فما كنت في الحرب العوان مغمزاً . . . إذا شب حر وقودها أجدالها

وقال سيبويه والخليل التقدير " لتنيء العصبة " فجعل بدل ذلك تعدية الفعل بحرف الجر كما تقول ناء الحمل وأناءته ونؤت به ، بمعنى جعلته ينوء والعرب تقول ناء الحمل بالبعير إذا أثقله .

(24/591)

قال الفقيه الإمام القاضي : ويحتمل أن يسند ﴿ تنوء ﴾ إلى المفاتح مجازاً لأنها تنهض بتحامل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها وهذا مطرد في قولهم ناء الحمل بالعير ونحوه فتأمله ، واختلف الناس في ﴿ العصبة ﴾ كم هي فقال ابن عباس ثلاثة ، وقال قتادة من العشرة إلى الأربعين ، وقال مجاهد خمسة عشر حملاً ، وقيل أحد عشر حملاً على إخوة يوسف وقيل أربعون ، وقرأ بديل بن ميسرة " لينوء " بالياء وجهها أبو الفتح على أنه يقرأ " مفاتحه " جمعاً وذكر أبو عمرو الداني إن بديل بن ميسرة قرأ " ما إن مفتاحه " على الإفراد فيستغنى على هذا عن توجيه أبي الفتح ، وقوله تعالى : ﴿ إذ قال له قومه ﴾ ، متعلق بقوله ﴿ فبغى ﴾ ، ونهوه عن الفرح المطغي الذي هو انهماك وانحلال نفس وأشر وإعجاب ، و" الفرح " هو الذي تخلق دائماً بالفرح ، ولا يجب في هذا الموضع صفة فعل لأنه أمر قد وقع فمحال أن يرجع إلى الإرادة وإنما هو لا يظهر عليهم بركته ولا يبهم رحمته ، ثم وصوه أن يطلب بماله رضى الله تعالى وقدم لآخرته ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ ، اختلف

المتأولون فيه فقال ابن عباس والجمهور : معناه لا تضيع عمرك في أن لا تعمل عملاً صالحاً في دنياك إذ الآخرة إنما يعمل لها في الدنيا فنصيب الإنسان وعمله الصالح فيها فينبغي أن لا يهمله .

قال الفقيه الإمام القاضي : فالكلام كله على هذا التأويل شدة في الموعظة .

وقال الحسن وقتادة : معناه ولا تضيع أيضاً حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ونظرك لعاقبة دنياك .

قال الفقيه الإمام القاضي : فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ، وقال الحسن : معناه قدم الفضل وأمسك ما يبلغ . وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف . وحكى الثعلبي أنه قيل أرادوا بنصيبه الكفن .

(25/591)

قال الفقيه الإمام القاضي : وهذا وعظ متصل كأنهم قالوا لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن ونحو هذا قول الشاعر : [الطويل]

نصيبك مما تجمع الدهر كله . . . رداءان تلوى فيهما وحنوط

وقوله ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أمر بصلة المساكين وذوي الحاجة وباقي الآية بين .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

القائل قارون لما وعظه قومه وندبوه إلى اتقاء الله تعالى في المال الذي أعطاه تفضلاً منه عليه أخذته العزة بالإثم فأعجب بنفسه ، وقال لهم على جهة الرد عليهم والروغان عما ألزموه فيه ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ ، ولكلامه هذا وجهان يحتملهما وبكل واحد منهما قالت فرقة المفسرين فقال الجمهور منهم إنه ادعى أن عنده علماً استوجب به أن يكون صاحب ذلك المال وتلك النعمة ، ثم اختلفوا في العلم الذي أشار إليه ما هو ، فقال بعضهم علم التوراة وحفظها ، قالوا وكانت هذه مغالطة ورياء ، وقال أبو سليمان الداراني : أراد العلم بالتجارب ووجوه تثمير المال فكأنه قال ﴿ أوتيته ﴾ بإدراكي وبسعيي ، وقال ابن المسيب : أراد علم الكيمياء ، وقال ابن زيد وغيره : إنما أراد ﴿ أوتيته على علم ﴾ من الله وتخصيص من لدنه قصدني به أي فلا يلزمني فيه شيء مما قلتم ، ثم جعل قوله ﴿ عندي ﴾ كما تقول في معتقدي على ما أراه .

قال الفقيه الإمام القاضي : وعلى الاحتمالين معاً فقد نبه القرآن على خطئه في اغتراره وعارض منزعه بأن من معلومات الناس المتحققة عندهم ﴿ أن الله ﴾ تعالى ﴿ قد أهلك ﴾ من الأمم والقرون والملوك من هو أشد من قارون قوة وأكثر جمعاً إما للمال وإما للحاشية والغاشية ، وقوله تعالى : ﴿ أو لم يعلم ﴾ يرجح أن قارون تشبع بعلم نفسه على زعمه ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ ، قال محمد بن كعب : هو كلام متصل بمعنى ما قبله ، والضمير في ﴿ ذنوبهم ﴾ عائد على من أهلك من القرون ، أي أهلكوا ولم يُسأل غيره بعدهم عن ذنوبهم أي كل واحد إنما يكلم ويعاقب بحسب ما يخصه ، وقالت فرقة : هو إخبار مستأنف عن حال يوم القيامة أن المجرمين لا يسألون عن ذنوبهم ، قال قتادة ذلك لأنه يدخلون النار بغير حساب ، وقال قتادة أيضاً ومجاهد : معناه أن الملائكة لا تسأل عن ذنوبهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السواد والتشويه ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] .

قال الفقيه الإمام القاضي : وفي كتاب الله تعالى آيات تقتضي أن الناس يوم القيامة يُسألون كقوله تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ [الصافات : 24] وغير ذلك ، وفيه آيات تقتضي أنه لا يسأل أحد كقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ [الرحمن : 39] ، وغير ذلك فقال الناس في هذا إنها مواطن وطوائف ، وذلك من قوله

محتمل ويشبه عندي أن تكون الآيات التي توجب السؤال إنما يراد بها أسئلة التوبيخ والتقرير والتي تنفي السؤال يراد بها أسئلة الاستفهام والاستخبار على جهة الحاجة إلى علم ذلك من المسؤولين ، أي أن ذلك لا يقع لأن العلم بهم محيط وسؤال التوبيخ غير معتد به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(27/591)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قارونَ كان من قوم موسى ﴾

أي : من عشيرته ؛ وفي نسبه إِلى موسى ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان ابن عمه ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عبد الله بن الحارث ، وإِبراهيم ، وابن جريج .

والثاني : ابن خالته ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنه كان عمَّ موسى ، قاله ابن إِسحاق .

قال الزجاج : "قارون" اسم أعجمي لا ينصرف ، ولو كان "فاعولاً" من العربية من "قرنتُ الشيء" لانصرف .

قوله تعالى : ﴿ فبغى عليهم ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه جعل لِبَغِيٍّ جُعْلاً على أن تقذف موسى بنفسها ، ففعلت ، فاستحلفها موسى على ما قالت ، فأخبرته بقصتها ، فكان هذا بغيه ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه بغى بالكفر بالله تعالى ، قاله الضحاك .

والثالث : بالكِبْر ، قاله قتادة .

والرابع : أنه زاد في طول ثيابه شِبراً ، قاله عطاء الخراساني ، وشهر بن حوشب .

والخامس : أنه كان يخدم فرعون فتعدَّى على بني إِسرائيل وظلمهم ، حكاه الماوردي .

وفي المراد بمفاتحه قولان .

أحدهما : أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب ، قاله مجاهد ، وقتادة .

وروى الأعمش عن خيثمة قال : كانت مفاتيح قارون وِقْر ستين بغلاً ، وكانت من جلود ، كل مفتاح مثل الأصبع .

والثاني : أنها خزائنه ، قاله السدي ، وأبو صالح ، والضحاك .

قال الزجاج : وهذا الأشبه أن تكون مفاتحه خزائن ماله ؛ وإِلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة .

قال أبو صالح : كانت خزائنه تُحمل على أربعين بغلاً .

قوله تعالى : ﴿ لَتَنُوءُ بالعُصبة ﴾ أي : تُثقلهم وتُميلهم .

ومعنى الكلام : لَتُنِيءُ العصبةَ ، فلمَّا دخلت الباءُ في "العُصْبة" انفتحت التاء ، كما تقول :

هذا يَذْهَبُ بالأبصارِ ، وهذا يُذْهِبُ الأبصارَ ، وهذا اختيار الفراء ، وابن قتيبة ، والزجّاج في آخرين .

(28/591)

وقال بعضهم : هذا من المقلوب ، وتقديره : ما إِن العُصْبة لَتَنُوء بمفاتحه ، كما يقال : إِنها لَتَنُوء بها عجيزُتها ، أي : هي تَنْوء بعجيزتها ، وأنشدوا :

فَدَيْتُ بنَفْسِهِ نَفْسِي ومَالي . . .

ومَا آلُوكَ إِلاَّ مَا أُطِيقُ

أي : فديت بنفسي وبمالي نفسه ، وهذا اختيار أبي عبيدة ، والأخفش .

وقد بيَّنَّا معنى العُصْبة في سورة [يوسف : 8] ، و [في] المراد بها [هاهنا] ستة أقوال .

أحدها : أربعون رجلاً ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : ما بين الثلاثة إِلى العشرة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : خمسة عشر ، قاله مجاهد .

والرابع : فوق العشرة إِلى الأربعين ، قاله قتادة .

والخامس : سبعون رجلاً ، قاله أبو صالح .

والسادس : ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين ، حكاه الزجاج .

قوله تعالى ﴿ إذ قال له قومه ﴾ في القائل له قولان .

أحدهما : أنهم المؤمنون من قومه ، قاله السدي .

والثاني : أنه قول موسى له ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ لا تَفْرَحْ ﴾ قال ابن قتيبة : المعنى : لا تأشَرْ ، ولا تَبطَرْ ، قال الشاعر :

ولستُ بِمِفْراحٍ إذا الدَّهرُ سَرَّني . . .

ولا جازعٍ من صَرْفِهِ المُتَحَوِّلِ

أي : لستُ بأَشِرٍ ، فأمَّا السرورُ ، فليس بمكروه .

﴿ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِين ﴾ وقرأ أبو رجاء ، وأبو حيوة ، وعاصم الجحدري ، وابن أبي عبلة : ﴿ الفَارِحِين ﴾ [بألف] .

قوله تعالى : ﴿ وابْتَغِ فيما آتاكَ اللّهُ ﴾ أي : اطلب فيما أعطاكَ اللّهُ من الأموال .

وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : ﴿ واتَّبِعْ ﴾ بتشديد التاء وكسر الباء بعدها وعين ساكنة غير معجمة ﴿ الدارَ الآخرةَ ﴾ وهي : الجنة ؛ وذلك يكون بانفاقه في رضى الله تعالى وشُكر المُنْعِم به ﴿ ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن يعمل في الدنيا للآخرة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور .

والثاني : أن يُقدِّم الفضل ويُمسك ما يُغْنيه ، قاله الحسن .

والثالث : أن يستغنيَ بالحلال عن الحرام ، قاله قتادة .

وفي معنى ﴿ وأَحْسِنْ كما أحسن اللّهُ إليك ﴾ ثلاثة أقوال حكاها الماوردي .

أحدها : أَعْطِ فضل مالك كما زادك على قدر حاجتك .

والثاني : أَحْسِن فيما افترض عليك كما أحسن في إنعامه إليك .

والثالث : أحسن في طلب الحلال كما أحسن إليك في الإحلال .

قوله تعالى : ﴿ ولا تَبْغِ الفساد في الأرض ﴾ فتعمل فيها بالمعاصي .

قوله تعالى : ﴿ إنَّما أُوتيتُه ﴾ يعني المال ﴿ على عِلْمٍ عِندي ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : على عِلْم عندي بصنعة الذهب ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ قال الزجاج : وهذا لا أصل له ، لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له .

والثاني : برضى الله عني ، قاله ابن زيد .

والثالث : على خيرٍ عَلِمَهُ الله عندي ، قاله مقاتل .

والرابع : إنما أُعطيتُه لفضل علمي ، قاله الفراء .

قال الزجاج : ادَّعى أنه أُعطيَ المال لعلمه بالتوراة .

والخامس : على علم عندي بوجوه المكاسب ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ ﴾ يعني قارون ﴿ أَنَّ الله قد أهلك ﴾ بالعذاب ﴿ مِنْ قَبْله مِنَ القُرون ﴾ في الدُّنيا حين كذَّبوا رُسُلَهم ﴿ مَنْ هو أشدُّ منه قُوَّةً وأكثرُ جَمْعاً ﴾ للأموال.

وفي قوله: ﴿ ولا يُسْأَلُ عن ذُنوبهم المُجْرِمون ﴾ ثلاثة أقوال.

أحدها: لا يُسْأَلون ليُعْلَم ذلك مِنْ قِبَلهم وإن سئلوا سؤال توبيخ، قاله الحسن.

والثاني: أن الملائكة تعرفهم بسيماهم فلا تسألهم عن ذنوبهم، قاله مجاهد.

والثالث: يدخلون النار بغير حساب، قاله قتادة.

وقال السدي: يعذَّبون ولا يُسْأَلون عن ذُنوبهم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(30/591)

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾

لما قال تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ﴾ [القصص: 60] بيّن أن قارون أوتيها واغتر بها ولم تعصمه من عذاب الله كما لم تعصم فرعون، ولستم أيها المشركون بأكثر عدداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع

قارون قرابته من موسى ولا كنوزه .

قال النّخعيّ وقتادة وغيرهما : كان ابن عم موسى لَحًّا ؛ وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث .

وقال ابن إسحاق : كان عمّ موسى لأب وأمّ .

وقيل : كان ابن خالته .

ولم ينصرف للعجمة والتعريف .

وما كان على وزن فاعول أعجمياً لا يحسن فيه الألف واللام لم ينصرف في المعرفة وانصرف في النكرة ، فإن حسنت فيه الألف واللام انصرف إن كان اسماً لمذكر نحو طاوس وراقود .

قال الزجاج : ولو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف .

﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ بغيه أنه زاد في طول ثوبه شبراً ؛ قاله شهر ابن حوشب .

وفي الحديث : " لا ينظر الله إلى من جرّ إزاره بطراً " وقيل : بغيه كفره بالله عز وجل ؛ قاله الضحاك .

وقيل : بغيه استخفافه بهم بكثرة ماله وولده ؛ قاله قتادة .

وقيل : بغيه نسبته ما أتاه لله من الكنوز إلى نفسه بعلمه وحيلته ؛ قاله ابن بحر .

وقيل : بغيه قوله إذا كانت النبوّة لموسى والمذبح والقربان في هارون فمالي ! فروي أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة لموسى والحبورة لهارون ؛ يقرب القربان ويكون

رأساً فيهم ، وكان القربان لموسى فجعله موسى إلى أخيه ، وجد قارون في نفسه وحسدهما .

فقال لموسى : الأمر لكما وليس لي شيء إلى متى أصبر .

قال موسى ؛ هذا صنع الله .

(31/591)

قال : والله لا أصدقنك حتى تأتي بآية ؛ فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد منهم بعصاه ، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيّهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر .

﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ من البغي وهو الظلم .

وقال يحيى بن سلاّم وابن المسيّب : كان قارون غنياً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم .

وقال سابع : روي عن ابن عباس قال : لما أمر الله تعالى برجم الزاني عمد قارون إلى امرأة بغيّ وأعطاها مالاً ، وحملها على أن ادعت على موسى أنه زنى بها وأنه أحبلها ؛ فعظم

على موسى ذلك وأحلفها بالله الذي فلق البحر لبني إسرائيل ، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت .

فتداركها الله فقالت : أشهد أنك بريء ، وأن قارون أعطاني مالاً ، وحملني على أن قلت ما قلت ، وأنت الصادق وقارون الكاذب .

فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه .

فجاءه وهو يقول للأرض : يا أرض خذيه ؛ وهي تأخذه شيئاً فشيئاً وهو يستغيث يا موسى ! إلى أن ساخ في الأرض هو وداره وجلساؤه الذين كانوا على مذهبه .

وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى : استغاث بك عبادي فلم ترحمهم ، أما أنهم لو دعوني لوجدوني قريباً مجيباً .

ابن جريج : بلغنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة ، فلا يبلغون إلى أسفل الأرض إلى يوم القيامة .

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج : حدّثني إبراهيم بن راشد قال : حدّثني داود بن مهران ، عن الوليد بن مسلم ، عن مروان بن جناح ، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس قال : لقي قارون يونس في ظلمات البحر ، فنادى قارون يونس ، فقال : يا يونس تب إلى الله فإنك تجده عند أول قدم ترجع بها إليه .

فقال يونس : ما منعك من التوبة .

فقال : إن توبتي جعلت إلى ابن عمي فأبى أن يقبل مني .

وفي الخبر : إذا وصل قارون إلى قرار الأرض السابعة نفخ إسرافيل في الصور .

والله أعلم .

قال السّدي : وكان اسم البغي سبرتا ، وبذل لها قارون ألفي درهم .

قتادة : وكان قطع البحر مع موسى وكان يسمى المنوّر من حسن صورته في التوراة ، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامري .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز ﴾ قال عطاء : أصاب كثيراً من كنوز يوسف عليه السلام .

وقال الوليد بن مروان : إنه كان يعمل الكيمياء .

﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ ﴿ إنّ ﴾ واسمها وخبرها في صلة ﴿ ما ﴾ و ﴿ ما ﴾ مفعولة ﴿ آتَيْنَا ﴾ .

قال النحاس : وسمعت علي بن سليمان يقول ما أقبح ما يقول الكوفيون في الصلات ؛ إنه لا يجوز أن تكون صلة الذي وأخواته ﴿ إن ﴾ وما عملت فيه ، وفي القرآن ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ .

وهو جمع مِفتح بالكسر وهو ما يفتح به .

ومن قال مفتاح قال مفاتيح .

ومن قال هي الخزائن فواحدها مَفتح بالفتح .

﴿ لَتَنُوءُ بالعصبة ﴾ أحسن ما قيل فيه أن المعنى لتنيء العصبة أي تميلهم بثقلها ، فلما انفتحت التاء دخلت الباء .

كما قالوا هو يذهب بالبؤس ويُذهِب البؤس .

فصار ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ فجعل العصبة تنوء أي تنهض متثاقلة ؛ كقولك قم بنا أي اجعلنا نقوم .

يقال : ناء ينوء نوءاً إذا نهض بثقل .

قال الشاعر :

تنوء بأُخراها فَلأْياً قِيامُها . . .

وتَمشِي الهُوَيني عن قريبٍ فَتَبْهَرُ

وقال آخر :

أخذتُ فلم أملك ونُؤْتُ فلم أَقُمْ . . .

كأَنِّيَ من طول الزمان مقيَّدُ

وأناءني إذا أثقلني ؛ عن أبي زيد .

وقال أبو عبيدة : قوله ﴿ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ ﴾ مقلوب ، والمعنى لتنوء بها العصبة أي تنهض بها .

أبو زيد : نؤت بالحمل إذا نهضت .

قال الشاعر :

إنا وجدنا خَلَفا بئس الخَلف . . .

عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف

والأوّل معنى قول ابن عباس وأبي صالح والسدي .

وهو قول الفرّاء واختاره النحاس .

(33/591)

كما يقال : ذهبت به وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به وأَنَأْتُهُ ؛ فأما قولهم : له عندي ما ساءه وناءه فهو إتباع كان يجب أن يقال وأناءه .

ومثله هنأني الطعام ومرأني ، وأخذه ما قدُم وما حدُث .

وقيل : هو مأخوذ من النأي وهو البعد .

ومنه قول الشاعر :

يَنْأَوْنَ عنا وما تَنْأَى مودّتُهم . . .

فالقلبُ فيهم رهينٌ حيثما كانوا

وقرأ بديل بن ميسرة : ﴿ لَيَنُوءُ ﴾ بالياء ؛ أي لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى .

وقال أبو عبيدة : قلت لرؤبة بن العجاج في قوله :

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَقْ . . .

كأنّه في الجلدِ تَوْليعُ الْبَهَقْ

إن كنت أردت الخطوط فقل كأنها ، وإن كنت أردت السواد والبلق فقل كأنهما .

فقال : أردت كل ذلك .

واختلف في العصبة وهي الجماعة التي يتعصب بعضهم لبعض على أحد عشر قولاً : الأوّل : ثلاثة رجال ؛ قاله ابن عباس .

وعنه أيضاً من الثلاثة إلى العشرة .

وقال مجاهد : العصبة هنا ما بين العشرين إلى خمسة عشر .

وعنه أيضاً : ما بين العشرة إلى الخمسة عشر .

وعنه أيضاً : من عشرة إلى خمسة .

ذكر الأوّل الثعلبي ، والثاني القشيري والماوردي ، والثالث المهدوي .

وقال أبو صالح والحكم بن عُتَيبة وقتادة والضحاك : أربعون رجلاً .

السدّي ما بين العشرة إلى الأربعين .

وقاله قتادة أيضاً .

وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون ، ومنهم من يقول سبعون .

وهو قول أبي صالح إن العصبة سبعون رجلاً ؛ ذكره الماوردي .

والأوّل ذكره عنه الثعلبي .

وقيل : ستون رجلاً .

وقال سعيد ابن جبير : ست أو سبع .

وقال عبد الرحمن بن زيد : ما بين الثلاثة والتسعة وهو النفر .

وقال الكلبي : عشرة لقول إخوة يوسف ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ [يوسف : 8] وقاله مقاتل .

وقال خيثمة : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقْر ستين بغلاً غراء محجلة ، وأنها لتنوء بها من ثقلها ، ما يزيد مفتح منها على إصبع ، لكل مفتح منها كنز مال ، لو قسم ذلك الكنز على أهل البصرة لكفاهم .

(34/591)

قال مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل .

وقيل : من جلود البقر لتخف عليه ، وكانت تحمل معه إذا ركب على سبعين بغلاً فيما ذكره القشيري .

وقيل : على أربعين بغلاً .

وهو قول الضحاك .

وعنه أيضاً : إن مفاتحه أوعيته .

وكذا قال أبو صالح : إن المراد بالمفاتح الخزائن ؛ فالله أعلم .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ أي المؤمنون من بني إسرائيل ؛ قاله السديّ .

وقال يحيى بن سلاّم : القوم هنا موسى .

وقال الفراء : وهو جمع أريد به واحد كقوله : ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس ﴾ [آل عمران : 173] وإنما هو نعيم بن مسعود على ما تقدّم .

﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ أي لا تأشر ولا تبطر .

﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ أي البطرين ؛ قاله مجاهد والسديّ .

قال الشاعر :

ولستُ بِمِفْرَاحٍ إذا الدهرُ سَرَّني . . .

ولا ضارعٌ في صرفه المتقلب

وقال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال فإنّ الفَرِح بالمال لا يؤدّي حقَّه .

وقال مبشر بن عبد الله : لا تفرح لا تفسد .

قال الشاعر :

إذا أنتَ لم تبرح تؤدّي أمانةً . . .

وتحمل أُخرى أفرحتك الودائعُ

أي أفسدتك .

وقال أبو عمرو : أفرحه الدين أثقله .

وأنشده : إذا أنت . . .

البيت .

وأفرحه سره فهو مشترك .

قال الزجاج : والفرحين والفارحين سواء .

وفرّق بينهما الفراء فقال : معنى الفرحين الذين هم في حال فرح ، والفارحين الذين يفرحون في المستقبل .

وزعم أن مثله طمع وطامِع وميّت ومائت .

ويدلّ على خلاف ما قال قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30]

ولم يقل مائت .

وقال مجاهد أيضاً : معنى ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ لا تبغ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي الباغين .

وقال ابن بحر : لا تبخل إن الله لا يحب الباخلين .

(35/591)

قوله تعالى : ﴿ وابتغ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدار الآخرة ﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة ؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ اختلف فيه ؛ فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملاً صالحاً في دنياك ؛ إذ الآخرة إنما يعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها .

فالكلام على هذا التأويل شدّة في الموعظة .

وقال الحسن وقتادة : معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك .

فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه .

وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدّة ؛ قاله ابن عطية .

قلت : وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله : احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وعن الحسن : قدّم الفضل ، وأمسك ما يبلغ .

وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف .

وقيل : أراد بنصيبه الكفن .

فهذا وعظ متصل ؛ كأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن .

ونحو هذا قول الشاعر :

نَصيبُك مما تجمعُ الدهرَ كلَّه . . .

رداءان تُلْوَى فيهما وحَنُوط

وقال آخر :

وهي القناعة لا تبغي بها بدلا . . .

فيها النعيم وفيها راحة البدن

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها . . .

هل راح منها بغير القطن والكفن

قال ابن العربي : وأبدع ما فيه عندي قول قتادة : ولا تنس نصيبك الحلال ، فهو نصيبك من الدنيا ويا ما أحسن هذا .

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ أي أطع الله واعبده كما أنعم عليك .

ومنه الحديث : ما الإحسان ؟ قال : " أن تعبد الله كأنك تراه " وقيل : هو أمر بصلة المساكين .

قال ابن العربي : فيه أقوال كثيرة جماعها استعمال نِعم الله في طاعة الله .

وقال مالك : الأكل والشرب من غير سرف .

(36/591)

قال ابن العربي : أرى مالكاً أراد الرد على الغالين في العبادة والتقشف ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء ، ويشرب العسل ، ويستعمل الشواء ، ويشرب الماء البارد .

وقد مضى هذا المعنى في غير موضع .

﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِي الأَرض ﴾ أي لا تعمل بالمعاصي ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾

يعني علم التوراة .

وكان فيما روي من أقرأ الناس لها ، ومن أعلمهم بها .

وكان أحد العلماء السبعين الذين اختارهم موسى للميقات .

وقال ابن زيد : أي إنما أوتيته لعلمه بفضلي ورضاه عني .

فقوله : ﴿ عِنْدِي ﴾ معناه إن عندي أن الله تعالى آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل فيّ .

وقيل : أوتيته على علم من عندي بوجوه التجارة والمكاسب ؛ قاله علي بن عيسى .

ولم يعلم أن الله لو لم يسهل له اكتسابها لما اجتمعت عنده .

وقال ابن عباس : على علم عندي بصنعة الذهب .

وأشار إلى علم الكيمياء .

وحكى النقاش : أن موسى عليه السلام علمه الثلث من صنعة الكيمياء ، ويوشع الثلث ، وهارون الثلث ، فخدعهما قارون وكان على إيمانه حتى علم ما عندهما وعمل الكيمياء ، فكثرت أمواله .

وقيل : إن موسى علم الكيمياء ثلاثة ؛ يوشع بن نون ، (وكالب بن يوفنا) ، وقارون ، واختار الزجاج القول الأول ، وأنكر قول من قال إنه يعمل الكيمياء .

قال : لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له .

وقيل : إن موسى علّم أخته علم الكيمياء ، وكانت زوجة قارون ، وعلمت أخت موسى قارون ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ ﴾ أي بالعذاب .

﴿ مِنَ القرون ﴾ أي الأمم الخالية الكافرة .

﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ أي للمال ، ولو كان المال يدلّ على فضل لما أهلكهم .

(37/591)

وقيل : القوة الآلات ، والجمع الأعوان والأنصار ، والكلام خرج مخرج التقريع من الله تعالى لقارون ؛ أي ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ ﴾ قارون ﴿ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون ﴾ .

﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ أي لا يسألون سؤال استعتاب كما قال : ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل : 84] ﴿ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ﴾ [فصلت : 24] وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ لقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] قاله الحسن .

وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غداً عن المجرمين ؛ فإنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون .

وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار بلا حساب .

وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا في الدنيا .

وقيل : أهلك من أهلك من القرون عن علم منه بذنوبهم فلم يحتج إلى مسألتهم عن ذنوبهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(38/591)

وقال أبو حيان :

﴿ إِنَّ قارون ﴾

وقارون أعجمي : منع الصرف للعجمة والعلمية .

وقيل : ومعنى كان من قومه : أي ممن آمن به .

قال ابن عطية : وهو إسرائيلي بإجماع . انتهى .

واختلف في قرابته من موسى عليه السلام ، إختلافاً مضطرباً متكاذباً ، وأولاها : ما قاله ابن عباس أنه ابن عمه ، وهو قارون ابن يصهر بن قاهث ، جد موسى ، لأن النسابين ذكروا نسبة كذلك ، وكان يسمى المنور لحسن صورته ، وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم ، فنافق كما نافق السامري .

﴿ فبغى عليهم ﴾ : ذكروا من أنواع بغيه الكفر والكبر ، وحسده لموسى على النبوة ، ولهارون على الذبح والقربان ، وظلمه لبني إسرائيل حين ملكه فرعون عليهم ، ودسه بغياً تكذب على موسى أنه تعرض لها ، وتفضحه بذلك في ملأ من بني إسرائيل ، ومن تكبره أن زاد في ثيابه شبراً .

﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ ، قيل : أظفره الله بكنز من كنوز يوسف عليه السلام .

وقيل : سميت أمواله كنوزاً ، إذ كان ممتنعاً من أداء الزكاة ، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أول عداوته .

وما موصوله ، صلتها إن ومعمولاها .

وقال النحاس : سمعت علي بن سليمان ، يعني الأخفش الصغير ، يقول : ما أقبح ما يقوله الكوفيون في الصلات ، أنه لا يجوز أن تكون صلة الذي إن وما عملت فيه ، وفي القرآن : ﴿ ما إن مفاتحه ﴾ . انتهى .

وتقدم الكلام في مفاتح في سورة الأنعام ، وقالوا هنا : مقاليد خزائنه .

وقال السدي : هي الخزائن نفسها .

وقال الضحاك : ظروفه وأوعيته .

وقرأ الأعمش : مفاتيحه ، بياء ، جمع مفتاح ، وذكروا من كثرة مفاتحه ما هو كذب ، أو يقارب الكذب ، فلم أكتبه .

قال أبو زيد : نؤت بالعمل إذا نهضت به .

قال الشاعر :

إذا وجدنا خلفاً بئس الخلف . . .

عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف

ويقول : ناء ينوء ، إذا نهض بثقل .

قال الشاعر :

تنوء بأحراها فلأياً قيامها . . .

وتمشي الهوينا عن قريب فتبهر

(39/591)

وقال أبو عبيدة : هو مقلوب وأصله : لتنوء بها العصبة ، أي تنهض ، والقلب عند أصحابنا بابه الشعر .

والصحيح أن الباء للتعدية ، أي لتنيء العصبة ، كما تقول : ذهبت به وأذهبته ، وجئت به وأجأته .

ونقل هذا عن الخليل وسيبويه والفراء ، واختاره النحاس ، وروي معناه عن ابن عباس

وأبي صالح والسدي ، وتقول العرب : ناء الحمل بالبعير إذا أثقله .

قال ابن عطية : ويمكن أن يسند تنوء إلى المفاتح ، لأنها تنهض بتحامل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها ، وذا مطرد في ناء الحمل بالبعير ونحوه ، فتأمله .

وقرأ بديل بن ميسرة : لينوء ، بالياء ، وتذكيره راعى المضاف المحذوف ، التقدير : ما إن حمل مفاتحه ، أو مقدارها ، أو نحو ذلك .

وقال الزمخشري : ووجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن ، ويعطيها حكم ما أضيف إليه للملابسة والإيصال ، كقوله : ذهبت أهل اليمامة . انتهى .

يعني : أنه اكتسب المفاتح التذكير من الضمير الذي لقارون ، كما اكتسب أهل التأنيث من إضافته إلى اليمامة ، فقيل فيه ، ذهبت .

وذكر أبو عمرو الداني أن بديل بن ميسرة قرأ : ما إن مفتاحه ، على الإفراد ، فلا تحتاج قراءته لينوء بالياء إلى تأويل .

وتقدم تفسير العصبة في سورة يوسف عليه السلام .

وتقدم قبل تفسير المفاتح ، أهي المقاليد ، أو الخزائن نفسها ، أو الظروف والأوعية ؟ وعن ابن عباس والحسن : أن المفاتح هي الأموال .

قال ابن عباس : كانت خزائنه تحملها أربعون أقوياء ، وكانت أربعمائة ألف ، يحمل كل رجل عشرة آلاف .

وقال أبو مسلم : المراد من المفاتح : العلم والإحاطة ، كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ والمراد : وآتيناه من الكنوز ، ما إن حفظها والإطلاع عليها ليثقل على العصبة ، أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها ، يتعب حفظها القائمين على حفظها .

(40/591)

﴿ إذ قال له قومه لا تفرح ﴾ : نهوه عن الفرح المطغى الذي هو إنهماك وإنحلال نفس وأشر وإعجاب ، وإنما يفرح بإقبال الدنيا عليه من اطمأن إليها وغفل عن أمر الآخرة ، ومن جعل أنه مفارق زهرة الدنيا عن قريب ، فلا يفرح بها .

وقال أبو الطيب :

أشد الغم عندي في سرور . . .

تيقن عنه صاحبه انتقالا

قال الزمخشري : ومحل إذ منصوب بتنوء .

انتهى ، وهذا ضعيف جداً ، لأن إثقال المفاتح العصبة ليس مقيداً بوقت قول قومه له : ﴿ لا تفرح ﴾ .

وقال ابن عطية : متعلق بقوله : ﴿ فبغى عليهم ﴾ ، وهو ضعيف أيضاً ، لأن بغيه عليهم لم

يكن مقيداً بذلك الوقت .

وقال الحوفي : الناصب له محذوف تقديره أذكر .

وقال أبو البقاء : ﴿ إذ قال له ﴾ ظرف لآتيناه ، وهو ضعيف أيضاً ، لأن الإيتاء لم يكن وقت ذلك القول .

وقال أيضاً : ويجوز أن يكون ظرفاً لفعل محذوف دل عليه الكلام ، أي بغى عليهم ، ﴿ إذ قال له قومه ﴾ . انتهى .

ويظهر أن يكون تقديره : فأظهر التفاخر والفرح بما أوتي من الكنوز ، ﴿ إذ قال له قومه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ والعرب تمدح بترك الفرح عند إقبال الخير .

وقال الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سرني . . .

ولا جازع من صرفه المتحول

وقال الآخر :

إن تلاق منفساً لا تلقنا . . .

فرح الخير ولا نكبوا الضر

وقرىء : الفارحين ، حكاه عيسى بن سليمان الحجازي .

و﴿ لا يحب ﴾ : صفة فعل ، لا صفة ذات ، بمعنى الإرادة ، لأن الفرح أمر قد وقع ، فالمعنى : لا يظهر عليهم بركته ، ولا يعمهم رحمته .

ولما نهوه عن الفرح المطغى ، أمروه بأن يطلب ، فيما آتاه الله من الكنوز وسعة الرزق ، ثواب الدار الآخرة ، بأن يفعل فيه أفعال البر ، وتجعله زادك إلى الآخرة .

﴿ ولا تنسى نصيبك من الدنيا ﴾ ، قال ابن عباس ، والجمهور : معناه : ولا تضيع عمرك في أن لا تعمل صالحاً في دنياك ، إذ الآخرة إنما يعمل لها في الدنيا ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها ، وهذا التأويل فيه عظة .

(41/591)

وقال الحسن ، وقتادة : معناه : لا تضيع حظك من الدنيا في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ونظرك لعاقبة دنياك ، وفي هذا التأويل بعض رفق .

وقال الحسن : معناه : قدم الفضل وأمسك ما تبلغ به .

وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف .

وقيل : أرادوا بنصيبه الكفن ، وهذا وعظ متصل ، كأنهم قالوا : تترك جميع مالك ، لا يكون نصيبك منه إلا الكفن ؛ كما قال الشاعر :

نصيبك مما تجمع الدهر كله . . .

رداءان تأوي فيهما وحنوط

وقال الزمخشري : أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك ، وهذا قريب من قول الحسن : ﴿ وأحسن ﴾ إلى عباد الله ، أو بشكرك وطاعتك لله .

﴿ كما أحسن الله إليك ﴾ بتلك النعم التي خولكها ، والكاف للتشبيه ، وهو يكون في بعض الأوصاف ، لأن مماثلة إحسان العبد لإحسان الله من جميع الصفات يمتنع أن تكون ، فالتشبيه وقع في مطلق الإحسان ، أو تكون الكاف للتعليل ، أي أحسن لأجل إحسان الله إليك .

﴿ ولا تبغ الفساد ﴾ : أي ما أنت عليه من البغي والظلم .

﴿ على علم ﴾ ، علم : مصدر ، يحتمل أن يكون مضافاً إليه ومضافاً إلى الله .

فقال الجمهور : ادّعى أن عنده علماً استوجب به أن يكون صاحب تلك الكنوز .

فقيل : علم التوراة وحفظها ، وكان أحد السبعين الذين اختارهم موسى للميقات ، وكانت هذه مغالطة .

وقال أبو سليمان الداني : أي علم التجارة ووجوه المكاسب ، أي أوتيته بإدراكي وسعيي .

وقال ابن المسيب : علم الكيمياء ، قال ابن المسيب : وكان موسى عليه السلام يعلم

الكيمياء ، وهي جعل الرصاص والنحاس ذهباً .

وعن ابن عباس : على علم الصنعة الذهب ، ولعل ذلك لا يصح عنه ولا عن ابن المسيب .

وأنكر الزجاج علم الكيمياء وقال : باطل لا حقيقة له . انتهى .

(42/591)

وكثيراً ما تولع أهل مصر بطلب أشياء من المستحيلات والخرافات ؛ من ذلك : تغوير الماء ، وخدمة الصور الممثلة في الجدر خطوطاً ، وادعائهم أن تلك الخطوط تتحرك إذا خدمت بأنواع من الخدم لهم ، والكيمياء ؛ حتى أن مشايخ العلم عندهم ، الذين هم عندهم بصورة الولاية ، يتطلب ذلك من أجهل وارد من المغاربة .

وقال ابن زيد وغيره : أراد : ﴿ أوتيته على علم ﴾ من الله وتخصيص من لدنه قصدني به ، أي فلا يلزمني فيه شيء مما قلتم ، ثم جعل قوله : ﴿ عندي ﴾ ، كما يقول : في معتقدي وعلى ما أراه .

وقال مقاتل : ﴿ على علم ﴾ ، أي على خير علمه الله عندي .

والظاهر أن قوله : ﴿ أو لم يعلم ﴾ ، تقرير لعلمه ذلك ، وتنبيه على خطئه في اغتراره ؛ أي قد علم أن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى ، لأنه قد قرأه في التوراة ،

وأخبر به موسى ، وسمعه في التواريخ ، كأنه قيل : أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم ؟ هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون نعتاً لعلمه بذلك ، لأنه لما قال : ﴿ أوتيته على علم عندي ﴾ ، فتنفح بالعلم وتعظم به ، قيل : أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ؟ وأرى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي نفسه مصارع الهالكين . انتهى .

﴿ وأكثر جمعاً ﴾ ، إما للمال ، أو جماعة يحوطونه ويخدمونه .

قال ابن عطية : ﴿ أو لم يعلم ﴾ ، يرجح أن قارون تشبع بعلم نفسه على زعمه .

وقرأ الجمهور : ﴿ ولا يسأل ﴾ ، مبنياً للمفعول و ﴿ المجرمون ﴾ : رفع به ، وهو متصل بما قبله ، قاله محمد بن كعب .

والضمير في ﴿ ذنوبهم ﴾ عائد على من أهلك من القرون ، أي لا يسأل غيرهم ممن أجرم ، ولا ممن لم يجرم ، عمن أهلكه الله ، بل : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ وقيل : أهلك من أهلك من القرون ، عن علم منه بذنوبهم ، فلم يحتج إلى مسألتهم عنها .

وقيل : هو مستأنف عن حال يوم القيامة .

(43/591)

قال قتادة : لا يسألون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، لأنهم يدخلون النار بغير حساب .

وقال قتادة أيضاً ، ومجاهد : لا تسألهم الملائكة عن ذنوبهم ، لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السواد والتشويه ، كقوله : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ وقيل : لا يسألون سؤال توبيخ وتفريع .

وقرأ أبو جعفر في روايته : ولا تسأل ، بالتاء والجزم ، المجرمين : نصب .

وقرأ ابن سيرين ، وأبو العالية : كذلك في ولا تسأل على النهي للمخاطب ، وكان ابن أبي إسحاق لا يجوّز ذلك إلاّ أن يكون المجرمين بالياء في محل النصب ، بوقوع الفعل عليه .

قال صاحب اللوامح : فالظاهر ما قاله ، ولم يبلغني في نصب المجرمين شيء ، فإن تركاه على رفعه ، فله وجهان : أحدهما : أن تكون الهاء والميم في ﴿ عن ذنوبهم ﴾ راجعة إلى ما تقدم من القرون ، وارتفاع المجرمين بإضمار المبتدأ ، وتقديره : هم المجرمون ، أو أولئك المجرمون ، ومثله ﴿ التائبون العابدون ﴾ في التوبة .

والثاني : أن يكون بدلاً من أصل الهاء والميم في ذنوبهم ، لأنها ، وإن كانت في محل الجر بالإضافة إليها ، فإن أصلها الرفع ، لأن الإضافة إليها بمنزلة إضافة المصدر إلى اسم الفاعل ؛ فعلى ذلك المجرمون محمول على الأصل ، على ما تقدم لنا من أن بعضهم قرأ :

﴿ أن يضرب مثلاً مّا بعوضة ﴾ بالجر ، على أنها بدل من أصل المثل ، وما زائدة فيه ، وتقديره : لا يستحي بضرب مثل بعوضة ، أي بضرب بعوضة .

في ذلك فسر أن مع الفصل بالمصدر ناصب إلى المفعول به ، ثم أبدل منه البعوضة من غير أن أعرف فيها أثراً لحال .

فأما قوله : من ذنوبهم ، فذنوب جمع ، فإن كان جمع مصدر ، ففي إعماله خلاف .

وأما قوله على ما تقدم لنا من أن بعضهم قرأ ، فقد ذكر في البقرة أنه سمع ذلك ، ولا تعرف فيها أثراً ، فينبغي أن لا يجعلها قراءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(44/591)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ . . . ﴾ الآية ،

كان قارونُ مِنْ قرابةِ مُوسى : ممن آمن بموسى وحَفظَ التوراةَ وكَانَ عند مُوْسَى عليه السلام مِنْ عُبَّادِ الْمُؤمنين ، ثم إنَّ اللّه أضَلَّهُ وبَغَى عَلى قَوْمِهِ بأَنْوَاعِ البَغْيِ ؛ مِنْ ذلكَ كُفْرُهُ بموسَى .

وقال الثَّعْلَبِيُّ : قال ابن المسيب : كانَ قارونُ عامِلاً لِفِرْعونَ عَلى بني إسرائيل ؛ ممنْ يبغي عليهم ويظلُمهم . قال قتادةُ : بَغَى عليهم بِكَثْرَةِ مالِهِ وولدِه ، انتهى .

* ت * : وما ذَكَرَهُ ابنُ المسيب ، هو الذي يَصِحُّ في النظر لمتأَمِّلِ الآيةِ ، ولَوْلاَ الإطَالَةُ لَبَيَّنْتُ وَجْهَ ذَلِكَ ، والمَفاتِحُ ظاهِرُها : أنها التي يُفْتَحُ بِها ، ويحتمل أنْ يُرِيدَ بها : الخزائنَ

والأوعيةَ الكبارَ؛ قاله الضحاك؛ لأنَّ المِفْتَحُ في كلام العرب الخِزَانَةُ، وأمَّا قوله: ﴿ لَتَنُوءُ ﴾ فمعناه: تَنْهَضُ بتحامل واشتدادٍ، قال كثير من المفسرين: إنَّ المرادَ: أن العُصْبَةَ تَنُوءُ بالمفَاتِح المُثْقِلةِ لها فَقُلِبَ.

* قلت *: وقال: عريب الأندلسي في كتاب «الأَنواء» له نَوْءُ كذا؛ معناه: مُثْلُه ومنه: ﴿ لتنوأُ بالعصبة ﴾، انتهى، وهو حَسَنٌ إنْ سَاعَدَهُ النَّقْلُ. وقالَ الدَّاوُودِيُّ عن ابن عباسٍ: ﴿ لتنوأُ بالعصبة أولى القوة ﴾ يقول تُثْقِلُ؛ وكذا قال الواحديُّ، انتهى. واخْتُلِفَ في العصبة: كمْ هُمْ؟ فقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ - رضي اللّه عنه -: ثَلاثَةُ، وقال قتادةُ: هم من العشرة إلى الأربعين، قال البخاريُّ: يقال: الفَرِحينَ المَرِحينَ.

(45/591)

قال الغَزَالِيُّ: في «الإحْيَاءِ»: الفَرَحُ بالدنيا والتَّنَعُّمُ بهَا سُمٌّ قَاتِلٌ يَسْرِي في العُرُوقِ؛ فَيُخْرِجُ مِن القَلْبِ الخوفَ والحَزَنَ وذِكْرَ الموتِ وأهوالَ القيامة؛ وهذا هو موتُ القلبِ والعياذُ باللّهِ، فأولوا الحَزْمِ من أربابِ القلوبِ جَرَّبُوا قلوبَهم في حال الفَرَحِ بمُوَاتَاةِ الدنيا، وعلموا أن النَّجَاةَ في الحُزْنِ الدائم، والتباعُدِ من أسبابِ الفَرَحِ، والبَطَرِ؛ فقَطَّعُوا النَّفْسَ عن ملاذِّها وعَوَّدُوها الصَّبْرَ عَنْ شَهَوَاتِها؛ حَلالِها وحَرَامِهَا وعلموا أن حلالَها حِسَابٌ وهُوَ نَوْعُ

عذابٍ ، وَمَنْ نُوقِشَ الحساب عُذِّبَ ، فَخَلَّصُوا أَنْفُسَهُمْ من عَذابِهَا ، وَتَوَصَّلُوا إلى الحرّية والملكِ في الدنيا والآخرة ؛ بالخلاص من أسْرِ الشهواتِ وَرِقِّها ، والأُنْسِ بِذِكْرِ اللّهِ تعَالَى والاشْتِغَالِ بِطَاعَتِه ، انتهى .

قال ابن الحاجِّ في «المَدْخَلِ» : قال يَمَنُ بن رزق رحمه اللّه تعالى : وأنا أُوصيكَ بأن تُطِيلَ النظرَ في مِرْآةِ الفِكْرَةِ مَعَ كثرةِ الخَلَوَاتِ ، حَتَّى يُرِيكَ شَيْنَ المَعْصِيَةِ وَقُبْحِهَا ، فَيَدْعُوكَ ذَلِكَ النَّظَرُ إلى تركها ، ثم قال يمن بن رزق : ولا تَفْرَحَنَّ بِكَثْرَةِ العَمل مع قلةِ الحزْنِ ، واغْتَنِمْ قليلَ العَمَلِ مَعَ الحزنِ ، فإن قليلَ حُزْنِ الآخرةِ الدَّائِمِ فِي القلبِ ؛ يَنْفِي كُلَّ سُرُورٍ أَلِفْتَهُ من سرورِ الدنيا ، وقليلَ سرورِ الدنيا في القلبِ ؛ يَنْفِي عنكَ جميعَ حُزنِ الآخِرَة . والحزنُ لا يصلُ إلى القلبِ إلاَّ مع تَيَقُّظِهِ ؛ وَتَيَقُّظُهُ حَيَاتُهُ ، وسرورُ الدُّنيا لِغَيْرِ الآخرةِ لا يصلُ إلى القلب إلا مع غَفْلَتِه ؛ وغفلةُ القَلْبِ مَوتُه ، وعلامةُ ثَبَاتِ اليقينِ في القَلْبِ اسْتِدَامَةِ الحُزْنِ فِيهِ .

(46/591)

وقال رحمه اللّه : اعْلَمْ أني لم أجدْ شَيئاً أَبلَغَ في الزُّهد في الدنيا من ثباتِ حزْنِ الآخرة في القلب ، وعلامَةُ ثباتِ حُزْنِ الآخِرةِ في القلبِ أُنْسُ العبدِ بالوَحْدَةِ ، انتهى .

وقولهم له : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ .

قال ابن عباس والجمهور : معناه : لا تُضَيِّعْ عُمْرَكَ في أَلاَّ تعمل عملاً صالحاً في دنياك ؛ إذ الآخرةُ يُعْمَلُ لَهَا في الدنيا ، فنصيبُ الإنسانِ عمرُه وعملَه الصالحُ فيها ؛ فينبغي أن لا يُهْمِلَه . وحكى الثعلبيّ أنه قيل : أرادوا بنصيبه الكفَنَ .

قال : *ع* : وهذا كلُّه وعْظٌ متَّصِلٌ ؛ ونحو هذا قولُ الشاعر : [الطويل]

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّهْرَ كُلَّه . . . رِدَاءَانِ تلوى فِيهِمَا وَحَنُوطِ

وقال ابن العربي في «أحكامه» : وفي معنى النصيبِ ثلاثة أقوال : الأولُ : لا تَنْس حظَّكَ من الدنيا ، أي : لا تَغْفَلْ أَنْ تَعْمَلَ في الدنيا للآخرة ، الثاني : أَمْسِكْ مَا يَبْلُغُكَ ؛ فذلك حظُّ الدنيا ، وأَنْفِقِ الفَضْلَ فذلكَ حظُّ الآخرة ، الثالث : لا تَغْفَلْ عَنْ شُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ ، انتهى . وقولهُم : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ أمرٌ بِصِلةِ المساكينِ وذَوِي الحاجَاتِ .

ص : ﴿ كَمَا أَحْسَنَ ﴾ : - الكاف للتشبيهِ أو للتعليل - ، انتهى . وقول قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ قال الجمهور : ادَّعَى أنَّ عندَه علماً استوجَبَ به أن يكونَ صاحبَ ذلك المالِ ، ثم اخْتَلَفُوا في ذلك العلم ، فقال ابن المسيب : أراد علم الكيمياء .

وقال أبو سليمان الداراني : أراد العلم بالتجارة ووجوهِ تثميرِ المال ، وقيل غير هذا .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ .

(47/591)

قال محمد بن كعب : هو كلامٌ متصِلٌ بمعنى ما قبلَه ، والضميرُ في ﴿ ذُنُوبِهِمُ ﴾ عائدٌ على مَنْ أُهْلِكَ مِن القرون ، أي : أهْلِكوا ولَمْ يُسْئَلْ غيرُهم بَعْدَهُمْ عَنْ ذنوبهم ، أي : كل أحد إنما يُكَلَّمُ ويُعَاتَبُ بِحَسْبِ ما يَخُصُّه ، وقالت فرقة : هو إخبار مستأنَفٌ عَنْ حالِ يومِ القيامةِ ، وجَاءتْ آيات أُخَرُ تَقْتَضِي السؤالَ ، فقالَ الناسُ في هذا : إنها مواطنُ وطوائفُ .

وقِيل غيرُ هذا ، ويوم القيامة هو مواطنُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(48/591)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾

كان ابنَ عمِّه يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السَّلام وموسى عليه السَّلام ابن عمران بن قاهث وقيل : كان موسى عليه السلام ابنَ أخيهِ وكان يسمَّى المنوَّر لحسنِ

صورتِه وقيل : كان أقرأَ بني إسرائيلَ للتَّوراة ولكنَّه نافق كما نافقَ السَّامريُّ وقال : إذا كانت النُّبوة لموسى والمذبحُ والقربانُ لهارونَ فما لي . ورُوي أنَّه لما جاوز بهم مُوسى عليه السَّلام البحرَ وصارتِ الرِّسالةُ والحُبورةُ والقُربان لهارونَ وجد قارونُ في نفسِه وحسدَهُما فقال لموسى : الأمرُ لكما ولستُ على شيءٍ إلى متى أصبرُ ؟ قال موسى عليه السَّلام : هذا صُنعُ الله تعالى . قال : لا أُصدّقك حتَّى تأتيَ بآيةٍ ، فأمر رؤساءَ بني إسرائيلَ أنْ يجيءَ كلُّ واحدٍ بعصاةٍ فحزمها وألقاها في القبَّة التي كان الوحيُ ينزلُ إليه فيها فكانوا يحرسون عصيَّهم بالليل فأصبحُوا فإذا بعصا هارونَ تهتزُّ ولها ورقٌ أخضرُ فقال قارون : ما هو بأعجبَ ممَّا تصنعُ من السِّحرِ وذلك قولُه تعالى : ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ فطلبَ الفضلَ عليهم وأنْ يكونُوا تحتَ أمرِه أو ظلمَهم ، قيل : وذلكَ حينَ ملَّكه فرعونُ على بني إسرائيلَ وقيل : حسدَهم وذلك ما ذُكر منه في حقِّ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ أي الأموالِ المُدَّخرة ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ أي مفاتحَ صناديقِه وهو جمعُ مِفتح بالكسر وهو ما يُفتح به وقيل : خزانته وقياسُ واحدِها المَفتح بالفتحِ ﴿ لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾ خبر إن والجملةُ صلةُ ما وهُو ثاني مفعُولَيْ آتَى . وناءَ به الحملُ إذا أثقلَه حتَّى أمالَه والعُصبة والعُصابةُ الجماعةُ الكثيرةُ . وقُرىء لينوءُ بالياءِ على إعطاءِ المضافِ حكمَ المضافِ إليهِ كما مرَّ في قولِه تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ منصوبٌ بتنوءُ وقيل : ببغى ورُدَّ بأنَّ البغيَ ليس مقيَّداً بذلك الوقتِ وقيل : بآتيناهُ

(49/591)

ورُدَّ بأنَّ الإيتاءَ أيضاً غيرُ مقيَّدٍ به وقيل : بمضمرٍ فقيل : هو اذكُر وقيل : هو أظهرَ الفرحَ ويجوزُ أنْ يكونَ منصُوباً بما بعدَهُ من قولِه تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ﴾ وتكون الجملةُ مقررةً لبغيه ﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ أي لا تبطرْ والفرحُ في الدُّنيا مذمومٌ مُطلقاً لأنَّه نتيجةُ حبِّها والرِّضا بها والذهولِ عن ذهابِها فإنَّ العلمَ بأن ما فيها من اللذةِ مفارقةٌ لا محالةَ يوجبُ التَّرحَ حتماً ولذلكَ قالَ تعالى : ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ وعُلِّل النهيُ ها هنا بكونِه مانعاً من محبَّتِه عزَّ وعلاَ فقيلَ : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ أي بزخارفِ الدُّنيا .

(50/591)

﴿ وابتغ ﴾ وقُرِىء واتَّبع ﴿ فِيمَا ءاتَاكَ الله ﴾ من الغِنى ﴿ الدار الآخرة ﴾ أي ثوابَ الله تعالى فيها يصرفه إلى ما يكونُ وسيلةً إليه ﴿ وَلاَ تَنسَ ﴾ أي لا تتركْ تركَ المنسيِّ ﴿ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ وهو أنْ تحصلَ بها آخرتك وتأخذَ منها ما يكفيك ﴿ وَأَحْسَنُ ﴾ أي إلى عبادِ الله تعالى ﴿ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ فيما أنعمَ به عليك وقيل : أحسنْ

بالشكرِ والطَّاعةِ كما أحسنَ اللهُ إليكَ بالإنعامِ ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض ﴾ نهيٌ عمَّا كان عليه من الظُّلمِ والبغيِ ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ لسوء أفعالِهم ﴿ قَالَ ﴾ مُجيباً لناصحيهِ ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ كأنَّه يريدُ به الردَّ على قولِهم : كما أحسنَ اللهُ إليك لإنبائِه عن أنَّه تعالى أنعم عليه بتلكَ الأموالِ والذخائرِ من غير سببٍ واستحقاقٍ مِن قِبَلِه أي فُضلت به على النَّاسِ واستوجبتَ به التفوقَ عليهم بالمالِ والجاهِ ، وعلى علمٍ في موقعِ الحالِ وهو علمُ التَّوراةِ وكانَ أعلمَهم بها وقيل : علمُ الكيمياءِ وقيل : علم التجارة والدَّهقنةِ وسائرِ المكاسبِ وقيل : علمُ الكنوزِ والدَّفائنِ ، وعندي صفةٌ له أو متعلقٌ بأوتيتُه كقولِك : جازَ هذا عندي أو في ظنّي ورأيي ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ توبيخٌ له من جهةِ الله تعالى على اغترارِه بقوَّتِه وكثرةِ مالِه مع علمِه بذلك قراءةً في التَّوراةِ وتلقياً مِن موسى عليه السَّلام وسماعاً من حُفَّاظِ التَّواريخِ وتعجبٌ منه ، فالمعنى ألَمْ يقرأ التَّوراةَ ولم يعلمْ ما فعلَ اللهُ تعالى بأضرابِه من أهلِ القُرونِ السَّابقةِ حتَّى لا يغترَّ بما اغترُّوا به ، أو ردٌّ لادّعائِه العلمَ وتعظمه به بنفيِ هذا العلمِ منه فالمعنى أعَلِم ما ادَّعاه ولم يعلم هذا حتى يقيَ به نفسَه

(51/591)

مصارعَ الهالكينَ ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ سؤالُ استعلامٍ بل يُعذَّبون بها بغتةً كأنَّ قارونَ لما هُدِّد بذكرِ إهلاكِ من قبله ممَّن كان أقوى منه وأغنى أكَّد ذلك بأنْ بيَّن أنَّ ذلك لم يكن مما يخصُّ أولئك المُهلَكين ، بل الله تعالى مطلعٌ على ذنوبِ كافَّة المجرمين يعاقبهم عليها لا محالةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(52/591)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ قارون ﴾ ،

اسم أعجمي منع الصرف للعلمية والعجمة ﴿ كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾ .

أي من بني إسرائيل كما هو الظاهر ، وحكى ابن عطية الإجماع عليه ، واختلف في جهة قرابته من موسى عليه السلام فروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وابن جريج .

وقتادة .

وإبراهيم أنه ابن عم موسى عليه السلام فموسى بن عمران بن قاهث بقاف وهاء مفتوحة وثاء مثلثة ابن لاوى بالقصر ابن يعقوب عليه السلام وهو ابن يصهر بياء تحتية مفتوحة

وصاد مهملة ساكنة وهاء مضمومة ابن قاهث الخ .

وفي "مجمع البيان" عن عطاء عن ابن عباس أنه ابن خالة موسى عليه السلام ، وروي ذلك عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه .

وحكي عن محمد بن إسحاق أنه عم موسى عليه السلام وهو ظاهر على قول من قال : إن موسى عليه السلام ابن عمران بن يصهر بن قاهث وهو ابن يصهر بن قاهث وكان يسمى المنور لحسن صورته وكان أحفظ بني إسرائيل للتوراة وأقرأهم لكنه نافق كما نافق السامري ؛ وقال : إذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهارون فما لي ؟ وروي أنه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرب القربان ويكون رأساً فيهم وكان القربان إلى موسى عليه السلام فجعله لأخيه هارون وجد قارون في نفسه فحسدهما فقال لموسى الأمر لكما ولست على شيء إلى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال والله تعالى لا أصدقك حتى تأتي بآية فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها وكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا وإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره أو تكبر عليهم وعد من تكبره أنه زاد في ثيابه شبراً أو ظلمهم وطلب ما ليس حقه قيل : وذلك حين ملكه فرعون على بني إسرائيل .

(53/591)

وقيل : حسدهم وطلب زوال نعمهم ، وذلك ما ذكر منه في حق موسى وهارون عليهما السلام ، والفاء فصيحة أي ضل فبغى ، وجوز أن تكون على ظاهرها لأن القرابة كثيراً ما تدعو إلى البغي ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز ﴾ أي الأموال المدخرة فهو مجاز بجعل المدخر كالمدفون إن كان الكنز مخصوصاً به ، وحكى في "البحر" أنه سميت أمواله كنوزاً لأنها لم تؤد منها الزكاة وقد أمره موسى عليه السلام بأدائها فأبى وهو من أسباب عداوته إياه ، وقيل : الكنوز هنا الأموال المدفونة وكان كما روي عن عطاء قد أظفره الله تعالى بكنز عظيم من كنوز يوسف عليه السلام ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ أي مفاتح صناديقه فهو على تقدير مضاف أو الإضافة لأدنى ملابسة وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به .

(54/591)

وقال السدي : أي خزائنه وفي معناه قول الضحاك أي ظروفه وأوعيته ، وروي نحو ذلك عن ابن عباس ، والحسن وقياس واحده على هذا المفتح بالفتح لأنه اسم مكان ، ويؤيد ما

تقدم قراءة الأعمش مفاتحيه بياء جمع مفتاح و ﴿ مَا ﴾ موصولة ثاني مفعولي آتي ومفاتحه اسم إن وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ قارون أُوْلِى القوة ﴾ خبرها والجملة صلة ما والعائد الضمير المجرور ، ومنع الكوفيون جواز كون الجملة المصدرة بأن صلة للموصول ، قال النحاس : سمعت علي بن سليمان يعني الأخفش الصغير يقول ما أقبح ما يقوله الكوفيون في الصلات أنه لا يجوز أن تكون صلة الذي إن وما عملت فيه وفي القرآن ما إن مفاتحه انتهى ، ولا يخفى أن المانع من ذلك إن كان عدم السماع فالرد عليهم لا يتم إلا بشاهد لا يحتمل غير ذلك و ﴿ مَا ﴾ في الآية تحتمل أن تكون نكرة موصوفة وإن كان المانع كون إن تقع في ابتداء الكلام فلا ترتبط الجملة المصدرة بها بما قبلها فالرد بالآية المذكورة عليهم تام لأن المانع المذكور كما يمنع كون الجملة صلة يمنع كونها صفة فتدبر ، و ﴿ تنوء ﴾ من ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله فالباء للتعدية كما في ذهبت به ، والعصبة الجماعة الكثيرة من غير تعيين لعدد خاص على ما ذكره الراغب ، ومن أهل اللغة من عين لها مقداراً واختلفوا فيه فقيل من عشرة إلى خمسة عشر وهو مروى هنا عن مجاهد ، وقيل : ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين وروي ذلك عن الكلبي ، وقيل : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : من عشرة إلى أربعين وروي هذا عن قتادة وقيل : أربعون ، وروي ذلك عن ابن عباس .

وقيل : سبعون ، وروي ذلك عن أبي صالح مولى أم هانىء وقال الخفاجي : قد يقال إن أصل معناها الجماعة مطلقاً كما هو مقتضى الاشتقاق ثم أن العرف خصها بعدد

واختلف فيه أو اختلف بحسب موارده ، وقال أبو زيد : تنوء من نؤت بالحمل إذا نهضت به

قال الشاعر :

تنوء بأخراها فلأيا قيامها . . .

وتمشي الهوينا عن قريب فتبهر

(55/591)

وفي الآية على هذا قلب عند أبي عبيدة ومن تبعه والأصل تنوء العصبة بها أي تنهض ،

وقيل : يجوز أن لا يكون هناك قلب لأن المفاتح تنهض ملابسة للعصبة إذا نهضت العصبة بها ، والأولى ما قدمناه أولاً وهو منقول عن الخليل .

وسيبويه .

والفراء .

واختاره النحاس ، وروي معناه عن ابن عباس .

وأبي صالح .

والسدي ، وقرأ بديل بن ميسرة ﴿ لينوء ﴾ بالباء التحتية ، وخرج ذلك أبو حيان على تقدير مضاف مذكر يرجع إليه الضمير أي ما إن حمل مفاتحه أو مقدارها أو نحو ذلك ، وقال

ابن جني : ذهب بالتذكير إلى ذلك القدر والمبلغ فلاحظ معنى الواحد فحمل عليه ونحوه ، قول الراجز :

مثل الفراخ نتفت حواصله . . .

أي حواصل ذلك أو حواصل ما ذكرنا ، وقال الزمخشري : وجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال كقولك ذهبت أهل اليمامة انتهى ، وإنما فسر المفاتح بالخزائن دون ما يفتح به ليتم الاتصال فإن اتصال الخزائن بالمخزون فوق اتصال المفاتيح به بل لا اتصال للثاني وحينئذٍ يكتسي التذكير من المضاف إليه كما اكتسى التأنيث من عكسه كالمثال الذي ذكره ، وما تقدم عن غيره أولى .

قال في "الكشف" لأن تفسير المفاتح بالخزائن ضعيف جداً لفوات المبالغة ، وقيل : إن المفاتح بذلك المعنى غير معروف وقد سمعت أنه تفسير مأثور فإذا صح ذلك فلا يلتفت إلى ما ذكر من هذا وكلام الكشف ، وذكر أبو عمرو الداني أن بديل بن ميسرة قرأ ﴿ مَا إِنَّ ﴾ على الإفراد فلا تحتاج قراءته ﴿ لينوء ﴾ بالياء إلى تأويل ، وقد بولغ في كثرة مفاتيحه فروي عن خيثمة أنها كانت وقر ستين بغلاً أغر محجلاً ما يزيد منها مفتاح على أصبع لكل مفتاح كنز ، وفي رواية أخرى عنه كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح على خزانة على حدة فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغر محجلاً .

وفي "البحر" ذكروا من كثرة مفاتحه ما هو كذب أو يقارب الكذب فلم أكتبه ، ومما لا مبالغة فيه ما روي عن ابن عباس من أن المفاتح الخزائن وكانت خزائنه يحملها أربعون رجلاً أقوياء وكانت أربعمائة ألف يحمل كل رجل عشرة آلاف وعليه فأمثال قارون في الناس أكثر من خزائنه ، ولعل الآية تشير إلى ما أوتيه فوق ذلك ، ولا أظن الأمر كما روي عن خيثمة ، وأبعد أبو مسلم في تفسير الآية فقال : المراد من المفاتح العلم والإحاطة كما في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [الأنعام : 59] والمراد وآتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها القائمين على حفظها ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ .

قال الزمخشري : هو متعلق بتنوء وضعف بأن أثقال المفاتح العصبة ليس مقيداً بوقت قول قومه ، وقال ابن عطية : ببغى ، وضعف بنحو ذلك ، وقال أبو البقاء : بآتينا ، ويجوز أن يكون ظرفاً لمحذوف دل عليه الكلام أي بغى عليهم إذ قال ، وفي كل منهما ما سبق ، وقال الحوفي منصوب باذكر محذوفاً ، وجوز كونه متعلقاً بما بعده من قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ﴾ [القصص : 78] والجملة مقررة لبغيه ورجح تعلقه بمحذوف والتقدير أظهر التفاخر والفرح بما أوتي إذ قال له قومه ﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ لا تبطر والفرح بالدنيا لذاتها مذموم لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا

محالة يوجب الترح حتماً كما قال أبو الطيب :

أشد الغم عندي في سرور . . .

تيقن عنه صاحبه انتقالا

وقال ابن شمس الخلافة :

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلا . . .

للمرء خير من نعيم زائل

ولذلك قال عز وجل : ﴿ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ [الحديد : 23] والعرب تمدح بترك الفرح عند إقبال الخير قال الشاعر :

ولست بمفراح إذ الدهر سرني . . .

ولا جازع من صرفه المتقلب

وقال آخر :

(57/591)

إن تلاق منفساً لا تلقنا . . .

فرح الخير ولا نكبو لضر

وعلل سبحانه النهي ههنا بكون الفرح مانعاً من محبته عز وجل فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ فهو دليل إني على كون الفرح بالدنيا مذموماً شرعاً ، وإنما قلنا : إن الفرح بها لذاتها مذموم لأن الفرح بها لكونها وسيلة إلى أمر من أمور الآخرة غير مذموم ، ومحبه الله تعالى عنه كثير صفة فعل أي أنه تعالى لا يكرم الفرحين بزخارف الدنيا ولا ينعم جل شأنه عليهم ولا يقربهم عز وجل ، والمراد أنه تعالى يبغضهم ويهينهم ويبعدهم عن حضرته سبحانه ، وقال بعضهم : إن في نفي محبته تعالى إياهم تنبيهاً على أن عدم محبته تعالى كاف في الزجر عما نهى عنه فما بالك بالبغض والعقاب وهو حسن ، وحكى عيسى بن سليمان الحجازي أنه قرىء ﴿ الفارحين ﴾ .

﴿ وابتغِ فِيمَا ءاتَاكَ اللهُ ﴾

من الكنوز والغنى ﴿ الدار الآخرة ﴾ أي ثوابها أي ثواب الله تعالى فيها بصرف ذلك إلى ما يكون وسيلة إليه و ﴿ فِى ﴾ إما ظرفية على معنى ابتغ متقلباً ومتصرفاً فيه أو سببية على معنى ابتغ بصرف ما أتاك الله تعالى ذلك وقرىء ﴿ أَبْتَغِ ﴾ ﴿ وَلاَ تَنسَ ﴾ أي ولا تترك ترك المنسي ﴿ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ أي حظك منها وهو كما أخرج الفريابي .

وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن تعمل فيها لآخرتك ، وروي ذلك عن مجاهد .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة هو أن تأخذ من الدنيا ما أحل الله تعالى لك ، وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن منصور قال : ليس هو عرض من عرض الدنيا ولكن

نصيبك عمرك أن تقدم فيه لآخرتك ، وأخرج ابن المنذر وجماعة عن الحسن أنه قال في الآية : قدم الفضل وأمسك ما يبلغك ، وقال مالك : هو الأكل والشرب بلا سرف ، وقيل : أرادوا بنصيبه من الدنيا الكفن كما قال الشاعر :

نصيبك مما تجمع الدهر كله . . .

رداءان تلوى فيهما وحنوط

(58/591)

وفي نهيهم إياه عن نسيان ذلك حض عظيم له على التزود من ماله للآخرة فإن من يكون نصيبه من دنياه وجميع ما يملكه الكفن لا ينبغي له ترك التزوّد من ماله وتقديم ما ينفعه في آخرته عباد الله عز وجل ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ أي مثل إحسانه تعالى إليك فيما أنعم به عليك ، والتشبيه في مطلق الإحسان أو لأجل إحسانه سبحانه إليه على أن الكاف للتعليل .

وقيل : المعنى وأحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله تعالى عليك بالإنعام ، والكاف عليه أيضاً تحتمل التشبيه والتعليل ﴿ عَنِ الفساد فِى الأرض ﴾ نهى عن الاستمرار على ما هو عليه من الظلم والبغي .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ [القصص : 76] وهذه الموعظة بأسرها كانت من مؤمنين قومه كما هو ظاهر الآية ، وقيل : إنها كانت من موسى عليه السلام .

(59/591)

﴿ قَالَ ﴾ مجيباً لمن نصحه ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ كأنه يريد الرد على قولهم : ﴿ كما أحسن الله إليك ﴾ [القصص : 77] لإنبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الأموال والذخائر من غير سبب واستحقاق من قبله ، وحاصله دعوى استحقاقه لما أوتيه لما هو عليه من العلم ، وقوله : ﴿ على عِلْمٍ ﴾ عند أكثر المعربين في موضع الحال من مرفوع أوتيته قيد به العامل إشارة إلى علة الإيتاء ووجه استحقاقه له أي إنما أوتيته كائناً على علم ، وجوز كون على تعليلية والجار والمجرور متعلق بأوتيت على أنه ظرف لغو كأنه قيل أوتيته لأجل علم ، و ﴿ عِندِى ﴾ في موضع الصفة لعلم والمراد لعلم مختص بي دونكم ، وجوز كونه متعلقاً بأوتيت ، ومعناه في ظني ورأيي كما في قولك : حكم كذا الحل عند أبي حنيفة عليه الرحمة ، وفي "الكشاف" ما هو ظاهر في أن عندي إذا كان بمعنى في ظني ورأيي كان خبر مبتدأ محذوف أي هو في ظني ورأيي هذا ، والجملة عليه مستأنفة تقرر أن ما ذكره رأي

مستقر هو عليه ، قال في "الكشف" : وهذا هو الوجه ، والمراد بهذا العلم قيل علم التوراة فإنه كان أعلم بني إسرائيل بها ، وقال أبو سليمان الداراني : علم التجارة ووجوه المكاسب ، وقال ابن المسيب : علم الكيمياء ، وكان موسى عليه السلام يعلم ذلك فأفاد يوشع بن نون ثلثه وكالب بن يوفنا ثلثه وقارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً ، وقيل : علم الله تعالى موسى عليه السلام علم الكيمياء فعلمه موسى أخته فعلمته أخته قارون ، وروى عن ابن عباس تخصيصه بعلم صنعة الذهب ، وقيل : علم استخراج الكنوز والدفائن ، وعن ابن زيد أن المراد بالعلم علم الله تعالى وأن المعنى أوتيته على علم من الله تعالى وتخصيص من لدنه سبحانه قصدني به ، و﴿ عِندِى ﴾ عليه بمعنى في ظني ورأيي ، وقيل : العلم بمعنى المعلوم مثله في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ

(60/591)

مّنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : 255] وإلى ذلك يشير ما روى عن مقاتل أنه قال أي على خير علمه الله تعالى عندي وتفسيره بعلم الكيمياء شائع فيما بين أهلها ، وفي "مجمع البيان" حكايته عن الكلبي أيضاً ، وأنكره الزجاج وقال : إنه لا يصح لأن علم الكيمياء باطل لا

حقيقة له ، وتعقبه الطيبي بأنه لعله كان من قبيل المعجز ، وتعقب بأنه ليس بسديد وإلا لما تمكن قارون منه ، وإنكار الكيمياء وهو لفظ يوناني معناه الحيلة أن عبراني وأصله كيم يه بمعنى أنه من الله تعالى أو فارسي وأصله كي ميا بمعنى متى يجيء على سبيل الاستبعاد غلب على تصحيل النقدين بطريق مخصوص مما لم يختص بالزجاج بل أنكرها جماعة أجلة وقالوا بعدم إمكانها ، وذهب آخرون إلى خلاف ذلك .

وإذا أردت نبذة من الكلام في ذلك فاستمع لما يتلى عليك .

ذكر بعض المحققين أن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقزدير والنحاس والحديد والخارصيني هل هي مختلفات بالفصول فيكون كل منها نوعاً غير النوع الآخر أو هي مختلفات بالخواص والكيفيات فقط فتكون كلها أصنافاً لنوع واحد فالذي ذهب إليه المعلم أبو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان نحو الصفرة والبياض والسواد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد وبنى على ذلك إمكان انقلاب بعضها إلى بعض بتبدل الأعراض بفعل الطبيعة أو بالصنعة .

وقد حكى أبو بكر بن الصغائغ المعروف بابن باجه في بعض تصانيفه عن المعلم المذكور أنه قال : قد بين أرسطو في كتبه في المعادن أن صناعة الكيمياء داخلة تحت الإمكان إلا أنها من الممكن الذي يعسر وجوده بالفعل اللهم إلا أن يتفق قرائن يسهل بها الوجود وذلك أنه فحص عنها أولاً على طريق الجدل فأثبتها بقياس وأبطلها بقياس على عداته فيما يكثر عناده من الأوضاع ثم أثبتها أخيراً بقياس ألفه من مقدمتين بينهما في أول الكتاب ، الأولى : أن الفلزات وحدة بالنوع والاختلاف الذي بينها ليس في ماهياتها وإنما هو في أعراضها فبعضه في أعراضها الذاتية وبعضه في أعراضها العرضية ، والثانية : أن كل شيئين تحت نوع واحد اختلفا بعرض فإنه يمكن انتقال كل منهما إلى الآخر فإن كان العرض ذاتياً عسر الانتقال وإن كان مفارقاً سهل الانتقال والعسر في هذه الصناعة إنما هو لاختلاف أكثر هذه الجواهر في أعراضها الذاتية ويشبه أن يكون الاختلاف الذي بين الذهب والفضة يسيراً جداً اه ، والذي ذهب إليه الشيخ أبو علي بن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة وبني على ذلك إنكار هذه الصناعة واستحالة وجودها لأن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل ، وهذا ما حكاه ابن خلدون عنه ، وقال الإمام في المباحث المشرقية في الفصل الثامن من القسم الرابع منها : الشيخ سلم إمكان أن يصبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ

الذهب وأن يزال عن الرصاص أكثر ما فيه من النقص ، فأما أن يكون الفصل المنوع يسلب أو يكسي ، قال : فلم يظهر لي إمكانه بعد ، إذ هذه الأمور المحسوسة تشبه أن لا تكون الفصول التي بها تصير هذه الأجساد أنوعاً بل هي أعراض ولوازم وفصولها مجهولة وإذا كان الشيء مجهولاً كيف يمكن قصد إيجاده وإفنائه اه .

(62/591)

وغلطه الطغرائي وهو من أكابر أهل هذه الصناعة وله فيها عدة كتب ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه وإنما هو في إعداد المادة لقبول خاصة والفصل يأتي من بعض الإعداد من لدن خالقه وبارئه جل شأنه وعظمت قدرته كما يفيد شبحانه النور على الأجسام بالصقل ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته ، وإذا كنا قد عثرنا على تغليق بعض الحيوانات مثل العقرب من التراب والتبن ، والحية من الشعر وغير ذلك فما المانع من العثور على مثل ذلك في المعادن وهذا كله بالصناعة وهي إنما موضوعها المادة فيعدها التدبير والعلاج إلى قبول تلك الفصول لا أكثر ، فنحن نحاول مثل ذلك في الذهب والفضة فنتخذ مادة نصفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبور صورة الذهب والفضة ثم نحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلهما اه بمعناه وهو رد صحيح فيما يظهر

، وقال الإمام بعد ذكره ما سمعت من كلام الشيخ : هو ليس بقوي لأنا نشاهد من الترياق آثاراً وأفعالاً مخصوصة فأما أن لا نثبت له صورة ترياقية بل نقول إن الأفعال الترياقية حاصلة من ذلك المزاج لا من صورة أخرى جاز أيضاً أن يقال صفرة الذهب ورزانته حاصلتان مما فيه من المزاج لا من صورة مقومة فحينئذ لا يكن للذهب فصل منوع إلا مجرد الصفرة والرزانة ولكنهما معلومتان فأمكن أن تقصد إزالتهما واتخاذهما فبصل ما قاله الشيخ .

(63/591)

وأما إذا أثبتنا صورة مقومة له فنقول لا شك بأنا لا نعقل من تلك الصورة إلا أنها حقيقة تقتضي الأفعال المخصوصة الصادرة عن الترياق فأما أن يكون هذا القدر من العلم يكفي في قصد الإيجاد والإبطال أو لا يكفي فإن لم يكف وجب أن لا يمكننا اتخاذ الترياق وإن كفى فهو في مسألتنا أيضاً حاصل لأنا نعلم من الصورة الذهبية أنها ماهية تقتضي الذوب والصفرة والرزانة ، ويجاب أن بأنا وإن كنا لا نعلم الصورة المقومة على التفصيل إلا أنا نعلم الأعراض التي تلائمها والتي لا تلائمها ونعلم أن العرض الغير الملائم إذا اشتد في المادة بطلت الصورة مثل الصورة المائية فإنا نعلم أن الحرارة لا تلائمها وإن كنا لا نعلم ماهيتها على التصيل

فلذلك يمكننا أن نبطل الصورة المائية وأن نكسبها ، أما الإبطال فبتسخين الماء وأما الاكتساب فبتبريد الهواء فكذلك في مسألتنا واحتج قوم من الفلاسفة على امتناعها بأمور : أولها : أن الطبيعة إنما تعمل هذ الأجساد من عناصر مجهولة عندنا ولتلك العناصر مقادير معينة مجهولة عندنا أيضاً ولكيفيات تلك العناصر مراتب معلومة وهي مجهولة عندنا ولتمام الفعل والانفعال زمان معين مجهول عندن ، ومع الجهل بكل ذلك كيف يمكننا عمل هذه الأجساد ، وثانيها : أن الجوهر الصابغ إما أن يكون أصبر على النار من المصبوغ أو يكون المصبوغ أصبر أو يتساويان فإن كان الصابغ أصبر وجب أن يفنى المصبوغ ويبقى الصابغ بعد فنائه وإن كان المصبوغ أصبر وجب أن يبقى بعد فناء الصابغ وإن تساويا في الصبر على النار فهما من نوع واحد لاستوائهما في الصبر على النار فليس أحدهما بالصابغية والآخر بالمصبوغية أولى من العكس ، وثالثها : أنه لو كان بالصناعة مثلاً لما كانبالطبيعة لكن التالي باطل ، أما أولاً : فلأنا لم نجد له شبيهاً ، وأما الثاني : فلأنه لو جاز أن يوجد بالصناعة ما يحصل بالطبيعة لجاز أن يحصل بالطبيعة ما يحصل بالصناعة حتى يوجد سيف أو سرير بالطبيعة ،

(64/591)

ولما ثبت امتناع المقدم ، ورابعها : أن لهذه الأجسام أماكن طبيعية هي معادنها وهي لها بمنزلة الأرحام للحويان فمن جوز تولدها في غير تلك المعادن كان كمن جوز تولد الحيوانات في غير الأرحام .

وأجاب الإمام عن الأول بأنه منقوض بصناعة الطب .

وعن الثاني : بأنه لا يلزم من استواء الصابغ والمصبوغ في الصبر على النار استواؤهما في الماهية لأن المختلفين قد يشتركان في بعض الصفات ، وعن الثالث : بأنه قد يوجد بالصناعة مثل ما يوجد بالطبيعة مثل النار الحاصلة بالقدح ، والنوشادر قد يتخذ من الشعير وكذلك كثير من الزاجات ثم بتقدير أن لا نجد له مثالاً لا يلزم الجز بنفيه ولا يلزم من إمكان حصول الأمر الطبيعي بالصناعة إمكان عكسه بالأمر فيه موقوف على الدليل .

(65/591)

وعن الرابع : بأن من أراد أن يقلب النحاس فضة فهو لا يكون كالمحدث للشيء بل كالمعالج للمريض ، فإن النحاس من جوهر الفضة إلا أن فيه عللاً وأمراضاً وكما يمكن المعالجة لا في موضع التكون فكذلك في هذا الموضع ، على أن حاصل الدليل أن الذي يتكون في الجبال لا يمكن لتكونه بالصناعة ، وفيه وقع النزاع ، وابن خلدون بعد أن ذكر كلام ابن سينا ورد

الطغرائي عليه قال : لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان زعمهم أجمعين ، وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة للجسم في المعدن حتى أحالته ذهباً أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة ليتم في زمان أقصر لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمانه كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانتفاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء فتفعل تلك الصورة الأفاعيل المطلوبة ، وذلك هو الأكسير ، واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية لا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما حصل امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ، ولا بد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونها الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان لا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى غايته ، وانظر شأن الإنسان في تطوره نطفة ثم علقة ثم وثم إلى نهايته ونسب الأجزاء في كل طور مختلف مقاديرها وكيفياتها وإلا لكان الطور

الأول بعينه هو الآخر ، وكذا الحرارة المقدرة الغريزية في كل طور مخالفة لما في الطور الآخر ، فانظر إلى الذهب ما يكون في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين ، وما ينتقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكيمياء أن يساوق فعل الطبيعة في المدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم ، ومن شرط الصناعة مطلقاً تصور ما يقصد إليه بها ، فمن الأمثال السائرة في ذلك للحكماء أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المتضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك فعل الطبيعة في المعدن أو يعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها .

وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط وهو علمه عز وجل ، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك ، وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصناعة بمثابة من يدعي صنعة تخليق الإنسان من المني ونحن إذا سلمنا الإحاطة بأجزائه ونسبه وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه

وعلم ذلك علماً محصلاً لتفاصيله حتى لا يشذ من ذلك شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الإنسان وأني له ذلك .

(67/591)

والحاصل أن الفعل الصناعي على ما يقتضيه كلامهم مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي تقصد مساواتها وحاذاتها ، وفعل المادة ذات القوى فيها على التفصيل وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عما دونها ، فقصد تصيير النحاس ذهباً كقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات ، وهذا أوثق ما علمته من البراهين الدالة على الاستحالة ، وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول ولا من جهة الطبيعة وإنما هي من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها ، وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك ، ولذلك وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وهو أن حكمه الله تعالى في الحجرين وندرتهما أنهما عمدتا مكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليها بالصنعة لبطلت حكمة الله تعالى في ذلك إذ يكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء ، وآخر أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون صحته وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها وأقل زماناً صحيحاً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي

سلكته في تكوين الذهب والفضة وتخليصهما ، وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والحية وتخليقهما فأمر صحيح في ذلك أدى عليه العثور كما زعم ، وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه ولده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرها ، وأما قولهم : إن الأكسير بمثابة الخميرة وأنه مركب يحيل ما حصل فيه ويقلبه إلى ذاته فليس بشيء ، لأن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع ، والمطلوب من الأكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه

(68/591)

وأعلى فهو تكوين والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الأكسير على الخميرة ، ثم قال : وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما يزعم الحكماء المتكلمون فيها فليس من باب الصنائع الطبيعية ولا يتم بأمر صناعي وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق ، وقد ذكر مسلمة

المجريطي في كتابة الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى ، وكذا كلام جابر في رسائله .

وبالجملة أن نيلها إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الصنائع والطبائع فهي إنما تكون بتأثيرات النفس وخوارق العادة كالمشي على الماء وتلخيق الطير فليست إلا معجزة أو كرامة أو سحراً ، ولهذا كان كلام الحكماء فيها ألغازاً لا يظفر بتحقيقه إلا من خاض لجة من علوم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة ، وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها اه .

(69/591)

وإلى إمكانها ذهب الإمام الرازي فقال الحق أمكانها لأن الأجساد السبعة مشتركة في أنها أجساد ذائبة صابرة على النار منطرقة وأن الذهب لم يتميز عن غيره إلا بالصفرة والرزانة أو الصورة الذهبية المفيدة لهذين العرضين إن ثبت ذلك ، وما به الاختلاف لا يكون لازماً لما به الاشتراك ، فإذن يمكن أن تتصف جسمية النحاس بصفرة الذهب ورزانته وذلك هو المطلوب ، والحق أن الكيمياء ممكنة وأنها من الصنائع الطبيعية لكن العلم بها من أقاصي العلوم الصعبة التي لا يطلع عليها إلا من أهله الله تعالى لها واختصه سبحانه من عباده

وأوليائه بها وهو علم تاهت في طلبه العقول وطاشت الأحلام ، وأصله من الوحي الإلهي وحصل لبعض بالتصفية وكثرة النظر مع التجربة ووصل إلى من ليس أهلاً للوحي ولم يتعاط ما تعاطاه البعض بالتعلم ممن من الله تعالى به عليه ، وقال ارس : وهو من أجلة أهل هذا العلم كان أوله وحياً الله تعالى ثم درس وباد فاستخرجه من استخرجه من الكتب وقد جرت سنة الله تعالى فيمن ظفر به بكتمه الأعلى من شاء الله تعالى وتواصت الحكماء على كتمه عن غير أهله بل قيل : إن الله تعالى أخذ على العقول في فطرتها المواثيق بكتمانه وصيانته والاحتراض من إذاعته وإضاعته ولذا ترى الحكماء قد ألغزوه نهاية الألغاز وأغمضوه غاية الإغماض حتى عد كلامهم من لم يعرف مرامهم حديث خرافة وحكم على قائله بالسفه والسخافة وبهذا الكتم حفظت حكمة الله تعالى التي زعمها ابن خلدون في النقدين وسقط استدلاله الذي سمعته فيما مر .

(70/591)

وقد نص جابر بن حيان وهو إمام في هذه الصنعة وإنكار أنه كان موجوداً حمق في كتابه سر الأسرار على ما قلنا حيث قال : كل حكيم وضع رمزه وكتابه على معنى مبهم من وضع الحل والإصعاد والغسل على أربع طبائع وسماها الأجساد الثقال ووصف التدابير على

لفظ ومعنى مشتبه ، فهو عند الحكيم مفتوح ، وعند الجهلة مغلق ، وربما تعدوا إلى أخذ تلك الأجساد بعينها واختبروها ولم ينتفعوا بها ، وشتموا الحكماء على كتمانهم هذا العمل وإنما عمارة الدنيا بالدراهم والدنانير وأن الناس الصناع والمقاتلة لا يعملون إلا لرغبة أو رهبة فعلموا أنهم إن أفشوا هذا السر حتى يعلمه كل أحد لم يتم أمر الدنيا وخربت ، ولم يعمل أحد لأحد فخرجوا من ذلك وكتموه اه .

ثم لا يخفى أن ما ذكره ابن خلدون أولاً من أن الاستحالة لعدم الإحاطة إذا ثبت أنها كانت عن وحي ليس بشيء على أن فيه ما فيه وإن لم يثبت ذلك ، ومثل ذلك ما ذكره من أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأبعد ، لأنا نقول ما يحصل من الطبائع أيضاً ، فيكون لها طريقان بعيد اقتضت الحكمة أن تسلكه غالباً وقريب اقتضت الحكمة أيضاف أن تسلكه نادراً بواسطة من شاء الله تعالى من عباده ، وكون المنتحلين لم يزالوا يخبطون خبط عشواء إن أراد بهم أئمة هذه الصناعة كهرمس وسقراط وإفلاطون وإغاريمون وفيثاغورس ، وهرقل ، وفرفريوس ، ومارية ، وذو سيموس وارس ، وذومقراط ، وسفيدوس ، وبليناس ، ومهراريس ، وجابر بن حيان ، والمجريطي ، وأبو بكر بن وحشية ، ومحمد بن زكريا الرازي وغيرهم مما لا يحصون كثرة فهم لم يخبطوا ، ودون إثبات خبطهم خرط القتاد ، وألغازهم لنكتة صرحوا بها لا يدل على خبطهم ، وإن أراد

بهم من يتعاطاها من المشاقين في عصره وفي هذه الأعصار ؛ فما ذكر مسلم في أكثرهم وهو لا يطعن في إمكانها .

(71/591)

وقد ذم الطغرائي هذا الصنف من الناس فقال في كتابه "تراكيب الأنوار" : إن المعلم الناصح موجود في كل صنعة إلا في هذا الفن ، وكيف يرجى النصح عند قوم يسمعون فيما بينهم بالحسدة وتحالفوا فيما بينهم أن لا يوضحوا هذه السرائر أبداً لا سيما في هذا الزمان الذي قد باد فيه هذا العلم جملة وصار المتعرض له والباحث عنه عند الناس مسخرة وقد عنيت برهة من الزمان أبحث عن كل من يظن أن عنده طرفاً من هذا العلم فما وجدت أحداً شم له رائحة ولا عرف منه شطر كلمة ، ووجدت منتحلي هذه الصنعة الشريفة بين خادع يبيع دينه ومروءته بعرض من الدنيا قليل ويتلف أموال الناس بالتجارب الصادرة عن الجهل ، وبين مخدوع مأخوذ عن رشده بالأمر الخائب والطمع الكاذب والتشاغل بالباطل عن طلب المعاش الجميل والتعويل على الأماني والأكاذيب .

قصارى أحدهم أن ينظر في كتب جابر وأضرابه فيأخذ بظواهر كلامهم ، ويغتر بجلايا دعاويهم دون حقائق معانيهم وهم وجميع من مضى من حكماء هذه الصنعة يحذرون

الناس من الاغترار بظواهر كتبهم ، وينادون على أنفسهم بأنهم يرمزون ويلغزون ولا يلتفت إلى قولهم ولا يصدقون إلى آخر ما قال .

وقد تفاقم الأمر في زماننا إلى ما لا تتسع العبارة لشرحه ، وكون الكيمياء من تأثيرات النفوس وخوارق العادات فلا تكون إلا معجزة أو كرامة أو سحراً ليس بشيء بل هي بأسباب عادية لكنها خفية على أكثر الناس لا دخل لتأثير النفوس فيها أصلاً .

(72/591)

نعم قد يكون من النبي أو الولي ما يكون من الكيماوي من غير معاطاة تلك الأسباب فيكون ذلك كرامة أو معجزة ، وكون منحى كلام بعض الحكماء فيها منحى كلامهم في الأمور السحرية لا يدل على أنها من أنواع السحر أو توابعه فإن ذلك من ألغازهم لأمرها ، وقد تفننوا في الألغاز لها وسلكوا في ذلك كل مسلك ، فوضع بليناس كتابه فيها على الأفلاك والكواكب ، ومنهم من تكلم عليها بالأمثال ومنهم من تكلم عليها بالحكايات التي هي أشبه شيء بالخرافات إلى غير ذلك .

وبالجملة هي صنعة قل من يعرفها جداً ، وأعد الاشتغال بها والتصدي لمعرفتها من كتبها من غير حكيم عارف برموزها كما يفعله المنتحلين لها اليوم محض جنون ، وكون أصلها

الوحي الإلهي أو نحو ذلك هو الذي يغلب على الظن ، وقد أورد الطغرائي في كتبه كجامع الأسرار وغيره ما يدل على ذلك ، فذكر أنه روى عن هرمس أنه قال : إن الله عز وجل أوحى إلى شيث بن آدم عليهما السلام أن ازرع الذهب في الأرض البيضاء النقية واسقه ماء الحياة ، وقالت مارية : إني لست أقول لكم من تلقاء نفسي ، ولكني أقول لكم ما أمر الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام وأعلمه أن الحجر النسطريس هو الذي يمسك البصغ وقال بنسبتها إلى موسى عليه السلام ذوسيموس وارس ، وذكر ارس أن العمل بها كان طوع اليهود بمصر ، وكان يوسف عليه السلام وهو أول من دخل مصر من بني إسرائيل يعرف ذلك فأكرمه فرعون لحكمته التي آتاه الله تعالى إياها ، وذكر أيضاً فصلاً مرموزاً فيها نسبه إلى سليمان عليه السلام .

(73/591)

وقال الطرسوسي في كتابه : إن الله تعالى لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة عوضه علم كل شيء وكان علم الصنعة مما علمه ، وانتقل من قوم إلى قوم كما انتقلت العلوم الأخر إلى أيام هرمس الأول ، وقال أيضاً : حدثونا عن محمد بن جرير الطبري بإسناد له متصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وأعطيت

الكبريت الأبيض والأحمر "

وإذا أردت نبذة من الكلام في ذلك فاستمع لما يتلى عليك .

ذكر بعض المحققين أن مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة المنطرقة وهي الذهب والفضة والرصاص والقزدير والنحاس والحديد والخارصيني هل هي مختلفات بالفصول فيكون كل منها نوعاً غير النوع الآخر أو هي مختلفات بالخواص والكيفيات فقط فتكون كلها أصنافاً لنوع واحد فالذي ذهب إليه المعلم أبو نصر الفارابي وتابعه عليه حكماء الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها بالكيفيات من الرطوبة واليبوسة واللين والصلابة والألوان نحو الصفرة والبياض والسواد وهي كلها أصناف لذلك النوع الواحد وبنى على ذلك إمكان انقلاب بعضها إلى بعض بتبدل الأعراض بفعل الطبيعة أو بالصنعة .

(74/591)

وقد حكى أبو بكر بن الصغائغ المعروف بابن باجه في بعض تصانيفه عن المعلم المذكور أنه قال : قد بين أرسطو في كتبه في المعادن أن صناعة الكيمياء داخلة تحت الإمكان إلا أنها من الممكن الذي يعسر وجوده بالفعل اللهم إلا أن يتفق قرائن يسهل بها الوجود وذلك أنه

فحص عنها أولاً على طريق الجدل فأثبتها بقياس وأبطلها بقياس على عداته فيما يكثر عناده من الأوضاع ثم أثبتها أخيراً بقياس ألفه من مقدمتين بينهما في أول الكتاب ، الأولى : أن الفلزات وحدة بالنوع والاختلاف الذي بينها ليس في ماهياتها وإنما هو في أعراضها فبعضه في أعراضها الذاتية وبعضه في أعراضها العرضية ، والثانية : أن كل شيئين تحت نوع واحد اختلفا بعرض فإنه يمكن انتقال كل منهما إلى الآخر فإن كان العرض ذاتياً عسر الانتقال وإن كان مفارقاً سهل الانتقال والعسر في هذه الصناعة إنما هو لاختلاف أكثر هذه الجواهر في أعراضها الذاتية ويشبه أن يكون الاختلاف الذي بين الذهب والفضة يسيراً جداً اه ، والذي ذهب إليه الشيخ أبو علي بن سينا وتابعه عليه حكماء المشرق أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة وبني على ذلك إنكار هذه الصناعة واستحالة وجودها لأن الفصل لا سبيل بالصناعة إليه وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل ، وهذا ما حكاه ابن خلدون عنه ، وقال الإمام في المباحث المشرقية في الفصل الثامن من القسم الرابع منها : الشيخ سلم إمكان أن يصبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ الذهب وأن يزال عن الرصاص أكثر ما فيه من النقص ، فأما أن يكون الفصل المنوع يسلب أو يكسي ، قال : فلم يظهر لي إمكانه بعد ، إذ هذه الأمور المحسوسة تشبه أن لا تكون الفصول التي بها تصير هذه الأجساد أنوعاً بل هي أعراض ولوازم وفصولها مجهولة وإذا كان الشيء مجهولاً كيف يمكن قصد إيجاده وإفنائه اه .

وغلطه الطغرائي وهو من أكابر أهل هذه الصناعة وله فيها عدة كتب ورد عليه بأن التدبير والعلاج ليس في تخليق الفصل وإبداعه وإنما هو في إعداد المادة لقبول خاصة والفصل يأتي من بعض الإعداد من لدن خالقه وبارئه جل شأنه وعظمت قدرته كما يفيد شبحانه النور على الأجسام بالصقل ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفته ، وإذا كنا قد عثرنا على تغليق بعض الحيوانات مثل العقرب من التراب والتبن ، والحية من الشعر وغير ذلك فما المانع من العثور على مثل ذلك في المعاذن وهذا كله بالصناعة وهي إنما موضوعها المادة فيعدها التدبير والعلاج إلى قبول تلك الفصول لا أكثر ، فنحن نحاول مثل ذلك في الذهب والفضة فنتخذ مادة نصفها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أول لقبور صورة الذهب والفضة ثم نحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلهما اه بمعناه وهو رد صحيح فيما يظهر ، وقال الإمام بعد ذكره ما سمعت من كلام الشيخ : هو ليس بقوي لأنا نشاهد من الترياق آثاراً وأفعالاً مخصوصة فأما أن لا نثبت له صورة ترياقية بل نقول إن الأفعال الترياقية حاصلة من ذلك المزاج لا من صورة أخرى جاز أيضاً أن يقال صفرة الذهب ورزانته حاصلتان مما فيه من المزاج لا من صورة مقومة فحينئذ لا يكن للذهب فصل منوع إلا مجرد

الصفرة والرزانة ولكنهما معلومتان فأمكن أن تقصد إزالتهما واتخاذهما فبصل ما قاله الشيخ .

(76/591)

وأما إذا أثبتنا صورة مقومة له فنقول لا شك بأنا لا نعقل من تلك الصورة إلا أنها حقيقة تقتضي الأفعال المخصوصة الصادرة عن الترياق فأما أن يكون هذا القدر من العلم يكفي في قصد الإيجاد والإبطال أو لا يكفي فإن لم يكف وجب أن لا يمكننا اتخاذ الترياق وإن كفى فهو في مسألتنا أيضاً حاصل لأنا نعلم من الصورة الذهبية أنها ماهية تقتضي الذوب والصفرة والرزانة ، ويجاب أن بأنا وإن كنا لا نعلم الصورة المقومة على التفصيل إلا أنا نعلم الأعراض التي تلائمها والتي لا تلائمها ونعلم أن العرض الغير الملائم إذا اشتد في المادة بطلت الصورة مثل الصورة المائية فإنا نعلم أن الحرارة لا تلائمها وإن كنا لا نعلم ماهيتها على التصيل فلذلك يمكننا أن نبطل الصورة المائية وأن نكسبها ، أما الإبطال فبتسخين الماء وأما الاكتساب فبتبريد الهواء فكذلك في مسألتنا واحتج قوم من الفلاسفة على امتناعها بأمور : أولها : أن الطبيعة إنما تعمل هذ الأجساد من عناصر مجهولة عندنا ولتلك العناصر مقادير معينة مجهولة عندنا أيضاً ولكيفيات تلك العناصر مراتب معلومة وهي مجهولة

عندنا ولتمام الفعل والانفعال زمان معين مجهول عندن ، ومع الجهل بكل ذلك كيف يمكننا عمل هذه الأجساد ، وثانيها : أن الجوهر الصابغ إما أن يكون أصبر على النار من المصبوغ أو يكون المصبوغ أصبر أو يتساويان فإن كان الصابغ أصبر وجب أن يفنى المصبوغ ويبقى الصابغ بعد فنائه وإن كان المصبوغ أصبر وجب أن يبقى بعد فناء الصابغ وإن تساويا في الصبر على النار فهما من نوع واحد لاستوائهما في الصبر على النار فليس أحدهما بالصابغية والآخر بالمصبوغية أولى من العكس ، وثالثها : أنه لو كان بالصناعة مثلاً لما كانبالطبيعة لكن التالي باطل ، أما أولاً : فلأنا لم نجد له شبيهاً ، وأما الثاني : فلأنه لو جاز أن يوجد بالصناعة ما يحصل بالطبيعة لجاز أن يحصل بالطبيعة ما يحصل بالصناعة حتى يوجد سيف أو سرير بالطبيعة ،

(77/591)

ولما ثبت امتناع المقدم ، ورابعها : أن لهذه الأجسام أماكن طبيعية هي معادنها وهي لها بمنزلة الأرحام للحويان فمن جوز تولدها في غير تلك المعادن كان كمن جوز تولد الحيوانات في غير الأرحام .

وأجاب الإمام عن الأول بأنه منقوض بصناعة الطب .

وعن الثاني : بأنه لا يلزم من استواء الصابغ والمصبوغ في الصبر على النار استواؤهما في الماهية لأن المختلفين قد يشتركان في بعض الصفات ، وعن الثالث : بأنه قد يوجد بالصناعة مثل ما يوجد بالطبيعة مثل النار الحاصلة بالقدح ، والنوشادر قد يتخذ من الشعير وكذلك كثير من الزاجات ثم بتقدير أن لا نجد له مثالاً لا يلزم الجز بنفيه ولا يلزم من إمكان حصول الأمر الطبيعي بالصناعة إمكان عكسه بالأمر فيه موقوف على الدليل .

(78/591)

وعن الرابع : بأن من أراد أن يقلب النحاس فضة فهو لا يكون كالمحدث للشيء بل كالمعالج للمريض ، فإن النحاس من جوهر الفضة إلا أن فيه عللاً وأمراضاً وكما يمكن المعالجة لا في موضع التكون فكذلك في هذا الموضع ، على أن حاصل الدليل أن الذي يتكون في الجبال لا يمكن لتكونه بالصناعة ، وفيه وقع النزاع ، وابن خلدون بعد أن ذكر كلام ابن سينا ورد الطغرائي عليه قال : لنا في الرد على أهل هذه الصناعة مأخذ آخر يتبين منه استحالة وجودها وبطلان زعمهم أجمعين ، وذلك أن حاصل علاجهم أنهم بعد الوقوف على المادة المستعدة بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعاً ويحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة للجسم في المعدن حتى أحالته ذهباً أو فضة ويضاعفون القوى الفاعلة والمنفعلة

ليتم في زمان أقصر لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن الذهب إنما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فإذا تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمانه كونه أقصر من ذلك ضرورة على ما قلناه أو يتحرون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخميرة للخبز تقلب العجين إلى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها من الانتفاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعاً إلى الغذاء فتفعل تلك الصورة الأفاعيل المطلوبة ، وذلك هو الأكسير ، واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية لا بد فيه من اجتماع العناصر الأربعة على نسبة متفاوتة إذ لو كانت متكافئة في النسبة لما حصل امتزاجها فلا بد من الجزء الغالب على الكل ، ولا بد في كل ممتزج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونها الحافظة لصورته ثم كل متكون في زمان لا بد من اختلاف أطواره وانقاله في زمن التكوين من طور إلى طور حتى ينتهي إلى غايته ، وانظر شأن الإنسان في تطوره نطفة ثم علقة ثم وثم إلى نهايته ونسب الأجزاء في كل طور مختلف مقاديرها وكيفياتها وإلا لكان الطور

الأول بعينه هو الآخر ، وكذا الحرارة المقدرة الغريزية في كل طور مخالفة لما في الطور الآخر ، فانظر إلى الذهب ما يكون في معدنه من الأطوار منذ ألف سنة وثمانين ، وما ينتقل فيه من الأحوال فيحتاج صاحب الكيمياء أن يساوق فعل الطبيعة في المدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه إلى أن يتم ، ومن شرط الصناعة مطلقاً تصور ما يقصد إليه بها ، فمن الأمثال السائرة في ذلك للحكماء أول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة أول العمل فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعدة ونسبها المتفاوتة في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى المتضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك فعل الطبيعة في المعدن أو يعد لبعض المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخميرة للخبز وتفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها ومقاديرها .

وهذه كلها إنما يحصرها العلم المحيط وهو علمه عز وجل ، والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك ، وإنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصناعة بمثابة من يدعي صنعة تخليق الإنسان من المني ونحن إذا سلمنا الإحاطة بأجزائه ونسبه وأطواره وكيفية تخليقه في رحمه وعلم ذلك علماً محصلاً لتفاصيله حتى لا يشذ من ذلك شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الإنسان وأني له ذلك .

(80/591)

والحاصل أن الفعل الصناعي على ما يقتضيه كلامهم مسبوق بتصورات أحوال الطبيعة المعدنية التي تقصد مساواتها وحاذاتها ، وفعل المادة ذات القوى فيها على التفصيل وتلك الأحوال لا نهاية لها والعلم البشري عاجز عما دونها ، فقصد تصيير النحاس ذهباً كقصد تخليق إنسان أو حيوان أو نبات ، وهذا أوثق ما علمته من البراهين الدالة على الاستحالة ، وليست الاستحالة فيه من جهة الفصول ولا من جهة الطبيعة وإنما هي من تعذر الإحاطة وقصور البشر عنها ، وما ذكره ابن سينا بمعزل عن ذلك ، ولذلك وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وهو أن حكمه الله تعالى في الحجرين وندرتهما أنهما عمدتا مكاسب الناس ومتمولاتهم فلو حصل عليها بالصنعة لبطلت حكمة الله تعالى في ذلك إذ يكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما على شيء ، وآخر أيضاً وهو أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأبعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون صحته وأنه أقرب من طريق الطبيعة في معدنها وأقل زماناً صحيحاً لما تركته الطبيعة إلى طريقها الذي سلكته في تكوين الذهب والفضة وتخليصهما ، وأما تشبيه الطغرائي هذا التدبير بما عثر عليه من مفردات لأمثاله في الطبيعة كالعقرب والحية وتخليقهما فأمر صحيح في ذلك أدى عليه العثور كما زعم ، وأما الكيمياء فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها ولا على طريقها وما زال منتحلوها يخبطون فيها خبط عشواء ولا يظفرون إلا بالحكايات

الكاذبة ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه ولده أو تلميذه وأصحابه وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرها ، وأما قولهم : إن الأكسير بمثابة الخميرة وأنه مركب يحيل ما حصل فيه ويقلبه إلى ذاته فليس بشيء ، لأن الخميرة إنما تقلب العجين وتعده للهضم وهو فساد والفساد في المواد سهل يقع بأيسر شيء من الأفعال والطبائع ، والمطلوب من الأكسير قلب المعدن إلى ما هو أشرف منه

(81/591)

وأعلى فهو تكوين والتكوين أصعب من الفساد فلا يقاس الأكسير على الخميرة ، ثم قال : وتحقيق الأمر في ذلك أن الكيمياء إن صح وجودها كما يزعم الحكماء المتكلمون فيها فليس من باب الصنائع الطبيعية ولا يتم بأمر صناعي وليس كلامهم فيها من منحى الطبيعيات إنما هو من منحى كلامهم في الأمور السحرية وسائر الخوارق ، وقد ذكر مسلمة المجريطي في كتابة الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة الحكيم من هذا المنحى ، وكذا كلام جابر في رسائله .

وبالجملة أن نيلها إن كان صحيحاً فهو واقع مما وراء الصنائع والطبائع فهي إنما تكون بتأثيرات النفس وخوارق العادة كالمشي على الماء وتلخيق الطير فليست إلا معجزة أو

كرامة أو سحراً ، ولهذا كان كلام الحكماء فيها ألغازاً لا يظفر بتحقيقه إلا من خاض لجة من علوم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة ، وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد إلى تحصيلها اه .

(82/591)

وإلى إمكانها ذهب الإمام الرازي فقال الحق أمكانها لأن الأجساد السبعة مشتركة في أنها أجساد ذائبة صابرة على النار منطرقة وأن الذهب لم يتميز عن غيره إلا بالصفرة والرزانة أو الصورة الذهبية المفيدة لهذين العرضين إن ثبت ذلك ، وما به الاختلاف لا يكون لازماً لما به الاشتراك ، فإذن يمكن أن تتصف جسمية النحاس بصفرة الذهب ورزانته وذلك هو المطلوب ، والحق أن الكيمياء ممكنة وأنها من الصنائع الطبيعية لكن العلم بها من أقاصي العلوم الصعبة التي لا يطلع عليها إلا من أهله الله تعالى لها واختصه سبحانه من عباده وأوليائه بها وهو علم تاهت في طلبه العقول وطاشت الأحلام ، وأصله من الوحي الإلهي وحصل لبعض بالتصفية وكثرة النظر مع التجربة ووصل إلى من ليس أهلاً للوحي ولم يتعاط ما تعاطاه البعض بالتعلم ممن من الله تعالى به عليه ، وقال ارس : وهو من أجلة أهل هذا العلم كان أوله وحياً الله تعالى ثم درس وباد فاستخرجه من استخرجه من الكتب وقد

جرت سنة الله تعالى فيمن ظفر به بكتمه الأعلى من شاء الله تعالى وتواصت الحكماء على كتمه عن غير أهله بل قيل : إن الله تعالى أخذ على العقول في فطرتها المواثيق بكتمانه وصيانته والاحتراض من إذاعته وإضاعته ولذا ترى الحكماء قد ألغزوه نهاية الألغاز وأغمضوه غاية الإغماض حتى عد كلامهم من لم يعرف مرامهم حديث خرافة وحكم على قائله بالسفه والسخافة وبهذا الكتم حفظت حكمة الله تعالى التي زعمها ابن خلدون في النقدين وسقط استدلاله الذي سمعته فيما مر .

(83/591)

وقد نص جابر بن حيان وهو إمام في هذه الصنعة وإنكار أنه كان موجوداً حمق في كتابه سر الأسرار على ما قلنا حيث قال : كل حكيم وضع رمزه وكتابه على معنى مبهم من وضع الحل والإصعاد والغسل على أربع طبائع وسماها الأجساد الثقال ووصف التدابير على لفظ ومعنى مشتبه ، فهو عند الحكيم مفتوح ، وعند الجهلة مغلق ، وربما تعدوا إلى أخذ تلك الأجساد بعينها واختبروها ولم ينتفعوا بها ، وشتموا الحكماء على كتمانهم هذا العمل وإنما عمارة الدنيا بالدراهم والدنانير وأن الناس الصناع والمقاتلة لا يعملون إلا لرغبة أو رهبة فعلموا أنهم إن أفشوا هذا السر حتى يعلمه كل أحد لم يتم أمر الدنيا وخربت ، ولم

يعمل أحد لأحد فخرجوا من ذلك وكتموه اه .

ثم لا يخفى أن ما ذكره ابن خلدون أولاً من أن الاستحالة لعدم الإحاطة إذا ثبت أنها كانت عن وحي ليس بشيء على أن فيه ما فيه وإن لم يثبت ذلك ، ومثل ذلك ما ذكره من أن الطبيعة لا تترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأبعد ، لأنا نقول ما يحصل من الطبائع أيضاً ، فيكون لها طريقان بعيد اقتضت الحكمة أن تسلكه غالباً وقريب اقتضت الحكمة أيضاف أن تسلكه نادراً بواسطة من شاء الله تعالى من عباده ، وكون المنتحلين لم يزالوا يخبطون خبط عشواء إن أراد بهم أئمة هذه الصناعة كهرمس وسقراط وإفلاطون وإغاريمون وفيثاغورس ، وهرقل ، وفرفريوس ، ومارية ، وذو سيموس وارس ، وذومقراط ، وسفيدوس ، وبليناس ، ومهراريس ، وجابر بن حيان ، والمجريطي ، وأبو بكر بن وحشية ، ومحمد بن زكريا الرازي وغيرهم مما لا يحصون كثرة فهم لم يخبطوا ، ودون إثبات خبطهم خرط القتاد ، وألغازهم لنكتة صرحوا بها لا يدل على خبطهم ، وإن أراد بهم من يتعاطاها من المشاقين في عصره وفي هذه الأعصار ؛ فما ذكر مسلم في أكثرهم وهو لا يطعن في إمكانها .

(84/591)

وقد ذم الطغرائي هذا الصنف من الناس فقال في كتابه "تراكيب الأنوار" : إن المعلم الناصح موجود في كل صنعة إلا في هذا الفن ، وكيف يرجى النصح عند قوم يسمعون فيما بينهم بالحسدة وتحالفوا فيما بينهم أن لا يوضحوا هذه السرائر أبداً لا سيما في هذا الزمان الذي قد باد فيه هذا العلم جملة وصار المتعرض له والباحث عنه عند الناس مسخرة وقد عنيت برهة من الزمان أبحث عن كل من يظن أن عنده طرفاً من هذا العلم فما وجدت أحداً شم له رائحة ولا عرف منه شطر كلمة ، ووجدت منتحلي هذه الصنعة الشريفة بين خادع يبيع دينه ومروءته بعرض من الدنيا قليل ويتلف أموال الناس بالتجارب الصادرة عن الجهل ، وبين مخدوع مأخوذ عن رشده بالأمر الخائب والطمع الكاذب والتشاغل بالباطل عن طلب المعاش الجميل والتعويل على الأماني والأكاذيب .

قصارى أحدهم أن ينظر في كتب جابر وأضرابه فيأخذ بظواهر كلامهم ، ويغتر بجلايا دعاويهم دون حقائق معانيهم وهم وجميع من مضى من حكماء هذه الصنعة يحذرون الناس من الاغترار بظواهر كتبهم ، وينادون على أنفسهم بأنهم يرمزون ويلغزون ولا يلتفت إلى قولهم ولا يصدقون إلى آخر ما قال .

وقد تفاقم الأمر في زماننا إلى ما لا تتسع العبارة لشرحه ، وكون الكيمياء من تأثيرات النفوس وخوارق العادات فلا تكون إلا معجزة أو كرامة أو سحراً ليس بشيء بل هي بأسباب عادية لكنها خفية على أكثر الناس لا دخل لتأثير النفوس فيها أصلاً .

نعم قد يكون من النبي أو الولي ما يكون من الكيماوي من غير معاطاة تلك الأسباب فيكون ذلك كرامة أو معجزة ، وكون منحى كلام بعض الحكماء فيها منحى كلامهم في الأمور السحرية لا يدل على أنها من أنواع السحر أو توابعه فإن ذلك من ألغازهم لأمرها ، وقد تفننوا في الألغاز لها وسلكوا في ذلك كل مسلك ، فوضع بليناس كتابه فيها على الأفلاك والكواكب ، ومنهم من تكلم عليها بالأمثال ومنهم من تكلم عليها بالحكايات التي هي أشبه شيء بالخرافات إلى غير ذلك .

وبالجملة هي صنعة قل من يعرفها جداً ، وأعد الاشتغال بها والتصدي لمعرفتها من كتبها من غير حكيم عارف برموزها كما يفعله المنتحلين لها اليوم محض جنون ، وكون أصلها الوحي الإلهي أو نحو ذلك هو الذي يغلب على الظن ، وقد أورد الطغرائي في كتبه كجامع الأسرار وغيره ما يدل على ذلك ، فذكر أنه روى عن هرمس أنه قال : إن الله عز وجل أوحى إلى شيث بن آدم عليهما السلام أن ازرع الذهب في الأرض البيضاء النقية واسقه ماء الحياة ، وقالت مارية : إني لست أقول لكم من تلقاء نفسي ، ولكني أقول لكم ما أمر الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام وأعلمه أن الحجر النسطريس هو الذي يمسك البصغ وقال

بنسبتها إلى موسى عليه السلام ذوسيموس وارس ، وذكر ارس أن العمل بها كان طوع اليهود بمصر ، وكان يوسف عليه السلام وهو أول من دخل مصر من بني إسرائيل يعرف ذلك فأكرمه فرعون لحكمته التي آتاه الله تعالى إياها ، وذكر أيضاً فصلاً مرموزاً فيها نسبه إلى سليمان عليه السلام .

(86/591)

وقال الطرسوسي في كتابه : إن الله تعالى لما أهبط آدم عليه السلام من الجنة عوضه علم كل شيء وكان علم الصنعة مما علمه ، وانتقل من قوم إلى قوم كما انتقلت العلوم الأخر إلى أيام هرمس الأول ، وقال أيضاً : حدثونا عن محمد بن جرير الطبري بإسناد له متصل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها وأعطيت الكبريت الأبيض والأحمر "

وروى جابر عن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه في ذلك روايات كثيرة حتى أنه أسند إليه عدة من كتبه ولا أحقق قوله ولا أكذبه وأجله لموضعه من العلم عن الافتراء على الأئمة ، وروى عن أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه أنه سئل فقيل : له ما تقول فيما خاض الناس فيه من علم الكيمياء ؟ فأطرق ملياً ثم رفع رأسه ثم قال : سألتموني عن أخت النبوة

وتوأم المروة لقد كان وأنه لكائن وما من شجرة ولا مدرة ولا شيء إلا وفيه أصل وفرع أو أصل أو فرع قيل : يا أمير المؤمنين أما تعلمه ؟ قال : والله تعالى أنا أعلم به من العالمين له لأنهم يتكلمون بالعلم على ظاهره دون باطنه وأنا أعلم العلم ظاهره وباطنه ، قيل : فاذكر لنا منه شيئاً نأخذه منك ، قال : والله تعالى لولا أن النفس أمارة بالسوء لقلت ، قيل : فما كان تقول ؟ قال : إني أعلم أن في الزئبق الرجراج والذهب الوهاج والحديد المزعفر وزنجار النحاس الأخضر لكنوزاً لا يؤتى على آخرها يلقح بعضها ببعض فتفتر عن ذهب كامن ، قيل : يا أمير المؤمنين ما نعلم هذا ، قال : هو ماء جامد وهواء راكد ونار حائلة وأرض سائلة قالوا ما نفقه هذا ، قال : لو حل للمؤمنين من أهل الحكمة أن يكلموا الناس على غير هذا لعلمه الصبيان في المكاتب اه كلام الطغرائي باختصار .

(87/591)

وذكر في كتابه مفاتيح الرحمة ومصابيح الحكمة عن ستين نبياً وحكيماً أنهم قالوا بحقية هذا العلم ، وفي القلب من صحة هذه الأخبار شيء ، والأغلب على الظن أنه لو كان في الكيمياء خبر مقبول عند المحدثين لشاع ولما أنكرها من هو من أجلتهم كشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية فإنه كان ينكر ثبوتها وألف رسالة في إنكارها ، ولعل رد الشيخ نجم

الدين ابن أبي الذر البغدادي وتزييفه ما قاله فيها كما زعم الصفدي إنما كان فيما هو من باب الاستدلالات العقلية فإن الرجل في باب النقليات مما لا يجاريه نجم الدين المذكور وأمثاله وهو في باب العقليات وإن كان جليلاً أيضاً إلا أنه دونه في النقليات ، والمطلب دقيق حتى أن بعض من تعقد عليه الخناصر اضطرب في أمرها فأنكرها تارة وأقربها أخرى ، فهذا شيخ الحكماء ورئيسهم أبو علي بن سينا سمعت ما نقل عنه أولاً ، وحكى عنه الرجوع عنه ، وعلى جودة ذهبنه وعلو كعبه في الحكمة بأقسامها لم يقف على حقيقة عملها حتى قال الطغرائي في تراكيب الأنوار ما ينقض عجبي من أبي علي بن سينا كيف استجاز وضع رسالة في هذا الفن فضح بها نفسه وخالف الأصول التي عنده وقصر فيها عن كثير من الحشوية الطغام المظلمة الأذهان الكليلة الأفهام .

(88/591)

وقال في "جامع الأسرار" : إن الشيخ أبا علي بن سينا لفرط شغفه بهذا العلم وحدسه القوي بأنه حق صنف رسالة فيه فأحسن فيما يتعلق بأصول الطبيعيات ولخفاء طريق القوم واستعمائها دونه لم يذكر في التدابير المختصة بعلمنا لفظة صحيحة ولا أشار إلى ذكر المزاج الحق والأوزان والتراكيب المكتومة والنيران وطبقاتها والآلة التي لا يتم العمل إلا بها

وهي أحد الشرائط العشرة ، ولم يتجاوز ما عند الحشوية من تدابير الزوابق والكباريت والدفن في زبل الخيل والتشاغل بهذه القاذورات ولولا آفة الإعجاب وحسن ظن الإنسان بعلمه وحرصه على أن لا يشذ عنه شيء من المعارف لكان من الواجب على مثله مع غزارة علمه وعلو طبقته في الأبحاث الحقيقية أن يكتفي بما عنده ، ولا يتعرض لما لا يعلمه ، وقد تأدى إلينا من تدابيره عن أصحابه الذين شاهدوها أنه لم يكن يعرف حقيقة علمنا ، وقد رأينا بخطه من التعاريق الملتقطة من كلان جابر بن حيان ، وخالد بن يزيد ما يدل أيضاً على ذلك اه ملخصاً ، والكلام في هذا المطلب طويل وفيما ذكرنا كفاية لمن أحب الاطلاع على شيء مما قيل في ذلك ، والله تعالى الموفق ، ثم إن القول بأن المراد بالعلم في الآية علم استخراج الكنوز والدفائن يستدعي ثبوت هذا العلم ، وأهل علم الحرف وعلم الطلسمات يقولون به ولهم في ذلك كلام طويل والعقل يجوز ثبوته ، والله تعالى أعلم بثبوته في نفس الأمر .

(89/591)

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ تقرير لعلمه ذلك وتنبيه على خطئه في اغتراره وعلمه بذلك من التوراة أو من موسى عليه السلام أو من كتب التواريخ أو من القصاص ، والقوة تحتمل القوة الحسية والمعنوية ، والجمع يحتمل

جمع المال وجمع الرجال ، والمعنى ألم يقف على ما يفيده العلم ولم يعلم ما فعل الله تعالى بمن هو أشد منه قوة حساً أو معنى وأكثر مالاً أو جماعة يحوطونه ويخدمونه حتى لا يغتر بما اغتر به ، ويحتمل أن تكون الهمزة للانكار داخلة على مقدر ، وجملة ولم يعلم حالية مقررة للإنكار ودالة على انتفاء ما دخلت عليه كما في قولك : أتدعي الفقه وأنت لا تعرف شروط الصلاة ، والمراد رد ادعائه العلم والتعظم به بنفي هذا العلم عنه أي أعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ، وقيل : إن ﴿ لَمْ يَعْلَمْ ﴾ عطف على ذلك المقدور نفي العلم عنه لعدم جريه على موجبه ﴿ وَلاَ يَسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ الظاهر أن هذا في الآخرة وأن ضمير ذنوبهم للجرمين ، وفاعل السؤال إما الله تعالى أو الملائكة عليهم السلام ، والمراد بالسؤال المنفى هنا ، وكذا في قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [الرحمن : 39] على ما قيل : سؤال الاستعلام ، ونفي ذلك بالنسبة إليه عز وجل ظاهر ، وبالنسبة إلى الملائكة عليهم السلام لأنهم مطلعون على صحائفهم أو عارفون إياهم بسيماهم كما قال سبحانه : ﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم فَيُؤْخَذُ بالنواصى والاقدام ﴾ [الرحمن : 41] .

(90/591)

والمراد بالسؤال المثبت في قوله عز وجل : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] سؤال التوبيخ والتقريع فلا تناقض بين الآيتين ، وجوز أن يكون السؤال في الموضعين بمعنى والنفي والإثبات باعتبار موضعين أو زمانين ، والمواقف يوم القيامة كثيرة واليوم طويل فلا تناقض أيضاً ، والظاهر أن الجملة غير داخلة في حيز العلم ، ولعل وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى لما عدد قارون بذكر اهلاك من قبله من أضرابه في الدنيا أردف ذلك بما فيه تهديد كافة المجرمين بما هو أشنع واشنع من عذاب الآخرة فإن عدم سؤال المذنب مع شدة الغضب عليه يؤذن بالإيقاع به لا محالة ، وجعل الزمخشري الجملة تذييلاً لما قبلها ، وقيل : إن ذلك في الدنيا .

والمراد أنه تعالى أهلك من أهلك من القرون عن علم منه سبحانه بذنوبهم فلم يحتج عز وجل إلى مسألتهم عنها ، وقيل : إن ضمير ذنوبهم لمن هو أشد قوة وهو المهلك من القرون ، والإفراد والجمع باعتبار اللفظ والمعنى ، والمعنى ولا يسأل عن ذنوب أولئك المهلكين غيرهم ممن أجرم ، ويعلم أنه لا يسأل عن ذنوبهم من لم يجرم بالأولى لما بين الصنفين من العداوة فمآل المعنى لا يسأل عن ذنوب المهلكين غيرهم ممن أجرم وممن لم يجرم ، بل كل نفس بما كسبت رهينة ، وكلا القولين كما ترى ، وربما يختلج في ذهنك عطف هذه الجملة على جملة الاستفهام أو جعلها حالاً من فاعل أهلك أو من مفعوله ؛ لكن إذا تأملت أدنى تأمل أخرجته من ذهنك وأبيت حمل كلام الله تعالى الجليل على ذلك .

وقرأ أبو جعفر في رواية ﴿ وَلَا تُسْئَلُ ﴾ بتاء الخطاب والجزم ﴿ المجرمين ﴾ بالنصب ، وقرأ أبو العالية .

(91/591)

وابن سيرين ﴿ وَلَا تُسْئَلُ ﴾ كذلك ولم ندر أنصبا المجرمين كأبي جعفر أم رفعاه كما هو في قراءة الجمهور ، والظاهر الأول ، وجوز صاحب اللوامح الثاني ، وذكر له وجهين : الأول أن يكون ضمير ذنوبهم للمهلكين من القرون وارتفاع المجرمين باضمار المبتدأ أي هم المجرمون . والثاني أن يكون المجرمون بدلاً من ضمير ذنوبهم باعتبار أن أصله الرفع لأن إضافة ذنوب إليه بمنزلة إضافة المصدر إلى اسم الفاعل وأورد على هذا أن ذنوب جمع فإن كان جمع مصدر ففي إعماله خلاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(92/591)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ

بالعصبة أُوْلِى القُوَّةِ ﴾

كان من صنوف أذى أئمة الكفر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، ومن دواعي تصلبهم في إعراضهم عن دعوته اعتزازهم بأموالهم وقالوا ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] أي على رجل من أهل الثروة فهي عندهم سبب العظمة ونبزهم المسلمين بأنهم ضعفاء القوم ، وقد تكرر في القرآن توبيخهم على ذلك كقوله ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ﴾ [سبأ : 35] وقوله ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ﴾ [المزمل : 11] الآية .

روى الواحدي عن ابن مسعود وغيره بأسانيد : إن الملأ من قريش وسادتهم منهم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والمطعم بن عدي والحارث بن نوفل .

قالوا : "أيريد محمد أن نكون تبعاً لهؤلاء (يعنون خباباً ، وبلالاً ، وعماراً ، وصهيباً) فلو طرد محمد عنه موالينا وعبيدنا كان أعظم له في صدورنا وأطمع له عندنا وأرجى لاتباعنا إياه وتصديقنا له فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ إلى قوله ﴿ بالشاكرين ﴾ [الأنعام : 52 - 53] .

وكان فيما تقدم من الآيات قريباً قوله تعالى ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ إلى قوله ﴿ من المحضرين ﴾ [القصص : 60 - 61] كما تقدم .

وقد ضرب الله الأمثال للمشركين في جميع أحوالهم بأمثال نظرائهم من الأمم السالفة فضرب

في هذه السورة لحال تعاظمهم بأموالهم مثلاً بحال قارون مع موسى وأن مثل قارون صالح لأن يكون مثلاً لأبي لهب ولأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قبل إسلامه في قرابتهما من النبي صلى الله عليه وسلم وأذاهما إياه ، وللعاصي بن وائل السهمي في أذاه لخباب بن الأرتّ وغيره ، وللوليد بن المغيرة من التعاظم بماله وذويه .

(93/591)

قال تعالى ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً ﴾ [المدثر : 11 - 12] فإن المراد به الوليد بن المغيرة .

فقوله ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ استئناف ابتدائي لذكر قصة ضربت مثلاً لحال بعض كفار مكة وهم سادتهم مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل بن هشام ولها مزيد تعلق بجملة ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾ إلى قوله ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ [القصص : 60 ، 61] .

ولهذه القصة اتصال بانتهاء قصة جند فرعون المنتهية عند قوله تعالى ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ [القصص : 46] الآية .

و ﴿ قارون ﴾ اسم معرب أصله في العبرانية (قورح) بضم القاف مشبعة وفتح الراء ،

وقع في تعريبه تغيير بعض حروفه للتخفيف ، وأجري وزنه على متعارف الأوزان العربية مثل طالوت ، وجالوت ، فليست حروفه حروف اشتقاق من مادة قرن .

و(قورح هذا ابن عم موسى عليه السلام دنيا) ، فهو قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى بن يعقوب .

وموسى هو ابن عمرم المسمى عمران في العربية ابن قاهت فيكون يصاهر أخا عمرم ، وورد في الإصحاح السادس عشر من سفر العدد أن (قُورَح) هذا تألب مع بعض زعماء بني إسرائيل مائتين وخمسين رجلاً منهم على موسى وهارون عليهما السلام حين جعل الله الكهانة في بني هارون من سبط (لاوى) فحسدهم قورح إذ كان ابن عمهم وقال لموسى وهارون : ما بالكما ترتفعان على جماعة الرب إن الجماعة مقدسة والرب معها فغضب الله على قورح وأتباعه وخسف بهم الأرض وذهبت أموال (قورح) كلها ، وكان ذلك حين كان بنو إسرائيل على أبواب (أريحا) قبل فتحها .

وذكر المفسرون أن فرعون كان جعل (قورح) رئيساً على بني إسرائيل في مصر وأنه جمع ثروة عظيمة .

وما حكاه القرآن يبين سبب نُشُوء الحسد في نفسه لموسى لأن موسى لما جاء بالرسالة وخرج ببني إسرائيل زال تأمّر ﴿ قارون ﴾ على قومه فحقد على موسى .

وقد أكثر القصاص من وصف بذخة قارون وعظمته ما ليس في القرآن .

وما لهم به من برهان .

وتلقفه المفسرون حاشا ابن عطية .

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد يجوز أن يكون لإفادة تأكيد خبر ﴿ إن ﴾ وما عطف عليه وتعلق به مما اشتملت عليه القصة وهو سوء عاقبة الذين تغرهم أموالهم وتزدهيهم فلا يكترثون بشكر النعمة ويستخفون بالدين ، ويكفرون بشرائع الله لظهور أن الإخبار عن قارون بأنه من قوم موسى ليس من شأنه أن يتردد فيه السامع حتى يؤكد له ، فمصب التأكيد هو ما بعد قوله ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح ﴾ إلى آخر القصة المنتهية بالخسف .

ويجوز أن تكون ﴿ إن ﴾ لمجرد الاهتمام بالخبر ومناط الاهتمام هو مجموع ما تضمنته القصة من العبر التي منها أنه من قوم موسى فصار عدواً له ولأتباعه ، فأمره أغرب من أمر فرعون .

وعدل عن أن يقال : كان من بني إسرائيل ، لما في إضافة ﴿ قوم ﴾ إلى ﴿ موسى ﴾ من الإيماء إلى أن لقارون اتصالاً خاصاً بموسى فهو اتصال القرابة .

وجملة ﴿ فبغى عليهم ﴾ معترضة بين جملة ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ وجملة ﴿ وءاتيناه من الكنوز ﴾ ، والفاء فيها للترتيب والتعقيب ، أي لم يلبث أن بطر النعمة

واجترأ على ذوي قرابته ، للتعجيب من بغي أحد على قومه كما قال

طرفة :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهنّد . . .

والبغي : الاعتداء ، والاعتداء على الأمة الاستخفاف بحقوقها ، وأول ذلك خرق شريعتها .

وفي الإخبار عنه بأنه ﴿ من قوم موسى ﴾ تمهيد للكناية بهذا الخبر عن إرادة التنظير بما عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم من بغي بعض قرابته من المشركين عليه .

(95/591)

وفي قوله ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ محسّن بديعي وهو ما يسمى النثر المتزن ، أي النثر الذي يجيء بميزان بعض بحور الشعر ، فإن هذه الجملة جاءت على ميزان مصراع من بحر الخفيف ، ووجه وقوع ذلك في القرآن أن الحال البلاغي يقتضي التعبير بألفاظ وتركيب يكون مجموعه في ميزان مصراع من أحد بحور الشعر .

وجملة ﴿ إن مفاتحه لتنوء بالعصبة ﴾ صلة ﴿ ما ﴾ الموصولة عند نحاة البصرة الذين لا

يمنعون أن تقع ﴿ إن ﴾ في افتتاح صلة الموصول .

ومنع الكوفيون من ذلك واعتُذر عنهم بأن ذلك غير مسموع في كلام العرب ولذلك تأولوا ﴿ ما ﴾ هنا بأنها نكرة موصوفة وأن الجملة بعدها في محل الصفة .

والمفاتح : جمع مفتح بكسر الميم وفتح المثناة الفوقيية وهو آلة الفتح ، ويسمى المفتاح أيضاً . وجمعه مفاتيح وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ في سورة [الأنعام : 59] .

و ﴿ الكنوز ﴾ : جمع كنز وهو مختزن المال من صندوق أو خزانة ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ لولا أنزل عليه كنز ﴾ في سورة [هود : 12] ، وأنه كان يقدر بمقدار من المال مثل ما يقولون : بدرة مال ، وأنه كان يجعل لذلك المقدار خزانة أو صندوق يسعه ولكل صندوق أو خزانة مفتاحه .

وعن أبي رزين لقيط بن عامر العُقيلي أحد الصحابة أنه قال "يكفي الكوفة مفتاح" أي مفتاح واحد ، أي كنز واحد من المال له مفتاح ، فتكون كثرة المفاتيح كناية عن كثرة الخزائن وتلك كناية عن وفرة المال فهو كناية بمرتبتين مثل :

جبان الكلب مهزول الفصيل

﴿ وتنوء) : تثقل .

ويظهر أن الباء في قوله ﴿ بالعصبة ﴾ باء الملابسة أن تثقل مع العصبة الذين يحملونها فهي

لشدة ثقلها تثقل مع أن حملتها عصبة أولو قوة وليست هذه الباء باء السببية كالتي في قول امرىء القيس :

وأردف إعجازاً وناء بكلكل

ولا كمثال صاحب "الكشاف" : ناء به الحمل ، إذا أثقله الحمل حتى أماله .

وأما قول أبي عبيدة بأن تركيب الآية فيه قلب ، فلا يقبله من كان له قلب .

(96/591)

والعُصبة : الجماعة ، وتقدم في سورة يوسف .

وأقرب الأقوال في مقدارها قول مجاهد أنه من عشرة إلى خمسة عشر .

وكان اكتسب الأموال في مصر وخرج بها .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ ﴾ ﴿ يُحِبُّ الفرحين * وابتغ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللهُ الدار الاخرة وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ ﴿ إذ ﴾ ظرف منصوب بفعل (بغى عليهم) والمقصود من هذا الظرف القصة وليس القصد به توقيت البغي ولذلك قدره بعض المفسرين متعلقاً بـ (أذكر) محذوفاً وهو المعني في نظائره من القصص .

والمراد بالقوم بعضهم إما جماعة منهم وهم أهل الموعظة وإما موسى عليه السلام أطلق عليه اسم القوم لأن أقواله قدوة للقوم فكأنهم قالوا قوله .

والفرح يطلق على السرور كما في قوله تعالى ﴿ وفرحوا بها ﴾ في [يونس : 22] .

ويطلق على البطر والازدهاء ، وهو الفرح المفرط المذموم ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ في سورة [الرعد : 26] وهو التمحض للفرح .

والفرح المنهيّ عنه هو المفرط منه ، أي الذي تمحض للتعلق بمتاع الدنيا ولذات النفس به لأن الانكباب على ذلك يميت من النفس الاهتمام بالأعمال الصالحة والمنافسة لاكتسابها فينحدر به التوغل في الإقبال على اللذات إلى حضيض الإعراض عن الكمال النفساني والاهتمام بالآداب الدينية ، فحذف المتعلق بالفعل لدلالة المقام على أن المعنى لا تفرح بلذات الدنيا معرضاً عن الدين والعمل للآخرة كما أفصح عنه قوله ﴿ وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ﴾ .

وأحسب أن الفرح إذا لم يعلق به شيء دل على أنه صار سجية الموصوف فصار مراداً به العجب والبطر .

(97/591)

وقد أشير إلى بيان المقصود تعضيداً لدلالة المقام بقوله ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ ، أي المفرطين في الفرح فإن صيغة (فعل) صيغة مبالغة مع الإشارة إلى تعليل النهي ، فالجملة علة للتي قبلها ، والمبالغة في الفرح تقتضي شدة الإقبال على ما يفرح به وهي تستلزم الإعراض عن غيره فصار النهي عن شدة الفرح رمزاً إلى الإعراض عن الجد والواجب في ذلك .

وابتغاء الدار الآخرة طلبها ، أي طلب نعيمها وثوابها .

وعلق بفعل الابتغاء قوله ﴿ فيما ءاتاك الله ﴾ بحرف الظرفية ، أي اطلب بمعظمه وأكثره .

والظرفية مجازية للدلالة على تغلغل ابتغاء الدار الآخرة في ما آتاه الله وما آتاه هو كنوز المال ، فالظرفية هنا كالتي في قوله تعالى ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ [النساء : 5] أي منها ومعظمها ، وقول سبرة بن عمرو الفقعسي :

نحابي بها أكفاءنا ونهينها

ونشرب في أثمانها ونقامر . . .

أي اطلب بكنوزك أسباب حصول الثواب بالإنفاق منها في سبيل الله وما أوجبه ورغب فيه من القربان ووجوه البر .

-- ﴿ الدار الاخرة وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ ﴾ .

جملة معترضة بين الجملتين الحافتين بها ، والواو اعتراضية .

والنهي في ﴿ ولا تنس نصيبك ﴾ مستعمل في الإباحة .

والنسيان كناية عن الترك كقوله في حديث الخيل " ولم ينس حق الله في رقابها " ، أي لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدنيا أي الذي لا يأتي على نصيب الآخرة .

وهذا احتراس في الموعظة خشية نفور الموعوظ من موعظة الواعظ لأنهم لما قالوا لقارون ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ أوهموا أن يترك حظوظ الدنيا فلا يستعمل ماله إلا في القربات ، فأفيد أن له استعمال بعضه في ما هو متمحض لنعيم الدنيا إذا آتى حق الله في أمواله .

فقيل : أرادوا أن لك أن تأخذ ما أحلّ الله لك .

(98/591)

والنصيب : الحظ والقسط ، وهو فعيل من النصب لأن ما يعطى لأحد ينصب له ويميز ، وإضافة النصيب إلى ضميره دالة على أنه حقه وأن للمرء الانتفاع بماله في ما يلائمه في الدنيا خاصة مما ليس من القربات ولم يكن حراماً .

قال مالك : في رأيي معنى ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ تعيش وتأكل وتشرب غير مضيق عليك .

وقال قتادة : نصيب الدنيا هو الحلال كلّه .

وبذلك تكون هذه الآية مثالاً لاستعمال صيغة النهي لمعنى الإباحة .

و﴿ من ﴾ للتبعيض .

والمراد بالدنيا نعيمها .

فالمعنى : نصيبك الذي هو بعض نعيم الدنيا .

﴿ مِنَ الدنيا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض إِنَّ الله لاَ ﴾ .

الإحسان داخل في عموم ابتغاء الدار الآخرة ولكنه ذكر هنا ليبنى عليه الاحتجاج بقوله ﴿ كما أحسن الله إليك ﴾ .

والكاف للتشبيه ، و (ما) مصدرية ، أي كإحسان الله إليك ، والمشبه هو الإحسان المأخوذ من ﴿ أحسن ﴾ أي إحساناً شبيهاً بإحسان الله إليك .

ومعنى الشبه : أن يكون الشكر على كل نعمة من جنسها .

وقد شاع بين النحاة تسمية هذه الكاف كاف التعليل ، ومثلها قوله تعالى ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [البقرة : 198] .

والتحقيق أن التعليل حاصل من معنى التشبيه وليس معنى مستقلاً من معاني الكاف .

وحذف متعلق الإحسان لتعميم ما يُحسن إليه فيشمل نفسه وقومه ودوابه ومخلوقات الله الداخلة في دائرة التمكن من الإحسان إليها .

وفي الحديث : " إن الله كتب الإحسان على كل شيء " فالإحسان في كل شيء بحسبه ، والإحسان لكل شيء بما يناسبه حتى الأذى المأذون فيه فبقدره ويكون بحسن القول وطلاقة الوجه وحسن اللقاء .

وعطف ﴿ لا تبغ الفساد في الأرض ﴾ للتحذير من خلط الإحسان بالفساد فإن الفساد ضد الإحسان ، فالأمر بالإحسان يقتضي النهي عن الفساد وإنما نص عليه لأنه لما تعددت موارد الإحسان والإساءة فقد يغيب عن الذهن أن الإساءة إلى شيء مع الإحسان إلى أشياء يعتبر غير إحسان .

(99/591)

والمراد بالأرض أرضهم التي هم حالّون بها ، وإذ قد كانت جزءاً من الكرة الأرضية فالإفساد فيها إفساد مظروف في عموم الأرض .

وقد تقدمت نظائره منها في قوله تعالى ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ﴾ في سورة [البقرة : 205] .

وجملة ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ علة للنهي عن الإفساد ، لأن العمل الذي لا يحبه الله لا يجوز لعباده عمله ، وقد كان ﴿ قارون ﴾ موحّداً على دين إسرائيل ولكنه كان

شاكّاً في صدق مواعيد موسى وفي تشريعاته .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾

جواب عن موعظة واعظيه من قومه .

وقد جاء على أسلوب حكاية المحاورات فلم يعطف وهو جواب متصلف حاول به إفحامهم وأن يقطعوا موعظتهم لأنها أمرَّت بطره وازدهاءه .

و﴿ إنما ﴾ هذه هي أداة الحصر المركبة من (إنّ) و (ما) الكافة مصيّرتين كلمة واحدة وهي التي حقها أن تكتب موصولة النون بميم (ما) .

والمعنى : ما أوتيت هذا المال إلا على علم علمته .

وضمير ﴿ أوتيته ﴾ عائد إلى (ما) الموصولة في قولهم ﴿ وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ﴾ [القصص : 77] .

وبني الفعل للنائب للعلم بالفاعل من كلام واعظيه .

و﴿ على علم ﴾ في موضع الحال من الضمير المرفوع .

و﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي بمعنى التمكن والتحقق ، أي ما أوتيت المال الذي ذكرتموه في حال من الأحوال إلا في حال تمكني من علم راسخ ، فيجوز أن يكون المراد من العلم علم أحكام إنتاج المال من التوراة ، أي أنا أعلم منكم بما تعظونني به ، يعني بذلك قولهم

له ﴿ لا تفرح وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ [القصص : 76 ، 77] .

(100/591)

وقد كان قارون مشهوراً بالعلم بالتوراة ولكنه أضلّه الله على علم فأراد بهذا الجواب قطع موعظتهم نظير جواب عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق لأبي شريح الكعبي حين قدم إلى المدينة أميراً من قبل يزيد بن معاوية سنة ستين فجعل يجهز الجيوش ويبعث البعوث إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير الذي خرج على يزيد ، فقال أبو شريح له : ائذن لي أيها الأمير أحدّثك قولاً قام به رسول الله الغد من يوم الفتح فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : "إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد شجرة فإن أحد ترخص لقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذِن لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلّغِ الشاهد الغائب" فقال عمرو بن سعيد : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فارّاً بخربة .

ويجوز أن يكون المراد بالعلم علم اكتساب المال من التجارة ونحوها ، فأراد بجوابه إنكار

قولهم : آتاك الله صلفاً منه وطغياناً .

وقوله ﴿ عندي ﴾ صفة ل ﴿ علم ﴾ تأكيداً لتمكنه من العلم وشهرته به .

هذا هو الوجه في تفسير هذه الجملة من الآية وهو الذي يستقيم مع قوله تعالى عقبه ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون ﴾ الآية ، كما ستعرفه .

وذكر المفسرون وجوهاً تسفر عن أشكال أخرى من تركيب نظم الآية في محمل معنى ﴿ على ﴾ ومحمل المراد من (العلم) ومحمل ﴿ عندي ﴾ فلا نطيل بذكرها فهي منك على طرف الثمام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(101/591)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾

فلم يتكلم عن قارون وجزائه في الآخرة ، إنما يجعله مثَلاً وعِبرة واضحة في الدنيا لكل مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلَّه يرتدع .

والنبي صلى الله عليه وسلم اضطهده كفار قريش ، ووقفوا في وجه دعوته ، وآذوْا صحابته ، حتى أصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم ، ومع ذلك ينزل القرآن على

رسول الله يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

فيتعجب عمر رضي الله عنه : أيُّ جمع هذا ؟ فنحن غير قادرين على حماية أنفسنا ، فلما وقعتْ بدر وانهزم الكفار وقُتِلوا . قال عمر : نعم صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45] .

لذلك يقولون : لا يموت ظالم في الدنيا حتى ينتقم الله منه ، ولم يَرَ الناس فيه ما يدل على انتقام الله منه تعجّبوا وقال أحدهم : لا بُدَّ أن الله انتقم منه دون أن نشعر ، فإنْ أفلتَ من عذاب الدنيا ، فوراء هذه الدار أخرى يعاقب فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وعَدْل الله – عز وجل – يقتضي هذه المحاسبة .

والحق – تبارك وتعالى – يجعل من قارون عبرةً لكل مَنْ لا يؤمن بالآخرة ليخاف من عذاب الله ، ويحذر عقابه ، والعبرة هنا بمَنْ ؟ بقارون رأس من رؤوس القوم ، وأغنى أغنيائهم ، والفتوة فيهم ، فحين يأخذه الله يكون في أَخَذه عبرة لمن دونه .

وحدّثونا أن صديقاً لنا كان يعمل بجمرك الأسكندرية ، فتجمّع عليه بعض زملائه من الفتوات الذين يريدون فَرْضَ سيطرتهم على الآخرين ، فما كان منه إلا أنْ أخذ كبيرهم ، فألقاه في الأرض ، وعندها تفرّق الآخرون وانصرفوا عنه .

ومن هذا المنطلق أخذ الله تعالى قارون ، وهو الفتوة ، ورمز الغِنى والجاه بين قومه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى . . . ﴾ [القصص : 76] إذن : حينما نتأمل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُنِي بصناديد الكفر ، فقد واجه فرعون الذي ادَّعى الألوهية ، وواجه هامان ، ثم موسى السامري الذي خانه في قومه في غيبته ، فدعاهم إلى عبادة العجل .

ومُني من قومه بقارون ، ومعنى : من قومه ، إما لأنه كان من رحمه من بني إسرائيل ، أو من قومه يعني : الذين يعيشون معه . والقرآن لم يتعرض لهذه المسألة بأكثر من هذا ، لكن المفسرين يقولون : إنه ابن عمه . فهو : قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي ابن يعقوب وموسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب .

وللمؤرخين كلام في العداوة بين موسى وقارون ، قالوا : حينما سأل موسى عليه السلام ربه أنْ يشدَّ عضده بأخيه هارون ، أجابه سبحانه ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى ﴾ [طه : 36] وليست هذه أول مرة بل ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى ﴾ [طه : 37] وأرسل الله معه أخاه هارون ؛ لأنه أفصح من موسى لساناً ، وجعلهما شريكين في الرسالة ، وخاطبهما معاً ﴿ اذهبآ . . . ﴾ [طه : 43] ليؤكد أنَّ الرسالة ليست من باطن موسى .

وإنْ رأيت الخطاب في القرآن لموسى بمفرده ، فاعلم أن هارون مُلاحَظ فيه ، ومن ذلك لما دعا موسى على قوم فرعون ، فقال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحياة الدنيا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ﴾ [يونس : 88] .

(103/591)

فالذي دعا موسى ، ومع ذلك لما أجابه ربه قال : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا . . . ﴾ [يونس : 89] وهذا دليل على أن هارون لم يكن رسولاً من باطن موسى ، إنما من الحق سبحانه ، وأيضاً دليل على أن المؤمِّن على الدعاء كالداعي ، فكان موسى يدعو وهارون يقول : آمين .

ولما ذهب موسى لميقات ربه قال لأخيه ﴿ اخلفني فِي قَوْمِي . . . ﴾ [الأعراف : 142] وفي غيبة موسى حدثتْ مسألة العجل ، وغضب موسى من أخيه هارون ، فلما هدأتْ بينهما الأمور حدث تخصيص في رسالة كل منهما ، فأعطى هارون (الحبورة) والحَبْر : هو العالم الذي يُعَد مرجعاً ، كما أُعطِي (القربان) أي : التقرب إلى الله .

وعندها غضب قارون ؛ لأنه خرج من هذه المسألة صَفْر اليدين ، وامتاز عنه أولاد

عمومته بالرسالة والمنزلة ، رغم ما كان عنده من أموال كثيرة .

ثم إن موسى – عليه السلام – طلب من قارون زكاة ماله ، دينار في كل ألف دينار ، ودرهم في كل ألف درهم ، فرفض قارون وامتنع ، بل وألَّبَ الناس ضد موسى – عليه السلام .

ثم دبَّر له فضيحة ؛ ليصرف الناس عنه ، حيث أغرى امرأة بغياً فأعطاها طِسْتاً بالذهب ، على أن تدَّعي على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب في الناس ، ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزني نجلده إن كان غير محصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإن كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغيُّ وقالت : هو راودني عن نفسي ، فقال لها : والذي فلق البحر لَتقُولِنّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام .

وبدأ قارون في البَغْي والطغيان حتى أخذه الله ، وقال في حقه هذه الآيات : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ . . . ﴾ [القصص : 76] .

(104/591)

والبغي : تجاوز الحدّ في الظلم ، خاصة وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظلم ، وما يُسخِّر به الناس لخدمة أهدافه ، وكأنه يمثل مركز قوة بين قومه ، والبغي إما بالاستيلاء على حقوق الغير ، أو باحتقارهم وازدرائهم ، وإما بالبطر .

ثم يذكر حيثية هذا البغي : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة . . ﴾ [القصص : 76] .

كلمة (مفاتح) كما في قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب . . . ﴾ [الأنعام : 59] .

ولو قلنا : مفاتح جمع ، فما مفردها ؟ لا تقُلْ مفتاح ؛ لأن مفتاح جمعها مفاتيح ، أما مفاتح ، فمفردها (مَفْتَح) وهي آلة الفتح كالمفتاح ، وهي على وزن (مبرد) فالمعنى : أن مفاتيح خزائنه لو حملتْها عصبة تنوء بها ، وهذه كناية عن كثرة أمواله ، نقول : ناء به الحِمْل ، أو ناء بالحمل ، إذا ثقُل عليه ، ونحن لا نميز الخفيف من الثقيل بالعين أو اللمس أو الشم إنما لا بُدَّ من حملة للإحساس بوزنه .

وقلنا : إن هذه الحاسة هي حاسة العَضَل ، فالحملْ الثقيل يُجهد العضلة ، فتشعر بالثقل ، على خلاف على حملتَ شيئاً خفيفاً لا تكاد تشعر بوزنه لخفْته ، ولو حاولتَ أنْ تجمع أوزاناً في حيز ضيق كحقيبة (هاند باج) فإن الثقل يفضحك ؛ لأنك تنوء به .

والعُصْبة : هم القوم الذين يتعصَّبون لمبدأ من المبادئ بدون هَوىً بينهم ، ومنه قول إخوة يوسف : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ . . . ﴾ [يوسف : 8]

.

إنها كلمة حق خرجت من أفواههم دون قصد منهم ؛ لأنهم فعلاً كانوا قوةً متعصبين بعضهم لبعض في مواجهة يوسف وأخيه ، وكانا صغيرين لا قوةَ لهما ولا شوكة ، وكانوا جميعاً من أم واحدة ، ويوسف وأخوه من أم أخرى ، فطبيعي أن يميل قلب يعقوب عليه السلام مع الضعيف .

(105/591)

وقالوا : العصبة من الثلاثة إلى العشرة ، وقد حددهم القرآن بقوله : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً . . ﴾ [يوسف : 4] وهم أخوته ومنهم بنيامين ﴿ والشمس والقمر . . ﴾ [يوسف : 4] أي : أباه وأمه . فمن هاتين الآيتين نستطيع تحديد العصبة .

وبهذا التفكير الذي يقوم على ضم الآيات بعضها إلى بعض حَلَّ الإمام علي – رضي الله عنه – مسألة تُعدُّ معضلة عند البعض ، حيث جاءه مَنْ يقول له : تزوجت امرأة وولدتْ بعد ستة أشهر ، ومعلوم أن المرأة تلد لتسعة أشهر ، فلا بُدَّ أنها حملت قبل أنْ تتزوج .

فقال الإمام علي : أقل الحمل ستة أشهر ، فقال السائل : ومن أين تأخذها يا أبا الحسن ؟

قال : نأخذها من قوله تعالى : ﴿ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . . ﴾ [الأحقاف : 15]

وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ . . . ﴾ [البقرة : 233] .

يعني : أربعة وعشرين شهراً ، وبطرح الأربعة والعشرين شهراً من الثلاثين يكون الناتج ستة أشهر ، هي أقل مدة للحمل . وهكذا تتكاتف آيات القرآن ، ويكمل بعضها بعضاً ، ومن الخطأ أن نأخذ كل آية على حدة ، ونفصلها عن غيرها في ذات الموضوع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفرحين . . . ﴾ [القصص : 76] والنهي هنا عن الفرح المحظور ، فالفرح : انبساط النفس لأمر يسرُّ الإنسان ، وفَرْق بين أمر يسرُّك ؛ لأنه يُمتعك ، وأمر يسرُّك لأنه ينفعك ، فالمتعة غير المنفعة .

فمثلاً ، مريض السكر قد يأكل المواد السكرية لأنها تُحدِث له متعة ، مع أنها مضرة بالنسبة له ، إذن : فالفرح ينبغي أن يكون بالشيء النافع ، لأن الله تعالى لم يجعل المتعة إلا في النافع .

(106/591)

فحينما يقولون له ﴿ لا تَفْرَحْ . . ﴾ [القصص : 76] أي : فرح المتعة ، وإنما الفرح بالشيء النافع ، ولو لم تكن فيه متعة كالذي يتناول الدواء المر الذي يعود عليه بالشفاء ، لذلك يقول تعالى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ . . . ﴾ [يونس : 58] .

ويقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ اللهِ . . . ﴾ [الروم : 4-5] فسماه الله فرحاً ؛ لأنه فرح بشيء نافع ؛ لأن انتصار الدعوة يعني أن مبدءك الذي آمنتَ به ، وحاربت من أجله سيسيطر وسيعود عليك وعلى العالم بالنفع .

ومن فرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن : ﴿ فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ . . . ﴾ [التوبة : 81] هذا هو فرح المتعة ؛ لأنهم كارهون لرسول الله ، رافضون للخروج معه ، ويسرُّهم قعودهم ، وتركه يخرج للقتال وحده .

فقوله تعالى : ﴿ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ [القصص : 76] أي : فرح المتعة الذي لا ينظر إلى مَغبّة الأشياء وعواقبها ، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقتة ، لكن يتبعها ضرر بالغ ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً ؛ إنه فن جميل وفن رَاقٍ ؛ لأنه يجد فيه متعة ما ، لكن شرط الفن الجميل الراقي أن يظل جميلاً ، لكن أنْ ينقلب بعد ذلك إلى قُبْح ويُورِث قبحاً ، كما يحدث في الرقص ، فلا يُعَدُّ جميلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وابتغ فِيمَآ آتَاكَ . . . ﴾ .

معنى ﴿ وابتغ . . . ﴾ [القصص : 77] أي : اطلب ﴿ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ . . . ﴾ [القصص : 77] بما أنعم عليك من الرزق ﴿ الدار الآخرة . . . ﴾ [القصص : 77]

لأنك إن ابتغيت برزق الله لك الحياة الدنيا ، فسوف يَفْنى معك في الدنيا ، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول .

(107/591)

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به ، فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإما أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت ، أو يفوتك هو حين تفتقر . إذن : إن كنت عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه في حَوْزتك ، فانقله إلى الدار الباقية ، ليظل في حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك ، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة .

" وفي الحديث الشريف لما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين عائشة عن الشاة التي أُهديَتْ له قالت بعد أن تصدقت بها : ذهبتْ إلا كتفها ، فقال صلى الله عليه وسلم : " بل بقيتْ إلا كتفها " .

ويقول صلى الله عليه وسلم : " ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فافنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ " .

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله ، يقول له : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة .

والإمام علي – رضي الله عنه – جاءه رجل يسأله : أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال : جواب هذا السؤال ليس عندي ، بل عندك أنت ، وأنت الحكم في هذه المسألة . فإنْ دخل عليك مَنْ تعودت أنه يعطيك ، ودخل عليك مَنْ تعودت أنْ يأخذ منك ، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطي ، فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يسألك ويأخذ منك ، فأنت من أهل الآخرة ، لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب ، فإنْ كنتَ محباً للدنيا فيسعدك مَنْ يعطيك ، وإنْ كنتَ محباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك .

وإذا كان ربنا – عز وجل – يوصينا بأن نبتغي الآخرة ، فهذا لا يعني أن نترك الدنيا : ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . . ﴾ [القصص : 77] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليلاً على الانغماس في الدنيا ومتعها .

(108/591)

وحين نتأمل ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . . ﴾ [القصص : 77] نفهم أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغي عليَّ أنْ أنساها فذكّرني الله بها .

ولأهل المعرفة في هذه المسألة مَلْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشيء ما ينالك منه ، لا

عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التي تبقى لك ، وتظل معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ في نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .

أو : يكون المعنى موجهاً للبخيل الممسك على نفسه ، فيُذكّره ربه ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . . ﴾ [القصص : 77] يعني : خُذْ منها القَدْر الذي يعينك على أمر الآخرة ، لذلك قالوا عن الدنيا : هي أهم من أن تُنْسى – لأنها الوسيلة إلى الآخرة – وأتفه من أن تكون غاية ؛ لأن بعدها غاية أخرى وأبقى وأدوم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ . . ﴾ [القصص : 77] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه ، كما جاء في الأثر " تخلقوا بأخلاق الله " .

فكما أحسن الله إليك أحسِنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله لك ، اغفر لغيرك إساءته ﴿ أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ . . . ﴾ [النور : 22] .

وما دام ربك يعطيك ، فعليك أنْ تعطي دون مخالفة الفقر ؛ لأن الله تعالى هو الذي استدعاك للوجود ؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك . لذلك حين ترى العاجز عن الكسب – وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة – حين يمد يده إليك ، فاعلم أنه يمدُّها لله ، وأنك مناول عن الله تعالى .

ونلحظ هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً . . ﴾ [الحديد : 11] .

(109/591)

فسمَّى الصدقة قرضاً لله ، لماذا ؟ لأن هذا العبد عبدي ، مسئول مني أن أرزقه ، وقد ابتليتُه لحكمة عندي – حتى لا يظنّ أحد أن المسألة ذاتية فيه ، فيعتبر به غيره – فمَنْ إذن يقرضني لأسُدَّ حاجة أخيكم ؟

وقال تعالى : ﴿ يُقْرِضُ اللهَ . . . ﴾ [الحديد : 11] مع أنه سبحانه الواهب ؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك ، وأن يحترم انتفاعك ، وسَعْيك . . كما لو أراد والد أنْ يُجري لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء ، فيقول لأولاده : اقرضوني من أموالكم لأجري الجراحة لأخيكم ، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض .

" وفي الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على ابنته فاطمة – رضوان الله عليها – فوجدها تجلو درهماً فسألها : ماذا تصنعين به " ؟ قالت : أجلوه ، قال : " لِمَ " ؟ قالت : لأني نويت أن أتصدق به ، وأعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير " .

إذن : فالمال مال الله ، وأنت مناول عن الله تعالى .

وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة ؛ لأنهم يقرأون الآيات والأحاديث مجرد قراءة سطحية غير واعية ، فيتوهمون أنها متضاربة . فقالوا هنا : الله تعالى يقول : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . ﴾ [الحديد : 11] .

وقال في موضع آخر : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . ﴾ [الأنعام : 160]

وفي الحديث الشريف : " مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر " .

فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة – هذا في نظرهم – لأنهم لا يملكون المَلَكة العربية في استقبال البيان القرآني . وبتأمل الآيات والأحاديث نجد اتفاقهما على أن الحسنة أو الصدقة بعشر أمثالها ، فالخلاف – ظاهراً – في قوله تعالى :

﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ . . . ﴾ [الحديد : 11] وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " والقرض بثمانية عشر " .

(110/591)

وليس بينهما اختلاف ، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله عشرة منها بدرهم الذي تصدَّق به ، فكأنه أعطاه تسعة ، فحين تُضَاعف التسعة ، تصبح ثمانية عشرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِي الأرض إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ [القصص : 77] والفساد يأتي من الخروج عن منهج الله ، فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون في المادة يكون في المنهج ، وفي المعنويات ، يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا . . . ﴾ [الأعراف : 56] .

فالحق سبحانه خلق كل شيء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه ، فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، بل المنهج وهو قوام الحياة المعنوية – أَوْلَى من قِوام الحياة المادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تفسده ، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه ، وقد تبني حوله سوراً يحميه .

هذه مسائل خمْس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها ، منها الأمر ، ومنها النهي ، ولا بُدَّ أنهم وجدوا منه ما يناقضها ، لا بُدَّ أنهم وجدوه بَطِراً أَشِراً مغروراً بماله ، فقالوا له : ﴿ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ [القصص : 76] .

ووجدوه قد نسي نصيبه من الدنيا فلم يتزود منها للآخرة ، فقالوا له ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ

مِنَ الدنيا . . . ﴾ [القصص : 77] ، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق في الخير ، فقالوا له : ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ . . . ﴾ [القصص : 77] يعني : عَدِّ نعمتك إلى الغير ، كما تعدَّت نعمة الله إليك . . وهكذا ما أمروه أمراً ، ولا نهوْهُ نهياً إلا وهو مخالف له ، وإلا لَمَا أمروه ولَمَا نهوْهُ .

(111/591)

ثم يقول قارون رداً على هذه المسائل الخمس التي توجَّه بها قومه إليه : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ . . . ﴾ .

لكن ما وجه هذا الردّ ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي . . . ﴾ [القصص : 78] على المطلوبات الخمسة التي طلبوها منه ؟ كأنه يقول لهم : لا دخل لكم هذه الأمور ؛ لأن الذي أعطاني المال علم أنني أهْلٌ له ، وأنني استحقه ؛ لذلك ائتمنني عليه ، ولسْتُ في حاجة لنصيحتكم .

أو يكون المعنى ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ [القصص : 78] يعني : بمجهودي ومزاولة الأعمال التي تُغِل عليَّ هذا المال ، وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصوت في قراءة التوراة ، وكان حافظاً لها . وكان حسن الصورة ، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكام التوراة

.

فعجيب أن يكون عنده كل هذا العلم ويقول ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي . . . ﴾ [القصص : 78] ولا يعلم أن الله قد أهلك من قبله قروناً كانوا أشدَّ منه قوة ، وأكثر منه مالاً وعدداً .

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً . . . ﴾ [القصص : 78] فكيف فاتته هذه المسألة مع عِلْمه بالتوراة ؟

ومعنى ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ . . . ﴾ [القصص : 78] أي : من ضمن ما علم ﴿ مِنَ القرون . . . ﴾ [القصص : 78] أناس كانوا أكثر منه مالاً ، وقد أخذهم الله وهم أمم لا أفراد ، وكلمة ﴿ جَمْعاً . . ﴾ [القصص : 78] يجوز أن تكون مصدراً يعني : جمع المال ، أو : اسم للجماعة أي : له عُصْبة .

وبعد ذلك قال سبحانه : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ [القصص : 78] وعلامة أنهم لا يُسألون أن الله تعالى يأخذهم دون إنذار يأخذهم على غِرَّة ، فلن يقول لقارون : أنت فعلت كذا وكذا ، وسأفعل بك كذا وكذا ، وأخسف بك وبدارك الأرض ، فأفعالك معلومة لك ، والحيثيات السابقة كفيلة بأنْ يُفاجئك العذاب .

(112/591)

وهكذا يتوقع أنْ يأتيه الخَسْف والعذاب في أيِّ وقت ، إذن : لن نسألهم ، ولن نُجري معهم تحقيقاً كتحقيق النيابة أو (البوليس) ، حيث لا فائدة من سؤالهم ، وليس لهم عندنا إلا العقاب .

وبعد هذا كله وبعد أنْ نصحه قومه ما يزال قارون متغطرساً بَطِراً لم يَرْعَو ولم يرتدع ، بل ظل فَرِحاً باغياً مفسداً ، ويحكي عنه القرآن : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ . . . ﴾ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(113/591)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ :

" ما " موصولةٌ بمعنى الذي ، صلتُها " إنَّ " وما في حَيِّزها ، ولهذا كُسِرَتْ . ونَقَل الأخفش الصغير عن الكوفيين مَنْعَ الوَصْلِ ب " إنَّ " ، وكان يَسْتَقْبح ذلك عنهم . يعني لوجودِه في القرآن .

قوله : ﴿ لَتَنُوءُ بالعصبة ﴾ فيه وجهان ، أحدُهما : أنَّ الباءَ للتعديةِ كالهمزةِ ، ولا قَلْبَ في الكلام . والمعنى : لَتُنِيْءُ المفاتيحُ العُصْبَةَ الأقوياءَ ، كما تقولُ : أَجَأْتُه وجِئْتُ به ، وأَذْهَبْتُه وذَهَبْتُ به . ومعنى ناء بكذا : نَهَضَ بِهِ بِثِقَلٍ . قال :

3626 تَنُوْءُ بأُخْراها فَلأْيا قِيامُها . . . وَتَمْشِي الهوينى عن قَريبٍ فَتَبْهَرُ

وقال أبو زيد : " نُؤْتُ بالعَمَل أي : نَهَضْتُ " . قال :

3627 إذا وَجَدْنا خَلَفاً بِئْسَ الخَلَفْ . . . عبداً إذا ما ناء بالحِمْلِ وَقَفْ

وفَسَّره الزمخشريُّ بالإِثْقال . قال : "يُقال : ناء به الحِمْلُ ، حتى أَثْقله وأماله " وعليه يَنْطبقُ المعنى أي : لَتُثْقِلُ المفاتحُ العُصْبَةَ .

والثاني : أنَّ في الكلام قَلْباً ، والأصلُ : لَتَنُوْءُ العُصْبةُ بالمفاتحِ ، أي : لَتَنْهَضُ بها . قاله أبو عبيد ، كقولهم : " عَرَضْتُ الناقةَ على الحَوْضِ " . وقد تقدم الكلامُ في القَلْبِ ، وأنَّ فيه ثلاثةَ مذاهبَ .

وقرأ بُدَيْل بن مَيْسَرة " لَيَنُوْءُ " بالياء مِنْ تحتُ والتذكير ؛ لأنه راعى المضافَ المحذوفَ . إذ التقديرُ : حِمْلُها أو ثِقْلُها . وقيل : الضَميرفي " مفاتِحَه " لقارون ، فاكتسب المضافُ من المضاف إليه التذكيرَ كقولِهم : " ذهبَتْ أهلُ اليمامةِ " قاله الزمخشري . يعني كما اكتسبَ " أهلُ " التأنيثَ اكتسَبَ هذا التذكيرَ .

قوله: ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ فيه أوجهٌ: أَنْ يكونَ معمولاً لتنوءُ. قاله الزمخشري: أول "بغى" قاله ابنُ عطية. ورَدَّهما الشيخُ: / بأنَّ المعنى ليس على التقييد بهذا الوقتِ. أول "آتيناه" قاله أبو البقاء. ورَدَّه الشيخ: بأن الإِتياءَ لم يكنْ ذلك الوقتَ، أو لمحذوفٍ فقدَّره أبو البقاء: بَغَى عليهم. وهذا يَنْبغي أَنْ يُرَدَّ بما رُدَّ به قولُ ابنِ عطية. وقَدَّره الطبري: اذكُرْ، وقَدَّره الشيخُ: أظهر الفرحَ وهو مناسِبٌ.

وقُرِىء "الفارِحين" حكاها عيسى الحجازي.

قوله: ﴿ فِيمَآ آتَاكَ ﴾: يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب "ابْتَغِ"، وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ أي: مُتقلِّباً فيما آتاكَ. و "ما" مصدريةٌ أو بمعنى الذي.

قوله: ﴿ كَمَآ أَحْسَنَ ﴾ أي: إحْساناً كإحسانه إليك.

قوله: ﴿ فِي الأرض ﴾ يجوز أَنْ يتعلَّقَ ب "تَبْغِ" أو بالفساد، أو بمحذوفٍ على أنه حالٌ وهو بعيدٌ.

قوله: ﴿ على عِلْمٍ ﴾: حالٌ مِنْ مرفوع "أُوتِيْتُه".

قوله: ﴿ عندي ﴾ إمَّا ظرفٌ ل "أُوْتِيْتُه"، وإمَّا صفةٌ للعلم.

قوله: ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ ﴾: "مَنْ" موصولةٌ أو نكرةٌ موصوفةٌ. وهو في موضع المفعولِ ب "

أَهْلَكَ" . و "مِنْ قبلِه" متعلقٌ به . و "مِنَ القرون" يجوزُ فيه ذلك ، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً مِنْ "مَنْ هو أشدُّ" .

(115/591)

قوله : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ ﴾ هذه قراءةُ العامَّةِ على البناء للمفعول ، وبالياءِ مِنْ تحتُ ورَفْعِ الفعلِ . وقرأ أبو جعفر "ولا تُسْأَلْ" بالتاء مِنْ فوقُ والجزم . وابنُ سيرين وأبو العالية كذلك ، إلاَّ أنه مبنيٌّ للفاعل وهو المخاطَبُ . قال ابن أبي إسحاق : "لا يجوزُ ذلك حتى تنصبَ المجرمين" . قال صاحب اللوامح : "هذا هو الظاهرُ ؛ إلاَّ أنه لَمْ يَبْلُغْني فيه شيء . فإنْ تَرَكاه مرفوعاً فيحتمل وجهين ، أحدهما : أَنْ يكونَ "المجرمون" خبرَ مبتدأ محذوفٍ ، أي : هم المجرمون . والثاني : أَنْ يكونَ بدلاً مِنْ أصلِ الهاءِ والميم في "ذنُوبهم" ، لأنهما مرفوعا المحلِّ" يعني أنَّ ذنوباً مصدرٌ مضافٌ لفاعِله . قال : "فحمل المجرمون على الأصلِ ، كما تقدَّم لنا في قراءةِ ﴿ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ﴾ [البقرة : 26] بجرِّ بعوضة . وكان قد خرَّجها على أن الأصلَ : بضَرْبِ مَثَلٍ بعوضةٍ" وهذا تعسُّفٌ كثيرٌ . ولا ينبغي أَنْ يَقْرأ ابنُ سيرين وأبو العالية إلاَّ "المجرمين" بالياءِ فقط ، وإنما تُرِكَ نَقْلُها لظهورِه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 692.696 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ .

جاء في القصص أنه كان ابن عمِّ موسى ، وكان من أعبد بني إسرائيل ، وكان قد اعتزل الناسَ ، وانفرد في صومعته يتعبَّد ، فتصوَّر له إبليسُ في صورة بَشَرٍ ، وأخذ في الظاهر يتعبَّدُ معه في صومعته حتى تعجَّب قارونُ من كثرة عبادته ، فقال له يوماً : لسنا في شيء ؛ عيونُنا على أيدي الناسِ حتى يدفعوا إلينا شيئاً هو ضرورتنا ، ولا بُدَّ لنا من أَخْذِه ، فقال له قارون : وكيف يجب أن نفعلَه ؟

فقال له : أن ندخل في الأسبوع يوماً السوق ، ونكتسب ، وننفق ذلك القَدْرَ في الأسبوع ، فأجابه إليه . فكانا يحضران السوق في الأسبوع يوماً ، ثم قال له : لستُ أنا وأنت في شيء ، فقال : وما الذي يجب أن نعمله ؟

فقال له : نكتسب في الأسبوع يوماً لأنفسنا ، ويوماً نكتسب ونتصدَّق به ، فأجابه إليه . ثم قال له يوماً آخر : لسنا في شيء ، فقال : وما ذاك ؟

قال : إنْ مرضنا أو وقع لنا شغل لا نملك قوتَ يومٍ ، فقال : وما نفعل ؟

قال : نكتسب في الأسبوع ثلاثة أيام ؛ يوماً للنفقة ويوماً للصدقة ويوماً للإدخار ، فأجابه إليه . . فلمَّا عَلِمَ أن حُبَّ الدنيا استمكن من قلبه وَدَّعَه ، وقال :

إنّي مُفارِقُكَ . . . فَدُمْ على ما أنت عليه ، فصار من أمره ومالِه ما صار ، وحَمَلَه حُبُّ الدنيا على جَمْعِها ، وَحَمَلَه جَمْعُها على حُبّها ، وحَمَلَه حُبّها على البغي عليهم ، وصارت كثرةُ مالِه سَبَبَ هلاكِه ، وكم وُعِظَ بِتَرْكِ الفَرَحِ بوجود الدنيا ، وبِتَرْكِ الاستمتاع بها ! وكان لا يأبى إلاَّ ضلالاً .

ويقال خَسَفَ اللَّهُ به الأرضَ بدعاءِ موسى عليه السلام ، فقد كان موسى يقول : يا أرضُ خُذِيه . . وبينما كانت الأرض تُخْسَفُ به كان يستعين بموسى بحقِّ القرابة ، ولكن موسى كان يقول : يا أرضُ خُذِيه .

(117/591)

وفيما أوحى اللَّهُ إلى موسى : لقد ناداك بحقِّ القرابة وأنت تقول : يا أرض خذيه ! وأنا أقول : يا عبدُ ، نادِني فأنا أقرب منه إليك ، ولكنه لم يَقُلْ .

وفي القصة أنه كان يُخْسَفُ به كل يوم بزيادة معلومة ، فلمَّا حَبَسَ اللَّهُ يونسَ في بطن الحوتِ

أَمَرَ الحوتَ أن يطوفَ به في البحار لئلا يضيقَ قلبُ يونس ، حتى انتهى إلى قارون ، فسأله قارونُ عن موسى وحاله ، فأوحى الله إلى المَلَك :

لا تَزِدْ في خَسْفِه لحرمة أنه سأل عن ابن عمه ، ووَصَلَ به رَحِمَه .

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)

وَعْظُ مَنْ حُرِمَ القبول كمثل البَذْرِ في الأرض السَّبِخَة ؛ ولذا لم ينفَعْه نُصْحُهم إياه ، ولم يكن للقبول في مساغٌ .

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ : ليس النصيبُ من الدنيا جَمْعَها ولا مَنْعَها ، إنما النصيبُ منها ما تكون فيه فائدة بحيث لا يُعْقِبُ ندماً ، ولا يُوجِبُ في الآخرةِ عقوبةً .

ويقال النصيبُ من الدنيا ما يَحْمِلُ على طاعته بالنَّفْس ، وعلى معرفته بالقلب ، وعلى ذِكْرِه باللسان ، وعلى مشاهدته بالسِّرِّ .

﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ : إنما كان يكون منه حسنة لو آمن بالله ؛ لأنَّ الكافرَ لا حَسَنَةَ له . والآية تدل على أن لله على الكافرِ نعَماً دنيوية .

والإحسانُ الذي أُمِرَ به إنفاقُ النعمةِ في وجوهِ الطاعةِ والخدمة ، ومقابلتُه بالشكران لا بالكفران .

ويقال الإحسانُ رؤيةُ الفضلِ دون تَوَهُّم الاستحقاق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي ﴾ .

ما لاحَظَ أحدٌ نَفْسَه إلا هَلَكَ بإعجابه .

ويقال السُّمُّ القاتلُ ، والذي يطفئ السراجَ المضيءَ النظرُ إلى النَّفْسِ بعين الإثباتِ ، وتَوَهُّمُ أَنَّ منك شيئاً من النفي أو الإثبات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 79 .

82 ﴾

(118/591)

قوله تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ فخرج على قومه ﴾ .

أي الذين نصحوه في الإقتصاد في شأنه ، والإكثار في الجود على إخوانه ، ثم ذكر حاله معظماً لها بقوله : ﴿ في زينته ﴾ أي التي تناسب ما ذكرنا من أمواله ، وتعاظمه في كماله من أفعاله وأقواله .

(119/591)

ولما كان كأنه قيل : ما قال قومه ؟ قيل : ﴿ قال الذين يريدون ﴾ أي هم بحيث يتجدد منهم أن يريدوا ﴿ الحياة الدنيا ﴾ منهم لسفول الهمم وقصور النظر على الفاني ، لكونهم أهل جهل وإن كان قولهم من باب الغبطة لا من الحسد الذي هو تمني زوال نعمة المحسود : ﴿ يا ليت لنا ﴾ أي نتمنى تمنياً عظيماً أن نؤت من أيّ مؤت كان وعلى أيّ وجه كان ﴿ مثل ما أوتي قارون ﴾ من هذه الزينة وما تسببت عنه من العلم ، حتى لا نزال أصحاب أموال ، ثم عظموها بقولهم مؤكدين لعلمهم أن من يريد الآخرة ينكر عليهم : ﴿ إنه لذو حظ ﴾ أي نصيب وبخت في الدنيا ﴿ عظيم ﴾ بما أوتيه من العلم الذي كان سبباً له إلى جميع هذا المال ، ودل على جهلهم وفضل العلم الرباني وحقارة ما أوتي قارون من المال والعلم الظاهر

الذي أدى إليه باتباعه قوله : ﴿ وقال الذين ﴾ وعظم الرغبة في العلم بالبناء للمفعول إشارة إلى أنه نافع بكل اعتبار وباعتبار الزهد ، وبالتعبير عن أهل الزهد به فقال : ﴿ أوتوا العلم ﴾ أي من قومه ، فشرفت أنفسُهم عن إرادة الدنيا علماً بفنائها ، زجراً لمن تمنى مثل حاله ، وشمراً إلى الآخرة لبقائها : ﴿ ويلكم ﴾ أي عجباً لكم ، أو حل بكم الشر حلولاً ، وأصل ويل ، " وي " قال الفراء : جيء بلام الجر بعدها مفتوحة ما المضمر نحو وي لك ، ووي له ، أي عجباً لك وله ، ثم خلط اللام بوي لكثرة الاستعمال حتى صارت كلام الكلمة فصار معرباً بإتمامه ثلاثياً ، فجاز أن يدخل بعدها لام أخرى في نحو ويلاً لك ، لصيرورة الأول لام الكلمة ، ثم نقل إلى باب المبتدأ فقيل : ويل لك ، وهو باق على ما كان عليه في حال النصب إذ الأصل في ويل لك : هلكت ويلاً ، أي هلاكاً فرفعوه بعد حذف الفعل نفضاً لغبار الحدوث ، وقيل : أصل ويل الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى كما استعمل لا أبا لك – وأصله الدعاء على الرجل – في الحث على الفعل ، فكأنهم قالوا : ما لنا يحل بنا الويل ؟ فأخبروهم بما

(120/591)

ينبغي معرضين عما استحقوا به الويل من التمني ، تحقيراً لما استفزهم حتى قالوه فقالوا : ﴿ ثواب الله ﴾ أي الجليل العظيم ﴿ خير ﴾ أي من هذا الحطام ، ومن فاته الخير حل به الويل ؛ ثم بينوا مستحقه تعظيماً له وترغيباً للسامع في حاله فقالوا : ﴿ لمن آمن وعمل ﴾ أي تصديقاً لإيمانه ﴿ صالحاً ﴾ ثم بين سبحانه عظمة هذه النصيحة وعلو قدرها بقوله مؤكداً لأن أهل الدنيا ينكرون كونهم غير صابرين : ﴿ ولا يلقاها ﴾ أي لا يجعل لاقياً لهذا الكلمات أو النصيحة التي قالها أهل العلم ، أي عاملاً بها ﴿ إلا الصابرون ﴾ أي على قضاء ربهم في السراء والضراء ، والحاملون أنفسهم على الطاعات الذين صار الصبر لهم خلقاً ، وعبر بالجمع ترغيباً في التعاون إشارة إلى أن الدين لصعوبته لا يستقل به الواحد .

ولما تسبب عن نظره هذا الذي أوصله إلى الكفر بربه أخذه بالعذاب ، أشار إلى ذلك سبحانه بقوله : ﴿ فخسفنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ به وبداره ﴾ أي وهي على مقدار ما ذكرنا من عظمته بأمواله وزينته ، فهي أمر عظيم ، تجمع خلقاً كثيراً وأثاثاً عظيماً ، لئلا يقول قائل : إن الخسف به كان للرغبة في أخذ أمواله ﴿ الأرض ﴾ وهو من قوم موسى عليه الصلاة والسلام وقريب منه جداً – على ما نقله أهل الأخبار – فإياكم يا أمة هذا النبي أن تردوا ما آتاكم من الرحمة برسالته فتهلكوا وإن كنتم أقرب الناس إليه فإن الأنبياء كما أنهم لا يوجدون الهدى في قلوب العدى ، فكذلك لا يمنعونهم من الردى ولا يشفعون لهم أبداً ، إذا تحققوا أنهم من أهل الشقا ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه ما ﴿ كان له ﴾ أي لقارون ،

وأكد النفي – لما استقر في الأذهان أن الأكابر منصورون – بزيادة الجار في قوله : ﴿ من فئة ﴾ أي طائفة من الناس يكرون عليه بعد أن هالهم ما دهمه ، وأصل الفئة الجماعة من الطير – كأنها سميت بذلك لكثرة رجوعها وسرعته إلى المكان الذي ذهبت منه ﴿ ينصرونه ﴾ .

(121/591)

ولما كان الله تعالى أعلى من كل شيء قال : ﴿ من دون الله ﴾ أي الحائز لصفات الكمال ، المتردي بالعظمة والجلال ، لأن من كان على مثل رأيه هلك ، ومن كان من أولياء الله راقب الله في أمره ، فلم يسألوا الله فيه ، وعلم هو أن الحق لله ، وضل عنه – كما في الآية التي قبلها – ما كان يفتري ﴿ وما كان ﴾ أي هو ﴿ من المنتصرين ﴾ لأنفسهم بقوتهم .

ولما خسف به فاستبصر الجهال الذين هم كالبهائم لا يرون إلا المحسوسات ، عبر عن حالهم بقوله : ﴿ وأصبح ﴾ أي وصار ، ولكنه عبر به لمقابلة الأمس ، وإعلاماً بأن ما رأوا من حاله ملأ صدورهم فلم يكن لهم هم سواه ﴿ الذين تمنوا ﴾ أي أرادوا إرادة عظيمة بغاية الشغف أن يكونوا ﴿ مكانه ﴾ أي يكون حاله ومنزلته في الدنيا لهم ﴿ بالأمس ﴾ أي الزمان الماضي القريب وإن لم يكن يلي يومهم الذي هم فيه من قبله ﴿ يقولون ويكأن ﴾ هذه

الكلمة والتي بعدها متصلة بإجماع المصاحف ، وعن الكسائي أنه يوقف على الياء من وى ، وعن أبي عمرو أنه يوقف على الكاف : ويك ، قال الرضي في شرح الحاجبية : وي للتندم أو للتعجب ، ثم قال : وهو عند الخليل وسيبويه " وي " للتعجب ، ركبت مع "كأن " التي للتشبيه ، وقال الفراء : كلمة تعجب ألحق بها كاف الخطاب نحو ويك عنتر أقدم ، أي من قوله في قصيدته الميمية المشهورة إحدى المعلقات السبع :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها . . .

قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

(122/591)

أي ويلك وعجباً منك ، وضم إليها " أن " فالمعنى : ألم تر أنه ، ونقل ابن الجوزي هذا عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، قال الفراء : ولما صار معنى ويكأن ألم تر ، لم تغير كاف الخطاب للمؤنث والمثنى والمجموع بل لزم حالة واحدة ، وقال الجعبري في شرح الشاطبية : وي صوت يقوله المتندم والمتعجب ، وويك أصله ويلك ، حذفت لامه تخفيفاً لكثرة دوره ؛ والكاف للخطاب وفتحت " أن " لإضمار العلم ؛ وقال قطرب : لتقدير اللام ، ونشأ من التركيب معنى : ندمنا على تفريطنا ، وتعجبنا من حالنا ، وتحققنا خلاف اعتقادنا ،

ورسمت متصلة تنبيهاً على التركيب ، وقال القزاز في ديوانه الجامع : ويك كلمة ينبه بها الإنسان ، وقيل : معناها رحمة ، ووي معناها التنبيه والإنكار ، وقال الإمام عبد الحق : وي كلمة تقال في التعجب والاستدراك ، وقيل : وي حزن ، وقال قطرب : وي كلمة تفجع - انتهى .

وقال سيبويه في باب ما ينتصب فيه الخبر بعد الأحرف الخمسة : وسألت الخليل عن هذه الآية فزعم أنها وي مفصولة من كأن والمعنى وقع على أن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم ، أو نبهوا فقيل لهم : أما يشبه أن يكون هذا عندكم هكذا - والله تعالى أعلم ، وأما المفسرون : فقالوا : ألم تر أن الله .

فالمعنى الذي يجمع الأقوال حينئذ : تعجباً أو ويلاً أو تندماً على ما قلنا في تبين غلطنا ، وتنبيهاً على الخطأ ، أو هلاك لنا ، إو إنكار علينا ، أو حزن لنا ، أو تفجع علينا ، أو استدراك علينا ، أو رحمة لنا ، أو تنبه منا ، أو تنبيه لنا ، ثم عللوا ذلك بقولهم : أن الله ، أو يشبه أن الله ، أو ألم تر أيها السامع والناظر أن الله ، وقال الرازي : اسم سمي به القول ، أي أعجب ، ومعناه التنبيه ؛ ثم ابتدأ كأن ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ﴿ يبسط الرزق ﴾ أي الكامل ﴿ لمن يشاء ﴾ سواء كان عنده ما يحتال به على الرزق أم لا .

ولما كانت القصة لقارون ، وكان له من المكنة في الدنيا ما مضى ذكره ، وكانت العادة جارية بأن مثله يبطر وقد يؤدي إلى تألهه ، قال منبهاً بالإيقاع به على الوجه الماضي أنه من جملة عبيده ، لا فرق بينه وبين أضعفهم بالنسبة إلى قدرته : ﴿ من عباده ﴾ .

ولما دل على أن البسط إنما هو منه ، أتبعه قوله دليلاً آخر على ربوبيته : ﴿ ويقدر ﴾ أي يضيق على من يشاء سواء كان فطناً أم لا ، لا يبسطه لأحد لكرامته عليه ، ولا يضيق على أحد لهوانه عنده ، ولا يدل البسط والقبض على هوان ولا كرامة ، وهذا دليل على أنهم ظنوا صحة قول قارون أنه أوتيه على علم عنده ، وأنهم إنما تمنوا علمه الذي يلزم منه على اعتقادهم حصول المال على كل حال .

ولما لاح لهم من واقعته أن الرزق إنما هو بيد الله ، أتبعوه ما دل على أنهم اعتقدوا أيضاً أن الله قادر على ما يريد من غير الرزق كما هو قادر على الرزق من قولهم : ﴿ لولا أن منَّ الله ﴾ أي تفضل الملك الأعظم الذي استأثر بصفات الكمال ﴿ علينا ﴾ بجوده ، فلم يعطنا ما تمنيناه من الكون على مثل حاله ﴿ لخسف بنا ﴾ مثل ما خسف به

﴿ ويكأنه ﴾ أي عجباً أو ندماً لأنه ، أو يشبه أنه ، أو ألم تر أنه ، قال الرضي في شرح الحاجبية : كأن المخاطب كان يدعى أنهم يفلحون فقال لهم : عجباً منك ، فسئل : لم تتعجب منه ؟ فقال : لأنه – إلى آخره ، فحذف حرف الجر مع " أن " كما هو القياس .

﴿ لا يفلح ﴾ أي يظفر بمراد ﴿ الكافرون ﴾ أي العريقون في الكفر لنعمة الله ، وقد عرف بهذا تنزيل المعنى على ما قالوه في المراد من ويكأنه ، سواء وقف على وي أو يك أو لا .

(124/591)

ذكر شرح هذه القصة : قال البغوي : قال أهل العلم بالأخبار : كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى عليه الصلاة والسلام وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم فبغى وطغى ، وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن يعلقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة ، في كل طرف منها خيطاً أخضر بلون السماء يذكرونني به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي ، فقال موسى : يا رب ! ألا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضراً ، فإن بني إسرائيل تحتقر هذه الخيوط ، فقال له ربه : يا موسى ! إن الصغير من أمري ليس بصغير ، فإذا هم لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير ، فدعاهم موسى يعني فأعلمهم ففعلوا واستكبر قارون ، فكان هذا بدء عصيانه وطغيانه وبغيه ، فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعل الحبورة لهارون عليه السلام وهي رئاسة المذبح ، فكان بنو إسرائيل يأتون بهديهم إلى هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله ، فقال قارون : يا موسى ! لك الرسالة ولهارون الحبورة ، ولست في

شيء وأنا أقرأ التوراة ، لا صبر لي على هذا ، فقال له موسى عليه الصلاة والسلام : ما أنا بالذي جعلتها في هارون ولكن الله جعلها له ، فقال قارون : والله لا أصدقك حتى أرى بيانه ، يعني فجمع موسى عصي الرؤساء فحزمها وألقاها في قبته التي كان يعبد الله فيها وباتوا يحرسونها ، فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر ، وكانت من اللوز ، فقال قارون : والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر ، وذكر أموراً مما كان يتعظم بها وأنه رمى موسى عليه الصلاة والسلام بعظيمة فحينئذ غار الله لموسى عليه الصلاة والسلام فخسف به .

(125/591)

والذي رأيته أنا في التوراة في السفر الرابع ما نصه : وكلم الرب موسى وقال له : كلم بني إسرائيل وقل لهم : اعملوا خيوطاً في أطراف أرديتكم في أحقابكم ، ولتكن الخيوط التي تعملون في أطراف أرديتكم من حرير ، ولتكن هذه الخيوط تذكركم وصايا الله لتعملوا بها ولا تضلوا بما في قلوبكم ، ولا تتبعوا آراءكم ، بل اذكروا جميع وصاياي واعملوا بها ، لتكونوا مقدسين لله ربكم ، أنا الله ربكم الذي أخرجتكم من أرض مصر ، لا يكون لكم إله غيري ، أنا الله ربكم .

ومن بعد هذه الأمور شق قورح – وهو اسم قارون بالعبرانية – بن يصهر بن قاهث بن لاوى ، ودائن وأبيروم ابنا أليب ، وأون بن قلب ابن روبيل العصي ، وقاموا بين يدي موسى ، وقم من بني إسرائيل عددهم مائتان وخمسون رجلاً من رؤساء الجماعة مذكورون مشهورون بأسمائهم أبطال ، هؤلاء أجمعون اجتمعوا إلى موسى وهارون وقالوا لهما : ليس حسبكما أن الجماعة كلها طاهرة وأنتما رئيسان عليها حتى تريدا أن تتعظما على الجماعة كلها – أي يكون هارون هو الكاهن أي متولي أمر القربان والحكم على خدمة قبة الزمان – فسمع موسى ذلك وخر ساجداً على وجهه ، وكلم قورح وجماعته كلها فقال لهم : سيظهر الرب ويبين لمن الكهنوت والرئاسة بكرة ، ومن كان طاهراً فليتقرب إليه .

(126/591)

ومن يختار الرب يتقرب ؛ ثم أمرهم أن يقربوا قرباناً ثم قال : يا بني لاوي ! أما تكتفون بما اختاره الله لكم من كل جماعة بني إسرائيل وقربكم إليه لتعملوا العمل في بيت الرب وقربك أنت وجميع إخوتك معك إلا أن تريدوا الكهنوت أيضاً ، فلذلك أنت وجماعتك كلها احتشدوا بين يدي الرب غداً ، فأما هارون فمن هو حتى صرتم تقعون فيه وتتذمرون عليه ، وأرسل موسى ليدعو دائن وأبيروم ابني أليب فقالا : لا تصعد إليك ، أما تكتفيان بما

صنعتما أنكما أخرجتمانا من الأرض التي تغل السمن والعسل لتقتلانا في هذه البرية حتى تعظما علينا وتفخرا ، فأما ما وعدتنا به أنك تدخلنا الأرض التي تغل السمن والعسل فما فعلت ، ولم تعطنا مواريث المزارع والكروم ، فلو عميت أعيننا لم نصعد إليك .

فشق ذلك على موسى جداً ، وقال أمام الرب : لا تقبل قرابينهم يا رب لأني لم أظلم منهم رجلاً ولا أسأت إلى أحد منهم ، ثم قال لقورح : اجتمع أنت وأصحابك أمام الرب وهارون معكم بكرة ، وليأخذ كل منكم مجمرته ، وقام موسى وهارون أمام قبة الزمان وجمع قورح الجماعة كلها ، وظهر مجد الرب للجماعة كلها ، وكلم الرب موسى وهارون وقال لهما : تنحيا عن هذه الجماعة فإني مهلكها في ساعة واحدة ، فخرا ساجدين وقالا : اللهم أنت إله أرواح كل ذي لحم ، يجرم رجل واحد فينزل الغضب بالجماعة كلها ؟ فكلم الرب موسى وقال له : كلم الجماعة كلها وقل لهم : تنحوا عن خيم دائن وأبيروم وقورح ، تنحوا عن خيم هؤلاء الفجار ، ولا تقربوا شيئاً مما لهم لئلا تعاقبوا ، وقال موسى : بهذه الخلة تعلمون أن الرب أرسلني أن أعمل هذه الأعمال كلها ، ولم أعملها من تلقاء نفسي ، إن مات هؤلاء مثل موت كل إنسان أو نزل بهم الموت مثل ما ينزل بجميع الناس فلم يرسلني الرب ، وإن فتحت الأرض فاها وابتلعتهم وابتلعت كل شيء لهم نزلوا هم وكل شيء لهم إلى الجحيم علمتم أن هؤلاء قد أغضبوا الرب .

فلما أكمل موسى قوله هذا انفتحت الأرض من تحتهم ، وفغرت فاها فابتلعتهم وابتلعت خيمهم وجميع مواشيهم فنزلوا إلى الجحم أحياء ، ثم استوت الأرض فوقهم ، وهرب جميع بني إسرائيل حيث سمعوا أصواتهم ورأوا ما قد صنع بهم ، وقالوا : لعل الأرض تبتلعنا أيضاً ، واشتعلت نار من قبل الرب فأحرقت المائتين والخمسين رجلاً الذين كانوا يبخرون البخور ، وتذمر جماعة بني إسرائيل من بعد ذلك اليوم على موسى وهارون فقالوا لهما : أنتما قتلتما جماعة شعب الرب ، فأقبلوا إلى قبة الزمان ورأوا أن السحاب قد تغشى القبة وظهر مجد الرب ، وأتى موسى وهارون فقاما في قبة الزمان ، وكلم الرب موسى وهارون وقال لهما : تنحيا عن هذه الجماعة لأني مهلكها في ساعة واحدة ، فخرا ساجدين على وجوههما ، وقال موسى لهارون : خذ مجمرة بيدك واجعل فيها ناراً وبخوراً ، وانطلق مسرعاً إلى الجماعة واستغفر لهم لأنه قد نزل غضب الرب بالجماعة كلها ، وبدأ موت الفجأة بالشعب ، وأخذ هارون كما أمره موسى فأحضر إلى الجماعة ورأى أن الموت قد بدأ بالشعب ، وبخر بخوراً للرب واستغفر للشعب ، وقام فيما بين الأموات والأحياء ، فكف موت الفجأة عن الشعب ، وكان عدد الذين ماتوا فجأة أربعة عشر ألفاً وسبعمائة رجل غير المخسوف بهم ، ورجع هارون إلى موسى إلى قبة الزمان فكلم الرب موسى وقال له : كلم بني إسرائيل وخذ منهم عصا عصا من كل سبط ، واكتب اسم كل رجل على

عصاه ، واكتب اسم هارون على عصا سبط لاوي ، واجعلها في قنة الزمان أمام تابوت الشهادة لأنزل إليكم إلى هناك ، فالرجل الذي أحبه تنضر عصاه ، وأخلصكما من هتار بني إسرائيل وتذمرهم ؛ ثم دخل موسى خباً الشهادة فرأى عصا هارون قد نضرت وأخرجت أغصاناً وأورقت وأثمرت لوزاً ، وأخرج موسى العصي كلها فنظروا إليها ، وقال الرب لموسى : رد قضيب هارون إلى موضع الشهادة واحفظه آية لأبناء المتسخطين ليكف تذمرهم عني ولا يموتوا ، ولا يعمل عمل قبة الزمان غير

(128/591)

اللاويين – أي سبط لاوي ، فأما بنو إسرائيل – أي باقيهم – فلا يقتربوا إلى قبة الزمان لئلا يعاقبوا ويموتوا ؛ ثم ذكر وفاة هارون عليه السلام في هور الجبل وولاية إليعازر ابنه مكانه أمر الكهنوت – انتهى .

وهو نحو مما فعل الله لنبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حنين الجذع ، وتخيير النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ له أن يعيده تعالى إلى أحسن ما كان وهو حي أو يجعله في الجنة ، فاختار أن يكون في الجنة ، وكذا أمر سراقة بن مالك بن جعشم حيث لحقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في طريق الهجرة ليرده فخسف بقوائم حصانه حتى نزل إلى بطنه ثلاث مرات

غير أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما كان نبي الرحمة لم يكن القاضية ، فكفى بذلك شره ، وأسلم بعد ذلك علم الفتح ، وبشره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه يلبس سوراى كسرى فكان كذلك ، وشر من الخسف الذي يغيب به المخسوف به وأنكأ وأشنع وأخزى قصة الذي ارتد فقصم ودفن فلفظته الأرض – روى البيهقي في آخر الدلائل عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران ، وكان يكتب لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب ، فرفعوه وأعجبوا به ، فما لبث أن قصم الله عنقه فحفروا له فواروه ، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها ثم عادوا فحفروا له فواروه فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها فتركوه منبوذاً ، وقال : رواه مسلم في الصحيح ، وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ مثله أيضاً في رجل نصراني لفظته الأرض ثلاث مرات ثم تركوه .

وقال رواه البخاري في الصحيح .

(129/591)

ولما قدم سبحانه أن المفلح من تاب وآمن وعمل صالحاً ، وهو الذي أشار أهل العلم إلى أن له ثواب الله ، وكان ذلك للآخرة سبباً ومسبباً ، ومر فيما لا بد منه حتى ذكر قصة قارون

المعرّفة – ولا بد – بأن هذه الدار للزوال ، لا يغنى فيها رجال ولا مال ، وأن الآخرة للدوام ، وأمر فيها بأن يحسن الابتغاء في أمر الدنيا ، وختم بأن هذا الفلاح مسلوب عن الكافرين ، فكان موضع استحضار الآخرة ، مع أنه قدم قريباً من ذكرها وذكر موافقتها ما ملأ به الأسماع ، فصيرها حاضرة لكل ذي فهم ، معظمة عند كل ذي علم ، أشار إليها سبحانه لكلا الأمرين : الحضور والعظم ، فقال : ﴿ تلك ﴾ أي الأمر المنظور بكل عين ، الحاضر في كل قلب ، العظيم الشأن ، البعيد الصيت ، العلي المرتبة ، الذي سمعت أخباره ، وطنت على الآذان أوصافه وآثاره ﴿ الدار الآخرة ﴾ أي التي دلائلها أكثر من أن تحصر ، وأوضح من أن تبين وتذكر ، من أعظمها تعبير كل أحد عن حياته بالدنيا والتي أمر قارون بابتغائها فأبى إلا علواً وفساداً ﴿ نجعلها ﴾ بعظمتنا ﴿ للذين ﴾ يعملون ضد عمله .

(130/591)

ولما كان المقصود الأعظم طهارة القلب الذي عنه ينشأ عمل الجوارح ، قال : ﴿ لا يريدون ﴾ ولم يقل يتعاطون – مثلاً ، تعظيماً لضرر الفساد بالتنفير من كل ما كان منه تسبب ، إعلاماً بأن النفوس ميالة إليه نزاعة له فمهما رتعت قريباً منه اقتحمته لا محالة ﴿ علواً ﴾ أي شيئاً من العلو ﴿ في الأرض ﴾ فإنه أعظم جارّ إلى الفساد ، وإذا أرادوا

شيئاً من ذلك فيما يظهر لك عند أمرهم بمعروف أو نهيهم عن منكر ، كان مقصودهم به علو كلمة الله للإمامة في الدين لا علوهم ﴿ ولا فساداً ﴾ بعمل ما يكره الله ، بل يكونون على ضد ما كان فيه فرعون وهامان وقارون ، من التواضع مع الإمامة لأجل حمل الدين عنهم ليكون لهم مثل أجر من اهتدى بهم ، لا لحظ دنيوي ، وعلامة العلو لأجل الإمامة لا الفساد ألا يتخذوا عباد الله خولاً ، ولا مال الله دولاً ، والضابط العمل بما يرضي الله والتعظيم لأمر الله والعزوف عن الدنيا .

ولما كان هذا شرح حال الخائفين من جلال الله تعالى ، أخبر سبحانه أنه دائماً يجعل ظفرهم آخراً ، فقال معبراً بالاسمية دلالة على الثبات : ﴿ والعاقبة ﴾ أي الحالة الأخيرة التي تعقب جميع الحالات لهم في الدنيا والآخرة ، هكذا الأصل ، ولكنه أظهر تعميماً وإعلاماً بالوصف الذي أثمر لهم ذلك فقال تعالى : ﴿ للمتقين ﴾ أي دائماً في كلا الدارين ، لا عليهم فمن اللام يعرف أنها محمودة ، وهذه الآية يُعْرَف أهل الآخرة من أهل الدنيا ، فمن كان زاهداً في الأولى مجتهداً في الصلاح ، وكان ممتحناً في أول أحواله مظفراً في ماله ، فهو من أبناء الآخرة ، وإلا فهو للدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 520 . 528 ﴾

(131/591)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾

أما قوله : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ فيدل على أنه خرج بأظهر زينة وأكملها وليس في القرآن إلا هذا القدر ، إلا أن الناس ذكروا وجوهاً مختلفة في كيفية تلك الزينة ، قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الأرجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب ، وقال بعضهم : بل خرج في تسعين ألفاً هكذا ، وقال آخرون بل على ثلثمائة . والأولى ترك هذه التقريرات لأنها متعارضة ، ثم إن الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قارون ﴾ من هذه الأمور والأموال ، والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ، وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم ، لأن للثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة ، وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث ، قال صاحب "الكشاف" : ويلك أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى .

أما قوله : ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصابرون ﴾ فقال المفسرون : لا يوفق لها والضمير في يلقاها إلى

ماذا يعود ؟ فيه وجهان أحدهما : إلى ما دل عليه قوله : ﴿ آمن وَعَمِلَ صالحا ﴾ يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلا الصابرون والثاني : قال الزجاج : يعني ، ولا يلقى هذه الكلمة وهي قولهم ثواب الله خير إلا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات ، وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار .

(132/591)

وأما قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الأرض جزاء على عتوه وبطره ، والفاء تدل على ذلك ، لأن الفاء تشعر بالعلية وثانيها : قيل إن قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بني إسرائيل ، وقال : إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا : أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت ، قال : نبرطل فلانة البغي حتى تنسبه إلى نفسها فيرفضه بنو إسرائيل فجعل لها طستاً من ذهب مملوءاً ذهباً فلما كان يوم عيد قام موسى فقال : يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ، ومن زنى وهو (غير) محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه ، فقال قارون وإن كنت أنت ؟ قال : وإن

كنت أنا ، قال : فإن بني إسرائيل يقولون إنك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله تعالى ، فقالت : كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي ، فخر موسى ساجداً يبكي ، وقال : يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى الله عز وجل إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك ، فقال : يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ، ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم ، وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ، ثم قال : خذيهم فانطبقت الأرض عليهم فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ما أفظك استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم ، أما وعزتي لودعوني مرة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم إنما دعا

(133/591)

موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ، ثم إن قارون يخسف به كل يوم مائة قامة ، قال القاضي : إذا هلك بالخسف فسواء نزل عن

ظاهر الأرض إلى الأرض السابعة أو دون ذلك فإنه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة في الزجر ، وأما قولهم إنه تعالى قال لو استغاث بي لأغثته ، فإن صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع أنه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لأن موسى عليه السلام ما فعله إلا عن أمره فبعيد ، وقولهم إنه يتجلجل في الأرض أبداً فبعيد لأنه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات ، والذي عندي في أمثال هذه الحكايات أنها قليلة الفائدة لأنها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين ، وليست المسألة مسألة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ، ثم إنها في أكثر الأمر متعارضة مضطربة فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب .

أما قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر ، أي منعه منه فامتنع .

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ

اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعياً إلى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبياء الله ورسله .

أما قوله : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللهَ ﴾ فاعلم أن وي كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم ، فلما قالوا : ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون ﴾ [القصص : 79] ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا : وي ثم قالوا : كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة قال سيبويه : سألت الخليل عن هذا الحرف فقال إن وي مفصولة من كان وأن القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ما سلف منهم وي .

وذكر الفراء وجهين أحدهما : أن المعنى ويلك فحذف اللام وإنما جاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أن الله ، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس الثاني : وي منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وي أما ترى ما بين يديك فقال الله وي ثم استأنف كان الله يبسط فالله تعالى إنما ذكرها تعجيباً لخلقه ، قال الواحدي : وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ما قالوه لكتبوها منفصلة ، وأجاب الأولون بأن خط المصحف لا يقاس عليه ، ثم قالوا : ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ وهذا تأكيد لما قبله .

أما قوله : ﴿ تِلْكَ الدار الأخرة ﴾ فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما ، وعن علي عليه السلام : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها ، قال صاحب "الكشاف" : ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأرض ﴾ [القصص : 4] والفساد لقارون لقوله : ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض ﴾ [القصص : القصص : 77] ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله : ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما تدبره علي بن أبي طالب عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 16.18 ﴾

(136/591)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل

: أحدها : في حشمه ، قاله قتادة .

الثاني : في تَبَعه في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات وكان أول يوم رؤيت فيه المعصفرات قاله ابن زيد ، قال أبو لبابة : أول من صبغ بالسواد قارون .

الثالث : خرج في جوارٍ بيض على بغال بيض بسروج من ذهب على قطف أرجوان ، قاله السدي .

﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ ﴾ تمنوا ماله رغبة في الدنيا .

﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : لذو درجة عظيمة ، قاله الضحاك .

الثاني : لذو جد عظيم ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾

قال ابن عباس : لما شكا موسى إلى الله أمْر قارون أمر الله الأرض أن تطيع موسى ، ولما أقبل قارون وشيعته قال موسى : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى أوساطهم ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم ، ثم قال : خذيهم فخسف الله بهم وبدار قارون وكنوزه . روى يزيد الرقاشي أن قارون لما أخذته الأرض إلى عنقه أخذ موسى نعليه فخفق بهما وجهه فقال قارون : يا موسى ارحمني ، قال الله تعالى ﴿ يَا مُوسَى مَا أَشَدَّ قَلْبَكَ ، دَعَاكَ عَبْدِي وَاسْتَرْحَمَكَ فَلَمْ تَرْحَمْهُ : وَعِزَّتِي لَو دَعَانِي عَبْدِي

لأَجَبْتُهُ ﴾ روى سمرة بن جندب أنه يخسف بقارون وقومه في كل يوم بقدر قامة فلا يبلغ إلى الأرض السفلى إلى يوم القيامة .

قال مقاتل لما أمر موسى الأرض فابتلعته قال بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله لأنه كان ابن عمه أخي أبيه فخسف الله بداره وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ ﴾ فيه ثمانية أوجه :

أحدها : معناه أو لا يعلم أن الله ؟ رواه معمر عن قتادة .

(137/591)

الثاني : أو لا يرى ؟ رواه سعيد عن قتادة .

الثالث : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ﴾ بلغة حمير ، قاله الضحاك .

الرابع : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ ﴾ والياء ، والكاف صلتان زائدتان ، حكاه النقاش .

الخامس : ﴿ وَكَأَنَّ اللَّهَ ﴾ والياء وحدها صلة زائدة . وقال ابن عيسى بهذا التأويل غير أنه جعل الياء للتنبيه .

السادس : معناه ويك أن الله ففصل بين الكاف والألف وجعل ويك بمعنى ويح فأبدل الحاء كافاً ومنه قول عنترة :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها . . . قيل الفوارس ويك عنتر أقدامِ

السابع : ويلك إن الله فحذف اللام إيجازاً ، حكاه ابن شجرة

. الثامن : وي منفصلة على طريق التعجب ثم استأنف فقال كأن الله ، قاله الخليل .

﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : معنى يقدر أن يختار له ، قاله ابن عباس .

الثاني : ينظر له فإن كان الغنى خيراً له أغناه وإن كان الفقر خيراً له أفقره ، قاله الحسن .

الثالث : يضيق ، وهذا معنى قول ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ ﴾

أي الجنة نجعلها .

﴿ عُلُوّاً ﴾ فيها ستة أوجه :

أحدها : يعني بغياً ، قاله ابن جبير .

الثاني : تكبراً ، قاله مسلم .

الثالث : شرفاً وعزاً ، قاله الحسن .

الرابع : ظلماً ، قاله الضحاك .

الخامس : شركاً ، قاله يحيى بن سلام .

السادس : لا يجزعون من ذلها ولا يتنافسون على عزها ، قاله أبو معاوية .

ويحتمل سابعاً أن يكون سلطاناً فيها على الناس .

﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ فيه ثلاثة تأويلات

: أحدها : أنه الأخذ بغير حق ، قاله مسلم .

الثاني : أنه العمل بالمعاصي ، قاله عكرمة .

الثالث : أنه قتل الأنبياء والمؤمنين ، قاله يحيى بن سلام .

ويحتمل رابعاً : أنه سوء السيرة .

﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : والثواب للمتقين ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : معناه والجنة للمتقين ، قاله ابن شجرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(138/591)

وقال ابن عطية :

ثم أخبر تعالى أن قارون " خرج على قومه " وقد أظهر قدرته من الملابس والمراكب وزينة الدنيا ، قال جابر ومجاهد : خرج في ثياب حمر ، وقال ابن زيد : خرج هو وجملته في ثياب

معصفرة ، وقيل : في ثياب الأرجوان ، وقيل غير هذا ، وأكثر المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها بما لا صحة له فاختصرته ، وباقي الآية في اغترار الجهلة والأغمار من الناس بين .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)

(139/591)

أخبر الله تعالى عن ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ والمعرفة بالله تعالى وبحق طاعته والإيمان به أنهم زجروا الأغمار الذين تمنوا حال قارون وحملوهم على الطريقة المثلى من أن النظر والتمني إنما ينبغي أن يكون في أمر الآخرة ، وأن حالة المؤمن العامل الذي ينتظر ﴿ ثواب الله ﴾ تعالى ﴿ خير ﴾ من حال كل ذي دنيا ، ثم أخبر تعالى عن هذه النزعة وهذه القوة في الخير والدين أنها لا يلقاها أي يمكن فيها ويخولها إلا الصابر على طاعة الله وعن شهوات نفسه ، وهذا هو جماع الخير كله ، والضمير من ﴿ يلقاها ﴾ عائد على ما لم يتقدم له ذكر من حيث الكلام دال عليه ، فذلك يجري مجرى ﴿ توارت بالحجاب ﴾ [ص : 32] و ﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : 26] وقال الطبري الضمير عائد على الكلمة قوله

﴿ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أي لا يلقى هذه الكلمة ﴿ إلا الصابرون ﴾ وعنهم تصدر ، وروي في " الخسف " بقارون وبداره أن موسى عليه السلام لما أمضه فعل قارون به وتعديه عليه ورميه بأمر المرأة وغير ذلك من فعله به استجار الله تعالى وبكى وطلب النصرة فأوحى الله تعالى إليه لا تهتم فإني أمرت الأرض أن تطيعك في قارون وأهله وخاصته وأتباعه ، فقال موسى للأرض خذيهم فأخذت منهم إلى الركب فاستغاثوا يا موسى يا موسى ، فقال خذيهم فأخذتهم شيئاً شيئاً وهم يستغيثون به كل مرة وهو يلج إلى أن تم الخسف بهم ، فأوحى الله تعالى إليه يا موسى استغاثوا بك فلم ترحمهم لو بي استغاثوا أو إلي تابوا لرحمتهم وكشفت ما بهم ، وقال قتادة ومالك بن دينار : روي لنا أنه يخسف به كل يوم قامة فهو يتجلجل إلى يوم القيامة . و" الفئة " الجماعة الناصرة التي يفيء إليها الإنسان الطالب للنصرة ، وقصة قارون هي بعد جوازهم اليم لأن الرواة ذكروا أنه كان ممن حفظ التوراة وكان يقرؤها ، ثم أخبر تعالى عن حال ﴿ الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾ وندمهم واستشعارهم أن الحول والقوة لله تعالى .

(140/591)

وقوله ﴿ ويكأن ﴾ مذهب سيبويه والخليل أن " وي " حرف تنبيه ، وهي منفصلة من " كأن " لكن أضيفت في الكتاب لكثرة الاستعمال ، والمعنى أنهم نبهوا من خاطبوه ثم قالوا بين الاخبار وعلى جهة التعجب والتثبت كأن الله يبسط ، وقال أبو حاتم وجماعة من النحويين " ويك " هي ويلك حذفت اللام منها لكثرة الاستعمال وجرت في الكلام كذلك ومنه قول عنترة : [الكامل]

ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها . . . قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

فكأن المعنى ويلك اعلم أن الله ونحو هذا من الإضمار ، وقالت فرقة من النحويين ﴿ ويكأن ﴾ بجملتها دون تقدير انفصال كلمة بمنزلة قولك ألم تر أن .

قال الفقيه الإمام القاضي : ويقوى الانفصال فيها على ما قاله سيبويه لأنها تجيء مع " أنَّ " ، ومع " أنْ " وأنشد سيبويه

ويكأنْ من يكن له نشب يحبب . . . ومن يفتقر يعش عيش ضر

وهذا البيت لزيد بن عمرو بن نفيل ، وقرأ الأعمش " لولا من الله " بحذف " أن " وروي عنه " لولا منُّ " برفع النون وبالإضافة إلى الله تعالى ، وقرأ الجمهور " لخُسِف " بضم الخاء وكسر السين ، وقرأ عاصم بفتح الخاء والسين ، وقرأ الأعمش وطلحة بن مصرف " لانخسف " كأنه فعل مضارع أريد به أن الأرض كانت تبتلعه ، وروي عن الكسائي أنه كان يقف على " وي " ، ويبتدىء " كأن " ، وروي عنه الوصل كالجماعة ، وروي عن أبي عمرو أنه كان

يقف " ويك " ويبتدىء " أن الله " وعلى هذا المعنى قال الحسن إن شئت " ويكأن " أو " يكإن " بفتح الهمزة وبكسرها ، وكذلك في ﴿ ويكأنه ﴾ .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

(141/591)

هذا إخبار مستأنف من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم يراد به إخبار جميع العالم وحضهم على السعي بحسب ما تضمنته الآية ، وهذا الحض يتضمن الإنحاء على حال قارون ونظرائه ، والمعنى أن الآخرة ليست في شيء من أمر قارون إنما هي لمن صفته كذا وكذا ، و" العلو " المذموم هو بالظلم والانتحاء والتجبر ، قال النبي صلى الله عليه وسلم " وذلك أن تريد أن يكون شراك نعلك أفضل من شراك نعل أخيك " ، و" الفساد " يعم وجوه الشر ، ومما قال العلماء هو أخذ المال بغير حق ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ ، خبر منفصل جزم معناه إما في الدنيا وإلا ففي الآخرة ولا بد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(142/591)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾

قال الحسن : في ثيابٍ حمر وصفر ؛ وقال عكرمة : في ثياب مُعَصْفَرة .

وقال وهب بن منبِّه : خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أُرْجُوان ، ومعه أربعة آلاف مقاتل ، وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلي والزِّينة على بغال بيض .

قال الزجاج : الأُرْجُوان في اللغة : صِبغ أحمر .

قوله تعالى : ﴿ لَذُو حَظٍّ ﴾ أي : لَذُو نصيب وافر من الدنيا .

[وقوله] : ﴿ وقال الذين أُوتوا العِلْم ﴾ قال ابن عباس : يعني الأحبار من بني إسرائيل .

وقال مقاتل : الذين أوتوا العلم بما وَعَدَ اللّهُ في الآخرة قالوا للذين تَمنَّوا ما أُوتيَ [قارون] ﴿ وَيْلكم ثوابُ الله ﴾ أي : ما عنده من الجزاء ﴿ خيرٌ لِمَنْ آمَنَ ﴾ مِمَّا أُعطيَ قارونُ .

قوله تعالى : ﴿ ولا يُلَقَّاها ﴾ قال أبو عبيدة : لا يوفَّق لها ويُرْزَقُها .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن أبي عبلة : ﴿ ولا يَلْقَاها ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف .

وفي المشار إليها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الأعمال الصالحة ، قاله مقاتل .

والثاني : أنها الجنة ، والمعنى : لا يُعطاها في الآخرة إلاَّ الصابرون على أمر الله ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنها الكلمة التي قالوها ، وهي قولهم : ﴿ ثوابُ اللهِ خيرٌ ﴾ ، قاله الفراء .

قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا به وبداره الأرض ﴾

لَمَّا أمر قارونُ البَغِيَّ بقذف موسى على ما سبق شرحه [القصص : 76] غضب موسى فدعا عليه ، فأوحى الله تعالى إليه .

إنّي قد أمرت الأرض أن تُطيعَك فَمُرْها ؛ فقال موسى : يا أرض خُذيه ، فأخذتْه حتى غيَّبَتْ سريره ، فلمَّا رأى ذلك ناشده بالرَّحم ، فقال : خُذيه ، فأخذته حتى غيَّبتْ قدميه ؛ فما زال يقول : خُذيه ، حتى غيَّبتْه ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ما أفظَّك ، وعِزَّتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته .

قال ابن عباس : فخُسفتْ به الأرضُ إلى الأرض السفلى .

(143/591)

وقال سَمُرَة بنُ جنْدَب : إنَّه يُخسف به كلَّ يوم قامة ، فتبلغ به الأرض السفلى يوم القيامة .

وقال مقاتل : فلمَّا هلك قارون قال بنو إسرائيل : إنَّما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره ،

فخَسَفَ اللّهُ بداره وماله بعده بثلاثة أيام .

قوله تعالى : ﴿ يَنْصُرونه مِنْ دون الله ﴾ أي : يمنعونه من الله ﴿ وما كان من المُنْتَصِرِين ﴾ أي : من الممتنعين ممَّا نزل به .

ثم أعلَمنا أن المتمنّين مكانه ندموا على ذلك التمنِّي بالآية التي تلي هذه .

وقوله تعالى : ﴿ لَخُسف بنا ﴾ الأكثرون على ضم الخاء وكسر السين .

وقرأ يعقوب ، والوليد عن ابن عامر ، وحفص ، وأبان عن عاصم : بفتح الخاء والسين .

فأما قوله : ﴿ وَيْكَ ﴾ فقال ابن عباس : معناه : ألم تر .

وكذلك قال أبو عبيده ، والكسائي .

وقال الفراء : "وَيْكَ أن" في كلام العرب تقرير ، كقول الرجل : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه ، أنشدني بعضهم :

وَيْكَ أَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْ . . .

بَبْ ومَنْ يفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

وقال ابن الأنباري : في قوله : ﴿ وَيْكَ أَنَّه ﴾ ثلاثة أوجه .

إن شئت قلت : "وَيْكَ" حرف ، و "أَنَّه" حرف ؛ والمعنى : ألم تر أَنَّه ، والدليل على هذا قول الشاعر :

سالَتَاني الطَّلاق أنْ رَأَتَاني . . .

قَلَّ مالي قَدْ جِئْتُمَاني بِنُكْرِ

وَيْكَ أَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْ . . .

بَبْ وَمَن يفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

والثاني : أن يكون "وَيْكَ" حرفاً ، و "أَنَّه" حرفاً ، والمعنى : ويلك اعلمْ أنَّه ، فحذفت اللام ، كما قالوا : قم لا أباك ، يريدون : لا أبالك ، وأنشدوا :

أَبِالْمَوْتِ الذي لا بُدَّ أَنِّي . . .

مُلاقٍ لا أَبَاكِ تُخَوِّفِيني

أراد : لا أَبَالَكِ ، فحذف اللام .

(144/591)

والثالث : أن يكون "وَيْ" حرفاً ، و "كأَنَّه" حرفاً ، فيكون معنى "وَيْ" التعجُّب ، كما تقول وَيْ لِمَ فعلت كذا وكذا ، ويكون معنى "كأَنَّه" : أظُنُّه وأعلمُه ، كما تقول في الكلام : كأَنَّك بالفَرَج قد أَقْبَل ؛ فمعناه : أظُنُّ الفَرَجُ مقْبِلاً ، وإنما وصلوا الياء بالكاف في قوله : "وَيْكأَنَّه" لأنَّ الكلام بهما كَثُر ، كما جعلوا ﴿ يا ابْنَ أُمَّ ﴾ في المصحف حرفاً واحداً ، وهما حرفان [طه : 94] .

وكان جماعة منهم يعقوب ، يقفون على "وَيْكَ" في الحرفين ، ويبتدؤون "أنّ" و "أَنَّه" في الموضعين .

وذكر الزجَّاج عن الخليل أنه قال : "وَيْ" مفصولة من "كأنَّ" ، وذلك أنَّ القوم تندَّموا فقالوا : "وَيْ" متندِّمين على ما سلف منهم ، وكلُّ مَنْ نَدِم فأظهر ندامته قال : وَيْ .

وحكى ابن قتيبة عن بعض العلماء أَنَّه قال : معنى "ويكأنَّ" : رحمةً لك ، بلغة حِمْيَر .

قوله تعالى : ﴿ لولا أنْ مَنَّ اللّهُ علينا ﴾ أي : بالرحمة والمعافاة والإِيمان ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخرةُ ﴾

يعني الجنة ﴿ نجعلُها للذين لا يُريدون عُلُوّاً في الأرض ﴾ وفيه خمسة أقوال .

أحدها : أَنَّه البَغْي ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : الشَّرَفُ والعِزّ ، قاله الحسن .

والثالث : الظُّلْم ، قاله الضحاك .

والرابع : الشِّرك ، قاله يحيى بن سلام .

والخامس : الاستكبار عن الإِيمان ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ولا فساداً ﴾ فيه قولان .

أحدهما : العمل بالمعاصي ، قاله عكرمة .

والثاني : الدُّعاء إلى غير عبادة الله ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ والعاقبةُ للمتَّقِين ﴾ أي : العاقبة المحمودة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(145/591)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾

أي على بني إسرائيل فيما رآه زينة من متاع الحياة الدنيا من الثياب والدواب والتجمل في يوم عيد .

قال الغزنوي : في يوم السبت .

﴿ فِي زِينَتِهِ ﴾ أي مع زينته .

قال الشاعر :

إذا ما قلوبُ القومِ طارت مخافةً . . .

من الموت أرسوا بالنفوس المواجد

أي مع النفوس .

كان خرج في سبعين ألفاً من تَبَعه ، عليهم المعصفَرات ، وكان أوّل من صُبغ له الثياب المعصفَرة .

قال السدي : مع ألف جوار بيض على بغال بيض بسروج من ذهب على قُطُف الأرْجُوان .

قال ابن عباس : خرج على البغال الشهب .

مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأُرْجُوان ، وعليهم المعصفَرات ، وكان ذلك أوّل يوم رؤي فيه المعصفَر .

قال قتادة : خرج على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغل أبيض عليها قُطُف حمر .

قال ابن جريج : خرج على بغلة شهباء عليها الأُرْجُوان ، ومعه ثلاثمائة جارية على البغال الشهب عليهن الثياب الحمر .

وقال ابن زيد : خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفَرات .

الكلبي : خرج في ثوب أخضر كان الله أنزله على موسى من الجنة فسرقه منه قارون .

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : كانت زينته القِرْمز .

قلت : القِرْمز صِبغ أحمر مثل الأُرْجُوان ، والأُرْجُوان في اللغة صِبغ أحمر ؛ ذكره القشيري .

﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي

نصيب وافر من الدنيا .

ثم قيل : هذا من قول مؤمني ذلك الوقت ، تمنوا مثل ماله رغبة في الدنيا .

وقيل : هو من قول أقوام لم يؤمنوا بالآخرة ولا رغبوا فيها ، وهم الكفار .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ وهم أحبار بني إسرائيل للذين تمنوا مكانه ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ ﴾ يعني الجنة .

(146/591)

﴿ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصابرون ﴾ أي لا يؤتى الأعمال الصالحة ، أو لا يؤتى الجنة في الآخرة إلا الصابرون على طاعة الله .

وجاز ضميرها لأنها المعنية بقوله : ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ قال مقاتل : لما أمر موسى الأرض فابتلعته قالت بنو إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله ؛ لأنه كان ابن عمه ؛ أخي أبيه ، فخسف الله تعالى به وبداره الأرض وبجميع أمواله بعد ثلاثة أيام ، فأوحى الله إلى موسى إني لا أعيد طاعة الأرض إلى أحد بعدك أبداً .

يقال : خَسَفَ المكانُ يخسِف خُسوفاً ذهب في الأرض وخَسَفَ الله به الأرض خَسْفاً أي

غاب به فيها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ وخَسَف هو في الأرض وخُسِف به .

وخسوف القمر كسوفه .

قال ثعلب : كَسَفَتِ الشمسُ وخَسفَ القمرُ ؛ هذا أجود الكلام .

والخسف النقصان ؛ يقال : رضي فلان بالخسف أي بالنقيصة .

﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ ﴾ أي جماعة وعصابة .

﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ لنفسه أي الممتنعين فيما نزل به من الخسف .

فيروى أن قارون يَسفُل كل يوم بقدر قامة ، حتى إذا بلغ قعر الأرض السفلى نفخ إسرافيل في الصور ؛ وقد تقدّم ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بالأمس ﴾ أي صاروا يتندّمون على ذلك التمني و ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله ﴾ (وي) حرف تندّم .

قال النحاس : أحسن ما قيل في هذا قول الخليل وسيبويه ويونس والكسائي إن القوم تَنبّهوا أو نُبِّهوا ؛ فقالوا وَيْ ، والمتندم من العرب يقول في خلال تندّمه وَيْ .

قال الجوهري : وَيْ .

كلمة تعجب ، ويقال : وَيْكَ ووَيْ لعبد الله .

وقد تدخل وَيْ على كأن المخففة والمشدّدة تقول : ويكأن الله .

قال الخليل : هي مفصولة ؛ تقول : ﴿ وَيْ ﴾ ثم تبتدىء فتقول : ﴿ كَأَنَّ ﴾ .

(147/591)

قال الثعلبي : وقال الفرّاء هي كلمة تقرير ؛ كقولك : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه ؛ وذكر أن أعرابية قالت لزوجها : أين ابنكَ وَيْلك ؟ فقال : وَيْ كأنّه وراء البيت ؛ أي أما ترينه .

وقال ابن عباس والحسن : ويك كلمة ابتداء وتحقيق تقديره : إن الله يبسط الرزق .

وقيل : هو تنبيه بمنزلة ألا في قولك ألا تفعل وأمَّا في قولك أما بعد .

قال الشاعر :

سالتَاني الطلاقَ إذ رأَتَاني . . .

قَلَّ مالِي قد جِئْتُمانِي بِنُكْرِ

وَيْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ له نَشَبٌ يُحْبَ . . .

بْ وَمَنْ يَفتقرْ يَعشْ عيشَ ضُرِّ

وقال قُطْرُب : إنما هو ويلك وأسقطت لامه وضمت الكاف التي هي للخطاب إلى وَيْ .

قال عَنترة :

ولقد شَفَى نفسي وأَبرأَ سُقْمَها . . .

قَوْلُ الفوارسِ وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ

وأنكره النحاس وغيره ، وقالوا : إن المعنى لا يصح عليه ؛ لأن القوم لم يخاطبوا أحداً فيقولوا له ويلك ، ولو كان كذلك لكان إنه بالكسر .

وأيضاً فإن حذف اللام من ويلك لا يجوز .

وقال بعضهم : التقدير ويلك اعلم أنه ؛ فأضمر اعلم .

ابن الأعرابي : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ ﴾ أي اعلم .

وقيل : معناه ألم تر أن الله .

وقال القتبي : معناه رحمة لك بلغة حِميْر .

وقال الكسائي : وَيْ فيه معنى التعجب .

ويروى عنه أيضاً الوقف على وَيْ وقال كلمة تفجّع .

ومن قال : ويك فوقف على الكاف فمعناه أعجب لأن الله يبسط الرزق وأعجب لأنه لا يفلح الكافرون .

وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب لا اسماً ؛ لأنّ وَيْ ليست مما يضاف .

وإنما كتبت متصلة ؛ لأنها لما كثر استعمالها جعلت ما بعدها كشيء واحد .

﴿ لولا أَن مَّنَّ الله عَلَيْنَا ﴾ بالإيمان والرحمة وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من

البغي والبطر ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ .

وقرأ الأعمش ﴿ لَوْلاَ مَنُّ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ .

وقرأ حفص : "لَخَسَفَ بِنَا" مسمّى الفاعل .

الباقون : على ما لم يسم فاعله وهو اختيار أبي عبيد .

(148/591)

وفي حرف عبد الله ﴿ لأَنْخُسِفَ بِنَا ﴾ كما تقول انطلِق بنا .

وكذلك قرأ الأعمش وطلحة بن مُصرِّف .

واختار قراءة الجماعة أبو حاتم لوجهين : أحدهما قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ .

والثاني قوله : ﴿ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فهو بأن يضاف إلى الله تعالى لقرب اسمه منه أولى .

﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ عند الله .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة ﴾ يعني الجنة .

وقال ذلك على جهة التعظيم لها والتفخيم لشأنها .

يعني تلك التي سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ ﴾ أي رفعة وتكبراً على الإيمان والمؤمنين ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ عملاً بالمعاصي .

قاله ابن جريج ومقاتل .

وقال عِكْرمة ومسلم البَطين : الفساد أخذ المال بغير حق .

وقال الكلبي الدعاء إلى غير عبادة الله .

وقال يحيى بن سلام : هو قتل الأنبياء والمؤمنين .

﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قال الضحاك : الجنة .

وقال أبو معاوية : الذي لا يريد علوّاً هو من لم يجزع من ذلّها ، ولم ينافس في عزّها ، وأرفعهم عند الله أشدّهم تواضعاً ، وأعزّهم غداً ألزمهم لذلّ اليوم .

وروى سفيان بن عُيَيْنة عن إسماعيل بن أبي خالد قال : مرّ عليّ بن الحسين وهو راكب على مساكين يأكلون كِسَراً لهم ، فسلّم عليهم فدعوه إلى طعامهم ، فتلا هذه الآية ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً ﴾ ثم نزل وأكل معهم .

ثم قال : قد أجبتكم فأجيبوني .

فحملهم إلى منزله فأطعمهم وكساهم وصرفهم .

خرّجه أبو القاسم الطبراني سليمان بن أحمد قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، قال حدّثني أبي ، قال حدّثنا سفيان بن عُيَيْنة .

فذكره .

وقيل : لفظ الدار الآخرة يشمل الثواب والعقاب .

(149/591)

والمراد إنما ينتفع بتلك الدار من اتقى ، ومن لم يتق فتلك الدار عليه لا له ؛ لأنها تضره ولا تنفعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(150/591)

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى قارون ونعته ، وما آتاه من الكنوز ، وفرحه بذلك فرح البطرين ، وادعاءه أن ما أوتي من ذلك إنما أوتيه على علم ، ذكر ما هو ناشىء عن التكبر والسرور بما أوتي فقال : ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ ، وكان يوم السبت : أي أظهر ما يقدر عليه من الملابس والمراكب وزينة الدنيا .

قال جابر ، ومجاهد : في ثياب حمر .

وقال ابن زيد : هو وحشمه في ثياب معصفرة .

وقيل : في ثياب الأرجوان .

وقيل : على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيه .

وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعلى يمينه ثلاثمائة غلام ، وعلى يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهم الحلى والديباج .

وقيل : في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات ، وهو أول يوم رؤي فيه المعصفر .

وقيل غير ذلك من الكيفيات .

﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ قيل : كانوا مؤمنين .

وقال قتادة : تمنوه ليتقربوا به إلى الله .

وقيل : رغبة في اليسارة والثروة .

وقيل : كانوا كفارة ، وتمنوا ﴿ مثل ما أوتي قارون ﴾ ، ولم يذكروا زوال نعمته ، وهذا من الغبطة .

﴿ إنه لذو حظ عظيم ﴾ : أي درجة عظيمة ، قاله الضحاك .

وقيل : نصيب كثير من الدنيا والحظ البخت والسعد ، يقال : فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ .

﴿ وقال الذين أوتوا العلم ﴾ ، منهم : يوشع ، والعلم : معرفة الثواب والعقاب ، أو التوكل ، أو الإخبار ، أقوال .

﴿ ويلكم ﴾ : دعاء بالشر .

﴿ ثواب الله ﴾ : وهو ما أعده في الآخرة للمؤمن ﴿ خير ﴾ مما أوتي قارون .

﴿ ولا يلقاها ﴾ : أي هذه الحكمة ، وهي معرفة ثواب الله ، وقيل : الجنة ونعيمها .

وقيل : هذه المقالة ، وهي قولهم : ﴿ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ ، وبجهم بها .

﴿ إلا الصابرون ﴾ على الطاعات وعلى قمع أنفسهم عن الشهوات .

تقدم طرف من خبر قارون وحسده لموسى .

(151/591)

ومن حسده أنه جعل لبغي جعلاً ، على أن ترمي موسى بطلبها وبزنائها ، وأنها تابت إلى الله ، وأقرت أن قارون هو الذي جعل لها جعلاً على رمي موسى بذلك ، فأمر الله الأرض أن تطيعه ، فقال : يا أرض خذيه وأتباعه ، فخسف بهم في حكاية طويلة ، الله أعلم بها .

ولما خسف بقارون ومن معه ، فقال بنو إسرائيل : إنما دعا موسى على قارون ليستبد

بداره وكنوزه ، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله .

ومن زائدة ، أي من جماعة تفيد استغراق الفئات .

وإذا انتفت الجملة ، ولم يقدر على نصره ، فانتفاء الواحد عن نصرته أبلغ .

﴿ وما كان من المنتصرين ﴾ : أي لم يكن في نفسه ممن يمتنع من عذاب الله .

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾ : بدل ، وأصبح ، إذا حمل على ظاهره ، أن الخسف به وبداره كان ليلاً ، وهو أفظع العذاب ، إذ الليل مقر الراحة والسكون ، والأمس يحتمل أن يراد به الزمان الماضي ، ويحتمل أن يراد به ما قبل يوم الخسف ، وهو يوم التمني ، ويدل عليه العطف بالفاء التي تقتضي التعقيب في قوله : ﴿ فخسفنا ﴾ ، فيكون فيه اعتقاب العذاب خروجه في زينته ، وفي ذلك تعجيل العذاب .

ومكانه : منزلته في الدنيا من الثروة والحشم والأتباع .

و : وي ، عند الخليل وسيبويه : اسم فعل مثل : صه ومه ، ومعناها : أعجب .

قال الخليل : وذلك أن القوم ندموا فقالوا : متندمين على ما سلف منهم : وي ، وكل من ندم فأظهر ندامته قال : وي .

وكأن : هي كاف التشبيه الداخلة على أن ، وكتبت متصلة بكاف التشبيه لكثرة الاستعمال ، وأنشد سيبويه :

وي كأن من يكن له نشب يح . . .

سبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

والبيت لزيد بن عمرو بن نفيل .

وحكى الفراء أن امرأة قالت لزوجها : أين ابنك ؟ فقال : ويكأنه وراء البيت ، وعلى هذا المذهب يكون الوقف على وي .

وقال الأخفش : هي ويك ، وينبغي أن تكون الكاف حرف خطاب ، ولا موضع له من الإعراب ، والوقف عليه ويك ، ومنه قول عنترة :

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها . . .

(152/591)

قيل الفوارس ويك عنتر اقدم

قال الأخفش : وأن عنده مفتوح بتقدير العلم ، أي أعلم أن الله ، وقال الشاعر :

ألا ويك المضرة لا تدوم . . .

ولا يبقى على البؤس النعيم

وذهب الكسائي ويونس وأبو حاتم وغيرهم إلى أن أصله ويلك ، فحذفت اللام والكاف في موضع جر بالإضافة .

فعلى المذهب الأول قيل : تكون الكاف خالية من معنى التشبيه ، كما قيل : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وعلى المذهب الثاني ، فالمعنى : أعجب لأن الله .

وعلى المذهب الثالث تكون ويلك كلمة تحزن ، والمعنى أيضاً : لأن الله .

وقال أبو زيد وفرقة معه : ويكأن ، حرف واحد بجملته ، وهو بمعنى : ألم تر .

وبمعنى : ألم تر ، قال ابن عباس والكسائي وأبو عبيد .

وقال الفراء : ويك ، في كلام العرب ، كقوله الرجل : أما ترى إلى صنع الله ؟ وقال ابن قتيبة ، عن بعض أهل العلم أنه قال : معنى ويك : رحمة لك ، بلغة حمير .

ولما صدر منهم تمني حال قارون ، وشاهدوا الخسف ، كان ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ، وداعياً إلى الرضا بقدر الله ، فتنبهوا لخطئهم فقالوا : وي ، ثم قالوا : ﴿ كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ﴾ ، بحسب مشيئته وحكمته ، لا لكرامته عليه ، ويضيق على من يشاء ، لا لهوانه ، بل لحكمته وقضائه ابتلاء .

وقرأ الأعمش : لولا منّ الله ، بحذف أن ، وهي مزادة .

وروي عنه : منّ الله ، برفع النون والإضافة .

وقرأ الجمهور : لخسف مبنياً للمفعول ؛ وحفص ، وعصمة ، وأبان عن عاصم ، وابن أبي حماد عن أبي بكر : مبنياً للفاعل ؛ وابن مسعود ، وطلحة ، والأعمش : لانخسف بنا ، كقولك : انقطع بنا ، كأنه فعل مطاوع ، والمقام مقام الفاعل هو ﴿ بنا ﴾ .

ويجوز أن يكون المصدر : أي لا نخسف الانخساف ، ومطاوع فعل لا يتعدى إلى مفعول به ، فلذلك بني إما لبنا وإما للمصدر .

وعن ابن مسعود أيضاً : لتخسف ، بتاء وشد السين ، مبنياً للمفعول .

(153/591)

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

لما كان من قول أهل العلم والإيمان ثواب الله خير ، ذكر محل الثواب ، وهو الدار الآخرة .

والمعنى : تلك التي سمعت بذكرها ، وبلغك وصفها .

﴿ الدار الآخرة ﴾ : أي نعيم الدار الآخرة ، وهي الجنة ، والبقاء فيها سرمداً ، وعلق حصولها على مجرد الإرادة ، فكيف بمن بأشر العلوّ والفساد ؟ ثم جاء التركيب بلا في قوله : ﴿ ولا فساداً ﴾ ، فدل على أن كل واحد من العلوّ والفساد مقصود ، لا مجموعهما .

قال الحسن : العلوّ : العز والشرف ، إن جر البغي الضحاك ، الظلم والفساد يعم أنواع الشر .

وعن عليّ ، كرم الله وجهه : أن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل تحتها .

وعن الفضيل ، أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأماني .

وعن عمر بن عبد العزيز : أنه كان يرددها حتى قبض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(154/591)

وقال الثعالبى :

وقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم وَيْلَكُمْ . . . ﴾ الآية : أخبر تعَالَى عَنْ الذين أوتوا العلم والمعرفةَ باللّهِ وبحَقّ طاعتِه أَنَّهُمْ زَجَرُوا الأَغْمَارَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا حَالَ قَارُوْنَ وَحَمَلُوهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ المُثْلَى ؛ مِنْ أَنَّ النَّظَرَ والتَّمَنّي إنما يَنْبَغِى أَنْ يَكونَ في أمورِ الآخرةِ ، وأنَّ حالةَ المؤمنِ العاملِ الذي ينتظرُ ثوابَ اللّهِ تعالى خيرٌ مِن حالِ كلّ ذِي دُنيا . ثم أخبر تعالى عن هذه النَّزْعَةِ وهذه القوَّةِ في الخبر والدينِ أَنَّها ﴿ لاَ يُلَقَّاهَا ﴾ أي : لا يُمَكَّنُ فيها ويُخَوَّلُها إلا الصَّابِرُ عَلى طَاعَةِ اللّه وعن شهواتِ نفسه ؛ وهذا هو جماع الخير كله .

وقال الطبري : الضمير عائد على الكلمة ؛ وهي قوله : ﴿ ثَوَابُ اللّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ ، أي : لا يُلَقَّنُ هذه الكلمة إلا الصابرون ؛ وعنهم تصدر ، ورُوِيَ في الخسف بقارونَ ودارِه أن موسى عليه السلام لما أَمَضَّه فعلُ قارونَ به وتعدّيه عليه ؛ استجارَ باللّه

تعالى وطلب النصرة ؛ فأوحى اللّه إليه ، أَني قد أمرتُ الأرض أَنْ تطيعكَ في قارونَ وأتباعه ، فقال موسى : يا أرض ؛ خذيهم فأخذتهم إلى الركب ، فاستغاثوا : يا موسى ؛ يا موسى ؛ فقال : خذيهم ، فأخذتهم شيئاً فشيئاً إلى أن تم الخسفُ بهم ، فأوحى اللّه إليه : يا موسى ؛ لَوْ بِيَ استغاثوا وإليَّ تابوا لرحمتُهم . قال قتادةُ وغيره : رُوِيَ أَنه يخسفُ به كل يوم قامةً ؛ فهو يتجلجل إلى يوم القيامة .

(155/591)

---

* ت * : وفي الترمذي ؛ عن معاذ بن أنس الجُهَنِيّ ، أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعاً لِلَّهِ ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، دَعَاهُ اللّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ على رُؤُوسِ الخَلاَئِقِ ؛ حتى يُخَيِّرَهُ ؛ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا " وروى الترمذيُّ عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : كان لنا قِرَامُ سِتْرٍ فيه تماثيلُ على بابي فرآه رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال : " انْزَعِيهِ فَإِنَّهُ يُذَكِّرُنِي الدُّنْيَا " ، الحديثَ وروى الترمذي عن كعب ابن عياض قال : سمعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي : المَالُ " ؛ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ؛ وفيه عن عثمان بن عفان رضي اللّه عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لَيْسَ لِابْنِ آدَمَ حَقٌّ فِي سوى هذه الْخِصَالِ :

بَيْتٍ يَسْكُنُهُ ، وَثَوْبٍ يُوَارِي عَوْرَتَهُ ، وَحِلْفُ الْخبَزِ والمَاءِ " . قال النضر بن شميلٍ : «جِلْفُ الخبز» يعني : ليس معه إدام . انتهى . فهذه الأحاديث وأشباهها تزهّد في زينةِ الدنيا وغضارة عيشها الفاني .

وقوله : ﴿ ويكأن ﴾ مذهبُ الخليلِ وسيبويه : أن «وي» حرف تنبيه منفصلة من (كأن) ، لكنْ أُضيفت لكثرة الاستعمال .

وقال أبو حاتم وجماعة : ويْكَ : هي (وَيْلَكَ) حذفتِ اللامُ منها لكثرةِ الاستعمال .

وقالت فرقة : و«يكأن» بجملتها كلمة .

(156/591)

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدار الأخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلاَ فَسَاداً . . . ﴾ الآية : هذا إخبار مستأنف من اللّه تعالى لنبيه عليه السلام ، يرادُ به جميعُ العالمِ ، ويتضمنُ الحضَّ على السعيِ ، حسبَ ما دلت عليه الآيةُ ، ويتضمنُ الانحناءَ على حالِ قارونَ ونظرائه ، والمعنى : أَنَّ الآخرةَ ليست في شيء من أمر قارون ؛ وأشباهه ؛ وإنما هي لمن صفتُه كذا وكذا ، والعلو المذموم : هو بالظلم والتجبر ، قال النبي صلى الله

عليه وسلم : « وذلك أَن تريد أن يكون شراكُ نعلك أفضلَ من شراكِ نعلِ أخيك » ، والفسادُ يعمُّ وجوهَ الشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 3 صـ ﴾

(157/591)

وقال أبو السعود :

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ ﴾

عطفٌ على قال وما بينهما اعتراضٌ . وقولُه تعالى : ﴿ فِى زِينَتِهِ ﴾ إمَّا متعلقٌ بخرجَ أو بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعِله أي فخرجَ عليه كائناً في زينتِه . قيل خرجَ على بغلةٍ شهباء عليه الأُرجوانُ وعليها سرجٌ من ذهبٍ ومعه أربعةُ آلافٍ على زيِّه . وقيلَ : عليهم وعلى خيولِهم الدِّيباجُ الأحمرُ وعن يمينهِ ثلاثمائةُ غلامٍ وعن يساره ثلاثمائةُ جاريةٍ بيضٍ عليهنَّ الحليُّ والدِّيباجُ وقيل : في تسعينَ ألفاً عليهن المُعصفراتُ وهو أولُ يومٍ رُئيَ فيه المُعصفرُ . ﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ﴾ من المؤمنين جرياً على سَنَنِ الجبلَّةِ البشريةِ من الرغبةِ في السَّعةِ واليسارِ . ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قارون ﴾ وعن قَتَادةَ أَنَّهم تمنَّوه ليتقربُوا به إلى الله تعالى وينفقُوه في سُبُلِ الخيرِ وقيل : كان المتمنَّون قوماً كفَّاراً ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظّ عَظِيمٍ ﴾ تعليلٌ لتمنيِّهم وتأكيدٌ له . ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ أي بأحوالِ الدُّنيا والآخرةِ كما

ينبغي وإنَّما لم يُوصفوا بإرادةِ ثوابِ الآخرةِ تنبيهاً على أنَّ العلَمِ بأحوال النَّشأتينِ يقتضِي الإعراضَ عنِ الأُولى والإقبالَ على الثَّانيةِ حتماً وأنَّ تمنّي المتمنين ليس إلا لعدمِ علمِهم بهما كما ينبغِي ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاءٌ بالهلاكِ شاعَ استعمالُه في الزَّجرِ عمَّا لا يُرتضَى ﴿ ثَوَابُ الله ﴾ في الآخرةِ ﴿ خَيْرٌ ﴾ ممَّا تتمنَّونه ﴿ لّمَنْ ءامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فلا يليقُ بكم أنْ تتمنَّوه غيرَ مكتفين بثوابه تعالى ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَا ﴾ أي هذه الكلمةَ التي تكلَّم بها العلماءُ أو الثَّوابَ فإنَّه بمعنى المثْوبةِ أو الجنَّةِ أو الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ ، فإنَّهما في معنى السِّيرةِ والطَّريقةِ ﴿ إلاَّ الصابرون ﴾ أي على الطَّاعاتِ وعن الشَّهواتِ .

(158/591)

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ رُوي أنَّه كان يُؤذي مُوسى عليه السَّلام كلَّ وقتٍ وهو يداريهِ لقرابتِه حتَّى نزلتِ الزَّكاةُ فصالحَه عن كلِّ ألفٍ على واحدٍ فحسبه فاسكثرَه فعَمدَ إلى أنْ يفضحَ موسى عليه السَّلام بين بني إسرائيلَ فجعل لبغيَ من بَغَايا بني إسرائيلَ ألفَ دينارٍ وقيل : طَشتاً من ذهبٍ مملوءةٍ ذهباً فلما كان يومُ عيدٍ قام مُوسى عليه السَّلام خطيباً فقال من سرق قطعناهُ ومن زنَى غيرَ محصنٍ جلدناهُ ومن زنَى محصناً رجمناهُ فقال قارونُ ولو كنتَ قال ولو كنتُ قال إنَّ بني إسرائيلَ يزعمُون أنَّك فجرت بفلانةٍ فأحضرت فناشدها

عليه السَّلام أنْ تصدقَ فقالت : جعل لي قارونُ جُعْلاً على أنْ أرميك بنفسي فخرَّ مُوسى ساجداً لربّه يبكي ويقول يا ربُّ إنْ كنتُ رسولَك فاغضبْ لي فأُوحي إليه أنْ مرِ الأرضَ بما شئت فإنَّها مطيعةٌ لك فقال يا بني إسرائيلَ إنَّ الله بعثني إلى قارونَ كما بعثني إلى فرعونَ فمن كان معه فليلزم مكانَه ومن كان معي فليعتزلْ عنه فاعتزلُوا جميعاً غيرَ رجلينِ ثم قال يا أرضُ خُذيهم فأخذتهُم إلى الرُّكبِ ثم قال خُذيهم فأخذتهُم إلى الأوساطِ ثم قال خُذيهم فأخذتْهُم إلى الأعناقِ وهم يُناشدونَهُ عليه الصَّلاة والسَّلام بالله تعالى وبالرَّحِم وهو لا يلتفتُ إليهم لشدَّةِ غيظِه ثم قال خُذيهم فانطبقتْ عليهم فأصبحتْ بنُو إسرائيلَ يتناجَون فيما بينهم إنَّما دعا عليه موسى عليه الصَّلاة والسَّلام ليستبدَّ بدارِه وكنوزِه فدعا الله تعالى حتى خُسفَ بدارِه وأموالِه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ ﴾ جماعةٍ مشفقةٍ ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله ﴾ بدفع العذابَ عنه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ أي الممتنعين منه بوجهٍ من الوجوهِ يقال نصره من عدوِّه فانتصَر أي منعه فامتنَع .

(159/591)

﴿ وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ ﴾ منزلتَه ﴿ بالأمس ﴾ منذ زمانٍ قريبٍ ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يفعل كُلَّ واحدٍ من البسطِ

والقدرِ بمحضِ مشيئتِهِ لا لكرامةٍ تُوجب البسطَ ولا لهوانٍ يقتضِي القبضَ . ويكأنّ عند البصريينَ مركبٌ من وَيْ للتَّعجبِ وكأنَّ للتشبيهِ والمعنى ما أشبَه الأمرَ أنَّ الله يبسط الخ . وعند الكوفيينَ من وَيْكَ بمعنى ويلك وأنَّ وتقديرُه ويكَ أعلَم أنَّ الله وإنَّما يستعملُ عند التنبهِ على الخطأِ والتندُّم والمعنى أنَّهم قد تنبَّهوا على خطئِهم من تمنّيهم وتندَّموا على ذلك ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بعدم إعطائِه إيانَّا ما تمنيناهُ وإعطائنا مثلَ ما أعطاه إيَّاه . وقُرِىء لولا مَنَّ الله علينا ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ كما خسفَ بِهِ . وقُرِىء لخُسِف بنا على النباءِ للمفعولِ وبنا هو القائمُ مقامَ الفاعلِ . وقُرِىء لا تْخسفَ بنا كقولِك أنقطعَ بِهِ ، وقرُىء لتُخْسف بنا ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ لنعمةِ الله تعالى أو المكذَّبون برسلِه وبما وعدُوا من ثوابِ الآخرةِ .

﴿ تِلْكَ الدار الآخرة ﴾ إشارةُ تعظيمٍ وتفخيمٍ كأنَّه قيل تلك التي سمعتَ خبَرها وبلغَك وصفُها ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى الأرض ﴾ أي غلبةً وتسلطاً ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ أي ظُلماً وعدُواناً على العبادِ كدأبِ فرعونَ وقارونَ وفي تعليق الموعد بتركِ إرادتهما لا بتركِ أنفسهما مزيدُ تحذيرٍ منهما . وعن عليَ رضي الله عنه أنَّ الرَّجل ليعجبه أنْ يكونَ شِراكُ نعلِه أجودَ من شراكَ نعلِ صاحبِه فيدخلُ تحتَها ﴿ والعاقبة ﴾ الحميدة ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الذين يتَّقون ما لا يرضاهُ الله من الأفعالِ والأقوالِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ ﴾

عطف على ﴿ قال ﴾ [القصص : 78] وما بينهما اعتراض ، وقوله تعالى : ﴿ فِى زِينَتِهِ ﴾ إما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أي فخرج عليهم كائناً في زينته .

قال قتادة : ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر منها ألف بغلة بيضاء وعلى دوابهم قطائف الأرجوان .

وقال السدى : خرج في جوار بيض على سروج من ذهب على قطف أرجوان وهن على بغال بيض عليهن ثياب حمر وحلى ذهب ، وقيل : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف خادم عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعلى يمينه ثلثمائة غلام وعلى يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والديباج .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أنه خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات ، وكان ذلك أول يوم في الأرض رؤيت المعصفرات فيه ، وقيل غير ذلك من الكيفيات ، وكان ذلك الخروج على ما قيل يوم السبت ﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَا

أُوتِيَ قارون ﴾ قيل كانوا جماعة من المؤمنين ، وقالوا ذلك جرياً على سنن الجبلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار .

(161/591)

وعن قتادة أنهم تمنوا ذلك ليتقربوا به إلى الله تعالى وينفقوه في سبيل الخير ، ولعل إرادتهم الحياة الدنيا ليتوصلوا بها للآخرة لا لذاتها فإن إرادتها لذاتها ليست من شأن المؤمنين ، وقيل : كانوا كفاراً ومنافقين ، وتمنيهم مثل ما أوتي دونه نفسه من باب الغبط ولا ضرر فيه على المشهور ، وقيل : ضرره دون ضرر الحسد " فقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم هل يضر الغبط ؟ فقال : لا إلا كما يضر العضاة الحبط " وفي الكشاف الظاهر أنه نفي للضرر على أبلغ وجه فإن الشجر ربما ينتفع بالخبط فضلاً عن التضرر ، وفيه أنه قد يفضي إلى الضرر إشارة إلى متعلق الغبط من ديني أو دنيوي ، وقائل ذلك إن كان الكفرة ففيه من ذم الحسد ما فيه ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ قال الضحاك : أي درجة عظيمة ، وقيل نصيب كثير من الدنيا ، والحظ البخت والسعد ، ويقال : فلأن ذو حظ وحظيظ ومحظوظ ، والجملة تعليل لتمنيهم وتأكيد له .

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ أي بأحوال الدنيا والآخرة كما ينبغي ومنهم يوشع عليه

السلام ، وإنما لم يوصفوا بإرادة ثواب الآخرة تنبيهاً على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضي الأعراض عن الأولى والإقبال على الأخرى حتماً ، وأن تمنى المتمنين ليس إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغي .

(162/591)

وقيل المراد بالعلم : معرفة الثواب والعقاب ، وقيل : معرفة التوكل ، وقيل : معرفة الأخبار ، وما تقدم أولى ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء بالهلاك بحسب الأصل ثم شاع استعماله في الزجر عما لا يرتضى ، والمراد به هنا الزجر عن التمني وهو منصوب على المصدرية لفعل من معناه ﴿ ثَوَابُ اللهِ ﴾ في الآخرة ﴿ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه عز وجل ، هذا على القول بأن المتمنين كانوا مؤمنين أو فآمنوا لتفوزوا بثوابه تعالى الذي هو خير من ذلك ، وتقدير المفضل عليه ما تتمنوه لاقتضاء المقام إياه ، ويجوز أن يقدر عاماً ويدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً أي خير من الدنيا وما فيها ﴿ وَلَا يُلَقَّاهَا ﴾ أي هذه المقالة أو الكلمة التي تكلم بها العلماء ، والمراد بها المعنى اللغوي أو الثواب ، والتأنيث باعتبار أنه بمعنى المثوبة أو الجنة المفهومة من الثواب ، وقيل : الإيمان والعمل الصالح ، والتأنيث والإفراد باعتبار أنهما بمعنى السيرة أو الطريقة ، ومعنى تلقيها

إما فهمها أو التوفيق للعمل بها ﴿ إِلاَّ الصابرون ﴾ على الطاعات وعن المعاصي والشهوات ، ولعل المراد بالصابرين على القول الأخير في مرجع الضمير المتصفون بالصبر في علم الله تعالى فتدبر

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ .

روى ابن أبي شيبة في المصنف .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

والحاكم .

وصححه .

(163/591)

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن قارون كان ابن عم موسى عليه السلام وكان يتبع العلم حتى جمع علماً فلم يزل في ذلك حتى بغي على موسى عليه السلام وحسده ، فقال موسى : إن الله تعالى أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال : إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن

تعطوه أموالكم ، قالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلا بغي من بغا يا بني إسرائيل فنزرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك .

قالت : نعم .

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك .

قال : نعم فجمعهم فقالوا له : بما أمرك ربك ؟ قال : أمرني أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا ، وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم .

قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال : نعم .

قالوا : فإنك قد زنيت .

قال : أنا فأرسلوا إلى المرأة فجاءت .

فقالوا : ما تشهدين على موسى عليه السلام ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدك بالله تعالى إلا ما صدقت .

(164/591)

فقالت : أما إذ أنشدتني بالله تعالى فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلا على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنك بريء وأنك رسول الله فخر موسى عليه السلام ساجداً يبكي فأوحى الله تعالى إليه ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض فمرها تطعك فرفع رأسه فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى فقال خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم فجعلوا يقولون يا موسى يا موسى فقال : خذيهم فغيبتهم فأوحى الله تعالى يا موسى سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم وفي بعض الروايات أنه جعل للبغي ألف دينار ، وقيل : طستا من ذهب مملوءة ذهباً ، وفي بعض أنه عليه السلام قال في سجوده : يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله تعالى إليه مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك ، فقال : يا بني إسرائيل إن الله تعالى بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعاً غير رجلين .

ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم إلا الأوساط ثم إلى الأعناق وهم يتضرعون إلى موسى عليه السلام وينا شدونه الرحم وهو عليه السلام لا يلتفت إلى قولهم لشدة غضبه ويقول خذيهم حتى انطبقت عليهم فأوحى الله تعالى يا موسى ما أفظك استغاثوا بك مراراً فلم ترجمهم أما وعزتي لو أياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً ، وفي رواية أن الله سبحانه أوحى إليه ما أشد قلبك وعزتي وجلالي لو بي استغاث لأغثته ، فقال عليه السلام : رب غضبا لك فعلت .

ثم إن بني إسرائيل قالوا : إنما فعل موسى عليه السلام به ذلك ليرثه ، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله .

(165/591)

وفي بعض الأخبار أن الخسف به وبداره كان في زمان واحد ، وكانت داره فيما قيل : من صفائح الذهب وجاء في عدة آثار أنه يخسف به كل يوم قامة وأنه يتجلجل في الأرض لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة والله تعالى أعلم بصحة ذلك ، بل هو مشكل إن صح ما قاله الفلاسفة في مقدار قطر الأرض ولم يقل بأن لها حركة أصلاً ، وأما الخسف فلا شك في إمكانه الذاتي والوقوعي وسببه العادي مبين في محله ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ ﴾ أي جماعة معينة مشتقة من فأوت قلبه إذا ميلته ، وسميت الجماعة بذلك لميل بعضهم إلى بعض ؛ وهو محذوف اللام ووزنه فعة ، وقال الراغب : إنه محذوف العين فوزنه فلة وأنه من الفيء وهو الرجوع لأن بعض الجماعة يرجع إلى بعض و ﴿ مِنْ ﴾ صلة أي فما كان له فئة ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ ﴾ بدفع العذاب عنه ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ أي بنفسه ﴿ مِنَ المنتصرين ﴾ أي الممتنعين عن عذابه عز وجل ، يقال ؛ نصره من عدوه فانتصر أي منعه فامتنع ، ويحتمل أن يكون المعنى وما كان منّ المنتصرين بأعوانه فذكر ذلك للتأكيد .

﴿ وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ ﴾ أي مثل مكانه ومنزلته لما تقدم من قولهم ﴿ مثل ما أوتي ﴾ [القصص : 79] ، وجوز كون هذا على ظاهره و﴿ مَثَلُ ﴾ هناك مقحمة وليس بذاك ﴿ بالامس ﴾ منذ زمان قريب وهو مجاز شائع ، وجوز حمله على الحقيقة والجار والمجرور متعلق بتمنوا أو بمكانه ، قيل : والعطف بالفاء التي تقتضي التعقيب في ﴿ فَخَسَفْنَا ﴾ [القصص : 81] يدل عليه .

وفي البحر دل أصبح إذا حمل على ظاهره على أن الخسف به وبداره كان ليلاً وهو أفظه العذاب إذ الليل مقر الراحة والسكون ، وقال بعضهم : هي بمعنى صار أي صار المتمنون .

(166/591)

﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يفعل كل واحد من البسط والقدر أي التضييق والقتر لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يوجب التضييق ، ووى عند الخليل وسيبويه اسم فعل ومعناها أعجب وتكون للتحسر والتندم أيضاً كما صرحوا به ، وعن الخليل أن القوم ندموا فقالوا متندمين على ما سلف منهم ﴿ وى ﴾ وكل من ندم وأراد اظهار ندمه قال ﴿ وى ﴾ ، ولعل الأظهر إرادة التعجب بأن يكونوا تعجبوا أولاً مما وقع وقالوا ثانياً كأن الخ وكأن فيه عارية عن معنى التشبيه جيء بها للتحقيق كما

قيل ذلك في قوله :

وأصبح بطن مكة مقشعرا . . .

كأن الأرض ليس بها هشام

وأنشد أبو علي :

كانني حين أمسى لا تكلمني . . .

متيم يشتهي ما ليس موجوداً

وقيل : هي غير عارية عن ذلك ، والمراد تشبيه الحال المطلق بما في حيزها إشارة إلى أنه لتحققه وشهرته يصلح أن يشبه به كل شيء وهو كما ترى وزعم الهمداني أن الخليل ذهب إلى أن ﴿ وى ﴾ للتندم وكأن للتعجب والمعنى ندموا متعجبين في أن الله تعالى يبسط الخ ، وفيه أن كون كأن للتعجب مما لم يعهد ، وأياً ما كان فالوقف كما في البحر على ﴿ وى ﴾ والقياس كتابتها مفصولة وكتبت متصلة بالكاف لكثرة الاستعمال وقد كتبت على القياس في قول زيد بن عمرو بن نفيل :

وى كأن من يكن له نشب يح . . .

بب ومن يفتقر يعش عيش ضر

وقال الأخفش : الكاف متصلة بها وهي اسم فعل بمعنى أعجب ، والكاف حرف خطاب لا موضع لها من الإعراب كما قالوا في ذلك ونحوه ، والوقف على ويك ، وعلى ذلك

جاء قول عنترة :

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها . . .

قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

و ﴿ إن ﴾ عنده مفتوحة الهمزة بتقدير العلم أي أعلم أن الله الخ ، وذهب الكسائي .

ويونس .

وأبو حاتم وغيرهم إلى أن أصله ويلك فخفف بحذف اللام فبقي ويك ، وهي للردع والزجر والبعث على ترك ما لا يرضى ، وقال أبو حيان : هي كلمة تحزن وأنشد في التحقيق قوله :

(167/591)

ألا ويك المضرة لا تدوم . . .

ولا يبقى على البؤس النعيم

والكاف على هذا في موضع جر بالإضافة ، والعامل في أن فعل العلم المقدر كما سمعت أو هو بتقدير لأن على أنه بيان للسبب الذي قيل لأجله ويك ، وحكى ابن قتيبة عن بعض أهل العلم أن معنى ويك رحمة لك بلغة حمير ، وقال الفراء : ويك في كلام العرب كقول الرجل : ألا ترى إلى صنع الله تعالى شأنه ، وقال أبو زيد وفرقة معه : وروي عن ابن عباس رضي الله

تعالى عنهما ويكأن حرف واحد بجملته وهو بمعنى ألم تر .

﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ عَلَيْنَا ﴾ بعدم اعطائه تعالى ما تمنيناه من إعطائنا مثل ما أعطاه قارون ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي الأرض كما خسف به أو لولا أن من الله تعالى علينا بالتجاوز عن تقصيرنا في تمنينا ذلك لخسف بنا جزاء ذلك كما خسف به جزاء ما كان عليه .

وقرأ الأعمش ﴿ لَوْلاَ مِنْ ﴾ بحذف ﴿ إن ﴾ وهي مرادة ، وروي عنه من الله برفع من والإضافة .

وقرأ الأكثر ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ على البناء للمفعول و ﴿ بِنَا ﴾ هو القائم مقام الفاعل ، وجوز أن يكون ضمير المصدر أي لخسف هو أي الخسف بنا على معنى لفعل الخسف بنا ، وقرأ ابن مسعود .

وطلحة .

والأعمش ﴿ لانَخْسِفْ بِنَا ﴾ على البناء للمفعول أيضاً و ﴿ بِنَا ﴾ أو ضمير المصدر قائم مقام الفاعل ، وعنه أيضاً ﴿ لتخسف ﴾ بتاء وشد السين مبنياً للمفعول ﴿ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَيُفْلِحُ الكافرون ﴾ لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله عليهم السلام وبما وعدوا من ثواب الآخرة ، والكلام في ويكأن هنا كما تقدم بيد أنه جوز هنا أن يكون لأن على بعض الاحتمالات تعليلاً لمحذوف بقرينة السياق أي لأنه لا يفلح الكافرون فعل ذلك أي الخسف بقارون ، واعتبار نظيره فيما سبق دون اعتبار هذا هنا ، وضمير ويكأنه للشأن .

هذا وفي مجمع البيان أن قصة قارون متصلة بقوله تعالى : ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى ﴾ [القصص : 3] عليه السلام ، وقيل : هي متصلة بقوله سبحانه : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّن شَىْءٍ فمتاع الحياة الدنيا وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وأبقى ﴾ [القصص : 60] ، وقيل : لما تقدم خزى الكفاء وافتضاحهم يوم القيامة ذكر تعالى عقيبه أن قارون من جملتهم وأنه يفتضح يوم القيامة كما افتضح في الدنيا ، ولما ذكر سبحانه فيما تقدم قول أهل العلم ﴿ ثَوَابُ الله خَيْرٌ ﴾ [القصص : 80] ذكر محل ذلك الثواب بقوله عز وجل :

﴿ تِلْكَ الدار الآخرة ﴾

مشيراً إشارة تعظيم وتفخيم إلى ما نزل لشهرته منزلة المحسوس المشاهد كأنه قيل : تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها ، و﴿ الدار ﴾ صفة لاسم الإشارة الواقع مبتدأ وهو يوصف بالجامد ولا حاجة إلى تقدير مضاف أي نعيم الدار كما يوهمه كلام البحر ، و﴿ الآخرة ﴾ صفة للدار ، والمراد بها الجنة وخبر المبتدأ قوله تعالى : ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً وَفِى الأرض ﴾ أي غلبة وتسلطاً ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ أي ظلماً وعدواناً على العباد كدأب فرعون وقارون ، وليس المصوول مخصوصاً بهما ، وفي إعادة ﴿ لا ﴾

إشارة إلى أن كلا من العلو والفساد مقصود بالنفي ، وفي تعليق الموعد بترك ءرادتهما لا بترك أنفسهما مزيد تحذير منهما .

وأخرج عبد بن حميد .

وابن أبي حاتم عن عكرمة أنه قال : العلو في الأرض التكبر وطلب الشرف والمنلزة عند سلاطينها وملوكتها والفساد العمل بالمعاصي وأخذ المال بغير حقه .

وعن الكلبي العلو الاستكبار عن الإيمان والفساد الدعاء إلى عبادة غير الله تعالى ، وروي عن مقاتل تفسير العلو بما روي عن الكلبي ، وأخرج ابن مردويه .

(169/591)

وابن عساكر عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو وال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبقال والبياع فيفتتح عليه القرآن ويقرأ تلك الدار الآخرة إلى آخرها ، ويقول : نزلت هذه الآية ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة ﴾ الخ ، في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس .

وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم أنه لما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض ، فقال عليه الصلاة والسلام أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض

ولا فساداً فأسلم رضي الله تعالى عنه ، وعن الفضيل أنه قرأ الآية ثم قال : ذهبت الأماني ههنا ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض ، وأخرج ابن أبي سيبة .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال : إن الرجل ليحب أن يكون شسع نعله أجود من شسع نعل صاحبه فيدخل في هذه الآية .

ولعل هذا إذا أحب ذلك ليفتخر على صاحبه ويستهينه وإلا فقد روي أبو داود عن أبي هريرة أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان جميلاً فقال : يا رسول الله إني رجل حبب إلى الجمال وأعطيت منه ما ترى حتى ما أحب أن يفوقني أحد إما قال بشراك لعل وإما قال بشسع نعل أفمن الكبر ذلك ؟ قال لا ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس .

وروي مسلم .

وأبو داود .

والترمذي عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

" لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً قال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس "

واستدل بعض المعتزلة بالآية بناء على عموم العلو والفساد فيها على تخليد مرتكب الكبيرة

في النار ، وفي الكشاف ما هو ظهار في ذلك ، والتزم بعضهم في الجواب تفسير العلو والفساد بما فسرهما به الكلبي وآخر أن المراد بهما ما يكون مثل العلو والفساد اللذين كانا من فرعون وقارون .

(170/591)

ورد بأن التذييل بقوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يدل على أن العمدة هي التقوى ولا يكفي ترك العلو والفساد المقيدين .

وأجيب بأن المتقي ههنا هو المتقي من علو فرعون وفساد قارون أو من لم يكن من المؤمنين مثل فرعون في الاستكبار على الله تعالى بعدم امتثال أوامره والارتداع عن زواجره ولم يكن مثل قارون في إرادة الفساد في الأرض وإخراج كل شيء من كونه منتفعاً به لا سيما نفسه فإن غاية إفسادها الامتناع من عبادة ربها لأنها خلقت للعبادة فإذا امتنع عنها خرجت عن كونها منتفعاً بها وليس معنى المتقي إلا ذلك .

وتعقبه صاحب الكشف بأن الأول تقييد بلا دليل والثاني هو الذي يسعى له المعتزلي ، وقال الفاضل الخفاجي : إما أن يراد بالعاقبة المحمودة على وجه الكمال أو يراد بالمتقي المتقي ما لا يرضاه الله تعالى مثل حال قارون بقرينة المقام ، والنصوص الدالة على أن غير

الكفار لا يخلد في النار فلا وجه للقول بأن ذلك تقييد بلا دليل مع أن مبنى الاستدلال على أن اللام للتخصيص وهو ممنوع ، وقال بعض في الجواب على تقدير إرادة العموم في علواً وفساداً : إن المراد من جعل الجنة للذين لا يريدون شيأ منهما تمكينهم منها أتم تمكين نحو قولك : جعل السلطان بلد كذا لفلان وذلك لا ينافي أن يدخلها غيرهم من مرتكب الكبيرة ويكون فيها بمنزلة دون منزلتهم ، ولعله إنما دخلها بشفاعة بعض منهم ، وقريب منه ما قيل : إن جعلها لهم باعتبار أنهم أهلها الأولون وملوكها السابقون وغيرهم إنما يرد عليهم وينزل بهم ؛ ويقال في قوله تعالى : ﴿ والعاقبةِلْمُتَّقِينَ ﴾ نحو ما مر آنفاً عن الخفاجي .

(171/591)

بقي في الآية كلام آخر ، وهو ان بعضهم استدل بها على عدم وجود الجنة اليوم بناء على أن معني ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ ﴾ الخ نخلقها في المستقبل لأجلهم ، وأجيب بأنه يحتمل أن يكون الجعل متعدياً إلى مفعولين ثانيهما ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ ﴾ الخ فيصير المعنى نجعلها كائنة وحاصلة لهم في الزمان المستقبل فتفيد الآية أن جعلها كائنة لهم غير حاصل الآن لا جعلها نفسها وهو محل النزاع ، ودفع بأن المتبادر من جعل الدار كائنة لزيد تمكينه وعدم منعه من التمكن فيها سواء حصل له التمكن فيها أو لم يحصل ، فمعنى ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ ﴾

الخ تمكنهم في الاستقبال من التمكن فيها ، ولا يخفى ركاكته لأن التمكين من التمكن فيها لازم لوجودها غير منفك عنها على ما يدل عليه قوله تعالى :

﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : 133] فلا يمكن أن تكون نفس اجلنة الآن ويكون جعلها كائنة لهم في الاستقبال ، وحمل الجعل على التمكن بالفعل والتميكن من التمكن وإن كان لازماً لوجود الجنة لكن التمكن فيها بالفعل غير لازم بل يكون فيما سيجيء عدول عن المتبادر فإن المتبادر من قولك : جعلت الدار لزيد تمكينه من التمكن فيها لا جعل زيد متمكناً فيها بالفعل فتدبر ذلك كله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(172/591)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآيات السابقة :

التفسير :

قوله تعالى : «إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» .

مناسبة قصة قارون هنا ، هى أن الآيات السابقة كانت تعرض مواقف المشركين من رسول اللّه ، ومن الكتاب الذي بين يديه ، وقد جمعت بينهم وبين فرعون ، وجعلت منه ومنهم

جبهة واحدة ، تمثل الكفر ، والعناد ، والعتوّ ، والفساد في الأرض . .

وقصة « قارون » تطلع على هؤلاء المشركين من الماضي البعيد بصورة يرون في بيئتهم من يمشى بينهم في إهابها ، وكأنما هو « قارون » بعث من قبره ! وذلك فيمن كان يعيش في مجتمعهم من أغنياء اليهود ، مثل حيى بن أحطب وغيره . .

فالمشركون في صورتهم العامة ، فراعين ، فى عتوهم وضلالهم ، تتحرك فى كيانهم أجسام غريبة ، من اليهود ، الذين جمعوا أموالا كثيرة ، بأساليب لا يحسنها غيرهم . . وبهذا تكتمل المشابهة بين مجتمع المشركين ، ومجتمع فرعون . . فكلا المجتمعين يتشكل من عنصر أصيل ، وعنصر دخيل عليه . .

وفي العنصر الأصيل كبر ، وعناد ، واستعلاء ، وفي العنصر الدخيل انحلال ، وفساد ، وعفن . . وكلا المجتمعين ، بعنصريه ـ الأصيل والدخيل ـ حرب على الحق والخير . .

ـ وقوله تعالى : « إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ

(173/591)

الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ

»

هو استحضار لأهل الكتاب في شخص اليهود ، ثم استدعاء لليهود في شخص أغنيائهم ، وأصحاب الثراء فيهم ، ممن هم على شاكلة أبيهم قارون . . وهذا الاستدعاء هو نذير لليهود من قبل أن يلقاهم الرسول لقاء مباشرا ، حتى يأخذوا حذرهم لأنفسهم من أن يقفوا من قومهم موقف قارون في أجدادهم ، حين يدعوهم الرسول إلى اللّه ، فيتصدّى منهم « قارون » أو أكثر من « قارون » لهذه الدعوة . . فإنهم إن فعلوا أخذهم اللّه كما أخذ قارون من قبل . .

ففى قوله تعالى : « فَبَغى عَلَيْهِمْ » أي خرج من محيطهم ، وانحاز إلى فرعون ، ونسى أنه على دين يلتقى مع هذا الدين الذي جاء به موسى . . وقد جاءت الأيام بصدق هذه الصورة ، فيما كان بين أغنياء اليهود من تحالف بينهم وبين المشركين على محاربة الدعوة إلى الإسلام ، سرا وجهرا . . فكان أن أخذهم اللّه بما أخذ به المشركين ، كما أخذ اللّه قارون بما أخذ به فرعون ، وفي هذا يقول اللّه تعالى : « وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها . . وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً » (26 ـ 27 : الأحزاب) ـ وقوله تعالى : « وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ » : الفاء هنا للتعقيب ، بمعنى أن هذا الذي آتاه اللّه قارون من كنوز ، قد كان بعد أن بغى على

قومه ، وانحاز إلى فرعون ، وفي ذلك استدراج من اللّه سبحانه وتعالى له ، حتى يغرق في الغى والبغي ، كما يقول سبحانه : « أَيَحْسَبُونَ

(174/591)

أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ . . بَلْ لا يَشْعُرُونَ »

(55.56 المؤمنون) . .

و« ما » فى قوله تعالى : « ما إِنَّ » اسم موصول ، وهو وصلته صفة للكنوز . . أي أن اللّه سبحانه وتعالى آتاه من المال الذي مفاتحه تنوء بالعصبة أولى القوة .

والمفاتح ، جمع مفتح ، مثل كوكب . .

والمراد بالمفاتح هنا : المداخل التي يدخل منها على هذا المال . . وهو لكثرته ونفاسته قد شددت الحراسة عليه .

وفي إسناد ، الفعل إلى المفاتح ، وهي المداخل إلى هذه الأموال ، وجعلها هى التي تدوء بالعصبة أولى القوة - إشارة إلى ما قام على هذه الكنوز من قوى شديدة ذات بأس من الخزنة والحرس ، حتى إنها لتنوء ، وتضعف عن حمل هذه القوى القائمة عليها . . يقال : ناء بالحمل : إذا ضعف عن حمله ، لثقله عليه . . وكذلك المداخل التي يدخل منها على هذا

المال الكثير ، تنوء بما عليها من حراس أقوياء . .

ـ وقوله تعالى : « إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » . .

المراد بالفرح هنا : فرح الزهو والعجب والخيلاء . . فهو فرح متولد من تلك المشاعر التي تحرك في صاحبها دوافع البغي والتسلط . . أما الفرح ، على إطلاقه ، فليس بالمكروه ، إذا كان عن قلب يجد لفضل اللّه وإحسانه موقعا منه ، كما يقول سبحانه : « وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ » (4 ـ 5 : الروم) .

ـ وفي قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ » ـ إشارة إلى أن الفرح

المكروه ، هو الفرح المبالغ فيه ، والذي يخلى نفس صاحبه من كل شعور بقدرة اللّه ، وبما لهذه القدرة من تصريف في شئون العباد ، وتقلّب أحوالهم . . فلو ذكر المرء هذا في حال من أحوال فرحه ، لتخفف كثيرا مما هو فيه من فرح ، ولعلم أنها حال لا تدوم ، وأنه إذا لم يكن في مجريات الأحداث ما يقطع هذه الفرحة ، قطعها الموت ، وما وراء الموت من حساب وجزاء . .

« و الفرح » صبغة مبالغة من فرح . .

قوله تعالى : «وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» . .

هذا مما وصّى به أهل الصلاح والتقوى من قوم موسى ، « قارون » ، هذا الذي استبد به العجب بماله ، واستغواه الغنى ، بما ضمت عليه يده من سلطان بهذا المال . .

فهم يدعونه إلى أن يسلك بهذا المال ، الطريق الذي تحمد عواقبه ، وتتم به تلك النعمة .

وقد نصحوا له ألا يستبد به الفرح بما ملك ، وفي ذلك إيقاظ له من سكرة هذا المال ، حتى إذا صحا ، دعوه إلى ما ينبغي أن يسوس به ماله هذا ، فيطلب به رضا اللّه ، ويقدم منه ما ينفعه في الآخرة ، ويأخذ منه ما يصلح به شئون دنياه ، فيجمع بذلك خير الدنيا والآخرة جميعا . . وأن يحسن وينفق في وجوه الخير ، مثل ما أحسن اللّه إليه ، فيلقى إحسان اللّه بالإحسان إلى عباد للّه ، فذلك هو زكاة هذه النعمة ، وألا يتخذ من هذا المال أداة للفساد والإفساد

(176/591)

فى الأرض ، والإضرار بالناس ، وهضم ما لهم من حقوق . . إن اللّه لا يحب المفسدين . .

قوله تعالى : « قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي . . أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ

الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » وقد استقبل « قارون » هذه الدعوة الحكيمة الرشيدة بالاستخفاف والتحدي ، شأنه في هذا شأن من غطى على بصره ما امتلأ به كيانه من أشر وبطر ، فجعل كل نصح يلقى إليه ، دبر أذنه ، ومن وراء ظهره .

ـ وقوله تعالى : « قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي » . . إنه ينكر أن يكون للّه شىء فيما بين يديه من هذا المال الغمر . . إنه قد توصل إليه بحسن تدبيره ، وجمعه بجهده وكده . . والعلم الذي أوتيه « قارون » ليس العلم الذي تحصله العقول ، أو تستشفه البصائر ، وإنما هو علم تنضح به الطبائع الخبيثة ، والنفوس المريضة ، من نفاق ، ومداهنة ، وانّجار بالذمم والضمائر ، مما يحسنه اليهود ، ويأخذون به مكان الأستاذية للناس جميعا . . وقد كان « قارون » فى هذا العلم أستاذا لهؤلاء الأساتذة . . فجمع هذا المال الوفير الذي كان موضع حسد من كثير من قومه ، كما كان آفة مهلكة له . .

وليس يعترض على هذا بقوله تعالى : « وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ » إذ قد يفهم من هذا أن اللّه سبحانه وقد آتاه هذا المال ، إنما آتاه إياه هبة ، وابتدأه به إحسانا ، فهو ـ والأمر كذلك ـ لم يحصّل هذا المال بشىء من تلك الوسائل الخسيسة الفاسدة ، خاصة ، وأن القرآن الكريم قد استعمل هذا الفعل مسندا إلى اللّه في مواضع كثيرة ، وكلّها في مقام الفضل والإحسان ، وأجلّها ما كان

من إيتاء اللّه سبحانه وتعالى الكتاب والحكم والنبوة ، للكثير ممن اصطفى من عباده . .

وردّنا على هذا :

أولا : أن هذا لا يدفع أن يكون اللّه سبحانه وتعالى قد ابتدأ قارون بهذه النعمة ، وأولاه هذا الإحسان . . ثم كان منه هذا الكفران باللّه ، والجحود لفضله عليه ، واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ » (175 . 176 : الأعراف) .

وثانيا : أن قول قارون : « إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي » . هو دعوى يدّعيها ، ويبرر بها إضافة هذا المال إلى كسبه بوسائله ، تلك الوسائل التي أشرنا إليها . . فهو . في تقديره . كان يحسب أن هذه الوسائل هي التي جلبت له هذا الثراء العريض ، وهذه الوسائل . في تقديره . هي علم يحسنه وحده ، ولا يحسنه غيره . . وهذا لا يمنع من أن تكون تلك الوسائل في ذاتها غير فاعلة ، وإن بدا في الظاهر أنها هي التي يردّ إليها هذا الذي اجتمع في يديه من مال . .

وأن هناك أسبابا خفية ، هى التي جلبت له هذا الثراء ، على غير تقدير منه .

وثالثا : قد يسند الإيتاء إلى اللّه سبحانه وتعالى للنقمة في ثوب النعمة ، كما قال تعالى : « وَآتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها » (59 : الإسراء) . .

فالذى آتاه اللّه ثمود هنا ـ وهو الناقة ـ كان بلاء وهلاكا .

ورابعا : أن إسناد هذا الفعل للّه ، إنما هو من مقولة القوم ، الذين ينظرون إلى هذا المال الذي اجتمع ليد « قارون » كما ينظرون إلى كل شىء يناله الإنسان في هذه الدنيا ، وهو أنه من عند اللّه . . إذ كان القوم مؤمنين باللّه ، وقولهم هذا هو على ما جرت به عادة المؤمنين ، من إضافة كل شىء

(178/591)

إلى اللّه ، سواء أكان خيرا أو شرّا . . أما النعم الخالصة التي يسوقها اللّه إلى المصطفين من عباده ، فإنها تحمل مع هذا الفعل مسندا إلى اللّه ، بإخبار منه سبحانه ، كما يقول سبحانه : « وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً » « 55 : الإسراء » . .

« وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ » . « 87 : البقرة » . . أمّا « قارون » فقد أتاه اللّه هذا المال الوفير ، جزاء بغيه ، فكان نقمة في صورة نعمة .

ـ وقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً » هو رد على هذا الادعاء العريض الكاذب الذي يدعيه قارون . . وأنه لو كانت له قوة ذاتية ، وكان له من العلم الذاتي ما جمع به هذا المال ، لكان لهذه القوة وهذا العلم أن يحفظا عليه ما جمع ، فلا يذهب من يده ، بل كان لهذه القوة وهذا العلم أن يحفظا عليه ما جمع ، فلا يذهب من يده ، بل كان لهذه القوة وهذا العلم ، أن يحفظا عليه وجوده هو نفسه ! ! فهل تنفعه هذه القوة ، وهل يجديه هذا العلم ، إذا جاءه بأس اللّه ؟ ألا فلينظر إلى من كان قبله من الأمم السابقة ، ممن هم أشد منه قوة وأكثر جمعا . . أين هم الآن ؟ وأين ما جمعوا من مال وما اجتمع لهم من قوة ؟ هل أغنى ذلك عنهم من بأس اللّه من شيء لقد ؟ هلكوا ، وهلك ما كان لهم .

ـ وفي قوله تعالى : « أَوَلَمْ يَعْلَمْ » رد على هذا العلم الذي يدعيه ، وأنه علم هو الجهل بعينه ، وأنه لو كان علما حقا ، لعلم به ما حل بالظالمين المفسدين في كل أمة وكل جيل ولما سار على دربهم ، وسلك طريقهم . . !

ـ وقوله تعالى : « وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » . . أي أن اللّه سبحانه إذا أخذ المجرمين بجرمهم في الدنيا ، وأنزل بهم البلاء ، وسلط عليهم النقم ـ أخذهم بغتة ، على غير توقع منهم ، حيث لا يسألون عما هم فيه من ضلال ، ولا يدعون إلى موقف المحاسبة في هذه الدنيا . . فهذا موقف له يومه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين . .

قوله تعالى : « فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » .

إنها الفتنة تتحرك في هذا الموكب ، الذي تحتشد فيه زخارف الحياة ، حيث يخرج قارون في موكبه الحاشد ، وقد ظهر فيه سيدا عظيما في زى أصحاب الملك والسلطان ، وبين يديه ومن خلفه الجنود والأعوان . . فتحركت مع هذا الموكب أهواء النفوس وشهواتها ، وتطايرت من العيون قطرات الاشتهاء والتمني ، فقال الذين همهم هذه الدنيا وحدها ، وليس للآخرة نصيب يشغل به تفكيرهم ، ويصرف إليه همهم . قالوا : « يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ . . إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » . . وهكذا تعظم الدنيا في عين طلابها ، فإن فاتهم شىء منها مما وقع لغيرهم ، تقطعت نفوسهم أسى وحسرة على حظهم المنكود ، ذلك ، ولو لم يكن ينقصهم شىء مما يحتاجون إليه لحفظ حياتهم ، من طعام ، وكساء ، ومأوى . . وإنما هو الغيرة والتنافس في متاع الدنيا . .

قوله تعالى : « وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ » .

وهذه نظرة أهل الحق والعلم إلى الدنيا . . إنها نظرة قائمة على حساب سليم مع الحياة الدنيا ومتاعها . . فهى عندهم ظل زائل ، ومتاع قليل ، وحسب الإنسان منها أن يأخذ في حمد ورضى ، ما قسم اللّه له ، وأن يطلب الرزق من وجوه سليمة مستقيمة ، وأن يؤدى حق اللّه والعباد فيما آتاه اللّه . . ثم لا يصرفه شىء من هذا عن طلب الآخرة ، والإعداد لها ، وابتغاء مرضاة اللّه بالأعمال الصالحة . .

(180/591)

فذلك هو خير مما لو اجتمعت الدنيا كلها للإنسان ، ثم لم يكن له نصيب فى الآخرة . .

وقوله تعالى : « وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ » أي لا يلقيّ هذه المقولة ، ولا يتقبل هذه الدعوة الطيبة إلى ابتغاء ثواب اللّه - إلا الصابرون ، الذين يصبرون على بأساء الحياة الدنيا وضرائها ، ابتغاء ما يلقون من جزاء حسن في الآخرة . .

فمن لم يكن من الصابرين ، فإنه لا يؤدى حقا ، ولا يصبر على حق ، بل يستعمل كل ماله في هذه الدنيا ، ويستهلكه في يومه ، غير ملتفت إلى غده . . إن الطاعات تكاليف وأعباء ، لا تقع موقع القبول والرضا إلا من نفوس صابرة ، تغرس اليوم ، لتجنى ثمار غرسها غدا . .

قوله تعالى : « فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ

مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ » .

وهكذا يدور الزمن دورته ، وينخرم حساب قارون مع دنياه هذه ، وما جمع فيها ، وإذا هو وما جمع في حفرة عميقة في الأرض ، قد فغرت فاها ، وابتلعته في غمضة عين ، كما يبتلع الحيوان فريسته . . وهكذا تطوى صفحة هذا الضلال المتحرك ، وتذهب معالمه ، دون أن يكون له من ينصره من بأس اللّه ويدفع عنه هذا المصير ، فقد ذهب عنه سلطانه ، ولم يغن عنه ماله ! قوله تعالى : « وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ » .

وينتقل المشهد من قارون وموكبه ، وداره وحشمه وماله ، إلى تلك العيون

التي كانت متعلقة بهذا الموكب وما يجر وراءه ، وإذا بها شاخصة في ذهول مما حدث ؟ أين قارون الذي تعلقت بأذيال موكبه أمانيّ القوم ؟ وأين كنوزه وأمواله ، وقصوره ؟ لا شيء من هذا . . لقد اختفى كل شيء في لحظة خاطفة ، كما يختفى السابح في الماء وقد احتوته دوامة عاتية ، فغرق ، وهوى إلى القاع ! ! أ هكذا الدنيا إذن ؟ وأ هكذا تصاريف

القدر فيها ؟ « وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ » ؟ إذن ، فالأمر لله وحده ، يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدره ويقبضه عمن يشاء ، بعلم ، وحكمة وتدبير . . وإذن ، فقد كان من فضل الله علينا أنه لم يستجب لأمنياتنا ، ولم يؤتنا مثل ما أوتى قارون . . إنه لو فعل لكان مصيرنا كمصيره ، ولخسف بنا وبدورنا الأرض ، كما خسف به وبداره الأرض . . « لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا » .

إن أشد الناس فقرا فينا ، لهو خير من قارون وكنوزه . . وهل يرضى أحد من هؤلاء الذين شهدوا هذا المشهد اليوم أن يكونوا قارون الذي كان بالأمس ؟

« وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ » . . وإذن ، فالحكم القاطع الذي يمليه علينا هذا المشهد ، هو أنه لا فلاح للكافرين أبدا ، وإن كثرت أموالهم ، وملكوا الدنيا في أيديهم . . إنهم هم الخاسرون خسرانا مبينا ، فى الدنيا والآخرة جميعا .

وكلمة « وى » أداة تعجب وانبهار ، يلقى بها المرء مواقف العجب والدهش . .

قوله تعالى : « تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسادًا وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

هو تعقيب على هذه القصة ، التي كان مدار حركتها قائما على هذه الدنيا ، وقد انتهى المشهد ، وقد تحطم هذا الدولاب ، وتحطم كل ما احتواه . . وإذن فلا التفات إلى هذا الحطام ، ولا اشتغال به . . وإذن فإلام تتلفت النفوس ؟ وبم تشتغل القلوب ؟ هذه هي الدار الآخرة . . الدار الباقية التي ينبغي أن يلتفت إليها ، ويشتغل بها . .

ولكن لمن هذه الدار ؟ ومن يصلح للاتجاه إليها ، والتعامل معها ؟ « لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً » . فهؤلاء هم أهلها ، حيث لا تنصرف إرادتهم إلى الدنيا ، وإلى طلب العلو والإفساد فيها . . إن إرادتهم متجهة إلى الآخرة ، وإن كانت الدنيا معبرهم إليها ، وطريقهم عليها . .

. « وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » أي العاقبة الحسنة الطيبة لأهل التقوى ، الذين يريدون الله والدار الآخرة . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 10 صـ 382 . 392 ﴾

(183/591)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾

عطف على جملة ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ [القصص : 76] إلى آخرها مع ما عطف

عليها وتعلق بها ، فدلت الفاء على أن خروجه بين قومه في زينته بعد ذلك كله كان من أجل أنه لم يقصر عن شيء من سيرته ولم يتعظ بتلك المواعظ ولا زمناً قصيراً بل أعقبها بخروجه هذه الخرجة المليئة صلفاً وازدهاء .

فالتقدير : قال إنما أوتيته على علم عندي فخرج ، أي رفض الموعظة بقوله وفعله .

وتعدية (خرج) بحرف ﴿ على ﴾ لتضمينه معنى النزول إشارة إلى أنه خروج متعال مترفّع ، و ﴿ في زينته ﴾ حال من ضمير (خرج .

(والزينة : ما به جمال الشيء والتباهي به من الثياب والطيب والمراكب والسلاح والخدم ، وتقدم قوله تعالى ﴿ ولا يُبْدين زينتهن ﴾ في سورة [النور : 31] .

وإنما فصلت جملة ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ ولم تعطف لأنها تتنزل منزلة بدل الاشتمال لما اشتملت عليه الزينة من أنها مما يتمناه الراغبون في الدنيا .

وذلك جامع لأحوال الرفاهية وعلى أخصر وجه لأن الذين يريدون الحياة الدنيا لهم أميال مختلفة ورغبات متفاوتة فكل يتمنى أمنية مما تلبس به قارون من الزينة ، فحصل هذا المعنى مع حصول الأخبار عن انقسام قومه إلى مغترين بالزخارف العاجلة عن غير علم ، وإلى علماء يؤثرون الآجل على العاجل ، ولو عطفت جملة ﴿ قال الذين يريدون ﴾ بالواو وبالفاء لفاتت هذه الخصوصية البليغة فصارت الجملة إما خبراً من جملة الأخبار عن حال قومه ، أو جزء خبر من قصته .

و ﴿ الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ لما قوبلوا بـ ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ [القصص : 80] كان المعنيُّ بهم عامة الناس وضعفاء اليقين الذين تلهيهم زخارف الدنيا عما يكون في مطاويها من سوء العواقب فتقصر بصائرهم عن التدبر إذا رأوا زينة الدنيا فيتلهفون عليها ولا يتمنون غير حصولها فهؤلاء وإن كانوا مؤمنين إلا أن إيمانهم ضعيف فلذلك عظم في عيونهم ما عليه قارون من البذخ فقالوا ﴿ إنه لذو حظ عظيم ﴾ أي إنه لذو بخت وسعادة .

وأصل الحظ : القِسم الذي يعطاه المقسوم له عند العطاء ، وأريد به هنا ما قسم له من نعيم الدنيا .

والتوكيد في قوله ﴿ إنه لذو حظ عظيم ﴾ كناية عن التعجب حتى كأن السامع ينكر حظه فيؤكده المتكلم .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ عطف على

جملة ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ [القصص : 79] فهي مشاركة لها في معناها لأن ما تشتمل عليه خرجة قارون ما تدل عليه ملامحه من فتنة ببهرجته وبزته دالة على قلة اعتداده بثواب الله وعلى تمحضه للإقبال على لذائذ الدنيا ومفاخرها الباطلة ففي كلام ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ تنبيه على ذلك وإزالة لما تستجلبه حالة قارون من نفوس المبتلين بزخارف الدنيا .

و(ويل) اسم للهلاك وسوء الحال ، وتقدم الكلام عليه عند قوله تعالى ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴾ في سورة البقرة (79) .

(185/591)

ويستعمل لفظ (ويل) في التعجب المشوب بالزجر ، فليس ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ داعين بالويل على الذين يريدون الحياة الدنيا لأن المناسب لمقام الموعظة لين الخطاب ليكون أعون على الاتعاظ ، ولكنهم يتعجبون من تعلق نفوس أولئك بزينة الحياة الدنيا واغتباطهم بحال قارون دون اهتمام بثواب الله الذي يستطيعون تحصيله بالإقبال على العمل بالدين والعمل النافع وهم يعلمون أن قارون غير متخلق بالفضائل الدينية .

وتقديم المسند إليه في قوله ﴿ ثواب الله خير ﴾ ليتمكن الخبر في ذهن السامعين لأن

الابتداء بما يدل على الثواب المضاف إلى أوسع الكرماء كرماً مما تستشرف إليه النفس .

وعدل عن الإضمار إلى الموصولية في قوله ﴿ لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ دون : خير لكم ، لما في الإظهار من الإشارة إلى أن ثواب الله إنما يناله المؤمنون الذين يعملون الصالحات وأنه على حسب صحة الإيمان ووفرة العمل ، مع ما في الموصول من الشمول لمن كان منهم كذلك ولغيرهم ممن لم يحضر ذلك المقام وَعَمِلَ صالحا وَلاَ يُلَقَّاهَآ .

يجوز أن تكون الواو للعطف فهي من كلام ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ ، أمروا الذين فتنهم حال قارون بأن يصبروا على حرمانهم مما فيه قارون .

ويجوز أن تكون الواو اعتراضية والجملة معترضة من جانب الله تعالى علّم بها عباده فضيلة الصبر .

وضمير ﴿ يلقاها ﴾ عائد إلى مفهوم من الكلام يجري على التأنيث ، أي الخصلة وهي ثواب الله أو السيرة القويمة ، وهي سيرة الإيمان والعمل الصالح .

والتلقية : جعل الشيء لاقياً ، أي مجتمعاً مع شيء آخر .

وتقدم عند قوله تعالى ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاماً ﴾ في سورة الفرقان (75) .

وهو مستعمل في الإعطاء على طريقة الاستعارة ، أي لا يعطى تلك الخصلة أو السيرة إلا الصابرون ؛ لأن الصبر وسيلة لنوال الأمور العظيمة لاحتياج السعي لها إلى تجلد لما يعرض

في خلاله من مصاعب وعقبات كأداء فإن لم يكن المرء متخلقاً بالصبر خارت عزيمته فترك ذاك لذاك .

(186/591)

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81)

دلت الفاء على تعقيب ساعة خروج قارون في ازدهائه وما جرى فيها من تمني قوم أن يكونوا مثله ، وما أنكر عليهم علماؤهم من غفلتهم عن التنافس في ثواب الآخرة بتعجيل عقابه في الدنيا بمرأى من الذين تمنوا أن يكونوا مثله .

والخسف : انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها ، وعكسه .

يقال : خسفت الأرض وخسف الله الأرض فانخسفت ، فهو يستعمل قاصراً ومتعدياً ، وإنما يكون الخسف بقوة الزلزال .

وأما قولهم : خسفت الشمس فذلك على التشبيه .

والباء في قوله ﴿ فخسفنا به ﴾ باء المصاحبة ، أي خسفنا الأرض مصاحبة له ولداره ، فهو وداره مخسوفان مع الأرض التي هو فيها ، وتقدم قوله تعالى ﴿ أن يخسف الله بهم

الأرض ﴾ في سورة النحل .

(45) وهذا الخسف خارق للعادة لأنه لم يتناول غير قارون ومن ظاهره ، وهما رجلان من سبط (روبين) وغير دار قارون ، فهو معجزة لموسى عليه السلام .

جاء في الإصحاح السادس عشر من سفر العدد أن قورح (وهو قارون) ومن معه لما آذوا موسى كما تقدم ، وذكرهم موسى بأن الله أعطاهم مزية خدمة خيمته ولكنه أعطى الكهانة بني هارون ولم تجد فيهم الموعظة غضب موسى عليهم ودعا عليهم ثم أمر الناس بأن يبتعدوا من حوالي دار قورح (قارون) وخيام جماعته .

وقال موسى : إن مات هؤلاء كموت عامة الناس فاعلموا أن الله لم يرسلني إليكم وان ابتدع الله بدعة ففتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل مالهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء قد ازدروا بالرب .

فلما فرغ موسى من كلامه انشقت الأرض التي هم عليها وابتلعتهم وبيوتهم وكل ما كان لقورح مع كل أمواله وخرجت نار من الأرض أهلكت المائتين والخمسين رجلاً .

(187/591)

وقد كان قارون معتزاً على موسى بالطائفة التي كانت شايعته على موسى وهم كثير من رؤساء جماعة اللاويين وغيرهم ، فلذلك قال الله تعالى ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ﴾ ، إذ كان قد أعدهم للنصر على موسى رسول الله فخسف بهم معه وهو يراهم ، ﴿ وما كان من المنتصرين ﴾ كما كان يحسب .

يقال : انتصر فلان ، إذا حصل له النصر ، أي فما نصره أنصاره ولا حصل له النصر بنفسه .

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ

﴿ أصبح ﴾ هنا بمعنى صار .

و(الأمس) مستعمل في مطلق زمن مضى قريباً على طريقة المجاز المرسل .

و(مكان) مستعمل مجازاً في الحالة المستقر فيها صاحبها ، وقد يعبر عن الحالة أيضاً بالمنزلة .

ومعنى ﴿ يقولون ﴾ أنهم يجهرون بذلك ندامة على ما تمنوه ورجوعاً إلى التفويض لحكمة الله فيما يختاره لمن يشاء من عباده .

وحكي مضمون مقالاتهم بقوله تعالى ﴿ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ الآية .

وكلمة ﴿ ويكأن ﴾ عند الأخفش وقطرب مركبة من ثلاث كلمات : (وي) وكاف الخطاب و (أن) .

فأما (وي) فهي اسم فعل بمعنى : أعجب ، وأما الكاف فهي لتوجيه الخطاب تنبيهاً عليه مثل الكاف اللاحقة لأسماء الإشارة ، وأما (أن) فهي (أن) المفتوحة الهمزة أخت (إن) المكسورة الهمزة فما بعدها في تأويل مصدر هو المتعجب منه فيقدر لها حرف جرّ ملتزم حذفه لكثرة استعماله وكان حذفه مع (أن) جائزاً فصار في هذا التركيب واجباً وهذا الحرف هو اللام أو (من) فالتقدير : أعجب يا هذا من بسط الله الرزق لمن يشاء .

وكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث تستعمل بدون الأخرى فيقال : وي بمعنى أعجب ، ويقال (ويك) بمعناه أيضاً قال عنترة :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها

قيل الفوارس ويك عنتر أقدم . . .

(188/591)

ويقال : ﴿ ويكأن ﴾ ، كما في هذه الآية وقول سعيد بن زيد أو نبيه بن الحجاج السهمي :

ويكأن من يكن له نشبٌ يُحـ

ـبَبْ ومن يفتقر يعش عيش ضرّ . . .

فخفّف (أن) وكتبوها متصلة لأنها جرت على الألسن كذلك في كثير الكلام فلم يتحققوا

أصل تركيبها وكان القياس أن تكتب (ويك) مفصولة عن (أن) وقد وجدوها مكتوبة مفصولة في بيت سعيد بن زيد .

وذهب الخليل ويونس وسيبويه والجوهري والزمخشري إلى أنها مركبة من كلمتين (وي) و (كأن) التي للتشبيه .

والمعنى : التعجب من الأمر وأنه يشبه أن يكون كذا والتشبيه مستعمل في الظن واليقين .

والمعنى : أما تعجب كأن الله يبسط الرزق .

وذهب أبو عمرو بن العلاء والكسائي والليث وثعلب ونسبه في "الكشاف" إلى الكوفيين (وأبو عمرو بصري) أنها مركبة من أربع كلمات كلمة (ويل) وكاف الخطاب وفعل (اعلم) و (أن) .

وأصله : ويلك أعلم أنه كذا ، فحذف لام الويل وحذف فعل (اعلم) فصار (وَيْكَأَنَّه) .

وكتابتها متصلة على هذا الوجه متعينة لأنها صارت رمزاً لمجموع كلماته فكانت مثل النحت .

ولاختلاف هذه التقادير اختلفوا في الوقف فالجمهور يقفون على ﴿ ويكأنه ﴾ بتمامه والبعض يقف على (وي) والبعض يقف على (ويك) .

ومعنى الآية على الأقوال كلها أن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهم لما رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفي تصرفات الله تعالى في خلقه

وعلموا وجوب الرضى بما قدر للناس من الرزق فخاطب بعضهم بعضاً بذلك وأعلنوه .

والبسط : مستعمل مجازاً في السعة والكثرة .

و﴿ يقدر ﴾ مضارع قدر المتعدي ، وهو بمعنى : أعدى بمقدار ، وهو مجاز في القلة لأن التقدير يستلزم قلة المقدر لعسر تقدير الشيء الكثير قال تعالى ﴿ ومن قدر عليه رزقه فَلْيُنْفِق مما آتاه الله لا يكلّف الله نفساً إلا ما ءاتاها ﴾ [الطلاق : 7] .

(189/591)

وفائدة البيان بقوله ﴿ من عباده ﴾ الإيماء إلى أنه في بسطة الأرزاق وقدرها متصرف تصرف المالك في ملكه إذ المبسوط لهم والمقدور عليهم كلهم عبيده فحقهم الرضى بما قسم لهم مولاهم .

ومعنى ﴿ لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ﴾ : لولا أن منَّ الله علينا فحفظنا من رزق كرزق قارون لخسف بنا ، أي لكنا طغينا مثل طغيان قارون فخسف بنا كما خسف به ، أو لولا أن منّ الله علينا بأن لم نكن من شيعة قارون لخسف بنا كما خسف به وبصاحبيه ، أو لولا أن منّ الله علينا بثبات الإيمان .

وقرأ الجمهور ﴿ لَخَسِف بنا ﴾ على بناء فعل "خُسِف" للمجهول للعلم بالفاعل من قولهم

: لولا أن منّ الله علينا .

وقرأه يعقوب بفتح الخاء والسين ، أي لخسف الله الأرض بنا .

وجملة ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ تكرير للتعجيب ، أي قد تبين أن سبب هلاك قارون هو كفره برسول الله .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

انتهب قصة قارون بما فيها من العبر من خير وشر ، فأعقبت باستئناف كلام عن الجزاء على الخير وضده في الحياة الأبدية وأنها معدة للذين حالهم بضد حال قارون ، مع مناسبة ذكر الجنة بعنوان الدار لذكر الخسف بدار قارون للمقابلة بين دار زائلة ودار خالدة .

وابتدىء الكلام بابتداء مشوق وهو اسم الإشارة إلى غير مذكور من قبل ليَسْتَشْرِف السامع إلى معرفة المشار إليه فيعقبه بيانه بالاسم المعرف باللام الواقع بياناً أو بدلاً من اسم الإشارة كما في قول عبيدة بن الأبرص:

تلك عِرسي غَضْبَى تريد زِيالي . . .

أَلِبَيْنٍ تريدُ أم لدَلالِ .

.

الأبيات . . .

وجملة ﴿ نجعلها ﴾ هو خبر المبتدأ وكاف الخطاف الذي في اسم الإشارة غير مراد به

مخاطب معيّن موجّه إلى كل سامع من قراء القرآن .

ويجوز أن يكون خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود تبليغه إلى الأمة شأن جميع آي القرآن .

(190/591)

و ﴿ الدار ﴾ : محل السكنى ، كقوله تعالى ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾ في الأنعام (127) .

وأما إطلاق الدار على جهنم في قوله تعالى ﴿ وأحَلُّوا قومَهم دارَ البَوَار ﴾ [إبراهيم : 28] فهو تهكّم كقول أبي الغُول الطَهَوي:

ولا يَرْعَوْن أكناف الهُوَيْنَا . . .

إذا نزلوا ولا روضَ الهُدون

فاستعمال الروض للهدون تهكُّم لأن المقام مقام تعريض .

و ﴿ الآخرة ﴾ : مراد به الدائمة ، أي التي لا دار بعدها ، فاللفظ مستعمل في صريح معناه وكنايته .

ومعنى جعلها لهم أنها محضرة لأجلهم ليس لهم غيرها .

وأما من عداهم فلهم أحوال ذات مراتب أفصحت عنها آيات أخرى وأخبار نبوية فإن أحكام الدين لا يقتصر في استنباطها على لوك كلمة واحدة .

وعن الفضيل بن عياض أنه قرأ هذه الآية ثم قال : ذهبتْ الأماني ههنا ، أي أماني الذين يزعمون أنه لا يضر مع الإيمان شيء وأن المؤمنين كلهم ناجون من العقاب ، وهذا قول المرجئة قال قائلهم:

كُن مسلماً ومن الذنوب فلا تخف . . .

حاشا المهيمن أن يُري تنكيدا

لو شاء أن يُصليك نار جهنم . . .

ما كان أُلْهَم قلبَك التوحيدا

ومعنى ﴿ لا يريدون ﴾ كناية عن : لا يفعلون ، لأن من لا يريد الفعل لا يفعله إلا مكرهاً .

وهذا من باب ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ كما تقدم في أول هذه السورة (5) .

والعُلوّ : التكبر عن الحق وعلى الخلق ، والطغيان في الأعمال ، والفساد : ضد الصلاح ، وهو كل فعل مذموم في الشريعة أو لدى أهل العقول الراجحة .

وقوله ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ تذييل وهو معطوف على جملة ﴿ تلك الدار ﴾ وبه صارت جملة ﴿ تلك الدار ﴾ كلها تذييلاً لما اشتملت عليه من إثبات الحكم للعام

بالموصول من قوله ﴿ للذين لا يريدون علواً في الأرض ﴾ والمعرف بلام الاستغراق .

و﴿ العاقبة ﴾ : وصف عومل معاملة الأسماء لكثرة الوصف به وهي الحالة الآخرة بعد حالة سابقة وغلب إطلاقها على عاقبة الخير .

وتقدم عند قوله تعالى ﴿ ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ في [الأنعام : 11] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(191/591)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾

قلنا : إن قارون كان بطبيعة الحال غنياً وجيهاً ، حَسَن الصوت والصورة ، كثير العدد ، كثير المال ، فكيف لو أضفت إلى هذا كله أن يخرج في زينته وفي موكب عظيم ، وفي أبهة ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . . . ﴾ [القصص : 79] .

وللعلماء كلام كثير في هذه الزينة التي خرج فيها قارون ، فقد كان فيها ألف جارية من صفاتهن كذا وكذا ، وألف فرس . . إلخ ، حتى أن الناس انبهروا به وبزينته ، بل وانقسموا بسببه قسمين : جماعة فُتِنوا به ، وأخذهم بريق النعمة والزينة والزهو وترف الحياة ، ومدُّوا

أعينهم إلى ما هو فيه من متعة الدنيا .

وفي هؤلاء يقول تعالى : ﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص : 79] وقد خاطب الحق - تبارك وتعالى - نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا . . . ﴾ [طه : 131] .

والمعنى : لا تنظر إلى ما في يد غيرك ، واحترم قدر الله في خَلْق الله ، واعلم أنك إنْ فرحت بالنعمة عند غيرك أتاك خيرها يطرق بابك وخدمتْك كأنها عندك ، وإنْ كرهتها وحسدته عليها تأبَّت عليك ، وحُرِمْت نفعها ؛ لأن النعمة أعشق لصاحبها من عشقه لها ، فكيف تأتيه وهو كاره لها عند غيره ؟

لذلك من صفات المؤمن أن يحب الخير عند أخيه كما يحبه لنفسه ، وحين لا تحب النعمة عند غيرك ، فما أذنبه هو ؟ فكأنك تعترض على قدر الله فيه ، وما دُمْتَ قد تأبيت واعترضت على قدر المنعم ، فلا بُدَّ أن يحرمك منها .

لذلك يقول سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ . . . ﴾ [النساء : 32] .

لأن لكل منكم مهمة ودوراً في الحياة ، ولكل منكم مواهبه وميزاته التي يمتاز بها عن الآخرين ، ولا بُدَّ أن يكون فيك خصال أحسن ممن تحسده ، لكنك غافل عنها غير متنبه لها .

وسبق أن قلنا : إن الحق سبحانه قد وزَّع أسباب فَضْله على خَلْقه ؛ لأننا جميعاً أمام الله سواء ، وهو سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ لذلك قلنا : إن مجموع مواهب كل فرد تساوي مجموع مواهب الآخر ، فقد تزيد أنت عني في خصلة ، وأزيد عنك في أخرى ، فهذا يمتاز بالذكاء ، وهذا بالصحة ، وهذا بالعلم ، وهذا بالحِلْم . . إلخ .

لأن حركة الحياة تتطلب كل هذه الإمكانيات ، فبها تتكامل الحياة ، وليس من الممكن أن تتوفر كل هذه المزايا لشخص واحد يقوم بكل الأعمال ، بل إنْ تميزْتَ في عملك ، وأتقنتَ مهمتك فلك الشكر .

ومن العجيب ألاَّ تنتفع أنت بنبوغك ، في حين ينتفع به غيرك ، ومن ذلك قولهم مثلاً (باب النجار مخلع) ، فلماذا لا يصنع باباً لنفسه ، وهو نجار ؟ قالوا : لأنه الباب الوحيد الذي لا يتقاضى عليه أجراً .

إذن : حينما تجد غيرك مُتفوِّقاً في شيء فلا تحقد عليه ؛ لأن تفوقه سيعود عليك ، وضربنا لذلك مثلاً بشيء بسيط ؛ حين تمسك المقصَّ بيدك اليمنى لتقصَّ أظافر اليد

اليسرى تجد أن اليد اليمنى – لأنها مرنة سهلة الحركة – تقصُّ أظافر اليسرى بدقة ، أما حين تقصُّ اليسرى أظافر اليمنى فإنها لا تعطيك نفس المهارة التي كانت لليمنى . إذن : فحُسْن اليمنى تعدَّى لليُسْرى ونفعها .

وهكذا إذا رأيتَ أخاك قد تفوَّق في شيء أو أحسن في صُنْعه فاحمد الله ؛ لأن حُسْنه وتفوقه سيعود عليك ، وقد لا يعود عليه هو ، فلا تحسده ، ولا تحقد عليه ، بل ادْعُ له بالمزيد ؛ لأنك ستنتفع به في يوم من الأيام .

(193/591)

لكن ماذا قال أهل الدنيا الذين بُهِروا بزينة قارون ؟ قالوا : ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . . ﴾ [القصص : 79] يعني : كما نقول نحن (حظه بمب) ؛ لأن هؤلاء لا يعنيهم إلا أمر الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم وأهل المعرفة فلهم رأْيٌ مخالف ، ونظرة أبعد للأمور ؛ لذلك رَدُّوا عليهم : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم . . . ﴾ .

فما كان الحق – تبارك وتعالى – ليترك أهل الدنيا وأهل الباطل يُشكِّكون الناس في قَدَر الله ، ويتمردون على قسمته حتى الكفر والزندقة ، والله سبحانه لا يُخلِي الناس من أهل الحق الذين يُعدِّلون ميزان حركة الحياة :

إنَّ الذي جَعَلَ الحَقِيقةَ عَلْقماً . . . لم يخلْ من أَهْل الحقيقة جيلا

وما دام أن الله تعالى قال في الجماعة الأولى : ﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا . . . ﴾ [القصص : 79] فهم لا يروْنَ غيرها ، ولا يطمحون لأبعد منها ، وقال في الأخرى : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم . . . ﴾ [القصص : 80] فهذا يعني : أن أهل الدنيا (سطحيون) ، لم يكن عندهم علم ينفعهم ، لذلك وقعوا في هذا المأزق الذي نجا منه أهل العلم ، حينما أجروا مقارنة بين الطمع في الدنيا والطمع في الآخرة .

كما قلنا سابقاً : إن عمر الدنيا بالنسبة لك : لا تقُلْ من آدم إلى قيام الساعة ؛ فعمرك أنت فيها عمر موقوت ، لا بُدَّ أنْ يفنى . إذن : العاقل مَنْ يختار الباقية على الفانية ، لذلك أهل الدنيا قالوا ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ . . . ﴾ [القصص : 79] .

أما أهل العلم والمعرفة فردُّوا عليهم : ﴿ وَيْلَكُمْ . . . ﴾ [القصص : 80] أي : الويل لكم بسبب هذا التفكير السطحي ، وتمنِّي ما عند قارون الويل والهلاك لكم بما حسدتُم الناس ، وبما حقدتُم عليهم وباعتراضكم على أقدار الله في خَلْقه .

(194/591)

فأنتم تستحقون الهلاك بهذا ؛ لذلك قال الله عنهم في موضع آخر : ﴿ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا . . . ﴾ [الروم : 6-7] .

يعني : لا يعرفون حقيقة الأشياء ، ولو عرفوا ما قالوا هذا الكلام ، وما تمنَّوْا هذه الأمنية .

ثم يلفت أهل العلم والمعرفة أنظار أهل الدنيا ، ويُوجّهونهم الوجهة الصحيحة : ﴿ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً . . . ﴾ [القصص : 80] أي : ثواب الله خير من الدنيا ، ومما عند قارون ، وكيف تتمنون ما عنده ، وقد شجبتم تصرفاته ، ونهيتموه عنها ، ولم ترضوَهْا ؟

ومعنى : ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصابرون ﴾ [القصص : 80] أي : يُلقّي الإيمان والعمل الصالح والهداية ، ليُقبِلَ على عمل الآخرة ، ويُفضلها عن الدنيا ، أي : يُلقّى قضية العلم بالحقائق ، ولا تخدعه ظواهر الأشياء . هذه لا يجدها ولا يُوفّق إليها إلا الصابرون ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : 35] .

والصبر : احتمال ما يؤذي في الظاهر ، لكنه يُنعَم في الباطن . وله مراحل ، فالله تعالى كلَّفنا بطاعات فيها أوامر ، وكلَّفنا أنْ نبتعد عن معاصٍ ، وفيها نواهٍ ، وأنزل علينا أقداراً قد لا تستطيبها نفوسنا ، فهذه مراحل ثلاث .

فالطاعات ثقيلة وشاقة على النفس ؛ لذلك يقول تعالى عن الصلاة : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ

عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] فهناك دَواع شتَّى تصرفك عن الصلاة ، وتحاول أنْ تُقعدك عنها ، فتجد عند قيامك للصلاة كسلاً وتثاقلاً .

واقرأ قوله تعالى عن الصلاة مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم :

(195/591)

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا . . . ﴾ [طه : 132] وهذا دليل على أنها صعبة وشاقَّة على النفس ، لكن إذا تعودتْ عليها ، وألفتها النفس صارتْ أحبَّ الأشياء إليك ، وأخفّها على نفسك ، بل وقرَّة عَيْن لك .

والنبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا هذا الدرس في قوله لمؤذنه بلال : " أرحنا بها يا بلال " لا أرحنا منها تلك المقالة التي يقولها لسان حالنا الآن .

ويقول أيضاً صلى الله عليه وسلم : " وجُعلَت قرة عيني في الصلاة " وخصَّ الصلاة بالذات من بين سائر العبادات ؛ لأنها تتكرر في اليوم خمس مرات ، فهي ملازمة للمؤمن يعايشها على مدى يومه وليلته بخلاف الأركان الأخرى ، فمنها ما هو مرة واحدة في العام ، أو مرة واحدة في العمر كله .

هذا هو النوع الأول من الصبر ، وهو الصبر على مشقة الطاعة .

الثاني : الصبر عن شهوة المعصية ، ولا تنْسَ أنه أول صبر تصادفه في حياتك أنْ تصبر على نفسك ؛ لذلك يقول الشاعر :

إذَا رُمْتَ أنْ تُسْتَقرِضَ المال مُنفقاً . . . عَلَى شَهَواتِ النفْسِ في زَمَنِ العُسْرِ

فَسَلِ نفسَكَ الإنفاقَ من كَنْزِ صَبْرِها . . . عليْكَ وإنْظَاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ

فإنْ فعلتْ كنتَ الغنيَّ وإنْ . . . أبتْ فكل مَنُوعٍ بعدها واسِعِ العُذْرِ

فبدل أن تقترض لقضاء شهوة نفس عاجلة ، فأوْلَى بك أن تصبر إلى أن تجد سعة وتيسيراً ، فصبرك على نفسك أهون من صبر الناس عليك ، وإنْ تسعْكَ نفسك ، فلا عُذْر لأحد بعد ذلك إنْ منعك .

الثالث : صَبر على الأقدار المؤلمة التي لا تفطن أنت إلى الحكمة منها ، فالأقدار ما دامتْ من حكيم ، ومُجريها عليك ربٌّ ، إذن لا بُدَّ أن لها حكمة فيك ، فخُذ القضية القدرية مُجريها عليك ، فهو سبحانه ربك ، وليس عدوك ، وأنت عبده وصنعته ، ألم تقرأ قول الرسول في الحديث الشريف : " الخلق كلهم عيال الله ، فأحبُّهم إليه أرأفهم بعياله " .

(196/591)

إذن : حين تجري عليك الأقدار المؤلمة ، فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة الله ، ويكفيك أن مُجريها عليك ربك ، فإنْ جاءت الأقدار المؤلمة بسبب تقصيرك ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، كالطالب الذي يُهمل دروسه ويتكاسل ، فيفشل في الامتحان ، فالفشل نتيجة إهماله وتكاسله .

أما الذي يذاكر ويجدّ ويُبكِّر إلى الامتحان مُسْتبشراً فتصدمه سيارة مثلاً في الطريق ، تمنعه من أداء امتحانه ، فهذا هو القدر المؤلم الذي له حكمة ، وربما داخله شيء من الغرور ، وعوَّل على مذاكرته ، ونسي توفيق الله له ، فأراد الله أنْ يُلقّنه هذا الدرس ليعلمه أن الأمر في النهاية بيد الله وبمعونته ، وأنه الخاسر إنْ لم تصادفه هذه المعونة ، على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا لم يكُنْ عَوْنٌ مِنَ الله للفتَى . . . فَأَوَّلُ مَا يَجْني عليْهِ اجتهادُهُ

فعليك إذن أنْ تنظر إنْ كانت المصيبة نتيجة لما قدمت ، فلا تلومنَّ إلا نفسك ، فإنْ كنتَ قد أخذت بالأسباب ، واستوفيتَ ما طُلب منك ، ثم أصابتْك المصيبة ، فاعلم أن لله فيها حكمة ، وعليك أنْ تحترم حكمة الله وقدره في خَلْقه .

وباعتبار آخر ، يمكن أن نقسم المصائب إلى قسمين : قسم لك فيه غريم ، كأن يعتدي عليك غيرك بضرب أو قتل أو نحوه ، وقسم ليس لك فيه غريم كالموت والمرض مثلاً .

وقد أعطانا الحق – سبحانه وتعالى – حكماً في كل منهما ، ففي النوع الأول حيث لا غريمَ لك ، يقول تعالى على لسان لقمان وهو يوصي ولده : ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ

مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] .

ويقول فيما لك فيه غريم : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ . . . ﴾ [الشورى : 43] فما دام قد ذكر المغفرة ودعاك إليها ، فلابُدَّ أن أمامك غريماً ، ينبغي أنْ تصبر عليه ، وأن تغفر له ، والغريم يهيجني إلى المعصية وإلى الانتقام ، فكلما رأيته أتميَّز غيظاً ، فالصبر في هذه الحالة أشد ويحتاج إلى عزيمة قوية .

(197/591)

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43] ولم يقل كما في الأولى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] إنما بصيغة التأكيد باللام (لَمِنْ) .

ويُعلِّمنا ربنا – تبارك وتعالى – كيف نعالج غَيْظ النفوس أمام الغريم ، فيقول سبحانه : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] .

هذه مراحل ثلاث ، تتدرج بك حسب ما عندك من استعداد للخير وقدرة على التسامح ، فأولها : أن تكظم غيظك ، وهذا يعني أن الغيظ موجود ، لكنك تكتمه في نفسك ، فإن ارتقيتَ عفوتَ بأن تُخرج الغيظ والغِلَّ من نفسك ، كأن شيئاً لم يحدث ، فإن ارتقيتَ إلى

المرتبة الأعلى أحسنتَ ؛ لأن الله تعالى يحب المحسنين ، والإحسان أن تقدم الخير وتبادر به مَنْ أساء إليك ، فتجعله رداً على إساءته .

ولا شكَّ أن هذه المراحل تحتاج إلى مجاهدة ، فهي قاسية على النفس ، وقلما تجد مَنْ يعمل بها ؛ لذلك ما جعلها الله على وجه الإلزام ، إنما ندب إليها وحثّ عليها ، فإنْ أخذتَ بأُولاَها فلا شيء عليك ؛ لأن الله تعالى أباح لك أن ترد الإساءة بمثلها ، فإنْ كظمتَ غيظك فأنت على خير ، وإن اخترتَ لنفسك الرقي في طاعة ربك ، فنِعمْ الرجل أنت ، ويكفيك ﴿ واللهُ يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] .

ويكفيك أن المسيء بإساءته إليك جعل الله في جانبك ، فهو مع إساءته إليك يستحق مكافأة منك ، كما قال أحد العارفين : ألا أُحسن لمن جعل الله في جانبي ؟

وضربنا لذلك مثلاً بالوالد حين يجد أن أحد الأولاد اعتدى على الآخر ، فيميل ناحية المُعْتَدى عليه ويتودَّد إليه ، ويحاول إرضاءه ، حتى إن المعتدي ليغتاظ ويندم على أنه أساء إلى أخيه ، كذلك الحق – تبارك وتعالى – إن اعتدى بعض خَلْقه على بعض يحتضن المظلوم ، وينصره على مَنْ ظَلَمَه .

(198/591)

ثم يُفاجأ قارون بالعقاب الذي يستحقه : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرض . . . ﴾ .

والخسف : أن تنشقَّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذي يقول (يا أرض انشقي وابلعيني) ، والخسف كان به وبداره التي فيها كنوزه وخزائنه وما يملك ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله . . . ﴾ [القصص : 81] ، فما نفعه مال ، ولا دافع عنه أهل ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ [القصص : 81] أي : بذاته . فلم تكُنْ له عُصْبة تحميه ، ولا استطاع هو حماية نفسه ، فمَنْ يدفع عذاب الله إن حلَّ ، ومَنْ يمنعه ونقذه إنْ خُسِفت به الأرض ؟ !

وهنا ينبغي أن نتساءل : كيف الآن حال مَنْ اغتروا به ، وفُتِنوا بماله وزينته ؟

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْا مَكَانَهُ . . . ﴾ .

لقد كانوا بالأمس يقولون ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ . . . ﴾ [القصص : 79] ، لكن اليوم وبعد أن عاينوا ما حاق به من عذاب الله وبأسه الذي لا يُردُّ عن القوم الكافرين – اليوم يثوبون إلى رُشْدهم ويقولون : ﴿ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ . . . ﴾ [القصص : 82] .

كلما (وَيْ) اسم فعل مثل : أُفٍّ وهيهات ، وتدل على الندم والتحسُّر على ما حدث منك ، فهي تنديد وتَخْطيءٌ للفعل ، وقد تُقال (وَيْ) للتعجب . فقولهم (وي) ندماً ما كان منهم من تمني النعمة التي تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف التي تنعَّم بها قارون وتخطيئاً لأنفسهم ، بعد أنْ شاهدوا الخَسْف به وبداره ، وهم يندمون الآن

ويُخطِّئون أنفسهم ؛ لأن الله تعالى في رزقه حكمة وقدراً .

﴿ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ . . . ﴾ [القصص : 82] أي : يقبض ويُضيق ، وليس بسْط الرزق دليل كرامة ، ولا تضييقه دليلَ إهانة ، بدليل أن الله يبسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أخْذ عزيز مقتدر .

(199/591)

وقد تعرضتْ سورة الفجر لهذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 15-16] .

فالأول اعتبر الرزق الواسع دليل الكرامة ، والآخر اعتبر التضييق دليلَ إهانة ، فردَّ الحق سبحانه عليهما ليُصحح هذه النظرة فقال : ﴿ كَلاَّ . . . ﴾ [الفجر : 17] يعني : أنتما خاطئان ، فلا سعةَ الرزق دليل كُرامة ، ولا تضييقه دليل إهانة ، وإلا فكيف يكون إيتاء المال دليلَ كرامة ، وأنا أعطي بعض الناس المال ، فلا يُؤدُّون حقَّ الله فيه ؟ ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم * وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ المسكين * وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً * وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ [الفجر : 17-20] .

إذن : فأيُّ كرامة في مال يكون وبالاً على صاحبه ، وابتلاء لا يُوفَّق فيه ، فلو سُلب هذا المال من صاحبه لكان خيراً له ، فما أشبهَ هذا المال بالسلاح في يد الذي لا يُحسِن استعماله ، فربما قتل نفسه به .

وقوله تعالى : ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ [القصص : 82] تعجُّب من أنه لا يفلح الكافرون عند الله تعالى .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه بقضية عامة ليفصل في هذه المسألة : ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة . . . ﴾ .

لأنه لا يصح أنْ يعلو الإنسان على بني جنسه ، ولا على بيئته إلا بشيء ذاتي فيه ، فلا يصح أنْ يعلوَ بقوته ؛ لأنه قد يمرض ، فيصير إلى الضعف ، ولا بماله لأنه قد يُسلب منه .

إذن : إياك أن تعلو على غيرك بشيء موهوب لك ، إنْ أردتَ فبشيء ذاتي فيك ، وليس فيك شيء ذاتي ، فلست أفضلَ من أحد حتى تعلو عليه ، كما أن الدنيا أغيار ، وربما انتقل ما عندك إليهم ، فهل يسرُّك إنْ صار غيرك غنياً أو قوياً أنْ يتعالى عليك ؟

(200/591)

ثم أنت لا تستطيع العلو إلا بالاعتماد على قوة أعلى منك تسندك ، وجرِّب بنفسك وحاول أن تقفز إلى أعلى كلاعب السيرك ، ثم أمسك نفسك في هذا العلو ، وطبعاً لن تستطيع ، لماذا ؟ لأنه لا ذاتية لك في العُلو .

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تعلو ؛ لأنك بعلوِّك تُحْفِظُ الآخرين ؛ فإنْ حصل لك العكس شمتوا فيك ، وأيضاً لأن الإنسان لا يعلو في بيئة ولا في مكان إلا إذا رأى كل مَنْ حوله دونه ، وحين ترى أن كل الناس دونك فأنت لم تتنبه إلى أسرار فَضلْ الله في خَلْقه .

ولو تأملت لوجدتَ في كل منهم خصلة ليست عندك ، ولو قدَّرت أن الناس جميعاً عيالُ الله وخَلْقه ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ونحن جميعاً عنده تعالى سواء ، وقد وزّع المواهب بيننا جميعاً بالتساوي ، وبالتالي لا يمتاز أحد على أحد ، فلم التعالي إذن ؟ ولِمَ الكبر ؟

وأيضاً الذي يتعالى لا يتعالى إلا في غفلة منه عن ملاحظة كبرياء ربه ، وإلا فالذي يستحضر عظمة ربه وكبرياءه لا بُدَّ له أنْ يتواضع ، وأنْ يتضاءل أمام كبريائه تعالى ، وأنْ يستحي أن يتكبر على خَلْقه .

والنبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّمنا كيف نحترم الآخرين ؟ وكيف نتواضع لهم ؟ فلما دخل عليه الصحابي الجليل عدي بن حاتم قام عن كرامة مجلسه له ، يعني : إن كانْ جالساً على (وسادة مثلاً) يقوم عنها ، ويعطيها لصاحبه ليجلس هو عليها .

وهكذا يحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على المساواة في المجلس ؛ لذلك قال عدي بن حاتم لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد أنك لا تريد عُلُواً في الأرض ، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأسلم .

وعجيب ما نراه مثلاً في مساجدنا ، وهي بيوت الله وأَوْلَى الأماكن بهذه المساواة ، فتراهم إذا دخل أحد أصحاب النفوذ يفرشون له مُصلّى ليصلي عليها ، مع أن المسجد مفروش ، وعلى أعلى مستوى من النظافة ، فلماذا هذا التمييز ؟

(201/591)

ومع ذلك نجد منهم مَنْ يزيح هذه المصلَّى جانباً ، ويصلي كما يصلي بقية الناس ، وأظن أن الذي يقبل أنْ تُوضع له هذه المصلى أظنه يبتغي علواً في الأرض .

والحق سبحانه يريد للإنسان أن يعيش سويَّ الحركة في أسوياء لتظل القلوب متآلفة ، لا يداخلها ضغن ، وإذا خلَتْ القلوب من الضِّغن وَسِع الناسَ جميعاً رغيفُ عيشٍ واحد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ والعاقبةِ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : 83] أي : العاقبة الخيِّرة ، والعاقبة الحسنة في النعيم المقيم الدائم للمتقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ قال : كان ابن عمه ، وكان يبتغي العلم حتى جمع علماً ، فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده . فقال له موسى عليه السلام : إن الله أمرني أن آخذ الزكاة ، فأبى فقال : إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم . جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل فما ترى فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل ، فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها .

فارسلوا إليها فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك .

قالت : نعم . فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال : نعم . فجمعهم فقالوا له : بم أمرك ربك ؟ قال : أمرني أن تعبدوا الله ولا

تشركوا به شيئاً ، وأن تصلوا الرحم ، وكذا وكذا ، وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم . قالوا : وإن كنت أنت قال : نعم . قالوا : فإنك قد زنيت قال : أنا . فأرسلوا إلى المرأة ، فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدك بالله إلا ما صدقت قالت : أما إذ نشدتني بالله فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي ، وأنا أشهد أنك بريء ، وأنك رسول الله ، فخر موسى عليه السلام ساجداً يبكي ، فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض ، فمرها فتطيعك .

(203/591)

فرفع رأسه فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى . . . يا موسى . . . فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى . . . يا موسى . . . فقال : خذيهم فغيبتهم فأوحى الله يا موسى : سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم ، وعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم . قال ابن عباس : وذلك قوله تعالى ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ وخسف به إلى الأرض السفلى .

وأخرج الفريابي عن إبراهيم رضي الله عنه قال : كان قارون ابن عم موسى .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾ قال : كان ابن عمه أخي أبي قارون بن مصر بن فاهث أو قاهث ، وموسى بن عرمرم بن فاهث أو قاهث ، وعرمرم بالعربية عمران .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله قال : كان قارون ابن عم موسى أخي أبيه ، وكان قطع البحر مع بني إسرائيل ، وكان يسمى النور من حسن صوته بالتوراة ، ولكن عدوّ الله نافق كما نافق السامري ، فأهلكه الله ببغيه .

وإنما بغى لكثرة ماله وولده .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله ﴿ فبغى عليهم ﴾ قال : فعلا عليهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب رضي الله عنه في قوله ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ﴾ قال : زاد عليهم في طول ثيابه شبراً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في قوله ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ قال : أصاب كنزاً من كنوز يوسف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الوليد بن زوران رضي الله عنه في قوله ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ قال : كان قارون يعلم الكيمياء .

وأخرج ابن مردويه عن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كانت أرض دار قارون من فضة ، وأساسها من ذهب " .

(204/591)

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن خيثمة رضي الله عنه قال : وجدت في الإِنجيل أن مفاتيح خزائن قارون كانت وقر ستين بغلاً غراً محجلةً ، ما يزيد منها مفتاح على أصبع ، لكل مفتاح كنز .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن خيثمة رضي الله عنه قال : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغر محجلاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال : كانت المفاتيح من جلود الإِبل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لتنوء بالعصبة ﴾ يقول : لا يرفعها العصبة من الرجال ﴿ أولي القوّة ﴾ .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله

﴿ لتنوء بالعصبة ﴾ قال : لتثقل قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت قول امرىء القيس إذ يقول :

تمشي فتثقلها عجيزتها . . . مشي الضعيف ينوء بالوسق

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه قال ﴿ العصبة ﴾ ما بين العشرة إلى الخمسة عشر ﴿ أولوا القوّة ﴾ خمسة عشر .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي قال ﴿ العصبة ﴾ ما بين الخمس عشرة إلى الأربعين .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال ﴿ العصبة ﴾ أربعون رجلاً .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : كنا نحدث أن ﴿ العصبة ﴾ ما فوق العشرة إلى الأربعين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي صالح مولى أم هانىء قال ﴿ العصبة ﴾ سبعون رجلاً . قال : وكانت خزانته تُحْمَلُ على أربعين بغلاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح ﴾ قال : هم المؤمنون منهم قالوا : يا قارون لا تفرح بما أوليت فتبطر .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ قال : المرحين ، الأشرين ، البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

وأخرج الحاكم وصححه والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب والخرائطي في اعتلال القلوب عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب كل قلب حزين " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان وقال : هذا متن منكر ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " زُرِ القبور تَذْكُر بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك ، فإن الحزين في ظل الله يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ قال : الفرح هنا البغي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ قال : إن الله لا يحب الفرح بطراً ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ قال : تصدق ، وقرب الله تعالى ، وصل الرحم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ قال : المرحين . وفي قوله ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ يقول : لا تترك أن تعمل لله في الدنيا .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ و لا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ قال : أن تعمل فيها لآخرتك .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ قال : العمل بطاعة الله نصيبه من الدنيا الذي يثاب عليه في الآخرة .

(206/591)

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ ولا تنس نصيبك ﴾ قال : قدم الفضل ، وأمسك ما يبلغك – وفي لفظ – قال : امسك قوت سنة ، وتصدق بما بقي .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ قال : أن تأخذ من الدنيا ما أحل الله لك ، فإن لك فيه غنى وكفاية .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن منصور رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ قال : ليس هو عرض من عرض الدنيا ، ولكن هو نصيبك عمرك أن تقدم فيه لآخرتك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ يقول على خير عندي ، وعلم عندي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ يقول : علم الله أني أهل لذلك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ قال : المشركون . لا يسألون عن ذنوبهم ، ولا يحاسبون لدخول النار بغير حساب .

وأخرج الفريابي وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ قال : كقوله ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] سود الوجوه ، زرق العيون ، الملائكة لا تسأل عنهم قد عرفتهم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قال : خرج على براذين بيض ، عليها سرج من أرجوان ، وعليها ثياب معصفرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في قوله ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قال : في ثوبين أحمرين .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي الزبير رضي الله عنه قال : خرج قارون على قومه في ثوبين أحمرين بغير عصفر كالقرمز .

(207/591)

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم النخعي رضي الله عنه في قوله ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قال : في ثياب صفر وحمر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه في قوله ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قال : خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات ، وكان ذلك أول يوم في الأرض رؤيت المعصفرات فيها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قال : في حشمه . وذكر لنا أنهم خرجوا على أربعة الاف دابة ، عليهم ثياب حمر ، منها ألف بغلة بيضاء وعلى دوابهم قطائف الأرجوان .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ فخرج على قومه

في زينته ﴾ قال : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان ، وعليها ثلاثمائة جارية ، على بغال شهب عليهن ثياب حمر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قال : خرج في جوار بيض ، على سروج من ذهب ، على قطف أرجوان ، وهن على بغال بيض ، عليهن ثياب حمر ، وحلى ذهب .

وأخرج ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفي " عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قال " في أربعة آلاف بغل يعني عليه البزيون " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبدة بن أبي لبابة رضي الله عنه قال : أول من صبغ بالسواد قارون .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ قال : أناس من أهل التوحيد قالوا : ﴿ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴾ وفي قوله ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ يعني لا يلقى ثواب الله ، والصواب من القول .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إنه لذو حظ عظيم ﴾ قال : ذو جد .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الحرث رضي الله عنه ؛ وهو ابن نوفل الهاشمي قال : بلغنا أن قارون أوتي من الكنوز والمال حتى جعل باب داره من ذهب ، وجعل داره كلها من صفائح الذهب ، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون ، يطعمهم الطعام ويتحدثون عنده ، وكان مؤذياً لموسى عليه الصلاة والسلام ، فلم تدعه القسوة والهوى حتى أرسل إلى امرأة من بني إسرائيل مذكورة بالجمال كانت تذكر بريبة فقال لها : هل لك أن أموّلك وأعطيك وأخلطك بنسائي على أن تأتيني والملأ من إسرائيل عندي فتقولين : يا قارون ألا تنهي موسى عني ؟ فقالت : بلى . فلمّا جاء أصحابه واجتمعوا عنده ، دعا بها فقامت على رؤوسهم ، فقلب الله قلبها ورزقها التوبة فقالت : ما أجد اليوم توبة أفضل من أن أكذب عدو الله ، وأبرىء رسول الله عليه السلام فقالت : إن قارون بعث إلي فقال : هل لك أن أمولك وأعطيك وأخلطك بنسائي على أن تأتيني والملأ من بني إسرائيل عندي ، وتقولين : يا قارون ألا تنهي موسى عني ، فإني لم أجد اليوم توبة أفضل من أن أكذب عدو الله ، وأبرىء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنكس قارون رأسه وعرف أنه قد هلك .

(209/591)

وفشا الحديث في الناس حتى بلغ موسى عليه السلام ، وكان موسى عليه السلام شديد الغضب . فلما بلغه توضأ ، ثم صلى وسجد وبكى وقال : يا رب . . . عدوك قارون كان لي مؤذياً ، فذكر أشياء ثم لم ينهاه حتى أراد فضيحتي . يا رب سلطني عليه . فأوحى الله إليه : أن مر الأرض بما شئت تطعك . فجاء موسى إلى قارون ، فلما رآه قارون عرف الغضب في وجهه فقال : يا موسى ارحمني فقال موسى عليه السلام : يا أرض خذيهم ، فاضطربت داره وخسف به وبأصحابه حتى تغيبت أقدامهم ، وساخت دارهم على قدر ذلك فقال قارون : يا موسى ارحمني فقال : يا أرض خذيهم ، فخسف به وبداره وبأصحابه ، فلما خسف به قيل له : " يا موسى ما أفظك أما وعزتي لو إياي دعا لرحمته " وقال أبو عمران الجوني : فقيل لموسى : لا أعبد في الأرض بعدك أحداً .

وأخرج الفريابي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ قال : خسف به إلى الأرض السفلى .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن أبي ميمون عن سمرة بن جندب قال : يخسف بقارون وقومه في كل يوم قدر قامة ، فلا يبلغ الأرض السفلى إلى يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أنه يخسف به كل يوم قامة ، وأنه يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : إن الله أمر الأرض أن تطيعه ساعة .

وأخرج عبد بن حميد عن مالك بن دينار رضي الله عنه : أن قارون يخسف به كل يوم قامة .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : لما خسف بقارون فهو يذهب وموسى قريب منه قال : يا موسى ادع ربك يرحمني . فلم يجبه موسى حتى ذهب . فأوحى الله إليه " استغاث بك فلم تغثه ، وعزتي وجلالي لو قال : يا رب لرحمته " .

(210/591)

وأخرج أحمد في الزهد عن عون بن عبد الله القاري عامل عمر بن عبد العزيز على ديوان فلسطين أنه بلغه : أن الله عز وجل أمر الأرض أن تطيع موسى عليه السلام في قارون ، فلما لقيه موسى قال للأرض : أطيعيني فأخذته إلى الركبتين ، ثم قال : أطيعيني فوارته في جوفها ، فأوحى الله إليه " يا موسى ما أشد قلبك ، وعزتي وجلالي لو بي استغاث لأغثته " قال : رب غضباً لك فعلت .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فما

كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ قال : ما كانت عنده منعة يمتنع بها من الله تعالى .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ويكأن الله ﴾ يقول : أو لا يعلم ﴿ أن الله يبسط الرزق ﴾ وفي قوله ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ يقول : أو لا يعلم ﴿ أنه لا يفلح الكافرون ﴾ والله أعلم .

(211/591)

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) ﴾

أخرج المحاملي والديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة رضي الله عنه " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ قال : التجبر في الأرض ، والأخذ بغير الحق " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مسلم البطين رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ قال : العلو التكبر في الأرض بغير الحق . والفساد الأخذ بغير الحق .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله ﴿ لا يريدون علواً في الأرض ﴾ قال : بغيا .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ للذين لا يريدون علواً في الأرض ﴾ قال : تعظماً وتجبراً ﴿ ولا فساداً ﴾ قال : بالمعاصي .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ تلك الدار الآخرة . . . ﴾ قال : نجعل الدار الآخرة ﴿ للذين لا يريدون علواً في الأرض ﴾ قال : التكبر وطلب الشرف والمنزلة عند سلاطينها وملوكها ﴿ ولا فساداً ﴾ قال : لا يعملون بمعاصي الله ، ولا يأخذون المال بغير حقه ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ قال : الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ لا يريدون علواً في الأرض ﴾ قال : الشرف والعز عند ذوي سلطانهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي معاوية الأسود في قوله ﴿ لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ قال : لم ينازعوا أهلها في عزها ، ولا يجزعوا من ذلها .

(212/591)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : إن الرجل ليحب أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه ، فيدخل في هذه الآية ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . أنه كان يمشي في الأسواق وحده وهو وال ، يرشد الضال ، ويعين الضعيف ، ويمر بالبقال والبيع فيفتح عليه القرآن ، ويقرأ ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ ويقول : نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع ، في الولاة وأهل القدرة من سائر الناس .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : " لما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ألقى إليه وسادة فجلس على الأرض فقال : أشهد أنك لا تبغي علواً في الأرض ولا فساداً فأسلم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(213/591)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فِي زِينَتِهِ ﴾ :

إمَّا متعلِّقٌ ب " خَرَجَ " ، وإمَّا بمحذوفٍ على أنه حالٌ مِنْ فاعلِ " خَرَجَ " .

قوله : ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ :

منصوبٌ بمحذوفٍ أي : أَلْزَمَكم اللهُ وَيْلَكم .

قوله : ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَآ ﴾ أي : هذه الخَصْلَةُ ، وهي الزهدُ في الدنيا والرغبةُ فيما عند الله .

قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ﴾ :

المشهورُ كَسْرُ هاءِ الكنايةِ في " به " و " بداره " لأجلِ كسرِ ما قبلَها . وقُرِىءَ بضمِّها . وقد تقدَّم أنها الأصلُ ، وهي لغةُ الحجازِ .

قوله : ﴿ مِن فِئَةٍ ﴾ يجوز أن تكونَ اسمَ كان ، إنْ كانَتْ ناقصةً ، و " له " الخبرُ ، أو " يَنْصُرونه " ، وأَنْ تكونَ فاعلةً إنْ كانَتْ تامَّةً ، و " يَنْصُرونه " صفةٌ ل " فِئَة " فيُحْكَمُ على موضعِها بالجرِّ لفظاً وبالرفعِ معنى ؛ لأنَّ " مِنْ " مزيدةٌ فيها .

قوله : ﴿ وَيْكَأَنَّ اللهَ ﴾ : و " وَيْكَأَنَّه " فيه مذاهبُ منها : أنَّ " وَيْ " كلمةٌ برأسِها وهي اسمُ فعلٍ معناها أَعْجَبُ أي أنا . والكافُ للتعليل ، وأنَّ وما في حَيِّزها مجرورةٌ بها أي : أَعْجب لأنه لا يفلحُ الكافرون ، وسُمِع " كما أنه لا يَعْلَمُ غفر اللهُ له " . وقياسُ هذا القولِ أَنْ يُوْقَفَ على " وَيْ " وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائيُّ . إلاَّ أنه يُنْقل عنه أنه يُعتقدُ في الكلمةِ أنَّ أصلَها : وَيْلَكَ كما سيأتي ، وهذا يُنافي وَقْفَه . وأنشد سيبويه :

3628 وَيْ كأنْ مَنْ يكنْ له نَشَبٌ يُحْ . . . بَبْ ومَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

الثاني : قال بعضهم : قوله : "كأنَّ" هنا للتشبيه ، إلاَّ أنه ذهب منها معناه ، وصارت للخبرِ واليقين . وأنشد :

3629 كأنني حين أُمْسِي لا تُكَلِّمُني . . . مُتَيَّمٌ يَشْتَهي ما ليس موجودا

وهذا أيضاً يناسِبُه الوقفُ على "وَيْ" .

(214/591)

الثالث : أنَّ "وَيْكَ" كلمةٌ برأسِها ، والكافَ حرفُ خطابٍ ، و "أنَّ" معمولُه محذوفٌ أي : أعلمُ أنه لا يُفْلِحُ . قاله الأخفش . وعليه قولُه :

3630 ألا وَيْكَ المَسَرَّةُ لا تَدُوْمُ . . . ولا يَبْقى على البؤسِ النعيمُ

وقال عنترةُ :

3631 ولقد شَفَى نفسي وأَبْرَأَ سُقْمَها / . . . قيلُ الفوارسِ وَيْكَ عنترَ أَقْدِمِ

وحقُّه أَنْ يقفَ على "وَيْكَ" وقد فعله أبو عمرو بن العلاء .

الرابع : أنَّ أصلَها وَيْلك فحذف . وإليه ذهب الكسائيُّ ويونس وأبو حاتم . وحقُّهم أَنْ يقفوا على الكافِ كما فعل أبو عمرٍو . ومَنْ قال بهذا استشهد بالبيتين المتقدمين ؛ فإنه

يُحتمل أَنْ يكونَ الأصلُ فيهما : وَيْلَكَ ، فحذف . ولم يُرسَمْ في القرآن إلاَّ : وَيْكأنَّ ، ويْكَأَنَّه متصلةً في الموضعين ، فعامَّةُ القراءِ اتَّبعوا الرسمَ ، والكسائيُّ وقف على " وَيْ " ، وأبو عمرٍو على وَيْكَ . وهذا كلُّه في وَقْفِ الاختبارِ دونَ الاختيارِ كنظائرَ تقدَّمَتْ .

الخامس : أنَّ " وَيْكأنَّ " كلَّها كلمةٌ متصلةٌ بسيطةٌ ، ومعناها : ألم تَرَ ، وربَّما نُقِل ذلك عن ابن عباس . ونَقَلَ الكسائيُّ والفراء أنها بمعنى : أما ترى إلى صُنْعِ الله . وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى : رَحْمَةً لك ، في لغة حِمْير .

قوله : ﴿ لولا أَن مَّنَّ ﴾ قرأ الأعمشُ " لولا مَنَّ " بحذفِ " أنْ " وهي مُرادةٌ ؛ لأنَّ " لولا " هذه لا يَليها إلاَّ المبتدأُ . وعنه " مَنُّ " برفع النونِ وجَرِّ الجلالةِ وهي واضحةٌ .

(215/591)

قوله : ﴿ لَخَسَفَ ﴾ حفص : " لَخَسَفَ " مبنياً للفاعل أي : الله تعالى . والباقون ببنائِه للمفعولِ . و " بنا " هو القائمُ مَقامَ الفاعلِ . وعبد الله وطلحةُ " لانْخُسِفَ بنا " أي : المكان . وقيل : " بنا " هو القائمُ مَقامَ الفاعلِ ، كقولك " انقُطِع بنا " وهي عبارةٌ . . . وقيل : الفاعلُ ضميرُ المَصدرِ أي : لانخسَفَ الانخسافَ ، وهي عِيٌّ أيضاً . وعن عبدِ الله " لَتُخَسِّفَ " بتاءٍ من فوقُ وتشديدِ السين مبنياً للمفعولِ ، و " بنا " قائمةٌ مقامَه .

قوله : ﴿ تِلْكَ الدار ﴾ :

مبتدأٌ وصفتُه . و " نجعلها " هو الخبرُ . ويجوز أَنْ تكونَ " الدارُ " خبراً ، و " نَجْعَلُها " خبرٌ آخرُ ، أو حالٌ . والأول أحسنُ .

قوله : ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ كَرَّر " لا " لِيُفيدَ أنَّ كلاًّ منهما مستقلٌّ في الآية لا مجموعُهما . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 696.699 ﴾

(216/591)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾

تمنَّى مَنْ رآه مِمَّن كان في حُبِّ الدنيا ساواه أَنْ يُعْطِيَه اللَّهُ مِثْلَ ما أعطاه .

أَمَّا مَنْ كان صاحياً عن خمار غفلته ، مُتَيَقِّظاً بنور بصيرته فكان موقفُهم : -

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصابرون ﴾ .

وبعد أن كان ما كان ، وخسفنا به وبداره الأَرضَ قال هؤلاء .

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ

مَنَّ اللَّهُ علينا فلم نَنْجَرِفْ في نَهْجِه ، ولم ننخرط في سِلْكِه ، وإذاً لَوَقَعَ بنا الهلاكِ .

أَمَّا المُتَمَنُّون مكانَه فقد نَدِمُوا ، وأمّا الراضون بقسمته – سبحانه – فقد سَلِمُوا ؛ سَلِمُوا في العاجل إلى أَنْ تَظْهَرَ سعادتُهم في الآجل .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

قيل " العلو في الدنيا " أَنْ تَتَوَهَّمَ أَنَّ على البسيطة أحداً هو شرٌّ منك .

و" الفساد " أن تتحرك لحظِّ نَفْسِك ونصيبك ونصيبك ولو بنَفَسٍ أو خطوةٍ . . وهذا للأكابر ، فأمَّا للأصاغر والعوام فتلك الدار الآخرة ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلاَ ﴾ كعُلُوِّ فرعون ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ كفَسَادِ قارون .

ويقال الزهاد لا يريدون في الأرض عُلُوّاً ، والعارفون لا يريدون في الآخرة والجنة عُلُوّاً .

ويقال ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الأَخِرَةُ ﴾ للعُبَّادِ والزُّهاد ، وهذه الرحمة الحاضرة لأرباب الافتقار والانكسار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 82 . 83 ﴾

(217/591)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والتسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 84 ﴾ من سورة القصص

وحتى الآية ﴿ 88 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/592)

قوله تعالى ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (85) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما تحرر الفرق بين أهل الدارين ، وكان لا بد من إتيان الآخرة ، وعلم أن الآخرة إنما هي جزاء الأعمال ، وتقرر من كونها للخائفين أنها على الآمنين ، فاستؤنف تفصيل ذلك جواباً

لمن كأنه قال : ما لمن أحسن ومن أساء عند القدوم ؟ بقوله : ﴿ من جاء ﴾ أي في الآخرة أو الدنيا ﴿ بالحسنة ﴾ أي الحالة الصالحة ﴿ فله ﴾ من فضل الله ﴿ خير منها ﴾ من عشرة أضعاف إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما لا يحيط به إلا الله تعالى ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ وهي ما نهى الله عنه ، ومنه إخافة المؤمنين ﴿ فلا يجزى ﴾ من جاز ما ، وأظهر ما في هذا الفعل من الضمير العائد على من فقال : ﴿ الذين عملوا السيئات ﴾ تصويراً لحالهم تقبيحاً لها وتنفيراً من عملها ، ولعله جمع هنا وأفرد أولاً إشارة إلى أن المسيء أكثر ﴿ إلا ﴾ مثله سواء عدلاً منه تعالى ، هكذا كان الأصل ، ولكنه قال : ﴿ ما كانوا ﴾ أي بجميع هممهم ﴿ يعملون ﴾ مبالغة في المثلية ، هذا في الآخرة ، وزادت الآية الإشارة إلى أنه يفعل في الدنيا مثل ذلك وإن خفي ، فسيخافون في حرمهم بما أخافوا المؤمنين فيه وقد جعله الله للأمن ، فاعتلوا عن الدخول في دينه بخوف التخطف من أرضهم ، فسيصير عدم دخولهم فيه سبباً لخوفهم وتخطفهم من أرضهم فيعلمون أن ما كانوا فيه من الأمن إنما هو بسببك ، ثم يصيرون يوم الفتح في قبضتك .

(5/592)

ولما قرر ذكر الآخرة التي هي المرجع وكرره ، وأثبت الجزاء فيها ، وأن العاقبة للمتقين ، أتبعه ما هو في بيان ذلك كالعلة ، فقال مستأنفاً مقرراً مؤكداً لما تقرر في أذهانهم من إنكار الآخرة وما يقتضيه حال خروجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المشرفة من استبعاد رده إليها : ﴿ إن الذي فرض ﴾ أي أوجب ﴿ عليك القرآن ﴾ أي الجامع لما تفرق من المحاسن ، المفصل لما التبس من جميع المعاني ، أي فرض عليك جميع ما في هذا الكتاب المشتمل على الجمع والفرق بما يظهر حسن تلقيه من تلاوة وإبلاغ وتحد وعمل وألزمك فيه وغيرك هذه الملازم ، وكلفكم تلك التكاليف التي منها المقارعة بالسيوف ﴿ لرآدك ﴾ أي بعد الموت لأجل صعوبة ما كلفك به وألزمك من مشقته ﴿ إلى معاد ﴾ أي مرجع عظيم يا له من مرجع ! يجزي فيه كل أحد بما عمل ، فيبعثك ربك فيه ثواباً على إحسانك في العمل مقاماً محموداً يغبطك فيه الأولون والآخرون ، بما عانيت في أمره من هذه المشقات التي لا تحملها الجبال ، ولولا الرد إلى إلى هذا المعاد لكانت هذه التكاليف – التي لا يعمل أكثرهم بأكثرها ولا يجازي على المخالفة فيها – من العبث المعلوم أن العاقل من الآدميين متنزه عنه فكيف بأحكم الحاكمين ! فاجتهد فيما أنت فيه لعز ذلك اليوم فإن العاقبة لك ، والآية مثل قوله تعالى

﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ [البقرة : 281] ، ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ [البقرة : 28] ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ [المائدة : 48] إلى غير ذلك من الآيات ، ويجوز أن يقال : إلى معاد أيّ معاد ، أي مكان هو لعظمته أهل لأن يقصد العودَ إليه كل من خرج منه وهو مكة المشرفة : وطنك الدنيوي ، كما فسرها بذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كما رواه عنه البخاري ، وعود هو لجلالته أهل لأن يذكر لدخولك إليها في جنود يعز بها الإسلام ، ويذل بها الكفر وأهله على الدوام ، والجنة المزخرفة : وطنك الخروي ، على أكمل الوجوه وأعلاها ، وأعزها وأولاها ، فلا تظن أنه يسلك بك سبيل أبويك عليهما الصلاة والسلام : إبراهيم في هجرته من حران بلد الكفر إلى الأرض المقدسة فلم يعد إليها ، وإسماعيل في العلو به من الأرض المقدسة إلى أقدس منها فلم يعد إليها ، بل يسلك لك سبيل أخيك موسى عليه الصلاة والسلام – الذي أنزل عليه الكتاب كما أنزل عليك الكتاب القرآن الفرقان ، والذي أشركوك به في قولهم ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] – في إعادته إلى البلد الذي ذكر في هذه السورة – توطئة لهذه الآية – أنه خرج منه خائفاً يترقب – وهي مصر – إلى مدين في أطراف بلاد العرب ، على وجه أهلك فيه أعداءه ، أما من كان من غير قومه فبالإغراق في الماء ، وأما من كان من قومه فبالخسف في الأرض ، وأعز أولياءه من قومه وغيرهم ، كما خرجت أنت من بلدك مكة خائفاً تترقب

إلى المدينة الشريفة غير أن رجوعك - لكونك نبي الرحمة ، وكون خروجك لم يكن مسبباً عن قتل أحد منهم - لا يكون فيه هلاكهم ، بل عزهم وأمنهم وغناهم وثباتهم ، واختير لفظ القرآن دون الكتاب لما فيه من الجمع من لازم النشر - كما مضى في الحجر ، فناسب السياق الذي هو للنشر والحشر والفصل من بلده ثم الوصل ، فإنه روى أن هذه الآية نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - في الجحفة وهي في طريق الهجرة .

(7/592)

ولما فهم من الإبلاغ في هذا التأكيد أن ثَم من يبالغ في النفي والإنكار على حسب هذا التأكيد في الإثبات فيقول : إن الأمر ليس كذلك ، ولا يعود إلى مكة المشرفة ومنا عين تطرف ، قال مهدداً على طريق الاستئناف على لسانه - صلى الله عليه وسلم - لكون الإنكار تكذيباً له كما كذب موسى - صلى الله عليه وسلم - حين أجاب بمثل ذلك كما تقدم : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء المنكرين لما أخبرتك به : ﴿ ربي ﴾ أي المحسن إليّ ﴿ أعلم ﴾ أي من كل أحد .

ولما كانت هذه القصة مسلمة لا نزاع فيها لعاقل تثبت الخالق ، وكانوا يقولون : من ادعى رجوعه فهو ضال ، توجه السؤال عن المهتدي إلى الصواب والضال ، بما يشهد به فتح مكة

عند الإقبال في أولئك الضراغمة الأبطال ، والسادة الأقيال ، فقال في أسلوب الاستفهام لإظهار الإنصاف والإبعاد من الاتهام : ﴿ من جاء بالهدى ﴾ أي الذي لا أبين منه ، أنا فيما جئت به من ربي بهذا الكلام الذي يشهد الله لي بإعجازه أنه من عنده أم أنتم فيما تقولون من عند أنفسكم ؟ ﴿ ومن هو في ضلال ﴾ أي أنتم في كلامكم الظاهر العوار العظيم العار أم أنا ﴿ مبين ﴾ أي بين في نفسه مظهر لكل أحد ما فيه من خلل وإن اجتهد التابع له في ستره .

(8/592)

ولما كان الجواب لكل من أنصف : هم في ضلال مبين لأنهم ينحتون من عند أنفسهم ما لا دليل عليه ، وأنت جئت بالهدى لأنك أتيت به عن الله ، بني عليه قوله : ﴿ وما ﴾ ويجوز أن تكون الجملة حالاً من الضمير في ﴿ عليك ﴾ وما بينهما اعتراض للاهتمام بالرد على المنكر للمعاد ، أي فرضه عليك والحال أنك ما ، ويجوز أن يقال : لما كان رجوعه إلى مكة غاية البعد لكثرة الكفار وقلة الأنصار ، قربه بقوله معلماً أن كثيراً من الأمور تكون على غير رجاء ، بل وعلى خلاف القياس : وما ﴿ كنت ترجوا ﴾ أي في سالف الدهر بحال من الأحوال ﴿ أن يلقى ﴾ أي ينزل على وجه لم يقدر على رده ﴿ إليك الكتاب ﴾ أي بهذا

الاعتقاد ولا بشيء منه ؛ ولا كان هذا من شأنك ، ولا سمعه أحد منك يوماً من الأيام ، ولا تأهبت لذلك أهبته العادية من تعلم خط أو مجالسة عالم ليتطرق إليك نوع اتهام ، كما يشير إليه قوله تعالى في التي بعدها ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ﴾ [العنكبوت : 48] واختير هنا لفظ الكتاب لأن السياق للرحمة التي من ثمراتها الاجتماع المحكم ، وذلك مدلول الكتاب ؛ ثم قال : ﴿ إلا ﴾ أي لكن ألقي إليك الكتاب ﴿ رحمة ﴾ أي لأجل رحمة عظيمة لك ولجميع الخلائق بك ، لم تكن ترجوها ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بجعلك مصطفى لذلك ، بالدعاء إليه وقصر الهمم عليه ، وعبر بأداة الاستثناء المتصل إشارة إلى أن حاله قبل النبوة من التنزه عن عبادة الأوثان وعن القرب منها والحلف بها وعن والفواحش جميعاً ، ومن الانقطاع إلى الله بالخلوة معه والتعبد له توفيقاً من الله كان حال من يرجو ذلك .

(9/592)

ولما تسبب عما تقدم الاجتهاد في تحريك الهمم إلى العكوف على أمر الله طمعاً فيما عنده سبحانه من الثواب ، وشكراً على إنزال الكتاب ، قال في سياق التأكيد لأن الطبع البشري يقتضي إدراك مظاهرة الكفار لأمر من التوفيق عظيم ، لكثرتهم وقوتهم وعزتهم : ﴿ فلا

تكونن ﴾ إذ ذاك بسبب اتصافهم لك لكثرتهم ﴿ ظهيراً ﴾ أي معيناً ﴿ للكافرين ﴾ بالمكث بين ظهرانيهم ، أو بالفتور عن الاجتهاد في دعائهم ، يأساً منهم لما ترى من بعدهم من الإجابة وإن طال إنذارك ، لا تمل أنت كما لم نمل نحن ، فقد وصلنا لهم القول ، وتابعنا لهم الوعظ والقص ، ونحن قادرون على إهلاكهم في لحظة ، وهدايتهم في أقل لمحة ، وكما أن موسى عليه الصلاة والسلام بعد الإنعام عليه لم يكن ظهيراً للمجرمين ، وهذا تدريب من الله تعالى لأئمة الأمة في الدعاء إلى الله عند كثرة المخالف ، وقلة الناصر المخالف .

ولما كان التواني في النهي عن المنكر إعراضاً عن الأوامر وإن كان المتواني مجتهداً في العمل ، قال مؤكداً تنبيهاً على شدة الأمر لكثرة الأعداء وتتابع الإيذاء والاعتداء : ﴿ ولا يصدنك ﴾ أي الكفار بمبالغتهم في الإعراض وقولهم ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ ونحوه ﴿ عن آيات الله ﴾ أي عن الصدع بها وهي من المتصف بصفات الكمال ، في الأوقات الكائنة ﴿ بعد إذ أنزلت ﴾ أي وقع إنزالها ممن تعلمه منتهياً ﴿ إليك ﴾ مما ترى من أوامرها ونواهيها ، ولقد بين هذا المعنى قوله : ﴿ وادع ﴾ أي أوجد الدعاء للناس ﴿ إلى ربك ﴾ أي المحسن إليك لإحسانه إليك ، وإقباله دون الخلق عليك ، وأعراه من التأكيد اكتفاء بالمستطاع فإن الفعل ليس للمبالغة فيه جداً ، إشارة إلى أن جلب المصالح أيسر خطباً من درء المفاسد ، فإن المطلوب فيه النهاية محدود بالاجتناب .

ولما كان الساكت عن فاعل المنكر شريكاً له ، قال مؤكداً تنبيهاً على الاهتمام بدرء المفاسد ، وأنه لا بد فيه من بلوغ الغاية : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أي معدوداً في عدادهم بترك نهيهم عن شركهم وما يتسبب عنه ساعة واحدة .

(11/592)

ولما كان الكائن من قوم موصوفاً بما اتصف به كل منهم ، وكانت مشاركتهم بالفعل أبعد من مشاركتهم بالسكوت ، قال من غير تأكيد : ﴿ ولا تدع مع الله ﴾ أي الجامع لجميع صفات الكمال ﴿ إلهاً ﴾ ولما كانت النكرة في سياق النهي تعم كما لو كانت في سياق النفي ، وكان المشركون قد تعنتوا لما رأوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو باسم الله واسم الرحمن كما ذكر آخر الإسراء ، قال : ﴿ آخر ﴾ أي غير الله حقيقة دون أن يغاير في الاسم دون الذات ، ومضى في آخر الحجر ، ويأتي إن شاء الله تعالى في الذاريات ما يتضح به هذا المعنى ، والمراد بهذا كله المبالغة في الإنذار إعلاماً بأن تارك النهي عن المنكر مع القدرة شريك للفاعل وإن لم يباشره ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قادر لحراسة الله تعالى له ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي حتى يستحق أن يشتغل به عبد ؛ ثم علل وحدانيته

بقوله : ﴿ كل شيء هالك ﴾ أي هو في قوة الهلاك والفناء ومستحق لذلك لأنه ممكن ﴿ إلا وجهه ﴾ أي هو ، فهو الباقي لأنه الواجب الوجود ، ووجود كل موجود إنما كان به ، ولعله عبر عن الذات بالوجه ليشمل ما قصد به من العمل الصالح مع ما هو معروف من تسويغه لذلك بكونه أشرف الجملة ، وبكون النظر إليه هو الحامل على الطاعة بالاستحياء وما في معناه ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ له ﴾ أي لله وحده فالضمير استخدام ﴿ الحكم ﴾ أي العمل المحكم بالعلم النافذ على كل شيء ، ولا حكم لشيء عليه ﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ في جميع أحوالكم : في الدنيا بحيث أنه لا ينفذ لأحد مراد إلا بإرادته ، وفي الآخرة بالبعث فيجازي المحسن بإحسانه والعاصي بعصيانه ، ولا شك أن هذه الأوامر والنواهي وإن كان خطابها متوجهاً إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالمقصود بها أتباعه ، ولعلها إنما وجهت إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه لأن أمر الرئيس أدعى لأتباعه إلى القبول ، وقد اتضح بهذا البيان ، في هذه المعاني الحسان ، أن هذا الكتاب مبين ،

(12/592)

وبإنفاذ إرادته سبحانه وتعالى في تقوية أهل الضعف من بني إسرائيل دون ما أراد فرعون وقارون وأتباعهما من أهل العلو بطاعة الماء والتراب وما جمع العناصر من اليد والعصا أن

له وحده الحكم على ما يريد ويختار ، فصح أن إليه الرجوع يوم المعاد يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فقد انطبق آخر السورة على أولها ، وانشرح مجملها بمفصلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 528.532 ﴾

(13/592)

فصل

قال الفخر :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علواً في الأرض ولا فساداً ، بل هي للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مّنْهَا ﴾ وفيه وجوه أحدهما : المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير وثانيها : حصل له شيء هو أفضل من تلك الحسنة ، ومعناه أنهم يزادون على ثوابهم وقد مر تفسيره في آخر النمل ، وأما قوله : ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فظاهره أن لا يزادوا على ما يستحقون .

وإذا صح ذلك في السيئات دل أن المراد في الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد

الفضل على الثواب ، قال صاحب "الكشاف" تقدير الآية : ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون ، لكنه كرر ذلك لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ، وهذا من فضله العظيم أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها ، ويجزي بالحسنة عشر أمثالها ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] كرر ذلك الإحسان واكتفى بذكر الإساءة بمرة واحدة ، وفي هذه الآية كرر ذكر الإساءة مرتين واكتفى في ذكر الإحسان بمرة واحدة ، فما السبب ؟ الجواب : لأن هذا المقام مقام الترغيب في الدار الآخرة ، فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب ، لأن المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة إلى الآخرة .

وأما الآية الآخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى .

السؤال الثاني : كيف قال : لا تجزي السيئة إلا بمثلها ؟ مع أن المتكلم بكلمة الكفر إذا مات في الحال عذب أبد الآباد والجواب : لأنه كان على عزم أنه لو عاش أبداً لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه .

(14/592)

قال الجبائي : وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الأطفال عذاباً دائماً بغير جرم ، قلنا لا يجوز أن يفعله وليس في الآية ما يدل عليه ، ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى في ذلك ، شرح له ما يتصل بأحواله فقال : ﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ قال أبو علي : الذي فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت إلى معاد ، وتنكير المعاد لتعظيمه ، كأنه قال إلى معاد وأي معاد ، أي ليس لغيرك من البشر مثله .

وقيل المراد به مكة ، ووجهه أن يراد برده إليها يوم الفتح ، ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وقهره لأهلها وإظهار عز الإسلام وإذلال حزب الكفر والسورة مكية ، فكأن الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهراً ظافراً .

(15/592)

وقال مقاتل : إنه عليه السلام خرج من الغار وسار في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال : تشتاق إلى بلدك ومولدك ، فقال

عليه السلام : نعم ، فقال جبريل عليه السلام : فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ يعني إلى مكة ظاهراً عليهم وهذا أقرب ، لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود ، وذلك لا يليق إلا بمكة ، وإن كان سائر الوجوه محتملاً لكن ذلك أقرب ، قال أهل التحقيق : وهذا أحد ما يدل على نبوته ، لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً ، ثم قال ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاء بالهدى وَمَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ ووجه تعلقه بما قبله أن الله تعالى وعد رسوله الرد إلى معاد ، قال : ﴿ قُلْ ﴾ للمشركين ﴿ رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاء بالهدى ﴾ يعني نفسه وما يستحقه من الثواب في المعاد والإعزاز بالإعادة إلى مكة ﴿ وَمَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يعنيهم وما يستحقون من العقاب في معادهم ، ثم قال لرسوله ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ففي كلمة إلا وجهان أحدهما : أنها للاستثناء ، ثم قال صاحب "الكشاف" : هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل : (وما ألقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) ويمكن أيضاً إجراؤه على ظاهره ، أي وما كنت ترجو إلا أن يرحمك الله برحمته فينعم عليك بذلك ، أي ما كنت ترجو إلا على هذا والوجه الثاني : أن إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أي ولكن رحمة من ربك ألقى إليك ونظيره قوله :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور إِذْ نَادَيْنَا ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِكَ ﴾ [القصص : 46]

خصصك به ، ثم إنه كلفه بأمور أحدها : كلفه بأن لا يكون مظاهراً للكفار فقال : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين ﴾ وثانيها : أن قال : ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءايات الله بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ الميل إلى المشركين ، قال الضحاك وذلك حين دعوه إلى دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطراً من مالهم ، أي لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركن إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله وثالثها : قوله : ﴿ وادع إلى رَبِّكَ ﴾ أي : إلى دين ربك ، وأراد التشدد في دعاء الكفار والمشركين ، فلذلك قال : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ لأن من رضي بطريقتهم أو مال إليهم كان منهم ورابعها : قوله : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ وهذا وإن كان واجباً على الكل إلا أنه تعالى خاطبه به خصوصاً لأجل التعظيم ، فإن قيل الرسول كان معلوماً منه أن لا يفعل شيئاً من ذلك ألبتة فما فائدة هذا النهي ؟ قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلاً في أمورك ، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد ، ثم بين أنه لا إله إلا هو ، أي لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع إلا هو ، كقوله :

﴿ رَبُّ المشرق والمغرب لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فاتخذه وَكِيلاً ﴾ [المزمل : 9] فلا يجوز اتخاذ إله

سواء ، ثم قال : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(17/592)

اختلفوا في قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم ، والمعنى أن الله تعالى يعدم كل شيء سواه ، ومنهم من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به ، إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء ، وإن كانت أجزاؤه باقية ، فإنه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه ، بل خروجه عن كونه منتفعاً به ، ومنهم من قال : معنى كونه هالكاً كونه قابلاً للهلاك في ذاته ، فإن كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلاً للعدم فكان قابلاً للهلاك ، فأطلق عليه اسم الهلاك نظراً إلى هذا الوجه .

(18/592)

واعلم أن المتكلمين لما أرادوا إقامة الدلالة على أن كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا : ثبت أن العالم محدث ، وكل ما كان محدثاً فإن حقيقته قابلة للعدم والوجود ،

وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبداً ، لأن الإمكان من لوازم الماهية ، ولازم الماهية لا يزول قط ، إلا أنا لما نظرنا في هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض ، لأنهم إنما أقاموا الدلالة على حدوث الأجسام والأعراض ، فلو قدروا على إقامة الدلالة على أن ما سوى الله تعالى إما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم ، إلا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ، فالدليل الذي يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ما سوى الله تعالى إلا بعد قيام الدلالة على نفي ذلك القسم الثالث ، ولهم في نفي هذا القسم الثالث طريقان أحدهما : قولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها في الكتب الكلامية والثاني : قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركاً لله تعالى في نفي المكان والزمان والإمكان ، ولو كان كذلك لصار مثلاً لله تعالى وهو ضعيف ، لاحتمال أن يقال إنهما وإن اشتركا في هذا السلب إلا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة ، وإذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلي لا يفي بإثبات أن كل شيء هالك إلا وجهه ، والذي يعتمد عليه في هذا الباب أن نقول ثبت أن صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته ، وإلا لاشتركا في الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته ، وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركباً عما به المشاركة وعما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر إلى جزئه ، ثم إن الجزأين إن كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب ومتمايزين

باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضاً ويلزم التسلسل وهو محال ، وإن لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر إليهما أولى أن لا

(19/592)

يكون واجباً ، فثبت أن واجب الوجود واحد وأن كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح ، وافتقاره إلى المرجح ، إما حال عدمه أو حال وجوده ، فإن كان الأول ثبت أنه محدث ، وإن كان الثاني فافتقار الموجود إلى المؤثر ، إما حال حدوثه أو حال بقائه ، والثاني باطل لأنه يلزم إيجاد الموجود وهو محال فثبت أن الافتقار لا يحصل إلا حال الحدوث ، وثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزاً أو قائماً بالمتحيز أو لا متحيزاً ولا قائماً بالمتحيز ، فإن نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته ، فاعلم أن هناك فرقاً قوياً وإذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت أن كل ما كان محدثاً كان قابلاً للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شيء هالك إلا وجهه ، بمعنى كونه قابلاً للهلاك والعدم ، ثم إن الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لأنه سبحانه حكم بكونها هالكة في الحال ، وعلى ما قلناه فهي هالكة في الحال ، وعلى ما قلتموه أنها ستهلك لا إنها هالكة في الحال ، فكان قولنا أولى وأيضاً فالممكن إذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقاً لا للوجود ولا للعدم من ذاته ، فهذه

الاستحقاقية مستحقة له من ذاته ، وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالإنسان الفقير الذي استعار ثوباً من رجل غني ، فإن الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيراً كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي ، وإنما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح أنها أبداً هالكة من حيث هي هي ، أما الذين حملوه على أنها ستعدم فقد احتجوا بأن قالوا : الهلاك في اللغة له معنيان أحدهما : خروج الشيء عن أن يكون منتفعاً به الثاني : الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الأول لأن هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال ، لأنها وإن تفرقت أجزاؤها فإنها منتفع بها لأن النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم ، وهذه المنفعة باقية سواء

(20/592)

بقيت متفرقة أو مجتمعة ، وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة .

وإذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء .

أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال : هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التي يكون الشيء مطلوباً لأجلها ، فإذا مات الإنسان قيل هلك لأن الصفة المطلوبة منه حياته وعقله ،

وإذا تمزق الثوب قيل هلك ، لأن المقصود منه صلاحيته للبس ، فإذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لأجلها كانت منتفعاً بها انتفاعاً خاصاً ، فلا جرم صح إطلاق اسم الهالك عليها فأما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقمر من حيث هو قمر ، فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء أجزاء العالم بقوله :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرض غَيْرَ الأَرض ﴾ [إبراهيم : 48] وهذا صريح بأن تلك الأجزاء باقية إلا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الموضع .

المسألة الثانية :

احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شيء ، قالوا لأنه استثنى من قوله : ﴿ كُلّ شَيْء ﴾ استثناء يخرج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت اللفظ ، فوجب كونه شيئاً يؤكده ما ذكرناه في سورة الأنعام ، وهو قوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْء أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله ﴾ [الأنعام : 19] واحتجاجهم على أنه ليس بشيء بقوله : ﴿ لَيْس كَمِثْلِهِ شَيْء ﴾ [الشورى : 11] والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شيء ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيئاً ، جوابه : أن الكاف صلة زائدة .

المسألة الثالثة :

استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين الأول : قالوا الآية صريحة في إثبات الوجه وذلك يقتضي الجسمية والثاني : قوله : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وكلمة إلى لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل إلا في الأجسام والجواب : لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه إلا الوجه ، وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة .

وهو بيان ابن سمعان وذلك لا يقول به عاقل ، ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الأمر كذا أي حقيقته ، ومنهم من قال الوجه صلة ، والمراد كل شيء هالك إلا هو ، وأما كلمة إلى فالمعنى وإلى موضع حكمه وقضائه ترجعون .

المسألة الرابعة :

استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين ، قالوا لأن الآية تقتضي فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا ، وهذا يناقض قوله تعالى في صفة الجنة : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ [الرعد : 35] والجواب : هذا معارض بقوله تعالى في صفة الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ للمتقين ﴾ [آل عمران : 133] وفي صفة النار ﴿ وَقُودُهَا الناس والحجارة أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [البقرة : 24] ثم إما أن يحمل قوله : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ ﴾ على الأكثر ، كقوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن

كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : 23] أو يحمل قوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ على أن زمان فنائهما لما كان قليلاً بالنسبة إلى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه .

المسألة الخامسة :

قوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ يدل على أن الذات ذات بالفعل ، لأنه حكم بالهلاك على الشيء فدل على أن الشيء في كونه شيئاً قابل للهلاك ، فوجب أن لا يكون المعدوم شيئاً ، والله أعلم .

والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 18 . 22 ﴾

(22/592)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾

فيه خمسة تأويلات

: أحدها : أنزل عليك القرآن ، قاله يحيى ابن سلام والفراء .

الثاني : أعطاكه ، قاله مجاهد .

الثالث : أوجب عليك العمل به ، حكاه النقاش .

الرابع : حمّلك تأديته وكلفك إبلاغه ، حكاه ابن شجرة .

الخامس : بينه على لسانك ، قال ابن بحر .

ويحتمل سادساً : أي قدر عليك إنزاله في أوقاته لأن الفرض التقدير .

﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ فيه خمسة أوجه

: أحدها : إلى مكة ، قاله مجاهد والضحاك وابن جبير ، والسدي .

الثاني : إلى بيت المقدس ، قاله نعيم القاري .

الثالث : إلى الموت ، قاله ابن عباس وعكرمة .

الرابع : إلى يوم القيامة ، قاله الحسن .

الخامس : إلى الجنة ، قاله أبو سعيد الخدري .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في الجحفة حين عسف به الطريق إليها فليست مكية ولا مدنية .

قوله تعالى : ﴿ . . . كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : معناه إلا هو ، قاله الضحاك .

الثاني : إلا ما أريد به وجهه ، قاله سفيان الثوري .

الثالث : إلا ملكه ، حكاه محمد بن إسماعيل البخاري .

الرابع : إلا العلماء فإن علمهم باق ، قاله مجاهد .

الخامس : إلا جاهه كما يقال لفلان وجه في الناس أي جاه ، قاله أبو عبيدة .

السادس : الوجه العمل ومنه قولهم : من صلى بالليل حسن وجه بالنهار أي عمله . وقال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه . . . رب العباد إليه الوجه والعمل

﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : القضاء في خلقه بما يشاء من أمره ، قاله الضحاك وابن شجرة .

الثاني : أن ليس لعباده أن يحكموا إلا بأمره ، قاله ابن عيسى .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فيثيب المحسن ويعاقب المسيء ، والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(23/592)

وقال ابن عطية :

ثم وصف تعالى أمر جزاء الآخرة أنه ﴿ من جاء ﴾ بعمل صالح ﴿ فله خير ﴾ من القدر الذي يقتضي النظر أنه موازٍ لذلك العمل هذا على أن نجعل " الحسنة " للتفضيل ، وفي القول حذف مضاف أي من ثوابها الموازي لها ويحتمل أن تكون ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية أي له خير بسبب حسنته ومن أجلها .

وأخبر تعالى أن السيئة لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه ورحمة ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ ، معناه أنزله عليك وأثبته ، والفرض أصله عمل فرضة في عود أو نحوه فكأن الأشياء التي تثبت وتمكن وتبقى تشبه ذلك الفرض ، وقال مجاهد معناه أعطاك القرآن وقالت فرقة في هذا القول حذف مضاف ، والمعنى " فرض عليك أحكام القرآن " ، واختلف المتأولون في معنى قوله ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ ، فقال جمهور المتأولين : أراد إلى الآخرة ، أي باعثك بعد الموت ، فالآية على هذا مقصدها إثبات الحشر والإعلام بوقوعه ، وقال ابن عباس وأبو سعيد الخدري وغيرهما : " المعاد " الجنة وقال ابن عباس أيضاً وجماعة : " المعاد " الموت .

قال الفقيه الإمام القاضي : فكأن الآية على هذا واعظة ومذكرة ، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد " المعاد " مكة ، وهذه الآية نزلت في الجحفة مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته إلى المدينة ، قال أبو محمد : فالآية على هذا معلمة بغيب قد ظهر للأمة ومؤنسة بفتح ، و" المعاد " الموضع الذي يعاد إليه وقد اشتهر به يوم القيامة لأنه معاد الكل ، وقوله تعالى : ﴿ قل ربي أعلم ﴾ الآية ، آية متاركة للكفار وتوبيخ ، وأسند الطبري في تفسير قوله ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال إلى الجنة ، قال وسماها معاداً إما من حيث قد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم في الإسراء وغيره وإما من حيث قد كان فيها آدم عليه السلام فهي معاد لذريته .

(24/592)

قال الفقيه الإمام القاضي : وإنما قال هذا من حيث تعطي لفظة " المعاد " أن المخاطب قد كان في حال يعود إليها وهذا وإن كان مما يظهر في اللفظ فيتوجه أن يسمى معاداً ما لم يكن المرء قط فيه تجوزاً ، ولأنها أحوال تابعة للمعاد الذي هو النشور من القبور .

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86)

(25/592)

قال بعض المفسرين : قوله تعالى : ﴿ وما كنت ترجو ﴾ الآية ابتداء كلام مضمنه تعديد النعمة على محمد صلى الله عليه وسلم وأن الله تعالى رحمه رحمة لم يحتسبها ولا بلغها أمله ، وقال بعضهم بل هو متعلق بقوله تعالى ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ [القصص : 85] أي وأنت بحال من لا يرجو ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ يلقى إليك ﴾ عبارة عن تقليده النبوءة وتبليغ القرآ ، . كما تقول : ألقى فلان إلى فلان بالرياسة ونحو هذا ، وقوله تعالى : ﴿ إلا رحمة ﴾ نصب على استثناء منقطع ، و" الظهير " المعين أي اشتد يا محمد في

تبليغك ولا تلن ولا تفشل فتكون معونة للكافرين بهذا الوجه أي بالفتور عنهم ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يصدنك ﴾ ، أي بأقوالهم وكذبهم وأذاهم ، ولا تلتفت نحوه وامض لشأنك ، وقرأ يعقوب " ولا يصدنْك " بجزم النون ، وقوله ﴿ وادع إلى ربك ﴾ ، وجميع الآيات تتضمن المهادنة والموادعة ، وهذا كله منسوخ بآية السيف ، وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه من تعظيم أوثانهم وعند ذلك ألقى الشيطان في أمنيته أمر الغرانيق ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر ﴾ نهي عما هم بسبيله ، فهم المراد وإن عري اللفظ من ذكرهم ، وقوله تعالى : ﴿ إلا وجهه ﴾ قالت فرقة : هي عبارة عن الذات ، المعنى هالك إلا هو ، قاله الطبري وجماعة منهم أبو المعالي رحمه الله ، وقال الزجاج : إلا إياه ، وقال سفيان الثوري : المراد إلا ذا وجهه ، أي ما عمل لذاته ومن طاعته وتوجه به نحوه ومن هذا قول الشاعر :

(26/592)

" رب العباد إليه الوجه والعمل " . . . ومنه قول القائل أردت بفعلي وجه الله تعالى ومنه قوله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ [الأنعام : 52] وقوله تعالى : ﴿ له الحكم ﴾ أي فصل القضاء وإنفاذ القدرة في الدنيا

والآخرة ، وقوله : ﴿ وإليه ترجعون ﴾ إخبار بالحشر والعودة من القبور ، وقرأ الجمهور " تُرجَعون " بضم التاء وفتح الجيم ، وقرأ عيسى " تَرجِعون " بفتح التاء وكسر الجيم ، وقرأ أبو عمرو بالوجهين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(27/592)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ مَنْ جاء بالحسنة ﴾ قد فسرناه في سورة [النمل : 89] .

قوله تعالى : ﴿ فلا يُجزى الذين عَمِلوا السَّيِّئات ﴾ يريد الذين أشركوا ﴿ إِلاَّ ما كانوا يَعْمَلون ﴾ أي : إلاَّ جزاء عملهم من الشّرك ، وجزاؤه النَّار .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عليكَ القُرآنَ ﴾

قال مقاتل : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغار ليلاً ، فمضى من وجهه إلى المدينة فسار في غير الطريق مخافة الطَّلب ؛ فلمَّا أَمِن رجع إلى الطريق فنزل الجُحْفَة بين مكة والمدينة ، فعرف الطريق إلى مكة ، فاشتاق إليها ، وذكر مولده ، فأتاه جبريل فقال : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ قال : نعم ؛ قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عليك القرآن لرادُّك إلى مَعَادٍ ﴾ ، فنزلت هذه الآية بالجُحْفة .

وفي معنى ﴿ فَرَضَ عليكَ ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : فرض عليك العمل بالقرآن ، قاله عطاء بن أبي رباح ، وابن قتيبة .

والثاني : أعطاك القرآن ، قاله مجاهد .

والثالث : أنزل عليك القرآن ، قاله مقاتل ، والفراء ، وأبو عبيدة .

وفي قوله : ﴿ لرادُّكَ إلى مَعادٍ ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : إلى مكة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في رواية ، والضحاك .

قال ابن قتيبة : مَعَادُ الرَّجُل : بلدُه ، لأنه يتصرَّف [في البلاد ويَضْرِب في الأرض] ثم يعود إلى بلده .

والثاني : إلى معادك من الجنة ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، والزهري .

فإن اعتُرض على هذا فقيل : الرَّدُّ يقتضي أنه قد كان فيما رُدَّ إليه ؛ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنَّه لمَّا كان أبوه آدم في الجنة ثم أُخرج ، كان كأنَّ ولده أُخرج منها ، فإذا دخلها فكأنه أُعيد .

والثاني : أنَّه دخلها ليلة المعراج ، فإذا دخلها يوم القيامة كان ردّاً إليها ، ذكرهما ابن جرير .

والثالث : أن العرب تقول : رجع الأمر إلى كذا ، وإن لم يكن له كَوْن فيه قطّ ، وأنشدوا :

[وما المَرْءُ إلاَّ كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ] . . .

يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذ هُوَ سَاطِعُ

وقد شرحنا هذا في قوله ﴿ وإلى الله تُرْجَعُ الأمور ﴾ [البقرة : 210] .

والثالث : لَرَادُّكَ إلى الموت ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال أبو سعيد الخدري .

والرابع : لَرَادُّكَ إلى القيامة بالبعث ، قاله الحسن ، والزهري ، ومجاهد في رواية ، والزجاج .

ثم ابتدأ كلاماً يَرُدُّ به على الكفار حين نسبوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الضَّلال ، فقال : ﴿ قُلْ رَبِّي أعلمُ مَنْ جاء بالهُدى ﴾ ؛ والمعنى : قد علم أَنِّي جئت بالهُدى ، وأَنَّكم في ضلال مبين ، ثم ذَكَّرهُ نِعَمَه فقال : ﴿ وما كُنْتَ ترجو أن يُلْقَى إليكَ الكتابُ ﴾ أي : أن تكون نبيّاً وأن يوحى إليكَ القرآنُ ﴿ إلاَّ رَحْمَةً مِنْ ربّكَ ﴾ قال الفراء : هذا استثناء منقطع ، والمعنى : إلاَّ أنَّ ربَّكَ رَحِمَكَ فأنزله عليك ﴿ فلا تَكُونَنَّ ظَهيراً للكافرين ﴾ أي : عَوْناً لهم على دينهم ، وذلك أَنَّهم دَعوه إلى دين آبائه فأُمر بالاحتراز منهم ؛ والخطاب بهذا وأمثاله له ، والمراد أهل دينه لئلاَّ يُظاهِروا الكفَّار ولا يوافقوهم .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شيء هالكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ فيه قولان .

أحدهما : إلا ما أُرِيدَ به وجهُه ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الثوري .

والثاني : إلاَّ هو ، قاله الضحاك ، وأبو عبيدة .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ الحُكْم ﴾ أي : الفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره ﴿ وإليه تُرْجَعُونَ ﴾ في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(29/592)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ تقدّم في "النمل" .

وقال عكرمة : ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله .

وإنما المعنى من جاء بلا إله إلا الله فله منها خير .

﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة ﴾ أي بالشرك ﴿ فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي يعاقب بما يليق بعمله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾

ختم السورة ببشارة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بردّه إلى مكة قاهراً لأعدائه .

وقيل : هو بشارة له بالجنّة .

والأوّل أكثر .

وهو قول جابر ابن عبد الله وابن عباس ومجاهد وغيرهم .

قال القتبي : معاد الرجل بلده ؛ لأنه ينصرف ثم يعود .

وقال مقاتل : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من الغار ليلاً مهاجراً إلى المدينة في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما رجع إلى الطريق ونزل الجحفة عرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها ، فقال له جبريل إن الله يقول : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ أي إلى مكة ظاهراً عليها .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالجُحفة ليست مكية ولا مدنية .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ إِلى مَعَادٍ ﴾ قال : إلى الموت .

وعن مجاهد أيضاً وعكرمة والزهري والحسن : إن المعنى لرادّك إلى يوم القيامة ؛ وهو اختيار الزجاج .

يقال : بيني وبينك المعاد ؛ أي يوم القيامة ؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء و ﴿ فَرَضَ ﴾ معناه أنزل .

وعن مجاهد أيضاً وأبي مالك وأبي صالح : ﴿ إِلى مَعَادٍ ﴾ إلى الجنة .

وهو قول أبي سعيد الخدري وابن عباس أيضاً ؛ لأنه دخلها ليلة الإسراء .

وقيل : لأن أباه آدم خرج منها .

﴿ قُل ربي أَعْلَمُ ﴾ أي قل لكفار مكة إذا قالوا إنك لفي ضلال مبين ﴿ ربي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بالهدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أنا أم أنتم .

(30/592)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب ﴾ أي ما علمت أننا نرسلك إلى الخق وننزل عليك القرآن .

﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ قال الكسائي : هو استثناء منقطع بمعنى لكن .

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴾ أي عوناً لهم ومساعداً .

وقد تقدّم في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ الله بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ يعني أقوالهم وكذبهم وأذاهم ، ولا تلتفت نحوهم وامض لأمرك وشأنك .

وقرأ يعقوب : ﴿ يَصُدُّنْكَ ﴾ مجزوم النون .

وقرى : ﴿ يُصِدُّنَّكَ ﴾ من أصدّه بمعنى صدّه وهي لغة في كلب .

قال الشاعر :

أُنَاسٌ أصدوا الناسَ بالسيف عنهم . . .

صُدُودَ السَّوَاقِي عن أنوفِ الحَوَائم

﴿ وادع إلى ربِّكَ ﴾ أي إلى التوحيد .

وهذا يتضمن المهادنة والموادعة .

وهذا كله منسوخ بآية السيف .

وسبب هذه الآية ما كانت قريش تدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تعظيم أوثانهم ، وعند ذلك ألقى الشيطان في أمنيته أمر الغَرَانيق على ما تقدّم .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ ﴾ أي لا تعبد معه غيره فإنه لا إله إلا هو .

نفي كل معبود وإثبات لعبادته .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ قال مجاهد : معناه إلا هو وقال الصادق : دينه .

وقال أبو العالية وسفيان : أي إلا ما أريد به وجهه ؛ أي ما يقصد إليه بالقربة .

قال :

أستغفرُ اللَّهَ ذنباً لستُ مُحْصِيَه . . .

ربَّ العبادِ إليه الوَجْهُ والعملُ

وقال محمد بن يزيد : حدّثني الثوري قال سألت أبا عبيدة عن قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ فقال : إلا جاهه ، كما تقول لفلان وجه في الناس أي جاه .

﴿ لَهُ الحكم ﴾ في الأولى والآخرة ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

قال الزجاج : ﴿ وَجْهَهُ ﴾ منصوب على الاستثناء ، ولو كان في غير القرآن كان إلا وجهه بالرفع ، بمعنى كل شيء غير وجهه هالك كما قال :

(31/592)

وكلُّ أخٍ مُفارقُهُ أخوه . . .

لَعَمْرُ أبيكَ إلاّ الْفَرْقَدَانِ

والمعنى كل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بمعنى ترجعون إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(32/592)

وقال أبو حيان :

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ ﴾

﴿ فله خير منها ﴾ : يحتمل أن يكون خير أفعل التفضيل ، وأن يكون واحد الخيور ، أي فله خير بسبب فعلها ، ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : ﴿ فلا يجزى الذين عملوا السيئات ﴾ ، تهجيناً لحالهم وتبغيضاً للسيئة إلى قلوب السامعين ، ففيه بتكراره ما ليس فيه لو كان : فلا يجزون بالصهر ، وما كانوا على حذف مثل ، أي إلاّ مثل ما كانوا يعملون ، لأن جزاء السيئة سيئة مثلها ، والحسنة بعشر أمثالها .

﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ ، قال عطاء : العمل به ؛ ومجاهد : أعطاكه ؛ ومقاتل : أنزله عليك ، وكذا قال الفراء وأبو عبيدة .

وقال الزمخشري : أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ؛ يعني أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف ليثيبك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف .

والمعاد ، قال الجمهور : في الآخرة ، أي باعثك بعد الموت ، ففيه إثبات الجزاء والإعلام بوقوعه .

وعن ابن عباس ، وأبي سعيد الخدري : المعاد : الموت .

وقيل : بيت المقدس .

وقيل : الجنة ، وكان قد دخلها ليلة المعراج .

وقال ابن عباس أيضاً ، ومجاهد : المعاد : مكة ، أراد رده إليها يوم الفتح ، ونكره ، والمقصود التعظيم ، أي معاد أي معاد ، أي له شأن لغلبة الرسول عليها وقهره لأهلها ،

ولظهور عز الإسلام وأهله ، فكأن الله وعده وهو بمكة أنه يهاجر منها ويعود إليها ظافراً ظاهراً .

وقيل : نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره ، وقد اشتاق إليها ، فقال له جبريل : أتشتاق إليها ؟ قال : نعم ، فأوحاها إليه .

ومن منصوب بإضمار فعل ، أي يعلم من جاء بالهدى ، ومن أجاز أن يأتي أفعل بمعنى فاعل ، وأجاز مع ذلك أن ينصب به ، جاز أن ينتصب به ، إذ يؤوله بمعنى عالم ، ويعطيه حكمه من العمل .

(33/592)

ولما وعده تعالى أنه يرده إلى معاد ، وأنه تعالى فرض عليه القرآن ، أمره أن يقول للمشركين ذلك ، أي هو تعالى عالم بمن جاء بالهدى ، وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وبما يستحقه من الثواب في معاده ، وهذا إذا عنى بالمعاد ما بعد الموت .

ويعني بقوله : ﴿ ومن هو في ضلال مبين ﴾ : المشركين الذين أمره الله بأن يبلغهم ذلك ، هو عالم بهم ، وبما يستحقونه من العقاب في معادهم ، وفي ذلك متاركة للكفار وتوبيخ .

﴿ وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب ﴾ : هذا تذكير لنعمه تعالى على رسوله ، وأنه

تعالى رحمه رحمة لم يتعلق بها رجاؤه .

وقيل : بل هو معلق بقوله : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ ، وأنت بحال من لا يرجو ذلك ، وانتصب رحمة على الاستثناء المنقطع ، أي لكن رحمة من ربك سبقت ، فألقى إليك الكتاب .

وقال الزمخشري : هذا كلام محمول على المعنى ، كأنه قيل : وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك . انتهى .

فيكون استثناء متصلاً ، إما من الأحوال ، وإما من المفعول له .

وقرأ الجمهور : يصدنك ، مضارع صد وشدوا النون ، ويعقوب كذلك ، إلا أنه خففها .

وقرىء : يصدنك ، مضارع أصد ، بمعنى صد ، حكاه أبو زيد ، عن رجل من كلب قال : وهي لغة قومه ، وقال الشاعر :

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم . . .

صدود السواقي عن أنوف الحوائم

﴿ بعد إذ أنزلت إليك ﴾ : أي بعد وقت إنزالها ، وإذ تضاف إليها أسماء الزمان كقوله : ﴿ بعد إذ هديتنا ﴾ ويومئذ ، وحينئذ .

قال الضحاك : وذلك حين دعوه إلى دين إبائه ، أي لا تلتفت إلى هؤلاء ولا تركن إلى قولهم ، فيصدونك عن اتباع آيات الله .

﴿ وادع إلى ربك ﴾ : أي دين ربك ، وهذه المناهي كلها ظاهرها أنها للرسول ، وهي في الحقيقة لأتباعه ، والهلاك يطلق بإزاء العدم المحض ، فالمعنى : أن الله يعدم كل شيء سواه .

(34/592)

وبإزاء نفي الانتفاع به ، إما للإمانة ، أو بتفريق الأجزاء ، وإن كانت نافية يقال : هلك الثوب ، لا يريدون فناء أجزائه ، ولكن خروجه عن الانتفاع به .

ومعنى : ﴿ إلا وجهه ﴾ : إلا إياه ، قاله الزجاج .

وقال مجاهد ، والسدي : هالك بالموت إلا العلماء ، فإن علمهم باق . انتهى .

ويريدون إلا ما قصد به وجهه من العلم ، فإنه باق .

وقال الضحاك : إلا الله عز وجل ، والعرش ، والجنة ، والنار .

وقيل : ملكه ، ومنه : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ وقال أبو عبيدة : المراد بالوجه : جاهه الذي جعله في الناس .

وقال سفيان الثوري : إلا وجهه ، ما عمل لذاته ، ومن طاعته ، وتوجه به نحوه ، ومنه قول الشاعر :

رب العباد إليه الوجه والعمل . . .

وقوله : يريدون وجهه .

﴿ له الحكم ﴾ : أي فصل القضاء .

﴿ إليه ترجعون ﴾ : أي إلى جزائه .

وقرأ عيسى : ترجعون ، مبنياً للفاعل ؛ والجمهور : مبنياً للمفعول . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(35/592)

وقال أبو السعود :

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ ﴾ بمقابلِتها ﴿ خَيْرٌ مّنْهَا ﴾ ذاتاً ووصفاً وقدراً ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى الذين عَلِمُواْ السيئات ﴾ وُضع فيه الموصولُ والظَّاهرُ موضعَ الضَّميرِ لتهجينِ حالِهم بتكريرِ إسنادِ السَّيئةِ إليهم ﴿ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا مثل ما كانُوا يعملون فحُذفَ المثلُ وأُقيم مقامَه ما كانُوا يعملون مبالغةً في المُماثلةِ .

﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان ﴾

(36/592)

أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ به ﴿ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ أي معادٍ تمتدُّ إليه أعناقُ الهممِ وترنُو إليه أحداقُ الأممِ وهو المقامُ المحمودُ الذي وعدك أنْ يبعثك فيه ، وقيل هو مكَّةُ المعظَّمةُ على أنَّه تعالى قد وعدَه وهو بمكَّةَ في أذيَّةٍ وشدَّةٍ من أهلها أنَّه يُهاجرُ به منها ثم يعيدُه إليها بعزَ ظاهرٍ وسلطانٍ قاهرٍ ، وقيل : نزلتْ عليه حينَ بلغ الجُحْفةَ في مهاجرِه وقد اشتاق إلى مولده ، ومولدِ آبائِه وحرمِ إبراهيمَ عليه السَّلام فنزلَ جبريلُ عليه السَّلامُ فقال له أتشتاقُ إلى مكَّةَ قال نعمَ فأَوحاها إليهِ ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاء بالهدى ﴾ وما يستحقُّه من الثَّوابِ والنَّصرِ . ومَن منتصبٌ بفعلٍ يدلُّ عليهِ أعلمُ أي يعلمُ وقيل : بأعلمُ على أنَّه بمعنى عالمٍ . ﴿ وَمَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ وما استحقَّه من العذابِ والإذلالِ يعني بذلك نفسَه والمشركينَ وهو تقريرٌ للوعيدِ السَّابقِ وكذا قولُه تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب ﴾ أي سيردُّك إلى معادِك كما ألقى أليك الكتابَ وما كنتَ ترجُوه ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مّن رَّبِّكَ ﴾ ولكن ألقاه إليك رحمةً منه ويجوزُ أنْ يكون استثناءً محمُولاً على المعنى كأنَّه قيل : وما ألقي إليك الكتاب إلا رحمةً أي لأجلِ التَّرحُّمِ ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين ﴾ بمدارتِهم والتحملِ عنهم والإجابةِ إلى طلبتِهم ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ ﴾ أي الكافرون ﴿ عَنْ ءايات الله ﴾ أي عن قراءتِها والعملِ بها ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ وفُرضت عليكَ وقُرِىءَ يُصِدُّنك من أَصَدَ المنقُولِ من صَدَّ اللازمِ ﴿ وادع ﴾ النَّاسَ ﴿ إلى رَبِّكَ ﴾ إلى

عبادِته وتوحيدِه ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ بمساعدتِهم في الأمورِ ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ هذا وما قبلَهُ للتَّهييجِ والألهابِ وقطعِ أطماعِ المُشركينَ عن مساعدتِه عليهِ

(37/592)

الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم وإظهارِ أنَّ المنهيَّ عنه في القُبحِ والشرِّيَّةِ بحيثُ يُنهى عنْهُ من لا يمكن صدورُه عنه أصلاً ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ وحدَهُ ﴿ كُلُّ شَىْء هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ إلا ذاتَه فإنَّ ما عداهُ كائناً ما كان ممكنٌ في حدِّ ذاتِه عرضةٌ للهلاكِ والعدمِ ﴿ لَهُ الحكم ﴾ أي القضاءُ النافذُ في الخلقِ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ عندَ البعثِ للجزاءِ بالحقِّ والعدلِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(38/592)

وقال الآلوسى :

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ ﴾

بمقابلتها ﴿ خَيْرٌ مّنْهَا ﴾ ذاتاً ووصفاً وقدراً على ما قيل ، وجوز كون ﴿ خَيْرٌ ﴾

واحد الخيور وليس بأفعل التفضيل و﴿ مِنْ ﴾ سببية أي فله خير بسبب فعلها وهو خلاف الظاهر ، وقد تقدم الكلام في ذلك ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يَجْزِى الذين عَمِلُواْ السيئات ﴾ وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حال المسيئين بتكرير إسناد السيئة إليهم ، وفي جمع السيئات دون الحسنة قيل إشارة إلى قلة المحسنين وكثرة المسيئين ، وقد يقال : إنه إشارة إلى أن ضم السيئة إلى السيئة لا يزيد جزاءها بل جزائها إذا انفردت مثل جزائها إذا انضم إليها غيرها وأن عدم ضم الحسنة إلى الحسنة لا يؤثر في مقابلتها بما هو خير منها ، ولعل قلة المحسنين يفهم من عدم اعتبار الجمعية في ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مّنْهَا ﴾ وكثرة المسيئين تفهم من اعتبار الجمعية فيها إذ الموصول قائم مقام ضميرها في قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يَجْزِى الذين عَمِلُواْ السيئات ﴾ ﴿ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي إلا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه ما كانوا يعملون مبالغة في المماقلة ، وهذا لطف منه عز وجل إذ ضاعف الحسنة ولم يرض بزيادة جزاء السيئة مقدار ذرة ، وقيل : لا حاجة إلى اعتبار المضاف فإن أعمالهم أنفسها تظهر يوم القيامة في صورة ما يعذبون به ، ولا يخفى ما فيه ، وفي ذكر عملوا ثانياً دون جاؤوا إشارة إلى أن ما يجزون عليه ما كان عن قصد لأن العمل يخصه كما قال الراغب ، وفي التفسير الكبير للإمام الرازي في أثناء الكلام على تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أصحاب الكهف والرقيم ﴾ [الكهف : 9] الآية أن في التعبير بجاء دون عمل

بأن يقال : من عمل الحسنة فله خير منها ومن عمل السيئة الخ دلالة على أن استحقاق الثواب أي والعقاب مستفاد من الخاتمة لا من أول العمل ، ويؤكد ذلك أنه لو مضي عمره في الكفر ثم

(39/592)

أسلم في آخر الأمر كان من أهل الثواب وبالضد ، ولا يخلو عن حسن ، ولعل نكتة التعبير بعملوا ثانياً تتأتى عليه أيضاً .

(40/592)

وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَجْزِى ﴾ الخ دون فللذين عملوا السيئات ما كانوا يعملون أو فما للذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون إشارة إلى أنه قد يحصل العفو عن العقاب ، ولله تعالى در التنزيل ما أكثر أسراره ، واستشكل ما تدل عليه الآية من أن جزاء السيئة مثلها بأن من كفر فمات على الكفر يعذب عذاب الأبد ، وأين هو من كفر ساعة ؟ وأجيب بأن أمر المماثلة مجهول لنا لا سيما على القول بنفي الحسن والقبح العقليين للأفعال ، وقصارى ما

نعلم أن الله تعالى جعل لكل ذنب جزاء أخبر عز وجل أنه مماثل له ، وقد أخبر سبحانه أن جزاء الكفر عذاب الأبد فنؤمن به وبأنه مما تقتضيه الحكمة وما علينا إذا لم نعلم جهة المماثلة ووجه الحكمة فيه ، وكذا يقال في الذنوب التي شرع الله تعالى لها حدوداً في الدنيا كالزنا وشرب الخمر وقذف المصن وحدودها التي شرعها جل شأنه لها فإنا لا نعلم وجه تخصيص كل ذنب منها بحد مخصوص من تلك الحدود المختلفة لكنا نجزم بأن ذلك لا يخلو عن الحكمة ، وأجاب الإمام عن مسألة الكفر وعذاب الأبد بأن ذلك لأن الكافر كان عازماً أنه لو عاش إلا الأبد لبقي على ذلك الكفر ، وقيل : في وجه تعذيب الكافر أبد الآباد إن جزاء المعصية يتفاوت حسبل تفاوت عظمة المعصى فكلما كان المعصى أعظم كان الجزاء أعظم ، فحيث كان الكفر معصية من لا تتناهي عظمته جل شأنه كان جزاؤه غير متناع ، وقياس ذلك أن يكون جزاء كل معصية كذلك إلا أنه لم يكن كذلك فيما عدا الكفر فضلاً منه تعالى شأنه لمكان الإيمان ، وقيل أيضاً : إن كل كفر قولاً كان أو فعلا يعود إلى نسبة النقص إليه عز وجل المانفي لوجوب الوجود المقتضى لوجوده سبحانه أزلا وأبداً وإذا توهم هناك زمان ممتد كان غير متناه فحيث كان الكفر مستلزماً نفي وجوده تعالى شأنه فيما لا يتناهى كان جزاؤه غير متناه ولا كذلك سائر المعاصي فتدبر .

﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان ﴾

أي أوجب عليك العمل به كما روي عن عطاء .

وعن مجاهد أي أعطاكه ، وعن مقاتل وإليه ذهب الفراء .

وأبو عبيدة أي أنزله عليك والمعول عليه ما تقدم .

﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أي إلى محل عظيم القدر اعتدت به وألفته على أنه من العادة لا من العود ، وهو كما في "صحيح البخاري" ، وأخرجه ابن أبي شيبة .

وعبد بن حميد .

والنسائي .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وابن مردويه .

والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس مكة ، وروي ذلك أيضاً عن مجاهد .

والضحاك .

وجوز أن يكون من العود ، والمراد به مكة أيضاً بناء على ما في مجمع البيان عن القتيبي أن معاد الرجل بلده لأنه يتصرف في البلاد ثم يعود إليه ، وقد يقال : أطلق المعاد على مكة لأن

العرب كانت تعود إليها في كل سنة لمكان البيت فيها ، وهذا وعد منه عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة أنه عليه الصلاة والسلام يهاجر منها ويعود إليها ، وروي عن غير واحد أن الآية نزلت بالجحفة بعد أن خرج صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً واشتاق إليها ، ووجه ارتباطها بما تقدمها تضمنها الوعد بالعاقبة الحسنى في الدنيا كما تضمن ما قبلها الوعد بالعاقبة الحسنى في الآخرة .

وقيل : إنه تعالى لما ذكر من قصة موسى عليه السلام وقومه مع قارون وبيعه واستطالته عليهم وهلاكه ونصرة أهل الحق عليه ما ذكر ذكر جل شأنه هنا ما يتضمن قصة سيدنا صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأصحابه مع قومه واستطالتهم عليه وإخراجهم إياه من مسقط رأسه ثم اعزازه عليه الصلاة والسلام بالإعادة إلى مكة وفتحه إياها منصوراً مكرماً ووسط سبحانه بينهما ما هو كالتخلص من الأول إلى الثاني .

وأخرج الحاكم في التاريخ .

والديلمي عن عي كرم الله تعالى وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسر المعاد بالجنة ، وأخرج تفسيره بها ابن أبي سيبة .

والبخاري في تاريخه .

وأبو يعلى .

وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري .

وأخرجه ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

(42/592)

والطبراني .

وابن مردويه عن ابن عباس ، والتنكير عليه للتعظيم أيضاً ، ووجه ارتباطا الآية بما قبلها أنها كالتصريح ببعض ما تضمنه ذلك .

واستشكل رده عليه الصلاة والسلام إلى الجنة من حيث إنه يقتضي سابقية كونه صلى الله عليه وسلم فيها مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن فيها .

وأجيب بالتزام السابقية المذكورة ويكفي فيها كونه صلى الله عليه وسلم فيها بالقوة إذ كان في ظهر آدم عليهما الصلاة والسلام حين كان فيها ، وقيل : إنه صلى الله عليه وسلم لما كان مستعداً لها من قبل كان كأنه كان فيها فالسابقية باعتبار ذلك الاستعداد على نحو ما قيل في قوله تعالى في الكفار :

﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ﴾ [الصافات : 68] ولا يخفى ما في كلا القولين من البعد

، وقريب منهما ما قيل : إن ذلك باعتبار أنه عليه الصلاة والسلام دخلها ليلة المعراج ، وقد يقال : إن تفسيره بالجنة بيان لبعض ما يشعر به المعاد بأن يكون عبارة عن المحشر فقد صار كالحقيقة فيه لأنه ابتداء العود إلى الحياة التي كان المعاد عليها وجعله عظيماً كما يشعر به التنوين لعظمة ماله صلى الله عليه وسلم فيه ومنه الجنة ، فالمعاد بواسطة تنوينه الدال على التعظيم يشعر بالجنة لأنها الحاوية مما أعد له صلى الله عليه وسلم من الأمور العظيمة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقريب من تفسيره بالمحشر تفسيره بالآخرة كما أخرج ذلك عبد بن حميد .

وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري ، وتفسيره بيوم القيامة كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

وعبد بن حميد عن عكرمة إلا أنه على ما ذكر اسم زمان ، وعلى ما تقدم اسم مكان .

ومما يشعر بأنه ليس المراد مجرد الرد إلى المحشر أو الآخرة أو يوم القيامة ما أخرجه الفريابي .

وعبد بن حميد .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال في الآية : إن له معاداً يبعثه الله تعالى يوم القيامة ثم يدخله الجنة .

ويتخرج على نحو ما قلنا تفسيره بالمقام المحمود وهو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة .

وجاء في رواية أخرى رواها عبد بن حميد .

وابن مردويه عن ابن عباس .

وأبي سعيد الخدري أيضاً تفسيره بالموت ، ورواها معهما عن الحبر .

الفريابي .

وابن أبي حاتم .

والطبراني ، وكونه معاداً لقوله تعالى : ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة : 28] ولعل تعظيمه باعتبار أنه باب لوصوله صلى الله عليه وسلم إلى ما أعد الله عز وجل له من المقام المحمود والمنزلة العليا في الجنة إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وجل المقصود ما أشعر به التعظيم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن نعيم القاري أنه فسره ببيت المقدس .

وكأن إطلاق المعاد عليه باعتبار أنه صلى الله عليه وسلم أسري به إليه ليلة المعراج ، والوعد برده عليه الصلاة والسلام إليه وعد له بالإسراء إليه مرة أخرى أو باعتبار أن أرضه أرض المحشر فالمراد بالرد إليه الرد إلى المحشر ، وهذا غاية ما يقال في توجيه ذلك .

فإن قبل فذاك وإلا فالأمر إليك ؛ وكأني بك تختار ما في "صحيح البخاري" ورواه الجماعة

الذين تقدم ذكرهم عن ابن عباس من أنه مكة .

وربما يخطر بالبال أن يراد بالمعاد الأمر المحبوب بنوع تجوز ويجعل بحيث يشمل مكة والجنة وغيرهما مما هو محبوب لديه صلى الله عليه وسلم ، ويراد برده عليه الصلاة والسلام إلى الأمر المحبوب إيصاله إليه مرة بعد أخرى فالرد هنا مثله في قوله تعالى :

﴿ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [إبراهيم : 9] وعليه يهون أمر اختلاف الروايات التي سمعتها في ذلك فتدبر .

﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاء بالهدى ﴾ يريد بذلك نفسه صلى الله عليه وسلم وبقوله سبحانه :

(44/592)

﴿ وَمَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ المشركين الذين بعث إليهم صلى الله عليه وسلم و ﴿ مِنْ ﴾ منتصب بفعل يدل عليه أعلم لا بأعلم لأن أفعل لا ينصب المفعول به في المشهور أي يعلم من جاء الخ ، وأجاز بعضهم أن يكون منصوباً بأعلم على أنه بمعنى عالم ، والمراد أنه عز وجل يجازي كلاًمن جاء بالهدى ومن هو في ضلال على عمله ، والجملة تقرير لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان ﴾ الخ .

وفي معالم التنزيل هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إنك في ضلال ، ولعله لهذا وكون السبب فيه مجيئه عليه الصلاة والسلام إليهم بالهدى قيل : في جانبه صلى الله عليه وسلم من جاء بالهدى وفي جانبهم من هو في ضلال مبين ، ولم يؤت بهما على طرز واحد .

﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب ﴾

تقرير لذلك أيضاً أي سيردك إلى معاد كما أنزل إليك القرآن العظيم الشأن وما كنت ترجوه ، وقال أبو حيان .

والطبرسي : هو تذكير لنعمته عز وجل عليه عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ على ما ذهب إليه الفراء وجماعة استثناء منقطع أي ولكن ألقاه تعالى إليك رحمة منه عز وجل ، وجوز أن يكون استثناءً متصلاً من أعم العلل أو من أعم الأحوال على أن المراد نفي الإلقاء على أبلغ وجه ، فيكون المعنى ما ألقى إليك الكتاب لأجل شيء من الأشياء إلا لأجل الترحم أو في حال من الأحوال إلا في حال الترحم ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين ﴾ أي معيناً لهم على دينهم ، قال مقاتل : إن كفار مكة دعوه صلى الله عليه وسلم إلى دين آبائه فذكره الله تعالى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه .

﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ ﴾ أي الكافرون ﴿ عَنْ ءايات الله ﴾ أي قراءتها والعمل بها .

﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي بعد وقت إنزالها وإيحائها إليك المقتضى لنبوتك ومزيد شرفك ، وقرأ يعقوب ﴿ يَصُدُّنَّكَ ﴾ بالنون الخفيفة وقرىء ﴿ يَصُدُّنَّكَ ﴾ مضارع أصد بمعنى صدّ حكاه أبو زيد عن رجل من كلب قال : وهي لغة قومه وقال الشاعر :

أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم . . .

صدود السواقي عن أنوف الحوائم

﴿ وادع ﴾ الناس ﴿ إلى ربّكَ ﴾ إلى عبادته جل وعلا وتوحيده سبحانه ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ بمظاهرتهم .

﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها ءاخَرَ ﴾

أي ولا تعبد معه تعالى غيره عز وجل ، وهذا وما قبله للتهييج والإلهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة والسلام إياهم وإظهار أن المنهي عنه في القبح والشرية بحيث ينهي عنه من لا يتصور وقوعه منه أصلاف ، وروى محيي السنة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : الخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد به أهل دينه وهو في معنى ما حكى عنه الطبرسي أن هذا وأمثاله من باب :

إياك أعني واسمعي يا جاره . . .

﴿ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وحده ﴿ كُلّ شَىْء ﴾ أي موجود مطلقاً ﴿ هَالِكٌ ﴾ أي معدوم

محض ، والمراد كونه كالمعدوم وفي حكمه ﴿ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ أي إلا ذاته عز وجل وذلك لأن وجود ما سواه سبحانه لكونه ليس ذاتياً بل هو مستند إلى الواجب تعالى في كل آن قابل للعدم وعرضة له فهو كلا وجود وهذا ما اختاره غير واحد من الأجلة ، والكلام عليه من قبيل التشبيه البليغ ، والوجه بمعنى الذات مجاز مرسل وهو مجاز شائع وقد يختص بما شرف من الذوات ، وقد يعتبر ذلك هنا ، ويجعل نكتة للعدول عن إلا إياه إلى ما في "النظم الجليل" .

وفي الآية بناءً على ما هو الأصل من اتصال الاستثناء دليل على صحة إطلاق الشيء عليه جل وعلا .

(46/592)

وقريب من هذا ما قيل : المعنى كل ما يطلق عليه الموجود معدوم في حد ذاته إلا ذاته تعالى ، وقيل : الوجه بمعنى الذات إلا أن المراد ذات الشيء ، وإضافته إلى ضميره تعالى باعتبار أنه مخلوق له سبحانه نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : 116] من أن المراد بالنفس الثاني نفس عيسى عليه السلام وإضافته إليه تعالى باعتبار أنه مخلوق له جل وعلا ، والمعنى كل شيء قابل للهلاك والعدم

إلا الذات من حيث استقبالها لربها ووقوفها في محراب قربها فإنها من تلك الحيثية لا تقبل العدم ، وقيل : الوجه بمعنى الجهة التي تقصد ويتوجه إليها ، والمعنى كل شيء معدوم في حد ذاته إلا الجهة المنسوبة إليه تعالى وهو الوجود الذي صار به موجوداً ، وحاصله أن كل جهات الموجود من ذاته وصفاته وأحواله هالكة معدومة في حد ذاتها إلا الوجود الذي هو النور الإلهي ، ومن الناس من جعل ضمير وجهه للشيء وفسر الشيء بالموجود بمعنى ما له نسبة إلى حضرة الوجود الحقيقي القائم بذاته وهو عين الواجب سبحانه ، وفسر الوجه بهذا الوجود لأن الموجود يتوجه إليه وينسب ، والمعنى كل منسوب إلى الوجود معدوم إلا وجهه الذي قصده وتوجه إليه وهو الوجود الحقيقي القائم بذاته الذي هو عين الواجب جل وعلا ، ولا يخفى الغث والسمين من هذه الأقوال ، وعليها كلها يدخل العرش والكرسي والسموات والأرض والجنة والنار ، ونحو ذلك في العموم .

(47/592)

وقال غير واحد : المراد بالهلاك خروج الشيء عن الانتفاع به المقصود منه إما بتفرق أجزائه أو نحوه ، والمعنى كل شيء سيهلك ويخرج عن الانتفاع به المقصود منه إلا ذاته عز وجل ، والظاهر أنه أراد بالشيء الموجود المطلق لا الموجود وقت النزول فقط فيؤول

المعنى إلى قولنا : كل موجود في وقت من الأوقات سيهلك بعد وجود إلا ذاته تعالى ، فيدل ظاهر الآية على هلاك العرش والجنة والنار والذي دل عليه الدليل عدم هلاك الأخيرين . وجاء في الخبر أن الجنة سقفها عرش الرحمن ، ولهذا اعترض بهذه الآية على القائلين بوجود الجنة والنار الآن والمنكرين له القائلين بأنهما سيوجدان يوم الجزاء ويستمران أبد الآباد ، واختلفوا في الجواب عن ذلك فمنهم من قال : إن كلاً ليست للإحاطة بل للتكثير كما في قولك : كل الناس جاء إلا زيداً إذا جاء أكثرهم دون زيد ، وأيد بما روي عن الضحاك أنه قال في الآية : كل شيء هالك إلا الله عز وجل والعرش والجنة والنار ، ومنهم من قال : إن المراد بالهلاك الموت والعموم باعتبار الإحياء الموجودين في الدنيا ، وأيد بما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية : كل حي ميت إلا وجهه .

(48/592)

وأخرج عنه ابن مردويه أنه قال : لما نزلت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] قيل يا رسول الله فما بال الملائكة ؟ فنزلت : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ فبين في هذه الآية فناء الملائكة والثقلين من الجن والإنس وسائر عالم الله تعالى وبريته من الطير والوحوش والسباع والأنعام وكل ذي روح أنه هالك ميت ، وأنت تعلم أن تخصيص الشيء

بالحي الموجود في الدنيا لا بد له من قرينة فإن اعتبر كونه محكوماً عليه بالهلاك حيث شاع استعماله في الموت وهو إنما يكون في الدنيا قرينة فذاك وإلا فهو كما ترى ، ومن الناس من التزم ما يقتضيه ظاهر العموم من أنه كل ما يوجد في وقت من الأوقات في الدنيا والأخرى يصير هالكاً بعد وجوده بناءً على تجدد الجواهر وعدم بقاء شيء منها زمانين كالإعراض عند الأشعري ، ولا يخفى بطلانه ، وإن ذهب إلى ذلك بعض أكابر الصوفية قدست أسرارهم .

وقال سفيان الثوري : وجهه تعالى العمل الصالح الذي توجه به إليه عز وجل ، فقيل : في توجيه الاستثناء إن العمل المذكور قد كان في حيز العدم فلما فعله العبد ممتثلاً أمره تعالى أبقاه جل شأنه له إلى أن يجازيه عليه أو أنه بالقبول صار غير قابل للفناء لما أن الجزاء عليه قام مقامه وهو باق ، وروي عن أبي عبد الله الرضا رضي الله تعالى عنه أنه ارتضى نحو ذلك ، وقال المعنى كل شيء من أعمال العباد هالك وباطل إلا ما أريد به وجهه تعالى ، وزعم الخفاجي أن هذا كلام ظاهري .

وقال أبو عبيدة : المراد بالوجه جاهه تعالى الذي جعله في الناس وهو كما ترى لا وجه له ، والسلف يقولون الوجه صفة نثبتها لله تعالى ولا نشتغل بكيفيتها ولا بتأويلها بعد تنزيهه عز وجل عن الجارحة ﴿ لَهُ الحكم ﴾ أي القضاء النافذ في الخلق ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ عز وجل ﴿

تُرْجَعُونَ ﴾ عند البعث للجزاء بالحق والعدل لا إلى غيره تعالى ورجوع العباد إليه تعالى عند الصوفية أهل الوحدة بمعنى ما وراء طور العقل .

(49/592)

وقيل : ضمير إليه للحكم ، وقرأ عيسى ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ مبنياً للفاعل ، هذا والكلام من باب الإشارة في آيات هذه السورة أكثره فيما وقفنا عليه من باب تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس ولعله يعلم بأدنى تأمل فيما مر بنا في نظائرها فتأمل والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل وهو جل وعلا حسبنا ونعم الوكيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(50/592)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) ﴾

قوله : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أي أخبروني ﴿ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَدا ﴾ السرمد : الدائم المستمرّ ، من السرد ، وهو المتابعة فالميم زائدة ، ومنه قول طرفة :

لعمرك ما أمري عليك بغمة . . . نهاري ولا ليلي عليك بسرمد

وقيل : إن ميمه أصلية ، ووزنه فعلل لا مفعل ، وهو الظاهر ، بيّن لهم سبحانه أنه مهّد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة ؛ فإنه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلاً دائماً إلى يوم القيامة لم يتمكنوا من الحركة فيه ، وطلب ما لا بدّ لهم منه مما يقوم به العيش من المطاعم والمشارب والملابس .

ثم امتنّ عليهم فقال ﴿ مَنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاء ﴾ أي هل لكم إلاه من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم بضياء ؟ أي بنور تطلبون فيه المعيشة وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه ، وتصلح به ثماركم وتنمو عنده زرائعكم وتعيش فيه دوابكم ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ هذا الكلام سماع فهم وقبول ، وتدبر وتفكر .

(51/592)

ثم لما فرغ من الامتنان عليهم بوجود النهار امتنّ عليهم بوجود الليل فقال : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة ﴾ أي جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه

نهاراً إلى يوم القيامة ﴿ مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ﴾ أي تستقرّون فيه من النصب والتعب ، وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكسب ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ ؛ حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله ، وإذا أقرّوا بأنه لا يقدر على ذلك إلاّ الله عزّ وجلّ فقد لزمتهم الحجة ، وبطل ما يتمسكون به من الشبه الساقطة ، وإنما قرن سبحانه بالضياء قوله : ﴿ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل قوله : ﴿ أَفلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ لأن البصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ أي في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي في النهار بالسعي في المكاسب ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولكي تشكروا نعمة الله عليكم ، وهذه الآية من باب اللف والنشر ، كما في قول امرىء القيس :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابسا . . . لدى وكرها العناب والحشف البالي

واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً ، وطلب الرزق في الليل ممكناً ، وذلك عند طلوع القمر على الأرض ، أو عند الاستضاءة بشيء بما له نور كالسراج ، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به .

﴿ وَيَوْمَ يناديهم فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ كرّر سبحانه هذا لاختلاف الحالتين ؛ لأنهم ينادون مرة فيدعون الأصنام ، وينادون أخرى فيسكتون ، وفي هذا التكرير أيضاً تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ ، وقوله : ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ﴾ عطف على ينادي ، وجاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقق ، والمعنى : وأخرجنا من كل أمة من الأمم شهيداً يشهد عليهم .

قال مجاهد : هم الأنبياء ، وقيل : عدول كلّ أمة ، والأوّل أولى .

ومثله قوله سبحانه : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هَؤُلاء شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] ثم بين سبحانه ما يقوله لكل أمة من هذه الأمم بقوله : ﴿ فَقُلْنَا هَاتُواْ برهانكم ﴾ أي حجتكم ودليلكم بأن معي شركاء ، فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن إقامة البرهان ، ولذا قال : ﴿ فَعَلِمُواْ أَنَّ الحق لِلَّهِ ﴾ في الإلهية ، وأنه وحده لا شريك له ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي غاب عنهم وبطل وذهب ما كانوا يختلقونه من الكذب في الدنيا بأن لله شركاء يستحقون العبادة .

ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة وعجيب الصنع فقال : ﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾ قارون على وزن فاعول اسم أعجمي ممتنع للعجمة والعلمية ، وليس بعربيّ مشتق من قرنت .

قال الزجاج : لو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف .

قال النخعي وقتادة وغيرهما : كان ابن عمّ موسى ، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وموسى هو ابن عمران بن قاهث .

وقال ابن إسحاق : كان عمّ موسى لأب وأم فجعله أخا لعمران ، وهما ابنا قاهث .

(53/592)

وقيل : ابن خالة موسى ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، فنافق كما نافق السامري وخرج عن طاعة موسى ، وهو معنى قوله : ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ أي جاوز الحدّ في التجبر والتكبر عليهم ، وخرج عن طاعة موسى وكفر بالله .

قال الضحاك : بغيه على بني إسرائيل استخفافه بهم لكثرة ماله ، وولده .

وقال قتادة : بغيه بنسبته ما آتاه الله من المال إلى نفسه لعلمه ، وحيلته .

وقيل : كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل ، فتعدّى عليهم وظلمهم .

وقيل : كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية .

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز ﴾ جمع كنز ، وهو المال المدّخر .

قال عطاء : أصاب كنزاً من كنوز يوسف .

وقيل : كان يعمل الكيمياء ، و"ما" في قوله : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ موصولة صلتها إنّ وما في حيزها ، ولهذا كسرت .

ونقل الأخفش الصغير عن الكوفيين منع جعل المكسورة ، وما في حيزها صلة الذي ، واستقبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا الموضع .

والمفاتح جمع مفتح بالكسر ، وهو ما يفتح به ، وقيل : المراد بالمفاتح : الخزائن ، فيكون واحدها مفتح بفتح الميم .

قال الواحدي : إن المفاتح : الخزائن في قول أكثر المفسرين ، كقوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [الأنعام : 59] قال : وهو اختيار الزجاج ، فإنه قال : الأشبه في التفسير أن مفاتحه : خزائن ماله .

وقال آخرون : هي جمع مفتاح ، وهو ما يفتح به الباب ، وهذا قول قتادة ومجاهد ﴿ لَتَنُوأُ بالعصبة أُوْلِي القوة ﴾ هذه الجملة خبر إن وهي واسمها وخبرها صلة ما الموصولة ، يقال : ناء بحمله : إذا نهض به مثقلاً ، ويقال : ناء بي الحمل : إذا أثقلني ، والمعنى : يثقلهم حمل المفاتح .

قال أبو عبيدة : هذا من المقلوب ، والمعنى : لتنوء بها العصبة ، أي تنهض بها .

قال أبو زيد : نؤت بالحمل : إذا نهضت به .

قال الشاعر :

إنا وجدنا خلفاً بئس الخلف . . . عبداً إذا ما ناء بالحمل وقف

(54/592)

وقال الفراء : معنى تنوء بالعصبة : تميلهم بثقلها كما يقال : يذهب بالبؤس ، ويُذهِب البؤس وذهبت به ، وأذهبته وجئت به وأجأته ونؤت به ، وأنأته ، واختار هذا النحاس ، وبه قال كثير من السلف .

وقيل : هو مأخوذ من النأي ، وهو البعد وهو بعيد .

وقرأ بديل بن ميسرة : " لينوء " بالياء ، أي لينوء الواحد منها أو المذكور ، فحمل على المعنى .

والمراد بالعصبة : الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض .

قيل : هي من الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : من العشرة إلى الخمسة عشر ، وقيل : ما بين العشرة إلى العشرين ، وقيل : من الخمسة إلى العشرة .

وقيل : أربعون .

وقيل : سبعون .

وقيل : غير ذلك ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ﴾ الظرف منصوب ب ﴿ تنوء ﴾ .

وقيل : ب ﴿ آتيناه ﴾ ، وقيل : ب ﴿ بغى ﴾ .

وردّهما أبو حبان بأن الإيتاء والبغي لم يكونا ذلك الوقت .

وقال ابن جرير : هو متعلق بمحذوف ، وهو : اذكر ، والمراد بقومه هنا : هم المؤمنون من بني إسرائيل .

وقال الفراء : هو موسى ، وهو جمع أريد به الواحد ، ومعنى ﴿ لا تفرح ﴾ : لا تبطر ولا تأشر ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفرحين ﴾ البطرين الأشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

قال الزجاج : المعنى لا تفرح بالمال ، فإن الفرح بالمال لا يؤدي حقه ، وقيل : المعنى : لا تفسد : كقول الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة . . . وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

أي أفسدتك .

قال الزجاج : الفرحين ، والفارحين سواء .

وقال الفراء : معنى الفرحين : الذين هم في حال الفرح ، والفارحين : الذين يفرحون في المستقبل .

وقال مجاهد : معنى ﴿ لا تفرح ﴾ : لا تبغ إن الله لا يحبّ الفرحين الباغين .

وقيل معناه : لا تبخل إن الله لا يحبّ الباخلين .

﴿ وابتغ فِيمَا ءَاتَاكَ الله الدار الآخرة ﴾ أي واطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة فأنفقه فيما يرضاه الله لا في التجبر والبغي .

وقرىء : " واتبع " .

﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ .

(55/592)

قال جمهور المفسرين : وهو أن يعمل في دنياه لآخرته ، ونصيب الإنسان عمره ، وعمله الصالح .

قال الزجاج : معناه : لا تنس أن تعمل لآخرتك ؛ لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته .

وقال الحسن ، وقتادة : معناه : لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، وهذا ألصق بمعنى النظم القرآني ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا .

وقيل : أطع الله واعبده كما أنعم عليك ، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين ، وغيرهما ؛ أن

جبريل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك " ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِي الأرض ﴾ أي لا تعمل فيها بمعاصي الله ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ في الأرض .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِي ﴾ قال قارون هذه المقالة ردّاً على من نصحه بما تقدّم ، أي إنما أعطيت ما أعطيت من المال لأجل علمي ، فقوله : ﴿ على عِلْمٍ ﴾ في محل نصب على الحال ، و ﴿ عندي ﴾ إما ظرف لأوتيته ، وإما صلة للعلم .

وهذا العلم الذي جعله سبباً لما ناله من الدنيا ، قيل : هو علم التوراة .

وقيل : علمه بوجوه المكاسب والتجارات .

وقيل : معرفة الكنوز والدفائن .

وقيل : علم الكيمياء .

وقيل : المعنى إن الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي إياها لفضل علمه مني .

واختار هذا الزجاج وأنكر ما عداه .

ثم ردّ الله عليه قوله هذا ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ المراد بالقرون : الأمم الخالية ، ومعنى أكثر جمعاً : أكثر منه جمعاً للمال ، ولو كان المال أو القوّة يدلان على فضيلة لما أهلكهم الله .

وقيل : القوّة الآلات .

والجمع الأعوان .

(56/592)

وهذا الكلام خارج مخرج التقريع والتوبيخ لقارون ؛ لأنه قد قرأ التوراة ، وعلم علم القرون الأولى وإهلاك الله سبحانه لهم ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ أي لا يسألون سؤال استعتاب ، كما في قوله : ﴿ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل : 84] ، ﴿ وَمَا هُم من المعتبين ﴾ [فصلت : 24] وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ، كما في قوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : 92] وقال مجاهد : لا تسأل الملائكة غداً عن المجرمين ؛ لأنهم يعرفون بسيماهم ، فإنهم يحشرون سود الوجوه زرق العيون .

وقال قتادة : لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها ، بل يدخلون النار .

وقيل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية .

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ الفاء للعطف على ﴿ قال ﴾ وما بينهما اعتراض ، و ﴿ فِي زِينَتِهِ ﴾ متعلق بخرج ، أو بمحذوف هو حال من فاعل خرج .

وقد ذكر المفسرون في هذه الزينة التي خرج فيها روايات مختلفة ، والمراد أنه خرج في زينة

انبهر لها من رآها ، ولهذا تمنى الناظرون إليه أن يكون لهم مثلها كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ﴾ وزينتها ﴿ الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أي : نصيب وافر من الدنيا .

واختلف في هؤلاء القائلين بهذه المقالة ، فقيل : هم من مؤمني ذلك الوقت ، وقيل : هم قوم من الكفار .

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ ، وهم : أحبار بني إسرائيل قالوا للذين تمنوا : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ ﴾ أي ثواب الله في الآخرة خير مما تمنونه ﴿ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فلا تمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَا ﴾ أي هذه الكلمة التي تكلم بها الأحبار ، وقيل : الضمير يعود إلى الأعمال الصالحة .

(57/592)

وقيل : إلى الجنة ﴿ إِلاَّ الصابرون ﴾ على طاعة الله والمصبرون أنفسهم عن الشهوات .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ يقال : خسف المكان يخسف خسوفاً : ذهب في الأرض ، وخسف به الأرض خسفاً ، أي غاب به فيها ، والمعنى : أن الله سبحانه غيبه وغيب داره في الأرض ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله ﴾ أي ما كان له جماعة

يدفعون ذلك عنه ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ هو في نفسه ﴿ مِنَ المنتصرين ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف .

﴿ وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بالامس ﴾ أي منذ زمان قريب ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يقول كل واحد منهم متندّماً على ما فرط منه من التمني .

قال النحاس : أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائي : أن القوم تنبهوا ، فقالوا : وي .

والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه : وي .

قال الجوهري : وي كلمة تعجب ، ويقال : ويك ، وقد تدخل وي على كأن المخففة ، والمشدّدة ويكأن الله .

قال الخليل : هي مفصولة تقول : وي ، ثم تبتدىء ، فيقول كأن .

وقال الفراء : هي كلمة تقرير كقولك : أما ترى صنع الله وإحسانه ؟ وقيل : هي كلمة تنبيه بمنزلة ألا .

وقال قطرب : إنما هو : ويلك فأسقطت لامه ، ومنه قول عنترة :

ولقد شفا نفسي وأبرأ سقمها . . . قول الفوارس ويك عنتر أقدم

وقال ابن الأعرابي : معنى وَيْكَأَنَّ الله : أعلم أن الله .

وقال القتيبي : معناها بلغة حمير : رحمة ، وقيل : هي بمعنى ألم تر ؟ وروي عن الكسائي أنه قال : هي كلمة تفجع ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ برحمته وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر ، والبغي ، ولم يؤاخذنا بما وقع منا من ذلك التمني ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ كما خسف به .

(58/592)

قرأ حفص : ﴿ لَخَسَفَ ﴾ مبنياً للفاعل ، وقرأ الباقون مبنياً للمفعول ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ أي لا يفوزون بمطلب من مطالبهم ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة ﴾ أي الجنة ، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها ، كأنه قال : تلك التي سمعت بخبرها وبلغك شأنها ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض ﴾ أي : رفعة وتكبراً على المؤمنين ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ أي عملاً بمعاصي الله سبحانه فيها ، وذكر العلوّ والفساد منكرين في حيز النفي يدلّ على شمولهما لكلّ ما يطلق عليه أنه علوّ وأنه فساد من غير تخصيص بنوع خاص ، أما الفساد فظاهر أنه لا يجوز شيء منه كائناً ما كان ، وأما العلوّ فالممنوع منه ما كان على طريق التكبر على الغير ، والتطاول على الناس ، وليس منه طلب العلو في الحقّ ، والرئاسة في الدين ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن والمنزل الحسن .

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ وهو أن الله يجازيه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي إلاّ مثل ما كانوا يعملون ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقد تقدّم بيان معنى هذه الآية في سورة النمل : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان ﴾ قال المفسرون : أي أنزل عليك القرآن .

وقال الزجاج : فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن ، وتقدير الكلام : فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه ﴿ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ قال جمهور المفسرين : أي إلى مكة .

وقال مجاهد وعكرمة والزهري والحسن : إنّ المعنى : لرادّك إلى يوم القيامة ، وهو اختيار الزجاج ، يقال : بيني وبينك المعاد ، أي يوم القيامة ؛ لأن الناس يعودون فيه أحياء .

وقال أبو مالك وأبو صالح : لرادّك إلى معاد : إلى الجنة .

وبه قال أبو سعيد الخدري ، وروي عن مجاهد .

(59/592)

وقيل : ﴿ إلى مَعَادٍ ﴾ : إلى الموت ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بالهدى وَمَنْ هُوَ فِي ضلال مُّبِينٍ ﴾ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : إنك في ضلال ،

والمراد : من جاء بالهدى هو النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومن هو في ضلال مبين : المشركون ، والأولى حمل الآية على العموم ، وأن الله سبحانه يعلم حال كلّ طائفة من هاتين الطائفتين ، ويجازيها بما تستحقه من خير وشرّ .

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب ﴾ أي ما كنت ترجو أنا نرسلك إلى العباد ، وننزل عليك القرآن .

وقيل : ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب بردّك إلى معادك ، والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مّن رَّبّكَ ﴾ منقطع ، أي لكن إلقاؤه عليك رحمة من ربك ، ويجوز أن يكون متصلاً حملاً على المعنى ، كأنه قيل : وما ألقى إليك الكتاب إلاّ لأجل الرحمة من ربك .

والأوّل أولى ، وبه جزم الكسائي والفرّاء ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهيراً للكافرين ﴾ أي عونا لهم ، وفيه تعريض بغيره من الأمة .

وقيل : المراد : لا تكوننّ ظهيراً لهم بمداراتهم .

﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءايات الله بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي لا يصدنك يا محمد الكافرون وأقوالهم وكذبهم وأذاهم عن تلاوة آيات الله والعمل بها بعد إذ أنزلها الله إليك وفرضت عليك .

قرأ الجمهور بفتح الياء وضم الصاد من صدّه يصدّه .

وقرأ عاصم بضم الياء وكسر الصاد ، من أصدّه بمعنى صدّه .

﴿ وادع إلى ربّكَ ﴾ أي ادع الناس إلى الله ، وإلى توحيده ، والعمل بفرائضه ، واجتناب معاصيه ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ وفيه تعريض بغيره كما تقدّم ، لأنه لا يكون من المشركين بحال من الأحوال ، وكذلك قوله : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءَاخَرَ ﴾ فإنه تعريض لغيره .

(60/592)

ثم وحد سبحانه نفسه ، ووصفها بالبقاء والدوام ، فقال : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء كائناً ما كان ﴿ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ أي إلاّ ذاته .

قال الزجاج : وجهه منصوب على الاستثناء ، ولو كان في غير القرآن كان مرفوعاً بمعنى كلّ شيء غير وجهه هالك ، كما قال الشاعر :

وكلّ أخ مفارقه أخوه . . . لعمر أبيك إلاّ الفرقدان

والمعنى كلّ أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه .

﴿ لَهُ الحكم ﴾ أي القضاء النافذ يقضي بما شاء ، ويحكم بما أراد ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ عند البعث ؛ ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، لا إله غيره سبحانه وتعالى .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ سَرْمَداً ﴾ قال : دائماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ يوم القيامة ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ قال : يكذبون في الدنيا .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾ قال : كان ابن عمه ، وكان يتبع العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى ، وحسده ، فقال له موسى : إن الله أمرني أن آخذ الزكاة ، فأبى ، فقال : إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحتملون أن تعطوه أموالكم ؟ فقالوا : لا نحتمل فما ترى ؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل ، فنرسلها إليه ، فترميه بأنه أرادها على نفسها ، فأرسلوا إليها ، فقالوا لها : نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك ، قالت : نعم ، فجاء قارون إلى موسى فقال : اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك ، قال : نعم ، فجمعهم فقالوا له : ما أمرك ربك ؟ قال : أمرني أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا ، وأمرني إذا زنا ، وقد أحصن أن يرجم ، قالوا : وإن كنت أنت .

(61/592)

قال : نعم ، قالوا : فإنك قد زنيت .

قال : أنا ؟ فأرسلوا للمرأة ، فجاءت ، فقالوا : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى : أنشدك بالله إلاّ ما صدقت .

قالت : أما إذا نشدتني بالله فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي ، وأنا أشهد أنك بريء ، وأنك رسول الله ، فخرّ موسى ساجداً يبكي ، فأوحى الله إليه : ما يبكيك ؟ قد سلطناك على الأرض ، فمرها فتطيعك ، فرفع رأسه ، فقال : خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى ، فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى ، فقال : خذيهم ، فأخذتهم إلى أعناقهم ، فجعلوا يقولون : يا موسى يا موسى ، فقال : خذيهم ، فأخذتهم فغشيتهم ، فأوحى الله : يا موسى سألك عبادي وتضرّعوا إليك فلم تجبهم ، وعزّتي لو أنهم دعوني لأجبتهم .

قال ابن عباس : وذلك قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرض ﴾ خسف به إلى الأرض السفلى .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن خيثمة قال : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الأصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حملت المفاتيح على سبعين بغلاً أغرّ محجل .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عنه قال : وجدت في الإنجيل أن بغال مفاتيح خزائن

قارون غر محجلة لا يزيد مفتاح منها على إصبع لكل مفتاح كنز .

قلت : لم أجد في الإنجيل هذا الذي ذكره خيثمة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَتَنُوأُ بالعصبة ﴾ قال : تثقل .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : لا يرفعها العصبة من الرجال أولو القوّة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً قال : العصبة : أربعون رجلاً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ قال : المرحين ، وفي قوله : ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ قال : أن تعمل فيها لآخرتك .

(62/592)

وأخرج ابن مردويه عن أوس بن أوس الثقفي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ في أربعة آلاف بغل .

وقد روي عن جماعة من التابعين أقوال في بيان ما خرج به على قومه من الزينة ، ولا يصحّ منها شيء مرفوعاً ، بل هي من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرّة ، ولا أدري كيف إسناد هذا الحديث الذي رفعه ابن مردويه ، فمن ظفر بكتابه ، فلينظر فيه .

وأخرج الفريابي عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ قال : خسف

به إلى الأرض السفلى .

وأخرج المحاملي ، والديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلاَ فَسَاداً ﴾ قال : " التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق " وروي نحوه عن مسلم البطين ، وابن جريج ، وعكرمة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير : ﴿ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض ﴾ قال : بغياً في الأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : هو الشرف والعلوّ عند ذوي سلطانهم .

وأقول : إن كان ذلك للتقوّي به على الحق ، فهو من خصال الخير لا من خصال الشرّ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب قال : إن الرجل ليحبّ أن يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه ، فيدخل في هذه الآية : ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلاَ فَسَاداً ﴾ قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن عليّ رضي الله عنه : وهذا محمول على من أحبّ ذلك لا لمجرّد التجمل ، فهذا لا بأس به .

فقد ثبت : أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أحبّ أن يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة .

أفمن الكبر ذلك ؟ قال : " لا ، إن الله جميل يحبّ الجمال " وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب : أنه قال : نزلت هذه الآية ، يعني ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة ﴾ إلخ في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن عدي بن حاتم قال : لما دخل عليّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ألقى إليه وسادة ، فجلس على الأرض ، فقال : أشهد أنك لا تبغي علوًّا في الأرض ، ولا فساداً فأسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك .

وأخرج أيضاً ابن مردويه عن عليّ بن الحسين بن واقد : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان ﴾ الآية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة حين خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ قال : إلى مكة .

زاد ابن مردويه كما أخرجك منها .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قال : الآخرة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري في تاريخه ، وأبو يعلى وابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ قال : معاده : الجنة ، وفي لفظ : معاده آخرته .

وأخرج الحاكم في التاريخ ، والديلمي عن عليّ بن أبي طالب قال : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ : الجنة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

(64/592)

وأخرج ابن مردويه عنه قال : لما نزلت : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] قالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، فلما نزلت : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ [آل عمران : 185] قالت الملائكة : هلك كلّ نفس ، فلما نزلت : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ قالت الملائكة : هلك أهل السماء والأرض .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ قال : إلاّ ما أريد به وجهه .

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ
يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7) وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ
مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي
الصَّالِحِينَ (9) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ
اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ
(10) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (11) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا
اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
(12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (13)

قد تقدّم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في سورة البقرة والاستفهام في قوله : ﴿ أَحَسِبَ الناس ﴾ للتقريع ، والتوبيخ و ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ في موضع نصب بحسب ، وهي وما دخلت عليه قائمة مقام المفعولين على قول سيبويه ، والجمهور ، و ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ في موضع نصب على تقدير : لأن يقولوا ، أو بأن يقولوا ، أو على أن يقولوا وقيل : هو بدل من أن يتركوا ، ومعنى الآية : أن الناس لا يتركون بغير اختبار ولا ابتلاء ﴿ أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ أي وهم لا يبتلون في أموالهم ، وأنفسهم ، وليس الأمر كما حسبوا ، بل لابد أن يختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق ، والصادق من الكاذب ، فالآية مسوقة لإنكار ذلك الحسبان ، واستبعاده ، وبيان أنه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها .

قال الزجاج : المعنى : أحسبوا أن نقنع منهم بأن يقولوا : إنا مؤمنون فقط ، ولا يمتحنون بما تتبين به حقيقة إيمانهم ؟ وهو قوله : ﴿ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ .

قال السدّي وقتادة ومجاهد : أي لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب ، وسيأتي في بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرناه ، وظاهرها شمول كلّ الناس من أهل الإيمان ، وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ كما قررناه غير مرّة .

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نازلة في سبب خاص ، فهي باقية في أمة محمد صلى

الله عليه وسلم موجود حكمها بقية الدهر ، وذلك أن الفتنة من الله باقية في ثغور المسلمين بالأسر ، ونكاية العدوّ وغير ذلك .

(67/592)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي هذه سنة الله في عباده ، وأنه يختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر من قبلهم من الأمم كما جاء به القرآن في غير موضع من قصص الأنبياء وما وقع مع قومهم من المحن وما اختبر الله به أتباعهم ، ومن آمن بهم من تلك الأمور التي نزلت بهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ في قولهم : آمنا ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ منهم في ذلك ، قرأ الجمهور : ﴿ فليعلمنّ ﴾ بفتح الياء ، واللام في الموضعين ، أي ليظهرنّ الله الصادق والكاذب في قولهم ويميز بينهم ، وقرأ عليّ بن أبي طالب في الموضعين بضم الياء وكسر اللام .

والمعنى : أي يعلم الطائفتين في الآخرة بمنازلهم ، أو يعلم الناس بصدق من صدق ، ويفضح الكاذبين بكذبهم ، أو يضع لكلّ طائفة علامة تشتهر بها وتتميز عن غيرها .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أي يفوتونا ، ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون ، وهو سادّ مسدّ مفعولي حسب ، وأم هي المنقطعة ﴿ سَاء مَا

يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم ذلك : وقال الزجاج : ﴿ ما ﴾ في موضع نصب بمعنى : ساء شيئاً أو حكماً يحكمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 4 صـ ﴾

(68/592)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ » .

هو إعلان عام للمؤمنين والكافرين . . للمصلحين والمفسدين . . للذين يعلمون الصالحات ، والذين يقترفون السيئات . . إن لكل حسابه وجزاءه . .

أما أهل الإحسان ، فيجزون بإحسانهم إحسانا مضاعفا . . فضلا من اللّه وكرما . .

وأما أهل السوء ، فيجزون بسوئهم سواء مثله ، حقا من اللّه وعدلا . .

وقد أفرد الضمير في مقام الإحسان ، حيث تختلف منازل المحسنين ، فيما يجزون به على إحسانهم . . الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ، واللّه يضاعف لمن يشاء . . فهذا مقام الفضل ، ينزل فيه اللّه عباده منازلهم من فضله ورحمته . .

أما أهل السوء ، فهم على حال واحدة . . السيئة بالسيئة ولا زيادة . . فهم فى مقام العدل . الذي يقتضى المساواة . . ولهذا جمع ضمير أهل السوء . .

«فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ» .

قوله تعالى : «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» . .

فرض القرآن على الرسول ، هو حمله عليه حملا كاملا . . حيث يتلقاه من ربه ، ويستقيم على كل آية منه ، ويبلغه إلى الناس ، ويجاهدهم به . .

والمعاد الذي يرد إليه الرسول ، هو لقاء ربه ، وتلقى ما وعده اللّه به من رضا ورضوان . .

وإذن فهذا القرآن المفروض على الرسول الكريم ، هو الرفيق الذي يعيش

مع الرسول في الدنيا ، ويلقى اللّه به في الآخرة ، حيث يجىء ومعه المحصول الوفير ، من مغارس الإيمان التي غرسها القرآن في الأرض ، فكان منها هذه الأمة المسلمة ، التي تأخذ مكانها في المحشر ، وقد رفع على رأسها علم التوحيد ! وفي هذا يقول اللّه تعالى : «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ» (71 : الإسراء) ويقول سبحانه : «فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ

بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً » (41 : النساء) .

ـ وقوله تعالى : « قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » ـ هو إلفات إلى هذا القرآن الذي فرض على الرسول ، وهو الهدى ، الذي من اتبعه اهتدى ورشد ، ومن خالفه ضل وغوى . .

قوله تعالى : « وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ » .

أي أن هذا القرآن الذي فرضه اللّه عليك ـ أيها النبي ـ لم يكن عن أمنية تمنيتها ، ولا عن سعى سعيت له . . فذلك مما لا يحصل بالسعي ، ولا يستدعى بالأمانى . . وإنما هو رحمة خالصة من عند اللّه ، يختص بها من يشاء من عباده ، ويضعها حسب ما يقضى به علمه في خلقه : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ » (124 : الأنعام) .

وقوله تعالى : « إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ » هو بدل من « أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ » وهو في تأويل مصدر مفعول به لترجو . . والمعنى : ما كنت ترجو كتابا يلقى إليك من ربك ، ولكن كنت نرجو رحمة منه . . وها قد جاءتك الرحمة عامة شاملة من ربك في اصطفائك للرسالة ، ولكتابها الكريم . .

« إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً » (87 : الإسراء) .

ـ وقوله تعالى : « فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ » . . هو تعقيب على هذه ؟ ؟ ؟ العظيمة ، وتلك النعمة الكبرى ، وهذه الرحمة العامة الشاملة ، التي ينبغى أن يأخذ كل إنسان حظه منها ، إذا هو التمسها ، ودخل في حماها . . وهؤلاء هم المؤمنون . . أما الكافرون فلا نصيب لهم منها . .

وإذن ، فالذى ينبغى أن يكون عليه شأن الرسول مع هذه الرحمة الشاملة التي وضعها اللّه سبحانه وتعالى بين يديه ـ هو أن يجعلها قوة تظاهر المؤمنين ، وتقوّى جبهتهم ، إزاء الكافرين والمشركين وأهل الضلال جميعا ، لأنها قوة من قوى الحق ، ومن شأنها أن تخلص لأهل الحق وحدهم . .

والنهى الموجه للنبى في قوله تعالى : « فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ » ـ هو دعوة للنبى إلى اليأس من هؤلاء المشركين من قومه ، الذين قال اللّه فيهم :

« أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ » (41 : المائدة) وقال سبحانه :

« إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ » (37 : النحل)

ذلك أن وقوف النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ هذا الوقوف الطويل مع المشركين المعاندين من قومه ، طمعا في إيمانهم ، هو على حساب المؤمنين ، أو الذين يستجيبون للإيمان ، حيث تلك هي المواطن الصالحة للغرس ، والإنبات والإثمار ، وهي المواطن التي ينبغى أن يوجه

الرسول إليها كلّ جهده . . وقد عاتب اللّه سبحانه وتعالى النبي الكريم في ابن أم مكتوم الأعمى ، المؤمن ، الذي جاء يستزيد من الرسول إيمانا ، ويطلب هدى ، والرسول في لقاء مع بعض وجوه القوم ، من المشركين ، وفي جدل حاد ، يرجو الرسول من ورائه أن تلين قلوب الجماعة ، وتدخل في دين اللّه. فقال تعالى : معاتبا لرسوله : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَما عَلَيْكَ

(71/592)

أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى وَهُوَ يَخْشى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ »

. (1 . 11 . عبس) وقد دخل موسى عليه السلام في تجربة كتلك التجربة ، حين أخذته عاطفة العصبية لقومه ، وما كانوا يلقون من ظلم على يد فرعون وقومه . . وقد تمثل له ذلك فيما وقع بين المصري والإسرائيلى ، وقد انتصر موسى للإسرائيلى ، على المصري . . فلما خرج من تلك التجربة ، استشعر الندم ، واستغفر ربه ، ونذر نعمة القوة التي في كيانه ، أن تكون دائما للحق ، ومع الحق حيث كان ، فقال : « رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » . . ولعل هذا هو بعض السر في الجمع بين هاتين الآيتين في هذه السورة . . قوله تعالى : «وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ» .

هو تحذير للنبى من هؤلاء المشركين من قومه ، وذوى قرابته ، الذين يدعونه إلى أن يدع ما هو فيه ، حتى لا يكون بموقفه هذا سببا في تمزيق وحدة قومه ، وإلقاء العداوة بينهم ، حتى يقتل بعضهم بعضا . . فهذه قريش لا تريد الدخول في دينه ، وهؤلاء أهله الأدنون يأبون أن يتخلّوا عنه ، ويتركوه لقريش ترميه بالأذى . . وهذا عمه أبو طالب يدعوه إلى أن يرفق به وبأهله ، وألا يحملهم على مواجهة قريش ، فيقول له لرسول الكريم قولته الخالدة تلك : « و اللّه يا عم لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في شمالى على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » . وقوله : « وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ »

(72/592)

هذا فوق أنه تحذير للنبيّ من أن تغلبه عاطفة الحرص على أهله أن يصيبهم سوء من أجل انتصارهم لعصبيتهم فيه . هو تثبيت لقلب النبيّ ، وترسيخ لقدمه فى القيام على دعوته ، وألا يلفته شىء عنها . . فلتذهب الدنيا كلها ، ولتبق راية الحقّ قائمة في يده .

. وفي قوله تعالى : « وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » دعوة إلى قطع كل رابطة من قرابة أو نسب ، وإلى التضحية بكل عاطفة بينه وبين أهله ، إذا كان في ذلك جور على دعوته ، وتحيّف

على شيء من عزمه وإرادته في القيام بتبليغها ، والجهاد بها . فهو في تلك الحال ليس من أهله هؤلاء المشركين . . إن أهله وقرابته هم المؤمنون : « إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (91 : النمل) فالمؤمنون هم أهل الرسول ، وهم قرابته .

قوله تعالى : «وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ . . لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

بهذه الآية تختم سورة « القصص » . . وهي تعزل النبيّ عزلا تاما عن قومه المشركين ، الذين يدعون مع اللّه آلهة أخرى . . فهو على طريق ، وهم على طريق . . هو له دينه ، وهم لهم دينهم ، فلا جامعة تجمع بينه وبينهم إن لم يجمعهم الاجتماع على دين اللّه ، وعلى إخلاص العبودية له وحده ، لا إله إلا هو . .

فإذا سلم للمرء دينه ، وخسر كل شيء ، فهو الذي ربح كل شيء ولم يخسر شيئا . . لأن كلّ شيء هالك وإلى زوال ، ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام . .

(73/592)

وإذن فلا حساب لأهل ، أو مال ، أو ولد ، مع الدّين الذي يشد الإنسان إلى اللّه ، ويقيمه على ولاء له . . فالأهل والمال ، والولد ، وكل شيء هالك ، فيصبح الإنسان أو يمسى ولا شيء له ، أو معه من هذا ، ثم يلتفت فلا يجد إلا ما ادخر عند اللّه من إيمان وتقوى . . « وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلًا » (46 : الكهف) . وفي قوله تعالى : « لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » هو إلفات إلى اللّه سبحانه وتعالى ، وإلى أنه جلّ شأنه المتفرّد بالبقاء ، وبالحكم بين العباد ، يوم يرجعون إليه . . فالذين كانوا على ولاء مع اللّه ، يدخلون في ظلّ هذا الولاء ، فيجدون الأمن والسلام ، والذين عادوا اللّه وحادّوه ، وكفروا به وبرسله ، يظلمون في العراء ، بعيدين عن هذا الظل الكريم الرحيم ، « أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 10 صـ 393 ـ 400 ﴾.

(74/592)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾

تنزل جملة ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ منزلة بدل الاشتمال لجملة ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ [

القصص : 83] لأن العاقبة ذات أحوال من الخير ودرجات من النعيم وهي على حسب ما يجيء به المتقون من الحسنات فتفاوت درجاتهم بتفاوتها .

وفي اختيار فعل ﴿ جاء ﴾ في الموضعين هنا إشارة إلى أن المراد من حضر بالحسنة ومن حضر بالسيئة يوم العرض على الحساب .

ففيه إشارة إلى أن العبرة بخاتمة الأمر وهي مسألة الموافاة .

وأما اختيار فعل ﴿ عملوا ﴾ في قوله ﴿ الذين عملوا السيئات ﴾ فلما فيه من التنبيه على أن عملهم هو علة جزائهم زيادة في التنبيه على عدل الله تعالى .

ومعنى ﴿ فله خير منها ﴾ أن كل حسنة تحتوي على خير لا محالة يصل إلى نفس المحسن أو إلى غيره فللجائي بالحسنة خيرٌ أفضل مما في حسنته من الخير ، أو فله من الله إحسان عليها خير من الإحسان الذي في الحسنة قال تعالى في آيات أخرى ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ [الأنعام : 160] أي فله من الجزاء حسنات أمثالها وهو تقدير يعلمه الله .

ولما ذكر جزاء الإحسان أعقب بضد ذلك مع مقابلة فضل الله تعالى على المحسن بعدله مع المسيء على عادة القرآن من قرن الترغيب بالترهيب .

و﴿ من جاء بالسيئة ﴾ ما صدقه الذين عملوا السيئات ، و ﴿ الذين عملوا السيئات ﴾ الثاني هو عين ﴿ من جاء بالسيئة ﴾ فكان المقام مقام الإضمار بأن يقال : ومن جاء بالسيئة فلا يُجزَوْن الخ ؛ ولكنه عدل عن مقتضى الظاهر لأن في التصريح بوصفهم بـ ﴿

عملوا السيئات ﴾ تكريراً لإسناد عمل السيئات إليهم لقصد تهجين هذا العمل الذميم وتبغيض السيئة إلى قلوب السامعين من المؤمنين .

وفي قوله ﴿ إلا ما كانوا يعملون ﴾ استثناء مفرغ عن فعل ﴿ يُجزَى ﴾ المنفي المفيد بالنفي عموم أنواع الجزاء ، والمستثنى تشبيه بليغ ، أي جزاء شبه الذي كانوا يعملونه .

(75/592)

والمراد المشابهة والمماثلة في عرف الدين ، أي جزاء وفاقاً لما كانوا يعملون وجارياً على مقداره لا حيف فيه وذلك موكول إلى العلم الإلهي .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾

ابتداء كلام للتنويه بشأن محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيت فؤاده ووعده بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وأن إنكار أهل الضلال رسالته لا يضيره لأن الله أعلم بأنه على هدى وأنهم على ضلال بعد أن قدم لذلك من أحوال رسالة موسى عليه السلام ما فيه عبرة بالمقارنة بين حالي الرسولين وما لقياه من المعرضين .

وافتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام به .

وجيء بالمسند إليه اسم موصول دون اسمه تعالى العَلَم لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء

الخبر .

وأنه خبر الكرامة والتأييد أي أن الذي أعطاك القرآن ما كان إلا مقدّراً نصرك وكرامتك ؛ لأن إعطاء القرآن شيء لا نظير له فهو دليل على كمال عناية الله بالمعطى .

قال كعب بن زهير :

مَهْلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال

قرآن فيها مواعيظ وتفصيل . . .

وفيه إيماء إلى تعظيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم

ومعنى ﴿ فرض عليك القرآن ﴾ اختاره لك من قولهم : فرض له كذا ، إذا عيَّن له فرضاً ، أي نصيباً .

ولما ضمن ﴿ فرض ﴾ معنى (أنزل) لأن فرض القرآن هو إنزاله ، عُدِّي فرض بحرف (على) .

والردّ : إرجاع شيء إلى حاله أو مكانه .

والمعاد : اسم مكان العَوْدِ ، أي الأوْلِ كما يقتضيه حرف الانتهاء .

والتنكير في ﴿ معاد ﴾ للتعظيم كما يقتضيه مقام الوعد والبشارة ، وموقعُهما بعد قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ [القصص : 84] ، أي إلى معاد أيَّ معاد .

والمعاد يجوز أن يكون مستعملاً في معنى آخر أحوال الشيء وقراره الذي لا انتقال منه

تشبيهاً بالمكان العائد إليه بعد أن صدر منه أو كناية عن الأخارة فيكون مراداً به الحياة الآخرة .

قال ابن عطية : وقد اشتهر يوم القيامة بالمعاد لأنه معاد الكل أ هـ .

(76/592)

أي فأبشر بما تلقى في معادك من الكرامة التي لا تعادلها كرامة والتي لا تُعطى لأحد غيرك .

فتنكير ﴿ معاد ﴾ أفاد أنه عظيم الشأن ، وترتبه على الصلة أفاد أنه لا يعطى لغيره مثله كما أن القرآن لم يفرض على أحد مثله .

ويجوز أن يراد بالمعاد معناه المشهود القريب من الحقيقة .

وهو ما يعود إليه المرء إن غاب عنه ، فيراد به هنا بلدهُ الذي كان به وهو مكة .

وهذا الوجه يقتضي أنه كناية عن خروجه منه ثم عوده إليه لأن الرد يستلزم المفارقة .

وإذ قد كانت السورة مكية ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة فالوعد بالرد كناية عن الخروج منه قبل أن يُردّ عليه .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أُرِيَ في النوم أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل كما في حديث البخاري ، وكان قال له ورقةُ ابن نَوفل : يا ليتني أكون معك إذ يُخرجك قومُك وإن

يُدركْني يومُك أنصرْك نصراً مؤزَّراً ، فما كان ذلك كله ليغيب عن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه قد قيل : إن هذه الآية نزلت عليه وهو في الجُحْفة في طريقه إلى الهجرة كما تقدم في أول السورة فوعد بالرد عليها وهو دخوله إليها فاتحاً لها ومتمكناً منها .

فقد روي عن ابن عباس تفسيرُ المعاد بذلك وكلا الوجهين يصح أن يكون مراداً على ما تقرر في المقدمة التاسعة .

ثم تكون جملة ﴿ قل ربي أعلم من جاء بالهُدى ﴾ بالنسبة إلى الوجه الأول بمنزلة التفريع على جملة ﴿ لرادّك إلى معاد ﴾ ، أي رادّك إلى يوم المعاد فمُظهرٌ المهتدي والضالين ، فيكون علم الله بالمهتدي والضالّ مكنى به عن اتضاح الأمر بلا ريب لأن علم الله تعالى لا يعتريه تلبيس وتكون هذه الكناية تعريضاً بالمشركين أنهم الضالون .

وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو المهتدي .

ولهذه النكتة عبّر عن جانب المهتدي بفعل ﴿ من جاء ﴾ للإشارة إلى أن المهتدي هو الذي جاء بهدي لم يكن معروفاً من قبل كما يقتضيه : جاء بكذا .

وعبر عن جانب الضالين بالجملة الإسمية المقتضية ثبات الضلال المشعر بأن الضلال هو أمرهم القديم الراسخ فيهم مع ما أفاده حرف الظرفية من انغماسهم في الضلال وإحاطته بهم .

ويكون المعنى حينئذ على حد قوله تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ [سبأ : 24] لظهور أن المبلغ لهذا الكلام لا يفرض في حقه أن يكون هو الشق الضال فيتعين أن الضال من خالفه .

وبالنسبة إلى الوجه الثاني تكون بمنزلة الموادعة والمتاركة وقطع المجادلة .

فالمعنى : عدِّ عن إثبات هداك وضلالهم وكِلْهم إلى يوم ردك إلى معادك يوم يتبين أن الله نصرك وخذلهم .

وعلى المعنيين فجملة ﴿ قل ربي أعلم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً عن جملة ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ جواباً لسؤال سائل يثيره أحد المعنيين .

وفي تقديم جملة ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ على جملة ﴿ قل ربي أعلم من جاء بالهدى ﴾ إعداد لصلاحية الجملة الثانية للمعنيين المذكورين .

فهذا من الدلالة على معاني الكلام بمواقعه وترتيب نظامه وتقديم الجمل عن مواضع تأخيرها لتوفير المعاني .

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86)

﴿ وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ .

عطف على جملة : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ [القصص : 85] الخ باعتبار ما تضمنته من الوعد بالثواب الجزيل أو بالنصر المبين ، أي كما حملك تبليغ القرآن فكان ذلك علامة على أنه أعد لك الجزاء بالنصر في الدنيا والآخرة .

كذلك إعطاؤه إياك الكتاب عن غير ترقب منك بل بمحض رحمة ربك ، أي هو كذلك في أنه علامة لك على أن الله لا يترك نصرك على أعدائك فإنه ما اختارك لذلك إلا لأنه أعد لك نصراً مبيناً وثواباً جزيلاً .

وهذا أيضاً من دلالة الجملة على معنى غير مصرح به بل على معنى تعريضي بدلالة موقع الجملة .

(78/592)

وإلقاءُ الكتاب إليه وحيه به إليه .

أطلق عليه اسم الإلقاء على وجه الاستعارة كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ في سورة [النحل : 86 - 87] .

والاستثناء في ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ استثناء منقطع لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم

يخامر نفسه رجاء أن يبعثه الله بكتاب من عنده بل كان ذلك مجرد رحمة من الله تعالى به واصطفاء له .

﴿ مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ﴾ ﴿ ظَهِيراً للكافرين * وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءايات الله بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وادع إلى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ .

تفريع على جملة ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ [القصص : 85] وما عطف عليها وما تخلل بينهما مما اقتضى جميعه الوعد بنصره وظهور أمره وفوزه في الدنيا والآخرة ، وأنه جاء من الله إلى قوم هم في ضلال مبين ، وأن الذي رحمه فآتاه الكتاب على غير ترقب منه لا يجعل أمره سُدًى فأُعقب ذلك بتحذيره من أدنى مظاهرة للمشركين فإن فعل الكون لما وقع في سياق النهي وكان سياق النهي مثل سياق النفي لأن النهي أخو النفي في سائر تصاريف الكلام كان وقوع فعل الكون في سياقه مفيداً تعميم النهي عن كل كون من أكوان المظاهرة للمشركين .

والظهير : المعين .

والمظاهرة : المعاونة ، وهي مراتب أعلاها النصرة وأدناها المصانعة والتسامح ، لأن في المصانعة على المرغوب إعانة لراغبه .

فلما شمل النهي جميع أكوان المظاهرة لهم اقتضى النهي عن مصانعتهم والتسامح معهم ، وهو يستلزم الأمر بضد المظاهرة فيكون كناية عن الأمر بالغلظة عليهم كصريح قوله تعالى

﴿ واغلُظْ عليهم ﴾ [التوبة : 73] .

وهذا المعنى يناسب كون هذه الآيات آخر ما نزل قبل الهجرة وبعد متاركته المشركين ومغادرته البلد الذي يعمرونه .

وقيل النهي للتهييج لإثارة غضب النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وتقوية داعي شدته معهم .

(79/592)

ووجه تأويل النهي بصرْفه عن ظاهره أو عن بعض ظاهره هو أن المنهي عنه لا يُفرض وقوعه من الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يُنهى عنه فكان ذلك قرينة على أنه مُؤوّل .

وتوجيه النهي إليه عن أن يصدوه عن آيات الله في قوله ﴿ ولا يصدّنّك عن آيات الله ﴾ كناية عن نهيه عن أن يتقبل منهم ما فيه صد عن آيات الله كما يقول العرب : لا أعرفنّك تفعل كذا ، كنوا به عن : أنه لا يفعله .

فيعرف المتكلم الناهي فعله .

والمقصود : تحذير المسلمين من الركون إلى الكافرين في شيء من شؤون الإسلام فإن المشركين يحاولون صرف المسلمين عن سماع القرآن ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا

القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : 26] .

وقيل هو للتهييج أيضاً ، وتأويل هذا النهي آكد من تأويل قوله ﴿ فلا تكونن ظهيراً للكافرين ﴾ .

ويجوز أن يكون النهي في ﴿ لا يصدَّنَّك ﴾ نهْيَ صِرفَة كما كان الأمر في قوله ﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ [البقرة : 243] أمرَ تكوين .

فالمعنى : أن الله قد ضمن لرسوله صرف المشركين عن أن يصدوه عن آيات الله وذلك إذ حال بينه وبينهم بأن أمره بالهجرة ويسَّرها له وللمسلمين معه .

والتقييد بالبعدية في قوله ﴿ بعد إذ أُنزِلت إليك ﴾ لتعليل النهي أياما كان المراد منه ، أي لا يجوز أن يصدّوك عن آيات الله بعد إذ أنزلها إليك فإنه ما أنزلها إليك إلا للأخذ بها ودوام تلاوتها ، فلو فرض أن يصدوك عنها لذهب إنزالها إليك بُطلاً وعبثاً كقوله تعالى ﴿ من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ [البقرة : 213] .

والأمر في قوله ﴿ وادع إلى ربّك ﴾ مستعمل في الأمر بالدوام على الدعوة إلى الله لا إلى إيجاد الدعوة لأن ذلك حاصل ، أي لا يصرفك إعراض المشركين عن إعادة دعوتهم إعذاراً لهم .

ويجوز أن يكون الدعاء مستعملاً في الأكمل من أنواعه ، أي أنك بعد الخروج من مكة أشد

تمكناً في الدعوة إلى الله مما كنت من قبل لأن تشغيب المشركين عليه كان يرنّق صفاء تفرغه للدعوة .

(80/592)

وجميع هذه النواهي والأوامر داخلة في حَيّز التفريع بالفاء في قوله ﴿ فلا تكونَنّ ظهيراً للكافرين ﴾ .

أما قوله ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ فإن حُملت ﴿ مِنْ ﴾ فيه على معنى التبعيض كان النهي مؤوّلاً بمثل ما أولوا به النهيين اللذين قبله أنه للتهييج ، أو أن المقصود به المسلمون .

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

هذا النهي موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر ، والمقصود به إبطال الشرك وإظهار ضلال أهله إذ يزعمون أنهم معترفون بإلهية الله تعالى وأنهم إنما اتخذوا له شركاء وشفعاء ، فبين لهم أن الله لا إله غيره ، وأن انفراده بالإلهية في نفس الأمر يقضي ببطلان الإشراك في الاعتقاد ولو أضعف إشراك ، فجملة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ في معنى العلة للنهي الذي في الجملة قبلها .

وجملة ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ علة ثانية للنهي لأن هلاك الأشياء التي منها الأصنام وكلُّ ما عبد مع الله وأشرك به دليل على انتفاء الإلهية عنها لأن الإلهية تنافي الهلاك وهو العدم .

والوجه مستعمل في معنى الذات .

والمعنى : كل موجود هالك إلا الله تعالى .

والهلاك : الزوال والانعدام .

وجملة ﴿ له الحكم وإليه ترجعون ﴾ تذييل فلذلك كانت مفصولة عما قبلها .

وتقديم المجرور باللام لإفادة الحصر ، والمحصور فيه هو الحكم الأتم ، أي الذي لا يرده راد .

والرجوع مستعمل في معنى : آخر الكون على وجه الاستعارة ، لأن حقيقته الانصراف إلى مكان قد فارقه فاستعمل في مصير الخلق وهو البعث بعد الموت ؛ شبه برجوع صاحب المنزل إلى منزله ، ووجه الشبه هو الاستقرار والخلود فهو مراد منه طول الإقامة .

وتقديم المجرور بـ (إلى) للاهتمام بالخبر لأن المشركين نفوا الرجوع من أصله ولم يقولوا بالشركة في ذلك حتى يكون التقديم للتخصيص .

(81/592)

والمقصود من تعدد هذه الجملة إثبات أن الله منفرد بالإلهية في ذاته وهو مدلول جملة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ .

وذلك أيضاً يدل على صفة القدم لأنه لما انتفى جنس الإلهية عن غيره تعالى تعين أنه لم يُوجده غيرُه فثبت له القدمُ الأزلي وأن الله تعالى باق لا يعتريه العدم لاستحالة عدم القديم ، وذلك مدلول ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ، وأنه تعالى منفرد في أفعاله بالتصرف المطلق الذي لا يرده غيره فيتضمن ذلك إثبات الإرادة والقدرة .

وفي كل هذا ردّ على المشركين الذين جوزوا شركته في الإلهية ، وأشركوا معه آلهتهم في التصرف بالشفاعة والغوث .

ثم أبطل إنكارهم البعث بقوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(82/592)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾

قلنا : إن كلمة (خيرٍ) تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشر ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8] .

وتُطلق ويُراد بها الأحسن في الخير ، تقول : هذا خير من هذا ، فكلاهما فيه خير ، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كُلٍّ خير " فهي بمعنى التفضيل ، أي : أخير منها ، ومن ذلك قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيارُ النَّاسِ . . . وابْنُ الأَخْيَرِ

فجاء بصيغة التفضيل على الأصل ، وتقول : هذا حَسَن ، وذلك أحسن .

فالمعنى هنا : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا . . . ﴾ [القصص : 84] أي : خير يجيئه من طريقها ، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله أخير منه وأحسَن ، والمراد أن الحسنة بعشر أمثالها .

والحق سبحانه يعطينا صورة توضيحية لهذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 261] .

فقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة . . . ﴾ [القصص : 84] قضية عقدية ، تثبت وتُقرِّر الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصي ، ومعنى ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة . . . ﴾ [القصص : 84] أي : أتى بها حدثاً لم يكُنْ موجوداً ، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله فيك من قدرة على الطاعة وطاقة لفعل الخير .

أو المعنى : جاء بالحسنة إلى الله أخيراً لينال ثوابها ، ولا مانع أن تتجمع له هذه المجيئات كلها ليُقبل بها على الله ، فيجازيه بها في الآخرة .

(83/592)

لكن ، هل ثواب الحسنة مقصور فقط على الآخرة ، أم أن الدين بقضاياه جاء لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟ فما دام الدين لسعادة الدارين فللحسنة أثر أيضاً في الدنيا ، لكن مجموعها يكون لك في الآخرة .

وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون ، وبعد أن نصحه قومه ، وجاء في نصحهم : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ . . . ﴾ [القصص : 77] إذن : فطلبهم أن يُحسن كما أحسن الله إليه جاء في مجال ذكر الحسنة ، والحسنة أهي الشيء الذي يستطيبه الإنسان ؟ لا ، لأن الإنسان قد يستطيب الشيء ثم يجلب عليه المضرة ، وقد يكره الشيء ولا يستطيبه ، ويأتي له بالنفع .

فمن إذن الذي يحدد الحسنة والسيئة ؟ ما دام الناس مختلفين في هذه المسألة ، فلا يحددها إلا الله تعالى ، الذي خلق الناس ، ويعلم ما يُصلحهم ، وهو سبحانه الذي يعلم خصائص الأشياء ، ويعلم ما يترتب عليها من آثار ، أما الإنسان فقد خلقه الله صالحاً للخير ،

وصالحاً للشر ، يعمل الحسن ، ويعمل القبيح ، وربما اختلطت عليه المسائل .

لذلك يقولون في تعريف الحسنة : هي ما حسَّنه الشرع ، لا ما حسَّنْتها أنت ، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة ، ونجد فيها متعة ولذة ، مع أنها مُضرة ، في حين نأنف مثلاً من أكل الطعام المسلوق ، مع أنه أفيد وأنفع ؛ لذلك يقول تعالى في صفة الطعام :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً . . . ﴾ [النساء : 4] لأن الطعام قد يكون هنيئاً تجد له متعة ، لكنه غير مريء ويُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك .

الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا . . . ﴾ [القصص : 84] فالحسنة خير ، لكن ، الثواب عليها خيرٌ منها أي : أخير ؛ لأنه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع ، أو خير يأتيك بسببها . كما يقول أصحاب الألغاز واللعب بالكلمات : محمد خير من ربه ، والمعنى : خير يصلنا من الله ، ولا داعي لمثل هذه الألغاز طالما تحتمل معنى غير مقبول .

(84/592)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن جَآءَ بالسيئة . . . ﴾ [القصص : 84] لم يقُل الحق سبحانه : فله أشر منها ، قياساً على الحسنة فنضاعف السيئة كما ضاعفنا الحسنة ، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله بخَلْقه ، هذه الرحمة التي تتعدَّى حتى إلى العُصَاة من

خَلْقه .

لذلك قال ﴿ فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : 84]

أي : على قَدْرها دون زيادة .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى في سورة (عم) : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ [النبأ : 31-36] .

فحسباناً هنا لا تعني أن الجزاء بحساب على قدر العمل ، إنما تعني كافيهم في كل ناحية من نواحي الخير ، ومنه قولنا : حسبي الله يعني : كافيني .

وفي المقابل يقول سبحانه في السيئة : ﴿ جَزَآءً وِفَاقاً ﴾ [النبأ : 26] أي : على قدرها موافقاً لها .

إذن : فربنا – عز وجل – يعاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ ليغري الناس بفعل الحسنة ، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كل الناس ، وفي المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلها ، فينالك من كل واحد منهم حسنة ، وكأنه (أوكازيون) حسنات يعود عليك أنت .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ . . . ﴾ .

معنى فرض : ألزم وأوجب وحتَّم . وأصل الفَرْض الحزّ والقطع ، كما تقطع شيئاً بالسكين

مثلاً تُسمّى فرضاً ؛ لأنها خرجتْ عن طبيعة تكوينها ، كذلك القرآن يُخرج النفس عن طبيعة مُشْتهاها ، ويقطع عليها مشيئتها ، ويردّها إلى مشيئة الله ؛ لذلك يقول سبحانه في أول سورة النور : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا . . . ﴾ [النور : 1] .

(85/592)

يعني : حتَّمناها وألزمنا بها ، والإلزام يعني ردّ النفس إلى ما يريده خالقها منها ، بصرْف النظر عما تشتهيه هي ، فقد يأمرها بما تكره ، وينهاها عما تحب . إذن : يقطع سيال النفس ؛ لأنها عادة ما تكون أمَّارة بالسوء ، تنظر إلى العاجل ، ولا تهتم بالآجل ولا تعمل له حساباً .

فالقرآن منهج الله بافعل ولا تفعل ، هو الذي يكبح جماح النفس ، ويُحدِّد لها مجال مشيئتها ؛ لأن الخالق – عز وجل – خلق النفس ، وجعل مشيئتها صالحة لعمل الخير ، ولعمل الشر .

وسبق أن تكلمنا عن الفرق بين عباد وعبيد وقلنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد الله ، المؤمن منهم والكافر ، وإنْ تأبَّى الكافر على الله في الإيمان ، فهو مقهور له تعالى في مسائل أخرى ، كالمرض والموت وغيره ، ثم أعطانا الله تعالى مجالاً للاختيار ، ليثيب من يُثيب بحق ، يُعذِّب

بحق .

والعاقل حينما يرى أنه مقهور لله في قدريات لا يستطيع منها فكاكاً ، وليس له فيها تصرف ، فيتنازل عن مراده ، وعن اختياره لمراد ربه واختيار ربه ، ويرضى أنْ يكون مُسيَّراً في كل شيء ، وهنا يتحولون من عبيد إلى عباد .

فالعباد إذن هم الذين يخرجون عن اختياراتهم الممنوحة لهم من الله إلى مراد الله في الحكم ، وبهذا المنطق يكون الجميع في الآخرة عباداً ؛ لأنه لا اختيار لهم ، ويستوي في ذلك المؤمن والكافر ، يوم يقول سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

وسُمِّي إنزال القرآن فَرْضاً لما في القرآن من تكاليف ، وهي عادةً ما تكون شاقة على النفس ، أَلَا ترى قوله تعالى عن الصلاة ، وهي أم العبادات : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] .

فلا يعرف منزلتها ومكانتها إلا خاشع ؛ لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لبلال : " أرحنا بها يا بلال " ويقول : " وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة " ؛ لأنه أحبها وعشقها ، حتى صارت قُرَّة عينه ، ومُنْتهى راحته .

(86/592)

إذن : أول ما يفرض التكليف لا بُدَّ أن يكون شاقاً ؛ لذلك يحتاج إلى صلاة إيمان وجَلَد يقين ، بحيث تثق في أن العمل الشاق عليك الآن سيجلب لك الخير والسعادة الباقية الدائمة في الآخرة .

ويقول تعالى عن القتال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . . . ﴾ [البقرة : 216] فلا شكَّ أنه مكروه للنفس ، لكن إن استحضرت الجزاء ، وعرفتَ أنه : إما النصر ، وإما الشهادة ، فإنه يحلو لك حتى تعشقه ، وتبادر أنت إليه ، كالصحابي في بدر بعد أن سمع ما للشهيد من الأجر وكان في فمه تمرة يمضغها فقال : " أليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أقاتل فأُقتل " ؟ ثم ألقى التمرة وأسرع إلى ساحة القتال .

لذلك الحق سبحانه يُضخم الجزاءات في نفس المؤمن ؛ ليقبل على العمل بحب وشهوة .

ومن هنا يقول بعض العارفين الذين عشقوا الخير حتى أصبح شهوةَ نفْس عندهم : أخشى ألاَّ يُثيبني الله على الطاعة ، لماذا ؟ يقول : لأنني أصحبتُ أشتهيها ، أي : كما يشتهي أهل المعصية المعصية .

وحين يصل الإيمان بصاحبه إلى درجة أنه يعشق الطاعة ، فقد أصبح ربانياً يثق فيما عند الله من الجزاء .

" وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمَتْ قدماه ، فلما سألَتْه السيدة عائشة : ألم يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " ؟

"

ومعنى : ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ . . . ﴾ [القصص : 85] يعني : يجازيك أفضل الجزاء ، ونزلتْ هذه الآية لما اضطهد أهلُ مكة رسولَ الله وآذوْه ، حتى اضطروه للذهاب إلى الطائف ليبحث فيها عن نصير ، لكنهم لم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكة ، فعزَّ على رسول الله النصير فيها ، وعاد منكسراً حزيناً لم يجد مَنْ يدخل في جواره ، إلى أن أجاره مطعم بن عدي .

(87/592)

وتأمل حين يكون رسول الله بجلالة قدره لا يجد مَنْ يناصره ، أو يُدخله في جواره ، أما الصحابة فلم تكُنْ لهم شوكة بعد ، ولا قوة لحماية رسول الله ، وفي هذه الفترة لاقوا المشاق في سبيل الدعوة ، فحاصرهم الكفار في شِعْب أبي طالب ، وفرضوا عليهم المقاطعة التامة حتى عزلوهم عن الناس ، ومنعوا عنهم الطعام والشراب ، والبيع والشراء ، حتى الزواج ، وحتى اضطروا إلى أكل المخلَّفات وأوراق الشجر .

لذلك أمرهم الله بالهجرة ، والهجرة تكون إلى دار أمن ، أو إلى دار الإيمان ، إلى دار أمن كالهجرة إلى الحبشة حيث قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مُبيِّناً حيثية الهجرة

إليها : " إن فيها ملكاً لا يُظلم عنده أحد " يعني : النجاشي ملك الحبشة ، وفعلاً صدق فيه قول رسول الله ، فلما أرسلتْ قريش في إثرهم مَنْ يكلم النجاشي في طلبهم وإعادتهم إلى مكة ، رفض أن يسلمهم ، وأن يُمكِّن قريشاً منهم ، مع أن هدايا قريش كانت عظيمة ، والإغراء كان كبيراً .

وهذا يدل على عظمة رسول الله ، وعلى فكره الواسع ، وعلى دراسة الخريطة من حوله ، ومعرفة مَنْ يصلح لهجرة صحابته إليه ، فاختياره ملك الحبشة لا يأتي إلا إما بإلهام من الله ، أو بذكاء كبير ، وهو رجل أمي في أمة أمية ، ولو لم يذهب وفد قريش في طلب المهاجرين ما ظهر لنا الدليل على صدق مقولة رسول الله .

ونتيجة " لا يظلم عنده أحد " فقد شرَّفه الله بالإسلام فأسلم ووكَّله رسول الله في أن يُزوِّجه من السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت رضي الله عنها من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة مع زوجها الذي تنصَّر هناك ، وبقيتْ هي على دينها وتمسكتْ بعقيدتها .

(88/592)

وفي هذا دليل أولاً : على مدى ما كان يلاقيه المؤمنون من إيذاء الكافرين ، ثانياً : دليل على الطاعة الواعية للزوج ، فقد آثرت الخروج مع زوجها لا عِشْقاً له ، ولا هياماً به ، إنما فراراً

معه بدينها ؛ لذلك لما تنصَّر لم تتردد في تركه ؛ لذلك طلبها رسول الله لنفسه ، ثم لما مات النجاشي صلى عليه رسول الله وترحَّم عليه . هذه هي هجرة الإيمان إلى دار الأمن .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك إلى دار الإيمان ، إلى المدينة ، بعد بيعة العقبة الأولى والثانية ، وبعد أن وجد رسول الله أنصاراً يتحملون معه أعباء الدعوة ، وقد ضرب الأنصار في المدينة أروع مَثَل في التضحية التي ليس لها مثيل في تاريخ البشرية .

ذلك أن الرجل أغير ما يكون على زوجته ، فلا يضِنّ على غيره بما يملك ، فتعطيني سيارتك أركبها ، أو بيتك أسكن فيه ، أو ثوبك ألبسه ، وأتقمَّش به ، أما الزوجة فتظل مصونة لا يجرؤ أحد على النظر إليها .

لكن كان للأنصار في هذه المسألة نظرة أخرى حين أشركوا إخوانهم المهاجرين في كل شيء حتى في زوجاتهم ، فقد راعوا فيهم خروجهم من أهلهم وبلادهم ، وراعوا غربتهم وما لهم من إرْبة وحاجة النساء .

فكان الواحد منهم يقول لأخيه : انظر إلى زوجاتي ، فأيتهنّ أعجبتك أُطلِّقها ، وتتزوجها أنت ، هذه تضحية لا نجد لها مثيلاً في تاريخ الناس حتى عند الكفرة .

ثم أُمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة ، فخرج خُفْية في حين خرج عمر مثلاً جهراً وعلانية ، حتى إنه وقف ينادي في أهل مكة بأعلى صوته يتحدى أهلها عند

خروجه : مَنْ أراد أنْ تثكله أمه ، أو يُتم ولده ، أو تُرمَّل زوجته فليلْقني خلف هذا الوادي .

(89/592)

أما رسول الله فقد خرج خُفْية ، وهذه المسألة يقف عندها البعض أو تَخْفي عليه الحكمة منها ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائماً أُسْوة للضعيف ، أما القوي فلا يحتاج إلى حماية أحد ، ولا عليه إنْ خرج علانية ؛ لذلك لا يستحي أحد أن يتخفى كما تخفى رسول الله .

ثم إنك حين تتأمل : نعم خرج رسول الله خُفْية لكنها خُفْية التحدي ، فقد خرج من بين فتيانهم المتربصين به ، وعفَّر وجوههم بالتراب ، وهو يقول : " شاهت الوجوه " .

ومع ذلك لم يمنعه تأييد الله له أنْ يأخذ بأسباب النجاة ، فخالف الطريق ؛ لأن كفار مكة كانوا يعرفون أن وجهته المدينة لما عقد بيعة العقبة مع الأنصار ؛ لذلك ترصدوا له على طريقها ، وأرسلوا العيون للبحث عنه ، وجعلوا جُعْلاً لمن يأتيهم به صلى الله عليه وسلم .

والمتأمل في حادث الهجرة يجد أنها خطة محكمة تراعي كل جوانب الموقف ، كأن الله تعالى يريد أنْ يُعلِّمنا في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاَّ نهمل الأسباب ، وألاَّ

نتصادم مع الواقع ما دُمْنا قادرين على ذلك .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وهي بلده ، وأحب البلاد إلى قلبه قال : " اللهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إليَّ ، فأسكِنّي أحب البلاد إليك " .

لذلك إنْ كانت مكةُ محبوبةً لرسول الله ، فالمدينة محبوبة لله ؛ لذلك بعد أن خرج رسول الله من مكة وقارب المدينة حَنَّ قلبه إلى مكة ، فطمأنه ربه بهذه الآية : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآنَ لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . . ﴾ [القصص : 85] .

(90/592)

فالذي فرض عليك مشقة التكاليف ، وحمَّلك مشاق الدعوة والإقناع بها ، وتنفيذ أحكامها ، هو الذي سيردُّك إلى بلدك ردَّ نصر ، وردّ فتح ، وما أشبهَ ردِّ رسول الله إلى بلده بردِّ موسى عليه السلام إلى أمه في قوله تعالى لأم موسى : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ . . . ﴾ [القصص : 7] ليس رَدّاً عادياً ، إنما ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ﴾ [القصص : 7] .

إذن : سيُردُّ إليك ولدك ، لكن سيُرد رسولاً منتصراً . وكما صدق الله في ردِّ موسى يصدق في ردِّ محمد .

ومعنى ﴿ مَعَادٍ . . . ﴾ [القصص : 85] ليس هو الموعد كما يظن البعض ، إنما يراد

به المكان الذي تعود إليه بعد أن تفارقه ، فالمعنى : سنردُّك إلى المكان الذي تحِنُّ إليه ، ويتعلق به قلبك .

أو نردك إلى (معاد) أي : إلينا ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر : 77] ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قُل ربي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بالهدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [القصص : 85] الحق تبارك وتعالى يعلِّم رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم الجدل العفيف ، لا الجدل العنيف ، يُعلِّمه كيف يردُّ على ما قالوا عن الذي يؤمن به (صبأ فلان) يعني : خرج عن دين آبائه وهم يعتقدون أنه الحق ، فكأن الذي يؤمن في نظرهم خرج من الحق إلى الباطل .

(91/592)

إذن : فهذه عقول تحتاج إلى سياسة وجدل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . ﴾ [النحل : 125] ؛ لأن الجدل العنيف يزيد خصمك عناداً ولجاجة ، أما الجدل العنيف فيستميل القلوب ويعطفها نحوك ؛ لذلك يرد رسول الله بقوله : ﴿ قُل ربي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بالهدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [القصص : 85] أي : جاء

بالهدى من عند الله وهو النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [القصص : 85] .

ثم يعطي الحق – تبارك وتعالى – لنبيه صلى الله عليه وسلم دليلاً من واقع حياته ؛ ليطمئن على أنه مُؤَيَّد من ربه ، وأنه سبحانه سيفي له بما وعد ، ولن يتخلى عنه ، وكيف يختاره للرسالة ، ثم يتخلى عنه ؟

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86)

يعني : إذا كنت تتعجب ، أو تستبعد أنْ نردَّك إلى بلدك ؛ لأن الكفار يقفون لك بالمرصاد ، حتى أصبحت لا تُصدّق أنْ تعود إليها ، فانظر إلى أصل الرسالة معك : هل كنت تفكر أو يتسامى طموحك إلى أنْ تكون رسولاً ؟ إنه أمر لم يكُنْ في بالك ، ومع ذلك أعطاك الله إياه واختارك له ، فالذي أعطاك الرسالة ولم تكُنْ في بالك كيف يحرمك من أمر أنت تحبه وتشتاق إليه ؟

إذن : تقوم هذه الآية مقامَ الدليل والبرهان على صِدْق ﴿ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ . . . ﴾ [القصص : 85] وفي موضع آخر يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآء . . . ﴾ [الشورى : 52] فالذي أعطاك الرسالة لا يعجز أن يحقق لك ما تريد .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . . ﴾ [القصص : 86] هذا استثناء يسمونه استثناء منقطعاً .

(92/592)

والمعنى : ما كنت ترجو أن يُلْقى إليك الكتاب إنما ألقيناه ، وما ألقيناه إليك إلا رحمة لك من ربك .

وما دام هؤلاء الكفار عاندوك وأخرجوك ، فإياك أنْ تلين لهم ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [القصص : 86] أي : معيناً لهم مسانداً ، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة ، فحذره الله أنْ يُعينهم على ضلالهم ، أو يجاريه في باطلهم ، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يناصر ظالماً أو مجرماً ، حتى إن كان من أتباعه .

وسبق أن ذكرنا في تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] قصة اليهودي زيد بن السمين لما جاءه المسلم طُعْمة بن أبيريق ، وأودع عنده دِرْعاً له ، وكان هذا الدرع مسروقاً من آخر اسمه قتادة بن النعمانَ ، فلما افتقده قتادة بحث عنه حتى وجده في بيت اليهودي ، وكان السارق قد وضعه في كيس للدقيق ، فدلَّ أثر الدقيق على مكان الدرع فاتهموا اليهودي

بالسرقة ، ولما عرفوا حقيقة الموقف أشفقوا أن ينتصر اليهودي على المسلم ، خاصة وهم حديثو عهد بالإسلام ، حريصون على ألاّ تُشوه صورته .

لذلك شرحوا لرسول الله هذه المسألة ، لعله يجد لها مخرجاً ، فأدار رسول الله المسألة في رأسه قبل أنْ يأخذ فيها حُكْماً ؛ وعندها نزل الوحي على رسول الله : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس . . . ﴾ [النساء : 105] أي : جميع الناس ، المؤمن والكافر ﴿ بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105] أي : تخاصم من أجلهم ولصالحهم ﴿ واستغفر الله إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 106] أي : مما خطر ببالك في هذه المسألة .

(93/592)

وفي بعض الآيات نجد في ظاهرها قسوة على رسول الله وشدة مثل : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة : 44-46] .

وكل ما يكون في القرآن من هذا القبيل لا يُقصد به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما الحق سبحانه يريد أن يعطي للأمة نموذجاً يلفت أنظارهم ، وكأنه تعالى يقول لنا : انتبهوا

فإذا كان الخطاب لرسول الله بهذه الطريقة ، فكيف يكون الخطاب لكم ؟

كأن يكون عندك خادم يعبث بالأشياء حوله ، فتُوجّه الكلام أنت إلى ولدك : والله لو عبثتَ بشيء لأفعلنَّ بك كذا وكذا ، فتوجّه الزجر إلى الولد ، وأنت تقصد الخادم ، على حَدِّ المثل القائل (إياك أعني واسمعي يا جارة) .

لذلك يقول بعض العارفين :

مَا كان في القُرآن مِنْ نذَارةٍ . . . إلى النبيِّ صَاحبِ البشَارةِ

فكُنْ لَبيباً وافْهَم الإشَارةَ . . . إيّاك أعني واسْمعِي يَا جَارة

يعني : اسمعوا يا أمة محمد ، كيف أخاطبه ، وأُوجّه إليه النذارة ، مع أنه البشير .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ . . . ﴾ [القصص : 87] أي : لا يصرفنك ولا يمنعنَّك المشركون ﴿ عَنْ آيَاتِ اللهِ . . . ﴾ [القصص : 87] أي : قراءتها وتبليغها للناس ، وقوله : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [القصص : 87] هذا أيضاً داخل في (إياك أعني واسمعي يا جارة) لأن رسول الله أبعد ما يكون عن الشرك ، وليس مظنة له .

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إلها آخَرَ . . . ﴾ [القصص : 88] كسابقتها ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مظنة أن يدعو مع الله إلها آخر ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ . . . ﴾ [القصص : 88] أي : لا معبودَ بحق إلا هو .

ولو كان معه سبحانه وتعالى آلهة أخرى لواجهوه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] أي : سَعَوْا إليه لينازعوه الألوهية ، أو ليتقرَّبوا إليه .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88] الوجه في عُرْفنا ما به المواجهة في الإنسان ، وكل شيء يصف به الحق سبحانه نفسه علينا أنْ نصفه سبحانه به ، بناءً على وصفه في إطار قوله سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11] . فالحق سبحانه له وجه ، لكن ليس ككل الوجوه ، وهكذا في كل الصفات التي يشترك فيها الحق سبحانه مع الخَلْق ، وأنت آمنتَ بوجود الله ، وأن وجوده ذاتي ، ليس كوجودك أنت .

وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ . . . ﴾ [القصص : 88] كلمة شيء يقولون : إنها جنس الأجناس يعني : أي موجود طرأ عليه الوجود يسمى (شيء) مهما كان تافهاً ضئيلاً .

وقد تكلم العلماء في أيطلق على الله تعالى أنه شيء لأنه موجود ؟

قالوا : ننظر في أصل الكلمة (شيء) من شاء شيئاً ، فالشيء شاءه غيره ، فأوجده ؛

لذلك لا يقال لله تعالى شيء ؛ لأنه سبحانه ما شاءه أحد ، بل هو سبحانه موجود بذاته .

وفي آية أخرى يقول تعالى في عمومية الشيء : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . . . ﴾ [الإسراء : 44] يعني : كل ما يُقال له شيء موجود سبق وجوده عدم ، إلا يسبح بحمد الله ، البعض قال : هو تسبيح دلالة على موجدها ، وليس تسبيح مقالة حقيقية ، لكن قوله سبحانه ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ﴾ [الإسراء : 44] يدل على أنه تسبيح حقيقي ، فكل شيء يُسبِّح بلغته وبما يناسبه .

(95/592)

وقد أثبت الله تعالى منطقاً للطير وتسبيحاً للجبال ، ولو فهمتَ لغة هذه الأشياء لأمكنك أنْ تعرف تسبيحها ، لكن كيف نطمع في معرفة لغات الحجر والشجر ، ونحن لا نفهم لغات بعضنا ، فإذا لم تكن تعرف مثلاً الإنجليزية ، أتعرف ماذا يقول المتحدث بها لو سبّح بها الله وهو بشر مثلك يتكلَّم بنفس طريقتك وبنفس الأصوات ؟

لذلك يقولون في معجزاته صلى الله عليه وسلم : سبَّح الحصى في يده ، والصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى في يده ، وإلاَّ فالحصى يُسبِّح في يد رسول الله ، ويُسبِّح في يد أبي جهل . ومن ذلك أيضاً حنين الجذع لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ألم يقل الحق

سبحانه : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل . . . ﴾ [النحل : 68] .

ألم يَقُلْ عن الأرض : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 5] ؟ ألم يُثبت للنملة كلاماً ؟ ألم يكلم الهدهد سليمان عليه السلام ، وفهم منه سليمان ؟

إذن : لكل جنس من المخلوقات لغته التي يفهمها أفراده عن بعض ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . . ﴾ [النور : 41] وإنْ شاء الله أطلع بعض خَلْقه على هذه اللغات ، وأفهمه إياها .

ومعنى : ﴿ هَالِكٌ . . . ﴾ [القصص : 88] البعض يظن أن الهلاك خاصٌّ بما فيه روح كالإنسان والحيوان ، لكن لو وقفنا عند قوله تعالى : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . ﴾ [الأنفال : 42] .

إذن : فالهلاك يقابله الحياة ، فكل شيء يهلك كانت له حياة تناسبه ، وإنْ كنا لا نفهم إلا حياتنا نحن ، والتي تذهب بخروج الروح .

(96/592)

ومعنى : ﴿ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88] أي : إلا ذاته تعالى ، ولم يقُلْ : إلا هو ؛ لأنه تعالى ليس شيئاً ، وللوجه هنا معنى آخر ، كما نقول : فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجه الله يعني

: فعلت والله في بالي ، فالمعنى : كل شيء هالك ، إلا ما كان لوجه الله ، فلا يهلك أبداً ؛ لأنه يبقى لك وتنال خيره في الدنيا وثوابه في الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 88] أي : له الحكم في الآخرة يوم يقول : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم . . . ﴾ [غافر : 16] لكن لماذا خصَّ الملك يوم القيامة ، وهو سبحانه له المُلْك الدائم في الدنيا وفي الآخرة ؟ قالوا : لأن هناك مُلْكاً في الدنيا ، يُملِّكه لخَلْقه ، كما قال سبحانه في النمرود : ﴿ أَنْ آتَاهُ الله الملك . . . ﴾ [البقرة : 258] وقال سبحانه : ﴿ تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ . . . ﴾ [آل عمران : 26] .

إذن : فالمُلْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذي يُملِّك خَلْقه في الدنيا دنيا الأسباب ، لكن في الآخرة تُنزع الملكية من أيِّ أحد إلا لله وحده . حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلَب منه ، فتشهد عليه بما كان منه في الدنيا .

وإنْ أردتَ أن تعرف الآن صِدْق هذه المسألة فانظر إلى الأمور القدرية التي تجري عليك ، كالمرَض وكالموت وغيرها ، هل تستطيع أن تتأبى عليها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 88] أي : للحساب في الآخرة ؛ لأن الله تعالى لم يخلقنا عَبثاً ، ولن يتركنا هملاً ، بل لا بد من الرجوع إليه ليحاسب كلاً منكم

على ما قدَّم ، وما دُمْتم قد عرفتم ذلك ، فعليكم أن تحترموا المرجع إلى الله ، وتنظروا ماذا طلب منكم .

(97/592)

والمتتبع لهذا الفعل في القرآن يجد أنه جاء مرة مبنياً للمجهول (تُرجعون) وهو للكافر الذي تأبَّى على الله ، فنقول له : ستُرجع إلى الله ، وتُقذف في النار غَصباً عنك ، ورَغْماً عن أنفك ، فإنْ تأبَّيْتَ على الله في الدنيا ، فلن تتأبَّى عليه في الآخرة ، ويأتي مبنياً للمعلوم (ترجعون) وهو للمؤمن الذي يشتاق لثواب الآخرة فيتهافت بنفسه ويُقبل عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(98/592)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه قال : لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ إلى مكة .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن الحسين بن واقد رضي الله عنه قال : كل القرآن مكي أو مدني غير قوله ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ فإنها أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجحفة حين خرج مهاجراً إلى المدينة . فلا هي مكية ولا مدنية ، وكل آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة فهي مكية . فنزلت بمكة أو بغيرها من البلدان ، وكل آية نزلت بالمدينة بعد الهجرة فإنها مدنية . نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : إلى مكة . زاد ابن مردويه ﴿ كما أخرجك منها ﴾ .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : إلى مولدك ؛ إلى مكة .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك رضي الله عنه ، مثله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس

رضي الله عنهما ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : الموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : الموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وأبو يعلى وابن جرير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : إلى يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه ، مثله .

(99/592)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ قال : يحييك يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : إن له معاداً يبعثه الله يوم القيامة ، ثم يدخله الجنة .

وأخرج الحاكم في التاريخ والديلمي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في تاريخه وأبو يعلى وابن المنذر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : معاده الجنة ، وفي لفظ " معاده " آخرته .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : إلى معدنك من الجنة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ قال : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن .

وأخرج الفريابي عن أبي صالح رضي الله عنه في قوله ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : إلى الجنة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : هذه مما كان يكتم ابن عباس رضي الله عنهما .

وأخرج ابن أبي حاتم عن نعيم القاري رضي الله عنه ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال : إلى بيت المقدس .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : 26] قالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، فلما نزلت ﴿ كل نفس ذائقة الموت

﴾ [آل عمران : 18] قالت الملائكة : هلك كل نفس ، فلما نزلت ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ قالت الملائكة : هلك أهل السماء وأهل الأرض .

(100/592)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ قال : لما نزلت قيل : يا رسول الله فما بال الملائكة ؟ فنزلت ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فبين في هذه الآية فناء الملائكة والثقلين من الجن والانس وسائر عالم الله ، وبريته من الطير والوحش والسباع والأنعام ، وكل ذي روح أنه هالك ميت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل رضي الله عنه ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ يعني الحيوان خاصة من أهل السموات والملائكة ومن في الأرض وجميع الحيوان ، ثم تهلك السماء والأرض بعد ذلك ، ولا تهلك الجنة والنار وما فيهما ، ولا العرش ، ولا الكرسي .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ إلا ما يريد به وجهه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ قال : إلا ما أريد به وجهه .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن سفيان قال ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ قال : إلا ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر عن ابن عمر رضي الله عنهما . أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتي الخربة يقف على بابها فينادي بصوت حزين : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ .

وأخرج أحمد في الزهد عن ثابت رضي الله عنه قال : لما مات موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام جالت الملائكة عليهم السلام في السموات يقولون : مات موسى عليه السلام فأي نفس لا تموت ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(101/592)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ فَلاَ يُجْزَى الذين ﴾ :

مِنْ إقامةِ الظاهرِ مُقامَ المضمرِ تَشْنيعاً عليهم .

قوله : ﴿ إِلاَّ مَا كَانُواْ ﴾ أي : إلاَّ مثلَ ما كانوا .

قوله : ﴿ إلى مَعَادٍ ﴾ :

تنكيرُه للتعظيم أَيْ : مَعادٍ أيِّ مَعادٍ وهو مكةُ أو الجنة .

قوله : ﴿ مَن جَآءَ بالهدى ﴾ منصوبٌ بمضمرٍ أي : يعلمُ أو ب أَعْلم ، إنْ جَعَلْناها بمعنى عالم وأَعْمَلْناها إعمالَه .

قوله : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً ﴾ :

فيه وجهان ، أحدهما : هو منقطعٌ أي لكنْ رَحِمَكَ رحمةً . والثاني : أنه متصلٌ . قال الزمخشري : " هذا كلامٌ محمولٌ على المعنى . كأنه قيل : وما ألقى إليك الكتابَ إلاَّ رحمةً " فيكونُ استثناءً من الأحوالِ أو من المفعولِ له .

قوله : ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ ﴾ قرأ العامَّةُ بفتح الياء وضمِّ الصاد ، مِنْ صَدَّه ، يَصُدُّه . وقُرِىء بضمِّ الياء وكسرِ الصاد مِنْ أَصَدَّه بمعنى صَدَّه ، حكاها أبو زيدٍ عن كلب . قال :

3632 أناسٌ أَصَدُّوا الناسَ بالسيفِ عنهم . . . صُدودَ السَّوافي عن أُنوفِ المَخارِمِ

وأصل يَصُدُّونك : يَصُدُّونَنَك ، فَفُعِل فيه ما فُعِل في ﴿ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود : 8]

.

قوله : ﴿ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ : م

نْ جَعَل " شيئاً " يُطْلَق على الباري تعالى وهو الصحيح قال : هذا استثناءٌ متصلٌ ، والمرادُ بالوجهِ الذاتُ ، وإنما جرى على عادةِ العربِ في التعبير بالأشرفِ عن الجملة . ومَنْ لم يُطْلِقْ

عليه جَعَله متصلاً أيضاً ، وجعل الوجهَ ما عُمِل لأجله أو الجاهَ الذي بين الناس ، أو يجعلُه منقطعاً أي : لكن هو بحاله لم يَهْلَكْ .

قوله : ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ العامَّةُ على بنائِه للمفعولِ . وعيسى على بنائِه للفاعل ، وهي حسنةٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 8 صـ 700 . 701 ﴾

(102/592)

فصل فى منزلة المراد

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة المراد

أفردها القوم بالذكر وفي الحقيقة: فكل مريد مراد بل لم يصر

مريدا إلا بعد أن كان مرادا لكن القوم خصوا المريد بالمبتدىء و المراد بالمنتهي قال أبو علي الدقاق: المريد متحمل والمراد محمول وقد كان موسى مريدا إذ: قال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه: 25] ونبينا كان مرادا إذ قيل له: ألم نشرح لك صدرك وسئل الجنيد عن المريد والمراد فقال: المريد يتولى سياسته العلم والمراد: يتولى رعايته الحق لأن المريد يسير والمراد يطير فمتى يلحق السائر الطائر

فصل قال صاحب المنازل:

باب المراد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [القصص: 86] أكثر المتكلمين في هذا العلم جعلوا المريد والمراد اثنين وجعلوا مقام المراد فوق مقام المريد وإنما أشاروا باسم المراد إلى الضنائن الذين ورد فيهم الخبر قلت: وجه استشهاده بالآية: أن الله سبحانه ألقى إلى رسوله كتابه وخصه بكرامته وأهله لرسالته ونبوته من غير أن يكون ذلك منه على رجاء أو ناله بكسب أو توسل إليه بعمل بل هو أمر أريد به فهو المراد حقيقة وقوله: إن أكثرهم جعلوا المريد والمراد اثنين فهو تعرض إلى أن منهم من اكتفى عن ذكر مقام المراد بمنزلة الإرادة لأن صاحبها مريد مراد وأما إشارتهم إلى الضنائن فالمراد به: حديث يروى مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: إن لله ضنائن من خلقه يحييهم في عافية ويميتهم في عافية و الضنائن الخصائص يقال: هو ضنتي من بين الناس بكسر الضاد أي الذي أختص به وأضن بجودته أي أبخل بها أن أضيعها

(103/592)

وقد مثل للمريد والمراد بقوم بعث إليهم سلطانهم يستدعيهم إلى حضرته من بلاد نائية وأرسل إليهم بالأدلة والأموال والمراكب وأنواع الزاد وأمرهم بأن يتجشموا إليه قطع السبل

والمفاوز وأن يجتهدوا في المسير حتى يلحقوا به وبعث خيلا له ومماليك إلى طائفة منهم فقال: احملوهم على هذه الخيل التي تسبق الركاب واخدموهم في طريقهم ولا تدعوهم يعانون مؤنة الشد والربط بل إذا نزلوا فأريحوهم ثم احملوهم حتى تقدموهم عليفلم يجد هؤلاء من مجاهدة السير ومكابدته ووعثاء السفر ما وجده غيرهم ومن الناس من يقول: المريد ينتقل من منزلة الإرادة إلى أن يصير مرادا فكان محبا فصار محبوبا فكل مريد صادق نهاية أمره: أن يكون مرادا وأكثرهم على هذا وصاحب المنازل كأن عنده المراد هو المجذوب والمريد هو السالك على طريق الجادة

فصل قال: وللمراد ثلاث درجات الأولى أن يعصم العبد وهو مستشرف للجفاء اضطرارا بتنغيص الشهوات وتعويق الملاذ وسد مسالك المعاطب عليه إكراها

يعني: أن العبد إذا استشرفت نفسه للجفاء بينه وبين سيده بموافقة شهواته عصمه سيده اضطرارا بأن ينغص عليه الشهوات فلا تصفو له ألبتة بل لا ينال ما ينال منها إلا مشوبا بأنواع التنغيص الذي ربما أربى على لذتها واستهلكها بحيث تكون اللذة في جنب التنغيص كالخلسة والغفوة وكذلك يعوق الملاذ عليه بأن يحول بينه وبينها حتى لا يركن إليها ولا يطمئن إليها ويساكنها فيحول بينه وبين أسبابها فإن هيئت له قيض له مدافع يحول بينه وبين استيفائها

فيقول: من أين دهيت وإنما هي عين العناية والحمية والصيانة وكذلك يسد عنه طرق

المعاصي فإنها طرق المعاطب وإن كان كارها عناية به وصيانة له

فصل قال: الدرجة الثانية: أن يضع عن العبد عوارض النقص ويعافيه

(104/592)

من سمة اللائمة ويملكه عواقب الهفوات كما فعل بسليمان عليه السلام حين قتل الخيل فحمله على الريح الرخاء فأغناه عن الخيل وفعل بموسى عليه السلام حين ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه ولم يعتب عليه كما عتب على آدم عليه السلام ونوح ودواد ويونس عليهم السلام والفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها : أن في التي قبلها منعا من مواقعة أسباب الجفاء اضطرارا وفي هذه: إذا عرضت له أسباب النقيصة التي يستحق عليها اللائمة لم يعتبه عليها ولم يلمه وهذا نوع من الدلال وصاحبه من ضنائن الله وأحبابه فإن الحبيب يسامح بما لا يسامح به سواه لأن المحبة أكبر شفعائه وإذا هفا هفوة ملكه عاقبتها بأن جعلها سببا لرفعته وعلو درجته فيجعل تلك الهفوة سببا لتوبة نصوح وذل خاص وانكسار بين يديه وأعمال صالحة تزيد في قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة فتكون تلك الهفوة أنفع له من حسنات كثيرة وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد وكونه من أحبابه وحزبه وقد

استشهد الشيخ بقصة سليمان عليه السلام حين ألهته الخيل عن صلاة العصر فأخذته الغضبة لله والحمية فحملته على أن مسح عراقيبها وأعناقها بالسيف

(105/592)

وأتلف ما لا شغله عن الله في الله فعوضه الله منه: أن حمله على متن الريح فملكه الله تعالى عاقبة هذه الهفوة وجعلها سببا لنيل تلك المنزلة الرفيعة واستشهد بقصة موسى حين ألقى الألواح وفيها كلام الله عن رأسه وكسرها وجر بلحية أخيه وهو نبي مثله ولم يعاتبه الله على ذلك كما عتب على آدم عليه السلام في أكل لقمة من الشجرة وعلى نوح في ابنه حين سأل ربه أن ينجيه وعلى داود في شأن امرأة أوريا وعلى يونس في شأن المغاضبة وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: وكذلك لطم موسى عين ملك الموت ففقأها ولم يعتب عليه ربه وفي ليلة الإسراء عاتب ربه في النبي صلى الله عليه وسلم إذ رفعه فوقه ورفع صوته بذلك ولم يعتبه الله على ذلك قال: لأن موسى عليه السلام قام تلك المقامات العظيمة التي أوجبت له هذا الدلال فإنه قاوم فرعون أكبر أعداء الله تعالى وتصدى له ولقومه وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة وجاهد في الله أعداء الله أشد الجهاد وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره وذو النون لما لم يكن في هذا المقام: سجنه في بطن الحوت من

غضبة وقد جعل الله لكل شيء قدرا

فصل قال: الدرجة الثالثة: اجتباء الحق عبده واستخلاصه إياه بخالصته

كما ابتدأ موسى وقد خرج يقتبس نارا فاصطنعه لنفسه وأبقى منه رسما معارا قلت:

الاجتباء الاصطفاء والإيثار والتخصيص وهو افتعال من جبيت الشيء: إذا حزته

وأحرزته إليك كجباية المال وغيره و الاصطناع أيضا الاصطفاء والاختيار يعني أنه

اصطفى موسى واستخلصه لنفسه وجعله خالصا له من غير سبب كان من موسى ولا

وسيلة فإنه خرج ليقتبس النار فرجع وهو كليم الواحد القهار وأكرم الخلق عليه ابتداء منه

سبحانه من غير سابقة استحقاق ولا تقدم وسيلة وفي مثل هذا قيل:

أيها العبد كن لما لست ترجو . . . من صلاح أرجى لما أنت راجي

إن موسى أتى ليقبس نارا . . . من ضياء رآه والليل داجي

(106/592)

فانثنى راجعا وقد كلمه الله وناجاه وهو خير مناجي وقوله: وأبقى منه رسما معارا يحتمل

أن يريد بالرسم: البقية التي تقدم بها عليه محمد ورفع فوقه بدرجات لأجل بقائها منه

ويحتمل وهو الأظهر أنه أخذه من نفسه واصطنعه لنفسه واختاره من بين العالمين وخصه

بكلامه ولم يبق له من نفسه إلا رسما مجردا يصحب به الخلق وتجري عليه فيه أحكام البشرية إتماما لحكمته وإظهارا لقدرته فهو عارية معه فإذا قضى ما عليه: استرد منه ذلك الرسم وجعله من ماله فتكملت إذ ذاك مرتبة الاجتباء ظاهرا وباطنا حقيقة ورسما ورجعت العارية إلى مالكها الحق الذي يرجع إليه الأمر كله فكما ابتدأت منه عادت إليه وموسى عليه السلام كان في مظهر الجلال ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر أمروا بقتل نفوسهم وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر

(107/592)

وغيرها من الطيبات وحرمت عليهم الغنائم وعجل لهم من العقوبات ما عجل وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم وكان موسى من أعظم خلق الله هيبة ووقارا وأشدهم بأسا وغضبا لله وبطشا بأعداء الله وكان لا يستطاع النظر إليه وعيسى: كان في مظهر الجمال وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان وكان لا يقاتل ولا يحارب وليس في شريعته قتال ألبتة والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال وهم به عصاة لشرعه فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن: من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين ونحو هذا وليس في شريعتهم مشقة ولا

آصار ولا أغلال وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم ولم تكتب عليهم

وأما نبينا : فكان في مظهر الكمال الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله وهذا اللين

والرأفة والرحمة وشريعته أكمل الشرائع فهو نبي الكمال وشريعته شريعة الكمال وأمته أكمل

الأمم وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابا له

وفرضا وبالفضل ندبا إليه واستحبابا وبالشدة في موضع الشدة وباللين في موضع اللين

ووضع السيف موضعه ووضع الندى موضعه فيذكر الظلم

(108/592)

ويحرمه والعدل ويوجبه والفضل ويندب إليه في بعض آيات كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [الشورى: 40] فهذا عدل فمن عفى وأصلح فأجره على الله فهذا فضل إنه لا يحب الظالمين فهذا تحريم للظلم وقوله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل: 126] فهذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ندب إلى الفضل وقوله: ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 279-280] تحريم للظلم ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فضل وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية حرم عليهم كل

خبيث وضار وأباح لهم كل طيب ونافع فتحريمه عليهم رحمة وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم ووهب لهم من علمه وحلمه وجعلهم خير أمة أخرجت للناس وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم كما كمل نبيهم من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله وكمل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله وكذلك في شريعته فهؤلاء الضنائن وهم المجتبون الأخيار كما قال تعالى لهم: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: 78] وجعلهم شهداء على الناس فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعي سفرا بل أسفارا وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 452 . 459 ﴾

(109/592)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾

ثواب الحسنةِ في التضعيف ، وأمرُ السيئةِ بناؤه على التخفيف .

والمؤمنُ – وإن كان صاحبَ كبائر – فسيئاتُه تَقْصُرُ في جَنْبِ حسناتِه التي هي إيمانُه ومعرفتُه .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ

﴿ لَرَآدُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ : في الظاهر إلى مكة . . وكان يقول كثيراً : " الوطن الوطن " ، فَحَقَّقَ اللَّهُ سُؤْلَه . وأَمَّا في السِّرِّ والإشارة فإنه ﴿ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ ﴾ أي يَسَّرَ لك قراءةَ القرآن ، والمَعَادُ هو الوصفُ الذي كانت عليه روحُك قبل حلول شَجَّك من مُلاَدغات القُرْبِ ومطالعات الحقِّ .

وقيل الذي ينصبك بأوصاف التفرقة بالتبليغ وبسط الشريعة لرادُّك إلى عين الجمع بالتحقُّق بالحقِّ والفناء عن الخَلْق .

ويقال إن الذي أقامك بشواهد العبودية فيما أثبتك به لرادُّك إلى الفناء عنك بمحقك في وجود الحقيقة .

وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86)

ما كنت تؤمِّل مَحَلَّ النبوة وشرف الرسالة وتأهيل مخاطبتنا إليك ، ولا ما أظهرنا عليكَ من أحوال الوجد وحقائق التوحيد .

وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87)

لا يصدنَّك بعد إذ أنزلت إليك الآيات ما وجدته بحكم الذَّوْبِ والشهود ، والإدراك

والوجود . لا تتداخلنّك تُهْمةُ التجويز وسؤالاتُ العلماء بما يَدَّعُونَ من أحكام العقول ؛ فَمَا يُدْرَكُ في شعاع الشمس لا يَحْكُمُ ببطلانه خفاؤُه في نور السراج .

(110/592)

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾

كلُّ عملٍ باطلٌ إلا ما كان لوجه الله وللتقرب به إلى الله .

كلُّ حيٍّ ميت إلا هو ، قال تعالى : ﴿ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ ﴾ [النساء : 176] : أي مات ؛ فكلُّ شيءٍ مُعَدٌّ لجواز الهلاك والعَدَم ، ولا يبقى إلا ﴿ وَجْهَهُ ﴾ : ووَجْهُهُ صفةٌ من صفاته لا تستقل إلا به فإذا بقي وجهُه فَمِنْ شرط بقاء وجهه بقاءُ ذاته ؛ لأن الصفة لا تقوم إلا بموجود ، ولا يكون هو باقياً إلا بوجود أوصافه الذاتية الواجبة له ؛ ففي بقاء وجهه بقاء ذاته وبقاء صفاته .

وفائدة تخصيص الوجه بالذكر هنا أنه لا يُعْرَفُ وجوبُ وجهه إلا بالخبر والنقل دون العقل ؛ فخَصَّ الوجه بالذكر لأنَّ في بقاء الوجه بقاء الحقِّ بصفاته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 83.85 ﴾

(111/592)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾

يعني : من بني إسرائيل .

ويقال : كان ابن عم موسى ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : تطاول وتكبر على بني إسرائيل ، وكان فرعون قد ملكه على بني إسرائيل حين كانوا بمصر ، فلما قطع موسى البحر ببني إسرائيل ، ومعه قارون فأغرق الله تعالى فرعون وجنوده ورجع موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى أرض مصر ، وسكنوا ديارهم كما قال في رواية أُخرى ﴿ كَذَلِكَ وأورثناها بنى إسراءيل ﴾ [الشعراء : 59] وجعلت جنوده لهارون ، وهو الرأس ، والذي بقرب القربان فقال قارون لموسى : لك النبوة ، ولهارون الحبورة ، والمذبح ، وأنا لست في ذلك من شيء .

فقال له موسى : أنا لم أفعل ذلك ، ولكن الله تعالى فعل ذلك .

فقال له قارون : لا أصدقك على ذلك ، واعتزل قارون ومن تبعه من بني إسرائيل ، وكان كثير المال والتبع .

وروي عن الحسن أنه قال : أول من شرف الشرف قارون ، لما بنى داره وفرغ منها ،

وشرفها صنع للناس طعاماً سبعة أيام ، يجمعهم كل يوم ويطعمهم .

وروي عن ابن عباس أنه قال : لما أمر الله تعالى موسى بالزكاة قال لقارون : إن الله أمرني أن آخذ من مالك الزكاة ، فأعط من كل مائتي درهم خمسة دراهم ، فلم يرض بذلك فقال له : اعط من كل ألف درهم درهماً ، فلم يرض بذلك .

وقال لبني إسرائيل : إن موسى لم يرض حتى تناول أموالكم ، فما ترون ؟ قالوا : رأينا لرأيك تبع .

قال : فإني أرى أن ترموه فتهلكوه ، فبعثوا إلى امرأة زانية ، فأعطوه حكمها على أن ترميه بنفسها ، ثم أتوه في جماعة بني إسرائيل .

فقالوا : يا موسى ما على من يسرق من الحد .

قال : تقطع يده .

قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا .

قالوا : وما على الزاني إذا زنى ؟ قال : يرجم .

قالوا : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا .

قالوا : فأنت قد ازنيت .

قال : أنا وجزع من ذلك ، فأرسلوا إلى المرأة ، فلما جاءت وعظها ، وعظم عليها موسى الحلف بالله ، وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل ، وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت .

قالت : أما إذا حلفتني ، فإني أشهد أنك بريء ، وإنك رسول الله .

وقالت : أرسلوا إليَّ فأعطوني حكمي على أن أرميك بنفسي .

قال : فخرّ موسى عليه السلام لله ساجداً يبكي ، فأوحى الله تعالى إليه ما يبكيك قد أمرت الأرض أن تطيعك ، فأمرها بما شئت .

فقال موسى : خذيهم ، فأخذتهم .

وقال في رواية الحسن : خرج موسى عليه السلام مغضباً .

فدعى الله عز وجل .

وقال : عبدك قارون الذي عبد غيرك دونك وجحدك ، فأوحى الله تعالى إلى موسى إني قد أمرت الأرض ، بأن تطيعك ، فجاء موسى حتى دخل إلى قارون حين اجتمع الناس في داره .

فقال : يا عدو الله كذبتني بكلام له غيظ ، حتى غضب قارون ، وأقبل عليه بكلام شديد ، وهّم به .

فلما رأى موسى ذلك قال : يا أرض خذيهم .

قالوا : وكان قارون على فرش على سرير مرتفع في السماء ، فأخذت الأرض أقدامهم ، وغاب سريره ومجلسه ، وقد دخل من الدار في الأرض مثل ما أخذت منهم على قدرها ، فأقبل موسى يوبخهم ، ويغلظ لهم المقالة ، فلما رأى القوم ما نزل بهم ، عرفوا أن هذا الأمر ليس لهم به قوة ، فنادوا : يا موسى كف عنا ، وارحمنا ، وجعلوا يتضرعون إليه ، ويطلبون رضاه ، وهو لا يزداد إلا غضباً وتوبيخاً لهم ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى ركبهم ، فجعلوا يتضرعون إليه ، ويسألونه ، وهو يوبخهم ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى أوساطهم ، وكانت الأرض تأخذ من الدار كل مرة مثل ما تأخذ منهم ، وهم يتضرعون في ذلك إلى موسى ، ويسألونه .

ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى آباطهم ، فمدوا أيديهم إلى وجه الأرض رجاء أن يمتنعوا بها .

ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى أعناقهم ، فلم يبق على وجه الأرض منهم شيء إلا رؤوسهم ، ولم يبق من الدار إلا شرفها .

(113/592)

وقال قارون : يا موسى أنشدك بالله وبالرحم .

فقال : يا أرض خذيهم ، فاستوت الأرض عليهم ، وعلى الدار ، فانطلق موسى ، وهو فرح بذلك ، فأوحى الله تعالى إلى موسى ، يا موسى يتضرع إليك عبادي ، ودعوك وسألوك ، فلم ترحمهم ، أما وعزتي وجلالي لو أنهم سألوني ، واستغاثوا بي لرحمتهم ، ولكن تركوا أن يجعلوا رغبتهم ورجاءهم إلي ، وجعلوها إليك ، فتركتهم فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : تطاول على بني إسرائيل ، وعلى موسى ﴿ إِنَّ قارون كَانَ ﴾ يعني : من المال ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ يعني : خزائنه ﴿ إِنَّ قارون ﴾ قال مقاتل : العصبة من العشرة إلى أربعين ، فإذا كانوا أربعين ، فهم أولو قوة يقول : لتعجز العصبة أولو القوة عن حمل مفاتيح الخزائن .

وقال أهل اللغة : ناء به الحمل إذا أثقله .

وقال القتبي : تنوء بالعصبة ، أي تميل بها العصبة ، أي تميل بهم العصبة إذا حملتها من ثقلها ، وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : العصبة في هذا الموضوع أربعون رجلاً ، وخزائنه كانت أربعمائة ألف ما يحمل كل رجل منهم عشرة آلاف إلا أن ويقال ﴿ مَّفَاتِحهُ ﴾ يعني : مفاتيح خزائنه يحملها أربعون رجلاً .

ويقال : أربعون بغلاً .

وروى وكيع عن الأعمش عن خيثمة قال : كان مفاتيح كنوز من جلد كل مفتاح مثل

الإصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حمل المفاتيح على ستين بغلاً كل بغل أغر محجل ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ يعني : بني إسرائيل ﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ يعني : لا تفخر بما أديت من الأموال .

ويقال : لا تفرح بكثرة المال ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ يعني : المرحين المفاخرين .

(114/592)

ويقال : البطرين ويقال : لا تفرح أي : لا تأشر والأشر أشد الفرح الذي يخالطه حرص شديد حتى يبطر ، يعني : يطغى وقالوا له : ﴿ وابتغ فِيمَا ءاتَاكَ الله ﴾ يعني : اطلب مما أعطاك الله من الأموال والخير ﴿ الدار الآخرة وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ يعني : لا تترك حظك من الدنيا أن تعمل لآخرتك ﴿ وَأَحْسَنُ ﴾ العطية من الصدقة والخير ﴿ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ يعني : أعط الناس كما أعطاك الله .

ويقال : أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض ﴾ يعني : أنفقه في طاعة الله ، ولا تنفقه في معصية الله ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ أي : المنفقين في المعصية .

وقوله : وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك في الدنيا ، أي : لا تضيع عمرك ،

فإنه نصيبك من الدنيا ﴿ قَالَ ﴾ قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ قال مقاتل : أي على خير علمه الله عندي .

وقال في رواية الكلبي : يعني : علم التوراة ، وكان قارون أقرأ رجل في بني إسرائيل في التوراة ، فأعطيت ذلك لفضل علمي ، وكنت بذلك العلم ومستحقاً بفضل المال .

ويقال : على علم عندي .

يعني : علم الكيمياء ، وكان يعمل كيمياء الذهب .

وقال الزجاج : الطريق الأول أشبه ، لأن الكيمياء لا حقيقة لها ، يقول الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله ﴾ تعالى ﴿ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ من الأموال منهم : نمرود وغيره ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ يعني : لا يسأل الكافرون عن ذنوبهم ، لأن كل كافر يعرف بسيماه ، وهذا قول الكلبي .

وقال مقاتل : لا يسأل مجرمو هذه الأمة عن ذنوب الأمم الخالية وقيل : لا يسأل الكافرون يوم القيامة عن ذنوبهم سؤال النجاة ، بل يسألون سؤال العذاب والمناقشة .

(115/592)

قوله عز وجل : ﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ يعني : خرج قارون على بني إسرائيل .

قال مقاتل : وهو على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليها أرجوان ، ومعه أربعة آلاف فارس ، وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان ، ومعه ثلاثمائة جارية بيضاء ، عليهن من الحلل والثياب الحمر على البغال الشهب .

وقال قتادة : خرج معه أربعة آلاف دابة عليها ثياب حمر ، منها ألف بغلة بيضاء عليها قطائف أرجوان .

وقال في رواية الكلبي خرج على ثلاثمائة دابة بيضاء عليها نوع من الكساء وعليها ثلثمائة قطيفة حمراء عليها جواري وغلمان ﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ﴾ وكانوا من أهل التوحيد ﴿ الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قارون ﴾ يعني : مثل ما أعطي من الأموال قارون ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ يقول : ذو نصيب وافر في الدنيا .

قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ يعني : أكرموا بالعلم بما وعد الله في الآخرة للذين تمنوا ذلك ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ ﴾ يعني : ويحكم ثواب الله في الآخرة خير يعني : أفضل ﴿ لِمَنْ ءامَنَ ﴾ يعني : صدق بتوحيد الله تعالى ﴿ وَعَمِلَ صالحا ﴾ فيما بينه وبين الله تعالى مما أعطى قارون في الدنيا ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَا ﴾ يعني : ولا يلقن ولا يوقف ويرزق في الجنة ﴿ إِلاَّ الصابرون ﴾ في الدنيا على أمر الله تعالى .

ويقال : ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَا ﴾ ، أي لا يعطى الأعمال الصالحة إلاَّ الصابرون على الطاعات وعن زينة الدنيا .

(116/592)

ويقال : ولا يلقاها ، يعني : ولا يلقن بهذه الكلمة إلاَّ الصابرون عن زينة الدنيا يقول الله تعالى ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ ﴾ يعني : قارون ﴿ وَبِدَارِهِ الأَرض ﴾ يعني : بقارون وبداره وأمواله ، فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل إلى يوم القيامة ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : لم يكن له جنة وأعوان يمنعونه من عذاب الله عز وجل ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ يعني : وما كان قارون من الممتنعين مما نزل به من عذاب الله .

قوله عز وجل : ﴿ وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بالامس ﴾ حين رأوه في زينته وقالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله ﴾ قال القتبي : قد اختلف في هذه اللفظة .

فقال الكسائي : معناها ألم تر أن الله يبسط ، ويكأنه يعني : ألم تر أنه لا يفلح الكافرون .

روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال : ﴿ وَيْكَأَنَّ الله ﴾ ، يعني : أو لا يعلم أن الله ﴿ يَبْسُطُ ﴾ وهذا شاهد لقول الكسائي .

وذكر الخليل بن أحمد أنها مفصولة وي ثم يبتدىء فيقول : كأن الله .

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : كان الله يبسط ﴿ الرزقِ لِمَن يَشَاء ﴾ كأنه لا يفلح الكافرون .

وقال وي صلة في الكلام ، وهذا شاهد لقول الخليل .

وقال الزجاج : الذي قاله الخليل أجود ، وهو أن قوله وي مفصولة من كان ، لأن من يدم على شيء يقول : وي يعاتب الرجل على ما سلف يقول : وي كأنك قصدت مكروهاً .

وقال مقاتل : معناه ولكن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ يعني : يوسعه على من يشاء من عباده ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ يعني : يقتر ويقال : ويضيق على من يشاء يعني : لولا أن الله منَّ علينا لكنا مثل قارون في العذاب ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ الله عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ معهم .

ويقال : لولا منَّ الله علينا بالإيمان ، لكنا مثل قارون في العذاب .

(117/592)

ويقال لولا أن منَّ الله علينا ، يعني : عصمنا مثل ما كان عليه من البطر والبغي ، لخسف بنا كما خسف به .

قال قرأ عاصم في رواية حفص بنصب الخاء ، وكسر السين ﴿ لَخَسَفَ الله بِنَا ﴾ وقرأ الباقون بالضم على فعل ما لم يسم فاعله ﴿ وَيْكَأَنَّهُ ﴾ يعني : ولكنه ﴿ لاَ يُفْلِحُ الكافرون

﴿ أي الجاحدون للنعم .

قوله عز وجل : ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة ﴾ يعني : الجنة ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى الأرض ﴾ يعني : نعطيها للذين لا يريدون تعظيماً وتكبراً ، وتجبراً فيها عن الإيمان ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ في الأرض يعني : لا يريدون المعاصي في الدنيا .

وروى وكيع عن سفيان عن مسلم البطين ﴿ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى الأرض ﴾ .

يعني : التكبر بغير حق ، ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ قال : أخذ المال بغير حق .

ويقال : العلو الخطرات في القلب ، والفساد فعل الأعضاء ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني : الجنة للذين يتقون الشرك والمعاصي .

ويقال : عاقبة الأمر ، وما يستقر عليه للمتقين الموحدين .

ويقال في العاقبة المحمودة للمتقين .

قوله عز وجل : ﴿ مَن جَاء بالحسنة ﴾ يعني : بكلمة الإخلاص وهي قول لا إله إلا الله ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ وقد ذكرناه ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى ﴾ يعني : لا يثاب ﴿ الذين عَمِلُواْ السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : يصيبهم بأعمالهم .

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان ﴾ يعني : أنزل عليك القرآن .

ويقال : أمرك بالعمل بما في القرآن ﴿ لَرَادُّكَ إِلى مَعَادٍ ﴾ .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الموت .

وقال السدي : إلى معاد يعني : الجنة .

وهكذا روي عن مجاهد .

وروي عن عكرمة عن ابن عباس قال : يعني : إلى مكة .

وقال القتبي : معاد الرجل بلده ، لأنه يتصرف في البلاد ، وينصرف في الأرض ثم يعود إلى بلده .

(118/592)

والعرب تقول : ردّ فلان إلى معاده ، يعني : إلى بلده ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة إلى المدينة اغتم لمفارقته مكة ، لأنها مولده وموطنه ، ومنشأه وبها عشيرته ، واستوحش فأخبر الله تعالى في طريقه أنه سيرده إلى مكة ، وبشره بالظهور والغلبة .

ثم قال تعالى : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاء بالهدى ﴾ أي يعني : بالرسالة والقرآن ، وذلك حين قالوا : إنك في ضلال مبين ﴿ وَمَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ وذلك حين قالوا : فنزل ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاء بالهدى ﴾ يعني : فأنا الذي جئت بالهدى ، وهو يعلم بمن هو في ضلال مبين نحن أو أنتم .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب ﴾ يعني : أن يلقى وينزل عليك

القرآن ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ ويقال في الآية تقديم .

ومعناه : أن الذي فرض عليك القرآن يعني : جعلك نبياً ينزل عليك القرآن ، وما كنت ترجو قبل ذلك أن تكون نبياً بوحي إليك ، لرادك إلى معاد إلى مكة ظاهراً قاهراً .

ويقال ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني : لكن دين ربك رحمة ، واختارك لنبوته ، وأنزل عليك الوحي ، ثم قال : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين ﴾ يعني : عوناً للكافرين حين دعوه إلى دين آبائه ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءايات الله ﴾ يعني : لا يصرفنك عن آيات الله القرآن والتوحيد ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي : بعد ما أنزل إليك جبريل عليه السلام بالقرآن ﴿ وادع إلى رَبِّكَ ﴾ يعني : ادع الخلق إلى توحيد ربك ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ يعني : لا تكونن مع المشركين على دينهم ﴿ وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءاخَرَ ﴾ أي : لا تعبد غير الله .

(119/592)

ثم وحد نفسه فقال : ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني : لا خالق ولا رازق غيره ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ يعني : تهلك جميع الأشياء إلا الله ، فإنه لم يزل ولا يزال ، ويقال : كل شيء هالك إلا وجهه ، أي كل عمل هالك لا ثواب له إلا ما يراد به وجه الله عز وجل .

ويقال : كل شيء متغير إلا ملكه ، فإن ملكه لا يتغير ، ولا يزال إلى غيره أبداً ﴿ لَهُ الحكم

﴿ أي : له القضاء ، وله نفاذ الأمر والحكم على ما يريد ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يعني : إليه المرجع في الآخرة ليجازيكم بأعمالكم ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ القَصَصِ كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ بِعَدَدِ مَنْ صَدَّقَ مُوسَى وَكَذَّبَ ، وَلَمْ يَبْقَ مَلَكٌ فِي السموات وَالأَرْضِ ، إلاَّ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، أَنَّهُ كَانَ صَادِقاً فِي قَوْلِهِ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وَالحَمْدُ لله وَحْدَهُ ، وَصَلَّى الله عَلَى مَنْ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ ، وَحَسْبُنَا الله ، وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، ولاَ حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله العَلِيِّ العَظِيمِ ، صَدَقَ الله جَلَّ رَبُّنا ، وَهُوَ أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ ، وَصَدَقَ رُسُلُهُ قَوْلُهُ صِدْقٌ وَوَعْدُهُ حَقٌّ " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ 623.617 ﴾

(120/592)

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾

كان ابن عمه لأنّه قارون بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن فاهث ، هذا قول أكثر المفسرين ، وقال ابن إسحاق : تزوّج يصهر ابن فاهث شميت بنت تباويت بن بركيا بن يقشان بن إبراهيم فولدت له عمران بن يصهر وقارون ابن يصهر ، فنكح

(عمران) نجيب بنت سمويا بن بركيا بن رمنان بن بركيا فولدت له هارون ابن عمران وموسى بن عمران (عليهم السلام) ، فموسى على قول ابن إسحاق : ابن اخي قارون وقارون عمه لأبيه وأُمه ، قال قتادة : وكان يسمّى المنوّر لحسن صورته ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه ، ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري .

﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا موسى بن محمد ، قال : حدّثنا الحسن بن علوية ، قال : حدّثنا إسماعيل بن عيسى ، عن المسيّب أنّ قارون كان من قوم موسى ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ قال : كان عاملا لفرعون على بني إسرائيل وكان يبغي عليهم ويظلمهم ، قال ابن عباس : كان فرعون قد ملّكه على بني إسرائيل حين كان بمصر ، سعيد ، عن قتادة : ﴿ بغى عَلَيْهِمْ ﴾ بكثرة ماله وولده ، سفيان عنه : بالكبر والبذخ ، عطاء الخراساني وشهر بن حوشب : زاد عليهم في الثياب شبراً ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ وهي جمع المفتح ، وهو الذي يفتح به الباب ﴿ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة ﴾ أي لتثقل بهم إذا حملوها لثقلها ، يقال : ناء ينوء نوْءاً إذا نهض بثقل ، قال الشاعر :

تنوء بأخراها فلأيا قيامها . . . وتمشي الهوينا عن قريب فتبهر

واختلفوا في مبلغ عدد العصبة في هذا الموضع ، فقال مجاهد : ما بين العشرة إلى خمسة عشر ، قتادة : ما بين العشرة إلى أربعين ، أبو صالح : أربعون رجلا ، عكرمة منهم من يقول :

أربعون ، ومنهم من يقول : سبعون ، الضحّاك عن ابن عباس : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : ستون .

(121/592)

روى جرير ، عن منصور ، عن خيثمة ، قال : وجدت في الإنجيل أنّ مفاتيح خزائن قارون توقر ستين بغلا غرّاء محجّلة ، ما يزيد منها مفتاح على أصبع ، لكل مفتاح منها كنز ، مجاهد : كانت المفاتيح من جلود الإبل ، ويقال : كان قارون (أينما) ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه ، وكانت من حديد ، فلمّا ثقلت عليه جعلت من خشب ، فثقلت عليه فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع ، وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلا .

وقال بعضهم : أراد بالمفاتيح الحرّاس وإليه ذهب أبو صالح . وروى حصين ، عن أبي زرين قال : لو كان مفتاح واحد لأهل الكوفة كان كافياً إنّما يعني كنوزه ، فإن قيل : فما وجه قوله : ﴿ لَتَنُوءُ بالعصبة ﴾ وإنّما العصبة هي التي تنوء بها ، قيل فيه قولان : أحدهما يميل بهم ويثقلهم حملها ، والآخر قال أهل البصرة : قد يفعل العرب هذا ، تقول للمرأة : إنّها لتنوء بها عجيزتها ، وإنّما هي تنوء بعجيزتها كما ينوء البعير بحمله ، وقال الشاعر :

فديت بنفسه نفسي ومالي . . . وما آلوك إلاّ ما أطيق

والمعنى فديت بنفسي ومالي نفسه ، وقال آخر :

وتركب خيلا لا هوادة بينها . . . وتشقي الرماح بالضياطرة الحمر

وإنّما يشقي الضياطرة بالرماح ، والخيل هاهنا : الرجال .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ من بني إسرائيل ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ لا تأشر ولا تمرح ، ومنه قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ ، وقال الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني . . . ولا جازع من صرفه المتحول

أراد : لست بأشر ؛ لأن السرور غير مكروه ولا مذموم ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفرحين ﴾ الأشِرين البطِرين المتكبِرين الذين لا يشكرون الله سبحانه على ما أعطاهم .

(122/592)

أخبرني ابن فنجويه ، قال : حدّثنا منصور بن جعفر النهاوندي ، قال : حدّثنا أحمد بن يحيى النهاوندي ، قال : حدّثنا أحمد بن يحيى بن الجارود ، قال : حدّثنا محمد بن عمرو بن حيان عن نفته قال : حدّثنا مبشر بن عبد الله في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ قال : لا تفسد إنّ الله لا يحب الفرحين المفسدين ، وقال الشاعر :

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة . . . وتحمل أُخرى أفرحتك الودائع

يعني أفسدتك .

﴿ وابتغ فِيمَا آتَاكَ الله الدار الآخرة وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ قال مجاهد وابن زيد : لا تترك أن تعمل في دنياك لآخرتك حتى تنجو من عذاب الله ، وهي رواية علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، وقال علي " رضي الله عنه " : لا تنس صحتك وقوتك وشبابك ونشاطك وغناك أن تطلب به الآخرة ، وقال الحسن : ولا تنس أن تطلب فيها كفايتك وغناك مما أحل الله لك منها .

وأنبأني عبد الله بن حامد قال : أخبرنا حامد بن محمد ، قال : حدّثنا أحمد بن علي الحران ، قال : حدّثنا سعيد بن سلمة ، قال : حدّثنا خلف بن خليفة ، عن منصور بن زادان في قوله : ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ قال : قوتك وقوة أهلك . وقيل : هو الكفن لأنّه حظه من الدنيا عند خروجه منها .

(123/592)

﴿ وَأَحْسِن ﴾ إلى الناس ﴿ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ ﴾ ولا تطلب ﴿ الفساد فِي الأرض إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين * قَالَ ﴾ قارون ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ على فضل علم ﴿ عندي ﴾ علمنيه الله ، ورآني لذلك أهلا ، ففضلني بهذا المال عليكم

لفضلي عليكم بالعلم وغيره ، وقيل : هو علم الكيمياء ، قال سعيد بن المسيب : كان موسى (عليه السلام) يعلم الكيمياء ، فعلّم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم ، وعلّم كالب بن نوفيا ثلثه ، وعلم قارون ثلثه ، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه ، وفي خبر آخر أنّ الله سبحانه وتعالى علّم موسى علم الكيمياء ، فعلّم موسى أُخته ، فعلّمت أخته قارون ، فكان ذلك سبب أقواله ، وقيل : على علم عندي بالتصرف في التجارات والزراعات وسائر أنواع المكاسب والمطالب ، وقيل : في سبب جمعه تلك الأموال ، ما أخبرنا الحسين بن محمد بن الحسين بن عبد الله قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف بن أحمد قال : حدّثنا محمد بن موسى الحلواني قال : حدّثنا خزيمة بن أحمد ، قال : حدّثنا أحمد بن أبي الجواري ، قال : سمعت أبا سلمان الداراني يقول : يبدي إبليس قارون وكان قارون قد أقام في جبل أربعين سنة يتعبد حتى إذا غلب بني إسرائيل في العبادة بعث إليه إبليس شياطينه ، فلم يقدروا عليه ، فتبدى هو له وجعل يتعبد ، وجعل قارون وجعل إبليس يقهره بالعبادة ويفوقه ، فخضع له قارون ، فقال له إبليس : يا قارون قد رضينا بهذا الذي نحن فيه ، لا تشهد لبني إسرائيل جماعة ، ولا تعود مريضاً ، ولا تشهد جنازة ، قال : فحذره من الجبل إلى البيعة ، فكانوا يؤتون بالطعام ، فقال إبليس : يا قارون قد رضينا الآن أن يكون هكذا كلا على بني إسرائيل ، فقال له قارون : فأي شيء الرأي عندك ؟ قال : نكسب يوم الجمعة ونتعبد بقية الجمعة ، قال : فكسبوا يوم الجمعة وتعبدوا بقية الجمعة .

فقال : إبليس لقارون : قد رضينا أن يكون هكذي . فقال له قارون : فأي شيء الرأي عندك ، قال : نكسب يوماً ونتعبد يوماً ونتصدق ونعطي ، قال : فلمّا كسبوا يوماً وتعبدوا يوماً خنس إبليس وتركه ، ففتحت على قارون الدنيا ، فبلغ ماله ، ما أخبرنا ابن فنجويه ، قال : أخبرنا موسى ، قال : حدّثنا الحسن ابن علويه ، قال : حدّثنا إسماعيل بن موسى ، عن المسيب بن شريك ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ قال : أوعيته وكانت أربعمائة ألف ألف في أربعين جراباً .

قال الله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون ﴾ الكافرة ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ قال قتادة : يدخلون النار بغير حساب ، مجاهد : يعني : إنّ الملائكة لا تسأل عنهم لأنّهم يعرفونهم بسيمائهم ، الحسن : لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ليعلم ذلك من قبلهم فأن سئلوا سؤال تقريع وتوبيخ .

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ قال جابر بن عبد الله : في القرمز ، النخعي والحسن : في ثياب حمراء ، مجاهد : على براذين بيض عليها سروج الأُرجوان ، عليهم المعصفرات ، قتادة : على أربعة ألف دابة عليهم وعلى دوابهم (الأُرجوان) ، ابن زيد : في سبعين ألفاً

عليهم المعصفرات ، قال : وكان ذلك أول يوم رؤيتْ المعصفرات فيما كان يذكر لنا ، مقاتل : على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأُرجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعلى دوابهم الأُرجوان ، ومعه ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحليّ والثياب الحمر على البغال الشهب .

(125/592)

﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ من المال ﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَآ ﴾ ولا يلقن ويوفق لهذه الكلمة ﴿ إِلاَّ الصابرون ﴾ على طاعة الله وعن زينة الدنيا .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ قال العلماء بأخبار القدماء : كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون ، وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم ولكنه نافق كما نافق السامري فبغى على قومه ، واختلف في معنى هذا البغي ، فقال ابن عباس : كان فرعون قد ملك قارون على بني إسرائيل حين كان بمصر ، وعن المسيب بن شريك : أنه كان عاملاً على بني إسرائيل وكان يظلمهم ، وقيل : زاد عليهم في الثياب شبرا ، وقيل : بغى عليهم بالكبر ، وقيل : بكثرة ماله ، وكان أغنى أهل زمانه وأثراهم . واختلف في مبلغ عدة

العصبة في هذا الموضع فقال مجاهد : ما بين العشرة إلى خمسة عشر ، وقال قتادة : ما بين العشرة إلى أربعين ، وقال عكرمة : منهم من يقول أربعون ومنهم من يقول سبعون ، وقال الضحاك : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل : هم ستون .

وروي عن خثيمة قال : وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين بغلاً غراء محجلة ما يزيد منها مفتاح على إصبع لكل مفتاح منها كنز ، ويقال : كان أينما يذهب تحمل معه وكانت من حديد ، فلمّا ثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت عليه فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع ، فكانت تحمل معه على أربعين بغلا ، وكان أول طغيانه أنه تكبر واستطال على الناس بكثرة الأموال فكان يخرج في زينته ويختال كما قال تعالى ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ .

قال مجاهد : خرج على براذين بيض عليها سروج الأرجوان وعليهم المعصفرات .

(126/592)

وقال عبد الرحمن : خرج في سبعين ألفا عليهم المعصفرات ، وقال مقاتل : على بغلة شهباء عليها سرج من الذهب عليها الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاثة آلاف جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر على البغال الشهب ،

فتمنى أهل الجهالة مثل الذي أوتيه كما حكى الله فوعظهم أهل العلم بالله أن اتقوا الله فإن ثواب الله (خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً) .

قال : ثم إن الله أوحى إلى نبيه موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطا أربعة في كل طرف خيطاً أخضر لونه لون السماء ، فدعا موسى بني إسرائيل وقال لهم : إن الله تعالى يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطاً خضراً كَلَون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ، وإنه تعالى ينزل من السماء كلامه عليكم ، فاستكبر قارون وقال : إنما تفعل هذه الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا من غيرهم .

ولما قطع موسى (عليه السلام) ببني إسرائيل البحر جعل الحبورة وهي رئاسة المذبح وبيت القربان لهارون فكان بنو إسرائيل يأتون بهديتهم ويدفعونه إلى هارون فيضعه على المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله ، فوجد قارون في نفسه من ذلك وأتى موسى وقال : يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك ، وأنا أقرأ للتوراة منكما لا صبر لي على هذا ، فقال موسى : والله ما أنا جعلتها في هارون بل الله تعالى جعلها له فقال قارون : والله لا أصدقك في ذلك حتى تريني بيانه ، قال : فجمع موسى (عليه السلام) رؤساء بني إسرائيل وقال : هاتوا عصيكم ، فجاءوا بها فحزمها وألقاها في قبته التي كان يعبد الله تعالى فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا ، فأصبحت عصا هارون (

عليه السلام) قد اهتز لها ورقٌ أخضر ، وكانت من ورق شجر اللوز ، فقال موسى : يا قارون ترى هذا ؟ فقال قارون : والله ما هذا أعجب مما تصنع من السحر .

(127/592)

فذهب قارون مغاضباً واعتزل موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما ، وهو يؤذيه في كل وقت ولا يزيد كل يوم إلا كبراً ومخالفة ومعاداة لموسى (عليه السلام) حتى بنى داراً وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها صفائح الذهب ، وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه .

(128/592)

قال ابن عباس : ثم إن الله سبحانه وتعالى أنزل الزكاة على موسى (عليه السلام) فلمّا أوجب الله سبحانه الزكاة عليهم أبى قارون فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم ، وعن كل ألف شاة على شاة ، وعن كل ألف شيء شيئاً ، ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده كثيرا فلم تسمح بذلك نفسه فجمع بني إسرائيل وقال لهم : يا

بني إسرائيل إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت ، فقال : آمركم أن يجيئوا بفلانة البغي فنجعل لها جعلاً على أن تقذفه بنفسها فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فاسترحنا منه ، فأتوا بها فجعل لها قارون ألف درهم وقيل : ألف دينار ، وقيل : طستا من ذهب ، وقيل : حكمها ، وقال لها : إني أُموّلك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل ، فلمّا أن كان الغد جمع قارون بني إسرائيل ، ثم أتى موسى فقال له : إن بني إسرائيل قد اجتمعوا ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم وتبين لهم أعلام دينهم وأحكام شريعتهم فخرج إليهم موسى وهم في براح من الأرض فقام فيهم خطيباً ووعظهم (فكان) فيما قال : يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ، ومن زنا وليست له امرأة جلدناه مائة ، ومن زنا وله امرأة رجمناه حتى يموت ، فقال له قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال قارون : فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة قال : أنا ، قال : نعم ، قال : ادعوها فإن قالت فهو كما قالت ، فلمّا أن جاءت قال لها موسى : يا فلانة إنما أنا فعلت لك ما يقول هؤلاء ، وعظم عليها وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت ، فلمّا ناشدها تداركها الله بالتوفيق وقالت في نفسها : لئن أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذي رسول الله ، قالت : لا كذبوا ، ولكن جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي ، فلمّا

تكلمت بهذا الكلام سقط في يده قارون ونكس رأسه وسكت الملأ وعرف أنه وقع في مهلكة وخرّ) موسى ساجداً يبكي ويقول : اللهم إن كنت رسولك ، فاغضب لي ، فأوحى الله سبحانه إليه : مُر الأرض بما شئت ، فإنها مطيعة لك ، فقال موسى : يا بني إسرائيل إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليثبت مكانه ، ومن كان معي فليعتزل ، فاعتزل قارون ولم يبق معه إلاّ رجلان ، ثم قال موسى : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الركَب ، ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الأعناق ، وقارون وأصحابه في كل ذلك لا يلتفت إليه لشدّة غضبه عليه .

ثم قال : يا أرض خذيهم ، فانطبقت عليهم الإرض ، وأوحى الله تعالى إلى موسى : يا موسى ما أفظك . استغاثوا بك سبعين مرة فلم ترحمهم ولم تغثهم ، أما وعزتي لو إياي دعوا لوجدوني قريباً مجيباً .

قال قتادة : وذكر [لنا] أنّه يخسف به كلّ يوم قامة وأنّه يتخلخل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة ، قالوا : وأصبحت بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أنّ (موسى) إنّما دعا على

قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله ، فدعا اللهَ موسى حتى يخسف بداره وأمواله الأرض .

وأوحى الله سبحانه إلى موسى : إنّي لا أعبّد الأرض لأحد بعدك أبداً ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ ، ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ الممتنعين ﴿ وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ بالأمس ﴾ العرب تعبّر بأضحى وأمسى وأصبح عن الصيرورة والفعل ، فتقول : أصبح فلان عاملا وأمسى حزيناً وأضحى معدماً ، إذا صاروا بهذه الأحوال وليس ثَمَّ من الصبح والمساء والضحى شيء .

(130/592)

﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله ﴾ اختلف العلماء في هذه اللفظة ، فقال مجاهد : معناه : ألم تعلم ؟ قتادة : ألم تر ؟ ، الفرّاء : هي كلمة تقرير كقول الرجل : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه ؟ وذكر أنّه أخبره من سمع أعرابية تقول لزوجها : أين ابنك ؟ فقال : ويكأنّه وراء البيت ، يعني أما ترينه وراء البيت ؟ ابن عباس والحسن : هي كلمة ابتداء وتحقيق ، تقديره إنّ الله ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ﴾ المؤرّخ : هو تعجّب ، قطرب : إنّما هو ويلك فأسقط منه اللام ، قال عنترة

:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها . . . قول الفوارس ويك عنتر أقدم

وقيل : هو تنبيه بمنزلة ألا وأما . قال بعض الشعراء :

ويكأن من يكن له نشب . . . يحبب ومن يفتقر يعشْ عيش ضرّ

وقال القتيبى : معناه رحمة بلغة حمير ، وقال سيبويه : سألت الخليل عنه ، فقال : وي كلمة تنبيه منفصلة من كأن فكأنْ في معنى الطب والعلم .

﴿ يَبْسُطُ الرزقِ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ يقتّر ﴿ لولا أَن مَّنَّ الله عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ قرأ يعقوب وبعض أهل الشام والكوفة بفتح الخاء والسين ، وقراءة العامة بضم الخاء وكسر السين ، ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون * تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض ﴾ تكبراً وتجبراً فيها ، ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ عملا بالمعاصي عن ابن جريج ومقاتل وعكرمة ومسلم البطين : الفساد : أخذ المال بغير حق ، الكلبي : الدعاء إلى غير عبادة الله .

(131/592)

﴿ والعاقبة ﴾ المحمودة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ قال قتادة : الجنة ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن ﴾ أي أنزله عن أكثر المفسرين ، وقال عطاء بن أبي رباح : فرض عليك العمل بالقرآن ﴿ لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ قال (الضحاك و) مجاهد : إلى مكة ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، قال (ابن قتيبة) : معاد الرجل : بلده لأنّه ينصرف ثم يعود إلى بلده .

قال مقاتل : خرج النبي (عليه السلام) من الغار ليلا ثم هاجر من وجهه إلى المدينة ، فسار في غير الطريق مخافة الطلب ، فلمّا أمن ورجع إلى الطريق نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة ، فاشتاق إليها وذكر مولده ومولد آبائه ، فأتاه جبريل (عليهما السلام) ، فقال : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ قال : "نعم" ، قال : فإنّ الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ إلى مكة ظاهراً عليها .

قال مقاتل : قال الضحاك : قال ابن عباس : إنّما نزلت بالجحفة ليس بمكة ولا المدينة ، وروي جابر عن أبي جعفر ، قال : انطلقت أنا وأبي إلى أبي سعيد الخدري ، فسأله عن هذه الآية : ﴿ لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ ، قال : إلى الموت . وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال الحسن والزهري وعكرمة : إلى يوم القيامة ، وقال أبو مالك وأبو صالح : إلى الجنة .

أخبرنا عبد الخالق بن علي ، قال : أخبرنا أبو بكر بن حبيب ، قال : حدّثنا يحيى بن أبي

طالب ، قال : أخبرنا عمار بن كثير ، قال : أخبرنا فضيلة ، عن ليث ، عن مجاهد في قوله : ﴿ لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ قال : إلى الجنة .

(132/592)

﴿ قُل ربي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بالهدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ قال بعض أهل المعاني : في الكلام تقديم وتأخير تقديره : إنّ الذي فرض عليك القرآن وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب لرادك إلى معاد .

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ * وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ الله بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ وهذا حين دعا إلى دين آبائه ﴿ وادع إلى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين * وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها آخَرَ لاَ إله إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَه ﴾ يعني إلاّ هو ، عن مجاهد ، الصادق : دينه ، أبو العالية : إلاّ ما أريد به وجهه .

أخبرنا ابن شاذان ، قال : أخبرنا جيعويه ، قال : حدّثنا صالح بن محمد ، عن جرير ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن شهر بن حوشب ، عن عبادة بن الصامت ، قال : يُجاء بالدنيا يوم القيامة ، فيقال : ميزوا ما كان لله منها ، قال : فيماز ما كان لله منها ، ثم يؤمر بسائرها فيلقى في النار .

وبه عن صالح ، عن سليمان بن عمرو ، عن سالم الأفطس ، عن الحسن وسعيد بن جبير ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّ رجلا سأله ، فلم يعطه شيئاً ، فقال : أسألك بوجه الله ، فقال له علي : كذبت ، ليس بوجه الله سألتني ، إنّما وجه الله الحق ، ألا ترى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَه ﴾ يعني الحق ؟ ولكن سألتني بوجهك الخالق كلّ شيء هالك إلاّ الله والجنة والنار والعرش . ابن كيسان : إلاّ ملكه . ﴿ لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 7 صـ 259 . 268 ﴾

(133/592)

وقال الزمخشرى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ ﴾

قَارُونَ اسم أعجمى مثل هرون ، ولم ينصرف للعجمة والتعريف ، ولو كان فاعولا من قرن لانصرف . وقيل : معنى كونه من قومه أنه آمن به . وقيل ، كان إسرائيليا ابن عم موسى : هو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب . وموسى بن عمران بن قاهث . وقيل :

كان موسى ابن أخيه ، وكان يسمى المنور لحسن صورته ، وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة ، ولكنه

(134/592)

نافق كما نافق السامري وقال : إذا كانت النبوّة لموسى عليه السلام ، والمذبح والقربان إلى هرون فما لي ؟ وروى : أنه لما جاوز بهم موسى البحر وصارت الرسالة والحبورة لهارون يقرّب القربان ويكون رأسا فيهم - وكان القربان إلى موسى فجعله موسى إلى أخيه - وجد قارون في نفسه وحسدهما ، فقال لموسى : الأمر لكما ولست على شيء ، إلى متى أصبر ؟ قال موسى : هذا صنع اللّه قال : واللّه لا أصدق حتى تأتى بآية ، فأمر رؤساء بنى إسرائيل أن يجيء كل واحد بعصاه ، فحزمها وألقاها في القبة التي كان الوحى ينزل عليه فيها ، وكانوا يحرسون عصيهم بالليل ، فأصبحوا وإذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر ، وكانت من شجر اللوز ، فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر فَبَغى عَلَيْهِمْ من البغي وهو الظلم . قيل : ملكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم . وقيل : من البغي وهو الكبر والبذخ : تبذخ عليهم بكثرة ماله وولده . قيل : زاد عليهم في الثياب شبرا . المفاتح : جمع مفتح بالكسر : وهو ما يفتح به . وقيل هي الخزائن ، وقياس واحدها

: مفتح - بالفتح . ويقال : ناء به الحمل ، إذا أثقله حتى أماله . والعصبة : الجماعة الكثيرة والعصابة : مثلها . واعصوصبوا : اجتمعوا . وقيل : كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا ، لكل خزانة مفتاح ، ولا يزيد المفتاح على أصبع . وكانت من جلود . قال أبو رزين : يكفى الكوفة مفتاح ، وقد بولغ في ذكر ذلك بلفظ : الكنوز ، والمفاتح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى القوة . وقرأ بديل بن ميسرة : لينوء بالياء . ووجهه أن يفسر المفاتح بالخزائن ، ويعطيها حكم ما أضيفت إليه للملابسة والاتصال ، كقولك ذهبت أهل اليمامة . ومحل إذ منصوب بتنوء لا تَفْرَحْ كقوله وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وقول القائل :

ولست بمفراح إذا الدّهر سرّنى «1»

وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن . وأمّا من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب ، لم تحدّثه نفسه بالفرح . وما أحسن ما قال القائل :

أشد الغمّ عندي في سرور تيقّن عنه صاحبه انتقالا «2»

---

(1) ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب

ولا أبتغى شرا إذا الشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب

لهدبة بن خشرم لما قاده معاوية إلى الحرة ليقتص منه في زياد بن زيد العذرى ، فلقيه عبد الرحمن بن حسان فاستنشده فأنشده ذلك . والمفراح : كثير الفرح . والمراد : نفى الفرح من أصله . وصرف الدهر : حدثانه . وإذا : شرطية فلا بد بعدها من فعل ، أى : إذا كان

الشر تاركي . وأحمل مبنى للمجهول ، وأركب للفاعل . والمعنى : أنى جربت الدهر فإذا هو خئون ، ومع ذلك لا أتضعضع .

(2) . لأبى الطيب ، أى : أشد الغم عندي وقت السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه ، وهكذا سرور الدنيا كله .

(135/592)

وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ من الغنى والثروة الدَّارَ الْآخِرَةَ بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب إليه ، وتجعله زادك إلى الآخرة وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ وهو أن تأخذ منه ما يكفيك ويصلحك وَأَحْسِنْ إلى عباد اللّه كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أو أحسن بشكرك وطاعتك للّه كما أحسن إليك . والفساد في الأرض : ما كان عليه من الظلم والبغي . وقيل إن القائل موسى عليه السلام . وقرئ : واتبع .

[سورة القصص (28) : آية 78]

قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

عَلى عِلْمٍ أى على استحقاق واستيجاب لما فىّ من العلم الذي فضلت به الناس ، وذلك أنه

كان أعلم بنى إسرائيل بالتوراة . وقيل : هو علم الكيمياء . عن سعيد بن المسيب : كان موسى عليه السلام يعلم علم الكيمياء ، فأفاد يوشع بن نون ثلثه ، وكالب بن يوفنا ثلثه ، وقارون ثلثه ، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا .

وقيل : علم اللّه موسى علم الكيمياء ، فعله موسى أخته ، فعلمته أخته قارون . وقيل : هو بصره بأنواع التجارة والدهقنة «1» وسائر المكاسب . وقيل عِنْدِي معناه : في ظنى ، كما تقول الأمر عندي كذا ، كأنه قال : إنما أوتيته على علم ، كقوله تعالى ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ثم زاد عِنْدِي أى هو في ظنى ورأيى هكذا . يجوز أن يكون إثباتا لعلمه بأنّ اللّه قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى ، لأنه قد قرأه في التوراة ، وأخبر به موسى ، وسمعه من حفاظ التواريخ والأيام كأنه قيل أَوَلَمْ يَعْلَمْ في جملة ما عنده من العلم هذا ، حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوّته . ويجوز أن يكون نفيا لعلمه بذلك ، لأنه لما قال : أوتيته على علم عندي ، فتنفج بالعلم «2» وتعظم به . قيل : أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ، ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين وَأَكْثَرُ جَمْعاً للمال ، أو أكثر جماعة وعددا . فإن قلت : ما وجه اتصال قوله وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ بما قبله ؟ قلت : لما ذكر قارون من أهلك من قبله من القرون الذين كانوا أقوى منه وأغنى ، قال على سبيل التهديد له : واللّه مطلع على ذنوب

المجرمين ، لا يحتاج إلى سؤالهم عنها واستعلامهم . وهو قادر على أن يعاقبهم عليها ، كقوله تعالى وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ ، وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وما أشبه ذلك .

---

(1) . قوله «والدهقنة» أي الزراعة ، كما عبر غيره . (ع)

(2) . قوله «فتنفج بالعلم» أي ترفع وتفاخر وتكبر . أفاده الصحاح . (ع)

(136/592)

[سورة القصص (28) : آية 79]

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79)

فِي زِينَتِهِ قال الحسن : في الحمرة والصفرة . وقيل : خرج على بغلة شهباء عليها الأرجوان «1» وعليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف على زيه . وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلاثمائة غلام ، وعن يساره ثلاثمائة جارية ، بيض عليهنّ الحلي والديباج . وقيل في تسعين ألفا عليهم المعصفرات ، وهو أوّل يوم رئي فيه المعصفر : كان المتمنون قوما مسلمين وإنما تمنوه على سبيل الرغبة في اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر . وعن قتادة : تمنوه ليتقربوا به إلى اللّه وينفقوه في سبل الخير . وقيل : كانوا قوما

كفارا . الغابط : هو الذي يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه . والحاسد : هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه فمن الغبطة قوله تعالى يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ ومن الحسد قوله وَلا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل يضر الغبط ؟ فقال «2» :

«لا إلا كما يضر العضاه الخبط «3»» والحظ : الجدّ ، وهو البخت والدولة : وصفوه بأنه رجل مجدود مبخوت ، يقال : فلان ذو حظ ، وحظيظ ، ومحظوظ ، وما الدنيا إلا أحاظ وجدود .

[سورة القصص (28) : الآيات 80 إلى 81]

وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81)

ويلك : أصله الدعاء بالهلاك ، ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى ، كما استعمل : لا أبا لك . وأصله الدعاء على الرجل بالإقراف «4» في الحث على الفعل . والراجع

---

(1) . قوله «بغلة شهباء عليها الأرجوان» في الصحاح : قطيفة حمراء أرجوان . وفيه أيضا : الأرجوان صبغ أحمر شديد الحمرة ، ويقال : هو بالفارسية أرغوان ، وهو شجر له

نور أحمر أحسن ما يكون . (ع)

(2) . ذكره ثابت السر قسطي في الغريب هكذا بغير إسناد . وأخرجه إبراهيم الحربي في الغريب من طريق ابن أبى حسين «أن سائلا سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم أيضر الناس الغبط ؟ قال : نعم كما يضر العضاه الخبط» بهذا اللفظ أخرجه الطبراني من رواية أم الدرداء قالت : قلت يا رسول اللّه . فذكره ، لكن قال «الشجر» بدل العضاه .

قال الحربي الغبط إرادة السعة . وقال ثابت : الغبط الحسد .

(3) . قوله «إلا كما يضر العضاه الخبط» في الصحاح «العضاه» : كل شجر يعظم وله شوك . وفيه «الخبط» :

ضرب الشجرة بالعصا ليسقط ورقها . (ع)

(4) . قوله «الدعاء على الرجل بالإقراف» أى بفساد الأب . أفاده الصحاح . (ع)

(137/592)

في وَلا يُلَقَّاها للكلمة التي تكلم بها العلماء ، أو للثواب ، لأنه في معنى المثوبة أو الجنة ، أو للسيرة والطريقة ، وهي الإيمان والعمل الصالح الصَّابِرُونَ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم اللّه من القليل عن الكثير . كان قارون يؤذى نبى اللّه موسى عليه السلام كل

وقت ، وهو يداريه للقرابة التي بينهما ، حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل ألف درهم على درهم ، فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه ، فجمع بنى إسرائيل وقال : إنّ موسى أرادكم على كل شيء ، وهو يريد أن يأخذ أموالكم ، فقالوا : أنت كبيرنا وسيدنا ، فمر بما شئت ، قال :

نبرطل فلانة البغيّ حتى ترميه بنفسها فيرفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار . وقيل : طستا من ذهب . وقيل : طستا من ذهب مملوءة ذهبا . وقيل : حكمها فلما كان يوم عيد قام موسى فقال :

يا بنى إسرائيل ، من سرق قطعناه ، ومن افترى جلدناه ، ومن زنى وهو غير محصن جلدناه ، وإن أحصن رجمناه ، فقال قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا ، قال : فإنّ بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، فأحضرت ، فناشدها موسى بالذي فلق البحر ، وأنزل التوراة أن تصدق ، فتداركها اللّه فقالت : كذبوا ، بل جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك لنفسي ، فخرّ موسى ساجدا يبكى وقال : يا رب ، إن كنت رسولك فاغضب لي . فأوحى إليه :

أن مر الأرض بما شئت ، فإنها مطيعة لك . فقال : يا بنى إسرائيل ، إنّ اللّه بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليلزم مكانه ، ومن كان معنى فليعتزل ، فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الركب ، ثم قال : خذيهم ،

فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال : خذيهم ، فأخذتهم إلى الأعناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى عليه السلام ويناشدونه باللّه والرحم ، وموسى لا يلتفت اليهم لشدّة غضبه ، ثم قال : خذيهم ، فانطبقت عليهم «1» . وأوحى اللّه إلى موسى : ما أفظك : استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم ، أما وعزتي لو إياى دعوا مرة واحدة لوجدوني قريبا مجيبا ، فأصبحت بنو إسرائيل يتناجون بينهم : إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه ، فدعا اللّه حتى خسف بداره وأمواله مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ من المنتقمين من موسى عليه السلام ، أو من الممتنعين من عذاب اللّه . يقال : نصره من عدوه فانتصر ، أى : منعه منه فامتنع .

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق والطبراني . من رواية على بن زيد عن عبد اللّه بن الحارث بن نوفل الهاشمي . قال ، فذكره موقوفا . ووصله الحاكم بذكر ابن عباس . قال «لما أتى موسى قومه أمرهم بالزكاة فجمعهم قارون . فذكره باختصار . قوله وفي الأخبار والآثار ما يدل عليه ، يعنى وقوع الرعب في قلوب جميع الناس يوم الموقف يمكن أن يستدل له بحديث الشفاعة الطويل . ففي المتفق عليه عن أبى هريرة في حديث الشفاعة قال «يجمع اللّه الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون . وفيه قول آدم وغيره : نفسي نفسي» وانفقا عليه من حديث أنس كذلك

[سورة القصص (28) : آية 82]

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (82)

قد يذكر الأمس ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك ، ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة مَكانَهُ منزلته من الدنيا «وى» مفصولة عن «كأن» ، وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم . ومعناه :

أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وقولهم يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ وتندموا ثم قالوا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ أى : ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح ، وهو مذهب الخليل وسيبويه . قال :

وى كأنّ من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضرّ «1»

وحكى الفراء أنّ أعرابية قالت لزوجها : أين ابنك ؟ فقال : وى كأنه وراء البيت . وعند الكوفيين أنّ «ويك» بمعنى : ويلك ، وأنّ المعنى ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون . ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى وى ، كقوله :

. . . . . ويك عنتر أقدم «2»

---

(1) سألتانى الطلاق أن رأتا قل مالى قد جئتمانى بنكر

وى كأن من يكن له نشب يحبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

ويجنب سر النجي ولكن أخا المال محضر كل سر

لزيد بن عمرو بن نفيل القرشي . وقيل : لسعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة . وقيل : لنبيه بن الحجاج بن عامر ، قتل كافرا يوم بدر . وسألتانى بقلب الهمزة ألفا للوزن ، وهي لغة قليلة ، والضمير لزوجتيه ، والطلاق مفعول ثان ، وأن رأتا : أى لرؤيتهما ، وقل : يحتمل أنه فعل ماض ، فلا بد به من تقدير محذوف قبله به يتم الكلام ، أى : لأن رأتانى قل مالى . أو لرؤيتهما أنى قل مالى . ويحتمل أنه اسم بمعنى قليل ، ولا حذف في الكلام ، فالمعنى : لأن رأتا قليل مالى ، أى : مالى القليل ، والتفت من الغيبة إلى خطابهما بقوله : قد جئتمانى بنكر ، أى : منكر . وفيه معنى التعجيب من حالهما ، و«وى» : اسم فعل للتعجب ، وقيل : لفظه تيقظ وتندم ، وكأن :

للظن أو للتحقيق ، كما أجازه الكوفيون ، وهي مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن . وقيل : لا اسم للمخففة .

والنشب : المال . ويعش عيش ضرّ ، أى : يبغض . والنجي - بالتشديد - : المناجى ، أى : المتكلم بالسر .

ويجنب : مبنى للمجهول . وسر : مفعوله الثاني . وأخا المال : صاحب المال . ومحضر : اسم مفعول ، وكل :

مفعوله الثاني .

(2) ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

لعنترة بن شداد من معلقته . ويروى : وأبر أسقمها . ويروى : وأذهب غمها . ويروى : قول ، بدل : قيل . وكلاهما مصدر . وويك : اسم فعل للتعجب ، لكن لا بلائم البيت . وقيل : كلمة تنبيه ، والكاف حرف خطاب . وقال الكسائي : أصل «ويك» : ويلك ، فالكاف ضمير مجرور ، لكن تبعد ملاءمته للبيت . وعنتر : منادى مرخم ، وحسن الترخيم وحذف حرف النداء : أن المقام للاهتمام وسرعة الكلام ، وأقدم : أى أقبل على العدو ، لتمنعنا بأسه . [. . . . .]

(139/592)

وأنه بمعنى لأنه ، واللام لبيان المقول لأجله هذا القول ، أو ، لأنه لا يفلح الكافرون كان ذلك ، وهو الخسف بقارون ، ومن الناس من يقف على «وى» ويبتدئ «كأنه» ومنهم من يقف على «ويك» . وقرأ الأعمش لولا منّ اللّه علينا . وقرئ لَخَسَفَ بِنا «1» وفيه ضمير

اللّه .

ولا نخسف بنا ، كقولك : انقطع به . ولتخسف بنا .

[سورة القصص (28) : آية 83]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)

تِلْكَ تعظيم لها وتفخيم لشأنها ، يعنى : تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها . لم يعلق الموعد «2» بترك العلو والفساد ، ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما ، كما قال : وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فعلق الوعيد بالركون . وعن على رضى اللّه عنه : إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل تحتها «3» . وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال .

ذهبت الأمانى ها هنا «4» . وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يردّدها حتى قبض . ومن الطماع من يجعل العلوّ لفرعون ، والفساد لقارون ، متعلقا بقوله إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ ، وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ ويقول : من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ، ولا يتدبر قوله وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ كما تدبره علىّ والفضيل وعمر .

---

(1) . قوله : «و قرئ : لخسف بنا» يفيد أن القراءة المشهورة : لخسف ، مبنيا للمجهول .

(ع)

(2) . قوله «لم يعلق الموعد» لعله : الوعد . (ع)

(3) . أخرجه الطبري والواحدي من رواية وكيع عن أشعث السمان عن أبى سلام الأعرج عن على بهذا موقوفا وإسناده ضعيف .

(4) . قال محمود : «لم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما ، كما قال تعالى وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ فعلق الوعيد بالركون إلى الظلمة . وعن على أن الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله خيرا من شراك نعل أخيه فيدخل تحتها . وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يرددها حتى قبض . وعن الفضيل أنه قرأها وقال : ذهبت الأمانى ها هنا . ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون ، لقوله إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وقوله وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ ويقول : من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ، ولا يتدبر قوله وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ كما تدبرها على وعمر والفضيل» قال أحمد : هو تعرض لغمص أهل السنة ، فان كل موحد من أهل الجنة ، وإنما طمعوا حيث أطمعهم اللّه تعالى ، بل وحقق طمعهم في رحمته حيث يقول رسوله عليه الصلاة والسلام : من قال لا إله إلا اللّه دخل الجنة وإن زنى وإن سرق . . . ثلاثا ، وفي الثالثة : وإن رغم أنف أبى ذر» اللهم اقسم لنا من رجاء رحمتك ما تعصمنا به من القنوط ، ومن خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، واللّه الموفق للصواب .

[سورة القصص (28) : آية 84]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (84)

معناه : فلا يجزون ، فوضع الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ موضع الضمير ، لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكررا . فضل تهجين لحالهم ، وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ إلا مثل ما كانوا يعملون ، وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزى السيئة إلا بمثلها ، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة ، وهو معنى قوله فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها .

[سورة القصص (28) : آية 85]

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (85)

فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ، يعنى : أن الذي حملك صعوبة هذا التكليف لمثيبك عليها ثوابا لا يحيط به الوصف . وَلَرادُّكَ بعد الموت إِلى مَعادٍ أى معاد ليس لغيرك من البشر وتنكير المعاد لذلك : وقيل : المراد به مكة : ووجهه أن يراد رده إليها يوم الفتح : ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن ، ومرجعا له اعتداد ، لغلبة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليها ، وقهره لأهلها ، ولظهور عز الإسلام

وأهله وذل الشرك وحزبه . والسورة مكية ، فكأن اللّه وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها : أنه يهاجر به منها ، ويعيده إليها ظاهرا ظافرا . وقيل : نزلت عليه حين بلغ الجحفة في مهاجره وقد اشتاق إلى مولده ومولد آبائه وحرم إبراهيم ، فنزل جبريل فقال له : أتشتاق إلى مكة ؟ قال : نعم ، فأوحاها إليه . فإن قلت : كيف اتصل قوله تعالى قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بما قبله ؟ قلت : لما وعد رسوله الردّ إلى معاد ، قال : قل للمشركين : رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب في معاده وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ يعنيهم وما يستحقونه من العقاب في معادهم .

[سورة القصص (28) : آية 86]

وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (86)

فإن قلت : قوله إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ما وجه الاستثناء فيه ؟ قلت : هذا كلام محمول على المعنى ، كأنه قيل : وما ألقى عليك الكتاب إلا رحمة من ربك . ويجوز أن يكون إلا بمعنى لكن للاستدراك ، أى : ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك .

[سورة القصص (28) : آية 87]

وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87)

وقرئ: يصدنك، من أصدّه بمعنى صدّه، وهي في لغة كلب. وقال:

أناس أصدوا النّاس بالسّيف عنهمو صدود السّواقى عن أنوف الحوائم «1»

بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ بعد وقت إنزاله «2» وإذ تضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ وليلتئذ ويومئذ وما أشبه ذلك. والنهى عن مظاهرة الكافرين ونحو ذلك من باب التهييج الذي سيق ذكره.

[سورة القصص (28) : آية 88]

وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

إِلَّا وَجْهَهُ إلا إياه. والوجه يعبر به عن الذات.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ طسم القصص كان له الأجر بعدد من صدق موسى وكذب به، ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقا أن كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون» «3». انتهى. اهـ

﴿الكشاف حـ 3 صـ 429. 437﴾

---

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 538 فراجعه إن شئت اه

مصححه .

(2) . قوله «بعد وقت إنزاله» لعله : إنزالها . (ع)

(3) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه . والواحدي من حديث أبي بن كعب بأسانيدهم المتقدم ذكرها .

(142/592)

وقال ابن جزى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾

أي من بني إسرائيل ، وكان ابن عم موسى وقيل ابن عمته ، وقيل ابن خالته ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ أي تكبر وطغى ، ومن ذلك كفره بموسى عليه السلام ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة ﴾ المفاتح هي التي يفتح بها ، وقيل : هي الخزائن ، والأول أظهر ، والعصبة جماعة الرجال من العشيرة إلى الأربعين ، وتنوء معناه تثقل ، يقال ناء به الحمل : إذا أثقله ، وقيل : معنى تنوء تنهض بتحامل وتكلف ، والوجه على هاذ أن يقال إن العصبة تنوء بالمفاتح ، لكنه قلب كما جاء قلب الكلام عن العرب كثيراً ، ولا يحتاج إلى قلب على القول الأول ﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ الفرح هنا هو الذي يقود إلى الإعجاب والطغيان ، ولذلك قال :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ ، وقيل السرور بالدنيا ، لأنه لا يفرح بها إلا من غفل عن الآخرة ويدل على هذا قوله : ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : 23] .

(143/592)

﴿ وابتغ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدار الآخرة ﴾ أي اقصد الآخرة بما أعطاك الله من المال ، وذلك بفعل الحسنات والصدقات ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ أي لا تضيع حظك من دنياك وتمتع بها مع عملك إنما هو بما يعمل فيها من الخير ، فالكلام على هذا وعظ ، وعلى الأول إباحة للتمتع بالدنيا لئلا ينفر عن قبول الموعظة ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بالغنى قال : ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ لما وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الردل عليهم ، والروغان عما ألزموه من الموعظة ، والمعنى : أن هذا المال إنما أعطاه الله لي بالاستحقاق له بسبب علم عندي استجوبته به ، اختلف في هذا العلم فقيل : إنه علم الكيمياء وقيل : التجارب للأمور والمعرفة بالمكاسب ، وقيل : حفظه التوراة وهذا بعيد ، لأنه كان كافراً ، قيل : المعنى إنما أوتيته على علم من الله وتخصيص خصني به ، ثم جعل قوله عندي كما تقول في ظني واعتقادي

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون ﴾ هذا ردّ عليه في اغتراره بالدنيا وكثرة جمعه للمال أو جمعه للخدم ، والأول أظهر .

(144/592)

﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ في معناه قولان : أحدهما أنه متصل بما قبله ، والضمير في ذنوبهم يعود على القرون المتقدمة ، والمجرمون من بعدهم أي : لا يسأل المجرمون عن ذنوب من تقدمهم من الأمم الهالكة ؛ لأن كل أحد إنما يسأل عن ذنوبه خاصة ، والثاني : أنه إخبار عن حال المجرمين في الآخرة ؛ وأنهم لا يسألون عن ذنوبهم ؛ لكونهم يدخلون النار من غير حساب ، والصحيح أنهم يحاسبون على ذنوبهم ويسألون عنها لقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : 92-93] وأن هذا السؤال المنفي السؤال على وجه الاختبار وطلب التعريف ، لأنه لا يحتاج إلى سؤالهم على هذا الوجه ؛ لكن يسألون على وجه التوبيخ ، وحيثما ورد في القرآن إثبات السؤال في الآخرة ، فهو على معنى المحاسبة والتوبيخ ، وحيثما ورد نفيه فهو على وجه الاستخبار والتعريف ، ومنه قوله : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 39] .

(145/592)

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ في ثياب حمر ، وقيل : في عبيده وحاشيته ، واللفظ أعم من ذلك ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ زجر للذين تمنوا مثل حال قارون ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصابرون ﴾ الضمير عائد على الخصال التي دل عليها الكلام المتقدم ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، وقيل : على الكلمة التي قالها الذين أوتوا العلم : أي لا تصدر الكلمة إلا عن الصابرين ، والصبر هنا إمساك النفس عن الدنيا وزينتها ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ روي أن قارون لما بغى على بني إسرائيل وآذى موسى دعى موسى عليه السلام عليه ، فأوحى إليه أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه وفي أتباعه ، فقال موسى : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى الركب فاستغاثوا بموسى فقال : يا أرض خذيهم حتى تمّ بهم الخسف ﴿ مَكَانَهُ ﴾ أي منزلته في المال والعزة ﴿ بالأمس ﴾ يحتمل أن يريد به اليوم الذي كان قبل ذلك اليوم أو ما تقدم من الزمان القريب ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ مذهب سيبويه أن وي حرف تنبيه ، ثم ذكرت بعدها كأن ، والمعنى على هذا أنهم تنبهوا لخطئهم في قولهم : ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ ، ثم قالوا : ﴿ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ : أي ما أشبه الحال بهذا ، وقال الكوفيون : ويك هو ويلك حذفت منها اللام لكثرة الاستعمال ، ثم ذكرت بعدها أن ، والمعنى ألم يعلموا أن الله . وقيل : ويكأن كلمة واحدة معناها ألم تعلم .

﴿ عُلُوّاً فِي الأرض ﴾ أي تكبراً وطغياناً لا رفعة المنزلة ، فإن إرادتها جائزة .

﴿ فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن ﴾ أي أنزله عليك وأثبته ، وقيل المعنى أعطاك القرآن ، والمعنى متقارب ، وقيل فرض عليك أحكام القرآن ، فهي على حذف مضاف ﴿ لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ المعاد الموضع الذي يعاد إليه ، فقيل : يعني مكة ، والآية نزلت حين الهجرة ، ففيها وعد بالرجوع إلى مكة وفتحها ، وقيل : يعني الآخرة فمعناها إعلام بالحشر ، وقيل يعني الجنة .

﴿ وَمَا كُنتَ ترجوا أَن يلقى إِلَيْكَ الكتاب ﴾ أي ما كنت تطمع أن تنال النبوّة ، ولا أن ينزل عليك الكتاب ، ولكن الله رحمك بذلك ورحم الناس بنبوّتك ، والاستثناء بمعنى لكن فهو منقطع . ويحتمل أن يكون متصلاً . والمعنى ما أنزل عليك الكتاب إلا رحمة من ربك لك ورحمة للناس ، ورحمة على هذا مفعول ما أجله أو حال ، وعلى الأول منصوب على الاستثناء .

﴿ وادع إلى رَبِّكَ ﴾ يحتمل أن يكون من الدعاء بمعنى الرغبة ، أو من دعوة الناس إلى الإيمان بالله ، فالمفعول محذوف على هذا تقديره : ادع الناس ﴿ وَلاَ تَدْعُ ﴾ أي لا تعبد ﴿ مَعَ الله إلها آخَرَ لاَ إله إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ الآية . أي إلا إياه ، والوجه هنا عبارة عن الذات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 3 صـ 111.113 ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى ﴾

قيل كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث .

وقيل كان عم موسى ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري ﴿ فبغى عليهم ﴾ قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فظلمهم وبغى عليهم وقيل بغى عليهم بكثرة ماله وقيل زاد في طول ثيابه شراً (ق) عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر ثيابه خيلاء " أخرجاه في الصحيحين وقيل بغى عليهم بالكبر والعلو ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه ﴾ جمع مفتح وهو الذي يفتح به الباب وقيل مفاتحه يعني خزائنه ﴿ لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ معناه لتثقلهم وتميل بهم إذا حملوها لتثقلها .

قيل العصبة ما بين العشرة إلى الخمسة عشر وقال ابن عباس : ما بين الثلاثة إلى العشرة وقيل إلى الأربعين .

وقيل إلى السبعين قال ابن عباس : كان يحمل مفاتيحه أربعون رجلاً أقوى ما يكون من الرجال وقيل كان قارون أينما ذهب تحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما كثرت وثقلت عليه جعلها من خشب فثقلت لجعلها من جلود البقر كل مفتاح على قدر الأصبع وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلاً ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح ﴾ يعني لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم قيل إنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن إليها فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح ولقد أحسن من قال :

أشد الغم عندي في سرور . . .

تيقن عنه صاحبه انتقالا

(148/592)

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ يعني اطلب فيما أعطاك الله من الأموال الجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أي لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل فيها للآخرة بالصدقة وصلة الرحم وقيل لا تنسى صحتك وقوتك وشبابك

وغناك أن تطلب بها الآخرة .

عن عمر بن ميمون الأزدي قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لرجل وهو يعظه : " اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك " هذا حديث مرسل وعمرو بن ميمون لم يلق النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أي أحسن بطاعة الله كما أحسن إليك بنعمته وقيل أحسن إلى الناس ﴿ ولا تبغ ﴾ أي ولا تطلب ﴿ الفساد في الأرض ﴾ وكل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض ﴿ إن الله لا يحب المفسدين قال ﴾ يعني قارون ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ أي على فضل وخير علمه الله عندي فرآني أهلاً لذلك ففضلني بهذا المال عليكم كما فضلني بغيره .

وقيل هو علم الكيمياء وكان موسى يعلمه فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلم كالب بن يوقنا ثلثه وعلم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه ، فكان يصنع من الرصاص فضة ومن النحاس ذهباً وكان ذلك سبب كثرة أمواله وقيل كان علمه حسن التصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب قال الله ﴿ ألم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ﴾ أي للأموال ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ قيل معناه أن الله تعالى إذا أراد عقاب المجرمين فلا حاجة به إلى سؤالهم لأنه

عالم بحالهم وقيل لا يسألون سؤال استعلام وإنما يسألون سؤال توبيخ وتقريع وقيل لا تسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم .

(149/592)

قوله ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ قيل : خرج هو وقومه وهم سبعون ألفاً عليهم الثياب الحمر والصفر والمعصفرات وقيل خرج على براذين بيض عليها سرج الأرجوان .

وقيل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاثمائة جارية بيضاء عليهم الحلي والثياب الحمر وهن على البغال الشهب ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ أي من المال .

﴿ وقال الذين أوتوا العلم ﴾ أي بما وعد الله في الآخرة وقال ابن عباس : يعني الأحبار من بني إسرائيل للذين تمنوا مثل ما أوتي قارون ﴿ ويلكم ثواب الله ﴾ أي ما عند الله من الثواب والخير ﴿ خير لمن آمن ﴾ أي صدق بتوحيد الله ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أي ذلك خير مما أوتي قارون في الدنيا ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرين ﴾ أي لا يؤتى الأعمال الصالحة إلا الصابرون وقيل لا يؤتى هذه الكلمة وهي قوله ﴿ ويلكم ثواب الله خير ﴾ ﴿ إلا

الصابرون ﴾ أي على طاعة الله وعن زينة الدنيا .

قوله تعالى ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ .

ذكر قصة قارون :

قال أهل العلم بالأخبار والسير : كان قارون أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأقرأهم للتوراة وأجملهم وأغناهم .

وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أول طغيانه وعصيانه أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكرونني به إذا نظروا إلى السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي .

(150/592)

فقال موسى : يا رب أفلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضراً فإن بني إسرائيل تستصغر هذه الخيوط فقال له ربه يا موسى إن الصغير من أمري ليس بصغير فإذا لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير فدعاهم موسى فقال إن الله يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطاً كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعل بنو إسرائيل ما أمرهم به موسى واستكبر قارون فلم يطعه وقال : إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم

فكان هذا بدء عصيانه وبغيه فلما قطع موسى ببني إسرائيل البحر جعلت الحبورة لهارون ، وهي رئاسة المذبح فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها على المذبح فنزل نار من السماء فتأكله فوجد قارون من ذلك في نفسه فأتى إلى موسى فقال له موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء من ذلك ، وأنا أقرأ التوراة لا صبر لي على هذا فقال أما أنا ما جعلتها لهارون بل الله جعلها له فقال له قارون : والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى رؤساء بني إسرائيل فقال هاتوا عصيكم فحزمها وألقاها في قبته التي يتعبد فيها وجعلوا يحرسون عصيهم حتى أصبحوا فأصبحت عصا هارون قد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى يا قارون ترى هذا فقال له قارون والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر واعتزل قارون موسى بأتباعه وجعل موسى يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد إلا عتواً وتجبراً ومعاداة لموسى حتى بنى داراً وجعل لها باباً من الذهب .

وضرب على جدرانها صفائح الذهب وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون ويروحون فيطعمهم الطعام ويحدثونه ويضاحكونه .

(151/592)

قال ابن عباس : فلما نزلت الزكاة على موسى أتاه قارون فصالحه على كل ألف دينار عنها دينار وعلى كل ألف درهم عنها درهم وكل ألف شاة عنها شاة وكذلك سائر الأشياء ثم رجع إلى بيته فحسبه فوجده شيئاً كثيراً فلم تسمح نفسه بذلك فجمع بني إسرائيل وقال لهم إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه وهو يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا : أنت كبيرنا فمرنا بما شئت قال آمركم أن تجيئوا فلانة البغي وتجعلوا عليكم لها جعلاً على أن تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل فرفضوه فدعوها فجعل لها قارون ألف دينار وألف درهم .

وقيل طستاً من ذهب وقيل قال لها قارون أنزلك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً وإذا حضر بنو إسرائيل فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال : إن بني إسرائيل ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم فخرج إليهم موسى وهم في مرج من الأرض فقام فيهم فقال : يا بني إسرائيل من سرق قطعنا يده ومن افترى جلدناه ثمانين ومن زنى وليست له امرأة جلدناه مائة جلدة ومن زنى وله امرأة رجمناه إلى أن يموت فقال قارون وإن كنت أنت ؟ قال : وأن كنت أنا قال فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة البغي قال : ادعوها فلما جاءت قال لها موسى : بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله بالتوفيق فقالت في نفسها أحدث توبة أفضل من أن أوذي رسول الله فقالت لا والله ولكن قارون جعل لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي فخرّ

موسى ساجداً يبكي .

ويقول : اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله إليه أني أمرت الأرض أن تعطيك فمرها بما شئت فقال موسى : يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليثبت مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا فلم يبق مع قارون إلا رجلان ثم قال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم بأقدامهم .

(152/592)

وقيل كان على سرير وفرشه فأخذته الأرض حتى غيبت سريره ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وأصحابه في ذلك يتضرعون إلى موسى ويناشده قارون الله والرحم ، حتى قيل إنه ناشده أربعين مرة .

وقيل سبعين مرة وموسى في ذلك لا يلتفت إليه لشدة غضبه ثم قال يا أرض خذيهم فأطبقت عليهم الأرض فأوحى الله إلى موسى ما أغلظ قلبك يستغيث بك قارون سبعين مرة فلم تغثه أما وعزتي وجلالي لو استغاث بي مرة لأغثته وفي بعض الآثار لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد .

قال قتادة خسف به الأرض فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قرارها إلى يوم القيامة وأصبح بنو إسرائيل يقولون فيما بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه وأمواله فدعا الله موسى حتى خسف بداره وكنوزه وأمواله الأرض فذلك قوله تعالى ﴿ فما كان له من فئة ﴾ يعني جماعة ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾ يعني يمنعونه من الله ﴿ وما كان من المنتصرين ﴾ من الممتنعين مما نزل به من الخسف ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾ يعني صار أولئك الذين تمنوا ما رزقه الله من الأموال والزينة يندمون على ذلك التمني ﴿ يقولون ويكأن الله ﴾ ألم تعلم وقيل ألم تر .

وقيل هي كلمة تقرير معناها أما ترى صنع الله وإحسانه وقيل ويك ، بمعنى ويلك اعلم أن الله .

وروي أن وي مفصوله من كأن والمعنى أن القوم ندموا فقالوا متندمين على ما سلف منهم وي وكأن معناها أظن وأقدر أن الله ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ قال ابن عباس أي يوسع لمن يشاء ويضيق على من يشاء ﴿ لولا أن من الله علينا ﴾ أي بالإيمان ﴿ لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

(153/592)

قوله : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ﴾ أي استكباراً عن الإيمان وقيل علواً واستطالة على الناس وتهاوناً بهم وقيل يطلبون الشرف والعز عند ذي سلطان وعن علي أنها نزلت في أهل التواضع من الولاة وأهل المقدرة ﴿ ولا فساداً ﴾ قيل الذين يدعون إلى غير عبادة الله تعالى وقيل أخذ أموال الناس بغير حق وقيل العمل بالمعاصي ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ أي العاقبة المحمودة لمن اتقى عقاب الله بأداء أوامره واجتناب نواهيه وقيل عاقبة المتقين الجنة ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾ أي أنزل عليك القرآن وقيل معناه أوجب عليك العمل بالقرآن ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ قال ابن عباس إلى مكة .

أخرجه البخاري عنه قال القتيبي : معاد الرجل بلده لأنه ينصرف فيعود إلى بلده وذلك أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة سار على غير الطريق مخالفة الطلب فلما أمن رجع في الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : أتشتاق إلى بلدك ؟ قال نعم قال : فإن الله تعالى يقول الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد وهذه الآية نزلت بالجحفة ليست بمكية ولا مدنية .

وقال ابن عباس أيضاً لرادك إلى الموت وقيل إلى القيامة ، وقيل إل الجنة ﴿ قل ربي أعلم من

جاء بالهدى ﴾ هذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) إنك لفي ضلال مبين فقال الله تعالى لهم ﴿ ربي أعلم من جاء بالهدى ﴾ يعني نفسه ﴿ ومن هو في ضلال مبين ﴾ يعني المشركين ومعناه هو أعلم بالفريقين .

(154/592)

قوله ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أي يوحى إليك القرآن ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ فأعطاك القرآن ﴿ فلا تكونن ظهيراً ﴾ أي معيناً ﴿ للكافرين ﴾ على دينهم ذلك حين دعوه إلى دين آبائه فذكره نعمه عليه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله ﴾ يعني القرآن ﴿ بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ﴾ إلى معرفته وتوحيده ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ قال ابن عباس : الخطاب في الظاهر للنبيّ (صلى الله عليه وسلم) والمراد به أهل دينه أي ولا تظاهر الكفار ولا توافقهم ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر ﴾ معناه أنه واجب على الكل إلا أنه خاطبه به مخصوصاً لأجل التعظيم .

فإن قلت النبيّ (صلى الله عليه وسلم) كان معصوماً من أن يدعو مع الله إلهاً آخر فما فائدة هذا النهي .

قلت الخطاب معه والمراد به غيره وقيل معناه لا تتخذ غيره وكيلاً على أمورك كلها ولا

تعتمد على غيره ﴿ لا إله إلا هو كل شيء هالك ﴾ أي فانٍ ﴿ إلا وجهه ﴾ أي إلا هو والوجه يعبر به عن الذات وقيل معناه إلا ما إريد به وجهه لأن عمل كل شيء أريد به غير الله فهو هالك ﴿ له الحكم ﴾ أي فصل القضاء بين الخلق ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 5 صـ 186.181 ﴾

(155/592)

وقال النسفى :

﴿ إِنَّ قارون ﴾

لا ينصرف للعجمة والتعريف ولو كان فاعولاً من قرنت الشيء لانصرف ﴿ كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾ كان إسرائيلياً ابن عم لموسى فهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب ، وموسى بن عمران بن قاهث ، وكان يسمى المنور لحسن صورته ، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ من البغي وهو الظلم .

قيل : ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم ، أو من البغي الكبر تكبر عليهم بكثرة ماله وولده ، أو زاد عليهم في الثياب شبراً ﴿ وَءَاتيناه من الكنوز ما إِنْ مَفَاتِحَهُ ﴾ "ما" بمعنى

الذي في موضع نصب ب ﴿ اتينا ﴾ و "إن" واسمها وخبرها صلة الذي ولهذا كسرت "إن" .

والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به أو مفتح بالفتح وهو الخزانة والأصوب أنها المقاليد ﴿ لَتَنُوأُ بالعصبة ﴾ لتثقل العصبة فالباء للتعدية يقال : ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة الجماعة الكثيرة وكانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود ﴿ أُوْلِى القوة ﴾ الشدة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ أي المؤمنون وقيل : القائل موسى عليه السلام ومحل ﴿ إذ ﴾ نصب ب ﴿ تنوء ﴾ ﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ لا تبطر بكثرة المال كقوله ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ [الحديد : 23] ولا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن ، وأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه يتركها عن قريب فلا يفرح بها ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ البطرين بالمال ﴿ وابتغ فِيمَا ءاتَاكَ الله ﴾ من الغنى والثروة ﴿ الدار الأخرة ﴾ بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم وتصرف إلى أبواب الخير ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك .

(156/592)

وقيل : معناه واطلب بدنياك آخرتك فإن ذلك حظ المؤمن منها ﴿ وَأَحْسَنُ ﴾ إلى عباد الله ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ أو أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام كما أحسن إليك بالإنعام ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض ﴾ بالظلم والبغي ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ ﴾ أي المال ﴿ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ أي على استحقاق لما فيّ من العلم الذي فضلت به الناس وهو علم التوراة أو علم الكيمياء ، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً ، أو العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة .

و﴿ عندي ﴾ صفة ل ﴿ علم ﴾ قال سهل : ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح ، والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله وفتح له سبيل رؤية منة الله تعالى عليه في جميع الأفعال والأقوال ، والشقي من زين في عينه أفعاله وأقواله وأحواله ولم يفتح له سبيل رؤية منة الله فافتخر بها وادعاها لنفسه ، فشؤمه يهلكه يوماً كما خسف بقارون لما ادّعى لنفسه فضلاً ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ ﴾ قارون ﴿ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ﴾ هو إثبات لعلمه بأن الله قد أهلك من القرون قبله من هو أقوى منه وأغنى لأنه قد قرأه في التوراة كأنه قيل : أو لم يعلم في جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته ، أو نفي لعلمه بذلك لأنه لما قال ﴿ أوتيته على علم عندي ﴾ قيل : أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعى .

ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين ﴿ وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ للمال أو أكثر جماعة وعدداً ﴿ وَلاَ يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ لعلمه تعالى بهم بل يدخلون النار بغير حساب ، أو يعترفون بها بغير سؤال ، أو يعرفون بسيماهم فلا يسئولون ، أو لا يسئولون لتعلم من جهتهم بل يسئولون سؤال توبيخ ، أو لا يسئل عن ذنوب الماضين المجرمون من هذه الأمة .

(157/592)

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ في الحمرة والصفرة .

وقيل : خرج يوم السبت على بغلة شهباء عليها الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة الاف على زيه .

وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحليّ والديباج .

و ﴿ فِى زِينَتِهِ ﴾ حال من فاعل ﴿ خرج ﴾ أي متزيناً ﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ﴾ قيل : كانوا مسلمين وإنما تمنوا على سبيل الرغبة في اليسار كعادة البشر .

وقيل : كانوا كفاراً ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قارون ﴾ قالوه غبطة والغابط هو الذي

يتمنى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه كهذه الآية ، والحاسد هو الذي يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له دونه وهو كقوله تعالى ؛ ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء : 32] وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تضر الغبطة ؟ قال : " "لا إلا كما يضر العضاه الخبط " ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ الحظ الجد وهو البخت والدولة

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ بالثواب والعقاب وفناء الدنيا وبقاء العقبى لغابطي قارون ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ أصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرضى ، وفي "التبيان في إعراب القرآن" هو مفعول فعل محذوف أي ألزمكم الله ويلكم ﴿ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا ﴾ أي لا يلقن هذه الكلمة وهي ﴿ ثواب الله خير ﴾ ﴿ إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا وعلى ما قسم الله من القليل عن الكثير .

(158/592)

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ كان قارون يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة ، فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن

كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت به نفسه فجمع بني إسرائيل وقال : إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا : أنت كبيرنا فمر بما شئت قال : نبرطل فلانة البغي حتى ترميه بنفسها فترفضه بنو إسرائيل ، فجعل لها ألف دينار أوطستاً من ذهب أو حكمها ، فلما كان يوم عيد قام موسى فقال : يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ومن افترى جلدناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وإن أحصن رجمناه .

فقال قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا .

قال : فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة ، فأحضرت فناشدها بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فقالت : جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي فخر موسى ساجداً يبكي وقال : يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي ، فأوحى الله إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك .

فقال : يا بني إسرائيل إن الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون ، فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل .

فاعتزلوا جميعاً غير رجلين ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق ، وقارون وأصحابه يتضرعون إلى موسى ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت إليهم لشدة غضبه ثم قال : خذيهم فانطبقت عليهم فقال الله تعالى : استغاث بك مراراً فلم ترحمه فوعزتي لو

استرحمني مرة لرحمته ، فقال بعض بني إسرائيل : إنما أهلكه ليرث ماله فدعا الله حتى خسف بداره وكنوزه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ ﴾ جماعة ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ ﴾ يمنعونه من عذاب الله ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ المنتصرين ﴾ من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله .

يقال : نصره من عدوه فانتصره أي منعه منه فامتنع .

(159/592)

﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ وصار ﴿ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ ﴾ منزلته من الدنيا ﴿ بالأمس ﴾ ظرف ل ﴿ تمنوا ﴾ ولم يرد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت القريب استعارة ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ و "ي" منفصلة عن "كأن" عند البصريين .

قال سيبويه : "وي" كلمة تنبه على الخطأ وتندم يستعملها النادم بإظهار ندامته يعني أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم ، وقولهم ﴿ يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ﴾ وتندموا ﴿ لَوْلاَ أَن مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ﴾ بصرف ما كنا نتمناه بالأمس ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ لَخُسِفَ وبفتحتين : حفص ويعقوب وسهل ، وفيه ضمير الله تعالى ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾

أي تندموا ثم قالوا : كأنه لا يفلح الكافرون ﴿ تِلْكَ الدار الآخرة ﴾ ﴿ تلك ﴾ تعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ، وقوله ﴿ نَجْعَلُهَا ﴾ خبر ﴿ تلك ﴾ و ﴿ الدار ﴾ نعتها ﴿ لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِى الأرض ﴾ بغياً : ابن جبير ، وظلماً : الضحاك أو كبراً ﴿ وَلاَ فَسَاداً ﴾ عملاً بالمعاصي أو قتل النفس أو دعاء إلى عبادة غير الله .

ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال ﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [هود : 113] فعلق الوعيد بالركون .

وعن علي رضي الله عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها .

وعن الفضيل : إنه قرأها ثم قال : ذهبت الأماني ههنا .

وعن عمر بن عبد العزيز : إنه كان يرددها حتى قبض .

وقال بعضهم : حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثاً بقوله ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الأرض ﴾ ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض ﴾ ﴿ والعاقبة ﴾ المحمودة ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ مر في "النمل" ﴿ وَمَن جَاء بالسيئة فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ السيئات ﴾ معناه فلا يجزون فوضع ﴿ الذين عملوا السيئات ﴾ موضع الضمير لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً ، فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين ﴿ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ إلا مثل ما كانوا يعملون ومن فضله العظيم أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة ﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان ﴾ أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿ لَرَادُّكَ ﴾ بعد الموت ﴿ إلى مَعَادٍ ﴾ أيّ معاد وإلى معاد ليس لغيرك من البشر فلذا نكره ، أو المراد به مكة .

والمراد رده إليها يوم الفتح لأنها كانت في ذلك اليوم معاداً له شأن ومرجعاً له اعتداد لغلبة رسول الله وقهره لأهلها ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه .

والسورة مكية ولكن هذه الآية نزلت بالجحفة لا بمكة ولا بالمدينة حين اشتاق إلى مولده ومولد آبائه .

ولما وعد رسوله الرد إلى معاده قال ﴿ قُلْ ﴾ للمشركين ﴿ رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاء بالهدى ﴾ يعني نفسه وما له من الثواب في معاده ﴿ وَمَنْ هُوَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يعني المشركين وما يستحقونه من العذاب في معادهم ﴿ من ﴾ في محل نصب بفعل مضمر أي يعلم

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يلقى ﴾ يوحى ﴿ إِلَيْكَ الكتاب ﴾ القرآن ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ هو محمول على المعنى أي وما ألقي إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، أو "إلا" بمعنى "لكن" للاستدراك أي ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك الكتاب ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين ﴾ معيناً لهم على دينهم ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءايات الله ﴾ هو على الجمع أي ألا يمنعنك هؤلاء عن العمل بآيات الله أي القرآن ﴿ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ الآيات أي بعد وقت إنزاله و ﴿ إذ ﴾ يضاف إليه أسماء الزمان كقولك "حينئذ" و "يومئذ" ﴿ وادع إلى رَبِّكَ ﴾ إلى توحيده وعبادته ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين وَلاَ تَدْعُ مَعَ الله إلها ءَاخَرَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : الخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أهل دينه ، ولأن العصمة لا تمنع النهي ، والوقف على ﴿ آخر ﴾ لازم لأنه لو وصل لصار ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ صفة ل ﴿ الها آخر ﴾ وفيه من الفساد ما فيه ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ أي إلا إياه فالوجه يعبر به عن الذات .

وقال مجاهد : يعني علم العلماء إذا أريد به وجه الله ﴿ لَهُ الحكم ﴾ القضاء في خلقه ﴿

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تَرجِعون بفتح التاء وكسر الجيم : يعقوب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 3 صـ 244 . 249 ﴾

(162/592)

وقال البيضاوى :

﴿ إِنَّ قارون كَانَ مِن قَوْمِ موسى ﴾

كان ابن عمه يصهر بن قاهث بن لاوي وكان ممن آمن به . ﴿ فبغى عَلَيْهِمْ ﴾ فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره ، أو تكبر عليهم أو ظلمهم . قيل وذلك حين ملكه فرعون على بني إسرائيل ، أو حسدهم لما روي أنه قال لموسى عليه السلام : لك الرسالة ولهارون الحبورة وأنا في غير شيء إلى متى أصبر قال موسى هذا صنع الله . ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ من الأموال المدخرة .

﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ مفاتيح صناديقه جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به ، وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح . ﴿ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ ﴾ خبر إن والجملة صلة وهو ثاني مفعولي آتى ، ونائبه الحمل إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة والعصابة الجماعة الكثيرة واعصوصبوا اجتمعوا . وقرىء "لينوء" بالياء على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ﴾ منصوب ب "تنوء" . ﴿ لاَ تَفْرَحْ ﴾ لا تبطر والفرح بالدنيا مذموم مطلقاً لأنه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذهابها ، فإن العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح كما قيل :

أَشد الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُور . . . تَيَقّن عَنْهُ صَاحِبهُ انتِقَالاَ

ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَا ءاتاكم ﴾ ، وعلل النهي ها هنا بكونه مانعاً من محبة الله تعالى فقال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ﴾ أي بزخارف الدنيا .

(163/592)

﴿ وابتغ فِيمَا ءاتَاكَ الله ﴾ من الغنى . ﴿ الدار الاخرة ﴾ بصرفه فيما يوجبها لك فإن المقصود منه أن يكون وصلة إليها . ﴿ وَلاَ تَنسَ ﴾ ولا تترك ترك المنسي . ﴿ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ﴾ وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك . ﴿ وَأَحْسِنْ ﴾ إلى عباد الله . ﴿ كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ فيما أنعم الله عليك . وقيل ﴿ أَحْسَنُ ﴾ بالشكر والطاعة ﴿ كَمَا أَحْسَنَ ﴾ إليك بالإنعام . ﴿ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِى الأرض ﴾ بأمر يكون علة للظلم والبغي ، نهي له عما كان عليه من الظلم والبغي . ﴿ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين ﴾ لسوء أفعالهم .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عِندِى ﴾ فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالجاه والمال ، و﴿ على عِلْمٍ ﴾ في موضع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها ، وقيل هو الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب ، وقيل العلم بكنوز يوسف ، و﴿ عِندِى ﴾ صفة له أو متعلق ب ﴿ أُوتِيتُهُ ﴾ كقولك : جاز هذا عندي أي في ظني واعتقادي . ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾ تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة وسمعه من حفاظ التواريخ ، أو رد لادعائه للعلم وتعظمه به بنفي هذا العلم عنه أي أعنده مثل ذلك العلم الذي ادعى . ولم يعلم هذا حتى يقي به نفسه مصارع الهالكين . ﴿ وَلاَ يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ﴾ سؤال استعلام فإنه تعالى مطلع عليها أو معاتبة فإنهم يعذبون بها بغتة ، كأنه لما هدد قارون بذكر إهلاك من قبله ممن كانوا أقوى منه واغنى أكد ذلك بأن بين أنه لم يكن مطلعاً على ما يخصهم بل الله مطلع على ذنوب المجرمين كلهم معاقبهم عليها لا محالة .

(164/592)

﴿ فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ﴾ كما قيل إنه خرج على بغلة شهباء عليه الأرجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه .

﴿ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ﴾ على ما هو عادة الناس من الرغبة . ﴿ ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون ﴾ تمنوا مثله لا عينه حذراً عن الحسد . ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظّ عَظِيمٍ ﴾ من الدنيا .

﴿ وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم ﴾ بأحوال الآخرة للمتمنين . ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لا يرتضى . ﴿ ثَوَابُ الله ﴾ في الآخرة . ﴿ خَيْرٌ لّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صالحا ﴾ مما أوتي قارون بل من الدنيا وما فيها . ﴿ وَلاَ يُلَقَّاهَا ﴾ الضمير فيه للكلمة التي تكلم بها العلماء أو لل ﴿ ثَوَابَ ﴾ ، فإنه بمعنى المثوبة أو الجنة أو للإيمان والعمل الصالح فإنهما في معنى السيرة والطريقة . ﴿ إِلاَّ الصابرون ﴾ على الطاعات وعن المعاصي .

(165/592)

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ روي أنه كان يؤذي موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه لقرابته حتى نزلت الزكاة ، فصالحه عن كل ألف على واحد فحسبه فاستكثره ،

فعمد إلى أن يفضح موسى بين بني إسرائيل ليرفضوه ، فبرطل بغية لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيباً فقال : من سرق قطعناه ، ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصناً رجمناه ، فقال قارون ولو كنت قال : ولو كنت ، قال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فأحضرت ، فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق فقالت : جعل لي قارون جعلاً على أن أرميك بنفسي ، فخر موسى شاكياً منه إلى ربه فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت فقال : يا أرض خذيه فأخذته إلى ركبتيه ، ثم قال خذيه إلى وسطه ، ثم قال خذيه فأخذته إلى عنقه ، ثم قال خذيه فخسفت به وكان قارون يتضرع إليه في هذه الأحوال فلم يرحمه ، فأوحى الله إليه ما أفظك استرحمك مراراً فلم ترحمه ، وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجبته ، ثم قال بنو إسرائيل : إنما فعله ليرثه ، فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله . ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ ﴾ أعوان مشتقة من فأوت رأسه إذا ميلته . ﴿ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ فيدفعون عنه عذابه . ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر إذا منعه منه فامتنع .

(166/592)

﴿ وَأَصْبَحَ الذين تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ ﴾ منزلته . ﴿ بالأمس ﴾ منذ زمان قريب . ﴿ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ ﴿ يَبْسُطُ ﴾ ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ بمقتضى مشيئته لا لكرامة تقتضي البسط ولا لهوان يوجب القبض ، وويكأن عند البصريين مركب من "وي" للتعجب "وكأن" للتشبه والمعنى : ما أشبه الأمر أن يبسط الرزق . وقيل من "ويك" بمعنى ويلك "وأن" تقديره ويك اعلم أن الله . ﴿ لَوْلا أَن مَّنَّ الله عَلَيْنَا ﴾ فلم يعطنا ما تمنينا . ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ لتوليده فينا ما ولده فيه فخسف بنا لأجله . وقرأ حفص بفتح الخاء والسين . ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ﴾ لنعمة الله أو المكذبون برسله وبما وعدوا لهم ثواب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 4 صـ 303.306 ﴾

(167/592)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) ﴾

التفسير : لما بين سبحانه حقيقة آلهيته واستحقاقه للحمد المطلق وأن مرجع الكل إلى حكمته وقضائه ، أتبعه بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه أحد سواه وهو تبديل ظلام الليل بضياء النهار وبالعكس . والمعنى : أخبروني من يقدر على هذا ؟ والسرمد الدائم المتصل من السرد ، والميم زائدة ، وانتصابه على أن مفعول ثانٍ لجعل أو على الحال ، وإلى متعلق بجعل أو ب ﴿ سرمداً ﴾ ، ومنافع الليل والنهار والاستدلال بهما على كما قدرة الله تعالى قد تقدمت مراراً . قال جار الله : وإنما لم يقل بنهار تتصرفون فيه كما قيل : ﴿ بليل تسكنون فيه ﴾ لأن الضياء وهو ضوء الشمس تتعلق به المنافع المتكاثرة وليس التصرف في المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة ومن ثَمّ قرن بالضياء ﴿ أفلا تسمعون ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده ، وقرن بالليل ﴿ أفلا تبصرون ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه .

(168/592)

قال الكلبي : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك . وقوله ﴿ أفلا تبصرون ﴾ معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال . وقال أهل البرهان : قدم

الليل على النهار لأن ذهاب الليل بطلوع الشمس أكثر فائدة من ذهاب النهار بدخول الليل . وإنما ختم الاية الأولى بقوله ﴿ أفلا تسمعون ﴾ بناء على الليل ، وختم الأخرى بقوله ﴿ أفلا تبصرون ﴾ بناء على النهار والنهار مبصر وآية النهار مبصرة . ثم بين أن من رحمته زواجه بين الليل والنهار لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار ولإرادة الشكر على النعمتين جميعاً . وفي الآية طريقة اللف ثقة بفهم السامع وذلك لأن السكون بالنهار وإن كان ممكناً وكذا الابتغاء من فضل الله بالليل إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره فلهذا خصه به . وفي تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء دليل على أنه لا شيء أسخط عند الله من الإشراك به ، ويعلم منه أنه لا شيء أجلب لرضاه من الشهادة بوحدانيته . وفحوى الخطاب : أين الذين ادّعيتم إلهيتهم لتخلصكم أو أين الذين قلتم إنها تقربكم إلى الله زلفى وقد علموا أن لا إله إلا الله ؟ فيكون ذلك زيادة في غمهم .

(169/592)

ومعنى ﴿ ونزعنا ﴾ وأخرجنا ﴿ من كل أمة شهيداً ﴾ قال بعضهم : هو نبيهم لأن الأنبياء يشهدون أنهم بلغوا أممهم الدلائل وبلغوا في إيضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زيادة في غمهم أيضاً . وقال آخرون : بل هم الشهداء الذين يشهدون على

الناس في كل زمان ، ويدخل في جملتهم الأنبياء وهذا أقرب ، لأنه تعالى عم كل جماعة بأن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه أزمنة الفترات والأزمنة التي بعد محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فقلنا ﴾ للأمة ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ فيما كنتم عليه من الشرك وخلاف الرسول ﴿ فعلموا ﴾ حينئذ ﴿ أن الحق لله ﴾ ورسوله وغاب ﴿ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ من الباطل والزور . ثم عقب حديث أهل الضلال بقصة قارون . وهو اسم أعجمي ولهذا لم ينصرف بعد العلمية ولو كان " فاعولاً " من قرن لانصرف . والظاهر أنه كان ممن آمن بموسى ، هذا ظاهر نص القرآن ولا يبعد أيضاً حمله على القرابة . قال الكلبي : إنه كان ابن عم موسى . وقيل : كان موسى ابن أخيه وكان يسمى المنوّر لحسن صورته ، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة إلا أنه نافق كما نافق السامري . وقال : إذا كانت النبوّة لموسى والذبح والقربان إلى هارون فما لي ؟ وفي قوله ﴿ فبغى عليهم ﴾ وجوه أحدها : أن بغيه استخفافه بالفقراء . وثانيها أن ملكه فرعون على بني إسرائيل فظلمهم . وقال القفال : معناه طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده . وقال الضحاك : طغى عليهم واستطال فلم يوافقهم في أمر . ابن عباس : تجبر وتكبر عليهم ومثله عن شهر بن حوشب قال : بغيه أنه زاد عليهم في الثياب شبراً فهذا يعود إلى التكبر .

الكلبي : بغيه حسده وذلك أنه لما جوز بهم موسى البحر وصارت السرالة له والوزارة لهارون ، وكان القربان إلى موسى فجعله إلى هارون فوجد قارون في نفسه حسدهما فقال لموسى : الأمر لكما ولست على شيء إلى متى اصبر ؟ قال موسى : هكذا حكم الله . قال : والله لا أصدقك حتى تأتي بآية ، فأمر رؤساء بني إسرائيل أن يأتي كل واحد بعصا فألقى مجموع العصيّ في القبة التي كان الوحي ينزل عليه فيها فأصبحوا فإذا بعصا هارون تهتز ولها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال قارون : ما هو بأعجب مما تصنع من السحر . واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ سأل الكلبي : الستم تقولون إن الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف إيتاء مال قارون إلى نفسه ؟ فأجاب بأنه لا حجة في أن ماله حرام لجواز أنه ظفر بكنز لبعض الملوك الخالية ، وكان الظفر عندهم طريق التملك ، أو لعله وصل إليه بالإرث من جهات ، أو بالكسب من جهة المضاربات وغيرها . والمفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو ما يفتح به الباب ، أو جمع مفتح بالفتح وهو الخزانة . فمن الناس من طعن في القول الأول لأن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ، ولو أنا قدرنا بلدة مملوأة من الذهب لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح ولهذا قال أبو رزين : يكفي للكوفة مفتاح واحد . وأيضاً الكنوز هي الأموال المدفونة في الأرض ولا يتصوّر لها مفتاح . أجاب الناصرون للقول الأول وهو اختيار ابن

عباس والحسن : أن المال إذا كان من جنس العروض لا من جنس النقود جاز أن يبلغ في الكثرة إلى هذا الحد . وأيضاً ما روي أن مفاتيحه كانت من جلود الإبل وكل مفتاح إصبع ولكل خزانة مفتاح ، وكان إذا ركب حملت المفاتيح ستون بغلاً غير مذكور في القرآن . فالصواب أن يفسر قوله ﴿ لتنوء ﴾ أي تنهض مثقلاً بأن تلك الخزائن يعسر ضبطها ومعرفتها على أهل القوّة في الحساب ، وقريب منه قول أبي مسلم : إن المراد من المفاتح العلم

(171/592)

والإحاطة كقوله ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [الأنعام : 59] والمراد أن حفظها والاطلاع عليها يثقل على العصبة أولي القوّة والمتانة في الرأي . وظاهر الكنوز وإن كان من جهة العرف هو المال المدفون إلا أنه قد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق . وأيضاً لا استبعاد في أن يكون موضع المال المدفون بيتاً تحت الأرض له غلق ومفتاح معه . و﴿ لا تفرح ﴾ كقوله ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ [الحديد : 23] وذلك أنه لا يفرح بالدنيا إلا من اطمأن ورضي بها . قال ابن عباس : كان حبه ذلك رشكاً لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى : ﴿ وابتغ فما آتاك الله ﴾ من المال والثروة ﴿ الدار الآخرة ﴾ يعني أسباب حصول سعاداتها من أصناف الخيرات والمبرات الواجبة والمندوبة فإن ذلك هو

نصيب المؤمن من الدنيا دون الذي يأكل ويشرب ، وإلى هذا أشار بقوله ﴿ ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ﴾ ويحتمل أن يراد به اللذات المباحة .

وحين أمروه بالإحسان المالي أمروه بالإحسان مطلقاً ويدخل فيه الإحسان بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن الغيبة والحضور . وفي قوله ﴿ كما أحسن الله إليك ﴾ إشارة إلى قوله تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : 7] وإلى ما قال الحكماء : المكافأة في الطبيعة واجبة . و ﴿ الفساد في الأرض ﴾ المنهي عنه هو ما كان عليه من الظلم والبغي . وهذا القائل موسى عليه السلام أو مؤمنو قومه وهو ظاهر اللفظ .

(172/592)

وكيف كان فقد جمع في هذه الألفاظ من الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد لكنه أبي أن يقبل بل تلقى النصح بكفران النعمة قائلاً ﴿ إنما آوتيته على علم عندي ﴾ قال قتادة ومقاتل والكلبي : كان قارون أقرأ بني إسرائيل للتوراة فقال : إنما أوتيته لفضل علمي واستحقاقي لذلك . وقال سعيد بن المسيب والضحاك : إن موسى أنزل عليه الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وطالوت ثلثه ، فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه ، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهباً . وقيل : أراد علمه بوجوه

المكاسب والتجارات . وقيل : أراد إن الله أعطاني ذلك على علم له تعالى بحالي وباستئهالي لذلك . وقوله ﴿ عندي ﴾ الأمر كذلك اي في اعتقادي وفي ظني فأجابه الله تعالى بقوله ﴿ أولم يعلم ﴾ الآية . قال علماء المعاني : يجوز أن يكون المعنى بالاستفهام إثباتاً لعمله لأنه قد قرأ في التوراة أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية وحفظها من موسى وغيره فكأنه قيل : إنه قد علم ذلك فلم اغتر بكثرة ماله وأعوانه ؟ ويجوز أن يراد به نفي العلم لأنه لما تحدّى بكونه من أهل العلم حيث قال ﴿ على علم عندي ﴾ وبخه الله تعالى أنه لم يعلم هذا العلم النافع حتى يقي به نفسه مصارع الهلكى . ووجه اتصال قوله ﴿ ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ بما قبله أنه تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة إلى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لأنه عالم بكل المعلومات . وقال أبو مسلم : أراد أنهم لا يسالون سؤال استيقان وإنما يسألون سؤال تقريع ومحاسبة ﴿ فخرج على قومه في زينته ﴾ عن الحسن : في الحمرة والصفرة . وقيل : خرج على بغلة شهباء عليه ثوب أحمر أرجواني ، وعلى البغلة سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه . وقيل : عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر ، وعن يمينه ثلثمائة غلام ، وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عيلهن الحلى والثياب الفاخرة . وقيل : في تسعين ألفاً عليهم الثياب الصفر . قال الراغبون في

الحياة العاجلة ﴿ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم ﴾ والحظ الجد والبخت .

عن قتادة : كانوا مسلمين تمنوا ذلك رغبة في الإنفاق في سبيل الخير . وقال آخرون : كانوا كفاراً وقد مر في سورة النساء تحقيق الغبطة والحسد في قوله ﴿ ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ [النساء : 32] ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ﴾ بأحوال الدنيا وأنها عند الآخرة كلا شيء ﴿ ويلكم ﴾ وأصله الدعاء بالهلاك إلا أنه قد يستعمل في الردع والزجر بطريق النصح والإِشفاق ، والضمير في قوله ﴿ ولا يلقاها ﴾ عائد إلى الكلمة المذكورة وهي قوله ﴿ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أو إلى الصواب بمعنى المثوبة .

أو بتأويل الجنة ، أو إلى السير والطريقة أي لا يلزم هذه السيرة ﴿ إلا الصابرون ﴾ على الطاعات وعن الشهوات وعلى ما قسم الله وحكم به من الغنى وضده ، وظاهر حال قارون ينبئ عن أنه كان ذا أشر وبطر واستخفاف بحقوق الله واستهانة بنبيه وكتابه ، فلا جرم خسف الله به وبداره الأرض ، إلا أن المفسرين فصلوا فقالوا : كان يؤذي نبي الله موسى وهو يداريه للقرابة التي كانت بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار ، وعن كل الف درهم على درهم ، فحسبه فاستكثر فشحت به نفسه فجمع

بني إسرائيل وقال : إن موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا : أنت كبيرنا فأمر بما شئ . فقال : ائتوا إلى فلانة البغي حتى ترميه بنفسها في جمع بني إسرائيل فجعل لها ألف دينار أو طستاً مملوءاً من ذهب . فلما كان يوم عيد ق موسى فقال يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ، ومن افترى جلدناه ، ومن زنى وهو غير مصن جلدناه ، وإن أحصن رجمناه . فقال قارون : وإن كنت أنت ؟ قال : وإن كنت أنا .

(174/592)

قال : فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة . فأحضرت فناشدها موسى بالذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله فقالت : كذبوا بل جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي فخر موسى ساجداً يبكي وقال : يا رب إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت فإنها مطيعة لك . فقال : يا بني إسرائيل إن الله قد بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ، ومن كان معي فيعتزل فاعتزلوا جميعاً غير جرلين . ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الركب ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط . ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق ، وقارون واصحابه يتضرعون إلى موسى ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت إليهم لشدة

غضبه . ثم قال : خذيهم فانطبقت عليهم . فأوحى الله إلى موسى ما أفظك ! استغاثوا بك مراراً فلم ترحمهم أما وعزتي لو إياي دعوا مرة واحدة لوجدوني قريباً مجيباً . قلت : لعل استغاثته كانت مقرونة بالتوبة وإلا فالعتاب بعيد .

ثم إن بني إسرائيل أصبحوا يتناجون بينهم إنما دعا موسى على قارون ليستفيد داره وكنوزه ، فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله . ومعنى ﴿ من المنتصرين ﴾ من المنتقمين من موسى ، أو من الممتنعين من عذاب الله ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه ﴾ أي منزلته من الدنيا وأسبابها ﴿ بالأمس ﴾ أي بالزمان المتقدم ﴿ يقولون ﴾ راغبين في طاعة الله والرضا بقضائه وقسمته ﴿ ويكأن الله ﴾ من قرأ ﴿ وي ﴾ مفصولة عن ﴿ كأن ﴾ وهو مذهب الخليل وسيبويه فهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم كأنهم تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وتندموا ثم قالوا ﴿ كأنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح نظير هذا الاستعمال قول الشاعر :

ويكأن من يكن له نشب يح . . . بب ومن يفتقر يعيش عيش ضر

وعند الكوفيين : ويك بمعنى ويلك أي ألم تعلم أنه لا يفلح الكافرون . حكى هذا القول قطربق عن يونس ، وجوّز جار الله أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى ﴿ وي ﴾ واللام مقدر قبل أن لبيان المقول لأجله هذا القول والتعليل أي لأنه لا يفلح الكفار كان ذلك الخسف .

قال في الكشاف قوله ﴿ تلك ﴾ تعظيم للدار الآخرة وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت ذكرها وبلغك وصفها . قلت : يحتمل أن يكون للتبعيد حقيقة . وفي قوله ﴿ لا يريدون ﴾ كون أن يقول " يترون " زجر عظيم ووعظ بليغ كقوله ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ [هود : 113] حيث علق الوعيد بالكون عن علي أن الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحته . ومن الناس من رد العلو إلى فرعون والفساد إلى قارون لقوله تعالى ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ [القصص : 4] وقال في قصة قارون ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ وضعف هذا التخصيص بيِّن لقوله في خاتمة الآية ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ قوله ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ الآية ، قد مر تفسير مثله في آخر " الأنعام " وفي آخر " النمل " . وقوله ﴿ فلا يجزى الذين عملوا السيئات ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر إذ كان يكفي أن يقال : " فلا تجزون " إلا أنه أراد فضل تهجين لحالهم بإسناد عمل السيئات إليهم مكرراً ، وفي ذلك لطف للسامعين في زيادة تبغيض السيئة إلى قلوبهم . ثم أراد أن يسلي رسوله في خاتمة السورة فقال ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن ﴾

أي أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه ﴿ لرادّك إلى معاد ﴾ وزأي معاد فتنكير المعاد للتعظيم وأنه ليس لغيره من البشر مثله يعني أن الذي حملك صعوبة تكلي التبليغ وما يتصل به لمثيبك عليها ثواباً لا يحيط به الوصف . وقيل : أراد عوده إلى مكة يوم الفتح ، ووجه التنكير ظاهر لأن مكة يومئذ كانت معاداً له شأن لغلبة المسلمين وظهور عز الإسلام وأهله وذل أهل الشرك وحزبه والسورة مكية .

(176/592)

فقيل : وعده وهو بمكة في أذلا من أهلها أنه مهاجر بالنبي منها ويعيده إليها في ظفر ودولة . وقيل : نزلت عليه هذه الآية حين بلغ الجحفة في مهاجرة وقد اشتاق إلى وطنه . وفي الآية إخبار عن الغيب وقد وقع كما أخبر فيكون فيه إعجاز دال على نبوّته .

(177/592)

وحين وعد رسوله الردّ إلى المعاد المعتبر قال ﴿ قل ﴾ لأهل الشرك ﴿ ربي أعلم ﴾ يعني نفسه وغياهم بما يستحقه كل من الفريقين في معاده ، ولا يخفى أن هذا كلام منصف واثق

بصدقه وحقيته . ثم ذكر رسوله ما أنعم به عليه فقال ﴿ وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة ﴾ قال أهل العربية : هذا الاستثناء محمول على المعنى كأنه قيل : وما ألقى إليك الكتاب إلا لأجل الرحمة ، أو " إلا " بمعنى " لكن " أي ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك . ثم نهاه عن اتباع أهواء أهل الشرك وقد مرّ مراراً أن مثل هذا النهي منباب التهييج له ولأمته . ثم إن مرجع الكل إليه فقال ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم أي يعدم كل شيء سواه ، والوجه يعبر به عن الذات ، ومنهم من فسر الهلاك بخروجه عن كونه منتفعاً به منفعته الخاصة به إما بالإماتة أو بتفريق الأجزاء كما يقال " هلك الثوب وهلك المتاع " وقال أهل التحقيق : معنى الهلاك كونه في حيز الإمكان غير مستحق للوجود ولا للعدم من عند ذاته ، وإن سميت المعدوم شيئاً فممتنع الوجود أحق كل شيء بأن يسمى هالكاً . استدلت المعتزلة بالآية على أن الجنة والنار غير مخلوقتين لأنهما لو كانتا مخلوقتين لعرض لهما الفناء بحكم الآية ، وهذا يناقض قوله ﴿ أكلها دائم ﴾ [الرعد : 35] وعورض بقوله ﴿ اعدّت للمتقين ﴾ [آل عمران : 133] و ﴿ أعدت للكافرين ﴾ [آل عمران : 131] ويحتمل أن يقال الكل بمعنى الأكثر ومن هناك قال الضحاك : كل شيء هالك إلا الله والعرش والجنة والنار . وقيل : إلا العلماء فإن علمهم باق . ويمكن أن يقال إن زمان فناء الجنة لما كان قليلاً بالنسبة إلى زمان بقائها فلا جرم أطلق لفظ الدوام

عليه ومن فسر الهلاك بالإمكان فلا إشكال والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 359 . 365 ﴾

(178/592)

وقال الخطيب الشربيني :

﴿ إن قارون ﴾

ويسمى في التوراة تورح ﴿ كان من قوم موسى ﴾ قال أكثر المفسرين كان ابن عمه لأنّ قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث بن لاوي وقال ابن إسحاق كان قارون عم موسى فكان أخا عمران وهما ابنا يصهر ولم يكن في بني إسرائيل ؟ اقرأ للتوراة من قارون ولكنه نافق كما نافق السامريّ وكان يسمى النور لحسن صورته .

وعن ابن عباس : كان ابن خالته ﴿ فبغى عليهم ﴾ أي : تجاوز الحدّ في احتقارهم بما خوّلناه فيه ، قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل وكان يبغي عليهم ويظلمهم ، وقال قتادة : بغى عليهم بكثرة المال ولم يرع لهم حق الإيمان بل استخف بالفقراء .

وقال الضحاك : بغى عليهم بالشرك ، وقال شهر بن حوشب زاد في طول ثيابه شبراً ، روي

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ ثوبه خيلاء" ، وقال القفال : طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده ، وقال ابن عباس تكبر عليهم وتجبر ، وقال الكلبيّ حسد هارون عليه السلام على الحبورة .

(179/592)

روي أهل الأخبار : أن قارون كان أعلم بني إسرائيل بعد موسى وهارون وأجملهم وأغناهم وكان حسن الصوت فبغى وطغى وكان أوّل طغيانه وعصيانه أنّ الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأمر قومه أن يعلقوا في أرديتهم خيوطاً أربعة في كل طرف خيطاً أخضر كلون السماء يذكرون إذا نظروا إليها السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي فقال موسى : عليه السلام يا رب افلا تأمرهم أن يجعلوا أرديتهم كلها خضراً فإنّ بني إسرائيل تحقر هذه الخيوط ، فقال الله تعالى : يا موسى أنّ الصغير من أمري ليس بصغير فإن لم يطيعوني في الأمر الصغير لم يطيعوني في الأمر الكبير فدعاهم موسى عليه السلام وقال : إنّ الله تعالى يأمركم أن تعلقوا في أرديتكم خيوطاً خضراً كلون السماء لكي تذكروا ربكم إذا رأيتموها ففعل بنو إسرائيل ما أمرهم به واستكبر قارون ولم يفعل وقال إنما يفعل هذا الأرباب بعبيدهم لكي يتميزوا عن غيرهم وكان هذا بدء عصيانه وبغيه ، ولما قطع الله تعالى لبني إسرائيل البحر وأغرق

فرعون جعل الحبورة لهارون عليه الصلاة والسلام فحصلت له النبوّة والحبورة وكان له القربان والذبح وكان لموسى عليه السلام الرسالة فوجد قارون لذلك في نفسه وقال يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء لا أصبر أنا على هذا فقال موسى : عليه السلام والله ما صنعت ذلك لهارون بل الله تعالى جعلها له فقال قارون : والله لا أصدقك حتى تريني بيانه فجمع موسى عليه السلام رؤساء بني إسرائيل وأمرهم أن يجيء كل رجل منهم بعصا فجاؤوا بها فحزمها وألقاها موسى عليه السلام في قبة له كان يعبد الله

(180/592)

تعالى فيها وكان ذلك بأمر الله تعالى ودعا موسى عليه السلام أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هارون عليه السلام وقد اهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى : عليه السلام لقارون ألا ترى ما صنع لهارون ؟ عليه السلام فقال : والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومعه ناس كثير ، وولي هارون عليه السلام الحبورة وهي رياسة الذبح والقربان وكانت بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هارون عليه السلام فيضعها في المذبح وتنزل نار من السماء فتأكلها ، واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بني إسرائيل فكان لا يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه

، وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أن قارون كان من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى" ولما ذكر الله تعالى بغيه ذكر سببه الحقيقي بقوله تعالى : ﴿ وأتيناه من الكنوز ﴾ أي : الأموال المدفونة المذخورة فضلاً عن الظاهرة التي هي بصدد الإنفاق منها لما عساه يعرض من المهمات ﴿ ما ﴾ أي : الذي أوتي شيء كثير لا يدخل تحت حصر حتى ﴿ إنّ مفاتحه ﴾ أي : مفاتح الأغلاق التي هو مدفون فيها وراء أبوابها ﴿ لتنوء ﴾ أي : تميل بجهد ومشقة بثقلها ﴿ بالعصبة ﴾ أي : الجماعة الكثيرة التي تعصب أي : يقوي بعضهم بعضاً ﴿ أولى ﴾ أي : أصحاب ﴿ القوّة ﴾ أي : تميلهم من أثقالها إياهم ، تنبيه : في المبالغة بالتعبير بالكنوز والمفاتيح والنوء والعصبة الموصوفة ما يدل على أنه أوتي من ذلك ما لم يؤته أحد ممن هو في عداده وكل ذلك مما تستبعده العقول فلذلك وقع التأكيد .

واختلفوا في عدد العصبة : فقال مجاهد ما بين العشرة إلى خمسة عشر ، وقال الضحاك عن ابن عباس ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقال قتادة ما بين العشرة إلى الأربعين ، وقيل أربعون رجلاً ، وقيل سبعون وروي عن ابن عباس قال : كان يحمل مفاتيحه أربعون رجلاً ، أقوى ما يكون من الرجال .

(181/592)

وقال جرير عن منصور عن خيثمة قال : وجدت في الإنجيل أن مفاتح خزائن قارون وقر ستين بغلاً ما يزيد فيها مفتاح على أصبع لكل مفتاح كنز ، ويقال كان قارون أينما ذهب يحمل معه مفاتيح كنوزه وكانت من حديد فلما أثقلت عليه جعلت من خشب فثقلت فجعلها من جلود البقر على طول الأصابع وكانت تحمل معه إذا ركب على أربعين بغلاً ، وفي الباء في بالعصبة : وجهان أنها للتعدية كالهمزة ولا قلب في الكلام والمعنى لتنئ المفاتح العصبة الأقوياء كما تقول أجأته وجئت به وأذهبته وذهبت به ، والثاني : قال أبو عبيدة : إن في الكلام قلباً والأصل لتنوء العصبة بالمفاتح أي : لتنهض بها كقولهم عرضت الناقة على الحوض .

ولما ذكر الله تعالى بغيه ذكر وقته بقوله تعالى : ﴿ إذا قال له قومه ﴾ أي : من بني إسرائيل ﴿ لا تفرح ﴾ أي : بكثرة المال فرح بطر فإن الفرح بالعرض الزائل يدل على الركون إليه وذلك يدل على نسيان الآخرة وعلى غاية الجهل وقلة التأمل بالعواقب ، قال ابن عباس : كان فرحه ذلك شركاً لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله عز وجل ﴿ إنّ الله ﴾ أي : الذي له صفات الكمال ﴿ لا يحب ﴾ أي : لا يعامل معاملة المحب ﴿ الفرحين ﴾ أي : البطرين الأشرين الراسخين في الفرح بما يفني الذين لا يشكرون الله تعالى بما أعطاهم فإن فرحهم يدل على سقوط الهمم كما قال تعالى: ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ (الحديد ،) وقال القائل في ذلك .

*ولست بمفراح إذا الدهر سرني

وقال آخر:

أشدّ الغم عندي في سرور

تيقن عنه صاحبه انتقالاً فلا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن، فأما من قلبه إلى الآخرة ويعلم أنه مفارق ما فيه عن قريب لم تحدّثه نفسه بالفرح.

(182/592)

﴿ وابتغ ﴾ أي: اطلب طلباً تحمد نفسك فيه ﴿ فيما آتاك الله ﴾ أي: الملك الذي الأمر كله بيده من الغنى والثروة ﴿ الدار الآخرة ﴾ بأن تقوم بشكر الله فيما أنعم الله عليك وتنفقه في رضا الله تعالى فيجازيك بالجنة ﴿ ولا تنس ﴾ أي: ولا تترك ﴿ نصيبك من الدنيا ﴾ قال مجاهد: لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأنّ حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل للآخرة، وقال السدّيّ: بالصدقة وصلة الرحم.

(183/592)

وقال عليّ رضي الله تعالى عنه وكرم الله وجهه لا تنسى صحتك وقوّتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة ، روي أنه صلى الله عليه وسلم قال فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار ، وعن ميمون الأزدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو يعظه "اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك" ، وقال الحسن : أمر أن يقدّم الفضل ويمسك ما يغنيه ، وقال منصور بن زاذان قوتك وقوت أهلك ﴿ وأحسن ﴾ أي : أوقع الإحسان بدفع المال إلى المحاويج والإنفاق في جميع الطاعات ويدخل في ذلك الإعانة بالجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر ﴿ كما أحسن الله ﴾ الجامع لصفات الكمال ﴿ إليك ﴾ بأن تعطي عطاء من لا يخاف الفقر كما أوسع الله عليك ﴿ ولا تبغ ﴾ أي : ولا ترد إرادة ما ، ﴿ الفساد في الأرض ﴾ بتقتير ولا تبذير ولا تكبر على عباد الله تعالى ولا تحقير ، ثم أتبع ذلك علته مؤكداً لأنّ أكثر المفسدين يبسط لهم في الدنيا وأكثر الناس يستبعد أن يبسط فيها لغير محبوب فقيل ﴿ إن الله ﴾ أي : العالم بكل شيء القدير على كل شيء ﴿ لا يحب المفسدين ﴾ أي : لا يعاملهم معاملة من يحبه ، وقيل أن القائل له هذا موسى عليه السلام ، وقيل مؤمنو قومه ، وكيف كان فقد جمع في هذا الوعظ ما فيه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد

عليه كفر النعمة بأن . ﴿ قال ﴾ أي : قارون في الجواب ﴿ إنما أوتيته ﴾ أي : هذا المال ﴿ على علم ﴾ حاصل ﴿ عندي ﴾ فإنه كان أعلم بني إسرائيل بالتوراة أي : فرآني له أهلاً ففضلني بهذا المال عليكم كما فضلني بغيره ، وقيل هو علم الكيمياء ، وقال سعيد ابن المسيب كان موسى يعلم الكيمياء فعلَّم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم وعلَّم كالب ابن يوفنا ثلثه وعلَّم قارون ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه فكان ذلك سبب أمواله ، وقيل على علم عندي بالتصرف في التجارات والزراعات وأنواع المكاسب ، ثم أجاب الله تعالى : عن كلامه بقوله تعالى : ﴿ أو لم يعلم أنّ الله ﴾ أي : بما له من صفات الجلال والعظمة والكمال ﴿ قد أهلك ﴾ وقوله تعالى : ﴿ من قبله من القرون ﴾ فيه تنبيه على أنه لم يتعظ مع مشاهدته للمهلكين الموصوفين مع قرب الزمان وبعده وقوله تعالى : ﴿ ومن هو أشدّ منه قوة ﴾ أي : في البدن والمعاني من العلم وغيره والأنصار والخدم ﴿ وأكثر جمعاً ﴾ في المال والرجال آخرهم فرعون الذي شاهده في ملكه وحقق أمره يوم هلكه فيه تعجيب وتوبيخ على اغتراره بقوّته وكثرة ماله مع علمه بذلك لأنه قرأ في التوراة وكان أعلمهم بها وسمعه من حفاظ التواريخ واختلف في معنى قوله عز وجل : ﴿ ولا

يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ فقال قتادة يدخلون النار بغير سؤال ولا حساب ، وقال مجاهد لا تسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم بسيماهم وقال الحسن : لا يسئلون سؤال استعلام وإنما يسئلون سؤال توبيخ وتقريع ، وقيل المراد أنّ الله تعالى إذا عاقب المجرمين فلا حاجة به إلى سؤالهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لأنه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة إلى السؤال ، فإن قيل كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ (الحجر : ـ)

(185/592)

أجيب : بحمل ذلك على وقتين ، وقال أبو مسلم : السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتوبيخ والتقريع وقد يكون للاستعتاب ، قال ابن عادل : وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله تعالى: ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ﴾ (النحل ،) هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون (المرسلات : ،) .

﴿ فخرج ﴾ أي : فتسبب عن تجبره واغتراره بماله أن خرج ﴿ على قومه ﴾ أي : الذين نصحوه في الاقتصاد في شأنه والإكثار في الجود على إخوانه وقوله تعالى : ﴿ في زينته ﴾ فيه دليل على أنه خرج بأظهر زينته وأكملها وليس في القرآن إلا هذا القدر .

والناس ذكروا وجوهاً مختلفة : فقال إبراهيم النخعي أنه خرج هو وقومه في ثياب حمر وصفر ، وقال ابن زيد : في تسعين ألفاً عليهم المعصفرات وقال مقاتل : خرج على بلغة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهنّ الحلي والثياب الحمر على البغال ولما كان كأنه قبل ماذا قال قومه له قيل ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ منهم لسفول هممهم وقصور نظرهم على الفاني لكونهم أهل جهل وإن كان قولهم من باب الغبطة لا من باب الحسد الذي هو تمنى زوال نعمة المحسود ﴿ يا ليت لنا ﴾ أي : نتمنى تمنياً عظيماً أن نؤتى من أيّ مؤت كان وعلى أيّ وصف كان ﴿ مثل ما أوتي قارون ﴾ أي : من هذه الزينة وما تسبب عنه من العلم حتى لا نزال أصحاب أموال ، ثم عظموها بقولهم مؤكدين لعلمهم أن ثم من يريد ان ينكر عليهم ﴿ إنه لذو حظ ﴾ أي : نصيب وبخت من الدنيا ﴿ عظيم ﴾ بما أوتيه من العلم الذي كان سبباً له إلى جمع هذا المال وهؤلاء الراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ودل على جهلهم وفضل العلم الرباني وحقارة ما أوتي قارون من المال والعلم الظاهر الذي أدى إلى اتباعه قوله تعالى:

﴿ وقال الذين أوتوا العلم ﴾ وهم أهل الدين قال ابن عباس : رضي الله تعالى عنهما يعني الأحبار من بني إسرائيل ، وقال مقاتل : أوتوا العلم بما وعد الله في الآخرة فقالوا للذين تمنوا ﴿ ويلكم ﴾ ويل : أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما يضر ، وهو منصوب بمحذوف أي : ألزمكم الله ويلكم ﴿ ثواب الله ﴾ أي : الجليل العظيم ﴿ خير ﴾ أي : من هذا الحطام الذي أوتيه قارون في الدنيا بل من الدنيا وما فيها ومن فاته الخير حل به الويل ، ثم بينوا مستحقه تعظيماً له وترغيباً للسامع في حاله بقولهم ﴿ لمن آمن وعمل ﴾ تصديقاً لإيمانه ﴿ صالحاً ﴾ ثم بين تعالى عظمة هذه النصيحة وعلو قدرها بقوله تعالى : ﴿ ولا يلقاها ﴾ أي : هذه النصيحة التي قالها أهل العلم وهي الزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله أو الجنة المثاب بها ﴿ إلا الصابرون ﴾ أي : على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرّمات وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار الذين صار الصبر لهم خلقاً ، ولما تسبب عن نظره هذا الذي أوصله إلى الكفر بربه أخذه بالعذاب أشار إلى ذلك بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ فخسفنا ﴾ أي : بمالنا من العظمة ﴿ به وبداره الأرض ﴾ روي أنه كان يؤذي موسى عليه الصلاة والسلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما وهو يؤذيه كل وقت ولا يزيد إلا عتواً وتجبراً ومعاداة لموسى حتى بنى داراً وجعل بابها من الذهب وضرب على جدرانها

صفائح الذهب وكان الملأ من بني إسرائيل يغدون إليه ويروحون فيطعمهم الطعام ويضاحكونه .

(187/592)

قال ابن عباس : نزلت الزكاة على موسى عليه السلام فأتاه قارون فصالحه عن كل ألف دينار بدينار ، وعن كل ألف درهم بدرهم ، وعن كل ألف شاة بشاة ، فلم تسمح بذلك نفسه فجمع بني إسرائيل وقال : لهم إن موسى قد أمركم بكل شيء فأطعتموه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا : أنت كبيرنا فأمرنا بما شئت قال : آمركم أن تجيئوا بفلانة البغي فنجعل لها جعلاً حتى تقذف موسى بنفسها فإذا فعلت ذلك خرج عليه بنو إسرائيل ورفضوه فدعاها فجعل لها قارون ألف درهم ، وقيل ألف دينار ، قيل طشتاً من ذهب ، وقيل قال لها إني أمونك وأخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل فلما كان من الغد وكان يوم عيد لهم قام موسى عليه السلام خطيباً فقال : من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصناً رجمناه فقال له قارون ولو كنت أنت قال ولو كنت أنا قال إن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة قال : ادعها فإن قالت فهو كما قالت فلما أن جاءت قال : لها موسى يا فلانة أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء فعظم

عليها وسألها بالذي فلق البحر لبني إسرائيل وأنزل التوراة إلا صدقت فتداركها الله تعالى بالتوفيق وقالت في نفسها أحدث اليوم توبة أفضل من أن أوذي رسول الله فقالت لا كذبوا ولكن جعل لي قارون جعلاً على أن أرميك بنفسي فخرّ موسى ساجداً يبكي ويقول : اللهم إن كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله تعالى إليه إني أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت فقال موسى : عليه السلام يا بني إسرائيل إنّ الله بعثني إلى قارون كما بعثني إلى فرعون فمن كان معه فليلبث مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا ولم يبق مع قارون إلا رجلان ثم قال موسى : يا أرض خذيهم فأخذت الأرض بأقدامهم ، وفي رواية كان على فراشه وسريره فأخذته حتى غيبت سريره ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الركب ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى الأوساط ثم قال : يا أرض خذيهم فأخذتهم إلى الأعناق وقارون وصاحباه في كل ذلك يتضرعون

(188/592)

إلى موسى

ويناشده قارون بالله والرحم ، حتى روي أنه ناشده سبعين مرّة وموسى في كل ذلك لا يلتفت إليه لشدّة غضبه ثم قال : يا أرض خذيهم فانطبقت عليهم الأرض فأوحى الله تعالى

إليه ما أغلظ قلبك استغاث بك سبعين مرة فلم ترحمه وعزتي وجلالي لو دعاني مرة واحدة لأجبته ، وفي بعض الآثار لا أجعل الأرض بعدك طوعاً لأحد ، قال قتادة : خسف به فهو يتجلجل في الأرض كل يوم قامة رجل لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة قال : وأصبح بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم إن موسى إنما دعا على قارون ليستبدّ بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وبأمواله ، فإياكم يا أمة هذا النبيّ أن تردوا ما أتاكم به من الرحمة فتهلكوا ، وإن كنتم أقرب الناس إليه فإن قارون كان من أقارب موسى عليه السلام فإن الأنبياء عليهم السلام كما أنهم لا يوجدون الهدى في قلوب العدا فكذلك لا يمنعونهم من الردى ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴿ فما ﴾ فتسبب عنه أنه ما ﴿ كان له ﴾ أي : لقارون ، وأكد النفي لما استقر في الأذهان أن الأكابر منصورون بزيادة الجار في قوله تعالى : ﴿ من فئة ﴾ أي : أعوان وأصل الفئة الجماعة من الطير كأنها سميت بذلك لكثرة رجوعها وسرعتها إلى المكان الذي ذهبت منه ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾ أي : غيره بأن يمنعوا عنه الهلاك ﴿ وما كان من المنتصرين ﴾ أي : الممتنعين منه من قولهم نصره من عدوه فانتصر إذا منعه منه فامتنع ولما خسف به واستبصر الجهال الذين هم كالبهائم لا يرون إلا المحسوسات ذكر حالهم بقوله:

﴾

وأصبح ﴾ أي : وصار ولكنه ذكره لمقابلة المساء ﴿ الذين تمنوا ﴾ أي : أرادوا إرادة عظيمة بغاية الشفقة أن يكونوا ﴿ مكانه ﴾ أي : تكون حاله ومنزلته في الدنيا لهم ﴿ بالأمس ﴾ أي : الزمان الماضي القريب وإن لم يكن يلي يومهم الذي هم فيه فالأمس قد يذكر ولا يراد به اليوم الذي قبل يومك ولكن الوقت المستقرب على طريق الاستعارة ﴿ يقولون ويكأنّ الله يبسط ﴾ أي : يوسع ﴿ الرزق لمن يشاء من عباده ﴾ بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ﴿ ويقدر ﴾ أي : يضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء منه وفتنة و"وي" اسم فعل بمعنى أعجب أي : أتى والكاف بمعنى اللام ، وهذه الكلمة والتي بعدها متصلة بإجماع المصاحف .

واختلف القراء في الوقف فالكسائي وقف على الياء قبل الكاف ، ووقف أبو عمرو على الكاف ، ووقف الباقون على النون وعلى الهاء ، وحمزة يسهل الهمزة في الوقف على أصله ، وأما الوصل فلا خلاف فيه بينهم ولما لاح لهم من واقعته أن الرزق إنما هو بيد الله اتبعوه ما دل على أنهم اعتقدوا أيضاً أن الله قادر على ما يريد من غير الرزق كما هو قادر على الرزق من قولهم ﴿ لولا أن منّ الله ﴾ أي : تفضل الملك الأعظم ﴿ علينا ﴾ بجوده ولم يعطنا ما تمنيناه من الكنوز على مثل حاله ﴿ لخسف بنا ﴾ مثل ما خسف به ﴿ ويكأنه لا

يفلح الكافرون ﴾ لنعمة الله تعالى كقارون والمكذبين لرسله وبما وعد لهم من ثواب الآخرة وقوله تعالى:

(190/592)

﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ إشارة تعظيم وتفخيم لشأنها أي : تلك الدار التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ، وتلك مبتدأ والدار صفته والخبر ﴿ نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ﴾ بالبغي ﴿ ولا فساداً ﴾ بعمل المعاصي فلم يعلق تعالى الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ، إرادتهما وميل القلوب إليهما كما قال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ (هود ،) فعلق الوعيد بالركون ، وعن علي رضي الله تعالى عنه أن الرجل يعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها ، وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال ذهبت الأماني ههنا ، وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أنه كان يرددها حتى قبض ، قال الزمخشري : ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون والفساد لقارون متعلقاً بقوله تعالى : ﴿ أن فرعون علا في الأرض ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ فيقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله تعالى ﴿ والعاقبة ﴾ أي : المحمودة ﴿ للمتقين ﴾ أي : عقاب الله تعالى بعمل طاعته كما تدبره

علي والفضيل وعمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهم ، ولما بيَّن تعالى أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علواً في الأرض ولا فساداً بل هي للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل فقال تعالى: ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ من عشرة أضعاف إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى ما لا يحيط به إلا الله تعالى ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ وهي ما نهى الله تعالى عنه ومنه إخافه المؤمنين ﴿ فلا يجزى ﴾ أي : من أيّ جاز وأظهر ما في هذا الفعل من الضمير العائد على من بقوله تعالى : ﴿ الذين عملوا السيئآت ﴾ تصويراً لحالهم وتقبيحاً لهم وتنفيراً من عملها ﴿ إلا ﴾ جزاء ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ أي : مثله وهذا من فضل الله العظيم وكرمه الواسع أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها ويجزي الحسنة بأكثر منها كما مرّ ، فإن قيل قال تعالى : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ (الإسراء :)

(191/592)

كرر ذكر الإحسان واكتفى في ذكر الإساءة بمرة واحدة فما السبب في ذلك ؟ .

أجيب : بأن هذا المقام مقام ترغيب في الدار الآخرة فكانت المبالغة في النهي عن المعصية مبالغة في الدعوة إلى الآخرة ، وأما الآية الأخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى ، فإن قيل كيف أنه تعالى لا يجزي السيئة إلا بمثلها مع أن المتكلم بكلمة الكفر

إذا مات في الحال عذب أبد الآبار ؟

أجيب : بأنه كان على عزم أنه لو عاش أبداً لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه .

﴿ إن الذي فرض ﴾ أي : أنزل ﴿ عليك القرآن ﴾ قاله أكثر المفسرين ، وقال عطاء : أوجب عليك العمل بالقرآن ، وقال أبو عليّ : فرض عليك أحكامه وفرائضه ﴿ لرادّك إلى معاد ﴾ أي : معاد ليس لغيرك من البشر وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه وتنكير المعاد لذلك ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس يعني إلى الموت ، وقال الزهري وعكرمة : إلى يوم القيامة ، وقيل إلى الجنة .

(192/592)

وروى العوفي عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعني إلى مكة وهو قول مجاهد ، وقال القتيبي : معاد الرجل بلده ينصرف ثم يعود إلى بلده وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما خرج من الغار مهاجراً إلى المدينة سار في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن ورجع إلى الطريق ونزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة اشتاق إليها فأتاه جبريل عليه السلام فقال : اشتقت إلى بلدك ومولدك قال : نعم قال : فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ أن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد ﴾ قال الرازي : وهذا أقرب لأنّ ظاهر المعاد أنه

كان فيه وفارقه وحصل له العود إليه وذلك لا يليق إلا بمكة وإن كان سائر الوجوه محتملاً لكن ذلك أقرب ، قال أهل التحقيق : وهذا آخر مما يدل على نبوته لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزاً ونزل جواباً لقول كفار مكة إنك لفي ضلال مبين ﴿ قل ﴾ أي : للمشركين ﴿ ربي أعلم من جاء بالهدى ﴾ وما يستحقه من الثواب في المعاد يعني نفسه ﴿ ومن هو في ضلال مبين ﴾ يعنيهم وما يستحقونه من العذاب في معادهم فهو الجائي بالهدى وهم في الضلال ، تنبيه : من جاء منصوب بمضمر أي : يعلم أو بأعلم أن جعلناها بمعنى عالم وأعملناها إعماله .

(193/592)

﴿ وما كنت ترجو ﴾ أي : في سالف الدهر بحال من الأحوال ﴿ أن يلقى ﴾ أي : ينزل على وجه لم تقدر على رده ﴿ إليك الكتاب ﴾ أي : يوحى إليك القرآن ، قال البيضاوي أي : سيردك إلى معاد كما ألقى إليك الكتاب وما كنت ترجوه وهو ظاهر على أن المراد بالمعاد مكة وقوله تعالى : ﴿ إلا رحمة ﴾ استثناء منقطع أي : لكن ألقى إليك الكتاب رحمة ﴿ من ربك ﴾ أي : فأعطاك القرآن ، وقيل : متصل قال الزمخشري : هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقي إليك الكتاب إلا رحمة فيكون استثناء من الأحوال أو

من المفعول له ﴿ فلا تكونن ظهيراً ﴾ أي : معيناً ﴿ للكافرين ﴾ على دينهم الذي دعوك إليه ، قال مقاتل : وذلك حين دعي إلى دين آبائه ، فذكره الله تعالى نعمه ونهاه عن مظاهرتهم على ما هم عليه .

﴿ ولا يصدنك عن آيات الله ﴾ أي : قراءتها والعمل بها ﴿ بعد إذ نزلت إليك ﴾ أي : لا ترجع إليهم في ذلك ﴿ وادع ﴾ أي : أوجد الدعاء ﴿ إلى ربك ﴾ أي : إلى عبادته وتوحيده ﴿ ولا تكونن من المشكرين ﴾ أي : بإعانتهم ، ولم يؤثر الجازم في الفعل لبنائه بخلافه في يصدنك فإنه حذف منه نون الرفع إذ أصله يصدوننك حذفت نون الرفع للجازم ثم حذفت الواو لالتقاء الساكنين .

﴿ ولا تدع ﴾ أي : تعبد ﴿ مع الله ﴾ أي : الجامع لجميع صفات الكمال ﴿ إلهاً آخر ﴾ فإن قيل : هذا وما قبله لا يقع منه صلى الله عليه وسلم فما فائدة ذلك النهي ؟

أجيب : بأنه ذكر للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم أو أن الخطاب وإن كان معه لكن المراد غيره كما في قوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ (الزمر)

ثم علل ذلك بقوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي : لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع إلا هو كقوله تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ (المزمل) .

فلا يجوز اتخاذ إله سواه ، ثم علل وحدانيته بقوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أي : ذاته فإنّ الوجه يعبر به عن الذات ، قال أبو العالية : إلا ما أريد به وجهه ، وقيل : إلا ملكه ، واختلفوا في قوله تعالى : ﴿ هالك ﴾ فمن الناس من فسر الهلاك بإخراجه عن كونه منتفعاً به بالإماتة أو بتفريق الأجزاء وإن كانت أجزاؤه باقية فإنه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه بل خروجه عن كونه منتفعاً به ، ومنهم من قال : معنى كونه هالكاً كونه قابلاً للهلاك في ذاته فإن كل ما عداه تعالى ممكن الوجود قابل للعدم فكان قابلاً للهلاك فأطلق عليه اسم الهالك نظراً إلى هذا الوجه وعلى هذا يحمل قول النسفي في بحر الكلام سبعة لا تفنى : العرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار بأهلهما من ملائكة العذاب والحور العين والأرواح ﴿ له الحكم ﴾ أي : القضاء النافذ في الخلق ﴿ وإليه ﴾ وحده ﴿ ترجعون ﴾ أي : في جميع أحوالكم في الدنيا وبالنشور من القبور للجزاء في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم ، وما رواه البيضاوي تبعاً للزمخشريّ من قوله صلى الله عليه وسلم «من قرأ سورة طسم القصص كان له من الأجر بعدد من صدّق بموسى وكذب ولم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادقاً» ، حديث موضوع. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 5 صـ 169 . 179 ﴾

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى ﴾

أي : من شاكلتهم في الكفر والطغيان . وقوم موسى ، جماعته الذين أرسل إليهم ، وهم القبط وطاغيتهم فرعون : ﴿ فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بالكبر والاستطالة عليهم لما غلب عليه الحرص ومحبة الدنيا ، لغرور وتعززه برؤية زينة نفسه : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ أي : من الأموال المدخرة : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ ﴾ أي : مفاتيح صناديقه . على حذف مضاف . أو الإضافة لأدنى ملابسة . وقيل خزائنه : ﴿ لَتَنُوءُ ﴾ أي : تثقيل : ﴿ بِالْعُصْبَةِ ﴾ أي : الجماعة الكثيرة من الرجال أو البغال : ﴿ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ ﴾ أي : بزخارف الدنيا فرحاً يشغلك عن الشكر فيها والقيام بحقها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ أي : هذا الفرح ، لما فيه من إيثارها عن الآخرة ، والرضا بها عنها ، والإخلاد إليها . وذلك أصل كل شر ومبعث كل فساد .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ

إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [77 - 78] .

(196/592)

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ﴾ أي : اطلب من الغني الذي تفضل الله به عليك ، بعد الفاقة : ﴿ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾ أي : بأن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب . وتجعله زادك إلى الآخرة : ﴿ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ وهو أن تأخذ منه ما يصلحك ويرفهك : ﴿ وَأَحْسِنْ ﴾ أي : إلى الناس . أو افعل الإحسان من وجوهه المعروفة : ﴿ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : بهذا المال الذي جعله سبب صلاحها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ أي : بطرق التجارة أو المكاسب : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ ﴾ أي : مما سمع بالتواتر : ﴿ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ أي : الكثيرة ، بحيث صارت سنة له : ﴿ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً ﴾ أي : بالأموال والأتباع : ﴿ وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي : لا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤال ، ليعتذروا عنها . بل متى حق عليها القول بفسقهم ،

أهلكهم بغتة بلا معاتبة وطلب عذر . ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بذلك ، ولا بنصيحة قومه ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

(197/592)

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [79 - 82] .

(198/592)

﴿ فَخَرَجَ ﴾ أي : قارون باغياً : ﴿ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ أي : مُغْتَرّاً بالنظر فيها : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أي : جرياً على سنن الجبلة البشرية ، من الرغبة في السعة واليسار : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أي : مما تتمنونه : ﴿ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا ﴾ أي : هذه الكلمة التي فاه بها الذين أوتوا العلم . أو الجنة . أو السيرة والطريقة ، وهي الإيمان والعمل الصالح : ﴿ إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ أي : على الطاعات عن الشهوات ، وعلى زمام النفس أن تجري في أعقاب المزخرفات . وويلك في الأصل دعاء بالهلاك . والمراد به هنا الزجر عن هذا التمني ، مجازاً . وهو منصوب على المصدرية : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ﴾ أي : المشتملة على أمواله : ﴿ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : بدفع العذاب عنه : ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ أي : بقوة نفسه وما له : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : من شقيّ وسعيد : ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ أي : يقبض . فلا دلالة في البسط على السعادة . ولا في القبض على الشقاوة . بل يفعل سبحانه كل واحد من البسط والقَدْر بمحض مشيئته ، لا لكرامة توجب البسط ، ولا لهوان يقتضي القبض : ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أي : بعدم إيتائه متمنانا : ﴿ لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أي : كما خسف به : ﴿ وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ أي : لنعمة الله في صرفها في غير سبيلها . أو المكذبون برسله اغتراراً بزخارفهم .

فائدة :

في ويكأن مذاهب :

(199/592)

الأول : أن وي كلمة برأسها . وهي اسم فعل ، معناها أعجب . أي : أنا . والكاف للتعليل . وأن وما في حيزها مجرورة بها . أي : أعجب لأن الله يبسط الرزق الخ . وقياس هذا القول أن يوقف على وي وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائيّ .

الثاني : أنه مركب من وي للتعجب وكأن للتشبيه . والمعنى : ما أشبه الأمر أن الله يبسط . أي : ما أشبه أمر الدنيا والناس مطلقاً إلى آخرٍ ، أمرَ قارون وما شوهد من قصته . والأمر مأخوذ من الضمير . فإنه للشأن . والمراد من تشبيه الحال بهذه الحال ، أنه لتحققه وشهرته ، يصلح أن يشبه به كل شيء . كما أشار إليه في الكشف .

الثالث : قال بعضهم : كأن هنا للتشبيه . إلا أنه ذهب منها معناه . وصارت للخبر واليقين . وهذا أيضاً يناسبه الوقف على وي .

الرابع : زعم الهمداني في " الفرائد " أن مذهب سيبويه والخليل أن وي للتندم . وكأنّ للتعجب . والمعنى : ندموا متعجبين في أن الله يبسط الخ .

قال الشهاب : وكون كأن للتعجب ، لم يعهد .

الخامس : ذهب الكوفيون إلى أنه مركب من ويك بمعنى ويلك فخفف بحذف اللام .

والعامل في أن اعلم ، المقدر . والكاف على هذا ضمير في محل جرّ . وهذا يناسب الوقف على الكاف . وقد فعله أبو عَمْرو .

السادس : أن ويك كلمة برأسها . والكاف حرف خطاب . ويقرب هذا مما قبله . قال أبو البقاء : وهو ضعيف لوجهين : أحدهما أن معنى الخطاب هنا بعيد . والثاني : أن تقدير وي اعلم ، لا نظير له ، وهو غير سائغ في كل موضع . انتهى .

السابع : أن ويكأن كلها كلمة مستقلة بسيطة . ومعناها ألم تر . وربما نقل ذلك عن ابن عباس . ونقل الفرّاء والكسائيّ أنها بمعنى : أما ترى إلى صنع الله , وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى : رحمة لك في لغة حمير . ولم يرسم في القرآن إلا ويكأن وويكأنه متصلة في الموضعين . فعامة القراء اتبعوا الرسم . والكسائيّ وقف على وي وأبو عَمْرو على ويك .

(200/592)

وهذا ما يستفاد من حواشي القاضي والسمين . وعندي أنها مركبة من وي للتعجب وكأن التي للتحقيق وهي أحد معانيها المعروفة . والوقف على وي . ولا يشكل على ذلك

كتابتها في المصاحف متصلة ، لأن الكتابة – كما قال ابن كثير – أمر وضعيّ اصطلاحيّ ، والمرجع إلى اللفظ العربي .

وقد اتفق اللغويون على أن وي كلمة تعجب . يقال ويك ووي لزيد , وتدخل على كأن المخففة والمشددة ، ومن شواهد الأولى قول الشاعر :

~سَالَتَانِي الطلاقَ . أَنْ رَأَتَانِي قَلَّ مَالِي . قد جئتماني بنُكْرِ

~ويْ كأنْ من يكُنْ له نَشَبٌ يُحْ بَبْ ومن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ

وهذا البيت مما يدل على ما استظهرته ، بلهَ الاستعمال إلى هذه الأجيال .

قال ابن كثير : وقد ذكر ههنا إسرائيليات ، أضربنا عنها صفحاً . ونحن تأسينا به ، بل فقناه في الإضراب عن كثير من مرويّه ، الموقوف والضعيف الذي سوّدت به الصحف .

ثم أشار تعالى إلى مقابل حال قارون ، من حال خلص عباده ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [83 – 84] .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : غلبة وتسلطاً بسوء وتكبّر : ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ أي : بظلم وعدوان وصدّ عن سبيل الله تعالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ

﴿ أي : النهاية الحميدة : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : الذين يتقون ما لا يرضاه تعالى من الأقوال والأفعال .

(201/592)

قال الزمخشري ، قدس الله روحه : لم يعلق الموعد بترك العلوّ والفساد . ولكن بترك إرادتهما ، وميل القلوب إليهما . كما قال : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [هود : 113] ، فعلق الوعيد بالركون . وعن عليّ رضي الله عنه : إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه . فيدخل تحتها .

وعن الفضيل أنه قرأها ثم قال : ذهبت الأماني هاهنا . وعن عُمَر بن عبد العزيز ، أنه كان يرددها حتى قبض . ومن الطُّمَّاع من يجعل العلوّ لفرعون ، والفساد لقارون ، متعلقاً بقوله : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [4] ، ﴿ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [77] ، ويقول : من لم يكن مثل فرعون وقارون ، فله تلك الدار الآخرة . ولا يتدبر قوله : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ كما تدبره عليّ والفضيل وعمر رضي الله عنهم ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ معناه : فلا يجزون إلا . . إلخ . فوضع فيه الموصول والظاهر ، موضع الضمير ، لتهجين

حالهم بتكرير إسناد السيئة إليهم ، والزيادة تبغيض السيئة إلى قلوب السامعين [في المطبوع : قولب السامين] . ومعنى قوله : ﴿ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : مثله . وهذا من فضله العظيم وكرمه الواسع ، أن لا يجزي السيئة إلا بمثلها . ويجزي الحسنة بعشر أمثالها وسبعمائة . وهو معنى قوله : ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ كذا في الكشاف .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ [85 - 86] .

(202/592)

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ أي : أوجب عليك تلاوته على الناس ، وتبليغه إليهم ، وصدعهم به : ﴿ لَرَادُّكَ ﴾ أي : بعد الموت : ﴿ إِلَى مَعَادٍ ﴾ أي : مرجع عظيم . وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه . فتنوينه للتعظيم ، ووجهه - كما في " العناية " - أن المعاد صار كالحقيقة في المحشر . لأنه ابتداء العود إلى الحياة ، ورده على ما كان عليه فجعل معاده عظيماً لعظمة مقامه فيه .

وقال ابن كثير : المعاد هو يوم القيامة . يسأله عما استرعاه من أعباء النبوّة . كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف : 6] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة : 109] , وقال : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر : 69] وعن ابن عباس روايات : إلى يوم القيامة . إلى الموت . إلى الجنة أخرجت عنه من طرق . كما أسنده ابن كثير .

والذي رواه البخاري والنسائي وابن جرير عن ابن عباس قال : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها . وعن الضحاك قال : لما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم من مكة فبلغ الجحفة ، اشتاق إلى مكة . فنزلت الآية .

قال ابن كثير : وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية ، وإن كان مجموع السورة مكيّاً ، والله أعلم .

(203/592)

ثم قال : ووجه الجمع بين هذه الأقوال ، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح ، الذي هو عند ابن عباس على اقتراب أجل النبيّ صلى الله عليه وسلم . كما فسر ابن عباس سورة : إذا جاء نصر الله والفتح , أنه أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم

نعي إليه ، وكان ذلك بحضرة عُمَر بن الخطاب ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذي تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله تعالى : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ بالموت . وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت . وتارة بالجنة التي هي جزاؤه على أدائه رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين الجن والإنس . ولأنه أكمل خلق الله على الإطلاق . انتهى

.

﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ يعني نفسه الكريمة . أي : بما يستحقه من المثوبة : ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ يعني المشركين . أي : بما يستحقونه من العذاب . والجملة تقرير للوعيد السابق : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ ﴾ أي : ما كنت تظن ، قبل إنزال الوحي إليك ، أن الوحي ينزل عليك : ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي : ولكن لرحمة من ربك ألقي إليك : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي : معيناً لهم . ولكن نابذهم وخالفهم . وحكى الكرماني في " الغرائب " أن معناه : فلا تكن بين ظهرانيهم ، وأنه أمر بالهجرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [87 - 88] .

﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ أي : عن تبليغها بعد إنزالها ، والأمر بالصدع بها لضيق صدرك من مكرهم . فإن الله معك ، ومُعْلٍ كلمتك ومؤيد دينك . ولذا قال : ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أي : إلى عبادته وحده لا شريك له : ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ﴾ .

قال القاضي : هذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين من مساعدته لهم . أي : لأنه لا يتصور منه ذلك حتى ينهى عنه . فكأنه لما نهاه عن مظاهرتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك مبغوض لي كالشرك . فلا تكن ممن يفعله . أو المراد نهي أمته ، وإن كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم . كذا في " العناية " .

﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ أي : إياه والوجه يعبر به عن الذات كما قال : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : 26 - 27] ، وفي قوله تعالى : ﴿ هَالِكٌ ﴾ وجوه : حمله على المستقبل ، أو هو عرضة للهلاك والعدم ، أو هالك في حد ذاته ، لأن وجوده ليس ذاتياً بل لاستناده إلى واجب الوجود ، فهو بالقوة وبالذات معدوم حالاً . والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتي . لأن وجود غيره كلا

وجود . إذ هو في كل آن قابل للعدم . وعن مجاهد والثوريّ : إلا وجهه أي : ما أريد به وجهه . حكاه البخاري في " صحيحه " .

قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

~أستغفرُ الله ذنباً ، لست مُحْصِيَهُ رَبُّ العبادِ ، إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ

قال ابن كثير : وهذا القول لا ينافي القول الأول . فإن هذا إخبار عن كل الأعمال ، بأنها باطلة ، إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . انتهى .

(205/592)

وفيه بُعد وتكلف يذهب رونق النظم ، وماء الفصاحة . لا سيما وآي التنزيل يفسر بعضها بعضاً . والآية الثانية التي ذكرناها بمعنى هذه . وتلك لا تحتمل ذاك المعنى ، فكذا هذه : ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ أي : القضاء النافذ في الخلق : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 13 صـ 558.564 ﴾

(206/592)

وقال الشيخ سيد قطب :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾

مضت مطالع السورة بقصة موسى وفرعون ، وقد عرضت فيها قوة السلطان والحكم ، وكيف باءت بالبوار مع البغي والظلم ، والكفران بالله ، والبعد عن هداه . والآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم ، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر ، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق . وتقرر حقيقة القيم ، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد .

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها ؛ إنما يكتفي بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم . فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى في مصر قبل الخروج ؟ أم وقعت بعد الخروج في حياة موسى ؟ أم وقعت في بني إسرائيل من بعد موسى ؟ هناك روايات تقول : إنه كان ابن عم لموسى عليه السلام وأن الحادث وقع في زمان موسى . ويزيد بعضها فيذكر أن قارون آذى موسى ، ودبر له مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة في مقابل رشوة من المال ، فبرأ الله موسى وأذن له في قارون ، فخسفت به الأرض . .

ولسنا في حاجة إلى كل هذه الروايات ، ولا إلى تحديد الزمان والمكان . فالقصة كما وردت

في القرآن كافية لأداء الغرض منها في سياق السورة ، ولتقرير القيم والقواعد التي جاءت لتقريرها . ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد في دلالتها شيئاً ما ترك تحديدها . فلنستعرضها إذن في صورتها القرآنية ، بعيدة عن تلك الروايات التي لا طائل وراءها . .

(207/592)

﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ؛ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة . إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين . قال : إنما أوتيته على علم عندي ﴾ . .

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم بطلها ﴿ قارون ﴾ وتحدد قومه ﴿ قوم موسى ﴾ وتقرر مسلكه مع قومه ، وهو مسلك البغي ﴿ فبغى عليهم ﴾ وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء :

﴿ وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ . .

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبتها في النفوس .

لقد كان قارون من قوم موسى ، فآتاه الله مالاً كثيراً ، يصور كثرته بأنه كنوز والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول وبأن مفاتح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوياء الرجال . . من أجل هذا بغى قارون على قومه . ولا يذكر فيم كان البغي ، ليدعه مجهلاً يشمل شتى الصور . فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال .

حق الفقراء في أموال الأغنياء ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شيء منه ، فتفسد القلوب ، وتفسد الحياة . وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب .

وعلى أية حال فقد وجد من قومه من يحاول رده عن هذا البغي ، ورجعه إلى النهج القويم ، الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء ؛ وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ؛ ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال ؛ ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ؛ وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم ، ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب :

﴿ إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض . إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة .

﴿ لا تفرح ﴾ . . فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال ، والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك والاستحواذ . . لا تفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال ؛ وينسي نعمته ، وما يجب لها من الحمد والشكران . لا تفرح فرح الذي يستخفه المال ، فيشغل به قلبه ؛ ويطير له لبه ، ويتطاول به على العباد . .

﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ . . فهم يردونه بذلك إلى الله ، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال ، المتباهين ، المتطاولين بسلطانه على الناس .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ . . وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم . المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة . ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة . بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفاً ، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها .

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس ؛ وليعلموا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها ،

فتنمو الحياة وتتجدد ، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض . ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها . والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم ، وتقبل لعطاياه ، وانتفاع بها . فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى .

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان ، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة ، التي لا حرمان فيها ، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة .

(209/592)

﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ . . فهذا المال هبة من الله وإحسان . فليقابل بالإحسان فيه . إحسان التقبل وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق ، وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكران .

﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ . . الفساد بالبغي والظلم . والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة . والفساد بملء صدور الناس بالحرج والحسد والبغضاء . والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال .

﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ . . كما أنه لا يحب الفرحين .

كذلك قال له قومه : فكان رده جملة واحدة ، تحمل شتى معاني الفساد والإفساد :

﴿ قال : إنما أوتيته على علم عندي ﴾ !

إنما أوتيت هذا المال استحقاقاً على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله . فما لكم تملون عليَّ طريقة خاصة في التصرف فيه ، وتتحكمون في ملكيتي الخاصة ، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص ، واستحققته بعلمي الخاص ؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها ، ويفتنه المال ويعميه الثراء .

وهو نموذج مكرر في البشرية . فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه . ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك ، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح ، غير حاسب لله حساباً ، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه !

والإسلام يعترف بالملكية الفردية ، ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها ؛ ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه . ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهجاً معيناً للتصرف في الملكية الفردية كما يفرض منهجاً لتحصيلها وتنميتها وهو منهج متوازن متعادل ، لا يحرم الفرد ثمرة جهده ، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف ولا في إمساكه حتى التقتير ؛ ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال ، ورقابتها على طرق

تحصيله ، وطرق تنميته . وطرق إنفاقه والاستمتاع به . وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات .

(210/592)

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ، ولم يخضع لمنهجه القويم . وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم وفي بطر ذميم .

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية ، رداً على قولته الفاجرة المغرورة :

﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ .

فإن كان ذا قوة وذا مال ، فقد أهلك الله من قبله أجيالاً كانت أشد منه قوة وأكثر مالاً .

وكان عليه أن يعلم هذا . فهذا هو العلم المنجي . فليعلم . وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم . فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد !

﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ !

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة ، يتجلى فيه البغي والتطاول ، والإعراض عن النصح ، والتعالي على العظة ، والإصرار على الفساد ، والاغترار بالمال ، والبطر الذي

يقعد بالنفس عن الشكران .

ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون بزينته على قومه ، فتطير لها قلوب فريق منهم ، وتتهاوى لها نفوسهم ، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتي قارون ، ويحسون أنه أوتي حظاً عظيماً يتشهاه المحرومون .

ذلك على حين يستيقظ الإيمان في قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون ، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذين ، في ثقة وفي يقين :

﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثلما أوتي قارون . إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ .

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوي المتهافت ، ووقفت طائفة أخرى تستعلي على هذا كله بقيمة الإيمان ، والرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثواب الله . والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان :

﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا : يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون . إنه لذو حظ عظيم ﴾ . .

وفي كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدينا ، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ؛ فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته ؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه . ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى ، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى ! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه ، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع . وهم أعلى نفساً ، وأكبر قلباً من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعاً . ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد . وهؤلاء هم ﴿ الذين أوتوا العلم ﴾ . العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم :

﴿ وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ، ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ .

ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون . والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون . . الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم .

الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها . الصابرون على الحرمان مما يتشهاه الكثيرون .

وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة . درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض ، والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان .

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها ، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حداً للفتنة ، وترحم الناس الضعاف من إغرائها ، وتحطم الغرور والكبرياء تحطماً .

ويجيء المشهد الثالث حاسماً فاصلاً :

(212/592)

﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين ﴾ . .

هكذا في جملة قصيرة ، وفي لمحة خاطفة : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ فابتلعته وابتلعت داره ، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقاً .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (85) ﴾

والآن وقد انتهى القصص وانتهت التعقيبات المباشرة على ذلك القصص . الآن يتوجه

الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن خلفه القلة المسلمة التي كانت يومها بمكة . يتوجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مخرج من بلده ، مطارد من قومه ، وهو في طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد ، فقد كان بالجحفة قريباً من مكة ، قريبا من الخطر ، يتعلق قلبه وبصره ببلده الذي يحبه ، والذي يعز عليه فراقه ، لولا أن دعوته أعز عليه من بلده وموطن صباه ، ومهد ذكرياته ، ومقر أهله . يتوجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في موقفه ذاك :

﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ . .

فما هو بتاركك للمشركين ، وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة . ما هو بتاركك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك ، ويستبدون بك وبدعوتك ، ويفتنون المؤمنين من حولك . إنما فرض عليك القرآن لينصرك به في الموعد الذي قدره ، وفي الوقت الذي فرضه ؛ وإنك اليوم لمخرج منه مطارد ، ولكنك غداً منصور إليه عائد .

وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد في ذلك الظرف المكروب ، ليمضي صلى الله عليه وسلم في طريقه آمناً واثقاً ، مطمئناً إلى وعد الله الذي يعلم صدقه ، ولا يستريب لحظة فيه .

وإن وعد الله لقائم لكل السالكين في الطريق ؛ وإنه ما من أحد يؤذى في سبيل الله ، فيصبر ويستيقن إلا نصره الله في وجه الطغيان في النهاية ، وتولى عنه المعركة حين يبذل ما في وسعه ، ويخلي عاتقه ، ويؤدي واجبه .

﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ . ولقد رد موسى من قبل إلى الأرض التي خرج منها هارباً مطارداً . رده فأنقذ به المستضعفين من قومه ، ودمر به فرعون وملأه ، وكانت العاقبة للمهتدين . . فامض إذن في طريقك ، ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذي فرض عليك القرآن :

﴿ قل : ربي أعلم من جاء بالهدى ، ومن هو في ضلال مبين ﴾ . .

ودع الأمر لله يجازي المهتدين والضالين .

وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة ؛ وما كان يجول في خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقي هذه الأمانة . وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه :

﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ . .

وهو تقرير قاطع عن عدم تطلع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرسالة ؛ إنما هو اختيار الله . والله يخلق ما يشاء ويختار ، فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله ليرقاه .

وهو رحمة من الله بنبيه وبالبشرية التي اختاره لهدايتها بهذه الرسالة . رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين . ولقد كان من حوله كثيرون في العرب وفي بني إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة المنتظرة في آخر الزمان . ولكن الله وهو أعلم حيث يجعل رسالته قد اختار لها من لم يتطلّع إليها ولم يرجها ، من دون أولئك الطامعين المتطلعين ، حينما علم منه الاستعداد لتلقِّي ذلك الفيض العظيم .

ومن ثم يأمره ربه بما أنعم عليه بهذا الكتاب ألا يكون ظهيراً للكافرين ؛ ويحذره أن يصدوه عن آيات الله ؛ ويمحض له عقيدة التوحيد خالصة في وجه الشرك والمشركين .

(214/592)

﴿ فلا تكونن ظهيراً للكافرين ؛ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ؛ وادع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو . كل شيء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون ﴾ . .

إنه الإيقاع الأخير في السورة ، يفصل ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقه وما بين الكفر والشرك وطريقه . ويبين لأتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقهم إلى يوم القيامة . . الإيقاع الأخير ورسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق هجرته الفاصلة بين

عهدين متميزين من عهود التاريخ .

﴿ فلا تكونن ظهيراً للكافرين ﴾ . . فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين . وطريقاهما مختلفان ، ومنهجاهما مختلفان . أولئك حزب الله ، وهؤلاء حزب الشيطان . فعلام يتعاونان ؟ وفيم يتعاونان ؟

﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ﴾ . . فطريق الكفار دائماً أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل . وطريق المؤمنين أن يمضوا في طريقهم لا يلويهم عنها المعوقون ، ولا يصدهم عنها أعداؤهم . وبين أيديهم آيات الله ، وهم عليها مؤتمنون .

﴿ وادع إلى ربك ﴾ . . دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصبية ، ولا لأرض ولا لراية . ولا لمصلحة ولا لمغنم ، ولا لتمليق هوى ، ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعها . ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق .

﴿ ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر ﴾ يؤكد هذه القاعدة مرتين بالنهي عن الشرك والنهي عن اتخاذ إله آخر مع الله . ذلك أنها مفرق الطريق في العقيدة بين النصاعة والغموض . وعلى هذه القاعدة يقوم بناء هذه العقيدة كلها ، وآدابها وأخلاقها وتكاليفها وتشريعاتها جميعاً . وهي المحور الذي يلتف عليه كل توجيه وكل تشريع . ومن

ثم هي تذكر قبل كل توجيه وقبل كل تشريع .

ثم يمضي في التوكيد والتقرير :

(215/592)

﴿ لا إله إلا هو ﴾ . . ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ . . ﴿ له الحكم ﴾ . . ﴿ وإليه ترجعون ﴾ . .

﴿ لا إله إلا هو ﴾ . . . فلا إسلام إلا لله ، ولا عبودية إلا له ، ولا قوة إلا قوته ، ولا ملاذ إلا حماه .

«كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» . . فكل شيء زائل . وكل شيء ذاهب . المال والجاه . والسلطان والقوة . والحياة والمتاع . وهذه الأرض ومن عليها . وتلك السماوات وما فيها ومن فيها . وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله . .

كله . كله . هالك فلا يبقى إلا وجه اللّه الباقي . متفردا بالبقاء .

«لَهُ الْحُكْمُ» . . يقضي بما يشاء ويحكم كما يشاء ، لا يشركه في حكمه أحد ، ولا يرد قضاءه أحد ، ولا يقف لأمره أمر . وما يشاؤه فهو الكائن دون سواه .

«وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» . . فلا مناص من حكمه ، ولا مفر من قضائه ، ولا ملجأ دونه ولا

مهرب .

وهكذا تختم السورة التي تتجلى فيها يد القدرة سافرة ، تحرس الدعوة إلى اللّه وتحميها ، وتدمر القوى الطاغية الباغية وتمحوها . تختم بتقرير قاعدة الدعوة : وحدانية اللّه سبحانه وتفرده بالألوهية والبقاء والحكم والقضاء .

ليمضي أصحاب الدعوات في طريقهم على هدى ، وعلى ثقة ، وعلى طمأنينة ، وفي يقين . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2710 . 2716 ﴾

(216/592)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ أرايتم إن جعل الله عليكم ﴾ ليل الفراق عند استيلاء ظلمة البشرية ﴿ سرمداً ﴾ ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ نهار الوصل والتجلي ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم ﴾ نهار الوصل بطلوع شمس التجلي ﴿ سرمداً ﴾ ﴿ من إله غير الله يأتيكم بليل ﴾ سر تسكنون فيه عن وعثاء سطوة التجلي ﴿ ومن رحمته جعل لكم ﴾ ليل السر ونهار التجلي فإن العاشق لو دام في التجلي كان يستهلك وجوده ، وكان النبي

صلى الله عليه وسلم يقول " إنه ليغان على قلبي " وقال لعائشة : كلميني يا حميراء . وذلك لتخرجه من سطوات شمس التجلي إلى سر ظل البشرية ليستريح من التعب والنصب .

(217/592)

وليس هذا السر من قبيل الحجاب وإنما هو من جملة الرحمة واللطف نظيره الشمس في عالم الصورة فإنها في خط الاستواء تحرق ، وفي الآفاق الرحوية لا تؤثر ، وفي الآفاق الحملية يعتدل الحر والبرد فتكثر العمارة وتسهل ويعيش الحيوان ﴿ ونزعنا من كل أمة ﴾ من أرباب النفوس ﴿ شهيداً ﴾ هو القلب الحاضر ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ وهو حقيقة التوحيد التي لا تحصل بالفعل إلا بجذبة خطاب الحق فعلموا بتلك البراهين القاطعة أن الحق لله ﴿ إن قارون ﴾ النفس ﴿ كان من قوم موسى ﴾ القلب لأن الله تعالى جعل النفس تبعاً للقلب وجعل سعادتها في متابعة ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ المودعة في صفاتها قد أهلك من قبله من القرون كإبليس فإنه أكثر علماً وطاعة ﴿ في زينته ﴾ هي التي زين حبها للناس من النساء والبنين وغير ذلك ﴿ قال الذين يريدون الحياة الدنيا ﴾ وهم صفات النفس . ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ﴾ وهو صفات الروح ﴿ فخسفنا به ﴾ الأرض دركات السفل ﴿ وبداره ﴾ وهي قالبه أرض جهنم يتغلغل فيها إلى يوم القيامة بل إلى الأبد

﴿ نجعلها للذين لا يريدون ﴾ كما قال في بعض الكتب المنزلة : عبدي أنا ملك حي لا أموت أبداً ، أطعني أجعلك ملكاً حياً لا تموت أبداً . عبدي أنا ملك إذا قلت لشيء كن فيكون ، أطعني أجعلك ملكاً إذا قلت لشيء كن فيكون . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " عنوان كتاب الله إلى عباده المؤمنين من الملك الحي الذي لا يموت إلى الملك الحي الذي لا يموت " ﴿ إن الذي فرض ﴾ أي أوجب عليك التخلق بخلق القرآن ﴿ لرادّك إلى معاد ﴾ هو مقام الفناء في الله والبقاء به ﴿ قل ربي أعلم من جاء بالهدى ﴾ وهو بذل الوجود المجازي في الوجود الحقيقي ﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ أي إلا أنا ألقينا الكتاب إليك إلقاء الإكسير على النحاس فتخلقت بخلق القرآن والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 365. 366 ﴾

(218/592)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

[سورة القصص (28) : آية 51]

وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (لهم) متعلّق بـ (وصّلنا) . . .

جملة : " قد وجملة القسم وصّلنا . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، المقدّر لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لعلّهم يتذكّرون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يتذكّرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة القصص (28) : الآيات 52 إلى 55]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (54) وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (55)

الإعراب :

(الذين) موصول مبتدأ في محلّ رفع (من قبله) متعلّق بـ (آتيناهم) ، (هم) ضمير منفصل مبتدأ ثان في محل رفع (به) متعلّق بـ (يؤمنون) وهي خبرهم .

جملة : " الذين آتيناهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آتيناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هم به يؤمنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " يؤمنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(53) (الواو) عاطفة ، ونائب الفاعل لفعل (يتلى) ضمير مستتر تقديره هو أي القرآن (عليهم) متعلّق بـ (يتلى) (به) متعلّق بـ (آمنّا) ، (من ربنّا) متعلّق بمحذوف خبر ثان لـ (إنّ) " 1 " ، (إنّا) حرف مشبّه بالفعل واسمه (من قبله) متعلّق بالخبر مسلمين .

---

(1) أو متعلّق بحال من الحقّ ، والعامل فيه معنى التوكيد في الحرف المشبّه بالفعل .

[. . . . .]

(219/592)

وجملة : " يتلى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " آمنّا به . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّه الحقّ من ربّنا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ – أو تعليليّة – .

وجملة : " إنّا كنّا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول – أو تعليليّة – .

وجملة : " كنّا من قبله مسلمين " في محلّ رفع خبر إنّ .

(54) والواو في (يؤتون) نائب الفاعل (مرّتين) مفعول مطلق نائب عن المصدر ، وعلامة النصب الياء (ما) حرف مصدريّ ، والباء سببيّة . . .

والمصدر المؤوّل (ما صبروا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يؤتون) .

(بالحسنة) متعلّق بـ (يدرءون) ، (ممّا) متعلّق بـ (ينفقون) ، – (ما) حرف مصدريّ ، أو اسم موصول والعائد محذوف – .

وجملة : " أولئك يؤتون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يؤتون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " صبروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يدرءون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يؤتون .

وجملة : " رزقناهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة : " ينفقون " في محلّ رفع معطوف على جملة يؤتون .

(55) (الواو) عاطفة (عنه) متعلّق بـ (أعرضوا) ، (لنا) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (أعمالنا) ومثله (لكم) خبر المبتدأ أعمالكم (سلام) مبتدأ

مرفوع " 1 " خبره الجارّ (عليكم) ، (لا) نافية . . .

وجملة : " سمعوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " أعرضوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " لنا أعمالنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لكم أعمالكم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " سلام عليكم . . . " لا محلّ لها استئناف في حيزّ القول .

وجملة : " لا نبتغي . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

[سورة القصص (28) : آية 56]

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

الإعراب :

(لا) نافية (الواو) عاطفة في الموضعين (بالمهتدين) متعلّق بأعلم بمعنى عالم .

جملة : " إنّك لا تهدي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تهدي . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " أحببت . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " لكنّ اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " يهدي . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

---

(1) جاء المبتدأ نكرة لأنه دلّ على عموم في المدح .

الجدول ج 20 ، ص : 275

وجملة : " هو أعلم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يهدي " 1 " .

الفوائد

- إنك لا تهدي من أحببت .

يبدو أن ثمة إجماعا من المسلمين ، على أن هذه الآية نزلت بـ " أبي طالب . . . "

عند ما حضرته الوفاة ،

فقد قال له رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : يا عم ، قل لا إله إلا اللّه ، كلمة أحاجّ بها لك

عند اللّه . فقال : يا ابن أخي ، قد علمت إنك لصادق ، ولكن أكره أن يقال : جزع عند

الموت ، ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة لقلتها وأقررت بها عينك عند

الفراق ، لما أرى من شدّة وجدك ونصيحتك ، وأنشد :

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف .

ولقد جرت هذه الآية مجرى المثل ، يتداولها الناس في كل موقف مشابه ، كما جرى الكثير من الآيات مجرى المثل . فتأمّل . . .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من فاعل يهدي بعد واو الحال .

(221/592)

[سورة القصص (28) : آية 57]

وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (نتّبع) مضارع مجزوم ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (معك) ظرف منصوب متعلّق بـ (نتبع) ، (من أرضنا) متعلّق بـ (نتخطّف) المبني للمجهول (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الواو) عاطفة (لهم) متعلّق بـ (نمكّن) ، (إليه) متعلّق بـ (يجبى) ، (ثمرات) نائب

الفاعل لفعل يجبى (رزقا) حال منصوبة " 1 " من ثمرات وهو بمعنى المرزوق به (من لدنّا) متعلق بمحذوف نعت لـ (رزقا) ، (الواو) عاطفة (لا) نافية . . .

جملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إن نتّبع . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نتخطّف . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " لم نمكّن . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : أتركناهم ولم نمكّن لهم . . .

وجملة : " يجبى إليه ثمرات . . . " في محلّ نصب نعت ثان لـ (حرما) " 2 " .

وجملة : " لكنّ أكثرهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئناف المقدّر .

وجملة : " لا يعلمون . . . " في محلّ رفع خبر لكنّ .

الصرف :

(حرما) ، إمّا مصدر سماعيّ لفعل حرم يحرم باب فرح بمعنى امتنع عليهم ، أو اسم لما يدافع عنه وما لا يحل انتهاكه . . . وزنه فعل بفتحتين ، وقصد به مكّة وحرمها .

البلاغة

الاسناد المجازي : في قوله تعالى أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر – وهو مصدر – حيث يلتقي مع فعله في المعنى ، فـ (يجبى) بمعنى يرزقون فيه رزقا ، أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي يرزقون رزقا . . . أو

مفعول لأجله لفعل مقدّر أي نسوقه رزقا وفيه ضعف .

(2) أو حال من (حرما) لأنه وصف .

(222/592)

لأن الآمن حقيقة ساكنوه . ومثله " وكم أهلكنا من قرية . . . " المراد أهلها .

[سورة القصص (28) : الآيات 58 إلى 59]

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (58) وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (59)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (كم) خبريّة ، كناية عن العدد مبنيّ على السكون في محلّ نصب مفعول به مقدّم (من قرية) تمييز كم (معيشتها) مفعول به منصوب عامله بطرت بتضمينه معنى خسرت " 1 " ، (الفاء) عاطفة (مساكنهم) خبر المبتدأ تلك مرفوع (من بعدهم) متعلّق بـ (تسكن) المنفيّ (إلّا) أداة استثناء (قليلا) منصوب على الاستثناء " 2 " (الواو) عاطفة (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع توكيد للضمير المتّصل نا . . .

جملة : " أهلكنا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بطرت . . . " في محلّ جرّ نعت لقرية .

وجملة : " تلك مساكنهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أهلكنا .

وجملة : " لم تسكن من بعدهم . . . " في محلّ نصب حال من مساكنهم ، والعامل فيها الإشارة " 3 " .

---

(1) يجوز أن ينتصب على الظرف بحذف مضاف أي بطرت أيّام معيشتها أو منصوب على نزع الخافض أي بطرت في معيشتها .

(2) المستثنى منه مقدّر ، فقد يكون زمانا وقد يكون مكانا وقد يكون مصدرا ، و(قليلا) نائب عن الزمان أو المكان أو المصدر المستثنى أي لم تسكن إلّا مدّة أو مكانا أو سكانا إلّا زمانا أو مكانا أو سكنا قليلا .

(3) أو هي خبر ثان للإشارة تلك . . . أو هي استئناف بيانيّ فلا محلّ لها .

(223/592)

وجملة : " كنّا . . . الوارثين . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لم تسكن بتقدير الرابط أي الوارثين لها منهم - أو في محلّ رفع ، أو لا محلّ لها - (59) (الواو) عاطفة (ما)

نافية (يبعث) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (في أمّها) متعلّق بـ (يبعث) (عليهم) متعلّق بـ (يتلو) . . .

والمصدر المؤوّل (أن يبعث . . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق باسم الفاعل مهلك .

(الواو) عاطفة (ما) مثل الأولى (إلّا) أداة استثناء (الواو) واو الحال .

وجملة : " ما كان ربّك مهلك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة : " يبعث . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يتلو . . . " في محلّ نصب نعت لـ (رسولا) .

وجملة : " ما كنّا مهلكي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان ربّك . .

وجملة : " أهلها ظالمون . . . " في محلّ نصب حال وهو مستثنى من أعمّ الأحوال .

أي ما كنّا مهلكي القرى في كلّ حال من الأحوال إلّا في حال كونهم ظالمين .

الفوائد

- الاسم المقصور والاسم المنقوص :

أ- إعرابهما :

تقدر الحركات الثلاث على الألف في الاسم المقصور ، ويقال " للتعذر . . . " أي يتعذر إظهارها . وتقدر الضمة والكسرة على ياء المنقوص ، وتظهر الفتحة .

ب - إذا نوّن المقصور ، يلفظ التنوين على آخره ، وتحذف الألف المقصورة لفظا وتبقى

رسما . وإذا نوّن المنقوص حذفت ياؤه لفظا ورسما في حالتي الرفع والجر . وتظهر عليها الحركة والتنوين في حالة النصب معا ، ويزاد في آخره ألف توطنه للتنوين .

(224/592)

ج - يختم المنقوص بياء ساكنة باستطراد . ويختم المقصور بألف ساكنة تكتب ألفا إذا كان أصلها واو ، أو ترسم ياء ساكنة إذا كانت منقلبة عن ياء ، أي أن أصل فعلها ياتي .

د - ولمعرفة أصل الفعل الذي أخذ منه الاسم المقصور أو المنقوص ، هل هو واوي أم يائي ، نلجأ إلى الحالات التالية :

أولا : نصل الفعل الماضي بتاء الفاعل المتحركة ، نحو : غزا ، غزوت .

ثانيا : نأخذ منه مضارعه ، نحو رمى يرمي .

ثالثا : نشتق منه المصدر ، نحو سعى سعيا .

رابعا : نثنيه أو نجمعه ، نحو : عصا عصوان إلخ .

[سورة القصص (28) : آية 60]

وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ (60)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدّم ، و(التاء) في (أوتيتم) نائب الفاعل ، والفعل في محلّ جزم فعل الشرط (من شيء) تمييز ما (الفاء) رابطة لجواب الشرط (متاع) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (زينتها) معطوف على متاع بالواو مرفوع مثله (الواو) عاطفة (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ خبره خير (عند) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف صلة ما (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الفاء) عاطفة (لا) نافية .

جملة : " أوتيتم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " متاع الحياة . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ما عند اللّه خير . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لا تعقلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أغفلتم فلا تعقلون .

الفوائد

عند :

ظرف للمكان وظرف للزمان . تقول : عند الحائط وعند الصباح . وهو ملازم للنصب على الظرفية . ويجر بمن فيقال : من عنده . وقول العامة ذهبت إلى عنده لحن . و " عند

. . . " تلزم الإضافة فلا تستعمل مفردا أي بلا إضافة .

[سورة القصص (28) : الآيات 61 إلى 62]

(225/592)

أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) استئنافيّة (من) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ

(وعدا) مفعول مطلق منصوب (الفاء) عاطفة (كمن) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ من

(متاع) مفعول مطلق منصوب (ثمّ) حرف عطف (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق

بالمحضرين

(من المحضرين) خبر المبتدأ هو .

جملة : " من وعدناه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " وعدناه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " هو لاقيه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " متّعناه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

وجملة : " هو . . . من المحضرين . " لا محلّ لها معطوفة على جملة متّعناه .

(62) (الواو) عاطفة (يوم) مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر ، وفاعل (يناديهم) ضمير تقديره هو أي اللّه ، (الفاء) عاطفة (أين) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب ظرف مكان متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ (شركائي) (الذين) اسم موصول في محلّ رفع نعت لشركائي ، ومفعولا (تزعمون) محذوفان دلّ عليهما الكلام المتقدّم أي تزعمونهم شركاء .

وجملة : " (اذكر) يوم . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يناديهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يناديهم .

وجملة : " أين شركائي . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كنتم تزعمون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " تزعمون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(61) لاقيه : اسم فاعل من (لقي) الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

الفوائد

- أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

تزعمون : الفعل (زعم) ينصب مفعولين ولكنهما حذفا لمعرفتهما من سياق الكلام ، أي تزعمونهم أربابا . ويطرّد جواز حذف المفعولين لسائر الأفعال التي تنصب مفعولين إذا تحقق هذا الشرط ، وهو معرفتهما من سياق الكلام .

قال الكميت يمدح آل البيت :

بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا عليّ وتحسب

أي تحسب حبهم عارا عليّ . . . وقد دلّ عليهما ما سبقهما من كلام .

[سورة القصص (28) : آية 63]

قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (63)

الإعراب :

(عليهم) متعلّق بـ (حقّ) ، (ربّنا) منادى مضاف منصوب (الذين) موصول في محلّ رفع نعت للإشارة هؤلاء " 1 " ، (ما) حرف مصدريّ .

والمصدر المؤوّل (ما غوينا . . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بـ (أغويناهم) .

(إليك) متعلّق بـ (تبرّأنا) بتضمينه معنى لجأنا (ما) نافية (إيّانا) ضمير منفصل في محلّ نصب

مفعول به مقدّم .

جملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حقّ عليهم القول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

---

(1) وجعله أبو عليّ الفارسيّ خبرا للمبتدأ هؤلاء ، وجملة أغوينا هم استئنافيّة ، والتوجيه الأول اختيار الزمخشريّ وتبعه أبو حيّان في البحر .

وجملة : " ربّنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " هؤلاء الذين . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " أغوينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أغويناهم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هؤلاء) .

وجملة : " غوينا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تبرأنا . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

وجملة : " ما كانوا . . . يعبدون . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يعبدون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة القصص (28) : آية 64]

وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64)

الإعراب :

(الواو) عاطفة وكذلك (الفاء) في الموضعين (لهم) متعلّق بـ (يستجيبوا) ، (لو) حرف شرط غير جازم.

والمصدر المؤوّل (أنّهم كانوا . . .) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت .

وجملة : " قيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الذين " 1 " .

وجملة : " ادعوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " .

وجملة : " دعوهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قيل .

وجملة : " لم يستجيبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة دعوهم .

وجملة : " رأوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لم يستجيبوا .

---

(1) في الآية السابقة (63) .

(2) هي في الأصل مقول القول .

وجملة : " (ثبت) اهتداؤهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . وجواب الشرط محذوف تقديره ما رأوا العذاب في الآخرة .

وجملة : " كانوا يهتدون . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يهتدون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة القصص (28) : الآيات 65 إلى 66]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (66)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (يوم يناديهم فيقول) مرّ إعرابها " 1 " ، (ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب على نزع الخافض عامله أجبتم " 2 " .

جملة : " (اذكر) يوم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يناديهم . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يناديهم .

وجملة : " أجبتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة .

(2) أو (ما) اسم استفهام مبتدأ (ذا) اسم موصول خبر ، وجملة أجبتم صلة الموصول ، وجملة ماذا في محلّ نصب مقول القول والعائد محذوف أي أجبتم المرسلين به .

(230/592)

---

(66) (الفاء) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (عميت) بتضمينه معنى خفيت (يومئذ) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل عميت ، والتنوين فيه عوض من محذوف (الفاء) عاطفة (لا) نافية .

وجملة : " عميت عليهم الأنباء . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (اذكر) يوم .

وجملة : " هم لا يتساءلون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عميت .

وجملة : " لا يتساءلون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

البلاغة

الاستعارة التصريحية التبعية : في قوله تعالى فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ .

أصله فعموا عن الأنباء ، أي لم يهتدوا إليها ، حيث أستعير العمى لعدم الاهتداء ، ثم قلب للمبالغة ، فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم ، وضمن العمى معنى الخفاء ، فعدي بعلى ، ولولاه لتعدى بعن . ولم يتعلق بالأنباء ، لأنها مسموعة لا مبصرة وفي هذا القلب دلالة على أن ما يحضر الذهن يفيض عليه ويصل إليه من الخارج . ويجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية تخيلية ، أي فصارت الأنباء كالعمى عليهم لا تهتدي إليهم .

[سورة القصص (28) : آية 67]

فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (صالحا) مفعول به منصوب (الفاء) رابطة لجواب أمّا (عسى) فعل ماض تام للتوقّع أو للتحقيق (أن) حرف مصدريّ ونصب .

والمصدر المؤوّل (أن يكون) في محلّ رفع فاعل عسى .

(من المفلحين) متعلّق بمحذوف خبر يكون .

جملة : " من تاب . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أعرب (من) اسم موصول حتّى لا تجتمع أداتان من أدوات الشرط معا .

وجملة : " تاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " عمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " عسى أن يكون . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة : " يكون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

[سورة القصص (28) : الآيات 68 إلى 70]

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به و(ما) الثانية نافية (لهم) متعلّق بخبر كان (سبحان) مفعول مطلق لفعل محذوف منصوب (ما) الثالثة مصدريّة " 1 " .

والمصدر المؤوّل (ما يشركون) في محلّ جرّ متعلّق بـ (تعالى) .

جملة : " ربّك يخلق . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يخلق ما يشاء . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ربّك) .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يختار . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يخلق .

وجملة : " ما كان لهم الخيرة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (نسبّح) سبحان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تعالى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (نسبّح) .

وجملة : " يشركون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) . . .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ والعائد محذوف . [. . . . .]

---

(69) (الواو) عاطفة (ربّك يعلم ما تكن صدورهم) مثل ربّك يخلق ما يشاء (ما يعلنون) معطوفة على (ما تكنّ . . .)

وجملة : " ربّك يعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ربّك يخلق .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ربّك) .

وجملة : " تكنّ صدورهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة : " يعلنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

(70) (الواو) عاطفة (إلّا) أداة استثناء (هو) ضمير منفصل بدل من الضمير المستتر في خبر لا المحذوف (له) متعلّق بخبر المبتدأ المؤخّر الحمد (في الأولى) متعلّق بالحمد (الواو) عاطفة (له الحكم) مثل له الحمد (إليه) متعلّق بـ (ترجعون) ، و(الواو) فيه نائب الفاعل .

وجملة : " هو اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ربّك يعلم .

وجملة : " لا إله إلّا هو . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هو) " 1 " .

وجملة : " له الحمد . . . " في محلّ رفع خبر ثالث .

وجملة : " له الحكم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة له الحمد .

وجملة : " ترجعون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة له الحمد .

الصرف :

(68) الخيرة : اسم مصدر لفعل تخيّر فهو بمعنى التخيّر أو لفعل اختار على معنى الاختيار . . . وفي المصباح : الخيرة بفتح الياء بمعنى الخيار ، والخيار هو الاختيار ، ويقال هي اسم من تخيّرت مثل الطيرة من تطيّرت ، وزنه فعلة بكسر ففتح .

---

(1) أو لا محلّ لها استئناف بيانيّ ، وكذلك له الحمد .

البلاغة

الإدماج: في قوله تعالى لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ.

وهذا الفن هو أن يدمج المتكلم إما غرضا في غرض، أو بديعا في بديع، بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين، أو أحد البديعين، والآخر مدمج في الغرض الذي هو موجود في الكلام، فإن هذه الآية أدمجت فيها المبالغة في المطابقة، لأن انفراده سبحانه بالحمد في الآخرة، وهي الوقت الذي لا يحمد فيه سواه، مبالغة في وصف ذاته بالانفراد والحمد. وهذه وإن خرج الكلام فيهما مخرج المبالغة في الظاهر، فالأمر فيها حقيقة في الباطن، لأنه أولى بالحمد في الدارين، ورب الحمد والشكر والثناء الحسن في المحلين حقيقة، وغيره من جميع خلقه إنما يحمد في الدنيا مجازا، وحقيقة حمده راجعة إلى ولي الحمد سبحانه.

[سورة القصص (28): الآيات 71 إلى 72]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (72)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام ، ومفعول (رأيتم) الأول ضمير مستتر تقديره هو يعود على الليل " 1 " ، (جعل) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط (عليكم) متعلّق بـ (جعل) ، (سرمدا) مفعول به ثان عامله جعل " 2 " (إلى يوم) متعلّق بـ (سرمدا) " 3 " ، (من) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ

---

(1) في الكلام تنازع بين الفعلين رأيتم ، جعل .

(2) بمعنى صيّر ، وإذا كان بمعنى خلق وأنشأ فهو حال من الليل .

(3) أو متعلّق بنعت لـ (سرمدا) .

الجدول ج 20 ، ص : 289

خبره إله (غير) نعت لإله (بضياء) متعلّق بـ (يأتيكم) (الهمزة) الثانية للاستفهام الإنكاريّ (الفاء) عاطفة (لا) نافية . . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أرأيتم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إن جعل . . . " لا محلّ لها أ وجملة : " إن جعل . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة

. . . وجواب الشرط محذوف يفسّره جملة الاستفهام المذكورة .

وجملة : " من إله . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله رأيتم .

وجملة : " يأتيكم . . . " في محلّ رفع نعت ثان لإله " 1 " .

وجملة : " لا تسمعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي أ صممتم آذانكم

فلا تسمعون .

(72) (قل أرأيتم . . . أ فلا تبصرون) مثل الآية السابقة مفردات وجملا . . .

وجملة : " تسكنون . . . " في محلّ جرّ نعت لليل . .

الصرف :

(سرمدا) : ، اسم بمعنى دائم ، وزنه فعلل - وليس فعمل على زيادة الميم كما ذكر بعضهم

-

[سورة القصص (28) : آية 73]

وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

(73)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من رحمته) متعلّق بـ (جعل) ، ومن سببيّة (لكم) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان عامله جعل (اللام) للتعليل (تسكنوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، ومثله (لتبتغوا) ، (فيه) متعلّق بـ (تسكنوا) ، (من فضله) متعلّق بـ (تبتغوا . . .) .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من إله لأنه وصف .

والمصدر المؤوّل (أن تسكنوا . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) .

والمصدر المؤوّل (أن تبتغوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جعل) فهو معطوف على الأول .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تسكنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " تبتغوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " لعلّكم تشكرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي لعلّكم ترزقون ولعلّكم تشكرون .

وجملة : " تشكرون . . . " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة القصص (28) : الآيات 74 إلى 75]

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (75)

الإعراب:

(ويوم يناديهم . . . تزعمون) مرّ إعرابها " 1 " مفردات وجملا.

(75) (الواو) عاطفة (من كلّ) متعلّق بـ (نزعنا) بمعنى أخرجنا (الفاء) عاطفة في الموضعين (هاتوا) فعل أمر جامد مبنيّ على حذف النون قياسا على نظائره . . . (للّه) متعلّق بخبر أنّ.

---

(1) في الآية (62) من هذه السورة.

والمصدر المؤوّل (أنّ الحقّ للّه) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي علموا .

(عنهم) متعلّق بـ (ضلّ) بتضمينه معنى غاب (ما) اسم موصول في محلّ رفع فاعل ضلّ ، والعائد محذوف أي يفترونه .

وجملة : " نزعنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يناديهم .

وجملة : " قلنا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة نزعنا .

وجملة : " هاتوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " علموا . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة قلنا . . .

وجملة : " ضلّ عنهم ما . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة علموا .

وجملة : " كانوا يفترون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يفترون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(شهيدا) ، بمعنى الشاهد ، صفة مشبّهة من الثلاثيّ شهد ، وزنه فعيل .

البلاغة

اللف والنشر : في قوله تعالى وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

في هذه الآية طريقة اللف ، في تكرير التوبيخ باتخاذ الشركاء : إيذان بأن لا شيء أجلب لغضب اللّه من الإشراك به ، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده .

اللهم فكما أدخلتنا في أهل توحيدك ، فأدخلنا في الناجين من وعيدك .

الفوائد

- الفعل الجامد :

(238/592)

قلنا فيما سبق : إذا تعلق الفعل بزمان ، كان داعيا لاختلاف صوره ، وهو الفعل المتصرف وإذا لم يتعلق بزمان ، كان هذا موجبا لجموده والتزامه بصورة واحدة .

ويهمنا في هذه الآية أن نتعرف على الفعل الجامد " هات . . . " فإنه من الأفعال الجامدة التي اختصت بفعل الأمر ، فلا يأتي منها الماضي أو المضارع . وقد اختلف في بنائه على الكسر وجموده على حالة واحدة أم أن بناءه يختلف باختلاف الضمائر المتصلة به . وإليك مثال ذلك : " قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ . . . " .

[سورة القصص (28) : الآيات 76 إلى 77]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ

إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)

الإعراب :

(من قوم) متعلّق بخبر كان (الفاء) عاطفة (عليهم) متعلّق بـ (بغى) ، (من الكنوز) متعلّق بحال من ضمير المفعول (ما) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به ثان عامله آتيناه (اللام) المزحلقة للتوكيد (بالعصبة) متعلّق بـ (تنوء) و(الباء) للتعدية " 1 " ، (أولي) نعت للعصبة مجرور وعلامة الجرّ الياء ملحق بجمع المذكّر (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (له) متعلّق بـ (قال) ، (لا) ناهية جازمة والثانية نافية .

---

(1) أو على قاعدة القلب أي لتنوء بها العصبة أولو القوّة .

جملة : " إنّ قارون كان . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كان من قوم موسى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " بغى عليهم . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان .

وجملة : " آتيناه . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كان .

وجملة : " إنّ مفاتحه لتنوء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " تنوء بالعصبة . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثاني) .

وجملة : " (اذكر) إذ قال . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قال له قومه . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا تفرح . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة – أو استئناف بيانيّ – وجملة : " لا يحبّ الفرحين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ (الثالث) .

(77) (الواو) عاطفة (ما) حرف مصدريّ – أو موصول والعائد محذوف – والمصدر المؤوّل (ما آتاك . . .) في محلّ جرّ متعلّق بـ (ابتغ) ، و(في) للسببيّة .

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (من الدنيا) متعلّق بنصيب (ما) حرف مصدريّ (إليك) متعلّق بـ (أحسن) .

والمصدر المؤوّل (ما أحسن . . .) في محلّ جرّ بالكاف متعلّق بمحذوف مفعول مطلق عامله أحسن (الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى (في الأرض) متعلّق بالفساد (لا) نافية .

وجملة : " ابتغ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أتاك اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) أو الاسمي .

وجملة : " لا تنس . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول

القول .

وجملة : " أحسن . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " أحسن اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " لا تبغ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " إنّ اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو استئناف بيانيّ - وجملة : " لا يحبّ المفسدين . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(قارون) اسم علم لعمّ موسى عليه السلام أو ابن عمّه . .

وهو علم أعجميّ منع من الصرف ، ووزنه على الصيغة العربيّة فاعول .

البلاغة

(240/592)

المبالغة : في قوله تعالى ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ .

بولغ في وصف كنوز قارون ، حيث ذكرها جمعا ، وجمع المفاتح أيضا ، وذكر النوء والعصبة وأولي القوة . قيل كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا ، لكل خزانة مفتاح . وهذه المبالغة

في القرآن من أحسن المبالغات وأغربها عند الحذاق ، وهي أن يتقصى جميع ما يدل على الكثرة وتعدد ما يتعلق بما يملكه .

التتميم : في قوله تعالى وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا .

تتميم لا بد منه لأنه إذا لم يغتنمها ليعمل للآخرة لم يكن له نصيب في الآخرة .

[سورة القصص (28) : الآيات 78 إلى 82]

قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (82)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة ، وضمير الرفع في (أوتيته) نائب الفاعل (على علم) متعلّق بحال من نائب الفاعل (عندي) ظرف منصوب متعلّق بنعت لعلم (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الواو) عاطفة (من قبله) متعلّق بـ (أهلك) (من القرون) متعلّق بحال من الموصول من " 1 "

.

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه قد أهلك . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلم .

(من) اسم موصول في محلّ نصب مفعول به عامله أهلك (منه) متعلّق بأشدّ (قوة) تمييز منصوب وكذلك (جمعا) (الواو) اعتراضيّة (عن ذنوبهم) متعلّق بـ (يسأل) ، (المجرمون) نائب الفاعل مرفوع وعلامة الرفع

---

(1) و(من) بيانيّة . . . أو متعلّق بفعل أهلك و(من) تبعيضيّة .

الواو .

جملة : " قال . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أوتيته . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لم يعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي :

أجهل ولم يعلم . . أو : أعلم ما ادعاه ولم يعلم . . .

وجملة : " قد أهلك . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " هو أشدّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " لا يسأل . . . المجرمون . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة بين المتعاطفين .

(79) (الفاء) عاطفة (على قومه) متعلّق بـ (خرج) ، (في زينته) حال من فاعل خرج أي متزيّنا (يا) أداة تنبيه (لنا) متعلّق بمحذوف خبر ليت ، و(مثل) اسم ليت منصوب (ما) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه والعائد محذوف أي أوتيه (قارون) نائب الفاعل للمبنيّ للمجهول أوتي (اللام) المزحلقة للتوكيد (ذو) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " خرج . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال . . .

وجملة : " قال الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يريدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ليت لنا مثل . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أوتي قارون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّه لذو . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

(80) (الواو) عاطفة (ويلكم) مفعول مطلق لفعل محذوف غير مستعمل (لمن) متعلّق بالخبر خير (الواو) اعتراضيّة (لا) نافية (إلّا) أداة حصر (الصابرون) نائب الفاعل مرفوع ، وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قال الذين أوتوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قال الذين يريدون .

وجملة : " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " ويلكم . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " ثواب اللّه خير . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " آمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " عمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آمن .

وجملة : " لا يلقّاها إلّا الصابرون . . " لا محلّ لها اعتراضيّة بين المتعاطفين " 1 " .

(81) (الفاء) عاطفة (به) متعلّق بـ (خسفنا) ، وكذلك (بداره) فهو معطوف على الأول (الفاء) تعليليّة (ما) نافية (له) متعلّق بخبر كان (فئة) مجرور لفظا مرفوع محلا اسم كان (من دون) متعلّق بحال من فاعل ينصرونه (ما كان) مثل الأول (من المنتصرين) متعلّق بخبر كان .

وجملة : " خسفنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر يقتضيه مجرى القصّة .

وجملة : " ما كان له من فئة . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " ينصرونه . . . " في محلّ جرّ (أو رفع) نعت لفئة " 2 " .

وجملة : " ما كان من المنتصرين " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

(82) (الواو) عاطفة (مكانه) مفعول به منصوب بحذف مضاف أي مثل مكانه

(بالأمس) متعلّق بـ (تمنّوا) ، (وي) اسم فعل مضارع بمعنى أعجب

---

(1) أو في محلّ نصب حال .

(2) يجوز أن تكون الجملة خبرا لـ (كان) في محلّ نصب ، (وله) حال من فئة .

(كأنّ) حرف مشبّه بالفعل " 1 " ، (لمن) متعلّق بـ (يبسط) ، (من عباده) متعلّق بحال من العائد المقدّر " 2 " أي يشاء رزقه (لولا) حرف شرط غير جازم (علينا) متعلّق بـ (منّ) ، (اللام) واقعة في جواب لو (بنا) متعلّق بـ (خسف) .

والمصدر المؤوّل (أن منّ اللّه . . .) في محلّ رفع مبتدأ ، والخبر محذوف أي موجود .

(ويكأنّه) مثل الأول (لا) نافية . . . و(الهاء) في (ويكأنه) هو ضمير الشأن اسم كأنّ .

وجملة : " أصبح الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خسفنا . . .

وجملة : " تمنّوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " يقولون . . . " في محلّ نصب خبر أصبح .

وجملة : " ويكأنّ اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يبسط الرزق . . . " في محلّ رفع خبر كأنّ .

وجملة : " يشاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يقدر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " لولا أن منّ اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة في حيّز القول .

وجملة : " منّ اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " خسف بنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

---

(1) في لفظ (ويكأنه) كثير من التخريجات آثرنا منها الأسهل والأبسط والأكثر موافقة للمعنى .

(2) أو تمييز للموصول (من) .

وجملة : " ويكأنّه لا يفلح . . . " لا محلّ لها استئناف آخر في حيّز القول .

وجملة : " لا يفلح الكافرون . . . " في محلّ رفع خبر كأنّ .

الصرف :

(ويكأنّ) ، جاء في حاشية الجمل ما يلي : " ويكأنّ فيه مذاهب : أحدها أنّ وي كلمة برأسها وهي اسم فعل بمعنى أعجب أي أنا ، و(الكاف) للتعليل ، وأنّ وما في حيّزها مجرورة بها أي : أعجب لأن اللّه يبسط الرزق . . . إلخ ، الثاني : قال بعضهم كأنّ هنا للتشبيه إلّا أنّه ذهب منه معناه وصار للخبر واليقين " 1 " . الثالث أن ويك كلمة برأسها ، و(الكاف) فيها حرف خطاب ، و(أن) معمولة لمحذوف أي : اعلم أنّ اللّه يبسط . . . إلخ قاله الأخفش ، الرابع أن أصلها ويلك فحذفت اللام . . .

والخامس أن (ويكأنّ) كلّها مستقلّة بسيطة ومعناها ألم تر ، وربّما نقل ذلك عن ابن عبّاس ، ونقل عن الفرّاء والكسائيّ – من الكوفيين – أنها بمعنى أما ترى إلى صنع اللّه ، وحكى ابن قتيبة أنّها بمعنى رحمة لك في لغة حمير . . ولم يرسم في القرآن إلّا ويكأنّ وويكأنّه متّصلة في الموضعين . . " أ ه .

الفوائد

1 – قصة قارون :

إنها قصة مثيرة للنفوس ، غذاء للأقلام ، وإنها تدور حول نموذج من الناس لا يخلو منه عصر أو مصر . لذلك تحمل من العبرة ما هو حريّ أن يكون درسا للأقوياء ، والضعفاء ، والأغنياء ، والفقراء ، على حد سواء .

قيل : كان ابن عم موسى بن عمران ، وقيل : كان ابن خالته . وهو ممن يضرب بهم المثل في كثرة المال ، وكان من أحسن الناس وجها وقراءة للتوراة ، وقيل : إنه كان

---

(1) هذا الوجه هو الذي آثرناه في الإعراب أعلاه .

الجدول ج 20 ، ص : 300

من السبعين الذين اختارهم موسى من قومه .

وقد قيل : إنه خرج راكبا بغلة شهباء ، ومعه سبعمائة وصيفة على بغال شهب عليهن الحلي والحلل ، وكامل الزينة ، فكاد يفتن بني إسرائيل . ثم بغى وطغى ، وتكبر وتجبر ، حتى أهلكه اللّه . وسبب هلاكه أن موسى جعل الحبورة وهي الإمامة لهارون فحسده قارون وقال لموسى : ألك الرسالة ولهارون الحبورة ، وأنا لست في شيء ، لا أستطيع أن أصبر على هذا . فأخبره موسى أن ذلك كان بأمر اللّه . فقال قارون : واللّه لا أصدقك أبدا حتى تأتيني بآية ، فأمر موسى زعماء بني إسرائيل بأن يأتي كل منهم بعصاه ، فجاءوا بها ، فألقاها موسى في قبة له بأمر اللّه ، ودعا موسى اللّه أن يريهم بيان ذلك ، فاهتزت عصا هارون واخضرت وأورقت . فقال موسى لقارون : أما ترى صنع اللّه تعالى لهارون . فقال

قارون : واللّه ما هذا بأعجب ما تصنع من السحر ، ثم اعتزل بمن معه من بني إسرائيل ، وكان كثير المال والأتباع ، فدعا عليه موسى فهلك .

وقيل : إنه لما نزلت آية الزكاة على موسى ، واستعظم قارون ما يحق عليه من المال ، جمع كبار بني إسرائيل وأخبرهم بأن موسى سينكبهم بمالهم ، فقالوا له : أنت كبير وأمرنا نطع أمرك .

فدعا قارون بغيا كانت بين القوم ، وجعل لها جعلا على أن تقذف موسى بنفسها . ثم دعا القوم للاجتماع ، وطلب إلى موسى أن يعظهم ، فراح موسى يعدد حدود اللّه ، حتى قال : ومن زنى نجلده ، وإن كان محصنا نرجمه ، فقال له قارون : فإذا كنت أنت ، فإن هذه المرأة تزعم أنك فجرت بها . فسألها موسى على ملإ من الناس فاعترفت أن قارون طلب إليها أن ترمي موسى بالزنا ، فسجد موسى للّه ، ودعا على قارون ، فسخر اللّه الأرض لموسى . فقال : يا أرض خذيه ، فراحت تبتلعه وموسى يقول :

خذيه ، وقارون يستغيث ، وموسى يقول : خذيه ، حتى غاب في باطن الأرض . وراح القوم الذين كانوا يكبرونه بالأمس يحقرونه ويحمدون اللّه الذي نجاهم من قارون وغروره وإفساده قلوب الناس .

2 – وي .

حول " وي . . . " هذه آراء نورد أهمها :

أ – وي : اسم فعل مضارع بمعنى أعجب أو أتعجب ، وبعد انقضاء التعجب يأتي التشبيه " كأنه لا يصلح الظالمون . . . " . وذهب المفسرون والنحاة أنه ليس المقصود التشبيه وإنما هو التقرير .

ب – وثمة رأي آخر : حيث ألحقت الكاف بـ " وي . . . " فأصبحت " ويك . . . " ، وهذه كاف الخطاب اتصلت باسم الفعل ، ثم بديء الكلام بـ " أنه لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ . . . " .

ويقوّي هذا الرأي قول عنترة :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم

ج – وثمة قول ثالث : فحواه أن أصل الكلمة " ويلك . . . " ، وحذفت اللام لكثرة الاستعمال ، فأصبحت " ويك " . ولم يقتصر النحاة والمفسرون على هذه الآراء الثلاثة بل توسعوا في الاجتهاد حتى أوردوا أقوالا ضعيفة نحن بغنى عن ذكرها .

[سورة القصص (28) : آية 83]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسادًا وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

(83)

الإعراب :

(الدار) بدل من تلك – أو نعت – (للذين) متعلّق بـ (نجعلها) " 1 " ، (لا) نافية (في الأرض) متعلّق بـ (علوا) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (فسادا) معطوف على (علوا) منصوب مثله (للمتّقين) متعلّق بخبر المبتدأ العاقبة .

جملة : " تلك الدار . . . نجعلها . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نجعلها . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (تلك) .

---

(1) هذا إذا كان الفعل مضمّنا معنى فعل متعدّ إلى واحد أي نهيّئها . . وإذا كان بمعنى التصيير فالجار متعلّق بمحذوف مفعول به ثان . . . [. . . . .]

(248/592)

وجملة : " لا يريدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " العاقبة للمتّقين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

الفوائد

– تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ :

القاعدة العامة تقول :

كلّ اسم معرّف بـ " أل . . . " بعد اسم إشارة فعطف بيان أو بدل .

وقد مرّ معنا استعراض كامل لأسماء الاشارة ، لذلك لا نرى حاجة للعودة لذكرها .

وإنما نقول في " تلك . . . " بأنها تنحلّ إلى ثلاث كلمات : " ت " اسم اشارة للمفرد المؤنث ، و " اللام " يشير إلى أن المشار إليه بعيد ، و " الكاف " للخطاب . وقد يتصل بها ما يدل على نوعية المخاطب ، مذكرا أم مؤنثا مفردا ، أم مثنى أم جمعا ، فنقول : تلك ، وتلكما ، وتلكم ، وتلكن .

[سورة القصص (28) : آية 84]

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (84)

الإعراب :

(من) اسم شرط مبتدأ خبره جملة جاء (بالحسنة) متعلّق بحال من فاعل جاء (الفاء) رابطة لجواب الشرط (له) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ خير (منها) متعلّق بخير (من جاء بالسيّئة) مثل من جاء بالحسنة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (الذين) موصول في محلّ رفع نائب الفاعل (إلّا) أداة حصر (ما) حرف مصدريّ " 1 " .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ نصب مفعول يجزى بحذف مضاف ، والعائد محذوف أي :

جزاء الذي كانوا يعملونه .

الجدول ج 20 ، ص : 303

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ نصب مفعول به عامله يجزى ، وفيه حذف مضاف أي جزاء عملهم .

جملة : " من جاء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاء بالحسنة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الأول .

وجملة : " له خير منها . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " من جاء (الثانية) . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من جاء (الأولى) .

وجملة : " جاء بالسيّئة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) الثاني .

وجملة : " لا يجزى الذين . . . " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر أي فله مثلها لأنه لا يجزى الذين . . .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يعملون . . . " في محلّ نصب خبر كانوا . . .

[سورة القصص (28) : آية 85]

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (85)

الإعراب :

(عليك) متعلّق بـ (فرض) ، (اللام) المزحلقة للتوكيد (إلى معاد) متعلّق بالخبر رادّك (أعلم) خبر المبتدأ ربي ، وهو بمعنى عالم وقد نصب المفعول به (من) ، (بالهدى) متعلّق بحال من فاعل جاء (الواو) عاطفة و(من) الثاني مثل الأول ومعطوف عليه (في ضلال) متعلّق بخبر المبتدأ هو .

جملة : " إنّ الذي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " فرض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة - أو اعتراضيّة بين المتعاطفين .

وجملة : " ربّي أعلم . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " جاء . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الأول .

وجملة : " هو في ضلال . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثاني .

الصرف :

(معاد) ، اسم مكان من (عاد) الثلاثيّ ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين ، وفيه إعلال بالقلب ، أصله معود - بسكون العين وفتح الواو - استثقلت الحركة على الواو فسكّنت ثمّ نقلت الحركة إلى العين ، فلمّا تحرّك ما قبل الواو قلبت ألفا .

البلاغة

سرّ التنكير : في قوله تعالى إِلى مَعادٍ :

وجه تنكير المعاد أنها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن ، ومرجعا له اعتداد ، لغلبة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) على مكة وقهره لأهلها ، ولظهور عز الإسلام وأهله وذل الشرك وحزبه .

[سورة القصص (28) : الآيات 86 إلى 88]

وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (86)
وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87)
وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة – أو عاطفة (ما) نافية (أن) حرف مصدريّ ، وعلامة النصب في (يلقى) الفتحة المقدّرة على الألف (إليك) متعلّق بـ (يلقى) ، (الكتاب) نائب الفاعل للمجهول يلقى (إلّا) أداة بمعنى لكن ، والاستثناء منقطع ، (رحمة) مفعول لأجله لعامل مقدّر منصوب (من ربّك) متعلّق برحمة (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تكوّنن) مضارع ناقص مبنيّ على الفتح في محلّ جزم ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (للكافرين) متعلّق بخبر تكوننّ (ظهيرا) .

جملة : " ما كنت ترجو . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " ترجو . . . " في محلّ نصب خبر كنت .

وجملة : " يلقى إليك الكتاب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يلقى . . .) في محلّ نصب مفعول به عامله ترجو .

وجملة : " تكوننّ . . . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا ألقي إليك الكتاب فلا تكونن ظهيرا . . .

---

(1) أو معطوفة على جملة : " إنّ الذي فرض . . . " في الآية السابقة (85) .

---

(87) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (يصدّنّك) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون ، و(النون) المذكورة للتوكيد و(الواو) المحذوفة لالتقاء الساكنين ، فاعل ، و(الكاف) مفعول به (عن آيات) متعلّق (يصدّنّك) ، (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (يصدّنّك) ، (إذ) اسم ظرفيّ في محلّ جرّ مضاف إليه ، ونائب الفاعل لفعل (أنزلت) المجهول ضمير مستتر تقديره هي يعود على الآيات (إليك) متعلّق بـ (أنزلت) ، (الواو) عاطفة (إلى ربّك) متعلّق بـ (ادع) ، (لا تكوننّ) مثل الأولى (من المشركين) متعلّق بخبر تكونّن .

وجملة : " لا يصدّنّك . . . " معطوفة على جملة لا تكونّن .

وجملة : " أنزلت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " ادع . . . " معطوفة على جملة لا يصدّنك . . .

وجملة : " لا تكونن (الثانية) . . . " معطوفة على جملة لا يصدّنك (88) (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (مع) ظرف منصوب متعلّق بحال من (إلها) ، (إلّا) أداة استثناء في الموضعين (هو) في محلّ رفع بدل من الضمير الموجود في خبر لا المحذوف (وجهه) مستثنى منصوب (له) متعلّق بمحذوف خبر مقدّم للمبتدأ الحكم (الواو) عاطفة (إليه) متعلّق

بالمبني للمجهول (ترجعون) ، و(الواو) نائب الفاعل .

وجملة : " لا تدع . . . " معطوفة على جملة لا تكونّ (الثانية) .

وجملة : " لا إله إلّا هو . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " كلّ شيء هالك . . . " لا محلّ لها تعليل للنواهي السابقة .

وجملة : " له الحكم . . . " لا محلّ لها تعليل ثان .

وجملة : " إليه ترجعون . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ :

(252/592)

الوجه بمعنى الذات ، مجاز مرسل . وهو مجاز شائع . وقد يختص بما شرف من الذوات ، وقد يعتبر ذلك هنا ، ويجعل نكتة للعدول عن إلا إياه ، إلى ما في النظم الجليل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الجدول حـ 20 صـ 272. 306 ﴾

(253/592)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة القصص (28) : الآيات 51 إلى 56]

وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (54) وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (55)

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

الإعراب :

(وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الواو استئنافية ولك أن تجعلها عاطفة ليتساوق الكلام واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق ووصّلنا فعل ماض مبني على السكون ونا ضمير متصل في محل رفع فاعل ولهم متعلقان بوصلنا والقول مفعول به أي اتبعنا بعضه بعضا في الانزال ليتصل التذكير ، ولعل واسمها وجملة

يتذكرون خبر لعلّ أي جعلناه متنوعا يشتمل على الوعد والوعيد والنصائح والمواعظ والقصص لعلهم يتعظون به . (الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) الذين اسم موصول مبتدأ وجملة آتيناهم صلة وآتيناهم فعل وفاعل ومفعول به أول والكتاب مفعول به ثان ومن قبله حال وهم مبتدأ ثان وبه جار ومجرور متعلقان بيؤمنون وجملة يؤمنون خبر " هم " وجملة هم به يؤمنون خبر الذين وهم أهل الكتاب الذين آمنوا وكان عددهم أربعين رجلا وقيل ثمانين . (وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة يتلى في محل جر بإضافة الظرف إليها ويتلى فعل مضارع مبني للمجهول وعليهم متعلقان بيتلى ونائب الفاعل مستتر تقديره هو يعود على القرآن وجملة قالوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وجملة آمنا مقول القول وبه متعلقان بآمنا . (إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) كلام مستأنف مسوق لبيان وتعليل ما استدعى إيمانهم به وان واسمها والحق خبر إن ومن ربنا حال وإنا كنا إلخ كلام مستأنف أيضا مسوق لبيان أن إيمانهم ليس بدعا ولا مستحدثا وانما هو أمر متقادم العهد وإن واسمها وجملة كنا خبرها ومن قبله حال ومسلمين خبر كنا لأن الإسلام صفة كل مؤمن مصدق للوحي .

(أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا) أولئك مبتدأ وجملة يؤتون خبر ويؤتون فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل وأجرهم مفعول به ثان ومرتين نصب على المصدرية أو

الظرفية وبما صبروا متعلقان بيؤتون والباء حرف جر للسببية وما مصدرية اي بسبب صبرهم . (وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ)

(255/592)

و يدرءون عطف على يؤتون أي يدفعون والواو فاعل وبالحسنة متعلقان بيدرءون والسيئة مفعول به ومما متعلقان بينفقون وجملة رزقناهم صلة وينفقون عطف على يدرءون . (وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ) الواو عاطفة وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة سمعوا مجرورة باضافة الظرف إليها واللغو مفعول به وجملة أعرضوا لا محل لها وعنه متعلقان بأعرضوا ، وقالوا عطف على أعرضوا ولنا خبر مقدم وأعمالنا مبتدأ مؤخر ولكم أعمالكم عطف على ما تقدم . (سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ) سلام مبتدأ وساغ الابتداء به لأن فيه معنى الدعاء وعليكم خبر والسلام هنا سلام توديع ومتاركة لا سلام تحية ومواصلة وجملة لا نبتغي الجاهلين حالية ولا نافية ونبتغي فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره نحن والجاهلين مفعول به . (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) كلام مستأنف مسوق لبيان حرصه على إيمان عمه أبي طالب وان واسمها وجملة لا تهدي خبرها والفاعل مستتر تقديره أنت ومن

مفعول به وجملة أحببت صلة ولكن الله الواو عاطفة أو حالية ولكن واسمها وجملة يهدي خبرها ومن يشاء مفعول به وهو مبتدأ وأعلم خبر وبالمهتدين متعلقان بأعلم.

الفوائد :

قال الزجاج: أجمع المسلمون على أن هذه الآية: "انك لا تهدي إلخ" نزلت في أبي طالب لما احتضرته الوفاة جاءه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال: يا عم قل لا إله إلا اللّه كلمة أحاج بها لك عند اللّه، فقال: يا ابن أخي قد علمت انك لصادق ولكن أكره أن يقال جزع عند الموت ولولا أن يكون غليك وعلى بني أبيك غضاضة لقلتها ولأقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك وأنشد :

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

(256/592)

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

ولكني سوف أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف. وهناك روايات أخرى مختلفة لا تخرج عن هذه الفحوى.

[سورة القصص (28) : الآيات 57 إلى 60]

وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (58) وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ (59) وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ (60)

الاعراب :

)

(257/592)

وَقالُوا : إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا) الواو حرف عطف والجملة معطوفة على ما تقدم فهي بمثابة تفريع على قصة أبي طالب ، قالوا : إن الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال له : إنا نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا . وإن شرطية ونتبع فعل الشرط مجزوم وفاعله مستتر تقديره نحن والهدى مفعول به ومعك ظرف متعلق بمحذوف حال

وتتخطف جواب الشرط وهو فعل مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره نحن ومن أرضنا متعلقان بنتخطف . (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على محذوف يقتضيه السياق وبه يرد عليهم دعواهم التي لا أساس لها من الصحة بأنه مكن لهم في الحرم الذي آمنه بحرمة البيت وآمن قطانه بحرمته وسيأتي المزيد من هذا المعنى في باب البلاغة . ولم حرف نفي وقلب وجزم ونمكن فعل مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر تقديره نحن ولهم متعلقان بنمكن وحرما مفعول به وآمنا صفة وجملة يجبى صفة ثانية لحرما ومعنى يجبى اليه يساق ويحمل اليه ويجمع لازدهاره وإليه متعلقان بيجبى وثمرات كل شيء نائب فاعل ورزقا مفعول مطلق لقوله يجبى لأن معنى الجباية والرزق واحد والمراد تساق اليه الميرة وأعربه آخرون مفعولا لأجله وأجازه الزمخشري وفي النفس منه شيء ويجوز أن يكون رزقا مصدرا بمعنى المفعول فينتصب على الحال من الثمرات لتخصصها بالإضافة ومن لدنا صفة لرزقا والواو حالية أو عاطفة ولكن أكثرهم لكن واسمها وجملة لا يعلمون خبرها .

)

وَكَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها) يجوز أن يكون كلاما مستأنفا مسوقا لتخويف أهله من سوء مغبة من كانوا في نعمة فغمطوها وقابلوها بالبطر ، والبطر بفتحتين النشاط والأشر وقلة احتمال النعمة والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهة ، قال في القاموس : " وفعل الكل كفرح وبطر الحق أن يتكبر عنه فلا يقبله " ويجوز أن يكون معطوفا على ما قبله ليتساوق الكلام . وكم خبرية مفعول مقدم لأهلكنا ومن قرية تمييز كم الخبرية المجرور بمن وقد تقدم تقرير ذلك فجدد به عهدا وجملة بطرت صفة لقرية ومعيشتها منصوب بنزع الخافض على حد قوله :

" واختار موسى قومه سبعين رجلا " أي في معيشتها وهذا أقرب ما قيل فيه وأقله تكلفا وقال الزجاج هو نصب على الظرفية الزمانية أي أيام معيشتها ويجوز تضمين بطرت معنى خسرت فتكون معيشتها مفعولا به واقتصر عليه أبو البقاء . (فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ) فتلك الفاء عاطفة وتلك مبتدأ ومساكنهم خبر وجملة لم تسكن يجوز أن تكون خبرا ثانيا ويجوز أن تكون حالا والعامل فيها معنى الاشارة وإلا أداة حصر وقليلا ظرف أي إلا وقتا قليلا فالاستثناء من الظرف أو مفعول مطلق أي إلا سكنى قليلا فالاستثناء من المصدر ولا مرجح لأحد الوجهين ، والواو عاطفة أو حالية وكنا كان واسمها ونحن ضمير فصل أو عماد والوارثين خبر كنا وسيأتي مزيد من هذا المعنى في باب

البلاغة .

(وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا) كلام مستأنف مسوق لبيان عادة اللّه تعالى في عباده ، وما نافية وكان ربك كان واسمها ومهلك القرى خبرها وحتى حرف

(259/592)

تعليل وجر ويبعث فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوبا بعد حتى والفاعل مستتر يعود على اللّه وفي أمها متعلقان بيبعث ورسولا مفعول به وجملة يتلو صفة لرسولا وعليهم متعلقان بيتلو وآياتنا مفعول به والمراد بأمها أعظمها والتعميم هنا خير من تخصيصها بمكة .

(وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَأَهْلُها ظالِمُونَ) الواو عاطفة وما نافية وكان واسمها ومهلكي القرى خبرها وإلا أداة حصر والواو حالية وأهلها مبتدأ وظالمون خبر والجملة حالية فالاستثناء من أعم الأحوال أي وما كنا نهلكهم في حال من الأحوال إلا في حال كونهم ظالمين . (وَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَزِينَتُها) الواو عاطفة أو استئنافية وما اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وأوتيتم فعل ماض مبني للمجهول وهو في محل جزم فعل الشرط والتاء نائب فاعل ومن شيء حال مبينة لمن والفاء رابطة للجواب ومتاع خبر

لمبتدأ محذوف والحياة مضاف اليه والدنيا صفة وزينتها عطف على متاع والجملة في محل جزم جواب الشرط والفعل والجواب خبر ما . (وَما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقى أَفَلا تَعْقِلُونَ) الواو حالية وما اسم موصول مبتدأ وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف صلة للموصول وخير خبر وأبقى عطف على خير والهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة على محذوف يقتضيه السياق ولا نافية وتعقلون فعل مضارع مرفوع وفاعل .

البلاغة :

الإسناد المجازي :

في قوله " حرما آمنا " إسناد مجازي لأن المراد أهل الحرم وقد تقدم بحثه كثيرا ومثله " وكم أهلكنا من قرية " المراد أهلها بدليل

(260/592)

قوله فيما بعد " فتلك مساكنهم لم تسكن إلا قليلا " أي لقد زهوا بها حينا من الدهر وغرتهم الأماني ، وأبطرتهم النعمة ، وكان ديدنهم ديدن المترفين الرافلين في حلل السعادة ، فما عتموا أن فنوا وطوتهم الأيام وبقيت آثارهم شواخص ، أطلالا باهتة ، ورسوما محيلة ، تهزأ بهم ، وتدل الآخرين على أفن رأيهم وطيش أحلامهم . وقد رمق المتنبي سماء هذه

البلاغة العالية في قصيدته الخالدة التي رثى بها أبا شجاع فاتكا فقال بيته المشهور :

تتخلف الآثار عن أصحابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

يريد أن الآثار ، وهي البنيان ، تبقى بعد أربابها لتدل على تمكنهم وقوتهم وسطوتهم ثم ينالها بعدهم ما نالهم من الفناء وأن الخراب سيدركها فتذهب الآثار كما ذهب المؤثرون لها فهذه هي عادة الدنيا بأهلها ، وهذا هو المعهود من تصاريفها ، ويحسن بنا أن نورد لك نخبة مختارة من هذه القصيدة جريا على شرطنا في هذا الكتاب :

الحزن يقلق والتجمل يردع والدمع بينهما عصيّ طيّع

يتنازعان دموع عيد مسهّد هذا يجيء بها وهذا يرجع

النوم بعد أبي شجاع نافر والليل معي والكواكب ظلّع

قال ابن جني " لو كان الليل والكواكب مما يؤثر فيهما حزن لأثر فيهما موته " وقال الخطيب : " إنما أراد أن الليل طويل لفقده فالليل معي والكواكب ظلع ما تسير " وقال الواحدي " النوم بعده لا يألف العين

فلا تنام حزنا عليه والليل من طوله كأنه قد أعيا عن المشي فانقطع والكواكب كأنها ظالعة لا تقدر أن تقطع الفلك فتغرب ، كل هذا يصف به ليله بعده من الحزن عليه " وقال الواحدي : وتوفي أبو شجاع فاتك بمصر ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة 350 .ه

ومضى أبو الطيب يقول :

إني لأجبن عن فراق أحبتي وتحس نفسي بالحمام فأشجع

ويزيدني غضب الأعادي قسوة ويلم بي عتب الصديق فأجزع

تصفو الحياة لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يتوقّع

(261/592)

و لمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

أين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟

تتخلف الآثار البيت

[سورة القصص (28) : الآيات 61 إلى 64]

أَفَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (64)

الإعراب :

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) الهمزة للاستفهام الانكاري والفاء عاطفة لترتيب إنكار التساوي بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين الجانبين ومن اسم موصول مبتدأ وجملة وعدناه صلة وكمن خبرها ووعدناه فعل وفاعل ومفعول به ووعدا مفعول مطلق وحسنا صفة والفاء عاطفة وهو مبتدأ ولاقيه خبر والكاف اسم بمعنى مثل خبر أو جار ومجرور في موضع الخبر وجملة متعناه صلة من ومتاع الحياة الدنيا مفعول مطلق وثم حرف عطف وهو مبتدأ ويوم القيامة ظرف متعلق بالمحضرين ومن المحضرين خبر هو وللزمخشري كلام مفيد في تحليل هذه الآية من الناحية الاعرابية نورده فيما يلي :

" فإن قلت فسر لي الفاءين وثم وأخبرني عن مواقعها قلت :

قد ذكر في الآية التي قبلها متاع الحياة الدنيا وما عند اللّه وتفاوتهما ثم عقبه بقوله : أفمن وعدناه على معنى أبعد ، هذا التفاوت الظاهر يسوّي بين أبناء الآخرة وأبناء الدنيا فهذا معنى الفاء الأولى وبيان موقعها وأما الثانية فللتسبيب لأن لقاء الموعود مسبّب عن الوعد

الذي هو الضمان في الخير وأما ثم فلتراخي حال الإحضار عن حال التمتيع لا لتراخي وقته عن وقته " .

(وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) الظرف متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر والكلام مستأنف وجملة يناديهم مجرورة بإضافة الظرف إليها والفاعل مستتر تقديره هو يعود على اللّه والهاء مفعول به ، والقصد من هذا النداء التوبيخ والتقريع ، فيقول عطف على يناديهم وأين اسم استفهام في محل نصب على الظرفية المكانية وهو متعلق بمحذوف خبر مقدم وشركائي مبتدأ مؤخر والذين صفة لشركائي وجملة كنتم صلة الذين وكان واسمها وجملة تزعمون خبرها ومفعولا تزعمون محذوفان تقديرهما تزعمونهم شركائي ، وسيأتي في باب الفوائد ذكر حذف مفعولي ظننت وأخواتها ، وجملة أين شركائي مقول القول .

(قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا) كلام مستأنف مسوق للإجابة عن سؤال مقدر كأنه قيل فماذا صدر عنهم حينئذ . وقال الذين فعل وفاعل وجملة حق عليهم صلة والقول فاعل وربنا منادى مضاف محذوف منه حرف النداء

وهؤلا مبتدأ والذين صفة لهؤلاء وجملة أغوينا صلة وجملة أغويناهم خبر هؤلاء وكما أغوينا نعت لمصدر محذوف أي أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا وقد جربنا في هذا

الاعراب على ما أعربه الزمخشري وأبو حيان .

)

(263/592)

تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ) الجملة مفسرة مقررة لما قبلها وتبرأنا فعل ماض وفاعل وإليك متعلقان بتبرأنا وما نافية وكان واسمها وإيانا مفعول مقدم ليعبدون وجملة يعبدون خبر كانوا ، وأجاز أبو البقاء أن تكون ما مصدرية والمصدر منصوب بنزع الخافض أي مما كانوا يعبدون أي من عبادتهم إيانا ولا أرى داعيا لهذا التكلف لأن المعنى ما كانوا يعبدوننا وانما كانوا يعبدون أهواءهم ويسترسلون مع شهواتهم . (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) الواو عاطفة وقيل فعل ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر تقديره هذا القول تهكما بهم وتبكيتا لهم وادعوا فعل أمر وفاعله وشركاءكم مفعول به فدعوهم الفاء عاطفة ودعوهم فعل ماض وفاعل ومفعول به ، والفاء عاطفة ويستجيبوا فعل مضارع مجزوم بلم والواو فاعل ولهم متعلقان بيستجيبوا .

(وَرَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ) الواو عاطفة ورأوا العذاب فعل ماض وفاعل ومفعول به ولو شرطية وان وما بعدها فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت كونهم مهتدين في الدنيا لما

رأوا العذاب في الآخرة وان واسمها وجملة كانوا خبرها وكان واسمها وجملة يهتدون خبرها .

الفوائد :

يجوز بإجماع النحاة حذف مفعولي ظننت وأخواتها من أفعال القلوب اختصارا لدليل يدل عليهما نحو " أين شركائي الذين كنتم تزعمون " وقول الكميت يمدح آل البيت :

بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا عليّ وتحسب

فحذف في الآية مفعولا تزعمون وفي البيت مفعولا تحسب لدليل ما قبلهما عليهما أي تزعمونهم شركاء وتحسب حبهم عارا علي ، وأما حذف أحدهما اختصارا لدليل فقد أجازه الجمهور كقوله تعالى " ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم اللّه من فضله هو خيرا لهم " تقديره ولا يحسبن الذين يبخلون ما يبخلون به هو خيرا لهم فحذف المفعول الأول للدلالة عليه ، وكقول عنترة :

(264/592)

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

تقديره فلا تظني غيره مني واقعا ، فحذف المفعول الثاني ، والتاء في نزلت مكسورة والحاء

والراء من المحب المكرم مفتوحتان .

وفي الباب الخامس من المغني بيان انه قد يظن الشيء من باب الحذف وليس منه : جرت عادة النحويين أن يقولوا : يحذف المفعول اختصارا واقتصارا ويريدون بالاختصار الحذف لدليل وبالاقتصار الحذف لغير دليل ويمثلونه بنحو "كلوا واشربوا " أي أوقعوا هذين الفعلين ، وقول العرب فيما يتعدى إلى اثنين : من يسمع يخل ، أي تكن منه

(265/592)

خيلة . والتحقيق أن يقال إنه تارة يتعلق الغرض بالاعلام بمجرد وقوع الفعل من غير تعيين من أوقعه أو من أوقع عليه فيجاء بمصدره مسندا إلى فعل كون عام ، فيقال حصل حريق أو نهب . وتارة يتعلق بالاعلام بمجرد إيقاع الفاعل للفعل فيقتصر عليهما ولا يذكر المفعول ولا ينوى إذ المنويّ كالثابت ولا يسمى محذوفا لأن الفعل ينزل لهذا القصد بمنزلة ما لا مفعول له ، ومنه : " ربي الذي يحيي ويميت ، هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، وإذا رأيت ثم " إذ المعنى ربي الذي يفعل الإحياء والإماتة ، وهل يستوي من يتصف بالعلم ومن ينتفي عنه العلم ، وأوقعوا الأكل والشرب وذروا الإسراف ، وإذا حصلت منك رؤية هنالك ، ومنه على الأصح : " ولما ورد ماء مدين " الآية ، ألا ترى أنه

عليه الصلاة والسلام إنما رحمهما إذ كانتا على صفة الذياد وقومهما على السقي لا لكون مذودهما غنما ومسقيهم إبلا ، وكذلك المقصود من قولهما " لا نسقي " لا المسقي ، ومن لم يتأمل قدّر : يسقون إبلهم وتذودان غنمهما ولا نسقي غنمنا . وتارة يقصد إسناد الفعل إلى فاعله وتعليقه بمفعوله فيذكران نحو " لا تأكلوا الربا ، ولا تقربوا الزنا " وقولك ما أحسن زيدا ، وهذا النوع إذا لم يذكر مفعوله قيل محذوف نحو " ما ودعك ربك وما قلى " وقد يكون في اللفظ ما يستدعيه فيحصل الجزم بوجوب تقديره نحو : " أ هذا الذي بعث اللّه رسولا ، وكل وعد اللّه الحسنى " و :

حميت حمى تهامة بعد نجد وما شيء حميت بمستباح

[سورة القصص (28) : الآيات 65 إلى 70]

(266/592)

وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ (69)

وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)

الإعراب :

(وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ : ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟) كلام معطوف على ما قبله فقد سئلوا أولا عن إشراكهم وسئلوا ثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك ، فيقول عطف على يناديهم وماذا اسم استفهام بكاملها في محل نصب لمفعول مطلق لا مفعول به لأن أجاب لا يتعدى إلى الثاني بنفسه بل بالباء ، وإسقاط الجار ليس بقياس والمعنى أجبتموهم أي إجابة ، والمرسلين مفعول به لأجبتم . (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ) الفاء عاطفة وعميت عليهم الأنباء فعل وفاعل وسيأتي بحث إسناد العمى للأنباء في باب البلاغة ، ويومئذ ظرف أضيف إلى مثله والتنوين في يومئذ عوض عن جملة ، أي : يوم ، إذ نودوا وقيل لهم ماذا أجبتم المرسلين ، فهم الفاء عاطفة

(267/592)

و هم مبتدأ وجملة لا يتساءلون خبر . (فَأَمَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ) كلام مستأنف مسوق لبيان حال المؤمنين بعد بيان حال الكافرين وأما حرف شرط وتفصيل ومن اسم موصول مبتدأ وجملة تاب صلة وعمل صالحا فعل وفاعل مستتر

ومفعول به أو مفعول مطلق أي عمل عملا صالحا والفاء رابطة وعسى فعل ماض جامد من أفعال الرجاء التي تعمل عمل كان واسمها مستتر تقديره هو وأن وما في حيزها خبرها والرجاء من الكرام بمثابة التحقيق أو يكون الرجاء على بابه ولكنه من قبل التائب ومن المفلحين خبر يكون . (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ) الواو استئنافية وربك مبتدأ وجملة يخلق خبر وما مفعول به ويشاء صلة ويختار عطف على يخلق وما نافية وكان فعل ماض ناقص ولهم خبرها المقدم والخيرة اسمها المؤخر والجملة مفسرة لأنها مقررة لما قبلها ، ويجوز أن تكون مستأنفة ، وقيل إن ما مصدرية أي يختار اختيارهم والمصدر واقع موقع المفعول أي مختارهم ، وقيل ان ما موصولة بمعنى الذي والعائد محذوف أي ما كان لهم الخيرة فيه ، وقيل أيضا ان كان تامة ، وجملة لهم الخيرة كلام مستأنف وسبحان اللّه مفعول مطلق لفعل محذوف وتعالى فعل ماض وفاعله هو وعما متعلقان بتعالى وجملة يشركون صلة .

(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَما يُعْلِنُونَ) الواو عاطفة وربك مبتدأ وجملة يعلم خبر وما مفعول به وتكن صلة وصدورهم فاعل وما عطف على ما الأولى وجملة يعلنون صلة .

(وَهُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وهو

مبتدأ واللّه خبر وجملة لا إله إلا هو خبر ثان وقد تقدم اعراب كلمة التوحيد والاختلاف فيها وله خبر مقدم والحمد مبتدأ مؤخر والجملة خبر ثالث وفي الأولى حال والآخرة عطف على الأولى واليه متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع والواو نائب فاعل.

البلاغة:

1- إسناد العمى إلى الأنباء مجاز عقلي وقد تقدم كثيرا والمراد أن الأنباء صارت كالعمى لا تهتدي إليهم وقيل انه من باب القلب وان أصله فعموا عن الأنباء والقلب، كما تقدم، من محسنات الكلام.

2- الادماج:

في قوله "له الحمد في الأولى والآخرة" الادماج، وحدّه أن يدمج المتكلم إما غرضا في غرض أو بديعا في بديع بحيث لا يظهر في الكلام إلا أحد الغرضين أو أحد البديعين والآخر مدمج في الغرض الذي هو موجود في الكلام، فإن هذه الآية أدمجت فيها المبالغة في المطابقة لأن انفراده سبحانه بالحمد في الآخرة وهي الوقت الذي لا يحمد فيه سواه مبالغة في وصف ذاته بالانفراد والحمد وهذه وإن خرج الكلام فيهما مخرج المبالغة في الظاهر فالأمر فيها حقيقة في الباطن لأنه أولى بالحمد في الدارين ورب الحمد والشكر والثناء الحسن في المحلين

حقيقة ، وغيره من جميع خلقه إنما يحمد في الدنيا مجازا ، وحقيقة حمده راجعة إلى ولي الحمد سبحانه .

[سورة القصص (28) : الآيات 71 إلى 75]

(269/592)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (75)

اللغة :

(سَرْمَداً) : السرمد : الدائم المتصل وقد اختلف العلماء في اشتقاقه فقيل هو من السرد وهو المتابعة والميم مزيدة ووزنه فعمل كما في دلامص من الدلاص يقال درع دلاص أي ملساء متينة وهذا ما رجحه الزمخشري وغيره واختار صاحب القاموس وبعض النحاة

أن الميم أصلية ووزنه فعلل لأن الميم لا تنقاس زيادتها في الوسط والآخر .

الاعراب :

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ) الهمزة للاستفهام ورأيتم فعل وفاعل أي أخبروني وإن شرطية وجعل

اللّه عليكم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط واللّه فاعل وعليكم حال والليل مفعول جعل الأول وسرمدا مفعوله الثاني والى يوم القيامة صفة لسرمدا وقد علقت أرأيتم عن العمل بسبب الاستفهام وجواب الشرط محذوف يقدر بما يقتضيه السياق وتقديره فأخبروني .

)

(270/592)

مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ) الجملة الاستفهامية في محل نصب مفعول أرأيتم ومن اسم استفهام مبتدأ وإله خبر وغير اللّه صفة إله وجملة يأتيكم صفة ثانية لإله وبضياء جار ومجرور متعلقان بيأتيكم ، أفلا الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والفاء عاطفة على محذوف مقدر ولا نافية ويسمعون فعل مضارع والواو فاعل .

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ

تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ) تقدم اعرابها .

(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) من رحمته خبر مقدم وجعل لكم مؤول بمصدر بتقدير أن مبتدأ مؤخر وهو كثير في كلامهم ومنه المثل :

تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . وجعل فعل ماض وفاعله مستتر تقديره هو ولكم مفعول جعل الثاني والليل مفعول جعل الأول والنهار عطف على الليل ، وزواج بينهما لنكتة سيرد تفصيلها في باب البلاغة ، ولتسكنوا اللام للتعليل وتسكنوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والواو فاعل وفيه متعلقان بتسكنوا ولتبتغوا من فضله عطف على لتسكنوا ولعلكم لعل واسمها وجملة تشكرون خبرها .

(وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) تقدم اعرابها بلفظها قريبا فجدد به عهدا . (وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ) الواو عاطفة ليتساوق الكلام ونزعنا فعل وفاعل أي أخرجنا

و من كل أمة متعلقان بنزعنا وشهيدا مفعول به ، فقلنا عطف على نزعنا وجملة ها توا مقول القول وها توا فعل أمر وفاعل وبرهانكم مفعول به . (فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ) الفاء عاطفة وعلموا فعل ماض وفاعل وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي علموا وأن واسمها ولله خبرها وضل فعل ماض وعنهم متعلقان بضل وما فاعل وجملة كانوا صلة وكان واسمها وجملة يفترون خبرها .

البلاغة :

1- المناسبة :

في قوله " أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا " إلى قوله " أفلا تبصرون " فن المناسبة وهي ضربان : مناسبة في المعاني ومناسبة في الألفاظ فالمعنوية هي أن يبتدىء المتكلم بمعنى ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ ، فإنه سبحانه لما أسند جعل الليل سرمدا إلى يوم القيامة لنفسه وهو القادر الذي جعل الشيء لا يقدر غيره على مضادته قال " أفلا تسمعون " لمناسبة السماع للطرف المظلم من جهة صلاحية الليل للسماع دون الإبصار لعدم نفوذ البصر في الظلمة ، ولما أسند جعل النهار سرمدا إلى يوم القيامة لنفسه كأن لم يخلق فيه ليل البتة قال في فاصلة هذه الآية " أفلا تبصرون " لمناسبة ما بين النهار والإبصار .

أما المناسبة اللفظية فسيأتي حديثها في هذا الكتاب .

2- اللف والنشر :

اللف والنشر في قوله " ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " وقد تقدم بحث هذا الفن وذكرنا انه عبارة عن ذكر متعدد على وجه التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من المتعدد من غير تعيين ثقة بأن السامع يميز ما لكل واحد منها ويرده إلى ما هو له ، فقد زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة أولها : لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ، ولتبتغوا من فضل في ثانيهما وهو النهار ، ولإرادة شكركم وهذا من أطرف ما يتفنن به المتكلم نثرا أو شعرا .

3- صحة المقابلات :

وفي هذه الآية أيضا فن عرفوه بأن صحة المقابلات ، وهو عبارة عن توخي المتكلم ترتيب الكلام على ما ينبغي فإذا أتى في صدره بأشياء قابلها في عجزه بأضدادها أو بأغيارها من المخالف والموافق على الترتيب بحيث يقابل الأول بالأول والثاني بالثاني ولا يخرم من ذلك شيئا في المخالف والموافق ومتى أخل بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة ، وهذه الآية من معجز هذا الباب ، فقد جاء الليل والنهار في صدر الكلام وهما ضدان وجاء السكون والحركة في عجزه وهما ضدان ومقابلة كل طرف منه بالطرف الآخر على الترتيب ، وعبر

سبحانه عن الحركة بلفظ الارداف فاستلزم الكلام ضربا من المحاسن زائدا على المقابلة والذي أوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل كون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة وابتغاء الفضل حركة للمصلحة دون المفسدة وهي اشتراك الإعانة بالقوة وحسن الاختيار

(273/592)

الدال على رجاحة العقل ، وسلامة الحسّ ويستلزم إضاءة الطرف الذي تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه ليهتدي المتحرك إلى بلوغ المآرب ووجوه المصالح ويتقي أسباب المعاطب ، والآية سيقت للاعتداد بالنعم فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه وتابعه ليتم حسن البيان فتضمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية عدة من المنافع والمصالح التي لو عددت بألفاظها الموضوعة لها لاحتاجت في العبارة عنها إلى ألفاظ كثيرة فحصل بهذا الكلام بهذا السبب عدة ضروب من المحاسن ألا تراه سبحانه جعل العلة في وجود الليل والنهار حصول منافع الإنسان حيث قال " لتسكنوا " و" لتبتغوا " بلام التعليل فجمعت هذه الكلمات المقابلة والتعليل والاشارة والإرداف والائتلاف وحسن النسق وحسن البيان لمجيء الكلام فيها متلاحما آخذة أعناق بعضه بأعناق بعضه ، ثم أخبر

بالخبر الصادق أن جميع ما عدده من النعم التي هي من لفظي الإشارة والإرداف بعض رحمته حيث قال بحرف التبعيض " ومن رحمته " وكل هذا في بعض آية عدتها إحدى عشرة لفظة ، فالحظ هذه البلاغة الظاهرة والفصاحة المتظاهرة .

4- التفسير :

وفي قوله " ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " فن التفسير وهو أن تذكر أشياء ثم تفسرها بما يناسبها ، ومنه قول ابن حيوس .

ومقرطق يغني النديم بوجهه عن كأسه الملأى وعن إبريقه

فعل المدام ولونها ومذاقها في مقلتيه ووجنتيه وريقه

[سورة القصص (28) : الآيات 76 إلى 82]

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ

أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ (80)

فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (82)

اللغة :

)

(275/592)

لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ) أي تنوء بها العصبة أن تتكلف النهوض بها وسيأتي مزيد عن القلب في هذا التعبير في باب البلاغة ، يقال ناء ينوء نوءا وتنواء : نهض بجهد ومشقة وناء به الحمل أثقله وأماله وناء النجم سقط في المغرب مع الفجر وطلع آخر يقابله من ساعته في المشرق وفي المصباح : " وناء ينوء نوءا مهموز من باب قال : نهض " وفي القاموس :

ناء بالحمل نهض متثاقلا وناء به الحمل أثقله وأماله كأناءه وناء فلان أثقل فسقط ضد .

(المفاتح) : جمع مفتاح وكان حقه أن يجمع على مفاتيح ولكن هذه الياء قد تحذف كما أنهم قد يجتلبون ياء في الجمع الذي لا ياء فيه وقيل إن مفاتحه جمع مفتح فلا حذف فيه .

الاعراب :

(إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى) كلام مستأنف مسوق لذكر قصة قارون وما تنطوي عليه من عظات وعبر ، وإن حرف مشبه بالفعل وقارون اسمها وهو علم أعجمي مثل هارون ولم ينصرف للعلمية والعجمة ولو كان فاعولا من قرن لانصرف ، وستأتي قصته قريبا وجملة كان خبر إن واسم كان مستتر يعود على قارون ومن قوم موسى خبر كان أي ابن عمه أو ابن خالته وآمن به كما سيأتي . (فَبَغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) الفاء عاطفة وبغى فعل ماض وفاعله مستتر يعود على قارون وعليهم متعلقان ببغى وآتيناه فعل ماض وفاعل ومفعول به ومن الكنوز

(276/592)

متعلقان بآتيناه وما اسم موصول مفعول به ثان لآتيناه وإن حرف مشبه بالفعل ومفاتحه اسم إن ولتنوء اللام المزحلقة وتنوء فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هي يعود على المفاتح جمع

مفتح بالكسر وهو ما يفتح به والجملة خبر إن وجملة إن مفاتحه لتنوء بالعصبة لا محل لها لأنها صلة وبالعصبة متعلقان بتنوء وأولي القوة صفة للعصبة . (إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) الظرف متعلق بتنوء وقيل باذكر مضمرا وقال أبو البقاء : " ظرف لآتيناه ، ويجوز أن يكون ظرفا لفعل محذوف دل عليه الكلام أي بغى إذ قال له قومه " وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها وله متعلقان بقال وقومه فاعل وجملة لا تفرح مقول القول ولا ناهية وتفرح فعل مضارع مجزوم بلا وفاعل تفرح مستتر تقديره أنت وجملة إن اللّه تعليل للنهي وسيأتي سر هذا التعليل في باب البلاغة وان واسمها وجملة لا يحب الفرحين خبرها .

(وَابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا) الواو عاطفة وابتغ فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر تقديره أنت وفي حرف جر وما مصدرية أو موصولية والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال أي متقلبا فيما آتاك ومعنى " في " هنا السببية وجملة آتاك اللّه لا محل لها وآتاك اللّه فعل ماض ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر والدار مفعول ابتغ والآخرة صفة للدار ولا تنس لا ناهية وتنس فعل مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر تقديره أنت ونصيبك مفعول به ومن الدنيا متعلقان بمحذوف على أنه حال والنصيب ما يكفيك ويسد حاجتك ويصلح أمورك ، وسيأتي مزيد

بحث من النصيب والمراد منه في باب البلاغة . (وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) الواو عاطفة وأحسن فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وكما نعت لمصدر محذوف أي إحسانا مثل الإحسان الذي أحسن اللّه به إليك وإليك متعلقان بأحسن ولا تبغ الفساد عطف على ما تقدم وفي الأرض متعلقان بالفساد أو بتبغ وجملة إن اللّه تعليل للنهي المتقدم وان واسمها وجملة لا يحب المفسدين خبرها . (قالَ : إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي) استئناف مسوق للإجابة عن قولهم إن ما عندك تفضل وإنعام من اللّه فأنفق منه شكرا لمن أنعم به عليك ، وإنما كافة ومكفوفة وأوتيته فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل والهاء مفعول به ثان وعلى علم في موضع الحال من نائب الفاعل في أوتيته وعندي ظرف متعلق بمحذوف صفة لعلم أي إنما أوتيته حال كوني متصفا بالعلم الذي عندي . قالوا : لم يكن في بني إسرائيل أعلم منه بالتوراة بعد موسى وهارون . (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً) الهمزة للاستفهام الانكاري والواو عاطفة على مقدر دخلت عليه الهمزة ، أي أعلم ما ادعاه أو لم يعلم ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ويعلم فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله ضمير مستتر تقديره هو يعود على قارون وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يعلم وأن واسمها وجملة قد أهلك خبرها وفاعل أهلك ضمير مستتر تقديره هو يعود على

اللّه ومن قبله متعلقان بأهلك ومن القرون حال من " من هو أشد " مقدمة عليه ومن اسم موصول مفعول به لأهلك وهو مبتدأ وأشد خبر والجملة صلة الموصول وقوة تمييز ومنه متعلقان بأشد وأكثر جمعا عطف على أشد منه قوة .

(278/592)

)

وَلا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) الواو عاطفة لتربط الجملة بما قبلها على سبيل التهديد والوعيد أي ان اللّه مطلع على ذنوب المجرمين لا يحتاج إلى سؤال عنها ، ولا نافية ويسأل فعل مضارع مبني للمجهول وعن ذنوبهم متعلقان بيسأل والمجرمون نائب فاعل .

(فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) الفاء عاطفة على قال " إنما أوتيته على علم " وما بينهما اعتراض وعلى قومه متعلقان بخرج وفي زينته متعلقان بمحذوف حال أي متبخترا في زينته متقلبا في تعاجيبه ، وسيأتي وصف مسهب للزينة التي خرج حاليا بها . (قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان الشعور الذي خالج المؤمنين والكافرين على السواء عند ما رأوا هذا النعيم المتدفق والرواء العجيب جريا على ديدن البشر من تمني المناعم . وقال الذين فعل وفاعل

وجملة يريدون صلة والحياة مفعول به والدنيا صفة للحياة ويا حرف نداء والمنادى محذوف وليت حرف تمن ونصب ولنا خبرها ومثل اسمها المؤخر وما اسم موصول مضاف اليه وجملة أوتي صلة وهو فعل ماضي مبني للمجهول وقارون نائب فاعل وهذا التمني على سبيل الغبطة وهي أن يتمنى الإنسان مثل نعمة صاحبه من غير أن يتمنى زوالها منه أما الحسد فهي تمني النعمة التي يتمتع بها المحسود وزوالها عنه ، وفي الحديث :

" قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل يضر الغبط ؟ فقال : لا إلا كما يضرّ العضاة الخبط " والعضاة كل شجر يغطلم فيه شوك والخبط ضرب الشجرة بالعصا ليسقط ورقها . وان واسمها واللام المزحلقة وذو حظ خبرها وعظيم صفة لحظ . والحظ : البخت والجد يقال رجل مبخوت ومجدود كما يقال فلان ذو حظ وحظيظ ومحظوظ وما الدنيا إلا أحاظ قسّمت وجدود .

(279/592)

)

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ) وقال الذين فعل وفاعل وجملة أوتوا العلم صلة وويلكم مفعول لفعل محذوف على سبيل الردع أي ألزمكم اللّه ويلكم . (ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

صالِحاً وَلا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ) ثواب اللّه مبتدأ وخير خبر ولمن متعلقان بخير وجملة آمن صلة وعمل صالحا عطف على آمن والواو عاطفة ولا نافية ويلقاها فعل مضارع مبني للمجهول والهاء مفعول به ثان وإلا اداة حصر والصابرون نائب فاعل مؤخر وهو المفعول الأول والضمير يعود على الإثابة أو الأعمال الصالحة . (فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ) الفاء هي الفصيحة أي إن شئت أن تعلم مصيره وما آل اليه أمره ، وخسفنا فعل وفاعل وبه متعلقان بخسفنا وبداره عطف على به والأرض مفعول به ، والخسف له معان كثيرة منها خسف المكان يخسف خسوفا من باب ضرب أي ذهب في الأرض وغرق وخسف القمر ذهب ضوءه وخسفت العين ذهب ضوءها وغابت وخسف في الأرض وخسف به فيها غاب ، وفي حديث ابن عباس وأبي هريرة بسند ضعيف عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : " من لبس ثَتَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ)

(280/592)

الواو عاطفة وأصبح فعل ماض ناقص والذين اسمها وجملة تمنوا صلة ومكانه مفعول به وبالأمس متعلقان بتمنوا وجملة يقولون خبر أصبح ويجوز أن تكون أصبح تامة والذين هو الفاعل وجملة يقولون في محل نصب على أنها حال أي قائلين . (وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ) وي فيه مذاهب نختار منها واحدا وسنورد الباقي في باب الفوائد ، فهي اسم فعل مضارع معناه أتعجب والكاف حرف جر وان حرف مشبه بالفعل وهي مع ما في حيزها في محل جر بالكاف والجار والمجرور متعلقان بوي ومعنى الكاف هنا التعليل لا التشبيه واللّه اسمها وجملة يبسط الرزق خبر أن والرزق مفعول به ولمن متعلقان بيبسط وجملة يشاء صلة ومن عباده حال ويقدر عطف على يبسط . (لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا) لولا حرف امتناع لوجود متضمن معنى الشرط وأن وما في حيزها مصدر مؤول مرفوع بالابتداء والخبر محذوف وجوبا ومنّ اللّه فعل وفاعل وعلينا متعلقان بمنّ واللام واقعة في جواب لولا وجملة خسف بنا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ومفعول خسف محذوف أي الأرض . (وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ) تقدم اعرابها وسيأتي المزيد منه قريبا وهو تأكيد لما قبله .

البلاغة :

1 – القلب :

في قوله تعالى : " وَآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ)

في هذا التعبير فن القلب وقد تقدم القول فيه ، والأصل لتنوء العصبة بالمفاتح أي لتنهض بها بجهد ، قال أبو عبيد : هو كقولهم عرضت الناقة على الحوض وأصله عرضت الحوض على الناقة وقول حسان بن ثابت :

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

على أنيابها أو طعم غضّ من التفاح هصره اجتناء

(281/592)

ويروى كأن سلافة ، والسلافة أول ما يسيل من ماء العنب أما سبيئة فمعناه مشتراة يقال سبأ الخمر كنصر إذا اشتراها ويروى أيضا خبيئة أي مصونة في الخابية وبيت رأس قرية بالشام اشتهرت بجودة الخمر ، وقد وقع بين صاحب القاموس وصاحب الصحاح خلاف بين سبيئة فقال صاحب القاموس وقد وهم الجوهري وانما سبى الخمر سبيا وسباء حملها من بلد إلى بلد ، ومزاجها خبر يكون مع أنه معرفة وعسل اسمها مع أنه نكرة وكان القياس العكس فقلب الكلام ، وتأوله الفارسي بأن انتصاب مزاجها على الظرفية المجازية ، وروي برفع الكلمات الثلاث على أن اسم كان ضمير الشأن وجملة يكون صفة سبيئة وعلى أنيابها في البيت الثاني خبر كأن المشددة والمزاج ما يمزج به غيره والمراد بالانياب الثغر كله فهو مجاز ، والغض الطري الرطب وهو صفة لموصوف محذوف أي طعم عضن غض ، والهصر عطف الغصن وإمالته إليك من غير إبانة لتجني ثمره والتهصير مبالغة فيه ويروى جناء بدل اجتناء وهو الجنى بالقصر ومدّه هنا ضرورة واسناده التهصير إلى الاجتناء

مجاز عقلي من باب الاسناد للسبب ، شبّه ريقها بالخمر الجيدة وطعمه بطعم تفاح ميل غصنه

الجاني ليجتنيه إشارة إلى انه مجني الآن لم يمض عليه شيء من الزمان وتلويحا لتشبيه محبوبته بالأغصان في الرقة واللين والتثني .

هذا وقد قيل أنه لا قلب في الآية وان الباء للتعدية كالهمزة والأصل لتنوء المفاتح العصبة الأقوياء أي تثقلهم ، وهو رأي صاحب العمدة أيضا .

2- المبالغة :

و ذلك في وصف كنوز قارون حيث ذكرها جمعا وجمع المفاتح أيضا وذكر النوء والعصبة وأولي القوة قيل كانت تحمل مفاتيح خزائنه ستون بغلا لكل خزانة مفتاح وهذه المبالغة في القرآن من أحسن المبالغات وأغربها عند الحذاق ، وهي أن يتقصى جميع ما يدل على الكثرة وتعدد ما يتعلق بما يملكه ، استمع إلى عمرو بن الأيهم التغلبي كيف أراد أن يصف قومه بالكرم فلم يزل يتقصى ما يمكن أن يقدر عليه من صفات فقال :

ونكرم جارنا ما دام فينا وتتبعه الكرامة حيث كانا

3- بلاغة التعليل :

وفي قوله " إذ قال له قومه لا تفرح إن اللّه لا يحب الفرحين " حسن تعليل جميل بجمله " إن اللّه لا يحب الفرحين " لأن الفرح المحض في الدنيا من حيث أنها دنيا مذموم على الإطلاق ، وأي فرح بشيء زائل وظل حائل . وقد رمق أبو الطيب سماء هذه البلاغة بقوله البديع :

كأن الحزن مشغوف بقلبي فساعة هجرها يجد الوصالا

كذا الدنيا على من كان قبلي صروف لم يد من عليه حالا

أشد الغم عندي في سرور تيقّن عنه صاحبه انتقالا

ألست تراه كيف جعل الحزن عالقا بفؤاده حتى كأنه يعشقه ولكنه لا يواصلني إلا حين تهجرني فإذا هجرتني واصل الحزن قلبي ؟

ثم كيف يحث على الزهد في الدنيا لمن رزق فيها سرورا ومكانة لعلمه أنه زائل عما حين ، والسرور الذي يعرف صاحبه أنه منحسر عنه قريبا هو أشد الغم ، وهذا من أبلغ الكلام وأوعظه وأدله على عبقرية شاعر الخلود .

ومن جميل ما قيل في هذا المعنى قول هدبة بن خشرم لما قاده معاوية إلى الحرة ليقتصّ منه في زياد بن زيد العذري فلقيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فاستنشده فأنشده :

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب

ولا أبتغي شرا إذا الشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب

و المفراح كثير الفرح والمراد نفي الفرح من أصله وصرف الدهر حد ثانه وإذا شرطية فلا بد بعدها من فعل أي إذا سرني الدهر وإذا كان الشر تاركي ، وأحمل مبني للمجهول وأركب للفاعل والأول فعل الشرط والثاني جوابه وجزاؤه .

4- التتميم :

وفي قوله " ولا تنس نصيبك من الدنيا " تتميم لا بد منه لأنه إذا لم يغتنمها ليعمل للآخرة لم يكن له نصيب في الآخرة ففي الحديث :

" اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك " وقد عاد أبو الطيب فرمق سماء هذه البلاغة مرة ثانية فقال من قصيدة يرثي بها والدة سيف الدولة وقد توفيت بميّافارقين وجاءه الخبر بموتها إلى حلب سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وأنشد أبو الطيب قصيدته في جمادى الآخرة من السنة ونورد نخبة مختارة منها :

نعد المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

وترتبط السوابق مقربات وما ينجين من خبب الليالي

ومن لم يعشق الدنيا قديما ولكن لا سبيل إلى الوصال

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

والشاهد المراد هو في قوله : نصيبك في حياتك البيت ، أي إن نصيب الإنسان من وصال حبيبه في حياته كنصيبه من وصال خياله في منامه ، ووجه الشبه : اتفاق الأمرين في سرعة انقضائهما ، واشتباههما في عجلة زوالهما .

الفوائد :

1 - قصة قارون :

نسج المؤرخون والقصاصون روايات شتى وأساطير عجيبة حول هذه القصة الفريدة التي تصلح نواة لمسرحية عالمية تمثّل الزهو الذي يصيب المتمولين ، وقد اختلف في نسبه ، قيل كان ابن عم موسى بن عمران وقيل كان ابن خالته ، وهو أول من ضرب به المثل في كثرة المال ، وفي قوله تعالى " وكان من قوم موسى " دليل على إيمانه وقرابته وكان من أحسن الناس

وجها وقراءة للتوراة ويسمّى المنور لحسنة وقيل إنه كان من السبعين الذين اختارهم موسى من قومه ، قيل انه خرج راكبا بغلة شهباء ومعه سبعمائة وصيفة على بغال شهب عليهن الحلي والحلل والزينة فكاد يفتن بني إسرائيل ثم بغى وتكبر وركب رأسه حتى أهلكه اللّه . وقد أخطأ صاحب المنجد فزعم أنه وزير فرعون كأنه ظنه هامان وهذا من نتائج التسرع وعدم التحقيق . وكان سبب هلاكه أنه حسد هرون على الحبورة ، وذلك أن موسى لما قطع البحر وأغرق فرعون جعل الحبورة لهارون فحصلت له النبوة ، والحبورة بضم الحاء : الإمامة ، مأخوذة من الحبر بمعنى الرئيس في الدين ، فوجد قارون من ذلك في نفسه وقال : يا موسى لك الرسالة ولهارون الحبورة ولست في شيء لا أصبر على هذا ، فقال موسى : واللّه ما صنعت ذلك لهارون بل جعله اللّه له ، فقال واللّه لا أصدقك أبدا حتى تأتيني بآية فأمر موسى رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه فجاءوا بها فألقى موسى بها في قبّة له وكان ذلك بأمر اللّه ودعا موسى أن يريهم اللّه بيان ذلك ، فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هارون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى : يا قارون أما ترى صنع اللّه تعالى لهارون فقال : واللّه ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر ثم اعتزل بمن معه من بني إسرائيل وكان كثير المال والتبع فدعا عليه موسى .

و قيل : انه لما نزلت آية الزكاة على موسى جاء موسى اليه وصالحه على كل ألف دينار دينار وألف شاة وعلى هذا الأسلوب فحسب ذلك فوجده مالا عظيما فجمع قومه من بني إسرائيل وقال إن موسى يأمركم بكل شيء فتطيعونه وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا : أنت كبيرنا فمرنا بما شئت فقال عليّ بفلانة البغي فأعطاها مائة دينار وأمرها أن تقذف موسى بنفسها وجاء إلى موسى وقال :

إن قومك قد اجتمعوا لتأمرهم وتناههم فخرج فقام فيهم خطيبا فقال : يا بني إسرائيل من سرق قطعناه ، ومن زنى جلدناه ، فإن كانت له امرأة رجمناه فصاح به قارون وقال له وان كنت أنت ؟ فقال نعم . قال :

فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة البغي ، فقال : عليّ بها ، فلما جاءت قال لها موسى : يا فلانة أنا فعلت ما يقول هذا ؟ فقالت :

لا واللّه يا نبي اللّه وانما جعل لي جعلا حتى أقذفك بنفسي ، فسجد موسى يبكي ويتضرع ، فأوحى اللّه إليه : مر الأرض بما تشتهيه ، فقال : يا أرض خذيه ، فأخذته حتى غيبت بعضه ثم لم يزل يقول خذيه وهو يغيب حتى لم يبقى من جسده إلا القليل وهو يتضرع الىّ موسى ويسأله وهو يقول خذيه إلى أن غاب . إلى آخر هذه القصة التي ينفسح فيها الخيال ويمتد إلى أبعد مداه .

2- وي كأنه :

وعدناك بالمزيد من بحث " وي كأنه " فنقول : ذهب الخليل وسيبويه إلى أن " وي " منفصلة معناها أعجب ثم ابتدأ فقال : كأنه لا يفلح الكافرون وكأن هاهنا لا يراد بها التشبيه بل القطع واليقين ، وعليه بيت الكتاب :

وي كأن من يكن له نشب يحب ومن يفتقر يعش عيش حر

(286/592)

لم يرد هاهنا التشبيه بل اليقين ، وذهب أبو الحسن إلى أن ويك مفصولة من أنه ، وكان يعقوب يقف على ويك ثم يبتدىء " أنه لا يفلح الكافرون " كأنه أراد بذلك الاعلام بأن الكاف من جملة " وي " وليست التي في صدره " كأن " انما هي " وي " على ما ذكرنا أضيف إليها الكاف للخطاب على حدها في ذلك وأولئك ويؤيد ذلك قول عنترة :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

فجاء بها متصلة بالكاف من غير " أن " فهي حرف خطاب وليست اسما مخفوضا كالتي في غلامك وصاحبك لأن " وي " إذا كانت اسما للفعل فهي في مذهب الفعل فلا تضاف لذلك وأن وما بعدها في موضع نصب باسم الفعل الذي هو " وي " ولذلك فتحت أن

والتقدير أعجب لأنه لا يفلح الكافرون ، فلما سقط الجار وصل الفعل فنصب ، وذهب الكسائي إلى أن الأصل " ويلك " فحذفت اللام تخفيفا وهو بعيد وليس عليه دليل ، وقد ذهب بعضهم إلى أن

" ويكأنه " بكساله اسم واحد ، والمراد شدة الاتصال وانه لا ينفصل بعضه عن بعض .

وهذا ونص عبارة سيبويه : " وسألت الخليل عن قوله :

" ويكأنه لا يفلح " وعن قوله " ويكأن اللّه " فزعم أنها مفصولة من " كأن " والمعنى على أن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم أو نبهوا فقيل لهم أما يشبه أن يكون ذا عندكم هكذا .

وقال الأعلم : " الشاهد في قوله " ويكأن " وهي عند الخليل وسيبويه مركبة من " وي " ومعناها التنبيه مع " كأن " التي للتشبيه ومعناه : ألم تر ، وعلى ذلك تأولها المفسرون .

وزعم بعض النحويين أن قولهم " ويكأن " بمعنى ويلك اعلم ان ، فحذفت اللام من " ويلك " كما قال عنترة " ويك عنتر أقدم " وحذف اعلم لعلم المخاطب مع كثرة الاستعمال وهذا القول مردود لما يقع فيه من كثرة التغيير .

وقال أبو سعيد السيرافي : في " ويكأن " ثلاثة أقوال : أحدها قول الخليل تكون " وي " كلمة يقولها المنتدم ويقولها المندّم غيره ومعنى " كأن " التحقيق ، والثاني قول الفراء تكون " ويك " موصولة بالكاف و " أن " منفصلة ومعناه عنده تقرير كقولك : أما ترى ، والقول الثالث يذهب إلى أن " ويك " بمعنى " ويلك " وجعل " أن " مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال : ويلك اعلم أن اللّه .

وقال الفراء : " ويكأن " في كلام العرب تقرير كقول الرجل :

أما ترى إلى صنع اللّه ، وقال الشاعر :

وي كأن من يكن له نشب (البيت) .

وأخبرني شيخ من أهل البصرة قال : سمعت أعرابية تقول لزوجها : أين ابنك ويلك ؟ فقال : ويكأنه وراء البيت ، معناه : أما ترينه وراء البيت ؟ وقد يذهب بعض النحويين إلى أنهما كلمتان يريد :

" ويك ، انه " أراد ويلك فحذف اللام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم انه وراء البيت فاضمر اعلم ، ولم نجد العرب تعمل الظن والعلم بإضمار مضمر في أن وذلك انه يبطل إذا كان بين الكلمتين أو في آخر الكلمة ، فلما أضمره جرى مجرى الترك ، ألا ترى أنه لا يجوز في الابتداء أن تقول يا هذا إنك قائم ولا يا هذا ان فمت تريد علمت أو أعلم أو ظننت أو أظن ، وأما حذف اللام من " ويلك " حتى تصير " ويك " فقد تقوله العرب

لكثرتها في الكلام قال عنترة : ولقد شفى نفسي (البيت) وقد قال آخرون ان معنى " وي كأن " أن " وي " منفصلة كقولك لرجل " وي " تريد أما ترى ما بين يديك فقال : وي ثم استأنف كأن يعني أن اللّه يبسط الرزق لمن يشاء وهي تعجب وكأن في مذهب الظن والعلم فهذا وجه مستقيم ولم تكتبها العرب منفصلة ولو كانت على هذا لكتبوها منفصلة ، وقد يجوز أن تكون كثر بها الكلام فوصلت بما ليست منه وقال أبو الفتح ابن جني : في " ويكأنه " ثلاثة أقوال :

- فمنهم من جعلها كلمة واحدة فلم يقف على " وي " .

- ومنهم من يقف على " وي " .

(288/592)

- ويعقوب يقف على " ويك " وهو مذهب أبي الحسن .

والوجه عندنا قول الخليل وسيبويه وهو أن " وي " اسم سمي به الفعل على قياس مذهبهما فكأنه اسم اعجب ثم ابتدأ فقال : "كأنه لا يفلح الكافرون " ف "كأن " هنا إخبار عار من معنى التشبيه ومعناه ان اللّه يبسط الرزق و" وي " منفصلة من "كأن " وعليه قول الشاعر : وي كأن من (البيت) ومما جاءت فيه "كأن " عارية من معنى

التشبيه قوله :

كأنني حين أمسي لا تكلمني متيم أشتهي ما ليس موجودا

أي أنا حين أمسي متيم من حالي كذا وكذا .

وقال البغدادي في خزانة الأدب : " وأما قول أبي الفتح أن " وي " عند سيبويه والخليل بمعنى أعجب فمردود وكذا قوله : ان " كأن " عندهما عارية عن التشبيه ، وأما تنظيره لخلو التشبيه بقوله :

كأنني حين أمسي (البيت) فهو مذهب الزجاج فيما إذا كان خبر " كأن " مشتقا لا تكون للتشبيه لئلا يتحد المشبه والمشبه به . وأجيب بأن الخبر في مثله محذوف أي كأنني رجل متيم فهي على الأصل للتشبيه " .

وقال التبريزي في شرح المعلقات " وقوله " ويك " قال بعض النحويين معناه ويحك وقال بعضهم معناه ويلك وكلا القولين خطأ لأنه كان يجب أن يقرأ " ويك انه " كما يقال ويلك انه وويحك انه " .

وقال الزمخشري في كشافه : " وي مفصولة عن كأن وهي كلمة تنبه على الخطأ وتندم ومعناه أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في

تمنيهم ، وقولهم : " يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون " وتندموا ثم قالوا " كأنه لا يفلح الكافرون

" أي ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح وهو مذهب الخليل وسيبويه قال :

وي كأن من يكن له نشب (البيت) .

(289/592)

وحكى الفراء أن اعرابية قالت لزوجها : أين ابنك ؟ فقال : وي كأنه وراء البيت ، وعند الكوفيين أن " ويك " بمعنى " ويلك " وان المعنى ألم تعلم انه لا يفلح الكافرون ويجوز أن تكون الكاف كاف الخطاب مضمومة إلى " وي " كقوله " ويك عنتر أقدم " وانه بمعنى لأنه واللام لبيان المقول لأجله هذا القول ، أو لأنه لا يفلح الكافرون كأن ذلك وهو الخسف بقارون ومن الناس من يقف على وي ويبتدىء كأنه ، ومنهم من يقف على ويك " .

رأي الشهاب الحلبي :

وقال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين وهو مطلع جدا : " وي كأنه ، فيه مذاهب :

أحدها : أن وي كلمة برأسها وهي اسم فعل معناها أعجب أي أنا والكاف للتعليل وأن وما في حيزها مجرورة بها أي أعجب لأن اللّه يبسط الرزق إلخ وقياس هذا أن يوقف على وي وحدها وقد فعل هذا الكسائي :

الثاني : قال بعضهم : كأن هنا للتشبيه إلا أنه ذهب منها معناه وصارت للخبر واليقين

وهذا أيضا يناسبه الوقف على وي .

الثالث : أن ويك كلمة برأسها والكاف حرف خطاب وأن معمولة لمحذوف أي اعلم أن اللّه يبسط الرزق إلخ قاله الأخفش وهذا يناسب الوقف على ويك وقد فعله أبو عمرو .

الرابع : أن أصلها ويلك فحذفت اللام وهذا يناسب الوقف على الكاف أيضا كما فعل أبو عمرو .

الخامس : أن ويكأن كلها كلمة مستقلة بسيطة ومعناها ألم تر وربما نقل ذلك عن ابن عباس ونقل الفراء والكسائي أنها بمعنى أما ترى إلى صنع اللّه ، وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى رحمة لك في لغة حمير ولم يرسم في القرآن إلا ويكأن وويكأنه متصلة في الموضعين فعامة القراء اتبعوا الرسم والكسائي وقف على وي وأبو عمرو على ويك " .

(290/592)

و قال ابن هشام في أوضح المسالك وشرحه للشيخ خالد الأزهري : " ووا ووي وواها الثلاثة كلها بمعنى أعجب كقوله تعالى " وي كأنه لا يفلح الكافرون " فوي اسم فعل مضارع بمعنى أعجب والكاف حرف تعليل وأن مصدرية مؤكدة أي أعجب لعدم فلاح الكافرين " وهذا ما اخترناه في الاعراب ورأيناه أبعد من الارتياب وأدنى إلى الصواب .

[سورة القصص (28) : الآيات 83 إلى 88]

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (84) إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (85) وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (86) وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87)

وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

الاعراب :

)

(291/592)

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَساداً وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) كلام مستأنف مسوق لبيان أن الآخرة أعدت للذين لا يريدون علوا في الأرض . وتلك مبتدأ

والدار بدل من اسم الاشارة والآخرة صفة للدار وجملة نجعلها خبر تلك وللذين متعلقان بنجعلها على أنه مفعوله الثاني وجملة لا يريدون صلة للذين وعلوا مفعول يريدون وفي الأرض صفة لعلوا ولا فسادا عطف على علوا والعاقبة مبتدأ وللمتقين خبر . (مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها) كلام مستأنف مسوق لوعد المحسنين ووعيد المسيئين بعد ذكر أن العاقبة للمتقين . ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ وجاء فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وبالحسنة متعلقان بجاء والفاء رابطة لجواب الشرط لأنه جملة اسمية وله خبر مقدم وخير منها مبتدأ مؤخر والجملة في محل جزم جواب الشرط والفعل والجواب معا خبر من .

(وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ) عطف على ما تقدم ويجزى فعل مضارع مبني للمجهول والذين نائب فاعل وجملة عملوا السيئات صلة الموصول وإلا أداة حصر وما مفعول ثان ليجزى وجملة كانوا صلة وجملة يعملون خبر كانوا .

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ) إن واسمها وجملة فرض صلة وعليك متعلقان بفرض والقرآن مفعول به ، ومعنى فرض عليك القرآن : أوجب عليك تلاوته وتبليغه ، واللام المزحلقة ورادك خبر إن والكاف في محل جر بالإضافة والى معاد متعلقان براد لأنه اسم فاعل ، وتنكيره يدل على أمور ستأتي في باب البلاغة .

)

قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) ربي مبتدأ وأعلم خبره وهو بمعنى عالم ولذلك نصب من جملة جاء صلة وبالهدى متعلقان بجاء ومن عطف على من الأولى وهو مبتدأ وفي ضلال خبره ومبين صفته . (وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) الواو عاطفة وما نافية وكنت كان واسمها وجملة ترجو خبرها وأن وما في حيزها مفعول ترجو وإليك متعلقان بيلقى والكتاب نائب فاعل وإلا أداة حصر بمعنى لكن للاستدراك ورحمة مفعول لأجله ومن ربك صفة لرحمة ، ويجوز أن يكون الاستثناء على حاله أي متصلا ولكنه محمول على المعنى . (فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ) الفاء الفصيحة ولا ناهية وتكونن فعل مضارع ناقص مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو اسمها والكاف مفعول به والنون المذكورة نون التوكيد الثقيلة وظهيرا خبر تكونن وللكافرين متعلقان بظهيرا . (وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ) عطف على ما تقدم وقد تقدم إعراب نظيره ، ونعيده

لوجود فارق بسيط ، فلا ناهية ويصدنك فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون وحذفت الواو لأن النون لما حذفت التقى ساكنان الواو والنون المدغمة فحذفت الواو لاعتلالها ووجود دليل يدل عليها وهو الضمة وأصله يصدونك ، وعن آيات اللّه متعلقان بيصدنك والظرف متعلق بمحذوف حال وإذ ظرف لما مضى أضيف إلى مثله وإذ تضاف اليه أسماء الزمان كقولك حينئذ ويومئذ وقد تقدم بحث ذلك ، وجملة أنزلت في محل جر باضافة الظرف إليها وإليك متعلقان بأنزلت . (وَادْعُ إِلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) الواو عاطفة وادع فعل أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر تقديره أنت والى ربك متعلقان بادع ولا ناهية وتكونن مجزوم بها وقد تقدم إعرابه واسمها مستتر تقديره أنت ومن المشركين خبرها .

(وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) الواو عاطفة ولا ناهية وتدع فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت يعود على محمد صلى اللّه عليه وسلم والخطاب له والمراد غيره على حد قوله " لئن أشركت ليحبطن عملك " ومع اللّه ظرف مكان متعلق بتدع وإلها مفعول به وآخر نعت لإلها ولا إله إلا هو تقدم إعرابها والجملة في محل نصب حال . (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) كل مبتدأ وشيء مضاف اليه وهالك خبر المبتدأ وإلا أداة استثناء ووجهه مستثنى وسيأتي معنى الاستثناء في باب البلاغة ، له خبر مقدم والحكم مبتدأ مؤخر واليه متعلقان بترجعون وترجعون فعل مضارع مبني

للمجهول والواو نائب الفاعل .

البلاغة :

(294/592)

---

1 - سر التنكير في قوله " إلى معاد " للتفخيم كأن هذا المعاد قد أعد لك دون غيرك من البشر ، قيل المراد به مكة وهو يوم الفتح فمعاد الرجل بلده لأنه ينصرف منه فيعود اليه فالمعاد على هذا اسم مكان ، روي أنه صلى اللّه عليه وسلم لما خرج من الغار ليلا سار في غير الطريق مخافة الطلب فلما رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة تنزى الحنين في صدره وهاجه الشوق إلى موطنه وحنّ إلى مولده ومولد آبائه فنزلت عليه تطمينا لقلبه ، وفيها يتجلى مقدار الحنين إلى الأوطان ، وقد رمق الشعراء جميعا سماء هذا المعنى فقال ابن الرومي :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

وقال أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

والقول في حب الأوطان كثير ، ومما يؤكد ما قلناه في حب الأوطان قول اللّه عز وجل " ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم " فسوّى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم ، وقال تعالى : " وما لنا أن لا نقاتل في سبيل اللّه وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا " .

وقال بعضهم " من أمارات العاقل بره لإخوانه ، وحنينه لأوطانه ، ومداراته لأهل زمانه " .

وقيل لأعرابي : كيف تصنع في البادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك ، يمشي أحدنا ميلا فيرفضّ عرقا ثم ينصب عصاه ويلقي عليه كساءه ويجلس في فيئه يكتال الريح فكأنه في إيوان كسرى .

وقال يحيى بن طالب الحنفي من شعراء الدولة العباسية :

ألا هل إلى شم الخزامى ونظرة إلى قرقرى قبل الممات سبيل

فأشرب من ماء الحجيلاء شربه يداوى بها قبل الممات عليل

فيا أثلات القاع قلبي موكل بكن وجدوى خير كنّ قليل

ويا أثلات القاع قد مل صحبتي مسيري فهل في ظلكنّ مقيل

أريد انحدارا نحوها فيردّني ويمنعني دين عليّ ثقيل

أحدث نفسي عنك إذ لست راجعا إليك فحزني في الفؤاد دخيل

والأبيات المشهورة للصمة القشيري :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضة بعد القطار

وعيشك إذ يحل الحي نجدا وأنت على زمانك غير زار

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار

فأما ليلهن فخير ليل وأقصر ما يكون من النهار

وحسبنا ما قدمناه الآن .

2- المجاز المرسل :

في قوله تعالى "كل شيء هالك إلا وجهه " أي إلا إياه ، من ذكر البعض وإرادة الكل ، وقد جرت عادة العرب في التعبير بالأشرف عن الجملة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 7 صـ 350.396 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوْلَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الثالث والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والتسعون بعد الخمسمائة

(سورة العنكبوت)

(4/593)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة العنكبوت)

(5/593)

" فصل فى فضل السورة الكريمة "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فضل السورة

عن أُبىّ رفعه : من قرأَ العنكبوت كان له من الأَجر عشرُ حسنات ، بعدد كل المؤمنين ، والمنافقين ، وحديث علىّ : يا علىّ مَن قرأَها كتب له بكل يهودىّ ونصرانىّ مائة حَسَنة ،

ورُفع له مائةُ درجة ، وله بكل آية قرأَها ثوابُ الذين فتحوا بيت المقدس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 364 ﴾

(6/593)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

مقصودها الحث على الاجتهاد في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعاء إلى الله تعالى وحمده من غير فترة ، كما ختمت به السورة الماضية ، من غير تعريج على غيره سبحانه أصلاً ، لئلايكون مَثَلُ الفرج عند المتعوض عوضاً منه مَثَلَ العنكبوت ، فهي سورة ضعف الكافرين وقوة المؤمنين ، وقد ظهر سر تسميتها بالعنكبوت وأنه دال على مقصودها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 533 ﴾

(7/593)

فصل

قال الآلوسى :

سورة العنكبوت

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت بمكة وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير نحو ذلك وروي القول بأنها مكية عن الحسن وجابر وعكرمة وعن بعضهم أنها آخر ما نزل بمكة وفي البحر عن الحبر وقتادة أنها مدنية وقال يحيى ابن سلام : هي مكية إلا من أولها إلى قوله وليعلمن المنافقين وذكر ذلك الجلال السيوطي في الإتقان ولم يعزه وأنه لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها ثم قال : قلت ويضم إلى ذلك وكأين من دابة الآية لما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك وهي تسع وستون آية بالاجماع كما قال الداني والطبرسي وذكر الجلال في وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى أخبر في أول السورة السابقة عن فرعون أنه علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم وافتتح هذه بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الايمان بعذاب دون ما عذب به فرعون بني إسرائيل بكثير تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم وحثا على الصبر ولذا قيل هنا : ولقد فتنا الذين قبلهم وأيضا لما كان في خاتمة الأولى الاشارة إلى هجرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أي في قوله تعالى : إن الذي فرض عليك

القرآن لرادك إلى معاد على بعض الاقوال وفي خاتمة هذه الاشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله تعالى : يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة ناسب تتاليهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ 132 ﴾

(8/593)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الم أحسب الناس)

السّورة مكِّيَّة إجماعاً .

عدد آياتها تسع وستون ، بالاتفاق .

وكلماتها تسعمائة وثمانون .

وحروفها أَربعة آلاف ومائة وخمس وتسعون .

المختلف فيها ثلاث : الم ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ﴾ ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

فواصل آياتها (نمر) .

فواصل آياتها (نمر) .

على الرَّاءِ آية واحدة (قدير) سمّيت سورة العنكبوت ؛ لتكرُّر ذكره فيه ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : توبيخُ أَهل الدّعوى ، وترغيبُ أَهل التَّقوى ، والوصيَّة ببرّ الوالدين للأَبرار ، والشكاية من المنافقين فى جُرْأَتهم على حَمْل الأَوزار ، والإِشارة إلى بَلْوَى نوح والخليل ، لتسلية الحبيب ، وهجرة إبراهيم من بين قومهم إلى مكان غريب ، ووعظ لوط قومَه باختيار الخُبُث ، وعدم اتّعاظهم ، وإهلاك الله إيَّاهم ، والإِشارة إلى حديث شُعيب ، وتعيير عُبَّاد الأَصنام ، وتوبيخهم ، وتمثيل الصَّنم ببيت العنكوبت ، وإقامة حُجَج التوحيد ، ونهى الصّلاة عن الفحشاءِ والمنكر ، وأَدب الجدال مع المنكرين ، والمبتدعين ، وبيان الحكمة فى كون رسولنا صلَّى الله عليه وسلَّم أُمِّيًّا ، والخبر من استعجال الكفار العذاب وأَن كلَّ نفْس بالضرورة مَيِّت ووعد المؤْمنين بالثواب ، وضمان الحقّ رزق كلِّ دابة ، وبيان أَنَّ الدنيا دارُ فناءٍ وممات ، وأَن العُقْبى دار بقاءٍ وحياة ، وبيان حُرْمة الحَرم وأَمنه ، والإِخبار بأَنَّ الجهاد بثمن الهداية ، وأَن عناية الله مع أَهل الإِحسان ، فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا ﴾ إلى آخر السّورة .

النَّاسخ والمنسوخ :

المنسوخ فيها آية واحدة ﴿ وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ م ﴿ قَاتِلُواْ

الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 359 .

360 ﴾

(9/593)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة العنكبوت

330 - مسألة :

قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) هنا وفى الأحقاف . ولم يذكر في لقمان (حُسْنًا) ؟ .

جوابه :

أن هنا : (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، وبر الوالدين من أحسن الأعمال .

فناسب ذكر " الإحسان " إليهما ، وآية الأحقاف نزلت فيمن أبواه مؤمنان فناسب وصيته بالإحسان إليهما .

وآية لقمان : لما تضمنت ما ينبه على حقهما والإحسان إليهما بقوله تعالى : (حَمَلَتْهُ) و (

وضعته) وشدة ما تقاسيه في حمله وتربيته ، وحمل أبيه أعباء حاجتها وحاجته ، وقوله :

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ) أغنى ذلك عن ذكر "حسنا"

المذكور ههنا وفى الأحقاف .

331 – مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) وفى حم عسق : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)

جوابه :

أن الخطاب هنا لقوم إبراهيم عليه السلام ومن في زمانهم من الكفار ، ومنهم نمروذ الذي كان يعتقد أنه يصعد إلى السماء ، فقال تعالى : (وَلَا فِي السَّمَاءِ) للذين يعتقدون القدرة على صعودها .

وفى حم عسق : الخطاب للمؤمنين ، والمؤمنون لا يعتقدون

القدرة على ذلك ، فناسب ترك ذكره .

332 – مسألة :

قوله تعالى : (فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24)

وقال تعالى بعد ذلك : (خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

جمع الآيات فى الأولى ،

وأفرد في الثانية ؟ .

جوابه :

أن المراد هنا قصة إبراهيم عليه السلام وما فيها من تفاصيل

أحواله مع أبيه وقومه .

وفى الثانية : المراد خلق السموات والأرض فقط لا تفاصيل ما فيها من الآيات وأيضا :

يحتمل أن المراد "بقوم يؤمنون"

(10/593)

العموم لتنكيره ، فيدخل فيه كل مؤمن من الصحابة وغيرهم ،

ومعناه : إنه آية لكل قوم مؤمنين ، والذي بعده بالتعريف

للمتصفين بالإيمان حال نزول الآية وهم الصحابة .

333 - مسألة :

قوله تعالى : (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ) الآية . فقدم قارون هنا ، وأخره في سورة المؤمن ؟

.

جوابه :

لما قال وكانوا مستبصرين ، وكان قارون أشدهم بصيرة لحفظه التوراة ، وقرابة موسى ، ومعرفته ناسب تقديم ذكره .

وفى المؤمن : سياق الرسالة وكانت إلى قارون ومخالفته وعداوته بعد فرعون وهلاكه .

334 - مسألة :

قوله تعالى : (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (58)

تقدم في آل عمران جوابه .

335 - مسألة :

قوله تعالى : (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) وفى القصص : (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ) وفى موضع آخر : (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) .

جوابه :

أن أحوال الناس في الرزق ثلاثة :

الأول : من يبسط رزقه تارة ويضيق عليه أخرى ، وهو يفهم من آية العنكبوت بقوله تعالى : "له" .

والثاني : يوسع على قوم مطلقا ويضيق على قوم مطلقا ، ويفهم من سورة القصص .

والثالث : الإطلاق من غير تعيين بسط ولا قبض ، فأطلق من غير ذكر عباد وخصت

العنكبوت بالحال الأول لتقدم قوله

تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) ، ثم فصل حالهم في بسطه تارة

وقبضه تارة . وأما آية القصص فتقدمها قصة قارون ، فناسب

. الحال الثاني أنه يبسط الرزق لمن يشاء مطلقا لا لكرامته

كقارون ، ويقبضه عمن يشاء لا لهوانه كالأنبياء الفقراء

منهم . وأما بقية الآيات فمطلق من غير تعيين كأنواع بعض

الحيوانات من الآدميين وغيرهم .

336 - مسألة :

قوله تعالى : (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا) وفى الجاثية والبقرة : (بَعْدَ) بحذف (مِنْ) ؟

.

جوابه :

(11/593)

أن الأرض يكون إحياؤها تارة عقيب شروع موتها ، وتارة بعد تراخى موتها مدة .

فآية العنكبوت : تشير إلى الحالة الأولى لأن (مِنْ) لابتداء الغاية ، فناسب ذلك ما تقدم من

عموم رزق الله تعالى خلقه . وآية البقرة والجاثية : في سياق تعداد قدرة الله تعالى ، فناسب ذلك ذكر إحياء الأرض بعد طول زمان موتها لدلالته .

337 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلِيَتَمَتَّعُوا) وقوله (وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ) ؟

تقدم في النحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 288 . 293 ﴾

(12/593)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات :

قوله : (﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ ، وفى لقمان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾

(200/1)

وفى الأَحقاف ﴿ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ الجمهور على أَنَّ الآيات الثلاث نزلت فى سعد بن ملاك (وهو سعد بن أَبى وقَّاص) وأَنَّها فى سورة لقمان اعتراض بين كلام لقمان لابنه .

ولم يذكر فى لقمان (حسناً) ؛ لأَنَّ قوله بعده ﴿ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ قام مقامه ، ولم يذكر

فى هذه السّورة (حمله) ولا (وضعه) ، موافقة لما قبله من الاختصار ، وهو قوله :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، فإنَّه ذكر فيها جميع ما يقع بالمؤمنين بأَوجز كلام ، وأَحسن نظام ، ثم قال بعده :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ ﴾ أَى أَلزمناه ﴿ حَسَنًا ﴾ فى حقّهما ، وقياماً بأَمرهما ، وإعراضاً عنهما ، وخلافاً لقولهما إن أَمراهُ بالشرك بالله .

وذكر فى لقمان والأَحقاف حاله فى حمله ووضعه .

قوله ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ ، وفى لقمان : ﴿ عَلَى أَن تُشْرِكَ ﴾ ؛ لأَنَّ ما فى هذه السُّورة وافق ما قبله لفظاً ، وهو قوله ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ – وفى لقمان محمول على المعنى ؛ لأَنَّ التقدير : وإن حملاك على أَن تشرك .

قوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ بتقديم العذاب على الرّحمة فى هذه السّورة فحسّب ؛ لأَن إبراهيم خاطب به نُمرودَ وأَصحابَه ، فإنَّ العذاب وقع بهم فى الدّنيا .

(13/593)

قوله : ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ ﴾ ، وفى الشُّورى ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ ؛ لأَنَّ (ما) فى هذه السّورة خطاب لنُمرود حين صَعِدَ الجَوّ موهِمًا

أَنه يحاول السّماءَ ، فقال له ولقومه : ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ أَى من فى الأَرض : من الجنّ ، والإِنس ، ولا مَن فى السّماءِ : من الملائكة ، فكيف تُعْجزون الله ! وقيل : ما أَنتم بفائتين عليه ، ولو هَرَبْتم فى الأَرض ، أَو صعدتم فى

السّماءِ (فقال : ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَآءِ ﴾ لو كنتم فيها .

وما فى الشورى خطاب للمؤْمنين ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيْكُمْ ﴾ يدل عليه .

وقد جاءَ ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ فى قوله ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هؤلاء ﴾ من غير ذكر الأَرض ولا السّماءِ .

قوله : ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال بعده : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فجمع الأُولى ، ووحّد الثانية ؛ لأَنَّ الأُولى إِشارة إِلى إِثبات النبوّة ، وفى النَّبيّين (صَلوات الله وسلامة عليهم) كثرة ، والثَّانى إِشارة إِلى التَّوحيد وهو – سبحانه – واحد لا شريك له .

قوله : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ جمع بين استفهامين فى هذه السّورة .

وقد سبق فى الأَعراف .

قوله : ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً ﴾ ، وفى هود .

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ ﴾ بغير (أن) ؛ لأَنَّ (لمَّا) يقتضى جواباً ، وإذا اتَّصل به (أَنْ) دلّ على أَن الجواب وقع فى الحال من غير تراخ ؛ كما فى هذه السّورة ، وهو قوله : ﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ ومثله فى يوسف ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً ﴾ وفى هود اتَّصل به كلام بعد كلام ، إلى قوله : ﴿ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ ﴾ فلمَّا طال لم يحن دخول أَنْ .

قوله : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ ﴾ هو عطف على قوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ ﴾ .

قوله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ﴾ أَخَّره فى هذه السّورة لما وصف .

وقد سبق .

قوله : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ وفى القصص ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن

يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ وفى الرّعد والشُّورى : ﴿ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لأَنَّ ما فى هذه السّورة اتَّصل بقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ الآية ، وفيها عموم ، فصار تقديره ، يبسط الرّزق لمن يشاءُ من عباده أَحياناً ، ويقدر له أَحياناً ؛ لأَنَّ الضَّمير يعود إلى (مَن)

وقيل : يقدّر له البسط من التقدير .

وفى القصص تقديره : يبسط الرّزق لمن يشاءُ ويقدر لمن يشاءُ .

وكلٌّ واحد منهما غير الآخر ، بخلاف الأُولى .

وفى السّورتين يحتمل الوجهين فأَطلق .

قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ وفى البقرة والجاثية ؛ ﴿ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ لأَنَّ فى هذه السّورة وافق ما قبله وهو ﴿ مِن قَبْلِهِ ﴾ فإِنهما يتوافقان وفيه شىء آخر وهو أَنَّ ما فى هذه السورة سؤال وتقرير ، والتقرير يحتاج إِلى التحقيق فوق غيره ، فقيّد الظرف بمن ، فجمع بين طَرَفيه ؛ كما سبق .

قوله : ﴿ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ [سبق .

قوله] : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ﴾ سبق .

(15/593)

قوله : ﴿ نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِيْنَ ﴾ بغير واو لاتصاله بالأَول أَشدّ اتصال .

وتقديره : ذلك نعم أَجر العاملين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 364.360 ﴾

(16/593)

وقال العلامة الكَرْماني رحمه الله :

سورة العنكبوت

374 - قوله تعالى ووصينا الإنسان بوالديه حسنا 8 وفي لقمان ووصينا الإنسان بوالديه حملته 14 وفي الأحقاف بوالديه إحسانا 15 الجمهور على أن الآيات الثلاث نزلت في سعد بن مالك وهو سعد ابن أبي وقاص وأنها في سورة لقمان اعتراض بين كلام لقمان لأبنه ولم يذكر في لقمان حسنا لأن قوله بعده أن

اشكر لي ولوالديك 14 قام مقامه ولم يذكر في هذه السورة حملنه ولا وضعته موافقة لما قبله من الاختصار وهو قوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون 7 فإنه ذكر فيها جميع ما يقع بالمؤمنين بأوجز كلام وأحسن نظام ثم قال ووصينا الإنسان 8 أي ألزمناه حسنا في حقهما وقياما بأمرهما وإعراضا عنهما وخلافا لقولهما إن امراه بالشرك بالله

وذكر في لقمان والأحقاف حالة حملهما ووضعهما

375 - قوله وإن جاهداك لتشرك بي 8 وفي لقمان على أن تشرك 15 لأن ما في هذه السورة وافق ما قبله لفظا وهو قوله ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه 6 وفي لقمان محمول على المعنى لأن التقدير وإن حملاك على أن تشرك

376 - قوله يعذب من يشاء ويرحم من يشاء 21 بتقديم العذاب على الرحمة في هذه السورة فحسب لأن إبراهيم خاطب به نمروذ وأصحابه وأن العذاب وقع بهم في الدنيا

377 - قوله وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء 22 وفي الشورى وما أنتم بمعجزين في الأرض 31 لأنه في هذه السورة خطاب لنمروذ حين صعد الجو موهما أنه يحاول السماء فقال إبراهيم له ولقومه وما أنتم بمعجزين في الأرض أي من في الأرض من الجن والإنس ولا من في السماء من الملائكة فكيف تعجزون الله

وقيل ما أنتم بفائتين عليه ولو هربتم في الأرض أو صعدتم في السماء فقال وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء لو كنتم فيها

(17/593)

وما في الشورى خطاب للمؤمنين وقوله ما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم 30 يدل عليه وقد جاء وما هم بمعجزين 51 في قوله والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا 39 51 من غير ذكر الأرض ولا السماء

378 - قوله فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون 24 وقال بعده خلق السموات والأرض بالحق إن في ذلك لأية للمؤمنين 44 فجمع الأولى ووحد الثانية لأن الأولى

إشارة إلى إثبات النبوة وفي النبيين صلوات الله عليهم كثرة والثاني إشارة إلى التوحيد وهو سبحانه واحد لا شريك له

379 – قوله أئنكم 29 جمع بين استفهامين قد سبق في الأعراف

380 – قوله ولما أن جاءت رسلنا لوطا 33 وفي هود ولما جاءت 77 بغير أن لأن لما يقتضي جوابا وإذا اتصل به أن دل على أن الجواب وقع في الحال من غير تراخ كما في هذه السورة وهو قوله سيء بهم وضاق بهم ذرعا 33 ومثله في يوسف فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا 96

وفي هود اتصل به كلام بعد كلام إلى قوله قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك 81 فلما طال لم يحسن دخول أن

381 – قوله وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال 36 هو عطف على قوله ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث 14

382 – قوله قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا 52 أخره في هذه السورة لما وصف وقد سبق

383 – قوله الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له 62 وفي القصص يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر 82 وفي الرعد 26 والشورى 12 لمن يشاء ويقدر لأن ما في هذه السورة اتصل بقوله وكأين من دابة لا تحمل رزقها 60 الآية وفيها عموم فصار

تقدير الآية يبسط الرزق لمن يشاء من عباده أحيانا ويقدر له أحيانا لأن الضمير يعود إلى من

وقيل يقدر له البسط من التقدير

وفي القصص تقديره يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لمن يشاء وكل واحد منهما غير الآخر

بخلاف الأولى

وفي السورتين يحتمل الوجهين فأطلق

(18/593)

---

384 - قوله من بعد موتها 63 وفي البقرة والجاثية والروم بعد موتها لأن في هذه السورة وافق ما قبله وهو من قبله فإنهما يتوافقان وفيه شيء آخر وهو أن ما في هذه السورة سؤال وتقرير والتقرير يحتاج إلى التحقيق فوق غيره فقيد الظرف بمن فجمع بين طرفيه كما سبق

385 - قوله نعم أجر العاملين 58 بغير واو لاتصاله بالأول أشد اتصال وتقديره ذلك نعم أجر العاملين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 162 . 166﴾

(19/593)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

اشتهرت هذه السورة بسورة العنكبوت من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رواه عكرمة قال : كان المشركون إذا سمعوا تسمية سورة العنكبوت يستهزئون بهما ، أي بهذه الإضافة فنزل قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ يعني المستهزئين بهذا ومثله وقد تقدم الإلماع إلى ذلك عند قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ في [سورة البقرة : 26] .

ووجه إطلاق هذا الاسم على هذه السورة أنها اختصت بذكر مثل العنكبوت في قوله تعالى فيها ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ .

وهي مكية كلها في قول الجمهور ، ومدنية كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة ، وقيل بعضها مدني .

روى الطبري والواحدي في أسباب النزول عن الشعبي أن الآيتين الأوليين منها أي إلى قوله ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ نزلتا بعد الهجرة في أناس من أهل مكة اسلموا فكتب إليهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة أن لا يقبل منهم إسلام حتى يهاجروا إلى

المدينة فخرجوا مهاجرين فاتبعهم المشركون فردوهم .

وروى الطبري عن عكرمة عن ابن عباس أن قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ نزلت في قوم بمكة وذكر قريبا مما روى عن الشعبي .

وفي أسباب النزول للواحدي : عن مقاتل نزلت الآيتان الأوليان في مهجع مولى عمر بن الخطاب خرج في جيش المسلمين إلى بدر فرماه عامر بن الحضرمي من المشركين بسهم فقتله فجزع عليه أبوه وامرأته فأنزل الله هاتين الآيتين .

وعن علي ابن أبي طالب أن

(20/593)

السورة كلها نزلت بين مكة والمدينة .

وقيل : إن آية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [العنكبوت : 10] نزلت في ناس من ضعفة المسلمين بمكة كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم في باطن الأمر وأظهروا للمسلمين أنهم لم يزالوا على إسلامهم كما سيأتي عند تفسيرها .

وقال في الإتقان : ويضم إلى ما استثني من المكي فيها قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ [العنكبوت : 60] لما أخرجه ابن أبي حاتم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر

المؤمنين الذين كانوا بمكة بالمهاجرة إلى المدينة فقالوا كيف نقدم بلدا ليست لنا فيه معيشة فنزلت ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ [العنكبوت : 60] .

وقيل هذه السورة آخر ما نزل بمكة وهو يناكد بظاهره جعلهم هذه السورة نازلة قبل سورة المطففين .

وسورة المطففين آخر السور المكية .

ويمكن الجمع بأن ابتداء نزول سورة العنكبوت قبل ابتداء نزول سورة المطففين ثم نزلت سورة المطففين كلها في المدة التي كانت تنزل فيها سورة العنكبوت ثم تم بعد ذلك جميع هذه السورة .

وهذه السورة هي السورة الخامسة والثمانون في ترتيب نزول سور القرآن نزلت بعد سورة الروم وقبل سورة المطففين ، وسيأتي عند ذكر سورة الروم ما يقتضي أن العنكبوت نزلت في أواخر سنة إحدى قبل الهجرة فتكون من أخريات السور المكية بحيث لم ينزل بعدها بمكة إلا سورة المطففين .

وآياتها تسع وستون باتفاق أصحاب العدد من أهل الأمصار .

أغراض هذه السورة

افتتاح هذه السورة بالحروف المقطعة يؤذن بأن من أغراضها تحدي المشركين بالإتيان بمثل سورة منه كما بينا في سورة البقرة ، وجدال المشركين في أن القرآن نزل من عند الله هو

الأصل فيما حدث بين المسلمين والمشركين من الأحداث المعبر عنها بالفتنة في قوله هنا ﴿ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2] .

(21/593)

فتعين أن أول أغراض هذه السورة تثبيت المسلمين الذين فتنهم المشركون وصدوهم عن الإسلام أو عن الهجرة مع من هاجروا .

ووعد الله بنصر المؤمنين وخذل أهل الشرك وأنصارهم وملقنهم من أهل الكتاب .

(22/593)

والأمر بمجافاة المشركين والابتعاد منهم ولو كانوا اقرب القرابة .

ووجوب صبر المؤمنين على أذى المشركين وأن لهم في سعة الأرض ما ينجيهم من أذى أهل الشرك .

ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ما عدا الظالمين منهم للمسلمين .

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالثبات على إبلاغ القرآن وشرائع الإسلام .

والتأسي في ذلك بأحوال الأمم التي جاءتها الرسل ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بمثل ما جاءوا به .

وما تخلل أخبار من ذكر فيها من الرسل من العبر .

والاستدلال على أن القرآن منزل من عند الله بدليل أمية من أنزل عليه صلى الله عليه وسلم .

وتذكير المشركين بنعم الله عليهم ليقلعوا عن عبادة ما سواه .

وإلزامهم بإثبات وحدانيته بأنهم يعترفون بأنه خالق من في السماوات ومن في الأرض .

والاستدلال على البعث بالنظر في بدء الخلق وهو أعجب من إعادته .

وإثبات الجزاء على الأعمال .

وتوعد المشركين بالعذاب الذي يأتيهم بغتة وهم يتهكمون باستعجاله .

وضرب المثل لاتخاذ المشركين أولياء من دون الله بمثل وهي بيت العنكبوت . انتهى انتهى .

اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 20 صـ 126 . 128﴾

(23/593)

وقال الشيخ سيد قطب :

مقدمة سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية . وذلك لذكر "الجهاد" فيها وذكر " المنافقين " . . ولكننا نرجح أن السورة كلها مكية . وقد ورد في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد بن أبي وقاص كما سيجيء . وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال . وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التي قيل إنها مدنية . لذلك نرجح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير . لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة . أي جهاد النفس لتصبر ولا تفتن . وهذا واضح في السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام .

إنها تبدأ بعد الحروف المقطعة بالحديث عن الإيمان والفتنة , وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس . فليس الإيمان كلمة تقال باللسان , إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف .

ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها ; فإن سياقها يمضي بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب , وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان , استعراضا سريعا يصور ألوانا من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان .

على امتداد الأجيال .

ثم يعقب على هذا القصص وما تكشف فيه من قوى مرصودة في وجه الحق والهدى ,

بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها , وقد أخذها الله جميعا :

(فكلا أخذنا بذنبه , فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا , ومنهم من أخذته الصيحة , ومنهم

من خسفنا به الأرض , ومنهم من أغرقنا) . .

ويضرب لهذه القوى كلها مثلا مصورا بجسم وهنها وتفاهتها :

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا , وإن أوهن البيوت

لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) .

(24/593)

ويربط بعد ذلك بين الحق الذي في تلك الدعوات والحق الذي في خلق السماوات والأرض ;

ثم يوحد بين تلك الدعوات جميعا ودعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) فكلها من عند الله

. وكلها دعوة واحدة إلى الله . ومن ثم يمضي في الحديث عن الكتاب الأخير وعن استقبال

المشركين له ; وهم يطلبون الخوارق غير مكتفين بهذا الكتاب وما فيه من رحمة وذكرى لقوم

يؤمنون . ويستعجلون بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . ويتناقضون في منطقهم:

(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله !) . . (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله !) . . (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) . . ولكنهم مع هذا كله يشركون بالله ويفتنون المؤمنين .

وفي ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فرارا بدينهم من الفتنة , غير خائفين من الموت , إذ (كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا يرجعون) . غير خائفين من فوات الرزق: وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم . .

ويختم السورة بتمجيد المجاهدين في الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا , وإن الله لمع المحسنين) . . فيلتئم الختام مع المطلع وتتضح حكمة السياق في السورة , وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام , حول محورها الأول وموضوعها الأصيل .

ويمضي سياق السورة حول ذلك المحور الواحد في ثلاثة أشواط:

الشوط الأول يتناول حقيقة الإيمان , وسنة الابتلاء والفتنة , ومصير المؤمنين والمنافقين والكافرين . ثم فردية التبعة فلا يحمل أحد عن أحد شيئًا يوم القيامة: (وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) . .

والشوط الثاني يتناول القصص الذي أشرنا إليه , وما يصوره من فتن وعقبات في طريق الدعوات والدعاة , والتهوين من شأنها في النهاية حين تقاس إلى قوة الله . ويتحدث عن

الحق الكامن في دعوة الرسل , وهو ذاته الحق الكامن في خلق السماوات والأرض . وكله من عند الله .

(25/593)

والشوط الثالث يتناول النهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى . إلا الذين ظلموا منهم . وعن وحدة الدين كله , واتحاده مع هذا الدين الأخير الذي يجحد به الكافرون , ويجادل فيه المشركون . ويختم بالتثبيت والبشرى والطمأنينة للمجاهدين في الله المهديين إلى سبل الله: (وإن الله لمع المحسنين) . .

ويتخلل السورة من المطلع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته . تهز الوجدان هزا . وتقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة جد صارم ; فإما النهوض بها وإما النكوص عنها . وإلا فهو النفاق الذي يفضحه الله .

وهي إيقاعات لا سبيل إلى تصويرها بغير النصوص القرآنية التي وردت فيها . فنكتفي بالإشارة إليها هنا حتى نستعرضها في موضعها مع السياق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 5 صـ 2718.2719 ﴾

(26/593)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة العنكبوت

مكية وآياتها تسع وستون آية

بين يدي السورة

* سورة العنكبوت مكية ، وموضوعها : العقيدة في أصولها الكبرى (الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء) ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان و " سنة الابتلاء " في هذه الحياة ، لأن المسلمين في مكة كانوا في أقصى أنواع المحنة والشدة ، ولهذا جاء الحديث عن موضوع الفتنة والابتلاء في هذه السورة مطولا مفصلا ، وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء ، والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

* تبتدىء السورة الكريمة بهذا البدء الصريح [آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون] ؟ وتمضي السورة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون الإيمان كلمة تقال باللسان ، فإذا نزلت بهم المحنة والشدة ، انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وارتدوا عن الإسلام تخلصا من عذاب الدنيا ، كأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا [ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . .] الآيات .

* وتتحدث عن " محنة الأنبياء ! وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله ،

بدءا بقصة (نوح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب) ، وتتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين ، كعاد ، وثمود ، وقارون ، وهامان وغيرهم وتذكر ما حل بهم من الهلاك والدمار [فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا] الآيات .

(27/593)

---

* وفي قصص الأنبياء دروس من المحن والابتلاء ، تتمثل في ضخامة الجهد وضالة الحصيلة ، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة ، يدعوهم إلى الله فما يؤمن معه إلا قليل [ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون] وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة ، ويجادلهم بالحجة والبرهان ، فما تكون النتيجة إلا العلو والطغيان [قالوا اقتلوه او حرقوه فأنجاه الله من النار . .] الآيات . " وفي قصة لوط يظهر التبجح بالرذيلة دون خجل أو حياء [ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين] الآيات وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء ، تمضي السورة الكريمة تبين صدق رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) فهو رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ، ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز ، وهذا من أعظم البراهين على أنه كلام رب العالمين [وما كنت تتلو من قبله

من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون] وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على (القدرة والوحدانية) في هذا الكون الفسيح

* ثم تختم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد ، وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي ، ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء [والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين] وهو جزاء كريم ، يناسب جهد التضحية والبذل ، في سبيل نصرة الحق والدين !

التسمية :

سميت " سورة العنكبوت " لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلا للأصنام المنحوتة ، والآلهة المزعومة [مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . .] الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 2 صـ 450. 451 ﴾

(28/593)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله : .

سورة العنكبوت

الفتنة : الامتحان والاختبار ، ليعلمن اللّه الذين صدقوا : أي ليظهرنّ صدقهم ، السبق : الفوت والمراد به الفوت عن المجازاة ، والسيئات : هى الشرك باللّه والمعاصي التي يجترحونها ، ساء ما يحكمون : أي قبح حكمهم أنهم يهربون منا .

يرجو : أي يطمع ، لقاء اللّه : أي نيل ثوابه وجزائه ، أجل اللّه : الوقت المضروب للقائه ، جاهد أي بذل جهده فى جهاد حرب أو نفس .

المراد بالحمل هنا : تبعة الذنوب ، والأثقال واحدها ثقل : وهو الحمل الذي يئود حامله ، والمراد به الذنب والإثم .

النشأة : الخلق والإيجاد ، تقلبون : أي تردّون بعد موتكم ، بمعجزين : أي جاعلين اللّه عاجزا ، من ولىّ : أي قريب ، ولا نصير : أي معين .

لوط : هو ابن أخى إبراهيم على ما قاله النسابون – مهاجر إلى ربى : أي إلى الجهة التي أمرنى بالهجرة إليها ، وإسحاق هو ابنه الأكبر ، ويعقوب : حفيده وابن إسحاق ، وأجر الدنيا : الرزق الواسع الهنى ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، والصالح لغة : هو الباقي على ما ينبغى ، يقال : طعام بعد صالح أي هو باق على حال حسنة .

الفاحشة : الفعلة القبيحة التي تنفر منها النفوس الكريمة ، السبيل : الطريق وكانوا يتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال .

الجدل : الحجاج والمناظرة ، مسلمون : أي خاضعون مطيعون ، والجحد : نفى ما فى القلب ثبوته أو إثبات ما فى القلب نفيه والمراد به هنا الإنكار عن علم ، والارتياب : الشك ، الظالمون : أي الذين ظلموا أنفسهم وجحدوا وجه الحق .

اللهو : الاستمتاع باللذات ، واللعب : هو العبث وما لا فائدة فيه ، الحيوان : أي الحياة التامة التي لا فناء بعدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 20 صـ 110 : حـ 21 صـ 19 ﴾ . باختصار

(29/593)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة العنكبوت

وهي مكية

1 - وقوله جل وعز الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا

وهم لا يفتنون آية 2 هذا استفهام فيه معنى التقرير والتوبيخ أي أحسب الناس أن يقنع منهم بأن يقولوا آمنا فقط ولا يختبروا حتى يعرف حقيقة إيمانهم وصبرهم وصدقهم وكذبهم

ويظهر ذلك منهم فيجازوا عليه وأما الغيب فقد علمه الله جل وعز منهم ثم قال أن يقولوا آمنا أي على أن يقولوا ولأن يقولوا وبأن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون قال مجاهد وقتادة أي لا يبتلون

2 - ثم قال جل وعز ولقد فتنا الذين من قبلهم آية 3 أي ابتليناهم 3 - وقوله جل وعز أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا آية 4 قال مجاهد أي أن يعجزونا 4 - وقوله جل وعز من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت آية 5 قال أبو إسحق المعنى من كان يرجو لقاء ثواب الله جل وعز 5 - وقوله جل وعز ووصينا الإنسان بوالديه حسنا آية 8 أي ما يحسن 6 - ثم قال جل وعز وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم

فلا تطعهما

قال أبو إسحق المعنى وإن جاهداك أيها الإنسان والداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما 7 - وقوله جل وعز ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله آية 10 قال مجاهد فإذا أوذي في الله أي عذب خاف من عذاب الناس كما يخاف من عذاب الله جل وعز قال الضحاك هؤلاء قوم قالوا آمنا فإذا أوذي أحدهم أشرك وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال كان قوم بمكة قد شهدوا أن لا إله إلا الله فلما خرج المشركون إلى بدر أكرهوهم على الخروج معهم فقتل بعضهم فأنزل الله

جل وعز فيهم إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم إلى قوله فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا فكتب بها المسلمون الذين بالمدينة إلى المسلمين الذين بمكة فخرج مسلمون من مكة فلحقهم المشركون فافتتن بعضهم فأنزل الله جل وعز فيهم ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله قال الشعبي نزلت فيهم عشر آيات من قوله تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا قال عكرمة فكتب بها المسلمون

الذين بالمدينة إلى المسلمين الذين كانوا بمكة قال رجل من بني ضمرة كان مريضا أخرجوني إلى الروح فأخرجوه فمات فأنزل الله جل وعز فيه ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله إلى آخر

الآية وأنزل في المسلمين الذين كانوا افتتنوا ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا إلى آخر الآية 8 – وقوله جل وعز وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم آية 12 قال الضحاك هؤلاء القادة من المشركين قال مجاهد هم مشركوا أهل مكة قالوا لمن آمن منهم نحن وأنتم لا نبعث فاتبعونا فإن كان عليكم وزر فهو علينا قال أبو جعفر هذا كما تقول قلدني هذا إن كان فيه وزر أي ليس فيه وزر قال الفراء وفيه معنى المجازاة وأنشد فقلت ادعي وادع فإن أندى لصوت أن ينادي داعيان

قال المعنى ادعي ولأدع أي إن دعوت دعوت 9 - وقوله جل وعز وما هم بحاملين من خطاياهم من شئ آية 12 المعنى وما هم بحاملين عنهم شيئا يخفف ثقلهم

(31/593)

---

10 - ثم قال جل وعز وليحملن كل أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم آية 13 قال أبو أمامة الباهلي يؤتى بالرجل يوم القيامة وهو كثير الحسنات فلا يزال يقتص منه حتى تفنى حسناته ثم يطالب ثم يقول الله جل وعز اقتصوا من عبدي فتقول الملائكة ما بقيت له حسنات فيقول خذوا من سيئات المظلوم فاجعلوها عليه قال أبو أمامة ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وقال قتادة في قوله عز وجل وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم

قال من دعا إلى ضلالة كتب عليه وزرها ووزر من يعمل بها ولا ينقص ذلك منها شيئا قال أبو جعفر وأهل التفسير على أن معنى الآية كما قال قتادة ومثله قوله جل وعز ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم 11 - وقوله جل وعز فأخذهم الطوفان وهم ظالمون آية 14 يقال لكل كثير مطيف بالجميع من مطر أو قتل أو موت طوفان وقوله جل وعز وتخلقون إفكا آية 17 أي وتنحتون

والمعنى على هذا إنما تعبدون من دون الله أوثانا وأنتم تصنعونها وقال مجاهد إفكا أي كذبا والمعنى على هذا ويختلقون الكذب وقرأ أبو عبد الرحمن وتخلقون إفكا والمعنى واحد 12 - وقوله جل وعز وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء آية 22 قال محمد بن يزيد المعنى ولا من في السماء ومن نكرة وأنشد غيره فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء وقال غير أبي العباس المعنى وما أنتم بمعجزين في الأرض ولو كنتم في السماء وخوطب الناس على ما يعرفون وهذا أولى والله أعلم

13 - وقوله جل وعز فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار آية 24 المعنى فحرقوه فأنجاه الله من النار ويروى أنه لم تحرق إلا وثاقه 14 - وقوله جل وعز فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي آية 26

قال الضحاك إبراهيم هاجر وهو أول من هاجر وقال قتادة هاجر من كوثى إلى الشام 15 - وقوله جل وعز وآتيناه أجره في الدنيا آية 27

(32/593)

روى سفيان عن حميد بن قيس قال أمر سعيد بن جبير إنسانا أن يسأل عكرمة عن قوله تعالى وآتيناه أجره في الدنيا فقال عكرمة أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منا فقال سعيد بن

جبير صدق وقال قتادة هو مثل قوله تعالى وآتيناه في الدنيا حسنة أي عافية وعملا صالحا وثناء حسنا وذاك أن أهل كل دين يتولونه وقيل وآتيناه أجره في الدنيا إن أكثر الأنبياء من ولده

16 - وقوله جل وعز ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين آية 28 يروى أنهم أول من نزا على الرجال 17 - ثم قال جل وعز أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل آية 29 استفهام فيه معنى التوبيخ والتقرير

وقوله جل وعز وتقطعون السبيل آية 29 قيل كانوا يتلقون الناس من الطرق للفساد وقيل أي تقطعون سبيل الولد 18 - ثم قال جل وعز وتأتون في ناديكم المنكر

قال مجاهد النادي المجلس والمنكر فعلهم بالرجال قال أبو جعفر المنكر في اللغة يقع على القول الفاحش وعلى الفعل حدثنا محمد بن إدريس بن الأسود قال حدثنا إبراهيم بن مرزوق قال حدثنا عبد الله بن بكر قال حدثنا حاتم بن أبي صغيرة عن سماك عن أبي صالح مولى أم هانئ ابنة أبي طالب رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت قلت يا رسول الله أرأيت قول الله عز وجل وتأتون في ناديكم المنكر ما كان ذلك المنكر الذي كانوا يأتونه في ناديهم قال كانوا يضحكون بأهل الطريق ويحذفونهم

قال أبو جعفر فسمى الله جل وعز هذا منكرا لأنه لا ينبغي للناس أن يتعاشروا به وحدثنا أسامة بن أحمد قال حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم عن يزيد بن بكير عن

القاسم بن محمد في قوله تعالى وتأتون في ناديكم المنكر قال كانوا يتفاعلون في مجالسهم يفعل بعضهم على بعض

قال أبو جعفر قالها الشيخ بالضاد والطاء

(33/593)

---

19 - وقوله عز وجل قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها آية 32 روى أبو نصر عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال إبراهيم صلى الله عليه وسلم للملائكة إن كان فيهم مائة يكرهون هذا أتهلكونهم قالوا لا قال فإن كان فيهم تسعون قالوا لا إلى أن بلغ عشرين قال إن فيها لوطا قالت الملائكة صلى الله عليهم نحن أعلم بمن فيها قال عبد الرحمن وكانوا أربعمائة ألف 20 - وقوله جل وعز ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا آية 33 قال قتادة أي ساء ظنه بقومه وضاق درعه بضيفه

قال أبو جعفر يقال ضقت به ذرعا أي لم أطقه مشتق من الذراع لأن القوة فيه 21 - وقوله جل وعز ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون قال مجاهد آية بينة أي عبرة وقال قتادة هي الحجارة التي أبقيت وقال غيره يرجم بها قوم من هذه الأمة 22 - ثم قال جل وعز وإلى مدين أخاهم شعيبا آية 36

قال قتادة أرسل شعيب صلى الله عليه وسلم مرتين إلى أمتين إلى أهل مدين وإلى أصحاب الأيكة

23 - وقوله عز وجل وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم آية 38 أي وأهلكنا عادا وثمود وقيل التقدير واذكر عادا وثمود 24 - وقوله جل وعز وكانوا مستبصرين آية 38 قال مجاهد أي في الضلالة وقال قتادة أي معجبين بضلالتهم وقيل وكانوا مستبصرين أي قد علموا أنهم معذبون وقد فعلوا ما فعلوا

25 - وقوله عز وجل فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا آية 40 أي حصبا وهي الحجارة وهم قوم لوط ومنهم من أخذته الصيحة هم ثمود وأهل مدين ومنهم من خسفنا به الأرض قارون وأصحابه ومنهم من أغرقنا قوم نوح وفرعون وأصحابه 26 - ثم أخبر تعالى أنه لم يظلمهم في ذلك فقال وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون آية 40 27 - وقوله جل وعز مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا آية 41

قال قتادة هذا مثل ضربه الله عز وجل أي إنه لا ينفع لضعفه كما أن بيت العنكبوت لا ينفع ولا يقي

(34/593)

28 - ثم قال جل وعز وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون آية 41 لو متعلقة بقوله مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت لو كانوا يعلمون أن أولياءهم لا يغنون عنهم شيئا وأن هذا مثلهم 29 - وقوله جل وعز وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر آية 45 روى يونس عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا وروى علي بن طلحة عن ابن عباس قال في الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصي

قال أبو جعفر قيل معنى هذا إن العبد ما دام في الصلاة فليس في فحشاء ولا منكر 30 - ثم قال جل وعز ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون روى سفيان عن ابن مسعود وروى عن سلمان وسعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله جل وعز ولذكر الله أكبر قالوا ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه زاد ابن عباس إذا ذكرتموه بعد قوله إياكم

31 - وقوله جل وعز ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم روى ابن أبي نجيح عن مجاهد قال من قاتلك ولم يعطك الجزية فقاتله بالسيف وروى معمر عن قتادة هي منسوخة نسخها فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ولا مجادلة أشد من السيف قال أبو جعفر قول قتادة أولى بالصواب لأن السورة مكية

وإنما أمر بالقتال بعد الهجرة وأمر بأخذ الجزية بعد ذلك بمدة طويلة وأيضا فإنه قال وهم صاغرون 32 - وقوله جل وعز وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم روى سفيان عن

سعد بن إبراهيم عن عطاء بن يسار قال كان قوم من اليهود يجلسون مع المسلمين فيحدثونهم فأخبروا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم إلى آخر الآية 33 - وقوله جل وعز وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك وكذا صفته صلى الله عليه وسلم في التوراة

(35/593)

ثم قال تعالى إذا لارتاب المبطلون قال مجاهد قريش 34 - ثم قال جل وعز بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم آية 49 في معناه ثلاثة أقوال ا - قال الحسن بل القرآن آيات بينات في صدور المؤمنين ب - وقال قتادة بل النبي صلى الله عليه وسلم آية بينة كذا قرأ قتادة في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ج - وقال الضحاك كانت صفة النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يكتب بيمينه ولا يتلو كتابا فذلك آية بينة

35 - وقوله جل وعز أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم آية 51 روى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال أتي النبي صلى الله عليه وسلم بكتف فيها كتاب فقال كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عن نبيهم إلى نبي غيره أو إلى كتاب غير كتابهم فأنزل الله جل وعز أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم الاية 36 - وقوله

جل وعز يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون آية 56 قال سعيد بن جبير إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا

وقال عطاء إذا رأيتم المعاصي فاهربوا

وقال مجاهد هاجروا واعتزلوا الأوثان قال أبو جعفر القولان يرجعان إلى شئ واحد فقول مجاهد أنهم أمروا بالهجرة ومجانبة أصحاب الأوثان وقال العلماء كذلك إذا لم يقدر أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر خرج وكان حكمه حكم أولئك وقيل أي إن أرض الجنة واسعة فاعبدوني حتى أعطيكموها 37 - وقوله جل وعز والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا آية 58 أي لننزلنهم ومعنى لنثوينهم لنعطينهم منازل يثوون فيها يقال ثوى إذا أقام

38 - وقوله جل وعز وكأين من دابة لا تحمل رزقها آية 60 قال مجاهد الطير والبهائم لا تحمل رزقها وروى الحميدي عن سفيان لا تحمل لا تخبئ قال وليس شئ يدخر إلا الإنسان والنملة والفأرة قال أبو جعفر دابة تقع لكل الحيوان مما يعقل ولا يعقل إلا أن معناه ههنا الخصوص أي وكم من دابة عاجزة الله

يرزقها وإياكم

39 - وقوله جل وعز وإن الدار الآخرة لهي الحيوان آية 64 قال مجاهد لا موت فيها وقال قتادة الحيوان الحياة قال أبو جعفر يقال حيوان وحياة وحي كما قال * وقد ترى إذ الحياة حي 40 - وقوله جل وعز فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين آية 65 أي فإذا أصابتهم شدة دعوا الله وحده وتركوا ما يعبدون من دونه وقوله جل وعز فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون أي يدعون معه غيره

41 - وقوله جل وعز ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون وليتمتعوا على التهديد وكسر اللام 42 - وقوله جل وعز والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا أي لنزيدنهم هدى 43 - ثم أخبرنا جل وعز أنه ينصرهم فقال وإن الله لمع المحسنين تمت سورة العنكبوت .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 5 صـ 211. 237 ﴾

(37/593)

وقال الفراء :

سورة (العنكبوت)

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

قوله: ألم ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ . . . ﴾

﴿ يُتركوا ﴾ يقع فيهَا لام الخفض ، فإذا نزعتها منها كانت مَنْصوبةً . وقلّما يقولون: تركتك أن تذهب ، إنما يقولونَ: تركتكَ تذهب . ولكنها جُعلت مكتفِية بوقوعِهَا عَلى الناس وحدهم . وإن جعلتَ ﴿ حَسب ﴾ مَكرورة عليها كان صوَاباً ؛ كأنّ المعْنى:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ ، أحسِبُوا ﴿ أَن يَقُولُواْ آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

وقوله: ﴿ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ . . . ﴾

هو أمر فيه تأويل جزاءٍ ، كما أن قوله ﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ نَهْى فيه تأويل الجزاء . وهو كثير فى كلام العرب .

قال الشاعر:

فقلتُ ادعِى وأَدْعُ فإنَّ أندى * لصَوتٍ أن يُنَادىَ داعيانِ

إراد: ادعِى ولأَدْعُ فإن أندى . فكأنه قال: إن دعوتِ دعوتُ .

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ . . . ﴾

يَعْنى أوزارهما ﴿ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يقول: أوزار مَنْ أضَلّوا .

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا . . . ﴾

(38/593)

(إنَّما) فى هذا الموضع حرفٌ واحدٌ ، وليست على معنى (الذى) ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ مردودة عَلى (إنّما) كقولك: إنما تفعلونَ كذا ، وإنما تفعلون كذا . وقد اجتمعُوا على تخفيف ﴿ تَخْلُقُونَ ﴾ إلاّ أبا عبد الرحمن السُلَمِىّ فإنه قرأ (وتَخَلّقُون إفْكا) ينصِب التاء ويُشدّد اللام وَهمَا فى المعْنى سَواء .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقوله: ﴿ النَّشْأَةَ . . . ﴾

القراء مجتمعُونَ عَلى جزم الشين وقَصْرها ، إلا الحسن البصرىّ فإنه مدّها فى كل القرآن فقال (النشَاءَة) ومثلها مما تقوله العرب الرأْفة ، والرآفة ، والكَأْبة والكآبة كلّ صواب .

﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ . . . ﴾

يقول: القائل: وكيف وصفهم أَنهم لا يُعجزون فى الأرض ولا فى السماء ، وليسُوا من أهْل السَّماء ؟ فالمعنى – والله أعلم – ما أنتم بمعجزينَ فى الأرض ولا مَن فى السَّمَاء بمعجزٍ .

وهو من غامِضِ العربيّه للضمير الذى لم يظهر فى الثانى .

ومثله قول حَسَّان:

أمَن يهجو رسولَ الله منكم * ويمدحُهُ وينصرهُ سَوَاءُ

أراد: ومن ينصره ويمدحه فأضمر (مَنْ) وقد يقع فى وَهْم السَّامِع أن المدح والنصر لَمْن هذه الظاهرة . ومثله فى الكلام: أكرِم مَن أتاكَ وأتى أباكَ ، وأكرم مَن أتاك ولم يأت زيداً ، تريد: ومَن لم يأتِ زيدا .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

(39/593)

وقوله: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ . . . ﴾

نصبها حَمزة وأضافَها ؛ ونصبهَا عاصم وأهل المدينة ، ونوّنوا فيهَا ﴿ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾

ورُفِعَ ناسٌ منهم الكسائيّ بإضافة . وقرأ الحسَن (مَوَدّةُ بَيْنَكُمْ) يَرفع ولا يضيف . وهى فى قرءاة أُبَىّ (إنَّما مَوَدَّةُ بَيْنِهِمْ فى الحياة الدُّنْيَا) وفى قراءة عَبْدِ الله (إنَّما مَوَدَّةُ بَيْنِكم) وهما شاهدان لمنْ رَفع . فمَن رفعَ فإنما يرفع بالصفة بقوله ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وينقطع الكلام عند قوله ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا ﴾ ثم قال: ليست مودّتكم تلك الأوثان ولا عبادتكم إيَّاها بشىء ، إنَّما مودّة ما بينكم فى الحياة الدنيا ثم تنقطع . ومَن نصب أوْقع عَليهَا الاتّخاذ : إنما اتّخذتموهَا مَوَدَّةً بينكم فى الحياة الدنيا . وقد تكون رفعاً على أَن تجعَلها خبراً لِمَا وتجعَل (ما) على جهة (الذى) كأنك قلت: إن الذينَ اتخذتموهم أوثاناً مودَّةُ بينكم فتكون المودَّة كالخبر ، ويكون رفعهَا على ضمير (هىَ) كقوله ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ ثم قال ﴿ بَلاَغٌ ﴾ أى هذا بلاغ ، ذلك بلاغ . ومثله ﴿ إِنَّ الذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ ثم قال ﴿ مَتَاعٌ فِى الدنيا ﴾ أى ذلك متاع فى الحياة الدنيا وقوله ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ : يتبرّأ بعضكم من بعضٍ والعابد والمعبود فى النار .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وقوله: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي . . . ﴾

هذا من قِيل إبراهيم . وكان مهاجَره من حَرّان إلى فِلسطين .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا . . . ﴾

الثناءَ الحسن وأن أهل الأديان كلّهم يتولّونه . ومِنْ أجره أن جُعلت النبوّة والكتاب فى ذُرّيته .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ . . . ﴾

قَطْعه: أنهم كانوا يعترضُونَ الناسَ منَ الطُرُق بعملهم الخبيث ، يعنى اللواطَ . ويقال: وتقطعُونَ السَّبِيلَ: تقطعُونَ سَبِيلَ الوَلَد بتعطيلكم /ا النساء وقوله ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ فى مجالسكم . والمنكر منه الخَذْف ، والصفير ، ومَضْغ العِلْك ، وحَلّ أزرار الأقبية والقُمُصِ ، والرمى بالبُنْدُق . ويقال: هى ثمانىَ عشرة خَصْلةً من قول الكلبىّ لا أحفظها . وقال غيره: هى عشرٌ .

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ . . . ﴾

فى دينهم . يقول: ذوُو بصَائر .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً . . . ﴾

ضربه مثلاً لمن اتّخذ من دون الله وليّاً أنه لا ينفعه ولا يضرّه ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرّاً ولا بَرْداً . والعنكبوت أنثى . وقد يُذكّرهَا بعض العرب . قال الشاعر:

على هَطّالهم منهم بيوتٌ * كأنَّ العنكبوت هو ابتناهَا

(41/593)

﴿ اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ . . . ﴾

يقول: ولذكر الله إيّاكم بالثواب خير من ذكركم إيّاه إذا انتهيتم . ويكون: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر وأحقّ أن يَنْهَى .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرونَ ﴾

وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . . . ﴾

بمحمَّدٍ صَلى الله عيله وسلم . ويقال: إنه عبْد الله بن سَلاَم ﴿ وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ يعنى الذين آمنو من أهل مَكَّة .

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ . . . ﴾

من قَبْل القرآن ﴿ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ ولوكنت كذلكَ ﴿ لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ يعنى النصارى الذينَ وجَدُوا صفته ويكون ﴿ لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى لكَانَ أشدّ لِريبة مَنْ كذَّب من أهل مكَّة وغيرهم .

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ . . . ﴾

يريد القرآن وفى قراءة عبد الله (بل هى آياتٌ) ﴿ يريد : بل آيات القرآن آيات بَيِّنات: ومثله ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ ولو كانت هذه بصَائر للناس كان صَوَاباً . ومثله ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ لو كان: هذه رحمة لجاز .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى . . . ﴾

يقول: لولاَ أن الله جعَلَ عذاب هذه الأمّة مؤخّراً إلى يوم القيامة – وهو الأجل – لجاءهم العذاب. ثم قال ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾ يعنى القيَامة فذكَّر لأنه يريدُ عذابَ القيَامة. وإن شئت ذكّرته على تذكير الأجَل. ولو كانت ﴿ وَلَتَأْتِيَنَّهُمْ ﴾ كان صَوَاباً يريد القيامة والسَّاعة.

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُواْ . . . ﴾

وهى فى قراءة عبد الله (ويقال ذوقوا) وقد قرأ بعضهم (وَنَقُولُ) بالنون وكلّ صَواب.

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾

وقوله: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ . . . ﴾

هذا لِمُسلمة أهل مَكَّة الذينَ كانوا مقيمينَ مع المشركينَ. يقول ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ يعنى المدينة أى فلا تُجاوروا أهْل الكفر.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ . . . ﴾

قرأهَا العوام ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ وحدّثنى قيس عن أبى إسْحَاق أن ابن مسعود قرأها (لَنُثْوِيَنَّهُمْ) وقرأها كذلك يحيى بن وثَّاب وكلُّ حسن بَوَّأته منزلاً وأثويته منزلاً .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

وقولوا: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ . . . ﴾

(43/593)

نزلت فى مؤمنى أهلِ مكَّة ، لمّا أُمروا بالتحوّل عنها والخروجِ إلى المدينة قالوا : يا رسول الله ليسَ لنا بالمدينة منازل ولا أموال فمِنْ أين المعَاش ؟ فأنزل اللهُ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ لا تدّخر رزقها ولا تجمعه ، أى كذلكَ جميع هوامّ الأرض كلّهَا إلاّ النملة فإنها تدَّخر رزقها لسَنَتها .

﴿ وَمَا هَاذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ . . . ﴾

حياة لا موت فيها .

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

وقوله: ﴿ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ . . . ﴾

يقول: يُخلصونَ الدعاء والتوحِيد إلى الله فى البحر ، فإذا نجَّاهم صاروا إلى عبادة الأوثان .

﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعلَمُونَ ﴾

وقوله: ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُواْ . . . ﴾

قرأها عاصم والأعمش على جهة الأمر والتوبيخ بجزم اللام وقرأها أهل الحجاز ﴿ وَلِيَتَمَتَّعوا ﴾ مكسُورة على جهة كى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 2 صـ 314.319 ﴾

(44/593)

وقال بيان الحق الغزنوى :

سورة العنكبوت

(الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون) [1 ، 2] أي: بالأوامر

والنواهي . وقيل: في أموالهم وأنفسهم . و"أن" الأولى في موضع النصب ، لوقوع الحسبان عليه . والثانية: في محل الخفض ، أي: لأن يقولوا . (فليعلمن الله) [3] فليظهرن الله لرسوله . وقيل: فليميزن الله . وقيل: يعلمه كائناً واقعاً .

وقيل: يعلمه كائناً غير واقع . (أن يسبقونا) [4] أن يفوتونا . (جعل فتنة الناس كعذاب الله) [10] في قوم من مكة أسلموا ، فلما فتنوا وأوذوا ارتدوا . (ولنحمل خطاياكم) [12] لفظه أمر ، ومعناه الجزاء . أي: اكفروا فإن كان عليكم شيء فهو علينا . (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) [13] أي: أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم . وقيل: إنها أوزار السنن الجائرة . (ألف سنة إلا خمسين عاماً) [14]

هذا أفخم في اللفظ ، وأحسن في النظم من القول: "تسع مئة وخمسين عاماً" . (ينشئ النشأة) [20] مصدر من غير صدره ، وتقديره: ثم الله ينشئ الخلق فينشؤون النشأة الأخرة . (يعذب من يشاء) [21] قيل: بالانقطاع إلى الدنيا . وقيل: بسوء الخلق . (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) [22] أي: ولا في السماء لو كنتم فيها . وقيل: معناه أنه لا يعجزه أهل الأرض في الأرض ، ولا أهل السماء في السماء ، إلا أنه لم يظهر الضمير . /

(مودة بينكم) [25] يتوادون بها في الدنيا ، ويتبرؤون منها يوم القيامة ، فيتم الكلام عند قوله: (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا) ثم تكون (مودة بينكم) مبتدأ ، والخبر: (في الحياة

الدنيا) ، أي: مودة بينكم كائنة في الدنيا ، ثم ينقطع يوم القيامة . وقيل: بأن الكلام [متصل] بأوله على وجهين: -أن "ما" في "إنما" اسم ، وهو مع الفعل بمعنى المصدر ، أي: إن اتخاذكم من دون الله أوثاناً مودة بينكم . -والثاني: أن يكون ["ما"] بمعنى "الذي" أي: إن الذي اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم ، أي: ذوو مودة بينكم . (وقال إني مهاجر) [26]

(45/593)

قاله إبراهيم ، أي: مهاجر للظالمين ، وهاجر إلى حران . (وتقطعون السبيل) [29] هو قطع سبيل الولد برفض النساء . (وكانوا مستبصرين) [38] أي: عقلاء ، ذوي بصائر . وعن قتادة: مستبصرين في ضلالتهم ، معجبين بها . (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) [42] إذ ليس في جميع البيوت لجميع الحيوان ، ما لا [يكن] من حر أو برد ، ولا يحصن عن طالب ، إلا بيت العنكبوت . قال الفرزدق:

934- ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل . (ولذكر الله أكبر) [45] أي: ذكر الله لكم بالرحمة ، أكبر من ذكركم له بالطاعة . (إلا بالتي هي أحسن) [46] أي: في إيراد الحجة من غير سباب واضطراب . (إلا الذين ظلموا منهم) أي: منع الجزية وقاتل . وقيل: هم الذين أقاموا على الكفر بعد أن حجوا وألزموا . (ومن هؤلاء من

يؤمن) [47] أي: أهل مكة، أو العرب.

(بل هو ءايات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) [49] أي: حفظ القرآن وحفظ الكتاب بتمامه لهذه الأمة. وفي الحديث "أنا جيلهم في صدورهم وقربانهم/من نفوسهم"، أي: الجهاد. (وكأين من دابة) [60] لما أمروا بالهجرة، قالوا: ليس لنا بالمدينة منازل ولا أموال. (لا تحمل رزقها) أي: لا تدخر. (وإن الدار الآخرة لهي الحيوان) [64] أي: الحياة، أو دار الحيوان. وإن كانت الدار حياة، فما ظنكم بأهل الدار. (ليكفروا بما ءاتيناهم وليتمتعوا) [66] جرى على الوعيد، لا الرخصة، كقوله: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر).

[تمت سورة العنكبوت]. انتهى انتهى. اهـ ﴿ باهر البرهان صـ 1094. 1101 ﴾

(46/593)

وقال الأخفش:

سورة (العنكبوت)

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قال ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ على "وَوَصَّيْنَاهُ حُسْناً" وقد يقول الرجل: "وَصَّيْتُهُ خَيْراً" أيْ: بخَيْر .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ على الأمر كأنهم أمروا انفسهم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلك عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وقال ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ ﴾ وقال ﴿ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ لأنهما لغتان تقول: "بَدَأَ الخَلْقَ" و"أَبْدَأَ" .

﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾

وقال ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ ﴾ أيْ: لا تُعْجِزُونَنَا هَرَباً في الأَرْضِ ولا في السَّمَاءِ .

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ وَلاَ تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾

وقال ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ ﴾ لأنَّ الأول كان في معنى التنوين لأنه لم يقع فلذلك انتصب الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 473 ﴾

(47/593)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة العنكبوت

مكية كلها

2 - وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ أي لا يقتلون و[لا] يعذّبون «1» .

3 - وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي ابتليناهم .

5 - مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ أي يخافه .

12 - اتَّبِعُوا سَبِيلَنا أي ديننا . وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ أي لنحمل عنكم ذنوبكم . والواو زائدة .

13 - وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ أي أوزارهم . وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ :

أوزارا مع أوزارهم . قال قتادة : «من دعا قوما إلى ضلالة ، فعليه مثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» .

14 - الطُّوفانُ : المطر الشديد .

17 - الْأَوْثانِ واحدها : وثن . وهو : ما كان من حجارة أو جصّ .

وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً أي تختلقون كذبا .

21 - وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ أي تردّون .

---

(1) فسر الطبري الفتنة : الامتحان .

(48/593)

---

22 - وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ أي ولا من في السماء [بمعجز] .

27 - آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا : بالولد الطّيب ، وحسن الثناء عليه .

29 - وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ و«النادي» : المجلس . و«المنكر» مجمع الفواحش من القول والفعل . وقد اختلف في ذلك المنكر .

40 - فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً يعني : الحجارة . وهي : الحصباء أيضا . يعني : قوم لوط .

45 - إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ قالوا : المصلّي لا يكون في منكر ولا فاحشة ، ما دام فيها .

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ يقول : ذكر اللّه العبد - ما كان في صلاته - اكبر من ذكر العبد للّه .

ويقال : وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ أي التسبيح والتكبير أكبر وأحرى بأن ينهي عن الفحشاء والمنكر .

48 - وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ يقول : هم يجدونك أمّيا في كتبهم ، فلو كنت تكتب لأرتابوا .

58 - لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً أي لننزلنّهم .

ومن قرأ : لنثوينهم ، فهو من «ثويت بالمكان» أي أقمت به .

60 - وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ أي كم من دابة لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا : لا ترفع شيئا لغد ، اللَّهُ يَرْزُقُهَا . قال ابن عيينة : «ليس شيء يخبأ ، إلا الإنسان والنملة والفأرة» «1» .

---

(1) أخرج عبد حميد وابن أبي حاتم والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من

---

64 - وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ يعني : الجنة هي دار الحياة ، أي لا موت فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 287. 289 ﴾

التمر ويأكل ، فقال لي : «يا ابن عمر ، مالك لا تأكل ؟» قلت : لا أشتهيه ، قال : «لكني اشتهيته وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا لقيت قوما يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين» قال : فو اللّه ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت : وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : «إن اللّه لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا وأني لا أكثر دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد .

(50/593)

وقال الغزنوى :

ومن سورة العنكبوت

2 أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا : موضع أَنْ نصب بمعنى : لأن يقولوا ، أو على البدل من أَنْ الأولى فيعمل فيه «حسب» «1» .

وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ : بالأوامر والنواهي «2» ، أو في أموالهم وأنفسهم «3» .

3 فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ : يظهرنّه ويميّزنّه ، أو يعلمه كائنا واقعا .

[75/أ] 4 أَنْ يَسْبِقُونا : يفوتونا فوت السابق لغيره «4»/ .

5 مَنْ كانَ يَرْجُوا : . . . مَنْ رفع بالابتداء ، وكانَ خبره ، وجواب الجزاء فَإِنَّ ، كقولك : إن كان زيد في الدار فقد صدق الوعد .

7 وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ

: هو طاعتهم للّه فلا شيء أحسن منه .

10 جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ : في قوم من مكة أسلموا ، فلما فتنوا وأوذوا ارتدّوا «5» .

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج : (4/ 159 ، 160) ، وانظر معاني القرآن للفراء : 2/ 314 ، وتفسير الطبري : 20/ 128 ، وإعراب القرآن للنحاس : 3/ 247 ، والبحر المحيط :

7/ 139 .

(2) ذكره البغوي في تفسيره : 3/ 460 ، وابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 255 دون عزو .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 20/ 128 عن مجاهد . ونقله الماوردي في تفسيره :

3/ 243 ، عن مجاهد أيضا . وانظر معاني القرآن للزجاج : 4/ 159 .

(4) تفسير الطبري: 20/ 130، ومعاني القرآن للزجاج: 4/ 160، وزاد المسير: 6/ 256.

(5) أخرجه الطبري في تفسيره: 20/ 133 عن الضحاك، ونقله الواحدي في أسباب النزول:

396 عن الضحاك أيضا.

وانظر الدر المنثور: 6/ 453.

(51/593)

---

12 وَلْنَحْمِلْ خَطايا كُمْ: أي: اكفروا، فإن كان عليكم شيء فهو علينا.

13 وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ: أي: أثقال إضلالهم مع أثقال ضلالهم «1»، أو هي أوزار السنن الجائرة «2».

20 يُنْشِئُ النَّشْأَةَ: أي: ينشئ الخلق فينشئون. وقرئ (النشاءة) «3».

21 يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ: بالانقطاع إلى الدنيا «4». وقيل «5»: بسوء الخلق.

22 وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ: لو كنتم فيها «6»،

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 20/ 135، وأخرج نحو هذا القول عن ابن زيد.

وقال البغوي في تفسيره : 3/ 463 : «نظيره قوله عز وجل : لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ [النحل : 25] .

(2) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 3/ 245 ، ويدل عليه الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : 4/ 2674 ، كتاب العلم ، باب «من سن سنة حسنة أو سيئة» عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا» .

(3) هذه قراءة أبي عمرو ، وابن كثير كما في السبعة لابن مجاهد : 498 ، والتبصرة لمكي :

289 ، والتيسير للداني : 173 .

وقال مكي في الكشف : 2/ 178 : «والنشاءة – بالمد – هو المصدر كالإعطاء ، يدل على المدّة الثانية في الخلق كالكرة الثانية ، فهو مصدر صدر من غير لفظ (ينشئ) ، ولو صدر عن لفظ (ينشى) لقال : الإنشاءة الآخرة ، والتقدير فيه : ثم اللّه ينشئ الأموات ، فينشئون النشأة الآخرة ، فهو مثل قوله : وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً [آل عمران : 37] . . .» .

(4) ذكره الماوردي في تفسيره : 3/ 246 .

(5) المصدر السابق .

(6) ذكره الطبري في تفسيره: 20/ 140، والزجاج في معانيه: 4/ 165.

وانظر تفسير البغوي: 3/ 464، والمحرر الوجيز: 11/ 375. [.....]

(52/593)

أو هو على تقدير: ولا من في السماء «1».

26 مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي: خارج عن جملة الظالمين على جهة الهجر لهم إلى حيث أمرني ربي، وقد كان هاجر من «كوثى» «2» قرية بسواد الكوفة إلى الشّام.

25 مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ: أي: الآلهة التي اتخذتموها من دونه تتوادّون بها في الدنيا وتتبرأون منها يوم القيامة، فتكون مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ مبتدأ «3»، والخبر فِي الْحَياةِ الدُّنْيا، أي: مودّة بينكم بسببها كائنة في الدنيا ثم ينقطع يوم القيامة.

29 وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ: أي: سبيل الولد برفض النساء «4».

32 مِنَ الْغابِرِينَ: الباقين في العذاب.

---

(1) ذكره الفراء في معاني القرآن: 2/ 315، ثم قال: «وهو من غامض العربية، للضمير الذي لم يظهر في الثاني».

قال أبو حيان في البحر: 7/ 247: «وهذا عند البصريين لا يكون إلا في الشعر لأن فيه

حذف الموصول وإبقاء صلته» .

وانظر القول الذي أورده المؤلف – رحمه اللّه – في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : 217 ، وتفسير الطبري : 20/ 139 ، ومعاني القرآن للزجاج : 4/ 165 ، والمحرر الوجيز : 11/ 375 .

(2) كوثى – بالضم ثم السكون ، والثاء مثلثة ، وألف مقصورة .

كذا ضبطه ياقوت في معجم البلدان : 4/ 487 .

وانظر هذا الموضع في معجم ما استعجم : 4/ 1138 ، والروض المعطار : 503 .

أما السواد فسمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار .

معجم البلدان : 3/ 272 .

(3) على قراءة أبي عمرو ، والكسائي ، وابن كثير برفع «مودة» .

انظر السبعة لابن مجاهد : 499 ، والتيسير للداني : 173 ، والكشف لمكي : 2/ 178 ، وحجة القراءات : 550 ، والتبيان للعكبري : 2/ 1031 .

(4) ذكره الفراء في معانيه : 2/ 316 ، وانظر معاني القرآن للزجاج : 2/ 168 ، وتفسير الماوردي : 2/ 247 ، والمحرر الوجيز : 11/ 383 ، وزاد المسير : 6/ 268 .

38 وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ : عقلاء ذوي بصائر «1» ، أو مستبصرين في ضلالتهم معجبين بها «2» .

41 لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ : إذ لا يكنّ «3» من حرّ أو برد ولا يحصّن عن طالب .

45 وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ : أي : ذكر اللّه لكم بالرحمة أكبر من ذكركم له بالثناء «4» ، أو ذكركم اللّه أفضل من جميع عملكم .

46 إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ : أي : في إيراد الحجة من غير سباب واضطراب .

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ : أي : منع الجزية وقاتل «5» ، أو أقام على الكفر بعد أن حجّ وألزم «6» .

49 بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ : أي : حفظ القرآن وحفظ الكتاب

---

(1) هذا قول الفراء في معانيه : 2/ 317 ، ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 467 عن الفراء أيضا ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 6/ 272 ، والقرطبي في تفسيره : 13/ 344 .

(2) نص هذا القول في تفسير القرطبي : 20/ 150 ، ونقله البغوي في تفسيره : 3/ 467 عن قتادة ، ومقاتل ، والكلبي .

(3) أي : لا يفي ولا يصون .

الصحاح : 6/ 2188 ، واللسان : 13/ 361 (كنن) .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (20/ 156 ، 157) عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 6/ 466 ، وعزا إخراجه إلى ابن السّني ، وابن مردويه ، والديلمي عن ابن عمر مرفوعا .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 6/ 292 : «روي هذا من غير وجه عن ابن عباس ، وروي أيضا عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان الفارسي وغيرهم» .

(5) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 21/ 1 عن مجاهد ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : (6/ 468 ، 469) ، وزاد نسبته إلى الفريابي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد أيضا .

(6) ذكره الطبري في تفسيره : 21/ 2 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 249 عن ابن زيد .

بتمامه لهذه الأمّة «1» .

[75/ب] وفي الحديث «2» : «أنا جيلهم في/ صدورهم وقرابينهم من نفوسهم» .

56 فَإِيَّايَ

: الفاء للجزاء ، بتقدير : إن ضاق بكم موضع فإيّاي فاعبدون ، لأنّ أرضي واسعة «3» .

60 وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ : لما أمروا بالهجرة قالوا : ليس لنا بالمدينة منازل ولا أموال «4» .

لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا : لا تدّخر «5» .

66 لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ : على الوعيد ، كقوله «6» : فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 648.652 ﴾

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره : 6/21 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 3/ 250 ، والبغوي في تفسيره : 3/ 471 عن الحسن .

(2) ورد نحو هذا القول في حديث طويل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة : 1/ 77 - 79 عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعا وفي إسناده سهيل بن أبي صالح .

قال أبو نعيم : «و هذا الحديث من غرائب حديث سهيل ، لا أعلم أحدا رواه مرفوعا إلا من هذا الوجه ، تفرد به الربيع بن النعمان وبغيره من الأحاديث عن سهيل ، وفيه لين» .

والحديث بلفظ : «أنا جيلهم في صدورهم يصفون للصلاة كما يصفون للقتال ، قربانهم الذي

يتقربون به إليّ دماؤهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار» .

في معجم الطبراني : 10/ 110 حديث رقم (10046) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد : 8/ 274 وقال : رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم .

(3) ينظر معاني القرآن للزجاج : (4/ 172 ، 173) ، والكشاف : 3/ 210 ، والبحر المحيط :

7/ 157 .

(4) نقله الماوردي في تفسيره : 3/ 253 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، وكذا القرطبي في تفسيره : 13/ 360 . [. . . . .]

(5) معاني القرآن للفراء : 2/ 318 ، وتفسير الطبري : 21/ 11 ، ومعاني الزجاج : 4/ 173 ، وتفسير القرطبي : 13/ 359 .

(6) سورة الكهف : آية : 29 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة العنكبوت

عدد 35و85و29

نزلت بمكة بعد سورة الروم عدا الآيات من 1 إلى 11 فإنها نزلت بالمدينة وهي تسع وستون آية ، وتسعمئة وثمانون كلمة ، وأربعة آلاف ومئة وخمسة وستون حرفا .

لا يوجد مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الم" 1 تقدم معناه وما فيه أول سورة الأعراف فما بعدها من أمثاله مفصلا "أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا" في هذه الدنيا بلا بلاء وهي داره ، ولا امتحان واختبار وهي محلهما ، بمجرد "أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا" بالله ورسوله وكتابه وملائكته والبعث بعد الموت والقدر خيره وشره من الله "وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ" 2 فيها بأموالهم وأولادهم وأنفسهم ، كلا ثم كلا .

مطلب لا بدّ من اقتران الإيمان بالعمل الصالح :

لا يكفي الإيمان المجرد ، بل لا بد من اقترانه بالعمل الصالح والصبر على البلاء .

نزلت هذه الآية وما بعدها إلى 11 في المدينة المنورة في أناس كانوا في مكة بعد

هجرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم مسلمين فكتب إليهم أصحاب الرسول أن لا يقبل اللّه منكم الإقرار بالإسلام حتى تهاجروا من محل الكفر إلى الإيمان ، فخرجوا عامدين إلى المدينة ، فتبعهم المشركون فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، قال بعضهم لو أثاب اللّه المؤمن يوم القيامة من غير أن يفتنه في الدنيا ، لقال الكافر المعذب ربي لو أنك كنت فتنته في الدنيا لكفر مثلي ، فإيمانه الذي تثبيه عليه مما لا يستحق الثواب له ، وبالفتنة يلجم الكافر عن مثل هذا القول ويعوض المؤمن بدلها ما يعوض من خير الآخرة ونعيمها الذي لا يكيف ، وان نعيم رجل أو امرأة من أهل الجنة لو قسم على أهل الأرض لزاد عليهم بحيث يتمنى لو كانت فتنته أعظم مما كانت ، وقال ابن عباس أراد بالناس الذين آمنوا بمكة سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد ابن الوليد وعمار بن ياسر وغيرهم من المسلمين ، وقيل في عمار كان يعذب في اللّه ، وقيل في مهجع بن عبد اللّه مولى عمر وكان أول من قتل من المسلمين في بدر فسماه صلّى اللّه عليه وسلم سيد الشهداء وقال إنه أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة ، فجزع أبوه وأمه فأنزل اللّه هذه الآية .

(57/593)

قال تعالى "وَلَقَدْ فَتَنَّا" اختبرنا وامتحنا "الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" قبل أولئك المسلمين الممتحنين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم بأنواع البلاء فمنهم من قتل ومنهم من نشر بالمنشار ، ومنهم من مشّط بأمشاط الحديد المحماة ومنهم من أحرق بالنار ، ومنهم من صبر على أنواع التعذيب ، فثبتوا على دينهم ولم ينصرفوا عنه "فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ" بهذا الافتتان ، وهو عالم قبل ولكن ليظهر ذلك من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ليطلع عليه خلقه "الَّذِينَ صَدَقُوا" بإيمانهم وحافظوا عليه ولم يثنهم عنه ما أصابهم من البلاء رغبة به وطلبا لما عند اللّه من الثواب "وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ" 3 في إيمانهم الذين ذمهم اللّه تعالى بقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ) الآية 12 من سورة الحج في ج 3 ، أي ليميز الصادق من الكاذب فيما بين الناس ، أما هو جلّ علمه فهما معلومان عنده من يوم قالوا بلى كعلمه بجميع مكوناته ، وان ما يظهره من أقوالهم ليعلم به الناس ، وانه سيكافىء الصادق على صدقه ، ويجازي الكاذب على كذبه .

قال تعالى "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا" يفوتوننا ، كلا لا يقدرون على الهرب منا ، ولا يفلتون من قبضتنا ، أو يظنون أنا لا نعاقبهم ، بلى سننتقم منهم لا محالة ، وإذا كان هذا ظنهم فقد "ساءَ ما يَحْكُمُونَ" 4 به فقد خاب ظنهم وبئس ما حكموا به .

واعلموا أيها الناس أن "مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ" في الآخرة فعليه أن يحسن إيمانه ويشفعه

بالعمل الصالح ، ويعتقد بالبعث بعد الموت "فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ" المضروب للقائه الذي فيه عقاب الكافر وإثابة المؤمن "لَآتٍ" لا محاله ، فليستعد له ويستمر على صالح العمل كي يصدق رجاؤه ويحقق أمله .

(58/593)

وإتيانه كناية عن إتيان ما فيه من الخير العظيم لأهل الخير ، والشر الجسيم لأهل الشر ، ألا فلينتظر المحسنون ثواب أعمالهم والمسيئون عقابها "وَهُوَ السَّمِيعُ" لأقوال عباده سرّها وجهرها "الْعَلِيمُ" 5 بنياتهم طيبها وخبيثها ، ثم طفق جل شأنه يعرض بالجهاد ويرغب فيه لقرب أوانه ، لأنه تعالى سيأذن لحبيبه في هذه السورة بالهجرة التي هي مقدماته ، فقال عز قوله "وَمَنْ جاهَدَ" منكم أيها الناس أعداء اللّه الكافرين أعداءكم لإعلاء كلمة اللّه وتخليص عباده من الذل ومن رق الكفار ، وأنقذهم من أذاهم المرعق ، وصبر نفسه على قتالهم ، وصدق ربه بما آتاه من قوة بدنية ومالية "فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ" لأنها هي التي تحظى بعظيم ثوابه لتلك الغايات الشريفة ، فمن زهد بنفسه لأجل اللّه فيكون جزاؤه ومكادنه عليه ، وناهيك به مجاز يعطي على القليل الكثير ، وعلى العظيم أعظم منه "إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ" 6 وإيمانهم وجهادهم ولو شاء لما أحاجهم إلى الجهاد ، ولكن أمرهم به لمنفعة

أنفسهم وليظهر لخلقه من منهم الطائع له أزلا والعاصي كما هو مدون في لوحه ولما يعود عليهم بسببه من الخير العميم والفضل الجسيم ، قال تعالى "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" التي أعظمها الجهاد في سبيل اللّه في زمنه ووقت الحاجة الماسة إليه ، وإلا فتوحيد اللّه أعظم منه وسد عرز المحتاج الذي لا يقوم به أحد أفضل أيضا "لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ" في الآخرة ولنبدلنها حسنات بسبب ما ضحوه من الأعمال الطيبة لإيمانهم "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ" 7 مر مثلها في الآية 97 من سورة النحل المارة .

مطلب برّ الوالدين وما وقع لسعد بن أبي وقاص مع أمه ، وأبي بكر مع ولده ، وعياش وأخويه أولاد أسماء بنت محرمة :

(59/593)

قال تعالى "وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً" أمرناه أن يتعهدهما ويراعي حقوقهما ويحسن إليهما "وَإِنْ جاهَداكَ" ألحّا عليك أيها الإنسان "لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" بإلهيته ، ولا يصح أن يكون إلها إذ لا إله غيري ، أنا الملك صاحب الأمر والنهي "فَلا تُطِعْهُما" في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وان الإشراك لا أعظم منه ولا أجلب لغضب اللّه من معتنقه ، "إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ" لا إلى غيري بررتم بوالديكم أو عققتم أو آمنتم أو كفرتم

وحينذاك "فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 8 في الدنيا ، فأجازيكم على الخير خيرا منه ، وعلى الشر مثله .

وقدمنا ما يتعلق في بر الوالدين في الآية 24 من الإسراء في ج 1 وفي الآية 14 من سورة لقمان المارة فراجعهما .

وتفسير الجملة الأولى من هذه الآية في الآية 15 من سورة الأحقاف المارة ، وذكرنا في آية لقمان ما وقع لسعد بن أبي وقاص مع أمه ، وفي آية الأحقاف ما وقع لأبي بكر أيضا فراجعها .

وقيل إن هذه الآية نزلت في عياش بن ربيعة المخزومي لما هاجر مع عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فجاء أبو جهل والحارث بن هشام ونزلا عنده في المدينة وقالا له إن من دين محمد صلة الرحم وبر الوالدين ، وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتا حتى تراك ، وهي أشد لك حبا (وذلك لأنهما أخواه لأمه) ، فاستشار عمر فقال يخدعانك ، ولئن بقيت لأقسم مالي بيني وبينك ، فلم يزالا به حتى أطاعهما ، فقال له عمر أما إذ عصيتني فخذ ناقتي ، وإن رابك أمرهما فارجع فإنها لا تدرك .

رضي اللّه عنه وأرضاه ، إنه لينظر بنور اللّه ، كيف وقد جاء التنزيل يحمل من أقواله ، وقد قال فيه صلّى اللّه عليه وسلم لقد كان فيمن قبلكم من الأمم محدّثون فإن يك من أمتي منهم أحد فإنه عمر .

وفي رواية : لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن بك في أمتي أحد فإنه عمر .

(60/593)

وكلمة محدّثون بالتشديد ، وفي رواية : ملهمون .

وهذا مما يؤيد أن أن اللّه تعالى لم يترك هذه الأمة من معنى الوحي وآثار الرسالة ، كيف وقد قال صلّى اللّه عليه وسلم : إن اللّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدّد لها أمر دينها .

وللّه الحمد ، هذا ، ولما لم يقنع بقوله ليقضي اللّه أمرا كان مفعولا وليطلعهم عليه ليصدقوا أن من عباده ممن هو ملهم بما يقع من قضائه ، فلما انتهوا به إلى البيداء قال أبو جهل كلّمت نافتي فاحملني معك ، فنزل ، فأخذاه وشدا وثاقه ، وجلده كل منهما مئة جلدة ، وذهبا به إلى أمه ، فقالت له لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد .

هذا وقد جعل بعض المفسرين الآيات الثلاث في حق سعد رضي اللّه عنه ، وان ما جرينا عليه أولى ، على أن كلا منها عامة اللفظ والمعنى لا يخصصها عن عمومها هذه الأسباب ولا يقيدها عن إطلاقها ، لأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، ولأن الآية الواحدة

قد يكون نزولها لعدة حوادث بسبب انطباق مآلها عليها ، ولم نعهد أن ثلاث آيات نزلت في حادثة واحدة أو آيتين ، وعليه فالقول بنزول الآيات الثلاث المذكورة في حق سعد رضي اللّه عنه لم يثبت ، واللّه أعلم .

ومرت بقية القصة في الآية 11 من سورة لقمان ، وقيل إنها نزلت في سعد بن مالك الزّهري وأمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس ، لما أسلم قالت له لا آكل ولا أشرب ولا استظل حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتعيّر بي ، فلم يفعل ، وبقيت أياما ، ولما أيست منه أكلت وشربت واستظلت ، قال تعالى "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ" 9 من عبادنا مع الأنبياء والأولياء والشهداء والعارفين .

(61/593)

قال تعالى "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ" إيمانا مطلقا "فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ" لأجله أو من أجله "جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ" به من أذية أو إهانة "كَعَذابِ اللَّهِ" أي نزل ما يصيبه منهم منزلة عذاب اللّه في الآخرة وجزع كما يجزع من عذابه لو حل به ، مع أنه لا يعد كل عذاب الدنيا شيئا بالنسبة لجزء من عذاب الآخرة ، فلم يصبروا على ما وقع عليهم من عذاب الدنيا ، ورجعوا عن دينهم وكفروا بربهم ، مع أنه يجب عليهم أن يصبروا عليه مهما كان شديدا ،

لأنه فان رغبة بما عند اللّه للصابرين من نعيمه الدائم .

وهذه سمة المنافق فإنه إذا أوذي في اللّه رجع عن دينه ، كالذي يعبد اللّه على حرف ، راجع الآية 12 من سورة الحج المشار إليها آنفا ، أما المؤمن فإنه يصبر على ما أصابه طلبا لما عند اللّه من الثواب "وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ" وغنيمة للمؤمنين من أعدائهم "لَيَقُولُنَّ" لهم أولئك المنافقون "إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ" على عدوكم وكنا مسلمين مثلكم ، وإنما أكرهنا على ما وقع منا ، فأكذبهم اللّه بقوله "أَ وَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ" 10 من الإيمان الصادق والنفاق المحض وغيره ،

بلى هو أعلم منهم بأنفسهم ، وهذا استفهام تقريري بمعنى القسم ، أي بلى واللّه هو عالم بذلك ، ولهذا أردفه بالقسم .

فقال "وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا" وثبتوا على إيمانهم حالة البلاء "وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ" 11 الذين تخلوا عنه عند الشدة ، أي واللّه إنه عالم بالفريقين حق العلم لأن اللام في الفعلين موطئة للقسم .

نزلت هاتان الآيتان في أناس كانوا مؤمنين بألسنتهم فإذا أصابهم أذى من الكفار واتقوهم على ما يريدونه ، فنصحهم اللّه تعالى ، وهذه آخر الآيات المدنيات .

قال تعالى "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا" من أهل مكة "لِلَّذِينَ آمَنُوا" بمحمد "اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ" أي إذا كان الصارف لكم عنا خوفكم عقاب اللّه الذي يهددكم به محمد فارجعوا عن دينه إلى دينكم ونحن نتحمل عنكم ما يهددكم به ، فأكذبهم اللّه بقوله "وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ" هذا نفي مؤكد بالباء الواقعة في خبر ما التي هي بمعنى ليس جيء بها لتأكيد نفي الاستمرار وبمن الداخلة على شيء لتأكيد الاستغراق ثم قرر ذلك بقوله "إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ" 12 بأنّ المقيدة للتحقيق والتأكيد واللام الموكدة لها ، ونظير هذه الآية في المعنى الآية 25 من سورة النحل المارة ، كما أن نظير الآيتين 10/ 11 المارتين الآية 166 فما بعدها من سورة آل عمران في ج 3 ، قال تعالى "وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ" أوزارهم الباهظة "وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ" أيضا ، لأن هؤلاء المضلين عليهم عقابان ، عقابا لافترافهم الكفر ، وعقابا لحمل غيرهم عليه ، راجع الآية 25 من سورة النحل المارة "وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" سؤال توبيخ وتبكيت "عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ" 13 من الأكاذيب والأباطيل ويغرون غيرهم بها كقولهم هذا ، روى مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال : من سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن

ينقص من أوزارهم شيء .

والسنة السيئة هي المبتدعة التي لم يرد عن النهي عنها حديث صحيح ، كما أن السنة

الحسنة الواردة في الحديث الآخر الذي ذكرناه في آية النحل المذكورة هي غير التي منها حضرة الرسول ، وتنطبق على هذين الحديثين البدع ، فما كان منها سيئًا دخل في السنة السيئة ، وما كان منها حسنا دخل في السنة الحسنة .

(63/593)

قال تعالى "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ" يدعوهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأوثان "أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً" لم يقل تسعمئة وخمسين عاما ، لأن الاستثناء يدل على التحقيق ، وغيره يدل على التقريب ، ولأن التعبير بها أقل كلمات من غيرها ، ولأن عقد الألف يدل على التكثير وهو أعظم للكلام .

قال ابن عباس بعث على رأس الأربعين ، ودعا قومه ألفا إلا خمسين ، وعاش بعد الطوفان ستين ، فعمره ألف وخمسون سنة .

وقال وهب عاش ألفا وأربعمائة سنة .

وجاء في التوراة آخر الإصحاح التاسع أنه عاش مع قومه ستمئة سنة ، وبعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، والله أعلم .

وهذه الآية كتسلية لحضرة الرسول يعلمه فيها أن من الأنبياء قبلك صبروا على البلاء كثيرا

وإنك أولى بالصبر لأنك من أولي العزم ، وإن أمتك مهما قابلتك به ، فإنها أحسن من غيرها من حيث النتيجة ، لأنا جعلناك خير نبي أرسل ، فأرسلناك إلى خير أمة ، فاصبر عليهم فإنك مهما جاملتهم وتحملت منهم لا يكون مثل صبر نوح على قومه في طول مدته ، وإنا بعد صبره هذا أعلمناه بأنهم لم يؤمنوا ، وألقمناه الدعاء عليهم ، فدعا "فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ" إجابة لدعوته التي صادقت الوقت المقدر لعذابهم "وَهُمْ ظالِمُونَ" 14 لأنفسهم لعدم إجابتهم دعوة نبيهم للإيمان وإصرارهم على الكفر ، أما نوح "فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ" الذين آمنوا معه من الغرق "وَجَعَلْناها" تلك الفعلة التي فعلناها بهم أو السفينة التي أنجينا بها المؤمنين "آيَةً لِلْعالَمِينَ" 15 أجمع إذ يتناقلون أخبارها جيلا بعد جيل منذ زمنها إلى يوم القيامة .

راجع تفصيل القصة في الآية 44 من نورة هود المارة .

(64/593)

وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ" وحده وذروا الكواكب والأصنام التي هي من مخلوقاته وصنع أيديكم "ذِلِكُمْ" الذي أرشدكم إليه وأنصحكم به "خَيْرٌ لَكُمْ" من الإشراك بالله وعبادة غيره "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ" 16 الخير من الشر والنفع من الضر ، وقال لهم يا قوم

"إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً" يدخل فيها كل معبود بغير حق حيوانا أو جمادا ملكا أو إنسا ، أما الأصنام فتختص بما يعمله البشر من فضة وذهب وحديد وغيرها "وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً" كذبا محضا تصنعونه وتسمّونه إلها افتراء على اللّه وبهتا منكم ، يا قوم "إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً" ولا يستطيعون أن يدفعوا عنكم ضرا ولا يجلبوا لكم نفعا ، فاتركوها "فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ" فهو القادر على رزقكم ورزق جميع خلقه الحسّاسة والنامية ، لاحتياج كل إلى الماء والهواء وهما رزق ليعجز البشر عن إطلاقه إذا أمسكه اللّه "وَاعْبُدُوهُ" وحده لا تشركوا به شيئا فإنه لا يقبل الشركة "وَاشْكُرُوا لَهُ" ما خولكم به من النعم العظيمة لأنكم "إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" 17 في الآخرة لا إلى أوثانكم وهو الذي يجازي المحسن ويعاقب المسيء ، هذا ما أصدقكم به لخيركم "وَإِنْ تُكَذِّبُوا" ما أقوله لكم "فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ" رسلهم كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، فأهلكهم اللّه بتكذيبهم ، وإني أخاف عليكم إن أصررتم على تكذيبي أن يصيبكم ما أصابهم "وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ" 18 الواضح إلى قومه وعلى اللّه الهداية ومنه التوفيق وله الإهلاك والانتقام قال تعالى "أَ وَلَمْ يَرَوْا" هؤلاء الناس "كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ" من النطفة ومن لا شيء ثم يميته ويفنيه "ثُمَّ يُعِيدُهُ" في

الآخرة كما بدأه دون كلفة أو إعياء "إِنَّ ذَلِكَ" الإبداء والإعادة والإماتة والإحياء "عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ" 19 لأنه ما بين الكاف والنون من قوله كن ، راجع الآية 27 من سورة الروم المارة "قُلْ" يا أكرم الرسل لهؤلاء المنكرين قدرتنا الجاحدين كتابنا المكذبين لك "سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ" يوم القيامة على نمط الأولى إذ لم يتعذر عليه الأحداث إبداء حتى تتعذر عليه الإعادة أخيرا "إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" 20 وذلك من جملة مقدوراته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد

"يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ" بسبب وبلا سبب إذا شاء "وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ" كذلك لا يسأل عما يفعل "وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ" 21 جميعكم أولكم

وآخركم فله مصير الخلائق وإليه الأمر كله فيهم "وَما أَنْتُمْ" أيها الناس له بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا" يعجزه أيضا من "فِي السَّماءِ" لأن الكل بقبضته لا يستطيع أن يفلت منهم أحد ، وفي هذا حذف الموصول مع بقاء الصلة وهو غير جائز عند البصريين ، وقد أجازه غيرهم واستشهد له في الشعر على المذهبين بقول حسان رضي اللّه عنه وهو :

أمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

فقد حذف من عجز البيت وأبقيت صلته ، إذا فلا محل للاعتراض على هذا على أن الاعتراض قد يكون إذا كان القرآن مستقى من العربية لا إذا كانت العربية متشربة من القرآن ، ويكون المعنى على التفسير الذي جرينا عليه في هذه الآية لا يعجز اللّه أحد في الأرض من الإنس أو الجن ولا يعجزه أحد في السماء من الملائكة عوامهم وخواصهم ، ومن رأى أن حذف الموصول غير جائز قال ولا في السماء لو كنتم أيها الناس فيها على فرض المحال أي الاستبعاد ، إذ لا محال على اللّه بل بالنسبة إلينا محال هو كما ترى ، قال تعالى "وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ" 22 يتولى أمركم أو يمنعكم من عذابه "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ" المنزلة على رسله "وَلِقَائِهِ" جحدوا البعث بعد الموت الذي فيه لقاء اللّه وماتوا على ذلك "أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي" فلا تنالهم البتة ولا يشموا ريحها "أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" 23 لا تستطيعه قواهم ولو كانت حديدا .

واعلم أن هذه الآيات من قوله تعالى أو لم يروا هنا ، جاءت معترضة بين قصة ابراهيم عليه السلام في تذكيره أهل مكة بمناسبة ختام ما ينزل عليهم من القرآن ، إذ ينتهي المكي بانتهاء هذه السورة والتي بعدها فقط ، لأن الخطاب فيها لسيد المخاطبين الذين أعمه أمرهم وأزعجه تماديهم في الطغيان وآسفه عدم تأثرهم من الآيات التي تذوب لها صم الحجارة وآساه اهانتهم له ولأصحابه واذاهم المترادف ، ولم يبق له بعد هذا إلا هجرهم .

قال تعالى فيما يقصه عن سيدنا ابراهيم "فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ" تجاه نعمه لهم وإرشاده إياهم وتحذيرهم بطش ربهم "إِلَّا أَنْ قالُوا" بعضهم لبعض عند ختام مذاكرتهم بشأنه كما تقدم في الآية 65 من سورة الأنبياء

(67/593)

"اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ" ليذيع خبره في الآفاق فيرتدع من تحدثه نفسه بمثل فعله مع قومه وآلهته ، ولهذا اختاروا الإحراق لأنه أكثر سمعة من القتل "فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ" التي القوه فيها على الصورة المقدمة في الآية 71 من الأنبياء المارة "إِنَّ فِي ذلِكَ" الفعل الذي فعلوه بإبراهيم وتخليصنا إياه "لَآياتٍ" عظيمات باهرات "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" 24 فيعتبرون ويتعظون "وَقالَ" ابراهيم بعد خروجه من النار سالما وأمته نمروذ كما تقدم في القصة يا قوم "إِنَّما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً" لأن تكون "مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا" فقط ثم تنقطع في الآخرة لأنها ليست على تقوى وستكون عليكم وبالا ، وهكذا كل صداقة من هذا القبيل راجع الآية 67 من سورة الزخرف المارة "ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً" وذلك لأن الأوثان تتبرا من عابديها وتنكر أنها كانت معبودة لهم وان رؤساءهم الذين أضلوهم يتبرءون منهم أيضا فيقع التشاحن بينهم فتلعن القادة الاتباع ، والأتباع القادة ،

والأوثان عابديها ، والعابدون الأوثان ، ويكثر اللجاج والخصام بينهم ، راجع الآية 31 من سورة سبأ والآية 31 من سورة ابراهيم والآية 47 من سورة المؤمن والآية 20 من سورة السجدة المارات والآية 165 من البقرة فما بعدها ج 3 العابدين والمعبودين ، ويقال لهم حينذاك اخسؤوا لا تكلموا فما لكم من مجيب وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ" 25 يحولون دون تعذيبكم البتة .

(68/593)

قال تعالى "فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ" فقط بعد ظهور المعجزة العظيمة في النار ، وإلا فهو مؤمن من قبل لأن الأنبياء يولدون مؤمنين فلا يتصور فيهم غير الإيمان من بدايتهم حتى نهايتهم "وَقَالَ" ابراهيم بعد ذلك كله وقد أيس من إيمان قومه "إِنِّي مُهَاجِرٌ" من هذه البلدة "إِلَى" حيث أمرني "رَبِّي" لعدم قدرتي على إقامة الدين بين هؤلاء الكفرة ، ولم أجد من ينصرني عليهم لتنفيذ أوامر ربي عز وجل .

مطلب تعويض الهجرة لسيدنا محمد وهجرة ابراهيم وإسماعيل ولوط عليهم الصلاة والسلام وسببها

.

وهو أول من سنّ الهجرة من دار الكفر صيانة لدينه ، وآخرهم حفيده

محمد صلّى اللّه عليه وسلم الذي عرض اللّه تعالى له هجرة جده إيذانا بهجرته من مكة

"إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ" الغالب على أمره "الْحَكِيمُ" 26 الذي لا يأمر إلا بما يكون فيه المصلحة ولا

يرد هنا مسألة الأصلح لأن الأمر غير الإرادة والاختيار غير الوجوب ، تأمل ، وراجع ان

شئت الآية 149 من الأنعام المارة وما ترشدك اليه .

قال تعالى "وَوَهَبْنا لَهُ" بعد الهجرة "إِسْحاقَ" من زوجته سارة بنت عمه وكان وهب له

قبله إسماعيل من جاريته هاجر "وَ" وهبنا لإسحق "يَعْقُوبَ" في حياته "وَجَعَلْنا فِي

ذُرِّيَّتِهِ" أي ابراهيم ولم يصرح باسمه لشهوته وعلو قدره "النُّبُوَّةَ" إذ لم يرسل اللّه نبيا من بعده

إلا من ذريته "وَالْكِتابَ" جنسه المشتمل على التوراة والإنجيل والزبور والقرآن إذ أنزلت

كلها على ذريته ، ولم ينزل بعدها شيء أبدا "وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ" وهو دوام الثناء عليه ومحبته من

جميع الأمم على اختلاف مللها ونحلها "فِي الدُّنْيا" فلا تجد أحدا إلا ويثني عليه ، وبسبب

بقاء ذريته يستمر ذكره الحسن إلى آخر الدوران "وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ" 27 للقاء

اللّه عز وجل ، فقد جمع اللّه له خير الدارين ، وهو أحق من يكرم بذلك .

(69/593)

قالوا ولما نجى اللّه ابراهيم على الصورة المذكورة في الآية 57 من سورة الأنعام فما بعدها وأذن اللّه له بالهجرة هاجر من أرض بابل إلى الأرض المقدسة هو وزوجته سارة وابن أخيه لوط ، فمروا على حران فأقاموا بها زمانا ثم خرجوا إلى الأردن فدفعوا إلى مدينة فيها جبار من القبط اسمه صارولي ، وهو الذي تعرض له في ساره ، فمنعها اللّه منه ومتعها بهاجر القبطية ، وليس المراد أنها تدين بالقبطية إذ لم تكن الديانة القبطية مشروعة إذ ذاك ، ويرجع تاريخ تسهية القبط إلى سبعمئة سنة بعد الطوفان ، وإنما سموا قبطا لأنهم نسبوا إلى قبطيم بن مطريم ، قالوا وخرج ذلك الجبار من تلك المدينة فورثها ابراهيم وأ ترى بها ، وأعطى نصفها إلى لوط ، ثم تزوج هاجر بأمر سارة فولدت له إسماعيل وهو ابن ست وثمانين سنة وقيل تسع وتسعين أما إسحق فقد ولدته سارة على طريق المعجزة كما مر في الآية 40 من سورة هود المارة ، وكان ابراهيم ابن مئة سنة ، وقيل وسبع وعشرة سنة كما في الآية 39 من سورة ابراهيم المارة .

ثم أمر اللّه ابراهيم

بالذهاب إلى مكة بإسماعيل وامه ، واعلمه بأنه قد بوأه حرمه وأنه يبنى من قبله ،

فأخذهما ووضعهما عند البيت ورجع لأهله كما مر في القصة .

روى البخاري عن ابن عباس قال أول ما اتخذ النساء المنطقة من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتخفي أثرها على ساره ، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى

وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، فوضعها هناك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قضى ابراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا ابراهيم إلى أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟

(70/593)

فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له اللّه أمرك بهذا ؟ قال نعم قالت إذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم فدعا بالدعوات المذكورة في الآية 40 فما بعدها من سورته عليه السلام ، ثم دعا بالآيات 125 فما بعدها من سورة البقرة في ج 3 وجعلت أم إسماعيل ترضع ولدها وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قالت يتلبط فانطلقت كراهية ان ترى حالة ولدها ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، فهبطت منه حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم ترى أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس قال

النبي صلّى اللّه عليه وسلم فلذلك سعى الناس بينهما (وصار من شعائر الحج) ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا ، فقالت صه تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت صوتا وقالت يا من قد أسمعت إن كان عندك غراث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فيحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، وفي رواية قدر ما تعرف ، قال ابن عباس : قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم يرحم اللّه أمّ إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم علينا معينا ، قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتا للّه تعالى يبنيه هذا الغلام وأبوه ،

(71/593)

(وستأتي كيفية بنائه في تفسير الآية المذكورة آنفا من البقرة ج 3) وان اللّه لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا في الأرض كالربية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، (أي ولا تناله بشيء) فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا (العائف المتردد حول الماء) فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء ولعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريّا أو جريين

(بالتشديد الرسول) فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء ، قالوا نعم ، قال ابن عباس قال النبي صلّى اللّه عليه وسلم فالفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات منهم ونشب الغلام وتعلم العربية منهم وآنسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه بامرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تركته .

أخرجه البخاري بأطول من هذا ، وسنأتي على تمام القصة في سورة البقرة إن شاء اللّه .

(72/593)

قال تعالى "وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ" اللواطة المتناهية في الفحش والقبح والخبث التي ابتدعتموها وحدكم "ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ" 28 فهم أول من سنها في الأرض ، قاتلهم اللّه "أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ" في أدبارهم "وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ" الطريق على المارين وتقتلون وتسلبون وتجرون معهم المنكر "وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ" مجسكم الذي هو محل مذاكرات أموركم المهمة فيما يتعلق ببعضكم وجيرانكم وغيرهم "الْمُنْكَرَ" اللواطة فينكح بعضكم بعضا فيه ، وتتضارطون ، وتصفرون ، ويحذف بعضكم بعضا بالحصى ،

وتفرقعون أصابعكم ، وتعلكون ، وتتبادلون الألفاظ المنكرة البذيئة ، وتتهامزون بالخبث والفحش فيها ، وهي لم تتخذ إلا للاجتماعات والمداولات بالأمور النافعة كالحرب وصادرات البلاد ووارداتها وحسن الجوار مع الناس والمعاهدات وغيرها ، فتوبوا إلى ربكم وارجعوا عن فيكم ، واتعظوا بمن سلف منكم ، كي لا يحل عليكم عذاب اللّه .

"فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ" بمقابلة نصحه وتحذيره وإرشاده لما فيه خيرهم "إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ"

29 أن ما نحن عليه قبيح مستوجب للعذاب والآية 82 من الأعراف وهي (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم) إلخ ، وآية النمل (أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ) إلخ في ج 1 ، وكلها تدل على الاستخفاف به والاستهزاء بقوله والسخرية به وتهديده ، وكان عليه السلام غريبا عنهم ، ولم يأت فيما قص اللّه عنه أنه دعاهم إلى عبادة اللّه كما جاء في قصة

(73/593)

إبراهيم وشعيب وغيرهما لأنه كان في زمن إبراهيم ومن قومه ، وقد سبقه في دعوة التوحيد للّه وعبادته ورفض ما سواه ، واشتهر أمره عند أهل زمنه ، لذلك كانت دعوة لوط لقومه

فيما يختص بالنهي عن الفاحشة والأفعال الأخر الخبيثة المار ذكرها فقط ، أما إبراهيم وشعيب كغيرهما من الأنبياء فقد جاء إلى قومهما بعد انقراض من كان يعبد اللّه حال عكوف الناس على عبادة الأوثان ، ولم يكن في زمنهما من يدعو إلى اللّه ولذلك انصرفا إلى دعوة التوحيد والاعتراف بالنبوة والمعاد ، فلما أيس منهم على النحر الذي تقدم في الآية 80 من سورة هود والآية 132 من سورة الصافات المارتين والآية 81 من سورة الأعراف في ج 1 ، دعا عليهم "قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ" 30 وحقق "ولي فيهم ، فأجاب اللّه دعاءه .

قال تعالى "وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى " بإسحاق ويعقوب "قالُوا" أولئك الرسل وهم الملائكة لإبراهيم "إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ" التي فيها لوط "إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ" 31 أنفسهم بأعمالهم الخبيثة وإهانتهم رسولهم وتعديهم على الناس ، وإنما أخبروه دون أن يسألهم لأنهم يعرفون أن أمر لوط يهمه لقرابته ، ولكونه غريبا عمن أرسل إليهم ، ولهذا "قالَ" إبراهيم "إِنَّ فِيها لُوطاً" وهو نبي فكيف تهلكونهما "قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها" بإعلام اللّه إيانا "لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ" لأنها ليست على دينه إنها "كا

مطبقا عليه ، وإذا فقد الطاقة قال ضاق ذرعي وذراعي ويدي ، لأن الأصل في هذا إذا كانت يد الرجل طائلة نال ما لا يناله قصير اليد أي الذراع فصار مثلا بالعجز كما كان لفظ رحب مثلا للقدرة .

فلما عرفت الملائكة ذلك منه لما غشى وجهه من الحزن والكآبة عرفوه بأنفسهم كما مر في الآية 80 من سورة هود المارة "وَقالُوا لا تَخَفْ" علينا منهم "وَلا تَحْزَنْ" على ما نفعله بهم "إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ" 33 لأنها منهم وراضية بفعلهم ، فانزاح عن وجهه الاكفهرار وقال ماذا تفعلون بهؤلاء الفسقة العتاة ؟ قالوا "إِنَّا مُنْزِلُونَ" بامر ربنا "عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً" عذابا عظيما لم يحلموا به "مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ" 34 ويتجاوزون حدود اللّه ويخرجون عن طاعة رسوله ويتعدون ما أحل إليهم لما حرم عليهم ، فخسف اللّه بهم وبقراهم ورجموا بالحجارة ، كما سبق بيانه في القصة .

واعلم ان الضمائر في هذه الآيات وإن كانت مضافة للملائكة فهي في الحقيقة إلى اللّه لأنهم جاءوا بأمره ، وفعلوا بأمره ، وهو الفاعل الحقيقي كل شيء قال تعالى "وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها" في قراهم بعد تدميرها "آيَةً بَيِّنَةً" يراها من يمر بها لتكون عظة "لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" 35 إن خرابها كان بسبب فسق أهلها ، وذلك بعد أن أمروا لوطا وأهله بالهجرة عنها .

مطلب تحريم اللواطة وجزاء فاهلها ومخازي قوم لوط والهجرة الشريفة لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم .

واعلم أن في هذه الآيات من ذم اللواطة ما لا يخفى فهي كبيرة إجماعا ، وقد نصوا على انها أشد من الزنا حرمة ، وجاء في شرح المشارق للأكمل أنها محرمة شرعا وعقلا وطبا ، وإن عدم وجود الحد عليها تغليظا لأن الحد مطهر ، وهي لخبثها لا يطهرها الحد ، إذ لو كان لجعل لها الشارع حدا كالزنى والسرقة والشرب وغيره ، ولذلك فإنها مستقبحة مستقذرة ، وقد طهر اللّه الجنة من وجودها بل ورودها على خواطر أهلها المطهرين ، وذلك ان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لعنها ولعن فاعلها وشريكه فيها ، واللّه استبعدها بقوله (ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ) الآية 80

من الأعراف في جزء 1 وسماها خبيثة بقوله (كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ) الآية 75 من الأنبياء المارة وسماها هنا فاحشة ، فالجنة منزهة عنها ، وأهلها مبرءون منها ، ولا يرد على هذا خبث الخمر في الدنيا ووجودها في الآخرة ، لأن خبثها في الدنيا ناشيء عن إزالتها العقل الذي هو عقال عن كل خبث ، وخمر الآخرة لا يزيله ، قال تعالى (لا فِيها غَوْلٌ) الآية 49 من الصافات المارة ، وجاء في الفتوحات المكية أن أهل الجنة لا أدبار لهم ، لأن الدبر إنما خلق لخروج الفضلات منه في الدنيا ، ولا فضلات في الجنة .

وعلى هذا فعدم وجودها في الجنة ظاهر طبعا ، ولا أظن أن ذا غيرة ومروءة تسمح نفسه أن يلاط فيه في الدنيا وهي دار فسق فكيف تتصوره نفسه في الجنة ؟ وقدمنا في الآية 84 من سورة الأعراف في ج 1 ما يتعلق في هذا البحث ، وفي الآية 73 من الزخرف المارة بيان مضار هذه الفعلة القبيحة وما يستحقه فاعلها وما جاء في حقه من الآيات والأحاديث وأقوال الفقهاء فراجعها .

(76/593)

قال تعالى "وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً" أي اذكر لقومك يا محمد بعد هذه القصص الثلاث قصته إذ أرسلناه كما أرسلنا من قبله ومن بعده "فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ" وحده واتركوا الأوثان "وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ" اعتقدوا صحته وتوقعوا حلوله "وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ" 36 حال مؤكدة لأن العثو هو الفساد "فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ" الحاصلة من هول صيحة الملك "فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ" 37 على ركبهم باركين خامدين ، أجساد بلا أرواح.

راجع الآية 93 من الأعراف ج 1 تقف على قصتهم "وَعاداً وَثَمُودَ" أهلكناهم أيضا لتكذيبهم أنبياءهم هودا وصالحا "وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ" يا قوم محمد "مِنْ مَساكِنِهِمْ" في الحجر

واليمن تشاهدونها بأسفاركم ، ففيهما مزدجر وعبرة وعظة لمن يعقل .

ثم أشار تعالى إلى سبب إهلاكهم بقوله "وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ" الرديئة وعدم إنصاف ذوي الحقوق "فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ" الحق بانخداعهم لوساوسه "وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" 38 ذوي بصر وبصيرة لما عملوه في الدنيا من البناء والجنان والصنايع وغيرها ولكن لم ينتفعوا ببصيرتهم وأبصارهم ، لأنهم صرفوها للدنيا فقط لذلك لم يصغوا لنصح أنبيائهم ، راجع قصتهما في الآيتين 72/ 84

(77/593)

من الأعراف في ج 1 أيضا "وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ" أهلكناهم أيضا لإصرارهم على بغيهم وعتوهم "وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ" 39 أمرنا ولا منفلتين منه ، بل أدركهم وأهلهم جميعا ، راجع قصصهم في الآية 84/ 63 من سورة القصص والشعراء في ج 1 ، "فَكُلًّا" من هؤلاء الأقوام "أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً" كقوم لوط بعد الخسف "وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ" كقوم صالح "وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ" كقارون ورفيقه "وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا" كقوم نوح وهامان

وفرعون وقومه "وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ" بما أوقعه فيهم حاشاه "وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" 40 لعدم طاعتهم رسلهم واستعمال عقولهم فيما لم تخلق له .

(78/593)

هذا ، واعلم أن اللّه تعالى قصّ على نبيه في هذه الآيات ما لقيه الأنبياء من أقوامهم وما قابلوهم به إعلاما بأن شأنه شأنهم وشأن أقوامهم ، وإيذانا بأن النبي يصاحب قومه إذا آمنوا به ويهجرهم إذا كذبوه لينزل بهم عذاب اللّه ، لأن قدرة اللّه ورحمته أبتا أن تعذب قوما ونبيهم بينهم ، وقد أخبر اللّه جل شأنه حبيبه محمدا كيفية مهاجرة إبراهيم ولوط وغيرهما بسبب ما لقيا من أقوامهما وذكر له ما وقع لسائر الأنبياء من أقوامهم اشارة لحضرته بأن يهاجر هو أيضا ويترك قومه ووطنه أسوة بهم ، وقد أشار تعالى إلى السبب المفضي إلى الهجرة في الآيتين 6/ 36 من الأنفال الآتية في ج 3 ، حتى إذا هاجر ونزلت عليه يزداد طمأنينة ، وبما أن هجرته صلّى اللّه عليه وسلم وقعت بعد نزول هذه السورة بقليل بناء على أمره له بها فتذكر خلاصتها على أصح ما جاء فيها بصورة مختصرة ، وذلك أن قريشا لما رأت حزم النبي صلّى اللّه عليه وسلم وعزمه يشتد كلما زادوا بأذاهم له ولأصحابه خافت من أن يعظم أمره إذا تركوه وشأنه ولا يستطيعون رده (وقد حقق اللّه خوفهم)

فاجتمع رؤساء قريش في دار الندوة دار قصي بن كلاب إذ كانت قريش لا تبت بأمر إلا فيها ليتشاوروا في أمر محمد ، إذ علموا أن فريقا من أصحابه هاجر إلى المدينة بعد أن هاجر فريق منهم إلى الحبشة وصار لهم شيعة من غيرهم وأصابوا من أهلها منعة مما زاد في حذرهم ، وقد أطلقوا على اليوم الذي اجتمعوا فيه لهذا

(79/593)

(يوم الرّحمة) وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو البحتري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ومنبهة ومندة ابنا الحجاج وأمية بن خلف ، وقد تمثل لهم إبليس في صورة شيخ فتغلغل بينهم ، قالوا من أنت ؟ قال من نجد سمعت باجتماعكم فأحببت حضوره ولن تعدموا مني نصحا ، فتركوه نظرا لشيخوخته لعنه اللّه ، وكانوا لا يحضرون مذاكراتهم إلا من تجاوز الأربعين ، ثم بدأوا المشاورة في كيفية التخلص منه صلّى اللّه عليه وسلم (وقد جاءهم رحمة) فأدلى كل منهم برأيه ، فكان رأي أبو البحتري حبسه حتى يموت ، فرد عليه النجدي بأنكم إذا حبستموه يخرج أسره من وراء الباب ويخلص منكم بواسطة أصحابه ، ورأى هشام أن يحمل على بعير ويطرد من البلاد ، فقال النجدي إنه يفسد غيركم كما أفسدكم ويستميل

قلوب من يحل بهم بحلاوة كلامه وطلاوة لسانه وحسن خلقه وكمال أدبه فيغزوكم بغيركم ويخرجكم من دياركم ، وقال أبو جهل نأخذ من كل بطن من قريش شابا وتسلطهم عليه فيقتلونه جميعا فيتفرق دمه في العشائر كلها ولا أظن أن بني هاشم يقدرون على حرب كل القبائل فيصار إلى الدية فنوديه كلنا ، فصاح الملعون هذا هو واللّه الرأي الصائب الذي ما بعده رأي ، وللّه در صاحبه ، فأجمعوا على ذلك وتفرقوا .

كان الشيخ محمد الراوي العاني والد الشيخ إبراهيم نزيل بغداد قدس اللّه سرهم من العارفين الكاملين ، وكان أحد مريدي ابن عمه الشيخ أحمد الراوي دفين دير الزور والد الشيخ عبد الوهاب المقيم بدير الزور يسمى (وردي) وكان يرى ما يرى ويذكر ما يراه للناس مما هو غير معقول ، فأحضرة عند حضوره إلى دير الزور وحذره أن يذكر ما يراه فلعله أن يكون من تسويلات إبليس عليه اللعنة ، ثم أرسل له بعد ذهابه أبياتا من جملتها :

قولوا لملاوردي سرّ الوجود عندي

فليكن على بصيرة من الشويخ النجدي

(لقبه بالنجدي أخذا من هذه القصة) .

(80/593)

ثم انهم انتخبوا شبابا من فرقهم وأخبروهم بما قر رأيهم عليه وأرسلوهم ليحيطوا بدار محمد ، حتى إذا خرج فتكوا به كلهم بالاشتراك ، فنزل جبريل عليه السلام بالوحي على حضرة الرسول وأخبره بما بيته له قومه وأن

اللّه تعالى أذن له بالهجرة إلى المدينة وحذره من أن يبيت في مكانه ، فألهمه اللّه أن يأخذ قبضة من تراب عند خروجه ، فأخذها وخرج من بيته متوكلا على ربه ، ومر من بينهم فلم يره أحد منهم ، إذ أخذ اللّه أبصارهم ، فنثر على رءوسهم التراب وكان يقرأ (إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ .

وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ) الآيتين 8/ 9 من سورة يس ج 1 ، وكان أرسل إلى علي كرم اللّه وجهه وأخبره الخبر وخلفه بمكانه وعلى مكة كي يؤدي الأمانات والودائع لأهلها ، لأن الناس كانت تأمنه على ما عندها لصدقه وأمانته وتسميه الأمين ، وذهب إلى بيت أبي بكر وأخبره الخبر ، فقال الرفقة يا رسول اللّه ، قال نعم ، فأخذه وذهب إلى الغار غار ثور واختبأ به ، وبات شبان قريش ينتظرون خروجه من الدار ليقتلوه ، لأنهم لم يتجاسروا على الدخول عليه في بيته لهيبته ، ولأن البيوت كانت محترمة عندهم ، ومن هنا أخذت قاعدة عدم الدخول على البيوت لإخراج من يختبىء فيها من المجرمين حرمة لأهلها وجواز الإحاطة بها من قبل الشرطة والدرك ، ولم يعلموا أنهم باتوا يحرسون عليا عليه السلام الذي فادى رسول اللّه بنفسه ، فلما أصبحوا

خرج علي فثاروا عليه ثورة رجل واحد ليقتلوه كما أوصاهم رؤساهم ، فإذا هو علي ، فقالوا له أين صاحبك ؟ قال لا أدري وأنشد كرم اللّه وجهه يشير إلى ما منّ اللّه به عليه ، فقال لا فضّ قوه :

وقيت بنفسي خير من وطئ الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

(81/593)

رسول إله خاف أن يمكروا به فنجاه ذو الطول الإله من المكر

وبات رسول اللّه في الغار آمنا وقد سار في حفظ الإله وفي ستر

وبت أداعبهم وما يتهمونني وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

ولما سقط في أيديهم وتيقنوا أنهم خابوا فيما بيّتوه له ولم يعلموا كيف أفلت منهم وزاد أساهم حينما رأوا التراب على رءوسهم وعرفوا أنه هو الذي حثاه عليهم وأنه لم يعبأ بهم ولم يكترث بمكرهم اقتفوا أثره فلم يجدوه ولم يقعوا على خبره ، وأرسلوا الرسل في طلبه يمينا وشمالا فلم يعثروا عليه ، ثم قصدوا الغار فرأوا العنكبوت معشعشا عليه فقالوا لو دخله لتمزق نسيج العنكبوت .

وسنأتي على بقية هذه القصة

الشريفة بعد تفسير سورة المطففين الآتية لأن محلها هناك ، وإنما سبقنا بذكرها هنا لمناسة ذكر الهجرة من إخوانه الأنبياء المار ذكرهم .

(82/593)

قال تعالى "مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ" ينصرونهم في الدنيا ويشفعون لهم في الآخرة "كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا" لتأوي إليه وهو في غاية الضعف والوهاء لا يدفع حرا ولا بردا ، وإنما اتخذتها شركا لصيد الذباب وشبهه "وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" 41 ماهيته ، لأن الرياح تمزقه واللمس يخرقه ، وكذلك هؤلاء الذين اتخذوا الأصنام آلهة فإنها لا تغنيهم شيئا ولا تجلب لهم في الدنيا خيرا ولا تدفع عنهم في الآخرة ضرا ، لأنها أوهى شيء يعبد ، وأوهن شيء يقصد ، وفي هذه إشارة إلى أن هذه الدنيا فانية ويكفي فيها لا هلها ما يكفي العنكبوت ، وإيذان بأن من أصحابه من يلاقي في هجرته شدة وعلة وأذى وهوانا ، وهذا مثل ضربه اللّه للمشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد اللّه مثل عنكبوت يتخذ بيتا من جلده ولعابه بالإضافة إلى رجل يبني بيتا من حجر أو حديد أو اسمنت ، وكما انك إذا استقريت بيوت الحيوانات والحشرات كافة تجد أوهنها من غير شك بيت العنكبوت فكذلك إذا استقريت عامة

الأديان تجد بلا مراء أضعفها عبادة الأوثان .

قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ" هذا توكيد للمثل أي أن الذين يدعونهم ليسوا بشيء "وَهُوَ الْعَزِيزُ" الغالب على كل شيء "الْحَكِيمُ" 42 بكل شيء .

(83/593)

وفي هذه الجملة تجهيل لهم إذ عبدوا الأحجار التي لا علم لها ولا قدرة وتركوا عبادة القادر العالم ، وتضليل لعقولهم على ترك عبادة الخالق الرازق وعبادة المخلوقين ومخلوقيهم الذي هو لا شيء "وَتِلْكَ الْأَمْثالُ" التي ضربناها بتشبيه أحوال الكفرة الموجودين بالكفرة السابقين ومعبوديهم في بيت العنكبوت بينها و "نَضْرِبُها لِلنَّاسِ" الحاضرين ليتدبروها ويتصفوا بها "وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ" 43 العارفون لأنهم أهل النظر والتدبر راجع الآية 42 من سورة الروم المارة روى البغوي بإسناد الثعلبي عن جابر بن عبد اللّه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم تلا هذه الآية وقال العالم من عقل عن اللّه فعمل بطاعته واجتنب سخطه .

مطلب في العنكبوت وأنواع العبادة والصلاة وفوائدها والذكر

.

قالوا والمراد بالعنكبوت النوع الذي ينسج بيته في الهواء لصيد الذباب وغيره ، لا النوع الآخر

الذي يحفر بيته في الأرض ويخرج بالليل كسائر الهوام وهي من ذوات السموم فيسن قتلها لذلك ، لما أخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد من قوله صلّى اللّه عليه وسلم : العنكبوت شيطان مسخها اللّه تعالى ، فمن وجدها فليقتلها .

فإنه حديث ضعيف كما أشار إليه الدميري وهو ليس بحجة ، وكذلك ما خرجه الخطيب عن علي كرم اللّه وجهه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن .

(84/593)

كما ذكره الجلال السيوطي في الدر المنثور لا يحتج به أيضا ، إذ لم تعلم صحته ، وكل ما لم تتحقق صحته لا يصلح للاحتجاج لاشتراط القطع بصحة ما يحتج به في الأحكام القولية والعقلية ، وعلى فرض صحته فإنه خاص بذلك العنكبوت الذي فعل ما فعل بإلهام من اللّه عز وجل لا مطلق عنكبوت ، وقد نص العلماء على طهارة بيتها لعدم تحقق كون ما تنسج به من غذائها المستحيل في جوفها ، والأصل في الأشياء الطهارة على أن الدميري ذكر أنها تخرجه من خارج جلدها لا من جوفها ، واللّه أعلم بحقيقة الحال .

ومثله النحل إذ لم يعرف على الضبط أن العسل هل هو من فمه أو من دبره ، راجع الآية 69

من سورته المارة ، وذكروا أنه يحسن إزالة بيتها من البيوت لما أسنده الثعلبي وابن عطية وغيرهما عن علي كرم اللّه وجهه أنه قال طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر ، فإن صح هذا عنه فذاك وإلا فإزالته حسنة لما فيها من النظافة المندوبة شرعا في كل شيء .

وتاء عنكبوت مثل تاء طالوت وهاروت للمبالغة ويقع على الواحد والجمع والمؤنث والمذكر ، راجع الآية 75 من سورة الأنعام المارة ولها بحث في الآيتين 147/ 122 من سورة البقرة في ج 3 .

قال تعالى "خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ" لا باطلا ولا عبثا ولا لعبا بل لحكمة مراعيا بها مصالح خلقه لاشتمالها على ما يتعلق بمعاشهم وشواهد دالة على شؤونه عز وجل التعلقة بذاته وصفاته ومساكن عباده وعبرة للمعتبرين منهم بدليل قوله "إِنَّ فِي ذلِكَ" الخلق البديع والصنع العجيب "لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ" 44 وعظة للموقنين ، وإنما خص

المؤمنين مع أن عموم الهداية والإرشاد في خلقهما يتحقق للكل ، لأنهم هم المنتفعون بعبرها وغير المؤمن يقتصر نفعه فيهما على ظاهر الدنيا وقد يزداد كفرا إذا نسب إليهما التأثير

الفعلي الذاتي ، أما المؤمن فيزداد إيمانا بنسبة كل ما في الكون إلى خالقه فينتفع في الدنيا والآخرة .

قال تعالى "اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ" واستمر على تبليغه وداوم على تلاوته لتزداد تقربا من اللّه ، وذلك أن الكامل يقبل الكمال وهو صلّى اللّه عليه وسلم يترقى في الكمالات إلى يوم القيامة ، بل إلى يوم يلاقي ربه في الجنة المعدة لحضرته ، فلا يقال إنه غير محتاج إلى دعاء أمته لمخالفته قوله تعالى (صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) الآية 57 من الأحزاب في ج 3 ، وأما أمره بدوام تلاوة القرآن لأن في تلاوته تذكرا لما في تضاعيفه من المعاني ، وحملا للأمة على العمل بما فيه من الأحكام ومحاسن .

الأخلاق ومكارم الآداب ، وتذكيرهم بما لهم وعليهم "وَأَقِمِ الصَّلاةَ" أدأب على إقامتها ، وجاء هذا الأمر متضمنا أمر أمته بها لأنهم تبع له ، وقد خصّها بالذكر لأن ما يختص بالعبد من العبادة ثلاث : الأولى عبادة قلبية وهي الاعتقاد الحق ، وعبادة لسانية وهي الذكر الحسن ، وبدنية وهي العمل الصالح ، فالاعتقاد لا يتكرر لأن من اعتقد شيئا لا يعتقده مرة أخرى بل يستمر اعتقاده ، والذكر الحسن والعبادة البدنية يتكرران ، وكلها توجد في الصلاة ، فمن أقامها فقد أقام العبادات بأنواعها إلى ربه عز وجل .

وانظر إلى ما علل به هذه العبادة بقوله الجليل "إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ" راجع الآية 32 من الأعراف في ج 1 تجد معنى الفواحش كلها وما يتعلق بها أما المنكر فهو ما لا يعرف في الشرع وينكره العقل ، وإنما كانت الصلاة الحقيقية ناهية عن ذلك لتضمنها صنوف العبادة من التكبير والتسبيح والتهليل والقراءة والوقوف بين يدي الإله العظيم والركوع لهيبته والسجود لجلاله والخشوع لمجده والخضوع لكبريائه ، فمن كان مراعيا لها محافظا على شروطها وأركانها

جرته إلى طرق الخير ونهته عن كل فاحشة ومنكر ، وصارت كأنها تنادي فاعلها : لا تعص ربا هو أهل لما أتيت به ، وهو المستحق لأن يعبد ويشكر .

روي عن أنس قال : كان فتى من الأنصار يصلي الصلوات مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ثم لم يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه ،

فذكر ذلك لرسول اللّه ، فقال إن صلاته ستنهاه يوما ، فلم يلبث أن تاب وحسنت توبته واستقام حاله .

وقال ابن مسعود وابن عباس رضي اللّه عنهما : في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي اللّه ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم تزده صلاته من اللّه إلا بعدا .

وقال الحسن وقتادة : من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه .

وروي عن جابر : قال رجل لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن رجلا يقرأ القرآن الليل كله فإذا أصبح سرق ، قال ستنهاه قراءته ، وفي رواية :

انه قيل يا رسول اللّه إن فلانا يصلي بالنهار ويسرق بالليل ، فقال إن صلاته لتردعه على كل حال .

وعليه فإن المراعي للصلاة لا بد وأن يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها .

(87/593)

وبما ذكر ينحل الإشكال المشهور وهو إنا نرى كثيرا من المرتكبين الفحشاء والمنكر يصلّون ولا ينتهون لأن منهم من هو غافل عما يراد منه حال قيامه بين يدي ربه لاه عن ذلك ، فيكون بالمعنى المار ذكره ، ألا ترى أن اللّه تعالى قال (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) الآية 90 من سورة النحل المارة والناس لم يتمثلوا ولم ينتهوا ، وليس نهي الصلاة بأعظم من نهي اللّه ، تدبر .

وقيل إن الأمر والنهي لا يستلزمان الائتمار والانتهاء .

وقيل إن النهي لا يستلزم الانتهاء ، وهذا توهم باطل وتخيل عاطل ، لا يشهد له العقل ، ولا يؤيده النقل ، وما قيل إن نهي الصلاة عبارة عن الزمن الذي يشغله المصلي فيها لما ورد ان في

الصلاة لشغلا ليس بشيء أيضا ، وما جاء بالخبر ان في الصلاة لشغلا عن كل ما يلهي عنها وعن كل ما في الدنيا بالنسبة لحالة المصلي لأن منهم من إذا دخل في الصلاة تمخضت ذاته لخالفها بحيث لو ضربته بالسيف لما أحسّ ، ومنهم من لا تحسبه في الصلاة ، كما جاء عنه صلّى اللّه عليه وسلم أن الرجل إذا لم يتم سجودها ولا ركوعها تلف صلاته كما يلف الثوب الخلق ويرمى بها وجه صاحبها ، فتقول له ضيعك اللّه كما ضيعتني .

والقول الفصل ان الصلاة المقبولة عند اللّه تعالى هي التي تنهى صاحبها ، والانتهاء علامة القبولة ، وان من يأتي بها ولا ينتهي فلو لم يكن يصلي لكان أشدّ إتيانا للفحشاء وأكثر فعلا للمنكر ، والمراد بالصلاة هنا المكتوبة ، راجع الآية 5 من سورة المؤمنين المارة ، "وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ"

من جميع الطاعات ، وأفضل وأعظم ثوابا وأكثر أجرا ، روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم سبق المفردون (بتشديد الراء وتخفيفها) يقال فرد الرجل إذا تفقه واعتزل الناس وحده .

(88/593)

وقرىء بالتخفيف والتشديد أبلغ وأتم ، قالوا وما المفردون يا رسول اللّه ؟ قال الذاكرون اللّه كثيرا والذاكرات .

وروى البخاري عن أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال :

لا يقعد قوم يذكرون اللّه تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم اللّه فيمن عنده .

وروي أن أعرابيا قال يا رسول اللّه أي الأعمال أفضل ؟ قال أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر اللّه .

وقال ابن عباس رضي اللّه عنهما : معنى (ولذكر اللّه أكبر) ذكر اللّه إياكم أفضل من ذكركم إياه .

وروي مرفوعا عن ابن عمر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم وهذا مما لا شبهة فيه لأن اللّه يذكر من ذكره قال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) الآية 152 من البقرة في ج 3 ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : من ذكرني ذكرته في ملا خير من ملائه .

وقال ابن عطاء :

ذكر اللّه لكم أكبر من ذكركم له ، لأن ذكره بلا علة ، وذكركم مشوب بالعلل والأماني ، ولأن ذكره لا يفنى ، وذكركم لا يبقى ، ولن تبقى مع ذكر اللّه معصية .

وقال سلمان ذكر اللّه أكبر من كل شيء وأفضل ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها لكم عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا وما ذاك يا رسول اللّه ؟ قال ذكر اللّه .

وأخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي الدرداء بلفظه ومعناه .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر عن معاذ بن جبل ، قال : ما عمل آدمي عملا أنجى له من عذاب اللّه من ذكر اللّه تعالى ، قالوا ولا الجهاد في سبيل اللّه ؟ قال ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع .

لأن اللّه تعالى يقول (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) ، وهذا لأنه لو لم يذكر اللّه لم يعرف فضل الجهاد ، فذكر اللّه هو السائق للجهاد ولكل عمل صالح .

(89/593)

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم في الكنى والبيهقي في شعب الإيمان عن عزة قال : قلت لابن عباس رضي اللّه عنهما أي العمل أفضل ؟ قال ذكر اللّه أكبر ، وما قعد قوم في

بيت من بيوت اللّه تعالى يدرسون كتاب اللّه ويتعاطونه بينهم إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها وكانوا أضياف اللّه تعالى ما داموا فيه حتى يفيضوا في حديث غيره ، وما سلك رجل طريقا جل قوله "وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ" من اليهود والنصارى إذ لا يوجد غيرهما أهل كتاب ، وما عداهما وثنيون مشركون كافرون بأصول الأديان ، لأن ذوي الأديان التي كانت عند بعثة الرسول ستة : الإسلام والنصرانية واليهودية والصابئة والمجوس والمشركون ، راجع الآية 16 من سورة الحج في ج 3 ، الخطاب لحضرة الرسول وأصحابه تبعا له أي أنكم قادمون بهجرتكم هذه إلى بلدة فيها أهل كتاب مجبولون على حب الجدال لما وقر عندهم مما في الكتب المنزلة على أنبيائهم ، ويزعمون أنهم أدرى من غيرهم فيها ، فإذا جاءوك ليجادلوك فقابل خشونتهم بلينك ، وغلاظتهم بلطفك ، وجفاهم بعطفك ، وأمسك بادرة الغضب بجبال الكظم ، واجعل إقبالك عليهم بدل صدهم عنك ، ووصلك بمقابل هجرهم إياك ، وعطاءك تجاه منعهم لك ، وتقرب منهم كلما تباعدوا عنك .

وهذا معنى قوله تعالى "إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" قال تعالى (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الآية 34 من سورة فصلت المارة ، أي لا تجادلهم إلا في هذه الصورة ، وادفع مشاغبتهم بالنصح ، وسورتهم بالإناءة ، ولغطهم بالإرشاد راجع الآية 125 من سورة النحل المارة ، واعمل بما بيناه هناك وعضّ عليه بالنواجذ ثم استثنى من المجادلين نوعا خاصا وهم المذكورون بقوله

"إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ" وهم المجاوزون الحدّ في العناد والاعتداء الذين لم يلتفتوا إلى النصح ، ولم ينفع

(90/593)

فيهم الرفق ، فاستعمل معهم الفلسفة .

وما قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ) الآية 30 من سورة التوبة في ج 3 ، ولا مجادلة أشد من السيف ، فهو قيل لا يعتد به ولا ينظر إليه ، إذ لا يتجه على ما نحن فيه ، لأن المراد بالجدال المناظرة وكونها على الوجه الأحسن هو الواجب الذي لا يجوز غيره في مبادئ الدعوة للرشد ، قال في مجمع البيان الصحيح إنها غير منسوخة .

وقال بعض الأجلة إن المجادلة بالحسنى أوائل الدعوة مطلوبة ، لأنها تتقدم المجادلة بالعنف ، والمجادلة بالشدة تتقدم القتال ، فلا يلزم النسخ ولا عدم القتال بالكلية .

وأما كون النهي المستفاد من لا في (ولا تجادلوا) المحتج به صاحب هذا القيل من كونه يدل على عموم الأزمان فيلزم النسخ فلا يتم ما ذكره من السبب ، ويدفعه أن من يقاتل كمانع الجزية داخل في المستثنى ، فلا نسخ وإنما هو تخصيص بمتصل وكون ذلك يقتضي مشروعية

القتال في مكة ليس بصحيح ، لأنه مسكوت عنه ، تأمل .

وقرأ ابن عباس الا بالتخفيف على أنه حرف تنبيه وأداة عرض دالة على الطلب بلين ورفق ، أي جادلوهم بالتي هي أحسن .

(91/593)

وعلى هذه القراءة لا يرد ما أورده مدعي النسخ البتة "وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا" من القرآن "وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ" وآمنا بما أنزل إليكم من التوراة والإنجيل والزبور من قبل اللّه لا التي بأيديكم كلها ، لأنكم حرّفتم وبدلتم بعضها قصدا ، وبعضها قد غيرت معناها الترجمة ، وهذا القول نوع من المجادلة بالأحسن ، أخرج البخاري والنسائي وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون كتبهم بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا (آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ) الآية 136 من البقرة ج 3 ، زاد في رواية : فإن كان باطلا لم تصدقوهم ، وإن كان حقا لم تكذبوهم ، ولأن التصديق والتكذيب ليسا نقيضين ، إذ يجوز ارتفاعهما بالشك .

وليعلم أن هذا الحديث الشريف صدر من النبي صلّى اللّه عليه وسلم بعد نزول هذه الآية

لا مقارنا لها ، لأنها نزلت بمكة ، وهذا القول بالمدينة ، وقدمنا في الآية 17 من سورة السجدة المارة أن الأحاديث قد تذكر لمناسبة بعض الآيات سواء كان بعد نزولها أو قبله ، مما يدل على معناها ، وقولوا لهم أيضا "وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ"

(92/593)

فرد صمد لا شريك له ولا مثيل ولا ضد ولا ند ولا نظير "وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" 46 مطيعون منقادون له وحده ، وفي هذه الجملة تعريض لهم باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللّه "وَكَذَلِكَ" مثل ما أنزلنا على غيرك من الأنبياء كتبا "أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ" القرآن الذي منه هذه الآية الناطقة بما ذكر "فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ" قبلك من الطائفتين المذكورتين العالمين العاملين المصدقين فيهما كما أنزلناهما "يُؤْمِنُونَ بِهِ" بالقرآن المنزل عليك لأنه جاء مصدقا لما فيهما ، وهذا خاص بخواصهم الحرّيين بأن ينسب إليهم إيتاء الكتاب ، كعبد اللّه بن سلام وأصحابه المنصفين ، ولا يقال على هذا التفسير تكون الآية مدنية ، لأن عبد اللّه بن سلام أسلم بعد الهجرة بكثير ، بل الآية مكية على ما سمعت ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، فإن إيمانهم به ترتب على إنزاله على الوجه المذكور ، وفيها إعلام من اللّه تعالى بإسلامهم في المستقبل ، لقوله تعالى (يُؤْمِنُونَ بِهِ) ولم يقل آمنوا ليتحمل ذلك القول ويحتج

به قائله ، تدبر .

"وَمِنْ هؤُلاءِ" قومك أهل مكة ومن حولها الذين رغبوا بإخراجك وعنك وأحبوا قتلك "مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ" أيضا فكن مطمئنا بذلك يا سيد الرسل ، إذ ترى ما تقرّ به عينك "وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا" هذه المنزلة عليك في هذا الكتاب "إِلَّا الْكافِرُونَ" 47 بجميع الكتب لأن الجحود لا يكون إلا بعد المعرفة ولهذا شنع عليهم وسماهم كافرين لتوغلهم بالكفر وإصرارهم عليه وتصميمهم على تكذيبك ، قال الراغب صاحب السفينة : الجحد نفي ما في القلب ثباته ، وإثبات ما في القلب نفيه .

وهذه الآية عامة في كل من هذا شأنه ، وما قيل إنها في حق كعب بن الأشرف وأصحابه لا يصح ، لأن الآية مكية ، وأولئك بالمدينة ، على أنهم يدخلون في مضمونها .

(93/593)

مطلب هل تعلم النبي صلّى اللّه عليه وسلم الكتابة والقراءة أم لا ، والنهي عن قراءة الكتب القديمة :

قال تعالى "وَما كُنْتَ تَتْلُوا" يا محمد "مِنْ قَبْلِهِ" أي الكتاب المنزل عليك "مِنْ كِتابٍ" أصلا لأنك لم تقرأ "وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ"

لأنك أمي لا تكتب ، وذكر اليمين زيادة تصوير لما نفي عنه صلّى اللّه عليه وسلم من الخط ، فهو مثل العين في قولك نظرت بعيني في تحقيق الحقيقة وتأكيدها حتى لا يبقى للمجاز مجاز "إذاً" لو كنت تقرأ وتكتب "لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ" 48 من قومك وغيرهم ولا تهموك بأنك تنقل من كتب الأقدمين وتتلو عليهم ما تحفظه منها ، وإلا لاحتج أهل الكتابين عليك بأنك لست نبي آخر الزمان ، لأنه موصوف بكتبهم أنه أمي ، وإذا ثبت أنك أمي فليس لهم أن يشكو برسالتك وختمك للأنبياء ، ولا يرتابوا بالكتاب الذي أنزل إليك ، لأن هذا كله مذكور في التوراة والإنجيل المنزلين من قبلنا على أنبيائهم ، تقدم اللّه تعالى إلى رسوله في هذه الآية ليعلمه أنه قادم في هجرته على أناس مذكور في كتبهم نعته على ما هو عليه ، وأخبره فيها بأنهم إذا قالوا لك في جملة مجادلتهم أنك لست نبي فقل لهم كيف ، وقد أنزل اللّه علي كتابا ، وإذا قالوا لك لعلك تعلمته فقل إني أمي ، وأهل مكة ومن حولهم يعلمون ذلك لأني لم أبرحهم ولم أتعلم الكتابة من أحد ، ولم أكن قارئا ، ووصفي موجود لديكم بما يثبت أني خاتم الأنبياء ، وهذا مما يزيل الشبهة فيّ ، ولو كنت أقرأ وأكتب لشك فيّ مشركو العرب الذين لم يتركوا شبهة إلا وألصقوها فيّ ، ولا خصلة تنافي نبوتي إلا وصموني بها ، إلا أنهم لم يتهموني بالقراءة والكتابة لتحقق عدمهما فيّ لديهم ، وقد وصف أهل مكة بالبطلان باعتبار ارتيابهم بنبوّته ووصفهم له بالسحر والكهانة والتلقي من الغير ، وكفرهم به وبكتابه ، ومن المعلوم المحقق أن حضرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم

أمي كما هو الواقع ، ومن قال بخلاف هذا فقد خالف كلام اللّه المصرح بأميته في الآية 157 من الأعراف في ج 1 صراحة لا تقبل التأويل ، وان أهل مكة الذين كانوا يلتقطون الزلات عليه لو علموا منه ذلك لما سكتوا ، بل لأداعوا عنه ذلك ، كيف وأنه لما كان يجتمع مع الأغيلمة والعبيد اتهموه بأنه يتعلم منهم مع أنهم عجم لا يفقهون العربية المطلقة ، فكيف بالفصحى ؟ وقد رد اللّه عليهم في الآية 101 من النحل المارة كذبهم هذا لهذه العلة ، فراجعها ، فلهذا إن القول بأني غير أمي مخالف لصراحة القرآن ، ومخالفته كفر محض لأن كل من ينكر حرفا منه دون تأويل يكفر ، وتعليم مثل هذا القرآن ودراسته تحتاج إلى زمن طويل لما فيه من تفصيل الأحكام

وبلاغة الكلام وفصاحة الألفاظ ، ولا يمكن تلقيه بحالة لم يطلع عليها أهل مكة لأني بين أظهرهم صباح مساء وليل نهار ، وهذا قبل النبوة لم يختلف فيه اثنان ، أما بعدها فقد وقع اختلاف في تعليمه القراءة فقط ، وهذا العلم بالقراءة على طريق المعجزة ، ولهذا فإن ما جاء عن مجاهد والشعبي أنه عليه الصلاة والسلام ما مات حتى كتب وقرأ ، وروى هذا ابن أبي شيبة أيضا ، وإن حجتهم ما رواه ابن ماجه عن أنس قال : قال صلّى اللّه عليه

وسلم رأيت ليلة أسري بي مكتوبا على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر ، الحديث .

(95/593)

والقدرة على القراءة فرع عن الكتابة ، وما جاء في صحيح البخاري وغيره عند كتابة صلح الحديبية ما لفظه فأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الكتاب ، وليس يحسن يكتب ، فكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد اللّه الحديث المشهور ، وقال بهذا أبو ذر وعبد بن أحمد الهروي وأبو الفتح النيسابوري وأبو الوليد الباجي من المغاربة ، وحكاه عن السمّاني وصنف فيه كتابا ، وسبقه إليه ابن منّه ، هذا وإن معرفته الكتابة بعد أمّيّته ونبوته صلّى اللّه عليه وسلم لا تنافي المعجزة ، بل هي معجزة أخرى لكونها من غير تعليم ، لهذا قال بعضهم صار صلّى اللّه عليه وسلم يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها ، وعدم معرفتها قبل بسبب المعجزة لهذه الآية ، فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ ، وذلك بإقدار اللّه تعالى إياه بدون تعلم من أحد ، وهذا معجزة له أيضا وأول ذلك قراءة ما هو مكتوب على باب الجنة المار ذكرها ، وقوله هذا قد يتجه في القراءة ، أما في الكتابة فلا ، لما جاء في الحديث الصحيح : إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب .

وعليه إن كل ما ورد من أنه كتب يكون معناه أمر بالكتابة ، كما يقال كتب السلطان بكذا لفلان ، ومن المعلوم أن للسلطان كتبة يكتبون له ذلك بأمره ، لا هو نفسه ، وقد جاء في الآيتين 94/ 105 (وإنا له لكاتبون) (ولقد كتبنا في الزبور) من سورة الأنبياء المارة ، فالمراد بالأولى والله أعلم حفظته الموكلون بتسطير أعمال الخلق ، وفي الثانية أمره للقلم بكتابة ما كان وما يكون الذي من جملته ما كتب في الزبور كما بيناه أول سورة القلم في ج 1 . هذا ، وتقدم قوله تعالى (من قبله) على قوله (ولا تخطه) كالصريح في أنه عليه الصلاة لم يكتب مطلقا .

(96/593)

أما كون القيد المتوسط راجعا إلى ما بعده فغير مطّرد ، إذ لا يجوز رجوع الضمير إلى ما بعده ، وإذا كان لا يجوز لعدم اطراده فلم يسلم رجوعه إلى ما بعده .

وقد ظن بعض الأجلّة رجوعه لما قبله ولما بعد فقال يفهم من الآية أنه صلّى الله عليه وسلم كان قادرا على التلاوة والخط بعد إنزال الكتاب ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلوا عن الفائدة ، إلا أنه لو سلم ما ذكره من الرجوع لا يتم أمر الإفادة إلا إذا قيل بحجيّة المفهوم والظان ممن لا يقول بحجيّته ، ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب

ليس نصا في نفي الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام ، ولعل ذلك باعتبار أنه بعث وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وكذا أكثر من بعث إليهم ، وهو بين ظهرانيهم من العرب أمّيون لا يكتبون ولا يحسبون فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية في الأكثر بعد .

وتأويل كتب أمر بالكتابة خلاف الظاهر كما لا يخفى .

وجاء في شرح صحيح مسلم إلى النواوي رحمه اللّه نقلا عن القاضي عياض أن قوله في الرواية المذكورة أعلاه (وليس يحسن يكتب فكتب) كالنص في أنه صلّى اللّه عليه وسلم كتب بنفسه ، فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ، إذ لا صارف عن الحقيقة ، ومن المعلوم أنه لا يجوز ترك الحقيقة إلا إذا تعذرت .

(97/593)

هذا غاية ما أحتج به ، وخلاصة القول أن كتابته صلّى اللّه عليه وسلم وقراءته على فرض صحتها فهي من معجزاته كما علمته مما ذكرناه قبلا ، لا عن تعليم من أحد ولما لم يصح عنه أنه كتب كتابا ما في جملته مكاتباته الملوك وغيرهم ومعاهداته معهم ، ولم يثبت شيء من ذلك البتة ، فما وقع منه عند كتابته صحيفة صلح الحديبية يكون أيضا من قبيل المعجزة ليس إلا ، فإن الحديث الوارد من أنه صلّى اللّه عليه وسلم لم يمت حتى تعلم الكتابة

ضعيف ، بل لا أصل له ، وما زعمه القاضي وأبو الوليد الباجي ومن تابعهما من أنه تعلم الكتابة أو كان يعلم الكتابة أخذا مما رواه البخاري في حادثة الحديبية هو زعم فاسد ، وكذلك من قوله صلّى اللّه عليه وسلم (رأيت مكتوبا على باب الجنة) إلخ ، لأن ذلك كله من باب المعجزة له صلّى اللّه عليه وسلم كما سبق لك تفصيله ، وكذلك يؤوّل قوله صلّى اللّه عليه وسلم إخبارا عن الدجال بأنه مكتوب بين عينيه كافر ، تأمل ، ثم تدبر ، وإياك أن يلحقك شك أو يخامرك ريب أو تطرأ عليك مرية .

قال تعالى "بَلْ هُوَ"

القرآن لا يرتاب فيه لوضوح أمره ولأنه "آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ" لا تحتاج للروية ثابتات "فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه ، وبسبب رسوخه في الصدور لا يقدر أحد على تحريف أو تغيير أو تبديل شيء منه البتة ، لأن اللّه تعالى تعهد بحفظه من ذاك ، راجع الآية 42 من سورة السجدة والآية 9 من سورة الحجر المارتين ، وقد جاء في وصف هذه الأمة المحمدية :

صدورهم أناجيلهم .

والمراد بالذين أوتوا العلم ، علماء أصحابه كما رواه الحسن ، وروى بعض الإمامية عن أبي جعفر وأبي عبد اللّه أنهم الأئمة من آل محمد صلّى اللّه عليه وسلم .

"وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا" هذه مع وضوحها "إِلَّا الظَّالِمُونَ" 49 أنفسهم مكابرة وعنادا "وَقالُوا" أولئك الظالمون "لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ" كما نزل على من قبله من الأنبياء كموسى وعيسى وصالح وهود وإبراهيم وغيرهم من قلب العصا ثعبانا وإحياء الموتى وإظهار الناقة وعدم إحراق النار لآمنا به ، وإذ لم يأت بشيء من ذلك ولا مما يشابه آيات من قبله فلا نؤمن به ، لأنه لو كان نبيا لأتى بمثل ما أتوا به .

"قُلْ" يا سيد الرسل "إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ" ما عندي منها شيء ولا أستطيع إظهار شيء إلا بإذن اللّه ، فهو الذي يعطيها من يشاء من عباده وينزلها بحسب مقتضيات حكمته ، لا دخل لي ولا للأنبياء قبلي بها البتة "وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ" 50 ما يوحى إلي إليكم ، وكذلك الأنبياء من قبلي ، وليس من شأني ولا من شأنهم إنزال الآيات أو قسر الأمم على الإيمان إلا بمشيئته .

ونظير هذه الآية الآية 38 من سورة الأنعام ، ومثلها في المعنى في يونس وهود المارات ، وفي الآية 134 من سورة طه في ج 1 والآية 7 من سورة الرعد في ج 3 وغيرها كثير .

قال تعالى ردا عليهم "أَ وَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ" يا محمد "الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ" على مر العصور والدهور تتلوه عليهم وأنت أمي معلوم عندهم ، ويتلوه من منّ عليه بتعليمه منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة ، فإن كانت لهم عقول فهذه آية كافية لمن يريد أن يهديه اللّه ، ومن

يضله اللّه لا تنفعه الآيات ، وناهيك بالقرآن أنه آية دائمة باقية ، وأن آيات الرسل كلّها انقرضت ولم يبق إلا خبرها "إِنَّ فِي ذَلِكَ" أي إنزال القرآن وبقاؤه الآخر الدوران لأكبر

(99/593)

آية أتى بها الوسل ، ولهذا يقول اللّه "لَرَحْمَةً" عظمى "وَذِكْرَى" بالغة وعظة باهرة "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" 51 باللّه الذي أرسلك إليهم وبكتابه الذي أنزله عليك إليهم تغنيهم عن كل آية ، أما المعنتون فلو أتيتهم بكل آية لا يتعظون ولا يؤمنون ولا يتذكرون ، راجع الآية 115 من سورة البقرة في ج 3 تجد ما يتعلق بهذا إن شاء اللّه .

أخرج أبو داود في مراسيله وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة قال : جاء أناس من المسلمين بكتف قد كتبوا فيها ما سمعوه من اليهود ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به غيره إلى غيرهم ، فنزلت هذه الآية . وهذا يتجه إذا كانت الحادثة بمكة ، أما في المدينة فلا تكون سببا للنزول ، لأن الآية مكية ، وإنما على سبيل تلاوة ما نزل قبل والاستشهاد به عند وقوع الحادثة المتأخرة فجائز ، وهو طريق ضعيف مشى عليه بعض المفسرين ، والحق هنا عدم جوازه ، ولأن هذه الآية نزلت جوابا لقولهم (لو لا أنزل عليه آية من ربه) فجعل ذلك أي الذي ذكر في الخبر المار ذكره سببا

للنزول بغير محله ، وهو خروج على الظاهر الواقع ، وفي هذه الآية والحديث إشارة إلى منع تتبع الكتب القديمة لغير متبحر في القرآن العظيم ، فقد أخرج ابن عساكر عن أبي ملكية قال : أهدى عبد اللّه بن عامر بن بركن إلى عائشة هدية فظنت أنه عبد اللّه بن عمرو فردتها وقالت يتتبع الكتب القديمة وقد قال اللّه تعالى (أَ وَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ) الآية ، فقيل إنه عبد اللّه بن عامر فقبلتها .

(100/593)

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والبيهقي في شعب الإيمان عن الزهري أن حفصة جاءت إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرؤه عليه والنبي صلّى اللّه عليه وسلم يتلوّن وجهه ، فقال والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النّبيين وأنتم حظي من الأمم .

أي ليس لكم أن تتخطوا ما جئتكم به إلى غيره ، لأنه لا يخلو من حشو ، والقرآن براء من كل عيب ، لا يتطرق إليه ما ليس منه أبدا كما هو ثابت بكفالة اللّه تعالى القائل (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) الآية 9 من الحجرة المارة .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي أيضا عن أبي قلابة أن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه مرّ برجل يقرأ كتابا فاستمعه

(101/593)

ساعة فاستحسنه ، فقال للرجل اكتب من هذا الكتاب ؟ قال نعم فاشترى أديما فهيأه ثم جاء به فنسخ له في ظهره وبطنه ، ثم أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فجعل يقرؤه عليه ، وجعل وجه رسول اللّه يتلون ، فضرب رجل من الأنصار الكتاب ، وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب ؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم عند ذلك إنما بعثت فاتحا وخاتما وأعطيت جوامع الكلم وخواتمه ، واختصر لي الحديث اختصار فلا يهلكفكم المتهوكون . - أي الواقعون في كل أمر بغير رويّة وقيل المتحيرون ، وقد منا في الآية 43 من سورة القصص في ج 1 ما يتعلق بهذا وإن المنع إنما هو عند خوف فساد في الدين ولا سيما بصدر الإسلام فراجعه ففيه ما يكفيك ويثلج صدرك وتقر عينك "قُلْ" يا سيد الرسل لقومك وغيرهم "كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً" بأني رسوله والقرآن كلامه وانكم كاذبون مبطلون ، واللّه عالم بأني بلغت وأنذرت ونصحت ، وانكم صددتم وأنكرتم وكذبتم ، وشهادة اللّه لي بإنزال

الكتاب علي وإثبات المعجزة لي ، وانه سيجازي كلا بفعله ، لأنه "يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" وجميع ما يقع فيهما وما بينهما ، و

من جملتها شأني وشأنكم سرهما وجهرهما ، وهذه تقرير لصدر الآية من كفاية شهادة اللّه تعالى على ذلك .

وما قيل إن هذه الآية نزلت حينما قال كعب بن الأشرف وأصحابه لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم من يشهد أنك رسول اللّه لا صحة له في سبب النزول ، لأن الآية مكية بالاتفاق ، وسباقها مع كفرة قريش لا ذكر لأهل الكتاب فيهما "وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ" وهو غير ما جاءت به الرسل من عند اللّه "وَكَفَرُوا بِاللَّهِ" وما جاء عنه .

(102/593)

واعلم أن الإيمان بالباطل كفر بلا شك ، وإنما ذكرت الجملة الأخيرة تأكيدا ولبيان قبح ما جاء في الجملة الأولى فهو كقول القائل أتقول الباطل وتترك الحق ؟ لبيان أن الباطل قبيح في ذاته "أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ" 52 المغبونون في صفقتهم ، إذ اشتروا الكفر بالإيمان ، وهذه الآية وردت مورد الإنصاف في المكالمة على حد قوله تعالى (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الآية 35 من سورة سبأ المارة ، وكقول حسان :

فخيركما لشركما الفداء .

قال تعالى "وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ" على طريق

الاستهزاء والسخرية كقولهم (مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الآية 30 من سورة سبأ

أيضا ، وهي مكررة كثيرا في القرآن ، وذلك لعدم تصديقهم أن هناك بعثا وحسابا وجزاء ،

ولهذا يقولون (إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً) الآية 32 من سورة

الأنفال ج 3 ، وقد تكرر منهم هذا القول ، كما تكررت هذه الآية معنى في كثير من سور

القرآن .

قال تعالى "وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى" ضربناه لعذابهم غير قابل التقديم والتأخير ، وعزّتي

وجلالي يا سيد الرسل لَجاءَهُمُ الْعَذابُ" الذي يريدون سرعة نزوله قبل أن يتشدقوا بما

تفوهوا به "وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ" أي يباغتهم ويفاجئهم به من حيث لا يتوقعونه ،

وهذا العذاب قيل هو في الدنيا فيما يقع عليهم من الأمر والجلاء والقتل أو الموت ، وقيل هو

عذاب الآخرة .

(103/593)

والآية صالحة للمعنيين ، وكلا العذابين واقع بهم لا محالة ، ومما يرجح كون المراد منه عذاب الآخرة قوله تعالى "يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ" إذ كرره بالظاهر لشدة هوله ، كيف وقد قرنه بقوله "وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ" 54 جميعهم لا يفلت منهم أحد والجملة حالية أي يستعجلونك بالعذاب والحال محل العذاب الذي هو جهنم لا عذاب فوقه محيط بهم "يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ" فيجللهم من أطرافهم كلها ، وهذا معنى إحاطة جهنم بهم "و نقول" نحن إله الكل مالك الدنيا والآخرة .

وقرىء بالياء أي يقول لهم الرب العظيم في ذلك اليوم "ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" 55 من القبح في دنياكم ، ويضاهي هذه الآية الآية 16 من سورة الزمر المارة والآية 41 من الأعراف في ج 1 .

مطلب في الهجرة واستحبابها لسلامة الدين وما جاء فيها من الآيات والأخبار وهي تسعة أنواع :

قال تعالى "يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ"

فاتركوا الأرض التي أنتم فيها مضطهدون وفروا بدينكم إلى غيرها ، فإن الأرض غير ضيقة عليكم ، "فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ"

56 أخلصوا عبادتكم لي في أرضي لا يمنعكم فيها أحد من إقامة شعائرها ، نزلت هذه الآية في إباحة الهجرة صيانة للدين ، ولا تختص بزمنه

صلّى اللّه عليه وسلم احتجاجا بخبر لا هجرة بعد الفتح ، بل هي عامة مطلقة ، حكمها باق إلى الأبد ، فبمقتضاها يجب على كل من كان في بلدة يتجاهر فيها بالمعاصي ولا يقدر على المنع ولا على إقامة دينه وإظهار شعائره كما ينبغي ، أن يهاجر إلى غيرها من البلاد التي يتهيأ له فيها ذلك كله ، لأنه إذا لم يكن آمنا على دينه لا يتمكن من إقامته فهو آثم ، لذلك عليه أن يهاجر إلى بلد يكون فيه أسلم قلبا وأصحّ دينا وأكثر عبادة وأحسن رفاقة .

(104/593)

هذا وقد حث اللّه على الهجرة في الآية 99 من سورة النساء الآتية في ج 3 ، بما يدل على أنها غير خاصة بزمن كما سنبينها هناك بصورة مفصلة إن شاء اللّه .

قال صلّى اللّه عليه وسلم : من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبرا من الأرض استوجب الجنة .

وفي قوله تعالى (واسِعَةٌ)

عدّة ووعد لعباده المهاجرين بسعة الرزق ، أي لا تخافوا الضيق إذا تركتم دياركم من أجلي فإني أوسع عليكم "وكان ذلك .

وأعلم أن البقاع تتفاوت تفاوتا عظيما ، وقال العارفون لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع

للقلب وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للأمر الديني من مكة حرسها اللّه تعالى .

قال سهل إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين .

راجع الآية 9 من سورة الروم المارة .

قال تعالى "كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ" ذكر اللّه تعالى هذه الآية بعد الآية المشيرة إلى الهجرة ليستعدوا له قبل مفاجاته ، لأنهم لا يدرون متى يفاجئهم ، لذلك خوفهم بالموت فيها ليهون عليهم أمر الهجرة ، إذ لا أصعب من ترك الوطن على النفس إلا الموت كي لا يبقوا بدار الشرك فيموتوا فيها ، وإذا سهل على الإنسان الموت سهل عليه ترك الوطن وحث نفسه على الهجرة منه لإخلاص العبادة لربه والمحافظة على دينه اللذين يذهب بهما إليه دون وطنه وأهله وعشيرته ، قال عليه الصلاة والسلام : يتبع الميت ثلاث ، أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله .

"ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ" 57 بعد الموت حتما ، وإذا كان كذلك فاجنحوا في دنياكم إلى ما يصلح دينكم واتركوا غيره .

ويضاهي صدر هذه الآية الآية 35 من سورة الأنبياء المارة والآية 185 من آل عمران في ج 3 ، وهي مكررة في القرآن .

قال تعالى "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" في هذه الدنيا

و تركوا أوطانهم وأهلهم وعشيرتهم رغبة فيما عند اللّه من الثواب "لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً" علالي عالية نسكنهم فيها ونوطنهم بها ، ولا حول لهم عنها ، وهذه لا تشبه غرف الدنيا ولا تقاس بها فضلا عن أنها فانية وتلك باقية ، وأنها من صنع البشر وهي من صنع اللّه وإبداعه الذي أتقن كل شيء ، فلا يقدر أن يصفها واصف ، ومن بعض محاسنها أنها "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ" ويكون أهلها "خالِدِينَ فِيها" أبدا والدنيا مهما طال أمدها فمصيرها الزوال ف "نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ" 88 في الدنيا تلك الغرف الباقية في الجنة ، وهذه أيضا مكررة في الآية 20 من سورة الزمر المارة وفي غيرها ، قال ابن عباس : هي من الدرّ والزبرجد والياقوت ، أما المستحقون لهذه العرف وتلك الكرامة فهم "الَّذِينَ صَبَرُوا" على مشاق الدّين ومرارة الهجرة وفراق الوطن والبعد عن الأهل والأقارب والأحباب والالتجاء إلى أناس لا يعرفونهم ، وتحمل ما يلحقهم من الذل فرارا بدينهم وصيانة له وحفظا على شعائره ، كما صبروا على أذى المشركين وإهانتهم من أجله "وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" 59 بكل أمورهم لا على غيره ، ولما أمر صلّى اللّه عليه وسلم بالهجرة وحث عليها خلص عباده ليقتدي بهم الآخرون خاف بعضهم الفقر وضيعة الحسب في المدينة ، لأنهم لا

يعرفون أحدا ولا يعرفهم أهلها ، وليس لهم مال ولا عقار ولا بساتين ، ولا يقدرون على أخذ ما عندهم في مكة إلى المدينة لبعد الشقة والمشقة ، وخوفا من الكافرين أن يستحلوا أموالهم وأنعامهم لأن خروجهم سيكون خلسة عنهم ، لئلا يطلعوا عليهم فيمنعوهم ويوقعوا

(106/593)

بهم الأذى ويهينوهم أنزل اللّه قوله عز قوله "وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا" لضعفها ووهنها ، أو لا تقدر على ادخاره ليوم حاجتها ، أو لتوكلها على خالقها ، فتصبح وتمسي ولا شيء عندها "اللَّهُ يَرْزُقُهَا" من فضله ، ويسوقها إلى ما قدر لها ، أو يسوق الرزق إليها بأن يسخّر من يقدمه لها دون طلب أو كلفة .

قال صلّى اللّه عليه وسلم : لو توكلتم على اللّه حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا .

ورحم اللّه القائل :

وأرزاق لنا متفرقات فمن لم تأته منها أتاها

"وَإِيَّاكُمْ" يرزق ، لأنكم أفضل من كثير من الطير والدواب والحيتان و الحشرات ، فإذا كانت مع ضعفها وعدم معرفتها يرزقها اللّه لتوكلها عليه وتفويض أمرها إليه ، فإنكم مع قوتكم

واجتهادكم وفضلكم فإنه يرزقكم من باب أولى إذا توكلتم عليه .

قالوا لا يدخر إلا الإنسان والنملة والفأرة والعقق ، وعند البعض البلبل ، وقال آخر كل كوامن الطيور تدخر .

هذا ، وإذا كان الرزق من اللّه ، وجعل لكل سببا لتناوله وأمر بالسعي إليه ، والمسبب له هو وحده ، فلا تخافوا أيها المؤمنون على معاشكم حال هجرتكم ، ولا تأسفوا على ما تتركونه في مكة ، فإن اللّه يخلفه لكم .

(107/593)

ولما كان المراد إزالة ما في أوهامهم عما يلحقهم بسبب الهجرة على أبلغ وجه ، قال (يرزقها وإياكم) دون يرزقكم وإياها ، "وَهُوَ السَّمِيعُ" البالغ منتهى السمع بسمع قولكم ، ويعلم ما تحوكه قلوبكم ويتردد في صدوركم "الْعَلِيمُ" 60 البالغ في العلم بما انطوت عليه ضمائركم ، ومن هنا قال صلّى اللّه عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيّات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسوله فهجرته إلى اللّه ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه – رواه البخاري ومسلم عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه – واعلم أن اسم الهجرة يطلق على تسعة امور كل منها بسمى

هجرة بنسبته :

الأول هجرة الصحابة رضي اللّه عنهم من مكة إلى الحبشة سنة خمس من البعثة سنة نزول سورة والنجم وذلك بسبب ما لحقهم من أذى المشركين مالا وبدنا ، ولهذا قال ذو النون من هرب من الناس سلم من شرهم ، ومن شكر مولاه استحق المزيد من الفضل والعناية ، ومن نظر في عيوب الناس عمي عن عيوب نفسه .

الثانية الهجرة التي نحن بصددها من مكة إلى المدينة الكائنة سنة ثلاث عشرة منها أيضا ، أما الخروج هربا وطلبا فيقسم إلى تسعة أقسام : الأول الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وهذه باقية إلى يوم القيامة كما أشرنا إليه في الآية 50 المارة .

الثاني الخروج من أرض البدعة ، قال ابن القاسم سمعت مالكا يقول لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يسبّ فيها السلف .

الثالث الخروج من أرض يغلب عليها الحرام ، فإن طلب الحلال فريضة على كل مسلم .

الرابع الخروج من الأذية في البدن ، وهو فضل من اللّه رخص لعباده فيه إذا خافوا على أنفسهم في مكان ، فقد أذن

اللّه لهم بالفرار منه إلى غيره ، ولا يحل لهم البقاء إذا تحققت خشيتهم ، لأن محافظة النفس واجبة ، وأول من فعلها إبراهيم عليه السلام حين خاف قومه وأمنه النمروذ ، لأن الكافرين لا عهد لهم ولا ذمة ، وكذلك موسى بعد أن قتل القبطي وعلم أنهم يريدون قتله به .

الخامس الخروج خوف المرض من البلاد الوخمة المشتملة على المستنقعات والأوساخ وغيرها .

وقد أذن صلّى اللّه عليه وسلم للعرنيّين في ذلك حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المرج.

السادس الخروج خوفا من سلب المال فله ذلك أيضا ، لأن حرمة مال المسلم كحرمة دمه ، هذا إذا كان الداعي للهجرة الهرب من أحد هذه الأمور ، أما إذا كان الداعي طلب الشيء فيقسم جوار الخروج الذي هو بمعنى الهجرة إلى تسعة أقسام .

هذا وما قيل إن الهجرة انقطعت بالفتح يعنى فتح مكة ، فالمراد بها خصوص القصد إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذ كان يقطن فيها إذ بعد وفاته ينعدم ذلك القصد ، فذلك القيل من هذه الحيثية ليس إلا ، أما زيارته بعد وفاته فسيأتي لها بحث أيضا .

الأول سفر العبرة ، وهو مطلوب للمستطيع ، قال تعالى (أَ وَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الآية 9 من سورة الروم المارة ، وقد طاف ذو القرنين ليرى عجائبها ، الثاني سفر الحج وهو واجب على المستطيع ومن فروض العين .

الثالث سفر الجهاد وهو واجب أيضا مادام العدو خارجا عن ثغور بلاد المسلمين فمتى وطئها لا سمح اللّه صار فرض عين على كل مستطيع ، وتفصيله في كتب الفقه ، وستلمع له في محله إن شاء اللّه .

الرابع سفر المعاش ، وهو جائز إذا أراد التوسع بأكثر مما هو فيه ، وواجب إذا كان محتاجا له لنفسه أو لمن يعوله .

الخامس سفر التجارة والكسب الزائد على الحاجة وهو جائز أيضا لقوله تعالى (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ) الآية 198 من البقرة ج 3 .

(109/593)

السادس طلب العلم لأنه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، حتى إنه يجوز للمرأة الذهاب بلا إذن زوجها إليه إذا كان لا يقدر على تعليمها علم الحال ولا يسأل لها العلماء .

السابع قصد البقاع الشريفة وهو مطلوب لثلاث ، قال صلّى اللّه عليه وسلم لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى .

الثامن قصد الثغور للرباط فيها حفظا لكيان بلاد المسلمين ، وهو مندوب قال صلّى اللّه عليه وسلم :

رباط ساعة خير من عبادة سنة .

لأن العبادة نفعها قاصر على العابد فقط ، وهذا فيه نفع عام لجميع المسلمين وفيه إظهار لشوكتهم .

التاسع زيارة الأخوان للّه تعالى ومن أجله روى مسلم وغيره عنه صلّى اللّه عليه وسلم زار رجل أخا له في قرية فأرسل اللّه ملكا على مدرجته ، فقال أين تريد ؟ قال أريد أخا لي في هذه القرية ، فقال هل له من نعمة تؤديها ؟ قال لا إلا أني أحبه في اللّه تعالى ، قال فإني رسول اللّه إليك بأن اللّه أحبك كما أحببته الثالث هجرة بعض القبائل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ليتعلموا شرائع الدين ويعلموا قومهم ، وهي مطلوبة ، قال تعالى (فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) الآية 133 من التوبة في ج 3 ، وحكمها باق إلى الأبد ، فيجب على كل أهل قرية إذا لم يوجد عندهم من يعلمهم أمر دينهم أن يوفدوا جماعة منهم هذه الغاية .

(110/593)

وتشير هذه الآية إلى استثناء طلبة العلم من الجهاد ، ولذلك فإن الحكومة العثمانية استثنت جميع طلاب العلم من الخدمة ، فسببوا كثرة العلماء ، ولولا ذلك القل أن تجد عالما الآن في

بلاد العرب ، لأن الحكومة العثمانية كانت مسيطرة على البلاد وقد فرضت اللغة الرسمية التركية في البلاد وكانت رغبة الناس منصرفة إلى الدنيا وإلى تقليد الغالب ، ولذلك قلّ في هذا الزمن وبالأسف طلب العلم ورغبت الناس عنه ، لأن همهم الدنيا ، ومن كان همه الدنيا فهو إلى الهلاك أقرب وإن هذه تعد منقبة للأتراك إذ رغبوا الناس في العلم ، ومنقبة أخرى وهي استثناء آل البيت من الخدمة أيضا ، احتراما لصاحب الرسالة جدهم الذي نور العالم ، ومنقبة ثالثة وهي احترامهم العلم والعلماء والسادة والمشايخ والمواقع المقدسة والمحترمة ، وان آثارهم تدل على ذلك .

الرابعة هجرة من أسم من أهل مكة ليأتي النبي صلّى اللّه عليه وسلم فيقر بإسلامه أمامه ، ثم يرجع إلى قومه لأن اللّه يسلم لنبي من صلّى اللّه عليه وسلم ، ولم يره لا يعد صحابيا .

الخامسة الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام ، وهي واجبة عند القدرة ، إذ لا يحل لمسلم أن يقيم بدار الكفر لعدم تمكنه من إقامة دينه ، كما ينبغي ولأنه يكثر سوادهم ، وهو لا يجوز ، وإذا كانت الهجرة من بلاد البدعة مطلوبة ، فمن باب أولى وأحق أن تكون مطلوبة من بلاد الكفر لما فيها من المذلة على المسلم كما سيأتي في الآية 93

من سورة النساء ج 3 ، قال الماوردي فإن صار له فيها أهل وعشيرة وأمكنه إظهار شعائر دينه لم يجز له أن يهاجر ، لأن المكان الذي هو فيه صار دارا للإسلام ولأن بقاءه فيها قد يجر

لتكثير المسلمين فيها ، قال صلّى اللّه عليه وسلم لأن يهدي اللّه بك رجلا خير لك من حمر النعم .

(111/593)

السادس هجرة المسلم أخاه فوق ثلاثة أيام بغير سبب شرعي مكروهة ، وما زاد على الثلاثة فحرام إلا لضرورة ، قال الباجوري في حاشية علي بن قاسم ، وهذا مأخوذ من قولهم يجوز هجر المبتدع لزجره عن بدعته والفاسق ، من فسقه ، وكذا يجوز الهجر إذا رجا صلاح المهجور كأن كان يحصل عند عدم اهجر خلل بفعل معصية من الهاجر أو المهجور فهجره لإصلاح دينه ولو جميع الدهر ، وعليه يحمل هجره صلّى اللّه عليه وسلم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ونهيه الصحابة عن كلامهم ، إذ تخلفوا عن غزوة تبوك وهجر السلف والخلف بعضهم بعضا ، فقد جاء بالإحياء أن سعد بن وقاص هجر عمار بن ياسر إلى أن مات ، وعثمان بن عفان هجر عبد الرحمن بن عوف إلى أن مات ، وهجر طاوس وهب ابن منبه إلى أن مات ، وهجر سفيان الثوري شيخه ابن أبي ليلى إلى أن مات ، ولم يشهد جنازته ا ه ص 127 ج 2 من فصل احكام القسم بين النساء ، هذا وحكي أن رجلا هجر أخاه فوق ثلاثة أيام فكتب له :

يا سيدي عندك لي مظلمة فاستفت فيها ابن أبي خيثمة

فإنه يرويه عن جده ما قد روى الضحاك عن عكرمة

عن ابن عباس عن المصطفى نبينا المبعوث بالمرحمة

أن صدود الإلف عن إلفه فوق ثلاث ربنا حرمه

السابعة هجرة الزوج زوجته إذا تحقق نشوزها ، قال تعالى (وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ) الآية 33 من سورة النساء ج 3 ، ويجوز هجرها زيادة على ثلاثة أيام بقصد زجرها عن المعصية ، وإذا كان لعذر شرعي ، أما بدون معذرة فلا ، وبها يجوز في المضجع .

والكلام أيضا حتى ترجع وتتوب .

الثامنة هجرة أهل المعاصي فهي مطلوبة في المكان ، والكلام والسلام ردا وابتداء إهانة لهم ، ولا يجوز بوجه من الوجوه إكرامهم ، راجع الآية 112 من سورة هود المارة ، تجد ما يكفيك وما ليس لك غنى عنه .

(112/593)

التاسعة هجرة كل ما نهى اللّه عنه ، فلا يحل لمسلم أن يقرب شيئا حرمه اللّه أو ينهى عن شيء أحلّه ، لما جاء في الحديث الشريف المار آنفا من أن الهجرة إذا كانت للّه ورسوله

يثاب عليها ، وفيها الأجر العظيم والخير الجزيل والرضاء من اللّه ورسوله ، وإذا كانت على العكس فلا ثواب فيها ، ولا تسمى هجرة شرعية ، كمن ذهب للحج بقصد التجارة فقط ، وكذلك من جاهد لأجل الغنيمة ، ومن تزوج بقصد الولد ، أي من قصد الحج والتجارة معا وإعلاء كلمة اللّه والغنيمة وكسر شهوة النفس وحفظها من الحرام مع الولد ، فاللّه أكرم من أن لا يثيبه ، قال صلّى اللّه عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، وإنما خيركم من أخذ من هذه وهذه .

وروى ابن عباس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنّه قال : أيها الناس ليس من شيء يقاربكم من الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أمرتكم به ، وليس من شيء يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة إلا وقد نهيتكم عنه ، ألا وإن الروح الأمين نفث في روعي [بضم الراء القلب والعقل ، وبفتحها الخوف ، قال تعالى (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ) الآية 75 من سورة هود المارة ، والمراد هنا الأول] أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها ، فاتقوا اللّه وأجملوا في الطلب ، لا يحملنكم استبطاء الرزق أن تطلبوه بمعاصي اللّه عز وجل ، فإنه لا يدرك ما عند اللّه إلا بطاعته .

وروى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول لو أنكم تتوكلون على اللّه حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا .

أي تذهب أول النهار صباحا ضامرة البطون وترجع آخره شباعا ممتلئتها ، ولا تدخر شيئا

لغد .

هذا ما جاء في أمر الهجرة ، وسنتم قصّتها بعد تفسير المطففين الآتية إن شاء اللّه ، لأنها وقعت بعدها .

(113/593)

قال تعالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ" في منافع خلقه وهي حركتها بانتظام بديع "لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" لأنهم يعلمون أن آلهتهم عاجزة عن حفظ نفسها ، فضلا عن الخلق والتسخير ، ولكنهم عنادا وعتوا يعبدونها تقليدا لفعل آبائهم الضالين ، فقل لهم يا سيد الرسل بعد اعترافهم بذلك "فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ" 61 وينصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان التي لم تخلق ولم ترزق ، وقد أشار جل شأنه

بخلق السموات والأرض إلى اتحاد الذات ، وبتسخير الشمس والقمر إلى اتحاد الصفات ، ولما كان كمال الخلق ببقائه وبقاؤه بالرزق ، واللّه تعالى هو المتفضل به .

قال "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ" فيوسعه عليهم إحسانا منه وكرما عليهم ولطفا بهم ، وهو ذو الطول والامتنان والعطف "وَيَقْدِرُ لَهُ" يضيق على من يشاء بمقتضى حكمته وسابق تقديره ، ولما كان هذا موجبا لاعتراض بعض الجهلة بين العلة لهم بقوله "إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ" 62 فيوسع لمن يعلم أن صالحه بالرزق ، ولو لم يرزقه لكفر ، ويضيق على من يعلم أن صالحه في الضيق ، ولو أغناه لبغى ، وان يفعل كلّا لكل بوقته حسب حكمته ، فقد جاء بالحديث القدسي : إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ، راجع الآية 25 من سورة لقمان والآية 27 من سورة الشورى المارتين ، والأخرى ان اللّه تعالى لا يسأل مما يفعل .

قال تعالى "وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ" فعل ذلك كله "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ" يا خاتم الرسل على إظهار الحجة عليهم باعترافهم .

(114/593)

ثم نعى عليهم جهلهم بقوله "بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ" 63 ما يقولون ولا يفهمون ما يفعلون ولا يفقهون ما يريدون ، وفي هذه الآية دلالة على بطلان الشرك وإثبات التوحيد ، وفي الإضراب ببل إيذان بالإعراض عن جهلهم الخاص بالإتيان بما هو حجة عليهم باعترافهم ، لأنهم مسلوبو العقل ، فلا يبعد عنهم مثله .

مطلب حقارة الدنيا والتعريض للجهاد :

قال تعالى "وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ" اللهو الاستمتاع الذات والاشتغال بما لا يعني ، واللعب العبث ، أي أنها عبارة عن لعب ساعة بين الأولاد ، ثم ينصرفون عنها لدورهم ، وهكذا الدنيا يلهون بها أهلها مدة ويتركونها بالموت ، والآية تشير إلى تصغيرها والازدراء بها ، لأنها عبارة عن قضاء نهمتهم فيها مدة قصيرة وهي بما فيها لا تساوي عند اللّه جناح بعوضة ، والآية جاءت كضرب المثل في سرعة زوالها ، وتقلّبهم فيها وفراقهم لها .

أخرج الترمذي عن سهل بن سعد

قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لو كانت الدنيا تعدل عند اللّه جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء .

وقال بعض العارفين الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليه كلب بيد مجذوم .

(115/593)

وإذا كانت هي حقيرة لهذه الدرجة فليعلم حقارة ما فيها من الحياة بالطريق الأولى "وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ" الحياة الحقيقية المشمرة الدائمة المنعم أهلها التي لا يعرض لها كدر ولا موت ولا فناء وهي في ذاتها حياة طيبه والحيوان مصدر حي سمي به ذو الحياة في غير هذا المحل وأصله حييّان فقلبت الياء الثانية واوا على خلاف القياس ، فلامه ياء كما

قال سيبويه ، وقيل إن لامه واو نظرا إلى ظاهر الكلمة وإلى أن حياة علم رجل ولا حجة على كونه ياء في حييّ ، لأن الواو في مثله يبدل ياء لكسر ما قبلها نحو شقي من الشقوة ، وهو أبلغ من الحياة ، لذلك جاءت بلفظ المبالغة ، لأن بناء فعلان يكون بمعنى الحركة والاضطراب اللازم للحياة ، ولهذا المعنى أطلق عليها ، مع أنه علم للنّام المدرك ، ولأن الآخرة فيها الزيادة والنمو ، قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ) الآية 27 من سورة هود المارة ، وهي محل الإدراك التام أطلق عليها الاسم المستعمل في النامي المدرك ، ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضى للمبالغة ، وقد علمتها في وصف الحياة الدنيا المقابلة الدار الآخرة ، والمراد بها هنا الخلود والسكون ويوقف على كلمة الحيوان لأن التقدير "لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ" 64 حقيقة الدارين لما اختاروا دار اللهو واللعب الفانية على دار العزّة والكرامة الباقية .

ولا توصل هذه الجملة بالأولى لأنه يصير وصف الحيوان معلق بشرط علمهم ذلك وليس كذلك ، تدبر .

وما قاله بعضهم أن لو هنا للتمني فقيل غير سديد ، وعن مرمى الحقيقة بعيد ، ومن أخذ بالأولى فهو السعيد .

ونظير هذه الآية 32 من سورة الأنعام المارة ، إلا أن المذكور فيها من قبل الآخرة ، والمذكور هنا من قبل الدنيا ، وكذلك المذكور قبل تلك .

قال تعالى "فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ" السفينة بقصد التجارة أو الزيارة وتارت عليهم العواصف "دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" وتركوا ذكر أوثانهم كأنهم من خلص عباد اللّه الذين لا يذكرون غيره ولا يدعون معه إلها آخر ، ولجئوا إليه بكليتهم كأنهم لم ينصرفوا إلى غيره ، ولم يذهلوا عن الحياة الأبدية ،

وذلك لعلهم أنه لا يكشف الشدائد غيره ، وفي هذه الآية تهكّم بالكفرة المشركين أهل البغي والفساد ، وتقريع بهم ، لأنهم لا يستمرون على حالتهم هذه "فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ" وأمنوا من الغرق "إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ" 65 باللّه غيره كعادتهم الأولى ، ونسوا الضيق الذي حل بهم والذي نجاهم منه ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ركبوا البحر استصحبوا أصنامهم ، فإذا اشتد الريح ألقوها في البحر وقالوا يا ربنا يا ربنا ، قال تعالى قوله "لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ" من نعمة الإجابة والإنجاء "وَلِيَتَمَتَّعُوا" في دنياهم هذه ، وليغفلوا عن الآخرة دار البقاء "فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ" 66 عاقبة ذلك حين يعاقون إذ يتدمون من حيث لات مندم .

واللام في الموضعين لام كي ، أي يشركون باللّه ليكونوا كافرين نعمته ، فليتمتعوا في هذه الدنيا قليلا فإن مرجعهم إلينا ، راجع الآية 68 من الإسراء ج 1 ، وهذه الجملة الأخيرة مؤذنة

بالتهديد والوعيد لأولئك الكفرة سبب جحودهم نعمة انجائهم ورجوعهم إلى شركهم .

قال تعالى "أَ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا" بلدهم مكة دون سائر البلاد "حَرَما آمِناً" أهله مما يخاف الناس من السلب والسبي والقتل ، وقد حرم فيه ما لم يحرم بغيره من البلدان ، حتى شمل منه الطير والوحش والدواب .

أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي اللّه عنهم قال : إن أهل مكة قالوا يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا وكثرة العرب ، فمنى بلغهم أنا قد دخلنا في

دينك اختطفتنا فكلنا أكلة رأس ، فأنزل اللّه هذه الآية تطمنّهم بالأمن مما يخافون دون غيرهم إكراما لرسولهم محمد وإجابة لدعوة جده إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، كما سيأتي في الآية 136 من البقرة ج 3 ، وقد مر شيء منه في الآية 36 من سورة إبراهيم فراجعها "وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ" يختلسون اختلاسا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وأنعامهم ودوابهم ، لأن النفار كان متحكما بينهم ، فقل لهم يا سيد الرسل "أَ فَبِالْباطِلِ" من الأصنام وغيرها "يُؤْمِنُونَ" بعد ظهور نعمة الحق الذي لا ريب فيه "وَبِنِعْمَةِ

اللَّهِ" التي أنعمها عليهم في هذا الدين الصحيح والرسول الصادق والكتاب المبين لكل شيء "يَكْفُرُونَ" 67 مع أن ذلك مستوجب

للشكر ما بالهم عموا عن الرشد والهدى ، وجنحوا إلى الضلال والردى .

وتقديم الصلة في الموضعين في هذه الآية للاهتمام بها ، لأنها مصبّ الأفكار ، أو

للاختصاص على طريق المبالغة ، لأن الإيمان إذا لم يكن خالصا لا يعتد به ، ولأن كفران غير

نعمة اللّه عز وجل بجنب كفران نعمته لا يعد شيئا .

وقرىء الفعلان بالتاء على الخطاب ، كما قرىء بالغيبة .

قال تعالى "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً" فزعم أن له شريكا "أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ"

القران المنزل من لدنه "لَمَّا جاءَهُ" على يد رسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، أي لا أظلم من

هذا أحد البتة ، ولهذا عقبه بقوله "أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ" 68 أمثال هؤلاء بل

فيها منازل كثيرة تنتظرهم وتميّز عليهم غيظا وحنقا .

تشير هذه الآية إلى تقرير مثواهم وإقامتهم ، فيها ، لأن الاستفهام فيه معنى النفي وهو داخل

على المنفي ونفي النفي إثبات ، وعليه قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

و المعنى ألا يستوجبون هذا الثواء ، وقد افتروا ذلك الافتراء على اللّه تعالى ، وكذبوا بالحق مثل ذلك التكذيب ، بلى واللّه هم أهل له ولا شرّ منه .

قال تعالى "وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا" في شأننا ومن أجلنا وخالصا لوجهنا "لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا" الدالة على الخير والبر الموصلة إلى الرشد والهدى في الدنيا المؤدية إلى الجنة في الآخرة "وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ" 69 بالنصر والمعونة والظفر في الدنيا والثواب والمغفرة والرحمة في الآخرة .

وقد ختمت سورة النحل فقط بما ختمت به هذه السورة .

وتشير هذه الآية إلى أن اللّه تعالى يريد أن يأمر رسوله بمجاهدة الكفار الذين لم ينزعوا عن شركهم وتكذيبه وجحد كتابه ، لأنه إنما أمره بالهجرة عن دارهم لعدم تأثير العطف عليهم بهم ، وان الرحمة التي عاملهم بها واللين والعطف لم يزدهم إلا عتوا وعنادا ، ولم يزدهم التهديد والوعيد إلا استهزاء وسخرية ومكابرة في البغي والطغيان والعدوان ، ولهذا قدم في هذه الآية الجليلة التمهيدات اللازمة لإنزال العقاب فيهم وتعجيل ما استبطئوه من العذاب الذي يطالبون به ، وكانوا يوقنون عدم وجود عقاب أو عذاب كما يتيقنون عدم وجود بعث ولا حساب ولا جزاء ، فاستحقوا جزاء معاملتهم بالقسوة والشدة ، وآن وقت قسرهم على الإيمان

ليؤمن مؤمنهم ويصر كافرهم فيوقع فيهم عذابه الذي لا مرد له .

قال بعض العارفين إن الآية صالحة للمجاهدة الظاهرة والباطنة ، فالذين جاهدوا أنفسهم في رضاء اللّه تعالى لنهدينهم إلى محل الرضاء .

(119/593)

واعلم أن من عرف اللّه تعالى عرف كل شيء ، ومن وصل إليه هان عنده كل شيء ، وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، قال عبد اللّه ابن المبارك من اعتاصت عليه مسألته فليسأل أهل الثغور ، لقوله تعالى (وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا) الآية ، لأن الجهاد هداية أو مرتب على الهداية ، قال تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً) الآية 18 من سورة محمد ج 3 ، وجاء في الحديث من عمل بما علم أورثه اللّه علم ما لم يعلم .

وقال بعض الكمل والذين يشغلون ظواهرهم بالوظائف ليوصلن أسرارهم إلى اللطائف .

وقال سفيان ابن عينيه إذا أختلف الناس فانظروا ما عليه أهل التقوى فإن اللّه تعالى يقول (وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا) الآية .

والتقوى هي المخرج من الشدائد ، قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ) الآية 3 من سورة الطلاق ج 3 هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعهم أجمعين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 4 صـ 508.463 ﴾

(120/593)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة العنكبوت

مكية

الم تقدم الكلام عليه لا يفتنون حسن من قبلهم كاف وكذا الكاذبين وان يسبقونا ما يحكمون تام فان أجل الله لآت كاف العليم حسن لنفسه كاف عن العالمين تام سيئاتهم جائز كانوا يعملون تام حسنا كاف وكذا تطعهما بما كنتم تعملون تام وكذا في الصالحين كعذاب الله صالح معكم حسن في صدور العالمين كاف المنافقين تام خطاياكم حسن من شيء مفهوم لكاذبين حسن من أثقالهم كاف يفترون تام كاف السفينة جائز آية للعالمين تام واتقوه كاف تعلمون حسن افكا تام رزقا صالح واشكر واله تام وكذا ترجعون ومن قبلكم البلاغ المبين

أتم من ذلك ثم يعيده كاف يسير تام النشأة الآخرة كاف قدير حسن ويرحم من يشاء كاف تقبلون حسن ولا في السماء كاف تام من لاحمتي جائز أليم حسن أو حرقوه كاف من النار أكفى منه يؤمنون حسن أو ثانا كاف لمن قرأها مودة بينكم بالرفع خبر مبتدأ محذوف أو خبره في الحياة الدنيا وليس بوقف لمن قرأها بالرفع خبر إن وجعل ما معنى الذي أو بالنصب لتعلقها بما قبلها في الحياة الدنيا كاف عند أبي حاتم من ناصرين كاف فآمن له لوط صالح إلى ربي جائز الحكيم حسن اسحق ويعقوب صالح في الدنيا كاف وكذا إن فيها لوطا بمن فيها حسن من العالمين كاف وكذا في ناديكم المنكر ومن الصادقين المفسدين تام ظالمين كاف وكذا يفسقون يعقلون تام مفسدين كاف وكذا جاثمين ومستبصرين وسابقين وبذنبه أغرقنا حسن يظلمون تام اتخذت بيتا حسن وقال أبو عمرو كاف يعملون تام وكذا الحكيم للناس كاف العالمون تام بالحق كاف للمؤمنين تام وأقم الصلاة كاف تنهى عن الفحشاء والمنكر حسن ولذكر الله أكبر تام ما تصنعون أتم منه ظلموا منهم صالح مسلمون حسن إليك الكتاب كاف وكذا مت يؤمن به الكافرون حسن وكذا ولا تخطه بيمينك المبطون كاف وكذا العلم الظالمون حسن آيات من ربه كاف مبين تام وكذا يتلى عليهم ويؤمنون شهيدا حسن ما في السموات والأرض تام وكذا الخاسرون بالعذاب في الموضعين صالح لجاءهم العذاب كاف لا

يشعرون تام بالكافرين كاف أرجلهم صالح ما كنتم تعملون تام وكذا فاعبدون وترجعون خالدين فيها حسن كاف العالمين كاف إن جعل ما بعده خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إن جعل ذلك نعتا لهم يتوكلون تام وكذا العليم ليقولن الله كاف يؤفكون تام ويقر له كاف عليم ليقولن الله حسن كاف الحمد لله كاف لا يعقلون تام وكذا لهو ولعب يعلمون حسن له الدين كاف وكذا يشركون إن جعلت لام ليكفروا لام الأمر بمعنى التهديد فان جعلت لام كي فليس بوقف بما آتيناهم كاف تام وقال أبو عمرو تام قيل كاف هذا إن جعلت اللام في وليتمتعوا لام الأمر بمعنى التهديد سواء سكنت تخفيفا أو كسرت على الأصل فان جعلت لام كي لم يوقف على آتيناهم لعطف ذلك على ليكفرون ويوقف على وليتمتعوا وهو كاف على الوجهين فسوف يعلمون تام من حولهم حسن يكفرون تام لما جاء حسن للكافرين تام سبلنا حسن آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد صـ 590. 597 ﴾

(122/593)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة العنكبوت

مكية

ألم تقدم الكلام عليها 0

أن يتركوا (جائز) إن قدرت ما بعده أحسبوا أن يقولوا وليس بوقف إن قدرت المعنى أن يتركوا لأن يقولوا أو على أن يقولوا أي أحسبنا هم الترك لأجل تلفظهم بالإيمان قاله النكزاوي 0

أن يقولوا آمنا ليس بوقف لأنَّ وهم لا يفتنون جملة حالية ولا يتم الكلام إلاَّ بها 0

لا يفتنون (كاف)

من قبلهم (كاف) وقيل تام لأنَّ قوله ولقد فتنا ماض وقوله فليعلمن مستقبل وفصل بالوقف بينهما لذلك 0

الكاذبين (كاف) لأنَّ أم حسب في تأويل الاستئناف أي أحسب أن يسبقونا وهو كاف0

ما يحكمون (تام)

فإنَّ أجل الله لآت (كاف)

العليم (تام)

لنفسه (كاف)

العالمين (تام)

سيآتهم (جائز)

يعملون (تام)

حسناً (حسن) ومثله فلا تطعهما

إليّ مرجعكم ليس بوقف لمكان الفاء

تعملون (تام) ومثله في الصالحين

كعذاب الله (تام)

إنَّا كنا معكم (كاف) ومثله العالمين

الذين آمنوا (جائز)

المنافقين (تام)

اتبعوا سبيلنا ليس بوقف لأنَّ فيه معنى الشرط وإن كانت اللام في قوله ولنحمل لام الأمر

التي يقتضي الابتداء بها لأنَّ المعنى إن اتبعتم سبيلنا في إنكار البعث والثواب والعقاب

حملنا خطاياكم فلفظه أمر ومعناه جزاء

خطاياكم (حسن)

من شيء (جائز) وهو مفعول حاملين

لكاذبون (كاف)

مع أثقالهم (حسن) فصلاً بين الأمرين

يفترون (تام)

عاماً (جائز) وقيل كاف لحق الحذف المقدر أي فلم يؤمنوا فأخذهم الطوفان

ظالمون (كاف)

وأصحاب السفينة (جائز)

للعالمين (تام) إن نصب إبراهيم بمقدر وإن عطف على نوح أو على الهاء في أنجيناه أي ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم لم يحسن الوقف على شيء من أول قصته إلى هنا

واتقوه (حسن)

تعملون (تام)

إفكاً (كاف)

رزقاً (جائز)

واشكروا له (كاف)

ترجعون (تام)

من قبلكم (حسن)

المبين (تام) لمن قرأ يروا بالتحتية لأَّنه رجع من الخطاب إلى الخبر وكاف لمن قرأ بالفوقية

ثم يعيده (كاف)

يسير (تام)

كيف بدأ الخلق (جائز)

الآخرة (كاف)

قدير (كاف) على استئناف ما بعده لأنَّ ما بعده يصلح وصفاً واستئنافاً

ويرحم من يشاء (كاف)

وإليه تقلبون (تام)

ولا في السماء (كاف)

ولا نصير (تام)

من رحمتي (جائز) إن جعل ما بعده مستأنفاً وليس بوقف إن عطف على ما قبله

أليم (تام)

أو حرِّقوه (كاف) هذا راجع إلى قصة إبراهيم فإن قيل ما معنى توسط هذه الآيات التي ليست من قصة إبراهيم فالجواب أنَّها إنَّما توسطت على معنى التحذير والتذكير لأنَّهم كذبوا كما كذب قوم إبراهيم قاله النكزاوي

من النار (كاف) وفي الكلام حذف تقديره فقذفوه في النار فأنجاه الله من النار ولم يحترق إلا الحبل الذي أوثقوه به

لقوم يؤمنون (تام)

أوثاناً (كاف) لمن قرأ مودة بينكم بالرفع وحذف التنوين والإضافة خبر مبتدأ محذوف أي ذلك مودة بينكم أو مبتدأ خبره في الحياة الدنيا وبها قرأ عاصم وأبو عمرو والكسائي وليس بوقف لمن قرأها بالرفع خبر إن وجعل ما بمعنى الذي والتقدير إنَّ الذين اتخذتموهم أوثاناً مودة بينكم وكذا من نصب مودة مفعولاً بالإتخاذ سواء أضاف أو لم يضف أي إنَّما اتخذتموها مودة بينكم في الدنيا وبالنصب قرأ حمزة وحفص وحذف التنوين والإضافة في الحياة الدنيا (كاف) على الوجوه كلها

مأواكم النار (حسن)

من ناصرين (تام)

فآمن له لوط (صالح) ومثله إلى ربي

الحكيم (كاف)

ووهبنا له إسحق ويعقوب (حسن) ومثله والكتاب وكذا أجره في الدنيا قال ابن عباس هو الثناء الحسن وروي عنه أيضاً أنَّه العافية والعمل الصالح في الدنيا

الصالحين (تام) لأنَّه آخر القصة

الفاحشة (صالح) لأنَّ الجملة بعده تصلح حالاً ومستأنفة

من العالمين (كاف)

في ناديكم المنكر (حسن)

من الصادقين (كاف)

المفسدين (تام)

بالبشرى ليس بوقف لأنَّ قالوا جواب لمَّا

هذه القرية (كاف) للابتداء بإن مع احتمال التعليل

ظالمين (كاف)

إنَّ فيها لوطاً (حسن) ومثله أعلم بمن فيها

إلاَّ امرأته (جائز) لأنَّ المستثنى مشبه بالمفعول تقديراً

(124/593)

من الغابرين (تام) على استئناف ما بعده

ذرعاً (جائز) ومثله لا تحزن

من الغابرين (تام) ومثله يفسقون

يعقلون (تام) لأنَّه آخر قصة وتمامه إن نصب شعيباً بمقدر أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم

شعيباً وجائز إن عطف على لوطاً ولا يوقف على شيء من أول قصته إلى هنا

مفسدين (كاف)

الرجفة (جائز)

جاثمين (تام) إن نصب عاداً بمقدر أي وأهلكنا عاداً وثموداً 0

من مساكنهم (جائز) ومثله أعمالهم وكذا عن السبيل

مستبصرين (تام) إن نصب قارون بمقدر أي وعذبنا قارون وفرعون وهامان وجائز إن

عطف على الهاء من قوله فأخذتهم الرجفة وحينئذ لا يوقف على جائمين 0

وهامان (حسن)

بالبينات (جائز) ومثله في الأرض

سابقين (كاف) ونصب كلاً بأخذنا

بذنبه (حسن)

حاصباً (جائز) ومثله الصيحة وكذا الأرض 0

وأغرقنا (حسن) تفصيلاً لأنواع العذاب فالذين أرسل عليهم الحاصب وهي الحجارة قوم

لوط قال تعالى إنَّا أرسلنا عليهم حاصباً إلاَّ آل لوط نجيناهم بسحر والذي خسف به

الأرض قارون والذين أغرقوا قوم نوح 0

يظلمون (تام) وقف الأخفش على كمثل العنكبوت وخولف لأنَّ الجملة بعده تصلح صفة

بإضمار التي ولو جعل التشبيه عاملاً والجملة حالاً لكان الوصل أولى حتى لا يحتاج إلى

الإضمار ووقف أبو حاتم على اتخذت بيتاً لأنَّه قصد بالتشبيه نسجها التي تعمله من غزلها فهو في غاية الوهاء والضعف ولا فائدة فيه وهي مع ذلك تعتمد عليه وتسكن فيه ولا نفع لها فيه كعباد الأصنام لا نفع لهم فيها 0

اتخذت بيتاً (كاف)

لبيت العنكبوت (جائز) على أنَّ جواب لو محذوف تقديره لو كانوا يعلمون وهي الأصنام لما اتخذوها أي لما اتخذوا من يضرب له بهذه الأمثال لحقارته 0

يعلمون (تام) لمن قرأ تدعون بالفوقية لأنَّ المعنى قل لهم يا محمد وكاف على قراءة من قرأ يدعون بالتحتية قرأ أبو عمرو وعاصم يدعون بباء الغيبية والباقون بالخطاب 0

من شيء (كاف) على استئناف ما بعده0

الحكيم (تام)

للناس (كاف)

العالمون (تام)

بالحق (كاف)

للمؤمنين (تام)

من الكتاب (حسن)

وأقم الصلاة (أحسن) مما قبله

والمنكر (حسن)

أكبر (كاف) أي ولذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه قاله ابن عباس 0

ما تصنعون (تام)

إلاَّ بالتي هي أحسن ليس بوقف للاستثناء بعده0

ظلموا منهم (كاف)

وأنزل إليكم (حسن) ومثله وإلهكم واحد

ونحن له مسلمون (كاف)

إليك الكتاب (حسن) لأنَّ فالذين مبتدأ ويؤمنون به خبر 0

وبه (جائز) فصلاً بين الفريقين 0

ومن هؤلاء من يؤمن به (كاف) للابتداء بالنفي 0

الكافرون (تام)

بيمينك قيل جائز وليس بحسن لأنَّ الذي بعده في تأويل الجواب كأنَّه قال لو كنت تتلو كتاباً أو

كتبت بيمينك لارتاب المبطلون 0

والمبطلون (تام)

العلم (كاف)

الظالمون (كاف)

آيات من ربه (كاف)

عند الله (جائز)

مبين (تام)

يتلى عليهم (كاف) وتام عند أبي حاتم 0

يؤمنون (تام)

شهيداً (صالح) لأنَّ ما بعده يصلح وصفاً واستئنافاً 0

والأرض (كاف) لأنَّ والذين مبتدأ خبره أولئك0

وكفروا بالله ليس بوقف لأنَّ خبر الذين لم يأت0

الخاسرون (تام)

بالعذاب (حسن) في الموضعين 0

العذاب (كاف)

بغتة (جائز)

لا يشعرون (تام) على استئناف ما بعده0

بالعذاب (جائز)

بالكافرين (كاف) إن نصب يوم بمقدر وليس بوقف إن نصب بمحيطة لأنَّ يوم ظرف للإحاطة 0

أرجلهم (كاف) لمن قرأ ونقول بالنون وجائز لمن قرأ ويقول بالياء التحتية وهو نافع وأهل الكوفة والباقون بالنون 0

تعملون (تام) للابتداء بيا النداء 0

واسعة (حسن)

فاعبدون (تام)

ذائقة الموت (جائز) لمن قرأ يرجعون بالتحتية وكاف لمن قرأ بالفوقية 0

من تحتها الأنهار ليس بوقف لأنَّ خالدين حال مما قبله0

خالدين فيها (حسن)

العاملين (كاف) إن جعل ما بعده خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو مبتدأ خبره وعلى ربهم يتوكلون وكذا إن نصب بإضمار أعني وليس بوقف إن جرّ نعتاً للعاملين أو بدلاً منهم أو نعتاً0

يتوكلون (تام) وقيل كاف وكذا رزقها أي كم من دابة مفتقرة إلى الغداء لا تدخر شيأً لغد ولا يدخر من الحيوانات إلاَّ الآدمي والفأرة والنملة

يرزقها ليس بوقف لأنَّ قوله وإياكم معطوف على ما عمل فيه الرزق إذ لم يرد أنَّه لم يرد أنَّه يرزق بعض الدواب دون بعض بل يرزق القوي والضعيف0

وإياكم (كاف) على استئناف ما بعده0

العليم (تام)

ليقولن الله (حسن)

فأنَّى يؤفكون (تام)

ويقدر له (كاف)

عليم (تام)

ليقولن الله (حسن)

قل الحمد لله (تام) لأنَّه تمام المقول ومثله لا يعقلون 0

إلاَّ لهو ولعب (كاف)

لهي الحيوان (حسن)

لو كانوا يعلمون (تام) أي لو علموا حقيقة الدارين لما اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي

ولو وصل لصار وصف الحيوان معلقاً بشرط إن لو علموا ذلك وهو محال قاله السجاوندي والحيوان والحياة بمعنى واحد وقدر أبو البقاء وغيره قبل المبتدأ مضافاً أي وإنَّ حياة الدار الآخرة وإنَّما قدروا ذلك ليتطابق المبتدأ والخبر 0

له الدين (كاف) ومثله يشركون لمن جعل لام ليكفروا لام الأمر بمعنى التهديد وليس بوقف لمن جعلها لام كي 0

بما آتيناهم (حسن) لمن سكن لام وليتمتعوا على استئناف الأمر بمعنى التهديد وبها قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وليس بوقف لمن كسرها عطفاً على ليكفروا ويوقف على وليتمتعوا وبكسرها قرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو وهي محتملة لأن تكون لام الأمر أو لام كي والمعنى لا فائدة لهم في الإشراك إلاَّ الكفر والتمتع 0

وليتمتعوا (كاف) على الوجهين لأنَّ سوف للتهديد فيبتدأ بها الكلام لأنَّها التأكيد الواقع

فسوف يعلمون (تام) للابتداء بالاستفهام

من حولهم (كاف)

يكفرون (تام)

لما جاءه (كاف)

للكافرين (تام) لأنَّ والذين مبتدأ خبره جملة القسم المحذوف وجوابه لنهديهم خلافاً لثعلب حيث زعم أنَّ جملة القسم لا تقع خبراً للمبتدأ

سبلنا (حسن)

آخر السورة (تام) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ 590. 597 ﴾

(127/593)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة العنكبوت :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ورش : "أَلفْ لامْ مِيمَ حَسِبَ" 1 ، بفتح الميم من غير همز بعدها .

قال أبو الفتح : هذا على تخفيف همزة : "أَحَسِبَ" ، حذفَها وألقي حركتها على الميم ، وانفتحت .

وفيه ضعف ؛ وذلك أن حروف التهجي مبنية على الوقف في حال الوصل ، كقراءة الجماعة : "ميم أَحَسِبَ النَّاسُ" . فإذا كانت في الإدراج ساكنة لم يلق بها إلقاء الحركة عليها ؛ وذلك أن إلقاء الحركة في نحو هذا إنما يكون لما من عادته أن يحرك في الوصل لالتقاء الساكنين . وأنت تقول : "ميم" فتجمع بين الساكنين ، وهما : الياء ، والميم . فإذا كان

الساكنان يجتمعان في الوصل ضعف إلقاء حركة الهمزة عليها ، وليس كذلك2 قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ 3 لأن "قد "مما يحرك لالتقاء الساكنين ، نحو قدِ انقطع ، وقد استخرج. فكما حرك لالتقاء الساكنين ، فكذلك حرك لإلقاء حركة الهمزة عليه .

فإن قلت : قد تقول : "ألفْ لامْ ميمَ الله" ، فتحرك الميم من آخر "ميمَ" لسكونها وسكون اللام من بعدها ، فهلا جاز على ذلك إلقاء حركة الهمزة عليها 4 . قيل : أصل حركة التقاء الساكنين إنما هو في المتصل ، نحو : أين ، وكيف ، ومنذ ، وسوف ، وأمس ، وهؤلاء . ثم شبه المنفصل في ذلك بالمتصل ، "ميم" و"نون" و"قاف" يجتمع فيه الساكنان في الوصل ،

---

1 سورة العنكبوت : 1 ، 2 .

2 في ك : لذلك ، وهو تحريف .

3 سورة المؤمنون : 1 ، ونقل حركة همزة "أفلح" إلى الدال قبلها قراءة ورش ، كما في الإتحاف : 194 .

4 سقطت "عليها" في ك .

فعليه العمل لا على ما يحرك في الوصل المنفصل لالتقاء الساكنين ، إلا أن له أن يقول : شَبهتُ سكونا بسكون ، فحركتُ ميمَ "ميمَ" بإلقاء حركة الهمزة ، كما حركت دال "قدَ أفْلَح" كذلك .

ومن ذلك قراءة علي 1 بن أبي طالب كرم الله وجهه : "فَلَيُعْلِمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيُعْلِمَنَّ الْكَاذِبِين"2 برفع الياء فيهما ، وكسر اللام .

وقرأ الزهري : "فَلَيَعْلَمَنَّ" مثل قراءة الناس ، وقرأ : "123ظ" "وَلَيُعْلِمَنَّ الْكَاذِبِين" كقراءة علي :

وقرأ جعفر بن محمد ومحمد بن عبد الله بن حسن ، كقراءة علي عليه السلام .

وقرأ الزهري : "فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمنوا" كقراءة الناس أيضا ، "وَلَيَعْلَمَنَّ المنافقين" .

قال أبو الفتح : أما "فَلَيَعْلَمَنَّ" ، بفتح الياء واللام فإنها على إقامة السبب مقام المسبب ، والغرض فيه : فليكافئن الله الذين آمنوا ، وذلك أن المكافأة على الشيء إنما هي مسببة عن علم ، ولو لم يعلم لما صحت المكافأة . ومثله من إقامة السبب مقام المسبب قول الله سبحانه : ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ 3 ، فهذا سبب قضاء الحاجة المكنّى بذكره عنها .

وقد أفردنا لهذا الفصل من إقامة كل واحد من السبب والمسبب مقام صاحبه بابا في كتاب الخصائص4 .

وأما قوله : "وَلَيُعْلِمَنَّ"5 فمعناه : وَلَيُعَرِّفَنَّ الناس من هم ؟ فحذفتَ المفعول الأول ، كما

قال الله تعالى : "يَوْمَ يُدْعَى كُلُّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ"6 ، وكقوله : ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ 8 . جاء في التفسير أنها زُرْقَة العيون ، وسواد الوجوه . ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ، وقيل في زرقا : أي : عطاشا ، ومنه سنان أزرق ، أي : ظمآن إلى الدم .

---

1 في ك : علي ، كرم الله وجهه .

2 سورة العنكبوت : 3 .

3 سورة المائدة : 75 .

4 الخصائص : 3 : 173 - 177 .

5 في ك : "فليعلمن" .

6 سورة الإسراء : 71 ، و"يدعى" قراءة الحسن كما في البحر : 6 : 62 .

7 سورة الرحمن : 41 .

8 سورة طه : 102 .

وإن شئت لم تحمله على حذف المفعول لكن على أنه من قولهم : ثوب مُعْلم ، ومن قولهم : فارس مُعْلم ، أي : أعلم نفسه في الحرب بما يعرف به من ثوب أو غيره ، فكأنه قال : وَلَيَشْهَرَنَّ الذين صدقوا ، وَلَيَشْهَرَنَّ الكاذبين ؛ فيرجع إلى المعنى الأول ، إلا أنه ليس على تقدير حذف المفعول .

وإن شئت كان على حذف المفعول الثاني لا الأول ، كأنه قال : فَلَيُعْلِمَنَّ الله الصادقين ثواب صدقهم ، والكاذبين عقاب كذبهم .

ومثل : "لَيَعْلَمَنَّ" ، بفتح الياء واللام جميعا – قراءة من قرأ : "عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ" 1 ، بتخفيف الراء من عَرَفَ فأقام المعرفة مقام المعاتبة عنها . ومثل "وَلَيُعْلِمَنَّ" ، بضم الياء ، وكسر اللام – قراءة من قرأ : "عَرَّفَ بَعضَه" ، بتشديد الراء .

وأعلمت في القراءتين جميعا إذا لم تكن بمعنى أعلمت الثوب فهو بمعنى عرفت2 ، وهي متعدية إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى3 : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ 4 ، أي : عرفتم . وأما "لَيَعْلَمَنَّ" و"فَلَيُعْلِمَنَّ" فكأنه قال : فليكافئن ، وَلَيَشْهَرَن بما كافأ به على ما مضى من التفسير .

ومن ذلك قراءة السلمى وزيد بن علي : "وَتَخَلَّقُونَ إِفْكًا" 5 .

وقرأ فضيل بن مرزوق6 وابن الزبير : "وَتَخْلُقُونَ أَفِكًا" ، بفتح الهمزة ، وكسر الفاء .

قال أبو الفتح : أما "تَخَلَّقُونَ" فعلى وزن تَكَذَّبُونَ7 ومعناه . وأما "أَفِكًا" فإما أن يكون

1 سورة التحريم : 3 ، وتخفيف الراء قراءة الكسائي ، وتشديدها قراءة الباقين ، كما في إتحاف فضلاء البشر : 258 .

2 أي حين يكون مجردا ، وأما أعلمت فبمعنى عرفت بالتشديد ، كما لا يخفى .

3 في ك : كقول الله .

4 سورة البقرة : 65 .

5 سورة العنكبوت : 17 .

6 هو فضيل بن مرزوق الكوفي ، روى عن أبي حازم عدي بن ثابت . وروى عنه يحيى بن آدم ويزيد بن هارون ، وثقه السفيانان ، وكان شديد التشيع . الخلاصة : 264 .

7 تكذب : تكلف الكذب ، فأصل "تخلقون" تتخلقون حذفت إحدى التاءين . وانظر البحر : 7 : 145 .

مصدرا كالكذب والضحك ، وإما أن يكون صفة لمصدر محذوف ، أي تكذبون كذبا أفِكا ، ثم1 حذف المصدر ، وأقيمت صفته مقامه ، كقولك : قمت مثل ما قام زيد ، أي : قياما مثل قيام زيد . وأذهب في الحذف – على هذا الحد – منه قول الله تعالى :

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ 2 أي : شُرْبًا مثل شُربِ الهيم [124و] لأنه حذف فيه مع الموصوف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه . و"أَفِك" على هذا صفة ، كبَطِر ، وأَشِر ، ويجوز أن يكون محذوفا من "آفك" ، وهو اسم الفاعل من أفك يأفِك إفكا : إذا كذب . وأفكته آفكه إفكا : إذا صرفته عن الشيء ، وهو مأفوك . قال :

إنْ تَكُ عن أَحْسَنِ الْمُرُوءة مأفُوكًا فَفِي آخَرِينَ قد أُفِكُوا 3

إلا أن الألف حذفت ، كما حذفت في بَرِد وعَرِد ، يريد باردا وعاردا 4 . وقد مضى ذكره .

ومن ذلك قراءة الزهري : "أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدَا اللَّهُ الْخَلْقَ" 5 ، بغير همز .

قال أبو الفتح : ينبغي أن يكون أراد بغير همزة محققة 6 ، بل هي مخففة ، فقربت من الساكن إلا أنها مضمومة ؛ لأنها مخففة في وزن المحققة . ولو كان بدلا محضا لقال : "يبدا" ، فقلبها ياء ، ثم أبدل من الياء ألفا ، أجراها مجرى ألف يخشى ، كما أنه لما أبدلها الشاعر فيما أنشده أبو علي عن أبي زيد :

---

1 في ك : فكأنه حذف .

2 سورة الواقعة : 55 .

3 البيت لعروة بن أذينة . يقول : إن لم توفق للإحسان فأنت في قوم قد صرفوا عن ذلك أيضا . وانظر اللسان "أفك" .

4 يشير إلى قوله :

أصبح قلبي صردا لا يشتهي أن يردا

إلا عرادا عردا وصليانا بردا

وعنكثا ملتبدا

وانظر الصفحة 171 من الجزء الأول .

5 في ك : ﴿يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ .

6 في ك : مخففة ، وهو تحريف .

(131/593)

إذا مَلا بَطْنَهُ أَلْبانُها حَلَبًا بَاتَتْ تُغَنِّيه وَضْرَى ذاتُ أَجْرَاسِ 1

أراد : "ملأ" فأبدله البتة ، فصارت ياء ، فأبدلها للفتحة قبلها ألفا ، فصارت "ملا" كما ترى ، بوزن قضَى وسعَى . وقد شرحنا هذا في كتابنا سر الصناعة وبأخَرَة 2 في كتابنا الخصائص 3 ، وبعده في كتاب الخطيب ، لما دعا إلى تكرير 4 ذكره لقوة الحاجة إليه وتقاضي الوضع له 5 . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 157 . 161﴾

---

1 الوضر : محركة : بقية الهناء وغيره ، واللطخ من الزعفران ونحوه ، وضر كوجل ، وهي

وضرة ووضرى . وانظر اللسان "وضر" .

2 بأخرة : أخيرا .

3 الخصائص : 3 : 152 وما بعدها .

4 في ك : إلى ذكره ، بدون تكرير .

5 في ك : لها ، وهو تحريف .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة العنكبوت

مكية وقيل مدنية وقيل إلا من أولها إلى المنافقين وآيها تسع وستون غير حمصي وسبعون فيه خلافها خمس ألم كوفي وتقطعون السبيل حرمي وحمصي له الدين بصري ودمشقي أفبالباطل يؤمنون حمصي في ناديكم المنكر مدني أول بخلف القراآت تقدم سكت أبي جعفر على حروف ( ) الم (كنقل همزة أحسب لورش ويجوز له حينئذ المد والقصر وفي الميم من ألم ومر عن النشر امتناع التوسط لكون المتغير هنا بسبب المد بخلاف ما تغير فيه سبب القصر كنستعين وقفا

وأمال (خطاياكم) و (خطاياهم) الكسائي وبالفتح والصغرى الأزرق وعن ابن محيصن (ولنحمل) بكسر لام الأمر والجمهور على إسكانها

وقرأ (ترجعون) الآية 17 ببنائه للفاعل يعقوب

واختلف في ( ) أو لم يروا كيف ( ) الآية 19 فأبو بكر من طريق يحيى بن آدم وحمزة والكسائي وخلف بالتاء من فوق على خطاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه وافقهم الشنبوذي وروى العليمي عن أبي بكر بالغيب ردا على الأمم المكذبة وبه قرأ الباقون ويوقف على ( ) كيف يبدئ ( ) وكذا (ينشىء) لحمزة وهشام بخلفه بإبدال الهمزة ياء ساكنة على القياس وبإبدالها ياء مضمومة على ما نقل عن الأخفش فإذا سكنت للوقف اتحد مع ما قبله لفظا وإن وقف بالإشارة جاز الروم والإشمام فهذه ثلاثة والرابع تسهيلها كالواو على مذهب سيبويه وأما الخامس وهو تسهيلها كالواو على مذهب سيبويه وأما الخامس وهو تسهيلها كالياء بحركة سابقها لا بحركتها فهو الوجه المعضل

واختلف في (النشأة) الآية 20 وهنا والنجم الآية 47 والواقعة الآية 62 فابن كثير وابو عمرو بفتح الشين فألف وافقهما ابن محيصن واليزيدي والباقون بسكون الشين بلا ألف ولا مد لغتان كالرأفة والرأافة ورسمها بالألف يقوي قراءة المد وسكت على الشين حمزة وابن ذكوان وحفص وإدريس عن خلف بخلف عنهم وإذا

وقف حمزة فبالنقل فقط وحكي وجه آخر وهو إبدالها ألفا على الرسم وفي النشر إنه مسموع قوي

وأمال ( ) فأنجاه الله (حمزه والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وأظهر ذال (اتخذتم) ابن كثير وحفص ورويس بخلفه

واختلف في ( ) مودة بينكم (الآية 25 فابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس برفع (مودة) بلا تنوين خبر أن على حذف المضاف أي سبب أو ذات مودة أو نفس المودة مبالغة وما موصولة وعائدها الهاء المحذوفة وهو المفعول الأول وأوثانا ثان وبينكم بالخفض على الإضافة اتساعا في الظرف كيا سارق الليلة الثوب ويجوز أن تكون ما مصدرية أي أن سبب اتخاذكم أوثانا إرادة مودة بينكم أو كافة ومودة خبر محذوف أي انعكافكم مودة أو مبتدأ وخبره في الحياة وافقهم ابن محيصن واليزيدي وقرأ حفص وحمزة وروح بنصب (مودة) من غير تنوين مفعولا له أي اتخذتموها لأجل المودة فيتعدى لواحد أو مفعولا ثانيا أي أوثانا مودة نحو اتخذوا أيمانهم جنة وبينكم بالخفض وافقهم الأعمش والباقون بنصب ( ) مودة بينكم ( ) بالنصب على الأصل في الظرف وفتح ياء ( ) ربي إنه (نافع وابو عمرو وأبو جعفر

وقرأ ﴿ النبوءة ﴾ بالهمز نافع

وقرأ ( ) أئنكم لتأتون ( ) أئنكم لتأتون الرجال ( ) الآية 28 بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالاستفهام فيهما فلا خلاف عنهم في الاستفهام في الثاني هنا وكل من استفهم على قاعدته فقالون وأبو عمرو وابو جعفر بالتسهيل والمد وورش وابن كثير ورويس بالتسهيل والقصر والباقون بالتحقيق والقصر إلا أن أكثر الطرق عن هشام على المد (وأسكن) سين (رسلنا) أبو عمرو وقرأ إبراهيم الأخير وهو ولما جاءت رسلنا إبراهيم بألف بدل الياء ابن عامر سوى النقاش عن الأخفش عن ابن ذكوان وقرأ (لننجينه) بالتخفيف حمزة والكسائي وخلف ويعقوب وخفف (منجوك) ابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف كما في الأنعام وأشم (سيء) نافع وابن عامر والكسائي وأبو جعفر ورويس ووقف عليها حمزة وهشام بخلفه بالنقل وبالإدغام أيضا إجراء له مجرى الزائد وأمال حمزة (وضاق) وشدد (منزلون) ابن عامر ومر بآل عمران وقرأ ﴿ وثمود ﴾ بغير تنوين حفص وحمزة ويعقوب وقرأ (البيوت) بضم الباء وورش وأبو عمرو وحفص وابو جعفر ويعقوب

واختلف في (ما يدعون) الآية 42 فأبو عمرو وعاصم ويعقوب بياء الغيب

وافقهم اليزيدي والباقون بالخطاب وأمال (تنهى) حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في ( ) آيات من ربه ( ) الآية 50 فابن كثير وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بالتوحيد على إرادة الجنس وافقهم ابن محيصن والباقون بالجمع

وأمال (يتلى) و (كفى) و ﴿ يغشهم) ﴾ حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق

واختلف في ( ) ونقول ذوقوا ( ) الآية 55 فنافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالياء من تحت وافقهم الأعمش والباقون بالنون للعظمة وفتح ياء الإضافة من ( ) يا عبادي الذين آمنوا (نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر (وفتحها) من ( ) أرضي واسعة ( ) ابن عامر فقط وأثبت الياء في (فاعبدون) في الحالين يعقوب

(135/593)

واختلف في (ترجعون) الآية 57 فأبو بكر بالغيب والباقون بالخطاب وقرأ يعقوب بالبناء للفاعل وعن المطوعي بالغيب مبنيا للفاعل ويأتي حرف الروم ثم إليه يرجعون في محله إن شاء الله تعالى

واختلف في (لنبوئنهم) الآية 58 فحمزة والكسائي وخلف بمثلثة ساكنة بعد النون الأولى وياء مفتوحة بعد الواو المخففة يقال ثوى أقام وأثويته وأنزلته موضع الإقامة قال الزمخشري ثوى أقام فتعديه الهمزة إلى واحد فنصب غرفا لتضمنه معنى أنزلته أو على حذف في أو شبه الظرف المكاني المختص بالمبهم فوصل إليه الفعل فيكون مفعولا فيه وافقهم الأعمش والباقون بموحدة مفتوحة بعد النون وتشديد الواو وهمزة مفتوحة بعدها وهو إما بمعنى الأول أو بمعنى لنعطينهم وكل يتعدى لاثنين والثاني غرفا ومن ثم حكم بزيادة لام بوأنا لإبراهيم وأبدل همز لنبوئنهم ياء مفتوحة أبو جعفر كوقف حمزة عليه ومر ذلك بالهمز المفرد كالنمل وقرأ كائن بوزن ماء ابن كثير وكذا أبو جعفر إلا أنه سهل همزتها مع المد والقصر وعن ابن محيصن كان بهمزة مكسورة بلا ألف وأمال فأنى حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق والدوري عن أبي عمرو

وأمال) فأحيا به الأرض (الكسائي فقط وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في (وليتمتعوا) الآية 66 فقالون وابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بسكون اللام على أنها للأمر لا لام كي إذ لا تسكن لضعفها والباقون بكسرها إما للأمر أو لام كي كما جاز في ليكفروا والأصل في كل الكسر

وأمال (مثوى) وقفا حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وضم باء

(سبلنا) نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف ويعقوب

(136/593)

المرسوم رسموا النشأة هنا والنجم والواقعة بألف بعد الشين واتفقوا على الياء في أئنكم لتأتون الرجال وثمودا بالألف في الإمام كالبقية لولا أنزل عليه آيت بغير ألف واتفقوا على كتابتها بالتاء وأجمعوا على إثبات الياء في يا عبادي الذي آمنوا كحرف الزمر يا عبادي الذين أسرفوا بخلاف حرف الزمر كما يأتي إن شاء الله تعالى ياءات الإضافة ( ) ربي إنه ( ) يا عبادي الذين (أرضي الذين) أرضي واسعة (الآية 26 الآية 56 الآية 56 الآية 56 فيها زائدة واحدة (فاعبدون) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ 439 . 442 ﴾

(137/593)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة العنكبوت "

" ألم أحسب " سكت أبو جعفر على حروف الهجاء ، ونقل ورش حركة الهمزة إلى الميم

وحينئذ يجوز له في الميم المد نظرا للأصل والقصر اعتدادا بالنقل العارض وإذا وقف خلف عن حمزة على أحسب كان له النقل كورش مع المد والقصر أيضا ، وله التحقيق بالسكت وعدمه ، ولخلاد النقل بوجهيه والتحقيق بلا سكت .

" وهو ؛ لنكفرن ، بوالديه " فيهم خير ، سيروا ، اقتلوه ، حرقوه ، جلي .

" ترجعون " قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم وغيره بضم التاء وفتح الجيم .

" أو لم يروا " قرأ شعبة والأخوان وخلف بتاء الخطاب وغيرهم بياء الغيبة .

" يبدئ وينشئ " فيه لهشام وحمزة وقفا ما في " يستهزئ" في البقرة .

" النشأة " قرأ المكي والبصري بفتح الشين وألف بعدها والباقون بإسكان الشين وحذف الألف ولحمزة في الوقف عليه نقل حركة الهمزة إلى الشين وحذف الهمزة فيصير النطق بشين مفتوحة وبعدها هاء التأنيث . وحكى صاحب النشر وجها آخر وهو إبدال الهمزة ألفا للرسم وقال: إنه مسموع قوي فيوقف عليه كما يوقف على الصلاة .

" يئسوا " وقف عليه حمزة بالتسهيل بين بين فحسب .

" مودة بينكم " قرأ المكي والبصري ورويس والكسائي برفع تاء مودة من غير تنوين وجر نون بينكم وقرأ حفص وحمزة وروح بنصب مودة من غير تنوين وجر بينكم والباقون بنصب مودة وتنوينه ونصب بينكم .

" ناصرين " آخر الربع .

الممال

الناس معا لدوري البصري ، جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، خطاياكم وخطاياهم بإمالة الألف التي بعد الياء للكسائي وتقليلها لورش بخلف عنه ، فأنجاه ومأواكم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . النار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . الدنيا بالأمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " اتخذتم ، لغير المكي وحفص ورويس .

" الكبير " أعلم بما ، قال لقومه ، يعذب من ، ويرحم من .

" مهاجر " عليه ، البيوت ، كله جلي .

(138/593)

" ربي إنه " فتح الياء المدنيان والبصري واسكنها غيرهم .

" النبوة " قرأ نافع بالهمزة وغيره بتركه .

" إنكم لتأتون أئنكم " قرأ المدنيان والمكي والشامي وحفص ويعقوب بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني والباقون بالاستفهام فيها فلا خلاف بينهم في الاستفهام في الثاني وكل

على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال ولا تنس أن هشاما ليس له هنا إلا الإدخال .

" رسلنا معا " أسكن السين أبو عمرو وضمها غيره .

" إبراهيم بالبشرى " قرأ هشام بفتح الهاء وألف بعدها وغيره بكسر الهاء وياء بعدها .

" لننجينه " قرأ الأخوان ويعقوب وخلف بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم .

" سيئ " قرأ المدنيان والشامي والكسائي ورويس بالإشمام والباقون بالكسرة الخالصة ووقف عليه هشام وحمزة بالنقل والإدغام لأصالة الياء .

" منجوك " قرأ المكي وشعبة والأخوان ويعقوب وخلف بالتخفيف وغيرهم بالتشديد .

" منزلون " قرأ الشامي بفتح النون وتشديد الزاي وغيره بإسكان النون وتخفيف الزاي .

" وثمود " قرأ حفص ويعقوب وحمزة بترك التنوين وغيرهم بالتنوين .

" يدعون " قرأ عاصم والبصريان بالياء التحتية وغيرهم بالتاء الفوقية .

" تصنعون " آخر الربع .

الممال

الدنيا وموسى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، بالبشرى بالإمالة للبصري والأصحاب والتقليل لورش جاءت معا وجاءهم لابن ذكوان وحمزة وحلف ، وضاق لحمزة وجده ، دارهم بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش للناس لدوري

البصري ، تنهى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " ولقد تركنا وقد تبين لجميع القراء ، ولقد جاءهم للبصري وهشام والأخوين وخلف .

" الكبير " فآمن له ، إنه هو ، قال لقومه ، سبقكم ، قال رب ، أعلم بما ، امرأتك كانت ، تبين لكم ، وزين لهم ، يعلم ما معا ، الصلاة تنهى .

" ظلموا " يؤمن ، الكافرون ، نذير ، عليهم ، الخاسرون ، من خلق ، ويقدر ، أظلم ، كله جلي .

(139/593)

" آية من ربه " قرأ ابن كثير وشعبة والأخوان وخلف بحذف الألف بعد الياء على الإفراد والباقون باثباتها على الجمع ورسمها بالتاء فمن قرأ بالجمع وقف بالتاء وهم المدنيان والبصريان والشامي وحفص ، وأما من قرأ بالإفراد فكل على أصله فالمكي والكسائي يقفان بالهاء وشعبة وحمزة وخلف يقفون بالتاء .

" أو لم يكفهم " ضم رويس الهاء في الحالين وكسرها غيره كذلك .

" ويقول ذوقوا " قرأ نافع والكوفيون بالياء التحتية والباقون بالنون .

" يا عبادي الذين " قرأ البصريان والخوان وخلف باسكان الياء في الحالين والباقون بفتحها وصلا وإسكانها وقفا .

" أرضي " فتح الشامي الياء وصلا وأسكنها وقفا والباقون بإسكانها مطلقا .

" فاعبدون " أثبت يعقوب الياء في الحالين وحذفها سواه كذلك .

" ترجعون " قرا شعبة بياء الغيبة وغيره بتاء الخطاب ويعقوب بفتح التاء وكسر الجيم وغيره بضم الياء أو التاء وفتح الجيم .

" لنبوئنهم " قرأ الأخوان وخلف بثاء مثلثة ساكنة بعد النون وتخفيف الواو وبعدها ياء تحتية مفتوحة والباقون بباء موحدة مفتوحة في مكان التاء وتشديد الواو وبعدها همزة مفتوحة ، وأبدل أبو جعفر همزة ياء مفتوحة مطلقا .

" وكأين " تقدم في آل عمران ويوسف والحج .

" وهو " لهي الحيوان ، أسكن الهاء لقالون وأبو جعفر والبصري والكسائي وضمها غيرهم .

" وليتمتعوا " أسكن اللام قالون والمكي والأخوان وخلف وكسرها غيرهم .

" سبلنا " أسكن الباء أبو عمرو وضمها غيره .

" المحسنين " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

(140/593)

يتلى وكفى ومسمى لدى الوقف ، ويغشاهم ونجاهم ومثوى لدى الوقف بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه ، الدنيا بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه ، وذكرى وافترى بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش ، فجاءهم وجاءه لابن ذكوان وخلف وحمزة ، بالكافرين وللكافرين بالإمالة للبصري والدوري ورويس والتقليل لورش فأنى بالإمالة للأصحاب والتقليل لدوري البصري وورش بخلف عنه ، فأحيا بالإمالة للكسائي وبالتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " ونحن له ، يعلم ما ، الموت ثم ، لا تحمل رزقها ، والقمر ليقولن ، ويقدر له ، أظلم ممن ، كذب بالحق ، جهنم مثوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 249 . 252 ﴾

(141/593)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة العنكبوت

قوله تعالى ﴿ أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ﴾ يقرأ بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالتاء أنه أراد معنى المواجهة بالخطاب لما أنكروا البعث والنشور فقيل لهم فإنكاركم لابتداء الخلق أولى بذلك فإما أن تنكروهما جميعا أو تقروا بهما جميعا والحجة لمن قرأه بالياء فعلى طريق الغيبة والبلاغ لهم

فأما قوله يبدئ فيقرأ بضم الياء وكسر الدال وبفتح الياء والدال معا فالحجة لمن ضم أنه أخذه من أبدأ ومن فتح أخذه من بدأ وهما لغتان

قوله تعالى ﴿ النشأة ﴾ يقرأ بالمد والقصر والهمز فيهما والقول في ذلك كالقول في رأفة فإسكانها كقصرها وحركتها كمدها وهي في الوجهين مصدر

قوله تعالى ﴿ مودة بينكم ﴾ يقرأ بالإضافة والرفع معا والنصب وبالتنوين والرفع معه والنصب فالحجة لمن رفع مع الإضافة أنه جعل إنما كلمتين منفصلتين إن الناصبة وما بمعنى الذي واتخذتم صلة ما وفي اتخذتم ها محذوفة تعود على الذي واوثانا مفعول به ومودة خبر إن وتلخيصه إن الذي اتخذتموه أوثانا موده بينكم ومثله قول الشاعر

دريني إنما خطئي وصوبي

علي وإنما أهلكت مال

وله في الرفع وجه آخر أن يرفع قوله مودة بالابتداء لأن الكلام قد تم عند قوله أوثانا وقوله في الحياة الدنيا الخبر والحجة لمن نصب أنه جعل المودة مفعول اتخذتم سواء أضاف أو نون وجعل إنما كلمة واحدة أو جعل المودة بدلا من الاوثان ومن نصب بينكم مع التنوين جعله ظرفا ومن خفضه مع الإضافة جعله اسما بمعنى وصلكم وقد ذكر ذلك في الأنعام

قوله تعالى ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ﴾ ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ يقرآن معا بالاستفهام ويقرأ الأول بالإخبار والثاني بالاستفهام وبتحقيق الهمزتين معا وبتحقيق الأولى وتليين الثانية وقد تقدم من القول في تعليله ما يغني عن إعادته

(142/593)

قوله تعالى ﴿ لننجينه وأهله ﴾ ﴿ إنا منجوك وأهلك ﴾ يقرآن بالتشديد والتخفيف وبتشديد الأول وتخفيف الثاني فالحجة في ذلك كله ما قدمناه من أخذ المشدد من نجى وأخذ المخفف من أنجى ومثله قوله ﴿ إنا منزلون ﴾ يقرأ بالتشديد والتخفيف

قوله تعالى ﴿ إن الله يعلم ما يدعون ﴾ يقرأ بالياء والتاء على ما قدمناه من القول في أمثاله

قوله تعالى ﴿ لولا أنزل عليه آية ﴾ يقرأ بالتوحيد والجمع فالحجة لن وحد أنه اجتزأ بالواحد من الجمع لأنه ناب عنه وقام مقامه والحجة لمن جمع أنه أتى باللفظ على حقيقته ودليله قوله بعد ذلك ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾

قوله تعالى ﴿ ويقول ذوقوا ﴾ يقرأ بالنون والياء وهما إخبار عن الله عز وجل فالنون إخباره تعالى عن نفسه والياء إخبار نبيه عليه السلام عنه

قوله تعالى ﴿ يا عباد الذين آمنوا ﴾ ها هنا ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا ﴾ في الزمر يقرآن بإثبات الياء وحذفها فالحجة لمن أثبت أنه أتى بالكلام على أصله لأن أصل كل ياء الإثبات والفتح لالتقاء الساكنين والحجة لمن أسكنها وحذفها لفظا أنه اجتزأ بالكسرة منها وحذفها لأن بناء النداء على الحذف والاختيار لمن حرك الياء بالفتح أن يقف بالياء لأنها ثابتة في السواد فأما قوله ﴿ يا عباد لا خوف عليكم ﴾ فيأتي في موضعه إن شاء الله

قوله تعالى ﴿ إن أرضي واسعة ﴾ أجمع القراء على إسكانها إلا ابن عامر فإنه فتحها على الأصل

قوله تعالى ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾ يقرأ بالتاء والياء على ما قدمناه من القول في أمثاله

قوله تعالى ﴿ لنبوئنهم ﴾ يقرأ بالنون والباء وبالنون والثاء ومعناهما قريب فالحجة لمن قرأ بالنون والباء أنه أراد لننزلنهم من الجنة غرفا ودليله قوله ﴿ والذين تبوؤوا الدار والإيمان من

قبلهم ﴾ والحجة لمن قرأ بالنون والثاء أنه أراد النزول والإقامة ومنه قوله ﴿ وما كنت ثاويا في أهل مدين ﴾

(143/593)

قوله تعالى ﴿ وليتمتعوا ﴾ يقرأ بإسكان اللام وكسرها فالحجة لمن أسكن أنه جعلها لام وعيد في لفظ الأمر كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾

ولمن كسر وجهان أحدهما أن تكون لام الوعيد أجراها على أصلها فكسرها مع الواو والآخر أن تكون لام كي مردودة بالواو على قوله ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ فيكون الفعل بها منصوبا وبالأولى مجزوما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 279 ـ 282 ﴾.

(144/593)

وقال ابن زنجلة :

سورة العنكبوت

أولم تروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة 19 و20

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر أولم تروا بالتاء على الخطاب وحجتهم قوله قبلها وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ثم قال أو لم تروا كيف يبدئ الله الخلق وما بعده يدل أيضا على الخطاب وهو قوله قل سيروا في الأرض فانظروا وأخرى وهي أن الكلام جرى على حكاية مخاطبة إبراهيم قومه في قوله وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه16 ثم جرى الكلام بلفظ خطابه إياهم إلى قوله وما على الرسول إلا البلاغ المبين 18 ثم جرى الخطاب بعد ذلك منه لهم بقيله أولم تروا كيف يبدئ الله الخلق

وقرأ الباقون أولم يروا بالياء وحجتهم في ذلك أن معنى الكلام أولم ير الذين اقتصصنا عليهم قصص سالف الأمم الماضية كيف يبدئ الله الخلق فينشئه على غير مثال

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ثم الله ينشئ النشأة الآخرة بفتح الشين في كل القرآن وقرأ الباقون النشأة بإسكان الشين

وحجة من فتح الشين هي أن النشأة اسم المصدر والعرب جعلوا اسم المصدر في موضع المصدر فيقولون أعطيته عطاء وكلمته كلاما ولو أخرجوا المصدر في صحة لقالوا أعطيته إعطاء وكلمته تكليما وإنشأته إنشاء كما قال سبحانه إنا أنشأناهن إنشاء ومن قرأ بإسكان الشين فإنه جعله مصدرا صدر عن غير لفظ ينشئ فكان تقرير الكلام في النية أن

الله ينشئ يوم القيامة خلقه الأموات فينشؤون النشأة الآخرة وفي التنزيل ما يقوي هذا وهو قوله وأنبتها نباتا حسنا

وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثنا مودة بينكم في الحيوة الدنيا 25

قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر مودة بفتح الهاء من غير تنوين بينكم بكسر النون

وقرأ الأعشى مودة بالرفع والتنوين بينكم بالنصب

وقرأ أبو عمرو والكسائي مودة بالرفع غير منون بينكم بالخفض

(145/593)

فمن رفع فله مذهبان أحدهما أن يجعل إنما كلمتين ويكون معنى ما بمعنى الذي وهو اسم إن و مودة خبر إن ومفعول اتخذتم محذوف المعنى إن الذي اتخذتموه مودة بينكم والثاني أن ترفعها بالابتداء و في الحياة الدنيا خبرها وتجعل ما كافة على هذا الوجه وقال الزجاج ويجوز أن ترفع مود على إضمار

هي كأنه قال تلك مودة بينكم في الحياة الدنيا أي ألفتكم وإجماعكم على الأصنام مودة بينكم في الحياة الدنيا ومن نصب جعل المودة مفعول اتخذتم وجعل ما مع أن كافة ولم يعد إليها ذكرا كما أعاد في الوجه الأول وانتصب مودة على أنه مفعول له أي اتخذتم الأوثان

للمودة بينكم نصب على الظرف والمعنى إنما اتخذتم من دون الله أوثانا آلهة فحذف كما

حذف من قوله إن الذين اتخذوا العجل سينالهم معناه اتخذوا العجل إلها

ومن قرأ مودة بينكم أضاف المودة إلى البين وجعل البين الوصل

لننجينه وأهله إلا امرأته إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا

34 32

قرأ حمزة والكسائي لننجينه وأهله وإنا منجوك بتخفيف الحرفين وقرأ نافع وابن عامر وأبو

عمرو وحفص بتشديد الحرفين وقرأ ابن كثير وأبو بكر لننجينه بالتشديد وإنا منجوك

بالتخفيف فمن خففها جعلهما من أنجى ينجي مثل أقام يقيم وحجته قوله قبل فأنجيناه

وأصحاب السفينة 15 ولئن أنجيتنا ومن شددهما جعلهما من نجى ينجي وحجته

ونجينا الذين آمنوا وقوله نجيناه بسحر وهما لغتان نطق القرآن بهما ومن خفف واحدا

وشدد الآخر جمع بين اللغتين ليعلم أنهما جائزتان والأصل في منجوك منجونك فسقطت

النون للإضافة

قرأ ابن عامر إنا منزلون بالتشديد من نزل ينزل

وقرأ الباقون بالتخفيف من أنزل وقد ذكرت

إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم 42

قرأ أبو عمرو وعاصم إن الله يعلم ما يدعون بالياء لقوله قبلها لو كانوا يعلمون إن الله يعلم ما يدعون

(146/593)

وقرأ الباقون تدعون بالتاء أي قل لهم إن الله يعلم ما تدعون لا يكون إلا على هذا لأن المسلمين لا يخاطبون بذلك

وقالوا لولا أنزل عليه ءايت من ربه 50

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وحفص وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه بالألف وحجتهم ما بعدها وهو قوله إنما الآيات عند الله إنما جاءت بلفظ السؤال وأخرى وهي أنها مكتوبة في المصاحف بالتاء

وقرأ الباقون آية من ربه وحجتهم قوله فليأتنا بآية وقوله وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية

ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون 55

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ونقول ذوقوا بالنون أي نحن نقول وحجتهم أن الكلام أتى عقيب لفظ الجمع في قولهم أولم يكفهم أنا أنزلنا 51 وبعد ذلك ثم إلينا يرجعون و ولنبوئنهم

58 فجعلوا ما بين ذلك بلفظ الجمع ليأتلف الكلام على نظام واحد

وقرأ الباقون ويقول بالياء أي يقول الملك الموكل بعذابهم أو يقول الله جل وعز وحجتهم قوله

قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا 52 وقوله وكفروا بالله وهذان أقرب من لفظ الجمع فكان

رده على لفظ ما قرب منه أولى من رده على الأبعد

يعبادي الذين ءامنوا إن أرضي واسعة 56

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي يا عبادي الذين آمنوا بإسكان الياء وحجتهم في ذلك أن

النداء باب الحذف كما تقول يا رب

ويا قوم فتحذف الياء وإذا وقفوا وقفوا على الياء

وقرأ الباقون يا عبادي بفتح الياء على أصلها لأن أصل كل

ياء الفتح وقد ذكرنا في سورة البقرة

كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون 57

قرأ أبو بكر ثم إلينا يرجعون بالياء وحجته في ذلك أن الذي قبله على لفظ الغيب وهو قوله

كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا يرجعون

وقرأ الباقون بالتاء وانتقلوا من الغيبة إلى الخطاب مثل قوله إياك نعبد بعد قوله الحمد لله رب

العالمين

والذين ءامنوا و عملوا الصلحات لنبؤنهم من الجنة غرفا 58

قرأ حمزة والكسائي لنثوينهم بالثاء من أثويت أي لنقيمنهم يقال ثوى الرجل بالمكان إذا أقام به وأثواه غيره إذا جعله بذلك المكان وحجتهما وما كنت ثاويا أي مقيما

وقرأ الباقون لنبوئنهم بالباء أي لننزلنهم من بوأت تقول العرب بوأت فلانا منزلا أي أنزلته قال تعالى ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق وتقول تبوأ فلان المنزل وقال

الله تعالى والذين تبوءوا الدار والإيمان أي اتخذوها قال الفراء بوأته منزلا و أنويته منزلا

سواء ليكفروا بما ءاتينهم وليتمتعوا فسوف يعلمون 66

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وقالون وليتمتعوا بإسكان اللام جعلوها لام الأمر في معنى الوعيد والتهدد لأن الله لا يأمرهم بالإصرار على المعاصي والكفر وهو كقوله اعملوا ما شئتم على الوعيد

وقرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وابن عامر وليتمتعوا بكسر اللام جعلوها لام كي المعنى لكي يكفروا ولكي يتمتعوا وسئل أبو عمرو عن هذه اللام فقال اقرأ ما قبلها ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا مثلها وقال قوم هي لام الأمر بمعنى ا لوعيد كالأول لكن العرب لها في الأمر لغتان

الكسر على أصل الابتداء والإسكان للتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 549.555 ﴾

(148/593)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة العنكبوت

مكية قال قتادة إلا عشر آيات من أولها إلى قوله تعالى (﴿ وليعلمن المنافقين ﴾) فإنهن نزلن بالمدينة

ولا نظير لها في عددها

وكلمها تسع مئة وثمانون كلمة

وحروفها أربعة آلاف ومئة وخمسة وتسعون حرفا

وهي تسع وستون آية في جميع العدد

اختلافها ثلاث آيات (﴿ الم ﴾) عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ وتقطعون السبيل ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون وأجمعوا على عد (﴿ السبيل ﴾) في

الفرقان والأحزاب وعلى إسقاطها في الزخرف (﴿ مخلصين له الدين ﴾) عدها

البصري والشامي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ أفبالباطل

يؤمنون ﴾) ورؤوس الآي

لا يفتنون

2 الكاذبين

3 ما يحكمون

4 العليم

5 العالمين

6 يعملون

7 تعملون

8 في الصالحين

9 العالمين

10 المنافقين

11 لكاذبون

12 يفترون

13 ظالمون

14 للعالمين

15 تعلمون

16 ترجعون

17 المبين

18 يسير

19 قدير

20 تقلبون

21 نصير

22 أليم

23 يؤمنون

24 ناصرين

25 الحكيم

26 الصالحين

27 العالمين

28 السبيل

*الصادقين

29 المفسدين

30 ظالمين

31 الغابرين

32 الغابرين

33 يفسقون

34 يعقلون

35

مفسدين

36 جاثمين

37 مستبصرين

38 سابقين

39 يظلمون

40 يعلمون

41 الحكيم

42 العالمون

43 للمؤمنين

44 تصنعون

45 مسلمون

46 الكافرين

47 المبطلون

48 الظالمون

49 مبين

50 يؤمنون

51 الخاسرون

52 لا يشعرون

53 بالكافرين

54 تعملون

55 فاعبدون

56 ترجعون

57 العاملين

58 يتوكلون

59 العليم

60 يؤفكون

61 عليم

62 لا يعقلون

63 يعلمون

64 يشركون

65 يعلمون

66 يكفرون

67 للكافرين

68 المحسنين

69 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 203 . 204﴾

(149/593)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أن يتركوا) أن وما عملت فيه تسد مسد المفعولين ، و (أن يقولوا) أي بأن يقولوا ، أو لأن يقولوا ، ويجوز أن يكون بدلا من أن يتركوا ، وإذ قدرت الباء كان حالا ، ويجوز أن تقدر على هذا المعنى .

قوله تعالى (ساء) يجوز أن يعمل عمل بئس ، وقد ذكر في قوله " بئسما اشتروا " ويجوز أن يكون بمعنى قبح فتكون " ما " مصدرية ، أو بمعنى الذى ، أو نكرة موصوفة ، وهى فاعل ساء .

قوله تعالى (من كان يرجو) من شرط ، والجواب (فإن أجل الله) والتقدير : لآتيه .

قوله تعالى (حسنا) منصوب بوصينا ، وقيل هو محمول على المعنى ، والتقدير : ألزمناه حسنا ، وقيل التقدير أيضا : ذا حسن كقوله " وقولوا للناس حسنا " وقيل معنى وصينا قلنا له أحسن حسنا ، فيكون واقعا موقع المصدر ، أو مصدرا محذوف الزوائد .

قوله تعالى (والذين آمنوا) مبتدأ و (لندخلنهم) الخبر ، ويجوز أن يكون " الذين " في موضع نصب على تقدير لندخلن الذين آمنوا .

قوله تعالى (ولنحمل خطاياكم) هذه لام الأمر ، وكأنهم أمروا أنفسهم ، وإنما عدل إلى ذلك عن الخبر لما فيه من المبالغة في الالتزام كما في صيغة التعجب (من شئ) " من " زائدة ، وهو

مفعول اسم الفاعل ، ومن خطاياهم حال من شئ ، والتقدير : بحاملين شيئا من خطاياهم ، و (ألف سنة) ظرف ، والضمير في (جعلناها) للعقوبة أو الطوفة أو نحو ذلك (وإبراهيم) معطوف على المفعول في أنجيناه ، أو على

تقدير : واذكر ، أو على أرسلنا .

قوله تعالى (النشأة الآخرة) بالقصر والمد لغتان .

قوله تعالى (ولا في السماء) التقدير : ولا من السماء فيها ، فمن معطوف على أنتم ، وهى نكرة موصوفة ، وقيل ليس فيه محذوف لأن أنتم خطاب للجميع ، فيدخل فيهم الملائكة ، ثم فصل بعد الإبهام .

(150/593)

قوله تعالى (إنما اتخذتم) في " ما " ثلاثة أوجه أحدها هي بمعنى الذى ، والعائد محذوف : أي اتخذتموه ، و (أوثانا) مفعول ثان أو حال ، و (مودة) الخبر على قراءة من رفع ، والتقدير : ذوو مودة .

والثانى هي كافة ، وأوثانا مفعول ، ومودة بالنصب مفعول له ، وبالرفع على إضمار مبتدأ ، وتكون الجملة نعتا لأوثان ويجوز أن يكون النصب على الصفة أيضا : أي ذوى مودة .

والوجه الثالث أن تكون " ما " مصدرية ، ومودة بالرفع الخبر ولا حذف في هذا الوجه في الخبر بل في اسم " إن " والتقدير : إن سبب اتخاذكم مودة ، ويقرأ " مودة " بالإضافة في الرفع والنصب و (بينكم) بالجر وبتنوين مودة في الوجهين جميعا ، ونصب بين وفيما يتعلق به (في الحياة الدنيا) سبع أوجه: الأول أن تتعلق باتخذتم إذا جعلت " ما " كافة لا على الوجهين الآخرين ، لئلا يؤدى إلى الفصل بين الموصول وما في الصلة بالخبر .

والثانى أن يتعلق بنفس مودة إذا لم تجعل بين صفة لها لأن المصدر إذا وصف لا يعمل

والثالث أن تعلقه بنفس بينكم لأن معناه اجتماعكم أو وصلكم .

والرابع أن تجعله صفة ثانية لمودة إذا نونتها وجعلت بينكم صفة .

والخامس أن تعلقها بمودة وتجعل بينكم ظرف مكان ، فيعمل مودة فيهما .

والسادس أن تجعله حالا من الضمير في بينكم إذا جعلته وصفا لمودة .

والسابع أو تجعله حالا من بينكم لتعرفه بالإضافة .

وأجاز قوم منهم أن تتعلق في بمودة ، وإن كان بينكم صفة ، لأن الظروف يتسع فيها بخلاف المفعول به .

قوله تعالى (ولوطا) معطوف على نوح وإبراهيم .

وقد ذكر قوله تعالى (إنا منجوك وأهلك) الكاف في موضع جر عند سيبويه ، فعلى هذا ينتصب أهلك بفعل محذوف: أي وننجى أهلك ، وفى قول الأخفش هي في موضع نصب أو جر ، وموضعه نصب فتعطف على الموضع ، لأن الإضافة في تقدير الانفصال كما لو كان المضاف إليه ظاهرا ، وسيبويه يفرق بين المضمر والمظهر فيقول لا يجوز إثبات النون في التثنية والجمع مع المضمر كما في التنوين ، ويجوز ذلك كله مع المظهر ، والضمير في (منها) للعقوبة ، و (شعيبا) معطوف على نوح ، والفاء في (فقال) عاطفة على أرسلنا المقدرة (وعادا وثمود) أي واذكر ، أو وأهلكنا (وقارون) وما بعده كذلك ، ويجوز أن يكون معطوفا على الهاء في صدهم ، و (كلا) منصوب ب (أخذنا) و " من " في (من أرسلنا) وما بعدها نكرة موصوفة وبعض الرواجع محذوف ، والنون في عنكبوت أصل ، والتاء زائدة لقولهم في جمعه عناكب .

قوله تعالى (ما يدعون) هي استفهام في موضع نصب بيدعون لا بيعلم ، و (من شئ) تبيين ، وقيل " ما " بمعنى الذى ، ويجوز أن تكون مصدرية ، وشئ مصدر ويجوز أن تكون نافية ، ومن زائدة ، وشيئا مفعول يدعون ، و (نضربها) حال من الأمثال ، ويجوز أن يكون خبرا ، والأمثال نعت .

قوله تعالى (إلا الذين ظلموا) هو استثناء من الجنس ، وفي المعنى وجهان: أحدهما إلا الذين

ظلموا فلا تجادلوهم بالحسنى بل بالغلظة لأنهم يغلظون لكم ، فيكون مستثنى من التى هي أحسن لامن الجدال .

والثانى لا تجادلوهم البتة ، بل حكموا فيهم السيف لفرط عنادهم .

قوله تعالى (أنا أنزلنا) هو فاعل يكفهم .

قوله تعالى (والذين آمنوا) في موضع رفع بالابتداء ، و (لنتبوأنهم) الخبر ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بفعل دل عليه الفعل المذكور ، و (غرفا) مفعول ثان ، وقد ذكر نظيره في يونس والحج (والذين صبروا) خبر ابتداء محذوف .

قوله تعالى (وكأين من دابة) يجوز أن يكون في موضع رفع بالابتداء ، ومن دابة تبيين ، و (لا تحمل) نعت الدابة ، و (الله يرزقها) جملة خبر كائن ،

(152/593)

وأنث الضمير على المعنى ، ويجوز أن يكون في موضع نصب بفعل دل عليه يرزقها : ويقدر بعد كأين .

قوله تعالى (وإن الدار الآخرة) أي إن حياة الدار لأنه أخبر عنها بالحيوان ، وهى الحياة ، ولام الحيوان ياء ، والأصل حييان ، فقلبت الياء واوا لئلا يلتبس بالتثنية ولم تقلب ألفا

لتحركها وانفتاح ما قبلها لئلا تحذف إحدى الألفين.

قوله تعالى (وليتمتعوا) من كسر اللام جعلها بمعنى كي، ومن سكنها جاز أن يكون كذلك، وأن يكون أمرا، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 181. 184 ﴾

(153/593)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة العنكبوت

[سورة العنكبوت (29): الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2)

"الم": تقدم إعرابها في فواتح السور. "أَحَسِبَ": الهمزة حرف استفهام وتوبيخ "حَسِبَ" ماض مبني على الفتح "النَّاسُ" فاعل "أَنْ" حرف ناصب "يُتْرَكُوا" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو نائب فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل سد مسد مفعولي حسب "أَنْ" حرف ناصب "يَقُولُوا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه

حذف النون ، والواو فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل منصوب بنزع الخافض والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال والتقدير بقولهم . "آمَنَّا" ماض وفاعله والجملة مقول القول . "وَ" الواو حالية "هُمْ" مبتدأ "لا" نافية "يُفْتَنُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية حال

[سورة العنكبوت (29) : آية 3]

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (3)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر ، واللام واقعة في جواب القسم "قد" حرف تحقيق "فَتَنَّا" ماض وفاعله "الَّذِينَ" مفعول به "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول والجملة جواب القسم لا محل لها .

"فَلَيَعْلَمَنَّ" الفاء حرف عطف واللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "الَّذِينَ" مفعول به ، والجملة معطوفة على ما قبلها . "صَدَقُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين لا محل لها "وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ" معطوفة على ما قبلها وإعرابها واضح .

[سورة العنكبوت (29) : آية 4]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (4)

"أَمْ" حرف عطف "حَسِبَ" ماض مبني على الفتح "الَّذِينَ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "يَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله "السَّيِّئاتِ" مفعول به والجملة صلة الموصول لا محل لها .

"أَنْ" حرف ناصب "يَسْبِقُونا" مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون و . . نا . مفعول به والواو فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل سد مسد مفعولي حسب "ساءَ" ماض جامد "ما" مصدرية "يَحْكُمُونَ" مضارع وفاعله ، والمصدر المؤول من ما والفعل في محل رفع فاعل . وجملة ساء ما يحكمون مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 5]

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5)

"مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "كانَ" ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط واسمه مستتر "يَرْجُوا" مضارع فاعله مستتر "لِقاءَ" مفعول به "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة خبر كان "فَإِنَّ" الفاء رابطة وإن حرف مشبه بالفعل "أَجَلَ" اسمه "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه واللام المزحلقة "آت" خبر إن والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من . "وَ" الواو حرف استئناف "هُوَ" مبتدأ "السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" خبران والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 6]

وَمَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (6)

"وَمَنْ" الواو حرف استئناف "مَنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "جاهَدَ" ماض في محل جزم والفاعل مستتر "فَإِنَّما" الفاء واقعة في جواب الشرط "إنما" كافة ومكفوفة "يُجاهِدُ" مضارع فاعله مستتر "لِنَفْسِهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جزم جواب الشرط وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "لَغَنِيٌّ" اللام المزحلقة "غني" خبر إن "عَنِ الْعالَمِينَ" متعلقان بغني والجملة الاسمية تعليل .

(155/593)

[سورة العنكبوت (29) : آية 7]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (7)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "لَنُكَفِّرَنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف نكفرن مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والفاعل مستتر "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل "سَيِّئاتِهِمْ" مفعول به والجملة جواب القسم المحذوف والقسم

المحذوف وجوابه خبر الذين ، "وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ" الواو حرف عطف اللام واقعة في جواب قسم محذوف نجزينهم مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به أول والفاعل مستتر "أَحْسَنَ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "الَّذِي" مضاف إليه "كانُوا" ماض ناقص واسمه والجملة صلة الذين "يَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا .

[سورة العنكبوت (29) : آية 8]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)

(156/593)

"وَوَصَّيْنَا" ماض وفاعله "الْإِنْسانَ" مفعوله والجملة مستأنفة لا محل لها "بِوالِدَيْهِ" متعلقان بالفعل "حُسْناً" صفة لمفعول مطلق محذوف "وَ" الواو حرف عطف "إِنْ" شرطية جازمة "جاهَداكَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية لا محل لها "لِتُشْرِكَ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما "بِي" متعلقان بالفعل "ما" مفعول به "لَيْسَ" ماض ناقص "لَكَ"

متعلقان بالخبر المحذوف "بِهِ" متعلقان بالفعل "عِلْمٌ" اسم ليس المؤخر والجملة صلة ما لا محل لها "فَلا تُطِعْهُما" الفاء رابطة ومضارع مجزوم بلا والهاء مفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "إِلَيَّ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَرْجِعُكُمْ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "فَأُنَبِّئُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِما" متعلقان بالفعل "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم . . صلة ما .

[سورة العنكبوت (29) : آية 9]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

"وَالَّذِينَ آمَنُوا" مبتدأ وماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا .

"الصَّالِحاتِ" مفعول به "لَنُدْخِلَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر "فِي الصَّالِحِينَ" متعلقان بالفعل والجملة جواب القسم والقسم وجوابه خبر الذين وجملة الذين . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 10]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (10)

"وَمِنَ النَّاسِ" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مِنَ" اسم موصول مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "يَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "آمَنَّا" ماض وفاعله "بِاللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول "فَإِذا" الفاء حرف عطف "إذا" ظرفية شرطية غير جازمة ، "أُوذِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "فِي اللَّهِ" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر "فِتْنَةَ النَّاسِ" مفعول به مضاف إلى الناس والناس مضاف إليه "كَعَذابِ" متعلقان بالفعل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَلَئِنْ" الواو حرف استئناف واللام موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم "جاءَ نَصْرٌ" ماض وفاعله "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بنصر والجملة ابتدائية لا محل لها "لَيَقُولُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لكراهة توالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعله والنون للتوكيد والجملة جواب القسم لا محل لها "إِنَّا كُنَّا" إن واسمها وكان واسمها "مَعَكُمْ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر كان والجملة الفعلية خبر إن وجملة إنا . . مقول القول . "أَوَلَيْسَ" الهمزة للاستفهام والواو استئنافية وماض ناقص "اللَّهِ" لفظ الجلالة اسمه "بِأَعْلَمَ" الباء حرف جر زائد "أعلم" مجرور لفظا بالباء منصوب محلا خبر ليس والجملة مستأنفة "بِما" متعلقان بأعلم "فِي

صُدُورِ" متعلقان بمحذوف صلة ما "الْعالَمِينَ" مضاف إليه .

[سورة العنكبوت (29) : آية 11]

(158/593)

وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (11)

"وَلَيَعْلَمَنَّ" الواو حرف استئناف واللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل "الَّذِينَ" مفعول به والجملة جواب القسم المقدر لا محل لها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ" معطوفة على ما قبلها والإعراب واضح .

[سورة العنكبوت (29) : آية 12]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (12)

"وَقالَ الَّذِينَ" الواو حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة لا محل لها "لِلَّذِينَ" متعلقان بالفعل قال "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة .

"اتَّبِعُوا سَبِيلَنا" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "وَلْنَحْمِلْ" الواو حرف عطف

ومضارع مجزوم بلام الأمر والفاعل مستتر "خَطايا كُمْ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "وَ" الواو حرف استئناف "ما" نافية تعمل عمل ليس "هُمْ" "بِحامِلِينَ" اسمها والباء حرف جر زائد "حاملين" مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "مِنْ خَطايا هُمْ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ شَيْءٍ" مجرور لفظا بمن منصوب محلا مفعول حاملين وجملة ما هم . . مستأنفة لا محل لها "إِنَّهُمْ" إن واسمها "لَكاذِبُونَ" اللام المزحلقة وخبر إن والجملة الاسمية مؤكدة لما قبلها لا محل لها مثلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 13]

وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (13)

"وَلَيَحْمِلُنَّ" الواو حرف استئناف واللام واقعة في جواب القسم ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل "أَثْقالَهُمْ" مفعول به "أَثْقالاً" معطوف على أثقالهم "مَعَ أَثْقالِهِمْ" مع ظرف مكان مضاف إلى أثقالهم . "وَلَيُسْئَلُنَّ" معطوف على ليحملن "يَوْمَ الْقِيامَةِ" ظرف زمان مضاف إلى القيامة "عَمَّا" متعلقان بالفعل قبلهما "كانُوا" كان واسمها "يَفْتَرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كانوا وجملة

كانوا . صلة ما لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 14]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَهُمْ ظالِمُونَ (14)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "نُوحاً" مفعوله والجملة جواب القسم لا محل لها "إِلى قَوْمِهِ" متعلقان بالفعل "فَلَبِثَ" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "فِيهِمْ" متعلقان بالفعل "أَلْفَ سَنَةٍ" ظرف زمان مضاف إلى سنة . والجملة معطوفة على ما قبلها "إِلَّا" حرف استثناء "خَمْسِينَ" مستثنى بإلا منصوب "عاماً" تمييز "فَأَخَذَهُمُ" ماض ومفعوله "الطُّوفانُ" فاعل مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَهُمْ ظالِمُونَ" مبتدأ وخبره والجملة حال .

[سورة العنكبوت (29) : آية 15]

فَأَنْجَيْناهُ وَأَصْحابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (15)

"فَأَنْجَيْناهُ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها .

"وَ" الواو حرف عطف "أَصْحابَ" معطوف على المفعول به "السَّفِينَةِ" مضاف إليه

"وَجَعَلْناها" الواو حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله الأول "آيَةً" مفعول به ثان

"لِلْعالَمِينَ" متعلقان بمحذوف صفة آية . والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 16]

(160/593)

وَإِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16)

"وَإِبْراهِيمَ" الواو حرف عطف وإبراهيم معطوف على نوحا "إِذْ" ظرف زمان بدل من إبراهيم "قالَ" ماض فاعله مستتر "لِقَوْمِهِ" متعلقان بالفعل ، والجملة في محل جر بالإضافة . "اعْبُدُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ولفظ الجلالة مفعول به والجملة مقول القول "وَاتَّقُوهُ" معطوف على اعبدوا "ذلِكُمْ خَيْرٌ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "لَكُمْ" متعلقان بخير "إِنْ" حرف شرط جازم "كُنْتُمْ" كان واسمها "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر كنتم وجملة كنتم . . ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف

[سورة العنكبوت (29) : آية 17]

إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17)

"إِنَّما" كافة ومكفوفة "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِ اللَّهِ" متعلقان

(161/593)

بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "أَوْثاناً" مفعول به "وَتَخْلُقُونَ" معطوف على تعبدون "إِفْكاً" مفعول به ، "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِ اللَّهِ" متعلقان بحال محذوفة ولفظ الجلالة مضاف إليه "لا يَمْلِكُونَ" نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "رِزْقاً" مفعول به والجملة خبر إن . "فَابْتَغُوا" الفاء الفصيحة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها "عِنْدَ اللَّهِ" ظرف مكان مضاف إلى لفظ الجلالة "الرِّزْقَ" مفعول به "وَاعْبُدُوهُ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَاشْكُرُوا" أمر وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "لَهُ" متعلقان بالفعل "إِلَيْهِ" متعلقان بالفعل بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل .

[سورة العنكبوت (29) : آية 18]

وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (18)

"وَإِنْ" الواو حرف عطف وإن حرف شرط جازم "تُكَذِّبُوا" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والواو فاعله والجملة ابتدائية لا محل لها "فَقَدْ" الفاء رابطة "قد" حرف تحقيق "كَذَّبَ أُمَمٌ" ماض وفاعله "مِنْ قَبْلِكُمْ" صفة أمم والجملة جواب الشرط لا محل لها . "وَما" الواو حرف استئناف "ما" نافية "عَلَى الرَّسُولِ" خبر مقدم "إِلَّا" حرف حصر "الْبَلاغُ" مبتدأ مؤخر "الْمُبِينُ" صفة والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 19]

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19)

(162/593)

"أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف استئناف "يَرَوْا" مضارع مجزوم بلم والواو فاعله ، والجملة مستأنفة لا محل لها "كَيْفَ" اسم استفهام حال "يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة سدت مسد مفعول يروا "ثُمَّ يُعِيدُهُ" حرف عطف ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّ ذَلِكَ" إن واسمها "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالخبر "يَسِيرٌ" والجملة الاسمية تعليل .

[سورة العنكبوت (29) : آية 20]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "سِيرُوا" أمر وفاعله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة مقول القول . "فَانْظُرُوا" معطوف على سيروا "كَيْفَ" اسم استفهام حال "بَدَأَ الْخَلْقَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مفعول انظروا "ثُمَّ اللَّهُ" حرف عطف ولفظ الجلالة مبتدأ "يُنْشِئُ" مضارع فاعله مستتر "النَّشْأَةَ" مفعول مطلق "الْآخِرَةَ" صفة والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها . "إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "عَلى كُلِّ" متعلقان بالخبر "قَدِيرٌ" "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة تعليل .

[سورة العنكبوت (29) : آية 21]

يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21)

"يُعَذِّبُ" مضارع فاعله مستتر "مَنْ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة من "وَيَرْحَمُ" معطوف على يعذب "مَنْ" مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة

"وَإِلَيْهِ" متعلقان بما بعدهما "تُقْلَبُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 22]

وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (22)

"وَما" الواو حرف استئناف "ما" نافية تعمل عمل ليس "أَنْتُمْ" اسمها "بِمُعْجِزِينَ" مجرور بالباء الزائدة لفظا منصوب محلا خبر ما "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف حال. والجملة مستأنفة لا محل لها. "وَلا" الواو حرف عطف "لا" نافية "فِي السَّماءِ" معطوف على في الأرض. "وَ" الواو حرف عطف "ما" نافية "لَكُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مِنْ دُونِ اللَّهِ" متعلقان بما تعلق به الجار والمجرور قبلهما ولفظ الجلالة مضاف إليه "مِنْ" حرف جر زائد "وَلِيٍّ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها "وَ" الواو حرف عطف "لا" زائدة "نَصِيرٍ" معطوف على ولي.

[سورة العنكبوت (29) : آية 23]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (23)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِآياتِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "وَلِقائِهِ" معطوف على آيات "أُولئِكَ" مبتدأ "يَئِسُوا" ماض وفاعله والجملة الفعلية خبر أولئك والجملة الاسمية أولئك . . خبر الذين

وجملة الذين . . مستأنفة لا محل لها "مِنْ رَحْمَتِي" متعلقان بالفعل . "وَأُولَئِكَ" مبتدأ "لَهُمْ عَذابٌ" "لَهُمْ" خبر مقدم و"عَذابٌ" مبتدأ مؤخر "أَلِيمٌ" صفة والجملة خبر أولئك وجملة أولئك لهم . معطوف على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 24]

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24)

(164/593)

"فَما" الفاء حرف عطف وما نافية "كانَ" ماض ناقص "جَوابَ قَوْمِهِ" خبر كان المقدم ومضاف إلى قومه "إِلَّا" حرف حصر "أَنْ" حرف مصدري ونصب "قالُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول من أن والفعل اسم كان المؤخر وجملة فما كان . . معطوفة على ما قبلها . "اقْتُلُوهُ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "أَوْ" حرف عطف "حَرِّقُوهُ" معطوف على اقتلوه "فَأَنْجاهُ" الفاء حرف عطف "أنجاه الله" ماض ومفعوله ولفظ الجلالة فاعل . والجملة معطوفة على ما قبلها "مِنَ النَّارِ" متعلقان بالفعل "أَنْ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم "لَآياتٍ" اللام المزحلقة واسم إن المؤخر والجملة

مستأنفة لا محل لها "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" صفة آيات ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 25]

وَقالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (25)

"وَقالَ" الواو حرف عطف وماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "اتَّخَذْتُمْ" ماض وفاعله "مِنْ دُونِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "أَوْثاناً" مفعول به والجملة مقول القول "مَوَدَّةَ" مفعول لأجله "بَيْنِكُمْ" مضاف إليه "فِي الْحَياةِ" متعلقان باتخذتم "الدُّنْيا" صفة الحياة "ثُمَّ" حرف عطف "يَوْمَ الْقِيامَةِ" ظرف زمان مضاف إلى القيامة "يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ" مضارع

(165/593)

و فاعله "بِبَعْضٍ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً" مضارع وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "وَمَأْواكُمُ النَّارُ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَ" الواو حرف عطف "ما" نافية "لَكُمْ" خبر مقدم "مِنْ"

حرف جر زائد "ناصِرِينَ" مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 26]

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26)

"فَآمَنَ" ماض مبني على الفتح "لَهُ" متعلقان بالفعل "لُوطٌ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَقالَ" معطوف على آمن "إِنِّي مُهاجِرٌ" إن واسمها وخبرها والجملة الاسمية مقول القول "إِلى رَبِّي" متعلقان بمهاجر "إِنَّهُ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" خبران والجملة تعليلية لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 27]

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

"وَوَهَبْنا" ماض وفاعله "لَهُ" متعلقان بالفعل "إِسْحاقَ" مفعول به "وَيَعْقُوبَ" معطوف على إسحاق والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَجَعَلْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي ذُرِّيَّتِهِ" متعلقان بالفعل "النُّبُوَّةَ" مفعول به "وَالْكِتابَ" معطوف على النبوة .

"وَآتَيْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "أَجْرَهُ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي الدُّنْيا" حال "وَإِنَّهُ" الواو حالية وإن واسمها "فِي الْآخِرَةِ" متعلقان بالخبر المحذوف

"لَمِنَ" اللام المزحلقة "من الصالحين" متعلقان بمحذوف خبر إن والجملة الاسمية حال .

[سورة العنكبوت (29) : آية 28]

(166/593)

وَلُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (28)

"وَلُوطاً" معطوف على إبراهيم "إِذْ" ظرف زمان بدل من لوطا "قالَ" ماض فاعله مستتر "لِقَوْمِهِ" متعلقان بالفعل ، والجملة في محل جر بالإضافة . "إِنَّكُمْ" إن واسمها "لَتَأْتُونَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع والواو فاعله "الْفاحِشَةَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "ما" نافية "سَبَقَكُمْ" ماض ومفعوله "بِها" متعلقان بالفعل "مِنْ أَحَدٍ" مجرور لفظا بمن الزائدة مرفوع محلا فاعل سبقكم والجملة حال "مِنَ الْعالَمِينَ" متعلقان بمحذوف صفة أحد .

[سورة العنكبوت (29) : آية 29]

أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29)

"أَإِنَّكُمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري وإن واسمها "لَتَأْتُونَ" اللام المزحلقة ومضارع مرفوع

والواو فاعله والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مقول القول "الرِّجالَ" مفعول به "وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ" معطوفة على ما قبلها "وَتَأْتُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "فِي نادِيكُمُ" متعلقان بالفعل "الْمُنْكَرَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها . "فَما" الفاء حرف عطف "ما" نافية "كانَ جَوابَ" كان وخبرها

(167/593)

المقدم "قَوْمِهِ" مضاف إليه "إِلَّا" حرف حصر "أَنْ" حرف مصدري "قالُوا" ماض وفاعله والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع اسم كان المؤخر وجملة فما كان . . معطوفة على ما قبلها . "ائْتِنا" أمر مبني على حذف حرف العلة ونا مفعول به والفاعل مستتر والجملة مقول القول "بِعَذابِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "أَنْ" شرطية جازمة "كُنْتَ" كان واسمها "مِنَ الصَّادِقِينَ" خبرها والجملة ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف .

[سورة العنكبوت (29) : آية 30]

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "رَبِّ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم

المحذوفة للتخفيف "انْصُرْنِي" فعل دعاء فاعله مستتر والنون للوقاية والياء مفعول به "عَلَى الْقَوْمِ" متعلقان بالفعل "الْمُفْسِدِينَ" صفة قوم والجملتان الندائية والفعلية مقول القول .

[سورة العنكبوت (29) : آية 31]

وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (31)

"وَلَمَّا" الواو حرف عطف "لَمَّا" ظرفية شرطية "جاءَتْ رُسُلُنا" ماض وفاعله "إِبْراهِيمَ" مفعول به "بِالْبُشْرى" متعلقان بالفعل والجملة في محل جر بالإضافة "قالُوا" ماض وفاعله والجملة جواب الشرط "إِنَّا مُهْلِكُوا" إن واسمها وخبرها "أَهْلِ" مضاف إليه "هذِهِ" اسم الإشارة مضاف إليه أيضا "الْقَرْيَةِ" بدل من هذه والجملة الاسمية مقول القول "إِنَّ أَهْلَها" إن واسمها "كانُوا ظالِمِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية تعليل .

[سورة العنكبوت (29) : آية 32]

قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (32)

"قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها . "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِيها" خبر مقدم "لُوطاً" اسم إن المؤخر والجملة مقول القول . "قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "نَحْنُ أَعْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول "بِمَنْ" متعلقان بأعلم "فِيها" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "لَنُنَجِّيَنَّهُ" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به والفاعل مستتر والجملة جواب القسم لا محل لها "وَأَهْلَهُ" مفعول معه "إِلَّا" حرف استثناء "امْرَأَتَهُ" مستثنى منصوب "كانَتْ" ماض ناقص اسمه مستتر "مِنَ الْغابِرِينَ" خبر كانت والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 33]

وَلَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (33)

"وَلَمَّا" الواو حرف استئناف "لَمَّا" ظرفية شرطية غير جازمة "أَنْ جاءَتْ" أن زائدة وماض "رُسُلُنا" فاعل "لُوطاً" مفعوله والجملة في محل جر بالإضافة "سِيءَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بِهِمْ"

متعلقان بالفعل والجملة جواب الشرط لا محل لها "وَضاقَ" معطوف على ما قبله "بِهِمْ" متعلقان بالفعل "ذَرْعاً" تمييز "وَقالُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها "لا تَخَفْ" مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر والجملة مقول القول "وَلا تَحْزَنْ"

معطوف على لا تخف "إِنَّا مُنَجُّوكَ" إن واسمها وخبرها والجملة الاسمية تعليل "وَأَهْلَكَ" مفعول به لفعل محذوف "إِلَّا" حرف استثناء "امْرَأَتَكَ" مستثنى منصوب "كانَتْ" ماض ناقص اسمه مستتر "مِنَ الْغابِرِينَ" خبر كانت والجملة مستأنفة.

[سورة العنكبوت (29) : آية 34]

(169/593)

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (34)

"إِنَّا" إن واسمها "مُنْزِلُونَ" خبرها والجملة تعليل "عَلى أَهْلِ" متعلقان بما قبلهما "هذِهِ" اسم الإشارة مضاف إليه "الْقَرْيَةِ" بدل من اسم الإشارة "رِجْزاً" مفعول به لمنزلون "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بمحذوف صفة رجزا "بِما" الباء حرف جر "ما" مصدرية والمصدر المؤول من ما وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بمنزلون "كانُوا" كان واسمها "يَفْسُقُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا.

[سورة العنكبوت (29) : آية 35]

وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35)

"وَلَقَدْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق "تَرَكْنا"

ماضو فاعله "مِنْها" متعلقان بالفعل "آيَةً" مفعول به "بَيِّنَةً" صفة والجملة جواب القسم لا محل لها "لِقَوْمٍ" متعلقان بالفعل "يَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 36]

وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36)

"وَإِلى مَدْيَنَ" الجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره أرسلنا إلى مدين "أَخاهُمْ" مفعول به للفعل المحذوف "شُعَيْباً" بدل "فَقالَ" الفاء حرف عطف "قال" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "يا قَوْمِ" منادى مضاف إلى ياء المتكلم المحذوفة والجملة الندائية مقول القول "اعْبُدُوا اللَّهَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول أيضا "وَارْجُوا الْيَوْمَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها "الْآخِرَ" صفة "وَلا تَعْثَوْا" مضارع مجزوم بلا الناهية والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل "مُفْسِدِينَ" حال.

[سورة العنكبوت (29) : آية 37]

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37)

"فَكَذَّبُوهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على جملة قال . . "فَأَخَذَتْهُمُ" ماض ومفعوله "الرَّجْفَةُ" فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "فَأَصْبَحُوا" ماض ناقص واسمه "فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ" متعلقان بالخبر جاثمين ، والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 38]

وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38)

"وَ" الواو حرف عطف "عاداً" مفعول به لفعل محذوف "وَثَمُودَ" معطوف على عادا والجملة معطوفة على ما قبلها . "وَ" الواو حالية "قَدْ تَبَيَّنَ" قد حرف تحقيق وماض فاعله مستتر "لَكُمْ" متعلقان بالفعل "مِنْ مَساكِنِهِمْ" متعلقان بالفعل أيضا والجملة حال . "وَزَيَّنَ" معطوف على تبين "لَهُمُ" متعلقان بالفعل "الشَّيْطانُ" فاعل "أَعْمالَهُمْ" مفعول به "فَصَدَّهُمْ" الفاء حرف عطف وماض ومفعوله والفاعل مستتر "عَنِ السَّبِيلِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" الواو حرف عطف وكان واسمها وخبرها والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 39]

وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (39)

(171/593)

"وَقارُونَ" معطوف على عادا "وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ" معطوفان على قارون "وَلَقَدْ جاءَهُمْ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم وقد حرف تحقيق وماض ومفعوله "مُوسى" فاعل مؤخر والجملة جواب القسم لا محل لها "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل "فَاسْتَكْبَرُوا" الفاء حرف عطف وماض وفاعله "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَ" الواو حالية "ما" نافية "كانُوا سابِقِينَ" كان واسمها وخبرها والجملة حال.

[سورة العنكبوت (29) : آية 40]

فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

(172/593)

"فَكُلًّا" الفاء حرف استئناف "كلا أخذنا" كلا مفعول به مقدم وماض وفاعله "بِذَنْبِهِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها . "فَمِنْهُمْ" الفاء حرف استئناف "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَنْ" اسم موصول مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "أَرْسَلْنا" ماض وفاعله "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "حاصِباً" مفعول به والجملة صلة .

"وَمِنْهُمْ" الواو حرف عطف ومتعلقان بمحذوف خبر مقدم "مَنْ" مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "أَخَذَتْهُ" ماض ومفعوله "الصَّيْحَةُ" فاعل مؤخر والجملة صلة "وَمِنْهُمْ مَنْ" معطوف على ما قبله "خَسَفْنا" ماض وفاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به والجملة صلة "وَمِنْهُمْ مَنْ" معطوف على ما قبله "أَغْرَقْنا" ماض وفاعله والجملة صلة ، "وَ" الواو حرف استئناف "ما" نافية "كانَ اللَّهُ" كان واسمها "لِيَظْلِمَهُمْ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والهاء مفعول به والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر كان والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها . "وَ" الواو حرف عطف "لكِنْ" حرف استدراك "كانُوا" كان واسمها "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به مقدم "يَظْلِمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كانوا . وجملة كانوا . . معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 41]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41)

(173/593)

"مَثَلُ الَّذِينَ" مبتدأ مضاف إلى اسم الموصول "اتَّخَذُوا" ماض وفاعله "مِنْ دُونِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "أَوْلِياءَ" مفعول به "كَمَثَلِ" خبر المبتدأ مثل والجملة الاسمية مستأنفة "الْعَنْكَبُوتِ" مضاف إليه "اتَّخَذَتْ" ماض فاعله مستتر "بَيْتاً" مفعول به والجملة حال "وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ" إن واسمها المضاف إلى البيوت "لَبَيْتُ" اللام المزحلقة "بيت العنكبوت" خبر إن المضاف إلى العنكبوت والجملة حال. "لَوْ" حرف شرط غير جازم "كانُوا" كان واسمها "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر كانوا وجملة كانوا . . ابتدائية لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 42]

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42)

"إِنَّ اللَّهَ" إن واسمها "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "ما" مفعول به "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة "مِنْ

دُونِهِ" متعلقان بمحذوف حال "مِنْ شَيْءٍ" متعلقان بما تعلق به قبلهما . "وَ" الواو حرف عطف "هُوَ" ومبتدأ "الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" خبران والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 43]

وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ (43)

"وَ" الواو حرف استئناف "تِلْكَ" اسم إشارة مبتدأ "الْأَمْثالُ" بدل "نَضْرِبُها" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "لِلنَّاسِ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "وَ" الواو حالية "ما" نافية "يَعْقِلُها" مضارع ومفعوله "إِلَّا" حرف حصر "الْعالِمُونَ" فاعل والجملة حال .

[سورة العنكبوت (29) : آية 44]

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44)

(174/593)

"خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات "بِالْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" خبر إن المقدم "لَآيَةً" اللام لام المزحلقة "آية" اسم إن "لِلْمُؤْمِنِينَ" صفة آية والجملة مستأنفة لا محل

لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 45]

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (45)

"اتْلُ" أمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر "ما" مفعول به والجملة مستأنفة "أُوحِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل والجملة صلة لا محل لها "مِنَ الْكِتابِ" متعلقان بالفعل أيضا "وَأَقِمِ الصَّلاةَ" معطوفة على اتل . . "إِنَّ الصَّلاةَ" إن واسمها "تَنْهى" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إن والجملة الاسمية تعليل "عَنِ الْفَحْشاءِ" متعلقان بالفعل "وَالْمُنْكَرِ" معطوف على الفحشاء "وَلَذِكْرُ" الواو حالية واللام لام الابتداء وذكر مبتدأ مضاف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "أَكْبَرُ" خبر والجملة حال . "وَاللَّهُ" الواو حرف استئناف ولفظ الجلالة مبتدأ "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "ما" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ ، والجملة الاسمية مستأنفة "تَصْنَعُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة .

[سورة العنكبوت (29) : آية 46]

وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلهُنا وَإِلهُكُمْ واحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46)

"وَلا تُجادِلُوا" الواو حرف استئناف ومضارع مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل "أَهْلَ الْكِتابِ" مفعول به مضاف إلى الكتاب "إِلَّا" حرف حصر "بِالَّتِي" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها "هِيَ أَحْسَنُ" مبتدأ وخبره والجملة صلة "إِلَّا" حرف استثناء "الَّذِينَ" مستثنى بإلا "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف حال "وَقُولُوا" الواو حرف عطف وأمر مبني على حذف النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "آمَنَّا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "بِالَّذِي" متعلقان بالفعل "أُنْزِلَ" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صلة "إِلَيْنا" متعلقان بالفعل "وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ" معطوف على أنزل إلينا "وَ" الواو حرف عطف "إِلهُنا" مبتدأ "وَإِلهُكُمْ" معطوف على إلهنا "واحِدٌ" خبر المبتدأ ، والجملة معطوفة على ما قبلها "وَنَحْنُ" مبتدأ "لَهُ" متعلقان بالخبر "مُسْلِمُونَ" والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 47]

وَكَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (47)

"وَ" الواو حرف استئناف "كَذلِكَ" متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله "إِلَيْكَ" متعلقان بالفعل "الْكِتابَ" مفعول به والجملة مستأنفة لا محل لها "فَالَّذِينَ" الفاء حرف استئناف واسم الموصول مبتدأ "آتَيْناهُمُ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "الْكِتابَ" مفعول به ثان والجملة صلة "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة خبر الذين "بِهِ" متعلقان بالفعل ، "وَ" الواو حرف استئناف "مِنْ هؤُلاءِ" خبر مقدم "مِنْ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها . "يُؤْمِنُ" مضارع فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَ" الواو حرف استئناف "ما يَجْحَدُ" نافية ومضارع مرفوع "بِآياتِنا" متعلقان بالفعل "إِلَّا" حرف حصر "الْكافِرُونَ" فاعل والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 48]

وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (48)

"وَ" الواو حرف استئناف "ما" نافية "كُنْتَ" ماض ناقص واسمه "تَتْلُوا" مضارع فاعله مستتر "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بالفعل "مِنْ" حرف جر زائد "كِتابٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به والجملة خبر كنت وجملة ما كنت . . . مستأنفة لا محل لها . "وَ" الواو حرف

عطف "لا" نافية "تَخُطُّهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "بِيَمِينِكَ" متعلقان بالفعل "إِذاً" حرف جواب وجزاء "لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف وماض وفاعله والجملة جواب قسم مقدر لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 49]

بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ (49)

(177/593)

"بَلْ" حرف إضراب "هُوَ آياتٌ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "بَيِّناتٌ" صفة آيات "فِي صُدُورِ" متعلقان بما قبلهما "الَّذِينَ" اسم الموصول مضاف إليه "أُوتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "الْعِلْمَ" مفعول به والجملة صلة الذين "وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ" : انظر الآية - 47 - .

[سورة العنكبوت (29) : آية 50]

وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)

"وَقالُوا" الواو حرف استئناف وماض وفاعله والجملة مستأنفة "لَوْلا" حرف تحضيض "أُنْزِلَ" ماض مبني للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بالفعل "آياتٌ" نائب فاعل "مِنْ رَبِّهِ" متعلقان

بمحذوف صفة آيات والجملة مقول القول "قُلْ" أمر فاعله مستتر "إِنَّمَا" كافة ومكفوفة "الْآيَاتُ" مبتدأ "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "وَإِنَّما" كافة ومكفوفة "أَنَا نَذِيرٌ" مبتدأ وخبره "مُبِينٌ" صفة نذير والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها فهي في محل نصب مقول القول مثلها. وجملة قل.. مستأنفة لا محل لها.

[سورة العنكبوت (29) : آية 51]

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51)

(178/593)

"أَوَلَمْ" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف استئناف "لَمْ يَكْفِهِمْ" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والهاء مفعول به "أَنَّا" حرف مشبه بالفعل واسمه "أَنْزَلْنا" ماض وفاعله "عَلَيْكَ" متعلقان بالفعل "الْكِتابَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر أنّا والمصدر المؤول من أنّ واسمها وخبرها فاعل يكفي وجملة لم يكفهم.. مستأنفة. "يُتْلى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة حال. "إِنَّ" حرف

مشبه بالفعل "فِي ذِلكَ" خبر إن المقدم "لَرَحْمَةً" اللام لام الابتداء واسم إن المؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "وَذِكْرى" معطوف على رحمة "لِقَوْمٍ" متعلقان برحمة "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صفة قوم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 52]

قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (52)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "كَفى" ماض مبني على الفتح "بِاللَّهِ" الباء حرف جر زائد "اللّه" لفظ الجلالة اسم مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل كفى. والجملة مقول القول. "بَيْنِي" ظرف مكان "وَبَيْنَكُمْ" معطوف عليه "شَهِيداً" تمييز "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر "ما" مفعول به "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات والجملة مستأنفة لا محل لها "وَ" الواو حرف استئناف "الَّذِينَ آمَنُوا" مبتدأ وماض وفاعله "بِالْباطِلِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة "وَكَفَرُوا" معطوف على آمنوا

"بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بالفعل "أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ "هُمُ" ضمير فصل "الْخاسِرُونَ" خبر أولئك والجملة الاسمية خبر الذين وجملة الذين . . . مستأنفة لا محل لها.

[سورة العنكبوت (29) : آية 53]

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (53)

"وَيَسْتَعْجِلُونَكَ" الواو حرف استئناف ومضارع وفاعله ومفعوله "بِالْعَذابِ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها . "وَ" الواو حالية "لَوْلا" حرف شرط غير جازم "أَجَلٌ" مبتدأ "مُسَمًّى" صفة وخبر المبتدأ محذوف والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها "لَجاءَهُمُ" اللام واقعة في جواب لولا وماض ومفعوله "الْعَذابُ" فاعل والجملة جواب لولا لا محل لها "وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ" الواو حرف عطف واللام موطئة للقسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به والفاعل مستتر "بَغْتَةً" حال والجملة جواب قسم محذوف لا محل لها . "وَ" الواو حالية "هُمْ" مبتدأ "لا يَشْعُرُونَ" نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر هم والجملة الاسمية حال .

[سورة العنكبوت (29) : آية 54]

يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (54)

"يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ" سبق إعرابها . "وَإِنَّ جَهَنَّمَ" الواو حالية وإن واسمها واللام المزحلقة "لَمُحِيطَةٌ" خبر إن والجملة حالية "بِالْكافِرِينَ" متعلقان بمحيطة .

[سورة العنكبوت (29) : آية 55]

يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

(180/593)

"يَوْمَ يَغْشاهُمُ" يوم ظرف زمان ومضارع ومفعوله "الْعَذابُ" فاعله والجملة في محل جر بالإضافة "مِنْ فَوْقِهِمْ" متعلقان بالفعل "وَمِنْ تَحْتِ" معطوفان على ما قبلهما "أَرْجُلِهِمْ" مضاف إليه "وَيَقُولُ" الواو حرف عطف ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "ذُوقُوا" أمر وفاعله "ما" مفعول به والجملة مقول القول "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "تَعْمَلُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كنتم.

[سورة العنكبوت (29) : آية 56]

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56)

"يا عِبادِيَ"

حرف نداء ومنادى مضاف والجملة مستأنفة "الَّذِينَ"

صفة عبادي "آمَنُوا"

ماض وفاعله والجملة صلة الذين "إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ"

. إن واسمها وخبرها "فَإِيَّايَ"

الفاء الفصيحة وإياي مفعول به لفعل مقدر وجملة إن أرضي مستأنفة لا محل لها

"فَاعْبُدُونِ"

الفاء عاطفة وأمر مبني على حذف النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء المحذوفة مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 57]

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (57)

"كُلُّ نَفْسٍ" كل مبتدأ مضاف إلى نفس "ذائِقَةُ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "الْمَوْتِ" مضاف إليه "ثُمَّ" حرف عطف "إِلَيْنا" متعلقان بما بعدهما "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 58]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (58)

"وَالَّذِينَ" الواو حرف استئناف واسم الموصول مبتدأ "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة الذين "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "لَنُبَوِّئَنَّهُمْ" اللام موطئة للقسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به أول والفاعل مستتر "مِنَ الْجَنَّةِ" متعلقان بحال "غُرَفاً" مفعول به ثان "تَجْرِي" مضارع مرفوع والجملة صفة غرفا "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل مؤخر "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بما قبلهما وجملة نبوئنهم جواب القسم المحذوف "نِعْمَ أَجْرُ" ماض جامد لانشاء المدح وفاعله "الْعامِلِينَ" مضاف إليه. والجملة مستأنفة لا محل لها. وجملة القسم خبر الذين.

[سورة العنكبوت (29) : آية 59]

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)

"الَّذِينَ" الاسم الموصول صفة العاملين "صَبَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَلى رَبِّهِمْ" متعلقان بما بعدهما "يَتَوَكَّلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها.

[سورة العنكبوت (29) : آية 60]

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

"وَ" الواو حرف استئناف "كَأَيِّنْ" كناية عن عدد في محل رفع مبتدأ "مِنْ" حرف جر زائد "دَابَّةٍ" مجرور لفظا منصوب محلا تمييز كأين "لا تَحْمِلُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر

"رِزْقَهَا" مفعول به والجملة صفة دابة . "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَرْزُقُهَا" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر اللّه والجملة الاسمية اللّه . . خبر كأين وجملة كأين . . مستأنفة لا محل لها "وَإِيَّاكُمْ" معطوف على الضمير المنصوب في يرزقها "وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" والواو حالية ومبتدأ وخبران والجملة حالية .

[سورة العنكبوت (29) : آية 61]

(182/593)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61)

"وَلَئِنْ" الواو حرف استئناف واللام موطئة للقسم وإن شرطية "سَأَلْتَهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية لا محل لها "مَنْ خَلَقَ" من اسم استفهام مبتدأ وماض فاعله مستتر "السَّماواتِ" مفعول به "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات والجملة الفعلية خبر المبتدأ من والجملة الاسمية من خلق . . . مفعول به ثان لسأل . "وَ" الواو حرف عطف "سَخَّرَ" ماض فاعله مستتر "الشَّمْسَ" مفعول به "وَالْقَمَرَ" معطوف على الشمس والجملة معطوفة على ما قبلها . "لَيَقُولُنَّ" اللام واقعة في جواب القسم المقدر "لَيَقُولُنَّ" مضارع مرفوع والواو

المحذوفة فاعل والجملة جواب القسم المقدر "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ خبره محذوف والجملة الاسمية مقول القول "فَأَنَّى" الفاء الفصيحة "فَأَنَّى" اسم استفهام حال "يُؤْفَكُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة جواب الشرط المقدر لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 62]

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)

"اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ "يَبْسُطُ" مضارع فاعله مستتر "الرِّزْقَ" مفعول به والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة "لِمَنْ" متعلقان بالفعل "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر "مِنْ عِبادِهِ" حال والجملة صلة "وَيَقْدِرُ" معطوف على يبسط "لَهُ" متعلقان بالفعل "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "بِكُلِّ" متعلقان بالخبر عليم "شَيْءٍ" مضاف إليه والجملة تعليلية لا محل لها . "عَلِيمٌ" خبر .

[سورة العنكبوت (29) : آية 63]

(183/593)

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (63)

"وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ" سبق إعرابها "مَنْ نَزَّلَ" اسم استفهام مبتدأ وماض فاعله مستتر والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية سدت مسد المفعول الثاني لسأل "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بالفعل "ماءً" مفعول به "فَأَحْيا" الفاء حرف عطف وماض فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بالفعل "الْأَرْضَ" مفعول به "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالفعل أيضا "مَوْتِها" مضاف إليه والجملة معطوفة على ما قبلها واللام واقعة في جواب القسم "لَيَقُولُنَّ" مضارع مرفوع والواو المحذوفة فاعل والجملة جواب القسم المقدر "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ خبره محذوف والجملة مستأنفة لا محل لها "قُلِ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "الْحَمْدُ لِلَّهِ" مبتدأ وخبره والجملة مقول القول "بَلْ" حرف إضراب "أَكْثَرُهُمْ" مبتدأ "لا يَعْقِلُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 64]

وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (64)

(184/593)

"وَ" الواو حرف استئناف "ما" نافية "هذِهِ" مبتدأ "الْحَياةُ" بدل من اسم الإشارة "الدُّنْيا" صفة الحياة "إِلَّا" حرف حصر "لَهْوٌ" خبر المبتدأ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها

"وَلَعِبٌ" معطوف على لهو ، "وَإِنَّ" الواو حالية "إِنَّ الدَّارَ" إن واسمها "الْآخِرَةَ" صفة الدار "لَهِيَ" اللام المزحلقة "هي الحيوان" مبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن . . حال . "لَوْ" شرطية غير جازمة "كانُوا" ماض ناقص واسمه "يَعْلَمُونَ" مضارع وفاعله والجملة خبر كانوا وجملة كانوا . . ابتدائية لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 65]

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف "إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "رَكِبُوا" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فِي الْفُلْكِ" متعلقان بالفعل "دَعَوُا اللَّهَ" ماض وفاعله ولفظ الجلالة مفعول به والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها "مُخْلِصِينَ" حال "لَهُ" متعلقان بما قبلهما "الدِّينَ" مفعول به لمخلصين "فَلَمَّا" الفاء

حرف استئناف "لما نجاهم" لما ظرفية حينية وماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "إِلَى الْبَرِّ" متعلقان بالفعل "إِذا" فجائية "هُمْ" مبتدأ "يُشْرِكُونَ" مضارع وفاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب لما لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 66]

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66)

"لِيَكْفُرُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل والمصدر المؤول من أن وما بعدهما في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بيشركون "بِما" متعلقان بالفعل "آتَيْناهُمْ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صلة "وَلِيَتَمَتَّعُوا" معطوف على ليكفروا ، "فَسَوْفَ" الفاء حرف استئناف "سوف" حرف استقبال "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 67]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَما آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67)

"أَوَلَمْ يَرَوْا" الهمزة حرف استفهام إنكاري والواو حرف استئناف ومضارع مجزوم بلم والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها . "أَنَّا" أن واسمها "جَعَلْنا حَرَماً" ماض وفاعله ومفعوله "آمِناً" صفة حرما والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها مفعول به "وَيُتَخَطَّفُ" الواو حالية ومضارع مبني للمجهول "النَّاسُ" نائب فاعل "مِنْ حَوْلِهِمْ" متعلقان بالفعل والجملة حال .

والهمزة حرف استفهام إنكاري "أَفَبِالْباطِلِ" الفاء حرف استئناف "بالباطل" متعلقان بما بعدهما "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها "وَ" الواو حرف عطف "بِنِعْمَةِ اللَّهِ" متعلقان بيكفرون ولفظ الجلالة مضاف إليه "يَكْفُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 68]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (68)

(186/593)

"وَ" الواو حرف استئناف "مَنْ أَظْلَمُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها "مِمَّنِ" متعلقان بأظلم "افْتَرى" ماض فاعله مستتر "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بالفعل "كَذِباً" مفعول به والجملة صلة من "أَوْ" حرف عطف "كَذَّبَ" ماض فاعله مستتر "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "لَمَّا" ظرفية حينية "جاءَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة في محل جر بالإضافة "أَلَيْسَ" الهمزة حرف استفهام تقريري وماض ناقص "فِي جَهَنَّمَ" خبر ليس المقدم "مَثْوىً"

اسم ليس المؤخر "لِلْكافِرِينَ" صفة مثوى والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة العنكبوت (29) : آية 69]

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

"وَالَّذِينَ جاهَدُوا" الواو حرف استئناف ومبتدأ وماض وفاعله "فِينا" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية صلة الذين "لَنَهْدِيَنَّهُمْ" اللام واقعة في جواب القسم المحذوف "نهدينهم" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة والهاء مفعول به أول والفاعل مستتر "سُبُلَنا" مفعول به ثان والجملة جواب القسم المحذوف لا محل لها والقسم وجوابه خبر الذين وجملة الذين . . مستأنفة لا محل لها "وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ" الواو حرف استئناف وإن واسمها واللام المزحلقة ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر إن "الْمُحْسِنِينَ" مضاف إليه والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 446 : حـ 3 صـ 9﴾

(187/593)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة العنكبوت

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة عشر حَدِيثا

946 - الحَدِيث الأول

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سيد الشُّهَدَاء مهجع وَهُوَ أول من يُدعَى إِلَى بَاب الْجنَّة من هَذِه الْأمة

قلت غَرِيب وَفِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ قَالَ مقَاتل نزلت هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي مهجع ابْن عبد الله مولَى عمر بن الْخطاب كَانَ أول من قتل من الْمُسلمين يَوْم بدر رَمَاه عَامر الْحَضْرَمِيّ بِسَهْم فَقتله فَقَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سيد الشُّهَدَاء مهجع وَهُوَ أول من يُدعَى إِلَى بَاب الْجنَّة من هَذِه الْأمة انْتَهَى وَسَنَده إِلَى مقَاتل فِي أول كِتَابه

وَكَذَلِكَ قَالَه الْبَغَوِيّ وَكَذَلِكَ قَالَه الواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول

وَفِي مُصَنف ابْن أبي شيبَة فِي كتَاب الْأَوَائِل عَن الْقَاسِم بن عبد الرَّحْمَن عَن أَبِيه عَن ابْن مَسْعُود قَالَ أول من اسْتشْهد يَوْم فِي بدر مهجع مولَى عمر بن الْخطاب انْتَهَى

وَفِي مُسْتَدْرك الْحَاكِم عَن هِقْل بن زِيَاد عَن الْأَوْزَاعِيّ حَدثنِي أَبُو عمار عَن وَاثِلَة بن الْأَسْقَع قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خير السودَان ثَلَاثَة لُقْمَان وبلال وَمهجع مولَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم انْتَهَى وَصَححهُ

قَالَ الذَّهَبِيّ هَكَذَا قَالَ مولَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَلَا أعرف هَذَا انْتَهَى كَلَامه

وَقَالَ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة مهجع وَهِي فِي الطَّبَقَة الأولَى من الصَّحَابَة مهجع مولَى عمر بن الْخطاب وَقَالَ إِنَّه من أهل الْيمن أَصَابَهُ سبي

(188/593)

فَمن عَلَيْهِ عمر وَهُوَ من الْمُهَاجرين الْأَوَّلين وَقتل يَوْم بدر ثمَّ أخرج عَن الزُّهْرِيّ وَدَاوُد بن الْحصين قَالَا أول قَتِيل قتل من الْمُسلمين يَوْم بدر مهجع مولَى عمر ابْن الْخطاب قَتله عَامر بن الْحَضْرَمِيّ انْتَهَى

947 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ قد كَانَ من قبلكُمْ يُؤْخَذ فَيُوضَع الْمِنْشَار عَلَى رَأسه فَيُفرق فرْقَتَيْن مَا يصرفهُ ذَلِك عَن دينه ويُمشط بِأَمْشَاط الْحَدِيد مَا دون عظمه من لَحْمَة وَعصب مَا يصرفهُ ذَلِك عَن دينه

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي عَلَامَات النُّبُوَّة وَفِي الْإِكْرَاه من حَدِيث خباب بن الْأَرَت قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَهُوَ مُتَوَسّد بردة لَهُ فِي ظلّ الْكَعْبَة قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِر لنا أَلَا تَدْعُو الله لنا قَالَ كَانَ الرجل فِيمَن كَانَ قبلكُمْ يحْفر لَهُ فِي الْأَرْض فَيجْعَل فِيهَا ثمَّ يجاء بِالْمُشَارِ فَيُوضَع عَلَى رَأسه فَيجْعَل فرْقَتَيْن مَا يصرفهُ ذَلِك عَن دينه

وَالله لَا لَيتمَّن هَذَا الْأَمر حَتَّى يسير الرَّاكِب من صنعاء إِلَى حَضرمَوْت لَا يخَاف إِلَّا الله وَالذِّئب عَلَى غنمه وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُون انْتَهَى

948 - الحَدِيث الثَّالِث

(189/593)

رُوِيَ أَن سعد بن أبي وَقاص لما أسلم قَالَت لَهُ أمه وَهِي حمْنَة بنت أبي سُفْيَان بن أُمَيَّة بَلغنِي أَنَّك قد صَبَأت فوَالله لَا يُظِلنِي سقف بَيت من الضح وَالرِّيح وَإِن الطَّعَام وَالشرَاب عَلَّي حرَام حَتَّى تكفر بِمُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَكَانَ أحب وَلَدهَا إِلَيْهَا فَأَبَى سعد وَبقيت ثَلَاثَة أَيَّام كَذَلِك فجَاء سعد إِلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وشكا إِلَيْهِ فَنزلت يَعْنِي قَوْله تَعَالَى وَإِن جَاهَدَاك عَلَى أَن تشرك بِي الْآيَة فَأمره عَلَيْهِ السَّلَام أَن يَتَرَضَّاهَا وَيُدَارِيهَا بِالْإِحْسَان

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَرَوَى مُسلم فِي صَحِيحه فِي الْفَضَائِل عَن سعد قَالَ أنزلت فِي أَربع آيَات من الْقُرْآن قَالَ حَلَفت أم سعد أَلا تكلمه أبدا حَتَّى يكفر بدِينِهِ وَلَا تَأْكُل وَلَا تشرب وَقَالَت زعمت أَن الله أَوْصَاك بِوَالِدَيْك وَأَنا أمك وَأَنا آمُرك بِهَذَا وَمكثت ثَلَاثًا حَتَّى غشي عَلَيْهَا من الْجهد فَقَامَ

ابْن لَهَا يُقَال لَهُ عمار فَسَقَاهَا فَجعلت تَدْعُو عَلَى سعد فَأنْزل الله تَعَالَى وَوَصينَا الْإِنْسَان بِوَالِديهِ حسنا وَإِن جَاهَدَاك عَلَى أَن تشرك بِي الْآيَة الحَدِيث مُخْتَصر

وَذكره الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول بِلَفْظ سَوَاء من غير سَنَد وَلَا راو

949 - قَوْله

(190/593)

رُوِيَ أَن عَيَّاش بن ربيعَة المَخْزُومِي هَاجر مَعَ عمر بن الْخطاب مُتَرَافِقين حَتَّى نزلا الْمَدِينَة فَخرج أَبُو جهل بن هِشَام والْحَارث بن هِشَام أَخَوَاهُ لأمه أَسمَاء بنت مخرمَة امْرَأَة من بني تَمِيم من بني حَنْظَلَة فنزلَا بعياش فَقَالَا لَهُ إِن من دين مُحَمَّد عَلَيْهِ السَّلَام صلَة الْأَرْحَام وبر الْوَالِدين وَقد تركت أمك لَا تطعم وَلَا تأوي بَيْتا حَتَّى تراك وَهِي اشد حبا لَك منا فَاخْرُج مَعنا وفتلا مِنْهُ فِي الذروَة وَالْغَارب فَاسْتَشَارَ عمر فَقَالَ هما يخدعانك وَلَك عَلَي أَن أقسم مَالِي بيني وَبَيْنك فَمَا زَالَا بِهِ حَتَّى أَطَاعَهُمَا وَعَصى عمر فَقَالَ عمر أما إِذْ عَصَيْتَنِي فَخذ نَاقَتِي فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا بعير يلْحقهَا فَإِن رَابَك مِنْهُمَا ريب فَارْجِع فَلَمَّا انْتَهوا إِلَى الْبَيْدَاء قَالَ أَبُو جهل إِن نَاقَتِي قد خلت فَاحْمِلْنِي مَعَك قَالَ نعم فَنزل لِيُوَطِّئ لنَفسِهِ وَله فَأَخَذَاهُ وشدا

وثَاقه ونَزلا فجلداه كل وَاحِد مِنْهُمَا مائَة جلدَة وذهبا بِهِ إِلَى أمه فَقَالَت لَهُ لَا تزَال فِي عَذَاب حَتَّى ترجع عَن دين مُحَمَّد

(191/593)

قلت رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده بنَقص يسير حَدثنَا زُهَيْر بن مُحَمَّد بن قمير أَنا صَدَقَة بن سَابق عَن مُحَمَّد بن سَابق حَدثنِي نَافِع عَن ابْن عمر عَن عمر ابْن الْخطاب قَالَ لما اجْتَمَعنَا لِلْهِجْرَةِ ابتعدت أَنا وَعَيَّاش بن أبي ربيعَة وَهِشَام بن الْعَاص الْمِيضَاة ميضاة بني غفار فَوق سرف وَقُلْنَا أَيكُم لم يصبح عِنْدهَا فقد احْتبسَ فَلْيَنْطَلِقْ صَاحِبَاه فَجَلَسَ عَنَّا هِشَام بن الْعَاص فَلَمَّا قدمنَا الْمَدِينَة نزلنَا فِي بني عَمْرو بن عَوْف بقباء وَخرج أَبُو جهل بن هِشَام والْحَارث بن هِشَام إِلَى عَيَّاش بن أبي ربيعَة وَكَانَ ابْن عَمهمَا وأخاهما لأُمِّهِمَا حَتَّى قدما علينا الْمَدِينَة وَكَلَّمَاهُ فَقَالَا لَهُ إِن أمك نذرت أَلا تمس رَأسهَا بمشْط حَتَّى تراك فرق لَهَا فَقلت لَهُ يَا عَيَّاش إِنَّه وَالله يردك الْقَوْم عَن دينك فَاحْذَرْهُمْ فوَالله لَو قد أَذَى أمك الْقمل لامتشطت وَلَو قد أَشْتَدّ عَلَيْهَا حر مَكَّة لاستظلت فَقَالَ إِن لي هُنَاك مَالا فَآخذهُ قَالَ فَقلت وَالله لتعلم أَنِّي من أَكثر قُرَيْش مَالا فلك نصف مَالِي وَلَا تذْهب مَعَهُمَا قَالَ فَأَبَى عَلَيّ إِلَّا أَن يخرج مَعَهُمَا فَقلت لَهُ أما إِذْ فعلت مَا فعلت فَخذ نَاقَتي هَذِه فَإِنَّهَا ذلُول فَالْزَمْ ظهرهَا فَإِن

رَابَك من الْقَوْم ريب فَانْجُ عَلَيْهَا فَخرج مَعَهُمَا عَلَيْهَا حَتَّى إِذا كَانُوا ببَعْض الطّرق قَالَ أَبُو جهل بن هِشَام يَا عَيَّاش وَالله لقد اسْتَبْطَأَتْ بَعِيري هَذَا أَفلا تحملنِي عَلَى نَاقَتك هَذِه قلت بَلَى فَأَنَاخَ وأناخا لِيَتَحَوَّل عَلَيْهَا فَلَمَّا اسْتَووا بِالْأَرْضِ عديا عَلَيْهِ فَأَوْثَقَاهُ ثمَّ أدْخلَاهُ مَكَّة وفتناه فَافْتتنَ مُخْتَصر من كَلَام طَوِيل

(192/593)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن هِشَام فِي السِّيرَة عَن ابْن إِسْحَاق بِسَنَدِهِ الْمُذكر وَمَتنه سَوَاء وَقد تقدم فِي النِّسَاء وَنَقله الثَّعْلَبِيّ بِلَفْظ الْمنصف عَن مقَاتل

950 - الْحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن أَصْحَاب السَّفِينَة كَانُوا ثَمَانِيَة نوح وَأَهله وَبَنوهُ الثَّلَاثَة وَأَهْلُوهُمْ

قلت غَرِيب وَتقدم فِي هود

951 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه تَلا قَوْله تَعَالَى وَمَا يَعْقِلهَا إِلَّا الْعَالمُونَ فَقَالَ الْعَالم من عقل عَن الله تَعَالَى فَعمل بِطَاعَتِهِ واجتنب سخطه

قلت رَوَاهُ دَاوُد بن المحبر فِي كتاب الْعقل ثَنَا عباد بن كثير عَن ابْن جريج عَن عَطاء وَأبي الزُّبَيْر عَن جَابر بن عبد الله أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَلا هَذِه الْآيَة وَتلك الْأَمْثَال نَضْربهَا للنَّاس وَمَا يَعْقِلهَا إِلَّا الْعَالمُونَ فَقَالَ الْعلم . . . إِلَى آخِره سَوَاء

وَعَن دَاوُد بن المحبر رَوَاهُ الْحَارِث بن أبي أسَامَه فِي مُسْنده

وَمن طَرِيق الْحَارِث بن أبي أسَامَه رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ والواحدي فِي تَفْسِيره

وَمن طَرِيق الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الْبَغَوِيّ فِي تَفْسِيره

وَذكر ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات وَنقل عَن الدَّارَقُطْنِيّ أَنه قَالَ كَتَاب الْعقل وَضعه أَرْبَعه أَوَّلهمْ ميسرَة بن عبد ربه ثمَّ سَرقه دَاوُد بن المحبر مِنْهُ فَركبهُ بأسانيد غير أَسَانِيد ميسرَة وَسَرَقَهُ عبد الْعَزِيز بن أبي رَجَاء فَركبهُ بأسانيد أخر ثمَّ سَرقه سُلَيْمَان بن عِيسَى السجْزِي فَأَتَى بأسانيد أخر انْتَهَى

(193/593)

وَقَالَ الشَّيْخ شرف الدَّين الدمياطي رُوِيَ من طَرِيق دَاوُد بن المحبر ثَنَا هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن عَائِشَة قَالَت أسقطت سقطا فَسَماهُ عبد الله وَكَنَّانِي بأم عبد الله دَاوُد بن المحبر قَالَ فِيهِ أَحْمد شبه لَا شَيْء لَا يدْرِي مَا الْحَدِيث وَقَالَ الْبُخَارِيّ مُنكر الْحَدِيث وَقَالَ ابْن معِين

لَيْسَ بِكَذَّابٍ وَلكنه جَفَا الحَدِيث وَتعبد فَلَمَّا كبر كثر خَطؤُهُ وَتَصْحِيفه إِلَّا أَنه ثِقَة وَقَالَ بن عدي لَهُ كتاب فِي الْعقل فِيهِ أَحَادِيث مُنكرَة وَله خَارج كتاب الْعقل أَحَادِيث صَالِحَة وَيُشبه أَن يكون الْأَمر فِيهِ كَمَا قَالَ ابْن معِين وَهُوَ فِي الأَصْل صَدُوق انْتَهَى كَلَامه

952 - الحَدِيث السَّادِس

عَن أبي عَبَّاس قَالَ من لم تَأمره صلَاته بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَهُ عَن النكر لم يَزْدَدْ بِصَلَاتِهِ إِلَّا بعدا من الله

قلت هَكَذَا ذكره مَوْقُوفا وَقد رُوِيَ مَرْفُوعا وموقوفا

أما الْموقف فَلم يروه إِلَّا الطَّبَرِيّ حَدثنَا الْقَاسِم ثَنَا الْحُسَيْن ثَنَا خَالِد بن عبد الله عَن الْعَلَاء بن الْمسيب عَمَّن ذكره عَن ابْن عَبَّاس قَالَ من لم تَأمره صلَاته . . . إِلَى آخر الحَدِيث

أما الْمَرْفُوع فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ من حَدِيث يَحْيَى بن أبي طَلْحَة الْيَرْبُوعي ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن لَيْث بن أبي سليم عَن طَاوس عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من لم تَنْهَهُ صلَاته عَن الْفَحْشَاء وَالْمُنكر لم يَزْدَدْ بِصَلَاتِهِ من الله إِلَّا بعدا انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ بن أبي حَاتِم فِي تَفْسِيره ثَنَا عَلّي بن الْحُسَيْن ثَنَا يَحْيَى بن أبي طَلْحَة الْيَرْبُوعي ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة بِهِ

وَرَوَاهُ بن مرْدَوَيْه أَيْضا فِي تَفْسِيره من حَدِيث يَحْيَى بن طَلْحَة بِهِ

وَيَحْيَى هَذَا أحد شُيُوخ التِّرْمِذِيّ ذكره بن حبَان فِي الثِّقَات وَقَالَ النَّسَائِيّ لَيْسَ بِشَيْء وَلَيْث مُخْتَلف فِي الِاحْتِجَاج بِهِ

وَرُوِيَ هَذَا الْمَرْفُوع أَيْضا من حَدِيث ابْن عمر رَوَاهُ الدَّارَقُطْنِيّ فِي غرائب مَالك من حَدِيث مُحَمَّد بن الْحسن الْأَزْدِيّ الْمصْرِيّ ثَنَا مَالك عَن نَافِع عَن ابْن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من صَلَّى صَلَاة لم تَأمره صلَاته بِمَعْرُوف وَلم تَنْهَهُ عَن الْفَحْشَاء وَالْمُنكر لم تزده صلَاته من الله إِلَّا بعدا انْتَهَى قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ هَذَا بَاطِل لَا أصل لَهُ وَمُحَمّد بن الْحسن الْمصْرِيّ مَجْهُول انْتَهَى

وَذكره ابْن حبَان فِي ضعفَاهُ وَقَالَ مُحَمَّد هَذَا يروي عَن مَالك مَا لَا أصل لَهُ لَا يجوز الِاحْتِجَاج بِهِ انْتَهَى

شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالْعِشْرين أخبرنَا أَبُو عبد الله الْحَافِظ ثَنَا أَبُو الْعَبَّاس الْأَصَم ثَنَا أَحْمد بن عبد الْجَبَّار العطاري ثَنَا حَفْص بن غياث عَن إِسْمَاعِيل بن مُسلم عَن الْحسن قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِلَفْظ الدَّارَقُطْنِيّ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَعبد الرازق فِي تفسيريهما عَن الثَّوْرِيّ عَن إِسْمَاعِيل ابْن مُسلم بِهِ والعطاري فِي سَنَد الْبَيْهَقِيّ فِيهِ مقَال

وَذكره صَاحب الفردوس من حَدِيث ابْن مَسْعُود

وَوَقفه الإِمَام أَحْمد فِي كتَاب الزّهْد لَهُ عَلَيْهِ فَقَال ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة ثَنَا الْأَعْمَش عَن مَالك بن الْحَارِث عَن عبد الرَّحْمَن بن يزِيد قَال قَال عبد الله . . . فَذكره

953 - الْحَدِيث السَّابِع

قيل لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن فلَان يُصَلِّي بِالنَّهَارِ وَيسْرق بِاللَّيْلِ فَقَال إِن صلَاته لتردعه

(195/593)

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث جَابر

فَحدث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه من رِوَايَة عِيسَى بن يُونُس عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة قَال جَاءَ رجل إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَال إِن فلَانا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذا أصبح سرق فَقَال إِن صلَاته ستنهاه انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده ثَنَا وَكِيع ثَنَا الْأَعْمَش بِهِ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالْعِشْرين من حَدِيث وَكِيع بِهِ سندا ومتنا

وَرَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا عِيسَى بن يُونُس ثَنَا الْأَعْمَش بِهِ

وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث محَاضِر بن الْمُورّع عَن الْأَعْمَش بِهِ

وَحَدِيث جَابر رَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده ثَنَا مُحَمَّد بن مُوسَى الْحَرَشِي ثَنَا زِيَاد ابْن عبد الله عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن جَابر قَالَ جَاءَ رجل إِلَى آخِره قَالَ وَقد اخْتلفُوا فِي إِسْنَاده فَرَوَاهُ غير وَاحِد عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة وَرَوَاهُ بَعضهم عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن جَابر وَبَعْضهمْ يرويهِ عَن الْأَعْمَش عَن أبي سُفْيَان عَن جَابر انْتَهَى كَلَامه

قلت وَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده من حَدِيث عِيسَى بن يُونُس بِسَنَد ابْن حبَان وَمَتنه ثمَّ أخرجه عَن أبي إِسْحَاق الْفَزارِيّ عَن الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن جَابر نَحوه سَوَاء

954 - الحَدِيث الثَّامِن

رُوِيَ أَن فَتى من الْأَنْصَار كَانَ يُصَلِّي مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَوَات وَلَا يدع شَيْئًا من الْفَوَاحِش إِلَّا ركبه فوصف لَهُ فَقَالَ إِن صلَاته ستنهاه فَلم يلبث أَن تَابَ

قلت غَرِيب

955 - الحَدِيث التَّاسِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ مَا حَدثكُمْ أهل الْكتاب فَلَا تُصَدّقُوهُمْ وَقُولُوا آمنا بِاللَّه وَكتبه وَرُسُله فَإِن كَانَ بَاطِلا لم تُصَدّقُوهُمْ وَإِن كَانَ حَقًا لم تكذبوهم

قلت وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سننه فِي كتاب الْعلم من حَدِيث الزُّهْرِيّ أَخْبرنِي ابْن أبي نملة أَن أَبَاهُ أَبَا نملة الْأَنْصَارِيّ أخبرهُ قَالَ بَيْنَمَا هُوَ عِنْد رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جَالس إِذْ جَاءَهُ رجل من الْيَهُود فَمر بجنازة فَقَالَ يَا مُحَمَّد هَل تتكلم هَذِه الْجنازة فَقَالَ الله أعلم فَقَالَ الْيَهُودِيّ أشهد أَنَّهَا لتتكلم فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا حَدثكُمْ أهل الْكتاب فَلَا تُصَدّقُوهُمْ وَلَا تكذبوهم وَقُولُوا آمنا بِاللَّه وَكتبه وَرُسُله فَإِن كَانَ بَاطِلا لم تُصَدّقُوهُ وَإِن كَانَ حَقًا لم تُكَذّبُوهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْعَاشِر من الْقسم الأول وَزَاد فِيهِ وَقَالَ قَاتل الله الْيَهُود لقد أَتَوا علما انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَحْمد وَابْن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي فِي مسانيدهم وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان

قَالَ ابْن الْقطَّان فِي كِتَابه الْوَهم وَالْإِيهَام وَمثل هَذَا الحَدِيث لَيْسَ بِصَحِيح فَإِن نملة بن أبي نملة مَجْهُول الْحَال وَلَا يعرف بِغَيْر هَذَا الحَدِيث وَلَا رَوَى عَنهُ غير الزُّهْرِيّ وَأَبوهُ أَبُو نملة مَعْرُوف فِي الصَّحَابَة واسْمه عمار بن معَاذ بن زُرَارَة شهد بَدْرًا مَعَ أَبِيه معَاذ ثمَّ الْمشَاهد كلهَا وَتُوفِّي فِي خلَافَة عبد الْملك بن مَرْوَان رحمهمَا الله

وَرَأَيت فِي حَاشِيَة نملة بن أبي نملة ذكره ابْن حبَان فِي الثِّقَات وَرَوَى عَنهُ جمَاعَة الزُّهْرِيّ وَعَاصِم بن عمر بن قَتَادَة وَغَيرهمَا

وَله سَنَد آخر رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي كِتَابه مُسْند الشاميين حَدثنَا عُثْمَان بن خَالِد ابْن عَمْرو السلَفِي ثَنَا عبد الله بن عبد الْجَبَّار ثَنَا الْحَارِث بن عُبَيْدَة ثَنَا بَقِيَّة ابْن الْوَلِيد عَن مُحَمَّد بن الْوَلِيد عَن الزبيدِيّ عَن الزُّهْرِيّ عَن سَالم عَن ابْن عمر عَن عَامر بن ربيعَة قَالَ كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَمر بِجنَازَة فَقَالَ رجل من الْيَهُود يَا مُحَمَّد . . . الْحَدِيث

956 - الْحَدِيث الْعَاشِر

جَاءَ فِي صفة هَذِه الْأمة صُدُورهمْ أَنَاجِيلهمْ

قلت رَوَى الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا سهل بن أبي سهل الوَاسِطِيّ ثَنَا الْجراح بن مخلد ثَنَا إِسْمَاعِيل بن عبد الحميد بن عبد الرَّحْمَن بن فَرْوَة ثني أبي عَن أبي مَرْوَان أَن سِنَان بن الْحَارِث حَدثهُ عَن إِبْرَاهِيم النَّخعِيّ عَن عَلْقَمَة عَن ابْن مَسْعُود قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم صِفَتِي أَحْمد المتَوَكل لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غليظ يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ الْحَسَنَة وَلَا يُكَافِئ بِالسَّيِّئَةِ مولده مَكَّة وَمُهَاجره طيبَة وَأمته الْحَمَّادُونَ يَأْتَزِرُونَ عَلَى أَنْصَافهمْ

ويوضئون أَطْرَافهم أَنَاجيلهمْ صُدُورهمْ يصفونَ للصَّلَاة كَمَا يصفونَ لِلْقِتَالِ قُرْبَانهمْ الَّذِي يَتَقَرَّبُون بِهِ إِلَى رَبهم دِمَاؤُهُمْ لُيُوث بِالنَّهَارِ وَرُهْبَان بِاللَّيْلِ انْتَهَى

(198/593)

وَفِي كتاب الرِّدَّةِ لِلْوَاقِدِي حَدثنَا إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم بن عبد الرَّحْمَن بن أبي ربيعَة عَن أَبِيه أَن يَهُودِيّا من أهل سبأ يُقَال لَهُ نعْمَان وَكَانَ أعلم أَحْبَار يهود قدم عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلَمَّا رَآهُ آمن بِهِ وَسَأَلَهُ عَن أَشْيَاء وَقَالَ لَهُ إِن أبي دفع إِلَيّ سفرا مَخْتُومًا وَقَالَ لي لَا تَقْرَأه عَلَى يهود حَتَّى تسمع بِنَبِي قد خرج من يثرب فَلَمَّا سَمِعت بك فَتحته فَإِذا فِيهِ صِفَتك كَمَا أَرَاك السَّاعَة وَفِيه مَا يحل وَمَا يحرم وَفِيه أَنه خير الْأَنْبِيَاء وَأمته خير الْأُمَم وأسمه أَحْمد أمته الْحَمَّادُونَ قُرْبَانهمْ دِمَاؤُهُمْ وَأَنَاجيلهمْ صُدُورهمْ لَا يحْضرُون قتالا إِلَّا وَجبْرِيل مَعَهم تَحَنن الله عَلَيْهِم كتحنن النسْر عَلَى فِرَاخه قَالَ وَكَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يحب أَن يسمع أَصْحَابه حَدِيثه انْتَهَى

957 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

رُوِيَ أَن نَاسا من الْمُسلمين أَتَوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِكتف قد كتبُوا فِيهَا بعض مَا تَقول الْيَهُود فَلما نظر إِلَيْهَا أَلْقَاهَا وَقَالَ كَفَى بِهَا حَمَاقَة قوم أَو ضَلَالَة قوم أَن يرْغبُوا عَمَّا

جَاءَ بِهِ نَبِيّهم إِلَى مَا جَاءَ بِهِ غير نَبِيّهم فَنزلت أولم يَكفهمْ أَنا أنزلنَا عَلَيْك الْكتاب الْآيَة

قلت رَوَاهُ دَاوُد فِي مراسيله عَن يَحْيَى بن جعدة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم آتَاهُ قوم من الْمُسلمين بِكِتَاب فِي كتف فَقَالَ كَفَى بِقوم ضَلَالَة أَن يَبْتَغُوا كتبا غير كِتَابهمْ إِلَى نَبِي غير نَبِيّهم فَأنْزل الله تَعَالَى أولم يَكفهمْ أَنا أنزلنَا عَلَيْك الْكتاب يُتْلَى عَلَيْهِم انْتَهَى

(199/593)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره ثَنَا الْقَاسِم ثَنَا الْحُسَيْن ثَنَا الْحجَّاج عَن ابْن جريج عَن عَمْرو بن دِينَار عَن يَحْيَى بن جعدة أَن نَاسا من الْمُسلمين بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن عبد الْبر فِي كتاب الْعلم من حَدِيث يُونُس بن عبد الْأَعْلَى ثَنَا سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن عَمْرو بن دِينَار عَن يَحْيَى بن جعدة فَذكره ثمَّ قَالَ وَرَوَاهُ الْفريَابِيّ وَابْن وهب والْحميدِي وَأَبُو الطَّاهِر عَن سُفْيَان عَن عَمْرو من دِينَار عَن يَحْيَى بن جعدة نَحوه انْتَهَى

958 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

رُوِيَ أَن الله تَعَالَى وعد رَسُوله أَلا يعذب قومه وَلَا يَسْتَأْصِلهُمْ وَأَن يُؤَخر عَذَابهمْ إِلَى يَوْم الْقِيَامَة

قلت غَرِيب ويُخَالِفهُ مَا رَوَاهُ الْحَاكِم فِي كِتَابه الْمُسْتَدْرك فِي الْفِتَن من حَدِيث سعيد بن

أبي بردة عَن أَبِيه عَن مُوسَى قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أَن أمتِي أمة مَرْحُومَة لَيْس عَلَيْهَا الْآخِرَة عَذَاب إِنَّمَا عَذَابهَا فِي الدُّنْيَا الزلَال وَالْقَتْل وَالْبَلَاء

انْتَهَى وَقَال صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

959 - الحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَال من فر بدِينِهِ من ارْض إِلَى أَرض وَإِن كَانَ شبْرًا

من الأَرْض اسْتَوْجب الْجنَّة وَكَانَ رَفِيق إِبْرَاهِيم وَمُحَمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسلا وَقد تقدم فِي النِّسَاء

960 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة العنكبوت كَانَ لَهُ من الْأَجر عشر

حَسَنَات بِعَدَد كل الْمُؤمنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ

(200/593)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث يُوسُف بن عَطِيَّة ثَنَا هَارُون بن كثير ثَنَا زيد بن أسلم عَن أَبِيه

عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَال قَال رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة

العنكبوت إِلَى آخِره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه الْمَذْكُورين فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 3 صـ 39 . 50 ﴾

(201/593)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة العنكبوت

قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً) ، الآية/ 8 .

قد ذكرنا من قبل ما يتعلق ببر الوالدين .

قوله تعالى : (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ) :

الآية/ 45 .

روى ابن عباس وابن مسعود : تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

وقال ابن مسعود : الصلاة لا تنفع إلا من أطاعها .

وإنما قيل : تنهى عن الفحشاء والمنكر ، لاشتمالها على أفعال وأذكار لا يتخللها شيء من أمور الدنيا ، ولا فرض هو بهذه المنزلة ، فهي تنهى عن المنكر وتدعو إلى المعروف ، بمعنى أن ذلك مقتضاها .

قوله تعالى : (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) ، الآية/ 45 .

قال مجاهد : لذكر الله لكم برحمته أكبر من ذكركم له بطاعته .

قوله تعالى : (وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الآية/ 46 .

(202/593)

قال قتادة : نسخها قوله تعالى : (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ) «1» ، وقوله : (وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ) «2» :

قوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) ، الآية/ 46 :

يعني إلا الذين ظلموكم في جدالهم أو غيره مما يقتضي الإغلاظ لهم ، وهو نحو قوله تعالى : (وَلا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ) «3» .

وقال مجاهد : إلا الذين ظلموا منهم : مانعي الجزية .

وقيل إلا الذين ظلموا منهم : بالثبات على كفرهم بعد إقامة الحجة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 337. 338﴾

---

(1) سورة التوبة آية . 5

(2) سورة التوبة آية 36 . [. . . . .]

(3) سورة البقرة آية 191 .

(203/593)

ومن فوائد الشيخ صالح المغامسي فى السورة الكريمة :

1/ سورة العنكبوت هي سورة مكية وبعض من آيا تها مدنية . وعدد آياتها

69 __ آية . . ,

2/ نوح دعا قومه ألف سنة الاخمسين عاما وقد اخبر الله ذلك في كتابه الكريم وإخبار الله تعالى بمدة دعوته هو إخبار تحقيق وتثبيت وليس أخبار تقريب والسبب في ذلك هو أداة الإستثاء . , ﴿ إلا ﴾ . اقرا الأية رقم 14 , .

3/ [الطوفان] تعريفه: الماء الذي يحيطك من جميع الجهات . , والطوفان ارسله الله الى قوم نوح . , وكذلكا رسله الى قوم موسى . , وهناكا فرق بين طوفان نوح وطوفان موسى , والفرق ان طوفان موسى قوم موسى اخف .

4/ قال تعالى[[فأنجينه وأصحب السفينة وجعلنها ء اية للعلمين]] يقول احد السلف ان من نعم الله انه ابقى السفينة وجعلها عبرة وعظة . وكما اخبر العلماء ان السفينة موجودة في الموصل في احد انها العراق .

5/ذكر الله عزوجل . قصة نوح وغيرها من القصص . ومدة دعوته لقومه هي مخاطبة للرسول صلى الله علية وسلم . , لكي يتمهل في دعوة وانت اولى ان تصبر

6/ الرسل معصومون من الخطأ في الدين .

7/ ابراهيم عليه السلام هوابو الأنبياء لانه اغلب الأنبياء من ذريته .

8 . /جعل الله النبوة لنوح عليه السلام وابراهيم عليه السلام إكراما لهم, .

9 . / جعل الله النبوة في ذرية ابراهيم مستمرة الى أن انقطعت

10/ لم يركب مع نوح في السفينة إلا حام . وسام . ويافث .

11/ لم يؤمن مع ابراهيم عليه السلام إلا لوط كما في الأية رقم 26 .

12/ يعقوب ابن لاسحاق .

13/ كل الملل تتمنى ان تكون ملة ابراهيم ,قال تعالى[ما كان ابراهيم يهوديا ولانصرنيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين]

14/ وما لمناسبة التي بين قصة نوح علية السلام وقصة ابراهيم عليه السلام . يقول الشيخ

: ان الله عزوجل انجى الله نوح علية السلام من [الماء] وانجى الله ابراهيم علية السلام من النار وهذه الأمور لايقدر عليها إلا الله ,سبحانه,

(204/593)

15/ الهجرة الى الله هي التجارة الرابحة .

16/ الهجرة نوعان . 1_ هجرة بالبدن و2_ هجرة القلب .

17/ هجرة القلب قليل تصنع فما اقل من يهجر المعاصي والشهوات لله .

18/ أنت تملك قلب واحد فإما ان تهاجر به لله وإما تهاجر به للشيطان والشهوات

19/ كل أحد مهما كان تكبره على الخلق إلا انه يعلم انه ضعيف ومحتاج لله .

20/ شبه الله قريش بالعنكوت وشبه الأصنام ببيت العنكبوت .

21/ قريش تعلم ان شبك العنكبوت لاينفع . ولكنها لاتعلم ان الأصنام لاتنفع .

22/ ينبغي على الأنسان أن يتوكل على الله حق التوكل .

23/ لايمكن ان ينفعك أحد إلا بإذن الله , عزوجل وكما قال ذلك النبي صلى الله علية وسلم لابن عباس . (اعلم أن الأمة لو أجتمعوا على ان ينفعوك بشئ . . . .إلخ الحديث) .

24/ ماكان لله يبقى أثرة ولو زال حسيا

25/ ماكان لغير لله لايبقى أثره ولو بقي حسيا

26/ النبي صلى الله علية وسلم . امي منعه الله من القراءة والكتابة حتى تكون حجته اقوى .

27/ لايوجد منة أعظم من ان يكون القران بصدرك وتعمل به .

28/ سئل الشيخ: عن ايهم يبدا الأنسان بالحفظ او قراءة التفسير فأجاب : على حسب إستطاعة الأنسان ويستحسن ان يبدا بهما جميعا والأولى ان يبد بالحفظ حتى يقرأ ذلك في جوف الليل والقيام

29/ نهى الله عزوجل الرسول علية الصلاة والسلام . ان يمد عينيه الى زينة الحياة الدنيا وملذتها .

30/ لايخشع قلبك حتى تعلم ان مصدر الفلاح بفهم القران والسنة وتعمل بهما جميعا

31/ من يقوم بالقران في جوف الليل هوالمفلح .

32/ القران والتوراة والزبور والأنجيل هي منزلة من الله عزوجل .

33/ إنقسم الناس بهجر القران الى قسمين : 1_ منهم من قدم الكتب والمقالات على كتاب الله , وينبغي ان يقدم كتاب الله على كل شئ . 2_ من من إنشغل بالشهوات والملذات وزينة الحياة الدنيا والله المستعان .

34/ يجب على الشخص ان يحرص على قيام الليل . وان يصتصحب نعمة الله علية ان جعله يقوم .

(205/593)

35/ هل تريد شئ يعينك قيام الليل . ﴿ إقرأ بعض من الآيات بالنهار وافهمها واعمل بها , وإقرأ بصلاتك في جوف الليل .

36/ أعظم غاية هي عبادة الله فلاتنشغل عنها . , ومن إبتغى غيرها فقد خسر .

38/ زكريا دعا الله أن يرزقه ولد على كبر فأعطاه الله , وقد قبل زكريا هذه البشارة ولكن بشرط أن يجعل له آية فأعطاه الآية وهي الا يكلم الناس ثلاث ليال . , ولكنه امره ألا ينشغل عن ذكر الله قال تعالى[قال ءايتك ألا تكلم الناس ثلثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي ولإبكار .]

***

39/ لابد للأنسان ان يهاجر من الأرض التي يحال بينه وبين أن يعبد الله , فالرسول علية الصلاة والسلام . هاجر من مكه هو وأصحابة , على عظم مكة . ورغد العيش فيها , . ولانه قد احيل بينه وبين ان يعبد . الله .

40/ عنما يخاطب الله عزوجل . المومنين بأيها الذين آمنوا هو ندا تشريف, .

41/ ﴿كل﴾ هي تفيد العموم .

42/ النفس إذا كانت بالجسد تسمى نفس .

43/ النفس إذا خرجت من الجسد تسمى روح

44/ كل الأشياء كتب الله عليها العدم إلا ستة 1_ العرش . 2_ الجنة

3_ النار . 4_ القلم . عجب الذنب . 5_ اللوح وقد نسيت السادس فليتكم

تذكروني ؟ ؟ ؟ , .

45/ عندما ينفخ الملك الروح بالجنين تسري الروح بكل أعضاء الجسم, .

46/ إذا قبض الملك الموت الروح من الجسد . فأن الروح تنزع من كل أعضاء الجسد .

وهنا يتبين عملك فإن كنت من الصالحين فستزع روحك . كما تنزع الشعرة من العجين .

واما الفاجر فسيلقى من العذاب ما الله به عليم .

47/ كل الخلق منذ لين لله وحده . سبحانه .

48/ تفرد الله بإثنتين 1_ الخلق . 2_ والرزق .

49/ كثرة الرزق لاتعني الصلاح والتقى .

50/ الله هو من يتحكم بالرزق .

51/ هناك فرق بين الرزق والقوت 1_ الرزق عام بكل شئ . 2_ القوت هو مايخص

البدن .

52/ افضل الرزق . هو معرفة الدين والعمل به .

53/ الجنة هي اعظم الأرزاق . وهي الرزق الذي لاينفد .

54/ في هذه الحياة لاأحد يعلم صدقك مع الله ولكن في يوم المحشر يتبين ذلك .

(206/593)

55/ ليعلم كل إنسان أنه سيقف بين يدي الله عزوجل .

56/في هذه الحياة الدنيا يجب عليكان تجاهد نفسكفي طاعة الله,

57/ الله قد تكفل بمن جاهد نفسه في سبيل طاعة الله بالهداية .

58/ سأل بعضهم الشيخ عن الوحدة والجلوس من دون اصدقاء فأجاب الشيخ . : المؤمن إلف يألف ولابد للأنسان أن يكون علاقات مع الأخرين حتى يعينوه على ذلكولوتأملنا حديث الرسول صلى الله علية وسلم . مع جبريل علية السلام حينما يأتية يدارسه القران كان علية الصلاة والسلام أجود بالخير من الريح المرسلة فهذا دليل على ان الأصحاب يعينوك على الخير .

59/ سأل بعضهم الشيخ عن الفتور وعلاجه للملتزمين الجد وغيرهم فأجاب :التدرج

سنة ماضية, ولابد للإنسان ان يتدرج في عبادة الله ولايلزم نفسه إلا ما تتحمله . وهذا لايعني ترك الواجبات . أومن كان تحته أناس يقتدون به فلايحملهم إلا مايطيقون,

60/ سأل بعضهم الشيخ عن مسألة الإنتكاس فأجاب : من أعظم أسباب الإنتكاس هو عقوق الوالدين .

61/ سئل الشيخ عن الأسباب المعينة على قيلم الليل فأجاب:إنظر فائدة رقم 35 .

62/ سئل الشيخ عن حكم التصوير فأجاب: التصوير ينقسم إلى قسمين 1_ تصوير باليد وهوالنحت وهوالذي يدخل في عموم النهي . وأما مايكون عن طريق الألة فلاأرى انه يدخل في ذلك .

63/ سئل الشيخ عن دور المسلم تجاه من سب النبي صلى الله علية وسلم فأجاب 1_من أعظم الوسائل هي تطبيق سنته صلى الله علية وسلم . 2_المقاطعة وأنا أرى أنها هي أقرب للوجوب .

64/ سئل الشيخ عن خطر الذنوب فأجاب إجابة مختصرة وهي: ماحمل الأنسان شئ أعظم من أن يحمل ذنبه .

65/ سئل الشيخ كيف أكون عبدا صالح فأجاب: إن من أعظم التوفيق ان يكون لك والدان فتبرهما حق البر او ان يكون لك والدة فتحقق رغباتها قبل ان تطلب منك .

66/ حينما تبرا بإمك لا يعني ذلك لانها ولدك بل لان الله عزوجل أمرك .

67/ سئل الشيخ عن كتب التفسير : فقال تفسير بن كثير وايضا كتاب محاسن التأويل .

(207/593)

68/ سئلت أحد الأخوات الشيخ ان ينصح بعض الشباب ممن يشغلون الفتيات بالمعاكسات فأجاب :لاأحد أغير من الله وان الله يستطيع ان بفضح من يحاول إزعاج الفتيات العفيفات . بل لو تذكر ان سوف يدفن وحده . وانها سيرى العواقب الوخيمة لهذه الأعمال وأنه سيقف امام الله عزوجل وسيحاسبه .

69/ كلما زاد تعظيم الله عزوجل في قلب الشخص قلت المعاصي , عنده والعكس بذلك

70/ سئل الشيخ هل الذبيح اسحاق ام إسماعيل فأجاب : الأرجح من اقوال العلماء انه إسمعاعيل . وكلهما نبي,

﴿

وقد شرح الشيخ حفظه الله سورة البلد بين الأذان والإقامة شرحا علميا . ﴾

71/ قال تعالى[لاأقسم بهذا البلد] المراد بالبلد هد ومكة .

72/ والد البشر هو آدم علية السلام .

73/ قال تعالى[لقد خلقنا الإنسان في كبد] أول مايكابد الإنسان هو قطع سرته ومن ثم يكابد تعب هذه الحياة من البحث عن الغذا ء ومن ثم يعاني من سكرات الموت ومن ثم يعني من قبضت القبر وضمته ومن ثم يعني من ظلمته ومن ثم هول المحشر ولا راحة للمؤمن حتى يلقى الله .

74/ قال تعالى [إنا هديناه النجدين] كلمة [هدى] في القران إستخدمت في طريق الخير وفي الشر والمراد بالنجدين بحسب شرح الشيخ : هو النهدين وهما ثد يي المرأة فلولا فضل لما أهتدى هذا الجنين إلى هذا الثدي ين .

75/ ان أطعام الطعام من أعظم القربات لله .

76/ الإنفاق ينفسم إلى ثلاثة أفسام 1_إنفاق عام . 2_إنفاق أعلى من الأول وهو إنفاق ما كان من زيادة مال . 3_إنفاق مع حاجة وهو أعلى المنازل .

77/ في هذا الوقت مع إرتفاع الأسعار يستحسن الإطعام والأفضل الا يعرفوكا المساكين , فعندما تتصدق بالنهار وقد قرأت قول الله تعالى[أو إطعام في يوم ذي مسغبة] وكذلك عملت مابهذه الأية فتذهب وتقوم في جوف الليل وتقرأ هذه الآيات عندها ستستشعر لذة القيام والمناجاة وهي معينة بإذن الله .

78/ الإيمان يقدم على الإطعام,

79/ ينبغي على الإنسان ان يصبر على طاعة الله ويصبر غيره .

(208/593)

80/ أعظم من يجب ان ترحم هما والديك ومن ثم تعظم زوجتك وأولادك

81/ بعض الناس لايرحم أولاده . ولو علم بأن الرسول صلى الله علية وسلم قطع خطبته من ان يحملها لم قسى على أولاده .

82/ ذكر الشيخ: قصة الرجل الذي لايضرب أولاده من أجل أنه يتذكر فعل النبي علية الصلاة والسلام بالحسن والحسن . رضي الله عنهما .

83/ ضرب الأولاد جائز بالإتفاق إذا كان للتأديب ولكن لايكون ضربا مبرحا

84/ لاتقطع العلاقة مع إبنك فهو محتاج الى توجيهك وإرشادك

85/ قال الرسول صلى الله علية وسلم(إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)

86/ الناس أحد إثنين 1_إما ان يعرف الله ويسجد لله ويعظم الله . . أما 2_ لايعرف الله ولم يسجد له سجدة واحدة ولم يعقد يده لتسبيح الله,,,,, وذلك هوالخسران

87/ المؤمن حينما يلاقي الله يريه الله اعماله الصالحة فيفرح ! ومن ثم يريه أعماله السيئة

فيغفرها له فيزداد فرحه . وأما الفاسق . فيريه الله اعماله السيئة فيغتم لذلك ثم يريه الله نعمه علية وان الله يرزقه ومع ذلك فقد عصاه, . فيزداد غمه . ,

88/ لاتعلق قلبك إلا بالله عزوجل . ,

89/ إذا أردت حاجة فأسأل الله عزوجل ولاتتكل على غيره لانه غيره مخلوق مثلك .

90/ عندما تريد ان ترق قلبك فاسأل الله ولاتقول سوف احضر محاضرة فلان من الناس . حتى يرق قلبي لابل إسأل الله,

91/ إن رأى الله منك الصدق في الدعاء فسيستجيب الله لك

92/ لوقال رجل لزوجته انت طالق إلا أن تكوني كالقمر فإنها لاتطلق لان الله عزوجل يقول [لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم]

93/ حث الشيخ: على الإكثار من الاستغفار . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاضرات / للشيخ صالح المغامسي ﴾

(209/593)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة العنكبوت» (29)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«الم أَحَسِبَ النَّاسُ» (1 ، 2) ساكن لأنه جرى مجرى فواتح سائر السّور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجّى ومجاز موضعه فى المعنى مجاز ابتداء فواتح سائر السور . .

«وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ» (2) مجازه : وهم لا يبتلون ، من بلوته أي خبرته . .

«فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا» (3) مجازه : فليميزنّ اللّه لأن اللّه قد علم ذلك من قبل «1» . .

«مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ» (5) مجازه : من كان يخاف بعث اللّه ، قال أبو ذؤيب :

إذا لسعته الدّبر لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عوامل

(309) أي لم يخف . .

«وَإِنْ جاهَداكَ» (8) مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير كقوله : وقلنا له وإن جاهداك .

---

(1) . - 7 - 8 «فليعلمن . . قبل» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/ 393 .

«فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» (10) مجازه : جعل أذى الناس . .

«وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ» (11) مجازه : وليميزن اللّه هؤلاء من هؤلاء

. .

«اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» (12) مجازه : اتبعوا ديننا . .

«وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ» (13) مجازها : وليحملن أوزارهم «1»

وخطاياهم وأوزارا وخطايا مع أوزارهم وخطاياهم . .

«عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» (13) أي يكذبون ويخترعون . .

«الطُّوفانُ» (14) مجازه : كل ما طام فاش من سيل كان أو من غيره وهو كذلك من الموت

إذا كان جارفا فاشيا كثيرا ، قال :

أفناهم طوفان موت جارف

«2» [687].

«أَوْثاناً» (17) الوثن من حجارة أو من جصّ . .

«وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً»

(17) مجازه : تختلقون وتفترون . .

«وَاشْكُرُوا لَهُ» (17) واشكروه واحد .

(1) . - 5 «أوزارهم» : كما هو عند البخاري وقال ابن حجر هو قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 393) .

(2) . - 687 : فى الطبري 20/ 80 والقرطبي 13/ 334 . [. . . . .]

(211/593)

«أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ» (19) مجازه : كيف استأنف الخلق الأول . .

«ثُمَّ يُعِيدُهُ» (19) بعد ، يقال : رجع عوده على بدئه أي آخره على أوله ، وفيه لغتان يقال : أبدأ وأعاد وكان ذلك مبدئا ومعيدا وبدأ وعاد وكان ذلك بادئا وعائدا . .

«كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» (20) مجاز «يُنْشِئُ» يبدئ . .

«وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ» (21) أي ترجعون . .

«وَقَالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي» (26) كل من خرج من داره أو قطع شيئا فقد هاجر ومنه : مهاجر والمسلمين . .

«إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» (32) أي من الباقين الذين طالت أعمارهم فبقيت ثم أهلكت ، قال العجّاج :

فما ونى محمد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر

(249) وإذا كانت امرأة مع رجال كانت صفاتهم صفات الرجال كقولك : عجوزا من الغابرين ، وقوله : «كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ» (26/ 12) .

«سِيءَ بِهِمْ» (33) مجازه : فعل بهم من سؤت بنا . .

«تَرَكْنا مِنْها آيَةً» (35) مجازه : أبقينا منها علامة . .

«وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ» (36) مجازه : وأخشوا اليوم الآخر ، قال أبو ذؤيب :

إذا لسعته الدّبر لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عوامل

(309) أي لم يخف .

(212/593)

«وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (36) مجازه من : عثبت تعثى عثوّا هو أشد مبالغة من عثيت تعيث .

«جاثِمِينَ» (38) بعضهم على بعض ، وجاثمين لركبهم وعلى ركبهم . .

«وَما كانُوا سابِقِينَ» (39) مجازه : فائتين معجزين .

«أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً» (40) أي ريحا عاصفا فيها حصى ويكون فى كلام العرب : الحاصب من الجليد ونحوه أيضا ، قال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

(447) .

«وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ» (43) مجازها : هذه الأشباه والنظائر نحتجّ بها ، يقال اضرب لى مثلا : قال الأعشى :

«هل تذكر العهد فى تنمّص إذ تضرب لى قاعدا بها مثلا

«1» [689] .

«وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» (48) مجازه : ما كنت تقرأ من قبل القرآن حتى أنزل إليك ولا قبل ذلك من كتاب ، مجازه : ما كنت تقرأ كتابا ، و«من» من حروف الزوائد ، وفى آية أخرى : «فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» (69/ 47) مجازه : ما منكم أحد عنه حاجزين «وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ» أي ولا تكتب كتابا ،

---

(1) . - 689 : ديوانه ص 157 والطبري 2/ 91 ومعجم ما استعجم 1/ 323 ومعجم البلدان 1/ 880 «تنمص» : قال البكري بفتح أوله وثانيه . . . موضع هكذا رواه أبو حاتم وأنشد للأعشى البيت وروى أبو عبيدة صدر البيت . . . إلخ.

و مجازه مجاز المختصر الذي فيه ضمير كقولك : ولو كنت تقرأ الكتاب وتخطّه لارتاب المبطلون . .

«لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً» (58) مجازه : لننزلنهم ، وهو من قولهم :

«اللهم بوّئنا مبوّأ صدق» . .

«وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا» (60) مجازه : وكم من دابة ، ومجاز الدابة : أن كل شيء يحتاج إلى الأكل والشرب فهو دابة من إنس أو غيرهم . .

«الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ» (64) مجازه : الدار الآخرة هي الحيوان ، واللام تزاد للتوكيد ، قال الشاعر :

أمّ الحليس لعجوز شهربه ترضى من اللحم بعظم الرّقبه

(255) ومجاز الحيوان والحياة واحد ، ومنه قولهم : نهر الحيوان أي نهر الحياة ، ويقال : حييت حيا على تقدير : عييت عيّا فهو مصدر ، والحيوان والحياة اسمان منه «1» فيما تقول العرب ، قال العجّاج :

وقد ترى إذ الحياة حيّ

«2» [691] أي الحياة .

(1) . - 10 - 11 «الحيوان . . أسمان منه» : قال البخاري فى تفسير كلمة «الحيوان» : وقال غيره الحيوان والحي واحد وقال ابن حجر : وهو قول أبى عبيدة قال الحيوان . . اسمان (فتح الباري 8/ 392 393) وقال القرطبي (13/ 36 : وزعم أبو عبيدة أن الحيوان . . . واحد كما قال الراجز وغيره يقول إن الحي جمع على مفعول مثل عصى .

(2) . - 691 : ديوانه ص 67 واللسان (دعقل) والقرطبي 13/ 312 وشواهد المغني ص 18 .

(214/593)

«أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ» (68) مجازه مجاز الإيجاب لأن هذه الألف يكون للاستفهام وللايجاب فهى ها هنا للإيجاب ، وقال جرير :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

(43) فهذا لم يشك ، ولكن أوجب لهم أنهم كذلك ، ولولا ذلك ما أثابوه والرجل يعاتب عبده وهو يقول له : أفعلت كذا ، وهو لا يشك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 118.113 ﴾

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة العنكبوت

الابتلاء طبيعة هذه الدنيا التى نمر بها عابرين ، وننتقل إلى ما وراءها لنرى نتائج ما قدمنا ، نجاحا أو فشلا ، فإما إلى جنة وإما إلى نار ! . ويتفاوت هذا الاختبار شدة ولينا حسب الطبائع والأقدار والمهمات ، فبكاء امرأة ند لها بعير غير بكاء رجل فقد ولده ومجده فى معركة هى بالنسبة له خاسرة ! . إن الهموم تناسب الهمم ! . وما أعظم الفروق بين مآرب الناس ومتاعبهم ، وقد فطن إلى ذلك أبو الطيب عندما قال: على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام !المكارم ويكبر فى عين الصغير صغيرها وتصغر فى عين العظيم العظائم والمكلف بإصلاح حقل للزراعة غير المكلف بإصلاح العالم وتطويعه لعبادة الله ! . وقد نظرت إلى الدنيا يوم طرقها محمد – عليه الصلاة والسلام – فاستغربت حالها شرقا وغربا : جماهير هائمة تعبد الأصنام ، وتتبع هواها فى ظل هذه الوثنية السائدة . ويهود غايتهم العظمى خدمة أسرة يعقوب بزعم أنها الشعب المختار ! وأنهم سلالتها

المفضلة على العالمين ! . أما الإيمان والإصلاح والدعوة إلى الله الحق فمسألة ثانوية مؤخرة . . . ثم هناك النصارى الذين جعلوا عيسى إلها – وهو بشر كريم – وجعلوا جبريل إلها وهو ملك أمين ، وجعلوا الخالق الأعظم إلها ثالثا ، ثم قالوا : والكل بعدئذ إله واحد ! ! . لقد غابت الأرض فى ظلمات بعضها فوق بعض . وتجاه هذا الركام الكثيف جىء بمحمد – عليه الصلاة والسلام – وقيل له : أنت مكلف بتبديد هذه الغيوم كلها ، وقيادة الناس أجمعين إلى ربهم الذى تاهوا عنه . فى الحديث القدسى : " إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا " .

(216/593)

وإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك . . . ! ما أشد هذا الابتلاء ! رجل فذ يكلف بإصلاح العالم ، وتغيير مساره ودفع البشرية جمعاء فى طريق التوحيد والبر ! . لقد اعتمد على الله وحمل العبء ، وهو حمل تنوء به الجبال . ولكنه نهض به ، وكون من حوله صحابة أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وتعرض معهم للغربة والشدة والمعارك المتصلة . . وقاوم تقاليد

راسية ، ودولا عظمى ، ولم يتقهقر أو تلن قناته حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا . . .

وبديها أن يجزع البعض من هذا التكليف الشاق ، وأن يتراجع أمام الإهانات والمصائب ، ولكن الوحى ينزل " الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين " ما أشبه الليلة بالبارحة . إن العالم الآن متنكر لربه ، شارد عن سبيله ، وعلى رجال محمد أن يواجهوا الأعداء التقليديين ، وأن يعودوا بالجماهير إلى عبادة الله الواحد ، وأن يتحملوا متاعب هذا البلاء . وفى سورة العنكبوت يقول الله : " ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين " . وفى آخر السورة وعدا صادق من الله سبحانه يقول فيه: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين " . من اللطائف أن اسم المتوكل من أسماء النبى – صلى الله عليه وسلم – وهل العودة بالبشرية التائهة إلى ربها عمل سهل ؟ . ! وهل اعتراض الدول العظمى جهاد خفيف ، إنه لابد فيه من توكل على الله ، وأمل فيه لا يخبو سناه . . إنه لابد فيه من منكب قوى وعزم حديد " ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين " . وهناك من يستعجل ثمرات هذا الجهاد أو يستطيل مراحله ! . وتعليما لهؤلاء ذكرت السورة أن نوحا ظل يدعو ألف سنة إلا خمسين عاما .

وهناك من يغيب عنه المنطق العقلى فى التعريف بالله ، ويظن الجهاد حماسا أجوف . وتعليما لهؤلاء سد القرآن بعض ما تبعه إبراهيم فى منهجه " أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة " . وهناك من طغت حيوانيتهم فأسرفوا فى الشهوات الجنسية إسرافا منكورا ، وشذوا عن سنة الفطرة فى الزواج الشريف ، فقال لوط لهم : " إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر " . والغريب أن مدنية الغرب سارت فى الطريق نفسه ، حذو النعل بالنعل ، وهى الآن تتعرض لطاعون " الإيدز " والسبب أنهم رفضوا الإطار الذى صنعه الإسلام حول الشهوة الجنسية ، وكيف جعل الزواج عبادة ، وكيف صنع سدودا أمام المثيرات والمغريات بالحرام . ومضت السورة تحصى أمما تمردت على الله وكرهت منهاجه ، فماذا وقع لها ؟ " فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا . . . . " . هل القوى المرهوبة وقفت أمام العقوبات الإلهية ؟ كلا ، كما تعصف الريح ببيت العنكبوت

عصفت بكيانهم فصار هباء . " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون " .

فليتحمل المجاهدون الأعباء ، وليثقوا بالمستقبل إما فى هذه الدنيا ، وإلا ففى يوم الجزاء .

أهل الكتاب صنفان: صنف لا يضن علينا بحق الحياة والعبادة والدعوة ، بل يدعنا وشأننا ، وهؤلاء لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ولا تخفر لهم ذمة ، ولا ينقض لهم عهد ! . وصنف آخر يضيق بنا وبكتابنا ونبينا ، ويسعى لنقض بنائنا ، وتنكيس لوائنا ، ومن حقنا أن نتحفظ من هؤلاء ونحتاط ! ولا يكلفنا عاقل أن نأمن لهم ! . وسورة العنكبوت تتضمن إرشادا عاما فى معاملة هؤلاء وأولئك " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل

(218/593)

إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون * وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون " .

ووددت لو أن "لجنة" من المحايدين العقلاء نظرت فى العلاقة بين الشرق والغرب على امتداد

التاريخ الماضى والمعاصر ، وكشفت عن مثيرى الحروب الدامية بينهما ، خصوصا المدة

من زحف الرومان على العالم ، ووقوع غرب آسيا وشمال إفريقية فى أيديهم . أكان الإسلام معتديا حين حرر هذه الأقطار من براثنهم ؟ ثم عاود أبناؤهم وأشياعهم الهجوم فى الحروب الصليبية الأولى ، فردوا على أعقابهم بعد مئات السنين من الكر والفر . ثم عادوا فى العصر الحديث بدءاً من هجوم نابليون على مصر ، وموسولينى على ليبيا والحبشة ، وتأليفه وزارة للمستعمرات الإسلامية ! ثم اجتاح الفرنسيون دول المغرب كلها ، واجتاح الإنكليز وادى النيل . وسقطت القارة الإسلامية فى يد أهل الكتاب ، فهل نحن المعتدون فى هذه الحروب الآثمة ؟ . واليوم تسعى جماهير المسلمين إلى العيش بدينها فيحرمون منه ، وتكال لهم التهم ، فأين الإنصاف فى هذا المسلك ؟ . والمسلمون يؤمنون بكل سطر فى كتابهم ، ويودون العمل به ، فلماذا يمنعونهم منه ؟ ويتطاولون على صاحبه ؟ ويتهمونه بالكذب ؟ " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون " . إن الفتنة بمظالم أهل الكتاب شديدة . وقد شنوا فى هذه الأيام هجوما عاما ليردوا المسلمين عن دينهم ويقفصوا العمل به فى أضيق نطاق حتى يتم القضاء عليه شكلا وموضوعا ! ! . وقد رددت سورة العنكبوت شبهة طالما أثارها الوثنيون عندما طالبوا محمد بخوارق العادات معجزة له ، فقيل لهم: المعجزة المنشودة فى هذا الكتاب الذى يسمعون آياته ! " وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا

(219/593)

أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون " . إن القرآن معجزة باقية على امتداد العصور ، وأثره النفسى والاجتماعى عميق ، وقد حفظ أمتنا فى أشد الأزمات التى نزلت بنا ، ولم أر كتابا مثله فى إنشاء علاقة بين المرء وربه تقوم على التقوى واليقين . أما تعريفه بالله من خلال النظر فى الكون . فاسأل علماء المادة هل وجدوا فى هذا التعريف إلا ما بهر وسر ؟ لماذا ؟ لأنه " أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما " .

(220/593)

ولقد هززت رأسى عجبا وأنا أسمع كاهن الفاتيكان الأعظم يناشد الناس أن يستعملوا الأغشية الواقية من الإيدز عندما يباشرون العلاقات المحرمة ! . أهذه غاية الجهد ؟ أهذا عمل الدين ؟ . إن القرآن يصنع أجيالا تصحب ربها بمشاعر الرغبة والرهبة ، وتجعل من هذه الصحبة أسلوب حياة ومنهج سلوك شريف ! ! . وذلك بعض إعجاز الكتاب

الكريم . وقد تطول المعارك بين الحق والباطل ، وتفدح مغارمها ويتساءل العجلون متى النصر ؟ ويقول الكافرون: أين ما تهددوننا به ؟ " ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون " . وقد ترادفت على المسلمين الفتن وقيل للتاجر الصغير فى مكة: أغلق دكانك وهاجر لتقيم دولة الإسلام . ويتساءل التاجر الفقير: كيف أعيش هناك ؟ فيجاب بهذه الآية " وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم " ! وتتم الهجرة ويتعاون المهاجرون والأنصار ويتحقق النصر بعد ابتلاء صعب ! . إن الإيمان الذى صنعه القرآن صنع العجائب ولا يزال يصنع . . إذا كان هناك فى عصرنا الذى ملكته الحضارة الحديثة وغزته بفلسفتها المادية من يعبد الحياة ، ويجحد ما بعدها فإن هناك مسلمين يؤمنون بالدنيا والآخرة ، ويعلمون أن الوجود هنا موقوت وقاصر ، أما هناك فبصر أحد ، وسمع أقوى ، وشهود لا يغلبه حجاب ! " وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون " . وتختم سورة الابتلاء بهذا التساؤل " ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين * والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 305 . 309 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والتسعون بعد الخمسمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والتسعون بعد الخمسمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة العنكبوت

وحتى الآية ﴿ 9 ﴾ من نفس السورة

(4/594)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/594)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة العنكبوت

أقول ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما أخبر في أول السورة السابقة عن فرعون أنه: (علا في الأَرضِ وجعل َأَهلِها شيعاً يستضعف طائفة مِنهُم يذبح أَبناءهم ويستحي نساءهم) افتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الإيمان ،

بعذاب دون ما عذب به قوم فرعون بني إسرائيل ، تسلية لهم ، بما وقع لمن قبلهم ، وحثا لهم على الصبر ، ولذلك قال هنا : (ولَقد فتنّا الذينَ مِن قبلِهم) وهذه أيضاً من حكم تأخير القصص على (طس) وأيضاً فلما كان في خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله: (يا عبادي إِن أَرضي واسعة) ناسب تتاليهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 123 ﴾

(6/594)

قوله تعالى ﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

(بسم الله) الذي أحاط بجميع القوة فأعز جنده (الرحمن) الذي شمل جميع العباد بنعمة الأمر والنهي (الرحيم) الذي ألزم أهل العرفان ذروة الإحسان .

لما ختم السورة الماضية بالحث على العمل للدار الآخرة ، وأن كل أحد من محسن مسيء

مجزى بعمله ، وبالإخبار بأنه سبحانه عالم بالسر والعلن ، بالأمر بالاجتهاد فيالدعاء إليه وقصر الهمم عليه وإن أدى ذلك إلى الملال ، وذهاب النفس والأموال ، معللاً بأن له الحكم سبحانه لأنه الباقي بلا زوال ، وكل ما عداه فإلى تلاش واضمحلال ، وأنه لا يفوته شيء في حال ولا مآل ، قال أول هذه :

﴿ الم ﴾ إشارة بالألف الدال على القائم الأعلى المحيط ولام الوصلة وميم التمام بطريق الرمز إلى أنه سبحانه أرسل جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام ليدعو الناس بالقرآن الذي فرض عليه إلى الله ، لتعرف بالدعوة سرائرهم ويتميز بالتكليف محقهم ومماكرهم ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [محمد : 31] . ولما عبر بهذه الإشارة لأهل الفطنة والبصائر ، قال منكراً على من ظن أن مدعي الإيمان لا يكلف البيان ، ومفصلاً لما ختمت به تلك من جميع هذه المعاني ، بانياً على ما أشارت إليه الأحرف لأولي العرفان : ﴿ أحسب الناس ﴾ أي كافة ، فإن كلاًّ منهم يدعي أنه مؤمن لمعنى أنه يقول : إنه على الحق ، ولعله عبر بالحسبان والنوس إشارة إلى أن فاعل ذلك مضطرب العقل منحرف المزاج .

(7/594)

ولما كان الحسبان ، لا يصح تعليقه بالمفردات ، وإنما يعلق بمضمون الجملة ، وكان المراد إنكار حسبان مطلق الترك ، كانت " أن " مصدرية عند جميع القراء ، فعبر عن مضمون نحو : تركهم غير مفتونين لقولهم آمناً ، بقوله : ﴿ أن يتركوا ﴾ أي في وقت ما بوجه من الوجوه ، ولو رفع الفعل لأفهم أن المنكر حسبان الترك المؤكد ، فلا يفيد إنكار ما عرى عنه ، وقد مضى في المائدة ما ينفع هنا ﴿ أن ﴾ أي في أن ﴿ يقولوا ﴾ ولو كان ذلك على وجه التجديد والاستمرار : ﴿ آمنا وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ لا يفتنون ﴾ أي يقع فتنتهم ممن له الأمر كله وله الكبرياء في السماوات والأرض ، مرة بعد أخرى بأن يختبر صحة قولهم أولاً بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الأحكام ، وثانياً بالصبر على البأساء والضراء عند الابتلاء بالمدعوين إلى الله في التحمل لأذاهم والتجرع لبلاياهم وغير ذلك من الأفعال ، التي يعرف بها مرتبة الأقوال ، في الصحة والاختلال .

(8/594)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : افتتحت سورة القصص بذكر امتحان بني إسرائيل بفرعون وابتلائهم بذبح أبنائهم وصبرهم على عظيم تلك المحنة ، ثم ذكر تعالى حسن عاقبتهم وثمرة صبرهم ، وانجرّ مع ذلك مما هو منه لكن انفصل عن عمومه بالقضية امتحان أم موسى

بفراقه حال الطفولية وابتداء الرضاع وصبرها على أليم ذلك المذاق حتى رده تعالى إليها أجمل رد وأحسنه ، ثم ذكر ابتلاء موسى عليه الصلاة والسلام بأمر القبطي وخروجه خائفاً يترقب وحن عاقبته وعظيم رحمته ، وكل هذا ابتلاء أعقب خيراً ، وختم برحمة ثم بضرب آخر من الابتلاء أعقب محنة وأورث شراً وسوء فتنة ، وهو ابتلاء قارون بماله وافتنانه به ، فخسفنا به وبداره الأرض ، فحصل بهذا أن الابتلاء في غالب الأمر سنة ، وجرت منه سبحانه في عبادة ليميز الخبيث من الطيب ، وهو المنزه عن الافتقار إلى تعرف أحوال العباد بما يبتليهم به إذ قد علم كون ذلك منهم قبل كونه إذ هو موجده وخالقه خيراً كان أو شراً ، فكيف يغيب عنه أو يفتقر تعالى إلى بيانه بتعرف أحوال العباد أو يتوقف علمه على سبب

(9/594)

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14] ولكن هي سنة في عباده ليظهر لبعضهم من بعض عند الفتنة والابتلاء ما لم يكن ليظهر قبل ذلك حتى يشهدوا على أنفسهم ، وتقوم الحجة عليهم باعترافهم ، ولا افتقار به تعالى إلى شيء من ذلك ، فلما تضمنت سورة القصص هذا الابتلاء في الخير والشر ، وبه وقه افتتاحها واختتامها ، هذا وقد أنجز

بحكم الإشارة أولاً خروج نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بلده ومنشأه ليأخذه عليه الصلاة ولاسلام بأوفر حظ مما ابتلي به الرسل والأنبياء من مفارقة الوطن وما يحرز لهم الأجر المناسب لعليّ درجاتهم عليهم السلام ، ثم بشارته ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخراً بالعودة والظفر ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ [القصص : 85] فأعقب سبحانه هذا بقوله معلماً للعباد ومنبهاً أنها سنته فيهم فقال ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ أي أحسبوا أن يقع الاكتفاء بمجرد استجابتهم ، وظاهر إنابتهم ، ولما يقع امتحانهم بالشدائد والمشقات ، وضروب الاختبارات ﴿ ولنبلونكم بشيء من الجوع والخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ [البقرة : 155] فإذا وقع الابتلاء فمن فريق يتلقون ذلك تلقي العليم أن ذلك من عند الله ابتلاء واختباراً ، فيكون تسخيراً لهم وتخليصاً ، ومن فريق يقابلون ذلك بمرضاة الشيطان ، والمسارعة إلى الكفر والخذلان ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ ثم أتبع سبحانه هذا بذكر حال بعض الناس ممن يدعي الإيمان ، فإذا أصابه أدنى أذى من الكفار صرفه ذلك عن إيمانه ، فكان عنده مقاوماً بعذاب الله الصارف لمن ضربه عن الكفر والمخالفة فقال تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ فكيف حال هؤلاء في تلقي ما هو أعظم من الفتنة ، وأشد في المحنة ، ثم أتبع سبحانه ذلك بما به

يتأسى الموفق من صبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وطول مكايدتهم من قومهم ، فذكر نوحاً

(10/594)

وإبراهيم ولوطاً وشعيباً عليهم الصلاة والسلام ، وخص هؤلاء بالذكر لأنهم من أعظم الرسل مكابدة وأشدهم ابتلاء ، أما نوح عليه السلام فلبث في قومه – كما أخبر الله تعالى – ألف سنة إلا خمسين عاماً وما آمن معه إلا قليل ، وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فرمى بالمنجنيق في النار فكانت عليه برداً وسلاماً ، وقد نطق الكتاب العزيز بخصوص المذكورين عليهم الصلاة والسلام وزبضروب من الابتلاءات حصلوا على ثوابها ، وفازوا من عظيم الرتبة النبوية العليا بأسنى نصابها ، ثم ذكر تعالى أخذ المكذبين من أممهم فقال ﴿ فكلاًّ أخذنا بذنبه ﴾ ثم وصى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأوضح حجته ، وتتابع اتساق الكلام إلى آخر السورة – انتهى .

ولما كان التآسي من سنن الآدميين ، توقع المخاطب بهذا الأمر الخبر عن حالهم في ذلك ، فقال مؤكداً لمن يظن أن الابتلاء لا يكون ، لأن الله غني عنه فلا فائدة فيه جاهلاً بما فيه من الحكمة بإقامة الحجة على مقتضى عوائد الخلق : ﴿ ولقد ﴾ أي أحسبوا والحال أنا قد

﴿ فتنا ﴾ أي عاملنا بما لنا من العظمة معاملة المختبر ﴿ الذين ﴾ .

ولما كان التآسي بالقريب في الزمان أعظم ، أثبت الجار في قوله : ﴿ من قبلهم ﴾ أي من قبل هؤلاء الذين أرسلناك إليهم من أتباع الأنبياء حتى كان الرجل منهم يمشط لحمه بأمشاط الحديد ما يرده ذلك عن دينه ، ومن رؤوسهم صاحب أكثر السورة الماضية موسى عليه الصلاة والسلام ، ففي قصته حديث طويل عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يقال له حديث الفتون وهو في مسند أبي يعلى ، ومن آخر ما ابتلى به أمر قارون وأتباعه .

(11/594)

ولما كان الامتحان سبباً لكشف مخبآت الإنسان بل الحيوان ، فيكرم عنده أو يهان ، وأرشد السياق إلى أن المعنى : فلنفتننهم ، نسق به قوله : ﴿ فليعلمن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ، بفتنة خلقه ، علماً شهودياً كما كان يعلم ذلك علماً غيبياً ، ويظهره لعباده ولو بولغ في ستره ، وعبر بالاسم الأعظم الدال على جميع صفات الكمال التفاتاً عن مظهر العظمة إلى أعظم منه تنبيهاً للناقصين – وهم أكثر الناس – على أنه منزه عن كل شائبة نقص ، وأكد إشارة إلى أن أكثر الناس يظن الثبات عند الابتلاء وأنه إذا أخفى عمله لا يطلع عليه أحد ﴿ الذين صدقوا ﴾ في دعواهم الإيمان ولو كانوا في أدنى مراتب الصدق ،

وليعلمن الصادقين ، وهم الصابرون الذين يقولون عند البلاء ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ فيكون أحدهم عند الرخاء براً شكوراً ، وعند البلاء حراً صبوراً ، وليعلمن الذين كذبوا في دعواهم ﴿ وليعلمن الكاذبين ﴾ أي الراسخين في الكذب الذين يعبدون الله على حرف ، فإن أصابهم خير اطمأنوا به وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم ، فظنوا ، فيكون لكل من الجزاء على حسب ما كشف منه البلاء ، والتعبير بالمضارع لتحقق الاختبار ، على تجدد الأعصار ، لجمعي الأخيار والأشرار ، فمن لم يجاهد نفسه عند الفتنة فيطيع في السراء والضراء كان من الكافرين فكان في جهنم ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ ومن جاهد كان من المحسنين ، والآية من الاحتباك : دل بالذين صدقوا على الذين كذبوا ، وبالكاذبين على الصادقين ، ذكر الفعل أولا دليلاً على تقدير ضده ثانياً ، والاسم ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً .

(12/594)

ولما أثبت سبحانه بهذا علمه الشامل وقدرته التامة في الدنيا ، عادله بما يستلزم مثل ذلك في الآخرة ، فكان حاصل ما مضى من الاستفهام : أحسب الناس أنا لا نقدر عليهم ولا نعلم أحوالهم في الدنيا أم حسبوا أنهم ذلك لا يكون في الأخرى ، فيذهب ظلمهم في الدنيا

وتركهم لأمر الله وتكبرهم على عبادة مجاناً ، فيكون خلقنا لهم عبثاً لا حكمة فيه ، بل الحكمة في تركه ، وهذا الثاني هو معنى قوله منكراً أم حسب ، أو يكون المعنى أنه لما انكر على الناس عموماً ظنهم الإهمال ، علم أن أهل السيئات أولى بهذا الحكم ، فكان الإنكار عليهم أشد ، فعادل الهمزة بأم في السياق الإنكار كما عادلها بها في قوله :

﴿ أتخذتم عند الله عهداً ﴾ [البقرة : 80] الآية ، فقال : ﴿ أم حسب ﴾ أي ظن ظناً يمشي له ويستمر عليه ، فلا يبين له جهله فيه بأمر يحسبه فلا يشتبه عليه بوجه ﴿ الذين يعملون السيئات ﴾ أي التي منعناهم بأدلة النقل المؤيدة ببراهين العقل – منها بالنهي عنها ، ووضع موضع المفعولين ما اشتمل على مسند ومسند إليه من قوله : ﴿ أن يسبقونا ﴾ أي يفوتونا فوت السابق لغيره فيعجزونا فلا نقدر عليهم في الدنيا بإمضاء ما قدرناه عليهم من خير وشر في أوقاته التي ضربناها له ، وفي الدار الآخرة بأن نحييهم بعد أن نميتهم ، ثم نحشرهم إلى محل الجزاء صغرة داخرين ، فنجازيهم على ما عملوا ونقتص لمن أساؤوا إليه منهم ، ويظهر تحلينا بصفة العدل فيهم .

ولما أنكر هذا ، عجب ممن يحوك ذلك في صدره تعظيماً لإنكار فقال : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ما أسوأ هذا الذي أوقعوا الحكم به لأنفسهم لأن أضعفهم عقلاً لا يرضى لعبيده أن يظلم بعضهم بعضاً ثم لا ينصف بينهم فكيف يظنون بنا ما لا يرضونه لأنفسهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 533 . 537 ﴾

"القراءات والوقوف"

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

الوقوف: ﴿ الم ﴾ كوفي. ﴿ لا يفتنون ﴾ 5 ﴿ الكاذبين ﴾ 5 ﴿ يسبقونا ﴾ ط ﴿ يحكمون ﴾ 5ج ﴿ لآت ﴾ ط ﴿ العليم ﴾ 5 ﴿ لنفسه ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ يعملون ﴾ 5 ﴿ حسناً ﴾ ط ﴿ فلا تطعهما ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ 5 ﴿ الصالحين ﴾ 5 ﴿ كعذاب الله ﴾ ط ﴿ معكم ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ 5 ﴿ المنافقين ﴾ 5 ﴿ خطاياكم ﴾ ط ﴿ شيء ﴾ ط ﴿ لكاذبون ﴾ 5 ﴿ مع أثقالهم ﴾ ط فصلاً بين الأمرين المعظمين مع اتفاق الجملتين. ﴿ يفترون ﴾ 5 ﴿ عاماً ﴾ ط لحق الحذف اي فلم يؤمنوا فأخذهم ﴿ الطوفان ﴾ ط ﴿ ظالمون ﴾ 5 ﴿ للعالمين ﴾ 5. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 5 صـ 367. 368 ﴾

فصل

قال الفخر :

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

المسألة الأولى :

في تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه الأول : لما قال الله تعالى قبل هذه السورة : ﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ [القصص : 85] وكان المراد منه أن يرده إلى مكة ظاهراً غالباً على الكفار ظافراً طالباً للثأر ، وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى : ﴿ آلم أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا ﴾ ولا يؤمروا بالجهاد الوجه الثاني : هو أنه تعالى لما قال في أواخر السورة المتقدمة ﴿ وادع إلى رَبِّكَ ﴾ [القصص : 87] وكان في الدعاء إليه الطعان والحراب والضراب ، لأن النبي عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد إن لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾ الوجه الثالث : هو أنه تعالى لما قال في آخر السورة المتقدمة ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَه ﴾ ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال : ﴿ لَهُ الحكم وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : 88] يعني ليس كل شيء هالكاً من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع إلى الله .

إذا تبين هذا ، فاعلم أن منكري الحشر يقولون لا فائدة في التكاليف فإنها مشاق في الحال

ولا فائدة لها في المآل إذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال ، فلا فائدة فيها .

فلما بين الله أنهم إليه يرجعون بين أن الأمر ليس على ما حسبوه ، بل حسن التكليف ليثيب الشكور ويعذب الكفور فقال : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾ غير مكلفين من غير عمل يرجعون به إلى ربهم .

المسألة الثانية :

(15/594)

في حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجي ، ولنقدم عليه كلاماً كلياً في افتتاح السور بالحروف فنقول : الحكيم إذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الأشغال يقدم على الكلام المقصود شيئاً غيره ليلتفت المخاطب بسببه إليه ويقبل بقلبه عليه ، ثم يشرع في المقصود .

إذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاماً له معنى مفهوم ، كقول القائل اسمع ، واجعل بالك إلي ، وكن لي ، وقد يكون شيئاً هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويازيد وألا يازيد ، وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتاً غير مفهوم كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه ، وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الإنسان بيديه ليقبل

السامع عليه .

ثم إن موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم ، كان المقدم على المقصود أكثر .

ولهذا ينادي القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يا زيد ، والغافل ينبه أولاً فيقال ألا يا زيد .

إذا ثبت هذا فنقول إن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان يقظان الجنان لكنه إنسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفاً هي كالمنبهات ، ثم إن تلك الحروف إذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في إفادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى ، لأن تقديم الحروف إذا كان لإقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فإذا كان ذلك المقدم كلاماً منظوماً وقولا مفهوماً فإذا سمعه السامع ربما يظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه .

(16/594)

أما إذا سمع منه صوتاً بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود ، فإذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة ، فإن قال قائل فما الحكمة في اختصاص بعض السور بهذه

الحروف ؟ فنقول عقل البشر عن إدراك الأشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز ، والله أعلم بجميع الأشياء ، لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة في أوائلها حروف التهجي فإن في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى :

(17/594)

﴿ الم * ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 1 ، 2] ﴿ الم * الله لا إله إلاَّ هُوَ الحى القيوم * نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب ﴾ [آل عمران : 1 3] ، ﴿ المص * كتاب أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : 1 ، 2] ، ﴿ يس * والقرءان ﴾ [ياس : 1 ، 2] ، ﴿ ص والقرءان ﴾ [ص : 1] ﴿ ق والقرءان ﴾ [ق : 1] ، ﴿ الم * تَنزِيلُ الكتاب ﴾ [السجدة : 1 ، 2] ، ﴿ حم * تَنزِيلُ الكتاب ﴾ [الجاثية : 1 ، 2] إلا ثلاث سور ﴿ كهيعصا ﴾ [مريم : 1] ، ﴿ الم * أَحَسِبَ الناس ﴾ ، ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم ﴾ [الروم : 1 ، 2] والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي أن القرآن عظيم والإنزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل : 5] وكل سورة في أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه ، لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظاً أو لم يكن ،

فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منبه ، وأيضاً فقد وردت سورة فيها ذكر الإنزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذى أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب ﴾ [الكهف : 1] وقوله : ﴿ سُورَةٌ أنزلناها ﴾ [النور : 1] وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذى نَزَّلَ الفرقان ﴾ [الفرقان : 1] وقوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] لأنا نقول جواباً عن الأول لا ريب في أن كل سورة من القرآن لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فإن قوله تعالى : ﴿ طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القرءان ﴾ [طه : 1 ، 2] مع أنها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما ، وكتاب آخر يرد منه عليه فيه : إنا كتبنا إليك كتباً إليك كتباً فيها أوامرنا فامتثلها ، لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل

(18/594)

الأول وعن الثاني أن قوله : ﴿ الحمد للَّهِ ، وَتَبَارَكَ الذى ﴾ تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج إلى منبه بخلاف الأوامر والنواهي ، وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح ﴿ سُورَةٌ أنزلناها ﴾ قد بينا أنها من القرآن فيها ذكر إنزالها وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم في النفس وأثقل .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ فنقول هذا ليس وارداً على مشغول القلب بشيء غيره بدليل أنه ذكر الكناية فيها وهي ترجع إلى مذكور سابق أو معلوم وقوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ الهاء راجع إلى معلوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فكان متنبهاً له فلم ينبه ، واعلم أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] وقوله ﴿ يا أيها النبى اتق الله ﴾ [الأحزاب : 1] ﴿ يا أيها النبى لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [التحريم : 1] لأنها أشياء هائلة عظيمة ، فإن تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها تنبيهاً ، وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن ، وذلك لأن القرآن ثقله وعبئه بما فيه من التكاليف والمعاني ، وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا ﴾ يعني لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي فإن قيل مثل هذا الكلام ، وفي معناه ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا مِنكُمْ ﴾ [التوبة :

16] ولم يقدم عليه حروف التهجي فنقول الجواب عنه في غاية الظهور ، وهو أن هذا ابتداء كلام ، ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال ﴿ أَحَسِبَ ﴾ وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون في أول الكلام لا في أثنائه ، وأما ﴿ الم * غُلِبَتِ الروم ﴾ [الروم : 1 ، 2] فسيجيء في موضعه إن شاء الله تعالى هذا تمام الكلام في الحروف .

المسألة الثالثة :

(20/594)

في إعراب ﴿ الم ﴾ وقد ذكر تمام ذلك في سورة البقرة مع الوجوه المنقولة في تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه أن الحروف لا إعراب لها لأنها جارية مجرى الأصوات المنبهة .

المسألة الرابعة :

في سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال : الأول : أنها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة الثاني : أنها نزلت في أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون الثالث : أنها نزلت في مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر .

المسألة الخامسة :

في التفسير قوله : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾ يعني أظنوا أنهم يتركون بمجرد قولهم آمنا وهم لا يفتنون لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية ، واختلف أئمة النحو في قوله : ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ فقال بعضهم : أن يتركوا بأن يقولوا ، وقال بعضهم : أن يتركوا يقولون آمنا ، ومقتضى ظاهر هذا أنهم يمنعون من قولهم آمنا ، كما يفهم من قول القائل تظن أنك تترك أن تضرب زيد أي تمنع من ذلك ، وهذا بعيد فإن الله لا يمنع أحداً من أن يقول آمنت ، ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بإيجاب الفرائض عليهم .

المسألة السادسة :

(21/594)

في الفوائد المعنوية وهي أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة والمقصد الأعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر " لا يزال العبد يتقرب إلي بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلأ من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله " لكن للقلب ترجمان وهو اللسان ، وللسان مصدقات هي الأعضاء ، ولهذه المصدقات مزكيات فإذا قال الإنسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله في الجنان ، فلا بد له من شهود فإذا استعمل الأركان في الإتيان

بما عليه بنيان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فإذا بذل في سبيل الله نفسه وماله ، وزكى بترك ما سواه أعماله ، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله ، فيحرر في جرائد المحبين اسمه ، ويقرر في أقسام المقربين قسمه ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾ يعني أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين ، بل لا بد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين .

(22/594)

فائدة ثانية : وهي أن أدنى درجات العبد أن يكون مسلماً فإن ما دونه دركات الكفر ، فالإسلام أول درجة تحصل للعبد فإذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه ، لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضاً في شغله ماضياً في فعله ، فينقل من خدمة إلى خدمة أعلى منها مرتبة ، ومنهم من يكون كسلاناً متخلفاً فينقل من خدمة إلى خدمة أدنى منها ، ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ، ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه ، فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابداً مقبلاً على العبادة مقبولاً للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين إلى درجة الموقنين وهي درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلاً بالخلاعة ، فينقل إلى مرتبة دونه وهي مرتبة العصاة

ومنزلة القساة ، وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العبادة محروماً ويلحق بأهل العناد مرجوماً ، ومنهم من يبقى في أول درجة الجنة وهم البله ، فقال الله بشارة للمطيع الناهض ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾ يعني أظنوا أنهم يتركون في أول المقامات لا ، بل ينقلون إلى أعلى الدرجات كما قال تعالى : ﴿ والذين أُوتُواْ العلم درجات ﴾ [المجادلة : 11] ﴿ فَضَّلَ الله المجاهدين . . .

عَلَى القاعدين دَرَجَةً ﴾ [النساء : 95] .

وقال بضده للكسلان ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا ﴾ يعني إذا قال آمنت ويتخلف بالعصيان يترك ويرضى منه ، لا بل ينقل إلى مقام أدنى وهو مقام العاصي أو الكافر .

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)

(23/594)

ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال : كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم ﴿ آمنا ﴾ بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم وفي قوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ وجوه : الأول : قول مقاتل فليرين الله الثاني : فليظهرن الله الثالث : فليميزن الله

، فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان ، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع ، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيداً مثلا سيطيع وعمراً سيعصي ، ثم وقت التكليف والإتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الإتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال ، وإنما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من الحسيات ولله المثل الأعلى ، وهو أن المرآة الصافية الصقيلة إذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابساً ثوباً أبيض ظهر فيها زيد في ثوب أبيض ، وإذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع في ذهن أحد أن المرآة في كونها حديداً تغيرت ، أو يقع له أنها في تدويرها تبدلت ، أو يذهب فهمه إلى أنها في صقالتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن سكانها انتقلت ، لا يقع لأحد شيء من هذه الأشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات ، فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال ، فإن المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ ﴾ يعني يقع ممن يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ يعني من قال أنا مؤمن وكان صادقاً عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقاً كذلك يبين ،

وفي قوله : ﴿ الذين صَدَقُوا ﴾ بصيغة الفعل وقوله ﴿ الكاذبين ﴾ باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف

(24/594)

في اللفظ أدل على الفصاحة ، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال في حق المؤمنين ﴿ الذين صَدَقُوا ﴾ بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق وقال في حق الكافر ﴿ الكاذبين ﴾ بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال : ﴿ يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : 119] بلفظ اسم الفاعل ، وذلك لأن في اليوم المذكور الصدق قد يرسخ في قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك في أوائل الإسلام .

ثم قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾

لما بين حسن التكليف بقوله : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ ﴾ بين أن من كلف بشيء ولم

يأت به يعذب وإن لم يعذب في الحال فسيعذب في الاستقبال ولا يفوت الله شيء في الحال ولا في المآل ، وهذا إبطال مذهب من يقول التكاليف إرشادات والإيعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزاً عن العذاب عاجلاً فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْلَمُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا ﴾ يعني ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والإيعاد والله لا يخلف الميعاد ، وأما الإمهال فلا يفضي إلى الإهمال والتعجيل في جزاء الأعمال شغل من يخاف الفوت لولا الاستعجال .

(25/594)

ثم قال تعالى : ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ يعني حكمهم بأنهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيء فإن الحكم الحسن لا يكون إلا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فإن الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه ، فحكمهم حكم في غاية السوء والرداءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 23 . 27 ﴾

(26/594)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ الم . أَحِسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوآ . . . ﴾

هذا لفظ استفهام أريد به التقرير والتوبيخ وفيه خمسة أقاويل :

أحدها : معناه أظن الذين قالوا لا إله إلا الله أن يتركوا فلا يختبروا أصدقوا أم كذبوا . قاله الحسن .

الثاني : أظن المؤمنون ألا يؤمروا ولا ينهوا ، قاله ابن بحر .

الثالث : أظن المؤمنون ألا يؤذوا ويقتلوا . قاله الربيع بن أنس . وقال قتادة : نزلت في أناس من أهل مكة خرجوا للهجرة فعرض لهم المشركون فرجعوا فنزلت فيهم فلما سمعها خرجوا فقتل منهم من قتل وخلص من خلص فنزل فيهم ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ الآية .

الرابع : أنها نزلت في عمار بن ياسر ومن كان يعذب في الله بمكة ، قاله عبيد بن عمير . قال الضحاك : نزلت في عباس بن أبي ربيعة أسلم وكان أخا أبي جهل لأمه أخذه وعذبه على إسلامه حتى تلفظ بكلمة الشرك مكرهاً .

الخامس : نزلت في قوم أسلموا قبل فرض الجهاد والزكاة فلما فرضا شق عليهم فنزل ذلك فيهم ، حكاه ابن أبي حاتم .

وفي قوله : ﴿ . . . وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ وجهان :

أحدهما : لا يسألون ، قاله مجاهد .

الثاني : لا يختبرون في أموالهم وأنفسهم بالصبر على أوامر الله وعن نواهيه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بما افترضه عليهم .

الثاني : بما ابتلاهم به .

﴿ فَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : فليظهرن الله لرسوله صدق الصادق ، قاله ابن شجرة .

الثاني : فليميزن الله الذين صدقوا من الكاذبين ، قاله النقاش وذكر أن هذه الآية نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أول قتيل من المسلمين يوم بدر قتله عامر ابن الحضرمي ، ويقال إنه أول من يدعى إلى الجنة من شهداء المسلمين وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر " سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ مهجع

(27/594)

" . قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾

قال قتادة : الشرك وزعم أنهم اليهود .

﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : أن يسبقوا ما كتبنا عليهم في محتوم القضاء .

الثاني : أن يعجزونا حتى لا نقدر عليهم ، وهو معنى قول مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : أن يفوتونا حتى لا ندركهم .

﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فيه وجهان

: أحدهما : ساء ما يظنون ، قاله ابن شجرة .

الثاني : ساء ما يقضون لأنفسهم على أعدائهم ، قاله النقاش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(28/594)

وقال ابن عطية :

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوئل السور ، وقرأ ورش " ألمَ احسب " بفتح الميم من غير همز بعدها وذلك على تخفيف الهمزة وإلقاء حركتها على الميم ، وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، فكانت

صدورهم تضيق لذلك ، وربما استنكر أن يمكن الله الكفرة من المؤمنين قال مجاهد وغيره ، فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله تعالى في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة ليعلم الصادق ويري ثواب الله له ويعلم الكاذب ويري عقابه إياه .

(29/594)

قال القاضي أبو محمد : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب وفي هذه الجماعة فهي بمعناها باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجود حكمها بقية الدهر ، . وذلك أن الفتنة من الله تعالى والاختبار باق في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك ، وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التي تشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر ، وقال عبد الله بن عبيد بن عمير : نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر إذا كان يعذب في الله تعالى ونظرائه ، وقال الشعبي : سبب الآية ما كلفه المؤمنون من الهجرة ، فهي الفتنة التي لم يتركوا دونها ، لا سيما وقد لحقهم بسببها أن اتبعهم الكفار وردوهم وقاتلوهم ، فقتل من قتل ونجا من نجا ، وقال السدي : نزلت في مسلمين كانوا بمكة وكرهوا الجهاد والقتال حين فرض على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، و" حسب " ، معناه ظن ، و﴿ أن ﴾ نصب ب " حسب " وهي والجملة التي

بعدها تسد مسد مفعولي " حسب " و﴿ أن ﴾ الثانية في موضع نصب على تقدير إسقاط حرف الخفض تقديره " بأن يقولوا " ويحتمل أن يقدر " لأن يقولوا " والمعنى في الباء واللام مختلف وذلك أنه في الباء كما تقول تركت زيداً بحاله ، وهي في اللام بمعنى من أجل أن حسبوا أن إيمانهم علة للترك ، و﴿ الذين من قبلهم ﴾ ، يريد بهم المؤمنين مع الأنبياء في سالف الدهر ، وقرأ الجمهور " فليَعلمن " بفتح الياء واللام الثانية ، ومعنى ذلك ليظهرن عليهم ويوجدن منهم ما علمه أزلاً ، وذلك أن علمه بذلك قديم وإنما هذه عبارة عن الإيجاد بالحالة التي تضمنها العلم القديم ، والصدق والكذب على بابهما أي من صدق فعله قوله ومن كذبه ونظير هذا قول زهير : [البسيط]

ليث بعثّر يصطاد الرجال إذا . . . ما كذب الليث عن أقرانه صدقا

(30/594)

قال النقاش ، قيل إن الإشارة ب ﴿ صدقوا ﴾ هي إلى مهجع مولى عمر بن الخطاب لأنه أول قتيل قتل من المؤمنين يوم بدر ، وقالت فرقة : إنما هي استعارة وإنما أراد بها الصلابة في الدين أو الاضطراب فيه وفي جهاد العدو ونحو هذا ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه " فليُعلِمن " بضم الياء وكسر اللام ، وهذه القراءة تحتمل ثلاثة معان أحدها أن يعلم في

الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا ، بمعنى يوقفهم على ما كان منهم ، والثاني أن يكون المفعول الأول محذوفاً تقديره ليعلمن الناس أو العالم هؤلاء الصادقين والكاذبين ، أي يفضحهم ويشهرهم ، هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر ، وذلك في الدنيا والآخرة ، والثالث أي يكون ذلك من العلامة أي لكل طائفة علماً تشهر به ، فالآية على هذا ينظر إليها قول النبي صلى الله عليه وسلم " من أسر سريرة ألبسه الله رداءها " وعلى كل معنى منها ففيها وعد للمؤمنين الصادقين ووعيد للكافرين ، وقرأ الزهري الأولى كقراءة الجمهور والثانية كقراءة عليّ رضي الله عنه .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)

(31/594)

﴿ أم ﴾ معادلة للألف في قوله ﴿ أحسب ﴾ [العنكبوت : 1] وكأنه عز وجل قرر الفريقين ، قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون وقرر الكافرين ﴿ الذين يعملون السيئات ﴾ في تعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون عقاب الله ويعجزونه ، وقوله تعالى : ﴿ الذي يعملون السيئات ﴾ ، وإن كان الكفار المراد الأول بحسب النازلة التي الكلام فيها فإن لفظ الآية يعم كل عاص وعامل سيئة من المسلمين وغيرهم ، وقوله ﴿ ساء

ما يحكمون ﴾ يجوز أن يكون ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي فهي في موشع رفع ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على تقدير ساء حكماً يحكمونه ، وقال ابن كيسان : ﴿ ما ﴾ مع ﴿ يحكمون ﴾ في موضع المصدر كأنه قال : ساء حكمهم ، وفي هذه الآية وعيد للكفرة الفاتنين ، وتأنيس وعده بالنصر للمؤمنين المفتونين المغلوبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(32/594)

فائدة

قال الإمام السبكى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ عَنْ الزَّجَّاجِ أَنَّهُ قَالَ (أَنْ يُتْرَكُوا) سَادَّةٌ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ وَ ﴿ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ حَقِيقَةً فَهُوَ بَدَلُ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ .

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فَإِنْ قُلْت فَأَيْنَ الْكَلَامُ الدَّالُّ عَلَى الْمَضْمُونِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحُسْبَانُ فِي الْآيَةِ .

قُلْت هُوَ فِي قَوْلِهِ ﴿ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ تَقْدِيرَهُ .

أَحَسِبُوا تَرْكَهُمْ غَيْرَ مَفْتُونِينَ لِقَوْلِهِمْ آمَنَّا .

فَالتَّرْكُ أَوَّلُ مَفْعُولَيْ حَسِبَ وَلِقَوْلِهِمْ (آمَنَّا) هُوَ الْخَبَرُ فَعَجِبْت مِنْ الزَّمَخْشَرِيِّ لِأَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَتَّبِعُ الزَّجَّاجَ فَكَيْفَ خَالَفَهُ هُنَا ؟ حَتَّى وَقَفْت عَلَى مَقْصُودِ الْآيَةِ .

وَهُوَ أَنَّ الْمُنْكَرَ حُسْبَانُهُمْ التَّرْكَ لِأَجْلِ قَوْلِهِمْ لَا يَزَالُونَ يُفْتَنُونَ حَتَّى يَعْلَمَ دُخُولَ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقَ فِي قَوْلِهِ مِنْ الْكَاذِبِ ؛ فَحِينَئِذٍ يُتْرَكُ مِنْ الْفِتْنَةِ وَإِنْ لَمْ يُتْرَكْ مِنْ التَّكَالِيفِ ؛ لِقَوْلِهِ ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ فَهَذَا التَّرْكُ غَيْرُ ذَاكَ التَّرْكِ وَلَوْ كَانَ الْمَقْصُودُ إنْكَارَ حُسْبَانِ مُطْلَقِ التَّرْكِ لَصَحَّ مَا قَالَهُ الزَّجَّاجُ فَحِينَمَا وَقَفْت عَلَى هَذَا الْمَعْنَى عَلِمْت صِحَّةَ مَا قَصَدَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلتَّرْكِ الَّذِي أَنْكَرَ حُسْبَانَهُ مِنْ تَتِمَّةٍ ، لَكِنَّ التَّتِمَّةَ كَمَا تَكُونُ بِجَعْلِ مَا بَعْدَ التَّرْكِ مَفْعُولًا ثَانِيًا لِتَأَكُّدِهِ كَوْنَ تَغَيُّرِهِ كَمَا سَأُبَيِّنُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنْ يَكُونَ (أَنْ يُتْرَكُوا) سَادَّةً مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ .

وَقَوْلُهُ (أَنْ يَقُولُوا) تَعْلِيلٌ إمَّا لِيُتْرَكُوا مَعْمُولٌ لَهُ ، وَإِمَّا لِحَسِبَ مَعْمُولٌ لَهُ .

فَإِنْ جَعَلْنَاهُ مَعْمُولًا لِيُتْرَكُوا فَالْمُنْكَرُ حُسْبَانُ التَّرْكِ الْمُعَلَّلِ بِالْقَوْلِ .

وَإِنْ جَعَلْنَاهُ مَعْمُولًا

(33/594)

لِحَسِبَ فَالْمُنْكَرُ الْحُسْبَانُ الْمُعَلَّلُ بِالْقَوْلِ وَمَعْنَاهُ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الْأَوَّلِ .

وَقَوْلُهُ (وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) حَالٌ إمَّا مِنْ الضَّمِيرِ فِي (يَقُولُوا) سَوَاءٌ جَعَلْنَاهُ عِلَّةً فِي التَّرْكِ أَوْ فِي الْحُسْبَانِ .

وَإِمَّا مِنْ الضَّمِيرِ فِي (يُتْرَكُوا) إذَا جَعَلْنَاهُ عِلَّةً فِي التَّرْكِ دُونَ مَا إذَا جَعَلْنَاهُ عِلَّةً فِي الْحُسْبَانِ ، لِأَجْلِ الْفَصْلِ بِأَجْنَبِيٍّ .

هَذَا الَّذِي أَرَاهُ فِي تَقْدِيرِ الْآيَةِ وَإِعْرَابِهَا وَمَعْنَاهَا .

ثُمَّ نَظَرْت فِي جَعْلِ الْمَفْعُولَيْنِ مُصَرَّحًا بِهِمَا كَمَا اقْتَضَاهُ كَلَامُ الزَّمَخْشَرِيِّ ، فَاسْتَحْضَرْت قَوْلَ النُّحَاةِ فِي أَنَّ " أَنْ " وَ " الْفِعْلَ " يَسُدُّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ عَلَى أَصَحِّ الْمَذْهَبَيْنِ ، وَيُقَدَّرُ مَعَهَا الْمَفْعُولُ الثَّانِي مَحْذُوفًا عَلَى الْمَذْهَبِ الْآخَرِ فَالتَّصْرِيحُ بِهِمَا خِلَافُ الْمَذْهَبَيْنِ ، ثُمَّ قُلْت فِي نَفْسِي : لَعَلَّ الْمَذْهَبَيْنِ حَيْثُ يَتِمُّ الْكَلَامُ بِأَنْ وَالْفِعْلِ .

أَمَّا حَيْثُ لَا يَتِمُّ فَقَدْ يَكُونُ هُوَ الْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ وَيُؤْتَى بَعْدَهُ بِالْمَفْعُولِ الْآخَرِ ، لِأَنَّ " أَنْ ، وَالْفِعْلَ " كَالْمَصْدَرِ فَكَمَا تَقُولُ : حَسِبْت تَرْكَهُمْ كَقَوْلِهِمْ كَذَلِكَ يَصِحُّ أَنْ تَقُولَ حَسِبْت أَنْ يُتْرَكُوا لِلْقَوْلِ ، وَفِي هَذَا فَضْلُ نَظَرٍ ، لِأَنَّ صَرِيحَ الْمَصْدَرِ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى تَصَوُّرِيٍّ لَا يَسْتَقِلُّ بِالْإِفَادَةِ ، " وَأَنْ وَالْفِعْلُ " يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى تَصْدِيقِيٍّ مُسْتَقِلٍّ بِالْإِفَادَةِ .

وَمِنْ ثَمَّ جَازَ الِاقْتِصَارُ عَلَيْهَا وَسَدَّتْ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ .

فَهَلْ يَقَعُ " أَنْ وَالْفِعْلُ " مَقْصُودًا بِهِ التَّصَوُّرِيُّ فَقَطْ حَتَّى يَقَعَ بَعْدَهَا الْمَفْعُولُ الثَّانِي أَوْ يَقَعَ صَرِيحُ الْمَصْدَرِ مَقْصُودًا بِهِ التَّصْدِيقِيُّ حَتَّى يَسُدَّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ ؟ لَمْ أَرَ لِلنُّحَاةِ تَصْرِيحًا بِذَلِكَ ، وَيَحْتَاجُ إلَى سَمَاعٍ مِنْ الْعَرَبِ وَالْأَقْرَبُ خِلَافُهُ .

فَعَلَى هَذَا يَضْعُفُ مَا قَصَدَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ ، وَإِنْ صَحَّ فَيَمْشِي مَا قَالَهُ .

وَهَلْ يَصِحُّ مَثَلًا أَنْ

(34/594)

يُقَالَ : حَسِبْت أَنْ يَقُومَ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَقْعُدَ ؟ هَذَا يَحْتَاجُ إلَى سَمَاعٍ وَلَمْ أَجِدْهُ .

فَلِذَلِكَ أُوَافِقُ الزَّمَخْشَرِيَّ عَلَى التَّصْرِيحِ بِالْمَفْعُولَيْنِ وَاكْتَفَيْت بِالتَّتِمَّةِ بِالتَّعْلِيلِ وَالْحَالِ لِحُصُولِ مَقْصُودِ الْآيَةِ الَّذِي قَصَدَهُ وَقَصَدَ بِهِ بِذَلِكَ دُونَ ارْتِكَابِ أَمْرٍ لَمْ يَشْهَدْ لَهُ كَلَامُ النُّحَاةِ

.

وَأَمَّا قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ : إنَّ التَّرْكَ مِنْ التَّرْكِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ فَلَا دَلِيلَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا ضَرُورَةَ إلَيْهِ ، هُوَ مُحْتَمِلٌ لِذَلِكَ وَلَأَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْإِهْمَالِ وَالتَّخْلِيَةِ .

وَالْبَيْتُ الَّذِي أَنْشَدَهُ مُحْتَمِلٌ لَهُمَا وَالْمَعْنَى الْمَقْصُودُ يَحْصُلُ بِكُلٍّ مِنْهُمَا بِلَا ضَرُورَةٍ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَقْدِيرُهُ أَحَسِبُوا تَرْكَهُمْ .

فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ قَوْلُ النُّحَاةِ أَنَّ " أَنْ وَالْفِعْلَ " بِتَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ ، وَلَكِنْ قَدْ أَشَرْنَا إِلَى الْفَرْقِ وَإِنْ اشْتَرَكَا فِي أَصْلِ الْمَعْنَى .

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي تَقْدِيرِهِ غَيْرَ مَفْتُونِينَ ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا ثَانِيًا أَلَا تَرَى أَنَّهُ جَعَلَهُ مِنْ التَّصْيِيرِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا .

وَيَشْهَدُ لَهُ أَنَّهُ سَبَكَهُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ فَإِنْ كَانَ الْأَوَّلَ فَمَا الدَّلِيلُ عَلَيْهِ ؟ وَقَوْلُهُ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ ثَانِيًا لِأَجْلِ الْوَاوِ وَإِنْ كَانَ الثَّانِي فَهُوَ مُخَالِفٌ لِنَصِّ كَلَامِهِ ، وَإِذَا كَانَ قَدْ سَبَكَهُ فِي مَعْنَى ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ يَجِبُ صِحَّةُ وُقُوعِهِ مَوْقِعَهُ وَلَوْ وَقَعَ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ مَوْقِعَهُ لَكَانَ مِنْ أَبْعَاضِ الصِّلَةِ ، فَلَمَّا تَأَخَّرَ فِي الْآيَةِ وَوَقَعَ الْخَبَرُ قَبْلَهُ وَالْخَبَرُ أَجْنَبِيٌّ مِنْ الصِّلَةِ لَزِمَ الْفَصْلُ بَيْنَ أَبْعَاضِ الصِّلَةِ بِأَجْنَبِيٍّ ، وَهُوَ لَا يَجُوزُ .

وَقَوْلُهُ : وَقَوْلُهُمْ آمَنَّا هُوَ الْخَبَرُ يَعْنِي فِي الْأَصْلِ وَهُوَ الْآنَ مَفْعُولٌ ثَانٍ عَلَى رَأْيِهِ وَقَوْلُهُ وَأَمَّا غَيْرُ مَفْتُونِينَ فَتَتِمَّةُ التَّرْكِ صَحِيحٌ ؛ لَكِنْ لَمْ يُبَيِّنْ

(35/594)

أَنَّهُ مَفْعُولٌ أَوْ حَالٌ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ .

وَقَوْلُهُ : لِأَنَّهُ مِنْ التَّرْكِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ مَمْنُوعٌ لِمَا تَقَدَّمَ ، وَلَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ لِأَنَّهُ تَتِمَّةٌ سَوَاءٌ

كَانَ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ أَمْ بِالْمَعْنَى الْآخَرِ .

وَقَوْلُهُ (أَنْ يَقُولُوا) عِلَّةُ تَرْكِهِمْ غَيْرَ مَفْتُونِينَ يَعْنِي مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى ؛ أَمَّا مِنْ جِهَةِ الصِّنَاعَةِ فَيَسْتَحِيلُ إذْ هُوَ خَبَرٌ أَنْ يَكُونَ عِلَّةً ، وَقَوْلُهُ " كَمَا تَقُولُ خُرُوجُهُ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ " لَيْسَ مِثْلُهُ لِأَنَّ خُرُوجَهُ مُفْرَدٌ وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ بَعْدَهُ وَحْدَهُ فَاحْتَجْنَا أَنْ نَجْعَلَ أَحَدَهُمَا مُبْتَدَأً وَالْآخَرَ خَبَرًا وَالْآيَةُ فِيهَا مَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا تَامًّا قَبْلَ اللَّامِ ، فَاحْتَمَلَتْ الْأَمْرَيْنِ .

وَقَوْلُهُ خُرُوجُهُ مَخَافَةَ الشَّرِّ صَحِيحٌ وَلَيْسَ مِثْلَهُ لِأَنَّ خَرَجَتْ كَلَامٌ تَامٌّ وَلَيْسَ بَعْدَهُ إلَّا مَخَافَةُ الشَّرِّ ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ تَعْلِيلًا ، وَلَيْسَ نَظِيرَ الْآيَةِ لِاحْتِمَالِهَا الْوَجْهَيْنِ وَقَوْلُهُ حَسِبْت خُرُوجَهُ أَحَدُهُمَا يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ مَخَافَةَ الشَّرِّ هُوَ الثَّانِي إلَّا إنْ جَوَّزْنَا أَنَّ خُرُوجَهُ يَقَعُ فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولَيْنِ فَيَكُونُ نَظِيرَ الْآيَةِ وَيَخْرُجُ عَنْ النَّظِيرَيْنِ اللَّذَيْنِ قَبْلَهُ انْتَهَى .

(36/594)

(فَصْلٌ) قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْفَرْقُ بَيْنَ صَرِيحِ الْمَصْدَرِ وَ " أَنْ وَالْفِعْلِ " الْمُؤَوَّلَيْنِ بِهِ مَعَ اشْتِرَاكِهِمَا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْحَدَثِ أَنَّ مَوْضِعَ صَرِيحِ الْمَصْدَرِ الْحَدَثُ فَقَطْ .

وَهُوَ أَمْرٌ تَصَوُّرِيٌّ وَ " أَنْ وَالْفِعْلُ " يَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ بِالْحُصُولِ إمَّا مَاضِيًا وَإِمَّا حَالًا أَوْ مُسْتَقْبَلًا وَإِنْ كَانَ إثْبَاتًا وَبِعَدَمِ الْحُصُولِ فِي ذَلِكَ إنْ كَانَ نَفْيًا ، وَهُوَ أَمْرٌ تَصْدِيقِيٌّ وَلِهَذَا يَسُدُّ " أَنْ

وَالْفِعْلُ " مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ ، لِمَا فِيهِمَا مِنْ النِّسْبَةِ ، فَإِنْ قُلْت مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ الدَّلَالَةُ عَلَى الْحُصُولِ أَوْ عَدَمِهِ ؛ وَهُمَا فِي قُوَّةِ الْمُفْرَدِ ؟ قُلْت مِنْ دَلَالَةِ الْفِعْلِ ، فَإِنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الْحُدُوثِ فَحَافَظْنَا عَلَى تِلْكَ الدَّلَالَةِ مَعَ " أَنْ " فَإِنْ قُلْت وَمِنْ أَيْنَ لِلْفِعْلِ الدَّلَالَةُ عَلَى الْحُدُوثِ ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْحُدُوثِ وَالزَّمَانِ لَا عَلَى الْوُقُوعِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَلَا عَدَمِهِ ؟ قُلْت بَلْ هُوَ يَدُلُّ عَلَى الْوُقُوعِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي امْتَازَ بِهِ الْفِعْلُ عَنْ الِاسْمِ فَإِنَّ اسْمَ الزَّمَانِ يَدُلُّ عَلَى الزَّمَانِ كَأَمْسِ وَغَدٍ وَالْآنَ عَلَى الْأَزْمِنَةِ الثَّلَاثَةِ .

وَكُلٌّ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى حَدَثٍ وَزَمَنٍ وَلَيْسَتْ بِأَفْعَالٍ ، وَالصَّبُوحُ يَدُلُّ عَلَى حَدَثٍ وَزَمَانٍ وَلَيْسَ بِفِعْلٍ ؛ وَضَارِبٌ اسْمُ فَاعِلٍ مَعْنَى الْمَاضِي أَوْ الْحَالِ أَوْ الِاسْتِقْبَالِ وَإِنْ سَلَّمْنَا دَلَالَتَهُ عَلَى أَحَدِ الْأَزْمِنَةِ الثَّلَاثَةِ وَأَنَّ مَوْضُوعَهُ الْإِشْعَارُ لَهُ بِالْحُصُولِ وَلَا عَدَمِهِ بَلْ هُوَ تَصَوُّرٌ مَحْضٌ بِخِلَافِ الْفِعْلِ فَإِنَّهُ دَالٌّ عَلَى الْحُصُولِ وَدَلَالَتُهُ عَلَى الزَّمَانِ كَذَلِكَ وَقَوْلُ مَنْ قَالَ إنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الزَّمَانِ بِهَيْئَتِهِ وَأَوْزَانِهِ وَعَلَى الْحَدَثِ بِمَادَّتِهِ صَحِيحٌ ، وَلَكِنَّهُ قَاصِرٌ عَمَّا قُلْنَاهُ وَعَمَّا يَقْتَضِيهِ الْفِعْلُ ، فَإِنَّك إذَا قُلْت ضَرَبَ زَيْدٌ تَسْتَفِيدُ مِنْ ضَرَبَ نِسْبَةَ الضَّرْبِ فِي الزَّمَانِ الْمَاضِي .

وَهَذِهِ ثَلَاثَةُ

(37/594)

أُمُورٍ وَالضَّرْبُ وَزَمَانُهُ وَهُمَا تَصَوُّرَانِ ، وَنِسْبَتُهُ التَّصْدِيقِيَّةُ .

غَيْرَ أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى الْفَاعِلِ الَّذِي صَدَرَ مِنْهُ الضَّرْبُ لَا الْمَفْعُولِ الَّذِي حَلَّ بِهِ الضَّرْبُ ، إِنْ بَنَى الْفِعْلَ لِلْمَفْعُولِ حَتَّى يَتِمَّ الْكَلَامُ وَالتَّصْدِيقُ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْفِعْلَ كَلِمَةٌ تُسْنَدُ أَبَدًا وَالْإِسْنَادُ نِسْبَةٌ فَبِمُجَرَّدِ اللَّفْظِ بِالْفِعْلِ عَرَفْتَ الْإِسْنَادَ وَبَقِيتَ مُحْتَاجًا إِلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ .

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ هَذَا الْمَعْنَى عَرَفْتَ أَنَّهُ زَائِدٌ عَلَى مَا قَالَهُ كَثِيرٌ مِنْ النُّحَاةِ ؛ وَأَنَّهُ حَقٌّ ، وَتَحَقَّقَتْ بِهِ دَلَالَةُ : " أَنْ وَالْفِعْلِ " عَلَى الْوُقُوعِ إِمَّا ثَابِتًا وَإِمَّا مَنْفِيًّا بِخِلَافِ صَرِيحِ الْمَصْدَرِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى لَا إِشْعَارَ لَهُ بِوُقُوعٍ أَلْبَتَّةَ .

وَكَيْفَ يَتَوَقَّفُ فِي ذَلِكَ وَنَفْسُ ضَرَبَ الْمُتَحَرِّكِ الْوَسَطِ الَّذِي هُوَ فِعْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُدُوثِ فِعْلٍ فِي الْمَاضِي بَلْ لَيْسَ مَدْلُولُهُ إِلَّا ذَلِكَ وَحُدُوثُ الضَّرْبِ فِي الْمَاضِي نِسْبَةٌ تَسْتَدْعِي الضَّرْبَ الْحَادِثَ وَالزَّمَانَ الْمَاضِيَ ، فَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ دَلَالَتَهَا عَلَيْهِمَا مِنْ بَابِ دَلَالَةِ التَّضَمُّنِ ، وَفِيهِ تَسَمُّحٌ ، وَأَكْثَرُ النُّحَاةِ جَعَلُوا دَلَالَةَ الْفِعْلِ عَلَى الزَّمَانِ مِنْ دَلَالَةِ التَّضَمُّنِ وَابْنُ الطَّرَاوَةِ قَالَ إِنَّهَا بِالِانْحِرَارِ يَعْنِي الِالْتِزَامَ ، وَكُلُّهُمْ لَمْ يَتَعَرَّضُوا لِلْحُدُوثِ وَعِنْدِي أَنَّهُ الْأَصْلُ وَالْمَوْضُوعُ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمَعْنَى الْمُعَبَّرَ عَنْهُ بِالْحُصُولِ أَوْ الْحُدُوثِ أَوْ الْكَوْنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ تَارَةً يُؤْخَذُ مِنْ حَيْثُ هُوَ هُوَ مِنْ غَيْرِ عَارِضٍ بِمَاهِيَّةٍ وَتَارَةً يُؤْخَذُ مَعَ عُرُوضِهِ لِلْمَاهِيَّةِ فَالْأَوَّلُ تَصَوُّرٌ مَحْضٌ ، وَاخْتِيرَ لَهُ اسْمُ الْحُصُولِ لِيَتَطَابَقَ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى فِي الْإِفْرَادِ ، وَالثَّانِي فِيهِ نِسْبَةٌ هِيَ

الْمَقْصُودَةُ فِي التَّصْدِيقِ الْمُرَكَّبِ مِنْهَا وَمِنْ الطَّرَفَيْنِ فَلَا يَبْقَى يَحْتَاجُ إلَّا إلَى الطَّرَفِ الْآخَرِ وَاخْتِيرَ لَهُ " أَنْ

(38/594)

وَالْفِعْلُ " لِلدَّلَالَةِ عَلَى النِّسْبَةِ مَعَ أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ وَلَوْ أُطْلِقَ الْحُصُولُ وَأُرِيدَ هَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَبْعُدْ ، وَلَوْ أُطْلِقَ " أَنْ وَالْفِعْلُ " وَأُرِيدَ الْمُفْرَدُ كَانَ بَعِيدًا .

هَذَا الَّذِي يَظْهَرُ لَنَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ .

وَلَسْنَا فِيهِ مُتَحَكِّمِينَ وَلَا مُنْكِرِينَ أَمْرًا لَمْ نَصِلْ إلَى فَهْمِهِ بَلْ مُثْبِتِينَ لِمَا فَهِمْنَاهُ مِنْ كَلَامِهِمْ وَأَرْشَدَتْنَا إلَيْهِ مُحَاوَرَاتُهُمْ وَإِنْ أَهْمَلُوا التَّنْصِيصَ عَلَيْهَا إحَالَةً عَلَى الْأَذْهَانِ السَّلِيمَةِ وَالِارْتِيَاضِ فِي الْعُلُومِ بِفِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةٍ .

فَإِنْ قُلْت : قَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ وَهُوَ مِثْلُ : وَصَوْمُكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَلِذَلِكَ تَقُولُ : يُعْجِبُنِي أَنْ تَقُومَ فِي مَعْنَى يُعْجِبُنِي قِيَامُك .

قُلْت قَوْله تَعَالَى (وَأَنْ تَصُومُوا) مَعْنَاهُ وَأَنْ يُوجَدَ مِنْكُمْ الصَّوْمُ ، فَذَلِكَ الَّذِي يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ خَيْرٌ .

وَأَمَّا الصَّوْمُ الْمُفْرَدُ التَّصَوُّرِيُّ فَلَا يُحْكَمُ عَلَيْهِ كَذَلِكَ وَكَذَلِكَ يُعْجِبُنِي أَنْ تَقُومَ إنَّمَا أَعْجَبَك

اتّخَاذُهُ لِلْقِيَامِ فِي الْحَالِ أَوْ الْمُسْتَقْبَلِ دُونَ مُجَرَّدِ صِفَةِ الْقِيَامِ فَإِنْ قُلْت لَوْ دَلَّ الْفِعْلُ عَلَى الْوُقُوعِ لَكَانَ كَلَامًا .

قُلْت الْكَلَامُ يَسْتَدْعِي مُسْنَدًا وَمُسْنَدًا إلَيْهِ وَنِسْبَةً ، فَإِذَا قُلْت زَيْدٌ قَائِمٌ ، فَزَيْدٌ مُسْنَدٌ إلَيْهِ وَقَائِمٌ مُسْنَدٌ ، وَالنِّسْبَةُ عُلِمَتْ عِنْدَ السَّامِعِ بِقَرِينَةِ تَرْتِيبِ الْمُتَكَلِّمِ قَائِمٌ عَلَى زَيْدٍ ؛ وَيُعَبَّرُ عَنْهَا بِالرَّابِطِ ، فَتَقُولُ زَيْدٌ هُوَ قَائِمٌ ؛ فَتَصِيرُ الْقَضِيَّةُ ثُلَاثِيَّةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ثُنَائِيَّةً ، وَإِذَا قُلْت قَامَ زَيْدٌ فَزَيْدٌ مُسْنَدٌ إلَيْهِ وَقَامَ فِيهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا الْمُسْنَدُ ؛ وَهُوَ الْقِيَامُ ، دَلَّ عَلَيْهِ بِمَادَّتِهِ ؛ وَالثَّانِي النِّسْبَةُ دَلَّ عَلَيْهَا بِصُورَتِهِ الَّتِي امْتَازَ الْفِعْلُ بِهَا عَنْ الِاسْمِ وَهِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى الْوُقُوعِ بِالزَّمَانِ الْمَاضِي ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَحْتَجْ إلَى رَابِطٍ وَكَانَ فِي قُوَّةِ الْقَضِيَّةِ

(39/594)

الثُّلَاثِيَّةِ الِاسْمِيَّةِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ انْتَهَى .

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ بَدَا لِي أَنْ أَخْتَصِرَ الْكَلَامَ عَلَى ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ سَادَّةً مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ .

و " أَنْ يَقُولُوا " تَعْلِيلٌ لَهُ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ حَالٌ مِنْهُ ، وَهُمَا مَعْمُولَانِ " لِيُتْرَكُوا " وَهُوَ مُقَيَّدٌ

بِهِمَا .

وَالْمُنْكَرُ حُسْبَانُ التَّرْكِ الْمَخْصُوصِ لَا مُطْلَقُ التَّرْكِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ " أَنْ يَقُولُوا " تَعْلِيلًا لِحَسِبَ .

وَيَكُونُ " أَحَسِبَ " هُوَ الْعَامِلُ فِيهِ .

وَأَنْ يَكُونَ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ حَالًا مِنْ "يَقُولُوا " وَقَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ : إِنَّ " أَنْ يُتْرَكُونَ " أَوَّلُ مَفْعُولَيْ " أَحَسِبَ " لَا دَلِيلَ لَهُ .

وَالظَّاهِرُ مِنْ كَلَامِ النُّحَاةِ يَرُدُّهُ ، لِأَنَّهُمْ أَطْلَقُوا إِنَّ " أَنْ " وَصِلَتَهَا سَادَّةٌ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ ، أَوْ أَنَّ الثَّانِيَ مَحْذُوفٌ وَقَوْلُهُ : تَقْدِيرُهُ " أَحَسِبُوا تَرْكَهُمْ " حَمَلَهُ عَلَيْهِ قَوْلُ النُّحَاةِ : إِنَّ " أَنْ " وَالْفِعْلَ فِي تَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ ، وَلَكِنْ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ فَإِنَّ " أَنْ " وَالْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الْحُدُوثِ ، وَهُوَ مَعْنًى تَصْدِيقِي ، بِخِلَافِ الْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ وَدَلَالَتُهُ عَلَى الْمَعْنَى التَّصَوُّرِيِّ فَقَطْ ، وَجَعْلُهُ التَّرْكَ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ لَا دَلِيلَ لَهُ .

وَهُوَ مُحْتَمِلٌ لِذَلِكَ وَلِغَيْرِهِ .

وَالْبَيْتُ الَّذِي أَنْشَدَهُ مُحْتَمِلٌ لَهُمَا .

وَقَوْلُهُ فِي كَلَامِهِ غَيْرُ مَفْتُونِينَ يَحْتَمِلُ الْمَفْعُولَ وَالْحَالَ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ سَبَكَهُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَعِنْدَهُ أَنَّ " أَنْ يَقُولُوا " خَبَرٌ ، فَهُوَ أَجْنَبِيٌّ فَاصِلٌ بَيْنَ أَبْعَاضِ الصِّلَةِ .

وَهُوَ لَا يَجُوزُ .

وَالْأَمْثِلَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنْ " خُرُوجِهِ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ " وَ " خَرَجْت مَخَافَةَ الشَّرِّ " وَ " حَسِبْت خُرُوجَهُ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ " لَيْسَتْ نَظِيرَ الْآيَةِ لِاحْتِمَالِ الْآيَةِ وَتَعَيُّنِ ذِكْرِ وَاحِدٍ مِمَّا ذَكَرَهُ مِنْ الْأَمْثِلَةِ لِمَعْنَاهُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ انْتَهَى .

(40/594)

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ رَضِيَ عَنْهُ ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : الْحُسْبَانُ لَا يَصِحُّ تَعْلِيقُهُ بِمَعَانِي الْمُفْرَدَاتِ وَلَكِنْ بِمَضَامِينِ الْجُمَلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّك لَوْ قُلْت : حَسِبْت زَيْدًا ، وَظَنَنْت الْفَرَسَ ، لَمْ يَكُنْ شَيْئًا حَتَّى تَقُولَ : حَسِبْت زَيْدًا عَالِمًا ، وَظَنَنْت الْفَرَسَ جَوَادًا ، لِأَنَّ قَوْلَك : زَيْدٌ عَالِمٌ أَوْ الْفَرَسُ جَوَادٌ ، كَلَامٌ دَالٌّ عَلَى مَضْمُونٍ ، فَأَرَدْت الْإِخْبَارَ عَنْ ذَلِكَ الْمَضْمُونِ ثَابِتًا عِنْدَك عَلَى وَجْهِ الظَّنِّ لَا الْيَقِينِ ، فَلَمْ تَجِدْ بُدًّا فِي الْعِبَارَةِ عَنْ ثَبَاتِهِ عِنْدَك عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ : مِنْ ذِكْرِك شَطْرَيْ الْجُمْلَةِ : مُدْخِلًا عَلَيْهِمَا فِعْلَ الْحُسْبَانِ حَتَّى يَتِمَّ لَك غَرَضُك (فَإِنْ قُلْت) فَأَيْنَ الْكَلَامُ الدَّالُّ عَلَى الْمَضْمُونِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحُسْبَانُ فِي الْآيَةِ ؟ (قُلْت) هُوَ فِي قَوْلِهِ ﴿ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ تَقْدِيرَهُ أَحَسِبُوا تَرْكَهُمْ غَيْرَ مَفْتُونِينَ لِقَوْلِهِمْ آمَنَّا .

فَالتَّرْكُ أَوَّلُ مَفْعُولَيْ " أَحَسِبَ " وَلِقَوْلِهِمْ آمَنَّا هُوَ الْخَبَرُ وَأَمَّا " غَيْرَ مَفْتُونِينَ " فَتَتِمَّةُ التَّرْكِ لِأَنَّهُ مِنْ التَّرْكِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ ، كَقَوْلِهِ فَتَرَكْته جَزْرَ السِّبَاعِ يَنُشْنَهُ أَلَا تَرَى أَنَّك قَبْلَ الْمَجِيءِ بِالْحُسْبَانِ تُقَدِّرُ أَنْ تَقُولَ تَرَكْهُمْ غَيْرَ مَفْتُونِينَ لِقَوْلِهِمْ آمَنَّا عَلَى تَقْدِيرِ حَاصِلٍ وَمُسْتَقِرٍّ قَبْلَ اللَّامِ (فَإِنْ قُلْت) " أَنْ يَقُولُوا " هُوَ عِلَّةُ تَرْكِهِمْ غَيْرَ مَفْتُونِينَ فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَقَعَ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ ؟ (قُلْت) كَمَا تَقُولُ خُرُوجُهُ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ ، وَضَرْبُهُ لِلتَّأْدِيبِ وَقَدْ كَانَ التَّأْدِيبُ وَالْمَخَافَةُ فِي قَوْلِك خَرَجْت مَخَافَةَ الشَّرِّ وَضَرَبْته تَأْدِيبًا تَعْلِيلَيْنِ ، وَتَقُولُ أَيْضًا حَسِبْت خُرُوجَهُ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ ، وَظَنَنْت ضَرْبَهُ لِلتَّأْدِيبِ فَتَجْعَلُهُمَا مَفْعُولَيْنِ كَمَا جَعَلْتهمَا مُبْتَدَأً وَخَبَرًا .

قَالَ الشَّيْخُ

(41/594)

الْإِمَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذَا الْكَلَامِ عَلَيْهِ أَسْئِلَةٌ (أَحَدُهَا) أَنَّ الْمُتَبَادِرَ إلَى فَهْمِ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ الْآيَةِ إنْكَارُ حُسْبَانِهِمْ التَّرْكَ وَكَلَامُهُ يَقْتَضِي أَنَّ مُطْلَقَ التَّرْكِ لَيْسَ بِمُنْكَرٍ ، وَإِنَّمَا الْمُنْكَرُ كَوْنُ التَّرْكِ لِقَوْلِهِمْ وَالْجَوَابُ أَنَّ الْحَقَّ مَا اقْتَضَاهُ كَلَامُهُ ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أَيْ لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى .

وَذَلِكَ لَا يَكُونُ .

فَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ تَحْتَ التَّكَالِيفِ وَآيَةُ الْعَنْكَبُوتِ مَعْنَاهَا التَّرْكُ مِنْ الْفِتْنَةِ الَّتِي يُمْتَحَنُ بِهَا صِحَّةُ إِيمَانِهِ وَدُخُولُهُ فِي قَلْبِهِ وَصِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ " آمَنَّا " وَمَنْ تَأَمَّلَ الْآيَةَ عَلِمَ ذَلِكَ .

(السُّؤَالُ الثَّانِي) أَنَّ لِلنُّحَاةِ مَذْهَبَيْنِ أَصَحُّهُمَا أَنَّ " أَنْ " وَصِلَتَهَا تَسُدُّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ .

وَالثَّانِي أَنَّ الْمَفْعُولَ الثَّانِيَ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ ثَابِتًا .

فَظَاهِرُ كَلَامِ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمَا مَذْكُورَانِ ؛ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْمَذْهَبَيْنِ وَيُؤَكِّدُ هَذَا السُّؤَالَ أَنَّهُ جَعَلَ قَوْلَهُ ﴿ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ سَادًّا مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ .

وَالْجَوَابُ أَنَّهُ حَيْثُ تَمَّ الْكَلَامُ فَأَنْ وَالْفِعْلُ سَدَّتْ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ .

عَلَى الصَّحِيحِ .

وَقَدَّرَ الثَّانِيَ مَحْذُوفًا عَلَى الْمَذْهَبِ الْآخَرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ (أَنْ يَسْبِقُونَا) فَإِنَّ الْكَلَامَ تَمَّ بِهِ .

أَمَّا قَوْلُ " أَنْ يُتْرَكُوا " فَلَمْ يَتِمَّ الْكَلَامُ عِنْدَهُ ، وَلَمَّا قُلْنَا أَنَّ الْمُنْكَرَ كَوْنُ التَّرْكِ لِقَوْلِهِمْ : لَا مُطْلَقُ التَّرْكِ .

فَلَا شَكَّ فِي احْتِيَاجِ الْكَلَامِ إِلَى تَتِمَّةٍ كَمَا ذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ ، لَكِنَّ تِلْكَ التَّتِمَّةَ مَفْعُولٌ آخَرُ أَوْ غَيْرُهُ ، ظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ مَفْعُولٌ آخَرُ .

وَنَحْنُ نُخَالِفُهُ ، فَنَحْنُ لَمْ نُخَالِفْ النُّحَاةَ فِي وِرْدٍ وَلَا صَدْرٍ ، وَهُوَ إِذَا جَعَلَ الْمَفْعُولَيْنِ مَذْكُورَيْنِ قَدْ يُقَالُ إِنَّهُ مُخَالِفٌ لِلنُّحَاةِ مُنْتَحِلٌ

مَذْهَبًا ثَالِثًا ، وَقَدْ يُقَالُ إنَّ الْمَذْهَبَيْنِ إنَّمَا هُمَا فِيمَا إذَا تَمَّ الْكَلَامُ " بِأَنْ وَالْفِعْلِ " الدَّاخِلَةِ " حَسِبَ " عَلَيْهِمَا دَالَّةٌ عَلَى مَعْنَى الْحُدُوثِ الَّذِي هُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّصْدِيقِ ، وَذَلِكَ مِمَّا اُخْتِيرَتْ لَهُ " أَنْ وَالْفِعْلُ " دُونَ صَرِيحِ الْمَصْدَرِ فَإِنَّ صَرِيحَ الْمَصْدَرِ يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى التَّصَوُّرِيِّ فَقَطْ إمَّا جِنْسُ الْمَصْدَرِ وَإِمَّا نَوْعُهُ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِوُقُوعِهِ أَوْ عَدَمِ وُقُوعِهِ ، كَمَا يُشْعِرُ بِهِ " أَنْ وَالْفِعْلُ " فَلَا شَكَّ أَنَّهُ حَيْثُ قَصَدَ الْمَعْنَى التَّصَوُّرِيَّ احْتِيجَ إلَى مَفْعُولٍ آخَرَ ، وَحَيْثُ قَصَدَ الْمَعْنَى التَّصْدِيقِيَّ أَغْنَتْ عَنْ الْمَفْعُولَيْنِ ، فَهَلْ يَأْتِي " أَنْ وَالْفِعْلُ " وَيُرَادُ بِهَا الْمَعْنَى التَّصَوُّرِيُّ فَقَطْ : هَذَا مِمَّا عِنْدَنَا فِيهِ نَظَرٌ ، يُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ يَجُوزُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ مَعْنَاهُ وَصَوْمُكُمْ وَقَعَ مُبْتَدَأً وَكُلُّ مَا وَقَعَ مُبْتَدَأً يَقَعُ مَفْعُولًا أَوَّلَ لِحَسِبَ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ إنَّ " أَنْ " لَا تَخْرُجُ عَنْ الدَّلَالَةِ عَلَى الْحُدُوثِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا ﴾ أُشِيرَ بِهِ إلَى وُقُوعِ الصَّوْمِ مِنْهُمْ وَلِذَلِكَ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ ؛ وَيَنْبَنِي عَلَى هَذَا أَنَّهُ هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ : حَسِبْت أَنْ تَقُومَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَقْعُدَ ؟ فَإِنْ صَحَّ ذَلِكَ وَكَانَ مِثْلُهُ مَسْمُوعًا مِنْ الْعَرَبِ كَانَ ذِكْرُ الْمَذْهَبَيْنِ حَاصِلًا بِبَعْضِ مَوَارِدِهَا ، وَهُوَ مَا إذَا تَمَّ الْكَلَامُ دُونَ مَا إذَا لَمْ يَتِمَّ ؛ وَإِنْ

لَمْ يَصِحَّ وَلَمْ يُسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ الْعَرَبِ أَجْرَيْنَا كَلَامَ النُّحَاةِ عَلَى ظَاهِرِهِ ؛ وَرَدَدْنَا كَلَامَ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي اقْتِضَائِهِ التَّصْرِيحَ بِالْمَفْعُولَيْنِ .

وَالَّذِي نَذْهَبُ نَحْنُ إلَيْهِ لَا يَحْتَاجُ إلَى ذَلِكَ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَهُوَ أَنِّي أَجْعَلُ " أَنْ يُتْرَكُوا " سَادًّا مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ مَعَ تَقْيِيدِ التَّرْكِ بِمَا بَعْدَهُ مِنْ ﴿ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ وَهُوَ عِلَّةُ

(43/594)

التَّرْكِ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَهُوَ حَالٌ مِنْهُ وَالْفِعْلُ يَتَقَيَّدُ بِعِلَّتِهِ وَحَالِهِ وَالْعَامِلِ فِيهِمَا "يُتْرَكُوا " وَهُمَا مَعَ "يُتْرَكُوا " مِنْ صِلَةِ " أَنْ " وَيَجُوزُ تَقْدِيمُ الْحَالِ عَلَى الصِّلَةِ وَتَأْخِيرُهُ عَنْهَا لِأَنَّهُمَا جَمِيعًا فِي آخِرِ الصِّلَةِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْعِلَّةَ الْمَذْكُورَةَ وَهِيَ قَوْلُهُ (أَنْ يَقُولُوا) وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ لِلتَّرْكِ كَمَا قُلْنَا أَوْ لِلْحُسْبَانِ ، وَهُوَ مُحْتَمَلٌ أَيْضًا .

وَمَعْنَاهُ رَاجِعٌ إلَى الْأَوَّلِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ حَالًا مِنْ الضَّمِيرِ فِي "يَقُولُوا " وَالْمُنْكَرُ حُسْبَانُ التَّرْكِ الْمُقَيَّدِ بِالصِّفَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ ، هَذَا قَوْلِي .

وَأَمَّا الزَّمَخْشَرِيُّ فَيَجْعَلُ " أَنْ يُتْرَكُوا " مَفْعُولًا أَوَّلَ وَ (أَنْ يَقُولُوا) مَفْعُولًا ثَانِيًا وَإِنْ سَمَّاهُ خَبَرًا

.

وَيَجْعَلُهُ مَعْمُولًا لِمَحْذُوفٍ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِقَوْلِهِ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ إلَّا أَنَّهُ قَالَ : غَيْرُ مَفْتُونِينَ فَإِنْ جَعَلَ قَوْلَهُ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ مَفْعُولًا ثَانِيًا كَتَرْكِهِمْ لَمْ يَصِحَّ لِأَجْلِ الْوَاوِ ، وَلِأَجْلِ الْفَصْلِ ، وَإِنْ جَعَلَهُ حَالًا لَمْ يَصِحَّ لَهُ جَعْلُهَا مِنْ التَّرْكِ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ ، فَكَلَامُهُ عَجِيبٌ .

(السُّؤَالُ الثَّالِثُ) قَوْلُهُ : الْمَضْمُونُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحُسْبَانُ هُوَ فِي قَوْلِهِ ﴿ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ لَيْسَ فِيهِ تَصْرِيحٌ بِمَقْصُودِهِ ، لِأَنَّهُ يَصِحُّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ مِنْ كَوْنِهَا سَادَّةً مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ أَنَّ الْمَضْمُونَ فِيهَا ، لَكِنَّ قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بَيَّنَ مُرَادَهُ .

(السُّؤَالُ الرَّابِعُ) قَوْلُهُ تَقْدِيرُهُ أَحَسِبُوا تَرْكَهُمْ ، حَمَلَهُ عَلَيْهِ قَوْلُ النُّحَاةِ إنَّ " أَنْ وَالْفِعْلَ " بِتَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ وَلَكِنْ قَدْ بَيَّنَّا الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ، وَلَنَا أَنْ نَمْنَعَهُ بِذَلِكَ الْفَرْقِ أَنَّ تَقْدِيرَهُ ذَلِكَ لِاخْتِلَافِ الْمَعْنَى (السُّؤَالُ الْخَامِسُ) قَوْلُهُ غَيْرَ مَفْتُونِينَ وَتَقْدِيرُهُ فِي هَذَا

(44/594)

الْمَحِلِّ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ مَفْعُولٌ ثَانٍ لِتَرْكِهِمْ فَإِنْ كَانَ مُرَادُهُ بِذَلِكَ أَنَّهُ مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ مِنْ تَمَامِ الصِّلَةِ وَقَدْ فُصِلَ بَيْنَهُمَا بِقَوْلِهِ ﴿ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ﴾ وَهُوَ أَجْنَبِيٌّ عَنْهَا لِأَنَّهُ خَبَرٌ عَنْ الْمَوْصُولِ .

وَإِنْ كَانَ مُرَادُهُ غَيْرَ ذَلِكَ صَارَ تَقْدِيرُهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِلَا دَلِيلٍ وَذِكْرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ نَتَعَرَّضْ لَهُ

.

(السُّؤَالُ السَّادِسُ) قَوْلُهُ إنَّ التَّرْكَ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ مَا الدَّاعِي إلَيْهِ وَهُوَ مُحْتَمِلٌ لِذَلِكَ ، وَلَأَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى التَّخْلِيَةِ وَالْإِهْمَالِ : وَكِلَاهُمَا مُحْتَمَلُ الْبَيْتِ الَّذِي أَنْشَدَهُ ؟ .

(السُّؤَالُ السَّابِعُ) حَيْثُ جَعَلَهُ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ " غَيْرَ مَفْتُونِينَ " مَفْعُولًا ثَانِيًا وَالْوَاوُ فِي ﴿ وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ تَمْنَعُ مِنْهُ .

(السُّؤَالُ الثَّامِنُ) تَعْلِيلُهُ كَوْنَ غَيْرَ مَفْتُونِينَ مِنْ تَتِمَّةِ التَّرْكِ بِأَنَّ التَّرْكَ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ وَهُوَ مِنْ تَتِمَّةِ التَّرْكِ مُطْلَقًا سَوَاءٌ أَجَعَلْنَاهُ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ أَمْ لَا ، لَكِنْ إنْ جَعَلْنَاهُ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ كَانَ ذَلِكَ مُتَحَتِّمًا أَنَّهُ مِنْ تَتِمَّتِهِ وَإِنْ لَمْ نَجْعَلْهُ لَمْ يَتَحَتَّمْ ، لَكِنَّ الْمَعْنَى سَاقَ إلَيْهِ فَجَعَلْنَا مَا بَعْدَهُ عِلَّةً وَحَالًا مُقَيَّدَةً .

(السُّؤَالُ التَّاسِعُ) قَوْلُهُ فِي سُؤَالِ نَفْسِهِ " أَنْ يَقُولُوا " هُوَ عِلَّةُ تَرْكِهِمْ غَيْرَ مَفْتُونِينَ مُرَادُهُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى ، وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الصِّنَاعَةُ فَيَسْتَحِيلُ مَعَ جَعْلِهِ خَبَرًا أَنْ يَكُونَ عِلَّةً فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ نُبَيِّنَ ذَلِكَ حَتَّى لَا يَحْصُلَ الِالْتِبَاسُ فِي الْجَوَابِ .

(السُّؤَالُ الْعَاشِرُ) قَوْلُهُ فِي الْجَوَابِ كَمَا تَقُولُ خُرُوجُهُ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ .

قُلْت لَيْسَ مِثْلَهُ ، لِأَنَّ خُرُوجَهُ مُبْتَدَأٌ وَلَيْسَ بَعْدَهُ مَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا غَيْرَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ وَلَا يَحْتَمِلُ الْكَلَامُ غَيْرَ ذَلِكَ وَ " لِقَوْلِهِمْ " لَمْ يَتَعَيَّنْ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا

، لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ مُحْتَمِلٌ لِلتَّمَامِ بِخِلَافِ " خُرُوجِهِ " فَإِنَّهُ مُفْرَدٌ لَا يَحْتَمِلُ التَّمَامَ .

قَوْلُهُ وَقَدْ كَانَ فِي خَرَجْت مَخَافَةَ الشَّرِّ تَعْلِيلًا .

قُلْت : لِأَنَّ " خَرَجْت " كَلَامٌ تَامٌّ فَجَاءَ التَّعْلِيلُ بَعْدَهُ وَلَمْ يَحْتَمِلْ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَهُوَ مُخَالِفٌ لِلْآيَةِ لِاحْتِمَالِهَا ؛ وَمُخَالِفٌ لِمَا مَثَّلَ بِهِ لِمُضَادَّتِهِ إيَّاهُ .

قَوْلُهُ وَتَقُولُ أَيْضًا حَسِبَ خُرُوجَهُ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ .

قُلْت لَوْ قُلْت حَسِبَ خُرُوجَهُ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ حِسًّا لَمْ يَحْتَمِلْ غَيْرَ التَّعْلِيلِ ، وَأَمَّا فِي الْمِثَالِ الَّذِي ذَكَرَهُ فَإِنَّ خُرُوجَهُ مَفْعُولٌ أَوَّلٌ وَلِمَخَافَةِ الشَّرِّ مُضْطَرٌّ إلَى أَنْ يَجْعَلَهُ مَفْعُولًا ثَانِيًا مُتَعَلِّقًا بِمَحْذُوفٍ ، وَإِنَّمَا يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ لِأَنَّ خُرُوجَهُ لَا يَسُدُّ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ ، وَلَيْسَ نَظِيرَ الْآيَةِ ، وَإِنَّمَا نَظِيرُهَا حَسِبَ أَنْ يَخْرُجَ لِمَخَافَةِ الشَّرِّ فَإِنَّ " أَنْ يَخْرُجَ " سَادَّةٌ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ يَتِمُّ الْكَلَامُ بِهَا ، وَلَوْ قِيلَ حَسِبَ خُرُوجَهُ بِمَعْنَى حَسِبْت أَنْ يَخْرُجَ إنْ سُمِعَ ذَلِكَ مِنْ الْعَرَبِ صَارَ نَظِيرًا لِلْآيَةِ ، وَاحْتَمَلَ الْوَجْهَيْنِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 81 ﴾ 84.

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكوا ﴾

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أَنَّه لَمَّا أُمر بالهجرة ، كتب المسلمون إِلى إِخوانهم بمكة أَنَّه لا يُقْبَل منكم إِسلامكم حتى تُهاجِروا ، فخرجوا نحو المدينة فأدركهم المشركون فردُّوهم ، فأنزل الله عز وجل من أول هذه السورة عشر آيات ، فكتبوا إِليهم يخبرونهم بما نزل فيهم ، فقالوا : نَخْرُج ، فإن اتَّبَعَنَا أحدٌ قاتلناه ، فخرجوا فاتَّبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم مَنْ قُتل ، ومنهم مَنْ نجا ، فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبِّكَ للذين هاجروا مِنْ بَعْد ما فُتِنوا ﴾ [النحل : 110] ، هذا قول الحسن ، والشعبي .

والثاني : أَنَّها نزلت في عمَّار بن ياسر إِذ كان يعذَّب في الله عز وجل ، قاله عبد الله بن عُبيد بن عُمير .

والثالث : أَنَّها نزلت في مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب حين قُتل ببدر ، فجزع عليه أبواه وامرأته ، فأنزل الله تعالى في أبويه وامرأته هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ قال ابن عباس : يريد بالناس : الذين آمنوا بمكة ، كعيَّاش بن أبي ربيعة ، وعمَّار بن ياسر ، وسَلَمة بن هشام ، وغيرهم .

قال الزجاج : لفظ الآية استخبار ، ومعناه معنى التقرير والتوبيخ ؛ والمعنى : أحَسِب النَّاس أن يُتْرَكوا بأن يقولوا : آمَنَّا ، ولأَن يقولوا : آمَنَّا ، أي : أَحَسِبوا أن يُقْنَع منهم بأن يقولوا : إِنَّا مؤمنون ، فقط ، ولا يُمتَحنون بما يبيِّن حقيقة إِيمانهم ، ﴿ وهم لا يُفْتَنون ﴾ أي لا يُختَبرون بما يُعْلَم به صِدق إِيمانهم من كذبه .

وللمفسرين فيه قولان .

أحدهما : لا يُفْتَنون في أنفسهم بالقتل والتعذيب ، قاله مجاهد .

والثاني : لا يُبْتَلَوْن بالأوامر والنواهي .

قوله تعالى : ﴿ ولقد فَتَنَّا الذين مِنْ قَبْلِهم ﴾ أي : ابتليناهم واختبرناهم ، ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

(47/594)

أحدهما : فلَيُرِيَنَّ اللّهُ الذين صَدَقوا في إِيمانهم عند البلاء إِذا صبروا لقضائه ، ولَيُرِيَنَّ الكاذبين في إِيمانهم إِذا شكُّوا عند البلاء ، قاله مقاتل .

والثاني : فلَيُمَيِّزَنَّ ، لأَنَّه [قد] عَلِم ذلك مِنْ قَبْل ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : فلَيُظْهِرَنَّ ذلك حتى يوجد معلوماً ، حكاه الثعلبي .

وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وجعفر بن محمد : ﴿ فَلَيُعْلِمَنَّ اللّهُ ﴾ ﴿ وَلَيُعْلِمَنَّ الكاذبين ﴾ ﴿ وَلَيُعْلِمَنَّ اللّهُ الذين آمنوا وَلَيُعْلِمَنَّ المنافقين ﴾ [العنكبوت : 11] بضم الياء وكسر اللام .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ﴾ أي : أَيَحْسَب ﴿ الذين يَعْمَلون السَّيِّئات ﴾ يعني الشِّرك ﴿ أن يَسْبِقونا ﴾ أي : يفُوتونا ويُعْجِزونا ﴿ ساء ما يحكُمون ﴾ أي : بئس ما حكموا لأنفسهم حين ظنُّوا ذلك .

قال ابن عباس : عنى بهم الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل ، والعاص بن هشام ، وغيرهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(48/594)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الم * أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾

تقدّم القول في أوائل السور .

وقال ابن عباس : المعنى أنا الله أعلم .

وقيل : هو اسم للسورة .

وقيل اسم للقرآن .

﴿ أَحَسِبَ ﴾ استفهام أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه الظن .

﴿ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ في موضع نصب ب ﴿ حَسِبَ ﴾ وهي وصلتها مقام المفعولين على قول سيبويه .

و ﴿ أن ﴾ الثانية من ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ في موضع نصب على إحدى جهتين ، بمعنى لأن يقولوا أو بأن يقولوا أو على أن يقولوا .

والجهة الأخرى أن يكون على التكرير ؛ والتقدير ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا ﴾ أَحَسِبُوا ﴿ أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة ، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ؛ كسلمة بن هشام وعيّاش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وعمّار بن ياسر وياسر أبوه وسُميّة أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم .

فكانت صدورهم تضيق لذلك ، وربما استنكِر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين ؛ قال مجاهد وغيره : فنزلت هذه الآية مسلِّية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختباراً للمؤمنين وفتنة .

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجود حكمها بقية الدهر .

وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك .

وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ، ولكن التي تشبه نازلة المسلمين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدوّ في كل ثغر .

قلت : ما أحسن ما قاله ، ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه .

وقال مقاتل : نزلت في مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بَدْر ؛ رماه عامر بن الحضرميّ بسهم فقتله .

(49/594)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يومئذٍ : " سيد الشهداء مِهْجَع وهو أوّل من يُدْعى إلى باب الجنة من هذه الأمة " فجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت : ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا ﴾ .

وقال الشعبي : نزل مفتتح هذه السورة في أناس كانوا بمكة من المسلمين ، فكتب إليهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا فأتبعهم المشركون فآذوهم .

فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا ﴾ فكتبوا إليهم : نزلت فيكم آية

كذا ؛ فقالوا : نخرج وإن اتبعنا أحد قاتلناه ؛ فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ﴾ [النحل : 110] .

﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ يمتحنون ؛ أي أَظنَّ الذين جزعوا من أذى المشركين أن يُقنَع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبيّن به حقيقة إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي ابتلينا الماضين كالخليل ألقي في النار ، وكقوم نشروا بالمناشير في دين الله فلم يرجعوا عنه .

وروى البخاريّ عن خَبّاب بن الأَرَتّ : قالوا " شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بُردة له في ظل الكعبة ، فقلنا له : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا .

فقال : "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمِنْشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمَشط بأمشاط الحديد لحمُه وعظمُه فما يصرفه ذلك عن دينه واللَّهِ ليتمنّ هذا الأمرُ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللَّهَ والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون" " وخرّج ابن ماجه " عن أبي سعيد الخدريّ قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُوعَك ، فوضعت يدي عليه ، فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف .

فقلت : يا رسول الله ما أشدّها عليك .

قال : "إنا كذلك يُضعَّف لنا البلاء ويُضعّف لنا الأجر" قلت : يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء ؟ قال : "الأنبياء" وقلت : ثم من .

قال : "ثم الصالحون أَنْ كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يَحُوبها وأَنْ كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرحُ أحدكم بالرخاء" " .

" وروى سعد بن أبي وقاص قال : قلت يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء ؟ قال : "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صُلْباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقّة ابتلي على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة" " وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير ، فركب يوماً فأخذه السبع فأكله ، فقال عيسى : يا رب وزيري في دينك ، وعوني على بني إسرائيل ، وخليفتي فيهم ، سلطت عليه كلباً فأكله .

قال : "نعم كانت له عندي منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة" .

وقال وهب : قرأت في كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عيناً ، فإنه سِلك بك سبيل الأنبياء والصالحين ، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك ، فقد

خولف بك عن سبيلهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ ﴾ أي فليُرِيَنَّ اللهُ الذين صدقوا في إيمانهم .

وقد مضى هذا المعنى في "البقرة" وغيرها .

قال الزجاج : ليعلم صدق الصادق بوقوع صدقه منه ، وقد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما ، ولكن القصد قصد وقوع العلم بما يجازى عليه .

وإنما يعلم صدق الصادق واقعاً كائناً وقوعه ، وقد علم أنه سيقع .

وقال النحاس : فيه قولان : أحدهما : أن يكون ﴿ صَدَقُوا ﴾ مشتقاً من الصِّدْق و ﴿ الْكَاذِبِينَ ﴾ مشتقاً من الكَذِب الذي هو ضد الصِّدق ، ويكون المعنى ؛ فليبينن الله الذي صدقوا فقالوا نحن مؤمنون واعتقدوا مثل ذلك ، والذين كذبوا حين اعتقدوا غير ذلك .

(51/594)

والقول الآخر : أن يكون صدَقوا مشتقاً من الصَّدَق وهو الصُّلْب ، والكاذبين مشتقاً من كَذَّب إذا انهزم ، فيكون المعنى ؛ فليعلمن الله الذين ثبتوا في الحرب ، والذين انهزموا ؛ كما قال الشاعر :

لَيثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا . . .

ما اللَّيثُ كَذَّبَ عن أقرانه صَدَقَا

فجعل ﴿ لَيَعْلَمَنَّ ﴾ في موضع فليبينن مجازاً .

وقراءة الجماعة : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ﴾ بفتح الياء واللام .

وقرأ علي ابن أبي طالب بضم الياء وكسر اللام وهي تبين معنى ما قاله النحاس .

ويحتمل ثلاثة معان : الأول : أن يعلم في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنازلهم من ثوابه وعقابه وبأعمالهم في الدنيا ؛ بمعنى يوقفهم على ما كان منهم .

الثاني : أن يكون المفعول الأوّل محذوفاً تقديره ؛ فليعلمنّ الناس والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين ، أي يفضحهم ويشهرهم ؛ هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر ، وذلك في الدنيا والآخرة .

الثالث : أن يكون ذلك من العلامة ؛ أي يضع لكل طائفة علامة يشتهر بها .

فالآية على هذا تنظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : " من أسر سريرة ألبسه الله رداءها " .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ أي الشرك ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أي يفوتونا ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يفعلون .

قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام وشيبة وعتبة والوليد بن عتبة وعقبة بن أبي معيط وحنظلة بن أبي سفيان والعاص بن وائل .

﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس الحكم ما حكموا في صفات ربهم أنه مسبوق والله القادر على كل شيء .

و﴿ ما ﴾ في موضع نصب بمعنى ساء شيئاً أو حكماً يحكمون .

ويجوز أن تكون ﴿ ما ﴾ في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم .

وهذا قول الزجاج .

(52/594)

وقدرها ابن كيسان تقديرين آخرين خلاف ذينك : أحدهما ؛ أن يكون موضع ﴿ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ بمنزلة شيء واحد ، كما تقول : أعجبني ما صنعت ؛ أي صنيعك ف ﴿ ما ﴾ والفعل مصدر في موضع رفع ، التقدير ؛ ساء حكمهم .

والتقدير الآخر أن تكون ﴿ ما ﴾ لا موضع لها من الإعراب ، وقد قامت مقام الاسم لساء ، وكذلك نعم وبئس .

قال أبو الحسن بن كيسان : وأنا أختار أن أجعل ل ﴿ ما ﴾ موضعاً في كل ما أقدر عليه ؛ نحو قوله عز وجل : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ ﴾ [آل عمران : 159] وكذا ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم ﴾ [المائدة : 13] وكذا ﴿ أَيَّمَا الأَجلين قَضَيْتُ ﴾ [القصص : 28] ﴿ ما

﴿ في موضع خفض في هذا كله وما بعده تابع لها ، وكذا ؛ ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً ﴾ [البقرة : 26] ﴿ ما ﴾ في موضع نصب و ﴿ بَعُوضَةً ﴾ تابع لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(53/594)

وقال أبو حيان :

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

هذه السورة مكية ، قاله جابر وعكرمة والحسن .

وقال ابن عباس ، وقتادة : مدنية .

وقال يحيى بن سلام : مكية إلا من أولها إلى ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ ، ونزل أوائلها في مسلمين بمكة كرهوا الجهاد حين فرض بالمدينة ، قاله السدي ؛ أو في عمار ونظرائه ممن كان يعذب في الله ، قاله ابن عمر ؛ أو في مسلمين كان كفار قريش يؤذونهم ، قاله مجاهد ، وهو قريب مما قبله ؛ أو في مهجع مولى عمر ، قتل ببدر فجزع أبواه وامرأته عليه ، وقال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة " ؛ أو في عياش أخي أبي جهل ، غدر فارتد .

و﴿ الناس ﴾ : فسر بمن نزلت فيه الآية .

وقال الحسن : الناس هنا المنافقون ، أي أن يتركوا لمجرد قولهم آمنا .

وحسب يطلب مفعولين .

فقال الحوفي ، وابن عطية ، وأبو البقاء : سدت أن وما بعدها من معمولها مسد المفعولين ،

وأجاز الحوفي وأبو البقاء أن يقولوا بدلاً من أن يتركوا .

وأن يكونوا في موضع نصب بعد إسقاط الخافض ، وقدروه بأن يقولوا ولأن يقولوا .

وقال ابن عطية ، وأبو البقاء : وإذا قدرت الباء كان حالاً .

قال ابن عطية : والمعنى في الباء واللام مختلف ، وذلك أنه في الباء كما تقول : تركت زيداً

بحاله ، وهي في اللام بمعنى من أجل ، أي حسبوا أن إيمانهم علة للترك تفسير معنى ، إذ

تفسير الأعراب حسبانهم أن الترك لأجل تلفظهم بالإيمان .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فأين الكلام الدال على المضمون الذي يقتضيه الحسبان ؟

قلت : هو في قوله : ﴿ أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ ، وذلك أن تقديره حسبوا

تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا ، فالترك أول مفعولي حسب ، ولقولهم آمنا هو الخبر ، وأما

غير مفتونين فتتمة للترك ، لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير ، كقوله :

فتركته جزر السباع ينشنه . . .

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحسبان تقدر أن تقول : تركتهم غير مفتونين ، لقولهم آمنا ، على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام ؟ فإن قلت : ﴿ أن يقولوا ﴾ هو علة تركهم غير مفتونين ، فكيف يصح أن يقع خبر مبتدأ ؟ قلت : كما تقول : خروجه لمخافة الشر وضربه للتأديب ، وقد كان التأديب والمخافة في قوله : خرجت مخافة الشر وضربته تأديباً ، تعليلين .

وتقول أيضاً : حسبت خروجه لمخافة الشر وظننت ضربه للتأديب ، فتجعلها مفعولين كما جعلتهما مبتدأ وخبراً .

انتهى ، وهو كلام فيه اضطراب .

ذكر أولاً أن تقديره غير مفتونين تتمة ، يعني أنه حال ، لأنه سبك ذلك من قوله : ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ ، وهذه جملة حالية .

ثم ذكر ﴿ أن يتركوا ﴾ هنا من الترك الذي هو من التصيير ، وهذا لا يصح ، لأن مفعول صير الثاني لا يستقيم أن يكون لقولهم ، إذ يصير التقدير أن يصيروا لقولهم : ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ ، وهذا كلام لا يصح .

وأما ما مثل به من البيت فإنه يصح ، وأن يكون جزر السباع مفعولاً ثانياً لترك بمعنى صير ، بخلاف ما قدر في الآية .

وأما تقديره تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا ، على تقدير حاصل ومستقر قبل اللام ، فلا يصح ؛ إذ كان تركهم بمعنى تصييرهم ، كان غير مفتونين حالاً ، إذ لا ينعقد من تركهم ، بمعنى تصييرهم ، وتقولهم مبتدأ وخبر لاحتياج تركهم ، بمعنى تصييرهم ، إلى مفعول ثان ، لأن غير مفتونين عنده حال ، لا معفول ثان .

وأما قوله : فإن قلت ﴿ أن يقولوا ﴾ إلى آخره ، فيحتاج إلى فضلة فهم ، وذلك أن قوله : ﴿ أن يقولوا ﴾ هو علة تركهم فليس كذلك ، لأنه لو كان علة له لكان متعلقاً ، كما يتعلق بالفعل ، ولكنه علة للخبر المحذوف الذي هو مستقر ، أو كائن ، والخبر غير المبتدأ .

ولو كان لقولهم علة للترك ، لكان من تمامه ، فكان يحتاج إلى خبر .

وأما قوله : كما تقول خروجه لمخافة الشر ، فلمخافة ليس علة للخروج ، بل للخبر المحذوف الذي وهو مستقر ، أو كائن .

(55/594)

﴿ وهم لا يفتنون ﴾ ، قال الشعبي : الفتنة هنا ما كلفه المؤمنون من الهجرة التي لم يتركوا دونها .

وقال الكلبي : هو مثال ، ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ وقال مجاهد : يتبتلون في أنفسهم

وأموالهم .

و﴿ الذين من قبلهم ﴾ : المؤمنون أتباع الأنبياء ، أصابهم من المحن ما فرق به المؤمن بالمنشار فرقتين ، وتمشط بأمشاط الحديد ، ولا يرجع عن دينه .

﴿ فليعلمن الله ﴾ ، بالامتحان ، ﴿ الذين صدقوا ﴾ في إيمانهم ، ﴿ وليعلمن الكاذبين ﴾ فيه من علم المتعدية إلى واحد فيهما ، ويستحيل حدوث العلم لله تعالى .

فالمعنى : وليتعلقن علمه به موجوداً به كما كان متعلقاً به حين كان معدوماً .

والمعنى : وليميزن الصادق منهم من الكاذب ، أو عبر بالعلم عن الجزاء ، أي وليتبين الصادق وليعذبن الكاذب .

ومعنى صدقوا في إيمانهم يطابق قولهم واعتقادهم أفعالهم ، والكاذبين ضد ذلك .

وقرأ علي ، وجعفر بن محمد : فليعلمن ، مضارع المنقولة بهمزة التعدي من علم المتعدية إلى واحد ، والثاني محذوف ، أي منازلهم في الآخرة من ثواب وعقاب ؛ أو الأول محذوف ، أي فليعلمن الناس الذين صدقوا ، أي يشهرهم هؤلاء في الخير ، وهؤلاء في الشر ، وذلك في الدنيا والآخرة ، أو من العلامة فيتعدى إلى واحد ، أي يسمهم بعلامة تصلح لهم ، كقوله : "من أسر سريرة ألبسه الله رداءها" .

وقرأ الزهري : الأولى كقراءة الجماعة ، والثانية كقراءة علي .

﴿ أم حسب ﴾ ، قال ابن عطية : أم معادلة للألف في قوله : ﴿ أحسب ﴾ ، وكأنه عز

وجل قرر الفريقين : قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون ، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات في تعذيب المؤمنين وغير ذلك ، على ظنهم أنهم يسبقون نقمات الله ويعجزونه . انتهى .

وليست أم هنا معادلة للألف في أحسب ، كما ذكر ، لأنها إذ ذاك تكون متصلة ، ولها شرطان : أحدهما : أن يكون قبلها لفظ همزة الاستفهام ، وهذا الشرط هنا موجود .

والثاني : أن يكون بعدها مفرد ، أو ما هو في تقدير المفرد .

(56/594)

مثال المفرد : أزيد قائم أم عمرو ؟ ومثال ما هو في تقدير المفرد : أقام زيد أم قعد ؟ وجوابها : تعيين أحد الشيئين ، إن كان التعادل بين شيئين ؛ أو الأشياء ، إن كان بين أكثر من شيئين .

وهنا بعد أم جملة ، ولا يمكن الجواب هنا بأحد الشيئين ، بل أم هنا منقطعة ، بمعنى بل التي للإضراب ، بمعنى الانتقال من قضية إلى قضية ، لا بمعنى الإبطال .

وهمزة الاستفهام والاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ والإنكار ، فلا يقتضي جواباً ، لأنه في معنى : كيف وقع حسبان لك ؟

و ﴿ الذين يعملون السيئات ﴾ ، قال ابن عباس : يريد الوليد بن المغيرة ، وأبا جهل ،

والأسود ، والعاصي بن هشام ، وشيبة ، وعتبة ، والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبي معيط ، وحنظلة بن أبي سفيان ، والعاصي بن وائل ، وأنظارهم من صناديد قريش . انتهى .

والآية ، وإن نزلت على سبب ، فهي تعم جميع من يعمل السيئات من كافر ومسلم .

وقال مجاهد : ﴿ أن يسبقونا ﴾ : أي يعجزونا ، فلا نقدر على الانتقام ، وقيل : أن يعجلونا محتوم القضاء ، وقيل : أن يهربوا منا ويفوتونا بأنفسهم .

وقال الزمخشري : ﴿ أن يسبقونا ﴾ : أن يفوتونا ، يعني أن الجزاء يلحقهم لا محالة ، وهم لم يطمعوا في الفوت ، ولم يحدثوا به أنفسهم ، ولكنهم لغفلتهم وقلة فكرتهم في العاقبة ، وإصرارهم على المعاصي في صورة من يقدم ذلك ويطمع فيه ؛ ونظيره : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾ فإن قلت : أين مفعولاً حسب ؟ قلت : اشتمال صلة أن على مسند ومسند إليه سد مسد المفعولين ، كقولهم : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ ويجوز أن تضمن حسب معنى قدر ، وأم منقطعة .

ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان الأول ، لأن ذلك يقدر أن لا يمتحن لإيمانه ، وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه . انتهى .

أمّا قوله : وهو لم يطمعوا في الفوت ، إلى آخر قوله : ويطمع فيه ، فليس كما ذكر ، بل هم معتقدون أن لا بعث ولا جزاء ، ولا سيما السرية التي نص عليها ابن عباس ، وما ذكره ، كما الزمخشري ، هو على اعتقاد من يعلم أن الله يجازيه ، ولكن طمع في عفو الله .

وأما قوله : اشتمال صلة أن ، إلى آخره ، فقد كان ينبغي أن يقدر ذلك في قوله : ﴿ أن يتركوا ﴾ ، فيجعل ذلك سد مسد المفعولين ، ولم يقدر ما لا يصح تقديره ، وأمّا قوله : ويجوز أن تضمن حسب معنى قدر ، فتعين إن أن وما بعدها في موضع مفعول واحد ، والتضمين ليس بقياس ، ولا يصار إليه إلا عند الحاجة إليه ، وهذا لا حاجة إليه .

﴿ ساء ما يحكمون ﴾ ، قال الزمخشري ، وابن عطية ما معناه : أن ﴿ ما ﴾ موصولة و ﴿ يحكمون ﴾ صلتها ، أو تمييز بمعنى شيء ، ويحكمون صفة ، والمخصوص بالذم محذوف ، فالتقدير : أي حكمهم .

انتهى .

وفي كون ما موصولة مرفوعة بساء ، أو منصوبة على التمييز خلاف مذكور في النحو .

وقال ابن كيسان : ما مصدرية ، فتقديره : بئس حكمهم .

وعلى هذا القول يكون التمييز محذوفاً ، أي ساء حكماً حكمهم .

وساء هنا بمعنى : بئس ، وتقدم حكم بئس إذا اتصل بها ما ، والفعل في قوله : ﴿ بئسما

اشتروا به أنفسهم ﴾ مشبعاً في البقرة.

وجاء بالمضارع، وهو ﴿ يحكمون ﴾ ، قيل: إشعاراً بأن حكمهم مذموم حالاً واستقبالاً، وقيل: لأجل الفاصلة وقع المضارع موقع الماضي اتساعاً. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(58/594)

وقال أبو السعود:

(سورة العنكبوت)

(59/594)

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴾ ﴿ الم ﴾ الكلامُ فيه كالذي مرَّ مراراً في نظائرِه من الفواتحِ الكريمةِ خلا أنَّ ما بعده لا يحتملُ أنْ يتعلَّق به تعلُّقاً إعرابياً ﴿ أَحَسِبَ الناس ﴾ الحسبانُ ونظائره لا يتعلَّق بمعاني المُفرداتِ بل بمضامينِ الجملِ المفيدةِ لثبوت شيءٍ أو انتفاءِ شيءٍ عن شيءٍ بحيثُ يتحصّلُ منها مفعولاه إمَّا بالفعلِ كما في عامَّة المواقع وإما بنوع تصرُّفٍ فيها كما

في الجُملِ المصدَّرةِ بأن الواقعةِ صلةً للموصولِ الاسميِّ أو الحرفيِّ فإنَّ كلاًّ منها صالحةٌ لأنْ يُسبكَ منها مفعولاه لأنَّ قولَه تعالى أحسب الناسُ ﴿ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون ﴾ في قوَّةِ أنْ يقالَ أحسبُوا أنفسَهم متروكين بلا فتنةٍ بمجرَّدِ أنْ يقولوا آمنَّا أو أنْ يقالَ أحسبوا تركَهم غيرَ مفتونينَ بقولِهم آمنَّا حاصلاً متحقِّقاً ، والمَعْنى إنكارُ الحُسبانِ المذكور واستبعادُه وتحقيقُ أنَّه تعالى يمتحنُهم بمشاقِّ التَّكاليفِ كالمهاجرةِ والمجاهدةِ ورفضِ ما تشتهيهِ النَّفسُ ، ووظائفِ الطَّاعاتِ وفنونِ المصائبِ في الأنفسِ والأموالِ ليتميَّزَ المخلصُ من المنافقِ والرَّاسخُ في الدِّينِ من المتزلزلِ فيه ويجازيَهم بحسبِ مراتبِ أعمالِهم فإنَّ مجرَّدَ الإيمانِ وإنْ كانَ عن خُلوصٍ لا يقتضِي غيرَ الخلاصِ من الخُلودِ في النَّارِ . رُوي أنَّها نزلتْ في ناسٍ من الصَّحابةِ رضوانُ اللهِ تعالى عليهم أجمعينَ جزعُوا من أذيَّةِ المشركينَ ، وقيل : في عمَّارٍ قد عُذِّبَ في اللهِ ، وقيل : في مهجعٍ مَولى عمرَ بنِ الخطَّابِ رضي اللهُ عنهُما رماهُ عامرُ بنُ الحضرميِّ بسهمٍ يومَ بدرٍ فقتلَه فجزعَ عليه أبُوه وامرأتُه وهو أولُ من استُشهدَ يومئذٍ من المسلمينَ فقال رسولُ صلى اللهُ عليه وسلم : سيِّدُ الشُّهداءِ مهجعٌ وهو أولُ من يُدعى إلى بابِ الجنَّةِ من هذه الأمَّةِ .

(60/594)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ متَّصلٌ بقوله تعالى ﴿ أحسِب ﴾ أو بقولِه تعالى ﴿ لا يُفتنون ﴾ والمعنى أنَّ ذلك سنَّة قديمةٌ مبنية على الحكمِ البالغةِ جاريةٌ فيما بين الأممِ كلِّها فلا ينبغي أنْ يُتوقَّع خلافُها والمعنى أنّ الأممَ الماضيةَ قد أصابَهم من ضروبِ الفتنِ والمحنِ ما هو أشدُّ ممَّا أصاب هؤلاءِ فصبروا كما يُعربُ عنه قولُه تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا استكانوا ﴾ الآياتِ وعن النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام : " قد كان منَ قبلكم يُؤخذ فيوضع المنشارُ على رأسه فيُقرق فرقتينِ ما يصرفُه ذلك عن دينِه ويمشَّط بأمشاطِ الحديدِ ما دون عظمِه من لحمٍ وعصبٍ ما يصرفه ذلكَ عن دينه " ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ أي في قولِهم آمنا ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ في ذلك . لترتيبِ ما بعدها على ما يُفصح عنه ما قبلَها من وقوعِ الامتحانِ ، واللامُ جوابُ القَسَمِ ، والالتفاتُ إلى الإسمِ الجليلِ لإدخال الرَّوعةِ وتربية المهابة . وتكريرُ الجواب لزيادة التَّأكيدِ والتقرير ، أي فوالله ليتعلقن علمُه بالامتحان تعلُّقاً حالياً يتميزُ به الذين صدقُوا في الإيمان الذي أظهروه والذين هم كاذبونَ فيه مستمرَون على الكذب ويترتبُ عليه أجزيتُهم من الثَّواب والعقابِ ، ولذلك قيل : المعنى ليميزن أو ليجازين . وقُرِىء وليُعلمنَّ من الإعلامِ أي وليعرِّفنَّهم النَّاسَ أو ليسمنّهم بسِمةٍ يُعرفون بها يومَ القيامة كبياضِ الوجوه وسوادِها .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا ﴾

أي يفوتُونا فلا نقدرَ على مجازاتِهم بمساوىء أعمالِهم وهو سادٌّ مسدَّ مفعولَيْ حسِب لاشتمالِه على مُسندٍ ومُسندٍ إليهِ . وأمْ منقطعةٌ وما فيها من مَعنى بل للإضرابِ والانتقالِ عن التَّوبيخ بإنكارِ حُسبانِهم متروكينَ غيرَ مفتُونين إلى التَّوبيخ بإنكارِ ما هو أبطلُ من الحُسبانِ الأول وهو حسبانُهم أنْ لا يجازُوا بسيئاتهم وهم وإنْ لم يحسبوا أنَّهم يفوتونَهُ تعالى ولم يحدِّثوا نفوسَهم بذلك كلِّهم حيثُ أصرُّوا على المعاصي ولم يتفكَّروا في العاقبةِ نزلُوا منزلَه مَن طمِع في ذلك كما في قولِه تعالى : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئسَ الذي يحكمونَهُ حكمُهم ذلك أو بئس حُكماً يحكونَه حكمُهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ الم ﴾ سبق الكلام فيه وفي نظائره ولم يجوز بعضهم هنا ارتباط ما بعده به ارتباطاً

أعرابياً لأن الاستفهام مانع منه وبحث فيه بأن اللازم في الاستفهام تصدره في جملته وهو لا ينافي وقوع تلك الجملة خبراً ونحوه كقولك : زيد هل قام أبوه ؟ فلو قيل هنا المعنى المتلو عليك .

﴿ أَحَسِبَ الناس ﴾ إلى آخر السورة صح فلا يقال أيضاً إن المانع منه عدم صحة ارتباطه بما قبله معنى .

نعم الارتباط خلاف الظاهر ، والاستفهام للإنكار ، والحسبان مصدر كالغفران مما يتعلق بمضامين الجمل لأنه من الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر وذلك للدلالة على وجه ثبوتها في الذهن أو في الخارج من كونا مظنة أو متيقنة فتقتضي مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر أو ما يسد مسدهما وقد سد مسدهما هنا على ما قاله الحوفي .

وابن عطية .

وأبو البقاء : قوله تعالى : ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ وسد أن المصدرية الناصبة للعفل مع مدخولها مسد الجزأين مما قاله ابن مالك ، ونقله عنه الدماميني في شرح التسهيل ، وزعم بعضهم أن ذلك إنما هو في أن المفتوحة مشددة ومثقلة مع مدخولها ، والترك هنا على ما ذكره الزمخشري بمعنى التصيير المتعدي لمفعولين كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظلمات لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : 17] وقول الشاعر :

فتركته جزر السباع ينشنه . . .

يقضمن قلة رأسه والمعصم

فضمير الجمع نائب مفعول أول والمفعول الثاني متروك بدلالة الحال الآتية أي كما هم أو على ما هم عليه كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الذين جاهدوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ ﴾ [التوبة : 16] على ما قدره الزمخشري فيه وقوله سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن ﴾ بمعنى لأن يقولوا متعلق بيتركوا على أنه غير مستقر ، وقوله تعالى :

(63/594)

﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ في موضع الحال من ضمير يتركوا ، ويجوز أن لا يعتبر كون المفعول الثاني ليتركوا متروكاً بل تجعل هذه الجملة الحالية سادة مسده ، ألا ترى أنك لو قلت : علمت ضربي زيداً قائماً صح ، على أن ترك ليس كأفعال القلوب في جميع الأحكام ، بل القياس أن يجوز الاكتفاء فيه بالحال من غير نظر إلى أنه قائم مقام الثاني لأن قولك : تركته وهو جزر السباع كلام صحيح كما تقول أبقيته على هذه الحالة ، وهو نظير سمعته يتحدث في أنه يتم بالحال بعده أو الوصف ، وههنا زاد أنه يتم أيضاً بما يجري مجرى الخبر ، وجوز أن تكون هذه الجملة هي المفعول الثاني لا سادة مسده وتوسط الواو بين المفعولين جائز كما في قوله :

وصيرني هواك وبي . . .

لحيني يضرب المثل

وقد نص شارح أبيات المفصل على أنه حكى عن الأخفش أنه كان يجوز كان زيد وأبوه قائم على نقصان كان وجعل الجملة خبراً مع الواو تشبيهاً لخبر كان بالحال فمتى جاز في الخبر عنده فليجز في المفعول الثاني وهو كما نرى ، واستظهر الطيبي كون الترك هنا متعدياً لواحد على أنه بمعنى التخلية وليس بذاك ، وجوز الحوفي .

(64/594)

وأبو البقاء أن يكون ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ بدلاً من أن يتركوا وجوز أن يكون ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ هو المفعول الأول لحسب و ﴿ هُمْ لاما ناتهم يُفْتَنُونَ ﴾ في موضع الحال من الضمير ﴿ وَإِن يَقُولُواْ ﴾ بتقدير اللام هو المفعول الثاني ، وكونه علة لا ينافي ذلك كما في قولك : حسبت ضربه للتأديب ، والتقدير أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم : آمنا ، والمفعول الثاني ليتركوا متروك بدلالة الحال ، واعترضه صاحب التقريب بما حاصله أن الحسبان لتعلقه بمضامين الجمل إذا أنكر يكون باعتبار المفعول الثاني ، فإذا قلت : أحسبته قائماً ؟ فالمنكر حسبان قيامه ، كذلك إذا قيل : أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا أفاد إنكار

حسبان أن الترك غير مفتونين لهذه العلة بل إنما هو لعلة أخرى ولا يلائم سبب النزول ولا مقصود الآية .

واختار أن يكون ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ ساداً مسد المفعولين و ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ علة للحسبان أي أحسبوا لقولهم آمنا أن يتركوا غير مفتونين ، وأجيب أن أصل الكلام ألا يفتنون لقولهم آمنا على إنكار أن يكون سبباً لعدم الفتن ، ثم قيل : أيتركون غير مفتونين لقولهم آمنا مبالغة في إنكار أن يبقوا من غير فتن لذلك ثم أدخل على حسبان الترك مبالغة على مبالغة ، وإنما يرد ما أورد إذا لم يلاحظ أصل الكلام ويجعل مصب الإنكار الحسبان من أول الأمر .

(65/594)

وقيل : إنما يلزم ما ذكر لو لم يقدر أحسبوا تركهم غير مفتونين بمجرد قولهم : آمنا دون إخلاص وعمل صالح أما لو قدر ذلك استقام كما صرح به الزجاج ، على أن ذلك مبني على اعتبار المفهوم ، واعترض ذلك بعضهم من حيث اللفظ بأن فيه الفصل بين الحال وذيها بثاني مفعولي حسب وهو أجنبي ؛ وأجيب بأن الفصل غير ممتنع بل الأحسن أن لا يقع فصل إلا إذا اعترض ما يوجبه ، وههنا الاهتمام بشأن الخبر حسن التقديم لأن مصب الإنكار ذلك ، ولا يخفى أنه يحتاج إلى مثل هذا الجواب على ما يقتضيه الظاهر من جعل ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾

في تأويل مصدر وقع مفعولاً أولاً ﴿ وَإِن يَقُولُواْ ﴾ في تأويل مصدر أيضاً مجرور بلام مقدرة والجار والمجرور في موقع المفعول الثاني ، وأما على ما ذكره بعض المحققين من أنهما لم يجعلا كذلك وإنما جعل ﴿ أَن يَقُولُواْ ﴾ معمولاً ليتركوا بتقدير اللام وجعل ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ ساداً مسد المفعولين واقتضى المعنى أن يقال أحسب الناس تركهم غير مفتونين لقولهم آمنا بجعل تركهم مفعولاً أولاً ولقولهم مفعولاً ثانياً فلا يحتاج إليه لأنه إن جرينا مع اللفظ كان ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ ساداً مسد المفعولين فلا يكون فيه مفعول ثان فاصل بين الحال وذيها وإن جرينا مع المعنى واعتبرنا الكلام مجرداً عن أن المصدرية وجيء به كما سمعت كانت الحال متصلة بذيها ، وقيل : يجوز أن يكون المفعول الأول لحسب محذوفاً أي أحسب الناس أنفسهم و ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ في موضع المفعول الثاني على أنه في تأويل مصدر وهو في تأويل اسم المفعول أي متروكين وهم لا يفتنون في موضع الحال كما تقدم وأن يؤمنوا بتقدير لأن يؤمنوا متعلق بيتركوا فكأنه قيل : أحسب الناس أنفسهم متروكين غير مفتونين لقولهم آمنا ، وقيل : إن هذا المعنى حاصل على تقدير سد ﴿ أَن يُتْرَكُواْ ﴾ مسد المفعولين فتأمل فيه وفيما قبله ، ولعل الأبعد عن التكلف ما ذكرناه أولاف ، والمراد إنكار حسبانهم أن يتركوا غير

مفتونين بمجرد أن يقولوا آمنا واستبعاد له له وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وفنون المصائب في الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ في الدين من المتزلزل فيه فيعامل كل بما يقتضيه ويجازيهم سبحانه بحسب مراتب أعمالهم فءن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في النار .

وذكر بعضهم أنه سبحانه لو أثاب المؤمن يوم القيامة من غير أن يفتنه في الدنيا لقال الكافر المعذب : ربي لو أنك كنت فتنته في الدنيا لكفر مثلي فإيمانه الذي تثيبه عليه مما لا يستحق الثواب له فبالفتنة يلجم الكافر عن مثل هذا القول ويعوض المؤمن بدلها ما يعوض بحيث يتمنى لو كانت فتنته أعظم مما كانت والآية على ما أخرج عبد بن حميد .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن الشعبي نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا إليهم أنزلت فيكم آية كذا وكذا فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله تعالى

فيهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجروا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جاهدوا وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 110] .

(67/594)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال سمعت ابن عمير وغيره يقولون : كان أبو جهل يعذب عمار بن ياسر وأمه ويجعل على عمار درعاً من حديد في اليوم الصائف وطعن في فرج أمه برمح ففي ذلك نزلت ﴿ أَحَسِبَ الناس ﴾ الخ ، وقيل : نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب قتل ببدر فجزع عليه أبواه وامرأته وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة " ، وقيل : نزلت في عياش أخي أبي جهل غدر وعذب ليرتد كما سيأتي خبره إن شاء الله تعالى ، وفسر الناس بمن نزلت فيهم الآية ، وقال الحسن الناس هنا المنافقون .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ حال من الناس أو من ضمير ﴿ يفتنون ﴾ [العنكبوت : 2] ، وعلى الأول يكون علة لإنكار الحسبان أي أحسبوا ذلك وقد علموا أن سنة الله تعالى على خلافه ولن تجد لسنة الله تعالى تبديلاً ، وعلى الثاني بياناً لأنه لا وجه لتخصيصهم بعدم الافتتان ، وحاصله أنه على الأول تنبيه على الخطأ ، وعلى الثاني تخطئة

، والمراد بالذين من قبلهم المؤمنون أتباع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما أصابهم فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا استكانوا ﴾ [آل عمران : 146] الآيات .

وروى البخاري .

وأبو داود .

(68/594)

والنسائي عن خباب بن الأرث قال : "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد لقينا من المشركين شدة فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدقه ذلك عن دينه ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ أي في قولهم آمنا ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ في ذلك ؛ والفاء لترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان ، واللام واقعة في جواب القسم ، والالتفات إلى الاسم الجليل لإدخال الروعة وتربية المهابة ، وتكرير الجواب لزيادة التأكيد

والتقرير ، ويتوهم من الآية حدوث علمه تعالى بالحوادث وهو باطل .

وأجيب بأن الحادث تعلق علمه تعالى بالمعدوم بعد حدوثه ، وقال ابن المنير : الحق أن علم الله تعالى واحد يتعلق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه ، وفائدة ذكر العلم ههنا وإن كان سابقاً على وجود المعلوم التنبيه بالسبب على المسبب وهو الجزاء فكأنه قيل : فوالله ليعلمن بما يشبه الامتحان والاختبار الذين صدقوا في الإيمان الذي أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب فليجازين كلاً بحسب علمه فيه ، وفي معناه ما قاله ابن جني : من أنه من إقامة السبب مقام المسبب ، والغرض فيه ليكافئن الله تعالى الذين صدقوا وليكافئن الكاذبين وذلك أن المكافأة على الشيء إنما هي مسببة عن علم ، وقال محيي السنة : أي فليظهرن الله تعالى الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلوماً لأن الله تعالى عالم بهم قبل الاختبار .

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وجعفر بن محمد .

والزهري رضي الله تعالى عنهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ﴾ بضم الياء وكسر اللام على أنه مضارع أعلم المنقولة بهمزة التعدية من علم المتعدية إلى واحد وهي التي بمعنى عرف فيكون الفعل على هذه القراءة متعدياً لاثنين والثاني هنا محذوف أي فليعلمن الله الذين صدقوا منازلهم من الثواب وليعلمن الكاذبين منازلهم من العقاب وذلك في الآخرة ، أو الأول محذوف أي فليعلمن الله الناس الذين صدقوا وليعلمنهم الكاذبين أي يشهدهم هؤلاء في الخير وهؤلاء في الشر ، والظاهر أن ذلك في الآخرة أيضاً ، وقال أبو حيان : في الدنيا والآخرة ، وجوز أن يكون ذلك من الإعلام وهو وضع العلامة والسمة فيتعدى لواحد أي يسمهم بعلامة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها ، وقيل : يسمهم سبحانه بعلامة يعرفون بها في الدنيا كقوله عليه الصلاة والسلام : " من أسر سريرة ألبسه الله تعالى رداءها "

وقرأ الزهري الفعل الأول كما قرأ الجماعة ، والفعل الثاني كما قرأ علي كرم الله تعالى وجهه .

وجعفر .

والزهري رضي الله تعالى عنهم .

﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا ﴾ قال مجاهد : أي يعجزونا فلا نقدر على مجازاتهم على أعمالهم والانتقام منهم وأصل السبق الفوت ، ثم أريد منه ما ذكر .

وقيل : أي يعجلونا محتوم القضاء ، والأول أولى .

وفسر قتادة على ما أخرجه عنه عبد بن حميد .

وابن جرير ﴿ السيئات ﴾ بالشرك والجمع باعتبار تعدد المتصفين به وإطلاق العمل على الشرك سواء قلنا إنه ما كان عن فكر وروية كما قيل : أو عن قصد كما قال الراغب : أم لا لا ضير فيه لأنه يكون بعبادة الأصنام وغيرها ، وقيل : المراد بالسيئات المعاصي غير الكفر فالآية في المؤمنين قطعاً ، وهم وإن لم يحسبوا أن يفوتوه تعالى ولم تطمع نفوسهم في ذلك لكن نزل جريهم على غير موجب العلم وهو غفلتهم وإصرارهم على المعاصي منزلة من لم يتيقن الجزاء ، ويحسب أنه يفوت الله عز وجل .

(70/594)

وعمم بعضهم فحمل السيئات على الكفر والمعاصي ، وتعليق العمل بها بناءً على تسليم تخصيصه بما سمعت يحتمل أن يكون باعتبار التغليب ، وظاهر الآثار يدل على أن هذه الآية نزلت في شأن الكفرة ، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : يريد سبحانه بالذين يعملون السيئات الوليد بن المغيرة .

وأبا جهل .

والأسود .

والعاصي بن هشام .

وشيبة .

وعتبة .

والوليد بن عتبة .

وعتبة بن أبي معيط .

وحنظلة بن وائل وأنظارهم من صناديد قريش ، وفي "البحر" أن الآية وإن نزلت على سبب فهي تعم جميع من يعمل السيئات من كافر ومسلم ، والظاهر أن ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة بمعنى بل التي للإضراب بمعنى الانتقال وهو انتقال من إنكار حسبان عدم الفتن لمجرد الإيمان إلى إنكار حسبان عدم المجازاة على عمل السيئات .

وقال ابن عطية : ﴿ أَمْ ﴾ معادلة للهمزة في قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ﴾ [العنكبوت : 2] وكأنه سبحانه قرر الفريقين ، قرر المؤمنين على ظنهم أنهم لا يفتنون ، وقرر الكافرين الذين يعملون السيئات في تعذيب المؤمنين وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون نقمات الله تعالى ويعجزونه انتهى .

ورد بأنها لو كانت معادلة للهمزة لكانت متصلة والتالي باطل لأن شرط المتصلة أن يكون ما بعدها مفرداً نحو أزيد قائم أم عمرو أو ما هو في تقدير المفرد نحو أقام زيد أم قعد وجوابها تعيين أحد الشيئين أو الأشياء وبعدها هنا جملة ؛ ولا يمكن الجواب هنا أيضاً بأحد

الشيئين فالحق أنها منقطعة والاستفهام الذي تشعر به إنكاري لا يحتاج للجواب كما لا يخفى ، والظاهر أن الحسبان متعد إلى مفعولين وأنَّ ﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ ساد مسدهما .

(71/594)

وجوز الزمخشري هنا أن يضمن معنى التقدير فيكون متعدياً لواحد وإن يسبقونا هو ذلك الواحد ، وتعقبه أبو حيان بأن التضمين ليس بقياس ولا يصار إليه إلا عند الحاجة إليه ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس الذي يحكمونه حكمهم ذلك على أن ساء بمعنى بئس و ﴿ مَا ﴾ موصولة و ﴿ يَحْكُمُونَ ﴾ صلتها ، والعائد محذوف وهي فاعل ساء ، والمخصوص بالذم محذوف أو بئس حكماً يحكمونه حكمهم ذلك على أن ما موصوفة ويحكمون صفتها والرابط محذوف وهي تمييز وفاعل ساء ضمير مفسر بالتمييز والمخصوص محذوف أيضاً .

وقال ابن كيسان : ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، والمصدر المؤول مخصوص بالذم فالتمييز محذوف ، وجوز كون ساء بمعنى قبح وما إما مصدرية أو موصولة أو موصوفة ، والمضارع للاستمرار إشارة إلى أن دأبهم ذلك أو هو واقع موقع الماضي لرعاية الفاصلة وكلا الوجهين

حكاهما في البحر ، والأول أولى ، وعندي أن مثل هذا لا يقال : إلا في حق الكفرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

(72/594)

وقال صاحب روح البيان :

يقول الفقير : من لطفه الابتلاء لأنه لتخليص الجوهر من الكدورات الكونية وتصفية الباطن من العلائق الإمكانية .

ومن مجده وعظمته خضع له كل شيء فلا يقدر أن يخرج عن دائرة التسخير ويمتنع عن قبول الابتلاء .

وفي الألف إشارة أخرى وهي استغناؤه عن كل شيء واحتياج كل شيء إليه كاستغناء الألف عن الاتصال بالحروف واحتياج الحروف إلى الاتصال به .

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ الحسبان بالكسر الظن كما في "القاموس" .

وقال في "المفردات" : الحسبان هو أن يحكم لأحد النقيضين أحدهما على الآخر .

نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام فكانت صدورهم تضيق لذلك ويجزعون فتداركهم الله بالتسلية بهذه الآية .

قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب في هذه الجماعة فهي في معناها باقية في أمة محمد موجود حكمها بقية الدهر

(73/594)

﴿ أَن يُتْرَكُوا ﴾ أي يهملوا سادّ مسدّ مفعولي حسب لاشتماله على مسند ومسند إليه ﴿ أن ﴾ أي لأن ﴿ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ ﴾ أي والحال أنهم ﴿ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ لا يمتحنون في دعواهم بما يظهرها ويثبتها أي أظنوا أنفسهم متروكين بلا فتنة وامتحان بمجرد أن يقولوا آمنا بالله يعني أن الله يمتحنهم بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ في الدين من المضطرب فيه ولينالوا بالصبر عليه عوالي الدرجات فإن مجرد الإيمان وإن كان عن خلوص لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب .

وفي "التأويلات النجمية" : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ يعني : الناسين من أهل الغفلة والبطالة ﴿ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا ﴾ بالتقليد والجهالة بمجرد الدعوى دون المطالبة بالبلوى .

﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ بأنواع البلاء لتخليص إبريز الولاء فإن البلاء للولاء كاللهب للذهب وإن المحبة والمحنة توءمان فلا تميز بينهما إلا نقطة الباء وبه يشير إلى أن أهل المحبة إذا أوقعوا

أنفسهم كنقة الباء تحتها تواضعاً رفعهم الله كالنقطة فوق النون ومن تكبر وطلب الرفعة والعلو في الدنيا كالنقطة فوق النون وضعه الله بالذلة كالنقطة تحت الباء .

(74/594)

وقيل : عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان فمن زاد قدر معناه زاد قدر بلواه كما قال عليه السلام : "يبتلى الرجل على حسب دينه" وقال : "البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل" فالعافية لمن لا يعرف قدرها كالداء والبلاء لمن يعرف قدره كالدواء فالبلاء على النفوس لإخراجها من أوطان الكسل وتصريفها في أحسن العمل والبلاء على القلوب لتصفيتها من شين الرين لقبول نقوش الغيوب والبلاء على الأرواح لتجردها بالبوائق عن العلائق والبلاء على الأسرار في اعتكافها في شاهد الكشف بالصبر على آثار التجلي إلى أن يصير مستهلكاً فيه باقياً به وإن أشد الفتن حفظ وجود التوحيد لئلا يجري عليه مكر في أوقات غلبات شواهد الحق فيظن أنه هو الحق ولا يدري أنه من الحق ولا يقال أنه الحق وعزيز من يهتدي إلى ذلك انتهى .

(75/594)

قال ابن عطاء : ظن الخلق أنهم يتركون مع دعاوي المحبة ولا يطالبون بحقائقها وحقائق المحبة هي صب البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء فبلاء يلحق جسده وبلاء يلحق قلبه وبلاء يلحق سره وبلاء يلحق روحه وبلاء النفس في الظاهر الأمراض والمحن وفي الحقيقة منعها عن القيام بخدمة القوي العزيز بعد مخاطبته إياها بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وبلاء القلب تراكم الشوق ومراعاة ما يرد عليه في الوقت بعد الوقت من ربه والمحافظة على أقواله مع الحرمة والهيبة وبلاء السر هو المقام مع من لا مقام للخلق معه والرجوع إلى من لا وصول للخلق إليه وبلاء الروح الحصول في القبضة والابتلاء بالمشاهدة وهذا ما لا طاقة لأحد فيه .

﴿ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : من قبل الناس وهم هذه الأمة ومن قبلهم هم الأنبياء وأممهم الصالحون يعني أن ذلك سنة قديمة إلهية مبنية على الحكم والمصالح جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يتوقع خلافها وقد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ (آل عمران : 146)

وفي الحديث : "كان من قبلكم يؤخذ فيوضع المنشار على رأسه فينفرق فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظم ولحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه" ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ معنى علمه تعالى وهو عالم بذلك فيما لم يزل أن يعلمه موجوداً عند وجوده كما علمه قبل وجوده أنه يوجد .

والمعنى فوالله ليتعلقن علمه تعالى بالامتحان تعلقاً حالياً يتميز به الذين صدقوا في الإيمان بالله والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب ويرتب عليه أجزيتهم من الثواب والعقاب ولذلك قيل : المعنى ليميزن أو ليجازين يعني أن بعضهم فسر العلم بالتمييز والمجازاة على طريق إطلاق السبب وإرادة المسبب فإن المراد بالعلم تعلقه الحالي الذي هو سبب لهما .

قال ابن عطاء : تبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء فمن شكر في أيام الرخاء وصبر في أيام البلاء فهو من الصادقين ومن بطر في أيام الرخاء وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين .

وفي "التأويلات النجمية" : يشير إلى أن صدق الصادقين وكذب الكاذبين الذي عجن في تخمير طينتهم لا يظهر إلا إذا طرح في نار البلاء فإذا طرح فيها تصاعدت منها روائح الصبر وفوائح الشكر عن عود جوهر الصادقين أو بضده يصعد من الضجر وكفران النعمة وشق

جوهر الكاذبين وأنهم في البلاء على ضروب منهم من يصبر في حال البلاء ويشكر في حال النعماء وهذه صفة الصادقين ومنهم من ضجر ولا يصبر في البلاء ولا يشكر في النعماء فهو من الكاذبين ومنهم من يؤثر في حال الرخاء ولا يستمتع بالعطاء ويستروح إلى البلاء فيستعذب مقاساة الضر والعناء وهذا أحد الكبراء انتهى .

(77/594)

واعلم أن البلاء كالملح يصلح وجود الإنسان بإذن الله تعالى كما أن الملح يصلح الطعام وإذا أحب الله عبداً جعله للبلاء غرضاً أي هدفاً وكل محنة مقدمة لراحة ولكل شدة نتيجة شريفة

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾

أي : الكفر والمعاصي فإن العمل يعم أفعال القلوب والجوارح .

﴿ أَن يَسْبِقُونَا ﴾ أصل السبق التقدم في السير ثم تجور به في غيره من التقدم أي يفوتونا ويعجزونا فلا نقدر على مجازاتهم على مساويهم وهو سادّ مسدّ مفعولي حسب لاشتماله على مسند ومسند إليه وأم منقطعة بمعنى بل والهمزة وبل ليس لإبطال السابق لأن إنكار الحسبان الأول ليس بباطل بل للانتقال من التوبيخ بإنكار حسبانهم متروكين غير مفتونين إلى

التوبيخ بإنكار ما هو أبطل من الحسبان الأول وهو حسبانهم أن يجاوزوا بسيئاتهم وهم وإن لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا نفوسهم بذلك لكنهم حيث أصروا على المعاصي ولم يتفكروا في العاقبة نزلوا منزلة من يحسب ذلك كما في قوله تعالى : ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (الهمزة : 3) ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي : بئس الحكم الذي يحكمونه حكمهم ذلك فحذف المخصوص بالذم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح البيان حـ 6 صـ 570.567﴾

(78/594)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

29 ـ سورة العنكبوت

نزولها : مكية . .

عدد آياتها : تسع وستون آية .

عدد كلماتها : تسع مئة وثمانون آية عدد حروفها : أربعة آلاف ومئة وخمسة وتسعون

مناسبتها لما قبلها

كان ختام سورة القصص دعوة إلى النبيّ الكريم ، وإلى المؤمنين جميعا ، أن يكون ولاؤهم كلّه

للّه ، ولدين اللّه ، وأن يكون ما بينهم وبين أهليهم وذوى قرابتهم ، من وراء هذا ، وأنه لا بأس إذا قطع الإنسان ، رحمه ، وعادى أهله في سبيل دينه ، إذا كان في صلة الرحم ، وموادّة الأهل ، ما يجور على الدين .

وقد كان . .

ثم كان بدء سورة « العنكبوت » إعلانا صريحا للمؤمنين ، بما انطوى عليه ختام سورة « القصص » وهو أن الإيمان له تبعاته وأعباؤه التي يجب أن يتحملها المؤمنون في رضا ، وأن يتقبلوها في صبر واحتساب لما وعدهم به اللّه سبحانه وتعالى ، من ثواب عظيم ، وأجر كريم .

فالمؤمن في وجه فتن كثيرة ، ترد عليه من أكثر من جهة . . من نزعات نفسه ، ومن وساوس شياطين الإنس والجنّ ، ومن دفاع عن دين اللّه ، الذي يكيد له الكائدون ، ويبغى عليه الباغون . . كما سنرى ذلك في شرح الآيات التي بدئت بها هذه السورة .

(79/594)

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآيات : (1 ـ 7) [سورة العنكبوت (29) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (2)

التفسير :

فى هذه الآيات التي بدئت بها السورة ، تقرير لما ختمت به سورة « القصص » قبلها ، وهو أن الإيمان بالله ، ليس مجرّد كلمة ينطق بها اللسان ، وإنما هو عقيدة تسكن القلب ، وعمل تقوم به الجوارح ، وجهاد شاق متصل . .

وبهذا يكون للإيمان وزنه واعتباره ، ويكون للمؤمنين شأنهم ومقامهم . .

فالمؤمنون ، الذين لقيتهم هذه الآيات في أول الدعوة الإسلامية - كانوا فى وجه محنة قاسية ، حيث انخلعوا عن أهليهم ، وانعزلوا عن مجتمعهم ، وكانوا قلة قليلة في مواجهة عاصفة عاتية ، تسوق إليهم البلاء بغير حساب ، حتى هاجروا من ديارهم ، وخرجوا من أموالهم . . فلما اجتمع لهم في موطنهم

(80/594)

الجديد ، شىء من القوة ، وأذن الله لهم في القتال - كان أول لقاء لهم ، مع آبائهم ، وأبنائهم ، وإخوتهم ، فعملت سيوفهم في رقاب المشركين من أهليهم وذوى رحمهم ، فما نكل أحد

منهم عن أن يضرب بسيفه من كان ـ قبل الإسلام ـ يفديه بنفسه ، ويلقى الموت دونه . . وقد حدّث التاريخ أن أبا بكر لقى ابنه فى معركة بدر ، وقد عرفه ابنه ولم يعرفه . . فلما كان بعد زمن ، ودخل ابنه فى الإسلام ، قال لأبيه : لقد عرضت لى يوم بدر ، فأعرضت عنك ، فقال له أبو بكر ، لو عرضت لى يومئذ ، وأمكننى اللّه منك ، لما رددت سيفى عنك ! !

ولا شك أن هذه كانت تجربة ثقيلة على نفوس المؤمنين ، وقد احتملوها صابرين ، وكانت آيات اللّه تتنزل عليهم ، فتبعث في نفوسهم المضطربة ، سكنا ، وتسوق إلى قلوبهم الملتهبة ، بردا وسلاما .

ونجد في قوله تعالى : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ » تصحيحا لما يقع في بعض النفوس المؤمنة من انزعاج أو استثقال لهذا العبء الذي حملوه من الإيمان باللّه . . كما نجد في الآية والآيات التي بعدها إجابات قاطعة على تلك التساؤلات التي كانت تتردد في الخواطر : لم يكون الإيمان هكذا غالى الثمن ، باهظ التكاليف ؟ ولم يحملنا إيماننا باللّه على هذا المركب الوعر ؟ ألسنا على الهدى ، وعلى الصراط المستقيم ؟ وهل هذا الطريق هكذا وعر المسالك ، مزدحم العقبات ؟

ونعم . . إن الإيمان هكذا غالى الثمن ، باهظ التكاليف ، وإن طريقه وعر المسالك جمّ العقبات ! ! إنه الطريق إلى الجنة ، وإن طريق الجنة محفوف بالمكاره ! وإن هذا البلاء الذي يلقاه المؤمن على طريق إيمانه ، هو ابتلاء له ، وتمحيص لما عنده من صبر ومصابرة . . وهل

يصفّى الذهب من الغثاء الذي علق به ، إلا إذا صهر بالنار ؟ « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ

(81/594)

وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ »

(31 : محمد) . « ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ » (179 : آل عمران) .

وهل انكشف وجه النفاق ، وعرف المنافقون إلا في بوتقة الابتلاء ، وفي مقام التضحية والبذل ؟

إن الناس جميعا على سواء في حال الأمن والعافية . . فإذا كانت المحن والشدائد ، فهم أنماط وأشكال ، وهم معادن مختلفة ، بين غث وثمين ! والاستفهام في الآية الكريمة ، للإنكار ، والنفي . . أي ليس الأمر على ما يظن الناس وما يقدرون ، من أنهم إذا قالوا آمنا كانوا مؤمنين . . كلّا ، إن ذلك لا يكون حتى يفتنوا ، وحتى يبتلوا . . وعندئذ ينكشف ما عندهم من إيمان . .

قوله تعالى : «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ »

هكذا حكم اللّه في عباده . . فكما امتحن اللّه المؤمنين في الأمم السابقة ، يمتحن سبحانه الذين أسلموا ، بما يفتنهم ، فى دينهم مما يلقاهم من شدائد ومحن . .

فمن كان صادق الإيمان ، سليم العقيدة ، خالص النية ، أمسك إيمانه في قلبه ، وثبت عليه ، ومن كان على غير تلك الصفة انخلع عن دينه ، وألقى به لأول مسة تمسه من بلاء ، وباعه بأبخس ثمن ! .

ـ وفي قوله تعالى : « فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ » ـ بهذا الأمر المؤكد ـ إعلان للمؤمنين بأنهم في وجه ابتلاء ، وفي مواجهة فتن ، لا بد لهم منها . . إن لم تكن واقعة بهم فعلا ، فإنها ستقع حتما . . هكذا يجب أن يتقرر في نفوسهم من أول الطريق . . فمن شاء أن يكون في المؤمنين ،

(82/594)

فليوطن نفسه على هذا ، وليستعد لحمل أفدح الضربات . . وإلا فليأخذ طريقا غير هذا الطريق ، وأمامه أكثر من طريق فسيح . !

والمؤمنون الأولون الذين دخلوا في الإسلام ، ورسخت أقدامهم فيه ، هم ـ كما شهد التاريخ ـ أصفى الناس جوهرا ، وأكرمهم معدنا . . فقد كانوا خلاصة مجتمعهم ، وثاقة عزم ، وقوة

يقين . . فاحتملوا من الشدائد والمحن ما تتصدع به الجبال الراسيات . . « فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا . . وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » « 146 : آل عمران » ومن أجل هذا ، فقد شهد القرآن الكريم لهذه الصفوة المتخيرة من عباد اللّه أكرم شهادة ، وجعل ميزان الواحد منهم يعدل عشرة من غير المؤمنين ، فقال تعالى : «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ » (65 : الأنفال) . .

وأنت ترى أن الصفة التي فرق بها القرآن بين هؤلاء المؤمنين ، والمشركين ، هى « الفقه » . . وهو ليس ذلك العلم النظري ، وإنما هو الحق الذي يملأ القلوب نورا ، فيكشف لصاحبه من آيات اللّه ، ودلائل قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، ما يصغر به كل شىء ، إزاء عظمة الخالق وجلاله . .

قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ » .

هو لفتة تلفت المؤمنين ، الذين يعانون ما يعانون من أعباء الإيمان وتبعاته - إلى هؤلاء المشركين ، الذين خلت دنياهم من هذا البلاء ،

وفرغوا لما هم فيه من متع الحياة . . فهؤلاء المشركون لهم يومهم الذي يوعدون ، حيث يلقون ما يعلمه المؤمنون من سوء العذاب ، الذي أعدّه اللّه للمشركين والمنافقين والكافرين . . إنهم لن يسبقوا يد القدرة المتمكنة منهم ، وإنهم لن يفلتوا من بأس اللّه إذا جاءهم . . وإنهم إن ظنوا ذلك ، فذلك الظن هو الذي يحملهم إلى الردى ، ويسوقهم إلى الهلاك . « ساءَ ما يَحْكُمُونَ » . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 10 صـ 399 . 404 ﴾

(84/594)

وقال ابن عاشور :

﴿ الم (1) ﴾

تقدم القول في معاني أمثالها مستوفى عند مفتتح سورة البقرة .

واعلم أن التهجي المقصود به التعجيز يأتي في كثير من سور القرآن وليس يلزم أن يقع ذكر القرآن أو الكتاب بعد تلك الحروف وإن كان ذلك هو الغالب في سور القرآن ما عدا ثلاث سور وهي فاتحة سورة مريم وفاتحة هذه السورة وفاتحة سورة الروم .

على أن هذه السورة لم تخْلُ من إشارة إلى التحدّي بإعجاز القرآن لقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ

يَكْفِهِم أنّا أنزلنا إليك الكتاب يُتْلى عليهم ﴾ [العنكبوت : 51] .

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2)

الاستفهام في ﴿ أحسب ﴾ مستعمل في الإنكار ، أي إنكار حسبان ذلك .

وحسب بمعنى ظن ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ في سورة [البقرة : 214] .

والمراد بالناس كل الذين آمنوا ، فالقول كناية عن حصول المقول في نفس الأمر ، أي أَحَسِبَ الناس وقوع تركهم لأن يقولوا آمنا ، فقوله ﴿ أن يتركوا ﴾ مفعول أول ل ﴿ حسب ﴾ .

وقوله ﴿ أن يقولوا ءامنا ﴾ شِبه جملة في محل المفعول الثاني وهو مجرور بلام جر محذوف مع (أن) حذفاً مطرداً ، والتقدير : أَحَسِبَ الناس تركهم غير مفتونين لأجل قولهم : آمنا ، فإن أفعال الظن والعلم لا تتعدى إلى الذوات وإنما تتعدى إلى الأحوال والمعاني وكان حقها أن يكون مفعولها واحداً دالاً على حالة ، ولكن جرى استعمال الكلام على أن يجعلوا لها اسم ذات مفعولاً ، ثم يجعلوا ما يدل على حالة للذات مفعولاً ثانياً .

ولذلك قالوا : إن مفعولي أفعال القلوب (أي العلم ونحوه) أصلهما مبتدأ وخبر .

والترك : عدم تعهد الشيء بعد الاتصال به .

والترك هنا مستعمل في حقيقته لأن الذين آمنوا قد كانوا مخالطين للمشركين ومن زمرتهم ، فلما آمنوا اختصوا بأنفسهم وخالفوا أحوال قومهم وذلك مظنة أن يتركهم المشركون وشأنهم ، فلما أبى المشركون إلا منازعتهم طمعاً في إقلاعهم عن الإيمان وقع ذلك منهم موقع المباغتة والتعجب ، وتقدم الترك المجازي في قوله تعالى ﴿ وتَرَكَهُم في ظلمات لا يبصرون ﴾ أوائل [البقرة : 17] .

و ﴿ أن يقولوا ﴾ في موضع نصب على نزع الخافض الذي هو لام التعليل .

والتقدير : لأجل أن يقولوا آمنا .

وجملة ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ حال ، أي لا يحسبوا أنهم سالمون من الفتنة إذا آمنوا .

والفتن والفتون : فساد حال الناس بالعدوان والأذى في الأنفس والأموال والأهلين .

والاسم : الفتنة ، وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ في سورة [البقرة : 102] .

وبناء فعلي ﴿ يُتركوا . . .

ويُفتنون ﴾ للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل لظهور أن الفاعل قوم ليسوا بمؤمنين ، أي أن يتركوا خالين عن فتون الكافرين إياهم لما هو معروف من الأحداث قبيل نزولها ، ولما هو معلوم من دأب الناس أن يناصبوا العداء من خالفهم في معتقداتهم ومن ترفع عن رذائلهم .

والمعنى : أحَسِبَ الذين قالوا آمنا أن يتركهم أعداء الدين دون أن يفتنوهم .

ومن فسروا الفتون هنا بما شمل التكاليف الشاقة مثل الهجرة والجهاد قد ابتعدوا عن مهيع المعنى و اللفظ وناكدوا ما تفرع عنه من قوله ﴿ فليعلمَنّ الله الذين صدقوا وليعلَمَنّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 3] .

وإنما لم تقدر فاعل ﴿ يتركوا ﴾ و ﴿ يفتنون ﴾ أنه الله تعالى تحاشا مع التشابه مع وجود مندوحة عنه .

وهذه الفتنة مراتب أعظمها التعذيب كما فعل ببلال ، وعمار بن ياسر وأبويه .

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)

(86/594)

انتقال إلى التنويه بالفتون لأجل الإيمان بالله بأنه سنة الله في سالف أهل الإيمان وتأكيد الجملة بلام القسم وحرف التحقيق لتنزيل المؤمنين حين استعظموا ما نالهم من الفتنة من المشركين واستبطأوا النصر على الظالمين ، وذهولهم عن سنة الكون في تلك الحالة منزلة من ينكر أن من يخالف الدهماء في ضلالهم ويتجافى عن أخلاقهم ورذالتهم لا بدّ أن تلحقه منهم فتنة .

ولما كان هذا السنن من آثار ما طبع الله عليه عقول غالب البشر وتفكيرهم غير المعصوم

بالدلائل وكان حاصلاً في الأمم السالفة كلها أسند فتون تلك الأمم إلى الله تعالى إسناداً مجازياً لأنه خالق أسبابه كما خلق أسباب العصمة منه لمن كان أهلاً للعصمة من مثله ، وفي هذا الإسناد إيماء إلى أن الذي خلق أسباب تلك الفتن قريبها وبعيدها قادر على صرفها بأسباب تضادها .

وإلى هذا يشير دعاء موسى عليه السلام المحكي في سورة [يونس : 88] ﴿ وقال موسى ربنا إنك ءاتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ فسأل الله أن يخلق ضد الأسباب التي غرّت فرعون وملأه وغشيت على قلبه بالضلال .

والمقصود التذكير بما لحق صالحي الأمم السالفة من الأذى والاضطهاد كما لقي صالحو النصارى من مشركي الرومان في عصور المسيحية الأولى ، وقد قص القرآن بعض ذلك في سورة البروج .

وحكمها سار في حال كل من يتمسك بالحق بين قوم يستخفون به من المسلمين لأن نكران الحق أنواع كثيرة .

والواو الداخلة على جملة ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ يجوز أن تكون عاطفة على جملة ﴿ أحَسِبَ الناس ﴾ [العنكبوت : 2] ، ويجوز كونها عاطفة على جملة ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ [العنكبوت : 2] فتكون بمعنى الحال ، أي والحال قد فتنا الذين من قبلهم ،

وعلى كلا التقديرين فالجملة معترضة بين ما قبلها وما تفرّع عنه من قوله ﴿ فليعلمنّ الله الذين صدقوا ﴾ .

(87/594)

فلك أن تسمي تلك الواو اعتراضية .

وإسناد فعل ﴿ فتنا ﴾ إلى الله تعالى لقصد تشريف هذه الفتون بأنه جرى على سنة الله في الأمم .

فالفاء في قوله ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ تفريع على جملة ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ [العنكبوت : 2] ، أي يفتنون فيعلم الله الذين صدقوا منهم والكاذبين .

والمفرع هو علم الله الحاصل في المستقبل كما يقتضيه توكيد فعل العلم بنون التوكيد التي لا يؤكد بها المضارع إلا مستقبلاً .

وهو تعلق بالمعلوم شبيه بالتعلق التنجيزي لصفتي الإرادة والقدرة وإن لم يسموه بهذا الاسم .

والمراد بالصدق هنا ثبات الشيء ورسوخه ، وبالكذب ارتفاعه وتزلزله ؛ وذلك أن المؤمنين حين قالوا ﴿ آمنا ﴾ [العنكبوت : 2] لم يكن منهم من هو كاذب في إخباره عن

نفسه بأنه اعتقد عقيدة الإيمان واتبع رسوله ، فإذا لحقهم الفتون من أجل دخولهم في دين الإسلام فمن لم يعبأ بذلك ولم يترك اتباع الرسول فقد تبين رسوخ إيمانه ورباطة عزمه فكان إيمانه حقاً وصدقاً ، ومن ترك الإيمان خوف الفتنة فقد استبان من حاله عدم رسوخ إيمانه وتزلزله ، وهذا كقول النابغة:

أولئك قوم بأسهم غيرُ كاذب . . .

وقول الأعشى في ضده يصف راحلته:

جُمَالِيّة تَغْتَلي بالرّدا . . .

ففِ إذا كذب الآثِمَاتُ الهجيرا

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ في أول سورة [يونس : 2] .

ولما كان علم الله بمن يكون إيمانه صادقاً عند الفتون ومن يكون إيمانه كاذباً بهذين المعنيين متقرراً في الأزل من قبل أن يحصل الفتون والصدقُ والكذب تعين تأويل فعل ﴿ فليعلمن ﴾ بمعنى : فليعلمن بكذب إيمانهم بهذا المعنى ، فهو من تعلق العلم بحصول أمر كان في علم الله أنه سيكون وهو شبيه بتعلق الإرادة المعبر عنه بالتعلق التنجيزي ولا مانع من إثبات تعلقين لعلم الله تعالى : أحدهما قديم ، والآخر تنجيزي حادث .

ولا يفضي ذلك إلى اتصاف الله تعالى بوصف حادث لأن تعلق الصفة تحقق مقتضاها في الخارج لا في ذات موصوفها ، وتقدم عند قوله تعالى ﴿ إلا لِنَعْلَم مَن يتَّبع الرسول ﴾ في سورة [البقرة : 143] ، وقوله ﴿ وليعلم الله الذين ءامنوا ويتّخذ منكم شهداء ﴾ في [آل عمران : 140] .

ولك أن تجعل العلم هنا مكنى به عن وعد الصادقين ووعيد الكاذبين لأن العلم سبب للجزاء بما يقتضيه فكانت الكناية مقصودة وهو المعنى الأهم .

وقد عدل في قوله ﴿ فليعلمن الله ﴾ عن طريق التكلم إلى طريق الغيبة بإظهار اسم الجلالة على أسلوب الالتفات لما في هذا الإظهار من الجلالة ليعلم أن الجزاء على ذلك جزاء مالك المُلك .

وتعريف المتصفين بصدق الإيمان بالموصول والصلة الماضوية لإفادة أنهم اشتهروا بحدثان صدق الإيمان وأن صدقهم مُحقق .

وأما تعريف المتصفين بالكذب بطريق التعريف باللام وبصيغة اسم الفاعل فلإفادة أنهم عُهدوا بهذا الوصف وتميزوا به مع ما في ذلك من التفنن والرعاية على الفاصلة .

روى الطبري عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : نزلت هذه الآية ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أن يتركوا ﴾ إلى قوله ﴿ وليعلمن الكاذبينا ﴾ [لعنكبوت : 13] في عمار بن ياسر إذ كان

يُعذَّب في الله ، أي وأمثاله عياش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ممن كانوا يعذبون بمكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لهم الله بالنجاة لهم وللمستضعفين من المؤمنين .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)

أعقب تثبيت المؤمنين على ما يصيبهم من فتون المشركين وما في ذلك من الوعد والوعيد بزجر المشركين على ما يعملونه من السيئات في جانب المؤمنين وأعظم تلك السيئات فتونهم المسلمين .

فالمراد بالذين يعملون السيئات الفاتنون للمؤمنين .

وهذا ووعيدهم بأن الله لا يفلتهم .

وفي هذا أيضاً زيادة تثبيت للمؤمنين بأن الله ينصرهم من أعدائهم .

(89/594)

ف ﴿ أم ﴾ للإضراب الانتقالي ويقدر بعدها استفهام إنكاري .

و ﴿ السيئات ﴾ : الأعمال السوء .

وهي التنكيل والتعذيب وفتون المسلمين .

والسبق : مستعمل مجازاً في النجاة والانفلات كقول مُرة بن عدّاء الفقعسي :

كأنك لم تُسْبَق من الدهر مرة

إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب . . .

وقوله تعالى ﴿ وما نحن بمسبوقين على أن نبدّل أمثالكم ﴾ [الواقعة : 60 ، 61] وقوله ﴿ فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين فكُلاًّ أخذنا بذنبه ﴾ [العنكبوت : 39 ، 40] .

وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ ولا يحسبَنّ الذين كفروا سبقوا ﴾ في سورة [الأنفال : 59] .

والمعنى : أم حسبوا أن قد شفوا غيظهم من المؤمنين ، فهم بذلك غلبوا أولياءنا فغلبونا .

وجملة ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ ذمّ لحسبانهم ذلك وإبطال له .

فهي مقررة لمعنى الإنكار في جملة ﴿ أم حَسِبَ الذين يعملون السيئات ﴾ فلها حكم التوكيد فلذلك فصلت .

وهذه الجملة تقتضي أن يكون هذا الحسبان واقعاً منهم .

ومعنى وقوعه : أنهم اعتقدوا ما يساوي هذا الحسبان لأنهم حين لم يستطع المؤمنون رد فتنتهم قد اغتروا بأنهم غلبوا المؤمنين ، وإذ قد كان المؤمنون يدعون إلى الله دون الأصنام فمَنْ غلبهم فقد حسب أنه غلب من يدعون إليه وهم لا يشعرون بهذا الحسبان ، فافهمه .

والحُكم مستعمل في معنى الظن والاعتقاد تهكماً بهم بأنهم نصبوا أنفسهم منصب الذي يحكم فيطاع و ﴿ ما يحكمون ﴾ موصول وصلته ، أي ساء الحكم الذي يحكمونه .

وهذه الآية وإن كانت واردة في شأن المشركين المؤذين للمؤمنين فهي تشير إلى تحذير المسلمين من مشابهتهم في اقتراف السيئات استخفافاً بوعيد الله عليها لأنهم في ذلك يأخذون بشيء من مشابهة حسبان الانفلات ، وإن كان المؤمن لا يظن ذلك ولكنه ينزل منزلة من يظنه لإعراضه عن الوعيد حين يقترف السيئة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(90/594)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

قد قدمنا الكلام على الحروف المقطعة مستوفى في أول سورة هود ، والاستفهام في قوله : أحسب الناس : للإنكار .

والمعنى : أن الناس لا يتركون دون فتنة : أي ابتلاء واختبار ، لأجل قولهم : آمناً ، بل إذا

قالوا فتنوا : أي امتحنوا واختبروا بأنواع الابتلاء ، حتى يتبين بذلك الابتلاء الصادق في قوله آمناً في غير الصادق .

(91/594)

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأساآء والضراآء وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 214] وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ﴾ [آل عمران : 142] وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : 31] وقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ اللهِ لِيَذَرَ المؤمنين على مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الخبيث مِنَ الطيب ﴾ [آل عمران : 179] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ الله مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ﴾ [آل عمران : 154] الآية . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 16] إلى غير ذلك من الآيات ، وقد أشار تعالى

إلى ذلك بقوله هنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ ﴾ [العنكبوت : 3] الآية . وقد بينت السنة الثابتة أن هذا الابتلاء المذكور في هذه الآية يبتلى به المؤمنون على قدر ما عندهم من الإيمان ، كقوله صلى الله عليه وسلم " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 6 صـ ﴾

(92/594)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الم (1) ﴾

سبق أنْ تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطعة في بدايات سور القرآن ، كلما تكررت هذه الظاهرة تتكلم عن مجالات الأذهان في فهمها ، وما دام الحق سبحانه يُكررها فعلينا أيضاً أن نُكرِّر الحديث عنها ، ولماذا ينثر الله هذه الظاهرة في سور القرآن ؟ لتظل دائماً على البال

.

وقلنا : إن القرآن الكريم مبنيٌّ في كل آياته وسوره على الوَصْل ، لا على الوقف ، اقرأ : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 64-67] .

فلم يقل ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 65] ويقف ، إنما وصل : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن : 66] لأن القرآن موصول ، لا فصل أبداً بين آياته ؛ لذلك ليس في القرآن من وقف واجب ، إنما لك أن تقف لضيق النفَس ، لكن حينما تعيد تعيد بالوصل .

وكذلك القرآن مبنيٌّ على الوَصْل في السور ، فحين تنتهي سورة لا تنتهي على سكون ، فلم يَقُلْ – سبحانه وتعالى – وإليه ترجعونْ بسكون النون ، إنما (تُرْجَعُونَ بسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحيم) ليبدأ سورة أخرى موصولة .

فهذه إذن سمة عامة في آيات القرآن وسُوره إلا في الحروف المقطَّعة في أوائل السور ، فهي مبنية على الوقف ألفْ لامْ ميمْ هكذا بالسكون ولم يقل : ألفٌ لامٌ ميمٌ على الوَصْل ، لماذا ؟ لأنها حروف مُقطَّعة ، قد يظنها البعض كلمة واحدة ، ففصَل بينها بالوقف .

لذلك يقول صلى الله عليه وسلم : " لا أقول الم حرف . ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف " وليؤكد هذا المعنى جعلها على الوقف ، كل حرف على حدة .

(93/594)

وتكلمنا على هذه الحروف وقلنا : إنها خامات القرآن ، فمن مثل هذه الحروف يُنسج كلام الله ، وقلنا : إنك إنْ أردتَ أن تُميّز مهارة النسْج عند بعض العمال مثلاً لا تعطي أحدهم قطناً ، والآخر صوفاً ، والآخر حريراً مثلاً ؛ لأنك لا تستطيع التمييز بينهم ، لأن الخامات مختلفة ، فالحرير بطبيعته سيكون أنعم وأرقَّ . فإنْ أردتَ معرفة المهارة فوحّدِ المادة الخام عند الجميع .

فكأن الحق – تبارك وتعالى – يقول لنا : إن القرآن مُعْجز ، بدليل أنكم تملكون نفس حروفه ، ومع ذلك عجزتُمْ عن معارضته ، فقد استخدم القرآن نفس حروفكم ، ونفس كلماتكم وألفاظكم ، وجاء بها في صورة بليغة ، عَزَّ عليكم الإتيان بمثلها .

إذن : اختلف أسلوب القرآن ، لأن الله تعالى هو الذي يتكلم . فمعنى (ألم) هذه نفس حروفكم فأتوا بمثلها .

أو : (ألم) تحمل معنى من المعاني ؛ لأن ألف لام ميم أسماء حروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا المتعلم ، فالأُميُّ يقول (كتب) لكن لا يعرف أسماء حروفها ، وتقول للولد الصغير في المدرسة : تهجّ كتب فيقول لك (كاف فتحة كَ) و (تاء فتحة تَ) و (باء فتحة بَ) .

إذن : لا يعرف أسماء الحروف إلا المتعلم ، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً ، فمن أين نطق بأسماء الحروف الم ، طه ، يس ، ق .

. . إلخ . إذن : لا بُدَّ أن ربه علّمه ولقّنه هذه الحروف ، ومن هنا جاءت أهمية التلقين

والتلقيّ في تعلُّم القرآن ، وإلا فكيف يُفرِّق المتعلم بين (الم) هنا وبين ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] فينطق الأولى على الوقْف ، والأخرى على الوَصْل ، ينطق الأولى بأسماء الحروف ، والثانية بمُسمَّياتها ؟

وتحمل (الم) أيضاً معنى التنبيه للسامع ، فالقرآن نزل بأسلوب العرب ولغتهم ، فلا بُدَّ أن تتوفر له خصائص العربية والعربية الراقية ، فلو قرأنا مثلاً في الشعر الجاهلي نجد عمرو بن كلثوم يقول :

(94/594)

أَلاَ هُبِّي بصَحْنِك فَاصْبِحينَا . . . ولاَ تُبقِي خمور الأندرينا

نسأل : ماذا أفادت (أَلاَ) هنا ، والمعنى يصح بدونها ؟ (ألا) لها معنى عند العربي ؛ لأنها تنبهه إنْ كان غافلاً حتى لا يفوته شيء من كلام مُحدِّثه ، حينما يُفَاجأ به ، كما تنادي أنت الآن مَنْ لا تعرفه فتقول : (اسمع يا . . .) كأنك تقول له : تنبه لأنني سأكلمك .

والتنبيه جاء في اللغة من أن المتكلم يتكلَّم برغبته في أي وقت ، أما السامع فقد يكون غافلاً غير مُنتبه ، أو ليس عند استعداد لأنْ يسمعَ ، فيحتاج لمن يُنبِّهه ليفهم ما يُقال له ، إنما لو فاجأَته بالمراد ، فربما فاته منه شيء قبل أنْ يتنبه لك .

وكذلك في (الم) حروف للتنبيه ، على أنه سيأتي كلام نفيس اسمعه جيداً ، إياك أنْ يضيع منك حرف واحد منه . كما يصح أنْ يكون لهذه الحروف معانٍ أخرى ، يفهمها غيرنا ممَّنْ فتح الله عليهم . فهي – إذن – معين لا ينضب ، يأخذ منه كُلٌّ على قَدْره .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن . . . ﴾ .

الفعل (حسِب) بالكسر في الماضي ، وبالفتح في المضارع (يحسَب) يعني : ظن . أما (حسَب) والمضارع (يحسِب) بالكسر أي : عَدَّ .

فالمعنى : ﴿ أَحَسِبَ الناس . . . ﴾ [العنكبوت : 2] أي : ظنوا . والهمزة للاستفهام ، وهي تفيد نفي هذه الظن وإنكاره ، لأنهم حَسِبوا وظنوا أنْ يتركهم الله دون فتنة وتمحيص واختبار .

والحق سبحانه يريد أن يحمل أولوا العزم رسالة الإسلام ؛ لأن الإسلام لا يتصدَّى لحمل دعوته إلا أقوياءُ الإيمان الذين يقدرون على حمل مشاق الدعوة وأمانة تبليغها .

(95/594)

والإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما مسئولية كبرى ، هذه المسئولية هي التي منعتْ كفار مكة أنْ يؤمنوا ؛ لأنهم يعلمون أن كلمة لا إله إلا الله ليست مجرد كلمة وإلا لَقَالوها ، إنما هي منهج

حياة له متطلبات . إنها تعني : لا مُطَاعَ إلا الله ، ولا معبود بحقٍّ إلا الله ، وهم لا يريدون هذه المسألة لتظل لهم مكانتهم وسلطتهم الزمنية .

لذلك يقول سبحانه هنا : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا . . . ﴾ [العنكبوت : 2] فالإيمان ليس قَوْلاً فحسب ؛ لأن القول قد يكون صِدْقاً ، وقد يكون كذباً ، فلا بُدَّ بعد القول من الاختبار وتمحيص الإيمان ﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2] فإنْ صبر على الابتلاءات وعلى المحن فهو صادق الإيمان .

ويؤكد سبحانه هذا المعنى في آية أخرى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والأخرة . . . ﴾ [الحج : 11] .

وقد محَّص الله السابقين الأولين من المؤمنين بآيات وخوارق تخالف الناموس الكوني ، فكان المؤمن يُصدِّق بها ، ويؤمن بصِدْق الرسول الذي جاء بها ، أما المتردد المتحيِّر فيُكذِّب بها ، ويراها غير معقولة .

" ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبي بكر في حادثة الإسراء والمعراج ، فلمَّا حدَّثوه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنْ كان قال فقد صدق " في حين ارتد البعض وكذَّبوا ، وكأن الحق – تبارك وتعالى – يريد من هذه الخوارق ، التي يقف أمامها العقل – أنْ

يُميِّز بين الناس ليحمل أمر الدعوة أشداءُ الإيمان والعقيدة ، ومَنْ لديهم يقين بصِدْق الرسول في البلاغ عن ربه .

(96/594)

وسبق أنْ بيّنا غباء مَنْ كَذَّب بحادثة الإسراء والمعراج من كفار مكة الذين قالوا لرسول الله : أتدَّعي أنك أتيت بيت المقدس في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ وأنهم غفلوا أو تغافلوا عن نص الآية : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . ﴾ [الإسراء : 1] فلم يقل محمد : إني سريت بنفسي إنما أُسْري بي .

وقلنا للرد عليهم : لو جاءك رجل يقول لك : لقد صعدتُ بولدي الرضيع قمة إفرست مثلاً ، أتقول له : كيف يصعد الرضيع قمة إفرست ؟

وسبق أنْ تكلَّمنا في قضية ينبغي أن تظل في أذهانكم جميعاً ، وهي أن كل فعل يأخذ نصيبه من الزمن على قَدْر قوة فاعله ، فالوزن الذي ينقله الطفل الصغير في عدة مرات تحمله أنت في يد واحدة .

فالزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ، فالذي يذهب مثلاً إلى الأسكندرية على حمار غير الذي يذهب في سيارة أو على مَتْن طائرة . وهكذا .

إذن : قِسْ على قدر قوة الفاعل ، فإنْ كان الإسراء بقوة الله تعالى ، وهي قوة القوى فلا زمن ، وهذه مسألة يقف عندها العقل ، ولا يقبلها إلا بالإيمان .

إذن : فالحق سبحانه يُمحِّصكم ويبتليكم ؛ لأنه يريدكم لمهمة عظيمة ، لا يصلح لها إلا الصنديد القوي في إيمانه ويقينه .

لذلك يقول سبحانه في أكثر من موضع : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والأنفس والثمرات وَبَشِّرِ الصابرين ﴾ [البقرة : 155] .

وقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : 31] .

وقال : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ . . . ﴾ [آل عمران : 142] .

(97/594)

فهذه الابتلاءات كالامتحان الذي نُجريه للتلاميذ لنعرف مقدرة كل منهم ، والمهمة التي يصلح للقيام بها ، ومعلوم أن الابتلاءات لا تُذَمُّ لذاتها ، إنما لنتائجها المترتبة عليها ، فما جُعِلَتْ الابتلاءات إلا لمعرفة النتائج ، وتمييز الأصلح للمهمة التي نُدِب إليها .

ومعنى ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 2] يُختبرون . مأخوذة من فتنة الذهب ، حين نصهره في النار ؛ لنُخرِج ما فيه من خَبَث ، ونُصفِّي معدنه الأصلح ، فيما يناسب مهمته .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً للحق وللباطل في قوله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك يَضْرِبُ الله الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ الله الأمثال ﴾ [الرعد : 17] .

فالفتنة ما كانت إلا لنعرف الصادق من القَوْلة الإيمانية والكاذب فيها : الصادق سيصبر ويتحمل ، والكاذب سينكر ويتردد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ .

الحق – سبحانه وتعالى – يُسلِّي السابقين من أمة محمد الذين عُذِّبوا وأوذوا ، وضُرِبوا بالسياط تحت حَرِّ الشمس ، ووُضِعت الحجارة الثقال على بطونهم ، والذين جاعوا حتى أكلوا الميتة وأوراق الشجرة يُسلِّيهم : لَسْتم بدعاً في هذه الابتلاءات فاصمدوا لها كما صمد السابقون من المؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 3] فانظر مثلاً إلى ابتلاء بني إسرائيل مع فرعون ، إذن فابتلاؤكم أهونِ وأخفّ ، وفيه رحمة من الله بكم وأنتم أيسر منهم ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 3] .

ولك أن تقول : ألم يكُن الله تعالى يعلم حقيقتهم قبل أنْ يبتليهم ؟ بلى ، يعلم سبحانه حقيقةَ عباده ، وليس الهدف من اختبارهم العلم بحقيقتهم ، إنما الهدف أنْ يُقر العبد بما عُلِم عنه .

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – حينما نقول للمدرس مثلاً : اعْطنا نتيجة هؤلاء التلاميذ ، فليس في الوقت سعة للامتحان فيقول من واقع خبرته بهم : هذا ناجح ، وهذا راسب ، وهذا الأول ، وهذا كذا . عندها يقوم الراسب ويقول : لو اختبرتني لكنت ناجحاً ، ولو اختبره معلِّمه لرسب فعلاً . إذن : فربنا – عز وجل – يختبر عباده ليُقر كل منهم بما عُلم عنه .

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 3] عِلْم ظهور وإقرار من صاحب الشأن نفسه ، بحيث لا يستطيع إنكاراً ، حيث سيشهد هو على نفسه حين تشهد عليه جوارحه .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)

هنا أيضاً ﴿ حَسِبَ . . . ﴾ [العنكبوت : 4] أي : ظن الذين يعملون السيئات ﴾

أَن يَسْبِقُونَا . . . ﴾ [العنكبوت : 4] أي : يُفلتوا من عقابنا ، تقول : سبق فلان فلاناً يعني : أفلت منه وهو يطارده ، فالمعنى أنهم لن يستطيعوا الإفلات من العذاب أو الهرب منه ، وإنْ كانوا يعتقدون ذلك أو يظنونه ، فبئس هذا الظن .

﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت : 4] أي : قَبُح حكمهم وبَطُل ، وحين نحكم على ظنهم وعلى حكمهم بالبطلان فإنما نثبت قضيتنا ، وهي أنهم لن يُفْلِتوا من عقابنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(99/594)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الشعبي رضي الله عنه في قوله ﴿ الم ﴾ ﴿ أحسب الناس أن يتركوا . . ﴾ قال : أنزلت في أناس بمكة قد اقروا بالإِسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة : إنه لا يقبل منكم قرار ولا إسلام حتى تهاجروا قال : فخرجوا عامدين إلى المدينة

، فأتبعهم المشركون فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فكتبوا إليهم أنه قد نزلت فيكم آية كذا وكذا فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه . فخرجوا فاتبعهم المشركون ، فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ [النحل : 110] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ الم ﴾ ﴿ أحسب الناس . . . ﴾ قال نزلت في أناس من أهل مكة خرجوا يريدون النبي صلى الله عليه وسلم فعرض لهم المشركون فرجعوا ، فكتب إليهم إخوانهم بما نزل فيهم من القرآن فخرجوا ، فقتل من قتل وخلص من خلص ، فنزل القرآن ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآيات في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة ، وهؤلاء الآيات العشر مدنيات ، وسائرها مكي .

وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : نزلت في عمار بن ياسر يعذَّب في الله ﴿ أحسب الناس أن يتركوا . . ﴾ .

(100/594)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : سمعت ابن عمير وغيره يقولون : كان أبو جهل لعنه الله يعذب عمار بن ياسر وأمه ، ويجعل على عمار درعاً من حديد في اليوم الصائف ، وطعن في حياة أمه برمح . ففي ذلك نزلت ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم لا يفتنون ﴾ قال : لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ قال : ابتلينا .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ قال : يبتلون ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ قال : ابتلينا الذين من قبلهم ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ قال : ليعلم الصادق من الكاذب ، والطائع من العاصي ، وقد كان يقال : إن المؤمن ليضرب بالبلاء كما يفتن الذهب بالنار ، وكان يقال : إن مثل الفتنة كمثل الدرهم الزيف يأخذه الأعمى ويراه البصير .

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه أنه كان يقرأ ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ قال : يعلمهم الناس .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال : كان الله يبعث النبي إلى أمته فيلبث فيهم إلى انقضاء اجله في الدنيا ، ثم يقبضه الله إليه فتقول الأمة

من بعده ، أو من شاء الله منهم : إنا على منهاج النبي وسبيله ، فينزل الله بهم البلاء فمن ثبت منهم على ما كان عليه فهو الصادق ، ومن خالف إلى غير ذلك فهو الكاذب .

(101/594)

وأخرج ابن ماجة وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أول من أظهر اسلامه سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وسمية أم عمار ، وعمار ، وصهيب ، وبلال ، والمقداد ، فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبي طالب ، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم ادراع الحديد ، فإنه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأخذوه فأعطوه الولدان ، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد أحد . . . والله تعالى أعلم .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات ﴾ قال : الشرك .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي

الله عنه في قوله ﴿ أن يسبقونا ﴾ قال : أن يعجزونا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 6 صـ ﴾

(102/594)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله : ﴿ أَن يتركوا ﴾ : سَدَّ مَسَدَّ مفعولَيْ حَسِب عند الجمهور ، ومَسَدَّ أحدِهما عند الأخفشِ .

قوله : " أنْ يقولوا " فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه بدلٌ مِنْ " أَنْ يُتْرَكوا " ، أبدلَ مصدراً مؤولاً مِنْ مثلِه . الثاني : أنها على إسقاط الخافض وهو الباءُ ، أو اللام ، أي : بأَنْ يَقولوا ، أو لأن يقولوا . قال ابن عطية وأبو البقاء : " وإذا قُدِّرَتِ الباءُ كان حالاً " . قال ابن عطية : " والمعنى في الباء واللام مختلفٌ ؛ وذلك أنَّه في الباء كما تقول : " تركْتُ زيداً بحالِه " / وهي في اللام بمعنى مِنْ أجل أي : أَحَسِبوا أنَّ إيمانَهم عِلةٌ للترك " انتهى . وهذا تفسيرُ معنى ، ولو فَسَّر الإعرابَ لقال : أَحُسْبانُهم الترك لأجل تلفُّظِهم بالإيمان .

وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : فأين الكلامُ الدالُّ على المضمونِ الذي يَقْتضيه الحُسبانُ ؟ قلت : هو في قولِه : ﴿ أَن يتركوا أَن يقولوا : آمَنَّا ، وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ . وذلك أنَّ تقديرَه : أَحَسِبُوا تَرْكَهم غيرَ مفتونين لقولِهم : آمنَّا ، فالترك أُول مفعولَيْ " حَسِب " و " لقولهم آمنَّا " هو الخبر . وأمَّا غيرَ مفتونين فتتمةُ الترك ؛ لأنه من الترك الذي هو بمعنى التصيير ، كقوله :

3633 - فَتَرَكْتُه جَزَرَ السِّباعِ يَنُشْنَه . . . . . .

(103/594)

ألا ترى أنك قبل المجيء بالحُسْبان تَقْدِرُ أَنْ تقولَ : تَرَكَهم غيرَ مفتونين لقولِهم : آمنَّا على [تقدير] : حاصل ومستقر قبل اللام . فإنْ قلت : " أَنْ يَقُولوا " هو علةُ تَرْكِهم غيرَ مَفْتونين ، فكيف يَصِحُّ أن يقعَ خبرَ مبتدأ ؟ قلت : كما تقول : خروجُه لمخافةِ الشرِّ وضَرْبُه للتأديب ، وقد كان التأديبُ والمخافةُ في قولِك : خَرَجْتُ مخافةَ الشرِّ وضَرَبْتُه تأديباً تعليلين .

وتقول أيضاً : حَسِبْتُ خروجَه لمخافةِ الشَّرِّ ، وظَنَنْتُ ضربَه للتأديب ، فتجعلهما مفعولين كما جعلتَهما مبتدأ وخبراً " .

قال الشيخ بعد هذا كلِّه : " وهو كلامٌ فيه اضطرابٌ ؛ ذكر أولاً أنَّ تقديرَه غيرَ مفتونين تتمةٌ ،

يعني أنه حالٌ لأنه سَبَكَ ذلك مِنْ قولِهِ ﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ وهي جملةٌ حالية ، ثم ذكر أَنَّ " يُتْركوا " هنا من الترك الذي هو تَصْيِيرٌ . ولا يَصِحُّ ؛ لأنَّ مفعولَ " صيَّر " الثاني لا يَسْتقيمُ أَنْ يكونَ " لقولِهم " ؛ إذا يصيرُ التقديرُ : أن يُصَيِّروا لقولِهم وهم لا يُفْتنون ، وهذا كلامٌ لا يَصِحُّ . وأمَّا ما مَثَّله به من البيت فإنه يَصِحُّ أن يكون " جَزَرَ السِّباع " مفعولاً ثانياً ل تَرَكَ بمعنى صَيَّر ، بخلاف ما قَدَّر في الآية . وأمَّا تقديرهُ تَرَكهم غيرَ مفتونين لقولهم [آمَنَّا] على تقديرِ حاصل ومستقر قبل اللام فلا يَصِحُّ إذا كان تركُهم بمعنى تصييرهم ، وكان غيرَ مفتونين حالاً ؛ إذ لا يَنْعَقِد مِنْ تَرْكِهم بمعنى تصييرِهم وتَقَوُّلِهم مبتدأٌ وخبرٌ ، لاحتياجِ تَرْكِهم بمعنى تصييرِهم إلى مفعولٍ ثانٍ لأنَّ غيرَ مفتونين عنده حالٌ لا مفعولٌ ثانٍ .

(104/594)

وأمَّا قولُه : فإنْ قلت : أَنْ يقولوا إلى آخره فيحتاج إلى فَضْلِ فَهْمٍ : وذلك أنَّ قولَه : " أَنْ يقولوا " هو علةُ تَرْكِهم فليس كذلك ؛ لأنه لو كان علةً له لكان به متعلقاً كما يتعلَّقُ بالفعلِ ، ولكنه علةٌ للخبرِ المحذوفِ الذي هو مستقر أو كائن ، والخبرُ غيرُ المبتدأ ، ولو كان " لقولِهم " علةً للترك لكان مِنْ تمامِه فكان يحتاج إلى خبرٍ . وأمَّا قولُه كما تقول : خروجُه لمخافةِ الشرِّ " لمخافة " ليس علةً للخروجِ بل للخبر المحذوف الذي هو مستقرٌّ أو كائن " انتهى .

قلت : وهذا الذي ذكره الشيخُ كلُّه جوابُه : أنَّ الزمخشريَّ إنما نظر إلى جانب المعنى ، وكلامُه عليه صحيحٌ . وأمَّا قولُه : ليس علةً للخروج ونحو ذلك يعني في اللفظ . وأمَّا في المعنى فهو علةٌ له قطعاً ، ولولا خَوْفُ الخروج عن المقصود .

قوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ ﴾ : العامَّةُ على فتح الياء مضارعَ " عَلِم " المتعديةِ لواحد . كذا قالوا . وفيه إشكالٌ تقدَّمَ غيرَ مرةٍ : وهو أنها إذا تَعَدَّتْ لمفعولٍ كانَتْ بمعنى عَرَفَ . وهذا المعنى لا يجوز إسنادُه إلى الباري تعالى ؛ لأنه يَسْتَدعي سَبْقَ جهلٍ ؛ ولأنه يتعلَّقُ بالذاتِ فقط دون ما هي عليه من الأحوالِ .

(105/594)

وقرأ عليٌّ وجعفرُ بن محمد بضمِّ الياءِ ، مضارعَ أَعْلم . ويحتمل أَنْ يكونَ مِنْ عَلِم بمعنى عَرَفَ ، فلمَّا جِيْءَ بهمزةِ النقلِ أَكْسَبَتْها مفعولاً آخرَ فَحُذِفَ . ثُم هذا المفعولُ يُحتمل أَنْ يكونَ هو الأولَ أي : لَيُعْلِمَنَّ اللَّهُ الناسَ الصادقين ، ولَيُعْلِمنَّهم الكاذبين ، أي : بشهرةٍ يُعْرَفُ بها هؤلاءِ مِنْ هؤلاء . وأن يكونَ الثاني أي : لَيُعْلِمَنَّ هؤلاء منازِلَهم ، وهؤلاءِ منازِلَهم في الآخرةِ . ويُحتمل أَنْ يكونَ من العلامةِ وهي السِّيمِياء ، فلا يتعدَّى إلاَّ لواحدٍ . أي : لنجعلَنَّ لهم علامةً يُعرفون بها . وقرأ الزهريُّ الأولى كالمشهورةِ ، والثانيةَ كالشاذة .

قوله : ﴿ أم حَسِبَ ﴾ : " أم " هذه منقطعةٌ فتتقدَّرُ ب بل والهمزة عند الجمهور ، والإضرابُ انتقالٌ لا إبطال . وقال ابنُ عطية : " أم " معادِلَةٌ/ للألفِ في قولِه " أَحَسِبَ " ، وكأَنَّه عَزَّ وجَلَّ قَرَّر الفريقين : قرر المؤمنين على [ظَنّهم أَنَّهم] لا يُفْتَنُون ، وقَرَّر الكافرين أنهم يَسْبِقُون عقابَ اللَّهِ " . قال الشيخ : " ليسَتْ معادِلةً ؛ إذ لو كانت كذلك لكانَتْ متصلةً . ولا جائزٌ أَنْ تكونَ متصلةً لفَقْدِ شرطَيْن ، أحدهما : أنَّ ما بعدَها ليس مفرداً ، ولا ما في قوته . والثاني : أَنَّه لم يكن هنا ما يُجابُ به مِنْ أحد شيئَين أو أشياء .

وجَوَّز الزمخشريُّ في " حَسِبَ " هذه أَنْ تتعدَّى لاثنين ، وجعل " أنَّ " وما في حَيِّزها سادةً مَسَدَّهما كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة ﴾ [البقرة : 214] ، وأَنْ تتعدَّى لواحدٍ على أنها تَضَمَّنَتْ معنى " قَدَّر " . إلاَّ أَنَّ التضمينَ لا يَنْقاسُ .

(106/594)

قوله : ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ : " ساء " يجوز أَنْ تكونَ بمعنى بِئْس ، فتكونُ " ما " : إمَّا موصولةً بمعنى الذي ، و " يَحْكمون " صلتُها . وهي فاعلُ " ساء " . والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ أي : حُكْمُهم . ويجوز أَنْ تكونَ " ما " تمييزاً ، و " يَحْكُمون " صفتُها ، والفاعلُ مضمرٌ يُفَسِّره " ما " ، والمخصوصُ أيضاً محذوفٌ . ويجوز أَنْ تكونَ " ما " مصدريةً ، وهو

قولُ ابنِ كَيْسان . فعلى هذا يكونُ التمييزُ محذوفاً ، والمصدرُ المؤولُ مخصوصٌ بالذمِّ أي : ساءَ حُكْماً حكمُهم . وقد تقدَّمَ حكمُ " ما " إذا اتصلَتْ ب " بِئْسَ " مُشْبعاً في البقرة . ويجوزُ أَنْ تكونَ " ساء " بمعنى قَبُح ، فيجوز في " ما " أَنْ تكونَ مصدريةً ، وبمعنى الذي ، ونكرةً موصوفَةً . وجيْءَ ب " يَحْكمون " دونَ حُكْمِه : إمَّا للتنبيهِ على أن هذا دَيْدَنُهم ، وإمَّا لوقوعِه مَوْقِعَ الماضي لأجلِ الفاصلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 5 . 9 ﴾

(107/594)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

سورة العنكبوت

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم الله اسم يوجب حظوة العابدين وعدا ، وسماعه يوجب سلوة الوجدين نقدا اسم من ذكره وصل إلى مثوبه في آجله ، ومن سمعه حظي بقربته في عاجله .

﴿ الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) ﴾

" الألف " إشارة إلى تَفَرُّده عن كل غير بوجه الغِنى ، وباحتياج كل شيءٍ إليه ؛ كالألف تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرفٍ .

" واللام " تشير إلى معنى أنه ما من حرفٍ إلا وفي آخره صورة تعويج ما ، واللام أقرب الحروف شبهاً بالألف – فهي منتصبة القامة مثلها ، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شيء ولكن اللام تتصل بغيرها – فلا جَرَمَ لا يكون في الحروف حرف واحد متكون من حرفين إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام .

أمّا " الميم " فالإشارة فيه إلى الحرف " مِنْ " ؛ فَمِنَ الربِّ الخَلْقُ ، ومِنَ العبدِ خدمةُ الحق ، ومن الربِّ الطَّوْلُ والفضلُ .

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا ﴾ بمجرد الدعوى في الإيمان دون المطالبة بالبلوى ، وهذا لا يكون ، فقيمة كلِّ أحدٍ ببلواه ، فَمَنْ زاد قَدْرُ معناه زاد قدر بلواه ؛ فعلى النفوس بلاءٌ وهو المطالبة عليها بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها في أحسن العمل . وعلى القلوب بلاءٌ وهو مطالبتُها بالطلب والفكر الصادق بتطلُّع البرهان على التوحيد والتحقق بالعلم . وعلى الأرواح بلاءٌ وهو التجرُّدُ عن محبة كلِّ أحدٍ والتفرُّد عن كل سبب ، والتباعُد عن كل المساكنةِ لشيءٍ من المخلوقات . وعلى الأسرار بلاءٌ وهو الاعتكاف بمشاهد الكشف بالصبر على آثار التجلِّي إلى أن تصير مُسْتَهْلَكاً فيه .

ويقال فتنة العوام في أيام النظر والاستدلال ، وفتنة الخواص في حفظ آداب الوصول في أوان

المشاهدات . وأشدُّ الفتنِ حفظُ وجود التوحيد لئلا يجري عليك مَكْرٌ في أوقات غَلَبَاتِ شاهد الحقِّ فيظن أنه الحق ، ولا يدري أنَّه من الحقِّ ، وأنَّه لا يُقال إنَّه الحقُّ – وعزيزٌ مَنْ يهتدي إلى ذلك .

(108/594)

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)

لم يُخْلِهم من البلاء والمِحَن لِيُظْهِر صبرَهم في البلاءِ أو ضدَّه من الضَجَرِ ، وشكرهم في الرخاء أو ضدة من الكفر والبَطَرِ . وهم في البلاءِ ضروب : فمنهم مَنْ يصبر في حال البلاء ، ويشكر في حال النَّعماء . . . وهذه صفة الصادقين . ومنهم مَنْ يضجُّ ولا يصبر في البلاء ، ولا يشكر في النعماء . . فهو من الكاذبين . ومنهم مَنْ يؤثر في حال الرخاء أَلَّا يستمتعَ بالعطاء ، ويستروح إلى البلاءِ ؛ فَيَسْتَعْذِبَ مقاساةَ الضُّرِّ والعناء . . وهذا أَجَلُّهم .

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (4)

يرتكبون المخالفاتِ ثم يحكمون لأنفسهم بالنجاة . . ساءَ حُكْمُهم ! فمتى ينجوا منَ العذابِ مَنْ ألقى جلبابَ التُّقى ؟ !

ويقال توهموا أنه لا حَشْرَ ولا نَشْرَ ، ولا محاسبة ولا مطالبة .

ويقال اغتروا بإمهالنا اليومَ ، وَتَوَهَّموا أنهم مِنَّا قد أفلتوا ، وظنوا أنهم قد أَمِنُوا .

ويقال ظنوا أنهم باجتراحهم السيئاتِ أَنْ جرى التقريرُ لهم بالسعادة ، وأنَّ ذلك يؤخر حُكْمَنا . . كلا ، فلا يشقى مَنْ جَرَتْ قسمتُنا له بالسعادة ، وهيهات أن يتحول مَنْ سبق له الحُكْمُ بالشقاوة ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 86 . 88 ﴾

(109/594)

قوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما خوف عباده المحسنين والمسيئين ، وضربهم بسوط القهر أجمعين ، أشار إلى التلويح بتهديد الكاذبين في التصريح بتشويق الصادقين فقال على سبيل الاستنتاج مما مضى :

﴿ من كان يرجو ﴾ عبر به لأن الرجاء كافٍ عن الخوف منه سبحانه ﴿ لقاء الله ﴾ أي الجامع لصفات الكمال ، فلا يجوز عليه ترك البعث فإنه نقص ومنابذ للحكمة ، وشبه

البعث باللقاء لانكشاف كثير من الحجب به وحضور الجزاء .

ولما كان المنكر للبعث كثيراً ، أكد فقال موضع : فإنه آت فليحذر وليبشر ، تفخيماً للأمر وتثبيتاً وتهويلاً : ﴿ فإن أجل الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الغنى المطلق وجميع صفات الكمال المحتوم لذلك ﴿ لآت ﴾ لا محيص عنه ، فإنه لا يجوز عليه وقوع إخلاف الوعد ، ولذلك عبر بالاسم الأعظم ، وللإشارة إلى أن أهوال اللقاء لا يحيط لها العد ، ولا يحصرها حد ، فليتعد لذلك بالمجاهدة والمقاتلة لنفسه من ينصحها ، وقال تعالى : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ السميع العليم ﴾ حثاً على تطهير الظاهر والباطن في العقد والقول والفعل .

(110/594)

ولما حث على العمل ، بين أنه ليس إلا لنفع العامل ، لئلا يخطر في خاطر ما يوجب تعب الدنيا وشقاء الآخرة من اعتقاد ما لا يليق بجلاله تعالى ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فمن أراح نفسه في الدنيا فإنما ضر نفسه : ﴿ ومن جاهد ﴾ أي بذل جهده حتى كأنه يسابق آخر في الأعمال الصالحة ﴿ فإنما يجاهد لنفسه ﴾ لأن نفع ذلك له فيتعبها ليريحها ، ويشقيها ليسعدها ، ويميتها ليحييها ، وعبر بالنفس لأنها الأمارة بالسوء ، وإنما طوى ما أدعى تقديره لأن السياق للمجاهدة ، ثم علل هذا الحصر بقوله : ﴿ إن الله ﴾ أي المتعالي

عن كل شائبة نقص ﴿ لغني ﴾ وأكد لأن كثرة الأوامر ربما أوجبت للجاهل ظن الحاجة ، وذلك نكتة الإتيان بالاسم الأعظم ، وبين أن غناه الغنى المطلق بقوله موضع " عنه " ﴿ عن العالمين ﴾ فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية .

ولما كان التقدير : فالذين كفروا وعملوا السيئات لنجزينهم أجمعين ، ولكنه طواه لأن السياق لأهل الرجاء ، عطف عليه قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ في الشدة والرخاء على حسب طاقتهم ، واشار بقوله : ﴿ لنكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ إلى أن الإنسان وإن اجتهد لا بد أن يزل لأنه مجبول على النقص ، فالصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما لم يؤت الكبائر ، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان ونحو ذلك مما وردت به الأخبار عن النبي المختار ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وزاده فضلاً وشرفاً لديه ؛ قال البغوي : والتكفير إذهاب السيئة بالحسنة ، أو لنغفرن لهم الشرك وما عملوا فيه ، وأكد لأن الإنسان مجبول على الانتقام ممن أساء ولو بكلمة ولو بالامتنان بذكر العفو فلا يكاد يحقق غير ما طبع عليه .

ولما بشرهم بالعفو عن العقاب ، أتم البشرى بالامتنان بالثواب ، فقال عاطفاً على ما تقديره : ولنثبتن لهم حسناتهم ﴿ ولنجزينهم ﴾ أي في الإسلام ﴿ أحسن الذي كانوا ﴾ أي كوناً يحملهم على أتم رغبة ﴿ يعملون ﴾ أي أحسن جزاء ما عملوه في الإسلام وما قبله وفي طبعهم أن يعملوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 537 ـ 538 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ وَهُوَ السميع العليم ﴾ .

لما بين بقوله : أحسب الناس أن العبد لا يترك في الدنيا سدى ، وبين في قوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنا ذكرنا في مواضع أن الأصول الثلاثة وهي الأول وهو الله تعالى ووحدانيته والأصل الآخر وهو اليوم الآخر والأصل المتوسط وهو النبي المرسل من الأول الموصل إلا الآخر لا يكاد ينفصل في الذكر الإلهي بعضها عن بعض ، فقوله : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا ﴾ [العنكبوت : 2] فيه إشارة إلى الأصل الأول يعني أظنوا أنه يكفي الأصل الأول وقوله ﴿ وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 2 ، 3] يعني بإرسال الرسل وإيضاح السبل فيه إشارة إلى الأصل الثاني وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين

يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ مع قوله : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله ﴾ فيه إشارة إلى الأصل الثالث وهو الآخر .

المسألة الثانية :

ذكر بعض المفسرين في تفسير لقاء الله أنه الرؤية وهو ضعيف فإن اللقاء والملاقاة بمعنى وهو في اللغة بمعنى الوصول حتى أن جمادين إذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر .

المسألة الثالثة :

قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله ﴾ من كان يخاف الله وهو أيضاً ضعيف ، فإن المشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ولأنا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله ، وإذا كان وارداً لهذا لا يكون لغيره دفعاً للاشتراك .

المسألة الرابعة :

يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر ، فإن كان هو الموت فهذا ينبىء عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد في الأخبار وذلك لأن القائل إذا قال

من كان يرجو الخير فإن السلطان واصل يفهم منه أن متصلاً بوصول السلطان يكون هو الخير حتى أنه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل ، أما قلت ما قلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير ، فلو لم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا في المثال ، وإذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء .

المسألة الخامسة :

قوله : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو ﴾ شرط وجزاؤه ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ ﴾ والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتياً له ، وهذا باطل فما الجواب عنه ؟ نقول المراد من ذكر إتيان الأجل وعد المطيع بما بعده من الثواب ، يعني من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتياً على وجه يثاب هو .

المسألة السادسة :

(113/594)

قال : ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما ، وذلك لأنه سبق القول في قوله : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ﴾ وسبق الفعل بقوله : ﴿ وَهُمْ

لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ وبقوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذين صَدَقُواْ ﴾ وبقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات ﴾ ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالقصود والعلم يشملهما وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال : ممن كذب وأيضاً عليم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهي أن العبد له ثلاثة أمور هي أصناف حسناته أحدها : عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع ، وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فإذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت ، ولمرئيه ما لا عين رأت ، ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد ، كما وصف في الخبر في وصف الجنة .

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)

لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعداً وإيعاداً ليس لهما دافع ، بين أن طلب الله ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غني مطلقاً ليس شيء غيره يتوقف كما له عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صالحا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت : 46] وقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء : 7] وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان إكثار العبد من العمل الصالح وإتقانه له ، وذلك لأن من يفعل فعلاً لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه ، وإذا علم أن نفعه له

ومقدر بقدر عمله يكثر منه ، فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه .

المسألة الثانية :

(114/594)

لقائل أن يقول هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال : ﴿ مِنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يجاهد لِنَفْسِهِ ﴾ فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق ، وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد يثيبه فإذا أتى به هو يكون جهاداً نافعاً له ولا نزاع فيه ، وإنما النزاع في أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ، ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ فَإِنَّمَا ﴾ يقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فإن من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه ، حتى أن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فإن انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ وفيه

مسائل :

الأولى : تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا يجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكملاً بتلك الفائدة وهي غيره وهي من العالم فيكون مستكملاً بغيره فيكون محتاجاً إليه وهو غني عن العالمين ، وأيضاً أفعاله غير معللة لما بينا .

المسألة الثانية :

تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش على الخصوص فإنه من العالم والله غني عنه والمستغني عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لأن الداخل في المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال ، وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك وإلا لجوز العقل إدراك جسم لا في مكان وإنه محال .

المسألة الثالثة :

لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم وإلا لكان هو في قادريته محتاجاً إلى قدرة هي غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجاً وهو غني ، نقول لم قلتم إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أي كل موجود هو خارج عن مفهوم الإله

الحي القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر ، والعلم ليس خارجاً عن مفهوم العالم .

المسألة الرابعة :

الآية فيها بشارة وفيها إنذار ، أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنياً عن العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم ، وأما البشارة فلأنه إذا كان غنياً ، فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده لا شيء عليه لاستغنائه عنه ، وهذا يوجب الرجاء التام .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)

لما بين إجمالاً أن من يعمل صالحاً فلنفسه بين مفصلاً بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنها تدل على أن الأعمال مغايرة للإيمان لأن العطف يوجب التغاير .

المسألة الثانية :

أنها تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان لأن تكفير السيئات والجزاء بالأحسن معلق عليها وهي ثمرة الإيمان ، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك في أن عروقها

وأغصانها منها ، والماء الذي يجري عليها والتراب الذي حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل إلا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الإيمان وأيضاً الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والأشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وإن غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالإيمان .

المسألة الثالثة :

(116/594)

الإيمان هو التصديق كما قال : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف : 17] أي بمصدق واختص في استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل إن علم مفصلاً أنه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الإجمال فيما لم يعلم ، والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحاً بأمره ، ولو نهى عنه لما كان صالحاً فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه ، وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهي ، فالصدق عمل صالح في نفسه ويأمر الله به لذلك ، فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهي ، وعندهم الأمر والنهي يترتب على الحسن والقبح والمسألة بطولها في (كتب) الأصول .

المسألة الرابعة :

العمل الصالح باق لأن الصالح في مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف ، يقال فسدت الزروع إذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هي بعد صالحة أي باقية على ما ينبغي .

إذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لأنه عرض ، ولا يبقى بالعامل أيضاً لأنه هالك كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ فبقاؤه لا بد من أن يكون بشيء باق ، لكن الباقي هو وجه الله لقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : 88] فينبغي أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحاً ، وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحاً ، فالعمل الصالح هو الذي أتى به المكلف مخلصاً لله .

المسألة الخامسة :

هذا يقتضي أن تكون النية شرطاً في الصالحات من الأعمال وهي قصد الإيقاع لله ، ويندرج فيها النية في الصوم خلافاً لزفر ، وفي الوضوء خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله .

المسألة السادسة :

العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى : ﴿ والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ﴾ [فاطر : 10] لكنه لا يرتفع إلا بالكلم الطيب فإنه يصعد بنفسه كما قال تعالى :

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب ﴾ [فاطر : 10] وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ، ولهذا قدم الإيمان على العمل ، وههنا لطيفة ، وهي أن أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه ، وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته ، وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته .

فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وإنما ترتفع بغيرها ، والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين في الآية ، وعمل القلب وهو الفكر ينزل إليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويقول هل من تائب " والتائب النادم بقلبه ، وكذلك قوله عليه السلام : " يقول الله عز وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم " يعني بالفكرة في عجزه وقدرتي وحقارته وعظمتي ومن حيث العقل من تفكر في آلاء الله وجد الله وحضر ذهنه ، فعلم أن لعمل القلب يأتي الله وعمل اللسان يذهب إلى الله وعمل الأعضاء يوصل إلى الله ، وهذا تنبيه على فضل عمل القلب .

المسألة السابعة :

ذكر الله من أعمال العبد نوعين : الإيمان والعمل الصالح ، وذكر في مقابلتهما من أفعال الله

أمرين تكفير السيئات والجزاء بالأحسن حيث قال : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ﴾ فتكفير السيئات في مقابلة الإيمان ، والجزاء بالأحسن في مقابلة العمل الصالح ، وهذا يقتضي أموراً الأول : المؤمن لا يخلد في النار لأن بإيمانه تكفر سيئاته فلا يخلد في العذاب الثاني : الجزاء الأحسن المذكور ههنا غير الجنة ، وذلك لأن المؤمن بإيمانه يدخل الجنة إذ تكفر سيئاته ومن كفرت سيئاته أدخل الجنة ، فالجزاء الأحسن يكون غير الجنة وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يبعد أن يكون هو الرؤية .

(118/594)

الأمر الثالث : هو أن الإيمان يستر قبح الذنوب في الدنيا فيستر الله عيوبه في الأخرى ، والعمل الصالح يحسن حال الصالح في الدنيا فيجزيه الله الجزاء الأحسن في العقبى ، فالإيمان إذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب المعاصي ويسترها ويحمل صاحبها على الندم ، والله أعلم .

المسألة الثامنة :

قوله : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ يستدعي وجود السيئات حتى تكفر ﴿ والذين

ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ بأسرها من أين يكون لهم سيئة ؟ فنقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعي وعد كل واحد بكل واحد من تلك الأشياء ، مثاله : إذا قال الملك لأهل بلد إذا أطعتموني أكرم آباءكم واحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن إليكم ، لا يقتضي هذا أنه يكرم آباء من توفى أبوه ، أو يحترم ابن من لم يولد له ولد ، بل مفهومه أنه يكرم أب من له أب ، ويحترم ابن من له ابن ، فكذلك يكفر سيئة من له سيئة الجواب الثاني : ما من مكلف إلا وله سيئة أما غير الأنبياء فظاهر ، وأما الأنبياء فلأن ترك الأفضل منهم كالسيئة من غيرهم ، ولهذا قال تعالى :

﴿ عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] .

المسألة التاسعة :

قوله : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : لنجزينهم بأحسن أعمالهم وثانيهما : لنجزينهم أحسن من أعمالهم .

وعلى الوجه الأول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزي عليه ويترك الباقي ، وعلى الوجه الثاني : معناه قريب من معنى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاء بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : 160] وقوله : ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [النمل : 89] .

المسألة العاشرة :

ذكر حال المسيء مجملاً بقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أَن يَسْبِقُونَا ﴾ إشارة إلى التعذيب مجملاً .

(119/594)

وذكر حال المحسن مجملاً بقوله : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يجاهد لِنَفْسِهِ ﴾ ومفصلاً بهذه الآية ، ليكون ذلك إشارة إلى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 27.32 ﴾

(120/594)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ اللَّهِ ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : من كان يخشى لقاء الله ، قاله ابن جبير والسدي .

الثاني : من كان يؤمل .

وفي ﴿ لِقَآءَ اللَّهِ ﴾ وجهان :

أحدهما : ثواب الله ، قاله ابن جبير .

الثاني : البعث إليه ، قاله يحيى بن سلام .

﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ ﴾ يعني الجزاء في القيامة فاستعدوا له

. ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لمقالتكم

﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بمعتقدكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

(121/594)

وقال ابن عطية :

ثم أخبر تعالى عن الحشر والرجوع إلى الله تعالى في القيامة بأنه آت إذ قد أجله الله تعالى وأخبر به ، وفي قوله ﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ ، تثبيت ، أي من كان على هذا الحق فليوقن بأنه آت وليتزيد بصيرة ، وقال أبو عبيدة ﴿ يرجو ﴾ ها هنا بمعنى يخاف ، والصحيح أن الرجاء ها هنا على بابه متمكناً ، قال الزجاج : المعنى لقاء ثواب الله ، وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ ، معناه لأقوال كل فرقة ، و ﴿ العليم ﴾ معناه بالمعتقدات التي لهم ، وقوله تعالى : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ ، إعلان بأن كل

واحد مجازى بفعله فهو إذاً له ، وهو حظه الذي ينبغي أن لا يفرط فيه فإن الله غني عن جهاد و" غني عن العالمين " بأسرهم ، وهاتان الآيتان نبذ على سؤال الطائفة المرتابة المترددة في فتنة الكفار التي كانت تنكر أن ينال الكفار المؤمنين بمكروه وترتاب من أجل ذلك ، فكأنهم قيل لهم من كان يؤمن بالبعث فإن الأمر حق في نفسه ، والله تعالى بالمرصاد ، أي هذه بصيرة لا ينبغي لأحد أن يعتقدها لوجه أحد ، وكذلك من جاهد فثمره جهاده له فلا يمن بذلك على أحد ، وهذا كما يقول المناظر عند سوق حجته من أراد أن يرى الحق فإن الأمر كذا وكذا ونحو هذا فتامله ، وقيل : معنى الآية ومن جاهد المؤمنين ودفع في صدر الدين فإنما جهاده لنفسه لا لله فالله غني .

(122/594)

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول ذكره المفسرون وهو ضعيف ، وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا ﴾ الآية إخبار عن المؤمنين المهاجرين الذين هم في أعلى رتبة من البدار إلى الله تعالى رفع بهم عز وجل وبحالهم ليقيم نفوس المتخلفين عن الهجرة وهم الذين فتنهم الكفار إلى الحصول في هذه المرتبة ع و" السيئات " ، الكفر وما اشتمل عليه ويدخل في ذلك في المعاصي من المؤمنين مع الأعمال الصالحات واجتناب الكبائر ، وفي قوله عز وجل ﴿

ولنجزينهم أحسن ﴾ حذف مضاف تقديره ثواب أحسن الذي كانوا يعملون . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(123/594)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ ﴾

﴿ يَرْجُو ﴾ بمعنى يخاف من قول الهُذَلِيّ في وصف عَسَّال :

إذَا لَسَعَتْهُ النَّحل لَم يَرْجُ لسعَها . . .

وأجمع أهل التفسير على أن المعنى : من كان يخاف الموت فليعمل عملاً صالحاً فإنه لا بدّ أن يأتيه ؛ ذكره النحاس .

قال الزجاج : معنى ﴿ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ ثواب الله و ﴿ من ﴾ في موضع رفع بالابتداء و ﴿ كَانَ ﴾ في موضع الخبر ، وهي في موضع جزم بالشرط ، و ﴿ يَرْجُو ﴾ في موضع خبر كان ، والمجازاة ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وَهُوَ السميع العليم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي ومن جاهد في الدّين ، وصبر على قتال الكفار وأعمال الطاعات ، فإنما يسعى لنفسه ؛ أي ثواب ذلك كله له ؛ ولا يرجع إلى

الله نفع من ذلك .

﴿ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ أي عن أعمالهم .

وقيل : المعنى ؛ من جاهد عدوّه لنفسه لا يريد وجه الله فليس لله حاجة بجهاده .

قوله تعالى : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ أي صدّقوا ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي لنغطينها عنهم بالمغفرة لهم .

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بأحسن أعمالهم وهو الطاعات .

ثم قيل : يحتمل أن تكفر عنهم كل معصية عملوها في الشرك ، ويثابوا على ما عملوا من حسنة في الإسلام .

ويحتمل أن تكفر عنهم سيئاتهم في الكفر والإسلام ، ويثابوا على حسناتهم في الكفر والإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(124/594)

وقال أبو حيان :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله ﴾

والظاهر أن ﴿ يرجوا ﴾ على بابها ، ومعنى ﴿ لقاء الله ﴾ : الوصول إلى عاقبة الأمر

من الموت والبعث والجزاء ؛ مثلت حاله بحالة عبد قدم على مولاه من سفر بعيد ، وقد اطلع مولاه على ما عمل في غيبته عنه ، فإن كان عمل خيراً ، تلقاه بإحسان أو شراً ، فبضد الإحسان .

﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ : وهو ما أجله وجعل له أجلاً ، لا نفسه لا محالة ، فليبادر لما يصدق رجاءه .

وقال أبو عبيدة : يرجو : يخاف ، ويظهر أن جواب الشرط محذوف ، أي ﴿ من كان يرجوا لقاء الله ﴾ ، فليبادر بالعمل الصالح الذي يحقق رجاءه ، فإن ما أجله الله تعالى من لقاء جزائه لآت .

والظاهر أن قوله : ﴿ ومن جاهد ﴾ ، معناه : ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات ، فثمرة جهاده ، وهو الثواب المعد له ، إنما هو له ، لا لله ، والله تعالى غني عنه وعن العالمين ، وإنما كلفهم ما كلفهم إحساناً إليهم .

﴿ لنكفرنّ عنهم سيئاتهم ﴾ : يشمل من كان كافراً فآمن وعمل صالحاً ، فأسقط عنه عقاب ما كان قبل الإيمان من كفر ومعصية ، ومن نشأ مؤمناً عاملاً للصالحات وأساء في بعض أعماله ، فكفر عنه ذلك ، وكانت سيئاته مغمورة بحسناته .

﴿ ولنجزينهم أحسن الذي ﴾ : أي أحسن جزاء أعمالهم .

وقال ابن عطية : فيه حذف مضاف تقديره : ثواب أحسن الذي كانوا يعملون . انتهى .

وهذا التقدير لا يسوغ ، لأنه يقتضي أن أولئك يجزون ثواب أحسن أعمالهم ، وأما ثواب حسنها فمسكوت عنه ، وهم يجزون ثواب الأحسن والحسن ، إلاّ إن أخرجت أحسن عن بابها من التفضيل ، فيكون بمعنى حسن ، فإنه يسوغ ذلك .

وأما التقدير الذي قبله فمعناه : أنه مجزي أحسن جزاء العمل ، فعمله يقتضي أن تكون الحسنة بمثلها ، فجوزي أحسن جزائها ، وهي أن جعلت بعشر أمثالها .

وفي هذه الآيات تحريك وهزاً لمن تخلف عن الجهرة أن يبادر إلى استدراك ما فرط فيه منها ، وثناء على المؤمنين الذين بادروا إلى الهجرة ، وتنويه بقدرهم .

(125/594)

﴿ ووصينا الإنسان ﴾ ، في جامع الترمذي : إنها نزلت في سعد بن أبي وقاص ، آلت أمه أن لا يطعم ولا يشرب حتى تموت ، أو يكفر .

وقيل : في عياش بن أبي ربيعة ، أسلم وهاجر مع عمر ، وكانت أمه شديدة الحب له ، وحلفت على مثل ذلك ، فتحيل عليه أبو جهل وأخوه الحارث ، فشداه وثاقاً حين خرج معهما من المدينة إلى أمه قصداً ليراها ، وجلده كل منهما مائة جلدة ، ورداه إلى أمه فقالت

: لا يزال في عذاب حتى يكفر بمحمد ، في حديث طويل ذكر في السير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(126/594)

وقال أبو السعود :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله ﴾

أي يتوقَّعُ مُلاقاةَ جزائِه ثوابا أو عِقابا أو مُلاقاةُ حُكمِه يومَ القيامةِ وقيل : يرجُو لقاء الله عزَّ وجلَّ في الجنَّة وقيل : يرجُو ثوابَه وقيل : يخافُ عقابَه وقيل : لقاؤه تعالى عبارةٌ عن الوصول إلى العاقبةِ من تلقِّي مَلَكِ الموتِ والبعثِ والحسابِ والجزاءِ على تمثيلِ تلك الحالِ بحالِ عبدٍ قدِم على سيِّده بعد عهدٍ طويلٍ ، وقد عَلِم مولاهُ بجميعِ ما كان يأتي ويذرُ فإمَّا أنْ يلقاه ببشرٍ وكرامةٍ لمَا رضي من أفعالِه أو بضدِّه لما سخَطَه ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ الله ﴾ الأجل عبارةٌ عن غايةِ زمانٍ متمدَ عينت لأمرٍ من الأمورِ وقد يُطلق على كلِّ ذلكَ الزَّمانَ والأولُ هو الأشهرُ في الاستعمالِ أي فإنَّ الوقتَ الذي عيَّنه تعالى لذلكَ ﴿ لَأَتٍ ﴾ لا محالةَ من غيرِ صارفٍ يلويهِ ولا عاطفٍ يثنيه لأنَّ أجزاءَ الزَّمانِ على التقضِّي والتَّصرُّم دائماً فلا بدَّ من إتيان ذلك الجزاءِ أيضاً ألبتةَ ، وإتيانُ وقتِه موجبٌ لإتيانِ اللِّقاءِ حتماً والجوابُ محذوفٌ أي فليختر من

الأعمال ما يؤدي إلى حُسن الثَّواب وليحذرْ ما يسوقُه إلى سوءِ العذاب كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ وفيه من الوعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى ، وقيل : فليبادرْ ما يحقق أملَه ويصدّق رجاءَهُ أو ما يُوجبُ القُربةَ والزُّلفى ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لأقوالِ العبادِ ﴿ العليم ﴾ بأحوالِهم من الأعمالِ الظَّاهرةِ والعقائدِ . ﴿ وَمَن جَاهَدَ ﴾ في طاعةِ الله عزَّ وجلَّ ﴿ فَإِنَّمَا يجاهد لِنَفْسِهِ ﴾ لعود منفعتِها إليها ﴿ إِنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ فلا حاجةٍ له إلى طاعتِهم وإنَّما أمرهم بها تعريضاً لهم للثَّواب بموجب رحمتِه .

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الكفرَ بالإيمانِ والمعاصيَ بما يتبعُها من الطَّاعاتِ ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي أحسنَ جزاءِ أعمالِهم لا جزاءَ أحسنِ أعمالِهم فقط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(127/594)

وقال الآلوسى :

﴿ مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء الله ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه قال : أي من كان يخشى البعث في الآخرة فالرجاء بمعنى الخوف كما في قول الهذلي في وصف عسال :

إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها . . .

وخالفها في بيت نوب عوامل

ولعل إرادة البعث من لقائه عز وجل لأنه من مباديه ، وقيل : لعل جعل لقاء الله تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة إلا أنه لما كان البعث من أعظم ما يتوقف ذلك عليه خصه بالذكر ، وفي "الكشاف" أن لقاء الله تعالى مثل للوصول إلى العاقبة من تلقي ملك الموت والبعث والحساب والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ؛ وقد اطلع مولاه على ما كان يأتي ويذر فأما أن يلقاه ببشر وترحيب لما رضي من أفعاله أو بضد ذلك لما سخطه منها ، فمعنى ﴿ مَن كَانَ ﴾ الخ من كان يأمل تلك الحال وإن يلقى فيها الكرامة من الله تعالى والبشرى ، فالكلام عنده من باب التمثيل والرجاء بمعنى الأمل والتوقع .

وجوز أن يكون بمعنى ذلك إلا أن الكلام بتقدير مضاف أي من كان يتوقع ملاقاة جزاء الله تعالى ثواباً أو عقاباً أو ملاقاة حكمه عز وجل يوم القيامة وأن يكون بمعنى الخوف ، والمضاف محذوف أيضاً أي من كان يخاف ملاقاة عقاب الله تعالى ، وأن يكون بمعنى ظن حصول ما فيه مسرة وتوقعه كما هو المشهور ، والمضاف كذلك أيضاً ، أي من كان يرجو

ملاقاة ثواب الله تعالى ، ويجوز أن لا يقدر مضاف ، ويجعل لقاء الله تعالى مجازاً عن الثواب لما أنه لازم له .

(128/594)

واختار بعضهم أن الرجاء بمعناه المشهور وأن لقاء الله تعالى مشاهدته سبحانه على الوجه اللائق به عز وجل كما يقوله أهل السنة والجماعة إذ لا حاجة للخروج عن الظاهر من غير ضرورة وما حسبه المعتزلي منها فليس منها كما بين في علم الكلام أي من كان يتوقع مشاهدة الله تعالى يوم القيامة التي لا نعيم يعدلها ويلزمها الفوز بكل خير ونعيم ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ الله ﴾ الأجل غاية لزمان ممتد عينت لأمر من الأمور ، وقد يطلق على كل ذلك الزمان ، والأول أشهر في الاستعمال أي فإن الوقت الذي عينه جل شأنه لذلك ﴿ لَأَتٍ ﴾ لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لأن أجزاء الزمان على التقضي والتصرم دائماً ، ومجيء ذلك الوقت كناية عن إتيان ما فيه ووقوعه ، والجملة الاسمية قائمة مقام جواب الشرط وهي في الحقيقة دليل الجواب المحذوف أي فليبادر ما ينفقه من امتثال الأوامر واجتناب المناهي أو فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو نحوه ذلك مما يلائم الشرط فتدبر .

وقيل : يجوز أن تكون هي الجواب على أن المراد بها المعنى الملائم للشرط كما ذكر ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ جل شأنه لأقوال العباد ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والعقائد والصفات الباطنة ، والجملة تذييل لتحقيق حصول المرجو والمخوف وعداً ووعيداً ﴿ وَمَنْ جاهد ﴾ في طاعة الله عز وجل .

﴿ فَإِنَّمَا يجاهد لِنَفْسِهِ ﴾ لعود المنفعة من الثواب المعد لذلك إليها ﴿ إِنَّ الله لَغَنِىٌّ عَنِ العالمين ﴾ فلا حاجة له إلى طاعتهم وإنما أمرهم سبحانه بها تعريضاً لهم للثواب بموجب رحمته وحكمته .

(129/594)

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الكفر الأصلي أو العارضي بالايمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم والجزاء الحسن أن يجازي بحسنة حسنة ، وأحسن الجزء أن تجازي الحسنة الواحدة بالعشر وزيادة ، وقيل : لو قدر لنجزينهم بأحسن أعمالهم أو جزاء أحسن أعمالهم لإخراج المباح جاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

وقال صاحب روح البيان :

﴿ مِنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ اللَّهِ ﴾

الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة وتفسيره بالخوف لأن الرجاء والخوف متلازمان ولقاء الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه والمعنى يتوقع ملاقاة جزائه ثواباً أو عقاباً فليستعد لأجل الله باختياره من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب واجتنابه عما يسوقه إلى سوء العذاب .

﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ ﴾ الأجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لأمر من الأمور وقد يطلق على كل ذلك الزمان والأول هو الأشهر في الاستعمال أي فإن الوقت الذي عينه تعالى لذلك .

﴿ لَآتٍ ﴾ لا محالة وكائن البتة لأن أجزاء الزمان على الانقضاء والانصرام دائماً فلا بد من إتيان الوقت المعين وإتيانه موجب لإتيان اللقاء والجزاء .

﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال العباد ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم من الأعمال الظاهرة والباطنة فلا يفوته شيء ما فبادروا العمل قبل الفوت .

وفي "التأويلات النجمية" : من أمّل الثواب يفرّ من أعمال تورث العذاب ويعانق المجاهدات

فإنها تورث المشاهدات من مضي عمره في رجاء لقائنا فسوف نبيح النظر إلى جمالنا .

﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأنين المشتاقين ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحنين الوامقين الصادقين .

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله وجاهد الكفار بالسيف وجاهد الشيطان بدفع وساوسه .

والمجاهدة استفراغ الجهد بالضم أي الطاقة في مدافعة العدو ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ لأن منفعتها عائدة إليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فلا حاجة به إلى طاعتهم ومجاهدتهم وإنما أمرهم بها رحمة عليهم لينالوا الثواب الجزيل كما قال : "خلقت الخلق ليربحوا عليّ لا لأربح عليهم" فالعاملون هم الفقراء إلى الله والمحتاجون إليه في الدارين وهو مستغن عنهم .

(131/594)

قال أبو العباس المشتهر بزروق في "شرح الأسماء الحسنى" : الغني هو الذي لا يحتاج إلى شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله إذ لا يلحقه نقص ولا يعتريه عارض ومن عرف أنه الغني استغنى به عن كل شيء ورجع إليه بكل شيء وكان له بالافتقار في كل شيء وللتقرب بهذا الاسم تعلق بإظهار الفاقة والفقر إليه أبداً .

قيل لأبي حفص : بماذا يلقى الفقير مولاه ؟ فقال : فهل يلقى الغني إلا بالفقر قلت : يلقاه بفقره

حتى من فقره وإلا فهو مستعد بفقره ولذلك قال ابن مشيش رحمه الله للشيخ أبي الحسن : لئن لقيته بفقرك لتلقينه بالاسم الأعظم وبتمام فقره له يصح غناه عن غيره فيكون متخلقاً بالغنى .

وخاصية هذا الاسم وجود العافية في كل شيء فمن ذكره على مرض أو بلاء أذهبه الله عنه وفيه سر للغني ومعنى الاسم الأعظم لمن استأهل به انتهى .

وفي "الإحياء" يستحب أن يقول بعد صلاة الجمعة : "اللهم يا غني يا حميد يا مبدىء يا معيد يا رحيم يا ودود أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك" فيقال : من داوم على هذا الدعاء أغناه الله تعالى عن خلقه ورزقه من حيث لا يحتسب .

وفي "التأويلات النجمية" : من أمّل الثواب يفرّ من أعمال تورث العذاب ويعانق المجاهدات فإنها تورث المشاهدات من مضي عمره في رجاء لقائنا فسوف نبيح النظر إلى جمالنا .

(132/594)

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ الكفر بالإيمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات وتكفير الاسم ستره وتغطيته حتى يصير بمنزلة ما لم يعمل .

قال بعضهم : التكفير إذهاب السيئة وإبطالها بالحسنة وسترها وترك العقوبة عليها

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم بأن نعطي بواحد عشراً أو أكثر لاجزاء أحسن أعمالهم فقط .

والعمل الصالح عندنا كل ما أمره الله فإنه صار صالحاً بأمره ولو نهى عنه لما كان صالحاً فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل في نفسه .

وقالت المعتزلة : ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الأمر والنهي فالصدق عمل صالح في نفسه يأمر الله تعالى به لذلك فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الأمر والنهي وعندهم الأمر والنهي يترتب على الحسن والقبح .

واعلم أن كل ما يفعله الإنسان من الخير فالله يجازيه عليه ويجده عند الله حين يلقاء فمنفعة خيره تعود إلى نفسه وإن كان نفعه إلى الغير بحسب الظاهر .

وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه : "يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت لوعدته لوجدتني عنده .

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال : كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال : أما علمت أنه استطعمك فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي .

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي" .

(133/594)

قال بعضهم : كنت في طريق الحج فاعترض ثعبان أسود أمام القافلة فاتحاً فاه ومنع القوم من المرور فأخذت قربة ماء وسللت سيفي وتقدمت ووضعت فم القربة في فيه فشرب ثم غاب فلما حججت ورجعت إلى هذا المكان مع القافلة أخذني النوم وذهبت القافلة وبقيت متحيراً فإذا بناقة مع ناقتي وقفت بين يدي فقالت لي : قم واركب فركبت وأخذت ناقتي وقت السحر ولحقنا القافلة فأشارت إلي بالنزول فقلت : بالله الذي خلقك من أنت قالت : أنا الأسود المعترض أمام القافلة فأنت دفعت ضرورتي وأنا دفعت ضرورتك الآن هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 6 صـ 571 .

573 ﴾

(134/594)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾

هذا مسوق للمؤمنين خاصة لأنهم الذين يرجون لقاء الله ، فالجملة مفيدة التصريح بما أوماً إليه قوله ﴿ أن يسبقونا ﴾ [العنكبوت : 4] من الوعد بنصر المؤمنين على عدوّهم مبينة لها ولذلك فصلت .

ولولا هذا الوقع لكان حق الإخبار بها أن يجيء بواسطة حرف العطف .

ورجاء لقاء الله : ظنّ وقوع الحضور لحساب الله .

و ﴿ لقاء الله ﴾ : الحشر للجزاء لأن الناس يتلقون خطاب الله المتعلق بهم ، لهم أو عليهم ، مباشرة بدون واسطة ، وقد تقدم في قوله ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ [البقرة : 46] وقوله ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ في سورة [البقرة : 223] .

و ﴿ أجل الله ﴾ يجوز أن يكون الوقت الذي عينه الله في علمه للبعث والحساب فيكون من الإظهار في مقام الإضمار ، ومقتضى الظاهر أن يقال : فإنه لآتٍ فعدل إلى الإظهار كما في إضافة ﴿ أجل ﴾ إلى اسم الجلالة من الإيماء إلى أنه لا يخلف .

والمقصود الاهتمام بالتحريض على الاستعداد .

ويجوز أن يكون المراد بـ ﴿ أجل الله ﴾ الأجل الذي عيَّنه الله لنصر المؤمنين وانتهاء فتنة المشركين إياهم باستئصال مساعير تلك الفتنة ، وهم صناديد قريش وذلك بما كان من النصر يوم بدر ثم ما عقبه إلى فتح مكة فيكون الكلام تثبيتاً للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين حين استبطأ المؤمنون النصر للخلاص من فتنة المشركين حتى يعبدوا الله لا

يفتنوهم في عبادته .

والمعنى عليه : إن كنتم مؤمنين بالبعث إيقاناً ينبعث من تصديق وعد الله به فإن تصديقكم بمجيء النصر أجدر لأنه وعدكم به ، ف ﴿ من ﴾ شرطية ، وجعل فعل الشرط فعل الكون للدلالة على تمكن هذ الرجاء من فاعل فعل الشرط .

ولهذا كان قوله ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ جواباً لقوله ﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ باعتبار دلالته على الجواب المقدر ليلتئم الربط بين مدلول جملة الشرط ومدلول جملة الجزاء .

(135/594)

ولولا ذلك لاختلّ الربط بين الشرط والجزاء إذ يفضي إلى معنى من لم يكن يرجو لقاء الله فإن أجل الله غير آتٍ .

وهذا لا يستقيم في مجاري الكلام فلزم تقدير شيء من باب دلالة الاقتضاء .

وتأكيد جملة الجزاء بحرف التوكيد على الوجه الأول للتحريض والحث على الاستعداد للقاء الله ، وعلى الوجه الثاني لقصد تحقيق النصر الموعود به تنزيلاً لاستبطائه منزلة التردد لقصد إذكاء يقينهم بما وعد الله ولا يوهنهم طول المدة الذي يضخمه الانتظار .

وبهذا يظهر وقع التذييل بوصفي ﴿ السميع العليم ﴾ دون غيرهما من الصفات العُلَى

للإيماء بوصف ﴿ السميع ﴾ إلى أن الله تعالى سمع مقالة بعضهم من الدعاء بتعجيل النصر كما أشار إليه قوله تعالى ﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله ﴾ [البقرة: 214].

وكقول النبي صلى الله عليه وسلم

"اللهم أنجِ عياش بن أبي ربيعة اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج سلمة بن هشام اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف".

والإيماء بوصف ﴿ العليم ﴾ إلى أن الله علم ما في نفوسهم من استعجال النصر ولو كان المراد من ﴿ أجل الله ﴾ الموتَ لَمَا كان وجه للإعلام بإتيانه بَلْهَ تأكيده، وكذا لو كان المراد منه البعث لكان قوله ﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ كافياً، فهذا وجه ما أشارت إليه الآيات بالمنطوق والاقتضاء، والعدول بها عن هذا المهيع وإلى ما في "الكشاف" و"مفاتيح الغيب" أخذاً من كلام أبي عبيدة تحويل لها عن مجراها وصرف كلمة الرجاء عن معناها وتفكيك لنظم الكلام عن أن يكون آخذاً بعضه بحُجز بعض.

(136/594)

وإظهار اسم الجلالة في جملة ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ مع كون مقتضى الظاهر الإضمار لتقدم اسم الجلالة في جملة الشرط ﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ لئلا يلتبس معاد الضمير بأن يُعاد إلى ﴿ من ﴾ إذ المقصود الإعلام بأجل مخصوص وهو وقت النصر الموعود كما في قوله تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ [سبأ : 29 ، 30] .

وعبّر بفعل الرجاء عن ترقب البعث لأن الكلام مسوق للمؤمنين وهم ممن يرجو لقاء الله لأنهم يترقبون البعث لما يأملون من الخيرات فيه .

قال بلال رضي الله عنه حين احتضاره متمثلاً بقول بعض الأشعريين الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم

غداً ألقَى الأحبهْ . . .

محمداً وصحبهْ

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)

أي ومن جاهد ممن يرجون لقاء الله ، فليست الواو للتقسيم ، وليس ﴿ من جاهد ﴾ بقسيم لمن كانوا يرجون لقاء الله بل الجهاد من عوارض من كانوا يرجون لقاء الله .

]

والجهاد : مبالغة في الجهد الذي هو مصدر جَهَد كمنع ، إذا جدُّ في عمله وتكلّف فيه تعباً ،

ولذلك شاع إطلاقه على القتال في نصر الإسلام .

وهو هنا يجوز أن يكون الصبر على المشاق والأذى اللاحقة بالمسلمين لأجل دخولهم في الإسلام ونبذ دين الشرك حيث تصدى المشركون لأذاهم .

فإطلاق الجهاد هنا هو مثل إطلاقه في قوله تعالى بعد هذا ﴿ وإن جاهداك لتُشْرِك بي ﴾ [العنكبوت : 8] ، ومثل إطلاقه في قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد قفل من إحدى غزواته " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر "

وهذا المحل هو المتبادر في هذه السورة بناء على أنها كلها مكية لأنه لم يكن جهاد القتال في مكة .

ومعنى ﴿ فإنما يجاهد لنفسه ﴾ على هذا المحمل أن ما يلاقيه من المشاق لفائدة نفسه ليتأتى له الثبات على الإيمان الذي به ينجو من العذاب في الآخرة .

(137/594)

ويجوز أن يراد بالجهاد المعنى المنقول إليه في اصطلاح الشريعة وهو قتال الكفار لأجل نصر الإسلام والذبّ عن حوزته ، ويكون ذكره هنا لإعداد نفوس المسلمين لما سيُلْجَأون إليه من قتال المشركين قبل أن يضطروا إليه فيكون كقوله تعالى ﴿ قل للمخلفين من الأعراب

ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ [الفتح : 16] ومناسبة التعرض له على هذا المحمل هو أن قوله ﴿ فإن أجل الله لآت ﴾ [العنكبوت : 5] تضمن ترقباً لوعد نصرهم على عدوهم فقُدم إليهم أن ذلك بعد جهاد شديد وهو ما وقع يوم بدر .

ومعنى ﴿ فإنما يجاهد لنفسه ﴾ على هذا المحمل هو معناه في المحمل الأول لأن ذلك الجهاد يدافع صدّ المشركين إياهم عن الإسلام ، فكان الدوام على الإسلام موقوفاً عليه ، وزيادة معنى آخر وهو أن ذلك الجهاد وإن كان في ظاهر الأمر دفاعاً عن دين الله فهو أيضاً به نصرهم وسلامة حياة الأحياء منهم وأهلهم وأبنائهم وأساس سلطانهم في الأرض كما قال تعالى : ﴿ وعَدَ الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولَيُمكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ولَيُبدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أمناً ﴾ [النور : 55] .

وقال علقمة بن شيبان التميمي :

ونقاتل الأعداء عن أبنائنا

وعلى بصائرنا وإن لم نُبْصِر . . .

والأوفق ببلاغة القرآن أن يكون المحملان مرادين كما قدمنا في المقدمة التاسعة من مقدمات هذا التفسير .

والقصر المستفاد من (إنما) هو قصر الجهاد على الكون لنفس المجاهد ، أي الصالح نفسه إذ العلة لا تتعلق بالنفس بل بأحوالها ، أي جهاد لفائدة نفسه لا لنفع ينجر إلى الله تعالى ، فالقصر الحاصل بأداة (إنما) قصر ادعائي للتنبيه إلى ما يغفلون عنه حين يجاهدون الجهاد بمعنييه من الفوائد المنجرة إلى أنفس المجاهدين ولذلك عقب الرد المستفاد من القصر بتعليله بأن الله غنيّ عن العالمين فلا يكون شيء من الجهاد نافعاً لله تعالى ولكن نفعة للأمة . فموقع حرف التأكيد هنا هو موقع فاء التفريع الذي نبّه عليه صاحب "دلائل الإعجاز" وتقدّم غير مرة .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)

يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ أم حَسِب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ [العنكبوت : 4] لما تضمنته الجملة المعطوف عليها من التهديد والوعيد ، فعطف عليها ما هو وعد وبشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات مع ما أفضى إلى ذكر هذا الوعد من قوله قبله ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ [العنكبوت : 6] فإن مضمون جملة ﴿

والذين ءامنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية يفيد بيان كون جهاد من جاهد لنفسه .

ويجوز أن تكون عطفاً على جملة ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ [العنكبوت : 6] وسلك بها طريق العطف باعتبار ما أوما إليه الموصول وصلته من أن سبب هذا الجزاء الحسن هو أنهم آمنوا وعملوا الصالحات وهو على الوجه إظهار في مقام الإضمار لنكتة هذا الإيماء .

فالجزاء فضل لأن العبد إذا امتثل أمر الله فإنما دفع عن نفسه تبعة العصيان ؛ فأما الجزاء على طاعة مولاه فذلك فضل من المولى ، وغفران ما تقدم من سيئاتهم فضل عظيم لأنهم كانوا أحقاء بأن يؤاخذوا بما عملوه وبأن إقلاعهم عن ذلك في المستقبل لا يقتضي التجاوز عن الماضي لكنه زيادة في الفضل .

(139/594)

وانتصب ﴿ أحسنَ ﴾ على أنه وصف لمصدر محذوف هو مفعول مطلق من فعل ﴿ لنجزينهم ﴾ .

والتقدير : ولنجزينهم جزاءً أحسن .

وإضافته إلى ﴿ الذي كانوا يعملون ﴾ لإفادة عِظَم الجزاء كله فهو مقدَّر بأحسن

أعمالهم .

وتقدير الكلام : لنجزينهم عن جميع صالحاتهم جزاء أحسن صالحاتهم .

وشمل هذا من يكونون مشركين فيؤمنون ويعملون الصالحات بعد نزول هذه الآية . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(140/594)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾

معنى ﴿ يَرْجُو لِقَآءَ الله . . . ﴾ [العنكبوت : 5] يعني : يؤمن به وينتظره ويعمل من أجله ، يؤمن بأن الله الذي خلقه وأعدَّ له هذا الكون ليحيا حياته الطيبة ، وأنه سبحانه بعد ذلك سيُعيده ويحاسبه ؛ لذلك إنْ لم يعبده ويطعْه شُكْراً له على ما وهب ، فليعبده خوفاً منه أنْ يناله بسوء في الآخرة .

وأهل المعرفة يروْنَ فرقاً بين مَنْ يرجو الثواب ويرجو رحمة الله ، ومن يرجو لقاء الله لذات اللقاء ، لا خوفاً من نار ، ولا طمعاً في جنة ؛ لذلك تقول رابعة العدوية :

كُلُّهم يَعْبدُونَ مِنْ خَوْفِ نَارٍ . . . ويروْنَ النجاةَ حَظّاً جَزِيلاً

أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنانَ فيحظَوْا . . . بقُصُورٍ ويَشْرُبُوا سَلْسبيلا

لَيْسَ لِي بالجَنَانِ والنّارِ حَظٌّ . . . أنَا لا أبتغي بحبي بَديلاَ

أي : أحبك يا رب ، لأنك تُحَبُّ لذاتك ، لا خوفاً من نارك ، ولا طمعاً في جنتك ، وهي أيضاً القائلة : اللهم إنْ كنتَ تعلم أني أحبك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، وإنْ كنتَ تعلم أنّي أعبدك خوفاً من نارك فاحرقني بها .

ويقول تعالى في سورة الكهف : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ﴾ [الكهف : 110] ولو كانت الجنة لأن لقاء الله أعظم ، وهو الذي يُرْجى لذاته .

والحق سبحانه يؤكد هذه المسألة بأكثر من مؤكد : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ . . . ﴾ [العنكبوت : 5] فأكَّده بإن واللام وصيغة اسم الفاعل الدالة على تحقُّق الفعل ، كما قال سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ ﴾ [القصص : 88] ولم يقل : سيهلك ، وقوله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : 30] .

(141/594)

يخاطبهم بهذه الصيغة وهم ما يزالون أحياءً ؛ لأن الميّت : مَنْ يؤول أمره وإن طال عمره إلى الموت ، أما مَنْ مات فعلاً فيُسمَّى (مَيْت) .

وأنت حينما تحكم على شيء مستقبل تقول : يأتي أو سيأتي ، وتقول لمن تتوعده : سأفعل بك كذا وكذا ، فأنت جازفتَ وتكلمتَ بشيء لا تملك عنصراً من عناصره ، فلا تضمن مثلاً أنْ تعيش لغد ، وإنْ عشتَ لا تضمن أن يعيش هو ، وإنْ عاش ربما يتغير فكرك ناحيته ، أو فقدتَ القدرة على تنفيذ ما تكلمت به كأنْ يصيبك مرض أو يلُم بك حدث .

لكن حينما يتكلم مَنْ يملك ازمّة الأمور كلها ، ويعلم سبحانه أنه لن يفلت أحد منه ، فحين يحكم ، فليس للزمن اعتبار في فعله ، لذلك لم يقل سبحانه : إن أجل الله سيأتي ، بل ﴿ لآتٍ . . . ﴾ [العنكبوت : 5] على وجه التحقيق .

وسبق أنْ ذكرنا في هذا الصدد قوله تعالى عن القيامة : ﴿ أتى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ﴾ [النحل : 1] وقد وقف السطحيون أمام هذه الآية يقولون : وهل يستجعل الإنسان إلا ما لم يَأْتِ بَعْد ؟ لأنهم لا يفهمون مراد الله ، وليست لديهم مَلَكة العربية ، فالله تعالى يحكم على المستقبل ، وكأنه ماضٍ أي مُحقّق ؛ لأنه تعالى لا يمنعه عن مراده مانع ، ولا يحول دونه حائل .

ولفظ الأجل جاء في القرآن في مواضع كثيرة ، منها : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] وفي الآية التي معنا : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ

الله لآتٍ . . . ﴾ [العنكبوت : 5] .

والأجلان مختلفان بالنسبة للحضور الحياتي للإنسان ، فالأجل الأول يُنهي الحياة الدنيا ، والأجل الآخر يُعيد الحياة في الآخرة للقاء الله عز وجل ، إذن : فالأجلان مرتبطان .

(142/594)

والحق – سبحانه وتعالى – حينما يعرض لنا قضية غيبية يُؤنسنا فيها بشيء حسيٍّ معلوم لنا ، حتى يستطيع العقل أن ينفذ من الحَسيِّ إلى الغيبي غير المشاهد . وأنت ترى أن أعمار بني آدم من هذه الحياة تتفاوت : فواحد تغيض به الأرحام ، فلا يخرج للحياة ، وواحد يتنفس زفيراً واحداً ويموت . . إلخ .

وفي كل لحظة من لحظات الزمن نعاين الموت ، مَنْ يموت بعد نفَس واحد ، ومَنْ يموت بعد المائة عام . إذن : فلا رتابة في انقضاء الأجل ، لا في سِنٍّ ولا في سبب : فهذا يموت بالمرض ، وهذا بالغرق ، وهذا يموت على فراشه .

لذلك يقول الشاعر :

فَلا تحسَبِ السُّقْم كأسَ الممات . . . وإنْ كانَ سُقْماً شَديد الأَثَر

فَرُبَّ عليلٍ تراهُ اسْتفاقَ . . . ورُبَّ سَليمٍ تَراهُ احتُضرْ

وقال آخر :

وَقَدْ ذَهَبَ الممتِلي صحةً . . . وصَحَّ السَّقِيمُ فَلَمْ يذْهب

وتجد السبب الجامع في الوباءات التي تعتري الناس ، فيموت واحد ويعيش آخر ، فليس في الموت رتابة ، والحق – سبحانه وتعالى – حينما يقول : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : 34] نجد واقع الحياة يؤكد هذا ، فلا وحدةَ في عمر ، ولا وحدةَ في سبب .

والصدق في الأجل الأول المشاهد لنا يدعونا إلى تصديق الأجل الآخر ، وأن أجل الله لآت ، فالأجل الذي أنهى الحياة بالاختلاف هو الذي يأتي بالحياة بالاتفاق ، فبنفخة واحدة سنقوم جميعاً أحياءً للحساب ، فإن اختلفنا في الأولى فسوف نتفق في الآخرة ؛ لأن الأرواح عند الله من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى تقوم الساعة ، وبنفخة واحدة يقوم الجميع .

(143/594)

وسبق أن قُلْنا : إن الأزمان ثلاثة : حاضر نشهده ، وماضٍ غائب عنا لا نعرف ما كان فيه ، ومستقبل لا نعرف ما يكون فيه . والحق سبحانه يعطي لنا في الوجود المشاهد دليلَ الصدق في غير المشاهد ، فنحن مثلاً لا نعرف كيف خلقنا الخَلْق الأول إلا من خلال ما

أخبرنا الله به أن أَصلْ الإنسان تراب اختلط بالماء حتى صار طيناً ، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار . . إلخ .

ثم جعل نسل الإنسان من نطفة تتحول إلى علقة ، ثم إلى مضغة ، ثم إلى عظام ، ثم تُكْسى العظام لحماً . وإنْ كان العلم الحديث أرانا النطفة والعلقة والمضغة ، وأرانا كيف يتكوَّن الجنين ، فيبقى الخَلْق الأول من تراب غيباً لا يعلمه أحد .

ولا تُصدّق من يقول : إني أعلمه ؛ لأن الله تعالى حذرنا من هؤلاء المضلين في قوله : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً ﴾ [الكهف : 51] .

فلا علمَ لهم بخَلْق الإنسان ، ولا علمَ لهم بخَلْق ظواهر الكون ، فلا تسمع لهم ، وخُذْ معلوماتك من كتاب ربك الذي خلق سبحانه ، ويقوم وجود المضلين الذين يقولون : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، أو أن الإنسان أصله قرد – يقوم وجودهم ، وتقوم نظرياتهم دليلاً على صدق الحق سبحانه فيما أخبر .

وإلا ، فكيف نُصدّق نظرية ترقّي القرد إلى الإنسان ؟ ولماذا ترقّى قرد (دارون) ولم تترقَّ باقي القرود ؟

وإذا كان المؤمن مُصدّقاً بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر : 29] لأنه آمن بالله ، وآمن بما جاء به رسول الله ، فكيف بمَنْ لا يؤمن ولا يُصدّق ؟ لذلك يُؤنِس الحق سبحانه هذه العقول المستشرفة لمعرفة حقائق الأشياء يُؤنِسها بما تشاهد : فإنْ كنتَ لا تُصدّق مسألة الخَلْق فأنت بلا شكٍّ تشاهد مسألة الموت وتعاينه كل يوم ، والموت نَقْضٌ للحياة ، ونَقْض الشيء يأتي عكْس بنائه .

والخالق – عز وجل – أخبر أن الروح هي آخر شيء في بناء الإنسان ، لذلك هي أول شيء يُنقَض فيه عند الموت ، إذن : مشهدك في كيف تموت ، يؤكد لك صِدْق الله في كيف جئت ؟

وأجل الآخرة أمر لا بُدَّ منه ليُثاب المطيع ويُعَاقب العاصي ، أَلَا ترى إلى النظم الاجتماعية حتى عند غير المؤمنين تأخذ بهذا المبدأ لاستقامة حركة الحياة ؟ فما بالك بمنهج الله تعالى في خَلْقه ، أيترك الظالم والمجرم يُفلِت من العقاب في الآخرة بعد أنْ أفلت من عقاب الدنيا ؟

وكنا نردُّ بهذا المنطق على الشيوعيين : لقد عاقبتُم مَنْ طالته أيديكم من المجرمين ، فكيف بمَنْ ماتوا ولم تعاقبوهم ، أليستِ الآخرةُ تحلّ لكم هذا المأزق ؟

ثم تُختَمَ الآية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [العنكبوت : 5] ألا ترى أنه تعالى لو قال : العليم فقط لشملَ المسموع أيضاً ؛ لأن العلم يحيط بكل المدركات ؟ فلماذا قال ﴿

السميع العليم ﴾ [العنكبوت : 5] ؟

قالوا : لأن اللغة العربية حينما تكلمتْ عن العمل والفعل والقول قسَّمت الجوارح أقساماً : فاللسان له القول ، وبقية الجوارح لها الفعل ، وهما جميعاً عمل ، فالقول عمل اللسان ، والفعل عمل بقية الجوارح ، فكأن اللسان أخذ شطر العمل ، وبقية الجوارح أخذت الشطر الآخر .

(145/594)

وباللسان معرفة إيمانك ، حين تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهي أشرف ما يعمل الإنسان ، وبه بلاغ الرسول عن الله لخَلْقه ، إذن : فأفعال الجوارح الشرعية ناشئة من اللسان ومن السماع ؛ لذلك جعل القول وهو عمل اللسان شطر العمل كله .

ولأهمية القول قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2] فكل فعل ناشيء عن انصياع لقول أو سماع لقول ؛ لذلك ختم سبحانه هذه الآية بقوله : ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [العنكبوت : 5] .

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)

وكلمة ﴿ جَاهَدَ . . . ﴾ [العنكبوت : 6] تناسب النجاح في الابتلاء ، والجهاد :

بذْل الجهد في إنفاذ المراد ، ومنه اجتهد فلان في كذا يعني : عمل أقصى ما في وُسْعه من الجدِّ والاجتهاد في أن يستنبط الحكم .

والجهاد له مجالان : مجال في النفس يجاهدها ليقْوَى بمجاهدة نفسه على مجاهدة عدوه .

وجاهد : مفاعلة ، كأن الشيء الذي تريده صعب ، يحتاج إلى جهد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشيء الذي يقابلك ، وأول ميادين الجهاد النفس البشرية ؛ لأن ربك خلق فيك غرائز وعواطف لمهمة تؤديها ، ثم يأتي منهج السماء ليكبح هذه الغرائز ويُرقِّيها ، حتى لا تنطق معها إلى ما لا يُباح .

فحب الاستطلاع مثلاً غريزة محمودة في البحث العلمي والاكتشافات النافعة ، أمّا إنْ تحوّل إلى تجسُّس وتتبع لعورات الناس فهو حرام ؛ الأكل والشرب غريزة لتقتات به ، وتتولد عندك القدرة على العمل ، فإنْ تحوَّل إلى نهم وشراهة فقد خرجت بالغريزة عن مرادها والهدف منها .

وعجيب أمر الناس في تناول الطعام ، فالسيارة مثلاً لا نعطيها خليطاً من الوقود ، إنما هو نوع واحد ، أما الإنسان فلا تكفيه عدة أصناف ، كل منها لها تفاعل في الجسم ، حينما تتجمع هذه التفاعلات تضر أكثر مما تنفع .

إذن : هذه الغرائز تحتاج منك إلى مجاهدة ؛ لتظل في حَدِّ الاعتدال ، عملاً بالأثر : " نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع ، ولا نشرب حتى نظمأ ، وإذا شربنا لا نقنع " .

ولو عملنا بهذا الحديث لَقضيْنا على القنبلة الذرية للاقتصاد في بلادنا ، وكم تحلو لك اللقمة بعد الجوع مهما كانت بسيطة وغير مكلِّفة ؛ لذلك يقولون : نعم الإدام الجوع ، ثم إذا أكلتَ لا تملأ المعدة ، ودع كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفَسه " .

وبهذا المنهج الغذائي الحكيم نضمن بنية سليمة وعافية لا يخالطها مرض .

فالغرائز خلقها الله فيك لمهمة ، فعليك أنْ تقف بها عند مهمتك . ومثل الغرائز العواطف من حب وكُرْه وشفقه وحُزْن . . إلخ ، وهذه ليس لها قانون إلا أنْ تقفَ بها عند حدود العاطفة لا تتعداها إلى النزوع ، فأحبب مَنْ شئتَ وأبغض مَنْ شئتَ ، لكن لا تتعدَّ ولا تُرتِّب على العاطفة حكماً .

وقد ذكرنا لهذه المسألة مثالاً بسيدنا عمر – رضي الله عنه – وكان له أخٌ اسمه زيد قُتل ، ثم أسلم قاتله ، فكان عمر كلما رآه يقول له : ازْوِ عني وجهك – يعني : أنا لا أحبك – فيقول : أو عدم حبك لي يمنعني حقاً من حقوقي ؟ قال : لا ، قال : إنما يبكي على الحب النساء .

يعني : الحب والكره مسائل يهتم بها النساء ، والمهم العمل ، وما يترتب على هذه العواطف

.

ومن المجاهدة مجاهدة مَنْ سُلِّط عليك من جبار أو نحوه ، تجاهده وتصبر على إيذائه ، فحبُّك للحق يجعلك تصبر عليه ، يقول تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : 31] .

(147/594)

كل هذه بلاءات تحتاج إلى مجاهدة ، فإنْ كان لك غريم فإنْ قدرت أن تدفع أذاه بالتي هي أحسن فافعل ، وإنْ أردت أنْ تعاقب فعاقب بالمثل ، وهذه مسألة صعبة ؛ لأنك لا تستطيع تقدير المثلية أو ضبطها ، بحيث لا تتعدى ، فمثلاً لو ضربك خصمك ضربة ، أتستطيع أنْ تردَّ عليه بمثلها دون زيادة ؟

إذن : فلا تُدخل نفسك في هذه المتاهة ، وأَوْلَى بك أنْ تأخذ بقوله تعالى ﴿ والعافين عَنِ الناس . . . ﴾ [آل عمران : 134] وتنتهي المسألة .

فإذا كانت المصيبة لا غريمَ لك فيها ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التي يُجريها الله عليك ، فقُلْ إن ربي أراد بي خيراً ، فبها تُكفّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أنني غفلت عن ربي أو غرَّتني النعمة ، فابتلاني الله ليلفتني إليه ويُذكِّرني به

.

ومن المجاهدة مجاهدة النفس في تلقِّي المنهج بافعل ولا تفعل ، والتكليف عادةً ما يكون شاقاً على النفس يحتاج إلى مجاهدة ، وإياك أنْ تنقلَ مدلول افعل في لا تفعل ، أو تنقل مدلول لا تفعل في افعل . وحين تستقصي (افعل ولا تفعل) في منهج الله تجده يأخذ نسبة سبعة بالمائة من حركاتك في الحياة ، والباقي مباحات ، لك الحرية تفعلها أو تتركها .

وقد يتعرض الإنسان المستقيم للاستهزاء والسخرية حتى مِمَّن هو على دينه ، لأن المنحرف دائماً يشعر بنقص فيتضاءل ويصغَر أمام نفسه ، ويحاول أن يجر الآخرين إلى نفس مستواه حتى يتساوى الجميع ، وإلا فكيف تكون أنت مهتدياً مستقيماً وهو عاصٍ ضالٌّ ؛ لذلك تراه يسخر منك ويُهوِّن من شأنك ، لماذا ؟ ليُزهِّدك في الطاعة ، فتصير مثله .

(148/594)

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 29-36] .

ولا شكَّ أن مثل هذا يحتاج منك إلى صبر على أذاه ، ومجاهدة للنفس حتى لا تقع في الفخِّ الذي ينصبه لك .

وقد تأتيك الوسوسة من الشيطان فيُزيِّن لك الشر ، ويُحبِّب إليك المعصية ، وعندها تذكر قول الله تعالى : ﴿ يا بني ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ . . . ﴾ [الأعراف : 27] .

فعليك – إذن – أن تتذكّر العداوة الأولى بين أبيك آدم وبين الشيطان لتكون منه على حذر ، وسبق أن أوضحنا كيف نفرق بين المعصية التي تأتي من النفس ، والتي تأتي من وسوسة الشيطان ، فالنفس تقف بك عند معصية بعينها لا تريد غيرها ، أما الشيطان فإنْ تأبيتَ عليه في ناحية نقلك إلى أخرى ، المهم عنده أنْ يُوقِعك على أي حال .

إذن : أعداؤك كثيرون ، يحتاجون منك إلى قوة إرادةَ وإلى مجاهدة .

ومجيء هذه الآية التي تذكر الجهاد بعد قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [العنكبوت : 5] يطلب من الإنسان الذي يعتقد أن أجلَ الله بلقاء الآخرة أتٍ ، وذلك أمر لا شكَّ فيه – يطلب منه أنْ يستعدَّ لهذا اللقاء .

(149/594)

وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [العنكبوت : 6] لأن الإنسان طرأ على كون مُهيأ لاستقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، فكل ما في الكون خادم لك ، ولن تزيد أنت في مُلْك الله شيئاً ، وكل سَعْيك وفكرك لترف حياتك أنت ، فحين تفعل الخير فلن يستفيدَ منه إلا أنت وربك غني عن عطائك .

فإنْ جاهدتَ فإنما تجاهد لنفسك ، كما لو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمتَ لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذي تعبتُ وعرقتُ لأوفر لك المال الذي تأخذه .

وكذلك الحق سبحانه يقول لنا ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ . . . ﴾ [العنكبوت : 6] أي : حينما يطبق المنهج ويسير على هُداه ، والحق سبحانه يؤكد هذه القضية في آيات عديدة ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : 46] .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا . . . ﴾ [الإسراء : 7] .

ويقول سبحانه : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . ﴾ [البقرة : 286] .

إذن : المسألة منك وإليك ، ولا دخلَ لنا فيها إلا حرْصنا على صلاح الخَلْق وسلامتهم ، كصاحب الصَّنْعة الذي يريد لصنعته أن تكون على خير وجه وأكمله ، لذلك أفيضُ عليه

من قدراتي قدرة ، ومن علمي علماً ، ومن بَسْطي بَسْطاً ، ومن جبروتي جبروتاً ، وأعطيه من صفاتي .

لذلك قال بعض العارفين : " تخلقوا بأخلاق الله " .

(150/594)

لأن العون في وهب الصفات ومجال الصفات في الفعل ليس في أنْ أفعل لك ، إنما في أنْ أُعينك لتفعل أنت ، فالواحد منا حينما يرى عاجزاً لا يستطيع حَمْل متاعه ، ماذا يفعل ؟ يحمله عنه ، أي : يُعدِّي إليه أثر قوته ، إنما يظل العاجز عاجزاً والضعيف ضعيفاً كلما أراد شيئاً احتاج لمن يقوم له به .

أما الحق – سبحانه وتعالى – فيفيض عليك من قوته ، ويهبُ لك من قدرته وغِنَاه لتفعل أنت بنفسك ؛ لذلك مَنْ يتخلق بأخلاق الله يقول : لا تعْطَ الفقير سمكة ، إنما علِّمه كيف يصطاد ، حتى لا يحتاج لك في كل الأوقات ، أَفِضْ عليه ما يُديم له الانتفاع به .

إذن : الحق سبحانه يهَبُ القادرين القدرةَ ، ويهَبُ الأغنياء الغِنَي ، والعلماء العلمَ والحكماءَ الحكمةَ . وهذه من مظاهر عظمته تعالى ألاَّ يُعدِّي أثر الصفة إلى عباده ، إنما يُعدِّي بعض الصفة إليهم ، لتكون ذاتية فيهم .

بل ويعطي سبحانه ما هو أكثر من ذلك ، يعطيك الإرادة التي تفعل بها لمجرد أن تفكر في الفعل ، بالله ماذا تفعل لكي تقوم من مكانك ؟ ماذا تفعل حينما تريد أنْ تحمل شيئاً أو تحرك عضواً من أعضائك ؟ هل أمرتك أمراً ؟ هل قلت لها افعلي كذا وكذا ؟

حين تنظر إلى (البلدوزر) مثلاً أو (الونش) كيف يتحرك ، وكيف أن لكل حركة فيه زراً يحركها وعمليات آلية معقدة ، تأمل في نفسك حين تريد أن تقوم مثلاً بمجرد أن تفكر في القيام ، تجد نفسك قائماً ، مرادك أنت في الأعضاء أن تفعل وتنفعل لك .

إذن ، حينما يقول لك ربك : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] فصدّقه ؛ لأنك شاهدتها في نفسك وفي أعضائك ، فما بالك بربك – عز وجل – أيعجز أن يفعل ما تفعله أنت ؟ ماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تنام أو تبطش بيدك ؟

(151/594)

لا شيء غير الإرادة في داخلك ؛ لأن ربك خلع عليك من قدرته ، وأعطاك شيئاً من قوله (كُنْ) وقدرة من قدرته ، لكن لم يشأ أنْ يجعلها ذاتية فيك حتى لا تغترّ بها .

لذلك إنْ أراد سبحانه سَلبَها منك لقوله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7] فتأتي لتحرك ذراعك مثلاً فلا يطاوعك ، لقد شُلَّ ويأبى

عليك بعد أنْ كان طَوْع إرادتك ، ذلك لتعلم أنه هِبَة من الله ، إنْ شاء أخذها فهي ليست ذاتية فيك .

فالمجاهدة تشمل ميادين عديدة ، مجاهدة الغرائز والعواطف ، ومجاهدة مشقة المنهج في افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أنْ يُطفئوا نور الله .

وروى البخاري " أن خباب بن الأرتّ دخل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إننا في شدة ، ألاَ تستنصر لنا ؟ ألاَ تدعو لنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنه كان الرجل فيمن قبلكم تُحفر له الحفرة ، فيُوضع فيها ، ثم يُؤتَى بالمنشار فيُقَدُّ نصفين ، ثم يُمشَطُ لحمه عن عظمه بأمشاط الحديد ، فلا يصرفه ذلك عن دين الله " .

ثم يطمئنه رسول الله على أن هذه الفترة – فترة الابتلاء – لن تطول ، فيقول : " والله لَيتِمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئبَ على غنمه " .

والنبي صلى الله عليه وسلم وهو خاتم النبيين ، " يدخل عليه سيدنا أبو سعيد الخدري فيجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكي حرارة الحمى ، فوضع يده على اللحاف الذي يلتحف به سيدنا رسول الله ، فيُحِسّ حرارته من تحت اللحاف ، فقال له : يا رسول

الله ، إنها لشديدة عليك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " يا أبا سعيد ، إنه يُضعَّف لنا البلاء كما يُضعَّف لنا الجزاء " .

(152/594)

ذلك ليثبت أن البلاء لا يكون فقط من الأعداء ، إنما قد يكون من الله تعالى ، لماذا ؟ لأن الله يباهي ملائكته بخَلْقه الطائعين المخبتين الصابرين ، فيقولون : كيف لا يحبونك ويقبلون على طاعتك ، وقد أنعمتَ عليهم بكذا وكذا ، ويذكرون حيثيات هذه الطاعة ، فيقول تعالى : وأسلب كل ذلك منهم ويحبونني ، أي : يحبونني لذاتي .

ثم تختم هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين ﴾ [العنكبوت : 6] لأن ميادين الجهاد هذه لا يعود منها شيء إلى الله تعالى ، ولا تزيد في مُلكه شيئاً ، إنما يستفيد منها العبد ؛ لأنه سبحانه الغني عن طاعة الطائعين وعبادة المتعبدين ، ليس غنياً عنهم وفقط ، إنما هو سبحانه الذي يُغنيهم ويُفيض عليهم من فَضْله ومن غِناه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ .

يذكر لنا – سبحانه وتعالى – النتائج ﴿ والذين آمَنُواْ . . . ﴾ [العنكبوت : 7] أي : بالله رباً ، له كل صفات الكمال المطلق ، وله طلاقة القدرة ، وله طلاقة الإرادة ، وهو

المهيمن ، وهو الحاكم . . إلخ .

ثم ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [العنكبوت : 7] لأن العمل الصالح نتيجة للإيمان ، وثمرة من ثمراته ، والصالح : هو الشيء يظلُّ على طريقة الحُسْن فيه فلا يتغير ، فقد أقبلت على عالم خلقه الله لك على هيئة الصلاح فلا تفسده ، وهذا أضعف الإيمان أنْ تُبقِي الصالح على صلاحه ، فإن أردتَ الارتقاء ، فزِدْه صلاحاً .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة : 11] .

(153/594)

فقد أعدَّ الله لنا الأرض صالحة بكل نواميسها وقوانينها ، أَلاَ ترى المناطق التي لا ينزل بها المطر يُعوِّضها الله عنه بالمياه الجوفية في باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع في الأرض ، ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب في باطن الأرض حتى لا تُبخِّره الشمس ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : 30] .

وضربنا مثلاً لترك الصالح على صلاحه ببئر الماء الذي يشرب منه أهل الصحراء ، فقد

نرمي فيه القاذورات التي تُفسد ماءه ، وقد نرى مَنْ يُهيل فيه التراب فيطمسه ، وهذا كله من إفساد الصالح ، وربما يأتي مَنْ يبني حوله سوراً يحميه ، أو يجعل عليه آلة رَفْع ترفع الماء وتُريح الناس الذين يردونه ، فإذا لم تكُنْ من هؤلاء فلا أقلَّ من أن تدعه على حاله .

فالصالح إذن : كل عمل وفكر يزيد صلاحَ المجتمع في حركات الحياة كلها ، وإياك أن تقول إن هناك عملاً أشرف من عمل ، فكل عمل مهما رأيته هيّناً – ما دام يؤدي خدمة للمجتمع ، ويُقدِّم الخير للناس فهو عمل شريف ، فقيمة الأعمال هي قيمة العامل الذي يُحسِنها وينفع الناس بها ، يعني : ليس هناك عمل أفضل من عمل ، إنما هنَاك عامل أفضل من عامل ؛ لذلك يقولون : قيمة كل امريء مَا يُحسِنه .

وسبق أن ضربتُ لذلك مثلاً ، وما أزال أضربه ، مع أنه من أُناس غير مسلمين : كان نقيب العمال في فرنسا يطالب بحقوق العمال ويدافع عنهم ويُوفِّر لهم المزايا ، فلما تولى الوزارة قالوا له : أعطنا الآن الحقوق التي كنتَ تطالب بها لنا ، وربما كان يطالب لعماله بما تضيق به إمكانات وميزانيات الوزارة ، أما الآن فقد أصبح هو وزيراً ، وفي إحدى المرات تطاول عليه أحد العمال وقال : لا تنْسَ أنك كنت في يوم من الأيام ماسحَ أحذية ، فقال : نعم ، لكنني كنت أتقنها .

ثم يذكر الحق سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 7] وهنا تتجلى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات .

لأن التخلية قبل التحلية ، والقاعدة تقول : إن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، فهَبْ أن واحداً يريد أنْ يرميك مثلاً بحجر ، وآخر يريد أنْ يرمي لك تفاحة ، فأيهما تستقبل أولاً ؟ لا شكَّ أنك ستدفع أذى الحجر عن نفسك أولاً .

والخالق – عز وجل – يعلم طبيعة عباده وما يحدث منهم من غفلة وانصراف عن المنهج يُوقِعهم في المعصية ، وما دام أن الشرع يُعرِّف لنا الجرائم ويُقنِّن العقوبة عليها ، فهذا إذنٌ منه بأنها ستحدث .

لذلك يقول تعالى لعباده : اطمئنوا ، فسوف أطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، ذلك لأن الإنسان بطبعه أميل إلى السيئة منه إلى الحسنة ، فيقول سبحانه : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . . . ﴾ [العنكبوت : 7] .

بل وأكثر من ذلك ، ففي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [الفرقان : 70] فأيُّ كرم بعد أنْ يُبدِّل الله السيئة حسنةً ، فلا يقف الأمر عند مجرد تكفيرها ، فكأنه (

أوكازيون) للمغفرة ، ما عليك إلا أنْ تغتنمه .

وفي موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات . . . ﴾ [هود : 114] وفي الحديث الشريف : " . . وأتبع السيئة الحسنة تمحها " .

ثم يذكر سبحانه الحسنة بعد ذلك : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : 7] قلنا : إن الحق سبحانه إذا أراد أنْ يعطي الفقير يقترض له من إخوانه الأغنياء ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً . . . ﴾ [البقرة : 245] .

(155/594)

مع أنه سبحانه واهب كل النعم يحترم ملكية عباده ، ويحترم مجهوداتهم وعرقهم ، فاحترم العمل واحترم ثمرة العمل ، كما يعامل الوالد أولاده ، فيأخذ من الغني لمساعدة الفقير على أنْ يعيد إليه ماله حين مَيْسرة ، فكما أنك لا ترجع في هبتك ، كذلك ربُّك – عز وجل – لا يرجع في هبته .

وأذكر ونحن في أمريكا سألنا أحد المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قول القرآن : ﴿ مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . . ﴾ [الأنعام : 160] وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم : " مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر " .

فشاء الله أن يلهم بكلمتين للردّ عليه ، حتى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيل . فقلت للمترجم : نعم الحسنة بعشر أمثالها حين تتصدّق ، لكن في القرض مثلاً لو تصدّق بدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأن لك تسعة دولارات ، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(156/594)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَن كَانَ ﴾ :

يجوز أَنْ تكونَ شرطيةً ، وأَنْ تكونَ موصولةً ، والفاءُ : لشَبَهِها بالشرطيةِ . والظاهرُ أَنَّ هذا ليس بجوابٍ ؛ لأنَّ أجلَ اللَّهِ آتٍ لا مَحالةَ من غيرِ تقييدٍ بشرطٍ ، بل الجوابُ محذوفٌ أي : فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً ، ولا يُشْرِكْ بعبادةِ ربِّه أحداً ، كما قد صَرَّح به .

قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ مرفوعاً بالابتداءِ ، والخبرُ جملةُ القسمِ المحذوفةُ وجوابُها ، أي : واللَّهِ لَنُكَفِّرَنَّ . ويجوز أَنْ يكونَ منصوباً بفعلٍ مضمرٍ على الاشتغال أي :

ولَيُخَلِّصَنَّ الذين آمنُوا مِنْ سيئاتهم .

قوله : ﴿ أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ قيل : على حَذْفِ مضافٍ أي : ثوابَ أحسنِ . والمرادُ ب " أَحْسَن " هنا مجردُ الوصفِ . قيل : لئلا يَلْزَمَ أَنْ يكونَ جزاؤُهم بالحُسْن مسكوتاً عنه . وهذا ليس بشيءٍ ؛ لأنه من بابِ الأَوْلى إذا جازاهم بالأحسنِ جازاهم بما دَوْنَه فهو من التنبيهِ على الأَدْنى بالأعلى . قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ ﴾ : يجوز فيه الرفعُ على الابتداء ، والنصبُ على الاشتغالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 9 . 10 ﴾

(157/594)

فصل فى منزلة الشوق

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة الشوق

قال الله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾

قيل هذا تعزية للمشتاقين وتسلية لهم أي انا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إلي فقد أجلت له أجلا يكون عن قريب فإنه آت لا محالة وكل آت قريب .

وفيه لطيفة أخرى وهي تعليل المشتاقين برجاء اللقاء

لولا التعلل بالرجاء لقطعت . . . نفس المحب صبابة وتشوقا

ولقد يكاد يذوب منه قلبه . . . مما يقاسي حسرة وتحرقا

حتى إذا روح الرجاء أصابه . . . سكن الحريق إذا تعلل باللقا

وقد كان النبي صلى اله عليه وسلم يقول في دعائه أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك قال بعضهم كان النبي صلى اله عليه وسلم دائم الشوق إلى لقاء الله لم يسكن شوقه إلى لقائه قط ولكن الشوق مائة جزء تسعة وتسعون له وجزء مقسوم على الأمة فأراد أن يكون ذلك الجزء مضافا إلى ماله من الشوق الذي يختص به والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل والشوق أثر من آثار المحبة وحكم من أحكامها فإنه سفر القلب إلى .

المحبوب في كل حال وقيل هو اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب وقيل هو احتراق الأحشاء ومنها يتهيج ويتولد ويلهب القلوب ويقطع الأكباد والمحبة أعلى منه لأن الشوق عنها يتولد وعلى قدرها يقوى ويضعف قال يحيى بن معاذ علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات وقال أبو عثمان علامته حب الموت مع الراحة والعافية كحال يوسف لما ألقي في الجب لم يقل توفني ولما أدخل السجن لم يقل توفني ولما تم له الأمر والأمن والنعمة قال توفني مسلما قال ابن خفيف الشوق ارتياح القلوب بالوجد ومحبة اللقاء بالقرب .

وقيل هو لهب ينشأ بين أثناء الحشى يسنح عن الفرقة فإذا وقع اللقاء طفىء قلت هذه مسألة نزاع بين المحبين وهي أن الشوق هل يزول باللقاء أم لا ولا يختلفون أن المحبة لا تزول باللقاء فمنهم من قال يزول باللقاء لأن الشوق هو سفر القلب إلى محبوبه فإذا قدم عليه ووصل إليه صار مكان الشوق قرة عينه به وهذه القرة تجامع المحبة ولا تنافيها قال هؤلاء وإذا كان الغالب على القلب مشاهدة المحبوب لم يطرقه الشوق وقيل لبعضهم هل تشتاق إليه فقال لا إنما الشوق إلى غائب وهو حاضر وقالت طائفة بل يزيد الشوق بالقرب والوصول ولا يزول لأنه كان قبل الوصول على الخبر والعلم وبعده قد صار على العيان والشهود ولهذا قيل

وأبرح ما يكون الشوق يوما . . . إذا دنت الخيام من الخيام

قال الجنيد سمعت السري يقول الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه وإذا تحقق في الشوق لها عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه وعلى هذا فأهل الجنة دائما في شوق إلى الله مع قربهم منه ورؤيتهم له قالوا ومن الدليل على أن الشوق يكون حال اللقاء أعظم أنا نرى المحب يبكي عند لقاء محبوبه وذلك البكاء إنما هو من شدة شوقه إليه ووجده به ولذلك يجد عند لقائه نوعا من الشوق لم يجده في حال غيبته عنه .

فصل النزاع في هذه المسألة أن الشوق يراد به حركة القلب واهتياجه .

للقاء المحبوب فهذا يزول باللقاء ولكن يعقبه شوق آخر أعظم منه تثيره حلاوة الوصل ومشاهدة جمال المحبوب فهذا يزيد باللقاء والقرب ولا يزول والعبارة عن هذا وجوده والإشارة إليه حصوله .

وبعضهم سمى النوع الأول شوقا والثاني اشتياقا قال القشيري سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يفرق بين الشوق والاشتياق ويقول الشوق يسكن باللقاء والاشتياق لا يزول باللقاء قال وفي معناه أنشدوا

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته . . . حتى يعود إليه الطرف مشتاقا

(159/594)

وقال النصراباذي للخلق كلهم مقام الشوق وليس لهم مقام الاشتياق ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له فيه أثر ولا قرار قال الدقاق في قول موسى ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ قال معناه شوقا إليك فستره بلفظ الرضى وقيل إن أهل الشوق إلى لقاء الله يتحسون حلاوة القرب عند وروده لما قد كشف لهم من روح الوصول أحلى من الشهد فهم في سكراته في أعظم لذة وحلاوة وقيل من اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء كما قال بعضهم أنا أدخل في الشوق والأشياء تشتاق إلي وأتأخر عن جميعها وفي مثل هذا

قيل

إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت . . . عن الماء فاشتاقت إليها المناهل

وكانت عجوز مغيبة فقدم غائبها من السفر ففرح به أهله وأقاربه وقعدت هي تبكي فقيل لها ما يبكيك فقال ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله عز وجل

يا من شكا شوقه من طول فرقته . . . اصبر لعلك تلقى من تحب غدا

وقيل خرج داود عليه السلام يوما إلى الصحراء منفردا فأوحى الله تعالى إليه ما لي أراك منفردا فقال إلهي استأثر شوقي إلى لقائك على قلبي فحال بيني وبين صحبة الخلق فقال ارجع إليهم فإنك إن أتيتني بعبد آبق أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذا .

فصل قال صاحب المنازل رحمه الله الشوق هبوب القلب إلى غائب وفي .

(160/594)

مذهب هذه الطائفة علة الشوق عظيمة فإن الشوق إنما يكون إلى الغائب ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة ولهذه العلة لم ينطق القرآن باسمه قلت هو صدر الباب بقوله تعالى ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾ فكأنه جعل الرجاء شوقا بلسان الاعتبار لا بلسان التفسير أو أن دلالة الرجاء على الشوق باللزوم لا بالتضمن ولا بالمطابقة

قوله هبوب القلب إلى غائب يعني سفره إليه وهويه إليه وأما العلة التي ذكرها في الشوق فقد تقدم أن من الناس من جعل الشوق في حال اللقاء أكمل منه في حال المغيب فعلى قول هؤلاء لا علة فيه وأما من جعله سفر القلب إلى المحبوب في حال غيبته عنه فعلى قوله يجيء كلام المصنف ووجهه مفهوم وقوله فإن مذهب هذه الطائفة الذي هو الفناء يريد أن الفناء إنما قام على المشاهدة فإن بدايته كما قرره هو المحبة التي في نهاية مقامات المريدين والفناء إنما يكون مع المشاهدة ومع المشاهدة لا عمل للشوق فيقال هذا باطل من وجوه أحدها أن المشاهدة لا تزيل الشوق بل تزيده كما تقدم الثاني أنه لا مشاهدة أكمل من مشاهدة أهل الجنة وهم إلى يوم المزيد وهو يوم الجمعة أشوق شيء كما في الحديث وكذلك هم أشوق شيء إلى رؤية ربهم وسماع كلامه تعالى وهم في الجنة فإن هذا إنما يحصل لهم في حال دون حال كما في حديث ابن عمر المسند وغيره إن أعلى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى وجه ربه كل يوم مرتين .

(161/594)

ومعلوم قطعا أن شوق هذا إلى الرؤية قبل حصولها أعظم شوق يقدر وحصول المشاهدة لأهل الجنة أتم منها لأهل الدنيا الثالث أنه لا سبيل في الدنيا إلى مشاهدة تزيل الشوق البتة

ومن ادعى هذا فقد كذب وافترى فإنه لم يحصل هذا لموسى بن عمران كليم الرحمن عز وجل فضلا عمن دونه فما هذه المشاهدة التي مبنى مذهب هذه الطائفة عليها بحيث لا يكون معها شوق أهي كمال المشاهدة عيانا وجهرة سبحانك هذا بهتان عظيم أم نوع من مشاهدة القلب لمعروفه مع اقترانها بالحجب الكثيرة التي لا يحصيها إلا الله فهل تمنع هذه المشاهدة الشوق إلى كمالها وتمامها وهل الأمر إلا بالعكس في العقل والفطرة والحقيقة لأن من شاهد محبوبه من بعض الوجوه كان شوقه إلى كمال مشاهدته أشد وأعظم وتكون تلك المشاهدة الجزئية سببا لاشتياقه إلى كمالها وتمامها فأين العلة في الشوق وأين المشاهدة المانعة من الشوق وهذا بحمد الله ظاهر ومن نازع فيه كان مكابرا والله أعلم .

فصل قال وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى شوق العابد إلى الجنة .

ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل يعني شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث أحدها حصول الأمن الباعث على الأمل فإن الخوف المجرد عن الأمن من كل وجه لا ينبعث صاحبه لعمل البتة إن لم يقارنه أمل فإن تجرد عنه قطع وصار قنوطا الثاني فرح الحزين فإن الحزن المجرد أيضا إن لم يقترن به الفرح قتل .

صاحبه فلولا روح الفرح لتعطلت قوى الحزين وقعد حزنه به ولكن إذا قعد به الحزن قام به روح الفرح الثالث روح الظفر فإن الآمل إن لم يصحبه روح الظفر مات أمله والله أعلم .

فصل قال الدرجة الثانية شوق إلى الله عز وجل زرعه الحب الذي ينبت .

على حافات المنن فعلق قلبه بصفاته المقدسة فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وأعلام فضله وهذا شوق تغشاه المبار وتخالجه المسار ويقاومه الاصطبار الشوق إلى الله لا ينافي الشوق إلى الجنة فإن أطيب ما في الجنة قربه تعالى ورؤيته وسماع كلامه ورضاه نعم الشوق إلى مجرد الأكل والشرب والحور العين في الجنة ناقص جدا بالنسبة إلى شوق المحبين إلى الله تعالى بل لا نسبة له إليه البتة وهذا الشوق درجتان إحداهما شوق زرعه الحب الذي سببه الإحسان والمنة وهو الذي قال فيه ينبت على حافات المنن فسببه مطالعة منة الله وإحسانه ونعمه وقد تقدم بيان ذلك في منزلة المحبة وتبين أن محبة الأسماء والصفات أكمل وأقوى من محبة الإحسان والآلاء وفي قوله تنبت على حافات المنن أي جوانبه إشارة إلى عدم تمكنها وقوتها وأنها من نبات الحافات التي هي جوانب المنن لا من نبات الأسماء والصفات وقوله فعلق قلبه بصفاته المقدسة يعني الصفات المختصة بالمنن والإحسان كالبر والمنان والمحسن والجواد والمعطي والغفور ونحوها .

وقوله المقدسة يعني المطهرة المنزهة عن تأويل المحرفين وتشبيه الممثلين وتعطل المعطلين وإنما قلنا إن مراده هذه الصفات الخاصة لوجهين أحدهما أن تعلق القلب بالصفات العامة إنما

يكون في الدرجة الثالثة الثاني أنه جعل ثمرة هذا التعلق شوق العبد إلى معاينة لطائف كرم الرب ومننه وإحسانه وآيات بره وهي علامات بره بالعبد وإحسانه إليه وكذلك أعلام فضله وهو ما يفضل عليه به ويفضله به على غيره قوله وهذا شوق تغشاه المبار يعني أنه شوق معلول ليس خالصا لذات المحبوب بل لما ينال منه من المبار فقد غشيته أي أدركته المبار قوله وتخالجه المسار أي تجاذبه فإن المخالجة هي المجاذبة فإذا خالط هذا الشوق الفرح كان ممزوجا بنوع من الحظ وقوله ويقاومه الاصطبار أي أن صاحبه يقوى على الصبر فيقاوم صبره شوقه ولا يغلبه بخلاف الشوق في الدرجة الثالثة .

(163/594)

فصل قال الدرجة الثالثة نار أضرمها صفو المحبة فنغصت العيش وسلبت .

السلوة ولم ينهنهها معزى دون اللقاء يريد أن الشوق في هذه المرتبة شبيه بالنار التي أضرمها صفو المحبة وهو خالصها وشبهه بالنار لالتهابه في الأحشاء وفي قوله صفو المحبة إشارة إلى أنها محبة لم تكن لأجل المنة والنعم ولكن محبة متعلقة بالذات والصفات قوله فنغصت العيش أي منعت صاحبها السكون إلى لذيذ العيش والتنغيص قريب من التكدير قوله وسلبت السلوة أي نهبت السلو وأخذته قهرا .

والسلوة هي الخلاص من كرب المحبة وإلقاء حملها عن الظهر والإعراض عن المحبوب تناسيا وقوله لم ينهنهها معزى دون اللقاء أي لم يكفها ويردها قرار دون لقاء المحبوب وهذه لا يقاومها الاصطبار لأنه لا يكفها دون لقاء من يحب قرار .

فصل وقد يقوى هذا الشوق ويتجرد عن الصبر فيسمى قلقا وبذلك سماه .

(164/594)

صاحب المنازل واستشهد عليه بقوله تعالى حاكيا عن كليمه موسى عليه السلام وعجلت إليك ربي لترضى فكأنه فهم أن عجلته إنما حمله عليها القلق وهو تجريد الشوق للقائه وميعاده وظاهر الآية أن الحامل لموسى على العجلة هو طلب رضى ربه وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره والعجلة إليها ولهذا احتج السلف بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك قال إن رضى الرب في العجلة إلى أوامره ثم حده صاحب المنازل بأنه تجريد الشوق بإسقاط الصبر أي تخلصه من كل شائبة بحيث يسقط معه الصبر فإن قارنه اصطبار فهو شوق ثم قال وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى قلق يضيق الخلق ويبغض الخلق ويلذ ذ الموت يعني يضيق خلق صاحبه عن احتمال الأغيار فلا يبقى فيه اتساع لحملهم فضلا عن تقييدهم له وتعوقه بأنفاسهم ويبغض

الخلق يعني لا شيء أبغض إلى صاحبه من اجتماعه بالخلق لما في ذلك من التنافر بين حاله وبين خلطتهم وحدثني بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال كان في بداية أمره يخرج أحيانا إلى الصحراء يخلو عن الناس لقوة ما يرد عليه فتبعته يوما .

فلما أصحر تنفس الصعداء ثم جعل يتمثل بقول الشاعر وهو لمجنون ليلى من قصيدته الطويلة

وأخرج من بين البيوت لعلني

أحدث عنك النفس بالسر

خاليا وصاحب هذه الحال إن لم يرده الله سبحانه إلى الخلق بتثبيت وقوة وإلا فإنه لا صبر له على مخالطتهم قوله ويلذ الموت فإن صاحبه يرجو فيه لقاء محبوبه فإذا ذكر الموت التذ به كما يلتذ المسافر بتذكر قدومه على أهله وأحبابه .

فصل قال الدرجة الثانية قلق يغالب العقل ويخلي السمع ويطاول الطاقة .

(165/594)

أي يكاد يقهر العقل ويغلبه فهو والعقل تارة وتارة ولكن لما لم يصل إلى درجة الشهود لم يصطلمه فإن العقل لا يصطلمه إلا الشهود ولذلك قال يغالب ولم يقل يغلب وأما إخلاؤه

السمع فهو يتضمن إخاءه من شيء وإخلاءه لشيء فيخليه من استماعه ذكر الغير ويخليه لاستماعه أوصاف المحبوب وذكره وحديثه وقد يقوى إلى أن يبعد بين قلب صاحبه وبين إدراك الحواس لانقهار الحس لسلطان القلق قوله ويطاول الطاقة يعني يصابرها ويقاومها فلا تقدر طاقة الاصطبار على دفعه ورده والله أعلم .

فصل قال الدرجة الثالثة قلق لا يرحم أبدا ولا يقبل أمدا ولا يبقى .

أحدا يريد أن هذا القلق له القهر والغلبة لأنه ربما كان عن شهود فإذا علق بالقلب لم يبق عليه حتى يلقيه في فناء الشهود .

ولا يقبل أمدا أي لا يقبل حدا ومقدارا يقف عنده وينقضي به كما ينقضي ذو الأمد فإنه حاكم غير محكوم عليه مالك للقلب غير مملوك له ولا يبقى أحدا أي يلقى صاحبه في الشهود الذي تفنى فيه الرسوم وتضمحل فلا يبقى معه على أحد رسمه حتى يفنيه والله أعلم .

فصل ثم يقوى هذا القلق ويتزايد حتى يورث القلب حالة شبيهة بشدة ظمأ .

(166/594)

الصادي الحران إلى الماء وهذه الحالة هي التي يسميها صاحب المنازل العطش واستشهد عليه بقوله تعالى عن الخليل ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ كأنه أخذ

من إشارة الآية أنه لشدة عطشه إلى لقاء محبوبه لما رأى الكوكب قال هذا ربي فإن العطشان إذا رأى السراب ذكر به الماء فاشتد عطشه إليه وهذا ليس معنى الآية قطعا وإنما القوم مولعون بالإشارات وإلا فالآية قد قيل إنها على تقدير الاستفهام أي أهذا ربي وليس بشيء وقيل إنها على وجه إقامة الحجة على قومه فتصور بصورة الموافق ليكون أدعى إلى القبول ثم توسل بصورة الموافقة إلى إعلامهم بأنه لا يجوز أن يكون المعبود ناقصا آفلا فإن المعبود الحق لا يجوز أن يغيب عن عابديه وخلقه ويأفل عنهم فإن ذلك مناف لربوبيته لهم أو أنه انتقل من مراتب الاستدلال على المعبود حتى أوصله الدليل إلى الذي فطر السماوات والأرض فوجه إليه وجهه حنيفا موحدا مقبلا عليه معرضا عما سواه والله سبحانه أعلم .

فصل قال العطش كناية عن غلبة ولوع بمأمول الولوع بالشيء هو .

(167/594)

التعلق به بصفة المحبة مع أمل الوصول إليه وقيل في حد الولوع إنه كثرة ترداد القلب إلى الشيء المحبوب كما يقال فلان مولع بكذا وقد أولع به وقيل هو لزوم القلب للشيء فكأنه مثل أغرى به فهو مغرى قال وهو على ثلاث درجات الأولى عطش المريد إلى شاهد يرويه أو

إشارة تشفيه أو عطفة تؤويه ولما كان المريد من أهل طلب الشواهد على الاعتبار ومثير العزمات وتعلق العباد بالأعمال وقوله شاهد يرويه يحتمل أنه من الرواية أي يرويه عمن أقامه له فيكون ذلك إشارة إلى شواهد العلم فهو شديد العطش إلى شواهد يرويها عن الصادقين من أهل السلوك يزداد بها تثبيتا وقوة بصيرة فإن المريد إذا تجددت له حالة أو حصل له وارد استوحش من تفرده بها فإذا قام عنده بمثلها شاهد حال لمريد آخر صادق قد سبقه إليها استأنس بها أعظم استئناس واستدل بشاهد ذلك المريد على صحة شاهده فلذلك يشتد عطشه إلى شاهد يرويه عن الصادقين ويحتمل أنه من الري فيكون مضموم الياء يعني إذا حصل له الري بذلك الشاهد ونزل على قلبه منزلة الماء البارد من الظمآن فقرر عنده صحته وأنه شاهد حق ويرجح هذا ذكر الري مع العطش ويرجح الأول ذكره لفظة الري في قوله أو عطفة ترويه والأمر قريب .

قوله أو إشارة تشفيه أي تشفي قلبه من علة عارضة فإذا وردت عليه الإشارة إما من صادق مثله أو من عالم أو من شيخ مسلك أو من آية فهمها أو عبرة ظفر بها اشتفى بها قلبه وهذا معلوم عند من له ذوق قوله أو إلى عطفة ترويه أي عطفة من جانب محبوبه عليه تروي لهيب عطشه وتبرده ولا شيء أروى لقلب المحب من عطف محبوبه عليه ولا شيء أشد للهيبه وحريقه من إعراض محبوبه عنه ولهذا كان عذاب أهل النار باحتجاب ربهم عنهم أشد عليهم مما هم فيه من العذاب الجسماني كما أن نعيم أهل الجنة برؤيته تعالى وسماع

خطابه ورضاه وإقباله أعظم من نعيمهم الجسماني .

فصل قال الدرجة الثانية عطش السالك إلى أجل يطويه ويوم يريه ما .

(168/594)

يغنيه ومنزل يستريح فيه إما أن يريد بالأجل الذي يطويه انقضاء مدة سجن القلب والروح في البدن حتى تصل إلى ربها وتلقاه وهذا هو الظاهر من كلامه وأما أن يريد به عطشه إلى مقصود السلوك من وصوله إلى محبوبه وقرة عينه وجمعيته عليه فهو يطوي مراحل سيره حثيثا ليصل إلى هذا المقصود وحينئذ يعود إليه سير آخر وراء هذا السير مع عدم مفارقته له فإنه إنما وصل به إليه فلو فارقه لانقطع انقطاعا كليا ولكن يبقى له سير وهو مستلق على ظهره يسبق به السعاة ويرجح هذا المعنى الثاني أن المريد الصادق لا يحب الخروج من الدنيا حتى يقضى نحبه لعلمه أنه لا سبيل إلى انقضائه في غير هذه الدار فإذا علم أنه قد .

قضى نحبه أحب حينئذ الخروج منها ولكن لا يقضي نحبه حتى يوفى ما عليه والناس ثلاثة موف قد قضى نحبه ومنتظر للوفاء ساع فيه حريص عليه ومفرط في وفاء ما عليه من الحقوق والله المستعان قوله ويوم يريه ما يغنيه أي يوم يرى فيه ما يغني قلبه ويسد فاقته من قرة عينه بمطلوبه ومراده قوله ومنزل يستريح فيه أي منزل من منازل السير ومقام من مقامات

الصادقين يستريح فيه قلبه ويسكن فيه ويخلص من تلون الأحوال عليه فإن المقامات منازل والأحوال مراحل فصاحب الحال شديد العطش إلى مقام يستقر فيه وينزله .

فصل قال الدرجة الثالثة عطش المحب إلى جلوة ما دونها سحاب علة ولا .

يغطيها حجاب تفرقة ولا يعرج دونها على انتظار عطش المحب فوق عطش المريد والسالك وإن كان كل محب سالكا وكل مريد سالكا وكل سالك ومريد محب لكن خص المحب بهذا الاسم لتمكنه من المحبة ورسوخ قلبه فيها والمريد والسالك يشمران إلى علمه الذي رفع له ووصل إليه ولذلك جعل الأولى لأهل البدايات والثانية للمتوسطين والثالثة لأهل النهايات وقوله عطش المحب إلى جلوة ما دونها سحاب يريد بالجلوة استجلاء القلب لصفات المحبوب ومحاسنه وانكشافها له .

(169/594)

وقوله ما دونها سحاب أي لا يسترها شيء من سحب النفس وهي سحب العلل التي هي بقايا في العبد تحول بينه وبين استجلائه صفات محبوبه وتعوقه عنه فمهما بقي في العبد بقية من نفسه فهي سحاب وغيم ساتر على قدره فكثيف ورقيق وبين بين قوله ولا يغطيها حجاب الحجاب في لسان الطائفة النفس وصفاتها وأحكامها وهم مجمعون على أن النفس

من أعظم الحجب بل هي الحجاب الأكبر فإن حجاب الرب سبحانه عن ذاته هو النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه وحجابه من عبده هو نفسه وظلمته فلو كشف عنه هذا الحجاب لوصل إلى ربه والوصول عند القوم عبارة عن ارتفاع هذا الحجاب وزواله فالحجاب الذي يشتد على المحب ويشتد عطشه إلى زواله هو حجاب الظلمة والنفس وهو الحجاب الذي بينه وبين الله وأما الحجاب الذي بين الله وبين خلقه وهو حجاب النور فلا سبيل إلى كشفه في هذا العالم البتة ولا يطمع في ذلك بشر ولم يكلم الله بشرا إلا من وراء حجاب وهذا الحجاب كاشف للعبد موصل له إلى مقام الإحسان الذي يعبر عنه القوم بمقام المشاهدة والأول ساتر للعبد قاطع له حائل بينه وبين الإحسان وحقيقة الإيمان والتفرقة كلها عندهم حجب إلا تفرقة في الله وبالله ولله فإنها لا تحجب العبد عنه بل توصله إليه فلذلك قال ولا يغطيها حجاب تفرقة فإن التفرقة إنما تكون حجابا إذا كانت بالنفس ولها قوله ولا يعرج دونها على انتظار يعني لا يعرج المشاهد لم يشاهده على .

(170/594)

انتظار أمر آخر وراءها كما يعرج المحب المحجوب على انتظار زوال حجابه والمراد أنه حصل له مشهد تام لا يبقى له بعده ما ينتظره وهذا عندي وهم بين فإنه لا غاية لجمال المحبوب وكمال صفاته بحيث يصل المشاهد لها إلى حالة لا ينتظر معها شيئا آخر هذا وسنبين إن شاء الله تعالى أنه لا يصح لأحد في الدنيا مقام المشاهدة أبدا وأن هذا من أوهام القوم وترهاتهم وإنما غاية ما يصل إليه العبد الشواهد ولا سبيل لأحد قط في الدنيا إلى مشاهدة الحق سبحانه وإنما وصوله إلى شواهد الحق ومن زعم غير هذا فلغلبة الوهم عليه وحسن ظنه بترهات القوم وخيالاتهم ولله در الشبلي حيث سئل عن المشاهدة فقال من أين لنا مشاهدة الحق لنا شاهد الحق هذا وهو صاحب الشطحات المعروفة وهذا من أحسن كلامه وأبينه 3وأراد بشاهد الحق ما يغلب على القلوب الصادقة العارفة الصافية من ذكره ومحبته وإجلاله وتعظيمه وتوقيره بحيث يكون ذلك حاضرا فيها مشهودا لها غير غائب عنها ومن أشار إلى غير ذلك فمغرور مخدوع وغايته أن يكون في خفارة صدقة وضعف تمييزه وعلمه ولا ريب أن القلوب تشاهد أنوارا بحسب استعدادها تقوى تارة وتضعف أخرى ولكن تلك أنوار الأعمال والإيمان والمعارف وصفاء البواطن والأسرار لا أنها أنوار الذات المقدسة فإن الجبل لم يثبت لليسير من ذلك النور حتى تدكدك وخر الكليم صعقا مع عدم تجليه له فما الظن بغيره فإياك ثم إياك وترهات القوم وخيالاتهم وأوهامهم

فإنها عند العارفين أعظم من حجاب النفس وأحكامها فإن المحجوب بنفسه معترف بأنه في ذلك الحجاب .

(171/594)

وصاحب هذه الخيالات والأوهام يرى أن الحقيقة قد تجلت له أنوارها ولم يحصل ذلك لموسى بن عمران كليم الرحمن فحجاب هؤلاء أغلظ بلا شك من حجاب اولئك ولا يقر لنا بهذا إلا عارف قد أشرق في باطنه نور السنة المحمدية فرأى ما الناس فيه وما أعز ذلك في الدنيا وما أغربه بين الخلق وبالله المستعان

فالصادقون في أنوار معارفهم وعباداتهم وأحوالهم ليس إلا وأنوار ذات الرب تبارك وتعالى وراء ذلك كله وهذا الموضع من مقاطع الطريق ولله كم زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام وحارت فيه أوهام ونجا منه صادق البصيرة تام المعرفة علمه متصل بمشكاة النبوة وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 3 صـ 51 . 67 ﴾

(172/594)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) ﴾

مَنْ خاف عذابَه يوم الحساب فَسَيلْقى يومَ الحَشْرِ الأمانَ الموعودَ مِنَّا لأهل الخوف اليومَ .

ومَنْ أَمَّلَ الثوابَ يومَ البعثَ فسوف يرى ثوابَ ما أسلفه من العمل . ومَنْ زَجَّى عُمْرَه في رجاء لقائنا فسوف نُبيح له النَّظَرَ إلينا ، وسوف يتخلص من الغيبة والفرقة .

﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأنين المشتاقين ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحنين المحبين الوالهين .

وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)

مَنْ أَحْسَنَ فنجاة نفسه طلبها ، وسعادة حالة حَصَّلَها . ومن أساء فعقوبة بنفسه . جَلَبَها ، وشقاوة جَدِّه اكتسبها .

ويقال ثوابُ المطيعين إليهم مصروفٌ ، وعذابُ العاصين عليهم موقوفٌ . . والحقُّ عزيزٌ لا يلحقه بالوفاق زَيْن ، ولا يَمَسُّه من الشّقاقِ شَيْنٌ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (7)

مَنْ رَفَعَ إلينا خطوة نال مِنَّا خطوة ، ومَنْ تَرَكَ فينا شهوةً وَجَدَ مِنَّا صفوة ، فنصيبهم من

الخيرات موفور ، وعملهم في الزلاَّت مغفور . . بذلك أجرينا سُنَّتنا ، وهو متناول حُكْمِنا وقضيتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 88 ﴾

(173/594)

قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه أنه لا بد من الفتنة ، وحذر من كفر ، وبشر من صبر ، قال عاطفاً على ﴿ ولقد فتنا ﴾ مشيراً إلى تعظيم حرمة الوالد حيث جعلها في سياق تعظيم الخالق ، وإلى أنها أعظم فتنة : ﴿ ووصينا ﴾ على ما لنا من العظمة ﴿ الإنسان ﴾ أي الذي أعناه على ذلك بأن جعلناه على الأنس بأشكاله لا سيما من أحسن إليه ، فكيف بأعز الخلق عليه ، وذلك فتنة له ﴿ بوالديه ﴾ .

(174/594)

ولما كان التقدير : فقلنا له : افعل بهما ﴿ حسناً ﴾ أي فعلاً ذا حسن من برهما وعطف عليهما ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن جاهداك ﴾ أي فعلاً معك فعل المجاهد مع من يجاهده فاستفرغا مجهودهما في معالجتك ﴿ لتشرك ﴾ وترك مظهر العظمة للنص على المقصود فقال : ﴿ بي ﴾ ونبهه على طلب البرهان في الأصول إشارة إلى خطر المقام لعظم المرام ، فقال استعمالاً للعدل ، مشيراً بنفي العلم إلى انتفاء العلوم : ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ أصلاً بأنه يستحق الشركة فإن من عبد ما لم يعلم استحقاقه للعبادة فهو كافر ﴿ فلا تطعهما ﴾ فإنه لا طاعة لمخلوق – وإن عظم – في معصية الخالق ، وهذا موجب لئلا يقع من أحد شرك أصلاً ، فإنه لا ريب أصلاً في أنه لا شبهة تقوم على أن غيره تعالى يستحق الإلهية ، فكيف بدليل يوجب علماً ، والمقصود من سياق الكلام إظهار النصفة والتنبيه على النصيحة ، ليكون أدعى إلى القبول ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إليّ مرجعكم ﴾ أي جميعاً : من آمن ومن أشرك بالحشر يوم القيامة ؛ ثم سبب عنه قوله : ﴿ فأنبئكم ﴾ أي أخبركم إخباراً عظيماً مستقصى بليغاً ﴿ بما كنتم ﴾ أي برغبتكم ﴿ تعملون ﴾ أي فقفوا عند حدودي ، واتركوا ما تزينه لكم شهواتكم ، واحذروا مجازاتي على قليل ذلك وكثيره ، عبر سبحانه بالسبب الذي هو الإنباء لأنه لا مثنوية فيه عن المسبب الذي هو الجزاء ، مطلقاً للعبارة ، وتهديداً بليغاً على وجه الإشارة ، وطوى ذكره لأنه قد يدخله

العفو ، وهذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص ـ رضى الله عنه ـ ، أسلم وكان باراً بأمه ، فحلفت : لا تأكل ولا تشرب حتى يرجع عن دينه أو تموت فيعير بها ويقال قاتل أمه ، فمكثت يومين بلياليهما فقال : يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني فكلي ، وإن شئت فلا تأكلي ! فلما أيست منه أكلت وشربت – وأصل القصة في الترمذي .

(175/594)

ولما كان التقدير : فالذين أشركوا وعملوا السيئات لندخلنهم في المفسدين ، ولكنه طواه لدلالة السياق عليه ، عطف عليه زيادة في الحث على الإحسان إلى الوالدين قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا ﴾ في السراء والضراء ﴿ الصالحات ﴾ .

ولما كان الصالح في الغالب سيىء الحال في الدنيا ناقص الحظ منها ، فكان عدوه ينكر أن يحسن حاله أشد إنكار ، أكد قوله : ﴿ لندخلنهم ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ في الصالحين ﴾ وناهيك به من مدخل ، فإنه من أبلغ صفات المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 5 صـ 538 . 539 ﴾

(176/594)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

فى الآية مسائل :

الأولى : ما وجه تعلق الآية بما قبلها ؟ نقول : لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها ، وبين ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها تحريضاً للمكلف على الطاعة ، ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه ، فقال الإنسان إن انقاد لأحد ينبغي أن ينقاد لأبويه ، ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلاً عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شيء من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله .

المسألة الثانية :

في القراءة قرىء حسناً وإحساناً وحسناً أظهر ههنا ، ومن قرأ إحساناً فمن قوله تعالى : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ [البقرة : 83] والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى الإنسان بأن يفعل مع والديه حسن التأبي بالفعل والقول ، ونكر حسناً ليدل على الكمال ، كما يقال إن لزيد مالاً .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ دليل على أن متابعتهم في الكفر لا يجوز ، وذلك لأن الإحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن إلى الوالدين ، فاتباع العبد أبويه لأجل الإحسان إليهم يفضي إلى ترك الإحسان إليهما ، وما يفضي وجوده إلى عدمه باطل فالاتباع باطل ، وأما إذا امتنع من الشرك بقي على الطاعة والإحسان إليهما من الطاعة فيأتي به فترك هذا الإحسان صورة يفضي إلى الإحسان حقيقة .

المسألة الرابعة :

(177/594)

الإحسان بالوالدين مأمور به ، لأنهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية المعتادة فهما سبب مجازاً ، والله تعالى سبب له في الحقيقة بالإرادة ، وسبب بقائه بالإعادة للسعادة ، فهو أولى بأن يحسن العبد حاله معه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَإِن جاهداكِ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ فقوله : ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعني التقليد في الإيمان ليس بجيد فضلاً عن التقليد في الكفر ، فإذا امتنع الإنسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعهما أصلاً ، لأن العلم بصحة قولهما محال الحصول ، فإذا لم يشرك تقليداً

ويستحيل الشرك مع العلم ، فالشرك لا يحصل منه قط .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني عاقبتكم ومآلكم إلي ، وإن كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والأولاد والأقارب والعشائر ، ولا شك أن من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة ، وحضوره بين يدي غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضي من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر .

ثم قوله تعالى : ﴿ فَأُنَبِّئُكُم ﴾ فيه لطيفة وهي أن الله تعالى يقول لا تظنوا أني غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين في الحال اعتماداً على غيبتي وعدم علمي بمخالفتكم إياي فإني حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ما الفائدة في إعادة ﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ مرة أخرى ؟ نقول : الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتدياً وضالاً بقوله : ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ

الكاذبين ﴾ [العنكبوت : 3] وذكر حال الضال مجملاً وحال المهتدي مفصلاً بقوله : ﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ ولما تم ذلك ذكر قسمين آخرين هادياً ومضلاً فقوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ [العنكبوت : 8] يقتضي أن يهتدي بهما وقوله : ﴿ وَإِن جاهداكَ لِتُشْرِكَ ﴾ بيان إضلالهما وقوله : ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم ﴾ بطريق الإجمال تهديد المضل وقوله : ﴿ والذين ءامَنُواْ ﴾ على سبيل التفصيل وعد الهادي فذكر ﴿ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ مرة لبيان حال المهتدي ، ومرة أخرى لبيان حال الهادي والذي يدل عليه هو أنه قال أولاً : ﴿ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ ، وقال ثانياً : ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصالحين ﴾ والصالحون هم الهداة لأنه مرتبة الأنبياء ولهذا قال كثير من الأنبياء ﴿ وَأَلْحِقْنِى بالصالحين ﴾ [يوسف : 101] .

المسألة الثانية :

قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية والمعمول له وهو وجه الله باق ، والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الأمور الدنيوية ، فإن في الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفي الآخرة بقاء الفاعل بالفعل .

المسألة الثالثة :

قيل في معنى قوله : ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصالحين ﴾ لندخلنهم في مقام الصالحين أو في دار الصالحين والأولى أن يقال لا حاجة إلى الإضمار بل يدخلهم في الصالحين أي يجعلهم منهم

ويدخلهم في عدادهم كما يقال الفقيه داخل في العلماء .

المسألة الرابعة :

(179/594)

قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد وما فيه يتطرق إليه الفساد فإن الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء ، وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك تراباً بخلاف الإنسان فإنه يصير تراباً أو شيئاً آخر وعلى هذا فالعالم العلوي ليس بفاسد فهو صالح فقوله تعالى ﴿ لندخلهم في الصالحين ﴾ أي في المجردين الذين لا فساد لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 25 صـ 32 . 34 ﴾

(180/594)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

رَوَى أَبُو عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ :

الصَّلَوَاتُ لِوَقْتِهِنَّ .

قُلْت : ثُمَّ مَهْ ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

قُلْت : ثُمَّ مَهْ ؟ قَالَ : بِرُّ الْوَالِدَيْنِ ﴾ .

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلَا مُدْمِنُ خَمْرٍ ﴾ وَالْآيَةُ وَالْخَبَرُ يَدُلَّانِ مَعًا عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَقْتُلَ أَبَاهُ وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا ﴿ وَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنْظَلَةَ بْنَ أَبِي عَامِرٍ عَنْ قَتْلِ أَبِيهِ وَكَانَ مُشْرِكًا ﴾ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يُقْتَصُّ لِلْوَلَدِ مِنْ الْوَالِدِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(181/594)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾

فيه وجهان

: أحدهما : معناه ألزمناه أن يفعل بهما برّاً ، قاله السدي .

الثاني : أن ما وصيناه به من برهما حسناً .

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ ﴾ أي ألزماك

. ﴿ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وفيه وجهان

: أحدهما : ما ليس لك به حجة لأن الحجة طريق العلم .

الثاني : أن تجعل لي شريكاً لأنه ليس لأحد بذلك من علم .

﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ فأمر بطاعة الوالدين في الواجبات حتماً وفي المباحات ندباً ونهى عن طاعتهما في المحظورات جزماً ، وقد جاء في الأثر . لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يعني في القيامة

. ﴿ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني في الدنيا من خير يستحق به الثواب وشر يستوجب به عقاب .

واختلفوا في سبب نزولها وإن عم حكمها على قولين :

أحدهما : نزلت في سعد بن أبي وقاص وقد حلفت أمّه عليه وأقسمت ألا تأكل طعاماً حتى يرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم . قاله مصعب وسعد وقتادة .

الثاني : أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾ الآية ،

روي عن قتادة وغيره أنها نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص ، وذلك أنه هاجر فحلفت أمه أن لا تستظل بظل حتى يرجع إليها ويكفر بمحمد فلج هو في هجرته ، ونزلت الآية ، وقيل نزلت في عياش بن أبي ربيعة ، وذلك أنه اعتراه في دنيه نحو من هذا بعد أن خدعه أبو جهل ورده إلى أمه الحديث في كتاب السيرة ، ولا مرية أنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أبويه في شأن الإسلام أو الهجرة فكان القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مثل هذا ، لعظم الأمر وكثرة الخطر فيه مع الله تعالى ، ثم إنه لما كان بر الوالدين وطاعتهما من الأمر الذي قررته الشريعة وأكدت فيه وكان من القوي عندهم الملتزم قدم الله تعالى النهي عن طاعتهما ، وقوله ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ على معنى أنا لا نخلّ ببر الوالدين لكنا لا نسلطه على طاعة الله لا سيما في معنى الإيمان والكفر وقوله : ﴿ حسناً ﴾ يحتمل أن ينتصب على المفعول ، وفي ذلك تجوز ويسهله كونه عاماً لمعان ، كما تقول وصيتك خيراً أو وصيتك شراً ، عبر بذلك عن جملة ما قلت له ، ويحسن ذلك دون حرف جر كون حرف الجر في قوله ﴿ بوالديه ﴾ لأن المعنى ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ بالحسن في

فعله ، مع والديه ، ونظير هذا قول الشاعر : [الرجز]

عجبت من دهماء إذ تشكونا . . . ومن أبي دهماء إذ يوصينا

(183/594)

خيراً بها فكأننا جافونا . . . ويحتمل أن يكون المفعول الثاني في قوله ﴿ بوالديه ﴾ وينتصب ﴿ حسناً ﴾ بفعل مضمر تقديره يحسن حسناً ، وينتصب انتصاب المصدر ، والجمهور على ضم الحاء وسكون السين ، وقرأ عيسى " حَسَناً " بفتحهما ، وقال الجحدري في الإمام مكتوب " بوالديه إحساناً " قال أبو حاتم يعنى " في الأحقاف " ، وقال الثعلبي في مصحف أبي بن كعب " إحساناً " ، ووجوه إعرابه كالذي تقدم في قراءة من قرأ " حسناً " . وقوله تعالى : ﴿ إليَّ مرجعكم ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر ، ثم كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين ، ليحرك النفوس إلى نيل مراتبهم ، وقوله تعالى : ﴿ لندخلنهم في الصالحين ﴾ مبالغة على معنى في الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته وإذا تحصل للمؤمنين هذا الحكم تحصل ثمره وجزاؤه وهو الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 4 صـ ﴾

(184/594)

فائدة

قال الإمام السبكى :

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ فِي جُمْلَتِهِمْ أَوْ فِي مُدْخَلِهِمْ ، وَالصَّلَاحُ مِنْ أَبْلَغِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَهُوَ مُتَمَنَّى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِذَا أَرَدْت مَعْرِفَةَ ذَلِكَ انْظُرْ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ﴾ وَانْظُرْ صَلَاحَ الْقَلْبِ بِالْإِيمَانِ وَالْعِرْفَانِ وَالْأَحْوَالِ وَصَلَاحَ الْجَسَدِ بِالطَّاعَةِ وَالْإِذْعَانِ ، وَالْخَلَائِقُ يَتَفَاوَتُونَ فِي ذَلِكَ تَفَاوُتًا كَبِيرًا ، فَصَلَاحُ الْعَبْدِ بِصَلَاحِ قَلْبِهِ وَبَدَنِهِ عَلَى قَدْرِ مَقَامِهِ .

وَهِيَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لَهُ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَإِتْيَانِهِ إيَّاهَا لَهُ وَمَا سِوَاهَا مِنْ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَغَيْرِهِمَا نَاشِئٌ عَنْهَا فَلِذَلِكَ كَانَتْ أَعْظَمَ الصِّفَاتِ ، وَقَوْلُ مَنْ قَالَ الصَّالِحُ مَنْ قَامَ بِحَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ الْعِبَادِ كَلَامٌ إجْمَالِيٌّ لَا يُنَبِّهُ عَلَى مَا قُلْنَاهُ ؛ لَكِنَّهُ إذَا شَرَحَ مَا فِيهِ مِنْ الْعُلُومِ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ وَإِنَّمَا السِّرُّ فِي الْمَعْنَى الَّذِي نَبَّهْنَا عَلَيْهِ ، وَهِيَ صِفَةٌ حَقِيقِيَّةٌ يَخْلُقُهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَاتِ الْعَبْدِ وَيُفِيضُهَا عَلَيْهِ يَقْرُبُ بِهَا مِنْهُ وَيَنَالُ بِهَا سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَصَلَاحُ كُلِّ أَحَدٍ بِحَسَبِ حَالِهِ .

فَأَعْظَمُ الصَّلَاحِ صَلَاحُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 85 ﴾

(185/594)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ووصَّينا الإنسان بوالديه حُسْناً ﴾

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو مجلز : وعاصم الجحدري ﴿ إِحساناً ﴾ بألف .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء : ﴿ حَسَناً ﴾ بفتح الحاء والسين .

روى أبو عثمان النَّهْدي عن سعد ابن أبي وقَّاص ، قال : فِيَّ أُنزلت هذه الآية ، كنت رجلاً بَرّاً بأُمِّي ، فلمَّا أسلمتُ قالت : يا سعد ! ما هذا الدِّين الذي قد أحدثتَ ، لَتَدَعَنَّ دِينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموتَ فتُعيَّر بي فيقال : يا قاتل أُمِّه ، قلت : لا تفعلي يا أُمَّاه ، إِنِّي لا أَدَعُ ديني هذا لشيء ، قال : فمكثتْ يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحتْ قد جُهِدَتْ ، ثم مكثتْ يوماً آخر وليلة لا تأكل ، فلمَّا رأيتُ ذلك قلتُ : تعلمين والله يا أُمَّاه لو كانت لكِ مائة نَفْس فخرجتْ نَفْساً نَفْساً ما تركت ديني هذا لشيء ، فكُلي ، وإِن شئتِ لا تأكلي ، فلمَّا رأت ذلك أكلتْ ، فأُنزلت هذه الآية .

وقيل : إِنَّها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة ، وقد جرى له مع أُمِّه نحو هذا .

وذكر بعض المفسرين أنَّ هذه الآية ، والتي في [لقمان : 15] وفي [الأحقاف : 15] نزلن في قصة سعد .

قال الزجاج : مَنْ قرأ : ﴿ حُسْناً ﴾ فمعناه : ووصَّينا الإِنسان أن يفعل بوالديه ما يَحْسُن ، ومن قرأ ﴿ إِحساناً ﴾ فمعناه : ووصينا الإِنسان أن يُحْسِن إِلى والديه ، وكان ﴿ حُسْناً ﴾ أعمَّ في البِرّ .

﴿ وإِن جاهداك ﴾ قال أبو عبيدة : مجاز هذا الكلام مجاز المختصر الذي فيه ضمير ، والمعنى : وقلنا له : وإِن جاهداك .

قوله تعالى : ﴿ لِتُشْرِك بي ﴾ معناه : لتشرك بي شريكاً لا تَعْلَمه لي وليس لأحد بذلك عِلْم ، ﴿ فلا تُطِعْهما ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَنُدْخِلَنَّهم في الصالحين ﴾ أي : في زُمرة الصَّالحين في الجنة .

وقال مقاتل : "في" بمعنى "مع" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 6 صـ ﴾

(186/594)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾

نزلت في سعد بن أبي وقّاص فيما روى الترمذي قال : أنزلت فيّ أربعُ آيات فذكَرَ قصةً ؛ فقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبرا والله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ؛ قال : فكانوا إذا أرادوا أن يُطعموها شَجَرُوا فَاهَا فنزلت هذه الآية .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ الآية .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وروي عن سعد أنه قال : كنت باراً بأمي فأسلمتُ ، فقالت : لتدعنّ دينك أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي ، ويقال يا قاتل أمه ، وبقيت يوماً ويوماً فقلت : يا أماها لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا ، فإن شئت فكلي ، وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت ونزلت : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ﴾ الآية .

وقال ابن عباس : نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه وقد فعلت أمه مثل ذلك .

وعنه أيضاً : نزلت في جميع الأمة إذ لا يصبر على بلاء الله إلا صدّيق .

و ﴿ حُسْناً ﴾ نصب عند البصريين على التكرير أي ووصيناه حسناً .

وقيل : هو على القطع تقديره ، ووصيناه بالحسن كما تقول وصيته خيراً أي بالخير .

وقال أهل الكوفة : تقديره ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً فيقدر له فعل .

وقال الشاعر :

عَجبتُ من دَهْمَاء إذ تَشكونَا . . .

ومن أبي دَهْمَاءَ إذ يُوصينَا

خيراً بها كأنّما خافونا . . .

أي يوصينا أن نفعل بها خيراً ؛ كقوله : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً ﴾ [ص : 33] أي يمسح مسحاً .

وقيل : تقديره ووصيناه أمراً ذا حسنٍ ، فأقيمت الصفة مقام الموصوف ، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وقيل : معناه ألزمناه حسناً .

وقراءة العامة : ﴿ حُسْناً ﴾ بضم الحاء وإسكان السين .

وقرأ أبو رجاء وأبو العالية والضحاك : بفتح الحاء والسين .

(187/594)

وقرأ الجحدري : ﴿ إحْسَاناً ﴾ على المصدر ؛ وكذلك في مصحف أُبيّ ، التقدير : ووصينا الإنسان أن يحسن إليهما إحسانا ، ولا ينتصب بوصينا ؛ لأنه قد استوفى مفعوليه .

﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ وعيد في طاعة الوالدين في معنى الكفر .

﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصالحين ﴾

كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحرك النفوس إلى نيل مراتبهم .

وقوله : ﴿ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصالحين ﴾ مبالغة على معنى ؛ فالذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته .

وإذا تحصل للمؤمن هذا الحكم تحصل ثمرته وجزاؤه وهو الجنة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 13 صـ ﴾

(188/594)

وقال أبو حيان :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾

أي أمرناه بتعهدهما ومراعاتهما .

وانتصب ﴿ حسناً ﴾ على أنه مصدر ، وصف به مصدر وصينا ، أي إيصاء حسناً ، أي ذا حسن ، أو على سبيل المبالغة ، أي هو في ذاته حسن .

قال ابن عطية : يحتمل أن ينتصب على المفعول ، وفي ذلك تحريض على كونه عاماً لمعان . كما تقول : وصيتك خيراً ، وأوصيتك شراً ؛ وعبَّر بذلك عن جملة ما قلت له ، ويحسن ذلك دون حرف الجر ، كون حرف الجر في قوله : ﴿ بوالديه ﴾ ، لأن المعنى : ووصينا الإنسان بالحسن في قوله مع والده ، ونظير هذا قول الشاعر :

عجبت من دهماء إذ تشكونا . . .

ومن أبي دهماء إذ يوصينا

انتهى .

مثله قول الحطيئة يوصي ابنته برة :

وصيت من برة قلباً حراً . . .

بالكلب خيراً والحماة شراً

وعلى هذا التقدير يكون الأصل بخير ، وهو المفعول الثاني .

والباء في بوالديه وفي بالحماة وبالكلب ظرفية بمعنى في ، أي وصينا الإنسان في أمر والديه بخير .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المفعول الثاني في قوله : ﴿ بوالديه ﴾ ، وينتصب ﴿

حسناً ﴾ بفعل مضمر تقديره : يحسن حسناً ، وينتصب انتصاب المصدر .

وفي التحرير : حسناً نصب عند البصريين على التكرير ، أي وصيناه حسناً ، وقيل : على القطع ، تقديره : ووصينا بالحسن ، كما تقول : وصيته خيراً ، أي بالخير ، ويعني بالقطع عن حرف الجر ، فانتصب .

وقال أهل الكوفة : ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً ، فيقدر له فعل . انتهى .

وفي هذا القول حذف أن وصلتها وإبقاء المعمول ، وهو لا يجوز عند البصريين .

وقال الزمخشري : وصيناه بإيتاء والديه حسناً ، أو ناثلاً والديه حسناً ، أي فعلاً ذا حسن ، وما هو في ذاته حسن لفرط حسنه ، كقوله : ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ انتهى .

وهذا التقدير فيه إعمال المصدر محذوفاً وإبقاء معموله ، وهو لا يجوز عند البصريين .

(189/594)

قال الزمخشري : ويجوز أن يجعل حسناً من باب قولك : زيداً ، بإضمار اضرب إذا رأيته متهيأ للضرب ، فتنصبه بإضمار أولهما ، أو افعل بهما ، لأن الوصية بهما دالة عليه ، وما بعده مطابق له ، فكأنه قال : قلنا أولهما معروفاً .

وقرأ عيسى ، والجحدري : حسناً ، بفتحتين ؛ والجمهور : بضم الحاء وإسكان السين ،

وهما كالبَخَل والبُخْل .

وقال أبو الفضل الرازي : وانتصابه بفعل دون التوصية المقدمة ، لأنها قد أخذت مفعوليها معاً مطلقاً ومجروراً ، فالحسن هنا صفة أقيم مقام الموصوف بمعنى : أمر حسن .

انتهى ، أي أمراً حسناً ، حذف أمراً وأقيم حسن مقامه .

وقوله : مطلقاً ، عنى به الإنسان ، وفيه تسامح ، بل هو مفعول به ؛ والمطلق إنما هو المصدر ، لأنه مفعول لم يقيد من حيث التفسير بأداة جر ، بخلاف سائر المفاعيل ، فإنك تقول : مفعول به ، ومفعول فيه ، ومفعول معه ، ومفعول له ؛ وفي مصحف أبي : إحساناً .

﴿ وإن جاهداك ﴾ : أي وقلنا : إن جاهداك ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ : أي بإلهيته ، فالمراد بنفي العلم نفي المعلوم ، أي ﴿ لتشرك ﴾ به شيئاً ، لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم ، ﴿ فلا تطعهما ﴾ فيما جاهداك عليه من الإشراك ؛ ﴿ إليّ مرجعكم ﴾ : شامل للموصي والموصى والمجاهد والمجاهد ، ﴿ فأنبئكم ﴾ : فأجازيكم ، ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ : من بر ، أو عقوق ، أو طاعة ، أو عصيان .

وكرر تعالى ما رتب للمؤمنين من دخولهم ﴿ في الصالحين ﴾ ، ليحرك النفوس إلى نيل مراتبهم .

ومعنى ﴿ في الصالحين ﴾ : في جملتهم ، ومرتبة الصلاح شريفة ، أخبر الله بها عن إبراهيم ، وسألها سليمان ، عليهما السلام ، وأخبر تعالى أن يجعل من أطاع الله ورسوله معهم .

ويجوز أن يكون التقدير : في ثواب الصالحين ، وهي الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 7 صـ ﴾

(190/594)

وقال أبو السعود :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾

(191/594)

أي بإتياء والديهِ وإيلائهما فعلاً ذا حُسنٍ أو ما هو في حدّ ذاته حسنٌ لفرطِ حُسنِه كقولِه تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ووصَّى يجري مجرى أمرَ معنى وتصرُّفاً غيرَ أنَّه يُستعمل فيما كان في المأمورِ به نفعٌ عائدٌ إلى المأمورِ أو غيرِه . وقيل هُو بمعنى قال فالمعنى وقلنا أحسِنْ بوالديك حُسنا . وقيل : انتصابُ حُسنا بمضمرٍ على تقدير قولٍ مفسّرٍ للتَّوصيةِ أي وقُلنا أوْلِهما أو افعلْ بهما حُسنا وهو أوفق لما بعدَه وعليه يحسنُ الوقفُ على بوالديهِ وقرىء حسناً وإحساناً . ﴿ وَإِن جاهداكِ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي بالهيئةِ

عبَّر عن نفيها بنفيِ العلمِ بها للإيذان بأنَّ ما لا يعلم صحته لا يجوزُ اتّباعُه وإنْ لم يُعلم بطلانُه فكيف بما عُلم بطلانُه ﴿ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك فإنَّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ ولا بُدَّ من إضمارِ القولِ إن لم يُضمر فيما قبل . وفي تعليقِ النَّهي عن طاعتِهما بمجاهدتِهما في التَّكليف إشعارٌ بأنَّ موجبَ النَّهي فيما دونها من التَّكليفِ ثابت بطريقِ الأولويَّةِ . ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مرجعُ مَن آمن منكُم ومَن أشركَ ومن برَّ بوالديه ومن عقَّ ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأنْ أجازيَ كلاًّ منكم بعملِه إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شرّاً فشرٌّ . والآيةُ نزلتْ في سعدِ بن أبي وقَّاص رضي الله تعالى عنه عند إسلامِه حيثُ حلفت أمُّه حمنةُ بنتُ أبي سفيانَ بنِ أُميَّةَ أن لا تنتقلَ من الضحِّ إلى الظلِّ ولا تَطعمُ ولا تشربُ حتَّى يرتدَّ فلبثتْ ثلاثةَ أيامٍ كذلك ، وكذا التي في سُورة لقمانَ وسورةِ الأحقافِ . وقيل : نزلتْ في عيَّاش بن أبي ربيعة المخزُومي وذلك أنه هاجر مع عمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه حتَّى نزلا المدينةَ فخرجَ أبُو جهلٍ والحارث أخواه لأمّه أسماء فنزلا بعيَّاش وقالا له إن من دين محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم صلةَ

(192/594)

الأرحامِ وبرَّ الوالدينِ وقد تركتَ أمَّك لا تطعمُ ولا تشربُ ولا تأوي بيتاً حتَّى تراك فاخرجْ معنا وفتلا منه في الذِّروة والغاربِ واستشار عمرَ رضي الله عنه فقال هُما يخدعانِك ولك على أنْ أقسمَ مالي بيني وبينك فما زالا به حتَّى أطاعهما وعصى عمرَ رضي الله عنه فقال عمرُ رضي الله عنه : أمَّا إذا عصيتني فخُذْ ناقتي فليس في الدُّنيا بعيرٌ يلحقها فإنْ رابك منهما ريبٌ فارجع فلمَّا انتهَوا إلى البيداءِ قال أبوُ جهل إنَّ ناقتي كلَّت فاحملني معك فنزل ليوطىءَ لنفسِه وله فأخذاه فشدَّاه وثاقاً وجلده كلُّ واحدٍ مائةَ جلدةٍ وذهبا به إلى أمِّه فقالت لا تزالُ في عذاب حتَّى ترجعَ عن دينِ محمَّدٍ .

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصالحين ﴾ أي في زُمرةِ الرَّاسخينَ في الصَّلاحَ . والكمالُ في الصَّلاحِ منتهى درجاتِ المؤمنينَ وغايةُ مأمولِ أنبياءِ الله المُرسلين . قال الله تعالى حكايةً عن سُليمانَ عليه السَّلام : ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ وقال في حقِّ إبراهيمَ عليه السَّلام : ﴿ وَإِنَّهُ فِى الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ أو في مدخلِ الصَّالحين وهو الجنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 7 صـ ﴾

(193/594)

وقال الآلوسى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾

أي أمرناه بتعهدهما ومراعاتهما ، وانتصب حسناً على أنه وصف لمصدر محذوف أي إيصاء حسناً أي ذا حسن أو هو في حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : 83] وهذا ما اختاره أبو حيان ولا يخلو عن حسن ، وقال الزمخشري حسناً مفعول به لمصدر محذوف مضاف إلى والديه أي وصيناه بإيتاء والديه أو بإيلاء والديه حسناً ، وفيه إعمال المصدر محذوفاً وإبقاء عمله وهو لا يجوز عند البصريين ، وجوز أن يكون حسناً مصدراً لفعل محذوف أي أحسن حسناً ، والجملة في موضع المفعول لوصي لتضمنه معنى القول ، وهذا على مذهب الكوفيين القائلين بأن ما يتضمن معنى القول يجوز أن يعمل في الجمل من غير تقدير للقول ، وعند البصريين يقدر القول في مثل ذلك وعليه يجوز أن يكون مفعولاً به لفعل محذوف والجملة مقول القول وجملة القول مفسرة للتوصية أي قلنا أولهما أو افعل بهما حسناً ، وعلى هذا يحسن الوقف على بوالديه لاستئناف الجملة بعده ، ورجح تقدير الأمر بأنه أوفق لما بعده من الخطاب والنهي الذي هو أخوه لكن ضعف ما فيه كثرة تقدير بكثرة التقدير ، ونقل ابن عطية عن الكوفيين أنهم يجعلون حسناً مفعولاً لفعل محذوف ويقدرون أن يفعل حسناً ، وفيه حذف أن وصلتها وإبقاء المعمول وهو لا يجوز عند البصريين ، وقيل : إن حسناً منصوب بنزع الخافض

وبوالديه متعلق بوصينا والباء فيه بمعنى في أي وصينا الإنسان في أمر والديه بحسن وهو كما ترى ، وقرأ عيسى .

(194/594)

والجحدري ﴿ حَسَنًا ﴾ بفتحتين وفي مصحف أبي إحساناً ﴿ وَإِن جاهداكِ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ﴾ عطف على ما قبله ولا بد من إضمار القول إن لم يضمر قبل أي وقلنا : إن جاهداك الخ لئلا يلزم عطف الإنشاء على الخبر لأن الجملة الشرطية إذ كان جوابها إنشاء فهي إنشائية كما صرحوا به فإذا لم يضمر القول لا يليق عطفها على وصينا لما ذكر ولا على ما عمل فيه لكونه في معنى القول وهو أحسن وإن توافقاً في الإنشائية لأنه ليس من الوصية بالوالدين لأنه منه يعن مطاوعتهما ، وأما عطفه على قلنا المفسر للتوصية فلا يضر لما فيه من تقييدها بعدم الإفضاء إلى المعصية مآلاً فكأنه قيل : أحسن إليهما وأطعهما ما لم يأمراك بمعصية فتأمل ، والظاهر الذي يقتضيه المقام أن ﴿ مَا ﴾ عام لما سواه تعالى شأنه وقوله سبحانه : ﴿ بِهِ ﴾ على حذف مضاف أي ما ليس لك بإلهيته علم ، وتنكير علم للتحقير .

والمراد لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً ولا يستقيم ، وفي العدول عنه إلى ما في النظم

الجليل إيذان بأن ما لا يعلم صحته ولو إجمالاً كما في التقليد لا يجوز اتباعه وإن لم يعلم بطلانه فكيف بما علم على أتم وجه بطلانه ، وجعل العلامة الطيبي نفي العلم كناية عن نفي المعلوم ، وعلل ذلك بأن هذا الأسلوب يستعمل غالباً في حق الله تعالى نحو أتعلمون الله بما لا يعلم ثم قال : وفيه إشارة إلى أن نفي الشرك من العلوم الضرورية وأن الفطرة السليمة مجبولة عليه على ما ورد

"كل مولود يولد على الفطرة" وذلك أن المخاطب بقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان ﴾ جنس الإنسان انتهى ، وفيه بحث .

(195/594)

ومتعلق تطعهما محذوف لوضوح دلالة الكلام عليه أي وإن استفرغا جهدهما في تكليفك لتشرك بي غيري مما لا إلهية له فلا تطعهما في ذلك فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدتهما في التكليف إشعار بأن موجب النهي فيما دونها من التكليف ثابت بطريق الأولوية وكذا موجبه في مجاهدة أحدهما ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر ومن عق والجملة مقررة لما قبلها ولذا لم تعطف ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بعمله إن خيراً فخير

وإن شراً فشر والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذلك أنه رضي الله تعالى عنه حين أسلم قالت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس : يا سعد بلغني أنك صبأت فوالله تعالى لا يظلني سقف بيت من الضح والريح وأن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وكان أحب ولدها إليها فأبى سعد وبقيت ثلاثة أيام كذلك فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه فنزلت هذه الآية والتي في لقمان والتي في الأحقاف فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان .

(196/594)

وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي ، وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما متوافقين حتى نزلا المدينة فخرج أبو جعل بن هشام والحرث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة امرأة من بني تميم من بني حنظلة فنزلا بعياش وقالا له : إن من دين محمد صلة الأرحام وبر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تأوى بيتاً حتى تراك وهي أشد حباً لك منا فأخرج معنا وفتلا منه في الذروة والغارب فاستشار عمر رضي الله تعالى عنه فقال هما يخدعانك ولك على أن أقسم مالي بيني وبينك فما زالا

به حتى أطاعهما وعصى عمر رضي الله تعالى عنه فقال عمر رضي الله تعالى عنه : أما إذا عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهم ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها فإن رابك منهم ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي قد كلت فاحملني معك ، قال : نعم . فنزل ليوطىء لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقاً وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به إلى أمه ، فقالت : لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم فنزلت .

﴿ والذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى الصالحين ﴾

أي في زمرة الراسخين في الصلاح الكاملين فيه ، والصلاح ضد الفساد وهو جامع لكل خير ، وله مراتب غير متناهية ومرتبة الكمال فيه مرتبة عليا ، ولذا طلبها الأنبياء عليهم السلام كما قال سليمان عليه السلام ﴿ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصالحين ﴾ [النمل : 19] ويحامل أن يكن الكلام بتقدير مضاف أي في مدخل الصالحين وهي الجنة ، والموصول مبتدأ ولندخلنهم الخبر على ما ذكره أبو البقاء ، وجوز أن يكون في موضع نصب على تقدير لندخلن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 20 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

لم يترك القرآن فاذَّة من أحوال علائق المسلمين بالمشركين إلا بين واجبهم فيها المناسب لإيمانهم ، ومن أشد تلك العلائق علاقة النسب فالنسب بين المشرك والمؤمن يستدعي الإحسان وطيب المعاشرة ولكن اختلاف الدين يستدعي المناواة والمغاضبة ولا سيما إذا كان المشركون متصلبين في شركهم ومشفقين من أن تأتي دعوة الإسلام على أساس دينهم فهم يلحقون الأذى بالمسلمين ليقلعوا عن متابعة الإسلام ، فبيّن الله بهذه الآية ما على المسلم في معاملة أنسبائه من المشركين .

وخص بالذكر منها نسب الوالدين لأنه أقرب نسب فيكون ما هو دونه أولى بالحكم الذي يشرع له .

وحدثت قضية أو قضيتان دعتا إلى تفصيل هذا الحكم .

رُوي أن سعد بن أبي وقاص حين أسلم قالت له أمه حَمْنَة بنت أبي سفيان يا سعد بلغني أنك صبأت ، فوالله لا يُظلني سقف بيت ، وإن الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفُرَ بمحمد ، وبقيت كذلك ثلاثة أيام فشكا سعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يداريها ويترضاها بالإحسان .

وروي أنه لما أسلم عياش بن أبي ربيعة المخزومي وهاجر مع عمر بن الخطاب إلى المدينة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل وأخوه الحارث وكانا أخوي عياش لأمه فنزلا بعياش وقالا له : إن محمداً يأمر ببر الوالدين وقد تركتَ أمك وأقسمت أن لا تطعم ولا تشرب ولا تأوي بيتاً حتى تراك وهي أشد حبًّا لك منها لنا ، فاخرج معنا .

فاستشار عمر فقال عمر : هما يخدعانك ، فلم يزالا به حتى عصى نصيحة عمر وخرج معهما .

فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي كلت فاحملني معك .

قال عياش : نعم ، ونزل ليوطىء لنفسه ولأبي جهل .

(198/594)

فأخذاه وشداه وثاقاً وذهبا به إلى أمه فقالت له : لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد وأوثقته عندها ، فقيل : إن هذه الآية نزلت في شأنهما .

والمقصود من الآية هو قوله ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ﴾ إلى آخره ، وإنما افتتحت بـ ﴿ وصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ لأنه كالمقدمة للمقصود ليعلم أن الوصاية بالإحسان إلى الوالدين لا تقتضي طاعتهما في السوء ونحوه لقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا طاعة

لمخلوق في معصية الخالق " ولقصد تقرير حكم الإحسان للوالدين في كل حال إلا في حال الإشراك حتى لا يلتبس على المسلمين وجه الجمع بين الأمر بالإحسان للوالدين وبين الأمر بعصيانهما إذا أمرا بالشرك لإبطال قول أبي جهل : أليس من دين محمد البر بالوالدين ونحوه .

وهذا من أساليب الجدل وهو الذي يسمى القول بالموجب وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع ، ومنه في القرآن قوله تعالى:

﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد ءاباؤنا فأتونا بسلطان مبين قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده ﴾ [إبراهيم : 10 ، 11] فعلم أنه لا تعارض بين الإحسان إلى الوالدين وبين إلغاء أمرهما بما لا يرجع إلى شأنهما .

والتوصية : كالإيصاء ، يقال : أوصى ووصّى ، وهي أمر بفعل شيء في مغيب الآمر به ففي الإيصاء معنى التحريض على المأمور به ، وتقدم في قوله تعالى ﴿ الوصية للوالدين ﴾ [البقرة : 180] وقوله ﴿ وأوصى بها إبراهيم ﴾ في [البقرة : 132] .

وفعل الوصاية يتعدى إلى الموصى عليه بالباء ، تقول : أوصى بأبنائه إلى فلان ، على معنى أوصى بشؤونهم ، ويتعدى إلى الفعل المأمور به بالباء أيضاً وهو الأصل مثل ﴿ وأوصى بها إبراهيم بَنِيه ﴾ [البقرة : 132] .

فإذا جُمع بين الموصى عليه والموصى به تقول : أوصى به خيراً وأصله : أوصى به بخير له فكان أصل التركيب بدل اشتمال .

(199/594)

وغلب حذف الباء من البدل اكتفاء بوجودها في المبدل منه فكذلك قوله تعالى هنا ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حُسْناً ﴾ تقديره : وصينا الإنسان بوالديه بِحُسن ، بنزع الخافض .

والحسن : اسم مصدر ، أي بإحسان .

والجملة ﴿ وإن جاهداكِ لتُشرِك بي ﴾ عطف على جملة ﴿ وصينا ﴾ وهو بتقدير قول محذوف لأن المعطوف عليه فيه معنى القول .

والمجاهدة : الإفراط في بذل الجهد في العمل ، أي ألَّحَّا لأجل أن تشرك بي .

والمراد بالعلم في قوله : ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ العلم الحق المستند إلى دليل العقل أو الشرع ، أي أن تشرك بي أشياء لا تجد في نفسك دليلاً على استحقاقها العبادة كقوله تعالى ﴿ فلا تسألني ما ليس لك به علم ﴾ [هود : 46] ، أي علم بإمكان حصوله .

وفي "الكشاف" : أن نفي العلم كناية عن نفي المعلوم ، كأنه قال : أن تشرك بي شيئاً لا يصح

أن يكون إلهاً ، أي لا يصح أن يكون معلوماً يعني أنه من باب قولهم : هذا ليس بشيء كما صرح به في تفسير سورة [لقمان : 30] كقوله تعالى ﴿ ما يدعون من دونه الباطل ﴾ وجملة : إليّ مرجعكم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لزيادة تحقيق ما أشارت إليه مقدمة الآية من قوله ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ﴾ ، لأن بقية الآية لما آذنت بفظاعة أمر الشرك وحذرت من طاعة المرء والديه فيه كان ذلك مما يثير سؤالاً في نفوس الأبناء أنهم هل يعاملون الوالدين بالإساءة لأجل إشراكهما فأنبئوا أن عقابهما على الشرك مفوض إلى الله تعالى فهو الذي يجازي المحسنين والمسيئين .

والمرجع : البعث .

والإنباء : الإخبار ، وهو مستعمل كناية عن علمه تعالى بما يعملونه من ظاهر الأعمال وخفيّها ، أي ما يخفونه عن المسلمين وما يكنونه في قلوبهم ، وذلك أيضاً كناية عن الجزاء عليه من خير أو شر ، ففي قوله ﴿ فأنبئكم ﴾ كنايتان : أولاهما إيماء ، وثانيتهما تلويح ، أي فأجازيكم ثواباً على عصيانهما فيما يأمران ، وأجازيهما عذاباً على إشراكهما .

(200/594)

فجملة ﴿ والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لَنُدْخِلَنّهم في الصالحين ﴾ تصريح ببعض ما أفادته الكناية التي في قوله ﴿ فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ، اهتماماً بجانب جزاء المؤمنين .

وقد أشير إلى شرف هذا الجزاء بأنه جزاء الصالحين الكاملين كقوله ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ [النساء : 69] ؛ ألا ترى إلى قول سليمان ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ [النمل : 19] .

(ومن لطيف مناسبة هذا الظرف في هذا المقام أن المؤمن لما أمر بعصيان والديه إذا أمراه بالشرك كان ذلك مما يثير بينه وبين أبويه جفاء وتفرقة فجعل الله جزاءً عن وحشة تلك التفرقة أُنساً بجعله في عداد الصالحين يأنس بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 20 صـ ﴾

(201/594)

وقال الشيخ الشعراوى :

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى الدائرة الأولى في تكوين المجتمع ، وهي دائرة الأسرة المكوّنَة من : الأب ، والأم ، والأولاد ، فأراد سبحانه أن يُصلح اللبنة الأولى ليصلح المجتمع كله ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً . . . ﴾ .

الوالدان يخدمان الابن حتى يكبر ، ويصير هو إلى القوة في حين يصيران هما إلى الضعف ، وإلى الحاجة لمن يخدمهما ، وحين ننظر في حال الغربيين مثلاً وكيف أن الأبناء يتركون الآباء دون رعاية ، وربما أودعوهم دار المسنين في حالة برِّهم بهم ، وفي الغالب يتركونهم دون حتى السؤال عنهم ؛ لذلك تتجلى لنا عظمة الإسلام وحكمة منهج الله في مجتمع المسلمين .

لذلك قال أحد الحكماء : الزواج المبكر خير طريقة – لا لإنجاب طفل – إنما الإنجاب أب لك يعولك في طفولة شيخوختك . لذلك أراد الحق سبحانه أن يبني الأسرة على لبنات سليمة ، تضمن سلامة المجتمع المؤمن ، فقال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً . . . ﴾ [العنكبوت : 8] ، وفي موضع آخر قال سبحانه في نفس الوصية ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً . . . ﴾ [الأحقاف : 15] .

وفَرْق بين المعنيين : ﴿ حُسْناً . . . ﴾ [العنكبوت : 8] أي : أوصيك بأنْ تعملَ لهم الحُسْن ذاته ، كما تقول : فلان عادل ، وفلان عَدْل ، فوصَّى بالحسْن ذاته . أما في ﴿ إِحْسَاناً . . . ﴾ [الأحقاف : 15] فوصية بالإحسان إليهما .

لكن ، لماذا وصَّى هنا بالحُسْن ذاته ، ووصَّى هناك بالإحسان ؟

قالوا : وصَّى بالحسن ذاته في الآية التي تذكر اللدد الإيماني ، حيث قال : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَآ . . . ﴾ [العنكبوت : 8] والكفر يستوجب العداوة والقطيعة ، ويدعو إلى الخصومة ، فأكَّد على ضرورة تقديم الحسن إليهما ؛ لا مجرد الإحسان ؛ لأن الأمر يحتاج إلى قوة تكليف .

أما حين لا يكون منهما كفر ، فيكفي في برِّهما الإحسان إليهما ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . . ﴾ [لقمان : 15] .

والحق سبحانه حين يُوصي بالوالدين ، وهما السبب المباشر في الوجود إنما ليجعلهما وسيلة إيضاح لأصل الوجود ، فكما أوصاك بسبب وجودك المباشر وهما الوالدان ، فكذلك ومن باب أَوْلى يوصيك بمَنْ وهب لك أصل هذا الوجود .

فكأن الحق سبحانه يُؤنِس عباده بهذه الوصية ، ويلفت أنظارهم إلى ما يجب عليهم نحو واهب الوجود الأصلي وما يستحقه من العبادة ومن الطاعة ؛ لأنه سبحانه الخالق الحقيقي ، أما الوالدان فهما وجود سببي .

هذا إيناس بالإيمان ، بيَّنه تعالى في قوله : ﴿ واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً . . . ﴾ [النساء : 36] لأنهما سبب الوجود الجزئي ، والله تعالى سبب الوجود الكلي .

وهذا أيضاً من المواضع التي وقف عندها المستشرقون ، يبغُونَ فيها مَطْعناً ، ويظنون بها تعارضاً بين آيات القرآن في قوله تعالى : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . . ﴾ [لقمان : 15] وفي موضع آخر : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ . . . ﴾ [المجادلة : 22] .

(203/594)

وهذا التعارض لا يوجد إلا في عقول هؤلاء ؛ لأنهم لا يفهمون لغة القرآن ، ولا يفرقون بين الودِّ والمعروف : الودّ مَيْل القلب ، وينشأ عن هذا الميل فِعْل الخير ، فيمن تميل إليه ، أمّا المعروف فتصنعه مع مَنْ تحب ومَنْ لا تحب ، فهو استبقاء حياة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : 8] يعني : تذكَّر هذا الحكم ، فسوف أسألك عنه يوم القيامة ، ففي موضع آخر ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : 15] .

فكُفْر الوالدين لا يعني السماحَ لك بإهانتهما أو إهمالهما ، فاحذر ذلك ؛ لأنك ستُسأل عنه أمام الله : أصنعتَ معهما المعروف أم لا ؟

وحيثيات الوصية بالوالدين : الأب والأم ذُكرت في الآية الأخرى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً . . . ﴾ [الأحقاف : 15] نلحظ أن الحيثيات كلها للأم ، ولم يذكر حيثية واحدة للأب إلا في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . . . ﴾ [الإسراء : 24] وهذه تكون في الآخرة .

قالوا : ذِكْر الحيثيات كلها للأم ؛ لأن متاعب الأم كانت حال الصِّغَر ، والطِّفل ليس لديه الوعي الذي يعرف به فَضْل أمه وتحمُّلها المشاق من أجله ، وحين يكبر وتتكوَّن لديه الإدراكات يجد أنَّ الأب هو الذي يقضي له كل ما يحتاج إليه .

إذن : فحيثيات الأب معلومة مشاهدة ، أمّا حيثيات الأم فتحتاج إلى بيان .

يقول الحق سبحانه : ﴿ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ .

(204/594)

فقدّم الإيمان ، لأنه الأصل ، ثم العمل الصالح ، وكأن الدخول في الصالحين مسألة كبيرة ، وهي كذلك ، ويكفي أنها مُتَمنى حتى الأنبياء أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(205/594)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

(206/594)

قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (العنكبوت : 8) ، وفي سورة لقمان : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (لقمان : 14 - 15) ، وفي سورة الأحقاف : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا . . .) إلى قوله : (مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الأحقاف : 15) ، اشتملت هذه الآي في السور الثلاث على التعريف بما

يجب من حقوق الوالدين ، وما يرعى لهما ، ومنتهى ذلك وغايته ، وقد اجتمعت في هذا المعنى ، ثم اختلف إيرادها ، ففي العنكبوت والأحقاف حسناً ولم يرد ذلك في سورة لقمان ، وفي العنكبوت (لتشرك) بتعدية الفعل باللام وفي لقمان : (عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي) فعدّى بعلى ، وفي لقمان : (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) ولم يرد ذلك في السورتين ، وفي لقمان : (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) وفي الأحقاف : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) ، وفي لقمان والأحقاف ذكر الأم منصوصاً عليها وورد ذكرها في العنكبوت مجملاً ، وفي العنكبوت ولقمان التعريف بالرجوع إليه سبحانه ولم يرد ذلك في الأحقاف ، فيسأل عن هذا ؟ وعن وجه اختصاص كل سورة من الثلاث بما خصت

(207/594)

به ؟ وإن كان ذلك حاصلاً من جواب ما تقدم ، فتلك تسعة أسئلة .

والجواب عن الأول : أن بناء آية العنكبوت على قص سعد بن أبي وقاص وما كان من فعل أمة وحلفها على ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل حتى يرجع سعد إلى دينها ، والقصة مشهورة ، فنزلت الآية ، ولما لم يقصد غير هذا اكتفى بالتنبيه على الإحسان بهما ما لم يدعوا معاً أو أحدهما إلى الشرك ، ولما كان حكماً لا يخص أباً من أم لم يحتج إلى التنصيص

على أحدهما ، فوقع الاكتفاء هنا بقوله : (حسناً) ، ونصبه على الحال لأن المصدر إذا حذف اكتفاء بصفته فانتصابها عند سيبويه ، رحمه الله ، على الحال ذكر ذلك في باب (وأما ورود حسناً في الأحقاف) ، فلما قصد فيها من البسط والإطالة حسبما تبين بعد وقد انجر في هذا الجواب عن السؤال (السابع) .

والجواب عن السؤال الثاني : أن النهي عن الشرك ورد في سورة العنكبوت لبناء الآية وما قبلها على ذكر ذلك ، وهو المراد بالفتنة الوارد ذكرها في مطلع السورة . وورد في آية لقمان لما تقدم من قول لقمان لابنه : (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان : 13) ، ولم يرد في سورة الأحقاف لأن آية الأحقاف فيمن كان مؤمناً ، ألا ترى قوله : (أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (الأحقاف : 15) إلى ما بعد هذا ، ولا مدخل هناك للشرك .

والجواب عن السؤال الثالث : أن وقله في سورة العنكبوت : (لِتُشرِكَ بِي) بتعدية الفعل باللام وتعديته في آية لقمان بعلى فإنما ذلك لفرق ما بين الآيتين في السورتين ، من حيث بناء آية العنكبوت على الإيجاز فناسب ذلك الاكتفاء باللام ، وبناء آية لقمان على الإطالة فناسب ذلك لتعدية بعلى ، ولو قدرنا عكس الوارد لما ناسب ، فجاء مل على ما يناسب .

والجواب عن السؤال الرابع : أن قوله في آية لقمان : (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) أمر بالرفق بهما والقيام من حقهما بما ليس بمعصية ، ولما كان مبنى الآية على الأمر بما يفعل بهما ومعهما من غير (تقدم) مطلب لهما ، وإنما ذلك على التعريف بما ينبغي أن يكون الأمر معهما ، ناسبة الوارد هنا من قوله : (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) ، ولما كانت آية العنكبوت مبنية على حكم من طلب من الأبوين الشرك والرجوع إلى الكفر كما تقدم ، لم يناسب ذلك أن يقال فيهما : (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) لما كان يكون فيه – بالسابق من ظاهر الكلام – من الإذن في الصغو إلى مطلبهما ، وهو ما لا يمكن أن يؤذن فيه لا ظاهراً ولا باطناً ، فلم يرد هنما ما كان يوهم جوازاً ولو في إراءتهما الانقياد لهما في الظاهر مع اعتقاد ما يجب اعتقاده في الباطن من التوحيد كما في آية الإكراه من قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) (النحل : 106) ، وإنما قصد هنا العزم على ما هو الحق ، وألا يصغى إلى مرادهما لا ظاهراً ولا باطناً إذا جاهدا في طلب الشرك ، فلك يكن ليناسب ولا ليلائم ورود : (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) في آية العنكبوت بوجه .

وأما آية الأحقاف فمبنية وواردة على حال إيمان الموصى بوالديه ، وقد علم المؤمن ما يلزمه من أبويه المؤمنين ، وأنه أكبر من الموصى به في آية لقمان ، فجاء كل على ما يجب .

والجواب عن السؤال الخامس : أن قوله : (وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ) المراد به الضعف ، وقوله في

الأحقاف : (حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا) المراد أنها حملته ووضعته على صفة من المشقة تكره ولا تراد ، فتحصل من الآيتين الإخبار بحاليهما من الضعف والكراهة فلا تعارض .

(209/594)

والجواب عن السؤال السادس : أن قوله تعالى في سورة لقمان : (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) وقوله في الأحقاف : (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) لا تعارض بينهما لأنهما إخباران عن قضيتين ، لأن الحمل والفصال مدتان ، ومدة الحمل غير مدة الرضاع ، فأخبر في الآية الواحدة عن مجرد مدة الرضاع ، وفي الثانية عن المدتين ، وقد تقدم التنبيه على انجرار السؤال السابع (ص913) .

والجواب عن السؤال الثامن : من أن قوله تعالى في العنكبوت ولقمان : (إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ) تحذير من طاعتهما في الشرك وإبلاغ في النهي عن الصغو إليهما في ذلك إلى الغاية لئلا يظن أن ذلك كآية الإكراه (كما) تقدم ، ولما لم يقع في آية الأحقاف ذكر الشرك ، وكانت فيمن كان على إيمان ، وقد علم المؤمن رجوعه إلى ربه ، لم يردف فيها ذكر ذلك .

والجواب عن السؤال التاسع : حاصل في الجواب المتقدم ، وتلخيصه أن تخصيص هذه

السورة بما ورد فيها مختلف بهذا السياق لما لم يذكر ، وقد مر . أما آية العنكبوت فلما تقدم ذكره من قصة سعد . وأما آية لقمان فلتقدم قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان : 13) ، وأما سورة الأحقاف فلما انجر في جواب السؤال الرابع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 387.389 ﴾

(210/594)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ حُسْناً ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها ، أنه نعتُ مصدرٍ محذوفٍ أي إيصاءً حُسْناً : إمَّا على المبالغةِ ، جُعِل نفسَ الحُسْن ، وإمَّا على حَذْفِ مضاف أي : ذا حُسْن . الثاني : أنه مفعولٌ به . قال ابنُ عطية : " وفي ذلك تَجَوَّزٌ . والأصلُ : ووَصَّيْنا الإِنسانَ بالحُسْن في فِعْله مع والدَيْه . ونظيرُ هذا قولُ الشاعر :

3634- عَجِبْتُ مِنْ دَهْماءَ إذ تَشْكُوْنا . . . ومِنْ أبي دَهْماءَ إذ يُوصِيْنا

خيراً بنا كأَنَّنا جافُونا . . . ومثلُه قولُ الحطيئة :

3635- وَصَّيْتُ مِنْ بَرَّةَ قلباً حُرَّاً . . . بالكَلْبِ خيراً والحَماةِ شَرَّاً

وعلى هذا فيكونُ الأصلُ : وصَّيْناه بحُسْنٍ في أَمْرِ والدَيْه ثم جُرَّ الوالدان بالباء فانتصَبَ " حُسْناً " ، وكذلك البيتان . والباءُ في الآية والبيتين في هذه الحالةِ للظرفيةِ .

الثالث : أنَّ " بوالديه " هو المفعولُ الثاني : فينتصبُ " حُسْناً " بإضمار فعلٍ أي : يَحْسُن حُسْناً ، فيكونُ مصدراً مؤكداً . كذا قيل . وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ عاملَ المؤكّد لا يُحْذَفُ . الرابع : أنَّه مفعولٌ به على التضمينِ أي : أَلْزَمْناه حُسْناً . الخامس : أنَّه على إسقاطِ الخافض أي : بحُسْنٍ . وعبَّر صاحب " التحرير " عن ذلك بالقطع . السادس : أنَّ بعضَ الكوفيين قَدَّره : ووصَّيْنا الإنسانَ أَنْ يَفْعَلَ بوالديه حُسْناً . وفيه حَذْفُ " أنْ " وصلتِها وإبقاءُ معمولِها . ولا يجوزُ عند البصريين . السابع : أنَّ التقديرَ : ووصَّيْناه بإيتاءِ والدَيْه حُسناً . وفيه حَذْفُ المصدر ، وإبقاءُ معمولِه . ولا يجوزُ . الثامن : أنَّه منصوبٌ انتصابَ " زيداً " في قولِك لمَنْ رأيتَه مُتَهيِّئاً للضَرْب : زيداً أي : اضرِبْ زيداً . والتقديرُ هنا : أَوْلِهما حُسْناً أو افعلْ بهما حُسْناً . قالهما الزمخشري .

(211/594)

وقرأ عيسى والجحدري/ " حَسَناً " بفتحتين ، وهما لغتان كالبُخْلِ والبَخَل ، وقد تقدَّم ذلك أوائل البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 9 صـ 10 . 12 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾

أَمَرَ اللَّهُ العِبادَ برعاية حقِّ الوالدين تنبيهاً على عظم حق التربية . وإذا كانت تربيةُ الوالدين – وهي إنْ حَسُنَتْ – فإلى حدٍّ يوجِبُ رعايتهما فما الظنُّ برعاية حق الله تعالى ، والإحسانِ العميمِ بالعبد والامتنان القديم الذي خصَّه به مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ؟ ! .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

إنْ جاهداك على أن تُشْرِكَ بالله فإياك أَنْ تطيعَهما ، ولكن رُدَّ بِلُطْفٍ ، وخالِفْ برفْقٍ .

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

أي لنلحقنهم بالذين أصلحوا من قبلهم ، فإن المعهود من سُنَّتِنا إلحاق الشكلِ بشكله ، وإجراء المِثْلِ على حُكْمِ مِثْلِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 89 ﴾

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

30